بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموفق لكل خير، الضامن حفظ كتابه الكريم ، الميسر لاستظهاره ، والذى جعل معانيه نبعاً لاينضب ينهل منه كل طالب علم ويوفق لها كل عالم . والصلاة والسلام على من اصطفاه الله تعالى لتبليغ دينه وتعليم وحيه . اللهم ارزقنا شفاعته وجيرته في الجنة .

أما بعد :

فلشد ما سرني أن أعثر على نسخة من كتاب " الجامع لأحكام القرءان " لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المشهور بـ " تفسير القرطبي " بصيغة pdf على شبكة الانترنت ، طبعة دار الكتب المصرية ، تلك الطبعة التي نشأتُ على التريض بين صفحاتها منذ الصغر بمكتبة والدى / أحمد محمد بدوى – من علماء الأزهر الشريف - رحمه الله تعالى . الاّ أن سعادتي لم تلبث أن انتابها القلق والانشغال لما لاحظته من ملحوظات لاتقدح بحالٍ فى مجهود من تكرم بعمل الكتاب على هذه الصيغة الالكترونية .

وسبحان من له الكمال :

ففي الجزء الأول بكل من الصفحتين ٣٦ و ٣٧ طمس اسود – وان كان يسيراً – يطمس بعض الكلمات . والحل استبدال الصفحتين .

وفي الجزء السابع طمس أسود بالهامش رقم ٣ . والحل استبدال الصفحة .

أما الجزء العاشر فالصفحات من " ك " إلى " خ " متأخرة إلى آخر الجزء وبالتالي فهي بلا روابط . والحل وضعها فى أماكنها الصحيحة ثم عمل الروابط .

أما الجزء الحادي عشر فالصفحات من رقم ١٧ إلى رقم ٣٢ غير موجودة . ويجب استكمالها جميعاً .

أما الجزء السادس عشر فصفحات الفهرس غير مرتبة . ويجب اعادة ترتيبها .

أما الجزء العشرون والأخير فالأمر هين وأيسر إذ أن آخر صفحة من الفهرس يستحسن استبدالها بأخرى

بالاضافة إلى كل ذلك ، فالأخطاء المطبعية التى نَوَّهَ بها الناشر يَحْسُنُ أن تُصَوَّب

وقد استعنت بالله تعالى على استدراك كل هذه الملحوظات مستعيناَ بنسخة بمكتبة والدي حتى تكتمل الفائدة إن شاء الله تعالى . ثم يتبقى ادماج الملفات العشرين فى ملف واحد وعمل فهرس عام متكامل بقدر المستطاع .

والحمد لله الذى يسر لى انجاز كل هذه المهام السابقة وهو تعالى صاحب الفضل والمنة .

ولايفوتني أن أتقدم بالشكر للأستاذ الكريم / مسعد عبد الجيد شريف الديب . بني سلامة – الجيزة – مصر لمراجعته لكل ذلك - بعد انجازه - للتأكد من عدم نسيان شئ منها ولتكرمه بحسن النصيحة كلما استشرته فى جزئية منها .

اللهم اجعل عملنا جميعاَ خالصاَ لوجهك الكريم . وانفعنا به . آمين

راجى رحمة ربه

د / نصر احمد محمد بدوي – أتريس - مصر

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الأول

(الطبعة الثانية)

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الأول

(الطبعة الثانية)

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م

فهـــرس الجـــزء الأوّل

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمه تتمّ الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بالآيات البيّنات .

هذا ، وإن الله جلّت قدرته ، قيّض لهذا الدّين القويم، حامى حمى الإسلام ، ورافع مناره ، حضرة صاحب الجلالة، الملك المعظم "فؤاد الأوّل" ملك مصر . فأصدر أمره الكريم خدمة لهذا الدّين المتين ، بأن يطبع المصحف الشريف ، على رسم مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضى الله عنه ، وأن يضبط بما اتفق عليه أئمة القرّاء ؛ فقابل المسلمون فى جميع بقاع الإسلام نشر هذا المصحف الكريم بقلوب فرحة، وصدور منشرحة، وعدّوا أمر جلالته بطبعه مفخرة من مفاخر عصره الذّهبى .

ولما كان التفسير الجليل، لأبى عبد الله القرطبى، المسمى "الجامع لأحكام القرآن" تفسيرا ممتازا ، ذائع الشهرة بين علماء الإسلام، اقترحتُ على المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية طبعه ونشره ، ليكون مفخرة أخرى من مفاخر هذا العصر الزاهر؛ فقرر طبعه ونشره ، ورَغِبَ إلىّ فى القيام بمراجعته وتصحيحه ، فقابلت هذه الرغبة بجميل الشكر، وعظيم الاغتباط ؛ علما منّى بأن فى مراجعة هذا التفسير وتصحيحه خدمة لكتاب الله تعالى ، أرجو أن أنال بها جميل رضوانه وعظيم مغفرته . وقد تمّ ولله الحمد والمنّة، طبع الجزء الأوّل منه فى عهد حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم "فؤاد الأوّل" حفظه الله وأيّد ملكه ، وأقرّ عينه بصاحب السموّ الملكى ولىّ عهده المحبوب الأمير "فاروق" حفظه الله، ومتّعه بالعقل الراجح، والفكر الصائب، والخلق المحمود، فى ظلّ عرش والده الظليل ؟

محمد البيلاوى

نقيب الأشراف ومراقب إحياء الآداب العربية

بدار الكتب المصرية

ترجمة أبي عبد الله القرطبي

مؤلف هذا التفسير (*)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح (بإسكان الراء و بالحاء المهملة) الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبي المفسّر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين فى الدنيـا، المشغولين بمـا يعنيهم من أمور الآخرة؛ أوقاته معمورة ما بين توجّه وعبادة وتصنيف.

مؤلفـاته — جمع فى تفسير القرآن كتابا كبيرا فى اثنى عشر مجلدا، سمّـاه كتاب "الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لمـا تضمّن من السنّة وآى الفرقان" وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القِصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلّة، وذكر القراءات والإعراب، والنـاسخ والمنسوخ؛ وهو هـذا التفسير. وله كتاب "الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى". وكتاب "التذكار، فى أفضل الأذكار". وضعه على طريقة التبيان للنووى، لكن هذا أتم منه وأكثر علما. وكتاب "التذكرة، بأمور الآخرة". وكتاب "شرح التّقصى". وكتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردّ ذل السؤال بالكتب والشفاعة"، قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه. وله "أرجوزة جمع فيها أسماء النبيّ صلى الله عليه وسـلم". وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هـذا، وكان مطّرحا للتكلّف، يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. قال صاحب نفح الطِّيب: إنه من الراحلين من الأندلس.

شـيوخه — سمـع من الشيخ أبى العباس أحمـد بن عمـر القرطبي بعض شرحه "المُفْهِم، لمـا أشكل من تلخيص كتاب مُسْلِم".

وحدّث عن الحافظ أبى علىّ الحسن بن محمد بن محمد البكرى، وحدّث أيضا عن الحافظ أبى الحسن علىّ بن محمد بن علىّ بن حفص اليَحْصِبِىّ وغيرهما.

وكان مستقرًّا بمنية ابن خصيب، وتوفى ودفن بهـا فى ليلة الاثنين التاسـع من شـوّال سنة ٦٧١ رحمه الله ورضى عنه.

(*) عن الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون، ونفح الطيب للمَقّرِى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلامة المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسيّ ثم القرطبيّ رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربّ الصمد الواحد، الحيّ القيوم الذى لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام؛ والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ للإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسوله بالبيان، محمدا صلّى الله عليه وسلّم ما اختلف المَلَوان[1]، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين؛ الفارق بين الشك واليقين؛ الذى أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألبّاء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. جعل أمثاله عبرًا لمن تدبرها، وأوامره هُدًى لمن استبصرها؛ وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للافهام، وضرب فيه الأمثال، وقص فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى: «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ». خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا؛ فقُرّاءُ القرآنِ حَمَلَةُ سرِّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، خلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ لله أهلين من الناس" قالوا: يارسول الله، من هم؟ قال: "هم أهل القرآن أهل الله وخاصّته" أخرجه ابن ماجه فى سننه، وأبو بكر البزّار فى مسنده. فما أحقّ من علِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر

(1) الملوان: الليل والنهار.

ما شُرِح له فيه ، ويخشى الله ويتّقيه ، ويراقبه ويستحييه ؛ فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل ، وصار شهيدا فى القيامة على منْ خالف من أهل الملل ؛ قال الله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ » . ألا وإنّ الحجة على من عَلِمه فأغفله ، أوكدُ منها على من قصر عنه وجهله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع ، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ؛ وارتكب من المآثم قبيحا ، ومن الجرائم فضوحا ؛ كان القرآن حجة عليه ، وخصما لديه ؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " القرآن حجة لك أو عليك " خرّجه مسلم . فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبّر حقائق عبارته ؛ ويتفهّم عجائبه ، ويتبيّن غرائبه ؛ قال الله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » . وقال الله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » . جعلنا الله ممن يرعاه حقّ رعايته ، ويتدبّره حقّ تدبّره ، ويقوم بقسطه ، ويوفى بشرطه ، ولا يلتمس الهدى فى غيره ؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطعة الباهرة ، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا ، وتفسيرَ ما كان منه مشكلا ، وتحقيقَ ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ، ومنزلة التفويض اليه ؛ قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . ثم جعل الى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم آستنباط ما نبّه على معانيه ، وأشار الى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد ؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم ، ويختصوا بثواب اجتهادهم ؛ قال الله تعالى : « يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » . فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا ، واستنباط العلماء إيضاحا وتبيانا ؛ فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوعية كتابه ، وآذاننا موارد سنن نبيّه ؛ وهممنا مصروفة الى تعلمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما ؛ طالبين بذلك رضاء رب العالمين ، ومتدرّجين به إلى علم الملّة والدّين .

(وبعد) : فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع ، الذى آستقل بالسنة والفرض ، ونزل به أمين السماء الى أمين الأرض ؛ رأيت أن أشتغل به مدَى عمرى ، وأستفرغ

فيه مُنّتي[(١)]، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيهما، ومبيّنا ما أشكل منهما، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف، وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي، وعملا صالحا بعد موتي. قال الله تعالى: «يُنَبَّأُ ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ». وقال تعالى: «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ». وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له".

وشرطي في هذا الكتاب إضافةُ الأقوال الى قائليها، والأحاديث إلى مصنّفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى من خرّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرّخين، إلا ما لا بدّ منه ولا غِنًى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفِر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمّنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد، مسائلَ نبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب.

وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّنه من السنّة وآي الفرقان)، جعله الله خالصا لوجهه، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه، إنه سميع الدعاء قريب مجيب، آمين.

---

(١) المنة (بالضم): القوة.

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتبا كثيرة، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله، وما أعدّ الله لأهله، اذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به. فأوّل ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شيء، وصفةُ من ليس له شبيه ولا ندّ، فهو من نور ذاته جلّ وعزّ؛ وأن القراءة أصوات القرّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حالٍ إيجابا في بعض العبادات، وندبا في كثير من الأوقات؛ ويزجرون عنها اذا أجْنَبوا، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها. وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه. ولولا أنه — سبحانه — جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله؛ ليتدبّروه وليعتبروا وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكّت بثقله، أو لتضعضعت له وأنّى تطيقه؛ وهو يقول — تعالى جدّه — وقوله الحق: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ». فأين قوة القلوب من قوة الجبال! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلا منه ورحمة.

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب — فأوّل ذلك ما خرّجه الترمذي عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "يقول الربّ تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين — قال: — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه". قال: هذا حديث حسن غريب. وروى أبو محمد الدارميّ السمرقنديّ في مسنده عن عبد الله قال: السّبع الطُّوَل مثل التوراة، والمئون مثل الإنجيل، والمثاني مثل الزبور، وسائر القرآن بعدُ فضلٌ. وأسند عن الحارث

عن عليّ رضي الله عنه وخرّجه الترمذى[1] قال : سمعت رســول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " ستكون فتن كقطع الليـل المظلم قلت : يارســول الله وما المخرج منهـا ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ مَن قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغى الهُدَى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المســتقيم هو الذى لا تَزِيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلمـاء ولا يَملّه الأتقياء ولا يَخلَق على كثرة الرّدّ ولا تنقضى عجائبه هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من عَلِم عِلْمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أُجر ومن دعا اليهِ هدِى الى صراط مستقيم خذها اليك يا أعور[2] " . الحارث، رماه الشعبيّ بالكذب وليس بشيء، ولم يَبِنْ من الحارث كذب ، وإنمـا نُقم عليه إفراطه فى حبّ عليّ وتفضيله له على غيره ؛ ومن هاهنا — والله أعلم — كذبه الشعبيّ لأن الشعبيّ يذهب الى تفضيل أبى بكر، وإلى أنه أوّل من أسـلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبيّ عوقب لقوله فى الحارث الهمدانيّ : حدّثنى الحارث وكان أحد الكذابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبـارى النحوىّ اللغوىّ فى كتاب «الرّدّ على من خالف مصحف عثمان» عن عبد الله بن مسعود: قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله النور المبين والشفاء النافع عصمةٌ من تمسك به ونجاة من اتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يَخلَق عن ردّ فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الٓمٓ حرف ولا أُلْفيَنّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فان الشيطان يفرّ من البيت الذى تقرأ فيه ســورة البقرة وإن أصْفَرَ البيوت من الخير البيتُ الصفِر من كتاب الله". وقال أبو عبيد فى غريبه عن عبد الله قال: إن هذا القرآن مأدبة

---

(١) ورد هـذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ٢ ص ١٤٩ طبـع بولاق) مع اختـلاف فى بعض كلمـاته ، وزيادة ونقص . (٢) قوله : يا أعور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث .

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث أنه شَبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عزّ وجلّ للناس ، لهم فيه خيرٌ ومنافعُ ، ثم دعاهم اليه . يقال : مأدُبة ومأدَبة ، فمن قال : مأدُبة ، أراد الصنيع يصنعه الانسان فيدعو اليه الناس . ومن قال : مأدَبة ، فانه يذهب به الى الأدب ، يجعله مَفْعَلة من الأدب ، ويحتج بحديثه الآخر : "إن هذا القرآن مأدَبةُ الله عزّ وجلّ فتعلموا من مأدبته". وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد ، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره ؛ [قال :] والتفسير الأوّل أعجب الىّ .

وروى البخارىّ عن عثمان بن عفّان عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "خيركم من تعلم القرآن وعلّمه" . وروى مسلم عن أبى موسى قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مثلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن مثلُ الأُتْرُجّة ريحُها طيّبٌ وطعمها طيب ومثلُ المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثلُ التّمْرة لا ريحَ لها وطعمها حُلْوٌ ومثلُ المنافق الذى يقرأ القرآن مثلُ الرّيحانة ريحها طيّب وطعمها مرٌّ ومثلُ المنافقِ الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مرٌّ" . وفى رواية : مثلُ الفاجر ، بدل المنافق . وقال البخارىّ : "مثلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب و ريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة" وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنبارىّ وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحُلْوانىّ حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم ، ح(1) . وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشَب : أن أبا عبد الرحمن

(1) جرت العادة بالاقتصار على الرمز فى حدّثنا وأخبرنا ؛ واستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ؛ واشتهر ذلك بحيث لا يخفى ؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهى الثاء والنون والألف ؛ وربما حذفوا الثاء . ويكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا» ؛ واذا كان للحديث اسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من اسناد الى اسناد «ح» وهى حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحوّل ، لتحوّله من إسناد الى اسناد ، وأنه يقول القارئ اذا انتهى اليها : «ح» ويستمر فى قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا حجز ، لكونها حالت بين الاسنادين وانه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ؛ بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : «الحديث» . وان أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصلوا اليها : الحديث . ثم هذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا ، وهى كثيرة فى صحيح مسلم ، قليلة فى صحيح البخارى . (عن مقدّمة النووى على صحيح مسلم)

السلمي كان إذا ختم عليه الخاتمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هذا ، اتق الله! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عملت بالذى علمت . وروى الدارمىّ عن وهب الذّمارِىّ قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة، بعثه الله يوم القيامة مع السفرة والأحكام . قال سعيد(١) السفرة: الملائكة، والأحكام(٢) : الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الماهر بالقرآن مع السَّفَرَة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران" . التتعتع : التردّد فى الكلام عيًّا وصعوبة ؛ وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة ؛ ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه، ثم ترقّى عن ذلك الى أن شبّه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذىّ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف" . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد روى موقوفا . وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن فى الصُّفّة، فقال : "أيكم يُحبّ أن يغدو كل يوم الى بُطْحانَ أو إلى العقيق فيأتىَ منه بناقتين كَوْمَاوين فى غير إثم ولا قطع رحم" فقلنا : يا رسول الله، كلنا نحب ذلك؛ قال : "أفلا يغدُو أحدكم الى المسجد فيعلم(٣) أو يقرأ آيتين من كتاب الله عزّ وجلّ خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ وأربعٌ خيرٌ له من أربع ومن أعدادهنّ من الإبل" .

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من نفّس عن مسلم كُربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه

(١) سعيد هذا، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبى يحيى التنوخى ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفى الأصول : «سعد» وهو تحريف . (٢) هكذا فى نسخ الأصل وسنن الدارمى . ولعل الفرض وذوو الأحكام أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال . (٣) قوله : فيعلم ، ضبط بنصب الفعل ورفعه وبتشديد اللام من التعليم، وبتخفيفها من العلم .

فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ســتره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارســونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه" .

و روى أبو داود والنّسائى والدارمىّ والترمذىّ عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسرّ بالقرآن كالمسرّ بالصدقة" قال الترمذىّ : حديث حسن غريب . وروى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "يجىء القــرآن [(١)] يوم القيامة فيقول يا رب حُلّهِ فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب آرض عنــه فيرضى عنــه فيقال له آقرأ وآرق و يزاد بكل آية حسنة" . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صــلّى الله عليه وسلّم : "يقال لصاحب القرآن آقرأ وآرتق و رتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها" . وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلّى الله عليه وســلّم : "يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنــة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه" .

وأســند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال رســول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوّة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوّة كلها غير أنه لايوحى اليه و يقال له يوم القيامة آقرأ وآرق فيقرأ آية و يصــعد درجة حتى ينجز ما معــه من القرآن ثم يقال له آقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم" .

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا اسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلّى الله عليه وســلّم : "من أخذ ثلث القرآن وعمــل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ

(١) الذى فى نسخ الأصل : «يجىء صاحب القرآن» . والتصويب عن سنن الترمذى .

نصف القرآن وعمــل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كله فقــد أخذ النبوّة كلها " . قال : وحدّثنا محمد بن يحيى المروزىّ أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضمرة عن علىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه فى عشرة من أهل بيته كُلٌّ قد وجبت له النــار" . وقالت أم الدّرداء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لهــا : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد دَرَج الجنــة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن . ذكره أبو محمد مكىّ . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن وآتبع مافيه هــداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : « فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ » . قال ابن عباس : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضلّ فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة؛ ذكره مكىّ أيضا . وقال الليث : يقال : ما الرحمة إلى أحد بأسرعَ منها الى مستمع القرآن؛ لقول الله جلّ ذكره : « وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . ولعلّ من الله واجبة .

وفى مسند أبى داود الطيالسىّ — وهو أوّل مسند أُلِّفَ[1] فى الإسلام — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنْطِرِين " . والآثار فى معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية .

---

(١) قوله : « وهو أول مسند ... الخ » . قال صاحب كشف الظنون : « والذى حمل قائل هــذا القول تقــدم عصره على أعصار من صنف المسانيــد ، وظن أنه هو الذى صنفه وليس كذلك ، فانه ليس من تصنيف أبى داود ، وإنمــا بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصــة عن أبى داود . ولأبى داود من الأحاديث التى لم تدخل هــذا المسند قدره أو أكثر ؛ كما ذكره البقاعى فى حاشية الألفية » . وقد توفى الطيالسى سنة ٢٠٤ هـ .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم وآختلاف النـاس فى ذلك

روى البخارىّ عن قتادة قال: سألت أنسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان يمدّ مدّا [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم .

وروى الترمذىّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُقَطِّع قراءته يقول: "الحمدُ للهِ ربِّ العالمين . ثم يقف . الرّحمنِ الرّحيم . ثم يقف . وكان يقرأ: ملك يومِ الدِّين" . قال: حديث غريب . وأخرجه أبو داود بنحوه .

وروى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "أحسن النـاس صوتا من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى". وروى عن زياد النميرىأنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ . فرفع صوته وطرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هـذا، ماهكذا كانوا يفعلون! وكان اذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه . وروى عن قيس بن عُبَاد أنه قال: كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يكرهون رفع الصوت عنـد الذكر . وممن روى عنه كراهـة رفع الصوت عنـد قراءة القرآن سعيد بن المسيّب وسـعيد بن جبير والقاسم بن محمـد والحسن وابن سيرين والنخعىّ وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل، كلّهم كره رفع الصوت بالقرآن والتّطريب فيه . روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ النـاس فطرّب فى قراءته؛ فأرسل اليه سعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمـة لا تقرأ هكذا . فترك عمر التطريب بعـدُ . وروى عن القاسم بن محمد: أن رجلا قرأ فى مسجد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فطرّب؛ فأنكر ذلك القـاسم وقال يقول الله عزّ وجلّ: « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيـهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » الآية .

وروى عن مالك أنه سئل عن النّبْر فى قراءة القرآن فى الصلاة؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شـديدة، وأنكر رفع الصوت به . وروى ابن القاسم عنه أنه سـئل عن الألحان فى الصلاة

فقال : لا يعجبني ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به ، وذلك لأنه إذا أحسن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب ، واحتجوا بقوله عليه السلام : " زيّنوا القرآن بأصواتكم " رواه البرّاء بن عازب . أخرجه أبو داود والنسائي . وبقوله عليه السلام : " ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن " أخرجه مسلم . وبقول أبي موسى للنبيّ صلى الله عليه وسلّم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيرا . وبما رواه عبد الله بن مُغَفّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عام الفتح في مسيرله سورة «الفتح» على راحلته فرجّع في قراءته . وممن ذهب الى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعيّ وابن المبارك والنضر بن شُمَيل ، وهو اختيار أبي جعفر الطبريّ وأبي الحسن بن بَطّال والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم .

قلت : القول الأوّل أصح لما ذكرناه ويأتي . وأما ما احتجوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب ، أي زيّنوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطابيّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زينوا أصواتكم بالقرآن ، وقالوا : هو من باب المقلوب ، كما قالوا : عرضت الحوضَ على النّاقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه معمر عن منصور عن طلحة ، فقدّم الأصوات على القرآن ، وهو الصحيح .

قال الخطابيّ : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البرّاء أن رسول الله صلّى الله وسلّم قال : "زيّنوا القرآن بأصواتكم" . أي الهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة ؛ وقيل : معناه الحضّ على قراءة القرآن والدّءوب عليه . وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "زيّنوا أصواتكم بالقرآن" . وروى عن عمر أنه قال : "حسنوا أصواتكم بالقرآن" .

قلت : والى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : " ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن " أي ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن ، كذلك تأوله عبد الله بن أبي مليكة . قال عبدالجبار ابن الورد : سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبد الله بن أبي يزيد : مرّ بنا أبو لُبَابة فاتبعناه

حتى دخل بيته، فاذا رجل رثّ الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول‌الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" . قال فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمـد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت ؟ قال : يحسّنه ما استطاع . ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إني لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسّنت صوتي بالقرآن، وزيّنته ورتّلته. وهذا يدل أنه كان يَهُذّ[1] في قراءته مع حُسْن صوته الذى جُبل عليه. والتحبير : التزيين والتحسين ؛ فلو علم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتّلها ، كما كانـ يقرأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأول على رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يقول : إن القرآن يزيّن بالأصوات أو بغيرها ؛ فمن تأول هـذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُحْوِج القرآن الى من يزيّنه، وهو النور والضيـاء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه . وقد قيـل : إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقـديرذلك ، أي زينـوا القراءة بأصواتكم ؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعـالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أي قراءة الفجر، وقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِـعْ قُرْآنَهُ » أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شـياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السـلام، ويوشك أن تخـرج فتقرأ على الناس قرآنا. أي قراءة . وقال الشاعر[2] في عثمان رضي الله عنه :

ضحّوا بأشمطَ[3] عنوانُ السجود به * يُقطِّع الليـل تسبيحا وقـرآنا

أي قراءة. فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها — على ما نبينه — فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنّى به، يستغني به من الاستغناء الذى هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء ؛ يقال : تغنّيت وتغانيت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح : تغنّى

---

(١) الهذ والهذذ : سرعة القطع وسرعة القراءة .

(٢) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

(٣) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط في الرجل شيب اللحية .

الرجل بمعنى استغنى ، وأغناه الله . وتغانوا أى استغنى بعضهم عن بعض . قال المُغيرة بن حَبْناء التميمىّ :

كلانا غَنِيٌّ عن أخيه حَيَاتَه * ونحن إذا مُتْنا أشَدُّ تغانيَا

والى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، ورواه سفيان عن سعد بن أبى وقّاص . وقد روى عن سفيان أيضا وجه آخر ، ذكره اسحاق بن راهْوَيْه ، أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . والى هذا التأويل ذهب البخارىّ محمد بن اسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » . والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم ، قاله أهل التأويل . وقيل : إن معنى يتغنى به يتحزن به ، أى يَظهر على قارئه الحزن الذى هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغنية ؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل يتغنّى به . ذهب الى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد ابن حِبّان البستىّ ، واحتجوا بما رواه مطرّف بن عبد الله بن الشّخّير عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّى ولصدره أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء . الأزيز (بزايين) : صوت الرعد وغليان القِدر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التّحزن ، وعَضّدوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "اقرأ علىّ" فقرأت عليه سورة « النساء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » فنظرت اليه فاذا عيناه تدمعان . فهذه أربعة تأويلات ، ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابىّ فى قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" قال : كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها ، فلما نزل القرآن أحبّوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم (١) مكان الغناء ، فقال : " ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن " .

التأويل الخامس — ما تأوّله مَن استدل به على الترجيع والتطريب ؛ فذكر عمر بن شبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيل تأويل ابن عيينة فى قوله : يتغنّ . يستغنى ؛ فقال :

(١) هجيراهم : دأبهم وعادتهم .

لم يصنع آبن عيينة شيئا . وسئل الشافعيّ عن تأويل ابن عيينة فقال : نحن أعلم بهذا، لو أراد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الاستغناء لقال : من لم يستغن، ولكن لما قال: "يتغن"، علمنا أنه أراد التغنّي . قال الطبريّ : المعروف عندنا في كلام العرب أن التّغنى إنما هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغَنَّ بالشِّعرِ مهما كنتَ قائلَه * إن الغِناءَ بهذا الشِّـعرِ مِضمارُ

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى استغنيت فليس في كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنتُ آمرأً زَمَنًا بالعِراقِ * عفيفَ المُناخ طَويلَ التَّغَنّْ

وزعم أنه أراد الاستغناء فانه غلط منه ، وإنما عنى الأعشى في هـذا الموضع الإقامة ، من قول العرب : غنِي فلان بمكان كذا أي أقام ؛ ومنه قوله تعالى : «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا» وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا مُتْنا أشدُّ تغانِيَا *

فإنه إغفال منه، وذلك أن التّغانى تفاعل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه؛ كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه . ومن قال هذا في فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثله في الواحد . غير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمرو؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبريّ من أنه لم يَرِد في كلام العرب تغنّى بمعنى آستغنى ، فقد ذكره الجوهريّ كما ذكرنا ، وذكره الهرويّ أيضا . وأما قوله : إن صيغة فَاعَل انما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد في مواضع كثيرة : منها قول ابن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت آلاحتلام . وتقول العرب : طارقتُ النعلَ وعاقبتُ اللص وداويتُ العليل، وهو كثير؛ فيكون تغانى منها. واذا احتمل قوله عليه الصّلاة والسّلام : " يتغنّ " الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر؛ بل حمله على الاسـتغناء أولى لو لم يكن لنـا تأويل غيره، لأنه مرويّ عن

صحابيّ كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ابن وهب فى حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة، ومعلوم أنه رأى الشافعيّ وعاصره .

وتأويل سادس — وهو ما جاء من الزيادة فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " ما أذن الله لشىء (١) ما أذن لنبيّ حَسَن الصوت يتغنّى بالقرآن يَجهرُ به". قال الطبريّ : ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكرحسن الصوت والجهر به معنًى. قلنا قوله : يجهر به لا يخلو أن يكون من قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، أو من قول أبى هريرة أو غيره ، فان كان الأوّل وفيه بعدٌ ، فهو دليل على عدم التّطريب والتّرجيع؛ لأنه لم يقل : يطرّب به ، وإنما قال : يجهر به ، أى يسمع نفسه ومن يليه؛ بدليل قوله عليه السلام للذى سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : " أيها الناس اربعوا (٢) على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا" الحديث، وسيأتى . وكذلك إن كان من صحابيّ أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه، لأن العرب تسمى كل من رفع صوته ووالَى به غانيًا، وفعْله ذلك غِناءٌ وإن لم يلحنه بتلحين الغناء. قال : وعلى هذا فسره الصحابيّ؛ وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بَطّال لمذهب الشافعيّ فقال : وقد رَفَعَ الإشكال فى هذه المسألة ما رواه ابن أبى شيبة قال حدّثنا زيد بن الحباب قال حدّثنا موسى بن علىّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " تعلّموا القرآن وغنّوا به واكتبوه فوالذى نفسى بيده لهو أشدُّ تَفَصِّيًا (٣) من المخاض من العُقُل " . قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبَتات من أن قراءة القرآن تلقيناً متواترة عن كافة المشايخ، جيلا بجيلا الى العصر الكريم الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وليس فيها تلحين

---

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوى : يعنى ما رضى الله من المسموعات شيئا هو أرضى عنده ولا أحب اليه من قول نبىّ يتغنى بالقرآن ، أى يجهر به ويحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة .

(٢) قوله : اربعوا . أى كفوا وارفقوا .

(٣) التفصى : التفلت والخروج .

ولا تطريب ، مع كثرة المتعمّقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفيــة القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همزَ ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود ، فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشّبْهة الواحدة شبهات (١) ، فيؤدّى ذلك الى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع ، وإن وافق ذلك موضع نَبْر وهمز صيّروها نبرات وهمزات ، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير ؛ إما ممدودة وإما مقصورة . فان قيل : فقد روى عبد الله بن مُغَفّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى مسير له سورة « الفتح » على راحلته فرجّع فى قراءته ؛ وذكره البخاريّ وقال فى صــفة التّرجيع : آء آء آء ، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة ؛ كما يعترى رافع صوته اذا كان راكبا من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هزّ المركوب ؛ وإذا احتمل هذا فلا حجة فيه . وقد خرّج أبو محمد عبد الغنيّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدّ ليس فيها ترجيع . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مؤذن يطرّب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذّن " . أخرجه الدارقطنيّ فى سننه . فاذا كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد منع ذلك فى الأذان فأحرى ألا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . وقال تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

قلت : وهذا الخلاف انما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات ، فان زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق ؛ كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ؛ ضلّ سعيهم ، وخاب

(١) سيذكر المؤلف فى باب ذكر معنى السورة والآية الخ . أن الشبهات هى الحروف ولم أر هذا التعبير لغيره .

عملهم، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ، و يهوّنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى تنزيله ما ليس فيه ؛ جهلًا بدينهم، ومروقا عن سنة نبيّهم ، ورفضا لسيَر الصالحين فيه من سلفهم، ونزوعا الى ما يزيّن لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؛ فهم فى غيّهم يتردّدون، و بكتاب الله يتلاعبون، فإنا لله و إنا اليه راجعون؛ لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون، فكان كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم .

ذكر الامام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذيّ الحكيم فى نوادر الأصول من حديث حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها و إياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدى قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم" . اللحون: جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذى يفعله قرّاء زماننا بين يدى الوعاظ وفى المجالس من اللحون الأعجمية التى يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيع فى القراءة : ترديد الحروف كقراءة النصارى . والترتيل فى القراءة هو التأنى فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المرتّل، وهو المشبَّه بنَوْر الأُقْحوان، وهو المطلوب فى قراءة القرآن؛ قال الله تعالى : « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وصلاته ؛ فقالت : مالكم وصلاته ! [كان يصلّى ثم ينام قدر ما صلّى، ثم يصلّى قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلّى حتى يصبح،](١) ثم نعتت قراءته، فاذا هى تنعت قراءة مفسّرة حرفا حرفا . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذيّ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : « وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » . وقال تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . روى مسلم عن أبى هريرة

(١) الزيادة عن سنن الترمذى وأبى داود .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنّ أوّل الناس يُقضَى عليه يوم القيامة رجلٌ استُشْهِد فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمه فعرَفها قال فما عمِلتَ فيها قال قاتلتُ فيك حتى اسْتُشْهِدتُ قال كذبتَ ولكنّك قاتلتَ لأن يقال جرىءٌ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهــه حتى أُلْقِىَ فى النار ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتِىَ به فعرّفه نِعمه فعرَفها قال فما عملتَ فيها قال تعلّمتُ العلم وعلّمتُه وقرأت فيــك القرآن قال كذبتَ ولكنّك تعلّمتَ العــلم ليقال عالم وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئٌ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهــه حتى أُلْقِىَ فى النار ورجلٌ وسّع الله عليــه وأعطاه من أصناف المــال كلّه فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمه فعرَفها قال فــا عمِلتَ فيها قال ما تركتُ من سبيل تُحِبّ أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكنّك فعلتَ ليقال هو جَوَادٌ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِىَ فى النار". وقال الترمذىّ فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلم على ركبتى ، فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " . أبو هريرة اسمه عبــد الله، وقيل : عبــد الرحمن ، وقال : كنيت أبا هريرة لأنى حملت هِرّة فى كُمّى ، فرآنى رســول الله صلّى الله عليــه وسلّم فقال : "ما هــذه" قلت : هرّة، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهــذا الحديث فيمن لم يُرِد بعمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبىّ صلّى الله عليــه وسلّم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار " .

وخرّج ابن المبــارك فى رقائقه عن العبــاس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هــذا الدّين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيــل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا من أقرأ منا من أعلم منا " ثم التفت الى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير" قالوا : لا. قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من تعلّم علما ممــا يُبتغَى به وجهُ الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة " . يعنى ريحهــا . قال الترمذىّ : حديث

حسن . وروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " تعوّذوا بالله من جُبّ الحزن " قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : " وادٍ في جهنم تتعوّذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة " قيل : يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال : " القرّاء المراءون بأعمالهم " قال : هــذا حديث غريب . وفي كتاب أسد بن موسى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " إن في جهنم لواديا إن جهنم لتتعوّذ من شرّ ذلك الوادي كل يوم سبع مرات وإن في ذلك الوادي لجُبًّا إن جهنم وذلك الوادي ليتعوّذان بالله من شرّ ذلك الجبّ وإن في الجب لحيــة وإن جهنم والوادي والجب ليتعوّذون بالله من شرّ تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يعصون الله". فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه ويُخلِص العمل لله؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمــله . فالذي يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر ممــا يلزم غيره، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذي عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلّى الله عليه وســلّم : "أنزل الله في بعض الكتب أو أوحَى الى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيــا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُــوكَ الكِبَاش (١) وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى مــن العسل وقلوبهم أمرّ من الصــبر إياي يخادعون وبي يستهزئون لأُتيحنّ لهم فتنة تذَر الحليم فيهم حيران " .

وخرّج الطبريّ في كتاب آداب النفوس: حدّثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدّثنا المحاربيّ عن عمرو بن عامر البجليّ عن ابن صدقة عن رجل مــن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو مَن حدّثه قال قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : "لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعُر" . قالوا : يا رسول الله، وكيف يخادع الله؟ قال: "تعمل بمــا أمرك الله به وتطلب به غيره واتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المرائي يُدعَى يوم القيــامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضلّ عملك وبطل

(١) المسوك (جمع مسك، بفتح ثم سكون) : الجلد .

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع " . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أنتم ! إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها النـاس فإذا غير منها شيء قيل : قد غُيّرت السنة . قيل : متى ذلك يا أبا عبـد الرحمن ؟ قال : إذا كثر قراؤكم ، وقلّ فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم ، وقلّ أمناؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقّه لغير الدين . وقال سفيان بن عيينة : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : لو أن حمـلة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهـم الله ، ولكن طلبوا به الدنيـا فأبغضهم الله، وهانوا على النـاس . وروى عن أبى جعفر محمد بن علىّ فى قول الله تعالى : « فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَـاوُونَ » قال : قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه الى غيره . وسيأتى لهذا البـاب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يُخلص فى طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفســه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره، فى الصلاة أوفى غير الصلاة لئلا ينساه . روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبتْ وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهـار ذكره وإذا لم يقم به نسيه" . وينبغى له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مُستعينا ، وإليه راغبا، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدّا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجيا عفو ربه، ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يعلم بما يختم له ؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه، لحسن الظن بالله ؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن" . أى أنه يرحمه ويغفر له . وينبغى له أن يكون عالمـا بأهل زمانه، متحفّظا من سلطانه، ساعيا فى خلاص نفسه، ونجاة مهجته، مقدّما بين يديه ما يقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما استطاع . وينبغى له أن يكون أهمّ أموره عنده الورع فى دينه، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه .

وقال ابن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا النــاس مستيقظون، وببكائه اذا النـاس يضحكون، وبصمته اذا النـاس يخوضــون ، وبخشوعه اذا الناس يختالون، وبحزنه اذا النـاس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن، لأن في جوفه كلام الله تعالى . وينبغي له أن يأخذ نفســه بالتّصاون عن طرق الشبهات ، ويُقلّ الضّحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لافائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار. وينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويتجنّب التكبر والإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب . وينبغي له أن يكون ممن يؤمن شرّه، ويرجى خيره ويُسـلم من ضرّه، وألا يسمع ممن نمّ عنده؛ ويصاحب من يعاونه على الخير ويدلّه على الصدق ومكارم الأخلاق، ويَزينه ولا يَشينه . وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليــه ، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتـلو؛ فما أقبح لحـامل القرآن أن يتلو فرائضــه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتـلو، فكيف يعمل بما لايفهم معناه . وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فـما مَثـل مَن هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمـل أسفارا . وينبغي له أن يعرف المكيّ من المدنيّ ليفرّق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أوّل الإســلام، وما ندبهم اليــه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أوّل الاسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره . فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ في أكثر القرآن ، ولا يمكن أن يَنْسخ المكيُّ المدنيَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم في النزول قبـل النـاسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يُسهّل عليه معرفة ما يقرأ ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقــد قال أبو جعفر الطبريّ سمعت الجَرْميّ يقول : أنا منــذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه . قال محمــد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجَرْميّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقّه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير . ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فبها يصل الطالب الى مراد الله عزّ وجلّ فى كتابه وهى تفتح له أحكام القرآن فتحا ؛ وقـد قال الضحاك فى قـوله تعالى : « وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ » . قال : حقٌّ على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبى الحوارىّ قال : أتينا فُضيل بن عياض سـنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة، فوقفنا على البـاب فلم يأذن لنـا بالدخول؛ فقال بعض القوم : إن كان خارجا لشىء فسيخرج لتـلاوة القرآن ؛ فأمرنا قارئا فقرأ فاطّلع علينا من كوّة، فقلنـا : السلام عليك ورحمة الله؛ فقال : وعليكم السلام؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا علىّ ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذًى، وإن ما أنتم فيـه حدثٌ فى الإسلام، فانا لله وإنا إليـه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العـلم ، ولكنا كنا نأتى المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهلا للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه، وأنتم تطلبون العـلم بالجهل، وقـد ضيعتم كتاب الله، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لمـا تريدون؛ قال : قلنـا قد تعلمنـا القرآن؛ قال : إن فى تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ؛ قلنا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومُحكَمه من متشابهه ، وناسخه من منسوخه؛ فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وآبن عيينة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرا بالقرآن ، وعالمـا بالفرقان ؛ وهو قريب على من قرّبه الله عليه، ولا ينتفع بشىء مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جلّ ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا، فلا يزال به فَهْمُ العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ فى اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى، فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرّتنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثورىّ . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعد .

باب ما جاء فى إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربًا

قال أبو بكر بن الأنبارىّ : جاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم من تفضيل إعراب القرآن، والحض على تعليمه، وذمّ اللحن وكراهيته، ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد فى تعلمه .

من ذلك ما حدّثنا يحيى بن سليمان الضبىّ قال حدّثنا محمد — يعنى ابن سعيد — قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المقبرىّ عن أبيه عن جدّه عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه " . حدّثنى أبى قال حدّثنا إبراهيم ابن الهيثم قال حدّثنا آدم — يعنى ابن أبى إياس — قال حدّثنا أبو الطيب المروزىّ قال حدّثنا عبد العزيز بن أبى روّاد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " من قرأ القرآن فلم يعربه وُكّل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكّل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فان أعربه وُكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة " . وروى جويبر عن الضحاك قال قال عبد الله ابن مسعود : جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه فانه عربىّ ، والله يحب أن يُعرَب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن ابن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : لبَعْض إعراب القرآن أحبّ الينا من حفظ حروفه . وعن الشعبىّ قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغنى أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : " أحبّوا العرب لثلاث لانى عربىّ والقرآن عربىّ وكلام أهل الجنة عربىّ " . وروى سفيان عن أبى حمزة قال : قيل للحسن فى قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا ، يتعلمون لغة نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم . وقيل للحسن : إن لنا إماما يلحن؛ قال : أخّروه .

وعن ابن أبي مليكة قال : قدم أعرابيّ في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : من يقرئني مما أنزل الله على محمد صلّى الله عليه وسلّم ؟ قال : فاقرأه رجل «براءة» ؛ فقال : أن الله بريء من المشركين ورسوله . بالجر، فقال الأعرابيّ : أو قد برئ الله من رسوله ! فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابيّ فدعاه فقال : يا أعرابيّ أتبرأ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن، فسألت مَن يقرئنى، فأقرأنى هذا سورة «براءة»، فقال : أن الله برئ من المشركين ورسولِه ؛ فقلت : أو قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابيّ؛ قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال : « أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » فقال الأعرابيّ : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه؛ فأمر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ألا يقرئ الناس إلا عالمٌ باللغة ، وأمر أبا الأسود (١) فوضع النحو .

وعن عليّ بن الجَعْد قال : سمعت شعبة يقول : مَثَل صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مَثَل الحمار عليه مِخلاة لا عَلَف فيها . وقال حماد بن سَلَمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربيــة فهو كمثل الحمار تُعلّق عليــه مِخلاة ليس فيها شعير . قال ابن عطيــة : إعراب القرآن أصل فى الشريعة، لأن بذلك تقوّم معانيه التى هى الشرع .

قال ابن الأنباريّ : وجاء عن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتابعيهم رضوان الله عليهم، من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر مابيّن صحة مذهب النحويين فى ذلك، وأوضح فساد مذاهب من أنكر ذلك عليهم. من ذلك ما حدّثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنــا ابن أبى مريم قال : أنبأنا ابن فرّوخ قال أخبرنى أسامة قال أخبرنى عكرمة أن ابن عباس قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب. وحدثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنــا حماد بن زيد عن عليّ بن زيد بن جُدعان قال سمعت سعيد بن جبير و يوســف بن مهران يقولان : سمعنا ابن عباس يُسأل عن الشيء من القرآن ؛ فيقول فيه هكذا وهكذا ؛ أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمــة

(١) يجوز أن يكون أمر أبى الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن على .

عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله جلّ وعزّ : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » قال : لا تلبس ثيابك على غَدْر، وتمثّل بقول غيلان الثقفيّ :

فإنى بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ لبستُ ولا من سَوءةٍ أتقنّعُ (١)

وسأل رجل عكرمة عن الزّنيم قال : هو ولد الزنا، وتمثل ببيت شعر :

زنيم ليس يُعرَف مَن أبوه بَغِيُّ الأمِ ذو حسبٍ لئيمِ

وعنه أيضا الزنيم : الدّعيّ الفاحش اللئيم، ثم قال :

زَنيمٌ تداعاه الرجال زيادةً كما زِيدَ فى عَرْض الأديم الأكارِعُ (٢)

وعنه فى قوله تعالى : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » قال : ذواتا ظِلّ وأغصان، ألم تسمع الى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هَدِيل حمامةٍ تدعو على فَنَنِ الغصون حَمَامَا

تدعو أبَا فرخَينِ صادف طائرا ذا مِخْلبين من الصقور قُطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » قال : الأرض، قاله ابن عباس . وقال أمية بن أبى الصّلت : «عندهم لحم بحر ولحم ساهرة» (٣) . قال ابن الأنباريّ ؛ والرواة يرون هذا البيت :

وفيها لحمُ ساهِرةٍ وبَحْرٍ وما فاهُوا به لهمُ مقيمُ

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قول الله جلّ وعزّ : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » ما السِّنة ؟ قال : النعاس، قال زهير بن أبى سُلْمى :

لا سِنةٌ فى طَوالِ الليل تأخُذُه * ولا ينام ولا فى أمره فَنَدُ (٤)

---

(١) أورد الألوسى فى تفسيره روح المعانى هذا البيت عند قوله تعالى «وثيابك فطهر» برواية أخرى هكذا :

فانى بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

(٢) كذا فى اللسان والكامل للبرد . وفى الأصول : «أكارعه» .

(٣) كذا فى الأصول، ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذى قاله أمية والذى ذكره بن الأنبارى فيما يلى، وقد عزز قول ابن الأنبارى صاحب اللسان فى مادة سهر وصاحب تفسير روح المعانى ج ٩ ص ٢٨٦ طبع بولاق .

(٤) الفند (بالتحريك) : ضعف الرأى من الكبر، وقد يستعمل فى غير الكبر .

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك : أن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنــه ذكر جابر بن عبــد الله ووصفه بالعلم؛ فقال له رجل : جعلت فداءك ! تصف جابرا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » . وقال مجاهد : أحب الخلق الى الله تعالى أعلمهم بمــا أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يُعلَم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبيّ : رحل مسروق الى البصرة فى تفسير آية، فقيل له : إن الذى يفسرها رحل الى الشام؛ فتجهز ورحل الى الشأم حتى علم تفسـيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ » طلبت اسم هــذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال ابن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب وسيأتى . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يمنعنى إلا مهابتــه ، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليــلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب؛ ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه

قال أبو عمر : رُوى من وجوه فيها لِينٌ عن النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم أنه قال : " من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة الامام المقسط وذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيــه ولا الجافى عنه" وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه، وحلاله وحرامه، والعاملون بمــا فيه . وروى أنس أن النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم قال : " القرآن أفضــل من كل شىء فمن وقّر القرآن فقــد وقّر الله ومن استخفّ بالقرآن استخفّ بحق الله تعالى حملة القــرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظّمون كلام الله الملبسون نور الله فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى " .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول: «فمن حرمة القرآن ألا يمسّه إلا طاهرا. ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة. ومن حرمتـه أن يستاك ويتخلل فيطيّب فاه، إذ هو طريقه. — قال يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طرق من طرق القرآن، فطهروها ونظفوها ما آستطعتم. — ومن حرمته أن يتلبس[1] كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج. ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته. — وكان أبو العالية إذا قرأ أعتم ولبس وارتدى واستقبل القبلة. — ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخّع[2]. روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَوْرٌ[3] اذا تنخّع مضمض، ثم أخذ في الذكر، وكان كلما تنخّع مضمض. ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه اذا قرأ فهو مخاطب ربّه ومناج، والتثاؤب من الشيطان. — قال مجاهد: اذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك. وقاله عكرمة. يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن. — ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتدأ قراءته من أوّل السورة أو من حيث بلغ. ومن حرمتـه اذا أخذ في القـراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة. ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه، لأنه اذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذى استعاذ في البدء. ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل. ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يَعقل ما يُخاطب به. ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغّب الى الله تعالى ويسأله من فضـله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه. ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمته أن يلتمس إعرابه[4]. ومن حرمتـه أن يؤدّيَ لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته اذا انتهت قراءته أن يُصدّق ربه، ويشهد بالبلاغ

---

(١) يقال: تلبس بالثوب بمعنى لبسه. (٢) تنخع كتنخم وزنا ومعنى (٣) التور: إناء يشرب فيه.

(٤) في الأصول: «غرائبه». والتصويب عن نوادر الأصول.

لرسوله صلّى الله عليه وسلّم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقتَ ربّنا وبلّغتْ رسلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم اجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته اذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أنه مرّ ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا؛ فأمره أن يقرأ السور كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته اذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب، علما كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالمــاء. ومن حرمته اذا غسله بالمــاء أن يتوقّى النجاسات من المواضع، والمواقع التى توطأ، فان لتلك الغسالة حرمة، وكان مَنْ قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة اذا بَليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالمــاء. ومن حرمته ألا يُخلّيَ يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرّة؛ وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرّة. ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه، فإن العين تؤدّى الى النفس، وبين النفس والصـــدر حجاب، والقرآن فى الصـــدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يُسمِع أذنه فتؤدّى الى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركا فى الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قــد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرىّ قال قال رســول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أعطوا أعينكم حظّها من العبادة" قالوا: يارسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيــه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عُبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم: "أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظرا". ومن حرمته ألا يتأوّله عند ما يعرض له شيء من أمر الدنيا. — حدثنا عمرو بن زياد الحنظلىّ قال حدثنا هشيم بن بشــير عن المغيرة عن ابراهيم قال: كان يكره أن يُتأول شيء من القرآن عنــد ما يعرض له شيء من أمر الدنيا. — والتأويل مثل قولك للرجل اذا جاءك: جئت على قدرٍ

يا موسى؛ ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » هـذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا، كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسـورة النساء، ولكن يقال : السورة التي يُذكر فيها كذا . —

قلت : هذا يعارضه قوله صلّى الله عليه وسلّم: "الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه" خرّجه البخاريّ ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود . — ومن حرمته ألا يتلى منكوسا كفعل معلمي الصبيان، يلتمس أحدهم بذلك أن يُرِى الحذق من نفسه والمهارة، فان تلك مخالفة . ومن حرمته ألا يقعّر في قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين في إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفا، فإن ذلك محدَث ألقاه اليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدّم . ومن حرمته أن يُجلّل تخطيطه اذا خطه . وعن أبي حُكَيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة، فمرّ عليّ رضي الله عنه فنظر الى كتابته فقال له : أَجِلّ قلمك، فأخذت القلم فقطعته من طرفه قطًّا، ثم كتبت وعليّ رضي الله عنه قائم ينظر الى كتابتي، فقال : هكذا، نوِّره كما نوّره الله عزّ وجلّ . ومن حرمتـه ألا يجهر بعضٌ على بعض في القراءة فيفسد عليـه حتى يُبغّض اليـه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبـة . ومن حرمتـه ألا يماري ولا يجادل فيـه في القراءات، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن؛ فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمته ألا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم اذا مرّوا باللغو مرّوا كراما، هذا لمروره بنفسه، فكيف اذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألا يتوسّد المصحف ولا يعتمد عليه، ولا يرمي به الى صاحبـه اذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يُصغّر المصحف، روى الأعمش عن إبراهيم عن عليّ رضي الله عنه قال : لا يصغر المصحف . —

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا في يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالدرة ، وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول

الله صلى الله عليـه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسيجد أو مصيحف . — ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يُحلّى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينـة الدنيا ، وروى مغيرة عن ابراهيم : أنه كان يكره أن يُحلَّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلّم عنـد رءوس الآى أو يصغر . وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدبار عليكم" (1) . وقال ابن عباس ورأى مصحفا قد زُيّن بفضة : تغرون به السارق، وزينته فى جوفه . ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به فى المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقىّ عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هذيل : «ما هذا» قال : من كتاب الله كتبه يهودىّ ؛ فقال : "لعن الله من فعل هـذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضـعه" . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه اذا اغتسل بكتابته مستشفيا من سقم ألا يصبه على كناسـة ، ولا فى موضع نجاسة ولا على موضع يوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بقعة لا يطؤه الناس، أو يحفر حفيرة فى موضـع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمـائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور، ولذلك كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات، لئلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال : يا رسول الله أىّ العمل أفضل ؟ قال : "عليك بالحال المـرتحل" قال : وما الحال المرتحل؟ قال : "صاحب القرآن يضرب من أوّله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوّله كلما حل ارتحل" . —

قلت : ويُستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارىّ أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مِسْـعَر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان اذا ختم القرآن جمع

(1) الدبار : الهلاك . وفى نوادر الأصول : «فالدمار» بالميم بدل الباء الموحدة .

أهله ودعا. وأخبرنا ادريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال: كان مجاهد وعبدة بن أبي لبابة وقوم يعرضون المصاحف، فاذا أرادوا أن يختموا وجّهوا الينا أحضرونا، فإن الرحمة تنزل عنـد ختم القرآن . وأخبرنا ادريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن ابراهيم التيميّ قال: من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسى، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليـه الملائكة حتى يُصبح ؛ قال : فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّل الليل وأوّل النهار. ـــ ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء، إلا أن يكون فى غلاف من أَدَم أو فضـة أو غيره، فيكون كأنه فى صـدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمّى الله على كل نَفَس وعظّم النية فيـه فإن الله يؤتيه على قـدر نيته . روى ليث عن مجاهـد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبي جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه . —

قلت : ومن حرمته ألا يقال : سورة صغيرة، وكره أبو العالية أن يقال : سـورة صغيرة أو كبيرة، وقال لمن سمعه قالها : أنت أصـغر منها . وأما القرآن فكله عظيم ، ذكره مكيّ رحمه الله .

قلت : وقـد روى أبو داود ما يعارض هـذا من حديث عمرو بن شـعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال : ما من المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤمّ بها النـاس فى الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى والجرأة على ذلك ومراتب المفسرين

رُوى عن عائشـة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم يفسر من كتاب الله إلا آيًا بعـددٍ ، علّمه إياهنّ جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هـذا الحديث فى مغيّبات القـرآن، وتفسير مجمله ونحو هـذا، مما لاسبيل اليـه إلا بتوقيف من الله تعالى؛ ومن جملة مغيّباته مالم يُعلِم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد

النفخات فى الصور، وكِتْبة خلق السموات والأرض . روى الترمذىّ عن آبن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "اتّقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار" . وروى أيضا عن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّم فى أحد رواته[1]. وزاد رزين: ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارىّ النحوى اللغوى فى كتاب الردّ: فُسِّر حديث آبن عباس تفسيرين: أحدهما — من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرّض لسخط الله . والجواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى — من قال فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحلّ، قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صميم مَعْشَرِها * فَتَمَّ فى قومها مُبَوَّؤُها[2]

وقال فى حديث جندب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى: من قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ ؛ لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال ابن عطية: « ومعنى هذا أن يُسأل الرجل عن معنًى فى كتاب الله عزّ وجلّ فيتسوّر[3] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء ، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبنىّ على قوانين علم ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه » .

(١) قوله : أحد رواته . هو سهيل بن أبى حزم واسمه مهران ، ويقال : عبد الله . (٢) جاء فى لسان العرب مادة بوأ تفسيرا لهذا البيت : أى نزلت من الكرم فى صميم النسب . (٣) قوله : فيتسور عليه . تسوّر الحائط، هجم مثل اللص . ويعنى به هنا التهجم والاقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

قلت : هذا صحيح وهو الذى اختاره غير واحد من العلمــاء، فإن من قال فيه بما سنح فى وهمه وخطر على باله من غير اســتدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، و إن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ » وهذا فاسد، لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو: إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمرا آخر. و باطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بمـا سمعه؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دعا لابن عبّاس وقال : " اللّهمّ فقّهه فى الدين وعلّمه التأويل ". فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «النساء» إن شاء الله تعالى . و إنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما ــ أن يكون له فى الشيء رأى، وإليه ميل من طبعه وهواه؛ فيتأوّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه؛ وتارة يكون مع الجهــل ، وذلك اذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه الى الوجه الذى يوافق غرضه ، و يرجّح ذلك الجانب برأيه وهواه؛ فيكون قد فسّر برأيه، أىْ رأيُه حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لمـا كان يترجّح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ماأريد به، كمن يدعو الى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعــالى : « ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » ويشير الى قلبــه ، و يومئ الى أنه المراد بفرعون، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغــة ، وذلك غير جائز . وقــد تستعمله

الباطنيّة فى المقاصـد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم الى مذاهبهم الباطلة، فيتزّلون القرآن على وَفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة . فهـذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثانى — أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة[1]، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يُحْكِمْ ظاهر التفسير وبادر الى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زمرة من فسّر القرآن بالرأى؛ والنقلُ والسماعُ لا بدّ له منه فى ظاهر التفسير أوّلا ليتّقى به مواضع الغلط، ثم بعـد ذلك يتسع الفهم والاستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع فى الوصول الى الباطن قبل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعـالى : «وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَـا» معناه آيةً مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها؛ فالناظر الى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدرى بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهى اليه . والله أعلم .

قال ابن عطية : «وكان جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيد بن المسيب وعامر الشعبى وغيرهما يعظّمون تفسير القرآن ويتوقّفون عنه تورّعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدّمهم» .

قال أبو بكر الأنبارى : وقد كان الأئمة من السلف المـاضى يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن، فبعضٌ يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عزّ وجلّ فيُحجم عن القول . وبعضٌ يُشفق من أن يُجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه ويُقتفَى طريقه . فلعل متأخرا أن يفسر حرفا برأيه ويخطئ فيـه ويقول : إمامى فى تفسير القـرآن بالرأى فلان الإمام من السلف .

وعن ابن أبى مليكة قال : سـئل أبو بكر الصدّيق رضى الله عنـه فى تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظِلُّنى، وأىّ أرض تُقِلُّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! اذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا .

قال ابن عطية «وكان جِلَّةٌ(١) من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد فيه للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن عليّ» . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب . وكان عليّ رضي الله عنه يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنـه، وكان ابن مسعود يقول : نِعم تَرْجُمَان القرآن عبد الله بن عباس . وقال عنه عليّ رضي الله عنه : ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من سِتْرٍ رقيق . ويتلوه عبد الله ابن مسعود وأُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبـد الله بن عمرو بن العاص . وكل ما أُخذ عن الصـحابة فحسن مقدَّمٌ لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم . وعن عامر بن واثلة قال : شهدت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته : سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون الى يوم القيامة إلا حدّثتكم به، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبِلَيْلٍ نزلت أم بنهـار، أم في سهل نزلت أم في جبل؛ فقام اليه ابن الكوّاء(٢) فقال : يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذَرْوًا ؟ وذكر الحديث . وعن المنهال بن عمرو قال قال عبد الله ابن مسعود : لو أعلمُ أحدا أعلمَ بكتاب الله مني تبلُغُه المطيُّ لأتيته؛ فقال له رجل : أما لقيت عليّ بن أبي طالب ؟ فقال : بلى ، قد لقيته . وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلم مثل الإخاذ يُرْوِي الواحد والإخاذ يُرْوِي الإثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصْدرهم، وإن عبـد الله بن مسعود من تلك الآخاذ(٣) . ذكر هـذه المناقب أبو بكر الأنباريّ في كتاب الردّ، وقال : الإخاذ عند العرب : الموضع الذي يحبس المـاء كالغدير . قال أبو بكر حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلام عن

(١) من قولهم : أبقيت على فلان اذا أشفقت عليه ورحمته .

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أوفى اليشكري كما في تاريخ الطبري في عدة مواضع .

(٣) قوله : من تلك الآخاذ . يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم .

زيد العمى(١) عن أبى الصدّيق الناجى عن أبى سعيد الخدرىّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : "أرحم أمتى بهـا أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علىّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل أبىّ بن كعب وأعلمهم بالحـلال والحرام معاذ ابن جبل وأمين هـذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وِعاءٌ من العلم وسَلْمانُ بحرٌ من علم لا يدرك وما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال — : البطحاء من ذى لهجة أصدق من أبى ذرّ" .

قال ابن عطية : «ومن المبرزين فى التابعين الحسن البصرىّ ومجاهد وسعيد بن جبير وعلقمة . قرأ مجاهـد على ابن عبـاس قراءة تَفَهّم ووقوف عنـد كل آية ، ويتلوهم عكرمـة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس ، وإنمـا أخذ عن ابن جبير ، وأما السـدىّ فكان عامر الشعبى يطعن عليه وعلى أبى صالح(٢) لأنه كان يراهما مقصّرين فى النظر » .

قلت : وقال يحيى بن معين : الكلبىّ ليس بشىء . وعن يحيى بن سعيد القطان عن سفيان قال قال الكلبىّ : قال أبو صالح : كل ما حدّثتك كذب . وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدّروَغ زَنْ — يعنى أبا صالح مولى أم هانىء — والدّروَغ زَنْ : هو الكذاب بلغة الفرس . ثم حمل تفسيرَ كتابِ الله تعالى عدولُ كلّ خلَف ، كما قال صلّى الله عليه وسـلّم : "يحمل هـذا العلم من كل خلف عدولُه ينفون عنـه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجـاهلين" . خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر احمد بن علىّ البغدادى : وهـذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسـلم بأنهم أعلام الدّين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة

(١) جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمى زيد العمى لأنه كان ينادى من رآه بياعم . وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحوارى أبو الحوارى العمى ، وهو مولى زياد بن أبيه . ولقب بذلك لانه كان اذ سئل عن الشىء يقول : حتى أسأل عمى .

(٢) اسمه باذام ، وقيل : باذان ، بمعجمة بين ألفين ، يروى عن على وابن عباس ومولاته أم هانئ كما فى تهذيب التهذيب .

من التحريف، والانتحال للبـاطل، وردّ تأويل الأبله الجاهل؛ وأنه يجب الرجوع اليهم، والمعوّل فى أمر الدين عليهم، رضى الله عنهم .

قال ٱبن عطية : « وألّف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضّل وعلىّ بن أبى طلحة والبخارى وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير ــ رحمه الله ــ جمع على الناس أشتات التفسير، وقرّب البعيد منها وشفى فى الإسناد . ومن المبرّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علىّ الفـارسىّ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما ٱستدرك النـاس عليهما . وعلى سَنَنهما مكىّ بن أبى طـالب رضى الله عنــه . وأبو العباس المهـدوىّ متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله، ونضر وجوههم » .

باب تبيين الكتاب بالسُّنة وما جاء فى ذلك

قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَـا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّـاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِـمْ » . وقال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْـدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وفرض طاعته فى غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل، وقال تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا » . ذكر ٱبن عبد البر فى كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى مُحْرِما عليــه ثيابه فنهى المحرم؛ فقال : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى؛ قال : فقرأ عليه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنــه فانتهوا » . وعن هشام بن حُجَير قال : كان طاوس يصلى ركعتين بعد العصر، فقال ٱبن عباس : اتركهما؛ فقال : إنما نهى عنهما أن تُتخذا سنة؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم عن صلاة بعد العصر، فلا أدرى أتُعَذَّب عليهما أم تؤجر، لأن الله تعـالى قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » . وروى أبو داود عن المِقدام بن معديكرب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثـله معه ألا يوشِـك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فمـا وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه

ألا لا يحل لكم الحمار الأهلىّ ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه " .

قال الخطابى : قوله "أتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما — أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثانى — أنه أوتى الكتاب وحيًا يتلى، وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبيّن ما فى الكتاب فيعمّ ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . وقوله : " يوشك رجل شبعان " الحديث . يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت اليه الخوارج والروافض ، فانهم تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيّروا وضلوا ؛ قال والأريكة : السرير، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلة(1)، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفّه والدّعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مظانّه . وقوله : " إلا أن يستغنى عنها صاحبها " معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ؛ كقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ » معناه تركهم الله استغناء عنهم . وقوله : "فله أن يعقبهم بمثل قِراه » هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قِراه عوض ما حرموه من قِراه . و«يعقبهم» يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ » أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث الى أن يعرض على الكتاب، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فاتركوه » فانه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلّى الله عليه وسلّم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

(١) الحجلة : مثل القبة .

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج، قال صلّى الله عليه وسلّم إذ حج بالناس : "خذوا عني مناسككم" . وقال : "صلوا كما رأيتموني أصلي" . أخرجه البخاري . وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد في كتاب الله تعالى مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا .

وروى الأوزاعيّ عن حسان بن عطية قال : كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدّثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعيّ عن مكحول قال : القرآن أحوج الى السنة من السنة الى القرآن . وبه عن الأوزاعيّ قال : قال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعني أحمد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب فقال: ما أجسُر على هذا أن أقوله، ولكني أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبيّنه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذي ناب من السباع، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبيّ : أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها الى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلميّ قال : كنا اذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفي موطإ مالك : أنه بلغه أن عبد الله

ابن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها. وذكر أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمّى[(١)] « أسمـاء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن آبن عمر قال: تعلّم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبارىّ : حدّثنى محمـد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسـود حدّثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمرو عن زياد بن مخراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به ، وإن مَن بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به .

حدّثنا ابراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا اسماعيل آبن ابراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن آبن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن؛ وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبىّ والأعمى ولا يرزقون العمل به. حدّثنى حسن بن عبـد الوهاب أبو محمد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حمـاد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا، وذلك أنا روينا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة، فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله؛ وإن الغلام فى دهرنا هـذا يجلس بين يدىّ فيقرأ ثلث القرآن لا يسقط منه حرفا ، فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه، دون معرفته وفهمه؛ فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وليكن تحفظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليالى والأيام. وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وآبن عُلَيّة ومعمر، قال معمر: سمعت الزهرىّ يقول : من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يُدرَك العلم حديثا وحديثين، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . قال آبن عبد البر : وروى عن النبىّ صـلّى الله عليه وسلّم

(١) فى الأصول : « المسمى فى ذكر أسماء ... الخ » .

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همتهم الدراية، وأن السفهاء همتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا ؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يحتج به . ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة الغرّاء :

إن العلوم وإن جلّت محاسنها * فتاجها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه * وبعد ذلك عِلْمٌ فرّج الكُرَبا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه * نور النبوّة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها * فاختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده فى معادنه * يأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت * كل العلوم تدبّره تر العجبا
واقرأ هديت حديث المصطفى وسل * مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعما لعلم الدّين سرّ به * إذا تزيّد منه قال واطربا

باب معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه"

روى مسلم عن أبىّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أَضَاة[(1)] بنى غِفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتك القرآن على حرف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تُطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصاة) غدير صغير . وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار : قبيلة من كنانة .

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيمـا حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذيّ عنه قال : لقي رسول الله صلّى الله عليه وسـلم جبريل فقال : " يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميـة منهم العجوز والشيخ الكبير والغـلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتابا قط فقال لي يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف" . قال : هذا حديث صحيح . وثبت في الأمهات : البخاري ومسلم والموطإ وأبي داود والنسائي وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمـر مع هشام بن حكيم، وسيأتي بكماله في آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلمـاء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبّان البستيّ، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأوّل — وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو أقبل وتعال وهَلُمّ . قال الطحاوي : وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ على حرف؛ فقال ميكائيل : استزده؛ فقال : اقرأ على حرفين؛ فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ الى سـبعة أحرف ؛ فقال : اقرأ فكلٌّ شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحـمة ؛ على نحو هلم وتعال وأقبـل واذهب وأسرع وعجِّل . وروى ورقاء عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرأ : « لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنْظُرُونَا » للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا ارقبونا . وبهذا الاسناد عن أبيّ أنه كان يقرأ : « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » مرّوا فيه ، سعوا فيه . وفي البخاريّ ومسلم قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام .

قال الطحاوي : إنمـا كانت السَّعة للنـاس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهـم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ؛ فلمـا كان يشق على كل ذي لغة أن يتحوّل الى غيرها من اللغات ؛ ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشـقة عظيمة ، فوُسِّـع لهم

فى اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا ، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال ابن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان فى وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أُبىّ قال : قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "يا أُبىّ إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذى معى قل على حرفين فقيل لى على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذى معى قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شاف كاف إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب" . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه . قال القاضى ابن الطيب[1] : واذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أُبىّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نسخ ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسمًا لله تعالى فى موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثانى — قال قوم : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها : يَمَنِها ونِزارها ، لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يجهل شيئا منها ، وكان قد أوتى جوامع الكلم ؛ وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن . قال الخطابى : على أن فى القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه ، وهو قوله : « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » . وقوله : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ » وذكر وجوها ، كأنه يذهب الى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله . والى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، على سبع لغات ، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلّام واختاره ابن عطية ؛ قال أبو عبيد : وبعض الأحياء

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى .

أسعد بها وأكثر حظا فيهـا من بعض ، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصـاحف : ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلغتهـم . ذكره البخارى وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبين : كعب قريش وكعب خزاعة . قيـل : وكيف ذلك ؟ قال : لان الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ابن الطيب رضى الله عنه : معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعـالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » ولم يقل قرشيا ، وهـذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر ، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عنـدى فى الأغلب والله أعلم، لأن غير لغة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ابن عطية : معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : " أنزل القرآن على سبعة أحرف " أى فيه عبارة سـبع قبائل، بلغة جملتها نزل القرآن ؛ فيعبّر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هـذيل ، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ؛ ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش «ابتدأ» فجاءت فى القرآن فلم تتجه لابن عباس، حتى اختصم اليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعـالى : « فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » . وقال أيضـا : ما كنت أدرى معنى قوله تعـالى : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » . حتى سمعت بنت ذِى يَزَنٍ تقول لزوجها : تعال أفاتحك، أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعـالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقُطْبة بن مالك إذ

سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّمَ يقرأ فى الصلاة : « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » ذكره مسلم فى باب (القراءة فى صلاة الفجر) الى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون فى مضر، قاله قوم، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتيم، ومنها لضبة، ومنها لقيس؛ قالوا : هذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا : فى مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها، مثل كشكشة قيس وتمتمة تميم؛ فأما كشكشة قيس فانهم يجعلون كاف المؤنث شينا، فيقولون فى « جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » . جعل ربش تحتش سريا؛ وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات، وفى أكياس : أكيات، قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحلق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء، وقد قرأ به الجلّة، واحتجوا بقراءة ابن مسعود : ليسجننه عَتّى حين، ذكرها أبو داود؛ وبقول ذى الرُّمّة :

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها * ولَوْنُكِ إلا عَنّها غيرُ طائِلِ

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء، وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعا : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته، مثل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأطهرَ، « وَيَضِيقُ صَدْرِى » ويضيقَ؛ ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب، مثل : « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وباعدَ؛ ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل قوله : « نُنْشِزُهَا » وننشرها؛ ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وكالصوف المنفوش؛ ومنها ما تتغير

صورته ومعناه ، مثـل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » وطلع منضود؛ ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت الحق بالموت؛ ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد إكراههن لهنّ غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعالى ، وهى أمرٌ ونهىٌ ووعدٌ ووعيدٌ وقصصٌ ومجادلةٌ وأمثالٌ . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالاجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شى من المعـانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ثم قال : ولـكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنمـا الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » فكذلك معنى هـذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليـه السلام : "أنزل القرآن على سبعة أحرف" . القراءات السبع التى قرأ بها القرّاء السبعة ، لأنها كلها صحت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصـــل) قال كثير من علمائنا كالدّاوُدِى وابن أبى صُفرة وغيرهما : هذه القراءات السـبع التى تنسب لهؤلاء القرّاء السـبعة ليست هى الأحرف السـبعة التى اتّسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ؛ وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القرّاء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلِم وجهـه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعُرف به ونسب إليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير ، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر وكلٌّ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

فى ذلك مصنفات ، فاستمرّ الإجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ؛ وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما. قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة و بها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع ؛ وأما شاذ القراءات فلا يصلَّى به لأنه لم يجمع الناس عليه ، أما أن المروىّ منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا نعتقد فيهم إلا أنهم رووه ، وأما ما يؤثر عن أبى السَّمّال (١) ومن قارنه فإنه لا يوثق به . قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ، ولا يعمل بها على أنها منه ، وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نسبت اليه كقراءة ابن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات . فأما لو صرح الراوى بسماعها من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والاثبات ؛ وجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن ، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثانى أنه و إن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة ، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام

قال ابن عطية : أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الاعجاز وجودة الرصف ، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : " فاقرءوا ما تيسر منه " بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن ، وكان معرّضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله ، و إنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم ليوسع بها على أمته ، فاقرأ مرّة لأبىّ بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا ؛ وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة « الفرقان » ، وقراءة

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم و باللام) : هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى ، له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة . وقد ذكر فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع وفى ص ٣٦٨ محرّفا ، والتصويب عن طبقات القـــراء .

هشام بن حَكيم لهـا ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم فى كل قراءة منهما وقد اختلفتا : " هكذا أقرأنى جبريل " هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إنّ ناشئة الليل هى أشدّ وطأ وأصوب قِيلا » فقيل له : إنمـا نقرأ « وأقوم قِيلا » . فقال أنس : وأصوب قيلا، وأقوم قيلا وأهيأ، واحد؛ فانمـا معنى هذا أنها مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإلا فلو كان هــذا لأحد من الناس أن يضعه ليطل معنى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . روى البخارىّ ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حَكيم يقرأ سورة « الفرقان » على غير ماأقرؤها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أَقْرَأَنِيها، فكدتُ أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لَبَّبْته[(١)] بردائه، فجئت به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلت : يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة « الفرقان » على غير ماأقرأتنيها! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " أرسله[(٢)]، اقرأ " فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " هكذا أنزلت " ثم قال لى : " اقرأ " فقرأت فقال : " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه " .

قلت : وفى معنى حديث عمر هــذا ، ما رواه مســلم عن أبىّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصــلّى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سِوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وســلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سِوى قراءة صاحبه، فأمرهما النبىّ صلى الله عليه وسلم فقرأا ، فحسّن النبىّ صلّى الله عليــه وسلّم شأنهما؛ فسُقِط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنتُ فى الجاهلية، فلمـا رأى النبىّ صلّى الله عليــه وسلّم ماقد غشينى، ضرب فى صــدرى ففِضتُ عَرَقًا ، وكأنما أنظر الى الله تعالى فَرَقًا، فقال : " يا أبىّ أُرسلَ الىّ أنِ اقرأ القرآن على حرف فرددت اليه أن هوّن على أمّتى فردّ الىّ الثانية اقرأه على حرفين فرددت اليه أن هوّن على أمّتى

(١) قوله : لببته بردائه . أى جمعت ثيابه عند صدره ونحره ثم جررته . (٢) أرسل الشىء : أطلقه وأهمله .

فردّ إلىّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردّة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت اللّهمّ اغفر لأمتى اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يرغبُ إلىّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام " .

قول أبيّ رضى الله عنه : « فسقط فى نفسى » معناه اعترتنى حَيرة ودهشة ، أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله ، ويكدّر عليه وقته ؛ فانه عظّم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه ؛ وإلا فأىّ شيء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النسخ الذى هو أعظم ، فكيف بالقراءة !

ولما رأى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه فى صدره ، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنوّر باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة ؛ ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم — حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلّم به — قال : " وقد وجدتموه " قالوا : نعم ؛ قال : " ذلك صريح الإيمان " . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

باب ذكرِ جمع القرآن وسبب كَتْب عثمان المصاحف وإحراقِه ماسواها وذكرِ من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم

كان القرآن فى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم متفرقًا فى صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه فى صحف وفى جريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خزف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللخاف : حجارة بيض رِقاق ، واحدتها لخفة . والظرر : حجر له حدّ كحد السكين ، والجمع ظِرار ، مثل رُطَب ورطاب ، ورُبَع ورباع ، وظِرّان أيضا مثل صُرَد وصردان — فلما استحرّ[(1)] القتل

(١) قوله : استحر ، أى اشتد وكثر .

بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه، وقُتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرّاء، كأبىّ وابن مسعود وزيد، فندبا زيد بن ثابت الى ذلك، بجمعه غير مرتب السور، بعد تعب شديد، رضى الله عنه؛ روى البخارىّ عن زيد بن ثابت قال : أرسل الىّ أبو بكر مقتَلَ أهل اليمامة وعنــده عمر، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتــل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس، وإنى أخشى أن يستحِرّ القتــل بالقرّاء فى المواطن، فيذهبَ كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإنى لأرى أن تجمــع القرآن؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعــل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير؛ فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صــدرى، ورأيت الذى رأى عمر؛ قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحى لرسول الله صــلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فأجمعه؛ فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر : هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صــدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرّقاع والأكتاف (١) والعُسُب (٢) وصــدور الرجال، حتى وجدت من سورة «التوبة» آيتين مع خُزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثنى عبد الرحمن بن غالب عن ابن شهاب وقال : مع أبى خزيمة الأنصارى . وقال أبو ثابت حدثنا ابراهيم وقال : مع خزيمة أو أبى خزيمة « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

---

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل اذا نزع منه خوصه .

وقال الترمذي في حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . قال : حديث حسن صحيح .

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . وقال الترمذي عنه : فقدت آية من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة، فألحقتها في سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » في الجمع الأول، على ما قاله البخاري والترمذي ؛ وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة «الأحزاب» . وحكى الطبري : أن آية «براءة» سقطت في الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه، وقد سبقه أبو بكر الى ذلك وفرغ منه؛ قيل له : إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسل الى حفصة : أن أرسلي الينا بالصحف نَنْسَخُها في المصاحف ثم نردها اليك ، على ما يأتي . وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان واشتد الأمر في ذلك، وعظم اختلافهم وتشبثهم؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه، وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أرْمِينِيَة فقرأت كل طائفة بما رُوِي لها ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم؛ فلما قدم حذيفة المدينة — فيما ذكر البخاري والترمذي — دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تَهلَك! قال : فيماذا ؟ قال : في كتاب الله، إني حضرت

هذه الغزوة، وجَمعَتْ ناسا من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدّم وقال : إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهـــذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة، لأن الحق لايختلف فيه، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن علىّ بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ؟ فان النـــاس قد اختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك، وقراءتى أفضل من قراءتك . وهذا شبيه بالكفر؛ قلنـــا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين؟ قال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة، فانكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشدّ اختلافا؛ قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين ؛ فأرسل عثمان الى حفصة : أن أرســلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها اليك؛ فأرسلت بها اليـــه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العـــاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف؛ وقال عثمان للرهط القرشـــيين : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القـــرآن فاكتبوه بلســـان قريش، فانما نزل بلسانهم؛ ففعلوا، حتى اذا نســـخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة، وأرســـل الى كل أفق بمصحف ممـــا نسخوا، وأمر بما سوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق؛ وكان هـــذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت فى القراءات المشهورة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم واطّراح ما سواها، واستصوبوا رأيه وكانـــ رأيا ســـديدا موفقا رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : إن عثمان قرن بزيد أبان بن سعيد بن العاصى وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذىّ وغيرهما أصح . وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جعلت إماما فى هذا الجمع الأخير، وهذا صحيح .

قال ابن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نســـخ المصاحف، وقال : يا معشر المسلمين ، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل،

والله لقد أسلمت و إنه لفى صُلب رجل كافر! — يريد زيد بن ثابت — ولذلك قال عبد الله ابن مسعود: يا أهل العراق، اكتموا المصاحف التي عندكم وغلّوها، فان الله عزّ وجلّ يقول: « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فألقوا الله بالمصاحف، خرّجه الترمذى. وسيأتى الكلام فى هذا فى سورة «آل عمران» إن شاء الله تعالى.

قال أبو بكر الأنبارى: ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود فى جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم فى الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وَعاه كلّه، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم حىّ، والذى حفِظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقى بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار. ولا ينبغى أن يظنّ جاهل أن فى هذا طعنا على عبد الله بن مسعود، لأن زيدا اذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما فى الفضائل والمناقب. قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء نتجه الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يشك فى أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم؛ فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن. قال يزيد بن هارون: المعوّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له: فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال: لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله.

قلت: هذا فيه نظر وسيأتى، وروى اسماعيل بن اسحاق وغيره قال حماد — أظنه عن أنس بن مالك، قال: كانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلان بن فلان ، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَــل اليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال . قال ابن شهاب : وآختلفوا يومئذ فى التــابوت ، فقال زيد : التــابوه ، وقال ابن الزبير وســعيد بن العاصى : التــابوت ؛ فرفع آختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه بالتــاء ؛ فانه نزل بلسان قريش . أخرجه البخارىّ والترمذىّ . قال ابن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء ، فأثبتوه بالتاء ؛ وكتبت المصاحف على ما هو عليــه غابر الدهر ، ونسخ منها عثمان نسخا . قال غيره : قيــل سبعة ، وقيل أربعة وهو الأكثر ، ووجّه بها الى الآفاق ، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات ، فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ابن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرَّق ، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن ، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ عن سُوَيد بن غَفَلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول : يامعشر الناس ، اتقوا الله ! وإيّاكم والغلوّ فى عثمان ، وقولكم : حرّاق المصاحف ؛ فوالله ما حرقها الا عن ملأٍ منا أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم . وعن عمير بن سعيد قال قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطّال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام ، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف اذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة ابن الزبير كتب فقــه كانت عنــده يوم الحرّة ، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف اذا كان فيها

ذ كر الله تعالى ، وقول من حرقها أولى بالصواب ، وقد فعله عثمان ؛ وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، اذا أدّاه الاجتهاد الى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردٌّ على الحُلُولية(١) والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يفعل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير محدَثا ، والمحدَث لا يصير قديما ، وأن القديم مالا أوّل لوجوده، وأن المحدث هو ما كان بعد أن لم يكن؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم فقالوا: يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد اذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك اذا نحت حروفا من الآجُرّ والخشب، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما ، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى ، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق؟ فان قالوا : نعم، فارقوا الدّين، وإن قالوا : لا، قيل لهم : فما قولكم في حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار فذابت واحترقت، فهل تقولون : إن كلام الله احترق؟ فان قالوا : نعم، تركوا قولهم؛ وإن قالوا : لا ، قيل لهم أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فان قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق، رجعوا الى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذى قاله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، منبهاً على ما يقول أهل الحق : ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق. وقال الله عزّ وجلّ: "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث، أخرجه مسلم . فثبت بهذا

(١) الحلولية : فرقة من المتصوّفة تقول : إن الله حال في كل شيء وفي كل جزء منه متحد به حتى جوزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله . والحشوية : طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا الى التجسيم وغيره .

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول، وتتميمها فى كتب الأصول، وقد بيناها فى (الكتاب الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضـة — قبحهم الله تعـالى — فى القرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحـرف كما فعلتم ، فانكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمـة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ » فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لـما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة « التوبة » ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئا أَوْ لا ، فالآية إنمـا ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — انمـا ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم ، فهى قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية «الاحزاب» فان تلك ثبتت بشهادة زيد وأبى خزيمـة لسماعهما إياها من النبىّ صلّى الله عليه عليه وسلّم . قال معناه المهلب، وذكر أن خزيمة غير أبى خزيمة، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : «أبو خزيمة لا يوقف على صحـة اسمه وهو مشهور بكنيته، وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وتوفّى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس ، قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمـة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمـة أبى خزيمة نسب إلا اجتماعهما فى الأنصـار، أحدهما أوْسىّ والآخر خَزْرَجىّ » . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال: جمع القرآنَ على عهد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أربعة كلهم من الأنصار : أبىّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد . قلت لأنس : مَن أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارىّ أيضا عن أنس قال : مات النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل،

وزيد، وأبو زيد؛ [قال][(١)] : ونحن ورثناه . وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عقبا، وكان بدريا، واسم أبى زيد سعد بن عبيد . قال ابن الطيب رضى الله عنه : لا تدل هــذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقــد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلىّ وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقينًا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غير تلك الجماعة، فان أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضى، عبدَ الله بن مسعود وسالمـًا مولى أبى حذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبــد الله بن يزيد الصهبانى عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن هذا الذى يقرؤ القرآن" . فقيل له : هذا عبد الله ابن أم عبد، فقال : "إن عَبْد الله يقرؤ القرآن غَضًّا كما أنزل " الحديث . قال بعض العلمــاء : معنى قوله : " غضًّا كما أنزل " أى أنه كان يقرأ الحرف الأول الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رخّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال : قال لى عبد الله بن عباس : أىّ القراءتين تقرأ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابن أم عبــد ؛ فقال لى : بل هى الآخرة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وســلم عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

---

(١) زيادة عن البخارى . وقوله : ونحن ورثناه . أى أبا زيد .

ذلك وما بُدّل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد — فبدأ به — ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة" .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدّم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ : حدّثنا محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت مِن فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وسبعين سورة ، وقرأت عليه من البقرة الى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » . قال أبو إسحاق : وتعلم عبد الله بقية القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصارى .

قلت : فإن صح هذا ، صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون ، فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنى ابراهيم بن موسى الخوزى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا مالك بن اسماعيل حدّثنا زهير عن أبى اسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ؛ قال وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوّذتين ؛ فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر «المعوّذتين» إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدّثناه ابراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القرظىّ قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ عثمان بن عفان وعليّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه .

قلت : قوله عليه السلام: "خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبدٍ" . يدل على صحته، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشأم والعراق كلٌّ منهم عزا قراءته التى اختارها الى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يستثن من جملة القرآن شيئا، فأسند عاصم قراءته الى علىّ وابن مسعود، وأسند ابن كثير قراءته الى أبىّ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته الى أبىّ، وأما عبد الله بن عامر فانه أسند قراءته الى عثمان ؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخطابى .

باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ابن الطيب : إن قال قائل : قد اختلف السلف فى ترتيب سور القرآن، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها، وقدّم المكىّ على المدنىّ، ومنهم من جعل فى أوّل مصحفه الحمد، ومنهم من جعل فى أوله : «اقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ»، وهذا أوّل مصحف علىّ رضى الله عنه؛ وأما مصحف ابن مسعود فان أوّله : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف ؛ ومصحف أبىّ كان أوّله : الحمد لله، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ثم كذلك على اختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكىّ رحمه الله فى تفسير سورة «براءة» وذكر أن ترتيب الآيات فى السور ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، ولما لم يأمر بذلك فى أوّل سورة «براءة» تركت بلا بسملة، هذا أصح ما قيل فى ذلك وسيأتى .

وذكر ابن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قدّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال ربيعة : قد قُدّمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألّفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما

تنتهي اليه، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنيد قال حدثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال ابن مسعود : من كان منكم متأسّيا فليتأسّ بأصحاب رسول الله صـلّى الله عليه وسلّم فانهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هَدْيًا، وأحسنها حالا؛ اختارهم الله لصحبة نبيّه صـلّى الله عايه وسلّم و إقامة دينـه ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فانهم كانوا على الهُدَى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأما ما روى من اختلاف مصحف أبىّ وعلىّ وعبد الله فانما كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وذكر أبو بكر الانبارى فى كتاب الرّد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا، ثم فُرّق على النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى عشرين سـنة، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر يسأل، و يوقف جبريل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على موضع السورة والآية؛ فاتّساق السور كاتّساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيّين عليه السلام ، عن رب العـالمين؛ فمن أخّر سـورة مقدمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسـد نظم الآيات، وغيّر الحروف والكلمات، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخذ عنه هـذا الترتيب ، وهو كان يقول : "ضعوا هـذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن" . وكان جبريل عليـه السلام يقفـه على مكان الآيات .

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبى إسحاق عن البراء قال: آخر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبى السائب عن ابن عبـاس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ» . فقال جبريل للنبيّ عليهما الســلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقـــرة .

قال أبو الحسن بن بطّال : ومن قال بهــذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن فى الصــلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقّف عليه فى المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة، ولا يُعـلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه ، وأنه لايحل لأحد أن يتلقّن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيّه قرأت قبلُ ؛ وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقرأ فى الصــلاة السورة فى ركعة، ثم يقرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها، وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا، وقالا : ذلك منكوس القلب؛ فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويبتدئ من آخرها الى أوّلهــا لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك ويقدر على الحفظ ، وهذا حظّره الله تعالى ومنعه فى القرآن ، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لمــا قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت ســورة البقرة والنساء الا وأنا عنــده — تعنى بالمدينــة — وقد قدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات الســـور .

قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنا اسماعيل بن إسحاق القاضى حدّثنا حجاج بن منهال حدّثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمــائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والاحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق،

ويأيها النبي لم تحرّم إلى رأس العشر، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء الســور نزلن بالمدينة؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس فى موضع نزولها، ويضطرّ إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفســد نظم القرآن فقد كفر به ، وردّ على محمد صلّى الله عليه وسلّم ما حكاه عن ربه تعالى. وقد قيــل : إن علة تقديم المدنىّ على المكىّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها ، وما يعرف من أفانين خطابها ومحاورتها، فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقــدوه من القرآن لقالوا : ما باله عَرِى من هــذا الباب الموجود فى كلامنا المستحْلَى من نظامنا . قال عَبيد بن الأبرص :

أن بُدّلتْ منهــمُ وحوشًا * وغيّرتْ حالهَــا الخطــوبُ
عينــاكَ دمعهــما سَرُوب * كأنّ شَأنَيْهما شَــعيب

أراد عيناك دمعهما سروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشًا ، فقدّم المؤخر وأخر المقــدّم؛ ومعنى سروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، للذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشــاعر(١) :

* أنّى سَرِبت وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقوله : شأنيهما، الشأن واحد الشـؤون وهى مُواصِــلُ قبائل الرأس وملتقاها ، ومنهــا يجئ الدمع . شعيب : متفرّق .

---

(١) هو قيس بن الخطيم . وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

وفى اللسان مادة «سرب» : «قال ابن برى : رواه بن دريد «سربت» بباء موحدة لقوله : وكنت غير سروب . ومن رواه سريت بالياء باثنتين فمعناه : كيف سريت ليلا، وأنت لاتسربين نهارا» .

فصل — وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك، وألّف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات .

وأسند الزبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيي بن يعمر .

فصل — وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية : مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك . وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كره التعشير فى المصحف، وأنه كان يَحُكّه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطِّيب فى المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسئل عن العشور التى تكون فى الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به؛ وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور فى كل سورة ما فيها من آية، قال : إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يكتب فيها شيء أو يشكل، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا لجده، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر، ورأيته معجوم الآى بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا . وقال يحيي بن أبى كثير : كان القرآن مجرّدا فى المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النَّقْط على الباء والتاء والثاء، وقالوا : لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم . وعن أبى حمزة قال : رأى إبراهيم النخعىّ فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لى : امحه فان عبد الله بن مسعود قال : لاتخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبى بكر السراج قال قلت لأبى رزين : أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا؛ قال : إنى أخاف أن ينشأ قوم لايعرفونه فيظنونه من القرآن .

قال الدّانى رضى الله عنه : وهــذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشــير والتخميس وفواتح السور و رءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمــل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرهما؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قــد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

فصل — وأما عدد حروفه وأحزابه فروى سلام أبو محمد الحِمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القرّاء والحفّاظ والكُتّاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو؟ . قال : وكنت فيهم ، لحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا؛ قال: فأخبرونى الى أىّ حرف ينتهى نصف القرآن؟ فاذا هو فى الكهف «وَلْيَتَلَطَّفْ» فى الفــاء ؛ قال : فأخبرونى بأثلاثه، فاذا الثلث الأوّل رأس مائة من براءة، والثلث الثانى رأس مائة وإحدى من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقى من القرآن؛ قال: فأخبرونى بأسباعه على الحروف، فاذا أوّل سبع فى النساء « فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ» فى الدال، والسبع الثانى فى الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » فى التــاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أُكُلُهَا دَائِمٌ » فى الألف من آخر أكلها ، والسبع الرابع فى الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » فى الألف، والســبع الخامس فى الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » فى الهــاء، والسبع السادس فى الفتح « الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فى الواو، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا ، فأوّل ربعه خاتمة الأنعام . والربع الثانى فى الكهف « وليتلطف » ، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر، والربع الرابع ما بقى من القرآن؛ وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدانى، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

فصل — وأما عدد آى القرآن فى المدنىّ الأوّل، فقــال محمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل ســتة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العــدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يسمعوا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه اليه .

وأما المدنيّ الأخير فهو فى قول إسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آى القرآن فى قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد بن عيسى : وجميع عدد آى القرآن فى قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات، وهو العدد الذى رواه مسلم والكسائىّ عن حمزة، وأسنده الكسائى الى علىّ رضى الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آى القرآن فى عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات، وهو العدد الذى مضى عليه سلفهم حتى الآن؛ وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذِّمَارى : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون، فى رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون، نقص آية . قال ابن ذَكْوان : فظننت أن يحيى لم يعدّ «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التى يتداولها الناس تأليفا، ويعدّون بها فى سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن فى قول عطاء بن يسار : سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

قلت : هذا يخالف ما تقدم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عد حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وانفصالها عنها، وسميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة الى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاكَ سُورةً * ترى كلّ مَلْك دونها يتذبذبُ

أى منزلة شرف ارتفعت اليها عن منزل الملوك . وقيل : سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على مالم يكن

عنده، كسور البناء؛ كله بغير همز . وقيل : سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حِدَة، من قول العرب للبقية : سؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم، فعلى هــذا يكون الأصــل سؤرة بالهمزة ثم خففت فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمــامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سُورة، وجمع سورة سور بفتح الواو . وقال الشاعر (١) :

* سُودُ المحاجرِ لا يقرأن بالسُّوَرِ *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة، بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعــدها وانفصاله، أى هى بائنــة من أختها ومنفردة، وتقــول العرب : بينى و بين فــلان آية، أى علامة؛ ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ » . وقال النابغة :

توهّمت آياتٍ لها فعرفتُهــا * لســتة أعوام وذا العــامُ سابعُ

وقيل : سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منــه، كما يقال : خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم . قال بُرَج بن مُسْهِر الطائى :

خَرجنا من النَّقبين لا حَىَّ مثلُنا * بآياتنا نُزجِى اللِّقــاحَ المَطافِلا

وقيــل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . واختلف النحويون فى أصــل آية، فقال سيبويه : أَيَيَة على فَعَلَة مثل أكمة وشجرة، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَــة على وزن فاعلة مثــل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع . وقال الفرّاء : أصلها أَيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات . وأنشد أبو زيد :

لم يُبق هذا الدهر من آيائِه * غيرَ أثافيــهِ وأرْمِــدائِه

---

(١) هو الراعى . وصدر البيت : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشبهات[(١)] أي الحروف، وأطول الكلم في كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف، نحو قوله تعالى: «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ». و «أَنُلْزِمُكُمُوهَا» وشبههما، فأما قوله: «فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ» فهو عشرة أحرف في الرسم[(٢)] وأحد عشر في اللفظ، وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشبه ذلك. ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفردا. وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى: «وَالْفَجْرِ». «وَالضُّحَى». «وَالْعَصْرِ». وكذلك «الٓمٓ». و «الٓمٓصٓ». و «طه». و «يسٓ». و «حمٓ» في قول الكوفيين، وذلك في فواتح السور، فأما في حشوهن فلا. قال أبو عمرو الداني: ولا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله في الرحمن: «مُدْهَامَّتَانِ» لا غير، وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك في قوله: «حمٓ عٓسٓقٓ» على قول الكوفيين لا غير، وقد تكون الكلمة في غير هذا: الآية التامة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عزّ وجلّ: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا» قيل: إنما يعني بالكلمة هاهنا قوله تبارك وتعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ» الى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى». قال مجاهد: لا إله إلا الله. وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم". وقد تسمّي العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون: قال قُسٌّ في كلمته كذا، أي في خطبته، وقال زُهير في كلمته كذا، أي في قصيدته، وقال فلان في كلمته يعني في رسالته، فتسمى جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا.

وأما الحرف فهو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز — قال أبو عمرو الداني: فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم أر هذا التعبير لغير المؤلف، وقد سبق التعبير به في ص ١٠٦ من هذا الجزء.

(٢) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى في الرسم فقط.

حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفا أو كلمة؟ قلت : كلمة لا حرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليــه ، ولا ينفرد وحده فى الصورة ، ولا ينفصل ممـا يختلط به ؛ وهــذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصــلة كانفراد الكلم وانفصالها، فلذلك سميت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا ، المذهبَ والوجهَ، قال الله عزّ وجلّ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب، ومن ذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنزل القرآن على سبعة أحرف" أى سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب ، وأن فيه أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب : كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب، فذهب القاضى أبو بكر ابن الطيب والطبرى وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربىّ صريح، وما وجد فيه من الالفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيًّا مبينًا، ولا رسولَ الله عن كونه متكلما بلسان قومه ؛ فالمشكاة : الكوة . ونشأ : قام من الليل، ومنه « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ » و « يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ » أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى الأسد؛ كله بلسان الحبشة . والغساق : البارد المنتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان بلغة الروم . والسِّجيل : الحجارة والطين بلسان الفرس . والطَّودُ الجبل . واليَمّ : البحر بالسريانية . والتَّنُّور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية : «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعرّبتها فهى عربية بهــذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانهـا بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، و برحلتى قريش، وكسفر مُسافر بن أبى عمرو إلى الشام،

وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحِيرَة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة؛ فعَلِقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيّرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة ، واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربيّ الصحيح، ووقع بها البيان؛ وعلى هذا الحدّ نزل بها القرآن. فان جهلها عربيٌّ مّا فكجهله الصريح بما فى لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى «فاطر» إلى غير ذلك . قال ابن عطية : وما ذهب اليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة لفظة فذلك بعيد؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع فى الأكثر،(1) لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا » .

قال غيره : والأوّل أصح . وقوله : هى أصل فى كلام غيرهم دخيلة فى كلامهم، ليس بأولى من العكس، فان العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أوْ لا ، فان كان الأوّل فهى من كلامهم إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فان قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومَن سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب وردّ هذه الأسماء اليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا، ولا يكون مخاطبا لقومه بلسانهم، والله أعلم .

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسة ، فان اختل منها شرط لا تكون معجزة .

(1) فى الأصول : «والأخرى فرع، لا أنا ندفع ... الخ» . والزيادة والتصويب عن تفسير ابن عطية .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون ممـا لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . وإنمـا وجب حصول هـذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجئ الرسـل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى ادّعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر ، وانشـقاق القمر ، وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر .

والشرط الثـانى هو أن تخرق العادة . وانمـا وجب اشـتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجئ الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها ؛ لم يكن فيما ادعاه معجزة ، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله ، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليـه فى حين دعواه ، ودعواه فى دلالتها على نبوّته كدعوى غيره ؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه ، وذلك أن يقول : الدليل على صدق أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليـه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع المـاء من بين أصابعى كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات ، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات ؛ فتقوم له هـذه العلامات مقام قول الرب سـبحانه ، لو أسمعنا كلامه العـزيز وقال : صدق ، أنا بعثته ؛ ومثال هـذه المسألة — ولله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جمـاعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسـمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديق ؛ فاذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما استشهد به على صدقه ، قام ذلك مقام قوله لو قال : صدق فيما ادعاه علىّ ؛ فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليـه إلا هو ، وخرق به العادة على يدى الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعـالى لو أسمعناه وقال : صـدق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسـلته اليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعى الرسالة على الله عزّ وجلّ ؛ فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرّك الأرض عنـد قولى لهـا : تزلزلى ؛ فاذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدّى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آية نبوّتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هـذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبىّ ، فان هـذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة ، لأن ما فعـله الله لم يقع على وَفْق دعواه ؛ وكذلك ما يروى أن مسـيلمة الكذاب لعنه الله تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من المـاء ، فما فعل الله سبحانه من هـذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثـل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة ، فان تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة ، فهى معجزة دالة على نبوّة من ظهـرت على يده ، فان أقام الله تعالى من يعارضـه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبياً ، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه ، ولهـذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُـوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . كأنه يقول : إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسـلم وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه ، فاذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين ، وهذا المسيخ الدجال فيما رويتم عن نبيكم صلّى الله عليه وسـلّم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ما هو معروف مشهور ؛ فإنا نقول : ذلك يدّعى الرسالة ، وهذا يدّعى الربوبيّة وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان ، وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدّجال فيه التصوير والتغيير من حال الى حال، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدَثات، تعالى ربّ البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هـذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأولى — ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . والثاني — ما تواترت الأخبـار بصحته وحصوله، واستفاضت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خَلقا كثيرا وجَمًّا غفيرا، وأن يكونوا عالمين بمـا نقلوه علمـا ضروريا، وأن يستـوى في النقل أولهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العـدد، حتى يستحيل عليهـم التواطؤ على الكذب؛ وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجود النبيّ عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خَلَفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبيّ عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلة المعجزات؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ، فنقَلَ القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقـله الينا بعـدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسـمعونه، لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضروريّ بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلّى الله عليه وسلّم، ومن ظهور القرآن على يديه وتحدّيه به؛ ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان : كالبصرة والشام والعراق وخُراسان والمدينة ومكة، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة؛ فالقرآن معجزة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم الباقية بعده الى يوم القيامة، ومعجزة كل نبيّ انقرضت بانقراضه، أو دخلها التبديل والتغيير، كالتوراة والإنجيل .

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شيء، وكذلك قال رب العزة الذى تولى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفى صحيح مسلم أن أُنيسا أخا أبى ذر قال لأبى ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر، كاهن، ساحر ؛ وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حٰمٓ » فُصِّلت ، على ما يأتى بيانه هنالك ؛ فاذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان فى هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك فى سورة « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » إلى آخرها، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ» إلى آخر السورة. قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره ؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : «لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ» ، ولا أن يقول : «وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية ؛ وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدى والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن ينضاف اليها أمر آخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سورة « الكوثر» ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين : أحدهما — الإخبار عن

الكوثر وعظمته وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدّقين به أكثر من اتباع سائر الرسل . والثانى — الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » ثم أهلك الله — سبحانه — ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدمت فى أوّل الدنيا الى وقت نزوله من أمىّ ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية فى دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدّوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذى القرنين، بجاءهم — وهو أمىّ من أمة أميّة، ليس لها بذلك علم — بما عرفوا من الكتب السالفة صحته، فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا مما لا سبيل اليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردّدا إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه ، عَلِم أنه لا يصل الى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس فى العَيان، فى كل ما وعد الله سبحانه، وينقسم : الى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . والى وعد مقيد بشرط، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ » « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ » ، وشبه ذلك .

ومنها : الإخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها إلا بالوحى، فمن ذلك : ما وعد الله نبيّه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ » الآية . ففعل ذلك ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنُّجْح ، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا، برا وبحرا، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وقال : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » . وقال : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » وقال : « الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ » فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها رب العالمين، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام ، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمىّ .

ومنها : التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النَّظّام وبعض القَدَرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصَّرْفَةُ عند التحدّى بمثله ؛ وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجِز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دلّ على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا . واختلف من قال بهذه الصرفة

على قولين : أحدهما — أنهم صُرِفوا عن القدرة عليه؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه . الثانى — أنهم صرِفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدِروا عليه .

قال ابن عطية : «وجه التحدّى فى القرآن إنمـا هو بنظمه وصحةِ معانيه ، وتوالى فصاحةِ ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء عِلما ، وأحاط بالكلام كله عِلما ؛ فعلم بإحاطتـه أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبيّن المعنى بعـد المعنى ، ثم كذلك من أوّل القـرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أنّ بَشرا لم يكن محيطا قطّ ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهـذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتهـا أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسـلم صُرِفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم ، يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيهـا جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نُزِعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد» .

ومن فصاحة القرآن أنّ الله تعالى جلّ ذكره ، ذكر فى آية واحدة أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » الآية . وكذلك فاتحة سورة المـائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليـلا عاما ، ثم آستثنى آستثناء بعـد آستثناء ، ثم أخبر عن حِكمته وقدرته ، وذلك ممـا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، وأنبأ سبحانه عن الموت ، وحسرةِ الفوت ، والدارِ الآخرة وثوابِها وعقابِها ، وفوز الفائزين ، وتردّى المجرمين ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَـا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأوّلين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، فى شطر آية وذلك فى قوله تعـالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

مَنْ أَغْرَقْنَا » . وأنبأ جلّ وعزّ عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة، وآستقرار السفينة وآستوائها، وتوجيه أوامر التسخير الى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ : «وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » إلى قوله : « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقوّله، أنزل الله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . فلما عجزوا حطّهم عن هـذا المقدار، إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جلّ ذكره : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » . فأُفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولاد، ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا، وأبلغ في الحجة وأشدّ تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن[1]، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن[2] .

فبلاغة القرآن أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان، بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتي من جوامع الكلم، وآختص به من غرائب الحكم، إذا تأملت قوله صلّى الله عليه وسلّم في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطا عن رتبة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام : "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » . وقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . هـذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأقل حروفا، على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية، لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف، وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى

(١) اللحن (بالتحريك) : الفطنة والفهم . (٢) اللسن بالتحريك : الفصاحة .

عليه السلام على السحرة ؛ فإن الله سبحانه إنمـا جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبيّ الذى أراد إظهاره ؛ فكان السـحر فى زمان موسى عليـه السلام قد انتهى الى غايته ؛ وكذلك الطب فى زمن عيسى عليـه السلام ، والفصاحة فى زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره

لا ٱلتفات لمـا وضعه الواضعون، وٱختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، فى فضـل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال؛ قد ٱرتكبها جمـاعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ارتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثـل : المغيرة بن سـعيد الكوفى، ومحمـد بن سـعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وغيرهما، وضعوا أحاديث وحدّثوا بها ليوقعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبيّ بعدى إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الاستثناء لمـا كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره ٱبن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه؛ بل تأوّل الاستثناء على الرؤيا؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لهوًى يدعون الناس إليه؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دين، فانظروا ممن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هَوِينا أمرا صيرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسبة كما زعموا، يدعون النـاس الى فضائل الأعمال، كما روى عن أبى عِصمة نوح بن أبى مريم المروزِىّ، ومحمد بن عكاشـة الكِرمانى، وأحمـد بن عبدالله الجُوَيبارى، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عِكرمة عن ابن عباس فى فضل سور القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت النـاس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومَغَازى محمد بن اسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

الصلاح فى كتاب (علوم الحـديث) له : وهكذا الحـديث الطويل الذى يروى عن أبىّ بن كعب عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى فضل القرآن سورة سورة؛ وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى الى من اعترف بأنه و جماعة وضعوه، و إنّ أثر الوضع عليه لبيّن. وقد أخطأ الواحدىّ المفسر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤال والمكدين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد؛ قال جعفر بن محمـد الطيالسى : صـلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فى مسجد الرّصافة، فقام بين أيديهما قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا أنبأنا عبـد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر منقاره من ذهب و ريشه مرجان ؛ وأخذ فى قصـة نحو من عشرين ورقة ؛ فجعل أحمـد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد ؛ فقال : أنت حدّثته بهذا؟ فقال : والله ماسمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه ، فقال له يحيى : من حدّثك بهـذا الحديث؟ فقال : أحمـد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا ابن معين، وهـذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهـذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعـلى غيرنا؛ فقال له : أنت يحيى بن معين؟ قال : نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وماعلمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هـذا . قال : فوضع أحمد كُمّه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما ؛ فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليـه وسلم، ومن يجرى مجراهم . يذكر أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللهو به؛ فأهدى إليه حمام وعنده أبو البَختَرِى (١)

(١) أبو البخترى، هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير . انتقل من المدينة الى بغداد فى خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدى (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرقى من بغـداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار الزبيرى وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها الى أن توفى سنة مائتين .

القاضى فقال : روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا سَبَق إلا فى خُفٍّ أو حافر أو جناح " فزاد : أو جناح، وهى لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سنية ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحمام أن يذبح؛ فقيل له : وماذنب الحمام؟ قال : من أجله كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك العلماء حديثه لذلك، وغيره من موضوعاته، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو اقتصر النـاس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غنية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : " اتقوا الحديث عنّى إلا ماعلمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار " الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيكذب عليه . فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين ، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا اليهم، فضلّوا وأضلّوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهـل السنة ، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذى جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم معجزة له — على نحو ماتقدّم — وأنه محفوظ فى الصدور ، مقروء بالألسنة ، مكتوب فى المصاحف ؛ معـلومة على الاضطرار سوره وآياته ، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحدّ، ولا فى حصره بعـدّ، فمن ادّعى زيادة عليه أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبهت الناس، وردّ ماجاء به الرسول صلى الله عليـه وسلم من القرآن المنّزل عليه، وردّ قوله تعالى : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » وأبطل آية رسوله

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليــه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيــه زيادة ونقصان رادّ لكتاب الله ولمـا جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوّج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان ، الى غير ذلك ممـا لم يثبت فى الدين ، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمــد بن القاسم بن بشار بن محمــد الأنبارى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلوّ منزلته، ما يوجبــه الحق والانصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بمـا يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، وينمى فرعها، ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور، ومكايد أهل العدواة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صــلى الله عليه وســلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن ، إذ كان قــد سقط منه خمسمائة حرف، قــد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها : «والعصر ونوائب الدهر» فقــد سقط من القرآن على جمـاعة المسلمين «ونوائب الدهر» ومنها : «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» ، فادعى هــذا الإنسان أنه سقط على أهل الإســلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها الا بذنوب أهلها » ، وذكر ممـا يدعى حروفا كثيرة .

وادعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، فقرأ فى صــلاة الفرض والنــاس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن «قل هو» وغير لفظ

«أحد» وادعى أن هــذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض : «قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون» وطعن فى قراءة المسلمين .

وادعى أن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة ، منها : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فادعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة، وان الصواب : «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» . وترامى به الغىّ فى هذا وأشكاله حتى ادّعى أن المسلمين يصحّفون : « وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً » والصواب الذى لم يغيّر عنده : « وكان عبدًا لله وجيها » ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرك به لسانك إن علينا جمعــه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به» ، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف علىّ وأنتم أذلة» ، و روى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : « هــذا صراط علىّ مستقيم» ، وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لســان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهــم : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » فقرأ : «أليس قلت للناس» فى موضــع : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهــذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت ، بالتاء فشاذ قبيح خبيث ردىء؛ لأن ليس لا تجحد الفعل المــاضى، ولم يوجد مثــل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم، وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وادعى أن عثمان رضى الله عنه لمــا أســند جمع القرآن الى زيد بن ثابت لم يُصب لأن عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب كانا أوْلى بذلك من زيد لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " أقرأ أمتى أبىّ بن كعب " ولقوله عليه الســلام : " من سره أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبــد" . وقال هــذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء ، فقرأ : « إنّ هذين » ، « فأصدق وأكون » ، «وبشر عبادىَ الذين » بفتح الياء ، « فما أتانىَ الله » بفتح الياء . والذى فى المصحف : « إِنَّ هَــذَانِ » بالألف،

« فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ » بغير واو ، « فَبَشِّرْ عِبَادِ » ، « فَمَا آتَانِ اللَّهُ » بغير ياءين فى الموضـعين . وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » بإثبات نونين (١) ، يفتح الثانية بعضهم و يسكنها بعضهم ، وفى المصحف نون واحدة ؛ وكما خالف حمـزة المصحف فقرأ : « أتمدونِ بمال » بنونـــ واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : «ألا إن ثمودَا كفروا ربهم » بغير تنوين ، وإثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هــذا الذى شنّع به على القراء ما يلزمهم به خلافٌ للصحف .

قلت : قد أشرنا الى العــدّ فيما تقدّم ممــا اختلف فيه المصاحف ، وسيأتى بيان هــذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أبيّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبــد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ابن عباس ، وابن عباس قرأ القرآن على أبيّ بن كعب « حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » ، فى رواية وقرأ أبيّ القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ وهذا الإسناد متصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العــدالة والصّيانة ، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه ؛ وقال يحيى بن المبــارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العــلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهــد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أبيّ بن كعب ، وقرأ أبيّ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وليس فيها «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدّثنى أبى نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يُرْوَى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليــه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيــه عن أبيّ : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ؛ وعن ابن عباس «ليس

(١) يلاحظ أن الذى فى المصحف نونان .

عليكم جناح أن تبتغوا فضــلا من ربكم في مواسم الحج»؛ ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصــلاة بها تحل، ولا على أنها معارض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا، والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا، حكمه حكم المرتد يستتاب؛ فان تاب و إلا ضربت عنقه. وقال أبو عبيد : لم يزل صنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزَّيغ فانكشف عواره ، ووضحت فضائحه ؛ قال أبو عبيد : وقد حدثت عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبى مِجْلَز قال : طعن قوم على عثمان رحمــه الله — بحمقهم — جمع القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ. قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز الى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر وفى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الانسان؛ لأن الله عزّ وجلّ قــد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان؛ فاذا قرأ قارئ : «تبت يدى أبى لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُرَيَّته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف» فقد كذب على الله جلّ وعلا وقوّله مالم يقل، وبدّل كتابه وحرّفه ، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من آختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، لُيدخلوا فى القرآن ما يحلّون به عُرا الإسلام، ويَنْسُبونه الى قوم كهؤلاء القوم الذين أحال هذا بالأباطيل عليهم ؛ وفيــه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإســلام ، وبثباته تقام الصلوات ، وتؤدّى الزكوات وتُتحرّى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : « الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى «أحكمت آياته» : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعليّ وكان الله قويا عزيزا . فقال فى القرآن هُجراً ، وذكر عليّا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

«قل هو» وغير «أحد» فقرأ : الله الواحد الصمد . وإسقاط ما أسقطه نفى له وكفر، ومن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّا عليهم : « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » ففى «هو» دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب؛ فاذا سقط بطل معنى الآية، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ويقال لهذا الإنسان ومن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى تقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَنْ كان قبلنا من أسلافنا سواه؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله الى آخره، صحيح الألفاظ والمعانى عار من الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدمين من أهل ملتنا؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شيء، صحيح اللفظ والمعانى، سليمها من كل زلل وخلل؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه «فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلِين من عين تجرى من تحت الجحيم» فأى زيادة فى القرآن أوضح من هذه، وكيف يخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مفتر ومبطل من أن يلحق به مثلها ، وإذا تُؤُمِّلتْ وبُحث عن معناها وُجدت فاسدة غير صحيحة، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تختلط به، ولا توافق معناه، وذلك أن بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» فكيف يؤكل الشراب، والذى أتى به قبلها ، «فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلامن غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلاالخاطئون» فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا؛ لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب : أكلت الماء؛ لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى من خالف حرفا منه كفر : « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أفواههم من الشحم وما يتعلق به من الصديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البلية والنقمة ، والشراب محال أن

يؤكل؛ فإن ادّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هـذه الآية من القرآن لِتَصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن . وحسبك بهذا كله ردّا لقوله، وخزيا لمقاله . وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرآن يتلى، وكذلك ما نسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » إن شاء الله تعالى .

القول فى الاستعاذة

وفيها اثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ » أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضى موقع المستقبل كما قال الشاعر :

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ واستئناف ما كان فى غدِ

أراد ما يكون فى غد؛ وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت، كما قال تعالى: « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله : « ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ » وهو كثير .

الثانيــة — هـذا الأمر على الندب فى قول الجمهور، وحكى النقاش عن عطاء : أن الاستعاذة واجبة فى صدور كل قراءة فى غير الصلاة، واختلفوا فيـه فى الصلاة، وكان ابن سيرين والنّخَعِىّ وقوم يتعوّذون فى الصلاة فى كل ركعة، ويمتثلون أمر الله فى الاستعاذة على العموم؛ وأبو حنيفة والشافعىّ يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان .

الثالثــة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ وهذا اللفظ هو الذى عليـه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه

لفظ كتاب الله تعالى . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ فقال لى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "يا بن أم عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنى جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم" .

الرابعـــة — روى أبو داود وابن ماجه فى سننهما عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة فقال عمرو[(١)] : لا أدرى أى صلاة هى؟ فقال : "الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا الحمدلله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان من نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه". قال عمرو : هَمْزه المُوتَة، ونَفْثه الشِّعر، ونفخه الكِبْر . وقال ابن ماجه : المُوتَة يعنى الجنون . والنَّفْث : نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه . والكِبر : التِّيهُ . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل كبّر ثم يقول : "سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك — ثم يقول : — لا إله إلا الله — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه"؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن[(٢)] القاسم رحمه الله أن الاستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطية : «وأما المقرئون فأكثروا فى هـذا من تبديل الصفة فى اسم الله تعالى وفى الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد؛ ونحو هـذا مما لا أقول فيه : نِعمت البدعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز» .

الخامســـة — قال المهدوىّ : أجمع القرّاء على إظهار الاستعاذة فى أوّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فانه أسرّها . وروى السدىّ[(٣)] عن أهل المدينـة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السمرقندىّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض ، وإذا نسيه

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (أنظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود ج ١ ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) فى بعض النسخ : «أبى القاسم» . (٣) فى بعض النسخ : «المسيبى» .

القارئ وذكره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم ابتـدأ من أوله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع الى موضعه الذى وقف فيه؛ و بالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق؛ و بالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

السادســـة — حكى الزهراوىّ قال : نزلت الآية فى الصلاة ونُدبنا إلى الاستعاذة فى غير الصــلاة وليس بفرض ؛ قال غيره : كانت فرضا على النبىّ صلى الله عليه وسـلم وحده ، ثم تأسّـــينا به .

السابعـــة — رُوِى عن أبى هريرة أن الاســتعاذة بعد القراءة ؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربىّ : «انتهى العِىّ بقوم إلى أن قالوا : إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم » . وقد روى أبو سعيد الخدرى أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة ، وهذا نص . فإن قيل : فما الفائدة فى الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتهـا امتثال الأمر ؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها بامتثالها أمرًا أو اجتنابها نهيًا ؛ وقد قيل : فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة ؛ كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » . قال ابن العربى : ومن أغرب ما وجدناه قول مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة ، وهذا قول لم يرد به أثر ، ولا يَعضُده نظر ؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة ، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة ، ولا يشبه أصل مالك ولا فهمه ؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية » .

الثـامنـــة — فى فضل التعوّذ . روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال : استبّ رجلان عند النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم فجعل أحدُهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه ؛ فنظر اليه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام الى الرجل رجل ممن سمع النبىّ صلّى الله عليــه وسلّم فقال : هل تدرى ماقال

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنفا ؟ قال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أمجنونا ترانى ! أخرجه البخارى أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى يلبّسها علىّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خَنْزَب (١) فاذا أحسستَه فتعوّذ بالله منـه وآتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عنى . وروى أبو داود عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اذا سافر فأقبل عليـه الليل قال : " يا أرضُ ربّى وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما خلق فيك ومن شر ما يَدِب عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكنى البلد ووالد وما ولد " . وروت خَوْلة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليـه وسلم يقول : " من نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمـات الله التّامات من شر ما خلق لم يضرّه شىء حتى يرتحل " . أخرجه الموطّأ ومسـلم والترمذىّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يتعوّذ منه كثير ثابت فى الأخبار، والله المستعان .

التاســعة — معنى الاستعاذة فى كلام العرب : الاستجارة والتّحيز الى الشىء، على معنى الامتناع به من المكروه؛ يقال : عُذت بفلان واستعذت به، أى لجأت اليه ؛ وهو عياذى، أى ملجئى . وأعذت غيرى به وعوّذته بمعنًى . ويقال : عَوْذٌ بالله منك، أى أعوذ بالله منك؛ قال الراجز .

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْرُ * عَـــوذٌ بربّى مِنكُمُ وحُجْرُ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (٢) : حُجْرًا له (بالضم) أى دفعا ، وهو اسـتعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى . وأصل أعوذ : أعْوُذ نقلت الضمة الى العين لا ستثقالها على الواو فسكنت .

---

(١) قوله : يقـال له خنزب . فى نهـاية ابن الأثير : « قال أبو عمرو : وهو لقب له ، والخنزب (بالفتح) : قطعة لحم منتنة ويروى بالكسر والضم » .

(٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (حجر) .

العـاشرة — الشيطان واحد الشياطين على التكسير والنون أصلية ، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير ، وشطنت داره أى بعدت ؛ قال الشاعر[(١)] :

نأتْ بسعادَ عنك نوًى شَطُونُ * فبانتْ والفؤادُ بها رهينُ

وبئر شَطُون أى بعيدة القعر . والشَّطَن : الحبل ، سمى به لبعد طرفيه وامتداده . ووصف أعرابى فرسا [لا يَحْفَى][(٢)] فقال : كأنه شيطان فى أشْطان . وسمى الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرده ، وذلك أن كل عاتٍ متمرِّد من الجنّ والإنس والدواب شيطان ؛ قال جرير :

أيامَ يدعونَنى الشيطانَ من غَزَلِى * وهُنَّ يَهْوَيْنَنى إذ كنتُ شيطانَا

وقيل : إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك[(٣)] ، فالنون زائدة . وشاط اذا احترق . وشيّطت اللحم إذا دخنته ولم تنضجه . واشتاط الرجل إذا احتدّ غضبا . وناقة مِشياط التى يطير فيها السِّمَن . واشتاط إذا هلك ؛ قال الأعشى :

قد نَخضِب العَيْرَ من مكنون فائله[(٤)] * وقد يَشِيط على أرماحنا البَطَلُ

أى يهلك . و يردّ على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تَشَيْطن فلان اذا فعل أفعال الشياطين ، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن ، ولو كان من شاط لقالوا : تشيّط ، و يردّ عليهم أيضا بيت أمية بن أبى الصَّلْت :

أيمَّا شاطنٍ عَصَاه عَكاه[(٥)] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه .

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعد من الخير المهان . وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، وقد رجمته أرجمه ، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم ، وقد قيل هذا كله فى قوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » . وقول أبى ابراهيم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

(١) هو النابغة الذبيانى كما فى لسان العرب مادّة (شطن) . (٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (شطن) .
(٣) فى الأصول : « إذا بطل » ، والتصويب عن اللسان . (٤) الفائل : عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك ينحدر فى الرجلين . (٥) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شدّه .

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبي وائل عن عبـد الله قال قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : رأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند الصّفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذي تلعنه يا رسول الله؟ قال : "هذا الشيطان الرجيم" فقلت : ياعدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمة منك؛ قال : ما هذا جزائي منك؛ قلت : وما جزاؤك مني ياعدوّ الله؟ قال : والله ما أبغضَك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه في رَحِم أمّه .

البســـملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء: بسم الله الرحمن الرحيم، قسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هـذا الذي وضعت لكم ياعبادي في هـذه السورة حق، وإني أفِي لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبرّي . و « بسم الله الرحمن الرحيم » ممـا أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعد سليمان عليـه السلام . وقال بعض العلماء : إنّ بسم الله الرحمن الرحيم تضمنت جميع الشرع، لأنهـا تدل على الذات وعلى الصفات، وهذا صحيح .

الثانيـــة — قال سعيد بن أبي سكينة : بلغني أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه نظر الى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفــر له . قال سعيد : وبلغني أن رجلا نظر إلى قرطاس فيـه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هـذا المعنى قصة بِشْرِ الحافِي، فإنه لمـا رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها طُيّب اسمه (١) ، ذكره القشيري . وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسـول الله

(١) نص القصـة كما في وفيات الأعيان والرسالة القشـيرية : « ... وسبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوبا فيها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غالية فطيب بها الورقة وجعلها في شق حائط ، فرأى في النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر ، طيبت اسمي لأطيبنك في الدنيا والآخرة . فلما انتبه من نومه تاب .

صلى الله عليــه وسلم قال : إن رســول الله صلى الله عليــه وسلم قال : "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فانه يتعاظم حتى يصــير مثل البيت و يقول بقوّتى صــنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب" . وقال علىّ بن الحسين فى تفسير قوله تعــالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن عبــد الله ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنّــة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهــل النار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون فى كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنــا لك هى قوتهم، و ببسم الله استضلعوا . قال ابن عطية : ونظير هــذا قولهم فى ليلة القدر : إنهــا ليلة سبع وعشرين مراعاة للفظة « هى » من كلمات سورة « إنا أنزلناه » . ونظيره أيضا قولهم فى عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل : ربّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبا مباركا فيه، فإنها بضعة وثلاثون حرفا؛ فلذلك قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم: "لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول" . قال ابن عطية : وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثــة — روى الشعبي والأعمش أن رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم كان يكتب « باسمك اللهــم » حتى أمر أن يكتب « بسم الله » فكتبها؛ فلمــا نزلت : « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلمــا نزلت : « إِنَّهُ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ » كتبها . وفى مصنف أبى داود قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة «النمل» .

الرابعــة — روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السور .

قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها . وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول مالك .

(الثـانى) أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعي : هى آية فى الفاتحة؛ وتردّد قوله فى سائر السور؛ فمـرّة قال : هى آية من كل ســورة، ومرّة قال : ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل .

واحتج الشافعي بمـا رواه الدارقطني من حديث أبى بكر الحنفى عن عبد الحميد[1] بن جعفر عن نوح بن أبى بلال عن سـعيد بن أبى سـعيد المقبُرىّ عن أبى هريرة عن النبيّ صـلّى الله عليه وسلّم قال : " إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها " . رفع هذا الحديث عبد الحميد ابن جعفر، وعبد الحميد هذا وثّقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين؛ وأبو حاتم يقول فيــه : محله الصدق؛ وكان سفيان الثورىّ يضعفه ويحمل عليــه . ونوح بن أبى بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبـارك وأحد قولى الشافعي ما رواه مســلم عن أنس قال : بينـا رسول الله صلى الله عليــه وسلم ذات يوم بيـن أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأســه متبسما ؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : " نزلت علىّ آنفا ســورة " فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» . وذكر الحديث، وسيأتى بكماله فى سورة الكوثر إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — الصحيح من هــذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القــرآن لا يثبت بأخبار الاحاد وإنمـا طريقه التواتر القطعى الذى لا يختلف فيه . قال ابن العربى : « ويكفيك أنها

(١) ورد سند هذا الحديث مضطربا فى الأصول والتصويب عن سنن الدارقطنى وتهذيب التهذيب . وعبد الحميد بن جعفر هــذا ، يكنى أبا الفضل ، ويقال : أبو حفص ، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفى . راجع تهذيب التهــذيب .

ليست من القرآن اختــلاف الناس فيهــا ، والقرآن لا يختلف فيه » . والأخبــار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها. روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : ” قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد الحمــد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي وإذا قال العبــد الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى عليّ عبدي وإذا قال العبد مالك يوم الدين قال مجّدني عبدي — وقال مرة فوّض إلى عبدي — فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل“ . فقوله سبحانه : قسمت الصــلاة ؛ يريد الفاتحة ، وسماها صــلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها ؛ فجعل الثلاث الايات الأول لنفسه ، واختص بها تبارك اسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده ؛ لأنها تضمنت تذلل العبد وطلب الاستعانة منــه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى ، ثم ثلاث آيات تتمة ســبع آيات . وممــا يدل على أنها ثلاث قوله : ” هؤلاء لعبدي“ أخرجه مالك ؛ ولم يقل : هاتان ؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال ابن بكير قال مالك : « أنعمت عليهم » آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التي قسمها الله تعــالى وبقوله عليــه السلام لأبيّ : ”كيف تقرأ إذا افتتحت الصــلاة“ قال : فقرأت « الحمــد لله رب العالمين » حتى أتيت على آخرها أنّ البسملة ليست بآية منها ، وكذا عدّ أهل المدينــة وأهل الشام وأهل البصرة ؛ وأكثر القرّاء عدّوا «أنعمت عليهم» آية ، وكذا روى قتادة عن أبي نضرة عن أبي هريرة قال : الآية السادســة « انعمت عليهم » . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهم عدّوا فيهــا « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدّوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل : فانها ثبتت في المصحف وهي مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت في النمل ، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكرتموه صحيح ؛ ولكن لكونها قرآنا ، أو لكونها فاصلة بين السور

ــ كما روى عن الصحابة : كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود ــ أو تبركا بها ، كما قد اتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقـد قال الجريرى (١) : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل «بسم الله الرحمن الرحيم» فى شىء من القرآن إلا فى طس « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » . والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعى الاضطرارى . ثم قد اضطرب قول الشافعى فيها فى أوّل كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ، والحمد لله .

فان قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها ، وقـد تولى الدار قطنى جمع ذلك فى جزء صححه . قلنـا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقـد أشرنا اليها ، ولنـا أخبار ثابتة فى مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الاثبات . روت عائشـة فى صحيح مسلم قالت : كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، الحديث . وسيأتى بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ؛ لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لا فى أوّل قراءة ولا فى آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجّح فى ذلك بوجه عظيم ، وهو المعقول ؛ وذلك أن مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه العصور ، ومرّت عليه الأزمنة والدهور ، من لَدُن رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيــه قطّ « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسنة ، وهذا يردّ أحاديثكم .

بَيْدَ أن أصحابنا استحبوا قراءتها فى النفـل ؛ وعليه تحمـل الآثار الواردة فى قراءتها أو على السعة فى ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأبها فى النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضا .

---

(١) الجريرى (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) : وهو سعيد بن إياس الجريرى أبو مسعود البصرى .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلى فى المكتوبة ولا فى غيرها سرا ولا جهرا؛ ويجوز أن يقرأها فى النوافل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وعنه رواية أخرى أنها تقرأ أول السورة فى النوافل ، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنه ابن نافع ابتداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من «بسم الله الرحمن الرحيم» منهم ابن عمر، وابن شهاب ؛ وبه قال الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهذا يدل على أن المسألة مسئلة اجتهادية لا قطعية ، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء الى الإسرار بها مع الفاتحة منهم : أبو حنيفة والثورى؛ وروى ذلك عن عمر وعلىّ وابن مسعود وعمار وابن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد؛ وبه قال أحمد ابن حنبل وأبو عبيد ؛ وروى عن الأوزاعىّ مثل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبد البرّ فى (الاستذكار) . واحتجوا من الأثر فى ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رزيق (1) عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صليت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف فى قراءة البسملة . وقد روى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون المسجد؛ فاذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بسم الله الرحيم الرحيم» قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مسيلمة — فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل : «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا» . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك الى يومنا هذا على

(1) كذا فى تهذيب التهذيب . ورزيق بتقديم الراء على الزاى مصغرا . وفى الأصول : «عمار عن رزيق وهو خطأ» .

ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقي الرَّمَل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادسة — اتفقت الأمة على جواز كتبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فان كان الكتاب ديوان شعر فروى مجالد عن الشعبي قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وقال الزهري : مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم» . وذهب الى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذى نختاره ونستحبه .

السابعة — قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله : مبسمل، وهي لغة مولدة، وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقد بَسْملتْ ليلَى غداةَ لقيتُها * فيا حَبّذا ذاك الحبيبُ المبسمِلُ

قلت : المشهور عن أهل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السِّكيت والمُطَرِّز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، اذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسملة، أي من قول بسم الله . ومثله حَوْقَل الرجل اذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله . وهَلَّلَ، اذا قال : لا إله إلا الله . وسَبْحَل، إذا قال : سبحان الله . وحَمْدَل، إذا قال : الحمد لله . وحَيْصَل، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجَعْفَل، إذا قال : جعلت فداك . وطَبْقَل، إذ قال : أطال الله بقاءك . ودَمْعَز، إذا قال : أدام الله عزك . وحَيْفَل، إذا قال : حيّ على الفلاح . ولم يذكر المطرز : الحَيْصَلة، إذا قال : حيّ على الصلاة . وجعفل، اذا قال : جعلت فداك، وطبقل، إذا قال : أطال الله بقاك . ودمعز، اذا قال : أدام الله عزك .

الثامنة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كل فعل، كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » . « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : "أغلق بابك وآذكر آسم الله وأطفئ مصباحك وآذكر آسم الله وخمّر[1] إناءك وآذكر آسم الله وأَوْكِ سـقاءك واذكر اسم الله" . وقال : "لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا" . وقال لعمر بن أبى سلمة : "ياغلام سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكل مما يَليك" وقال : "إنّ الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكراسم الله عليـه" وقال : "من لم يذبح فليذبح باسم الله" . وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجعا يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر". هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى ابن ماجه والترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ستر ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الكنيف أن يقول بسم الله" . وروى الدرقطنى عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سمى الله تعالى، ثم يفرغ المـاء على يديه .

التاسـعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَـدَرِيَّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى بسم الله، أى بالله . ومعنى بالله، أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليـه . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله بسم الله، يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته ؛ وهذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جلّ وعزّ .

العـاشرة — ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن « اسم » صـلة زائدة، واستشهد بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ✻ ومن يَبْكِ حولا كاملا فقد اعتذر

(١) التخمير: التغطية . والوكاء : الخيط الذى تشد به الصرة والكيس وغيرهما . أى شدوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء .

فذكر اسم زيادة، وإنمـا أراد ثم السلام عليكما .

وقد آستدل علماؤنا بقول لبيد هـذا على أن الأسم هو المسمى . وسيأتى الكلام فيـه فى هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — اختلف فى معنى زيادة « اسم » ؛ فقـال قُطْرُب : زيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصـد التبرك؛ لأن أصل الكلام بالله .

الثـانية عشرة — اختلفوا أيضا فى معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير: ابدأ بسم الله، أو على معنى الخبر؟ والتقدير: ابتدأت بسم الله، قولان : الأول للفراء، والثانى للزجاج . فبسم فى موضع نصب على التأويلين . وقيـل : المعنى ابتـدائى بسم الله ؛ فبسم الله فى موضع رفع خبر الابتداء . وقيـل : الخبر محذوف، أى ابتدائى مستقر أو ثابت بسم الله؛ فاذا أظهرته كان بسم الله فى موضـع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل : « فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْـدَهُ قَالَ هَـٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » فعنـده فى موضع نصب؛ روى هذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل : التقدير ابتدائى ببسم الله موجود أو ثابت، فبسم فى موضع نصب بالمصدر الذى هو ابتدائى .

الثالثة عشرة — بسم الله ، تكتب بغير ألف استغناء عنها بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الاستعمال؛ بخلاف قوله : «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» فانها لم تحذف لقلة الاستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش: تحذف الألف . وقال يحيى ابن ثابت : لا تحذف إلا مع بسم الله فقط، لأن الاستعمال إنما كثر فيه .

الرابعـة عشرة — واختلف فى تخصيص باء الجـر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيـل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمـا كانت البـاء لا تدخل إلا على الأسمـاء خصت بالخفض

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثـالث : ليفرق بينها و بين ما قد يكون من الحروف اسما ، نحو الكاف فى قول الشاعر[١] :

* ورُحْنَا بِكَابنِ المـاءِ يُجْنَبُ وسْـطَنا *

أى بمثل ابن المـاء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — اسمٌ، وزنه اِفْعٌ، والذاهب منه الواو، لأنه من سَمَوْت و جمعه أسماء وتصغيره سُمَىّ . واختلف فى تقدير أصـله ، فقيل : فِعْل، وقيل : فُعْل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهـذا الوزن، وهو مثل جِذع وأجذاع ، وقفل وأقفال، وهـذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيه أربع لغـات : اِسم بالكسر ، وأُسم بالضم، قال احمد بن يحيى : من ضم الألف أخذه من سموت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقال : سِمٌ وسُمٌ، و يُنْشَد :

واللهُ أسمـاكَ سُمًـا مباركـا * آثـــركَ الله بـــه إيثاركـا

وقال آخر :

وعامُنـا أعجبَنـا مقـــدّمه * يُدْعَى أبا السَّمْح وقِرْضَابٌ سُمُهْ

* مُبْتَرِكًا[٢] لكل عظم يَلْحُمُهْ *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا فهو قرضاب . سُمه بالضم والكسر جميعا . ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورة سُمه *

وسكنت السين من بسم اعتلالًا[٣] على غير قياس، وألفه ألف وصـل ، و ربما جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة، كقول الأحوص :

وما أنا بالمَخْسُوس فى جِذم مالكٍ * ولا مَن تَسمَّى ثم يلتزم الإسمـا[٤]

(١) هو امرؤ القيس . وتمام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتمد على الشىء مُلِحّ . و يلحمه : ينزع عنه اللحم . (٣) كان الأصل اسم نقلت حركة الهمزة الى السين ثم حذفت الهمزة ولمـا وصلت البـاء به سكنت السين تخفيفا . (٤) المخسوس : المرذول . وجذم كل شىء : أصله . ومالك : جدّ أعلى للشاعر .

السادسة عشرة — تقول العرب في النسب الى الاسم : سِمَوِيّ، وإن شئت : اسْمِيّ، تركته على حاله، وجمعه أسماء، وجمع الأسماء أسامٍ. وحكى الفرّاء : أعيذك بأسماوات الله.

السابعة عشرة — اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون : هو مشتق من السُّمُوّ وهو العلو والرفعة، فقيل : اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به. وقيل : لأن الاسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره. وقيل : إنما سمي الاسم اسما لأنه علا بقوّته على قسمي الكلام : الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالاجماع لأنه الأصل؛ فلعلوه عليهما سمّي اسما؛ فهذه ثلاثة أقوال.

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهي العلامة لأن الاسم علامة لمن وضع له؛ فأصل اسم على هذا «وسم». والأوّل أصح لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام. ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة — فان من قال الاسم مشتق من العلوّ يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السنة. ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فاذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم في الخطإ من قولهم : إن كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام في الاسم والمسمى وهي :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطيب — إلى أن الاسم هو المسمى، وارتضاه ابن فُوْرَك؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه. فاذا قال قائل : الله عالم، فقوله دال على الذات الموصوفة بكونه عالما، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه وكذلك إذا قال : الله خالق، فالخالق هو الرب، وهو بعينه الاسم. فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل.

قال ابن الحصار : من ينفى الصفات من المبتـدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الاسم غير المسمى ، ومن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هى أوصاف الذات وهى غير العبارات وهى الأسماء عندهم . وسـيأتى لهذه مزيد بيان فى «البقرة والأعراف» إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : «الله» هـذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره؛ ولذلك لم يُثَنَّ ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلى قوله تعالى « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى من تسمّى باسمـه الذى هو « الله » . فالله اسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلهيـة ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيق ، لا إله الا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَم؟ . فذهب إلى الأوّل كثير من أهل العلم . واختلفوا فى اشتقاقه وأصله؛ فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه، مثل فِعَال فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاهِ ابنُ عمِّكَ لا أفضلتَ فى حَسَبٍ * عنّى ولا أنت ديّانِى فتخـــزونِى

كذا الرواية : فتخزونى، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفرّاء : معنى بسم الله ، بسم الاله ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشدّدة؛ كما قال عزّ وجلّ : «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى» ومعناه : لكن أنا؛ كذلك قرأها الحسن . ثم قيـل : هو مشتق من «وَلَه» إذا تحيّر؛ والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل واله وآمرأة والهة وواله ، وماء مولَّه[1] : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تتحير

(١) قوله : ماء موله . هو بضم الميم وتخفيف اللام، وتشدد وتفتح الواو .

الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هـذا أصل « إلاه » « وِلاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، و إسادة ووسادة؛وروى عن الخليل . وروى عن الضحاك أنه قال : إنما سمى «الله» إلها، لأن الخلق يتألّهون إليه فى حوائجهم، و يتضرعون اليه عند شدائدهم . وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألهون اليه (بنصب اللام) و يألهون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيـل : إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهًا، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت . وقيـل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبد . وتأله إذا تنسك . ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ » على هذه القراءة؛ فان ابن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فاسم الله مشتق من هـذا ، فالله سـبحانه معناه المقصود بالعبادة ، ومنـه قول الموحدين : لا إله الا الله ، معناه لا معبـود غير الله . و إلا فى الكلمـة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيـه « الهاء » التى هى الكناية عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجودا فى فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام المِلك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار « له » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثانى : ذهب إليـه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعىّ وأبو المعالى والخطابى والغزالى والمفضـل وغيرهم . وروى عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بنية هـذا الاسم ، ولم يدخلا للتعريف دخول حرف النداء عليـه ، كقولك : يا ألله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف؛ ألا ترى أنك لا تقـول : يا ٱلرحمن ولا يا ٱلرحيم، كما تقـول : يا ألله، فدل على أنهما من بنية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — واختلفوا أيضا فى اشتقاق اسم الرحمن؛ فقال بعضهم: لاٱشتقاق له، لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لاتّصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رحمن بعباده ، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

لم تنكره العرب حين سمعوه ، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم ؛ وقد قال الله عزّ وجلّ : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ » الآية . ولما كتب علىّ رضى الله عنه فى صلح الحُدَيْبِيَة بأمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال سهيل بن عمرو : أما بسم الله الرحمن الرحيم ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللهم ، الحديث . قال ابن العربى : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف، واستدل على ذلك بقوله : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومن الرحمن؟ قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الاية الأخرى : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » . وذهب الجمهور من الناس الى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها ، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع .

قال ابن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خرّجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته " . وهذا نص فى الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر ابن الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له : أن الرحمن اسم عبرانىّ فجاء معه بالرحيم . وأُنشد :

لن تُدرِكوا المجدَ أو تَشْروا عباءَكُمُ * بالخَـزِّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا
أو تتركون الى القَسَّيْنِ هِجْـرَتَكم * ومَسْحَكم صُـلْبَهم رَحمانَ قُربانا

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربىّ والرحمن عبرانىّ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للمدح كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مطرّف عن قتادة فى قول الله عزّ وجلّ : بسم الله الرحمن الرحيم قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق : وهـذا قول حسن . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق :

وهذا قول حسن، وفى التوكيد أعظم الفائدة ، وهو كثير فى كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد، والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضُّل بعد تفضّل، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين، ووعد لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقيل : هما بمعنى واحد كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع الا على مبالغة الفعل، نحو قولك : رجل غضبان ، للممتلئ غضبا . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عَمَلَّس[1] :

فأما إذا عضّت بك الحرب عضّةً * فإنك معطوف عليك رَحيمُ

فالرحمن خاص الاسم عام الفعل . والرحيم عام الاسم خاص الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علىّ الفارسىّ : الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة، يختص به الله، والرحيم إنما هو فى جهة المؤمنين، كما قال تعالى : « وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » . وقال العرزمىّ[2] : الرحمن بجميع خلقه فى الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة ، والرحيم بالمؤمنين فى الهداية لهم، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسئل غضب . وروى ابن ماجه فى سننه والترمذىّ فى جامعه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " من لم يسأل الله يغضب عليه " لفظ الترمذىّ . وقال ابن ماجه : "من لم يدع الله سبحانه غضب عليه " وقال : سألت أبا زرعة عن أبى صالح هذا ، فقال : هو الذى يقال له : الفارسىّ وهو خوزىّ[3] ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

الله يغضب إن تركت سؤاله * وبُنَىّ آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أى أكثر رحمة .

---

(١) هو عملس بن عقيل كما فى هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم . (٢) هو عبد الملك ابن أبى سليمان العرزمى كما فى الخلاصة . (٣) نسبة الى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة .

قال الخطابيّ : وهذا مشكل ، لأن الرقة لا مدخل لهـا فى شىء من صفات الله تعالى . وقال الحسين بن الفضل البجلى : هذا وَهَم من الراوى ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شىء ، وإنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عزّ وجلّ ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف" .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن الرحمن مختص بالله عزّ وجلّ ، لا يجوز أن يسمى به غيره ، ألا تراه قال : « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ » فعادل الاسم الذى لا يشركه فيه غيره . وقال : « وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ » فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ . وقد تجاسر مسيلمة الكذاب — لعنه الله — فتسمى برحمان اليمامة ، ولم يتسمّ به حتى قرع مسامعه نعت الكذاب فألزمه الله تعالى لذلك ، وإن كان كل كافر كاذبا ؛ فقد صار هذا الوصف لمسيلمة علمًا يعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى اسمه الرحمن : إنه اسم الله الأعظم ؛ ذكره ابن العربيّ .

السادسة والعشرون — الرحيم صفة مطلقة للخلوقين ، ولما فى الرحمن من العموم قدّم فى كلامنا على الرحيم مع موافقة التنزيل ، قاله المهدوى . وقيل : إن معنى الرحيم أى بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن ، فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته تعالى بذلك فقال : « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن وبالرحيم ، أى وبمحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إلىّ ، أى باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى ، والله أعلم .

السابعة والعشرون — روى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال فى قوله بسم الله : إنه شفاء من كل داء ، وعون على كل دواء . وأما الرحمن ، فهو عون لكل من آمن به ، وهو اسم لم يسم به غيره . وأما الرحيم ، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسره بعضهم على الحروف ، فروى عن عثمان بن عفان أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم فقال : " أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البر والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة" . وروى عن كعب الأحبار أنه قال : " الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شيء قدير فلا شيء يعازّه" . وقد قيل : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه ؛ فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح اسمه سميع ، والميم مفتاح اسمه مليك ، والألف مفتاح اسمه الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف ، والهاء مفتاح اسمه هادى ، والراء مفتاح اسمه رازق ، والحاء مفتاح اسمه حليم ، والنون مفتاح اسمه نور؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون — واختلف فى وصل الرحيم بالحمد لله؛ فروى عن أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، الرحيم الحمد يسكن الميم ويقف عليها ، ويبتدئ بألف مقطوعة ؛ وقرأ به قوم من الكوفيين ، وقرأ جمهور الناس : الرحيم الحمد ، تعرب الرحيم بالخفض وتوصل الألف من الحمد . وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيم الحمد ، بفتح الميم وصلة الألف كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال ابن عطية : ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظير يحيى بن زياد فى قوله تعالى : «الٓمٓ ٱللَّهُ» .

تفسير سورة الفاتحة

"بحـول الله وكرمه"

وفيهـا أربعـــة أبـــواب :

البـاب الأوّل — فى فضائلها وأسمائها ، وفيه سبع مسائل

الأولى — روى الترمذيّ عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثـانى وهى مقسومة بينى وبين عبدى ولعبـدى ما سأل" . أخرج مالك عن العلاء بن عبـد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سـعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم نادى أُبَىّ بن كعب وهو يصلى ؛ فذكر الحـديث . قال ابن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على اسم وهو معدود فى أهل المدينة ، روايته عن أبى هريرة وحديثه هـذا مرسل ؛ وقـد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضا ؛ رواه عنه حفص بن عاصم ، وعبيد بن حُنين .

قلت : كذا قال فى التمهيد : لا يوقف له على اسم . وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف فى اسمه . والحـديث خرّجه البخارى عن أبى سـعيد بن المعلّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، فقلت : يا رسول الله إنى كنت أصلى ؛ فقال : "ألم يقل الله ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾" — ثم قال : — "إنّى لأعلمنّك سـورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد" ثم أخذ بيدى ، فلمـا أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنّك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : "الحمد لله ربّ العالمين هى السبع المثـانى والقرآن العظيم الذى أوتيته" . قال ابن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلى

من جلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخاري، واسمه رافع، ويقال : الحارث بن نفيع بن المعلى، ويقال : أوس بن المعلى، ويقال : أبو سعيد بن أوس بن المعلى ؛ تُوفّى سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [سنة] (١) ، وهو أوّل من صلى الى القبلة حين حُوّلت ، وسيأتى . وقد أسند حديث أبي يزيد بن زريع قال : حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : خرج رسـول الله صلى الله عليه وسلم على أُبىّ وهو يصلى ؛ فذكر الحديث بمعناه .

وذكر ابن الأنبارى فى كتاب الردّ له : حدّثنى أبى حدّثنى أبو عبيد الله الوراق حدّثنا أبو داود حدثنا شيبان عن منصور عن مجاهد قال : إنّ إبليس ــ لعنه الله ــ رَنّ أربع رنات : حين لُعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين نزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة .

الثانيـة ــ اختلف العلماء فى تفضيل بعض السور والآى على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض ؛ فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض ؛ لأن الكل كلام الله ، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها ؛ ذهب الى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البُستىّ، وجماعة من الفقهاء . وروى معناه عن مالك . قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها . وقال عن مالك فى قول الله تعالى : «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» . قال محكمة مكان منسوخة . وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك . واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر بنقص المفضول ؛ والذاتيّة فى الكل واحدة، وهى كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه . قال البستىّ : ومعنى هذه اللفظة "ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن"، أن الله تعالى لا يعطى لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

(١) قال ابن حجر فى الاصابة : «وهو خطأ ، فانه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك» .

ما يعطى لقــارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال ومعنى قوله : " أعظم ســورة " أراد به فى الأجر، لا أن بعض القرآن أفضــل من بعض . وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسى، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدّلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلا فى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل اسحاق بن راهويه(١) وغيره من العلمــاء والمتكلمين، وهو اختيار القاضى أبى بكر بن العــربى وابن الحصار، لحديث أبى ســعيد بن المعلى وحديث أبىّ بن كعب أنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وســلم : " يا أبىّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم " قال فقلت : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . قال : فضرب فى صدرى وقال: "لِيَهْنِكَ العِلْمُ يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم .

قال ابن الحصار : عجبى ممن يذكر الخلاف مع هذه النصوص .

وقال ابن العربى : قوله : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها" وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها؛ لأن هــذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشىء أفضل الأفضل، صار أفضل الكل ، كقولك : زيد أفضل العلمــاء، فهو أفضل النــاس .

وفى الفــاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُرْبة إلا بها، ولا يلحق عمــل بثوابها، وبهــذا المعنى صارت أم القرآن العظيم ،

(١) ضبطه ابن خلكان فقال : « بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعــدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة، وقيل فيه أيضا : راهويه، بضم الهــاء وسكون الواو وفتح اليــاء» .

كما صارت «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قل هو الله أحد» فيها التوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأبيّ : "أيّ آية فى القرآن أعظم" قال : «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لاشريك له" أفضل الذكر لأنها كلمات حوت جميع العلوم فى التوحيد، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب، وآية الكرسى، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، هذه الآيات معلّقات بالعرش ليس بينهن وبين الله حجاب" . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له .

الرابعة — فى أسمائها وهى اثنا عشر اسما :

(الأول) الصلاة، قال الله تعالى[1] : "قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين" الحديث . وقد تقدّم .

(الثانى) الحمد ، لأن فيها ذكر الحمد كما يقال : سورة الأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظا، وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا، وتفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب، وفى هذا الاسم خلاف ، جوّزه الجمهور ، وكرهه أنس والحسن وابن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : « آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ » . وقال أنس وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : « وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ » .

(١) أى فى الحديث القدسى .

(الخامس) أم القرآن، واختلف فيه أيضا ، فجوّزه الجمهور ، وكرهه أنس وابن سيرين؛ والأحاديث الثابتــة تردّ هذين القولين . روى الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" قال : هــذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى قال : وسميت أم الكتاب لأنه يبتــدأ بكتابتها فى المصاحف ، ويبدأ بقراءتها فى الصــلاة . وقال يحيى بن يعمر : أم القُرَى مكة . وأم خراسان : مَرْوُ . وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سميت أم القرآن لأنهــا أوّله ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت،ومنه سميت الأم أُمًّا لأنها أصل النّسل، والأرض أمّا، فى قول أمية بن أبى الصّلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمّنا * فيهــا مقابرنا وفيهــا نولد

ويقال لراية الحــرب : أمّ، لتقدمها واتباع الجيش لهــا . وأصل أم أُمّهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمْ » . ويقال : أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجْتَ الظّلاَمَ بأُمَّاتِكا *

وقيل : إن أمهات فى الناس، وأمات فى البهائم، حكاه ابن فارس فى المجمل .

(السادس) المثانى ، سميت بذلك لأنهــا تُثنّى فى كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخرا لها .

(السابع) القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنهــا تشتمل على الثناء على الله عزّ وجلّ بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منهــا إلا بإعانته تعالى، وعلى الابتهال اليــه فى الهداية الى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء، روى الدارميّ[1] عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم" .

---

(١) فى بعض الأصول : « الدارقطنى » .

(التاسع) الرقية، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رقى سيد الحي : "ما أدراك أنها رقية" فقال : يا رسول الله شيء ألقي في رُوعي، الحديث . خرّجه الأئمة وسيأتي بتمامه .

(العاشر) الأساس، شكا رجل الى الشعبي وجع الخاصرة؛ فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دحيت ؛ وأساس السموات غريبا[1] ، وهي السماء السابعة ؛ وأساس الأرض عجيبا ، وهي الأرض السابعة السفلى ؛ وأساس الجنان جنة عدن ، وهي سرة الجنان عليها أسست الجنة ؛ وأساس النار جهنم ، وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ؛ وأساس الخلق آدم ؛ وأساس الأنبياء نوح ؛ وأساس بني إسرائيل يعقوب ؛ وأساس الكتب القرآن ؛ وأساس القرآن الفاتحة ؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم ؛ فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى .

(الحادي عشر) الوافية، قاله سفيان بن عيينة، لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة، لأجزأ ؛ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز .

(الثاني عشر) الكافية، قال يحيى بن أبي كثير : لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها . يدل عليه ما روى محمد بن خلاد الاسكندراني قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضا " .

الخامسة — قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وقيل : السورة كلها رقية، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل : أن فيها رقية . فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدم والله أعلم .

(١) كذا في الأصول .

السادســـة — ليس فى تسميتها بالمثـانى وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عزّ وجلّ : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» فأطلق على كتابه : مثانى، لأن الأخبار تثنى فيه . وقد سميت السبع الطُّوَل أيضا مثانى ، لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال ابن عباس: أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثانى ؛ قال : السبع الطُّوَل . ذكره النسائى ، وهى من البقرة إلى الأعراف ست، واختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل : الأنفال والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلِجُوا المسجد وادعوا ربكم * وادرسوا هذى المثانى والطُّوَل

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر» إن شاء الله تعالى .

السابعـــة — المثانى جمع مثنى، وهى التى جاءت بعـد الأولى ، والطول جمع أطول . وقـد سميت الأنفال من المثانى لأنهـا تتلو الطول فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتها على المفصّل وتنقص عن المئين . المئون : هى السور التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة

الأولى — اجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجُعْفِى : أنها ست، وهـذا شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل « إياكَ نعبد » آية، وهى على عدّه ثمـان آيات، وهذا شاذ . وقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي » وقوله : " قسمت الصلاة " الحديث، يردّ هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضـا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه، ولمـّا لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن، كالمعوّذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنبارى قال : حدّثنـا الحسن بن الحباب حدّثنا سليمان ابن الأشعث حدّثنا ابن أبى قـدامة حدّثنا جرير عن الأعمش قال : أظنه عن ابراهيم قال :

قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها ، فقال : اختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيــة — اختلفوا أهى مكية أم مدنيـة ؟ . فقال ابن عباس وقتـادة وأبو العاليـة الرياحى — واسمه رفيع — وغيرهم : هى مكيـة . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنيـة . ويقال : نزل نصـفها بمكة ، ونصـفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى فى تفسيره . والأول أصح لقوله تعالى : «ولقد آتيناك سبعا مِن المثانِى والقرآنَ العظِيم» والحجر مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان فى الإسلام قطّ صلاة بغير الحمد لله رب العالمين؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : "لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب". وهذا خبر عن الحُكْم، لا عن الابتداء، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى ابن الطيب اختلاف الناس فى أول ما نزل من القرآن، فقيل : المدثر، وقيل : اقرأ، وقيل : الفاتحة . وذكر البيهقى فى دلائل النبوة عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : "إنى اذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هـذا أمرا" قالت : معاذ الله! ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة، وتصـل الرحم، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمّ — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورَقة بن نوفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال : انطلق بنا الى ورَقة ، فقال : "ومن أخبرك". قال: خديجة، فانطلقا اليه فقصا عليه؛ فقال: "اذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض" فقال : لا تفعل، إذا أتاك فاثْبُت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى فأخبرنى . فلمـا خلا ناداه : يا محمد، قل بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب

العالمين، حتى بلغ ولا الضالين ، قل: لا إله إلا الله . فأتى ورقة فذكر ذلك له ؛ فقال له وَرَقة: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به عيسى آبن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبيّ مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، و إن يدركنى ذلك لأجاهدن معك . فلما تُوفِّى ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة . قال البيهقى رضى الله عنه : هذا منقطع . يعنى هــذا الحديث، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» و «يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ» .

الثالثـــة — قال ابن عطية : ظن بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد، لمـا رواه مسلم عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سمع نقيضا[1] من فوقه، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قطّ إلا اليوم، فنزل منه مَلَك، فقال : هذا ملك نزل الى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم؛ فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتَهما لم يُؤتَهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته . قال آبن عطية : وليس كما ظن ، فان هــذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدّم المَلَك الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعْلِمًا به و بما ينزل معه؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها، والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم بشىء من ذلك . وقد بينا أن نزولهـا كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى : «نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ» وهذا يقتضى جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينـــة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين ، حكاه الثعلبى . وما ذكرناه أولى ، فإنه جمع بين القرآن والســنة ، ولله الحمد والمنـــة .

---

(١) النقيض : الصوت .

الرابعة — قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، و إذا ثبت ذلك فحكم المصلي اذا كبر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيها ولا تسبيحا ، لحديث عائشة وأنس المتقدمين وغيرهما ، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت ، قال بها جماعة من العلماء؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان اذا افتتحا الصلاة : سبحانك اللهم و بحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ؛ و به قال سفيان وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعيّ يقول بالذى روى عن عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان اذا افتتح الصلاة كبر ثم قال : "وجهت وجهي" الحديث، ذكره مسلم، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام ، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفًى إن شاء الله .

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا كبر فى الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ يقول : "اللهمّ باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقنى من خطاياى كما يُنَقَّ الثوب الأبيض من الدَّنَس اللّهمّ اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبَرَد" واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فاغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعيّ وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون الى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة — واختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هى متعينة للامام والمنفرد فى كل ركعة . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَادُ البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك أنه من نسيها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . واختلف قوله فيمن تركها ناسيا فى ركعة من صلاة رباعية أوثلاثية؛ فقال مرة : يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو ؛ وهى رواية ابن عبد الحكم وغيره عن مالك . قال ابن خويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام. قال ابن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتى بركعة بدلا منها ، كمن

أســقط سجدةً سهوًا . وهو اختيار ابن القــاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهــل البصرة والمغيرة بن عبــد الرحمن المخزومى المــدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصــلاة أجزأه ولم يكن عليــه إعادة؛ لأنها صــلاة قد قرأ فيها بأم القرآن؛ وهى تامة لقوله عليــه السلام : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن" وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صــلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة، وهــو الصحيح على ما يأتى ، ويحتمل لاصلاة لمن يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم .

وقال أبو حنيفة والثورى والأوزاعىّ : إنــ تركها عامدا فى صــلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه ، على اختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدّين . وعن محمد بن الحسن أيضا قال : أسوّغ الاجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة؛ نحو : «الحمد لله» . ولا أسوّغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصلّى بأم القرآن فى كل ركعة ، فان لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلهــا من القرآن عدد آيهــا وحروفها . قال ابن عبد البرّ : وهذا لامعنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قــد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجئ بالبدل منها من وجبت عليــه فتركها وهو قادر عليها، وإنما عليه أن يجئ بها ويعود اليها، كسائر المفروضات المتعينات فى العبادات .

السادســـة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعا فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعا أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئا، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ، وهى المسئلة :

السابعـــة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صــلاة السرّ؛ فإن فعل فقد أساء ولا شىء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسئلة :

الثامنـــة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك، لقول الله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقول رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "مالى أنازع القرآن" وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" .

وقال الشافعي فيما حكى عنه البويطيّ وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحدا صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، إماما كان أو مأموما، جهر إمامه أو أسرّ . وكان الشافعيّ بالعراق يقول في المأموم : يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ ويكتفي بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقـرأ المأموم شيئا، جهر إمامه أو أسر؛ لقوله عليـه السلام : "فقراءة الإمام له قراءة" وهذا عام، ولقول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فلم يصلّ إلا وراء الإمام .

التاسـعة — الصحيح من هـذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر، وأن الفاتحة متعينة في كل ركعة لكل أحد على العموم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب" وقوله : "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خِداج" ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن أنادي أنه : "لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد" أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعـة عن غيرها؛ وبه قال عبـد الله بن عون وأيوب السختياني وأبو ثور وغيره من أصحاب الشافعيّ وداود بن عليّ، وروى مثله عن الأوزاعيّ؛ وبه قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأبيّ بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاصي وعبادة بن الصامت وأبي سـعيد الخدري وعثمان ابن أبي العاصي وخوات بن جبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي؛ فهؤلاء الصحابة بهم القـدوة، وفيهم الأسوة، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة .

وقـد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال فقال : حدّثنا أبو كريب حدّثنا محمد بن فضيل، ح، وحدّثنا سويد بن سعيد

حدّثنا على بن مُسْهِر جميعا عن أبى سفيان السعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "لا صــلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد لله وســورة فى فريضــة أو غيرها" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليــه السلام قال للذى علمــه الصلاة : "وافعل ذلك فى صلاتك كلها" وسيأتى . ومن الحجة فى ذلك أيضا ما رواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عبــادة بن الصامت عن صــلاة الصبح؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصــلاة فصلى أبو نعيم بالناس، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عبادة يقرأ بأمّ القرآن ؛ فلمــا انصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر؛ قال : أجل ! صلى بنا رسول الله صلى الله عليــه وسلم بعض الصلوات التى يجهر فيها بالقراءة فالتبست عليــه ؛ فلما انصرف أقبــل علينا بوجهــه وقال : "هل تقرءون إذا جهرت بالقراءة" فقال بعضنا : إنا نصــنع ذلك، قال : "فلا وأنا أقول مالى ينازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جهرت إلا بأمّ القرآن". وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدارقطنى وقال : هــذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثقات ؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيليــاء[1] ، وأن أبا نعيم أول من أذّن فى بيت المقــدس . وقال أبو محمــد عبد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخارىّ فى تاريخــه ولا ابن أبى حاتم ؛ ولا أخرج له البخارى ومسلم شــيئا . وقال فيــه أبو عمر : مجهول . وذكر الدارقطنىّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام ، فأمرنى أن أقرأ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرت . قال الدارقطنىّ : هــذا إسناد صحيح . وروى عن جابر بن عبــد الله

---

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا" . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ، وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسي أن يقرأ بها في نفسه حين قال له : إني أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم استدل بقوله تعالى(١) : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل" . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أمّا ما استدل به الأوّلون بقوله عليه السلام : "وإذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ، وقال : وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة "وإذا قرأ فأنصتوا" قال الدار قطني : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمي فيها عن قتادة ، وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ، منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبي عَرُوبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعدي بن أبي عمارة . قال الدار قطني : فاجماعهم يدل على وَهَمِه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمي ، ولكن ليس هو بالقوي ، تركه القطان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبي هريرة وقال : هذه الزيادة "إذا قرأ فأنصتوا" ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحح حديث أبي هريرة وقال : هو عندي صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها في كتابه من حديث أبي موسى وإن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الأمام أحمد بن حنبل وابن المنذر . وأما قوله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام في الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ، فان المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيب . وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة أنها نزلت في رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : "مالي أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أُكَيمة الليثي ، واسمه فيما قال مالك : عمرو ،

(١) أي في الحديث القدسي .

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد توفى سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة، لم يرو عنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقة، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره، والمعنى فى حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج، اقرءوا فى أنفسكم . يبينه حديث عبادة وفتيا الفـاروق وأبى هريرة الراوى للحديثين . فلو فهم المنع بجملة من قوله : "مالى أنازع القرآن" لمـا أفتى بخلافه، وقول الزهرى فى حديث ابن أكيمة : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد بالحمد على ما بينا؛ وبالله توفيقنا .

أما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة[1] وهو ضعيف، كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر. أخرجه الدارقطنى وقال : رواه سفيان الثورى وشعبة وإسرائيل ابن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى وأبو الأحوص وسفيان بن عيينة وجرير بن عبد الحميد وغيرهم، عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شداد مرسلا عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيهـا بأم القرآن فـلم يصل إلا وراء الإمام؛ فرواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر قوله، قال ابن عبـد البر : ورواه يحيى ابن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبى صلى الله عليـه وسلم . وصـوابه موقوف على جابر كما فى الموطأ . وفيـه من الفقه إبطال الركعة التى لا يقرأ فيها بأم القرآن؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب اليه ابن القاسم ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتد المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحـة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

---

(١) قـد ترجمه ابن حجر فى التهذيب وابن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن ابن سـعد فى الطبقات قد وصفه بذلك .

الحادية عشرة — قال ابن العربى : لما قال صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" واختلف الناس فى هذا الأصل هل يحمل هذا النفى على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر فى هذا الأصل والأقوى أن النفى على العموم، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة فى صلاته بطلت . ثم نظرنا فى تكرارها فى كل ركعة؛ فمن تأول قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " افعل ذلك فى صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه فى هذا الباب من الأحاديث والمعانى فى تعيين الفاتحة يردّ على الكوفيين قولهم فى أن الفاتحة لا تتعين ، وأنها وغيرها من آى القرآن سواء ؛ وقد عيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبيِّن عن الله تعالى مراده فى قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبى سعيد الخدرى قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر . فدل هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابى : "اقرأ ما تيسر معك من القرآن" ما زاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرءان — زاد فى رواية — فصاعدا" . وقوله عليه السلام : "هى خداج — ثلاثا — غير تمام" أى غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخِداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت الناقة، اذا ألقت ولدها لغير تمام، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وان كان تام الخَلْق .

والنظر يوجب فى النقصان ألا تجوز معه الصلاة؛ لأنها صلاة لم تتم؛ ومن خرج من صلاته وهى لم تتم فعليه إعادتها كما أمر، على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل، ولا سبيل اليه من وجه يُلزم، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة؛ وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن

فاتحة الكتاب إلا بها ، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صـلاته وإن قرأ بغيرها . وهـذا هو الصحيح في المسئلة . وأما ما روى عن عمـر رحمه الله أنه صلى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذُكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد ، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمي عن عمر ؛ ومرة يرويه إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عمر ، وكلاهما منقطع لا حجة فيه ؛ وقد ذكره مالك في الموطأ ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيي وطائفة معه ، لأنه رماه مالك من كتابه بِأَخَرَة (١) ، وقال ليس عليـه العمل لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج" وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصـلاة ؛ وهو الصحيح عنـه . روى يحيي بن يحيي النيسابوري قال : حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعي عن همام بن الحارث أن عمر نسي القراءة في المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همام من عمر روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سـئل مالك عن الذي نسي القراءة ، أيعجبك ما قال عمر ؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمـر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هـذا في المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدّم من أصولهم في ذلك ، وأجمعوا على أن لا توقيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب ، إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر ممـا جاء عن النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم . قال مالك : وسـنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة ، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعيّ : يقرأ بأم القرآن فان لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه ، وقال : وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات أعاد . وقال الثوري : يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ، ويسبح في الأخريين إن شاء وإن شاء قرأ ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(١) أي بتأخر وبعد عن الخير .

صلاته ، وهو قول أبى حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : اقرأ فى الأوليين وسبح فى الأخريين ، و به قال النخعى . قال سفيان : فان لم يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسى أن يقرأ فى ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فى كل ركعة ، كقول الشافعى المصرى ، وعليه جماعة أصحاب الشافعى . وكذلك قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد المالكىّ : قراءة الفاتحة واجبة عندنا فى كل ركعة ، وهذا هو الصحيح فى المسألة . روى مسلم عن أبى قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بنا فيقرأ فى الظهر والعصر فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، و يسمعنا الآية أحيانا، وكان يطوّل فى الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية، وكذلك فى الصبح . وفى رواية : و يقرأ فى الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ،وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونصٌّ فى تعين الفاتحة فى كل ركعة، خلافا لمن أبى ذلك، والحجة فى السنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور الى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبى هريرة قال : فى كل صلاة قراءة؛ فما أسمعنا النبىّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفى البخارى : و إن زدت فهو خير . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة؛ منهم عمران بن حُصين وأبو سعيد الخدرى وخوّات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وابن عمر وابن عباس وغيرهم؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين، ومنهم من حدّ آية ، ومنهم من لم يَحُدّ ، وقال : شىء من القرآن معها، وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسّر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عبادة وأبى سعيد الخدرى وغيرهما . وفى المدوّنة : وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال: حدّثنى من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها . واختلف المذهب فى قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة، فضيلة، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا عَلِق منه بشيء، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله ، إذا صلى وحده أو مع إمام فيما أسر فيه الإمام ؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمنى ما يجزئنى منه؛ قال : "قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله"؛ قال : يا رسول الله ، هذا لله ، فمالى ؟ قال : "قل اللّهمّ ارحمنى وعافنى واهدنى وآرزقنى" .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هـذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله؛ وعليه أبدا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة — من لم يواته لسانه إلى التكلم بالعربيـة من الأعجميين وغيرهم ترجم له الدعاء العربى بلسانه الذى يفقه لإقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فى قول الجمهور. وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية، لأن المقصود إصابة المعنى . قال ابن المنـذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به ، وخلاف ما علم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية العشرين — من آفتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ، فطرأ عليه العلم بها فى أثناء الصلاة، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعَلِقت بحفظه من مجرد السماع فلا يستأنف الصلاة ؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أمر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله فى كتاب ابن سحنون .

البـاب الثالث ـ فى التأمين، وفيه ثمـان مسائل

الأولى — ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعـد الفراغ من الفاتحة بعـد سكتة على نون «ولا الضالين» : آمين، ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانيـــة — ثبت فى الأمهات من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدّم من ذنبه" قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع تضمنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين من خلفه، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيــل فى الإجابة، وقيل فى الزمن، وقيل فى الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ " .

الثالثــة — روى أبو داود عن أبى مُصَبِّح المُقْرَائى قال: كنا نجلس إلى أبى زهير النميرى وكان من الصحابة، فيحدث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة؛ قال أبو زهير: ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألح فى المسئلة، فوقف النبىّ صلى الله عليه وسـلم يسمع منه، فقال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " أوجب إن ختم " فقال له رجل من القوم : بأىّ شىء يختم ؟ قال : " بآمين فانه إن ختم بآمين فقــد أوجب " فانصرف الرجل الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسـلم، فأتى الرجلَ فقال له : اختم يافلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النميرى اسمه يحيى بن نفير روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تقتلوا الجراد فانه جنـد الله الأعظم " وقال وهب بن منبه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف ملَكا يقول : اللّهــمّ اغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر " لقّننى جبريل آمين عنـد

فراغى من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب " وفى حديث آخر : " آمين خاتم رب العالمين " . قال الهروى قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم](١) الآفات والبلايا ؛ فكان كخاتم الكتاب الذى يصونه ، و يمنع من إفساده و إظهار ما فيه . وفى حديث آخر : " آمين درجة فى الجنة " ؛ قال أبو بكر: معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعـــة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب لنا ، وضع موضع الدعاء. وقال قوم : هو اسم من أسماء الله ، روى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِسَاف ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله ابن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى . و روى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : "رب افعل" . وقال مقاتل : هو قوّة للدعاء، واستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيب رجاءنا .

الخامســة — وفى آمين لغتان : المدّ على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين . قال الشاعر فى المدّ :

يا ربّ لا تسلُبَنّى حبّهـا أبدًا * ويرحمُ الله عبـــدا قال آمينا

وقال آخـــر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حـــتى أبلّغهـا ألفينِ آمينا

وقال آخر فى القصر :

تبـاعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه * أمينَ فزاد الله ما بيننـا بُعدَا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل ، من أمّ إذا قصد أى نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : « وَلَا آمِّينَ

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ » . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى . قال الجوهرى : وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمّن فلان تأمينا .

السادسة — واختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؛ فذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيين الى ذلك . وقال الكوفيون و بعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبرى ؛ و به قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخير . وروى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لايقول آمين و إنما يقول ذلك من خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك ؛ وحجتهم حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال : " إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم فإذا كبر فكبروا واذا قال غير ٱلمغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله " وذكر الحديث ، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَىّ عن أبى هريرة ؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأوّل لحديث وائل بن حجر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ «ولا الضالين» قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدار قطنى ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سنة تفرّد بها أهل الكوفة ، هذا صحيح والذى بعده » . وترجم البخارى «باب جهر الإمام بالتأمين» .

وقال عطاء : آمين دعاء ؛ أمّن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجّة(١) . قال الترمذى : و به يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . و به يقول الشافعى وأحمد و إسحاق . وفى الموطأ والصحيحين قال ابن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفى سنن ابن ماجة عن أبى هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قال : « غير ٱلمغضوب عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأوّل فيرتج بها المسجد . وأما حديث أبى موسى وسُمَىّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين ؛ وهو اذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولهما معا ، ولا يتقدموه بقول : آمين

(١) اللجة : الصوت .

لمـا ذكرناه ، والله أعلم . ولقوله عليه الســلام : "اذا أمّن الإمام فأمّنــوا" وقال ابن نافع فى كتاب ابن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يســمع الإمام يقول : « ولا الضالين » . واذا كان ببعد لا يسمعه فلا يقل . وقال ابن عبدوس : يتحرّى قدر القراءة ويقول : آمين .

السابعـــة — قال أصحاب أبى حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما روى فى تأويل قوله تعالى : « قَـدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ؛ فسماهما الله داعيين .

والجواب : أنّ إخفاء الدعاء إنمـا كان أفضل لمـا يدخله من الرياء . وأما ما يتـعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شـعار ظاهر ، وإظهار حق يندب العباد الى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام الى إشهار قراءة الفاتحـة المشتملة على الدعاء والتأمين فى آخرها ؛ فاذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بيّن .

الثامنـــة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما الســلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبى قال حدّثنـا رزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ الله أعطى أمتى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون" قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمّن هارون ، فقال الله تبارك اسمه عنـد ما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : « قـد أجيبت دعوتكما » ولم يذكر مقالة هارون؛ وقال موسى : ربّنـا ، فكان من هارون التأمين ، فسماه داعيا فى تنزيله ، إذ صيّر ذلك منه دعوة . وقـد قيل : إن آمين خاص لهذه الأمة ، لمـا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين" أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال، الحديث . وأخرج أيضا من

حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين " . قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم : إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمد لله وثناء عليه ثم خضوع له واستكانة ، ثم دعاء لنا بالهداية الى الصراط المستقيم ، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

الباب الرابع – فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسئلة

الأولى – قوله سبحانه وتعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ . روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى " وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " . وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ" . وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك" . قال أبو عبد الله : «معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا ، ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية ، هى من الباقيات الصالحات ؛ قال [الله تعالى : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ][2] خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» . وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ . فصيّر الكلمة إعطاءً من العبد ، والدنيا أخذًا من الله ، فهذا فى

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها .

(٢) زيادة عن نوادر الأصول يقتضيها السياق .

التدبير[1]. كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله؛ وكلاهما من الله فى الأصل، الدنيا منه والكلمة منه؛ أعطاه الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها فى الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : "أن عبدا من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا الى السماء وقالا يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى قالا يا رب إنه قد قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة: أعضل الأمر: اشتد واستغلق؛ والمعضلات (بتشديد الضاد)، الشدائد. وعضّلت المرأة والشاة، إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه؛ بتشديد الضاد أيضا؛ فعلى هذا يكون : أعضلت الملكين أو عضلت الملكين بغير باء . والله أعلم . وروى عن مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطهور شطر الإيمان والحمد لله يملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانيــة — اختلف العلماء أيما أفضل؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل؛ لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" . واختار هذا القول ابن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لاشريك له" .

(١) فى بعض نسخ الأصل : «فى التذكير» .

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان، فدل على أن الإيمان فعله وخلقه، والدليل على ذلك قوله : «رب العالمين» . والعالمون جملة المخلوقات، ومن جملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم، على ما يأتى بيانه .

الرابعة — الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا، وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة فى قول الشاعر :

وأبلج محمود الثناء خصصته * بأفضل أقوالى وأفضل أحمدى

فالحمد نقيض الذم، تقول : حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر، والمحمد : الذى كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القَرْم الجَوَاد المُحَمَّد *

وبذلك سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر :

فشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

والمَحْمَدة : خلاف المذمة، وأحمد الرجل : صار أمره الى الحمد، وأحمدته : وجدته محمودا، تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته ، أى صادفته محمودا موافقا ، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه، ورجل حُمَدَة — مثل همزة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدَة النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد الى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضى . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمى فى كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله اذا كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه . واستدل الطبرى على أنهما بمعنًى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال ابن عطية : وهو فى الحقيقة دليل على خلاف ماذهب اليه، لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أعم من الحمد، لأنه باللسان وبالجوارح

والقلب، والحمد إنما يكون باللسان خاصـة . وقيل : الحمد أعم لأن فيـه معنى الشكر ومعنى المدح، وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضـع الشكر موضع الحمـد . وروى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر، وإن آدم عليـه السلام قال حين عطس : الحمـد لله . وقال الله لنوح عليـه السلام : «فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» وقال ابراهيم عليـه السلام : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» . وقال فى قصة داود وسليمان : «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ» وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا» . وقال أهل الجنة : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ» . «وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» . فهى كلمة كل شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان؛ والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان[1] . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقـع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجـزاء مخصوص إنمـا يكون مكافأة لمن أولاك معروفا؛ فصار الحمـد أعم فى الآية لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمـد بمعنى الرضا؛ يقال: بلوته فحمدته، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : «مَقَامًا مَحْمُودًا» وقال عليه السلام : "أحمـد اليكم غسل الإحليـل" أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله : «الحمـد لله» من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد، لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوحدانية، والميم من الملك، والدال من الديمومية؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن ابراهيم فى تفسير «الحمد لله» قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث مادامت قوته فى جسدك ألا تعصيه؛ فهذه شرائط الحمد .

---

(١) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله : فالحامد من النـاس قسمان : الشاكر والمثنى بالصفات . وبه يتضح كلام المؤلف .

السادسـة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام، فقال: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى» وقال عليه السلام: "احثوا في وجوه المداحين التراب" رواه المقداد. وسيأتي القول فيه في النساء ان شاء الله تعالى.

فمعنى الحمد لله رب العالمين: أي سبق الحمد مني لنفسي قبل أن يحمدني أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلة، وحمدي الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصي ثناء عليك". وأنشدوا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما تُثْني وفوق الذي تُثْني

وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المِنّة.

السابعة — وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمد لله». وروي عن سفيان بن عيينة ورُؤْبة بن العَجّاج الحمدَ لله، بنصب الدال وهذا على إضمار فعل. ويقال: الحمد لله بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدا؛ إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرضا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفي الحديث: "من شغل بذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه وثناءه عليها ليعلم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري:

الحمـد لله ثناء أثنى به على نفســه وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليـه ؛ فكأنه قال : قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجىء قولوا إياك . وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه ؛ كما قال الشاعر :

وأعلم أنى سأكون رَمْسًا[(١)] * إذا سار النواعج لا يسـير

فقال السائلون لمن حفـرتم * فقال القـائلون لهم وزير

المعنى المحفور لهم وزير فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير . وروى عن ابن أبى عَبْلَةَ الحمد لله ، بضم الدال واللام على اتباع الثانى الأوّل وليتجانس اللفظ ، وطلب التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم ، نحو أُجُوءُك ، وهو منحدُرٌ من الجبل ، بضم الدال والجيم . قال :

* أضرب الساقينُ أُمُّك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة . وفى قراءة لأهل مكة « مُرُدفين » بضم الراء اتبـاعا للميم ، وعلى ذلك « مُقُتلين » بضم القاف . وقالوا : لإِمِّك ، فكسروا الهمزة اتباعا للام ؛ وأنشـد النعمان بن بشير :

ويلِ آمِّها فى هـــواء الجوّ طالبـةً * ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب

الأصل : ويل لأمها ؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم اتبع اللام الميم . وروى عن الحسن بن أبى الحسن وزيد بن علىّ : الحمـد لله ؛ بكسر الدال على اتباع الأوّل الثانى .

الثامنـــة — قوله تعـالى : رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أى مالكهم ، وكل من ملك شيئا فهو ربه؛ فالرب : المـالك . وفى الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه فى الجاهلية للملك ، قال الحارث بن حِلِّزة :

وهو الربّ والشهيد على يو * م الحِيـارَينِ[(٢)] والبـلاء بلاء

---

(١) النواعج من الإبل : السراع . (٢) الحيارات : موضع غزا أهله المنذرين ماء السماء .

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» وفى الحديث : "أن تلد الأَمَة ربَّتها" أي سيدتها ؛ وقد بيناه فى كتاب (التذكرة) . والرب : المصلح والمدبر والجابر والقائم . قال الهروى وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربَّه يربه فهو رب له وراب؛ ومنه سمى الربّانيون لقيامهم بالكتب . وفى الحديث : " هل لك من نعمة تَرُبُّها عليه " أى تقوم بها وتصلحها . والرب : المعبود ؛ ومنه قول الشاعر :

أربٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه * لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

ويقال على التكثير : ربّاه وربّبه وربّته ؛ حكاه النحاس . وفى الصحاح : وربَّ فلان ولده يربه ربا وربّبه وتربّبه بمعنًى ، أى رباه . والمربوب : المربّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم ، لكثرة دعوة الداعين به؛ وتأمل ذلك فى القرآن، كما فى آخر آل عمران وسورة ابراهيم وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع مايتضمنه من العطف والرحمة والافتقار فى كل حال .

واختلف فى اشتقاقه ، فقيل : إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم ، ومنه قوله تعالى : « وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ » . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على رب اختص الله تعالى به لأنها للعهد ؛ وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده ، فيقال : الله رب العباد ، وزيد رب الدار ؛ فالله سبحانه رب الأرباب ؛ يملك المالك والمملوك ، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُمَلّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما

يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة هــذه المعانى ، فهذا الفرق بين صــفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشر — قوله تعـالى : ﴿ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ اختلف أهل التأويل فى العالمين اختــلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالَمون جمع عالَم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالَم؛ قاله الحسين بن الفضل لقوله تعــالى: « أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ » أى من الناس . وقال العجاج :

* فَخِنْدِفٌ هامةُ هذا العالَمِ *

وقال جرير بن الخَطَفَى :

تنصــفه البريّة وهو سامٍ * ويُضحِى العالَمون له عِيالا

وقال ٱبن عباس : العالمون الجن والإنس . دليله قوله تعالى « لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العــالَم عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجن والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالَم لأن هذا الجمع إنمــا هو جمع من يعقل خاصة .

قال الأعشى :

* ما إن سمعت بمثلهم فى العالَمينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون ، وهو معنى قول ٱبن عباس أيضــا : كل ذى روح دبّ على وجه الأرض . وقال وهب بن منبه : إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالم؛ الدنيا عالم منها . وقال أبو سـعيد الخدرى : إن لله أربعين ألف عالم ؛ الدنيــا من شرقها إلى غربها عالم واحد . وقال مقاتل : العالمون ثمانون ألف عالم ، أربعون ألف عالم فى البر ، وأربعون ألف عالم فى البحر . وروى الربيــع ٱبن أنس عن أبى العالية قال : الجن عالم ، والإنس عالم؛ وســوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالم ، خلقهم لعبادته .

قلت : والقول الأول أصح هذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، دليله قوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة ؛ لأنه يدل على موجده . كذا قال الزجاج قال : العالم كل ما خلقه الله فى الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العَلَم والعَلَامة والمَعْلَم : ما دل على الشيء ؛ فالعالَم دال على أن له خالقا ومدبرا ؛ وهذا واضح . وقد ذُكر أن رجلا قال بين يدى الجُنَيد : الحمد لله ؛ فقال له : أتمها كما قال الله ، قل : رب العالمين ؛ فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخى ، فإن المحدَث اذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب فى رب ؛ فالنصب على المدح ، والرفع على القطع ؛ أى هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿٣﴾ وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين ، بأنه الرحمن الرحيم ، لأنه لما كان فى اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم ، لما تضمن من الترغيب ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه ، والرغبة إليه ؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع ؛ كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . وقال : « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَطَ من جنته أحد " . وقد تقدّم ما فى هذين الاسمين من المعانى ، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ﴿٤﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع بنصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مالِك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَلِيك ؛ قال الشاعر[(١)] :

وأيام لنا غُرٌّ طِوال * عصينا المَلْكَ فيها أن ندينا

(١) هو عمرو بن كلثوم .

وقال آخـــر[1] :

فاقنع بمـا قسم المليك فإنمـا * قسم الخـــلائق بيننا علّامُها

الخلائق : الطبائع التى جُبِل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى مَلِك ؛ فيقرأ مَلِكِى على لغة من يشبع الحركات، وهى لغة للعرب ذ كرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — اختلاف العلماء أيما أبلغ : مَلِك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر، ذكرهما الترمذى؛ فقيل : مَلِك أعم وأبلغ من مالك؛ إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكا، ولأن أمر المِلك نافذ على المـالك فى مِلْكه ، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيــل : مالك أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم ؛ فالمـالك أبلغ تصرفا وأعظم ، إذ اليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملك .

وقال أبو علىّ : حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من آختار القراءة بملك أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله : «رب العالمين» فلا فائدة فى قراءة من قرأ مالك لأنها تكرار . قال أبو على : ولا حجة فى هذا ، لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة ، تقدّم العام ثم ذِكر الخاص كقوله : « هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ » فالخالق يعم . وذكر المصوّر لمـا فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعـالى : « وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بعد قوله : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » . والغيب يعم الآخرة وغيرها ؛ ولكن ذكرها لعظمها ، والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والردّ على الكفرة الجاحدين لها ؛ وكما قال : « الرحمن الرحيم» فذكر الرحمن الذى هو عام وذكر الرحيم بعده ، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ فى مــدح الخالق من ملك ، وملك أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك ؛ والفرق بينهما أن المـالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هــذا القول القاضى أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

أوجه ؛ الأوّل : أنك تضيفه إلى الخاص والعام فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ واذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلك، ولا تقول : مَلِك المُلك . قال ابن الحصار : إنما كان ذلك ، لأن المراد من مالك الدلالة على المِلك بكسر الميم وهو لا يتضمن المُلك بضم الميم، ومَلِك يتضمن الأمرين جميعا فهو أولى بالمبالغة؛ ويتضمن أيضا الكمال ، ولذلك آستحق المُلك على من دونه ؛ ألا ترى الى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ »، ولهذا قال عليه السلام : "الإمامة فى قريش" وقريش أفضل قبائل العرب ، والعرب أفضل من العجم وأشرف ، ويتضمن الاقتدار والاختيار وذلك أمر ضرورى فى المَلِك إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره ، قهره عدوّه وغلبه غيره وازدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهى والوعد والوعيد ؛ ألا ترى الى قول سليمان عليه السلام : « مَالِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ». الى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعانى الشريفة التى لا توجد فى المالك .

قلت : وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك . قلت : هذا نظر الى الصيغة لا الى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك ، وفيه من المعنى ما ليس فى مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى ؛ روى البخارىّ ومسلم عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وعنه أيضا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن أَخْنَع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك — زاد مسلم — لا مالك إلا الله عزّ وجلّ " قال سفيان(١) : « مثل : شاهانْ شاهْ . وقال أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيبانىّ عن اخنع ؛ فقال : أوْضع » . وعنه قال قال رسول الله صلى الله

(١) سفيان هذا ، أحد رواة سند هذا الحديث .

عليه وسـلم : " أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سـبحانه " . قال ابن الحصـار : وكذلك ملك يوم الدين ، ومالك الملك ؛ لا ينبغي أن يختلف في أن هـذا محرّم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمالك وملك وهي :

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من آتصف بمفهومهما ؛ قال الله العظـيم : « إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » . وقال صلى الله عليه وسلم : " ناس من أمّتي عُرِضُوا عليّ غُزاةً في سبيل الله يركبون ثَبَجَ(١) هذا البحر ملوكا على الأَسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة" .

الثامنـــة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مالك يوم الدين » ويوم الدين لم يوجد بعدُ ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك ، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ، كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أي سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاجّ بيت الله في العـام المقبل ، تأويله سيحج في العـام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد ينسب اليه وهو لم يفعله بعـدُ ، وإنما أريد به الاسـتقبال ؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ : « مالك يوم الدين » على تأويل الاستقبال ، أي سيملك يوم الدين أو في يوم الدين اذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المـالك راجعا الى القدرة ؛ أي أنه قادر في يوم الدين ، أو على يوم الدين وأحداثه ، لأن المـالك للشيء هو المتصرف في الشيء والقادر عليـه ؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأوّل أمس بالعربية وأنفذ في طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجي .

ووجه ثالث : فيقال لِمَ خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك ، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد

(١) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

فى ملكه، وكلهم خضعوا له، كما قال تعـالى : « لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ » فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أى فى ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجازٍ غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إنْ وُصِف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صـفات ذاته ، وإنْ وصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبـارة عن وقت طلوع الفجر الى وقت غروب الشمس، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة الى وقت اسـتقرار أهل الدارين فيهما . وقـد يطلق اليوم على الساعة منه؛ قال الله تعـالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » . وجمع يوم أيام؛ وأصله أَيْوَام فأدغم ؛ وربمـا عبّروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أَيْوَم ، كما يقال : ليلة لَيْـلاء . قال الراجز[1] :

* نِعمَ أخو الهيجاء فى اليوم ٱلْيَمِى *

وهو مقلوب منه[2] ، أخّر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفا؛ كما قالوا : أَدْلٍ فى جمع دَلْوٍ .

الحادية والعشرون — الدّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ، كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ويدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ » أى حسابهم . وقال : « ٱلْيَـوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ » و « ٱلْيَـوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » وقال : « أَئِنَّـا لَمَدِينُونَ » أى مجزيون محاسبون . وقال لَبِيد :

حصَادُك يوما ما زرعتَ وإنما * يُدَانُ الفتى يوما كما هـو دائن

آخـــر :

إذا ما رمـــونا رميناهـــمُ * ودِنّاهمُ مثــل ما يُقرضـــونا

---

(١) هو أبو الأخزر الحمانى كما فى اللسان مادة « يوم » .   (٢) وهو أى اليمى .

آخــــر :

وأعلم يقينـا[(١)] أن ملكك زائلٌ * وأعلم بأن كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْته بفعله دَينا بفتح الدال ودِينا بكسرها جزيته؛ ومنه الدّيّان فى صفة الرب تعالى أى المجازى ؛ وفى الحديث : "الكيِّس من دان نفسه" أى حاسب ؛ وقيـل : القضاء . روى عن ابن عباس أيضا؛ ومنه قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولَة[(٢)] مَعْبَـدٍ * على جُدِّها[(٣)] حربا لدِينِكَ من مُضَرْ

ومعانى هذه الثلاثة متقاربة . والدِّين أيضا : الطاعة؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنـا غُـــرٍّ طِـــوالٍ * عصينا المَلْكَ فيها أن نَدِينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى :

الثانيــة والعشرون — قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عز، ودان إذا ذل، ودان إذا قهر؛ فهو من الأضداد . ويطلق الدِّين على العادة والشأن، كما قال :

* كدِينك من أمّ الحُوَيرِث قبلها *

وقال المُثقِّب [يذكر ناقته] :

تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِى[(٤)] * أهــذا دِينُــه أبدا ودِينى

والدِّين : سيرة الملك . قال زهير :

لئن حللتَ بجـوّ فى بنى أســد * فى دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ

---

(١) فى اللسان مادة (دين) : «قال خويلد بن نوفل الكلابى للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد اغتصبه ابنته :
ياحار أيقن أن ملكك زائل * ... ... الخ

(٢) الحمولة : الإبل التى يحمل عليها . (٣) الجد (بالضم) البئر الجيدة الموضع من الكلا . والخطاب لعمرو ابن هند وقد أغار على إبل معبد أخى طرفة .

(٤) درأت وضين البعير، إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشده به . والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير .

أراد في موضع طاعة عمرو . والدين : الداء؛ عن اللحياني وأنشد :

* يادِينَ قلبِك من سَلْمى وقد دِينَا *

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . رجع من الغيبة الى الخطاب على التلوين؛ لأن من أول السورة إلى هاهنا خبرا عن الله تعالى وثناء عليه، كقوله : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » . ثم قال : « إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً » . وعكسه : « حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم » على ما يأتي . و﴿ نعبد ﴾ معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل، وطريق مُعَبَّد إذا كان مذللا للسالكين؛ قاله الهروي . ونُطقُ المكلف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك .﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نطلب العون والتأييد والتوفيق .

قال السلمي في حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغاني يقول : من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين، فقد برئ من الجَبْر والقَدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدم المفعول على الفعل؟ قيل له : قدّم اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سبّ آخر فأعرض المسبوب عنه، فقال له الساب : إياك أعني ؛ فقال له الآخر : وعنك أُعرض ، فقدّما الأهم ؛ وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدّم الفعل على كناية المفعول، وانما يتبع لفظ القرآن . وقال العجاج :

إياك أدعو فتقبّل مَلَقِي * وٱغفر خطاياي وكثّر ورقي

(١)
ويروى وثَمِّر . وأما قول الشاعر :

* إليكَ حتى بَلَغَتْ إيّاكا *

فشاذ لا يقاس عليه . والورق بكسر الراء من الدراهم ، وبفتحها المال . وكرر الاسم لئلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك .

(١) هو حميد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة اليك حتى بلغتك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القرّاء والعلماء على شـدّ الياء من إيّاك فى الموضعين ؛ وقرأ عمرو بن فائد : إيَاك بكسر الهمزة وتخفيف الياء ، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها ، وهذه قراءة مرغوب عنها ، فإن المعنى يصير : شمسَك نعبد أو ضوءك ؛ وإياة الشمس بكسر الهمزة : ضوءها وقد تفتح . وقال (١) :

سقته إياةُ الشمس إلا لِثاتِه * أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليــه بإثمد

فإن أسقطت الهاء مددت . ويقال : الإياة للشمس كالهالة للقمر ، وهى الدّارة حولها . وقرأ الفضل الرقاشىّ : أَيّاك بفتح الهمزة وهى لغة مشهورة ، وقرأ أبو السوّار الغنوى : هيّاك فى الموضعين وهى لغة ؛ قال :

فهِيّاكَ والأمرَ الذى إن توسعتْ * موارده ضاقت عليك مصـادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ عطف جملة على جملة ؛ وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش : نِستعين بكسر النون ، وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة ، ليدل على أنه من استعان فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل . وأصل نستعين نستعْوِن ، قلبت حركة الواو الى العين فصارت ياء ، والمصدر استعانة ، والأصل اسـتعوان ؛ قلبت حركة الواو الى العين فانقلبت ألفا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنهـا زائدة ، وقيل الأولى لأن الثانيـة للمعنى ، ولزمت الهاء عوضا .

السابعة والعشرون — قوله تعـالى : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعنى دلّنا على الصراط المستقيم وأرشدنا اليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصـلة الى أنسك وقربك . قال بعض العلمـاء : فجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هذه السورة ، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هـذا

(١) قائله طرفة بن العبد . والهاء فى «سقته» و «لثاته» يعود على الثغر، وكذا المضمر الذى فى «أسف» . ومعنى سقته : حسنته و بيضته وأشر به حسنا . وأسف : ذرّ عليه . ولم تكدم عليه ، أى لم تعضض عظما فيؤثر فى ثغرها . (عن شرح المعلقـات) .

الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين ، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به ؛ وفى الحديث : "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السنن فى أداء فرائضك ؛ وقيل الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » أى ملنا ؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يُهَادَى بين ٱثنين ، أى يتمايل ؛ ومنه الهدية لأنها تمال من مِلك الى مِلك . ومنه الهَدْىُ للحيوان الذى يساق الى الحرم ؛ فالمعنى مِل بقلوبنا الى الحق . وقال الفُضيل بن عِيَاض : الصراط المستقيم طريق الحج ، وهذا خاص والعموم أولى ؛ قال محمد ٱبن الحنفية فى قوله عزّ وجل : «اهدِنا الصراط المستقِيم» : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبى العالية : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده ؛ قال عاصم فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطُّفيل :

شحنّا أرضهم بالخيل حتى * تركناهم أذلّ من الصراط

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراطٍ * إذا اعوجّ الموارد مستقِيم

وقال آخر :

* فصدّ عن نهج الصراط الواضح *

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم ؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف جدًّا ، وقرئ : السراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه . وقرئ بين الزاى والصاد ؛ وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل ؛ وحكى سَلَمَة عن الفرّاء قال : الزراط بإخلاص الزاى لغة لعُذْرة وكلب وبنى القَين ، قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] : أزدق . وقد قالوا : الأَزْد والأَسْد ، ولسق به ولصق به . والصراط نصب على المفعول الثانى لأن الفعل من الهداية يتعدّى الى المفعول الثانى بحرف جر ؛ قال الله تعالى : « فَاهْدُوهُمْ

الَى صِرَاطِ الجَحِيمِ » . و بغير حرف كما فى هـذه الآية . المستقيم صـفة للصراط، وهو الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ » وأصله مستقوم، نقلت الحركة الى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . صراط بدل من الأوّل بدل الشيء من الشيء، كقولك : جاءنى زيد أبوك . ومعناه : أدِم هدايتنا[1]، فإن الإنسان قد يُهدَى الى الطريق ثم يقطع به، وقيل : هو صراط آخر، ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن الذين فى الرفع والنصب والجر، وهذيل تقول : اللذون فى الرفع، ومن العرب من يقول : اللذون، ومنهم من يقول : الذى[2] وسيأتى .

وفى عليهم عشر لغات : قرئ بعامتها عليهُمْ بضم الهاء وإسكان الميم ، وعليهِم بكسر الهاء وإسكان الميم، وعليهِمِى بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة ، وعليهِمُو بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعـد الضمة ، وعليهمو بضم الهـاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعـد الميم ، وعليهُمُ بضم الهاء والميم من غير زيادة واو ، وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القراء : عليهُمِى بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم، حكاها الحسن[3] البصرى عن العرب، وعليهُمِ بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء، وعليهِمُ بكسر الهـاء وضم الميم من غير إلحاق واو، وعليهِمِ بكسر الهاء والميم ولا ياء بعـد الميم، وكلها صواب قاله ابن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب وابن الزبير رضى الله عنهما «صراط من أنعمت عليهـم» . واختلف الناس فى المنعم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وانتزعوا ذلك من قوله تعـالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ

---

(١) أى قوله تعالى : اهدنا وما بعده . (٢) أى افرادا أو جمعا فى الرفع والنصب والجر كما يؤخذ من لسان العرب . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصرى » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .

أُولَئِكَ رَفِيقًا » فالاية تقضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد، وجميع ما قيل الى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه، طاعة كانت أو معصية؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج فى صدورها عنه الى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية إذ سألوه الهداية الى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر اليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم اليه فى دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » الآية .

الثانية والثلاثون — غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ اختلف فى المغضوب عليهم والضالين مَن هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى حديث عدىّ بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، والترمذى فى جامعه . وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه فى اليهود: « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » وقال : « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » وقال فى النصارى : « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » . وقيل المغضوب عليهم المشركون . والضالين المنافقون . وقيل المغضوب عليهم هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة؛ والضالين عن بركة قراءتها؛ حكاه السلمىّ فى حقائقه والماوردى فى تفسيره — وليس بشىء — قال الماوردى : وهذا وجه مردود؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : المغضوب عليهم باتباع البدع؛ والضالين عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن ؛ وتفسير النبيّ صلى الله عليــه وسلم أولى وأعلى وأحسن . وعليهم فى موضع رفع ، لأن المعنى غضب عليهم . والغضب فى اللغة الشــدّة؛ ورجل غضوب أى شديد الخُلُق . والغَضُوب : الحية الخبيثة لشدّتها . والغَضْبَة : الدَّرَقَة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض؛ سميت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات ، وإرادة الله تعــالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة، ومنــه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الضلال فى كلام العرب هو الذهاب عن سَنن القصد وطريق الحق، ومنــه : ضل اللبن فى المــاء أى غاب . ومنــه : «أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا؛ قال :

ألم تســأل فتخــبرك الديار * عن الحيّ المضلّل أين ساروا

والضُّلَضِلَة : حجــر أملس يردّده المــاء فى الوادى ؛ وكذلك الغضْبة : صخرة فى الجبــل مخالفة لونه، قال :

* وغضبة فى هضبة ماأمنعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطــاب وأبيّ بن كعب « غيرالمغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين؛ فالخفض على البدل من الذين أو من الهاء والميم فى عليهــم؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعــارف ، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمُرّ بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن غير تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما ، كما تقول : الحيّ غير الميت ، والساكن غير المتحرّك ، والقائم غير القاعد ، قولان : الأوّل للفــارسيّ ، والثانى للزمخشريّ . والنصب فى الراء على وجهين : على الحال من الذين، أو من الهــاء والميم فى عليهــم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء ، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى وحُكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — « لا » فى قوله « ولا الضالين » اختلف فيها، فقيل هى زائدة قاله الطبرى. ومنه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكى والمهدوى . وقال الكوفيون : «لا» بمعنى غير وهى قراءة عمر وأبى وقد تقدم .

السادسة والثلاثون — الأصل فى الضالين : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مدة الألف واللام المدغمة . وقرأ أيوب السختيانى : ولا الضألين بهمزة غير ممدودة كأنه فر من التقاء الساكنين وهى لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَأَنٌّ » . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبة وشأبة، قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر :

* إذا ما العَوَالى بالعبيط احمأرت (١) *

نجز تفسير سورة الحمد، ولله الحمد والمنّة .

---

(١) عوالى الرماح : أسنتها . واحدتها عالية . العبيط : الدم الطرى . أحمر الشىء واحمأر بمعنى .

تفسير سورة البقرة

"بحول الله وكرمه ، لا رب سواه"

وأوّل مبدوء به الكلام فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك؛ فنقول :

ســورة البقرة مدنيــة، نزلت فى مُدَد شتّى؛ وقيل : هى أوّل ســورة نزلت بالمدينــة، إلا قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ » فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النَّحْر فى حجّة الوَدَاع بِمنًى؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهــذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم ؛ ويقال لهــا : فسطاط القرآن . قاله خالد ابن مَعْدَان ؛ وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها ؛ وتعلمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة، وابنُه عبدُ الله فى ثمــانى سنين كما تقدّم

قال ابن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألف أمر وألف نهى وألف حُكْم وألف خبر . وبَعَثَ رسول الله صلى الله عليه وســلم بَعْثًا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثهم سنا، لحفظه سورة البقرة؛ وقال له : "اذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَــلة" قال معاوية[1] : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وســلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إنّ الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه ســورة البقرة" . وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سَنَاما وإن سَنَام القرآن سورة البقرة؛ وإن لكل شىء لُبابا وإن لباب القرآن المفصّل ؛ قال أبو محمد الدارمىّ : اللباب : الخالص . وفى صحيح البُستىّ

(١) معاوية هذا، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيتــه ثلاثة أيام" . قال أبو حاتم البستي : قوله صـلى الله عليـه وسلم : "لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" أراد : مردة الشياطين . وروى الدارمي في مسنده عن الشعبي قال قال عبد الله : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليـلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ، أربعا من أولهـا وآية الكرسي وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها، أولهـا : « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ » . وعن الشعبي عنـه : لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يُقرأن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع : — وكان من أصحاب عبد الله — لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قـد حفظ . قال أبو محمد الدارمي : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفي كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لبيد بن ربيعة [ابن عامر][1] بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ؛ أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده؛ فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران؛ فأعجب عمر قوله ؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقـد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل في الإسلام إلا قوله :

الحمـــد لله إذ لم يأتني أجـــلي * حتى اكتسيتُ من الإسلام سِرْبالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هـذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السَّلولي، وهو أصح عندي؛ وقال غيره : بل البيت الذي قاله في الإسلام :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه * والمرءُ يصلحه القرينُ الصالح

وسيأتي ما ورد في آية الكرسي وخواتيم البقرة، ويأتي في أول سورة آل عمران زيادة بيان لفضل هذه السورة إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن كتاب الإستيعاب (ج ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

"رب يسر وأعن"

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور ؛ فقال عامر الشعبي وسفيان الثورى وجماعة من المحدّثين : هى سر الله فى القرآن، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت، وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . وذكر أبو الليث السمرقندى عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة فى القرآن إلا فى أوائل السور ، ولا ندرى ما أراد الله جلّ وعزّ بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنبارى : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبى طالب حدّثنا أبو المنذر الواسطى عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثَيم (١) قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون. قال أبو بكر : فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم، اختبارا من الله عزّ وجلّ وامتحانا؛ فمن آمن بها أثيب وسعد، ومن كفر وشكّ أثِم وبَعُد. حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضى حدّثنا محمد بن أبى بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ؛ ثم قرأ : « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ » .

(١) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب الربيع بن خثيم» بضم المعجمة وفتح المثلثة ، ولكن فى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

قلت : هـذا القول فى المتشابه وحكمه، وهو الصـحيح على ما يأتى بيانه فى آل عمران إن شاء الله تعـالى . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيهـا، ونلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليهـا ، واختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن آبن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة فى القرآن اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب والفراء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بهـا العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منهـا بناء كلامهم ، ليكون عجزهم عنـه أبلغ فى الحجة عليهم إذ لم يخـرج عن كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون عنـد استماع القرآن ، فلما سمعوا : « الٓمٓ » و « الٓمٓصٓ » استنكروا هذا اللفظ، فلما أنْصَتوا له صلّى الله عليه وسلّم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم. وقال قوم: روى أن المشركين لـمـا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا: « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ » نزلت ليستغربوها فيفتحون لهـا أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها ، كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد صلى الله عليه وسـلم . وقيل : الألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى أبو الضُّحَى عن ابن عباس فى قوله : « الٓمٓ » قال : أنا الله أعلم، « الٓر » أنا الله أرى، « الٓمٓصٓ » أنا الله أفصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن اسم الله، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب الى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنى؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التى الحروف منها؛ كقوله :

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

اراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخير خيراتٍ وإن شرًّا فَا * ولا أريد الشر إلا أنْ تَا

أراد : وإن شرًّا فشرٌ . وأراد : إلا أن تشاء .

وقال آخر :

نادوهم ألَا الجموا ألَا تَا * قالوا جميعا كلهــم ألَا فَا

أراد : ألا تركبون ، قالوا : ألا فاركبوا . وفى الحديث : " من أعان على قتــل مسلم بشــطر كلمة " قال شقيق : هو أن يقول فى اقتــل : اُقْ ؛ كما قال عليه السـلام " كفى بالسيف شا " معناه : شافيا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للســور . وقال الكلبى : هى أقسام أقسم الله تعــالى بها لشرفها وفضلها ؛ وهى من أسمائه عن ابن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل : إنّ وقــد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف ، فلا يجوز أن يكون يمينا . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : « لا ريب فيه » فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لَا رَيْبَ فيه ؛ لكان الكلام ســديدا ، وتكون لا ، جواب القسم . فثبت أن قول الكلبى وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة فى القسم من الله تعالى ، وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدق ، ومكذب ؛ فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم؟ . قيل له : القرآن نزل بلغة العرب ؛ والعرب اذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم : « الم » أى أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : « الم » قال : اسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علىّ الترمذى أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع مافى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أوّل السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبىّ أو ولىّ ، ثم بيّن ذلك فى جميع السورة ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال ؛ فالله أعلم .

والوقف على هــذه الحروف على السكون لنقصانها إلا اذا أخبرت عنهــا أو عطفتها فإنك تعربها ؛ واختلف : هل لها محل من الإعراب ؟ فقيل : لا لأنها ليست أسماء متمكنة ، ولا افعالا مضارعة ؛ وإنما هى بمنزلة حروف التهجى فهى محكية ؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه .

ومن قال : إنها أسماء السور فوضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر، أى هـذه « الم » كما تقول : هذه سورة البقرة ، أو تكون رفعا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوى : « الم » فى موضع نصب ؛ كما تقول : آقرأ « الم » أو عليك « الم » وقيل : فى موضع خفض بالقسم، لقول آبن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب ، وذلك قد تستعمل فى الإشارة الى حاضر ، و إن كان موضوعا للاشارة الى غائب ، كما قال تعالى فى الإخبار عن نفســه جلّ وعزّ : « ذَٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » ؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة :

أقول له والرّمحُ يأطِرُ[1] مَتنَه * تأمّل خُفافا إننى أنا ذلكا

أى انا هذا ، فذلك إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا، تلخيصه الم هذا الكتاب لا ريب فيه، وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما ، ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ » « تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ » أى هذه، لكنها لمـا انقضت صارت كأنها بعدت، فقيل تلك . وفى البخارى وقال معمر : ذلك الكتاب، هذا القرآن : ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة كقوله : « ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء هذا بمعنى ذلك ، ومنه قوله عليه السلام فى حديث أُمّ حَرَام : "يركبون ثَبَج هذا البحر" أى ذلك البحر، والله أعلم . وقيل هو على بابه إشارة إلى غائب .

واختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة، فقيــل : ذلك الكتاب، أى الكتاب الذى كتبتُ على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا ريب فيه ، أى لا مبدل له . وقيل : ذلك الكتاب ، أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل أن رحمتى ســبقت غضبى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "لمـا قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أنّ رحمتى تغلب غضبى" فى رواية : «سبقت» . وقيل :

(١) يأطر : يثنى .

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء؛ فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حِمَار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال انمـا بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائمـا و يقظانَ" الحديث . وقيل : الإشاره الى ما قـد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل على نبيّه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستشرفا لإنجاز هـذا الوعد من ربّه عزّ وجلّ ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هـذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه اليك بمكة . وقيل : إن ذلك إشارة الى ما فى التوراة والإنجيل . و « الم » اسم للقـرآن؛ والتقدير هـذا القرآن ذلك الكتاب المفسر فى التـوراة والإنجيل؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته و يستغرق ما فيهما و يزيد عليهما ما ليس فيهما . وقيـل : إن ذلك الكتاب إشارة إلى التـوراة والإنجيل كليهما؛ والمعنى : الم ذانك الكتابان أو مثل ذينك الكتابين؛ أى هـذا القرآن جامع لمـا فى ذينك الكتابين فعبر بذلك عن الاثنين بشاهد من القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ » أى عوان بين تينك : الفارض والبكر ؛ وسيأتى . وقيل : إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ ؛ وقال الكسائى : ذلك إشارة إلى القـرآن الذى فى السماء لم ينزل بعدُ . وقيـل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد صلى الله عليـه وسلم كتابا ، فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى هـذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيـل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « الم » الحروف التى تحديتكم بالنظم منها .

والكتاب مصـدر من كتب يكتب إذا جمع؛ ومنه قيـل : كَتِيبة لاجتماعها، وتكتَّبت الخيل صارت كتائب . وكَتَبْتُ البغلةَ إذا جمعتَ بين شُفْرَىْ رَحِمِهَا بحلقة أو سير؛ قال :

لا تأمنَنّ فَزارِيًّا حلَلْتَ به * على قَلُوصك وا كْتُبْها بأسيارِ

والكتبة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَبٌ؛ والكَتْبُ : الخَرْز . قال ذو الرُّمة :

وَفْرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أَثْأَى خَوارِزُها * مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْه بينها الكُتَبُ[(١)]

والكِتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة ؛ وسمى كتابا وإن كان مكتوبا كما قال الشاعر :

تُؤَمِّلُ رَجْعَــةً مِنِّى وفيهــا * كِتَابٌ مثلَ ما لِصقَ الغِرَاء

والكِتاب : الفَرْض والحُكم والقَدَر، قال الجعدى :

يَاَبنةَ عَمِّى كتاب الله أخرجنى * عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ نفى عام، ولذلك نصب الريب به . وفى الريب ثلاثة معان :

أحدها — الشك، قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أُمَيْمةُ رَيْبٌ * إنمــا الرَّيبُ ما يقول الجهول

وثانيها — التُّهَمَة، قال جَميل :

بُثَينةُ قالت يا جَميلُ أَرَبْتَنِى * فقلت كلانا يابثين مُرِيب

وثالثها — الحاجة، قال[(٢)] :

قضينا من تِهَامةَ كلَّ رَيْب * وخَيْــبَرَ ثم أَجْمَمْنَا السيوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيــه ولا ارتياب ؛ والمعنى أنه فى ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا محدث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى أى لا ترتابوا، وتم الكلام، كأنه قال ذلك الكتاب حقا . وتقول : رابنى هذا الأمرُ إذا أدخل عليك شكًّا وخوفا . وأراب : صار ذا ريبــة فهو مُرِيب . ورابنى أمره . ورَيْبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه ست مسائل :

---

(١) قوله : وفراء ، أى واسـعة . وغرفية : مدبوغة بالغرف ، وهو نبت تدبغ به الجلـود . وأثأى والثأى (بسكون الهمزة وفتحها) : خرم خرز الأديم . والمشلشل : الذى يكاد يتصل قطاره وسيلانه لتتابعه .

(٢) هو كعب بن مالك الأنصارى ؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ﴾ الهاء فى فيه فى موضع خفض بفى ، وفيه خمسة أوجه ؛ أجودها : فيهِ هُـدى ، ويليه فيهُ هُـدى بضم الهـاء بغير واو (١) وهى قراءة الزهرى وسلّام أبى المنذر ، ويليه فيهِى هُدى بإثبات الياء وهى قراءة ابن كثير ، ويجوز فيهُو هُدى بالواو ، ويجوز فيه هدى مدغما ؛ وارتفع هدى على الابتداء والخبر فيه . والهُدَى فى كلام العرب معناه الرشد والبيان ، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى .

الثانيـة — الهُدَى هُديان : هُـدَى دلالة ، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم ؛ قال الله تعالى : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه ؛ وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق ، فقال لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ » فالهدى على هـذا يجئ بمعنى خلق الإيمان فى القلب ؛ ومنه قوله تعالى : « أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ » وقوله : « وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . والهُدَى : الاهتداء ومعناه راجع الى معنى الإرشاد كيفما تصرفت . قال أبو المعالى : وقد ترد الهـداية والمراد بها إرشاد المؤمنين الى مسالك الجنان والطرق المفضية اليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : « فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ » ومنه قوله تعالى « فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » معناه فاسلكوهم اليها .

الثالثـة — الهدى لفظ مؤنث . قال الفراء : بعض بنى أسـد تؤنّث الهدى فتقول : هذه هُدًى حسنة . وقال اللحيانى : هو مذكر ، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك ، ويتعدّى بحرف وبغير حرف وقد مضى فى الفاتحة ، تقول : هـدَيْتُه الطريق والى الطريق ، والدارَ والى الدار أى عرّفته ، الأولى لغة أهل الحجاز والثانية حكاها الأخفش . وفى التنزيل : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » و « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا » . وقيل : إن الهدى اسم من أسماء النهار ، لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم ؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

[حتّى استبنْتُ الهُدَى والبيدُ هاجمةٌ * يَخْشعْنَ فى الآل غُلْفًا أو يُصلّينا] (٢)

(١) أى بعد الهاء من « فيه » . (٢) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول ؛ والزيادة من اللسان مادة (هدى) . والبحر المحيط فى هذا الموضوع .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خص الله تعالى المتقين بهدايته و إن كان هدى للخلق أجمعين تشريفا لهم ، لانهم آمنوا وصـــدقوا بما فيه . وروى عن أبى رَوْق أنه قال : هدى للتقين أى كرامة لهم ، يعنى إنمـا أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامة لهم و بيانا لفضلهم . وأصـل للتقين : للوتقيين بياءين مخففتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى اجتماع الواو والتـاء وأدغمت التاء فى التاء فصار للتقين .

الخامســـة — التقوى يقال أصـلها فى اللغة قلة الكلام ؛ حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث : "التَّقِيُّ مُلْجَم والمتَّقِي فوق المؤمن والطائع" وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعـالى ، مأخوذ من اتقاء المكروه بمـا تجعله حاجزا بينك و بينه ؛ كما قال النابغـــة :

سقط النَّصِيفُ (١) ولم تُرِد إسقاطه ＊ فتناولتـــه واتّقتـــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعا دونه الشمس واتّقت ＊ بأحسن موصـــولين كَفٍّ ومِعْصَمِ

وخرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرِّ بن حُبَيش عن آبن مســعود قال قال يوما لابن أخيه : يآبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قال : نعم ؛ قال : لا خير فيهـم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يابن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهـم إلا عالم أو متعـلم . وقال أبو يزيد البِسْطامى : المتّقى من اذا قال قال لله، ومن اذا عمـل عمل لله . وقال أبو سليمان الدّارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات . وقيـل : المتقى الذى اتقى الشرك و برئ من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسـق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) النصيف : ثوب تجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ؛ سمى نصيفا لأنه نصف بين الناس وبينها فحجز أبصارهم عنها .

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمّرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هـذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

خَلِّ الذنوب صـــغيرها * وكـبيرها ذاك التّـــقى
واصـــنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صـــغيرة * إن الجبـال من الحصى

السادســـة — التقوى فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان ؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشِّعر وأنت ما حُفظ عنك شيء ؛ فقال :

يريد المـرء أن يُؤْتَى مُنَاه * و يأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما آستفادا

وروى ابن ماجه فى سننه عن أبى أُمامة عن النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم أنه كان يقول : "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته و إن نظر اليها سرّته و إن أقسم عليها أبرّته و إن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله" .

والأصـل فى التقوى : وَقْوَى على وزن فَعْلَى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أى منعته ؛ ورجلَ تقِيّ أى خائف، أصله وقى، وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة كما قالوا : تجاه وتراث، والأصل وجاه ووراث :

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ فيها ست وعشرون مسئلة .

الأولى — قوله : ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضـع خفض نعت للتقين ، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين ، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصـدقون ؛ والإيمـان فى اللغة : التصديق ؛ وفى التنزيل : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » أى بمصـدق ؛ و يتعدى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » « فَمَا آمَنَ لِمُوسَى » . وروى حجاج بن حجاج

الأحول — ويلقب بزق العسل — قال سمعت قتادة يقول : يا ابن آدم، إن كنت لاتريد أن تأتى الخير إلا عن نشـاط فان نفسك مائلة الى السآمة والفترة والملة ؛ ولكن المؤمن هو المتحامل[1] ، والمؤمن هو المتقوى، والمؤمن هو المتشـدد ، وإن المؤمنين هم العجاجون[2] الى الله الليل والنهـار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربنا ربنا فى السر والعلانيـة حتى استجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منـه : غابت الشمس تغيب ؛ والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مغيبة اذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غَيبة وغَيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأجمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثـــة — واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هـذه الآية : الله سـبحانه . وضعفه ابن العربى . وقال آخرون : القضا والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيـه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السـلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهـذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السـلام حين قال للنبى صـلى الله عليه وسـلم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره " . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبدالله بن مسعود: ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: «الذين يؤمنون بالغيب» .

قلت : وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ » وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُـمْ بِالْغَيْبِ » . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاسـتدلال ؛

(١) تحامل فى الأمر وبه : تكلفه على مشقة وإعياء . (٢) العج : رفع الصوت بالتلبية .

فهم يؤمنون أن لهم ربًّا قادرا يجازى على الأعمـال ، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهـم التى يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم باطلاعه عليهم ؛ وعلى هذا تتفق الآى ولا تتعارض ؛ والحمد لله . وقيل : بالغيب أى بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالغيب آمنّا وقد كان قومُنا * يصلّون للأوثان قبل محمّـد

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ ﴾ معطوف جملة على جملة ؛ وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها فى أوقاتها على ما يأتى بيانه ؛ يقال : قام الشىء أى دام وثبت ؛ وليس من القيام على الرِّجْل ؛ وإنمـا هو من قولك : قام الحق أى ظهـر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنـا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتمُ لم يبرحـوا * حتى تُقيم الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيـل : يقيمون يديمون، وأقامه أى أدامه ؛ وإلى هـذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لمـا سواها أضيع .

الخامسـة — إقامة الصلاة معروفة ؛ وهى سنة عند الجمهور، وأنه لا إعادة على تاركها ؛ وعند الأوزاعى وعطاء ومجاهـد وابن أبى ليلى هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظـاهر . وروى عن مالك ، واختـاره ابن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى " وأقم " فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء .

قال : فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحـديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال ابن عبد البر قوله صلى الله عليه وسـلم : " وتحريمها التكبير " دليل على أنه لم يَدخل فى الصـلاة من لم يُحْرِم ، فـا كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للإجمـاع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك ؛ وقال بعض علمائنا : من تركها عمدا أعاد الصلاة ، وليس ذلك لوجوبهـا إذ لو كان ذلك لأستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن ، والله أعلم .

السادســـة — واختلف العلمـاء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْ لا ؟ فذهب الأكثر الى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام : "اذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السّكينة فما أدركتم فصلّوا وما فاتكم فأتمّوا" . رواه أبوهريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا ثُوِّب بالصـلاة فلا يَسْعَ اليها أحدكم ولكن ليَمْشِ وعليـه السّكينة والوقار صَـلِّ ما أدركت واْقضِ ما سبقك" . وهذا نص ؛ ومن جهة المعنى أنه اذا أسرع انبهر[1] فشوش عليه دخوله في الصـلاة وقراءتهـا وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر وابن مسـعود على اختلاف عنه أنه اذا خاف فواتها أسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرك الفرس ؛ وتأوله بعضهم على الفرق بين المـاشي والراكب لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر المـاشي .

قلت : واستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم في كل حال أولى، فيمشي كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار لأنه في صلاة ؛ ومحال ان يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل في الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك المـاشي، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه؛ ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة ، وما خرّجه الدّارمي في مســنده قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سـفيان عن محمد بن عجلان عن المقبري عن كعب بن عُجْرَة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا توضأت فعمدت الى المسجد فلا تشبكن بين أصابعك فانك في صـلاة" . فمنع صلى الله عليه وسلم في هـذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعله كالمصلي ؛ وهذه السنن تبيّـن معنى قوله تعـالى : «فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ» وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل؛ هكذا فسره مالك ، وهو الصواب في ذلك والله أعلم .

---

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس من الإعياء .

السابعـــة — واختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام : "وما فاتكم فأتموا" وقوله : "واقض ما سبقك" هل هما بمعنًى واحد أو لا ؟ فقيل : همـا بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمـام، قال الله تعـالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ » وقال : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ » . وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح؛ ويترتب على هـذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أوّل صلاته أو آخرها ؟ فذهب الى الأوّل جماعة من أصحاب مالك؛ منهم ابن القاسم ولكنه يقضى مافاته بالحمد وسورة، فيكون بانيا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال. قال ابن عبـد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَادُ : وهو الذى عليـه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعى والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود بن ابن علىّ . وروى أشهب وهو الذى ذكره ابن عبـد الحكم عن مالك، ورواه عيسى عن ابن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضـيا فى الأفعال والأقوال؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ابن عبد البر : من جعل ما أدرك أوّل صلاته فأظنهم راعوا الإحرام لأنه لا يكون إلا فى أوّل الصـلاة ، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها؛ فمن هاهنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : "فأتموا" والتمـام هو الآخر .

واحتج الآخرون بقوله : "فاقضوا" والذى يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى «فأتموا» أكثر، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أوّلُ صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبـد العزيز بن أبى سَلَمة المـاجِشُون والمزنى وإسحاق وداود من أنه يقـرأ مع الإمام بالحمد وسـورة إن أدرك ذلك معه ، وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء اطرد على أصلهم قولهم وفعلهم؛ رضى الله عنهم .

الثامنـــة — الإقامة تمنع من ابتداء صلاة نافلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصـلاة فلا صـلاة إلا المكتوبة" خرّجه مسلم وغيره؛ فأما إذا شرع فى نافلة

فلا يقطعها لقوله تعالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ » وخاصة إذا صلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث فى ذلك . والله أعلم .

التاســـعة — واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر ثم أقيمت الصلاة؛ فقال مالك: يدخل مع الإمام ولا يركعهما؛ وإن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد، ولا يركعهما فى شيء من أفنية المسجد — التى تصـــل فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه؛ ثم يصـليهما إذا طلعت الشمس إن أحب؛ ولَأَنْ يصـلّيهما اذا طلعت الشمس أحب إلىّ وأفضل من تركهما . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه ، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام؛ وكذلك قال الأوزاعى ؛ إلا أنه يجوِّز ركوعهما فى المسجد مالم يخف فوت الركعة الأخيرة ؛ وقال الثورى : إن خشى فوت ركعـــة دخل معهم ولم يصلهما وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حَىّ ويقال آبن حَيّان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوّع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصـــلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد ؛ وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمد بن حنبل ؛ وحكى عن مالك وهو الصحيح فى ذلك؛ لقوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا صـــلاة إلا المكتوبة " . وركعتا الفجر إما سنة، وإما فضـــيلة، وإما رغيبة؛ والحجـــة عند التنازع حجة السنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبى حنيفة ما روى عن آبن عمر أنه جاء والإمام يصلى صلاة الصبح فصلاهما فى حجـــرة حفصة ، ثم إنه صـــلى مع الإمام . ومن حجة الثورى والأوزاعى ما روى عن عبـــد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصلى إلى اسـطُوَانة[1] فى المسجد ركعتى الفجر ، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبى موسى رضى الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

(١) الأسطوانة : العامود .

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك فى المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك ابن بُحَيْنَة (١) قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلى والمؤذن يقيم ، فقال : "أتصلى الصبح أربعا"! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتى الفجر فى المسجد والإمام يصلى ؛ ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتى الفجر إن وقعت فى تلك الحال صحت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك، والله أعلم .

العاشرة — الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء، مأخوذة من صلى يصلى إذا دعا، ومنه قوله عليه السلام : "إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليصل" أى فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة ، فيصلى ركعتين وينصرف؛ والأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . ولما وَلدت أسماءُ عبدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلّى عليه، أى دعا له . وقال تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ » أى ٱدع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بِنْتِى وقد قَرُبت مرتحلا * يا ربّ جنّب أبِى الأوصاب والوجَعَا

عليكِ مثلَ الذى صلّيتِ فاغْتمِضى * نومًا فإن لجنبِ المرء مُضطجَعَا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرِّيحُ فى دَنِّها * وصلَّى على دَنِّها وارْتَسَمْ

ارتسم الرجل : كبّر ودعا، قاله فى الصحاح . وقال قوم : هى مأخوذة من الصَّلَا وهو عِرْق فى وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه ؛ ومنه أُخِذ المُصلِّى فى سبق الخيل، لأنه يأتى فى الحَلْبة ورأسه عند صَلَوَى السابق؛ فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمُصَلِّى من الخيل، وإما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه . والصَّلا مغرز الذَّنَب من الفرس،

(١) بحينة أمه وهى بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدى .

والاثنان صلوان . والمُصَلِّى : تالى السابق ، لأن رأسه عند صَلاه . وقال علىّ رضى الله عنه : سَبَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صلِي بالنار إذ لزمها؛ ومنه : « تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً » . قال الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُنَاتِها علم الله * ـهُ و إنّى بحرّها اليومَ صالِ

أى ملازم لحرها، وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صَلَيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصِّلاء؛ والصِّلاء : صِلاء النار بكسر الصاد ممـدود، فإن فتحت الصاد قصرت ، فقلت صَلا النار، فكأنّ المصلى يقوّم نفسه بالمعاناة فيها و يلين ويخشع؛ قال الخارزنجى(1) :

فلا تَعْجل بأمرك واستدِمْهُ * فمـا صَلَّى عصاكَ(2) كمستديمِ

والصلاة : الدعاء؛ والصلاة : الرحمة؛ ومنه : "اللّهمّ صلّ على محمد" الحديث . والصلاة : العبادة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ » الآية ، أى عبادتهم . والصلاة : النافلة؛ ومنه قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ » . والصلاة : التسبيح؛ ومنه قوله تعالى: « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى من المصلين . ومنه سبحة الضحى . وقد قيل فى تأويل « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ » نصلى . والصلاة : القراءة؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ » فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلى فيه، قاله ابن فارس . وقد قيل : إن الصلاة اسم علم وضع لهـذه العبادة؛ فإن الله تعالى لم يُخلِ زمانا من شرع ، ولم يُخلَ شرع من صلاة ؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا اشتقاق لها؛ وعلى قول الجمهور وهى : —

الحادية عشرة — إختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، وكذلك الإيمـان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنمـا تصرّف بالشروط والأحكام ، أو هل

(1) كذا فى جميع الأصول، وفى اللسان مادة (صلا) : « ... قيس بن زهير » . (2) كذا فى جميع الأصول؛ وفى اللسان : « عصاه » .

تلك الزيادة من الشرع تصيّرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع ؛ هنا اختلافهم والأول أصح، لأن الشريعة ثبتت بالعربية، والقرآن نزل بها بلسان عربى مبين؛ ولكن للعرب تحكُّم فى الأسماء، كالدابة وضعت لكل ما يَدِب؛ ثم خصصها العرف بالبهائم؛ فكذلك لعرف الشرع تحكُّم فى الأسماء والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف فى المراد بالصلاة هنا؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معا؛ وهو الصحيح لأن اللفظ عام والمتقى يأتى بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية . على ما يأتى بيانه فى «طه» إن شاء الله تعالى، وشفاء من وجع البطن وغيره؛ روى ابن ماجه عن أبى هريرة قال : هَجَّر(١) النبيُّ صلى الله عليه وسلم فهجّرتُ فصليتُ ثم جلستُ ؛ فالتفت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : "أشكيت دَرْدَ" قلت : نعم يا رسول الله؛ قال : "قم فصل فإن فى الصلاة شفاء" فى رواية : "أشكيت درِ يد" يعنى تشتكى بطنك بالفارسية؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبه(٢) أمرٌ فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛ فمن شروطها : الطهارة ، وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء والمائدة . وستر العورة، يأتى فى الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة، والنية، وتكبيرة الإحرام والقيام لها، وقراءة أم القرآن والقيام لها، والركوع والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علمه النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخلّ بها ، فقال له : " إذا قمت الى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم كبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع

(١) التهجير : التبكير الى كل شىء والمبادرة اليه . (٢) حزبه الأمر : نابه واشتد عليه، وقيل : ضغطه .

حتى تعتدل قائمـا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك فى صلاتك كلهـا " خرّجه مسلم . ومثله حديث رفاعة بن رافع ، أخرجه الدارقطنى وغيره . قال علماؤنا : فبين قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القـراءة وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح فى الركوع والسجود ، وعن الجلسة الوسطى وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام . أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما . وأما رفع اليـدين فليس بواجب عنـد جماعة العلمـاء وعامة الفقهاء ، لحديث أبى هريرة وحديث رفاعة بن رافع ؛ وقال داود وبعض أصحـابه بوجوب ذلك عنـد تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عنـد الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب ، وإن من لم يرفع يديه فصلاته باطلة ، وهو قول الحميـدى ، ورواية عن الأوزاعى . واحتجوا بقوله عليـه السلام : "صلوا كما رأيتمونى أصلى" أخرجه البخارى . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ، لأنه المبلِّغ عن الله مرادَه . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور ، وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير فى الصلاة ثلاث تكبيرات فمـا فوقها سجد للسهو قبـل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صـلاته ؛ وإن نسى تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شىء عليـه ؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها . وهذا يدل على أن عظم التكبير وجملته عنده فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنه . وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبر فى الصلاة من أولها إلى آخرها شىء إذا كبر تكبيرة الإحرام ، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شىء عليه ؛ ولا ينبغى لأحد أن يترك التكبير عامدا ، لأنه سنة من سنن الصلاة ، فإن فعل فقد أساء ولا شىء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهـل الحديث والمـالكيين غيرَ من ذهب مذهب ابن القاسم . وقـد ترجم البخارى رحمه الله (باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود) وساق حديث مُطرِّف بن عبـد الله قال :

صليت خلف علىّ بن أبى طالب أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبر، وإذا رفع رأسه كبر، وإذا نهض من الركعتين كبر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدى عمران بن حصين فقال: لقد ذكرنى هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم، أو قال: لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وحديثَ عكرمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع؛ فأخبرت ابن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أُمَّ لك[(١)]! فدلّك البخارى رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السبيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال: صلى بنا علىّ يوم الجَمَل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يكبر فى كل خفض ورفع، وقيام وقعود؛ قال أبو موسى: فإما نسيناها وإما تركناها عمدا.

قلت: أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشئ إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه؛ وبالله التوفيق.

الخامسة عشرة — وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور؛ وأوجبه إسحاق بن رَاهَوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليه السلام: "أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم".

السادسة عشرة — وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك؛ فقال مالك وأصحابه: الجلوس الأوّل والتشهد له سنتان. وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول وقالوا: هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرايا[(٢)] من المُزَابنة[(٣)]، والقِراض[(٤)] من الإجارات، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا. واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

(١) قوله: لا أم لك. فى نهاية ابن الأثير: «هو ذم وسب. أى أنت لقيط لا تُعرَف لك أم. وقيل: قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بُعدٌ».

(٢) العرايا: نخل كانت توهب للساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بما شاءوا من التمر.

(٣) المزابنة: بيع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلا، وبيع الزبيب بالكرم.

(٤) القراض (بالكسر): اجارة على التَّجْر فى مال بجزء من ربحه.

العامد لتركه تبطل صــلاته كما لا تبطل بترك سنن الصــلاة . احتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصــلاة لرجع الساهي عنه إليــه حتى يأتي به ، كما لو ترك سجدة أو ركعة ، ويراعى فيه ما يراعى في الركوع والسجود من الولاء والرتبة ؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفي حديث عبد الله آبن بُحَيْنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسي أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائمــا فقاموا ؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتي السهو قبل التسليم ؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ؛ لأن الفرائض في الصلاة يستوي في تركها السهو والعمد إلا في المؤتم . واختلفوا في حكم الجلوس الأخير في الصلاة وما الغرض من ذلك . وهي : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض والتشهد فرض والسلام فرض ؛ وممن قال ذلك الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية ، وحكاه أبو مصعب في مختصره عن مالك وأهل المدينة ، وبه قال داود . قال الشافعي : من ترك التشهد الأوّل والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه . وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . واحتجوا بأن بيان النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصلاة فرض ، لأن أصل فرضها مجمل يفتقر الى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتموني أصلي " .

القول الثاني : انّ الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب ، وإنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين ، وإليه ذهب ابراهيم بن عُلَيّة ، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى ، فخالف الجمهور وشذ ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيأ من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبدالله بن عمرو بن العاصي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ في صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته " وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر ؛ وقد بيناه في كتاب المقتبس (١) . وهذا اللفظ إنما يُسقط السلام لا الجلوس .

(١) في بعض الأصول : « المقتبس » .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض، وليس التشهدولا السلام بواجب فرضا. قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين . واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريقى عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " اذا جلس أحدكم فى آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صلاته " . قال ابن العربى : وكان شيخنا فخر الاسلام ينشدنا فى الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضَرْطَة * أيْن الضّراطُ من السلامِ عليكُمُ

قال ابن العربى : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك بن عبد الملك أن من سلم من ركعتين متلاعبا ، نخرج البيان أنه كان على أربع أن يجزئه ؛ وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثانى : فوقع فى الكتب المنبوذة أن الامام اذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئُ مَن خلفه ؛ وهذا مما لا ينبغى أن يلتفت اليه فى الفتوى ؛ وان عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب . وممن قال هذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل فى رواية . واحتجوا بأن قالوا : ليس شىء من الذكر يجب الا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهْوَيْه ، واحتج إسحاق بحديث ابن مسعود حين علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " . قال الدار قطنى : قوله " اذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير فى الحديث، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام ابن مسعود ؛ وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم . وشَبَابَة ثقة وقد تابعه غَسّان بن الربيع على ذلك . جعل آخر الحديث من كلام ابن مسعود ولم يرفعه الى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — واختلف العلماء فى السلام؛ فقيل : واجب،وقيل : ليس بواجب . والصحيح وجوبه لحديث عائشــة وحديث علىّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمــذىّ ورواه سفيان الثورىّ عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن محمد آبن الحنفية عن علىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث أصـل فى إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها باتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدى : لو افتتح رجل صـلاته بسبعين آسما من آسماء الله عز وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه ، وان أحدث قبل أن يسلم لم يجزه ؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهـدى لحديث علىّ وهو امام فى علم الحـديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحسبك به !

وقد اختلف العلماء فى وجوب التكبير عند الافتتاح وهى : —

التاسعة عشرة — فقال ابن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيّب والأوزاعى وعبد الرحمن وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقـد روى عن مالك فى المأموم ما يدل على هـذا القول؛ والصحيح من مذهبـه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصـلاة؛ وهو الصواب وعليه الجمهور ، وكل من خالف ذلك فحجوج بالسنة .

الموفية عشرين—واختلف العلماء فىاللفظ الذى يدخل به فى الصلاة؛فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد . هـذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا « الله أكبر » لا غير ذلك . وكذلك قال الشافعى وزاد : ويجزئ « الله أكبر » و « الله الكبير » . والحجة لمـالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ « الحمد لله رب العالمين » . وحديث علىّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابى : فكبر . وفى سنن ابن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شـيبة وعلىّ بن الطنافسى قالا : حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنى عبد الحميد بن جعفر قال حدّثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدى يقول :

كان رســول الله صلى الله عليه وســلم إذا قام الى الصلاة استقبل القبلة ورفع يديه وقال : « الله أكبر » وهذا نص صريح وحديث صحيح فى تعيين لفظ التكبير، قال الشاعر :

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيء * محاولةً وأعظمه جنــودا

ثم أنه يتضمن القــدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ فى المعنى والله أعلم

وقال أبو حنيفة : إن افتتح بلا إله إلا الله يجزيه ، وإن قال : اللهم اغفر لى لم يجزه وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لايجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلل وكبر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة ، فمن كان هــذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يجزئ التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية . قال ابن المنذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين ، وخلاف ما علّم النبيّ صلى الله عليه وســلم أمته ؛ ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال والله أعلم .

الحادية والعشرون — واتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيأ روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة ؛ وحقيقتها قصد التقرب الى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ابن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوىّ بهــا ، أو قبل ذلك بشرط استصحابها ، فان تقدّمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها ، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل؛ وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى اقترانها بأوله . قال ابن العربىّ وقال لنا أبو الحسن القروىّ بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية ، ويجرد النظر فى الصانع وحدوث العــالم والنبوات حتى ينتهى نظره الى نية الصلاة؛ قال : ولا يحتاج ذلك الى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى[1] لحظة ، لأن

---

(١) أوحى : أسرع .

تعليم الجمل يفتقر الى الزمان الطويل ، وتذكارها يكون فى لحظة ، ومن تمـام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها ، إلا أن ذلك لمـا كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائهـا . سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون : رأيت أبى سحنونا ربمـا يكمل الصـلاة فيعيدها ، فقلت له ما هـذا ؟ فقـال : عَزَبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة ، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعـالى ، فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة الى الأوقات ، وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة ، ويأتى ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف ، فى «النساء» والأوقات فى «هود وسبحان والروم» وصلاة الليل فى «المزمل» وسجود التلاوة فى «الأعراف» وسجود الشكر فى «ص» كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانيـة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم ، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما . خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه ، وإن الله لا يرزق الحرام وإنمـا يرزق الحلال ، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك .

قالوا : فلو نشأ صـبى مع اللصوص ولم يأكل شـيأ إلا ما أطعمه اللصوص الى أن بلغ وقوى وصار لصا ، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ماتلصصه الى أن مات ، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه ، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهـذا فاسد ، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا ، ولا البهـائم التى ترتع فى الصحراء ، ولا السِّخال من البهـائم ، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولمـا اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون ، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء لأن الأمة مُجمِعة على أن العبيد والإماء مرزوقون ،

وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ» وقال : « إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » وقال : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا » وهذا قاطع ؛ فالله تعالى رازق حقيقة وابن آدم رازق تجوزا ، لأنه يملك ملكا منتزعا كما بيناه فى الفاتحة ، مرزوق حقيقة كالبهائم التى لا ملك لها ؛ إلا أن الشىء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما ، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميع ذلك رزق .

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى : « كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ الرزق مصدره رزق يرزق رَزقا ورِزقا ، فالرَّزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق ، والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتان [بيض][(١)] . وارتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة ؛ هكذا قال أهل اللغة . وقال ابن السكيت : الرزق بلغة أَزْد شَنُوءَة : الشكر ؛ وهو قوله عزّ وجلّ : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المال من اليد ؛ ومنه نَفَق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشترى . ونَفَقت الدّابةُ : خرجت روحها ؛ ومنه النافقاء لجحر اليربوع الذى يخرج منه إذا أُخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه ؛ ونَيْفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها . ونَفِق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ » .

(١) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) .

الخامسة والعشرون — واختلف العلماء في المراد بالنفقة هاهنا، فقيل : الزكاة المفروضة — روى عن ابن عباس — لمقارنتها الصــلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن ابن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دِينارٌ أنفقتَه في سبيل الله ودينار أنفقته في رَقَبَة ودينار تَصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذى أنفقتــه على أهلك" . وروى عن ثَوْبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه في سبيل الله" قال أبو قِلابة[1] : وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة : وأيُّ رَجلٍ أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صــدقة التطوّع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى الا بلفظها المختص بها وهو الزكاة، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوع، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقربون بهــا الى الله جلّ وعزّ على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات[2] في «براءة» . وقيــل : إنه الحقوق الواجبة العارضــة في الأموال ما عدا الزكاة، لأن الله تعالى لمــا قرنه بالصــلاة كان فرضا، ولمــا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا، وذلك لا يكون إلا من الحلال ، أى يؤتون ما ألزمهــم الشرع من زكاة وغيرها ممــا يعنّ في بعض الأحوال مع ما ندبهم إليــه . وقيــل : الإيمان بالغيب حظ القلب . وإقام الصــلاة حظ البــدن . ومما رزقناهم ينفقون حظ المــال، وهذا ظاهر . وقال بعض المتقدّمين في تأويل قوله تعالى: « ومِمّــا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى مما علمناهم يعلمون، حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشــيرى .

---

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث .　　(٢) مثل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية . فقــد قال ابن العربي أنها ناسخة لآية « والذين يكنزون الذهب والفضة » الآية أنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأول من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وفيه نزلت، ونزلت الأولى فى مؤمنى العرب. وقيل : الآيتان جميعا فى المؤمنين، وعليه فإعراب الذين خفض على العطف، و يصح أن يكون رفعا على الاستئناف أى وهم الذين؛ ومن جعلها فى صنفين فإعراب الذين رفع بالابتداء وخبره أولئك على هدى؛ و يحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى : ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعنى الكتب السالفة؛ بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم فى قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا » الآية. ويقال : لما نزلت هذه الآية : «ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغيب» . قالت اليهود والنصارى : نحن آمنا بالغيب؛ فلما قال : « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » . قالوا : نحن نقيم الصلاة، فلما قال « ومما رزقناهم ينفقون » قالوا : نحن ننفق ونتصدّق ؛ فلما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » نفروا من ذلك . وفى حديث أبى ذرّ قال قلت : يارسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ(١) ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان " . الحديث أخرجه الحسين الآجُرّى وأبو حاتم البستى .

وهنا مسئلة — ان قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافى أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله ، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع . الثانى — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدّمة، على ما يأتى بيانه ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أى و بالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك؛ يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ بالكسر يَقْنًا، وأيقنتُ واستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى ؛

(١) أخنوخ هو إدريس عليه السلام .

وأنا على يقين منه . وإنما صارت الياء واوا في قولك : مُوقِن، للضمة قبلها وإذا صغرته رددته الى الأصل ، فقلت مُيَيْقِن . والتصغير يرد الأشياء الى أصولها وكذلك الجمع ، وربما عبروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمائنا في اليمين اللغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شيء عليه ؛ قال الشاعر[1] :

تَحَسَّبَ هَوّاسٌ وأيْقَنَ أنّنِي * بها مُفْتَدٍ مِن واحِدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول : تشمم الأسد ناقتي ، يظن أنني مفتد بها منه ، واستحمى نفسي فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد في التنزيل وهو في الشعر كثير وسيأتي . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو على ما يأتي .

قوله تعالى: أُولَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قال النحاس أهل نجد يقولون : أولاك ، وبعضهم يقول ، ألاك والكاف للخطاب . قال الكسائي: من قال أولئك فواحده ذلك ، ومن قال ألاك فواحده ذاك ، وأُلالك مثل أولئك ؛ وأنشد ابن السكيت :

أُلالِكَ قَومِي لم يكونوا أُشَابةً[2] * وهل يَعِظُ الضِّلِّيل إلا أُلالِكَا

وربما قالوا : أولئك في غير العقلاء ؛ قال الشاعر :

ذُمّ المنازل بعــد منزلة اللِّوَى * والعيشَ بعــد أولئك الأيام

وقال تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » وقال علماؤنا : إن في قوله تعالى : « مِنْ رَبِّهِمْ » ردًّا على القَدَرية في قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم، تعالى الله عن قولهم ! ولو كان كما قالوا لقال : « من أنفسهم »[3] ؛ وقد تقدّم الكلام فيه وفي الهُدَى[4] فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ هم، يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره المفلحون، والثاني وخبره خبر الأوّل؛ ويجوز أن تكون هم زائدة — يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا — والمفلحون خبر أولئك .

---

(١) هو أبو سدرة الأسدي ، ويقال : الهجيمي .

(٢) الأشابة من الناس : الأخلاط . والأشابة في الكسب : ما خالطه الحرام الذي لا خير فيه والسحت .

(٣) راجع المسئلة الحادية والثلاثين ص ١٤٩

(٤) راجع المسئلة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء .

والفَلْح أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إنّ الحـــديد بالحـــديد يُفْلَح *

أى يشق ؛ ومنه فلاحة الأرضين انمـا هو شقها للحرث ؛ قاله أبو عبيد . ولذلك سمى الأَكَّارُ فلاحا . ويقال للذى شقت شفته السفلى أفلح ، وهو بيِّن الفَلَحة ؛ فكأن المفلح قـد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء، وهو أصله أيضا فى اللغة؛ ومنه قول الرجل لامرأته : استَفْلِحى بأمْرِك ؛ معناه فوزى بأمرك؛ وقال الشاعر :

لو كان حىّ مدرك الفـلاح * أدركـه مُلاعب الرماح

وقال الأضْبط بن قُرَيع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لـكلِّ هَمٍّ من الهموم سَـعَهْ * والمُسْىُ والصُّبْحُ لا فَلاح مَعَهْ

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء؛ وقال آخر :

نحـل بلادا كلهـا حل قبلنا * ونرجوا الفلاح بعد عاد وحِمْيَرِ

أى البقاء؛ وقال عبيد :

أَفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرك بالضَّعـ * ـف وقـــد يُخَـــدَّعُ الأريبُ

أى أبق بما شئت من كيس وحُمْق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل . فمعنى وأولئك هم المفلحون : أى الفائزون بالجنـة والباقون فيها . وقال ابن أبى إسحـاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ؛ والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح فى السحور؛ ومنه الحديث : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح؟ قال : السحور. أخرجه أبو داود . فكأنّ معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه فلاحا . والفَلّاح بتشديد اللام : المُكارِى فى قول القائل [(١)] .

لها رِطْلٌ تَكِيلُ الزيتَ فيه * وفَلّاحٌ يسـوق لها حِمـارًا

ثم الفلاح فى العرف : الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب .

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ، ولم يقرأ من ربهُم ولا فيهُم ولا جنتيهُم ؟ فالجواب إن عليهم واليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف ، والأصل علاهم ولداهم وألاهم فأقرت الهاء على ضمتها ؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنتيهم ، ووافقه الكسائى فى « عليهم الذلة وإليهم اثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم . والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية ؛ وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ، ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : "ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء" قيل : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : "بكفرهن" ؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن العَشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت الى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط" أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكَفْر فى كلام العرب : الستر والتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كَفَر النُّجومَ غَمَامُها *

أى سترها ؛ ومنه سمى الليل كافرا ؛ لأنه يغطى كل شىء بسواده ؛ قال الشاعر (1) :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيدًا بَعْـدَ مَا * أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَها فى كافر

ذُكاء بضم الذال والمد آسم للشمس ؛ ومنه قول الآخر :

فوردَتْ قبل انبلاج الفجرِ * وآبْنُ ذُكاءٍ كَامِنٌ فى كَفْرِ

أى فى ليل . والكافر أيضا البحر والنهر العظيم . والكافر : الزارع والجمع كُفّار ، قال الله تعالى : « كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ » . يعنى الزُّرّاع لأنهم يغطون الحب . ورماد

(1) هو ثعلبة بن صعيرة المازنى ، يصف الظليم والنعامة ورواحهما الى بيضهما عند غروب الشمس . والثقل (بالتحريك) هنا : بيض النعام المصون . والرثيد : المنضد بعضه فوق بعض أو الى جنب بعض . وألقت يمينها فى كافر . أى بدأت فى المغيب . اللسان مادة (كفر) .

مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حل بتلك المواضع فهم أهل الكفور؛ ويقال الكفور : القُرَى .

قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه؛ أى سواء عليهم هذا . وجيء بالاستفهام من أجل التسوية ، ومثله قوله تعالى : « سَــوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » .

وقال الشاعر[(١)] :

وليـــل يقول الناس من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتّسع زمانه للاحتراز، فان لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرتَ عَمرًا وهو فى مَهَــلٍ * قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَناذَرَ بنو فلان هذا الأمر إذا خوّفه بعضُهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية؛ فقيل : هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره. أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس من هذه حاله دون أن يعين أحدا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود ، منهــم حُيَيّ بن أَخْطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتــل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأوّل أصح ، فإن من عيّن أحدا فإنمــا مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ موضعه رفعٌ خبر إن، أى إن الذين كفروا لا يؤمنون، وقيل خبر إن سواء، وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله ٱبن كيسان . وقال محمد بن يزيد : سواء رفع بالابتداء ، ءأنذرتهــم أم لم تنذرهم الخبر، والجملة خبر إنَّ . قال النحاس : أى أنهــم تبالَهُوا فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة «ءأنذرتهم» فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

(١) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق : آنذرتهم بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، واختارها الخليل وسيبويه، وهي لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر (١) :

أيا ظَبيةَ الوَعْساءِ بين جُلَاجِلٍ * وبين النقا آأنت أمْ أُمُّ سالمِ

هجاء « أنت » ألف واحدة . وقال الآخر :

تطاللتُ فاستشرفته فعرفتُه * فقلت له آنت زيد الأرانب

وروى عن ابن مُحَيصن أنه قرأ : « أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها، فحذف لالتقاء الهمزتين، أو لأن أم تدل على الاستفهام كما قال الشاعر :

تروح من الحيّ أم تبتكِرْ * وماذا يَضيرك لو تنتظِرْ

أراد : أتروح فاكتفى بأم من الألف . وروى عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ : ءاءنذرتهم، فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية؛ وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا؛ وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين : أأنذرتهم وهو اختيار أبي عبيد، وذلك بعيد عند الخليل؛ وقال سيبويه : يشبه في الثقل ضَنِنُوا . قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك رديء؛ لأنهم إنما يخففون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا . فهذه سبعة أوجه من القراءات، ووجه ثامن يجوز في غير القرآن؛ لأنه مخالف للسّواد (٢)؛ قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : ها أنذرتهم؛ كما يقال هياك وإياك؛ وقال الأخفش في قوله تعالى : « هَا أَنْتُمْ » إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ ﴾ بيّن سبحانه في هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : ختم الله . والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختّم شدّد للمبالغة؛ ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما في كتاب سيبويه، والمفصل للزمخشري . (٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم .

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعـانى : وصف الله تعـالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم والطبع والضيق والمرض والرَّيْن والموت والقساوة والانصراف والحَمِيّة والإنكار . فقال فى الإنكار : « قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » . وقال فى الحَمِيَّـة : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِـمُ الْحَمِيَّةَ » . وقال فى الانصراف : « ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » . وقال فى القساوة : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » . وقال : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » . وقال فى الموت : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » . وقال : « إِنَّمَـا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » . وقال فى الرَّيْن : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال فى المرض : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » . وقال فى الضيق : « وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » . وقال فى الطبع : «وَطُبِـعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ». وقال : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وقال فى الختم : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » . وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة ــ الختم يكون محسوسا كما بينا، ومعنًى كما فى هذه الآية . فالختم على القلوب : عدم الوَعْى عن الحق سبحانه مفهوم مخاطبـاته والفكر فى آياته . وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعوا الى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم .

الثالثـــة ــ فى هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمـان، فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيهـا المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمـانهم وهداهم، فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جَهَدوا، وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون، أو من يهديهـم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَـا لَهُ مِنْ هَادٍ » ! وكان

فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، و إنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكمُ والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هــذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنمــا هو فعل ما يصــير به القلب مطبوعا مختوما ، ولا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ، ألا ترى أنه إذا قيــل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم ، هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ، كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع ، فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لمــا امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهــم مختوم عليها وأنهــم فى ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهــم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم ، و إنمــا هو معنًى يخلقه الله فى القلب يمنع مــن الإيمــان به ، دليله قوله تعــالى : « كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » . أى لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعــة — قوله : ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِــمْ ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر . وهو فى الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلبه قلبا إذا رددته على بداءته ؛ وقلبت الإناء : رددته على وجهه ؛ ثم نقل هــذا اللفظ فسمى به هذا العضو الذى هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، وَلترددها عليه ، كما قيل :

ما سُمِّىَ القلب إلا مــن تقلُّبــه * فاحذر على القلب من قلب وتحويل

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه، تفريقا بينه و بين أصله؛ روى ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَثَلُ القلب مَثَلُ ريشة تقلبها الرياح بفلاة " . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : " اللّهمّ يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك " . فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك إقتداء به ؛ قال الله تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِه » . وسيأتى .

الخامسة — الجوارح و إن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — و إن كان رئيسها وملكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل لَيَصدُقُ فتُنْكت فى قلبه نكتة بيضاء و إن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه " . وروى الترمذى وصححه عن أبي هريرة: "أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فان هو تاب صقل قلبه " . قال : وهو الرّين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا، وقوله عليه السلام : " إن فى الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" دليل على أن الختم يكون حقيقيا والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة؛ وهو يَعْضُد قول مجاهد. والله أعلم.

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ؛ حدّثنا : " أن الأمانة نزلت فى جِذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلِموا من القرآن وعلِموا من السنة " ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال : " ينام الرجل النَّومةَ فتُقْبَض الأمانةُ من قلبه فيَظَل أثرها مثلَ الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل كجَمْر دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرا وليس فيه شيء — ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله — فيُصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة حتى يقال إن

فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا".

ففى قوله : الوكت وهو الأثر اليسير ؛ ويقال للبسر إذا وقعت فيه نكتة من الأرطاب قد وكت، فهو موكت . وقوله : المجل، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء؛ وقد فسره النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : "كجمر دحرجته" أى دورته على رجلك فنفط . فتراه منتبرا أى مرتفعا؛ مايدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه؛ وكذلك الختم والطبع والله أعلم. وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأىُّ قلب أُشرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصّفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخرُ أسودُ مُرْبَادٌّ كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنكر منكرا إلا ما أُشْرِب من هواه" وذكر الحديث . مُجَخِّيًا : يعنى مائلا .

السادســة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى : «كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» . وقال : «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» يعنى فى الموضعين قلبك، وقد يعبر به عن العقل قال الله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ » أى عقل، لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين، والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد . والله أعلم .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وعلى سمعهم ﴾ استدل بها من فضل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ» . وقال : «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ» . قال : والسمع يدرك به من الجهات الست، وفى النور والظلمة ؛ ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع . وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السمع لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به

الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلمـا كانت تعلقاته أكثر كان أفضل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنـــة — إن قال قائل : لِمَ جمع الأبصار ووَحّد السمع ؟ قيل له : إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، يقال : سمعت الشيء أسمعه سمعا وسماعا، فالسمع مصدر سمعت؛ والسمع أيضا اسم للجارحة المسموع بها سُمِّيت بالمصـدر . وقيـل : إنه لمـا أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة؛ كما قال الشاعر[1] :

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها * فبيـــضٌ وأما جلدها فصَلِيبُ

إنما يريد جلودها، فوحّد لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر[2] في مثله :

لا تُنكِرِ القتلَ وقـد سُبِينَا * فى حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد فى حلوقكم ومثله قول الآخر :

كأنه وجه تركيين قـد غضبا * مستهدف لطعـان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركيين لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : وعلى أسماعهم ؛ ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضـع سمعهم ؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقد يكون السمع بمعنى الاستماع؛ يقال : سمعك حديثى — أى استماعك الى حديثى — يعجبنى، ومنه قول ذى الرُّمة، يصف ثورا تَسمَّع الى صوت صائد وكلاب :

وقد توجَّسَ رِكْزا مُقْفِرٌ نَدُسٌ * بنَبْأَةِ الصوتِ ما فى سَمْعه كَذِبُ

(١) هو علقمة بن عبدة . وصف طريقا بعيدا شاقا على من سلكه . بجيف الحسرى وهى المعيية من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فبيض ، أى أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت وبدا وضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ، أى محرم يابس لأنه ملقىً بالفلاة لم يدبغ ، ويقال : الصليب هنا الودك ، أى قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٢) هو المسيب بن زيد مناة الغنوى ، كما فى كتاب سيبويه .

أى ما فى استماعه كذب، أى هو صادق الاستماع، والنَّدُس: الحاذق. والنَّبْأَة: الصوت الخفى، وكذلك الركز. والسِّمع بكسر السين و إسكان الميم: ذِكر الإنسان بالجميل، يقال: ذهب سِمْعه فى الناس أى ذكره. والسِّمْع أيضا: ولد الذئب من الضبع. والوقف هنا: وعلى سمعهم. وغشاوة رفع على الابتداء وما قبله خبره. والضمائر فى قلوبهم وما عطف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميع، وهو أصوب لأنه يعم. فالختم على القلوب والأسماع. والغشاوة على الأبصار. والغشاء: الغطاء. وهى:

التاسعة — ومنه غاشية السَّرج، وغشيت الشىء أغشيه. قال النابغة:

هلّا سألت بنى ذبيان ما حسَبِى * إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأَشْمَطَ البَرَمَا[1]

وقال آخر[2]:

صحبتُـكَ إذ عينى عليها غشاوةٌ * فلما انجلَتْ قطّعتُ نفسى أَلُومُها

قال ابن كيسان: فإن جمعت غشاوة قلت: غشاء بحذف الهاء. وحكى الفراء: غشاوى مثل أداوى. وقرئ: غشاوة بالنصب على معنى وجعل، فيكون من باب قوله:

* علفتُها تبنًا وماء باردا *

وقول الآخر[3]:

يا ليت زوجَك قد غَدَا * متقلِّدا سيفًا ورُمحا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملا رمحا؛ لأن الرمح لا يتقلد. قال الفارسي: ولا تكاد تجد هذا الاستعمال فى حال سعة واختيار؛ فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة. قال: ولم أسمع من الغشاوة فعلا متصرفا بالواو. وقال بعض المفسرين: الغشاوة على الأسماع والأبصار، والوقف على قلوبهم. وقال آخرون: الختم فى الجميع، والغشاوة هى الختم فالوقف على هذا على غشاوة؛ وقرأ الحسن غشاوة بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَة بفتحها؛ وروى عن

(١) الأشمط: الذى خالطه الشيب. والبَرَم: الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ويأكل معهم من لحمه.

(٢) هو الحارث بن خالد المخزومى، كما فى اللسان مادة (غشا). (٣) هو عبد الله بن الزبعرى. كما فى الكامل للمبرد ص ١٨٩ طبع أوربا.

أبي عمرو : غشوة رده إلى أصل المصدر، قال ابن كيسان : ويجوز غَشوة وغشوة وأجودها غشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملا على الشيء ، نحو عمامة وكنانة وقلادة وعصابة وغير ذلك .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي للكافـرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعته . والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد، إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفي التنزيل : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » وهو مشتق من الحبس والمنع ؛ يقال في اللغة : أَعْذِبه عن كذا أي احبسه وامنعه ، ومنـه سمي عذوبة المـاء لأنها قـد أعذبت ، واستعذب بالحبس في الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه؛ ومنه قول عليّ رضي الله عنه : أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج، أي احبسوهن . وعنه رضي الله عنه وقد شيّع سَرِيّةً فقال : أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو، وكل من منعته شيئا فقد أعذبته ؛ وفي المثل : « لألجمنّك لجاما معذبا » أي مانعا عن ركوب الناس ؛ ويقال : أَعْذَبَ أي امتنع . وأَعْذَبَ غيره فهو لازم ومتعد؛ فسمي العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جريج عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين ، واثنتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين . وروى أسباط عن السدّي في قوله : «وَمِنَ النَّاسِ» قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانيـة — واختلف النحاة في لفظ الناس، فقيل: هو اسم من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ، وتصغيره نُوَيس، فالناس من النوس وهو الحركة يقال : ناس ينوس أي تحرّك، ومنه حديث أم زَرْع : « أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيَّ » . وقيل : أصله من نسي فأصل

ناس نسي قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا ، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال ابن عباس : نسي آدم عهـد الله فسمي إنسانا . وقال عليـه السلام : "نسي آدم فنسيت ذريته" . وفي التنزيل : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ» وسيأتي ، وعلى هذا فالهمزة زائدة ؛ قال الشاعر :

لا تنسين تلك العهود فإنما * سميت إنسانا لأنك ناسي

وقال آخـــر :

فإن نسيت عهودا منك سالفة * فاغفر فأول ناس أول الناس

وقيل : سمي إنسانا لأنسه بحواء . وقيل : لأنسه بربه ، فالهمزة أصلية ؛ قال الشاعر :

وما سمي الانسان إلا لأنسه * ولا القلب إلا أنه يتقلب

الثالثـــة ــ لمـا ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أوّلا ، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم ، ذكر الكافرين في مقابلتهم ؛ إذ الكفر والإيمان طرفان ، ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم ، لنفي الإيمان عنهم بقوله الحق : «وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» ففي هـذا رد على الكَرَّامِيّة حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب ، واحتجوا بقوله تعالى : «فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا» . ولم يقل : بما قالوا وأضمروا ؛ وبقوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا مني دماءهم وأموالهم" . وهذا منهم قصور وجمود ، وترْكُ نظرٍ لمـا نطق به القرآن والسـنة من العمل مع القول والاعتقاد ؛ وقـد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان" . أخرجه ابن ماجه في سننه . فما ذهب إليه محمد بن كَرَّام السجستاني وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق ؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد .

الرابعـــة ــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله ويواليـه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه ، بل يبغضه ويعاديه ؛ فكل من علم الله أنه يوافي بالإيمان ، فالله محب له ، موال له ، راض عنه . وكل من علم الله أنه يوافي بالكفر ، فالله مبغض له ، ساخط

عليه ، معادٍ له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به . والكافر ضربان : كافر يُعاقَب لا محالة ، وكافر لا يُعاقَب . فالذى يُعاقَب هو الذى يُوافِى بالكفر ، فالله ساخط عليه معادٍ له ؛ والذى لا يعاقب هو الموافى بالإيمان ، فالله غير ساخط على هذا ولا باغض له ، بل محب له موالٍ ؛ لا لكفره لكن لإيمانه الموافى به . فلا يجوز أن يطلق القول وهى : —

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب ، والكافر يستحق العقاب ، بل يجب تقييده بالموافاة ، ولأجل هذا قلنا إن الله راض عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام ، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ؛ لا لعبادته الصنم ، لكن لإيمانه الموافى به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته لكفره الموافى به .

وخالفت القَدَرية فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته ، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم . وهذا فاسد لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله ، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر ؛ ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار ، بل هو ساخط عليه ؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة ؛ وقد قال رسول الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزيّن به العبد قولا وفعلا ؛ لكن الإيمان جَرْيُ السعادة فى سوابق الأزل ؛ وأما ظهوره على الهيا كل فربما يكون عاريا ، وربما يكون حقيقة . .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : " إن أحدَكم يُجمع خَلْقُه فى بطن أمّه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقَة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مُضْغَةً مثلَ ذلك ثم يُرسِل الله المَلَك فيَنْفُخ فيه الرُّوحَ ويُؤْمَر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشَقِيٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليَعْمَل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمَلُ

بعمل أهل النار فيدخُلُها و إن أحدكم ليعمل بعمل أهلْ النار حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنه فيدخلها" . فان قيل وهي : —

السادســة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وهو محمد بن أبى قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق ، عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رَزِين العقيلى قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه" قال قلت : كيف يحيي الله الموتى؟ قال: "أما مررتَ بأرض لك مُجْدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة" قلت : بلى . قال : " كذلك النشور" قال قلت : كيف لى أن أعلم أنى مؤمن ؟ قال : "ليس أحد من هذه الأمة — قال ابن أبى قيس : أو قال من أمتى — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأنّ الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن" .

قلت : وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ابن مسعود، فان ذلك موقوف على الخاتمة، كما قال عليه السلام : "و إنما الأعمـال بالخواتيم" . وهذا إنما يدل على أنه مؤمن فى الحال والله أعلم .

السابعــة — قال علمـاء اللغة : إنمـا سمى المنافق منافقا لإظهاره غير ما يضمر تشبيها باليربوع له جحر يقال له : النافقاء، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب، فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج ؛ فظاهر جحره تراب، و باطنه حفر، وكذلك المنافق ظاهره إيمان، و باطنه كفر، وقد تقدم هذا المعنى.

قوله تعـالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قال علمـاؤنا : معنى يخادعون الله أى يخادعونه عنـد أنفسهم وعلى ظنهم . وقيـل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيـل : فى الكلام حذف، تقديره : يخادعون رسول الله

صلى الله عليــه وسلم؛ عن الحسن وغيرهْ . وجعــل خداعهم لرسوله خداعا لهم؛ لأنه دعاهم برسالته ؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليَحْقُنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهــم قد نجوا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغــة : أصل الخدع فى كلام العرب الفساد ، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابى . وأنشد :

أبيضُ اللونِ لذيذٌ طعْمُه ❊ طيّبُ الريق إذا الرِّيقُ خَدَعْ(١)

قلت : فيخادعون الله على هذا ، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم و بين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسرا عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم على ما يأتى . وفى التنزيل : «يُرَاءُونَ النَّاسَ» . وقيل: أصله الإخفاء، ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشئ؛ حكاه ابن فارس وغيره . وتقول العرب: انخدع الضب فى جحره .

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نفى و إيجاب ، أى ما تَحُلّ عاقبة الخدع إلا بهم . ومن كلامهم : من خَدَع من لا يُخْدَع فإنما يَخْدَع نفسه . وهذا صحيح لان الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه . ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليه السلام أنه قال : "لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخــدع لو يشعر" قالوا : يارسول الله، وكيف يُخادَع الله؟ قال : "تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره" . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : «اللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ» . وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو : «يخادعــون» فى الموضعين ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وابن عامر : «يخدعون» الثانى . والمصدر خِدْع بكسر الخاء وخديعة؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مُوَرِّقٌ العجلىّ : «يُخَدِّعون الله» بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شــدّاد والجارود بضم الياء و إسكان الخــاء وفتح

(١) قاله سويد بن أبى كاهل ، يصف ثغر امرأة ؛ كما فى اللسان مادة (خدع) .

الدال، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم؛ لحذف حرف الجر كما قال تعالى : «وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ» أى من قومه .

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا؛ وإنما ذلك فى الدنيا، وفى الآخرة يقال لهم : «ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا» على ما يأتى . قال أهل اللغة : شَعَرت بالشئ أى فَطِنت له؛ ومنه الشاعر لفطنته لأنه يَفْطُن لما لا يَفْطُن له غيره من غريب المعانى . ومنه قولهم : ليت شِعْرِى، أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ابتداء وخبر . والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا، وإما جحدا وتكذيبا . والمعنى قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد. قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر . والقراء مجمعون على فتح الراء من « مَرَض » إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكن الراء .

قوله تعالى : ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قيل : هو دعاء عليهم . ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكا ونفاقا جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار وعجزا عن القدرة؛ كما قال الشاعر :

يا مُرسِلَ الريحِ جُنوبًا وصبًا * إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غَضَبا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه . وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم، لأنهم شر خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم، أى فزادهم الله مرضا الى مرضهم؛ كما قال فى آية أخرى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ » . وقال أرباب المعانى : فى قلوبهم مرض أى بسكونهم الى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها . وقوله : «فزادهم الله مرضا» أى وكلهم الى أنفسهم،

وجمع عليهم هموم الدينا فلم يتفرغوا من ذلك الى اهتمام بالدين. «ولهم عذاب أليم» بمايفنى عما يبقى . وقال الجنيد : عِلَلُ القلوب من اتباع الهوى، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

قوله تعـالى : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أليم فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع ، مثـل السميع بمعنى المسمع؛ قال ذو الرمة يصف إبلا :

ونرفعُ من صدورِ شَمَرْدَلاتٍ * يَصُـكُّ وُجـوهَهَا وَهَجٌ أَلِـيمُ[1]

وآلم اذا أوجع . والإيلام : الايجاع . والألم : الوجع ، وقـد أَلِمَ يأْلَمُ أَلَمًـا . والتألُّم : التوجع . ويجمع أليم على ألَام وألَمَـاء مثل كريم وكرماء، وآلام مثل أشراف .

قـوله تعالى : ﴿بِمَـا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ما مصدرية، أى بتكذيبهم الرسل و ردّهم على الله جلّ وعزّ وتكذيبهم بآياته ، قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف؛ ومعناه بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — واختلف العلمـاء فى إمساك النبيّ صلى الله عليـه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأول — قال بعض العلماء : إنمـا لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم[2] على أن القاضى لا يَقتل بعلمه ، و إن اختلفوا فى سائر الأحكام . قال ابن العربى : وهـذا منتقض ، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن ذِياد الحارثُ بن سُويد بن الصامت لأن المُجَذَّر قتل أباه سُـويدا يوم بُعاث[3] ؛ فأسـلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتله ؛ فأخبر به جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقتله به لأن قتله كان غِيلة[4]؛ وقتل الغيلة حدٌّ من حدود الله .

---

(١) شمردلات : إبل طوال . ونرفع : نستحثها فى السير . والوهج : الحر الشديد المؤلم .

(٢) قوله : « على بكرة أبيهم » هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد .

(٣) بعاث : موضع فى نواحى المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية . وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .

(٤) راجع هـذه القصة فى سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦ ، ٥٧٩) طبـع أوربا . وكتاب الاستيعاب فى اسم المجذر .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وانقطاع الوحى؛ وعلى هذا فتكون تلك قضيّةً فى عَيْنٍ بوحْيٍ ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

القول الثانى — قال أصحاب الشافعى : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذى يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمــان يستتاب ولا يقتل . قال ابن العربى : وهذا وَهَمٌ؛ فإن النبيّ صلى الله عليــه وســلم لم يستتبهم ولا نقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن استتابة الزنديق واجبة[(١)] وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم معرضا عنهم مع علمه بهم . فهــذا المتأخر من أصحاب الشافعى الذى قال : إن استتابة الزنديق جائزة[(٢)] قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — انما لم يقتلهم مصلحة لتأليف القلوب عليه، لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى بقوله لعمر: "معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى" أخرجه البخارى ومسلم . وقد كان يعطى للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألُّفًا ؛ وهــذا هو قول علمائنــا وغيرهم . قال ابن عطية : وهى طريقة أصحاب مالك رحمــه الله فى كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نص على هذا محمد بن الجهم والقاضى اسماعيل والأبهرى وابن المــاجشون ، واحتج بقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » الى قوله . « وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » . قال قتادة : معناه اذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم ؛ فيقتل الزنديق اذا شهد عليه بها دون استتابة ؛ وهو أحد قولى الشافعى . قال مالك : وإنمــا كفّ رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذ لم يُشْهَد على المنافقين . قال القاضى اسمــاعيل : لم يَشْهد على عبد الله بن أُبَىّ[(٣)] إلا زيد بن أرقم وحده ؛

(١) الذى فى كتاب الأحكام لابن العربى : « ... ان استتابة الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا فى الأصول وكتاب الأحكام لابن العربى . ولعل صواب العبارة : « ان استتابة الزنديق واجبة » .

(٣) سيذكر الامام القرطبى قصته عند تفسير سورة «المنافقون» . وقد وردت فى ســيرة ابن هشام ص ٧٢٦ طبــع أوربا .

ولا على الجُلَاس بن سُويد إلا عُمير بن سعد ربيبه (١)؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل. وقال الشافعي رحمه الله محتجا للقول الآخر: السنة فيمن شُهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه. وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم. قال الشافعي وأصحابه: وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم، لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ما قبله. وقال الطبرى: جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر لأنه حكم بالظنون؛ ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووَكَلَ سرائرهم الى الله. وقد كذب الله ظاهرهم فى قوله: « وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ». قال ابن عطية: ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تُعيّن أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص (٢) عليه بالنفاق؛ وبقى لكل واحد منهم أن يقول: لم أُرَد بها وما أنا إلا مؤمن، ولو عُيِّن أحد لما جبَّ كذبه شيئا.

قلت: هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمُهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبيّ عليه السلام إيّاه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له: ياحذيفة هل أنا منهم؟ فيقول له: لا.

القول الرابع — وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن فى تبقيتهم ضرر، وليس كذلك اليوم؛ لأنا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا.

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

« إذا » فى موضع نصب على الظرف والعامل فيهـا قالوا ؛ وهى تؤذن بوقوع الفعـل المنتظر . قال الجوهرى : إذا اسم يدل على زمان مسـتقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جمـلة ، تقول : أجيئك إذا آحمرّ البُسْر و إذا قَدِم فلان . والذى يدل على أنهـا آسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقْدَم فلان ؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء و إذا ؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك . والفاء إن تأتنى فأنا أحسن إليك . و إذا كقوله تعالى «وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ» . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخَطِيم :

إذا قَصُرتْ أسيافُنا كان وصلُها ＊ خُطانا إلى أعدائنا فنضارِبِ[(١)]

فعطف فنضارب بالجزم على موضع كان لأنه مجزوم ، ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضارب بالنصب . وقد تزاد على «إذا» «ما» تأكيدا ، فيجزم بها أيضا ؛ ومنه قول الفرزدق :

فقام أبو ليلى اليـه ابنُ ظـالِم ＊ وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه : والجيد ما قال كعب بن زهير :

وإذا ما تشـاءُ تبعثُ منهـا ＊ مغربَ الشمسِ ناشِطًا مَذْعُورَا[(٢)]

يعنى أن الجيد ألا يجزم بإذا كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرد أنها فى قولك فى المفاجأة : خرجت فإذا زيد ، ظـرف مكان ، لأنها تضمنت جُثّـة ، وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد ، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان ؛ ومنه قولهم : «اليومَ خَمْرٌ وغَدًا أَمْرٌ» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر

---

(١) يقول : اذا قصرت أسيافنا فى اللقاء عن الوصول الى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم .

(٢) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ، فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد الى بلد ، فذلك أوحش له وأذعر . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

قوله : ﴿قِيلَ﴾ من القول وأصله قَوِل، نقلت كسرة الواوالى القاف فانقلبت الواو ياء ؛ ويجوز: قيل لهم، بإدغام اللام فى اللام . وجاز الجمع بين ساكنين لأن الياء حرف مدّ ولين . قال الأخفش : ويجوز قُيْل بضم القاف والياء . وقال الكسائى : ويجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لمـا لم يسم فاعله ، وهى لغـة قيس؛ وكذلك جىء وغيض وحيـل وسيق وسئ وسيئت . وكذلك روى هشام عن ابن عباس،(١) ورُوَيس(٢) عن يعقوب؛ وأشم منها نافع سئ وسيئت خاصة؛ وزاد ابن ذكوان : حيل وسيق؛ وكسر الباقون فى الجميع . فأما هذيل وبنودُبَير من أسد وبنى فَقْعَس فيقولون : قول بواوساكنة .

قوله : ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ لا ، نهى . والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدّها . فَسَد الشىء يَفْسُدُ فسادا وفسودا وهو فاسد وفسيد . والمعنى فى الآية لا تفسدوا فى الارض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيل : كانت الارض قبـل أن يُبْعث النبىّ صلى الله عليـه وسـلم فيها الفساد، ويُفْعل فيها بالمعاصى؛ فلما بُعث النبىّ صـلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلحت الأرض . فاذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال فى آية أخرى : «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا » .

قوله : ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة وهى اسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرضة، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أَرَضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم: عُرُسات . ثم قالوا أَرَضون فجمعوا بالواو والنون؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سُكِّنت . وقد تجمع على أُرُوض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أَرْض وآراض، كما قالوا : أهل وآهال . والأراضى أيضا على غير قياس كأنهم جمعوا آرُضا ؛ وكل ما سـفل فهو أرض . وأَرْض أَرِضـة [وأريضة] ، أى زكية بيّنة الأراضة ،

(١) فى نسخة : «ابن عامر» . (٢) رويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارى ، راوى يعقوب بن إسحاق .

وقد أُرِضت بالضم أى زكت. قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة أى معجبة للعين؛ ويقال : لا أرض لك، كما يقال : لا أمّ لك . والأرض أسفل قوائم الدابة؛ قال حُمَيد يصف فرسا :

ولم يُقلِّب أرضَهـا البَيْطارُ * ولا لَحبْلَيْــهِ بهـا حَبَـارُ

أى أثر . والأرض : النفضة والرِّعدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبد الله بن الحـارث قال : زلزلت الأرض بالبصرة، فقال ابن عباس : والله ما أدرى! أزلزلت الأرض أم بى أرْض . أى أم بى رعدة ؛ وقال ذو الرُّمة يصف صائدا :

إذا توَجّس رِكْزًا من سَنابكهـا * أوكان صاحبَ أَرْضٍ أو به المُومُ(١)

والأرض: الزكام؛ وقد آرضه الله إيراضا، أى أزكمه فهو ماروض . وفَسِيل مستأرِض، ووَدِيّة مستأرِضة بكسر الراء، وهو أن يكون له عِرق فى الأرض؛ فأما إذا نبت على جـذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر. ورجل أريض، أى متواضع خليق للخير. قال الأصمعى يقال : هو آرَضُهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم. وشىء عريض أريض اتباع له؛ وبعضهم يفرده ويقول : جَدْىٌ أريض أى سمين .

قوله : ﴿نَحْنُ﴾ أصل نحن نَحُنْ، قلبت حركة الحـاء على النون وأسكنت الحـاء؛ قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : نحن لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ؛ فلمـا اضطروا إلى حركة نحن لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : ولهذا ضموا واو الجمع فى قوله عزّ وجلّ : «أُولَئِكَ الَّذِينَ ٱشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ» . وقال محمد ابن يزيد : نحن مثل قبلُ وبعـدُ لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر، فأنا للواحد، ونحن للتثنية والجمع، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا؛ قال الله تعالى : «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ» . والمؤنث فى هـذا اذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر؛ تقول المـرأة : قمت وذهبت، وقمنا وذهبنا، وأنا فعلت ذاك، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فاعلم .

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنابكها : حوافرها . الموم : البرسام وهو الخبل، وقيل : الموم الجدرى الكثير المتراكب . ومعناه أن الصياد يُذهب نَفَسَه الى السماء ويَفْغَر إليها أبدا لئلا يجـد الوحش نَفَسَه فينفر . وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مفغر والزكام مفغر . عن اللسان .

قوله تعالى ﴿مُصْلِحُونَ﴾ اسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد، وصلُح الشيء بضم اللام وفتحها لغتان؛ قاله ابن السكيت . والصُّلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام؛ قال الشاعر :

فكيف بإطْرَاقي إذا ما شَتَمْتَني * وما بعدَ شَتْمِ الوَالدَيْنِ صُلُوحُ

وصَلاحِ من أسماء مكة . والصِّلح بكسر الصاد : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم، لأن إفسادهم عندهم إصلاح ، أي إن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ابن عباس وغيره .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله عزّ وجلّ : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ردّا عليهم وتكذيبا لقولهم . قال أرباب المعاني : من أظهر الدعوى كذب، ألا ترى أن الله عزّ وجلّ يقول : «ألا إنهم هم المفسدون» وهذا صحيح . وكسرت «إن» لأنها مبتدأ؛ قاله النحاس . وقال علي بن سليمان : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق، بمعنى ألا [1] . و«هم» يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره والمبتدأ وخبره خبر إنّ . ويجوز أن تكون هم توكيدا للهاء والميم في إنهم . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — والمفسدون خبر إنّ؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون، كما تقدّم في قوله : «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن كيسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم، إنما يُذَم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم؛ قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لا يشعرون أن ذلك فساد، وقد عصوا الله ورسوله في تركهم تبيين الحق واتباعه . «ولكن» حرف تأكيد واستدراك،

---

(1) في العبارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فاذا فتحت إن بعدهما كانتا بمعنى حقا أنك ... وإذا كسرت كانتا أداتي استفتاح . راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

ولا بد فيه من نفي وإثبات ؛ إن كان قبله نفي كان بعده إيجاب ، وإن كان قبله إيجاب كان بعده نفي . ولا يجوز الاقتصار بعده على اسم واحد اذا تقـدم الإيجاب ، ولكنك تذكر جملة مضادة لما قبلها كما في هذه الآية ، وقولك : جاءني زيد لكن عمرو لم يجئ ؛ ولا يجوز جاءني زيد لكن عمرو ثم تسكت ، لأنهم قد استغنوا ببل في مثل هذا الموضع عن لكن ، وإنما يجوز ذلك اذا تقدّم النفي كقولك : ما جاءني زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعني المنافقين في قول مقاتل وغيره . ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أي صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يَثْرِبَ . وألف آمنوا ألف قطع لأنك تقول : يؤمن ، والكاف في موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف ، أي إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، عن ابن عباس ؛ وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء فأطلع الله نبيـه والمؤمنين على ذلك ، وقرر أن السفه ورقـة الحُلوم وفساد البصائر إنما هي في حيِّزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْن الذي على قلوبهم . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود ، أي وإذا قيل لهم ـــ يعني اليهود ـــ آمنوا كما آمن النـاس : عبـد الله بن سَلَام وأصحابه ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ! يعني الجهال والخرقاء . وأصل السفه في كلام العرب : الخفة والرقة ، يقال : ثوب سـفيه اذا كان رديء النسج خفيفه ، أو كان باليـا رقيقا . وتسـفهت الريح الشجر : مالت به ؛ قال ذو الرمة :

مَشَين كما اهتزّتْ رماحٌ تسفَّهتْ * أعاليَها مَرُّ الرياحِ النَّواسِـــمِ (١)

(١) وصف نساء فيقول : اذا مشـين اهتززن في مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت . والنواسم : الضعيفة الهبوب .

وتسفهت الشيء : استحقرته . والسفه : ضد الحلم . ويقال : إنّ السفه أنْ يكثر الرجل شرب الماء فلا يروى . ويجوز في همزتي السفهاء[1] أربعة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهي قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبي عمرو . وإن شئت خففتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية . وإن شئت حققتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل ولكن لا يشعرون ؛ وقد تقدّم . والعلم معرفة المعلوم على ما هو به ، تقول : عَلِمت الشيء أعلمه علما عرفته ، وعالمت الرجل فَعَلَمْتُه أَعْلُمه بالضم في المستقبل غلبته بالعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ أنزلت هذه الآية في ذكر المنافقين . أصل لقوا : لَقِيُوا نقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليماني : لاقوا الذين آمنوا . والأصل لاقيوا تحركت الياء وقبلها فتحة انقلبت ألفا ، اجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حركت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضمت الواو في لاقوا في الإدراج وحذفت من لقوا؟ فالجواب : أن قبل الواو التي في لقوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها ، وحركت في لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن قيل : لم وصلت خلوا بإلى وعرفها أن توصل بالباء ؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا ؛ ومنه قول الفرزدق :

كيف تراني قالبًا مِجَنّي * [أضربُ أمري ظهره لبطن][2]
* قد قتل الله زيادًا عنّي *

---

(١) أي مع كلمة الا التي بعدها .

(٢) الزيادة عن كتاب النقائض . وزياد ، هو زياد بن أبيه . والمجن : الترس .

لمـا أنزله منزله صرف؛ وقال قوم : إلى بمعنى مع، وفيه ضعف . وقال قوم : الى بمعنى الباء، وهـذا يا أباه الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم، فإلى على بابهـا . والشياطين جمع شيطان على التكسير، وقـد تقدم القول فى اشـتقاقه ومعناه فى الاستعاذة .

واختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا، فقال ابن عباس والسدى : هم رؤساء الكفر. وقال الكلبي : هم شـياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى مكذبون بما ندعى إليه؛ وقيل : ساخرون . والهزء : السخرية واللعب؛ يقال : هَزِئَ به واستهزأ؛ قال الراجز :[1]

قـــد هَزِئَتْ مِنّى أُمُّ طَيْسَلَهْ * قالت أراه مُعدِما لا مالَ لَهْ

وقيل : أصل الاستهزاء : الانتقام؛ كما قال الآخر :

قد استهزءوا منهم بألفَىْ مُدَجَّجٍ * سَرَاتُهم وسْطَ الصَّحَاصِحِ جُثَّمُ[2]

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أن ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسـخر بهم ويجازيهم على استهزائهم؛ فسمى العقوبة باسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم؛ من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أحـدٌ علينا * فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلا، والجهل لا يفتخر به ذو عقل؛ وإنما قاله لِيَزْدَوِج الكلام فيكون أخفَّ على اللسان من المخـالفة بينهما . وكانت العرب اذا وضـعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسـنة . وقال

(١) هو صخر الغى الهذلى . والبيت كما ذكره القالى فى أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية :

تهزأ منى أخت آل طيسله * قالت أراه مبلطا لا شىء له

(٢) الصحاصح (جمع صحصح) : الأرض ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء . والجاثم : اللازم مكانه لا يبرح .

الله عزّ وجلّ : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . وقال : « فَمَنِ ٱعْتَـدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتـداء لأنه حق وجب ؛ ومثله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد ، إنمـا هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك «يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ» . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الله لا يَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا " قيل : حتى بمعنى الواو أي وتملوا ؛ وقيل : المعنى وأنتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل . وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا هي في تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النـار تجمد كما تجمـد الإهالة (١) فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم " . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعـالى : « وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا » هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر استهزاءهم ، وأنهم اذا خلوا إلى شياطينهم يعني رؤساءهم في الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم «إنما نحن مستهزئون» بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . «الله يستهزئ بهم » في الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعـالوا ، فيقبلون يَسْبَحون في النـار ، والمؤمنون على الأرائك — وهي السرر — في الحِجال ينظرون إليهـم ، فإذا انتهوا إلى الباب سُـدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : « ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أي في الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهـم حين غُلِّقت دونهـم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : « فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » إلى أهل النار « هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخـداع من الله والاسـتهزاء هو استدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان في الدنيا خلاف ما يُغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى

(١) الإهالة : ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد .

قد حتم عذابهم. فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع ؛ ودل على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسـلم : " إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج " . ثم نزع بهذه الآية : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أى يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويملى لهم ؛ كما قال : « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » وأصـله الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال مدّ لهم فى الشر، وأمد فى الخير؛ قال الله تعالى : « وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ» . وقال : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ » . وحكى عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وعن الفراء واللحيانى : مددت، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النَّهْرُ [النهر][1] ، وفى التنزيل : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » . وأمددت، فيما كانت زيادته من غيره ؛ كقولك : أمددت الجيش بمدد ، ومنه : « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وأمدّ الجرح لأن المِدّة من غيره، أى صارت فيه مدة .

قوله تعـالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم . وأصـل الطغيان مجاوزة الحدّ ؛ ومنه قوله تعـالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ » أى ارتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخزان . وقوله فى فرعون : « إِنَّهُ طَغَى » أى أسرف فى الدعوى حيث قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . والمعنى فى الآية يمدهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون . وقال مجاهد : أى يتردّدون متحيرين فى الكفر . وحكى أهل اللغة : عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهًا وعَمَهًا فهو عَمِه وعامِه إذا حار، ويقال رجل عامِه وعَمِه : حائر متردد ، وجمعه عُمّــه . وذهبت إبلُه العُمَّهَى إذا لم يدر أين ذهبت . والعَمَى

(١) الزيادة عن اللسان مادّة (مد) .

فى العين ، والعَمَه فى القلب ؛ وفى التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ » .

قوله تعالى : أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ قال سيبويه : ضُمّت الواو فى «اشتروا» فرقا بينها و بين الواو الأصلية، نحو : «وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ» . وقال ابن كيسان : الضمة فى الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حركت بالضم كما فعل فى نحن . وقرأ ابن أبى إسحاق ويحيى بن يعمر(١) بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصـارى عن قَعْنَب أبى السَّمّال العدوى أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وأنْ كان(٢) ماقبلها مفتوحا . وأجاز الكسائى همز الواو وضمها كأدؤر . واشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبوا الكفر على الإيمـان كما قال : « فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ » فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضـة فلا ، لإن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عبـاس : أخذوا الضـلالة وتركوا الهدى . ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان . و إنما أخرجه بلفظ الشراء توسعا لأن الشراء والتجارة راجعان الى الاستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشىء . قال أبو ذؤيب :

فإن تَزْعُمِينِى كنت أجهلُ فيكمُ * فإنى شَرَيتُ(٣) الحِلمَ بعدكِ بالجهلِ

(١) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب» بفتح التحتانية والميم وبينهما مهملة ساكنة . وفى المغنى» بفتح الميم وضمها » . (٢) فى بعض الأصول : « وأن ما قبلها مفتوحا » ؛ وفى بعض الآخر : « وأن كان قبلها مفتوحا » . والظاهر أنه يريد : لخفة الفتحة وسكون ما قبلها مفتوحا . وهذا المعنى لا يتأتى الا بما أثبتناه من مجموع النسـخ . (٣) ويروى : « اشتريت » كما فى ديوان أبى ذؤيب . يقول : ان كنت تزعمين أنى كنت أجهل فى هواى لكم وصبوتى اليكم فقـد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد) .

وأصل الضلالة : الحيرة؛ ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة؛ قال جلّ وعزّ : « فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة؛ كما قال عزّ وجلّ : « وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِحَ بيعُك، وخسرت صفقتك؛ وقولهم : ليل قائم، ونهار صائم؛ والمعنى رَبِحت وخَسِرْتَ فى بَيعك، وقمت فى ليلك وصمت فى نهارك؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم. وقال الشاعر:

نَهارُك هائمٌ وليلُكَ نائمُ　＊　كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائمُ

ٱبن كيسان : ويجوز تجارة وتجائر، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى اشترائهم الضلالة . وقيل : فى سابق علم الله . والاهتداء ضد الضلال، وقد تقدّم(١) .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف، فهى اسم، كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن يَنهى ذوِى شَططٍ　＊　كالطّعن يذهب فيه الزّيتُ والفُتُلُ(٢)

وقول امرئ القيس :

ورُحْنا بِكابْنِ الماءِ يُجنَبُ وسطَنا　＊　تَصَوَّبُ فيه العينُ طَوْرًا وترتقِي(٣)

---

(١) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .　　(٢) المعنى : لا ينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف، أى نافذ الى الجوف، يغيب فيه الزيت والفتل . (من خزانة الأدب) .　　(٣) يقول : رجعنا بفرس كأنه ٱبن ماء (طير ماء) خفة وحسنا وطول عنق . وهو يجنب، أى يقاد فلا يركب .

أراد مثل الطعن، وبمثل آبن المـاء . ويجوز أن يكون الخبر محذوفا تقديره مثلهم مستقر كمثل، فالكاف على هـذا حرف . والمَثَل والمِثل والمثيل واحد ومعناه الشـبه ، والمتماثلان : المتشابهان؛ هكذا قال أهل اللغة .

قوله : ﴿ ٱلَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع؛ قال ابن الشَّجَرى هبـةُ الله بن علىّ : ومن العرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد كما قال :

وإن الذى حَانَتْ بفَلْجٍ دماؤهُمْ (١) * هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ

وقيل فى قول الله تعالى : «وَٱلَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله : «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى» قيل : المعنى كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال : «ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ »؛ فحمل أوّل الكلام على الواحد، وآخره على الجمع. فأمّا قوله تعـالى : « وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا » فإن الذى هاهنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا . وقيل : إنمـا وحّد الذى واستوقد لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال بنورهم . واستوقد بمعنى أوقد؛ مثـل استجاب بمعنى أجاب؛ فالسين والتاء زائدتان، قاله الأخفش؛ ومنه قول الشاعر (٢) :

وَداعٍ دعا يامن يُجيب إلى النَّدَى * فلم يَستجِبْه عنـد ذاك مُجِيبُ

أى يجبـه . واختلف النحاة فى جواب لمـّا ، وفى عود الضمير من نورهم ؛ فقيـل : جواب لمـّا محذوف وهو طَفِئت، والضمير فى نورهم على هذا للمنافقين، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة؛ كما قال تعالى : « فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ » . وقيل: جوابه ذهب، والضمير فى نورهم عائد على الذى؛ وعلى هـذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردّده . والمعنى المراد بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين،

---

(١) فلج (بفتح أوله وسكون ثانيه) : موضـع بين البصرة وضرية . وقيل : هو واد بطريق البصرة الى مكة ، ببطنه منازل للحاج . قائله الأشهب بن رميلة يرثى قوما قتلوا فى هذا الموضع . (عن اللسان) .

(٢) هو كعب ابن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار . (عن اللسان) .

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمـان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتـوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليـلة مظلمة فاستضاء بهـا ورأى ما ينبغى أن يتقيه وأمن منه؛ فإذا طفئت عنه أو ذهبت وصل اليـه الأذى وبق متحيرا؛ فكذلك المنافقون لمّـا آمنوا اغترّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ» — ويذهب نورهم؛ ولهـذا يقولون : « ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ » . وقيـل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وانصرافهم عن مودتهم وارتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿ نَاراً ﴾ النـار مؤنثة وهى من النـور وهو أيضا الإشراق . وهى من الواو لأنك تقول فى التصغير : نويرة، وفى الجمـع نُورٌ وأنْوُرٌ ونِيرَانٌ، انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاءت وأضاءت لغتان؛ يقال : ضاء القمرُ يَضُوءُ ضَـوْءاً ، وأضاء يُضيء . ويكون لازما ومتعديا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع : ضاءت بغير ألف، والعامة بالألف؛ قال الشاعر :

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم * دُجَى اللّيل حتى نَظّم الجَزْعَ[(1)] ثاقبه

﴿ ما حَوْلَهُ ﴾ ما زائدة مؤكدة . وقيل : مفعولة بأضاءت . وحوله ظرف مكان، والهاء فى موضع خفض بإضافته اليها . و ﴿ ذَهَبَ ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء . ﴿ وتَرَكَهُمْ ﴾ أى أبقاهم . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ جمع ظُلْمة . وقرأ الأعمش : ظُلْمات بإسكان اللام على الأصـل . ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت . وقرأ أشهب العقيلى : ظُلَمات بفتح اللام . قال البصريون : أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائى : ظلمات جمع الجمع، جمع ظُلَم . ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال : غير مبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا على ظلمات .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

---

(١) الجزع (بفتح الجيم وكسرها) : ضرب من الخرز. وقيل : هو الخرز اليمانى، وهو الذى فيـه بياض وسواد، فشبه به الأعين .

قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ صمٌّ أى هم صمّ، فهو خبر ابتداء مضمر. وفى قراءة عبد الله ابن مسعود وحفصــة : صُمًّا بكمًا عميًا، فيجوز النصب على الذم؛ كما قال تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا » ، وكما قال : « وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ » ، وكما قال الشاعر(١) :

سَــقَوْنِى الخمــرَ ثم تكنّفُونِى * عُداةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

فنصب عُداةَ الله على الذم . فالوقف على يبصرون على هــذا المذهب صواب حسن . ويجوز أن ينصب صُمًّا بتركهم؛ كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على يبصرون . والصمم فى كلام العرب : الانسداد؛ يقال : قناة صمّــاء إذا لم تكن مجوّفة . وصَمَمت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من انسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد . ويقال رجل أبكم وبَكِيم أى أخرس بيّن الخرس والبكم؛ قال :

فليت لِسانِى كان نِصْفَينِ منهما * بَكِيمٌ ونِصفٌ عند مَجْرَى الكواكبِ

والعمى : ذهاب البصر . وقد عَمِيَ فهو أعمَى، وقوم عُمْيٌ، وأعماه الله . وتعامى الرجل أرى ذلك من نفسه . وعمِي عليــه الأمر إذا التبس؛ ومنــه قوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ » .

وليس الغرض ممــا ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنمــا الغرض نفيهــا من جهة مّا؛ تقول : فلان أصمّ عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أَصَمُّ عمّا ساءَه سَمِيعُ *

وقال آخـــر :

وَعوراءُ الكلامِ صَمَمتُ عنها * ولو أنّى أشاء بهــا سَمِيــعُ

وقال الدارمىّ :

أعمى إذا ما جارتى خرجت * حتى يُوارِيَ جارتِى الخُــدُرُ

(١) هو عروة بن الورد . وصف ما كان من فعل قوم امرأته حين احتالوا عليــه وسقوه الخمر حتى أجابهم الى مفاداتها وكانت سبيّة عنده . (عن شرح الشواهد) .

وقال بعضهم فى وَصَاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخُـلْ إذا ما دخلتَ أعمَى * وآخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة : صمّ عن استماع الحق، بكم عن التكلم به، عمى عن الإبصارله .

قلت : وهذا المعنى هو المراد فى وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم وُلاة آخرالزمان فى حديث جبريل"وإذا رأيت الحُفَاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوكَ الأرض فذاكَ من أشراطها" . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم . يقال : رجع بنفسه رجوعا، ورَجَعه غيره، وهذيل تقول : أرجعه غيره . وقوله تعالى : « يَرْجِـعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتلاومون فيما بينهم، حسب ما بيّنه التنزيل فى سورة « سبأ » .

قوله تعـالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال الطبرى : أو بمعنى الواو؛ وقاله الفرّاء . وأنشـــد :

وقد زَعَمتْ ليْـلَى بأنّى فاجرٌ * لنفسى تُقاها أو عليها فُجُورها (١)

وقال آخـــر (٢) :

نالَ الخلافةَ أو (٣) كانت له قَدَرًا * كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

أى وكانت . وقيل : أو للتخيير أى مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين . والمعنى أو كأصحاب صَيِّب . والصَّيِّبُ : المطر . واشـتقاقه من صَابَ يَصُـوبُ إذا نزل؛ قال عَلْقَمة :

فلا تَعْـدِلى بَيْنِى وبين مُغَمَّرٍ (٤) * سَقتْكِ رَوايا المُزْنِ حيث تَصُوبُ

(١) البيت من قصـيدة لتوبة الخفاجى قالها فى ليلى الأخيلية . (٢) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز . (٣) فى ديوانه المخطوط : « إذ » بدل أو . (٤) المُغَمَّرُ والغُمْرُ : الجاهل الذى لم يجرب الأمور؛ كأن الجهل غمره واستولى عليـه . وروايا المزن : ما حمل الماء منه . والراوية : البعير يستق عليه .

وأصــله : صَيْوِب ، اجتمعت اليـاء والواو وسـبقت إحداهمـا بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا فى ميّت وسيّد وهيّن وليّن . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوِيب على مثال فعيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لمـا جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طويل . وجمع صيب صيايب . والتقدير فى العربية مثلهم كمثل الذى استوقد نارا أو كمثل صيّب »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكر وتؤنث ، وتجمع على أسمية وسموات وسُمِىّ على فُعُول ؛ قال العجاج :

* تَلُفُّـــه الرياحُ والسُّـــمِىُّ(٢) *

والسماء : كل ما علاك فأظلّك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر سمى به لنزوله من السماء ؛ قال حسان بن ثابت :

دِيارٌ من بنى الحَسْحاسِ قَفْرٌ * تُعَفِّيهـا الرّوامِسُ والسماءُ

وقال آخـــر(٣) :

إذا سَقَط السماءُ بأرض قوم * رَعَيناه وإن كانوا غِضـابَا

ويسمى الطين والكلأ أيضا سمـاء ؛ يقال : ما زِلْنا نطأ السماء حتى أتيناكم . يريدون الكلأ والطين . ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه ؛ قال(٤) :

وأحْمَر كالدّيباج أمّا سمـاؤه * فَرِيّا وأمّا أرضُــه فمُحولُ

والسماء : ما علا ، والأرض : ما سفل ، على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة الى ظُلْمة الليل وظُلمة الدَّجْن ، وهو الغيم . ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت . وقد مضى مافيه من اللغات(٥) فلا معنى للإعادة ، وكذا كل ما تقدّم إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « ... نارا أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمى : يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما) .

(٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

واختلف العلمــاء في الرعد، ففي الترمذي عن ابن عباس قال : سألتِ اليهودُ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم عن الرعد ما هو ؟ قال : "ملك من الملائكة [موكل بالسحاب](١) معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله". فقالوا : فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال : "زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي الى حيث أمر الله" قالوا : صدقت. الحديث بطوله. وعلى هــذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : اسم الصوت المسموع، وقاله عليّ رضي الله عنه، وهو المعلوم في لغة العرب، وقد قال لبيد في جاهليته :

فَجَّعَنِي الرعدُ والصّواعقُ بالـ * ـفارِسِ يومَ الكريهةِ النَّجِدِ

وروى عن ابن عباس أنه قال : الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت. واختلفوا في البرق، فروى عن عليّ وابن مسعود وابن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب — قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذي — وعن ابن عبّاس أيضــا هو سوط من نور بيــد الملك يزجربه السحاب . وعنــه أيضا : البرق مَلَك يتراءى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صــوت اصطكاك أجرام الســحاب . والبرق ما ينقــدح من اصطكاكها . وهذا مردود لا يصح به نقل؛ والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان . وارتعد : اضطرب ؛ ومنــه الحديث : "فجِيءَ بهما تُرْعَدُ فَرَائصهما" الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصــله من البَرِيق والضوء؛ ومنــه البُرَاق : دابّة ركبها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليلة أُسرِيَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من الـبرق . ورَعَدت المرأة وبَرَقت : تحسّنت وتزيّنت . ورَعَد الرجل وبَرَق تهدّد وأوعد؛ قال ابن أحمر :

يا جُلَّ ما بَعُدَتْ عليك بِلادُنا * وطِلابُنا فَابْرُقْ بأرضِك وارْعُدِ

---

(١) زيادة عن الترمذي .

وأرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد ؛ وأنكره الأصمعى . واحتج عليه بقول الكميت :

أبرِق وأرعِـــد يا يزيـ * ـدُ فما وعيدُكَ لى بِضائرْ

فقال : ليس الكميت بحجة .

فائدة — روى ابن عباس قال : كنا مع عمر بن الخطاب فى سَفْرة بين المدينــة والشام ومعنا كعب الأحبار ، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد ، وفَرِق الناس . قال فقال لى كعب : إنه من قال حين يســمع الرعد : سبحان من يُسبِّح الرعد بحمــده والملائكة من خيفته ، عُوفى ممــا يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال : فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا فى غير ما كان فيه الناس . قال : وما ذاك؟ قال : فحدّثته حديث كعب . قال : سبحان الله! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم! فى رواية فإذا بَرَدة[1] قد أصابت أنف عمر فأثّرت به . وستأتى هذه الرواية فى ســورة « الرعد » إن شاء الله . ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن ابن عمر أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : "اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تُهلكنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك".

قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِم ﴾ جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يســمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام ؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إصبع بكسر الهمزة وفتح الباء ، وأَصبِــع بفتح الهمزة وكسر الباء ، ويقال بفتحهما جميعا ، وضمهما جميعا ، وبكسرهما جميعا ؛ وهى مؤنثة ، وكذلك الأُذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر ؛ فيقال : أذينة . ولو سمّيت بها رجلا ثم صغّرته قلت : أُذَين ؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر . فأما قولهم : أذينة فى الاسم العَلَم فإنما سُمّى به مصغّرا ، والجمع آذان . وتقول : أَذَنته إذا ضربت أذنه . ورجل أُذُنٌ إذا كان يسمع كلام كل أحد ، يســتوى فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك) : حب الغمام .

والجمع . وأُذانِيّ : عظيم الأذنين؛ ونعجة أَذْناء، وكبش آذن؛ وأذّنت النّعلَ وغيرها تأذينا إذا جعلت لها أُذُنا، وأذّنت الصبيّ . عَرَكت أذنه .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ أى من أجل الصواعق . والصواعق جمع صاعقة . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : إذا اشتدّ غضب الرعد الذى هو المَلَك طار النار من فِيــهِ وهى الصواعق . وكذا قال الخليل، قال : هى الواقعة الشــديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم: الساعقة بالسين. وقال أبو بكر النقاش: يقال صاعقة وصَعْقة وصاقعة بمعنًى واحد؛ وقرأ الحسن : من الصّواقع بتقديم القاف؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

يحكُون بالمَصْقُولة القواطِعِ * تَشَقُّقَ البرقِ عن الصّواقِعِ

قال النحاس : وهى لغــة تميم وبعض بنى ربيعــة . ويقال : صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب؛ قال الله عزّ وجلّ : « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَــةُ الْعَذَابِ الْهُونِ » . ويقال : صَعِق الرجل صَعقة وتَصعاقا أى غُشِى عليه؛ ومنه قوله تعالى : « وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا » فأصعقه غيره؛ قال ابن مقبل :

تَرَى النُّعَرات الزُّرقَ تحت لَبانه * أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَواهِلُهْ (١)

وقوله تعــالى : « فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ » أى مات . وشــبّه الله تعالى فى هذه الاية أحوال المنافقين بما فى الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق. فالظلمات مَثَل لمــا يعتقدونه من الكفر، والرعد والبرق مَثَل لمــا يخوّفون به . وقيــل : مَثّل الله تعالى القرآن بالصّيّب لمــا فيه من الإشكال عليهم والعمى هو الظلمات ؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الوعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تبهرهم هو البرق. والصواعق

(١) النعرة (مثال الهمزة) : ذباب ضخم أزرق العين أخضر، له إبرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة . واللبان : الصدر، وقيــل : وسطه، وقيــل : ما بين الثديين، ويكون للانسان وغيره . وأصعقتها صواهله . أى قتلها صهيله .

مَثَل لمـا فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل والوعيـد فىالآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ حَذَرَ وحِذارَ بمعنًى؛ وقرئ بهما . قال سيبويه : هو منصوب لأنه مفعول له أى مفعول من أجله؛ وحقيقته أنه مصدر؛ وأنشد سيبويه :

وأَغْفِرُ عَوراءَ الكريم ٱدّخارَه * وأُعرِضُ عن شَتْمِ اللئيم تَكَرُّمَا (١)

وقال الفراء : هو منصوب على التمييز . والموت : ضدّ الحياة . وقد مات يموت، ويَمات أيضا؛ قال الراجز :

بُنَيَّـــتِي سَـــيِّدةَ البَناتِ * عِيشِي ولا يُؤْمَن أن تَماتِي

فهو ميِّت وميْت، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون . والمُوات بالضم : الموت . والمَوات بالفتح : ما لا روح فيه . والمَوات أيضا : الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بهـا أحد . والمَوَتان بالتحريك خلاف الحيوان؛ يقال : اِشْتَرِ الموتان ، ولا تَشتَرِ الحيوان؛ أى اشتر الأرضين والدور، ولا تشتر الرقيق والدواب . والموتان بالضم : موت يقع فى المـاشية؛ يقال : وقع فى المـال مُوتان . وأماته الله وموّته شدّد للبالغة؛ وقال :

فَعُرْوةُ مات مَوتاً مستريحاً * فهأنذا أُمَـــوَّت كلّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها، فهى مُميت ومُميتة . قال أبو عبيد : وكذلك المرأة، وجمعها مَمَاوِيت . قال ابن السكيت : أمات فلان إذا مات له ٱبن أو بَنُونَ . والمُتَماوِت من صـفة الناسك المرائى . وموت مائت، كقولك: لَيلٌ لائلٌ؛ يؤخذ من لفظه مايؤكد به . والمُستَمِيتُ للأمر : المُسْتَرسِلُ له؛ قال رؤبة :

---

(١) البيت لحاتم الطائى . يقول : اذا جهل علىّ الكريم احتملت جهله إبقاء عليه وادّخارا له ، وان سبنى اللئيم أعرضت عن شتمه .

وزَبَدُ البحــرِ له كَتِيتُ * والليل فوق المـاءِ مُسْتَمِيتُ [(١)]

والمستميت أيضـا : المُسْتَقتِلُ الذى لا يبُـالى فى الحرب من الموت ؛ وفى الحـديث : "أرَى القوْم مُسْتَمِيتِين" وهم الذين يقاتلون على الموت . والمُوتة بالضم : جنس من الجنون والصَّرْع يعترى الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه كمال عقله كالنائم والسكران . ومُؤْتة بضم الميم وهمز الواو : اسم أرض [(٢)] قُتل بها جعفر بن أبى طالب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَافِرِينَ ﴾ ابتداء وخبر، أى لا يفوتونه . يقال أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذًا حاصرا من كل جهة؛ قال الشاعر :

أَحَطْنا بهــم حتى إذا ما تيقّنُوا * بما قد رأَوْا مالوا جميعا الى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى : « وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » . وأصله مُحْيِط، نقلت حركة الياء الى الحاء فسكنت . فالله سبحانه محيــط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره ؛ كما قال : « وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » . وقيل : محيط بالكافرين، أى عالم بهم . دليله : « وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » . وقيل مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى: « إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ » أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

---

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ٥١٦ أدب :

وزبد البحــر له كتيت * تراه والحـــوت له نئيت

كلاهمـا مغتمس مفتوت * وكلكل المـاء له مبيت

والليل فوق المـاء مستميت * يدفع عنه جوفه المسحوت

الكتيت : الهدير . والنئيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدة) . المفتوت : المغموم . والمسحوت : الذى لا يشبع .

(٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وقيل : إنها بمشارف الشام على اثنى عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة : « مأت » .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ يكاد معناه يقارب ، يقال : كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . ويجوز فى غير القرآن يكاد أن يفعل؛ كما قال رؤبة :

* قد كادَ من طُول البِلَى أن يَمْصَحَا (١) *

مشتق من المَصْح وهو الدرس . والأجود أن تكون بغير «أنْ» لأنها لمقاربة الحال، و «أن» تصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متناف؛ قال الله عزّ وجلّ : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير، وكاد العروس يكون أميرا ؛ لقربهما من تلك الحـال . وكاد فعل متصرف على فَعِل يَفْعَل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : «وما كِدْتُ آئباً» . ويجرى مجرى كاد كَرَب وجعل وقارب وطَفِق، فى كون خبرها بغير أن؛ قال الله عزّ وجلّ : « وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » لأنهـا كلها بمعنى الحـال والمقاربة؛ والحال لا يكون معها أن، فاعلم .

قوله تعـالى : ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة؛ ومنه سُمّى الطير خُطّافا لسرعته . فمن جعل القرآن مثلا للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم . ومن جعله مثـلا للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بَهَرهم . ويَخْطَف ويَخْطِف لغتان قرئ بهما . وقد خطِفه بالكسر يَخْطَفه خَطْفًا، وهى اللغة الجيدة . واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف؛ الجوهرى : وهى قليلة رديئـة لا تكاد تعرف. وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ » . وقال النحاس: فى يخطف سبعة أوجه؛ القراءة الفصيحة : يَخْطَفُ؛ وقرأ علىّ بن الحسين ويحيى بن وثّاب : يخطِف بكسر الطاء ؛ قال سعيد الأخفش : هى لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرِىّ وأبو رجاء العُطَارِدِى بفتح الياء وكسر الخـاء والطاء . وروِى عن الحسن أيضـا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفرّاء : وقرأ بعض أهل المدينـة بإسكان الخاء وتشـديد الطاء . قال الكسائى والأخفش والفرّاء : يجوز يِخِطِّف بكسر الياء والخاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة للخط .

---

(١) يمصح : يذهب .

والسابعة حكاها عبد الوارث قال : رأيت فى مصحف أُبَىّ بن كعب يَتَخطف ، وزعم سيبويه والكسائى أن من قرأ يَخِطّف بكسر الخاء والطاء فالأصل عنده يَخْتَطِف ، ثم أدغم التاء فى الطاء فالتقى ساكنان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخاء ألقى حركة التاء عليها . وقال الكسائى : ومن كسر الياء فلأن الألف فى اختطف مكسورة . فأما ما حكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولا يجوز، لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبى رجاء يَخْطِف . قال ابن مجاهد : وأظنه غلط ؛ واستدل على ذلك بأن « خَطِفَ الْخَطْفَةَ » لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿ أَبْصَارَهُمْ ﴾ جمع بصر، وهى حاسة الرؤية . والمعنى : تكاد حجج القرآن و براهينه الساطعة تَبْهرهم . ومن جعل البرق مثلا للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يذهب أبصارهم .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ كلما منصوب لأنه ظرف . وإذا كان كلما بمعنى إذا فهى موصولة والعامل فيه مَشَوْا وهو جوابه . ولا يعمل فيه أضاء لأنه فى صلة ما . والمفعول فى قول المبرّد محذوف، التقدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريق . وقيل : يجوز أن يكون فَعَل وأَفْعَل بمعنًى، كَسَكت وأَسْكَت؛ فيكون أضاء وضاء سواء فلا يحتاج الى تقدير حذف مفعول . قال الفراء : يقال ضاء وأضاء، وقد تقدّم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القرآن وظهرت لهم الحجج أَنِسوا ومشوا معه، فإذا نزل من القرآن ما يَعْمَوْن فيه ويَضلون به أو يكلفونه قاموا، أى ثبتوا على نفاقهم، عن ابن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا : دِين محمد مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سخطوا وثبتوا فى نفاقهم، عن ابن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهذا قول حسن، ويدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ » . وقال علماء الصوفية : هذا مَثَل ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بَدْءاً، فارتقى من تلك الأحوال بالدعاوى الى أحوال الأكابر، كان تضىء عليه أحوال

الإرادة لو صححها بملازمة آدابها، فلمــا مزجها بالدعاوى أذهب الله عنــه تلك الأنوار و بق فى ظلمات دعاويه لايبصر طريق الخروج منها . وروى عن ابن عباس أن المراد اليهود، لمّـا نُصر النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم ببــدر طمعوا وقالوا : هــذا والله النبيّ الذى بشّرنا به موسى لا تردّ له راية، فلمــا نُكب بأُحُد ارتدّوا وشكوا؛ وهذا ضعيف . والآية فى المنافقين، وهذا أصح عن ابن عباس؛ والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ لو حرف تمنٍّ وفيه معنى الجزاء، وجــوابه اللام . والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهــم فذهب منهم عِزّ الإســلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم . وخص السمع والبصر لتقدّم ذكرهما فى الآية أوّلا، أو لأنهما أشرف ما فى الإنسان . وقرئ بأسماعهم على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام فى هذا(١).

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه . وأجمعت الأمة على تسمية الله تعــالى بالقدير، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر . والقدير أبلغ فى الوصف من القادر؛ قاله الزّجاجيّ . وقال الهرويّ : والقدير والقادر بمعنًى واحد؛ يقال : قَدَرت على الشيء أقــدُر قَدْرا وقَدَرا ومقــدَرة ومقدُرة وقُدْرانا، أى قُدْرة . والاقتدار على الشيء : القدرة عليه . فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم . فيجب على كل مكلّف أن يعلم أن الله تعالى قادر، له قدرة بها فَعَل ويَفْعَل ما يشاء على وَفْق علمه واختياره . ويجب عليــه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بهــا ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنه غير مستبدّ بقدرته . وإنمــا خص هنا تعالى صفته التى هى القدرة بالذّكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذِكر فعــلٍ مضمّنه الوعيــد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسبا لذلك . والله أعلم .

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات فى وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان فى ذكر الكافرين، وبقيتها فى المنافقين . وقد تقدّمت الرواية فيها عن ابن جريج، وقاله مجاهد أيضا .

(١) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ » فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهــذا يردّه أن هــذه السورة والنساء مدنيتان وفيهما يأيها النــاس . وأما قولهما فى « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عروة بن الزبير : ما كان من حدّ أو فريضــة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » فى قوله : « يأيهــا » حرف نداء . « أى » منادى مفرد مبنى على الضم لأنه منادى فى اللفظ ، و « ها » للتنبيه . الناس مرفوع صفة لأى عند جماعة النحويين ما عدا المــازنى فإنه أجاز النصب قياسا على جوازه فى يا هذا الرجل . وقيــل : ضمت أى كما ضم المقصود المفرد، وجاءوا بـ « ها » عوضا عن ياء أخرى، وإنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سـيبويه : كأنك كررت «يا» مرتين وصار الاسم بينهما ؛ كما قالوا : هاهو ذا . وقيــل : لمــا تعذّر عليهم الجمع بين حرفى تعريف أتوا فى الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريف، وأجروا عليــه المعرّف باللام المقصود بالنــداء، والتزموا رفعه لأنه المقصود بالنداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التى كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى، فآعلمه .

واختلف من المراد بالناس هنا على قولين، أحدهما : الكفار الذين لم يعبدوه ؛ يدل عليه قوله : « وإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ » . الثانى : أنه عام فى جميع النــاس ، فيكون خطابه للؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها، وهذا حسن .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾ أمرٌ بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصــل العبادة الخضوع والتذلل ؛ يقال : طريق مُعَبَّدة إذا كانت موطوءة بالأقدام.

قال طَرَفـــة :

* وظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعبَّدِ (١) *

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التَّنسك . وعبَّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ خصّ تعالى خلقه لهم من بين سائر صـفاته إذ كانت العرب مقرّة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجة عليهم وتقريعا لهم . وقيـل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفى أصل الخلق وجهان ؛ أحدهما : التقدير ؛ يقال : خَلقتُ الأَديم للسقَاء إذا قدّرته قبل القطع ؛ قال الشاعر (٢) :

ولأَنتَ تَفْرِى ما خَلقتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

وقال الحجاج : ما خَلقتُ إلا فَرَيْتُ ، ولا وَعدتُ إلا وَفَّيْتُ . الثـانى : الإنشاء والاختراع والإبداع ؛ قال الله تعالى : « وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ثبت عنـدهم خلق غيرهم ؛ فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ فى العظة ؛ فذكّرهم من قبلهم ليعلموا أن الذى أمات مَن قبلَهم وهو خلقهم يميتهـم ؛ وليفكروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أىّ الأمور مضوا من إهلاك من أهلك ؛ وليعلموا أنهم يبتلون كما ابتلوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لعل متصلة باعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذرأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقى . وهـذا وما كان مثله فيما ورد فى كلام الله تعالى من قوله : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فيه ثلاث تأويلات :

---

(١) صدر البيت : * تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *

تبارى : تعارض ؛ يقال : هما يتباريان فى السير ، إذا فعل هذا شيئا فعل هذا مثله . والعِتاق : الكرام من الابل البيض . والناجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : اتبعت وظيفا وظيفا ، أى اتبعت هذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها فى موضع يدها اذا سارت . والمور : الطريق . (عن شرح المعلقات) . (٢) هو زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت اذا قدرت أمرا قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدر ما لا يقطعه لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . (عن اللسان) .

الأول — أن لعل على بابها من الترجى والتوقع، والترجى والتوقع إنما هو فى حيز البشر؛ فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكّروا وأن تتقوا . هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان. قال سيبويه فى قوله عزّ وجلّ : « ٱذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ » قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتـذكر أو يخشى . واختار هذا القول أبو المعالى .

الثـانى — أن العرب استعملت لعلّ مجرّدة من الشـك بمعنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكّروا ولتتقوا؛ وعلى ذلك يدلّ قول الشاعر :

وقلتم لنـا كُفُّوا الحروب لعلّنا * نَكُفُّ ووثّقتم لنا كلّ مَوْثِقِ
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كلَمْعِ سَـرابٍ فى المَـلا مُتألِّقِ

المعنى كفّوا الحروب لنكف، ولو كانت لعـلّ هنا شكّا لم يوثقوا لهم كل موثق ؛ وهذا القول عن قُطْرب والطبرى .

الثالث — أن تكون لعلّ بمعنى التعرّض للشىء؛ كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . والمعنى فى قوله : «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم و بين النار. وهذا من قول العرب : اتّقاه بحقه إذا استقبله به؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا احْمَرّ البأس اتّقينا بالنبىّ صلّى الله عليه وسلّم، أى جعلناه وقاية لنا من العدوّ؛ وقال عنترة :

ولقد كرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نحرُه * حتى اتّقتنى الخيلُ با بنى حِذيَمِ

قوله تعالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ ﴾ معناه هنا صيّر لتعديه الى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ » وقوله : « وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » . ويأتى بمعنى سمّى ؛ ومنه قوله تعالى : « حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقوله : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » . « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا » أى سمّوهم . ويأتى بمعنى أخذ كما قال الشاعر[(١)] :

وقد جَعلتْ نفسِي تَطيبُ لضَغْمةٍ * لضَغْمِهِمَا هَا يَقـرَعُ العظمَ نابُهـا

وقد تأتى زائدة؛ كما قال الآخر :

وقد جَعلتُ أرى الاثنين أربعة * والواحد اثنينِ لمّـا هدّنى الكِبَرُ

وقد قيل فى قوله تعالى : « وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » إنها زائدة . وجعل واجتعل بمعنى واحد؛ قال الشاعر[(٢)] :

ناطَ أمْرَ الضّعافِ واجتعل اللّيـ * ـلَ كحَبْـلِ العـادِيّةِ الممـدُودِ

﴿ فِرَاشًا ﴾ أى وِطاء يفترشونها ويستقرّون عليها . وما ليس بفراش كالجبـال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها؛ لأن الجبال كالأوتاد؛ كما قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » . والبحار تركب إلى سـائر منافعها؛ كما قال : « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ » .

الثانيـــة — قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث ؛ لأن اللفظ لا يرجـع إليهما عرفا . وأما المـالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنهـا محمولة على النيـة أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

(١) هو مغلس بن لقيط الأسدى . وصف شـدّة أصابه بها رجلان من قومه ، فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لاصابتهما بمثل الشدّة التى أصابانى بها . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم نابها . فجعل لها نابا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيها الى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٢) هو أبو زبيد الطائى يرثى اللجلاج ابن أخته . يقول : جعل يسـير الليل كله مستقيما كاستقامة حبل البئر الى الماء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ السماء للأرض كالسقف للبيت؛ ولهذا قال وقوله الحـق : « وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا » . وكل ما علا فأظل قيـل له سمـاء ؛ وقد تقدّم القول فيـه[1] . والوقف على « بِنَـآءً » أحسن منه على « تَتَّقُونَ » ؛ لأن قوله : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا » نعت للرّب . ويقال : بَنَى فلان بيتا ، وبَنَى على أهله بِنـاء فيهما أى زَفّها . والعامة تقول : بَنَى بأهله ، وهو خطأ؛ وكأنّ الأصل فيـه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبّة ليلة دخوله بها؛ فقيل لكل داخل بأهله : بانٍ؛ وبَنَّى مقصورا شدّد للكثرة . وابتنى دارا وبنى بمعنًى؛ ومنه بنيان الحائط؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء مَوَهٌ؛ قلبت الواو ألفا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ؛ فالتقى حرفان خفيفان فأبدلت من الهاء همزة لأنها أجلد، وهى بالألف أشبه؛ فقلت : ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، وبعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء، وبعد الهمزة ألف بدل من التنوين . قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين ، وإن شئت بثلاث ؛ فاذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل؛ فقالوا : مُوَيْهٌ وأَمْوَاهٌ ومِيَاهٌ؛ مثل جِمَال وأَجْمَال .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ الثمرات جمع ثمـرة . ويقال : ثَمَر مثل شجر . ويقال : ثُمُر مثل خشب . ويقال : ثُمْر مثل بُدْن . وثِمار مثـل إكام جمع ثمرة . وسيأتى لهـذا مزيد بيان فى « الأنعام » إن شاء الله . وثِمار السّياط : عُقَدُ أطرافهـا .

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات، وأنواعا من النبات . ﴿ رِزْقًا ﴾ طعاما لكم، وعلفا لدوابكم ؛ وقد بين هذا قوله تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَـآءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَـا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْـبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَآئِقَ غُلْبًـا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفًى[2] والحمد لله .

---

(١) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء .		(٢) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء .

فإن قيل : كيف أطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التّملك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك و يصح بها الانتفاع، فهى رزق .

الخامســـة — قلت : ودلّت هذه الاية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرا إلى هـذا المعنى : " واللهِ لَأَنْ يأخذ أحدُكم حبلَه فيَحتطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه " . أخرجه مسلم. و يدخل فى معنى الاحتطاب جميع الأشـغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بَشَر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زخرف الدنيا فقـد أخذ بطَرَف من جعل لله نِدًّا . وقال علماء الصّوفية : أعلم الله عزّ وجلّ فى هذه الاية سبيل الفقر؛ وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء ، والمـاء طيّبا والكلأ طعاما ؛ ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح(١) لك ما لا بدّ لك منه ، من غير مِنّة فيـه لأحد عليك . وقال نَوْفٌ البِكَالِىّ : رأيت علىّ بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نَوْف ، أراقـدٌ أنت أم رامق ؟ قلت : بل رامق يا أمير المؤمنين ؛ قال : طُوبَى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ؛ أولئك قوم اتخـذوا الأرض بساطا ، وترابها فراشا ، وماءها طِيبا ، والقرآن والدعاء دِثارا وشِعارا ؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام . وذكر باقى الخبر ، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ » إن شاء الله تعالى .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ نهى . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء؛ واحدها نِدٌّ؛ وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع : نِدًّا؛ قال الشاعر :

نحمـــد الله ولا نِدّ له * عنده الخير وما شاء فعل

وقال حسان :

أتهجوه ولستَ له بِنِدٍّ * فشرّكما لخيرِكما الفِـداء

---

(١) فى الأصول : « أباح » بالباء الموحدة، وهو تصحيف .

ويقال : نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة؛ قال لبيد :

لكيلا يكونَ السَّنْدَرِيّ نَدِيدَتِي * وأجعلَ أقواماً عُموماً عَماعِما(١)

وقال أبو عبيدة : أندادا أضدادا . النحاس : أندادا مفعول أوّل ، ولله في موضع الثاني .
الجوهري : والنَّدّ بفتح النون : التَّلّ المرتفع في السماء . والنَّـد من الطيب ليس بعربيّ .
ونَدّ البعيرُ يَنِدُّ نَدًّا ونِدادا ونُدودا : نفر وذهب على وجهه؛ ومنه قرأ بعضهم « يَوْمَ التَّنَادّ » .
ونَدَّدَ به أي شهّره وسمّع به .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر ، والجملة في موضع الحال ، والخطاب للكافرين والمنافقين؛ عن ابن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى .
فالجواب من وجهين : أحدهما — وأنتم تعلمون ، يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق ، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد . الثاني — أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبّرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفي هـذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد . وقال ابن فُورَك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ؛ فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعـد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد .

قوله تعالى : وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي في شك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعني القرآن ، والمراد المشركون الذين تُحُدُّوا ، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هذا كلامَ الله ، وإنّا لفي شك

(١) السندري : ابن يزيد الكلابي ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل ، فدُعي لبيد إلى مهاجاته فأبى وقال البيت . والعماعم : الجماعات المتفرقون . ومعنى الشطر الثاني : وأجعل أقواما مجتمعين فرقا .
(عن شرح القاموس واللسان) .

منه . فنزلت الآية . ووجه اتصالها بمـا قبلها أن الله سبحانه لمـا ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيتـه وقدرته ذكر بعـدها الدلالة على نبوّة نبيّـه ، وأن ما جاء به ليس مفترًى من عنـــده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ يعنى محمدا صلّى الله عليه وسلّم . والعبد مأخوذ من التعبّد وهو التذلّل ؛ فسُمّى المملوكُ — من جنس ما يفعله — عبدًا لتذلّله لمولاه ؛ قال طَرَفة :

إلى أن تَحامَتْنِى العشيرةُ كلُّها * وأُفردتُ إفرادَ البعير المُعبَّدِ

أى المُـذلَّل . قال بعضهم : لمـا كانت العبـادة أشرف الخصال والتّسمى بهـا أشرف الخطط ، سَمَّى نبيّه عبدا ، وأنشدوا :

يا قومِ قلبى عند زهراء * يعرفه السّامع والرّائى
لا تَدْعُنِى إلا بيا عبدها * فإنه أشرف أسمائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، ائْتُوا مقصور لأنه من باب المجيء ؛ قاله ابن كَيْسان . وهو أمر معناه التعجيز لأنه تعالى علم عجزهم عنه . والسُّورَة واحدة السُّوَر وقد تقدم الكلام فيهـا[(1)] وفى إعجاز القرآن[(2)] ، فلا معنى للإعادة . ومن — فى قوله : « مِنْ مِثْـلِهِ » — زائدة ؛ كما قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير فى مثله عائد على القرآن عند الجمهور من العلمـاء ؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدق ما فيـه . وقيل : يعود على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . المعنى من بَشَر أُمّىّ مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمِن على هذين التأويلين للتبعيض . والوقف على «مثله» ليس بتام ؛ لأن « وادعوا » نسق عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفـراء : آلهتكم . وقال ابن كيسان : فان قيـل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنمـا يكون الشهـداء ليشهدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهدوه ، وإنما قيل لهم : فأتوا بسورة من مثله؟ فالجواب أن المعنى استعينوا

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ص ٦٩ — ٧٨ من هذا الجزء .

بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهدوا ما تأتون به ؛ فيكون الرد على الجميـع أوكد في الحجة عليهم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد : معنى وادعوا شهداءكم ، أى ادعوا ناسا يشهدون لكم أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : شهداءكم نصب بالفعـل جمع شهيد ؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثـل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى من غيره ، ودُونُ نقيض فوق ؛ وهو تقصير عن الغاية ، ويكون ظرفا . والدون : الحقير الخسيس ؛ قال :

إذا ما علا المـرءُ رام العَـلَاء * ويَقنع بالدُّون من كان دُونَا

ولا يُشتق منـه فعل ، وبعضهم يقول منـه : دَانَ يَدُونُ دَوْنًا . ويقال : هـذا دون ذاك ، أى أقرب منـه . ويقال في الإغراء بالشيء : دُونَكه . قالت تميم للحجاج : أَقْبِرْنَا[(1)] صالحاً — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُمُوه .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة ، لقولهم في آية أخرى : « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » . والصدق : خلاف الكذب ، وقد صدق في الحديث . والصَّدْق : الصُّلب من الرماح . ويقال : صَدَقُوهم القتالَ . والصِّدِّيق : الملازم للصدق ؛ ويقال : رَجلُ صِدْقٍ ، كما يقال : نِعْمَ الرجلُ . والصَّداقة مشتقة من الصدق في النّصح والودّ .

قوله تعالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ يعنى فيما مضى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أى تطيقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على «صادقين» تام . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا ، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على «صادقين» .

(1) أقبرنا ، أى ائذن لنا في أن نقبره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتبا للحجاج ، ويرى رأى الخوارج .

فإن قيل : كيف دخلت « إنْ » على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجـواب أن « إنْ » هاهنا غير عاملة فى اللفظ، فدخلت على «لم» كما تدخل على المـاضى؛ لأنها لا تعمل فى لم كما لا تعمل فى المـاضى؛ فمعنى إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن، ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أُعَرِّضْ [1] أَبيتَ اللَّعنَ بالصَّفَدِ *

وفى حديث ابن عمر حين ذُهب به الى النار فى منامه فقيل لى : لن تُرَعْ . هذا على تلك اللغة . وفى قوله : « وَلَنْ تَفْعَلُوا » إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ابن كيسان : ولن تفعلوا، توقيفا لهم على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترًى وأنه سحر وأنه شِعْر، وأنه أساطير الأولين؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب فإن لم تفعلوا ، أى اتقوا النار بتصديق النبيّ صلى الله عليه وسلّم وطاعة الله تعالى . وقد تقدّم معنى التقوى [2] فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد «فَتَقُوا النار» . وحكى سيبويه : تَقَى يَتْقِى، مثل قضى يقضى . «النار» مفعولة . «التى» من نعتها، وفيها ثلاث لغات : الّتى واللّتِ بكسر التاء واللّتْ بإسكانها . وهى اسم مبهم للمؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير ، ولا تتم إلا بصلة . وفى تثنيتها ثلاث لغات أيضا : اللّتانِ واللّتَـا بحذف النون واللّتانِّ بتشديد النون . وفى جمعهـا خمس لغات :

---

(١) رواية الديوان وهى المشهورة فى مصادر الأدب : « فلم أعرض » . ويروى : « فما عرضت » . وصدر البيت :

* هذا الثناء فإن تسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحية كانوا يحيون بها الملوك . والصفد : العطاء . معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم . يقول : هـذا الثناء الصحيح الصادق فمن الحق أن تقبله منى، فلم أمدحك متعرضا لعطائك، لكن امتدحتك اقرارا بفضلك . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

اللَّاتِى وهى لغــة القرآن . واللّاتِ بكسر التاء بلا ياء . واللَّوَاتِى . واللَّواتِ بلا ياء، وأنشــد أبو عبيدة :

من اللّواتِى والّتِى واللّاتِى * زَعَمْنَ أنْ قد كَبِرَتْ لِدَاتِى

واللَّوَا بإسقاط التاء، هــذا ما حكاه الجوهرى . وزاد ابن الشجرى : اللائى بالهمز وإثبات الياء، واللاءِ بكسر الهمزة وحذف الياء، واللَّا بحذف الهمزة . فإن جمعت الجمع قلت فى اللاتى : اللــواتى ، وفى اللائى : اللــوائى . قال الجوهرى : وتصــغير التى اللَّتَيَّا بالفتح والتشديد ، قال الراجز (1) :

بعد اللُّتَيَّا واللَّتَيَّا والّتِى * إذَا عَلَتْهَا أَنْفُسٌ تَرَدَّتِ

وبعض الشعراء أدخل على التى حرف النداء، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا فى قولنــا : يا ألله ، وحده . فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها، وقال :

من آجْلِكِ يا التِى تَيَّمْتِ قلبِى * وأنتِ بخيـــلةٌ بالــوُدِّ عَنِّى

ويقال : وقع فلان فى اللُّتَيَّــا والّتِى ؛ وهما اسمان من أسمــاء الداهية . والوَقود بالفتح : الحطب . وبالضم : التوقد . و «الناس» عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبا لهــا، أجارنا الله منها . «والحجارة» هى حجارة الكبريت الأسود — عن ابن مسعود والفراء — وخصت بذلك لأنهــا تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الانقاد، نتن الرائحة، كثرة الدخان، شــدّة الالتصاق بالأبدان ، قوة حَرِّها إذا حَمِيت . وليس فى قوله تعالى : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة، بدليل ما ذكره فى غير موضع من كون الجن والشياطين فيها . وقيل : المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » أى حطب جهنم . وعليــه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار، وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس .

---

(1) هو العجاج . وصف دواهى شنيعة . يقول : بعــد الجهد والمُشْرِف الذى أشرفت عليــه . ومعنى تَردّت : سقطت هاوية وهلكت .

وعلى التأويل الأوّل يكونون معذبين بالنار والحجارة . وقـد جاء الحديث عن النبيّ صـلّى الله عليـه وسلّم أنه قال : " كل مُؤْذٍ فى النار " . وفى تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس فى الدنيا عذبه الله فى الآخرة بالنار . الثـانى أن كل ما يؤذى الناس فى الدنيا من السباع والهوام وغيرها فى النار مُعَدٌّ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هى نار الكافرين خاصة . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهـل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم وجدته فى غَمَرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضاح(١) — فى رواية — ولولا أنا لكان فى الدَّرْك الأسفل من النار" . « وقودها » مبتدأ . « الناس » خبره . « والحجارة » عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهـد وطلحة بن مُصَرِّف : وُقودها بضم الواو . وقرأ عُبيد بن عُمير : وقِيـدُها الناس . قال الكسائى والأخفش : الوَقود بفتح الواو : الحطب ، وبالضم الفعل؛ يقال : وَقَدتِ النارُ تَقِد وُقودا بالضم ووَقَدًا وقِدَةً [ووَقِيدا ووَقْدا(٢)] ووَقَدانا ، أى توقدت . وأوْقدتها أنا واستوقدتها أيضا ، والاتقاد مثل التّوقد ، والموضـع مَوْقِد ، مثـل مجلس ، والنار مُوقَـدة . والوَقْدة : شـدّة الحر ، وهى عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يقرأ إلا وقودها [بفتح الواو(٣)] لأن المعنى حطبها ، إلا أن الأخفش قال : وحكى أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر . قال النحاس : وذهب إلى أن الأوّل أكثر ، قال : كما أن الوَضوء الماء ، والوُضوء المصدر .

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة فى الشفاعة على ما يأتى . وفيـه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النـار موجودة مخلوقة ؛ خلافا للمبتدعة فى قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن . وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطى الأندلسى .

(١) الضحضاح فى الأصل : مارق من المـاء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، واستعار للنار .

(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (٣) الزيادة عن كتاب « إعراب القرآن للنحاس » .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال (١) : كنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذ سمع وجبة (٢) ؛ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "تدرون ما هذا" قال قلنا : الله ورسوله أعلم؛ قال : "هذا حجر رُمِي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يَهوِي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها" . وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "احتجت النار والجنة فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهذه أنتِ عذابي أعذب بكِ من أشاء وقال لهذه أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها" . وأخرجه مسلم (٣) بمعناه . يقال : احتجت بمعنى تحتج ، للحديث المتقدّم حديث ابن مسعود (٤) ؛ ولأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد أريهما في صلاة الكسوف ، ورآهما أيضا في إسرائه ودخل الجنة ؛ فلا معنى لما خالف ذلك . وبالله التوفيق . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَدّة ، وأضمرت معه قد ؛ كما قال : « أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ » فمعناه قد حصرت صدورهم ، فمع «حَصِرت» قد مضمرة لأن الماضي لا يكون حالا إلا مع قد ؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على الحجارة . ويجوز أن يكون كلاما منقطعا عما قبله ؛ كما قال : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » . وقال السجستاني : أعدّت للكافرين من صلة التي ؛ كما قال في آل عمران : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » . ابن الأنباري : وهذا غلط ، لأن التي في سورة البقرة قد وصلت بقوله : « وَقُودُهَا النَّاسُ » فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفي آل عمران ليس لها صلة غير « أعدت » .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

(١) كذا في الأصول . وفي صحيح مسلم : « عن أبي هريرة » . (٢) الوجبة : صوت الشيء يسقط فيسمع له ، كالهدة . (٣) بمراجعة صحيحي البخاري ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم ، وأخرجه البخاري بمعناه .

(٤) يلاحظ أن راوي الحديث المتقدم في صحيحي مسلم والبخاري أبو هريرة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشير : الإخبار بما يظهر أثره على البَشرة وهي ظاهر الجلد لتغيرها بأول خبر يَرِد عليك؛ ثم الغالب أن يستعمل في السرور مقيّدا بالخير المبَشَّر به ، وغير مقيد أيضا . ولا يستعمل في الغم والشر إلا مقيّدا منصوصا على الشر المبَشَّر به؛ قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال : بشّرته و بشَرته — مخفف ومشدد — بشارة بكسر الباء فأَبْشَر واستبشر . وبَشِر يَبْشَر إذا فرح . ووجه بَشير إذا كان حسَنا بيّن البَشارة بفتح الباء . والبُشرى : ما يعطاه المبَشِّر . وتباشير الشيء : أوّله .

الثانيـــة — أجمع العلماء على أن المكلّف إذ قال: من بشرني من عبيدي بكذا فهو حُرّ، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حُرًّا دون الثاني . واختلفوا إذا قال : من أخبرني من عبيدي بكذا فهو حر فهل يكون الثاني مثل الأوّل؛ فقال أصحاب الشافعي : نعم، لأن كل واحد منهـم مخبر . وقال علماؤنا : لا ، لأن المكلف إنما قصد خبرا يكون بشارة؛ وذلك يختص بالأوّل؛ وهذا معلوم عرفا فوجب صرف القول إليه . وفرّق محمد بن الحسن بين قوله : أخبرني، أو حدثني؛ فقال : إذا قال الرجل أيّ غلام لي أخبرني بكذا ، أو أعلمني بكذا وكذا فهو حر — ولا نيـة له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتِق؛ لأن هـذا خبر . وإن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق؛ لأنه قال : أيّ غلام أخبرني فهو حر . ولو أخبروه كلهم عَتَقُوا ؛ وإن كان عَنَى حين حلف بالخبر كلام مشافهة لم يَعتِق واحد منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : وإذا قال أيّ غلام لي حدثني ؛ فهـذا على المشافهة، لا يعتق واحد منهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ردّ على من يقول : إن الإيمان بمجرده يقتضي الطاعات، لأنه لو كان ذلك ما أعادها؛ فالجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح . وقيل: الجنة تنال بالإيمان؛ والدرجات تستحق بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضـع نصب ببشر ، والمعنى وبشر الذين آمنوا بأن لهم ، أو لأن لهم ؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل . وقال الكسائى وجماعة من البصريين : أن فى موضع خفض باضمار البـاء .

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب اسم أنّ ، وأنّ وما عملت فيـه فى موضع المفعول الثـانى . والجنات : البساتين ، وإنمـا سميت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أى تستره بشجرها ؛ ومنـه : المِجَنّ والجَنين والجنة .

﴿ تَجْرِي ﴾ فى موضـع النعت لجنات ، وهو مرفوع لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها ، ولم يجر لها ذكر لأن الجنات دالة عليها .

﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار ؛ فنسب الجرى إلى الأنهار توسُّعًا ، وإنما يجرى المـاء وحده فحذف اختصارا ، كما قال تعالى : « وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ » أى أهلها . وقال الشاعر (١) :

نُبِّئْتُ أن النار بَعدكَ أُوقِدَتْ ＊ واستبَّ بعدكَ يا كُليبُ المجلِسُ

أراد : أهل المجلس فحذف . والنهر : مأخوذ من أنهرت أى وسّعت ؛ ومنه قول قيس ابن الخطيم :

مَلكتُ (٢) بها كَفِّى فأنهرتُ فتقَها ＊ يَرَى قائمٌ مِن دونهـا ما وراءها

أى وسعتها ، يصف طعنة ؛ ومنه قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "ما أنهر الدمَ وذُكِر اسم الله عليه فكلوه" . معناه : ما وسع الذبح حتى يجرى الدم كالنهر . وجمع النَّهَر : نُهُر وأنهار . ونَهَر نَهِر : كثير المـاء ؛ قال أبو ذؤيب :

أقامت به فابتنَتْ خيمةً ＊ على قَصَبٍ وفُراتٍ نَهِـرْ (٣)

---

(١) هو مهلهل أخو كليب .　　(٢) ملكت ، أى شددت وقويت .

(٣) قال الأصمعى : «قصب البطحاء مياه تجرى الى عيون الركايا (الآبار) . يقول : أقامت بين قصب أى ركايا وماء عذب ، وكل فرات فهو عذب» . (عن اللسان وشرح الديوان) .

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على «الأنهار» حسن وليس بتام ؛ لأن قوله : « كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ » من وصف الجنات .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدر، وقد تقدّم القول فى الرزق[1] . ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى الدنيا؛ وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وُعِدنا به فى الدنيا . والثانى — هذا الذى رُزقنا فى الدنيا؛ لأن لونهـا يشبه لون ثمـار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيـل : « من قبـل » يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون ؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمـار فى أول النهار فأكلوا منها، ثم أُتُوا منها فى آخر النهار قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول .

﴿ وَأُتُوا ﴾ فُعِلُوا من أتيت . وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء . وقرأ هارون الأعور «وَأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء . فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة؛ وفى الثانية للخدام .

﴿ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ حال مِن الضمير فى به ، أى يشبه بعضـه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عكرمة : يشبه ثمـر الدنيا ويباينه فى جُلّ الصفات . ابن عباس : هذا على وجه التعجب ، وليس فى الدنيا شيء ممـا فى الجنة سوى الأسماء ؛ فكأنهم تعجّبوا لمـا رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خيارا لا رَذْلَ فيه؛ كقوله تعالى : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه؛لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ ﴾ ابتداء وخبر . وأزواج : جمع زوج؛ والمرأة : زوج الرجل؛ والرجل زوج المرأة . قال الأصمعيّ : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفراء أنه يقال : زوجة؛ وأنشد الفرزدق :

وإن الذى يسعى ليُفسِد زوجتى * كساعٍ إلى أُسْد الشّرَى يَسْتَبِيلُها[2]

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها : أى يأخذ بولها فى يده .

وقال عمّـار بن ياسر فى شأن عائشـة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله إنى لأعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم . ذكره البخارى، واختاره الكسائى .

﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ نعت للأزواج . ومطهرة فى اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحيض والبصاق وسائر أقذار الآدميات . ذكر عبـد الرزاق قال أخبرنى الثورىّ عن ابن أبى نَجِيح عن مجاهـد : مطهرة، قال : لا يَبُلْن ولا يَتَغَوَّطْن ولا يَلِدن ولا يَحِضن ولا يُمنين ولا يَبْصُقْن . وقـد أتينا على هـذا كله فى وصف أهـل الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هم مبتدأ . خالدون خبره، والظرف ملغًى . ويجوز فى غير القرآن نصب خالدين على الحال . والخلود : البقاء؛ ومنه جنّة الخُلْد. وقد تستعمل مجازا فيما يطول؛ ومنه قولهم فى الدعاء : خلَّد الله مُلْكه، أى طوّله . قال زهير :

ألَا لا أرى على الحوادث باقيًا * ولا خالدًا إلا الجبال الرّواسيَا

وأما الذى فى الآية فهو أبدىّ حقيقة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ قال ابن عبـاس فى رواية أبى صـالح : لمـا ضرب الله سبحانه هـذين المثلين للمنـافقين : يعـنى « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » قالوا : الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثـال؛ فأنزل الله هـذه الآية . وفى رواية عطاء عن ابن عباس قال : لمـا ذكر الله آلهة المشركين فقال : « وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ » وذكر كيد الآلهة

بجعلـه كبيت العنكبوت ، قالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبـوت فيما أنزل من القرآن على محمـد ، أيّ شيء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتـادة : لمـا ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب للشركين به المثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ؛ فأنزل الله الآية .

و ﴿يَسْتَحْيِ﴾ أصله يستحْيِيُ ، عينه ولامه حرفا علة ؛ أُعِلّت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت . واسم الفاعل على هذا : مستحيٍ ، والجمع مستحيون ومستحيين . وقرأ ابن مُحَيْصِن يستحِي بكسر الحـاء وياء واحدة ساكنة ؛ وروى عن ابن كَثِير وهى لغة تميم و بكر ابن وائل ؛ نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم استثقلت الضمة على الثانيـة فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ واسم الفاعل مسـتحٍ ، والجمع مستحون ومستحين . قاله الجوهرى . واختلف المتأولون فى معنى يستحيي فى هذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى ؛ ورجّحه الطبرى ؛ وفى التنزيل : « وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفا من مواقعة القبيح ؛ وهذا محال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : جاءت أمّ سُلَيم إلى النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ يضرب معناه يبيّن ، وأنْ مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف مِن . « مَثَلًا » منصوب بيضرب « بَعُوضَةً » فى نصبها أربعة أوجه :

الأول — تكون «ما» زائدة ، و بعوضة بدلا من مَثَلًا .

الثـانى — تكون «ما» نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : «مثلا» . و بعوضـة نعت لمـا ، فوصفت ما بالجنس المنكّر لإبهامها لأنهـا بمعنى قليـل ؛ قاله الفراء والزجاج وثعلب .

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجار ، المعنى أن يضرب مثلا ما بين بعوضة ؛ لحذفت «بين» وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أى إلى ما فوقها . وهذا قول الكسائى والفراء أيضا؛ وأنشد أبو العباس :

يا أحسنَ الناسِ ما قَرْنًا إلى قَدَمٍ * ولا حِبالَ مُحِبٍّ واصلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قَرْن، فلما أسقط بين نصب .

الرابع — أن يكون يضرب بمعنى يجعل ، فتكون بعوضة المفعول الثانى . وقرأ الضحاك وابراهيم بن أبى عَبْلَةَ ورُؤبة بن العجّاج « بعوضةٌ » بالرفع ، وهى لغة تميم . قال أبو الفتح : ووجه ذلك أن «ما» اسم بمنزلة الذى ، و بعوضة رفع على إضمار المبتدأ ، التقدير : لا يستحيي أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا ؛ لحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ . ومثله قراءة بعضهم : « تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن . وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا ؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى « ما » أقبح منه فى الذى ، لأن الذى إنما له وجه واحد والاسم معه أطول . ويقال : إن معنى ضربت له مثلا ، مثّلت له مثلا . وهذه الأبنية على ضرب واحد ، وعلى مثال واحد ونوع واحد ؛ والضرب النوع . والبعوضة : فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم ؛ يقال : بَضَع و بَعَض بمعنًى ، وقد بعّضته تبعيضا ، أى جزّأته فتبعّض . والبعوض : البق ، الواحدة بعوضة ، سميت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل ما الأولى صلة زائدة فما الثانية عطف عليها . وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما : معنى فما فوقها — والله أعلم — ما دونها ، أى أنها فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهذا كقولك فى الكلام : أتُراه قصيرا؟ فيقول القائل : أو فوق ذلك ، أى هو أقصر مما ترى . وقال قتادة وابن جُرَيج : المعنى فى الكبر . والضمير فى «أنّه» عائد على المثل ؛ أى أن المثل حق . والحق خلاف الباطل . والحق : واحد الحقوق . والحَقّة بفتح الحاء أخصّ منه ؛ يقال : هذه حَقّى ، أى حَقّى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لغة بنى تميم و بنى عامر فى أمّا : أَيْمَا ، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف ، وعلى هذا يُنْشَد بيت عمر بن أبى ربيعة :

رأتْ رجلًا أَيْمَا إذا الشمس عارضَتْ * فيَضْحَى وأَيْمَا بالعَشِىّ فيَخْصَرُ[1]

قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ اختلف النحويون فى «ماذا» ، فقيل : هى بمنزلة اسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله ، فيكون فى موضع نصب بأراد . قال ابن كيسان : وهو الجيد . وقيل : ما ، اسم تام فى موضع رفع بالابتداء ، وذا ، بمعنى الذى وهو خبر الابتداء ، ويكون التقدير : ما الذى أراده الله بهذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا : الانكار بلفظ الاستفهام . و « مثلا » منصوب على القطع ، التقدير : أراد مثلا ؛ قاله ثعلب . وقال ابن كيسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا ﴾ قيل : هو من قول الكافرين ، أى ما مراد الله بهذا المثل الذى يُفَرِّق به الناس إلى ضلالة و إلى هدى . وقيل : بل هو خبر من الله عزّ وجلّ ، وهو أشبه ؛ لأنهم يقرّون بالهدى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا ؛ أى يوفق ويخذل ؛ وعليه فيكون فيه رد على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعنى « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا » التسمية هنا ، أى يسميه ضالا ؛ كما يقال : فسّقت فلانا ، يعنى سميته فاسقا ؛ لأن الله تعالى لا يضل أحدا . هذا طريقهم فى الإضلال ، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغة ؛ لأنه يقال : ضلّله إذا سمّاه ضالًّا ؛ ولا يقال : أضله إذا سماه ضالّا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهل التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ أنه من قوله تعالى . والفاسقين نصب بوقوع الفعل عليهم ، والتقدير : وما يضل به أحدا إلا الفاسقين الذى سبق فى علمه أنه لا يهديهم .

(١) الخصر (بالتحريك) : البرد .

ولا يجوز ان تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمام الكلام . وقال نَوْفٌ البِكَالِيّ قال قال عزير فيما يناجى ربّه عزّ وجلّ : إلهي تخلق خلقا فتضل من تشاء وتهـدى من تشاء . قال فقيل : يا عزير أعرض عن هذا! لتُعْرِضَنّ عن هذا أو لأمحُوَنّكَ من النّبوة ، إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . والضلال أصله الهلاك ؛ يقال منـه : ضلّ المـاءُ فى اللبن إذا استهلك ؛ ومنه قوله تعالى : « أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ » وقـد تقدّم فى الفاتحة . والفسق أصـله فى كلام العرب الخروج عن الشيء ؛ يقال : فسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها ؛ والفأرة من جحرها . والفُوَيْسِقة : الفأرة ؛ وفى الحديث : "خمسٌ فواسِـقُ يقتلن فى الحِلّ والحَرَم الحيـة والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحُدَيّا" . روته عائشة عن النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم ، أخرجه مسلم . وفى رواية "العقرب" مكان الحية . فأطلق صلّى الله عليه وسلّم عليها آسم الفسق لأذيّتها ، على ما يأتى بيانه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضا عن الأخفش فِسْقًا وفسوقا ، أى فَجَر . فأما قوله تعالى : «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فمعناه خرج . وزعم ابن الأعرابيّ أنه لم يسمع قطّ فى كلام الجاهليـة ولا فى شـعرهم فاسق[1] . قال : وهــذا عجب ، هو كلام عربيّ حكاه عنـه ابن فارس والجوهرى .

قلت : قد ذكر أبو بكر بن الأنبـارى فى كتاب «الزاهر» له لمـا تكلم على معنى الفســق قول الشاعر :

يَذْهَبْنَ فى نَجْـدٍ وغَوْرًا[2] غائرًا ✱ فواسقًا عن قصدها جوائرًا

والفِسِّيق : الدائم الفسق . ويقال فى النداء : يافُسَقُ ويا خُبَثُ ، يريد : يأيها الفاسق ، ويأيها الخبيث . والفسق فى عرف الاستـعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عزّ وجلّ ، فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان .

---

(١) أى بمعنى الخارج من طاعة الله ، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية . (٢) غورا ، منصوب بفعل محذوف ، أى ويسلكن . (راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٩ طبع بولاق) .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ الذين فى موضع نصب على النعت للفاسقين ، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف، أى هم الذين؛ وقد تقدّم (١) .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ يَنقُضُونَ ﴾ النقض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عهد . والنُّقاضة : ما نقض من حبل الشَّعر . والمناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه . والنَّقيضة فى الشِّعر : ما يُنْقَض به . والنِّقض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هـذا العهد ؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصيّة الله تعالى إلى خلقه ، وأمرُه إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيُه إياهم عما نهاهم عنه عن معصيته فى كتبه على ألسنة رسله ؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيل : بل نَصْب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد ؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبيّنوا نبوّة محمد عليه السلام ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج : عهده جلّ وعزّ ما أخذه على النبيّين ومن اتّبعهم ألا يكفروا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم . ودليل ذلك : «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ» إلى قوله تعالى : «وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى» أى عهده .

قلت : وظاهر ما قبلُ وما بعدُ يدل على أنها فى الكفار . فهذه خمسة أقوال؛ والقول الثانى يجمعها .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِ ﴾ الميثاق : العهد المؤكد باليمين ، مفعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشدّة فى العقد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل — لأن

---

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء .

أصــل ميثاق موثاق، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها — والمياثق والمياثيق أيضا؛ وأنشد ابن الأعرابي :

حِمًى لا يُحَلُّ الدهرَ إلا بإذننا ❊ ولا نسأل الأقوامَ عهدَ المياثق (١)

والمَوْثق : الميثاق . والمواثقة : المعاهدة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ » .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ القطع معروف، والمصــدر — فى الرَّحِم — القطيعة؛ يقال : قَطَع رَحِمه قطيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة، مثال هُمَزة . وقَطَعت الحبل قَطْعا، وقَطَعت النهر قُطوعا ، وقَطَعَتِ الطَّيْرُ قُطوعا وقُطاعا وقِطاعا إذا خرجت من بلد إلى بلد . وأصاب الناسَ قُطْعةٌ إذا قلّت مياهم . ورجل به قُطْعٌ أى انبهار (٢) .

الخامســة — قوله تعــالى : ﴿ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ما، فى موضع نصب بيقطعون . و«أَنْ»، إن شئت كانت بدلا من ما، وإن شئت من الهاء فى به وهو أحسن . ويجوز أن يكون لئلا يوصل ، أى كراهة أن يوصل . واختُلف ما الشيء الذى أمر بوصله؟ فقيل : صلة الأرحام . وقيــل : أمر أن يوصــل القول بالعمل؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده . فهى عامة فى كل ما أمر الله تعــالى به أن يوصل ؛ هــذا قول الجمهور . والرَّحِم جزء من هـــذا .

السادســة — قوله تعــالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أى يعبــدون غير الله تعالى ويجورون فى الأفعال، إذ هى بحسب شهواتهم؛ وهذا غاية الفساد .

---

(١) فى اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : «عقد المياثق» والبيت لعياض بن درة الطائى .

(٢) البهر (بالضم) : تتابع النَّفَس من الإعياء، وقيل انقطاعه .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ابتداء وخبر . وهم زائدة؛ ويجوز أن تكون هم ابتداء ثانٍ ، الخاسرون خبره ، والثانى وخبره خبر الأوّل كما تقــدّم[1] . والخاسر : الذى نقص نفســه حظها من الفلاح والفوز . والخُسْران : النقصان كان فى ميزان أو غيره؛ قال جرير :

إن سَلِيطًا فى الخَسار إنّهْ * أولادُ قومٍ خُلِقوا أقِنّهْ[2]

يعنى بالخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهرى : وخَسِرت الشيء بالفتح وأخسرته نقصته . والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرى : الضلال والهلاك؛ فقيل للهالك : خاسر؛ لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة .

السابعــــة — فى هــــذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهــدٍ جائز ألزمه المــرء نفسه فلا يحلّ له نقضــه سواء أكان بين مسلم أم غيره لذمّ الله تعالى من نقض عهده؛ وقد قال : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، وقد قال لنبيّه عليــه السلام : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » فنهاه عن الغدر، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد، على ما يأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

كيف، سؤال عن الحال وهى اسم فى موضع نصب بتكفرون ، وهى مبنيــة على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ، لأن فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، واختير لهـا الفتح لخفتــه ؛ أى هؤلاء ممن يجب أن يتعجّب منهـــم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيــل : كيف يجوز أن يكون هــذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لمّـا لم يثبتوا أمر محمد عليــه السلام ولم يصــدقوه فيما جاء به فقد

---

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط . أبو قبيلة . والقن : الذى مُلك هو وأبواه .

أشركوا؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله . ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : كيف ، لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ، أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هـذه ! قال الواسطىّ : وبّخهم بهذا غاية التوبيخ ، لأن المَوات والجماد لا ينازع صانعه فى شيء ، وإنما المنازعة من الهيا كل الروحانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال ، وقد مضمرة . قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ثم حذفت قد . وقال الفرّاء : أمواتا خبر كنتم .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام ، كذا قال أبو حاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين ، وكم من موتة وحياة للإنسان؟ فقال ابن عباس وابن مســعود : أى كنتم أمواتا معدومين قبل أن تُخلقوا فأحياكم — أى خلقكم — ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطيّة : وهـذا القول هو المراد بالآية ، وهو الذى لا محيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين ، ثم للإحياء فى الدنيا ، ثم للإماتة فيها قوى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبر على هـذا التأويل فى حكم حياة الدنيا . وقيل : لم يعتد بها كما لم يعتد بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا . وقيــل : كنتم أمواتا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذّر ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا أى نُطفا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة ، ثم يميتكم فى القبر ، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر ؛ وهى الحياة التى ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات ، وثلاث إحياءات . وكونهم موتى فى ظهر آدم ، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفًا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ؛ فعلى هذا يجئ أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهبَاء ثم أماتهم ؛ فيكون على هذا خمس موتات ، وخمس إحياءات . وموتة سادسة

للعصاة من أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم إذا دخلوا النار ؛ لحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحيون ولكنْ ناس أصابتهم النار بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فَحْمًا أُذِن في الشفاعة فجيء بهم ضَبَائِرَ ضبائِرَ فبُثّوا على أنهار الجنة ثم قيل يأهل الجنة أفيضوا عليهم فينْبُتون نباتَ الحِبَّة تكون في حَمِيل السَّيْل" . فقال رجل من القوم : كأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية[1] . أخرجه مسلم .

قلت — فقوله : "فأماتهم الله" حقيقة في الموت لأنه أكّده بالمصدر وذلك تكريما لهم . وقيل : يجوز أن يكون "أماتهم" عبارة عن تغيبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتا على الحقيقة، والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكّدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا، وإنما هو على الحقيقة؛ ومثله : «وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا» على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبيِّ الذي جاءكم، ثم يميتكم فيموت ذكركم ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة؛ كما قال تعالى : «كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ» فإعادتهم كابتدائهم ، فهو رجوع . و «تُرْجَعُونَ» قراءة الجماعة . ويحيى بن يَعْمَر وابن أبي اسحاق ومجاهد وابن مُحَيْصِن وسلام ابن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

---

(١) الذي في صحيح مسلم : «... قد كان بالبادية» . والضبائر : هم الجماعات في تفرقة ، واحدتها ضبارة، مثل عمارة وعمائر، وكل مجتمع ضبارة . والحِبة (بالكسر) : بذور البقل . وقيل هو نبت صغير ينبت في الحشيش ؛ فأما الحَبة (بالفتح) فهي الحنطة والشعير ونحوهما . وحميل السيل : هو ما يجيء به السيل من طين أو زبد ووسخ .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — ﴿خَلَقَ﴾ معناه اخترع وأوجد بعد العدم؛ وقد يقال فى الإنسان : خلق عند إنشائه شيئا؛ ومنه قول الشاعر :

من كان يخلق ما يقو * ل لحيلتى فيــه قليله

وقد تقدّم[1] هذا المعنى . وقال ابن كيسان : خلق لكم أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما فى الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهــذا هو الصحيح على ما نبيّنه . ويجوز أن يكون عَنَى به ماهم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانيــة — استدل من قال إن أصل الأشياء التى ينتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها؛ كقوله : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ » الاية . حتى يقوم الدليل على الحظر . وعَضَدوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشّهية خُلقت مع إمكان ألا تخلق فلم تخلق عبثا؛ فلا بد لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لاستغنائه بذاته ، فهى راجعــة إلينا . ومنفعتنا إمّا فى نيل لذتهــا ، أو فى اجتنابهــا لنختبر بذلك ، أو فى اعتبارنا بهــا . ولا يحصـــل شىء من تلك الأمور إلا بذوقها؛ فلزم أن تكون مباحة . وهــذا فاسد ، لانا لا نسلم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خَلَقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب . ولا نسلم حصر المنفعة فيما ذكروه ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق ، بل قد يستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر ، كما هو معروف عند الطبائعيين ثم هو معارَض بمــا يخاف أن تكون سموما مهلكة ، ومعارضــون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقّف آخرون وقالوا : ما من فعل لا ندرك منه حُسْنا ولا قُبْحا إلّا ويمكن أن يكون حَسَنا فى نفسه؛ ولا مُعَيِّن قبــل ورود الشرع ، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع . وهــذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة . وقــد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابه وأكثر المــالكية والصيرفىّ فى هــذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء .

المسئلة القولَ بالوقف . ومعناه عنــدهم أن لا حكم فيها فى تلك الحال، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوب ولا غيره، و إنما حظه تعرُّف الأمور على ما هى عليــه . قال ابن عطيــة : وحكى ابن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يخل العقل قطّ من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سمع، أوْ لها تعلّق به، أوْ لها حال تُستصحَب . قال : فينبغى أن يعتمد على هذا، ويغنى عن النظر فى حظر و إباحة ووقف .

الثالثــة — الصحيح فى معنى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ الاعتبار . يدل عليــه ما قبله وما بعده من نصب العِبَر : الإحياء والإماتة والخلق والاســتواء إلى السماء وتسويتها؛ أى الذى قدر على إحيائكم وخلقكم وخلق السموات والأرض، لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى «لكم» الانتفاع ، أى لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا : المراد بالانتفاع الاعتبار لمــا ذكرنا . فإن قيــل : وأىّ اعتبار فى العقارب والحيات؛ قلنا : يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار فى النــار من العقوبات فيكون سببا للإيمــان وترك المعاصى؛ وذلك أعظم الاعتبار . قال ابن العربىّ : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرا ولا إباحة ولا وقفا؛ و إنما جاء ذكر هذه الآية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتتقوّوا به على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على ســعة جوده ، وتسكن الى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد، ولا تستكثر كثير برّه على قليل عملك؛ فقد ابتدأك بعظيم النّعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعـــة — روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم فسأله أن يعطيه؛ فقال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "ما عندى شىء ولكن ابتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا" فقال له عمر : هــذا أعطيت اذا كان

عندك فما كلفك الله مالا تقدر . فكره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قول عمر؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله؛

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعرف السرور في وجهه لقول الأنصاري . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "بذلك أمرت". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لخوف الإقلال من سوء الظن بالله، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم؛ وقال في تنزيله : « خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا » ، « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » . فهذه الأشياء مسخرة للآدمي قطعًا لعذره وحجة عليه، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا؛ فاذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه؛ كما قال تعالى : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » ، وقال : « فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال الله تعالى : "سبقت رحمتي غضبي يابن آدم أَنفِق أُنفِق عليك يمين الله ملأى سحًّا(١) لا يغيضها شيءٌ الليلَ والنهارَ" . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمَّ أَعْطِ مُنفقا خَلَفًا ويقول الآخر اللّهمَّ أعط مُمْسكًا تلفًا". وكذا في المساء عند الغروب يناديان أيضا؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن استنار صدره، وعلم غنى ربه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال، وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا، واجترأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وانقطعت مشيئته لنفسه؛ فهذا يعطي من يسره وعسره ولا يخاف إقلالا . وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة في الأشياء؛ فاذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة في شيء خاف ألا يصيب غدا ، فيضيّق عليه الأمر في نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "انفَحِي أو انْضِحِي(٢) أو أنفق ولا تُحصي فيُحصيَ الله عليك ولا تُوعِي(٣) فيُوعِيَ الله عليك" . وروى النسائي عن عائشة قالت : دخل عليّ

(١) أي دائمة الصب والهطل بالعطاء . (٢) قال النووي : « والنفح والنضح العطاء، ويطلق النضح أيضا على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح » . (٣) الايعاء : « جعل الشيء في الوعاء » . أي لا تجمعي وتشحي بالنفقة فيشح عليك » .

سائل مرّة وعندى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ،فأمرت له بشىء ثم دعوت به فنظرت اليه ؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "أمَا تريدين ألا يدخل بيتك شىء ولا يخرج إلا بعلمك" قلت : نعم ؛ قال : "مَهْلًا يا عائشة لا تُحْصى فيُحصى الله عزّ وجلّ عليك" .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ثم لترتيب الإخبـار لا لترتيب الأمر فى نفسه . والاستواء فى اللغة : الارتفاع والعلو على الشىء؛ قال الله تعالى : « فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ » ، وقال « لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ » ، وقال الشاعر :

فأوردتهـم ماء بفَيْفاء قَفْــرةٍ * وقد حلّق النجم اليمانىّ فاستوى

أى ارتفع وعلا . واستوت الشمس على رأسى ، واستوت الطير على قمة رأسى ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات ، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه ، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بهـا ولا نفسرها ؛ وذهب إليـه كثير من الأئمة ، وهــذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعالى : « ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ » قال مالك : الاســتواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سَوْء! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة . وهذا قول المشبّهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأوّلها ونُحيل حَمْلَها على ظاهرها . وقال الفرّاء فى قوله عزّ وجلّ : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ » قال : الاســتواء فى كلام العرب على وجهين ، أحدهما : أن يَسْتوِىَ الرجل وينتهى شـبابه وقوّته ، أو يستوى عن اعوجاج . فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان[1] فلان مقبلا على فلان ثم استوى علىّ وإلىّ يشاتمنى . على معنى أقبل إلىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ» والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى الى السماء صَعِد . وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائما ، وكان قائما فاستوى قاعدا ؛ وكل ذلك فى كلام العــرب جائز . وقال البيهقى أبو بكر أحمــد بن علىّ بن الحسين : قوله :

(١) عبارة الأصـول : « ... كان مقبلا علىّ يشاتمنى وإلىّ سواء ، على معنى ... الخ » وبهـا لا يستقيم المعنى . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبرى .

«استوى» بمعنى أقبل صحيح؛ لأن الإقبال هو القصد الى خلق السماء؛ والقصد هو الإرادة، وذلك جائز في صفات الله تعالى . ولفظة «ثم» تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن ابن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبي، والكلبي ضعيف . وقال سفيان بن عُيينة وابن كَيسان في قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ» قصد إليها، أي بخلقه واختراعه؛ فهذا قول . وقيل : على دون تكييف ولا تحديد، واختاره الطبري . ويُذكر عن أبي العالية الرياحي في هذه الآية أنه يقال : استوى بمعنى أنه ارتفع . قال البيهقي : ومراده من ذلك — والله أعلم — ارتفاع أمره ، وهو بخار الماء الذي وقع منه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال ابن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى استولى ، كما قال الشاعر[1] :

قد ٱستوَى بِشْرٌ على العِراق * مِن غيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْرَاق

قال ابن عطية : وهذا إنما يجيء في قوله تعالى : «ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ» .

قلت : قد تقدم في قول الفراء علىّ وإلىّ بمعنًى؛ وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في سورة «الأعراف» إن شاء الله تعالى . والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادســة — يظهر من هذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء ؛ وكذلك في حم السجدة . وقال في النازعات : «ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَاهَا» فوصف خلقها ؛ ثم قال : «وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا» . فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض ؛ وقال تعالى : «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ» وهذا قول قتادة : إن السماء خلقت أولا؛ حكاه عنه الطبري . وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس الماء الذي كان عرشه عليه، فجعله أرضا وثار منه دخان فارتفع ، فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد أمره الى السماء فسوّاهن سبع سموات ، ثم دحا[2] الأرض بعد ذلك ، وكانت إذ خلقها غير مدحوة .

---

(١) هو الأخطل ، كما في شرح القاموس . (٢) دحا الشيء : بسطه .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى ، وهو أن الله تعالى خلق أوّلا دخان السماء ثم خلق الأرض ، ثم استوى الى السماء وهى دخان فسوّاها ، ثم دحا الأرض بعد ذلك .

ومما[1] يدل على أن الدخان خلق أوّلا قبل الأرض ما رواه السّدى عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مُرّة الهمدانىّ عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فى قوله عزّ وجلّ : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء ؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء ، فسما عليه ، فسماه سماء ؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين ، فى الأحد والاثنين . فجعل الأرض على حوت — والحوت هو النّون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله : « نٓ وَٱلْقَلَمِ » — والحوت فى الماء و[الماء][2] على صَفاة[3] ، والصفاة على ظهر ملَك ، والملَك على الصخرة ، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض — فتحرّك الحوت فاضطرب ؛ فتزلزلت الأرض ؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت ؛ فالجبال تفخر على الأرض ، وذلك قوله تعالى : « وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وخلق الجبال فيها ، وأقوات أهلها وشجرها ، وما ينبغى لها فى يومين ، فى الثلاثاء والأربعاء ، وذلك حين يقول : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ » يقول : من سأل فهكذا الأمر ، « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ » وكان ذلك الدخان من تنفّس الماء حين تنفّس ؛ فجعلها سماء واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين ، فى الخميس والجمعة ؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه فى مقدّمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذى لا يتمشى مع روح الدين الاسلامى ؛ يقلّ من له المَصبة . — (٢) تكملة عن تفسير الطبرى وتاريخه . — (٣) الصفاة : العريض من الحجارة الأملس .

فيه خلق السموات والأرض ، « وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم ؛ ثم زيّن السماء الدنيا بالكواكب ، بجعلها زينة وحفظًا تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحبّ استوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » وذكر القصة فى خلق آدم عليه السلام ، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى .

وروى وكيع عن الأعمش عن أبى ظَبْيان عن ابن عباس قال : إن أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ من شىء « القلم » فقال له اكتب . فقال : يارب وما أكتب . قال : آكتب القَدَر . فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النُّونَ فدحا الأرض عليها ، فارتفع بخار الماء ففتق منه السموات ؛ واضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ؛ فان الجبال تفخر على الأرض الى يوم القيامة . ففى هذه الرواية خلق الأرض قبل ارتفاع بخار الماء الذى هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أولى ؛ لقوله تعالى : « وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » والله أعلم بما فعل ؛ فقد اختلفت فيه الأقاويل وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل الى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها ، فألقى فى قلبه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يالوثيا من الأمم والشجر والدوابّ والناس والجبال ! لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك ؛ فبعث الله دابّة فدخلت فى منخره ، فعجّ الى الله منها فخرجت . قال كعب : والذى نفسى بيده ، إنه لينظر اليها بين يديه وتنظر اليه إن همّ بشىء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعــة — أصل خلق الأشياء كلها من الماء لما رواه ابن ماجه فى سننه ، وأبو حاتم البستى فى صحيح مسنده عن أبى هريرة قال قلت : يارسول الله ، إذا رأيتك طابت نفسى وقرّت عينى ، أنبئنى عن كلّ شىء . قال : "كلّ شىء خلق من الماء" فقلت : أخبرنى عن

شيء إذا عملت به دخلت الجنة . قال : " أطعم الطعام وأفش السـلام وصِلِ الأرحام وقُم الليل والناسُ نيام تدخل الجنةَ بسلام" . قال أبو حاتم قول أبي هريرة : «أنبئني عن كل شيء» أراد به عن كل شيء خلق من المـاء ، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السـلام إياه حيث قال : "كل شيء خلق من المـاء" وإن لم يكن مخلوقا . وروى سـعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " إن أوّل شيء خلقه الله القلم وأمره فكتب كل شيء يكون" ويروى ذلك أيضا عن عُبادة بن الصّامت مرفوعا . قال البيهقي : وإنمـا أراد — والله أعلم — أوّل شيء خلقه بعـد خلق المـاء والريح والعرش « القـلم » . وذلك بيّن في حديث عمران بن حُصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال : جاء رجل إلى عبدالله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمَّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمـة والريح والتراب . قال الرجل : فِمَّ خُلق هـؤلاء ؟ قال : لا أدرى . قال : ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثـل قول عبدالله بن عمرو . قال : فأتى الرجل عبد الله بن عباس فسأله ؛ فقال : مِمّ خلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : فِمّ خلق هؤلاء ؟ فتلا عبد الله بن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهـل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه ، أي من خلقه وإبداعه واختراعه . خلق المـاء أوّلا ، أو المـاء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لمـا خلق بعدُ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جلّ وعزّ .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سـبع ، ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » وقد اختلف فيه ؛ فقيل : ومن الأرض مثلهنّ أي في العدد، لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعيّن العدد . وقيـل : ومن الأرض مثلهنّ أي في غلظهن

وما بينهن . وقيل : هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض؛ قاله الداودي . والصحيح الأول ، وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " من أخذ شبرا من الأرض ظلما طُوِّقه إلى سبع أرضين" . وعن عائشة رضي الله عنها مثله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبي هريرة : " لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طَوَّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة] (١) " . وروى النّسائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " قال موسى عليه السلام يارَبِّ علّمني شيئا أذكرك به وأدعوك به قال ياموسى قل لا إله إلا الله قال موسى يارب كل عبادك يقول هذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئا تخصّني به قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كَفّة ولا إله إلا الله في كَفّة مالت بهنّ لا إله إلا الله " . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : بينما نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ؛ فقال نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم : " هل تدرون ما هذا " فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هذا العنان هذه روايا الأرض يسوقه الله الى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم " قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : " فإنها الرَّقيع (٢) سقف محفوظ وموج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم و بينها " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " بينكم و بينها [مسيرة] (٣) خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : " [فان فوق (٣) ذلك] سماءين بُعْد ما بينهما [مسيرة (٣)] خمسمائة سنة" ثم قال كذلك حتى عدّد سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال : "هل تدرون ما فوق ذلك" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال " فإن فوق ذلك العرش و بينه و بين السماء بُعْد ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذي تحتكم" قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : " فإنها الأرض — ثم قال: — هل تدرون ما تحت ذلك" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإن تحتها الأرض الأخرى

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) الرقيع : اسم سماء الدنيا . (٣) زيادة عن صحيح الترمذي .

بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة ســنة ؛ ثم قال : " والذى نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل الى الأرض السفلى لهبط على الله — ثم قرأ — هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " . قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الآية تدل على أنه أراد لهبط على علم الله وقدرته وســلطانه ؛ [علم الله وقدرته وسلطانه][1] فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفســه فى كتابه . قال : هــذا حديث غريب والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين ســبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقــد روى أبو الضُّحَى — واسمه مســلم — عن ابن عباس أنه قال : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : ســبع أرضين فى كل أرض نبىّ كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرّة لا أعلم لأبى الضحا عليه دليلا[2] ؛ والله أعلم .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ابتداء وخبر . ما ، فى موضع نصب . ﴿ جَمِيعًا ﴾ عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ أهل نجد يميلون ليدلوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفخمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ منصوب على البــدل من الهاء والنون ، أى فسوّى ســبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوى بينهن سبع سموات ؛ كما قال الله جلّ وعزّ : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : انتصــب على الحــال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ابتــداء وخبر . والأصل فى هو تحريك الهاء، والإسكان استخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنثة ؛ مثل عنان ، وتذكيرها شاذ ؛ وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش، وسماءة فى قول الزجاج ؛ وجمع الجمع سماوات وسماءات . فجاء « سواهن » إما على أن السماء جمع وإما على أنها مفرد اسم جنس . ومعنى ســواهن سوّى سطوحهن بالإملاس . وقيل : جعلهن سواء .

(١) زيادة عن صحيح الترمذى . (٢) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

العــاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بما خلق، وهو خالق كل شيء؛ فوجب أن يكون عالمــا بكل شيء ؛ وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية . وقالت الجَهْمية : عالم بعلم قائم لا فى محل ، تعــالى الله عن قول أهل الزيغ والضلالات ؛ والردّ على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال : « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ » ، وقال : « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ، وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » الآية . واستدل على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالون عن نافــع بإسكان الهــاء من هو وهى، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثم؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثم . وزاد أبو عون عن الحُلوانى عن قالون إسكان الهاء من «أَنْ يُمِلَّ هُوَ» ، والباقون بالتحريك .

قوله تعــالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة مســـئلة :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ وإذا حرفا توقيت ؛ فإذ للمــاضى ، وإذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضــع الأخرى . وقال المبرد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذ مكروا ، وإذ قلت . وإذا جاء « إذا » مع المــاضى كان معناه مستقبلا؛ كقوله تعــالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

أى يجئ . وقال مَعمَر بن المُثنّى أبو عبيدة : إذ زائدة والتقدير : وقال ربك ؛ واستشهد بقوله الأسود بن يَعْفُر :

فإذ (١) وذلك لا مَهاةَ لذِكرِه * والدهر يُعقِب صالحا بفسادِ

وأنكر هذا القول الزجاج والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن إذ اسم وهي ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا اجترام من أبي عبيدة . ذكر الله عزّ وجلّ خلق الناس وغيرهم ؛ فالتقدير وابتداء خلقكم إذ قال ؛ فكان هذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنيّــة من يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره واذكر إذ قال . وقيل : هو مردود الى قوله تعالى : « ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرّر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته؛ وهذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، وهو الذى ارتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والربّ : المالك والسيد والمصلح والجابر؛ وقد تقدّم (٢) بيانه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ الملائكة واحدها ملك . قال ابن كيسان وغيره : وزن مَلَك فَعَل من الملك . وقال أبو عبيدة : هو مفعل من لأَكَ إذا أرسل . والألوكة والمَأْلَكة والمَأْلُكة : الرسالة ؛ قال لبيد :

وغلام أرسلَتْهُ أمُّه * بألُوكٍ فبذلنا ما سأل

وقال آخر (٣) :

أبلــغ النعمانَ عنى مألُكا * إنه قد طال حَبْسى وانتظارِى

(١) يلاحظ أن رواية البيت : «فاذا» ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء. (٣) هو عدى بن زيد؛ كما فى اللسان مادة (ألك) .

ويقال : أَلِكْنِي أي أرسلني ؛ فأصله على هـذا مَألَك، الهمزة فاء الفعل فانهـم قلبوها إلى عينه فقالوا : مَلْأَك ؛ ثم سهلوه فقالوا مَلَك . وقيل : أصله مَلْأَك من مَلَك يملك ، نحو شمأل من شَمَل ؛ فالهمزة زائدة عن ابن كيسان أيضا ؛ وقد تأتي في الشعر على الأصل ؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسيٍّ ولكن لمَـلْأَكٍ * تنزّلَ من جوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل : لا اشتقاق للملك عند العرب . والهاء في الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ؛ ومثله الصَّلادمة . والصَّلادم : الخيل الشداد، واحدها صِلْدِم . وقيل : هي للمبالغة، كعلامة ونسّابة . وقال أرباب المعاني : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردّهم إلى قيمتهم ؛ فقال عزّ وجلّ : « اسْجُدُوا لِآدَمَ » .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ جاعل هنا بمعنى خالق ، ذكره الطبريّ عن أبي رَوْق، ويقضي بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد وقد تقدّم . والأرض قيل إنها مكة . روى ابن سابط عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "دُحِيت الأرض من مكة" ولذلك سميت أمّ القرى ؛ قال : وقبر نوح وهود وصـالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام . و « خليفة » يكون بمعنى فاعل ، أي يخلف من كان قبله من الملائكة في الأرض ، أو من كان قبـله من غير الملائكة على ما رُوي . ويجوز أن يكون خليفة بمعنى مفعول أي مُخْلَف ؛ كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة . والخَلَف بالتحريك من الصالحين ، وبتسكينها من الطالحين ؛ هذا هو المعروف، وسيأتي له مزيد بيان في «الأعراف» إن شاء الله . وخليفة بالفاء قراءة الجمـاعة ، إلا ما رُوي عن زيد بن عليّ فإنه قرأ خليقة بالقاف . والمعنّى بالخليفة هنا ، في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل ، آدم عليه السلام، وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره لأنه أوّل رسول إلى الأرض ؛ كما في حديث أبي ذرّ قال قلت : يارسول الله أنبياً كان مرسلا ؟ قال : "نعم" الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن

فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا ؛ كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً » . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير . وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة ، وروى عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة ، والله أعلم .

الرابعـــة — هذه الآية أصـــل فى نَصْب إمام وخليفة يسمع له و يطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روى عن الأصم (١) حيث كان عن الشريعة أصم ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك ، وإن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم ، وقسموا الغنائم والفىء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه ، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك . ودليلنا قول الله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » ، وقوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » ، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى التعيين، حتى قالت الأنصـار : منّا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهـم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش ، ورووا لهم الخبر فى ذلك ، فرجعوا وأطـاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لمـا ساغت هـذه المناظرة والمحاورة عليها، ولقال قائل : إنهـا ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصديق رضى الله عنه لمـا حضرته الوفاة عهـد الى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد هـذا أمر غير

(١) الأصم : من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر .

واجب علينا ولا عليك ؛ فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذى به قوام المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، وإن السمع إنمـا ورد على جهة التأكيد لقضيـة العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرك من جهة السمع دون العقل . وهـذا فاسد ، لأن العقل لا يوجب ولا يُحظر ولا يُقبِّح ولا يُحسِّن ، وإذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهى :

الخامســة — إذا سلم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فخبرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، أم من جهة اختيار أهل الحل والعقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : اختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يعرف به الإمام هو النّص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، وإجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النّص بنوه على أصلهم أن القياس والرأى والاجتهاد باطل لا يعرف به شىء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم اختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدّعى النّص على أبى بكر ، وفرقة تدّعى النّص على العباس ، وفرقة تدّعى النّص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . والدليل على فقد النّص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلّى الله عليه وسلّم لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه بحيث لايجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معين ؛ ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ وإذا وجب العلم به لم يخل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معين ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معين ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورة أو استدلالا ، أو يكون من أخبـار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورة أو دلالة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعين وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات ، وصوم رمضان ، وحج البيت ونحوها ؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة ، فبطلت هذه الدعوى ، وبطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به . وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأيّ وجه كان وجب إثبات إمامة أبي بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قوما ينقلون النّص صريحا في إمامته ؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنّص في وقت واحد — على ما يأتي بيانه — كذلك الواحد ، إذ ليس أحد الفِرق أولى بالنّص من الآخر . وإذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد . فإن تعسّف متعسّف وادعى التّواتر والعلم الضروري بالنّص فينبغي أن يقابلوا على الفور بنقيض دعواهم في النّص على أبي بكر وبأخبار في ذلك كثيرة تقوم أيضا في جملتها مقام النص ؛ ثم لا شك في تصميم من عدا الإمامية على نفي النص ؛ وهم الخلق الكثير والجم الغفير . والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه من ينحط عن معشار أعداد مخالفي الإمامية ؛ ولو جاز ردّ الضروري في ذلك لجاز أن ينكر طائفة بغداد والصين الأقصى وغيرهما .

السادسة — في ردّ الأحاديث التي احتج بها الإمامية في النّص على عليّ رضي الله عنه ، وأن الأمة كفرت بهذا النّص وارتدت ، وخالفت أمر الرسول عنادا ؛ منها قوله عليه السلام : "من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهمّ والِ من والاه وعاد من عاداه" . قالوا : والمَوْلى في اللغة بمعنى أولى ؛ فلما قال : "فعليّ مولاه" بفاء التعقيب عُلِم أن المراد بقوله « مولى » أنه أحق وأولى . فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة ؛ وقوله عليه السلام لعليّ : "أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي" . قالوا : ومنزلة هارون معروفة ، وهو أنه كان مشاركا له في النبوّة ولم يكن ذلك لعليّ ، وكان أخا له ولم يكن ذلك لعليّ ، وكان خليفة ؛ فعُلِم أن المراد به الخلافة ، إلى غير ذلك مما احتجوا به على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

والجواب عن الحديث الأول أنه ليس بمتواتر ؛ وقد اختلف فى صحته ، وقــد طعن فيه أبو داود السّجستانى وأبو حاتم الرازىّ ، واستدلا على بطلانه بأن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "مُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وغِفَارُ وأَسْلَم موالىَّ دون الناس كلهم ليس لهم مولًى دون الله ورسوله" . قالوا : فلو كان قد قال : " من كنت مولاه فعلىّ مولاه " لكان أحد الخبرين كذبا .

جواب ثان — وهو أن الخبر و إن كان صحيحا رواه ثقة عن ثقة فليس فيــه ما يدل على إمامته ، و إنما يدل على فضيلته ، وذلك أن المولى بمعنى الولىّ ، فيكون معنى الخبر : من كنت وليّه فعلىّ وليّه ؛ قال الله تعالى : « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ » أى وليّه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر علىّ كباطنه ، وذلك فضيلة عظيمة لعلىّ .

جواب ثالث — وهو أن هــذا الخبر ورد على سبب ، وذلك أن أسامة وعليًّا آختصما ، فقال علىّ لأسامة : أنت مولاى . فقال : لست مولاك ، بل أنا مولى رســول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فذكر للنبىّ صلى الله عليه وسلّم ، فقال : " من كنت مولاه فعلىّ مولاه ".

جواب رابع — وهو أن عليًّا عليه السلام لمــا قال للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى قصة الإفك فى عائشة رضى الله عنها : النساء ســواها كثير . شق ذلك عليها ، فوجد أهل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه ؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم هذا المقال ردًّا لقولهم ، وتكذيبا لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه ؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلّى الله عليه وســلّم إلا ببغضهم لعلىّ عليه السلام . وأما الحديث الثانى فلا خلاف أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده ، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتى من بيان وفاتيهما فى سورة « المــائدة » — وما كان خليفة بعده و إنمــا كان خليفة يوشع بن نون ؛ فلو أراد بقوله : " أنت منّى بمنزلة هارون من موسى " الخلافة لقال : أنت منى بمنزلة يوشع من موسى ، فلما لم يقل هــذا دل على أنه لم يرد هذا ، و إنمــا أراد أنى استخلفتك على أهلى فى حياتى وغيبوبتى عن أهلى ، كما كان هارون خليفة موسى على قومه لــا خرج الى مناجاة

ربّه . وقد قيل إن هـذا الحديث خرج على سبب، وهو أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما خرج إلى غزوة تَبُوك استخلف علياً عليه السلام في المدينة على أهله وقومه، فأرجف أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بُغضًا وقِلًى له، فخرج عليّ فلحق بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا . فقال : "كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون" . وقال : "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى". وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهم فقد شارك علياً في هـذه الفضيلة غيره ؛ لأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم استخلف في كل غزاةٍ غزاها رجلا من أصحابه ، منهم : ابن أم مكتوم، ومحمد بن مسلمة وغيرهما من أصحابه ، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبي وقّاص وهو خبرُ واحدٍ . وروى في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أولى منه . وروى أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما أنفذ معاذ بن جبل الى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر، فقال : "إنهما لا غنى بي عنهما إن منزلتهما من الرأس بمنزلة السمع والبصر" . وقال : "هما وزيراى في أهل الأرض" . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى". وهذا الخبر ورد ابتداء، وخبر عليّ ورد على سبب، فوجب أن يكون أبو بكر أَوْلى منه بالإمامة، والله أعلم .

السابعة — واختلف فيما يكون به الإمام إماما وذلك ثلاث طرق، أحدها : النّص، وقد تقدّم الخلاف فيه، وقال به أيضا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصري وبكر ابن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج. وذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نصّ على أبي بكر بالإشارة؛ وأبو بكر على عمر . فإذا نصّ المستخلف على واحد معيّن كما فعل الصدّيق، أو على جماعة كما فعل عمر، وهو الطريق الثاني؛ ويكون التخيير اليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضي الله عنهم . الطريق الثالث : إجماع أهل الحلّ والعقد؛ وذلك أن الجماعة في مصر من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا استخلف فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم اجتمعوا عليه ورضوه فإن كل مَن خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخول في طاعة ذلك الإمام؛ إذا لم

يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد؛ لأنها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لما في إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين؛ قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلّم : "ثلاث لا يُغِل عليهن قلبُ مؤمنٍ إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاة الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة".

الثامنـــة — فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحلّ والعقـد فذلك ثابت ويلزم الغير فعـله، خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد . ودليلنا أن عمر رضي الله عنه عقد البيعة لأبي بكر ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك؛ ولأنه عَقْدٌ فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود . قال الإمام أبو المعالي : من انعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر؛ قال : وهذا مجمع عليه .

التاســـعة — فإن تغلّب من له أهلية الإمامة وأخذها بالقهر والغَلَبة فقد قيـل إن ذلك يكون طريقا رابعا، وقد سئل سهل بن عبد الله التُّسْتَري : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام؟ قال : تجيبه وتؤدّي اليه ما يطالبك من حقه، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منـه، وإذا ائتمنـك على سرّ من أمر الدين لم تفشه . وقال ابن خُوَيْزِمَنْـدَادُ : ولو ثبت على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمّت له البيعة، والله أعلم .

العـاشرة — واختلف في الشهادة على عقد الإمامة؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع، وليس ها هنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة . ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود؛ فمن قال بهـذا احتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى الى أن يدّعي كل مدّع أنه عقد له سرا، ويؤدّي الى الهَرْج والفتنة، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفي فيها شاهدان، خلافا للجُبّائي حيث قال باعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له؛ لأن عمر حيث جعلها شورى في سـتّة (1) دل على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

(1) الستة هم الذين نصح عمر — رضي الله عنه — للسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب اليه أن يعهد عهدا . وهم : عليّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله . راجع قصة الشورى في تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوربا .

وبينه أن شهادة الاثنين معتبرة ، وما زاد مختلف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألا يعتبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام وهى أحد عشر :

الأول — أن يكون من صميم قريش؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الأئمة من قريش". وقد اختلف فى هذا .

الثانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء فى الحوادث، وهذا متفق عليه .

الثالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثغور وحماية البيضة[1] وردع الأمة والانتقام من الظالم والأخذ للظلوم .

الرابع — أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة فى إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل على هذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمع فيه ، ولأنه هو الذى يولّى القضاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالما بذلك كله قيّما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حرا، ولا خفاء باشتراط حرية الإمام وإسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما وإن اختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما يجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا، ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعقد الإمامة لفاسق، ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم؛ لقوله عليه السلام : "أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

(١) بيضة الإسلام : جماعتهم .

بمن تستشفعون " . وفى التنزيل فى وصف طالوت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ » فبدأ بالعلم ثم ذكر مايدل على القوة وسلامة الأعضاء . وقوله : « ٱصطفاه » معناه اختاره، وهذا يدل على شرط النسب . وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ، ولا عالما بالغيب، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛ فإن الإجماع قد انعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة ؛ وذلك أن الإمام إنما نُصب لدفع العدو وحماية البيضة وسدّ الخلل واستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها . فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم اذا أدّى المصلحة الى ذلك واجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم ؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام اذا نُصب ثم فَسَق بعد انبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره؛ وما فيه من الفسق يقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض فيها . فلو جوّزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الابتداء إنما لم يجز أن يعقد للفاسق لأجل أنه يؤدى الى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا يخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك الى دعائها أو شيء من الشريعة ؛ لقوله عليه السلام فى حديث عُبَادة : " وألا نُنَازِع ٱلأمرَ أهله [قال][1] إلا أن تَرَوْا كُفراً بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهان " .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآستانة . وبواحا ، أى جهارا . من باح بالشيء يبوح به اذا أعلنه .

وفى حديث عوف بن مالك : " لا ما أقاموا فيكم الصلاة " الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أمّ سلمة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " إنه يُستعمَل عليكم أُمراءُ فتَعرِفون وتُنكِرون فمن كَرِه فقد بَرِئَ ومن أنكر فقد سلِم ولكن مَن رَضِيَ وتابع — قالوا : يا رسول الله ألاَ نقاتلهم ؟ قال : — لا ما صَلَّوْا " . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليــه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصا يؤثر فى الإمامة . فأما اذا لم يجــد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ اختلف الناس فيه ؛ فمنهــم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك . والدليل على أن الإمام اذا عزل نفسه انعزل قول أبى بكر الصــدّيق رضى الله عنه : أقيلونى أقيلونى . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك، قدّمك رســول الله صلّى الله عليه وســلم لديننا فمن ذا يؤخرك ! رَضيك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لديننا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلمــا أقرته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك ، ولأن الإمام ناظر للغيب(١) فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم . والوكيل اذا عزل نفسه فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولمــا اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شىء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحلّ والعقد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافة مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسنة رســوله صلّى الله عليه وسلم . ومن تأبَّى عن البيعة لعــذر عُذِّر ، ومن تأبَّى لغير عذر جُبِر وقُهِر لئلا تفترق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأول وقُتِل الآخر ؛ واختلف فى قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكون عزله قتــله وموته . والأول أظهر ؛ قال رســول الله صلّى الله عليه وســلّم : " إذا بويع لخليفتيــن فاقتلوا الآخر منهما " . رواه أبو ســعيد الخدرىّ أخرجه مســلم .

(١) فى بعض الأصول : «للغير» .

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر" . رواه مسلم أيضا ؛ ومن حديث عَرْفَجَة : " فاضربوه بالسيف كائنا من كان " . وهذا أدل دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدى إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجيّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجيّ مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجيّ حتى يتبيّن أمره فيما يظهرا من العدل، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأول ، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى اذا تمكن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا لما ذكرنا . قال الإمام أبو المعالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرق العالَم ؛ ثم قالوا : لو اتفق عقد الإمامة لشخصين نُزِّل ذلك منزلة تزويج وليَّين آمرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صُقع واحد متضايق الخطط والمخاليف(1) غير جائز وقد حصل الإجماع عليه . فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شسوع النّوى فللاحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوّز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكَرّامية إلى جواز نصب إمامين من غير تفصيل ؛ ويلزمهم إجازة ذلك فى بلد واحد ، وصاروا إلى أن عليّاً ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا اثنين فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه، ولأنه

(1) المخاليف : الأطراف والنواحى .

لمـا جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولى، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة . والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منـه ، لقوله : " فاقتلوا الآخر منهما " ولأن الأمة عليه . وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه و إنما ادّعى ولاية الشام بتولية من قبله من الأئمة . ومما يدل على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهما، ولا قال أحدهمـا إنى إمام ومخالفى إمام . فإن قالوا : العقل لا يحيل ذلك وليس فى السمع ما يمنع منه . قلنا : أقوى السمع الإجماع، وقد وجد على المنع .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ قد علمنا قطعا أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام فى جميع الملائكة؛ لأن قوله : « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ » خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » فقيل : المعنى أنهم لمـا سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ، لكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبيّن الربّ تعـالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييبا لقلوبهم : « إِنِّي أَعْلَمُ » وحقق ذلك بأن علّم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء؛ وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء؛ فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العزة؛ فجاء قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا » على جهة الاستفهام المحض : هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقال ابن زيد وغيره : إن الله تعـالى أعلمهم أن الخليفة سـيكون من ذريته قوم يفسدون فى الأرض ويسـفكون الدماء ؛ فقالوا لذلك هذه المقالة؛ إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه أو من عصيان الله من يستخلفه فى أرضه وينعم عليه بذلك ، و إما على طريق الاسـتعظام والإكبار للفصلين جميعا : الاستخلاف والعصيان . وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أهو الذى أعلمهم أم غيره .

وهذا قول حسن، رواه عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » قال : كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِــدُ فِيهَا » وفى الكلام حذف على مذهبه . والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا و يفعل كذا ، فقالوا : أتجعل فيها الذى أعلمتناه أم غيره ؟ والقول الأوّل أيضا حسن جدا ، لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء ، وما بين القولين حسن فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله : "كيف تركتم عبادى" على ما ثبت فى صحيح مسلم وغيره إنمــا هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها، و إظهار لمــا سبق فى معلومه إذ قال لهم : « إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ من ، فى موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثــانى يقوم مقامه فيها . يفسد على اللفظ ، و يجوز فى غير القرآن يفسدون على المعنى؛ وفى التنزيل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى . « وَيَسْفِكُ » عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان . وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ : « و يسفِكَ الدماء » بالنصب، يجعله جواب الاستفهام بالواو ، كما قال[1] :

ألم أكُ جارَكم وتكونَ بينى * و بينكمُ المــودّةُ والإخاءُ

والسَّفْك : الصّب . سفكت الدم أسْفِكه سَفْكًا : صببته ، وكذلك الدمع ، حكاه ابن فارس والجوهرى . والســفّاك : السفاح ، وهو القــادر على الكلام . قال المهــدوىّ : ولا يستعمل السفك إلا فى الدم ، وقد يستعمل فى نثر الكلام ؛ يقال : سَــفَك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دم، محذوف اللام . وقيل : أصله دَمْىٌ . وقيــل : دَمَىٌ ، ولا يكون اسم على حرفين إلا وقــد حذف منــه ، والمحذوف منــه ياء وقد نطق به على الأصــل ؛ قال الشاعر :

فــلو أنا على حجــر ذُبحنــا * جَرَى الدّميانِ بالخبر اليقينِ

(١) القائل هو الحطيئة .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أى ننزّهك عمـا لا يليق بصفاتك . والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :

أقـول لمـا جاءنى فَخْـرُه * سبحانَ من عَلْقَمةَ الفاخِرِ

أى براءة من علقمـة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسـير سبحان الله فقال : "هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل سـوء" . وهو مشتق من السّبح وهو الجرى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً » فالمسبح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئتـه من السوء . وقـد تقدّم الكلام فى نحن (١) ، ولا يجوز ادغام النون فى النون لئلا يلتقى سا كنان .

مســئلة : واختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة ، فقال ابن مسعود وابن عباس : تسبيحهم صلاتهم ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » أى المصلين . وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر ، قاله المفضل ، واستشهد بقول جرير :

قَبَّح الإلهُ وجوهَ تَغلِبَ كلمـا * سَبَحَ (٢) الحجيجُ وكبّروا إهلالَا

وقال قتادة : تسبيحهم سبحان الله ، على عُرفه فى اللغة ، وهو الصحيح لمـا رواه أبو ذرّ أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : "ما اصطفى الله لملائكته [أو لعباده (٣)] سبحان الله وبحمده" . أخرجه مسـلم . وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليلة أُسرى به سمع تسبيحا فى السموات العلا : سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى ؛ ذكره البيهقى .

---

(١) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء . (٢) فى ديوان جرير : « شبح » . وفسر الشبح بأنه رفع الأيدى بالدعاء . وعلى هـذا فيكون الاستشهاد بهـذا البيت فى غير محله . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش . (٣) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآســتانة) .

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به . والحمد : الثناء ، وقد تقدّم(١) . ويحتمل أن يكون قولهم : بحمدك، اعتراضا بين الكلامين، كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس، ثم اعترضوا على جهة التسليم ، أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظّمك ونمجّدك ونطهّر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهـد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهّر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : نقدّس لك معناه نصلى . والتقديس : الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح ، فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقـديس والتسبيح ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول فى ركوعه وسجوده: "سُبُّوح قُدّوس ربّ الملائكة والروح" . روته عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرف فإن معناه التطهير، ومنه قوله تعالى : «ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ» أى المطهّرة . وقال : «ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ» يعنى الطاهر؛ ومثله : « بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى » . وبيت المَقْدِس سمي به لأنه المكان الذى يتقدّس فيه من الذنوب أى يتطهر؛ ومنه قيل للسَّطْل: قَدَسٌ، لأنه يتوضأ فيه ويتطهر؛ ومنه القادوس. وفى الحديث: "لا قُدّست أمّة لا يؤخذ لضعيفها من قويهـا" . يريد لاطهرها الله . أخرجه ابن ماجه فى سننه . فالقُدْس : الطهر من غير خلاف؛ وقال الشاعر(٢) :

فأدْرَكْنه يأخُــذْنَ بالسّاق والنَّسا * كما شَبْرَقَ الولدانُ ثوبَ المُقَــدِّسِ

أى المطهَّر؛ فالصلاة طهرة للعبد من الذنوب ، والمصلى يدخلهـا على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم .

---

(١) راجع المسئلة الرابعة ص١٣٣ من هذا الجزء .

(٢) هو امرؤ القيس . والهاء فى « أدركنه » ضمير الثور، والنون ضمير الكلاب . والنسا : عرق فى الفخذ . والشبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقدّس (بكسر الدال وتشديدها) : الراهب . وبالفتح : المبارك. يقول : ادركت الكلاب الثور يأخذن بساقه وفخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله عز وجل اذا نزل من الصومعة فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أعلمُ فيه تأويلان؛ قيل : إنه فعل مستقبل . وقيل : إنه اسم بمعنى فاعل؛ كما يقال : الله أكبر ، بمعنى كبير ، وكما قال[1] :

لعَمْرُكَ ما أدرى وإنّى لأَوْجَلُ * على أيّنا تعدُو المنيّـــةُ أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون ما فى موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم فى الميم . وإن جعلته اسمـا بمعنى عالم تكون ما فى موضـع خفض بالإضافة . قال ابن عطيـة : ولا يصح فيـه الصرف بإجماع من النحاة ، وإنمـا الخلاف فى « أفعل » إذا سمى به وكان نكرة، فسيبويه والخليـل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه . قال المهدوىّ : يجوز أن تقدّر التنوين فى «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم ، وتنصب «ما» به فيكون مثل حَواجٌّ بيتَ الله . قال الجوهرى : ونسوةٌ حواجُّ بيتِ الله، بالإضافة إذا كُنّ قد حَجَجْن، وإن لم يكنّ حججن قلت : حواجٌّ بيتَ الله، فتنصب البيت لأنك تريد التنوينَ فى حواجٌّ .

قوله تعـالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ اختلف علمـاء التأويل فى المـراد بقوله تعـالى : « ما لا تعلمون » . فقـال ابن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لمـا جعله خازن السماء وشرّفه، فاعتقد أن ذلك لمزية له؛ فاستخفّ الكفر والمعصية فى جانب آدم عليـه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهى لا تعـلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك؛ فقال الله تعالى لهم : « إنى أعلم ما لا تعلمون » . وقال قتادة : لمـا قالت الملائكة « أتجعل فيها » وقد علم الله أن فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إنى أعلم ما لا تعلمون » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن؛ فهو عام .

---

(١) القائل هو معن بن أوس . كان له صديق وكان معن متزوّجا بأخته ، فاتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فآلى صديقه إلا يكلمه أبدا فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترقه له . (عن اشعار الحماسة) .

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٣١)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ علّم معناه عرّف . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورة . ويحتمل أن يكون بواسطة مَلَك وهو جبريل عليه السلام على ما يأتى . وقرئ : «وعُلِّمَ» غير مسمّى الفاعل . والأول أظهر على ما يأتى . قال علماء الصوفية : علمها بتعلم الحق إياه وحفظها بحفظه عليه ونسي ما عهد إليه لأنه وكله فيه إلى نفسه فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . وقال ابن عطاء : لو لم يكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها . وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر . وقيل : أبا محمد، كنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم ، قاله السهيلى . وقيل : كنيته فى الجنة أبو محمد ، وفى الأرض أبو البشر . وأصله بهمزتين لأنه أفعل إلا أنهم ليّنوا الثانية ، فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أَوَادِم فى الجمع لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف ، فجعلت الغالب عليها الواو ؛ عن الأخفش .

واختلف فى اشتقاقه ؛ فقيل : هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها ، فسمى بما خلق منه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : إنه مشتق من الأُدْمة وهي السمرة . واختلفوا فى الأدمة ، فزعم الضحاك أنها السمرة ؛ وزعم النّضر أنها البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ؛ مأخوذ من قولهم : ناقة أدماء ، اذا كانت بيضاء . وعلى هذا الاشتقاق جمعه أُدْم وأوادم ، كحمر وأحامر ، ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون ، ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جُبير : إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سمى إنسانا لأنه نسِى . ذكره ابن سعد فى الطبقات . وروى

السُّـدّى عن ابى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مُرّة الهمدانى عن ابن مسـعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السـلام الى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقصَ(١) منى أو تشيننى ؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنهـا عاذت بك فأعذتهـا . فبعث مكائيل فعاذت منـه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ؛ فبعث ملَك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفـذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحدٍ ، وأخذ من تربة حمراء و بيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين — ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض — فصعِد به ، فقال الله تعـالى له : " أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك " فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . فقال : " أنت تصلح لقبض أرواح ولده " فبلّ التراب حتى عاد طينا لازبا ، اللازب : هو الذى يلتصق بعضه ببعض ثم ترك حتى أنتن ؛ فذلك حيث يقول : « مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » قال : منتن . ثم قال للملائكة : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه . يقول : أتتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنـه ! فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سـنة من مقـدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لمـا رأوه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخار تكون له صلصلة ؛ فذلك حين يقول : «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ» . ويقول: لأمرٍ مّا خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره ؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليـه لأهلكنّه . ويقال : إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هـذا الذى لم تروا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ! قالوا : نطيع أمر ربنا ؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فضل علىّ فلا أطيعه ، ولئن فضّلت عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح

(١) فى نسـخة : « أن تقبض منى أو تشيننى » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٨٧ قسم أول طبـع أوربا) : « أن تنقص منى شيئا وتشيننى » .

قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ، فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ » وذكر القصة . وروى الترمذيّ عن أبى موسى الأشعرى قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " إن الله عزّ وجلّ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود و بين ذلك والسهل والحَزْن والخبيث والطيب " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أَدِيم : جمع أَدَم ؛ قال الشاعر :

الناسُ أخيافٌ[1] وشتّى فى الشّيَمْ * وكلّهم يجمعهم وَجه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأُدْمة ، والله أعلم ؛ ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى « الأنعام » وغيرها إن شاء الله تعالى .

وآدم لاينصرف . قال أبو جعفر النحاس : «آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين لأنه على أفعل وهو معرفة ، ولا يمتنع شيء من الصرف عند البصريين إلا لعلتين ، فان نكرته ولم يكن نعتا لم يصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فاذا لم يكن نعتا صرفه ؛ قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ولا يفرق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ الأسماء هنا بمعنى العبارات ، فإن الاسم قد يطلق و يراد به المسمّى ؛ كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ؛ كقولك : أسد ثلاثة أحرف ؛ ففى الأول يقال : الاسم هو المسمّى بمعنى يراد به المسمّى ، وفى الثانى لا يراد به المسمّى ؛ وقد يجرى اسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال .

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "إن لله تسعة وتسعين اسما". ويجرى مجرى الذات، يقال : ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ واسمٌ بمعنًى؛ وعلى هـذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » «تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ» «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا» .

الثالثـــة — واختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علمها لآدم عليه السلام؛ فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها . وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن عليّ قال : كنت جالسا عنـد ابن عباس فذكروا اسم الآنية واسم السوط؛ قال ابن عباس : وعلم آدم الأسماء كلها .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى، وهو الذى يقتضيه لفظ « كلها » اذ هو اسم موضوع للإحاطة والعموم؛ وفى البخاريّ من حديث أنس عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسمـاء كل شيء" الحديث . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَادُ : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفا، وأن الله تعالى علمها آدم عليه السلام جملة وتفصيلا . وكذلك قال ابن عباس : علّمه أسماء كل شيء حتى الجَفْنة والمِحْلب . وروى شيبان عن قتادة قال : علّم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يُعلّم الملائكة ، وسمى كل شيء باسمه وأنحَى منفعة كل شيء الى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا . والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها ، هذا كذا وهو يصلح لكذا . وقال الطبريّ : علمه أسماء الملائكة وذريته، واختار هذا ورجحه بقوله : «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ» . وقال ابن زيد : علّمه أسمـاء ذريته كلهم . الربيع بن خُثيم : أسماء الملائكة خاصـة . القُتَبيّ : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأوّل أصح؛ لمـا ذكرناه ولمـا بينته آنفا إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة — واختلف المتأولون أيضا هـل عرض على الملائكة أشخاص الأسمـاء أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال ابن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: «أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ» . وتقول العرب: عَرَضتُ الشيء فأَعْرَض، أى أظهرته فظهر؛ ومنه: عرضت الشيء للبيع. وفى الحديث: "إنه عرضهم أمثال الذر" . وقال ابن عباس وغيره: عرض الأسماء . وفى حرف ابن مسعود: عرضهن؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص، لأن الهاء والنون أخص بالمؤنث . وفى حرف أُبَىّ: عرضها . مجاهد: أصحاب الأسماء . فمن قال فى الأسمـاء إنها التسميات فاستقام على قراءة أُبىّ « عرضها » . وتقول فى قراءة مَن قرأ « عرضهم » : إن لفظ الأسمـاء يدل على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: عرضهم . وقال فى «هؤلاء» المراد بالإشارة: الى أشخاص الأسماء، لكن وإن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسببٍ وذلك أسماؤها . قال ابن عطية: والذى يظهر أن الله تعالى علم آدم الأسمـاء وعرضهن عليـه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التى قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا اسمه كذا، وهـذا اسمه كذا . وقال المـاوردى: وكان الأصح توجّه العرض الى المسمِّين . ثم فى زمن عرضهـم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم . الثانى — أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم .

الخامســـة — واختلف فى أول من تكلم باللسان العربىّ؛ فروى عن كعب الأحبار: أن أوّل من وضـع الكتاب العربىّ والسريانىّ والكتب كلها وتكلم بالألسنة كلهـا آدم عليه السلام . وقاله غير كعب الأحبار .

فإن قيـل: قد روى عن كعب الأحبار من وجه حسن قال: أوّل من تكلم بالعربيـة جبريل عليه السلام وهو الذى ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لسـان ابنه سام، رواه ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب . ورُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "أوّل من فتق لسانه بالعربيـة المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين" . وقد رُوى أيضا: أن أوّل من تكلم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان، وقد رُوى غير ذلك . قلنا: الصحيح أن

أوّل من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام والقرآن يشهد له ؛ قال الله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » واللغات كلها أسماء فهى داخلة تحته و بهذا جاءت السنة ؛ قال صلّى الله عليه وسلم : " وعلم آدم الأسماء كلها حتى القَصْعة والقُصيعة " وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه السلام ، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أوّل من تكلم من قبيلته بالعربيـة بدليل ما ذكرنا، والله أعلم . وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علمها الله آدم أو جبريل على ما تقدّم ، والله أعلم .

قـــوله : ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر، ولغة تميم و بعض قيس وأَسَد فيه القصر؛ قال الأعشى :

هؤلا ثم هؤلا كُلًّا أعطيـ * ـتَ نعالًا مَحْذُوَّةً بمثالِ

ومن العرب من يقول : هولاءِ ؛ فيحذف الألف والهمزة[(١)] .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ شرط ، والجواب محذوف تقديره : إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى ؛ قاله المبرد . ومعنى صادقين عالمين ، ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهـاد وقالوا : سـبحانك ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنبـاء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له : « كَمْ لَبِثْتَ » فلم يشترط عليـه الإصابة ، فقال ولم يُصب ولم يُعنَّف ؛ وهـذا بيّن لا خفاء فيه . وحكى الطبرى وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال إن معنى « إن كنتم » : إذ كنتم ، وقالا : هذا خطأ . و « أَنْبِئُونِى » معناه أخبرونى . والنبأ : الخبر؛ ومنـه النَّبِىء بالهمز، وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السابعــة — قال بعض العلماء : يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون . وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنما

(١) فى البحر لأبى حيان : « بحذف ألف ها وهمزة أولاء و إقرار الواو التى بعد تلك الهمزة » .

هو على جهة التقرير والتوقيف . وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — فى آخر السورة، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك عن أن يعلم الغيب أحد سواك . وهــذا جوابهم عن قوله : « أَنْبِئُونِى » فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوا ما لا علم لهم به كما يفعــله الجهال منا . وما ، فى « ما علمتنــا » بمعنى الذى ، أى إلا الذى علمتنا، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيــة — الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى، اقتداء بالملائكة والأنبيــاء والفضلاء من العلماء ، لكن قــد أخبر الصادق أنّ بموت العلمــاء يُقبض العلم، فيبقى ناس جهّال يُستفتَوْن فيفتون برأيهــم فيَضلّون ويُضلّون . وأما ما ورد من الأخبــار عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروى البُستى[1] فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أىّ البقاع شر ؟ قال : " لا أدرى حتى أسأل جبريل " فسأل جبريل ، فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل، فجاء فقال : خير البقاع المساجد، وشرها الأسواق . وقال الصّدّيق للجدّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد، ثلاث مرات . قالوا : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يسئل الرجل عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابنَ عمر رجل عن مسئلة فقال : لا علم لى بها ، فلما أدبر الرجل قال ابن عمر : نِعْمَ ما قال ابن عمر ، سئل عما لا يعــلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدارمى فى مســنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عَقيل

(١) فى نسخة «النسائى» .

يحيى بن المتوكل صاحب بُهَيّة(١) قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد ، فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدّين فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج ، أو علم ولا مخرج ! فقال له القاسم : وعمّ ذاك ؟ قال : لأنك ابن إمَامَيْ هُدًى : ابنُ أبي بكر وعمر(٢) . قال يقول له القاسم : أقْبَحُ من ذاك عند مَن عَقَل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هُرْمُزْ يقول : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهيثم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

قلت : ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم . قال ابن عبد البر : من بركة العلم وآدابه الانصافُ فيه ، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ابن وهب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف .

قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يُقسِي القلب ويورث الضِغن ؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضى الله عنه وقد قال : لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقيّة ولو كانت بنت ذى العَصَبة — يعنى يزيد بن الحصين الحارثى — فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال ؛ فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها فَطَس(٣) فقالت : ما ذلك لك !

(١) بهية (بالتصغير) : مولاة أبي بكر رضى الله عنه ، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو ابن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هى أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جده الأعلى لأمه ، وعمر جده الأعلى لأبيه ، وابن عمر جده الحقيق لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

(٣) الفطس (بالتحريك) : انخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها .

قال : ولم؟ قالت لأن الله عزّ وجلّ يقول : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » فقـال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وكيـع عن أبي معشر عن كعب القُرَظي قال : سأل رجل عليًّا رضي الله عنه عن مسئلة فقال فيها، فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا، فقال عليّ : أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذى علم عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال : لمـا رحَلت الى المشرق نزلت القيروانَ فأخذت على بكر ابن حماد حديث مسدّد، ثم رحَلت الى بغداد ولَقيت الناس، فلما انصرفت عدت اليه لتمـام حديث مسدّد، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "أنه قدم عليه قوم من مضر من مُجْتَابِى النِّمار" فقال : إنما هو مجتابى الثّمار، فقلت إنما هو مجتابى النمار، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، فقال لى : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخَر علينا ! أو نحو هـذا . ثم قال لى : قم بنا الى ذلك الشيخ — لشيخ كان فى المسجد — فإن له بمثل هذا علمًا ؛ فقمنا اليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مجتابى النمار، كما قلتَ . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشـقّقة (١) ، جيوبهُـم أمامهم . والنِّمـار جمع نَمِرة . فقـال بكر بن حماد وأخذ بأنفـه : رَغِمَ أنْفِى للحق، رَغِم أنفى للحق . وانصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبـد الملك فأحسن :

إذا ما تحـدّثتُ فى مجلس * تناهى حديثى الى ما عَلمتُ
ولم أَعْـدُ علمى الى غيره * وكان اذا ما تنـاهى سَكتُّ

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ سبحان منصوب على المصـدر عند الخليـل وسيبويه، يؤدّى عن معنى نسـبّحك تسبيحا . وقال الكسائى : هو منصـوب على أنه نداء مضاف . و﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فعيل للمبالغة والتكثير فى المعلومات فى خلق الله تعالى . و ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ معناه الحاكم، وبينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المُحكم، ويجىء الحكيم على هذا من صفات الفعل، صُرِف عن مُفْعِل الى فَعِيل ، كما صرف عن مُسمِع الى سميع ومُؤلِم الى أليم ؛ قاله ابن

---

(١) مشققة : مخططة .

الأنبارى . وقال قوم : الحكيم المانع من الفساد؛ ومنه سمّيت حَكَمَةُ اللجام لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد؛ قال جرير :

أبنى حنيفة أَحْكِموا سفهاءكم * إنى أخاف عليكم أن أَغْضبا

أى امنعوهم من الفساد . وقال زهير :

القائد الخيل منكوبًا دوابرُها[1] * قد أُحكِمت حَكَمات القِدّ والأَبَقا

القدّ : الجلد . والأَبَق القِنَّب[2] . والعرب تقول : أَحْكَم اليتيم عن كذا وكذا يريدون منعه . والسورة المُحْكَمَة : الممنوعة من التغيير وكل التبديل ، وأن يلحق بها ما يخرج عنها ، ويزاد عليها ما ليس منها؛ والحكمة من هذا ، لأنها تمنع صاحبها من الجهل . ويقال : أَحْكَم الشىء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد . فهو مُحْكَم وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ أمره الله أن يُعْلِمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيها على فضله وعلو شأنه؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلموا منه . فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له ، مختصا بالعلم .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله؛ وفى الحديث : "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم" أى تخضع وتتواضع؛ وإنما تفعل ذلك لأهل[3] العلم خاصة

(١) النَّكَب : أن ينكب الحجر ظفرا أو حافرا . والدوابر : أواخر الحوافر . يقول : يقود الخيل فى الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها ؛ أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها . (٢) القنب (بكسر القاف وضمها) : ضرب من الكتّان . (٣) فى نسخة من الأصل : «لأجل» .

من بين سائر أعمال الله؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب. فكلما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعلم وأهله، ورضًى منهم (١) بالطلب له والشغل به. هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم.

الثالثــة — اختلف العلماء في هذا الباب، أيّما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين؛ فذهب قوم الى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون الى أن الملأ الأعلى أفضل. احتج من فضل الملائكة بأنهم «عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ». وقوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» وقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ». وفي البخاري يقول الله عزّ وجلّ: "من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم" وهـذا نصّ. احتج من فضل بني آدم بقوله تعـالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ» بالهمز من برأ الله الخلق. وقوله عليه السلام: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم" الحـديث. أخرجه أبو داود، وبمـا جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق الى القطع بأن الأنبيـاء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهـم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رســوله أو إجماع الأمة؛ وليس هاهنا شيء من ذلك، خلافا للقَدَرية والقاضي أبي بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل. قال: وأما من قال من أصحابنا والشّيعة: إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم: المسجود له لا يكون أفضـل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لهـا والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة باتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

(١) في نسخة: «ورضي الله عنهم ... الخ».

لا يكون إلا لله تعـالى لأن السجود عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود الى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد ، وهذا واضح وسيأتى له مزيد بيان فى الآية بعد هذا .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ دليل على أن أحدا لا يعـلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعـالى ؛ فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام » إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أى من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » حكاه مكّى والماوردىّ . وقال الزهراوىّ : ما أبدوه هو بِدارُهم بالسجود لآدم .

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وسـعيد بن جبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفسه من الكبر والمعصية . قال ابن عطية : وجاء تكتمون للجماعة ؛ والكاتم واحد فى هذا القول على تجوّز العرب واتساعها؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سفيه منهم : أنتم فعلتم كذا . أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف؛ ومنه قوله تعـالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » وانما ناداه منهم عُيينة، وقيل الأقرع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دينـار ما الذى كتمت الملائكة ؟ قال : ان الله عزّ وجلّ لمـا خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا، وكأنهم دخلهم من ذلك شىء، قال: ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرّوا ذلك بينهم، [فقالوا[1] : و] ما يهمكم من هذا المخلوق ! إن الله لم يخلق خلقا الّا كنا أكرم عليه منه . وما، فى قوله : « ما تبـدون » يجوز أن ينتصب بأعلم على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنتصب به ما ، فيكون مثل حواجّ بيت الله، وقد تقدّم[2] .

(١) زيادة عن تفسير الطبرى . (٢) راجع ص ٢٧٨

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أى واذكر . وأما قول أبى عبيدة : إنّ إذْ زائدة فليس بجائز، لأن إذ ظرف وقد تقدم[1] . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيما وإشادة بذكره . والملائكة جمع ملك . وقد تقدّم[2] . وتقدّم القول أيضا فى آدم واشتقاقه[3] فلا معنى لإعادته، وروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع أنه ضم تاء التأنيث من الملائكة اتباعا لضم الجيم فى اسجدوا . ونظيره الحمد لله .

الثانيـــة — قوله تعالى :﴿ ٱسْجُدُوا ﴾ السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع، قال الشاعر :

بِجَمع تَضِلّ البُلْقُ فى حَجَراته * ترى الأُكْم فيها سُجّدا للحوافر

الأُكْم : الجبال الصغار . جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها . وعين ساجدة أى فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض . قال ابن فارس : سجد اذا تطامن، وكل ما سجد فقد ذلّ . والإسجاد : إدامة النظر . قال أبو عمرو : وأسجد اذا طاطأ رأسه ، قال[4] :

فُضــولَ أزِمّتها أسْجدت * سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

* وقلنَ له أسجِدْ لِليْلَى فأسجدَا *

يعنى البعير إذا طاطأ رأسه . ودراهم الإسجاد : دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها ، قال :

* وافى بها كدراهم الإسجاد *

---

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١　(٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢　(٣) راجع المسئلة الأولى ص ٢٧٩　(٤) هو حميد بن ثور يصف نساء . يقول : لما ارتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن اسجدت — طأطأت رءوسها — لهن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

الثالثـــة ـــ استدل من فضـــل آدم و بنيه بقوله تعالى للملائكة : « ٱسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدل على أنه كان أفضل منهم . والجواب أنـــ معنى اسجدوا لآدم اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ » أى عنـــد دلوك الشمس؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بيّنا أنـــ المسجود له لا يكون أفضـــل من الساجد بدليل القبلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضل منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له؟ قيل له : إن الملائكة لمـــا استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليُرِيهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيّروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به فأمروا بالسجود له تكريما . ويحتمل أن يكون الله تعـــالى أمرهم بالسجود له معاقبـــة لهم على قولهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها » لمـــا قال لهم : « إنى جاعل فى الارض خليفة » وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا، فقال لهم : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفة ، فإذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . والمعنى ليكون ذلك عقوبة لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد استدل ابن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلّى الله عليه وسلّم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » . وأمّنه من العـــذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ » . قيل له : إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه؛ فلم يقل : لعمرى . وأقسم بالسماء والأرض؛ ولم يدل على أنهما أرفع قدرا من العرش والجنان السبع . وأقسم بالتين والزيتون . وأما قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ » فليس فيه إذًا دلالة، والله أعلم .

الرابعـــة ــ واختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن السجود عبادة ؛ فقال الجمهور : كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد فى الصلاة، لأنه الظاهر من السجود فى العرف والشرع ؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقِبلة لنا . ومعنى لآدم: إلى آدم، كما يقال صلّى للقبلة، أى الى القبلة . وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقّى على أصل اللغــة ؛ فهو من التذلّل والانقياد، أى آخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل . ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى امتثلوا ما أمروا به .

واختُلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا الله تعالى، أم كان جائزا بعــده الى زمان يعقوب عليه السلام لقوله تعــالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » فكان آخر ما أبيح من السجود للخلوقين ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحا الى عصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ؛ فقال لهم : "لا ينبغى أن يُسجد لأحد إلا الله ربّ العالمين". روى ابن ماجه فى سننه والبستى فى صحيحه عن أبى واقد قال : لمــا قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلّى الله عليه وســلّم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا " فقال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك؛ قال :"فلا تفعل فإنى لو أمرت شــيئا أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأة حقّ ربّها حتى تؤدّى حق زوجها حتى لو سألها نفسها وهى على قَتَب لم تمنعه " . لفظ البستى . ومعنى القتَب أن العرب يعزّ عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القتب[1] عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ : ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة .

(١) القتب : رحل صغير على قدر السنام .

قلت : وهذا السجود المنهيّ عنه قد اتخذه جهّال المتصوّفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحـال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه؛ ضلّ سعيهم وخاب عملهم .

الخامســـة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتصل، لأنه كان من الملائكة على قول الجمهـور : ابن عبـاس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيّب وقتادة وغيرهم؛ وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجّحه الطبري وهو ظاهر الآية . قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أبلس بعـد . روى سِماك ابن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا . وحكى المـاوردي عن قتادة : أنه كان أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنّة . وقال سعيد بن جبير : إن الجنّ سِبْط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم ، وخلق سائر الملائكة من نور . وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملَكا؛ ورُوي نحوه عن ابن عباس وقال : اسمه الحارث . وقال شَهْر ابن حَوْشَب وبعض الأصوليين : كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبَوْه صغيرا وتعبّد مع الملائكة وخوطب؛ وحكاه الطبري عن ابن مسعود . والاستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى : «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ» ، وقوله : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» في أحد القولين؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطش ولا جوع * إلا الرقاد والرقاد ممنـــوع

واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال : «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» ، وقوله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ » والجنّ غير الملائكة . أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق في علم الله بشقائه عدلا منه، لا يسئل عما يفعل، وليس في خلقه من نار ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة . وقول من قال : إنه كان من جنّ الأرض فسُبي،

فقد رُوى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجنّ فى الأرض مع جند من الملائكة؛ حكاه المهدوىّ وغيره . وحكى الثعلبى عن آبن عباس : أن إبليس كان من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خلقوا من نار السموم، وخلقت الملائكة من نور، وكان اسمه بالسريانية عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، وكان يسوس ما بين السماء والأرض؛ فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة، فذلك الذى دعاه الى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيما ؛ فاذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فَأرْجُه؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية، وخطيئة إبليس كبرا . والملائكة قد تُسمّى جِنًّا لاستتارها ؛ وفى التنزيل : «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً» ؛ وقال الشاعر[1] فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسخّر من جِنّ الملائك تسعةً * قياما لديه يعملون بلا أجْرِ

وأيضا لما كان من خزان الجنة نسب اليها فاشتق اسمه من أسمها؛ والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى؛ ولم ينصرف لأنه معرفة ولا نظير له فى الاسماء فشبه بالأعجمية؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمى لا اشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف؛ قاله الزجاج وغيره .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه امتنع من فعل ما أُمر به؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "إذا قرأ ابن آدم السجدة [فسجد][2] اعتزل الشيطانُ يبكى يقول يا وَيْله — وفى رواية : يا ويلى — أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلِىَ النار" . خرّجه مسلم . يقال : أَبَى يَأْبَى إباءً، وهو حرف نادر جاء على فَعَل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحلق؛ وقد قيل : إن الألف مضارِعة لحروف الحلق . قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضى يقول : القول

(١) هو أعشى قيس، كما فى تفسير الطبرى وأبى حيان . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

عندى أن الألف مضارِعة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوًا غير هذا الحرف .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبار : الاستعظام ؛ فكأنه كره السجود فى حقه واستعظمه فى حق آدم؛ فكان ترك السجود لآدم تسفيهــا لأمر الله وحكمته . وعن هــذا الكبر عبّر عليه الســلام بقوله : " لا يدخل الجنــة من [كانَ](١) فى قلبه مثقالُ حبّة من خردل من كبر" . فى رواية فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حَسَنا ونعله حسَنة . قال : "إن الله جميل يحبّ الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس". أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه وإبطاله . وغمط الناس: الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : «وغَمْصُ» بالصاد المهملة، والمعنى واحد؛ يقال : غَمَصه يَغْمَصه غَمْصا واغتَمصه ،أى استصغره ولم يره شيئا . وغَمَص فلان النعمة اذا لم يشكرها . وغَمَصتُ عليه قولا قاله ،أى عبته عليه . وقد صرّح اللّعين بهذا المعنى فقال : «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» . «ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» . «لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» فكفره الله بذلك؛ فكل من سفه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليــه السلام كان حكمه حكمه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر، حسد إبليس آدم، وشح آدم فى أكله من شجــرة . وقال قتادة : حسد إبليس آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارىّ وهذا طينىّ. وكان بدء الذنوب الكبر،ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ قيــل : كان هنا بمعنى صار؛ ومنه قوله تعالى : «فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ»، وقال شاعر(٢) :

بتَيهـاءَ قَفْـــرٍ والمطِىُّ كأنهـا * قطا الحَزْنِ قد كانت فِراخًا بيُوضُها

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) هو ابن أحمر، كما فى اللسان مادة «كون» .

أى صارت . وقال ابن فُورَك : كان هنا بمعنى صـار خطأ تردّه الأصول . وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهذا صحيح، لقوله صلّى الله عليـه وسلّم فى صحيح البخارى : "وإنما الأعمال بالخواتيم" . وقيل : إن إبليس عبَـد الله تعالى ثمانين ألف سنة ، وأعطى الرياسة والخزانة فى الجنة على الاستدراج، كما أُعْطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أُعْطى بلْعَامُ(١) الاسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال ابن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده ؛ فلذلك قال : أنا خير منه؛ ولذلك قال الله عزّ وجلّ : «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ» أى استكبرت ولا كبر لك، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيـدى والكبر لى! فلذلك قال : «وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ» . وكان أصل خلقته من نار العزّة، ولذلك حلف بالعزّة فقال: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» فالعزّة أورثته الكبر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خُلقت الملائكة من نور العزة وخلق إبليس من نار العزة .

التاســعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومن أظهر الله على يديه ممن ليس بنبىّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته، خلافا لبعض الصوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه ولىّ، إذ لو لم يكن وليا ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنا أن العـلم بأن الواحد منا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعـد العلم بأنه يموت مؤمنا، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى، لأن الولىّ لله تعالى من علم الله تعالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان . ولمـا اتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمـان، عُـلم أن ذلك ليس يدل على

(١) فى تاريخ ابن الأثير والطبرى إنه بلعم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهـد موسى عليه السلام ، وهو من أهل كنعان . راجع تاريخ ابن الأثير ج ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أول ص ٥٠٨ طبع أوربا .

ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليـائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعرى وغيره . وذهب الطبرى إلى أن الله تعـالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العـاشرة — واختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا، وإن إبليس أوّل من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . واختلف أيضا هل كفر إبليس جهلا أو عنادا على قولين بين أهـل السنة ، ولا خلاف أنه كان عالمـا بالله تعالى قبل كفره ، فمن قال إنه كفر جهلا قال : إنه سُلب العـلم عند كفره . ومن قال كفر عنادا قال : كفر ومعه علمه . قال ابن عطية : والكفر [عنادا] (١) مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندى جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعالى : وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الاولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ ﴾ لا خلاف أن الله تعـالى أخرج إبليس عنـد كفره وأبعـده عن الجنة، وبعـد إخراجه قال لآدم اسكن، أى لازم الإقامة واتخذها مسكنا، وهو محل السكون . وسَكَن إليه يَسْكُن سكونا . والسَّكَن : النار؛ قال الشاعر :

* قد قُوِّمت بسَكَن وأدْهان *

والسَّكَن : كل ما سُكن إليه . والسِّكِّين معروفة، سمى به لانه يسكن حركة المذبوح ؛ ومنه المِسكين لقلة تصرفه وحركته . وسُكَّان (٢) السفينة عربى، لانه يُسكّنها عن الاضطراب .

---

(١) زيادة عن تفسير ابن عطية . (٢) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التى به تعدل .

الثانيـــة — فى قوله تعالى: ﴿ ٱسْكُنْ ﴾ تنبيه على الخروج، لأن السُّكْنى لاتكون مِلْكا، ولهذا قال بعض العارفين : السكنى تكون إلى مدّة ثم تنقطع، فدخولها فى الجنة كان دخول سكنى لا دخول ثواء[1].

قلت : وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء : إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسكنى، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدّة الإسكان . وكان الشعبيّ يقول : اذا قال الرجل دارى لك سكنى حتى تموت فهى له حياته وموته، وإذا قال: دارى هذه اسكنها حتى تموت فإنها ترجع الى صاحبها اذا مات . ونحوٌ من السُّكْنى العُمْرَى ، إلا أن الخلاف فى العمرى أقوى منه فى السكنى. وسيأتى الكلام فى العمرى فى «هود» إن شاء الله تعالى . قال الحربى : سمعت ابن الأعرابى يقول : لم يختلف العرب فى أن هذه الأشياء على ملك أربابها ومنافعها لمن جُعلت له العمرى والرُّقْبَى والإفقار والإخبال والمِنْحة والعرِيّة والسكنى والإطراق؛ وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لايملك شيء من العطايا إلا المنافع دون الرقاب؛ وهو قول الليث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط .

العُمْرَى هو إسكانك الرجل فى دار لك مدّة عمرك أو عمره ؛ ومثله الرقبى ، وهو أن يقول : إن مُتُّ قبلى رجعتْ إلىّ، وإن مُتُّ قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة . والمراقبة : أن يرقب كلٌّ واحد منهما موت صاحبه، ولذلك اختلفوا فى إجازتها ومنعها ، فأجازها أبو يوسف والشافعى، وكأنها وصية عندهم . ومنعها مالك والكوفيون لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لايدرى هل يحصل له، ويتمنّى كل واحد منهما موت صاحبه . وفى الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه فى سننه؛ الأول رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "العمرى جائزة لمن أُعمِرَها والرقبى جائزة لمن أُرقِبَها" ففى هذا الحديث التسوية بين العمرى والرقبى فى الحكم . الثانى رواه ابن عمر قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "لا رُقْبَى فمن أُرقِب شيئا فهو له حياته ومماته" . قال : والرقبى أن

---

(١) الثواء : طول المقام . وفى الأصول : « لا دخول ثواب » .

يقول هو للآخر: منّي ومنك موتا . فقوله : لا رقبى، نهى يدل على المنع؛ وقوله : "من أرقب شيئا فهو له" يدل على الجواز؛ وأخرجهما أيضا النسائى . وذكر عن ابن عباس قال : العمرى والرقبى سواء . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: "العمرى جائزة لمن أُعْمِرها والرقبى جائزة لمن أُرْقبها" . فقد صحح الحديث ابن المنذر؛ وهو حجة لمن قال بأن العمرى والرقبى سواء . ورُوى عن علىّ وبه قال الثورى وأحمد، وأنها لا ترجع الى الأوّل أبدا؛ وبه قال إسحاق . وقال طاوس : من أرقب شيئا فهو سبيل الميراث .

والإفقار مأخوذ من فَقار الظهر . أفقرتك ناقتى : أعرتكَ فقارها لتركبها . وأفقرك الصيد اذا أمكنك من فَقاره حتى ترميه . ومثله الإخبال ، يقال : أخبلت فلانا اذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه؛ قال زهير :

هنالك إن يُستَخبَلُوا المالَ يُخبِلوا * وإن يُسئَلوا يُعْطوا وإن يَيْسِروا يَغْلوا

والمِنْحة : العطية . والمِنحة : مِنحة اللبن . والمنيحة : الناقة أو الشاة يعطيها الرجلُ آخَرَ يحتلبها ثم يردّها؛ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "العاريّة مؤدّاة والمنحة مردودة والدَّين مَقضِىّ والزعيم غارم" . رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذىّ والدارقطنىّ وغيرهما، وهو صحيح .

والإطراق : إعارة الفحل؛ استطرق فلان فلانا فحله : اذا طلبه ليضرب فى إبله؛ فأطرقه إياه . ويقال : أطرقنى فحلك أى أعرنى فحلك ليضرب فى إبلى . وطَرَق الفحلُ الناقةَ يَطرُق طُروقا ، أى قَعَا عليها . وطَرُوقة الفحل : أنثاه؛ يقال : ناقة طَروقة الفحل للتى بلغت أن يضربها الفحل .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ أنت، تأكيد للضمير الذى فى الفعل؛ ومثله « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ » . ولا يجوز اسكن وزوجك ، ولا اذهب وربك الا فى ضرورة الشعر؛ كما قال :

قلتُ اذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهادَى * كنِعاجِ المَلَا تعسَّفْنَ رَمْلًا (١)

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة . وزهر جمع زهراء وهى البيضاء المشرقة . والتهادى : المشى الرويد الساكن . والنعاج : بقر الوحش . تعسفن : ركبن .

فزهر معطوف على المضمر فى أقبلت ولم يؤكد ذلك المضمر . ويجوز فى غير القرآن على بُعد : قم وزيد .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ لغة القرآن «زوج» بغير هاء، وقد تقدّم القول فيه (١) . وقد جاء فى صحيح مسلم زوجة، حدّثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانى عن أنس أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال : "يا فلان هذه زوجتى فلانة" فقال : يا رسول الله، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم" . وزوج آدم عليه السلام هى حوّاء عليها السلام، وهو أوّل من سماها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يحسّ آدم عليه السلام بذلك؛ ولو أَلِمَ بذلك لم يعطف رجل على امرأته؛ فلما انتبه قيل له : مَن هــذه ؟ قال : امرأة؛ قيل : وما اسمها ؟ قال : حوّاء؛ قيل : ولم سمّيت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت؛ قيل : ولم سمّيت حوّاء ؟ قال : لأنها خلقت من حىّ . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه، وأنهم قالوا له : أتحبهـا يا آدم ؟ قال : نعم؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه يا حوّاء ؟ قالت : لا؛ وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حبه . قالوا : فلو صدقت امرأة فى حبها لزوجها لصدقت حوّاء . وقال ابن مسعود وابن عباس : لمـا أُسكن آدم الجنة مشى فيهـا مستوحشا فلما نام خلقت حوّاء من ضلعه القُصْرَى من شقه الأيسر ليسكن اليهـا ويأنس بها؛ فلما انتبه رآها فقال : من أنت؟ ! قالت : امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلىّ، وهو معنى قوله تعالى : «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "إن المرأة خلقت من ضلع — فى رواية : وإنّ أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .

لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت [بها][1] وبها عوج وإن ذهبتَ تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها" . وقال الشاعر :

هي الضِّلَع العوجاء لستَ تقيمها * ألَا إنّ تقويم الضلوع انكسارها
أتجمع ضَعفا واقتدارا على الفتى * أليس عجيبا ضعفها واقتدارها

ومن هذا الباب استدل العلماء على ميراث الخنثى المُشْكِل اذا تساوت فيه علامات النساء والرجال من اللحية والثدى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المرأة أعطى نصيب رجل؛ رُوى ذلك عن علىّ رضى الله عنه لخلق حوّاء من أحد أضلاعه ، وسيأتى فى المواريث بيان هذا ان شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ الجنة : البستان ، وقد تقدّم القول فيها[2] . ولا التفات لما ذهبت اليه المعتزلة والقَدَرية من أنه لم يكن فى جنة الخلد وإنما كان فى جنة بأرض عدن . واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل اليه ابليس، فإن الله يقول: «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ» وقال: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا» وقال: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا» . وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله : «وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ» . وأيضا فإن جنة الخلد هى دار القدس، قدّست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لها، وقد لَغَا فيها إبليس وكذب، وأخرج منها آدم وحوّاء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو فى دار الخلد والمُلْك الذى لا يبلى ؟

فالجواب : أن الله تعالى عرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة ، لم يفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد . ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم، وقد لقى موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى: أنت أشقيت ذرّيتك وأخرجتهم من الجنة؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة، فلم ينكر ذلك آدم، ولو كانت

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء .

غيرها لردّ على موسى ؛ فلمـا سكت آدم على ما قرره موسى صح أن الدار التى أخرجهم الله عزّ وجلّ منها بخلاف الدار التى أخرجوا إليها . وأما ما احتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها يوم القيامة، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية . وقد دخلها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليـلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بمـا فيها وأنها هى جنة الخلد حقا . وأما قولهم : إن الجنة دار القدس وقد طهّرها الله تعالى من الخطايا بجهل منهم ؛ وذلك أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهى الشام، وأجمع أهـل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شوهد فيها المعاصى والكفر والكذب ولم يكن تقديسها ممـا يمنع فيهـا المعاصى ؛ فكذلك دار القدس . قال أبو الحسن بن بَطّال : وقـد حكى بعض المشايخ أن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول من خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخـلد وهو فى دار الخلد؛ فيعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد فى دار الفناء! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل، فكيف بآدم الذى هو أرجح الخلق عقلا، على ما قال أبو أمامة على ما يأتى .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿وَكُلَا مِنْهَـا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قراءة الجمهور رغَدا بفتح الغين . وقرأ النّخعىّ وابن وثّاب بسكونها . والرغد : العيش الدارّ الهنىّ الذى لا عَناء فيه ؛ قال:

بينما المـــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث فى عيش رغد[1]

ويقال: رَغَد عيشهم ورَغُد بضم الغين وكسرها . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فى رغد من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصدر محـذوف . وحيثُ وحيثَ وحيثِ، وحوثُ وحوثَ وحوثِ وحاث، كلها لغات، ذكرها النحاس وغيره .

(١) القائل هو امرؤ القيس ؛ كما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أى لا تقرباها بأكل ، لأن الإباحة[1] فيه وقعت . قال ابن العربى : سمعت الشاشىّ فى مجلس النضر [بن شُميل][2] يقول : إذا قيل لا تقرَب بفتح الراء كان معناه لا تَلَبَّس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء فإن معناه لا تدن منـه . وفى الصحاح : قَرُب الشىء يقرُب قُربا أى دنا ؛ وقَرِبتـه بالكسر أقرَبه قُرْبانا أى دنوت منه ؛ وقَرَبت أَقْرُب قِرابة — مثل كتبت أكتب كتابة — إذا سِرت إلى المـاء و بينك و بينه ليلة ؛ والاسم القَرَب . قال الأصمعى : قلت لأعرابىّ : ما القَرَب؟ فقال : سير الليل لوِرْد الغد . وقال ابن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لمـا أراد النهى عن أكل الشجرة نَهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه وهو القرب . قال ابن عطية : وهذا مثال بيّن فى سدّ الذرائع . وقال بعض أرباب المعانى قوله : «ولا تقربا» إشـعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم ؛ لأن المخلد لا يحظر عليه شىء ولا يؤمر ولا ينهى . والدليل على هذا قوله تعالى : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » فدل على خروجه منها .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الاسم المبهم ينعت بما فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل و بهذه المرأة وهذه الشجرة . وقرأ ابن مُحَيصن : «هذى الشجرة» بالياء وهو الأصل ، لأن الهـاء فى هـــذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها ، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء .

---

(٢) فى الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبى حيان . وقـــد عقب عليه بقوله : «وفى هـــذه الحكاية عن ابن العربى من التخليط ما يتعجب من حاكيها ، وهو قوله : سمعت الشاشى فى مجلس النضر بن شميل ، وبين النضر والشاشى من السنين مئون إلا إن كان ثَمّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن » .

والشاشى هنا هو محمـــد بن أحمد بن الحسين بن عمر المعروف بأبى بكر الشاشى ولد بميافارقين ســـنة ٤٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .

أما النضر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان) .

وولد أبو بكر بن العربى سنة ٤٦٨ هـ وتوفى سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

(١) أى من غير تلك الشجرة .

والشَّجَرَة والشِّجَرة والشِّيرة ثلاث لغات، وقرئ الشِّجرة بكسر الشين. والشَّجرة والشَّجرة: ما كان على ساق من نبات الأرض. وأرض شَجِيرة وشَجْـراء أي كثيرة الأشجار، وواد شَجِير، ولا يقال: وادٍ أشجر. وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأت من الجمع على هـذا المثال إلا أحرف يسيرة، شَجَرَة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء، وطَرَفة وطَرْفاء، وحَلَفَة وحَلْفاء. وكان الأصمعي يقول في واحد الحَلْفاء حَلِفة، بكسر اللام مخالفة لأخواتها. وقال سيبويه: الشَّجْراء واحد وجمع، وكذلك القصباء والطرفاء والحلفاء. والمَشْجَر موضع الأشجار. وأرض مَشْجَرة، وهذه الأرض أشجر من هذه أي أكثر شجرا؛ قاله الجوهري.

التاسـعة — واختلف أهل التأويل في تعيين هذه الشجرة التي نُهي عنها فأكل منها؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وجعدة بن هُبَيرة: هي الكَرْم؛ ولذلك حُرِّمت علينا الخمر. وقال ابن عباس أيضا وأبو مالك وقتادة: هي السنبلة، والحبة منها ككُلَى البقر، أحلى من العسل وألين من الزُّبد؛ قاله وهب بن منبِّه. ولما تاب الله على آدم جعلهـا غذاء لبنيه. وقال ابن جريج عن بعض الصحابة: هي شجرة التين؛ وكذا روى سعيد عن قتادة[1]؛ ولذلك تعبر في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها؛ ذكره السهيلي. قال ابن عطية: وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعضُده خبر، وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها. وقال القشيري أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول: يعلم على الجملة أنها كانت شجرة المحنة.

العـاشرة — واختلفوا كيف أكل منهـا مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى: « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ »؛ فقال قوم: أكلا من غير التي أشير إليهـا، فلم يتأولا النهي واقعا على جميع جنسها؛ فإن إبليس غرّه بالظاهر. قال ابن العربي: وهي أول معصية عصى الله بها على هـذا القول. قال: « وفيه دليل على أن من حلف ألّا يأكل من هذا الخـبز فأكل من جنسه حنث. وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا: لا حنث فيه. وقال مالك

(١) في نسخة: «شعبة» وكلاهما يروى عن قتادة.

وأصحابه : إن اقتضى بساط اليمين تعيين المشار اليه لم يحنَث بأكل جنسه ، وان اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حمل عليه وحنث بأكل غيره؛وعليه حملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عُيّنت له وأريد به جنسها ؛ لحمل القـــول على اللفظ دون المعنى . وقـــد اختلف علماؤنا فى فرع من هذا وهو أنه إذا حلف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين؛ قال فى الكتاب يحنث، لأنها هكذا تؤكل . وقال ابن المَوّاز : لا شئ عليـــه؛ لأنه لم يأكل حنطة انما أكل خبزا فراعى الاسم والصـــفة ، ولو قال فى يمينـــه : لا آكل من هـــذه الحنطة لحنث بأكل الخبز المعمول منها » . وفيما اشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأوّلا النهى على الندب . قال ابن العربىّ : وهذا و إن كان مسئلة من أصول الفقه فقد سقط ذلك هاهنا لقوله : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النهى بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » . وقال ابن المسيّب : إنمـا أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر فسكر وكان فى غير عقله ؛ وكذلك قال يزيد بن قُسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال ابن العربى : وهذا فاسد نقلا وعقلا ، أما النقل فلم يصح بحال، وقد وصـــف الله عزّ وجلّ خمر الجنة فقال : «لَا فِيهَا غَوْلٌ» . وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوّة معصومون عما يؤدّى إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم .

قلت : قد استنبط بعض العلماء نبوّة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ» فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعزّ . وقيل : أكلها ناسيا، ومن الممكن أنهما نسيا الوعيد . قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حتما و جزما فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . ولكن لمـا كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم مالا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهى تضيعا صار به عاصيا، أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق الى يوم القيامة وضعت فى كفة ميزان و وضع حلم آدم فى كفة أخرى لرجحهم؛ وقد قال الله تعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

قلت : قول أبى أمامة هذا عموم فى جميع بنى آدم . وقد يحتمل أن يخص من ذلك نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم فإنه كان أوفر الناس حلما وعقلا . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بنى آدم من الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقـــول الأوّل أيضا حسن ؛ فظنّا أن المراد العين وكان المراد الجنس ؛ كقول النبيّ صلّى الله عليـــه وسلّم حين أخذ ذهبا وحريرا فقال : "هذان حرامان على ذكور أمتى" . وقال فى خبر آخر : "هذان مهلكان أمتى" . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقـــال : إن أوّل من أكل من الشـــجرة حوّاء بإغواء إبليس إياها، على ما يأتى بيانه ، وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المِخَـــدّة، وهى أوّل فتنة دخلت على الرجال من النساء، فقال : ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخلد، لأنه علم منهما أنهما كانا يحبان الخلد، فأتاهما من حيث أحبا — «حبّك الشيء يعمى ويصم» — فلما قالت حواء لآدم أنكر عليها وذكر العهد، فألح على حواء وألحت حواء على آدم ، الى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شيء سلمت أنت، فأكلت فلم يضرها، فأتت آدم فقـــالت : فإنى قد أكلت فلم يضرنى ، فأكل فبـــدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب، لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » بجمعهما فى النهى، فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وجد المنهيّ عنه منهما جميعا، وخفيت على آدم هذه المسئلة . ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أَمَتيه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حرتان، إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقـــد اختلف علمـــاؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ابن القـــاسم : لا تطلقان ولا تعتقان إلا باجتماعهما فى الدخول، حملًا على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحنون . وقال ابن القاسم مرة أخرى : تَطلُقان جميعا وتَعتِقان جميعا بوجود الدخول من احداهما، لأن بعض الحنث حنث، كما لو حلف ألا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لقمة منهما . وقال أشهب : تَعتِق وتَطلُق التى دخلت وحدها، لأن دخول

كل واحدة منهما شرط فى طلاقها أو عتقها . قال ابن العربى : وهذا بعيد لأن بعض الشرط لا يكون شرطا إجماعا .

قلت : الصحيح الأوّل، وإن النهى إذا كان معلقا على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلا الدار، فدخل أحدهما ما وجدت المخالفة منهما؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ» نهى لهما «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» جوابه، فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا ؛ فلما أكلت لم يصبها شىء لأن المنهىّ عنه ما وجد كاملا . وخفى هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم، وهو معنى قوله تعالى : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ» . وقيل : نسى قوله : «إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ» . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف العلماء فى هــذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صغائر من الذنوب يؤاخذون بهـا ويعاتبون عليها أم لا — بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شَيْن ونقص إجماعا عند القاضى أبى بكر[1]، وعند الأستاذ أبى إسحاق[2] أن ذلك مقتضى دليل المعجزة، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم — ؛ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين : تقع الصغائر منهم ؛ خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهـم معصومون من جميع ذلك ؛ واحتجوا بمـا وقع من ذلك فى التنزيل وثبت من تنصُّلهم من ذلك فى الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيـه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحـاب مالك وأبى حنيفة والشافعى : إنهـم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها؛ لأنا أمرنا باتباعهم فى أفعالهم وآثارهم وسـيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القربة والإباحة والحظر أو المعصية، ولا يصح أن يؤمر المـرء بامتثال أمرٍ لعله معصية، لا سيّمـا على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين . قال

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى .

(٢) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الاستاذ أبو اسحاق الأسفراينى، وفى الأصول : « عند الأستاذ أبى بكر» وهو تحريف . (راجع الكلام فى عصمة الأنبياء فى شرح المواقف) .

الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني : واختلفوا في الصغائر ، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ، وصار بعضهم إلى تجويزها ، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : الذي ينبغي أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها ، وأخبروا بهـا عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يُزرى بمناصبهم ، وإنمـا تلك الأمور التي وقعت منهـم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسـبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهـم سيئات [بالنسبة] إلى مناصبهم وعلو أقـدارهم ، إذ قد يؤاخذ الوزير بمـا يثاب عليـه السائس ، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجُنيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخلّ ذلك بمناصبهم ولا قدح في رتبهم ، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم ، صلوات الله عليهم وسـلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظلم أصـله وضع الشيء في غير موضعه . والأرض المظلومة : التي لم تُحفر قطّ ثم حفرت . قال النابغة :

وقفت فيهـا أُصـيلالاً أُسائلها * عيّت جوابا وما بالرَّبع من أحد
إلّا الأواريَّ[1] لَأْيًا ما أُبيّنهـا * والنُّؤْيَ كالحوض بالمظلومة الجَلَد

ويسمى ذلك التراب الظليم . قال الشاعر :

فأصبحَ في غبراءَ بعـد إشاحةٍ[2] * على العيش مردودٍ عليها ظَليمُها

(١) الأواري (واحدها آري) : حبل تشد به الدابة في محبسها . واللأى : المشقة والجهد . والنؤى : حفرة حول البيت لئلا يصل إليه الماء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : « يعني حفرة القبر يرد ترابها عليه بعد دفن الميت فيها » .

و إذا نُحر البعير من غير داء به فقد ظُلِم؛ ومنه «ظَلّامون لِلجُزُر» . ويقال : سقانا ظَلِيمة طَيّبة إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظلم وَطْبه(١) إذا سقى منه قبل أن يروب ويُخرَج زبده . واللبن مظلوم وظليم . قال :

وقائـلةٍ ظلمتُ لكم سـقائى * وهـل يَخفَى على العَكَدِ الظَّلِيمُ(٢)

ورجل ظَلِيم : شديد الظلم . والظلم : الشرك؛ قال الله تعالى : « إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ حذفت النون من كلا لأنه أمر، وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذ . قال سيبويه : من العرب من يقول أُؤْكل، فيتم . يقال منه : أكلت الطعام أكلا ومأكلا . والأَكلة بالفتح : المرّة الواحدة حتى تشبع . والأُكلة بالضم : اللقمة ؛ تقول : أكلت أُكلة واحدة ، أى لقمة ، وهى القُرْصة أيضا . وهـذا الشيء أُكْلة لك ،أى طُعْمَة لك . والأُكل أيضا ما أُكل . ويقال : فلان ذو أُكْل إذا كان ذا حظ من الدنيا ورزق واسع .

﴿ رَغَدًا ﴾ نعت لمصدر محذوف، أى أكلا رغدا . قال ابن كيسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : رغدا أى لا حساب عليهم . والرغد فى اللغة : الكثير الذى لا يعنّيك؛ ويقال : أرغد القوم إذا وقعوا فى خصب وسعة . وقد تقدّم(٣) هذا المعنى .

و ﴿ حَيْثُ ﴾ مبنية على الضم لأنها خالفت أخواتها الظروف فى أنها لا تضاف، فأشبهت قبلُ وبعدُ إذا أفردتا فضمت . قال الكسائى : لغـة قيس وكنانة الضم ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائى : وبنو أسـد يخفضونها فى موضع الخفض ، وينصبونها فى موضع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » وتضم وتفتح .

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الهاء من هـذه بدل من ياء الأصل ، لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم فى العربيـة هاء تأنيث مكسورا ما قبلها إلا هاء « هـذه » . ومن

(١) الوطب (بفتح فسكون) : الزق الذى يكون فيه السمن واللبن . (٢) ظلمت سقائى : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدة والعَكَدة) : أصل اللسان .

(٣) راجع المسألة السادسة ص ٣٠٣ من هذا الجزء .

العرب من يقول : هاتا هنــد ، ومنهم من يقول : هاتى هند . وحكى سيبويه : هــذهْ هند بإسكان الهاء . وحكى الكسائى عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شِبْل ابن عَبّاد قال : كان ابن كَثير وابن محيصن لا يثبتان الهاء فى « هذه » فى جميع القرآن . وقراءة الجماعة رغدا بفتح الغين . وروى عن ابن وثاب والنّخعى أنهما سكّنا الغين . وحكى سلمة عن الفراء قال يقال : هذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال من غير إلحاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تا فعلت . وأنشد :

خليليّ لولا ساكن الدار لم أُقم * بتا الدار إلا عابر ابن سبيل

قال ابن الأنبارى : وتا بإسقاط ها بمنزلة ذى بإسقاط ها من هذى ، و بمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفرّاء : من قال هذِ قامتَ لا يسقط ها لأن الاسم لا يكون على ذال واحدة .

﴿ فَتَكُونَا ﴾ عطف على تقربا فلذلك حذفت النون . وزعم الجَرْمِىّ (١) أن الفاء هى الناصبة . وكلاهما جائز .

قوله تعالى : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فازلهما الشيطان عنها ﴾ قرأ الجماعة «فازالها» بغير ألف، من الزّلة وهى الخطيئة، أى استزلها وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة « فأزلها » بألف من التنحية أى نحاهما . يقال : أزلته فزال . قال ابن كيسان : فأزالها من الزوال ، أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى . يقال منه : أزللته فزل . ودل على هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » ، وقوله :

---

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن اسحاق أبو عمر مولى جرم ، لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ » والوسوسة إنما هى إدخالها فى الزلل بالمعصية؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله فى الزلل، فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان الى مكان بذنبه . وقيل : إن معنى أزلهما من زلّ عن المكان إذا تنحّى، فيكون فى المعنى كقراءة حمزة من الزوال . قال آمرؤ القيس :

يُزِلّ الغــلامَ الخِفَّ عن صَهَوَاتِه (١) * ويُلْوِى بأثواب العَنِيف المثقَّلِ

وقال أيضا :

كُمَيتٍ يُزِلّ اللِّبْدُ عن حال متنه (٢) * كما زلّت الصَّــفواء بالمتــنزَّلِ

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله : «فأخرجهما» تأكيد وبيان للزوال، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة فى الأرض . ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أبعد هو؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخنة (٣) عين وغيظ نفس وخيبة ظن . قال الله جلّ ثناؤه : «ثُمَّ آجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» فصار عليه السلام خليفة الله فى أرضه بعد أن كان جارا له فى داره، فكم بين الخليفــة والجار! صلى الله عليه وسلم . ونسب ذلك إلى إبليس لأنه كان بسببه وإغوائه . ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولى إغواء آدم؛ واختلف فى الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء : أغواهما مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى : «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» والمقاسمة ظاهرها المشافهة . وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن منبّه : دخل الجنة فى فم الحيّة وهى ذات أربع كالبُخْتِيّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

(١) الخف (بالكسر) : الخفيف . والصهوة : موضع اللبد من ظهر الفرس . و يلوى بها : يذهب بها من شدة عدوه . والعنيف : الذى لا يحسن الركوب، وليس له رفق بركوب الخيل . والمثقل : الثقيل .

(٢) الكميت : لون ليس بأشقر ولا أدهم . والحال : موضع اللبد من ظهر الفرس . والصفواء (جمع صفاة) : الصخرة الملساء . والمتنزل : الذى يتزل عليها فيزلق عنها .

(٣) سخنت عينه : نقيض قرت .

نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حــواء فقال : انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فلم يزل يغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها . ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء: كُلْ فإنى قد أكلت فلم يضرنى؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه : أين أنت؟ فقال : أنا هذا يارب؛ قال: ألا تخرج؟ قال: أستحى منك يارب؛ قال : اهبط إلى الأرض التى خلقت منها. ولعنت الحية وردّت قوائمها فى جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بنى آدم؛ ولذلك أمرنا بقتلها، على ما يأتى بيانه . وقيــل لحوّاء : كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبرى والنقاش : وتكونى سفيهة وقــد كنت حليمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنمــا أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التى أعطاه الله تعالى؛ كما قال صلّى الله عليــه وسلّم : "إن الشيطانـــ يجرى من ابن آدم مجرى الدم" . والله أعــلم . وسيأتى فى الأعراف أنه لمــا أكل بقى عريانا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنــه الأشجار وبكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التين، فأخذ من ورقه فاستتر به، فبلى بالعرى دون الشجر. والله أعلم. وقيل : إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثـــة — يذكر أن الحيّــة كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أهبطوا تأكدت العــداوة وجعل رزقها التراب، وقيــل لها : أنت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لقيك منهم أحد شدخ رأسك . روى ابن عمر عن رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم قال : "خمس يقتلهنّ المحْرِم" فذكر الحيــة فيهنّ . وروى أن إبليس قال لها : أدخلينى الجنة وأنت فى ذمّتى؛ فكان ابن عباس يقول : اخفروا(١) ذمة إبليس . وروت ساكنة بنت الجعد عن سَرّى بنت نَبهان الغَنوية قالت: سمعت

(١) أخفر الذمة : لم يَفِ بها .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "اقتلوا الحيات صغيرها وكبيرها وأسودها وأبيضها فإن من قتلها كانت له فداء من النار ومن قتلته كان شهيدا" . قال علماؤنا : وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده؛ فلذلك كان من قتــل حية فكأنمــا قتل كافرا . وقــد قال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبدا" . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعــــة — روى ابن جريج عن عمرو بن دينار عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم بمنًى فمرّت حيــة فقال رسول الله صلّى الله وســلّم : "اقتلوها" فسبقتنا إلى جُحر فدخلتــه؛ فقال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم : "هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليه نارا" . قال علماؤنا : وهذا الحديث يخص نهيه عليه السلام عن المُثْلة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى؛ قالوا : فلم يبق لهــذا العدوّ حرمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر .

فإن قيــل : قد روى عن إبراهيم النّخعى أنه كره أن تحرق العقرب بالنار، وقال : هو مُثلة . قيل له : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعمل على الأثر الذى جاء "ألا تعذّبوا بعذاب الله" فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : فقــد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم فى غار وقد أنزلت عليه : «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» فنحن نأخذها من فيه رطبة، إذ خرجت علينا حية، فقال: "اقتلوها"؛ فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "وقاها الله شركم كما وقاكم شرها" . فلم يضرم نارا ولا احتال فى قتلها . قيل له : يحتمل أن يكون لم يجــد نارا فتركها، أو لم يكن الجحر بهيئة ينتفع بالنار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيــوان . والله أعلم . وقوله : "وقاها الله شركم" أى قتلكم إياها " كما وقاكم شرها " أى لسعها .

الخامســـة ــ الأمر بقتل الحيات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المخوفة من الحيات، فما كان منها متحقق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله ؛ لقوله : "اقتلوا الحيات واقتلوا ذا الطُّفْيتين[1] والأبتر فإنهما يخطفان البصر ويسقطان الحَبَل". فخصهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما. وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قتل أيضا لظاهر الأمر العام، ولأن نوع الحيات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيه، ولأنه كله مروّع بصورته وبما في النفوس من النفرة عنه ؛ ولذلك قال صلّى الله عليه وسلّم : "إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية" . فشجّع على قتلها . وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعا : "اقتلوا الحيات [كلهن[2]] فمن خاف ثأرهن فليس مني" . والله أعلم.

السادســـة ـــ ما كان من الحيات في البيوت فلا يقتل حتى يؤذن ثلاثة أيام ؛ لقوله عليه السلام : "إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام" . وقد حمل بعض العلماء هذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بها ؛ قالوا : ولا نعلم هل أسلم من جنّ غير المدينة أحد أو لا . قاله ابن نافع .

وقال مالك : نهى عن قتل جِنّان[3] البيوت في جميع البلاد . وهو الصحيح ؛ لأن الله عز وجل قال : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ » الآية . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "أتاني داعي الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة، الحديث . وسيأتي بكماله في سورة « الجن » إن شاء الله تعالى . وإذا ثبت هذا فلا يقتل شئ منها حتى يحرّج[4] عليه وينذر، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

---

(١) ذو الطفيتين : حية لها خطان أسودان يشبهان بالخوصتين . (٢) الزيادة من سنن أبي داود .

(٣) جنان (جمع جان) : ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة لا يؤذى، وهو كثير في بيوت الناس . وقيل : هو الدقيق الخفيف . (٤) في هامش نسخة من الأصل : « التحريج هو أن يقول لها : أنت في حرج ـــ أي في ضيق ـــ إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل » . وكذلك هو في نهاية ابن الأثير واللسان .

السابعـــة — روى الأئمة عن أبي السائب مولى هشام بن زُهرة أنه دخل على أبي سعيد الخُدرىّ في بيته، قال : فوجدته يصلى ، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكا في عَراجينَ ناحية البيت ، فالتفتُّ فإذا حيّة ، فوثبت لأقتلها ؛ فأشار إلىّ أن آجلس فجلست ؛ فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم ؛ قال : كان فيـه فتًى منّا حديثُ عهد بعُرْس ، قال : فخرجنا مع رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم الى الخندق ؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنصاف النهار فيرجع الى أهله ؛ فاستأذنه يوما ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " خُذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قُرَيْظَة " . فأخذ الرجل سـلاحه ثم رجع ؛ فإذا آمرأته بين البابين قائمـة فأهوى اليهـا بالرمح ليطعُنَها به وأصابته غَيرة ؛ فقالت له : آكفف عليك رمحك ، وآدخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ! فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى اليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليـه ، فما يُدرَى أيُّهما كان أسرع موتا ، الحية أم الفتى ! قال : فجئنا إلى رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم فذكرنا ذلك له ، وقلنا : آدع الله يحييه [لنا](١) ؛ فقال : " استغفروا لأخيكم(٢) — ثم قال : — إن بالمدينة جِنًّا قـد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنمـا هو شيطان " . وفي طريق أخرى فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إن لهذه البيوت عوامر(٣) فإذا رأيتم شيئا منها فحرجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر — وقال لهم : — اذهبوا فادفنوا صاحبكم" . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذى قتله هـذا الفتى كان مسلما وأن الجن قتلته به قصاصا ؛ لأنه لو سُلّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون في العمد المحض ؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمد قتـل نفس مسلمة ، إذ لم يكن عنده علم من ذلك ، وإنمـا قصد إلى قتل ما سُوّغ قتل نوعه شرعا ؛ فهذا قتـل خطأ ولا قصاص فيه . فالأَوْلى

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) في صحيح مسلم : «لصاحبكم» .

(٣) العوامر : الحيات التى تكون في البيوت ، واحدها عامر وعامرة . وقيل : سميت عوامر لطول أعمارها .

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْوًا وانتقاما . وقد قتلت سعد ابن عبادة رضى الله عنه ؛ وذلك أنه وجد ميتا فى مغتسله وقد اخضرّ جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قد قتلنا سيّد الخَزْ * رَج سعدَ بن عُبادهْ
ورميناه بسهميـ * ـن فلم نُخْطِ فؤاده

وإنما قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "إن بالمدينة جنًّا قد أسلموا" ليبيّن طريقا يحصل به التحرز من قتل المسلم منهم ويتسلط به على قتل الكافر منهم . رُوى من وجوه أن عائشة زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قتلت جانا فأُرِيتْ فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما ؛ فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصبحت فأمرت باثنى عشر ألف درهم فجُعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة ؛ فتصدقت وأعتقت رقابا . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيات التى نهى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنة — فى صفة الإنذار ؛ قال مالك : أحَبُّ إلىّ أن يُنْذَروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار ؛ وإن ظهر فى اليوم مرارا . ولا يقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار ؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرِّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث ؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى ؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام" . وهو نص صحيح مقيّد لتلك المطلقات ؛ ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث ، فغلب الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فانها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البُنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح

عليه السلام، وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام، فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتـــلوه .

قلت : وهذا يدل بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرّة واحدة ، والحـديث يردّه . والله أعلم . وقد حكى ابن حبيب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه يقول : "أنشدكنّ بالعهد الذى أخذ عليكنّ سليمان عليه السلام ألا تؤذونا وألا تظهرن علينا" .

التاســـعة — روى جبير بن نُفَير عن أبى ثعلبة الخُشَنى — واسمه جرثوم — أن رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم قال : "الجن على ثلاثة أثلاث فثلث لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيّات وكلاب وثلث يَحلّون ويَظعَنون" . وروى أبو الدرداء — واسمه عُويمر — قال قال رســول الله صلّى الله عليه وسلّم : "خلق الجن ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قـلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بهـا إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ ســبيلا وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظلّ الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه" .

العاشرة — ما كان من الحيوانـــ أصله الأذاة فإنه يقتل ابتداء لأجل إذاته من غير خلاف؛ كالحية والعقرب والفأر والوَزَغ وشبهه . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وســلّم : "خمسٌ فواسقُ يقتلن فى الحل والحرم" وذكر الحديث .

فالحية أبدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنـــة بين فكّيها؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت فى ذمتى؛ فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتلها وقال : "اقتلوها وإن كنتم فى الصلاة" يعنى الحية والعقرب .

والوَزَغة (1) نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت . وهذا من نوع ما يروى فى الحية . ورُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "من قتل وزغة فكأنما

(1) الوزغة (بالتحريك) : هى التى يقال لها سامّ أبرص .

قتل كافرا". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "من قتل وزغة فى أوّل ضربة كتبت له مائة حسـنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك" وفى رواية أنه قال : "فى أوّل ضربة سبعون حسنة".

والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها . وروى عبد الرحمن بن أبى نُعْم عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "يقتل المُحْرِم الحية والعقرب والحدأة والسبع العادى والكلب العقور والفُوَيسقة". واستيقظ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد أخذت فتيلة لتحرق البيت فأمر رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتلهـا .

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبىّ الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جيفة . هذا كله فى معنى الحية؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى التعليل فى «المـائدة» وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ حذفت الألف من « اهبطوا » فى اللفظ لأنها ألف وصل . وحذفت الألف من « قلنـا » فى اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعـدها . وروى محمد بن مصَفَّى عن أبى حَيْوَة ضم الباء فى « اهبطوا »، وهى لغـة يقوّيها أنه غير متعدّ والأكثر فى غير المتعـدّى أن يأتى على يَفْعُـل . والخطاب لآدم وحواء والحيـة والشيطان؛ فى قول ابن عباس . وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة . وقال مجاهد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيبَ فى الهند بجبل يقال له « بوذ »(١) ومعه ريح الجنة فعَلِق بشجرها وأوديتها فامتلأ ما هنالك طِيبا؛ فمن ثَمّ يؤتى بالطِّيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع ، فأورث ولده الصـلع . وفى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى الله عليـه وسلّم قال : "خلق الله آدم

(١) فى اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب : «راهون» .

وطوله ستون ذراعا" الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتى . وأُهبطت حوّاء بجُدّة و إبليس بالأُبُلَّة(١)، والحية بَيْسان(٢)، وقيل : بسَجِستان(٣) . وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبَدّ(٤) ما يأكلها و يفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحيات؛ ذكره أبو الحسن المسعودى .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ بعضكم مبتدأ ، عدو خبره، والجملة فى موضـع نصب على الحال ؛ والتقدير وهذه حالكم . وحذفت الواو من « و بعضكم » لأن فى الكلام عائدا؛ كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق؛ وهو من عَدَا إذا ظلم . وذئب عَدَوان : يَعدُو على الناس . والعُدْوان : الظلم الصّراح . وقيل : هو مأخوذ من المجاوزة؛ من قولك : لا يعدوك هذا الأمر، أى لا يتجاوزك . وعداه إذا جاوزه؛ فســمّى عدوّا لمجاوزة الحــد فى مكروه صاحبه؛ ومنــه العَدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشيء ، والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » على الإنسان نفسه،وفيه بُعدٌ و إن كان صحيحا معنًى . يدل عليــه قوله عليه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه اتّق الله فينا فإنك إذا استقمت استقمنا و إن اعوَججتَ اعوججنا" . فإن قيل : كيف قال « عدوّ » ولم يقل أعداء ؛ ففيه جوابان . أحدهما : أن بَعْضًا وكُلًّا يخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى ، وذلك فى القرآن ؛ قال الله تعالى : « وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا » على اللفظ ، وقال تعالى : «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» على المعنى . والجواب الآخر : أن عدوّا يفرد فى موضع الجمع ؛ قال الله عزّ وجلّ : « وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » بمعنى أعداء ، وقال تعالى : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ » . وقال ابن فارس : العدوّ اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

---

(١) الابلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى . (عن معجم ياقوت) .

(٢) بيسان : بلدة بمرو و بالشام وموضع باليمامة .

(٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : اسم مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) .

(٤) العربد (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى .

الثالثـــة ــ لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته، وإنما أهبطه إمّا تأديبا وإما تغليظا للمحنة. والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك ، وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم، ويرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروىّ؛ إذ الجنة والنار ليست بدار تكليف؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة. ولله أن يفعل ما يشاء . وقد قال : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » . وهـذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمـة شريفة ؛ وقد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خلق من الأرض . وإنما قلنا إنما أهبطه بعـد أن تاب عليه لقوله ثانية : « قُلْنَا ٱهْبِطُوا » وسيأتي .

الرابعـــة ــ وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ابتـداء وخبر، أي موضـع استقرار؛ قاله أبو العالية وابن زيد . وقال السدىّ : مستقر يعني القبور .

قلت : وقول الله تعالى : «جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا » يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ المتاع ما يستمتع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس وغير ذلك؛ ومنه سمّيت مُتْعة النكاح لأنها يتمتع بها. وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ اختلف المتأولون في الحين على أقوال؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهـذا قول من يقول : المستقَر هو المقام في الدنيا . وقيل : إلى قيام الساعة؛ وهـذا قول من يقول : المســتقر هو القبور . وقال الربيع : إلى حين إلى أجل . والحين : الوقت البعيد؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خُوَيلد :

كَابِي الرَّمَادِ عظيمُ القِــدْرِ جَفْنَتُه * حين الشتاءِ كحوض المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِف الحوض لَقَفا، أي تهوّر من أسفله واتسع . وربما أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزة .

العاطفـون تَحِينَ ما مِنْ عاطفٍ * والمُطعِمون زمانَ أينَ المُطعِمُ

والحين أيضـا : المدّة ؛ ومنـه قوله تعالى : « هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » . والحين : الساعة ؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ » . قال ابن عرفة : الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : « فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ » أى حتى تفنى آجالهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ » أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل ستة أشهر ؛ وقيل : بل غُدْوةً وعَشِياً . قال الأزهرىّ : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلهـا طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البتة . قال : والحين يوم القيامة . والحين : الغدوة والعشـية ؛ قال الله تعالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » . ويقال : عاملته محاينة، من الحين . وأحينت بالمكان : إذا أقمت به حينا . وحان حينُ كذا أى قرب . قالت بُثَينة :

وإنّ سُلوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ماحانت ولا حان حينُها

السابعــة ــ لمـا اختلف أهل اللسان فى الحين اختلف فيـه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛ فقال الفـراء : الحين حينان : حين لا يوقف على حدّه ، والحين الذى ذكر الله جلّ ثناؤه : «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» ستة أشهر . قال ابن العربى : الحين المجهول لا يتعلق به حكم ، والحين المعلوم هو الذى تتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمان أعم الأسماء والأزمنة . والشافعى يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله ؛ لأن المقدّرات عنده لا تثبت قياسا ، وليس فيـه نصّ عن صاحب الشريعة ، وإنما المعوّل على المعنى بعـد معرفة مقتضى اللفظ لغة . فمن نذر أن يصلى حينا فيحمل على ركعة عنـد الشافعى لأنه أقل النـافلة ، قياسا على ركعة الوتر . وقال مالك وأصحابه : أقل النـافلة ركعتان فيقدّر الزمان بتقدير الفعل . وذكر ابن خُوَيْزِ مَنْـدادُ فى أحكامه أن من حلف ألا يكلم فلانا حينا أو لا يفعل كذا حينا ، أن الحين سـنة . قال : واتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألا يفعل كذا حينا أو لا يكلم فلانا حينا ، أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

قلت : هــذا الاتفاق إنما هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : من حلف ألا يفعل شيئا الى حين أو زمان أو دهر، فذلك كله سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جبير وعامر الشعبيّ وعبيدة فى قوله تعالى : «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» أنه ستة أشهر . وقال الأوزاعى وأبو عبيدة : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا؛ وقال : لا نحنثه أبدا، والورع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثور وغيره : الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال : قد جئت من حين، ولعله لم يجئ من نصف يوم . قال الكِيَا الطبرى الشافعى : وبالجملة الحين له مصارف، ولم ير الشافعى تعيين محمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغة لمعنًى معيّن . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : «إِلَى حِينٍ» فائدة بشارة الى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل الى الجنة التى وعد بالرجوع اليها؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب، والله أعلم .

قوله تعالى : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ تلقى قيل معناه : فهم وفطن . وقيل : قبل وأخذ؛ وكان عليه السلام يتلقّ الوحى، أى يستقبله ويأخذه ويتلقفه . تقول : خرجنا نتلق الحجيج، أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقّ تلقّن . وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلق من التلقن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنما يُقلب ياء إذا تجانسا ، مثل تظنّى من تظنّن، وتقصّى من تقصص؛ ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك؛ ولهذا لا يقال : تقبّى من تقبّل، ولا تلقّى من تلقن؛ فاعلم . وحكى مكيّ أنه ألهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولها تعلمه لها وعمله بها .

الثانيـــة — واختلف أهل التأويل فى الكلمات ؛ فقال ابن عباس والحسن وسـعيد ابن جبير والضحاك ومجاهد هى قوله : «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللّهمّ لا إله إلا أنت ربى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفـة : رأى مكتوبا على ساق العـرش «محمد رسـول الله» فتشفّع بذلك، فهى الكلمات . وقالت طائفـة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل : الندم والاستغفار والحزن . قال ابن عطية : هذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الاستغفار المعهود . وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب؛ فقال : يقـول ما قاله أبواه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » الآية . وقال موسى : «رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى » . وقال يونس : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » . وعن ابن عباس ووهب بن منبه : أن الكلمات «سـبحانك اللّهمّ وبحمـدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفرلى إنك خير الغافرين، سبحانك اللّهمّ وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم» . وقال محمـد بن كعب هى قوله : «لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سـوءا وظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم . لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إله إلا أنت سـبحانك وبحمدك عملت سـوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أرحم الراحمين» . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : «الحمـد لله» . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدّم[1] .

الثـالثة — قوله تعالى : ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أى قبـل توبته أو وفقه للتوبة . وكان ذلك فى يوم عاشـوراء فى يوم جمعـة ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبـد : رجع الى طاعة ربه . وعبد توّاب : كثير الرجوع الى الطاعة . وأصـل التوبة الرجوع؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

(١) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء .

الرابعـــة — إن قيـل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحوّاء مشاركة له فى الذنب بإجماع ، وقد قال : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » و « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » ؛ فالجواب أن آدم عليه السلام لمـا خوطب فى أوّل القصة بقوله : « اسْكُنْ » خصّه بالذكر فى التلقّى ؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله السّتر لهـا ؛ ولذلك لم يذكرها فى المعصية فى قوله : « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ » . وأيضا لمـا كانت المرأة تابعـة للرجل فى غالب الأمر لم تذكر، كما لم يذكر فتى موسى مع موسى فى قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ » . وقيل : إنه دل بذكر التوبة عليـه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعـالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَـارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا » أى التجارة لأنهـا كانت مقصود القوم، وأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما؛ والمعنى متقارب . وقال الشاعر [(١)] :

رمانى بأمر كنتُ منه ووالدِى * بريئًا ومن فوق [(٢)] الطَّوِىِّ رمانِى

وفى التنزيل : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ » فحذف إيجازا واختصارا .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعـالى بأنه التوّاب ؛ وتكرر فى القرآن معرّفا ومنكرا واسما وفعـلا . وقد يطلق على العبد أيضا توّاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » . قال ابن العربى : ولعلمائنا فى وصف الربّ بأنه توّاب ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز فى حق الربّ سبحانه وتعـالى فيُدْعى به كما فى الكتاب والسـنة ولا يتأوّل . وقال آخرون : هو وصف حقيقىّ لله سبحانه وتعالى ؛ وتوبة الله على العبد رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون : توبة الله على العبد قبوله توبته؛ وذلك يحتمل أن يرجع الى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع فى قلب المسىء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

---

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلى . (٢) الذى فى شرح شواهد سيبويه : «ومن أجل الطوى» . والطوى : البئر المطوية بالحجارة . قال الشنتمرى : «وصف فى البيت رجلا كانت بينـه وبينه مشاجرة فى بئر؛ فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التى كانت بينهما» .

السادســـة — لا يجوز أن يقال فى حق الله تعالى: تائب، اسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه ، أو نبيّه عليــه السـلام، أو جماعة المسلمين ، وإن كان فى اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح فى هــذا الباب، على ما بيّناه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . قال الله تعالى : «لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ» . وقال : « وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَـلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » . وإنمـا قيل لله عزّ وجلّ : توّاب ، لمبالغــة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعـــة — اعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة، لأنّ الله سبحانه وتعـالى هو المنفرد بخلق الأعمال ، خلافا للمعتزلة ومن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقــد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصـل العظيم فى الدّين، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحبر أو الراهب فيعطيه شيئا ويحط عنه ذنوبه « ٱفْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَـدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » .

الثامنـــة — قرأ ابن كثير : «فتلقى آدمَ مِنْ رَبِّهِ كلماتٌ» . والباقون برفع آدم ونصب كلمات . والقراءتان ترجعان الى معنًى ؛ لأنّ آدم إذا تلقّ الكلمات فقد تلقّته . وقيل : لمـا كانت الكلمات هى المنقذة لادم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة ، وكان الأصل على هذه القراءة «فتلقت آدم من ربه كلمات» ؛ لكن لمّا بَعُد ما بين المؤنث وفعله حسن حذف علامة التأنيث . وهذا أصل يجرى فى كل القرآن والكلامِ إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة، ومنه قولهم : حضر القاضىَ اليومَ امرأةٌ. وقيل : إن الكلمات لمـا لم تكن تأنيثا حقيقيا حمل على معنى الكَلِم، فذكّر . وقرأ الأعمش : « آدمْ مّن ربه » مدغما . وقرأ أبو نوفل بن أبى عقرب : « أنه » بفتح الهمزة، على معنى لأنه، وكسر الباقون على الاستئناف. وأدغم الهـاء فى الهـاء أبو عمرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم . وقيل : لا يجوز ،

لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هــذه الواو ، وأنشــد :

لَه زَجَلٌ كأنَّهُ صَوتُ حادٍ * اذا طَلَب الوَسِيقَةَ أو زَمِيرُ (١)

فعلى هذا يجوز الإدغام، وهو رفع بالابتداء . التواب خبره، والجملة خبر إن . ويجوز أن يكون هو توكيدا للهاء، ويجوز أن تكون فاصلة، على ما تقدّم .

قال سـعيد بن جبير : لمـا أُهبط آدم الى الأرض لم يكن فيهـا شيء غير النسر فى البر ، والحوت فى البحر؛ فكان النسر يأوى الى الحوت فيبيت عنده؛ فلمـا رأى النسر آدم قال : ياحوت ، لقــد اهبط اليوم الى الأرض شيء يمشى على رجليه ويبطش بيديه؛ فقال الحوت لئن كنت صادقا مالى منه فى البحر ملجأ، ولا لك فى البر منه مخلص ! .

قوله تعالى : قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده ؛ كما تقول لرجل : قم قم . وقيل : كرّر الأمر لمـا علّق بكل أمر منهما حكما غير حكم الآخر؛ فعلّق بالأوّل العداوة، وبالثـانى إتيان الهدى . وقيل : الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء ، والثانى من السماء الى الأرض . وعلى هــذا يكون فيه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة، كما دلّ عليه حديث الإسراء، على ما يأتى .

﴿ جَمِيعًـا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن منبّه : لمـا هبط آدم عليــه السلام الى الأرض قال إبليس للسباع : إن هذا عدوّ لكم فاهلكوه؛ فاجتمعوا وولّوا أمرهم الى الكلب

(١) البيت للشماخ . وصف حمار وحش هائجا فيقول : إذا طلب وسيقته — وهى أتانه التى يضمها — صوّت بها ، وكأن صوته لمـا فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صــوت حاد بإبل يتغنى ويطربهـا ، أو صــوت مزمار . والزجل صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليـه السلام تحيّر فى ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : اِمسح يدك على رأس الكلب ، ففعل ؛ فلما رأت السباع أن الكلب ألف آدم تفرقوا . واستأمنه الكلب فأمنه آدم ؛ فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذىّ الحكيم نحو هذا ، وأن آدم عليه السلام لمـا أهبط الى الأرض جاء إبليس الى السباع فأشلاهم[1] على آدم ليؤذوه ؛ وكان أشدّهم عليه الكلب ، فأميت فؤاده ؛ فرُوِى فى الخبر أن جبريل عليـه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن اليه وألفه ؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين ؛ فلو رمى بمدرٍ ولى هاربا ثم يعود آلفا لهم . ففيه شعبة من إبليس ، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام ؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويَهِرّ ويعـدو على الآدمىّ ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذلّ وانقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولهثه[2] على كل أحواله من موت فؤاده ؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماءَ السوء بالكلب ، على ما يأتى بيانه فى « الأعراف » إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى ، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى ﴾ اختلف فى معنى قوله : « هـدى » ؛ فقيل : كتاب الله ، قاله السدى . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهدى الرسل ، وهى الى آدم من الملائكة ، وإلى بنيه من البشر ؛ كما جاء فى حديث أبى ذرّ ، وخرّجه الآجُرّى . وفى قوله : « مِنِّى » إشارة إلى أن أفعال العباد خلقٌ لله تعالى ، خلافا للقَدَرية وغيرهم ، كما تقدّم[3] . وقرأ الجحدرىّ «هَـدَىّ» وهو لغـة هذيل ، يقولون : هُدَىّ وعَصَىّ ومَحْيَىّ . وأنشد النحويون لأبى ذؤيب يرثى بنيه :

سَـبقُوا هَوَىّ وأعنقوا لهواهمُ * فتخرّموا ولكل جَنبٍ مصرعُ[4]

---

(١) أشلاهم : أغراهم . (٢) لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .

(٣) راجع المسئلة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء . (٤) هوىّ ، يريد هواى ، أى ماتوا قبلى وكنت أحب أن أموت قبلهـم . وأعنقوا لهواهم ، جعلهم كأنهم هوُوا الذهاب إلى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها . فتخرموا ، أى أخذوا واحدا واحدا .

قال النحاس : وعلة هـذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سـبيل ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها ؛ فلما لم يجز أن تتحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و «ما» في قوله : «إما» زائدة على إن التي للشرط ، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله : «فَمَنْ تَبِعَ» . و«من» في موضع رفع بالابتداء . و«تبع» في موضع جزم بالشرط . ﴿ فَلَا خَوْفٌ ﴾ جوابه . قال سيبويه : الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول . وقال الكسائي : « فلا خوف عليهم» جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف هو الذعر ولا يكون إلا في المستقبل . وخاوفني فلان فخُفْته ، أي كنت أشدّ خوفا منه . والتّخوف : التنقص ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » . وقرأ الزهري والحسن وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق ويعقوب : «فلا خوفَ» بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء ؛ لأن الثاني معرفة لا يكون فيه إلا الرفع ؛ لأن «لا» لا تعمل في معرفة ، فاختاروا في الأول الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون «لا» في قولك : فلا خوف ، بمعنى ليس .

والحُزْن والحَزَن : ضد السرور ، ولا يكون إلا على ماض . وحزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين ؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا ، مثل أسلكه وسَلَكه ؛ ومحزون بُني عليه . قال اليزيدي : حَزَنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ؛ وقد قرئ بهما . واحتزن وتحزّن بمعنًى . والمعنى في الآية : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أشركوا، لقوله : ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الصحبة : الاقتران بالشيء فى حالة مّا ، فى زمان مّا، فان كانت الملازمـة والخلطة فهى كمال الصحبة، وهكذا هى صحبة أهل النـار لها . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهـم إذ مراتبهم متباينة، على ما نبيّنه فى «براءة» إن شاء الله . وباقى ألفاظ الآية تقدّم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ نداء مضاف ، علامة النصب فيه الياء ، وحذفت منه النون للإضافة . الواحد آبن، والأصل فيه بَنَيٌ، وقيل : بَنَوٌ، فمن قال : المحذوف منه واو احتج بقولهم : البنوة . وهـذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوة ، وأصله اليـاء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه الواو لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ابن بيّن البنوّة، والتصغير بُنَيّ . قال الفراء : يقال : يا بُنَيِّ ويا بُنَيَّ لغتان ، مثل يا أبَتِ ويا أبتَ ؛ وقرئ بهما . وهو مشتق من البنـاء وهو وضع الشيء على الشيء؛ والآبن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجوزيّ : وليس فى الأنبيـاء من له اسمان غيره، إلا نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم فإن له أسمـاء كثيرة . ذكره فى كتاب «فهوم الآثار» له .

قلت : وقد قيل فى المسيح إنه آسم علم لعيسى عليه السلام غير مشتق ، وقد سمّاه روحا وكلمة، وكانوا يسمونه أَبِيل الأَبِيلِين؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى دلائل النبوّة عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو آسمين ، محمد وأحمـد نبيّنا صلّى الله عليـه وسلّم ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل ، صلى الله عليهم وسلم .

قلت : قد ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء، وأما نبينّا صلّى الله عليه وسلّم فله أسماء كثيرة، بيانها فى مواضعها .

وإسرائيل اسم أعجمى، ولذلك لم ينصرف؛ وهو فى موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغـات : إسرائيل ، وهى لغة القرآن . وإسرائيل بمدّة مهموزة مختلسة، حكاها شَنَبُوذ عن وَرْش . وإسرايِيل بمدة بعد اليـاء من غير همز، وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر؛ وقرأ الحسن والزهرىّ بغير همز ولا مـدّ . وإسرائل بغـير ياء بهمزة مكسورة . وإسرأَل بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين بالنـون . ومعنى إسرائيل عبـد الله . قال ابن عباس : إسرا بالعبرانية هو عبد، وإيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله، وإيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ؛ فكأن إسرائيل الذى شدّه الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدوى . وقال السهيلى : سمىّ إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر الى الله تعالى؛ فسمى إسرائيل أى أسرى الى الله ونحو هذا؛ فيكون بعض الاسم عبرانيا وبعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الذِّكر اسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان، والذكر باللسان ضدّ الإنصات . وذكرت الشىء بلسانى وقلبى ذِكْرا . واجعله منــك على ذُكْر (بضم الذال) أى لا تنســه . قال الكسائى : ما كان بالضمير فهو مضموم الذال، وما كان باللسان فهــو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكْر وذُكْر، ومعناهما واحد . والذَّكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذكر أيضا الشرف، ومنه قوله : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» . قال ابن الأنبارى : والمعنى فى الآية آذكروا شكر نعمتى، فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب، أى لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها ، وهو حسن . والنعمة هنا اسم جنس، فهى مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى : «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا» أى نعمه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهــم أنبياء، وأنزل عليهــم الكتب والمنّ والسّلوى، وفجّر لهم

من الحجر المـاء، الى ما استودعهم من التوراة التى فيها صـفة محمد صلّى الله عليه وسـلم ونعته ورسالته، والنعم على الآباء نعم على الأبناء، لأنهم يشرُفون بشرف آبائهم .

تنبيـــه ـــ قال أرباب المعانى : ربط سـبحانه وتعالى بنى إسرائيـل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلّى الله عليـه وسلّم ودعاهم الى ذكره، فقـال : « ٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ » ليكون نظر الأمم من النعمة الى المنعم، ونظر أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم من المنعم الى النعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أمر وجوابه . وقـرأ الزهرى : أوَفّ (بفتح الواو وشـد الفـاء) للتكثير . واختلف فى هذا العهد ما هو ؛ فقال الحسن : عهده قوله : «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ»، وقوله : «وَلَقَـدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً» . وقيل هو قوله : «وَ إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ» . وقال الزجاج : أوفوا بعهـدى الذى عهـدت إليكم فى التوراة من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، أوف بعهدكم بمـا ضمنت لكم على ذلك، إن أوفيتم به فلكم الجنة . وقيل : أوفوا بعهدى فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص، أوف بقبولهـا منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : أوفوا بعهدى فى العبادات، أوف بعهدكم أى أوصلكم إلى منازل الرعايات . وقيل : أوفوا بعهدى فى حفظ آداب الظواهر، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم . وقيـل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلّى الله عليه وسلّم الذى فى التوراة وغيره . هـذا قول الجمهور من العلماء، وهو الصحيح . وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طُلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : « أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ»، « أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ » ؛ وهو كثير . ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له، بل ذلك تفضّل منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ أى خافون . والرَّهْب والرَّهَب والرَّهْبَـة : الخوف . ويتضمّن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعـد النون لأنها رأس آية . وقرأ ابن أبى

إسحاق : فارهبونى بالياء، وكذا فاتقونى ، على الأصل . وإياى منصوب بإضمار فعل ، وكذا الاختيار فى الأمر والنهى والاستفهام ؛ التقدير : وإياى ارهبوا فارهبون . ويجوز فى الكلام وأنا فارهبون ، على الابتـداء والخبر . وكون « فارهبون » الخبر على تقـدير الحذف ، المعنى وأنا ربكم فارهبون .

قوله تعالى : وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ أى صدقوا، يعنى بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الضمير فى أنزلت ؛ التقدير بمـا أنزلته مصدقا ؛ والعامل فيـه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما ، والعامل فيه آمنوا ؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون «مصدرية» ، التقدير آمنوا بإنزالى . ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يعنى من التوراة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ الضمير فى به قيـل هو عائد على محمد صلى الله عليـه وسلم ، قاله أبو العاليـة . وقال ابن جريج : هو عائد على القرآن ، إذ تضـمنه قوله : « بِمَا أَنْزَلْتُ » . وقيل : على التوراة إذ تضمنها قوله : « لِمَا مَعَكُمْ » .

فإن قيل : كيف قال «كافر» ولم يقل كافرين ؛ قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر . وزعم الأخفش والفراء أنه محمول على معنى الفعل ؛ لأن المعنى أول من كفر به . وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله ، وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتى وأجمله . وقال : أول كافر به ، وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش ؛ فإنما معناه من أهل الكتاب ؛ إذ هم منظور إليهم فى مثل هذا ؛ لأنهم حجة مظنون بهم علم . و «أول» عند سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل . وهو على أفعل ، عينه وفاؤه واو . وإنمـا لم ينطق منه بفعل لئلا يعتل من جهتين العين والفاء ؛ وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو من وَأَلَ اذا نجا ؛ فأصله أَوْأَل ، خففت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت فقيل أول ، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهرى :

« والجمع الأوائل والأوالِى أيضا على القلب . وقال قوم : أصله وَوْل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همــزة . وإنمــا لم يجمع على أواوِل لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » . وقيــل : هو أفعل من آل يؤول، فأصله أَأْوَل ؛ قلب لجاء أعفل مقلوبا من أفعل ، فسُهّل وأبدل وأُدغم .

مســـئلة ـــ لا حجة فى هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب وهم الكوفيون ومن وافقهم ؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أوّلا وآخرا ؛ وخص الأوّل بالذكر لأن التقدّم(١) فيه أغلظ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألّا يأخذوا على آيات الله ثمنا؛ أى على تغيير صــفة محمد صلى الله عليــه وسلم رِشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنهوا عنه ؛ قاله قوم من أهل التأويل ، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب، فنهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهــم بالأجرة فنهوا عن ذلك . وفى كتبهم : يابن آدم علّم مجانا كما عُلّمت مجانا؛ أى باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيــل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهىّ وآياتى ثمنــا قليلا ، يعنى الدنيا ومدّتهــا والعيش الذى هو نزر لا خطر له ؛ فسمى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا لأنهم جعلوه عوضا؛ فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ ذنبًا أو ظفرتَ به * فمــا أصبتَ بترك الحج من ثمن

قلت : وهــذه الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهى تتناول مَن فعل فعلهم . فمن أخذ رشــوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه

(١) فى نسخة من الأصل : «... لأن الثقل منه أعظم» .

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من تعلّم علما مما يُبتغَى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة" يعنى ريحها .

الثانيـــة — وقد اختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان فى معناها — ؛ فمنع ذلك الزهرىّ وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص ؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : « وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا » . وروى ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين" . وروى أبو هريرة قال : قلت يا رسول الله ما تقول فى المعلمين ؟ قال : "درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء" . وروى عبادة بن الصامت قال : علّمت ناسًا من أهل الصُّفَّة القرآن والكتابة ، فأهدى إلىّ رجل منهم قوسا ؛ فقلت : ليست بمال وأرمى عنها فى سبيل الله ، فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : "إن سرّك أن تطوّق بها طوقا من نار فاقبلها" . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء ؛ لقوله عليه السلام فى حديث ابن عباس — حديث الرُّقْيَة — : "إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله" . أخرجه البخارى ؛ وهو نص يرفع الخلاف ، فينبغى أن يعوّل عليه .

وأمّا ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ، لأنه فى مقابلة النص ؛ ثم إن بينهما فُرقانا ، أن الصلاة والصوم عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال ابن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة ؛ ويجوّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحا أو شعرا أو غناء معلوما بأجر معلوم ؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيـل؛ وشَرعُ مَن قبلنا هل هو شرع لنا، فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليـل السنة فى ذلك ، وقد يتعيّن عليـه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعيّن لإقامة الدين إعانته ، وإلا فعلى المسلمين ؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لمـا ولى الخلافة وعُيِّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق ؛ فقيل له فى ذلك ، فقـال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردّوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شىء منها يقوم على ساق ، ولا يصح منها شىء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيـد بن طريف عن عكرمة عنه ؛ وسـعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبى جرهم عنه؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف، ولم يرو حمـاد بن سَـلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم؛ وإنما رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلىّ عن عبادة بن نُسىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عند[1] أهل العلم ولكنه له مناكير، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العـلم؛ لأنه روى عن عبـادة من وجهين، وروى عن أبىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أبىّ ، وهو منقطع . وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأبىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلّمون كلما خَلِق الدِّين جددوه أَعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقـال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبى وبراءة للعلم وبراءة لأبويه من النار" .

(١) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

الثالثـــة — واختلف العلماء في حكم المصـلي بأجرة ؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من آستؤجر في رمضان يقوم للناس ؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس ؛ وهو أشد كراهة له في الفريضة . وقال الشافعي وأصحابه وأبوثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعي : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه، على ما تقدّم . قال آبن عبد البر : وهذ المسئلة معلقة من التي قبلها وأصلهما واحد .

قلت : و يأتي لهذا أصل آخر من الكتاب في « براءة » إن شاء الله تعالى . وكره آبن القـاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال ابن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب؛ و يكره من الشعر ما فيـه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللخميّ : و يلزم على قوله أن يجـيز الإجارة على كتبه ويُجـيز بيع كتبه . وأما الغناء والنوح فممنوع على كل حال .

الرابعـــة — روى الدارميّ أبو محمد في مسنده أخبرنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثنا محمد ابن عمر بن الكُمَيت قال حدثنا عليّ بن وهب الهمدانيّ قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة — وهو يريد مكة — فأقام بها أياما ؛ فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم ؛ فأرسل إليه ؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هـذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأيّ جفاء رأيت مني ؟ قال : أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني ؛ قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عرّفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفتَ إلى محمد ابن شهـاب الزهريّ فقال : أصاب الشيخ وأخطأت : قال سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ ! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمـرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ؛ قال : أصبتَ يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدا على الله تعالى ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يَقدَم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يَقدَم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعري ! ما لنا عند الله ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله . قال : وأي مكان أجده ؟ قال :

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم فأىّ عباد الله أكرم؟ قال : أولو المروءة والنُّهى . قال له سليمان : فأىّ الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم . قال سليمان : فأى الدعاء أسمع؟ قال : دعاء المحسَن إليه للمحسِن . فقال : أىّ الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ[1] ليس فيها مَنٌّ ولا أذًى . قال : فأىّ القول أعدل ؟ قال : قول الحق عند مَن تخافه أو ترجوه . قال : فأىّ المؤمنين أكيس؟ قال : رجل عمِل بطاعة الله ودل النـاس عليها . قال : فأىّ المؤمنين أحمق؟ قال : رجل انحط فى هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبتَ ، فما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : يا أمير المؤمنين أَوَ تُعفينى ؟ قال له سليمان : لا! ولكن نصيحة تلقيها إلىّ . قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا المُلْك عَنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة؛ فقد ارتحلوا عنها ، فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟ قال : تدَعون الصَّلَف وتَمَسَّكون بالمروءة وتقسمون بالسّوية . قال له سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه من حلّه وتضعه فى أهله . قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتُصيبَ منا ونُصيبَ منك ؟ قال : أعوذ بالله ؟ قال له سليمان : ولِمَ ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقنى الله ضِعف الحياة وضعف الممات . قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك . قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة . قال سليمان : ليس ذاك إلىّ! قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فادع لى . قال أبو حازم : اللّهمّ إن كان سليمان وليّك فيَسِّرْه لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى . قال له سليمان : قَطّ ! قال أبو حازم : قد أوجزت وأكثرت

(١) جهد المقل : أى قدر ما يحتمله حال القليل المال .

إن كنت من أهــله ، و إن لم تكن من أهله فمـا ينبغي أن أرمى عن قوس ليس لهـا وَتَر . قال له سليمان : أوصني؛ قال : سأوصيك وأوجز : عظِّم ربّك، ونَزِّهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقِدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمـائة دينار، وكتب [إليه][1] أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياى هزلا أو ردّى عليك بذلًا[2]، وما أرضاها لك، فكيف [أرضاها][1] لنفسى ! إن موسى بن عمران لمّـا ورد ماء مَدْين وجد عليه رِعاءً يسقون، ووجد من دونهـم جاريتين تذودان [فسألهما، فقالتا : لا نسقى حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير][1]؛ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب إنى لمـا أنزلت إلىّ من خير فقير . وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن، فسأل ربّه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هذا رجل جائع . فقال لإحداهما : اِذهبى فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطت وجهها وقالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنـا ؛ فشق على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيت لنا» ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها لأنه كان بين الجبال جائعا مستوحشا . فلما تبعها هبّت الريح فجعلت تصفّق ثيابها على ظهرها فتصف له عجيزتها — وكانت ذات عَجُز — وجعل موسى يُعرِض مرة ويغض أخرى؛ فلما عيل صبره ناداها : يا أَمَة الله كونى خلفى، وأرينى السَّمت بقولك. فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيَّأً ؛ فقال له شعيب : اِجلس ياشاب فتعشّ؛ فقال له موسى عليه السلام : أعوذ بالله ! فقال له شعيب : لِمَ ! أمَا أنت جائع ؟ قال : بلى، ولكنى أخاف أن يكون هذا عِوضا لمـا سقيتُ لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا . فقال له شعيب : لا ياشاب، ولكنها عادتى وعادة آبائى : نَقْرِى الضيف ونطعم الطعام . فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المـائة دينار عوضا لمـا حدّثتُ فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحلّ من هــذه، وان كان لحقّ فى بيت المـال فلى فيها نظراء؛ فإن ساويت بيننا و إلا فليس لى فيها حاجة .

---

(١) الزيادة عن مسند الدارمى .　　(٢) بذلا ، أى راجيا بذلك وعطاءك .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . أنظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عوضا، ولا على وصّيته بدلا، ولا على نصيحته صَفَدا[1]؛ بل بين الحق وصَـدَع، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فزع . قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "لا يمنعنّ أحدكم هيبة أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان" . وفى التنزيل : « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قد تقــدّم معنى التقوى[2] . وقرئ فاتقونى بالـيـاء، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله : «وإياى فاتقونِ» قال : موضع علمى السابق فيكم . « وَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ » قال : موضع المكروالاستدراج[3] ؛ لقول الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » ، وقوله : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ » . فما استثنى نبيًّا ولا صـــدّيقا .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُـــوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِـــلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ اللَّبْس : الخلط . لَبَست عليه الأمر ألبسه إذا مزجتَ بيّنه بمشكله وحقّه بباطله ؛ قال الله تعالى : « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ » . وفى الأمر لبسة، أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط : يا حار إنه ملبوس عليــك، إن الحق لا يُعرَف بالرجال، إعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنســاء .

ترى الجليسَ يقول الحقّ تحسَبه * رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا
صــدّق مقالتَــه واحذَر عداوته * والبس عليه أمورا مثــلَ ما لَبَسا

(١) الصفد (بالتحرك) : العطاء . (٢) راجع ص ١٦١ وما بعدها . (٣) العبارة هاهنا غير واضحة . والذى فى البحر لأبى حيان : «وقال سهل : وإياى فارهبون موضع اليقين بمعرفته ، وإياى فاتقون موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .

وقال العجّاج :

لمـا لَبَسْن الحقّ بالتَّجنّى * غَنِينَ واستبدلْن زيدًا منّى

روى سعيد عن قتادة فى قوله : « ولا تلبِسوا الحق بِالباطِلِ » ، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإســلام ، وقد علمتم أن دين الله — الذى لا يُقبَــل غيره ولا يجزى إلا به — الإسلامُ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكتيبةٍ لبّستها بكتيبة *

أنه من هــذا المعنى، ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيــل هذا فى معنى الاية أى لا تُغَطّوا . ومنه لبس الثوب، يقال : لبِست الثوب ألبَسه . ولباس الرجل زوجته، وزوجها لباسها . قال الجَعْدىّ :

إذا ما الضَّجيع ثنَى جِيدَها * تَثَنَّتْ عليــه فكانت لباسًا

وقال الأخطل :

وقد لَبِستُ لهــذا الأمر أعْصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يلبس من ثياب ودرع . قال الله تعالى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ » . ولا بست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس، أى مستمتع . قال :

ألَا إنّ بعد العُــدْم للرء قِنْوَةً (١) * وبعد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلبسَا

ولِبْس الكعبة والهودج : ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الباطل فى كلام العرب خلاف الحق، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* ألَا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ *

وبطل الشيء يبــطُل بُطْلا وبُطولا وبُطْلانا [ذهب ضَيَــاعا وخُسْرا (٢)]، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بُطْلا، أى هدرا . والباطل : الشــيطان . والبطل : الشــجاع، سمى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهم لواء بأيدى ماجدٍ بطــلٍ * لا يقطع الخرق إلا طرفُه سامى

(١) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكِسْبة .		(٢) الزيادة عن اللسان .

والمرأة بَطَلة . وقد بطُل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة وبَطَالة ، أى صار شجاعا . وبطَل الأجير بالفتح بِطَالة ، أى تعطّل ، فهو بطّال . واختلف أهل التأويل فى المراد بقوله : «ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ» ؛ فروى عن ابن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل ، وهو التغير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن الى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حق ، وجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال ابن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول ابن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على تلبسوا فيكون مجزوما ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن ، التقدير لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ، أى وأن تكتموه . قال ابن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد ابن سيرين : نزل عصابة من ولد هارون يثرب لما أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدوّ عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ» .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ، أى أن محمدا عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : «أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ» الآية .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أمر معناه الوجوب، ولا خلاف فيه؛ وقد تقدّم القول فى معنى إقامة الصلاة واشتقاقها وفى جملة من أحكامها(١)، والحمد لله .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أمر أيضا يقتضى الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيته : أعطيته؛ قال الله تعالى : «لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ» . وأتيته — بالقصر من غير مدّ — جئته؛ فاذا كان المجيء بمعنى الاستقبال مُدّ؛ ومنه الحديث : "ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأُخبرنه"؛ وسيأتى .

الثالثـــة — الزكاة مأخوذة من زكا الشيء اذا نما وزاد ؛ يقال : زكا الزرع والمـال يزكو : اذا كثر وزاد . ورجل زكى ، أى زائد الخير . وسمى الإخراج من المـال زكاة وهو نقص منـه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكى . و يقال : زرع زاكٍ بيّن الزكاء ؛ وزكأت الناقة بولدها تزكأ به اذا رمت به من بين رجليها . وزكا الفردُ : اذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعا . قال الشاعر :

كانوا خَسًا أو زَكًا من دون أربعة * لم يَخْلَقُوا وجدود النـاس تَعتَلِـجُ

جمع جَد وهو الحظ والبخت . تعتلج أى ترتفع . اِعتلجت الأرض : طال نباتها . خسًا : الفردُ، وزَكًا : الزوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكّى القاضى الشاهد . فكأن من يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل . وقيـل : الزكاة مأخوذة من التطهير؛ كما يقال : زكا فلان، أى طهر من دنس الجرحة والإغفال؛ فكأن الخـارج من المـال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمّى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس؛ وقد قال تعالى : «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» .

الرابعـــة — واختلف فى المراد بالزكاة هنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة، لمقارنتها بالصلاة. وقيل : صدقة الفطر؛ قاله مالك فى سماع ابن القاسم .

---

(١) راجع ص ١٦٤ — ١٧٧ من هذا الجزء .

قلت : فعلى الأول — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمة عن أبى سعيد الخُدرىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليس فى حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُقٍ[1] ولا فيما دون خمس ذَوْدٍ[2] صدقة ولا فيما دون خمس أواقٍ صدقة" . وقال البخارى : "خمس أواق من الوِرِق" . وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا[3] العُشْرُ وما سُقِىَ بالنَّضْح[4] نصفُ العُشر" . وسيأتى بيان هذا الباب فى «الأنعام» إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « براءة » زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذى لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . وأما زكاة الفطر فليس لها فى الكتاب نص عليها إلا ما تأوله مالك هنا ، وقوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» . والمفسرون يذكرون الكلام عليها فى سورة «الأعلى» ؛ ورأيت الكلام عليها فى هذه السورة عند كلامنا على آى الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان ، الحديث . وسيأتى ، فأضافها الى رمضان .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿وَٱرْكَعُوا﴾ الركوع فى اللغة الانحناء فى الشخص . وكل منحن راكع . قال لبيد :

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت * أَدِبُّ كأنى كلما قمت راكعُ

وقال ابن دُرَيد : الركعة الهُوّة فى الأرض ، لغة يمانية . وقيل : الانحناء يعم الركوع والسجود ؛ ويستعار أيضا فى الانحطاط فى المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيف علّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه

(١) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (٢) الذود من الإبل : ما بين الثنتين الى التسع . وقيل : ما بين الثلاث الى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها .

(٣) العثرى (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال ابن الأثير : «هو من النخيل الذى يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع فى حفيرة . وقيل : هو العِذْى (الزرع الذى لا يسق الا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقيل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسق سيحا ، والأول أشهر» . (٤) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة) : ما سق من الآبار .

السادســـة — واختلف الناس فى تخصيص الركوع بالذكر؛ فقال قوم : جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت : وهذا ليس مختصا بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءة فى الصلاة والسجود عبارة عن الركعة بكمالها؛ فقال : « وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ » أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة" . وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل : إنما خص الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع. وقيل : لأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم — أظنه عمران ابن حُصين — للنبىّ صلى الله عليه وسلم : على ألّا أخرّ إلا قائما . فمن تأويله على ألا أركع . فلما تمكّن الإسلام من قلبه اطمأنت بذلك نفسه وامتثل ما أمر به من الركوع .

السابعـــة — الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه ويمدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا، وذلك أدناه . روى مسلم عن عائشـة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ؛ وكان إذا ركع لم يُشخِص رأسه ولم يُصوِّبه (١) ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْو منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره (٢)؛ الحديث .

الثامنـــة — الركوع فرض قرآنا وسنة ، وكذلك السجود ؛ لقوله تعـالى فى آخر الحج : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » . وزادت السنة الطمأنينة فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبيّنا من حديث أبى حميد الساعدىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفيه حذو منكبيه . خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

---

(١) الإشخاص : الرفع . والتصويب : الخفض .	(٢) هصر ظهره ؛ أى ثناه الى الأرض .

انبساط الكلب" . وعن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك" . وعن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليـه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خوّى بيديه — يعني جنح حتى يرى وَضَح إبطيه من ورائه — وإذا قعد اطمأن على فخذه اليسرى .

التاســعة — واختلف العلماء فيمن وضـع جبهته في السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته ؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثوري وأحمد ، وهو قول النخعي . قال أحمد : لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر ؛ وبه قال أبو حنيفة(١) وابن أبي شيبة . قال إسحاق : إن سجـد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، وروى عن ابن عباس وسـعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبي ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وابن سيرين والحسن البصري ؛ وبه قال الشافعي وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال ابن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح في السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبي حميـد ، وقد تقدّم . وروى البخاريّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهـة — وأشار بيده على أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتَ(٢) الثياب والشَّعَر" . وهـذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعيّن القول به . والله أعلم . ورُوى عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ، كقول عطاء والشافعي . والمختار عندنا قوله الأوّل ، ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

---

(١) في نسخة : « أبو خيثمة » .

(٢) لا نكفت . أي لا نضمها ونجمعها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

العاشرة — ويكره السجود على كور العمامة؛ وإن كان طاقة أو طاقتين، مثل الثياب التي تستر الركب والقدمين فلا بأس؛ والأفضل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبل دخوله في الصلاة، فان لم يفعل فليمسحه مسحة واحدة . روى مسلم عن مُعيقيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الرجل يسوّي التراب حيث يسجد قال : "إن كنت فاعلا فواحدة" . ورُوى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شدّة الحر؛ فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحادية عشرة — لما قال تعالى : «ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا» قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفي منها ما يسمى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك؛ فأخذوا بأقل الاسم في ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة في إلغاء الصلاة . قال ابن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح في الأثر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر؛ وهي رواية ابن وهب وأبي مصعب عن مالك . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وقد تكاثرت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة؛ وهو وَهَم عظيم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها . فان كان لابن القاسم عذر أن كان لم يطّلع عليها فما لكم أنتم وقد انتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائي والدارقطني وعليّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد يصلي، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ارجع فصلّ فإنك لم تصل" وجعل الرجل يصلي وجعلنا نَرْمُق صلاته لا ندري ما يعيب منها ؛ فلما جاء فسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وعليك ارجع فصلّ فإنك لم تصل" قال همام[1] : فلا ندري، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا؛ فقال له الرجل :

(١) همام هذا، أحد رجال سند هذا الحديث .

ما أَلَوْت ، فلا أدرى ما عبتَ علىّ من صلاتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيغسلَ وجهه ويديه الى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه الى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيــه وتيسّر ثم يكبر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمــده ويستوى قائما حتى يقيم صلبه ويأخذ كل عظمٍ مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكّن وجهه — قال همام : وربمــا قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ، ثم قال : — لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم ، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبىّ عليــه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بمــا فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيّه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » . على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . روى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : رأى حذيفة رجلا لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صلّيتَ ولو متَّ متَّ على غير الفِطرة التى فطر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ مع تقتضى المعية والجمعية ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقــرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد اختلف العلمــاء فى شهود الجماعة على قولين ؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة ، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال ابن عبد البر وهذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يُجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فاذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة ؛ لقوله عليــه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفــذّ بسبع وعشرين درجة" . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . ورُوى عن أبى هريرة رضى الله

عنــه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا" . وقال داود : الصلاة فى الجماعة فرض على كل أحد فى خاصته كالجمعة؛ واحتج بقوله عليه السلام : "لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد" خرّجه أبو داود وصحّحه أبو محمد عبد الحق؛ وهو قول عطاء بن أبى رباح وأحمد بن حنبل وأبى ثور وغيرهم . وقال الشافعى : لا أرخّص لمن قــدر على الجماعة فى ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه ابن المنــذر . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : أتى النبىَّ صلى الله عليــه وســلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخّص له فيصلى فى بيته ؛ فرخّص له ؛ فلما ولّى دعاه فقال : "[هل](1) تسمع النداء بالصلاة" قال نعم؛ قال : "فأجب" . وقال أبو داود فى الحديث : "لا أجد لك رخصة" . خرّجه من حديث ابن أمّ مكتوم؛ وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العــذر ؟ قال : خوف أو مرض — لم تقبل منــه الصلاة التى صلّى" . قال أبو محمــد عبد الحق : هذا يرويه مَغراء العبدى . والصحيح موقوف على ابن عباس : "من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له" . على أن قاسم بن أَصْبَغَ ذكره فى كتابه فقال : حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى قال حدّثنا سليمان بن حرب حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن ســعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر" . وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مسعود : ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام : "بيننا وبين المنافقين شهود العَتَمة والصبح لا يستطيعونهما" . قال ابن المنذر : ولقــد روينا عن غير واحد من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : "من سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له" منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعرى . وروى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول

(1) الزيادة من صحيح مسلم .

الله صلى الله عليه وسلم : " لقد هممت أن آمر فِتْيتي فيجمعوا حُزَما من حطب ثم آتى قوما يصلون فى بيوتهـم ليست لهم علة فأحرقها عليهـم " . هذا ما احتج به من أوجب الصـلاة فى الجماعة فرضا ، وهى ظاهرة فى الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات فى الجماعة ؛ بدليل حديث ابن عمر وأبى هريرة . وحملوا قول الصحابة وما جاء فى الحديث من أنه لا صلاة له على الكمال والفضل ؛ وكذلك قوله عليه السلام لابن أمّ مكتوم : " فأجب " على الندب . وقوله عليه السلام : " لقد هممت " لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه همّ ولم يفعل ؛ وإنمـا مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلفون عن الجماعة والجمعة . يبيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبـد الله قال : « من سرّه أن يلقى الله غدا مُسْلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادَى بهن ، فإن الله شرع لنبيّكم صلى الله عليه وسلم سُنَن الهُدَى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيّكم صلى الله عليه وسلم ، ولو تركتم سنة نبيّكم صلى الله عليه وسلم لضَلَلتم ؛ وما من رجل يتطهّر فيحسن الطُّهور ثم يَعمد الى مسجد من هـذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بهـا سيئة ، ولقد رأيْتُنا وما يتخلف عنهـا إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى (١) بين الرجلين حتى يقام فى الصفّ» . فبيّن رضى الله عنه فى حديثه أن الاجتماع سنة من سنن الهدى وتركه ضلال ؛ ولهذا قال القاضى أبو الفضل عياض : أُختلف فى التمالؤ على ترك ظاهر السنن ؛ هل يقاتل عليها أولا ؛ والصحيح قتالهم ؛ لأن فى التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحت . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصـلاته فى سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه (٢) إلا الصـلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يخطُ خطوة إلا رُفع له بها درجةٌ

(١) معناه : يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما . (٢) النهز : الدفع . أى لا يقيمه من موضعه .

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فاذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاةُ هى تحبسه والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلى فيــه يقولون اللهمّ آرحمه اللّهمّ آغفر له اللّهمّ تب عليــه مالم يؤذ فيه ما لم يُحْدِث فيه" . قيل لأبى هريرة : مايُحدث ؟ قال : يَفسو أو يَضْرِط .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة، هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت، أو إنمـا يكون ذلك الفضل للجماعة التى تكون فى المسجد، لمـا يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحديث؛ قولان . والأول أظهر، لأن الجماعة هو الوصف الذى علّق عليه الحكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخُطا إلى المساجد وقصد الإتيان اليها والمكث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — واختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا، وقال ابن حبيب : نعم، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "صـلاة الرجل مع الرجل أزكى من صـلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صـلاته مع الرجل وما كثر فهو أحب إلى الله" . رواه أُبىّ بن كعب وأخرجه أبو داود، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة — واختلفوا أيضا فيمن صلى فى جماعة هل يعيـد صلاته تلك فى جماعة أخرى؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنما يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام من صلى وحده فى بيته وأهله أو فى غير بيته؛ وأمّا من صلى فى جماعة وإن قلّت فإنه لا يعيـد فى جماعة أكثر منهـا ولا أقـل . وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن رَاهْوَيْه وداود بن علىّ : جائز لمن صلى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصلاة أن يعيدها معهم إن شاء، لأنهـا نافلة وسنة . وروى ذلك عن حذيفة بن اليمان وأبى موسى الأشعرى وأنس بن مالك وصلة آبن زفر والشعبى والنخعى؛ وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

احتج مالك بقوله صلى الله علـيه وسلم : "لا تُصَلّ صلاةٌ فى يوم مرتين" . ومنهم من يقول : لا تصلوا . رواه سليمان بن يسار عن ابن عمر . واتفق أحمـد وإسحاق على أن معنى

هـذا الحديث أن يصلى الإنسان الفريضة ، ثم يقوم فيصليهـا ثانية ينوى بهـا الفرض مرة أخرى ؛ فأمّا إذا صلاها مع الإمام على أنهـا سنـة وتطوّع فليس بإعادة الصلاة ؛ وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : "إنهـا لكم نافـلة" . من حديث أبى ذرّ وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "يَؤُمّ القـوم أقرؤهم لكتاب الله فان كانوا فى القراءة سواء فأعلَمهم بالسنة فإن كانوا فى السنة سواءً فأقدمهم هجرة فان كانوا فى الهجرة سواءً فأقدَمُهم سِلْمًا ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ولا يقعد فى بيته على تَكْرِمَتِه إلا بإذنه" وفى روايه "سِنًّا" مكان "سلما" . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : فقلت لاسمـاعيل ما تكرمته ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسعود حديث حسن صحيح، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق الناس بالإمامـة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسـنة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامـة . وقال بعضهم : إذا أذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلى به؛ وكرهه بعضهم وقالوا : السنة أن يصلى صاحب البيت . قال ابن المنذر : روينا عن الأشعث ابن قيس أنه قـدّم غلاما وقال : إنمـا أقدّم القرآن . وممن قال : يؤمّ القـوم أقرؤهم ابنُ سيرين والثورىّ وإسحاق وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : بهذا نقول لأنه موافق للسنة . وقال مالك : يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، وإن للسنّ حقا . وقال الأوزاعى : يؤمّهم أفقههم؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بما ينوبه من الحوادث فى الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه؛ لأنهم كانوا يتفقّهون فى القرآن ، وقد كان من عرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء ؛ واستدلوا بتقديم النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه خليفته بعـده . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"اذا سافرتم فليؤمكم أقرؤكم وإن كان أصغركم واذا أمّكم فهو أميركم" . قال : لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبي هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة اذا كان قارئا . ثبت فى صحيح البخاريّ عن عمرو بن سَلِمة قال : كنا بماء ممرّ الناس وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هـذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقرّ فى صدرى ؛ وكانت العرب تلوّم بإسلامها فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبيّ الله حقا ، قال : "صلوا صلاة كذا فى حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا" . فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآنا لمـا كنت أتلق من الركبان، فقدمونى بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علىّ بردة اذا سجدت تقلصت عنى ، فقـالت امرأة من الحيّ : ألا تغطُّون(١) عنا آست قارئكم ! فاشتروا فقطعوا لى قميصا ، فـما فرحت بشيء فرحى بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبيّ غير البالغ الحسن البصرى و إسحاق بن رَاهْوَيْه ، واختاره ابن المنذر اذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله فى جملة قوله صلى الله عليه وسلم : "يؤم القوم أقرؤهم" ولم يستثن ، ولحديث عمرو ابن سَلِمة . وقال الشافعى فى أحد قوليه : يؤم فى سائر الصلوات ولا يؤم فى يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزأت إمامته فى المكتوبة أجزأت إمامته فى الأعياد، غير أنى أكره فيها إمامة غير الوالى . وقال الأوزاعيّ : لا يؤم الغلام فى الصلاة المكتوبة حتى يحتلم، الا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شيء فإنه يؤمهم الغلام المراهق . وقال الزهرى : إن اضطروا إليه أمّهم . ومنع ذلك جملة مالك والثوريّ وأصحاب الرأى .

السابعة عشرة — الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حر على استقامة جائز من غير خلاف ، اذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن فى أم القرآن لحنا يخلّ بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) فى الأصـول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ، ولا مقتضى له . وفى مسـند الامام أحمـد بن حنبل (ج ٥ ص ٧١) طبع مصر : « فقالت امرأة : غطوا است قارئكم » .

من « إياك نعبد » ويضم التاء فى « أنعمت » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضـاد؛ وإن لم يفرق بينهما لا تصح إمامته لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخص فى ذلك كله اذا كان جاهلا بالقراءة وأم مثله . ولا يجوز الائتمام بامرأة ولا خنثى مشكل ولا كافر ولا مجنون ولا أُمّى ، ولا يكون واحد من هؤلاء إماما بحال من الأحوال عند أكثر العلمـاء، على ما يأتى ذكره، إلا الأمىّ لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأمىّ الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعى . فإن أمّ أميّا مثـله صحت صلاتهـم عندنا وعند الشافعى . وقال أبو حنيفة : اذا صلى الأمّى بقوم يقرءون وبقوم أميّين فصلاتهم كلهم فاسدة ، وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامة . وقالت فرقة : صلاتهـم كلهم جائزة لأن كلًّا مؤدّى فرضه، وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالمـاء، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا، لأن كلًّا مؤدّى فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السـلام : " ألا ينظر المصلى [إذا صلى][1] كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه " أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام، والله أعلم . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : إذا كانت امرأته تقرأ كبر هو وتقرأ هى؛ فإذا فرغت من القراءة كبر وركع وسجد وهى خلفه تصلى . وروى هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشل والأقطع والخصىّ والعبـد إذا كان كل واحد منهم عالمـا بالصلاة . وقال ابن وهب : لا أرى أن يؤم الأقطع والأشل لأنه منتقص عن درجة الكمال، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفـه جمهور أصحابه وهو الصحيح ، لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقـده كالعين؛ وقد روى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أمّ مكتوم يؤم الناس وهو أعمى، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصىّ قياسا ونظرا، والله أعلم . وقد روى عن أنس ابن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليـه ! وكان ابن عباس وعِتْبان بن مالك يؤمان وكلاهما أعمى، وعليه عامة العلماء .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

التاسعة عشرة — واختلفوا فى إمامة ولد الزنا؛ فقال مالك : أكره أن يكون إماما راتبا. وكره ذلك عمر بن عبد العزيز. وكان عطاء بن أبى رباح يقول : له أن يؤم إذا كان مرضيا، وهو قول الحسن البصرى والزهرى والنخعىّ وسفيان الثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق. وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأى، وغيره أحب إليهم. وقال الشافعى : أكره أن ينصب إماما راتبا من لا يعرف أبوه، ومن صلى خلفه أجزاه. وقال عيسى بن دينار : لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنا وليس عليه من ذنب أبويه شىء. ونحوه قال ابن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلا للإمامة. قال ابن المنذر : يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يؤمّ القوم أقرؤهم". وقال أبو عمر : ليس فى شىء من الآثار الواردة فى شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب؛ وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح فى الدِّين.

الموفية عشرين — وأما العبد فروى البخارىّ عن ابن عمر قال : لما قدم المهاجرون الأوّلون العَصَبة — موضع بقُبَاء — قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤمّهم سالم مولى أبى حذيفة وكان أكثرهم قرآنا. وعنه قال : كان سالم مولى أبى حذيفة يؤمّ المهاجرين الأوّلين وأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسجد قُبَاء؛ فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر ابن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمّها عبدها ذكوان من المصحف. قال ابن المنذر : وأمّ أبو سعيد مولى أبى أسيد — وهو عبد — نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم حذيفة وأبو مسعود.

ورخّص فى إمامة العبد النخعىّ والشعبىّ والحسن البصرىّ والحكم والثورىّ والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى؛ وكره ذلك أبو مجلز. وقال مالك : لا يؤمّهم إلا أن يكون العبد قارئا ومن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون فى عيد أو جمعة فان العبد لا يؤمهم فيها؛ ويجزئ عند الأوزاعى إن صلوا وراءه. قال ابن المنذر : العبد داخل فى جملة قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "يؤمّ القوم أقرؤهم".

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروى البخارىّ عن أبى بكرة قال : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال : "لن يفلح قوم ولّوا أمرهم

امرأة" . وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خلّاد عن أم ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لها مؤذنا يؤذن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها . قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال ابن المنذر : والشافعي يوجب الإعادة على من صلى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور: لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المزنى .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى ابن[1] أيمن جواز إمامتها للنساء . وأما الخنثى المشكل فقال الشافعي : لا يؤم الرجال و يؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانية والعشرون — الكافر المخالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعي وأحمد يقولان : لا يجزئهم و يعيدون . وقاله مالك وأصحابه لأنه ليس من أهل القُرْبة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثور والمزنى : لا إعادة على من صلى خلفه ، ولا يكون بصلاته مسلما عند الشافعي وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن : صلّ وعليه بدعته . وقال أحمد: لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : و يصلى خلف أئمة الجور، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . قال ابن المنذر : كل من أخرجته بدعته الى الكفر لم تجز الصلاة خلفه ، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة؛ ولا يجوز تقديم من هذه صفته .

الرابعة والعشرون — وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال ابن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فانه يعيد أبدا ، إلا أن يكون الوالى الذى تؤدّى إليه الطاعة ، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

(١) فى نسخة «ابن أبى أيمن» .

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : "لا تؤمّن امرأة رجلا ولا يؤمّن أعرابى مهاجرا ولا يؤمّن فاجر برًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان" . قال أبو محمد عبدالحق : هذا يرويه علىّ بن زيد بن جُدعان عن سعيد بن المسيّب، والأكثر يضعّف علىّ بن زيد . وروى الدّارقُطنىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تزكو صلاتكم فقدّموا خياركم " . فى إسناده أبو الوليد خالد بن اسماعيل المخزومى وهو ضعيف ، قاله الدّارقطنى . وقال فيه أبو أحمد بن عدىّ : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين؛ وحديثه هذا يرويه عن ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدارقطنىّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد ابن جبير عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلوا أئمتكم خياركم فانهم وفد فيما بينكم وبين الله" . قال الدّارقُطنى : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى، قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنما جعل الإمام ليؤتمّ به فلا تختلفوا عليه فاذا كبر فكبروا واذا ركع فاركعوا واذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهمّ ربنا ولك الحمد واذا سجد فاسجدوا واذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون " . وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدا على قولين ، أحدهما : أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها، وهو قول أهل الظاهر ورُوى عن ابن عمر ؛ ذكر سنيد قال حدّثنا ابن عُلَيّة عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صليت الى جنب ابن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلم الإمام أخذ ابن عمر بيدى فلوانى وجذبنى، فقلت : مالك ! قال : من أنت ؟ قلت : فلان بن فلان ؛ قال : أنت من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلى ؟ قلت : أو ما رأيتنى الى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله وإنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حَىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد :

لم يعتد بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : من فعل ذلك فقد أساء ولم تفسد صــلاته ؛ لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سنة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وان أسقط بعض سننها؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه؛ و بئس ما فعل فى تركه الجماعة . قالوا : ومن دخل فى صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة و إمامه فى أخرى فقد اقتدى وان كان يرفع قبــله و يخفض قبله ؛ لأنه بركوعه يركع و بسجوده يسجد و يرفع وهو فى ذلك تبع له ، إلا أنه مسيء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبيء على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصــلاة الإمام؛ لأن الإتباع الحسيّ والشرعى مفقود ، وليس الأمر هكذا عنــد أكثرهم . والصحيح فى الأثر والنظر القول الأول؛ فان الإمام إنمــا جعل ليؤتم به و يقتدى به بأفعاله ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » أى يأتمون بك، على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا، فمن خالف إمامه لم يتبعه؛ثم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن فقال : "إذا كبر فكبروا" الحــديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب وهو المبيّن عن الله مراده . ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيدا شديدا فقال : "أما يخشى الذى يرفع رأســه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار" . أخرجه الموطأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنما ناصيته بيد شيطان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل عمل ليس عليــه أمْرُنا فهو ردٌّ" . يعنى مردود . فمن تعمد خلاف إمامه عالمــا بأنه مأمور باتباعه منهيّ عن مخالفته فقد استخف بصلاته وخالف ما أمر به ؛ فواجب أن لا تجزى عنه صلاته تلك، والله أعلم .

السادسة والعشرون ــ فان رفع رأســه ساهيا قبل الإمام فقال مالك رحمه الله : السنة فيمن سها ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا و ينتظر الإمام ، وذلك خطأ ممن فعــله ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وســلم قال : "إنمــا جعل الإمام ليؤتم به

فلا تختلفوا عليه" . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا؛ لقوله : وذلك خطأ ممن فعله؛ لأن الساهي الإثم عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون الا بعد تكبير الإمام، إلا ما روى عن الشافعي في أحد قوليه : أنه إن كبر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه ؛ لحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى الصلاة فلما كبر انصرف وأومأ اليهم ، أي كما أنتم؛ ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم؛ فلما آنصرف قال : "إني كنت جُنُبًا فنسيت أن أغتسل" . ومن حديث أنس «فكبر وكبرنا معه» وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى : «ولا جُنُبًا» في النساء ان شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — روى مسلم عن أبي مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : "استوُوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم لِيَلِيَنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشدّ اختلافا . زاد من حديث عبد الله : "وإياكم وهَيْشات(١) الأسواق" . قوله : "استووا" أمر بتسوية الصفوف وخاصةً الصف الأول وهو الذي يلي الامام، على ما يأتي بيانه في سورة « الحجر » إن شاء الله تعالى . وهناك يأتي الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — واختلف العلماء في كيفية الجلوس في الصلاة لاختلاف الآثار في ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : يُفضي المصلي بأليتيه إلى الأرض وينصب رجله اليمنى ويثني رجله اليسرى ؛ لما رواه في موطئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال : أراني هذا عبد الله بن عمر، وحدثني أن أباه كان يفعل ذلك .

(١) الهيشة (مثل الهوشة) : الاختلاط والمنازعة وارتفاع الأصوات .

قلت : وهذا المعنى قد جاء فى صحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءةَ بالحمــد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشخِص رأسه ولم يُصوّ به، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوىَ قائمــا، وكان إذا رفع رأســه من السجدة لم يســجد حتى يستوىَ جالسا، وكان يقول فى كل ركعتين التحية، وكان يفرِش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى، وكان يَنهَى عن عُقْبة[(١)] الشيطان، وينهى أن يفترِش الرجل ذراعيه افتراش السَّبُع، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحديث — والله أعلم — قال ابن عمر : إنما سنة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثورى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حىّ : ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى؛ لحديث وائل بن حُجْر؛ وكذلك قال الشافعىّ وأحمد وإسحاق فى الجلسة الوسطى . وقالوا فى الآخرة من الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبى حميد الساعدى رواه البخارىّ قال : رأيت النبىّ صلّى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذو مَنْكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره ؛ فإذا رفع استوى حتى يعود كل فقار مكانه، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة ، وإذا جلس فى الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس فى الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . قال الطبرى : إن فعل هذا فحسن، كل ذلك قد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبى مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المُعاوىّ أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء فى الصلاة؛ فلما انصرف نهانى فقال : اصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

(١) عقبة الشيطان : قال ابن الأثير : « هو أن يضع أليتيه على عقبيه بين السجدتين، وهو الذى يجعله بعض الناس الإقعاء . وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مغسولين فى الوضوء » .

كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال ابن عبد البر : وما وصفه ابن عمر من وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بهـا ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع ؛ كل ذلك سنة في الجلوس في الصلاة مجمع عليه ، لاخلاف عليه بين العلماء فيهـا ، وحسبك بهذا . إلا أنهم اختلفوا في تحريك أصبعه السبابة ؛ فمنهم من رأى تحريكها ، ومنهـم من لم يره . وكل ذلك مروى في الآثار الصحاح المسندة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمـد لله . وروى سفيان ابن عيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدثناه عن مسـلم ثم لقيته فسمعته منـه وزادني فيه : قال : "هي مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه ويقول هكذا " .

قلت : روى أبو داود في حديث ابن الزبير أنه عليـه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها . والى هذا ذهب بعض العراقيين ، فمنع من تحريكها . وبعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة الى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم الى تحريكها ، إلا أنهم اختلفوا في الموالاة بالتحريك على قولين ؛ تأول من والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور في الصلاة ، وبأنهـا مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عنـد التلفظ بكلمتي الشهادة ، وتأول في الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد ، والله أعلم .

الحادية والثلاثون — واختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة ؛ فقال مالك : هي كالرجل ، ولا تخالفه فيما بعـد الإحرام إلا في اللباس والجهر . وقال الثوري : تسدل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النخعي . وقـال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لهـا . وهو قول الشعبي : تقعد كيف تيسّر لهـا . وقال الشافعي : تجلس بأستر ما يكون لهـا .

الثانيــة والثلاثون ــ روى مسلم عن طاوس قال : قلنــا لابن عبــاس فى الإقعاء على القدمين؛ فقال : هى السنة؛ فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل ، فقال ابن عباس : [بل](١) هى سنة نبيّك صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف العلماء فى صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبا فخـذيه مثل إقعاء الكلب والسبع . قال ابن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمع عليه لا يختلف العلماء فيــه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهــل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهــل الحديث فانهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضى عياض : والأشبه عندى فى تأويل الإقعاء الذى قال فيه ابن عباس إنه من السنة، الذى فسر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسرا عن ابن عباس : من الســنة أن تمس عقبيــك أليتك . رواه إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عنه، ذكره أبو عمر . قال القاضى : وقد روى عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسموه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أنه رأى ابن عمر وابن عباس وابن الزبير يُقْعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون ــ لم يختلف من قال من العلماء بوجوب التسليم و بعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روى عن الحسن بن حىّ أنه أوجب التسليمتين معا . قال أبو جعفر الطحاوى : لم يحك عن أحد من أهــل العلم الذين ذهبوا الى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال ابن عبد البر : من حجة الحسن بن صالح فى إيجــابه التسليمتين جميعا ــ وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته ــ قولُه صلى الله عليه وســلم : " تحليلها التسليم " . ثم بيّن كيف التسليم فكان يسلم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم: "تحليلها التسليم" قالوا: والتسليمة الواحدة يقع عليها اسم تسليم .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

قلت : هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره، ولما كان الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة ، إلا أنه تواردت السنن الثابتة من حديث ابن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرمىّ وحديث عمـار وحديث البراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبى وقّاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى ابن جريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز ابن محمـد الدراوردى كلهم عن عمرو بن يحيى المـازنى عن محمـد بن يحيى بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لابن عمر : حدّثنى عن صلاة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كيف كانت؛ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمـة الله عن يساره . قال ابن عبد البر : وهـذا إسناد مدنى صحيح؛ والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرا عن كابر؛ ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد؛ لأنه لا يخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا . وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عنـدهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا . وكل ما جرى هـذا المجرى فهو اختلاف فى المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجـاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف ، وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبى وقاص وعائشة وأنس، إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعـة والثلاثون — روى الدّارقطنىّ عن ابن مسعود أنه قال : من السنة أن يخفى التشهد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو : التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبـده ورسوله . واختـار الشافعى وأصحابه والليث بن سعد تشهد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن، فكان يقول : " التحيات المباركات الصلوات الطيبات

لله، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ". واختار الثورى والكوفيون وأكثر أهـل الحديث تشهد ابن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنّا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعـد أحدكم فى الصـلاة فليقل التحيات والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فاذا قالها أصابت كل عَبْد [لله](1) صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ماشاء ". وبه قال أحمد وإسحاق وداود. وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل اليه. وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ابن مسعود. وهـذا كله اختلاف فى مباح ليس شىء منـه على الوجوب، والحمد لله وحده. فهـذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمنها قوله جل وعز : « وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ». وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ». ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصـلاة، ويأتى فى « آل عمران » حكم صـلاة المريض غير الإمام ، ويأتى فى « النساء » فى صـلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل ، ويأتى فى سورة « مريم » حكم الإمام يصـلى أرفع من المأموم ، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد، وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وأقيموا الصلاة ». وقد تقدّم فى أوّل السورة جملة من أحكامها، والحمد لله على ذلك .

قوله تعالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

فيه تسع مسائل :

---

(1) الزيادة عن مسلم .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا استفهام معناه التوبيخ، والمراد في قول أهـل التأويل علماء اليهود . قال ابن عباس : كان يهود المدينـة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابتـه ولمن بينه و بينه رضاع من المسلمين : اثبُت على الذى أنت عليـه وما يأمرك به هذا الرجل . — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . وعن ابن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلّديهـم وأتباعهم باتباع التوراة، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جريج : كان الأحبار يحضـون على طاعة الله وكانوا هم يواقعـون المعاصي . وقالت فرقة : كانوا يحضون على الصدقة و يبخلون. والمعنى متقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعاني وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثـانيـــة — في شدّة عذاب من هذه صفته ؛ روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم " ليلة أُسرى بي مررت على ناس تقـرض شفاههـم بمقاريضَ من نار فقلت يا جبريل مَن هؤلاء قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيـا (١) يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " . وروى أبو أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الذين يأمرون الناس بالبر و ينســون أنفسهم يجرّون قُصْبَهم في نار جهنم فيقال لهم من أنتم فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفســنا " .

قلت : وهـذا الحديث و إن كان فيه لين لأن في سنده الخصيب بن جحـدر كان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك ابن مَعين يرويه عن أبي غالب عن أبي أمامة صُـدىّ بن عجلان الباهلي، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن معين — حزوّر القرشي مولى خالد بن عبد الله ابن أسـيد . وقيل : مولى باهلة . وقيـل : مولى عبد الرحمن الحضرمي، كان يختلف الى

(١) كذا في مسـند الامام أحمد بن حنبـل (ج ٣ ص ١٢٠) وتفسـير الفخر الرازى (ج ١ ص ٤٩٦) . وفي الأصول : «من أمتك» .

الشام فى تجارته . قال يحيى بن معين : هو صالح الحديث، فقد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى](١) فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم [تكن](١) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " .

القُصْب بضم القاف : المِعَى، وجمعه أقصاب . والأقتاب : الامعاء، وأحدها قِتْب. ومعنى فتندلق : فتخرج بسرعة . وروينا فتنفلق .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشدّ ممن لم يعلمه ؛ وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى، ومستخف بأحكامه، وهو ممن لا ينتفع بعلمه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه". أخرجه ابن ماجه فى سننه .

الثالثة — اعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذمّ الله تعالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها ؛ وبخهم به توبيخا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إن قوما يأمرونا * بالذى لا يفعلونا
لمجانين وإن هم * لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقى حتى كأنك ذو تقًى * وريح الخطايا من ثيابك تسطعُ

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثــله * عار عليك إذا فعلت عظــيم
وابدأ بنفســك فانهها عن غيّها * فان انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى * بالقول منــك وينفع التعلــيم

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الحيرى الزاهد فخرج وقعـد على موضعه الذى كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته ؛ فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس ، ترى أن تقول فى سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تقيّ يأمر النـاس بالتّــقى * طبيب يداوى والطبيب مريض

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعــة — قال إبراهيم النخعىّ إنى لأكره القَصص لثلاث آيات ؛ قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر » الآية، وقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ » ، وقوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » . وقال سلم بن عمرو :(1)

ما أقبح التزهيد من واعظ * يزهّــد النـاس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صـادقا * أضحى وأمسى بيته المسجد
إن رفض الدنيا فما باله * يستمنح النـاس ويسترفد
والرزق مقسوم على من ترى * ينـاله(2) الأبيض والأســود

وقال الحسن لمطرّف بن عبد الله : عظ أصحابك ؛ فقال إنى أخاف أن أقول ما لا أفعل ؛ قال : يرحمك الله ! وأيّنا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعــة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيــه شيء ، ما أمر

(1) كذا فى الأصول . والصحيح أن الأبيات لجحاز، وهو ابن أخت سلم بن عمرو الخاسر. يراجع الأغانى (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية . (2) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « يسعى له » .

أحد بمعـروف ولا نهى عن منكر. قال مالك : وصـدق ، من ذا الذى ليس فيـه[1] شىء ! .

الخامســـة — قوله تعالى « بِٱلْبِرِّ » البر هنا الطاعة والعمل الصالح . والبر : الصدق . والبر : ولد الثعلب . والبر : سَوق الغنم؛ ومنه قولهم « لايعرف هِرًّا من بِرٍ » أى لا يعرف دعاء الغنم من سوقها . فهو مشترك؛ وقال الشاعر :

لا هَمِّ رَبِّ إن بكرا دونكا * يَبَرُّكَ الناس ويفجرونكا[2]

أراد بقوله : يبرك الناس، أى يطيعونك . ويقال : إن البر الفؤاد فى قوله :

أكون مكان البِرّ منه ودونه[3] * وأجعل مالى دونه وأُوَامِرُه

والبُرّ بضم الباء معروف، وبفتحها الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولدٌ بَرٌّ وبار، أى يعظم والديه ويكرمهما .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تتركون . والنسيان بكسر النون يكون بمعنى الترك، وهو المراد هنا، وفى قوله تعالى : « نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »، وقوله : « فَلَمَّا نَسُــوا مَاذُكِّرُوا بِهِ »، وقوله : « وَلَا تَنْسَوُا ٱلْفَضْــلَ بَيْنَكُمْ » . ويكون خلاف الذكر والحفظ،ومنه الحديث : "نسى آدم فنسيت ذريته" . وسيأتى . يقال:رجل نسيان (بفتح النون) : كثير النسيان للشىء . وقد نَسيت الشىء نِسْيانا ، ولا تقل نَسَيانا بالتحريك؛ لأن النَّسَيان إنمـا هو تثنيـة نسا العِرْق . وأنفس : جمع نفس، جمع قـلة . والنفس : الروح؛ يقال : خرجت نفسه، قال أبو خِرَاش :

نَجَا سالمٌ والنفس منـــه بِشِدْقِهِ * ولم يَنْجُ إلا جَفن سيف ومِئْزرا

أى بجفن سيف ومئزر . ومن الدليـل على أن النفس الروح قوله تعـالى : « ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » يريد الأرواح ؛ فى قول جماعة من أهـل التأويل على ما يأتى . وذلك

(١) فى نسخة : « عليه » .

(٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : «بكوا» بالواو . وفى تفسير الشوكانى : « إن يكونوا » .

(٣) كذا فى الأصول واللسان مادة . « برر » . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرّ منى ودونه *

بيّن فى قول بلال للنبيّ صلىّ الله عليه وسـلم فى حديث ابن شهاب : أخذ بنفسي يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليــه السلام فى حديث زيد بن أسلم : "إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا" . رواهما مالك؛ وهو أولى ما يقال به . والنفس أيضا الدم؛ يقال : سالت نفسه؛ قال الشاعر(1) :

تسيل على حدّ السيوف نفوسنا * وليست على غير الظُّبات تسيل

وقال إبراهيم النخعيّ : ما ليس له نفس سائلة فانه لا ينجس المـاء إذا مات فيــه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر(2) :

نُبِّئْت أن بنى سُحَيم أدخلوا * أبياتَهم تامُورَ نفْسِ المُنذِر

والتامور أيضا : الدم .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ توبيخ عظيم لمن فهم . وتتلون : تقرءون . الكتاب : التوراة . وكذا من فعل فعلهم كان مثلهم . وأصل التلاوة الاتباع، ولذلك استعمل فى القــراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نسقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوّاً، وتلوت القــرآن تِلاوة . وتلوت الرجل تُلُوّاً إذا خذلته . والتَّلِيّة والتُّلاوة (بضم التاء) : البقية؛ يقال : تَلِيَت لى من حقى تُلاوة وتَلِيّة، أى بقيت . وأتليتُ : أبقيتُ . وتتلّيت حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تَلِّىَ الرجلُ إذا كان بآخر رمق .

الثامنــــة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من موافقة هــذه الحال المردية لكم . والعَقْل : المنع؛ ومنــه عِقال البعير لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العَقْل للدية ؛ لأنه يمنع ولىّ المقتول عن قتل الجانى . ومنــه اعتقال البطن واللسان . ومنــه يقال للحصن : مَعْقِل . والعقل : نقيض الجهل . والعَقْل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغشّى به الهوادج؛ قال علقمة :

عَقْلًا ورَقْمًا تكاد الطير تخطفه * كأنه من دم الأجواف مَدمومُ

(1) هو السموءل . (2) هو أوس بن حجر؛ يحرض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حلوا دمه الى أبياتهم . (عن اللسان) .

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : الممتلئ شحما من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولا ؛ وما كان نقشه مستديرا فهو الرَّقْم . وقال الزجاج : العاقل مَن عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاسعة — اتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم؛ لأنه لو كان معدوما لما اختص بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى، على ما يأتي بيانه في هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى .

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم؛ ثم منهم من صار إلى أنه جوهر لطيف في البدن ينبث شعاعه منه بمنزلة السراج في البيت ، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط ، أي غير مركب . ثم اختلفوا في محله؛ فقالت طائفة منهم : محله الدماغ ، لأن الدماغ محل الحِسّ . وقالت طائفة أخرى : محله القلب ، لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس . وهذا القول في العقل بأنه جوهر فاسد ، من حيث ان الجواهر متماثلة ؛ فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيل : ان العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني . وهذا القول وان كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحيّ ، والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري والأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم بدليل أنه لا يقال : عقلت وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القاضي أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات؛ وهو اختيار أبي المعالي في الإرشاد؛ واختار في البرهان أنه صفة يتأتى بها درك العلوم . واعترض على مذهب القاضي واستدل على فساد مذهبه . وحكى في البرهان عن المحاسبي أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ

أبو بكر عن الشافعي وأبي عبـد الله بن مجاهد أنهما قالا : العقل آلة التمييز . وحكى عن أبي العبـاس القلانسي أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكى عن المحاسبي أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتب هـذه الأقوال وحملهـا على محامل فقال : والأولى ألا يصح هـذا النقل عن الشافعي ولا عن ابن مجاهد، فان الآلة انما تستعمل في الآلة المثبتة(١) واستعمالها في الأعراض مجاز؛ وكذلك قول من قال : انه قوة فانه لايعقل من القوة الا القـدرة ؛ والقلانسي أطلق ما أطلقه توسّعا في العبارات، وكذلك المحاسبي . والعقل ليس بصورة ولا نور ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر. وسيأتي في هذه السورة بيان فائدته في آية التوحيد ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ ﴾ الصبر : الحبس في اللغـة . وقُتِل فلان صَـبْرًا ، أي أُمسِكَ وحُبِس حتى أُتلف . وصبَّرت نفسي على الشيء : حبستها . والمَصْبورة التي نهي عنها في الحديث هي المحبوسة على الموت، وهي المُجَثَّمَة . وقال عنترة :

فصَبَرْتُ عارفــةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

الثانيــة ــ أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال : « وَٱصْبِرُوا » . يقال : فلان صابر عن المعاصي ؛ وإذا صـبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة ؛ هـذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر؛ إنمـا يقال : صابر على كذا، فاذا قلت : صابر مطلقا فهـو على ما ذكرنا؛ قال الله تعـالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

الثـالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّلَاةِ ﴾ خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها . وكان عليه السلام إذا حَزَبه(٢) أمر فزع إلى الصلاة؛ ومنه ما روى أن عبد الله

---

(١) في بعض نسخ الأصل : « في الآلة المبنية » .	(٢) حزبه، أي نزل به مهم أو أصابه غم .

ٱبن عباس نُعِي له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو في سفر فاسترجع وقال : عورة سترها الله ، ومؤونة كفاها الله ، وأجر ساقه الله . ثم تنحّى عن الطريق وصلى ، ثم انصرف الى راحلته وهو يقرأ : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ » . فالصلاة على هذا التأويل هي الشرعية . وقال قوم : هي الدعاء على عرفها في اللغــة ، فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعــالى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ » . لأن الثبات هو الصبر ، والذكر هو الدعاء . وقول ثالث ، قال مجاهد : الصبر في هــذه الآية الصوم ؛ ومنه قيل لرمضان : شهر الصبر ، فجــاء الصوم والصلاة على هــذا القول في الآية متناسبا في أن الصــيام يمنع من الشهوات ويزهد في الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتخشّع ويُقرأ فيها القرآن الذي يذكّر الآخرة . والله أعلم .

الرابعـــة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهــاد النفس وقمعها عن شهواتهــا ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين . قال يحيى بن اليمــان : الصبر ألا تتمنى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضى بمــا قضى الله من أمر دنياك وآخرتك . وقال الشعبيّ : قال عليّ رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . قال الطبري : وصدق عليّ رضي الله عنه . وذلك أن الإيمــان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمــان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذي لا تمــام له إلا به .

الخامســـــة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : « مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » . وجعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق هذا فقال : « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ » الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب ، ومدح أهــله فقال : « إِنَّمَــا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَنْ صَــبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » . وقد قيل : إن المراد بالصابرين في قوله : « إنمــا يوفى الصابرون » أي الصائمون ؛ لقــوله تعالى في صحيح السنة عن النبيّ صــلى الله عليه وســلم : "الصــيام لي وأنا أجزي به" فلم يذكر ثوابا مقــدرا كما لم يذكر في الصبر . والله أعلم .

السادســـة — من فضل الصبر وصف الله تعالى نفســـه به ، كما فى حديث أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس أحد أو ليس شىء أصــبرَ على أذًى سمعه من الله تعالى إنهم ليَدْعُون له ولدا و إنّه ليُعافيهــم و يرزقهم " . أخرجه البخارى . قال علمـاؤنا : وصفُ الله تعالى بالصبر إنمـا هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصــفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد فى التنزيل و إنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوّله أهل السنة على تأويل الحـلم . قاله ابن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه الصبور للمبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ اختلف المتأولون فى عود الضمير من قوله : « و إنهـا » ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ، لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس من منع شهوة واحدة أو شهوتين كمن منع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب ، ثم ينبســط فى سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظـر الى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلى بتلك الأشياء عما منع . والمصـلى يمتنع من جميع ذلك ، فجوارحه كلها مقيدة بالصلاة عن جميع الشهوات . و إذا كان ذلك كانت الصـلاة أصعب على النفس ومكابدتها أشـدّ ، فلذلك قال : « و إنها لكبيرة » . وقيـل : عليهما ، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة ؛ كقوله : « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » . وقوله : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا » فرد الكناية إلى الفضـة لأنها الأغلب والأعم ، و إلى التجارة لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لمـا كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ » . ولم يقل : يرضوهما ، لأن رضى الرسول داخل فى رضى الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر [(١)] :

إنّ شَرخَ الشّباب والشّعرَ الأسـ * ـود ما لم يُعاصَ كان جنونا

(١) هو حسان بن ثابت .

ولم يقل بعاصيا، ردّ إلى الشــباب لأن الشّعر داخل فيه . وقيل : رد الكناية الى كل واحد منهما لكن حذف اختصارا؛ قال الله تعالى : «وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» ولم يقل آيتين؛ ومنــه قول الشاعر(١) :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله * فإنى وقَيَّارٌ بهـا لغـــريبُ

وقال آخر(٢) :

لكلّ همٍّ من الهمــوم سَـعَةْ * والصبحُ والمُسْىُ لا فلاح معهْ

أراد لغريبان، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التى يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة. وقيل : على المصدر، وهى الاستعانة التى يقتضيها قوله : «وَٱسْتَعِينُوا» . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليــه . وقيل : على الكعبة ، لأن الأمر بالصلاة إنمــا هو اليها . «وكبيرة» معناه ثقيلة شاقة، خبر إن . ويجوز فى غير القرآن « وإنه لكبيرة » . « إلا على الخاشعين » فانها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أيد فى الأزل بخصائص الاجتباء والهدى .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتــواضع . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب، وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذى يُرَى أثر الذل والخشوع عليه؛ كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمَادٌ ككحل العيـــن لأْيًا أبيّنه * ونُؤْىٌ كجذم الحوض أثْلَمُ خاشعُ

ومكان خاشع لا يهتدى له . وخشَعت الأصوات أى سكنت . وخَشَعت خَراشىُّ صــدره إذا ألقى بصاقا لزجا . وخَشَع ببصره إذا غضّه . والخُشْــعة : قطعة من الأرض رِخْــوة؛ وفى الحديث : "كانت خُشْعة على المــاء ثم دحيت بعد"(٣) . وبلدة خاشعة : مغــبرة لا منزل

(١) هو ضابىء البرجمى؛ كما فى اللسان مادة (قير) والكامل للمبرد (ج ١ ص ١٨١) طبع أوربا .

(٢) هو الأضبط بن قريع السعدى؛ عن اللسان مادة (مسا) .

(٣) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على المــاء فدحيت منها الأرض» .

بها . قال سفيان الثورى : سألت الأعمش عن الخشوع فقال: يا ثورى، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع! سألت إبراهيم النخعى عن الخشوع، فقال: أعيمش! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سواء، وتخشع لله فى كل فرض افترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب الى شاب قد نكس رأسه فقال: يا هذا! ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب . وقال على بن أبى طالب : الخشوع فى القلب، وأن تلين كفيك للمرء المسلم، وألا تلتفت فى صلاتك . وسيأتى هذا المعنى مجوّدا عند قوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» . فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما فى قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده، لقول الله تبارك وتعالى : «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود، لأن الخوف اذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقا متأدبا متذللا . وقد كان السلف يجتهدون فى ستر ما يظهر من ذلك ؛ وأما المذموم فتكلفه والتباكى ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال، وذلك خدع من الشيطان، وتسويل من نفس الانسان . روى الحسن أن رجلا تنفّس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن، فلكزه عمر، أو قال لكمه . وكان عمر رضى الله عنه اذا تكلم أسمع، واذا مشى أسرع، واذا ضرب أوجع، وكان ناسكا صدقا، وخاشعا حقا . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقا .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ الذين فى موضع خفض على النعت للخاشعين، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا » . قال دُريد بن الصِّمَّة :

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَىْ مدجَّجٍ * سَرَاتُهُم فى الفارسىّ المُسرَّدِ

وقال أبو دُواد :

رُبَّ همّ فرّجتــه بغــريم * وغيوب كشفتهـا بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه ، و يضمر فى الكلام بذنوبهم ؛ فكأنهم يتوقعون لقــاءه مذنبين ، ذكره المهدوى والمــاوردى . قال ابن عطية : وهــذا تعسّف . و زعم الفراء أن الظنّ قــد يقع بمعنى الكذب ؛ ولا يعرف ذلك البصريون . وأصــل الظن وقاعدته الشك مع ميل الى أحد معتقديه ، وقد يقع موقع اليقين ؛ كما فى هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج الى الحِس ؛ لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هــذا إنسانا . و إنمــا تجد الاستعمال فيما لم يخرج الى الحس بعــدُ ؛ كهذه الآية والشــعر ، وكقوله تعــالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُــمْ مُوَاقِعُوهَا » . وقد يجيء اليقين بمعنى الظن ، وقد تقدم بيانه أوّل السورة . وتقول : ســؤت به ظنا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف اذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد ؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُــمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأوّل ، و يجوز و إنهم بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْــهِ ﴾ أى الى ربهم ، وقيل الى جزائه . ﴿راجعون﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى .

قوله تعالى : يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْــكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعــالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقــدم[1] . ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالمى زمانهم ، وأهل كل زمان عالَم . وقيل : على كل العالمين بمــا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعالى : وَٱتَّقُــوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَــلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع ص ٣٣٠

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أمر معناه الوعيد؛ وقد مضى الكلام فى التقوى[(١)] . « يوما » يريد عذابه وهوله ، وهو يوم القيامة . وانتصب على المفعول باتقوا . ويجوز فى غير القرآن يوم لا تجزى، على الاضافة . وفى الكلام حذف بين النحويين فيه اختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيــه نفس عن نفس شيئا، ثم حذف فيه ؛ كما قال :

* ويوما شهدناه سُليما وعامرا[(٢)] *

أى شهدنا فيه . وقال الكسائى : هــذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : واتقوا يوما لا تجزيه نفس ، ثم حذف الهاء . وإنمـا يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها؛ قال : لا يجوز أن تقول : هــذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لجاز الذى تكلمت زيد، بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفراء : يجوز أن تحذف الهـاء وفيه . وحكى المهدوى أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَــيْئًا » أى لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول : جَزَى عنى هــذا الأمر يَجزى؛ كما تقول : قضى عنى . واجتزأت بالشىء اجتزاء اذا اكتفيت به؛ قال الشاعر :

فانّ الغــدر فى الأقوام عار * وأنـــ الحر يجزأ بالكراع

أى يكتفى بهـا . وفى حديث عمر : " اذا أجريت المـاء على المـاء جزى عنــك " . يريد اذا صببت المـاء على البول فى الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك الى غسل ذلك الموضع وتنشيف المـاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفى صحيح الحــديث عن أبى بُردة بن نِيَار فى الأضحية : " لن تَجزىَ عن أحد بعدك " أى لن تغنى . فمعنى لا تجزى : لا تقضى ولا تغنى ولا تكفى إن لم يكن عليهـا شىء ؛ فان كان فانهـا تجزى وتقضى وتغنى،

---

(١) راجع ص ١٦١　　(٢) سليم وعامر، قبيلتان من قيس عيلان .

بغير اختيـارها من حسناتها ما عليهـا من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنـده مَظلِمة لأخيـه من عِرضه أو شىءٍ فليتحلّله منه اليومَ قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلِمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليـه" . خرّجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفْلس، وقد ذكرناه فى التذكرة خرّجه مسلم(١) . وقرئ تُجزِئ بضم التاء والهمز . ويقال : جزى وأجزى بمعنى واحد . وقد فرّق بينهما قوم فقالوا : جزى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وأكفى . أجزأنى الشىء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر :

وأجزأتَ أمر العالمين ولم يكن * ليجْزئَ إلا كاملٌ وابنُ كامل

الثالثــة(٢) — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان؛ تقول : كان وَتْرًا فشَفَعتُه شـفعا ؛ والشُّفْعة منـه ، لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفيع : صاحب الشُّفعة وصاحب الشفاعة . وناقة شافع : إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعا . وناقة شَفوع وهى التى تجمع بين مِحْلَبين فى حَلْبة واحدة . واستشفعته الى فلان : سألته أن يشفع لى إليه . وتشفّعت إليـه فى فلان فشفّعنى فيـه؛ فالشفاعة إذًا ضمّ غيرك الى جاهك ووسيلتك ؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشـفيع عند المشفع و إيصال منفعته للشفوع .

الرابعــة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين هم الذين تنـالهم شفاعة الشافعيـن من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين . وقـد تمسك القاضى عليهـم فى الرّد بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقى هذه الأخبار بالقبول ولم يَبْدُ من

(١) راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم (ج ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله تعالى لم يذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

أحد منهم في عصر من الأعصار نكير، فظهور روايتها و إطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار، مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون . وقال: « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ » ، « وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم ، والعموم لا صيغة له ؛ فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ، و إنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام ؛ فقال في صفة الكافرين : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» وقال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» وقال : «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة » النفس الكافرة لا كل نفس . ونحن و إن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التي رويناها ، و بدليل قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ، وقوله : « إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» .

فإن قالوا : فقد قال تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » والفاسق غير مرتضى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى ، و إنما قال : « لِمَنِ ارْتَضَى » ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون ؛ بدليل قوله : « لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » . وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا » . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتضى هو التائب الذي اتخذ عند الله عهدا بالإنابة اليه ، بدليل أن الملائكة استغفروا لهم ؛ وقال : «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل الكبائر . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة ،

فإذا قبــل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا الى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين؛ سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم، كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميــع الأمة يرغبون فى شفاعة النبيّ صلى الله عليــه وسلم، فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول و يرغب الى الله فى أن تناله؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله ســبحانه بكل ما افترض عليــه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب و يرجو النجاة؛ وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ينجو أحد إلا برحمــة الله تعالى — فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال — : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته" .

الخــامســـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «تقبل» بالتاء، لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حسن التذكير، لانك قد فرّقت؛ كما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أى فداء . والعَدْل بفتح العين : الفداء، وبكسرها : المِثل؛ يقال : عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر . و يقال : عَدْلُ الشيء هو الذى يساويه قيمة وقدرا وان لم يكن من جنسه . والعِدل بالكسر هو الذى يساوى الشيء من جنســه وفى جرمه . وحكى الطبريّ أن من العــرب من يكسر العين من معنى الفدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى يعانون . والنصر: العون . والأنصار : الأعوان؛ ومنــه قوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ » أى من يضم نصرته إلى نصرتى . وانتصر الرجل : انتقم . والنصر : الإتيان؛ يقال : نصرت أرض بنى فلان : أتيتها؛ قال الشاعر(1) :

(١) هو الراعى يخاطب خيلا . (عن اللسان) .

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فودِّعِى * بلادَ تميمٍ وآنْصُرِى أرضَ عامرِ

والنصر : المطر؛ يقال : نُصِرت الأرض : مُطِرت . والنصر العطاء؛ قال :

إنى وأَسْطارٍ سُطِرن سطرًا * لقــائلٌ يانصرُ نَصرًا نصرًا

وكان سبب هــذه الآية فيما ذكروا أن بنى اسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنــا آباؤنا ؛ فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فدية . وإنما خص الشفاعة والفدية والنصر بالذكر لأنها هى المعانى التى اعتادها بنو آدم فى الدنيا؛ فان الواقع فى الشدّة لا يتخلص إلا بأن يُشفع له أو ينصر أو يفتدى .

قوله تعالى : وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وإذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ إذ فى موضــع نصب عطف على «اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ» . وهــذا وما بعده تذكير ببعض النعم التى كانت له عليهم، أى آذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوّكم وجعل الأنبياء فيكم . والخطاب للوجودين والمراد مَن سـلف من الآباء؛ كما قال : «إِنَّا لَمَّــا طَغَى الْمَــاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» أى حملنا آباءكم . وقيل : إنمــا قال «نجيناكم» لأن نجاة الآباء كانت ســببا لنجاة هؤلاء الموجودين . ومعنى نجيناكم ألقيناكم على نَجــوة من الأرض ، وهى ما ارتفع منها . هــذا هو الأصل ؛ ثم سمى كل فائز ناجيا . فالناجى من خرج من ضيق إلى سعة . وقرئ : «وإذا نجيتكم» على التوحيد .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ آل فرعون قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينه وملته فليس من آله ولا أهــله ، وإن كان نسيبه وقريبه ، خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وســلم فاطمة

والحسن والحسين فقــط . دليلنــا قوله تعالى : «وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ» «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» أى آل دينه؛ إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عَصبة؛ ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحّد فانه ليس من آل محمــد و إن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ؛ و إن كان بينهما و بين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة؛ ولأجل هذا قال الله تعالى فى ابن نوح : «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جِهارا غير سِرّ يقول : "[ألا](1) إن آل أبى — يعنى فلانا(2) — ليسوا [لى](1) بأوليــاء إنما وليّى الله وصالح المؤمنين" : وقالت طائفة : آل محمد أزواجه وذريته خاصــة ؛ لحديث أبى حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رســول الله كيف نصلى عليك ؟ قال : "قولوا اللّهمّ صلّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم و بارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيــد" . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم، والآل : الأتباع . والأول أصح لمــا ذكرناه، ولحديث عبــد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذ أتاه قوم بصدقتهم قال : "اللّهمّ صلّ عليهــم" فأتاه أبى بصدقته فقال : "اللّهمّ صلّ على آل أبى أوفى" .

الثالثــة — اختلف النحاة هل يضاف الآل الى البــلدان أولا ؟ فقال الكسائى : إنما يقال آل فلان وآل فلانة، ولا يقال فى البلدان هو من آل حِمْص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم ، نحو آل محمــد صلى الله عليه وسلم وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) قوله : يعنى فلانا . قال النووى : «هذه الكناية هى من بعض الرواة خشى أن يسميه فيترتّب عليــه مفسدة وفتنة ... قال القاضى عياض : قيل أن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص» . والحكم هذا، من النفر الذين كانوا يؤذون رســول الله صلى الله عليه وســلم فى بيته . راجع ســيرة ابن هشام (ج ١ ص ٢٧٦) طبع أوربا .

الرابعـــة — واختلف النحاة أيضا هل يضاف الآل الى المضمر أوْلا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائى؛ فلا يقال إلا اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد ، ولا يقال وآله ، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى الى أن ذلك يقال؛ منهم ابن السيِّد وهو الصواب، لأن السماع الصحيح يعضُده، فانه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هُمَّ إن العبـــد يمـ * ـنع رَحله فامنـــع حِلَالك (١)
وٱنصر على آل الصليـ * ـب وعابديه اليـــومَ آلك

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامى حقيقةَ والدى * وآلى كما تحمى حقيقـــة آلكا

الحقيقة (بقافين) : ما يحق على الإنسان أن يحميه، أى تجب عليه حمايته .

الخامســـة — واختلفوا أيضا فى أصـل آل ؛ فقال النحاس : أصله أهل ، ثم أبدل من الهاء ألفا، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أهيل . وقال المهدوىّ : أصله أوَل . وقيل : أهل، قلبت الهـاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون، وتصغيره أويل، فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل، وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كَيْسان: إذا جمعت آلًا قلت آلـون ؛ فإن جمعت آلًا الذى هـو السّراب قلت آوال ؛ مثـل مال وأموال .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ فرعون ، قيل : إنه اسم ذلك الملك بعينه . وقيل : إنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرَى للفرس ، وقيصر للروم ، والنجاشى للحبشة، وإن اسم فرعون موسى : قابوس فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : اسمه الوليد آبن مصعب بن الريّان ، ويكنى أبا مرة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلىّ : وكل من ولِى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيا من أهل اِصْطَخْر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربيـــة . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر؛ وكل عاتٍ فرعون . والعتاة : الفراعنة ؛ وقد تفرعن ،

(١) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون ، يريد بهم سكان الحرم .

وهو ذو فرعنة ، أى دهاء ونكر . وفى الحديث : " أخذنا فرعون هــذه الأمة " . وفرعون فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته .

السابعــــة — قوله تعالى : ﴿ يَسُــومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم و يلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يولونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خسف إذا أولاه إياها ؛ ومنــه قول عمرو ابن كلثوم :

إذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفًا ＊ أبينـا أن نُقِر الخسف فينا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسوم : الدوام ؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتهـا الرَّعْى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء(١) ، و إن شئت كان فى موضع نصب على الحال، أى سائمين لكم .

الثامنــــة — قوله تعالى : ﴿ سُوءَ ٱلعَــذَابِ ﴾ مفعول ثان ليسومونكم ، ومعناه أشـدّ العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتا بمعنى سوما سيئا؛ فرُوى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخَوَلا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصنف يحرثون و يزرعون ، وصنف يتخدّمون . وكان قومه جندا ملوكا ، ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضربت عليه الجزية ؛ فذلك سوء العذاب .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ يذبحون بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » ؛ كما قال — أنشده سيبويه — :

متى تأتنا تُلْمِــم بنا فى ديارنا ＊ تَجِـد حطبا جَزْلا ونارا تأجّجا

قال الفراء وغيره : يذبحون بغير واو على التفسير لقوله : « يسومونكم ســوء العذاب » ؛ كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج الى الواو فى زيد؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ » ، وفى سورة إبراهيم : « و يذبحون » بالواو ، لأن المعنى

(١) لعله يريد أنها مستأنفة . وعبارة البحر لأبى حيان : «يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون فى موضع الحال ، أى سائميكم» .

يعـذبونكم بالذبح وبغير الذبح . فقـوله : « ويذبحون أبناءكم » جنس آخر من العذاب لا تفسير لمـا قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليـل سورة البقرة ، والواو قـد تزاد ؛ كما قال :

* فلمـا أجزنا ساحة الحيّ وآنتحى *

أى قد انتحى . وقال آخر :

الى الملك القَرْم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المُزْدحم

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة ؛ وهو كثير .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ ابن مُحَيصن يذبَحون بفتح الباء . والذَّبح : الشق . والذِّبح : المذبوح . والذُّبَّاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدّن : بزلته ، أى كشفته . وسعدُ الذّابحُ : أحد السـعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح جمـع مذبح وهو اذا جاء السـيل فخدّ فى الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا . فكان فرعون يذبح الأطفال ويبقى البنات ، وعبرّ عنهم باسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : يذبحون أبناءكم يعنى الرجال ، وسموا أبناء لمـا كانوا كذلك ؛ وآستدل هـذا القائل بقوله : « نِساءكم » . والأوّل أصح لأنه الأظهر ، والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل الى آل فرعون ، وهم إنمـا كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ، لتوليهم ذلك بأنفسهم ، وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرى : ويقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال ؛ يقتلان جميعا ، هذا بأمره والمأمور بمباشرته . هكذا قال النخعى ، وقاله الشافعى ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : اذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظلما كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتلين معا ، وإن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد . وفى المأمور

قولان : أحدهما ـــ أن عليه القود . والآخر لا قود عليه وعليه نصف الدّية . حكاه ابن المنذر . وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقود فى ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيقتل المباشر وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلم بعض صبيانه ، أو الصانع بعض متعلميه اذا كان محتلما ؛ فان كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبيّ نصف الدية . وقال ابن نافع : لا يقتل السيد اذا أمر عبده ـــ وان كان أعجميا ـــ بقتل انسان . قال ابن حبيب : وبقول ابن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يقتل المأمور دون الآمر ، ويضرب الآمر ويحبس . وقال أحمد فى السيد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يقتل السيد . وروى هـذا القول عن علىّ بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال علىّ : ويستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويحبس العبد ويضرب ويؤدّب . وقال الثورىّ : يعزر السيد . وقال الحكم وحماد : يقتل العبد . وقال قتادة : يقتلان جميعا . وقال الشافعىّ : إن كان العبد فصيحا يعقلُ قتل العبد وعوقب السيد ؛ وإن كان العبد أعجميا فعلى السيد القود . وقال سليمان بن موسى : لا يقتل الآمر ولكن تقطع يديه ثم يعاقب ويحبس ـــ وهو القول الثانى ـــ ويقتل المأمور للمباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعىّ وأحمد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجل بقتل الرجل ؛ وذكره ابن المنذر . وقال زفر : لا يقتل واحد منهما ـــ وهو القول الثالث ـــ حكاه أبو المعالى فى البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا فى القود ؛ فلذلك لا يقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانيـة عشرة ـــ قرأ الجمهور « يذبّحون » بالتشديد على المبالغة . وقرأ ابن محيصن « يذبحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذبح متكرر . وكان فرعون على ما رُوى قد رأى فى منامه نارا خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر ؛ فأوّلت له رؤياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة الى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كفرد حاضر، أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء، أى امتحان واختبار . وبلاء : نعمة، ومنه قوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البلاء يكون حسنا ويكون سيئا ، وأصله المحنة، والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره، فقيل للحسن بلاء ، وللسيئ بلاء ؛ حكاه الهروى . وقال قوم : الإشارة بذلكم الى التنجية، فيكون البلاء على هذا فى الخير، أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة الى الذبح ونحوه ، والبلاء هنا فى الشر ؛ والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان . وقال ابن كيسان : ويقال فى الخير أبلاه الله وبلاه، وأنشد :

جزَى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم * وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يَبْلُو

لجمع بين اللغتين . والأكثر فى الخير أبليته ، وفى الشر بلوته ، وفى الاختبار ابتليته وبلوته ، قاله النحاس .

قوله تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾ إذ فى موضع نصب . وفرقنا : فلقنا ؛ فكان كل فرق كالطود العظيم، أى الجبل . وأصل الفرق الفصل؛ ومنه فَرْق الشعر؛ ومنه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل؛ ومنه : « فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا » يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنه : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر ، كان فيه فرق بين الحق والباطل؛ ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ » أى فصلناه وأحكمناه . وقرأ الزهرىّ : فرّقنا بتشديد الراء، أى جعلناه فرقا . ومعنى بكم أى لكم ، فالباء بمعنى اللام . وقيل : الباء فى مكانها، أى فرقنا البحر بدخولكم إياه أى صاروا بين الماءين ، فصار الفرق بهم ؛ وهذا أولى يبيّنه فانفلق .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ البحر معروف، سمى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَس بَحْرٌ إذا كان واسع الجرى، أى كثيره ؛ ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى مَنْدوبٍ فرسِ أبى طلحة : "وإنْ وجدناه لبحرا" . والبحر : المـاء الملح . ويقال : أبحر المـاء : مَلُح؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماء الأرض بَحْــرًا فزادنى * إلى مَرَضِى أن أبْحَر المَشْرَبُ العذْبُ

والبحر : البلدة؛ يقال : هذه بَحْرتنا ، أى بلدتنا . قاله الأُموىّ . والبَحَر : السُّلال(١) يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْرَةً بَحْــرَةً ، أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملَكا يقال له : صندفاييل، البحار كلها فى نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نَجاء ، ممــدود، ونجاة، مقصور . والصدق مَنجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته . وقرئ بهما « وإذ نَجّينا كم » ، « فأنجينا كم » .

قوله تعــالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ يقال : غَرِق فى المــاء غَرَقا فهو غَرِق وغارق أيضا؛ ومنه قول أبى النجم :

* من بين مَقْتولٍ وطافٍ غارِقِ(٢) *

وأغرقه غيره وغرّقه فهو مغرَق وغريق . ولجام مغرَق بالفضــة ، أى مُحلًّى . والتغريق : القتل؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قيسا غرقته القوابلُ(٣) *

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود فى ماء السَّلَى عام القحط، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت، ثم جعل كل قتل تغريقا؛ ومنه قول ذى الرُّمّة :

(١) السـلال (كغراب) : قرحة تحدث فى الرئة أو زكام ونوازل أو سعال طويل، وتلزمها حمى عادية . (عن القاموس) . (٢) صدر البيت : * فأصبحوا فى المـاء والخنادق *

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيبانى . وصدر البيت : * أطورين فى عام غَزاةً ورحلةً *

إذا غَرَّقتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرةٍ * بتَيْهاءَ لم تُصبِح رَءُوماً سَلُوبُها

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتيّة . وثِنْيُها : بطنها الثاني ؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

القول في اختلاف العلماء في كيفية إنجاء بني إسرائيل

فذكر الطبريّ أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحليّ والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأُعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيَكَة؛ فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا في الدفن وخرجوا في الاتباع مشرقين؛ كما قال تعالى : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » . وذهب موسى الى ناحية البحر حتى بلغه. وكانت عدّة بني إسرائيل نيِّفا على ستمائة ألف. وكانت عدّة فرعون ألف ألف ومائتي ألف . وقيل : إن فرعون أتبعه في ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر في ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده، فأنمى الله عددهم وبارك في ذريته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرّية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت؛ ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لي ستمائة ألف من القبط؛ قال : فانطلق موسى حتى انتهى الى البحر؛ فقال له : افرق ؛ فقال له البحر : لقد استكبرت يا موسى ! وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك! قال : ومع موسى رجل على حصان له ؛ قال : فقال له ذلك الرجل: أين أُمرتَ يا نبيّ الله ؟ قال : ما أُمرت إلا بهذا الوجه ؛ قال : فأقحم فرسه فسبح فخرج . فقال أين أمرت يا نبيّ الله؟ قال ما أمرت إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبتَ ولا كُذِّبتَ؛ ثم اقتحم الثانية فسبح به حتى خرج؛ فقال : أين أمرت يا نبيّ الله ؟ فقال : ما أمرت

إلا بهذا الوجه؛ قال : والله ما كذبت ولا كذبت؛ قال فأوحى الله إليه : « أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ » فضربه موسى بعصاه؛ « فَٱنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ » . فكان فيه اثنا عشر فِرقا، لاثنى عشر سِبْطًا، لكل سبط طريق يتراءون، وذلك أن أطواد المــاء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا، فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم . ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم ، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون . وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن ٱنفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد . ذكره ابن أبى شيبة أيضا . وقد أكثر المفسرون فى قصص هــذا المعنى ؛ وما ذكرناه كافٍ، وسيأتى فى سورة « يونس، والشعراء » زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

فصــــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه . فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء؛ فقال لهم رســول الله صلى الله عليه وسلم : " ما هذا اليوم الذى تصومونه — فقالوا : هــذا يوم عظيم أنجى الله فيــه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرا؛ فنحن نصومه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — فنحن أحق وأولى بموسى منكم " فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه . وأخرجه البخارى أيضا عن ابن عباس، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " أنتم أحق بموسى منهم فصوموه " .

مسئلة — ظاهر هــذه الأحاديث تدل على أن النبىّ صــلى الله عليه وسلم إنمـا صام عاشوراء وأمر بصيامه ٱقتداء بموسى عليه الســلام على ما أخبره به اليهود وليس كذلك ، لمـا روته عائشــة رضى الله عنها قالت : كان يوم عاشــوراء تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رســول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية ؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه ؛ فلما فرض رمضان ترك صــيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه . أخرجه البخارىّ ومســـلم .

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنمـا صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم، لأنهم كانوا عندهم أهل علم؛ فصامه النبيّ عليه الســلام كذلك في الجاهلية، أي بمكة؛ فلما قدم المدينـة ووجد اليهود يصومونه قال : " نحن أحق وأولى بموسى منكم " فصـامه اتباعا لموسى . وأمر بصيامه، أي أوجبه وأكد أمره، حتى كانوا يصوّمونه الصغار . قلنـا هـذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعله كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتي بيانه في الأنعام عند قوله تعالى : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » .

مسئلة ـــ اختلف في يوم عاشـوراء ؛ هل هو التاسع من المحرّم أو العاشر؟ فذهب الشافعيّ الى أنه التاسع؛ لحـديث الحكم بن الأعرج قال : انتهيت الى ابن عباس رضي الله عنهما وهو متوسد رداءه في زمزم، فقلت له : أخبرني عن صوم عاشوراء؛ فقال : اذا رأيت هلال المحرّم فأعدُد وأصبح يوم التاسع صائمـا . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسـلم يصومه؟ قال نعم . خرجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصري ومالك و جماعة من السلف إلى أنه العاشر . وذكر الترمذي حديث الحكم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه أنبأنا قتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر. قال أبو عيسى : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح. قال الترمذيّ: وروى عن ابن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهـذا الحديث يقول الشافعيّ وأحمد بن حنبل وإسحاق . قال غيره : وقول ابن عباس للسائل : " فَاعْدُد وأصبح يوم التاسع صائما " ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسع مضافا الى العاشر . قالوا : فصـيام اليومين جمع بين الأحاديث . وقول ابن عباس للحكم لمـا قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم. معناه أن لو عاش؛ وإلا فمـا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قط . يبيّنه ما خرّجه ابن ماجه في سننه ومسـلم في صحيحه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لئن بقيت الى قابل لأصومنّ اليوم التاسع " .

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السنة التى قبله " . أخرجه مسلم والترمذىّ. وقال : لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال : " صيام يوم عاشوراء كفارة سنة " إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ، ومعناه بأبصاركم ؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على المـاء فنظروا اليهم يغرقون ، و إلى أنفسهم ينجون ؛ ففى هذا أعظم المنّة . وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه منّة بعد منّة . وقيل : المعنى وأنتم تنظرون أى ببصائركم الاعتبار ، لأنهم كانوا فى شـغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر ؛ كما تقول : هذا الأمر منك بمرآى ومسمع ، أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأوّل أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لمـا أنجاهم وغرق عدوّهم قالوا : يا موسى إن قلوبنا لاتطمئن ، إن فرعون قد غرق ! حتى أمر الله البحر فلفظه فنظروا اليه .

ذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن قيس بن عُبَاد أن بنى إسرائيـل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا ! قال : فلم يَعْدُ أن سمع الله تكذيبهم نبيّه عليه السلام ، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل ؛ فلما أطمأنوا وبُعثوا من طريق البر الى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرقوا فى النعمة ، رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ؛ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهـا كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ؛ أى عالمى زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا الى الأرض المقدّسة التى كانت مساكن آبائهم و يتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدّسـة فى أيدى الجبارين قد غلبوا عليهـا فاحتاجوا الى دفعهـم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لُحْمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا فى يد فرعون كان خيرا لنا . قال : « يَا قَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَـةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللهُ لَكُمْ » الى قوله « قَاعِدُونَ » حتى دعا عليهـم وسماهم فاسقين . فبقوا فى التّيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسلوى و بالغمام — على ما يأتى بيانه — ، ثم سار موسى الى طُورِسَيْناء

ليجيئهم بالتوراة؛ فاتخذوا العجل — على ما يأتى بيانه — ، ثم قيل لهم : قد وصلتم الى بيت المقدس فادخلوا البـاب سجدا وقولوا حِطة — على ما يأتى — ، وكان موسى عليه السـلام شديد الحياء ستّيرا؛ فقالوا : إنه آدَرُ(١) . فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبه؛ فعدا الحجر بثوبه الى مجـالس بنى إسرائيل ، وموسى على أثره عريان وهو يقول : ياحجر ثوبى ! فذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتى بيانه — ، ثم لـما مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتى فى المـائدة — ثم سألوه أن يعلموا آية فى قبول قربانهـم؛ فجعلت نار تجىء من السماء فتقبل قربانهـم ، ثم سألوه أن بيّن لنا كفارات ذنوبنا فى الدنيا، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : « عملت كذا، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسميه له؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرضـه ويزيل جلدته من بدنه؛ ثم بدّلوا التوراة وافتروا على الله وكتبوا بأيديهم واشتروا به عَرَضا؛ ثم صار أمرهم الى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربّهم وسيرتهم فى دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتى بيان كل فصل من هذه الفصول مستوفًى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وقال الطبرى : وفى أخبار القرآن على لسان محمد عليه السـلام بهذه المغيّبات التى لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا فى حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

فيـــه ست مسائل :

---

(١) الأدرة (بالضم) : نفخة فى الخصية .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وعدنا » بغير ألف ، واختاره أبو عبيد ورجحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هذا وجدنا القرآن؛ كقوله عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » ، وقوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ، وقوله : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . قال مكيّ : وأيضا فان ظاهر اللفظ فيه وعد من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى ؛ فوجب حمله على الواحد ، لظاهر النص أن الفعل مضاف الى الله تعالى وحده ؛ وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وأبى جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ وبه قرأ قتادة وابن أبى إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا « وعدنا » بغير ألف ، لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يعد صاحبه . قال الجوهرى : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال مكيّ : المواعدة أصلها من اثنين . وقد تأتى المفاعلة من واحد فى كلام العرب؛ قالوا : طارقتُ النّعل ، وداويت العليل ، وعاقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا ؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد . والاختيار واعدنا بالألف لأنه بمعنى وعدنا فى أحد معنييه ، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة واعدنا بالألف أجود وأحسن . وهى قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائى؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا فى شىء ، لأن « واعدنا موسى » إنما هو من باب الموافاة؛ وليس هذا من الوعد والوعيد فى شىء ، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة، وموعدك موضع كذا . والفصيح فى هذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : واعدنا هاهنا بالألف جيّد ، لأن الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة؛ فمن الله جل وعز وعد، ومن موسى قبول واتباع يجرى مجرى المواعدة . قال ابن عطية : ورجح أبو عبيدة وعدنا ، وليس بصحيح ، لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى اسم أعجمى لاينصرف للعجمة والتعريف. والقبط على ما يروى يقولون للـاء : مو ، وللشجر : شا[(١)] . فلما وجد موسى فى التابوت عند ماء وشجر ، سُمّى موسى . قال السـدى : لمـا خافت عليـه أمه جعلته فى التابوت وألقتـه فى اليّم — كما أوحى الله إليها — فألقته فى اليم بين أشجار عنـد بيت فرعون، فخرج جوارى آسية آمرأة فرعون يغتسلن فوجدنه ، فسمى باسم المكان . وذكر النقـاش وغيره : أن اسم الذى التقطتـه صابوت . قال ابن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثانى ، وفى الكلام حذف، قال الأخفش : التقدير و إذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة ؛ كما قال : « وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين ذو القَعدة وعشر من ذى الحجة ؛ وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عنـد الله؛ فخرج الى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل ، وصعدوا الجبـل وواعدهم الى تمام أربعين ليلة ؛ فعـدّوا فيما ذكر المفسرون عشرين يوما وعشرين ليلة ، وقالوا : قد أخلفنا موعده . فاتخذوا العجل ، وقال لهم السامرىّ : هذا إلهكم وإله موسى، فاطمأنوا الى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى » . فلم يتبع هارونَ ولم يطعـه فى ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا فيما رُوى فى الخبر . وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال، ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقى جزء واحد وهـو الحلال والحـرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه فى البحر ؛ فشربوا من مائه حُبًّـا للعجل ؛ فظهرت على شفاههم صفرة

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل ، وفى بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه : « ... وسا الشجر ؛ كذا فى سائر النسخ ؛ وقال ابن الجواليق : هو بالشين المعجمة » .

وورِمت بطونهم؛ فتابوا ولم تقبــل توبتهم دون أن يقتــلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعــالى : « تُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم الى بعض من لدن طلوع الشمس الى ارتفاع الضُّحى؛ فقتل بعضهم بعضا لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحد؛ كل من آستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثــله؛ حتى عج موسى الى الله صارخا : يا ربّاه قد فنيت بنــو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله؛ فقبل توبة من بقى وجعل من قتل فى الشهداء؛ على ما يأتى .

الرابعــــة — إن قيل : لم خص الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ ؛ فالليالى أوّل الشهور والأيام تبع لها .

الخامســـة — قال النقاش : فى هذه الآية إشارة الى صلة الصوم ؛ لأنه لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نص على الليالى اقتضت قوّة الكلام أنه عليــه السلام واصــل أربعين يوما بلياليها . قال ابن عطيــة : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهرى رحمه الله يعظ الناس فى الخلوة بالله والدنو منــه فى الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب، ويقول : أين حال موسى فى القرب من الله ! ووصل ثمانين من الدهر من قوله حين سار للخضر لفتاه فى بعض يوم : « آتِنَا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام من هــذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتى فى الأعراف زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْــلَةً » ، ويأتى لقصة العجل بيان فى كيفيته وخُواره هناك وفى « طه » إن شاء الله تعالى .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى آتخذتموه إلها من بعــد موسى . وأصــل آتخذتم ائتخذتم من الأخذ ووزنه آفتعلتم ، سهّلت الهمزة الثانيــة لامتناع همزتين فجاء إيتخذتم ، فاضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ، وواوا فى موتخذ،

فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم اجتلبت ألف الوصل للنطق ؛ وقد يستغنى عنها اذا كان معنى الكلام التقرير، كقوله تعالى : « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا » فاستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير، قال الشاعر (١) :

أَسْتحدَثَ الرَّكْبُ عن أشياعهم خَبَراً * أم راجع القلب من أطرابه طربُ

ونحوه فى القرآن : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » . « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » . « أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ » . ومذهب أبى علىّ الفارسىّ أن اتخذتم، من تخذ لا من أخذ . ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظلم . والحمد لله .

قوله تعالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ ﴾ العفو : عفو الله جل وعز عن خلقه ؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها، بخلاف الغفران فانه لا يكون معه عقوبة البتة . وكل من استحق عقوبة فتركت له فقد عفِى عنه . فالعفو : محو الذنب ، أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم؛ مأخوذ من قولك : عفت الريح الأثر، أى أذهبته . وعفا الشيء : كثر . فهو من الأضداد؛ ومنه قوله تعالى : « حَتَّى عَفَوْا » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل . وسمى العجل عجلا لاستعجالهم عبادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجَّوْل مثله ، والجمع العجاجيل؛ والأنثى عِجلة . عن أبى الجراح .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كى تشكروا عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعل (٢) . وأما الشكر فهو فى اللغة الظهور، من قوله : دابة شكور؛ اذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تُعطَى من العلف . وحقيقته الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه . كما تقدّم

---

(١) هو ذو الرمة .   (٢) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

فى الفاتحة . قال الجوهرى : الشكر : الثناء على المحسن بمـا أولاكه من المعروف ؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ و باللام أفصح . والشكران : خلاف الكفران . وتشكرت له مثل شكرت له . و روى الترمذىّ وأبو داود عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" . قال الخطابىّ : هذا الكلام يتأوّل على معنيين : أحدهما — أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله عزّ وجلّ وترك الشكر له . والوجه الآخر — أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان النـاس إليـه ويكفر معروفهم ؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعـــة — فى عبارات العلمـاء فى معنى الشكر ؛ فقال سهل بن عبـد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للعصـية فى السر والعلانيـة . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصـير الشكر للنعم ؛ ولذلك قال تعالى : « ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » . فقال داود : كيف أشكرك يارب ، والشكر نعمة منـك ! قال : الآن قد عرفتنى وشكرتنى ؛ إذ قـد عرفت أن الشـكر منى نعمة . قال : يا رب فأرنى اخفى نعمك علىّ . قال : يا دود تنفّس ؛ فتنفس داود . فقال الله تعالى : من يحصى هذه النعمة الليلَ والنهارَ . وقال موسى عليه السـلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتنى . وقال الجنيد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدى السَّرِىّ السَّقطىّ ألعب وأنا ابن سبع سـنين و بين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام ما الشكر؟ فقلت : ألا يعصى الله بنعمه . فقال لى : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيـد : فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالهـا السرىّ لى . وقال الشـبلىّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسنات ، ومخالفـة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذو النون المصرىّ أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٥٣)

إذ، اسم للوقت المـاضى . وإذا، اسم للوقت المستقبل . وآتينا : أعطينا . وقد تقدّم جميع هـذا[1] . والكتاب : التوراة بإجمـاع من المتأولين . واختلف فى الفرقان ؛ فقال الفرّاء وقطرب : المعنى آتينا موسى التوراة ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هذا خطأ فى الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشيء مثله؛ وعلى هـذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعـالى : « وَلَقَـدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحاق الزجاج : يكون الفـرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء، ومنه قول الشاعر[2] :

نقدّدتِ[3] الأديم لراهشَيهِ * وألفى قولَها كذبا ومَيْنا

وقال آخر[4] :

ألا حبّذا هند وأرض بها هنـــد * وهند آتى من دونها النّأى والبُعدُ

فنسق البعد على النّأى، والمين على الكذب، لاختلاف اللفظين تأكيدا، ومنه قول عنترة :

حيّيت من طلل تقادم عهده * أقْوَى وأقفر بعد أمّ الهيثم

قال النحاس : «وهذا إنمـا يجىء فى الشعر ، وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد فرقا بين الحق والباطل، أى الذى علّمه إياه » . وقال ابن زيد : الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقا فعبروا . وقيل : الفرقان الفرج من الكرب، لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان. قاله ابن بحـر . وقيل : الواو صـلة، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قـد تزاد فى النعوت؛ كقولهم : فلان حسن وطويل؛ وأنشد :

الى الملك القَرْم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ والمسئلة الثانية ص ٣٤٣
(٢) هو عدى بن زيد .
(٣) فى الأصول : «وقدمت» . والتصويب عن اللسان مادة «مين» .
(٤) هو الحطيئة .

أراد الى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة، ودليل هذا التأويل قوله عز وجل : «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفرق بينهم وبين قوم فرعون؛ أنجى هؤلاء وغرق أولئك . ونظيره : «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» . فقيل : يعنى به يوم بدر؛ نصر الله فيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأهلك أبا جهل وأصحابه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء؛ قال الله تعالى : «لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» ثم قال : «وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ» . وقال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقـــوم آلُ حِصنٍ أم نســاءُ

وقال تعالى : «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ» أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء؛ قال الله تعالى : «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ» وكذا كل نبيّ مرسل الى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ منادى مضاف . وحذفت الياء فى «يا قوم» لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها، وهى بمنزلة التنوين لحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومى؛ لأنها اسم وهى فى موضع خفض . وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء؛ فقلت : يا قوميه . وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخف؛ فقلت : يا قوما، وإن شئت قلت : يا قومُ؛ بمعنى يأيها القوم . وإن جعلتهم نكرة نصبت ونوّنت . وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام؛ وأقاوم جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ استغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القِلة ، والقليل موضع الكثرة ، قال الله تعالى : « ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » . وقال : «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ» . ويقال لكل من فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأت الى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ قال بعض أرباب المعاني : عجل كل انسان نفسه، فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ لما قال لهم : فتوبوا الى بارئكم . قالوا : كيف ؟ قال : « فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . قال أرباب الخواطر : ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات . والصحيح أنه قتلٌ على الحقيقة هنا . والقتل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدتها بالماء . قال سفيان بن عيينة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ، وكانت توبة بني إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزهري : لما قيل لهم : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفين وقتل بعضهم بعضا، حتى قيل لهم : كفّوا . فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحي ، على ما تقدم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفا، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا إذ لم يعبدوا العجل [مع] من عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم محتبون فقال : ملعون من حلّ حَبْوته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل . فما حل أحد منهم حبوته حتى قتل منهم، يعني من قتل، وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأوّل — لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبدوه، وإنما اعتزلوا، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله في عباده إذا فشا المنكر ولم يُغيَّر عوقب الجميع . روى جرير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يُعمل فيهم

بالمعاصى هم أعز منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عمهم الله بعقاب" . أخرجه ابن ماجه فى سننه . وسيأتى الكلام فى هذا المعنى ان شاء الله تعالى . فلما استحرّ فيهم القتل وبلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم ، قاله ابن عباس وعلىّ رضى الله عنهما . وانمـا رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود فى قتل أنفسهم . فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هى أفضل من التوبة . وقرأ قتادة : فأقيلوا أنفسكم — من الإقالة — ، أى استقيلوها من العثرة بالقتل .

قوله تعالى : ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ البارئ : الخالق؛ وبينهما فرق، وذلك أن البارئ هو المبـدع المحدث ، والخالق هو المقـدّر الناقل من حال الى حال . والبرية : الخلق؛ وهى فعيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تهمز . وقرأ أبو عمرو « بارئْكم » بسـكون الهمزة — ويشعركم وينصركم ويأمركم — واختلف النحاة فى هـذا ؛ فمنهم من يسكن الضمة والكسرة فى الوصل؛ وذلك فى الشعر . وقال أبو العباس المبرّد : لا يجوز التسكين مع توالى الحركات فى حرف الإعراب فى كلام ولا شعر . وقراءة أبى عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة؛ وأنشدوا :

إذا اعوججْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * بالدَّوِّ أمثالَ السَّفينِ العُــوَّمِ (١)

وقال امرؤ القيس :

فاليومَ أشــربْ غيرَ مستحقِبٍ * إثمـا من الله ولا واغِــلِ (٢)

وقال آخـــر :

* قالت سُلَيمى اشترْ لنـا سويقا *

الآخـــر :

رُحتِ وفى رجليـكِ ما فيهما * وقد بَدا هَنْـكِ من المئزرِ

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب. قال أبو عليّ : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات. وأصل برأ من تبرّى الشئ من الشيء وهو انفصاله منــه . فالخلق قد فصلوا من العدم الى الوجود؛ ومنه بَرَأْت من المرض بَرْءا بالفتح . كذا يقول أهل الحجاز. وغيرهم يقول : برِئت من المرض بُرْءا بالضم؛ و بَرِئت منــك ومن الديون والعيــوب براءة ؛ ومنه المبــارأة للرأة . وقــد بارأ شريكه وامرأته .

قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى الكلام حذف، تقديره ففعلتم فتاب عليكم، أى فتجاوز عنكم أى على الباقين منكم . ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم معناه، والحمد لله .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف . ﴿ يَامُوسَى ﴾ نداء مفرد . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى نصدقك. ﴿ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ قيل: هم السبعون الذين اختارهم موسى؛ وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعــد ذلك : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ » . والإيمــان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم ؛ ثم دعا موسى ربّه فأحياهم؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » . وستأتى قصة السبعين فى الأعراف ان شاء الله تعالى . قال ابن فُورَك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد اختلف فى جواز رؤية الله تعالى؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيــا والآخرة . وأهل الســنة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها فى الآخرة؛ فعلى هــذا لم يطلبوا من الرؤية

محالا؛ وقد سألها موسى عليه السلام. وسيأتى الكلام فى الرؤية فى الأنعام والأعراف إن شاء الله تعـالى .

الثـانيـــة — قوله تعالى: ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر فى موضع الحال، ومعناه علانية . وقيل عِيانا. قاله ابن عباس . وأصل الجهر الظهور؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها. والمجاهرة بالمعاصى : المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهارا وجهرة، أى غير مستتر بشىء. وقرأ ابن عباس « جَهَرة » بفتح الهاء . وهما لغتان ؛ مثل زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان : أحدهما — أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير وإذ قلتم جهرة ياموسى . الثانى — أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهـرة وعيانا ؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قـد تقدم فى أول السـورة معنى الصاعقة(١) . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ «الصّعقة» وهى قراءة ابن مُحيصن فى جميع القرآن .

﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال . ويقال : كيف يموتون وهم ينظرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دُورُ آل فلان تتراءى ؛ أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى تنظرون أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهـذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا، والمعنى لعلكم تشكرون ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيل : ماتوا موت همود يعتبر به الغير، ثم أرسـلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصـله إثارة الشىء من محله ؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها، أى حركتها؛ قال آمرؤ القيس :

---

(١) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

وفتيانِ صدق قد بعثتُ بسُحرة (١) * فقاموا جميعا بين عاثٍ ونشوان

وقال عنــترة :

وصحابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهـم * ليـلا وقـد مال الكرى بطُلاها (٢)

وقال بعضهم : بعثناكم من بعد موتكم : علمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأول أصح، لأن الأصـل الحقيقة وكان موت عقوبة؛ ومنه قوله تعـالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ». على ما يأتى .

الخامســة — قال المـاوردى : واختلف فى بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة الى المعرفة على قولين : أحدهما — بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبُّد. الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار .

قلت : والأول أصح، فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم؛ وذلك ممـا اضطرهم إلى الإيمـان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلفين . والله أعلم .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظُّلة . والغمام جمع غمامة ، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب، لأنهـا تغم السماء أى تسترها؛ وكل مغطًّى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال

(١) السحرة (بضم أوله) : السحر . وقيـل : أعلى السحر. وقيل : هو من ثلث الليل الآخر الى طلوع الفجر.
(٢) الطلى (بضم ففتح) : الأعناق .

إذا غطّاه الغيم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليــه السلام : " إنه ليُغان على قلبي" . قال صاحب العين : غِين عليه : غُطّى عليــه . والغَيْن : شجر ملتف . وقال السدّي : الغمام : السحاب الأبيض . وفعــل هــذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، وينجــلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التّيه بين مصر والشام لمــا امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم ؛ وقالوا لموسى : « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا » . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص(١) أربعين ســنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ســتة . رُوى أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذ كانوا بأجمعهم فى التيه قالوا لموسى : من لنا بالطعام! فأنزل الله عليهم المنّ والسلوى . قالوا : من لنا من حر الشمس! فظلل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وســط محلتهم . وذكر مكيّ : عمود من نار . قالوا : من لنا بالماء! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس! فأعطوا ؛ ألا يبــلى لهم ثوب ولا يَخلَق ولا يدرَن ؛ وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَى ﴾ اُختلف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيــل : التَّرَنْجَبِين(٢) — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطَّرَنْجَبِين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حلوة . وقيل عسل : وقيل شراب حلو . وقيل : خبز الرُّقاق ، عن وهب بن منبّه . وقيل : المنّ مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : "الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين" فى رواية " من المنّ الذى أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل ، أى مما خلقه الله لهم فى التيه . قال أبو عبيد : إنمــا شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه ، أى من جنس منّ

(١) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : « ان الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردن الى رفح ... » وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) .

(٢) الترنجبين : طل يقع من السماء ، وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار) .

بني إسرائيل في أنه كان دون تكلُّف . رُوى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس كالثلج ؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن آدخر منه شيئا فسد عليه، إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدّخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم؛ لأن يوم السبت يوم عبادة، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء .

الثالثـــة — لمـا نص عليـه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : أما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة، وأما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضي الله عنه إلى استعمالها بحتًا في جميع مرض العين . وهذا كما استعمل أبو وَجْزَة العسل في جميع الأمراض كلها حتى في الكحل، على ما يأتي بيانه في سورة «النحل» إن شاء الله تعالى. وقال أهـل اللغة : الكَمْءُ واحد ، وكَمْأَان اثنان، وأَكْمُؤ ثلاثة، فإذا زادوا قالوا : كَمْأَة، بالتاء على عكس شجرة وشجر . والمنّ اسم جنس لا واحد له من لفظه، مثل الخير والشر؛ قاله الأخفش .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَالسَّلْوَى﴾ اختلف في السلوى، فقيل : هو السُّمَانَى بعينه، قاله الضحاك . قال ابن عطية : السلوى : طير بإجماع المفسرين؛ وقد غلط الهذلي[1] فقال :

وقاسمها بالله جَهـــدًا لأنـــتُمُ * أَلَذُّ من السَّـــلْوَى إذا ما نَشُورُها

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما آدّعاه من الإجماع لا يصح؛ وقد قال المؤرّج[2] أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ؛ واستدل ببيت الهذلي وذكر أنه كذلك بلغة كنانة؛ سمي به لأنه يسلى به ؛ ومنه عين السُّلْوان[3] ؛ وأنشد[4] :

لو أشرب الســـلوانَ ما سَلِيتُ * ما بي غِنًى عنـــك وإن غَنِيتُ

---

(١) هو خالد بن زهير . (٢) هو مؤرج بن عمرو السدوسي ، و يكنى أبا فيـد . كان من أصحاب الخليل ابن أحمد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة . (٣) عين السلوان : عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) . (٤) البيت لرؤبة .

وقال الجوهرى : والسلوى العسل ؛ وذكر بيت الهذلىّ :

* ألذ من السلوى إذا ما نشورها *

ولم يذكر غلطا . والسُّــلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صبّ عليهــا ماء المطر فشربه العاشق سلا ؛ قال :

شربتُ على سُـــلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ * فلا وجديدِ العيشِ يا مَىّ ما أسلو

واسم ذلك المــاء السُّلوان . وقال بعضهم : الســلوان دواء يسقاه الحزين فيسلو ؛ والأطبــاء يسمونه المفرّح . يقال : سليت وسلوت لغتان . وهو فى سُلوة من العيش أى فى رغد، عن أبى زيد .

الخامســـة — واختلف فى السلوى هل هو جمع أو مفــرد ؛ فقال الأخفش : جمــع لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ وهو يشــبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته ، كما قالوا : دِفْلَى(١) للواحد والجماعة ، وسُمَانى وشُــكَاعَى(٢) فى الواحد والجميع . وقال الخليــل : واحده سَلواة ؛ وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكــراك هِزَّةٌ(٣) * كما انتفض السَّلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السلوى واحدة ، وجمعه سلاوى .

السادســـة — السلوى عطف على المنّ ، ولم يظهر فيه الإعراب لأنه مقصور . ووجب هذا فى المقصور كله لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف ؛ قال الخليــل : والألف حرف هوائى لا مستقر له ؛ فأشــبه الحركة فاستحالت حركته . وقال الفــراء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ كُلُوا ﴾ فيه حذف، تقديره وقلنا كلوا ؛ فحذف اختصار الدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية . (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات ، وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء، والناس يتداوون بها . (٣) فى الأصول : « سلوة » وهو تحريف .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر . ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصي .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ حذفت الألف من قلنا لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التي يبتدأ بها قبل الدال ألف وصل لأنه من يدخل .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ أي المدينة، سميت بذلك لأنها تقرّت أي اجتمعت، ومنه قَرَيت الماء في الحوض، أي جمعته، واسم ذلك الماء قِرًى بكسر القاف مقصور . وكذلك ما قرى به الضيف ، قاله الجوهري . والمِقراة للحوض . والقَرِىّ لمسيل الماء . والقَرا للظَّهر، ومنه قوله (١) :

* لاحِقُ بطنٍ بقَرًا سمينِ *

والمقارِى : الجفان الكبار، قال :

* عظام المقارى ضيفهم لا يُفَزَّعُ *

وواحد المقارى مِقراة، وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن .

واختلف في تعيينها، فقال الجمهور : هي بيت المقدس . وقيل : أَرِيحاء من بيت المقدس ؛ قال عمر بن شَبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ابن كَيسان : الشام . الضحاك : الرَّملة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر . وهذه نعمة أخرى ، وهي أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه .

(١) هو حميد الأرقط . وصف فرسا بضمور البطن ثم نفى أن يكون ضمره من هزال، فقال : « بقرا سمين » . واللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ إباحة . و﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرا واسعا؛ وهو نعت لمصدر محذوف؛ أي أكلا رغدا . ويجوز أن يكون في موضع الحال؛ على ماتقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغلّة؛ فلذلك قال : رغدا .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ الباب يجمع أبوابا؛ وقد قالوا : أبوبة للازدواج؛ قال الشاعر[1] :

هتّاك أخبية ولّاج أبوبة * يخلط بالبرّ منه الجدّ واللّينا

ولو أفرده لم يجز؛ ومثله قوله عليه السلام : "مرحبا بالقوم — أو بالوفد — غير خزايا ولا ندامى" . وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبواب مبوّبة؛ كما قالوا : أصناف مصنّفة . وهذا شيء من بابتك؛ أي يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والبـاب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ«باب حطّة» ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القبّة التي كان يصلّي إليها موسى و بنو اسرائيل . و «سُجّدا» قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . وحطـةٌ بالرفع قـراءة الجمهور؛ على إضمار مبتدأ أي مسئلتنا حطة؛ أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت حطّةً بالنصب؛ على معنى احطط عنا ذنوبنا حطة . قال النحاس : الحـديث[2] عن ابن عباس أنه قيـل لهم : قولوا لا إله إلا الله . وفي حديث آخر عنـه قيل لهم : قولوا مغفرة ؛ تفسيرٌ للنصب؛ أي قولوا شيئا يحط ذنوبكم؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع؛ وهو أولى في اللغة؛ لما حكي عن العرب في معنى بدّل؛ قال أحمـد بن يحيى : يقال بدّلته ؛ أي غيرته ولم أزل عينه؛ وأبدلته أزلت عينه وشخصه؛ كما قال[3] :

* عَزْلَ الأمير للأمير المُبْدَلِ *

(١) هو القلاخ بن جناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) . (٢) في الأصول : « قال النحاس جاء الحديث ... » . والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس . والحـديث مبتدأ ؛ وخبره " تفسير" .

(٣) هو أبو النجم . (عن اعراب القرآن للنحاس) .

وقال الله عز وجل : « قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ » . وحديثُ[1] ابن مسعود قالوا : حنطة، تفسيرٌ على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : حطة بمعنى حُطّ ذنوبنا ، أمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . أبان بن تغلب : التوبة ؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جعـــل اللـ * ـه بهـا ذنب عبـده مغفورا

وقال ابن فارس في المجمل : حطة كلمة أمر بهـا بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم ؛ وقاله الجوهري أيضا في الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قيـل لبني اسرائيل ادخلوا البـاب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم [فبـدّلوا][2] فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شـعرة" . وأخرجه البخاري وقال : "فبدلوا وقالوا حِطّةٌ حبّةٌ في شعرة" . في غير الصحيحين : « حنطة في شـعر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهاثا . وهي لفظة عبرانية، تفسيرها : حنطة حمراء، حكاها ابن قتيبة، وحكاه الهروي عن السدي ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمردوا واستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . قال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . وروى أن الباب جعـل قصيرا ليدخلوه ركّعا فدخلوه متوركين على أستاههم . والله أعلم .

السادســـة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعـة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فان كان التعبـد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ، لذم الله تعالى من بدّل ما أمره بقوله ، وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بمـا يؤدي الى ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بمـا يخرج عنه .

(١) في الأصل : «ولحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .
(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى؛ فحكى عن مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للعنى بكماله ، وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمع كثير من العلماء منهم ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوة . وقال مجاهد : انقُص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهـم يسمعون ملحونا ويعلمون ذلك ولا يغيّرونه . وروى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب : من سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . ورُوى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم؛ وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فان منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتد باللفظ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ؛ وذلك هو الأحوط فى الدِّين والأتقى والأوْلى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهـم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأسقع أنه قال : ليس كل ماأخبرنا به رسول الله صلى الله عليـه وسلم نقلناه اليكم، حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرَارة بن أَوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا علىّ فى اللفظ واجتمعوا فى المعنى . وكان النخعىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثورىّ رحمه الله : إذا قلتُ لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقونى ، إنما هو المعنى . وقال وكيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس . واتفق العلمـاء على جواز نقل الشّرع للعجم بلسانهـم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قـد سلف، فقصّ قِصصا ذكر بعضها فى مواضـع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم الى اللسان العربىّ وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء،

والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى . احتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ، وهو الصحيح في الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نضّر الله آمرأ سمع مقالتي فبلّغها كما سمعها " وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه في دعاء علّمه : آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ؛ فقال الرجل : ورسولك الذي أرسلت ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ونبيك الذي أرسلت " . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأدّاها كما سمعها " . قيل لهم : أما قوله " فأدّاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ، لأن اللفظ غير معتد به . ويدلك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : "فربّ حامل فقه غير فقيه وربّ حامل فقه الى من هو أفقه منه " . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ، وذلك أدلّ دليل على الجواز . وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : ورسولك الى قوله ونبيك ، لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن آسم الرسول يقع على الكافة ، واسم النبيّ لا يستحقه الا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فُضِّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة . فلما قال : ونبيك ، جاء بالنعت الأمدح ، ثم قيّده بالرسالة بقوله : «الذي أرسلت» . وأيضا فإن نقله من قوله : ورسولك الى قوله ونبيك ليجمع بين النبوّة والرسالة ؛ ومستقبح في الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذي أرسله ، وهذا قتيل زيد الذي قتله ؛ لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأوّل ، وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذي أرسله الى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذي قتله بالأمس أو في وقعة كذا . والله وليّ التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأول تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأول، ويؤدى ذلك إلى طمس الحديث بالكلّيّة لدقة الفروق وخفائها . قيـل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا؛ فإن عدمت لم يجز . قال ابن العربيّ : الخلاف فى هذه المسألة إنما يتصوّر بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجِبِلّيّة الذوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغـيّرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد اختلفت؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمـائنا : لقد تعاجم ابن العربيّ رحمـه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الاصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل؛ نعم لو قال : المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب، والله أعلم .

السابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وابن عامر بالتاء مع ضمها، وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها، وهى أبينها؛ لأن قبلها «وإذ قلنا ادخلوا» فجرى نغفر على الإخبار عن الله تعالى؛ والتقدير وقلنا ادخلوا الباب سجدا نغفر، ولأن بعده « وَسَنَزِيدُ » بالنون . وخطاياكم اتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنّث لتأنيث لفظ الخطايا، لأنها جمع خطيئة على التكسير. ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لما حال بين المؤنث وبين فعله ؛ على ما تقدّم فى قوله : « فتلقّى آدمَ من ربّه كلماتٌ » . وحسُن الياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : «وإذ قلنا» لأنه قـد علم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى؛ فاستغنى عن النون وردّ الفعل الى الخطايا المغفورة .

الثامنـــة ـــ واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة؛ فقال الخليـل : الأصل فى خطايا أن يقول : خطايىء، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاءا؛ فلـما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل خطايِئ، ثم وجب بهـذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول :

خطائئ، ولا تجتمع همـزتان فى كلمة؛ فأبدلت من الثانيـة ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفراء : خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هديّة وهدايا ؛ قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى: لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة؛ كما قلت : دواب .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل؛ ويقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسلوى للغد ، وسـنزيد فى إحسان من لم يرفع للغـد . ويقال : يغفر خطايا من هو عاص، وسيزيد فى إحسان من هو محسن، أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدّم عندهم ؛ وهو اسم فاعل من أحسن . والمحسن: من صحح عقد توحيده، وأحسن سـياسة نفسه، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شره . وفى حديث جبريل عليه السلام: "ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال صدقت" وذكر الحديث . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَـدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ الذين فى موضع رفع، أى فبدل الظالمون منهـم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حطة ، فقالوا حنطة، على ما تقدم؛ فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البـلاء مالقوا؛ تعريفا أن الزيادة فى الدِّين والابتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثـانيــة — قوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ﴾ تقدّم معنى بدّل وأبدل؛ وقرئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْـدِلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشيء بغـيره . و بدّله الله من الخوف

أمناً . وتبديل الشيء أيضا تغييره و إن لم يأت ببدل . واستبدل الشيء بغيره، وتبـدّله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم؛ إذا مات واحد منهـم أبدل الله مكانه بآخر . قال ابن دُريد : الواحد بديل . والبَـديل : البدل . وبدل الشيء : غيره؛ يقال: بَدَل وبِدْل لغتان؛ مثل: شَبَه وشِبْه، ومَثَل ومِثْل ونَكَل ونِكْل. قال أبو عبيد(١) : لم يُسمع في فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وجع يكون في اليدين والرجلين؛ وقد بَدِل بالكسر يبْدَل بَدَلاً .

الثـالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرر لفظ ظلموا ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين؛ أحدهما : استعماله بعد تمـام الكلام؛ كما في هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعدُ : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : ممـا كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم؛ ومنه قول الخنساء :

تَعَـرّقني الدهرُ نَهْسـاً(٢) وحَزّا * وأوجعني الدهرُ قَرْعًا وغَمْزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها . والضرب الثاني : مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام، كقوله تعـالى : « ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ » و « ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ » كان القياس لولا ما أُريد به من التعظيم والتفخيم الحاقّة ما هي . والقارعة ما هي؛ ومثله : « فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ » . كرر أصحاب الميمنة تفخيما لمـا ينيلهم من جزيل الثواب ؛ وكرر لفظ أصحـاب المشأمة لمـا ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائبـاً * كانَ الغـرابُ مقطّعَ الأوداجِ

وقد جمع عدىّ بن زيد المعنيين فقال :

---

(١) في الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهري .

(٢) في بعض الأصـول : « نهشا » بالشين المعجمة . والنهش : أن يتناول المرء الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيـه ولا يجرحه . والنهس : القبض على اللحم ونتره أى جذبه .

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغَّص الموتُ ذا الغِـنَى والفقـيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا ، وهو من الضرب الأوّل؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبّـذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ * وهند أتى من دونها النأىُ والبعدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿رِجْزًا﴾ قراءة الجماعة «رجزا» بكسر الراء. وابن مُحَيصن بضم الراء . والرجز : العـذاب بالزاى ، وبالسين : النَّتن والقَـذَر ، ومنه قوله تعالى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ » أى نتنا الى نتنهم ؛ قاله الكسائى . وقال الفرّاء : الرجز هو الرجس . قال أبو عبيد : كما يقال السُّـدْغ والزُّدْغ ، وكذا رجس ورجز بمعنًى . قال الفـرّاء : وذكر بعضهم أن الرُّجز (بالضم) : اسم صنم كانوا يعبـدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ» . والرَّجَز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشعر؛ وأنكر الخليل أن يكون شعرا ، وهو مشـتق من الرَّجَز وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها؛ فإذا ثارت ارتعشت أفخاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . والفسق الخروج؛ وقد تقدّم (١) . وقال ابن وثّاب والنخعىّ : « يَفْسِقون » بكسر السين .

قوله تعالى : وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ كسرت الذال لالتقاء الساكنين . والسين سين السؤال ، مثل : استعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك . أى طلب وسأل السَّقْى لقومه . والعرب تقول : سَقَيته وأسقيته ، لغتان بمعنى؛ قال (٢) :

(١) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء . (٢) هو لبيد (كما فى اللسان) .

سقى قومى بنى مَجْدٍ وأَسْـقَى * نُمَــيْراً والقبائلَ من هِــلال

وقيل : سقيته من سَقى الشفة، وأسقيته دللته على المـاء .

الثانيـــة — الاستسقاء انما يكون عند عدم المـاء وحبس القطر، واذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلّة مع التوبة النصوح . وقد استسقى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فخرج الى المصلَّى متواضعا متذللا متخشّعا مترسّلا متضرّعا، وحسبك به؛ فكيف بنا ولا توبة معنا الا العناد ومخالفة رب العباد. فأنَّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر "ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم إلا مُنِعوا القَطْرَ من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَروا" الحديث . وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثـــة — سنة الاستسقاء الخروج الى المصلَّى — على الصفة التى ذكرنا — والخطبة والصــلاة؛ وبهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفــة الى أنه ليس من سنته صــلاة ولا خروج، وانما هو دعاء لا غير . واحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارىّ ومسلم . ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فاكتفى به عما سواه، ولم يقصــد بذلك بيان سنّة ؛ ولـمّا قصد البيان بيّن بفعله، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المــازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليــه وسلم الى المصلَّى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلّى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة فى سورة «هود» إن شاء الله .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ العصا : معروف ، وهو اسم مقصور مؤنث وألفه منقلبة عن واو ؛ قال[(1)] :

* على عَصَوَيْها سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ[(2)] *

---

(١) هو ذو الرمة . وصدر البيت : * جفاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٢) عصويها : عرقوتى الدلو، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسابرى : الدقيق من الثياب . المشبرق : المخرق .

والجمع عُصِيّ وعِصِيّ، وهو فعول، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة؛ وأعصٍ أيضا مثله؛ مثل زَمَنٍ وأزْمُنٍ. وفي المثل: «العَصَا من العُصَيّة» أي بعض الأمر من بعض. وقولهم: «ألقى عصاه» أي أقام وترك الأسفار؛ وهو مَثَل. قال:

فألقتْ عصاها وآستقر بها النوَى * كما قَــرّ عينًا بالإياب المسافرُ

وفي التنزيل: « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ». وهناك يأتي الكلام في منافعها إن شاء الله تعالى. قال الفرّاء: أوّل لحن سمع بالعراق هذه عصاتي. وقد يعبّر بالعصا عن الاجتماع والافتراق؛ ومنه يقال في الخوارج: قد شقُّوا عصا المسلمين، أي آجتماعهم وائتلافهم؛ وانشقت العصا، أي وقع الخلاف؛ قال الشاعر:

اذا كانت الهيجاءُ وانشقّتِ العصا * فَحَسْبُكَ والضحّاكَ سيفٌ مهنَّدُ

أي يكفيك ويكفي الضحاك. وقولهم: لا ترفع عصاك عن أهلك، يراد به الأدب. والله أعلم.

والحجر معروف، وقياس جمعه في أدنى العدد أحجار، وفي الكثير حِجار وحِجارة؛ والحجارة نادر، وهو كقولنا: جَمَل وجِمَالة، وذَكَر وذِكَارة؛ كذا قال ابن فارس والجوهري.

قلت: وفي القرآن: « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ». « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ ». « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً ». « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ ». « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً » فكيف يكون نادرا، إلا أن يريدا أنه نادر في القياس كثير في الاستعمال فصيح. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنْفَجَرَتْ ﴾ في الكلام حذف تقديره فضرب فانفجرت. وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب؛ لكن أراد أن يربط المسبَّبات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم الى المراد؛ وليترتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد. والانفجار: الانشقاق؛ ومنه انشق الفجر. وانفجر الماء انفجارا: انفتح. والفُجْرة: موضع تفجر الماء. والانبجاس أضيق من الانفجار؛ لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا. وقيل: انبجس وتبجس وتفجّر وتفتّق؛ بمعنى واحد، حكاه الهروي وغيره.

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ اثنتا فى موضع رفع بانفجرت، وعلامة الرفع فيهـا الألف . وأُعربت دون نظائرها لأن التثنية معـربة أبدًا لصحة معناها . «عينا» نصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عَشِرَةَ » بكسر الشين ؛ وهى لغة بنى تميم ؛ وهذا من لغتهم نادر؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغـة أهل الحجاز عشْرة؛ وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعين من الأسماء المشتركة؛ يقال: عين المـاء، وعين الإنسان، وعين الرُّكْبة[1]، وعين الشمس . والعين : سحابة تقبـل من ناحية القبلة، والعين : مطر يدوم خمسا أو ستا لا يُقْلِـع . و بلد قليل العين، أى قليل الناس وما بها عين، محرّكة اليـاء[2] . والعين : الثقب فى المزادة . والعين من المـاء مشبهة بالعين من الحيوان، لخروج المـاء منها كخروج الدمع من عين الحيوان وقيل لمـا كان عين الحيوان أشرف ما فيه، شبّهت به عين المـاء لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادســـة : لمـا استسقى موسى عليه الســلام لقومه أُمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا؛ قيل: مربعًا طُورِياًّ (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى فى كسر جُوَالِق و يرحل به؛ فإذا نزلوا وضع فى وسط محلّتهم . وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهـذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيـل : إنه أطلق له اسم الحجـر ليضرب موسى أىّ حجر شاء؛ وهـذا أبلغ فى الإعجاز . وقيـل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجرا بعينه بيّنه لموسى عليه السلام؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جُبَيْر : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لمـا اغتسل ، وفرّ بثوبه حتى برأه الله مما رماه به قومه . قال ابن عطيّة : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا، تطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى، و إذا استغنوا عن المـاء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وعين الركبة (براء مضمومة و باء موحدة) : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة . وفى البعض الآخر : « عين الركية » براء مفتوحة وياء مثناة من تحت . وهى مفجر ماء البئر ومنبعها .

(٢) الذى فى القاموس أن الياء تحرك وتسكن فى العين بهذا المعنى .

قلت : ما أوتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من نبع المـاء وآنفجاره من يده وبين أصابعه أعظم فى المعجزة ؛ فإنا نشاهد المـاء يتفجر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار ، ومعجزة نبيّنا عليه الســلام لم تكن لنبيّ قبله صلى الله عليه وسلم ، يخرج المـاء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجـد ماء فأتى بتَوْر(١) فأدخل يده فيـه ؛ فلقد رأيت المـاء يتفجّر من بين أصابعـه ويقول : "حيّ على الطّهور" . قال الأعمش فحدّثنى سالم بن أبى الجَعْـد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئـذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سِبط منهم عينا قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمشرب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيـل كالقبائل فى العرب ، وهم ذرية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليـه السلام ؛ وكان لكل سـبط عين من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحجر أربعـة أوجه يخرج من كل وجه ثلاث أعين ؛ لكل سبط عين لا يخالطهم سواهم ؛ وبلغنا أنه كان فى كل سبط خمســون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسـلوى ، واشربوا المـاء المتفجر من الحجر المنفصل . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ أى تفسـدوا . والعيث : شدّة الفساد . نهاهم عن ذلك . يقال : عَثِيَ يَعْثَى عُثِيًّا ، وعثا يعثو عُثُوًّا ، وعاثَ يَعِيث عَيْثا وعُيُوثا ومَعَاثا ؛ والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسـد ؛ ومنه العُثّة وهى السوسة التى تلحس الصـوف . و﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيدا لاختـلاف اللفظ . وفى هـذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقـدّم فى المعاصى والنهى عنها .

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صفر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كان هـذا القول منهـم فى التِّيـه حين ملّوا المنّ والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر . قال الحسن : كانوا نَتَانَى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس، فنزعوا الى عِكْرهم[(١)] عِكْرِ السوء، واشتاقت طباعهم إلى ماجرت عليه عادتهم، فقالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر؛ فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيـل : لتكرارهما فى كل يوم غذاء، كما تقـول لمن يداوم على الصوم والصـلاة والقراءة : هو على أمر واحد، لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصـبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض ؛ لاستغناء كل واحد منا بنفسه؛ وكذلك كانوا ؛ فهم أوّل من اتخذ العبيـد والخـدم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَعَامٍ ﴾ الطعام يطلق على مايطعم ويشرب؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » . وقال : « لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » أى ما شربوه من الخمر، على ما يأتى بيانه . وإن كان السلوى العسل — كما حكى المؤرّج — فهو مشروب أيضا . وربما خص بالطعام البُرّ والتمر، كما فى حديث أبى سعيد الخُدْرى قال : كنا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاعاً من طعـام أو صاعاً من

(١) العكر (بكسر أوله وسكون ثانيه) : الأصل . وقيل : العادة والديدن . وبالتحريك دردى كل شيء .

شعير» الحديث . والعرف جارٍ بأن القائل : ذهبت الى سوق الطعامْ، فليس يفهم منـه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يشرب . والطَّعم (بالفتح) هو ما يؤدّيه الذوق ؛ يقال : طعمه مرّ . والطعم أيضا : ما يشتهى منـه ؛ يقال : ليس له طعم، وما فلان بذى طعم ، إذا كان غثّا . والطُّعم (بالضم) الطعام؛ قال أبو خِرَاش :

أَرُدّ شُجاعَ البطن ـ أو تعلمينه(1) ＊ وأُوثِرُ غيرى من عيالك بالطُّعْم
وأغتبِـق المـاء القَـرَاحَ فأنتهى ＊ إذا الزادُ أمسى للمُزَلَّجِ(2) ذا طَعْـم

أراد بالأوّل الطعام، وبالثانى ما يشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَم فهو طاعم إذا أ كل وذاق؛ ومنه قوله تعالى : «وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى» أى من لم يذقه . وقال : «فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا» أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم: "إنها طَعَامُ طُعْمٍ وشفاءُ سُقْمٍ"(3) . واستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه . وفى الحديث : "إذا استطعمكم الإمامُ فأطعموه" . يقول : إذا استفتح فافتحوا عليه . وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائما . وقال الشـاعر :

نَعَامًا بوَجْرَةَ صُفر الخدو(4) ＊ د ما تَطْعَم النومَ إلا صِياما

قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّـا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ لغة بنى عامر «فادع» بكسر العين لالتقاء السـاكنين ؛ يجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحـذوف . و «يُخْرِجْ» مجزوم على معنى سله وقل له : أخرِجْ، يُخْرِجْ . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

(١) فى اللسان مادة (طعم) : «قد تعلمينه» . (٢) المزلج : من معانيه البخيل . والملزق بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل . (٣) أى يشبع الانسان اذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام .

(٤) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغـة ومعاجم البلدان :

نعاما بخطمة صعر الخدو ＊ د لا تطعم الماء إلا صياما

وقبله : فأما بنـــو عامر بالنسار ＊ غداة لقونا فكانوا نعـاما

وهو لبشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفى اللسان بعد البيت : «يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد المـاء ولا تطعمه» .

اللام، وضعّفه الزجاج . "ومن" في قوله « ممـا » زائدة في قول الأخفش، وغير زائدة في قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنمـا دعا الأخفش الى هـذا لأنه لم يجد مفعولا ليخرج فأراد أن يجعل « ما » مفعولا . والأولى أن يكون المفعول محذوفا دلّ عليه سائر الكلام؛ التقدير يخرج لنا مما تنبت الأرض مأكولا . فـ«من» الأولى على هذا للتبعيض، والثانية للتخصيص . و﴿ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ بدل من ما بإعادة الحرف . ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ عطف عليـه ؛ وكذا ما بعده ، فاعلمه . والبقل معروف، وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ما له ساق . والقِثّاء أيضا معروف ، وقد تضمّ قافه، وهي قراءة يحيى بن وَثّاب وطَلْحة بن مُصَرِّف، لغتان والكسر أكثر . وقيل في جمع قِثّـاء : قَثَائِيّ؛ مثل عِلْبَاء وعَلَابِيّ ؛ إلا أن قِثّـاء من ذوات الواو؛ تقول : أقثأت القوم أي أطعمتهم ذلك ، [وفَثَأْتُ(1) القِـدْرَ سكّنت غليانها بالمـاء؛ قال الجعديّ :

تفور علينا قِدْرُهُم فنُدِيمُها * ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُها غَلَا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفثأ ، أي أعيا وانبهر . وأفثأ الحَرُّ أي سكن وفتر . ومن أمثـالهم في اليسير من البِرّ قولهم : إنّ الرَّثِيئـةَ تَفْثأ الغضب» . وأصله أن رجلا كان غِضب على قوم وكان مع غضبه جائعا ، فسَقَوْه رَثِيئة فسكن غضبه وكفّ عنهم .

الرَّثِيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليَخثُر . رَثَأْت اللبن رَثْأً اذا حلبتَه على حامض فخثَر، والاسم الرَّثِيئة . وارتثأ اللبن خثَر] . وروى ابن ماجه حدّثنا محمد بن عبد الله بن نُمَير حدثنا يونس بن بُكَير حدثنا هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أُمّي تعالجني للسِّمْنة تريد أن تُدخلني على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمـا استقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمْنة . وهذا إسناد صحيح .

---

(1) الكلام الموضوع بين القوسين نقله المؤلف من معاجم اللغـة على أنه من هذه المـادة ؛ والواقع أنه من مادة «فثأ» بالفاء لا بالقاف .

قوله تعالى : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ اُختلف في الفوم، فقيل : هو الثوم، لأنه المشاكل للبصل، رواه جُوَيْبر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغافير ومغاثير[(١)]، وجَدَثٌ وجَدَفٌ للقبر . وقرأ ابن مسعود «ثومها» بالثاء المثلثة ؛ ورُوى ذلك عن ابن عباس . وقال أمية بن أبي الصلت :

كانت منازلُهم إذ ذاك ظاهرةً * فيها الفَرَادِيسُ والفُومانُ والبصلُ

الفراديس : واحدها فرديس، وكرم مفردس أي معرّش .

وقال حسان :

وأنتمْ أُناسٌ لئامُ الأصول * طعامُكمُ الفومُ والحَوْقَلُ

يعني الثوم والبصل ؛ وهو قول الكسائي والنَّضْر بن شُمَيْل . وقيل : الفوم : الحنطة ؛ روى عن ابن عباس أيضا وأكثر المفسرين، واختاره النحاس، قال : وهو أولى، ومن قال به أعلى، وأسانيده صحاح ؛ وليس جُوَيبر بنظير لرُواته ؛ وإن كان الكسائي والفرّاء قد اختارا القول الأوّل، لإبدال العرب الفاء من الثاء ؛ والإبدال لا يقاس عليه ؛ وليس ذلك بكثير في كلام العرب . وأنشد ابن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

قد كنتُ أغنَى الناسِ شخصًا واجدًا * وَرَدَ المدينــةَ عن زراعة فُومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعاما لا بُرّ فيه والبر أصل الغذاء! . وقال الجوهري أبو نصر : الفوم : الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبني كأغنى واجد * نزل المدينة عن زراعة فومِ[(٢)]

وقال ابن دريد : الفومة السنبلة ؛ وأنشد :

وقال ربيئهم[(٣)] لمّا أتانا * بِكَفِّهِ فومةٌ أو فُومتان

---

(١) المغافير : قيل : هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة .

(٢) في الأغاني (جـ ٢١ ص ١١٢) طبع أوربا : «عن زراعة فول» . وقبل البيت :

ولقد نظرت الى الشموس ودونها * حرج من الرحمن غير قليل

وإذًا فالقافية لامية .

(٣) في بعض الأصول : «وقال رئيهم» . الربئ (ومثله الربيئة) : العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

والهـاء فى « كَفّه » غير مشبعة . وقال بعضهم : الفوم : الحِمَّص ، لغة شامية . و بائعه فامِىّ ، مغيّر عن فومىّ ، لأنهم قد يغيّرون فى النسب ، كما قالوا : سُهْلِىّ ودُهْرِىّ . و يقال : فَوِّمُوا لنا ، أى اختبزوا . قال الفرّاء : هى لغة قديمة . وقال عَطاء وقَتادة : الفوم كل حَبّ يُخْتَبز .

مسئلة — اختلف العلماء فى أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول ؛ فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ، للأحاديث الثابتة فى ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر القائلين بوجوب الصلاة فى الجماعة فرضا إلى المنع ، وقالوا : كلُّ ما منع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عملُه والتشاغل به . واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة ؛ والله عز وجل قد وصف نبيه عليــه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجة للجمهور ما ثبت عن جابر أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أُتِى بِبَدْر (1) فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا ، قال : فأُخبِر بما فيها من البقول ؛ فقال : قرّبوها إلى بعض أصحابه كان معه . فلما رآه كره أكلها ، قال : "كُلْ فإنّى أُناجى مَنْ لاتُناجِى" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيِّن فى الخصوص له والإباحة لغيره . وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى أيوب أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبى أيوب ، فصنع للنبىّ صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثوم ؛ فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل له : لم يأكل . ففزِع وصعِد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا ولكنى أكْرَهُه" . قال : فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعنى يأتيه الوحى) . فهذا نص على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سـعيد الخُدرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثوم زمن خَيْبَر وفتحها : "أيها الناس إنه ليس لى تحريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجرة أكره ريحها" . فهذه الأحاديث تشـعر بأن الحكم خاص به ، إذ هو المخصوص بمناجاة الملَك . لكن قـد علمنا هـذا الحكم فى حديث جابر بما يقتضى التسوية بينه وبين غيره فى هذا الحكم حيث قال : "من أكل من

(1) فى الأصول : « بقدر » . والتصويب عن سنن أبى داود . يعنى بالبدر الطبق ؛ شبه بالبدر لاستدارته .

هـذه البقلة الثوم — وقال مرة : من أكل البصل والثوم والكُرّاث — فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم" . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديث فيه طول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسجد أمر به فأخرج الى البقيع ، فمن أكلهما فليُمتهما طَبْخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ العدس معروف . والعدسة : بثرة تخرج بالإنسان ، وربما قتلت . وعَدَسْ : زجرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لعبَّادٍ عليكِ إمارةٌ * نَجَوْتِ وهـذا تحملين طَلِيقُ(1)

والعَـدْس : شـدّة الوطء ، والكَدْح أيضا ؛ يقال : عَدَسَـه . وعَدَسَ فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَست اليه المنية أى سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكَلِّفُها هولَ الظـلامِ ولم أزَلْ * أخا اللَّيـلِ معدوساً إلىّ وعادِسا

أى يسار إلىّ بالليل . وعَدَس : لغة فى حَدَس ؛ قاله الجوهرى . ويؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث على أنه قال : "عليكم بالعَدَس فإنه مباركٌ مقـدّس وإنه يُرِق القلب ويُكثر الدمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى بن مريم" ؛ ذكره الثعلبى وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت ، ويوما بلحم(2) ، ويوما بعدس . قال الحَلِيمىّ : والعـدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام فى مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفف البدن فيَخفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحنطة من جملة الحبوب وهى الفوم على الصحيح ؛ والشـعير قريب منها وكان طعام أهل المدينـة ؛ كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليـه السلام . فصار لكل واحد من الحَبّتين بأحد النبيّين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبىّ صلى الله

(1) البيت ليزيد بن مفرغ . (2) فى بعض نسخ الأصل : «بملح» .

عليه وسلم لم يَشبَع هو وأهله من خُبْزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدِم المدينة إلى أن توفّاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ، ومنه البدل، وقد تقدّم . و «أَدْنَى» مأخوذ عند الزجاج من الدنوّ أى القرب فى القيمة ؛ من قولهم : ثوب مُقارِب أى قليل الثمن . وقال علىّ بن سليمان : هو مهموز من الدنىء البيِّن الدناءة بمعنى الأخسّ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدون أى الأحطّ ، فأصله أدْوَن ، أفعل ، قُلِب فجاء أفْلَع ، وحُوِّلت الواو ألفا لتطرّفها . وقُرئ فى الشواذّ أدْنِى . ومعنى الآية : أتستبدلون البقل والقِثّاء والفُوم والعدس والبصل الذى هو أدنى بالمنّ والسلوى الذى هو خير .

واختلف فى الوجوه التى توجب فضل المنّ والسلوى على الشيء الذى طلبوه وهى خمسة :

الأوّل — أنّ البقول لما كانت لا خطرَ لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثانى — لمّا كان المنّ والسلوى طعامًا مَنَّ الله به عليهم وأمرهم بأ كله وكان فى استدامة أمر الله وشكرِ نعمته أجرٌ وذخرٌ فى الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هذه الخصال، كان أدنى فى هذا الوجه .

الثالث — لمَّا كان ما منّ الله به عليهم أطيب وألذّ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابع — لمّا كان ما أُعطُوا لا كُلْفةَ فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب، كان أدنى .

الخامس — لمّا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيةَ فى حِلّه وخُلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوبُ والأرضُ يتخللها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبَه، كانت أدنى من هذا الوجه .

مسئلة — فى هذه الآية دليل على جواز أكل الطيِّبات والمطاعم المستلذّات، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يحب الحَلْوَى والعسل، ويشرب المـاء البارد العَذْب . وسيأتى هذا المعنى فى « المـائدة » و « النحل » إن شاء الله مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ تقدّم معنى الهبوط؛ وهذا أمر معناه التعجيز؛ كقوله تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديدا » . لأنهم كانوا فى التيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أُعْطُوا ما طلبوه . و « مصراً » بالتنوين منكرا قراءة الجمهور، وهو خـط المصحف . قال مجاهـد وغيره : فمن صرَفها أراد مصراً من الأمصار غيرَ معيَّن . وروى عكرمة عن ابن عباس فى قوله : « ٱهبطوا مِصرا » قال : مصراً من هذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صرَفها أيضا : أراد مصر فرعون بعينها . استدل الأوّلون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه . واستدل الآخرون بما فى القرآن من أن الله أورث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم، وأجازوا صرفها؛ قال الأخفش والكسائى : لخفتها وشبهها بِهِنْد ودَعْد، وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضـــل مئزرها * دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَب (١)

بجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يُجيزون هـذا؛ لأنك لو سمّيت امرأة بزيد لم تصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصرَف . وقرأ الحسن وأبَان بن تغلِب وطلحة : مِصْرَ، بترك الصرف . وكذلك هى فى مصحف أُبَىّ بن كعب وقراءة ابن مسعود . وقالوا (٢) : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون؛ ذكره ابن عطيّة . والمِصر أصله فى اللغة الحَدّ . ومِصْر الدار : حدودها . قال ابن فارس ويقال : إن أهـل هَجَرَ يكتبون فى شروطهم « اشترى فلان الدار بمُصُورها » أى حدودها؛ قال عَـدِىّ :

وجاعل الشمس مِصرًا لا خفاءَ به * بين النهار وبين اللّيـل قد فصـلا

---

(١) البيت لجرير . والعلب : أقداح من جلود تحلب فيها اللبن ويشرب . يقول هى حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الاعراب ولا تتغذى غذاءهم . (شرح الشواهد) .

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ ما، نصب بإن . وقرأ ابن وثاب والنخعي «سِأَلْتُمْ» بكسر السين؛ يقال: سألتُ وسلْتُ بغير همز. وهو من ذوات الواو، بدليل قولهم: يتساولان. ومعنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أى أُلزموهما وقُضِي عليهم بهما؛ مأخوذ من ضرب القباب؛ قال الفرزدق فى جرير :

ضَربت عليك العنكبوتُ بنَسْجها * وقَضَى عليك به الكتابُ المُنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد أى حمل وألزم . والذِّلّة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودي وإن كان غنيًّا خاليًا من زِيّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجزية ؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع ؛ وهى مأخوذة من السكون، أى قلّل الفقر حركته؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذلة الصغار . والمسكنة مصدر المسكين. وروى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس : وضربت عليهم الذلة والمسكنة قال : هم أصحاب القَبَالات[1] .

قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا﴾ أى انقلبوا ورجعوا، أى لزمهم ذلك ؛ ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومناجاته : " أبوءُ بنعمتك عليّ " أى أُقرّبها وأُلزمها نفسى . وأصله فى اللغة الرجوع ؛ يقال باء بكذا، أى رجع به . وباء الى المباءة — وهى المنزل — أى رجع . والبواء : الرجوع بالقَوَد . وهم فى هذا الأمر بَوَاء أى سواء ؛ يرجعون فيه الى معنى واحد. وقال الشاعر[2] :

أَلَا تَنْتَهِي عنّا ملوكٌ وتَتَّقِي * مَحارِمَنا لَا يَبُؤِ الدَّمُ بالدم

أى لا يرجع الدم بالدم فى القَوَد . وقال :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالملوكِ[3] مُصَفَّدِينا

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة .

---

(١) فى تفسير ابن كثير : « ... ... القبلات يعنى الجزية » . (٢) هو جابر بن جبير التغلبي (عن شرح الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي، ولا شاهد فيه؛ إذ الرواية فيه : «فآبوا ... وأبنا» . ومادة « آب » غير مادة « باء » وإن كان معنى المادتين واحدا .

قوله تعـالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذلك تعليل . ﴿بِأَنَّهُـمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى يكذبون بآيات الله، أى بكتابه ومعجزات أنبيائه؛ كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام . ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾ معطوف على يكفرون . وروى عن الحسن «يُقَتِّلون» وعنـه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع «النبيئين» بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين : فى سورة الأحزاب : «إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ» . و «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ» فإنه قرأ بلا مد ولا همز . وإنمـا ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وترك الهمز فى جميع ذلك البـاقون . فأما من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر، واسم فاعله منبئ، ويجمع نبيء أنبياء، وقد جاء فى جمع نبيّ نُبَآء؛ قال العبّاس بن مِرْدَاس السُّلَمِىّ يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

يا خاتَمَ النُّبَآءِ إنك مرســلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُدَاكا

هذا معنى قراءة الهمز . واختلف القائلون بترك الهمز؛ فمنهـم من اشتق اشتقاق مَنْ همز، ثم سهّل الهمز. ومنهم من قال: هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر. فالنبيّ من النبوة وهو الارتفاع؛ فمنزلة النبيّ رفيعة . والنبيّ بترك الهمز أيضا الطـريق ، فسمّى الرسول نبيًّا لاهتداء الخلق به كالطريق؛ قال الشاعر(1) :

لَأصبح رَتْمًـا دُقَاقُ الحَصَى * مكان النبيّ من الكاثِبِ

رتمت الشيء : كسرته، يقال : رتم أنفه ورثمه، بالتاء والثـاء جميعا . والرتم أيضا المرتوم أى المكسور . والكاثب اسم جبـل . فالأنبياء لنـا كالسبل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يا نبيء الله، وهمز . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لست بنبيء الله — وهمز — ولكنى نبيّ الله" ولم يهمز . قال أبو علىّ : ضعف سند هذا الحديث، ومما يقوّى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المـادح : * يا خاتم النبآء ... * ولم يؤثر فى ذلك إنكار .

قوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تعظيم للشُّنعة والذنب الذى أتوه .

---

(1) هو أوس بن حجر (كما فى اللسان) .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ، وإنما خرج هـذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق ؛ فكان هـذا تعظيما للشنعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يقتل نبيّ بحق ، ولكن يقتل على الحق ؛ فصرّح قوله : « بِغَيْرِ ٱلْحَق » عن شنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلي بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم ؛ كمثل من يقتل فى سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يقتل نبيّ قط من الأنبياء إلا مَنْ لم يؤمر بقتال ، وكل من أُمر بقتال نُصر .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا ﴾ ذلك ردٌّ على الأول وتأكيد للإشارة اليه . والباء فى بما باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . واعتصت النواة إذا اشتدّت . والاعتداء : تجاوز الحدّ فى كل شيء ، وعُرف فى الظلم والمعاصى .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال سـفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرنهـم باليهود والنصارى والصابئين ، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا ﴾ معناه صاروا يهودا ، نُسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليـه السلام ؛ فقلبت العـرب الذال دالا ، لأن الأعجمية إذا عُرِّبت غُيِّرت عن

لفظها . وقيل : سُمُّوا بذلك لتوبتهـم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنِّى آمرؤ من حبّه هائِدُ *

أى تائب . وفى التنزيل : « إِنَّا هُـدْنَا إِلَيْكَ » أى تبنا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيـادةً إذا تابوا . وقال ابن عرفة : هدنا إليك أى سكنا إلى أمرك . والهَوَادة السكون والموادعة. قال : ومنـه قوله تعالى : « إن الذين آمنو والذين هادوا » . وقرأ أبو السَّمَّال : « هَادَوْا » بفتح الدال .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالنَّصَارَى ﴾ جمع، واحده نصرانىّ . وقيـل : نَصْرانٌ بإسقاط الياء، وهذا قول سيبويه . والأنثى نصرانة، كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام؛ قال الشاعر[1] :

صدّتْ كما صــدّ عمّـا لا يَحِلّ له * ساقِى نَصارَى قُبَيل الفِصْح[2] صُوَّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرِىّ، كَمْهرِىّ ومَهارَى . وأنشد سـيبويه شاهدا على قوله :

تـــراه إذا دار العِشـــا مُتَحَنِّفًـا * و يُضْحِى لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشـــد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجد رأسُها * كما أسجدتْ نَصْرانةٌ لم تَحَنَّفِ[3]

يقال أسجـد إذا مال . ولكن لا يستعمل نصرانـ ونصرانة إلا بياءى النسب ؛ لأنهـم قالوا : رجل نصرانىّ وامرأة نصرانيّـة . ونَصَّرَه : جعله نَصْرانيًّا . وفى الحديث : "فأبواه يُهَوِّدانِه و يُنَصِّرانِه" . وقال عليه السلام: "لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانىّ

(١) هو النمر بن تولب ، يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته . (٢) فى نسخ الأصل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح ، فطر النصارى ، وهو عيد لهم . (٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى ، يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

ثم لم يؤمن بالذى أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار". وقد جاءت جموع على غير مايستعمل واحدها؛ وقياسه النصرانيّون . ثم قيل : سُمُّوا بذلك لقرية تسمى « نَاصِرة » كان ينزلها عيسى عليه السلام فنسب اليها فقيل : عيسى الناصرىّ ؛ فلمـا نُسب أصحابه اليه قيل النصارى ؛ قاله ابن عباس وقَتَادة . وقال الجوهرى : ونَصْران قرية بالشام ينسب اليها النصارى ، و يقال ناصرة . وقيل : سُمُّوا بذلك لنصرة بعضهم بعضا ؛ قال الشاعر :

لمـا رأيتُ نَبَطًا أنصـارا * شَمَّرتُ عن رُكبتَىَ الإزارا

* كنتُ لهم من النصارَى جارا *

وقيل : سُمُّوا بذلك لقوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ » .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ جمع صابىء ، وقيل : صابٍ ؛ ولذلك اختلفوا فى همزه ، وهمزه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبَأتِ النجوم إذا طلعت ، وصبأت ثَنِيّة الغـلامِ إذا خرجت . ومن لم يهمز جعـله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة : من خرج أو مال من دين إلى دين؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صَبَأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامســـة — لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ، ولأجل كتابهم جاز نكاح نسائهم وأكل طعامهم — على ما يأتى بيانه فى المائدة — وضربُ الجزية عليهم ، على ما يأتى فى سورة براءة إن شاء الله . واختلف فى الصابئين ؛ فقال السُّدِّى : هم فرقة من أهل الكتاب ، وقاله إسحاق بن راهويه . قال ابن المنـذر وقال إسحاق : لا بأس بذبائح الصابئين ؛ لأنهـم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يشبه دينهم دين النصارى ، إلا أن قِبلتهم نحو مهبّ الجنوب؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وابن أبى نَجِيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسية ، لاتؤكل ذبائحهم . ابن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبـلة ويقرءون الزَّبور ويصلّون الخمس ؛ رآهم زياد

آبن أبى سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصل من مذهبهم ، فيما ذكره بعض علمائنا أنهم موحدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعّالة ؛ و بهذا أفتى أبو سعيد الإصْطَخْرِىّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادســـة — قوله تعــالى : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ أى صدّق . ومن فى قوله : « من آمن » فى موضع نصب بدل من الذين . والفــاء فى قوله : « فلهم » داخلة بسبب الإبهــام الذى فى من . ولهم أجرهم، ابتداء وخبر فى موضع خبر إنّ . ويحسن أن يكون من فى موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط . وآمن، فى موضع جزم بالشرط، والفاء الجواب . ولهم أجرهم، خبر من ، والجملة كلها خبر إنّ ؛ والعــائد على الذين محذوف ؛ تقديره من آمن منهــم بالله . وفى الإيمان بالله واليوم الآخر اندراج الإيمــان بالرسل والكتب والبعث .

السابعـــة — إن قال قائل : لِم جُمع الضمير فى قوله تعالى : «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» وآمن لفظ مفرد ليس بجمع، و إنما كان يستقيم لو قال : له أجره . فالجواب أن «من» يقع على الواحد والتثنية والجمــع، فجائز أن يرجع الضمير مفردا ومثنى ومجموعا؛ قال الله تعــالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» على المعنى . وقال : «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» على اللفظ . وقال الشاعر:

أَلِمَّــا بِسَلْمَى عنكما إنْ عَرَضْتُمَــا * وقولا لها عُوجِى على مَنْ تَخَلَّفوا

وقال الفرزدق :

تعــالَ فإن عاهــدتَنى لا تخونُنى * نكن مثلَ مَنْ ياذئب يصطحبانِ

فحمل على المعنى ، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب، وتخلّف . وقال تعــالى : « وَمَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ » فحمل على اللفظ . ثم قال : « خَالِدِينَ » فحمل على المعنى؛ ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيها . وإذا جرى ما بعد مَن على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما فى هذه الآية . وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعدُ على اللفظ؛ لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقد مضى الكلام فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) . والحمد لله .

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء .

الثامنـــة ــ روى عن ابن عباس أن قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية . منسوخ بقوله تعـالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة ، وهى فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبيّ عليه السلام .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» . قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شىء قلعته فرميت به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ابن الأعرابىّ : الناتق الرافع ، والناتق الباسط ، والناتق : الفاتق ؛ وآمرأة ناتق ومنتاق : كثيرة الولد . وقال القتبىّ : أُخذ ذلك من نتق السقاء ، وهو نفضه حتى تقتلع الزبدة منه . قال وقوله : « وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ »قال : قُلع من أصله .

واختلف فى الطور ؛ فقيل : الطور اسم للجبـل الذى كلّم الله عليـه موسى عليـه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره ؛ رواه ابن جريج عن ابن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور ما أنبتَ من الجبال خاصة دون ما لم يُنْبِت . وقال مجاهـد وقتادة : أىّ جبل كان ؛ إلا أن مجاهدا قال : هو إسم لكل جبل بالسريانية ؛ وقاله أبو العاليـة . وقد مضى الكلام هل وقع فى القرآن ألفاظ مفردة غير معرّبة من غير كلام العرب فى مقدّمة الكتاب . والحمد لله. وزعم البكرىّ أنه سُمّى بطور بن إسماعيل عليه السلام . والله تعالى أعلم .

القول فى سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليـه السلام لمـا جاء بنى إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة ؛ قال لهم : خذوها والتزموها . فقـالوا : لا ! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك . فصـعِقوا ثم حُيُوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا لا . فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فِلَسطِين

طوله فرسخ فى مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجُعل عليهم مثل الظُّلّة ، وأُتوا ببحر من خلفهم ، ونار من قِبَل وجوههم ، وقيـل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألّا تُضَيعوها ، وإلّا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبةً لله وأخذوا التوراة بالميثاق . قال الطبرى عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شِقّ لأنهم كانوا يرقُبون الجبل خوفا ؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها عباده ، فأَمَرُّوا سجودَهم على شِقّ واحد . قال ابن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمـان فى [قلوبهم][1] لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿خُذُوا﴾ أى فقلنا خُذُوا ، فحذف . ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم . ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى بجدٍّ واجتهاد ؛ قاله ابن عباس وقتادة والسـدّى . وقيل : بنيـة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بمـا فيه . وقيل : بقوّة : بكثرة درس . ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أى تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكتب ، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فان ذلك نبذ لها ؛ على ما قاله الشعبي وابن عيينة ؛ وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» . وقد روى النسائىّ عن أبى سعيد الخُدرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ من شرّ النـاس رجلًا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شىء منه " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن مَنْ لا خير فيه . فمـا لزم إذًا مَنْ قبلنا وأُخذ عليهـم لازم لنا وواجب علينا . قال الله تعالى : « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » . فأمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيـد شيئا ، لغلبة الجهل وطلب الرياسة واتباع الأهواء . روى الترمذىّ عن جُبَيْر بن نُفَيْر عن أبى الدرداء قال : كنّا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فشخص ببصره الى السماء ثم قال : "هذا أوانٌ يُخْتَلس فيه العلمُ

(١) زيادة عن تفسير ابن عطية .

من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء" . فقال زياد بن لَبِيد الأنصاريّ : كيف يُخْتَلَس منا وقد قرأنا القرآن ! فوالله لنقرأنه ولنقرئنّه نساءنا وأبناءنا . فقال : "ثَكِلَتْك أُمُّك يا زياد إن كنتُ لَأَعُدُّك من فقهاء المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تُغنى عنهم" وذكر الحديث، وسيأتى . وخرّجه النسائى من حديث جُبير بن نُفَير أيضا عن عوف بن مالك الأشجعىّ من طريق صحيحة، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لزياد : "ثكلتك أمك يا زياد هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى". وفى الموطأ عن عبد الله بن مسعود قال لإنسان : «إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه ، قليلٍ قُرّاؤه ، تُحْفَظُ فيه حدودُ القرآن وتُضَيَّع حروفه، قليلٍ من يسأل، كثيرٍ مَنْ يُعْطِى ، يُطيلون الصلاة ويُقْصِرون فيه الخطبة ، يبدءون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه ، كثير قرّاؤه ، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطى، يطيلون فيه الخطبة ، ويقصرون الصلاة، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم » . وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا . وقد قال يحيى : سألت ابن نافع عن قوله : يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم . قال يقول : يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذى افترض عليهم . وتقدّم القول فى معنى قوله : « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(1) . فلا معنى لإعادته .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ تولى تفعّل، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم؛ ثم استعمل فى الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقدات إتساعا ومجازا . وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى من بعد البرهان؛ وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقوله : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فضل، مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره، لأن العرب استغنت عن إظهاره؛ إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ، فاذا جاءوا بها لم يحذفوا الخبر. والتقدير فلولا فضل الله تداركم . ﴿ وَرَحْمَتُهُ ﴾ عطف على فضل، أى لطفه وإمهاله .

---

(1) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء.

﴿ لَكُنتُم ﴾[1] جواب لولا . ﴿ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان ؛ وقد تقدّم. وقيل : فضله قبول التوبة، ورحمته العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال: فعل ما لم يجب . قال ٱبن فارس فى المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ علمتم ، معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجهة إلى ذات المسمى . والعلم متوجه الى أحوال المسمى ؛ فاذا قلت : عرفت زيدا ، فالمراد شخصه . واذا قلت : علمت زيدا ، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل الى مفعول واحد وهو قول سيبويه : علمتم بمعنى عرفتم . وعلى الثانى إلى مفعولين . وحكى الأخفش : ولقد علمتُ زيدا ولم أكن أعلمه . وفى التنزيل : « لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . كل هذا بمعنى المعرفة فٱعلم . ﴿ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ صلة الذين . والاعتداء : التجاوز ، وقد تقدّم .

الثانيــة ــ روى النسائى عن صفوان بن عسّال قال : قال يهوديّ لصاحبه : اذهب بنا الى هذا النبيّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبيّ لو سمعك . فإن له أربعة أعين[2] . فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألاه عن تسع آيات بيّنات ؛ فقال لهم : " لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا تمشوا ببرىء الى سلطان ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزَّحْف وعليكم خاصة يهودُ ألّا تعدوا فى السّبت " . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبيّ . قال : " فما

(١) راجع ص ٣٤٨ .

(٢) الذى فى نسخة النسائى : « لو سمعك كان له أربعة أعين » مع تأنيث العدد أيضا .

يمنعكم أن تتّبعونى "! . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذريّته نبيّ ، و إنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرّجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة « سبحان » إن شاء الله تعالى .

الثالثـة — ﴿ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾ معناه فى يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد فى حكم السبت . والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيـه الحِيتان على جهـة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رُومَان أنّهـم كانوا يأخذ الرجل منهـم خيطا ويضع فيه وهفة(١) وألقاها فى ذنب الحوت ، وفى الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد ؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا من صَنع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِى به فى الأسـواق ، وأعلن الفَسَقة بصـيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنهى واعتزلت . ويقـال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجـدار . فأصبح النـاهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للنـاس لشأنا ؛ فعلوا على الجدار فنظروا فاذا هم قِرَدة ؛ ففتحوا البـاب ودخلوا عليهـم ، فعرفت القردةُ أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى ؛ فيقول : ألم نَنْهكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبّان قِردة ، والشيوخ خنازير ؛ فـما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . وسـيأتى فى الأعراف قول من قال : إنهـم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سبتت وتمّت خِلقتها . وقيل : هو مأخوذ من السبوت الذى هو الراحة والدعة .

واختلف العلمـاء فى الممسوخ هـل ينسُل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هـذه القِردة منهم . واختاره القـاضى أبو بكر بن العـربى . وقال الجمهور : الممسوخ لا ينسُل و إن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا ولم يبق

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى البعض الآخر : « وهطة » ولم نجد لها معنى .

لهم نسل؛ لأنه قـد أصابهم السخط والعذاب، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعـد ثلاثة أيام . قال ابن عباس : لم يعش مسخ قـط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال ابن عطيّـة : ورُوى عن النبيّ صـلى الله عليـه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هـذا هو الصحيح من القولين . وأما ما احتج به ابن العربى وغيره على صحـة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : "فُقِدتْ أُمّةٌ من بنى إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلتْ ولا أُراها إلا الفأر ألا ترونها اذا وُضِع لهـا ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضِع لهـا ألبان الشاء شربته" . رواه أبو هريرة أخرجه مسـلم، وبحديث الضَّبّ رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر؛ قال جابر : أُتِىَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضَبٍّ فأبى أن يأكل منه؛ وقال : "لاأدرى لعـلّه من القرون التى مُسختْ" فمتأوّل على ما يأتى . قال ابن العربىّ : وفى البخارىّ عن عمـرو بن ميمون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قِردةً قـد زنت فرجموها فرجمتُها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارىّ وسقط فى بعضها، وثبت فى نص الحديث «قد زنت» وسقط هـذا اللفظ عند بعضهم . قال ابن العربى : فان قيل : وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلَفـا عن سلف الى زمان عمرو ؟ قلنـا : نعم كذلك كان، لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يُقيمه فى مُسُوخهم(١) حتى يكون أبلغ فى الحجـة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبارهم ومسوخهم(١)، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون، ويحصى ما يبدّلون وما يغيّرون، ويُقيم عليهم الحجـة من حيث لا يشعرون، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لايُنْصَرون .

قلت : هذا كلامه فى الأحكام، ولا حجة فى شىء منه . وأما ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدىّ فى جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمـرو بن ميمون الأودىّ فى الصحيحين حكاية من رواية حُصَين عنه قال : رأيت فى الجاهليـة قردة اجتمع عليها قِردة

(١) فى الأصول : « ممسوخهم » . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربى .

فرجموها فرجمتُها معهـم . كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر فى أى موضـع أخرجه البخارىّ من كتابه؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها؛ فذكر فى كتاب أيام الجاهلية. وليس فى رواية النعيمىّ عن الفَرَبْرىّ أصلًا شىء من هذا الخبر فى القِردة؛ ولعلها من المقحمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارىّ فى التاريخ الكبير : قال لى نُعَيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيْم عن أبى بَلْج وحُصَين عن عمـرو بن ميمون قال : رأيت فى الجاهليـة قردةً اجتمع عليها قرود ترجموها فرجمتُها معهم . وليس فيه قد زنت . فان صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارىّ دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهليـة ولم يبال بظنه الذى ظنه فى الجاهلية . وذكر أبو عمـر فى الاستيعاب عمرو بن ميمون «وأنّ كنيته أبو عبد الله معدود فى كبار التـابعين من الكوفيين، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك، لأنّ رواته مجهولون . وقد ذكر البخارىّ عن نعيم عن هُشَيم عن حصين عن عمرو بن ميمون الأودىّ مختصرا قال : رأيت فى الجاهليـة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتُها معهم . ورواه عبّاد بن العوّام عن حصين كما رواه هُشَيم مختصرا . وأما القصة بطولها فانها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان؛ وليسا ممن يحتجّ بهـما . وهذا عند جماعة أهـل العلم منكر إضافة الزنا إلى غير مكلّف، وإقامة الحدود فى البهائم . ولو صح لكانوا من الجن؛ لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما» . وأمّا قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلّا الفأر" وفى الضب : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسِخَتْ" وما كان مثله، فإنما كان ظنًّا وخوفا أن يكون الضب والفأر وغيرهما مما مُسخ، وكان هذا حَدْسًا منه صلى الله عليه وسـلم قبل أن يوحى اليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلا؛ فلما أوحى اليه بذلك زال عنـه ذلك التخوّف، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا مما مُسِخ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير : هى مما مسخ؟ فقال : "إنّ الله لم يُهلك قومًا أو يعذِّب قومًا فيجعلَ لهم نسلًا وإن القردة والخنـازير كانوا قبل ذلك" . وهذا نص صريح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم فى كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر؛ فدلّ على صحة

ما ذكرنا . وبالله توفيقنا . ورُوى عن مجاهد فى تفسـير هذه الآية أنه إنما مُسِخَتْ قلوبُهم فقط، وردّت أفهامهم كأفهام القِردة . لم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ قردة خبر كان . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت، وإن شئت جعلته خبرا ثانيـا لكان ، أو حالا من الضـمير فى كونوا . ومعناه مبعَدين . يقال : خَسَأته خَسْأ وخَسِئ وانخسأ ، أى أبعدته فبعُد . وقوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا » أى مبعدا . وقوله : « ٱخْسَئُوا فِيهَـا » أى تباعدوا تبـاعد سخط . قال الكسائى : خَسَأ الرجل خُسُوءا، وخَسَأته خَسْأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القمىء . يقال : قَمُؤ الرجل قماء وقماءة صار قميئا ، وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغّرته وذلّلته ، فهو قمىء على فعيل .

قوله تعـالى : فَجَعَلْنَـاهَا نَـكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَـا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَـةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجعول نكالًا أقاويل؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمّة التى مُسِخت . وقيـل : الحِيتان ؛ وفيـه بُعدٌ . والنكال : الزجر والعقاب . والنِّكْل والأنكال : القيود . وسمّيت القيـود أنكالا لأنها يُنَكَّل بهـا أى يمنع . ويقال للجام الثقيل : نَكْل ونِكْل(١) ، لأن الدابة تمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل ، ونَكِل يَنْكَل إذا امتنع . والتنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَـكِّل مَنْ وراءهم أى تُجبِّنهـم . وقال الأزهرى : النَّكال العقوبة . ابن دريد : والمَنْكَل : الشىء الذى يُنَكِّل بالإنسان؛ قال(٢) :

* فَارمِ على أقفائهم بمَنْكَلِ *

(١) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل ؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده . والذى بها إنما هو بالكسر لا غير .

(٢) القائل رياح المؤملى . وقبله : * يا رب أشـقانى بنـو مؤمّل *

وبعده : * بصخرة أو عرض جيش جحفل * (عن شرح القاموس)

قوله : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ قال ابن عباس والسدى : لما بين يدى المسخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب . قال الفراء : جعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ، ولما يعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ابن عطية : وهذا قول جيد ، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . واختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى ، والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : لما بين يديها وما خلفها من القُرَى . وقال قتادة : لما بين يديها من ذنوبهم ، وما خلفها من صيد الحيتان .

قوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عطف على نكال ، ووزنها مَفْعِلة من الاتعاظ والانزجار . والوعظ : التخويف . والعظة الاسم . قال الخليل : الوعظ التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب . قال الماوردى : وخص المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفرّدهم بها عن الكافرين المعاندين . قال ابن عطية : واللفظ يعم كل متّق من كل أمة . وقال الزجاج : وموعظة للمتقين لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرَم الله جل وعز ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حرم الله فى سبتهم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ حُكى عن أبى عمرو أنه قرأ "يأمُرْكم" بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب ، وإنما الصحيح عن أبى عمرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿ أَنْ تَذْبَحُوا ﴾ فى موضع نصب بيأمركم ، أى بأن تذبحوا . ﴿ بَقَرَةً ﴾ نصب بتذبحوا . وقد تقدّم معنى الذبح ، فلا معنى لإعادته .[1]

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدم فى التلاوة، وقوله : «قَتَلْتُمْ نَفْسًا» مقدم فى المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : «قتلتم» فى النزول مقدما، والأمر بالذبح مؤخرا . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها؛ ويكون و إذ قتلتم مقـدّما فى المعنى على القـول الأوّل حسب ما ذكرنا، لأن الواو لا توجب الترتيب . ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه فى قوله : «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ» إلى قوله : «إلا قليـلٌ» . فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقـوله : «وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْـرِيهَا وَمُرْسَاهَا» . فذكر الركوب متأخرا فى الخطاب؛ ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا . قَيِّمًا» . وتقديره أنزل على عبده الكتاب قيّما ولم يجعل له عوجا؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثـالثـــة — لا خلاف بين العلماء أن الذبح أولى فى الغـنم ، والنحر أولى فى الإبل، والتخيير فى البقر . وقيل : الذبح أولى لأنه الذى ذكره الله، ولقرب المنحر من المذبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حرم أكل ما نُحر ممـا يُذبح، أو ذُبح مما يُنحر . وكره مالك ذلك . وقـد يكره المرء الشيء ولا يحـرمه . وسيأتى فى سـورة «المـائدة» أحكام الذّبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» مستوفًى إن شاء الله تعالى . قال المـاوردى : و إنمـا أمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها لأنهـا من جنس ما عبدوه من العجل ليهوّن عنـدهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علة فى ذبح البقرة، وليس بعلة فى جواب السائل؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حيّ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ بَقَـرَةً ﴾ البقرة اسم للأنثى، والثور اسم للذكر؛ مثل ناقة وجمل، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر، الأنثى والذكر سواء . وأصله من قولك :

بقر بطنه أي شقه؛ فالبقرة تشق الأرض بالحرث وتثيره . ومنه الباقر لأبي جعفر محمد بن علي زين العابدين ، لأنه بَقَر العلم وعرف أصله ، أي شقّه . والبَقِيرة : ثوب يشق فتلقيه المرأة في عنقها من غير كُمَّين . وفي حديث ابن عباس في شأن الهدهد " فبقر الأرض " . قال شَمِر : بقَر نظَر موضع الماء، فرأى الماء تحت الأرض . قال الأزهري : البقر اسم للجنس وجمعه باقر[1] . ابن عرفة : يقال بقير وباقر وبيقور . وقرأ عكرمة وابن يعمر « إن الباقر » . والثور : واحد الثيران . والثور : السيد من الرجال . والثور : القطعة من الأَقِط . والثور : الطُّحْلُب . وثور : جبل . وثور : قبيلة من العرب . وفي الحديث : " ووقت العشاء ما لم يغب ثَوْر الشّفق " يعني انتشاره؛ يقال : ثار يثور ثورا وثورانا إذا انتشر في الأفق . وفي الحديث : " من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن " . قال شَمِر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به .

قوله تعالى : ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » وذلك أنهم وجدوا قتيلا بين أظهرهم — قيل : اسمه عاميل — واشتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف؛ فقالوا : نقتتل ورسول الله بين أظهرنا؛ فأتوه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القَسَامة[2] في التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربّه فأمرهم بذبح بقرة؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس في ظاهره جواب عما سألوه عنه واحتكموا فيه عنده؛ قالوا : أتتخذنا هزؤا؟ والهزء : اللعب والسخرية؛ وقد تقدم[3] . وقرأ الجحدري «أَيَتَّخذنا» بالياء، أي قال ذلك بعضهم لبعض؛ فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : « أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزؤ جهل ؛ فاستعاذ منه عليه السلام ، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء . والجهل نقيض العلم . فاستعاذ من الجهل ، كما جهلوا في قولهم : أتتخذنا هزؤا ،

(١) في لسان العرب : فأما بقر و باقر و بقير و بيقور و باقور و باقورة فأسماء للجمع .

(٢) سيتكلم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى : « فقلنا اضربوه ببعضها » الآية . ص ٤٥٧ من هذا الجزء . (٣) راجع ص ٢٠٧

لمن يخبرهم عن الله تعالى، وظاهر هذا القول يدل على فساد اعتقاد من قاله . ولا يصح إيمان من قال لنبيّ قد ظهرت معجزته، وقال : إن الله يأمرك بكذا، أتتخذنا هزؤا؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية، على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفى هذا كله أدل دليل على قبح الجهل وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثان، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حَفْص واوا مفتوحة، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل؛ كقوله : « السفهاء ولا » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد، فتقول : هزْؤا، كما قرأ أهل الكوفة، وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان، التخفيف والتثقيل؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعْل ككُتُب وكُتْب، ورُسُل ورُسْل، وعُوُن وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » فليس مثل هزء وكفء، لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

مســألة — فى الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد . وليس المُزاح من الاستهزاء بسبيل؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمة بعده . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدادُ : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبّتك هذه من صوف نعجة أو من صوف كبش ؟ فقال له : لا تجهل أيها القاضى! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلا ! فتلا عليه هذه الآية؛ فأعرض عنه عبيد الله لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الاستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هذا تعنيت منهم وقلة طواعية ؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم . قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما ؛ ونحو ذلك روى الحسن البصريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ولغة بنى عامر « ادعِ » وقد تقدّم [1] . و ﴿يُبَيِّنْ﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَاهِيَ﴾ ابتداء وخبر . وما هية الشيء : حقيقته وذاته التي هو عليها .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ فى هـذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل، لأنه لمـا أمر ببقرة اقتضى أيّ بقرة كانت؛ فلما زاد فى الصفة نسخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخاض، ثم نسخه بابنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لمـا عيّن الصفة صار ذلك نسخا للحكم المتقدم . والفارض: المُسِنّة . وقد فرَضت تَفرِض فروضا أى أسنّت . ويقال للشيء القديم فارض؛ قال الراجز :

شَيَّبَ أصداغِى فرأسى أبيضُ ﴿ مَحَافِلٌ [2] فيها رجالٌ فُـرَّضُ

يعنى هَرْمَى ؛ وقال آخر :

لعمرك [3] قد أعطيت جارك فارضًا ﴿ تُساق إليـــه ما تقوم على رِجلِ

أى قديما؛ وقال آخر :

يارُبَّ ذى ضِغن علىّ فارض ﴿ له قُروء كقُروء الحائض

---

(١) راجع ص ٤٢٣ . (٢) فى الأصول : « محامل » بالميم . والتصـويب عن الصحاح للجوهرى . وفيه رواية أخرى رواها ابن الاعرابى هى :

﴿ محامل بيض وقوم فرض ﴾

يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة فرض . (٣) رواية اللسان : « لعمرى لقد » وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عنى بقرة هرمة .

أى قديم . و «لا فارض» رفع على الصفة لبقرة . و «لا بكر» عطف . وقيل : لا فارض خبر مبتــدأ مضمر ؛ أى لا هى فارض، وكذا لا ذلول ، وكذلك لا تسق الحــرث ، وكذلك مسلَّمة . فاعلمــه . وقيــل : الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتّسع جوفها لذلك؛ لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبِكْر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى القتبى أنها التى ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَينِ ويا خِلْبَ الكَبِدْ * أصبحتَ مِنّى كذراعٍ مِن عَضُدْ

والبِكْر أيضا فى إناث البهائم وبنى آدم : ما لم يَفْتَحِلْه الفحل ؛ وهى مكسورة الباء . وبفتحها الفَتِىّ من الإبل . والعَوَان : النَّصَف التى قــد ولدت بطنا أو بطنين؛ وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْتٌ بَهِيمُ اللّونِ ليس بفارضٍ * ولا بِعَوانٍ ذاتِ لونٍ مُخَصَّفِ

فرس أخصف : إذا ارتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهد : العوان من البقر هى التى قد ولدت مرة بعد مرة . وحكاه أهل اللغــة . ويقال : إن العوان النخلة الطويلة ؛ وهى فيما زعموا لغة يمانية . وحرب عوان : إذا كان قبلها حرب بكر؛ قال زهير :

إذا لَقِحت حربٌ عَــوانٌ مضِرّةٌ * ضَرُوسٌ تُهِرّ(١) الناسَ أنيابُها عُصْلُ

أى لا هى صغيرة ولا هى مسنّة، أى هى عوان، وجمعها « عُوْن » بضم العيــن وسكون الواو؛ وسمع « عُوُن » بضم الواو كرُسُل . وقد تقدّم . وحكى الفرّاء من العوان عَوّنتْ تَعويناً .

قوله تعالى : ﴿ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فما تركوه ؛ وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور فى أصول الفقه، وعلى أنّ الأمر على الفور؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدل على صحــة ذلك أنه تعــالى استقصرهم حين لم يبــادروا إلى فعل ما أمروا به فقال :

(١) فى الأصول : « تهز » بالزاى . والتصويب عن شرح الديوان . ومعنى «تهرالناس» أى تصيرهم يهرّونها ؛ أى يكرهونها . ولقحت : اشتدت . وضروس : عضوض سيئة الخلق . وعصل : كالحة معوجة .

« فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَـلُونَ » . وقيــل : لا ، بل على التّراخى لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله ابن خُوَيْزِ مَنْدَادُ .

قوله تعـالى : قَالُواْ ٱدْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِـعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ ما استفهام مبتدأة، ولونها الخبر. ويجوز نصب لونهـا بيبيّن ، وتكون ما زائدة . واللون واحد الألوان ، وهو هيئـة كالسواد والبياض والحمـرة . واللون : النوع . وفلان متلوّن إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد؛ قال :

كل يوم تتلوّنْ * غير هذا بك أَجْمَلْ

ولوّن البُسْر تلوينـا إذا بدا فيه أثر النّضج . واللون : الدَّقَلُ ، وهو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة واحدها لِينَة .

قوله : ﴿ صَفْرَاءُ ﴾ جمهور المفسرين أنها صفراء اللون من الصّفرة المعروفة . قال مكّى عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلْف . وقال الحسن وآبن جبير : كانت صفراء القرن والظلف فقط . وعن الحسن أيضا : صفراء معناه سوداء؛ قال الشاعر(١) :

تلك خَيْلِي منه وتلك رِكَابِي * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبِيبِ

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر؛ وهذا شاذ لا يسـتعمل مجازا إلا فى الإبل؛ قال الله تعالى: « كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ» وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة . ولو أراد السّواد لمـا أكّده بالفُقُوع، وذلك نعت مختص بالصفرة، وليس يوصف السواد بذلك؛ تقول العرب : أسود حَالِكٌ وحَلَكُوك وحُلْكُوك ودَجُوجِىّ وغِرْبيب، وأحمرُ قانِئٌ، وأبيضُ ناصعٌ، ولَهَقٌ ولِهَاقٌ ويَقَقٌ، وأخضرُ ناضرٌ، وأصفرُ فَاقِـعٌ؛ هكذا نص نقلة اللغة عن العرب . قال

(١) القائل هو الأعشى؛ كما فى اللسان .

الكسائى : يقال قَقَع لونها يَفْقَعُ فُقوعا إذا خلصت صفرته . والإفقاع : سوء الحال . وفواقع الدهر بوائقــه . وفقع بأصابعه إذا صــوّت ؛ ومنه حديث ابن عبــاس : نهى عن التفقيع فى الصلاة . وهى الفرقعة ، وهى غمز الأصابع حتى تَنْقِضَ (١) . ولم ينصرف صــفراء فى معرفة ولا نكرة ، لأن فيهــا ألف التأنيث وهى ملازمة نخالفت الهــاء ، لأن ما فيه الهــاء ينصرف فى النكرة ، كفاطمةٍ وعائشةٍ .

قوله تعالى : ﴿ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا ﴾ يريد خالصا لونها لا لون فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ قال وهب : كأن شــعاع الشمس يخرج من جلدها ، ولهــذا قال ابن عباس : الصفرة تسر النفس . وحَضّ على لباس النِّعال الصّفر ؛ حكاه عنــه النقاش . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه : من لبس نعلى جلد أصفر قلّ همّه ، لأن الله تعالى يقول : «صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» ؛ حكاه عنه الثعلبى . ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبى كثير عن لباس النعال السود ، لأنها تُهِمّ . ومعنى تسرّ تُعجِب . وقال أبو العالية : معناه فى سمتها ومنظرها فهى ذات وصفين ، والله أعلم .

قوله تعالى : قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ سألوا سؤالا رابعا ، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان . وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمــع ، ولذلك قال : « إن ٱلبقر تشابه علينا » فذكّره للفظ تذكير البقر . قال قُطْرُب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر . وقال الأصمعى : الباقر جمع باقرة ، قال : ويجمع بقر على باقورة . حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس والأعرج فيما ذكر الثعلبى « إن البقر تَشَّابه » بالتاء وشدّ الشين ؛ جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه ، ثم أدغم التاء فى الشين . وقرأ مجاهد «تَشَّبَّه» كقراءتهما ،

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو نقيض .

إلا أنه بغير ألف . وفى مصحف أُبَىّ «تشّابهت» بتشديد الشين . قال أبو حاتم : وهو غلط ، لأن التاء فى هـذا الباب لا تدغم إلا فى المضارعة . وقرأ يحيى بن يعمر « إن الباقر يشّابه » جعله فعـلا مستقبلا ، وذكّر البقر وأدغم . ويجوز « إن البقر تَشَابَهُ » بتخفيف الشين وضم الهـاء ؛ وحكاها الثعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز «يَشَابه» بتخفيف الشين والياء ، و إنما جاز فى التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التائين . والبقر والباقر والبيقور والبقير لغات بمعنًى ، والعرب تذكّره وتؤنّثه، والى ذلك ترجع معانى القراءات فى تشابه . وقيـل : إنما قالوا : « إن البقر تشابه علينا » لأن وجوه البقر تتشابه؛ ومنه حديث حذيفة بن اليَمَان عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه ذكر فِتَناً كقِطَع الليل تأتى كوجوه البقر . يريد أنهـا يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تتشابه ، ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ استثناء منهم ؛ وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابة مّا وانقياد ، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . ورُوى عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال : "لو ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبدا" . وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماما به . و « شاء » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه عنـد سيبويه الجملة إن وما عمِلت فيه . وعند أبى العباس المبرّد محذوف .

قوله تعـالى : قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ قرأ الجمهور « لا ذلول » بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : لا ذلول نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السّلمىّ « لا ذلولَ » بالنصب على النفى والخبر مضمر . ويجوز لا هى ذلول ، لا هى تسقى الحرث ، هى مسلمة . ومعنى لا ذلول لم يذللها العمل ؛ يقـال : بقرة مذلّلة بيّنـة الذِّل بكسر الذال . ورجل ذليل بيّن الذُّل بضم الذال ، أى هى بقرة صعبة غير رَيّضة لم تذلّل بالعمل .

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ تثير فى موضع رفع على الصفة للبقرة، أى هى بقرة لا ذلول مثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحشية، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسق الحرث، أى لا يُسْنَى بها لسقى الزرع ولا يسق عليها . والوقف هاهنا حسن . وقال قوم : «تثير» فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث لها، وأنها كانت تحرث ولا تسق . والوقف على هـذا التأويل لا ذلول . والقول الأوّل أصح لوجهين : أحدهما — ما ذكره النحاس عن علىّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون تثير مستأنفا لأن بعده ولا تسق الحرث، فلو كان مستأنفا لمـا جمع بين الواو ولا . الثـانى — أنهـا لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذللتها، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون «تثير الأرض» فى غير العمل مرحا ونشاطا، كما قال آمرؤ القيس :

يُهِيلُ ويُذْرِى تُرْبَه ويُثِيرُه * إثارةَ نَبَّاثِ الهَواجرِ مُخْمِسِ [(١)]

فعلى هذا يكون «تثير» مستأنفا، «ولا تسق» معطوف عليـه، فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها؛ ومنـه الحديث : " أَثِيرُوا القرآن [(٢)] فإنه عِلْم الأوّلين والآخرين " وفى رواية أخرى : " من أراد العـلم فليُثَوِّر القرآن " وقد تقدّم . وفى التنزيل : « وَأَثَارُوا الْأَرْضَ » أى قلبوها للزراعة . والحرث : ما حرث وزرع . وسيأتى .

مســـئلة — فى هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته، وإذا ضُبِط بالصفة وحُصر بها جاز السَّلَم فيــه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعى والليث والشافعى . وكذلك كل ما يضبط بالصــفة؛ لوصف الله تعـالى البقرة فى كتابه وصفا يقوم مقام التعيين؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها" . أخرجه مسلم . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الصفة تقوم مقام الرؤية، وجعل صلى الله عليه وســلم دِيَة الخطأ فى ذِمّة مَن أوجبها عليه دَينـا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

(١) قوله : نباث الهواجر، يعنى الرجل الذى إذا اشتد عليـه الحر هال التراب ليصـل الى ثراه . والمخمس : صاحب الإبل التى ترد خِمْسا . (٢) فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة (ثور) : « فان فيه » .

الكوفيين أبي حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم في الحيوان . ورُوِى عن ابن مسعود وحذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرة ، لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشي وحركة ، وكل ذلك يزيد في ثمنه ويرفع من قيمته . وسيأتى حكم السَّلَم وشروطه في آخر السورة في آية الدَّين ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أى هي مسلمة ، ويجوز أن يكون وصفا ، أى إنها بقرة مسلمة من العرج وسائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مسلمة من العمل لنفى الله العمل عنها . وقال الحسن : يعني سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى ليس فيها لون يخالف معظم لونها ، هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ، كما قال : « فاقِـع لونها » . وأصل شِية وَشية حذفت الواو كما حذفت من يشي ، والأصل يوشي ، ونظيره الزِّنة والعِدة والصلة . والشِّـيَة مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين مختلفين . وثور مُوَشًّى : في وجهه وقوائمه سواد . قال ابن عرفة : الشِّيَة اللون . ولا يقال لمن نَمّ : واشٍ ، حتى يغيِّر الكلام ويلوّنه فيجعله ضروبا ويزيّن منه ما شاء . والوَشْيُ : الكثرة . ووَشَى بنو فلان : كثروا . ويقال : فرسٌ أبْلَقُ ، وكبشٌ أخْرَج ، وتيسٌ أبْرَق ، وغرابٌ أبْقَع ، وثورٌ أَشْـيَه . كل ذلك بمعنى البُلْقة ؛ هكذا نص أهل اللغة .

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودين الله يسر ، والتعمق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ؛ نسأل الله العافية . ورُوِى في قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بني إسرائيل ولد له ابن ، وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضة وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبيّ . ومات الرجل فلما كبر الصبيّ قالت له أمّه — وكان بَرًّا بها — : إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليـه حتى أخذ بقرنيها — وكانت مستوحشـة — فجعـل يقودها نحو أمّه ؛ فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التي أمروا بها ؛ فساموه فاشتط عليهم . وكان قيمتها على

ما رُوى عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتطّ علينا ؛ فقال لهم : ارضوه فى ملكه ؛ فاشتروها منه بوزنها مرّة ؛ قاله عبيدة . السّدى : بوزنها عشر مرار . وقيل : بملء مَسْكِها دنانير . وذكر مكىّ أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أى بيّنت الحق ؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : «قالوا ألآن» . قطع ألف الوصل ؛ كما يقال : يا ألله . وحكى وجها آخر «قالوا لآنَ» بإثبات الواو . نظيره قراءة أهــل المدينة وأبى عمرو « عاداً لُولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا ألآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالوا الآن » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : الآن مبنىّ على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام ، لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى الى هذا الوقت ، فبنيت كما بنى هذا . وفتحت النون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين المـاضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه كاد أن يفعـل ، تشبيها بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهـم الى أمر الله . وقال القُرَظىّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفا من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن منبّه .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هـذا الكلام مقدّم على أوّل القصــة ، التقـدير وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ؛ فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهـذا كقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا » أى أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله كثير، وقد بيّناه أوّل القصة .

وفى سبب قتـله قولان : أحدهما — لابنة له حسناء أحب أن يتزوجها ابن عمها فمنعه عمّه ؛ فقتله وحمله من قريتـه الى قرية أخرى فألقاه هناك . وقيـل : ألقاه بين قريتين . الثانى — قتله طلبا لميراثه ؛ فإنه كان فقيرا وادّعى قتله على بعض الأسباط . قال عكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له إثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منـه ؛ فوجدوا قتيلا فى سبط من الأسـباط ، فادعى هؤلاء على هؤلاء ؛ ثم أتوا موسى يختصمون إليـه فقال : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » الآية . ومعنى ادّارأتم : اختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد . وأصـله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم لأنه ساكن فزيد ألف الوصل . ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ ابتـداء وخبر . ﴿ مَا كُنْتُمْ ﴾ فى موضع نصب بمخرج ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ جمـلة فى موضـع خبر كانـ ، والعائد محـذوف ؛ التقـدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يرث قاتل عمد من حينئذ . قاله عبيـدة السَّلمانىّ . قال ابن عباس : قتل هذا الرجلُ عمّـه ليرثه . قال ابن عطية : وبمثـله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله فى موطّئه أن قصة أُحَيحة بن الجُلَاح فى عمّه هى كانت سبب ألا يرث قاتل ؛ ثم ثبت ذلك للاسلام كما ثبت كثير من نوازل الجاهليـة . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العمـد من الدّية ولا من المـال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع . ويرث قاتل الخطأ من المـال ولا يرث من الدّية فى قول مالك والأوزاعى وأبى ثور والشافعىّ لأنه لا يتّهم على أنه قتله ليرثه ويأخذ ماله . وقال سفيان الثورىّ وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعىّ فى قول له آخر : لا يرث القاتل عمـدا ولا خطأ شيئا من المـال ولا من الدّية . وهو قول شُريح وطاوس والشـعبىّ والنخعىّ . ورواه الشعبى عن عمـر وعلىّ وزيد قالوا : لا يرث القاتل عمدا ولا خطأ شيئا . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يرث قاتل الخطأ من الدية ومن المـال جميعا . حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح ، على ما يأتى بيانه فى آية المواريث إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ قيـل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيـل : بعَجْب الذَّنَب إذ فيه يركب خلق الإنسان . وقيـل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها؛ والمقطوع به عضو من أعضائها؛ فلما ضرب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مســـئلة — استدل مالك رحمه الله فى رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقَسامة بقـول المقتول : دمى عند فلان، أو فلان قتلنى . ومنعه الشافعى وجمهور العلماء، قالوا : وهو الصحيح ، لأن قول المقتـول : دمى عنـد فلان ، أو فلان قتلنى ، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدَّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين، ولا يقين مع الاحتمال ، فبطل اعتبار قول المقتـول دمى عند فلان . وأما قتيل بنى إسرائيـل فكانت معجزة وأخبر تعـالى أنه يحييه ، وذلك يتضمن الإخبار بقـاتله خبرا جزما لا يدخله احتمال فافترقا . قال ابن العربى : المعجزة إنما كانت فى إحيائه فلما صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم فى القبول والرد؛ وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك، وليس فى القرآن أنه اذا أخبر وجب صدقه، فلعـله أمرهم بالقسامة معه . واستبعد ذلك البخارىّ والشافعىّ وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يقبل قوله فى الدم وهو لا يقبل قوله فى درهم .

مســـئلة — اختلف العلماء فى الحكم بالقَسامة؛ فرُوِى عن سالم وأبى قلابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عيينة التوقّف فى الحكم بهـا . وإليـه مال البخارى، لأنه أتى بحديث القسامة فى غير موضعه . وقال الجمهور : الحكم بالقسامة ثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم اختلفوا فى كيفية الحكم بها؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدعون بالأيمان فان حلفوا استحقوا، وإن نَكلوا حلف المدّعى عليهم خمسين يمينا وبرءوا . هذا قول أهل المدينة والليث والشافعى وأحمد وأبى ثور . وهو مقتضى حديث حَوَيِّصة ومُحَيِّصة خرّجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعى عليهم فيحلفون و يبرءون . رُوى هذا عن عمر بن الخطاب والشعبيّ والنخعي ؛ و به قال الثوري والكوفيون ؛ واحتجوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير ابن يسار؛ وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعى عليهم وهم اليهود ، و بما رواه أبو داود عن الزّهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود و بدأ بهـم : "أيحلف منكم خمسون رجلا" . فأبوا ؛ فقال للأنصار : "اسـتحقوا" فقالوا : نحلف على الغيب يارسول الله ! فجعلها رسول الله صـلى الله عليه وسـلم دية على يهود ، لأنه وجد بين أظهرهم . و بقوله عليه السلام : "ولكن اليمين على المدّعى عليه" . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به في الدعاوى الذي نبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام: "لو يُعطَى الناس بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالَهم ولكن اليمين على المدّعى عليه" . رد عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عبيد في تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائي وقال : ولم يُتابَع سعيد على هذه الرواية فيما أعلم ، وقد أسند حديثَ بُشير عن سهل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بدأ المدّعين يحيى بنُ سعيد وٱبنُ عيينة وحمـادُ بن زيد وعبدُ الوهاب الثقفي وعيسى بنُ حماد و بِشْرُبن المفضل؛ فهؤلاء سبعة و إن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفّاظ ، وهو أصح من حديث سعيد بن عبيد . قال أبو محمد الأصـيلي : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بن عبيد قال في حديثه : فوَدَاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة من إبل الصدقة ، والصدقة لا تعطى في الدّيات ولا يصالح بها عن غير أهلهـا ، وحديث أبي داود مرسل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ؛ وأجابوا عن التمسـك بالأصل بأن هذا الحكم أصل بنفسـه لحرمة الدماء . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعى واليمين على المدّعى عليه ، والحكم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخص الله في كتابه أو على لسان نبيّه صـلى الله عليه وسـلم حكما في شيء من الأشـياء فيستثنى من جملة هـذا الخبر . فما دل عليه الكتاب إلزام القـاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أر بعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخص

من رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات . وممـا خصّته السنة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسامة . وقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبى هريرة أن النبيّ صـلى الله عليه وسلم قال : " البيّنة على من آدّعى واليمـين على من أنكر إلا فى القسامة " . خرّجه الدّارَقُطنى . وقد احتج مالك لهذه المسئلة فى موطئه بما فيه كفاية، فتأمّله هناك .

مســـئلة — واختلفوا أيضا فى وجوب القَوَد بالقسامة؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها؛ وهو قول مالك والليث وأحمد وأبى ثور؛ لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن : " أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم " . وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقسامة من بنى نضر بن مالك . قال الدّارقطنى: نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخارى : رأيت علىّ بن المدينى وأحمد بن حنبل والحميدى وإسحاق بن راهويه يحتجون به؛ قاله الدارقطنى فى السنن. وقالت طائفة : لا قود بالقسامة، وإنمـا توجب الدّية . رُوى هذا عن عمر وآبن عباس؛ وهو قول النّخعى والحســن، وإليه ذهب الثورى والكوفيون والشافعى وإسحاق ، واحتجوا بمـا رواه مالك عن آبن أبى ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبى حَثْمَة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : " إما أن يَدُوا صاحبكم وإما أن يؤذنوا بحرب" . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القود؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : " وتستحقون دم صاحبكم " دية دم قتيلكم . لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ؛ ومن استحق دية صاحبه فقد استحق دمه ؛ لأن الدية قد تؤخذ فى العمد فيكون ذلك استحقاقا للدم .

مســـئلة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولابد منه . واللّوث : أمارة تغلب على الظنّ صــدق مدّعى القتل ، كشهادة العــدل الواحد على رؤية القتل ، أو يرى المقتول يتشـحّط فى دمه ، والمتّهم نحوه أو قربه عليــه آثار القتل . وقد اختلف فى اللوث والقول به ؛ فقــال مالك : هو قول المقتول دمى عند فلان. والشاهد العدل لوث. كذا فى رواية ابن القاسم عنه.

وروى أشهب عن مالك أنه يقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى ابن وهب أن شهادة النساء لوث . وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المرأتين لوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضي أبو بكر بن العربي : اُختلف في اللوث اختلافا كثيرا، مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحب إلىّ . قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم . ورُوى عن عبـد الملك بن مرْوان : أن المجروح أو المضروب اذا قال دمى عنـد فلان ومات كانت القسامة . وبه قال مالك والليث بن سـعد . واحتج مالك بقتيـل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعىّ : اللّوث الشاهد العـدل، أو يأتى ببيّنةٍ وإن لم يكونوا عدولا . وأوجب الثورىّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشـاهد؛ قالوا : اذا وجد قتيـل فى مَحلّة قومٍ وبه أثر حلف أهل ذلك الموضع أنهـم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهـم؛ واذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شىء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا ممـا أُجمع عليه عندنا؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيـه أهل العلم، ولا سلف لهم فيه؛ وهو مخالف للقرآن والسـنة، ولأن فيه إلزام العاقلة مَالًا بغير بيّنة ثبتت عليهـم ولا إقرار منهم . وذهب مالك والشافعىّ الى أن القتيل إذا وجد فى محلة قوم أنه هَدَر، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا؛ لأن القتيل قد يقتل ثم يُلقَى على باب قوم ليلطخوا به؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا ممـا يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مســـئلة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنسائى : لايقول مالك بالقسامة إلا باللّوث، فلِمَ أورد حديث القسامة ولا لوث فيـه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث، وأنزل اللوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال ابن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان؛ وبأن العداوة لوث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثا، كما تقدّم . قال الشافعى :

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التي كانت بين الأنصــار واليهود، ووجد قتيل في أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجبت القسامة فيه .

مســـئلة — واختلفوا في القتيــل يوجد في المحلة التي أكراها أربابها؛ فقال أصحاب الرأى : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شيء ، فان باعوا دورهم ثم وجد قتيل فالدّية على المشترى وليس على السكان شيء، وإن كان أرباب الدور غُيّباً وقد أكروا دورهم فالقسامة والدّية على أرباب الدور الغُيّب وليس على الســكان الذى وجد القتيــل بين أظهرهم شيء . ثم رجع يعقوب من بينهم عن هــذا القول فقال : القسامة والدية على الســكان في الدور . وحُكى هــذا القول عن ابن أبي ليلى ، واحتج بأن أهل خَيْبَر كانوا عُمّالا سكانا يعملون فوجد القتيل فيهم . قال الثورى ونحن نقول : هو على أصحاب الأصــل، يعنى أهل الدور . وقال أحمد : القول قول ابن أبي ليلى في القسامة لا في الدية . وقال الشافعي : وذلك كله ســواء، ولا عَقْلَ ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم ، أو ما يوجب القسامة فيقسم الأولياء . قال ابن المنــذر : وهذا أصح .

مســـئلة — ولا يحلف في القسامة أقل من خمسين يمينا؛ لقوله عليه السلام في حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : "يُقسم خمسون منكم على رجل منهم". فإن كان المستحقون خمسين حلف كل واحد منهم يمينا واحدة ، فإن كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه ردّت الأيمــان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف في العمد أقل من اثنين من الرجال، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء ، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأوليــاء من العَصَبة خمسين يمينا . هــذا مذهب مالك والليث والثورى والأوزاعي وأحمــد وداود . وروى مطرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعى عليه أحد ويحلف هم أنفسهم — كما لو كانوا واحدا فأكثر — خمسين يمينا يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعي . قال الشافعي : لا يُقسم إلا وارث كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له الملك لنفسه أو من جعل الله له الملك من الورثة، والورثة يُقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثور واختاره ابن المنذر

وهو الصحيح، لإن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يدّع عليه برىء . وقال مالك فى الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومن نَكل لم يستحق شيئا؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هـذا قول مالك المشهور عنه؛ وقد رُوى عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف ، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق .

مســألة ـــ فى قصّة البقرة هـذه دليل على أن شرع مَن قبلنا شرْع لنـا؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقوم من الفقهـاء، واختاره الكرخى ونص عليـه ابن بكير القاضى من علمائنا؛ وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب: هو الذى تقتضيه أصول مالك ومنازعه فى كتبه؛ وإليه مال الشافعى؛ وقد قال الله : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيي الله كل من مات . فالكاف فى موضع نصب لأنه نعت لمصدر محذوف . ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى علاماته وقدرته . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدّم . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلت نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

قوله تعـالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليبس . وهى عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل، لأنهم حين حيي وأخبر بقاتله وعاد الى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كذب؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى؛ فلم يكونوا قطّ أعمى قلبا ، ولا أشـدّ تكذيبا لنبيّهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذيّ عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي" . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أربعة من الشقاء جمود العين وقساء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا" .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ « أو » قيل : هى بمعنى الواو، كما قال: « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل، كقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدَتْ مثل قرن الشمس فى رونق الضّحى * وصورتها أو أنت فى العين أملح

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب، ومنه قول أبى الأسود الدُّؤَلى :

أحبّ محمدا حبًّا شديدا * وعبّاسا وحمزة أو عليّا

فإن يك حبّهم رشدا أصبه * ولست بمخطئ إن كان غيا .

ولم يشك أبو الأسود أن حبّهم رشد ظاهر، وإنما قصد الإبهام . وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت! قال: كلّا، ثم استشهد بقوله : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . وقال : أوكان شاكًّا من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة تصيبوا أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهـذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النّحو . وقيل : بل هى على بابها من الشك ، ومعناها عندكم أيها

(١) القساء بالفتح والمد مصدر، مثل القسوة والقساوة .

المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهى كالحجارة أو أشدّ من الحجارة ؟ وقد قيل هـذا المعنى فى قوله تعالى : « إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . وقالت فرقة : إنمـا أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشد من الحجر . فالمعنى هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَشَدُّ ﴾ أشد مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله « كَالْحِجَارَةِ » لأن المعنى فهى مثل الحجارة أو أشد؛ و يجوز أوأشدّ بالفتح عطف على الحجارة . و ﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حَيْوَةَ « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ ﴾ قد تقدّم معنى الانفجار[(1)] . و يشقق أصله يتشقق أدغمت التاء فى الشين ؛ وهـذه عبارة عن العيون التى لم تعظم حتى تكون أنهـارا، أو عن الحجارة التى تتشقق و إن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ابن مُصَرِّف «ينشقق» بالنون، وقرأ «لمّـا يتفجر» «لمّـا ينشقق» بتشديد لمّـا فى الموضعين . وهى قراءة غير متّجهة . وقرأ مالك بن دينار «ينفجر» بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عَذَر الحجارة ولم يعـذِر شقيّ بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لمـا تتفجر بالتـاء، ولا يجـوز لمـا تتشق بالتاء ؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثـه بتأنيث الأنهار؛ وهذا لا يكـون فى تشقق . قال النحاس : يجوز ما أنكره على المعنى، لأن المعنى و إن منها لحجارة تتشقق؛ وأما يشقق فمحمول على لفـظ ما . والشّق واحد الشُّـقوق؛ فهو فى الأصل مصدر، تقول : بيد فلان ورجليه شُقوق، ولا تقل: شُقَاق؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقق يصيب أرساغها وربمـا ارتفع إلى وظيفها ؛ عن يعقـوب . والشّق : الصبـح . وما، فى قوله : « لمـا يتفجر » فى موضع نصب ، لأنها اسم إنّ واللام للتأكيد . «منه» على لفظ ما، ويجوز «منها» على المعنى؛ وكذلك «وإنَّ مِنهـا لمـا يشقق فيخرج مِنه المـاء» . وقرأ قتادة «وإنْ» فى الموضعين مخففة من الثقيلة .

(1) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يقول : إن من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم، لخروج المـاء منها وترديها . قال مجاهد : ما تردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن ابن جريج . وقال بعض المتكلمين فى قوله : « وإن منهـا لمـا يهبط من خشـية الله » : البَرَد الهـابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز؛ وذلك أن الحجـارة لمّـا كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر اليها؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة، أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرى عن فرقة أن الخشـية للحجارة مستعارة؛ كما استعيرت الإرادة للجدار فى قوله : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ » ، وكما قال زيد الخيل[1] :

لمّـا أتى خبر الزبير تواضعت * ســورُ المدينة والجبالُ الخشّعُ

وذكر ابن بحر أن الضمير فى قوله تعـالى : « وإنّ منهـا » راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة، أى من القلوب لمـا يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ، والأوّل صحيح؛ فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل، كالذى رُوى عن الجذع الذى كان يستند اليــه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ؛ وثبت عنه أنه قال : " إن حجرا كان يسلّم علىّ فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن " . وكما رُوى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال لى ثَبِير[2] اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله " . فناداه حِرَاء : إلىّ يا رسول الله . وفى التنزيل : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ» الآية . وقال : «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ

(١) نسب هذا البيت فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فى ترجمة الزبير بن العوام وكذا فى كتاب سيبويه الى جرير . و يلاحظ أن زيد الخيل توفى على عهد رســول الله صلى الله عليه وســلم أو فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه . فوفاته إذًا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين انصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . يقول : لمـا وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هى وجبالها وخشعت حزنا له .

(٢) ثبير : جبل معروف عند مكة .

عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ » يعنى تذللا وخضوعا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « سبحان » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بغافل فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز، وعلى لغة تميم فى موضع رفع . والباء توكيد . ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم ؛ « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . ولا تحتاج ما الى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم، أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء، والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام .

تمّ الجزء الأوّل من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله الجزء الثانى، وأوّله قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ الآية .

دار الكتب المصرية

القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

الجزء الثانى

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثاني

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م

فهرس

الجـــزء الثـانى من تفسير القرطبى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الى قوله : ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ . هذا استفهام فيه معنى الإنكار، كأنه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود، أى إن كفروا فلهم سابقة فى ذلك . والخطاب لأصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحِلْف والجوار الذى كان بينهم . وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، عن ابن عباس، أى لا تحزن على تكذيبهم اياك، وأخبره عن أهل السوء الذين مضوا ، وأن فى موضع نصب، أى فى أن يؤمنوا؛ نصب بأن ؛ ولذلك حذفت منه النون .

يقال : طَمِع فيه طمعا وطماعِيَة مخفف فهو طَمِع ، على وزن فَعِل . وأطمعه فيه غيره . ويقال فى التعجب : طمُع الرجل بضم الميم ، أى صار كثير الطمع . والطَّمَع : رزق الجند؛ يقال : أمر لهم الأمير بأطماعهم ، أى بأرزاقهم . وامرأة مطماع ، تُطمِع ولا تُمكِّن .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ . الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظ ، وجمعه فى أدنى العـدد أفرقة ، وفى الكثير أفرقاء . ﴿يَسْمَعُونَ﴾ . فى موضع نصب خبر كان ، ويجوز أن يكون الخبر منهم ، ويكون يسمعون نعتا لفريق ؛ وفيه بعد ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ قراءةُ الجماعة ، وقرأ الأعمش كَلِمَ الله على جمع كلمة . قال سيبويه : واعلم أن ناسا من ربيعة يقولون مِنْهِم بكسر الهاء إتباعا لكسرة الميم ،ولم يكن المسكَّن حاجزا حصينا عندهم . ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ مفعول بيسمعون . والمراد السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره، وحرّفوا القول فى إخبارهم لقومهم . هذا قول الربيع وابن اسحاق ، وفى هذا القول ضعف ؛ ومن قال : إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ وأذهب بفضيلة موسى واختصاصه بالتكليم . وقد قال السدى وغيره : لم يطيقوا سماعه ، واختلطت أذهانهم ورغبوا

أن يكون موسى يسمع و يعيده لهم ؛ فلما فرغوا وخرجوا بدّلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيّهم موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ﴾ .

فإن قيـل : فقد روى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس أن قوم موسى سألوا موسى أن يسأل ربه أن يسمعهم كلامه فسمعوا صوتا كصوت الشَّبُّور[1] " إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحىّ القيوم أخرجتكم من مصر بيد رفيعة وذراع شديدة " .

قلت : هـذا حديث باطل لا يصح ، رواه ابن مروان عن الكلبي وكلاهما ضـعيف لايحتج به؛ وإنما الكلام شيء خُص به موسى من بين جميع ولد آدم؛ فان كان كلم قومه أيضا حتى أسمعهم كلامه فمـا فضـل موسى عليهم ؛ وقد قال وقوله الحق : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى ﴾ . وهذا واضح .

الثالثـة — واختلف الناس بمـاذا عرف موسى كلام الله ولم يكن سمـع قبـل ذلك خطابه؛ فمنهم من قال : إنه سمع كلاما ليس بحروف وأصوات، وليس فيه تقطيع ولا نفس؛ فحينئذ علم أن ذلك ليس هو كلام البشر وإنما هو كلام رب العالمين . وقال آخرون : إنه لمـا سمع كلاما لا من جهة ؛ وكلام البشر يسمع من جهة من الجهات الست ، علم أنه ليس من كلام البشر . وقيـل : إنه صار جسده كله مسامع حتى سمع بها ذلك الكلام؛ فعلم أنه كلام الله . وقيل : إن المعجزة دلت على أن ما سمعه هو كلام الله ، وذلك أنه قيل له : ألق عصاك، فألقاها فصارت ثعبانا ؛ فكان ذلك علامة له على صدق الحال، وأن الذى يقول له : ﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴾ . هو الله جلّ وعزّ . وقيل : إنه قد كان أضمر فى نفسه شيئا لا يقف عليه إلا علام الغيوب فأخبره الله تعالى فى خطابه بذلك الضمير؛ فعلم أن الذى يخاطبه هو الله جل وعزّ . وسيأتى فى سورة القصص بيان معنى قوله تعالى : ﴿ نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ . إن شاء الله تعالى .

---

(١) الشبور (على وزن التنور) : البوق .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ . قال مجاهد والسّـدى : هم علماء اليهود الذين يحرّفون التوراة فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما اتباعا لأهوائهم . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ . أى عرفوه وعلموه، وهذا توبيخ لهم أى أن هؤلاء اليهود قد سلفت لآبائهم آفاعيل سوء وعناد، فهؤلاء على ذلك السنن فكيف تطمعون فى إيمانهم ! .

ودل هذا الكلام أيضا على أن العالم بالحق المعاند فيه بعيد من الرشـد ، لأنه علم الوعد والوعيد ولم ينهه ذلك عن عناده .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ . هذا فى المنافقين، وأصل لقوا ، لقيوا وقد تقدّم . ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ . الآية فى اليهود، وذلك أن ناسا منهم أسلموا ثم نافقوا، فكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بما عُذّب به آباؤهم ، فقالت لهم اليهود : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ . أى حكم الله عليكم من العذاب ليقولوا نحن أكرم على الله منكم . عن ابن عباس والسدى . وقيل : إن عليّا لما نازل قُريظة يوم خيبر سمع سبّ رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم فانصرف إليه ، وقال يارسول الله : لا تبلغ إليهم وعرّض له ، فقال : أظنك سمعت شتمى منهم لو رأونى لكفّوا عن ذلك ، ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا ، فقال لهم : نقضتم العهـد يا أخوة القردة والخنازير، أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ! فقالوا : ما كنت جاهلا يامحمد فلا تجهل علينا، من حدّثك بهذا ؟ ما خرج هـذا الخبر إلا من عندنا ! روى هذا المعنى عن مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَا ﴾ . الأصل فى خلا ، خَلَوَ قلبت الواو ألفـا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها ، وتقـدّم معنى خلا فى أوّل الســورة . ومعنى فتح : حكم . والفتح عنـد العرب : القضاء والحكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ . أى الحاكمين . والفتاح : القاضى بلغة اليمن ، يقال : بينى و بينك الفتاح . قيل ذلك لأنه ينصر المظلوم على الظالم . والفتح : النصر ، ومنه قوله : ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . وقوله : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ . و يكون بمعنى الفرق بين الشيئين .

قوله تعالى : ﴿ لِيُحَاجُّوكُمْ ﴾ . نصب بلام كى ، وإن شئت بإضمار أن ، وعلامة النصب حذف النون . قال يونس : وناس من العرب يفتحون لام كى . قال الأخفش : لأن الفتح الأصل . قال خلف الأحمر : هى لغة بنى العنبر . ومعنى ليحاجوكم ليعيّروكم ويقولوا نحن أكرم على الله منكم . وقيـل : المعنى ليحتجوا عليكم بقولكم ؛ يقولون كفرتم به بعـد أن وقفتم على صدقه . وقيل : إن الرجل من اليهود كان يلقى صديقه من المسلمين فيقول له : تمسك بدين محمد فإنه نبىّ حقا . ﴿ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ . قيل فى الآخرة كما قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ . وقيل : عند ذكر ربكم . وقيـل : عند ، بمعنى فى أى ليحاجكم به فى ربكم ؛ فيكونوا أحق به منكم لظهور الحجة عليكم . روى عن الحسن . والحجة الكلام المستقيم على الإطلاق ؛ ومن ذلك محجّة الطريق . وحاججت فلانا فحججته أى غلبته بالحجة ؛ ومنـه الحديث : "فحجّ آدم موسى" . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . قيل : هو من قول الأحبار للاتباع . وقيل : هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين ، أى أفلا تعقلون أن بنى إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال ؛ ثم وبخهم توبيخا يتلى فقال : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية . فهو اسـتفهام معناه التـوبيخ والتقريع . وقرأ الجمهور يعلمون بالياء ؛ وابن محيصن بالتـاء ؛ خطابا للؤمنين . والذى أسرّوه كفرهم ، والذى أعلنوه الجحد به .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ . أى من اليهود . وقيل : من اليهود والمنافقين أمّيون ؛ أى من لا يكتب ولا يقرأ ؛ واحدهم أمّىّ منسوب إلى الأمّة الأمّيّة التى هى على أصل ولادات أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ؛ ومنه قوله عليه السلام : «إنا أمة أمّيّة لا نكتب ولا نحسب» الحـديث . وقيل : قيـل لهم أميون لأنهم لم يصـدّقوا بأم الكتاب . عن ابن عباس . وقال أبو عبيدة : إنمـا قيل لهم أميّون لنزول الكتاب عليهـم كأنهم نسـبوا الى أم الكتاب ؛ فكأنه قال : ومنهـم أهل الكتاب لا يعلمون . عكرمة والضحاك : هم نصارى العرب . وقيل : هم قوم من أهل الكتاب رُفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أمّيّين . علىّ رضى الله عنه : هم المجوس .

قلت : والقول الأوّل أظهر، والله أعلم .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ . إلا ههنا بمعنى لكن، فهو استثناء منقطع كقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ . وقال النابغة :

حلفت يمينا غــير ذى مثنويّة * ولا علم إلا حسن ظنٍ بصاحبِ

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج إلا أمانى خفيفة الياء، حذفوا إحدى الياءين استخفافا . قال أبو حاتم : كل ما جاء من هــذا النحو واحده مشدّد فلك فيه التشديد والتخفيف، مثل أثافى وأغانى وأمانى ونحوه . وقال الأخفش : هذا كما يقال فى جمع مفتاح : مفاتيح ومفاتح وهى ياء الجمع . قال النحاس : الحذف فى المعتل أكثر، كما قال الشاعر :

وهل يرجع التســليم أو يكشف العمى * ثلاث الأثافى والرســوم البــلاقع

والأمانى جمع أمنيــة وهى التلاوة ، وأصــلها أُمْنُويَة على وزن أفعولة فأدغمت الواو فى الياء فانكسرت النون من أجل الياء فصارت أمنية، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . أى اذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته . وقال كعب بن مالك :

تمنّى كتاب الله أوّل ليله * وآخرَه لاقى حِمامَ المقادرِ

وقال آخر :

تمنّى كتاب الله آخرَ ليــله * تمنّيَ داودَ الزّبورَ على رِسْلِ

والأمانى أيضا الأكاذيب، ومنه قول عثمان رضى الله عنه : ما تمنّيتُ منــذ أسلمت . أى ما كذبت . وقول بعض العرب لابن دأْب وهو يحدّث : أهذا شىء روَيته أم شىء تمنّيْتَه؟ أى افتعلته . وبهــذا المعنى فسّر ابن عباس ومجاهد أمانىّ فى الاية . والأمانىّ أيضا ما يتمنّاه الإنســان ويشتهيه . قال قتادة : إلا أمانىّ يعنى أنهم يتمنون على الله ما ليس لهم . وقيــل : الأمانى المقدّرات، يقال: منىَ له أى قدّر. قاله الجوهرى، وحكاه ابن بحر وأنشد قول الشاعر:

لا تأمنَنّ وإن أمسيت فى حَرَمٍ * حتى تُلاقِىَ ما يَمْنِى لك المانِى

أى يقدّر لك المقدّر .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ . إن بمعنى ما النافية ؛ كما قال تعـالى : ﴿ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ : و يظنون ، يكذبون و يحـدثون ، لأنه لا علم لهـم بصحة ما يتلون و إنمـا هم مقلدون لأحبارهم فيما يقرءون به .

قال أبو بكر الانبـارى : وقد حدّثنا أحمد ابن يحيي النحوى أن العرب تجعل الظنّ علما وشـكا وكذبا ، وقال : إذا قامت براهين العلم فكانت أكثر من براهين الشك فالظنّ يقين ، و إذا اعتدلت براهين اليقين و براهين الشك فالظن شك ، و إذا زادت براهين الشك على براهين اليقين فالظن كذب . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ . أراد إلا يكذبون .

الرابعة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : نعت الله تعالى أحبارهم بأنهم يبدلون ويحرفون فقال وقوله الحق : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ الآية . وذلك أنه لمـا درس الأمر فيهم ، وساءت رعيّة علمائهم ، وأقبلوا على الدنيا حرصا وطمعا ، طلبوا أشياء تصرف وجوه الناس اليهم ، فأحدثوا فى شريعتهم و بدّلوها ، وألحقوا ذلك بالتوراة ، وقالوا لسفهائهم : هذا من عند الله ؛ ليقبلوها عنهم فتتأكد رئاستهم وينالوا به حطام الدنيا وأوساخها ؛ وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل . وهم العرب ؛ أى ما أخذنا من أموالهم فهو حلّ لنا . وكان مما أحدثوا فيه أن قالوا : لا يضرنا ذنب فنحن أحباؤه وأبناؤه . تعالى الله عن ذلك . و إنما كان فى التوراة "يا أحبارى و يا أبناء رسلى" فغيّروه وكتبوا "يا أحبائى و يا أبنائى" فأنزل الله تكذيبهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ . فقالت : لن يعذّبنـا الله ، و إن عذّبنا فأربعين يوما مقدار أيام العجل . فأنزل الله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ . قال ابن مِقسم : يعنى توحيدا بدليل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ يعنى لا إله إلا الله ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ثم أكذبهم فقال : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ

أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . فبيّن تعالى أن الخلود في النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان لا بما قالوه .

قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿فَوَيْلٌ﴾ . اختلف في الويل ما هو؟ (1) فروى عثمان بن عفّان عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه جبل من نار . وروى أبو سعيد الخدريّ أن الويل واد في جهنم بين جبلين يهوى فيه الهاوى أربعين خريفا . وروى سفيان وعطاء بن يسار : أن الويل في هذه الآية وادٍ يجرى بفناء جهنم من صديد أهل النار . وقيل : صهريج في جهنم . وحكى الزهراوى عن آخرين : أنه باب من أبواب جهنم .

وعن ابن عباس : الويل المشقة من العذاب .

وقال الخليل : الويل شدّة الحرّ . الأصمعى : الويل تفجع . والويح ترحم . سيبويه : ويل لمن وقع في الهلكة، وويح زجر لمن أشرف على الهلكة . ابن عرفة : الويل الحزن؛ يقال : تويّل الرجل إذا دعا بالويل؛ وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه؛ ومنه قوله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ . وقيل : أصله الهَلَكة، وكل من وقع في هَلَكة دعا بالويل؛ ومنه قوله تعالى : ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا ٱلْكِتَابِ﴾ . وهي الويل والويلة، وهما الهَلَكة والجمع الويلات؛ قال :

* له الويل إن أمسى ولا أم هاشم *

وقال أيضا :

* فقالت لك الويلات إنك مرجلي *

وارتفع ويل بالابتداء، وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء . قال الأخفش : ويجوز النصب على إضمار فعل أي ألزمهم الله ويلا . وقال الفراء : الأصل في الويل وَىْ أي حزن؛ كما تقول : وى لفلان أي حزن له؛ فوصلته العرب باللام وقدّروها

(1) قال أبو حيان في البحر المحيط : لو صح في تفسير الويل شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجب المصير اليه وقد تكلمت العرب في نظمها ونثرها بلفظ الويل قبل أن يجيء القرآن ولم تطلقه على شيء من هذه التفاسير وإنما مدلوله ما فسره به أهل اللغة .

منه فأعربوها . والأحسن فيه اذا فصـل عن الإضافة الرفع، لأنه يقتضى الوقوع ؛ و يصح النصب على معنى الدعاء كما ذكرنا .

قال الخليل : ولم يسـمع على بنائه إلا ويح وويس وويه وويك وويب ؛ وكله يتقارب فى المعنى . وقد فرق بينهـا قوم ؛ وهى مصادر لم تنطق العرب منها بفعـل . قال الجرمى : ومـا ينتصب انتصاب المصـادر ويله وعوله وويحه وويسـه ، فاذا أدخلت اللام رفعت فقلت : ويل له وويح له .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ﴾ . الكتابة معروفة .

وأوّل من كتب بالقلم وخط به إدريس عليه السلام جاء ذلك فى حديث أبى ذَرٍّ خرّجه الآجرىّ وغيره . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أعطى الخط فصار وراثة فى ولده .

الثالثـة — قوله تعالى ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ . تأكيد، فإنه قد عُلم أن الكَتْب لا يكون إلا باليد فهو مثل قوله : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ . وقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ . وقيل : فائدة بأيديهم بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم، فإن من تولّى الفعل أشدّ مواقعـة ممن لم يتوله وإن كان رأيا له . وقال ابن السرّاج : بأيديهم كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم وإن لم تكن حقيقة من كَتْبِ أيديهم .

الرابعـة — فى هـذه الآية والتى قبلهـا التحذير من التّبديل والتّغيير والزيادة فى الشرع ؛ فكل مَن بدّل وغيّر أو ابتدع فى دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هـذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم ؛ وقد حذّر رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم أمته لمـا قد علم ما يكون فى آخر الزمان فقال : « ألا إنّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسـبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » الحديث وسـيأتى . فحذّرهم أن يُحدثوا من تلقاء أنفسهم فى الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سـنة أصحابه فيضلوا به الناس؛ وقد وقع ما حذره وشاع، وكثر وذاع ؛ فإنا لله وانا إليه راجعون .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . وصف الله تعالى ما يأخذونه بالقلة إما لفنائه وعدم ثباته ، وإما لكونه حراما ، لأن الحرام لا بركة فيه، ولا يربو عند الله . قال

ابن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم في كتابهم رَبْعة أسمر، بجعلوه آدم سبْطا طويلا وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبيّ صلّى الله عليه وسلم الذى يبعث فى آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا . وكانت للأحبار والعلماء رئاسة ومكاسب، فخافوا إن بيّنوا أن تذهب مآكلهم ورئاستهم، فمن ثَمّ غيّروا .

ثم قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ . قيل من المآكل . وقيل من المعاصى . وكرر الويل تغليظا لفعلهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ الآية . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ . يعنى اليهود . ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ . اختلف فى سبب نزولها، فقيل : إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لليهود : « مَن أهل النار » . قالوا : نحن ثم تخلفوننا أنتم . فقال : « كذبتم لقد علمتم أنا لا نخلفكم » . فنزلت هذه الآية . قاله ابن زيد[1] . وقال عكرمة عن ابن عباس : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ويهود تقول : إنما هذه الدنيا سبعة آلاف وإنما يعذب الناس فى النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد فى النار من أيام الآخرة، وإنما هى سبعة أيام . فأنزل الله الآية، وهذا قول مجاهد . وقالت طائفة : قالت اليهود إن فى التوراة أن جهنم مسيرة أربعين سنة وأنهم يقطعون فى كل يوم سـنة حتى يكملوها وتذهب جهنم . ورواه الضحاك عن ابن عباس . وعن ابن عباس : زعم اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوبا أن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سـنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم . قالوا : إنما نعذب حتى ننتهى إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك . وعن ابن عباس أيضا وقتادة : أن اليهود قالت إن الله أقسم أن يدخلهم النـار أربعين يوما عدد عبادتهم العجل؛ فأكذبهم الله كما تقدم .

الثانيـة — فى هذه الآية ردّ على أبى حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام : «دعى الصلاة أيام أقرائك» . فى أن مدة الحيض ما يسمىّ أيام الحيض، وأقلها ثلاثة وأكثرها

(١) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

عشرة . قالوا : لأن ما دون الثلاثة يسمى يوما ويومين ، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوما ولا يقال فيه أيام ، وإنمـا يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ . ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ . ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ .

فيقال لهم : فقـد قال الله تعالى فى الصوم : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ . يعنى جميع الشهر؛ وقال : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْـدُودَاتٍ ﴾ . يعنى أربعين يوما ؛ وأيضا فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يُرَد به تحديد العدد، بل يقال : أيام مشيك وسفرك وإقامتك، وإن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد ؛ ولعله أراد ما كان معتادا لها، والعادة ست أو سبع؛ فخرّج الكلام عليه، والله أعلم .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ ﴾ . تقـدّم القول فى اتخـذ فلا معنى لإعادته . ﴿ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ . أى أسلفتم عملا صالحا فآمنتم وأطعتم فتستوجبون بذلك الخروج من النار! أو هل عرفتم ذلك بوحيه الذى عهده إليكم ! ﴿ فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ قولان . ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . توبيخ .

قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ . أى ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه : ليس بلى ونعم اسمين، وإنما هما حرفان مثل بل وغيره؛ وهى رد لقولهم : لن تمسنا النار . وقال الكوفيون : أصـلها بل التى للإضراب عن الأول، زيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها ، وضمنت الياء معنى الإيجاب . فبل تدل على رد الجحد، والياء تدل على الإيجاب لمـا بعـد . قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا؟ فقلت : نعم؛ لكان المعنى لا لم آخذ؛ لأنك حققت النفى وما بعده. فإذا قلت : بلى ؛ صار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك علىّ شىء؛ فقال الآخر: نعم؛ كان ذلك تصديقا لأن لا شىء له عليه؛ ولو قال: بلى كان ردّا لقوله؛ وتقديره بلى لى عليـك؛ وفى التنزيل : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ . ولو قالوا نعم لكفروا .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿سَيِّئَةً﴾ . السيئة الشرك . قال ابن جريج : قلت لعطاء من كسب سيئة؟ قال : الشرك؛ وتلا ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ . وكذا قال الحسن وقتادة . قالا : والخطيئة الكبيرة .

الثالثـة — لمـا قال تعالى : ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ . دل على أن المعلّق على شرطين لا يتم بأقلهما؛ ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ . وقوله عليه السلام لسفيان بن عبد الله الثقفي وقد قال له : يارسول الله، قل لى فى الإسـلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » . رواه مسلم . وقد مضى القول فى هذا المعنى وما للعلماء فيه، عند قوله تعالى لآدم وحواء : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ . وقرأ نافع خطيئاته بالجمـع . الباقون بالأفراد؛ والمعنى الكثرة مثـل قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ . الآية . فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ . تقدّم الكلام فى بيان هذه الألفاظ . واختلف فى الميثاق هنا؛ فقال مكّى : هو الميثاق الذى أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذرّ . وقيل : هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء فى حياتهم على ألسنة أنبيائهم وهو قوله : ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ . وعبادة الله إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل فى كتبه .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ . قال سيبويه : لا تعبدون متعلق بقسم؛ والمعنى وإذ استحلفناهم والله لا تعبدون؛ وأجازه المبرّد والكسائى والفرّاء . وقرأ أُبَىّ وابن مسـعود لا تعبدوا على النهى، ولهذا وصل الكلام بالأمر فقال : ﴿وَقُومُوا . وَقُولُوا . وَأَقِيمُوا . وَآتُوا﴾ . وقيل : هو فى موضع الحال أى أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين . قاله قطرب والمبرد أيضا . وهذا إنمـا يتجه على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائى يعبدون بالياء من أسفل . وقال الفرّاء والزجاج وجمـاعة : المعنى أخذنا ميثاقهم بألا يعبـدوا إلا الله، و بأن يحسنوا للوالدين،

و بأن لا يسفكوا الدماء، ثم حذفت أن والبـاءُ فارتفع الفعل لزوالها كقوله تعـالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونِّى ﴾ . قال المبرد : هـذا خطأ لأن كل ما أضمر فى العربيـة يعمل عمـله مظهرا تقول : وبلدٍ قطعت أى رب بلد .

قلت : ليس هذا بخطإ بل هما وجهان صحيحان وعليهما أنشد سيبويه :

ألا أيهـــذا الزاجرى أحضر الوغى * وأن أحضر اللذات هل أنت مُخْلِدِ

بالنصب والرفع فالنصب على إضمار أن والرفع على حذفها .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ . أى وأمرناهم بالوالدين إحسانا . وقرن الله عزّ وجلّ فى هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثانى وهو التربية من جهة الوالدين ، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ . والإحسان إلى الوالدين، معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة لهما بعد مماتهما، وصلة أهل ودّهما . على ما يأتى بيـانه مفصّلا فى الإسراء إن شاء الله تعالى .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ . عطف ذى القربى على الوالدين ؛ والقربى بمعنى القرابة وهو مصدر كالرجعى والعقبى، أى وأمرناهم بالإحسان إلى القرابات بصلة أرحامهم . وسيأتى بيان هذا مفصّلا فى سورة القتال إن شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ . اليتامى عطفٌ أيضا وهو جمع يتيم مثل ندامى جمع نديم . واليُتْمُ فى بنى آدم بفقد الأب، وفى البهائم بفقد الأم . وحكى المـاوردىّ أن اليتيم يقال فى بنى آدم فى فقـد الأم؛ والأوّل المعروف . وأصله الانفراد؛ يقـال : صبى يتيم أى منفرد من أبيه . وبيت يتيم أى ليس قبله ولا بعده شىء من الشعر . ودرّة يتيمة ليس لهـا نظير . وقيل : أصله الإبطاء فسمى به اليتيم لأن البرّ يبطئ عنه؛ ويقال : يَتُمَ يَيْتُمُ يُتْمـا مثل عظُم يعظُم، ويَتِم يَيْتَم يُتْما ويَتَما مثل سمع يسمع . ذكر الوجهين الفرّاء . وقد أيتمه الله .

ويدل هذا على الرأفة باليتيم والحض على كفالته وحفظ ماله ، على ما يأتي بيانه في النساء ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة » . وأشار مالك بالسبابة والوسطى ؛ رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وخرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الحسن بن دينار أبي سعيد البصري وهو الحسن بن واصل[(١)] قال حدّثنا الأسود بن عبد الرحمن عن مصّان عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : « ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم الشيطان » . وخرج أيضا من حديث حسين بن قيس وهو أبو علي الرّحَبيّ[(٢)] عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ضم يتيما من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله عزّ وجلّ غُفرت له ذنوبه البتّة إلا أن يعمل عملا لا يغفر ومن أذهب الله كريمتيه فصبر واحتسب غفرت له ذنوبه » قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : « عيناه ومن كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يَبِنّ أو يمتن غفرت له ذنوبه البتّة إلا أن يعمل عملا لا يغفر » فناداه رجل من الأعراب ممن هاجر فقال : يا رسول الله أو اثنتين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو « اثنتين » . فكان ابن عباس اذا حدّث هذا الحديث : قال هذا والله من غرائب الحديث وغرره .

السادسة — السبّابة من الأصابع هي التي تلي الإبهام وكانت في الجاهلية تدعى بالسبّابة لأنهم كانوا يسبّون بها ؛ فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الاسم فسمّوها المشيرة لأنهم كانوا يشيرون بها الى الله في التوحيد . وتسمى أيضا بالسباحة جاء تسميتها بذلك في حديث وائل بن حُجر وغيره ؛ ولكن اللغة سارت بما كانت تعرفه في الجاهلية فغلبت . وروى عن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشيرة منها كانت أطول من الوسطى ، ثم البنصر أقصر من الوسطى . روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا عبد الله بن مِقْسَم الطائفيّ قال حدّثتني عمتي سارة بنت مِقسم أنها سمعت ميمونة بنت كَرْدم[(٣)] قالت : خرجت في حجة

(١) لأنه ربيب دينار . (٢) الرحبيّ ، بفتح الراء والحاء المهملتين وباء موحدة . نسبة الى رحبة مالك بن طوق قرب حلب . (٣) كردم ، على وزن جعفر .

حجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على راحلته وسأله أبى عن أشياء، فلقد رأيتنى أتعجّب وأنا جارية من طول أصبعه التى تلى الابهام على سائر أصابعه. فقوله عليه السلام : « أنا وهو كهاتين فى الجنة » . وقوله فى الحديث الآخر : « أحشر أنا وأبو بكر وعمر يوم القيامة هكذا » . وأشار بأصابعه الثلاث فانما أراد ذكر المنازل والإشراف على الخلق فقال : نحشر هكذا ، ونحن مشرفون، وكذا كافل اليتيم تكون منزلته رفيعة . فمن لم يعرف شأن أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل تأويل الحديث على الانضمام والاقتراب بعضهم من بعض فى محل القربة؛ وهذا معنى بعيد، لأن منازل الرّسل والنبيّين والصّـديقين والشّهداء والصّالحين مراتبُ متباينة ومنازلُ مختلفة .

السابعة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْمَسَاكِين ﴾ . المساكين عطفٌ أيضا أى وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين ؛ وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهـم . وهذا يتضمن الحضّ على الصـدقة والمؤاساة وتفقّـد أحوال المساكين والضعفاء . روى مسـلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم قال : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهـد فى سبيل الله — وأحسبه قال — وكالقائم لا يفترُ(١) وكالصائم لا يُفْطِر » . قال ابن المنـذر : وكان طاوس يرى السعى على الأخوات أفضل من الجهاد فى سبيل الله .

الثـامنة — قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ . حسنا نصب على المصدر على المعنى لأن المعنى ليحسن قولكم . وقيل : التقدير وقولوا للناس قولا ذا حسن ؛ فهو مصدر لا على المعنى . وقرأ حمزة والكسائى حسنا بفتح الحاء والسـين . قال الأخفش : هما بمعنى واحد؛ مثـل البُخْل والبَخَل ، والرُّشْد والرَّشَـد . وحكى الأخفش : حسنى بغير تنوين على فعلى . قال النحاس : وهذا لا يجوز فى العربية، لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى ، هذا قول سيبويه . وقرأ عيسى بن عمر حسنا بضمتين مثل الحلم . قال ابن عباس : المعنى قولوا لهم لا إله إلا الله ومروهم بهـا . ابن جريج : قولوا للناس صـدقا

(١) كذا فى نسخ صحيح مسلم . والذى فى نسخ الأصل : "لا يفتر من صلاة ... الخ » .

فى أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم ولا تغيّروا نعته . سفيان الثّورى : مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر . أبو العاليـة : قولوا لهم الطيب من القول، وجازوهم بأحسن ما يحبون أن يجازوا به . وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغى للإنسان أن يكون قوله للناس ليّنا ووجهه منبسطا طلقا مع البر والفاجر والسنىّ والمبتدع، من غير مداهنة،ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضى مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ . فالقائل ليس بأفضل من موسى وهرون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون وقد أمرهما الله تعالى باللّين معه . وقال طلحة بن عمر : قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عنـدك ناس ذووا أهواء مختلفة ، وأنا رجل فىّ حدّة فأقول لهـم بعض القول الغليظ ؛ فقال : لا تفعل، يقول الله تعـالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ . فدخل فى هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفى . وروى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال لعائشة : " لا تكونى فحاشة فإن الفحش لو كان رجلا لكان رجل سوء " . وقيل أراد بالناس محمدا صلّى الله عليه وسـلّم كقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . فكأنه قال : قولوا للنبىّ صلّى الله عليـه وسلّم حسنا . وحكى المهدوىّ عن قتادة أن قوله : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّـاسِ حُسْنًا ﴾ . منسوخ بآية السيف . وحكاه أبو نصر عبد الرحيم[1] عن ابن عباس . قال ابن عباس : نزلت هـذه الآية فى الابتـداء ثم نسختها آية السيف . قال ابن عطيّة : وهذا يدل على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ فى صدر الإسلام ؛ وأما الخبر عن بنى إسرائيل وما أمروا به فلا نسخ فيه والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ﴾ . تقدّم القول فيه . والخطاب لبنى إسرائيل . قال ابن عطية : وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النـار على ما يُتَقَبَّل، ولا تنزل على مالم يُتَقَبَّل ولم تكن كزكاة أمة محمد صلّى الله عليه وسلم .

قلت : وهـذا يحتاج الى نقل كما ثبت ذلك فى الغنائم . وقـد روى عن ابن عباس أنه قال : الزكاة التى أمروا بها طاعة الله والإخلاص .

(١) فى بعض نسخ الأصل : «عبد الرحمن» .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ . الخطاب لمعاصرى محمد صلّى الله عليه وسلم؛ وأسند اليهم تولّى أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل، فى إعراضهم عن الحق مثلهم، كما قال: «شِنْشِنة أعرفها من أَخْزم» ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ . أبو عبد الله آبن سلّام وأصحابه . وقليلا نصب على الاستثناء ؛ والمستثنى عنـد سيبويه منصوب لأنه مشبه بالمفعول . وقال محمد بن يزيد : هو مفعول على الحقيقة؛ المعنى استثنيت قليلا . ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ . ابتداء وخبر؛ والإعراض والتولّى بمعنى واحد مُخَالَف بينهما فى اللفظ . وقيل : التولى بالجسم ، والإعراض بالقلب . قال المهدوىّ : وأنتم معرضون حال؛ لأن التولّى فيه دلالة على الإعراض .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ . فيـه مسئلتان :

الأولى — قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ . تقدّم القول فيه . ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ . المراد بنو اسرائيل؛ ودخل فيه بالمعنى من بعدهم . لاتسفكون مثل لاتعبدون فى الإعراب . وقرأ طلحة بن مصرّف وشـعيب بن أبى حمزة بضم الفـاء وهى لغة ؛ وأبو نهيك تُسَـفِّكون بضم التاء وتشديد الفاء وفتح السين . والسفك : الصب . وقد تقدّم . ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ﴾ . معطوف . ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ . النفس مأخوذة من النفاسة؛ فنفس الإنسان أشرف مافيه . والدار : المنزل الذى فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال . وقال الخليل : كل موضع حله قوم فهو دار لهم و إن لم تكن فيه أبنية . وقيل : سميت دارا لدورها على سكانها كما سمى الحائط حائطا لإحاطتـه على ما يحويه . و﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ . من الإقرار أى بهـذا الميثاق الذى أخذ عليكم وعلى أوائلكم . ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ . من الشهادة أى شهداء بقلوبكم على هذا . وقيل : الشهادة بمعنى الحضور أى تحضرون سفك دمائكم و إخراج أنفسكم من دياركم .

الثانيـة — فان قيـل : وهل يسـفك أحد دمه ويخرج نفسه من داره ؟ قيل له : لـما كانت ملّتهم واحدة وأمرهم واحد وكانوا فى الأمم كالشخص الواحد جعل قتـل بعضهم بعضا و إخراج بعضهم بعضا قتلا لأنفسهم ونفيا لهـا . وقيل : المراد القصاص أى لا يقتل

أحد فيقتل قصاصا فكأنه سفك دمه، وكذلك لا يزنى ولا يرتد فان ذلك يبيح الدم، ولا يُفسِد فيُنفى، فيكون قد أخرج نفسه من دياره . وهذا تأويل فيه بُعد وإن كان صحيح المعنى .

وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة ميثاقا ألا يقتل بعضهم بعضا ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسرق الى غير ذلك من الطاعات .

قلت : وهـذا كله محرّم علينا وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا فانا لله وإنا اليـه راجعون . وفى التنزيل ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾. وسيأتى . قال ابن خويز منداد : وقد يجوز أن يراد به الظاهر، ولا يقتل الإنسان نفسه ولا يخرج من داره سفها كما تقتل الهند أنفسها، ويقتل الإنسان نفسه من جهد وبلاء يصيبه، أو يهيم فى الصحراء ولا يأوى البيوت جهلا فى ديانته وسفها فى حلمه؛ فهو عموم فى جميـع ذلك؛ وقد روى أن عثمان بن مظعون بايع فى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعزموا أن يلبسوا المسوح،وأن يهيموا فى الصحراء ولا يأووا البيوت، ولا يأكلوا اللحم ولا يغشوا النساء ؛ فبلغ ذلك النبيّ صـلّى الله عليه وسلّم فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده فقال لامرأته : «ما حديث بلغنى عن عثمان» وكرهت أن تفشى سر زوجها وأن تكذب رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فقالت : يارسول الله، إن كان قـد بلغك شيء فهو كما بلغك ؛ فقال : « قولى لعثمان أخلاف لسنتى أم على غير ملّتى إنى أصلّى وأنام وأصوم وأفطر وأغشى النســاء وآوى البيوت وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى» فرجع عثمان وأصحابه عما كانوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ . أنتم فى موضـع رفع بالابتداء، ولا يعرب لأنه مضمر وضمت التاء من أنتم لأنهـا كانت مفتوحة إذا خاطبت واحدا مذكرا، ومكسورة إذا خاطبت واحدة مؤنثة فلما ثنيت أو جمعت لم يبق إلا الضمة . ﴿هَؤُلَاءِ﴾ قال القتبى: التقدير ياهؤلاء . قال النحاس : هذا خطأ على قول سيبويه ولا يجوز هـذا أقبل . وقال الزجاج : هؤلاء بمعنى الذين . ﴿تَقْتُلُونَ﴾ داخل فى الصّلة أى ثم أنتم الذين تقتلون . وقيل : هؤلاء رفع بالابتداء، وأنتم خبر مقدم، وتقتلون حال من أولاء . وقيل : هؤلاء نصب بإضمار أعنى . وقرأ الزّهرى

تقتّلون بضم التاء مشـدّدا ؛ وكذلك ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ ﴾ . وهذه الآية خطاب للواجهين لا يحتمل ردّه الى الأسلاف . نزلت فى بنى قينُقاع وقُرَيظة والنَّضير من اليهود ؛ وكانت بنو قينقاع أعداء قريظـة ، وكانت الأوس حلفاء بنى قينقاع ، والخزرج حلفاء بنى قريظة ، والنضير والأوس والخزرج إخوان ، وقريظة والنضير أيضا إخوان ثم افترقوا فكانوا يقتتلون ثم يرتفع الحرب فيفدون أساراهم ؛ فعيرهم الله بذلك فقال : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾ . معنى تظاهرون تتعاونون ، مشتق من الظهر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهر ؛ ومنه قول الشاعر :

تظاهرتم أستاه بيت تجمّعت[(1)] * على واحد لا زلتم قرن واحد

والإثم : الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم . والعدوان : الإفراط فى الظلم والتجاوز فيـه . وقرأ أهل المدينة وأهل مكة تظاهرون بالتشديد ، يدغمون التاء فى الظاء لقربها منها ؛ والأصل تتظاهرون . وقرأ الكوفيون تظاهرون مخففا حذفوا التاء الثانية لدلالة الأولى عليها ؛ وكذا : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْـهِ ﴾ . وقرأ قتادة تظهرون عليهم ؛ وكله راجع الى معنى التعاون ؛ ومنه : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ . فاعلمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى ﴾ . شرط وجوابه تفادوهم . وأسارى نصب على الحال . قال أبو عبيد : وكان أبو عمرو يقول : ما صار فى أيديهم فهم الأسارى ، وما جاء مستأسرا فهم الأسرى . ولا يعرف أهل اللغة ما قال أبو عمرو ؛ وإنما هو كما تقول : سكارى وسكرى . وقراءة الجماعة أسارى ، ما عدى حمزة فإنه قرأ أسرى على فعلى جمع أسير بمعنى مأسور والباب فى تكسيره إذا كان كذلك فَعلى كما تقول : قتيل وقتلى ، وجريح وجرحى . قال أبو حاتم : ولا يجوز أسارى . وقال الزجاج : يقال أسارى كما يقال سكارى ، وفُعالى هو الأصل وفَعالى

(1) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى البعض الآخر : « ... أستاه قوم ... الخ » . وقـد وردت رواية البيت فى تفسير الشوكانى هكذا :

* تظاهرتم من كل أوب ووجهة ... الخ *

داخلة عليها . وحكى عن محمد بن يزيد قال : يقال أسير وأسرى وأسارى؛ وقرئ بهما . وقيل: أسارى بفتح الهمزة وليست بالعالية .

الثانيــة — الأسير مشتق من الإسار وهو القِدّ الذي يشـدّ به المحمل فسمى أسيرا لأنه يشدّ وثاقه؛ والعرب تقول : قـد أسرقتبه أى شدّه؛ ثم سمّى كل أخيذ أسيرا وإن لم يؤسر؛ وقال الأعشى :

وقيدنى الشـعر فى بيتــه * كما قيد الآسرات الحمارا

أى أنا فى بيته؛ يريد بذلك بلوغه النهاية فيه . فأمّا الأسر فى قوله عز وجل : ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ . فهو الخلق . وأسرة الرجل : رهطه لأنه يتقوى بهم .

الثالثـة — قرأ نافع وحمزة والكسائى تفادوهم . والباقون تفدوهم من الفداء . والفداء طلب الفدية من الأسير الذى فى أيديهم . قال الجوهرى : الفداء إذا كسرت أوله يمد ويقصر، واذا فتح فهو مقصور؛ يقال : قم فدًى لك أبى . ومن العرب من يكسر فداء بالتنوين اذا جاور لام الجر خاصـة؛ فتقول : فداء لك لأنه نكرة يريدون به معنى الدعاء؛ وأنشـد الأصمعى للنابغة :

مَهْلا فداء لك الأقوامُ كلّهمُ * وما أُثَمِّـــر من مال ومن ولدِ

ويقال : فَداه وفاداه إذا أعطى فِداءه فأنقذه . وفَدّاه بنفسه . وفدّاه تفدية إذا قال جعلت فداءك . وتفادوا أى فدَى بعضهم بعضا . والفِدية والفَدَى والفِداء كله بمعنى واحد . وفاديت نفسى اذا أطلقتها بعد أن دفعت شيئا بمعنى فديت؛ ومنه قول العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم: فاديت نفسى وفاديت عقيلا . وهمـا فعلان يتعديان الى مفعولين الثانى منهما بحرف الجر؛ تقول : فديت نفسى بمالى وفاديته بمالى؛ قال الشاعر :

ففى فادى أسيرك إن قومى * وقومك ما أرى لهم اجتماعا

الرابعـة — قوله : ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ . هو مبتدأ وهو كناية عن الإخراج، ومحرم خبره؛ وإخراجهم بدل من هو؛ وإن شئت كان كناية عن الحديث والقصـة ، والجملة التى بعــده خبره أى والأمر محرّم عليكم إخراجهـم؛ فإخراجهم مبتدء ثان ومحرم خبره والجملة

خبر عن هو ؛ وفى محرم ضمير مالم يسم فاعله يعود على الإخراج ؛ ويجوز أن يكون محرم مبتدأ ، وإخراجهم مفعول مالم يسم فاعله يسد مسد خبر محرم ، والجملة خبر عن هو . وزعم الفراء أن هو عماد ؛ وهـذا عند البصريين خطأ لا معنى له ، لأن العماد لا يكون فى أول الكلام . ويقرأ وهو بسكون الهاء لثقل الضمة ؛ كما قال الشاعر :

فَهْو لا تَنمِى رميته * ماله لا عُدَّ من نفره

وكذلك إن جئت باللام وثم ؛ وقـد تقدّم . قال علماؤنا : كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أساراهم ؛ فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفـداء ؛ فوبخهم الله على ذلك توبيخا يتلى فقال : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ ﴾ . وهو التوراة ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ .

قلت : ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ، حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

قال علماؤنا : فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد . قال ابن خويز منـداد : تضمنت الآية وجوب فك الأسرى ، وبذلك وردت الآثار عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه فك الأسارى وأمر بفكّهم ، وجرى بذلك عمـل المسلمين وانعقد به الإجماع . ويجب فك الأسـارى من بيت المـال ، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسـلمين ؛ ومن قام به منهـم أسقط الفرض عن الباقين . وسيأتى .

الخامسة — قوله : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . ابتداء وخبر . والخزى : الهوان . قال الجوهرى : وخزِىَ بالكسر يخزَى خزيا إذا ذل وهان . قال ابن السكيت : وقع فى بلية وأخزاه الله . وخزى أيضا يخزى خزاية اذا استحيا فهو خزيان . وقوم خزايا وامرأة خزيا .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . يردون بالياء قراءة العامة ، وقرأ الحسن تردون بالتاء على الخطاب . ﴿ الَى أَشَـدِّ

﴿ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ . تقدم القول فيه، وكذلك: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا﴾ . الآية ، فلا معنى للإعادة . ويوم ، منصوب بيردون .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ . يعنى التوراة . ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ . أى أتبعنا . والتَّقفية : الإتباع والإرداف مأخوذ من إتباع القفا وهو مؤخر العنق ، تقول : استقفيته اذا جئت من خلفه ؛ ومنه سميت قافية الشّعر لأنها تتلو سائر الكلام . والقافية : القفا ؛ ومنه الحديث : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » . والقَفِيُّ والقَفَاوَةُ : ما يدخر من اللبن وغيره لمن تريد إكرامه . وقفوت الرجل : قذفته بفجور؛ وفلان قِفْوَتى أى تُهَمَتِى؛ وقِفْوَتى أى خيرتى . قال ابن دريد : كأنه من الأضداد . قال العلماء : وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ . وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها الى عيسى عليه السلام . ويقال : رسل ورسل لغتان ؛ الأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم ؛ وسواء كان مضافا أو غير مضاف ؛ وكان أبو عمرو يخفّف إذا أضاف الى حرفين، ويثقّل إذا أضاف إلى حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ﴾ . أى الحجج والدلالات ؛ وهى التى ذكرها الله فى آل عمران والمائدة . قاله ابن عباس . ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ أى قويناه . وقرأ مجاهد وابن محيصن آيدناه بالمد، وهما لغتان . ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ . روى أبو مالك وأبو صالح عن ابن عباس، ومعمر عن قتادة قالا : جبريل عليه السلام ؛ وقال حسان :

وجبريل رســـول الله فينا * وروح القدس ليس به خفاء

قال النحاس : وسمى جبريل روحا وأضيف الى القدس لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحا من غير ولادة والد ولده ؛ وكذلك سمّى عيسى روحا لهذا . وروى غالب بن عبد الله عن مجاهد قال: القدس هو الله عز وجل؛ وكذا قال الحسن: القدس الله، وروحه جبريل . وروى أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس : ﴿بِرُوحِ ٱلْقُـدُسِ﴾ . قال : هو الاسم الذى كان يحيى به عيسى الموتى . وقاله سـعيد بن جبير وعبيد بن عمـير . وهو اسم الله الأعظم .

وقيــل : المراد الإنجيل ؛ سمـاه روحا كما سمى الله القرآن روحا ؛ فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ . والأول أظهر والله تعالى أعلم . والقدس : الطهارة . وقد تقـــدم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَـا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ ﴾ . أى بما لا يوافقها و يلائمها؛ وحذفت الهاء لطول الاسم أى بما لا تهواه : ﴿ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ . عن إجابته احتقارا للرســل ، واستبعادا للرسالة . وأصل الهوى الميل الى الشيء ؛ و يجمع أهواء كما جاء فى التنزيل، ولا يجمع أهوية ؛ على أنهم قد قالوا فى ندى أندية ؛ قال الشاعر :

فى ليــلة من جمـادى ذات أندية ✽ لا يبصر الكلب فى ظلمائهـا الطنبا

قال الجوهرى : وهو شاذ . وسمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه الى النـار؛ ولذلك لا يستعمل فى الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه؛ وهذه الآية من ذلك؛ وقد يستعمل فى الحق ومنه قول عمر رضى الله عنه فى أسارى بدر : فهوى رسول الله صلى الله عليه وسـلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . وقالت عائشة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى صحيح الحديث : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . أخرجهما مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ . منصوب بكذبتم وكذا ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ . فكان ممن كذبوه عيسى ومحمــد عليهما السلام ، وممن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام على ما يأتى بيانه فى سبحان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ . بسكون اللام جمع أغلف أى عليها أغطية ؛ وهو مثل قوله : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّـا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ . أى فى أوعية . قال مجاهد : غلف عليها غشاوة. وقال عكرمة : عليها طابع . وحكى أهل اللغة غلفت السيف جعلت له غلافا؛ فقلب أغلف أى مستور عن الفهم والتمييز. وقرأ ابن عباس والأعرج وابن محيصن غلف بضم اللام؛ قال ابن عباس أى قلوبنا ممتلئة علما لا تحتاج الى علم محمد صلّى الله عليه وسلّم ولا غيره . وقيل: هو جمع غلاف مثل خمار وخمر أى قلوبنا أوعية للعلم فـما بالها لا تفهم عنك وقد وعينا علمـا

كثيرا . وقيل : المعنى فكيف يعزب عنها علم محمد صلى الله عليه وسلم . فردّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ . ثم بين أن السبب فى نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لعنوا بما تقدّم من كفرهم واجترائهم ؛ وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه . وأصل اللعن فى كلام العرب الطرد والإبعاد . ويقال للذئب : لعين، وللرجل الطريد : لعين؛ وقال الشماخ :

ذَعَرتُ به القطا ونفيت عنه * مقام الذئب كالرجل اللعين

ووجه الكلام مقام الذئب اللعين كالرجل فالمعنى أبعدهم الله من رحمته. وقيل: من توفيقه وهدايته. وقيل: من كل خير، وهذا عام. ﴿ فَقَلِيلًا ﴾، نعت لمصدر محذوف تقديره فإيمانا قليلا ﴿ مَا يُؤْمِنُونَ ﴾. وقال معمر: لا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره؛ ويكون قليلا منصوب بنزع حرف الصّفة وما صلة أى فقليلا يؤمنون . قال الواقدى : معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا ؛ كما تقول : ما أقل ما يفعل كذا أى لا يفعله البتة . وقال الكسائى : تقول العرب مررنا بأرض قل ما تنبت الكراث والبصل أى لا تنبت شيئا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ . يعنى اليهود . ﴿ كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾. نعت لكتاب؛ ويجوز فى غير القرآن نصبه على الحال؛ وكذلك هو فى مصحف أبَىّ بالنصب فيما روى . ﴿ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ . يعنى التوراة والإنجيل يخبرهم بما فيهما . ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ . أى يستنصرون . والاستفتاح الاستنصار؛ استفتحت : استنصرت ؛ وفى الحديث كان النبى صلى الله عليه وسلم يستفتح بصعاليك المهاجرين أى يستنصر بدعائهم وصلاتهم . ومنه ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ . والنصر : فتح شىء مغلق؛ فهو يرجع إلى قولهم : فتحت الباب . وروى النسائى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم» . وروى النسائى أيضا عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ابغونى الضعيف فإنكم إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » . قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء وقالوا: إنا نسألك بحق النبىّ الأمىّ

الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم . قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان؛ فلما بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كفروا فأنزل الله تعالى . ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . أى بك يا محمد إلى قوله : ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ . جواب لمـا الفاء وما بعدها فى قوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ . فى قول الفراء ؛ وجواب لمـا الثانية كفروا . وقال الأخفش سعيد : وجوابه وجواب لمـا محذوف لعلم السامع . وقاله الزجاج . وقال المبرد : جواب لمـا فى قوله : ﴿ كَفَرُوا﴾ وأعيدت لمـا الثانية لطول الكلام . ويفيد ذلك تقريرا للذنب وتأكيدا له .

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا ﴾ . بئس فى كلام العرب مستوفية للذّم كما أن نعم مستوفية للمدح؛ وفى كل واحدة منهما أربع لغات بِئْس بَئْس بَئِس بِئِس . نِعْم نَعْم نَعِم نِعِم . ومذهب سيبويه إلى أن (ما) فاعلة بئس، ولا تدخل إلا على أسماء الأجناس فالنكرات ،وكذا نعم؛ فتقول : نعم الرجل زيد، ونعم رجلا زيد؛فاذا كان معها اسم بغير ألف ولام فهو نصب أبدا؛ فاذا كان فيه ألف ولام فهو رفع أبدا ؛ ونصب رجلا على التميز . وفى نعم مضمر على شريطة التفسير؛ وزيد مرفوع على وجهين، على خبر ابتداء محذوف كأنه قيل : من الممدوح؟ قلت : هو زيد، والآخر على الابتداء وما قبله خبره؛ وأجاز أبو عليّ أن تليها ما موصولة وغير موصولة من حيث كانت مبهمة تقع على الكثرة ولا تخص واحدا بعينه ،والتقدير عند سيبويه بئس الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا ؛ فان يكفروا فى موضوع رفع بالابتـداء وخبره فيما قبله كقولك : بئس الرجل زيد؛ و (ما) على هذا القول موصولة . وقال الأخفش : ما فى موضع نصب على التمييز كقولك : بئس رجلا زيد فالتقدير بئس شـيئا أن يكفروا . فاشتروا به أنفسهم على هـذا القول صفة ما . وقال الفراء : بئسما بجملته شيء واحد ركب كحبذا . وفى هـذا القول اعتراض لأنه يبقى فعل بلا فاعل . وقال الكسائى : ما واشتروا بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه ؛ والتقدير بئس اشتراؤهم أن يكفروا . وهذا مردود، فإن نعم و بئس لا يدخلان على اسم معين معرف؛ والشراء قد تعرف بإضافته الى الضمير . قال النحاس : وأبين هـذه الأقوال قول الأخفش

وسيبويه . قال الفراء والكسائي : أن يكفروا إن شئت كانت أن في موضـع خفض ردا على الهـاء في به . قال الفراء : أي اشتروا أنفسهم بأن يكفروا بمـا أنزل الله . فاشترى بمعنى باع وبمعنى ابتـاع ؛ والمعنى بئس الذي اختاروا لأنفسهم حيث استبدلوا الباطل بالحق والكفـر بالإيمـان .

قوله تعالى : ﴿ بَغْيًـا ﴾ . معناه حسدا ؛ قاله قتادة والسّدي . وهو مفعول من أجله ، وهو على الحقيقة مصدر ، وهو مأخوذ من قولهم : قد بغى الجرح إذا فسـد . وقيل : أصله الطلب ولذلك سميت الزانيـة بغيا . ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ ﴾ . في موضع نصب أي لأن ينزل أي لأجل إنزال الله الفضل على نبيّه صلّى الله عليه وسلم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن أن ينزل مخففا ، وكذلك سـائر ما في القرآن إلا ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ . في الحجر . وفي الأنعام ﴿ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ .

قـوله : ﴿ فَبَاءُوا ﴾ . أي رجعوا ؛ وأكثر ما يقال في الشر وقد تقـدّم . ﴿ بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ . تقـدم معنى غضب الله ؛ وهو عقابه ؛ فقيل : الغضب الأول لعبادتهم العجل ، والثاني لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسـلم ؛ قاله ابن عباس . وقال عكرمة : لأنهـم كفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد ، يعني اليهود . وروى سعيد عن قتادة : الأول لكفرهم بالإنجيل ، والثـاني لكفرهم بالقرآن . وقال قوم : المراد التأييد وشدّة الحال عليهم ، لا أنه أراد غضبين معللين بمعصيتين . و ﴿ مُهِينٌ ﴾ ، مأخوذ من الهـوان وهو ما اقتضى الخـلود في النار دائمـا بخلاف خلود العصاة من المسلمين ، فإن ذلك تمحيص لهم وتطهير ، كرجم الزاني وقطع السارق ، على ما يأتي بيانه في سورة النساء من حديث أبي سعيد الخدري إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ ﴾ . يعني القرآن . ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ . أي نصدق بما أنزل علينا يعني التوراة . ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ . أي بما سواه . عن الفراء ، وقتادة : بما بعده ؛ وهو قول أبي عبيدة ؛ والمعنى واحد . قال الجوهري : وراء بمعنى خلف ، وقـد تكون بمعنى قدام وهي من الأضداد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾

أى أمامهم، وتصغيرها وريئه بالهاء وهى شاذة . وانتصب وراءه على الظرف . قال الأخفش : يقال لقيته من وراء، فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف، تجعله اسما، وهو غير متمكن كقولك : من قبل ومن بعد، وأنشد :

اذا أنا لم أومن عليك ولم يكن * لقاؤك إلا من وراءُ وراءُ

قلت : ومنه قول إبراهيم عليه السلام فى حديث الشفاعة : "إنما كنت خليلا من وراء وراء" . والوراء : ولد الولد أيضا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ . ابتداء وخبر . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ . حال مؤكدة عند سيبويه . ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ . ما فى موضع خفض باللام، ومعهم صلتها، ومعهم نصب بالاستقرار ؛ ومن أسكن جعله حرفا .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ . ردّ من الله تعالى عليهم فى قولهم إنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيب منه لهم وتوبيخ ؛ المعنى فكيف قتلتم وقد نهيتم عن ذلك ؛ فالخطاب لمن حضر محمدا صلّى الله عليه وسلّم والمراد أسلافهم ؛ وإنما توجه الخطاب لآبائهم لأنهم كانوا يتولون أولئك الذين قتلوا ؛ كما قال : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ . فإذا تولوهم فهم بمنزلتهم . وقيل : لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك اليهم ؛ وجاء تقتلون بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضى لمّا ارتفع الاشكال بقوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ . وإذا لم يشكل فجائز أن يأتى الماضى بمعنى المستقبل، والمستقبل بمعنى الماضى ؛ قال الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه * أن الوليد أحق بالعذر

شهد بمعنى يشهد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . أى إن كنتم معتقدين الإيمان فلم رضيتم بقتل الأنبياء ؟ وقيل : إن ، بمعنى ما ؛ وأصل لِمَ ، لِمَا ، حذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر ؛ ولا ينبغى أن يوقف عليه لأنه إن وقف عليه بلا هاء كان لحنا ، وإن وقف عليه بالهاء زيد فى السواد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ . اللام لام القسم . والبينات قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ . وهى العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، وفلق البحر . وقيل : البينات التوراة لما فيها من الدلالات .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ . توبيخ، وثم، أبلغ من الواو فى التقريع أى بعد النظر فى الآيات والإتيان بها اتخذتم ؛ وهذا يدل على أنهم إنما فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر فى الآيات ؛ وذلك أعظم لجرمهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ . تقدّم الكلام فى هذا . ومعنى اسمعوا أطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط وإنما المراد اعلموا ما سمعتم والتزموه؛ ومنه قولهم : سمع الله لمن حمده؛ أى قبل وأجاب . وقال :

دعوت الله حتى خفت ألّا * يكون الله يسمع ما أقول

أى يقبل؛ وقال الراجز :

والسمع والطاعة والتسليم * خير وأعفى لبنى تميم

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . اختلف هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقا، أو يكونوا فعلوا فعلا قام مقام القول فيكون مجازا؛ كما قال :

امتلأ الحوض وقال قَطْنِى * مهلا رويدا قد ملأت بطنى

وهذا احتجاج عليهم فى قولهم : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ . أى حب العجل . والمعنى جعلت قلوبهم تشربه؛ وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل فى قلوبهم؛ وفى الحديث : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا فأيما قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء » . الحديث خرّجه مسلم؛ يقال : أشرب قلبه حب كذا؛ قال زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخل * والحب يشربه فؤادك داء

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل لأن شرب المـاء يتغلغـل فى الأعضاء حتى يصل الى باطنها ، والطعام مجاور لهـا غير متغلغل فيها . وقد زاد على هـذا المعنى أحد التابعين فقال فى زوجته عثمة، وكان عتب عليها فى بعض الأمر فطلقها، وكان محبا لها :

تغلغل حب عثمة فى فؤادى * فباديه مـع الخـافى يسـير
تغلغل حيث لم يبلـغ شراب * ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها * أطـير لو أن إنسـانا يطير

وقال السدى وابن جريج : إن موسى عليه السلام برد العجل وذراه فى المـاء، وقال لبنى اسرائيل: اشربوا من ذلك المـاء، فشرب جميعهم، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفتيه . وروى أنه ما شربه أحد الا جنّ، حكاه القشيرى .

قلت : أما تذريته فى البحر فقد دل عليـه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ . وأما شرب المـاء وظهور البرادة على الشفاه فيرده قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ . أى إيمانكم الذين زعمتم فى قولكم : نؤمن بما أنزل علينا . وقيل : إن هذا الكلام خطاب للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم وأمر أن يوبّخهم أى قل لهم يا محمد : بئس هـذه الأشياء التى فعلتم وأمركم بهـا إيمـانكم . وقـد مضى الكلام فى بئسـما .

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْـدَ ٱللَّهِ خَالِصَـةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: لما ادعت اليهود دعاوى باطلة حكاها الله عزّ وجلّ عنهم فى كتابه، كقوله تعالى : ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّـارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ . وقوله : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّـةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ . وقالوا : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ . أكذبهم الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال: قل يامحمد إن كانت لكم الدار الآخرة عندالله خالصة من دون الناس، يعنى الجنة فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فى أقوالكم، لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت

أحب إليه من الحياة في الدنيا، لما يصير إليه من نعيم الجنة، ويزول عنه من أذى الدنيا، فأحجموا عن تمنّي ذلك فَرَقًا من الله، لقبح أعمالهم ومعرفتهم لكفرهم في قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وحرصهم على الدنيا؛ ولهذا قال مخبرا عنهم بقوله الحق: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾. تحقيقا لكذبهم؛ وأيضا لو تمنوا الموت لماتوا؛ كما روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقامهم[1] من النار». وقيل: إن الله صرفهم عن إظهار التمني وقصرهم على الإمساك ليجعل ذلك آية لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ فهذه ثلاثة أوجه في تركهم التمني. وحكى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾. أن المراد ادعوا بالموت على أكذب الفريقين منا ومنكم، فما دعوا، لعلمهم بكذبهم.

فإن قيل: فالتمني يكون باللسان تارة، وبالقلب أخرى، فمن أين علم أنهم لم يتمنوه بقلوبهم؟ قيل له: نطق القرآن بذلك بقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾. ولو تمنوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم ردّا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وإبطالا لحجته؛ وهذا بين. قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً﴾. نصب على خبر كان، وإن شئت كان حالا، ويكون عند الله في موضع الخبر. ﴿أَبَدًا﴾، ظرف زمان يقع على القليل والكثير، كالحين والوقت، وهو هنا من أول العمر إلى الموت. وما، في قوله: بما، بمعنى الذى، والعائد محذوف؛ والتقدير قدمته؛ وتكون مصدرية ولا تحتاج الى عائد. وأيديهم في موضع رفع، حذفت الضمة من الياء لثقلها مع الكسرة؛ وان كانت في موضع نصب حركتها لأن النصب خفيف، ويجوز إسكانها في الشعر. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. ابتدا وخبر.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾. يعنى اليهود. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾. قيل: المعنى وأحرص، فحذف من الذين أشركوا لمعرفتهم بذنوبهم وألّا خير لهم عند الله؛ ومشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ولا علم لهم من الآخرة؛ ألا ترى قول شاعرهم:

تمتـــع من الدنيـــا فإنك فان ✽ من النشوات والنساء الحسان

(١) فى بعض نسخ الأصل: «مقاعدهم».

والضمير فى أحدهم يعود فى هذا القول على اليهود . وقيل : إن الكلام تم فى حيـاة ، ثم استؤنف الإخبار عن طائفة من المشركين، قيـل : هم المجوس وذلك بين فى أدعياتهـم للعاطس بلغاتهـم بما معناه "عش ألف سـنة" : وخص الألف بالذكر لأنهـا نهاية العقد فى الحساب . وذهب الحسن الى أن الذين أشركوا مشركو العرب ؛ خصوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، فهم يتمنون طول العمر . وأصل سـنة سنهة . وقيـل : سنوة . وقيـل : فى الكلام تقـديم وتأخير ؛ والمعنى ولتجدنهم وطائفة من المشركين أحرص النـاس على حياة .

قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَـنَةٍ ﴾ . أصل يود يودد أدغمت لئـلا يجمع بين حرفين من جنس واحد متحركين ؛ وقلبت حركة الدال على الواو ، وليـدل ذلك على أنه يفعل . وحكى الكسائى وددت . فيجوز على هذا يود بكسر الواو ؛ ومعنى يود يتمنى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾. اختلف النحاة فى هو؛ فقيل: هو ضمير الأحد المتقدم التقدير ما أحدهم بمزحزحه ؛ وخبر الابتـداء فى المجرور . أن يعمر، فاعل بمزحزح . وقالت فرقة : هو ضمير التعمـير ، والتقدير وما التعمـير بمزحزحه ، والخـبر فى المجرور . أن يعمر بدل من التعمير على هذا القول . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : إن هو عماد .

قلت : وفيه بعد ، فإن حق العماد أن يكون بين شيئين متلازمين مثل قوله : ﴿ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ . ونحو ذلك . وقيل : ما، عاملة حجازية، وهو، اسمها، والخبر فى بمزحزحه . وقالت طائفة : هو، ضمير الأمر والشأن . ابن عطية : وفيه بعد، فان المحفوظ عن النحاة أن يفسر بجملة سالمة من حرف جر . وقوله : ﴿ بِمُزَحْزِحِهِ ﴾ . الزحزحة : الابعاد والتنحية ؛ يقال : زحزحتـه أى باعدته فتزحزح أى تنحى وتباعد ، يكون لازما ومتعديا ؛ قال الشاعر فى المتعدى :

ياقابض الروح من نفس اذا احتضرت * وغافر الذنب زحزحنى عن النـار

وأنشده ذو الرمة :

يا قابض الروح عن جسم عصى زمنا * وغافر الذنب زحزحنى عن النار

وقال آخر فى اللازم :

خليلى ما بال الدجى لا يتزحزح * وما بال ضوء الصبح لا يتوضح

وروى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من صام يوما فى سبيل الله زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفا» . وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ . أى بما يعمل هؤلاء الذين يود أحدهم لو يعمر ألف سنة؛ ومن قرأ بالتاء فالتقدير عنده قل لهم يا محمد : الله بصير بما تعملون . وقال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى عالم بخفيات الأمور . والبصير فى كلام العرب : العالم بالشىء الخبير به ؛ ومنه قولهم : فلان بصير بالطب، و بصير بالفقه، و بصير بملاقاة الرجال ؛ قال :

فان تسألونى بالنساء فاننى * بصير بأدواء النساء طبيب

قال الخطابى : البصير العالم ، والبصير المبصر . وقيل : وصف تعالى نفسه بأنه بصير على معنى جاعل الأشياء المبصرة ذوات إبصار أى مدركة للبصرات بما خلق لها من الآلة المدركة والقوة ؛ فالله بصير بعباده أى جاعل عباده مبصرين .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ الآية . سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : إنه ليس نبى من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحى، فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال : « جبريل » . قالوا : ذاك الذى ينزل بالحرب و بالقتال، ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذى ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك؛ فأنزل الله الآية الى قوله : ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أخرجه الترمذى .

قوله : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ . الضمير فى إنه يحتمل معنيين ، الأول فإن الله نزل جبريل على قلبك . الثانى فإن جبريل ينزل بالقرآن على قلبك . وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلق المعارف . ودلت الآية على شرف جبريل عليه السلام وذم معاديه .

وقوله : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ . أى بإرادته وعلمــه . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ . يعنى التوراة .
﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . تقدّم معناه والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ ﴾ . شرط، وجوابه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . وهذا وعيد وذمّ لمعادى جبريل عليــه السلام، وإعلام أن عداوة البعض تقتضى عداوة الله لهم . وعداوة العبد لله هى معصيته، واجتناب طاعته، ومعاداة أوليائه . وعداوة الله للعبـد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه .

فإن قيــل : لم خص الله جبريل وميكائيل بالذكر وإن كان ذكر الملائكة قد عمهما ؟ قيل له : خصهما بالذكر تشريفا لهما، كما قال : ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ . وقيل : خصا لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما ؛ فذكرهما واجب لئلا تقول اليهود : انا لم نعاد الله وجميع ملائكته ؛ فنص الله تعـالى عليهما لإبطال ما يتأولونه من التخصيص . ولعلماء اللسان فى جبريل وميكائيل عليهما السلام لغات ؛ فأما التى فى جبريل فعشر :

الأولى — جِبريل، وهى لغة أهل الحجاز ؛ قال حسان بن ثابت :

* وجبريلٌ رسول الله فينا *

الثانيــة — جَبريل ، بفتـح الجيم وهى قراءة الحسن وابن كثير ؛ وروى عن ابن كثير أنه قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقرأ جبريل وميكال فلا أزال أقرؤهما أبدا كذلك .

الثالثـة — جَبرئيل، بياء بعد الهمزة مثال جبرعيل كما قرأ أهل الكوفة، وأنشدوا :

شهدنا فمـا تلق لنـا من كتيبة * مدى الدهر إلا جبرئيل أمامها

هذه لغة تميم وقيس .

الرابعــة — جبرأل على وزن جبرعل مقصور وهى قراءة أبى بكر عن عاصم .

الخامسة — مثلها وهى قراءة يحيى بن يعمر إلا أنه شدّد اللام .

السادسة — جبرائل بألف بعد الراء ثم همزة، وبها قرأ عكرمة .

السابعــة — مثلها إلا أن بعد الهمزة ياء .

الثامنــة — جبرايل بياءين بغير همزة، وبها قرأ الأعمش ويحي بن يعمر أيضا .

التاسـعة — جبرئين بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون .

العـاشرة — جبرين بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة وهى لغة بنى أسـد . قال الطـبرى : ولم يقرأ بهـا . قال النحاس وذكر قراءة ابن كثـير : لا يعرف فى كلام العرب فَعليل، وفيه فِعليل نحو دهليز وقطمير و برطيل ؛ وليس ينكر أن يكون فى كلام العجم ما ليس له نظـير فى كلام العرب، ولا ينكر أن يكثر تغـيره، كما قالوا : ابراهيم وابرهم وابراهام . قال غيره : جبريل اسم أعجمى عرّبته العرب . فلها فيه هذه اللغات ولذلك لم ينصرف .

قلت : قد تقـدّم فى أول الكتاب أن الصحيح فى هذه الألفاظ عربية نزل بها جبريل بلسان عربى مبين . قال النحاس : ويجمع جبريل على التكسير جباريل .

وأما اللغات التى فى ميكائيل فست :

الأولى — ميكاييل قراءة نافع ، وميكائيل بياء بعد الهمزة قراءة حمزة . ميكال لغة أهل الحجاز وهى قراءة أبى عمرو وحفص عن عاصم ؛ وروى عن ابن كثير الثلاثة أوجه؛ قال كعب بن مالك :

ويوم بدر لقيناكم لنـا مدد * فيه مع النصر ميكال وجبريل

وقال آخر :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد * وبجـبرئيل وكذبوا ميكالا

الرابعــة — ميكئيل مثل ميكعيل ؛ وهى قراءة ابن محيصن .

الخامسة — ميكييل بياءين ؛ وهى قراءة الأعمش باختلاف .

السادسة — ميكائل كما يقال اسرائل بهمزة مفتوحة، وهو اسم أعجمى فلذلك لم ينصرف . وذكر ابن عباس أن جبر وميكا واسراف هى كلها بالأعجمية بمعنى عبد ومملوك، وايل اسم الله تعالى؛ ومنه قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حين سمع سجع مسيلمة : هذا كلام لم يخرج من

إل ؛ وفى التنزيل : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ . فى أحد التأويلين وسيأتى . قال الماوردى : إن جبريل وميكائيل اسمان ، أحدهما عبد الله ، والآخر عبيد الله ؛ لأن إيل هو الله تعالى ، وجبر هو عبد ، وميكا هو عبيد ، فكأن جبريل عبد الله ، هذا قول بن عباس وليس له فى المفسرين مخالف .

قلت : وزاد بعض المفسرين واسرافيل : عبد الرحمن . قال النحاس : ومن تأول الحديث جبر ، عبد ، وإل الله وجب عليه أن يقول : هذا جبرال ورأيت جبرال ومررت بجبرال ، وهذا لا يقال ، فوجب أن يكون معنى الحديث أنه مسمى بهذا . قال غيره : ولو كان كما قالوا لكان مصروفا ، فترك الصرف يدل على أنه اسم واحد مفرد ليس بمضاف . وروى عبد الغنى الحافظ من حديث أَفْلَت بن خليفة — وهو فُلَيت العامرى وهو أبو حسان — عن جسرة بنت دجاجة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم رب جبريل وميكايل واسرافيل أعوذ بك من حر النار وعذاب القبر" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ الآية : قال ابن عباس رضى الله عنهما : هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد جئتنا بشىء نعرفه ، وما أنزل عليك من آية بينه فنتبعك بها ؟ فأنزل الله هذه الآية ، ذكره الطبرى .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا ﴾ . الواو واو العطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام كما تدخل على الفاء فى قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ﴾ . ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ ﴾ . وعلى ثم كقوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ . هذا قول سيبويه . وقال الأخفش : الواو زائدة . ومذهب الكسائى أنها أو ، حركت الواو منها تسهيلا . وقرأها قوم أو ، ساكنة الواو فتجىء بمعنى بل ؛ كما يقول القائل : لأضربنك ؛ فيقول المجيب : أو يكفنى الله . قال ابن عطية : وهذا كله تكلف ؛ والصحيح قول سيبويه . كلما ، نصب على الظرف ؛ والمعْنِىُّ فى الآية

مالك بن الضيف ويقال فيه ابن الصيت؛ كان قد قال : والله ما أخذ علينا عهد فى كتابنا أن نؤمن بمحمد ولا ميثاق؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركى العرب، فلما بعث كفروا به . وقال عطاء : هى العهود التى كانت بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين اليهود فنقضوها كفعل قريظة والنضير؛ دليله قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ . النّبذ : الطرح والإلقاء؛ ومنه النبيذ والمنبوذ، قال أبو الأسود :

وخبرنى من كنت أرسلت انما * أخذت كتابى معرضا بشمالكا

نظرت الى عنوانه فنبذته * كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

آخر :

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا * نبذوا كتابك واستحلوا المحْرَمَ

وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به؛ تقول العرب : اجعل هذا خلف ظهرك، ودبرا منك، وتحت قدمك . أى اتركه وأعرض عنه؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ . وأنشد الفراء :

تميم بن[(٢)] زيد لا تكونن حاجتى * بظهر فلا يعيا على جوابها

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ . ابتداء . ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . فعل مستقبل فى موضع الخبر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ . نعت لرسول، ويجوز نصبه على الحال . ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ ﴾ . جواب لما . ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ ﴾ . نصب بنبذ؛ والمراد التوراة لأن كفرهم بالنبي وتكذيبهم له نبذ لها . قال السدى : نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت . وقيل : يجوز أن يعنى به القرآن . قال

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الصيف » بالصاد المهملة .

(٢) فى لسان العرب فى مادة ظهر تميم بن قيس .

الشعبي : هو بين أيديهم يقرءونه، ولكن نبذوا العمل به . وقال سفيان بن عيينة : أدرجوه فى الحرير والديباج، وحلوه بالذهب والفضة، ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه، فذلك النبذ. وقد تقدّم بيانه مستوفى . ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . تشبيه بمن لا يعلم إذ فعلوا فعل الجاهل ، فيجىء من اللفظ أنهم كفروا على علم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ الى قوله : ﴿ مِن خَلَاقٍ ﴾. فيه أربع وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ . هـذا إخبار من الله تعالى عن الطائفة الذين نبذوا الكتاب بأنهـم اتبعوا السحر أيضا، وهم اليهود . وقال السدى : عارضت اليهود محمدا صلّى الله عليـه وسلّم بالتوراة فاتفقت التوراة والقرآن فنبـذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحرها روت وما روت . وقال محمد بن اسحاق : لمـا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان فى المرسلين قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن آبن داود كان نبيا ! والله ما كان إلا ساحرا، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ . أى ألقت إلى بنى آدم أن ما فعـله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطير والشياطين كان سحرا . وقال الكلبى : كتبت الشـياطين السحر والنرنجيات على لسان آصف كاتب سليمان ، ودفنوه تحت مصلاه حين انتزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان ؛ فلما مات استخرجوه وقالوا للناس : إنما ملككم بهذا فتعلموه؛ فأما علماء بنى إسرائيل فقالوا: معاذ الله أن يكون هـذا علم سليمان؛ وأما السفلة فقالوا : هذا علم سليمان وأقبلوا على تعليمه ورفضوا كتب أنبيائهم حتى بعث الله محمدا صلّى الله عليه وسلّم؛ فأنزل الله عز وجل على نبيه عذر سليمان وأظهر براءته مما رمى به فقال : ﴿ وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ ﴾ . قال عطاء : تتـلوا تقرأ من التلاوة . وقال ابن عباس : تتلوا تتبع، كما تقول : جاء القوم يتلوا بعضهم بعضا . وقال الطبرى : اتبعوا بمعنى فضلوا .

قلت : لأن من أتبع شيئا وجعله أمامه فقد فضله على غيره ، ومعنى تتلوا يعنى تلت فهو بمعنى المضيّ ؛ قال الشاعر :

وإذا مررت بقــبره فاعقد به * كوم الهجان وكل طرف سابح
وانضح جوانب قـــبره بدمائها * فلقـد يكون أخا دم وذبائح

أي فلقد كان . وما ، مفعول باتبعوا أي آتبعوا ما تقولتــه الشياطين على سليمان وتلته . وقيل : ما ، نفي ، وليس بشيء لا في نظام الكلام ولا في صحته ؛ قاله ابن العربي . ﴿ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ . أي على شرعه ونبوته . قال الزجاج : المعنى على عهد ملك سليمان . وقيل : المعنى في ملك سليمان ، يعني في قصصه وصفاته وأخباره . وقال الفراء : تصلح على وفي في مثـل هذا الموضع ، وقال على ، ولم يقل بعد لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . أي في تلاوته . وقد تقـدّم معنى الشيطان واشتقاقه فلا معنى لإعادته . والشياطين هنا قيل : هم شياطين الجن ، وهو المفهوم من هذا الاسم . وقيل : المراد شياطين الإنس المتمرّدون في الضلال ، كقول جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزلي * وكن يهوينني اذ كنت شيطانا

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ . تبرئة من الله لسليمان ، ولم يتقدّم في الآية أن أحدا نسبه الى الكفر ولكن اليهود نسبته الى السحر ، ولما كان السحر كفرا صاروا بمنزلة من نســبه الى الكفر ، ثم قال : ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ . فأثبت كفرهم بتعليم السحر . ويعلمون ، في موضع نصب على الحـال ، ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر ثان . وقرأ الكوفيون سوى عاصم ولكن الشياطين بتخفيف لكن ، ورفع النون من الشياطين ، وكذلك في الأنفال ولكن الله رمى ، ووافقهم ابن عامر . والباقون بالتشديد والنصب . ولكن كلمة لها معنيان نفي الخبر المـاضي ، وإثبات الخبر المستقبل ، وهي مبنية من ثلاث كلمات : لا ، ك ، ان . لا نفي ، والكاف خطاب ، وأن إثبـات وتحقيق ، فذهبت الهمزة استثقالا وهي تثقل وتخفف ، فاذا ثقلت نصبت كإن الثقيلة ، واذا خففت رفعت بها كما ترفع بأن الخفيفة .

الثالثـة — السحر قيل : أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى؛ فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى به؛ كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل اليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيرا حقيقيا يخيل اليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه . وقيل : هو مشتق من سحرت الصبيّ اذا خدعته وكذلك اذا عللته؛ والتسحير مثله؛ قال لبيد :

فان تسألينا فـيم نحن فاننا * عصافير من هذا الأنام المسحر

آخـر :

أرانا مُوضِعين لأمر غيب * ونسـحر بالطعام وبالشراب

عصافـير وذِبَّانٌ ودود * وأجرأ من مُجَلَّحَة الذئاب

وقوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ . يقـال : المسحر الذى خلق ذا سحر؛ ويقال من المعللين أى ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب . وقيل: أصله الخفاء، فان الساحر يفعله فى خفية . وقيل : أصـله الصرف؛ يقال : ما سحرك عن كذا : أى ما صرفك عنه؛ فالسحر مصروف عن جهته . وقيل : أصله الاستمالة؛ وكل من استمالك فقد سحرك . وقيل فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ . أى سحرنا فأزلنا بالتخييل عن معرفتنا . وقال الجوهرى : السحر الأُخْذَةُ، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر؛ وقـد سحر يسحر سحرا . والساحر : العالم، وسحره أيضا بمعنى خدعه . وقد ذكرناه . وقال مسعود (١) : كنا نسمى السحر فى الجاهلية العضة . والعضة عند العرب : شدّة البهت وتمويه الكذب؛ قال الشاعر :

أعـوذ بربى من النـافثـ * ـات من عضة العاضه المعضه

الرابعـة — واختلف هل له حقيقة أو لا؛ فذكر الغَزْنَوى الحنفى فى عيون المعانى له : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعى وسوسة وأمراض؛ قال : وعنـدنا أصـله طِلَّسْمٌ يبنى عنـد تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس فى زئبـق عصى فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر .

(١) فى بعض نسخ الأصل : «وقال ابن مسعود» .

قلت : وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء على ما يأتى ؛ ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ؛ والشعوذى : البريد لخفة سيره . قال ابن فارس فى المجمل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهى خفة فى اليدين وأُخْذَةٌ كالسحر ؛ ومنه ما يكون كلاما يحفظ ، ورقى من أسماء الله تعالى . وقد يكون من عهود الشياطين ؛ ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

الخامسة — سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفصاحة فى الكلام واللسانة فيه سحرا ؛ فقال : « إن من البيان لسحرا » . أخرجه مالك ؛ وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهم السامع أنه حق ؛ فعلى هذا يكون قوله عليه السلام . « إن من البيان لسحرا » . خرج مخرج الذم للبلاغة والفصاحة إذ شبهها بالسحر . وقيل : خرج مخرج المدح للبلاغة والتفضيل للبيان . قاله جماعة من أهل العلم ؛ والأول أصح ، والدليل عليه قوله عليه السلام : « فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض » . وقوله : « إن أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون » . الثرثرة : كثرة الكلام وترديده ؛ يقال : ثرثر الرجل فهو ثرثار مهذار . والمتفيهق نحوه . قال ابن دريد . فلان يتفيهق فى كلامه اذا توسع فيه وتنطع ؛ قال : وأصله الفهق وهو الامتلاء ، كأنه ملأ به فمه .

قلت : وبهذا المعنى الذى ذكرناه فسره عامر الشعبى راوى الحديث وصعصعة بن صوحان فقالا : أما قوله عليه السلام : « إن من البيان لسحرا » . فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه ؛ وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسانة ما لم تخرج الى حد الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . وهذا بين ، والحمد لله .

السادسة — من السحر ما يكون كفرا من فاعله مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم فى هيئة بهيمة وقطع مسافة شهر فى ليلة والطيران فى الهواء ؛ فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق فذلك كفر منه . قال أبو نصر عبد الرحيم القشيرى قال أبو عمرو : من زعم

أن الساحر يقلب الحيوان من صورة الى صورة، فيجعل الإنسان حمارا أو نحوه و يقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها، فهذا يرى قتـل الساحر لأنه كافر بالأنبيـاء يدعى مثل آياتهـم ومعجزاتهم ، ولا يتهيأ مع هذا علم صحة النبوة إذ قد يحصل مثلها بالحيلة . وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتمويهـات وتخييلات فلم يجب على أصـله قتل الساحر إلا أن يقتل بفعله أحدا فيقتل به .

السابعة — ذهب أهل السـنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة . وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاستراباذى من أصحاب الشافعى الى أن السحر لا حقيقة له ، وإنمـا هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة ؛ كما قال تعالى : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ . ولم يقل تسعى على الحقيقة ، ولكن قال يخيـل اليه. وقال أيضا : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ . وهـذا لا حجة فيه ، لأنا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع ، فمن ذلك ما جاء فى هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلّمونه الناس فدل على أن له حقيقة ؛ وقوله تعالى فى قصـة سحرة فرعون : ﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ . وسورة الفلق؛ مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم وهو مما خرّجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودىٌّ من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم؛ الحديث. وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمـا حل السحر : « إن الله شفانى » . والشفاء، إنمـا يكون برفع العلة وزوال المرض ، فدل على أن له حقا وحقيقة؛ فهو مقطوع به بإخبـار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه . وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجمـاع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق. ولقـد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان وتكلم الناس فيه ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبى الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال : علم السحر فى قرية مـن قرى مصر يقال لها : "الفرما" . فمن كذب به فهو كافر، مكذب لله ورسوله، منكر لمـا علم مشاهدة وعيانا .

الثامنــة — قال علماؤنا: لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات بما ليس فى مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو الى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر؛ قالوا : ولا يبعد فى السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يتولج فى الكوات والخوخات والانتصاب على رأس قصبة ، والجرى على خيط مستدق ، والطيران فى الهواء والمشى على المـاء وركوب كلب وغير ذلك؛ ومع ذلك فلا يكون السحر موجبا لذلك ولا علة لوقوعه ولا سببا مولدا ، ولا يكون الساحر مستقلا به؛ و إنمـا يخلق الله تعالى هـذه الأشياء و يحدثها عند وجود السحر ، كما يخلق الشبع عند الأكل ، والرى عند شرب المـاء . وروى سفيان عن عمار الذهبي أن ساحرا كان عند الوليد بن عقبة يمشى على الحبل ، و يدخل فى است الحمار و يخرج من فيـه؛ فاشتمل له جندب على السيف فقتله جندب — هـذا هو جندب بن كعب الأزدى و يقال البجلى — وهو الذى قال فى حقه النبي صلى الله عليه وسلم : « يكون فى أمتى رجل يقال له جنـدب يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل » . فكانوا يرونه جندبا هذا قاتل الساحر . قال على بن المدينى : روى عنه حارثة بن مضرب .

التاسعة — أجمع المسلمون على أنه ليس فى السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا و إحياء الموتى وانطاق العجمى وأمثـال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام . فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : و إنما منعنا ذلك بالإجماع ولولاه أجزناه .

العاشرة — فى الفرق بين السحر والمعجزة؛ قال علماؤنا : السحر يوجد من الساحر وغيره، وقـد يكون جماعة يعرفونه و يمكنهم الإتيان به فى وقت واحد ؛ والمعجزة لا يمكن الله أحدا أن يأتى بمثلها و بمعارضتها ؛ ثم الساحر لم يدع النبوة فالذى يصدر منـه متميز عن المعجزة ؛ فان المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوة والتحدى بها كما تقدم فى مقدمة الكتاب .

الحادية عشرة — واختلف الفقهاء فى حكم الساحر المسلم والذمى ؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسـه بكلام يكون كفرا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته؛ لأنه أمر يستتر

كالزنديق والزانى ، ولأن الله تعالى سمى السحر كفرا بقوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ . وهو قول أحمد بن حنبـل وأبى ثور و إسحاق والشافعى وأبى حنيفة . وروى قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصـة وأبى موسى وقيس بن أسعد وعن سبعة من التابعين . وروى عن النبي صلى لله عليه وسـلم : « حد الساحر ضربه بالسيف» خرجه الترمذى وليس بالقوى؛ انفرد به اسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عندهم، رواه ابن عيينة عن اسماعيل بن مسلم عن الحسن مرسلا؛ومنهم من جعله عن الحسن عن جندب. قال ابن المنذر: وقد روينا عن عائشة أنها باعت ساحرة كانت سحرتها وجعلت ثمنها فى الرقاب . قال ابن المنذر : واذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كفرا وجب قتله إن لم يتب ، وكذلك لو ثبتت به عليه بينة ووصفت البينة كلاما يكون كفرا ، و إن كان الكلام الذى ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله ، فان كان أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه ان كان عمد ذلك و إن كان مما لاقصاص فيه ففيه دية ذلك . قال ابن المنذر : واذا اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسئلة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسنة ؛ وقد يجوز أن يكون السـحر الذى أمر من أمر منهم بقتـل الساحر سحرا يكون كفرا فيكون ذلك موافقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن تكون عائشة رضى الله عنها أمرت ببيع ساحرة لم يكن سحرها كفرا؛ فان احتج محتج بحديث جندب عن النبى صلى الله عليه وسـلم : « حد الساحر ضربه بالسـيف » . فلو صح لاحتمل أن يكون أمر بقتل الساحر الذى يكون سحره كفرا فيكون ذلك موافقا للأخبار التى جاءت عن النبى صـلى الله عليه وسـلم أنه قال : «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث» :

قلت : هذا صحيح ، ودماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف . والله تعـالى أعلم . وقال بعض العلماء : إن قال أهل الصناعة لا يتم السـحر إلا مع الكفر والاستكبار أو تعظيم الشيطان فالسحر إذًا دل على الكفر على هـذا التقدير والله تعالى أعلم . وروى عن الشافعى : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره و يقول تعمدت القتل، و إن قال

لم أتعمد، لم يقتل، وكانت فيه الدية كقتل الخطأ، وإن أضرّ به أدّب على قدر الضرر . قال ابن العربي : وهـذا باطل من وجهين؛ أحدهما أنه لم يعلم السـحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى ، وتنسب اليه المقادير والكائنات . الثاني أن الله سبحانه قد صرح فى كتابه بأنه كفر فقال : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ . بقول السحر ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ . به و بتعليمه؛ وهاروت وماروت يقولان : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ . وهذا تأكيد للبيان .

احتج أصحاب مالك بأنه لا تقبل تو بته، لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف تو بته كالزنديق ؛ و إنما يستتاب من أظهر الكفر مرتدا . قال مالك : فإن جاء الساحر أو الزنديق تائبا قبـل أن يشهد عليهما قبلت تو بتهما ؛ والحجة لذلك قوله تعـالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ . فدل أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العـذاب فكذلك هـــذان .

الثانية عشرة — وأما ساحر الذّمة فقيل : يقتل . وقال مالك : لا يقتل، إلا أن يقتل بسحره و يضمن ما جنى ؛ و يقتل إن جاء منه ما لم يعاهد عليه .

وقال ابن خو يزمنداد : فأما إذا كان ذميا فقد اختلفت الرواية عن مالك، فقال مرة : يستتاب وتو بته الإسلام . وقال مرة : يقتل و إن أسلم . وأما الحربي فلا يقتل إذا تاب؛ وكذلك قال مالك فى ذمى سب النبي صلّى الله عليه وسلّم : يستتاب وتو بته الإسـلام . وقال مرة : يقتل ولا يستتاب كالمسلم . وقال مالك أيضـا فى الذمى اذا سحر : يعاقب ؛ إلا أن يكون قتل بسحره، أو أحدث حدثا فيؤخذ منه بقدره . وقال غيره : يقتل، لأنه قد نقض العهد . ولا يرث الساحر ورثتـه، لأنه كافر إلا أن يكون سحره لا يسمّى كفرا . وقال مالك فى المرأة تعقد زوجها عن نفسها أو عن غيرها : تنكّل ولا تقتل .

الثالثة عشرة — واختلفوا هل يسئل الساحر حلّ السحر عن المسحور ، فأجازه سـعيد ابن المسيب على ماذكره البخارى، وإليه مال الْمُزَنِيُّ وكرهه الحسن البصرى . وقال الشافعى: لا بأس بالنُّشْرَة . قال ابن بطال : وفى كتاب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر

أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالمـاء و يقرأ عليه آية الكرسى ثم يحسو منه ثلاث حسوات و يغتسل، فانه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى، وهو جيد للرجل اذا حبس عن أهله .

الرابعة عشرة — أنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن ؛ ودل إنكارهم على قلة مبالاتهـم وركاكة دياناتهم، وليس فى إثباتهم مستحيل عقلى؛ وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم، وحق على اللبيب المعتصم بحبل الله أن يثبت ما قضى العقل بجوازه، ونص الشرع على ثبوته؛ قال الله تعـالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا ﴾ . وقال : ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ . الى غير ذلك من الآى ، وسورة الجنّ تقضى بذلك؛ وقال عليه الســلام : «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم» . وقد أنكر هذا الخبر كثير من الناس، وأحالوا روحين فى جسد؛ والعقل لا يحيل سـلوكهم فى الإنس إذ كانت أجسامهم رقيقة بسيطة على ما يقوله بعض النـاس بل أكثرهم ولو كانوا كثافا لصح ذلك أيضا منهم ، كما يصح دخـول الطعام والشراب فى الفراغ من الجسم، وكذلك الديدان قد تكون فى ابن آدم وهى أحياء .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾ . ما، نفى؛ والواو للعطف على قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ . وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر؛ فنفى الله ذلك . وفى الكلام تقـديم وتأخير، التقدير، وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون النـاس السحر ببابل هاروت وماروت؛ فهاروت وماروت بدل من الشياطين فى قوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا ﴾ . هـذا أولى ما حملت عليـه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت الى سواه؛ فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم، ودقة أفهامهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة فى حال طمثهن؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ . وقال الشاعر :

أعوذ بربى من النافثا ت ... ...

السادسة عشرة — إن قال قائل : كيف يكون اثنان بدلا من جمع والبدل إنمـا يكون على حدّ المبدل منـه ؛ فالجواب من وجـوه ثلاثة؛ الأول : أن الاثنين قد يطلق عليهما اسم

الجمع ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ . ولا يحجبها عن الثلث الى السدس إلا اثنان من الإخوة فصاعدا على ما يأتى بيانه فى النساء . الثانى : أنهما لما كانا الرأس فى التعليم نص عليهما دون اتباعهما ؛ كما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ . الثالث : إنما خصا بالذكر من بينهم لتمردهما ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ . وقوله : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ . وهذا كثير فى القرآن وفى كلام العرب ، فقد ينص بالذكر على بعض أشخاص العموم إما لشرفه وإما لفضله ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ . وقوله : ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ . وإما لطيبه كقوله : ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ . وإما لأكثريته ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : «جعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا» ؛ وإما لتمرده وعتوه كما فى هذه الآية ، والله تعالى أعلم . وقد قيل : إن « ما » عطف على السحر وهى مفعولة ؛ فعلى هـذا يكون ما بمعنى الذى ، ويكون السحر منزلا على الملكين فتنة للناس وامتحانا ، ولله أن يمتحن عباده بما شاء ؛ كما امتحن بنهر طالوت ، ولهذا يقول الملكان : إنما نحن فتنة ، أى محنة من الله . نخبرك أن عمل الساحر كفر فان أطعتنا نجوت ، وإن عصيتنا هلكت .

وقد روى عن علىّ وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدى والكلبى ما معناه أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم عليه السلام — وذلك فى زمن إدريس عليه السلام — عيرتهم الملائكة ؛ فقال الله تعالى : أما إنكم لو كنتم مكانهم وركبت فيكم ما ركبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم ؛ فقالوا : سبحانك ! ما كان ينبغى لنا ذلك ؛ قال : فاختاروا ملكين من خياركم ؛ فاختاروا هاروت وماروت فأنزلها الى الأرض فركب فيهما الشهوة فما مر بهما شهر حتى فتنا بامرأة اسمها بالنبطية "بيدخت" وبالفارسية "ناهيل" وبالعربية "الزهرة" اختصمت اليهما وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يدخلا فى دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التى حرم الله ؛ فأجاباها وشربا الخمر وألما بها ؛ فرآهما رجل فقتلاه ، وسألتهما عن الاسم الذى يصعدان به الى السماء فعلماها فتكلمت به فعرجت فمسخت كوكبا . وقال سالم عن عبد الله فحدثنى كعب الحبر أنهما لم يستكملا يومهما حتى عملا بما حرم الله عليهما . وفى غير هذا الحديث : فخيرا بين عذاب

الدنيـا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيـا ؛ فهما يعذبان ببابل فى سرب من الأرض . قيل : بابل العراق . وقيل : بابل نهاوند . وكان ابن عمر "فيما يروى عن عطاء أنه كان" إذا رأى الزهرة وسهيلا سبهما وشتمهما ؛ ويقول : إن سهيلا كان عشارا باليمن يظلم الناس ، وإن الزهرة كانت صاحبة هاروت وماروت .

قلنا : هـذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصح منه شيء ؛ فانه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه الى رسله ﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْـبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَـلُونَ ﴾ . ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْـلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ . وأما العقـل فلا ينكر وقوع المعصـية من الملائكة ويوجد منهـم خلاف ما كلفوه ، ويخلق فيهم الشهوات ؛ إذ فى قدرة الله تعالى كل موهوم ؛ ومن هذا خوف الأنبياء والأولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح ؛ ومما يدل على عدم صحته أن الله تعالى خلق النجوم وهـذه الكواكب حين خلق السماء ؛ ففى الخبر : "أن السماء لما خلقت خلق فيها سـبعة دوّارة زحل والمشـترى وعطارد والزهرة والشمس والقمر" . وهذا معنى قول الله تعـالى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْـبَحُونَ ﴾ . فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلا قد كانا قبل خلق آدم ؛ ثم أن قول الملائكة : ما كان ينبغى لنا عورة ، معناه لا تقدر على فتنتنا ؛ وهذا كفر نعوذ بالله منه ومن نسبته الى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وقد نزهناهم وهم المنزهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون . سبحان ربك رب العزة عما يصفون .

السابعة عشرة — قرأ ابن عباس وابن أَبْزَى والضحاك والحسن . الملكين بكسر اللام . قال ابن أبزى : هما داود وسليمان . فما ، على هـذا القول أيضا نافية ؛ وضعف هـذا القول ابن العربى . وقال الحسن : هما علجان كانا ببابل ملكين ؛ فما ، على هذا القول مفعولة غير نافية .

الثامنة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ بِبَـابِلَ ﴾ . بابل ، لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعجمة ، وهى قطر من الأرض ؛ قيل : العراق وما والاه . وقال ابن مسعود لأهل الكوفة :

أنتم بين الحيرة و بابل . وقال قتادة : هى من نَصيبِين الى رأس العين . وقال قوم : هى بالمغرب . وقال ابن عطية : وهذا ضعيف . وقال قوم : هو جبل نَهَاوَنْد؛ والله تعالى أعلم .

واختلف فى تسميته ببابل؛ فقيل : سمى بذلك لتبلبل الألسن بها حين سقط صرح نمروذ . وقيل : سمى به لأن الله تعالى لما أراد أن يخالف بين ألسنة بنى آدم بعث ريحا فحشرتهم من الآفاق الى بابل؛ فبلبل الله ألسنتهم بها؛ ثم فرقتهم تلك الريح فى البلاد . والبلبلة : التفريق ؛ قال معناه الخليل . وقال أبوعمر بن عبدالبر : من أخْيَر ما قيل فى البلبلة وأحسنه ما رواه داود بن أبى هند عن عِلْبَاء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لما هبط إلى أسفل الجودىّ ابتنى قرية وسماها ثمانين؛ فأصبح ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان العربى، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض .

التاسعة عشرة — روى عبدالله بن بشر المازنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الدنيا فوالذى نفسى بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت » . قال علماؤنا : إنما كانت الدنيا أسحر منهما لأنها تسحرك بخدعها، وتكتمك فتنتها، فتدعوك الى التحارص عليها ، والتنافس فيها ، والجمع لها والمنع ، حتى تفرق بينك و بين طاعة الله تعالى ، وتفرق بينك وبين رؤية الحق ورعايته . فالدنيا أسحر منهما، تأخذ بقلبك عن الله ، وعن القيام بحقوقه ، وعن وعده ووعيده . وسحر الدنيا محبتها وتلذذك بشهواتها وتمنيك بأمانيها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حبك الشيء يُعمى ويُصم » .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ . لا ينصرف هاروت ، لأنه أعجمى معرفة ، وكذا ماروت ؛ ويجمع هواريت ومواريت ؛ مثل طواغيت ؛ ويقال : هوارتة وهوار، وموارتة وموار، ومثله جالوت وطالوت . فاعلم . وقد تقدّم هل هما ملكان أو غيرهما؟ خلاف . قال الزجاج : وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : أى والذى أنزل على الملكين، وأن الملكين يعلمان الناس تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه . قال الزجاج : وهذا القول الذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر . ومعناه أنهما يعلمان الناس على النهى

فيقولان لهم : لا تفعلوا كذا ، ولا تحتالوا بكذا لتفرقوا بين المرء وزوجه . والذى أنزل عليهما هو النهى ، كأنه قولا للناس : لا تعملوا كذا ؛ فيُعَلِّمان معنى يُعْلِمان ؛ كما قال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ . أى أكرمنا .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ . من زائدة للتوكيد ، والتقدير وما يعلمان أحدا . ﴿ حَتَّى يَقُولَا ﴾ . نصب بحتى فلذلك حذفت منـه النون ؛ ولغة هذيل وثقيف عتى بالعين غير المعجمة . والضمير فى يعلمان لهاروت وماروت . وفى يعلمان قولان ؛ أحدهما : أنه على بابه من التعليم . الثـانى : أنه من الإعلام لا من التعليم ؛ فيُعَلِّمـان بمعنى يُعْلِمَان وقد جاء فى كلام العرب تعلم بمعنى أعلم . ذكره ابن الأعرابى وابن الأنبارى ؛ قال كعب ابن مالك :

تعـلم رسـول الله أنك مدركى * وان وعيدا منك كالأخذ باليد

وقال القطامى :

تعـلم أن بعـد الغى رشـدا * وأن لذلك الغى انقشـاعا

وقال زهـير :

تَعَلَّمَنْهَـا[1] لعمـــر الله ذا قسما * فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك

وقال آخر :

تعـــلم أنه لا طير إلا * على متطير وهو الثبور

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ . لمـا أنبأ بفتنتهما كانت الدنيـا أسحر منهما حين كتمت فتنتهـا . ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ . قالت فرقة بتعليم السـحر . وقالت فرقة باسـتعماله . وحكى المهدوى أنه استهزاء لأنهما إنما يقولانه لمن تحققا ضلاله .

الثانيـة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ . قال سيبويه : التقدير فهم يتعلمون ؛ قال : ومثله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . وقيل : هو معطوف على موضع ما يعلمان ، لأن

(١) فى لسان العرب فى مادة سلك : تعلمـاها لعمـــر الله ذا قسما * واقصد بذرعك وانظر أين تنسلك

قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ ﴾. وإن دخلت عليه ما النافية فمضمنه الإيجاب فى التعليم . وقال الفراء : هى مردودة على قوله : ﴿ يُعَلِّمَانَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ فيتعلمون؛ ويكون فيتعلمون متصلة بقوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ فيأتون فيتعلمون . قال السدى : كانا يقولان لمن جاءهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر؛ فإن أبى أن يرجع قالا له : ائت هـذا الرماد فبل فيه؛ فإذا بال فيه خرج منه نور يسطع الى السماء، وهو الإيمان؛ ثم يخرج منـه دخان أسود فيدخل فى أذنيه ، وهو الكفر؛ فإذا أخبرهما بمـا رآه من ذلك علماه ما يفرّق بين المرء وزوجه . وذهبت طائفة من العلماء الى أن الساحر ليس يقدر على أكثر مما أخبر الله عنه من التفرقة ، لأن الله ذكر ذلك فى معرض الذمّ للسحر والغاية فى تعليمه ؛ فلو كان يقـدر على أكثر من ذلك لذكره . وقالت طائفـة : ذلك خرج على الأغلب، ولا ينكر أن السحر له تأثير فى القلوب، بالحب والبغض وبإلقاء الشرور حتى يفرّق الساحر بين المرء وزوجه ، ويحول بين المرء وقلبه ، وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأسقام؛ وكل ذلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة . وقد تقدّم هذا والحمد لله .

الثالثة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ . ما هم، إشارة إلى السحرة . وقيل : الى اليهود . وقيل : الى الشياطين . ﴿ بِضَآرِّينَ بِهِۦ ﴾ . أى بالسحر . ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أى أحدا؛ ومن زائدة . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ . أى بارادته وقضائه لا بأمره، لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضى على الخلق بها . وقال الزجاج : إلا باذن الله، إلا بعلم الله . قال النحاس : وقول أبى إسحق إلا بإذن الله، إلا بعلم الله غلط، لأنه إنمـا يقال فى العـلم إذن، وقد أذنت إذنا . ولكن لمـا لم يحل فيما بينهم وبينه، وظلوا يفعلونه كان كأنه أباحه مجـازا .

الرابعـة والعشرون ــ قوله تعـالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ ﴾ . يريد فى الآخرة وإن أخذوا بها نفعا قليلا فى الدنيا . وقيل : يضرهم فى الدنيا ، لأن ضرر السحر والتفريق يعود على الساحر فى الدنيا إذا عثر عليه؛ لأنه يؤدّب ويزجر، ويلحقه شـؤم السحر . وباقى الاى بيّن لتقدّم معانيها . واللام فى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ . لام توكيد . ﴿ لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ ﴾ لام يمين، وهى

للتوكيد أيضا . وموضع من رفع بالابتداء لأنه لا يعمل ما قبل اللام فيما بعدها . ومن، بمعنى الذى . وقال الفراء : هى للمجازاة . وقال الزجاج : ليس هــذا بموضــع شرط ؛ ومن، بمعنى الذى كما تقول : لقد علمت لمن جاءك ماله عقل . ﴿ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ . من زائدة ، والتقــدير ماله فى الآخرة خلاق؛ ولا تزاد فى الواجب، هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : تكون زائدة فى الواجب ،واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ . والخلاق: النصيب . قاله مجاهد . قال الزجاج : وكذلك هو عند أهل اللغة ، إلا أنه لا يكاد يستعمل إلا للنصيب من الخير . وسئل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ . فأخبر أنهم قد علموا ، ثم قال : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . فأخبر أنهم لا يعلمون ؛ فالجواب هو قول قطرب والأخفش: أن يكون الذين يعلمون الشياطين، والذين شروا أنفسهم أى باعوها هم الإنس الذين لا يعلمون . قال الزجاج وقال علىّ بن سليمان : الأجود عندى أن يكون ﴿ وَلَقَــدْ عَلِمُوا ﴾ للملكين لأنهم أولى بأن يعلموا . وقال علموا ، كما يقال : الزيدان قاموا . وقال الزجاج : الذين علموا علماء اليهود ؛ ولكن قيل : لو كانوا يعلمون أى فدخلوا فى محل من يقال له : لست بعالم؛ لأنهم تركوا العمل بعلمهم واسترشدوا من الذين عملوا بالسحر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا ﴾ . أى آتقوا السحر . ﴿ لَمَثُوبَةٌ ﴾ . المثوبة . الثواب؛ وهى جواب ولو أنهــم آمنوا ، عنــد قوم . وقال الأخفش سعيد : ليس للو هنــا جواب فى اللفظ ولكن فى المعنى ؛ والمعنى لأثيبوا . وموضع أن، من قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ﴾ . موضع رفع أى لو وقع إيمانهم ؛ لأن لو لا يليها إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا ؛ لأنها بمنزلة حرف الشرط اذ كان لا بد له من جواب ؛ وأن يليه فعل . قال محمد بن يزيد : وإنما لم يجاز بلو لأن سبيل حروف المجازاة كلها أن تقلب المــاضى الى معنى المستقبل ؛ فلمــا لم يكن هذا فى لو لم يجز أن يجازى بها .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَــا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا وَٱسْمَعُوا ﴾ . فيه خمس مســائل .

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ الآية . ذكر شـيئا آخر من جهالات اليهود ، والمقصود نهى المسلمين عن مثل ذلك . وحقيقة راعنا فى اللغـة أرعنا ولنرعك ، لأن المفاعلة من اثنـين ؛ فتكون من رعاك الله أى احفظنا ولنحفظك ، وارقبنا ولنرقبك . ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك أى فرّغ سمعك لكلامنا ؛ وفى المخاطبة بهذا جفاء فأمر المؤمنين أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها ومن المعـانى أرقها . قال ابن عبـاس : كان المسلمون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلّم : راعنا ، على جهة الطلب . والرغبة من المراعاة أى التفت الينا ، وكان هذا بلسان اليهود سبا أى اسمع لا سمعت ؛ فاغتنموها وقالوا : كنا نسبّه سرا فالآن نسبّه جهرا ؛ فكانوا يخاطبون بها النبيّ صلى الله عليه وسلّم و يضحكون فيما بينهم ، فسمعها سـعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود : عليكم لعنـة الله ! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه ؛ فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت الآية ونهوا عنها لئلا تقتدى بها اليهود فى اللفظ ، وتقصد المعنى الفاسد .

الثانيـة — فى هذه الآية دليلان أحدهما على تجنب الألفاظ المحتملة التى فيها التعريض للتنقيص والغض ، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض وذلك يوجب الحدّ عندنا خلافا لأبى حنيفـة والشافعى وأصحابهما حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحدّ ممـا يسقط بالشبهة . وسيأتى فى النور بيان هذا إن شاء الله تعالى .

الدليـل الثـانى — التمسك بسد الذرائع وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه ؛ وقد دل على هـذا الأصل الكتاب والسنة . والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع فى ممنوع ؛ أما الكتاب فهذه الآية ووجه التمسك بهـا أن اليهود كانوا يقولون ذلك ؛ وهى سب بلغتهم فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ لأنه ذريعة للسب . وقوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثـل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ ، الآية . فحرّم عليهم تبارك وتعالى الصيد

فى يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتى يوم السبت شرعا أى ظاهرة ، فسدّوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد وكان السدّ ذريعــة للاصطياد ، فمسخهم الله قردة وخنازير ، وذكر الله لنا ذلك فى معنى التحذير عن ذلك ، وقوله تعالى لآدم وحوّاء : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ . وقد تقدّم . وأما السنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة ، منها حديث عائشــة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضى الله عنهن ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمــات بنوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله » . أخرجه البخارى ومســلم . قال علماؤنا : تفعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم ، فمضت لهم بذلك أزمان ثم أنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم ووســوس لهم الشــيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هــذه الصور فعبدوها فحذر النبىّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وشدّد النكير والوعيد على من فعل ذلك ، وسد الذرائع المؤدّية الى ذلك ، فقال : « اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » . وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد » . وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحــلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضــه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » فمنع من الاقدام على الشبهات مخــافة الوقوع فى المحرّمات . وذلك سدّا للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبــد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا ممــا به البأس » . وقال صلى الله عليه وســلم : « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا يارسول الله : وهل يشــتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم يســب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيســب أمه » فجعل التعرّض لسب الآباء كسب الآباء . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد ســلط الله عليكم ذلا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا الى

دينكم » . قال أبو عبيد الهروى: العينة هو أن يبيع الرجل من رجل سلعة بثمن معلوم الى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به . قال : فان اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما اشتراه الى أجل مسمى ثم باعها المشترى من البائع الأوّل بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضا عينة وهى أهون من الأولى، وهو جائز عند بعضهم ؛ وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة ؛ وذلك لأن العين هو المال الحاضر والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضر يصل اليه من فوره . وروى ابن وهب عن مالك، أن أم ولد لزيد بن الأرقم ذكرت لعائشة رضى الله عنها أنها باعت من زيد عبدا بثمانمائة إلى العطاء ثم ابتاعته منه بستمائة نقدا؛ فقالت عائشة : بئس ما شريت، و بئس ما اشتريت ! أبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يتب ؛ ومثل هذا لا يقال بالرأى لأن إبطال الأعمال لا يتوصل إلى معرفتها إلا بالوحى؛ فثبت أنه مرفوع الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعوا الربا والريبة . ونهى ابن عباس رضى الله عنهما عن دراهم بدراهم بينهما جريرة .

قلت : فهذه هى الأدلة التى لنا على سدّ الذرائع وعليه بنى المالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل فى البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الآجال لأن ذلك عندهم عقود مختلفة مستقلة، قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر لا على الظنون . والمالكية جعلوا السلعة محللة ليتوصل بها الى دراهم بأكثر منها : وهذا هو الربا بعينه فاعلمه .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ . نهى يقتضى التحريم على ما تقدّم . وقرأ الحسن راعنا، منونة . وقال : أى هجرا من القول وهو مصدر ونصبه بالقول، أى لاتقولوا رعونة . وقرأ زرّ بن حبيش والأعمش راعونا؛ يقال لما تنآء من الجبل : رعن ؛ والجبل أرعن . وجيش أرعن أى متفرّق؛ وكذا رجل أرعن أى متفرّق الحجج ليس عقله مجتمعا ؛ عن النحاس . وقال ابن فارس : رعن الرجل يرعن رعنا فهو أرعن أى أهوج ؛ والمرأة رعناء . وسميت البصرة رعناء لأنها تشبه برعن الجبل . قال ابن دريد ذلك وأنشد للفرزدق :

لولا ابن عتبة عمرو والرجاء له * ما كانت البصرة الرعناء لى وطنا

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا ٱنظُرْنَا﴾ . أمروا أن يخاطبوه صلّى الله عليه وسلّم بالإجلال، والمعنى أقبل علينا وآنظرا إلينا، فحذف حرف التعدية كما قال :

ظـاهرات الجمـال والحسن ينظر * ن كما ينظـر الأراك الظبـاء

أى إلى الأراك . وقال مجاهد : المعنى فَهِّمْنا وبَيِّن لنا . وقيل، المعنى انتظرنا وتأنّ بنا، قال :

فإنكما إن تنظـرانى ساعة * من الدهر ينفعنى لدى أم جندب

والظاهر آستدعاء نظر العين المقترن بتدبير الحـال، وهذا هو معنى راعنا فبدّلت اللفظة للؤمنين وزال تعلق اليهود ، وقرأ الأعمش وغيره أنظرنا بقطع الألف وكسر الظـاء بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلق منك، قال الشاعر :

أبا هنـد فـلا تعجل علينا * وأنظـرنا نخـبرك اليقينا

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَٱسْمَعُوا﴾ . لمـا نهى وأمر جلّ وعزّ ، حضّ على السمع الذى فى ضمنه الطاعة، وأعلم أن لمن خالف أمره فكفر عذابا أليمـا .

قوله تعالى : ﴿مَا يَوَدُّ﴾ : أى ما يتمنى . وقد تقدّم . ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ . معطوف على أهل ، ويجوز ولا المشركون بعطفه على الذين قاله النحاس . ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ . من زائدة، خير اسم ما لم يسم فاعله . وأن فى موضع نصب، أى بأن ينزل . ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ . قال على بن أبى طـالب رضى الله عنه : يختص برحمته أى بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال قوم : الرحمة القرآن . وقيل : الرحمة فى هـذه الآية عامة لجميع أنواعها التى قد منح الله بها عباده قديما وحديثـا ؛ يقال: رحم يرحم اذا رق . والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى، قاله ابن فارس . ورحمة الله لعباده: إنعامه عليهم وغفره لهم . ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ . ذو بمعنى صاحب .

قوله تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ . فيه خمس عشرة مسـألة .

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ . ننسها ، عطف على ننسخ ، وحذفت الياء للجزم . ومن قرأ ننساها حذفت الضمة من الهمزة للجزم وسيأتى معناه . نأت ، جواب الشرط ؛ وهى آية عظمى فى الاحكام ، وسببها أن اليهود لمـا حسدوا المسلمين فى التوجه الى الكعبة ، وطعنوا فى الإسلام بذلك ، وقالوا : إن محمدا يأمر أصحابه بشىء ثم ينهاهم عنه ، فما كان هذا القرآن إلا من جهته ، ولهـذا يناقض بعضه بعضا ؛ فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَـا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ . وأنزل : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ .

الثانيــة — معرفة هذا الباب أكيدة ، وفائدته عظيمة ، لا تستغنى عن معرفته العلماء ، ولا ينكره إلا الجهـلة الأغبياء ، لمـا يترتب عليه فى النوازل من الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام . روى أبو البخترى قال : دخل علىّ رضى الله عنه المسجد فإذا رجل يخوّف الناس ؛ فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل يُذَكِّر الناس ؛ فقال : ليس برجل يُذَكِّر الناس ! لكنه يقول أنا فلان ابن فلان فاعرفونى ، فأرسل اليه فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ! فقال : لا ؛ قال : فآخرج من مسجدنا فلا تُذَكِّر فيه . وفى رواية أخرى أعلمت الناسخ والمنسوخ ؛ قال : لا ؛ قال : هلكت وأهلكت . ومثله عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الثالثــة — النسخ فى كلام العرب على وجهين :

أحدهما : النقل ؛ كنقل كتاب من آخر ، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا ، أعنى من اللوح المحفوظ وأنزل إلى بيت العزّة فى سماء الدنيا ، وهذا لا مدخل له فى هـذه الآية ؛ ومنه قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . أى نأمر بنسخه وإثباته .

الثـانى : الإبطال والإزالة ، وهو المقصود هنا ، وهو منقسم فى اللغة على ضربين :

أحدهما : إبطال الشىء وزواله ، وإقامة آخر مقامه ؛ ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله ؛ وهو معنى قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ . وفى صحيح مسلم : " لم تكن نبوّة قطّ إلا تناسخت " . أى تحوّلت من حال الى حال ، يعنى أمر الامة . قال ابن فارس : النسخ نسـخ الكتاب . والنسخ أن يزيل أمرا كانـ من قبل يعمل به

ثم ينسخه بحادث غيره ؛ كالآية تنزل بأمر ثم ينسـخ بأخرى ؛ وكل شيء خلف شـيئا فقـد انتسخه؛ يقال : انتسخت الشمس الظل ، والشيب الشـباب . وتناسخ الورثة : أن تموت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم؛ وكذلك تناسخ الأزمنة والقرون .

الثـانى : إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه ؛ كقولهم : نسخت الريح الأثر؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ﴾ أى يزيله فلا يتلى ولا يثبت فى المصحف بدله .

وزعم أبو عبيد أن هذا النسخ الثانى : قد كان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب .

قلت : ومنه ما روى عن أبيّ بن كعب وعائشة رضى الله عنهما أن سـورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة فى الطول؛ على ما يأتى مبينا هناك ان شاء الله تعالى. ومما يدل على هذا ما ذكر أبو بكر الأنبارى حدّثنا أبى حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا عبـد الله ابن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب قال حدّثنى أبو أمامة بن سهل بن حنيف فى مجلس سعيد بن المسيب أن رجلا قام من الليل ليقرأ سـورة من القرآن فلم يقدر على شيء منها ، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها ، وقام آخر فلم يقدر على شيء منها؛ فغدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم : قمت الليلة يا رسول الله لأقرأ سورة من القرآن فلم أقدر على شيء منها؛ فقام الآخر فقال : وأنا والله كذلك يارسول الله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها مما نسخ البارحة » . وفى إحدى الروايات : وسعيد بن المسيب يسمع ما يحدث به أبو أمامة فلا ينكره .

الرابعـة — أنكرت طوائف من المنتمين للإسـلام المتأخرين جوازه ؛ وهم محجوجون بإجماع السلف السابق على وقوعه فى الشريعة . وأنكرته أيضا طوائف من اليهود؛ وهم محجوجون بما جاء فى توراتهم بزعمهم أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عنـد خروجه من السـفينة : إنى جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم ، كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه . ثم قد حرّم على موسى وعلى بنى إسرائيل كثيرا من الحيوان؛ وبما

كان آدم عليه السلام يزوّج الأخ من الأخت؛ وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره؛ وبأن إبراهيم الخليل أمر بذبح ابنه ثم قال له: لا تذبحه؛ وبأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم؛ وبأن نبوّته غير متعبد بها قبل بعثه؛ ثم تعبّد بها بعد ذلك، الى غير ذلك؛ وليس هذا من باب البداء بل هو من نقل العباد من عبادة الى عبادة، وحكم الى حكم، لضرب من المصلحة، إظهارا لحكمته وكمال مملكته. ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية؛ وإنما كان يلزم البداء لولم يكن عالما بمآل الأمور، وأما العالم بذلك فإنما تتبدّل خطاباته بحسب تبدّل المصالح، كالطبيب المراعى أحوال العليل، فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته، لا إله إلا هو. فخطابه يتبدّل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى.

وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئا واحدا؛ ولذلك لم يجوّزوه فضلّوا. قال النحاس: والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العباد من شيء الى شيء قد كان حلالا فيحرّم، أو كان حراما فيحلل. وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه كقولك: امض الى فلان اليوم؛ ثم تقول: لا تمض اليه؛ فيبدو لك العدول عن القول الأوّل؛ وهذا يلحق البشر لنقصانهم؛ وكذلك إن قلت: ازرع كذا في هذه السنة؛ ثم قلت: لا تفعل؛ فهذا البداء.

الخامسة — إعلم أن الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى؛ ويسمى الخطاب الشرعي ناسخا تجوّزا إذ به يقع النسخ؛ كما قد يتجوّز فيسمى المحكوم فيه ناسخا فيقال: صوم رمضان ناسخ لصوم عاشوراء؛ فالمنسوخ هو المزال، والمنسوخ عنه هو المتعبّد بالعبادة المزالة، وهو المكلف.

السادسة — اختلفت عبارات أئمتنا في حد الناسخ؛ فالذي عليه الحذاق من أهل السنة أنه إزالة ما قد استقر من الحكم الشرعي بخطاب وارد متراخيا؛ هكذا حدّه القاضي عبد الوهاب، والقاضي أبو بكر وزاد: لولاه لكان السابق ثابتا؛ فحافَظَا على معنى النسخ اللغوي، إذ هو بمعنى الرفع والإزالة، وتحرّزا من الحكم العقلي، وذكر الخطاب ليعم وجوه الدلالة من النص، والظاهر، والمفهوم، وغيرها؛ وليخرج القياس والإجماع، إذ لا يتصوّر النسخ فيهما ولا بهما؛

وقيد بالتراخى، لأنه لو آتصـــل به لـكان بيانا لغاية الحكم لا نسخا، أو يكون آخر الكلام يرفع أوّله ؛ كقولك : قم، لا تقم .

السابعـة — المنسـوخ عند أئمتنا أهل السنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله ؛ كما تقوله المعتزلة بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدّم زائل . والذى قادهم إلى ذلك مذهبهم فى أن الأوامر مرادة، وأن الحسن صفة نفســية للحسن، ومراد الله حسن . وهذا قد أبطله علماؤنا فى كتبهم .

الثامنـــة — آختلف علماؤنا فى الأخبار هل يدخلها النسخ ؛ فالجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهى ، والخبر لا يدخله النســخ لاستحالة الكذب على الله تعـالى . وقيل : إن الخبر إذا تضمن حكما شرعيا، جاز نسخه؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ . وهناك يأتى القول فيه إن شاء الله تعالى .

التاســعة — التخصيص من العموم يوهم أنه نسخ وليس به ، لأن المخصص لم يتناوله العموم قط ، ولو ثبت تناول العموم لشىء مّا ثم أخرج ذلك الشىء من العموم لكان نســخا لا تخصيصا . والمتقدّمون يطلقون على التخصيص نسخا توسعا ومجازا .

العاشرة — إعلم أنه قد يرد فى الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والإستغراق، ويرد تقييدها فى مواضع أخر فيرتفع ذلك الاطلاق ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ . فهذا الحكم ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال؛ لكن قد جاء ما قيده فى موضع آخر؛ كقوله : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ . فقد يظن من لا بصيرة عنده أن هـــذا من باب النســخ فى الأخبار وليس كذلك بل هو من باب الإطلاق والتقييد . وسيأتى لهذه المسئلة زيادة بيان فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — قال علماؤنا رحمهم الله تعالى : جائز نسخ الأثقل الى الأخف ؛ كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لأثنيـــن . ويجوز نسخ الأخف الى الأثقل؛ كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان . على ما يأتى بيانه فى آية الصيام . وينسخ المثل بمثله ثقلا وخفة،

كالقبلة ، و ينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى ، و ينسخ القرآن بالقرآن ، والسنة بالعبارة ؛ وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي ، و ينسخ خبر الواحد بخبر الواحد .

وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة وذلك موجود فى قوله عليه السلام : «لا وصية لوارث» . وهو ظاهر مسائل مالك . وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي ؛ والأوّل أصح بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وان اختلفت فى الأسماء ؛ وأيضا فان الجلد ساقط فى حدّ الزنا عن الثيب الذى يرجم ، ولا مسقط لذلك إلا السنة ، فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا بين .

والحذاق أيضا على أن السنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود فى القبلة ، فإن الصلاة الى الشام لم تكن فى كتاب الله تعالى ؛ وفى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ . فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبيّ صلى الله عليه وسلم لقريش .

والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلا ؛ واختلفوا هل وقع شرعا ؟ فذهب أبو المعالى وغيره الى وقوعه فى نازلة مسجد قباء ، على ما يأتى بيانه . وأبى ذلك قوم . ولا يصح نسخ نص بقياس ، إذ من شرط القياس ألا يخالف نصا .

وهذا كله فى مدّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ ؛ ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحى ؛ فاذا وجدنا إجماعا يخالف نصا فيعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن ، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به ، وأن مقتضاه نسخ و بقى يقرأ و يروى ؛ كما أن آية عدّة السنة فى القرآن تتلى . فتأمل هذا فانه نفيس . و يكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة ؛ ومثله صدقة النجوى ، وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم ، وقد تنسخ التلاوة والحكم معا ومنه قول الصديق رضى الله عنه : كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر ، ومثله كثير . والذى عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأوّل ، كما يأتى بيانه فى تحويل القبلة .

والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله وهو موجود فى قصة الذبيح، وفى فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس، على ما يأتى بيانه فى الإسراء والصافات، إن شاء الله تعالى .

الثانيـة عشرة — لمعرفة الناسخ طرق ، منها : أن يكون فى اللفظ ما يدل عليه؛ كقوله عليه السلام : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن الأشربة إلا فى ظروف الأدم فاشربوا فى كل وعاء غير ألا تشربوا مسكرا ونحوه» . ومنها : أن يذكر الراوى التاريخ؛ مثل أن يقول: سمعت عام الخندق، وكان المنسوخ معلوما قبله . أو يقول : نسخ حكم كذا بكذا . ومنها : أن تجمع الأمة على حكم أنه منسوخ ، وأن ناسخه متقدم . وهـذا الباب مبسوط فى أصول الفقه نبهنا منه على ما فيه لمن اقتصر كفاية، والله الموفق للهداية .

الثالثة عشرة — قرأ الجمهور ما ننسخ بفتح النون من نسخ وهو الظاهر المستعمل على معنى ما نرفع من حكم آية ونبق تلاوتهـا كما تقدّم . ويحتمل أن يكون المعنى ما نرفع من حكم آية وتلاوتها على ما ذكرنا . وقرأ ابن عامر ننسخ بضم النون من أنسخت الكتاب على معنى وجدته منسوخا . قال أبو حاتم : هو غلط . وقال الفارسى أبو على : ليست لغة، لأنه لا يقال : نسخ وأنسخ بمعنى، إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخا، كما تقول : أحمدت الرجل وأبخلته بمعنى وجدته محمودا وبخيلا . قال أبو على : وليس نجده منسوخا الا بأن ننسخه فتتفق القراءتان فى المعنى وان اختلفتا فى اللفظ . وقيل : ما ننسخ، ما نجعل لك نسخة ؛ يقـال : نسخت الكتاب إذا كتبته، وانتسخته غيرى إذا جعلت نسخة له . قال مكى : ولا يجـوز أن تكون الهمـزة للتعدى ، لأن المعنى يتغير، ويصير المعنى ما ننسخك من آية يا محمد ؛ وإنساخه إياها إنزالهـا عليه، فيصير المعنى ما ننزل عليك من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ؛ فيؤول المعنى إلى أن كل آية أنزلت أتى بخير منها؛ فيصير القرآن كله منسوخا وهذا لا يمكن، لأنه لم ينسخ الا اليسير من القرآن . فلما امتنع أن يكون أفعـل وفعل بمعنى، اذ لم يسـمع، وامتنع أن تكون الهمزة للتعدى لفساد المعنى، لم يبق ممكن الا أن يكون من باب أحمدته وأبخلته اذا وجدته محمودا أو بخيلا .

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ . قرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح النون والسين والهمز ، وبه قرأ عمر وابن عباس وعطاء ومجاهد وأبيّ بن كعب وعبيد بن عمير والنخعي وابن محيصن ، من التأخير. أي نؤخر نسخ لفظها أي نتركه في آخر أم الكتاب فلا يكون . وهذا قول عطاء . وقال غير عطاء بمعنى أو ننسأها ونؤخرها عن النسخ الى وقت معلوم ؛ من قولهم : نسأت هذا الأمر إذا أخرته ؛ ومن ذلك قولهم : بعته نسأ اذا أخرته . قال ابن فارس : ويقولون نسأ الله في أجلك ، وأنسأ الله أجلك ؛ وقد انتسأ القوم اذا تأخروا وتباعدوا ، ونسأتهم اذا أخرتهم . فالمعنى نؤخر نزولها أو نسخها على ما ذكرنا . وقيل : نذهبها عنكم حتى لا تقرأ ولا تذكر . وقرأ الباقون ننسها بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك أي نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها . قاله ابن عباس والسدي ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ . أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال أبو عبيد : سمعت أبا نعيم القارئ يقول : قرأت على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المنام بقراءة أبي عمرو فلم يغيّر عليّ الا حرفين ؛ قال : قرأت عليه " أرنا " فقال : أرنا ، فقال أبو عبيد : وأحسب الحرف الآخر أو ننسأها فقال : أو ننسها . وحكى الأزهري ننسها نأمر بتركها ؛ يقال : أنسيته الشيء أي أمرت بتركه ؛ ونسيته تركته ، قال الشاعر :

إن عليّ عُقْبَةً أَقْضِيها * لست بناسيها ولا مُنْسِيها

أي ولا آمر بتركها . وقال الزجاج : ان القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك ؛ لا يقال : أنسى بمعنى ترك ، وما روى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس أو نُنسها قال : نتركها لا نبدّلها ، فلا يصح . ولعل ابن عباس قال : نتركها فلم يضبط . والذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى أو ننسها نبح لكم تركها ؛ من نسى إذا ترك ثم تعديه . قال أبو علي وغيره : ذلك متجه لأنه بمعنى نجعلك تتركها . وقيل : من النسيان على بابه الذي هو عدم الذكر ، على معنى أو ننسكها يا محمد فلا تذكرها ؛ نقل بالهمزة فتعدّى الفعل الى مفعولين وهما النبيّ والهاء لكن اسم النبي محذوف .

الخامســة عشرة — قوله تعالى : ﴿ نأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ . لفظة خير هنا صفة تفضيل ؛ والمعنى بأنفع لكم أيها الناس فى عاجل، إن كانت الناسخة أخف، وفى آجل، إن كانت أثقل، وبمثلها، إن كانت مستوية . وقال مالك : محكمة مكان منسوخة . وقيل : ليس المراد بأخير التفضيل لأن كلام الله لا يتفاضل، وإنما هو مثل قوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ . أى فله منها خير أى نفع وأجر، لا الخير الذى هو بمعنى الأفضل، ويدل على القول الأوّل قوله : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ . جزم بلم ، وحروف الاستفهام لا تغير عمل العامل، وفتحت أن، لأنها فى موضع نصب . ﴿ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . أى بالإيجـاد والاختراع ؛ والملك والسلطان ، ونفوذ الأمر والإرادة . وآرتفع ملك بالابتـداء ، والخبر له ، والجملة خبر أن، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسـلم والمراد أمته ؛ لقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِـيرٍ ﴾ . وقيل : المعنى قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن لله سلطان السموات والأرض وما لكم من دونه من ولى ؛ من وليت أمر فلان : أى قمت به ؛ ومنه ولىّ العهد : أى القيم بمـا عهد إليه من أمر المسلمين . ومعنى من دون الله ؛ سوى الله وبعـد الله كما قال أمية بن أبى الصلت :

يانفس مالك دون الله من واق * وما على حدثان الدهر من باق

وقراءة الجماعة ولا نصير بالخفض عطفا على ولى ؛ ويجوز ولا نصير بالرفع عطفا على الموضع ؛ لأن المعنى مالكم من دون الله ولى ولا نصير .

قوله تعالى : ﴿ أم تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ . هذه أم المنقطعة التى بمعنى بل أى بل أتريدون، ومعنى الكلام التوبيخ . ﴿ أن تسئلوا ﴾ ، فى موضع نصب بتريدون . ﴿ كما سئل ﴾ ، الكاف فى موضـع نصب نعت لمصدر أى سؤالا كما . وموسى ، فى موضع رفع على مالم يسم فاعله . من قبل سؤالهم إياه أن يريهم الله جهرة ، وسألوا محمدا أن يأتى بالله والملائكة قبيلا . عن ابن عباس ومجاهد : سألوا أن يجعل لهم الصفا ذهبا . وقرأ الحسن

كما سِيلَ ، وهذا على لغة من قال : سلت أسل ؛ ويجوز أن يكون على بدل الهمزة ياء ساكنة على غير قياس فانكسرت السين قبلها . قال النحاس : بدل الهمزة بعيد . والسواء من كل شيء : الوسط . قاله أبو عبيـدة معمر بن المثنى ؛ ومنـه قوله : ﴿ فِي سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . وحكى عيسى ابن عمر قال : ما زلت أكتب حتى ٱنقطع سواى ؛ وأنشـد قول حسان يرثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ياويح أصحاب النبيّ ورهطه * بعد المغيَّب فى سواء الملحَدِ

وقيل : السواء القصد ؛ عن الفراء . أى ذهب عن قصد الطريق وسمته أى طريق طاعة الله عز وجل . وعن ابن عباس أيضا أن سبب نزول هـذه الآية أن رافع بن خزيمة ووهب ابن زيد قالا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه ، وفجّر لنا الأنهار نتّبعك .

قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ﴾ . فيه مسئلتان :

الأولى ــ ودّ ، تمنّى . وقد تقدّم . كفارا ، مفعول ثان بيردونكم . ﴿ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ قيل : هو متعلق بودّ . وقيل : بحسدا ، فالوقف على قوله : ﴿ كُفَّارًا ﴾ . وحسدا ، مفعول له أى ودّوا ذلك للحسد ، أو مصدر دل ما قبله على الفعل ، ومعنى من عند أنفسهم أى من تلقائهم من غير أن يجدوه فى كتاب ولا أمروا به ؛ ولفظة الحسد تعطى هـذا ، فجاء من عند أنفسهم تأكيدا و إلزاما ؛ كما قال تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ . ﴿ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ . ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ . والآية فى اليهود .

الثانيــة ــ الحسد نوعان : مذموم ومحمود ؛ فالمذموم أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ، وسواء تمنّيت مع ذلك أن تعود إليك أولا ؛ وهذا النوع الذى ذمّه الله تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . وإنما كان مذموما لأن فيه تسفيه الحق سبحانه ، وأنه أنعم على من لا يستحق . وأما المحمود فهو ما جاء فى صحيح الحديث من قوله عليه السلام : " لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء

النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار " . وهــذا الحديث معناه الغبطة ، وكذلك ترجم عليــه البخارى باب الاغتباط فى العلم والحكمة . وحقيقتها : أن تمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره؛ وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ . أى من بعد ماتبين الحق لهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الذى جاء به .

قوله تعالى : ﴿ فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا ﴾ . فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَٱعْفُوا ﴾ . والأصل اعفووا حذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ والعفو : ترك المؤاخذة بالذنب . والصفح : إزالة أثره من النفس؛ صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه؛ وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ .

الثانيــة — هــذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . الى قوله : ﴿ صَاغِرُونَ ﴾ . عن ابن عباس . وقيل : الناسخ لها ﴿ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ . قال أبو عبيدة : كل آية فيها ترك القتال فهى مكية منسوخة بالقتال .

قال ابن عطية : وحكمه بأن هــذه الآية مكية ضعيف ، لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينـــة .

قلت : وهو الصحيح ، روى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفــة فدكيــة وأسامة وراءه ، يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث ابن الخزرج قبل واقعة بدر ؛ فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبى بن سلول — وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى — فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود؛ وفى المسـلمين عبد الله بن رواحة ؛ فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر ابن أبى

أنفــه بردائه وقال: لا تُغَــبِّروا علينا ! فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم وقف . فنزل فدعاهم الى الله تعــالى وقرأ عليهــم القرآن؛ فقال له عبد الله بن أبيّ بن سلول : أيها المرء ، لا أحسن ممــا تقول إن كان حقا ! فلا تؤذنا به فى مجالسنا، فمن جاءك فاقصص عليه . قال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله، فآغشنا فى مجالسنا، فانا نحب ذلك. فاستب المشركون والمســلمون واليهود حتى كادوا يتثاورون ؛ فلم يزل رسول الله صــلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا؛ ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة؛ فقال رسول الله صــلى الله عليه وسلم : " ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب — يريد عبد الله بن أبيّ — قال كذا وكذا "، فقال : أى رسول الله، بأبى أنت وأمى، آعف عنه وآصفح، فوالذى أنزل عليــك الكتاب بالحق لقد جاءك الله بالحق الذى أنزل عليك ؛ ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه ويعصــبوه بالعصابة ، فلمــا رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك شرق، فلذلك فعــل ما رأيت ؛ فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وســلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وســلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى، ويصبرون على الأذى؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ . وقال : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ ﴾ . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول فى العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن له فيهم ؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليــه وسلم بدرا فقتل الله بها من قتل من صناديد الكفار وسادات قريش ؛ فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه غانمين منصورين، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش؛ قال عبد الله بن أبى بن سلول ومن معه من المشركين عبدة الأوثان : هــذا أمر قد توجه ؛ فبَايَعُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، فأسلموا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ . يعنى قتل قريظة وجلاء بنى النضير . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ﴾ . تقدم والحمد لله تعالى .

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ . جاء فى الحديث « إن العبد إذا مات قال الناس ما خَلَّفَ وقالت الملائكة ما قَدَّم » . وخرج البخارى والنسائى عن عبدالله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله » . قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب اليه من مال وارثه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منكم من أحد إلا مال وارثه أحب اليه من ماله مالكُ ما قدمت ومالُ وارثك ما أخرت » . لفظ النسائى. ولفظ البخارى قال عبد الله قال النبى صلى الله عليه وسلم : «أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله » قالوا : يارسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب اليه ؛ قال : « فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » . وجاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه مرّ ببقيع الغَرْقَد فقال: السلام عليكم أهل القبور، أخبار ما عندنا، فإن نساءكم قد تزوّجن، ودوركم قد سكنت، وأموالكم قد قسمت ؛ فأجابه هاتف : يا بن الخطاب ، أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه، وما أنفقناه فقد ربحناه، وما خلفناه فقد خسرناه. ولقد أحسن القائل :

قدم لنفسك قبل موتك صالحا * واعمل فليس الى الخلود سبيل

وقال آخر :

قدم لنفسك توبة مرجوّة * قبل الممات وقبل حبس الألسن

وقال آخر :

ولدتك إذ ولدتك أمك باكيا * والقوم حولك يضحكون سرورا
فاعمل ليوم تكون فيه إذا بكوا * فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

وقال آخر :

سابق الى الخير وبادر به * فإنما خلفك ما تعلم
وقدم الخير فكل امرئ * على الذى قدمه يقدم

وأحسن من هذا كله قول أبى العتاهية :

أسعد بمالك فى حياتك إنما * يبقى وراءك مفلح او مفسد

وإذا تركت لمفسد لم يبقه * وأخو الصلاح قليله يتزيد
وان استطعت فكن لنفسك وارثا * إن المورث نفسه لمسدد

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ . المعنى وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . وأجاز الفراء أن يكون هودا بمعنى يهوديا حذف منه الزائدة، وأن يكون جمع هائد . وقال الأخفش سعيد : إلا من كان، جعل كان واحدا على لفظ من، ثم قال هودا فجمع؛ لأن معنى من جمع. ويجوز تلك أمانيهم . وتقدّم الكلام فى هذا والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ . أصل هاتوا هاتيوا حذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ يقال فى الواحد المذكر : هات، مثل : رام . وفى المؤنث : هاتى، مثل : رامى . والبرهان : الدليل الذى يوقع اليقين، وجمعه براهين، مثل : قربان وقرابين، وسلطان وسلاطين . قال الطبرى : طلب الدليل هنا يقتضى إثبات النظر و يرد على من ينفيه . ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . يعنى فى إيمانكم وفى قولكم تدخلون الجنة أى بينوا ما قلتم ببرهان، ثم قال تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ . ردّا عليهم، وتكذيبا لهم أى ليس كما تقولون . وقيل : إن بلى محمولة على المعنى؛ كأنه قيل أما يدخل الجنة أحد ؟ فقيل : بلى، ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ . ومعنى أسلم استسلم وخضع . وقيل : أخلص عمله . وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان؛ ولأنه موضع الحواس، وفيه يظهر العز والذل . والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء . ويصح أن يكون الوجه فى هذه الآية المقصد ﴿ وهو محسن ﴾؛ جملة فى موضع الحال، وعاد الضمير فى وجهه، وله، على لفظ من، وكذلك أجره؛ وعاد فى عليهم على المعنى، وكذلك فى يحزنون وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ﴾ . الآية . معناه ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شيء، وأنه أحق برحمة الله منه . ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ ﴾ .

يعني التوراة والإنجيل، والجملة فى موضع الحال؛ والمراد بالذين لا يعلمون فى قول الجمهور: كفار العرب؛ لأنهم لا كتاب لهم . وقال عطاء : المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى . الربيع بن أنس : المعنى كذلك قالت اليهود قبل النصارى . ابن عباس : قـدم أهل نجران على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأتتهـم أحبار يهود ؛ فتنازعوا عند النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقالت كل فرقة منهم للأخرى : لستم على شيء . فنزلت الآية .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴾ .

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ﴾ . رفع بالابتداء، وأظلم خبره؛ والمعنى لا أحد أظلم. وأن، فى موضع نصب على البدل من مساجد، ويجوز أن يكون التقدير كراهية أن يذكر، ثم حذف، ويجوز أن يكون التقدير من أن يذكر فيهـا ؛ وحرف الخفض يحـذف مع أن لطول الكلام . وأراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحاريبه . وقيل : الكعبة، وجمعت لأنها قبلة المساجد، أو للتعظيم .وقيل : المراد سائر المساجد؛ والواحد مسجد بكسر الجيم، ومن العرب من يقول : مسجد بفتحها . قال الفراء : كلما كان على فَعَل يفْعُل؛ مثل : دخل يدخل، فالمفعل منه بالفتح اسما كان أو مصدرا، ولا يقع فيه الفرق مثل : دخل يدخل مدخلا، وهذا مَدخَلُه إلا أحرفا من الأسماء ألزموها كسر العين؛ من ذلك : المسجد والمطلع والمغرب والمشرق والمسقط والمفْرق والمجزِر والمسْكِن والمَرْفِق (من رَفَقَ يرْفُق) والمَنْبِت والمَنْسِك (من نَسَك ينْسُك) فجعلوا الكسر علامة للاسم ، وربما فتحه بعض العرب فى الاسم . والمَسْجَد (بالفتح) : جبهة الرجل حيث يصيبه نَدَبُ السجود . والآراب السبعة مساجد . قاله الجوهرى .

الثانيـة ــ واختلف الناس فى المراد بهذه الآية، وفيمن نزلت، فذكر المفسرون أنهـا نزلت فى بخت نصّر؛ لأنه كان أخرب بيت المقـدس . وقال ابن عباس وغيره : نزلت فى النصارى . والمعنى كيف تدّعون أيهـا النصارى أنكم من أهل الجنـة ! وقد خربتم بيت المقدس، ومنعتم المصلين من الصلاة فيه . ومعنى الآية على هذا التعجب من فعل النصارى

ببيت المقدس مع تعظيمهم له ، وإنمـا فعلوا ما فعلوا عدواة لليهود . روى سعيد عن قتادة قال : أولئـك أعداء الله النصارى ، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بخت نصّر البابليّ المجوسيّ على تخريب بيت المقـدس . وروى أن هـذا التخريب بقى الى زمن عمر رضى الله عنـه . وقيل : نزلت فى المشركين إذ منعوا المصلين ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وصدّوهم عن المسجد الحرام، عام الحديبية . وقيل : المراد مَنْ منع مِنْ كل مسجد الى يوم القيامة وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع ، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف . والله تعالى أعلم .

الثالثـة — خراب المساجد قد يكون حقيقيا كتخريب بخت نصّر ، أو النصارى بيت المقـدس على ما ذكر : أنهم غزوا بنى اسرائيل مع بعض ملوكهم — قيل : اسمه بطوس(١) بن اسبيسانوس(٢) الرومى فيما ذكر الغزنوى — فقتلوا وسبوا ، وحرقوا التوراة ، وقذفوا فى بيت المقدس العذرة وخربوه .

ويكون مجازا كمنع المشركين المسلمين حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ؛ وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الاسلام فيها خراب لها .

الرابعـة — قال علماؤنا : ولهذا قلنا لا يجوز منع المرأة من الحج اذا كانت صرورة ، سواء كان لها محرم أو لم يكن . ولا تمنع أيضا من الصلاة فى المساجد مالم يخف عليها الفتنة ؛ ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» . ولذلك قلنا : لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه ولا تعطيله وان خربت المحلة ، ولا يمنع من بناء المساجد الا أن يقصدوا الشقاق والخلاف ، بأن يبنوا مسجدا الى جنب مسجد أو قربه ؛ يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأول وخرابه ، واختلاف الكلمة ، فان المسجد الثانى ينقض ويمنع من بنائه ؛ ولذلك قلنا : لا يجوز أن يكون فى المصر جامعان ، ولا لمسجد واحد إمامان ، ولا يصـلى فى مسجد

---

(١) فى نسخة من الأصل «تطوس» ، بالتاء وفى نسخة بطوش بالباء والشين المعجمة .

(٢) فى بعض الأصول : «أسانوس» .

جماعتان. وسيأتى لهذا كله مزيد بيان فى سورة براءة إن شاء الله تعالى، وفى النور حكم المساجد وبنائها بحول الله تعالى . ودلّت الآية أيضا على تعظيم أمر الصلاة، وأنها لما كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجرا كان منعها أعظم إثما .

الخامسة — كل موضع يمكن أن يعبد الله فيه ويسجد له يسمى مسجدا؛ قال صلى الله عليه وسلم : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » . أخرجه الأئمة، وأجمعت الأمة على أن البقعة اذا عينت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الأملاك المختصة بربها وصارت عامة لجميع المسلمين ؛ فلو بنى رجل فى داره مسجدا وحجزه على الناس واختص به لنفسه لبقى على ملكه ولم يخرج الى حد المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة وخرج عن اختصاص الأملاك .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ . أولئك ، مبتدأ وما بعده خبره . خائفين ، حال . يعنى اذا استولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها؛ فان دخلوها فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم ، وتأديبهم على دخولها ؛ وفى هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال على ما يأتى بيانه فى براءة ان شاء الله تعالى . ومن جعل الآية فى النصارى، روى أنه مر زمان بعد بناء عمر بيت المقدس فى الإسلام لايدخله نصرانى إلا أوجع ضربا بعد أن كان متعبدهم . ومن جعلها فى قريش قال: كذلك نودى بأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان . وقيل : هو خبر، ومقصوده الأمر أى جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام الا خائفا؛ كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ . فإنه نهى ورد بلفظ الخبر .

السابعة — قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ . قيل: القتل للحربىّ، والجزية للذمى . عن قتادة . السدى : الخزى لهم فى الدنيا قيام المهدى ، وفتح عَمُورِيّة ورُومِيَة وقُسْطَنْطِينِيّة

وغير ذلك من مدنهـم؛ على ما ذكرنا فى كتاب التذكرة . ومن جعلها فى قريش جعل الخزى عليهم فى الفتح، والعذاب فى الآخرة لمن مات منهم كافرا .

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْـرِبُ ﴾ . المشرق : موضـع الشروق . والمغرب : موضع الغروب ؛ أى هما له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع؛ كما تقدّم . وخصهما بالذكر والإضافة إليـه تشريفا؛ نحو بيت الله ، وناقة الله ، ولأن سبب الآية اقتضى ذلك على ما يأتى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ . شرط، ولذلك حذفت النون، وأين العاملة، وما زائدة، والجواب : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . وقرأ الحسن تولوا، بفتح التـاء واللام؛ والأصل تتولوا؛ وثم، فى موضع نصب على الظرف ومعناها البعد ؛ إلا أنها مبنية على الفتح غير معربة لأنها مبهمة، تكون بمنزلة هناك للبعد، فإن أردت القرب قلت : هنا .

الثالثـة — اختلف العلمـاء فى المعنى الذى نزلت فيـه ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ . على خمسـة أقــوال .

فقال عبـد الله بن عامر بن ربيعة : نزلت فى من صلى إلى غير القبلة فى ليـلة مظلمة . أخرجه الترمذىّ عنه عن أبيه قال : كنا مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى سفر فى ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة؛ فصلى كل واحد منا على حياله ، فلما أصـبحنا ذكرنا ذلك للنبىّ صـلى الله عليه وسلم فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بذاك ، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان ؛ وأشعث بن سـعيد أبو الربيع يضعف فى الحديث ؛ وقـد ذهب أكثر أهل العلم الى هــذا . قالوا : إذا صـلى فى الغيم لغير القبلة ثم استبان له بعد ذلك أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة ؛ وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد واسحاق .

قلت : وهو قول أبى حنيفة ومالك، غير أن مالكا قال : تستحب له الإعادة فى الوقت وليس ذلك بواجب عليـه؛ لأنه قد أدى فرضـه على ما أمر؛ والكمال يسـتدرك فى الوقت استدلالا بالسـنة فيمن صلى وحده ثم أدرك تلك الصلاة فى وقتها فى جماعة، أنه يعيد معهم ولا يعـيد فى الوقت استحبابا إلا من استدبر القبلة أو شرق أو غرب جدا مجتهدا ، وأما من تيامن أو تياسر قليلا مجتهدا فلا إعادة عليه فى وقت ولا غيره. وقال المغيرة والشافعى: لايجزيه. لأن القبلة شرط من شروط الصلاة. وما قاله مالك أصح؛ لأن جهة القبلة تبيح الضرورة تركها فى المسايفة، وتبيحها أيضا الرخصة حالة السفر. وقال آبن عمر : نزلت فى المسافر يتنفل حيثما توجهت به راحلته . أخرجه مسلم عنه؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو مقبل من مكة الى المدينة على راحلته حيث كان وجهه . قال : وفيـه نزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . ولا خلاف بين العلماء فى جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث، وما كان مثله . ولا يجوز لأحد أن يدع القبلة عامدا بوجه من الوجوه إلا فى شدّة الخوف على ما يأتى .

واختلف قول مالك فى المريض يصلى على محمله؛ فمرة قال : لا يصلى على ظهر البعير فريضه وان اشتدّ مرضه . قال سحنون : فإن فعل أعاد . حكاه الباجى . ومرّة قال : إن كان ممن لا يصلى بالأرض إلا إيماء فليصلّ على البعير بعد أن يوقف له ويستقبل القبلة . وأجمعوا على أنه لا يجوز لأحد صحيح أن يصلى فريضـة إلا بالأرض إلا فى الخوف الشديد خاصة؛ على ما يأتى بيانه .

واختلف الفقهاء فى المسافر سفرا لا تقصر فى مثله الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه والثورى : لا يتطوع على الراحلة إلا فى سـفر تقصر فى مثله الصلاة؛ قالوا : لأن الأسفار التى حكى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه كان يتطوع فيها كانت مما تقصر فيه الصلاة . وقال الشافعى وأبو حنيفة وأصحابهما والحسـن بن حىّ والليث بن سعد وداود بن علىّ : يجوز التطوع على

الراحلة خارج المصر فى كل سفر، وسواء كان مما تقصر فيه الصلاة أولا؛ لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفر من سفر، فكل سفر جائز ذلك فيه، إلا أن يخص شيء من الأسفار بما يجب التسليم له . وقال أبو يوسف : يصلى فى المصر على الدابة بالإيماء؛ لحديث يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك أنه صلى على حمار فى أزقة المدينة يومئ إيماء . وقال الطبرى : يجوز لكل راكب وماش حاضرا كان أو مسافرا أن يتنفل على دابته وراحلته وعلى رجليه [بالايماء] . وحكى عن بعض أصحاب الشافعى أن مذهبهم جواز التنفل على الدابة فى الحضر والسفر . وقال الأثرم : قيل لاحمد بن حنبل الصلاة على الدابة فى الحضر؛ فقال : أما فى السفر فقد سمعت ، وما سمعت فى الحضر . قال ابن القاسم : من تنفل فى محمله[1] تنفل جالسا قيامه تربع ، يركع واضعا يديه على ركبتيه ثم يرفع رأسه . وقال قتادة : نزلت فى النّجاشى، وذلك أنه لما مات دعا النبىّ صلّى الله عليه وسلّم المسلمين إلى الصلاة عليه خارج المدينة ، فقالوا : كيف نصلى على رجل مات ؟ وهو يصلى لغير قبلتنا — وكان النّجاشى ملك الحبشة، واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية — يصلى إلى بيت المقدس حتى مات، وقد صرفت القبلة الى الكعبة فنزلت الآية، ونزل فيه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ . فكان هذا عذرا للنجاشى؛ وكانت صلاة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عليه بأصحابه سنة تسع من الهجرة . وقد استدل بهذا من أجاز الصلاة على الغائب، وقد كنت ببغداد فى مجلس الإمام فخر الإسلام فيدخل عليه الرجل من خراسان فيقول له : كيف حال فلان ؟ فيقول له : مات؛ فيقول : إنا لله و إنا إليه راجعون! ثم يقول لنا : قوموا فلأصلى لكم؛ فيقوم فيصلى عليه بنا، وذلك بعد ستة أشهر من المدة، و بينه و بين بلده ستة أشهر .

والأصل عندهم فى ذلك صلاة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم على النجاشى . وقال علماؤنا رحمة الله عليهم : النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بذلك مخصوص لثلاثة أوجه ؛ أحدها : أن الأرض دحيت له جنوبا وشمالا حتى رأى نعش النجاشى كما دحيت له شمالا وجنوبا حتى رأى المسجد

(١) فى نسخة من الأصل : «فى محله» .

الأقصى . قال المخالف : وأى فائدة فى رؤيته! وإنمـا الفائدة فى لحوق بركته . الثانى : أن النجاشى لم يكن له هنـاك ولىّ من المؤمنين يقوم بالصلاة عليه . قال المخالف : هـذا محال عادة! ملك على دين لا يكون له أتباع والتأويل بالمحال محال . الثالث : أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إنما أراد بالصلاة على النّجاشى إدخال الرحمة عليه واستئلاف بقيّة الملوك بعـده إذا رأوا الاهتمام به حيا وميتا . قال المخالف : بركة الدعاء من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم على النجاشى أنه علم أن النّجاشى ومن آمن معه ليس عندهم من سنة الصلاة على الميت أثر، فعلم أنهم سيدفنونه بغير صلاة فبادر الى الصلاة عليه .

قلت : والتأويل الأول حسن؛ لأنه اذا رآه فـا صلّى على غائب وإنمـا صلّى على مرئى حاضر، والغائب ما لا يرى . والله تعالى أعلم .

القول الرابع : قال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم الى بيت المقدس وقالوا: ما اهتدى الا بنا؛ فلما حوّل الى الكعبة قالت اليهود : ما ولّاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؛ فنزلت : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ . فوجه النّظم على هذا القول : أن اليهود لمـا أنكروا أمر القبلة بيّن الله تعالى أن له أن يتعبد عباده بما شاء، فإن شاء أمرهم بالتوجه إلى بيت المقدس، وإن شاء أمرهم بالتوجه إلى الكعبة، فَعَلَ لا حجة عليه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

القول الخامس : أن الآية منسوخة بقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾. ذكره ابن عباس؛ فكأنه كان يجوز فى الابتـداء أن يصلى المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك . وقال قتادة : الناسخ قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . أى تلقاءه . حكاه أبو عيسى الترمذى .

وقول سادس : روى عن مجاهد والضحاك أنها محكمة المعنى، أينما كنتم من شرق وغرب فثمّ وجه الله الذى أمرنا باسـتقباله وهو الكعبـة . وعن مجاهد أيضا وابن جبير لمـا نزلت : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ . قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . وعن

ابن عمر والنخعي : أينما تولوا في أسفاركم ومنصرفاتكم فثم وجه الله . وقيل : هي متصلة بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ ﴾ . الآية؛ فالمعنى أن بلاد الله أيها المؤمنون تسعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله أن تولّوا وجوهكم نحو قبلة الله، أينما كنتم من أرضه . وقيل : نزلت حين صُدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن البيت عام الحديبية؛ فاغتم المسلمون لذلك . فهذه عشرة أقوال .

ومن جعلها منسوخة فلا اعتراض عليه من جهة كونها خبرا؛ لأنها محتملة لمعنى الأمر ، يحتمل أن يكون معنى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ ، ولّوا وجوهكم نحو وجه الله . وهذه الآية هي التي تلا سعيد بن جبير رحمه الله لما أمر الحجاج بذبحه إلى الأرض .

الرابعة — اختلف الناس في تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى في القرآن والسنة؛ فقال الحذاق : ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام، اذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد ، وأجلها قدرا . وقال ابن فَوْرَك : قد تذكر صفة الشيء والمراد بها الموصوف توسعا؛ كما يقول القائل : رأيت علم فلان اليوم، ونظرت الى علمه؛ وانما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت الى العالم؛ كذلك إذا ذكر الوجه هنا والمراد من له الوجه: أي الوجود؛ وعلى هذا يتأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ . لأن المراد به : لله الذي له الوجه؛ وكذلك قوله : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ . أي الذي له الوجه . قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه عز وجل؛ كما قال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ . وقال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى . قال ابن عطيّة : وضعّف أبو المعالي هذا القول، وكذلك هو ضعيف ؛ وانما المراد وجوده . وقيل : المراد بالوجه هنا الجهة التي وجهنا إليها وهي القبلة . وقيل : الوجه القصد؛ كما قال الشاعر :

استغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد إليه الوجه والعمل

وقيل : المعنى فثمّ رضا الله وثوابه ؛ كما قال : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ . أي لرضائه وطلب ثوابه ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : «من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له

مثله فى الجنة » . وقوله : «يجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدى ٱلله تعالى فيقول عز وجل لملائكته ٱلقوا هذا وأقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك يا ربنا ما رأينا إلا خيرا وهوأعلم فيقول إن هذا كان لغير وجهى ولا أقبل من العمل إلا ما ابتغى به وجهى» . أى : خالصا لى ؛ خرجه الدارقطنى . وقيل : المراد فثم الله . والوجه صلة ؛ وهو كقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ . قاله الكلبى والعتبى . ونحوه قول المعتزلة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . أى يوسع على عباده فى دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس فى وسعهم . وقيل : واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شى ؛ كما قال : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . وقال الفراء : الواسع الجواد الذى يسع عطاؤه كل شىء ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ . وقيل : واسع المغفرة أى لا يتعاظمه ذنب . وقيل : متفضّل على العباد ، وغنىّ عن أعمالهم ؛ يقال : فلان يسع ما يسئل أى لا يبخل ؛ قال الله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ . أى لينفق الغنىّ ممـا أعطاه . وقد أتينا عليه فى الكتاب "الأسنى" والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ . هـذا إخبار عن النصارى فى قولهم : المسيح ٱبن الله . وقيل : عن اليهود فى قولهم : عزير ٱبن الله . وقيل : عن كفرة العرب فى قولهم : الملائكة بنات الله . وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهلة الكفار فى مريم والأنبيـاء .

الثانيـة — خرّج البخارى عن ابن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : « قال الله تعـالى كذّبنى ٱبن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبـه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان . وأما شتمه إياى فقوله لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا » .

الثالثـة — سبحان منصـوب على المصـدر ومعناه التبرئة والتنزيه والمحاشاة من قولهم : اتخذ الله ولدا؛ بل هو الله تعالى واحد فى ذاته ، أحد فى صفاته ، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة ،

أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء، ولم يولد فيكون مسبوقا؛ جلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا .

﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . ما، رفع بالابتداء والخبر فى المجرور؛ أى كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع . والقائل بأنه آتخذ ولدا داخل فى جملة السموات والأرض . وقد تقدّم أن معنى سبحان الله براءة الله من السوء .

الرابعة — لا يكون الولد إلا من جنس الوالد، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولدا من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء؛ وقد قال : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ . كما قال هنا : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . فالولدية تقتضى الجنسية والحدوث، والقدم يقتضى الوحدانية والثبوت ؛ فهو سبحانه القديم الأزلى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . ثم قال : إن البنوة تنافى الرق والعبودية ، على ما يأتى بيانه فى سورة مريم ، إن شاء الله تعالى . فكيف يكون ولد عبدا هذا محال ، وما أدّى إلى المحال محال .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ . ابتداء وخبر، والتقدير كلهم، ثم حذف الهاء والميم . قانتون أى مطيعون وخاضعون ؛ فالمخلوقات كلها تقنت لله أى تخضع وتطيع . والجمدات قنوتهم فى ظهور الصنعة عليهم وفيهم ؛ فالقنوت : الطاعة . والقنوت : السكوت ؛ ومنه قول زيد آبن أرقم : كنا نتكلم فى الصلاة ، يكلم الرجل صاحبه الى جنبه حتى نزلت : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ . فأمرنا بالسكوت ، ونهينا عن الكلام . والقنوت : الصلاة ؛ قال الشاعر :

قانتا لله يتلو كتبه ✻ وعلى عمد من الناس اعتزل

وقال السدى وغيره فى قوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ . أى يوم القيامة . الحسن : كلٌّ قائم بالشهادة أنه عبده . والقنوت فى اللغة أصله القيام ؛ ومنه الحديث « أفضل الصلاة طول القنوت » قاله الزجاج . فالخلق قانتون أى قائمون بالعبودية إما إقرارا، وإما أن يكون على

خلاف ذلك ، فأثر الصنعة بين عليهم . وقيل : أصله الطاعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ وسيأتى لهذا مزيد بيان عند قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ ﴾ . فعيل للمبالغة ، وارتفع على خبر ابتـداء محذوف ، واسم الفاعل مبدع ؛ كبصير من مبصر . أبدعت الشيء لا عن مثال ؛ فالله عزّ وجلّ بديع السموات والأرض أى منشئهما وموجدهما ومبدعهما ومخترعهما على غير حدّ ولا مثال . وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له : مبدع ؛ ومنه أصحاب البدع . وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام ؛ وفى البخارى "ونعمت البدعة هذه" . يعنى قيام رمضان .

الثانيـة — كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل فى الشرع أو لا . فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ رسوله عليه ، فهى فى حيز المدح . وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ، فهذا فعله من الأفعال المحمودة ؛ وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه ؛ ويعضد هذا قول عمر رضى الله عنه : نعمت البدعة هذه [أى صلاة التراويح فى جماعة] ؛ لما كانت من أفعال الخير وداخلة فى حيز الممدوح ، وهى وإن كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس عليها ؛ فمحافظة عمر رضى الله عنه عليها ، وجمع الناس لها ، وندبهم إليها ، بدعة لكنها بدعة محمودة . وإن كانت فى خلاف ما أمر الله به ورسوله فهى فى حيز الذم والإنكار ؛ قال معناه الخطابى وغيره .

قلت : وهو معنى قوله صلّى الله عليه وسلّم فى خطبته : «وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» . يريد ما لم يوافق كتابا أو سنة أو عمل الصحابة رضى الله عنهم ، وقد بين هذا بقوله : «من سن فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سنّ فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها

من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . هذا إشارة إلى ما ابتدع من قبيح وحسن، وهو أصل هذا الباب وبالله العصمة والتوفيق .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . أى إذا أراد إحكامه وإتقانه — كما سبق فى علمه — قال له : كن . قال ابن عرفة : قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ؛ ومنه سمى القاضى لإنه إذا حكم فقـد فرغ مما بين الخصمين . وقال الأزهرى : قضى فى اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه؛ قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صَنَعُ السوابغ تُبَّعُ

وقال الشماخ فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها * بوائق فى أكمامها لم تفتّــق

قال علماؤنا : قضى لفظ مشترك يكون بمعنى الخلق؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ . أى خلقهن . ويكون بمعنى الإعلام؛ قال الله تعـالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أى أعلمنا . ويكون بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ . ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ؛ ومنـه سمى الحاكم قاضيا . ويكون بمعنى توفيـة الحق؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ . ويكون بمعنى الإرادة ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى اذا أراد خلق شيء . قال ابن عطية : قضى ، معناه قدر؛ وقد يجيء بمعنى أمضى ؛ ويتجة فى هـذه الآية المعنيان على مذهب أهل السنة قدر فى الأزل وأمضى فيه . وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ أَمْرًا ﴾ . الأمر واحد الأمور، وليس بمصدر أمر يأمر . قال علماؤنا : والأمر فى القرآن ينصرف على أربعة عشر وجها :

الأوّل — الدِّين ؛ قال الله تعـالى : ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ . يعنى دين الاســلام .

الثـانى — القول ؛ ومنـه قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ . يعنى قولنا . وقوله : ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ . يعنى قولهم .

الثالث — العـذاب ؛ ومنه قوله تعـالى : ﴿ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ . يعنى لمـا وجب العذاب بأهل النار .

الرابـع — عيسى عليـه السلام ؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾ . يعنى عيسى وكان فى علمه أن يكون من غير أب .

الخامس — القتل ببـدر ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ . يعنى القتل ببدر ، وقوله : ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ . يعنى قتل كفار مكة .

السادس — فتح مكة ؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ . يعنى فتح مكة .

السابـع — قتل قريظـة وجلاء بنى النضير؛ قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْفُوا وَٱصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

الثـامن — القيامة؛ قال الله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ .

التاسـع — القضاء؛ قال الله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ . يعنى القضاء .

العـاشر — الوحى؛ قال الله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ . يقول : ينزل الوحى من السماء إلى الأرض، وقوله : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ . يعنى الوحى .

الحادى عشر — أمر الخلق؛ قال الله تعـالى : ﴿ أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ . يعنى أمور الخلائق .

الثـانى عشر — النصر ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ . يعنون النصر . ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ . يعنى النصر .

الثالث عشر — الذنب؛ قال الله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ . أى جزاء ذنبها .

الرابع عشر — الشأن والفعل؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ . أى فعله شأنه، وقال : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ . أى فعله وقوله .

الخامسة — قوله ﴿ كُنْ ﴾ . قيل : الكاف من كينونه ، والنون من نوره ؛ وهى المراد بقوله عليه السلام : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » . وروى : « بكلمة الله تامة» . على الإفراد . فالجمع لما كانت هذه الكلمة فى الأمور كلها، فإذا قال لكل أمر : كن، ولكل شيء : كن، فهن كلمات؛ يدل على هذا ما روى عن أبى ذر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن الله تعالى: «عطائى كلام وعذابى كلام». خرجه الترمذى فى حديث فيه طول . والكلمة على الإفراد بمعنى الكلمات أيضا لكن لما تفرقت الكلمة الواحدة فى الأمور فى الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة . وانما قيل : تامة؛ لأن أقل الكلام عند أهل االغة على ثلاثة أحرف ،حرف مبتدأ ، وحرف تحشى به الكلمة ، وحرف يسكت عليه . وإذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص ، كيد ودم وفم؛ وانما نقص لعلة ، فهى من الآدميين من المنقوصات لأنها على حرفين، ولأنها كلمة ملفوظة بالأدوات؛ ومن ربنا تبارك وتعالى تامة لأنها بغير الأدوات تعالى عن شبه المخلوقين .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَيَكُونُ ﴾ قرئ برفع النون على الاستئناف . قال سيبويه : فهو يكون، أو فإنه يكون . وقال غيره : هو معطوف على يقول . فعلى الأوّل كائنا بعد الأمر، وإن كان معدوما، فإنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم على ما يأتى بيانه . وعلى الثانى كائنا مع الأمر ؛ واختاره الطبرى وقال : أمره للشيء يكن لا يتقدّم الوجود ولا يتأخر عنه ؛ فلا يكون الشيء مأمورا بالوجود إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجود إلا وهو مأمور بالوجود ؛ قال : ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقدّم دعاء الله ولا يتأخر عنه ؛ كما قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ . وضعّف ابن عطية هذا القول وقال : هو خطأ من جهة المعنى؛ لأنه يقتضى أن القول من جهة التكوين والوجود .

وتلخيص المعتقد فى هـذه الآية : أن الله عز وجل لم يزل آمرا للعدومات بشرط وجودها، قادرا مع تأخر المقـدورات ، عالمـا مع تأخر المعلومات . فكل ما فى الآية يقتضى الاستقبال فهو بحسب المأمورات؛ إذ المحدثات تجىء بعد أن لم تكن . وكل ما يسند إلى الله تعـالى من قـدرة وعلم فهو قـديم لم يزل . والمعنى الذى تقتضيه عبارة كن ، هو قـديم قائم بالذات .

قال أبو الحسن المـاوردى : فإن قيـل : ففى أى حال يقول له كن فيكون ؟ فى حال عدمه، أم فى حال وجوده؟ فإن كان فى حال عدمه استحال أن يأمر إلا مأمورا ؛ كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر . وإن كان فى حال وجوده فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث؛ لأنه موجود حادث . قيل عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة :

أحدها — أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره فى خلقه الموجود؛ كما أمر فى بنى إسرائيل أن يكونوا قردة خاسئين ؛ ولا يكون هذا واردا فى إيجاد المعدومات .

الثـانى — أن الله عز وجل عالم بمـا هو كائن قبل كونه؛ فكانت الأشـياء التى لم تكن وهى كائنة بعلمه قبل كونها متشابهة للتى هى موجودة؛ فجاز أن يقول لها : كونى ؛ ويأمرها بالخروج من حال العدم الى حال الوجود؛ لتصور جميعها له ولعلمه بها فى حال العدم .

الثالث — أن ذلك خبر من الله تعالى عام عن جميع مايحدثه ويكونه إذا أراد خلقه وإنشاءه كان ، ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله ، وإنمـا هو قضاء يريده . فعبر عنه بالقول وإن لم يكن قولا؛ كقول أبى النجم :

* قد قالت الأنساع للبطن الحق *

ولا قول هناك، وإنمـا أراد أن الظهر قد لحق بالبطن، وكقول عمرو بن حممة الدوسى :

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه * إذا رام تطيارا يقال له قـــع

وكما قال الآخر :

قالت جناحاه لساقيه الحقا * ونجيا لحمكما أن يمـزقا

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . قال ابن عباس : هم اليهود . مجاهد : النصارى . ورجحه الطبرى؛ لأنهم المذكورون فى الآية أولا . وقال الربيع والسدى وقتادة : مشركو العرب . ولولا بمعنى هلا تحضيض؛ كما قال الأشهب ابن زميله :

تعدّون عقر النيب أفضل مجدكم * بنى ضوطرى لولا الكمىّ المقنّعا

وليست هذه لولا التى تعطى منع الشيء لوجود غيره ؛ والفرق بينهما عند علماء اللسان أن لولا بمعنى التحضيض لا يليها إلا الفعل مظهرا أو مقدرا . والتى للامتناع يليها الابتداء ، وجرت العادة بحذف الخبر . ومعنى الكلام هل لا يكلمنا الله بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم فنعلم أنه نبى فنؤمن به ، و يأتينا بآية تكون علامة على نبوّته . والآية : الدلالة والعلامة ؛ وقد تقدّم . و ﴿ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . اليهود والنصارى فى قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب ، أو الأمم السالفة فى قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى ، أو اليهود فى قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى . ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . قيل : فى التعنيت والاقتراح وترك الإيمان . قال الفراء . تشابهت فى اتفاقهم على الكفر . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ . تقـــدّم .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ . نصب على الحال . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ . عطف عليه . وقد تقدّم معناهما . ﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . قال مقاتل : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا » فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . برفع تسئل ، وهى قراءة الجمهور ، ويكون فى موضع الحـال وبعطفه على بشـيرا ونذيرا . المعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول . وقال سـعيد الأخفش : ولا تسئل بفتح التاء وضم اللام؛ وتكون فى موضع الحال عطفا على بشـيرا ونذيرا . المعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهـم ؛ لأن علم الله بكفرهم بعـد إنذارهم يغنى عن سؤاله عنهم . هذا معنى غير سائل ، ومعنى غير مسئول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب : إن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال

ذات يوم : « ليت شـعرى ما فعل أبواى » . فنزلت هذه الآية؛ وهـذا على قراءة من قرأ ولا تسئل جزما على النهى، وهى قراءة نافع وحده . وفيه وجهان :

أحدهما — أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحيـاء ؛ لأنه قد يتغـير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان ، وعن المعصية إلى الطاعة .

والثـانى — وهو الأظهر ، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته ، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه، وهذا كما يقال : لاتسئل عن فلان : أى قد بلغ فوق ماتحسب . وقرأ ابن مسعود ولن تسـئل . وقرأ أبيّ وما تسئل؛ ومعناهما موافق لقراءة الجمهور . نفى أن يكون مسئولا عنهم . وقيـل : إنما سأل أىّ أبو يه أحدث موتا ؟ فنزلت . وقد ذكرنا فى كتاب التذكرة أن الله تعالى أحيا له أباه وأمه وآمنا به، وذكرنا قوله عليه السلام للرجل : « إن أبى وأباك فى النار » . و بينا ذلك والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . المعنى ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو أتيتهم بكل ما يسئلون لم يرضوا عنك، و إنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتّباعهم . يقال : رضِيَ يَرْضَى رضًا ورُضًا ورِضْوانا ومَرْضاة؛ وهو من ذوات الواو، و يقال فى التثنية : رِضَوَانِ، وحكى الكسائى رِضَيَانِ . وحُكى رضاء ممدود وكأنه مصدر راضى يراضى مراضاة ورضاءً . و«تتبع» منصوب بأن ولكنها لا تظهر مع حتى . قاله الخليل؛ وذلك أن حتى خافضة للاسم ، كقوله : ﴿ حَتَّى مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ . وما يعمل فى الاسم لا يعمل فى الفعل البتّة . وما يخفض اسما لا ينصب شيئا . وقال النحاس : «تتبع» منصوب بحتى، وحتى بدل من أن . والملة : اسم لما شرعه الله لعباده فى كتبه على ألسنة رسله ، فكانت الملة والشريعة سواء . فأما الدّين فقد فرّق بينه و بين الملة والشريعـة ؛ فان الملة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله ، والدّين ما فعله العباد عن أمره .

الثانيــة — تمسك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداود وأحمد ابن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة، لقوله تعـالى : ﴿ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فوحّد الملة، وبقوله تعـالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، وكقوله عليه السـلام : « لا يرث المسلم الكافر » . وذهب مالك وأحمــد في الرواية الأخرى إلى أن الكفر ملل، فلا يرث اليهودىّ النصرانىّ، ولا يرثان المجوسىّ؛ أخذا بظاهر قوله عليه السـلام : « لا يتوارث أهل ملتين » وأما قوله تعالى : ﴿ مِلَّتَهُـمْ ﴾ . فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة في اللفظ بدليل إضافتها الى ضمير الكثرة، كما تقول : أخذت عن علمـاء أهل المدينة — مثـلا — علمهم ، وسمعت عنهـم حديثهم؛ يعني علومهم وأحاديثهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ . المعنى ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه في قلب من يشاء، هو الهدى الحقيقى؛ لا ما يدعيه هؤلاء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ . الأهواء، جمع هوى كما تقول : جمل وأجمال، ولمـا كانت مختلفــة جمعت . ولو حمل على أفراد المـلة لقال : هواهم ؛ وفي هــذا الخطاب وجهان : أحدهما — أنه للرسول لتوجه الخطاب إليه . والثـانى — أنه للرسول والمراد به أمّته؛ وعلى الأوّل يكون فيه تأديب لأمته، إذ منزلتهم دون منزلته . وسبب الآية أنهم كانوا يسئلون المسالمة والهدنة،ويعدون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالإسلام؛ فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتّبع ملتهم، وأمره بجهادهم .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ . سئل أحمد بن حنبل عمن يقول : القرآن مخلوق؛ فقال : كافر؛ فقيل : بم كفرته؟ فقال : بآيات من كتاب الله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ . والقرآن من علم الله؛ فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ ﴾ . قال قتادة : هم أصحاب النبيّ صلّى الله عليـه وسلم؛ والكتاب على هذا التأويل القرآن . وقال ابن زيد : هم من أسلم من بنى إسرائيل .

والكتاب على هـذا التأويل التوراة؛ والاية تعم . والذين، رفع بالابتداء . آتيناهم، صلته . يتلونه، خبر الابتداء، وإن شئت كان الخبر ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

واختلف فى معنى ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ . فقيـل : يتبعونه حق اتباعه، باتباع الأمر والنهى؛ فيحللون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بما تضمنه . قاله عكرمة . قال عكرمة : أما سمعت قول الله تعـالى : ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ . أى اتبعها؛ وهو معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما . وقال الشاعر :

* قد جعلت دلوى تستلينى *

وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمـر عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى قوله تعالى : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ . قال : يتبعونه حق اتباعه . فى إسـناده غير واحد من المجهولين فيما ذكر الخطيب أبو بكر بن أحمـد ، إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى بن حرمى الأشـعرى : من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة . وعن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه : الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها . وقد روى هذا المعنى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : كان إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوّذ . وقال الحسن : هم الذين يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه . وقيل : يقرءونه حق قراءته .

قلت : وهذا فيه بعد، إلا أن يكون المعنى يرتلون ألفاظه ، ويفهمون معانيه؛ فإن تَفَهُّمَ المعانى يُكَوِّنُ الاتباع لمن وفق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ . الاية . فيه عشرون مسئلة :

الأولى — لمـا جرى ذكر الكعبة والقبلة اتصل ذلك بذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه الذى بنى البيت؛ فكان من حق اليهود — وهم من نسل إبراهيم — ألا يرغبوا عن دينه . والابتلاء : الامتحان والاختبار . ومعناه أمر وتعبد . وإبراهيم، تفسيره بالسريانية فيما ذكر المـاوردى، وبالعربيـة فيما ذكر ابن عطيـة : أب رحيم . قال السهيلى : وكثيرا ما يقع الاتفاق بين

السريانى والعربى أو يقــاربه فى اللفظ ؛ ألا ترى أن إبراهيم تفســيره أب رحيم ؛ لرحمتــه بالأطفال ؛ ولذلك جعــل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا الى يوم القيــامة .

قلت : ومما يدل على هذا ما خرّجه البخارى من حديث الرؤيا الطويل عن سمرة، وفيــه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام ، وحوله أولاد الناس . وقد أتينا عليه فى كتاب التذكرة والحمد لله .

وإبراهيم هــذا، هو ابن تارخ بن ناخور فى قول بعض المؤرّخين . وفى التنزيل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ . وكذلك فى صحيح البخارى؛ ولا تناقض فى ذلك على ما يأتى فى الأنعام بيانه إن شاء الله تعــالى . وكان له أربع بنين : إسماعيل وإسحاق ومدين ومدائن على ما ذكره السهيلى . وقدّم على الفاعل للاهتمام؛ إذ كون الرب تبارك وتعــالى مبتليا معلوم، وكون الضمير المفعول فى العربيــة متصلا بالفاعل موجب تقديم المفعول ؛ فإنمــا بنى الكلام على هذا الاهتمام، فاعلمه . وقراءة العامة إبراهيم بالنصب . ربه ، بالرفع على ما ذكرنا . وروى عن جابر بن زيد أنه قرأ على العكس ، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك . فالمعنى دعا إبراهيم ربه وسأل؛ وفيه بعد؛ لأجل الباء فى قوله : ﴿ بِكَلِمَا تٍ ﴾ .

الثانيــة — قوله تعــالى : ﴿ بِكَلِماتٍ ﴾ . الكلمات جمع كلمة وترجع حقيقتها الى كلام البارى تعــالى ، لكنه عبر بها عن الوظائف التى كلّفها إبراهيم عليه السلام ؛ ولمــا كان تكليفها بالكلام سميت به كما سمى عيسى كلمة؛ لأنه صدر عن كلمة وهى كن . وتسمية الشيء بمقدّمته أحد قسمى المجاز . قاله ابن العربى .

الثالثة — واختلف العلماء فى المراد بالكلمات على أقوال : أحدها — شرائع الإسلام، وهى ثلاثون سهما : عشر منها فى سورة براءة ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ إلى آخرها ، وعشر فى الأحزاب . ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ . الى آخرها ، وعشر فى المؤمنون . ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ . وقوله فى سأل سائل : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ . إلى

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ماابتلى الله أحدا بهن فقام بها كلها إلا إبراهيم عليه السلام، ابتلى بالإسلام فأتمه؛ فكتب الله البراءة، فقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰ ﴾ . وقال بعضهم : بالأمر والنهى ، وقال بعضهم : بذبح ابنه، وقال بعضهم : بأداء الرسالة ؛ والمعنى متقارب . وقال مجاهد : فى قوله تعالى : إنى مبتليك بأمر، قال : تجعلنى للناس إماما ؟ قال : نعم؛ قال : ومن ذريتى ؟ قال : لاينال عهدى الظالمين؛ قال : تجعـل البيت مثابة للناس ؟ قال : نعم ، وأمنـا ؟ قال : نعم؛ قال : وترينا مناسكنا ونتوب علينا ؟ قال : نعم ؛ قال : وترزق أهله من الثمرات؟ قال : نعم . وعلى هـذا القول فالله تعالى هو الذى أتم ؛ وأصح من هـذا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن ابن عباس فى قوله تعـالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ . قال : ابتـلاه الله بالطهارة، خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد : قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك ، وفرق الشعر . وفى الجسد : تقليم الأظفار، وحلق العانة ، والاختتان ، ونتف الإبط، وغســل مكان الغائط والبول بالمـاء ؛ وعلى هــذا القول فالذى أتم هو إبراهيم، وهو ظاهر القرآن . وروى مطر عن أبى الجلد أنهـا عشر أيضا ، إلا أنه جعل موضع الفرق غسل البراجم، وموضع الاستنجاء الاستحداد . وقال قتادة : هى مناسك الحج خاصة. الحسن: هى الخـلال الست : الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجـرة ، والختان . وقال أبو إسحاق الزجاج : وهذه الأقوال ليست بمتناقضـة؛ لأن هذا كله ممـا ابتلى به إبراهيم عليه السلام .

قلت : وفى الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إبراهيم عليه السلام أوّل من اختتن، وأوّل من ضاف الضيف ، وأوّل من اسـتحدّ، وأوّل من قلم الأظفار، وأوّل من قص الشارب، وأوّل من شاب؛ فلمـا رأى الشيب قال : ما هـذا ؟ قال : وقار؛ قال : يا رب، زدنى وقارا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن سـعيد بن إبراهيم عن أبيه قال : أوّل من خطب على المنابر إبراهيم خليل الله . قال غيره : وأوّل من ثرد الثريد،

وأوّل من ضرب بالسيف، وأوّل من اســتاك ، وأوّل من استنجى بالمـاءِ، وأوّل من لبس السراويل . وروى معاذ بن جبل قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبي إبراهيم و إن أتخذ العصا فقد اتخذها أبي إبراهيم » .

قلت : وهذه أحكام يجب بيانها والوقوف عليها والكلام فيها .

فأوّل ذلك "الختان" وما جاء فيه . وهي :

الرابعــة — أجمع العلماء على أن إبراهيم عليه السلام أوّل من اختتن ؛ واختلف في السن الذي اختتن فيه ، ففي الموطأ عن أبي هريرة موقوفا : « وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . ومثل هذا لا يكون رأيا، وقد رواه الأوزاعي مرفوعا عن يحيى ابن سـعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : « اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين ســنة ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة » . وذكره أبو عمرو . روى مسندا مرفوعا من غير رواية يحيى من وجوه : « أنه اختتن حين بلغ ثمـانين سنة واختتن بقدوم » . كذا في صحيح مسلم وغيره « ابن ثمانين سنة »؛ وهو المحفوظ في حديث ابن عجلان، وحديث الأعرج عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم . قال عكرمة : اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة، ولم يطف بالبيت بعد على ملة إبراهيم إلا مختون. هكذا قال عكرمة . وقال المسيب بن رافع ذكره المروزي : والقدوم يروى مشدّدا ومخففا . قال أبو الزناد : القدوم (مشدّدا) : موضع، انتهى .

الخامسة — واختلف العلماء في الختان، فجمهورهم على أن ذلك من مؤكدات السنن ، ومن فطرة الإسلام التي لا يسع تركها في الرجال . وقالت طائفة: ذلك فرض؛ لقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱتَّبِـعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ . قال قتادة : هو الاختتان؛ وإليه مال بعض المـالكيين ، وهو قول الشافعي . واســتدل ابن شريح (١) على وجوبه بالإجماع على تحريم النظر إلى العورة ، وقال : لولا أن الختان فرض لمـا أبيح النظر إليها من المختون . وأجيب عن هذا بأن مثل

(١) في بعض نسخ الأصل « ابن سريج » .

هذا يباح لمصلحة الجسم كنظر الطبيب ، والطب ليس بواجب إجماعا ؛ على ما يأتى فى النحل بيانه إن شاء الله تعـالى . وقد احتـج بعض أصحابنا بما رواه الحجاج بن أرطاة عن أبى المليح عن أبيـه عن شدّاد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الختان سـنة للرجال مكرمة للنساء » . والحجاج ليس ممن يحتج به .

قلت : أعلى ما يحتج به فى هذا الباب حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « الفطرة خمس الاختتان » . الحديث ، وسيأتى . وروى أبو داود عن أم عطية أن امرأة كانت تختن النساء بالمدينة ، فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لا تنهكى فان ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعل » . قال أبو داود : هـذا الحديث ضعيف راويه مجهول . وفى رواية ذكرها رزين : « ولا تنهكى فإنه أنور للوجه وأحظى عند الرجل » .

السادسة ــ فإن ولد الصبيّ مختونا فقد كفى مؤنة الختان . قال الميمونى قال لى أحمد : إن ههنا رجلا ولد له ولد مختون ، فاغتم لذلك غما شديدا ؛ فقلت له : إذا كان الله قد كفاك المؤنة فما غمك بهذا !

السابعـة ــ قال أبو الفرج الجوزىّ حدثت عن كعب الأحبار قال : خلق من الأنبياء ثلاثة عشر مختونين : آدم وشيث وإدريس ونوح وسام ولوط ويوسـف وموسى وشعيب وسليمان ويحيى وعيسى والنبيّ صلى الله عليـه وسلم . وقال محمـد بن حبيب الهاشميّ : هم أربعـة عشر : آدم وشيث ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ويوسف وموسى وسليمان وذكريا وعيسى وحنظلة بن صفوان ــ نبى أصحاب الرس ــ ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

قلت : اختلفت الروايات فى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذكر أبو نعيم الحافظ فى "كتاب الحلية" بإسناده أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولد مختونا . وأسند أبو عمر فى التمهيد حدّثنا أحمد ابن محمد بن أحمد حدّثنا محمد بن عيسى حدّثنا يحيى بن أيوب بن زياد العلاف حدّثنا محمد بن أبى السري العسقلاني حدّثنا الوليـد بن مسلم عن شعيب عن عطاء الخراسانى عن عكرمة عن

ابن عباس : أن عبد المطلب ختن النبيّ صلى ٱلله عليه وسلم يوم سابعه، وجعل له مأدبة وسماه «محمدا» ؛ قال أبو عمر : هذا حديث مسند غريب؛ قال يحيى بن أيوب : طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحد من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند ابن أبى السرى . قال أبو عمر : وقد قيل : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولد مختونا .

الثامنة — واختلفو متى يختن الصبي؛ فثبت فى الأخبار عن جماعة من العلماء أنهم قالوا : ختن إبراهيم إسماعيل لثلاث عشرة سنة، وختن ابنه إسحاق لسبعة أيام . وروى عن فاطمة أنها كانت تختن ولدها يوم السابع ؛ وأنكر ذلك مالك وقال : ذلك من عمــل اليهود . ذكره عنه ابن وهب . وقال الليث بن سعد : يختن الصبي مابين سبع سنين إلى عشر ؛ ونحوه روى ابن وهب عن مالك .

وقال أحمد : لم أسمع فى ذلك شيئا . وفى البخاريّ عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عبّاس ، مثل من أنت حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أنا يومئذ مختون ؛ قال : وكانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك أو يقارب الاحتلام .

واستحب العلماء فى الرجل الكبير يسلم أن يختتن؛ وكان عطاء يقول : لا يتم إسلامه حتى يختتن، وإن بلغ ثمانين سنة .

وروى عن الحسن أنه كان يرخص للشــيخ الذى يســلم ألا يختتن ، ولا يرى به بأسا ولا بشهادته وذبيحته، وحجه وصلاته؛ قال ابن عبد البر : وعامة أهل العلم على هذا . وحديث بريدة فى حج الأغلف لا يثبت . وروى عن ٱبن عباس وجابر بن زيد وعكرمة : أن الأغلف لا تؤكل ذبيحته ولا تجوز شهادته .

التاســعة — قوله : وأوّل من ٱستحدّ ، فالاستحداد استعمال الحــديد فى حلق العانة . روت أم سلمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا طلى وَلِىَ عانته بيده . وروى ابن عباس أن رجلا طلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا بلغ إلى عانته قال له : أخرج عنى؛ ثم طلى عانته بيده . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يتنوّر ، وكان اذا كثر الشعر على

عانته[1] حلقه . قال ابن خويزمنداد : وهذا يدل على أن الأكثر من فعله كان الحلق ، وإنما تنور نادرا ليصح الجمع بين الحديثين .

العـاشرة — فى تقليم الأظفار ، وتقليم الأظفار : قصّها ، والقلامة ما يزال منها . وقال مالك : أحب للنساء من قص الأظفار وحلق العانة مثل ما هو للرجل[2] . وذكره الحارث بن مسكين وسحنون عن ابن القاسم . وذكر الترمذىّ الحكيم فى "نوادر الأصول" له — الأصل التاسع والعشرون — حدّثنا عمر بن أبى عمر قال حدّثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدى عن عمر بن بلال الفزارىّ قال سمعت عبد الله بن بشر المـازنىّ يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قصوا أظافركم وادفنوا قلاماتكم ونقّـوا براجمكم ونظّفوا لثـاتكم من الطعام وتسـنّنوا ولا تدخلوا علىّ قحرا بخرا» . ثم تكلم عليه فأحسن ، قال الترمذىّ : فأما قص الأظفار فمن أجل أنه يخدش ويخمش ويضر ، وهو مجتمع الوسخ ، فربما أجنب ولا يصل المـاء إلى البشرة من داخل الوسخ فلا يزال جنبا ، ومن أجنب فبقى موضع إبرة من جسده بعـد الغسل غير مغسول ، فهو جنب على حاله حتى يعم الغسل جسده كله ، فلذلك ندبهم إلى قص الأظفار . والأظافير جمع الأظفور ، والأظفار جمع الظفر . وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سها فى صلاته فقال : «ومالى لا أُوهِمُ ورُفْغُ[3] أحدكم بين ظفره وأنملته ويسئلنى أحدكم عن خبر السماء وفى أظافيره الجنابة والتفث» . وذكر هـذا الخبر أبو الحسن على بن محمـد الطبرى المعروف بالكيا فى "أحكام القرآن" له عن سليمان بن فرج أبى واصل قال : أتيت أبا أيوب رضى الله عنه فصافحته فرأى فى أظفارى طولا فقال : جاء رجل الى النبىّ صلى الله عليه وسلم يسأله عن خبر السماء فقال : «يجىء أحدكم يسئل عن خبر السماء وأظفاره كأظفار الطير حتى يجتمع فيها الوسخ والتفث» . وأما قوله : «ادفنوا قلاماتكم» . فإن جسد المؤمن ذو حرمة ، فما سقط منه وزال عنه ، فحفظه من الحرمة قائم ، فيحق عليه أن يدفنه كما أنه لو مات دفن ، فإذا مات بعضه فكذلك أيضا تقام

(١) فى نسخة من الأصل : «على جسده» .
(٢) فى نسخة من الأصل : «ما هو على الرجال» .
(٣) الرفغ : الوسخ الذى بين الأنملة والظفر .

حرمته بدفنه؛ كى لا يتفرق ولا يقع فى النار أو فى مزابل قذرة . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفن دمه حيث احتجم، حتى لا تبحث عنه الكلاب، حدّثنا بذلك أبى رحمه الله تعالى قال : حدّثنا موسى بن اسماعيل قال حدّثنا هنيد بن القاسم بن عبد الرحمن بن ماعز قال سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير يقول : إن أباه حدّثه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم فلما فرغ قال : « يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد » . فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمد الى الدم فشربه، فلما رجع قال : « يا عبد الله ما صنعت به » . قال : جعلته فى أخفى مكان ظننت أنه خافيا عن الناس، قال : « لعلك شربته » . قال: نعم؛ قال : « لم شربت الدم ويل لك من الناس » . حدّثنى أبى قال حدّثنا مالك بن سليمان الهروى قال حدّثنا داود بن عبد الرحمن عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر، والظفر، والدم، والحيضة، والسن، والقلفة، والبشيمة. وأما قوله : «نقوا براجمكم» . فالبراجم تلك الغضون من المفاصل، وهى مجتمع الدرن (واحدها برجمة) وهو ظهر عقدة كل مفصل؛ فظهر العقدة يسمى برجمة، وما بين العقدتين يسمى راجبة (وجمعها رواجب) وذلك مما يلى ظهرها، وهى قصبة الأصبع، فلكل أصبع برجمتان وثلاث رواجب إلا الإبهام فان لها برجمة وراجبتين؛ فأمر بتنقيته لئلا يدرن فتبقى فيه الجنابة، ويحول الدرن بين الماء والبشرة . وأما قوله : « نظفوا لثاتكم » . فاللثة واحدة، واللثات جماعة، وهى اللحمة فوق الأسنان ودون الأسنان، وهى منابتها . والعمور : اللحمة القليلة بين السِّنّين (واحدها عَمْر) فأمر بتنظيفها لئلا يبقى فيها وضر الطعام فتتغير عليه النكهة وتتنكر الرائحة، ويتأذى الملكان؛ لأنه طريق القرآن، ومقعد الملكين عند نابيه، وروى فى الخبر فى قوله تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ . قال : عند نابيه . حدّثنا بذلك محمد بن على الشفيق قال: سمعت أبى يذكر ذلك عن سفيان بن عيينة، وجاد ما قال، وذلك أن اللفظ هو عمل الشفتين بلفظ الكلام على لسانه إلى البراز؛ وقوله :﴿لَدَيْهِ﴾. أى عنده؛ واللد والعند فى لغتهم السائرة بمعنى

واحد، وكذلك قوله : ﴿ لَدُنْ ﴾ فالنون زائدة، فكأن الآية تنبىء أن الرقيب عتيد عند ملفظ الكلام وهو الناب . وأما قوله : «تسننوا» وهو السواك مأخوذ من السنن، أى نظفوا السن. وقوله : «لا تدخلوا علىّ لحرا بخرا» فالمحفوظ عندى "لحلا وقلحا" وسمعت الجارود يذكر عن النضر قال : الأقلح : الذى قد اصفرّت أسنانه حتى بخرت من باطنها ، ولا أعرف القحر والبَخَرُ الذى تجد له رائحة منكرة لبشرته ، يقال : رجل أبخر، و رجال بخر . حدّثنا الجارود قال حدّثنا جرير عن منصور عن أبى علىّ عن أبى جعفر بن تمام بن العباس عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «استاكوا مالكم تدخلون علىّ قُلْحا» .

الحادية عشرة — فى قص الشارب، وهو الأخذ منه حتى يبدو طرف الشفة وهو الاطار، ولا يجزه فيمثل نفسه؛ قاله مالك . وذكر ابن عبد الحكم عنه قال : وأرى أن يؤدّب من حلق شاربه . وذكر أشهب عنه أنه قال فى حلق الشارب : هـذه بدعة، وأرى أن يوجع ضربا من فعله . قال ابن خويزمنداد قال مالك : أرى أن يوجع من حلقه ضربا . كأنه يراه ممثلا بنفسه، وكذلك بنتفه الشعر؛ وتقصيره أولى عنده من حلقه . وكذلك روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان ذا لمة وكان أصحابه من بين وافر الشعر أو مقصر؛ و إنما حلق وحلقوا فى النسك. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقص أظافره وشاربه قبل أن يخرج إلى الجمعة . وقال الطحاوى : لم نجد عن الشافعى فى هذا شيئا منصوصا، وأصحابه الذين رأيناهم: المزنى والربيع كانا يحفيان شواربهما، ويدل ذلك أنهما أخذا ذلك عن الشافعى رحمه الله تعالى؛ قال : وأما أبو حنيفة و زفر وأبو يوسف ومحمد فكان مذهبهم فى شعر الرأس والشارب أن الاحفاء أفضل من التقصير . وذكر ابن خويزمنداد عن الشافعى أن مذهبه فى حلق الشارب كمذهب أبى حنيفة سواء. وقال ابو بكر الأثرم : رأيت أحمد بن حنبل يحفى شاربه شديدا، وسمعته سئل عن السنة فى إحفاء الشارب فقال : يحفى كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «احفوا الشوارب» فقال أبو عمر : إنما فى هذا الباب أصلان : أحدهما — أحفوا ، وهو لفظ يحتمل التأويل. والثانى — قص الشارب، وهو مفسر والمفسر يقضى على المجمل، وهو عمل أهل المدينة، وهو

أولى ماقيل به فى هذا الباب . روى الترمذى عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من شاربه ويقول : «إن ابراهيم خليل الرحمن كان يفعله» . قال : هذا حديث حسن غريب . وخرّج مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «الفطرة خمس الاختتان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط» . وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خالفوا المشركين احفوا الشوارب وأوفوا اللحى» . والأعاجم يقصون لحاهم، ويوفرون شواربهم أو يوفرونهما معا،وذلك عكس الجمال والنظافة. ذكر رزين عن نافع أن ابن عمر كان يحفى شاربه حتى ينظر إلى الجلد ويأخذ هذين، يعنى ما بين الشارب واللحية . وفى البخارى : وكان ابن عمر يأخذ من طول لحيته مازاد على القبضة اذا حج أو اعتمر . وروى الترمذيّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من عرضها وطولها . قال : هذا حديث غريب .

الثانية عشرة — وأما الإبط فسنته النتف ، كما أن سنة العانة الحلق ، فلو عكس جاز لحصول النظافة، والأول أولى؛ لأنه المتيسر المعتاد .

الثالثة عشرة — وفرق الشعر تفريقه فى المفرق، وفى صفته صلى الله عليه وسلم : إن انفرقت عقيصته فَرَق؛ يقال : فرقت الشعر أفرقه فرقا ؛ يقول : إن انفرق شعر رأسه فرقه فى مفرقه ، فان لم ينفرق تركه وفرة واحدة . خرّج النسائى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره ، وكان المشركون يفرقون شعورهم، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشى، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك . أخرجه البخارى ومسلم عن أنس . قال القاضى عياض : سدل الشعر إرساله ، والمراد به ههنا عند العلماء إرساله على الجبين، واتخاذه كالقصة؛ والفرق فى الشعر سنة؛ لأنه الذى رجع اليه النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد روى أن عمر بن عبد العزيز كان إذا انصرف من الجمعة أقام على باب المسجد حرسا يجزون ناصية كل من لم يفرق شعره . وقد قيل : إن الفرق كان من سنة إبراهيم عليه السلام .

الرابعة عشرة — وأما الشيب فنور و يكره نتفه، ففى النسائى وأبى داود من حديث عمر ابن شبيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « ولا تنتفوا الشيب ما من مسلم يشيب شيبة فى الإسلام إلا كانت له نورا يوم القيامة وكتب الله له حسنة وحط عنه خطيئته » .

قلت : وكما يكره نتفه كذلك يكره تغييره بالســواد ، فأما تغييره بغير السواد فجائز ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى حق أبى قحافة — وقد جىء به ولحيته كالثغامة بياضا — : « غيّروا هذا بشىء واجتنبوا السواد » . ولقد أحسن من قال :

يســـود أعــلاها و يبيض أصلهــا * فلا خير فى الأعلى إذا فسد الأصل

وقال آخر :

يا خاضب الشيب بالحناء يستره * سل المليك له ســترا من النــار

الخامسة عشرة — وأما الثريد فهو أزكى الطعام وأكثره بركة، وهو طعام العرب ، وقد شهد له النبى صلى الله عليه وسـلم بالفضل على سائر الطعام فقال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . فى صحيح البستى عن أسماء بنت أبى بكر أنها كانت إذا ثردت غطته شيئا حتى يذهب فوره وتقول : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه أعظم للبركة » .

السادسة عشرة — قلت : وهذا كله فى معنى ما ذكره عبد الرزاق عن ابن عباس ، وما قاله سعيد بن المسيب وغيره . و يأتى ذكر المضمضة والاستنشاق والسواك فى سورة النساء ، وحكم الاستنجاء فى براءة ، وحكم الضيافة فى هود . إن شاء الله تعالى . وخرّج مسلم عن أنس قال : وُقّت لنا فى قصّ الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ألا يترك أكثر من أربعين يوما وليلة . قال علماؤنا : هــذا تحديد فى أكثر المــدة، والمستحب تفقّد ذلك من الجمعة إلى الجمعة ؛ وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلى : فى حديثه نظر . وقال

أبو عمر فيه : ليس بحجة؛ لسوء حفظه وكثرة غلطه . وهذا الحديث ليس بالقوى من جهة النقل، ولكنه قد قال به قوم، وأكثرهم على ألّا توقيت فى ذلك . وبالله التوفيق .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ . الإمام : القدوة ؛ ومنه قيل لخيط البناء : إمام، وللطريق : إمام؛ لأنه يؤم فيه للسالك أى يقصد. فالمعنى جاعلك للناس إماما يأتمون بك فى هذه الخصال ، ويقتدى بك الصالحون . فجعله الله تعالى إماما لأهل طاعته ؛ فكذلك اجتمعت الأمم على الدعوى فيه — والله تعالى أعلم — أنه كان حنيفا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ . دعاء على جهة الرغباء إلى الله تعالى أى ومن ذريتى يا رب فاجعل . وقيل : هذا منه على جهة الاستفهام عنهم أى : ومن ذريتى يا رب ماذا يكون ؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عاصيا وظالما لا يستحق الإمامة . قال ابن عباس : سأل إبراهيم عليه السلام أن يجعل من ذريته إماما؛ فأعلمه الله أن فى ذريته من يعصى فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ﴾ .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ . أصل ذرّية، فُعْلِيَّةٌ من الذّر؛ لأن الله تعالى أخرج الخلق من صلب آدم عليه السلام كالذّر حين أشهدهم على أنفسهم . وقيل : هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا خلقهم؛ ومنه الذرية، وهى نسل الثقلين؛ إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذرّارى. وقرأ زيد بن ثابت ذرية بكسر الذال، وذرية بفتحها. قال ابن جنى أبو الفتح عثمان : يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ : أحدها — ذرأ ، والثانى — ذرر، والثالث — ذرو ، والرابع ذرى؛ فأما الهمزة فمن ذرأ الله الخلق، وأما ذرر فمن لفظ الذر ومعناه ، وذلك لما ورد فى الخبر : أن الخلق كان كالذّر . وأما الواو والياء، فمن ذروت الحب وذريته يقالان جميعا ، وذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ﴾ . وهذا للطفه وخفته ، وتلك حال الذر أيضا . قال الجوهرى : ذَرَت الريح التراب وغيره تذروه وتذريه ذَرْوًا وذَرْيا أى نسفته؛ ومنه قولهم : ذرى الناس الحنطة؛

وأذريت الشيء إذا ألقيته كإلقائك الحب للزرع . وطعنه فأذراه عن ظهر دابتـه أى ألقاه . وقال الخليـل : إنمـا سموا ذرية ؛ لأن الله تعـالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزارع البذر . وقيل : أصل ذرية، ذُرُّورَةٌ، لكن لمـا كثر التضعيف أبدل من إحدى الراءات ياء، فصارت ذُرُّويَةٌ، ثم أدغمت الواو فى الياء فصارت ذُرِّية . والمـراد بالذرية هنا الأبناء خاصة ، وقـد تطلق على الآباء والأبناء، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ . يعنى آباءهم .

الموفية عشرين — قوله تعالى: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾. اختلف فى المراد بالعهد، فروى أبو صالح عن ابن عباس أنه النبوّة، وقاله السدى . مجاهد : الإمامة. قتادة : الإيمان . عطاء : الرحمة . الضحاك : دين الله تعالى . وقيل : عهده أمره . ويطلق العهد على الأمر، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ . أى أمرنا . وقال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ . يعنى ألم أقدم إليكم الأمر به؛ وإذا كان عهد الله هو أوامره فقوله : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا يجوز أن يكونوا بمحل من يقبل منهم أوامر الله، ولا يقيمون عليها . على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وروى معمر عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ . قال : لا ينـال عهد الله فى الآخرة الظالمين ، فأما فى الدنيا فقـد ناله الظالم فآمن به ، وأكل وعاش وأبصر . قال الزجاج : وهذا قول حسن أى لاينال أمانى الظالمين، أى : لا أو منهم من عذابى . وقال سعيد بن جبير : الظالم هنا المشرك . وقرأ ابن مسعود وطلحة بن مصرّف ﴿ لَا يَنَالُ عَهْـدِي الظَّالِمُونَ ﴾ برفع الظالمون . الباقون بالنصب . وأسكن حمزة وحفص وابن محيصن الياء فى عهدى، وفتحها الباقون .

الحادية والعشرون — استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوّة على القيام بذلك، وهو الذى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ألا ينازعوا الأمر أهله ؛ على ما تقدّم من القول فيه . فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل؛ لقوله تعالى : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ . ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علىّ

رضى الله عنهم، وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بنى أمية وقاموا عليهم، فكانت الحرة التى أوقعها بهم عقبة بن مسلم .

والذى عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن فى منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدى السفهاء ، وشن الغارات على المسلمين ، والفساد فى الأرض . والأول مذهب طائفة من المعتزلة ، وهو مذهب الخوارج فاعلمه .

الثانية والعشرون — قال ابن خويزمنداد : وكل من كان ظالما لم يكن نبيا ولا خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ،ولا إمام صلاة، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تقبل شهادته فى الأحكام ، غير أنه لا يعزل بفسقه حتى يعزله أهل الحل والعقد . وما تقدم من أحكامه موافقا للصواب ماض غير منقوض . وقد نص مالك على هذا فى الخوارج والبغاة أن أحكامهم لا تنقض إذا أصابوا بها وجها من الاجتهاد ، ولم يخرقوا الإجماع، أو يخالفوا النصوص. وإنما قلنا ذلك لإجماع الصحابة،وذلك أن الخوارج قد خرجوا فى أيامهم ولم ينقل أن الأئمة تتبعوا أحكامهم ، ولا نقضوا شيئا منها، ولا أعادوا أخذ الزكاة ولا إقامة الحدود التى أخذوا وأقاموا؛ فدل على أنهم إذا أصابوا وجه الاجتهاد لم يتعرض لأحكامهم .

الثالثة والعشرون — قال ابن خويزمنداد : وأما أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال : إن كان جميع ما فى أيديهم مأخوذا على موجب الشريعة فجائز أخذه ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره . وإن كان مختلطا حلالا وظلما كما فى أيدى الأمراء اليوم فالورع تركه ، ويجوز للمحتاج أخذه ، وهو كلص فى يده مال مسروق ،ومال جيد حلال قد وكله فيه رجل فجاء اللص يتصدق به على إنسان فيجوز أن تؤخذ منه الصدقة ،وإن كان قد يجوز أن يكون اللص يتصدق ببعض ما سرق ، إذا لم يكن شىء معروف بنهب ،وكذلك لو باع أو اشترى كان العقد صحيحا لازما — وإن كان الورع التنزه عنه — وذلك أن الأموال لا تحرم بأعيانها وإنما تحرم بجهاتها ، وإن كان ما فى أيديهم ظلما صراحا فلا يجوز أن

يؤخذ من أيديهـم ، ولو كان ما فى أيديهم من المـال مغصوبا غير أنه لا يعرف له صاحب ولا مطالب، فهـو كما لو وجد فى أيدى اللصوص وقطاع الطريق، ويجعـل فى بيت المـال وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد، فاذا لم يعرف صرفه الإمام فى مصالح المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ . فيه مسئلتان :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَـا ﴾ . بمعنى صـيرنا لتعديه الى مفعوليه، وقد تقدّم . ﴿ ٱلْبَيْتَ ﴾ . يعنى الكعبة . ﴿ مَثَابَةً ﴾ . أى مرجعا؛ يقال : ثاب يثوب مثابا ومثابة وثُؤُوبا وثوبانا . فالمثـابة مصـدر وصف به ويراد به الموضع الذى يثاب اليه أى يرجع اليه ؛ وقال ورقة بن نوفل فى الكعبة :

مثابا لأفنـاء القبائل كلّهـا * تَخُبّ اليها اليَعْمَلات الذوامل

وقرأ الأعمش مثابات على الجمع؛ ويحتمل أن يكون من الثواب أى يثابون هناك . وقال مجاهد : لايقضى أحد منه وطرا، قال الشاعر :

جعـــل البيت مثـابا لهم * ليس منه الدهر يقضون الوطر

والأصل مَثْوَبَةٌ، فقلبت حركة الواو على الثـاء، فقلبت الواو ألفا اتباعا لثـاب يثوب، وآنتصب على المفعول الثـانى، ودخلت الهـاء للمبالغة لكثرة من يثوب أى يرجع ؛ لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطرا، فهى كنسابة وعلامة، قاله الأخفش . وقال غيره : هى هاء لتأنيث المصدر وليست للمبالغة .

فإن قيل : ليس كل من جاءه يعود إليه؛ قيل : ليس يختص من ورد عليه، وإنما المعنى لايخلو من الجملة، ولا يعدم قاصدا من الناس، والله تعالى أعلم .

الثـانية ـــ قوله تعالى : ﴿ وَأَمْنًا ﴾ : استدل به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحدّ فى الحرم على المحصن والسارق اذا لجأ اليه ، وعضَدوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ . قال : آمنوا من دخل البيت . والصحيح إقامة الحدود فى الحرم، وأن ذلك من المنسوخ ؛ لأن الاتفاق حاصل أنه لا يقتل فى البيت، ويقتل خارج البيت ؛

وإنما الخلاف هل يقتل فى الحرم، أم لا؟ والحرم لا يقع عليه اسم البيت حقيقة . وقد أجمعوا أنه لو قتل فى الحرم قتل به، ولو أتى حدّا أقيد منه فيه، ولو حارب فيه حورب وقتل مكانه. وقال أبو حنيفة : من لجأ إلى الحرم لا يقتل فيه ولا يتابع، ولا يزال يضيق عليه حتى يموت أو يخرج؛ فنحن نقتله بالسيف، وهو يقتله بالجوع والصدّ، فأى قتل أشدّ من هذا، وفى قوله : ﴿ وَأَمْنًا ﴾ تأكيد للأمر باستقبال الكعبة، أى ليس فى بيت المقدس هذه الفضيلة، ولا يحج إليه الناس، ومن استعاذ بالحرم أمن من أن يغار عليه . وسيأتى بيان هذا فى المائدة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا ﴾ . قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعى إبراهيم، وهو معطوف على جعلنا، أى جعلنا البيت مثابة واتخذوه؛ مصلّى . وقيل : هو معطوف على تقدير إذ، كأنه قال : وإذ جعلنا البيت مثابة وإذ اتخذوا، فعلى الأول الكلام جملة واحدة، وعلى الثانى جملتان . وقرأ جمهور القراء ﴿ وَٱتَّخِذُوا ﴾ بكسر الخاء على جهة الأمر، قطعوه من الأول وجعلوه معطوفا جملة على جملة . قال المهدوى : ويجوز أن يكون معطوفا على ﴿ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ كأنه قال ذلك لليهود، أو على معنى إذ جعلنا البيت؛ لأن معناه اذكروا إذ جعلنا، أو على معنى قوله : ﴿ مَثَابَةً ﴾ لأن معناه ثوبوا .

الثانية — روى ابن عمر قال قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارى بدر . خرّجه مسلم وغيره . وخرّجه البخارى عن أنس، قال قال عمر: وافقت الله فى ثلاث . أو وافقنى ربى فى ثلاث . الحديث . وأخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده فقال : حدّثنا حماد بن سلمة حدّثنا على بن زيد عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربى فى أربع؛ قلت : يا رسول الله، لو صليت خلف المقام؛ فنزلت هذه الآية : ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . وقلت : يارسول الله، لو ضربت على نسائك الحجاب، فإنه يدخل عليهن البرّ والفاجر؛ فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ .

ونزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ . فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين؛ فنزلت : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ . ودخلت على أزواج النبيّ صلى الله عليـه وسلم فقلت : لتنتهن أو ليبدلنه الله بأزواج خير منكن؛ فنزلت الآية : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ .

قلت : ليس فى هذه الرواية ذكر للأسارى فتكون موافقة عمر فى خمس .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿مِن مَّقَامِ﴾ . المقام فى اللغة : موضع القدمين . قال النحاس : مقام، من قام يقوم يكون مصدرا واسما للموضع ، ومُقام من أقام؛ فأما قول زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم(١) وأندية ينتابهـا القول والفعــل

فمعناه فيهــم أهل مقامات . واختلف فى تعيين المقام على أقوال؛ أصحها : أنه الحجر الذى تعرفه الناس اليوم الذى يصلون عنده ركعتى طواف القدوم . وهذا قول جابر بن عبد الله وابن عباس وقتادة وغيرهم . وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا رأى البيت استلم الركن فرمل ثلاثا ، ومشى أربعا ، ثم تقدّم إلى مقام إبراهيم فقرأ : ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ . فصلى ركعتين قرأ فيهما بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ . و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ . وهذا يدل على أن ركعتى الطواف وغيرهما من الصلوات [لأهل مكة أفضل و](٢) يدل من وجه على أن الطواف للغرباء أفضل . على ما يأتى . وفى البخارى : أنه الحجر الذى ارتفع عليـه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التى كان إسماعيل يناولها إياه فى بناء البيت ، وغرقت قدماه فيه . قال أنس : رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم . حكاه القشيرى . وقال السدّى : المقام : الحجر الذى وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأســه . وعن ابن عباس أيضـا ومجاهد وعطاء أن المقام : الحج كله . وعن عطـاء : عرفة ومزدلفة والجمار . وقاله الشعبى . النخعى : الحرم كله مقام إبراهيم . وقاله مجاهد .

(١) فى نسخ الأصل : « وجوهها » . والتصويب من اللسان .
(٢) زيادة يقتضيها السياق وقد اعتمدنا فى زيادتها على ما ورد فى المسألة السادسة صفحة ١٠٦ من هذا الجزء .

قلت : والصحيح فى المقام القول الأول، حسب ما ثبت فى الصحيح . وخرّج أبو نعيم من حديث محمد بن سُوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى رجل بين الركن والمقام، أو الباب والمقام وهو يدعو و يقول : اللهم اغفر لفلان؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : « ما هذا » فقال : رجل استودعنى أن أدعو له فى هذا المقام؛ فقال : «ارجع فقد غفر لصاحبك» قال أبو نعيم : حدّثنا أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم القاضى قال حدّثنا محمد بن عاصم بن يحيي الكاتب قال حدّثنا عبد الرحمن بن القاسم القطان الكوفى قال حدّثنا الحارث بن عمران الجعفرى عن محمد بن سُوقة فذكره . قال أبو نعيم : كذا رواه عبد الرحمن عن الحارث عن محمد عن جابر وانما يعرف من حديث الحارث عن محمد عن عكرمة عن ابن عباس . ومعنى مصلّى، مدعى يدعى فيه . قاله مجاهد . وقيل : موضع صلاة يصلى عنده . قاله قتادة . وقيل : قبلة يقف الإمام عندها . قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ . فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَهِدْنَا ﴾ . قيل : معناه أمرنا . وقيل : أوحينا . ﴿ أَنْ طَهِّرَا ﴾ . أن، فى موضع نصب على تقدير حذف الخافض . وقال سيبو يه : أن بمعنى أى مفسرة فلا موضع لها من الإعراب . وقال الكوفيون : تكون بمعنى القول . وطهرا، قيل معناه : من الأوثان . عن مجاهد والزهرى . وقال عبيد بن عمير، وسعيد بن جبير : من الافات والريب . وقيل : من الكفار . قال السدى : ابنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة؛ فيجئ مثل قوله : ﴿ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ . وقال يمان : بخراه وخلّقاه . ﴿ بَيْتِيَ ﴾ . أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ، وهى إضافة مخلوق إلى خالق ، ومملوك الى مالك . وقرأ الحسن وآبن أبى اسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص : ﴿ بَيْتِيَ ﴾ بفتح الياء . والآخرون بإسكانها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ . ظاهره الذين يطوفون به ؛ وهو قول عطاء . وقال سعيد بن جبير : معناه للغرباء الطارئين على مكة ؛ وفيه بعد . ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين من بلدىّ وغريب . عن عطاء . وكذلك قوله : ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ . والعكوف فى اللغة : اللزوم والإقبال على الشيء كما قال الشاعر[1] :

* عَكْفَ النَّبِيطِ يلعبون الفَنْزَجَا[2] *

وقال مجاهد : العاكفون ، المجاورون . ابن عباس : المصلون . وقيل : الجالسون بغير طواف . والمعنى متقارب . ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ . أى المصلون عند الكعبة . وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلى الى الله تعالى . وقد تقدّم معنى الركوع والسجود لغة والحمد لله .

الثالثة — لما قال تعالى : ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ . دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى ؛ فيكون حكمها حكمه فى التطهير والنظافة . وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها ، أولكونها أعظم حرمة . والأول أظهر ، والله أعلم . وفى التنزيل : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ . وهناك يأتى حكم المساجد إن شاء الله تعالى .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجل فى المسجد فقال : ما هذا ! أتدرى أين أنت ؟ وقال حذيفة قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله أوحى إلىّ يا أخا المنذرين يا أخا المرسلين أنذر قومك ألا يدخلوا بيتا من بيوتى إلا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيد نقيّة وفروج طاهرة وألا يدخلوا بيتا من بيوتى ما دام لأحد عندهم مظلمة فإنى ألعنه مادام قائما بين يدى حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيّين والصدّيقين والشّهداء والصّالحين » .

---

(١) هو العجاج ، يصف ثورا . وصدره البيت :

* فهنّ يعكفن به إذا حجا *

(٢) الفنزجة والفنزج : رقص العجم إذا أخذ بعضهم يد بعض وهم يرقصون . اللسان .

الرابعــة — استدل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشافعي رحمه الله : إن صــلى في جوفها مستقبلا حائطا من حيطانها فصلاته جائزة، و إن صلى نحو البــاب والباب مفتوح فصلاته باطلة، وكذلك من صلى على ظهرها؛ لأنه لم يستقبل منها شيئا . وقال مالك : لا يصلى فيــه الفرض ولا السنن، و يصلى فيه التطوّع؛ غير أنه إن صلى فيه الفرض أعاد في الوقت . وقال أصبغ : يعيد أبد .

قلت : وهو الصحيح ؛ لمــا رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمــا دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصلّ حتى خرج منه؛ فلمــا خرج ركع قِبَلَ الكعبة ركعتين وقال : «هذه القبلة» وهذا نصّ .

فإن قيل : فقد روى البخاريّ عن ابن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليــه وسلم هو وأسامة بن زيد و بلال وعثمان بن طلحة الحجبي البيت فأغلقوا عليهم الباب، فلما فتحوا كنت أوّل من ولج فلقيت بلالا فسألته : هل صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم، بين العمودين اليمانيين . وأخرجه مســلم . وفيه قال : جعل عمودين عن يساره وعمودا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه ؛ وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلى بمعنى دعا ، كما قال أسامة ، ويحتمل أن يكون صلى الصلاة العرفية ، و إذا احتمل هذا وهذا سقط الاحتجاج به .

فإن قيل : فقد روى ابن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبيّ صلى الله عليــه وسلم صورا في الكعبة فكنت آتيه بماء في الدلو يضرب به تلك الصور . وخرجه أبو داود الطيالسي قال : حدّثنا ابن أبي ذئب عن عبــد الرحمن بن مهران قال حدّثنا عمير مولى ابن عبــاس عن أسامة بن زيد قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكعبة ورأى صورا قال : فدعا بدلو من ماء فأتيته به فجعل يمحوها و يقول : «قاتل الله قوما يصوّ رون مالا يخلقون» . فيحتمل أن يكون النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم صلّى في حالة مضي أسامة في طلب المــاء فشاهد

بلال مالم يشاهده أسامة، فكان من أثبت أولى ممن نفى؛ وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس بقول بلال وتركوا قولى. وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صفوان قال قلت لعمر بن الخطاب: كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل الكعبة ؟ قال : صلى ركعتين .

قلنـا : هذا محمول على النافلة، ولا نعلم خلافا بين العلماء فى صحة النافلة فى الكعبة، وأما الفرض فلا؛ لأن الله تعالى عين الجهة بقوله تعالى : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ ﴾ على ما يأتى بيـانه . وقوله صلى الله عليه وسلم لمـا خرج : « هـذه القبلة » فعينها كما عينهـا الله تعالى ، ولو كان الفرض يصح داخلها لمـا قال : « هذه القبلة » وبهذا يصح الجمع بين الأحاديث ، وهو أولى من إسقاط بعضها، فلا تعارض . والحمد لله .

الخامسة — واختلفوا أيضا فى الصلاة على ظهرها؛ فقال الشافعى ما ذكرنا . وقال مالك : من صلى على ظهر الكعبة أعاد فى الوقت. وقد روى عن بعض أصحاب مالك : يعيد أبدا . وقال أبو حنيفة : من صلى على ظهر الكعبة فلا شىء عليه .

السادسة — واختلفوا أيضا أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به؟ فقال مالك : الطواف لأهل الأمصار أفضل ، والصلاة لأهل مكة أفضل . وذكر عن ابن عباس وعطاء ومجاهد . والجمهور أن الصلاة أفضل . وفى الخبر : « لولا رجال خشّع وشيوخ ركّع وأطفال رضّع وبهائم رتّع لصببنا عليكم العذاب صبّا » . ذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب — فى كتاب السابق واللاحق — عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : «لولا فيكم رجال خشع وبهائم رتع وصبيان رضع لصب العذاب على المذنبين صبا» . لم يذكر فيه «وشيوخ ركع» وفى حديث أبى ذرّ «الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل» . خرّجه الآجرى . والأخبار فى فضـل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهـور والله تعـالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى: ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾. يعني مكة، فدعا لذرّيته وغيرهم بالأمن ورغد العيش؛ فروى أنه لما دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فاقتلع الطائف من الشام فطاف بها حول البيت أسبوعا — فسميت الطائف لذلك — ثم أنزلها تهامة؛ وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها، وأنبت فيها أنواع الثمار على ما يأتي بيانه في سورة إبراهيم إن شاء الله تعالى.

الثانيـة — اختلف العلمـاء في مكة، هل صارت حرما بسؤال إبراهيم أو كانت قبلـه كذلك على قولين:

(أحدهما) أنها لم تزل حرما من الجبابرة المسلطين، ومن الخسوف والزلازل، وسائر المثلات التي تحل بالبلاد، وجعل في النفوس المتمرّدة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى، ولقد جعـل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيها: فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا ينبح الكلب الصيد ولا ينفر منه حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب.

وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمنا من القحط والجدب والغارات، وأن يرزق أهله من الثمرات؛ لا على ما ظنه بعض الناس: أنه المنع من سفك الدم في حق من لزمه القتل، فإن ذلك يبعد كونه مقصودا لإبراهيم صلى الله عليه وسلم حتى يقال: طلب من الله أن يكون في شرعه تحريم قتل من التجأ إلى الحرم، هذا بعيد جدا.

(الثـاني) أن مكة كانت حلالا قبـل دعوات إبراهيم عليه السـلام كسائر البلاد، وأن بدعوته صارت حرما آمنا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله عليه وسـلم آمنا بعد أن كانت حلالا.

احتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيـه لأحد قبـلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو

حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يُعضَدُ شوكه ولا يُنفّر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يُختَلَى خَلاه[(١)] » فقال العبـاس : إلا الإذْخِرَ فإنه لقَيْنِهم[(٢)] ولبيوتهم ؛ قال : " إلا الإذخر " .
ونحوه حديث أبى شريح أخرجهما مسلم وغيره .

وفى صحيح مسـلم أيضا عن عبد الله بن زيد آبن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها و إنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة و إنى دعوت فى صاعها ومدّها مثـل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة » . قال آبن عطيـة : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن الأوّل إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه ،وكون الحرمة مدّة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان . والثانى إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها و إظهاره ذلك بعد الدثور ، وكان القول الأوّل من النبيّ صـلى الله عليه وسـلم ثانى يوم الفتح إخبارا بتعظيم حرمة مكة على المؤمنين ، بإسناد التحريم إلى الله تعالى ،وذكر إبراهيم عند تحريم المدينة هو أيضا مثالا لنفسه ،ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضا من قبل الله تعالى ومن نافذ قضائه وسابق علمه . وقال الطبرى : كانت مكة حراما ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم ، فحرّمها .

الثالثـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ ﴾ . تقدّم معنى الرزق . والثمرات جمع ثمرة وقد تقدّم . من آمن ، بدل من أهل ، بدل البعض من الكل . والإيمان : التصـديق . وقد تقـدّم . ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ . من ، فى قوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ فى موضـع نصـب . والتقدير وارزق من كفر ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع بالابتداء ، وهى شرط والخبر ﴿ فَأُمَتِّعُهُ ﴾ وهو الجواب .

واختلف هل هـذا القول من الله أو من إبراهيم ؟ فقال أُبيّ بن كعب وابن إسحاق وغيرهم : هو من الله تعالى ،وقرءوا فأمتعه بضم الهمزة وفتح الميم وتشديد التاء ، ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ بقطع الألف وضم الراء ، وكذلك القرّاء السبعة خلا ابن عامر فإنه سكن الميم وخفف التـاء . وحكى أبو إسحاق والزجاج أن فى قراءة أُبيّ : فنمتعه قليلا ثم نضطرّه ، بالنون . وقال ابن

(١) الخلى : النبات الرطب الرقيق ما دام رطبا . واختلاؤه : قطعه . (٢) فى لسان العرب لبيوتنا وقبورنا .

عباس ومجاهد وقتادة : هذا القول من إبراهيم عليه السلام، وقرءوا ﴿ فأمتعه ﴾ بفتح الهمزة وسكون الميم ، ﴿ ثم اضطره ﴾ بوصل الألف وفتح الراء . فكان إبراهيم عليه السلام دعا للؤمنين وعلى الكافرين، وعليه فيكون الضمير في "قال" لإبراهيم، وأعيد "قال" لطول الكلام أو لخروجه من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والفاعل في قال على قراءة الجماعة اسم الله تعالى واختاره النحاس، وجعل القراءة بفتح الهمزة وسكون، الميم ووصل الألف شاذة، قال : ونسق الكلام والتفسير جميعا يدلان على غيرها . أما نسق الكلام فإن الله تعالى أخبر عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾. ثم جاء بقوله عز وجل :﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ . ولم يفصل بينه بقال، ثم قال بعد : ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ . فكان هذا جوابا من الله، ولم يقل بعد : قال ابراهيم . وأما التفسير فقد صح عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب، وهذا لفظ ابن عباس : دعا إبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصة، فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن، وأنه يمتعه قليلا ثم يضطره الى عذاب النار . قال أبو جعفر : وقال الله عز وجل : ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ . وقال جل ثناؤه : ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾. قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته كفارا فخص المؤمنين لأن الله تعالى قال : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ . القواعد : أساسه، في قول أبي عبيدة والفراء. وقال الكسائي : هي الجدر . والمعروف أنها الأساس. وفي الحديث: "إن البيت لما هدم أخرجت منه حجارة عظام" . فقال ابن الزبير : هذه القواعد التي رفعها إبراهيم . وقيل : إن القواعد كانت قد اندرست فأطلع الله إبراهيم عليها . ابن عباس : وضع البيت على أركان رآها قبل أن يخلق البيت بألفي عام، ثم دحيت الأرض من تحته . والقواعد واحدتها قاعدة . والقواعد من النساء واحدها قاعد .

واختلف الناس فيمن بنى البيت أولا وأسسه ، فقيل : الملائكة . روى عن جعفر بن محمد قال : سئل أبى وأنا حاضر عن بدء خلق البيت ، فقال : إن الله عز وجل لما قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قالت الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ . فغضب عليهم فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم حتى رضى الله عنهم وقال لهم : ابنوا لى بيتا فى الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم ، و يطوف حوله كما طفتم حول عرشى فأرضى عنه كما رضيت عنكم ، فبنوا هذا البيت .

وذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهما : أن الله عز وجل أوحى الى آدم : إذا هبطت آبن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحفّ بعرشى الذى فى السماء . قال عطاء : فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل : من حِرَاء ، ومن طور سِينا ، ومن لُبْنان ، ومن الجودىّ ، ومن طورزَيْتا ، وكان ربضه من حراء . قال الخليل : والربض ههنا الأساس المستدير بالبيت من الصخر ؛ ومنه يقال لما حول المدينة : ربض . وذكر الماوردىّ عن عطاء عن آبن عباس قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له : يا آدم ، اذهب فآبن لى بيتا وطف به ، واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ؛ فأقبل آدم يتخطا وطويت له الأرض ، وقبضت له المفازة ؛ فلا يقع قدمه على شىء من الأرض إلا صار عمرانا حتى انتهى الى موضع البيت الحرام ، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أُسٍّ ثابت على الأرض السابعة السفلى ، وقذفت إليه الملائكة بالصخر ، فما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا ، وأنه بناه من خمسة أجبل كما ذكرنا . وقد روى فى بعض الأخبار : أنه أهبط لآدم عليه السلام خيمة من خيام الجنة ، فضربت فى موضع الكعبة ليسكن إليها و يطوف حولها ، فلم تزل باقية حتى قبض الله آدم ثم رفعت . وهذا من طريق وهب آبن منبه . وفى رواية : أنه أهبط معه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده ، وكذلك إلى زمان الغرق ثم رفعه الله فصار فى السماء ، وهو الذى يدعى البيت المعمور . روى هذا عن قتادة ذكره الحليمى فى كتاب «منهاج الدين» له ،

وقال: يجوز أن يكون معنى ما قال قتادة من أنه أهبط مع آدم بيت أى أهبط معه مقدار البيت المعمور طولا وعرضا وسمكا، ثم قيل له : ابن بقدره ، ويجوز أن يكون بحياله ، فكان حياله موضع الكعبة، فبناها فيه . وأما الخيمة فقد يجوز أن تكون أنزلت وضربت فى موضع الكعبة فلما أمر ببنائها فبناها كانت حول الكعبة طمأنينة لقلب آدم صلى الله عليه وسلم ما عاش ثم رفعت ، فتتفق هذه الأخبار؛ فهذا بناءُ آدم عليه السلام، ثم بناه ابراهيم صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جريج : وقال ناس : أرسل الله سحابة فيها رأس؛ فقال الرأس : يا إبراهيم ، إن ربك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة ، فجعل ينظر اليها ويخط قدرها؛ ثم قال الرأس : إنه قد فعلت؛ فحفر فأبرز عن أساس ثابت فى الأرض. وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أن الله تعالى لما أمر إبراهيم بعمارة البيت خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر ، وبعث معه السَّكينة[1] لها لسان تتكلم به، يغدو معها إبراهيم إذا غدت ، ويروح معها إذا راحت حتى انتهت به إلى مكة؛ فقالت لإبراهيم : ابن على موضعى الأساس؛ فرفع البيت هو وإسماعيل حتى انتهى الى موضع الركن؛ فقال لابنه : يا بنىّ، ابغنى حجرا أجعله علَمًا للناس؛ فجاءه بحجر فلم يرضه؛ وقال: ابغنى غيره؛ فذهب يلتمس فجاءه وقد أتى بالركن فوضعه موضعه؛ فقال : يا أبة، من جاءك بهذا الحجر؟ فقال : من لم يكلنى إليك . ابن عباس : صاح أبو قبيس[2] : يا إبراهيم، يا خليل الرحمن ، إن لك عندى وديعة فخذها ؛ فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنة كان آدم قد نزل به من الجنة ؛ فلما رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت جاءت سحابة مربعة فيها رأس فنادت : أن ارفعا على تربيعى . فهذا بناء إبراهيم عليه السلام . وروى أن إبراهيم وإسماعيل لما فرغا من بناء البيت أعطاهما الله الخيل جزاء عن رفع قواعد البيت . روى الترمذى الحكيم حدّثنا عمر بن أبى عمر حدّثنى نعيم بن حماد حدّثنا عبد الوهاب بن همام أخو عبد الرزاق عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال : كانت الخيل وحشا كسائر الوحوش ، فلما أذن الله لإبراهيم وإسماعيل برفع

(١) السكينة : ريح خجوج، أى سريعة المر . نهاية ابن الأثير .
(٢) أبو قبيس : اسم الجبل المشرف على مكة .

القواعد قال الله تبارك آسمه : "إنى معطيكما كنزا ادخرته لكما" ثم أوحى إلى إسماعيل أن اخرج إلى أجياد فادع يأتك الكنز، فخرج إلى أجيـاد — وكانت وطنا — ولا يدرى ما الدعاء ولا الكنز، فألهمه ؛ فلم يبق فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيها، وذللها له ؛ فاركبوها وآعلفوها فإنها ميامين، وهى ميراث أبيكم إسماعيل ؛ فإنما سمى الفرس عربيًّـا(1) لأن إسماعيل أمر بالدعاء وإياه أتى . وروى عبـد المنعم بن إدريس عن وهب بن منبه قال : أوّل من بنى البيت بالطين والحجارة شيث عليه الســلام، وأما بنيان قريش له فمشهور، وخبر الحية فى ذلك مذكور ، وكانت تمنعهم من هدمه إلى أن آجتمعت قريش عند المقام فعجوا الى الله تعـالى وقالوا : ربنا، لم ترع ! أردنا تشريف بيتك وتزيينه، فان كنت ترضى بذلك وإلا فـما بدالك فافعل ، فسمعوا خَوَاتا من السماء — والخوات : حفيف جناح الطير الضخم — فإذا هو بطائر أعظم من النسر، أسود الظهر أبيض البطن والرجلين ؛ فغرز مخاليبه فى قفا الحيـة، ثم انطلق بها تجر ذنبها أعظم من كذا وكذا حتى انطلق بها نحو أجياد . فهدمتها قريش وجعلوا يبنونها بحجارة الوادى تحملها قريش على رقابها، فرفعوها فى السماء عشرين ذراعا، فبينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يحمل حجارة من أجياد وعليه نَمِرة(2) فضاقت عليه النمرة فذهب يرفع النمرة على عاتقه، فترى عورته من صغر النمرة ؛ فنودى : يا محمد ، خمّر عورتك ؛ فلم ير عريانا بعد . وكان بين بنيان الكعبة و بين ما أنزل عليه خمس سنين، و بين خروجه و بنائها خمس عشرة سنة . ذكره عبد الرزاق عن مَعْمَر عن عبد الله بن عثمان عن أبى الطفيل . وذكر عن معمر عن الزهرى : حتى اذا بنوها و بلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن، أى القبائل على رفعه ؟ حتى شجر بينهم ؛ فقالوا : تعالوا نحكّم أوّل من يطلع علينا من هذه السكّة، فاصطلحوا على ذلك ؛ فأطلع عليهم رسول الله صـلى الله عليه وسلم وهو غلام عليـه وشاح نمرة، فحكّموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ، ثم أمر سـيّد كل قبيلة فأعطاه ناحيـة من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا اليه الركن ؛ فكان هو يضعه صلى الله عليه وسلم .

---

(1) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا . (2) النمرة : كل شملة مخططة من مآزر الأعراب .

قال ابن إسحاق : وحدّثت أن قريشا وجدوا فى الركن كتابا بالسريانية فلم يُدْرَ ما هو، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا فيه : «أنا الله ذو بَكّة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض وصوّرت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، لا تزول حتى يزول أَخشباها[(١)] ، مبارك لأهلها فى الماء واللبن» . وعن أبى جعفر محمد بن علىّ قال : كان باب الكعبة على عهد العماليق وجُرْهُم وإبراهيم عليه السلام بالأرض حتى بنته قريش . خرّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجَدْر[(٢)] أمن البيت هو ؟ قال : «نعم» قلت : فلم لم يُدْخلوه [فى البيت][(٣)] ؟ قال : «إن قومكِ قصّرت بهم النفقة» . قلت : فما شأن بابه مرتفعا؟ قال : «فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا و يمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديثٌ عهدُهم فى الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجَدْر فى البيت وأن أُلزق بابه بالأرض» . وخرّج عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : حدّثتنى خالتى (يعنى عائشة) رضى الله عنها قالت قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة لولا أن قومكِ حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحِجْر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة» . وعن عروة عن عائشة قالت قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا حداثة [عهد][(٣)] قومكِ بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإن قريشا حين بنت الكعبة استقصرت ولجعلتُ لها خَلْفًا » . وفى البخارى قال هشام بن عروة : يعنى بابا . وفى البخارى أيضا : « ولجعلت لها خلفين » يعنى بابين . فهذا بناء قريش . ثم لما غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير ووهت الكعبة من حريقهم ، هدمها ابن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة وزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى أُسًّا نظر الناس إليه ، فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانى عشرة ذراعا.

(١) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس ، والأحمر .

(٢) الجدر (بفتح الجيم وإسكان الدال) : حجر الكعبة (بكسر الحاء) .

(٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

فلما زاد فيــه آستقصره، فزاد فى طوله عشرة أذرع، وجعل لهـا بابين أحدهما يُدخَل منه، والآخر يُخَرج منــه . كذا فى صحيح مسلم، وألفـاظ الحديث تختلف . وذكر ســفيان عن داود بن شابور عن مجاهد قال : لمـا أراد آبن الزبير أن يهدم الكعبة ويبنيه[(1)] قال للنـاس : اهدموا؛ قال : فأبوا أن يهدموا وخافوا أن ينزل عليهم العذاب . قال مجاهد : فخرجنا الى مِنًى فأقمنا بها ثلاثا ننتظر العذاب . قال : وآرتقى آبن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه؛ فلما رأوا أنه لم يصبه شىء اجترءوا على ذلك . قال : فهدموا . فلما بناها جعل لهـا بابين : بابا يدخلون منه، وبابا يخرجون منه، وزاد فيه ممـا يلى الحِجْر ستة أذرع، وزاد فى طولهـا تسعة أذرع . قال مسلم فى حديثه : فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، ويخبره أن آبن الزبير قد وضع البناء على أُسٍّ نظر اليه العدول من أهل مكة . فكتب إليه عبد الملك : إنّا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء[(2)]؛ أما ما زاد فى طوله فأقِرّه، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه الى بنـائه، وسدّ الباب الذى فتحه؛ فنقضه وأعاده إلى بنائه . فى رواية قال عبــد الملك : ماكنت أظن أبا خُبَيب (يعنى ابن الزبير) سمع من عائشــة ما كان يزعم أنه سمعه منها . قال الحارث بن عبد الله : بلى، أنا سمعته منها . قال : سمعتَها تقول ماذا ؟ قال : قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهــدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه[(3)] فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمّى لأُرِيَكِ ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع" . فى أخرى : قال عبد الملك : لوكنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بناه ابن الزبير . فهذا ما جاء فى بناء الكعبة من الآثار .

وروى أن الرشيد ذكر لمـالك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبــة، وأن يردّه على بنــاء ابن الزّبير لمـا جاء عن النبىّ صــلى الله عليه وسلم وامتثله ابن الزبير؛ فقــال له مالك : ناشدتك الله يا أمير المؤمنــين ألّا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهــم

(١) كذا فى نسخ الأصل . ولعل تذكير الضمير على معنى البيت .

(٢) قوله : إنا لسنا ... الخ، يعنى إنا برءاء ممـا لوثه بمـا اعتمده من هدم الكعبة . (عن شرح النووى) .

(٣) كذا فى صحيح مسلم . وفى نسخ الأصل : «تمـامه» .

إلا نقض البيت وبناه فتــذهب هيبته من صدور النـاس . وذكر الواقدى حدّثنا مَعْمَر عن همام بن منبّه سمع أبا هريرة يقول: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبّ أسعد الحميرى، وهو تبّع، وهو أوّل من كسا البيت، وهو تبع الآخر. قال ابن إسحاق: كانت تكسى القباطىّ ثم كسيت البُرُد، وأوّل من كساها الديباجَ الحجاج .

قال العلماء : ولا ينبغى أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء، فإنه مهدًى إليها، ولا ينقص منها شيء . روى عن سعيد بن جبير أنه كان يكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به . وكان إذا رأى الخادم تأخذ منه قَفَدها قَفْـدة(١) لا يألو أن يوجعها . وقال عطاء . كان أحدنا اذا أراد أن يستشفى به جاء بطيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ . المعنى: ويقولان ربنا، فحذف. وكذلك هى فى قراءة أبىّ وعبد الله بن مسعود : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ .

وتفسير إسماعيل: اِسمع يا الله، لأن إيل بالسريانية هو الله، وقد تقدّم. فقيل : إن إبراهيم لما دعا ربه قال: اِسمع يا إيل، فلما أجابه ربه ورزقه الولد سماه بما دعاه. ذكره الماوردى.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ اسمان من أسماء الله تعالى قد أتينا عليهما فى الكتاب " الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى " .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أى صيّرنا . ومسلمين مفعول ثان . سألا التثبيت والدوام . والإسلام فى هذا الموضع الإيمان والأعمال جميعا ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ . ففى هذا دليل لمن قال : إن الإيمان والإسلام شيء واحد؛ وعضدوا هذا بقوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابى ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ على الجمع .

(١) القفد : صفع القفا ببطن الكف .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ أى ومن ذريتنا فاجعل . فيقال : إنه لم يدع نبىّ إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته لهـذه الأمة . ومن، فى قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴾ للتبعيض ؛ لأن الله تعـالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين . وحكى الطبرى أنه أراد بقوله﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴾ العرب خاصة . قال السهيلى[(١)]: وذريتهما العرب؛ لأنهم بنو نبت[(٢)] بن إسماعيل، أو بنو تيمن بن إسماعيل، ويقال: قيدر بن نبت بن إسماعيل. أو تيمن؛ على أحد القولين . قال ابن عطية: وهذا ضعيف. لأن دعوته ظهرت فى العرب وفيمن آمن من غيرهم . والأمّة : الجماعة هنا . وتكون واحدا اذا كان يقتدى به فى الخير؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ . وقال صلى الله عليه وسـلم فى زيد بن عمرو بن نُفَيْـل : « يبعث أمة وحده » لأنه لم يشرك فى دينـه غيره ، والله أعلم . وقد يطلق لفظ الأمة على غير هذا المعنى؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أى على ديـن وملة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ . وقد تكون بمعنى الحين والزمان؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى بعـد حين وزمان . ويقال : هـذه أُمّة زيد أى أُم زيد . والأُمّة أيضا : القامة؛ يقال : فلان حسن الأمّة أى حسن القامة ؛ قال :

وإن معـاوية الأكرميـ * ـن حسانُ الوجوه طِوالُ الأُمم

وقيل : الأمّة الشّجة التى تبلغ أم الدماغ؛ يقال : رجل مأموم وأميم .

قوله تعالى : ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ . أرنا من رؤية البصر، فتتعدّى إلى مفعولين ؛ وقيل : من رؤية القلب. ويلزم قائله أن يتعـدى الفعل منه إلى ثلاثة مفعولين . قال ابن عطية :

---

(١) كذا ورد كلام السهيلى فى بعض الأصـول . وورد فى بعضها الآخر هكذا : « قال السهيلى : وذريتهما العرب، لأنهم بنو نبت بن إسماعيل أو بنو تيمن بن إسماعيل ، و يقال : قيدر بن نبت بن إسماعيل . أما العدنانيـة فمن نبت . وأما القحطانية فمن قيدر بن نبت بن إسماعيل أو تيمن ، على أحد القولين الخ » .

(٢) فى سـيرة ابن هشام (ج ١ ص ٤ طبع أوربا) : « نابت » وقد ذكر أولاد إسماعيل الاثنى عشر ولم يذكر فيهم اسم « تيمن » .

وينفصل بأنه يوجد معدّى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين كغير المعدى[1]؛ قال حُطائط ابن يعفُر أخو الأسود بن يعفر :

أَرِينِي جوادا مات هُزْلا لأنَّني[2] * أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلا مُخلَّدا

وقرأ عمر بن عبد العزيز وقَتادة وابن كثير وابن مُحَيصن والسُّدّى ورَوْح عن يعقوب ورُوَيس والسُّوسى ﴿أَرْنَا﴾ بسكون الراء فى القرآن؛ واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو عمرو باختلاس كسرة الراء ، والباقون بكسرها؛ واختاره أبو عبيد . وأصله أرْءِنا بالهمز . فمن قرأ بالسكون قال : ذهبت الهمزة وذهبت حركتها وبقيت الراء ساكنة على حالها؛ واستدل بقول الشاعر :

أَرْنا إداوة عبد الله نملؤها * من ماء زمزم إنَّ القوم قد ظمئوا

ومن كسر فإنه نقل حركة الهمزة المحذوفة إلى الراء . وأبو عمرو طلب الخفة . وعن شجاع ابن أبى نصر[3] وكان أمينا صادقا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فذاكره أشياء من حروف أبى عمرو فلم يرد عليه إلا حرفين ، هذا ، والآخر ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا﴾ مهموزا .

قوله تعالى : ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ . يقال : إن أصل النسك فى اللغة الغسل؛ يقال منه : نَسَكَ ثوبه إذا غسله . وهو فى الشرع اسم للعبادة؛ يقال : رجل ناسك إذا كان عابدا .

واختلف العلماء فى المراد بالمناسك هنا، فقيل : مناسك الحج ومعالمه . قاله قَتادة والسُّدّى . وقال مجاهد وعطاء وابن جُريج : المناسك المذابح أى مواضع الذبح . وقيل : جميع المتعبدات . وكل ما يتعبد به إلى الله تعالى يقال له مَنْسَك ومَنْسِك . والناسك : العابد . قال النحاس : يقال نَسَك ينسُك ، فكان يجب على هذا أن يقال : مَنْسُك ، إلا أنه ليس فى كلام العرب مَفْعُل .

(١) قال أبو حيان : « ... يعنى أنه قد استعمل فى اللسان العربى متعديا الى اثنين ومعه همزة النقل كما استعمل متعديا الى اثنين بغير الهمزة » .

(٢) ويروى «لعلنى» ، ولأن بمعنى لعل .

(٣) ورد هذا الاسم محرفا فى نسخ الأصل . والتصويب عن طبقات القراء وتهذيب التهذيب .

وعن زهير بن محمد قال : لمّـا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحـرام قال : أىْ رب ، قد فرغت فأرنا مناسكنا ؛ فبعث الله تعالى اليه جبريل فحج به ، حتى إذا رجع من عرفة وجاء يوم النحر عرض له إبليس ، فقال له : آحصبه ، فحَصَبه بسبع حَصَيات ، ثم الغد ثم اليوم الثالث ، ثم علا ثَبِيرا[1] فقال : يا عباد الله ، أجيبوا ؛ فسمع دعوته مَنْ بين الأبحر ممن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فقال : لبّيك ، اللهم لبّيك ؛ قال : ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعدا ، لو لا ذلك لأهلكت الأرض ومن عليهـا . وأول من أجاب أهل اليمن . وعن أبى مِجْلَز قال : لمّـا فرغ إبراهـيم من البيت جاءه جبريل عليه السـلام فأراه الطـواف بالبيت — قال : وأحسبه قال : والصفا والمروة — ثم انطلقا الى العقبة فعرض لهما الشيطان ؛ فأخذ جبريل سـبع حصيات وأعطى إبراهيم سـبع حصيات ، فرمى وكبّر ، وقال لإبراهيم : ارم وكبّر ؛ فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان . ثم انطلقا الى الجمرة الوسطى ، فعرض لهما الشيطان ؛ فأخذ جبريل سبع حصيات وأعطى إبراهيم سبع حصيات ، وقال : ارم وكبّر ؛ فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشـيطان . ثم أتيا الجمرة القصوى فعرض لهما الشيطان ؛ فأخذ جبريل سـبع حصيات وأعطى إبراهيم سـبع حصيات وقال : ارم وكبر ؛ فرميا وكبرا مع كل رمية حتى أفل الشيطان . ثم أتى به جَمْعا[2] فقال : ها هنا يجمع الناس الصلوات . ثم أتى به عرفات فقـال : عرفت ؟ فقال نعم ؛ فمن ثَمّ سُمّى عرفات . وروى أنه قال له : عرفت ، عرفت ، عرفت ؟ أى مِنًى والجمع وهـذا ؛ فقال نعم ؛ فسمى ذلك المكان عرفات . وعن خُصَيْف بن عبد الرحمن أن مجاهدا حدّثه قال : لمّـا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ . أُرى الصفا والمروة ، وهما من شعائر الله بنص القرآن ؛ ثم خرج به جبريل ، فلما مرّ بجمرة العقبة إذا إبليس عليها ، فقال له جبريل : كبِّر وآرْمِه ؛ فارتفع إبليس الى الوسطى ؛ فقال جبريل : كبر وارمه ؛ ثم فى الجمرة القصوى كذلك . ثم انطلق به الى المَشْـعَر الحرام ،

(١) ثبير اعظم جبل بمكة بينها و بين عرفة .

(١) جمع (بفتح فسكون) : المزدلفة .

ثم أتى به عرفة فقال له : عرفت ما أريتك ؟ قال نعم؛ فسمّيت عرفات لذلك ؛ قال : فأذّن في الناس بالحج؛ قال : كيف أقول ؟ قال قل : يأيها الناس، أجيبوا ربكم ثلاث مرار، ففعل؛ فقالوا : لبّيك . اللهم لبّيك . قال : فمن أجاب يومئذ فهو حاج . وفي رواية أخرى أنه حين نادى استدار فدعا في كل وجه، فلبّى الناس من كل مشرق ومغرب، وتطأطأت الجبال حتى بَعُد صوته . وقال محمد بن إسحاق : لمّا فرغ إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليــه السلام فقال له : طف به سبعا ؛ فطاف به ســبعا هو وإسماعيل عليهما السلام، يستلمان الأركان كلها في كل طواف؛ فلما أكملا سبعا صلّيا خلف المقام ركعتين . قال : فقام جبريل فأراه المناسك كلها : الصفا والمروة ومنى والمزدلفة. قال : فلما دخل مِنًى وهبط من العقبة تمثّــل له إبليس ؛ فذكر نحو ما تقــدّم . قال ابن إسحاق : وبلغني أن آدم عليــه السلام كان يستلم الأركان كلها قبل إبراهيم عليــه السلام . وقال : حج إسحاق وسارة من الشام، وكان إبراهيم عليه السلام يحجه كل ســنة على البراق ؛ وحجّته بعــد ذلك الأنبياء والأمم . وروى محمد بن سابط عن النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم أنه قال : "كان النبيّ من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق مكة فتعبّد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا؛ فمات بها نوح وهود وصالح، وقبورهم بين زمزم والحِجْر" . وذكر ابن وهب أن شعيبا مات بمكة هو ومن معــه من المؤمنين، فقبورهم في غربيّ مكة بين دار الندوة وبين بني سهم . وقال ابن عباس : في المسجد الحرام قبران ليس فيــه غيرهما، قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام؛ فقبر إسماعيل في الحِجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأســود . وقال عبد الله بن ضمرة السلوليّ : ما بين الركن والمقام الى زمزم قبور تســعة وتسعين نبيّا جاءوا حجّاجا فقُبِروا هنالك صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ . اختلف في معنى قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة : طلبا التثبيت والدوام، لا أنهما كان لهما ذنب .

قلت: وهذا حسن، وأحسن منه أنهما لما عرفا المناسك و بنيا البيت، أرادا أن يبيّنا للناس و يعرّفاهم أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصّل من الذنوب وطلب التو بة . وقيل: المعنى : وتب على الظَّلَمة منا . وقد مضى الكلام فى عصمة الأنبياء عليهم السلام فى قصة آدم عليه السلام ، وتقدّم القول فى معنى قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾. يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة أُبَىّ ﴿وَٱبْعَثْ فِى آخِرِهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ .وقد روى خالد بن مَعْدان أنّ نفرًا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال : "نعم أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى" . ورسولا أى مرسلا، وهو فعول من الرسالة . قال ابن الأنبارى : يشبه أن يكون أصله من قولهم : ناقة مِرْسَالٌ و رَسْلَةٌ إذا كانت سهلة السير ماضيـة أمام النوق . ويقال للجماعة المهملة المرسـلة رَسَلٌ، وجمعه أرسال. و يقال : جاء القوم أرسالا أى بعضهم أثر بعض؛ ومنه يقال للبن رِسْلٌ؛ لأنه يرسل من الضرع .

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾. الكتاب القرآن . والحكمة المعرفة بالدين، والفقه فى التأويل، والفهم الذى هو مِنْحة[1] ونور من الله تعـالى . قاله مالك، رواه عنـه ابن وهب ، وقاله ابن زيد . وقال قتادة : الحكمة السـنة و بيانـ الشرائع . وقيل : الحكمة القضاء خاصة ؛ والمعنى متقارب . ونسب التعليم الى النبيّ صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطى الأمور التى ينظر فيها، و يعلم طريق النظر بمـا يلقيه إليه الله من وحيه . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أى يطهـرهم من وَضَر[2] الشرك ، عن ابن جريج وغيره . والزكاة التطهير ، وقد تقـدّم . وقيل : إن الآيات تلاوة ظاهر الألفاظ ، والكتاب معانى الألفاظ ، والحكمة الحكم، وهو مراد الله بالخطاب من مطلق ومقيد ومفسر ومجمل وعموم وخصوص، وهو معنى ما تقدّم . والله تعالى أعلم . ﴿ وَٱلْعَزِيزُ ﴾ معناه المنيع الذى لا ينال ولا يغالب . وقال ابن كيسان : معناه الذى لا يعجزه شيء . دليله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

(١) فى نسخ الأصل : « سبحية » . (٢) الوضر : الوسخ .

الكسائى : العـزيز الغالب ؛ ومنه قوله تعـالى : ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ . وفى المثل : « من عَزَّ بَزَّ » أى من غلب سلب . وقيل : العزيز الذى لا مثل له . بيـانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ . وقد زدنا هذا المعنى بيانا فى اسمه العزيز فى كتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » وقد تقدّم معنى الحكيم ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَـهُ ﴾ الآية . من استـفهام فى موضـع رفع بالابتداء . ويرغب صـلة من . إلا من سـفه نفسه فى موضع الخبر . وهو تقريع وتوبيخ وقع فيه معنى النفى ، أى وما يرغب ، قاله النحاس . والمعنى : يزهد فيها وينأى بنفسه عنها ، أى عن الملة وهى الدّين والشرع . إلا من سفه نفسه ، قال قتادة : وهم اليهود والنصارى ، رغبوا عن ملة إبراهيم واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله تعالى . قال الزجاج : سفه بمعنى جهل ، أى جهل أمر نفسه فلم يفكّر فيها . وقال أبو عبيدة : المعنى أهلك نفسه . وحكى ثعلب والمبرد أن سَـفِه بكسر الفـاء يتعدّى كسفَّه بفتح الفاء وشدّها . وحكى عن أبى الخطاب ويونس أنها لغـة . وقال الأخفش : سفه نفسـه أى فعل بها من السفه ما صار به سفيها . وعنـه أيضا هى لغـة بمعنى سفَّه ، حكاه المهدوىّ ، والأول ذكره المـاوردى . فأمّا سَفُه بضم الفاء فلا يتعدّى ، قاله المبرد وثعلب . وحكى الكسائى عن الأخفش أن المعنى جهل فى نفسه ، فحذفت « فى » فٱنتصب . قال الأخفش : ومثله عقدة النكاح(١) ، أى على عقـدة النكاح . وهذا يجرى على مذهب سيبويه فيما حكاه من قولهم : ضرب فلان الظهر والبطن ، أى فى الظهر والبطن . الفراء : هو تمييز . قال ابن بحر : معناه جهل نفسه وما فيها من الدلالات والآيات الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شىء ، فيعلم به توحيد الله وقدرته .

قلت : وهذا معنى قول الزجاج : فيفكر فى نفسه من يدين يبطش بهما ، ورجلين يمشى عليهما ، وعين يبصر بها ، وأذن يسمع بها ، ولسان ينطق به ، وأضراس تنبت له عنـد غناه عن الرضاع وحاجته الى الغذاء ليطحن بها الطعام ، ومعدة أعدّت لطبخ الغذاء ، وكبد يصعد إليها صفوه ، وعروق ومعابر ينفذ فيها الى الأطراف ، وأمعاء يرسب إليها ثُفْل الغـذاء ويبرز

(١) أى فى قوله تعالى : (ولا تعزموا عقدة النكاح) .

من أسفل البدن ، فيستدل بهذا على أن له خالقا قادرا عليما حكيما . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . أشار الى هذا الخطّابى رحمه الله تعالى. وسيأتى له مزيد بيان فى سورة « والذاريات » إن شاء الله تعالى .

وقد استدل بهذه الآية من قال : إن شريعة إبراهيم شريعة لنـا إلا ما نسخ منها، وهذا كقوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . وسيأتى بيانه .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى اخترناه للرسـالة فجعلناه صافيا من الأدناس . والأصل فى اصطفيناه اصتفيناه، أبدلت التاء طاء لتشابهها[١] مع الصاد فى الإطباق. واللفظ مشتق من الصفوة؛ ومعناه تخيّر الأصفى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . الصالح فى الآخرة هو الفائز. ثم قيل: كيف جاز تقديم ﴿ فِي الْآخِرَةِ ﴾ وهو داخل فى الصـلة ؟ قال النحاس : فالجواب أنه ليس التقـدير إنه لمن الصالحين فى الآخرة فتكون الصـلة قد تقدمت ؛ ولأهل العربية فيـه ثلاثة أقوال : منها أن يكون المعنى وإنه صالح فى الآخرة ثم حذفت . وقيـل : فى الآخرة متعلق بمصدر محذوف أى صلاحه فى الآخرة . والقول الثـالث : أن الصالحين ليس بمعنى الذين صلحوا، ولكنه اسم قائم بنفسه؛ كما يقال الرجل والغلام .

قلت[٢] : وقول رابع أن المعنى وإنه فى عمـل الآخرة لمن الصالحين؛ فالكلام على حذف مضاف . وقال الحسن[٣] بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير، مجازه ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين . وروى حجّاج بن حجاج ــ وهو حجاج الأسود، وهو أيضا حجاج الأحول المعروف بزِقّ العسل ــ قال : سمعت معاوية بن قُرّة يقول : اللهم إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم ، اللهم كما أصلحتهم فأصلحنا، وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم فارزقنا أن نعمل بطاعتك وارضَ عنا .

(١) فى بعض الأصول : «لتناسبها ... » . (٢) ظاهر كلام المؤلف أن هذا وجه رابع من أوجه الأعراب . وهو غير واضح . وظاهر كلام أبى حيان أنه تفسير لأحد المعانى فيات فى المراد من قوله تعالى : « فى الآخرة » . (٣) كذا ورد فى بعض نسخ الأصل وأبى حيان . وفى بعضها : «الحسين» .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ الآية . العامل فى إذ قوله : ﴿ ٱصْطَفَيْنَاهُ ﴾ . أى آصطفيناه إذ قال له ربه أسلم . وكان هذا القول من الله تعالى حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس . وقال[1] ابن كيسان والكلبي : أى أخلص دينك لله بالتوحيد ؛ وقيل : اخضع واخشع . وقال ابن عباس : إنما قال له ذلك حين خرج من السرب[2] على ما يأتى ذكره فى الأنعام[3] . والإسلام هنا على أتم وجوهه . والإسلام فى كلام العرب الخضوع والانقياد للستسلم . وليس كل إسلام إيمانا ، وكل إيمان إسلام؛ لأن من آمن بالله فقد انقاد واستسلم لله ، وليس كل من أسلم آمن بالله؛ لأنه قد يتكلم فَرَقًا من السيف ولا يكون ذلك إيمانا؛ خلافا للقدرية والخوارج حيث قالوا : إن الإسلام هو الإيمان ؛ فكل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ اللهِ ٱلْإِسْلَامُ ﴾ ؛ فدلّ على أن الإسلام هو الدين ، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن .

ودليلنا قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ الآية . فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمنا ؛ فدلّ على أنه ليس كل مسلم مؤمنا . وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقّاص لما قال له : أَعْطِ فلانا فإنه مؤمن ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أَوْ مسلم » الحديث ، خرّجه مسلم ؛ فدل على أن الإيمان ليس الإسلام ، فإن الإيمان باطن ، والإسلام ظاهر ؛ وهذا بيّن . وقد يطلق الإيمان بمعنى الإسلام ، والإسلام ويراد به الإيمان ؛ للزوم أحدهما الاخر وصدوره عنه كالإسلام الذى هو ثمرة الإيمان ودلالة على صحته فآعلمه . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى بالملة ؛ وقيل : بالكلمة التى هى قوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ ، وهو أصوب ؛ لأنه أقرب مذكور ، أى قولوا : أسلمنا . ووصّى وأوصى لغتان لقريش وغيرهم بمعنًى ، مثل كرّمنا وأكرمنا ؛ وقرئ بهما . وفى مصحف

(١) لعل الأولى حذف واو العطف هنا . (٢) السرب (بالتحريك) : الحفير ، وبيت تحت الأرض .
(٣) عند قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ...) الآيات .

عبد الله : ووصّى، وفى مصحف عثمان : وأوصى، وهى قراءة أهل المدينة والشام، والباقون ووّصى، وفيــه معنى التكثير . وإبراهيم رفع بفعله، ويعقوب عطف عليه؛ وقيل هو مقطوع مستأنف، والمعنى: وأوصى يعقوب وقال : يا بنىّ إن الله اصطفى لكم الدين ؛ فيكون إبراهيم قد وصى بنيه ، ثم وصى بعده يعقوب بنيه .

وبنو إبراهيم: إسماعيل وأمه هاجر القبطية، وهو أكبر ولده . نقله إبراهيم الى مكة وهو رضيع ؛ وقيل : كان له ســنتان؛ وقيل : كان له أربع عشرة سنة؛ والأول أصح ؛ على ما يأتى فى سورة إبراهيم بيانه إن شاء الله تعالى . وولد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة ســنة، ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة ؛ وقيل: مائة وثلاثون . وكان سنّه لمــا مات أبوه إبراهيم عليهما الســلام تسعا وثمانين ســنة ؛ وهو الذبيح فى قول . وإسحاق أمّه سارة، وهو الذبيــح فى قول آخر، وهو الأصح، على ما يأتى بيــانه فى سورة والصّافات إن شاء الله . ومن ولده : الروم واليونان والأرمن ومن يجرى مجراهم وبنو إسرائيل . وعاش إسحاق مائة وثمانين ســنة ، ومات بالأرض المقدّسة ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام. ثم لمــا توفيت سارة تزوّج إبراهيم عليه السلام قنطورا بنت يقطن الكنعانية، فولدت له مدين ومداين ونهشان وزمران ونشيق وشيوخ[(١)] ، ثم توفّى عليه السلام، وكان بين وفاته وبين مولد النبى صلى الله عليه وسلم نحو من ألفى سنة وستمائة سنة؛ واليهود ينقصون من ذلك نحوا من أربعمائة سنة . وســيأتى ذكر أولاد يعقوب فى سورة يوسف إن شاء الله تعالى . وقرأ عمرو بن فائد الأسوارى وإســماعيل ابن عبــد الله المكى : ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ بالنصب عطفا على بنيــه ؛ فيكون يعقوب داخلا فيمن أوصى . قال القشيرى : وقرئ ﴿ يَعْقُوبَ ﴾ بالنصب عطفا على بنيه وهو بعيد؛ لأن يعقوب لم يكن فيما بين أولاد ابراهيم لمّــا وصّاهم ، ولم ينقل أن يعقوب أدرك جدّه إبراهيم، وإنمــا ولد بعد موت إبراهيم ، وأن يعقوب أوصى بنيه أيضا كما فعل إبراهيم .

(١) كذا وردت هذه الأسماء بنسخ الأصــل . والذى فى كتاب الرســل والملوك لابن جرير الطبرى قسم أوّل ص ٣٤٥ طبع أوربا : « بقسان، وزمران، ومديان، ويسبق، وسوح، وبسر » . وفى تاريخ ابن الأثير : « نفشان ومران، ومديان، ومدن، ونشق، وسرح » .

قال الكلبي : لما دخل يعقوب الى مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران والبقر، فجمع ولده وخاف عليهم وقال : ما تعبدون من بعدى ؟

ويقال : إنما سمي يعقوب؛ لأنه كان هو والعيص توءمين، فخرج من بطن أمه آخذا بعقب أخيه العيص . وفى ذلك نظر؛ لأن هذا اشتقاق عربىّ، ويعقوب اسم أعجمى، وإن كان قد وافق العربية فى التسمية به كذَكَر الحَجَل (١) . عاش عليه السلام مائة وسبعا وأربعين سنة ومات بمصر، وأوصى أن يحمل الى الأرض المقدّسة، ويدفن عند أبيه إسحاق؛ فحمله يوسف ودفنه عنده .

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ معناه أن يا بنىّ ؛ وكذلك هو فى قراءة أبىّ وابن مسعود والضحاك . قال الفراء : ألغيت أنْ لأن التوصية كالقول ، وكل كلام يرجع الى القول جاز فيه دخول أن وجاز فيه إلغاؤها . قال : وقول النحويين إنما أراد أن فألغيت ليس بشيء . النحاس : يا بنى ، نداء مضاف، وهذه ياء النفس لا يجوز هنا إلا فتحها؛ لأنها لو سكنت لالتقى ساكنان؛ ومثله بمُصْرِخِىّ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ كسرت إن لأن أوصى وقال واحد . وقيل : على إضمار القول . ﴿ ٱصْطَفَى ﴾ : اختار . قال الراجز :

يابن ملوك ورّثوا الأملاكا * خلافة الله التى أعطاكا

* لك اصطفاها ولها اصطفاكا *

﴿ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أى الإسلام . والألف واللام فى الدين للعهد ؛ لأنهم قد كانوا عرفوه . ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ إيجاز بليغ . والمعنى : الزموا الإسلام ودوموا عليه ولا تفارقوه حتى تموتوا ؛ فأتى بلفظ موجز يتضمن المقصود، ويتضمن وعظا وتذكيرا بالموت ؛ وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدرى متى؛ فاذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه، فقد توجه الخطاب من وقت الأمر دائبا لازما . ولا نهى . تموتن فى موضع جزم بالنهى، أكد

(١) الحجل (بالتحريك) : طائر على قدر الحمام كالقطا، أحمر المنقار والرجلين ، ويسمى دجاج البر . ويسمى الذكر منه يعقوب وجمعه يعاقب ويعاقيب .

بالنون الثقيلة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين . إلا وأنتم مسلمون، ابتداء وخبر فى موضع الحال، أى محسنون بربكم الظنّ، وقيل : مخلصون، وقيل : مفوّضون، وقيل : مؤمنون .

قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ . شهداء خبر كان، ولم تصرف لأن فيها ألف التأنيث؛ ودخلت لتأنيث الجماعة كما تدخل الهاء . والخطاب لليهود والنصارى الذين يَنْسُبُونَ الى إبراهيم مالم يوص به بنيه، وأنهم على اليهودية والنصرانية؛ فردّ الله عليهم قولهم وكذّبهم، وقال لهم على جهة التوبيخ : أشهدتم يعقوب وعلمتم بمـا أوصى فتدّعون عن علم! أى لم تشهدوا، بل أنتم تفـترون . وأم بمعنى بل أى بل أشَهِد أسـلافكم يعقوب . والعامل فى إذ الأولى معنى الشهادة، وإذ الثانية بدل من الأولى . وشهداء جمع شاهد أى حاضر . ومعنى حضر يعقوب الموت أى مقدّماته وأسـبابه؛ وإلا فلو حضر الموت لمـا أمكن أن يقول شـيئا . وعبّر عن المعبود بمـا ولم يقل من؛ لأنه أراد أن يختبرهم؛ ولو قال من، لكان مقصوده أن ينظر من لهم الاهتداء منهـم؛ وإنمـا أراد تجربتهـم فقال ما . وأيضا فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة؛ فاستفهم عما يعبدون من هذه . ومعنى ﴿مِنْ بَعْدِى﴾ أى من بعد موتى . وحكى أن يعقوب حين خيّر كما تخيّر الأنبياء اختار الموت وقال : أمهلونى حتى أوصى بنىّ وأهلى؛ فجمعهم وقال لهم هـذا، فاهتدوا وقالوا : ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ الآية، فأروه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم بالله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ فى موضـع خفض على البدل، ولم تنصرف لأنهـا أعجمية . قال الكسائى : وإن شئت صرفت إسحاق وجعلته من السحق، وصرفت يعقوب وجعلته من الطير . وسمّى الله كل واحد من العمّ والجدّ أبًا، وبدأ بذكر الجدّ ثم إسماعيل العم لأنه أكبر من إسحاق . و﴿إِلَٰهًا﴾ بدل من إلهك بدل النكرة من المعرفة؛ وكرّره لفائدة الصـفة بالوحدانية . وقيـل : إله حال . قال ابن عطية : وهو قول حسن؛ لأن الغرض إثبات حال الوحدانية . وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر والجحدرىّ وأبو رجاء العُطَارِدىّ : وإله أبيك . وفيه وجهان :

أحدهما — أن يكون أفرد وأراد إبراهيم وحده، وكره أن يجعل إسماعيل أباً لأنه عمّ .
قال النحاس : وهذا لا يجب ؛ لأن العرب تسمى العم أبا .

الثانى — على مذهب سيبويه أن يكون «أبيك» جمع سلامة . حكى سيبويه أب وأبون وأبين؛ كما قال الشاعر :

* فقلنا اسلموا إنا أخوكم (١) *

وقال آخر :

فلمّا تبيّنّ أصواتنا * بكَيْن وفدّيننا بالأبينا

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ابتداء وخبر؛ ويحتمل أن يكون فى موضع الحال، والعامل نعبد .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ . تلك مبتدأ . وأمة خبره . وقد خلت نعت لأمة، وإن شئت كان خبر المبتدأ، وتكون أمة بدلا من تلك . ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ . ما فى موضع رفع بالابتداء أو بالصفة على قول الكوفيين . ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ مثله . يريد من خير وشر . وفى هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب ؛ وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك إن كان خيرا فبفضله ، وإن كان شرا فبعدله ؛ وهذا مذهب أهل السنة ؛ والآى فى القرآن بهذا المعنى كثيرة . فالعبد مكتسب لأفعاله ، على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلا؛ وذلك التمكن هو مناط التكليف . وقالت الجبرية بنفى اكتساب العبد ، وإنه كالنبات الذى تصرّفه الرياح . وقالت القدرية والمعتزلة خلاف هذين القولين، وإن العبد يخلق أفعاله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أى لا تحمل حاملة ثقل أخرى ؛ وسيأتى .

---

(١) الشاهد فيه أخوكم، فانه جمع أخ، ليصح الاخبار به عن ضمير الجمع . وتمام البيت :

* فقد سلمت من الإحن الصدور *

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَـدُوا ﴾ . دعت كل فرقة الى ما هى عليه، فردّ الله تعالى ذلك عليهم فقال : ﴿ بَلْ مِلَّةَ ﴾ أى قـل يا محمد : بل نتبع ملة ؛ فلهـذا نصب الملة، وقيـل : المعنى بل نهتدى بملة إبراهيم ؛ فلما حذف حرف الجر صار منصوبا . وقرأ الأعرج وابن أبى عَبْلة : ﴿ بَلْ مِلَّةُ ﴾ بالرفع ؛ والتقـدير بل الهدى مـلة، أو ملتنا دين إبراهيم . وحنيفا مائلا عن الأديان المكروهة الى الحـق دينِ إبراهيم؛ وهو فى موضـع نصب على الحال ؛ قاله الزجاج . أى بل نتبع ملة إبراهيم فى هذه الحالة . وقال على بن سليمان : هو منصوب على أعنى، والحال خطأ، لا يجوز جاءنى غلام هند مسرعة . وسمّى إبراهيم حنيفا ؛ لأنه حَنِف الى دين الله وهو الإسلام . والحَنَف الميل؛ ومنه رِجْلٌ حَنْفاء، ورَجُلٌ أحنف، وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها . قالت أم الأحنف :

والله لو لا حَنَفٌ برِجْـــلِه * ما كان فى فِتْيانكم من مِثْـلِه

وقال الشاعر :

إذا حوّل الظّل العشىّ رأيتــه حنيفا وفى قَرْن الضحى ينتصّر

أى الحـرباء تستقبل القبـلة بالعشى، والمشرق بالغداة وهو قبـلة النصارى . وقال قـوم : الحنف الاستقامة؛ فسمى دينُ إبراهيم حنيفا لاستقامته . وسمى المعوج الرجلين أحنف تفاؤلا بالاستقامة؛ كما قيل للّديغ سليم، وللمهلكة مفازة فى قول أكثرهم .

قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ . خرّج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ الآية" . وقال محمد بن سيرين : إذا قيل لك: أنت مؤمن ؟ فقل : ﴿ آمَنَّـا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَـا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيـلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ الآية . وكره أكثر السلف أن يقـول الرجل : أنا مؤمن حقا ؛ وسيأتى بيانه فى الأنفال إن شاء الله تعالى . وسئل بعض المتقدّمين عن رجل قيـل له : أتؤمن بفلان النبىّ فسمّاه باسم لم يعـرفه ؛ فلو قال : نعم فلعـله لم يكن

نبيا فقد شهد بالنبوة لغـير نبيّ، ولو قال لا، فلعله نبيّ فقـد جحد نبيا من الأنبياء؛ فكيف يصنع ؟ فقال : ينبغي أن يقول : إن كان نبيا فقد آمنت به . والخطاب في هذه الآية لهذه الأمة علمهـم الإيمان . قال ابن عبـاس : جاء نفر من اليهود الى النبيّ صلى الله عليـه وسلم فسألوه عمّن يؤمن به من الأنبياء، فنزلت الآية . فلما جاء ذكر عيسى قالوا : لا نؤمن بعيسى ولا من آمن به .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيـلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْـبَاطِ ﴾ . جمع إبراهيم بَرَاهِيم . وإسماعيـل سَمَاعِيل ، قاله الخليـل وسيبويه ، وقاله الكوفيون وحكوا بَرَاهِمة وسَمَاعِلة، وحكوا بَرَاهِم وسَمَاعِل . قال محمد بن يزيد : هـذا غلط ؛ لأن الهمزة ليس هذا موضع زيادتها، ولكن أقول : أَبَارِه وأَسَامِع، ويجوز أَبَارِيه وأَسَامِيع . وأجاز أحمد بن يحيي بَرَاه كما يقال في التصغير بُرَيْه . وجمع إسحاق أساحيق، وحكى الكوفيون أساحقة وأساحق؛ وكذا يعقوب ويعاقيب، ويعاقبة ويعاقب. قال النحاس : فأمّا إسرائيل فلا نعلم أحدا يجـيز حذف الهمزة من أوله ، وإنمـا يقال أَسَارِيل، وحكى الكوفيون أسارلة وأَسَارِل . والباب في هـذا كله أن يجمـع مسلّما فيقال إبراهيمون وإسحاقون ويعقـوبون، والمسلم لا عمل فيه .

والأسـباط ولد يعقوب عليه السلام وهم اثنا عشر ولدا ، وُلِد لكل واحد منهم أمّة من الناس، واحدهم سِبْط. والسِّبْط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل. وسُمّوا الأسباط من السَّبْط وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون . وقيل : أصله من السَّبَط (بالتحريك) وهو الشجر، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سَبَطة . قال أبو إسحاق الزجاج : ويُبَيِّن لك هذا ما حدّثنا به محمد بن جعفر الأنباري قال حدّثنا أبو نُجَيد (١) الدقّاق قال حدّثنا الأسود بن عامر قال حدّثنا إسرائيل عن سِمَاك عن عِكْرِمة عن ابن عباس قال : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرةً : نوحا وشعيبا وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدا

(١) كذا ورد في نسخة من الأصل وتفسير ابن كثير في هذا الموضع . وفي سائر الأصول : «أبو عبيد» بالميم .

صلى الله عليه وسلم . ولم يكن أحد له اسمان إلا عيسى و يعقوب . والسِّبْط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد . وشعر سَبْط وسَبِط غير جَعْد . ﴿ لَا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُـمْ ﴾ قال الفرّاء : أى لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَـدَوْا ﴾ الخطاب لمحمد صـلى الله عليـه وسلم وأمته . المعنى : فإن آمنوا مثل إيمـانكم وصدّقوا مثل تصديقكم فقد ٱهتـدوا ؛ فالممـاثلة وقعت بين الإيمانين، وقيل[1] : إن الباء زائدة مؤكدة . وكان ٱبن عباس يقرأ فيما حكى الطبرى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَـدَوْا ﴾ وهـذا هو معنى القـراءة وإن خالف المصحف ؛ فمثـل زائدة كما هى فى قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْـلِهِ شَيْءٌ ﴾ أى ليس كهو شيء . قال الشاعر :

* فصُيِّروا مثل كعصف مأكول *

وروى بَقِيّة حدّثنا شعبة عن أبى حمزة عن ٱبن عباس قال : لا تقولوا فإن آمنوا بمثـل ما آمنتم به فإن الله ليس له مثـل ، ولكن قولوا : بالذى آمنتم به . تابعـه علىّ بن نصر الجَهْضَمِىّ عن شعبة، ذكره البيهق . والمعنى أى فإن آمنوا بنبيّكم و بعامة الأنبيـاء ولم يفرّقوا بينهـم كما لم تفرّقوا فقد ٱهتـدوا ، وإن أبوا إلا التفريق فهم النا كبون عن الدّين[2] الى الشقاق فسيكفيكهم الله . وحُكى عن جماعة من أهل النظر قالوا : ويحتمل أن تكون الكاف فى قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ زائدة . قال : والذى روى عن ٱبن عباس من نهيه عن القراءة العـامّة شيء ذهب إليه للمبـالغة فى نفى التشبيه عن الله عز وجل . وقال ٱبن عطية : هـذا من ٱبن عباس على جهة التفسير أى هكذا فليتأوّل . وقد قيل : إن الباء بمعنى على، والمعنى : فإن آمنوا على مثل إيمانكم . وقيل : «مثل» على بابها أى بمثل المنزل؛ دليله قوله :﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ .

---

(١) هذه الجملة من تمـام القول الأول وليست قولا آخر كما يتبادر من السياق .

(٢) فى نسخة من الأصل : «عن النبيين» . وفى أخرى : «عن التدين» .

قوله تعالى : ﴿ وَ إِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : الشِّقاق المنازعة، وقيل : الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادى . وأصله من الشِّقّ وهو الجانب، فكأنّ كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه . قال الشاعر :

الى كم يقتل العلماء قسرا ويفجر بالشقاق و بالنفاق(١)

وقال آخر :

و إلّا فاعلموا أنّا وأنتم بُغاةٌ ما بقينا فى شِقاقِ

وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يَشُقّ و يصعُب؛ فكأن كل واحد من الفريقين يحرِص على ما يشق على صاحبه .

قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى فسيكفى اللهُ رسولَه عدوَّه؛ فكان هذا وعدا من الله تعالى لنبيه عليه السلام أنه سيكفيه من عانده ومن خالفه من المتولين بمن يهديه من المؤمنين، فأنجز له الوعد، وكان ذلك فى قتل بنى قَيْنقاع و بنى قُرَيظة و إجلاء بنى النَّضير . فالكاف، والهاء والميم فى موضع نصب مفعولان . ويجوز فى غير القرآن : فسيكفيك إيّاهم . وهذا الحرف (فسيكفيكهم الله) هو الذى وقع عليه دَمُ عثمان حين قُتل بإخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاه بذلك . والسميع لقول كل قائل . العليم بما يُنفذه فى عباده ويُجريه عليهم . وحكى أن أبا دُلَامة دخل الى المنصور وعليه قلنسوة طويلة، ودُرّاعة(٢) مكتوب بين كتفيها ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، وسيفٌ معلق فى وسطه، وكان المنصور قد أمر الجند بهذا الزِّى، فقال له : كيف حالك يا أبا دلامة ؟ قال : بشرٍّ يا أمير المؤمنين؛ قال : وكيف ذاك؟ قال : ما ظنّك برجل وجهُه فى وسطه، وسيفه فى آسته، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فضحك المنصور منه وأمر بتغيير ذلك الزِّى من وقته .

قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ فيه مسئلتان :

---

(١) فى نسخة من الأصل : « ... تقتل ... وتفجر ... » بالتاء .

(٢) الدرّاعة والمدرع : جبة مشقوقة المقدم .

الأولى — قوله تعالى : ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ قال الأخفش وغيره : دين الله؛ وهو بدل من ملة. وقال الكسائى : هى منصوبة على تقـدير اتبعوا أو على الإغراء أى الزموا ؛ ولو قرئت بالرفع لجاز، أى هى صبغة الله . وروى شـيبان عن قتادة قال : إن اليهود تصبغ أبنـاءهم يهودا، وإن النصارى تصبغ أبناءهم نصارى، وإن صبغة الله الإسلام؛ قال الزجاج : ويدلّك على هذا أن صبغة بدل من ملة . وقال مجاهد : أى فطرة الله التى فطر الناس عليها . قال أبو إسحاق الزجاج : وقول مجاهد هذا يرجع إلى الإسلام؛ لأن الفطرة ابتـداء الخلق، وابتداء ما خُلقوا عليه الإسلام . وروى عن مجاهد والحسن وأبى العالية وقتادة : الصبغة الدِّين . وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى المـاء، وهو الذى يسـمونه المعمودية، ويقولون : هذا تطهير لهم . قال ابن عباس : هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسـوه فى ماء لهم يقال له : ماء المعمودية، فصبغوه بذلك ليطهّروه به مكان الختان؛ لأن الختان تطهير، فإذا فعلوا ذلك قالوا : الآن صار نصرانيا حقّا، فردّ الله تعالى ذلك عليهم بأن قال : ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أى صبغة الله أحسن صبغة وهى الإسـلام؛ فسمّى الدِّين صبغة اسـتعارة ومجازا من حيث تظهر أعمـاله وسِمَته على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب . وقال بعض شعراء ملوك هَمْدان :

وكل أناسٍ لهم صـبغةٌ … وصبغةُ همدانَ خيرُ الصِّبَغ
صـبغنا على ذاك أبنـاءنا … فأكرِمْ بصبغتنا فى الصِّبَغ

وقيل: إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول فى الإسلام، بدلا من معمودية النصارى؛ ذكره المـاوردى .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون غُسل الكافر واجبا تعبّدا، وهى : المسألة الثانية؛ لأن معنى صبغة الله غُسل الله، أى اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذى أوجبه الله عليكم . وبهـذا المعنى جاءت السـنة الثابتة فى قيس بن عاصم وثُمَـامة بن أُثَال حين أسلما . روى أبو حاتم البُسْتى فى صحيح مسـنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن ثمـامة الحنفى[1] أُسر فمرّ به النبى

(١) ثمامة الحنفى، هو ثمامة بن أثال .

صلى الله عليــه وسلم يوما فأسلم ؛ فبعث به الى حائط[1] أبي طلحة فأمره أن يغتســل فاغتسل وصلى ركعتين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "حسن إســلام صاحبكم" . وخرّج أيضا عن قيس بن عاصم أنه أسـلم ، فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بماء وسِدْر . وذكره النَّسائى وصححه أبو محمد عبد الحق . وقيل : إن القربة الى الله تعالى يقال لها صبغة ؛ حكاه ابن فارس فى المجمَل . وقال الجوهرى : صبغة الله دينــه . وقيل : إن الصبغة الختان ، اختتن إبراهيم فجرت الصــبغة على الختان بصبغهم الغلمــان فى المــاء ؛ قاله الفرّاء . ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾ الآية . قال الحسن : كانت المحاجّة أن قالوا : نحن أولى بالله منكم ؛ لأننا أبناء الله وأحبّاؤه ؛ وقيل : لتقدّم آبائنا وكتبنا ، ولأنّا لم نعبــد الأوثان . فمعنى الآية : قل لهم يا محمد ، أى قل لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهــم أبناء الله وأحبــاؤه وادّعوا أنهــم أولى بالله منكم لقــدم آبائهــم وكتبهم : أتحاجوننــا ، أى أتجادلوننا الحجّــة على دعواكم والربّ واحد ، وكلٌّ مجازًى بعمله ، فأى تأثير لقدم الدِّين . ومعنى « فى الله » أى فى دينه أو القرب منه والحظوة له[2] . وقراءة الجمــاعة : ﴿ أَتُحَاجُّونَنَا ﴾ . وجاز اجتماع حرفين مثلين من جنس واحد متحــركين ؛ لأن الثــانى كالمنفصــل . وقرأ ابن مُحَيْصن ﴿ أَتُحَاجُّونَّا ﴾ بالإدغام لاجتماع المثلين ؛ قال النحاس : وهذا جائز إلا أنه مخالف للسواد . ويجوز « أتحاجُّونِ » بحذف النون الثانية ، كما قرأ نافع : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ ﴾ .

قوله تعــالى : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ أى مخلصون العبادة ؛ وفيــه معنى التوبيخ ، أى ولم تُخلصــوا أنتم فكيف تدّعون ما نحن أولى به منكم . والإخلاص حقيقتــه تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين . قال صــلى الله عليه وسلم : "إن الله تعــالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى يأيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرَّحم فإنهــا للرحم وليس لله منها شىء ولا تقولوا هذا لله

(١) الحائط : البستان من النخل اذا كان عليه جدار . (٢) كذا فى الأصول . ولعل صوابه : « والحظوة عنده » .

ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء" . رواه الضحّاك بن قَيْس الفِهْرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكره؛ خرّجه الدّار قُطنى . وقال رُوَيْم : الإخلاص من العمل هو ألا يريد صاحبه عليــه عوضا فى الدارين ولاحظّا من الملكين . وقال الجُنَيــد : الإخلاص سرّ بين العبــد وبين الله لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفســده، ولا هوًى فيُميله . وذكر أبو القاسم القُشَــيْرىّ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سألت جبريل عن الإخلاص ما هو فقال سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو قال سرّ من سِرّى استودعته قلب من أحببته من عبادى " .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ بمعنى قالوا[(١)] . وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص ﴿ تَقُولُونَ ﴾ بالتــاء وهى قراءة حسنة؛ لأن الكلام متسق، كأن المعنى : أتحاجوننا فى الله أم تقولون إن الأنبياء كانوا على دينكم ؛ فهى أم المتصلة، وهى على قراءة من قرأ بالياء منقطعة؛ فيكون كلامين وتكون أم بمعنى بل . ﴿ هُودًا ﴾ خبر كان، وخبر إنّ فى الجملة . ويجوز فى غير القرآن رفع هودا على خبر إن، وتكون كان ملغاة؛ ذكره النحاس .

قوله تعــالى : ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ تقرير وتوبيخ فى آدعائهــم أنهم كانوا هــودا أو نصارى؛ فردّ الله عليهم بأنه أعلم بهم منكم، أى لم يكونوا هودا ولا نصارى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ لفظه الاستفهام، والمعنى: لا أحد أظلم . ﴿ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً ﴾ يريد علمهم بأن الأنبياء كانوا على الإسلام ؛ وقيل : ما كتموه من صفة محمد صلى الله عليــه وسلم؛ قاله قتادة؛ والأول أشبه بسياق الآية . ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وعيــد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سُــدًى وأنه يجازيهــم على أعمالهم . والغافل الذى لا يفطن للأمور إهمالا منه؛ مأخوذ من الأرض الغُفْــل وهى التى لا عَلَم بهــا ولا أثرَ عمــارة ، وناقة غُفُــل لا سِمَــة بهــا ، ورجل غُفُــل لم يجرب الأمور . وقال الكسائى : أرض غُفُــل لم تمطــر . غَفَلت عن الشيء غَفْلة وغُفولا ، وأغفلت عن الشيء : تركته على ذُكر منك .

---

(١) هذا على القول بأن أم منقطعة .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ كررها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ، فوجب التأكيد فلذلك كررها .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ . فيه إحدى عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ ﴾ أعلم الله تعالى أنهم سيقولون في تحويل المؤمنين من الشام الى الكعبة ما ولّاهم . وسيقول بمعنى قال ، جعل المستقبل موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخصّ بقوله : ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لأن السّفه يكون في جمادات وحيوانات . والمراد من السفهاء جميع من قال ما ولّاهم . والسفهاء جمع ، واحده سفيه ، وهو الخفيف العقل ، من قولهم : ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج ، وقد تقدّم . والنساء سفائه . وقال المؤرّج : السفيه البهّات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم . قطرب : الظلوم الجهول . والمراد بالسفهاء هنا اليهود الذين بالمدينة ، قاله مجاهد . السُّدِّي : المنافقون . الزجاج : كفار قريش لما أنكروا تحويل القبلة قالوا : قد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم . وقالت اليهود : قد التبس عليه أمره وتحيّر . وقال المنافقون : ما ولّاهم عن قبلتهم ! واستهزءوا بالمسلمين . و ولّاهم يعني عدلهم وصرفهم .

الثانية — روى الأئمة واللفظ لمالك عن ابن عمر قال : بينما الناس بقُبَاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلةَ قرآن ، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ؛ وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وخرّج البخاري عن البَرَاء أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان يُعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت ، وأنه صلى أوّل صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم ؛ فخرج رجل ممن كان صلّى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله ، لقد صلّيت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم قِبَل مكة ؛ فداروا

كما هم قِبَل البيت؛ وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحول قِبَـل البيت رجالٌ قُتلوا لم ندر ما نقول فيهم؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ . ففى هـذه الرواية صلاة العصر، وفى رواية مالك صلاة الصبح . وقيل : نزل ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سَلِمة وهو فى صلاة الظهر بعـد ركعتين منها فتحول فى الصلاة؛ فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين . وذكر أبو الفرج أنّ عَبّاد بن نَهِيك كان مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هـذه الصلاة . وذكر أبو عمر فى التمهيـد عن نويلة[(١)] بنت أسـلم وكانت من المبايعات؛ قالت : كنا فى صلاة الظهر فأقبل عبّاد بن بشر بن قَيْظِىّ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قد استقبل القبلة — أو قال : البيت الحرام — فتحوّل الرجال مكان النساء، وتحوّل النساء مكان الرجال . وقيـل : إنّ الآية نزلت فى غير صلاة، وهو الأكثر. وكان أوّل صلاة إلى الكعبة العصر والله أعلم . وروى أنّ أوّل من صـلّى إلى الكعبة حين صُرفت القبلة عن بيت المقدس أبو سعيد بن المُعَلَّى؛ وذلك أنه كان مجتازا على المسجد، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بتحويل القبـلة على المنبر وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ حتى فرغ من الآية؛ فقلت لصاحبى : تعال نركع ركعتين قبـل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أوّل من صلّى فتوارينا بِعَاد فصليناهما؛ ثم نزل رسول الله صـلى الله عليه وسلم فصلّى بالناس الظهر يومئذ . قال أبو عمر : ليس لأبى سعيد بن المعلّى غير هـذا الحديث وحديث « كنت أصلى » فى فضل الفاتحة؛ خرّجه البخارى، وقد تقدّم .

الثالثـة — واختلف فى وقت تحويل القبلة بعد قدومه المدينة؛ فقيل : حولت بعـد ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا كما فى البخارى، وخرّجه الدّارقطنى عن البَرَاء أيضا، قال : صلّينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا نحو بيت المقدس، ثم علم الله هوى نبيّه فنزلت : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية . ففى هـذه الرواية

(١) فى كتاب الاستيعاب والقاموس : « نولة » بالنون؛ وقال صاحب القاموس : « أو هى بجهية » . وقد ذكرت فى كتاب الإصابة مصغرة فى حرف التاء والنون، وهى بالنون رواية اسحاق بن ادريس عن جعفر بن محمود، وبالتاء رواية ابراهيم بن حمزة؛ قال صاحب الإصابة : « وهى أوثق » .

ستة عشر شهرا من غير شك . وروى مالك عن يحيي بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أن تحويلها كان قبل بَدْرٍ بشهرين؛ قال إبراهيم بن إسحاق : وذلك في رجب من سنة اثنتين. وقال أبو حاتم البُسْتي : صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام سواء؛ وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل ، وامره الله عزّ وجلّ باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان .

الرابعة — واختلف العلماء أيضا في كيفية استقباله بيت المقدس على ثلاثة أقوال؛ فقال الحسن : كان ذلك منه عن رأى واجتهاد، وقاله(١) عِكْرمة وأبو العالية . الثاني — أنه كان مخيّرا بينه وبين الكعبة ، فاختار القدس طمعا في إيمان اليهود واستمالتهم ؛ قاله الطبري . وقال الزجاج : امتحانا للشركين لإنهم ألفوا الكعبة . الثالث — وهو الذى عليه الجمهور : ابن عباس وغيره ، وجب عليه استقباله بأمر الله تعالى ووحيه لا محالة، ثم نسخ الله ذلك وأمره الله أن يستقبل بصلاته الكعبة . واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ .

الخامسة — واختلفوا أيضا حين فرضت عليه الصلاة أولا بمكة : هل كانت إلى بيت المقدس أو إلى مكة، على قولين ؛ فقالت طائفة : إلى بيت المقدس وبالمدينة سبعة عشر شهرا، ثم صرفه الله تعالى إلى الكعبة؛ قاله ابن عباس . وقال آخرون : أول ما افترضت الصلاة عليه إلى الكعبة، ولم يزل يصلى إليها طول مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل؛ فلما قدم المدينة صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا على الخلاف، ثم صرفه الله إلى الكعبة . قال أبو عمر : وهذا أصح القولين عندى . قال غيره : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا قدم المدينة أراد أن يستألف اليهود فتوجّه [الى] قبلتهم ليكون ذلك أدعى لهم؛ فلما تبيّن عنادهم وأيس منهم أحب أن يحوّل الى الكعبة فكان ينظر الى السماء، وكانت محبته إلى الكعبة لأنها قبلة ابراهيم؛ عن ابن عباس ، وقيل : لأنها كانت

(١) في الأصول : « وقال » .

أدعى للعرب الى الاسلام ، وقيـل : مخالفة لليهود ؛ عن مجاهد . وروى عن أبى العاليـة الرياحى أنه قال : كانت[1] مسجد صالح عليـه السلام وقبلته الى الكعبة . قال : وكان موسى عليه السلام يصلى الى الصخرة بحذاء الكعبة ، وهى قبلة الأنبياء كلهم عليهم السلام .

السادسة — فى هذه الآية دليل واضح على أن فى أحكام الله تعالى وكتابه ناسخا ومنسوخا ، وأجمعت عليه الأمة إلا من شـذ كما تقدم . وأجمع العلماء على أن القبـلة أول ما نُسخ من القرآن ، وأنها نسخت مرتين ، على أحد القوانين المذكورين فى المسئلة قبل .

السابعة — ودلّت أيضا على جواز نسخ السنّة بالقرآن ؛ وذلك أن النبى صلى الله عليـه وسلم صلّى نحو بيت المقدس ؛ وليس فى ذلك قرآن ، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة ثم نسخ ذلك بالقرآن . وعلى هذا يكون : ﴿ كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ بمعنى أنت عليها .

الثامنة — وفيها دليل على جواز القطع بخبر الواحد ؛ وذلك أن اسـتقبال بيت المقدس كان مقطوعا به من الشريعة عندهم ، ثم أن أهل قُباء لما أتاهم الآتى فأخبرهم أن القبلة قد حُولت الى المسجد الحرام ، قَبِلوا قوله واستداروا نحو الكعبة ، فتركوا المتواتر بخبر الواحد وهو مظنون .

وقد اختلفت العلماء فى جوازه عقلا ووقوعه ؛ فقال أبو حاتم : والمختار جواز ذلك عقلا لو تعبّد الشرع به ، ووقوعًا فى زمن رسول الله صلى الله عليـه وسلم بدليل قصة قباء ، وبدليل أنه كان عليـه السلام يُنفذ آحاد الوُلاة إلى الأطراف وكانوا يبلغون الناسخ والمنسوخ جميعا . ولكن ذلك ممنوع بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، بدليل الإجماع من الصحابة على أن القرآن والمتواتر المعلوم لا يرفع بخبر الواحد ، فلا ذاهب الى تجويزه من السلف والخلف . احتج من منع ذلك بأنه يفضى الى المحال وهو رفع المقطوع بالمظنون . وأما قصـة أهل قباء ووُلاة النبى

(١) العبارة هنا غير واضحة . وفى الطبرى (ج ٢ ص ٢١ طبع بولاق) : « ... قال الربيع : إن يهوديا خاصم أبا العالية فقال : إن موسى عليه السـلام كان يصلى الى صخرة بيت المقدس . فقال أبو العالية : كان يصلى عند الصخرة الى البيت الحرام . قال قال : فبينى وبينك مسجد صالح فانه نحته من الجبل ؛ قال أبو العاليـة : قد صليت فيه وقبلته الى البيت الحرام . قال الربيع : وأخبرنى أبو العالية أنه مرّ على مسجد ذى القرنين وقبلته الى الكعبة » .

صلى الله عليــه وسلم فمحمول على قرائن إفادة العلم إمّا نقلا وتحقيقا ، وإمّا احتمالا وتقـديرا . وتتميم هذا سؤالا وجوابا فى أصول الفقه .

التاسعة — وفيها دليـل على أنّ من لم يبلغـه الناسخ إنه متعبّد بالحكم الأول ، خلافا لمن قال : إن الحكم الأول يرتفع بوجود الناسخ لا بالعلـم به ، والأول أصح ؛ لأن أهل قُباءلم يزالوا يصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتى فأخبرهم بالناسخ فمـالوا نحو الكعبة . فالناسخ إذا حصل فى الوجود فهو رافع لا محالة لكن بشرط العلم به ؛ لأن الناسخ خطاب ، ولا يكون خطابا فى حق من لم يبلغه . وفائدة هـذا الخلاف فى عبادات فُعلت بعد النسخ وقبـل البلاغ هل تعاد أم لا ؛ وعليه تنبني مسـئلة الوكيل فى تصرّفه بعد عزل موكله أو موته وقبل علمه بذلك على قولين . وكذلك المقارض (١) ، والحاكم إذا مات من ولّاه أو عزل . والصحيح أن ما فعله كل واحد من هؤلاء ينفـذ فعـله ولا يرد حكمه . قال القـاضى عياض : ولم يختلف المذهب فى أحكام من أُعتق ولم يعلم بعتقه أنهـا أحكام حُرّ فيما بينه و بين الناس ، وأما بينه و بين الله تعالى فجائزة . ولم يختلفوا فى المعتقة أنها لا تعيد ما صلّت بعـد عتقها وقبل علمها بغير سـتر ، وإنمـا اختلفوا فيمن يطرأ عليه مُوجِبٌ يغيّر حكم عبادته وهو فيها قياسًا على مسئلة قباء ؛ فمن صلّى على حال ثم تغيّرت به حاله تلك قبل أن يتم صلاته إنه يتمها ولا يقطعهاويُجزيه مامضى ؛ وذلك كمن صلّى عُريانا ثم وجد ثوبا فى الصلاة ، أو ابتدأ صلاته صحيحا فمرض ، أو مريضا فصَحّ ، أو قاعدا ثم قدر على القيام ، أو أَمَةً عتقت وهى فى الصلاة إنهـا تأخذ قناعها وتبنى .

قلت : وكمن دخل فى الصلاة بالتيمّم فطرأ عليه المـاء إنه لا يقطع ، كما يقوله مالك والشافعى — رحمهما الله تعالى — وغيرهما . وقيل : يقطع ؛ وهو قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى وسيأتى .

العـاشرة — وفيها دليل على قبول خبر الواحد ، وهو مجمع عليه من السلف معلوم بالتواتر من عادة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى توجيهه وُلاته ورسلَه آحادًا للآفاق ؛ ليعلّموا الناس دينهم فيبلغوهم سنّة رسولهم صلّى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى .

(١) القراض عند المالكية هو ما يسمى بالمضاربة عند الحنفية . وهو إعطاء المقارض (بكسر الراء وهو رب المال) المقارض (بفتح الراء وهو العامل) مالا ليتجر به على أن يكون له جزء معلوم من الربح .

الحادية عشرة — وفيها دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا بعد شيء وفى حال بعـد حال ، على حسب الحاجة إليه ، حتى أكمل الله دينــه كما قال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أقامه حجة ، أى له ملك المشارق والمغارب وما بينهما ، فله أن يأمر بالتوجّه الى أى جهة شاء ، وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ يَهْـدِى مَن يَشَآءُ ﴾ إشارة الى هداية الله تعالى هـذه الأمة الى قبـلة إبراهيم ، والله تعالى أعلم . والصراط : الطريق . والمستقيم : الذى لا اعوجاج فيه ، وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّـاسِ ﴾ الآية . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسـطا ، أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم . والوســط : العدل . وأصل هـذا أن أحمد الأشياء أوسطها . روى الترمذى عن أبى سعيد الخُدْرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال : "عدلا" . قال : هـذا حديث حسن صحيح . وفى التنزيل : ﴿ قَالَ أَوْسَـطُهُمْ ﴾ أى أعدلهم وخيرهم . وقال زهير :

هُمُ وَسَطٌ يرضى الأنام بحكمهم * إذا نزلت إحدى الليالى بِمُعْظَمِ

آخـــر :

أنتمُ أوســطُ حىّ علمـــوا * بصغير الأمر أو إحدى الكُبَر

وقال آخر :

لا تذهبنّ فى الأمـــور فَرَطا * لا تسـألَنّ إن سألت شَـطَطا

* وكن من الناس جميعًا وسَـطا *

ووســط الوادى خير موضع فيــه وأكثره كَلأً وماء . ولمّـا كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير كان محمودا أى هــذه الأمة لم تغل غلو النصارى فى أنبيائهــم ، ولا قصّروا تقصــير اليهود فى أنبيائهم . وفى الحديث : "خير الأمور أوسطها" . وفيه عن علىّ رضى الله عنه : «عليكم[1] بالنّمط الأوسط ، فإليه ينزل العالى ، واليه يرتفع النازل» . وفلان من أوسط قومه ، و إنه لواسطة قومه ، ووســطُ قومه ، أى من خيارهم وأهل الحسب منهم . وقد وَسَــط وَساطةً وسِطَةً ، وليس من الوسَط الذى بين شيئين فى شيء . والوَسْط (بسكون الســين) الظَّرف؛ تقول : صليت وَسْط القوم ، وجلست وسْط القوم ؛ وجلست وسَط الدار (بالتحريك) لأنه اسم . قال الجوهرى : وكل موضع صلح فيه "بَيْنَ" فهو وَسْط ، و إن لم يصلح فيه "بين" فهو وَسط بالتحريك ، و ربما يسكن وليس بالوجه .

الثـانية ــ قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا ﴾ نصب بلام كى ، أى لأن تكونوا . ﴿ شُهَدَآءَ ﴾ خبر كان . ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أى فى الحشر للأنبيـاء على أممهم ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخُــدرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "يُدْعَى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لَبّيك وسَعْدَيْك يا رب فيقول هل بلّغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلّغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ و يكون ٱلرسول عَلَيْكُمْ شَهِيــدًا فذلك قوله عز وجل وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّـاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..." . وذكر هذا الحــديث مطوّلا ابن المبارك بمعناه ، وفيه : "فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا مَن لم يدركنا فيقول لهم الربّ سبحانه كيف تشهدون على من لم تدركوا فيقولون ربنـا بعثت إلينا رسولا وأنزلت إلينا عهــدك وكتابك وقصصت علينا أنهــم قد بلّغوا فشهدنا بمـا عهــدت إلينا فيقول الربّ صــدقوا فذلك قوله عز وجل وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا والوَسَط العَــدْل لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّـاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُــولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" . قال ابن أَنْعُم : فبلغنى أنه يشهد يومئــذ أمة محمد ، إلا من كان فى قلبــه

(١) فى اللسان مادة وسط : « خير الناس هذا النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، و يرجع اليهم الغالى » .

حَنَّـة على أخيـه . وقالت طائفـة : معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعـد الموت ؛ كما ثبت فى صحيح مسـلم عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال حين مرّت به جنازة فأُثنِيَ عليها خيرٌ فقـال : " وَجَبَتْ وجبت وجبت " . ثم مُرَّ عليـه بأخرى فأُثْنِيَ عليها شرٌّ فقـال : " وجبت وجبت وجبت " ؛ فقـال عمر : فِدًى لك أبى وأمى ! مُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليهـا خير فقلت : " وجبت وجبت وجبت " ومرّ بجنـازة فأثنى عليهـا شر فقلت : " وجبت وجبت وجبت " . فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " من أثنيتم عليـه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليـه شرا وجبت له النـار أنتم شهداء الله فى الأرض أنتم شهداء الله فى الأرض أنتم شهداء الله فى الأرض " . أخرجه البخارى بمعناه . وفى بعض طرقه فى غير الصحيحين وتلا : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ . وروى أَبَان ولَيْث عن شَهْر بن حَوْشَب عن عُبَادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أُعطيتُ أمتى ثلاثًا لم تعطَ إلا الأنبياءَ كان الله اذا بعث نبيًّا قال له ادعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة ادعونى أستجب لكم وكان الله اذا بعث النبيّ قال له ما جعـل عليك فى الدِّين من حرج وقال لهذه الأمة وما جعل عليكم فى الدِّين من حرج وكان الله اذا بعث النبيّ جعله شهيدا على قومه وجعل هـذه الأمة شهداء على الناس " . خرّجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول .

الثالثـة — قال علماؤنا : أنبأنا ربنا تبارك وتعالى فى كتابه بمـا أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العـدالة وتولية خطير الشهادة على جميع خلقـه ، فجعلنا أوّلًا مكانًا وان كنا آخرا زمانا ؛ كما قال عليه السلام : " نحن الآخرون الأوّلون " . وهذا دليـل على أنه لا يشهد إلا العدول ، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلا . وسيأتى بيان العدالة وحكمها فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعـة — وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به ؛ لأنهم اذا كانوا عدولا شهدوا على الناس ، فكل عصر شهيد على من بعده ؛ فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين ، وقول

التابعين على من بعدهم . وإذ جُعلت الأمة شهداء فقد وجب قبول قولهم؛ ولا معنى لقول من قال : أريد به جميع الأمة؛ لأنه حينئذ لا يثبت مجمع عليه الى قيام الساعة . وبيان هذا في كتب أصول الفقه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ قيل : معناه بأعمالكم يوم القيامة؛ وقيل : عليكم بمعنى لكم ، أى يشهد لكم بالإيمان؛ وقيل : أى يشهد عليكم بالتبليغ لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ قيل : المراد بالقبلة هنا القبلة الأولى؛ لقوله : ﴿ كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ . وقيل : الثانية ؛ فتكون الكاف زائدة ، أى أنت الآن عليها كما تقدّم ، وكما قال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أى أنتم ، فى قول بعضهم ، وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ قال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : معنى لنعلم لنرى . والعرب تضع العلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان العلم ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ بمعنى ألم تعلم . وقيل : المعنى إلا لتعلموا أننا نعلم ؛ فإن المنافقين كانوا فى شك من علم الله تعالى بالأشياء قبل كونها . وقيل : المعنى لنميّز أهل اليقين من أهل الشك ، حكاه ابن فُورَك ، وذكره الطبرى عن ابن عباس . وقيل : المعنى إلا ليعلم النبىّ وأتباعه ، وأخبر تعالى بذلك عن نفسه ، كما يقال : فعل الأمير كذا ، وإنما فعله أتباعه ؛ ذكره المهدوىّ وهو جيد . وقيل : معناه ليعلم محمد ؛ فأضاف علمه إلى نفسه تعالى تخصيصا وتفضيلا ، كما كنّى عن نفسه سبحانه فى قوله : "يابن آدم مَرِضتُ فلم تَعُدْنى" الحديث . والأول أظهر ، وأن معناه علم المعاينة الذى يوجب الجزاء ، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة ، علم ما يكون قبل أن يكون ، تختلف الأحوال على المعلومات وعلمه لا يختلف بل يتعلق بالكل تعلقا واحدا . وهكذا كل ما ورد فى الكتاب من هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ . ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ ﴾ وما أشبه . والآية جواب لقريش فى قولهم : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ وكانت قريش تألف الكعبة ، وأراد الله عزّ وجلّ أن يمتحنهم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول

ممن لا يتبعه . وقرأ الزهرىّ ﴿ إلَّا لِيُعْلَمَ ﴾ . فَمَنْ فى موضـع رفع على هـذه القراءة ؛ لأنهـا اسم ما لم يسم فاعله . وعلى قراءة الجمـاعة فى موضع نصب على المفعول . ﴿ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾ يعنى فيما أمر به من استقبال الكعبة . ﴿ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ يعنى ممن يرتدّ عن دينـه ؛ لأن القبلة لمـّا حوّلت ارتدّ من المسلمين قوم ونافق قوم؛ ولهذا قال : ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ أى تحويلها؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقَتَادة . وتقديره فى العربية وإن كانت التحويلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ ذهب الفـرّاء إلى أنّ إنْ واللام بمعنى ما وإلا ؛ والبصريون يقولون : هى إن الثقيلة خُفّفت . وقال الأخفش : أى وإن كانت القبلة أو التحويلة أو التولية لكبيرة . ﴿ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ أى خلق الهدى الذى هو الإيمان فى قلوبهم ؛ كما قال : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَـانَ ﴾ .

قـوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ اتفق العلماء على أنهـا نزلت فيمن مات وهو يصلّى إلى بيت المقدس؛ كما ثبت فى البخارىّ من حديث البَرَاء بن عازب على ما تقدّم . وخرّج الترمذى عن ابن عباس قال : لمـا وُجِّه النبي صلى الله عليـه وسلم إلى الكعبة قالوا : يا رسـول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يُصلّون الى بيت المقدس ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـانَكُمْ ﴾ الآية، قال : هذا حديث حسن صحيح . فسمّى الصـلاة إيمـانا لاشتمالها على نية وقول وعمل . وقال مالك : إنى لأذكر بهذه الآية قول المرجئة : إن الصـلاة ليست من الإيمـان . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـانَكُمْ ﴾ أى بالتوجه الى القبلة وتصديقكم لنبيكم؛ وعلى هذا معظم المسلمين والأصوليين . وروى ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم وأشهب عن مالك ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـانَكُمْ ﴾ قال : صـــلاتكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الرأفة أشدّ من الرحمة،وقال أبو عمرو بن العـلاء : الرأفـة أكثر من الرحمة ؛ والمعنى متقارب . وقد أتينا على لغته وأشـعاره ومعانيه

فى الكتاب « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » . فلينظر هناك . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « لَرَؤُفٌ » على وزن فَعُل، وهى لغة بنى أسد، ومنه قول الوليد بن عقبة :

وشرُّ الطالبين فلا تكنه يقاتل عمه الرؤفَ الرحيم

وحكى الكسائى أن لغة بنى أسد لَرَأْف، على فَعْل، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « لَرُوفٌ » مثقلا بغير همز، وكذلك سهّل كل همزة فى كتاب الله تعالى، ساكنة كانت أو متحركة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ الآية . قال العلماء : هذه الآية مقدمة فى النزول على قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ . ومعنى تقلب وجهك تحوّل وجهك الى السماء؛ قاله الطبرى . الزجاج : تقلب عينيك فى النظر الى السماء . والمعنى متقارب . قال السُّدّى : كان إذا صلى نحو بيت المقدس رفع رأسه الى السماء ينظر ما يؤمر به ، وكان يحب أن يصلى الى قِبَل الكعبة فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ . وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرا أو ستة عشر شهرا ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجّه نحو الكعبة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ . وقد تقدّم هذا المعنى والقول فيه، والحمد لله . وخص السماء بالذكر إذ هى مختصة بتعظيم ما أضيف اليها و يعود منها كالمطر والرحمة والوحى . ومعنى « ترضاها » تحبها .

قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ ﴾ أمر ﴿ وَجْهَكَ شَطْرَ ﴾ أى ناحية ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعنى الكعبة، ولا خلاف فى هذا . قيل : حيال البيت كله؛ عن ابن عباس . وقال ابن عمر : حيال الميزاب من الكعبة ؛ قاله ابن عطية . والميزاب هو قبلة المدينة وأهل الشام ، وهناك قبلة أهل الأندلس .

قلت : قد روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى " .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . الشطر له محامل : يكون الناحية والجهــة كما فى هــذه الآية، وهو ظرف مكان، كما تقول : تلقاءه وجهته . وانتصب الظرف لأنه فضلة بمنزلة المفعول [به][1]، وأيضا فإن الفعل واقع فيه . وقال داود بن أبى هنــد : إن فى حرف ابن مسعود «فولِّ وجهَك تلقاء المسجد الحرام» . وقال الشاعر :

أقــول لأمّ زِنْبـاعٍ أقيمى * صدور العِيس شَطْرَ بنى تميمِ

وقال آخر :

وقد أظلّكمُ من شطرِ ثغرِكمُ * هَــوْلٌ له ظُلَمٌ يغشاكم قطعا

وقال آخر :

ألَا مَنْ مُبلِــغٌ عمرًا رسولًا * وما تُغنِى الرسالةُ شطْرَ عمرو

وشَطْرُ الشىء نِصفُه، ومنه الحديث : « الطُّهور شَطْرُ الإيمــان » . ويكون من الأضداد، يقال : شطر الى كذا إذا أقبل نحوه، وشطر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنه . فأما الشاطر من الرجال فلأنه قد أخذ فى نحو غير الاستواء، وهو الذى أعيا أهله خُبْثاً، وقد شَطَر وشَطُر بالضم شطارةً فيهــما . وسـئل بعضهم عن الشاطر، فقال : هو من أخذ فى البعــد عما نهى الله عنــه .

الثالثــة ــ لاخلاف بين العلماء أن الكعبة قِبلة فى كل أُفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاةَ له، وعليه إعادةُ كل ماصلى؛ ذكره أبو عمر. وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها ؛ فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدلّ به على ناحيتها . ومن جلس فى المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة و ينظر اليها إيماناً واحتسابا؛ فإنه يُرْوَى أنّ النظر إلى الكعبة عبادة؛ قاله عطاء ومجاهد .

---

(١) التكلة من إعراب القرآن للنحاس (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ تفسير) .

الرابعــة — واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة؛ فمنهم من قال بالأوّل، قال ابن العربي : وهو ضعيف، لأنه تكليف لمـا لا يصل[1] إليه . ومنهم من قال بالجهة، وهو الصحيح لثلاثة أوجه، الأوّل — أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف . الثاني — أنه المأمور به في القرآن، لقوله تعــالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَـرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ ﴾ . الثالث — أن العلماء احتجوا بالصفّ الطويل الذي يعلم قطعا أنه أضعاف عرض البيت .

الخامسة — في هــذه الآية حجة واضحة لمـا ذهب إليه مالك ومن وافقه في أن المصـلّي حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده . وقال الثَّوريّ وأبو حنيفة والشافعيّ والحسن بن حيّ : يستحبّ أن يكون نظره الى موضـع سجوده . وقال شُرَيك القاضي : ينظر في القيام إلى موضع السجود، وفي الركوع إلى موضع قدميه، وفي السجود الى موضع أنفه، وفي القعود الى حجره . قال ابن العربي : إنما ينظر أمامه فانه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرأس وهو أشرف الأعضاء، وإن أقام رأسه وتكلّف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقّة عظيمة وحرج، وما جعل علينا في الدين من حرج؛ أمَا إنّ ذلك أفضل لمن قدر عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِـمْ ﴾ يعني تحويل الكعبة من بيت المقدس . فإن قيل : كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم ؟ قيل عنه جوابان : أحدهما — أنهم لمـا علموا من كتابهم أن محمدا نبيّ علموا أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا به . الثاني — أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم فصاروا عالمين بجواز القبلة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم معناه . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «تعملون» بالتاء على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد ولا يغفل عنها، وضمّنه الوعيد . وقرأ الباقون بالياء من تحت .

(١) كذا في كتاب الأحكام لابن العربي . وفي الأصول : « ما لا يوصل » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ لأنهم كفروا وقد تبيّنوا الحق وليس تنفعهم الآيات أى العلامات . وجمع قِبْلة فى التكسير قِبَلٌ ، وفى التسليم قِبِلَاتٌ ، ويجوز أن تبدل من الكسرة فتحة ، فتقول قِبَلات ، ويجوز أن تحذف الكسرة وتسكن الباء فتقول قِبْلات . وأجيبت «لئن» بجواب «لو» وهى ضدّها فى أنّ «لو» تطلب فى جوابها المضيّ والوقوع ، و«لئن» تطلب الاستقبال ؛ فقال الفراء والأخفش : أجيبت بجواب لو لأن المعنى : ولو أتيت . وكذلك تجاب لو بجواب لئن تقول : لو أحسنت أحسن اليك ؛ ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا ﴾ أى ولو أرسلنا ريحا . وخالفهما سيبويه فقال : إن معنى «لئن» مخالف لمعنى «لو» فلا يدخل واحد منهما على الآخر؛ فالمعنى : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية لا يتبعون قبلتك . قال سيبويه : ومعنى ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لَظَلُّوا ليظلّنّ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ لفظ خبر ويتضمن الأمر أى فلا تركن الى شىء من ذلك . ثم أخبر تعالى أنّ اليهود ليست متّبعةً قبلةَ النصارى ولا النصارى متبعةً قبلةَ اليهود؛ عن السُّدّى وابن زيد . فهذا إعلام باختلافهم وتدابرهم وضلالهم . وقال قوم : المعنى وما من اتبعك ممن أسلم منهم بمتبع قبلةَ من لم يُسْلم ، ولا من لم يُسْلم قبلة من أسلم . والأوّل أظهر . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، والمراد أمته ممن يجوز أن يتبع هواه فيصير باتباعه ظالما ، وليس يجوز أن يفعل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما يكون به ظالما؛ فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبيّ صلى الله عليه وسلم وقطعنا أنّ ذلك لا يكون منه ، وخوطب النبيّ صلى الله عليه وسلّم تعظيما للامر ولأنه المنزل عليه . والأهواء جمع هوى ، وقد تقدّم ؛ وكذا «مِنَ ٱلْعِلْمِ» تقدّم أيضا فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ الذين فى موضع رفع بالابتداء والخبر يعرفونه ؛ ويصح أن يكون فى موضع خفض على الصفة للظالمين ، ويعرفون فى موضع الحال أى يعرفون نبوّته وصدق رسالته . والضمير عائد على محمد صلّى الله عليه وسلّم ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وقيل : يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة أنه حق؛ قاله ابن عباس وابن جُرَيج والربيع وقتادة أيضا . وخصّ الأبناء فى المعرفة بالذّكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه بُرْهة لا يعرف فيها نفسه ، ولا يمرّ عليه وقت لا يعرف فيه ابنه . ورُوى أن عمر قال لعبد الله بن سَلَام : أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ قال : نعم وأكثر، بعث الله أمينه فى سمائه إلى أمينه فى أرضه بنعته فعرفته، وابنى لا أدرى ما كان من أمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد وقتادة وخُصَيف . وقيل : استقبال الكعبة، على ما ذكرنا آنفا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ظاهر فى صحة الكفر عنادا ؛ ومثله : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى استقبال الكعبة، لا ما أخبرك به اليهود من قبلتهم . ورُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قرأ « الْحَقَّ » منصوبا بيعلمون ، أى يعلمون الحق . ويصح نصبه على تقدير الزم الحق . والرفع على الابتداء أو على إضمار مبتدأ، والتقدير هو الحق، أو على إضمار فعل أى جاءك الحق . قال النحاس : فأمّا الذى فى الأنبياء ﴿ ٱلْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فلا نعلم أحدا قرأه إلا منصوبا . والفرق بينهما أن الذى فى سورة البقرة مبتدأ به، والذى فى الأنبياء ليس كذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكّين، والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . يقال : امترى فلان [فى] كذا إذا اعترضه اليقين مرّة والشك مرة فدافع إحداهما بالأخرى ؛ ومنه المِرَاء لأن كل واحد منهما يشك فى قول صاحبه . والامتراء

فى الشيء الشــك فيه ، وكذا التمارى . وأنشد الطبرىّ شاهدا على أن الممترين الشاكون قول الأعشى :

تَدُرّ على أســـؤُق المــتريـ * ـن رَكْضًا إذا ما السرابُ ٱرجحنّ

قال ابن عطيّة : ووَهِم فى هذا ؛ لأن أبا عبيدة وغيره قال : الممترون فى البيت هم الذين يَمْرُون الخيلَ بأرجلهم همزًا لتجرى كأنهم يحتلبون الجرى منها ، وليس فى البيت معنى الشــك كما قال الطبرى .

قلت : معنى الشك فيه موجود ؛ لأنه يحتمل أن يختبر الفرسَ صاحبُه هل هو على ما عهد منــه من الجرى أو لا لئلا يكون أصابه شيء ، أو يكون هــذا عند أول شرائه فيُجريه ليعلم مقدار جريه . قال الجوهرى : ومَرَيْت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجــرى بسوط أو غيره . والاسم المِرْية وقد تضم . ومَرَيْت الناقة مَرْيا إذا مسحت ضَرْعها لتَدِرّ . وأمْرَت هى إذا دَرّ لبنها . والاسم المِرْية بالكسر، والضم غلط . والمرية الشك وقد تضم ، وقرئ بهما .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ ﴾ . فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وِلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ الوِجْهَة وزنها فِعْلَة من المواجهة . والوجهة والجهة والوجه بمعنًى واحد ، والمراد القبلة ، أى إنهم لا يتبعون قِبْلتك وأنت لا تتّبع قِبْلتهــم ، ولكل وجهة إما بحقّ وإما بهوًى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَـا ﴾ هو عائد على لفظ كلّ لا على معناه ؛ لأنه لو كان على المعنى لقال : هم مُوَلُّوها وجوههم ؛ فالهاء والألف مفعول أول والمفعول الثانى محذوف ، أى هو موليها وجهه ونفسه . والمعنى : ولكل صاحب ملّةٍ قِبْلةٌ ، صاحب القبلة موليها وجهه ، على لفظ كل ؛ وهو قول الربيع وعطاء وابن عباس . وقال علىّ بن سليمان : مُوَلِّيها أى متولّيها . وقرأ ابن عباس وابن عامر «مُوَلّاها» على مالم يسم فاعله . والضمير على هذه القراءة لواحد ، أى لكل واحد من الناس قبلة ، الواحد مُوَلّاها أى مصروف اليهــا ؛ قاله الزجاج . ويحتمل أن يكون على قراءة الجماعة هو ضمير ٱسم الله عزّ وجلّ وإن لم يَجْرِ له ذكر ؛ إذ هو معلوم أنّ

الله عزّ وجلّ فاعل ذلك، والمعنى : لكل صاحب ملة قبلة الله مُوَلّيها إياه. وحكى الطبرى : أن قوما قرءوا « ولكلٍّ وجهةٍ » بإضافة كل إلى وجهة . قال ابن عطية : وخطّأها الطبرى ، وهى متجهة؛ أى فاستبقوا الخيرات لكل وجهـة وَلَّاكُموها، ولا تعترضوا فيما أمركم بين هذه وهذه؛ أى إنما عليكم الطاعة فى الجميع. وقدّم قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾ على الأمر فى قوله : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ للاهتمام بالوجهة كما يُقَدَّم المفعول؛ وذكر أبو عمرو الدّانى هذه القراءة عن ابن عباس رضى الله عنهما . وسَلِمت الواو فى وجهـة للفرق بين عِدَة وزِنَة ؛ لأن جهة ظرف ، وتلك مصادر . وقال أبو علىّ : ذهب قوم إلى أنه مصدر شـذ عن القياس فسلم؛ وذهب قوم إلى أنه اسم وليس بمصدر. وقال غير أبى علىّ : وإذا أردت المصدر قلت جهة؛ وقد يقال الجهة فى الظرف .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أى إلى الخيرات فحذف الحرف ؛ أى بادروا ما أمركم الله جلّ وعزّ من استقبال البيت الحرام ؛ وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال الى جميع الطاعات بالعموم؛ فالمراد ما ذكر من الاستقبال لسياق الآى .

والمعنى المراد : المبادرة بالصلاة أول وقتها . والله تعالى أعلم . روى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " إنما مثل المُهَجِّر الى الصلاة كمثل الذى يُهْدِى البَدَنَة ثم الذى على أثره كالذى يُهدى البقرة ثم الذى على أثره كالذى يهدى الكَبْش ثم الذى على أثره كالذى يُهدى الدّجاجة ثم الذى على أثره كالذى يهدى البيضة " . وروى الدّارقُطنى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أحدكم ليصلّى الصلاة لوقتهـا وقد ترك من الوقت الأوّل ما هو خير له من أهله وماله " . وأخرجه مالك عن يحيى ابن سعيد . وروى الدّارقُطنى أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير الأعمال الصلاة فى أول وقتها " . وفى حديث ابن مسعود « أوّل وقتها » بإسقاط « فى » . وروى أيضا عن إبراهيم بن عبـد الملك عن أبى محذورة عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " أوّل الوقت رضوان الله ووسط الوقت رحمـة الله وآخر الوقت

عفو الله " . زاد ابن العربى : فقال أبو بكر : رضوان الله أحب إلينا من عفوه؛ فإن رضوانه للحسنين وعفوه للقصرين؛ وهذا اختيار الشافعى . وقال أبو حنيفة : آخر الوقت أفضـل؛ لأنه وقت الوجوب . فأمّا مالك ففصّل القـول : فأما الصبح والمغرب فأول الوقت فيهما أفضـل ؛ أما الصبح فلحديث عائشة رضى الله عنها قالت : " إن كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم ليصلى الصبح فينصرف النساء مُتَلَفِّعاتٍ بمُرُوطِهِنّ ما يُعْرَفْن من الغَلَس" — فى رواية "مُتَلَفِّفات" — . وأما المغرب فلحديث سَلَمة بن الأَكْوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصـلّى المغرب إذا غربت الشمس وتوارت بالحجاب . أخرجهما مسـلم . وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قَدَر عليه . روى عن ابن عمر قال : مكثنا [ذات](1) ليلة ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة؛ فخرج إلينا حين ذهب ثلث الليل أو بعده، فلا ندرى أشىء شغله فى أهله أو غيرُ ذلك ؛ فقال حين خرج : " إنكم لتنتظرون صلاة ما ينتظرها أهـلُ دين غيرُكم ولولا أن يَثْقُل على أمّتى لصلّيت بهم هذه الساعة" . وفى البخارىّ عن أنس قال: " أخّر النبىّ صلّى الله عليه وسلم صلاة العشاء الى نصف الليل ثم صلى ... " وذكر الحـديث؛ وقال أبو بَرْزَة : كان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يستحب تأخيرها . وأمّا الظهر فإنها تأتى الناس [على](2) غفلة فيستحب تأخيرها قليلا حتى يتأهّبوا ويجتمعوا . قال أبو الفرج قال مالك : أوّل الوقت أفضل فى كل صلاة إلا الظهر فى شدّة الحرّ . وقال ابن أبى أويس : كان مالك يكره أن يصلّى الظهر عند الزوال ولكن بعـد ذلك، ويقول : تلك صـلاة الخوارج . وفى صحيح البخارى وصحيح الترمذىّ عن أبى ذَرّ الغفارىّ قال : كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سفر فأراد المؤذّن أن يؤذّن للظهر؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أَبْرِد" ثم أراد أن يؤذن فقال له : "أبرد" حتى رأينا فىء التلول؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : "إن شدّة الحرّ من فَيْـح(3) جهنم فإذا اشتدّ الحرّ فأبردوا بالصـلاة" . وفى صحيح مسلم عن أنس أنّ النبىّ صلّى الله عليه

(1) الزيادة عن صحيح مسلم وسنن النسائى .

(2) الزيادة عن كتاب أحكام القرآن لابن العربى .

(3) الفيح : سطوع الحرّ وفورانه .

وسلّم كان يصلّي الظهر إذا زالت الشمس . والذى يجمع بين الحـديثين ما رواه أنس أنه إذا كان الحرّ أبرَد بالصـلاة، وإذا كان البرد عَجّل . قال أبو عيسى الترمذيّ : « وقد اختار قوم [من أهل العلم] (١) تأخير صلاة الظهر فى شدّة الحرّ، وهو قول ابن المبارك وأحمد و إسحاق . قال الشافعى : إنما الإبراد بصلاة الظهر اذا كان [مسجدا] (١) ينتاب (٢) أهله من البعد، فأما المُصَلِّي وحده والذى يُصلّي فى مسجد قومه فالذى أحبّ له ألّا يؤخر الصلاة (٣) فى شدّة الحرّ . قال أبو عيسى: ومعنى من ذهب الى تأخير الظهر فى شدّة الحرّ هو أولى وأشبه بالاتباع . وأما ما ذهب اليه الشافعيّ رحمه الله أنّ الرخصـة لمن ينتاب من البعد وللشقة على الناس، فإن فى حديث أبى ذرّ رضى الله عنه ما يدل على خلاف ما قال الشافعى ؛ قال أبو ذرّ : كنّا مع النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم فى سفر فأذّنَ بِلَالٌ بصلاة الظهر ؛ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "[يا بلال] (١) أبرد ثم أبرد" . فلو كانـ الأمر على ما ذهب اليـه الشافعى لم يكن للإبراد فى ذلك الوقت معنى ؛ لاجتماعهم فى السفر وكانوا لا يحتاجون أن ينتابوا من البعد» . وأما العصر فتقديمها أفضل . ولا خلاف فى مذهبنا أن تأخير الصـلاة رجاء الجماعة أفضل من تقديمها؛ فان فضل الجماعة معلوم، وفضل أول الوقت مجهول، وتحصيل المعلوم أولى؛ قاله ابن العربيّ .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾ شرط، وجوابه : ﴿ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ يعنى يوم القيامة . ثم وصف نفسه تعالى بالقدرة على كل شيء لتناسب الصـفة مع ما ذكر من الإعادة بعد الموت والبلى .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ قيـل : هـذا تأكيد للأمر باسـتقبال الكعبة واهتمام بهـا ؛ لأنـ موقع التحويل كان مُعْنِتًا فى نفوسهم جدا ، فأكّد الأمر ليرى النـاس الاهتمام به فيخفّ عليهم وتسكن نفوسهم اليـه . وقيـل : أراد بالأول وَلِّ وجهك شـطر الكعبة أى عاينهـا اذا صليت تلقاءها . ثم قال : ﴿ وَحَيْثُ

(١) الزيادة عن صحيح الترمذى . (٢) انتاب : قصد .
(٣) كذا فى صحيح الترمذى . وفى الأصول : «تأخير الصلاة» .

مَا كُنتُمْ ﴾ معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينـة وغيرها ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ يعنى وجوب الاستقبال فى الأسـفار ؛ فكان هـذا أمرا بالتوجه الى الكعبة فى جميع المواضع من نواحى الأرض .

قلت : هـذا القول أحسن من الأول ؛ لأن فيـه حمل كل آية على فائدة . وقد روى الدَّارَقُطنى عن أنس بن مالك قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسـلم إذا كان فى سفر فأراد أن يصلى على راحلتـه استقبل القبـلة وكبّر ثم صلّى حيث توجّهت به . أخرجه أبو داود أيضا ، و به قال الشافعىّ وأحمد وأبو ثور . وذهب مالك إلى أنه لا يلزمه الاستقبال لحديث ابن عمر قال : « كان رسول الله صـلّى الله عليه وسلّم يصلّى وهو مقبل من مكة إلى المدينـة على راحلته قال : وفيه نزل ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . » وقد تقدّم .

قلت : ولا تعارض بين الحديثين ؛ لأن هـذا من باب المطلق والمقيّـد ، فقول الشافعىّ أولى وحديث أنس فى ذلك حديث صحيح . و يروى أن جعفر بن محمـد سئل ما معنى تكرير القصص فى القرآن ؟ فقال : علم الله أن كل الناس لا تحفظ القرآن فلو لم تكن القصة مكررة لجاز أن تكون عند بعض الناس ولا تكون عند بعض ؛ فكررت لتكون عند من حفظ البعض .

قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ . قال مجاهد : هم مشركو العرب ، وحجتهم قولهم : راجعتَ قبلتنا . وقد أجيبوا عن هذا بقوله : ﴿ قُلْ لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ . وقيل : معنى ﴿ لِئَـلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ لئـلا يقولوا لكم : قد أمرتم باستقبال الكعبة ولستم ترونها . فلما قال جلّ وعزّ : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ زال هذا . وقال أبو عبيدة : إنّ إلّا هاهنا بمعنى الواو ، أى والذين ظلموا ، فهو استثناء بمعنى الواو ؛ ومنه قول الشاعر :

ما بالمدينـة دار غير واحدة * دار الخليفة إلا دار مروانا

كأنه قال : إلا دار الخليفة ودار مروان ؛ وكذا قيـل فى قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى والذين آمنوا . وأبطل الزّجاج هذا القول وقال :

هذا خطأ عند الحذّاق من النحويين، وفيه بطلان المعانى ، وتكون إلّا وما بعدها مستغنًى عن ذكرهما . والقول عندهم أن هذا استثناء ليس من الأول، أى لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجون . قال أبو إسحاق الزجاج : أى عرّفكم الله أمر الاحتجاج فى القبلة فى قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له؛ كما تقول : مالك علىّ حُجّةٌ إلا الظلم أو إلا أن تظلمنى، أى مالك حجة البتّة ولكنك تظلمنى ؛ فسمّى ظلمه حجة لأن المحتجّ به سمّاه حجة وإن كانت داحضة . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون المعنى : لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا على الذين ظلموا ؛ فالذين بدل من الكاف والميم فى عليكم . وقالت فرقة : إلا الذين استثناء متصل؛ روى معناه عن ابن عباس وغيره ، واختاره الطبرى وقال : نفى الله أن يكون لأحد حجّة على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه فى استقبالهم الكعبة . والمعنى : لاحجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا : ما ولّاهم، وتحيّر محمد فى دينه ، وما توجّه إلى قبلتنا إلا أنا كنا أهدى منه ، وغير ذلك من الأقوال التى لم تنبعث إلا من عابد وَثَنٍ أو من يهودى أو منافق . والحجّة بمعنى المحاجّة أى المخاصمة والمجادلة . وسمّاها الله حجة وحكم بفسادها حيث كانت من ظَلَمة . قاله ابن عطية . وقيل إن الاستثناء منقطع؛ وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب، كأنه قال : لكن الذين ظلموا يحاجوكم . وقوله ﴿مِنْهُمْ﴾ يردّ هذا التأويل . والمعنى لكن الذين ظلموا: يعنى كفار قريش فى قولهم : رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله . ويدخل فى ذلك كل من تكلم فى النازلة من غير اليهود . وقرأ ابن عباس وزيد بن علىّ وابن زيد «ألَا الذين ظلموا» بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى استفتاح الكلام فيكون الذين ظلموا ابتداء ، أو على معنى الإغراء فيكون الذين منصوبا بفعل مقدّر .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ يريد الناس ﴿ وَٱخْشَوْنِى ﴾ الخشية أصلها طمأنينة فى القلب تبعث على التوقى . والخوف : فزع القلب تخف له الأعضاء، ولخفة الأعضاء به سمّى خوفا . ومعنى الآية التحقير لكل من سوى الله تعالى، والأمر باطراح أمرهم ومراعاة أمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ معطوف على «لئلا يكون» أى ولأن أتم؛ قاله الأخفش . وقيل : مقطوع[1] فى موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر، التقدير : ولأتم نعمتى عليكم عرّفتكم قبلتى ؛ قاله الزجاج . وإتمام النعمة الهداية إلى القبلة ، وقيل : دخول الجنة ؛ قاله سعيد بن جُبَير . ولم تتم نعمة الله على عبد حتى يدخله الجنة . و﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت لمصدر محذوف . المعنى : ولأتم نعمتى عليكم إتماما مثل ما أرسلنا ؛ قاله الفراء . قال ابن عطية : وهذا أحسن الأقوال ، أى ولأتم نعمتى عليكم فى بيان سنة إبراهيم عليه السلام مثل ما أرسلنا . وقيل : المعنى ولعلكم تهتدون اهتداء مثل ما أرسلنا . وقيل : هى فى موضع نصب على الحال، والمعنى : ولأتم نعمتى عليكم فى هذه الحال . والتشبيه واقع على أن النعمة فى القبلة كالنعمة فى الرسالة ، وأن الذكر المأمور به فى عِظَمه كعِظَم النعمة . وقيل : معنى الكلام على التقديم والتأخير ، أى فاذكرونى كما أرسلنا ؛ رُوى عن علىّ رضى الله عنه واختاره الزجاج ، أى كما أرسلنا فيكم رسولا تعرفونه بالصدق ، فاذكرونى بالتوحيد والتصديق به . والوقف على ﴿ تهتدون ﴾ على هذا القول جائز .

قلت : وهذا اختيار الترمذىّ الحكيم فى كتابه ، أى كما فعلت بكم هذا من المنن التى عددتها عليكم فاذكرونى بالشكر أذكركم بالمزيد ؛ لأن فى ذكركم ذلك شكرا لى وقد وعدتكم بالمزيد على الشكر وهو قوله : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ . فالكاف فى قوله ﴿ كَمَا ﴾ هنا وفى الأنفال ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ وفى آخر الحجر ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ متعلقة بما بعده ، على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ أمر وجوابه ، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم . وأصل الذِّكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له . وسُمّى الذكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبى ، غير أنه لما كثُر إطلاق الذكر على القول اللسانى صار هو السابق للفهم .

---

(١) نص العبارة فى البحر المحيط لأبى حيان : « وقيل : تتعلق اللام بفعل مؤخر ، التقدير : ولأتم نعمتى عليكم عرفتكم قبلتى » . وما فى الأصل هنا غير واضح إذ ليس فى الكلام مبتدأ ولا خبر .

ومعنى الآية : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة؛ قاله سعيد بن جبير. وقال أيضا: الذكر طاعة الله فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقرآءة القرآن . رُوى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "من أطاع الله فقد ذكر الله وإن أقلّ صلاته وصومه وصنيعه للخير ومن عصى الله فقد نسى الله وإن كثر صلاته وصومه وصنيعه للخير"؛ ذكره أبو عبد الله محمد ابن خويز منداذ فى «أحكام القرآن» له . وقال أبو عثمان النَّهدى : إنى لأعلم الساعة التى يذكرنا الله فيها؛ قيل له : ومن أين تعلمها؟ قال يقول الله عز وجل : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ . قال السُّدّى : ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله عزّ وجلّ، لا يذكره مؤمن إلا ذكره برحمته، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعذاب . وسئل أبو عثمان فقيل له : نذكر الله ولا نجد فى قلوبنا حلاوة؛ فقال : احمدوا الله تعالى على أن زيّن جارحة من جوارحكم بطاعته . وقال ذو النّون المصرى رحمه الله : من ذكر الله تعالى ذكرا على الحقيقة نسى فى جنب ذكره كل شىء وحفظ الله عليه كل شىء وكان له عوضا من كل شىء . وقال مُعاذ بن جبل رضى الله عنه : ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله . والأحاديث فى فضل الذكر وثوابه كثيرة خرّجها الأئمة . روى ابن ماجه عن عبد الله بن بسر أن أعرابيّا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأنبئنى منها بشىء أتشبث به؛ قال : "لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عزّ وجلّ". وخرّج عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عزّ وجلّ يقول أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه" . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان عند قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ . وأن المراد ذكر القلب الذى يجب استدامته فى عموم الحالات .

قوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ قال الفراء يقال : شكرتك وشكرت لك، ونصحتك ونصحت لك؛ والفصيح الأوّل[1] . والشكر معرفة الإحسان والتحدّث به؛ وأصله فى اللغة الظهور؛ وقد تقدّم . فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه

(١) الذى فى معاجم اللغة أن الفصيح الثانى .

للعبد ثنـاؤه عليه بطاعتـه له ؛ إلا أن شكر العبـد نطق باللسان وإقرار بالقلب بإنعام الربّ مع الطاعات .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ نَهْىٌ ولذلك حذفت منه نون الجماعة، وهذه نون المتكلم. وحذفت الياء لأنها رأس آية، وإثباتها أحسن فى غير القرآن، أى لا تكفروا نعمتى وأيادىّ. والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب . وقد مضى القول فى الكفر لغة ، ومضى القول فى معنى الاستعانة بالصبر والصلاة فلا معنى لإعادته .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ هذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾. وهناك يأتى الكلام فى الشهداء وأحكامهم إن شاء الله تعالى .

وإذا كان الله تعالى يحييهم بعـد الموت ليرزقهم على ما يأتى ؛ فيجوز أن يحيي الكفار ليعذبهم، ويكون فيه دليل على عذاب القبر . والشهداء أحياء كما قال الله تعالى، وليس معناه أنهم سيحيون ؛ إذ لو كان كذلك لم يكن بين الشهداء وبين غيرهم فرق إذ كل أحد سيحيا . ويدل على هـذا قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ والمؤمنون يشعرون أنهم سيحيون . وارتفع « أموات » على إضمـار مبتدأ، وكذلك « بل أحياء » أى هم أموات وهم أحيـاء، ولا يصح إعمال القول فيه لأنه ليس بينه وبينه تناسب ؛ كما يصح فى قولك : قلت كلاما وحجة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ هذه الواو مفتوحة عند سيبويه لالتقاء الساكنين . وقال غيره : لمـا ضُمّت الى النون الثقيلة بنِي الفعل فصار بمنزلة خمسة عشر . والبلاء يكون حسنا ويكون سيئا ، وأصله المحنة . وقد تقدّم . والمعنى لنمتحننكم لنعلم المجاهـد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء، كما تقدّم. وقيل : إنما ابتلوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فيعلموا أنهم إنمـا صبروا على هذا حين وضح لهم الحق . وقيل : أعلمهم بهذا ليكونوا على يقين من أنه يصيبهم ؛ فيوطّنوا أنفسهم عليـه فيكون أبعـد لهم من الجزع . وفيه تعجيل ثواب الله تعالى على العزم وتوطين النفس .

قوله تعالى : ﴿ بِشَيْءٍ ﴾ لفظ مفرد ومعناه الجمع . وقرأ الضّحاك « بأشياء » على الجمع . وقرأ الجمهور بالتوحيد ، أى بشيء من هذا وشيء من هذا ، فاكتفى بالأول إيجازا ، من الخوف ، أى خوف العدوّ والفزع فى القتال ، قاله ابن عباس . وقال الشافعيّ : هو خوف الله عزّ وجلّ . والجوع : يعنى المجاعة بالجدب والقحط ، فى قول ابن عباس . وقال الشافعيّ : هو الجوع فى شهر رمضان ، ونقص من الأموال بسبب الاشتغال بقتال الكفار . وقيل : بالجوائح المتلفة . وقال الشافعيّ : بالزكاة المفروضة والأنفس . قال ابن عباس : بالقتل والموت فى الجهاد . وقال الشافعيّ : يعنى فى الأمراض والثمرات . قال الشافعيّ : المراد موت الأولاد ، وولد الرجل ثمرة قلبه ، كما جاء فى الخبر على ما يأتى . وقال ابن عباس : المراد قلة النبات وانقطاع البركات .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ أى بالثواب على الصبر . والصبر أصله الحبس ، وثوابه غير مقدّر . وقد تقدّم . لكن لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى ، كما روى البخاريّ عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " . وأخرجه مسلم أتم منه ، أى إنما الصبر الشاق على النفس الذى يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها ، فانه يدل على قوة القلب وتثبته فى مقام الصبر ، وأما اذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك ، ولذلك قيل : يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لابد للأحمق منه بعد ثلاث . وقال سهل بن عبد الله التسترى : لما قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ صار الصبر عيشا[1] . والصبر صبران : صبر عن معصية الله فهذا مجاهد ، وصبر على طاعة الله . ومن صبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه ، وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات . وقال الخوّاص : الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة . وقال رويم : الصبر ترك الشكوى . وقال ذو النون المصرى : الصبر هو الاستعانة بالله تعالى . وقال الأستاذ أبو على : « الصبر حدّه ألّا تعترض

(١) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا .

على التقدير ؛ فأما إظهار البلوى على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر ؛ قال الله تعالى فى قصة أيوب : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ مع ما أخبر عنه أنه قال : ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ » .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى ﴿مُصِيبَةٌ﴾ المصيبة كل ما يؤذى المؤمن ويصيبه ؛ يقال : أصابه إصابة ومصابة ومصابا . والمصيبة واحد المصائب . والمصوبة (بضم الصاد) مثل المصيبة . وأجمعت العرب على همزة المصائب ، وأصله الواو ؛ كأنهم شبهوا الأصلىّ بالزائد ، ويجمع على مَصاوب ، وهو الأصل . والمُصاب الإصابة ؛ قال الشاعر :

أَسُليمُ إنّ مصابَكم رَجلًا * أَهدَى السلامَ تحيّةً ظُلْمُ

وصاب السّهمُ القرطاسَ يصيب صَيْبًا ، لغة فى أصابه . والمصيبة النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت ؛ وتستعمل فى الشر ؛ روى عكرمة أن مصباح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم انطفأ ذات ليلة فقال : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فقيل : أمصيبة هى يا رسول الله ؟ قال : " نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة " .

قلت : هذا ثابت معناه فى الصحيح ، خرّج مسلم عن أبى سعيد وعن أبى هريرة رضى الله عنهما أنهما سمعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " ما يصيب المؤمنَ من وَصَب ولا نَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن حتى الهمِّ يهمه (١) إلا كُفِّر به من سيئاته " .

الثانيـــة — خرّج ابن ماجه فى سننه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجرّاح عن هشام بن زياد عن أمّه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال قال رسـول الله صلّى الله عليه وسلم : "من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث آسترجاعا وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب " .

(١) على هامش صحيح مسلم : « قال القاضى : هو بضم الياء وفتح الهاء على مالم يسم فاعله ، وضبطه غيره بفتح الياء وضم الهاء ، أى يغمه ، وكلاهما صحيح » .

الثالثة — من أعظم المصائب المصيبة فى الدِّين . ذكر أبو عمر عن الفريابى قال حدّثنا فطر بن خليفة حدّثنا عطاء بن أبى رَباح قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بى فإنها من أعظم المصائب" . أخرجه السَّمرقندىّ أبو محمد فى مسنده، أخبرنا أبو نعيم قال أنبأنا فطر فذكر مثله سواء . وأسند مثله عن مكحول مرسلا . قال أبو عمر: وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ لأن المصيبة به اعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده الى يوم القيامة؛ انقطع الوحى وماتت النبوّة . وكان أوّل ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك ، وكان أوّل انقطاع الخير وأوّل نقصانه . قال أبو سعيد : ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى أنكرنا قلوبنا . ولقد أحسن أبو العتاهية فى نظمه معنى هذا الحديث حيث يقول :

اِصبِرْ لكل مصيبة وتَجلَّدِ * وآعلم بأن المرءَ غيرُ مُخَلَّدِ
أوَما ترى أن المصائب جَمّةٌ * وترى المنيّةَ للعباد بمَرْصَدِ
مَن لم يُصَبْ ممن ترى بمصيبة؟ * هذا سبيلٌ لستَ فيه بأوحد
فاذا ذكرتَ محمدا ومصابه * فاذكر مصابك بالنبىّ محمد

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . جعل الله هذه الكلمات ملجأ لذوى المصائب، وعصمة للممتحنين؛ لما جمعت من المعانى المباركة؛ فان قوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ توحيد و إقرار بالعبودية والملك . وقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا . واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له . قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى : لم تعط هذه الكلمات نبيًّا قبل نبيّنا، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفى على يوسف .

الخامسة — قال أبو سنان : دفنت آبنى سنانا، وأبو طلحة الخولانى على شفير القبر؛ فلما أردت الخروج أخذ بيدى فأنشطنى وقال : ألا أبشّرك يا أبا سنان، حدّثنى الضّحاك عن

أبى موسى أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : " إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدى فيقولون نعم فيقول أقبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم فيقول فماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسمّوه بيت الحمد" . وروى مسلم عن أمّ سَلَمة قالت سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عزّ وجلّ إنا لله وإنا إليه راجعون اللّهـم أجُرْنى فى مصيبتى وأَخْلِف لى خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها " . فهذا تنبيه على قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ . إما بالخلف كما أخلف الله لأم سـلمة رسولَ الله صلّى الله عليه وسـلّم فإنه تزوجها لمـا مات أبو سلمة زوجها ، وإما بالثواب الجزيل كما فى حديث أبى موسى ، وقد يكون بهما .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ . هذه نعم من الله عزّ وجلّ على الصابرين المسترجعين . وصلاة الله على عبده عفوه ورحمته وبركته وتشريفه إياه فى الدنيا والآخرة . وقال الزجاج : الصـلاة من الله عز وجل الغفران والثنـاء الحسن . ومن هـذا الصلاة على الميت إنمـا هو الثناء عليه والدعاء له ؛ فكرر الرحمة لمـا اختلف اللفظ تأكيدا وإشباعا للمعنى ؛ كما قال : ﴿ مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُـدَى ﴾ . وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ . وقال الشاعر :

صلّى على يحيى وأشـياعه * ربّ كريم وشفيع مطاع

وقيل : أراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة . وفى البخاريّ وقال عمر رضى الله عنه : نِعْم العِـدْلَان ونعم العِـلاوة : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ . أراد بالعِدلين الصلاة والرحمة ، وبالعِلاوة الاهتداء . قيل : إلى استحقاق الثواب وإجزال الأجر ، وقيـل : إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ الى قوله : ﴿ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ . فيه تسع مسائل :

الأولى — روى البخاريّ عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما؛ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. وخرّج الترمذيّ عن عروة قال: "قلت لعائشة: ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا، وما أبالي ألا أطوف بينهما". فقالت: بئس ما قلت يا بن أختي، طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون، وإنما كان من أهلّ لمناة (١) الطاغية التي بالمُشَلَّل لا يطوفون بين الصفا والمروة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ولو كانت كما تقول لكانت: "فلا جناح عليه ألا يطوف بهما". قال الزهريّ: فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ فأعجبه ذلك وقال: ان هذا لَعلمٌ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون: انما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصفا والمروة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فأراها قد نزلت في هؤلاء وهؤلاء. قال: هذا حديث حسن صحيح». أخرجه البخاري بمعناه وفيه بَعْدَ قوله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ «قالت عائشة: وقد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما؛ ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إن هذا لَعلمٌ ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا مَن ذكرت عائشة ممن كان يُهِلّ بمَنَاة كانوا يطوفون كلهم بالصّفا والمروة؛ فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا: يا رسول الله، كنا نطوف بالصفا والمروة، وأن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من

(١) مناة، اسم صنم في جهة البحر مما يلي قديدا بالمشلل (وهو جبل يهبط منه الى قديد من ناحية البحر) على سبعة أميال من المدينة. وكانت الأزد وغسان يهلون له ويحجون اليه، وكان أوّل من نصبه عمرو بن لحيّ الخزاعي. (راجع معجم ياقوت في اسم مناة).

حرج أن نطّوف بالصفا والمروة ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية . قال أبو بكر : فأسْمَعُ هـذه الآية نزلت فى الفريقين كلاهما : فى الذين كانوا يتحرّجون أن يطوفوا فى الجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم يتحرّجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت» . وروى الترمذىّ عن عاصم بن سليمان الأحول قال : «سألت أنس بن مالك(١) عن الصفا والمروة فقال : كانا من شعائر الجاهلية ، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قال : هما تطوع ، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ . قال : هذا حديث حسن صحيح» . خرّجه البخارى أيضا . وعن ابن عباس قال : كان فى الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة ، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون : يارسول الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة فانهما شرك ؛ فنزلت . وقال الشعبىّ : كان على الصفا فى الجاهلية صنم يسمى «إسافا» وعلى المروة صنم يسمى «نائلة» فكانوا يمسحونهما اذا طافوا ؛ فامتنع المسلمون من الطواف بينهما من أجل ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثانيـة — أصل الصفا فى اللغة الحجر الأملس . وهو هنا جبل بمكة معروف ، وكذلك المروة جبل أيضا ؛ ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف . وذُكِر الصّفا لأن آدم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وقف عليه فسُمّى به ، ووقفت حوّاء على المروة فسميت باسم المرأة فأنث لذلك ؛ والله أعلم . وقال الشعبىّ : كان على الصفا صنم يسمى «إسافا» وعلى المروة صنم يدعى «نائلة» فاطرد ذلك فى التذكير والتأنيث وقدم المذكر ، وهذا حسن ، لأن الأحاديث المذكورة تدل على هذا المعنى . وما كان كراهة من كره الطواف بينهما إلا من أجل هذا ، حتى رفع الله الحرج فى ذلك . وزعم أهل الكتاب أنهما زنيا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين فوضعهما على الصفا والمروة ليعتبر بهما ؛ فلما طالت المدّة عُبِدا من دون الله . والله تعالى أعلم . والصفا مقصور

(١) كذا فى الأصول وصحيح البخارى وتفسير الطبرى . والذى فى صحيح الترمذى : «أنس بن سيرين ...» . وهو مولى أنس بن مالك وممن روى عنه .

جمع صفاة : وهى الحجارة الملس . وقيل : الصفا اسم مفرد ، وجمعه صُفِيّ (بضم الصاد) وأصفاء على مثل أرحاء . قال الراجز :

كأنّ مَتْنَيْهِ من النَّفِيّ (١) * مواقعُ الطّير على الصُّفِيّ

وقيل : من شروط الصفا البياض والصلابة . واشتقاقه من صفا يصفو ، أى خلص من التراب والطين . والمروة (واحدة المرو) وهى الحجارة الصغار التى فيها لين . وقد قيل إنها الصلاب . والصحيح أن المرو : الحجارة صليبها ورخوها الذى يتشظى وترق حاشيته ؛ وفى هذا يقال : المرو أكثر ويقال فى الصليب . قال الشاعر :

وتولى الأرض خفا ذابلا * فاذا ما صادف المرو رضخ

وقال أبو ذؤيب :

حتى كأنى للحوادث مَرْوَةٌ * بصَفَا المُشَقَّر كل يوم تُقْرَعُ

وقد قيل : إنها الحجارة السّود ، وقيل : حجارة بيض برّاقة تكون فيها النار .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أى من معالمه ومواضع عباداته ؛ وهى جمع شعيرة . والشعائر : المتعبّدات التى أشعرها الله تعالى ، أى جعلها أعلاما للناس ، من الموقف والسّعى والنّحر . والشّعار العلامة ؛ يقال : أشعر الهدى أعلَمَه بغرز حديدة فى سنامه ؛ من قولك : أشعرت أى أعلمت ، وقال الكميت :

نُقَتّلهم جِيلًا فجِيلًا تَرَاهُمُ * شَعائرَ قُرْبانٍ بهم يُتَقَرَّبُ

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ ﴾ أى قصد . وأصل الحج القصد ، قال الشاعر :

فأشْهَدُ مِن عَوْفٍ حُلولًا (٢) كثيرة * يحجون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفَرا

---

(١) النفىّ : تطاير الماء عن الرشاء عند الاستقاء . ونفىّ المطر : ما تنفيه وترشه . قال صاحب اللسان : «وفسره ثعلب فقال : شبه الماء وقد وقع على متن المستقى بذرق الطائر على الصفىّ» .

(٢) الحلول : الأحياء المجتمعة (وهو جمع حال) .

السّب لفـظ مشترك . قال أبو عبيدة : السِّـب (بالكسر) الكثير السِّباب . وسِــبُّك أيضا الذى يُسابُّك ؛ قال الشاعر :

لا تَسُبَّنَّنِى فلستَ بِسِبِّى * إنّ سِبِّى مِن الرِّجال الكريمُ

والسِّب أيضا الخمار، وكذلك العمامة؛ قال المُخَبَّل السَّعدى :

* يَحُجُّون سِبَّ الزِّبرِقان المُزَعفَرا *

والسِّبّ أيضا الحبل فى لغة هذيل؛ قال أبو ذؤيب :

تَدلَّى عليها بين سِبٍّ وخَيْطَة * بجَرْداءَ مثلِ الوَكْفِ يكبُو غُرابُها

والسُّبوب الحبال . والسِّب شُقّة كتّان رقيقة، والسبيبة مثله ؛ والجمع السُّبوب والسبائب . قاله الجوهرى . وحجّ الطبيبُ الشَّجةَ إذا سبرها بالميل؛ قال الشاعر :

* يَحُجُّ مَأمومةً(١) فى قعرها لَجَفُ *

اللجف : الخسف؛ تلجّفت البئر : انخسف أسفلها . ثم اختص هذا الاسم بالقصد الى البيت الحرام لأفعال مخصوصة .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ أى زار . والعُمْرة : الزيارة؛ قال الشاعر :

لقد سما ٱبن مَعْمر حين ٱعْتَمَرْ * مَغْزًى بَعِيـدا من بَعيد وضَبَرْ(٢)

السادســة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْـهِ ﴾ أى لا إثم . وأصـله من الجنوح وهو الميـل؛ ومنه الجوانح للأعضاء لاعوجاجها . وقد تقــدّم تأويل عائشة لهــذه الآية . قال ابن العربى : « تحقيق القول فيه أن قول القائل : لاجناح عليك أن تفعل؛ إباحة الفعل وقوله : لا جناح عليـك ألا تفعل ؛ إباحة لترك الفعل ؛ فلمـا سمع عروة قول الله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْـهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ . قال : هذا دليل على أن ترك الطواف جائز، ثم رأى الشريعة مطبقة على أن الطواف لا رخصة فى تركه ، فطلب الجمع بين هــذين المتعارضين .

(١) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الرأس، وهى الجلدة التى تجمع الدماغ .

(٢) ضبر : جمع قوائمه ليثب .

فقالت له عائشة : ليس قوله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ دليلا على ترك الطواف ، إنما كان يكون دليلا على تركه لو كان . «فلا جناح عليه ألا يطوف بهما» فلم يأت هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف، ولا فيه دليل عليه ؛ وإنما جاء لإفادة إباحة الطواف لمن كان يتحرج منه فى الجاهلية، أو لمن كان يطوف به فى الجاهلية قصدا للأصنام التى كانت فيه ؛ فأعلمهم الله سبحانه أن الطواف ليس بمحظور إذا لم يقصد الطائف قصدا باطلا » .

فإن قيل : فقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قرأ « فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » وهى قراءة ابن مسعود، ويروى أنه فى مصحف أُبىّ كذلك، ويروى عن أنس مثل هذا . فالجواب أن ذلك خلاف ما فى المصحف، ولا يترك ما قد ثبت فى المصحف الى قراءة لا يدرى أصحت أم لا . وكان عطاء يكثر الإرسال عن ابن عباس من غير سماع . والرواية فى هذا عن أنس قد قيل : إنها ليست بالمضبوطة؛ أو تكون «لا» زائدة للتوكيد؛ كما قال :

وما أَلُومُ البِيضَ ألّا تَسْخرَا * لمّا رأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا (١)

السابعة — روى الترمذىّ عن جابر أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم حين قدم مكة فطاف بالبيت سبعا قرأ : ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ . وصلى خلف المقام ، ثم أتى الحجر فاستلمه ثم قال : " نبدأ بما بدأ الله به " (٢) فبدأ بالصفا وقال : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ . قال : هذا حديث حسن صحيح . والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة؛ فان بدأ بالمروة قبل الصفا لم يجزه ويبدأ بالصفا .

الثامنة — واختلف العلماء فى وجوب السّعى بين الصفا والمروة؛ فقال الشافعىّ وابن حنبل : هو ركن ؛ وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لقوله عليه السلام : " اسعوا فإن الله كتب عليكم السّعى " . خرّجه الدّارقُطنى . فكتب بمعنى أوجب لقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ . وقوله عليه السلام : " خمس صلوات كتبهن الله على العباد " . وخرّج ابن ماجه عن أم ولدٍ لشيبة قالت : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسعى بين الصفا والمروة

(١) القبيح المنظر . (٢) الذى فى صحيح الترمذى : « نبدأ بما بدأ الله وقرأ ... الخ » .

وهو يقول : " لا يقطع الأبطح إلا شَـدًّا(١) " فمن تركه أو شوطا منه ناسيا أو عامدا رجع من من بلده أو من حيث ذكر الى مكة ، فيطوف ويسعى ؛ لأن السعى لا يكون إلا متصلا بالطواف . وسواء عند مالك كان ذلك فى حج أو عمرة وان لم يكن فى العمرة فرضا، فإن كان قد أصاب النساء فعليه عُمْرة وهَدْى عند مالك مع تمام مناسكه . وقال الشافعىّ : عليه هدىٌ، ولا معنى للعمرة اذا رجع وطاف وسعى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والشّعبىّ : ليس بواجب ، فإن تركه أحدٌ من الحاج حتى يرجع الى بلاده جبره بالدّم لأنه سنة من سنن الحج . وهو قول مالك فى العتبيّة(٢) . وروى عن ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين أنه تطوّع ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ . وقرأ حمزة والكسائى «تطوّعْ» مضارع مجزوم ، وكذلك « فمن تطوّعْ خيرا فهو خير له » الباقون « تطوّعَ » ماض . وهو ما يأتيه المؤمن من قِبَل نفسه ؛ فمن أتى بشىء من النوافل فإن الله يشكره . وشكر الله للعبد إثابته على الطاعة ؛ والصحيح ما ذهب إليه الشافعىّ رحمه الله تعالى لما ذكرنا ، وقوله عليه السلام : " خذوا عنّى مناسككم " فصار بيانا لمجمل الحج ؛ فالواجب أن يكون فرضا ؛ كبيانه لعدد الركعات ، وما كان مثل ذلك ، إذا لم يتفق على أنه سنة أو تطوع . وقال طُلَيب : رأى ابن عباس قوما يطوفون بين الصفا والمروة فقال : هذا ما أورثتكم أمّكم أم إسماعيل .

قلت : وهذا ثابت فى صحيح البخارى ، على ما يأتى بيانه فى سورة إبراهيم .

التاسعة — ولا يجوز أن يطوف أحد بالبيت ولا بين الصفا والمروة راكبا إلا من عذر ؛ فإن طاف معذورا فعليه دم ، وإن طاف غير معذور أعاد إن كان بحضرة البيت ، وإن غاب عنه أهدى . إنما قلنا ذلك لأن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم طاف بنفسه وقال : " خذوا عنى مناسككم " . وإنما جوّزنا ذلك من العذر ؛ لأن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم طاف على بعيره واستلم

---

(١) شدّا ، أى عدوا .

(٢) العتبية : كتاب لفقيه الأندلس محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى القرطبى المتوفى سنة ٢٥٤ هـ ، فى مذهب الامام مالك ، نسبت الى مؤلفها .

الركن بمحجنه(١)، وقال لعائشة وقد قالت له : إنى أشتكى . فقال : "طوفى من وراء الناس وأنت راكبة" . وفرق أصحابنا بين أن يطوف على بعير أو يطوف على ظهر إنسان؛ فان طاف على ظهر إنسان لم يجزه ؛ لأنه حينئذ لا يكون طائفا، إنما الطائف الحامل . وإذا طاف على بعير يكون هو الطائف . قال ابن خويز منداد : وهذه تفرقة اختيار ، وأما الإجزاء فيجزئ؛ ألا ترى أنه لو أغمى عليه فطيف به محمولا ، أو وقف به بعرفات محمولا كان مجزئا عنه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى أن الذى يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون . واختلفوا من المراد بذلك؛ فقيل : أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وقد كتم اليهود أمر الرجم . وقيل : المراد كل من كتم الحق؛ فهى عامّة فى كل من كتم علما من دين الله يحتاج الى بثه . وذلك مفسّر فى قوله صلّى الله عليه وسلّم: "من سئل عن علم [يعلمه](٢) فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار" . رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص . أخرجه ابن ماجه . ويعارضـه قول عبد الله بن مسعود : ما أنت بمحدّث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنـة . وقال عليه السلام : " حدّث الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذّب الله ورسوله " . وهذا محمول على بعض العلوم؛ كعلم الكلام أو ما لا يستوى فى فهمه جميع العوام؛ فحكم العالم أن يحدّث بما يفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته؛ والله تعالى أعلم .

الثانيـــة — هـذه الآية هى التى أراد أبو هريرة رضى الله عنـه فى قوله : لولا آية(٣) فى كتاب الله تعالى ماحدّثتكم حديثا . وبها استدل العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق، وتبيان العلم على الجملة، دون أخذ الأجرة عليه؛ إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه فعلُه ، كما لا يستحق الأجرة على الاسلام . وقد مضى القول فى هذا .

---

(١) المحجن : عصا معوجة الرأس يتناول بها الراكب ما سقط له .

(٢) الزيادة عن سنن ابن ماجه .

(٣) الذى فى صحيح البخارى، وسنن ابن ماجه : «لولا آيتان» .

وتحقيق الآية هو ان العالم إذا قصـد كتمان العلم عصى ، و إذا لم يقصـد لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره . وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث ، أما انه لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسـلم ، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجـدال والحِجاج ليجادل به أهل الحق، ولا يعلّم الخصم على خصمه حجة يقتطع بها ماله، ولا السلطان تأويلا يتطرق به الى مكاره الرعية، ولا ينشر الرخص فى السفهاء فيجعلوا ذلك طريقا إلى ارتكاب المحظورات، وترك الواجبات ونحو ذلك . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تضعوها فى غير أهلها فتظلموها" وروى عنه صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "لا تعلقوا الدرّ فى أعناق الخنازير" . يريد تعليم الفقه من ليس من أهله . وقد قال سحنون : إن حديث أبى هريرة وعمرو بن العاص إنما جاء فى الشهادة . قال ابن العربى : والصحيح خلافه ، لأن فى الحديث "من سئل عن علم" ولم يقل عن شهادة، والبقاء على الظاهر، حتى يرد عليه ما يزيله . والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى ﴾ يعم المنصوص عليه والمستنبط لشمول اسم الهدى للجميع . وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد ؛ لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله . وقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾ فحكم بوقوع البيان بخبرهم .

فإن قيـل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منهيا عن الكتمان ومأمورا بالبيان ليكثر المخبرون ويتواتر بهم الخبر . قلت : هذا غلط لأنهـم لم ينهوا عن الكتمان إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليـه، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان فلا يكون خبرهم موجبا للعلم . والله تعـالى أعلم .

الرابعـــة — لمـا قال : ﴿ مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى ﴾ دلّ على أن ما كان من غير ذلك جائز كتمه، لاسيما إن كان مع ذلك خوف فإن ذلك آكد فى الكتمان ؛ وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال: حفظت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعاءين؛ فأما أحدهما فبثثته، وأما

الآخر فلو بثثته قُطع هذا البُلعوم. أخرجه البخاري. قال أبو عبد الله[1]: البلعوم مجرى الطعام. قال علماؤنا: وهذا الذي لم يبثه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل، إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن. والنص على أعيان المرتدين والمنافقين ونحو هذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى. والله تعالى أعلم.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ الكناية في «بيناه» ترجع إلى ما أنزل من البينات والهدى. والكتاب اسم جنس، والمراد جميع الكتب المنزلة.

السادسة — قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي يتبرأ منهم ويبعدهم من ثوابه ويقول لهم: عليكم لعنتي؛ كما قال للعين: عليك لعنتي. وأصل اللعن في اللغة الإبعاد والطرد، وقد تقدّم.

السابعة — قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾. قال قتادة والربيع: المراد باللاعنون الملائكة والمؤمنون. قال ابن عطية: وهذا واضح جار على مقتضى الكلام. وقال مجاهد وعكرمة: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم. قال الزجاج: والصواب قول من قال: اللاعنون، الملائكة والمؤمنون؛ فاما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقته إلا بنص أو خبر لازم ولم نجد من ذينك شيئا.

قلت: قد جاء بذلك خبر رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾. قال: "دواب الأرض". أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح أنبأنا عمار بن محمد عن ليث عن أبي المنهال عن زاذان عن البراء باسناد حسن.

فإن قيل: كيف جمع من لا يعقل جمع من يعقل. قيل: لأنه أسند إليهم فعل من يعقل؛ كما قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. ولم يقل ساجدات. وقد قال: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾. وقال: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾. ومثله كثير وسيأتي ان شاء الله تعالى.

(١) أبو عبد الله، كنية البخاري رضي الله عنه.

وقال البراء بن عازب وابن عباس : اللاعنون كل المخلوقات ما عدا الثقلين : الجن والانس ؛ وذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " الكافر إذا ضُرب فى قبره فصاح سمعه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع " . وقال ابن مسعود والسّدى : هو الرجل يلعن صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء فترجع ثم تنحدر فلا تجـد صاحبها الذى قيلت فيـه أهلا لذلك ، فترجع إلى الذى تكلم بها فلا تجده أهلا فتنطلق فتقع على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله تعـالى ؛ فهو قوله : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ ﴾ فمن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه فكانت فيمن بقى من اليهود .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا ﴾ استثنى تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم المنيبين لتوبتهم . ولا يكفى فى التوبة عنـد علمائنا قول القائل : قد تبت ؛ حتى يظهر منه فى الثانى خلاف الأول ؛ فإن كان مرتدا رجع إلى الاسلام مظهرا شرائعه ، و إن كان من أهل المعاصى ظهر منـه العمل الصالح ، وجانب أهل الفساد والأحوال التى كان عليها . و إن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام ، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه . وسيأتى بيان التوبة وأحكامها فى النساء إن شاء الله تعالى . وقال بعض العلماء فى قوله : ﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ أى بكسر الخمر وإراقتها . وقيل : بينوا يعنى ما فى التوراة من نبوّة محمد صلى الله عليه وسلّم ووجوب اتباعه . والعموم أولى على ما بيناه ؛ أى بينوا خلاف ما كانوا عليه ؛ والله تعالى أعلم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ . تقدّم والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الآية . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ الواو واو الحال . قال ابن العربىّ : قال لى كثير من أشياخى إن الكافر المعيّن لا يجوز لعنه ؛ لأن حاله عند الوفاة لا تعلم ، وقد شرط الله تعالى فى هـذه الآية فى إطلاق اللعنة : الوفاة على الكفر ؛ وأما ما رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه لعن أقواما بأعيانهم من الكفار فإنمـا كان ذلك لعلمه بمآلهم . قال ابن العربىّ : والصحيح عندى جواز لعنه لظاهر حاله و لجواز قتله وقتاله ؛ وقد روى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " اللّهم إن عمرو بن العاص هجانى وقد علم أنى لست بشاعر فالعنه واهجه عدد

ماهجاني" . فلعنه و إن كان الإيمان والدِّين والإسلام مآله . وآنتصف بقوله : "عدد ماهجاني" ولم يزد ليعلِّم العدل والإنصاف، وأضاف الهجو إلى الله تعالى فى باب الجزاء، دون الابتداء بالوصف بذلك ؛ كما يضاف إليه المكر والاستهزاء والخديعة . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرا .

قلت : أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف فى ذلك ؛ لما رواه مالك عن داود ابن الحصين أنه سمع الأعرج يقول : ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة فى رمضان . قال علماؤنا : وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن، وليس ذلك بواجب، ولكنه مباح لمن فعله ؛ لجحدهم الحق وعداوتهم للدِّين وأهـله . وكذلك كل من جاهر بالمعـاصى كشرب الخمـر وأكل الربا ، ومن تشبّه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء، الى غير ذلك ممـا ورد فى الأحاديث لعنه .

الثـانيـــة — ليس لعن الكافر بطريق الزّجر له عن الكفر ؛ بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره، كان الكافر ميتا أو مجنونا . وقال قوم من السلف : إنه لا فائدة فى لعن من جُنّ أو مات منهم، لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزّجر، فإنه لا يتأثر به .

والمراد بالآية على هـذا المعنى أن الناس يلعنونه يوم القيامة ليتأثر بذلك ويتضرر ويتألم قلبـه ؛ فيكون ذلك جزاء على كفره ؛ كما قال تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ . ويدلّ على هـذا القول أن الآية دالّة على الإخبار عن الله تعالى بلعنهم، لا على الأمر. وذكر ابن العربى أن لعن العاصى المعيّن لا يجوز إتفاقا ؛ لمـا رُوى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه أتى بشارب خمر مرارا ، فقال بعض من حضره : لعنـه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال النبيّ صلّى الله عليـه وسـلّم : "لا تكونوا عون الشـيطان على أخيكم" فجعل له حرمة الأخوّة ؛ وهذا يوجب الشفقة، وهذا حديث صحيح .

قلت : خرّجه البخارىّ ومسـلم . وقد ذكر بعض العلماء خلافا فى لعن العاصى المعينّ ؛ قال : وإنمـا قال عليـه السلام : " لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم " . فى حق نعيمان(١) بعد إقامة الحدّ عليه؛ ومن أقيم عليه حدّ الله تعالى فلا ينبغى لعنه، ومن لم يقم عليه الحدّ فلعنته جائزة سواء سُمّى أو عيّن أم لا؛ لأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا يلعن إلا من تجب عليه اللعنة مادام على تلك الحالة الموجبة للّعن؛ فاذا تاب منها وأقلع وطهره الحدّ فلا لعنـة تتوجه عليه. وبيّن هذا قوله صلّى الله عليه وسلّم : " اذا زنت أَمَة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يثرّب " . فدل هذا الحديث مع صحته على أن التثريب واللّعن إنمـا يكون قبل أخذ الحدّ وقبل التوبة . والله تعـالى أعلم .

قال ابن العربى : وأما لعن العاصى مطلقا فيجوز إجمـاعا لمـا روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده " .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ ﴾ أى إبعادهم من رحمته . وأصل اللعن الطرد والإبعاد؛ وقد تقدم . فاللعنة : من العباد الطّرد، ومن الله العذاب، وقرأ الحسن البصرى «والملائكة والناس أجمعون» بالرفع . وتأويلها أولئـك جزاؤهم أن يلعنهم الله ويلعنهم الملائكة ويلعنهـم الناس أجمعون؛ كما تقول : كرهت قيام زيدٍ وعمروٌ وخالدٌ ؛ لأن المعنى : كرهت أن قام زيد . وقراءة الحسن هذه مخالفة للصاحف .

فإن قيل : ليس يلعنهم جميع الناس لأن قومهم لا يلعنونهم . قيل عن هذا ثلاثة أجوبة؛ أحدها ــ أن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس تغليبا لحكم الأكثر على الأقل . الثـانى ــ قال السّدىّ : كل أحد يلعن الظالم، واذا لعن الكافر الظالم فقد لعن نفسه . الثالث ــ قال أبو العاليـة : المراد به يوم القيامة يلعنهم قومهم مع جميع النـاس ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ . ثم قال جلّ وعزّ :

(١) نعيان (مصغر) هو ابن عمرو بن رفاعة . شهد العقبة وبدرا والمشاهد بعدها . وكان كثير المزاح ، يضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم من مزاحه . (عن أسد الغابة) .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني في اللعنة، أي في جزائها . وقيل : خلودهم في اللعنة أنها مؤبدة عليهم. ﴿وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يؤخرون عن العذاب وقتا من الأوقات . وخالدين نصب على الحال من الهاء والميم في عليهم؛ والعامل فيه الظرف من قوله : ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لأن فيها استقرار اللعنة .

قوله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أول مايجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان ، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع؛ ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء . قال ابن عباس رضي الله عنهما : قالت كفار قريش : يا محمد انسب لنا ربك ؛ فأنزل الله تعالى سورة الاخلاص وهذه الآية . وكان للمشركين ثلثمائة وستون صنما فبين الله أنه واحد .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفي وإثبات، أولها كفر وآخرها إيمان، ومعناه لا معبود إلا الله . وحكى عن الشبلي رحمه الله تعالى أنه كان يقول : الله . ولا يقول: لا إله ؛ فسئل عن ذلك فقال : أخشى أن آخذ في كلمة الجحود ولا أصل الى كلمة الإقرار .

قلت : وهذا من علومهم الدقيقة، التي ليست لها حقيقة؛ فإن الله جل اسمه ذكر هذا المعنى في كتابه نفيا وإثباتا وكرره، ووعد بالثواب الجزيل لقائله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ خرجه الموطأ والبخاري ومسلم وغيرهم . وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " . خرجه مسلم . والمقصود القلب لا اللسان؛ فلو قال : لا إله ومات ومعتقده وضميره الوحدانية وما يجب له من الصفات لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السنة . وقد أتينا على معنى اسم الواحد ، ولا إله إلا هو الرحمن الرحيم في الكتاب «الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى» والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الى قوله : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قال عطاء : لمـا نزلت ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ! فنزلت ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ . رواه سفيان عن أبيه عن أبي الضحى قال : لمـا نزلت ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قالوا : هـل من دليـل على ذلك؟ فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فكأنهم طلبوا آية فبيّن لهم دليل التوحيد وأن هذا العالم والبناء العجيب لا بدّ له من بانٍ وصانع . وجمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى . ووحد الأرض لأنها كلها تراب؛ والله تعالى أعلم .

فآية السموات ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها؛ ودل ذلك على القـدرة وخرق العادة . ولو جاء نبيّ فتحدّى بوقوف جبل في الهواء دون علاقة كان معجزا . ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة، نيّرة وممحوّة آية ثانية .

وآية الأرض بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ قيل : اختلافهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر من حيث لا يعلم . وقيل : اختلافهما في الأوصاف من النور والظلمة والطول والقصر . والليل جمع ليلة؛ مثل تمرة وتمر ونخلة ونخل . ويجمع أيضا ليالى وليالٍ بمعنًى، وهو ممـا شـذ عن قياس الجموع ؛ كشَبه ومَشابه وحاجة وحوائج وذكر ومذاكر ؛ وكأن ليـالى في القياس جمع ليلاة . وقد استعملوا ذلك في الشعر قال :

* في كل يوم وكـل ليـلاه *

وقال آخر :

في كلّ يوم ما وكلّ لَيْـــلاهْ * حتى يقـول كلُّ راءٍ إذ رآهْ
* ياوَيْحَهُ من جَمَلٍ ما أشْقاهْ *

قال ابن فارس في المجمل : ويقال إن بعض الطير يسمّى ليلا؛ ولا أعرفه (١) . والنهار يجمع نُهُر وأنهرة . قال أحمـد بن يحيى ثعلب : نَهَرٌ جمع نُهُر وهو جمع للنهار . وقيل : النهار اسم

(١) في لسان العرب أن الليل فرخ الكروان .

مفرد لم يجمع لأنه بمعنى المصدر؛ كقولك : الضياء ؛ يقع على القليل والكثير . والأول أكثر؛ قال الشاعر :

لو لا الثّريدان هلكنا بالضُّمُرْ * ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ

قال ابن فارس : النهر معروف، والجمع نهر وأنهار . ويقال : إن النهار يجمع على النُّهُر . والنهار ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس . ورجل نَهِرٌ صاحب نهار . ويقال : إن النهار فرخ الحُبارى . قال النضر بن شميل : أول النهار طلوع الشمس، ولا يعد ما قبل ذلك من النهار . وقال ثعلب : أوله عند العرب طلوع الشمس؛ واستشهد بقول أُمَيّة بن أبي الصلت :

والشمس تطلع كلّ آخرِ ليلة * حمراء يصبح لونها يتورّدُ

وأنشد قول عدىّ بن زيد :

وجاعلُ الشّمس مِصرًا[1] لاخفاء به * بين النهار و بين الليل قد فَصَلَا

وأنشد الكسائىّ :

إذا طلعت شمس النهار فإنها * أمارة تسليمى عليك فسلّمى

قال الزجاج فى كتاب الأنواء : أول النهار ذرور الشمس . وقسّم ابن الأنبارىّ الزمن ثلاثة أقسام : قسما جعله ليلا محضا؛ وهو من غروب الشمس الى طلوع الفجر . وقسما جعله نهارا محضا؛ وهو من طلوع الشمس الى غروبها . وقسما جعله مشتركا بين النهار والليل؛ وهو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار .

قلت : والصحيح أن النهار من طلوع الفجر الى غروب الشمس؛ كما رواه ابن فارس فى المجمل . يدل عليه ما ثبت فى صحيح مسلم عن عدىّ بن حاتم قال : لما نزلت ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ قال له عدىّ : يا رسول الله ، إنى أجعل تحت وسادتى عقالين : عقالا أبيض، وعقالا أسود أعرف بهما الليل من النهار . فقال

(١) المصر الحاجز بين الشيئين .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إن وسادك لعريض إنمـا هو سواد الليل وبياض النهار". فهذا الحـديث يقضى أن النهار من طلوع الفجر الى غروب الشمس ؛ وهو مقتضى الفقـه فى الأيمان، وبه ترتبط الأحكام . فمن حلف ألّا يكلم فلانا نهارا، فكلمه قبل طلوع الشمس حنث . وعلى الأول لا يحنث . وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الفيصل فى ذلك والحَكَم . وأما على ظاهر اللغة وأخذه من السّعة، فهو من وقت الإسفار إذا اتسع، وقت النهار؛ كما قال :

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها * يرى قائم من دونها ما وراءها

وقد جاء عن حذيفة ما يدل على هـذا القول؛ خرّجه النسائى . وسـيأتى فى آى الصيام إن شاء الله تعالى .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ الفلك : السفن، وإفراده وجمعـه بلفظ واحد، ويذكر ويؤنث . وليست الحركات فى المفرد تلك بأعيانهـا فى الجمع ، بل كأنه بنى الجمع بناء آخر؛ يدلّ على ذلك توسط التثنية فى قولهم : فُلْكان . والفلك المفرد مذكر؛ قال الله تعالى: ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ فجاء به مذكرا . وقال : ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ فأنث . ويحتمل واحدا وجمعا . وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ فجمع؛ فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة الى المَرْكَب فيذكر، والى السفينة فيؤنث . وقيل: واحده فَلَك ؛ مثل أَسَد وأُسْد، وخَشَب وخُشْب .

وأصله من الدَّوران ؛ ومنه : فلَك السماء التى تدور عليـه النجوم . وفَلَّكت الجارية : استدار ثديها، ومنه فَلْكة المِغْزَل . وسميت السفينة فُلْكا لأنها تدور بالمـاء أسهل دور .

ووجه الآية فى الفلك تسخير الله إياها حتى تجرى على وجه المـاء ووقوفها فوقه مع ثقلها . وأوّل من عملها نوح عليه السلام كما أخبر تعالى؛ وقال له جبريل : اصنعها على جؤجؤ الطائر (١) ؛ فعملها نوح عليـه السلام وراثة فى العالمين بمـا أراه جبريل . فالسفينة طائر مقلوب والمـاء فى أسفلها نظير الهواء فى أعلاها . قاله ابن العربى .

(١) الجؤجؤ : عظام صدر الطائر .

الرابعـة — هذه الآية وما كان مثلها دليـل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عبـادة ؛ كالحج والجهاد . ومن السّـنة حديث أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : يارسول الله ، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من المـاء ؛ الحديث. وحديث أنس بن مالك فى قصـة أمّ حرام ؛ أخرجهما الأئمة : مالك وغيره . روى حديث أنس عنـه جماعة عن إسحاق بن عبـد الله بن أبى طلحة عن أنس ، ورواه بشر بن عمر عن مالك عن إسحاق عن أنس عن أم حرام . جعـله من مسند أم حرام لا من مسـند أنس . هكذا حدّث عنـه به بندار محمـد بن بشار ؛ ففيه دليـل واضح على ركوب البحر فى الجهاد للرجال والنساء . وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبـد العزيز رضى الله عنهما المنع من ركوبه . والقرآن والسـنة يرد هـذا القول ؛ ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم الذين قالوا له : إنا نركب البحر. وهذه الآية وما كان مثلها نص فى الغرض وإليهـا المفزع . وقد تؤوّل ما روى عن العمرين فى ذلك : بأن ذلك محمول على الاحتياط وترك التغرير بالمهج فى طلب الدنيا والاستكثار منها . وأما فى أداء الفرائض فلا . وممـا يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله تعـالى ضرب البحر وسط الأرض وجعـل الخلق فى العُـدْوتين (١) ، وقسم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جلبها إلا بشق البحر لهـا ؛ فسهل الله سبيله بالفلك . قاله ابن العربى . قال أبو عمر : وقد كان مالك يكره للمرأة الحج فى البحر وهو للجهاد لذلك أكره . والقرآن والسنة ترد قوله ، إلا أن بعض أصحابنا من أهل البصرة قال : إنمـا كره ذلك مالك لأن السفن بالحجـاز صغار ، والنساء لا يقدرن على الاستتار عنـد الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيهـا ؛ وكان الطريق من المدينـة إلى مكة على الـبر ممكنا ؛ فلذلك كره مالك ذلك . وأمّا السّفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس . قال : والأصل أن الحج على كل

(١) العدوة : شاطىء الوادى .

من استطاع اليــه سبيلا من الأحرار البالغين نساء كانوا أو رجالا إذا كان الأغلب من الطريق الأمن، ولم يخص بحرا من برّ .

قلت : فدل الكتاب والســنة والمعنى على إباحة ركوبه للعنيين جميعا : العبادة والتجارة، فهى الحجة وفيها الأسوة ؛ إلا أنّ الناس فى ركوب البحر تختلف أحوالهم، فرب راكب سَهُل عليه ذلك ولا يشق، وآخر يشق عليه ويضعف به، كالمـائد(١) المفرط الميد، ومن لم يقدر معه على أداء فرض الصلاة ونحوها من الفرائض ؛ فالأول ذلك له جائز، والثانى يحرم عليه ويمنع منه . ولا خلاف بين أهل العلم وهى :

الخامســـة — إن البحر إذا ارتج لم يجز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه فى حين ارتجاجه ولا فى الزمن الذى الأغلب فيه عدم السلامة . وإنمـا يجوز عندهم ركوبه فى زمن تكون السلامة فيه الأغلب؛ فان الذين يركبونه حال السلامة وينجون لا حاصر لهم، والذين يهلكون فيه محصورون .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ أى بالذى ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التى تصلح بهـا أحوالهم . وبركوب البحر تكتسب الأرباح ، وينتفع من يحمل إليه المتاع أيضا . وقد قال بعض من طعن فى الدّين : إنّ الله تعالى يقول فى كتابكم : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ فأين ذكر التوابل المصلحة للطعام من الملح والفلفل وغير ذلك . فقيل له فى قوله : ﴿ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ يعنى بها الأمطار التى بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق، وجعل منه المخزون عُدّة للانتفاع فى غير وقت نزوله، كما قال تعالى : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ ﴾ .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى فرق ونشر؛ ومنه ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ . ودابة تجمع الحيوان كله . وقد أخرج بعض الناس الطير، وهو مردود، قال الله

(١) المـائد : الذى يركب البحر فتغثى نفسه حتى يدار به ويكاد يغشى عليه .

تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ فإن الطير يدب على رجليه فى بعض حالاته؛ قال الأعشى :

* دَبِيبَ قطا البطحاء فى كل مَنْهل *

وقال علقمة بن عَبَدَة :

* صَواعِقُها لطَيْرِهِنّ دَبِيب *

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ تصريفها إرسالها عقيما ومُلَقِّحة وصِرًّا ونصرا وهلاكا وحارّة وباردة ولينة وعاصفة . وقيل : تصريفها إرسالها جنوبا وشمالا ودبورا وصبا ونكباء : وهى التى تأتى بين مهبّى ريحين . وقيل : تصريفها أن تأتى السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك، ويصرف عنهما ما يضربهما، ولا اعتبار بكبر القلوع ولا صغرها؛ فإن الريح لو جاءت جسدا واحدا لصدمت القلوع وأغرقت . والرياح جمع ريح سميت به لأنها تأتى بالروح غالبا؛ روى أبو داود عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسئلوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها"[1] . وأخرجه أيضا ابن ماجه فى سننه حدّثنا أبو بكر ابن أبى شيبة حدّثنا يحيى بن سعيد عن الأوزاعى عن الزهرى حدّثنا ثابت الزرقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . "لا تسبّوا الريح فإنها من روح الله تأتى بالرحمة والعذاب ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها" . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تسبوا الريح فإنها من نَفَس الرحمن" . المعنى أن الله تعالى جعل فيها التفريج والتنفيس والترويح؛ والإضافة من طريق الفعل، والمعنى : أن الله تعالى جعلها لذلك . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلّم أنه قال : "نُصِرْتُ بالصَّبَا وأُهلِكتْ عاد بالدَّبور" . وهذا معنى ماجاء فى الخبر أن الله

(١) كذا ورد فى سنن أبى داود . والذى فى الأصول : « الريح من روح الله . قال سلمة : فروح الله عزوجل تأتى ... الخ » . وسلمة أحد من روى عنهم أبو داود هذا الحديث ، قال أبو داود : حدّثنا أحمد بن محمد المروزى وسلمة يعنى ابن شبيب قالا ... الخ .

سبحانه وتعالى فرّج عن نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالريح يوم الأحزاب ، فقال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ . يقال : نفّس الله عن فلان كربة من كرب الدنيا ، أى فرج عنه . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : "من نفّس عن مسلم كُربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كُرْبة من كرب يوم القيامة" . أى فرّج عنه . وقال الشاعر :

كأن الصَّبا ريح إذا ما تبسّمت * على قلب مهموم تجلّت همومها

قال ابن الأعرابى : النسيم أوّل هبوب الريح . وأصل الريح روح ؛ ولهذا قيل فى جمع القلة : أرواح . ولا يقال : أرياح ؛ لأنها من ذوات الواو ؛ وإنما قيل : رياح من جهة الكثرة وطلب تناسب الياء معها . وفى مصحف حفصة « وتصريف الأرواح » .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « الريح » على الإفراد ، وكذا فى الأعراف والكهف وإبراهيم والنمل والروم وفاطر والشّورى والجاثية . لا خلاف بينهم فى ذلك . ووافقهما ابن كثير فى الأعراف والنمل والروم وفاطر والشورى . وأفرد حمزة « الريح لواقح » . وأفرد ابن كثير « وهو الذى أرسل الريح » فى الفرقان . وقرأ الباقون بالجمع فى جميعها سوى الذى فى إبراهيم والشورى فلم يقرأهما بالجمع سوى نافع . ولم يختلف السبعة فيما سوى هذه المواضع . والذى ذكرناه فى الروم هو الثانى « الذى يرسل الرياح » . ولا خلاف بينهم فى « الرياح مبشرات » . وكان أبو جعفر يزيد بن القعقاع يجمع الرياح إذا كان فيهما ألف ولام فى جميع القرآن ؛ سوى «تهوى به الريح» و « الريح العقيم» . فان لم يكن فيه ألف ولام أفرد . فمن وحّد الريح فلأنه اسم جنس يدل على القليل والكثير . ومن جمع فلاختلاف الجهات التى تهب منها الرياح . ومن جمع مع الرحمة ووحّد مع العذاب فإنه فعل ذلك اعتبارا بالأغلب فى القرآن ؛ نحو : « الرياح مبشرات » و « الريح العقيم » فجاءت فى القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب ؛ إلا فى يونس فى قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبّت الريح : "اللهم

اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا " . وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد ، وريح الرحمة لينة متقطعة فلذلك هى رياح . فأفردت مع الفلك فى يونس؛ لأن ريح إجراء السفن إنما هى ريح واحدة متصلة ثم وصفت بالطيب فزال الاشتراك بينها وبين ريح العـــذاب .

الحـادية عشرة — قال العلماء : الريح تحرك الهواء، وقد يشتدّ ويضعف . فاذا بدت حركة الهواء تجاه القبلة قيل لتلك الريح : «الصّبا» . واذا بدت حركة الهواء من وراء القبلة ذاهبة الى تجاه القبلة قيل لتلك الريح : « الدبور » . وإذا بدت حركة الهواء عن يمين القبلة ذاهبة إلى يسارها قيل لهـا : « ريح الجنوب » . وإذا بدت حركة الهواء عن يسار القبلة ذاهبـة الى يمينها قيل لهـا : « ريح الشمال » . ولكل واحدة من هـذه الرياح طبع فتكون منفعتها بحسب طبعها ؛ فالصّبا حارة يابسة ، والدّبور باردة رطبـة ، والجنوب حارة رطبة ، والشمال باردة يابســة . واختلاف طباعها كاختلاف طبـاع فصول السنة ؛ وذلك أن الله تعالى وضع للزمان أربعة فصول مرجعها إلى تغيير أحوال الهواء؛ فجعل الربيع الذى هو أوّل الفصول حارا رطبا ، ورتب فيه النشء والنمو فتنزل فيه المياه ، وتخرج الأرض زهرتها وتظهر نباتها ، ويأخذ الناس فى غرس الأشجار وكثير من الزرع ، وتتوالد فيه الحيوانات وتكثر الألبان . فإذا انقضى الربيــع تلاه الصيف الذى هو مشاكل للربيع فى إحدى طبيعتيه وهى الحرارة ، ومباين له فى الأخرى وهى الرطوبة ؛ لأن الهــواء فى الصيف حارّ يابس فتنضج فيــه الثمــار وتيبس فيه الحبوب المزروعة فى الربيع . فاذا انقضى الصيف تبعه الخريف الذى هو مشاكل للصيف فى إحدى طبيعتيه وهى اليبس ، ومباين له فى الأخرى وهى الحرارة؛ لأن الهواء فى الخريف بارد يابس فيتناهى فيــه صلاح الثمــار وتيبس وتجف فتصير إلى حال الادخار فتقطف الثمــار وتحصد الأعنــاب وتفرغ من جمعها الأشجــار . فاذا انقضى الخريف تلاه الشتاء وهو ملائم للخريف فى إحدى طبيعتيه وهى البرودة ، ومباين له فى الأخرى وهو اليبس؛ لأن الهــواء فى الشتاء بارد رطب فتكثر الأمطار والثلوج وتهمــد الأرض كالجسد المستريح

فلا تحرك إلى أن يعيد الله تبارك وتعـالى إليها حرارة الربيع؛ فاذا اجتمعت مع الرطوبة كان ذلك عيـد النشء والنمو بإذن الله سبحانه وتعـالى . وقد تَهُبّ رياح كثيرة سـوى ما ذكرنا إلا أن الأصول هذه الأربعـة . فكل ريح تَهُب بين ريحين فحكمها حكم الريح التى تكون فى هبوبها أقرب الى مكانها وتسمى «النكباء» .

الثانيـة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ سُمى السحاب سحابا لانسحابه فى الهواء . وسحبت ذيلى سحبا . وتسحّب فلان على فلان : اجترأ . والسَّحْب شدّة الأكل والشرب . والمسخر : المذلل؛ وتسخيره بعثه من مكان الى آخر . وقيل : تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق ؛ والأوّل أظهر . وقد يكون بماء وبعذاب؛ روى مسـلم عن أبى هريرة رضى الله عنـه عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا فى سحابة اَسْـقِ حديقة فلان فتنحّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حَرَّة[1] فإذا شَرْجَة من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك المـاءَ كلّه فتتبَّعَ المـاءَ فإذا رجل قائم فى حديقته يحوّل المـاء بِمِسْحاته فقال له ياعبد الله ما اسمك قال فلان للاسم الذى سَمِع فى السحابة فقال له يا عبد الله لِمَ تسألنى عن اسمى فقال إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع [فيها][2] قال أمّا اذ قلتَ هذا فإنى أنظر الى مايخرج منها فأتصدّق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأردّ فيها ثلثه" . وفى رواية "واجعل ثلثه فى المساكين والسائلين وابن السبيل" . وفى التنزيل : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ وقال :﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ . وهو فى التنزيل كثير . وخرّج ابن ماجه عن عائشة أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا رأى سحابا مقبلا من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه وإن كان فى صلاة حتى يستقبله فيقول : "اللّهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسل به" فان أمطر قال : "اللّهم سَيْبا نافعا" مرتين أو ثلاثا ، وإن كشفه الله ولم يمطر حمد الله على ذلك . أخرجه مسـلم بمعناه عن عائشة زوج النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قالت : كان رسـول الله صلّى

(١) الحرة : أرض ذات أحجار سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

الله عليه وسلم إذا كان يوم الريح والغيم عُرِف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر؛ فاذا مطرت سُرّ به وذهب عنه ذلك . قالت عائشة : فسألته فقال : " إني خشيت أن يكون عذابا سُلِّط على أمتي " . ويقول اذا رأى المطر : " رحمة " في رواية فقال : " لعله يا عائشة كما قال قوم عاد فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا" . فهذه الأحاديث والآى تدل على صحة القول الأول وأن تسخيرها ليس ثبوتها؛ والله تعالى أعلم .

فإن الثبوت يدل على عدم الانتقال . فإن أريد بالثبوت كونها في الهواء ليست في السماء ولا في الأرض فصحيح لقوله : ﴿ بَيْنَ ﴾ وهي مع ذلك مسخرة محمولة . وذلك أعظم في القدرة كالطير في الهواء؛ قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ .

الثالثة عشرة — قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض . رواه عبد الله بن عباس . ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب الجهنيّ قال : رأيت ابن عباس مرّ على بغلة وأنا في بني سلمة فمرّ به تُبَيع ابن امرأة كعب فسلّم على ابن عباس فسأله ابن عباس : هل سمعت كعب الأحبار يقول في السحاب شيئا ؟ قال : نعم؛ قال : السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد ما يقع عليه من الأرض . قال : سمعتَ كعبا يقول في الأرض تنبت العام نباتا وتنبت عاما قابلا غيره؟ قال : نعم، سمعته يقول : إن البذر ينزل من السماء . قال ابن عباس : وقد سمعت ذلك من كعب .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات تدلّ على وحدانيته وقدرته؛ ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ليدل بها على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه وذكر رحمته ورأفته بخلقه . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها " أي لم يتفكر فيها ولم يعتبرها .

فإن قيل : فما أنكرت أنها أحدثت أنفسها . قيل له : هـذا محال ؛ لأنها لو أحدثت أنفسها لم تخـل من أن تكون أحدثتها وهى موجودة أو هى معدومة . فان أحدثتها وهى معدومة، كان محالا ؛ لأن الإحداث لا يتأتى إلا من حىّ عالم قادر مريد ، وما ليس بموجود لا يصح وصفه بذلك . و إن كانت موجودة فوجودها يغنى عن إحداث أنفسها . وأيضا فـ جاز ما قالوه لجاز أن يحدث البناء نفسه ؛ وكذلك النجارة والنسج . وذلك محال وما أدّى الى المحال محال . ثم أن الله تعالى لم يقتصر بها فى وحدانيته على مجرّد الاخبار حتى قرن ذلك بالنظر والاعتبار فى آى القرآن ؛ فقال لنبيّه صلى الله عليه وسلّم : ﴿ قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ والخطاب للكفار ؛ لقوله تعـالى : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُـرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعـنى بالملـكوت الآيات . وقال ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يقول : أو لم ينظروا فى ذلك نظر تفكّر وتدبّر حتى يستدلوا بكونها محلا للحوادث والتغييرات على أنها محدثات والمحدث لا يستغنى عن صانع يصنعه وأن ذلك الصانع حكيم عالم قدير سميع بصير متكلم ؛ لأن لو لم يكن بهذه الصفات لكان الإنسان أكمل منه وذلك محال . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ يعنى آدم عليه السلام . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى جعلنا نسـله وذريته ﴿ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ الى قوله : ﴿ تُبْعَثُونَ ﴾ . فالإنسان إذا تفكّر بهذا التنبيه بمـا جعل له من العقل فى نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرّفة . كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما ؛ فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه فى الحال الأفضل التى هى كمال عقـله و بلوغ أشدّه عضوا من الأعضـاء ، ولا يمكنه أن يزيد فى جوارحه جارحة ؛ فيدله ذلك على أنه فى حال نقصـه وأوان ضعفه عن فعـل ذلك أعجز ، وقد يرى نفسه شابا ثم كهلا ثم شيخا وهو لم ينقل نفســه من حال الشباب والقوّة إلى حال الشـيخوخة والهرم ، ولا اختاره لنفسه ولا فى وسعه أن يزايل حال المشيب و يراجع قوّة الشباب ؛ فيعلم بذلك أنه ليس هو الذى فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعا صنعه وناقلا نقله من حال الى حال ؛

ولولا ذلك لم تتبدّل أحواله بلا ناقل ولا مدبّر . وقال بعض الحكماء : إن كل شيء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير الذى هو بدن الانسان ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . فحواس الانسان أشرف من الكواكب المضيئة ، والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر فى إدراك المدركات بها ، وأعضاؤه تصير عند البلى ترابا من جنس الأرض . وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس . ومن جنس النار فيه المرّة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض . وكبده بمنزلة العيون التى تستمدّ منها الأنهار ؛ لأن العروق تستمد من الكبد . ومثانته بمنزلة البحر ؛ لانصباب ما فى أوعية البدن إليها كما تنصب الأنهار الى البحر . وعظامه بمنزلة الجبال التى هى أوتاد الأرض . وأعضاؤه كالأشجار كما أن لكل شجر ورقا أو ثمرا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر . والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض . ثم إن الإنسان يحكى بلسانه كل صوت حيوان ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان ؛ فهو العالم الصغير مع العالم الكبير مخلوق محدث لصانع واحد ؛ لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾ الآية . لما أخبر الله سبحانه وتعالى فى الآية قبل ما دلّ على وحدانيته وقدرته وعظم سلطانه أخبر أن مع هذه الآيات القاهرة لذوى العقول من يتخذ معه أندادا . وواحدها نِدٌّ . وقد تقدم . والمراد الأوثان والأصنام التى كانوا يعبدونها كعبادة الله مع عجزها ؛ قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ أى يحبون أصنامهم على الباطل كحب المؤمنين لله على الحق ؛ قاله المبرد . وقال معناه الزجاج ، أى أنهم مع عجز الأصنام يحبونهم كحب المؤمنين لله على الحق مع قدرته . وقال ابن عباس والسدّى : المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون ؛ يطيعونهم فى معاصى الله . وجاء الضمير فى «يحبونهم» على هذا على الأصل ، وعلى الأول جاء ضمير الأصنام ضمير من يعقل على غير الأصل . وقال ابن كيسان والزجاج أيضا : معنى « يحبونهم كحب الله » أى يسوّون بين الأصنام وبين الله تعالى فى المحبة . قال أبو إسحاق : وهذا القول الصحيح ؛

والدليـــل على صحته : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ وقرأ أبو رجاء « يحبونهم » بفتح الياء وكذلك ما كان منه فى القرآن ، وهى لغة ؛ يقال : حببت الرجل فهو محبوب . قال الفرّاء أنشدنى أبو تراب :

أحبّ لحبّها السودان حتى * حببت لحبها سود الكلاب

ومَنْ، فى قوله :﴿ مَنْ يَتَّخِذُ ﴾ فى موضع رفع بالابتداء، ويتخذ على اللفظ ، ويجوز فى غير القرآن « يتخـذون » على المعنى . ويحبونهم على المعنى، ويحبهم على اللفظ ، وهو فى موضع نصب على الحـال من الضمير الذى فى يتخذ ، أى محبين . وإن شئت كان نعتا للأنداد؛ أى محبوبة . والكاف من « كحب » نعت لمصـدر محـذوف ، أى يحبونهم حبا كحبّ الله . ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أى أشدّ من حب أهل الأوثان لأوثانهم والتابعين لمتبوعهم . وقيل : إنمـا قال ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَـدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ لأن الله تعالى أحبهم، أو لأنهم أحبوه . ومن شهد له محبوبه بالحب كانت محبته أتم؛ قال الله تعـالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ . وسيأتى بيان حبّ المؤمنين لله وحبه لهم فى سورة آل عمران إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأهل الشام بالتاء ، وأهل مكة وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء؛ وهو اختيار أبى عبيد . وفى الآية إشكال وحذف؛ فقال أبو عبيـد : المعنى لو يرى الذين ظلموا فى الدنيـا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القوة لله جميعا . و « يرى » على هـذا من رؤية البصر . قال النحاس فى كتاب «معانى القرآن» له : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير . وقال فى كتاب «إعراب القرآن» له : وروى عن محمد بن يزيد أنه قال : هذا التفسير الذى جاء به أبو عبيد بعيد وليست عبارته فيه بالجيدة؛ لأنه يقدر : ولو يرى الذين ظلموا العذاب؛ فكأنه يجعله مشكوكا فيه وقد أوجبه الله تعالى . ولكن التقـدير وهو قول الأخفش : ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله . ويرى بمعنى يعلم، أى لو يعلمون حقيقة قوة الله عز وجل وشدة عذابه . فيرى واقعة على أن القوة لله ، وسـدّت سدّ المفعولين . والذين فاعل يرى . وجواب لو محـذوف ، أى تبينوا ضرر

آتخاذهم الآلهة؛ كما قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ولم يأت للو جواب . قال الزهري وقتادة : الإضمار أشد للوعيد؛ ومثله قول القائل : لو رأى فلان فلانا والسياط تأخذه ! ومن قرأ بالتاء فالتقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم واستعظامهم لأقروا أن القوة لله . فالجواب مضمر على هذا النحو من المعنى وهو العامل في أنّ . وتقدير آخر : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعا . وقد كان النبي صلّى الله عليه وسلم علم ذلك، ولكن خوطب والمراد أمته؛ فان فيهم من يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا . ويجوز أن يكون المعنى : قل يا محمد للظالم هذا . وقيل : أنَّ في موضع نصب مفعول من أجله ، أي لأن القوة لله جميعا . وأنشد سيبويه :

وأغفرُ عوراءَ الكريم ادّخارَه * وأعرِضُ عن شتم اللئيم تكرّما

أي لادخاره، والمعنى : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولاستعظمت ما حلّ بهم . ودخلت « إذ » وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريبا للأمر وتصحيحا لوقوعه . وقرأ ابن عامر وحده « يرون » بضم الياء ، والباقون بفتحها . وقرأ الحسن ويعقوب وشيبة وسلام وأبو جعفر « إن القوة ، وإن الله » بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف أو على تقدير القول، أي ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوة لله . وثبت بنص هذه الآية القوة لله بخلاف المعتزلة في نفيهم معاني الصفات القديمة؛ تعالى الله عن قولهم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا ﴾ يعني السادة والرؤساء تبرءوا ممن اتبعهم على الكفر؛ عن قتادة وعطاء والربيع . وقال قتادة أيضا والسّدي : هم الشياطين المضلون تبرءوا من الإنس . وقيل : هو عام في كل متبوع . ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعني التابعين والمتبوعين؛ قيل : بتيقّنهم له عند المعاينة في الدنيا . وقيل : عند العرض والمساءلة في الآخرة .

قلت : كلاهما حاصل فيهم، يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان، وفى الآخرة يذوقون أليم العذاب والنكال .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِـمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أى الوُصُـلات التى كانوا يتواصلون بهـا فى الدنيا من رَحِم وغيره . الواحد سبب ووصلة . وأصله الحبل يشد بالشيء فيجذبه؛ ثم جعل كل ما جَرّ شيئا سببا . وقال السّـدى وابن زيد : إن الأسـباب أعمالهم . والسبب الناحية؛ ومنه قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه * ولو رام أسـبابَ السماء بسُلّمِ

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ أنّ فى موضـع رفع ، أى لو ثبت أن لنا رجعة ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ جواب التمنى . والكرّة: الرجعة والعودة إلى حال قد كانت، أى قال الاتبـاع : لو رُدِدنا إلى الدنيـا حتى نعمل صالحا ونتبرأ منهم كما تبرءوا منا . أى تبرءوا كما ؛ فالكاف فى موضع نصب على النعت لمصـدر محذوف . ويجوز أن يكون نصبا على الحال ، تقديرها متبرئين ؛ والتبرؤ الانفصال .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الكاف فى موضـع رفع ، أى الأمر كذلك . أى كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم . و﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ ﴾ قيل : هى من رؤية البصر؛ فيكون متعديا لمفعولين ، الأولى الهاء والميم فى يريهم، والثانى أعمالهم ؛ فيكون « حسرات » حال . ويحتمـل أن يكون من رؤية القلب ؛ فتكون «حسرات» المفعول الثـالث . ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قال الربيع : أى الأعمال الفاسدة التى ارتكبوها فوجبت لهم بها النـار . وقال ابن مسـعود والسّدى : الأعمال الصالحة التى تركوها ففاتتهم الجنة . ورويت فى هـذا القول أحاديث . قال السّدى : ترفع لهم الجنة فينظرون إليها و إلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يندمون . وأضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها، وأما إضافة الأعمال الفاسدة اليهم فمن حيث عملوها . والحسْرة واحدة الحسرات؛ كتمرة وتمرات، وجفنة وجفنات، وشهوة وشهوات؛ هـذا اذا كان اسمـا ، فإن نعتّه سكّنت؛ كقولك :

ضخمة وضخمات، وعبلة وعبلات . والحسرة أعلا درجات الندامة على شيء فائت . والتحسر التلهف؛ يقال : حسِرت عليه بالكسر أحْسَر حَسَرا وحسْرة . وهى مشتقة من الشيء الحسير الذى قد انقطع وذهبت قوته كالبعير . وقيل : هى مشتقة من حَسَر إذا كشف؛ ومنه الحاسر في الحرب الذى لا درع معه؛ فالانحسار الانكشاف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ دليل على خلود الكفار فيها وأنهم لا يخرجون منها . وهذا قول جماعة أهل السنة؛ لهذه الآية ولقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ . وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فيه أربع مسائل .

الأولى — قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الآية . قيل : إنها نزلت في ثقيف وخُزاعة وبنى مُدْلج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام . واللفظ عام . والطيب هنا الحلال؛ فهو تأكيد لاختلاف اللفظ؛ وهذا قول مالك فى الطَّيب . وقال الشافعى : الطيب المستلذ؛ فهو تنويع ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر . وسيأتى بيان هذا فى الأنعام والأعراف إن شاء الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ حلالا حال . وقيل مفعول . سمى الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه . قال سهل بن عبد الله : النجاة فى ثلاثة؛ أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبى صلّى الله عليه وسلّم . وقال أبو عبد الله الساجى واسمه سعيد ابن يزيد : خمس خصال بها تمام العلم؛ وهى معرفة الله عزّ وجلّ، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال؛ فإن فقدت واحدة لم يرفع العمل . قال سهل : ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المال حلالا حتى يصفو من ست خصال : الربا والحرام والسُّحت وهو اسم مجمل والغلول والمكروه والشبهة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ نهى ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ خُطُوات جمع خَطْوة وخُطْوة بمعنًى واحد . قال الفراء . خُطُوات جمع خَطوة بالفتح . وخطوة بالضم : ما بين القدمين . وقال الجوهرى : وجمع القلة خَطْوات وخُطُوات وخَطَوات، والكثير خُطًا .

والخطوة بالفتح المرة الواحدة ، والجمع خطوات (بالتحريك) وخِطاءٌ ، مثل رَكْوة ورِكَاء ؛ قال امرؤ القيس :

لها وَثَبات كَوَثْب الظِّباءْ * فوادٍ خِطاءٌ ووادٍ مَطَـرْ

وقرأ أبو السَّمَّال(١) وعبيد بن عمير « خطوات » بفتح الخاء والطاء . وروى عن على ابن أبى طالب وقتادة والأعرج وعمرو بن ميمون والأعمش « خطؤات » بضم الخاء والطاء والهمزة على الواو . قال الأخفش : وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة من الخطأ لامن الخطو . والمعنى على قراءة الجمهور : ولا تَقْفوا أثر الشيطان وعمله ؛ وما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان . قال ابن عباس : أعماله . مجاهد : خطاياه . السدى : طاعته . أبو مجلز : هى النذور فى المعاصى .

قلت — والصحيح أن اللفظ عام فى كل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصى . وتقدم القول فى الشيطان مستوفى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أخبر تعالى بأن الشيطان عدو ، وخبره حق وصدق ؛ فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذى قد أبان عداوته من زمن آدم ، وبذل نفسه وعمره فى إفساد أحوال بنى آدم ؛ وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال جلّ من قائل : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ . ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقال : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ وقال : ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . وهذا غاية فى التحذير ، ومثله فى القرآن كثير . وقال عبد الله

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام) هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى ؛ له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة . ذكرها فى الأصول وفيها مضى فى الجزء الأول (ج ١ ص ٣٦٨) محرفا .

ابن عمر : إن إبليس موثق فى الأرض السفلى ، فإذا تحرك فإن كل شر فى الأرض بين اثنين فصاعدا من تحركه . وخرّج الترمذيّ من حديث أبى مالك الأشعرى وفيه : " وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله" الحديث . وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى . ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ سمى السّوء سوأ لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه . وهو مصدر ساء يسوء سوأ ومساءة إذا أحزنه . وسؤته فسِيءَ إذا أحزنته فحزن ؛ قال الله تعالى : ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . وقال الشاعر :

إن يك هذا الدهر قد ساءنى * فطالما قد سرّنى الدهر
الأمر عندى فيهما واحد * لذاك شكر ولذاك صبر

والفحشاء أصله قبح المنظر؛ كما قال :

* وجيد كجيد الرِّيم[1] ليس بفاحش *

ثم استعملت اللفظة فيما يقبح من المعانى ، والشرع هو الذى يحسن ويقبح ، فكل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء . وقال مقاتل : إن كل ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنا إلا قوله : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ فإنه منع الزكاة .

قلت : فعلى هذا قيل : السوء ما لاحدّ فيه، والفحشاء ما فيه حدّ . وحُكى عن ابن عباس وغيره؛ والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الطبرى : يريد ما حرموا من البَحِيرة والسائبة ونحوها مما جعلوه شرعا . وأن تقولوا ، فى موضع خفض على قوله تعالى : بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ .

(١) الريم : الظبى الأبيض الخالص البياض .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ . فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ ﴾ يعنى كفار العرب . ابن عبـاس : نزلت فى اليهود . الطبرى : الضمير فى «لهم» عائد على الناس من قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا ﴾ وقيل : هو عائد على «من» فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أى بالقبول والعمل . ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِـعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ ألفينا : وجدنا . وقال الشاعر :

فألفيتــه غير مستعتب * ولا ذاكر الله إلا قليلا

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ ﴾ الألف للاستفهام ، وفتحت الواو لأنها واو عطف ، عطفت جملة كلام على جملة ؛ لأن غاية الفساد فى الإلتزام أن يقولوا : نتبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون ؛ فقُرِّروا على التزامهم هذا ، إذ هى حال آبائهم .

مســئلة — قال علماؤنا : وقوة ألفاظ هـــذه الآية تعطى إبطال التقليـد ؛ ونظيرها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ الآية . وهـذه الآية والتى قبلها مرتبطة بما قبلهما ؛ وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكمت فيه بآرائها السفيهة فى البَحيرة والسائبة والوَصيلة ؛ فاحتجوا بأنه أمْرٌ وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم فى ذلك ، وتركوا ما أنزل الله على رسـوله وأمر به فى دنيه : فالضمير فى «لهم» عائد عليهم فى الآيتين جميعا .

الثالثة — تعلّق قوم بهذه الآية فى ذمّ التقليد لذمّ الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم فى الباطل واقتدائهم بهـم فى الكفر والمعصية ؛ وهذا فى الباطل صحيح . أما التقليد فى الحق فأصل من أصول الدين ، وعصمة من عِصَمِ المسلمين يلجأ إليها الجاهل المقصّر عن درك النظر .

واختلف العلماء فى جوازه فى مسائل الأصول على ما يأتى ؛ وأما جوازه فى مسائل الفروع فصحيح .

الرابعة — التقليد عند العلماء حقيقته قبول قول بلا حجة، وعلى هذا فمن قَبِل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير نظر فى معجزته يكون مقلدا، وأما من نظر فيها فلا يكون مقلدا . وقيل : هو اعتقاد صحة فُتيا من لا يعلم صحة قوله . وهو فى اللغة مأخوذ من قلادة البعير؛ فإن العرب تقول : قلدت البعير إذا جعلت فى عنقه حبلا يقاد به؛ فكأن المقلد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء؛ وكذلك قال شاعرهم :

وقلِّدوا أمركم لله دَرُّكُمُ * ثَبْتَ الجَنان بأمر الحرب مضطلعا

الخامسة — التقليد ليس طريقا للعلم ولا موصلا له، لا فى الأصول ولا فى الفروع؛ وهو قول جمهور العقلاء والعلماء؛ خلافا لما يحكى عن جهال الحشوية والثعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق، وأن ذلك هو الواجب، وأن النظر والبحث حرام . والاحتجاج عليهم فى كتب الاصول .

السادسة — فرض العامى: الذى لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها لعدم أهليته، فيما لا يعلمه من أمر دينه ويحتاج إليه، أن يقصد أعلم من فى زمانه وبلده فيسأله عن نازلته فيمتثل فيها فتواه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وعليه الاجتهاد فى أعلم أهل وقته بالبحث عنه، حتى يقع عليه الاتفاق من الأكثر من الناس وعلى العالم أيضا فرض أن يقلد عالما مثله فى نازلة خفى عليه فيها وجه الدليل والنظر، وأراد أن يجدد الفكر فيها والنظر حتى يقف على المطلوب، فضاق الوقت عن ذلك، وخاف على العبادة أن تفوت، أو على الحكم أن يذهب سواء كان ذلك المجتهد الاخر صحابيا أو غيره؛ واليه ذهب القاضى أبو بكر وجماعة من المحققين .

السابعة — قال ابن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد فى العقائد . وذكر فيه غيره خلافا كالقاضى أبى بكر بن العربى وأبى عمرو عثمان بن عيسى بن درباس الشافعى . قال ابن درباس فى كتاب «الانتصار» له : وقال بعض الناس يجوز التقليد فى أمر التوحيد؛ وهو خطأ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ . فذمهم بتقليدهم آباءهم وتركهم اتباع

الرسل، كصنيع أهل الأهواء فى تقليدهم آباءهم وتركهم اتباع محمد صلّى الله عليه وسلّم فى دينه؛ ولأنه فرض على كل مكلف تعلّمُ أمر التوحيد والقطع به؛ وذلك لا يحصل إلا من جهة الكتاب والسنة كما بيناه فى آية التوحيد، والله يهدى من يريد .

قال ابن درباس : وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة أنهم مقلدون؛ وهذا خطأ منهم بل هو بهم أليق و بمذاهبهم أخلق؛ إذ قبلوا قول ساداتهم وكبرائهم فيما خالفوا فيه كتاب الله وسنة رسوله و إجماع الصحابة رضى الله عنهم، فكانوا داخلين فيمن ذمهم الله بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ كَبِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ ثم قال لنبيه : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ثم قال لنبيه عليه السلام : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ الآية . فبيّن تعالى أن الهدى فيما جاءت به رسله عليهم السلام . وليس قولُ أهل الأثر فى عقائدهم : إنا وجدنا أئمتنا وآباءنا والناس على الأخذ بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح من الأمة، من قولهم : إنا وجدنا آباءنا وأطعنا سادتنا وكبراءنا، بسبيل؛ لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل وإلى متابعة الرسول . وأولئك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل، فازدادوا بذلك فى التضليل؛ ألا ترى أن الله سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام فى القرآن حيث قال : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ . فلما كان آباؤه عليه وعليهم السلام أنبياء متبعين للوحى وهو الدين الخالص الذى ارتضاه الله، كان اتباعه آباءه من صفات المدح . ولم يجئ فيما جاءوا به ذكر الأعراض وتعلقها بالجواهر وانقلابها فيها؛ فدل على ألّا هدى فيها ولا رشد فى واضعيها .

قال ابن الحصار : وإنما ظهر التلفظ بها زمن المأمون بعد المائتين لما ترجمت كتب الأوائل وظهر فيها اختلافهم فى قدم العالم وحدوثه، واختلافهم فى الجوهر وثبوته، والعرض وماهيته؛ فسارع المبتدعون ومن فى قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات، وقصدوا بها

الإغراب على أهل السنة ، و إدخال الشبه على الضعفاء من أهل الملة ؛ فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة ، وصارت للبتدعة شيعة ، والتبس الأمر على السلطان ، حتى قال الأمير بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه ، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك .

فانتدب رجال من أهـل السنة كالشيخ أبي الحسن الأشعرى وأبى عبـد الله بن كُلَّاب وابن مجاهـد والمحاسبي وأضرابهم ؛ فخاضوا مع المبتدعة فى اصطلاحاتهـم ، ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم . وكان من درج من المسلمين من هذه الأمة متمسكين بالكتاب والسنة ، معرضين عن شبه الملحدين ، لم ينظروا فى الجوهر والعرض . على ذلك كان السلف .

قلت : ومن نظر الآن فى إصطلاح المتكلمين حتى يناضل بذلك عن الدين فمنزلته قريبة من النبيين . فأما من يهجن من غلاة المتكلمين طريق من أخذ بالأثر من المؤمنين ، ويحض على درس كتب الكلام ، وأنه لا يعرف الحق إلا من جهتها بتلك الاصطلاحات فصاروا مذمومين لنقضهم طريق المتقدمين من الأئمة المـاضين . والله أعلم . وأما المخاصمة والجـدال بالدليل والبرهان فذلك بيِّن فى القرآن . وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾ شبّه تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو محمد صلّى الله عليه وسلّم بالراعى الذى ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ، ولا تفهم ما يقول . هكذا فسره ابن عباس ومجاهد وعكرمة والزجاج والفراء وسيبويه ؛ وهـذه نهـاية الايجاز . قال سيبويه : ولم يشبّهوا بالناعق إنما شبهوا بالمنعوق به . والمعنى : ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهـائم التى لا تفهم ؛ فحذف لدلالة المعنى . وقال ابن زيد : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم الآلهة من الجماد كمثل الصائح فى جوف الليل فيجيبه الصدى ؛ فهو يصيح بما لا يسمع ، ويجيبه مالا حقيقة فيه ولا منتفع . وقال قطرب : المعنى مثل الذين كفروا فى دعائهم ما لا يفهم ، يعنى الأصنام ، كمثل الراعى إذا نعق بغنمه وهو لا يدرى أين هى . قال الطبرى : المراد مثـل الكافرين فى دعائهم آلهتهم كمثل الذى ينعق بشيء بعيد فهو لا يسمع من أجل البعد ؛ فليس للناعق من ذلك إلا النـداء الذى يتعبه

وينصبه . ففى هذه التأويلات الثلاثة يشبه الكفار بالناعق الصائح، والأصنام بالمنعوق به .
والنعيق : زجر الغنم والصياح بها؛ يقال : نعق الراعى بغنمه ينعق نعيقا ونعقانا أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

انْعِـــق بضأنك يا جرير فإنمـا * منّتْك نفسُك فى الخلاء ضلالا

قال القُتَبِى : لم يكن جرير راعى ضأن، وإنمـا أراد أن بنى كُلَيب يُعيَّرون برعى الضأن، وجرير منهم؛ فهو فى جهلهم . والعرب تضرب المثل براعى الغنم فى الجهل ويقولون : «أجهل من راعى ضأن» . قال القُتَبى : ومن ذهب الى هـذا فى معنى الآية كان مذهبا ، غير أنه لم يذهب إليه أحد من العلماء فيما نعلم .

والنداء للبعيد، والدعاء للقريب؛ ولذلك قيل للأذان بالصلاة نداء لأنه للأباعد . وقد تضم النون فى النداء والأصـل الكسر . ثم شبّه تعـالى الكافرين بأنهم صمّ بكم عمى . وقد تقدّم فى أوّل السورة .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ هذا تأكيد للأمر الأوّل ، وخص المؤمنين هنا بالذكر تفضيلا . والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه . وقيـل : هو الأكل المعتاد . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "[أيها الناس](١) إنَّ الله تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّباً . وإنَّ الله امر المؤمنين بما امر به المُرسلين قال الله تعالى يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وقال يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ثم ذكر الرَّجُلَ يُطِيـلُ السفر أشعث اغبر يمدّ يديه الى السماء يا ربِّ يا ربِّ ومطعمه حرام وملبسه حرام [وغُذِى بالحرام](١) فأنَّى يُسْتَجَابُ لِذلك" . ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ تقدّم معنى الشكر فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَـا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فيه أربع وثلاثون مسئلة(٢) :

---

(١) الزياده عن صحيح مسلم . كتاب الزكاة . (٢) الذى سيأتى ثلاث وثلاثون مسئلة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ إنما ، كلمة موضوعة للحصر تتضمن النفي والإثبات ؛ فتثبت ماتناوله الخطاب وتنفي ماعداه . وقد حصرت هاهنا التحريم لا سيما وقد جاءت عقيب التحليل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ . فأفادت الإباحة على الإطلاق ، ثم عقبها بذكر المحرم بكلمة « إنما » الحاصرة فاقتضى ذلك الإيعاب للقسمين ؛ فلا محرم يخرج عن هذه الآية . وهي مدنية وأكدها بالآية الأخرى وهي التي روى أنها نزلت بعرفة : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ إلى آخرها ؛ فاستوفى البيان أولا وآخرا . قاله ابن العربي . وسيأتي الكلام في تلك في الأنعام إن شاء الله تعالى .

الثانية — الميتة . نصب بحرّم . وما كافة ، ويجوز أن تجعلها بمعنى الذي ، منفصلة في الخط ، وترفع الميتة والدم ولحم الخنزير على خبر « إنّ » وهي قراءة ابن أبي عبلة . وفي حرّم ضمير يعود على الذي ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ . وقرأ أبو جعفر بضم الحاء وكسر الراء ورفع الأسماء بعدها ، إمّا على ما لم يسم فاعله ، وإما على خبر إن . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع أيضا « الميّتة » بالتشديد . الطبري : وقال جماعة من اللغويين التشديد والتخفيف في مَيِّت ومَيْت لغتان . وقال أبو حاتم وغيره : ما قد مات فيقالان فيه ، وما لم يمت بعد فلا يقال فيه ميت بالتخفيف ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ . وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بمَيْت * إنما المَيْت ميِّت الأحياء

ولم يقرأ أحد بتخفيف ما لم يمت إلا ما روى البزّي عن ابن كثير « وما هو بِمَيْت » والمشهور عنه التثقيل ؛ وأما قول الشاعر :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم * فسرك أن يعيش فجيء بزاد

فلا أبلغ في الهجاء من أنه أراد الميتة حقيقة . وقد ذهب بعض الناس إلى أنه أراد من شارف الموت ؛ والأول أشهر .

الثالثــة ــ الميتة ما فارقتــه الروح من غير ذكاة مما يذبح . وما ليس بمأكول فذكاته كموته، كالسباع وغيرها، على ما يأتى بيانه هنا و فى الأنعام إن شاء الله تعالى .

الرابعــة ــ هذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله عليه السلام : " أحلت لنــا ميتتان الحوت والجراد ودمان الكبد والطحال " . أخرجه الدار قطنى. وكذلك حديث جابر فى العَنْبَر يخصص عموم القرآن بصحة سنده . خرجه البخارىّ ومسلم مع قوله تعــالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ . على ما يأتى هناك إن شاء الله تعالى .

وأكثر أهل الفقــه يجيزون أكل جميع دواب البحر حيها وميتها ؛ وهو مذهب مالك . وتوقف ان يجيب فى خنزير المــاء وقال : أنتم تقولون خنزيرا . قال ابن القاسم : وأنا أتقيــه ولا أراه حراما .

الخامســة ــ وقد اختلف الناس فى تخصيص كتاب الله بالسنة، ومع اختلافهم فى ذلك اتفقوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف . قال ابن العربى : وقد يســتدل على تخصيص هذه الآية أيضا بمــا فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معــه . وظاهره أكله كيف ما مات بعــلاج أو حتف أنفــه ؛ وبهذا قال ابن نافع وابن عبــد الحكم وأكثر العلمــاء ، وهو مذهب الشافعىّ وأبى حنيفة وغيرهما . ومنع مالك وجمهور أصحابه من أكله إن مات حتف أنفه ؛ لأنه من صيد البر . ألا ترى أن المُحْرِم يجزيه اذا قتله ، فأشــبه الغزال . وقال أشهب : إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل؛ لأنها حالة قد يعيش بها و ينسل. وسيأتى لحكم الجراد مزيد بيان فى الأعراف عند ذكره، إن شاء الله تعالى .

السادســة ــ واختلف العلماء هل يجوز أن ينتفع بالميتة أو بشىء من النجاسات . واختلف عن مالك فى ذلك أيضا، فقال مرة : يجوز الانتفاع بها ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ على شاة ميمونة فقال : "هلا أخذتم إهابهــا" الحديث . وقال مرة : جملتها محرم فلا يجوز الانتفاع بشىء منهــا، ولا بشىء من النجاسات على وجه من وجوه الانتفاع ؛ حتى

لا يجوز أن يسق الزرع ولا الحيوان الماء النجس، ولا تعلف البهائم النجاسات، ولا تطعم الميتة الكلاب والسباع؛ وإن أكلتها لم تمنع. ووجه هذا القول ظاهر قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ ولم يخص وجها من وجه، ولا يجوز أن يقال: هذا الخطاب مجمل؛ لأن المجمل مالا يفهم المراد من ظاهره، وقد فهمت العرب المراد من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾. وأيضا فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنتفعوا من الميتة بشيء". وفي حديث عبد الله بن عُكَيم "لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب". وهذا آخر ما ورد به كتابه قبل موته بشهر؛ وسيأتي بيان هذه الأخبار والكلام عليها في النحل إن شاء الله تعالى.

السابعـة — فأما الناقة إذا نحرت، أو البقرة أو الشاة إذا ذبحت، وكان في بطنها جنين ميت فجائز أكله من غير تذكية له في نفسه، إلا أن يخرج حيا فيذكى، ويكون له حكم نفسه؛ وذلك أن الجنين إذا خرج منها بعد الذبح ميتا جرى مجرى العضو من أعضائها. ومما يبين ذلك أنه لو باع الشاة واستثنى ما في بطنها لم يجز، كما لو استثنى عضوا منها، وكان ما في بطنها تابعا لها كسائر أعضائها. وكذلك لو أعتقها من غير أن يوقع على ما في بطنها عتقا مبتدأ. ولو كان منفصلا عنها لم يتبعها في بيع ولا عتق. وقد روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن البقرة والشاة تذبح، والناقة تنحر فيكون في بطنها جنين ميت؛ فقال: «إن شئتم فكلوه لأن ذكاته ذكاة أمه». خرجه أبو داود بمعناه من حديث أبي سعيد الخدريّ وهو نص لا يحتمل. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة المائدة إن شاء الله تعالى.

الثامنـة — واختلفت الرواية عن مالك في جلد الميتة هل يطهر بالدباغ أولا؛ فروى عنه أنه لا يطهر وهو ظاهر مذهبه. وروى عنه أنه يطهر؛ لقوله عليه السلام: «أيما إهاب دبغ فقد طهر». وَوَجْهُ قوله: لا يطهر؛ بأنه جزء من الميتة لو أخذ منها في حال الحياة كان نجسا، فوجب ألّا يطهره الدباغ قياسا على اللحم. وتحمل الأخبار بالطهارة على أن الدباغ يزيل الأوساخ عن الجلد حتى ينتفع به في الأشياء اليابسة وفي الجلوس عليه، ويجوز أيضا أن ينتفع به في الماء بأن يجعل سقاء؛ لأن الماء على أصل الطهارة مالم يتغير له وصف.

على ما يأتى من حكمه فى ســورة الفرقان . والطهارة فى اللغة متوجهة نحو إزالة الأوساخ كما تتوجه إلى الطهارة الشرعية . والله تعالى أعلم .

التاسـعة — وأما شعر الميتة وصوفها فطاهر؛ لمـا روى عن أم سلمة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا بأس بمَسْك الميتة إذا دبغ وصوفها وشعرها إذا غسل". ولأنه كان طاهرا لو أخذ منها فى حال الحياة فوجب أن يكون كذلك بعد الموت، إلا أن اللحم لمـا كان نجسا فى حال الحياة كان كذلك بعـد الموت؛ فيجب أن يكون الصوف خلافه حال الموت كما كان خلافه حال الحياة استدلالا بالعكس . ولا يلزم على هذا اللبن والبيضة من الميتة؛ لأن اللبن عندنا طاهر بعـد الموت، وكذلك البيضة؛ ولكنهما حصلا فى وعاء نجس فتنجسا بمجـاورة الوعاء لا أنهما نجسا بالموت . وسـيأتى مزيد بيان لهـذه المسئلة والتى قبلها وما للعلماء فيهما من الخلاف فى سورة النحل إن شاء الله تعالى .

العاشرة — وأما ما وقعت فيــه الفأرة فله حالتان : حالة تكون إن أخرجت الفأرة حية فهو طاهر، وإن ماتت فيــه فله حالتان : حالة يكون مائعا فانه ينجس جميعه . وحالة يكون جامدا فينجس ما جاورها، فتطرح وما حولها، وينتفع بمـا بقى وهو على طهارته؛ لمـا روى أن النبى صلى الله عليه وسلم ســئل عن الفأرة تقع فى السمن فتموت؛ فقال عليــه السلام : "إن كان جامدا فاطرحوها وما حولها وإن كان مائعا فأريقوه". واختلف العلماء فيه إذا غسل؛ فقيــل : لا يطهر بالغســل؛ لأنه مائع تنجس فأشـبه الدم والخمر والبول وسائر النجاسات . وقال ابن القاسم : يطهر بالغسل؛ لأنه جسم تنجس بمجاورة النجاسة فأشـبه الثوب . ولا يلزم على هذا الدم لأنه نجس بعنيه، ولا الخمر والبول لأن الغسل يستهلكهما ولا يتأتى فيه .

الحادية عشرة — فاذا حكمنا بطهارته بالغسل رجع إلى حالتــه الأولى فى الطهارة وسائر وجوه الانتفاع؛ لكن لا يبيعه حتى يبيّن، لأن ذلك عيب عند الناس تأباه نفوسهم، ومنهم من يعتقد تحريمه ونجاسته؛ فلا يجوز بيعه حتى يبين العيب كسائر الأشياء المعيبة . وأما قبل الغسل فلا يجوز بيعــه بحال؛ لأن النجاسات عنده لا يجوز بيعها، ولأنه مائع نجس فاشــبه

الخمر، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن ثمن الخمر فقال: «لعن الله اليهود حرّمت عليهم الشحوم فجَمَلُوها[1] فباعوها وأكلوا أثمانها» . وإن الله إذا حرّم شيئا حرّم ثمنه . وهذا المائع محرّم لنجاسته فوجب أن يحرم ثمنه بحكم الظاهر .

الثانية عشرة — واختلف إذا وقع في القدر حيوان، طائر أو غيره؛ [فمات] فروى ابن وهب عن مالك أنه قال : لا يؤكل ما في القدر، وقد تنجس بمخالطة الميتة إياه . وروى ابن القاسم عنه أنه قال : يغسل اللحم ويراق المرق . وقد سئل ابن عباس عن هذه المسئلة، فقال : يغسل اللحم ويؤكل . ولا مخالف له في المرق من أصحابه؛ ذكره ابن خويز منداد .

الثالثة عشرة — فأما أنفحة الميتة ولبن الميتة، فقال الشافعيّ : ذلك نجس لعموم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ . وقال أبو حنيفة بطهارتهما ؛ ولم يجعل لموضع الخلقة أثرا في تنجس ما جاوره مما حدث فيه خلقة قال : ولذلك يؤكل اللحم بما فيه من العروق ، مع القطع بمجاورة الدم لدواخلها من غير تطهير ولا غسل إجماعا . وقال مالك نحو قول أبي حنيفة : إن ذلك لا ينجس بالموت ، ولكن ينجس بمجاورة الوعاء النجس وهو مما لا يتأتى فيه الغسل . وكذلك الدجاجة تخرج منها البيضة بعد موتها؛ لأن البيضة لينة في حكم المائع قبل خروجها، وإنما تجمد وتصلب بالهواء .

قال ابن خويز منداد فان قيل : فقولكم يؤدّى إلى خلاف الإجماع ، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده كانوا يأكلون الجبن وكان مجلوبا إليهم من أرض العجم ، ومعلوم أن ذبائح العجم وهم مجوس ميتة، ولم يعتدّوا بأن يكون مجمدا بأنفحة الميتة أو المذكى . قيل له : قدر ما يقع من الأنفحة في اللبن المجبن يسير . واليسير من النجاسة معفو عنه إذا خالط الكثير من المائع . هذا جواب على إحدى الروايتين . وعلى الرواية الأخرى انما كان ذلك في أول الإسلام ولا يمكن أحد أن ينقل ان الصحابة أكلت الجبن المحمول من أرض العجم، بل الجبن ليس من طعام العرب؛ فلما انتشر المسلمون في أرض العجم بالفتوح صارت الذبائح

(١) جملت الشحم وأجمله : اذا أذبته .

لهم ؛ فمن أين لنـا أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم والصحابة أكلت جبنا فضلا عن أن يكون محمولا من أرض العجم ومعمولا من أنفحة ذبائحهم .

وقال أبو عمر : ولا بأس بأكل طعام عبدة الأوثان والمجوس وسائر من لا كتاب له من الكفار مالم يكن من ذبائحهم ولم يحتج إلى ذكاة إلا الجبن لمـا فيه من أنفحة الميتة . وفى سنن ابن ماجه «الجبن والسمن» حدّثنا إسماعيل بن موسى السدّى حدّثنا سيف بن هارون عن سليمان التّيمى عن أبى عثمان النّهدى عن سلمان الفارسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفراء . فقال : "الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ما حرم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو ممـا عفا عنه " .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالدَّمَ ﴾ اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به . قال ابن خويزمنداد : وأما الدم فمحرم مالم تعمّ به البلوى ، ومعفوّ عمـا تعم به البلوى . والذى تعم به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه . ويسيره فى البدن والثوب يصلى فيه . وإنمـا قلنا ذلك لأن الله تعـالى قال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَـةُ والدَّمُ ﴾ . وقال فى موضـع آخر : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ فحرم المسفوح من الدم . وقد روت عائشة رضى الله عنها قالت : كنا نطبخ البُرْمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم تعلوها الصفرة من الدم فنأكل ولا ننـكره ؛ لأن التحفظ من هذا إصْر وفيه مشقة . والإصر والمشقة فى الدين موضوع . وهذا أصل فى الشرع : أن كلما حَرِجت الأمة فى أداء العبادة فيه وثقل عليها سقطت العبادة عنهـا فيه . ألا ترى أن المضطر يأكل الميتة ، وأن المريض يفطر ويتيمم فى نحو ذلك .

قلت : ذكر الله سبحانه وتعالى الدم هاهنا مطلقا وقيده فى الأنعام بقوله : ﴿ مَسْفُوحًا ﴾ . وحمل العلمـاء ها هنا المطلق على المقيد إجمـاعا . فالدم هنا يراد به المسفوح ؛ لأن ما خالط اللحم فغير محرم بإجماع ، وكذلك الكبد والطحال مجمع عليه . وفى دم الحوت المزايل له اختلاف ؛

وروى عن القابسي أنه طـاهر، ويلزم على طهارته أنه غير محرم . وهو اختيار ابن العربي، قال : لأنه لو كان دم السمك نجسا لشرعت ذكاته .

قلت : وهو مذهب أبي حنيفة في دم الحوت، سمعت بعض الحنفية يقول : الدليل على أنه طاهر أنه اذا يبس ابيض بخلاف سائر الدماء فانه يسود . وهذه النكتة لهم في الاحتجاج على الشافعية .

الخامسة عشرة — قوله تعـالى ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ خص الله تعالى ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذكّى أو لم يذكّ، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها .

السادسة عشرة — أجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير . وقد استدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألا يأكل شحما فأكل لحما لم يحنث بأكل اللحم . فان حلف ألا يأكل لحـما فأكل شحما حنث، لأن اللحم مع الشحم يقع عليه اسم اللحم ؛ فقد دخل الشحم في اسم اللحم ولا يدخل اللحم في اسم الشحم . وقد حرّم الله تعالى لحم الخنزير فناب ذكر لحمـه عن شحمه، لأنه دخل تحت اسم اللحم . وحرّم الله تعـالى على بني إسرائيـل الشحوم بقوله : ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ فلم يقع بهذا عليهم تحريم اللحم ولم يدخل في اسم الشحم، فلهذا فرّق مالك بين الحالف في الشحم والحالف في اللحم، إلا أن يكون الحالف نيته في اللحم دون الشحم، والله تعالى أعلم . ولا يحنث في قول الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأى إذا حلف ألا يأكل لحـما فأكل شحما . وقال أحمـد : إذا حلف ألا يأكل لحما فأكل الشـحم لا بأس به إلا أن يكون أراد اجتناب الدسم .

السابعـة عشرة — لا خلاف أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر فانه يجوز الخرازة به . وقد روى أن رجلا سأل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرازة بشـعر الخنزير، فقال : "لا بأس بذلك" ذكره ابن خويز منداد . قال : ولأن الخرازة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت، وبعده موجودة ظاهرة، لا نعلم أن رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده . وما أجازه الرسول صلّى الله عليه وسلّم فهو كابتداء الشرع منه .

الثـامنة عشرة — لا خلاف فى تحـريم خنزير البرّ كما ذكرنا . وفى خنزير المـاء خلاف؛ وأبَى مالك أن يجيب فيـه بشىء . وقال : أنتم تقولون خنزيرا . وقد تقدّم . وسيـأتى بيانه فى «المـائدة» إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — ذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية . وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خزر العـين ؛ لأنه كذلك ينظر ، واللفظة على هـذا ثلاثية . وفى الصحاح : وتخازر الرجل إذا ضيّق جفنه ليحدّد النظر . والخزر : ضيق العين وصغرها. رجل خزر بيّن الخزر . ويقال : هو أن يكون الإنسـان كأنه ينظر بمؤْخِرِها . وجمع الخنزير خنازير . والخنازير أيضا علّة معروفة، وهى قروح صُلْبة تحدث فى الرقبة .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ أى ذكر عليـه اسم غير الله تعـالى ، وهى ذبيحـة المجوسىّ والوثنىّ والمُعَطِّل . فالوثنىّ يذبح للوثن، والمجوسىّ للنار ، والمعطل لا يعتقد شيئا فيذبح لنفســه . ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسى لنـاره، والوثنى لوثنه لا يؤكل، ولا تؤكل ذبيحتهما، عند مالك والشافعى وغيرهما، وإن لم يذبحا لناره ووثنه؛ وأجازهما ابن المسيّب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى فى سورة « المـائدة » . والإهلال : رفع الصوت ؛ يقال : أهلّ بكذا ، أى رفع صوته ؛ قال ابن أحمر يصف فلاة :

يُهِلّ بالفَـرْقد رُكبانُهـا * كما يُهِلّ الراكبُ المُعْتَمِرْ

وقال النـابغة :

أو درة صـــدفية غوّاصها * بَهِجٌ متى يرها يُهِل ويسـجد

ومنه إهلال الصبىّ واستهلاله ، وهو صياحه عنـد ولادته . وقال ابن عباس وغيره : المراد ماذبح للأنصاب والأوثان، لا ما ذكر عليه اسم المسيح؛ على مايأتى بيانه فى سورة «المـائدة» إن شاء الله تعـالى . وجرت عادة العـرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحـة ، وغلب ذلك فى استعمالهم حتى عبّر به عن النية التى هى علة التحريم . ألا ترى أن علىّ بن أبى طالب رضى

الله عنه راعى النيــة فى الإبل التى نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنها مما أهلّ لغير الله به ؛ فتركها النــاس . قال ابن عطية : ورأيت فى أخبار الحســن بن أبى الحسن أنه ســئل عن امرأة مترفة صنعت للُعَبِها عرسا فنحرت جزورا ؛ فقال الحسن : لا يحــل أ كلها فانها إنما نحرت لصنم .

قلت : ومن هــذا المعنى ما رويناه عن يحيى بن يحيى التميمى شيخ مســلم قال : أخبرنا جرير عن قابوس قال : أرســل أبى امرأة إلى عائشــة رضى الله عنها وأمرها أن تقرأ عليها السلام منه ، وتسألها أيّة صلاة كانت أعجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدوم عليها . قالت : كان يصلى قبــل الظهر أربع ركعات يطيل فيهن القيام ويحسن الركوع والسجود ، فأما ما لم يدع قط : صحيحا ولا مريضا ولا شــاهدا ركعتين قبل صلاة الغداة . قالت امرأة عند ذلك من الناس : يا أم المؤمنين ، إن لنا أظآرا من العجم لا يزال يكون لهم عيد فيهدون لنــا منه ، أفنأ كل منه شــيئا ؟ قالت : أما ما ذبح لذلك اليــوم فلا تأ كلوا ولكن كلوا من أشجارهم .

الحــادية والعشرون ــ قوله تعــالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْـطُرَّ ﴾ قرئ بضم النون للإتباع ، وبالكسر وهو الأصل لألتقاء الساكنين . وفيه إضمار ، أى فمن اضطر إلى شئ من هذه المحرمات أى أحوج إليها ؛ فهو افتعل من الضرورة . وقرأ ابن محيصن « فمن ٱطر » بإدغام الضاد . وأبو السَّمال « فمن ٱضــطر » بكسر الطاء . وأصــله اضطرر فلمــا أدغمت نقلت حركة الراء إلى الطاء .

الثانية والعشرون ــ الاضطرار لا يخلو أن يكون بإ كراه من ظالم ، أو بجوع فى مخمصة . والذى عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء فى معنى الآية هو من صيّره العُدْم والغَرَث وهو الجوع الى ذلك ؛ وهو الصحيح . وقيل : معناه أ كره وغلب على أ كل هذه المحرمات . قال مجاهد : يعنى أ كره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على لحم الخنزير وغيره من معصية الله تعــالى . إلا أن الإ كراه يبيح ذلك الى آخر الإ كراه .

وأما المخمصة فلا يخلو أن تكون دائمة أو لا ؛ فان كانت دائمة فلا خلاف فى جواز الشبع من الميتة؛ إلا أنه لا يحــل له أكلها وهو يجد مال مسـلم لا يخاف فيــه قطعا؛ كالتمر المعلق وحريسة[1] الجبل، ونحو ذلك ممـا لا قطع فيه ولا أذى . وهذا ممـا لا اختلاف فيه؛ لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى سفر إذ رأينا إبلا مصرورة بعضاه الشجر فثبنا اليها فنادانا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرجعنا اليه فقال : "إن هذه الإبل لأهل بيت من المسلمين هو قوتهم ويُمنهم[2] بعـد الله أيسركم لو رجعتم الى مزاودكم فوجدتم ما فيهـا قد ذُهب به أترون ذلك عدلا" قالوا : لا؛ فقال : "إن هـذا كذلك" . قلنا : أفرأيت إن احتجنا الى الطعام والشراب؟ فقال: "كل ولا تحمل واشرب ولا تحمل" . خرّجه ابن ماجه رحمه الله؛وقال : هذا الأصل عندى .وذكره ابن المنذر قال : قلنا يا رسول الله ، ما يحل لأحدنا من مال أخيه إذا اضـطرّ اليه ؟ قال : " يأكل ولا يحمـل ويشرب ولا يحمل" قال ابن المنذر : وكل مختلف فيه بعـد ذلك فمردود الى تحريم الله الأموال . قال أبو عمر : وجملة القول فى ذلك أن المسـلم إذا تعيّن عليـه ردّ رمق مهجة المسـلم ، وتوجّه الفرض فى ذلك بألا يكون هناك غيره قضى عليه بترميق تلك المهجة الآدمية.وكان للممنوع منه ماله من ذلك محاربة مَنْ منعه ومقاتلته، وإن أتى ذلك على نفسه . وذلك عند أهل العلم إذا لم يكن هناك إلا واحد لا غير ؛ فحينئذ يتعين عليه الفرض . فان كانوا كثيرا أو جماعة وعددا كان ذلك عليهم فرضا على الكفاية . والمـاء فى ذلك وغيره ممـا يردّ نفس المسـلم ويمسكها سـواء . إلا أنهم اختلفوا فى وجوب قيمة ذلك الشيء على الذى ردّت به مهجته ورمق به نفسه؛ فأوجبها موجبون،وأباها آخرون . وفى مذهبنا القولان جميعا . ولا خلاف بين أهل العـلم متأخريهم ومتقدّميهم فى وجوب ردّ مهجة المسـلم عند خوف الذهاب والتلف بالشيء اليسير الذى لا مضرّة فيه على صاحبه وفيه البلغة .

(١) الحريسـة : الشاة تسرق ليلا . وفى الحـديث "لا قطع فى حريسة الجبل" . أى ليس فيا يحرس بالجبل قطع؛ لأنه ليس بحرز .

(٢) كذا فى سنن ابن ماجه؛ أى بركتهم وخيرهم . وفى الأصول : « قيمهم » .

الثالثة والعشرون — خرّج ابن ماجه أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة أنبأنا شبابة وحدّثنا محمد ابن بشار ومحمد بن الوليد قالا حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا شعبة عن أبي بشر جعفر بن إياس قال: سمعت عَبّاد بن شرحبيل — رجلا من بني غُبَر — قال: أصابنا عام مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا(١) من حيطانها فأخذت سنبلا ففركته وأكلتــه وجعلته في كسائي؛ فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي؛ فأتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته؛ فقال للرجل: "ما أطعمته إذ كان جائعا أو ساغبا ولا علَّمته إذ كان جاهلا" فأمره النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فردّ اليه ثوبه، وأمر له بوَسْق من طعام أو نصف وسق.

قلت: هــذا حديث صحيح اتفــق على رجاله البخاريّ ومســلم؛ إلا ابن أبي شيبة فانه لمسلم وحده. وعباد بن شرحبيل الغبري اليشكري لم يخرج له البخاري ومسلم شيئا، وليس له عن النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم غير هذه القصة فيما ذكر أبو عمر رحمــه الله، وهو ينفي القطع والأدب في المخمصة. وقد روى أبو داود عن الحسن عن سمرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "اذا أتى أحدكم على ماشية فان كان فيها صاحبها فليستأذنه فان أذن له فليحتلب وليشرب وان لم يكن فيها فليُصَوِّت ثلاثا فان أجاب فليستأذنه فان أذن له وإلا فليحتلب وليشرب ولا يحمــل". وذكر الترمذي عن يحيى بن سليم عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وســلم قال: "من دخل حائطا فليأكل ولا يتّخذ خُبْنة". قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن سليم. وذكر من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم سئل عن الثمر المعلق؛ فقال: "من أصاب منه من ذي حاجة غير متخذ خُبْنة فلا شيء عليه". قال فيه: حديث حسن. وفي حديث عمر رضي الله عنه: "اذا مرّ أحدكم بحائط فليأكل منه ولا يتّخذ ثِبَانًا". قال أبو عبيد قال أبو عمر: وهو الوعاء الذي يحمل فيــه الشيء. فإن حملته بين يديك فهو ثِبَانٌ؛ يقال: قد تثَبّنت ثِبانا. فان حَملته على ظهرك فهو الحال؛ يقال منه: قد تَحوّلت كسائي اذا جعلت فيه شيئا ثم حملته على ظهرك.

---

(١) الحائط: البستان من النخيل وغيره اذا كان عليه جدار.

فان جعلته فى حِضنك فهو خُبْنة . ومنه حديث عمرو بن شعيب المرفوع "ولا يتخذ خبنة". يقال فيه : خَبَنْت أخْبِن خَبْناً . قال أبو عبيد : وإنما يوجّه هذا الحديث أنه رخّص فيه للجائع المضطر الذى لا شيء معه يشترى به ألّا يَحمل إلا ما كان فى بطنه قدر قوته .

قلت : لأن الأصل المتفق عليه تحريم مال الغير إلا بطيب نفس منه ؛ فان كانت هناك عادة بعمل ذلك كما كان فى أوّل الاسـلام ، أوكما هو الآن فى بعض البلدان ، فذلك جائز . ويحمل ذلك على أوقات المجاعة والضرورة ، كما تقدّم والله أعلم .

وإن كان الثـانى[1] وهو النادر فى وقت من الأوقات ؛ فاختلف العلمـاء فيها على قولين : أحدهما — أنه يأكل حتى يشبع ويتضلّع[2] ، ويتزوّد إذا خشى الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر ، وإذا وجد عنها غنى طرحها . قال معناه مالك فى موطأه . وبه قال الشـافعيّ وكثير من العلماء . والحجة فى ذلك أن الضرورة ترفع التحريم فيعود مباحا . ومقدار الضرورة انما هو فى حالة عدم القوت الى حالة وجوده . وحديث العنبر نص فى ذلك ؛ فإن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلّم لـمـا رجعوا من سـفرهم وقد ذهب عنهم الزاد ، انطلقوا الى ساحل البحر فرفع لهم على ساحله كهيئة الكَثيب الضّخم ؛ فلما أتوه اذا هى دابة تدعى العنبر ؛ فقال أبو عبيـدة أميرهم : ميتة . ثم قال : لا ، بل نحن رُسُـلُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفى سبيل الله ، وقـد اضطررتم فكُلُوا . قال : فأقمنا عليها شهرا ونحن ثلثمائة حتى سَمِنَّا . الحـديث . فأكلوا وشبعوا — رضوان الله عليهم — مما اعتقدوا أنه ميتة وتزوّدوا منها الى المدينة ، وذكروا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حلال وقال : "هل معكم من لحمه شئ فتطعمونا" . فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله . وقالت طائفة . يأكل بقدر سدّ الرمق . وبه قال ابن المـاجشون وابن حبيب . وفرّق أصحاب الشافعيّ بين حالة المقيم والمسافر فقالوا : المقيم يأكل بقدر ما يسـدّ رمقه ، والمسافر يتضلع ويتزوّد ؛ فاذا وجد

(١) يريد بالثانى أحد فرضى المخمصة الذى تقدّم فى المسئلة « الثانية والعشرين » وهو غير الدائمة .

(٢) تضلع : امتلأ شبعا أو ريا .

غنى عنها طرحها ، و إن وَجد مضطرًا أعطاه إياها ولا يأخذ منــه عوضا؛ فان الميتة لا يجوز بيعهـا .

الرابعة والعشرون — فان اضطرّ إلى خمر فان كان بإكراه شرب بلا خلاف ، و إن كان بجـوع أو عطش فلا يشرب . و به قال مالك فى العتبيّة قال . ولا يزيده الخمر إلا عطشا . وهو قول الشافعىّ؛ فان الله تعالى حرّم الخمر تحريما مطلقا، وحرّم الميتة بشرط عدم الضرورة. وقال الأبهرىّ : إن ردّت الخمر عنه جوعا أو عطشا شربها ؛ لأن الله تعـالى قال فى الخنزير «إنه رجس» ثم أباحه للضرورة . وقال تعالى فى الخمر «إنها رجس» فتدخل فى إباحة الخنزير للضرورة بالمعنى الجلىّ الذى هو أقوى من القياس ؛ ولا بدّ أن تروى ولو ساعة، وتردّ الجوع ولو مدة .

الخامسة والعشرون — روى أَصْبَغ عن ابن القاسم أنه قال : يشرب المضطرّ الدّم ولا يشرب الخمر . ويأكل الميتــة ولا يقرب ضَوالّ الإبل . وقاله ابن وهب . ويشرب البول ولا يشرب الخمر؛ لأن الخمر يلزم فيها الحدّ فهى أغلظ . نصّ عليه أصحاب الشافعىّ .

السادســة والعشرون — فإن غَصّ بلقمة فهل يسيغها بخمر أو لا؛ فقيل : لا ، مخافة أن يدعى ذلك . وأجاز ذلك ابن حبيب؛ لأنها حالة ضرورة . ابن العربى : «أما الغاص بلقمة فإنه يجوز له فيما بينــه و بين الله تعالى، وأما فيما بيننا فان شاهدناه فلا تخفى علينا بقرائن الحال صورة الغصــة من غيرها ؛ فيصدق إذا ظهر ذلك؛ و إن لم يظهر حددناه ظاهرا وسـلم من العقوبة عند الله تعـالى باطنا . ثم إذا وجد المضطر ميتة وخنزيرا ولحم ابن آدم أكل الميتة؛ لأنها حلال فى حال . والخـنزير وابن آدم لا يحل بحال . والتحريم المخفف أولى أن يقتحم من التحريم المثقل؛ كما لو أكره أن يطأ أخته أو أجنبية وطئ الأجنبية لأنها تحل له بحال. وهذا هو الضابط لهذه الأحكام. ولا يأكل ابنَ آدم ولو مات . قاله علماؤنا؛و به قال أحمد وداود. احتج أحمد بقوله عليه السلام : "كسر عظم الميت ككسره حيّا" . وقال الشافعىّ : يأكل لحم ابن آدم . ولا يجوز له أن يقتل ذِمّيا لأنه محترم الدم، ولا مسلما،ولا أسيرا لأنه مال الغير؛

فإن كان حربيا أو زانيا محصنا جاز قتله والأكل منه . وشنّع داود على المزنى بأن قال : قد أبحت أكل لحوم الأنبياء ! فغلب عليه ابن شريح بأن قال : فأنت قد تعرّضت لقتل الأنبياء اذ منعتهـم من أكل الكافر . قال ابن العربى : الصحيح عنـدى ألا يأكل الآدمى إلا إذا تحقق أن ذلك ينجيه ويحييه . والله أعلم .

السابعة والعشرون — سـئل مالك عن المضطر إلى أكل الميتة وهو يجد مال الغـير تمرا أو زرعا أو غنما؛ فقال : إن أمن الضرر على بدنه بحيث لا يعد سارقا ويصدق فى قوله أكل من أىّ ذلك وجد ما يرد جوعه ولا يحمل منه شيئا ، وذلك أحب الىّ من أن يأكل الميتة . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفى . وإن هو خشى ألا يصدّقوه وأن يعدوه سارقا فإنّ أكل الميتة أجوز عندى ، وله فى أكل الميتة على هذه المنزلة سعة .

الثامنة والعشرون — روى ابو داود قال حدّثنا موسى بن إسماعيـل قال حدّثنا حماد عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة أن رجلا نزل الحرّة ومعه أهله وولده؛ فقال رجل: إن ناقة لى ضلت فإن وجدتها فأمسكها؛ فوجدها ولم يوجد صاحبها فمرضت؛ فقالت آمرأته : انحرها؛ فأبى فنفقت . فقالت : أسلخها حتى نقدّد لحمها وشحمها ونأكله؛ فقال : حتى أسأل رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم فأتاه فسأله؛ فقال : " هل عنـدك غنًى يُغنيك " قال : لا؛ قال : " فكلوها " قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر؛ فقال : هلا كنت نحرتها ! فقال : استحييت منك . قال ابن خويزمنداد : فى هذا الحديث دليلان : أحدهما — أن المضطر يأكل من الميتة وإن لم يخف التلف؛ لأنه سأله عن الغنى ولم يسأله عن خوفه على نفســه . والثانى — يأكل ويشبع ويدّخر ويتزوّد؛ لأنه أباحه الادخار ولم يشترط عليه أن يشبع . قال أبو داود : وحدّثنا هارون بن عبد الله قال حدثنـا الفضل بن دكين قال أنبأنا عقبة بن وهب بن عقبـة العامرى قال : سمعت أبى يحدّث عن الفُجَيْع العامرىّ أنه أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : ما تحل لنـا الميتة ؟ قال : " ما طعامكم " قلنا : نَغْتَبِق ونصطبِـح . قال أبو نعيم : فسره لى عقبة قدح غدوة وقدح عشية قال : ذاك؛ وأبى الجوع . قال : فأحل لهم الميتـة

على هــذه الحال . قال أبو داود : الغَبوق من آخر النهــار والصَّبوح من أول النهــار . وقال الخطابي : الغبوق العشاء، والصبوح الغداء، والقدح من اللبن بالغداة، والقدح بالعشي يمسك الرمق ويقيم النفس وإن كان لا يغذي البدن ولا يشبع الشبع التام . وقد أباح لهم مع ذلك تناول الميتة؛ فكان دلالته أن تناول الميتة مباح الى أن تأخذ النفس حاجتها من القوت . وإلى هذا ذهب مالك وهو أحد قولي الشافعي . قال ابن خويزمنداد : إذا جاز أن يصطبحوا ويغتبقوا جاز أن يشبعوا ويتزوّدوا . وقال أبو حنيفة والشافعي في القول الآخر : لا يجوز له أن يتناول من الميتة إلا قدر ما يمســك رمقه . وإليه ذهب المزنيّ . قالوا : لأنه لو كان في الابتــداء بهــذه الحال لم يجز له أن يأكل منها شيئا؛ فكذلك إذا بلغها بعــد تناولها . ورُوي نحوه عن الحسن . وقال قتــادة : لا يتضلّع منها بشيء . وقال مقاتل بن حيان : لا يزداد على ثلاث لقم . والصحيح خلاف هذا؛ كما تقدّم .

التاسعــة والعشرون — وأما التّداوي بها فلا يخلو أن يحتاج إلى استعمالها قائمة العين أو محرقة؛ فإن تغيرت بالاحراق فقال ابن حبيب : يجوز التــداوي بها والصــلاة . وخفّفه ابن المــاجشون بناء على أن الحرق تطهير لتغير الصفات . وفي العتبية من رواية مالك في المَرْتَك[1] يصنع من عظام الميتة اذا وضعه في جرحه لا يصلي به حتى يغسله .

وإن كانت الميتة قائمة بعينها فقد قال سحنون : لا يتداوى بها بحال ولا بالخنزير؛ لأن منها عوضا حلالا بخلاف المجاعة، ولو وُجد منها عوض في المجاعة لم تؤكل . وكذلك الخمر لا يتداوى بها؛ قاله مالك؛ وهو ظاهر مذهب الشافعيّ؛ وهو اختيار ابن أبي هريرة من أصحابه . وقال أبو حنيفة : يجــوز شربها للتداوي دون العطش ؛ وهو اختيار القاضي الطبري من أصحاب الشافعيّ، وهو قول الثوري . وقال بعض البغداديين من الشافعية : يجوز شربها للعطش دون التداوي؛ لأن ضرر العطش عاجل بخلاف التداوي . وقيل : يجوز شربها للأمرين جميعا . ومنع بعض أصحاب الشافعيّ التداوي بكل محرّم إلا بأبوال الإبل خاصة؛ لحديث العُرَنيّين .

---

(١) المرتك (كمقعد) : ضرب من الأدوية .

ومنع بعضهم التداوى بكل محرّم؛ لقوله عليه السلام : « إن الله لم يجعل شـفاء أمتى فيما حرم عليهم » . ولقوله عليـه السلام لطارق بن سُوَيد وقد سأله عن الخمر فنهاه أوكرِه أن يصنعها فقال : إنمـا أصنعها للدواء؛ فقال : «إنه ليس بدواء ولكنه داء». رواه مسلم فى الصحيح. وهـذا يحتمل أن يقيد بحالة الاضطرار فإنه يجـوز التداوى بالسّم ولا يجـوز شربه . والله أعلم .

الموفيـة ثلاثين — قوله تعـالى : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ غير ، نصب على الحال . وقيـل : على الاستثناء . وإذا رأيت " غير " يصلح فى موضعها " فى " فهى حال ، وإذا صلح موضعها " إلا " فهى استثناء ، فقس عليـه . وباغ ، أصله باغى ثقلت الضمة على اليـاء فسكنت والتنوين ساكن فحذفت الياء والكسرة دالة عليها . والمعنى فيما قال قتادة والحسن والربيع وابن زيد وعكرمة : غير باغ فى أكله فوق حاجته، ولا عاد بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ويأكلها . وقال السّدى : غير باغ فى أكلها شهوة وتلذذا ، ولا عاد باستيفاء الأكل إلى حدّ الشّبع . وقال مجاهد وابن جبير وغيرهما : المعنى غير باغ على المسلمين ولا عاد عليهم ؛ فيدخل فى الباغى والعادى قطاع الطريق والخارج على السلطان والمسافر فى قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله . وهذا صحيح ؛ فإن أصل البغى فى اللغة قصد الفساد ؛ يقال : بَغَت المرأة تبغى بِغاء إذا فَجَرت ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ . وربما استعمل البغى فى طلب غير الفساد . والعرب تقول : خرج الرجل فى بُغاء إبل له ، أى فى طلبها ؛ ومنه قول الشاعر :

لا يمنعَنّـك من بُغا * ء الخـير تَعقـاد الرّتائم
إنّ الأشائم كالأيا * من والأيامن كالأشائم

الحادية والثلاثون — قوله تعالى : ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أصل عاد عائد؛ فهو من المقلوب كشاكى السلاح وهار ولاث . والأصـل شائك وهائر ولائث من لُثْت العمامة . فأباح الله فى حالة الاضطرار أكل جميع المحرّمات لعجزه عن جميع المباحات كما بينا ؛ فصار عدم المبـاح شرطا فى استباحة المحرم .

الثـانية والثلاثون — واختلف العلماء إذا اقترن بضرورة معصية، بقطع طريق وإخافة سبيل، فحظرها عليــه مالك والشافعيّ في أحد قوليــه لأجل معصيته ؛ لأن الله سبحانه أباح ذلك عونا ، والعاصى لا يحـل أن يعان ؛ فإن أراد الأكل فليتب وليأكل . وأباحها له أبو حنيفة والشافعيّ في القـول الآخر له ، وسويا في استباحته بين طاعته ومعصيته . قال ابن العربي : وعجبا ممن يبيح له ذلك مع التمـادى على المعصية ، وما أظن أحدا يقوله ، فإن قاله فهو مخطىء قطعا .

قلت : الصحيح خلاف هذا ؛ فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وهذا عام؛ ولعله يتوب في ثاني حال فتمحو التوبة عنه ما كان . وقد قال مسروق : من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى مات دخل النار ، إلا أن يعفو الله عنــه . قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا : وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة بل هو عزيمة واجبة ، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصيا ، وليس [تناول](1) الميتة من رخص السفر أو متعلقا بالسفر بل هو من نتائج الضرورة سفرا كان أو حضرا ، وهو كالإفطار للعاصى المقيم إذا كان مريضا ، وكالتيمم للعاصى المسافر عنـد عدم المـاء . قال : وهو الصحيح عندنا .

قلت : واختلفت الروايات عن مالك في ذلك ؛ فالمشهور من مذهبه فيما ذكره البـاجى في المنتقى : أنه يجوز له الأكل في سـفر المعصية ولا يجوز له القصر والفطـر . وقال ابن خويزمنداد : فأما الأكل عنـد الاضطرار فالطائع والعاصى فيه سواء ؛ لأن الميتة يجوز تناولها في السفر والحضر، وليس بخروج الخارج إلى المعاصى يسقط عنه حكم المقيم بل أسوء حالة من أن يكون مقيما ؛ وليس كذلك الفطر والقصر لأنهما رخصتان متعلقتان بالسفر. فمتى كان السفر سفر معصية لم يجز أن يقصر فيه ؛ لأن هـذه الرخصة تختص بالسفر؛ ولذلك قلنا : إنه يتيمم إذا عدم المـاء في سفر المعصية ؛ لأن التيمم في الحضر والسفر سواء . وكيف

(1) الزيادة عن كتاب «أحكام القرآن» للكيا الهراسي .

يجوز منعه من أكل الميتة والتيمم لأجل معصية ارتكبها ، وفى تركه الأكل تلف نفســه ، وتلك أكبر المعاصى ، وفى تركه التيمم إضاعة الصلاة . أيجوز أن يقال له : ارتكبت معصية فارتكب أخرى ؟ أيجوز أن يقال لشارب الخمر: ازن ، وللزانى : اكفر ؟ أو يقال لهما : ضيّعا الصلاة؟ ذكر هــذا كله فى أحكام القرآن له . ولم يذكر خلافا عن مالك ولا عن أحد من الصحابة . وقال البــاجى : وروى زياد بن عبــد الرحمن الأندلسى أن العاصى بسفره يقصر الصــلاة، ويفطر فى رمضان . فسوّى بين ذلك كله، وهو قول أبى حنيفة . ولا خلاف أنه لا يجوز له قتل نفسه بالإمساك عن الأكل، وأنه مأمور بالأكل على وجه الوجوب . ومن كان فى سفر معصية لا تسقط عنــه الفروض والواجبات من الصيام والصلاة ، بل يلزمه الإتيان بكلها ؛ فكذلك ما ذكرناه . وجه القول الأوّل أن هذه المعانى إنما أبيحت فى الأسفار لحاجة النــاس اليها ؛ فلا يباح له أن يستعين بها على المعاصى وله سبيل الى ألا يقتل نفسه . قال ابن حبيب: وذلك بأن يتوب ثم يتناول لحم الميتة بعــد توبته . وتعلق ابن حبيب فى ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ . فاشترط فى إباحة الميتة للضرورة ألا يكون باغيا . والمسافر على وجه الحرابة أو القطع، أو فى قطع رحم أو طالب إثم، باغ ومعتد؛ فلم توجد فيه شروط الإباحة . والله أعلم .

قلت : هذا استدلال بمفهوم الخطاب،وهو مختلف فيه بين الأصوليين . ومنظوم الآية أن المضطر غير باغ ولا عاد لا إثم عليه، وغيره مسكوت عنه، والأصل عموم الخطاب؛ فمن ادّعى زواله لأمر مّا فعليه الدليل .

الرابعــة والثلاثون(١) — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى يغفر المعاصى ؛ فأولى ألا يؤاخذ بما رخّص فيه، ومن رحمته أنه رخّص .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ ﴾ . يعنى علماء اليهود كتموا ما أنزل الله فى التوراة من صفة محمد صلّى الله عليه وسلّم وصحة رسالته . ومعنى أنزل : أظهر؛

(١) هى الثالثة والثلاثون كما يتبين من عد المسائل المتقدمة .

كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى سأظهر . وقيل : هو على بابه من النزول، أى ما أنزل به ملائكته على رسله . ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ﴾ أى بالمكتوم ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يعنى أخذ الرِّشاء . وسماه قليلا لانقطاع مدّته وسوء عاقبته . وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرِّشاء كان قليلا .

قلت : وهذه الآية وإن كانت فى الأحبار فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختارا لذلك بسبب دنيا يصيبها . وقد تقدّم هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ فِي بُطُونِهِمْ ﴾ ذكر البطون دلالة وتأكيدا على حقيقة الأكل إذ قد يستعمل مجازا فى مثل : أكل فلان أرضى ونحوه . وفى ذكر البطون أيضا تنبيه على جشعهم وأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذى لا خطر له . ومعنى « إِلَّا النَّارَ » أى إنه حرام يعذبهم الله عليه بالنار ؛ فسمّى ما أكلوه من الرِّشاء نارا لأنه يؤدّيهم الى النار . هكذا قال أكثر المفسرين . وقيل : أى إنه يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار فى جهنم حقيقة ؛ فأخبر عن المآل بالحال ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ أى أن عاقبته تؤول الى ذلك ، ومنه قولهم :

* لِدُوا للموت وابنوا للخراب *

قال :

* فللموت ما تلد الوالدة *

آخر :

* ودورنا لخراب الدهر نبنيها *

وهو فى القرآن والشعر كثير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم ؛ يقال : فلان لا يكلم فلانا إذا غضب عليه . وقال الطبرى : المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه . وفى التنزيل : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ . وقيل : المعنى ولا يرسل اليهم الملائكة بالتحية . ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أى لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم . وقال الزجاج : لا يثنى عليهم خيرا

ولا يسـميهم أزكياء و « أليم » بمعنى مؤلم ، وقد تقـدّم . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهـم ولهم عذاب أليم شَيْخٌ زانٍ ومَلِكٌ كذّاب وعائل مستكبر" . وإنما خص هؤلاء بأليم العذاب وشـدة العقوبة لمحض المعاندة والاستخفاف الحامل لهم على تلك المعاصى؛ إذ لم يحملهم على ذلك حاجة ولا دعتهم إليـه ضرورة كما تدعو من لم يكن مثلهم . ومعنى « لا ينظر إليهم » لا يرحمهم ولا يعطف عليهم . وسـيأتى فى آل عمران إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّـلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ تقدّم القول فيه . ولمـا كان العـذاب تابعا للضـلالة وكانت المغفرة تابعـة للهدى الذى اطرحوه دخلا فى تجوّز الشراء .

قوله تعالى : ﴿فَمَـا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ مذهب الجمهور، منهم الحسن ومجاهد، أن «ما» معناه التعجب؛ وهو مردود إلى المخلوقين؛ كأنه قال : اعجبوا من صـبرهم على النار ومكثهم فيهـا ؛ وفى التنزيل : ﴿قُتِـلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ و ﴿أَسْمِـعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ . وبهـذا المعنى صـدر أبو علىّ . قال الحسن وقتادة وابن جبـير والربيع : مالهم والله عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على النـار! وهى لغة يمنية معروفة . قال الفراء : أخبرنى الكسائى قال : أخبرنى قاضى اليمن أن خصمين اختصما إليه فوجبت اليمين على أحدهمـا فحلف؛ فقال له صاحبه : ما أصبرك على الله . أى ما أجرأك عليه . والمعنى : ما أشجعهم على النار إذ يعملون عملا يؤدّى إليها . وحكى الزجاج أن المعنى ما أبقاهم على النـار؛ من قولهم : ما أصبر فلانا على الحبس ! أى ما أبقاه فيه . وقيل : المعنى فمـا أقل جزعهم من النار؛ فجعـل قلة الجزع صبرا . وقال الكسائى وقطرب : أى ما أدومهم على عمل أهل النار . وقيل : ما استفهام معناه التوبيخ؛ قاله ابن عباس والسـدى وعطاء وأبو عبيدة معمر بن المثنى، ومعناه : أى أىّ شىء صبرهم على عمل أهل النار ؟ ! وقيل هذا على وجه الاستهانة بهم والاستخفاف بأمرهم .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذلك فى موضع رفع، وهو إشارة إلى الحكم؛ كأنه قال: ذلك الحكم بالنــار . وقال الزجاج : تقديره الأمر ذلك ، أو ذلك الأمر أو ذلك العــذاب لهم . قال الأخفش : وخبر ذلك مضمر، معناه ذلك معلوم لهــم . وقيل : محــله نصب، معناه فعلنا ذلك بهم . ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعنى القرآن فى هذا الموضع ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أى بالصدق . وقيــل بالحجة . ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعــنى التوراة؛ فادّعى النصارى أن فيها صفة عيسى، وأنكر اليهود صفته . وقيل : خالفوا آباءهم وسلفهم فى التمسك بهــا . وقيل : خالفوا ما فى التوراة من صفة محمد صلّى الله عليه وسلّم واختلفوا فيها . وقيل : المراد القرآن . والذين اختلفوا كفار قريش؛ يقول بعضهم : هو سحر . وبعضهم يقول : أساطير الأولين . وبعضهم : مفترى؛ إلى غير ذلك . وقد تقدّم القول فى معنى الشقاق والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ إلى قوله :﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ اختلف مَن المراد بهذا الخطاب؛ فقال قتادة : ذكر لنا أن رجلا سأل نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم عن البر؛ فأنزل الله هــذه الآية؛ قال : وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله؛ ثم مات على ذلك وجبت له الجنة؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال الربيع وقتادة أيضا : الخطاب لليهود والنصارى لأنهم اختلفوا فى التوجّه والتولّى؛ فاليهود إلى المغرب قِبَل بيت المقدس، والنصارى إلى المشرق مطلع الشمس . وتكلّموا فى تحويل القبلة وفضّلت كل فرقة توليتها؛ فقيل لهم : ليس البر ما أنتم فيه، ولكن البر من آمن بالله .

الثانيــة — قرأ حمزة وحفص « البرّ » بالنصب؛ لأنــ ليس من أخوات كان، يقع بعدها المعرفتان فتجعل أيهما شئت الاسم أو الخبر؛ فلما وقع بعد ليس « البر » نصبه؛ وجعل « أن تولوا » الاسم، وكان المصدر أولى بأن يكون اسما لأنه لا يتنكّر، والبرّ قد يتنكر والفعل أقوى فى التعريف . وقرأ البــاقون بالرفع على أنه اسم ليس ، وخبره « أن تولوا » تقديره : ليس البر توليتكم وجوهكم ؛ وعلى الأوّل ليس توليتكم وجوهكم البر؛ كقوله : ﴿مَا كَانَ

حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا ﴾ ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ ﴾ وما كان مثله . ويقوّى قراءة الرفع أن الثانى معه الباء إجماعا فى قوله : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ ولا يجوز فيه إلا الرفع ؛ فحمل الأوّل على الثانى أولى من مخالفته له . وكذلك هو فى مصحف أُبىّ بالباء « ليس البر بأن تولوا » وكذلك فى مصحف ابن مسعود أيضا ، وعليه أكثر القرّاء ، والقراءتان حسنتان .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ البر هاهنا اسم جامع للخير ، والتقدير: ولكن البرّ برُّ من آمن ؛ فحذف المضاف كقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ . ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ . قاله الفراء وقطرب والزجاج . وقال الشاعر :

* فإنما هى إقبال وإدبار *

أى ذات إقبال وذات إدبار . وقال النابغة :

وكيف تواصل من أصبحت * خَلالتُه كأبى مَرْحَبِ

أى كخلالة أبى مرحب ؛ فحذف . وقيل : المعنى ولكنّ ذا البر ؛ كقوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى ذوو درجات . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة وفرضت الفرائض وصرفت القبلة الى الكعبة وحدّت الحدود أنزل الله هذه الآية فقال : ليس البر كله أن تصلوا ولا تعملوا غير ذلك ، ولكنّ البر أى ذا البر من آمن بالله الى آخرها ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وعطاء وسفيان والزجاج أيضا . ويجوز أن يكون «البر» بمعنى البارّ والبَرّ ، والفاعل قد يسمى بمعنى المصدر ؛ كما يقال : رجل عدل ، وصوم وفطر . وفى التنزيل : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أى غائرا . وهذا اختيار أبى عبيدة . وقال المبرّد : لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت « ولكن البَرّ » بفتح الباء .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ ﴾ فقيل : يكون « الموفون » عطفا على « مَنْ » لأن من فى موضع جمع ومحل رفع ، كأنه قال : ولكن البر المؤمنون والموفون ؛ قاله الفراء والأخفش . والصابرين ، نصب على المدح ، أو بإضمار فعل .

والعرب تنصب على المدح وعلى الذم، كأنهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم ولا يتبعونه أول الكلام، وينصبونه . فأما المدح فقوله : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ . وأنشد الكسائى :

وكُلُّ قومٍ أطاعوا أمر مرشدهم * إلا نُمَيرًا أطاعت أمْرَ غاوِيها

الظاعنين ولمّا يُظْعِنوا أحدًا * والقائلون(١) لِمَنْ دار نُخَلِّيها

وأنشد أبو عبيدة :

لا يَبْعَدنْ قومى الذين هُمُ * سَمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزُرِ

النازلين بكل مُعْتَرَكٍ * والطيبون معاقد الأُزُرِ

وقال آخر :

* نحن بنى ضَبَّةَ أصحاب الجَمَل *

فنصب على المدح . وأما الذم فقوله تعالى : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ الآية . وقال عروة ابن الورد :

سَقَوْنى الخمر ثم تَكَنَّفُونى * عُداةَ اللهِ من كَذِب وزُورِ

وهذا مَهْيَع(٢) فى النعوت لا مطعن فيه من جهة الإعراب موجود فى كلام العرب كما بيّنا .
وقال بعض من تعسّف فى كلامه : إن هذا غلط من الكُتّاب حين كتبوا مصحف الإمام ؛ قال : والدليل على ذلك ما روى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال : أرى(٣) فيه لحنا وستقيمه

---

(١) راجع كتاب سيبويه وتوجيه الاعراب فيه . (٢) المهيع : الطريق الواسع البين .

(٣) هــذا القول من أخبث ما وضــع الوضاعون على عثمان رضى الله عنه ، وقد أنكر العلماء صحة نسبته اليــه . على أن عثمان لم يستقل بجمع المصحف بل شاركه كبار الصحابة فى جمعــه وكتابته ولم ينشروه بين المسلمين حتى قابلوه على الصحف التى جمع القرآن فيها على عهــد أبى بكر رضى الله عنه ، فلم يتداوله المسلمون إلا وهو باجماع الصحابة موافق تمام الموافقة للعرضة الأخيرة التى عرض فيها النبى صلى الله عليه وسلم القرآن على جبريل عليه السلام . وهل يظن ظان أن عثمان رضى الله عنــه وهو ثالث الخلفاء الراشــدين يرى فى المصحف لحنا يخالف ما أنزل الله ويتركه ويقول ستقيمه العرب بألسنتها ، وكيف يعقل أن يقول ذلك فى حضرة الصحابة ولا يقفون فى وجهه ويردون عليــه قوله وهم أنصار الدين وحماته . وممن أنكر نسبة هــذا القول الى عثمان المصنف والزمخشرى وأبو حيان والآلوسى فى سورة النساء عنــد قوله تعالى : (والمقيمين الصلاة) فراجع ذلك إن شئت .

العرب بألسنتها . وهكذا قال فى ســورة النساء ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ . وفى سورة المـائدة ﴿ وَالصَّابِئُونَ ﴾ . والجواب ما ذكرناه . وقيل : الموفون رفع على الابتـداء والخبر محذوف تقـديره وهم الموفون . وقال الكسائى : والصابرين عطف على «ذوى القربى» كأنه قال : آتى الصابرين . قال النحاس : «وهذا القول خطأ وغلط بيّن؛ لأنك إذا نصبت «والصابرين» ونسقته على «ذوى القربى» دخل فى صلة «مَن» وإذا رفعت «والموفون» على أنه نسق على «مَن» فقد نسقت على مَنْ من قبل أن تتم الصلة؛ وفرقت بين الصلة والموصول بالمعطوف». وقال الكسائى : وفى قراءة عبد الله «والموفين والصابرين» . وقال النحاس : «يكونان منسوقين على « ذوى القربى » أو على المدح . قال الفراء : وفى قراءة عبد الله فى النساء « والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة»[1] . وقرأ يعقوب والأعمش «والموفون والصابرون» بالرفع فيهما . وقرأ الجحدرى «بعهودهم» . وقد قيل : إن « والموفون » عطف على الضمير الذى فى آمن؛ وأنكره أبو علىّ وقال : ليس المعنى عليه؛ إذ ليس المراد أن البر بر من آمن بالله هو والموفون؛ أى آمنا جميعا؛ كما تقول : الشجاع من أقدم هو وعمرو؛ وإنمـا الذى بعد قوله « من آمن » تعداد لأفعال من آمن وأوصافهم .

الخامســـة — قال علماؤنا : هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة : الإيمـان بالله وبأسمائه وصفاته . وقد أتينا عليها فى الكتاب « الأسنى » والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنـة والنار . وقد أتينا عليها فى كتاب «التذكرة» والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من عند الله، كما تقدّم، والنبيين وإنفاق المـال فيما يعنّ من الواجب والمنـدوب وإيصال القـرابة وترك قطعهم وتفقّـد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك، ومراعاة ابن السبيل؛ قيـل : المنقطع به، وقيل : الضيف . والسؤال وفكّ الرقاب . وسيأتى بيان هذا فى آية الصدقات . والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء

---

(١) كذا فى كتاب «إعراب القرآن» للنحاس، وما يدل عليه سياق الكلام فى البحر المحيط لأبى حيان فى سورة « النساء» . وفى الأصول : «والمقيمين ... والمؤتين» .

بالعهود والصبر فى الشدائد . وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب . وتقـدم التنبيه على أكثرها ، ويأتى بيان باقيها بمـا فيها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

واختلف هل يعطى اليتيم من صدقة التطوع بمجرد اليتم على وجه الصـلة وإن كان غنيا أولا يعطى حتى يكون فقـيرا ؛ قولان للعلماء . وهـذا على أن يكون إيتاء المـال غير الزكاة الواجبة على ما بينته آنفا .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ استدل به من قال : إن فى المـال حقا سوى الزكاة وبها كمال البر . وقيل : المراد الزكاة المفروضة ، والأول أصح ؛ لمـا خرّجه الدّارقُطنى عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "إن فى المـال حقا سوى الزكاة ثم تلا هذه الآية ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآية" . وأخرجه ابن ماجه فى سننه ، والترمذىّ فى جامعه وقال : «هذا حديث ليس إسناده بذاك ، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعّف . وروى بيـان وإسماعيل بن سالم عن الشعبى هـذا الحديث وهو أصح » .

قلت : والحديث وإن كان فيه مقال فقد دل على صحته معنى ، ما فى الآية نفسها من قوله تعالى : ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ فذكر الزكاة مع الصلاة ، وذلك دليل على أن المراد بقوله : ﴿وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّـهِ﴾ ليس الزكاة المفروضة ؛ فإن ذلك كان يكون تكرارا . والله أعلم . واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المـال إليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم . وهذا إجماع أيضا ، وهو يقوّى ما اخترناه . والموفق الإله .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ الضمير فى «حبه» اختلف فى عوده ؛ فقيـل : يعود على المعطى للمـال ، وحذف المفعول وهو المـال . ويجوز نصب «ذوى القربى» بالحب ؛ فيكون التقـدير على حب المعطى ذوى القربى . وقيـل : يعود على المـال ؛ فيكون المصدر مضافا إلى المفعول . قال ابن عطية : ويجىء قوله : ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ اعتراضا بليغا أثناء القول .

قلت : ونظيره ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا ﴾ فإنه جمـع المعنيين : الاعتراض وإضافة المصـدر إلى المفعول ، أى على حب الطعام . ومن الاعتراض ﴿ قَوْلُهُ الحَقُّ ﴾ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ ﴾ . وهذا عندهم يسمى التتميم وهو نوع من البـلاغة ، ويسمى أيضا الاحتراس والاحتياط ؛ فتمم بقوله ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ وقوله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ ومنه قول زهير :

من يلق يوما على عِلاّته هَرِمًا * يلق السَّماحةَ منه والنَّدى خُلقـا

وقال آمرؤ القيس :

على هيكل يعطيك قبل سؤاله * أفانـين جَرى غير كَزٍّ ولاوان

فقوله : «علىّ علاته» و «قبل سؤاله» ؛ تتميم حَسَن ؛ ومنه قول عنترة :

آثْنِي علىّ بمـا علمتِ فإننى * سهل مخالقتى إذا لم أظلم

فقوله : « اذا لم أظلم » ؛ تتميم حسن . وقال طرفة :

فسقى ديارَك غيرَ مفسدِها * صوبُ الربيع ودِيمةٌ تَهْمِى

وقال الربيع بن ضَبيع الفزارىّ :

فنيت ومايفنى صنيعى ومنطق * وكل امرئ إلا أحاديثـه فان

فقوله : « غير مفسدها » ، و « إلا أحاديثه » ؛ تتميم واحتراس .

فأفنى الرّدى أرواحنا غير ظالم * وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فقوله : « غير ظالم » ، و« غير عائب » ؛ تتميم واحتياط . وهو فى الشعر كثير . وقيل : يعود على الإيتاء ؛ لأن الفعل يدل على مصـدره ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَـا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أى البخل خيرا لهم . فإذا أصابت الناس حاجة أو فاقة فإيتاء المـال حبيب إليهم . وقيـل : يعود على اسم الله تعالى فى قوله : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ﴾ . والمعنى المقصود أن يتصـدق المرء فى هـذه الوجوه وهو صحيح شحيح يخشى الفقر ويأمل البقا .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ أى فيما بينهم و بين الله تعالى وفيما بينهم و بين الناس ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ البأساء : الشدّة والفقــر . والضراء : المرض والزّمانة؛ قاله ابن مسعود . وقال عليه السلام : "يقول الله تعالى أيما عبد من عبادى ابتليته ببلاء فى فراشه فلم يشك إلى عوّاده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فان قبضته فإلى رحمتى و إن عافيته عافيته وليس له ذنب" قيــل : يا رسول الله، ما لحم خير من لحمــه ؟ قال : "لحم لم يذنب" قيل : فما دم خير من دمه ؟ قال : "دم لم يذنب" . والبأساء والضراء اسمــان بنيا على فعلاء ، ولا فعــل لهما ؛ لأنهما اسمان وليسا بنعت . ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ . أى وقت الحرب .

قوله تعــالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وصفهم بالصدق والتقوى فى أمورهم والوفاء بهــا ، وأنهم كانوا جادّين فى الدين ؛ وهــذا غاية الثناء . والصدق خلاف الكذب ؛ و يقال : صدقوهم القتال . والصِّدّيق الملازم للصدق ؛ وفى الحديث : "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البرّ و إن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يَصدُق و يتحرّى الصدقَ حتى يُكتب عند الله صِدّيقا " .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . فيه سبع عشرة مسئلة :

الأولى — روى البخارىّ والنسائى والدّارقطنى عن ابن عباس قال : « كان فى بنى إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية ؛ فقــال الله لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْــلَى الْحُــرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ . فالعفو أن يقبل الدّية فى العمد : ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ يتبع بالمعروف و يؤدّى بإحسان ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ . ممــا كتب على من كان قبلكم . ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قتَل بعــد قبول الدية » . هــذا لفظ البخارى : حدّثنا الحميدى حدثنا سفيان حدّثنا عمرو [قال] سمعت مجاهــدا [قال] سمعت ابن عباس . وقال الشّعبىّ فى قوله تعالى :

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ . قال: أنزلت فى قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا فقالوا : نقتل بعبدنا فلان آبن فلان، و بأَمَتِنا فلانة بنت فلان . ونحوه عن قتادة .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ . كتب معناه فرض وأثبت؛ ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

كتب القتل والقتـال علينا * وعـلى الغانيات جَرّ الذّيول

وقد قيـل : إن كتب هنا إخبـار عما كتب فى اللوح المحفوظ وسـبق به القضاء . والقصاص مأخوذ من قص الأثر وهو اتّبـاعه؛ ومنــه القاصّ لأنه يتبع الآثار والأخبـار . وقصّ الشعر اتباع أثره؛ فكأن القاتل سلك طريقا من القتل فقُصّ أثره فيها ومُشِيَ على سبيله فى ذلك؛ ومنه ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ . وقيل : القصّ القطع ؛ يقـال : قصصت ما بينهما ؛ ومنه أخذ القصاص لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به ؛ يقال : اقتص الحـاكم لفلان من فلان وأباء به فأمثله فامتثل منه أى اقتص منه .

الثالثــة — صورة القصاص هو أن القاتل فُرض عليه إذا أراد الولىُّ القتل الاستسلام لأمر الله والانقياد لقصاصه المشروع، وأن الولىّ فرض عليه الوقوف عنـد قاتل وليّه وترك التعدى الى غيره؛ كما كانت العرب تتعدّى فتقتل غير القاتل؛ وهو معنى قوله عليــه السـلام : "إن من أعتى النـاس على الله يوم القيامــة ثلاثة رجل قتل غير قاتله و رجل قتــل فى الحرم و رجل أخذ بذحول الجاهلية (١)". قال الشّعبى وقتادة وغيرهما : إن أهل الجاهلية كان فيهم بغى وطاعة للشيطان ؛ فكان الحىّ إذا كان فيه عزّ ومَنَعة فقتل لهم عبد قتــله عبد قوم آخرين ، قالوا : لا نقتل به إلا حُرّا، و إذا قتلت منهم امرأة قالوا : لا نقتــل فيها الا رجلا ، و إذا قتل لهم وضيع قالوا : لا نقتل به إلا شريفا . و يقولون : "القتل أوقى للقتل"، بالواو والقاف. و يروى أبقى، بالبـاء والقاف . و يروى أنفى، بالنون والفـاء . فنهاهم الله عن البغى فقال :

(١) الذحل : الثأر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح، ونحو ذلك .

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . و بين الكلامين فى الفصاحة والجزل بون عظيم .

الرابعة — لا خلاف أن القصاص فى القتل لايقيمه إلا أولو الأمر، فرض عليهم النهوض بالقصاص و إقامة الحدود وغير ذلك، لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم فى إقامة القصاص وغيره من الحدود . وليس القصاص بلازم إنما اللازم ألا يتجاوز القصاص الى الاعتداء، فأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح، على ما يأتى بيانه .

فإن قيل : فإن قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ معناه : فرض وألزم، فكيف يكون القصاص غير واجب ؟ قيل له : معناه إذا أردتم . فأعلم أن القصاص هو الغاية عند التشاحّ . والقتلى جمع قتيل، لفظ مؤنث تأنيث الجماعة، وهو مما يدخل على الناس كرها ؛ فلذلك جاء على هذا البناء كجرحى و زمنى وحمقى وصرعى وغرقى، وشبههن .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ الآية . اختلف فى تأويلها، فقالت طائفة : جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قتل نوعه، فبينت حكم الحر إذا قتل حرا، والعبد إذا قتل عبدا، والأنثى إذا قتلت أنثى . ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر، فالآية محكمة وفيها إجمال يبينه قوله تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ . و بينه النبيّ صلى الله عليه وسلم بسنته لما قتل اليهودىّ بالمرأة، قاله مجاهد . وذكره أبو عبيد عن ابن عباس . وروى عن ابن عباس أيضا أنها منسوخة بآية المائدة ؛ وهو قول أهل العراق .

السادسة — قال الكوفيون والثورى : يقتل الحر بالعبد ، والمسلم بالذمى ، واحتجوا بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ فعمّ ، وقوله : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ قالوا : والذمى مع المسلم متساويان فى الحرمة التى تكفى فى القصاص وهى حرمةُ الدم الثابتة على التأبيد ؛ فإن الذمى محقون الدم على التأبيد ، والمسلم

كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام . والذى يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمىّ ، وهذا يدل على أن مال الذمى قد ساوى مال المسلم ؛ فدلّ على مساواته لدمه إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه . واتفق أبو حنيفة والثورىّ وابن أبى ليـلى وأصحابه على أن الحر يقتل بالعبد كما يقتل العبد به ؛ وهو قول داود وروى ذلك عن علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما ، وبه قال سعيد بن المسيّب وقتادة وابراهيم النخعى والحكم بن عيينة . والجمهور من العلماء لا يقتلون الحرّ بالعبد ؛ للتنويع والتقسيم فى الآية . وقال أبو ثور : لمـا اتفق جميعهم على أنه لاقصاص بين العبيد والأحرار فيما دون النفوس كانت النفوس أحرى بذلك . ومن فرق منهم بين ذلك فقد ناقض . وأيضا فالإجماع فيمن قتل عبدا خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة ، فكما لم يشـبه الحر فى الخطأ لم يشبهه فى العمد . وأيضا فإن العبد سلعة من السلع يباع ويشترى ويتصرف فيه الحر كيف شاء ، فلا مساواة بينه وبين الحرّ ولا مقاومة

قلت : هـذا الإجماع صحيح ، وأما قوله أولا : ولمـا اتفق جميعهم إلى قوله : فقد ناقض ؛ فقد قال ابن أبى ليلى وداود بالقصـاص بين الأحرار والعبيـد فى النفس وفى جميع الأعضاء . واسـتدل داود بقوله عليه السلام : " المسـلمون تتكافأ دماؤهم " فلم يفرق بين حر وعبد . وسيأتى بيانه فى « النساء » إن شاء الله تعالى

السابعـة — والجمهور أيضـا على أنه لايقتل مسلم بكافر ؛ لقوله صلّى الله عليه وسلّم " لايقتل مسلم بكافر " أخرجه البخارىّ عن علىّ بن أبى طالب . ولا يصح لهم ماروره من حديث ربيعة أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قتل يوم خَيْبَر مسلما بكافر لأنه منقطع ، ومن حديث ابن البَيْلَمَانى وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبىّ صـلّى الله عليه وسلّم مرفوعا . قال الدارقطنى : « لم يسنده غير ابراهيم بن أبى يحيى وهو متروك الحديث والصواب عن ربيعة عن ابن البيلمانى مرسل عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم ، وابن البيلمانى ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث ، فكيف بما يرسله .

قلت : فلا يصح فى الباب إلا حديث البخارى؛ وهو يخصص عموم قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ الآية . وعموم قوله : ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ .

الثامنــة — روى عن على بن أبى طالب والحسن بن أبى الحسن البصرى أن الآية نزلت مبيّنة حكم المذكورين ؛ ليــدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يقتل حرّ عبدا أو عبــد حرّا أو ذكر أنثى أو أنثى ذكرا، وقالا : إذا قتل رجل امرأة فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم ووفوا أولياءه نصف الدّية، وإن أرادوا استحيَوْه وأخذوا منه دية المرأة . وإذا قتلت امرأة رجلا فإن أراد أولياؤه قتلها قتلوها وأخذوا نصف الدّية، وإلا أخذوا دية صاحبهــم واستَحْيَوها . وإذا قتل الحر العبد، فإن أراد سيّد العبد قتل وأعطى دية الحرّ إلا قيمة العبد، وإن شاء استحيا وأخذ قيمة العبد . هــذا مذكور عن على والحسن . وقد أنكر ذلك عنهم أيضا . روى هذا الشعبى عن علىّ ، ولا يصح ؛ لأن الشعبى لم يلق عليًّا . وقد روى الحكم عن علىّ وعبد الله قالا : إذا قتل الرجل المــرأة متعمدا فهو بهــا قَوَدٌ . وهذا يعارض رواية الشعبى عن علىّ . وأجمع العلمــاء على أن الأعور والأشل إذا قتل رجلا سالم الأعضاء أنه ليس لوليّه أن يقتل الأعور، ويأخذ منه نصف الدّية من أجل أنه قتل ذا عينين وهو أعور، وقتل ذا يدين وهو أشل . فهذا يدل على أن النفس مكافئة للنفس، ويكافئ الطفل فيها الكبير .

ويقال لقائل ذلك : إنْ كان الرجل لا تكافئــه المرأة ولا تدخل تحت قول النبىّ صلّى الله عليــه وسلّم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم" فلِمَ قتلت الرجل بها وهى لا تكافئــه ثم تأخذ نصف الدية ، والعلمــاء قد أجمعوا أن الدّية لا تجتمع مع القصاص ، وأن الدّية إذا قبلت حرم الدم وارتفع القصاص ؛ فليس قوله هــذا بأصل ولا قياس ؛ قاله أبو عمــر رحمــه الله .

التاســـعة — وأجمع العلماء على قتل المرأة بالرجل والرجل بها . والجمهور لا يرون الرجوع بشىء . وفرقة ترى الاتباع بفضل الدّيات . قال مالك والشافعى وأحمــد وإسحاق والثورى

وأبو ثور : وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس . وقال حماد بن أبى سليمان وأبو حنيفة : لا قصاص بينهما فيما دون النفس وإنما هو فى النفس بالنفس . وهما محجوجان بالحاق ما دون النفس بالنفس على طريق الأحرى والأولى، على ما تقدّم .

العاشـــرة — قال ابن العربى : « ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا : يقتل الحر بعبد نفسه . ورووا فى ذلك حديثا عن الحسن عن سَمُرة أن رسـول الله صلّى الله عليـه وسلّم قال : " من قتل عبـده قتلناه " . وهو حديث ضعيف ، ودليلنـا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَـدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾ والولىّ ها هنا السـيد ، فكيف يجعل له سلطان على نفسه » . وقد اتفق الجميع على أن السيد إذا قتل عبده خطأ أنه لا تؤخذ منه قيمته لبيت المـال . وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلا قتل عبده متعمدا فجلده النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ونفاه سنة ومحا سهمه من المسلمين ولم يقده به .

فإن قيل : فإذا قتل الرجل زوجته لِم لَمْ تقولوا : ينصب النكاح شبهة فى درء القصاص عن الزوج ، إذ النكاح ضرب من الرق ، وقد قال ذلك الليث بن سعد . قلنـا : النكاح ينعقد لهـا عليـه ، كما ينعقد له عليها ، بدليل أنه لا يتزوج أختها ولا أربعا سـواها ، وتطالبه فى حق الوطء بمـا يطالبها ، ولكن له عليها فضل القوامة التى جعل الله له عليها بمـا أنفق من ماله ، أى بمـا وجب عليه من صداق ونفقة ، فلو أورث شبهة لأورثها فى الجانبين .

قلت : هذا الحديث الذى ضعّفه ابن العربى وهو صحيح ، أخرجه النسائى وأبو داود . وتمام متْنه "ومن جدعه جدعناه ومن أخصاه أخصيناه" . وقال البخارى عن علىّ بن المديني : سماع الحسن من سَمُرة صحيح . وأخذ بهذا الحديث . وقال البخارى : وأنا أذهب اليه . فلو لم يصح الحديث لمـا ذهب اليه هذان الإمامان . وحسبك بهما . ويقتل الحر بعبد نفسه . قال النخعى والثورىّ فى أحد قوليه : وقد قيل : إن الحسن لم يسمع من سمرة إلا حديث العقيقة والله أعلم . واختلفوا فى القصاص بين العبيد فيما دون النفس ، هذا قول عمر بن عبد العزيز وسالم

ابن عبد الله والزهرى وقزّان[1] ومالك والشافعى وأبو ثور . وقال الشّعبى والنخعى والثورى وأبو حنيفة : لا قصاص بينهم إلا فى النفس . قال ابن المنذر : الأول أصح .

الحادية عشرة — روى الدارقُطنى وأبو عيسى الترمذى عن سراقة بن مالك قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقيد للاب من ابنه ، ولا يُقيد للابن من أبيه . قال أبو عيسى : هذا حديث لانعرفه من حديث سراقة إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بصحيح . رواه اسماعيل بن عياش عن أبى المُثَنّى بن الصبّاح ، وأبو المثنى يضعف فى الحديث . وقد روى هــذا الحديث أبو خالد الأحمر عن الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد روى هذا الحديث عن عمرو بن شعيب مرسلا ، وهذا الحديث فيه اضطراب . والعمل على هذا عند أهل العلم أن الأب إذا قتل ابنه لايقتل به ، وإذا قذفه لايحد » . وقال ابن المنذر : اختلف أهــل العلم فى الرجل يقتل ابنه عمدا ؛ فقالت طائفة : لا قود عليه وعليه ديته ؛ وهذا قول الشافعى وأحمد واسحاق وأصحاب الرأى ، وروى ذلك عن عطاء ومجاهد . وقال مالك وابن نافع وابن عبد الحكم : يقتل به . قال ابن المنذر : وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسنة ؛ فأما ظاهر الكتاب فقوله تعـالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ » . والثابت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم" ولا نعلم خبرا ثابتا يجب به استثنـاء الأب من جملة الآية . وقد روينا فيــه أخبارا غير ثابتــة . وحكى الكيا الطبرى عن عثمان البَتّى أنه يقتــل الوالد بولده ؛ للعمومات فى القصاص . وروى مثــل ذلك عن مالك ، ولعلهما لايقبلان أخبار الآحاد فى مقابلة عمومات القرآن .

قلت : لا خلاف فى مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل ابنه متعمدا ، مثــل أن يَضْجعه ويذبحه أو يَصْبِره[2] مما لا عذر له فيه ولا شبهة فى إدعاء الخطأ ، أنه يقتل به قولا واحدا . فأما

(١) قزان (بضم أوله وتشديد الراء) بن تمام الأسدى ، توفى سنة إحدى وثمانين ومائة .

(٢) كذا فى نسخة من الأصل . وصبر الإنسان وغيره على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت . وفى سائر الأصول : « أو يضربه » .

إن رماه بالسلاح أدبا أو حَنَقًا فقتله، ففيه فى المذهب قولان : يقتل به، ولا يقتل به وتُغَلَّظ الدية . وبه قال جماعة العلماء . ويقتل الأجنبى بمثل هـذا . آبن العربى (١) : «سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشى يقول فى النظر : لا يقتل الأب بابنه ؛ لأن الأب كان سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه . وهذا يبطل بما إذا زنا بابنته فانه يرجم، وكان سبب وجودها وتكون هى سـبب عدمه . ثم أى فقه تحت هـذا ، ولم لا يكون سبب عدمه اذا عصى الله تعـالى فى ذلك . وقد أثَرُوا عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : ”لا يقاد الوالد بولده“ . وهو حديث باطل، متعلَّقهم أن عمر رضى الله عنه قضى بالدية مغلظة فى قاتل آبنه ولم ينكر أحد من الصحابة عليه؛ فأخذ سائر الفقهاء رضى الله عنهم المسئلة مُسْجلَة (٢) ، وقالوا : لا يقتل الوالد بولده . وأخذها مالك محكمة مفصّلة فقال : إنه لو حذفه بالسيف وهذه حالة محتملة لقصد القتل وعدمه ، وشفقة الأبوة شـبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد للقتل تسقط القَوَد . فاذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله» . قال آبن المنذر : وكان مالك والشافعى وأحمد و إسحاق يقولون : إذا قتل الآبن الأب قتل به .

الثانية عشرة — وقد استدل الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله : لا تقتل الجماعة بالواحد، قال : لأن الله سبحانه شرط المساواة ولا مساواة بين الجمـاعة والواحد . وقد قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾ . والجواب أن المراد بالقصاص فى الآية قتل من قتل كائنا من كان؛ ردًّا على العرب التى كانت تريد أن تقتل بمن قُتِل من لم يقتل ، وتقتل فى مقابلة الواحد مائة ؛ افتخارا واستظهارا بالجاه والمقدرة ؛ فأمر الله سبحانه بالعدل والمساواة، وذلك بأن يقتل من قتل ، وقد قتل عمر رضى الله عنه سبعة برجل بصنعاء وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعا . وقتل على رضى الله عنه الحَرُورِية (٣) بعبد الله

(١) أثبتنا كلام ابن العربى هنا كما ورد فى كتابه « أحكام القرآن » . وقد ورد فى الأصـول بنقص وتحريف من النساخ . (٢) مرسلة مطلقة .

(٣) الحرورية : طائفـة من الخوارج نسـبوا الى حروراء (موضـع قريب من الكوفة) لأن أوّل مجتمعهم وتحكيمهم فيها .

ابن خبّاب . فإنه توقّف عن قتالهم حتى يُحدِثُوا فلما ذبحوا عبد الله بن خَبّاب كما تذبح الشاة ، وأخبر علىّ بذلك قال : الله أكبر، نادوهم أن أخرجوا الينا قاتل عبد الله بن خَبّاب . فقالوا : كلّنا قتلناه ثلاث مرات؛ فقال علىّ لأصحابه : دونكم القوم؛ فما لبث أن قتلهم علىّ وأصحابه . خرّج الحديثين الدّارقُطنى فى سننه . وفى التّرمذىّ عن أبى سعيد وأبى هريرة عن رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم قال: "لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبّهم الله فى النار" . وقال فيه : حديث غريب . وأيضا فلو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا الواحد لم يقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك فى قتلهم و بلغوا الأمل من التّشفى . ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ . والله أعلم . وقال ٱبن المنـذر : وقال الزّهرى وحبيب ابن أبى ثابت وٱبن سيرين : لا يقتل اثنان بواحد. روينا ذلك عن معاذ بن جبل وٱبن الزبير وعبد الملك قال ابن الزبير : وهذا أصح ، ولا حجة مع من أباح قتل جماعة بواحد . وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه .

الثالثة عشرة — روى الأئمـة عن أبى شريح الكعبىّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " ألا إنكم يا معشر خزاعة قتلتم هـذا القتيل من هُذيل و إنى عاقله فمن قتل له بعـد مقالتى هـذه قتيل فأهله بين خِيرتين أن يأخذوا العقل أو يقتلوا " . لفظ أبى داود . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وروى عن أبى شريح الخـزاعى[1] عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " من قتل له قتيل فله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية " وذهب إلى هذا بعض أهل العلم ، وهو قول احمد واسحاق .

الرابعة عشرة — اختلف أهل العلم فى أخذ الدية من قاتل العمد ؛ فقالت طائفة : ولىّ المقتول بالخيار إن شاء اقتص و إن شاء أخذ الدية و إن لم يرض القاتل . يروى هذا عن سعيد ابن المسيّب وعطاء والحسن ، ورواه أشهب عن مالك ؛ وبه قال الليث والأزاعى والشافعى وأحمد واسحاق وأبو ثور . وحجتهم حديث أبى شريح وما كان فى معناه ، وهو نص فى موضع

(١) أبو شريح الخزاعى : هو أبو شريح الكعبى . واختلف فى اسمـه ، والمشهور أنه خو يلد ابن عمرو بن صخر، أسلم يوم الفتح .

الخلاف؛ وأيضا من طريق النظر فإنمـا لزمته الدية بغير رضاه؛ لأن فرضا عليه إحياء نفسه، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ أى ترك له دمه فى أحد التأويلات ورضى منه بالدية ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف فى المطالبـة بالدية ، وعلى القاتل أداء اليه بإحسان، أى من غير مماطلة وتأخير عن الوقت ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أى أنه من كان قبلنا لم يفرض عليهـم غير النفس بالنفس؛ فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضى بها ولىّ الدم؛ على ما يأتى بيانه . وقال آخرون : ليس لولىّ المقتول إلا القصاص ، ولا يأخذ الدّية إلا إذا رضى القاتل . رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنـه ، وبه قال الثورىّ والكوفيون . واحتجو بحـديث أنس فى قصة الربيع حين كسرت ثنيّته المرأة. رواه الأئمة، قالوا: فلما حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلم بالقصاص وقال : "القصاص كتاب الله، القصاص كتاب الله" ولم يخيّر المجنى عليه بين القصاص والدية ثبت بذلك أن الذى يجب بكتاب الله وسنة رسوله فى العمد هو القصاص، والأول أصح؛ لحديث أبى شريح المذكور. وروى الربيع عن الشافعىّ قال : أخبرنى أبو حنيفة ابن سماك بن الفضل الشهابى قال : وحدّثنى ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم قال عام الفتح : "من قتـل له قتيل فهو بخير النظرين إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود". فقال أبو حنيفة : فقلت لابن أبى ذئب : أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدرى وصاح علىّ صياحا كثيرا ونال منى وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : تأخذ به؛ نعم آخذ به ، وذلك الفرض علىّ وعلى من سمعه، إن الله عزّ وجلّ ثناؤه اختار محمدا صلّى الله عليه وسلّم من الناس فهداهم به وعلى يديه، واختار لهم مااختاره له وعلى لسانه؛ فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك . قال : وما سكت عنى حتى تمنيت أن يسكت .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ اختلف العلماء فى تأويل « من » و « عفى » على تأويلات خمس :

أحدها — أن «من» يراد بها القاتل. و «عفى» تتضمن عافيا هو ولى الدم. والأخ هو المقتول و «شيء» هو الدم الذى يعفى عنه و يرجع إلى أخذ الدية، هذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد و جماعة من العلماء. والعفو فى هذا القول على بابه الذى هو الترك. والمعنى أن القاتل إذا عفى له ولى المقتول عن دم مقتوله وأسقط القصاص فانه يأخذ الدية و يتبع بالمعروف، و يؤدى اليه القاتل بإحسان.

الثاني — وهو قول مالك أن «من» يراد به الولى «وعفى» يُسِّر، لا على بابها فى العفو. والأخ يراد به القاتل و «شيء» هو الدية، أى أن الولى إذا جَنَح إلى العفو عن القصاص على أخذ الدية فان القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه؛ فمرة تُيَسَّر ومرة لا تيسر. وغير مالك يقول: إذا رضى الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه. وقد روى عن مالك هذا القول، و رجحه كثير من أصحابه.

وقال أبو حنيفة: إن معنى «عفى» بذل. والعفو فى اللغة: البذل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أى ما سهل. وقال أبو الأسود الدؤلى:

* خُذى العفو منّى تستديمى مودّتى *

وقال صلى الله عليه وسلم أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله يعنى شهد الله على عباده. فكأنه قال: من بذل له شيء من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف.

وقال قوم: وليؤد اليه القاتل باحسان فندبه تعالى الى أخذ المال اذا سهل ذلك من جهة القاتل وأخبر أنه تخفيف منه ورحمة كما قال ذلك عقب ذكر القصاص فى سورة المائدة ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فندب الى رحمة العفو والصدقة وكذلك ندبه فيما ذكر فى هذه الآية الى قبول الدية اذا بذلها الجانى باعطاء الدية ثم أمر الولى باتباع وأمر الجانى بالأداء بالاحسان، وقد قال قوم إن هذه الألفاظ فى المعينين الذين نزلت فيهم الآية كلها وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصة. ومعنى الآية: فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات، ويكون «عفى» بمعنى فضل.

روى سفيان بن حسين بن شوعة عن الشعبي قال كان بين حيين من العرب قتال فقتل من هولاء وهولاء وقال أحد الحيين لا نرضى حتى يقتل بالمرأة الرجل و بالرجل المرأة فارتفعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام القتل سواء فاصطلحوا على الديات ففضل أحد الحيين على الآخر فهو قوله كتب الى قوله فمن عفى له من أخيــه شيء يعنى فمن فضل له على أخيه فضل فليوده بالمعروف فأخبر الشعبي عن السبب فى نزول الآية، وذكر سفيان العفو هنا الفضل وهو معنى يحتمله اللفظ .

وتأويل خامس — وهو قول علىّ رضى الله عنــه والحسن فى الفضــل بين دية الرجل والمرأة والحر والعبد، أى من كان له ذلك الفضل فاتباع بالمعروف؛ «وعفى» فى هذا الموضع أيضا بمعنى فضل .

السادسة عشرة — هــذه الآية حضٌّ من الله تعـالى على حسن الاقتضاء من الطالب، وحسن القضاء من المؤدى؛ وهل ذلك على الوجوب أو الندب؛ فقراءة الرفع تدل على الوجوب؛ لأن المعنى فعليه اتباع بالمعروف . قال النحاس : فمن عفى له، شرط والجواب فاتباع ، وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه اتباع بالمعروف . ويجوز فى غير القرآن «فاتباعا، وأداء» بجعلهما مصدرين . قال ابن عطيــة : وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة « فاتباعا » بالنصب . والرفع سبيل للواجبات؛ كقوله تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ . وأما المندوب اليه فيأتى منصوبا؛ كقوله : ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ .

السابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَـةٌ ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قود ولا دية؛ فجعل الله تعالى ذلك تخفيفا لهذه الأمة؛ فمن شاء قتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْـدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ ﴾ شرط وجوابه ، أى قتل بعــد أخذ الدية وسقوط قاتل وليه ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . قال الحسن : كان الرجل فى الجاهلية إذا قتل قتيلا

فر إلى قومه فيجيء قومه فيصالحون بالدية؛ فيقول ولىّ المقتول : إنى أقبل الدية، حتى يأمن القاتل ويخرج؛ فيقتله ويرمى اليهم بالدية .

واختلف العلماء فيمن قتل بعد أخذ الدية؛ فقال جماعة من العلماء منهم مالك والشافعى: هو كمن قتل ابتداء، إن شاء الولىّ قتله وإن شاء عفا عنه وعذابه فى الآخرة. وقال قتادة وعكرمة والسدىّ وغيرهم : عذابه أن يقتل البتة، ولا يمكن الحاكمُ الولىَّ من العفو . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أُعْفِى[1] من قَتَل بعد أخذ الدية " . وقال أبو الحسن : عذابه أن يردّ الديّة فقط ويبقى إثمه الى عذاب الآخرة . وقال عمر بن عبد العزيز : أمره الى الإمام يصنع فيه ما يرى . وفى سنن الدارقُطنى عن أبى شريح الخزاعىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أصيب بدم أو خَبْل — والخبْل عرج — فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فان أراد الرابعة فخذوا على يديه بين أن يقتص أو يعفو أو يأخذ العقل فان قبل شيئا من ذلك ثم عدا بعد ذلك فله النار خالدا فيها مخلّدا " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ هذا من الكلام البليغ الوجيز كما تقدم، ومعناه : لا يقتل بعضكم بعضا؛ رواه سفيان عن السدىّ عن أبى مالك. والمعنى : أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معا . وكانت العرب اذا قتل الرجل الآخر حمِىَ قبيلاهما وتقاتلوا، وكان ذلك داعيا الى قتل العدد الكثير؛ فلما شرع الله القصاص قنع الكل به وتركوا الاقتتال ؛ فلهم فى ذلك حياة .

الثانية — اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان ، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو من نصبه السلطان لذلك؛ ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدى الناس بعضهم عن بعض .

---

(١) أعفى، من عفا الشىء اذا كثر وزاد . وهذا دعاء عليه، أى لا كثر ماله ولا استغنى .

الثـالثـــة ــ وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقص من نفسه إن تعدّى على أحد من الرعية، إذ هو واحد منهم وإنما له مزيّة النظر لهم كالوصي والوكيل، وذلك لا يمنع القصاص، وليس بينهـم وبين العامة فرق فى أحكام الله عزّ وجلّ؛ لقوله جلّ ذكره : ﴿ كُتِبَ عَلَيْـكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ﴾ وثبت عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال لرجل شكا اليه أن عاملا قطع يده : لئن كنت صادقا لأقيدنّك منه . وروى النسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقسم شيئا إذ أكبّ عليه رجل، فطعنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعرجون كان معه، فصاح الرجل؛ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "[تعال] فاستقد" . قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود الطيالسى عن أبى فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ألّا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلىّ أقيده منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين، لئن أدّب رجل منا رجلا من أهل رعيّته لتقصّنه منه ؟ قال : كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقص من نفسه . ولفظ أبى داود السجستانى عنه قال : خطبنا عمر بن الخطاب فقال : إنى لم أبعث عُمّالى ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فعـل ذلك به فليرفعه إلىّ أقصه منـه . وذكر الحديث بمعناه .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تقدّم معناه، والمراد هنا تتقون القتل فتسلمون من القصاص، ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى فى غير ذلك؛ فان الله يثيب بالطاعة على الطاعة . وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبد الله الربعى «ولكم فى القصص حياة» . قال النحاس : قراءة أبى الجوزاء شاذة . قال غيره : يحتمل أن يكون مصدرا كالقصاص . وقيـل : أراد بالقصص القرآن، أى لكم فى كتاب الله الذى شرع فيه القصص حياة، أى نجاة .

قوله تعـالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ . فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ هـذه آية الوصية ، وليس فى القرآن ذكر الوصية إلا فى هـذه الآية وفى النساء «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ» وفى المـائدة «حِينَ الوَصِيَّةِ» . والتى فى البقرة أتمها وأكملها، ونزلت قبل نزول الفرائض والمواريث على ما يأتى بيانه . وفى الكلام تقدير واو العطف ، أى وكتب عليكم ؛ فلمـا طال الكلام أسقطت الواو ؛ ومثله فى بعض الأقوال : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ ، أى والذى؛ فحذف . وقيل : لمـا ذكر أن لولى الدم أن يقتص ، فهذا الذى أشرف على أن يقتص منـه هو سبب الموت فكأنما حضره الموت ، فهـذا أوان الوصية . فالآية مرتبطة بمـا قبلها ومتصلة بهـا فلذلك سقطت واو العطف . وكتب معناه فرض وأثبت ، كما تقدّم . وحضور الموت : أسبابه ، ومتى حضر السبب كنّت به العرب عن المسبب ؛ قال شاعرهم :

يأيهـا الراكبُ المُزْجِى مطِيَّتَـه * سائلْ بنى أسَد ما هذه الصَّوتُ

وقل لهم بادروا بالعـذر والتمسوا * قولا يبرئكم إنى أنا المـوت

وقال عنـــترة :

وإن المـوت طوع يدى إذا ما * وصلـت بنانهـا بالهندوان

وقال جرير فى مهاجاة الفرزدق :

أنا المـــوت الذى حدّثت عنه * فليس لهـارِبٍ مـــنّى نَجـاء

الثانيـــة — إن قيل : لم قال كتب ولم يقل كتبت ، والوصية مؤنثة . قيل له : إنما ذلك لأنه أراد بالوصية الإيصاء . وقيل : لأنه تخلّل فاصل؛ فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث ؛ تقول العرب : حضر القاضى اليوم امرأة . وقد حكى سيبويه قام امرأة . ولكن حسن ذلك إنما هو مع طول الحائل .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ و « إن » شرط وفى جوابه لأبى الحسن الأخفش قولان : قال الأخفش : التقدير فالوصية، ثم حذفت الفاء؛ كما قال الشاعر :

من يفعل الحسـنات الله يشكرها * والشر بالشر عنـــد الله مثلان

(١) الصوت مذكر، وإنما أنثه هاهنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة، على معنى الصيحة . عن اللسان .

والجواب الآخر أن المـاضى يجوز أن يكون جوابه قبـله و بعده ؛ فيكون التقـدير الوصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرا . فإن قدّرت الفاء فالوصية رفع بالابتـداء ، وإن لم تقـدّر الفاء جاز أن ترفعها بالابتـداء وأن ترفعها على ما لم يسم فاعله ، أى كتب عليكم الوصـية . ولا يصح عنـد جمهور النحاة أن تعمل الوصية فى إذا ، لأنها فى حكم الصلة للمصدر الذى هو الوصية وقد تقدّمت ، فلا يجوز أن تعمل فيها متقدّمة . ويجوز أن يكون العامل فى إذا كتب ، والمعنى : توجه إيجـاب الله إليكم ومقتضى كتابه إذا حضر ؛ فعبر عن توجه الإيجاب بكتب لينتظم الى هذا المعنى أنه مكتوب فى الأزل . ويجوز أن يكون العامل فى إذا الإيصاء يكون مقدّرا دل على الوصية ، المعنى : كتب عليكم الإيصاء إذا .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ الخير هنا المـال من غير خلاف ، واختلفوا فى مقداره ؛ فقيل : المـال الكثير ؛ رُوى ذلك عن علىّ وعائشـة وابن عباس وقالوا فى سبعمائة دينار إنه قليل . قتادة عن الحسن : الخير ألف دينار فما فوقها . الشعبى : ما بين خمسمائة دينار الى ألف . والوصية عبارة عن كل شى يؤمر بفعله ويعهد به فى الحياة و بعـد الموت . وخصصها العرف بمـا يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت ، والجمع وصايا كالقضايا جمع قضـية . والوصىّ يكون الموصى والموصى إليه ، وأصله من وصى مخففا . وتواصى النبت تواصيا إذا اتصل . وأرض واصية : متصلة النبات . وأوصيت له بشىء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك . والاسم الوِصاية والوَصاية بالكسر والفتح . وأوصيته ووصيته أيضا توصـية بمعنًى . والاسم الوَصاة . وتواصى القوم أوصى بعضهم بعضا . وفى الحـديث : "استوصوا بالنساء خيرا فانهنّ عوانٌ[1] عندكم" . ووصيت الشىء بكذا إذا وصلته به .

الخامســـة — اختلف العلماء فى وجوب الوصية على من خلف مالا ، بعـد إجماعهم على أنها واجبة على من قبله ودائع وعليه ديون . وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس قبله شىء من ذلك ، وهو قول مالك والشافعى والثورىّ ، موسرا كان الموصى أو فقيرا . وقالت

(١) فى بعض النسخ عوار .

طائفة : الوصية واجبة على ظاهر القرآن؛ قاله الزهرى وأبو مجلز، قليلا كان المـال أو كثيرا. وقال أبو ثور : ليست الوصـية واجبة الا على رجل عليه دين أو عنـده مال لقوم ؛ فواجب عليه أن يكتب وصيته و يخبر بمـا عليه . فأما ما لا دين عليه ولا وديعة عنده فليست بواجبة عليه الا أن يشاء . قال ابن المنذر : وهذا حسن ؛ لأن الله فرض أداء الأمانات الى أهلها ؛ ومن لا حق عليـه ولا أمانة قبله فليس واجب عليـه أن يوصى . احتج الأولون بمـا رواه الأئمة عن ابن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "ما حقّ امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصى فيـه يبيت ليلتين إلا ووصيّته مكتوبة عنده" . وفى رواية "يبيت ثلاث ليال" وفيها قال عبد الله بن عمر : ما مرّت علىّ ليلة منذ سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم قال ذلك إلا وعندى وصيتى . احتج من لم يوجبها بأن قال : لو كانت واجبة لم يجعلها الى إرادة الموصى ولكان ذلك لازما على كل حال ، ثم لو سُـلِّم أن ظاهره الوجوب فالقول بالموجب يردّه، وذلك فيمن كانت عليه حقوق للناس يخاف ضياعها عليهم؛ كما قال أبو ثور، وكذلك إن كانت له حقوق عند الناس يخاف تلفها على الورثة؛فهذا يجب عليه الوصية ولا يختلف فيه .

فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ وكتب بمعنى فرض؛ فدل على وجوب الوصية . قيل لهم : قد تقدم الجواب عنه فى الآية قبلُ، والمعنى : اذا أردتم الوصية . والله أعلم . وقال النّخعى : مات رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم ولم يوص، وقد أوصى أبو بكر؛ فإن أوصى فحسن، و إن لم يوص فلا شيء عليه .

السادسـة — لم يبين الله تعـالى فى كتابه مقدار ما يوصى به من المـال ، وانمـا قال : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير المـال؛ كقوله : ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ . فاختلف العلماء فى مقدار ذلك؛ فروى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه أوصى بالخمس. وقال علىّ رضى الله عنه من غنائم المسلمين بالخمس.وقال معمر عن قتادة : أوصى عمر بالربع . وذكره البخارى عن ابن عباس . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحب الىّ من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب الىّ من أوصى بالثلث .

واختار جماعة لمن ماله قليل وله ورثة ترك الوصـية ؛ روى ذلك عن علىّ وابن عباس وعائشة رضوان عليهم أجمعين . روى ابن أبى شيبة من حديث ابن أبى مليكة عن عائشة قال لها رجل : إنى أريد أن أوصى. قالت : كم مالك؟ قال : ثلاثة آلاف . قالت : فكم عيالك ؟ قال : أربعة . قالت : إن الله تعـالى يقول : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وهذا شىء يسير فدعه لعيالك فانه أفضل لك .

السابعــة — ذهب الجمهور من العلماء الى أنه لايجوز لأحد أن يوصى بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فانهـم قالوا : إن لم يترك الموصى ورثة جاز له أن يوصى بمـاله كله . وقالوا : إن الاقتصار على الثلث فى الوصية إنمـا كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء، لقوله عليه السلام : " إنك أن تذر ورثتك أغنيـاء خير من أن تذرهم عالة يتكففون النـاس " . الحديث رواه الأئمة . ومن لا وارث له فليس ممن عُنى بالحديث ؛ روى هذا القول عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة ومسروق، واليه ذهب اسحاق ومالك فى أحد قوليه، وروى عن علىّ . وسـبب الخلاف مع ما ذكرنا، الخلاف فى بيت المـال هل هو وارث أو حافظ لمـا يجعل فيه؛ قولان .

الثـامنــة — أجمع العلماء على أن من مات وله ورثة فليس له أن يوصى بجميع ماله . وروى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة لابنه عبد الله : إنى قد أردت أن أوصى؛ فقال له : أوص وَمَالَكَ فى مالى، فدعا كاتبا فأملى؛ فقال عبد الله فقلت له : ما أراك إلا قد أتيت على مالى ومالك، ولو دعوت إخوتى فاستحللتهم .

التاســعة — وأجمعوا أن للانسان أن يغيّر وصيته ويرجع فيما شاء منها، الا أنهم اختلفوا من ذلك فى المُدَبَّر؛ فقال مالك رحمـه الله : الأمر المجمع عليـه عندنا أن الموصى اذا أوصى فى صحته أو مرضه بوصية فيها عتاقة رقيق من رقيقه أو غير ذلك، فانه يغيّر من ذلك ما بدا له ويصنـع من ذلك ما شاء حتى يموت ، وان أحب أن يطرح تلك الوصية ويسقطها فعـل، الا أن يُدَبِّر فان دبّر مملوكا فلا سـبيل له الى تغيير ما دبر؛ وذلك أن رسـول الله صلى الله عليه

وسلم : " قال ماحق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده". قال أبوالفرج المالكى : المدبَّر فى القياس كالمعتق الى شهر، لأنه أجل آت لامحالة . وأجمعوا ألّا يرجع فى اليمين بالعتق والعتق الى أجل فكذلك المدبر، و به قال أبو حنيفة . وقال الشافعىّ وأحمد و إسحاق : هو وصية لإجماعهم أنه فى الثلث كسائر الوصايا. وفى إجازتهم وطء المدَبَّرة ما ينقض قياسهم المدَّبر على العتق الى أجل، وقد ثبت أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم باع مدبرا، وأن عائشة دّبرت جارية لهـا ثم باعتها . وهو قول جماعة من التابعين . وقالت طائفة : يغيّر الرجل من وصيته ما شاء إلا العتاقة، وكذلك قال الشعبيّ وابن سيرين وابن شبرمة والنخعيّ، وهو قول سفيان الثورىّ .

العـاشرة — واختلفوا فى الرجل يقول لعبده : أنت حر بعـد موتى وأراد الوصية، فله الرجوع عند مالك فى ذلك. و إن قال : فلان مدبر بعد موتى، لم يكن له الرجوع فيه . و إن أراد التدبير بقوله الأوّل لم يرجع أيضا عند أكثر أصحاب مالك. وأما الشافعى وأحمد و إسحاق وأبو ثور فكل هذا عندهم وصية، لأنه فى الثلث، وكل ماكان فى الثلث فهو وصية، إلا أن الشافعىّ قال : لا يكون الرجوع فى المـدبر إلا بأن يخرجه عن ملكه ببيع أو هبـة . وليس قوله : "قد رجعت" رجوعا، و إن لم يخرج المـدبر عن ملكه حتى يموت فانه يعتق بموته . وقال فى القـديم : يرجع فى المدبر كما يرجع فى الوصية . واختاره المزنىّ قياسا على إجماعهم على الرجوع فيمن أوصى بعتقه . وقال أبو ثور : إذا قال قد رجعت فى مدبرى فقد بطل التدبير، فإن مات لم يعتق . واختلف ابن القاسم وأشهب فيمن قال : عبدى حر بعد موتى . ولم يرد الوصية ولا التدبير، فقال ابن القاسم : هو وصية. وقال أشهب : هو مدبر و إن لم يرد الوصية.

الحـادية عشرة — اختلف العلماء فى هـذه الآية هل هى منسوخة أو محكمة ؛ فقيل : هى محكمة، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص فى الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدين وفى القرابة غير الورثة، قاله الضحاك وطاوس والحسن، واختاره الطبرى . وعن الزهرى أن الوصية واجبة فيما قل أو كثر . وقال ابن المنذر : أجمع كل من يحفظ عنه من أهـل العلم على

أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة . وقال ابن عباس والحسن أيضا وقتادة : الآية عامة، وتقرر الحكم بها برهة من الدهر، ونسخ منها كل من كان يرث بآية الفرائض . وقد قيل: إن آية الفرائض لم تستقل بنسخها بل بضميمة أخرى وهى قوله عليه السلام : "إن الله قد أعطى لكل ذى حق حقه فلا وصية لوارث". رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذىّ وقال: هذا حديث حسن صحيح . فنسخ الآية إنما كان بالسنة الثابتة لا بالأرث على الصحيح من أقول العلماء . ولولا هذا الحديث لأمكن الجمع بين الآيتين بأن يأخذوا المال عن المورّث بالوصية، وبالميراث إن لم يوص، أو ما بقى من الوصية؛ لكن منع من ذلك هذا الحديث والإجماع . والشافعىّ وأبو الفرج وإن كانا منعا من نسخ الكتاب بالسنة فالصحيح جوازه بدليل أن الكل حكم الله تبارك وتعالى ومن عنده وإن اختلفت فى الأسماء، وقد تقدم هذا المعنى. ونحن وإن كان هذا الخبر بلغنا آحادا لكن قد انضم اليه إجماع المسلمين أنه لا تجوز وصية لوارث . فقد ظهر أن وجوب الوصية للأقربين الوارثين منسوخ بالسنة وأنها مستند المجمعين . والله أعلم .

وقال ابن عباس والحسن : نسخت الوصية للوالدين بالفرض فى سورة «النساء» وثبتت للأقربين الذين لا يرثون . وهذا مذهب الشافعى وأكثر المالكيين وجماعة من أهل العلم . وفى البخارىّ عن ابن عباس قال: كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين؛ فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشّطر والربع .

وقال ابن عمر وابن عباس وابن زيد : الآية كلها منسوخة، وبقيت الوصية ندبا . ونحو هـذا قول مالك رحمه الله ، وذكره النحاس عن الشعبى والنخعىّ . وقال الربيـع بن خُثَيم[(١)] : لا وصية . قال عروة بن ثابت : قلت للربيع ابن خثيم أوص لى بمصحفك ؛ فنظر الى ولده وقرأ ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ . ونحو هـذا صنع ابن عمر رضى الله عنــه .

(١) خثيم، بضم أوله وفتح ثانيه، كذا فى التقريب . وفى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقربون جمع أقرب . قال قوم : الوصية للأقربين أولى من الأجانب؛ لنص الله تعالى عليهم . حتى قال الضحاك : إن أوصى لغير قرابته فقد ختم عمله بمعصية . وروى عن ابن عمر أنه أوصى لأمهات أولاده لكل واحدة بأربعة آلاف . وروى أن عائشة وصّت لمولاة لها بأثاث البيت . وروى عن سالم ابن عبد الله مثل ذلك . وقال الحسن : إن أوصى لغير الأقربين ردّت الوصية للأقربين ، فان كانت لأجنبي فمعهم ، ولا تجوز لغيرهم مع تركهم . وقال الناس حين مات أبو العالية : عجبا له ، أعتقته امرأة من رِيَاح (١) وأوصى بماله لبني هاشم . وقال الشعبي : لم يكن له ذلك ولا كرامة . وقال طاوس : إذا أوصى لغير قرابته ردّت الوصية إلى قرابته ونقض فعله . وقال جابر بن زيد : وقد روى مثل هذا عن الحسن أيضا ، وبه قال اسحاق بن رَاهْوَيْه . وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم والأوزاعي وأحمد بن حنبل : من أوصى لغير قرابته وترك قرابته محتاجين فبئسما صنع ، وفعله مع ذلك جائز ماض لكل من أوصى له من غنيّ وفقير قريب وبعيد مسلم وكافر . وهو معنى ما روى عن عمر وعائشة ، وهو قول ابن عمر وابن عباس .

قلت : القول الأول أحسن واما أبو العالية رضى الله عنه فلعله نظر الى أن بنى هاشم أولى من معتقته لصحبة ابن عباس وتعليمه إياه وإلحاقه بدرجة العلماء فى الدنيا والأخرى . وهذه الأبوة وإن كانت معنوية فهى الحقيقية ، ومعتقته غايتها أن ألحقته بالأحرار فى الدنيا ؛ فحسبها ثواب عتقها . والله أعلم .

الثالثة عشرة — ذهب الجمهور من العلماء الى أن المريض يحجر عليه فى ماله .

وشذ أهل الظاهر فقالوا : لا يحجر عليه وهو كالصحيح . والحديث والمعنى يرد عليهم . قال سعد : عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع من وجع أشفيت (٢) منه على الموت؛ فقلت : يا رسول الله ، بلغ بى ما ترى من الوجع ، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا بنت

(١) رياح (ككتاب) : قبيلة . (٢) أشفى عليه : أشرف .

واحدة، أفأتصدّق بثلثى مالى؟ قال : "لا" . قلت : أفأتصدّق بشطره؟ قال : "لا الثلث والثلث كثير أنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" الحديث .

ومنع أهل الظاهر أيضا الوصية بأكثر من الثلث وإن أجازها الورثة . وأجاز ذلك الكافة إذا أجازها الورثة وهو الصحيح؛ لأن المريض إنما منع من الوصية بزيادة على الثلث لحق الوارث؛ فاذا أسقط الورثة حقهم كان ذلك جائزا صحيحا ؛ وكان كالهبة من عندهم . وروى الدّارقطنيّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة " . وروى عن عمرو بن خارجة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا وصية لوارث إلا أن تجيز الورثة " .

الرابعة عشرة — واختلفوا فى رجوع المجيزين للوصية للوارث فى حياة الموصى بعد وفاته؛ فقالت طائفة : ذلك جائز عليهم وليس لهم الرجوع فيه . هذا قول عطاء بن أبى رباح وطاوس والثورىّ والحسن بن صالح وأبى حنيفة والشافعى وأحمد وأبى ثور ، واختاره ابن المنذر . وفرّق مالك فقال : اذا أذنوا له فى صحته فلهم أن يرجعوا ، وإن أذنوا له فى مرضه حين يحجب عن ماله فذلك جائز عليهم . وهو قول إسحاق . احتج أهل المقالة الأولى بأن المنع إنما وقع من أجل الورثة؛ فإذا أجازوه جاز . وقد اتفقوا أنه اذا أوصى بأكثر من ثلثه لأجنبى جاز بإجازتهم؛ فكذلك ها هنا . واحتج أهل القول الثانى بأنهم أجازوا شيئا لم يملكوه فى ذلك الوقت ، وإنما يملك المال بعد وفاته : وقد يموت الوارث المستأذن قبله ولا يكون وارثا وقد يرثه غيره ؛ فقد أجاز من لا حق له فيه فلا يلزمه شىء . واحتج مالك بأن قال : إن الرجل اذا كان صحيحا فهو أحق بماله كله يصنع فيه ما شاء ، فاذا أذنوا له فى صحته فقد تركوا شيئا لم يجب لهم ، واذا أذنوا له فى مرضه فقد تركوا ما وجب لهم من الحق؛ فليس لهم أن يرجعوا فيه اذا كان قد أنفذه لأنه قد فات .

الخامسة عشرة — فان لم ينفذ المريض ذلك كان للوارث الرجوع فيه لأنه لم يفت بالتنفيذ؛ قاله الأبهرى . وذكر ابن المنذر عن إسحاق بن رَاهُوَيْه أن قول مالك فى هذه المسألة

أشبه بالسنة من غيره . قال ابن المنذر : واتفق قول مالك والثوري والكوفيين والشافعي وأبي ثور أنهم اذا أجازوا ذلك بعد وفاته لزمهم .

السادسة عشرة — واختلفوا في الرجل يوصي لبعض ورثته بمال، ويقول في وصيته: إن أجازها الورثة فهي له، وان لم يجيزوه فهو في سبيل الله؛ فلم يجيزوه . فقال مالك : إن لم تجز الورثة ذلك رجع اليهم . وفي قول الشافعي وأبي حنيفة ومعمر صاحب عبد الرزاق يمضي في سبيل الله .

السابعة عشرة — لا خلاف في وصية البالغ العاقل غير المحجور عليه، واختلف في غيره؛ فقال مالك : الأمر المجمع عليه عندنا أن الضعيف في عقله والسفيه والمصاب الذي يفيق أحيانا تجوز وصاياهم اذا كان معهم من عقولهم ما يعرفون ما يوصون به . وكذلك الصبي الصغير اذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول فوصيته جائزة ماضية . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تجوز وصية الصبي . وقال المزني : وهو قياس قول الشافعي، ولم أجد للشافعي في ذلك شيئا ذكره ونص عليه . واختلف أصحابه على قولين : أحدهما كقول مالك، والثاني كقول أبي حنيفة . وحجتهم أنه لا يجوز طلاقه ولا عتاقه ولا يقتص منه في جناية ولا يُحدّ في قذف؛ فليس كالبالغ المحجور عليه، فكذلك وصيته . قال أبو عمر : قد اتفق هؤلاء على أن وصية البالغ المحجور عليه جائزة . ومعلوم أن من يعقل من الصبيان ما يوصي به لحاله حال المحجور عليه في ماله . وعلّة الحجر تبذير المال وإتلافه، وتلك علة مرتفعة عنه بالموت، وهو بالمحجور عليه أشبه منه بالمجنون الذي لا يعقل؛ فوجب أن تجوز وصيته مع الأمر الذي جاء فيه عن عمر رضي الله عنه، فقال مالك : إنه الأمر المجمع عليه عندهم بالمدينة . وبالله التوفيق . وقال محمد بن شريح : من أوصى من صغير أو كبير فأصاب الحق فالله قضاه على لسانه ليس للحق مدفع .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يعني بالعدل، لا وكس فيه ولا شطط، وكان هذا موكولا الى اجتهاد الميت ونظر الموصي، ثم تولّى الله سبحانه تقدير ذلك على لسان

نبيّه عليه السّلام، فقال عليه السلام : " الثلث والثلث كثير". وقد تقدّم ما للعلماء فى هذا . وقال صـلّى الله عليه وسـلّم : " إن الله تصدّق عليكم بثلث أموالكم عنـد وفاتكم زيادة لكم فى حسناتكم ليجعلها لكم زكاة" . أخرجه الدّارقُطنى عن أبى أمامة عن معاذ بن جبـل عن النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم . وقال الحسن : لا تجوز وصية إلا فى الثلث . وإليه ذهب البخارى واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ، وحكم النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بإن الثلث كثير هو الحكم بما أنزل الله؛ فمن تجاوز ما حدّه رسول الله صلّى الله عليه وسلم وزاد على الثلث فقد أتى ما نهى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عنـه ؛ وكان بفعله ذلك عاصيا إذا كان بحكم رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم عالمـا . وقال الشافعى : وقوله : " الثلث كثير" يريد أنه غير قليل .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ حَقًّا ﴾ يعنى ثابتا ثبوت نظر وتحصين لا ثبوت فرض ووجوب؛ بدليل قوله : ﴿ عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ . وهذا يدل على كونه ندبا؛ لأنه لو كان فرضا لـكان على جميع المسلمين ،فلما خص الله من يتق أى يخاف تقصيرا دلّ على أنه غير لازم إلا فيما يتوقع تلفه إن مات، فيلزمه فرضا المبادرة بكتبه والوصية به؛ لأنه إن سكت عنـه كان تضييعا له وتقصيرا منه . وقد تقدّم هذا المعنى . وانتصب « حقا » على المصدر المؤكد، ويجوز فى غير القرآن «حق» بمعنى ذلك حق .

الموفية عشرين — قال العلماء : المبادرة بكتب الوصية ليست مأخوذة من هـذه الآية وإنما هى من حديث ابن عمر . وفائدتها المبالغة فى زيادة الاستيثاق وكونها مكتوبة مشهودا بها وهى الوصية المتفق على العمل بهـا ؛ فلو أشهد العدول وقاموا بتلك الشهادة لفظا لعمل بهـا وإن لم تكتب خطا ؛ فلو كتبها بيـده ولم يشهد فلم يختلف قول مالك أنه لا يعمل بهـا إلا ما يكون فيها من إقرار بحق لمن لا يتهم عليه فيلزمه تنفيذه .

الحادية والعشرون — روى الدارقطنى عن أنس بن مالك قال : كانوا يكتبون فى صدور وصاياهم «هـذا ما أوصى به فلان ابن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأن محمدا عبده ورسوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وأوصى من ترك بعده من أهله بتقوى الله حق تقاته وأن يصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين وأوصاهم بما وصّى به إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن الله آصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

قوله تعالى : ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾ شرط ، وجوابه ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ وما ، كافة لإنّ عن العمل . و إثمه ، رفع بالابتداء . على الذين يبدلونه ، موضع الخبر . والضمير فى « بدّله » يرجع الى الإيصاء لأن الوصية فى معنى الإيصاء ، وكذلك الضمير فى « سمعه » وهو كقوله : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى وعظ . وقوله : ﴿ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ أى المال بدليل قوله «منه» . ومثله قول الشاعر :

* ما هـذه الصوت *

أى الصيحة . وقال امرؤ القيس :

بَرَهْرَهَةٌ(١) رُؤْدَةٌ رخصة * كخُرْعوبة البانة المُنْفَطِرْ

والمنفطر المنفتح بالورق وهو أنعم ما يكون . ذهب الى القضيب وترك لفظ الخرعوبة . و «سمعه» يحتمل أن يكون سمعه من الوصى نفسه . ويحتمل أن يكون سمعه ممن يثبت به ذلك عنده ، وذلك عدلان . والضمير فى «إثمه» عائد على التبديل ؛ أى إثم التبديل عائد على المبدل لا على الميت ؛ فان الموصى خرج بالوصية عن اللوم وتوجهت على الوارث أو الولىّ . وقيل : إن هذا الموصى إذا غيّر فترك الوصية أو لم يجزها على ما رسم له فى الشرع فعليه الإثم .

الثانيــة — فى هـذه الاية دليل على أن الدَّين إذا أوصى به الميت خرج به عن ذمته وحصل الولىّ مطلوبا به ، له الأجر فى قضائه وعليه الوزر فى تأخيره . وقال القاضى أبو بكر

(١) البرهرهة : الرقيقة الجلد أو هى الملساء المترجرجة . والرؤدة : الشابة الحسنة . والخرعوبة : القضيب القصير .

ابن العربى : « وهذا إنما يصح اذا كان الميت لم يفرط فى أدائه ، وأما اذا قدر عليــه وتركه ثم وصى به فانه لا يزيله عن ذمته تفريط الولىّ فيه » .

الثالثـــة — ولا خلاف أنه اذا أوصى بمالا يجوز مثل أن يوصى بخمر أو خنزير أو شىء من المعاصى أنه يجــوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه ، كما لا يجوز إمضــاء ما زاد على الثلث؛ قاله أبو عمـــر .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ صفتان لله تعالى لا يخفى معهما شىء من جنف الموصين وتبديل المعتدين .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ ﴾ «من» شرط . وخاف بمعنى خشى . وقيل : علم . والأصل خوف ، قلبت الواو ألفا لتحركها وتحرك ماقبلها . وأهل الكوفة يميلون خاف ليدلوا على الكسرة من فعلت . «من مُوَصٍّ» بالتشديد قراءة أبى بكر عن عاصم وحمزة والكسائى . وخفف الباقون . والتخفيف أبين؛ لأن أكثر النحويين يقولون مُوَصٍّ للتكثير . وقد يجوز أن يكون مثل كرّم وأكرم . «جنفا» من جَنِف يجنَف إذا جار، والإسم منه جَنِفٌ وجانف؛ عن النحاس . وقيل : الجنف الميل . قال الأعشى :

تَجانَفُ عن حجر اليمـامة ناقتى * وما قصدَتْ من أهلها لسوائكا

وفى الصحاح «الجنف» الميــل . وقد جنف بالكسر يجنف جنفا إذا مال؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا ﴾ . قال الشاعر :

هُمُ المَوْلى وإن جنفوا علينا * وإنا مِن لقائهـــمُ لزُورُ

قال أبو عبيدة : المولى هاهنا فى موضع الموالى، أى بنو العمّ؛ كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ . وقال لبيد .

إنى امرؤ منعَتْ أرومـــةُ عامرٍ * ضَيْمِى وقد جنفت علىّ خصومى

قال أبو عبيد : وكذلك الجانىء بالهمز هو المائل أيضا . ويقال : أجنف الرجل أى جاء بالجَنَف ؛ كما يقال : أَلاَمَ أى أتى بما يُلام عليه . وأخَسّ أى أتى بخسيس . وتجانَف لإثم أى مال . ورجل أجنف أى منحنى الظهر . وجُنَفَى (على فعلى بضم الفاء وفتح العين) : اسم موضع؛ عن ابن السكيت . وروى عن علىّ أنه قرأ « حيفا » بالحاء والياء أى ظلما . وقال مجاهد: فمن خاف أى من خشى أن يجنف الموصى ويقطع ميراث طائفة ويتعمد الأذيّة[1]، أو يأتيها دون تعمد وذلك هو الجنف دون إثم ، فإن تعمد فهو الجنف فى إثم . فالمعنى من وعظ فى ذلك وردّ عنه فأصلح بذلك ما بينه وبين ورثته وبين الورثة فى ذاتهم فلا إثم عليه . ﴿ إنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ عن الموصى إذا عملت فيه الموعظة ورجع عما أراد من الأذية . وقال ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم : معنى الآية من خاف أى علم ورأى وأتى علمه عليه بعد موت الموصى إن الموصى جنف وتعمد أذيّة بعض ورثته فأصلح ما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق فلا إثم عليه؛ أى لا يلحقه إثم المبدل المذكور قبلُ . وإن كان فى فعله تبديلٌ مّا ولا بدّ، ولكنه تبديل لمصلحة . والتبديل الذى فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى .

الثانيــــة — الخطاب بقوله : ﴿ فَمَنْ خَافَ ﴾ لجميع المسلمين؛ قيل لهم : إن خفتم من موص ميلا فى الوصية وعدولا عن الحق ووقوعا فى إثم ولم يخرجها بالمعروف ، وذلك بأن يوصى بالمال إلى زوج ابنته أو لولد ابنته لينصرف المال إلى ابنته ،أو إلى ابن ابنه والغرض أن ينصرف المال إلى ابنه ، أو أوصى لبعيد وترك القريب ؛ فبادروا إلى السعى فى الإصلاح بينهم ؛ فاذا وقع الصلح سقط الإثم عن المصلح . والإصلاح فرض على الكفاية ، فاذا قام أحدهم به سقط عن الباقين وإن لم يفعلوا أثم الكل .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على أن الحكم بالظن ؛ لأنه اذا ظن قصد الفساد وجب السعى فى الصلاح ؛ واذا تحقق الفساد لم يكن صلحا إنما يكون حكما بالدفع وإبطالا للفساد وحسما له .

---

(١) فى الاصول : هنا وفيما سيأتى « الأذاية » .

وقوله تعـالى : ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ﴾ عطف على خاف، والكناية عن الورثة ولم يجر لهم ذكر لأنه قد عرف المعنى، وجواب الشرط فلا إثم عليه .

الرابعـــة — لاخلاف أن الصدقة فى حال الحياة والصحة أفضل منها عند الموت؛ لقوله عليه السلام وقد سئل أى الصدقة أفضل فقال : "أن تَصَدَّق وأنت صحيح شحيح" الحديث أخرجه أهل الصحيح. وروى الدّارقطنىّ عن أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "لأن يتصدق المرء فى حياته بدرهم خير له من أن يتصدق عند موته بمـائة" . وروى النسائى عن أبى الدرداء عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "مثل الذى ينفق أو يتصدق عند موته مثل الذى يهدى بعد مايشبع" .

الخامســة — من لم يضرّ فى وصيته كانت كفارة لمـا ترك من زكاة؛ رواه الدّارقطنىّ عن معاوية بن قرة عن أبيــه قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "من حضرته الوفاة فأوصى فكانت وصـيته على كتاب الله كانت كفـارة لمـا ترك من زكاته" . فإن ضر فى الوصية وهى :

السادســة — فقد روى الدّارقطنىّ أيضا عن ابن عباس عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "الإضرار فى الوصية من الكبائر" . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إن الرجل أو المرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيُضارّان فى الوصية فتجب لهما النار". وترجم النسائى الصلاة على من جنف فى وصيته أخبرنا علىّ بن حجر أنبأنا هشيم عن منصور وهو ابن زاذان عن الحسن بن سَمُرة عن عمران ابن حصين رضى الله عنــه أن رجلا أعتق ستة مملوكين له عند موته ولم يكن له مال غيرهم؛ فبلغ ذلك النبىّ صلّى الله عليه وســلّم فغضب من ذلك وقال : "لقد هممت ألا أصلّى عليه" [ثم دعا مملوكيه] (١) فجزأهم ثلاثة أجزاء ثم أقرع بينهم فأعتق اثنين وأرق أربعة . وأخرجه مسلم

(١) الزيادة عن سنن النسائى .

بمعناه إلا أنه قال فى آخره : وقال له قولا شديدا . بدل قوله : "لقد هممت ألا أصلى عليه" .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ الآية . فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ لمـا ذكر ما كتب على المكلفين من القصاص والوصية ذكر أيضا أنه كتب عليهم الصيام وألزمهم إياه، وأوجبه عليهم ولا خلاف فيه . قال صلّى الله عليه وسلّم : "بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصـلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج" رواه ابن عمر . ومعنـاه فى اللغة الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال . ويقال للصّمت صوم ؛ لأنه إمساك عن الكلام . قال الله تعالى مخبرا عن مريم : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أى سكوتا عن الكلام . والصوم : ركود الريح وهو إمساكها عن الهبوب . وصامت الدابة على آرِيِّها (١) : قامت وثبتت فلم تعتلف . وصام النهار : اعتدل . ومَصامُ الشمس حيث تستوى فى منتصف النهار؛ ومنه قول النابغة :

خيلٌ صيام وخيل غيرُ صـائمة * تحت العَجاج وخيل تَعْلُكُ اللُّجُما

أى خيل ثابتة ممسكة عن الجرى والحركة ، كما قال :

* كأنّ الثُّريا عُلّقت فى مَصامها *

أى هى ثابتة فى مواضعها فلا تنتقل . وقوله :

* والبَكَرات شرّهنّ الصائمة *

يعنى التى لا تدور .

وقال امرؤ القيس :

فَدَعْها (٢) وسَلِّ الهمّ عنك بجَسْرة * ذَمولٍ اذا صـام النهـار وهَجّرا

أى أبطأت الشمس عن الانتقال والسير فصارت بالإبطاء كالممسكة .

---

(١) الآرى : حبل تشدّ به الدابة فى محبسها ، ويسمى الأخية .

(٢) فى الأصول . فدع ذا وما أثبتناه عن الديوان واللسان .

وقال آخر :

حتى إذا صام النهار واعتدل * وسال للشمس لعاب فنزل

وقال آخر :

نعاما بوجرة صفر الخدو * د ما تطعم النوم الا صياما

أى قائمة . والشعر فى هذا المعنى كثير .

والصـوم فى الشرع : الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر الى غروب الشمس، وتمـامه وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع فى المحرمات؛ لقوله عليه السلام : " من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه من أجله " .

الثانيــة — فضل الصوم عظيم، وثوابه جسيم، جاءت بذلك أخبار كثيرة صحاح وحسان ذكرها الأئمة فى مسانيدهم، وسيأتى بعضها ويكفيك الآن منها فى فضل الصوم أن خصه الله بالإضافة اليه كما ثبت فى الحديث عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال مخبرا عن ربه : "يقول الله تبارك وتعالى كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فانه لى وأنا أجزى به" الحديث. وإنما خصّ الصوم بأنه له وان كانت العبادات كلها له لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات؛ أحدهما — أن الصوم يمنع من ملاذّ النفس وشهواتها مالا يمنع منه سائر العبادات . الثانى — أن الصوم سرّ بين العبد وبين ربه لايظهر إلا له؛ فلذلك صار مختصا به. وما سواه من العبادات ظاهر ربّما فعله تصنّعا ورياء فلهذا صار أخص بالصوم من غيره . وقيل غير هذا .

الثالثــة — قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ الكاف فى موضع نصب على النعت، التقدير كتابا كما، أو صوما كما. أو على الحال من الصيام، أى كتب عليكم الصيام مشبّها كما كتب على الذين. وقال بعض النحاة : الكاف فى موضع رفع نعتا للصيام؛ اذ ليس تعريفه بمحض؛ لمكان الاجمال الذى فيه بما فسرته الشريعة، فلذلك جاز نعته بكما اذ لاينعت بها الا النكرات فهو بمنزلة كتب عليكم صيام . وقد ضعف هـذا القول . وما، فى موضع خفض، وصلتها ﴿كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ . والضمير في كتب يعود على ما . واختلف أهل التأويل في موضع التشبيه وهى :

الرابعة — فقال الشعبي وقتادة وغيرهما : التشبيه يرجع الى وقت الصوم وقدر الصوم ؛ فان الله تعالى كتب على موسى وعيسى صوم رمضان فغيّروا وزاد احبارهم عليهم عشرة أيام ، ثم مرض بعض أحبارهم فنذر ان شفاه الله أن يزيد فى صومهم عشرة أيام ففعل ، فصار صوم النصارى خمسين يوما ؛ فصعب عليهم فى الحرّ فنقلوه الى الربيع . واختار هذا القول النحاس وقال : وهو أشبه بما فى الاية . وفيه حديث يدل على صحته أسنده عن دَغْفَل بن حنظلة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " كان على النصارى صوم شهر فرض رجل منهم فقالوا : لئن شفاه الله لنزيدن عشرة ثم كان ملك آخر فأكل لحما فأوجع فاه فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن سبعة ثم كان ملك آخر فقالوا لنتمن هذه السبعة الأيام ونجعل صومنا فى الربيع قال فصار خمسين " وقال مجاهد : كتب الله جلّ وعزّ صوم شهر رمضان على كل أمة . وقيل : أخذوا بالوثيقة (١) فصاموا قبل الثلاثين يوما و بعدها يوما قرنا بعد قرن ، حتى بلغ صومهم خمسين يوما ؛ فصعب عليهم فى الحر فنقلوه إلى الفصل الشمسى . قال النقاش : وفى ذلك حديث عن دَغْفَل بن حنظلة والحسن البصرى والسدىّ .

قلت : ولهذا — والله أعلم — كره صوم يوم الشك والستة من شوال بإثر يوم الفطر متصلا به . قال الشعبي : لو صمت السنة كلها لأفطرت يوم الشك ؛ وذلك أن النصارى فرض عليهم صوم شهر رمضان كما فرض علينا فحولوه الى الفصل الشمسى لأنه قد كان يوافق القيظ فعدّوا ثلاثين يوما . ثم جاء بعدهم قرن فأخذوا بالوثيقة لأنفسهم فصاموا قبل الثلاثين يوما وبعدها يوما . ثم لم يزل الآخر يستنّ بسنة من كان قبله حتى صاروا الى خمسين يوما ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ . وقيل : التشبيه راجع الى أصل وجوبه على من تقدّم لا فى الوقت والكيفية . وقيل : التشبيه واقع على صفة الصوم الذى

(١) الوثيقة : الإحكام فى الأمر . والذى فى الطبرى فأخذوا بالثقة من أنفسهم .

كان عليهم من منعهم من الأكل والشرب والنكاح، فاذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام . وكذلك كان فى النصارى أولا وكان فى أول الاسلام ثم نسخه الله تعالى بقوله : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ . على ما يأتى بيانه ، قاله السدى وأبو العالية والربيع . وقال معاذ بن جبل وعطاء : التشبيه واقع على الصوم لا على الصفة ولا على العدّة وان اختلف الصيامان بالزيادة والنقصان . المعنى : كتب عليكم الصيام أى فى أول الاسلام ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء، كما كتب على الذين من قبلكم وهم اليهود — فى قول ابن عباس — ثلاثة أيام ويوم عاشوراء . ثم نسخ هذا فى هذه الأمة بشهر رمضان . وقال معاذ بن جبل : نسخ ذلك « بأيام معدودات » ثم نسخت الأيام برمضان .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « لعلّ » ترجّ فى حقهم ، كما تقدم . و « تتقون » قيل : معناه هنا تضعفون؛ فانه كلما قلّ الأكل ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت الشهوة قلت المعاصى . وهذا وجه مجازىّ حسن . وقيل : لتتقوا المعاصى . وقيل : هو على العموم؛ لأن الصيام كما قال عليه السلام جُنّة ووجاء وسبب تقوى لأنه يميت الشهوات .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ أياما ، مفعول ثان بكتب ؛ قاله الفراء . وقيل : نصب على الظرف لكتب ، أى كتب عليكم الصيام فى أيام . والأيام المعدودات : شهر رمضان؛ وهذا يدل على خلاف ما روى معاذ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَرِيضًا ﴾ للمريض حالتان : إحداهما — ألا يطيق الصوم بحال ؛ فعليه الفطر واجبا . الثانية — أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة ؛ فهذا يستحب له الفطر ولا يصوم إلا جاهل . قال ابن سيرين : متى حصل الانسان فى حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر قياسا على المسافر لعلة السفر وان لم تدع الى الفطر ضرورة . قال طريف ابن تمام العطاردى : دخلت على محمد بن سيرين فى رمضان وهو يأكل؛ فلما فرغ قال : إنه

وجعت أصبعي هــذه . وقال جمهور من العلماء : إذا كان به مرض يؤلمه و يؤذيه او يخاف تماديه أو يخاف تزيده صح له الفطر. قال ابن عطية : وهذا مذهب حذاق أصحاب مالك و به يناظرون. وأما لفظ مالك فهو المرض الذى يشق على المرء و يبلغ به. وقال ابن خو يز منداد : واختلفت الرواية عن مالك فى المرض المبيح للفطر؛ فقال مرة: هو خوف التلف من الصيام . وقال مرة : شــدّة المرض والزيادة فيه والمشقة الفادحة . وهــذا صحيح مذهبه وهو مقتضى الظاهر ؛ لأنه لم يخص مرضا من مرض فهو مباح فى كل مرض ، إلا ماخصه الدليل من الصداع والحمى والمرض اليســير الذى لا كلفة معــه فى الصيام . وقال الحسن : إذا لم يقدر فى المرض على الصلاة قائمــا أفطر . وقاله النخعى . وقالت فرقة : لا يفطر بالمرض إلا من دعته ضرورة المرض نفسه الى الفطر ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر . وهذا قول الشافعى رحمه الله تعالى .

قلت : قول ابن سيرين أعدل شئ فى هــذا الباب إن شاء الله تعــالى . قال البخارى : اعتللت بنيسابور علة خفيفة وذلك فى شهر رمضــان ؛ فعادنى اسحاق بن رَاهْوَيْه فى نفر من أصحابه فقال لى : أفطرت ياأبا عبــد الله ؟ فقلت : نعم . فقال : خشيت أن تضعف عن قبول الرخصة. قلت : حدثنا عبدان عن ابن المبارك عن ابن جريج قال قلت لعطاء : من أى المرض أفطر؟ قال : من أى مرض كان؛ كما قال الله تعــالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ﴾ قال البخارى : وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق . وقال أبو حنيفة إذا خاف الرجل على نفسه وهو صائم إن لم يفطر أن تزداد عينه وجعا أو حمّاه شدّة أفطر .

الثــانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ اختلف العلماء فى السفر الذى يجوز فيه الفطر والقصر، بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد ، و يتصل بهذين صــلة الرحم وطلب المعاش الضرورى . وأما سفر التجارات والمباحات فمختلف فيه بالمنع والإجازة، والقول بالجواز أرجح . وأما سفر العــاصى فيختلف فيه بالجواز والمنع ، والقول بالمنع أرجح ؛ قاله ابن عطية . ومسافة الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة . واختلف العلماء فى قدر ذلك ؛ فقال مالك :

يوم وليلة . ثم رجع فقال : ثمانيــة وار بعون ميــلا — قال ابن خو يز منداد : وهو ظاهر مذهبه — وقال مرة : اثنان وأربعون ميلا . وقال مرة : ستة وثلاثون ميلا . وقال مرة : مسيرة يوم ليلة . وروى عنه يومان؛ وهو قول الشافعى . وفصّل مرة بين البر والبحر فقال : فى البحر مسيرة يوم وليلة، وفى البر ثمانية وأربعون ميلا . وفى المذهب ثلاثون ميلا . وفى غير المذهب ثلاثة أميال . وقال ابن عمر وابن عباس والثورى : الفطر فى سفر ثلاثة أيام؛ حكاه ابن عطية .

قلت : والذى فى البخارى : وكان ابن عمروابن عباس يفطران ويقصران فى أربعة برد، وهى ستة عشر فرسخا .

الثـالثــة — اتفق العلمـاء على أن المسافر فى رمضان لا يجوز له أن يبيت الفطر ؛ لأن المسافر لا يكون مسافرا بالنية بخلاف المقيم ، وإنمـا يكون مسافرا بالعمل والنهوض ، والمقيم لا يفتقر إلى عمــل ؛ لأنه إذا نوى الإقامة كان مقيما فى الحين لأن الأقامة لا تفتقر إلى عمل فافترقا . ولا خلاف بينهم أيضا فى الذى يؤمل السفر أنه لايجوز له أن يفطر قبل أن يخرج ؛ فان أفطر فقال ابن حبيب : إن كان قد تأهب لسفره وأخذ فى أسباب الحركة فلا شيء عليه . وحكى ذلك عن أَصْبَغَ وابن الماجشون . فان عاقه عن السفر عائق كان عليــه الكفارة ، وحسبه أن ينجو إن سافر . وروى عيسى عن ابن القاسم أنه ليس عليه إلا قضاء يوم ؛ لأنه متأول فى فطره . وقال أشهب: ليس عليه شيء من الكفارة سافر أو لم يسافر . وقال سحنون: عليه الكفارة سافر أو لم يسافر، وهو بمنزلة المرأة تقول : غدا تأتينى حيضتى فتفطر لذلك . ثم رجع إلى قول عبد الملك وأصبغ وقال : ليس مثل المرأة؛ لأن الرجل يحدث السفر إذا شاء، والمرأة لا تحدث الحيضة .

قلت : قول ابن القاسم وأشهب فى نفى الكفارة حسن ؛ لأنه فعل مايجوز له فعله والذمة بريئــة فلا يثبت فيها شيء إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف ، ثم إنه مقتضى قوله تعــالى : ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ . وقال أبو عمر: هذا أصح أقاو يلهم فى هذه المسألة ؛ لأنه غيرمنتهك لحرمة الصوم

بقصد إلى ذلك وإنما هو متأول ، ولو كان الأكل مع نية السفر يوجب عليه الكفارة لأنه كان قبل خروجه ما أسقطها عنه خروجه . فتأمل ذلك تجده كذلك إن شاء الله تعالى . وقد روى الدارقطني حدّثنا أبو بكر النيسابوري حدّثنا اسماعيل بن اسحاق بن سهل بمصر قال حدّثنا ابن أبي مريم حدّثنا محمد بن جعفر أخبرني زيد بن أسلم قال : أخبرني محمد بن المنكدر عن محمد ابن كعب أنه قال : أتيت أنس بن مالك في رمضان وهو يريد السفر وقد رُحِّلت دابته ولبس ثياب السفر وقد تقارب غروب الشمس ، فدعا بطعام فأكل منه ثم ركب . فقلت له : سنة ؟ قال : نعم . وروى عن أنس أيضا قال قال لي أبو موسى : ألم أنبائك إذا خرجت خرجت صائما ، واذا دخلت دخلت صائما ؛ ؟ فإذا خرجت فاخرج مفطرا وإذا دخلت فادخل مفطرا . وقال الحسن البصري : يفطر إن شاء في بيته يوم يريد أن يخرج . وقال أحمد : يفطر إذا برز عن البيوت . وقال اسحاق : لا ، بل حين يضع رجله في الرحل . قال ابن المنذر : قول أحمد صحيح ؛ لانهم يقولون لمن أصبح صحيحا ثم اعتل : إنه يفطر بقية يومه ، وكذلك إذا أصبح في الحضر ثم خرج إلى السفر فله كذلك أن يفطر . وقالت طائفة : لا يفطر يومه ذلك وإن نهض في سفره . كذلك قال الزهري ومكحول ويحيى الأنصاري ومالك والأوزاعي والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي . واختلفوا إن فعل ؛ فكلهم قال يقضي ولا يكفر. قال مالك : لأن السفر عذر طارئ فكان كالمرض يطرأ عليه . وروى عن بعض أصحاب مالك أنه يقضي ويكفر ؛ وهو قول ابن كنانة والمخزومي وحكاه الباجي عن الشافعي ، واختاره ابن العربي وقال به . قال : لأن السفر عذر طرأ بعد لزوم العبادة ويخالف المرض والحيض ؛ لأن المرض يبيح له الفطر والحيض يحرم عليها الصوم ، والسفر لا يبيح له ذلك فوجبت عليه الكفارة لهتك حرمته . قال أبو عمر : وليس هذا بشيء ؛ لأن الله سبحانه قد أباح له الفطر في الكتاب والسنة . وأما قولهم لا يفطر ؛ فانما ذلك استحباب لما عقده فإن أخذ برخصة الله كان عليه القضاء ، وأما الكفارة فلا وجه لها ، ومن أوجبها فقد أوجب مالم يوجبه الله

ولا رسوله صلّى الله عليه وسلّم . وقد روى عن ابن عمر فى هذه المسألة : يفطر إن شاء فى يومه ذلك إذا خرج مسافرا؛ وهو قول الشعبى وأحمد وإسحاق .

قلت : وقد ترجم البخارى رحمه الله على هذه المسألة «باب من أفطر فى السفر ليراه الناس» وساق الحديث عن ابن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عُسْفان(١)، ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليراه الناس فأفطر حتى قدم مكة وذلك فى رمضان. وأخرجه مسلم أيضا عن ابن عباس وقال فيه : ثم دعا بإناء فيه شراب شربه نهارا ليراه الناس ثم أفطر حتى دخل مكة . وهـذا نص فى الباب فسقط ماخالفه وبالله التوفيق . وفيه أيضـا حجة على من يقول : إن الصوم لاينعقد فى السفر . روى عن عمر وابن عبـاس وأبى هريرة وابن عمر؛ قال ابن عمر: من صام فى السفر قضى فى الحضر . وعن عبد الرحمن بن عوف : الصائم فى السفر كالمفطر فى الحضر . وقال به قوم من أهل الظاهر؛ واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ على ما يأتى بيانه ؛ و بما روى كعب بن عاصم قال : سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس من البر الصيام فى السفر". وفيه أيضا حجة على من يقول: إن من بيت الصوم فى السفر فله أن يفطر وإن لم يكن له عذر . وإليه ذهب مُطَرِّف وهو أحد قولى الشافعى وعليه جماعة من أهل الحديث . وكان مالك يوجب عليه القضـاء والكفارة ؛ لأنه كان مخيرا فى الصوم والفطر، فلما اختار الصوم و بيته لزمه ولم يكن له الفطر ؛ فإن أفطر عامدا من غير عذر كان عليه القضاء والكفارة . وقد روى عنه أنه لا كفارة عليه؛ وهو قول أكثر أصحابه إلا عبد الملك فانه قال : إن أفطر بجماع كفَّر لأنه لايقوى بذلك على سفره ولا عذر له ؛ لأن المسافر إنما أبيح له الفطر ليقوى بذلك على سـفره . وقال سائر العلماء بالعراق والحجـاز : انه لا كفار عليـه ، منهم الثورى والأوزاعى والشـافعى وأبو حنيفة وسائر فقهاء الكوفة . قاله أبو عمر .

الرابعـــة — واختلف العلمـاء فى الأفضل من الفطر أو الصـوم فى السفر؛ فقال مالك والشافعى فى بعض ماروى عنهما : الصوم أفضل لمن قوى عليه . وجلّ مذهب مالك التخيير،

(١) عسفان (بضم العين وسكون السين المهملتين) : قرية بينها و بين مكة ثمانية وأربعين ميلا .

وكذلك مذهب الشافعي . قال الشافعي ومن اتبعه : هو مخيّر؛ ولم يفصّل . وكذلك ابن عُلَيّة؛ لحديث أنس قال : سافرنا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم . خرّجه مالك والبخاريّ ومسـلم . وروى عن عثمان بن أبي العاص الثقفي وأنس بن مالك صاحبي رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم انهما قالا : الصوم في السـفر أفضل؛ لمن قدر عليه . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

وروى عن ابن عمر وابن عباس : الرخصة أفضل وقال به سعيد بن المسيب والشعبي وعمر بن عبد العزيز ومجاهـد وقتادة والأوزاعي وأحمد وإسحاق . فكل هؤلاء يقولون الفطر أفضل؛ لقول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ في الكلام حذف ، أى من يكن منكم مريضا أو مسافرا فأفطر فليقض . والجمهور من العلماء على أن أهل البلد إذا صاموا تسعة وعشرين يوما وفي البلد رجل مريض لم يصح فإنه يقضي تسعة وعشرين يوما . وقال قوم منهم الحسن بن صالح بن حيّ : أنه يقضي شهرا بشهر من غير مراعاة عدد الأيام . قال الكيا الطبري : وهـذا بعيد؛ لقوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ولم يقل فشهر من أيام أخر . وقوله : ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ يقتضي استيفاء عدد ما أفطر فيـه ، ولا شك أنه لو أفطر بعض رمضـان وجب قضاء ما أفطر بعدده . كذلك يجب أن يكون حكم إفطار جميعه في اعتبار عدده .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ ارتفع عدة على خبر الابتداء، تقديره فالحكم أو فالواجب عدة . ويصح فعليه عدة . وقال الكسائي : ويجوز فعدّة؛ أى فليَصُمْ عدّة من أيام . وقيل : المعنى فعليه صيام عدّة . فحذف المضاف وأقيمت العدّة مقامه . والعدّة فعلة من العَدّ وهي بمعنى المعدود؛ كالطحن بمعنى المطحون ، تقول : أسمع جعجعة ولا أرى طحنا . ومنه عدة المرأة . من أيام أخر، لم ينصرف « آخر » عند سيبويه لانها معدولة عن الألف واللام؛ لأن سبيل فُعَل من هذا الباب أن يأتي بالألف واللام؛ نحو الكبر والفضل . وقال الكسائي : هي معدولة عن آخر كما تقول حمراء وحمر فلذلك لم تنصرف . وقيل : منعت من الصرف لأنها

على وزن جُمَع وهى صفة لأيام، ولم تجئ أخرى لئلا يشكل بأنها صفة للعدة. وقيل : إن «أُخَر» جمع أخرى كأنه أيام أخرى ثم كثرت فقيل : أيام أخر. وقيل : إن نعت الأيام يكون مؤنثا فلذلك نعت بأخر.

السابعـة — اختلف الناس فى وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدارقطنى فى «سننه» فروى عن عائشة (1) رضى الله عنها قالت : نزلت «فعدّة من أيام أخر متتابعات» فسقطت «متتابعات». قال : هذا إسناد صحيح. وروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من كان عليه صوم من رمضان فليسرده ولا يقطعه". فى إسناده عبد الرحمن ابن ابراهيم ضعيف الحديث. وأسنده عن ابن عباس فى قضاء رمضان «صمه كيف شئت» وقال ابن عمر : «صمه كما أفطرته». وأسند عن أبى عبيدة بن الجراح وابن عباس وأبى هريرة ومعاذ بن جبل وعمرو بن العاص، وعن محمد بن المنكدر قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن تقطيع صيام رمضان فقال: "ذلك اليك أرأيت لو كان على أحدكم دين فقضى الدرهم والدرهمين ألم يكن قضاه فالله أحق أن يعفو ويغفر". إسناده حسن إلا أنه مرسل ولا يثبت متصلا. وفى موطأ مالك عن نافع أن عبدالله بن عمر كان يقول : يصوم رمضان متتابعا من أفطره متتابعا من مرض أو فى سفر. قال الباجى فى «المنتقى» : يحتمل أن يريد الإخبار عن الوجوب، ويحتمل أن يريد الاخبار عن الاستحباب. وعلى الاستحباب جمهور الفقهاء. وإن فرّقه أجزأه؛ وبذلك قال مالك والشافعى. والدليل على صحة هذا قوله تعالى : ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ولم يخص متفرقة من متتابعة. وإذا أتى بها متفرقة فقد صام عدة من أيام أخر، فوجب أن يجزيه. ابن العربى : إنما وجب التتابع فى الشهر لكونه معينا وقد عدم التعيين فى القضاء فجاز التفريق.

(1) قال الزرقانى فى شرح الموطأ : معنى سقطت نسخت قال : وليس بين اللوحين «متتابعات» أى : ليس فى المصحف كلمة «متتابعات» وقال الدارقطنى : إن كلمة «سقطت» انفرد بها عروة.

الثامنة — لما قال تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ دل ذلك على وجوب القضاء من غير تعين لزمان؛ لأن اللفظ مسترسل على الأزمان ولا يختص ببعضها دون بعض. وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت: يكون علىّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه الا فى شعبان. الشُّغْلُ من رسول الله. أو برسول الله صلى الله عليه وسلم فى رواية. وذلك لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا نص وزيادة بيان للآية. وذلك رد على داود قوله: إنه يجب عليه قضاؤه ثانى شوال. ومن لم يصمه ثم مات فهو آثم عنده؛ وبنى عليه أنه لو وجب عليه عتق رقبة فوجد رقبه تباع بثمن فليس له أن يتعداها ويشترى غيرها؛ لان الفرض عليه أن يعتق أول رقبة يجدها فلا يجزيه غيرها. ولو كانت عنده رقبة فلا يجوز له أن يشترى غيرها ولو مات الذى عنده فلا يبطل العتق. كما يبطل فيمن نذر أن يعتق رقبة بعينها فماتت يبطل نذره؛ وذلك يفسد قوله. وقال بعض الأصوليين: إذا مات بعد مضى اليوم الثانى من شوال لايعصى على شرط العزم. والصحيح أنه غير آثم ولا مفرط. وهو قول الجمهور، غير أنه يستحب له تعجيل القضاء لئلا تدركه المنية فيبقى عليه الفرض.

التاسعة — من كان عليه قضاء أيام من رمضان فمضت عليه عدتها من الأيام بعد الفطر أمكنه فيها صيامه فأخر ذلك ثم جاءه مانع منعه من القضاء إلى رمضان آخر فلا إطعام عليه؛ لأنه ليس بمفرط حين فعل مايجوز له من التأخير. هذا قول البغداديين من المالكيين ويرونه قول ابن القاسم فى المدونة.

العاشرة — فإن أخر قضاءه عن شعبان الذى هو غاية الزمان الذى يقضى فيه رمضان فهل يلزمه لذلك كفارة أولا؛ فقال مالك والشافعى وأحمد واسحاق: نعم. وقال أبو حنيفة والحسن والنخعى وداود: لا.

قلت: وإلى هذا ذهب البخارى لقوله، ويذكر عن أبى هريرة مرسلا وابن عباس أنه يطعم. ولم يذكر الله الإطعام انما قال: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾.

قلت : قد جاء عن أبى هريرة مسـنداً فيمن فرط فى قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر قال : يصوم هذا مع الناس، و يصوم الذى فرط فيه ويطعم لكل يوم مسكينا . خرّجه الدارقطنىّ وقال : إسناد صحيح . وروى عنه مرفوعا إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى رجل أفطر فى شهر رمضان من مرض ثم صحّ ولم يصم حتى أدركه رمضان آخر قال : "يصوم الذى أدركه ثم يصوم الشهر الذى أفطر فيه ويطعم لكل يوم مسكينا" . فى إسناده ابن نافع وابن وجيه ضعيفان .

الحادية عشرة — فإن تمادى به المرض فلم يصحّ حتى جاء رمضان آخر، فروى الدارقطنى عن ابن عمر أنه يطعم مكان كل يوم مسكينا مُدّا من حنطة ثم ليس عليه قضاء . وروى أيضا عن أبى هريرة أنه قال : إذا لم يصحّ بين الرمضانين صام عن هذا وأطعم عن الثانى ولا قضاء عليه . و إذا صحّ فلم يصم حتى أدركه رمضان آخر صام عن هذا وأطعم عن الماضى ، فإذا أفطر قضاه . إسناد صحيح . قال علماؤنا : وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها . وروى عن ابن عباس أن رجلا جاء اليه فقال : مرضت رمضانين ؛ فقال له ابن عباس : استمر بك مرضك أو صححت بينهما ؟ فقال : بل صححت ؛ قال : صم رمضانين وأطعم ستين مسكينا . وهذا بدل من قوله : إنه لو تمادى به مرضه لاقضاء عليه . وهذا يشـبه مذهبهم فى الحامل والمرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما ؛ على ما يأتى :

الثانية عشرة — واختلف من أوجب عليـه الإطعام فى قدر مايجب أن يطعم ؛ فكان أبو هريرة والقاسم بن محمد ومالك والشافعى يقولون : يطعم عن كل يوم مُدّا . وقال الثورى : يطعم نصف صاع عن كل يوم .

الثالثة عشرة — واختلفوا فيمن أفطر أو جامع فى قضاء رمضان ماذا يجب عليه ؛ فقال مالك : من أفطر يوما من قضـاء رمضان ناسيا لم يكن عليه شىء غير قضائه ، ويستحب له أن يتمادى فيـه للاختلاف ثم يقضـيه ولو أفطره عامدا أثم ولم يكن عليه غير قضاء ذلك اليوم ولا يتمادى ؛ لأنه لا معنى لكفه عما يكف الصائم هاهنا إذ هو غير صائم عنـد جماعة العلماء .

لإفطاره عامدا . وأما الكفارة فلا خلاف عنـد مالك وأصحابه أنها لا تجب في ذلك ، وهو قول جمهور العلماء . قال مالك : ليس على من أفطر يوما من قضاء رمضان بإصابة أهله أو غير ذلك كفارة ، وإنما عليه قضاء ذلك اليوم . وقال قتادة : على من جامع في قضاء رمضان القضاء والكفارة . وروى ابن القاسم عن مالك أن من أفطر في قضاء رمضان فعليه يومان ؛ وكان ابن القاسم يفتي به ثم رجع عنه ثم قال : إن أفطر عمدا في قضاء القضاء كان عليه مكانه صيام يومين ؛ كمن أفسد حجه بإصابة أهله ، وحج قابلا فأفسد حجه أيضا بإصابة أهله كان عليه حجتان . قال أبو عمر : قد خالفه في الحج ابن وهب وعبد الملك وليس يجب القياس على أصل مختلف فيه . والصواب عندي — والله أعلم — أنه ليس عليه في الوجهين إلا قضاء يوم واحد؛ لأنه يوم واحد أفسده مرتين .

قلت : وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ فمتى أتى بيوم تام بدلا عما أفطره في قضاء رمضان فقد أتى بالواجب عليه ، لايجب عليه غير ذلك والله أعلم .

الرابعـة عشرة — والجمهور على أن من أفطر في رمضان لعلة فمات من علته تلك ، أو سافر فمات في سفره ذلك أنه لاشئ عليه . وقال طاوس وقتادة في المريض يموت قبل أن يصح : يطعم عنه .

الخامســة عشرة — واختلفوا فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه ؛ فقال مالك والشافعي والثوري : لا يصوم أحد عن أحد . وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور والليث وأبو عبيد وأهل الظاهر : يصام عنه ؛ إلا أنهم خصصوه بالنذر . وروى مثله عن الشافعي . وقال احمد وإسحاق في قضاء رمضان : يطعم عنه . احتج من قال بالصوم بما رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "من مات وعليه صيام صام عنه وليّه". إلا أن هذا عام في الصوم، يخصصه مارواه مسلم أيضا عن ابن عباس قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إن أمي قد ماتت وعليها صومُ نَذْر — وفي رواية صـوم شهر — أفأصوم عنها ؟ قال : "أريت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يُؤَدّي ذلك عنها" قالت :

نعم ؛ قال : "فصومى عن أمك" . احتج مالك ومن وافقه بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ و بما خرجه النسائى عن ابن عباس عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "لايصلى أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدّا من حنطة" .

قلت : وهذا الحديث عام فيحتمل أن يكون المراد بقوله : "لايصوم أحد عن أحد" صوم رمضان . فأما صوم النذر فيجوز ؛ بدليل حديث ابن عباس وغيره ، فقد جاء فى صحيح مسلم أيضا من حديث بريدة نحو حديث ابن عباس ، وفى بعض طرقه : صوم شهرين أفأصوم عنها ؟ قال: "صومى عنها" قالت : إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال : "حجى عنها". فقولها : شهرين، يبعد أن يكون رمضان . والله أعلم . وأقوى ما يحتج به لمالك أنه عمل أهل المدينة ويعضده القياس الجلى وهو أنه عبادة بدنية لا مدخل للمال فيها فلا تفعل عمن وجبت عليه كالصلاة . ولا ينقض هذا بالحج لأن للمال فيه مدخلا .

السادسة عشرة — استدل بهذه الآية من قال : إن الصوم لاينعقد فى السفر وعليه القضاء أبدا، فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أى فعليه عدة ؛ ولا حذف فى الكلام ولا إضمار . وبقوله عليه الصلاة والسلام : " ليس من البر الصيام فى السفر قال: مالم يكن من البر فهو من الإثم ، فيدل ذلك على أن صوم رمضان لا يجوز فى السفر" . والجمهور يقولون : فيه محذوف فأفطر، كما تقدم . وهو الصحيح لحديث أنس قال: سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم . رواه مالك عن حميد الطويل عن أنس، وأخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : غزونا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لستّ عشرة مضت من رمضان فمنا من صام ومنا من أفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ الآية فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعـالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ قراءة الجمهور بكسر الطاء وسكون الياء ، وأصله يطوقونه نقلت الكسرة إلى الطاء وانقلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها . وقرأه حميد على

الأصل من غير اعتلال، والقياس الاعتلال. ومشهور قراءة ابن عباس « يُطَوَّقونه » بفتح الطاء مخففة وتشـديد الواو بمعنى يكلَّفونه . وقد روى مجـاهد « يَطيقُونَه » بالياء بعد الطاء على لفظ يكيلونه وهي باطلة ومحال؛ لأن الفعل مأخوذ من الطوق، فالواو لازمة واجبـة فيه ولا مدخل للياء في هـذا المثال . قال أبو بكر الأنبارى : وأنشدنا أبو حميـد بن يحيى النحوى لأبي ذؤيب :

فقيل تحمَّل فوق طوقك إنها * مُطبَّعة(1) من يأتها لا يَضيـرها

فأظهر الواو في الطوق، وصح بذلك أن واضع الياء مكانها يفارق الصواب . وروى ابن الأنبـارى عن ابن عباس « يَطَّيَّقُونَه » بفتح الياء وتشـديد الطاء والياء مفتوحتين بمعنى يطيقونه . يقال : طاق وأطاق وأطيق بمعنى . وعن ابن عباس أيضا وعائشة وطاوس وعمرو ابن دينار « يَطَّوقونه » بفتح الياء وشـد الطاء مفتوحة وهي صـواب في اللغة ؛ لأن الأصل تتطوقونه فأسكنت التاء وأدغمت في الطاء فصارت طاء مشدّدة، وليست من القرآن، خلافا لمن أثبتها قرآنا، و إنمـا هي قراءة على التفسير. وقرأ أهل المدينة والشام «فدية طعام» مضافا «مساكين » جمعا . وقرأ ابن عباس « طعـام مسكين » بالإفراد فيما ذكر البخارى وأبو داود والنسائي عن عطاء عنه وهي قراءة حسنة ؛ لأنها بينت الحكم في اليوم؛ واختارها أبو عبيد ، وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي . قال أبو عبيد : فبيّنت أن لكل يوم إطعام واحد ؛ فالواحد مترجم عن الجميع وليس الجميع بمترجم عن الواحد . وجمع المساكين لايدرى كم منهم في اليوم إلا من غير الآية . وتخرج قراءة الجمع في مساكين لمـا كان الذين يطيقونه جمع وكل واحد منهم يلزمه مسكين فجمع لفظه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ أى اجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة ؛ فليست الثمانون متفرقة في جميعهم، بل لكل واحد ثمـانون . قال معناه أبو علي . واختار قراءة الجمع النحاس قال : وما اختـاره أبو عبيد مردود لأن هذا إنما يعرف بالدلالة ؛ فقد عُلم أن معنى « وعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَه فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِين » أن لكل يوم مسكينا فاختيار هـذه القراءة لترد

(1) مطبعة : مملوءة .

جمعا على جمع . واختار أبو عبيـد أن يقرأ « فدية طعام » قال : لأن الطعـام هو الفدية، ولا يجوز أن يكون الطعام نعتا لأنه جوهر ولكنه يجوز على البدل، وأبين منه أن يقرأ « فدية طعام » بالإضافة لأن فدية مبهمة تقع للطعام وغيره فصار مثل قولك : هذا ثوب خز .

الثانيـــة — واختلف العلماء فى المراد بالآية؛ فقيل : هى منسوخة . روى البخارى «وقال ابن نمير حدثنا [الأعمش حدثنا] عمرو بن مرة حدثنا ابن أبى ليلى حدثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نزل رمضان فشق عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه ورخص لهم فى ذلك فنسختها وأن تصوموا خير لكم» . وعلى هذا قراءة الجمهور « يطيقونه » أى يقدرون عليه لأن فرض الصيام هكذا : من أراد صام ومن أراد أطعم مسكينا . وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية رخصة للشيوخ والعجزة خاصة إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم، ثم نسخت بقوله ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فزالت الرخصـة إلا لمن عجز منهم . قال الفراء : الضمير فى « يطيقونه » يجوز أن يعود على الصيـام ، أى وعلى الذين يطيقون الصيام أن يطعموا إذا أفطروا، ثم نسخ بقوله : ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ . ويجوز أن يعود على الفداء، أى وعلى الذين يطيقون الفداء فدية . وأما قراءة « يطوقونه » على معنى يكلفونه مع المشقة اللاحقة لهم؛ كالمريض والحامل فإنهما يقدران عليه لكن بمشقة تلحقهم فى أنفسهم ، فإن صاموا أجزأهم وإن افتدوا فلهم ذلك . ففسر ابن عبـاس — إن كان الإسناد عنه صحيحا — « يطيقونه » بيطوقونه ويتكلفونه فأدخله بعض النقلة فى القرآن . روى أبو داود عن ابن عباس « وعلى الذين يطيقونه » قال : أثبتت للحبلى والمرضع . وروى عنه أيضا « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » قال : كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصوم؛ أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينا، والحبلى والمرضـع إذا خافتا على أولادهمـا أفطرتا وأطعمتا . وخرج الدارقطنى عنه أيضا قال : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا ولا قضاء عليه، هذا إسناد صحيح . وروى عنه أيضا أنه قال : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طعام» ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعما مكان

كل يوم مسكينا. وهذا صحيح . وروى عنه أيضا أنه قال لأم ولد له حبلى أو مرضع : أنت من الذين لا يطيقون الصيام ؛ عليك الجزاء ولا عليك القضاء . وهذا إسناد صحيح . وفى رواية كان له أم ولد ترضع من غير شك فأجهدت فأمرها أن تفطر ولا تقضى . هذا صحيح .

قلت : فقد ثبت بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس أن الآية ليست بمنسوخة وأنها محكمة فى حق من ذكر . والقول الأول صحيح أيضا إلا أنه يحتمل أن يكون النسخ هناك بمعنى التخصيص فكثيرا ما يطلق المتقدمون النسخ بمعناه . والله أعلم .

وقال الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح والضحاك والنخعى والزهرى وربيعة والأوزاعى وأصحاب الرأى : الحامل والمرضع يفطران ولا إطعام عليهما ؛ بمنزلة المريض يفطر ويقضى . وبه قال أبو عبيد وأبو ثور ، وحكى ذلك أبو عبيد عن أبى ثور ، واختاره ابن المنذر . وهو قول مالك فى الحبلى إن أفطرت . فأما المرضع إن أفطرت فعليها القضاء والإطعام . وقال الشافعى وأحمد : يفطران ويطعمان ويقضيان . وأجمعوا على أن المشايخ والعجائز الذين لا يطيقون الصيام أو يطيقونه على مشقة شديدة أن يفطروا . واختلفوا فيما عليهم ؛ فقال ربيعة ومالك : لا شيء عليهم . غير أن مالكا قال : لو أطعموا عن كل يوم مسكينا كان أحب إلى . وقال أنس وابن عباس وقيس بن السائب وأبو هريرة : عليهم الفدية ؛ وهو قول الشافعى وأصحاب الرأى وأحمد وإسحاق اتباعا لقول الصحابة رضى الله عن جميعهم . وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ وهؤلاء ليسوا بمرضى ولا مسافرين ، فوجب عليهم الفدية . والدليل لقول مالك أن هذا مفطر لعذر موجود فيه وهو الشيخوخة والكبر فلم يلزمه إطعام كالمسافر والمريض . وروى هذا عن الثورى ومكحول واختاره ابن المنذر .

الثالثة — واختلف من أوجب الفدية على من ذكر فى مقدارها ؛ فقال مالك : مُدّ بمد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن كل يوم أفطره ، وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : كفارة كل

يوم صاع تمر أو نصف صاع بُرّ . و روى عن ابن عبـاس نصف صاع من حنطة . ذكره الدارقطنى. وروى عن أبى هريرة قال : من أدركه الكبر فلم يستطع أن يصوم فعليه لكل يوم مدّ من قمـح . و روى عن أنس بن مالك أنه ضـعف عن الصوم عاما فصنع جفنة من طعام ثم دعا بثلاثين مسكينا فأشبعهم .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ قال ابن شهاب : من أراد الإطعام مع الصوم . وقال مجاهد : من زاد فى الإطعام على المد . ابن عباس : «فمن تطوع خيرا» قال : مسكينا آخر فهو خير له . ذكره الدارقطنى وقال : إسـناد صحيح ثابت . وخير الثانى صفة تفضيل، وكذلك الثالث وخير الأوّل . وقرأ عيسى بن عمر ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى « تطوع خيرا » مشددا وجزم العين على معنى يتطوّع . الباقون « تطوع » بالتاء وتخفيف الطاء وفتح العين على المـاضى .

الخامســة — قوله تعـالى : ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أى والصيـام خير لكم . وكذا قرأ أبىّ أى من الإفطار مع الفدية وكان هــذا قبل النسخ وقيل : وأن تصوموا فى السـفر والمرض غير الشاق ، والله أعلم . وعلى الجملة فإنه يقتضى الحض على الصوم أى فاعلموا ذلك وصوموا .

قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ إلى قوله ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فيه احدى وعشرون مسئلة :

الاولى — قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ قال أهل التاريخ : أوّل من صام رمضان نوح عليه السلام لمـا خرج من السفينة . وقد تقدّم قول مجاهد : كتب الله رمضان على كل أمة . ومعلوم أنه كان قبـل نوح أمم ، والله أعلم . والشهر مشتق من الاشهار لأنه مشتهر لا يتعذر علمه على أحد يريده؛ ومنـه يقال : شهرت السيف إذا سللته . ورمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا احترق جوفه من شدة العطش . والرمضاء ممدودة شدة الحر؛ ومنه الحديث : "صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال"[1] خرّجه مسلم . ورمض الفصال أن تحرق الرمضاء أخفافها

(١) هى الصلاة التى سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الضحى .

فتبرك من شدة حرها . فرمضـــان فيما ذكروا وافق شدّة الحر؛ فهو مأخوذ من الرمضاء . قال الجوهري : وشهر رمضان يجمع على رمضانات وأرمضة؛ يقال : انهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها ، فوافق هذا الشهر أيام رمضاء الحر فسمى بذلك . وقيل : انما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة ، من الإرماض وهو الإحراق؛ ومنه رمضت قدمه من الرمضاء أي احترقت . وأرمضتنى الرمضاء أى أحرقتنى؛ ومنه قيل : أرمضنى الأمر . وقيل : لأن القلوب تأخذ فيـه من حرارة الموعظة والفكرة فى أمر الآخرة كما يؤخذ الرمل والحجارة من حر الشمس . والرمضاء : الحجارة المحماة . وقيل : هو من رَمَضت النصل أَرْمَضُـه وأَرْمُضُه رَمْضـا إذا دققته بين حجرين ليرقّ؛ ومنه نصـل رميض ومرموض ، عن ابن السكيت؛ وسمّى الشهر به لأنهم كانوا يرمضون أسلحتهم فى رمضان ليحاربوا بهـا فى شـوال قبل دخول الأشهر الحرم . وحكى المـاوردى أن اسمه فى الجاهليـة « ناتق » وأنشد للفضل :

وفى ناتِق أَجْلَتْ لدى حومة الوغى * وولّت على الأدبار فُرسانُ خَثْعَمَا

وشهر بالرفع قراءة الجماعة على الابتداء ، والخبر « الذى أنزل فيه القرآن » ويرتفع على إضمار مبتـدأ ، المعنى : المفروض عليكم صومه شهر رمضان ، أو فيما كتب عليكم شهر رمضان . ويجوز أن يكون « شهر » مبتدأ ، و « الذى أنزل فيه القرآن » صفة ، والخبر « فمن شهد منكم الشهر » . وأعيد ذكر الشهر تعظيما كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ . وجاز أن يدخله معنى الجزاء لأن شهر رمضان وإن كان معرفة فليس معرفة بعينها لأنه شائع فى جميع القابل؛ قاله أبو على . وروى عن مجـاهد وشهر بن حوشب نصب شهر ، ورواها هارون الاعور عن أبى عمرو . ومعناه ألزموا شهر رمضان أو صوموا . و « الذى أنزل فيـه القرآن » نعت له ولا يجوز أن ينتصب بتصوموا لئـلا يفرق بين الصلة والموصول بخبر أن وهو « خير لكم » الرماني : يجوز نصبه على البدل من قوله : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ .

الثانيـــة — واختلف هل يقال : « رمضان » دون أن يضاف الى شهر؛ فكره ذلك مجاهد وقال : يقال كما قال الله تعالى . وفى الخبر: " لا تقولوا رمضان بل انسبوه كما نسبه الله فى القرآن

فقال شهر رمضان " . وكان يقول : بلغنى أنه اسم من أسماء الله ؛ وكان يكره أن يجمع لفظه لهذا المعنى . ويحتج بما روى : رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، وهذا ليس بصحيح فإنه من حديث أبى معشر نجيح وهو ضعيف . والصحيح جواز إطلاق رمضان من غير إضافة كما ثبت فى الصحاح وغيرها . روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : "إذا جاء رمضان فتّحت أبواب الرحمة وغلّقت أبواب النار وصفدت الشياطين" وفى صحيح البستىّ عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اذا كان رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين " وروى عن ابن شهاب عن أنس بن أبى أنس أن أباه حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول فذكره . قال البستى : أنس بن أبى أنس هذا هو والد مالك ابن أنس ، واسم أبى أنس مالك بن أبى عامر من ثقات أهل المدينة ، وهو مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان[1] بن جثيل[2] بن عمرو من ذى أصبح من أقيال اليمن . وروى النسائى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاكم رمضان شهر مبارك فرض الله عز وجل عليكم صيامه تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب جهنم وتغل فيه مردة الشياطين لله فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم " وأخرجه أبو حاتم البستى أيضا وقال : فقوله " مردة الشياطين " تقييد ، لقوله : " صُفّدت الشياطين وسلسلت" . وروى النسائى أيضا عن ابن عباس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لامرأة من الأنصار : "إذا كان رمضان فاعتمرى فإن عمرة فيه تعدل حجة" وروى النسائى أيضا عن عبد الرحمن بن عوف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ان الله تعالى فرض صيام رمضان [عليكم] وسننت لكم قيامه فمن صامه وقامه إيمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " . والآثار فى هذا كثيرة ، كلها بإسقاط شهر . وربما أسقطت العرب ذكر الشهر من رمضان .

(١) الذى فى ابن خلكان : غيان بغين معجمة و ياء تحتها نقطتان و يقال عثمان بعين مهملة وثاء مثلثة » .

(٢) عن ابن خلكان : « ... وقال ابن سعد : هو خثيل بخاء معجمة » .

قال الشاعر :

جاريةٌ فى دِرعها الفضفاض * أبيضُ من أختِ بَنى إباضِ

جارية فى رمضـانَ المـاضِى * تُقَطِّـعُ الحـديث بالإيماضِ

وفضـل رمضان عظيم ، وثوابه جسيم ، يدل على ذلك معنى الاشـتقاق من كونه محرقا للذنوب ، وما كتبناه من الأحاديث .

الثالثـة — فرض الله صيام شهر رمضان اى مدّة هلاله ويسمى الهلال الشهر، كما جاء فى الحديث "فإن غُمّىَ عليكم الشهر" أى الهلال وسيأتى . وقال الشاعر :

أخوان من نجد على ثقة * والشهر مثل قلامة الظفر

حتى تكامل فى استدارته * فى أربع زادت على عشر

وفرض علينا عند غمة الهلال إكمال عدة شعبان ثلاثين يوما، وإكمال عدة رمضان ثلاثين يوما، حتى ندخل فى العبادة بيقين، ونخرج عنها بيقين، فقال فى كتابه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . وروى الأئمة الأثبات عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيتـه فان غُمّ عليـكم فأكملوا العـدد" . فى رواية "فإن غُمّى عليكم الشهر فعدوا ثلاثين" . وقد ذهب مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير وهو من كبار التابعين وابن قتيبة من اللغويين فقالا : يُعَوَّل على الحساب عند الغيم بتـقدير المنازل واعتبار حسابهـا فى صـوم رمضان، حتى إنه لو كان صحو لرؤى لقوله عليه السلام : "فان أُغْمِىَ عليكم فاقدُروا له" أى اسـتدلوا عليه بمنازله ، وقدروا إتمـام الشهر بحسابه . وقال الجمهور : معنى "فاقدروا له" فأكملوا المقدار، يفسره حديث أبى هريرة "فأكملوا العدة" وذكر الداودى أنه قيـل فى معنى قوله "فاقدروا له" أى قدروا المنازل . وهذا لانعلم أحدا قال به إلا بعض أصحاب الشافعى أنه يعتـبر فى ذلك بقول المنجمين ، والإجمـاع حجة عليهم . وقد روى ابن نافع عن مالك فى الإمام لا يصـوم لرؤية الهـلال ولا يفطر لرؤيته ، وإنما يصوم ويفطر على الحساب إنه

لا يقتدى به ولا يتبع . قال ابن العربى : وقد زل بعض أصحابنا فحكى عن الشافعى أنه قال: يعول على الحساب . وهى عثرة لا «لعا»[1] لها .

الرابعـــة — واختلف مالك والشافعىّ هـل يثبت رمضان بشهادة واحد أو شاهدين؛ فقال مالك : لا يقبل فيه شهادة الواحد لأنها شهادة على هلال فلا يقبل فيها أقل من اثنين؛ أصله الشهادة على هلال شوّال وذى الحجة . وقال الشافعى وأبو حنيفة : يقبل الواحد ؛ لما رواه أبو داود عن ابن عمر قال: تراءت الناس الهلال فأخبرت به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنى رأيته؛ فصام وأمر الناس بصيامه . وأخرجه الدّارقطنىّ وقال : تفرّد به مروان بن محمد عن ابن وهب وهو ثقة . روى الدارقطنى «أن رجلا شهد عند علىّ بن أبى طالب على رؤية هلال رمضان فصام؛ احسبه قال: وأمر الناس أن يصوموا، وقال : أصوم يوما من شعبان أحب إلىّ من أن أفطر يوما من رمضان . قال الشافعى : فإن لم تر العامة هلال شهر رمضان ورآه رجل عدل رأيت أن أقبله للأثر والاحتياط . وقال الشافعى بعد : لا يجوز على رمضان إلا شاهدان . قال الشافعى وقال بعض أصحابنا : لا أقبل عليه إلا شاهدين وهو القياس على كل مُغَيَّب .

الخامســـة — واختلفوا فيمن رأى هلال رمضان وحده أو هلال شوال؛ فروى الربيع عن الشافعى : من رأى هلال رمضان وحده فليصمه ، ومن رأى هلال شوال وحده فليفطر ولْيُخْفِ ذلك . وروى ابن وهب عن مالك فى الذى يرى هلال رمضان وحده أنه يصوم ؛ لأنه لا ينبغى له أن يفطر وهو يعلم أنّ ذلك اليوم من شهر رمضان . ومن رأى هلال شوّال وحده فلا يفطر ؛ لأن الناس يتهمون على أن يفطر منهم من ليس مأمونا ، ثم يقول أولئك اذا ظُهِر عليهم: قد رأينا الهلال . قال ابن المنذر : وبهذا قال الليث بن سعد وأحمد بن حنبل . وقال عطاء وإسحاق : لا يصوم ولا يفطر . قال ابن المنذر : يصوم ويفطر .

السادســـة — واختلفوا اذا أخبر مخبر عن رؤية بلد؛ فلا يخلو أن يقرب أو يبعد فان قرب فالحكم واحد وان بعد فلأهل كل بلد رؤيتهم ؛ روى هذا عن عكرمة والقاسم وسالم، وروى

(١) لعا : كلمة يدعى بها للعاثر، معناها الارتفاع والاقالة من العثرة . فاذا أريد الدعاء عليه قيل : لا لعا .

عن ابن عباس، و به قال اسحاق، و إليه أشار البخارى حيث بوّب « لأهل كل بلد رؤيتهم » . وقال آخرون . اذا ثبت عند الناس أن أهل بلد قد رأوه فعليهم قضاء ما أفطروا . هكذا قال الليث بن سعد والشافعى . قال ابن المنذر : ولا أعلمه إلا قول المزنى والكوفى .

قلت : ذكر الكيا الطبرى فى كتاب «أحكام القرآن» له : وأجمع أصحاب أبى حنيفة على أنه اذا صام أهل بلد ثلاثين يوما للرؤية، وأهل بلد تسعة وعشرين يوما أن على الذين صاموا تسعة وعشرين يوما قضاء يوم . وأصحاب الشافعى لا يرون ذلك إذا كانت المطالع فى البلدان يجوز أن تختلف . وحجة أصحاب أبى حنيفة قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ وثبت برؤية أهل بلد أن العدّة ثلاثون فوجب على هؤلاء إكمالها . ومخالفهم يحتج بقوله صلى الله عليه وسلم: " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته " الحديث، وذلك يوجب اعتبار عادة كل قوم فى بلدهم . وحكى أبو عمر الإجماع على أنه لا تراعى الرؤية فيما بَعُدَ من البلدان كالأندلس من خراسان ، قال : ولكل بلد رؤيتهم، إلا ما كان كالمصر الكبير وما تقاربت أقطاره من بلدان المسلمين . روى مسلم عن كُرَيْب أن أم الفضل بنت الحارث بعثته الى معاوية بالشام قال : فقدمت الشام فقضيت حاجتها واستُهِلّ علىّ رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قَدِمت المدينة فى آخر الشهر فسألنى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، ثم ذكر الهلال فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت : رأيناه ليلة الجمعة . فقال : أنت رأيته؟ فقلت : نعم، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية . فقال : لكنا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نُكمل ثلاثين أو نراه . فقلت : أَوَ لا تكتفى برؤية معاوية وصيامه؟ فقال : لا، هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال علماؤنا : قول ابن عباس «هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » كلمة تصريح برفع ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وبأمره، فهو حجة على أن البلاد اذا تباعدت كتباعد الشام من الحجاز فالواجب على أهل كل بلد أن تعمل على رؤيته دون رؤية غيره ، و إن ثبت ذلك عند الإمام الأعظم، مالم يحمل الناس على ذلك، فان حمل فلا تجوز مخالفته . وقال الكيا الطبرى : قوله « هكذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » يحتمل أن يكون تأوّل فيه قول رسول

الله صلى الله عليه وسلم : "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته" . وقال ابن العربى : «واختلف فى تأويل [قول][1] ابن عباس [هذا]، فقيل : ردّه لأنه خبر واحد ، وقيل : ردّه لأن الأقطار مختلفة فى المطالع، وهو الصحيح لأن كريبا لم يشهد و إنما أخبر عن حكم ثبت بالشهادة ، ولا خلاف فى الحكم الثابت أنه يجزى فيه خبر الواحد، ونظيره ما لو ثبت أنه أهلّ ليلة الجمعة بأغمات[2] وأهلّ بأشبيلية[3] ليلة السبت فيكون لأهل كل بلد رؤيتهم؛ لأن سهيلا يكشف من أغمات ولا يكشف من أشبيلية؛ وهذا يدل على اختلاف المطالع .

قلت : وأما مذهب مالك رحمه الله فى هذه المسئلة فروى ابن وهب وابن القاسم عنه فى المجموعة أن أهل البصرة اذا رأوا هلال رمضان ثم بلغ ذلك الى أهل الكوفة والمدينة واليمن أنه يلزمهم الصيام أو القضاء إن فات الأداء . وروى القاضى أبو اسحاق عن ابن الماجشون أنه إن كان ثبت بالبصرة بأمر شائع ذائع يستغنى عن الشهادة والتعديل له فانه يلزم غيرهم من أهل البلاد القضاء، وإن كان إنما ثبت عند حاكمهم بشهادة شاهدين لم يلزم ذلك من البلاد إلا من كان يلزمه حكم ذلك الحاكم ممن هو فى ولايته، أو يكون ثبت ذلك عند أمير المؤمنين فيلزم القضاء جماعة المؤمنين . قال : وهذا قول مالك .

السابعة — قرأ جمهور الناس « شهر » بالرفع على أنه خبر ابتداء مضمر ، أى ذلكم شهر، أو المفترض عليكم صيامه شهر رمضان، أو الصوم أو الأيام . وقيل : ارتفع على أنه مفعول لم يسم فاعله بكتب ، أى كتب عليكم شهر رمضان . ورمضان لا ينصرف لأن النون فيه زائدة . ويجوز أن يكون مرفوعا على الابتداء، وخبره «الذى أنزل فيه القرآن» . وقيل : خبره « فمن شهد »، «والذى أنزل» نعت له . وقيل : ارتفع على البدل من الصيام. فمن قال : إن الصيام فى قوله : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ هى ثلاثة أيام وعاشوراء، قال هنا بالابتداء . ومن قال : إن الصيام هناك رمضان قال هنا بالابتداء أو بالبدل من الصيام، أى

(١) الزيادة عن « أحكام القرآن » لابن العربى .
(٢) أغمات : ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش .
(٣) أشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس .

كتب عليكم شهر رمضان . وقرأ مجاهد وشهر بن حوشب «شهر» بالنصب . قال الكسائي : المعنى كتب عليكم الصيام، وأن تصوموا شهر رمضان . وقال الفراء : أى كتب عليكم الصيام أى أن تصوموا شهر رمضان . قال النحاس : «لا يجوز أن ينتصب شهر رمضان بتصوموا؛ لأنه يدخل فى الصلة ثم يفرق بين الصلة والموصـول، وكذلك إن نصبته بالصـيام ؛ ولكن يجوز أن تنصبه على الإغراء، أى الزموا شهر رمضان وصوموا شهر رمضان، وهذا بعيد أيضا لأنه لم يتقدم ذكر الشهر فيغرى به» .

قلت : قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ يدل على الشهر فجاز الإغراء، وهو اختيار أبى عبيد. وقال الأخفش : انتصب على الظرف . وحكى عن الحسن وأبى عمـرو إدغام الراء فى الراء، وهذا لا يجوز لئلا يجتمع ساكنان، ويجوز أن تقلب حركة الراء على الهاء فتضم الهاء ثم تدغم ، وهو قول الكوفيين .

الثامنـــة ــ قوله تعـالى : ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ نص فى أن القرآن نزل فى شهر رمضان وهو يبين قوله عز وجل : ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يعنى ليلة القدر، ولقوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ . وفى هذا دليل على أن ليلة القدر انمـا تكون فى رمضان لا فى غيره . ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر على ما بيناه جملة واحدة ، فوضع فى بيت العزة فى سماء الدنيا ، ثم كان جبريل صلّى الله عليه وسلّم ينزل به نجمًا نجمًا فى الأوامر والنواهى والأسـباب وذلك فى عشرين سـنة . وقال ابن عباس : أنزل القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة الى الكتبة فى سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عليه السلام نجوما يعنى الآية والآيتين فى أوقات مختلفة فى إحدى وعشرين سنة . وقال مقاتل فى قوله تعـالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال أنزل من اللوح المحفوظ كل عام فى ليلة القدر الى سماء الدنيا، ثم نزل الى السفرة (١) من اللوح المحفوظ فى عشرين شهرا، ونزل به جبريل فى عشرين سنة .

(١) السفرة : الملائكة .

قلت : وقول مقاتل هذا خلاف ما نقل من الإجماع « أن القرآن أنزل بجملة واحدة » والله أعلم .

وروى واثلة بن الأسقع عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنزلت صحف إبراهيم أول ليـلة من شهر رمضان والتـوراة لستّ مضين منـه والإنجيل لثلاث عشرة والقرآنـ لأربع وعشرين" .

قلت : وفى هذا الحديث دلالة على مايقوله الحسن أن ليلة القدر تكون ليلة أربع وعشرين؛ وسيأتى ان شاء الله تعالى بيان هذا .

التاســعة — قوله تعـالى : ﴿ القُرْآنُ ﴾ القرآنـ : اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعنى المقروء، كالمشروب يسمى شرابا ، والمكتوب يسمى كتابا ؛ وعلى هذا قيل : هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا بمعنًى . قال الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به * يقطع الليــل تسبيحا وقرآنا

أى قراءة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر أن فى البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا، أى قراءة . وفى التنزيل : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ أى قراءة الفجر . ويسـمى المقروء قرآنا على عادة العـرب فى تسميتها المفعول باسم المصدر كتسميتهم للعلوم علمـا وللمضروب ضربا وللمشروب شربا كما ذكرنا، ثم اشتهر الاستعمال فى هذا واقترن به العرف الشرعى ، فصار القرآن اسم لكلام الله حتى اذا قيـل : القرآن غير مخلوق يراد به المقروء لا القراءة لذلك . وقد يسمى المصحف الذى يكتب فيـه كلام الله قرآنا توسّعا . وقد قال صلى الله عليـه وسلم : " لا تسافروا بالقرآن الى أرض العدوّ" . أراد به المصحف . وهو مشتق من قرأت الشيء جمعته . وقيل : هو اسم علم لكتاب الله غير مشتق كالتوراة والإنجيـل ؛ وهـذا يحكى عن الشافعيّ . والصحيح الاشتقاق فى الجميع وسيأتى .

العاشرة — قوله تعـالى : ﴿ هُدًى لِلنَّـاسِ ﴾ هدى فى موضـع نصب على الحال من القرآن أى هاديا لهم . « و بينات » عطف عليه . و « الهدى » الإرشاد والبيان، كما تقدّم .

أى بيانا لهم وإرشادا، والمراد القرآن بجملته من محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ؛ ثم شرف بالذكر والتخصيص البينات منه ، يعنى الحلال والحرام والمواعظ والأحكام . « وبينات » جمع بينة من بان الشيء يبين اذا وضح . و « الفرقان » ما فرق بين الحق والباطل أى فصل . وقد تقدّم .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ قراءة العامة بجزم اللام . وقرأ الحسن والأعرج بكسر اللام، وهى لام الأمر وحقها الكسر اذا أفردت ؛ فاذا وصلت بشيء ففيها وجهان : الجزم والكسر ؛ وإنما توصل بثلاث أحرف : بالفاء كقوله : « فَلْيَصُمْهُ » « فَلْيَعْبُدُوا » والواو كقوله : « وَلْيُوفُوا » . وثم كقوله : « ثُمَّ لْيَقْضُوا » . و « شَهِدَ » بمعنى حضر، وفيه إضمار أى من شهد منكم المصر فى الشهر عاقلا بالغا صحيحا مقيما فليصمه، وهو يقال عام فيخصص بقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ الآية . وليس الشهر بمفعول وإنما هو ظرف زمان ؛ وقد اختلف العلماء فى تأويل هذا فقال علىّ بن أبى طالب وابن عباس وسويد بن غَفَلَة وعائشة — أربعة من الصحابة — وأبو مِجْلَز لاحق ابن حميد وعَبِيدة السّلمانى : من شهد، أى من حضر دخول الشهر وكان مقيما فى أوله فى بلده وأهله فليكمل صيامه سافر بعد ذلك أو أقام ، وإنما يفطر فى السفر من دخل عليه رمضان وهو فى سفر . والمعنى عندهم : من أدركه رمضان مسافرا أفطر وعليه عدّة من أيام أخر ، ومن أدركه حاضرا فليصمه . وقال جمهور الأمة : من شهد أوّل الشهر وآخره فليصم ما دام مقيما ، فان سافر أفطر ؛ وهذا هو الصحيح وعليه تدل الأخبار الثابتة . وقد ترجم البخارىّ رحمه الله ردا على القول الأول باب « إذا صام أياما من رمضان ثم سافر » حدّثنا عبد الله بن يوسف قال أنبأنا مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى مكة فى رمضان فصام حتى بلغ الكَدِيد[1] أفطر فأفطر الناس . قال أبو عبد الله : والكديد ما بين عُسْفان وقُدَيد .

---

(١) الكديد (بفتح الكاف وكسر الدال) : موضع بينه وبين المدينة سبع مراحل أو نحوها ، وبينه وبين مكة نحو مرحلتين .

قلت: قد يحتمل أن يكون قول علىّ رضى الله عنه ومن وافقه على السفر المندوب كزيارة الإخوان من الفضلاء والصالحين، أو المباح فى طلب الرزق الزائد على الكفاية . وأما السفر الواجب فى طلب القوت الضرورى، أو فتح بلد إذا تحقق ذلك، أو دفع عدو، فالمرء فيه مخير ولا يجب عليه الإمساك بل الفطر فيه أفضل للتَّقَوِّى، وإن كان شهد الشهر فى بلده وصام بعضه لحديث ابن عباس وغيره، ولا يكون فى هذا خلاف إن شاء الله، والله أعلم . وقال أبو حنيفة وأصحابه: من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولا مغمى عليه فليصمه، ومن دخل عليه رمضان وهو مجنون وتمادى به طول الشهر فلا قضاء عليه؛ لأنه لم يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام . ومن جنّ أول الشهر وآخره فانه يقضى أيام جنونه . ونصب الشهر على هذا التأويل هو على المفعول الصريح بشهد .

الثانية عشرة — قد تقرر أن فرض الصوم مستحق بالاسلام والبلوغ والعلم بالشهر؛ فاذا أسلم الكافر أو بلغ الصبى قبل الفجر لزمهما الصوم صبيحة اليوم، وإن كان بعد الفجر استحب لهما الإمساك، وليس عليهما قضاء الماضى من الشهر ولا اليوم الذى بلغ فيه أو أسلم . وقد اختلف العلماء فى الكافر يسلم فى آخر يوم من رمضان، هل يجب عليه قضاء رمضان كله أو لا؟ وهل يجب عليه قضاء اليوم الذى أسلم فيه؟ فقال الإمام مالك والجمهور: ليس عليه قضاء ما مضى لأنه إنما شهد الشهر من حين إسلامه . قال مالك: وأحب الىّ أن يقضى اليوم الذى أسلم فيه . وقال عطاء والحسن: يصوم ما بقى ويقضى ما مضى . وقال عبد الملك بن الماجشون: يكف عن الأكل فى ذلك اليوم ويقضيه . وقال أحمد وإسحاق مثله . وقال ابن المنذر: ليس عليه أن يقضى ما مضى من الشهر ولا ذلك اليوم . وقال الباجى: من قال من أصحابنا أن الكفار مخاطبون بشرائع الاسلام — وهو مقتضى قول مالك وأكثر أصحابه — أوجب عليه الإمساك فى بقية يومه . ورواه فى المدونة ابن نافع عن مالك، وقاله الشيخ أبو القاسم . ومن قال من أصحابنا ليسوا مخاطبين قال: لا يلزمه الإمساك فى بقية يومه . وهو مقتضى قول أشهب وعبد الملك بن الماجشون، وقاله ابن القاسم .

قلت : وهو الصحيح لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فخاطب المؤمنين دون غيرهم وهذا أوضح فلا يجب عليه الإمساك فى بقية اليوم ولا قضاء ما مضى . وتقدّم الكلام فى معنى قوله : ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ والحمد لله .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ قراءة جماعة « اليسر » بضم السين لغتان ، وكذلك « العسر » . قال مجاهد والضحاك : « اليسر » الفطر فى السفر، « والعسر » الصوم فى السفر . والوجه عموم اللفظ فى جميع أمور الدين ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ وروى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم " دين الله يسر " . وقال صلى الله عليه وسلم : " يسروا ولا تعسروا " . واليسر من السهولة، ومنه اليسار للغنى . وسميت اليد اليسرى تفاؤلا ، أو لأنه يسهل له الأمر بمعاونتها لليمنى قولان . وقوله : ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ هو بمعنى قوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ . فكرر تأكيدا .

الرابعة عشرة — دلت الآية على أن الله سبحانه مريد بإرادة قديمة أزلية زائدة على الذات، هذا مذهب أهل السنة؛ كما أنه عالم بعلم، قادر بقدرة، حىّ بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام . وهذه كلها معان وجودية أزلية زائدة على الذات . وذهب الفلاسفة والشيعة إلى نفيها، تعالى الله عن قول الزائغين وإبطال المبطلين . والذى يقطع دابر أهل التعطيل أن يقال : لو لم يصدق كونه ذا إرادة لصدق أنه ليس بذى إرادة، ولو صح ذلك لكان كل ماليس بذى إرادة ناقصا بالنسبة الى من له إرادة ؛ فان من كانت له الصفات الإرادية فله أن يخصص الشيء وله ألّا يخصصه ؛ فالعقل السليم يقضى بأن ذلك كمال له وليس بنقصان، حتى أنه لو قدر بالوهم سلب ذلك الأمر عنه بعد، كان حاله أولا أكمل بالنسبة الى حاله ثانيا، فلم يبق الا أن يكون ما لم يتصف أنقص مما هو متصف به ، ولا يخفى ما فيه من المحال ؛ فانه كيف يتصور أن يكون المخلوق أكمل من الخالق والخالق أنقص منه، والبديهة تقضى برده وإبطاله . وقد وصف نفسه جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه بأنه مريد فقال تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وقال : ﴿ يُرِيدُ

اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ اذا أراد أمرا فانمـا يقول له كن فيكون . ثم إن هذا العالم على غاية من الحكمة والإتقان والانتظام والإحكام، وهو مع ذلك جائز وجوده وجائز عدمه، فالذى خصصه بالوجود يجب أن يكون مريدا له قادرا عليه عالمـا به، فان لم يكن عالمـا قادرا لا يصح منه صدور شيء،ومن لم يكن عالما وإن كان قادرا لم يكن ماصدر منه على نظام الحكمة والإتقان، ومن لم يكن مريدا لم يكن تخصيص بعض الجائزات بأحوال وأوقات دون البعض بأولى من من العكس إذ نسبتها اليه نسبة واحدة . قالوا: وإذ ثبت كونه قادرا مريدا وجب أن يكون حيا، إذ الحياة شرط هذه الصفات، ويلزم من كونه حيا أن يكون سميعا بصيرا متكلما ، فان لم تثبت له هذه الصفات فانه لامحالة متصف بأضدادها كالعمى والطرش والخرس على ماعرف فى الشاهد . والبارئ سبحانه وتعالى يتقدّس عن أن يتصف بمـا يوجب فى ذاته نقصا .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما — إكمال عدّة الأداء لمن أفطر فى سفره أو مرضه . الثانى — عدّة الهلال سواء كانت تسعا وعشرين أو ثلاثين . قال جابر بن عبـد الله قال النبي صلى الله عليه وسـلم : " إن الشهر يكون تسعا وعشرين" . وفى هذا رد لتأويل من تأوّل قوله صلى الله عليه وسلم : "شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجة". أنهما لا ينقصان عن ثلاثين يوما، أخرجه أبو داود. وتأوله جمهور العلماء على معنى أنهما لا ينقصان فى الأجر وتكفير الخطايا سواء كانا من تسع وعشرين أو ثلاثين .

السادسـة عشرة — ولا اعتبار برؤية هلال شوّال يوم الثلاثين من رمضان نهارا بل هو لليلة التى تأتى، هـذا هو الصحيح . وقد اختلف الرواة عن عمر فى هـذه المسألة فروى الدارقطنيّ عن شـقيق قال : جاءنا كتاب عمر ونحن بخانقين قال فى كتابه : إن الأهلة بعضها أكبر من بعض، فاذا رأيتم الهلال نهارا فلا تفطروا حتى يشهد شاهدان أنهما رأياه بالأمس. وذكره أبو عمر من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن أبى وائل[1] قال : كتب الينا عمر فذكره . قال أبو عمر : وروى عن علىّ بن أبى طالب مثل ما ذكره عبد الرزاق أيضا،

(١) أبو وائل : كنيته وهو شقيق السابق ذكره .

وهو قول ابن مسعود وابن عمر وأنس بن مالك، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة ومحمد ابن الحسن والليث والأوزاعي، وبه قال أحمد وإسحاق. وقال سفيان الثوري وأبو يوسف: إن رؤي بعد الزوال فهو لليلة التي تأتي، وإن رؤي قبل الزوال فهو لليلة الماضية. وروى مثل ذلك عن عمر، ذكره عبد الرزاق عن الثوري عن مغيرة عن شِبَاك عن إبراهيم قال: كتب عمر الى عتبة بن فرقد إذا رأيتم الهلال نهارا قبل أن تزول الشمس لتمام ثلاثين فأفطروا، واذا رأيتموه بعد ما تزول الشمس فلا تفطروا حتى تمسوا. وروى عن عليّ مثله. ولا يصح في هذه المسئلة شيء من جهة الإسناد عن عليّ. وروى عن سليمان بن ربيعة مثل قول الثوري، وإليه ذهب عبد الملك بن حبيب، وبه كان يفتي بقرطبة. واختلف عن عمر بن عبد العزيز في هذه المسئلة؛ قال أبو عمر: والحديث عن عمر بمعنى ما ذهب اليه مالك والشافعي وأبو حنيفة متصل، والحديث الذي روى عنه بمذهب الثوري منقطع والمصير الى المتصل أولى. وقد احتج من ذهب مذهب الثوري بأن قال: حديث الأعمش مجمل لم يخص فيه قبل الزوال ولا بعده، وحديث إبراهيم مفسر، فهو أولى أن يقال به.

قلت: قد روى مرفوعا معنى ما روى عن عمر متصلا موقوفا روته عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت: أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صائما صبح ثلاثين يوما، فرأى هلال شوّال نهارا فلم يفطر حتى أمسى. أخرجه الدارقطنيّ من حديث الواقدي وقال: قال الواقدي حدّثنا معاذ بن محمد الأنصاري قال: سألت الزهريّ عن هلال شوّال اذا رؤى باكرا؛ قال سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رؤي هلال شوّال بعد أن طلع الفجر الى العصر أو الى أن تغرب الشمس فهو من الليلة التي تجيء. قال أبو عبد الله: وهذا مجمع عليه.

السابعة عشرة — روى الدارقطني عن رِبْعيّ بن حِرَاش عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: اختلف الناس في آخر يوم من رمضان فقدم أعرابيان فشهدا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بالله لأهلّا الهلالَ (1) أمس عشية؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [الناس] (2)

---

(1) أهل الرجل الهلال رآه. (2) زيادة عن سنن الدارقطني.

أن يفطروا وأن يغدوا الى مصلاهم . قال الدّارقطنى : هذا إسناد حسن ثابت. قال أبو عمر: لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلى صلاة العيد فى غير يوم العيد ولا فى يوم العيد بعد الزوال . وحكى عن أبى حنيفة. واختلف قول الشافعى فى هذه المسئلة فمرة قال بقول مالك، واختاره المزنى وقال : إذا لم يجز أن تصلى فى يوم العيد بعد الزوال فاليوم الثانى أبعد من وقتها وأحرى ألا تصــلى فيه . وعن الشافعى رواية أخرى أنها تصلى فى اليوم الثـانى ضُحًى . وقال البو يطى : لا تصــلى إلا أن يثبت فى ذلك حديث . قال أبو عمر : لو قضيت صــلاة العيد بعــد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا فى سائر السنن أنها لا تقضى فهذه مثلها . وقال الثورى والأوزاعى وأحمد بن حنبل : يخرجون من الغد، وقاله أبو يوسف فى الإملاء. وقال الحسن بن صالح بن حىّ :لا يخرجون فى الفطر ويخرجون فى الأضحى. قال أبو يوسف: وأما فى الأضحى فيصليها بهم فى اليوم الثالث. قال أبو عمر : لأن الأضحى أيام عيد وهى صلاة عيد وليس الفطر يوم عيــد الا يوم واحد، فاذا لم تصل فيه لم تقض فى غيره؛ لأنهــا ليست بفريضة فتقضى . وقال الليث بن سعد : يخرجون فى الفطر والأضحى من الغد .

قلت : والقول بالخروج إن شاء الله أصح للسنة الثابتــة فى ذلك، ولا يمتنــع أن يستثنى الشارع من السنن ما شاء فيأمر بقضائه بعد خروج وقته . وقد روى الترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " من لم يصل ركعتى الفجر فليصلهما بعد ما تطلع الشمس". صححه أبو محمد، قال الترمذى : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، و به يقول سفيان الثورى والشافعى وأحمد و إسحاق وابن المبارك . وروى عن عمر أنه فعله .

قلت : وقد قال علماؤنا : من ضاق عليه الوقت وصــلى الصبح وترك ركعتى الفجر فانه يصليهما بعد طلوع الشمس ان شاء . وقيــل :لا يصليهما حينئذ . ثم اذا قلنا : يصليهما فهل ما يفعله قضاء، أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتى الفجر . قال الشــيخ أبو بكر : وهذا الجارى على أصل المذهب وذكر القضاء تجوّز .

قلت : ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر فى اليوم الثانى على هذا الأصل لا سيما مع كونها مرة واحدة فى السنة مع ما ثبت من السنة . روى النسائى قال : أخبرنى عمرو بن علىّ قال حدّثنا يحيى قال حدّثنا شعبة قال حدّثنى أبو بشر عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له أن قوما رأوا الهلال فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار وأن يخرجوا الى العيد من الغد . فى رواية ويخرجوا لمصلاهم من الغد .

الثامنة عشرة — قرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عمرو — فى بعض ما روى عنه — والحسن وقتادة والأعرج « ولتكمّلوا العدّة » بالتشديد . والباقون بالتخفيف ، واختار الكسائى التخفيف كقوله عزّ وجلّ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ . قال النحاس : وهما لغتان بمعنى واحد، كما قال عزّ وجل : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ . ولا يجوز « ولْتكملوا » باسكان اللام ، والفرق بين هذا وبين ما تقدّم أن التقدير ويريد لأن تكملوا ، ولا يجوز حذف أن والكسرة، هذا قول البصريين . ونحوه قول كُثَيّر أبو صخر :

* أريد لأنسى ذكرها *

أى لأن أنسى ، وهذه اللام هى الداخلة على المفعول ، كالتى فى قولك : ضربت لزيد . المعنى ويريد إكمال العدّة . وقيل : هى متعلقة بفعل مضمر تقديره ولأن تكملوا العدّة رخص لكم هذه الرخصة . وهذا قول الكوفيين وحكاه النحاس عن الفرّاء . قال النحاس : وهذا قول حسن ، ومثله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أى وليكون من الموقنين فعلنا ذلك . وقيل : الواو مقحمة . وقيل يحتمل أن تكون هذه اللام لام الأمر والواو عاطفة جملة كلام على جملة كلام . وقال أبو إسحاق ابراهيم بن السرى : هو محمول على المعنى والتقدير : فعل الله ذلك ليسهل عليكم ولتكملوا العدّة ، قال : ومثله ما أنشده سيبويه :

بادتْ وغيّر آيهنّ مع البلَى * إلا رواكدَ جَمْرُهنّ هباءُ

ومُشَجَّجٌ أمّا سَـواءُ قَذالِه[1] * فبدا وغيَّبَ سارَه[2] المَعْزاءُ

شاده يشيده شيدا جصصه؛ لأن معنى بادت إلا رواكد بها رواكد فكأنه قال : وبها مشجّج أو ثم مشجّج .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾ عطف عليه ومعناه الحض على التكبير فى آخر رمضان فى قول جمهور أهل التأويل . واختلف النـاس فى حدّه ؛ فقال الشافعى : روى عن سعيد بن المسيب وعروة وأبى سلمة أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر ويحمدون قال : وتشبه ليلة النحر بها . وقال ابن عباس : حقٌّ على المسلمين اذا رأوا هلال شوّال أن يكبروا. وروى عنـه يكبر المرء من رؤية الهلال الى انقضاء الخطبة ، ويمسك وقت خروج الامام ويكبر بتكبيره . وقال قوم : يكبّر من رؤية الهلال الى خروج الإمام للصلاة . وقال سفيان : هو التكبير يوم الفطر . زيد بن أسلم : يكبرون اذا خرجوا الى المصلى فاذا انقضت الصلاة انقضى العيد . وهذا مذهب مالك، قال مالك : هو من حين يخرج من داره الى حين يخرج الإمام . وروى ابن القاسم وعلىّ بن زياد أنه إن خرج قبل طلوع الشمس فلا يكبر فى طريقه ولا جلوسـه حتى تطلع الشمس، وإن غدا بعـد الطلوع فليكبر فى طريقـه الى المصلى واذا جلس، حتى يخرج الإمام، والفطر والأضحى فى ذلك سواء عند مالك ، وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : يكبر فى الأضحى ولا يكبر فى الفطر، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾

---

(١) فى نسخ الأصـل وكتاب سيبويه وإعراب القرآن للنحاس : « غير » بالراء . والتصويب عن اللسان مادة « شجج » .

(٢) كذا فى كتاب سيبويه وإعراب القرآن للنحاس واللسان . وساره يريد « سائره » نخفف بحذف الهمزة، ومثله هار وأصله هائر، وشاك وأصله شائك . وفى الأصـول : « شاده » بالشين المعجمة والدال وهو تصحيف . وبهذا يعلم أن تفسير المؤلف وقع لكلمة مصحفة .

والآى (جمع آية) وهى علامات الدبار . والرواكد : الأثافى . والهباء هنـا : الغبار . وأراد بالمشـجج وتدا من أوتاد الخباء، وتشجيجه ضرب رأسه ليثبت . وسواء قذاله : وسطه . ويروى سواد قذاله ، وسواد كل شىء شخصه . وأراد بالقذال أعلاه . وهو أيضا جماع مؤخر الرأس من الانسان . والمعزاء : أرض صلبة ذات حصى . (راجع شرح الشواهد للشنتمرى) .

ولأن هـذا يوم عيـد لا يتكرر في العام فَسُنّ التكبير في الخروج اليـه كالأضحى . وروى الدّارقطني عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كانوا في التكبير في الفطر أشدّ منهم في الأضحى . وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان يكبر يوم الفطر من حين يخرج من بيته حتى يأتى المصلى . وروى عن ابن عمر أنه كان اذا غدا يوم الأضحى و يوم الفطر يجهر بالتكبير حتى يأتى المصلى ثم يكبر حتى يأتى الإمام . وأكثر أهل العلم على التكبير في عيد الفطر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم فيما ذكر ابن المنذر قال : وحكى ذلك الأوزاعى عن الناس . وكان الشافعي يقول : اذا رؤى هلال شـوّال أحببت أن يكبر النـاس جماعة وفرادى ولا يزالون يكبرون و يظهرون التكبير حتى يغدوا الى المصـلى وحتى يخرج الإمام الى الصلاة، وكذلك أحب ليلة الأضحى لمن لم يحج . وسـيأتى حكم صلاة العيدين والتكبير فيهما في «سبح اسم ربك الأعلى» و «الكوثر» إن شاء الله تعالى .

الموفيـــة عشرين ــ ولفظ التكبير عند مالك و جماعة من العلماء : الله أكبر الله أكبر الله أكبر ثلاثا ؛ وروى عن جابر بن عبـد الله . ومن العلماء من يكبر ويهلل ويسبح أثنـاء التكبير . ومنهم من يقول : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا . وكان ابن المبارك يقول اذا خرج من يوم الفطر : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد الله أكبر على ما هدانا . قال ابن المنذر : وكان مالك لا يَحُدّ فيه حدّا . وقال أحمـد : هو واسـع . قال ابن العربي : واختار علماؤنا التكبير المطلق ، وهو ظاهر القرآن وإليـه أميـــل .

الحادية والعشرون ــ قوله تعـالى : ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ قيل : لمـا ضل فيه النصارى من تبـديل صيامهم . وقيـل : بدلا عما كانت الجاهليـة تفعله من التفاخر بالآباء والتظاهر بالأحساب وتعديد المناقب . وقيل : لتعظموه على ما أرشدكم اليه من الشرائع ، فهو عام . وتقدّم معنى « ولعلكم تشكرون » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ الآية فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾ المعنى واذا سألوك عن المعبـود فاخبرهم أنه قريب يثيب على الطاعة ويجيب الداعى ، و يعلم ما يفعله العبد من صوم وصلاة وغير ذلك . واختلف فى سبب نزولهـا ؛ فقال مقاتل : إن عمر رضى الله عنه واقع امرأته بعد ما صـلى العشاء فندم على ذلك و بكى ، وجاء الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبره بذلك ورجع مغتما ؛ وكان ذلك قبل نزول الرخصة فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ . وقيـل : لمـا وجب عليهم فى الابتداء ترك الأكل بعـد النوم فأكل بعضهم ثم ندم ؛ فنزلت هـذه الآية فى قبول التوبة ونسخ ذلك الحكم على ما يأتى بيانه . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : قالت اليهود كيف يسمع ربنـا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا و بين السماء خمسمائة عام وغلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية . وقال الحسن : سببها أن قوما قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت . وقال عطاء وقتادة : لمـا نزلت : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال قوم : فى أى ساعة ندعوه؟ فنزلت .

الثـانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ أى بالاجابة . وقيل : بالعلم . وقيل : قريب من أوليائى بالافضال والانعام .

الثـالثـــة — قوله تعالى : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ أى أقبل عبادة من عبدنى ؛ فالدعاء بمعنى العبادة ، والإجابة بمعنى القبول . دليله ما رواه أبو داود عن النعمان بن بشير عن النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم قال : "الدعاء هو العبادة قال ربكم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" فسمى الدعاء عبادة ؛ ومنـه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أى دعائى . فأمر بالدعاء وحض عليه وسماه عبادة ، ووعد بأن يستجيب لهم . روى ليث عن شَهْر بن حَوْشَب عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : "أُعطيتْ أمتى ثلاثاً لم تُعطَ إلا الأنبياء كان الله اذا بعث نبيّاً قال ادعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة ادعونى أستجب لكم وكان الله اذا بعث النبيّ قال له ما جعل عليك فى الدِّين من حرج وقال لهذه الأمة وما جعل عليكم فى الدِّين من حرج وكان الله اذا بعث النبيّ جعله شهيدا

على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس" . وكان خالد الرَّبعي يقول : عجبت لهذه الأمة في «ادعوني أستجب لكم» أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاجابة وليس بينهما شرط . قال له قائل : مثل ماذا ؟ قال قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فها هنا شرط ، وقوله : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ فليس ها هنا شرط العمل . ومثل قوله : ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فها هنا شرط . وقوله : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ليس فيه شرط . وكانت الأمم تفزع الى أنبيائها في حوائجهم حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك .

فان قيل : فما للداعي قد يدعو فلا يجاب؟ فالجواب أن قوله الحق في الآيتين «أجيب» «استجب» لايقتضي الاستجابة مطلقا لكل داع على التفصيل، ولا بكل مطلوب على التفصيل فقد قال ربنا تبارك وتعالى في آية أخرى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وكل مُصرٍّ على كبيرة عالما بها أو جاهلا فهو معتدٍ، وقد أخبر أنه لا يحب المعتدين فكيف يستجيب له وأنواع الاعتداء كثيرة . ويأتي بيانها هنا وفي « الأعراف » إن شاء الله تعالى . وقال بعض العلماء : أجيب ان شئت كما قال : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ فيكون هذا من باب المطلق والمقيد . وقد دعا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ثلاث فأعطى اثنتين ومنع واحدة على ما يأتي بيانه في «الأنعام» إن شاء الله تعالى . وقيل : إنما مقصود هذا الإخبار تعريف جميع المؤمنين أن هذا وصف ربهم سبحانه أنه يجيب دعاء الداعين في الجملة، وأنه قريب من العبد يسمع دعاءه ويعلم اضطراره فيجيبه بما شاء وكيف شاء ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ الآية . وقد يجيب السيد عبده والوالد ولده ثم لايعطيه سؤله ؛ فالإجابة كانت حاصلة لا محالة عند وجود الدعوة؛ لأن أجيب واستجيب خبر لا ينسخ فيصير المخبر كذابا . يدل على هذا التأويل ماروى ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من فتح له في الدعاء فتحت له أبواب الإجابة" . وأوحى الله تعالى الى داود : أن قل للظلمة من عبادي لا يدعوني فاني أوجبت على نفسي أن أجيب من دعاني واني اذا أجبت الظلمة لعنتهم . وقال قوم : إن الله يجيب كل الدعاء، فاما أن يظهر الاجابة في الدنيا، وإما أن يكفر عنه ،

وإما أن يدخرله فى الآخرة ، لمـا رواه أبو سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلىّ الله عليـه وسلم: "مامن مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرله وإما أن يكفّ عنه من السوء بمثلها" . قالوا : إذن نكثر ؟ قال : "الله أكثر" . خرّجه أبو عمر بن عبد البر، وصححه أبو محمد عبد الحق . وهو فى الموطأ منقطع السند . قال أبو عمر : وهذا الحديث يخرج فى التفسير المسند لقول الله تعالى ﴿ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فهذا كله من الإجابة . وقال ابن عباس : كل عبد دعا أستجيب له ، فإن كان الذى يدعو به رزقا له فى الدنيا أعطيه ، وإن لم يكن رزقا له فى الدنيا ذُخِرله .

قلت : وحديث أبى سـعيد الخدرى وإن كان إذنا بالإجابة فى إحدى ثلاث فقد دلّك على صحة ما تقـدم من اجتناب الاعتداء المـانع من الإجابة حيث قال فيه : " مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم" وزاد مسلم "مالم يستعجل" رواه عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " لايزال يُستجاب للعبـد ما لم يدع بإثم أو قطيعـة رحم مالم يستعجل " قيـل : يا رسـول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : " يقول قد دَعوتُ وقد دعوت فلم أَرَ يَستجيب لى فيَستحسِرُ[(1)] عند ذلك ويَدعُ الدعاء" . وروى البخارى ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "يستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل يقول دعوت فلم يستجب لى". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : يحتمل قوله " يستجاب لأحدكم " الإخبار عن [وجوب][(2)] وقوع الإجابة ، والإخبار عن جواز وقوعها ؛ فإذا كان بمعنى الإخبار عن الوجوب والوقوع فإن الإجابة تكون بمعنى الثلاثة الأشياء المتقدمة ، فإذا قال : دعوت فلم يستجب لى . بطل وقوع أحد هـذه الثلاثة الأشـياء وعَرِىَ الدعاء من جميعها . وان كان بمعنى جواز الإجابة فإن الإجابة حينئذ تكون بفعل مادعابه خاصة ، ويمنع من ذلك قول الداعى : قد دعوت فلم يستجب لى ؛ لأن ذلك من باب القنوط وضعف اليقين والسخط .

(١) يستحسر ، أى ينقطع عن الدعاء ويملّه .

(٢) زيادة عن الموطأ يقتضيها السياق .

قلت : ويمنع من إجابة الدعاء أيضا أكل الحرام وما كان فى معناه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "الرجل يطيل السفر أشعثَ أغبرَ يمدّ يديه إلى السماء ياربِّ ياربِّ ومَطعمُه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك" . وهذا استفهام على جهة الاستبعاد على قبول دعاء من هذه صفته ؛ فإن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط فى الداعى وفى الدعاء وفى الشيء المدعو به ؛ فمن شرط الداعى أن يكون عالما بأن لا قادر على حاجته إلا الله وأن الوسائط فى قبضته ومسخرة بتسخيره ، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب ، فإن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ ، وأن يكون مجتنبا لأكل الحرام وألا يَمَلّ من الدعاء . ومن شرط المدعو به أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعا ، كما قال : "مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم" . فيدخل فى الإثم كل مايأثم به من الذنوب ، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرى : شروط الدعاء سبعة : أوّلها التضرع والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال . وقال ابن عطاء : إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا ؛ فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار فى السماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه أنجح . فأركانه حضور القلب والرأفة والاستكانة والخشوع ، وأجنحته الصدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسبابه الصلاة على محمد صلّى الله عليه وسلّم . وقيل : شرائطه أربع — أوّلها حفظ القلب عند الوحدة ، وحفظ اللسان مع الخلق ، وحفظ العين عن النظر إلى مالا يحل ، وحفظ البطن من الحرام . وقد قيل : إن من شرط الدعاء أن يكون سليما من اللحن ، كما أنشد بعضهم :

ينادى ربه باللحن ليث * كذاك إذا دعاه لايجيب

وقيل لإبراهيم بن أدهم : مابالنا ندعوا فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نِعَمَ الله فلم تؤدّوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم واشتغلتم

بعيوب الناس . قال علىّ رضى الله عنه لنَوْف البِكَالِىّ : يانوف، إن الله أوحى إلى داود أن مُرْ بنى إسرائيل ألّا يدخلوا بيتا من بيوتى إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأيد نقية، فإنى لا أستجيب لأحد منهم، ولا لأحد من خلق له عنده مظلمة . يانوف، لاتكونن شاعرا ولا عَرِيفا ولا شرطيا ولا جابيا ولا عشارا (١)، فإن داود قام فى ساعة من الليل فقال: إنها ساعة لايدعو عبــد الا استجيب له فيها، إلا أن يكون عَرِيفا أو شرطيا أو جابيا أو عشــارا، أو صاحب عَرْطَبة —وهى الطنبور، أو صاحب كُوبة — وهى الطبل . قال علماؤنا : ولا يقل الداعى : اللهم أعطنى إن شئت، اللهم اغفرلى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت؛ بل يعرى سؤاله ودعاءه عن لفظ المشيئة، ويسأل سؤال من يعلم أنه لايفعل إلا أن يشاء . وأيضا فإن فى قوله : « إن شئت » نوع من الاستغناء عن مغفرته وعطائه ورحمتــه؛ كقول القائل : إن شئت أن تعطينى كذا فافعل . لا يستعمل هــذا إلا مع الغنىّ عنه ، وأما المضطر اليه فإنه يعزم فى مسألته ويسأل ســؤال فقير مضطر إلى ماسأله . وروى الأئمة واللفظ للبخارىّ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دعى أحدكم فلْيَعْزِم المسألة يقولنّ اللّهمّ إن شئت فأعطنى فإنه لا مُستكرِه له " . وفى الموطأ " اللهم اغفرلى إن شــئت، اللهم ارحمنى إن شئت" . قال علماؤنا : قوله "فليعزم المسئلة" دليل على أنه ينبغى للؤمن أن يجتهد فى الدعاء ويكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريما . قال سفيان ابن عيينة : لا يمنعنّ أحدا من الدعاء مايعلمه من نفســه فإن الله قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس ، قال : رب فأنظــرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك كالسَّحَر ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وما بين الظهر والعصر فى يوم الأربعاء، وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرض،وعند نزول المطر والصّف فى سبيل الله . كل هــذا جاءت به الآثار، ويأتى بيانها فى مواضعها . وروى

(١) العريف الذى يلى أمور طائفة من النـاس ويتعرف أمورهم و يبلغها للامير . والشرطى (كتركى وكجهنى) : هم أعوان الحاكم . والعشار : من يتولى أخذ أعشار الاموال .

شَهْر بن حَوْشَب أن أم الدّرداء قالت له : ياشهر، ألا تجد القشعريرة؟ قلت : نعم . قالت : فادع الله فإن الدعاء مستجاب عند ذلك . وقال جابر بن عبد الله : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفتح ثلاثا يوم الإثنين و يوم الثلاثاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرفت السرور فى وجهه . قال جابر : ما نزل بى أمر مهمّ غليظ إلا توخّيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى ﴾ قال أبو رجاء الخراسانى : فليـدعوا لى . وقال ابن عطية : المعنى فليطلبوا ان أجيبهم . وهذا هو باب « استفعل » اى طلب الشيء إلا ماشــذ مثل : استغنى الله . وقال مجاهد وغيره : المعنى فليجيبوا إلىّ فيما دعوتهم اليه من الإيمان أى الطاعة والعمل . و يقال : أجاب واستجاب بمعنًى؛ ومنه قول الشاعر :

* فلم يستجبه عند ذاك مجيبُ *

أى لم يجبه . والسين زائدة واللام لام الأمر . وكذا « وليؤمنوا » وجَزَمت لام الأمر لأنهـا تجعل الفعل مستقبلا لاغير، فأشبهت إن التى للشرط . وقيل : لأنها لاتقع إلا على الفعل . والرشاد خلاف الغىّ . وقد رَشَد يرشُد رُشْدا، ورَشِد (بالكسر) يرشَد رَشَدًا لغة فيه . وأرشده الله . والمَراشِد : مقاصد الطرق . والطريق الأَرْشَد : نحو الأقصد . وتقول : هو لِرِشْدَةٍ، خلاف قولك : لِزِنْية . وأم راشــد : كنية للفأرة . وبنو رَشْدان : بطن من العرب ؛ عن الجوهرى . وقال الهروى : الرُّشد والرَّشَــد والرَّشَاد : الهدى والاستقامة؛ ومنه قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ فيه ست وثلاثون مســـئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ ﴾ الآية . لفظ « أحل » يقتضى أنه كان محرما قبل ذلك ثم نسخ . روى أبو داود عن آبن أبى ليــلى قال وحدثنا أصحابنا قال : وكان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح ، قال : فجاء عمر فأراد امرأته فقالت : إنى

قد نمت . فظن أنها تعتلّ فأتاها . فجاء رجل من الأنصار فأراد طعاما فقالوا : حتى نسخن لك شيئا فنام ؛ فلما أصبحوا نزلت عليه هذه الآية ، وفيهـا ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ . وروى البخاريّ عن البراء قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليــه وسلم إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى ، و إن قيس ابن صِرْمة الأنصارى كان صائما – وفى رواية : كان يعمل فى النخيل بالنهار وكان صائما – فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك . وكان يومه يعمل ، فغلبتــه عيناه فجاءته امرأته فلمــا رأته قالت : خيبــة لك ! فلما انتصف النهار غشى عليه ؛ فذكر ذلك للنبيّ صــلى الله عليــه وسلم ، فنزلت هذه الآية ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَـائِكُمْ ﴾ ففرحوا فرحا شديدا ، فنزلت : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ وفى البخارى أيضا عن البراء قال : لمـا نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ . يقال . خان واختان بمعنى من الخيانة ، أى تخونون أنفسكم بالمباشرة فى ليالى الصوم . ومن عصى الله فقد خان نفسه إذ جلب اليها العقاب . وقال القتبى : أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شئ فلا يؤدى الأمانة فيه . وذكر الطبرى «أن عمر رضى الله تعالى عنه رجع من عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقد سَمَر عنده ليلة فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت له : قد نمت ؛ فقال لها : ما نمت ، فوقع بها . وصنع كعب بن مالك مثله ؛ فغدا عمر على النبيّ صلى الله عليه وســلم فقال : أعتذر إلى الله و إليك ؛ فإن نفسى زيّنت لى فواقعت أهلى ، فهل تجد لى من رخصة ؟ فقال لى : "لم تكن حقيقا بذلك يا عمر" فلما بلغ بيته أرسل اليه فأنبأه بعذره فى آية من القرآن . وذكره النحاس ومكىّ وأن عمر نام ثم وقع بامرأته ، وأنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فنزلت : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ الآية .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ﴾ ليلة نصب على الظرف، وهى اسم جنس فلذلك أفردت . والرفث : كناية عن الجماع لأن الله عزّ وجلّ كريم يَكْنِي ، قاله ابن عباس والسدى . وقال الزجاج : الرفث : كلمة جامعة لكل مايريد الرجل من امرأته؛ وقاله الأزهرى أيضا . وقال ابن عرفة : الرفث هاهنا الجماع . والرفث : التصريح بذكر الجماع والإعراب به . قال الشاعر :

وَيُرَيْنَ من أُنْس الحديث زوانيا * وبهنّ عن رَفث الرجال نِفارُ

وقيل : الرفث أصله قول الفحش؛ يقال : رفث وأرفث إذا تكلم بالقبيح؛ ومنه قول الشاعر :

ورُبّ أسرابِ حَجيجٍ كُظَّمِ * عن اللغا ورَفَثِ التَّكلُّمِ

وتعـدى الرفث بإلى فى قوله تعالى جدّه : ﴿ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ . وأنت لا تقول : رفثت إلى النسـاء، ولكن جىء به محمولا على الإفضاء الذى يراد به الملابسة فى مثل قوله : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ ومن هذا المعنى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ كما تقدم . وقوله : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا ﴾ أى يوقد، لأنك تقول : أحميت الحديدة فى النار ، وسيأتى . ومنه قوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ حمل على معنى ينحرفون عن أمره أو يروغون عن أمره ؛ لأنك تقول : خالفت زيدا . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ حمل على رَءُوف فى نحو « بالمؤمنين رءوف رحيم » ألا ترى أنك تقول : رؤفت به ولا تقول رحمت به ؛ ولكن لما وافقه فى المعنى نزل منزلته فى التعدية . ومن هذا الضرب قول أبى كثير الهذلى :

حملت به فى ليلة مزءودة * كرها وعقد نطاقها لم يُحلل

عدّى حملت بالباء، وحقـه أن يصل إلى المفعول بنفسه ؛ كما جاء فى التنزيل : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ ولكنه قال : حملت به؛ لأنه فى معنى حبلت به .

الثالثـــة ـ قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر، وشـدّدت النون من هن لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر . ﴿ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ أصل اللباس فى الثياب ، ثم سمى

امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباسا ؛ لانضمام الجسد إلى الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيها بالثوب . وقال النابغة الجعدى :

إذا ما الضَّجيعُ ثنَى جِيدَها * تَداعتْ فكانت عليه لِباسَا

وقال أيضا :

لَبِستُ أناسًا فأفنيتُهمْ * وأفنيتُ بعد أُناسٍ أناسَا

وقال بعضهم : يقال لما ستر الشئ وداراه : لباس . فجائز أن يكون كل واحد منهما سترا لصاحبه عما لا يحل، كما ورد فى الخبر . وقيل : لأن كل واحد منهما ستر لصاحبه فيما يكون بينهما من الجماع من أبصار الناس . وقال أبو عبيد وغيره : يقال للمرأة : هى لباسك وفراشك وإزارك . قال رجل لعمر بن الخطاب .

ألَا أبلغ أبا حفص رسولا * فدًى لك من أخى ثِقَةٍ إزارى

قال أبو عبيد : أى نسائى . وقيل : نفسى . وقال الربيع : هن فراش لكم ، وأنتم لحاف لهن . مجاهد : أى سكن لكم . أى يسكن بعضكم إلى بعض .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى يستأمر بعضكم بعضا فى مواقعة المحظور من الجماع والأكل بعد النوم فى ليالى الصوم؛ كقوله تعالى : ﴿ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ يعنى يقتل بعضكم بعضا . ويحتمل أن يريد به كل واحد منهم فى نفسه بأنه يخونها، وسماه خائنا لنفسه من حيث كان ضرره عائدا عليه كما تقدم . وقوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما — قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم . والآخر — التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة؛ كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى خفف عنكم . وقوله عقيب القتل الخطأ : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ﴾يعنى تخفيفا، لأن القاتل خطأ لم يفعل شيئا تلزمه التوبة منه . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ وإن لم يكن من النبىّ ما يوجب التوبة منه . وقوله : ﴿ فَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ يحتمل العفو من الذنب، ويحتمل التوسعة والتسهيل ، كقول

النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "أوّل الوقت رضوان الله وآخره عفو الله". يعنى تسهيله وتوسعته . فمعنى « علم الله » أى علم وقوع هــذا منكم مشاهدة « فتاب عليكم » بعد ما وقع أى خفف عنكم « وعفا » أى سهل . وتختانون : من الخيــانة ، كما تقدّم . قال ابن العربى : « وقال علماء الزهد وكذا فلتكن العناية وشرف المنزلة ، خان نفسه عمر رضى الله عنــه فجعلها الله تعالى شريعة وخفّف من أجله عن الأمة فرضى الله عنه وأرضاه » .

قوله تعالى : ﴿ فَٱلْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ كناية عن الجماع ، أى قد أحل لكم ماحرم عليكم . وسمى الوقاع مباشرة لتلاصق البشرتين فيه . قال ابن العربى : «وهذا يدل على أن سبب الآية جماع عمر رضى الله عنه لاجوع قيس ؛ لأنه لو كان السبب جوع قيس لقال: فالآن كلوا ، ابتدأ به لأنه المهم الذى نزلت الآية لأجله » .

الخامســة — قوله تعــالى : ﴿ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهــد والحكم بن عتيبة وعكرمة والحسن والسدى والربيع والضحاك : معناه وابتغوا الولد ؛ يدل عليه أنه عقيب قوله : ﴿ فَٱلْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ . وقال ابن عباس : ما كتب الله لنا هو القرآن . الزجاج : أى ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه وأمرتم به . وروى عن ابن عباس ومعاذ بن جبل أن المعنى وابتغوا ليلة القدر . وقيل : المعنى اطلبوا الرخصة والتوسعة ؛ قاله قتادة . قال ابن عطية : وهو قول حسن . قيل : ابتغوا ما كتب الله لكم من الإماء والزوجات . وقرأ الحسن البصرى والحسن بن قرة « واتبعوا » من الاتباع ، وجوزها ابن عبــاس ، ورجح « ابتغوا » من الابتغاء .

السادســة — قوله تعــالى : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ هــذا جواب نازلة قيس ، والأول جواب عمر ، وقد ابتدأ بنازلة عمر لأنه المهم فهو المقدّم .

السابعــة — قوله تعــالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ حتى ، غاية للتبيين ، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قــدر . واختلف فى الحد الذى بتبيّنه يجب الإمســاك ؛ فقال الجمهور :

ذلك الفجر المعترض فى الأفق يَمْنة ويَسْرة . وبهذا جاءت الأخبار ومضت عليه الأمصار . روى مسلم عن سَمُرة بن جُندب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "لا يغرّنّكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفُق المستطيل هكذا حتى يستطير[1] هكذا" . وحكاه حَمّادٌ[2] بيديه قال : يعني معترضا . وفى حديث ابن مسعود : "إن الفجر ليس الذى يقول[3] هكذا — وجمع أصابعه ثم نَكَسها إلى الأرض — ولكن الذى يقول هكذا — ووضع المُسَبِّحة على المسبّحة ومدّ يديه" . وروى الدّارقطنيّ عن عبد الرحمن بن عباس أنه بلغه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "هما فجران فأما الذى كأنه ذَنَب السِّرْحان[4] فإنه لا يُحل شيئا ولا يحرمه وأما المستطيل الذى عارض الأفق ففيه تحل الصلاة ويحرم الطعام" هذا مرسل . وقالت طائفة : ذلك بعد طلوع الفجر وتبيّنه فى الطرق والبيوت ؛ روى ذلك عن عمر وحذيفة وابن عباس وطَلْق بن علىّ وعطاء بن أبى رباح والأعمش سليمان وغيرهم أن الإمساك يجب بتبيين الفجر فى الطرق وعلى رءوس الجبال . وقال مسروق : لم يكن يعدّون الفجر فجركم إنما كانوا يعدّون الفجر الذى يملأ البيوت . وروى النسائى عن عاصم عن زِرٍّ قال قلنا لحذيفة : أىّ ساعة تسحّرت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ قال : هو النهار إلا أنّ الشمس لم تطلع . وروى الدّارقطنيّ عن طَلْق بن علىّ أن نبىّ الله قال : "كلوا واشربوا ولا يغرّنكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعرض لكم الأحمر" . قال الدّارقطنيّ : [قيس ابن طلق[5]] ليس بالقوى . وقال أبو داود : هذا مما تفرّد به أهل اليمامة . قال الطبرى : والذى قادهم الى هذا أن الصوم إنما هو فى النهار، والنهار عندهم من طلوع الشمس وآخره غروبها؛ وقد مضى الخلاف فى هذا بين اللغويين . وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : "إنما هو سواد الليل وبياض النهار" الفيصل فى ذلك . وقوله « أياما معدودات » . وروى

---

(١) حتى يستطير، أى ينتشر ضوءه ويعترض فى الافق بخلاف المستطيل، والاستطارة هذه تكون بعد غيبوبة ذلك المستطيل . (٢) حماد هذا، هو حماد بن زيد أحد رجال سند هذا الحديث . (٣) يقول : يظهر . (٤) السرحان : الذئب، وقيل : الأسد . (٥) التكملة عن سنن الدارقطنى . وقيس بن طلق هذا هو أحد رجال سند هذا الحديث فى الدارقطنى . فراجعه .

الدّارقطنيّ عن عائشة رضي الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يبيت الصيام قبل طلوع الفجر فلا صيام له " . تفرّد به عبد الله بن عباد عن المفضل بن فضالة بهذا الإسناد ، وكلهم ثقات . وروى عن حفصة أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : " من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له " . رفعه عبد الله بن أبي بكر وهو من الثقات الرُّفعاء . وروى عن حفصة مرفوعا من قولها . ففي هذين الحديثين دليل على ما قاله الجمهور في الفجر ويمنع الصيام دون نية قبل الفجر خلافا لقول أبي حنيفة . وهي :

الثامنــة ــ وذلك أن الصيام من جملة العبادات فلا يصح إلا بنية ، وقد وقّتها الشارع قبل الفجر ؛ فكيف يقال : إن الأكل والشرب بعد الفجر جائز . وروى البخاريّ ومسلم عن سهل بن سعد قال : أنزلت «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» ولم ينزل « من الفجر » وكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما ؛ فأنزل الله بعد «من الفجر» فعلموا أنه إنمـا يعني بذلك بياض النهار . وعن عديّ بن حاتم قال قلت : يا رسـول الله ، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟ قال : " إنك لعريض القفا(١) إن أبصرت الخيطين ــ ثم قال ــ لا بل هو سواد الليل وبياض النهار" . أخرجه البخاريّ . وسمّي الفجر خيطا لأن ما يبدو من البياض يرى ممتدا كالخيط . قال الشاعر :

الخيطُ الأبيضُ ضوء الصّبح مُنفَلِقٌ * والخيطُ الأسودُ جنحُ الليل مكتومُ

والخيط في كلامهم عبارة عن اللون . والفجر مصدر فجرت الماء أفجره فجرا اذا جرى وانبعث ، وأصلـه الشق ؛ فلذلك قيل للطالع من تباشير ضياء الشمس من مطلعها : فجرا لانبعاث ضوءه ، وهو أول بياض النهار الظاهر المستطير في الأفق المنتشر، تسميه العرب الخيط الأبيض كما بيناه . قال أبو دواد الايادىّ :

فلمـا أضاءتْ لنـا سُـدْفةٌ(٢) * ولاحَ من الصّبحِ خَيطٌ أنارا

---

(١) القفا العريض ، يستدل به على قلة فطنة الرجل . (٢) السدفة (بضم السين وفتحها) : ظلمة الليل .

وقال آخر :

قد كاد يبدو و بدت تباشره * وسَــدَف الليل البهيم ساتره

وقد تسـميه أيضا الصَّديع ؛ ومنـه قولهم : انصدع الفجر . قال بشر بن أبى خازم أو عمرو ابن معديكرب :

ترى السِّرحانَ مفترشًا يديه * كأنَّ بياضَ لَبَّتِه صديعُ

وشبهه الشّماخ بمفرق الرأس فقال :

إذا ما الليل كان الصبح فيه * أشقّ كمفرق الرأس الدّهين

و يقولون فى الأمر الواضح : هــذا كفلق الصــبح ، وكانبلاج الفجر ، وتباشير الصــبح . قال الشاعر :

فوَرَدتْ قبل انْبلاج الفَجْرِ * وابنُ ذُكاءَ كامِنٌ فى كَفْــرِ (1)

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ جعل الله جلّ ذكره الليل ظرفا للأكل والشرب والجماع ، والنهار ظرفا للصيام ؛ فبيّن أحكام الزمانين وغاير بينهما فلا يجــوز فى اليوم شىء ممــا أباحه بالليل الا لمسافر أو مريض، كما تقــدّم بيانه . فمن أفطر فى رمضان من غير مَنْ ذُكر فلا يخلو إما أن يكون عامدا أو ناسـيا ؛ فان كان الأول فقال مالك : من أفطر فى رمضان عامدا بأكل أو شرب أو جماع فعليه القضاء والكفارة؛ لما رواه فى موطاه، ومسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رجلا أفطر فى رمضان وأمره رســول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا، الحديث . وبهذا قال الشعبيّ . وقال الشافعى وغيره : إن هذه الكفارة إنما تختص بمن أفطر بالجماع ؛ لحديث أبى هريرة أيضا قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ يا رسول الله، قال : " وما أهلكك " قال : وقعت على امرأتى فى رمضان ، الحــديث ، وفيه ذكر الكفارة على الترتيب . أخرجه مسلم . وحملوا هــذه القضية على القضية الأولى فقالوا : هى

(1) ذكاء (بالضم) : اسم الشمس ، و يقال للصبح : ابن ذكاء لأنه من ضوئها . الكفر : ظلمة الليل وسواده .

واحدة؛ وهذا غير مسلّم به بل هما قضيتان مختلفتان لأن مساقهما مختلف، وقد علق الكفارة على من أفطر مجردا عن القيود فلزم مطلقا؛ وبهذا قال مالك وأصحابه والأوزاعيّ وإسحاق وأبو ثور والطبرى وابن المنذر. وروى ذلك عن عطاء فى رواية، وعن الحسن والزهرىّ، ويلزم الشافعى القول به فإنه يقول: ترك الاستفصال مع تعارض الأحوال يدل على عموم الحكم. وأوجب الشافعيّ عليه مع القضاء العقوبةَ لانتهاك حرمة الشهر.

العاشرة — واختلفوا أيضا فيما يجب على المرأة يطؤها زوجها فى رمضان؛ فقال مالك وأبو يوسف وأصحاب الرأى: عليها مثل ما على الزوج. وقال الشافعى: ليس عليها إلا كفارة واحدة، وسواء طاوعته أو أكرهها؛ لأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أجاب السائل بكفارة واحدة ولم يفصّل. وروى عن أبى حنيفة: إن طاوعته فعلى كل واحد منهما كفارة، وإن أكرهها فعليه كفارة واحدة لا غير. وهو قول سحنون بن سعيد المالكى. وقال مالك: عليه كفارتان. وهو تحصيل مذهبه عند جماعة أصحابه.

الحادية عشرة — واختلفوا أيضا فيمن جامع ناسيا لصومه أو أكل؛ فقال الشافعى وأبو حنيفة وأصحابه وإسحاق: ليس عليه فى الوجهين شئ لا قضاء ولا كفارة. وقال مالك والليث والأوزاعيّ: عليه القضاء ولا كفارة. وروى مثل ذلك عن عطاء. وقد روى عن عطاء أن عليه الكفارة إن جامع، وقال: مثل هذا لا ينسى. وقال قوم من أهل الظاهر: سواء وطئ ناسيا أو عامدا فعليه القضاء والكفارة؛ وهو قول ابن الماجشون عبد الملك، وإليه ذهب أحمد بن حنبل؛ لأن الحديث الموجب للكفارة لم يفرق فيه بين الناسى والعامد. قال ابن المنذر: لا شئ عليه.

الثانية عشرة — قال مالك والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى: إذا أكل ناسيا فظن أن ذلك قد فطّره فجامع عامدا أن عليه القضاء ولا كفارة عليه. قال ابن المنذر: وبه نقول. وقيل فى المذهب: عليه القضاء والكفارة إن كان قاصدا لهتك حرمة صومه جرأة وتهاونا. قال أبو عمر: وقد كان يجب على أصل مالك أن لا يكفّر، لأن من أكل

ناسيا فهو عنــده مفطر يقضى يومه ذلك ، فأى حرمة هتك وهو مفطر . وعند غير مالك : ليس بمفطر كل من أكل ناسيا لصومه .

قلت : وهو الصحيح، وبه قال الجمهور : إن كل من أكل أو شرب ناسيا فلا قضــاء عليه وإن صومه تام، لحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أكل الصائم ناسيا أو شرب ناسيا فإنما هو رزق ساقه الله تعالى [إليه] ولا قضاء عليه — فى رواية — وليتم صومه فإن الله أطعمه وسقاه". أخرجه الدار قطنىّ . وقال: إسناد صحيح وكلهم ثقات. قال أبو بكر الأثرم : سمعت أبا عبد الله يُسئل عمن أكل ناسيا فى رمضان قال : ليس عليه شئ لحــديث أبى هريرة . ثم قال أبو عبد الله مالك : وزعموا أن مالكا يقول : عليــه القضاء ، وضحك . قال ابن المنذر : لا شئ عليه ؛ لقول النبىّ صلّى الله عليه وســلّم لمن أكل أو شرب ناسيا : " يتم صومه " . فأتمه فهو صوم تام كامل .

قلت : وإذا كان من أفطر ناسيا لاقضاء عليــه وصومه صوم تام فعليه إذا جامع عامدا القضاء والكفارة — والله أعلم — كمن لم يفطر ناسيا . وقد احتج علماؤنا على إيجاب القضــاء بأن قالوا : المطلوب منه صيام يوم تام لا يقع به خرم لقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ وهذا لم يأت به على التمام فهو باق عليــه ؛ ولعل الحديث فى صوم التطوع لخفته . وقد جاء فى صحيحى البخارىّ ومسلم : " من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه " . فلم يذكر قضاء ولا تعرّض له ، بل الذى تعرّض له سقوط المؤاخذة والأمر بمضيه على صومه وإتمامه ، هذا إن كان واجبا فدلّ على ماذكرناه من القضاء . فأما صوم التّطوع فلا قضاء فيه لمن أكل ناسيا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "لاقضاء عليه" .

قلت : هذا ما احتج به علماؤنا وهو صحيح ، لولا ما صح عن الشــارع ماذكرناه وقد جاء بالنص الصريح وهو ما رواه أبو هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "من أفطر فى شهر رمضان ناسيا فلا قضاء عليه ولا كفارة". أخرجه الدارقطنى وقال : تفرّد به ابن مرزوق وهو ثقة عن الأنصارى ، فزال الاحتمال وارتفع الإشكال ، والحمد لله ذى الجلال والكمال .

الثـالثة عشرة — لمـا بيّن سبحانه محظورات الصيام وهى الأكل والشرب والجماع ولم يذكر المباشرة التى هى اتصال البشرة بالبشرة كالقُبلة والجسّة وغيرها، دلّ ذلك على صحة صوم من قبّل وباشر؛ لأن فحوى الكلام إنما يدل على تحريم ماأباحه الليل وهو الأشـياء الثلاثة، ولا دلالة فيه على غيرها بل هو موقوف على الدليل؛ ولذلك شاع الاختلاف فيه، واختلف علماء السلف فيه، فمن ذلك المباشرة. قال علماؤنا : يكره لمن لا يأمن على نفســه ولا يملكها لئلا يكون سببا إلى ما يفسد الصوم. روى مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان ينهى عن القبلة والمباشرة للصائم، وهذا —والله أعلم— خوف مايحدث عنهما، فإن قبّل وسَلِم فلا جناح عليــه، وكذلك إن باشر. وروى البخارىّ عن عائشة قالت : كان النبىّ صـلى الله عليه وسلم يقبّل ويباشر وهو صائم. وممن كره القبلة للصائم عبد الله بن مسعود وعروة ابن الزبير. وقد روى عن ابن مسعود أنه يقضى يوما مكانه، والحـديث حجة عليهــم. قال أبو عمر : ولا أعلم أحدا رخّص فيها لمن يعلم أنه يتولّد عليه منها مايفســد صومه؛ فإن قبّل فأمْنَى عليه القضاء ولا كفارة؛ قاله أبو حنيفة وأصحابه والثورىّ والحسن والشافعىّ، واختاره ابن المنذر وقال : لا ؛ ليس لمن أوجب عليه الكفارة حجة. قال أبو عمر : ولو قبّل فأمذى لم يكن عليــه شئ عندهم. وقال أحمد : من قبّل فأمذى أو أمْنَى فعليه القضــاء ولا كفارة عليه إلا على من جامع فأولج عامدا أو ناسيا. وروى ابن القاسم عن مالك فيمن قبّل أو باشر فانعظ ولم يخرج منه ماء جملة عليه القضاء. وروى ابن وهب عنه لاقضاء عليه حتى يمذى. قال القاضى أبومحمد : واتفق أصحابنا على ألّا كفارة عليــه. وإن كان مَنِيًّا فهل تلزمه الكفارة مع القضاء؛ فلا يخلو أن يكون قبّل قبلة واحدة فأنزل، أو قبّل فالتذّ فعاود فأنزل. فان كان قبّل قبلة واحدة أو باشر أو لمس مرة، فقال أشهب وسحنون : لا كفارة عليه حتى يكرر. وقال ابن القاسم : يكفّر فى ذلك كله إلا فى النظر فلا كفارة عليــه حتى يكرر. وممن قال بوجوب الكفارة عليه إذا قبّل أو باشر أو لاعب امرأته أوجامع دون الفرج فأمْنَى : الحسن البصرى وعطاء وابن المبـارك وأبو ثور وإسحاق، وهو قول مالك فى المدونة. وحجة قول أشهب أن

اللمس والقبلة والمباشرة ليست تفطر فى نفسها ، و إنما يبقى أن تؤول الى الأمر الذى يقع به الفطر ، فاذا فعل مرّة واحدة لم يقصد الإنزال و إفساد الصوم فلا كفارة عليه كالنظر اليها ، و إذا كرر ذلك فقد قصد إفساد صومه فعليـه الكفارة كما لو تكرر النظر . قال اللخمىّ : واتفق جميعهم فى الإنزال عن النظر ألا كفارة عليه إلا أن يتابع . والأصل أنه لا تجب الكفارة إلا على من قصد الفطر وانتهاك حرمة الصوم ، فاذا كان ذلك وجب أن ينظر الى عادة من نزل به ذلك ، فان كان ذلك شأنه أن ينزل عن قُبْـلة أو مباشرة مرة ، أو كانت عادته مختلفـة مرة ينزل ، ومرة لا ينزل رأيت عليه الكفارة ، لأن فاعل ذلك قاصـد لانتهاك صومه أو متعرض له . و إن كانت عادته السلامة فقدّر أن يكون منه خلاف العادة لم يكن عليه كفارة ، وقد يحتمل قول مالك فى وجوب الكفارة لأن ذلك لا يجرى إلا ممن يكون ذلك طبعه وا كتفى بما ظهر منه . وحمل أشهب الأمر على الغالب من الناس أنهم يسلمون من ذلك ، وقولهم فى النظر دليل على ذلك .

قلت : ما حكاه من الاتفاق فى النظر وجعله أصلا ليس كذلك ، فقد حكى البـاجى فى المنتقى فإن نظر نظرة واحدة يقصد بها اللذة فقـد قال الشيخ أبو الحسن : عليـه القضاء والكفارة . قال البـاجى : وهو الصحيح عنـدى ، لأنه اذا قصـد به الاستمتاع كان كالقبلة وغير ذلك من أنواع الاستمتاع ؛ والله أعلم . وقال جابر بن زيد والثورىّ والشافعىّ وأبو ثور وأصحاب الرأى فيمن ردّد النظر الى المرأة حتى أمْنَى : فلا قضاء عليـه ولا كفارة . قاله ابن المنذر . قال البـاجى : وروى فى المدونة ابن نافع عن مالك أنه إن نظر الى امرأته متجرّدة فالتذّ فأنزل ، عليه القضاء دون الكفارة .

الرابعة عشرة — والجمهور على صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جُنُب . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : «وذلك جائز إجماعا ، وقد كان وقع فيه بين الصحابة كلام ثم استقر الأمر على أن من أصبح جنبا فان صومه صحيح» .

قلت : أما ما ذكر من وقوع الكلام فصحيح مشهور ، وذلك قـول أبى هريرة : من أصبح جُنُبًا فلا صوم له . أخرجه الموطأ وغيره . وفى كتاب النسائى أنه قال لمـا روجع : والله

ما أنا قلته، محمد صلّى الله عليه وسلّم والله قاله . وقد اختلف فى رجوعه عنها؛ وأشهر قوليه عند أهل العلم أنه لا صوم له ، حكاه ابن المنذر. وروى عن الحسن بن صالح وعن أبى هريرة أيضا قول ثالث قال : إذا علم بجنابته ثم نام حتى يصبح فهو مفطر ، وإن لم يعلم حتى أصبح فهو صائم . روى ذلك عن عطاء وطاوس وعروة بن الزبير . وروى عن الحسن والنخعى أن ذلك يجزى فى التطوّع ويقضى فى الفرض .

قلت : فهذه أربعة أقوال للعلماء فيمن أصبح جُنُبا ، والصحيح منها مذهب الجمهور لحديث عائشة رضى الله عنها وأم سَلَمة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يصبح جُنُبا من جماع غير احتلام ثم يصوم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدركه الفجر فى رمضان وهو جنب من غير حلم فيغتسل ويصوم . أخرجهما البخارى ومسلم؛ وهو الذى يفهم من ضرورة قوله تعالى : ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ الآية؛ فإنه لما مدّ إباحة الجماع إلى طلوع الفجر فبالضرورة يعلم أن الفجر يطلع عليه وهو جنب ، وإنما يتأتى الغسل بعد الفجر . وقد قال الشافعى : ولو كان الذكر داخل المرأة فنزعه مع طلوع الفجر أنه لا قضاء عليه . وقال المزنى : عليه القضاء لأنه من تمام الجماع . والأوّل أصح لما ذكرنا وهو قول علمائنا .

الخامسة عشرة — واختلفوا فى الحائض تطهر قبل الفجر وتترك التطهّر حتى تصبح ؛ فجمهورهم على وجوب الصوم عليها وإجزائه سواء تركته عمدا أو سهوا كالجنب ، وهو قول مالك وابن القاسم . وقال عبد الملك : إذا طهرت الحائض قبل الفجر فأخرت غسلها حتى طلع الفجر فيومها يوم فطر؛ لأنها فى بعضه غير طاهرة وليست كالجُنُب لأن الاحتلام لا ينقض الصوم والحيضة تنقضه . هكذا ذكره أبو الفرج فى كتابه عن عبد الملك . وقال الأوزاعى : تقضى لأنها فرّطت فى الاغتسال . وذكر ابن الجلاب عن عبد الملك أنها إن طهرت قبل الفجر فى وقت يمكنها فيه الغسل ففرّطت ولم تغتسل حتى أصبحت لم يضرها كالجنب ، وإن كان الوقت ضيّقا لا تدرك فيه الغسل لم يجز صومها ويومها يوم فطر . وقاله مالك . وهى كمن طلع عليها الفجر وهى حائض . وقال محمد بن مسلمة فى هذه : تصوم وتقضى ، مثل قول

الأوزاعى . وروى عنه أنه شذ فأوجب على من طهرت قبل الفجر ففرطت وتوانت وتأخرت حتى تصبح الكفارة مع القضاء .

السادسة عشرة — وإذا طهرت المرأة ليلا فى رمضان فلم تدر أكان ذلك قبل الفجر أو بعده، صامت وقضت ذلك اليوم احتياطا ولا كفارة عليها .

السابعة عشرة — روى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "أفطر الحاجم والمحجوم". من حديث ثوبان وحديث شداد بن أوس وحديث رافع بن خَدِيج، وبه قال أحمد وإسحاق، وصحح أحمد حديث شداد بن أوس، وصحح على بن المدينى حديث رافع بن خديج. وقال مالك والشافعى والثورى : لا قضاء عليه إلا أنه يكره له ذلك من أجل التغرير. وفى صحيح مسلم من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تكرهون الحجامة للصائم؟ قال : لا، إلا من أجل الضعف. وقال أبو عمر : حديث شداد ورافع وثوبان عندنا منسوخ بحديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم صائما محرما؛ لأن فى حديث شداد بن أوس وغيره أنه صلى الله عليه وسلم مرّ عام الفتح على رجل يحتجم لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان فقال : " أفطر الحاجم والمحجوم". واحتجم هو صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع وهو محرم صائم؛ فإذا كانت حجته صلّى الله عليه وسلّم عام حجة الوداع فهى ناسخة لا محالة، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدركه بعد ذلك رمضان؛ لأنه توفّى فى ربيع الأول .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أمر يقتضى الوجوب من غير خلاف . و «الى» غاية، فاذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها فهو داخل فى حكمه؛ كقوله : اشتريت الفدان إلى حاشيته، أو اشتريت منك من هذه الشجرة إلى هذه الشجرة والمبيع شجر، فان الشجرة داخلة فى المبيع؛ بخلاف قولك : اشتريت الفدان الى الدار، فان الدار لا تدخل فى المحدود إذ ليس من جنسه . فشرط تعالى تمام الصوم حتى يتبينّ الليل، كما جوّز الأكل حتى يتبين النهار .

التاسعة عشرة — من تمام الصوم استصحاب النية دون رفعها، فإن رفعها فى بعض النهار ونوى الفطر إلا أنه لم يأكل ولم يشرب فجعله فى المدونة مفطرا وعليه القضاء . وفى كتاب ابن حبيب أنه على صومه، قال : ولا يخرجه من الصوم إلا الإفطار بالفعل وليس بالنية . وقيل : عليه القضاء والكفارة . وقال سحنون : إنما يكفر من بيّت الفطر، فأما من نواه فى نهاره فلا يضره وإنما يقضى استحسانا . قلت : هذا حسن .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّيْلِ ﴾ إذا تبيّن الليل سنّ الفطر شرعا أكل أو لم يأكل . قال ابن العربى : وقد سئل الإمام أبو إسحاق الشيرازى عن رجل حلف بالطلاق ثلاثا أنه لا يفطر على حار ولا بارد؛ فأجاب أنه بغروب الشمس مفطر لا شيء عليه . واحتج بقوله صلّى الله عليه وسلّم : "إذا جاء الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا فقد أفطر الصائم" . وسئل عنها الإمام أبو نصر بن الصباغ صاحب الشامل فقال : لابد أن يفطر على حار أو بارد . وما أجاب به الإمام أبو إسحاق أولى لأنه مقتضى الكتاب والسنة .

الحادية والعشرون — فإن ظن أن الشمس قد غربت لغيم أو غيره ثم طلعت الشمس فعليه القضاء فى قول أكثر العلماء . وفى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : أفطرنا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم يوم غيم ثم طلعت الشمس، قيل لهشام [1] : فأُمِروا بالقضاء . قال : فلا بدّ من قضاء؟ . قال عمر فى الموطأ فى هذا : الخطب يسير وقد اجتهدنا [فى الوقت] [2] يريد القضاء . وروى عن عمر أنه قال : لا قضاء عليه؛ وبه قال الحسن البصرى : لا قضاء عليه كالناسى؛ وهو قول إسحاق وأهل الظاهر . وقول الله تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّيْلِ ﴾ ردّ هذا القول . والله أعلم .

الثانية والعشرون — فإذا أفطر وهو شاك فى غروبها كفّر مع القضاء؛ قاله مالك، إلا أن يكون الأغلب عليه غروبها . ومن شك عنده فى طلوع الفجر لزمه الكفّ عن الأكل؛ فإن أكل مع شكّه فعليه القضاء كالناسى، لم يختلف فى ذلك قوله . ومن أهل العلم بالمدينة

(١) هو ابن عروة، أحد رجال سند هذا الحديث . (٢) زيادة عن الموطأ .

وغيرها من لا يرى عليــه شيئا حتى يتبين له طلوع الفجر ، وبه قال ابن المنذر . وقال الكيا الطبرى : « وقد ظن قوم أنه إذا أبيح له الفطر الى أول الفجر فاذا أكل على ظن أن الفجر لم يطلع فقــد أكل باذن الشرع فى وقت جواز الأكل فلا قضاء عليه . كذلك قال مجاهد وجابر بن زيد . ولا خلاف فى وجوب القضاء إذا غم عليــه الهلال فى أوّل ليلة من رمضان اذا أكل ثم بَانَ أنه من رمضان، والذى نحن فيــه مثله ، وكذلك الأســير فى دار الحرب إذا أكل ظنا أنه من شعبان ثم بَانَ خلافه » .

الثالثة والعشرون ــ قوله تعــالى : ﴿ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ فيه ما يقتضى النهى عن الوصال إذ الليل غاية الصيام . وقالته عائشة . وهذا موضع اختلف فيه ؛ فمن واصل عبد الله بن الزبير وإبراهيم التيمى وأبو الجوزاء وأبو الحسن الدينورى وغيرهم . كان ابن الزبير يواصل سبعا ، فإذا أفطر شرب السمن والصبر حتى يفتق أمعاءه ، قال : وكانت تيبس أمعاؤه . وكان أبو الجوزاء يواصل سبعة أيام وســبع ليال ولو قبض على ذراع الرجل الشديد لحطمها . وظاهر القرآن والســنة يقتضى المنع ، قال صلّى الله عليــه وسلّم : "إذا غابت الشمس من هاهنا وجاء الليل من ها هنا فقد أفطر الصائم". خرّجه مسلم من حديث عبد الله بن أبى أوفى . ونهى عن الوصال ، فلمــا أَبَوْا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهــم يوما ثم يوما ثم رأوا الهلال فقــال : "لو تأخر الهلال لزدتكم" كالمُنَكِّل لهم حين أبوا أن ينتهوا . أخرجه مسلم عن أبى هريرة . وفى حديث أنس "لو مدّ لنا الشهر لواصلنا وصالًا يَدعُ المتعمِّقون تعمُّقهم". خرّجه مسلم أيضا ، وقال صلّى الله عليه وسلّم : "إياكم والوصال إياكم والوصال" . تأكيدا فى المنع لهم منه ، أخرجه البخارى . وعلى كراهية الوصال ــ لمــا ذكرنا ولمــا فيه من ضعف القوى وانهاك الأبدان ــ جمهور العلماء . وقد حرّمه بعضهم لما فيه من مخالفة الظاهر والتشبيه بأهل الكتاب ، قال صلّى الله عليه وسلّم : "إن فصل[1] ما بين صيامنا وصــيام أهل الكتاب أَكْلةُ السَّحَر" . خرّجه مسلم وأبو داود . وفى البخارى عن أبى سعيد الخدرىّ أنه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "لاتواصلوا

(١) كذا فى صحيح مسلم بالصاد المهملة بمعنى الفاصل . وفى سنن أبى داود بالضاد المعجمة .

فأيّكم أراد أن يواصل فليواصـل حتى السَّحَر" قالوا : فإنك تواصل يارسـول الله؛ قال : " لست كهيئتكم إنى أبيتُ لى مُطْعِمٌ يُطعمنى وساقٍ يَسقين " . قالوا : وهـذا إباحة لتأخير الفطر إلى السحر، وهو غاية فى الوصال لمن أراده، ومنعٌ من اتصال يوم بيوم؛ و به قال أحمد وإسحاق وابن وهب صاحب مالك . واحتج من أجاز الوصال بأن قال : إنما كان النهى عن الوصال لأنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام، فخشى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يتكلّفوا الوصال وأعلى المقامات فيفتروا أو يضعفوا عما كان أنفع منه من الجهاد والقوة على العدو، ومع حاجتهم فى ذلك الوقت وكان هو يلتزم فى خاصة نفسه الوصال وأعلى مقامات الطاعات، فلما سألوه عن وصالهم أبدى لهم فارقا بينه و بينهم، وأعلمهم أن حالته فى ذلك غير حالاتهم فقال : "لست مثلكم إنى أبيت يُطعمنى ربى و يسقينى" . فلما كمل الإيمـان فى قلوبهم واسـتحكم فى صدورهم ورسخ ، وكثر المسلمون وظهروا على عدوّهم واصل أولياء الله وألزموا أنفسهم أعلى المقامات . والله أعلم .

قلت : ترك الوصـال مع ظهور الاسـلام وقهر الأعداء أولى، وذلك أرفع الدرجات وأعلى المنازل والمقامات . والدليل على ذلك ماذكرناه ، وأن الليل ليس بزمان صوم شرعى ، حتى لو شرع إنسان فيه الصوم بنيّةٍ ما أثيب عليه، والنبيّ صلى الله عليه وسلم ما أخبر عن نفسه أنه واصل ، وإنما الصحابة ظنـوا ذلك فقالوا : إنك تواصـل، فأخبر أنه يُطعَم و يُسـقَى . وظاهر هذا الحقيقة، وأنه صلّى الله عليـه وسلّم يؤتى بطعام الجنة وشرابها . وقيل : إن ذلك محمول على مايرد على قلبـه من المعانى واللطائف، وإذا احتمل اللفظ الحقيقة والمجاز فالأصل الحقيقة حتى يرد دليل يزيلها . ثم لمـا أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم وهو على عادته كما أخبر عن نفســه، وهم على عادتهم حتى يضعفوا و يقلّ صـبرهم فلا يواصلوا؛ وهـذه حقيقة التنـكيل حتى يدعوا تعمّقهم وما أرادوه من التشديد على أنفسهم . وأيضا لو تنزّلنا على أن المراد بقوله : "أطعم وأسقى"المعنى لكان مفطرا حكما؛ كما أن من اغتاب فى صومه أو شهد بزور مفطر حكما، ولا فرق بينهما؛ قال صلّى الله عليه وسلّم : "من لم يَدَعْ قولَ الزّور والعملَ به فليس

لله حاجةٌ فى أنْ يدعَ طعـامَه وشرابَه" . وعلى هذا الحدّ ما واصل النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم ولا أمر به، فكان تركه أولى . وبالله التوفيق .

الرابعة والعشرون — ويستحب للصائم إذا أفطر أن يفطر على رطبات أو تمرات أو حسوات من المـاء، لمـا رواه أبو داود عن أنس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات ،فان لم تكن تمرات، حسا حسوات من ماء . أخرجه الدّارقطنيّ وقال فيه : اسناد صحيح . وروى الدارقطنى عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليـه وسلّم إذا أفطر قال : "لك صمنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبل منا إنك أنت السميع العليم". وعن ابن عمر قال كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول إذا أفطر: "ذهب الظمأ وابتلت العـروق وثبت الأجر إن شاء الله" . خرّجه أبو داود أيضـا . وقال الدارقطنى : تفرّد به الحسين بن واقد إسناده حسن . وروى ابن ماجه عن عبد الله بن الزبير قال : أفطر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند سعد بن معاذ فقال : " أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة" . وروى أيضا عن زيد بن خالد الجهنى قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "من فطّر صائمـا كان له مثل أجرهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئا". وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "إن للصائم عنـد فطره لدعوة ما تردّ" . قال ابن أبى مليكة : سمعت عبد الله ابن عمرو يقول إذا أفطر : اللهم إنى أسئلك برحمتك التى وسعت كل شيء أن تغفرلى . وفى صحيح مسـلم عن النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم : "للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فَرِح بفطره و إذا لقِيَ ربّه فرِح بصومه" .

الخامسة والعشرون — ويستحب له أن يصوم من شوال ستة أيام، لمـا رواه مسلم والترمذيّ وأبو داود والنسائيّ وابن ماجه عن أبى أيوب الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال كان له كصيام الدهر" . هذا حديث حسن صحيح من حديث سعد بن سعيد الأنصارى المدنى، وهو ممن لم يخرج له البخارى شيئا .

وقد جاء بإسناد جيد مفسرا من حديث أبي أسماء الرَّحَبي عن ثَوْبان مولى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "جعل الله الحسنة بعشر أمثالها فشهر رمضان بعشرة أشهر وستة أيام بعد الفطر تمام السنة" . رواه النسائي . واختلف في صيام هذه الأيام فكرهها مالك في موطاه خوفا أن يُلحق أهل الجهالة برمضان ما ليس منه ؛ وقد وقع ما خافه حتى أنه كان في بعض بلاد خراسان يقومون لسحورها على عادتهم في رمضان . وروى مُطَرِّف عن نافع أنه كان يصومها في خاصة نفسه ، واستحب صيامها الشافعي ، وكرهه أبو يوسف .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ بيّن جلّ وتعالى أن الجماع يفسد الاعتكاف ، وأجمع أهل العلم على أن من جامع امرأته وهو معتكف عامدا لذلك في فرجها أنه مفسد لاعتكافه ؛ واختلفوا فيما عليه إذا فعل ذلك ، فقال الحسن البصريّ والزهريّ : عليه ما على المواقع أهله في رمضان . فأما المباشرة من غير جماع فإن قصد بها التلذذ فهي مكروهة ، وإن لم يقصد لم يكره ، لأن عائشة كانت ترجل رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو معتكف ، وكانت لا محالة تمسّ بدن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها ، فدل بذلك على أن المباشرة بغير شهوة غير محظورة ؛ هذا قول عطاء والشافعي وابن المنذر. قال أبو عمر : وأجمعوا على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبّل . واختلفوا فيما عليه إن فعل ؛ فقال مالك والشافعي : إن فعل شيئا من ذلك فسد اعتكافه ؛ قاله المزني . وقال في موضع آخر من مسائل الاعتكاف : لا يفسد الاعتكاف من الوطء إلا ما يوجب الحدّ ، واختاره المزني قياسا على أصله في الحج والصوم .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ ﴾ جملة في موضع الحال . والاعتكاف في اللغة الملازمة ؛ يقال : عكف على الشيء إذا لازمه مقبلا عليه . قال الراجز :

* عَكْفَ النَّبِيطِ يلعبون الفَنْزَجا (١) *

(١) تقدّم صدر هذا البيت ومعناه في هامش ص ١٠٤ من هذا الجزء .

وقال الشاعر :

وظلّ بنات الليـل حولى عكّفا * عكوف البواكى بينهن صريع

ولمـا كان المعتكف ملازما للعمل بطاعة الله مدّة اعتكافه لزمه هذا الاسم ، وهو فى عرف الشرع ملازمة طاعة مخصوصة فى وقت مخصوص على شرط مخصوص فى موضع مخصوص . وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب ، وهو قربة من القرب ونافلة من النوافل عمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأزواجه ، ويلزمه إن ألزمه نفسه ، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه .

الثامنة والعشرون — أجمع العلمـاء على أن الاعتكاف لا يكون إلا فى المسجد لقول الله تعالى : ﴿ فِى الْمَسَاجِدِ ﴾ واختلفوا فى المراد بالمساجد ؛ فذهب قوم الى أن الآية خرجت على نوع من المساجد ، وهو ما بناه نبيّ كالمسجد الحرام ومسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم ومسجد ايليـاء ، روى هذا عن حذيفة بن اليمـان وسعيد بن المسيب ، فلا يجـوز الاعتكاف عندهم فى غيرها . وقال آخرون : لا اعتكاف إلا فى مسجد تجمع فيه الجماعة ، لأن الاشارة فى الآية عندهم الى ذلك الجنس من المساجد ؛ روى هذا عن علىّ بن أبى طالب وابن مسعود ، وهو قول عروة والحكم وحماد والزهرى وأبى جعفر محمـد بن علىّ ، وهو أحد قولى مالك . وقال آخرون : الاعتكاف فى كل مسجد جائز ؛ يروى هـذا القول عن سعيد بن جبير وأبى قِلَابة وغيرهم ، وهو قول الشافعى وأبى حنيفة وأصحابهما . وحجتهم حمـل الآية على عمومها فى كل مسجد ، وهو أحد قولى مالك ، وبه يقول ابن عُلَيَّة وداود بن علىّ والطبرى وابن المنذر . وروى الدّارقطنىّ عن الضحاك عن حذيفة قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " كل مسجد له مؤذن وإمام فالاعتكاف فيـه يصلح " . قال الدار قطنى : والضحاك لم يسمع من حذيفة .

التاسعة والعشرون — وأقل الاعتكاف عند مالك وأبى حنيفـة يوم وليلة ، فان قال : لله علىّ اعتكاف ليلة ، لزمه ليلة ويوم . وكذلك إن نذر اعتكاف يوم ، لزمه يوم وليلة . وقال

سحنون : من نذر اعتكاف ليلة فلا شيء عليه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن نذر يوما، فعليه يوم بغير ليلة ، وان نذر ليلة ، فلا شيء عليه ، كما قال سحنون . قال الشافعي : عليه مانذر، إن نذر ليلة فليلة ، وان نذر يوما فيوما . قال الشافعي : أقله لحظة ولا حد لأكثره . وقال بعض أصحاب أبي حنيفة : يصح الاعتكاف ساعة . وعلى هذا القول فليس من شرطه صوم، وروى عن أحمد بن حنبل فى أحد قوليه ، وهو قول داود بن علي وابن عُليّة ، واختاره بن المنذر وابن العربي . واحتجوا بأن اعتكاف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان فى رمضان ، ومحال أن يكون صوم رمضان لرمضان ولغيره . ولو نوى المعتكف فى رمضان بصومه التطوع والفرض بطل صومه عند مالك وأصحابه ، ومعلوم أن ليل المعتكف يلزمه فيه من اجتناب مباشرة النساء ما يلزمه فى نهاره ، وأن ليله داخل فى اعتكافه ، وأن الليل ليس بموضع صوم، فكذلك نهاره ليس بمفتقر إلى الصوم و إن صام فحسن . وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى القول الآخر : لا يصح إلا بصوم . وروى عن ابن عمر وابن عباس وعائشة رضى الله عنهم . وفى الموطأ عن القاسم بن محمد ونافع مولى عبد الله بن عمر : لا اعتكاف الا بصيام، بقول الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ . وقال : فإنما ذكر الله الاعتكاف مع الصيام . قال يحيى[1] قال مالك : وعلى ذلك الأمر عندنا . واحتجوا بما رواه عبد الله بن بُدَيْل عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن عمر جعل عليه [أن يعتكف] فى الجاهلية ليلة أو يوما [عند الكعبة][2] فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلّم فقال : "اعتكف وصم" . أخرجه أبو داود . وقال الدّارقطنيّ : تفرّد به ابن بُدَيْل عن عمرو وهو ضعيف . وعن عائشة أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "لا اعتكاف الا بصيام" . قال الدارقطني : تفرّدبه سويد بن عبد العزيز عن سفيان بن حسين عن الزهري عن عروة عن عائشة . وقالوا : ليس من شرط الصوم عندنا أن يكون للاعتكاف ، بل يصح أن يكون الصوم له ولرمضان

---

(١) يحيى هذا ، هو ابن الامام مالك رضى الله عنه . ويروى عن أبيه نسخة من الموطأ . (٢) الزيادة عن سنن أبي داود .

ولنذر ولغيره، فاذا نذره الناذر فانما ينصرف نذره إلى مقتضاه فى أصل الشرع، وهذا كمن نذر صلاة فإنها تلزمه ولم يكن عليه أن يتطهر لها خاصة بل يجزئه أن يؤديها بطهارة لغيرها .

الموفية ثلاثين — وليس للمعتكف أن يخرج من معتكفه إلا لمـا لا بدّ له منه، لمـا روى الأئمـة عن عائشة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم إذا اعتكف يدنى الىّ رأسه فأرجّله، وكان لا يدخل البيت الا لحاجة الانسان، تريد الغائط والبول . ولا خلاف فى هذا بين الأمة ولا بين الأئمة، فاذا خرج المعتكف لضرورة وما لابدّ له منه ورجع فى فوره بعد زوال الضرورة بنى على ما مضى من اعتكافه ولا شىء عليه . ومن الضرورة المرض البيّن والحيض. واختلفـوا فى خروجه لمـا سوى ذلك، فمذهب مالك ما ذكرنا ، وكذلك مذهب الشـافعى وأبى حنيفـة . وقال سـعيد بن جبير والحسن والنخعىّ : يعـود المريض و يشهد الجنائز . وروى عن علىّ وليس بثابت عنه . وفرّق إسحاق بين الاعتكاف الواجب والتطوع، فقال فى الاعتكاف الواجب : لا يعود المريض ولا يشهد الجنائز، وقال فى التطوع : يشترط حين يبتدئ حضـور الجنائز وعيادة المرضى والجمعة . وقال الشافعى : يصح اشـتراط الخروج من معتكفه لعيادة مريض وشهود الجنائز وغير ذلك من حوائجه . واختلف فيه عن أحمد، فمنع منه مرّة، وقال مرّة : ارجو ألا يكون به بأس . وقال الأوزاعى كما قال مالك : لا يكون فى الاعتكاف شرط . قال ابن المنذر : ولا يخرج المعتكف من اعتكافه إلا لمـا لا بدّ له منه، وهو الذى كان النبىّ صلّى الله عليه وسلم يخرج له .

الحادية والثلاثون — واختلفوا فى خروجه للجمعة، فقالت طائفة : يخرج للجمعة و يرجع إذا سلّم، لأنه خرج إلى فرض ولا ينتقض اعتكافه . و رواه ابن الجهم عن مالك، و به قال أبو حنيفة، واختاره ابن العربى وابن المنذر . ومشهور مذهب مالك ان من أراد أن يعتكف عشرة أيام أو نذر ذلك لم يعتكف إلا فى المسجد الجـامع ، و إذا اعتـكف فى غيره لزمه الخروج إلى الجمعـة و بطل اعتكافه . وقال عبـد الملك : يخرج إلى الجمعة فيشهدها و يرجع مكانه و يصح اعتكافه .

قلت : وهو صحيح لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ فعم . وأجمع العلماء على أن الاعتكاف ليس بواجب وأنه سنة، وأجمع الجمهور من الأئمة على أن الجمعة فرض على الأعيان ، ومتى اجتمع واجبان أحدهما آكد من الآخر قدم الآكد ؛ فكيف إذا اجتمع مندوب وواجب ، ولم يقل أحد بترك الخروج إليها ، فكان الخروج اليها في معنى حاجة الإنسان .

الثانية والثلاثون — المعتكف إذ آتى كبيرة فسد اعتكافه ، لأن الكبيرة ضد العبادة ؛ كما أن الحدث ضد الطهارة والصلاة ، وترك ما حرم الله عليه أعلى منازل الاعتكاف في العبادة . قاله ابن خويزمنداد عن مالك .

الثالثة والثلاثون — روى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا أراد أن يعتكف صلّى الفجر ثم دخل مُعْتَكَفه ، الحديث . واختلف العلماء في وقت دخول المعتكف في اعتكافه ، فقال الأوزاعي بظاهر هذا الحديث ، وروى عن الثوري والليث ابن سعد في أحد قوليه ، وبه قال ابن المنذر وطائفة من التابعين . وقال أبو ثور : انما يفعل هذا من نذر عشرة أيام ، فإن زاد عليها فقبل غروب الشمس . وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم : إذا أوجب على نفسه اعتكاف شهر ، دخل المسجد قبل غروب الشمس من ليلة ذلك اليوم . قال مالك : وكذلك كل من أراد أن يعتكف يوما أو أكثر ، وبه قال أبو حنيفة وابن الماجشون ، لأن أول ليلة أيام الاعتكاف داخلة فيها وأنه زمن للاعتكاف فلم يتبعّض كاليوم . وقال الشافعي : إذ قال : لله عليّ يوم ، دخل قبل طلوع الفجر وخرج بعد غروب الشمس ، خلاف قوله في الشهر . وقال الليث في أحد قوليه وزفر: يدخل قبل طلوع الفجر ، والشهر واليوم عندهم سواء . وروى مثل ذلك عن أبي يوسف ، وبه قال القاضي عبد الوهاب وأن الليلة انما تدخل في الاعتكاف على سبيل التبع ، بدليل أن الاعتكاف لا يكون إلا بصوم وليس الليل بزمن للصوم ، فثبت أن المقصود بالاعتكاف هو النهار دون الليل .

قلت : وحديث عائشة يردّ هذا القول وهو الحجة عند التنازع ؛ وهو حديث ثابت لاخلاف في صحتــــه .

الرابعة والثلاثون — استحب مالك لمن اعتكف العشر الأواخر أن يبيت ليــلة الفطر في المسجد حتى يغدو منه إلى المصلّى ؛ وبه قال أحمد . وقال الشافعي والأوزاعي : يخرج إذا غابت الشمس ، ورواه سحنون عن ابن القاسم ، لأن العشر يزول بزوال الشهر والشهر ينقضي بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . وقال سحنون : إن ذلك على الوجوب ، فإن خرج ليــلة الفطر بطل اعتكافه . وقال ابن المــاجشون : وهذا يرده ماذكرنا من انقضــاء الشهر ، ولو كان المقام ليــلة الفطر من شرط صحة الاعتكاف لمــا صح اعتكاف لايتّصل بليلة الفطر ، وفي الإجماع على جواز ذلك دليل على أن مقام ليلة الفطر للمعتكف ليس شرطا في صحة الاعتكاف . فهذه جمل كافية من أحكام الصيام والاعتكاف اللائقة بالايات ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفق للهداية .

الخامسة والثلاثون — قوله تعــالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي هذه الأحكام حدود الله فلا تخالفوها ؛ فتلك إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي . والحدود : الحواجز . والحد : المنع ؛ ومنه سمّي الحديد حديدا ، لأنه يمنع من وصول السلاح إلى البدن . وسمّي البواب والسجان حدادا ، لأنه يمنع من في الدار من الخروج منها ، ويمنع الخارج من الدخول فيهــا . وسمّيت حدود الله ، لأنها تمنع أن يدخل فيهــا ماليس منها ، وأن يخرج منها ما هو منها ؛ ومنها سميت الحدود في المعاصي ، لأنها تمنع أصحابها من العود إلى أمثالها ؛ ومنه سميت الحادّ في العدة ، لأنها تمتنع من الزينة .

السادسة والثلاثون — قوله تعــالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أي كما بين هذه الحدود يبيّن جميع الأحكام ليتقوا مجاوزتها . والآيات : العــلامات الهادية إلى الحق . و « لعلهم » ترجٍّ في حقهم ، فظاهر ذلك عموم ومعنــاه خصــوص فيمن يسره الله للهدى بدلالة الآيات التي تتضمن أن الله يضل من يشاء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ ﴾ قيل : إنه نزل فى عبدان بن أشوع الحضرمى ، ادعى مالا على امرئ القيس الكندى واختصما إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأنكر امرؤ القيس وأراد أن يحلف فنزلت هذه الآية ، فكفّ عن اليمين وحكّم عبد الله فى أرضه ولم يخاصمه .

الثانية — الخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أمة محمد صلّى الله عليه وسلم ، والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق ، فيدخل فى هذا : القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق ، ومالا تطيب به نفس مالكه ، أو حرّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه ، كمهر البغى وحُلْوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك . ولا يدخل فيه الغبن فى البيع مع معرفة البائع بحقيقة ما باع لأن الغبن كأنه هبة ، على ما يأتى بيانه فى سورة « النساء » . وأضيفت الأموال إلى ضمير المنهى لما كان كل واحد منهما منهيا ومنهيا عنه ، كما قال : ﴿ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ . وقال قوم : المراد بالآية « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » أى فى الملاهى والقيان والشرب والبطالة ، فيجئ على هذا إضافة المال إلى ضمير المالكين .

الثالثة — من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل ، ومن الأكل بالباطل أن يقضى القاضى لك وأنت تعلم أنك مبطل ، فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضى لأنه إنما يقضى بالظاهر . وهذا إجماع فى الأموال ، وإن كان عند أبى حنيفة قضاؤه ينفذ فى الفروج باطنا ، وإذا كان قضاء القاضى لا يغيّر حكم الباطن فى الأموال فهو فى الفروج أولى . وروى الأئمة عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إلىّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار " فى رواية "فليحْملها أو يَذَرْها" . وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء ، وهو نصّ فى أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغيّر

حكم الباطن، وسواء كان ذلك فى الأموال والدماء والفروج؛ إلا ما حكى عن أبى حنيفة فى الفروج، وزعم انه لو شهد شاهدا زور على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما لعدالتهما عنده فان فرجها يحل لمتزوجها — ممن يعلم أن القضية باطل — بعد العدّة . وكذلك لو تزوّجها أحد الشاهدين جاز عنده، لأنه لما حلّت للأزواج فى الظاهر كان الشاهد وغيره سواء؛ لأن قضاء القاضى قطع عصمتها، وأحدث فى ذلك التحليل والتحريم فى الظاهر والباطن جميعا ولولا ذلك ماحلّت للأزواج . واحتج بحكم اللّعان وقال : معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها باللّعان الكاذب، الذى لو علم الحاكم كذبها فيه لحدّها وما فرّق بينهما؛ فلم يدخل هذا فى عموم قوله عليه السلام : "فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه" الحديث .

الرابعة — وهذه الآية متمسك كل مؤالف ومخالف فى كل حكم يدعونه لأنفسهم بأنه لا يجوز، فيستدل عليه بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ . فجوابه أن يقال له : لا نسلم أنه باطل حتى تبيّنه بالدليل، وحينئذ يدخل فى هذا العموم، فهى دليل على أن الباطل فى المعاملات لايجوز وليس فيها تعيين الباطل .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ الباطل فى اللغة : الذاهب الزائل؛ يقال : بَطَل يَبْطُل بطولا وبطلانا . وجمع الباطل بواطل . والأباطيل جمع البطولة، وتَبَطَّل أى اتبع اللهو . وأبطل فلان إذا جاء بالباطل . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ ﴾ قال قتادة : هو ابليس، لا يزيد فى القرآن ولا ينقص . وقوله : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ﴾ يعنى الشرك . والبطلة : السحرة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ الآية . قيل : يعنى الوديعة ومالا تقوم فيه بيّنة . عن ابن عباس والحسن . وقيل : هو مال اليتيم الذى هو فى أيدى الأوصياء، يرفعه إلى الحكام إذا طولب به ليقتطع بعضه وتقوم له فى الظاهر حجّة . وقال الزجاج : تعملون ما يوجبه ظاهر الأحكام وتتركون ماعلمتم أنه الحق . يقال : أدلى الرجل بحجته أو بالأمر

الذى يرجو النجاح به؛ تشبيها بالذى يرسل الدَّلو فى البئر. يقال: أدلى دلوه: أرسلها، ودَلّاها: أخرجها. وجمع الدَّلو والدِّلاء: أَدْلٍ ودِلَاءٌ ودُلِيٌّ. والمعنى فى الآية: لا تجمعوا بين أكل المال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة. وهو كقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾. وهو من قبيل قولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقيل: المعنى لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها. فالباء إلزاق مجرّد. قال ابن عطية: وهذا القول يترجح لأن الحكام مظنة الرّشا إلا من عصم وهو الأقل؛ وأيضا فإن اللفظين متناسبان: تدلوا من إرسال الدلو، والرشوة من الرشاء، كأنه يمد بها ليقضي الحاجة.

قلت: ويقوّى هذا قوله: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا﴾. تدلوا، فى موضع جزم عطفا على تأكلوا كما ذكرنا. وفى مصحف أُبيّ «ولا تدلوا» بتكرار حرف النهى، وهذه القراءة تؤيد جزم تدلوا فى قراءة الجماعة. وقيل: تدلوا فى موضع نصب على الظرف، والذى ينصب فى مثل هذا عند سيبويه أن مضمرة. والهاء فى قوله «بها» ترجع إلى الأموال، وعلى القول الأوّل إلى الحجة ولم يجر لها ذكر؛ فقوى القول الثانى لذكر الأموال. والله أعلم. فى الصحاح «والرِّشوة معروفة، والرُّشوة بالضم مثله، والجمع رُشًى ورِشًى، وقد رشاه يرشوه. وارتشى: أخذ الرشوة. واسترشى فى حكمه: طلب الرشوة عليه».

قلت — فالحكام اليوم عين الرُّشا لا مظنته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السابعــة — قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ نصب بلام كى. «فريقا» أى قطعة وجزءا، فعبّر عن الفريق بالقطعة والبعض. والفريق: القطعة من الغنم تشِذّ عن معظمها. وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير، التقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس. «بالإثم» معناه بالظلم والتعدّى. وسمى ذلك إثما لما كان الإثم يتعلق بفاعله. «وأنتم تعلمون» أى بطلان ذلك وإثمه، وهذه مبالغة فى الجرأة والمعصية.

الثامنــة — اتفق أهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مال قلّ أو كثر أنه يُفَسَّق بذلك، وأنه محرّم عليه أخذه. خلافا لبشر بن المعتمر ومن تابعه من المعتزلة حيث قالوا:

إن المكلف لايُفَسَّق إلا بأخذ مائتى درهم ولا يفسّق بدون ذلك. وخلافا لابن الجُبّائى حيث قال : إنه يفسق بأخذ عشرة دراهم ولا يفسق بدونها . وخلافا لابن الهذيل حيث قال : يفسق بأخذ خمسة دراهم . وخلافا لبعض قدريّة البصرة حيث قال : يفسق بأخذ درهم فما فوق ولا يفسق بما دون ذلك . وهذا كله مردود بالقرآن والسنة و باتفاق علماء الأمة، قال صلّى الله عليه وسلّم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " الحديث متفق على صحته .

قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ فيه أثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ هذا مما سأل عنه اليهود واعترضوا به على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال معاذ : يارسول الله، إن اليهود تغشانا و يكثرون مسئلتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوى و يستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان ؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمين النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم عن الهلال وما سبب مُحاقه(1) وكماله ومخالفته لحال الشمس . قاله ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ الأهلة جمع الهلال ، وجُمِع وهو واحد فى الحقيقة من حيث كونه هلالا واحدا فى شهر غير كونه هلالا فى آخر، فإنما جمع أحواله من الأهلة و يريد بالأهلة شهورها، وقد يعبر بالهلال عن الشهر لحلوله فيه، كما قال :

أخوان من نجد على ثقة * والشهر مثل قلامة الظفر

وقيل : سمى شهرا لأن الأيدى تشهر بالإشارة إلى موضع الرؤية و يدلون عليه، و يطلق لفظ الهلال لليلتين من آخر الشهر، وليلتين من أوله . وقيل : لثلاث من أوله . وقال الأصمعىّ : هو هلال حتى يُحَجِّر و يستديرله كالخيط الرقيق . وقيل : بل هو هلال حتى يبهر بضوئه السماء، وذلك ليلة سبع . قال أبو العباس : و إنما قيل له هلال لأن الناس يرفعون أصواتهم

(1) المحاق : أن يستسرّ القمر ليلتين فلا يرى غدوة ولا عشية .

بالإخبار عنه . ومنــه استهل الصبي إذا ظهرت حياته بصراخه . واستهل وجهه فرحا وتهلل إذا ظهر فيه السرور . قال أبو كبير :

وإذا نظرت إلى أسرَّة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

ويقال : أهللنا الهلال إذا دخلنا فيــه . قال الجوهرى : « وأُهِل الهــلال واستُهِل على ما لم يسم فاعله . ويقال أيضـا : استهل بمعنى تبــيّن . ولا يقال : أهــل . ويقال : أهللنا عن ليلة كذا ، ولا يقال : أهللناه فهلّ ؛ كما يقال : أدخلناه فدخل ، وهو قياسه » . قال أبو نصر عبد الرحيم القشيرى فى تفسيره : ويقال : أهل الهلال واستهل وأهللنا الهلال واستهللنا .

الثالثـــة — قال علماؤنا : من حلف ليقضينّ غريمه أو ليفعلنّ كذا فى الهلال أو رأس الهلال أو عنــد الهلال ففعل ذلك بعد رؤية الهلال بيوم أو يومين لم يحنث . وجميع الشهور تصلح لجميع العبادات والمعاملات ، على ما يأتى .

قوله تعــالى : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ تبيين لوجه الحكمــة فى زيادة القمر ونقصانه ، وهو زوال الإشكال فى الآجال والمعاملات والأيمــان والحج والعدد والصوم والفطر ومدة الحمــل والإجارات والأكرية إلى غير ذلك من مصالح العبــاد . ونظيره قوله الحق : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَــابَ ﴾ على ما يأتى . وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ . وإحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام .

الرابعـــة — وبهذا الذى قررناه يرد على أهل الظاهر ، ومن قال بقولهم : إن المســاقاة تجوز الى الأجل المجهول سنين غير معلومة ؛ واحتجوا بأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عامل اليهود على شطر الزرع والنخل ما بدا لرسول الله صلّى الله عليه وســلّم من غير توقيت . وهــذا لا دليل فيه ، لأنه عليه السلام قال لليهود : "أقركم [فيها][1] ما أقركم الله" . وهــذا أدل دليل

(١) الزيادة عن الموطأ .

وأوضح سبيل على أن ذلك خصوص له ، فكان ينتظر فى ذلك القضاء من ربه ، وليس كذلك غيره . وقد أحكمت الشريعــة معانى الإجارات وسائر المعاملات فلا يجوز شىء منها إلا على ما أحكمه الكتاب والسنة، وقال به علماء الأمة .

الخامســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ مَوَاقِيتُ ﴾ المواقيت : جمع الميقات وهو الوقت . وقيل : الميقات منتهى الوقت . ومواقيت لا تنصرف لأنه جمع لا نظير له فى الآحاد ، فهو جمع ونهاية جمع إذ ليس يجمع فصار كأن الجمع تكرر فيها . وصرفت قوارير فى قوله : ﴿ قَوَارِيرًا ﴾ لأنها وقعت فى رأس آية فنونت كما تنون القوافى ، فليس هو تنوين الصرف الذى يدل على تمكن الاسم .

السادســة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَالْحَجِّ ﴾ بفتح الحاء قراءة الجمهور . وقرأ ابن أبى إسحاق بالكسر فى جميع القرآن ، وفى قوله : ﴿ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ فى آل عمران . قال سيبويه : الحَجّ كالرَّد والشَّد ، والحِجّ كالذِّكر ، فهما مصدران بمعنًى . وقيل : الفتح مصدر والكسر الاسم .

السابعــــة ـــ أفرد سبحانه الحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت ، وأنه لا يجوز النسئ فيه عن وقته ، بخلاف ما رأته العرب فإنها كانت تحج بالعدد وتبدّل الشهور ، فأبطل الله قولهم وفعلهم . على ما يأتى بيانه فى « براءة » إن شاء الله تعالى .

الثامنــــة ـــ استدل مالك رحمه الله وأبو حنيفة وأصحابهما على أن الإحرام بالحج يصح فى غير أشهر الحج بهذه الآية ؛ لأن الله تعالى جعل الأهلة كلها ظرفا لذلك ، فصح أن يحرم فى جميعها بالحج . وخالف فى ذلك الشافعى لقوله تعـالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ على ما يأتى . وأن معنى هـــذه الآية أن بعضها مواقيت للناس ، وبعضها مواقيت للحج ؛ وهـــذا كما تقول : الجارية لزيد وعمرو ، وذلك يقضى أن يكون بعضها لزيد وبعضها لعمرو . ولا يجوز أن يقال : جميعها لزيد وجميعها لعمرو . والجواب أن يقال : إن ظاهر قوله : ﴿ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّـاسِ وَالْحَجِّ ﴾ يقتضى كون جميعها مواقيت للناس وجميعها مواقيت للحج ؛ ولو أراد التبعيض لقال : بعضها مواقيت للنـاس وبعضها مواقيت للحج . وهـــذا كما تقول : إن شهر رمضان ميقات لصوم زيد وعمرو . ولا خلاف أن المراد بذلك أن جميعــه ميقات لصوم كل واحد منهما .

وما ذكروه من الجارية فصحيح ؛ لأن كونها جمعاء لزيد مع كونها جمعاء لعمرو مستحيل ، وليس كذلك في مسئلتنا ؛ فإن الزمان يصح أن يكون ميقاتا لزيد وميقاتا لعمرو ؛ فبطل ماقالوه .

التاســعة — لاخلاف بين العلماء أن من باع معلوما من السلع بثمن معلوم إلى أجل معلوم من شهور العرب أو إلى أيام معروفة العدد أن البيع جائز . وكذلك قالوا في السَّلَم إلى الأجل المعـلوم . واختلفوا في من باع إلى الحصاد أو إلى الدياس أو إلى العطاء وشبه ذلك ؛ فقال مالك : ذلك جائز لأنه معروف . وبه قال أبو ثور . وقال أحمد : أرجو ألا يكون به بأس . وكذلك إلى قدوم الغزاة . وعن ابن عمر أنه كان يبتـاع إلى العطاء . وقالت طائفة : ذلك غير جائز ؛ لأن الله تعالى وقّت المواقيت وجعلها علما لآجالهم في بياعاتهم ومصالحهم . كذلك قال ابن عباس ؛ وبه قال الشافعي والنعمان . قال ابن المنذر : قول ابن عباس صحيح .

العاشرة — إذا رؤي الهلال كبيرا فقال علماؤنا : لايعوّل على كبره ولا على صغره وإنما هو ابن ليلتـه . روى مسلم عن أبي البَخْتَرِي قال : خرجنا للعُمْرة فلما نزلنا ببطن نَخْلة قال : تراءينا الهلال ، فقال بعض القوم : هو ابن ثلاث . وقال بعض القوم : هو ابن ليلتين . قال : فلقينا ابن عباس فقلنا : إنا رأينا الهلال فقال بعض القوم : هو ابن ثلاث ، وقال بعض القوم : هو ابن ليلتين . فقال : أيّ ليلة رأيتموه ؟ قال فقلنا : ليلة كذا وكذا . فقال : إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "إن الله مدّه للرؤية" . فهو لِلَّيْلة رأيتموه .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ اتصـل هذا بذكر مواقيت الحج لاتفاق وقوع القضيتين في وقت السؤال عن الأهلة وعن دخول البيوت من ظهورها ، فنزلت الآية فيهما جميعا . وكان الأنصار إذا حجّوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيـوتهم ، فإنهم كانوا إذا أهلّوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعا ألا يحول بينهم وبين السماء حائل ، فإذا خرج الرجل منهم بعـد ذلك ، أي بعـد إحرامه من بيتـه فرجع لحاجة لا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء ، فكان يتسنّم ظهر بيته على الجدران ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته فتخرج اليه من بيته . فكانوا يرون هـذا

من النّسك والبر، كما كانوا يعتقدون أشياء نسكا ، فردّ عليهم فيها . و بيّن الربّ تعـالى أن البر فى امتثال أمره . وقال ابن عباس فى رواية أبى صـالح : كان الناس فى الجاهليــة وفى أول الإســلام إذا أحرم رجل منهـم بالحج فإن كان من أهل المَدَر — يعنى من أهل البيوت — نقب فى ظهر بيته فمنــه يدخل ومنه يخرج ، أو يضع سلّما فيصعد منه و ينحدر عليــه . و إن كان من أهل الوَبَر — يعنى من أهــل الخيام — يدخل من خلف الخيمة ، إلا من كان من الحُمْس . و روى الزهرىّ أن النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم أهلّ زمن الحُدَيْبِيَة بالعمرة فدخل حجرته ودخل خلفه رجل أنصارىّ من بنى سلمة ، فدخل وخرق عادة قومه ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لِمَ دخلت وأنت قد أحرمت " . فقال : دخلتَ أنت فدخلتُ بدخولك . فقال له النبىّ صلّى الله عليه وسلم : " إنى أَحْمَس ". أى من قوم لا يدينون بذلك . فقال له الرجل : وأنا دينى دينك . فنزلت الآية . وقاله ابن عباس وعطاء وقتادة . وقيل : إن هذا الرجل هو قطبة بن عامر الأنصارى .

والحُمْس : قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وجشم (١) وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر ابن معاوية . وسمّوا حُمْسًا لتشديدهم فى دينهم . والحماسة : الشدّة . قال العجاج :

* وكم قَطَعنا من قِفافٍ (٢) حُمْسِ *

أى شـداد . ثم اختلفوا فى تأويلها ، فقيل ما ذكرنا وهو الصحيح . وقيل : إنه النسىء وتأخير الحج به ، حتى كانوا يجعلون الشهر الحـلال حراما بتأخير الحج إليه ، والشهر الحرام حلالا بتأخير الحج عنه ، فيكون ذكر البيوت على هذا مثلا لمخالفة الواجب فى الحج وشهوره . وسيأتى بيان النسىء فى سـورة « براءة » إن شاء الله تعـالى . وقال أبو عبيدة : الآية ضَرْبُ مَثَل ، المعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن اتقوا الله واسألوا العلماء . فهذا كما تقول : أتيت هذا الأمر من بابه . وحكى المهـدوىّ ومكىّ عن ابن الأنبارى ، والمـاوردىّ عن ابن زيد أن

---

(١) كذا فى نسخة من الأصل . وفى سائر الأصول والفخر الرازى : « خيثم » . وفى البحر لأبى حيان « خثعم » .

(٢) فى نسخ الأصل : « قفار » بالراء . والتصويب عن اللسان . والقفاف : الأماكن الغلاظ الصلبة .

الآية مَثَلٌ في جماع النساء، أمر بإتيانهن في القُبُل لا من الدبر، وسمّى النساء بيوتا للإيواء إليهن كالإيواء إلى البيوت . قال ابن عطية . وهذا بعيد مغيّر نمط الكلام . وقال الحسن : كانوا يتطيّرون، فمن سافر ولم تحصل حاجته كان يأتي بيته من وراء ظهره تطيّرا من الخيبة؛ فقيل لهم : ليس في التطيّر بِرٌّ بل البرّ أن تتقوا الله وتتوكلوا عليه .

قلت : القول الأوّل أصح هــذه الأقوال، لمــا رواه البراء قال : كان الأنصــار إذا حجوا فرجعــوا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، قال : فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه ، فقيل له في ذلك، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُــوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ وهــذا نص في البيوت حقيقة . خرّجه البخاري ومسلم . وأما تلك الأقوال فتؤخذ من موضع آخر لا من الآية، فتأمله . وقد قيل : إن الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البر من وجهه ، وهو الوجه الذي أمر الله تعالى به ؛ فذكر إتيان البيوت من أبوابها مثلا ليشير به إلى أن يأتي الأمور من مأتاها الذي ندبنا الله تعالى إليه .

قلت : فعلى هــذا يصح ماذكر مــن الأقوال . والبيوت جمع بيت، وقرئ بضم الباء وكسرها . وتقدم معنى التقوى والفلاح ولعلّ، فلا معنى للإعادة .

الثانية عشرة — في هذه الآية بيان أن مالم يَشْرعه الله قُرْبة ولا ندب إليه لا يصير قربة بأن يتقرب له به متقرب . قال ابن خُوَيز منداد : إذا أشكل ماهو بِرٌّ وقُرْبة بما ليس هو بِرّ وقربة أن ينظر في ذلك العمل ؛ فإن كان له نظير في الفرائض والسنن فيجوز أن يكون، وإن لم يكن فليس ببر ولا قربة . قال : وبذلك جاءت الآثار عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وذكر حديث ابن عباس قال : بينما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس فسأل عنه، فقالوا : هو أبو اسرائيل (١)، نذر أن يقومَ ولا يقعدَ ولا يَستظِلَّ ولا يتكلّمَ

---

(١) أبو اسرائيل هــذا ، رجل من الأنصار من أصحاب النبيّ صلى الله عليــه وسلم ، اختلف في اسمه . راجع الاستيعاب والإصابة وأسد الغابة في « باب الكنى » .

ويصومَ . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم : "مُرُوه فلْيتكلّمْ ولْيستظلَّ وليقعدْ وليتمَّ صومَه" . فأبطل النبي صلّى الله عليه وسلّم ما كان غير قربة ممـا لا أصل له فى شريعته، وصحح ما كان قربة مما له نظير فى الفرائض والسنن .

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَقَاتِلُوا ﴾ هذه الآية أول آية نزلت فى الأمر بالقتال . ولا خلاف فى أن القتـال كان محظورا قبل الهجرة بقـوله : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وقوله : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ وقوله : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ وما كان مثله مما نزل بمكة . فلما هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَـبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ قاله الربيع بن أنس وغيره . وروى عن أبى بكر الصديق أن أول آية نزلت فى القتـال ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُوا ﴾ . والأول أكثر، وأن آية الإذن إنمـا نزلت فى القتال عامة لمن قاتل ولمن يقاتل من المشركين . وذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم خرج مع أصحابه إلى مكة للعُمْرة، فلما نزل الحُدَيْبِيَة بقرب مكة — والحديبية آسم بئر، فسمى ذلك الموضع باسم تلك البئر — فصده المشركون عن البيت، وأقام بالحديبية شهرا، فصـالحوه على أن يرجع من عامه ذلك كما جاء، على أن تخلا له مكة فى العام المستقبل ثلاثة أيام، وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين ورجع إلى المدينة؛ فلما كان من قابل تجهّز لعمرة القضاء، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام، فنزلت هـذه الاية؛ أى يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار . فالآية متصـلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها ، فكان عليه السلام يقاتل من قاتله ويكف عمن كفّ عنه، حتى نزل ﴿ ٱقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ فنسخت هذه الآية . قاله جماعة من العلماء . وقال ابن زيد والربيع : نسخها « وقاتلوا المشركين كافة » فأمر بالقتال لجميع الكفار . وقال ابن عباس وعمر بن عبـد العزيز ومجاهد: هى مُحْكمة ،أى قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم ،ولاتعتدوا فى قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم . على ما يأتى بيانه . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح القولين فى السـنة

والنظر، فأما السنة فحديث ابن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأى فى بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان . رواه الأئمة . وأما النظر فإن « فَاعَلَ » لا يكون فى الغالب إلا من اثنين ، كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة ، والقتال لا يكون فى النساء ولا فى الصبيان ومن أشبههم، كالرهبان والزَّمْنَى والشيوخ والأُجراء فلا يقتلون. وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان حين أرسله إلى الشام ، إلا أن يكون لهؤلاء إذاية . أخرجه مالك وغيره . وللعلماء فيهم صور ست :

الأولى — النساء إن قاتَلْنَ قُتِلْنَ، قال سحنون : فى حالة المقاتلة وبعدها، لعموم قوله : ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ . وللمرأة آثار عظيمة فى القتال ، منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال ، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيّرات بالفرار، وذلك يبيح قتلهن، غير أنهن إذا حصلن فى الأسر فالاسترقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن وتعذّر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال .

الثانيــة — الصبيان فلا يقتلون للنهى الثابت عن قتل الذرّية ،ولأنه لا تكليف عليهم، فإن قاتل قتل .

الثالثــة — الرهبان لا يقتلون ولا يسترقون، بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم،وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر، لقول أبى بكر ليزيد : وستجد أقواما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له ، فإن كانوا مع الكفار فى الكنائس قتلوا . ولو ترهّبت المرأة، فروى أشهب أنها لا تُهاج(١) . وقال سحنون : لا يغير الترهّب حكمها . قال القاضى أبو بكر بن العربى : « والصحيح عندى رواية أشهب ، لأنها داخلة تحت قوله : فذرهم وما حبسوا أنفسهم له » .

---

(١) لا تهاج، أى لا تزعج ولا تنفر .

الرابعـــة — الزَّمْنَى، قال سحنون : يقتلون . وقال ابن حبيب : لايقتلون . والصحيح أن تعتبر أحوالهم؛ فإن كانت فيهم إذاية قتلوا، وإلا تركوا وما هم بسبيله من الزَّمانة(١) وصاروا مالا على حالهم وحشوة .

الخامســـة — الشيوخ، قال مالك فى كتاب محمد : لايقتلون . والذى عليـه جمهور الفقهاء : إن كان شيخا كبيرا هَرِمًا لا يطيق القتال، ولا يُنْتفع به فى رأي ولا مدافعـة فإنه لا يقتل، وبه قال مالك وأبو حنيفة . وللشافعى قولان : أحدهما — مثـل قول الجماعة . والثانى — يقتل هو والراهب . والصحيح الأول لقول أبى بكر ليزيد؛ ولا مخالف له فثبت أنه إجماع . وأيضا فإنه ممن لا يقاتل ولا يعين العدو فلا يجوز قتله كالمرأة . فأما إن كان ممن تخشى مضرته بالحرب أو الرأى والمال، فهذا إذا أسر يكون الإمام فيه مخيرا بين خمسة أشياء: القتل أو المَنّ أو الفداء أو الاسترقاق أو عقد الذمة على أداء الجزية .

السادســـة — العسفاء، وهم الأجراء والفلاحون؛ فقال مالك فى كتاب محمد : لا يقتلون . وقال الشافعى : يقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ الكبار إلا أن يسلموا أو يؤدوا الجزية . والأول أصح، لقوله عليه السلام فى حديث رَباح(٢) بن الربيع "الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفا" . وقال عمر بن الخطاب : اتقوا الله فى الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب . وكان عمر بن عبد العزيز لايقتل حراثا، ذكره ابن المنذر .

الثانيـــة - روى أشهب عن مالك أن المراد بقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أهل الحُدَيْبِيَـة أمروا بقتال من قاتلهم . والصحيح أنه خطاب لجميع المسلمين، أمر كل أحد أن يقاتل من قاتله اذ لايمكن سواه . ألا تراه كيف بيّنها فى سورة «براءة» بقوله : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ وذلك أن المقصود أولا كان أهل مكة فتعينت البداءة بهم، فلما فتح الله مكة كان القتال لمن يلى ممن كان يؤذى حتى تعم الدعوة وتبلغ الكلمة

(١) هكذا فى الأصول .

(٢) رباح، بباء موحدة . وقيل : بالياء المثناة من تحت . راجع تهذيب التهذيب فى حرف الراء .

جميـع الأفاق ولا يبقى أحد من الكفرة، وذلك باق متماد إلى يوم القيامة، ممتد إلى غاية هى قوله عليه السـلام : "الخيـل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة . الأجر والمغنم" . وقيل : غايته نزول عيسى بن مريم عليه السـلام ، وهو موافق للحديث الذى قبله، لأن نزوله من أشراط الساعة .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ قيل فى تأويله ماقدمناه ، فهى محكمة . فأما المرتدّون فليس إلا القتل أو التوبة ، وكذلك أهل الزّيغ والضلال ليس إلا السيف أو التوبة . ومن أسَرَّ الاعتقاد بالباطل ثم ظهر عليه فهو كالزنديق يقتل ولا يستتاب . وأما الخوارج على أئمـة العدل فيجب قتالهم حتى يرجعوا الى الحق . وقال قوم : المعنى لا تعتدوا فى القتال لغير وجه الله ، كالحمّية وكسب الذكر، بل قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم . يعنى دِينًا و إظهارا للكلمة . وقيل : لا تعتـدوا ، أى لا تقاتلوا من لم يقاتل . فعلى هـذا تكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال لجميع الكفار، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ يقال : ثَقِفَ يَثْقَفُ ثَقْفًا ، ورجل ثَقْفٌ لَقْفٌ : إذا كان محكما لمـا يتناوله من الأمور . وفى هذا دليل على قتل الأسير . وسيأتى بيان هذا فى « الانفال » إن شاء الله تعـالى . ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أى مكة . قال الطبرى : الخطاب للهاجرين، والضمير لكفار قريش .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَـدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أى الفتنة التى حملوكم عليهـا وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشد من القتل . قال مجاهد : أى من أن يقتل المؤمن ، فالقتل أخف عليه من الفتنة . وقال غيره : أى شركهم بالله وكفرهم به أعظم جُرمًا وأشد من القتل الذى عيّروكم به . وهذا دليل على أن الآية نزلت فى شأن عمرو بن الحضرمى حين قتله واقد بن عبد الله التميمى فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام ، حسب ما هو مذكور فى سَرِيّة عبد الله ابن جَحش . على مايأتى بيانه، قاله الطبرى وغيره .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ الاية . للعلماء فى هذه الآية قولان : أحدهما — أنها منسوخة ، والثانى — أنها محكمة . قال مجاهد : الآية محكمة ، ولا يجوز قتال أحد فى المسجد الحرام الا بعد أن يقاتل ، و به قال طاوس . وهو الذى يقتضيه نص الآية ، وهو الصحيح من القولين ، واليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه . وفى الصحيح عن ابن عباس قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم فتح مكة : " إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعـالى الى يوم القيامة و إنه لم يَحِلّ القتال فيـه لأحد قبلى ولم يُحِلّ لى الا ساعةً من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة " . وقال قتـادة : الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ . وقال مقاتل : نسخها قوله تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ ثم نسخ هذا قوله : ﴿ اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ . فيجوز الابتداء بالقتال فى الحرم . وممـا احتجوا به أن «براءة» نزلت بعد سورة «البقرة» بسنتين ، وأن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم دخل مكة وعليه المِغْفَر (1) ، فقيل : إن ابن خَطَل متعلق بأستار الكعبة ، فقال : " اقتلوه " .

وقال ابن خويزمنداد : «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام» منسوخة لأن الإجماع قد تقرر بأن عدوًّا لو استولى على مكة وقال : لأقاتلنكم ، وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة ، لوَجَب قتاله وان لم يبدأ بالقتال . فمكة وغيرها من البلاد سواء . و إنما قيل فيها : هى حرام ، تعظيما لها ؛ ألا ترى أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث خالد بن الوليد يوم الفتح وقال : " احصدهم بالسيف حتى تلقانى على الصّفا " . حتى جاء العباس فقال : يا رسول الله ، ذهبت قريش ، فلا قريش بعـد اليوم . ألا ترى أنه قال فى تعظيمها : " ولا يَلتقِط لُقَطتَها إلا مُنْشِـد " . واللّقطة بها وبغيرها سـواء . ويجوز أن تكون منسوخة بقوله : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ . قال ابن العربى : «حضرت فى بيت المقدس طهّره الله بمدرسة أبى عقبة الحنفى ، والقاضى الزنجانى يلقى علينا الدرس فى يوم جمعة فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا رجل بهىّ المنظر على ظهره أطمار ،

(1) المغفر ومثله المغفرة والغفارة (كلها بالكسر) : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

فسلم سلام العلماء وتصدّر فى صدر المجلس بمدارع الرعاء[1]؛ فقال القاضى الزنجانى: من السيد ؟ فقال : رجل سلبه الشطار أمس ، وكان مقصدى هذا الحرم المقدّس ، وأنا رجل من أهل صاغان من طلبة العلم . فقال القاضى مبادرا : سلوه على العادة فى إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم . ووقعت القرعة على مسألة الكافر اذا التجأ إلى الحرم ، هل يقتل أم لا ؟ فأفتى بأنه لا يقتل . فسئل عن الدليل . فقال قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ قرئ « ولا تقتلوهم . ولا تقاتلوهم » فان قرئ « ولا تقتلوهم » فالمسألة نص، وإن قرئ « ولا تقاتلوهم » فهو تنبيه، لأنه إذا نهى عن القتال الذى هو سبب القتل كان دليلا بيّنا ظاهرا على النهى عن القتل . فاعترض عليه القاضى منتصرا للشافعىّ ومالك ، وإن لم ير مذهبهما ، على العادة، فقال : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ . فقال له الصاغانى : هذا لا يليق بمنصب القاضى وعلمه؛ فإن هذه الآية التى اعترضت بها ، عامة فى الأماكن، والتى احتججتُ بها خاصة، ولا يجوز لأحد أن يقول: إن العام ينسخ الخاص . فبهت القاضى الزنجانى . وهذا من بديع الكلام . قال ابن العربى : « فإن لجأ اليه كافر فلا سبيل إليه ، لنص الآية والسنة الثابتة بالنهى عن القتال فيه . وأما الزانى والقاتل فلا بد من إقامة الحد عليه، إلا أن يبتدئ الكافرُ بالقتال فيُقْتل بنص القرآن» .

قلت : وأما ما احتجوا به من قتل ابن خَطَل وأصحابه فلا حجة فيه، فإن ذلك كان فى الوقت الذى أحلت له مكة وهى دار حرب وكفر، وكان له أن يُريق دماء من شاء من أهلها فى الساعة التى أحل له فيها القتال . فثبت وصح أن القول الأوّل أصح، والله أعلم .

الرابعة — قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن الباغى على الإمام بخلاف الكافر، والكافر يقتل إذا قاتل بكل حال، والباغى إذا قاتل يقاتل بنية الدفع . ولا يُتْبَع مُدْبِر ولا يُجْهَز على جريح . على ما يأتى بيانه من أحكام الباغين فى «الحجرات» إن شاء الله تعالى .

(١) المدرع والمدّرعة : ضرب من الثياب التى تلبس . وقيل : جبة مشقوقة المقدم .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا ﴾ أى عن قتالكم بالإيمـان فإن الله يغفر لهم جميع ماتقدّم، ويرحم كلا منهم بالعفو عما اجترم . نظيره قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ . وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ أَمْرٌ بالقتال لكل مشرك فى كل موضع ، على من رآها ناسخة . ومن رآها غير ناسخة قال : المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ ﴾. والأول أظهر، وهو أمر بقتال مطلق ، لا بشرط أن يبدأ الكفار . دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ . وقال عليـه السلام : "أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله." فدلت الآية والحديث على أن سبب القتال هو الكفر، لأنه قال: ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى كفر، فجعل الغاية عدم الكفر، وهذا ظاهر . قال ابن عباس وقتادة والرّبيع والسُّدى وغيرهم : الفتنة هنـا الشرك، وما تابعه مـن أذى المؤمنين . وأصل الفتنة : الاختبـار والامتحان ؛ مأخوذ من فَتَنْتُ الفضـة اذا أدخلتها فى النـار لتميز رديئها من جيدها . وسيأتى بيان محاملها إن شاء الله تعالى .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا ﴾ أى عن الكفر ، إما بالإسـلام كما تقـدّم فى الآية قبلُ، أو بأداء الجزية فى حق أهل الكتاب؛ على ما يأتى بيانه فى «براءة» و إلا قوتلوا وهم ظالمون لاعدوان إلا عليهم . وسمّى ما يصنع بالظالمين عدوانا من حيث هو جزاء عدوان، إذ الظلم يتضمن العدوان، فسمى جزاء العدوان عدوانا؛ كقوله :﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ . والظالمون هم على أحد التأويلين : من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر: من بقى على كُفرٍ وفتنة.

قـوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيه عشر مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ ﴾ قد تقدّم اشـتقاق الشهر . وسـبب نزولهـا ما روى عن ابن عباس وقتادة ومجاهـد ومِقْسم والسّدى والرّبيع والضّحاك وغيرهم قالوا :

نزلت فى عُمْرة القضاء وعام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست، فصده كفار قريش عن البيت فانصرف؛ ووعده الله سبحانه أنه سيدخله فدخله سنة سبع وقضى نسكه . فنزلت هذه الآية . وروى عن الحسن أن المشركين قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : أنهيت يا محمد عن القتال فى الشهر الحرام ؟ قال : نعم . فأرادوا قتاله، فنزلت الآية . المعنى : إن استحلوا ذلك فيه فقاتلهم، فأباح الله بالآية مدافعتهم، والقول الأوّل أشهر وعليه الأكثر .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ الحرمات: جمع حُرْمَة، كالظلمات جمع ظلمة، والحجرات جمع حجرة . وإنما جمعت الحرمات لأنه أراد [حرمة] الشهر الحرام [وحرمة] البلد الحرام، وحرمة الإحرام . والحرمة : ما مُنِعتَ من انتهاكه . والقصاص : المساواة . أى اقتصصت لكم منهم إذ صدّوكم سنة ست فقضيتم العمرة سنة سبع . فالحرمات قصاص على هذا متصل بما قبله ومتعلق به . وقيل : هو مقطوع منه . وهو ابتداء أمر كان فى أول الاسلام، أى من انتهك حرمتك نلت منه مثل ما اعتدى عليك، ثم نسخ ذلك بالقتال . وقالت طائفة : ما تناولت الآية من التعدّى بين أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم والجنايات ونحوها لم ينسخ، وجاز لمن تُعدّى عليه فى مال أو جرح أن يتعدّى بمثل ما تعدّى به عليه إذا خفى ذلك، وليس بينه وبين الله فى ذلك شيء . قاله الشافعى وغيره، وهى رواية فى مذهب مالك . وقالت طائفة من أصحاب مالك : ليس ذلك له، وأمور القصاص وَقْفٌ على الحكام . والأموال يتناولها قوله صلّى الله عليه وسلّم : "أدّ الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك" . خرّجه الدارقطنيّ وغيره . فمن ائتمنه من خانه فلا يجوز له أن يخونه ويصل إلى حقه مما ائتمنه عليه، وهو المشهور من المذهب، وبه قال أبو حنيفة تمسّكًا بهذا الحديث، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ . وهو قول عطاء الخراسانى . قال قدامة بن الهيثم : سألت عطاء بن ميسرة الخراسانى فقلت له : لى على رجل حقّ، وقد جحدنى به وقد أعيا علىّ البينة، أفاقتص من ماله ؟ قال : أرأيت لو وقع بجاريتك، فعلمت ما كنت صانعا .

قلت : والصحيح جواز ذلك كيف ما توصل الى أخذ حقه مالم يُعدّ سارقا ؛ وهو مذهب الشافعيّ وحكاه الدّاوُدى عن مالك، وقال به ابن المنـذر، واختاره ابن العربى ، وأن ذلك ليس خيانة و إنما هو وصولٌ الى حق . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم : "انصر أخاك ظالمـا أو مظلوما" . وأخذ الحق من الظالم نصرله . وقال صلّى الله عليه وسلّم لهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان لمـا قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يُعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بَنِيّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه، فهـل علىّ جناح ؟ فقال رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم : "خذى ما يكفيك و يكفى ولدك بالمعروف" . فأباح لهـا الأخذ وألا تأخذ إلا القـدر الذى يجب لهـا . وهذا كله ثابت فى الصحيح . وقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ قاطع فى موضع الخلاف .

الثالثـة — واختلفوا اذا ظفرله بمال من غيرجنس ماله ؛فقيل : لا يأخذ إلا بحكم الحاكم . وللشافعيّ قولان ، أصحهما الأخذ، قياسا على ما لو ظفرله من جنس ماله . والقول الثانى : لا يأخذ لأنه خلاف الجنس . ومنهم من قال : يتحرّى قيمة ماله عليه ويأخذ مقدار ذلك . وهذا هو الصحيح لمـا بيناه من الدليل . والله أعلم .

الرابعـــة — وإذا فرّعنا على الأخذ فهل يعتـبر ما عليـه من الديون وغير ذلك ؛ فقال الشافعيّ : لا، بل يأخذ ماله عليه . وقال مالك : يعتبر ما يحصل له مع الغرماء فى الفلس . وهو القياس والله أعلم .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ عموم متفق عليه، إما بالمبـاشرة إن أمكن، و إما بالحكام . واختلف الناس فى المكافأة هل تسمى عدوانا أم لا ؛ فمن قال : ليس فى القرآن مجـاز، قال : المقابلة عدوان ، وهو عدوان مباح، كما أن المجاز فى كلام العرب كذب مباح؛ لأن قول القائل :

* قالت العينان سمعا وطاعة *

وكـذلك :

* امتلأ الحوض وقال قَطْنِى *

وكذلك :

* شكا إليّ جملي طول السُّرَى *

ومعلوم أن هذه الأشـياء لاتنطق . وحدّ الكذب : إخبار الشئ على خلاف ماهو به . ومن قال : فى القرآن مجاز ، سمى هذا عدوانا على طريق المجاز ومقابلة الكلام بمثله؛ كما قال عمرو ابن كلثوم :

ألا لايجهلن أحـد علينـا * فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

وقال الآخر :

ولى فرس للحـلم بالحـلم مُلجَمٌ * ولى فرس للجهل بالجهل مُسْرَجُ
ومن رام تقويمى فإنى مُقـوَّم * ومن رام تعو يجى فإنى مُعَوَّجُ

يريد أكافئ الجاهل والمعوج، لا أنه امتدح بالجهل والاعوجاج .

السادســة — واختلفت العلماء فيمن استهلك أو أفسد شيئا من الحيوان أو العُرُوض التى لاتكال ولا توزن؛ فقال الشافعى وأبو حنيفة وأصحابهما وجماعة من العلماء : عليـه فى ذلك المثل، ولا يعدل إلى القيمة الا عند عدم المثل، لقوله تعـالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾.

قالوا : وهـذا عموم فى جميـع الأشياء كلها ، وعَضّدوا هذا بمـا خرّجه أبو داود قال : حدثنا مسدّد حدثنا يحيى ، وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا خالد عن حميد عن أنس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان عنـد بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادمها قَصْعة فيها طعام ، قال : فضربت بيدها فكسرت القصـعة . قال ابن المثنى : فأخذ النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم الكسرتين فضم إحداهما إلى الأخرى ، فجعل يجمع فيها الطعام ويقول : "غارت أمكم" . زاد ابن المثنى "كلوا" فأكلوا حتى جاءت قصعتها التى فى بيتها . ثم رجعنا إلى لفظ مسدّدوقال : "كلوا" وحبس الرسولَ والقصعة حتى فرغوا ، فدفع القصعة الصحيحة الى الرسول وحبس المكسورة فى بيته . حدّثنا أبو داود قال : حدثنا مسدّد حدثنا يحيى عن سفيان قال وحدثنا

فُلَيْتٌ العامرِىّ — قال أبو داود : وهو أفلت بن خليفة[1] — عن جَسْرة بنت دَجاجة قالت قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت صانعا طعاما مثل صفية ؛ صنعت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم طعاما فبعثت به ، فأخذنى أَفْكَلٌ[2] فكسرتُ الإناء ، فقلت : يا رســول الله ، ما كفارة ما صنعت ؟ قال : " إناء مثل أناء وطعام مثل طعام ". وقال مالك وأصحابه : عليه فى الحيوان والعُرُوض التى لا تكال ولا توزن القيمة لا المِثــل ؛ بدليل تضمين النبىّ صلّى الله عليه وســلّم الذى أعتق نصف عبــده قيمة نصف شريكه ، ولم يضمنه مثل نصف عبده . ولا خلاف بين العلماء على تضمين المثل فى المطعومات والمشروبات والموزونات ، لقوله عليه السلام : " طعام بطعام " .

السابعـــة — لاخلاف بين العلماء أن هــذه الآية أصل فى المماثلة فى القصــاص ؛ فمن قَتل بشىء قُتل بمثل ماقتل به ، وهو قول الجمهور . مالم يقتله بفسق كاللّوطية و إسقاء الخمر فيقتل بالسيف . وللشافعية قول : إنه يقتل بذلك ، فيتخذ عود على تلك الصفة ويطعن به فى دبره حتى يموت ، ويسقى من الخمر ماء حتى يموت . وقال ابن المــاجشون : إن من قتــل بالنار أو بالسمّ لايقتل به ، لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " لا يُعَذِّب بالنار إلا اللهُ " . والسمّ نار باطنة . وذهب الجمهور إلى أنه يقتل بذلك ، لعموم الآية .

الثامنـــة — وأما القَوَد بالعصا فقال مالك فى أحدى الروايتين : إنه إن كان فى القتل بالعصا تطويل وتعذيب قتل بالسيف . رواه عنه ابن وهب ، وقاله ابن القاسم . وفى الأخرى : يقتل بها و إن كان فيه ذلك . وهو قول الشــافعى . وروى أشهب وابن نافع عن مالك فى الحجر والعصا أنه يقتل بهما إذا كانت الضربة مُجْهِزة ؛ فأما أن يضرب ضربات فلا . وعليه لا يرمى بالنَّبل ولا بالحجارة لأنه من التعذيب . وقاله عبد الملك . قال ابن العربى : « والصحيح من أقوال علمائنا أن المماثلة واجبة ، إلا أن تدخل فى حدّ التعذيب فلتترك إلى السيف » . واتفق علماؤنا على أنه إذا قطع يده ورجله وفقأ عينه قَصْدَ التعذيب فعل به ذلك ، كما فعل النبىّ صلّى

(١) تقدّم هذا الاسم فى ص ٣٤ من هذا الجزء محرفا ، والصواب ما أثبتناه هنا .

(٢) الأفكل (على وزن أفعل) : الرعدة . أى ارتعدت من شدّة الغيرة .

الله عليــه وسلم بقتله الرّعاء . وإن كان فى مدافعة أو مضاربة قتل بالسيف . وذهبت طائفة إلى خلاف هذا كله فقالوا : لاقَوَدَ الا بالسيف ، وهو مذهب أبى حنيفة والشعبيّ والنخعيّ . واحتجوا على ذلك بما روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "لاقَوَدَ إلا بحديدة". وبالنهى عن المُثْلة . وقوله : "لايُعَذِّب بالنار إلا ربُّ النار". والصحيح ماذهب اليه الجمهور، لمـا رواه الأئمـة عن أنس بن مالك أن جارية وُجد رأسُها قد رُضَّ بين حجرين ؛ فسألوها : من صنع هذا بك ! أفلان، أفلان؟ حتى ذكروا يهوديًّا فأوْمأت برأسها ، فأُخذ اليهودى فأقر ، فأمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن تُرَضّ رأسه بالحجارة . وفى رواية : فقتله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين حجرين . وهـذا نصٌّ صريح صحيح، وهو مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ . وقوله : ﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾. وأماما استدلوا به من حديث جابر لحديث ضعيف عنـد المحدِّثين ، لا يروى من طريق صحيح ، ولو صح قلنـا بموجبه، وأنه إذا قتل بحديدة قتل بها . يدل على ذلك حديث أنس : أن يهوديًّا رَضّ رأس جارية بين حجرين فرضّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأســه بين حجرين . وأما النهى عن المُثْلة، فنقول أيضا بموجبها إذا لم يُمثِّل، فاذا مَثَّل مَثّلنا به . يدل على ذلك حديث العُرَنِيِّين وهو صحيح أخرجه الأئمة . وقوله : " لا يعذب بالنار " صحيح إذا لم يحرق، فإن حَرَق حُرِق، يدل عليه عموم القرآن . قال الشافعيّ : إن طرحه فى النار عمدا طرح فى النـار حتى يموت؛ وذكره الوَقَّار[(1)] فى مختصره عن مالك ، وهو قول محمد بن عبـد الحكم . قال ابن المنذر : وقول كثير من أهل العلم فى الرجل يَخْنُق الرجل: عليه القود . وخالف فى ذلك محمد بن الحسن فقال : لو خنقه حتى مات أو طرحه فى بئر فمات ، أو ألقاه من جبل أو سطح فمات، لم يكن عليه قصاص وكان على عاقلته الدية؛ فان كان معروفا بذلك — قد خَنَق غير واحد — فعليه القتل . قال ابن المنذر : ولمـا أقاد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من اليهوديّ الذى رضّ رأس الجارية بالحجر كان هذا فى معناه، فلا معنى لقوله .

---

(١) الوقار (كسحاب) : لقب زكريا بن يحيى بن ابراهيم الفقيه المصرى، أخذ عن ابن القاسم وابن وهب .

قلت : وحكى هــذا القول غيره عن أبى حنيفة فقال : وقد شذّ أبو حنيفة فقال فيمن قتل بخنق أو بسم أو تَرْدِيَة من جبل أو بئر أو بخشبة : إنه لا يقتل ولا يقتص منه ، إلا إذا قتل بمحــدد حديد أو خشب أو كان معروفا بالخنق والتَّرْدِية وكان على عاقلته الدية . وهــذا منه ردّ للكتاب والسنة، وإحداث مالم يكن عليه أمر الأمة، وذريعة الى رفع القصاص الذى شرعه الله للنفوس فليس عنه مناص .

التاســعة — واختلفوا فيمن حبس رجلا وقتله آخر؛ فقــال عطاء : يقتــل القاتل ويحبس الحابس حتى يموت . وقال مالك : إن كان حبسه وهو يرى أنه يريد قتله قتلا جميعا . وفى قول الشافعىّ وأبى ثور والنعمان يعاقب الحابس، واختاره ابن المنذر .

قلت : قول عطاء صحيح وهو مقتضى التنزيل .

وروى الدّارقطنىّ عن ابن عمر عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : " إذا أمسك الرّجلُ الرجلَ وقتله الآخر يقتل القاتل ويحبس الذى أمسكه " . رواه سفيان الثورىّ عن اسماعيل ابن أميّة عن نافع عن ابن عمر . ورواه معمر وابن جريج عن اسماعيل مرسلا .

العاشرة — قوله تعــالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَى ﴾ الاعتداء هو التجاوز؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ ﴾ أى يتجاوزها . فمن ظلمك فخذ حقك منه بقدر مظلمتك ، ومن شتمك فردّ عليه مثل قوله ، ومن أخذ عرضك فخذ عرضه ، لاتتعدّى إلى أبويه ولا إلى ابنه أو قريبه ؛ وليس لك أن تكذب عليه وإن كذب عليك ، فإن المعصية لاتقابل بالمعصية ؛ فلو قال لك مثلا : ياكافر، جاز لك أن تقول له : أنت الكافر . وإن قال لك : يازان، فقصاصك أن تقول له : يا كذاب ياشاهد زور . ولو قلت له : يازان ، كنت كاذبا وأثمت فى الكذب . وإن مَطَلَك وهو غنىّ دون عذر فقــل : ياظالم ، ياآكل أموال الناس . قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "لَيُّ[1] الواجد يُحِلُّ عِرْضَه وعقوبتَه" . أما عرضه فبما فسرناه ، وأما عقوبته فالسجن يحبس فيه . وقال ابن عباس : نزل هذا قبل أن يقوى الإسلام ، فأمر من أوذى من المسلمين أن يجازى

(١) اللىّ : المطل . الواجد : القادر على قضاء دينه .

بمثل ما أوذى به، أو يصبر أو يعفو، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾. وقيل: نسخ ذلك بتصييره إلى السلطان. ولا يحل لأحد أن يقتص من أحد إلا بإذن السلطان.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى — روى البخاريّ عن حذيفة: وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، قال: نزلت فى النفقة. روى يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران قال: غزونا القُسْطَنْطِينِيَّة وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مهْ مهْ[1]! لا إله إلا الله، يلقى بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب: سبحان الله! أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما نصر الله نبيّه وأظهر دينه. قلنا: هلُمّ نقيم فى أموالنا ونصلحها، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية. والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد. فلم يزل أبو أيوب مجاهدا فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية، فقبره هناك. فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد فى سبيل الله، وأن الآية نزلت فى ذلك. وروى مثله عن حذيفة والحسن وقتادة ومجاهد والضحاك.

قلت: وروى الترمذى عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران هذا الخبر بمعناه فقال: «كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد؛ فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله! يلقى بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصارى فقال: يأيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه. فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر

(١) مه: زجر ونهى، فان وصلت نونت، قلت: مهٍ مهٍ. وكذلك صه.

ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ماضاع منها . فأنزل الله على نبيّه صلّى الله عليه وسلّم يردّ علينا ماقلنا : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو . فما زال أبو أيوب شاخصـا فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح» . وقال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهـد و جمهور الناس : المعنى لاتلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة فى سبيل الله وتخافوا العَيْلة ، فيقول الرجل : ليس عندى ماأنفقه . و إلى هذا المعنى ذهب البخارى إذ لم يذكر غيره ، والله أعلم . قال ابن عباس : أنفق فى سبيل الله ، و إن لم يكن لك إلا سهم أو مِشْقَص(١) ، ولا يقولن أحدكم : لاأجد شيئا . ونحوه عن السدى : أنفق ولو عِقَالا ، ولا تلق بيدك إلى التهلكة فتقول : ليس عنـدى شيء . وقول ثالث قاله ابن عبـاس ، وذلك أن رســول الله صلّى الله عليه وسلّم لمـا أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام اليه أناس من الأعراب حاضرين بالمدينـة فقالوا : بمـاذا نتجهّز ! فوالله مالنـا زاد ولا يطعمنا أحد . فنزل قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعنى تصدقوا يأهل الميسرة فى سبيل الله ، يعنى فى طاعة الله . ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلـكة ، يعنى ولا تمسكوا بأيديكم عن الصـدقة فتهلكوا . وهكذا قال مقاتل . ومعنى قول ابن عباس : ولا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا ، أى لاتمسكوا عن النفقة على الضعفاء ، فإنهم إذا تخلّفوا عنكم غلبكم العدو فتهلكوا . وقول رابع — قيل للـبَرَاء بن عازب فى هـذه الآية : أهو الرجل يحمل على الكتيبـة ؟ فقال : لا ، ولكنه الرجل يصيب الذنب فيلقى بيديه ويقول : قد بالغتُ فى المعاصى ولا فائدة فى التوبة . فييأس من الله فينهمك بعد ذلك فى المعاصى . فالهلاك : اليأس من الله . وقاله عبيدة السّلمانى . وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسـافروا فى الجهاد بغـير زاد ، وقد كان فعـل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الانقطاع فى الطريق ، [أو إلى] أن يكون عالة على الناس . فهذه خمسـة أقوال . وسبيل الله هنا : الجهاد ، واللفظ يتناول بعدُ جميع سُبُله . والباء فى « بأيديكم » زائدة ، التقدير تلقوا أيديكم .

(١) المشقص (كمنبر) : نصل عريض أو سهم فيه نصل ، يرمى به الوحش .

ونظيره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ . وقال المُبَرِّد : بأيديكم أى بأنفسكم ، فعبر بالبعض عن الكل، كقوله : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ بما كسبت يداك . وقيل: هذا ضَرْبُ مَثَل، تقول : فلان ألق بيده فى أمر كذا إذا استسلم، لأن المستسلم فى القتال يلق سلاحه بيديه ، فكذلك فعل كل عاجز فى أىّ فعل كان . ومنــه قول عبد المطلب : « والله إن إلقاءنا بأيدينا للوت لعجز » . وقال قوم : التقــدير لاتلقوا أنفسكم بأيديكم، كما تقول : لاتفسد حالك برأيك. والتَّهْلُكة (بضم اللام): مصدر من هَلَكَ يَهْلِكُ هَلاكا وهُلْكا وتَهْلُكة . أى لا تأخذوا فيما يهلككم. قاله الزجاج وغيره . أى ان لم تنفقوا عصيتم الله وهلكتم . وقيل . إن معنى الآية لا تمسكوا أموالكم فيرثها منكم غيركم، فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم . ومعنى آخر : ولا تمسكوا فيذهب عنكم الخَلَف فى الدنيا والثواب فى الآخرة . ويقال : لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، يعنى لاتنفقوا من حرام فيردّ عليكم فتهلكوا . ونحوه عن عكرمة قال : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، قال : لا تيمموا الخبيث منــه تنفقون . وقال الطبرى : قوله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ عام فى جميع ما ذكر لدخوله فيه، إذ اللفظ يحتمله .

الثانيـــة ــ اختلف العلماء فى اقتحام الرجل فى الحرب وحمله على العدوّ وحده، فقال القاسم بن مُخَيْمَرة والقاسم بن محمد وعبد الملك من علمائنا : لابأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيه قوّة، وكان لله بنية خالصــة، فإن لم تكن فيــه قوة فذلك من التهلكة . وقيل : إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل ، لأن مقصــوده واحد منهم ؛ وذلك بيِّنٌ فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ . وقال ابن خُوَيْزِمنداد : فأما أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن علم وغلب على ظنــه أن سيقتل من حمل عليــه وينجو فحسن، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أن يُقتل ولكن سيُنكى نكاية أو سيُبلى أو يؤثر أثرا ينتفع به المسلمون فجائز أيضا . وقد بلغنى أن عسكر المسلمين لمــا لقى الفرس نفرت خيل المسلمين من الفِيَلة، فعمد رجل منهم فصنع فيلا من طين وأنَّس به فرسه حتى ألفه، فلمــا أصبح لم ينفر

فرسه من الفيل لحمل على الفيل الذى كان يَقْدُمُها فقيل له : إنه قاتلك . فقال : لا ضير أن أقتل ويفتح للسلمين[1] . وكذلك يوم اليمامة لما تحصنت بنو حنيفة بالحديقة ، قال رجل من المسلمين : ضعونى فى الجَحِفَة[2] وألقونى اليهم ، ففعلوا وقاتلهم وحده وفتح الباب .

قلت : ومن هذا ما روى ان رجلا قال للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : أرأيت إن قُتلتُ فى سبيل الله صابرا مُحتسبًا؟ قال : "فلك الجنة" . فانغمس فى العدوّ حتى قُتل . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أُفْرِد يوم أُحُد[3] فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش؛ فلما رَهِقُوه[4] قال : "مَن يردّهم عنا وله الجنة" أو "هو رفيق فى الجنة" فتقدّم رجل من الانصار فقاتل حتى قُتل . فلم يزل كذلك حتى قُتِل السبعةُ ، فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "ما أَنصفْنا أصحابَنا" . هكذا الرواية « أنصفنا » بسكون الفاء « أصحابنا » بفتح الباء ؛ أى لم نَدُلُّهم[5] للقتال حتى قتلوا . وروى بفتح الفاء ورفع الباء، ووجهها أنها ترجع لمن فرّعنه من أصحابه، والله أعلم . وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع فى نجاة أو نكاية فى العدو، فان لم يكن كذلك فهو مكروه، لأنه عرض نفسه للتلف فى غير منفعة للسلمين . فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه، ولأن فيه منفعة للسلمين على بعض الوجوه . وإن كان قصده إرهاب العدو وليعلم صلابة المسلمين فى الدِّين فلا يبعد جوازه . وإذا كان فيه نفع للسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذى مدح الله به المؤمنين فى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الاية . إلى غيرها من آيات المدح التى مدح الله بها من بذل نفسه . وعلى ذلك ينبغى أن يكون حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أنه متى رجا نفعًا فى الدّين فبذل نفسه فيه حتى قتل كان

(١) هو البراء بن مالك ، أخو أنس بن مالك ؛ كما فى تاريخ الطبرى .
(٢) الجحفة (بتقديم الحاء على الجيم والتحريك) : ترس يتخذ من الجلود .
(٣) أفرد يوم أحد ، أى حين انهزم الناس وخلص اليه العدوّ .
(٤) رهق (بكسر ثانيه) : غشيه ولحقه .
(٥) أى لم نرشدهم ونسدّدهم .

فى أعلا درجات الشهداء . قال الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . وقد روى عكرمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل تكلم بكلمة حق عند سلطان جائر فقتله" . وسيأتى القول فى هذا فى «آل عمران» إن شاء الله تعالى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ أى فى الإنفاق فى الطاعة، أو أحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم . وقيل : أحسنوا فى أعمالكم بامتثال الطاعات، روى ذلك عن بعض الصحابة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله ؛ فقيل : أداؤهما والإتيان بهما، كقوله : ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أى ائتوا بالصيام، وهذا على مذهب من أوجب العمرة، على ما يأتى . ومن لم يوجبها قال : المراد تمامهما بعد الشروع فيهما، فإن من أحرم بنسك وجب عليه المضىّ فيه ولا يفسخه، قال معناه الشعبىّ وابن زيد . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إتمامهما أن تُحرِم بهما من دُوَيْرة أهلك . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص، وفعله عمران بن حُصَيْن . وقال سفيان الثورىّ : إتمامهما أن تخرج قاصدا لها لا لتجارة ولا لغير ذلك . ويقوّى هذا قوله «لله» . وقال عمر : إتمامهما أن يُفرد كل واحد منهما من غير تمتع وقران . وقاله ابن حبيب . وقال مقاتل : إتمامهما ألا تستحلوا فيهما مالا ينبغى لكم ؛ وذلك أنهم كانوا يشركون فى إحرامهم فيقولون : لبيك اللّهمّ لبيك، لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك . فقال : فأتموهما ولا تخلطوهما بشىء آخر .

قلت : أمّا ما روى عن علىّ وفعله عمران بن حصين فى الإحرام قبل المواقيت التى وقّتها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقد قال به عبد الله بن مسعود وجماعة من السلف، وثبت أن عمر أهلّ من إيلياء[1] . وكان الأسود وعلقمة وعبد الرحمن وأبو إسحاق يُحرِمون من بيوتهم ؛

(١) إيلياء (بالمد وتقصر) : اسم مدينة بيت المقدس .

*

ورخّص فيه الشافعىّ . وروى أبو داود والدّارقطنىّ عن أم سَلَمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحرم من بيت المقدس بحجّ أو عُمْرة كان من ذنوبه كيوم ولدته أمه"(١) فى رواية "غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر". وخرّجه أبو داود وقال : «يرحم الله وكيعا ! أحرم من بيت المقدس؛ يعنى إلى مكة» . ففى هذا إجازة الإحرام قبل الميقات، وكره مالك رحمه الله أن يُحرِم أحد قبل الميقات، ويروى ذلك عن عمر بن الخطاب، وأنه أنكر على عمران بن حصين إحرامه من البصرة . وأنكر عثمان على ابن عُمر(٢) إحرامه قبــل الميقات . وقال أحمد و إسحاق : وجهُ العمل المواقيت ؛ ومن الحجة لهــذا القول أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم وقّت المواقيت وعينها فصارت بيانا لمجمل الحج ، ولم يُحرِم صلى الله عليــه وسلّم من بيته لحجتــه ، بل أحرم من ميقاته الذى وقّتــه لأمته . وما فعــله صلّى الله عليــه وسلّم فهو الأفضــل إن شاء الله . وكذلك صــنع جمهور الصحابة والتابعين بعــدهم . واحتج أهل المقالة الأولى وأن ذلك أفضل بقول عائشة : ما خُيّر رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم بين أمرين إلا اختار أيسرهما . وبحديث أم سلمة مع ما ذكر عن الصحابة فى ذلك، وقد شهدوا إحرام رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى حجته من ميقاته، وعرفوا مغزاه ومراده، وعلموا أن إحرامه من ميقاته كان تيسيرا على أمته .

الثانيــة — روى الأئمة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقّت لأهل المدينة ذا الحُلَيْفَة(٣)، ولأهل الشام الجُحْفة(٤)، ولأهل نجد قَرْن(٥)، ولأهل اليمن يَلَمْلَم(٦) ، هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة . ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ ؛ حتى أهل مكة من مكة

(١) كذا فى الدارقطنى . وفى الأصول : « كهيئة يوم » . (٢) فى شرح الموطأ للزرقانى : « ... على عبد الله بن عامر» . وعبــد الله بن عامر هــذا ، ابن خال عثمان وكان واليا له على البصرة . (٣) ذو الحليفة (مصغر حلفة) : قرية خربة بينها و بين مكة مائتا ميل . (٤) الجحفة (بضم الجيم وسكون المهملة) : قرية خربة بينها و بين مكة خمس مراحل ، ويقرب منها القرية المعروفة برابغ — براء وموحدة وغين معجمة — فيصح الإحرام منها . (٥) قرن (بفتح القاف وسكون الراء) : جبــل مشرف على عرفات ، وهو على مرحلتين من مكة . (٦) يلملم (بفتح التحتية واللام وسكون الميم وفتح اللام) : مكان على مرحلتين من مكة .

يهِلّون منها . وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث واستعماله، لا يخالفون شيئا منه .
واختلفوا في ميقات أهل العراق وفيمن وقّته؛ فروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقّت لأهل المشرق العقيق . قال الترمذيّ : هذا حديث حسن . وروى أن عمر وقّت لأهل العراق ذاتَ عِرْق[1] . وفي كتاب أبي داود عن عائشة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقّت لأهل العراق ذات عرق . وهذا هو الصحيح، ومن روى أن عمر وقّته، لأن العراق في وقته افتتحت، فغفلة منه؛ بل وقّته رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما وقّت لأهل الشام الجحفة . والشام كلها يومئذ دار كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان، ولم تفتح العراق ولا الشام إلا على عهد عمر ، وهذا مالا خلاف فيه بين أهل السير . قال أبو عمر : كل عِراقي أو مشرقي أحرم من ذات عِرْق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته، والعقيق أحوط عندهم وأولى من ذات عرق، وذات عرق ميقاتهم أيضا بإجماع .

الثالثــة — أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتي الميقات أنه محرم، وإنما منع من ذلك مَنْ رأى الإحرام عند الميقات أفضل، كراهية أن يضيّق المرء على نفسه ما قد وسّع الله عليه ، وأن يتعرض بما لا يؤمن أن يحدث في إحرامه ، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك، لأنه زاد ولم ينقص .

الرابعــة — في هذه الآية دليل على وجوب العمرة، لأنه تعالى أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج . قال الصُّبَيّ[2] بن معبد: أتيت عمر رضي الله عنه فقلت إني كنت نصرانيا فأسلمت، وإني وجدت الحج والعمرة مكتوبتين عليّ، وإني أهللت بهما جميعا. فقال له عمر: هُدِيتَ لسنة نبيّك . قال ابن المنذر : ولم ينكر عليه قوله : وجدت الحج والعمرة مكتوبتين عليّ . وبوجوبهما قال عليّ بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس . وروى الدارقطنيّ عن ابن جريج قال: أخبرني نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : ليس من خلق الله أحد إلا عليه حجة وعمرة واجبتان

(١) ذات عرق : قرية على مرحلتين من مكة .
(٢) الصبي (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وتشديد الياء) .

من استطاع إلى ذلك سبيلا؛ فمن زاد بعدها شيئا فهو خير وتطوع . قال : ولم أسمعه يقول في أهل مكة شيئا . قال ابن جريج : وأخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال : العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إليه سبيلا . وممن ذهب إلى وجوبها من التابعين : عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي وسعيد بن جبير وأبو بردة ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعي وأحمد و إسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكيين . وقال الثوري : سمعنا أنها واجبة . وسئل زيد بن ثابت عن العمرة قبل الحج ؛ فقال : صلاتان لا يضرك بأيهما بدأت . ذكره الدارقطني . وروى مرفوعا عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت " . وكان مالك يقول : « العمرة سنة ولا نعلم أحدا أرخص في تركها » . وهو قول النخعي وأصحاب الرأى فيما حكى ابن المنذر . وحكى بعض القزوينيين والبغداديين عن أبي حنيفة أنه كان يوجبها كالحج ، وبأنها سنة ثابتة ، قاله ابن مسعود وجابر بن عبد الله . روى الدارقطني حدثنا محمد بن القاسم بن زكريا حدثنا محمد بن العلاء أبو كُرَيب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن محمد بن المُنْكدِر عن جابر بن عبد الله قال : سأل رجل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الصلاة والزكاة والحج : أواجب هو ؟ قال : " نعم " فسأله عن العمرة : أواجبة هى ؟ قال : " لا وأن تعتمر خير لك ". رواه يحيى[(1)] بن أيوب عن حجاج وابن جريج عن ابن المنكدر عن جابر موقوفا من قول جابر . فهذه حجة من لم يوجبها من السنة . قالوا : وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب، لأن الله سبحانه إنما قرنها فى وجوب الإتمام لا فى الابتداء ، فإنه ابتدأ الصلاة والزكاة فقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ . وابتدأ بإيجاب الحج فقال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ . ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها ، فلو حج عَشْرَ حِجَج، أو اعتمر عَشْرَ عُمَر لزم الإتمام فى جميعها ؛ فإنما جاءت الآية لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء . والله أعلم . واحتج المخالف من جهة النظر على وجوبها بأن قال : عماد الحج الوقوف بعرفة،

(١) فى نسخ الأصل : « محمد » والتصويب عن سنن الدارقطنى .

وليس فى العمرة وقوف ، فلو كانت كسنّة الحج لوجب أن تساويه فى أفعاله ، كما أن سنة الصلاة تساوى فريضتها فى أفعالها .

الخامســـة — قرأ الشعبيّ وأبو حيوة برفع التاء فى العمرة ، وهى تدل على عدم الوجوب . وقرأ الجماعة « العمرة » بنصب التاء ، وهى تدل على الوجوب . وفى مصحف ابن مسعود « وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لله »[1] وروى عنه « وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت » . وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق ، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة ، ولا حظ بقصد ، ولا قربة بمعتقد ؛ فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وقضاء حقـه ، ثم سامح فى التجارة على ما يأتى .

السادســـة — لا خلاف بين العلماء فيمن شهد مناسك الحج وهو لا ينوى حجًّا ولا عمرة — والقلم جارٍ له وعليه — أن شهودها بغير نية ولا قصد غير مُغْنٍ عنه ، وأن النية تجب فرضا ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا ﴾ ومن تمام العبادة حضور النية ، وهى فرض كالإحرام عند الإحرام ؛ لقوله عليه السلام لما ركب راحلته : " لَبَّيْكَ بحجة وعمرة معا " . على ما يأتى . وذكر الربيع فى كتاب البُوَيْطى عن الشافعيّ قال : ولو لَبَّى رجل ولم ينو حجا ولا عمرة لم يكن حاجا ولا مُعْتَمِرا ، ولو نوى ولم يُلَبِّ حتى قضى المناسك كان حجه تاما . واحتج بحديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " إنما الأعمال بالنيات " . قال : ومن فعل مثل ما فعل علىّ حين أهلّ على إهلال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أجزته تلك النيـة ؛ لأنها وقعت على نيـةٍ لغيره قد تقدّمت ، بخلاف الصلاة .

السابعـــة — واختلف العلماء فى المراهق والعبد يُحرِمان بالحج ثم يحتلم هذا ويُعْتَق هذا قبل الوقوف بعرفة ؛ فقال مالك : لا سبيل لهما إلى رفض الإحرام ولا لأحد ، متمسّكا بقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ومن رَفَض إحرامه فلا يتم حجه ولا عمرته . وقال أبو حنيفـة : جائز للصبيّ إذا بلغ قبـل الوقوف بعرفة أن يجدّد إحراما ؛ فإن تمـادى على حجه ذلك لم يُجْزه

(١) قال أبو حيان فى البحر ينبغى أن يحمل هـذا كله على التفسير لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمع عليـه المسلمون .

من حجّة الإسلام . واحتج بأنه لما لم يكن الحج يجزى عنه، ولم يكن الفرض لازما له حين أحرم بالحج ثم لزمه حين بلغ، استحال أن يُشغل عن فرض قد تعيّن عليه بنافلة و يعطل فرضه؛ كمن دخل فى نافلة وأقيمت عليه المكتوبة وخشى فوتها، قطع النافلة ودخل فى المكتوبة . وقال الشافعىّ : إذا أحرم الصبىّ ثم بلغ قبل الوقوف بعرفة فوقف بها محرما أجزأه من حجة الإسلام، وكذلك العبد . قال : ولو عَتَق بمزدلفة وبلغ الصبىّ بها فرجعا إلى عرفة بعد العتق والبلوغ فأدركا الوقوف بها قبل طلوع الفجر أجزت عنهما من حجة الإسلام، ولم يكن عليهما دم؛ ولو احتاطا فأهراقا[(١)] دمًا كان أحبّ إلىّ، وليس ذلك بالبيّن عندى . واحتج فى إسقاط تجديد الإحرام بحديث علىّ رضى الله عنه إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل من اليمن مُهِلًّا بالحج : "بِمَ أهللت" قال قلت : لبّيك اللّهمّ بإهلالٍ كإهلال نبيّك . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "فإنى أهللتُ بالحج وسقتُ الهَدْىَ". قال الشافعىّ : ولم ينكر عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقالته، ولا أمره بتجديد نيّة لإفرادٍ أو تمتّع أو قِرانٍ . وقال مالك فى النصرانىّ يُسلم عشيّةَ عرفةَ فيُحرِم بالحج : أجزأه من حجة الإسلام، وكذلك العبد يَعْتِق، والصبىّ يبلغ إذا لم يكونوا محرمين ولا دَمَ على واحد منهم، وإنما يلزم الدم من أراد الحج ولم يحرم من الميقات . وقال أبو حنيفة : يلزم العبد الدم، وهو كالحر عندهم فى تجاوز الميقات بخلاف الصبىّ والنصرانىّ فإنهما لا يلزمهما الإحرام لدخول مكة لسقوط الفرض عنهما . فإذا أسلم الكافر و بلغ الصبىّ كان حكمهما حكم المكىّ، ولا شىء عليهما فى ترك الميقات .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فيه اثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — قال ابن العربى : هذه آية مشكلة، عُضْلة من العُضَل .

قلت : لا إشكال فيها ونحن نبيّنها غاية البيان فنقول : الإحصار هو المنع من الوجه الذى تقصده بالعوائق جملة، بجملة بأى عذر كان، كأن حصر عدو أو جور سلطان أو مرض أو ما كان . واختلف العلماء فى تعيين المانع هنا على قولين : الأول — قال علقمة وعروة

(١) هراق الماء وأهرقه وأهراقه : صبه . وأصله : أراقه .

ابن الزبير وغيرهما : هو المرض لا العدو . وقيل : العدو خاصة . قاله ابن عباس وابن عمر وأنس والشافعيّ . قال ابن العربي : وهو اختيار علمائنا . ورأيُ أكثر أهل اللغة ومحصِّليها على أن أُحْصِر عُرِّض للمرض، وحُصِر نزل به العدو .

قلت : ما حكاه ابن العربي من أنه اختيار علمائنا لم يقل به إلا أشهب وحده، وخالفه سائر أصحاب مالك في هذا وقالوا: الإحصار إنما هو المرض، وأما العدو فإنما يقال فيه : حُصِر حصْرًا فهو محصور . قاله الباجي في المنتقى . وحكى أبو إسحاق الزجاج أنه كذلك عند جميع أهل اللغة على ما يأتي . وقال أبو عبيدة والكسائي : أحصر بالمرض وحصر بالعدو . وفي المجمل لابن فارس على العكس ، فحصر بالمرض، وأحصر بالعدو . وقالت طائفة : يقال أحصر فيهما جميعا من الرباعي . حكاه أبو عمر .

قلت : وهو يشبه قول مالك حيث ترجم في موطاه «أحصر» فيهما فتأمله .

وقال الفراء : هما بمعنًى واحد في المرض والعدو . قال القشيري أبو نصر : وادعت الشافعية أن الإحصار يستعمل في العدو، فأما المرض فيستعمل فيه الحصر، والصحيح أنهما يستعملان فيهما .

قلت : ما ادعته الشافعيّة قد نصّ الخليل بن أحمد وغيره على خلافه . قال الخليل : حصرت الرجل حصرا منعته وحبسته ، وأحصر الحاج عن بلوغ المناسك من مرض أو نحوه . هكذا قال . جعل الأول ثلاثيا من حصرت ، والثاني في المرض رباعيًّا، وعلى هذا خرج قول ابن عباس : لا حصر إلا حصر العدو . وقال ابن السِّكِّيت : أحصره المرض إذا منعه من السفر أو من حاجة يريدها . وقد حصره العدو يحصرونه إذا ضيقوا عليه فأطافوا به . وحاصروه محاصرة وحصارا . قال الأخفش : حصرت الرجل فهو محصور ، أي حبسته . قال: وأحصرني بولي، وأحصرني مرضي، أي جعلني أحصر نفسي. قال أبو عمرو الشيباني : حصرني الشيء وأحصرني، أي حبسني .

قلت : فالأكثر من أهل اللغة على أن حصر فى العدوّ، وأحصر فى المرض ؛ وقد قيـل ذلك فى قول الله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . وقال ابن مَيّادة :

وما هجرُ لَيْلَى أن تكون تباعَدتْ * عليكَ ولا أنْ أحْصَرتْك شُغُولُ

وقال الزجاج : الإحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض، فأما من العدوّ فلا يقال فيه إلا حُصِر . يقال : حُصِر حصرا ؛ وفى الأول أحصر إحصارا ؛ فدلّ على ما ذكرناه . وأصل الكلمة من الحبس؛ ومنه الحصير للذى يحبس نفسه عن البوح بسرّه . والحصير : الملك لأنه كالمحبوس من وراء الحجاب . والحصير الذى يجلس عليـه لانضمام بعض طاقات البَرْدِىّ[1] إلى بعض، كحبس الشىء مع غيره .

الثانيـــة — ولمـا كان أصل الحصر الحبس قالت الحنفيـة : المُحْصَر من يصـير ممنوعا من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدو أو غير ذلك . واحتجوا بمقتضى الإحصار مطلقا . قالوا : وذكر الأمن فى آخر الآية لا يدل على أنه لا يكون من المرض؛ قال صلّى الله عليه وسلّم : " الزكام أمان من الجـذام " . وقال : "مَن سَـبَقَ العاطِسَ با لحمد أَمِنَ الشَّوْص واللَّوْص والعِلَّوْص" . الشَّوص : وجع السن . واللَّوص : وجع الأذن . والعِلَّوص : وجع البطن . أخرجه ابن ماجه فى سننه . قالوا : وإنما جعلنا حبس العدوّ حصارا قياسا على المرض إذا كان فى حكمه، لا بدلالة الظاهر . وقال ابن عمر وابن الزبير وابن عباس والشافعىّ وأهل المدينة : المراد بالآية حصر العدوّ؛ لأن الآية نزلت فى سنة ستّ فى عمرة الحديبية حين صدّ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن مكة . قال ابن عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم هَدْيَه وحلق رأسه . ودلّ على هذا قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ ﴾ . ولم يقل : برأتم . والله أعلم .

الثالثـــة — جمهور الناس على أن المُحْصَر بعدوّ يحلّ حيث أُحصر ويَنْحَر هَـدْيه إن كان ثَمّ هدىٌ ويَحْلِق رأسه . وقال قتادة وإبراهيم : يبعث بهديه إن أمكن، فإذا بلغ مَحِلّه صار حلالا .

(١) البردى (بفتح الموحدة وسكون الراء) : نبات يعمل منـه الحصر . وبضمها وسكون الراء : ضرب من أجود التمر .

وقال أبو حنيفة: دم الإحصار لا يتوقف على يوم النحر، بل يجوز ذبحه قبل يوم النحر إذا بلغ مَحِلَّه . وخالفه صاحباه فقالا : يتوقف على يوم النحر، وإن نحر قبله لم يجزه . وسيأتي هذه المسئلة زيادة بيان .

الرابعة — الأكثر من العلماء على أن من أحصر بعدوّ كافر أو مسلم، أو سلطان حبسه في سجن أن عليه الهَدْيَ؛ وهو قول الشافعيّ، وبه قال أشهب . وكان ابن القاسم يقول : ليس على من صُدّ عن البيت في حج أو عمرة هديٌ إلا أن يكون ساقه معه . وهو قول مالك . ومن حجتهما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إنما نحر يوم الحديبية هديا قد كان أشْعَره وقلّده حين أحرم بعمرة، فلما لم يبلغ ذلك الهدي مَحِلَّه للصّدّ، أمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنحر؛ لأنه كان هديا وجب بالتقليد والإشعار، وخرج لله فلم يجز الرجوع فيه، ولم يَنْحَره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أجل الصدّ؛ فلذلك لا يجب على من صُدّ عن البيت هَدْيٌ . واحتج الجمهور بأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يحلّ يوم الحديبية ولم يَحْلِق رأسه حتى نحر الهدي ، فدلّ ذلك على أنّ مِنْ شرط إحلال المحصر ذبح هدي إن كان عنده، وإن كان فقيرا فمتى وجده وقَدَر عليه لا يَحِلّ إلا به . وهو مقتضى قوله : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ . وقد قيل : يحل ويُهدي إذا قَدَر عليه ؛ والقولان للشافعي ، وكذلك من لا يجد هديا يشتريه قولان .

الخامسة — قال عطاء وغيره : المُحْصَر بمرض كالمحصر بعدو . وقال مالك والشافعيّ وأصحابهما : من أحصره المرض فلا يَحِلّه إلا الطواف بالبيت وإن أقام سنين حتى يُفيق . وكذلك من أخطأ العدد أو خفي عليه الهلال . قال مالك : وأهل مكة في ذلك كأهل الآفاق . وإن احتاج المريض إلى دواء تداوى به وافتدى وبقي على إحرامه لا يَحِلّ من شيء حتى يبرأ من مرضه ؛ فإذا برئ من مرضه مضى إلى البيت فطاف به سبعا ، وسَعى بين الصفا والمروة وحَلّ من حجته أو عمرته . وهذا كله قول الشافعي ، وذهب في ذلك إلى ما روى عن عمر

وابن عبـاس وعائشة وابن عمر وابن الزبير أنهـم قالوا فى المُحْصَر بمـرض أو خطأ العـدد : إنه لا يَحلّه إلا الطواف بالبيت . وكذلك من أصابه كسر أو بطن منخرق . وحكم من كانت هذه حاله عند مالك وأصحابه أن يكون بالخيار إذا خاف فوت الوقوف بعرفة لمرضه، إن شاء مضى إذا أفاق إلى البيت فطاف وتَحَلّل بعمرة، و إن شاء أقام على إحرامه إلى قابل، و إن أقام على إحرامه ولم يواقع شيئا مما نُهى عنه الحاج فلا هَدْى عليه ، ومن حجته فى ذلك الإجماع من الصحابة على أن من أخطأ العدد أن هـذا حكمه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وقال فى المكىّ إذا بقى محصـورا حتى فرغ الناس من حجهم : فإنه يخـرج إلى الحل فيلبّى و يفعل ما يفعـله المعتمر ويحل؛ فإذا كان قابل حجّ وأهدى . وقال ابن شهاب الزهرىّ فى إحصار من أحصر بمكة من أهلها : لا بدّ له من أن يقف بعرفة و إن نُعش نَعْشًا . واختار هذا القول أبو بكر محمد ابن أحمد بن عبد الله بن بكير المـالكى فقال : قول مالك فى المُحْصَر المكىّ أن عليه ما على الآفاق من إعادة الحج والهدى خلاف ظاهر الكتاب، لقول الله عزّ وجلّ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . قال : والقول عندى فى هذا قول الزهرىّ فى أن الإباحة من الله عزّ وجلّ لمن لم يكن أهـله حاضرى المسجد الحرام أن يقيم لبعد المسافة يتعالج و إن فاته الحج ؛ فأما من كان بينـه و بين المسجد الحرام مالا تقصر فى مثله الصلاة فإنه يحضر المشاهد و إن نُعش نعشا لقرب المسافة بالبيت . وقال أبو حنيفة وأصحابه : كل من منع من الوصول إلى البيت بعدوّ أو مرض أو ذهاب نفقة أو إضلال راحلة أو لدغ هامة فإنه يقف مكانه على إحرامه ويبعث بهديه أو بثمن هديه ، فإذا نحر فقـد حلّ من إحرامه . كذلك قال عروة وقتادة والحسن وعطاء والنخعى ومجاهد وأهل العراق لقوله ، تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ الآية .

السادســة ــ قال مالك وأصحابه : لا ينفع المحرم الإشتراط فى الحج إذا خاف الحصر بمرض أو عدوّ، وهو قول الثورىّ وأبى حنيفة وأصحابهم . والاشـتراط أن يقول إذا أهلّ : لبيّك اللهـمّ لبيك، ومَحِلّى حيث حبستنى من الأرض . وقال أحمد بن حنبل و إسحاق بن رَاهْوَيْه

وأبو ثور : لا بأس أن يشترط وله شرطه . وقاله غير واحد من الصحابة والتابعين ، وحجتهم حديث ضُبَاعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : يا رسول الله، إني أردت الحج، أشترط؟ قال: "نعم" . قالت : فكيف أقول؟ قال: "قولي لبّيك اللّهمّ لبيك ومَحِلّي من الأرض حيث حبستني" . أخرجه أبو داود والدّارقطنيّ وغيرهما. قال الشافعيّ : لو ثبت حديث ضُبَاعة لم أَعْدُه، وكان محله حيث حبسه الله .

قلت : قد صحّحه غير واحد ، منهم أبو حاتم البستي وابن المنذر، قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لضباعة بنت الزبير: "حُجّي واشترطي". و به قال الشافعيّ إذ هو بالعراق ، ثم وقف عنه بمصر . قال ابن المنذر : و بالقول الأوّل أقول . وذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال : أخبرني أبو الزبير أن طاوسا وعكرمة أخبراه عن ابن عباس قال : جاءت ضباعة بنت الزبير إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : إني امرأة ثقيلة و إني أريد الحج، فكيف تأمرني أن أهلّ؟ قال : "أهلّي واشترطي أن مَحِلّي حيث حبستني". قال : فأدركَتْ (١) . وهذا إسناد صحيح .

السابعة ــ واختلفت العلماء أيضا في وجوب القضاء على من أحصر؛ فقال مالك والشافعي: من أحصر بعدوّ فلا قضاء عليه لحجه ولا عمرته، إلا أن يكون صرورة (٢) لم يكن حج؛ فيكون عليه الحج على حسب وجوبه عليه. وكذلك العمرة عند من أوجبها فرضا . وقال أبو حنيفة: المحصر بمرض أو عدوّ عليه حجة وعمرة؛ وهو قول الطبري . قال أصحاب الرأي : إن كان مُهِلّا بحج قضى حجة وعمرة، لأن إحرامه بالحج صار عمرة . وإن كان قارنا قضى حجة وعمرتين . وإن كان مُهِلّا بعمرة قضى عمرة . وسواء عندهم المحصر بمرض أو عدوّ على ما تقدّم . واحتجّوا بحديث ميمون بن مهران قال : خرجت معتمرا عامَ حاصرَ أهلُ الشام ابنَ الزبير بمكة و بعث معي رجال من قومي بهَدْي؛ فلما انتهيت الى أهل الشام منعوني أن أدخل الحرم؛ فنحرت

---

(١) قوله : فأدركت . معناه أدركت الحج ولم تحلل حتى فرغت منه . (٢) الصرورة (بالصاد المهملة) : الذي لم يحجج قط . ويطلق أيضا على من لم يتزوج . وأصله من الصر : الحبس والمنع .

الهدى مكانى ثم حللت ثم رجعت؛ فلما كان من العام المقبل خرجت لأقضى عمرتى، فأتيت ابن عباس فسألته . فقال : أبدل الهدى، فان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمر أصحابه أن يبدلوا الهــدى الذى نحروا عام الحديبيــة فى عمرة القضاء . واســتدلوا بقوله عليه السلام : "مَن كُسِر أو عَرَج فقد حلّ وعليه حجة أخرى أو عمرة أخرى" . رواه عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من عَرَج أو كُسِر فقد حل وعليه حجة أخرى" . قالوا : فاعتمار رســول الله صلّى الله عليه وســلّم وأصحابه فى العام المقبل من عام الحديبية إنما كان قضاء لتلك العمرة . قالوا : ولذلك قيل لهـا عمرة القضاء . واحتج مالك بأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يأمر أحدا من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئا ولا أن يعودوا لشىء، ولا حفظ ذلك عنه بوجه من الوجوه ، ولا قال فى العام المقبل : إن عمرتى هذه قضاء عن العمرة التى حُصرتُ فيها، ولم ينقل ذلك عنه . قال : وعمرة القضاء وعمرة القَضيّة سواء، وإنما قيل لهـا ذلك لأن رسول الله صلّى الله عليه وســلّم قاضى قريشا وصالحهم فى ذلك العام على الرجوع عن البيت وقصده من قابل؛ فسميت بذلك عمــرة القضـــية .

الثامنـــة — لم يقــل أحد من الفقهاء فيمن كسر أو عرج أنه يَحِلّ مكانه بنفس الكسر غير أبى ثور على ظاهر حديث الحجــاج بن عمرو ، وتابعــه على ذلك داود بن علىّ وأصحابه . وأجمع العلماء على أنه يحل من كسر؛ ولكن اختلفوا فيما به يحل؛ فقال مالك وغيره : يَحِلّ بالطواف بالبيت لا يحِلّه غيره . ومن خالفه من الكوفيين يقول : يَحِلّ بالنية وفعل ما يتحلل به على ما تقدّم من مذهبه .

التاســعة — لاخلاف بين علماء الأمصار أن الإحصار عام فى الحج والعمرة . وقال ابن سـيرين : لا إحصار فى العمرة، لأنها غير مؤقتة، وأجيب بأنها وإن كانت غير مؤقتــة لكن فى الصبر الى زوال العذر ضرر، وفى ذلك نزلت الآية . وحكى عن ابن الزبير أن من أحصره العدو أو المرض فلا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وهذا أيضا مخالف لنص الخبر عام الحديبية .

العاشرة — الحاصر لا يخلو أن يكون كافرا أو مسلما، فان كان كافرا لم يجز قتاله ولو وثق بالظهور عليه، ويتحلل بموضعه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ كما تقدّم. ولو سأل الكافر جُعْلًا لم يجز لأن ذلك وَهْنٌ فى الإسلام. فان كان مسلما لم يجز قتاله بحال، ووجب التحلل. فان طلب شيئا ويتخلى عن الطريق جاز دفعه، ولم يجز القتال لما فيه من إتلاف المهج، وذلك لا يلزم فى أداء العبادات فان الدين أسمح. وأما بذل الجُعْل فلما فيه من دفع أعظم الضررين بأهونهما، ولأن الحج مما ينفق فيه المال، فيُعَدّ هذا من النفقة.

الحادية عشرة — والعدوّ الحاصر لا يخلو أن يتيقن بقاؤه واستيطانه لقوته وكثرته أوْلا؛ فان كان الأوّل حلّ المحصر مكانه من ساعته. وإن كان الثانى وهو مما يرجى زواله فهذا لا يكون محصورا حتى يبقى بينه وبين الحج مقدار ما يعلم أنه إن زال العدوّ لا يدرك فيه الحج، فيحلّ حينئذ عند ابن القاسم وابن الماجشون. وقال أشهب: لا يحل من حصر عن الحج بعدوّ حتى يوم النحر ولا يقطع التلبية حتى يروح الناس الى عرفة. وجه قول ابن القاسم أن هذا وقت يأس من إكمال حجه لعدوّ غالب، فجاز له أن يحلّ فيه، أصل ذلك يوم عرفة. ووجه قول أشهب أنّ عليه أن يأتى من حكم الإحرام بما يمكنه [والتزامُه[1] له الى يوم النحر، الوقت الذى يجوز للحاج التحلل بما يمكنه] الاتيان به [فكان[1] ذلك عليه].

قوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ما، فى موضع رفع، أى فالواجب أو فعليكم ما استيسر. ويحتمل أن يكون فى موضع نصب، أى فانحروا أو فاهدوا. وما استيسر عند جمهور أهل العلم شاة. وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير: ما استيسر جمل دون جمل، وبقرة دون بقرة لا يكون من غيرهما. وقال الحسن أعلى الهدى بدنة وأوسطه بقرة وأخسّه شاة. وفى هذا دليل على ماذهب إليه مالك من أن المحصر بعدوّ لا يجب عليه القضاء، لقوله: ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ولم يذكر قضاء. والله أعلم.

---

(١) الزيادة عن كتاب «المنتقى للباجى» يقتضيها السياق.

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان، وهو ما يُهدَى إلى بيت الله من بَدَنة أو غيرها . والعرب تقول : كم هَدِىُّ بنى فلان، أى كم إبلهم . وقال أبو بكر: سُمّيت هَدِيًّا لأن منها ما يُهدَى إلى بيت الله؛ فسميت بما يلحق بعضها، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ . أراد فإن زنى الإماء فعلى الأَمَة منهن إذا زنت نصف ما على الحـرة البكر إذا زنت . فذكر الله المحصنات وهو يريد الأبكار؛ لأن الإحصان يكون فى أكثرهن فسمّين بأمر يوجد فى بعضهن . والمحصنة من الحرائر هى ذات الزوج، يجب عليها الرجم إذا زنت، والرجم لا يتبعّض؛ فيكون على الأَمَة نصفه؛ فانكشف بهذا أن المحصنات يراد بهن الأبكار لا أولات الأزواج . وقال الفراء : أهل الحجاز وبنو أسد يخففون الهدى، قال : وتميم وسُفْلَى قَيْس يثقّلون فيقولون : هَدِىّ . قال الشاعر :

حَلَفْتُ بربِّ مكّةَ والمُصَلَّى * وأعْناقِ الهَـــدِىِّ مُقَـلَّداتِ

قال : وواحد الهدى هدية . ويقال فى جمع الهدى : أهداء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَـدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ الخطاب لجميع الامة؛ مُحْصَرٍ ومُخَلًّى . ومن العلماء من يراها للمحصَرين خاصة، أى لا تتحلّلوا من الإحرام حتى ينحر الهـدى . والمَحِل : الموضـع الذى يحل فيـه ذبحه . فالمَحِلّ فى حصر العدوّ عنـد مالك والشافعى موضع الحصر؛ اقتداء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم زمن الحديبية؛ قال الله تعالى: ﴿ وَالْهَـدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ قيل : محبوسا إذا كان محصرا ممنوعا من الوصول الى البيت العتيق . وعند أبى حنيفة محلّ الهدى فى الإحصار الحرم؛ لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ . وأجيب عن هـذا بأن المخاطب به الآمن الذى يجد الوصول الى البيت . فأما المحصر فخارج من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ بدليل نحر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه هديهم بالحديبية وليست من الحرم . واحتجوا من السـنة بحديث ناجية آبن جُنْدُب صاحب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال للنبىّ صلّى الله عليه وسـلّم : ابعث معى

الهدى فأنحره بالحرم . قال : "فكيف تصنع به" قال : أخرجه فى الأودية لا يقدرون عليه، فأنطلق به حتى أنحره فى الحرم . وأجيب بأن هذا لا يصح ، وإنما ينحر حيث حل؛ اقتداء بفعله عليه السلام بالحديبية . وهو الصحيح الذى رواه الأئمة، ولأن الهدى تابع للمُهْدِى، والمُهدِى حلّ بموضعه؛ فالمُهدَى أيضا يحلّ معه .

الثانية — واختلف العلماء على ما قررناه فى المحصر هل له أن يَحلق أو يَحلّ بشيء من الحلّ قبل أن يَنحر ما استيسر من الهدى ؛ فقال مالك : السنة الثابتة التى لا اختلاف فيها عندنا أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من شعره حتى ينحر هديه، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : اذا حلّ المحصر قبل أن ينحر هديه فعليه دَمٌ، ويعود حراما كما كان حتى ينحر هديه . وإن أصاب صيدا قبل أن ينحر الهدى فعليه الجزاء . وسواء فى ذلك الموسر والمعسر لا يحلّ أبدا حتى يَنْحر أو يُنْحر عنه . قالوا : وأقلّ ما يهديه شاة لا عمياء ولا مقطوعة الأذنين؛ وليس هذا عندهم موضع صيام . قال أبو عمر : قول الكوفيين فيه ضعف وتناقض؛ لأنهم لا يجيزون لمحصر بعدوّ ولا مرض أن يَحلّ حتى ينحر هديه فى الحرم. واذا أجازوا للمحصر بمرض أن يبعث بهدى ويواعد حامله يوما ينحره فيه فيحل ويَحلِق، فقد أجازوا له أن يَحلّ على غير يقين من نحر الهدى وبلوغه ، وحملوه على الإحلال بالظنون . والعلماء متفقون على أنه لا يجوز لمن لزمه شيء من فرائضه أن يخرج منه بالظن؛ والدليل على أن ذلك ظنّ قولهم : لو عَطِب ذلك الهدى أو ضَلّ أو سُرِق فحلّ مرسله وأصاب النساء وصاد أن يعود حراما وعليه جزاء ما صاد؛ فأباحوا له فساد الحج وألزموه ما يلزم من لم يَحلّ من إحرامه . وهذا ما لا خفاء فيه من التناقض وضعف المذاهب ، وإنما بنوا مذهبهم هذا كله على قول ابن مسعود ولم ينظروا فى خلاف غيره له . وقال الشافعىّ فى المحصر اذا أعسر بالهدى فيه قولان : لا يحل أبدا إلا بهَدْى . والقول الآخر : أنه مأمور أن يأتى بما قدر عليه؛ فان لم يقدر على شيء كان عليه أن يأتى به اذا قدر عليه . قال الشافعىّ : ومن قال هذا قال : يحل مكانه ويذبح إذا قدر؛ فإن قدر على أن يكون الذبح بمكة لم يجزه أن يذبح إلا بها،

وان لم يقدر ذبح حيث قدر . قال و يقال : لا يجزيه إلا هدى . و يقال : اذا لم يجد هديا كان عليه الإطعام أو الصيام . وإن لم يجد واحدا من هذه الثلاثة أتى بواحد منها اذا قدر . وقال فى العبد : لا يجزيه إلا الصــوم ، تقوّم له الشاة دراهم ثم الدراهم طعاما ثم يصوم عن كل مُدّ يوما .

الثالثـــة — واختلفوا اذا نحـر المحصر هديه هل له أن يحلق أو لا ، فقالت طائفة : ليس عليه أن يحلق رأسه ، لأنه قد ذهب عنه النسك . واحتجوا بأنه لمـا سقط عنه بالإحصار جميع المناسك كالطواف والسعى — وذلك مما يحل به المحرم من إحرامه — سقط عنه سائر مايَحِلّ به المحرم من أجل أنه محصر . وممن احتج بهذا وقال به أبو حنيفة ومحمد بن الحسن قالا : ليس على المحصر تقصير ولا حِلاق . وقال أبو يوسف : يَحلِق المقصِّر، فان لم يحلق فلا شيء عليه . وقد حكى ابن أبى عمران عن ابن سماعة عن أبى يوسف فى نوادره أن عليه الحلاق ، والتقصير لا بد له منه . واختلف قول الشافعى فى هذه المسئلة على قولين : أحدهما أن الحِلاق للمحصَر من النّسك ، وهو قول مالك . والآخر ليس من النّسك كما قال أبو حنيفة . والحجة لمـالك أن الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة قد مُنِـع من ذلك كله المحصر وقد صدّ عنه ، فسقط عنه ما قد حيل بينه و بينه . وأما الحِلاق فلم يحل بينه و بينه وهو قادر على أن يفعله ، وما كان قادرا على أن يفعله فهو غير ساقط عنه . وممـا يدل على أن الحلاق باق على المحصر كما هو باق على من قد وصل الى البيت سواء ، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ ، وما رواه الأئمة من دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم للمحلِّقين ثلاثا وللمقصِّرين واحدة . وهو الحجــة القاطعة والنظر الصحيح فى هذه المسئلة . والى هذا ذهب مالك وأصحابه . والحلاق عندهم نسك على الحاج الذى قد أتم حجه، وعلى من فاته الحج والمحصر بعدوّ والمحصر بمرض .

الرابعـــة — روى الأئمـة واللفظ لمـالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رســول الله صلّى الله عليه وســلّم قال : " اللهم ارحم المحلّقين " قالوا : والمقصّرين يا رسول الله ؛ قال : " اللهـــم ارحم المحلقين " قالوا : والمقصرين يا رســول الله ؛ قال : " والمقصرين " . قال

علماؤنا : ففى دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للحلقين ثلاثا وللقصرين مرة دليل على أن الحلق فى الحج والعمرة أفضل من التقصير، وهو مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ ﴾ الآية، ولم يقل تقصروا . وأجمع أهل العلم على أن التقصير يجزىء عن الرجال، إلا شىء ذكر عن الحسن أنه كان يوجب الحلق فى أوّل حجة يحجها الانسان .

الخامسة — لم تدخل النساء فى الحلق، وإن سنّتهن التقصير، لما روى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "ليس على النساء حلق إنما عليهن التقصير" . خرّجه أبو داود عن ابن عباس . وأجمع أهل العلم على القول به . ورأت جماعة أن حلقها رأسها من المُثْلَة، واختلفوا فى قدر ما تقصّر من رأسها، فكان ابن عمر والشافعىّ وأحمد وإسحاق يقولون: تقصر من كل قرن مثل الأنملة . وقال عطاء : قدر ثلاث أصابع مقبوضة . وقال قتادة : تقصر الثلث أو الربع . وفرّقت حفصة بنت سيرين بين المرأة التى قعدت فتأخذ الربع، وفى الشابة أشارت بأنملتها تأخذ وتقلل . وقال مالك : تأخذ من جميع قرون رأسها، وما أخذت من ذلك فهو يكفيها، ولا يجزى عنده أن تأخذ من بعض القرون وتبقى بعضا . قال ابن المنذر : يجزى ما وقع عليه اسم تقصير، وأحوط أن تأخذ من جميع القرون قدر أنملة .

السادسة — لا يجوز لأحد أن يحلق رأسه حتى ينحر هديه ؛ وذلك أن سنة الذبح قبل الحلاق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ ﴾ . وكذلك فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، بدأ فنحر هديه ثم حلق بعد ذلك؛ فمن خالف هذا فقدّم الحلاق قبل النحر فلا يخلو أن يقدّمه خطأ وجهلا أو عمدا وقصدا؛ فإن كان الأوّل فلا شىء عليه ؛ رواه ابن حبيب عن ابن القاسم، وهو المشهور من مذهب مالك . وقال ابن الماجشون : عليه الهدى، وبه قال أبو حنيفة . وإن كان الثانى فقد روى القاضى أبو الحسن أنه يجوز تقديم الحلق على النحر، وبه قال الشافعىّ . والظاهر من المذهب المنع، والصحيح الجواز؛ لحديث ابن عباس أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قيل له فى الذبح والحلق والرّمى والتقديم والتأخير فقال : "لا حَرَج" رواه مسلم . وخرّج ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو أن النبى

صلّى الله عليــه وسلّم سئل عمن ذبح قبــل أن يحلق، أو حلق قبل أن يذبح فقــال : "لا حرج".

السابعـــة — لا خلاف أن حلق الرأس فى الحج نسك مندوب إليه، وفى غير الحج جائز، خلافا لمن قال : إنه مُثْلة . ولو كان مُثْلة ما جاز فى الحج ولا غيره، لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نهى عن المُثْلة، وقد حلق رءوس بنى جعفر بعد أن أتاه قتله بثلاثة أيام، ولو لم يجز الحلق ما حلقهم . وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يحلق رأسه . قال ابن عبد البر : وقد أجمع العلماء على حبس الشعر وعلى إباحة الحلق، وكفى بهذا حجة و بالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا ﴾ استدل بعض علماء الشافعيّة بهــذه الآية على أن المحصر فى أوّل الآية العدوّ لا المرض، وهذا لا يلزم، فان معنى قوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فحلق ففدية، أى فعليه فدية، و إذا كان هذا واردا فى المرض بلا خلاف ، كان الظاهر أن أوّل الآية و رد فيمن و رد فيه وسطها وآخرها ، لاتّساق الكلام بعضه على بعض ، وانتظام بعضــه ببعض . و رجوع الإضمــار فى آخر الآية الى من خوطب فى أوّلها ؛ فيجب حمل ذلك على ظاهره حتى يدل الدليــل على العدول عنه . وممــا يدل على ما قلناه سبب نزول هذه الآية، روى الأئمة واللفظ للدارقطنى « عن كعب بن عُجْرَة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقمله يتساقط على وجهه فقال : "أيؤذيك هَوَامّك" قال : نعم . فأمره أن يحلق وهو بالحديبية ، ولم يُبَيِّن لهم أنهم يحلون بهــا وهم على طمع أن يدخلوا مكة ؛ فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطعم فَرَقًا[1] بين ستة مساكين، أو يهدى شاة، أو يصوم ثلاثة أيام » . خرّجه البخارى بهذا اللفظ أيضا . فقوله : ولم يُبَيِّن لهم أنهم

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر رطلا، وهى اثنا عشر مدّا، أو ثلاثة آصع عند أهــل الحجاز . وقيل : خمسة أقساط، والقسط : نصف صاع . والفرق (بالسكون) : مائة وعشرون رطلا . عن نهاية ابن الأثير .

يحلون بها، يدل على أنهم ما كانوا على يقين من حصر العـدو لهم؛ فإذًا الموجب للفدية الحلق للأذى والمرض، والله أعلم .

الثانيـــة — قال الأوزاعيّ في المحرم يصيبه أذًى في رأسه : إنه يجزيه أن يكفر بالفدية قبل الحلق .

قلت : فعلى هذا يكون المعنى : فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسـه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك إن أراد أن يحلق . ومن قدر لحلق ففديةٌ؛ فلا يفتدى حتى يحلق . والله أعلم .

الثالثـــة — قال ابن عبد البر : كل مَن ذَكر النسك في هذا الحديث مفسرا فإنما ذكره بشاة، وهو أمر لا خلاف فيه بين العلماء . وأما الصوم والإطعام فاختلفوا فيه؛ فجمهور فقهاء المسلمين على أن الصوم ثلاثة أيام، وهو محفوظ صحيح في حديث كعب بن عُجْرَة . وجاء عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الصوم في فدية الأذى عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين . ولم يقل أحد بهـذا من فقهاء الأمصار ولا أئمة الحديث . وقد جاء من رواية أبي الزبير عن مجاهد عن عبد الرحمن عن كعب بن عُجْرَة أنه حدّثه أنه كان أهـلّ في ذى القعدة، وأنه قَمِل رأسُه فأتى عليــه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو يوقد تحت قِدْر له؛ فقال له : "كأنك يؤذيك هوامّ رأسك" . فقال : أجل . قال : "أحلِق وآهدِ هديا" . فقال : ما أجد هديا . قال : "فأطعم ستة مساكين" . فقال : ما أجد . فقال : " صم ثلاثة أيام " . قال أبو عمر : كان ظاهر هذا الحديث على الترتيب وليس كذلك، ولو صح هذا كان معناه الاختيار أوّلا فأوّلا؛ وعامة الآثار عن كعب بن عُجْرَة وردت بلفظ التخيير، وهو نص القرآن، وعليه مضى عمل العلماء في كل الأمصار وفتواهم، وبالله التوفيق .

الرابعـــة — اختلف العلماء في الإطعام في فدية الأذى؛ فقال مالك والشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابهم : الإطعام في ذلك مُدّان مُدّان بمـدّ النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم . وهو قول أبي ثور وداود . وروى عن الثـوريّ أنه قال في الفدية : من البُرّ نصف صاع، ومن التمر والشعير

والزبيب صاع . وروى عن أبى حنيفة أيضا مثله ، جعل نصف صاع بُرٍّ عِدْلَ صاع تمر . قال ابن المنذر : وهذا غلط ؛ لأن فى بعض أخبار كعب أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال له : " أن تصدّق بثلاثة أصْوُع من تمر على ستة مساكين " . وقال أحمد بن حنبل مرّةً كما قال مالك والشافعى . ومرّة قال : إن أطعم بُرًّا فمدّ لكل مسكين ، وإن أطعم تمرا فنصف صاع .

الخامســـة — ولا يجزى أن يغدّى المساكين ويعشيهم فى كفارة الأذى حتى يعطى كل مسكين مدّين مدّين بمدّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . وبذلك قال مالك والثورىّ والشافعىّ ومحمد بن الحسن . وقال ابو يوسف : يجزيه أن يغدّيهم ويعشيهم .

السادســـة — أجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من حلق شعره وجَزّه وإتلافه بحلق أو نُورة[(1)] أو غير ذلك ، إلا فى حالة العلّة كما نصّ على ذلك القرآن . وأجمعوا على وجوب الفدية على من حلق وهو محرم بغير علة ، واختلفوا فيما على من فعل ذلك ، أو لبس أو تطيّب بغير عذر عامدا ؛ فقال مالك : بئس ما فعل ! وعليه الفدية ، وهو مخيّر فيها . وسواء عنده العمد فى ذلك والخطأ ، لضرورة وغير ضرورة . وقال أبو حنيفة والشافعىّ وأصحابهما وأبو ثور : ليس بمخيّر إلا فى الضرورة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فاذا حلق رأسه عامدا أو لبس عامدا لغير عذر فليس بمخير وعليه دم لا غير .

السابعـــة — واختلفوا فيمن فعل ذلك ناسيا ؛ فقال مالك رحمه الله : العامد والناسى فى ذلك سواء فى وجوب الفدية . وهو قول أبى حنيفة والثورىّ والليث . وللشافعىّ فى هذه المسئلة قولان : أحدهما — لا فدية عليه . وهو قول داود وإسحاق . والثانى — عليه الفدية . وأكثر العلماء يوجبون الفدية على المحرم بلبس المَخِيط وتغطية الرأس أو بعضه ، ولبس الخفّين وتقليم الأظافر ومس الطيب وإماطة الأذى ، وكذلك اذا حلق شعر جسده أو اطّلى ، أو حلق مواضع المحاجم . والمرأة كالرجل فى ذلك ، وعليها الفدية فى الكحل وان لم يكن فيه طيب . وللرجل أن يكتحل بما لا طيب فيه . وعلى المرأة الفدية إذا غطّت وجهها أو لبست القفّازين ،

(1) النورة (بضم النون) : حجر الكلس ثم غلبت على أخلاط تضاف إليه من زرنيخ وغيره ؛ يستعمل لازالة الشعر .

والعمد والسهو والجهــل فى ذلك ســواء ؛ وبعضهم يجعل عليهما دمًا فى كل شيء من ذلك .
وقال داود : لا شيء عليهما فى حلق شعر الجسد .

الثامنــة — واختلف العلماء فى موضع الفدية المذكورة ؛ فقال عطاء : ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء؛ وبنحو ذلك قال أصحاب الرأى . وعن الحسن أن الدم بمكة . وقال طاوس والشافعي : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة، والصوم حيث شاء؛ لأن الصيام لا منفعة فيه لأهل الحرم؛ وقد قال الله سبحانه : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ رفقا لمساكين جيران بيته . فالإطعام فيــه منفعة بخلاف الصيام، والله أعلم . وقال مالك : يفعل ذلك أين شاء؛ وهو الصحيح من القول، وهو قول مجاهد . والذبح هنا عند مالك نسك وليس بهدى لنص القرآن والسـنة؛ والنسك يكون حيث شاء، والهدى لا يكون إلا بمكة . ومن حجته أيضا ما رواه عن يحيى بن سـعيد فى موطأه ، وفيــه : فأمر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه برأسه — يعنى رأس حسين — فحلق ثم نسك عنه بالسُّقيا[1] فنحر عنه بعيرا . قال مالك قال يحيى بن سعيد: وكان حسين خرج مع عثمان فى سفر الى مكة . ففى هذا أوضح دليل على أن فدية الأذى جائز أن تكون بغير مكة ، وجائز عند مالك فى الهدى اذا نحر فى الحرم أن يعطاه غير أهل الحرم؛ لأن البغية فيه إطعام مساكين المسلمين . قال مالك : ولمـا جاز الصوم أن يؤتى به بغير الحرم جاز إطعام غير أهل الحرم . ثم أن قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ﴾ الاية، أوضح الدلالة على ما قلناه؛ فانه تعالى لمـا قال : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ لم يقل فى موضع دون موضع، فالظاهر أنه حيث ما فعل أجزأه . وقال : « أو نسك » فسمى ما يذبح نسكا، وقد سماه رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم كذلك ولم يسمه هديا؛ فلا يلزمنا أن نرده قياسا على الهدى ، ولا أن نعتبره بالهدى مع ما جاء فى ذلك عن علىّ . وأيضا فإن النبيّ صلّى الله عليــه وسلّم لمـا أمر كعبًا بالفدية ما كان فى الحرم؛ فصح أن ذلك كله يكون خارج الحرم . وقد روى عن الشافعيّ مثل هذا فى وجه بعيد .

(١) السقيا : منزل بين مكة والمدينة ؛ قيل : هى على يومين من المدينة .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ النســك : جمع نسيكة، وهى الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى . ويجمع أيضا على نسائك . والنسك : العبادة فى الأصل . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أى مُتعبَّداتِنا . وقيل : إن أصل النسك فى اللغة الغسل ومنه نَسَــك ثو به اذا غسله . فكأن العابد غسل نفســه من أدران الذنوب بالعبادة . وقيل : النُّسُك : سبائك الفضة، كل سبيكة منها نسيكة . فكأن العابد خلص نفسه من دنس الآثام وسَبكها .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ قيــل : معناه بَرَأتم من المرض . وقيــل : من خوفكم من العدوّ المحصر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وهو أشــبه باللفظ إلا أن يتخيل الخوف من المرض فيكون الأمن منه، كما تقدّم . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ الآية . اختلف العلماء مَن المخاطب بهذا ؟ فقال عبدالله بن الزبير وعلقمة وابراهيم : الآية فى المحصرين دون المُخْلَّى سبيلهم . وصورة المتمتع عند ابن الزبير: أن يُحْصَر الرجل حتى يفوته الج، ثم يصل الى البيت فيحل بعمرة، ثم يقضى الج من قابل ؛ فهذا قد تمتع بما بين العمرة الى حج القضاء . وصورة المتمتّع المُحْصَر عند غيره: أن يُحصَر فيَحلّ دون عمرة و يؤخّرها حتى يأتى من قابل فيعتمر فى أشهر الج ويحج من عامه . وقال ابن عباس وجماعة : الاية فى المُحصَرين وغيرهم ممن خُلِّى سبيله .

الثالثـــة — لا خلاف بين العلماء فى أن التمتع جائز على ما يأتى تفصيــله ، وأن الإفراد جائز ، وأن القِرَان جائز ؛ لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رَضىَ كُلًّا ولم ينكره فى حجته على أحد من أصحابه ، بل أجازه لهم ورضيه منهم صلّى الله عليه وسلّم . و إنما اختلف العلماء فيما كان به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُحرِمًا فى حجته وفى الأفضل من ذلك ، لاختلاف الاثار الواردة فى ذلك ؛ فقال قائلون منهم مالك : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُفْرِدًا ، والإفراد أفضل من القران . قال : والقران أفضل من التمتع . وفى صحيح مســلم عن عائشة قالت : خرجنا

مع رسول الله صلى الله عليه وســلم فقال : " من أراد منكم أن يُهِلّ بحج وعمرة فليفعلْ ومن أراد أن يُهِلّ بحج فلْيُهِلّ ومن أراد أن يُهلّ بعمرة فليهلَّ " . قالت عائشة : فأهلّ رســول الله صلّى الله عليه وسلّم بحج، وأهلّ به ناس معه، وأهلّ ناس بالعمرة والحج، وأهلّ ناس بعمرة، وكنت فيمن أهلّ بالعمرة . رواه جماعة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشــة . وقال بعضهم فيه : قال رســول الله صلّى الله عليه وســلّم : " وأما أنا فأهلّ بالحج " . وهــذا نص فى موضع الخلاف، وهو حجة من قال بالإفراد وفضله . وحكى محمد بن الحسن عن مالك أنه قال : إذا جاء عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حديثان مختلفان وبلغنا أن أبا بكر وعمر عملا بأحد الحديثين وتركا الآخر كان فى ذلك دلالة على أن الحق فيما عملا به . واستحب أبو ثور الإفراد أيضا وفضّله على التمتع والقِران . وهو أحد قولى الشافعىّ فى المشهور عنه . واستحب آخرون التمتع بالعمرة الى الحج، قالوا : وذلك أفضل . وهو مذهب عبد الله بن عمر وعبدالله بن الزبير، وبه قال أحمد بن حنبل ؛ وهو أحد قولى الشافعىّ . قال الدّار قطنىّ قال الشافعىّ : اخترت الإفراد ، والتمتع حسن لا نكرهه . احتج من فضّل التمتع بما رواه مسلم عن عمران بن حُصَين قال : نزلت آية المتعة فى كتاب الله — يعنى متعة الحج — وأمرنا بها رســول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم لم تنزل آيةٌ تنسَخ [آيةَ](1) متعة الحج، ولم ينه عنها رســول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى مات؛ قال رجل برأيه بعدُ ما شاء . وروى الترمذى حدّثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه سمع سعد بن أبى وقّاص والضحاك ابن قيس عام حجّ معاوية بن أبى سفيان وهما يذكران التمتع بالعمرة الى الحج؛ فقال الضحاك بن قيس : لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله تعالى . فقال سعد : بئس ما قلت يا بن أخى ! فقال الضحاك : فإن عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك . فقال سعد : قد صنعها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصنعناها معه . هذا حديث صحيح . وروى ابن إسحاق عن الزهرىّ عن سالم قال : إنى لجالس مع ابن عمر فى المســجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع

---

(1) زيادة من صحيح مسلم .

بالعمرة الى الحج ؛ فقال ابن عمر : حسن جميل . قال : فإن أباك كان ينهى عنهـا . فقال : ويلك ! فان كان أبى نهى عنها وقد فعله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأمر به، أفبقول أبى آخذ، أم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ؟ قم عنى . أخرجه الدّارقطنى، وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سالم . وروى عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعمر وعثمان، وأوّل من نهى عنهـا معاوية . حديث حسن . قال أبو عمر : حديث ليث هذا حديث منكر، وهو ليث بن أبى سليم ضعيف . والمشهور عن عمر وعثمان أنهما كان ينهيان عن التمتع، وان كان جماعة من أهل العلم قد زعموا أن المتعة التى نهى عنها عمر وضرب عليها فسخ الحج فى العمرة . فأما التمتع بالعمرة الى الحج فلا . وزعم من صحّح نهى عمر عن التمتع أنه إنما نهى عنه لِيُنْتَجع البيت مرتين أو أكثر فى العام حتى تكثر عمارته بكثرة الزوار له فى غير الموسم ، وأراد إدخال الرفق على أهل الحرم بدخول الناس تحقيقا لدعوة ابراهيم : « وَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ » . وقال آخرون : إنمـا نهى عنها لأنه رأى النـاس مالوا إلى التمتع ليسارته وخفته، فخشى أن يضيع الإفراد والقِران وهما سنتان للنبىّ صلّى الله عليه وسـلّم . واحتج أحمـد فى اختياره التمتع بقوله صلّى الله عليه وسلّم : "لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ ما سقتُ الهدى ولجعلتها عمرة" . أخرجه الأئمة . وقال آخرون : القِران أفضـل، منهـم أبو حنيفة والثورى . وبه قال المزنى قال : لأنه يكون مؤدّيا للفرضين جميعا، وهو قول إسحـاق . قال إسحاق : كان رسـول الله صلّى الله عليه وسلم قارنا، وهو قول علىّ بن أبى طالب . واحتج من استحب القران وفضله بما رواه البخارىّ عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم بوادى العقيق (1) يقول : " أتانى الليلة آت مـن ربّى فقال صلّ فى هـذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حجة " . وروى الترمذىّ عن أنس قال سمعت رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم يقول : "لَبيك بعمرة وحجة" . وقال : حديث حسن صحيح . قال أبو عمر: والإفراد ان شاء الله أفضل، لأن رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم كان مُفْرِدا، فلذلك قلنا إنه أفضل ؛ لأن الآثار أصح عنه

(1) العقيق : موضع بينه وبين المدينة أربعة أميال .

فى إفراده صلّى الله عليه وسلّم، ولأن الإفراد أكثر عملا، ثم العمرة عمل آخر. وذلك كله طاعة والأكثر منها أفضل . وقال أبو جعفر النحاس : المفرد أكثر تعبا من المتمتع، لإقامته على الإحرام وذلك أعظم لثوابه . والوجه فى اتفاق الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمرنا بالتمتع والقران جاز أن يقال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقَرَن ، كما قال جلّ وعزّ : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ . وقال عمر بن الخطاب : رجمنا ورجم رسول الله صلّى الله عليه وسلم . وإنما أمر بالرجم .

قلت : الأظهر فى حجته عليه السلام القران، وأنه كان قارنا، لحديث عمر وأنس المذكورين. وفى صحيح مسلم عن بكر عن أنس قال: "سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُلَبِّى بالحج والعمرة معا(1) . قال بكر: فحدّثت بذلك ابن عمر فقال: لبّى بالحج وحده؛ فلقيت أنسا فحدّثته بقول ابن عمر؛ فقال أنس : ما تَعُدُّونا إلا صِبيانا! سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " لبيك عمرة وحجا " . وفى صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس قال : أهلّ النبى صلّى الله عليه وسلّم بعمرة وأهلّ أصحابه بحج؛ فلم يحِلّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم ولا من ساق الهدى من أصحابه، وحلّ بقيّتهم . قال بعض أهل العلم : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قارنا، وإذا كان قارنا فقد حجّ واعتمر، واتفقت الأحاديث . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلّ بعمرة؛ فقال من رآه : تمتع ثم أهل بحجة . فقال من رآه : أفرد ثم قال: "لبيك بحجة وعمرة". فقال من سمعه: قَرَن . فاتفقت الأحاديث . والدليل على هذا أنه لم يرو أحد عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : أفردت الحج ولا تمتّعت . وصح عنه أنه قال: "قرنت" كما رواه النسائى عن علىّ أنه قال : أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال لى : "كيف صنعت" قلت : أهللت بإهلالك . قال : " فإنى سقت الهدى وقرنت " . قال وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لفعلت كما فعلتم ولكنى سقت الهدى وقرنت" . وثبت عن حفصة قالت قلت : يا رسول الله، ما بالُ الناس

(1) عبارة مسلم : « جميعا » .

قد حلّوا من عمرتهم ولم تَحِلّ أنت ؟ قال : " إنى لبّدت رأسى وسقت هديى فلا أحلّ حتى أنحر " . وهـذا يبيّن أنه كان قارنا لأنه لو كان متمتعا أو مفردا لم يمتنع من نحر الهدى .

قلت : ما ذكره النحاس أنه لم يرو أحد أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : أفردت الحج فقد تقدّم من رواية عائشة أنه قال : "وأما أنا فأهل بالحج" . وهذا معناه : فأنا أفرد الحج . إلا أنه يحتمل أن يكون قد أحرم بالعمرة، ثم قال: فأنا أهل بالحج . ومما يبين هذا ما رواه مسلم عن ابن عمر، وفيه : وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج . فلم يبق فى قوله : " فأنا أهل بالحج" دليل على الافراد . وبقى قوله عليه السـلام : " فإنى قرنت " . وقول أنس خادمه أنه سمعه يقول : "لبيك بحجة وعمرة معا" نصّ صريح فى القران لا يحتمل التأويل . وروى الدّارقطنيّ عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيـه قال : إنمـا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحج والعمرة، لأنه علم أنه ليس بحاج بعدها .

الرابعـــة — وإذا مضى القول فى الإفراد والتمتّع والقِران وأن كل ذلك جائز بإجماع ، فالتمتع بالعمرة الى الحج عند العلماء على أربعة أوجه، منها وجه واحد مجتمع عليه، والثلاثة مختلف فيهـا . فأما الوجه المجتمع عليه فهو التمتّع المراد بقول الله جلّ وعزّ : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ وذلك أن يحرم الرجل بعمرة فى أشهر الحج — على ما يأتى بيانها — وأن يكون من أهل الآفاق ، وقدم مكة ففرغ منها ثم أقام حَلالاً (١) بمكة الى أن أنشأ الحج منهـا فى عامه ذلك قبـل رجوعه الى بلده أو قبل خروجه الى ميقات أهل ناحيته ؛ فاذا فعل ذلك كان متمتعا وعليـه ما أوجب الله على المتمتع ، وذلك ما استيسر من الهدى، يذبحه ويعطيـه للساكين بمنًى أو بمكة، فان لم يجد صام ثلاثة أيام، وسبعة اذا رجع الى بلده — على ما يأتى — وليس له صـيام يوم النحر بإجماع المسلمين . واختلف فى صيام أيام التشريق على ما يأتى . فهـذا إجماع أهل العلم قديما وحديثا فى المتعة ، ورابطها ثمانية شروط : الأوّل — أن يجمع بين الحج والعمرة . الثـانى — فى سفر واحد . الثالث — فى عام واحد . الرابع — فى أشهر

(١) الحلال : الخارج من الإحرام .

الحج . الخامس — تقديم العمرة . السادس — ألّا يمزجها، بل يكون إحرام الحج بعد الفراغ من العمرة . السابع — أن تكون العمرة والحج عن شخص واحد . الثامن — أن يكون من غير أهل مكة . وتأمّل هذه الشروط فيما وصفنا من حكم التمتع تجدها .

والوجه الثانى من وجوه التمتع بالعمرة الى الحج: القِران، وهو أن يجمع بينهما فى إحرام واحد فيهلّ بهما جميعا فى أشهر الحج أو غيرها، يقول لّبيك بحجة وعمرة معا . فاذا قدم مكة طاف بحجته وعمرته طوافاً واحدا وسعى سعياً واحدا عند من رأى ذلك، وهم مالك والشافعىّ وأصحابهما وإسحاق وأبو ثور، وهو مذهب عبدالله بن عمر وجابر بن عبد الله وعطاء بن أبى رباح والحسن ومجاهد وطاوس، لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فأهللنا بعمرة، الحديث . وفيه : وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة فإنما طافوا طوافا واحدا . أخرجه البخارى . وقال صلّى الله عليه وسلّم لعائشة يوم النفر[1] ولم تكن طافت بالبيت وحاضت : " يَسعُك طوافك لحَجّك وعمرتك " فى رواية : " يُجزِئ عنك طوافُك بالصّفا والمروة عن حَجِّك وعمرتك " . أخرجه مسلم — أو طاف طوافين وسعى سعيين عند من رأى ذلك، وهو أبو حنيفة وأصحابه والثورىّ والأوزاعىّ والحسن بن صالح وابن أبى ليلى . وروى عن علىّ وابن مسعود، وبه قال الشعبىّ وجابر بن زيد . واحتجوا بأحاديث عن علىّ عليه السلام أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين وسعى لهما سعيين، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعل . أخرجها الدّارقطنى فى سننه وضعّفها كلها . وإنما جعل القران من باب التمتع، لأن القارن يتمتع بترك النَّصَب فى السفر الى العمرة مرة والى الحج أخرى، ويتمتع بجمعهما، ولم يحرم لكل واحدة من ميقاته، وضم الحج الى العمرة، فدخل تحت قول الله عزّ وجلّ : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ . وهذا وجه من التمتع لا خلاف بين العلماء فى جوازه . وأهل المدينة لا يجيزون الجمع بين العمرة والحج إلا بسياق الهدى، وهو عندهم بَدَنة لا يجوز دونها . ومما يدل على أن القران تمتع قول ابن عمر : إنما جعل

(١) يوم النفر (بفتح النون وتسكين الفاء، وفتحها) : اليوم الذى ينفر (ينزل) الناس فيه من منى .

القران لأهل الآفاق ، وتلا قول الله جلّ وعزّ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فمن كان من حاضرى المسجد الحرام وتمتع أو قَرَن لم يكن عليه دم قِران ولا تمتع . قال مالك : وماسمعت أن مَكِّيًّا قرن،فإن فعل لم يكن عليه هدى ولا صيام . وعلى قول مالك جمهور الفقهاء فى ذلك . وقال عبد الملك بن الماجشون : إذا قرن المكىُّ الحجَّ مع العمرة كان عليه دم القران من أجل أن الله إنما أسقط عن أهل مكة الدم والصيام فى التمتع .

الوجه الثالث من التمتع هو الذى توعد عليه عمر بن الخطاب وقال : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم إنما أنهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة النساء ومتعة الحج . وقد تنازع العلماء فى جواز هذا بعد هلُم جرّا (١) ، وذلك أن يحرم الرجل بالحج حتى اذا دخل مكة فسخ حجه فى عمرة ، ثم حل وأقام حلالاً حتى يهلّ بالحج يوم التَّروية (٢) . فهذا هو الوجه الذى تواردت به الآثار عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم؛ فيه أنه أمر الصحابة فى حجته مَنْ لم يكن معه هدى ولم يسقه وقد كان أحرم بالحج أن يجعلها عمرة . وقد أجمع العلماء على تصحيح الآثار بذلك عنه صلّى الله عليه وسلّم ولم يدفعوا شيئا منها؛ إلا أنهم اختلفوا فى القول بها والعمل لعلل؛ فجمهورهم على ترك العمل بها، لأنها عندهم خصوص خصّ بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابَه فى حجته تلك . قال أبو ذَرٍّ : كانت المتعة لنا فى الحج خاصة . أخرجه مسلم . وفى رواية عنه قال : « لاتصلح المتعتان إلا لنا خاصة ، يعنى متعة النساء ومتعة الحج » . والعلة فى الخصوصية ووجه الفائدة فيها ماقاله ابن عباس رضى الله عنه قال : « كانوا يَرون (٣) أن العمرة

---

(١) كذا فى الأصل . وفى المنتقى للباجى بحث طويل فى هذه المسألة ؛ فارجع اليه . (٢) يوم التروية : يوم قبل يوم عرفة ، وهو الثامن من ذى الحجة ؛ سمى به لأن الحجاج يرتوون فيه من الماء ، و ينهضون الى منى ولا ماء بها .

(٣) الضمير فى كانوا يعود الى الجاهلية . وقوله : ويجعلون المحرّم صفرا . المراد الإخبار عن النسىء الذى كانوا يفعلونه وكانوا يسمون المحرم صفرا و يحلونه ، و ينسئون المحرم ، أى يؤخرون تحريمه الى ما بعد صفر لئلا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر محرمة تضيق عليهم أمورهم من الغارة وغيرها . والدبر : الجرح الذى يحصل فى ظهر الإبل من اصطكاك الأقتاب ؛ فانها كانت تدبر بالسير عليها للحج . وعفا الأثر : أى درس وامحى ، والمراد أثر الإبل وغيرها فى سيرها ، عفا أثرها لطول مرور الأيام . وقال الخطابى : المراد أثر الدبر . وهذه الألفاظ تقرأ كلها ساكنة الآخر و يوقف عليها ؛ لأن مرادهم السجع . عن شرح النووى لصحيح مسلم .

فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ويجعلون المحرم صَفَرًا ويقولون : إذا بَرأ الدَّبَرْ، وعفا الأثَرْ، وانسلخ صفَرْ، حلّت العمرة لمن اعتمر. فقدم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه صبيحة رابعة[1] مهلّين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عُمرةً ؛ فتعاظم ذلك عندهم فقالوا : يارسول الله، أىّ الحِلّ[2]؟ قال: "الحِلُّ كلُّه" . أخرجه مسلم . وفى المسند الصحيح لأبى حاتم عن ابن عباس قال : والله ما أعمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عائشة فى ذى الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك ؛ فان هذا الحىّ من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون : إذا عفا الوبَرْ وبرأ الدّبَرْ وانسلخ صفر ، حلّت العمرة لمن اعتمر . فقد كانوا يحرّمون العمرة حتى ينسلخ ذو الحجة ؛ فما أعمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم عائشة الا لينقض ذلك من قولهم . ففى هـذا دليل على أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم إنما فسخ الحج فى العمرة ليريهم أن العمرة فى أشهر الحج لا بأس بها . وكان ذلك له ولمن معه خاصة ؛ لأن الله عزّ وجلّ قد أمر بإتمام الحج والعمرة كل من دخل فيها أمرا مطلقا ، ولا يجب أن يخالف ظاهر كتاب الله إلا إلى مالا إشكال فيه من كتاب ناسخ أو سنة مبيّنة . واحتجوا بما ذكرناه عن أبى ذرّ وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال قلنا : يا رسول الله، فسخ الحج لنـا خاصة أم للنـاس عامة؟ قال : "بل لنا خاصة" . وعلى هذا جماعة فقهاء الحجاز والعراق والشام، إلا شىء يروى عن ابن عباس والحسن والسدّى ، وبه قال أحمد بن حنبل . قال احمد : لا أردّ تلك الآثار الواردة المتواترة الصحاح فى فسخ الحج فى العمرة بحـديث الحارث بن بلال عن أبيه وبقول أبى ذرّ . قال : ولم يجمعوا على ما قال أبو ذر، ولو أجمعوا كان حجة ؛ قال : وقد خالف ابن عباس أبا ذرّ ولم يجعله خصوصا . واحتج أحمد بالحديث الصحيح : حديث جابر الطويل فى الحج، وفيه : أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "لو أنى استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ لم أَسُق الهَدْىَ وجعلتها عمرة" فقام سُرَاقة بن مالك بن جُعْشَم فقال : يا رسول الله ، ألِعامِنا هذا أم لأبد ؟ فشبّك رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أصابعه واحدةً فى الأخرى وقال : "دَخلتِ العمرةُ فى الحج مرّتين[3] لا بل لأبد أبد" . لفظ مسلم . وإلى هذا والله أعلم مال البخارىّ

(١) أى صبح رابعة من ذى الحجة .

(٢) قوله : أى الحل . أى هل هو الحل العام لكل ما حرم بالإحرام حتى بالجماع ، أو حل خاص .

(٣) قوله : مرتين . أى قاله مرتين .

حيث ترجم « باب من لبّى بالحج وسمّاه » وساق حديث جابر بن عبد الله : قدمنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن نقول : لبيك بالحج؛ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلناها عمرة . وقال قوم : إن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالإحلال كان على وجه آخر. وذكر مجاهد ذلك الوجه؛ وهو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ما كانوا فرضوا الحج أولا ، بل أمرهم أن يُهلّوا مطلقا وينتظروا ما يؤمرون به؛ وكذلك أهلّ علىّ باليمن . وكذلك كان إحرام النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم ، ويدل عليـه قوله عليه السـلام : " لو آستقبلت من أمرى ما آستدبرت ما سقت الهـدى وجعلتها عمرة " فكأنه خرج ينتظر ما يؤمر به ويأمر أصحابه بذلك ، ويدل على ذلك قوله عليـه السلام : " أتانى آت من ربّى فى هـذا الوادى المبارك وقال قل حجة فى عمرة " .

والوجه الرابع من المتعـة — متعة المحصَر ومن صُـدّ عن البيت؛ ذكر يعقوب بن شيبة قال حدّثنا أبو سلمة التَّبُوذَكى حدّثنا وهيب حدّثنا إسحاق بن سويد قال سمعت عبد الله بن الزبير وهو يخطب يقول : أيها الناس، إنه والله ليس التمتع بالعمرة الى الحج كما تصنعون، ولكن التمتع أن يخرج الرجل حاجا فيحبسه عدوّ أو أمر يعذر به حتى تذهب أيام الحج ، فيأتى البيت فيطوف ويسعى بين الصفا والمروة، ثم يتمتع بحله الى العام المستقبل ثم يحج ويهدى .

وقد مضى القول فى حكم المحصر وما للعلماء فى ذلك مبينا والحمد لله .

فكان من مذهبـه أن المحصر لا يحل ولكنه يبقى على إحرامه حتى يذبح عنه الهـدى يوم النحر، ثم يحلق ويبقى على إحرامه حتى يقدم مكة فيتحلل من حجه بعمل عمرة . والذى ذكره ابن الزبير خلاف عموم قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ بعـد قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ولم يفصل فى حكم الإحصار بين الحج والعمرة ، والنبيّ صـلّى الله عليه وسلّم وأصحابه حين أحصروا بالحديبية حلّوا وحلّ، وأمرهم بالإحلال .

واختلف العلمـاء أيضا لمَ سُمّى المتمتع متمتعا ؛ فقـال ابن القاسم : لأنه تمتـع بكل ما لا يجـوز للمحرم فعله من وقت حله فى العمرة الى وقت إنشائه الحج . وقال غيره :

سمى متمتعا لأنه تمتع بإسقاط أحد السـفرين ، وذلك أن حق العمرة أن تقصـد بسفر ، وحق الحج كذلك ؛ فلمـا تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هديا ؛ كالقارن الذى يجمـع بين الحج والعمرة فى سفر واحد ، والوجه الأوّل أعم ؛ فانه يتمتع بكل ما يجوز للحَلال أن يفعله ؛ وسقط عنـه السفر لحجه من بلده ، وسقط عنه الإحرام من ميقاته فى الحج . وهذا هو الوجه الذى كرهه عمر وابن مسعود ، وقالا أو قال أحدهما : يأتى أحدكم مِنًى وذكره يقطر مَنِيًّا . وقد أجمـع المسلمون على جواز هـذا . وقد قال جماعة من العلماء : إنما كرهه عمر لأنه أحب أن يزار البيت فى العام مرّتين : مرّة فى الحج ، ومرّة فى العمرة . ورأى الإفراد أفضل ؛ فكان يأمر به ويميل اليه وينهى عن غيره اسـتحبابا ؛ ولذلك قال : افصلوا بين حجكم وعمرتكم ، فانه أتم لحج أحدكم [وأتم](١) لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج .

الخامســة — اختلف العلماء فى من اعتمر فى أشهر الحج ثم رجع الى بلده ومنزله ثم حج من عامه ؛ فقال الجمهور من العلماء : ليس بمتمتع ولا هدى عليـه ولا صيام . وقال الحسن البصرى : هو متمتع وإن رجع الى أهله ، حج أو لم يحج . قال لأنه كان يقـال : عمـرة فى أشهر الحج متعة . رواه هشـيم عن يونس عن الحسن . وقـد روى عن يونس عن الحسن ليس عليـه هدى . والصحيح القول الأوّل ، هكذا ذكر أبو عمر حج أو لم يحـج ولم يذكره ابن المنـذر . قال ابن المنذر : وحجته ظاهر الكتاب قوله عزّ وجلّ : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ . ولم يستثن راجعا الى أهله وغير راجع ، ولو كان لله جلّ ثناؤه فى ذلك مراد لبيّنه فى كتابه أو على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم . وقد روى عن سعيد بن المسيّب مثل قول الحسن . قال أبو عمر : وقد روى عن الحسن أيضا فى هذا الباب قول لم يُتابع عليه أيضا ، ولا ذهب اليه أحد من أهل العلم . وذلك أنه قال : من آعتمر بعد يوم النحر فهى متعة . وقد روى عن طاوس قولان هما أشد شذوذا ممـا ذكرنا عن الحسن ، أحدهما : أن من آعتمر فى غير أشهر الحج ، ثم أقام حتى دخل وقت الحج ، ثم حج من عامه أنه متمتع . هذا لم يقل به أحد من العلماء غيره ، ولا ذهب اليه أحد من فقهاء الأمصار ، وذلك — والله أعلم —

(١) الزيادة عن الموطأ .

ان شهور الحج أحق بالحج من العمرة ؛ لأن العمرة جائزة فى السنة كلها ، والحج إنما موضعه شهور معلومة ؛ فاذا جعل أحدٌ العمرة فى أشهر الحج فقد جعلها فى موضع كان الحج أولى به ، إلا أن الله تعالى قد رخّص فى كتابه وعلى لسان رســوله فى عمل العمرة فى أشهر الحج للتمتع وللقارن ولمن شاء أن يفردها ، رحمة منه ، وجعل منها ما استيسر من الهدى . والوجه الاخر قاله فى المكىّ اذا تمتّع من مصر من الأمصار فعليه الهدى ، وهذا لم يُعَرِّج عليه ؛ لظاهر قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . والتمتع الجائز عند جماعة العلماء ما أوضحناه بالشرائط التى ذكرناها و بالله توفيقنا .

السادســة — أجمع العلماء على أن رجلا من غير أهل مكة لو قدم مكة معتمرا فى أشهر الحج عازما على الإقامة بهـا ثم أنشأ الحج من عامه فحج أنه متمتع ، عليه ما على المتمتع . وأجمعوا فى المكى يجىء من وراء الميقـات مُحرِمًا بعمرة ، ثم ينشىء الحج من مكة وأهله بمكة ولم يسكن سواها أنه لا دم عليه . وكذلك اذا سكن غيرها وسكنها وكان له فيها أهل وفى غيرها . وأجمعوا على أنه إن انتقــل من مكة بأهله ثم قدمها فى أشهر الحج معتمرا فأقام بهـا حتى حج من عامه أنه متمتع .

السابعــة — واتفق مالك والشافعى وأبو حنيفــة وأصحابهم والثورىّ وأبو ثور على أن المتمتع يطوف لعمرته بالبيت ويسـعى بين الصّفا والمروة ، وعليه بعدُ أيضا طواف آخر لحجه وسعى بين الصــفا والمروة . وروى عن عطاء وطاوس أنه يكفيه سـعىٌ واحد بين الصّفا والمروة . والأوّل المشهور، وهو الذى عليه الجمهور ، وأما طواف القارن فقد تقدّم .

الثـامنـــة — واختلفوا فيمن أنشأ عُمرة فى غير أشهر الحج ثم عمل لها فى أشهر الحج ؛ فقال مالك : عمرته فى الشهر الذى حلّ فيه . يريد إن كان حلّ منها فى غير أشهر الحج فليس بمتمتع ، وان كان حلّ منها فى أشهر الحج فهو متمتع إن حج من عامه . وقال الشافعى : اذا طاف بالبيت فى الأشهر الحُرُم بالعمرة فهو متمتع إن حج من عامه . وذلك أن العمرة إنما تكمل بالطواف بالبيت ، وانما ينظر الى كمالها . وهو قول الحسن البصرى والحكم بن عيينة وابن شُبْرُمَة وسفيان الثورى .

وقال قتادة وأحمد وإسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه . وروى معنى ذلك عن جابر بن عبد الله . وقال طاوس : عمرته للشهر الذى يدخل فيه الحرم . وقال أصحاب الرأى : إن طاف لها ثلاثة أشواط فى رمضان، وأربعة أشواط فى شوال فحج من عامه أنه متمتع . وإن طاف فى رمضان أربعة أشواط، وفى شوال ثلاثة أشواط لم يكن متمتعا . وقال أبو ثور : إذا دخل فى العمرة فى غير أشهر الحج فسواء طاف لها فى رمضان أو فى شوال لا يكون بهذه العمرة متمتعا . وهو معنى قول أحمد وإسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه .

التاسعة — أجمع أهل العلم على أن لمن أهلّ بعمرة فى أشهر الحج أن يُدخل عليها الحج مالم يفتتح الطواف بالبيت، ويكون قارنا بذلك، يلزمه ما يلزم القارن الذى أنشأ الحج والعمرة معا . واختلفوا فى إدخال الحج على العمرة بعد أن افتتح الطواف، فقال مالك : يلزمه ذلك ويصير قارنا مالم يتم طوافه . وروى مثله عن أبى حنيفة، والمشهور عنه أنه لا يجوز إلا قبل الأخذ فى الطواف، وقد قيل : له أن يدخل الحج على العمرة مالم يركع ركعتى الطواف . وكل ذلك قول مالك وأصحابه . فاذا طاف المعتمر شوطا واحدا لعمرته ثم أحرم بالحج صار قارنا، وسقط عنه باقى عمرته ولزمه دم القران . وكذلك من أحرم بالحج فى اضعاف طوافه أو بعد فراغه منه قبل ركوعه . وقال بعضهم : له أن يدخل الحج على العمرة ما لم يكمل السعى بين الصّفا والمروة . قال أبو عمر : وهذا كله شذوذ عند أهل العلم . وقال أشهب : اذا طاف لعمرته شوطا واحدا لم يلزمه الإحرام به ولم يكن قارنا، ومضى على عمرته حتى يتمها ثم يحرم بالحج . وهذا قول الشافعىّ وعطاء، وبه قال أبو ثور .

العاشرة — واختلفوا فى إدخال العمرة على الحج، فقال مالك وأبو ثور وإسحاق : لاتدخل العمرة على الحج، ومن أضاف العمرة الى الحج فليست العمرة بشىء . قاله مالك، وهو أحد قولى الشافعىّ، وهو المشهور عنه بمصر . وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ فى القديم : يصير قارنا، ويكون عليه ما على القارن ما لم يطف لحجته شوطا واحدا، فإن طاف لم يلزمه؛ لأنه قد عمل فى الحج . قال ابن المنذر : وبقول مالك أقول فى هذه المسألة .

الحادية عشرة — قال مالك : من أهدى هديا للعمرة وهو متمتع لم يجزه ذلك ، وعليه هدى آخر لمتعته ؛ لأنه إنما يصير متمتعا إذا أنشأ الحج بعد أن حلّ من عمرته ، وحينئذ يجب عليه الهدى . وقال أبو حنيفة وأبو ثور و إسحاق : لا ينحر هديه إلا يوم النحر . وقال أحمد : إن قدم المتمتع قبل العشر طاف وسعى ونحر هديه . و إن قدم فى العشر لم ينحر إلا يوم النحر . وقاله عطاء . وقال الشافعيّ : يحل من عمرته اذا طاف وسعى ، ساق هديا أو لم يسقه .

الثانية عشرة — واختلف مالك والشافعى فى المتمتّع يموت ؛ فقال الشافعى : اذا أحرم بالحج وجب عليه دم المتعة إذا كان واجدا لذلك . حكاه الزعفرانىّ عنه . و روى ابن وهب عن مالك أنه سئل عن المتمتع يموت بعد ما يحرم بالحج بعرفة أو غيرها ، أترى عليه هديا ؟ قال : من مات من أولئك قبل أن يرمى جمرة العَقَبة فلا أرى عليه هديا . ومن رمى الجمرة ثم مات فعليه الهدى . قيل له : من رأس المال أو من الثلث ؟ قال : بل من رأس المال .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ قد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ الى قوله : ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ يعنى الهدى ، إمّا لعدم المال أو لعدم الحيوان . صام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده . والثلاثة الأيام فى الحج آخرها يوم عرفة . هذا قول طاوس . و روى عن الشعبيّ وعطاء ومجاهد والحسن البصرى والنخَعيّ وسعيد بن جبير وعلقمة وعمرو بن دينار وأصحاب الرأى ، حكاه ابن المنذر . وحكى أبو ثور عن أبى حنيفة يصومها فى إحرامه بالعمرة ، لأنه أحد إحرامى التمتع ؛ فجاز صوم الأيام فيه كإحرامه بالحج . وقال أبو حنيفة أيضا وأصحابه : يصوم قبل يوم التّروية يوما ، ويوم التروية ويوم عرفة . وقال ابن عباس ومالك بن أنس : له أن يصومها منذ يحرم بالحج الى يوم النحر ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ فاذا صامها فى العمرة فقد أتاه قبل وقته فلم يجزه . وقال الشافعيّ وأحمد بن حنبل : يصومهن ما بين أن يُهِلّ بالحج الى يوم عرفة . وهو قول ابن عمر .

وعائشة ، وروى هذا عن مالك ، وهو مقتضى قوله فى موطّأه ؛ ليكون يوم عرفة مفطرا ؛ فذلك أتبع للسنة ،وأقوى على العبادة . وسيأتى.وعن أحمد أيضا جائز أن يصوم الثلاثة قبل أن يحرم . وقال الثورى والأوزاعى : يصومهن من أول أيام العشر . وبه قال عطاء . وقال عروة : يصومها ما دام بمكة فى أيام منًى ، وقاله أيضا مالك وجماعة من أهل المدينة .

وأيام منًى هى أيام التشريق الثلاثة التى تلى يوم النحر . روى مالك فى الموطأ عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تقول : «الصيام لمن تمتّع بالعمرة الى الحج لمن لم يجد هديًا ما بين أن يهلّ بالحج الى يوم عرفة ، فإن لم يصم صام أيام منًى» . وهذا اللفظ يقتضى صحة الصوم من وقت يحرم بالحج المتمتع الى يوم عرفة ، وأن ذلك مبدأ ، إما لأنه وقت الأداء وما بعد ذلك من أيام منى وقت القضاء ، على ما يقوله أصحاب الشافعى . وإما لأن فى تقديم الصيام قبل يوم النحر إبراء للذمة ، وذلك مأمور به . والأظهر من المذهب أنها على وجه الأداء ، وإن كان الصوم قبلها أفضل ؛ كوقت الصلاة الذى فيه سعة للأداء وإن كان أوله أفضل من آخره . وهذا هو الصحيح وأنها أداء لا قضاء ؛ فإن قوله : أيام فى الحج . يحتمل أن يريد موضع الحج ، ويحتمل أن يريد أيام الحج ؛ فإن كان المراد أيام الحج فهذا القول صحيح ؛ لأن آخر أيام الحج يوم النحر ، ويحتمل أن يكون آخر أيام الحج أيام الرمى ؛ لأن الرمى عمل من عمل الحج خالصا وان لم يكن من أركانه . وان كان المراد موضع الحج صامه ما دام بمكة فى أيام منًى ؛ كما قال عروة ، ويقوى جدا . وقد قال قوم : له أن يؤخرها ابتداء الى أيام التشريق ، لأنه لا يجب عليه الصيام إلا بألا يجد الهدى يوم النحر . فإن قيل وهى :

الثانيـة — فقد ذهب جماعة من أهل المدينة والشافعى فى الجديد وعليه أكثر أصحابه إلى أنه لا يجوز صوم أيام التشريق لنهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن صيام أيام منى ؛ قيل له : إن ثبت النهى فهو عام يخصّص منه المتمتع بما ثبت فى البخارى أن عائشة كانت تصومها . وعن ابن عمر وعائشة قالا : لم يرخّص فى أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهدى . وقال الدارقطنى : إسناد صحيح ، ورواه مرفوعا عن ابن عمر وعائشة من طرق ثلاثة

ضعّفها . وإنما رخص فى صومها لأنه لم يبق من أيامه إلا بمقدارها، وبذلك يتحقق وجوب الصوم لعدم الهدى . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : اذا فاته الصـوم صام بعد أيام التشريق، وقاله الحسن وعطاء . قال ابن المنـذر : وكذلك نقـول . وقالت طائفة : اذا فاته الصوم فى العشر لم يجزه إلا الهدى . روى ذلك عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وطاوس ومجاهد، وحكاه أبو عمر عن أبى حنيفة وأصحابه عنه فتأمله .

الثـالثـــة — أجمع العلماء على أن الصوم لا سبيل للتمتع إليه اذا كان يجد الهــدى ، واختلفوا فيه اذا كان غير واجد للهدى فصام ثم وجد الهدى قبل إكمال صومه؛ فذكر ابن وهب عن مالك قال : اذا دخل فى الصوم ثم وجد هديًا فأحبّ الىّ أن يهدى، فإن لم يفعل أجزاه الصيام . وقال الشافعىّ : يمضى فى صومه وهو فرضه . وكذلك قال أبو ثور، وهو قول الحسن وقتادة، واختاره ابن المنذر . وقال أبو حنيفة : اذا أيسر فى اليوم الثـالث من صومه بطل الصوم ووجب عليه الهدى . وإن صام ثلاثة أيام فى الحج ثم أيسر كان له أن يصوم السبعة الأيام لا يرجع الى الهدى، وبه قال الثورىّ وابن أبى نجيح وحمّاد .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَسَبْعَةٍ ﴾ قراءة الجمهور بالخفض على العطف . وقرأ زيد ابن علىّ « وسبعةً » بالنصب ،على معنى وصوموا سبعة .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ يعنى الى بلادكم. قاله ابن عمر وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء، وقاله مالك فى كتاب محمـد، وبه قال الشافعىّ . قال قتادة والربيع : هــذه رخصة من الله تعالى، فلا يجب على أحد صوم الســبعة إلا إذا وصل وطنه، إلا أن يتشدّد أحد؛ كما يفعل من يصوم فى السفر فى رمضان. وقال أحمد وإسحاق : يجزيه الصوم فى الطريق. وروى عن مجاهد وعطاء . قال مجاهد : إن شاء صامها فى الطريق، إنما هى رخصة. وكذلك قال عكرمة والحسن . والتقدير عند بعض أهل اللغة : اذا رجعتم من الحج، أى اذا رجعتم الى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحل . وقال مالك فى الكتاب : اذا رجع من منًى فلا بأس

أن يصوم . قال ابن العربي : « إن كان تخفيفا ورخصة فيجوز تقديم الرخص وترك[(١)] الرفق فيها الى العزيمة إجماعا . وإن كان ذلك توقيتا فليس فيه نصّ، ولا ظاهرٌ أنه أراد البلاد، وأنها المراد في الأغلب[(٢)] » .

قلت : بل فيه ظاهر يقرب الى النص ؛ يبينه مارواه مسلم عن ابن عمر قال : تمتّع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى ، فساق معه الهدى من ذى الحليفة، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهلّ بالحج ، وتمتع الناس مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالعمرة الى الحج ، فكان من الناس من أهلّ فساق الهَدْىَ ، ومنهم من لم يهد ؛ فلما قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكة قال للناس : "من كان منكم أهدى فلا يحلّ من شيء حَرُم منه حتى يقضى حجّه ومن لم يكن منكم أهدى فليطُفْ بالبيت وبالصفا والمروة وليُقصِّر وليَحْلِل ثم لْيُهِلّ بالحج ولْيُهْدِ فمن لم يجد هديا فلْيَصُمْ ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجع الى أهله" الحديث . وهذا كالنص فى أنه لا يجوز صوم السبعة الأيام إلا فى أهله وبلده . والله أعلم . وكذا قال البخاريّ فى حديث ابن عباس : ثم أمرنا عشية التّروية أن نهلّ بالحج فاذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وقد تم حجنا وعلينا الهدى ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ . الى أمصاركم . الحديث، وسيأتى . قال النحاس : وكان هذا إجماعا .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقال : كَمَل يَكْمُلُ مثل نصر ينصر ، وكَمُل يكمل مثل عَظُم يَعْظُم ، وكَمِل يَكْمَل مثل حَمِد يَحْمَد؛ ثلاث لغات . واختلفوا فى معنى قوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾ وقد علم أنها عشرة؛ فقال الزجاج : لما جاز أن يتوهم متوهِّم التخيير بين ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة اذا رجع بدلا منها ؛ لأنه لم يقل وسبعة أخرى أزيل ذلك بالجملة

(١) كذا فى أحكام القرآن لابن العربى . وفى الأصل : « بدل » .

(٢) عبارة ابن العربى : « ... ولا ظاهر أنه أراد البلاد، وإنما المراد فى الأغلب والأظهر فيه أنه الحج » .

من قوله «تلك عشرة» ثم قال : « كاملة» . وقال الحسن : كاملة فى الثواب كمن أهدى . وقيل : كاملة فى البدل عن الهدى ، يعنى العشرة كلها بدل عن الهدى . وقيل: كاملة فى الثواب كمن لم يتمتع . وقيل : لفظها لفظ الإخبار ومعناها الأمر ، أى أكملوها فذلك فرضها . وقال المبرد : عشرة دلالة على انقضاء العدد؛ لئلا يتوهّم متوهّم أنه قد بقى منه شيء بعد ذكر السبعة. وقيل : هو توكيد؛ كما تقول : كتبت بيدى . ومنه قول الشاعر :

ثلاثٌ واثنتان فهنّ خمسٌ * وسادسةٌ تميل الى شِمامِى

فقوله : خمس، تأكيد . ومثله قول الآخر :

ثلاث بالغداة فذاك حسبى * وستّ حين يدركنى العِشاء
فذلك تســعة فى اليوم رِيّى * وشرب المــرء فوق الرىّ داء

وقوله : « كاملة » ، تأكيد آخر، فيه زيادة توصية بصيامها وأن لاينقص من عددها؛ كما تقول لمن تأمره بأمر ذى بال : الله الله لا تقصر .

السابعــة ـــ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى إنما يجب دم التمتع عن الغريب الذى ليس من حاضرى المسجد الحرام . خرّج البخارىّ «عن ابن عباس أنه سئل عن متعة الحج فقال: أهل المهاجرون والأنصار وأزواج النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى حجّة الوداع وأهللنا؛ فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلّد الهــدى" . طُفْنا بالبيت وبالصّفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب . وقال : "من قلّد الهــدى فإنه لا يحلّ حتى يبلغ مَحِـلّه" . ثم أمرَنا عشيّةَ التّروية أن نهلّ بالحج ، فإذا فرغنا من المناســك جئنا فطفنا بالبيت وبالصّفا والمروة فقد تم حجّنا وعلينا الهدى، كما قال الله تعالى : فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم . إلى أمصاركم، الشّاةُ تَجزى . فجمعوا نُسُكَيْن فى عام بين الحج والعمرة ، فإن الله أنزله فى كتابه وسنّهُ نبيُّه صلّى الله عليه وسـلّم وأباحه للنـاس غيرَ أهل مكة، قال الله عز وجل : ذلك لمن لم يكن أهــله حاضرى المسجد الحرام . وأشهر الحج التى ذكر الله عزّ وجلّ : شوّالٌ وذو القَعدة وذو الحجة؛

فمن تمتع في هــذه الأشهر فعليــه دمٌ أو صــوم . والرفث الجمــاع . والفسوق المعاصي . والجدال المِرَاء » .

الثامنـــة — اللام في قوله «لِمَنْ» بمعنى على، أي وجوب الدم على من لم يكن من أهل مكة؛ كقوله عليه السلام : " اشترطي لهم الولاء " . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعليها . وذلك إشارة الى التمتّع والقِران للغريب عند أبي حنيفة وأصحــابه، لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندهم . ومن فعل ذلك كان عليه دم جناية لا يأ كل منه؛ لأنه ليس بدم تمتع . وقال الشافعيّ : لهم تمتع وقران . والإشارة ترجع الى الهدى والصيام ، فلا هدى ولا صيام عليهم . وفرّق عبد الملك بن الماجشون بين التمتع والقران ، فأوجب الدم في القران وأسقطه في التمتع . على ما تقدّم عنه .

التاســـعة — واختلف الناس في حاضري المسجد الحرام — بعد الإجماع على أن أهل مكة وما اتصــل بها من حاضريه . وقال الطبري : بعد الإجماع على أهــل الحرم . قال ابن عطية : وليس كما قال — فقال بعض العلماء : من كان يجب عليه الجمعة فهو حضريّ، ومن كان أبعد من ذلك فهو بدويّ ؛ فجعل اللفظة من الحضارة والبداوة . وقال مالك وأصحابه : هم أهل مكة وما اتصل بها خاصة. وعند أبي حنيفة وأصحابه : هم أهل المواقيت ومن وراءها من كل ناحية؛ فمن كان من أهل المواقيت أو من أهل ما وراءها فهم من حاضري المسجد الحرام . وقال الشافعي وأصحابه : هم من لا يلزمه تقصير الصلاة من موضعه الى مكة، وذلك أقرب المواقيت . وعلى هذه الأقوال مذاهب السلف في تأويل الآية .

العــاشرة — قوله تعــالى : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أي فيما فرضــه عليكم . وقيــل : هو أمر بالتقوى على العموم، وتحذير من شدّة عقابه .

قوله تعالى — ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ . فيــه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ لمـا ذكر الحج والعمرة سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ بيّن اختلافهما فى الوقت ، فجميع السَّنة وقتٌ للإحرام بالعمرة ، ووقت العمرة . وأما الحج فيقع فى السنة مرة، فلا يكون فى غير هذه الأشهر . والحج أشهر معلومات ، ابتداء وخبر ، وفى الكلام حذف تقـديره : أشهر الحج أشهر ، أو وقت الحج أشهر، أو وقت عمل الحج أشهر . وقيل : التقدير الحج فى أشهر . ويلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر ، ولم يقرأ أحد بنصبها ، إلا أنه يجوز فى الكلام النصب على أنه ظرف . قال الفراء : الأشهر رفع ، لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات . قال الفراء : وسمعت الكسائى يقول : إنمـا الصيف شهران، وإنمـا الطيلسان ثلاثة أشهر . أراد وقت الصيف، ووقت لباس الطيلسان، فحذف .

الثانيـــة — واختلف فى الأشهر المعلومات؛ فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزّهرى : أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة كلّه . وقال ابن عباس والسـدّى والشعبيّ والنخعيّ : هى شوال وذو القعدة وعشرة من ذى الحجة . وروى عن ابن مسعود ، وقاله ابن الزبير . والقولان مرويّان عن مالك . حكى الأخير ابن حبيب ، والأوّل ابن المنذر. وفائدة الفرق تعلّق الدم؛ فمن قال : إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم ير دمًا فيما يقع من الأعمال بعد يوم النحر ، لأنها فى أشهر الحج . وعلى القول الأخير ينقضى الحج بيوم النحر ، ويلزم الدم فيما عمل بعد ذلك لتأخيره عن وقته .

الثالثـــة — لم يُسَمِّ الله تعـالى أشهر الحج فى كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم . ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين وبعض الثالث ، لأن بعض الشهر يتنزل منزلة كله ؛ كما يقال : رأيتك سنة كذا ، أو على عهد فلان . ولعلّه إنما رآه فى ساعة منها، فالوقت يذكر بعضه بكله؛ كما قال النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم : " أيام مِنًى ثلاثة " . وإنما هى يومان وبعض الثالث . ويقولون : رأيتـك اليوم ، وجئتك العام . وقيل : لمـا كان الاثنان وما فوقهما جمع قال : أشهر . والله أعلم .

الرابعــة — اختلف فى الإهلال بالحج فى غير أشهر الحج؛ فروى عن ابن عباس من سُنّة الحج أن يُحرم به فى أشهر الحج . وقال عطاء ومجاهد وطاوس والأوزاعى : من أحرم بالحج قبل أشهر الحج لم يجزه ذلك عن حجه و يكون عمرة؛ كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فانه لا تجزيه وتكون نافلة . وبه قال الشافعى وأبو ثور . وقال الأوزاعى : يحل بعمرة . وقال أحمد بن حنبل : هذا مكروه . وروى عن مالك . والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج فى جميع السنة كلها . وهو قول أبى حنيفة — وقال النخعىّ : لا يحل حتى يقضى حجه ، لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ وقد تقدّم القول فيها . وما ذهب اليه الشافعىّ أصح، لأن تلك عامة ، وهذه الآية خاصــة . ويحتمل أن يكون من باب النّص على بعض أشخاص العموم ، لفضل هذه الأشهر على غيرها ؛ وعليه فيكون قول مالك صحيحا ، والله أعلم .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ أى ألزمه نفسه بالشروع فيه بالنية قصدا باطنا ، وبالإحرام فعلا ظاهرا، وبالتلبية نطقا مسموعا . قاله ابن حبيب وأبو حنيفة فى التّلبيــة . وليست التّلبية عنـد الشافعىّ من أركان الحج . وهو قول الحسن بن حَىّ . قال الشافعىّ : تكفى النية فى الإحرام بالحج . وأوجب التّلبية أهل الظاهر وغيرهم . وأصل الفرض فى اللغة : الحزّ والقطع؛ ومنه فُرْضَة القوس(١) والنهر والجبل . ففرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحزّ للقِدْح . وقيل : فرض أى أبان؛ وهذا يرجع الى القطع ، لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره . ومَنْ، رفع بالابتداء ومعناها الشرط ، والخبر قوله : فَرَض ، لأن «من» ليست بموصولة؛ فكأنه قال : رجل فرض . وقال : فيهن ، ولم يقل فيها؛ فقال قوم : هما سواء فى الاستعمال . وقال المـازنى أبو عثمان : الجمــع الكثير لمـا لا يعقل يأتى كالواحدة المؤنثة ، والقليـل ليس كذلك؛ تقــول : الأجذاع انكسرن ، والجــذوع انكسرت . ويؤيد ذلك قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ ثم قال : ﴿ مِنْهَا ﴾ .

---

(١) فرضة القوس (بضم أوله وسكون ثانيه) : الحز يقع عليه الوتر . وفرضة النهر : مشرب الماء منه . وفرضة الجبل : ما انحدر من وسطه وجانبه .

السادســـة ــ قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ قال ابن عباس وابن جبير والسدى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرى ومجاهد ومالك: الرفث الجماع، أى فلا جمـاع لأنه يفسده. وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج، وعليه حج قابل والهدى. وقال عبد الله بن عمر وطاوس وعطـاء وغيرهم: الرفث الإفحاش للمرأة بالكلام، لقوله: إذا أحللنا فعلنا بك كذا؛ من غير كناية. وقاله ابن عباس أيضا، وأنشد وهو مُحْرِم:

وهُنّ يمشِينَ بنا هَميسَا * ان تَصدُقِ الطيرُ نَنِك لَمِيسَا[1]

فقال له صاحبه حصـين بن قيس: أترفُث وأنت محرم؟ فقـال: إن الرفث ما قيـل عند النساء. وقال قوم: الرفث الإفحاش بذكر النساء، كان ذلك بحضرتهن أم لا. وقيل: الرفث كلمة جامعة لمـا يريده الرجل من أهله. وقال أبو عبيدة: الرفث اللّغا من الكلام، وأنشد:

ورُبَّ أسرابِ حَجيجٍ كُظَّـمِ * عن اللَّغـا ورَفَثِ التّكلُّـمِ

يقـال: رفث يرفث بضم الفاء وكسرها. وقرأ ابن مسـعود «فلا رفوث» على الجمع. قال ابن العربى: «المراد بقوله: «فلا رفث» نفيه مشروعا لا موجودا، فإنا نجد الرفث فيه ونشاهده، وخبر الله سـبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره، وإنمـا يرجع النفى الى وجوده مشروعا لا الى وجوده محسوسا؛ كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ معناه شرعًا لا حِسًّا، فإنا نجـد المطلقات لا يتربصن؛ فعـاد النفى الى الحكم الشرعى لا الى الوجود الحسى؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ إذا قلنا: إنه وارد فى الآدميين ــ وهو الصحيح ــ أن معناه لا يمسه أحد منهم شرعا، فان وجد المس فعـلى خلاف حكم الشرع؛ وهذه الدقيقة هى التى فاتت العلمـاء فقالوا: إن الخبر يكون بمعنى النهى، وما وجد ذلك قط، ولا يصح أن يوجد، فإنهما مختلفان حقيقة ومتضادان وصفا».

السابعـــة ــ قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ يعنى جميع المعـاصى كلها. قاله ابن عباس وعطاء والحسن. وكذلك قال ابن عمر وجمـاعة: الفسوق إتيان معاصى الله عزّ وجلّ

(١) اللميس: المرأة اللينة الملمس.

فى حال إحرامه بالحج ؛ كقتل الصيد وقصّ الظفر وأخذ الشَّعر، وشبه ذلك . وقال ابن زيد ومالك : الفسوق الذبح للأصنام؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ . وقال الضحاك : الفسوق التنابز بالألقاب؛ ومنه قوله : ﴿ بِئْسَ ٱلِاسْمُ الْفُسُوقُ ﴾ . وقال ابن عمر أيضا : الفسوق السباب؛ ومنه قوله عليه السلام : "سِبابُ المسلم فسوقٌ وقتاله كفر" . والقول الأوّل أصح ، لأنه يتناول جميع الأقوال . قال صلى الله عليه وسلم : "من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه"(١) . [قال] : "والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة" . خرجه مسلم وغيره . وجاء عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "والذى نفسى بيده ما بين السماء والأرض من عمل أفضل من الجهاد فى سبيل الله أو حجة مبرورة لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال" . وقال الفقهاء : الحج المبرور هو الذى لم يعص الله تعالى فيه أثناء أدائه . وقال الفراء : هو الذى لم يعص الله سبحانه بعده . ذكر القولين ابن العربى رحمه الله .

قلت : الحج المبرور هو الذى لم يُعصَ اللهَ سبحانه فيه ولا بعده . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع صاحبه زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . وقيل غير هذا ، وسيأتى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ قرئ « فلا رفثٌ ولا فسوقٌ » . بالرفع والتنوين فيهما . وقرئا بالنّصب بغير تنوين . وأجمعوا على الفتح فى « ولا جدال » ، وهو يقوّى قراءة النصب فيما قبله ، ولأن المقصود النفى العام من الرفث والفسوق والجدال ، وليكون الكلام على نظام واحد فى عموم المنفى كله . وعلى النصب أكثر القراء . والأسماء الثلاثة فى موضع رفع(٢) ، كل واحد مع لا . وقوله « فى الحج » خبر عن جميعها . ووجه قراءة الرفع أن « لا » بمعنى « ليس » فارتفع الاسم بعدها ، لأنه اسمها ، والخبر محذوف تقديره : فليس رفث ولا فسوق فى الحج ؛ دل عليه فى الحج الثانى الظاهر وهو خبر « لا جدال » . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرفع بمعنى فلا يكون رفث ولا فسوق ، أى شىء يخرج من الحج ، ثم ابتدأ النفى فقال : ولا جدال .

(١) فى الأصول : « كيوم ولدته » . والتصويب عن صحيح مسلم .
(٢) هذا على أحد قولين للنحو يين والثانى أن لا عاملة فى الاسم النصب وما بعدها خبر .

قلت : فيحتمل أن تكون كان تامة ، مثل قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ فلا تحتـاج الى خبر . ويحتمل أن تكون ناقصـة والخبر محذوف، كما تقـدم آنفا . ويجوز أن يرفع رفث وفسوق بالابتداء، ولا للنفى، والخبر محذوف أيضا . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع بالرفع فى الثلاثة . ورويت عن عاصم فى بعض الطرق ، وعليه يكون « فى الحج » خبر الثلاثة، كما قلنا فى قراءة النصب ؛ وإنما لم يحسن أن يكون « فى الحج » خبر عن الجميع مع اختلاف القراءة ، لأن خبر ليس منصوب وخبر ولا جدال مرفوع ؛ لأن «ولا جدال» مقطوع من الأول وهو فى موضع رفع بالابتداء، ولا يعمل عاملان فى اسم واحد . ويجوز « فلا رفث ولا فسوق » تعطفه على الموضع . وأنشد النحويون :

لا نَسبَ اليومَ ولا خُلّةً * إتّسع الخرقُ على الراقِع (١)

ويجوز فى الكلام «فلا رفث ولا فسوقا ولا جدالا فى الحج» عطفا على اللفظ على ما كان يجب فى لا . قال الفراء : ومثله :

فلا أبَ وابْناً مثلُ مَرْوانَ وابنِه * اذا هو بالمجـــد آرتدَى وتأزّرا

وقال أبو رجاء العطاردى : فلا رفث ولا فسوق بالنصب فيهما، ولا جدال بالرفع والتنوين. وأنشد الأخفش :

هـــذا وَجدّكم الصَّغار بعينـه * لا أمَّ لى إن كان ذاك ولا ابُ

وقيـل : إن معنى « فلا رفث ولا فسوق » النهى ، أى لا ترفثوا ولا تفسقوا . ومعنى «ولا جدال» النفى، فلما اختلفا فى المعنى خولف بينهما فى اللفظ . قال القشيرى : وفيه نظر، إذ قيل : ولا جدال نهى أيضا، أى لا تجادلوا، فلم فرق بينهما .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ ﴾ الجدال وزنه فعال من المجادلة ، وهى مشتقة من الجَدْل وهو الفتل؛ ومنه زمام مجدول . وقيل : هى مشتقة من الجدالة التى هى الأرض.

---

(١) البيت لأنس بن العباس السلمى . والشاهد فيه : نصب المعطوف وتنوينه على إلغاء «لا» الثانية ، وزيادتها لتأكيد النفى ، ولو رفعت « الخلة » على الموضع لجاز .

فكأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه ، فيكون كمن ضرب به الجدالة . قال الشاعر :

قد أَرْكَبُ الآلَةَ بعدَ الآلَهْ (١) * وأتركُ العاجزَ بالجَدَالَهْ

* مُنْعَفِرًا ليست له محاله *

العاشرة — واختلفت العلماء فى المعنى المراد به هنا على أقوال ستة ؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء : الجدال هنا أن تمارى مسلما حتى تغضبه فينتهى الى السباب ؛ فأما مذاكرة العلم فلا نهى عنها . وقال قتادة : الجدال السباب . وقال ابن زيد ومالك بن أنس : الجدال هنا أن يختلف الناس، أيهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية حين كانت قريش تقف فى غير موقف سائر العرب، ثم يتجادلون بعد ذلك . فالمعنى على هذا التأويل : لا جدال فى مواضعه . وقالت طائفة : الجدال هنا أن تقول طائفة : الحج اليوم ، وتقول طائفة : الحج غدا . وقال مجاهد وطائفة معه : الجدال المماراة فى الشهور حسب ما كانت عليه العرب من النسىء ، كانوا ربما جعلوا الحج فى غير ذى الحجة ، ويقف بعضهم بجمع (٢) وبعضهم بعرفة ، ويتمارون فى الصواب من ذلك .

قلت : فعلى هذين التأويلين لاجدال فى وقته ولا فى موضعه ، وهذان القولان أصح ما قيل فى تأويل قوله «ولا جدال» ، لقوله صلّى الله عليه وسلّم : "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" الحديث . وسيأتى فى «براءة» . يعنى رجع أمر الحج كما كان ، أى عاد إلى يومه ووقته . وقال صلى الله عليه وسلم لما حج : "خذوا عنّى مناسككم" . فبيّن بهذا مواقف الحج ومواضعه . وقال محمد بن كعب القرظى : الجدال أن تقول طائفة : حجّنا أبرّ من حجكم . ويقول الآخر مثل ذلك . وقيل : الجدال كان فى الفخر بالآباء . والله أعلم .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ شرط وجوابه . والمعنى : إن الله يجازيكم على أعمالكم ، لأن المجازاة إنما تقع من العالم بالشىء . وقيل :

(١) الآلة : الحالة ، والشدة . (٢) هى المزدلفة .

هو تحريض وحَثٌّ على حَسَنِ الكلام مكان الفحش، وعلى الـبر والتقوى فى الأخلاق مكان الفسوق والجـدال . وقيل : جعل فعـل الخير عبارة عن ضبط نفسهم حتى لا يوجد ما نهوا عنه .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ أمر باتخاذ الزاد. قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتـادة وابن زيد : نزلت الآية فى طائفة من العـرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؛ فكانوا يبقون عالة على النـاس، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالزاد . وقال عبد الله بن الزبير : كان الناس يتّكل بعضهم على بعض بالزاد ؛ فأمروا بالزاد. وكان للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى مسيره راحلة عليها زاد، وقدم عليـه ثلثمائة رجل من مُزَيْنة، فلما أرادوا أن ينصرفوا قال : " يا عمر زوّد القوم " . وقال بعض الناس . تزوّدوا ، الرفيق الصالح . قال ابن عطية : وهذا تخصيص ضعيف ، والأولى فى معنى الآية : وتزوّدوا لمعادكم من الأعمال الصالحة .

قلت : القول الأول أصح، فان المراد الزاد المتّخذ فى سفر الحج المأكول حقيقة كما ذكرناه؛ كما روى البخاريّ عن ابن عباس قال : كان أهـل اليمن يحجّون ولا يتزوّدون ويقـولون : نحن المتوكلون . فاذا قـدموا مكة سألوا النـاس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ وهـذا نص فيما ذكرنا وعليه أكثر المفسرين . قال الشعبيّ : الزاد التمر والسويق . ابن جبير : الكعك والسويق . قال ابن العربى : «أمر الله تعـالى بالتزوّد لمن كان له مال، ومن لم يكن له مال فإن كان ذا حرفة تَنْفُقُ فى الطريق أو سائلا فلا خطاب عليـه ، وإنمـا خاطب الله أهـل الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغـير زاد ويقولون : نحن المتوكلون . والتوكل له شروط ، من قام بها خرج بغير زاد ولا يدخل فى الخطاب ، فانه خرج على الأغلب من الخلق وهم المقصرون عن درجة التوكل الغافلون عن حقائقه . والله عزّ وجلّ أعلم » . قال أبو الفرج الجوزيّ : وقد لبَّس إبليس على قوم يدعون التوكل، فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ . قال رجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج

الى مكة على التوكل بغير زاد . فقال له أحمد : اخرج فى غير القافلة . فقال : لا، إلا معهم . قال : فعلى جُرُب الناس توكلت .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ أخبر تعالى أن خير الزاد اتقاء المنهيات ، فأمرهم أن يضموا الى التزود التقوى، وجاء قوله « فإن خير الزاد التقوى » محمولا على المعنى ؛ لأن معنى وتزودوا : اتقوا الله فى اتباع ما أمركم به من الخروج بالزاد . وقيل : يحتمل أن يكون المعنى : فان خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة أو الحاجة الى السؤال والتكفف . وقيل : فيه تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار . قال أهل الإشارات : ذكّرهم الله تعالى سفر الآخرة وحثّهم على تزوّد التقوى ، فإن التقوى زاد الآخرة . قال الأعشى :

إذ أنت لم ترحل بزاد من التّقى * ولاقيت بعد الموت من قد تزوّدَا
ندمتَ على ألّا تكون كمثله * وأنك لم ترصد كما كان أرصدَا

وقال آخر :

الموت بحر طامح موجه * تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس إنى قائل فاسمعى * مقالة من مشفق ناصح
لا يصحب الإنسان فى قبره * غير التقى والعمل الصالح

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ خصّ أولى الألباب بالخطاب — وإن كان الأمر يعم الكل — لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم قابلو أوامره والناهضون بها . والألباب : جمع لُبّ . ولُبّ كل شيء : خالصه ؛ ولذلك قيل للعقل : لب . قال النحاس : سمعت أبا إسحاق يقول قال لى أحمد بن يحيى ثعلب : أتعرف فى كلام العرب شيئا من المضاعف جاء على فعل ؟ قلت : نعم، حكى سيبويه عن يونس لَبُبْت تَلَب . فاستحسنه وقال : ما أعرف له نظيرا .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أى إثم، وهو اسم ليس. أن تبتغوا، فى موضع نصب خبر ليس، أى فى أن تبتغوا . وعلى قول الخليل والكسائى أنها فى موضع خفض . ولما أمر تعالى بتنزيه الحج عن الرفث والفسوق والجدال رخّص فى التجارة . المعنى : لا جناح عليكم فى أن تبتغوا فضل الله . وابتغاء الفضل ورَد فى القرآن بمعنى التجارة، قال الله تعالى : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ . والدليل على صحة هذا ما رواه البخاريّ عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومَجَنّة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى المواسم فنزلت : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج[1] .

الثانيــة — إذا ثبت هذا، ففى الآية دليل على جواز التجارة فى الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد الى ذلك لا يكون شِركًا ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه؛ خلافا للفقراء[2] أن الحج دون تجارة أفضل، لعروه عن شوائب الدنيا وتعلق القلب بغيره . روى الدار قطنيّ فى سننه عن أبى أمامة التَّيمى قال قلت لابن عمر : إنى رجل أكرى فى هذا الوجه، وإن ناسًا يقولون : إنه لا حجّ لك . فقال ابن عمر : جاء رجل الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسأله مثل هذا الذى سألتنى، فسكت حتى نزلت هذه الآية : «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "إن لك حجا" .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ ﴾ الى قوله : ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ فيه ست عشرة مسئلة .

---

(١) الذى فى البخارى : «كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس فى الجاهلية؛ فلما جاء الاسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ... الخ» . وقوله : فى مواسم الحج . زادها أبيّ فى قراءته . وعكاظ : نخل فى واد بينه و بين الطائف ليلة، وبينه و بين مكة ثلاث ليال . وذو المجاز خلف عرفة . ومجنة بمرّ الظهران، قرب جبل يقال له : الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها . وهذه أسواق للعرب، وكان أهل الجاهلية يصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة، ثم يذهبون منه الى مجنة بعد مضى عشرين يوما من ذى القعدة؛ فاذا رأوا هلال ذى الحجة ذهبوا من مجنة الى ذى المجاز، فلبثوا به ثمان ليال، ثم يذهبون الى عرفة . ولم تزل هذه الأسواق قائمة فى الاسلام الى أن كان أول ما ترك منها سوق عكاظ فى زمن الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة لما خرج الحرورى بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف، خاف الناس أن ينتهبوا فتركت الى الآن، ثم ترك ذو المجاز ومجنة بعد ذلك، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وعرفة . (عن شرح القسطلانى) .

(٢) لعله يريد بالفقراء الصوفية .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ ﴾ أى اندفعتم . ويقال : فاض الإناء اذا امتلأ حتى ينصبّ عن نواحيه . ورجل فيّاض أى مندفق بالعطاء . قال زهير :

وأبيضَ فيّاضٍ يداه غمامةٌ * على مُعْتَفِيه ماتُغِبُّ فواضله[1]

وحديث مستفيض أى شائع .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ قراءة الجماعة «عرفاتٍ» بالتنوين . وكذلك لو سميت آمرأة بمسلمات ، لأن التنوين هنا ليس فرقا بين ما ينصرف وما لا ينصرف فتحذفه ، وإنما هو بمنزلة النون فى مسلمين . قال النحاس : هذا الجيد . وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات ، يقول : هذه عرفاتِ يا هذا ، ورأيت عرفاتِ ياهذا ، بكسر التاء وبغير تنوين . قال : لما جعلوها معرفة حذفوا التنوين . وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء ، تشبيها بتاء فاطمة وطلحة . وأنشدوا :

تنوّرتها من أذرعاتَ وأهلُها * بيثرب أدنى دارِها نَظَرٌ عَالِ

والقول الأوّل أحسن ، وأن التنوين فيه على حده فى مسلمات ؛ الكسرة مقابلة الياء فى مسلمين ، والتنوين مقابل للنون . وعرفات اسم عَلَم ، سمى بجمع كأذرعات . وقيل : سمّى بما حوله ، كأرض سباسب[2] . وقيل : سميت تلك البقعة عرفات ، لأن الناس يتعارفون بها . وقيل : لأن آدم لما هبط وقع بالهند ، وحوّاء بِجُدّة[3] ، فاجتمعا بعد طول الطلب بعرفات يوم عرفة وتعارفا ؛ فسمّى اليوم عرفة ، والموضع عرفات . قاله الضحاك . وقيل غير هذا مما تقدّم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ . قال ابن عطية : والظاهر أن اسمه مرتجل كسائر أسماء البقاع . وعرفة هى نَعْمان الأراك ، وفيها يقول الشاعر :

تزوّدتُ من نَعْمان عُودَ أراكةٍ * لهندٍ ولكن مَنْ يبلّغه هندَا

---

(١) الفياض : الكثير العطاء . المعتفون : الطالبون ماعنده . يقال : عفاه واعتفاه : اذا أتاه يطلب معروفه . ماتغب فواضله ، أى عطاياه دائمة لا تنقطع .

(٢) جاء فى اللسان : « وحكى اللحيانى بلد سبسب ، وبلد سباسب ؛ كأنهم جعلوا كل جزء منه سبسبا ؛ ثم جمعوه على هذا » . والسبسب : القفر والمفازة . وقيل : الأرض المستوية البعيدة .

(٣) كل هذا يحتاج الى التثبت .

وقيـل : مأخوذة من العَرف وهو الطِّيب ؛ قال الله تعـالى : ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أى طيّبها ؛ فهى طيّبة بخلاف مِنًى التى فيها الفروث (١) والدماء ؛ فلذلك سميت عرفات . و يوم الوقوف : يوم عرفة . وقال بعضهم : أصل هذين الاسمين من الصبر؛ يقال : رجل عارف، إذا كان صابرا خاشعا . ويقال فى المثل : النفس عروف وما حملتها تتحمل . قال :

* فَصَبَرْتُ عارفةً لذلك حُرَّةً (٢) *

وقال ذو الرمة :

* عَرُوفٌ لما خَطَّتْ عليه المقادرُ (٣) *

أى صبور على قضاء الله ؛ فسمّى بهـذا الاسم لخضوع الحـاج وتذللهم ، وصبرهم على الدعاء وأنواع البلاء واحتمال الشدائد؛ لإقامة هذه العبادة .

الثالثـــة — أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبـل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتدّ بوقوفه ذلك قبل الزوال . وأجمعوا على تمـام حج من وقف بعرفة بعـد الزوال وأفاض نهاراً قبل الليل، إلا مالك بن أنس فانه قال : لا بدّ أن يأخذ من الليل شـيئا . وأما من وقف بعرفة بالليل فانه لا خلاف بين الأمة فى تمـام حجه . والحجة للجمهور مطلق قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ ولم يخصّ ليلا من نهار . وحديث عـروة بن مُضَرِّس قال : أتيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو فى الموقف من جَمْع، فقلت : يارسول الله، جئتك من جَبَلَىْ طَىّء، أَكْلَلْتُ مطيّتى ، وأتعبت نفسى ، والله إن تركت من جبل (٤) إلا وقفت عليــه ، فهل لى من حج يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلّم : " من صلّى معنا

(١) الفروث : جمع فرث ، وهو السرجين (الزبل) ما دام فى الكرش .

(٢) البيت لعنترة ، وتمامه : * ترسو إذا نفس الجبان تطلّع *

(٣) صـــدر البيت : * اذا خاف شيئا وقّرته طبيعة *

(٤) رواية الدارقطنى بالجيم . وفى بعض كتب الحديث ونهاية ابن الأثير بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الموحدة . قال الترمذى فى سننه : « قوله : من حبل . اذا كان من رمل يقال له حبل ، واذا كان من حجارة يقال له جبل » . وقال ابن الأثير فى تفسير هذا الحديث : «الحبل : المستطيل من الرمل ، وقيل : الضخم منه ، و جمعه حبال . وقيل : الحبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل» . وقال الخطابى : الحبال ما دون الجبال فى الارتفاع .

صلاة الغداة بجَمْع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلا أونهارا فقد قضى تفثه[1] وتم حجه" . أخرجه غير واحد من الأئمة ، منهم أبو داود والنسائي والدّارقطني واللفظ له . وقال الترمذي حديث حسن صحيح . وقال أبو عمر : حديث عروة بن مضرس الطائي حديث ثابت صحيح ، رواه جماعة من أصحاب الشعبيّ الثقات عن الشعبيّ عن عروة بن مضرّس ؛ منهم اسماعيل بن أبي خالد وداود بن أبي هند و زكريا بن أبي زائدة وعبد الله بن أبي السَّفَر ومطرف ، كلهم عن الشعبيّ عن عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام . وحجة مالك من السنة الثابتة ، حديث جابر الطويل ، خرّجه مسلم ؛ وفيه : فلم يزل واقفا حتى غَرَبت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القُرْص . وأفعاله على الوجوب ، لا سيما في الحج ، وقد قال : " خذوا عنّي مناسككم " .

الرابعة — واختلفت الجمهور فيمن أفاض قبل غروب الشمس ولم يرجع ماذا عليه مع صحة الحج ؛ فقال عطاء وسفيان الثوري والشافعيّ وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأى وغيرهم : عليه دم . وقال الحسن البصري : عليه هَدْيٌ . وقال ابن جريج : عليه بدنة . وقال مالك : عليه حج قابل ، والهدى ينحره في حج قابل ، وهو كمن فاته الحج . فان عاد إلى عرفة حتى يَدْفع بعد مغيب الشمس ، فقال الشافعيّ : لا شيء عليه . وهو قول أحمد واسحاق وداود ، وبه قال الطبري . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوريّ : لا يسقط عنه الدم وان رجع بعد غروب الشمس . وبذلك قال أبو ثور .

الخامسة — ولا خلاف بين العلماء في أن الوقوف بعرفة راكبا لمن قدر عليه أفضل ؛ لأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كذلك وقف الى أن دَفَع منها بعد غروب الشمس ، وأردف أسامة بن زيد . وهذا محفوظ في حديث جابر الطويل ، وحديث عليّ ، وفي حديث ابن عباس

---

(١) قال صاحب التعليق المغنى على سنن الدارقطني : «وقوله : وقضى تفثه ، قيل : المراد به أنه أتى بما عليه من المناسك ، والمشهور أن التفث ما يصنعه المحرم عند حله من تقصير شعر أو حلقه ، وحلق العانة ونتف الابط وغيره من خصال الفطرة ، ويدخل في ضمن ذلك نحر البدن ، وقضاء جميع المناسك ؛ لأنه لا يقضى التفث الا بعد ذلك ، وأصل التفث الوسخ والقذر ، قاله الشوكاني» .

أيضا . قال جابر : ثم ركب رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القَصْواءِ الى الصَّخرات[1]، وجعل حَبْل المُشاة[2] بين يديه واستقبل القبلة ؛ فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص، وأردف أسامة بن زيد خلفه، الحديث . فان لم يقدر على الركوب وقف قائمـا على رجليه ، داعيا ما دام يقدر ، ولا حرج عليه فى الجلوس اذا لم يقدر على الوقوف ، وفى الوقوف راكبا مباهات وتعظيم للحج «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» . قال ابن وهب فى موطأه : قال لى مالك : الوقوف بعرفة على الدواب والإبل أحبّ الىّ من أن أقف قائمـا ، قال : ومن وقف قائمـا فلا بأس أن يستريح .

السادســة — ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن أسامة بن زيد أنه عليه السلام كان إذا أفاض من عرفة يسير العَنَق[3] فاذا وجد فَجْوَة نَصّ . قال هشام بن عروة : والنص فوق العنق . وهكذا ينبغى على أئمة الحاج فمن دونهم؛ لأن فى استعجال السير الى المزدلفة استعجال الصلاة بها ، ومعلوم أن المغرب لا تصلّى تلك الليلة إلا مع العشاء بالمزدلفة، وتلك سنتها، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

ظاهر عموم القرآن والسـنة الثابتة يدل على أن عرفة كلها موقف ؛ قال صلّى الله عليه وسـلّم : "ووقفتُ هاهنا وعرفة كلهـا موقف" . رواه مسلم وغيره من حديث جابر الطويل . وفى موطأ مالك أنه بلغه أن رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم قال : "عرفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن عُرَنة والمزدلفـة كلها موقف وارتفعوا عن بطن مُحَسِّر" . قال ابن عبد البر : هـذا الحديث يتصل من حديث جابر بن عبد الله ، ومن حديث ابن عباس، ومن

(١) الصخرات : هى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة ، وهو الجبل الذى بوسط أرض عرفات .

(٢) قال ابن الأثير : « وجعل حبل المشاة بين يديه» أى طريقهم الذى يسلكونه فى الرمل . وقيـل : أراد صفهم ومجتمعهم فى مشيهم تشبيها بحبل الرمل » .

(٣) العنق (محركة) : سير سريع فسيح واسع للإبل والدابة . والفجوة : الموضع المتسع بين شيئين .

حديث علىّ بن أبى طالب، وأكثر الآثار ليس فيها استثناء بطن عرنة من عرفة، وبطن محسّر من المزدلفة ؛ وكذلك نقلها الحفّاظ الثّقات الأثبات من أهل الحديث فى حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر. قال أبو عمر : واختلف الفقهاء فيمن وقف بعرفة بعرنة؛ فقال مالك فيما ذكر ابن المنذر عنه : يهريق دما وحجه تام. وهذه رواية رواها خالد بن نزار عن مالك . وذكر أبو المصعب أنه كمن لم يقف وحجه فائت، وعليه الحج من قابل إذا وقف ببطن عرنة . وروى عن ابن عباس قال : من أفاض من عرنة فلا حج له . وهو قول ابن القاسم وسالم، وذكر ابن المنذر هذا القول عن الشافعىّ ، قال وبه أقول : لا يجزيه أن يقف بمكان أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ألا يوقف به . قال ابن عبد البر : الاستثناء ببطن عرنة من عرفة لم يجئ مجيئا تلزم حجته ، لا من جهة النقل ولا من جهة الإجماع . وحجة من ذهب مذهب أبى المصعب أن الوقوف بعرفة فرض مجمع عليه فى موضع معين، فلا يجوز أداؤه إلا بيقين، ولا يقين مع الاختلاف . وبطن عرنة يقال بفتح الراء وضمها ، وهو بغربى مسجد عرفة ؛ حتى لقد قال بعض العلماء : إن الجدار الغربى من مسجد عرفة لو سقط سقط فى بطن عرنة . وحكى الباجى عن ابن حبيب أن عرفة فى الحل، وعرنة فى الحرم. قال أبو عمر : وأما بطن محسّر فذكر وكيع : حدّثنا سفيان عن أبى الزبير عن جابر أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أوضع(1) فى بطن محسّر .

السابعة — ولا بأس بالتعريف فى المساجد يوم عرفة بغير عرفة، تشبيها بأهل عرفة. روى شعبة عن قتادة عن الحسن قال : أول من صنع ذلك ابن عباس بالبصرة . يعنى اجتماع الناس يوم عرفة فى المسجد بالبصرة . وقال موسى بن أبى عائشة : رأيت عمرو بن حُرَيث يخطب يوم عرفة وقد اجتمع الناس اليه . وقال الأثرم : سألت أحمد بن حنبل عن التعريف فى الأمصار ، يجتمعون يوم عرفة؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس ، قد فعله غير واحد ؛ الحسن وبكر وثابت ومحمد بن واسع كانوا يشهدون المسجد يوم عرفة .

---

(1) الإيضاع : سير مثل الخبب . يقال : وضع البعير يضع وضعا ، وأوضعه راكبه إيضاعا اذا حمله على سرعة السير .

الثامنـــة — فى فضل يوم عرفة . يوم عرفة فضله عظيم وثوابه جسيم، يكفّر الله فيه الذنوب العظام، ويضاعف فيه الصالح من الأعمال . قال صلّى الله عليه وسلّم : "صوم يوم عرفة يكفّر السنة الماضية والباقية" . أخرجه الصحيح . وقال صلّى الله عليه وسلّم : "أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" . وروى الدّارقطنى عن عائشة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "ما من يوم أكثرَ أن يُعتق الله فيه عددا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو عزّ وجلّ ثم يُباهى بهم الملائكة يقول ما أراد هؤلاء" . وفى الموطأ عن عبيد الله بن كَرِيز أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدْحَر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر". قيل: وما رأى [يوم بدر](1) يا رسول الله؟ قال : "أمَا إنه قد رأى جبريل يَزَع(2) الملائكة" . قال أبو عمر : روى هذا الحديث أبو النضر اسماعيل بن ابراهيم العجلىّ عن مالك عن ابراهيم بن أبى عَبْلة عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن أبيه، ولم يقل فى هذا الحديث عن أبيه غيره وليس بشىء ، والصواب ما فى الموطأ . وذكر الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول — حدّثنا حاتم بن نعيم التميمى أبو روح قال حدّثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى قال حدّثنا عبد القاهر بن السرّى السُّلمى قال حدّثنى ابنٌ لكنانة بن عباس بن مرداس عن أبيه عن جدّه عباس بن مرداس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا لأمته عشيّة عرفة بالمغفرة والرحمة، وأكثرَ الدعاء، فأجابه : أنى قد فعلت الا ظلم بعضهم بعضا فأما ذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها . قال : "يا رب إنك قادر أن تثيب هذا المظلوم خيرا من مظلمته وتغفر لهذا الظالم" فلم يجبه تلك العشية؛ فلما كان الغداة غداة المزدلفة اجتهد فى الدعاء فأجابه : إنى قد غفرت لهم؛ فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلم؛ فقيل له : تبسمت يا رسول الله فى ساعة لم تكن تتبسّم فيها؟ فقال : "تبسّمت

---

(1) زيادة عن الموطأ .

(2) قوله : يزع الملائكة . يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب؛ فكأنه يكفهم عن التفرق والانتشار .

من عدوّ الله إبليس إنه لمـا علم أن الله قـد استجاب لى فى أمتى أهوى يدعو بالويل والثبور ويَحْثِي التراب على رأسه ويفرّ ". وذكر أبو عبد الغنى الحسين[1] بن علىّ حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم عرفة غفر الله للحاج الخالص وإذا كان ليلة المزدلفة غفر الله للتجار وإذا كان يوم مِنًى غفر الله للجمالين وإذا كان يوم جمرة العقبة غفر الله للسؤال ولا يشهد ذلك الموقف خلق ممن قال لا إله الا الله إلا غفـر له" . قال أبو عمر : هـذا حديث غريب من حديث مالك ، وليس محفوظا عنه إلا من هذا الوجه ، وأبو عبد الغنى لا أعرفه ، وأهل العلم ما زالوا يسامحون أنفسهم فى روايات الرغائب والفضائل عن كل أحد ، إنما كانوا يتشدّدون فى أحاديث الأحكام .

التاســعة — استحب أهل العلم صوم يوم عرفة إلا بعرفة . روى الأئمة واللفظ للترمذى عن ابن عبـاس أن النبىّ صلّى الله عليـه وسلّم أفطر بعرفة ، وأرسلت اليه أمّ الفضـل بلبن فشرب . قال : حديث حسن صحيح ، وقد روى عن ابن عمر قال : حججت مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فلم يصمه — يعنى يوم عرفة — ومع أبى بكر فلم يصمه ، ومع عمر فلم يصمه . والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، يستحبون الإفطار بعرفة ليتقوّى به الرجل على الدعاء ، وقد صام بعض أهل العلم يوم عرفة بعرفة » . وأسند عن ابن عمر مثل الحديث الأول ، وزاد فى آخره : ومع عثمان فلم يصمه ، وأنا لا أصـومه ولا آمر به ولا أنهى عنـه . حديث حسن . وذكره ابن المنـذر . وقال عطاء فى صـوم يوم عرفة : أصوم فى الشـتاء ولا أصوم فى الصيف . وقال يحيى الأنصارى : يجب الفطر يوم عرفة . وكانـــ عثمان بن أبى العاصى وابن الزبير وعائشة يصومون يوم عرفة . قال ابن المنـذر : الفطر يوم عرفة بعرفات أحبّ الىّ اتباعا لرسول الله صلّى الله عليـه وسلّم ، والصوم بغير عرفة أحبّ الىّ ؛ لقول رســول الله صلّى الله عليـه وسلّم وقـد سئل عن صـوم يوم عرفة فقال : " يكفر السـنة المـاضية والباقية " .

(١) فى نسخة من الأصــل : « الحسن » . والذى يروى عن عبـد الرزاق بن همام الحميرى — أحد رجال هذا السند — هو الحسن بن علىّ الخلال أبو على ، وقيل أبو محمد .

وقـد روينا عن عطاء أنه قال : من أفطر يوم عرفة ليتقـوى على الدعاء فإن له مثـل أجر الصائم .

العـاشرة — فى قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْـدَ الْمَشْعَرِ الْحَـرَامِ ﴾ أى اذكروه بالدعاء والتلبية عند المشعر الحرام، ويسمى جَمْعًا لأنه يجمع ثَمَّ المغرب والعشاء ، قاله قتادة . وقيل : لاجتماع آدم فيه مع حواء وازدلف إليها ، أى دنا منها، وبه سميت المزدلفة؛ ويجوز أن يقال: سمّيت بفعل أهلهـا ، لأنهم يزدلفون إلى الله ، أى يتقربون بالوقوف فيها . وسُمّى مَشْعَرًا من الشّعار وهو العلامة ،لأنه معلم للحج والصلاة والمبيت به ، والدعاء عنده من شعائر الحج ، ووصف بالحرام لحرمته .

الحادية عشرة — ثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلّى المغرب والعشاء بالمزدلفة جميعا . وأجمع أهل العلم — لا اختلاف بينهم — أن السنة أن يجْمع الحاج بجمع بين المغرب والعشاء . واختلفوا فيمن صلاّها قبل أن يأتى جمعًا؛ فقال مالك : من وقف مع الإمام ودفع بدفعه فلا يصلّى حتى يأتى المزدلفة فيجمع بينهما . واستدل على ذلك بقوله صلّى الله عليه وسلّم لأسامة بن زيد : "الصلاة أمامك" . قال ابن حبيب : من صلّى قبل أن يأتى المزدلفة دون عذر يعيد متى ما علِم؛ بمنزلة من قد صلّى قبل الزوال؛ لقوله عليه السلام : "الصلاة أمامك" . وبه قال أبو حنيفة . وقال أشهب : لا إعادة عليـه ، إلا أن يصليهما قبـل مغيب الشفق فيعيـد العشاء وحدها . وبه قال الشافعى ، وهو الذى نصره القاضى أبو الحسن ، واحتج له بأن هاتين صـلاتان سنّ الجمع بينهما ، فلم يكن ذلك شرطا فى صحتهما ، وإنمـا كان على معنى الاستحباب، كالجمع بين الظهر والعصر بعرفة . واختار ابن المنذر هذا القول، وحكاه عن عطاء ابن أبى رباح وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وسعيد بن جبـير وأحمد وإسحاق وأبى ثور ويعقوب . وحكى عن الشافعى أنه قال: لا يصلى حتى يأتى المزدلفة، فإن أدركه نصف الليل قبل أن يأتى المزدلفة صلاهما .

الثانية عشرة — ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق فقد قال ابن حبيب : لا صلاة لمن عجل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق، لا لإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق؛ لقوله عليه السلام : "الصلاة أمامك" . ثم صلاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق . ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشفق ؛ فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما أخرت عنه .

الثالثة عشرة — وأما من أتى عرفة بعد دفع الإمام، أو كان له عذر ممن وقف مع الإمام فقد قال ابن المواز : من وقف بعد الإمام فليصلّ كل صلاة لوقتها . وقال مالك فيمن كان له عذر يمنعه أن يكون مع الإمام : إنه يصلي إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما . وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتى المزدلفة ثلث الليل فليؤخر الصلاة حتى يأتى المزدلفة، وإلا صلى كل صلاة لوقتها . فجعل ابن المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة لمن وقف مع الإمام دون غيره ، وراعى مالك الوقت دون المكان، واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان، فإذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان، وكان مراعاة وقتها المختار أولى .

الرابعة عشرة — اختلف العلماء فى هيئة الصلاة بالمزدلفة على وجهين : أحدهما — الأذان والإقامة . والآخر — هل يكون جمعهما متصلا لا يفصل بينهما بعمل ، أو يجوز العمل بينهما وحطّ الرحال ونحو ذلك؛ فأما الأذان والإقامة فثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلّى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد وإقامتين . أخرجه الصحيح من حديث جابر الطويل ، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وابن المنذر . وقال مالك : يصليهما بأذانين وإقامتين، وكذلك الظهر والعصر بعرفة ، إلا أن ذلك فى أول وقت الظهر بإجماع . قال أبو عمر : لا أعلم فيما قاله مالك حديثا مرفوعا الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بوجه من الوجوه، ولكنه روى عن عمر بن الخطاب، وزاد ابن المنذر ابن مسعود . ومن الحجة لمالك فى هذا الباب من جهة النظر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سنّ فى الصلاتين

بمزدلفة وعرفة أن الوقت لهما جميعا وقت واحد، وإذا كان وقتهما واحدا، وكانت كل صلاة تصلى فى وقتها لم تكن واحدة منهما أولى بالأذان والإقامــة من الأخرى ؛ لأن ليس واحدة منهما تقضى، وإنما هى صلاة تصلى فى وقتها، وكل صلاة صليت فى وقتها سنّتها أن يؤذّن لها وتقام فى الجمـاعة، وهـذا بيّن . والله أعلم . وقال آخرون : أما الأولى منهما فتصلّى بأذان وإقامة، وأما الثانية فتصلى بلا أذان ولا إقامة، وإنما أمر عمر بالتأذين الثانى؛ لأن النـاس قد تفرقوا لعشائهم فأذّن ليجمعهم . قالوا : وكذلك نقول إذا تفرق الناس عن الإمام لعَشاء أو غيره، أمر المؤذنين فأذنوا ليجمعهم، وإذا أذن أقام . قالوا : فهـذا معنى ما روى عن عمـر، وذكروا حديث عبـد الرحمن بن يزيد قال : كان ابن مسعود يجعل العَشاء بالمزدلفـة بين الصلاتين وفى طريق أخرى، وصلى كل صلاة بأذان وإقامة . ذكره عبد الرزاق . وقال آخرون : تصلى الصلاتان جميعا بالمزدلفة بإقامة ولا أذان فى شىء منهما. روى عن ابن عمر وبه قال الثورى . وذكر عبد الرزاق وعبد الملك بن الصباح عن الثورى عن سلمة بن كُهَيل عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء بجَمْع، صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة واحدة . وقال آخرون : تصلى الصلاتان جميعا بين المغرب والعشاء بجَمْع بأذان واحد وإقامة واحدة . وذهبوا فى ذلك إلى مارواه هشيم عن يونس ابن عبيد عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه جمع بين المغرب والعشاء بجَمْع بأذان واحد وإقامة واحدة، لم يجعل بينهما شيئا . وروى مثل هذا مرفوعا من حديث خزيمة بن ثابت، وليس بالقوى. وحكى الجُوزْجَانى (١) عن محمـد بن الحسن عن أبى يوسف عن أبى حنيفة أنهما تصليان بأذان واحد وإقامتين، يؤذن للمغرب ويقام للعشاء فقط . وإلى هذا ذهب الطّحاوى لحديث جابر، وهـو القول الأول وعليـه المعوّل . وقال آخرون : تصلى بإقامتين دون أذان لواحدة منهما . وممن قال ذلك الشافعى وأصحابه وإسحاق وأحمد بن حنبل فى أحد قوليـه، وهو قول

---

(١) الجوزجانى (بجيم وواو وزاى معجمة ثم جيم أخرى) : هذه النسبة الى مدينة بخراسان مما يلى بلخ ؛ وهو أبو سليمان موسى بن سليمان، صاحب الامام محمد بن الحسن بن فرقد، أخذ الفقه عنه وروى كتبه .

سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد . واحتجوا بمــا ذكره عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمــا جاء بالمزدلفة جمع بين المغرب والعشاء، صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة لكل واحدة منهما ولم يصلّ بينهما شيئا. قال أبو عمر: والآثار عن ابن عمر فى هذا القول من أثبت ما روى عنه فى هــذا البــاب، ولكنها محتملة للتأويل، وحديث جابر لم يختلف فيه فهو أولى؛ ولا مدخل فى هذه المسألة للنظر، وإنما فيها الاتبــاع .

الخامسة عشرة — وأما الفصل بين الصلاتين بعمل غير الصلاة فثبت عن أسامة بن زيد أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لمــا جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأســبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره فى منزله، ثم أقيمت الصلاة فصلاها، ولم يصلّ بينهما شيئا . فى رواية : ولم يَحُلّوا[1] حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ثم حلّوا. وقد ذكرنا آنفا عن ابن مسعود أنه كان يجعل العَشاء بين الصلاتين، ففى هــذا جواز الفصل بين الصلاتين بجَمْع . وقد سئل مالك فيمن أتى المزدلفة : أيبدأ بالصلاة أو يؤخر حتى يحطّ عن راحلته ؟ فقال : أما الرَّحْل الخفيف فلا بأس أن يبدأ به قبل الصلاة ، وأما المحامل والزوامل فلا أدرى ، وليبدأ بالصلاتين ثم يحط عن راحلته . وقال أشهب فى كتبه : له حط رحله قبل الصلاة ، وحطّه له بعد أن يصلى المغرب أحبّ إلىّ ما لم يضطر إلى ذلك؛ لمــا بدابته من الثّقل ، أو لغير ذلك من العــذر . وأما التنفّل بين الصلاتين فقال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من السنة ألّا يتطوع بينهما الجامع بين الصلاتين، وفى حديث أسامة : ولم يصلّ بينهما شيئا .

السادسة عشرة — وأما المبيت بالمزدلفــة فليس ركنا من الحج عنــد الجمهور . واختلفوا فيما يجب على من لم يبت بالمزدلفة ليــلة النحر ولم يقف بجَمْــع؛ فقال مالك : من لم يبت بها فعليه دم، ومن قام بها أكثر ليله فلا شئ عليــه ؛ لأن المبيت بها ليلة النحر سنة مؤكدة عند

(١) قوله : ولم يحلوا . هو من الحل بمعنى الفك ، أو من الحلول بمعنى النزول ؛ أى لم يفكوا ما على الجمال ، أو ما نزلوا تمام النزول الذى يريده المسافر البالغ منزله .

مالك وأصحابه، لا فرض . ونحوه قول عطاء والزهرىّ وقتادة وسفيان الثورى وأحمد و إسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأى فيمن لم يبت . وقال الشافعىّ : إن خرج منها بعد نصف الليل فلا شىء عليه ، و إن خرج قبل نصف الليل فلم يعـد الى المزدلفة افتدى ، والفدية شاة . وقال عكرمة والشعبىّ والنخعىّ والحسن البصرى : الوقوف بالمزدلفة فرض ، ومن فاته جَمْع ولم يقف فقد فاته الحج ، ويجعـل إحرامه عُمرة . وروى ذلك عن ابن الزبير وهو قول الأوزاعىّ . وروى عن الثورى مثل ذلك ، والأصح عنـه أن الوقوف بها سـنة مؤكدة . وقال حماد بن أبى سليمان : من فاتتـه الإفاضة من جَمْـع فقد فاته الحج ، وليتحلل بعمرة ثم ليحج قابـلًا . واحتجوا بظاهر الكتاب والسنة؛ فأما الكتاب فقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ . وأما السنة فقوله صلّى الله عليه وسلّم : " من أدرك جَمْعًا فوقف مع الناس حتى يُفيض فقد أدرك ومن لم يدرك ذلك فلا حج له " . ذكره ابن المنذر . وروى الدّارقطنىّ عن عروة بن مضرّس : قال أتيت النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وهو بجمع فقلت له : يا رسول الله، هل لى من حج؟ فقال : "من صلّى معنا هذه الصلاة ثم وقف معنا حتى نفيض وقد أفاض [قبل](١) ذلك [من عرفات](١) ليلا أو نهارا فقد تم حجه وقضى تفثه" . فقال الشعبىّ : من لم يقف بجَمْع جعلها عمرة . وأجاب من احتج للجمهور بأن قال : أما الآية فلا حجة فيها على الوجوب فى الوقوف ولا المبيت ، إذ ليس ذلك مذكورا فيها ، و إنما فيها مجرد الذكر . وكلٌّ قـد أجمع أنه لو وقف بمزدلفـة ولم يذكر الله أن حجه تام ، فإذا لم يكن الذكر المأمور به من صلب الحج فشهود الموطن أولى بألا يكون كذلك . قال أبو عمر : وكذلك أجمعوا أن الشمس إذا طلعت يوم النحر فقد فات وقت الوقوف بجمع ، وأن من أدرك الوقوف بهـا قبل طلوع الشمس فقـد أدرك ، ممن يقول إن ذلك فرض ، ومن يقول إن ذلك سـنة . وأما حديث عروة بن مضرس فقد جاء فى بعض طرقه بيان الوقوف بعرفة دون المبيت بالمزدلفة ، ومثله حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلى قال : شهدت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعرفة، وأتاه ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج؛ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "الحج عرفة ومن

(١) الزيادة عن الدارقطنى .

أدركها قبل أن يطلع الفجر من ليـلة جَمْع فقد تم حجه" . رواه النسائى قال : أخبرنا إسحاق ابن إبراهيم قال وكيع قال سفيان — يعنى الثورى — عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمَر الدِّيلى قال : شهدت ، فذكره . ورواه أبو عيينة عن بكير عن عبـد الرحمن بن يعمَر الدِّيلى قال : شهدت رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم يقول : "الحج عرفات فمن أدرك عرفة قبـل أن يطلع الفجر فقد أدرك وأيام مِنًى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا أثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليـه" . وقوله فى حديث عروة : "من صلّى صلاتنا هـذه" . فذكر الصـلاة بالمزدلفة ؛ فقد أجمع العلماء أنه لو بات بهـا ووقف ونام عن الصـلاة فلم يصلّ مع الإمام حتى فاتتـه أن حجه تام . فلما كان حضور الصـلاة مع الإمام ليس من صلب الحج كان الوقوف بالموطن الذى تكون فيه الصلاة أحرى أن يكون كذلك . قالوا : فلم يتحقق بهذا الحديث ذلك الفرض إلا بعرفة خاصة .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ كرر الأمر تأكيدا، كما تقول : ارمِ ارمِ . وقيـل : الأول أمرٌ بالذكر عنـد المشعر الحرام . والثـانى أمرٌ بالذكر على حكم الإخلاص. وقيل : المراد بالثانى تعديد النعمة وأمرٌ بشكرها . ثم ذكرهم بحال ضلالهم ليظهر قدر الإنعام فقـال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ . والكاف فى «كما» نعت لمصـدر محذوف، وما مصـدرية أو كافة . والمعنى : اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة ، واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنـه . و«إنْ» مخففة من الثقيلة ، يدل على ذلك دخول اللام فى الخبر . قاله سيبويه . الفراء : نافية بمعنى «ما»، واللام بمعنى «إلا»؛ كما قال :

ثكلتك أمّك إن قتلت لمسلما * حلّت عليـك عقوبة الرحمن

أو بمعنى «قد»، أى قد كنتم ؛ ثلاثة أقوال . والضمير فى «قبله» عائد إلى الهـدى . وقيل إلى القرآن ، أى ما كنتم من قبل إنزاله إلا ضالين. وإن شئت على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كناية عن غير مذكور . والأول أظهر، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ قيل : الخطاب للحُمْس ، فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات ، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهى من الحـرم ، وكانوا يقولون : نحن قطين الله[1] ، فينبغى لنا أن نعظم الحرم ، ولا نعظم شيئا من الحل ؛ وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام لا يخرجون من الحرم ، ويقفون بجَمْع ويفيضون منه ويقف الناس بعرفة ؛ فقيل لهم : أفيضوا مع الجملة . و«ثم» ليست فى هذه الآية للترتيب ، وإنما هى لعطف جملة كلام هى منها منقطعة . وقال الضحاك : المخاطب بالآية جملة الأمة ، والمراد بالناس إبراهيم عليـه السلام ؛ كما قال : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ وهو يريد واحدا . ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة . ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى ، وهى التى من المزدلفة ؛ فتجىء « ثم » على هـذا الاحتمال على بابها . وعلى هذا الاحتمال عوّل الطبرىّ . والمعنى : أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم من مزدلفة ، أى ثم أفيضوا إلى مِنًى ؛ لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع .

قلت : ويكون فى هذا حجة لمن أوجب الوقوف بالمزدلفة ، للأمر بالإفاضة منها ، والله أعلم . والصحيح فى تأويل هذه الآية من القولين القول الأول . روى الترمذىّ عن عائشة قالت : كانت قريش ومَن كان على دينها وهم الحُمْس يقفون بالمزدلفة يقولون : نحن قطين الله ، وكان مَن سواهم يقفون بعرفة ؛ فأنزل الله تعـالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ . هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : الحُمْس هم الذين أنزل الله فيهم : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » . قالت : كان الناس يُفيضون من عرفات ، وكان الحمس يفيضون من المزدلفة ، يقولون : لا نُفيض إلا من الحرم ؛ فلما نزلت : «أفيضوا من حيث أفاض الناس» ، رجعوا إلى عرفات . وهذا نصّ صريح ، ومثـله كثير صحيح ، فلا معوّل على غيره من الأقوال ، والله المستعان . وقرأ سعيد بن جبير « الناسى » وتأويله آدم عليه السـلام ؛ لقوله تعالى : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ . ويجوز عنـد بعضهم تخفيف اليـاء

---

(١) قطين الله ، أى سكان حرمه ؛ والقطين جمع قاطن كالقطان .

فيقول : الناس ، كالقاض والهادِ . ٱبن عطية : أما جوازه فى العربية فذكره سيبويه ، وأما جوازه مقروءا به فلا أحفظه . وأمر تعالى بالاستغفار لأنها مواطنه ، ومظانّ القبول ومساقط الرحمة . وقالت فرقة : المعنى واستغفروا الله من فعلكم الذى كان مخالفا لسنة إبراهيم فى وقوفكم بقُزَح من المزدلفة دون عرفة .

الثانيــة — روى أبو داود عن علىّ قال: فلما أصبح — يعنى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم — وقف على قُزَح فقال : "هذا قُزَحُ وهو الموقف وجَمْعٌ كلها موقف ونحرت هاهنا ومِنًى كلها مَنْحَر فآنحروا فى رحالكم". فحُكْمُ الحجيج إذا دفعوا من عرفة إلى المزدلفة أن يبيتوا بها، ثم يغلّس بالصبح الإمامُ بالناس و يقفون بالمشعر الحرام . والقُزَح هو الجبل الذى يقف عليه الإمام ، ولا يزالون يذكرون الله ويدعون إلى قرب طلوع الشمس ،ثم يدفعون قبل الطلوع ،على مخالفة العرب؛ فإنهم كانوا يدفعون بعد الطلوع و يقولون : أَشْرِق ثَبِير(١)، كيما نُغير؛ أى كيما نقرب من التحلّل فنتوصل إلى الإغارة . وروى النحاس عن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمر صلّى بجَمْع الصبح ثم وقف فقال : إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون : أشرق ثبير . وإن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم خالفهم فدفع قبل أن تطلع الشمس . وروى ٱبن عيينة عن ٱبن جريج عن محمد بن قيس بن مخرمة عن ٱبن طاوس عن أبيه أن أهل الجاهلية كانوا يدفعون من عرفة قبل غروب الشمس ، وكانوا يدفعون من المزدلفة بعد طلوع الشمس ؛ فأخر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذا، وعجّل هذا أخر الدفع من عرفة، وعجّل الدفع من المزدلفة مخالفا هَدْى المشركين .

الثالثــة — فإذا دفعوا قبل الطلوع فحكمهم أن يدفعوا على هيئة الدفع من عرفة، وهو أن يسير الإمام بالناس سير العَنَق، فاذا وجد أحدهم فُرْجة زاد فى العنق شيئا . والعَنَق مشْىٌ للدوابّ معروف لا يجهل . والنّص فوق العنق، كالخَبَب أو فوق ذلك . وفى صحيح مسلم

(١) ثبير (بفتح المثلثة وكسر الموحدة وسكون التحتية) : جبل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منها الى منى . هذا هو المراد، وللعرب جبال أخر اسم كل منها ثبير . (عن زهر الربى للسيوطى) .

عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما وسـئل : كيف كان يسير رسول الله صلى الله عليـه وسلم حين أفاض من عرفة ؟ قال : كان يسير الْعَنَق، فإذا وجد فَجْوة نصّ . قال هشام : والنّص فوق العنق . وقد تقدّم . ويستحب له أن يحرك فى بطن مُحَسّر قدر رمية بحجر، فإن لم يفعل فلا حرج، وهو من مِنًى . روى الترمذى وغيره عن أبى الزبير عن جابر قال : دفع رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم وعليه السكينة وقال لهم : "أَوْضِعوا فى وادى مُحَسّر". وقال لهم : "خذوا عنّى مناسككم". فإذا أتوا مِنًى وذلك غدوة يوم النحر، رموا جمرة العقبة بها ضُحًى ركبانا إن قدروا، ولا يستحب الركوب فى غيرها من الجمار، ويرمونها بسبع حَصَيات كل حصاة منها مثل حصى الخَذْف (1) — على ما يأتى بيانه — فاذا رموها حلّ لهم كل ما حَرُم عليهم من اللباس والتّفث كله، إلا النساء والطيب والصـيد عنـد مالك وإسحاق فى رواية أبى داود الخَفّاف عنـه . وقال عمر بن الخطاب وابن عمر : يحلّ له كل شىء إلا النساء والطيب . ومن تطيّب عنـد مالك بعد الرمى وقبل الإفاضة لم ير عليه فدية، لمـا جاء فى ذلك . ومن صاد عنده بعد أن رمى جمرة العقبة وقبل أن يفيض كان عليـه الجزاء . وقال الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور : يحلّ له كل شىء إلا النساء . وروى عن ابن عباس .

الرابعـــة — ويقطع الحاج التلبية بأول حصاة يرميها من جمرة العقبة، وعلى هـذا أكثر أهـل العلم بالمدينة وغيرها ، وهو جائز مباح عنـد مالك . والمشهور عنه قطعها عنـد زوال الشمس من يوم عرفة، على ما ذكر فى موطّأه عن علىّ، وقال : هو الأمر عندنا .

قلت : والأصل فى هـذه الجملة من السـنة ما رواه مسلم عن الفضل بن عباس ، وكان رديف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال فى عشية عرفة وغداة جَمْع للناس حين دفعوا : "عليكم بالسكينة" وهو كافٌّ (2) ناقته حتى دخل محسّرا — وهو من مِنًى — قال : "عليكم بحصى

(1) الخذف (بالخاء المعجمة المفتوحة والذال المعجمة الساكنة) : رميك حصاة أو نواة تأخذها بين الابهام والسبابة وترمى بها .

(2) قوله : كاف ناقته . من الكف بمعنى المنع ، أى يمنعها الاسراع .

الحذف الذى يُرمى به الجمرة " . وقال : لم يزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يلبّى حتى رمى جمرة العقبة — فى رواية — والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم يشير بيده كما يَخْذِف الإنسان . وفى البخاريّ عن عبد الله أنه آنتهى إلى الجمرة الكبرى جعل البيت عن يساره، ومِنًى عن يمينه ورمى بسبع وقال : هكذا رمى الذى أنزلت عليه سورة البقرة صلّى الله عليه وسلّم . وروى الدّارقطنيّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إذا رميتم وحلقتم وذبحتم فقد حلّ لكم كل شيء إلا النساء وحلّ لكم الثياب والطِّيب " . وفى البخاريّ عن عائشة قالت : طيّبت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيدىّ هاتين ، حين أحْرم ، ولحلّه حين أحلّ قبل أن يطوف ؛ وبسطت يديها . وهذا هو التحلل الأصغر عند العلماء، والتحلل الأكبر طواف الإفاضة، وهو الذى يحل النساء وجميع محظورات الإحرام، وسيأتى ذكره فى سورة «الحج» إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ قال مجاهد : المناسك الذبائح وهراقة الدماء . وقيل : هى شعائر الحج ، لقوله عليه السلام : "خذوا عنى مناسككم" . المعنى : فإذا فعلتم منسكا من مناسك الحج فاذكروا الله واثنوا عليه بآلائه عندكم . وأبو عمرو يدغم الكاف فى الكاف، وكذلك « ما سلككم »، لأنهما مثلان . وقضيتم هنا بمعنى أديتم وفرغتم، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أى أديتم الجمعة . وقد يعبر بالقضاء عما فعل من العبادات خارج وقتها المحدود لها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ كانت عادة العرب إذا قضت حجها تقف عند الجمرة، فتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم، وغير ذلك؛ حتى أن الواحد منهم ليقول : اللهمّ إن أبى كان عظيم القُبّة، عظيم الجَفْنة،[1] كثير المال؛ فاعطنى مثل ما أعطيته . فلا يذكر غير أبيه؛ فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم ذكر أيام الجاهلية . هذا قول جمهور المفسرين . وقال ابن عباس وعطاء والضحاك والربيع :

(١) الجفنة : أعظم ما يكون من القصاع .

معنى الآية واذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم : أَبَهْ ، أُمَّهْ ، أى فاستغيثوا به والجئوا اليه كما كنتم تفعلون فى حال صغركم بآبائكم . وقالت طائفة: معنى الآية اذكروا الله وعظموه وذُبّوا عن حُرَمه ، وادفعوا من أراد الشرك فى دينه ومشاعره ، كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غضّ أحد منهم ، وتحمون جوانبهم وتذبّون عنهم . وقال أبو الجوزاء لابن عباس : إن الرجل اليوم لا يذكر أباه ، فما معنى الآية ؟ قال : ليس كذلك ، ولكن أن تغضب لله تعالى اذا عصى أشدّ من غضبك لوالديك إذا شتما . والكاف من قوله «كذكركم» فى موضع نصب ، أى ذكرا كذكركم . أو أشد ، قال الزجاج : أو أشدّ ، فى موضع خفض عطفا على ذكركم ، المعنى : أو كأشـد ذكرا ، ولم ينصرف لأنه أفعل صـفة ، ويجوز أن يكون فى موضـع نصب بمعنى أو اذكروه أشد . وذكرا ، نصب على البيان .

قوله تعالى — ﴿ فَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾ من ، فى موضع رفع بالابتداء ، وإن شئت بالصفة . يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، صلة من ، والمراد المشركون . قال أبو وائل والسّدى وابن زيد: كانت عادة الجـاهلية أن تدعو فى مصالح الدنيا فقـط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظَّفَر بالعدوّ ، ولا يطلبون الآخرة ، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ، فنهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا . وجاء النهى فى صيغة الخبر عنهم . ويجوز أن يتناول هـذا الوعيد المؤمن أيضا إذا قصر دعواته فى الدنيا ، وعلى هـذا فماله فى الآخرة من خلاق ، أى كخلاق الذى يسأل الآخرة . والخلاق النصيب . ومن زائدة ، وقد تقدم .

قوله تعالى — ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أى من النـاس وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة . واختلف فى تأويل الحسَنَتين على أقوال عديدة ، فروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه أن الحسنة فى الدنيا المرأة الحسناء ، وفى الآخرة الحور العين . وقنا عذاب النـار ، المرأة السوء .

قلت : وهذا فيه بُعْد، ولا يصح عن عليّ؛ لأن النار حقيقة فى النـار المحرقة ، وعبارة المرأة عن النـار تجوّز . وقال قتادة : حسنة الدنيا العافية فى الصحة وكفاف المـال . وقال الحسن : حسنة الدنيا العلم والعبادة . وقيل غير هذا . والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعم الدنيا والآخرة، وهـذا هو الصحيح؛ فان اللفظ يقتضى هـذا كله، فإن حسنة نكرة فى سـياق الدعاء ، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البـدل ، وحسنة الآخرة الجنـة بإجماع . وقيل : لم يرد حسنة واحدة، بل أراد أعطنا فى الدنيا عطيّة حسنة، لحذف الاســم .

الثانيــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أصـل قنا أَوْقِنَا ، حذفت الواو كما حذفت فى يقى ويشى ؛ لأنها بين ياء وكسرة ، مثل يعد . هذا قول البصريين ، وقال الكوفيون : حذفت فرقا بين اللازم والمتعدى . قال محمد بن يزيد : هـذا خطأ لأن العرب تقول : وَرِمَ يَرِم؛ فيحذفون الواو . والمـراد بالآية الدعاء فى ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصـيه وتخرجه الشفاعة . ويحتمل أن يكون دعاء مؤكدا لطلب دخول الجنـة ؛ لتكون الرغبة فى معنى النجاة والفوز من الطرفين؛ كما قال أحد الصحابة للنبيّ صلّى الله عليه وسـلّم : أنا إنما أقول فى دعائى : اللهمّ أدخلنى الجنة وعافنى من النار، ولا أدرى ما دَنْدَنَتُك[1] ولا دَنْدَنَة معاذ . فقال له رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "حولهـا[2] ندندن" خرّجه أبو داود فى سننه وابن ماجه أيضا .

الثالثــة ــ هـذه الآية من جوامع الدعاء التى عمت الدنيا والآخرة، قيل لأنس : ادع الله لنـا ؛ فقال : اللهـمّ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار . قالوا : زدنا . قال : ما تريدون ! قد سألت الدنيا والآخرة . وفى الصحيحين عن أنس قال : كان

(١) الدندنة : ان يتكلم الرجل الكلام تسمع نغمته ولا يفهم؛ وهو أرفع من الهينمة قليلا .

(٢) فى نهاية ابن الأثير واللسان : « حولها » بالتثنية . فعلى الأول معناه حول مقالتك؛ أى كلامنا قريب من كلامك . وعلى الثانى معناه حول الجنة والنار، أى فى طلبهما ندندن . ومنه دندن الرجل اذا اختلف فى مكان واحد مجيئا وذهابا .

أكثر دعوة يدعو بها النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم يقول : اللهم آتنا فى الدنيا حسـنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار . قال : فكان أنس اذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، فاذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه ، وفى حديث عمر أنه كان يطوف بالبيت ويقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ماله هِجِّيرَى غيرَها (1) . ذكره أبو عبيد. وقال ابن جريج: بلغنى أنه كان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم فى الموقف هذه الآية : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار » . وقال ابن عباس : إن عنـد الركن مَلَكا قائما منـذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين ، فقولوا : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النـار . وسئل عطاء بن أبى رَباح عن الركن اليمانىّ وهو يطوف بالبيت، فقال عطاء : حدّثنى أبو هريرة أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "وُكِّل به سبعون ملكا فمن قال اللّهمّ أنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ربنـا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار قالوا آمين" ، الحـديث . خرّجه ابن ماجه فى السنن ، وسيأتى بكماله مسندا فى « الحج » إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّـا كَسَبُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّـا كَسَبُوا ﴾ هذا يرجع الى الفريق الثانى ، فريق الإسلام ؛ أى لهم ثواب الحج أو ثواب الدعاء ، فان دعاء المؤمن عبادة . وقيل : يرجع «أولئك» الى الفريقين؛ فللمؤمن ثواب عمله ودعائه ، وللكافر عقاب شركه وقَصْرُ نظره على الدنيا . وهو مثل قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّـا عَمِلُوا ﴾ .

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ من سَرُع يَسْرُع ـــ مثـل عظم يعظم ـــ سرعا وسُرْعة؛ فهو سريع . الحساب مصدر كالمحاسبة . وقد يسمى المحسوب حسابا .

---

(1) الهجير والهجيرى : الدأب والعادة والديدن .

والحساب العدّ ؛ يقال : حسَب يحسُب حِسابا وحِسَابة وحُسبانا وحِسبانا وحَسْبًا أي عدّ .
وأنشد ابن الأعرابي :

يا جُمْلُ أسقاكِ بلا حِسابَهْ[(١)] * سُقيًا مليكٍ حَسَنِ الرِّبابَهْ
* قَتلتِني بالدَّلِّ والخِلابَهْ *

والحسَب ما عدّ من مفاخر المرء . ويقال : حسبه دينه . ويقال : ماله ؛ ومنه الحديث " الحسب المال والكرم التقوى" رواه سَمُرة بن جندب ، أخرجه ابن ماجه ، وهو في الشهاب أيضا . والرجل حسيب ، وقد حسُب حَسابة بالضم ، مثل خَطُب خَطابة . والمعنى في الآية أن الله سبحانه سريع الحساب ، لا يحتاج الى عدّ ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحساب ؛ ولهذا قال وقوله الحق : ﴿ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " اللّهمّ منزّل الكتاب سريع الحساب " الحديث . فالله جلّ وعزّ عالم بما للعباد وعليهم ، فلا يحتاج إلى تذكّر وتأمل ، إذ قد علم ما للمحاسَب وعليه ؛ لأن الفائدة في الحساب علم حقيقته . وقيل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم . وقيل : المعنى لا يشغله شأن عن شأن ، فيحاسبهم في حالة واحدة ؛ كما قال وقوله الحق : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ . قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر . وفي الخبر « إن الله يحاسب في قدر حَلْب شاة » . وقيل : هو أنه إذا حاسب واحدا فقد حاسب جميع الخلق . وقيل لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : كيف يحاسب الله العباد في يوم ؟ قال : كما يرزقهم في يوم . ومعنى الحساب تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ . وقيل : معنى الآية سريع بمجيء يوم الحساب . فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة .

---

(١) هكذا أورده الجوهري في الصحاح . وصواب انشاده : يا جمل أسقيت . أي أسقيت بلا حساب ولا هنداز . والربابة (بالكسر) : القيام على الشيء باصلاحه وتربيته . وفي الأصول الرياسة . والخلابة (بالكسر) : أن تخلب المرأة قلب الرجل بألطف القول وأعذبه .

قلت : والكل محتمل، فيأخذ العبد لنفسه فى تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخفّ الحساب فى الآخرة على مَن حاسب نفسه فى الدنيا .

الثالثـــة ــ قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ هو الرجل يأخذ مالًا يحجّ به عن غيره، فيكون له ثواب. وروى عنه فى هذه الآية أن رجلا قال : يارسول الله، مات أبى ولم يحج، أفأحج عنه ؟ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "لو كان على أبيك دَيْن نقضيته أما كان ذلك يجزى" . قال : نعم . قال : "فدين الله أحق أن يقضى". قال : فهـل لى من أجر؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ يعنى من حجّ عن ميت كان الأجر بينـه وبين الميت . قال أبو عبد الله محمد بن خُوَيْز منداد فى أحكامه : قول ابن عباس نحو قول مالك، لأن تحصيل مذهب مالك أن المحجوج عنه يحصل له ثواب النفقة، والحجة للحاج، فكأنه يكون له ثواب بدنه وأعماله، وللمحجوج عنه ثواب ماله وإنفاقه، ولهذا قلنا : لا يختلف فى هـذا حكم من حجّ عن نفسه حجة الإسلام أو لم يحج، لأن الأعمال التى تدخلها النيابة لا يختلف حكم المستناب فيها بين أن يكون قـد أدّى عن نفسه أو لم يؤدّ، اعتبارا بأعمال الدِّين والدنيا. ألا ترى أن الذى عليه زكاة أو كفارة أو غير ذلك يجوز أن يؤدّى عن غيره وإن لم يؤدّ عن نفسه، وكذلك من لم يراع مصالحه فى الدنيا يصح أن ينوب عن غيره فى مثلها فتتم لغيره وإن لم تتم لنفسه، ويزوّج غيره وإن لم يزوّج نفسه .

تم الجـــزء الثـانى من تفســير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعـالى الجزء الثـالث ،

وأوله قوله تعـالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ الآية .

إصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	٢٢	هكذا فى النسخ ولم أقف عليه	هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم
١٩	٦	الاسارات	الآسرات
٢٣	٦،٥،٤	الذنب	الذئب
٢٣	٥	دعوت	ذَعَرتُ
٣٤	٤	محالف	مخالف
٣٤	٩	أقلت ... قليت	أفلت ... فليت
٣٨	٨	الذباب	الذئاب
٣٨	١٨	الفرنوى	الغزنوى
٤٨	١٤	لعمرو الله	لعمر الله
٤٨	١٧	أنبآ	أنبأ ا
٥٠	١٥	وأَتُقُوْا	واَتّقُوا
٦٤	١٨	قطيفة، فركبه	قطيفة فدكيّة
٦٥	١	لا تغيروا	لا تُغَبِّروا
٦٥	١٥	يتناول	يتأول
٦٥	١٩	فَبَايِعُوا	فبَايَعُوا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٥	٣	فى مجالسنا ، فمن	فى مجالسنا ، إرجع الى رحلك ، فمن (١)
٧٢	٧	أبو عمـــر	ابن عمـــر
٧٢	٢٠	والحسن بن جنى	والحسن بن حىّ
٧٩	٧	وعليها	وعليهما
١٠٠	٦	مَثَابَةَ	مَثَابَةً
١٠١	٨، ٢١	مُصَلًّى	مُصَلًّى
١٠٠	٢٠	وعضّـــدوا	وعضَـــدوا
٢١٨	٣	عائـــل	عائـــل
٣٥٠	٢٢	الحصـــرى	الحصـــر
٣٦٨	٢٢	الحلان	الحــلال

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتى
د / نصر أحمد محمد بدوى . أتريس . مصر

(١) ترك النص كما هو . أحيل القارئ الكريم إلى صحيح البخارى ، الأحاديث أرقام : ٤٥٦٦ باب " ولتسمعن ..." تفسير سورة آل عمران و ٥٦٦٣ باب " عيادة المريض.... " و ٦٢٠٧ " باب كنية المشرك " و ٦٢٥٤ باب " التسليم فى مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين " وإلى صحيح مسلم ، الحديث رقم : ٤٧٦٠ باب " فى دعاء النبى (ص)

د/ نصر أحمد بدوى ـ اتريس ـ مصر

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثالث

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٣٦

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثالث

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٣٦

فهــرس الجــزء الثـالث

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢٠٣)

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى — قال الكوفيون: الألف والتاء في «معدوداتٍ» لأقل العدد. وقال البصريون: هما للقليل والكثير؛ بدليل قوله تعالى: «وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ» والغرفات كثيرة. ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام مِنًى، وهي أيام التَّشريق، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها، وهي أيام رَمْي الجمار، وهي واقعة على الثلاثة الأيام التي يتعجّل الحاجّ منها في يومين بعد يوم النحر؛ فقف على ذلك. وقال الثعلبيّ وقال إبراهيم: الأيام المعدودات أيام العشر، والمعلومات أيام النحر؛ وكذا حكى مكيّ والمهدويّ أن الأيام المعدودات هي أيام العشر. ولا يصح لما ذكرناه من الإجماع، على ما نقله أبو عمر بن عبد البر وغيره. قال ابن عطية: وهذا إما أن يكون من تصحيف النَّسخة، وإما أن يريد العشر الذي بعد النحر؛ وفي ذلك بُعْدٌ.

الثانية — أمر الله سبحانه وتعالى عباده بذكره في الأيام المعدودات، وهي الثلاثة التي بعد يوم النحر وليس يوم النحر منها؛ لإجماع الناس أنه لا يَنْفِر أحد يوم النَّفْر وهو ثاني يوم النحر، ولو كان يوم النحر في المعدودات لساغ أن يَنفِر من شاء متعجّلا يوم النّفر؛ لأنه قد أخذ يومين من المعدودات. خرّج الدَّارَقُطْنِيّ والترمذيّ وغيرهما عن عبد الرحمن ابن يَعْمَر الدِّيلي أن ناسا من أهل نجد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعَرَفة فسألوه؛

فأمر مناديا فنادى : "الحجّ عرفة فمن جاء ليلة جَمْعٍ[(١)] قبل طلوع الفجر فقد أدرك أيامُ مِنًى الثلاثة فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه" أى من تعجّل من الحاجّ فى يومين من أيام مِنى صار مُقامه بمِنًى ثلاثة أيام بيوم النحر، ويصير جميع رَمْيِه بتسع وأربعين حصاة، ويسقط عنه رمى يوم الثالث . ومن لم ينفِر منها إلا فى آخر اليوم الثالث حصل له بمِنًى مقام أربعة أيام من أجل يوم النحر، واستوفى العدد فى الرّمْى، على ما يأتى بيانه . ومن الدليل على أن أيام مِنًى ثلاثة — مع ماذكرناه — قول العَرْجىّ :

ما نَلتقِي إلّا ثلاثَ مِنًى * حتى يُفَـرِّق بيننا النَّفر

فأيام الرّمْى معدودات، وأيام النّحر معلومات . وروى نافع عن ابن عمر أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعــة أيام : يوم النحر وثلاثة أيام بعــده ؛ فيوم النحر معلوم غير معدود، واليومان بعــده معلومان معدودان، واليوم الرابع معدود لا معلوم ؛ وهــذا مذهب مالك وغيره . وإنمــا كان كذلك لأن الأوّل ليس من الأيام التى تختصّ بمِنًى فى قوله سبحانه وتعالى : «وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ» ولا من التى عيّن النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله : "أيام مِنى ثلاثة" فكان معلوما ؛ لأن الله تعالى قال : «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» ولا خلاف أن المراد به النحر، وكان النحر فى اليوم الأوّل وهو يوم الأَضْحَى والثانى والثالث، ولم يكن فى الرابع نحرٌ بإجماع من علمائنا ؛ فكان الرابع غير مراد فى قوله : «معلومات» لأنه لا ينحر فيه وكان مما يُرمى فيه ؛ فصار معدودا لأجل الرمى، غير معلوم لعدم النحر فيه . قال ابن العربى : والحقيقة فيه أن يوم النحر معدود بالرّمْى معلوم بالذّبح، لكنه عند علمائنا ليس مرادا فى قوله تعالى : «وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ» . وقال أبو حنيفة والشافعى : الأيام المعلومات العشر من أوّل ذى الحجة، وآخرها يوم النحر ؛ لم يختلف قولهما فى ذلك، ورويا ذلك عن ابن عباس . وروى الطّحاوىّ عن أبى يوسف أن الأيام المعلومات أيام النحر . وقال أبو يوسف : روى ذلك عن عمر وعلىّ وإليه أذهب ؛

(١) جمع (بفتح فسكون) : علم للزدلفة .

لأنه تعالى قال : « وَيَذْكُرُوا آسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ » . وحكى الكَرْخِيّ عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة : يوم الأضحى ويومان بعده . قال الكِيَا الطبريّ : فعلى قول أبي يوسف ومحمد لافرق بين المعلومات والمعدودات ؛ لأن المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف، ولا يشك أحد أن المعدودات لا تتناول أيام العشر؛ لأن الله تعالى يقول : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » وليس في العشر حكم يتعلق بيومين دون الثالث . وقد روى عن ابن عباس أن المعلومات العشر، والمعدودات أيام التشريق؛ وهو قول الجمهور .

قلت : وقال ابن زيد : الأيام المعلومات عشر ذي الحجة وأيام التشريق، وفيه بُعْدٌ، لما ذكرناه، وظاهر الآية يدفعه . وجعل الله الذكر في الأيام المعدودات والمعلومات يدل على خلاف قوله، فلا معنى للاشتغال به .

الثالثة — ولا خلاف أن المخاطب بهذا الذكر هو الحاج، خوطب بالتكبير عند رَمْي الجمار وعلى ما رُزق من بهيمة الأنعام في الأيام المعلومات، وعند أدبار الصلوات دون تَلْبِيَة؛ وهل يدخل غير الحاج في هذا أم لا ؟ فالذي عليه فقهاء الأمصار والمشاهير من الصحابة والتابعين على أن المراد بالتكبير كل أحد — وخصوصا في أوقات الصلوات — فيكبّر عند آنقضاء كل صلاة — كان المصلي وحده أو في جماعة — تكبيرا ظاهرا في هذه الأيام، اقتداء بالسلف رضي الله عنهم . وفي المختصر : ولا يكبّر النساء دُبُرَ الصلوات . والأوّل أشهر، لأنه يلزمها حكم الإحرام كالرجل؛ قاله في المدوّنة .

الرابعة — ومن نسي التكبير بإثر صلاة كبّر إن كان قريبا، وإن تباعد فلا شيء عليه؛ قاله ابن الجَلّاب . وقال مالك في المختصر : يكبّر ما دام في مجلسه، فإذا قام من مجلسه فلاشيء عليه . وفي المدوّنة من قول مالك : إن نسي الإمام التكبير فإن كان قريبا قعد فكبر، وإن تباعد فلا شيء عليه، وإن ذهب ولم يكبر والقوم جلوس فليكبّروا .

الخامســة — واختلف العلماء فى طرفى مدّة التكبير؛ فقال عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب وابن عباس : يُكبّر من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق . وقال ابن مسعود وأبو حنيفة : يُكبّر من غَداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر . وخالفاه صاحباه فقالا بالقول الأول ؛ قولِ عمر وعلىّ رضى الله عنهم ؛ فا تفقوا فى الابتداء دون الانتهاء . وقال مالك : يكبر من صلاة الظهر يوم النحر الى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق ؛ وبه قال الشافعىّ ، وهو قول ابن عمر وابن عباس أيضا . وقال زيد بن ثابت : يكبّر من ظهر يوم النحر إلى آخر أيام التشريق . قال ابن العربى : فأما من قال يكبر يوم عرفة ويقطع العصر من يوم النحر فقد خرج عن الظاهر؛ لأن الله تعالى قال : « فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ » وأيامها ثلاثة ؛ وقد قال هؤلاء : يُكبّر فى يومين ؛ فتركوا الظاهر لغير دليل . وأما من قال يوم عرفة وأيام التشريق ، فقال إنه قال : « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » فذكر عرفات داخل فى ذِكر الأيام؛ هذا كان يصح لو كان قال : يكبر من المغرب يوم عرفة ؛ لأن وقت الإفاضة حينئذ ؛ فأما قبلُ فلا يقتضيه ظاهر اللفظ ، ويلزمه أن يكون من يوم التروية عند الحلول بِمِنى .

السادسة — واختلفوا فى لفظ التكبير؛ فمشهور مذهب مالك أن يكبر إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات؛ رواه زياد بن زياد عن مالك . وفى المذهب رواية يقال بعد التكبيرات الثلاث : لا إله إلا الله ، والله أكبر ولله الحمد . وفى المختصر عن مالك : الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ ﴾ التعجيل أبدا لا يكون هنا إلا فى آخر النهار، وكذلك اليوم الثالث ، لأن الرمى فى تلك الأيام إنما وقته بعد الزوال . وأجمعوا على أن يوم النحر لا تُرمَى فيه غير جمرة العقبة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرم يوم النحر من الجمرات غيرها ؛ ووقتها من طلوع الشمس إلى الزوال ، وكذلك أجمعوا أن وقت رمى الجمرات فى أيام

التشريق بعد الزوال إلى الغروب ؛ واختلفوا فيمن رمى جمرة العقبة قبل طلوع الفجر أو بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس ؛ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد و إسحاق : جائز رميها بعد الفجر قبل طلوع الشمس . وقال مالك : لم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخّص لأحد برمى قبل أن يطلع الفجر ، ولا يجوز رميها قبل الفجر ؛ فإن رماها قبل الفجر أعادها ؛ وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجوز رميها ، و به قال أحمد و إسحاق . و رخّصت طائفة فى الرمى قبل طلوع الفجر ؛ رُوى عن أسماء بنت أبى بكر أنها كانت ترمى بالليل وتقول : إنا كنا نصنع هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أخرجه أبو داود . ورُوى هذا القول عن عطاء وابن أبى مُليكة وعكرمة بن خالد ، و به قال الشافعىّ إذا كان الرمى بعد نصف الليل . وقالت طائفة : لا يرمى حتى تطلع الشمس ؛ قاله مجاهد والنخعىّ والثورىّ . وقال أبو ثور : إن رماها قبل طلوع الشمس فإن اختلفوا فيه لم يجزه ، و إن أجمعوا وكانت فيه سنة أجزأه . قال أبو عمر : أما قول الثورىّ ومن تابعه فحجته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى الجمرة بعد طلوع الشمس وقال : "خذوا عنّى مناسككم" . وقال ابن المنذر : السنة أن لا ترمى إلا بعد طلوع الشمس ، ولا يجزئ الرمى قبل طلوع الفجر ؛ فإن رمى أعاد ، إذ فاعله مخالف لما سنّه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمّته . ومن رماها بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس فلا إعادة عليه ، إذ لا أعلم أحدا قال لا يجزئه .

الثانيـــة — روى معمر قال أخبرنى هشام بن عروة عن أبيـه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سَلَمة أن تُصبح بمكة يوم النحر وكان يومها . قال أبو عمر : اختلف على هشام فى هـذا الحديث ؛ فروته طائفة عن هشام عن أبيه مرسلا كما رواه معمر ، و رواه آخرون عن هشام عن أبيه عن عائشـة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أمّ سلمة بذلك مسندا ، و رواه آخرون عن هشام عن أبيـه عن زينب بنت أبى سلمة عن أمّ سلمة مسندا أيضا ، وكلهم ثقات . وهو يدل على أنها رمت الجمرة بمنى قبل الفجر ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن تصبح بمكة يوم النحر ، وهذا لا يكون إلا وقد رمت

الجمرة بمنًى ليلا قبـل الفجر، والله أعلم . ورواه أبو داود قال حدّثنا هارون بن عبد الله قال حدّثنا ابن أبى فُدَيك عن الضحاك بن عثمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أرسل رسول الله صلى الله عليـه وسلم بأمّ سلمة ليلة النحر فرمت الجمرة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت، وكان ذلك اليوم [اليوم](١) الذى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها . وإذا ثبت فالرّمى بالليل جائز لمن فعـله؛ والاختيار من طلوع الشمس إلى زوالها . قال أبو عمر : وأجمعوا أنه إن رماها قبل غروب الشمس من يوم النحر فقد أجزأ عنـه ولا شىء عليـه، إلا مالكا فانه قال : أستحب له إن ترك جمرة العقبة حتى أمسى أن يُهَرِيق دمًا يجىء به من الحِل . واختلفوا فيمن لم يَرْمها حتى غابت الشمس فرماها من الليـل أو من الغد؛ فقال مالك : عليـه دم، واحتج بأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقّت لرمى الجمرة وقتًا وهو يوم النحر، فمن رمى بعـد غروب الشمس فقد رماها بعـد خروج وقتها، ومن فعل شيئا فى الحج بعـد وقته فعليه دم . وقال الشافعىّ : لا دم عليـه؛ وهو قول أبى يوسف ومحمد، وبه قال أبو ثور؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له السائل : يارسول الله، رميتُ بعـد ما أمسيتُ . فقال : "لا حرج" قال مالك : من نسى رمى الجمار حتى يمسى فليرم أيّة ساعة ذكر من ليل أو نهار، كما يصلى أيّة ساعة ذَكر، ولا يرمى إلا مافاته خاصة، وإن كانت جمرة واحدة رماها ثم يرمى مارمى بعدها من الجمار؛ فان الترتيب فى الجمار واجب، فلا يجوز أن يشرع فى رمى جمرة حتى يكمل رمى الجمرة الأولى كركعات الصلاة؛ هـذا هو المشهور من المذهب . وقيل : ليس الترتيب بواجب فى صحة الرمى، بل إذا كان الرمى كله فى وقت الأداء أجزأه .

الثالثــة — فإذا مضت أيام الرّمى فلا رمى، فإن ذَكر بعد ما يَصدُر وهو بمكة أو بعد ما يخرج منها فعليه الهَدْىُ، وسواء ترك الجمار كلها أو جمرة منها أو حصاة من جمرة حتى خرجت أيام منًى فعليه دم . وقال أبو حنيفة : إن ترك الجمار كلها فعليه دم، وإن ترك جمرة واحدة

(١) زيادة عن سنن أبى داود .

كان عليه بكل حصاة من الجمرة إطعام مسكين نصف صاع، إلى أن يبلغ دمًا فيطعم ماشاء، إلا جمرة العقبة فعليه دم . وقال الأوزاعيّ : يتصدّق إن ترك حصاة . وقال الثوريّ : يطعم في الحصاة والحصاتين والثلاث، فان ترك أربعة فصاعدًا فعليه دم . وقال الليث : في الحصاة الواحدة دم؛ وهو أحد قولي الشافعي . والقول الآخر وهو المشهور : إن في الحصاة الواحدة مُدًّا من طعام، وفي حصاتين مُدّين وفي ثلاث حصيات دمٌ .

الرابعـــة — ولا سبيل عنـد الجميع إلى رَمْي ما فاته من الجمـار في أيام التشريق حتى غابت الشمس من آخرها، وذلك اليوم الرابع من يوم النحر وهو الثـالث من أيام التشريق، ولكن يجزئه الدم أو الاطعام على حسب ما ذكرنا .

الخامســـة — ولا تجوز البَيْتُوتة بمكة وغيرها عن مِنًى ليالي التشريق؛ فإن ذلك غيرجائز عند الجميع إلا للرِّعاء ولمن وَلِيَ السِّقاية من آل العباس . قال مالك : من ترك المبيت ليلة من ليـالي مِنًى من غير الرِّعاء وأهل السقاية فعليـه دم . روى البخاريّ عن ابن عمـر أن العباس استأذن النبيّ صلى الله عليـه وسلم ليبيت بمكة ليالي مِنًى من أجل سقايته فأذن له . قال ابن عبد البر : كان العباس ينظر في السقاية ويقوم بأمرها، ويسقي الحاج شرابهـا أيام الموسم؛ فلذلك أُرخص له في المبيت عن مِنًى، كما أَرخص لرعاء الإبل من أجل حاجتهـم لرعي الإبل وضرورتهم إلى الخروج بها نحو المراعي التي تبعد عن مِنًى .

وسُمِّيت مِنًى «مِنًى» لمـا يُمْنَى فيها من الدماء، أي يُراق . وقال ابن عباس : انمـا سُمِّيت مِنًى لأن جبريل قال لآدم عليـه السلام : تمنّ . قال : أتمنّى الجنة؛ فسُمِّيت مِنًى . قال : وإنمـا سميت جَمْعًا لأنه اجتمع بها حوّاء وآدم عليهما السلام، والجمع أيضا هو المزدلفة، وهو المَشْعَر الحرام، كما تقدّم (٢) .

السادســـة — وأجمع الفقهاء على أن المبيت للحـاجّ غير الذين رُخّص لهم ليالي مِنًى بمِنًى من شعائر الحج ونُسكه، والنظر يوجب على كل مسقط لنسكه دمًا؛ قياسا على سائر الحج ونسكه .

---

(١) زيادة عن الموطأ . (٢) راجع جـ ٢ ص ... طبعة ثانية .

وفى موطّأ مالك عن نافع عن ابن عمـر قال قال عمر : لا يبيتّن أحد من الحاج [ليالى مِنًى](١) من وراء العَقَبة . والعقبة التى منع عمـر أن يبيت أحد وراءها هى العقبة التى عنـد الجمرة التى يرميها الناس يوم النحر مما يلى مكة . رواه ابن نافع عن مالك فى المبسوط ؛ قال وقال مالك : ومن بات وراءها ليـالى منًى فعليه الفـدية ؛ وذلك أنه بات بغير مِنًى ليالى منًى ، وهو مبيت مشروع فى الحج فلزم الدم بتركه كالمبيت بالمزدلفـة ؛ ومعنى الفِدْيَة هنا عنـد مالك الهَـدْىُ . قال مالك : هو هَدْىٌ يُساق من الحِلّ إلى الحرم .

السابعـــة — روى مالك عن عبـد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيـه أن أبا البَدّاح بن عاصم بن عدىّ أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرخص لرِعاء الإبل فى البيتوتة عن مِنًى يرمون يوم النحر ثم يرمون الغد ومن بعد الغد ليومين ، ثم يرمون يوم النّفر. قال أبو عمر : لم يقل مالك بمقتضى هذا الحديث ، وكان يقول : يرمون يوم النحر — يعنى جمرة العقبة — ثم لا يرمون من الغد ؛ فإذا كان بعد الغـد وهو الثانى من أيام التشريق وهو اليوم الذى يتعجّل فيـه النّفر من يريد التّعجيل أو من يجـوز له التعجيل رموا اليومين لذلك اليوم ولليوم الذى قبله ؛ لأنهم يقضون ما كان عليهم ، ولا يقضى أحد عنده شيئا إلا بعد أن يجب عليه ؛ هـذا معنى ما فسّر به مالك هـذا الحديث فى موطّئه . وغيره يقول : لا بأس بذلك كله على ما فى حديث مالك ، لأنها أيام رمى كلها ؛ وإنمـا لم يجز عند مالك للرّعاء تقديم الرمى لأن غير الرعاء لا يجوز لهم أن يرموا فى أيام التشريق شيئا من الجمار قبل الزوال ، فإن رمى قبـل الزوال أعادها ؛ ليس لهم التقـديم . وإنمـا رخص لهم فى اليـوم الثانى إلى الثالث . قال ابن عبد البر : الذى قاله مالك فى هذه المسألة موجود فى رواية ابن جُريج قال : أخبرنى محمد بن أبى بكر بن محمـد بن عمرو بن حزم عن أبيه أن أبا البـدّاح بن عاصم بن عدىّ أخبره أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أرخص للرِّعاء أن يتعاقبوا فيرموا يوم النحر ثم يدعوا يوما وليلة ثم يرمون الغـد . قال علماؤنا : ويسقط رمى الجمرة الثالثة عمن تعجل . قال ابن أبى زَمنين(٢)

(١) زيادة عن الموطأ . (٢) هو محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبى زمنين المرّى من أهل ألبيرة ، وهي بلدة بالأندلس . (عن التكملة لكتاب الصلة) .

يرميهـا يوم النفر الأول حين يريد التعجيل . قال ابن المـوّاز : يرمى المتعجل فى يومين بإحدى وعشرين حصاة، كل جمرة بسبع حصيات، فيصير جميع رميه بتسع وأربعين حصاة، لأنه قد رمى جمرة العقبة يوم النحر بسبع . قال ابن المنذر : ويسقط رمى اليوم الثالث .

الثامنـــة — روى مالك عن يحيى بن سعيد عن عطاء بن أبى رباح أنه سمعه يذكر أنه أرخص للرِّعاء أن يرموا بالليل، يقول فى الزمن الأول . قال الباجى : «قوله فى الزمن الأول يقتضى إطلاقه زمن النبيّ صلى الله عليـه وسلم لأنه أوّل زمان هـذه الشريعة؛ فعلى هذا هو مرسـل . ويحتمل أن يريد به أوّل زمن أدركه عطاء؛ فيكون موقوفا متصـلا[1]» والله أعلم .

قلت : هو مسند من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، خرّجه الدارقطنيّ وغيره، وقد ذكرناه فى « المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس » ؛ وإنما أبيح لهم الرمى بالليل لأنه أرفق بهم وأحوط فيما يحاولونه من رعى الإبل؛ لأن الليل وقت لا ترعى فيه ولا تنتشر؛ فيرمون فى ذلك الوقت . وقد اختلفوا فيمن فاته الرمى حتى غربت الشمس؛ فقال عطاء : لا رمى بالليل إلا لرعاء الإبل، فأما التّجار فلا . ورُوى عن ابن عمر أنه قال : من فاته الرمى حتى تغيب الشمس فلا يرم حتى تطلع من الغـد، وبه قال أحمـد وإسحاق . وقال مالك : إذا تركه نهارا رماه ليلا، وعليه دم فى رواية ابن القاسم، ولم يذكر فى الموطأ أن عليه دمًا . وقال الشافعيّ وأبو ثور ويعقوب ومحمد : إذا نسى الرمى حتى أمسى يرمى ولا دم عليـه . وكان الحسن البصرى يرخّص فى رمى الجمـار ليلا . وقال أبو حنيفة : يرمى ولا شيء عليه، وإن لم يذكرها من الليل حتى يأتى الغد فعليه أن يرميها وعليه دم . وقال الثوريّ : إذا أخّر الرمى الى الليل ناسيا أو متعمدا أهْرق دمًا .

قلت : أما من رمى من رعاء الإبل أو أهل السِّقاية بالليل فلا دم يجب، للحديث؛ وإن كان من غيرهم فالنظر يوجب الدم لكن مع العمد؛ والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : « موقوفا مسندا » والتصويب عن شرح الباجى للوطأ .

التاســعة — ثبت أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم رمى جمرة العقبة يوم النحر على راحلته . واستحب مالك وغيره أن يكون الذى يرميها راكبا . وقـد كان ابن عمر وابن الزبير وسالم يرمونهـا وهم مُشاة ، ويرمى فى كل يوم من الثلاثة بإحدى وعشرين حصاة ، يكبر مع كل حصاة ، ويكون وجهه فى حال رميه إلى الكعبة ، ويرتّب الجمرات ويجمعهنّ ولا يفرّقهنّ ولا ينكسهنّ ؛ يبدأ بالجمرة الأولى فيرميهـا بسبع حَصَيات رَمْيًا ولا يضعها وَضْعًا ؛ كذلك قال مالك والشافعىّ وأبو ثور وأصحاب الرأى ؛ فإن طرحها طَرْحًا جاز عند أصحاب الرأى . وقال ابن القاسم : لا تجزئ فى الوجهين جميعا ؛ وهو الصحيح ، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يرميها ، ولا يرمى عندهم بحصاتين أو أكثر فى مرّة ؛ فإن فعل عدّها حصاة واحدة ، فإذا فرغ منها تقدّم أمامها فوقف طويلا للدعاء بما تيسّر . ثم يرمى الثانية وهى الوسطى وينصرف عنها ذات الشمال فى بطن المسيل ، ويطيل الوقوف عندها للدعاء . ثم يرمى الثالثة بموضع جمرة العقبة بسبع حصيات أيضا ، يرميها من أسفلها ولا يقف عندها ، ولو رماها من فوقها أجزأه ، ويكبر فى ذلك كله مع كل حصاة يرميها . وسُـنّة الذّكر فى رمى الجمـار التكبير دون غيره من الذكر ، ويرميها ماشيا بخلاف جمرة يوم النحر ، وهذا كله توقيف رفعه النّسائىّ والدّارَقُطْنىّ عن الزُّهرىّ ان رسول الله صلى الله عليــه وسلم كان إذا رمى الجمــرة التى تلى المسجد — مسجد مِنًى — يرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم تقـدّم أمامها فوقف مستقبل القبــلة رافعا يديه يدعو ، وكان يطيل الوقوف . ثم يأتى الجمرة الثانية فيرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم ينحدر ذات اليسار ممـا يلى الوادى فيقف مستقبل القبلة رافعا يديه ثم يدعو . ثم يأتى الجمرة التى عند العقبة فيرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ثم ينصرف ولا يقف عندها . قال الزهرىّ : سمعت سالم بن عبد الله يحدّث بهذا عن أبيه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : وكان ابن عمر يفعله ، لفظ الدّارَقُطْنىّ .

العـاشرة — وحكم الجمار أن تكون طاهرة غير نجسة ، ولا مما رُمى به ؛ فإن رَمى بما قد رُمى به لم يجزه عند مالك ، وقد قال عنه ابن القاسم : إن كان ذلك فى حصاة واحدة أجزأه ، ونزلت بابن القاسم فأفتاه بهذا .

الحـادية عشرة — واستحب أهل العلم أخذها من المُزْدلِفة لا من حَصَى المسجد، فإن أخذ زيادة على مايحتاج و بقى ذلك بيده بعد الرمى دفنه ولم يطرحه؛ قاله أحمد بن حنبل وغيره.

الثانية عشرة — ولا تُغسل عند الجمهور خلافا لطاوس، وقد رُوى أنه لو لم يغسل الجمار النجسة أو رمى بمـا قد رُمى به أنه أساء وأجزأ عنه. قال ابن المنذر: يكره أن يرمى بمـا قد رُمى به، ويجزئ ان رمى به، إذ لا أعلم أحدا أوجب على من فعـل ذلك الإعادة، ولا نعـلم فى شيء من الأخبار التى جاءت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه غسل الحصا ولا أمر بغسله، وقد روينا عن طاوس أنه كان يغسله.

الثالثة عشرة — ولا يجزئ فى الجمار المَدَر(١) ولا شيء غير الحجر؛ وهو قول الشافعيّ وأحمد واسحاق. وقال أصحـاب الرأى: يجوز بالطين اليابس، وكذلك كل شيء رماها من الأرض فهو يجزئ. وقال الثورى: من رمى بالخَزَف والمَدَر لم يُعد الرمى. قال ابن المنذر: لا يجزئ الرّمى إلا بالحصا، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "عليكم بحصى الخَذْف(٢)". وبالحصا رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الرابعة عشرة — واختلف فى قدر الحصا؛ فقال الشافعيّ: يكون أصغر من الأنْملة طولا وعرضا. وقال أبو ثور وأصحاب الرأى: بمثل حصى الخذف، وروينا عن ابن عمر أنه كان يرمى الجمرة بمثل بعر الغنم؛ ولا معنى لقول مالك: أكبر من ذلك أحبّ الىّ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم سنّ الرّمى بمثـل حصى الخذف، ويجوز أن يرمى بمـا وقع عليه اسم حصاة، واتباع السنة أفضل؛ قاله ابن المنذر.

قلت: وهو الصحيح الذى لا يجوز خلافه لمن اهتدى واقتدى. روى النَّسائىّ عن ابن عباس قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم غَداةَ العقبة وهو على راحلته: "هَاتِ ٱلْقُطْ لِى —

---

(١) المدر (بالتحريك): قطع الطين اليابس. وقيل: الطين العِلْك الذى لا رمل فيه.

(٢) الخذف (بفتح الخاء وسكون الذال): رميك بحصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وترمى بها، أو تجعل مخذفة من خشب ترمى بها بين الإبهام والسبابة. والمراد بحصى الخذف، الحصى المائل الى الصغر.

فلقطت له حصيات هنّ حصى الخذف، فلما وضعتهنّ فى يده قال: — بأمثال هؤلاء وإيّاكم والغُلوَّ فى الدِّين فإنمـا أهلك مَن كان قبلكم الغُـلوُّ فى الدين". فدلّ قوله: "وإياكم والغُلوّ فى الدين" على كراهة الرمى بالجمار الكبار، وأن ذلك من الغلوّ، والله أعلم.

الخامسة عشرة — ومن بقى فى يده حصاة لا يدرى من أىّ الجمار هى جعلها من الأولى، ورمى بعدها الوسطى والآخرة؛ فإن طال استأنف جميعا.

السادسة عشرة — قال مالك والشافعىّ وعبد الملك وأبو ثور وأصحاب الرأى فيمن قدّم جمرة على جمرة: لا يجزئه إلا أن يرمى على الوَلاء. وقال الحسن وعطاء وبعض النـاس: يجزئه. واحتج بعض الناس بقول النبىّ صلى الله عليه وسلم: "من قدّم نُسُكًا بين يدى نُسُك فلا حرج — وقال: — لا يكون هذا بأكثر من رجل اجتمعت عليه صلوات أو صيام فقضى بعضا قبل بعض". والأوّل أحوط، والله أعلم.

السابعة عشرة — واختلفوا فى رمى المريض والرمى عنه؛ فقال مالك: يُرمَى عن المريض والصبىّ اللّذين لا يطيقان الرمى، ويتحرّى المريض حين رميهم فيكبّر سبع تكبيرات لكل جمرة وعليه الهَدْىُ، وإذا صحّ المريض فى أيام الرّمى رَمَى عن نفسه، وعليه مع ذلك دَمٌ عند مالك. وقال الحسن والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى: يُرمَى عن المريض، ولم يذكروا هَدْيًا. ولا خلاف فى الصبىّ الذى لا يقدر على الرمى أنه يُرمَى عنه؛ وكان ابن عمر يفعل ذلك.

الثامنة عشرة — روى الدَّارَقُطْنىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال قلنا: يا رسول الله هذه الجمار التى يُرمى بها كلّ عام فنحسَب أنها تنقص؛ فقال: "إنه ما تُقبِّل منها رُفِع ولولا ذلك لرأيتَها أمثال الجبال".

التاسـعة عشرة — قال ابن المنذر: وأجمع أهل العلم على أن لمن أراد الخروج من الحاجّ من مِنًى شاخِصًا الى بلده خارجا عن الحَرَم غير مقيم بمكة فى النّفر الأوّل أن ينفر بعد زوال الشمس إذا رمى فى اليوم الذى يلى يوم النحر قبل أن يمسى (١)؛ لأن الله جلّ ذكره قال: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» فلْيَنْفِر من أراد النفر مادام فى شىء من النهار. وقد روينا عن

(١) فى الأصول: «النفر» والتصويب عن الباجى.

النّخعيّ والحسن أنهما قالا : من أدركه العصر وهو بمنًى من اليوم الثـانى من أيام التشريق لم ينفِر حتى الغد . قال ابن المنذر : وقد يحتمل أن يكونا قالا ذلك استحبابا؛ والقول الأوّل به نقول، لظاهر الكتاب والسنة .

الموفية عشرين — واختلفوا فى أهل مكة هل يَنفِرون النفر الأوّل؛ فروينا عن عمر ابن الخطاب أنه قال : من شاء من الناس كلّهم أن ينفروا فى النفر الأوّل ، إلا آل خُزيمة فلا ينفرون إلا فى النفر الآخر . وكان أحمد بن حنبل يقول : لا يعجبنى لمن نفر النفر الأوّل أن يقيم بمكة، وقال : أهل مكة أخفّ . وجعل أحمد وإسحاق معنى قول عمر بن الخطاب «إلا آل خزيمة» أى أنهم أهل حَرَم . وكان مالك يقول فى أهل مكة : من كان له عذر فله أن يتعجّل فى يومين، فإن أراد التخفيف عن نفسه مما هو فيه من أمر الحج فلا ؛ فرأى التعجيل لمن بَعُدَ قُطره . وقالت طائفة : الآية على العموم، والرخصة لجميع الناس، أهل مكة وغيرهم، أراد الخارج عن مِنًى المقام بمكة أو الشخوص الى بلده . وقال عطاء : هى للناس عامة . قال ابن المنذر : وهو يشبه مذهب الشافعيّ ، وبه نقول . وقال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعيّ : من نفر فى اليوم الثانى من الأيام المعدودات فلا حرج ، ومن تأخّر إلى الثالث فلا حرج ؛ فمعنى الآية كل ذلك مباح، وعبّر عنه بهذا التقسيم اهتماما وتأكيدا، إذ كان من العرب من يذمّ المتعجل وبالعكس ؛ فنزلت الآية رافعة للجُنَاح فى كل ذلك . وقال علىّ بن أبى طالب وابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعيّ أيضا : معنى من تعجّل فقد غفر له ، ومن تأخّر فقد غفر له ، واحتجوا بقوله عليه السلام : "من حج هذا البيت فلم يرْفُث ولم يفسُق خرج من خطاياه كيوم ولدته أمه". فقوله : «فلا إثم عليه» نفى عام وتبرئة مطلقة . وقال مجاهد أيضا : معنى الآية من تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام المقبل . وأسند فى هذا القول أثر . وقال أبو العالية فى الآية : لا إثم عليه لمن اتقى بقية عمره ، والحاج مغفور له ألبتّة ، أى ذهب إثمه كله إن اتقى الله فيما بقى من عمره . وقال أبو صالح وغيره : معنى الآية لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنّبه فى الحج . وقال أيضا : لمن اتقى فى حجه فأتى به تاما حتى كان مبرورا .

الحادية والعشرون — «من» في قوله «فَمَنْ تَعَجَّلَ» رفع بالابتداء، والخبر فلا إثم عليه . ويجوز في غير القرآن فلا إثم عليهم؛ لأن معنى « من » جماعة؛ كما قال جلّ وعزّ : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » وكذا « وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » . واللام من قوله « لِمَنِ ٱتَّقَىٰ » متعلقة بالغفران ، التقدير المغفرة لمن اتقى؛ وهـذا على تفسير ابن مسعود وعليّ . قال قتادة : ذكر لنا أن ابن مسعود قال : إنما جعلت المغفرة لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي . وقال الأخفش : التقدير ذلك لمن اتقى . وقال بعضهم : لمن اتقى يعني قتل الصيد في الإحرام وفي الحَرَم . وقيل : التقدير الإباحة لمن اتقى ؛ روى هذا عن ابن عمر . وقيل : السلامة لمن اتقى . وقيل : هي متعلقة بالذكر الذي في قوله تعالى : « وَٱذْكُرُوا » أي الذكر لمن اتقى . وقرأ سالم بن عبد الله « فلا ٱثم عليه » بوصل الألف تخفيفا؛ والعرب قد تستعمله . قال الشاعر :

* إن لم أقاتل فالبسوني بُرْقُعا *

ثم أمر الله تعالى بالتقوى وذكّر بالحشر والوقوف .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ﴾ لما ذكر الذين قصرت همتهم على الدنيا — في قوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا » — والمؤمنين الذين سألوا خير الدارين ذكر المنافقين؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأسرّوا الكفر . قال السّدّيّ وغيره من المفسرين : نزلت في الأَخْنَس بن شَرِيق، واسمه أُبَيّ، والأخنس لقب لُقّب به؛ لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من حلفائه من بني زُهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما يأتي في « آل عمران » بيانه . وكان رجلا حلوَ القول والمَنْظَر؛ فجاء بعد ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأظهر الإسلام وقال : الله يعلم أني صادق؛ ثم هرب بعد ذلك، فمرّ بزرع لقوم

من المسلمين وحُمُر فأحرق الزرع وعقر الحمر . قال المهدوى : وفيه نزلت « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ » و « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » . قال ابن عطية : ماثبت قط أن الأخنس أسلم . وقال ابن عباس : نزلت فى قوم من المنافقين تكلموا فى الذين قُتلوا فى غَزْوة الرَّجِيع : عاصم بن ثابت ، وخُبَيب ، وغيرهم ؛ وقالوا : وَيْحَ هؤلاء القوم لاهُمْ قعدوا فى بيوتهم ، ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم ؛ فنزلت هــذه الآية فى صفات المنافقين ، ثم ذكر المستشهدين فى غزوة الرجيع فى قوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ » . وقال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء : نزلت فى كل مُبْطِن كفرا أو نفاقا أو كذبا أو إضرارا ، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك ؛ فهى عامة ، وهى تشبه ما ورد فى الترمذى أن فى بعض كتب الله تعالى : إن من عباد الله قوما ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصَّبِر ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، يشترون الدنيا بالدّين ، يقول الله تعالى : أَبِى يغترّون وعلىّ يجترئون فبى حلفت لأتيحنّ لهم فتنة تدع الحليم منهم حيران . ومعنى « وَيُشْهِدُ اللَّهَ » أى يقول : الله يعلم أنى أقول حقا . وقرأ ابن مُحيصن « وَيَشْهد الله على ما فى قلبه » بفتح الياء والهاء فى « يشهد » « الله » بالرفع ، والمعنى يعجبك قوله ، والله يعلم منه خلاف ما قال . دليله قوله : « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . وقراءة ابن عباس « والله يشهد على ما فى قلبه » . وقراءة الجماعة أبلغ فى الذم ؛ لأنه قوى على نفسه التزام الكلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافه . وقرأ أبىّ وابن مسعود « ويستشهد الله على ما فى قلبه » وهى حجة لقراءة الجماعة .

الثانيــــة — قال علماؤنا : وفى هذه الآية دليل وتنبيه على الاحتياط فيما يتعلق بأمور الدّين والدنيا ، واستبراء أحوال الشهود والقضاة ، وأن الحاكم لا يعمل على ظاهر أحوال النــاس وما يبدو من إيمانهم وصلاحهم حتى يبحث عن باطنهم ؛ لأن الله تعــالى بيّن أحوال الناس ، وأن منهم من يظهر قولا جميلا وهو ينوى قبيحا .

فان قيل : هــذا يعارضه قوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل النــاس حتى يقولوا لا إله إلا الله" الحديث ، وقوله : "فأقضى له على نحو ما أسمع" فالجواب أن هذا كان فى صدر الإسلام ، حيث كان إسلامهم سلامتهم ، وأمّا وقد عمّ الفساد فلا ؛ قاله ابن العربى .

قلت : والصحيح أن الظاهر يعمل عليه حتى يتبين خلافه؛ لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى صحيح البخارى" : أيها الناس ، إن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ؛ فمن أظهر لنا خيرا أمّناه وقرّبناه ، وليس لنا من سريرته ، الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمّنه ولم نصدّقه ، وإن قال إن سريرته حسنة .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ الألدّ : الشديد الخصومة ؛ وهو رجل أَلَدّ ، وامرأة لَدّاء ، وهم أهل لَدَد . وقد لَدِدت — بكسر الدال — تَلَدّ — بالفتح — لددا ، أى صرت أَلَدّ . ولَدَدته — بفتح الدال — أَلُدّه — بضمها — اذا جادلته فغلبته . والألدّ مشتق من اللَّدِيدَين ، وهما صفحتا العنق ، أى فى أىّ جانب أخذ من الخصومة غلب . قال الشـاعر :

وألدّ ذى حَنَـق علىّ كأنمـا * تغلى عداوة صدره فى مِرجل

وقال آخر :

إن تحت التراب عزماً وحزماً * وخصيما ألدّ ذا مِغـــلاقِ

والخصام فى الآية مصـدر خاصم ؛ قاله الخليل . وقيل : جمع خَصْم ؛ قاله الزجاج ؛ ككلب وكلاب ، وصعب وصـعاب ، وضخم وضخام . والمعنى أشدّ المخاصمين خصـــومة ، أى هو ذو جدال ، إذا كلمك وراجعك رأيت لكلامه طُلاوةً وباطنـه باطل . وهـذا يدل على أن الجدال لايجوز إلا بما ظاهره وباطنـه سواء . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أَبْغَضَ الرِّجالِ إلى الله الأَلَدُّ الخَصِم" .

قوله تعـالى : وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ قيل : «تولّى وسعى» من فعل القلب؛ فيجىء «تولى» بمعنى ضل وغضب وأَنِف فى نفسه . و«سعى» أى سعى بحيلة وإدارة

الدوائر على الإسلام وأهله؛ عن ابن جُريج وغيره . وقيل : هما فعل شخص؛ فيجيء « تولى » بمعنى أدبر وذهب عنك يا محمد . و «سعى» أى بقدميه فقطع الطريق وأفسدها؛ عن ابن عباس وغيره . وكلا السعيين فساد . يقال : سعى الرجل يسعى سعيا ، أى عَدَا ، وكذلك إذا عمـل وكَسَب . وفلان يسعى على عياله أى يعمل فى نفعهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُهْلِكَ ﴾ عطف على ليفسد . وفى قراءة أُبَىّ « وليهلك » وقرأ الحسن وقتادة « و يهلكُ » بالرفع؛ وفى رفعـه أقوال : يكون معطوفا على يعجبك . وقال أبو حاتم : هو معطوف على سعى؛ لأن معناه يسعى و يهلك . وقال أبو إسحاق : وهو يهلك . ورُوى عن ابن كثير «ويَهلكُ» بفتح الياء وضم الكاف . « الحَرْثُ وَالنَّسْلُ » مرفوعان بيهلك؛ وهى قراءة الحسن وابن أبى إسحاق وأبى حَيْوَة وابن مُحيصن ، ورواه عبد الوارث عن أبى عمرو . وقرأ قوم «ويَهلَك» بفتح الياء واللام ، ورفع الحرث؛ وهى لغة هَلَكَ يَهْلَك؛ مثل ركن يركن ، وأَبَى يَأْبَى ، وسَلَى يَسلَى ، وقلَى يقلَى ، وشبهه . والمعنىٌ فى الآية الأَخْنس فى إحراقه الزرع وقتله الحمـر؛ قاله الطبرى . قال غيره : ولكنها صارت عامة لجميع الناس ، فمـن عمل مثل عمله استوجب تلك اللعنة والعقوبة . قال بعض العلماء : إن من يقتل حمارا أو يحرق كُدْسًا(١) استوجب الملامة ، ولَحِقه الشَّين الى يوم القيامة . وقال مجاهد : المراد أن الظالم يفسد فى الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل . وقيل : الحرثُ النساءُ ، والنّسلُ الأولاد؛ وهذا لأن النفاق يؤدّى إلى تفريق الكلمة ووقوع القتال ، وفيه هلاك الخلق؛ قال معناه الزجاج . والسعى فى الأرض المشيُ بسرعة؛ وهـذه عبارة عن إيقاع الفتنة والتضريب بين الناس ، والله أعلم . وفى الحديث : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده" . وسيأتى بيان هذا إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ الْحَرْثَ والنَّسْلَ ﴾ الحرث فى اللغة : الشق؛ ومنه المحراث لمـا يُشقّ به الأرض . والحرث : كسب المـال وجمعه؛ وفى الحـديث : " أُحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش

(١) الكدس (بضم الكاف وفتحها وسكون الدال) : العرمة من الطعام والتمر والدراهم .

أبدا ". والحرث الزرع . والحرّاث الزّرّاع . وقد حَرَث واحْتَرَث ؛ مثل زرع وازدرع .
ويقال : احْرُث القرآن ، أى ادْرُسه . وحَرَثْتُ الناقة وأحرثتها ، أى سرت عليها حتى هزلت .
وحرثْتُ النار حرّكتها . والمحراث : ما يُحرَّك به نار التّنُّور ؛ عن الجوهرى .

والنسل : ما خرج من كل أنثى من ولد . وأصله الخروج والسقوط ؛ ومنه نَسل الشَّعرُ ، وريشُ الطائر ، والمستقبل يَنْسُل ؛ ومنه « إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » ، « مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلون » . وقال آمرؤ القيس :

* فَسُلِّى ثيابى من ثيابِكِ تَنْسُلِ (١) *

قلت : ودلّت الآية على الحرث وزراعة الأرض ، وغرسها بالأشجار حملا على الزرع ، وطلب النسل ، وهو نماء الحيوان ، وبذلك يتم قوام الإنسان . وهو يردّ على من قال بترك الأسباب ، وسيأتى بيانه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ قال العباس بن الفضل : الفساد هو الخراب .
وقال سعيد بن المسيّب : قطع الدراهم من الفساد فى الأرض . وقال عطاء : إن رجلا كان يقال له عطاء بن منبّه أحرم فى جُبّة فأمره النبىّ صلى الله عليه وسلم أن ينزعها . قال قتادة قلت لعطاء : إنا كنا نسمع أن يشقها ؛ فقال عطاء : إن الله لا يحب الفساد .

قلت : والآية بعمومها تعم كل فساد كان فى أرض أو مال أو دين ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . قيل : معنى لا يحب الفساد أى لا يحبه من أهل الصلاح ، أو لا يحبه دينا .
ويحتمل أن يكون المعنى لا يأمر به ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

(١) صدر البيت : * وإن كنتِ قد ساءتك منى خليقة *
يقول : إن كان فى خلق ما لا ترضينه فسُلّى ثيابى من ثيابك ، أى انصرفى وأخرجى أمرى من أمرك . (عن شرح الديوان) .

هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زَهْوًا، ويُكره للؤمن أن يوقعه الحرج فى بعض هذا . وقال عبد الله : كفى بالمرء إثما أن يقول له أخوه اتّق الله، فيقول : عليك بنفسك ؛ مثلك يوصيني ! والعزة : القوة والغلبة؛ من عزّه يَعُزّه إذا غلبه . ومنه : «وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ» وقيل : العزة هنا الحَمِيَّة؛ ومنه قول الشاعر :

أخذته عِزّةٌ من جهـله * فتولّى مُغضَبًا فعـل الضَّجِرْ

وقيل : العزة هنا المَنَعة وشـدّة النفس ، أى اعتز فى نفسه وانتحى فأوقعته تلك العزة فى الإثم حين أخذته وألزمته اياه . وقال قتادة : المعنى اذا قيـل له مَهْلًا ازداد إقداما على المعصية ؛ والمعنى حملته العزة على الإثم . وقيل : أخذته العزة بما يؤثمه ، أى ارتكب الكفر للعزة وحمية الجاهليـة . ونظيره «بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» وقيـل : البـاء فى «بالإثم» بمعنى اللام، أى أخذته العزة والحميّة عن قبول الوعظ للاثم الذى فى قلبه، وهو النفاق؛ ومنه قول عنترة يصف عرق الناقة :

وكأنّ رُبًّا أو كُحَيلًا مُعقَدًا * حَشّ الوَقودُ به جوانبَ قُمْقُمِ (١)

أى حشّ الوقود له . وقيـل : الباء بمعنى مع، أى أخذته العزة مع الإثم؛ فمعنى الباء يختلف بحسب التأويلات . وذُكر أن يهوديا كانت له حاجة عند هارون الرشـيد فاختلف الى بابه سنة، فلم يقض حاجته ، فوقف على الباب؛ فلما خرج هارون سـعى حتى وقف بين يديه وقال : اتّق الله يا أمير المؤمنين ! فنزل هارون عن دابته وخرّ ساجدا ، فلما رفع رأسه أمر بحاجته فقُضيت؛ فلما رجع قيل له : ياأمير المؤمنين، نزلت عن دابتك لقول يهودىّ ! قال : لا ولكن تذكرت قول الله تعـالى : «وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِـزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ» . حسبه أى كافيه معاقبة وجزاء؛ كما تقول للرجل : كفاك ما حلّ بك ! وأنت تستعظم وتُعظم عليه ما حلّ . والمهاد جمع المهد، وهو الموضع المهيأ للنوم؛ ومنه مهد الصبىّ،

(١) الرب (بضم الراء) : الطلاء الخاثر . والكحيل (مصغرا) : النفط أو القطران تطلى به الابل . والمعقد (بفتح القاف) : الذى أوقد تحته حتى انعقد وغلظ . وحشّ : اتقد . والقمقم (بالضم) : ضرب من الأوانى .

وسمى جهنم مهادا لأنها مستقر الكفار . وقيل : لأنها بدل لهم من المهاد؛ كقوله : «فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» ونظيره من الكلام قولهم : * تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ * (١)

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

«ابتغاء» نصب على المفعول من أجله . ولما ذكر صنيع المنافقين ذكر بعده صنيع المؤمنين . قيل : نزلت فى صُهيب (٢) فإنه أقبل مهاجرا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانْتَثَل (٣) مافى كِنانته وأخذ قوسه وقال : لقد علمتم أنى من أرماكم ، وَايْمُ الله لا تصلون الىّ حتى أرمى بما فى كنانتى، ثم أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم . فقالوا : لا نتركك تذهب عنا غنيًّا وقد جئتنا صُعْلوكا، ولكن دُلّنا على مالك بمكة ونُخْلى عنك؛ فعاهدوه على ذلك ففعل؛ فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ» الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رَبِح البيعُ أبا يحيى» ، وتلا عليه الآية ، أخرجه رَزِين؛ وقاله سعيد بن المسيّب رضى الله عنهما . وقال المفسرون : أخذ المشركون صُهيبًا فعذبوه، فقال لهم صهيب : إنى شيخ كبير، لا يضرّكم أمنكم كنت أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى؛ ففعلوا ذلك، وكان شرط عليهم راحلةً ونفقة؛ فخرج الى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ورجال؛ فقال له أبو بكر : ربح بيعك أبا يحيى . فقال له صُهيب : وبيعُك فلا يخسر، فما ذاك ؟ فقال : أنزل الله فيك كذا؛ وقرأ عليه هذه الآية . وقال الحسن : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية ، نزلت فى المسلم لقى الكافر فقال له : قل لا إله إلا الله، فإذا قالها

(١) هذا عجز بيت لمعدى كرب، صدره : * وخيل قد دَلَفْتُ لها بخيل *

(٢) هو صهيب بن سنان بن مالك الرومى، سبته الروم [وهو صغير] فجلب الى مكة فاشتراه عبد الله بن جُدعان . وقيل : بل هرب من الروم فقدم مكة وحالف ابن جدعان . وكان صهيب من السابقين الأولين ، شهد بدرا والمشاهد كلها . توفى بالمدينة سنة ثمان وثلاثين . (من النجوم الزاهرة) . (٣) انتثل ما فى كنانته : أى استخرج ما فيها من السهام . والكنانة : جعبة السهام ، تتخذ من جلود لا خشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

عصمت مالك ونفسك؛ فأبى أن يقولها، فقال المسلم : والله لأشرينّ نفسي لله؛ فتقدّم فقاتل حتى قُتل . وقيل : نزلت فيمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر؛ وعلى ذلك تأوّلها عمر وعليّ وابن عباس رضي الله عنهم، قال عليّ وابن عباس : اقتتل الرجلان، أي قال المُتّقِي(١) للمفسد : اتق الله؛ فأبى المفسد وأخذته العزّة، فشرى المُتّقي نفسه من الله وقاتله فاقتتلا . وقال أبو الخليل : سمع عمر بن الخطاب إنسانا يقرأ هذه الآية، فقال عمر : إنا لله و إنا اليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقُتل . وقيل : إن عمر سمع ابن عبـاس يقول : اقتتل الرجلان عند قراءة القارئ هـذه الآية ، فسأله عما قال ففسّر له هذا التفسير؛ فقال له عمر : لله تِلادك يابن عباس ! وقيل : نزلت فيمن يقتحم القتال . حمل هشام بن عامر على الصّف في القُسْطَنْطِينِيّة فقاتل حتى قُتل، فقرأ أبو هريرة « ومن النـاس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله »؛ ومثله عن أبي أيوب . وقيل : نزلت في شهداء غَزْوة الرَّجيع . وقال قتادة : هم المهاجرون والأنصار . وقيل : نزلت في عليّ رضي الله عنه حين تركه النبيّ صلى الله عليه وسلم على فراشه ليلة خرج الى الغار، على ما يأتى بيانه في « براءة » إن شاء الله تعالى . وقيل : الآية عامة ، تتناول كل مجاهد في سبيل الله أو مستشهد في ذاته أو مغيّر منكر . وقد تقدم حكم من حمل على الصف ، ويأتى ذكر المغيّر للمنكر(٢) وشروطه وأحكامه في « آل عمران » إن شاء الله تعالى .

ويشرى معناه يبيع؛ ومنه «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ» أي باعوه، وأصله الاستبدال؛ ومنه قوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » . ومنه قول الشاعر :

و إن كان ريبُ الدهر أمضاك في الأُلَى * شَرَوْا هـذه الدنيا بجناته الخـلد

وقال آخر :

وشـريتُ بُرْدًا ليتـني * من بعد بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ

البرد هنا اسم غلام . وقال آخر :

يعطى بهـا ثمنـا فيمنعها * ويقول صاحبهـا ألَا فَاشْرِ

(١) في بعض نسخ الأصل : « المغيّر » .	(٢) راجع المسئلة الثانية جـ ٢ ص ٣٦٣ طبعة ثانية .

وبيع النفس هنا هو بذلها لأوامر الله . « ابتغاء » مفعول من أجله . ووقف الكسائي على « مرضاتْ » بالتاء، والباقون بالهاء . قال أبو علي : وقف الكسائي بالتاء إما على لغة من يقول : طلحتْ وعلقمتْ ؛ ومنه قول الشاعر :

* بل جَوْزِتَيْهاء كظَهْر الحَجَفَتْ (١) *

وإما أنه لما كان المضاف إليه في ضمن اللفظة ولا بُدَّ أثبت التاء كما ثبتت في الوصل ليعلم أن المضاف اليه مراد . والمَرْضاة الرِّضا ؛ يقال رَضِي يَرْضَى رِضًا ومَرْضاة . وحكى قوم أنه يقال : شرى بمعنى اشترى ، ويحتاج الى هذا من تأوّل الآية في صُهيب ؛ لأنه اشترى نفسه بماله ولم يبعها ؛ اللّهمّ إلا أن يقال : إن عَرْض صهيب على قتالهم بيع لنفسه من الله ، فيستقيم اللفظ على معنى باع .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢٠٨)

لما بيّن الله سبحانه الناس الى مؤمن وكافر ومنافق فقال : كونوا على ملة واحدة ؛ واجتمعوا على الاسلام واثبتوا عليه . فالسِّلم هنا بمعنى الإسلام ؛ قاله مجاهد ، ورواه أبو مالك عن ابن عباس . ومنه قول الشاعر الكندي :

دعوتُ عشيرتي للسِّلم لما * رأيتهمُ تولّوا مدبرينا

أى إلى الإسلام لما ارتدت كِنْدة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الأشعث بن قيس الكندي ، ولأن المؤمنين لم يُؤمروا قط بالدخول في المسالمة التي هي الصلح ، وإنما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجنح للسِّلم إذا جنحوا له ، وأما أن يبتدئ بها فلا ؛ قاله الطبري . وقيل : أمر من آمن بأفواههم أن يدخلوا فيه بقلوبهم . وقال طاوس ومجاهد : ادخلوا في أمر الدين . سفيان الثوري : في أنواع البرّ كلها . وقرئ « السِّلم » بكسر السين .

---

(١) الحجفة (بالتحريك وبتقديم الحاء على الجيم) : الترس اذا كان من جلود ليس فيه خشب ولا عقب .

قال الكسائىّ : السِّلْم والسَّلْم بمعنًى واحد، وكذا هو عند أكثر البصريين، وهما جميعا يقعان للإسلام والمسالمة . وفرّق أبو عمرو بن العَلَاء بينهما، فقرأها هنا : « ادخلوا فى السّلم » وقال هو الإسلام . وقرأ التى فى « الأنفال » والتى فى سورة « محمد » صلى الله عليه وسلم «السَّلْم» بفتح السين، وقال : هى بالفتح المسالمة . وأنكر المبرد هذه التفرقة . وقال عاصم الجَحْدَرى : السِّلم الإسلام، والسَّلم الصلح، والسَّلم الاستسلام . وأنكر محمد بن يزيد هذه التفريقات وقال : اللغة لا تؤخذ هكذا، وإنما تؤخذ بالسماع لا بالقياس؛ ويحتاج من فرّق الى دليل . وقد حكى البصريون : بنو فلان سِلْمٌ وسَلْمٌ وسَلَمٌ، بمعنًى واحد . قال الجوهرىّ : والسِّلْم الصلح، يفتح ويكسر، ويذكر ويؤنث؛ وأصله من الاستسلام والانقياد؛ ولذلك قيل للصلح : سِلْم . قال زهير :

وقد قلتما إنْ نُدرِكِ السِّلْم واسعًا * بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نَسْلَمِ

ورجّح الطبرىّ حمل اللفظة على معنى الإسلام بما تقدّم . وقال حذيفة بن اليَمَان : فى هذه الاية الإسلام ثمانية أسهم : الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والعُمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهى عن المنكر سهم؛ وقد خاب من لا سهم له فى الإسلام . وقال ابن عباس : نزلت الآية فى أهل الكتاب؛ والمعنى يأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى أدخلوا فى الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم كافة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول صلى الله عليه وسلم قال : "والذى نَفْسُ محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانىّ ثم [يموت و](1) لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار" . و ﴿كَافَّةً﴾ معناه جميعا، فهو نصب على الحال من السلم أو من ضمير المؤمنين؛ وهو مشتق من قولهم : كففت أى منعت، أى لا يمتنع منكم أحد من الدخول فى الإسلام . والكف المنع؛ ومنه كُفَّة القميص — بالضم — لأنها تمنع الثوب من الانتشار؛ ومنه كِفة الميزان — بالكسر — التى تجمع الموزون وتمنعه أن ينتشر؛ ومنه كَفُّ الإنسان، الذى يجمع

(1) زيادة عن صحيح مسلم .

منافعه ومضاره؛ وكل مستدير كِفّة؛ وكل مستطيل كُفّة . ورجل مكفوف البصر، أى منع عن النظر؛ فالجماعة تُسمَّى كافة لامتناعهم عن التفرق . ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ نهى . ﴿ خُطُوَاتِ ﴾ مفعول ، وقد تقدّم (١) . وقال مقاتل : استأذن عبد الله بن سَلَام وأصحابه بأن يقرءوا التوراة فى الصلاة وأن يعملوا ببعض ما فى التوراة ؛ فنزلت « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » فإن اتباع السُّنَّة أولى بعد ما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم من خطوات الشيطان . وقيل : لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليه الشيطان ؛ ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة؛ وقد تقـدّم (٢) .

قوله تعالى : فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)

أى تنحيّتم عن طريق الاستقامة . وأصل الزلل فى القَـدَم، ثم يستعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك؛ يقال: زلّ يَزِل زَلاًّ وزَلَلًا وزُلُولًا، أى دَحَضت قَدَمُه . وقرأ أبو السّمال العَدَوىّ « زَلِلتم » بكسر اللام، وهما لغتان . وأصل الحرف من الزَّلَق، والمعنى ضلَلتم وعُجْتم عن الحق . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أى المعجزات وآيات القرآن ، إن كان الخطاب للؤمنين، فإن كان الخطاب لأهـل الكتابين فالبينات ما ورد فى شرعهـم من الإعلام بمحمد صلى الله عليه وسلم والتعريف به . وفى الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به ، ومن لم تبلغه دعوة الإسـلام لا يكون كافرا بترك الشرائع . وحكى النقاش أن كعب الأحبار لما أسلم كان يتعلّم القرآن، فأقرأه الذى كان يعلّمه «فاعلموا أن الله غفور رحيم» فقال كعب : إنى لأستنكر أن يكون هكذا؛ ومرّ بهما رجل فقال كعب : كيف تقرأ هـذه الآية ؟ فقال الرجل : «فاعلموا أن الله عزيز حكيم» فقال كعب : هكذا ينبغى . و «عزيز» لا يمتنع عليه ما يريده . «حكيم» فيما يفعله .

(١) راجع المسألة الثالثة جـ ٢ ص ٢٠٨ طبعة ثانية .
(٢) تراجع المسئلة الرابعة جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (٢١٠)

يعنى التاركين الدخول فى السلم، وهل يراد به هنا الجَحْد، أى ماينتظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظُلَل من الغمام والملائكةُ . نظرته وانتظرته بمعنًى . والنظر الانتظار . وقرأ قتادة وأبو جعفر يزيد بن القَعْقاع والضحّاك « فى ظِلال من الغمام » . وقرأ أبو جعفر « والملائكةِ » بالخفض عطفا على الغمام، وتقديره مع الملائكة؛ تقول العرب : أقبل الأمير فى العسكر، أى مع العسكر. « ظُلَلٍ » جمع ظُلّة فى التكسير، كظُلْمة وظُلَم وفى التسليم ظُلُلات ؛ وأنشد سيبويه :

إذا الوَحْشُ ضَمَّ الوحشَ فى ظُلُلاتها * سَواقِطُ من حَرٍّ وقد كان أَظْهرا (١)

وظُلّات . وظِلال جمع ظل فى الكثير، والقليل أظلال . ويجوز أن يكون ظِلال جمع ظُلّة، مثل قوله : قُلّة وقِلال؛ كما قال الشاعر :

* ممزوجة بماء القِلالِ (٢) *

قال الأخفش سعيد : والملائكةِ بالخفض بمعنًى وفى الملائكة . قال : والرفع أجود؛ كما قال : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » ، « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » . قال الفرّاء : وفى قراءة عبد الله « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام» . قال قتادة : الملائكة يعنى تأتيهم لقبض أرواحهم ؛ ويقال يوم القيامة، وهو أظهر . قال أبو العالية والربيع : تأتيهم الملائكة فى ظلل من الغمام ، ويأتيهم الله فيما شاء . وقال الزجاج : التقدير فى ظلل من الغمام ومن الملائكة . وقيل : ليس الكلام على ظاهره فى حقه سبحانه، وإنما المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه . وقيل : أى بما وعدهم من الحساب والعذاب فى ظلل ؛ مثل «فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» أى بخذلانه إياهم؛ هذا قول الزجاج، والأوّل قول الأخفش سعيد . وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعا الى الجزاء؛ فسمّى الجزاء إتيانا كما سمّى

(١) البيت للجعدى . ومعنى أظهر : صار فى وقت الظهيرة . وصف سيره فى الهاجرة اذا استكن الوحش من حر الشمس واحتدامها ولحق بكُنُسه . (٢) القلال (بالكسر جمع قلة بالضم) : الجرة، وقيل : هو إناء للعرب كالجرة .

التخويف والتعذيب فى قصة نمروذ إتيانا فقال : « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » . وقال فى قصة النّضير : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ »، وقال : « وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » . وإنما احتمل الإتيان هذه المعانى لأن أصل الإتيان عند أهل اللغة هو القصد إلى الشيء ؛ فمعنى الآية : هل ينظرون إلا أن يظهر الله تعالى فعلا من الأفعال مع خلقٍ من خلقه يقصد إلى مجازاتهم ويقضى فى أمرهم ما هو قاض؛ وكما أنه سبحانه أحدث فعلا سمّاه نزولا واستواء كذلك يُحدث فعلا يسميه إتيانا؛ وأفعاله بلا آلة ولا علّة، سبحانه ! وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح : هذا من المكتوم الذى لا يُفسَّر . وقد سكت بعضهم عن تأويلها، وتأوّلها بعضهم كما ذكرنا . وقيل : بمعنى الباء ، أى يأتيهم بظُلَل، ومنه الحديث : "يأتيهم الله فى صورة" أى بصورة امتحانا لهم . ولا يجوز أن يحمل هذا وما أشبهه مما جاء فى القرآن والخبر على وجه الانتقال والحركة والزوال، لأن ذلك من صفات الأجرام والأجسام، تعالى الله الكبير المتعال، ذو الجلال والإكرام عن مماثلة الأجسام عُلُوًّا كبيرا . والغمام : السحاب الرقيق الأبيض ؛ سُمى بذلك لأنه يَغُمّ، أى يستر؛ كما تقدّم[(1)] . وقرأ معاذ بن جبل « وقضاء الأمر » . وقرأ يحيى ابن يعمر « وقضى الأمور » بالجمع . والجمهور « وَقُضِيَ الْأَمْرُ » فالمعنى وقع الجزاء وعذّب أهل العصيان . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائىّ « تَرجِع الأمور » على بناء الفعل للفاعل، وهو الأصل ؛ دليله « أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » ، « إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ » . وقرأ الباقون « تُرْجَع » على بنائه للمفعول، وهى أيضا قراءة حسنة؛ دليله « ثُمَّ تُرَدُّونَ » ، « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ » ، « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي » . والقراءتان حسنتان بمعنًى، والأصل الأولى ، وبناؤه للمفعول توسّع وفرع، والأمور كلها راجعة إلى الله قبلُ وبعدُ . وإنما نبّه بذكر ذلك فى يوم القيامة على زوال ما كان منها الى الملوك فى الدنيا .

---

(1) تراجع المسئلة الأولى ج ١ ص ٤٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾

﴿ سَلْ ﴾ من السؤال : بتخفيف الهمزة، فلما تحركت السين لم يحتج الى ألف الوصل . وقيل : إن للعرب فى سقوط ألف الوصل فى « سـل » وثبوتها فى « وآسأل » وجهين : أحدهما — حذفها فى أحدهما وثبوتها فى الأخرى، وجاء القرآن بهما، فاتبع خط المصحف فى إثباته للهمزة و إسقاطها . والوجه الثانى — أنه يختلف إثباتها و إسقاطها باختلاف الكلام المستعمل فيه، فتحذف الهمزة فى الكلام المبتدأ، مثل قوله : «سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، وقوله : « سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ » . وتثبت فى العطف، مثل قوله : « وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ »، وَٱسْأَلُوا اللّهَ مِنْ فَضْلِهِ» قاله علىّ بن عيسى . وقرأ أبو عمرو فى رواية ابن عباس عنه «إسأل» على الأصل . وقرأ قوم « اِسَلْ » على نقل الحركة إلى السين و إبقاء ألف الوصل، على لغة من قال : ألَاحْمَر . و « كَمْ » فى موضع نصب، لأنها مفعول ثان لآتيناهم . وقيل : بفعل مضمر، تقديره كم آتينا آتيناهم . ولا يجوز أن يتقدمها الفعل لأن لها صدر الكلام . ﴿ مِنْ آيَةٍ ﴾ فى موضع نصب على التمييز على التقدير الأول، وعلى الثانى مفعول ثان لآتيناهم؛ و يجوز أن تكون فى موضع رفع بالابتداء، والخبر فى آتيناهم؛ و يصير فيه عائد على كم، تقديره : كم آتيناهموه، ولم يعرب وهى اسم لأنها بمنزلة الحروف لما وقع فيه معنى الاستفهام؛ و إذا فرقت بين كم و بين الاسم كان الاختيار أن تأتى بمن كما فى هذه الآية، فان حذفتها نصبت فى الاستفهام والخبر، و يجوز الخفض فى الخبر، كما قال الشاعر :

كم بجودٍ مُقْرِفٍ(١) نال العُلَا * وكريمٍ بُخْـلُه قد وَضَعهْ

والمراد بالآية كم جاءهم فى أمر محمد عليه السلام من آية مُعَرِّفة به دالة عليه . قال مجاهد والحسن وغيرهما : يعنى الآيات التى جاء بهـا موسى عليه السلام من فلق البحر والظلل من الغمام والعصا واليد وغير ذلك . وأمر الله تعالى نبيّه بسؤالهم على جهة التّقريع لهم والتوبيخ .

(١) المقرف : النذل اللئيم الأب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ﴾ لفظ عام لجميع العامة ، و إن كان المشار اليه بنى إسرائيل ؛ لكونهم بدّلوا ما فى كتبهم و جحـدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فاللفظ منسحب على كل مبدّل نعمة الله تعالى . وقال الطبرى : النعمة هنا الإسلام ؛ وهذا قريب من الأوّل . و يدخل فى اللفظ أيضا كفار قريش ؛ فإن بعث محمد صلى الله عليه وسـلم فيهم نعمة عليهم ، فبدّلوا قبولها والشكر عليها كفرا .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ خبر يتضمن الوعيد . والعقاب مأخوذ من العَقِب ؛ كأن المعاقب يمشى بالمجازاة له فى آثار عَقِبه ؛ ومنه عُقْبة الراكب (١) وعُقْبَة القِدْر (٢) . فى الصِّحاح والعُقْبة أيضا : شىء من المرق يردّه مستعير القِدْر إذا ردّها . فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذنب ؛ وقد عاقبه بذنبه .

قوله تعـالى : زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَـا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُـمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَـيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ على ما لم يسم فاعله . والمراد رؤساء قريش . وقرأ مجاهد وحُميد بن قيس على بناء الفاعل . قال النحاس : وهى قراءة شاذة ؛ لأنه لم يتقـدّم للفاعل ذِكر . وقرأ ابن أبى عَبْلَة « زُيِّنت » بإظهار العلامة ؛ وجاز ذلك لكون التأنيث غير حقيقىّ ، والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر ، ويزيّنها أيضا الشيطان بوسوسته و إغوائه . وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جمـلة ، و إقبالهم على الدنيا و إعراضهم عن الآخرة بسببها . وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيّهم أحسن عملا ؛ فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة ، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون

---

(١) عقبة الراكب (بضم فسكون) : الموضع يركب منه .

(٢) عقبة القدر : ما التزق فى أسفلها من تابل وغيره .

غيرها . وقد قال أبو بكر الصدّيق رضى لله عنه حين قُدم عليه بالمـال : اللّهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بمـا زيّنت لنا .

قوله تعالى : ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُـوا وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ إشارة إلى كفار قريش ، فإنهم كانوا يعظمون حالهم من الدنيا ويغتبطون بهـا ، ويسخرون من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم . قال ٱبن جُرَيج : فى طلبهم الآخرة . وقيل : لفقرهم وإقلالهم؛ كبلال وصُهيب وابن مسعود وغيرهم؛ رضى الله عنهم . فنبّه سبحانه على خفض منزلتهم لقبيح فعلهم بقوله : «وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ» . وروى علىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من ٱستـذلّ مؤمنا أو مؤمنة أو حقّره لفقره وقلة ذات يده شهره الله يوم القيامة ثم فضحه ومن بهت مؤمنا أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعـالى على تلّ من نار يوم القيامة حتى يخرج ممـا قال فيه وإن عِظَم المؤمن أعظم عند الله وأكرم عليـه من مَلَك مقرَّب وليس شىء أحبّ إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة وإن الرجل المؤمن يعرف فى السماء كما يعرف الرجل أهله وولده" . ثم قيل : معنى «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» أى فى الدرجة؛ لأنهم فى الجنة والكفار فى النار . ويحتمل أن يراد بالفوق المكان؛ من حيث إن الجنة فى السماء، والنار فى أسـفل السافلين . ويحتمل أن يكون التفضيل على ما يتضمنه زعم الكفار؛ فإنهـم يقولون : وإن كان معادٌ فلنا فيه الحظ أكثر مما لكم؛ ومنه حديث خَبّاب(١) مع العاص بن وائل، قال خَبّاب : كان لى على العاص بن وائل دَيْن فأتيتُـه أتقاضاه؛ فقال لى : لن أقضيَك حتى تكفُرَ بمحمد صلى الله عليه وسلم . قال : فقلت له : إنى لن أكفر به حتى تموتَ ثم تُبعث . قال : وإنى لَمبعوثٌ من بعـد الموت ، فسوف أقضيك إذا رجعتُ إلى مالٍ وولد ؛ الحـديث . وسيأتى(٢) بتمامه إن شاء الله تعالى . ويقال : سَخِرت منه وسَخِرت به، وضَحِكت منه وضَحِكت به، وهَزِئت منه وبه؛ كل ذلك يقال، حكاه الأخفش . والاسم السُّخرية والسُّخْرِىّ والسِّخْرِىّ،

---

(١) خباب (بفتح الخاء وتشديد الباء) : بن الأرَتّ ؛ شهد بدرا ، وكان قينا فى الجاهلية ومن المهاجرين الأوّلين .

(٢) عند قوله تعالى : «أفرأيت الذى كفر بآياتنا ...» آية ٧٧ سورة «مريم» .

وقرئ بهما قوله تعـالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » وقوله : « فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا » . ورَجُل سُخْرَةٌ ، يُسْخَر منه ، وسُخَرة — بفتح الخاء — يَسْخَر من الناس . وفلان سُخْرة يتسخر في العمل ، يقال : خادمه سُخْرة ، وسخّره تسخيرا كلّفه عملا بلا أجرة .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الضحاك : يعني من غير تبعة في الآخرة . وقيل : هو إشارة الى هؤلاء المستضعفين ، أي يرزقهم علق المنزلة ؛ فالآية تنبيه على عظيم النعمة عليهم . وجعـل رزقهم بغير حساب من حيث هو دائم لا يتناهى ، فهو لا ينعدّ . وقيل : إن قوله «بِغَيْرِ حِسَابٍ» صفة لرزق الله تعالى كيف يصرّف ؛ إذ هو جلّت قدرته لا يُنفق بعدّ ؛ ففضله كله بغير حساب ، والذي بحساب ما كان على عملٍ قدّمه العبد ؛ قال الله تعالى : « جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا » . والله أعلم . ويحتمل أن يكون المعنى بغير احتساب من المرزوقين ، كما قال : « وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

قوله تعـالى : كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي على دين واحد . قال أُبَيّ بن كعب وابن زيد : المراد بالناس بنو آدم حين أخرجهم الله نَسَمًا من ظهر آدم فأقرّوا له بالوحدانية . وقال مجاهد : الناس آدم وحده ؛ وسُمّي الواحد بلفظ الجمع لأنه أصل النَّسْل . وقيل : آدم وحوّاء . وقال ابن عباس وقتادة : المراد بالناس القرون التي كانت بين آدم ونوح ، وهي عشرة كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله نوحا فمن بعده . وقال ابن أبي خَيثمة : منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى أن بعث محمدا صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف سنة وثمانمائة سنة . وقيل

أكثر من ذلك، وكان بينه وبين نوح ألف سنة ومائتا سنة . وعاش آدم تسعمائة وستين سنة، وكان الناس فى زمانه أهلَ مِلّة واحدة، متمسكين بالدّين، تصافحهم الملائكة، وداموا على ذلك إلى أن رُفع إدريس عليه السلام فاختلفوا . وهذا فيه نظر؛ لأن إدريس بعد نوح على الصحيح . وقال قوم منهم الكَلْبيّ والواقديّ : المراد نوح ومَن فى السفينة، وكانوا مسلمين ثم بعد وفاة نوح اختلفوا . وقال ابن عباس أيضا : كانوا أُمّة واحدة على الكفر؛ يريد فى مدّة نوح حين بعثه الله . وعنه أيضا : كان الناس على عهد إبراهيم عليه السلام أمة واحدة، كلهـم كفار؛ ووُلِد إبراهيم فى جاهلية فبعث الله إبراهيم وغيره من النبيين . فـ« كان » على هذه الأقوال على بابها من المُضِيّ المنقضى . وكل مَن قدّر الناس فى الآية مؤمنين قدّر فى الكلام فاختلفوا فبعث؛ ودلّ على هذا الحذف «وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ» أى كان الناس على دين الحق فاختلفوا فبعث الله النبيّين، مبشّرين من أطاع ومنذرين من عصى . وكل مَن قدّرهم كفارا كانت بعثة النبيّين إليهم . ويحتمل أن تكون « كان » للثبوت، والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة فى خلوّهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا منّ الله عليهـم وتفضّله بالرسل إليهم؛ فلا يختص « كان » على هذا التأويل بالمضيّ فقط، بل معناه معنى قوله : «وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» .

و « أمّة » مأخوذة من قولهم : أَمَمت كذا، أى قصدته؛ فمعنى «أُمَّة» مقصدهم واحد؛ ويقال للواحد : أُمَّة، أى مقصده غير مقصد الناس؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قُسّ بن ساعدة : "يُحشر يوم القيامة أمّةً وَحْده" . وكذلك قال فى زيد بن عمرو بن نُفيل . والأَمّة القامة، كأنها مقصد سائر البدن . والإمّة (بالكسر) : النعمة؛ لأن الناس يقصدون قصدها . وقيل : إمام، لأن النـاس يقصدون قصد ما يفعل؛ عن النحاس . وقرأ أُبَيّ بن كعب : « كان البشر أمة واحدة » . وقرأ ٱبن مسعود « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث » .

قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ ﴾ وجملتهـم مائة وأربعة وعشرون ألفا، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكورون فى القرآن بالاسم العلم ثمانيـة عشر، وأوّل الرسـل آدم؛

على ما جاء فى حديث أبى ذرّ ، أخرجه الآجُرىّ وأبو حاتم البُسْتىّ . وقيل : نوح ، لحديث الشفاعة ؛ فان الناس يقولون له : أنت أوّل الرسل . وقيل : إدريس ، وسيأتى بيان هـذا فى « الأعراف »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ اسم جنس بمعنى الكتب . وقال الطبرىّ : الألف واللام فى الكتاب للعهـد ، والمراد التوراة . و ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ مسند الى الكتاب فى قول الجمهور؛ وهو نصب بإضمار أن ، أى لأن يحكم، وهو مجاز مثل « هَـذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » . وقيل : أى ليحكم كل نبىّ بكتابه، واذا حكم بالكتاب فكأنما حكَم الكتابُ . وقراءة عاصم الجَحْدَرىّ « لِيُحكم بين النـاس » على ما لم يسمّ فاعله ، وهى قراءة شاذة ؛ لأنه قـد تقدّم ذكر الكتاب . وقيل : المعنى ليحكم الله ، والضمير فى « فيه » عائد على « ما » من قوله « فيما » والضمير فى « فيه » الثانية يحتمل أن يعود على الكتاب، أى وما اختلف فى الكتاب إلا الذين أوتوه . موضع «الذين» رفع بفعلهم . و « أُوتُوهُ » بمعنى أعطوه . وقيل : يعود على المنزّل عليه ؛ وهو محمد صلى الله عليه وسـلم ؛ قاله الزجاج . أى وما آختلف فى النبىّ عليه السـلام إلا الذين أعطوا علمه . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ نصب على المفعول له ، أى لم يختلفوا إلا للبَغْى(٢) ، وقد تقدّم معناه . وفى هذا تنبيه على السَّفَه(٣) فى فعلهم، والقبيح الذى واقعوه . و«هدى» معناه أرشد، أى فهدى الله أمة محمد الى الحق بأن بيّن لهم ما اختلف فيه من كان قبلهم . وقالت طائفة : معنى الآية أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض؛ فهدى الله أمّة محمد للتصديق بجميعها . وقالت طائفة : إن الله هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيـه أهل الكتابين ؛ من قولهم : إن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا . وقال ابن زيد وزيد بن أسْـلم : مِن قِبلتهم؛ فان اليهود الى بيت المقدس ، والنصارى الى المشرق ؛ ومن يوم الجمعة فان النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " هـذا اليوم الذى اختلفوا فيـه فهدانا الله له فلليهود غد وللنصارى بعد غد " ومن صيامهم ، ومن جميع ما اختلفوا فيه . وقال ابن زيد :

(١) عند قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه ... » آية ٥٩

(٢) يراجع ج ٢ ص ٢٨ طبعة ثانية . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « الشنعة » .

واختلفوا فى عيسى فجعلته اليهود لفِرْية، وجعلته النصارى ربًّا؛ فهدى الله المؤمنين بأن جعلوه عبد الله . وقال الفرّاء : هو من المقلوب — واختاره الطبرىّ — قال : وتقديره فهدى الله الذين آمنوا للحق مما اختلفوا فيه . قال ابن عطية : « ودعاه الى هذا التقدير خوف أن يحتمل اللفظ أنهـم اختلفوا فى الحق فهـدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه ، وعساه غير الحق فى نفسه . نحا الى هذا الطبرىّ فى حكايته عن الفرّاء، وآدّعاء القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة تدفع الى ذلك عجز وسوء نظر؛ وذلك أن الكلام يتخرّج على وجهه ووصـفه ، لأن قوله : «فهدى» يقتضى أنهم أصابوا الحق، وتم المعنى فى قوله «فيه» وتبيّن بقوله : «من الحق» إذ جنس ما وقع الخلاف فيه، قال المهدوى : وقدّم لفظ الاختلاف على لفظ الحق اهتماما، العناية إنمـا هى بذكر الاختلاف . قال ابن عطية : وليس هـذا عندى بقوىّ » . وفى قراءة عبد الله بن مسـعود « لمـا اختلفوا عنه من الحق » أى عن الإسـلام . و﴿ بإِذْنِهِ ﴾ قال الزجاج : معناه بعلمه . قال النحاس : وهذا غلط ، والمعنى بأمره ، واذا أذنت فى الشيء فقد أمرت به؛ أى فهدى الله الذين آمنوا بأن أمرهم بمـا يجب أن يستعملوه . وفى قوله : « وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ردّ على المعتزلة فى قولهم : إن العبد يستبدّ بهداية نفســـه .

قوله تعـالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّـةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَـلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُـولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ حسبتم معناه ظننتم . قال قتادة والسدّىّ وأكثر المفسرين : نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدّة، والحرّ والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد؛ وكان كما قال الله تعالى : «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» . وقيل : نزلت فى حرب أُحُد؛ نظيرها — فى آل عمران — « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ » . وقالت فرقة : نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم

وأموالهم بأيدى المشركين ، وآثروا رضا الله ورسوله ، وأظهرت اليهود العـداوة لرسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأسرّ قوم من الأغنياء النفاق ، فأنزل الله تعـالى تطييبا لقلوبهم «أَمْ حَسِبْتُمْ» . و«أم» هنا منقطعة، بمعنى بل ، وحكى بعض اللغويين أنها قد تجىء بمثابة ألف الاستفهام ليبتدأ بها ، و «حسبتم» تطلب مفعولين ، فقال النحاة : «أن تدخلوا» تسدّ مسدّ المفعولين . وقيل : المفعول الثانى محذوف : أحسبتم دخولكم الجنة واقعا . و «لمّـا» بمعنى لم . و « مَثَلُ » معناه شبه ، أى ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا . وحكى النَّضْر بن شُميل(١) أن « مثل » يكون بمعنى صفة ، ويجوز أن يكون المعنى ولمـا يصبكم مثل الذى أصاب الذين من قبلكم ، أى من البلاء . قال وهب(٢) : وجد فيما بين مكة والطائف سبعون نبيًّا موتى ، كان سبب موتهم الجوع والقُمّل ، ونظير هـذه الآية « الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» على ما يأتى ، فاستدعاهم تعالى إلى الصبر ، ووعدهم على ذلك بالنصر فقال : « أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . والزلزلة : شـدّة التحريك ، تكون فى الأشخاص وفى الأحوال ، يقال : زَلْزَلَ الله الأرض زَلْزَلَة وزِلزالا — بالكسر — فتزلزلت إذا تحرّكت واضطربت ، فمعنى « زُلزِلوا » خُوِّفوا وحُرِّكوا . والزَّلزال — بالفتح — الاسم . والزَّلازل : الشـدائد . وقال الزجاج : أصل الزَّلزلة من زَلّ الشيء عن مكانه ، فاذا قلت : زلزلتـه فمعنـاه كررت زلله من مكانه . ومذهب سيبويه أن زلزل رباعىّ كدحرج . وقرأ نافع « حتى يقولُ » بالرفع ، والباقون بالنصب . ومذهب سـيبويه فى « حتى » أن النصب فيما بعدها من جهتين والرفع من جهتين ، تقول : سرت حتى أدخلَ المدينة — بالنصب — على أن السير والدخول جميعا قد مضيا ، أى سرت إلى أن أدخلها ، وهذه غاية ، وعليه قراءة من قرأ بالنصب . والوجه الآخر فى النصب فى غير الآية سرت حتى أدخلَها ، أى كى أدخلهـا . والوجهان فى الرفع سرت حتى أدخلُها ، أى سرت فأدخلها ،

(١) فى بعض نسخ الأصل : « وحكى البصريون » . (٢) يغفر الله لوهب .

وقد مضيا جميعا، أى كنت سرت فدخلت . ولا تعمل حتى ها هنا بإضمار أن، لأن بعدها جملة، كما قال الفرزدق :

* فيَاعَجَبًا حتى كُلَيبٌ تَسُبُّنِى[1] *

قال النحاس : « فعلى هـذا القراءةُ بالرفع أبين وأصح معنى ، أى وزلزلوا حتى الرسـولُ يقولُ، أى حتى هذه حاله ؛ لأن القول إنمـا كان عن الزلزلة غير منقطع منها، والنصب على الغاية ليس فيه هذا المعنى» . والرسول هنا شَعْيَا فى قول مقاتل، وهو اليَسَع . وقال الكلبيّ : هذا فى كل رسول بُعث إلى أمته وأجهد فى ذلك حتى قال : متى نصر الله ؟ . ورُوى عن الضحاك قال : يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم، وعليه يدل نزول الآية، والله أعلم . والوجه الآخر فى غير الآية سرت حتى أدخلُها ، على أن يكون السير قد مضى والدخول الآن . وحكى سيبويه : مرِض حتى لا يَرجونَه ، أى هو الآن لا يُرْجَى ؛ ومثله سرت حتى أدخلُها لا أُمنع . وبالرفع قرأ مجاهد والأعرج وابن مُحَيْصِن وشيبة . وبالنصب قرأ الحسن وأبو جعفر وابن أبى إسحاق وشبل وغيرهم . قال مكيّ : وهو الاختيار، لأن جماعة القراء عليه . وقرأ الأعمش «وزلزلوا ويقول الرسول» بالواو بدل حتى . وفى مصحف ابن مسعود « وزلزلوا ثم زلزلوا ويقول » . وأكثر المتأولين على أن الكلام الى آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين ، أى بلغ الجهد بهم حتى استبطئوا النصر؛ فقال الله تعالى : « أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . ويكون ذلك من قول الرسول على طلب استعجال النصر لا على شك وارتياب . والرسول اسم جنس . وقالت طائفة : فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله ؛ فيقول الرسول : ألَا إن نصر الله قريب ؛ فقدّم الرسول فى الرتبة لمكانته، ثم قدّم قول المؤمنين لأنه المتقدّم فى الزمان . قال ابن عطية : وهذا تحكّم، وحمل الكلام على

---

(١) وتمام البيت : * كأن أباها نَهْشَل أو مُجاشع *
هجا كليب بن يربوع رهط جرير، وجعلهم من الضعة بحيث لا يسابون مثله لشرفه . ونهشل ومجاشع : رهط الفرزدق، وهما ابنا دارم (عن شرح الشواهد) .

وجهه غير متعذر . ويحتمل أن يكون « ألا إن نصر الله قريب » إخبارا من الله تعالى مُؤْتنفا بعد تمام ذكر القول .

قوله تعـالى : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ رُفع بالابتداء على قول سيبويه ، وعلى قول أبى العباس رُفع بفعل، أى متى يقع نصر الله. و«قريب» خبر «إنّ» . قال النحاس : ويجوز فى غير القرآن « قريبا » أى مكانا قريبا . و «قريب» لا تثنّيه العرب ولا تجمعه ولا تؤنّثه فى هذا المعنى؛ قال الله عز وجل : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » . وقال الشاعر (١) :

له الويلُ إن أمسى ولا أُمُّ هاشمٍ * قريب ولا بَسْباسةُ بْنــةُ يَشْكُرَا

فإن قلت : فلان قريب لى ثنيت وجمعت؛ فقلت : قريبون وأقرباء وقرباء .

قوله تعـالى : يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ ﴾ إن خفّفت الهمزة ألقيت حركتها على السـين ففتحتها وحذفت الهمزة فقلت : يَسَـلونك . ونزلت الآية فى عمرو بن الجَمُوح ، وكان شيخا كبيرا فقال : يارسول الله إن مالى كثير، فبماذا أتصدّق، وعلى من أنفق؟ فنزلت « يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » .

الثانيـــة ــ قوله تعالى: ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ «ما» فى موضع رفع بالابتداء، «وذا» الخبر، وهو بمعنى الذى، وحذفت الهاء لطول الاسم ، أى ما الذى ينفقونه؛ وإن شئت كانت « ما » فى موضع نصب بـ«ينفقون» و«ذا» مع «ما» بمنزلة شىء واحد ولا يحتاج الى ضمير، ومتى كانت اسما مركبا فهى فى موضع نصب؛ إلا ما جاء فى قول الشاعر :

(١) هو امرؤ القيس؛ كما فى ديوانه .

وماذا عسى الواشون أن يتحدّثوا * سوى أن يقولوا إنني لك عاشــق

فإن «عسى» لا تعمل فيه؛ فـ«ماذا» في موضع رفع وهو مركب؛ إذ لا صلة لـ«ذا».

الثالثـــة — قيل : إن السائلين هم المؤمنون، والمعنى يسألونك ما هي الوجوه التي ينفقون فيها، وأين يضعون ما لزم إنفاقه. قال السُّدِّي : نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة ثم نسختها الزكاة المفروضة. قال ابن عطية : ووَهِم المهدويّ على السدّي في هـذا؛ فنسب إليه أنه قال : إن الآية في الزكاة المفروضة ثم نسخ منها الوالدان. وقال ابن جُريج وغيره : هي ندب، والزكاة غير هذا الانفاق؛ فعلى هذا لا نسخ فيها، وهي مبيّنة لمصارف صـدقة التطوّع؛ فواجب على الرجل الغنيّ أن ينفق على أبويه المحتاجين ما يصلحهما في قدر حالهما من حاله، من طعام وكُسوة وغير ذلك. قال مالك : ليس عليه أن يزوّج أباه، وعليه أن ينفق على آمرأة أبيـه؛ كانت أمّه أو أجنبية، وإنما قال مالك : ليس عليـه أن يزوّج أباه لأنه رآه يستغني عن التزويج غالبا، ولو احتاج حاجة ماسة لوجب أن يزوّجه؛ لولا ذلك لم يوجب عليـه أن ينفق عليهما. فأما ما يتعلق بالعبادات من الأموال فليس عليـه أن يعطيه ما يحج به أو يغزو؛ وعليه أن يخرج عنه صدقة الفطر؛ لأنها مستحقة بالنفقة والإسلام.

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم ﴾ «ما» في موضع نصب بـ«أنفقتم» وكذا «وما تنفقوا» وهو شرط والجواب «فللوالدين»، وكذا «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ» شرط، وجوابه «فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» وقد مضى القول في اليتيم والمسكين وابن السبيل (١). ونظير هذه الآية قوله تعالى : «فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ». وقرأ عليّ بن أبي طالب «يفعلوا» بالياء على ذكر الغائب، وظاهر الآية الخبر، وهي تتضمن الوعد بالمجازاة.

قوله تعـالى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

(١) تراجع المسئلة الخامسة وما بعدها جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ ﴾ معناه فرض ، وقد تقدّم مثله[1] . وقرأ قوم « كَتَبَ عليكم القتلَ » ، وقال الشاعر[2] :

كُتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جرّ الذّيول

هذا هو فرض الجهاد ، بيّن سبحانه أن هذا مما امتُحِنوا به وجُعِل وُصْلة إلى الجنة . والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار ، وهذا كان معلوما لهم بقرائن الأحوال ، ولم يؤذن للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى القتال مدّة إقامته بمكة ، فلما هاجر أُذن له فى قتال من يقاتله من المشركين فقال : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا » ثم أُذن له فى قتال المشركين عامة . واختلفوا مَن المراد بهذه الآية ، فقيل : أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان القتال مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فرض عَيْن عليهم ، فلما استقرّ الشرع صار على الكفاية ، قاله عطاء والأوزاعيّ . قال ابن جُريج : قلت لعطاء : أواجب الغزو على الناس فى هذه الآية ؟ فقال : لا ، إنما كُتب على أولئك . وقال الجمهور من الأمة : أوّل فَرضه إنما كان على الكفاية دون تعيين ، غير أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا استنفرهم تعيّن عليهم النَّفير لوجوب طاعته . وقال سعيد بن المسيب : إن الجهاد فرض على كل مسلم فى عينه أبدا ، حكاه الماورديّ . قال ابن عطية : والذى استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد صلى الله عليه وسلم فرض كفاية ، فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين ، إلا أن ينزل العدوّ بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عَين ، وسيأتى هذا مبيّنا فى سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وذكر المهدويّ وغيره عن الثوريّ أنه قال : الجهاد تطوّع . قال ابن عطية : وهذه العبارة عندى إنما هى على سؤال سائل وقد قيم بالجهاد ، فقيل له : ذلك تطوّع .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر ، وهو كره فى الطباع . قال ابن عرفة : الكُرْه المشقة ، والكَره — بالفتح — ما أُكرهتَ عليه ، هذا هو الاختيار ،

(١) تراجع المسئلة الثانية جـ ٢ ص ٢٤٤ طبعة ثانية .
(٢) هو عمر بن أبى ربيعة .

و يجوز الضم فى معنى الفتح فيكونان لغتين؛ يقال: كرِهت الشيء كَرْها وكُرْها وكَراهة وكَراهية، وأكرهته عليه إكراها . وإنما كان الجهاد كرها لأن فيه إخراج المـال ومفارقة الوطن والأهل، والتعرّض بالجسد للشِّجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس؛ فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى . وقال عكرمة فى هذه الآية : إنهم كَرِهوه ثم أحبوه وقالوا : سمعنا وأطعنا ؛ وهذا لأن امتثال الأمر يتضمن مشقة، لكن اذا عُرِف الثواب هان فى جنبه مُقاساة المشقات .

قلت : ومثاله فى الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه ؛ كقطع عضــو وقلع ضرس وفَصدٍ وحِجامةٍ ٱبتغاءَ العافية ودوام الصحة ، ولا نعيم أفضل من الحيـاة الدائمة فى دار الخلد والكرامة فى مقعد صدقٍ .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ قيل : «عسى» بمعنى قد؛ قاله الأصم . وقيل: هى واجبة . و«عسى» من الله واجبة فى جميع القرآن إلا قوله تعالى : «عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ» . وقال أبو عبيـدة : «عسى» من الله إيجاب ، والمعنى عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشــقة وهو خير لكم فى أنكم تَغلبون وتَظفرون وتَغنَمون وتُؤجَرون ، ومن مات مات شهيدا ، وعسى أن تحبوا الدَّعة وترك القتــال وهو شرّ لكم فى أنكم تُغلبون وتُذلون ويذهب أمركم .

قلت : وهذا صحيح لا غبار عليه ؛ كما اتفق فى بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وجَبُنُوا عن القتال وأكثروا من الفرار؛ فاســتولى العدوّ على البلاد ، وأىّ بلاد ! ؟ وأَسَر وقَتَــل وسَبَى واسترقّ ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون ! ذلك بمـا قدمت أيدينا وكسبته ! وقال الحسن فى معنى الآية : لا تكرهوا الملمّات الواقعة؛ فلَرُبّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، ولَرُبّ أمر تحبّه فيه عَطَبك؛ وأنشد أبو سعيد الضّرير :

رُبَّ أمرٍ تتّقيـــه * جَرّ أمرًا ترتَضيــه
خَفِىَ المحبوبُ منه * وبَدَا المكروه فيــه

قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)

فيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ تقدّم القول فيه (١) . وروى جرير بن عبد الحميد ومحمد بن فُضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة كلهنّ في القرآن : «يسألونك عن المحيض» ، «يسألونك عن الشهر الحرام» ، «يسألونك عن اليتامى» ؛ ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم . قال ابن عبد البر : ليس في الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث . وروى أبو اليسار عن جندب بن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الحارث أو عبيدة بن الحارث ؛ فلما ذهب لينطلق بكى صبابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبعث عبدَ الله بن جَحش ، وكتب له كتابا وأمره ألّا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال : ولا تكرهنّ أصحابك على المسير ؛ فلما بلغ المكان قرأ الكتاب فاسترجع وقال : سمعاً وطاعةً لله ولرسوله ، قال : فرجع رجلان ومضى بقيتهم ، فلقوا ابن الحَضْرَميّ فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب ؛ فقال المشركون : قتلتم في الشهر الحرام ؛ فأنزل الله تعالى : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ» الآية . ورُوى أن سبب نزولها أن رجلين من بنى كِلاب لقيا عمرو بن أُميّة الضَّمْرِيّ وهو لا يعلم أنهما كانا عند النبيّ صلى الله عليه

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الجزء .

وسلم وذلك فى أوّل يوم من رجب فقتلهما؛ فقالت قريش : قتلهما فى الشهر الحرام؛ فنزلت الآية . والقول بأن نزولها فى قصة عبد الله بن جحش أكثر وأشهر، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه مع تسعة رَهْط، وقيل ثمانية، فى جمادى الآخرة قبل بَدْر بشهرين، وقيل فى رجب . قال أبو عمر — فى كتاب الدرر له — : ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب كُرْز ابن جابر — وتُعرف تلك الخرجة ببدر الأولى — أقام بالمدينة بقية جمادى الآخرة ورجب، و بعث فى رجب عبد الله بن جحش بن رِئاب الأسدى ومعه ثمانية رجال من المهاجرين، وهم أبو حذيفة بن عُتبة، وعُكّاشة بن مِحْصَن، وعُتْبة بن غَزْوان، وسُهيل بن بَيْضاء الفهرىّ، وسعد بن أبى وَقّاص، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبد الله التميمى، وخالد بن بُكَير الليثىّ . وكتب لعبد الله بن جحش كتابا، وأمره ألّا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه [فيمضى لمَا أمره به](١) ولا يَسْتَكْرِه أحدا من أصحابه، وكان أميرهم، ففعل عبد الله بن جحش ما أمره به؛ فلما فتح الكتاب وقرأه وجد فيه : «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نَخْلة بين مكة والطّائف فترصَّدْ بها قريشا، وتعلّمْ لنا من أخبارهم» . فلما قرأ الكتاب قال : سمعًا وطاعةً؛ ثم أخبر أصحابه بذلك، و بأنه لا يستكره أحدا منهم، وأنه ناهضٌ لوجهه بمن أطاعه، وأنه إن لم يطعه أحد مضى وَحْدَه؛ فمن أحبّ الشهادة فلْيَنْهَض، ومن كره الموت فليرجع . فقالوا : كلنا نرغب فيما ترغب فيه، وما مِنّا أحدٌ إلا وهو سامعٌ مطيعٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ونهضوا معه؛ فسلك على الحجاز، وشَرَد لسعد بن أبى وَقّاص وعتبة بن غَزْوان جمل كانا يعتقبانه فتخلفا فى طلبه، ونَفَذ عبد الله بن جحش مع سائرهم لوجهه حتى نزل بنخلة؛ فمرّت بهم عِير لقريش تحمل زبيبا وتجارة فيها عمرو بن الحضرمىّ — واسم الحضرمىّ عبد الله بن عبّاد من الصَّدِف، والصّدِف بطن من حضرموت — وعثمانُ بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل ابن عبد الله بن المغيرة المخزوميّان، والحكمُ بن كَيْسان مولى بنى المغيرة؛ فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام؛ فإن نحن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام، وإن

(١) زيادة عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى . راجع سرية عبد الله بن جحش .

تركاهم الليــلة دخلوا الحرَم ؛ ثم اتفقوا على لقائهم ، فرمى واقدُ بن عبــد الله التميمىّ عمرَو بن الحضرمىّ فقتله ، وأسروا عثمان بن عبد الله والحَكَم بن كَيْسان ، وأفْلَتَ نوفلُ بن عبد الله ؛ ثم قدموا بالعير والأسيرَين ، وقال لهم عبــد الله بن جحش : اعزلوا ممـا غنِمْنا الخُمُسَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلوا ؛ فكان أوّل خُمُس فى الإسلام ، ثم نزل القرآنــ : «وَٱعْلَمُوا أَنَّمَـا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَــهُ» فأقرّ الله و رسولُه فعلَ عبــد الله بن جحش و رضيه وسـنّه للأمة الى يوم القيامة ؛ وهى أوّل غَنيمة غُنمت فى الإسلام ، وأوّل أمير ، وعمرو بن الحضرمىّ أوّل قتيل . وأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلَ آبن الحضرمىّ فى الشهر الحرام ، فسُقط فى أيدى القوم ؛ فأنزل الله عز وجل : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ » الى قوله : « هُمْ فيها خَالِدُونَ » . وقبِل رسول الله صلى الله عليه وسلم الفِداء فى الأسيرين ؛ فأما عثمان بن عبد الله فمات بمكة كافرا ، وأما الحَكَم بن كَيْسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آستُشهد ببئر مَعُونَة ، ورجع سعد وعتبة الى المدينة سالمين . وقيل : إن انطلاق ســعد ابن أبى وَقّاص وعتبة فى طلب بعيرهما كان عن إذْنٍ من عبــد الله بن جحش ، و إن عمرو بن الحَضْرمىّ وأصحابه لمـا رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم هابوهم ؛ فقال عبــد الله ابن جحش : إن القــوم قد فزِعوا منكم ، فآحلِقوا رأس رجل منكم فليتعرّض لهم ، فاذا رأوه محلوقا أمنوا وقالوا : قوم عُمّــار لا بأس عليكم ، وتشاوروا فى قتالهم ، الحــديث . وتفاءلت اليهود وقالوا : واقدٌ وقَدَتِ الحربُ ، وعَمْرو عمرت الحربُ ، والحضرمىّ حضرت الحربُ . و بعث أهل مكة فى فداء أسيريهم ؛ فقال : لانُفدهم حتى يَقْدَم ســعدٌ وعتبة ، وإن لم يَقْدَما قتلنــاهما بهما ؛ فلما قَدِما فاداهما ؛ فأما الحَكَم فأســلم وأقام بالمدينــة حتى قُتل يوم بئر مَعُونَة شهيدا ، وأما عثمان فرجع الى مكة فمات بها كافرا ، وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخَنْدق على المسلمين فوقع فى الخندق مع فرسه فتحطّما جميعا فقتله الله تعالى ؛ وطلب المشركون جِيفته بالثمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذوه فانه خبيث الجيفة خبيث الدّية" ؛ فهذا سبب نزول قوله تعالى : «يسألونك عن الشهرِ الحرامِ» . وذكر ابن إسحاق أن قتل

عمرو بن الحضرمي كان في آخر يوم من رجب؛ على ما تقدّم. وذكر الطبري عن السُّدّي وغيره أن ذلك كان في آخر يوم من جمادى الآخرة، والأوّل أشهر؛ على أن ابن عباس قد ورد عنه أن ذلك كان في أوّل ليلة من رجب، والمسلمون يظنونها من جمادى. قال ابن عطية: وذكر الصاحب بن عَبّاد في رسالته المعروفة بالأسدية أن عبد الله بن جحش سُمِّيَ أمير المؤمنين في ذلك الوقت لكونه مؤمَّرا على جماعة من المؤمنين.

الثانيــة — واختلف العلماء في نسخ هذه الآية؛ فالجمهور على نسخها، وأن قتال المشركين في الأشهر الحُرُم مباح. واختلفوا في ناسخها؛ فقال الزهري: نسخها «وقاتلوا المشركين كافّة». وقيل: نسخها غَزْوُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ثَقِيفًا في الشهر الحرام، وإغزاؤه أبا عامر (١) إلى أَوْطَاس (٢) في الشهر الحرام. وقيل: نسخها بيعة الرِّضوان على القتال في ذي القعدة، وهذا ضعيف؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما بلغه قتل عثمان بمكة وأنهم عازمون على حربه بايع حينئذ المسلمين على دفعهم لا على الابتداء بقتالهم. وذكر البيهقيّ عن عروة بن الزبير من غير حديث محمد بن إسحاق في أثر قصة الحضرميّ: فأنزل الله عز وجل: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ» الآية قال: فحدّثهم الله في كتابه أن القتال في الشهر الحرام حرام كما كان، وأن الذي يستحلّون من المؤمنين هو أكبر من ذلك من صدّهم عن سبيل الله حين يسجنونهم ويعذبونهم ويحبسونهم (٣) أن يهاجروا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكفرهم بالله وصدّهم المسلمين عن المسجد الحرام في الحج والعُمْرة والصلاة فيه، وإخراجهم أهل المسجد الحرام وهم سُكّانه من المسلمين، وفتنتهم إيّاهم عن الدِّين؛ فبلغنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عَقَل (٤) ابنَ الحَضْرَميّ وحرّم الشهر الحرام كما كان يحرّمه، حتى أنزل الله عز وجل: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ». وكان عطاء يقول: الآية مُحْكَمَة، ولا يجوز القتال في الأشهر الحُرُم، ويحلف على ذلك؛ لأن الآيات التي وردت بعدها عامة في الأزمنة، وهذا

(١) هو أبو عامر الأشعري، ابن عم أبي موسى الأشعري.
(٢) أوطاس: واد في ديار هوازن، وفيه كانت وقعة حنين. راجع طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام في غزوة حنين.
(٣) في بعض النسخ: «يستحبونهم». (٤) عقل القتيل: أعطى ورثته ديته بعد قتله.

خاص والعام لا ينسخ الخاص باتفاق . وروى أبو الزبير عن جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى[1] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ «قتال» بدل عند سيبويه بدل اشتمال، لأن السؤال اشتمل على الشهر وعلى القتال ؛ أى يسألك الكفار تعجّباً من هتك حُرْمة الشهر، فسؤالهم عن الشهر إنما كان لأجل القتال فيه . قال الزجاج : المعنى يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام . وقال القُتَبىّ : يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام هل يجوز؟ فأبدل قتالا من الشهر؛ وأنشد سيبويه :

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ * ولكنه بُنيانُ قومٍ تهدّما[2]

وقرأ عكرمة «يسألونك عن الشهر الحرام قتلٍ فيه قل قتلٌ» بغير ألف فيهما . وقيل : المعنى يسألونك عن الشهر الحرام وعن قتال فيه ؛ وهكذا قرأ ابن مسعود ؛ فيكون مخفوضا بعن على التكرير، قاله الكسائىّ . وقال الفرّاء : هو مخفوض على نية عن . وقال أبو عبيدة : هو مخفوض على الجوار . قال النحاس : لا يجوز أن يُعربَ الشيء على الجوار فى كتاب الله ولا فى شيء من الكلام، وإنما الجوار غلط؛ وإنما وقع فى شيء شاذّ، وهو قولهم : هذا جُحر ضَبٍّ خَرِبٍ؛ والدليل على أنه غلط قول العرب فى التّثنية : هذان جحرا ضَبٍّ خربان، وإنما هذا بمنزلة الإقواء، ولا يجوز أن يحمل شيء من كتاب الله على هذا، ولا يكون إلا بأفصح اللغات وأصحها . قال ابن عطية : وقال أبو عبيدة : هو خفض على الجوار؛ وقوله هذا خطأ . قال النحاس : ولا يجوز إضمار عن؛ والقول فيه أنه بدل . وقرأ الأعرج «يسألونك عن الشهر الحرام قتالٌ فيه» بالرفع . قال النحاس : وهو غامض فى العربية، والمعنى فيه يسألونك عن الشهر الحرام أجائز قتال فيه؟ فقوله : «يسألونك» يدل على الاستفهام؛ كما قال امرؤ القيس :

---

(١) كذا فى تفسير الفخر الرازى وكثير من كتب التفسير وفى الأصول : «إلا أن يغزى أو يغزوا» . وفى الطبرى : «إلا أن يغزى أو يغزو حتى اذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ» .

(٢) البيت لعبدة بن الطبيب، رثى فيه قيس بن عاصم المنقرى، وكان سيد أهل الوبر من تميم . (عن كتاب سيبويه ج ١ ص ٧٧ طبع بولاق) .

أَصَاحِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَــه * كَلَمْــعِ اليَــدَيْنِ فى حَبِىٍّ مُكَلَّلِ (١)

والمعنى : أترى برقا، فحذف ألف الاستفهام ؛ لأن الألف التى فى «أصاح» تدل عليها و إن كانت حرف نداء؛ كما قال الشاعر :

* تَرُوحُ من الحىِّ أم تَبْتَكِرْ *

والمعنى : أتروح، فحذف الألف لأن أم تدل عليها .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ ابتداء وخبر، أى مستنكر ؛ لأن تحريم القتال فى الشهر الحرام كان ثابتا يومئذ إذ كان الابتـداء من المسلمين . والشهر فى الآية اسم جنس ، وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قواما تعتدل عنده ، فكانت لا تسفك دما ، ولا تُغير فى الأشهر الحُرُم ، وهى رجب وذو القَعدة وذو الحجة والمحرّم ؛ ثلاثة سَرْد (٢) وواحد فَرْد . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «المـائدة» إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ابتداء ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ عطف على «صدّ» ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ عطف على سبيل الله ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ﴾ عطف على صدّ ، وخبر الابتداء ﴿ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى أعظم إثما من القتال فى الشهر الحرام ؛ قاله المبرّد وغيره . وهو الصحيح ، لطول منع النـاس عن الكعبة أن يطاف بهـا . ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ أى بالله ، وقيـل : «وكفر به» أى بالحج والمسجد الحرام . «وإخراج أهله منه أكبر» أى أعظم عقوبة عند الله من القتال فى الشهر الحرام . وقال الفرّاء : «صدّ» عطف على «كبير» . «والمسجد» عطف على الهاء فى به ؛ فيكون الكلام نسقا متصلا غير منقطع . قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأن المعـنى يسوق الى أن قوله : «وكفر به» أى بالله عطف أيضا على «كبير» . ويجىء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله وهذا بيّن فساده . ومعنى الآية على قول الجمهور :

---

(١) الوميض : لمع البرق . قوله : كلمع اليدين . أراد كحركة اليدين وتقليبهما . والحبى : ما ارتفع من السحاب . وقيل : هو الذى يعترض اعتراض الجبـل قبل أن يطبق السماء . والمكلل من السحاب : الملمع بالبرق . ويقال : هو الذى حوله قطع من السحاب .   (٢) الثلاثة السرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والسرد التتابع . والواحد الفرد : رجب ؛ وصار فردا لأنه يأتى بعده شعبان وشهر رمضان وشوّال .

إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله وإخراجكم أهلَ المسجد منه؛ كما فعلتم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر جُرْماً عند الله . وقال عبد الله بن جَحْش رضى الله عنه :

تَعُدُّون قتلاً فى الحرام عظيمةً * وأعظمُ منه لو يَرَى الرُّشدَ راشدُ
صُدودُكُمُ عما يقول محمّدٌ * وكُفْرٌ به واللهُ راءٍ وشاهدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهلَه * لئلا يُرَى لله فى البيت ساجدُ
فإنّا وإنْ عيّرتمونا بقتْله * وأرجفَ بالاسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنا من آبنِ الحَضْرَمىّ رماحَنا * بنَخْلَةَ لمّا أوْقَدَ الحربَ واقدُ
دَمًا وآبنُ عبد الله عثمانُ بيننا * يُنازعه غُلٌّ من القِدّ عاندُ

وقال الزهرىّ ومجاهد وغيرهما : قوله تعالى : « قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ » منسوخ بقوله : « وقاتلوا المشركين كافة » وبقوله : « اقتلوا المشركين » . وقال عطاء : لم ينسخ، ولا ينبغى القتال فى الأشهر الحرم؛ وقد تقدّم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ قال مجاهد وغيره : الفتنة هنا الكفر، أى كفركم أكبر من قتلنا أولئك . وقال الجمهور : معنى الفتنة هنا فتنتهم المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا، أى أن ذلك أشد اجتراما من قتلكم فى الشهر الحرام .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ ابتداء وخبر من الله تعالى، وتحذير منه للؤمنين من شرّ الكفرة . قال مجاهد : يعنى كفار قريش . و«يردوكم» نصب بحتى؛ لأنها غاية مجرّدة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ ﴾ أى يرجع من الإسلام الى الكفر ﴿ فأولَئِكَ حَبِطَتْ ﴾ أى بطلت وفسدت؛ ومنه الحَبَط وهو فساد يلحق المواشى فى بطونها من كثرة أكلها الكلأ فتنتفخ أجوافها، وربّما تموت من ذلك؛ فالآية تهديد للسلمين ليثبتوا على دين الإسلام .

التاســـعة — واختلاف العلماء فى المرتدّ هل يستتاب أم لا؟ وهل يحبط عمله بنفس الرّدة أم لا، إلا على الموافاة على الكفر ؟ وهل يورث أم لا ؟ فهذه ثلاث مسائل :

الأولى — قالت طائفة : يُستتاب، فإن تاب و إلا قُتل . وقال بعضهم : ساعة واحدة . وقال آخرون : يستتاب شهرا . وقال آخرون : يستتاب ثلاثا، على ما رُوى عن عمر وعثمان، وهو قول مالك رواه عنه ابن القاسم . وقال الحسن : يُستتاب مائة مرة، وقد رُوى عنه أنه يقتل دون استتابة، و به قال الشافعىّ فى أحد قوليه ، وهوأحدقولى طاوس وعُبيد بن عُمير . وذكر سُحْنون أن عبد العزيز بن أبى سَلَمة الماجِشُون كان يقول : يقتل المرتد ولا يستتاب؛ واحتج بحديث معاذ وأبى موسى ، وفيـه : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا بعث أبا موسى الى اليمن أتبعه معاذَ بن جبل فلمـا قدِم عليـه قال : انزل، وألقى اليـه وسادة، و إذا رجل عنده مُوثَق، قال : ما هذا ؟ قال : هذا كان يهوديا فأسلم ثم راجع دينه دين السَّوء فتهوّد . قال : لا أجلس حتى يُقتل، قضاءُ الله و رسوله؛ فقال : اجلس . قال : [نعم](1) لا أجلس حتى يُقتل، قضاءُ الله ورسولِه — ثلاث مرات — فأمَر به فقُتل؛ خرّجه مسلم وغيره . وذكر أبو يوسف عن أبى حنيفة أن المرتدّ يُعرض عليه الإسـلام فان أسـلم وإلا قُتل مكانه، إلا أن يطلب أن يُؤجَّل، فإن طلب ذلك أُجِّل ثلاثة أيام؛ والمشهور عنـه وعن أصحابه أن المرتدّ لا يقتل حتى يستتاب . والزنديق عندهم والمرتدّ سـواء . وقال مالك : وتقتل الزنادقة ولا يستتابون . وقد مضى هذا أوّل «البقرة»(2) . واختلفوا فيمن خرج من كفر الى كفر؛ فقال مالك وجمهور الفقهاء : لا يُتعرض له؛ لأنه انتقل الى مالو كان عليـه فى الابتداء لأُقِرّ عليه . وحكى ابن عبد الحكم عن الشافعىّ أنه يقتل؛ لقوله عليه السـلام : ” من بدّل دينه فاقتلوه“ ولم يخص مسلما من كافر . وقال مالك : معنى الحديث من خرج من الإسلام الى الكفر، وأمّا مَن خرج من كفر الى كفر فلم يُعن بهذا الحديث؛ وهو قول جماعة من الفقهاء . والمشهور عن الشافعىّ ما ذكره المُزَنِىّ والربيع أن المبدِّل لدينـه من أهل الذِّمة يُلحقه الإمام

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية وثالثة .

بأرض الحرب ويُخرجه من بلده ويستحلّ ماله مع أموال الحربيين إن غلب على الدار ؛ لأنه انما جُعل له الذّمة على الدّين الذى كان عليه فى حين عقد العهد . واختلفوا فى المرتدّة؛ فقال مالك والأوزاعيّ والشافعيّ والليث بن سعد : تُقتل كما يُقتل المرتدّ ســواء ؛ وحجتهم ظاهر الحديث : "من بدّل دينه فآقتلوه". و «مَن» يصلح للذّكر والأنثى . وقال الثوريّ وأبو حنيفة وأصحابه : لا تُقتل المرتدّة؛ وهو قول آبن شُــبْرُمَة، واليه ذهب ابن عُلَيّــة ، وهو قول عطاء والحسن . واحتجوا بأن ابن عباس روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من بدّل دينه فآقتلوه" ثم إن ابن عباس لم يَقتل المرتدّة، ومن روى حديثا كان أعلم بتأويله ؛ ورُوى عن عليّ مثله . ونَهى صلى الله عليه وســلم عن قتل النساء والصبيان . واحتج الأوّلون بقوله عليه السلام: "لا يحل دم آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمــان ..." فعمّ كل مَن كفر بعد إيمانه؛ وهو أصح .

العاشرة — قال الشافعيّ : إن من آرتدّ ثم عاد الى الاسلام لم يحبط عمله ولا حَجّه الذى فرغ منه؛ بل إنــ مات على الرّدة فحينئذ تَحبط أعماله . وقال مالك : تحبط بنفس الرّدة؛ ويظهر الخلاف فى المسلم اذا حج ثم ارتدّ ثم أســلم ؛ فقال مالك : يلزمه الحج ، لأن الأوّل قد حبط بالرّدة . وقال الشافعيّ : لا إعادة عليه، لأن عمله باق . واستظهر علماؤنا بقوله تعالى : «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» . قالوا : وهو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ لأنه عليه السلام يستحيل منــه الرّدة شرعا . وقال أصحاب الشافعيّ : بل هو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وســلم على طريق التغليظ على الأمّة ، وبيان أن النبيّ صلى الله عليه وســلم على شرف منزلته لو أشرك لحبط عمله ؛ فكيف أنتم ! لكنه لا يشرك لفضل مرتبته ؛ كما قال : «يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» وذلك لشرف منزلتهنّ ؛ وإلا فلا يتصوّر إتيــانٌ منهنّ صيانة لزوجهنّ المُكرّم المُعَظّم ؛ ابن العربى . وقال علماؤنا : إنما ذكر الله الموافاة شرطا ها هنا لأنه علّق عليها الخلود فى النار جزاء؛ فمن وَافى على الكفر خلّده الله فى النار بهــذه الآية ، ومن أشرك حَبط عمــله بالآية الأخرى ، فهما آيتان

مفيدتان لمعنيين وحكمين متغايرين . وما خوطب به عليه السلام فهو لأمته حتى يثبت اختصاصه، وما ورد في أزواجه فإنما قيل ذلك فيهن ليبين أنه لو تصور لكان هتكان أحدهما لحرمة الدين والثاني لحرمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل هتك حرمة عقاب ؛ وينزل ذلك منزلة من عصى في الشهر الحرام أو في البلد الحرام أو في المسجد الحرام ، يضاعف عليه العذاب بعدد ما هتك من الحرمات . والله أعلم .

الحادية عشرة — وهي اختلاف العلماء في ميراث المرتد ؛ فقال علي بن أبي طالب والحسن والشعبي والحكم والليث وأبو حنيفة وإسحاق بن راهويه : ميراث المرتد لورثته من المسلمين . وقال مالك وربيعة وابن أبي ليلى والشافعي وأبو ثور : ميراثه في بيت المال . وقال ابن شبرمة وأبو يوسف ومحمد والأوزاعي في إحدى الروايتين : ما اكتسبه المرتد بعد الردة فهو لورثته المسلمين . وقال أبو حنيفة : ما اكتسبه المرتد في حال الردة فهو فيء ، وما كان مكتسبا في حالة الاسلام ثم ارتد يرثه ورثته المسلمون ؛ وأما ابن شبرمة وأبو يوسف ومحمد فلا يفصلون بين الأمرين ؛ ومطلق قوله عليه السلام : " لا وراثة بين أهل ملتين " يدل على بطلان قولهم . وأجمعوا على أن ورثته من الكفار لا يرثونه، سوى عمر بن عبد العزيز فانه قال : يرثونه .

الثانية عشرة (1) — قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

قال جندب بن عبد الله وعروة بن الزبير وغيرهما : لما قتل واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام توقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أخذ خمسه الذي وفق في فرضه له عبد الله بن جحش وفي الأسيرين فعنف المسلمون عبد الله بن جحش وأصحابه حتى شق ذلك عليهم فتلافاهم الله عز وجل بهذه الآية في الشهر الحرام وفرج عنهم ، وأخبر أن لهم ثواب من هاجر وغزا، فالإشارة إليهم في قوله : «إن الذين آمنوا» . ثم هي باقية في كل

(1) يلاحظ أن هذه المسألة من تتمة مسائل الآية السابقة .

من فصل ما ذكره الله عز وجل . وقيل : أن(١) لم يكونوا أصابوا وِزْرًا فليس لهم أجر؛ فأنزل الله « إن الذين آمنوا والذين هاجروا » الى آخر الآية .

والهِجْرة معناها الإنتقال من موضع الى موضع، وقصدُ تركِ الأوّل إيثارا للثانى . والهَجْر ضدّ الوصل . وقد هَجَره هَجْرا وهِجرانا، والاسم الهِجْرة . والمهاجرة من أرض الى أرض تركُ الأولى للثانية . والتَّهاجُر التّقاطع . ومن قال : المهاجرة الانتقال من البادية الى الحاضرة فقد أوهم؛ بسبب أن ذلك كان الأغلب فى العرب، وليس أهل مكة مهاجرين على قوله .

« وجاهد » مفاعلة من جَهَد اذا استخرج الجهد؛ مجاهدة وجهادا . والاجتهاد والتجاهد : بذل الوسع والمجهود . والجَهاد (بالفتح) : الأرض الصُّلبة . و « يرجون » معناه يطمعون ويستقربون . وإنما قال : « يرجون » وقد مدحهم لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر الى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كلَّ مبلغ، لأمرين : أحدهما — لا يدرى بما يُختم له . والثانى — لئلا يتّكل على عمله . والرجاء تنعم، والرجاء أبدا معه خوف ولا بُدّ، كما أن الخوف معه رجاء . والرجاء من الأمل ممدود؛ يقال : رَجَوت فلانا رَجْوا ورَجاء ورَجاوة، يقال : ما أتيتك إلا رَجَاوَةَ الخير . وترجّيته وٱرْتَجيته ورَجّيته وكله بمعنى رَجَوته، قال بِشْرٌ يخاطب بنته :

فَرَجِّى ٱلخيرَ وٱنتظِرِى إيابِى * إذا ما القارِظُ العَـنَزِى آبَا

ومالِى فى فلان رَجِيّة، أى ما أرجو . وقد يكون الرَّجْو والرجاء بمعنى الخوف، قال الله تعالى : « مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَارًا » أى لا تخافون عظمةَ الله؛ قال أبو ذؤيب :

إذا لسعته النّحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها * وخالفها(٢) فى بَيت نُوبٍ عواملِ

أى لم يَخَفْ ولم يُبالِ . والرجا — مقصور — : ناحية البئر وحافتاها، وكل ناحيةٍ رَجًا . والعَوَامّ من الناس يخطئون فى قولهم : يا عظيمَ الرّجَا؛ فيَقْصُرون ولا يمدّون .

(١) يريد أن المسلمين وأهل السرية لما فرّج الله عنهم ما كانوا فيه من أمر قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام بانزال قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام » الآية ، ظنوا أنه إنما نفى عنهم الإثم فقط ولا أجر لهم فطمعوا فيه فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ وفى رواية : أن لم يكونوا أصابوا وزرا فلا أجر لهم ؟ فأنزل الله قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا » الآية فوضعهم الله فى ذلك على أعظم رجاء .

(٢) خالفها (بالخاء المعجمة) : خالفها الى عسلها وهى غائبة قد سرحت ترعى . ويروى : « حالفها » بالحاء المهملة، أى لازمها . والنوب : النحل، وهو جمع نائب؛ لأنها ترعى ثم تنوب الى موضعها .

قوله تعـالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

قوله تعالى : « يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » . فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ »[1] السائلون هم المؤمنون ، كما تقدّم . والخمر مأخوذة من خَمَر اذا ستر ، ومنه خِمار المرأة . وكلُّ شيء غطّى شيئا فقد خَمَره ، ومنه "خَمِّرُوا آنيتكم". فالخمر تَخْمُر العقلَ ، أي تُغطّيه وتستره ، ومن ذلك الشجر الملتف يقال له : الخَمَر (بفتح الميم) لأنه يغطّي ما تحته ويستره ، يقال منه : أَخْمَرتِ الأرض كثُر خَمَرُها ، قال الشاعر :

ألَا يا زيدُ والضّحاكَ سِيرَا ✻ فقد جاوزتما خَمَر الطَّريق

أي سيرَا مُدِلّين فقد جاوزتما الوَهْدة التي يستتر بها الذّئبُ وغيرُه . وقال العجّاج يصف جيشا يمشي برايات وجيوش غير مستخْفٍ :

في لامع العِقْبان لا يمشِي الخَمَرْ ✻ يُوجِّه الأرضَ ويَسْتاقُ الشَّجرْ[2]

ومنه قولهم : دخل في غُمار الناس وخُمارهم ، أي هو في مكان خاف . فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطّيه سُمّيت بذلك . وقيل : إنما سميت الخمر خمرا لأنها تُركت حتى أدركت ، كما يقال : قد اختمر العجين ، أي بلغ إدراكه . وخُمِر الرأي ، أي تُرِك حتى يتبيّن فيه الوجه . وقيل : إنما سُمِّيت الخمر خمرا لأنها تخالط العقل ، من المخامرة وهي المخالطة ، ومنه قولهم : دخلت في خُمار الناس ، أي اختلطت بهم . فالمعاني الثلاثة متقاربة ، فالخمر تُركت وخُمِرت حتى أدركت ، ثم خالطت العقل ، ثم خمرته ، والأصل الستر .

(١) راجع ص ٣٧ من هذا الجزء .　(٢) العقبان (جمع عقاب) : الرايات . وقوله : « يوجه الأرض » أي لا يمر بشيء إلا جعله جهة واحدة ، فيكون وجهه مع وجهه حيث يذهب . وقوله : « يستاق الشجر » أي يمر بالرمث (مرعى من مراعى الابل) والعرفج وسائر الشجر فيستاقه معه ، يذهب به من كثرته .

والخمر: ماء العنب الذي غَلى أو طُبخ؛ وما خامر العقل من غيره فهو في حُكمه ، لأن إجماع العلماء أن القمار كله حرام . وإنما ذُكر المَيْسر من بينه بجُعل كلّه قياسا على الميسر؛ والميسر إنما كان قمارا في الجُزُر خاصّة؛ فكذلك كلّ ما كان كالخمر فهو بمنزلتها .

الثانيــة — والجمهور من الأئمة على أنّ ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرّم قليله وكثيره، والحدّ في ذلك واجب. وقال أبو حنيفة والثوريّ وابن أبي لَيْلَى وابن شُبْرُمَة وجماعة من فقهاء الكوفة : ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو(1) حلال ، وإذا سكر منه أحد دون أن يتعمّد الوصولَ إلى حدّ السُّكر فلا حدّ عليه؛ وهذا ضعيف يردّه النظر والخبر، على ما يأتي بيانه في «المائدة والنحل» إن شاء الله تعالى .

الثالثــة — قال بعض المفسرين: إنّ الله تعالى لم يَدَعْ شيئا من الكرامة والبرّ إلا أعطاه هذه الأمة ، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائعَ دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرّة بعد مرّة؛ فكذلك تحريم الخمر . وهذه الآية أوّل ما نزل في أمر الخمر، ثم بعده : « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » ثم قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » ثم قوله : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » على ما يأتي بيانه في « المائدة » .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمَيْسِرُ ﴾ الميسر: قمار العرب بالأزلام . قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجلَ على أهله وماله فأيّهما قَمَر صاحبَه ذهب بماله وأهله؛ فنزلت الآية . وقال مجاهد ومحمد بن سيرين والحسن وابن المسيّب وعطاء وقَتادة ومعاوية ابن صالح وطاوس وعليّ بن أبي طالب رضى الله عنه وابن عباس أيضا : كل شيء فيه قمار من نَرْد وشِطْرَنْج فهو المَيْسر، حتى لُعَب الصِّبيان بالجَوْز والكِعَاب(2)؛ إلا ما أبيح من الرِّهان في الخيل والقُرْعة في إفراز الحقوق؛ على ما يأتي . وقال مالك : المَيْسر مَيْسران: مَيْسر اللهو،

(1) أي قليله . (2) الكعاب : فصوص النرد .

وميسر القِمار؛ فمن مَيْسر اللّهـو النَّرْد والشِّطْرنج والملاهى كلها . وميسر القِمار : ما يتخاطر الناس عليه . قال علىّ بن أبى طالب : الشِّطْرنج مَيْسر العجم . وكلّ ما قومِر به فهو مَيسر عند مالك وغيره من العلماء . وسيأتى فى « يونس »(١) زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

والميسر مأخوذ من اليَسَر، وهو وجوب الشيء لصاحبه؛ يقال : يَسَرلى كذا اذا وجب فهو ييسر يَسَرًا ومَيْسرا . والياسر : اللاعب بالقِداح، وقد يَسَر ييْسِر؛ قال الشاعر :

فأعِنْهُمُ وآيْسِرْ بمـا يَسَرُوا به * وإذا هُمُ نَزلُوا بضَنْك فانْزِلِ

وقال الأزهرى : الميسر : الجزور الذى كانوا يتقامرون عليـه ؛ سُمِّى ميسرا لأنه يُجَزَّأ أجزاء؛ فكأنه موضع التجزئة؛ وكلّ شيء جَزَّأته فقـد يَسَرته . والياسر : الجازر؛ لأنه يجزِّئ لحم الجَزُور. قال : وهذا الأصل فى الياسر؛ثم يقال للضارِبين بالقِداح والمتقامِرين على الجزور : ياسِرون؛ لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك . وفى الصِّحاح : ويَسَر القومُ الجزورَ أى اجتزروها واقتسموا أعضاءها . قال سُحَيم بن وَثِيل اليربوعىّ :

أقولُ لهم بالشِّـعب إذ يَيْسِرُونِنِى * ألم تَيْأسُوا أنى ابنُ فارِسِ زَهْدَمِ(٢)

كان قد وقع عليه سِباء فضُرِب عليه بالسهام . ويقال : يَسَر القومُ إذا قامروا . ورجل يَسَرٌ وياسِرٌ بمعنًى، والجمع أيسار؛ قال النابغة :

أنى أُتَمِّـــمُ أيْسارِى وأمنَحُهـم * مَثْنَى الأيادى(٣) وأكْسُو الجفْنَة الأَدَمَا

وقال طَرَفَة :

وهُمُ أيْسارُ لقمانَ إذا * أغْلَتِ الشَّتْوةُ(٤) أبْداءَ الجُزُرْ

وكان من تطوّع بنحرها ممدوحا عندهم؛ قال الشاعر :

وناجِيةٍ نحرتُ لقومِ صدقٍ * وما ناديتُ أيْسارَ الجَزورِ

---

(١) عند قوله تعالى : فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال ...» آية ٣٢ (٢) تيأسوا (من يئس) بمعنى علم . وزهدم (كجعفر) : اسم فرس . (٣) قوله : «مثنى الأيادى» هو أن يعيد معروفه مرتين أو ثلاثا . (٤) الشتوة (واحد جمعه شتاء) والعرب تجعل الشتاء مجاعة؛ لان الناس يلتزمون فيه البيوت ولا يخرجون للانتجاع . وأبداء (جمع بدء) : خير عظم فى الجزور . وقيل : هو خير نصيب فيها .

الخامســـة — رَوى مالك فى الموطّأ عن داود بن حُصين أنه سمع ســعيد بن المسيّب يقول : كان مِن مَيْسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين؛ وهذا محمول عند مالك وجمهور أصحابه فى الجنس الواحد، حيوانه بلحمه؛ وهو عنده من باب المُزَابنــة[1] والغَرَر[2] والقِمار، لأنه لا يُدرَى هل فى الحيوان مثــل اللحم الذى أعطى أو أقل أو أكثر، وبيــع اللحم باللحم لا يجوز متفاضلا؛ فكان بيع الحيوان باللحم كبيع اللحم المُغيّب فى جلده إذا كانا من جنس واحد، والجنس الواحد عنده الإبل والبقر والغنم والظِّباء والوُعُول وسائر الوحوش، وذوات الأربع المأكولات كلها عنده جنس واحد، لا يجوز بيع شىء من حيوان هذا الصنف والجنس كله بشىء واحد من لحمه بوجه من الوجوه؛ لأنه عنــده من باب المُزَابنة، كبيع الزبيب بالعنب والزيتون بالزيت والشَّيرَج بالسّمسم، ونحو ذلك . والطير عنــده كله جنس واحد، وكذلك الحيتان من سمك وغيره . ورُوِى عنه أن الجراد وحده صِنف . وقال الشافعىّ وأصحابه والليث ابن ســعد : لا يجوز بيع اللحم بالحيــوان على حال من الأحوال من جنس واحد كان أم من جنسين مختلفين؛ على عموم الحديث . ورُوِى عن ابن عباس أن جزورا نُحرت على عهد أبى بكر الصــدّيق فقُسمت على عشرة أجزاء؛ فقال رجل : أعطونى جزءا منها بشاةٍ؛ فقال أبو بكر : لا يصلح هذا . قال الشافعىّ : ولست أعلم لأبى بكر فى ذلك مخالفا من الصحابة . قال أبو عمر : قد رُوِى عن ابن عباس أنه أجاز بيع الشاة باللحم؛ وليس بالقوىّ . وذكر عبد الرزاق عن الثورىّ عن يحيى بن سعيد عن ســعيد بن المسيّب أنه كَرِه أن يُباع حىّ بميت؛ يعنى الشاة المذبوحة بالقائمــة . قال ســفيان : ونحن لا نرى به بأسا . قال المُزَنىّ : إن لم يصح الحديث فى بيع الحيوان باللحم فالقياس أنه جائز، وإن صح بطل القياس واتُّبع الأثر . قال أبو عمر : وللكوفيين فى أنه جائز بيع اللحم بالحيوان حجج كثيرة من جهة القياس والاعتبار؛ إلا أنه إذا صح الأثر بطل

---

(١) المزابنة : بيع الرطب فى رءوس النخل بالتمــر . وعند مالك : كل جزاف لا يعلم كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود؛ أو بيع معلوم بمجهول من جنسه؛ أو بيع مجهول بمجهول من جنسه .

(٢) الغرر : بيع السمك فى الماء والطير فى الهواء . وقيــل : ما كان له ظاهر يغر المشــترى وباطن مجهول . وقال الأزهرى : ويدخل فى بيع الغرر البيوع المجهولة التى لا يحيط بكنهها المتبايعان حتى تكون معلومة .

القياس والنظر . وروى مالك عن زيد بن أسلم عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الحيوان باللحم . قال أبو عمر : ولا أعلمه يتّصـل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت ، وأحسن أسانيده مرسَلُ سـعيد بن المسيّب على ما ذكره مالك في موطّئه ؛ وإليه ذهب الشافعيّ ؛ وأصله أنه لا يقبل المراسيل إلا أنه زعم أنه افتقد مراسيل سعيد فوجدها أو أكثرها صحاحا . فكرِه بيع أنواع الحيوان بأنواع اللحوم على ظاهر الحديث وعمومه ؛ لأنه لم يأت أثر يُخصّصه ولا إجماع . ولا يجوز عنـده أن يُخصّ النّصّ بالقياس . والحيوان عنـده اسم لكل ما يعيش في البرّ والمـاء وإن اختلفت أجناسـه ؛ كالطعام الذي هو اسم لكل مأكول أو مشروب ؛ فآعلم .

السادســة ــ قوله تعـالى : ﴿ قُلْ فِيهِمَا ﴾ يعني الخمر والميسر ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ إثمُ الخمـر ما يصدر عن الشارب من المخاصمة والمشاتمة وقول الفُحش والزُّور ، وزوال العقل الذي يعرف به ما يجب لخالقـه ، وتعطيل الصلوات والتعوّق عن ذكر الله ، إلى غير ذلك . رَوى النَّسائيّ عن عثمان رضي الله عنـه قال : اجتنبوا الخمر فإنها أمُّ الخبائث ، إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبّـد فعلِقته آمرأة غَوِيّة ، فأرسلت إليـه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة ؛ فانطلق مع جاريتها فطفِقت كلّما دخل بابا أغلقته دونه ، حتى أفضى الى آمرأة وَضِيئة عندها غلام وبَاطِيَةُ خمر ؛ فقالت : إني والله ما دعوتك للشهادة ، ولكن دعوتك لتقع عليّ ، أو تشرب من هذه الخمر كأسا أو تقتل هذا الغلام . قال : فاسقيني من هذه الخمر ؛ كأسا فسقته كأسا . قال : زيدوني ؛ فلم يَرِم (١) حتى وقع عليها ، وقتل النفس ؛ فاجتنبوا الخمر ، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر ؛ إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه ؛ وذكره أبو عمر في الاستيعاب . ورُوِي أن الأعشى لمـا توجه الى المدينة لِيُسلم فلقيَه بعض المشركين في الطريق فقالوا له : أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمدا صلى الله عليه وسـلم ؛ فقالوا : لا تصل اليه ، فإنه يأمرك بالصـلاة ؛ فقال : إن خدمة الرب واجبـة . فقالوا : إنه يأمرك بإعطاء المـال إلى الفقراء . فقال :

(١) يرم (بفتح الياء وكسر الراء من رام يريم) : أي فلم يبرح .

اصطناع المعروف واجب . فقيل له : إنه ينهى عن الزنا . فقال : هو فحش وقبيح فى العقل وقد صرت شيخا فلا أحتاج اليه . فقيل له : إنه ينهى عن شرب الخمر . فقال : أما هى فإنى لا أصبر عنه ! فرجع وقال : أشرب الخمر سنة ثم أرجع اليه ، فلم يصل الى منزله حتى سقط عن البعير فآنكسرت عنقه فمات . وكان قيس بن عاصم المِنقرىّ شرّابا لها فى الجاهلية ثم حرّمها على نفسه؛ وكان سبب ذلك أنه غمز عُكَنَةَ[1] آبنته وهو سكران ، وسبّ أبويه ، ورأى القمر فتكلم بشىء ، وأعطى الخمّار كثيرا من ماله ؛ فلما أفاق أخبر بذلك فحرّمها على نفسه وفيها يقول :

رأيت الخمر صالحة وفيها * خصالٌ تُفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحا * ولا أُشفَى بها أبدا سقيما
ولا أعطى بها ثمنا حياتى * ولا أدعو لها أبدا نديما
فإنّ الخمر تفضح شاربيها * وتجنيهم بها الأمر العظيما

قال أبو عمر : وروى آبن الأعرابىّ عن المفضل الضبىّ أن هذه الأبيات لأبى مِحجن الثقفى قالها فى تركه الخمر ، وهو القائل رضى الله عنه :

إذا مُتّ فادفِنّى الى جنب كَرْمة * تُروّى عظامى بعد موتى عروقُها
ولا تدفِننّى بالفَلاة فإنّنى * أخاف اذا ما مِتّ أنْ لا أذوقُها

وجلده عمر الحدّ عليها مرارا ، ونفاه الى جزيرة فى البحر؛ فلحق بسعد فكتب اليه عمر أن يحبسه فحبسه ؛ وكان أحد الشجعان البُهَم[2] ؛ فلما كان من أمره فى حرب القادسية ما هو معروف حلّ قيوده وقال : لا نجلدك على الخمر أبدا . قال أبو مِحْجن : وأنا والله لا أشربها أبدا ؛ فلم يشربها بعد ذلك . فى رواية : قد كنت أشربها إذ يقام علىّ الحدّ [وأطهر منها][3] ، وأما إذ بَهْرَجْتَنى[4] فوالله لا أشربها أبدا . وذكر الهيثم بن عدىّ أنه أخبره من رأى قبر أبى مِحجن بأذرَبيجان ،

(١) العكنة : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .
(٢) البهم (بضم ففتح جمع البهمة) : الفارس الذى لا يُدرَى من أين يُؤتَى له من شدّة بأسه .
(٣) زيادة عن كتاب « الاستيعاب » .
(٤) البهرج (من معانيه) : الشىء المباح . أى أهدرتنى باسقاط الحدّ عنى .

أو قال : في نواحي جُرْجان ، وقد نبتت عليه ثلاثة أصول كَرْم وقد طالت وأثمرت ، وهي معروشة على قبره ، مكتوب على قبره « هذا قبر أبي محجن » قال : فجعلت أتعجب وأذكر قوله :

* اذا متّ فادفنّي الى جَنْب كرمة *

ثم إن الشارب يصير ضُحْكة للعقلاء ، فيلعب ببوله وعذرته ، وربّما يمسح وجهه ، حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول : اللهم ٱجعلني من التوّابين وٱجعلني من المتطهرين . ورؤي بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول له : أكرمك الله .

وأما القمار فيورث العداوة والبغضاء ، لأنه أكل مال الغير بالباطل .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ ومنافع للناس ﴾ أما في الخمر فربح التجارة ، فانهم كانوا يجلبونها من الشام برُخص فيبيعونها في الحجاز بربح ، وكانوا لا يرون المماكسة فيها ، فيشتري طالب الخمر الخمرَ بالثمن الغالي . هذا أصح ما قيل في منفعتها ، وقد قيل في منافعها : إنها تهضم الطعام ، وتقوّي الضعف ، وتعين على الباه ، وتسخي البخيل ، وتشجع الجبان ، وتصفي اللونَ ، إلى غير ذلك من اللذة بها . وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

ونشربها فتتركنا ملوكًا * وأُسْدًا ما يُنَهْنِهنا اللقاءُ (١)

الى غير ذلك من أفراحها . وقال آخر (٢) :

فإذا شربتُ فإنني * ربّ الخَوَرْنَق والسَّدِير
وإذا صحوتُ فإنني * ربّ الشُّوَيهة والبعير

ومنفعة الميسر مصير الشيء الى الانسان في القمار بغير كدّ ولا تعب ، فكانوا يشترون الجزور ويضربون بسهامهم فمن خرج سهمه أخذ نصيبه من اللحم ولا يكون عليه من الثمن شيء ، ومن بقي سهمه آخرا كان عليه ثمن الجزور كله ولا يكون له من اللحم شيء . وقيل : منفعته التوسعة على المحاويج فإن من قَمَرَ منهم كان لا يأكل من الجزور وكان يفرّقه في المحتاجين .

---

(١) النهنهة : الكف والمنع .   (٢) هو المُنَخَّل اليشكري .

وسهام الميسر أحد عشر سهما ، منها سبعة لها حظوظ وفيها فروض على عدد الحظوظ ، وه « القذّ » وفيه علامة واحدة وله نصيب وعليه نصيب إن خاب . الثانى — « التوأم » ، علامتان وله وعليه نصيبان . الثـالث — « الرقيب » وفيه ثلاث علامات على ما ذكرنا الرابع — « الحِلْس» وله أربع . الخامس — « النافِز» والنافِس أيضا وله خمس . السادس « المُسْبِل » وله ست . السابع — « المُعَلَّى » وله سبع . فذلك ثمانية وعشرون فرضا ، وأنص الجزور كذلك فى قول الأصمعىّ . وبقى من السهام أربعة ، وهى الأغفال لا فروض لها ولا أنصباء ، وهى : « المُصَدَّر » و « المُضَعَّف » و « المَنِيح » و « السَّفِيح » . وقيـل الباقية الأغفال الثلاثة : « السّفيح » و « والمَنيح » و « الوَغْد » تزاد هذه الثلاثة لتكثر السه على الذى يُجيلها(١) فلا يجد الى الميل مع أحد سبيلا . ويسمى المجيلُ المفيضَ(٢) والضاربَ والضريبَ والجمع الضُّرَباء . وقيل : يُجعل خلفه رقيب لئلا يحابى أحدا ، ثم يجثو الضريب على ركبتيه ويلتحف بثوب ويخرج رأسه ويدخل يده فى الرِّبابة(٣) فيخرج . وكانت عادة العرب أن تضرب الجزور بهذه السهام فى الشَّتوة وضيق الوقت وكَلَب البَرْد على الفقراء ؛ يُشترَى الجزو ويضمن الأيسار ثمنها ويرضى صاحبها من حقه ؛ وكانوا يفتخرون بذلك ويذمون من لم يفع ذلك منهم ، ويسمّونه « البَرَم » قال متمّ بن نُويرة :

ولا بَرَمًا تُهدِى النساء لعِرسـه * إذا القَشْعُ من بَرْد الشتاء تَقَعقَعا(٤)

ثم تنحر وتقسم على عشرة أقسام . قال ابن عطية : وأخطأ الأصمعىّ فى قسمة الجزور فذكر أنها على قدر حظوظ السهام ثمانية وعشرون قسما ، وليس كذلك ؛ ثم يضرب على العشر فمن فاز سهمه بأن يخرج من الرِّبابة متقدّما أخذ أنصباءه وأعطاها الفقراء . والرِّبابة (بكسر الراء) شبيهة بالكنانة تُجمع فيها سهام الميسر ؛ وربما سمّوا جميع السهام ربابة ؛ قال أبو ذؤيب يصف الحمار وأُتُنَه :

---

(١) يجيلها : هو من أجال يجيل إجالة إذا حركها ، أى يضع يده فى الخريطة ويحركها مرتين أو ثلاثا .
(٢) الافاضة بالقداح : الضرب بها وإجالتها عند القمار . (٣) سيذكر المؤلف رحمه الله تعالى معنى الربابة .
(٤) البرم (بفتحتين) : الذى يدخل مع القوم فى الميسر . والقشع : بيت من جلد .

وكأنهن ربابــةٌ وكــأنه * يَسَرٌ يُفيض على القِداح ويصدع (١)

والرِّبابة أيضا : العهد والميثاق ؛ قال الشاعر (٢) :

وكنتُ آمرأً أفضت اليك رِبابتي * وقبـــلك رَبّتني فضِعتُ رُبوبُ (٣)

وفى أحيان ربمــا تقامروا لأنفسهم ثم يغرم الثمن من لم يفز سهمه ؛ كما تقدّم . ويعيش بهذه السّيرة فقراء الحيّ ؛ ومنه قول الأعشى :

المطعِمو الضيف اذا ما شَتَوْا * والجاعِلو القوتِ على الياسِرِ

ومنه قول آخر (٤) :

بأيديهمُ مقرومة (٥) ومغالِق * يعود بأرزاق العُفاة (٦) منيحها

و « المنيح » فى هذا البيت المستمنح ؛ لأنهم كانوا يستعيرون السهم الذى قد آملس وكثر فوزه ، فذلك المنيح الممدوح . وأما المنيح الذى هو أحد الأغفال فذلك إنمــا يوصف بالكرّ ، وإياه أراد الأخطل (٧) بقوله :

ولقد عطفن على فزارةَ عطفةً * كرَّ المنِيـــحِ وجُلْنَ ثَمَّ مجالا

وفى الصحاح : « والمَنِيح سهم من سهام الميسر مما لا نصيب له إلا أن يُمنَح صاحبُه شيئًا » . ومن الميسر قولُ لَبِيد (٨) :

---

(١) يفيض : يدفع ؛ ومنه الافاضة . وصدعت الشيء : أظهرته و بينته . (٢) هو علقمة بن عبدة ؛ كما فى ديوانه . (٣) ربّتنى أى ملكتنى أرباب من الملوك فضعت حتى صرت اليك . والربوب (جمع رب) : المـالك . (٤) هو عمر بن قمِيئة ؛ كما فى تاج العروس واللسان ، مادة « غلق » . (٥) المقرومة : الموسومة بالعلامات . والمغالق : قداح الميسر . وقيل : المغالق من نعوت قداح الميسر التى يكون لها الفوز ، وليست المغالق من أسمائها ، وهى التى تغلق الخطر فتوجبه للقامر الفائز ؛ كما يغلق الرهن لمستحقه . (عن اللسان)

(٦) كذا فى الأصول . والعفاة : الأضياف وطلاب المعروف . والذى فى اللسان وتاج العروس : « العيال » .

(٧) فى الأصول : « زير » والتصويب عن ديوان الأخطل . والبيت من قصيدة يهجو بها جريرا مطلعها :

* كذبتك عينك أم رأيت بواسط *

راجع ديوانه ص ٤١ طبع بيروت .

(٨) كذا فى الأصول . والذى فى كتاب « الميسر والقداح » لابن قتيبة والمفضليات أنه للرقش الأكبر ، وهو من قصيدة له ، مطلعها : * ألا بان جيرانى ولست بعائف *

راجع المفضليات ص ٤٧٤ طبع أوربا .

إذا يَسَروا لم يُورِث اليُسْرُ بينهم * فواحش يُنْعَى ذِكرُها بالمَصايِف

فهذا كله نفع الميسر، إلا أنه أكل المـال بالباطل .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ أعلم الله جل وعز أن ا أكبر من النّفع وأَعْوَد بالضرر فى الآخرة ؛ فالإثم الكبير بعد التحريم ، والمنافع قبل التحري وقرأ حمزة والكسائىّ «كثير» بالثاء المثلثة ؛ وحجتهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ول معها عشرة : بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيهـا وشاربها وحا والمحمولةَ له وآكلَ ثمنها . وأيضا فجَمْعُ المنافـع يحسن معه جمعُ الآثام . و «كثير» بالثاء المث يعطى ذلك . وقرأ باقى القرّاء وجمهـورُ الناس «كبير» بالباء الموحّدة ، وحجتهم أن الذن فى القِمار وشرب الخمر من الكبائر ؛ فوصفه بالكبير أليق . وأيضا فآتفاقهم على «أكبر» ح لـ «كبير» بالباء بواحدة . وأجمعوا على رفض «أكثر» بالثاء المثلثة ، إلا فى مصحف عبد ا ابن مسعود فإن فيه «قل فيهما إثم كثير وإثمهما أكثر» بالثـاء مثلّثة فى الحرفين .

التاســعة — قال قوم من أهل النظر : حُرّمت الخمر بهــذه الآية ؛ لأن الله تعـالى ق قال : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ » فأخبر فى هذه الآية أ فيها إثما فهو حرام . قال ابن عطية : ليس هذا النظر بجيّد ، لأن الإثم الذى فيها هو الحرام لا هى بعينها على ما يقتضيه هذا النظر .

قلت : وقال بعضهم : فى هذه الآية ما دل على تحريم الخمر لأنه سماه إثما ، وقد حرّم الإث فى آية أخرى وقـوله عز وجل : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ » . وقال بعضهم : الإثم أراد به الخمر ؛ بدليل قول الشاعر :

شربتُ الإثم حتى ضلّ عقلى * كذاك الإثمُ يذهب بالعقول

قلت : وهـذا أيضا ليس بجيّد ، لأن الله تعالى لم يُسمّ الخمر إثمـا فى هـذه الآية ، وإنمـا قال : « قل فِيهما إثم كبير » ولم يقل : قل هما إثم كبير . وأما آية «الأعراف» وبيتُ الشعر فيأتى الكلام فيهما هنالك مبيّنا ، إن شاء الله تعالى . وقد قال قتادة : إنمـا فى هـذه

الآية ذمّ الخمر ، فأما التحريم فيعلم بآية أخرى وهى آية « المائدة »(١) وعلى هذا أكثر المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ قراءة الجمهور بالنصب . وقرأ أبو عمرو وحده بالرفع . وٱختُلف فيه عن ابن كثير . وبالرفع قراءة الحسن وقتادة وابن أبى إسحاق . قال النحاس وغيره : إن جعلت « ذا » بمعنى الذى كان الاختيار الرفع ، على معنى : الذى ينفقون هو العفو ؛ وجاز النصب . وإن جعلت « ما » و « ذا » شيئا واحدا كان الاختيار النصب ، على معنى : قل ينفقون العفو ؛ وجاز الرفع . وحكى النحويون : ماذا تعلّمت : أنحوا أم شعرا؟ بالنصب والرفع ، على أنهما جيدان حسنان ؛ إلا أن التفسير فى الآية على النصب .

الثانيـــة — قال العلماء : لما كان السؤال فى الآية المتقدّمة فى قوله تعالى : « وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ » سؤالا عن النفقة إلى مَن تُصرف ؛ كما بيناه ودل عليه الجواب ، والجواب خرج على وَفْق السؤال ؛ كأن السؤال الثانى فى هذه الآية عن قدر الانفاق ؛ وهو فى شأن عمرو بن الجموح — كما تقدّم — فإنه لما نزل «قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ» قال : كم أُنفق؟ فنزل « قل العفو » والعفوُ : ما سهُل وتيسّر وفضَل ، ولم يشق على القلب إخراجه ؛ ومنه قول الشاعر :

خُذِى العفوَ منّى تستديمى مودّتى ٭ ولا تنطِقى فى سَوْرَتى حين أغضبُ

فالمعنى : أنفقوا ما فضَل عن حوائجكم ، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة ؛ هذا أَوْلى ما قيل فى تأويل الآية ، وهو معنى قول الحسن وقتادة وعطاء والسُّدّى والقُرَظىّ محمد بن كعب وٱبن أبى ليلى وغيرهم ، قالوا : العفو ما فضَل عن العيال ؛ ونحوه عن ابن عباس . وقال مجاهد : صدقةٌ عن ظَهرِ(٢) غنًى ، وكذا قال عليه السلام : "خير الصدقة ما أنفقتَ عن غِنًى" وفى حديث

(١) وهو قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ... » آية ٩٠ (٢) قال ابن الأثير : « والظهر قد يزاد فى مثل هذا إشباعا للكلام وتمكينا ؛ كأن صدقته مستندة الى ظهر قوىّ من المال » .

آخر : "خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى" . وقال قيس بن سعد : هذه الزكاة المفروضة وقال جمهور العلماء : بل هي نفقات التطوّع . وقيل : هي منسوخة . وقال الكلبي : كـ الرجل بعد نزول هذه الآية إذا كان له مال من ذهب أو فضة أو زرع أو ضَرْع نظر ما يكفيه وعيالَه لنفقة سنة أمسكه وتصدّق بسائره ، وإن كان ممن يعمل بيده أمس ما يكفيه وعيالَه يوما وتصدّق بالباقي ، حتى نزلت آية الزكاة المفروضة فنسخت هذه الآ وكلَّ صدقة أمروا بها . وقال قوم : هي مُحْكَمَة، وفي المال حقٌّ سوى الزكاة . والظاه يدل على القول الأوّل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ قال المفضّل بن سلمة أي في أمر النفقة . ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فتحبسون من أموالكم ما يصلح في معاش الدنيا وتنفقون الباقي فيما ينفعكم في العُقْبَى . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير أي كذلك يبيّن الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها وفنا فتزهدون فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبون فيها .

قوله تعالى : فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَا لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِـ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — روى أبو داود والنّسائي عن ابن عباس قال : لما أنزل الله تعالى : «وَلَا تَقْرَ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» و«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا» الآية، انطلق مـ كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابَه من شرابه فجعل يفْضل من طعامه فيحبس له، حـ يأكله أو يفسد، فاشتدّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ» الآية، فخلطوا طعامَهم بطعامه وشرابَ

بشرابه ؛ لفظ أبي داود . والآية متصلة بما قبلُ ؛ لأنه اقترن بذكر الأموال الأمرُ بحفظ أموال اليتامى . وقيل : إن السائل عبدُ الله بن رواحة . وقيل : كانت العرب تتشاءم بملابسة أموال اليتامى فى مؤاكلتهم ؛ فنزلت هذه الآية .

الثانيــة — لما أذن الله جل وعز فى مخالطة الأيتام مع قصد الإصلاح بالنظر إليهم وفيهم كان ذلك دليلا على جواز التصرّف فى مال اليتيم ؛ تصرّف الوصيّ فى البيع والقسمة وغير ذلك ؛ على الاطلاق لهذه الآية . فإذا كَفَل الرجلُ اليتيمَ وحازه وكان فى نظره جاز عليه فعلُه وإن لم يقدّمه والٍ عليه ؛ لأن الآية مطلقةٌ والكفالةُ ولاية عامة . لم يؤثر عن أحد من الخلفاء أنه قدّم أحدا على يتيم مع وجودهم فى أزمنتهم ، وإنما كانوا يقتصرون على كونهم عندهم .

الثالثــة — تواترت الآثار فى دفع مال اليتيم مضاربة والتجارة فيه ، وفى جواز خلط ماله بماله ؛ دلالة على جواز التصرّف فى ماله بالبيع والشراء إذا وافق الصلاحَ ، وجوازِ دفعه مضاربة ، إلى غير ذلك على ما نذكره مبيّنًا . واختُلف فى عمله هو قِراضًا ؛ فمنعه أشهب ، وقاسه على منعه من أن يبيع لهم من نفسه أو يشترىَ لها . وقال غيره : إذا أخذه على جزء من الربح بنسبةِ قراضِ مثلِه فيه أُمضىَ ؛ كشرائه شيئا لليتيم بتعقّب (١) فيكون أحسنَ لليتيم . قال محمد بن عبد الحكم : وله أن يبيع له بالدَّين إن رأى ذلك نظرا . قال ابن كنانة : وله أن يُنفق فى عُرس اليتيم ما يَصلُح من صنيع وطِيب ، ومصلحتُه بقدر حاله وحال من يُزَوَّج اليه ، وبقدر كثرة ماله . قال : وكذلك فى خِتانه ؛ فإن خشى أن يُتَّهم رَفع ذلك إلى السلطان فيأمره بالقصد ، وكل ما فعله على وجه النّظر فهو جائز ، وما فعله على وجه المحاباة وسوء النّظر فلا يجوز . ودلّ الظاهرُ على أن وَلِيَّ اليتيم يعلّمه أمرَ الدنيا والآخرة ، ويستأجرُ له ويؤاجره ممن يعلمه الصناعات . وإذا وُهب لليتيم شيء فللوصيّ أن يَقبِضه لما فيه من الإصلاح . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « النساء » إن شاء الله تعالى .

---

(١) بتعقب : أى مع تعقب ، وهو أنه ينظر فى أمر المشترَى برفعه الى السوق لمعرفة ثمنه .

الرابعــة — ولما ينفقه الوصيّ والكفيلُ من مال اليتيم حالتان : حالة يمكنه الإشهاد عليه؛ فلا يُقبل قولُه إلا ببيِّنة . وحالة لا يمكنه الإشهاد عليه فقوله مقبول بغير بيّنة؛ فمهما اشترى من العَقار وما جرت العادة بالتّوثّق فيه لم يُقبل قولُه بغير بيّنة . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد ولذلك فرّق أصحابنا بين أن يكون اليتيم فى دار الوصيّ يُنفِق عليه فلا يُكلَّف الإشهادَ على نفقته وكسوته؛ لأنه يتعذر عليه الإشهاد على ما يأكله ويلبسه فى كل وقت؛ ولكن إذا قال أنفقت نفقة تشبه قُبِل منه؛ وبين أن يكون عند أمّه أو حاضنته فيدّعي الوصيّ أنه كان ينفق عليه، أو كان يُعطى الأمّ أو الحاضنةَ النفقةَ والكسوةَ فلا يُقبل قولُه على الأم أو الحاضنة إلا ببيّنة أنها كانت تَقبِض ذلك له مشاهرةً أو مُساناةً .

الخامســة — واختلف العلماء فى الرجل يُنكح نفسَه من يتيمته ، وهل له أن يشترى لنفسه من مال يتيمه أو يتيمته ؛ فقال مالك : ولاية النّكاح بالكفالة والحضانة أقوى منها بالقـرابة ؛ حتى قال فى الأعراب الذين يُسلمون أولادهم فى أيام المجاعة : إنهـم ينكحونهم إنكاحهم؛ فأما إنكاح الكافل والحاضن لنفسه فيأتى فى «النساء» بيانه ، إن شاء الله تعالى وأما الشراء منه فقال مالك : يشترى فى مشهور الأقوال؛ وكذلك قال أبو حنيفة : له أن يشترى مال الطفل اليتيم لنفسـه بأكثر من ثمن المِثْل ؛ لأنه إصلاح دلّ عليـه ظاهرُ القرآن . وقال الشافعيّ : لا يجوز ذلك فى النّكاح ولا فى البيع؛ لأنه لم يُذكر فى الآية التّصرفُ ، بل قال « إصلاح لهم خير » من غير أن يذكر فيه الذى يجوز له النّظر . وأبو حنيفة يقول : إذا كان الإصلاح خيرا فيجوز تزويجُه ويجوز أن يُزوِّج منـه . والشافعيّ لا يرى فى التزويج إصلاحا إلا من جهة دفع الحاجة ، ولا حاجة قبل البلوغ . وأحمد بن حنبل يُجوِّز للوصيّ التزويجَ لأنه إصـلاح . والشافعيّ يجوِّز للجدّ التزويج مع الوصيّ ، وللأب فى حق ولده الذى ماتت أمّه لا بحكم هذه الآية . وأبو حنيفة يجوِّز للقاضى تزويجَ اليتيم بظاهر القرآن . وهذه المذاهب نشأت من هذه الآية؛ فإن ثبت كَوْن التزويج إصلاحا فظاهر الآية يقتضى جوازه . ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى : « ويسئلونك عن اليتامى » أى يسألك القُوّامُ على اليتامى الكافلون لهم ؛ وذلك مُجْمَل لا يُعلم منه عَيْنُ الكافلِ والقَيِّم وما يشترط فيه من الأوصاف .

فان قيـل : يلزم تركُ مالكٍ أصلَه في التّهمة والذّرائع إذ جوّز له الشراءَ من يتيمه . فالجواب أن ذلك لايلزم، و إنما يكون ذلك ذريعةً فيما يؤدّى من الأفعال المحظورة إلى محظورة منصوصٍ عليها؛ وأما ها هنا فقد أذِن الله سبحانه في صورة المخالَطة ووكَل الحاضنين في ذلك الى أماناتهم بقـوله : «وَاللَّهُ يَعْـلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» وكُلُّ أمرٍ مَخُوف وَكَلَ الله سـبحانه المكلَّفَ إلى أمانته لا يقال فيه : إنه يتذرّع الى محظور به فيُمنَع منه؛ كما جعل الله النسـاءَ مؤتَمناتٍ على فروجهنّ، مع عظيم ما يترتب على قولهنّ في ذلك من الأحكام، ويرتبط به من الحِلّ والحُرْمة والأنساب، وإن جاز أن يَكذِبْنَ . وكان طاوس إذا سئل عن شيء من أمر اليتامى قرأ : «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» . وكان ابن سيرين أحبُّ الأشياء اليه في مال اليتيم أن يجتمع نصحاؤه فينظرون الذى هو خير له؛ ذكره البخاريّ . وفى هذا دلالة على جواز الشراء منه لنفسه؛ كما ذكرنا . والقول الآخر أنه لا ينبغى للوَلىّ أن يشترىَ مما تحت يده شيئا؛ لمـا يلحقه في ذلك من التُّهَمة إلا أن يكون البيع في ذلك بيعَ سـلطان في ملأ من النـاس . وقال محمد بن عبد الحكم : لا يشترى من التركة، ولا بأس أن يَدُسّ مَن يشترى له منها إذا لم يُعلَم أنه من قِبَله .

السادســة — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ هذه المخالطة كخلط المِثْل بالمِثْل كالتمر بالتمر . وقال أبو عُبيد : مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المـالُ ويشقّ على كافله أن يُفرِد طعامه عنـه، ولا يجـد بُدًّا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتّحرّى فيجعله مع نفقة أهله؛ وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان؛ فجاءت هذه الآية الناسخة بالرخصة فيه . قال أبو عبيد : وهذا عندى أصل لمـا يفعله الرُّفقاء في الأسفار فإنهم يتخارجون النفقات بينهم بالسويّة، وقد يتفاوتون في قلّة المطعم وكثرته؛ وليس كل من قلّ مطعمُه تطيب نفسُه بالتفضّل على رفيقه؛ فلمـا كان هذا في أموال اليتامى واسعا كان في غيرهم أوسعَ، ولولا ذلك لخفتُ أن يضيق فيه الأمرُ على الناس .

السابعـــة ــ قوله تعالى: ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أى فهم إخوانكم، والفا جواب الشرط . وقوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ تحذير، أى يعلم المفسـد لأموال اليتامى من المصلح لهـا؛ فيجازى كُلًّا على إصلاحه و إفساده .

الثـامنـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ روى الحكم عن مِقْسَم عن ابن عباس «ولو شاء الله لأعنتكم» قال : لو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى مُوبِقًا . وقيـل «لأعنتكم» : لأهلككم؛ عن الزجاج وأبى عبيدة. وقال القُتَبِيّ : لضيّق عليكم وشدّد، ولكنا لم يشأ إلا التسهيلَ عليكم . وقيل : أى لكلّفكم ما يشتدّ عليكم أداؤه وأثّمكم فى مخالطتهم؛ كما فعـل بمن كان قبلكم، ولكنه خفّف عنكم . والعَنَت : المشقّة، وقـد عَنِت وأعنته غيرُه . ويقال للعظم المجبور إذا أصابه شيء فهاضه : قد أعنته، فهو عَنِت ومُعْنَت . وعَنِتَت الدابة تعنَت عنَتًا : إذا حدث فى قوائمها كسر بعد جَبْر لا يمكنها معـه جرىٌ . وأَكَمَةٌ عَنُوت : شاقة المَصْعَد . وقال ابن الأنبارىّ : أصـل العَنَت التّشديد؛ فإذا قالت العـرب : فلان يتعنَّت فلانا و يُعْنِته فمرادها يُشدِّد عليه ويُلزِمه ما يصعب عليه أداؤه؛ ثم نقلت الى معنى الهـلاك . والأصل ما وصفنا .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أى لا يمتنع عليـه شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يتصرّف فى ملكه بما يريد، لا حَجْرَ عليه جلّ وتعالى عُلُوًّا كبيرًا .

قوله تعـالى : وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا ﴾ قراءة الجمهور بفتح التـاء . وقُرِئت فى الشاذ بالضم؛ كأنّ المعنى أن المتزوج لها أنكحها من نفسه . ونكح أصله الجماع ، ويستعمل فى التزوج تجوّزا وآتّساعا ، وسيأتى بيانه ان شاء الله تعالى .

الثانيـــة — لمـا أذِن الله سبحانه وتعالى فى مخالطة الأيتام ومخالطة النكاح بيّن أن مناكحة المشركين لا تصح . وقال مُقاتل : نزلت هذه الآية فى أبى مِرْثَدِ الغَنَوِىّ وقيل : فى مِرثد ابن أبى مرثد، واسمه كَنَّاز بن حُصين الغنوِىّ ، بعثه رسول الله صلى الله عليــه وسلم مكةَ سِرًّا ليُخرج رجلا من أصحابه ؛ وكانت له بمكة آمرأةٌ يحبها فى الجاهليــة يقال لهـا « عَنَاق » فجاءته ؛ فقال لها : إن الإسلام حرّم ما كان فى الجاهلية ؛ قالت : فتزوجنى ؛ قال : حتى أستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فآستأذنه فنهاه عن التزوج بهـا ؛ لأنه كان مسلما وهى مشركة . وسيأتى فى «النور» بيانه إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى تأويل هــذه الآية ؛ فقالت طائفــة : حرّم الله نكاح المشركات فى سورة « البقرة » ثم نسخ من هــذه الجملة نساءَ أهل الكتاب؛ فأحلهنّ فى سورة « المـائدة » . ورُوِى هذا القول عن ابن عباس ، وبه قال مالك بنُ أنس وسفيانُ بن سعيد الثورىُّ ، وعبدُ الرحمن بنُ عمرو الأوزاعىُّ . وقال قَتادة وسعيدُ بن جُبير : لفظ الآية العمومُ فى كل كافرة ، والمراد بهـا الخصوص فى الكتابيات ؛ وبيّنت الخصوصَ آيةُ « المـائدة » ولم يتناول العمومُ قطُّ الكتابياتِ . وهــذا أحد قوْلَىِ الشافعىّ ، وعلى القول الأوّل يتناولهنّ العمومُ ، ثم نَسخت آية « المـائدة » بعضَ العموم . وهذا مذهب مالكٍ رحمه الله ، ذكره ابن حبيب قال : ونكاح اليهودية والنصرانية وإن كان قد أحله الله تعالى مستثقَل مذموم . وقال إسحاق بنُ ابراهيم الحربىّ : ذهب قوم فجعلوا الآية التى فى « البقرة » هى الناسخة ، والتى فى « المـائدة » هى المنسوخة ؛ فحرّموا نكاحَ كلّ مشركة كتابية أو غير كتابية . قال النحاس : ومن الحجة لقائلِ هذا مما صح سنده ما حدّثناه محمد بنُ رَيّان قال : حدّثنا محمد بنُ رُمح قال حدّثنا

الليث عن نافع أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية قال حرّم الله المشركات على المؤمنين، ولا أعرف شيئا من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ر عيسى ،أو عبدٌ من عباد الله! . قال النحاس : وهذا قولٌ خارجٌ عن قول الجماعة الذين تقو بهم الحجة؛ لأنه قد قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعةٌ منهـ عثمانُ وطلحةُ وابنُ عباسٍ وجابرٌ وحذيفةُ . ومن التابعين سعيدُ بنُ المسيّب وسعيدُ بنُ جُبـ والحسنُ ومجاهدٌ وطاوس وعكرمةُ والشّعبيُّ والضحاكُ ؛ وفقهاءُ الأمصار عليه . وأيضا فيمت أن تكون هذه الآيةُ من سورة «البقرة» ناسخةً للآية التي في سورة «المائدة» لأن «البقرة من اول ما نزل بالمدينة، و«المائدة» من آخر ما نزل . وإنما الآخر ينْسَخ الأوّلَ، وأما حديـ ابنِ عمرَ فلا حجة فيه؛ لأن ابنَ عمرَ رحمه الله كان رجلا متوقّفا ، فلما سمع الآيتين ، في واحد التحليـلُ، وفي أخرى التحريم ولم يبلغه النسخ توقّف ؛ ولم يؤخذ عنـه ذكر النسخ وإنم تُؤُوّل عليـه، وليس يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتأويل . وذكر ابن عطية : «وقال ابن عبا في بعض ما رُوِى عنه : إن الآيةَ عامةٌ في الوثنيّات والمجوسيّات والكتابيات ، وكلّ مَن على غ الإسلام حرام؛ فعلى هذا هي ناسخة للآية التي في «المائدة» وينظر الى هذا قولُ ابنِ عمرَ في الموطّا ولا أعلم إشراكا أعظمَ من أن تقول المرأة ربّها عيسى» . ورُوِى عن عمر أنه فرّق بين طلح ابنِ عبيـد الله وحذيفة بنِ اليمان وبين كتابيتين وقالا : نُطلّقُ يا أمير المؤمنين ولا تغضَب فقال : لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما ! ولكن أفـرّق بينكما صَغرةً قَمْأة . قال ابن عطيـة وهـذا لايستند جيدا وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة : أتزعم أنها حر فأخلي سبيلها ياأمير المؤمنين ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهنّ . ورُوِى عن ابن عباس نحوُ هذا» . وذكر ابن المنذر جوازَ نكاح الكتابيات عن ع ابن الخطاب، ومَن ذكر من الصحابة والتابعين في قول النحاس . وقال في آخر كلامـه ولا يصـح عن أحد من الأوائل أنه حرّم ذلك . وقال بعض العلمـاء : وأما الآيتان فـا تعـارض بينهما؛ فإن ظاهر لفظ الشرك لا يتناول أهـلَ الكتاب؛ لقوله تعـالى « مَا يَوَ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ »، وقال: « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ » ففرّق بينهم فى اللفظ، وظاهرُ العطف يقتضى مغايرةً بين المعطوف والمعطوف عليه، وأيضا فاسم الشرك عمومٌ وليس بنصّ، وقوله تعالى: « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » بعد قوله: « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ » نصٌّ؛ فلا تعارض بين المحتمل و بين مالا يحتمل. فان قيل: أراد بقوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى أوتوا الكتاب من قبلكم وأسلموا؛ كقوله: « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ » الآية. وقوله: «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» الاية. قيل له: هذا خلاف نصّ الآية فى قوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» وخلافُ ما قاله الجمهور؛ فإنه لا يُشكِل على أحد جوازُ التزويج ممن أسلم وصار من أعيان المسلمين. فإن قالوا: فقد قال الله تعالى: «أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» فجعل العلّة فى تحريم نكاحهنّ الدعاءَ الى النار. والجواب أن ذلك علة لقوله تعالى: «وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ» لأن المشرك يدعو إلى النار؛ وهذه العلة مطّردة فى جميع الكفار؛ فالمسلمُ خيرٌ من الكافر مطلقا؛ وهذا بيّن.

الرابعـــة — وأما نكاح أهل الكتاب إذا كانوا حَرْبًا فلا يحلّ؛ وسئل ابن عباس عن ذلك فقال: لا يحلّ، وتلا قولَ الله تعالى: « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الى قوله: « صَاغِرُونَ ». قال المحدّث: حدّثت بذلك ابراهيمَ النَّخَعىّ فأعجبه. وكَرِه مالكٌ تزوّجَ الحربيّات؛ لعلة ترك الولد فى دار الحرب، ولتصرّفها فى الخمر والخنزير.

الخامســـة — قوله تعالى: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ﴾ إخبارٌ بأن المؤمنةَ المملوكةَ خيرٌ من المشركة، وإن كانت ذاتَ الحسب والمال. ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ فى الحسن وغير ذلك؛ هذا قول الطبرىّ وغيره. ونزلت فى خَنساءَ وليدةٍ سوداءَ كانت لحذيفةَ بنِ اليمان؛ فقال لها حذيفة: ياخنساءُ، قد ذُكرت فى الملأ الأعلى مع سوادِك ودَمامتِك، وأنزل الله تعالى ذكرك فى كتابه؛ فأعتقها حذيفةُ وتزوّجها. وقال السُّدّىّ: نزلت فى عبد الله بن رَواحةَ، كانت له أمةٌ سوداءُ

فلطمها فى غضب ثم ندم، فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال : "ماهى ياعبد الله" قال : تصوم وتصلّى وتُحسن الوضوءَ وتشهد الشهادتين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "هذه مؤمنة". فقال ابن رواحة : لأُعتقنّها ولأتزوّجنّها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أَمَةً، وكانوا يريدون أن ينكحوا الى المشركين، وكانوا ينكحونهم رغبة فى أحسابهم، فنزلت هذه الآية . والله أعلم .

السادسة — واختلف العلماء فى نكاح إماء أهل الكتاب، فقال مالكٌ : لا يجوز نكاح الأَمَة الكتابيّة . وقال أشهبُ فى كتاب محمد، فيمن أسلم وتحته أَمَةٌ كتابية : إنه لا يُفرّق بينهما وقال أبو حنيفة وأصحابُه : يجوز نكاحُ إماءِ أهلِ الكتاب . قال ابن العربى : دَرَسنا الشيخ أبو بكر الشاشىّ بمدينة السلام قال : احتج أصحاب أبى حنيفة (1) على جواز نكاح الأَمَة [الكتابية (2)] بقوله تعالى : «وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ» . ووجه الدليل من الآية أن الله سبحانه خاير بين نكاح الأَمَةِ المؤمنةِ والمشركة، فلولا أن نكاحَ الأَمة المشركة جائزٌ لما خاير الله تعالى بينهما، لأن المخايرة إنما هى بين الجائزين لا بين جائز وممتنع، ولا بين متضادّين . والجواب أن المخايرة بين الضدّين تجوز لغة وقرآنا، لأن الله سبحانه قال : «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا» . وقال عمر فى رسالته لأبى موسى : «الرّجوعُ الى الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل» . جواب آخر : قوله : «وَلَأَمَةٌ» لم يُرِد به الرِّقَّ المملوكَ وإنما أراد به الآدمية، والآدميات والآدميون بأجمعهم عَبيدُ الله وإماؤه، قاله القاضى بالبصرة أبو العباس الجُرْجانىّ .

السابعة — واختلفوا فى نكاح نساءِ المجوس، فمنع مالكٌ والشافعىّ وأبو حنيفة والأوزاعىُّ وإسحاقُ من ذلك . وقال ابن حنبل : لا يعجبنى . ورُوى أن حذيفة بن اليمان تزوّج مجوسية، وأن عُمرَ قال له : طلِّقها . وقال ابنُ القصّار : قال بعض أصحابنا : يجب على أحد القولين أنّ لهم كتابا أن تجوز مناكحتهم . وروى ابن وهب عن مالكٍ أن الأَمَةَ المجوسيّة لايجوز أن تُوطأ بِملك اليمين، وكذلك الوثنياتُ وغيرُهن من الكافرات، وعلى هذا جماعة العلماء،

(1) عبارة ابن العربى فى «أحكام القرآن» له : «احتج أبو حنيفة» . (2) زيادة عن ابن العربى .

إلا ما رواه يحيى بنُ أيوبَ عن ٱبنِ جُرَيج عن عطاءٍ وعمرِو بنِ دينارٍ أنهما سُئلا عن نكاح الإماءِ المجوسيات، فقالا : لا بأس بذلك . وتأوّلا قول الله عز وجل : « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ » . فهذا عندهما على عقد النكاح لا على الأَمَة المشتراة، واحتجا بسَبْي أَوْطاس، وأن الصحابة نكحوا الإماءَ منهنّ بِمِلْك اليمين . قال النحاس : وهـــذا قول شاذّ، أما سَبْيُ أَوْطاس فقد يجوز أن يكون الإماءُ أسلمن فجاز نكاحهنّ، وأما الاحتجاج بقوله : « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ » فغلط، لأنهم حملوا النكاح على العَقْد، والنكاح في اللغة يقع على العَقْد وعلى الوَطء، فلما قال : « ولا تنكحوا المشركات » حَرّم كلَّ نكاح يقع على المشركات من نكاح ووطء . وقال أبو عمر بن عبد البر : وقال الأوزاعي : سألت الزُّهرِيَّ عن الرجل يشترى المجوسيّة أيطؤها ؟ فقال : إذا شهدت أن لا إله الا الله وَطِئها . وعن يونس عن ٱبن شهاب قال : لا يحلّ له أن يطأها حتى تُسلِم . قال أبو عمر : قول ابن شهاب « لا يحل له أن يطأها حتى تُسلِم » هـذا وهو أعلم الناس بالمغازي والسِّيَر دليـلٌ على فساد قولِ مَن زعم أن سَبْيَ أَوْطاس وُطِئن ولم يُسلِمْن . رُوِي ذلك عن طائفــة منهم عطاءٌ وعمرُو بنُ دينارٍ قالا : لا بأس بوطء المجوسية، وهذا لم يلتفت إليه أحدٌ من الفقهاء بالأمصار . وقد جاء عن الحسن البصري — وهو ممن لم يكن غَزْوُه ولا غَزا ناحيتَــه إلا الفُرس وما وراءهم من خراسان، وليس منهم أحدٌ أهلَ كتاب — ما يُبيِّن لك كيف كانت السِّــيرة في نسائهم إذا سُبِين قال : أخبرنا عبد الله بنُ محمد بن أسد قال حدّثنا إبراهيمُ بنُ أحمد بن فراس قال حدّثنا عليّ بن عبد العزيز قال حدّثنا أبو عبيد قال حدّثنا هشام عن يونس عن الحسن قال : قال رجل له : يا أبا سعيد كيف كنتم تصنعون إذا سبيتموهنّ ؟ قال : كنا نوجهها الى القبلة ونأمرها أن تُسلِم وتَشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم نأمرها أن تغتسل . وإذا أراد صاحبُها أن يصيبها لم يُصبها حتى يستبرئها . وعلى هذا تأويلُ جماعةِ العلمــاء في قول الله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ » أنهنّ الوثنيّاتُ والمجوسيّاتُ، لأن الله تعالى قد أحلّ الكتابيات بقوله : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » يعني العفائفَ، لا من شُهِر زناها من

المسلمات . ومنهم من كَرِه نكاحَها ووطأَها بِملْك اليمين ما لم يكن منهنّ توبة ؛ لما فى ذا
من إفساد النَّسَب .

قـوله تعالى : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُـوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا ﴾ أى تُزَوّجوا المسلمةَ من المشرك . وأجمعت الأ على أن المشرك لا يطأ المؤمنةَ بوجهٍ؛ لما فى ذلك من الغضاضة على الإسلام . والقُرّاء ع ضم التاء من « تنكحوا » .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل بالنص على أن لا نكاح إلا بولىّ . قال محمد بنُ ع ابن الحسين : النكاح بولىّ فى كتاب الله؛ ثم قرأ « وَلَا تُنْكِحُوا المشركين » . قال ابن المنذر : ثب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نكاحَ إلا بوَلِىّ" وقد اختلف أهل العلم فى النكا بغير وَلِىّ؛ فقال كثير من أهل العلم : لا نكاح إلا بولىّ ؛ رُوى هذا الحديث عن عم ابنِ الخطاب رضى الله عنه وعلىّ بنِ أبى طالب وابنِ مسعود وابن عباس وأبى هريرة رضى ال عنهم؛ وبه قال سعيدُ بنُ المسيّب والحسنُ البصرى وعمرُ بن عبد العزيز وجابرُ بن زيد وسفيا الثـورىُّ وابنُ أبى ليلى وابن شُبْرُمَة وابنُ المبارك والشافعىّ وعبيدُ الله بنُ الحسن وأحم و إسحاقُ وأبو عبيد .

قلت : وهو قول مالكٍ رضى الله عنهم أجمعين وأبى ثور والطبرىّ . قال أبو عمر حُجّةُ مَن قال : "لا نكاح إلا بولىّ" أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه أنه قال "لا نِكاحَ إلا بوَلِىّ" . روى هذا الحديثَ شعبةُ والثورىُّ عن أبى اسحاقَ عن أبى بُرْدَةَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مُرْسَلًا؛ فمن يقبل المراسيل يلزمه قبولُه ، وأما من لا يقبل المراسيل فيلزمه أيضا ؛ لأن الذين وصلوه من أهل الحفظ والثّقة . وممن وصله إسرائيلُ وأبو عوان كلاهما عن أبى إسحاق عن أبى بردة عن أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . و إسرائيلُ ومَن تابعه حُفّاظ، والحافظ تُقبل زيادته، وهذه الزيادة يعضُدها أصول؛ قال الله عز وجل

« فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ » . وهذه الآية نزلت فى مَعْقِل بن يَسار إذ عَضَل[1] أخته عن مراجعة زوجها؛ قاله البخاريّ . ولولا أن له حقًّا فى الإنكاح ما نُهِيَ عن العَضْل .

قلت : ومما يدل على هذا أيضا من الكتاب قوله : « فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ » وقوله : «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ» فلم يخاطب تعالى بالنكاح غيرَ الرجال؛ ولو كان إلى النساء لذكرهنّ . وسيأتى بيان هذا فى «النور» . وقال تعالى حكاية عن شعيب فى قصة موسى عليهما السلام : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ » على ما يأتى بيانه فى سورة «القصص» . وقال تعالى : «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» ؛ فقد تعاضد الكتاب والسُّنة على أن لا نكاح إلا بولىّ . قال الطبرىّ : فى حديث حفصة حين تأيّمت وعقد عمرُ عليها النكاحَ ولم تَعقِده هى إبطالُ قولِ من قال : إن للمرأة البالغة المالكة لنفسها تزويجَ نفسها وعقدَ النكاح دون وَلِيّها ؛ ولو كان ذلك لها لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيَدَعَ خِطبة حفصة لنفسها إذا كانت أوْلى بنفسها من أبيها ، وخطبها إلى من لا يملك أمرها ولا العقدَ عليها؛ وفيه بيان قوله عليه السلام : "الأَيِّمُ أحقُّ بنفسها من وَلِيّها" أن معنى ذلك أنها أحقّ بنفسها فى أنه لا يُعقد عليها إلا برضاها ، لا أنها أحقّ بنفسها فى أن تَعقِد عقد النكاح على نفسها دون وَليّها . وروى الدَّارَقُطْنِيُّ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُزوِّج المرأةُ المرأةَ ولا تُزوِّج المرأةُ نفسَها فإن الزانيـة هى التى تزوّج نفسها" . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود من حديث سفيان عن الزُّهرىّ عن عُروةَ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيُّما آمرأةٍ نُكِحت بغير إذن وليّها فنكاحها باطل — ثلاث مرات — فإن دخل بها فالمهر لها بما أصاب منها فإن تشاجروا فالسلطان وليُّ من لا وليَّ له" . وهذا الحديث صحيح . ولا آعتبار بقول ابن عُلَيّةَ عن ابن جريج أنه قال : سألت عنه الزهرىَّ فلم يعرفه ، ولم يقل هذا أحد عن آبن جريج غيرُ آبن عُلَيّةَ ؛ وقد رواه جماعة عن الزهرى لم يذكروا ذلك ، ولو ثبت هذا عن الزهرىّ لم يكن فى ذلك حجةٌ ؛ لأنه قد نقله عنه ثقات منهم سليمان بن موسى وهو ثقةٌ إمامٌ

(١) العضل : المنع .

وجعفرُ بنُ ربيعة ، فلو نسيه الزهرى لم يضرّه ذلك ؛ لأن النسيان لا يُعصم منه ابن آدم ؛ صلى الله عليه وسلم : "نَسِيَ آدمُ فنسيت ذرّيتُه" . وكان صلى الله عليه وسلم يَنْسَى ؛ فمن سـ أحْرَى أن يَنْسى ، ومن حفظ فهو حجة على من نَسِيَ ؛ فاذا روى الخبرَ ثقةٌ فلا يضره نسـ من نَسِيَه ؛ هذا لو صح ما حكى ابن عُلَيّة عن ابن جُرَيج ، فكيف وقد أنكر أهل العلم ذ من حكايته ولم يعرّجوا عليها .

قلت : وقد أخرج هذا الحديثَ أبو حاتم محمدُ بن حِبّان التميمى البُسْتى فى المسـ الصحيح له — على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع فى سندها ، ولا ثبوتِ جَرْح فى ناقلها عن حفص بن غِيَاث عن ابن جُريج عن سليمان بن موسى عن الزهرى عن عروة عن عائ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا نكاحَ إلا بولِيٍّ وشاهِدَيْ عَدْلٍ وما كان من نكا على غير ذلك فهو باطل فإن تشاجروا فالسلطان وَلِيُّ من لا وَلِيَّ له" . قال أبو حاتم : لم يق أحد فى خبر ابن جُريج عن سليمان بن موسى عن الزُّهْرى هذا : "وشاهِدَيْ عَدْلٍ" إلا ثلا أنفُسٍ : سُوَيدُ بن يحيى الأموى عن حفص بن غياث وعبدُ الله بنُ عبد الوهاب الجمحى عن خالد الحارث وعبدُ الرحمن بن يونس الرّقّى عن عيسى بن يونس ؛ ولا يصح فى الشاهدين غيرُ هذا الخبر و إذا ثبت هذا الخبر فقد صرّح الكتابُ والسنةُ بأن لا نكاح إلا بوَلِيّ ؛ فلا معنى لما خالفهما وقد كان الزُّهرى والشّعبى يقولان : إذا زوّجت المرأةُ نفسَها كفؤًا بشاهدين فذلك نكا جائز . وكذلك كان أبو حنيفة يقول : إذا زوّجت المرأةُ نفسَها كفؤًا بشاهدين فذلك نكا جائزٌ ؛ وهو قول زُفَر . و إن زوّجت نفسَها غيرَ كُفْءٍ فالنكاحُ جائزٌ ، وللأولياء أن يفرّقو بينهما . قال ابن المنذر : وأما ما قاله النعمان فمخالف للسُّنة ، خارجٌ عن قول أكثر أهل العلم وبالخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال أبو يوسف : لا يجوز النكاح إلا بوَلِيٍّ فإن سَلّم الوَلِيُّ جاز ، و إن أبَى أن يُسلِّم والزوج كُفْءٌ أجازه القاضى . و إنما يتمّ النكاحُ فى قوله حين يجيزه القاضى ؛ وهو قولُ محمد بن الحسن ؛ وقد كان محمدُ بنُ الحسن يقول : يأمر القاضى الولى بإجازته ؛ فإن لم يفعل استأنف عَقْدًا . ولا خلافَ بين أبى حنيفة وأصحابه أنه إذا أذِن لهـ

وليُّها فعقدت النكاحَ بنفسها جاز. وقال الأوزاعيّ: اذا ولَّت المرأةُ رجلا فزوّجها كفؤا فالنكاح جائز، وليس للولىّ أن يفرّق بينهما ؛ إلا أن تكون عربية تزوّجت مَوْلًى ؛ وهذا نحو مذهب مالك على ما يأتى . وحمل القائلون بمذهب الزُّهْرِىّ وأبى حنيفة والشعبيّ قولَه عليه السلام: "لا نكاح الا بولِىٍّ" على الكمال لاعلى الوجوب، كما قال عليه السلام: "لا صلاةَ لجار المسجد إلا فى المسجد" و "لا حظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة" . واستدلوا على هذا بقوله تعالى : «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ»، وقوله تعالى : «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ»، وبما روى الدَّارَقُطْنِىّ عن سِماكِ بنِ حربٍ قال: جاء رجل إلى علىّ رضى الله عنه فقال : امرأةٌ أنا وليُّها تزوّجت بغير إذنى؟ فقال علىّ : يُنظر فيما صنعت ، فإن كانت تزوّجت كفؤا أَجَزْنا ذلك لها ، وإن كانت تزوّجتْ من ليس لها بكفء جعلنا ذلك إليك . وفى الموطّأ أن عائشة رضى الله عنها زوّجت بنت أخيها عبد الرحمن وهو غائب ، الحديث . وقد رواه ابن جُرَيج عن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكحت رجلا هو المُنذر بن الزُّبير امرأةً من بنى أخيها فضربت بينهم بسِتْرٍ ، ثم تكلّمت حتى اذا لم يبق إلا العقدُ أمرت رجلا فأنكح ، ثم قالت : ليس على النساء إنكاح . فالوجه فى حديث مالكٍ أن عائشة قرّرت المهرَ وأحوالَ النكاح ، وتولّى العقدَ أحدُ عَصَبتها ، ونُسِب العقد الى عائشةَ لمّا كان تقريرُه إليها .

الثالثــة — ذكر ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : وآختلفت الرواية عن مالكٍ فى الأولياء ، من هم ؟ فقال مرّة : كل مَن وضع المرأةَ فى منْصب حسَن فهو وليُّها ، سواءٌ كان من العصبة أو من ذوى الأرحام أو الأجانب أو الإمام أو الوصىّ . وقال مرّة : الأولياء من العصبة ، فمن وضعها منهم فى منصب حسَن فهو ولىٌّ . وقال أبو عمر : قال مالك فيما ذكر ابنُ القاسم عنه : إن المرأة إذا زوّجها غيرُ وليّها بإذنها فإن كانت شريفةً لها فى الناس حالٌ كان وليُّها بالخيار فى فسخ النكاح وإقراره ، وإن كانت دنيئة كالمعتَقَةِ (١) والسَّوداء والسِّعاية (٢) والمسلمانية (٣) ، ومن

---

(١) قال مالك : هم قوم من القبط يقدمون من مصر الى المدينة .   (٢) السعاية : البغىّ .
(٣) فى الأصول : «الاسلامية» والتصويب عن شرح الخرشى وحاشية العدوى .

لا حال لهـا جاز نكاحُها ، ولا خيارَ لوليِّها لأن كلّ واحدٍ كُفْءٌ لهـا ؛ وقـد رُوى عن ما
أن الشريفة والدّنيئة لا يزوّجها إلا وليُّها أو السلطانُ ؛ وهذا القول اختاره ابنُ المنذر، قال
وأما تفريق مالكٍ بين المسكينة والتى لها قَدْرٌ فغيرُ جائز ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد سوّ
بين أحكامهم فى الدّماء فقال : "المسلمون تتكافؤ دماؤهم" . و إذا كانوا فى الدّماء سواءً ف
فى غيرذلك شيء واحدٌ. وقال إسماعيل بنُ إسحاق : لمـّا أمر الله سبحانه بالنكاح جعلَ المؤم
بعضَهم أولياءَ بعضٍ فقال تعالى: « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » والمؤمنون
فى الجملة هكذا يرث بعضهم بعضا ؛ فلو أن رجلا مات ولا وارثَ له كان ميراثُه لجماعةِ المسلمين
ولو جَنَى جنايةً لَعَقَل عنـه المسلمون ، ثم تكون ولايةٌ أقربُ من ولايةٍ ، وقرابةٌ أقربُ ،
قرابة . و إذا كانت المرأة بموضع لا سلطانَ فيه ولا وَلِيَّ لها فإنها تصيِّر أمرَها إلى مَن يوثَق
من جيرانها ، فيزوّجُها و يكون هو وليَّها فى هـذه الحال ؛ لأن الناس لا بُدَّ لهم من التزويج
و إنما يعملون فيه بأحسنِ ما يمكن ؛ وعلى هذا قال مالكٌ فى المرأة الضعيفة الحال : إنه يزوّج
مَن تُسنِد أمرَها إليـه ، لأنها ممن تضعف عن السلطان فأشبهت من لا سلطانَ بحضرتها
فرجعت فى الجملة إلى أن المسلمين أولياؤها ؛ فأمّا إذا صيّرت أمرَها الى رجل وتركت أولياء
فإنهـا أخذت الأمرَ من غير وجهـه ، وفعلتْ ما ينكره الحاكمُ عليها والمسلمون ؛ فيُفسخ ذلك
النكاحُ من غير أن يُعلم أن حقيقته حرام ؛ لمـا وصفنا من أن المؤمنين بعضُهم أوليـاءُ بعض
ولمـا فى ذلك من الاختلاف ؛ ولكن يُفسخ لتناول الأمر من غير وجهه ، ولأنه أحْوطُ للفرو
ولتحصينها ؛ فاذا وقع الدخول وتطاول الأمر وولَدت الأولادَ كان صوابا لم يجز الفسخ ؛ لأ
الأمور إذا تفاوتت لم يُرَد منها إلا الحرامُ الذى لا يُشكّ فيـه ، ويُشبّه ما فات من ذلك بحُ
الحاكم إذا حكم بحكم لم يُفسخ إلا أن يكون خطأً لا شكّ فيه . وأما الشافعيّ وأصحابُه فالنكا
عندهم بغير وليٍّ مفسوخٌ أبدا قبل الدخول و بعده ، ولا يتوارثان إن مات أحدهما . والو
عندهم من فرائض النكاح ؛ لقيام الدليل عندهم من الكتاب والسنة : قال الله تعـالى
« وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » كما قال : « فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ » ، وقال مخاطبا للأوليـاء

« فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ » . وقال عليه السلام : « لَا نكاح إلا بولِيٍّ » . ولم يفرّقوا بين دَنِيّة الحال والشريفة ، لإجماع العلماء على أن لا فرق بينهما في الدّماء؛ لقوله عليه السلام : "المسلمون تتكافؤ دماؤهم" . وسائر الأحكام كذلك . وليس في شيء من ذلك فرق بين الرفيع والوضيع في كتاب ولا سُنّة .

الرابعة — واختلفوا في النكاح يقع على غير ولّى ثم يُجيزه الولىُّ قبل الدخول؛ فقال مالك وأصحابُه إلا عبد الملك : ذلك جائز، إذا كانت إجازته لذلك بالقرب؛ وسواء دخل أو لم يدخل . هذا إذا عقد النكاح غيرُ ولىّ ولم تعقده المرأةُ بنفسها؛ فإن زوّجت المرأةُ نفسَها وعقدت عُقدة النكاح من غير ولىّ قريب ولا بعيد من المسلمين فإن هذا النكاح لا يُقَرّ أبدا على حال وإن تطاول وولَدَت الأولاد؛ ولكنه يُلْحق الولد إن دخل، ويسقط الحدّ؛ ولا بد من فسخ ذلك النكاح على كلّ حال . وقال ابن نافع عن مالكٍ : الفسخ فيه بغير طلاق .

الخامسة — واختلف العلماء في منازل الأولياء وترتيبهم؛ فكان مالكٌ يقول : أوّلهم البنون وإن سَفَلوا ، ثم الآباء، ثم الإخوة للأب والأم ، ثم للأب ، ثم بنو الإخوة للأب والأمّ، ثم بنو الإخوة للأب ، ثم الأجداد للأب وإن عَلَوْا، ثم العمومة على ترتيب الإخوة ، ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة وإن سَفلوا ، ثم المولى ثم السلطان أو قاضيه . والوصىُّ مقدّم في إنكاح الأيتام على الأولياء، وهو خليفة الأب ووكيلُه ؛ فأشبه حاله لو كان الأب حيّا . وقال الشافعيّ : لا ولايةَ لأحد مع الأب ؛ فإن مات فالجدّ ، ثم أبُ أبِ الجَدّ ؛ لأنهم كلهم آباء . والولاية بعد الجد للإخوة ، ثم الأقرب . قال المُزَنيُّ : قال في الجديد : من انفرد بأُمٍّ كان أَوْلَى بالنكاح ؛ كالميراث . وقال في القديم : هما سواء .

قلت : وروى المدنيّون عن مالكٍ مثلَ قولِ الشافعيّ ، وأنّ الأبَ أَوْلى من الابن؛ وهو أحد قولَىْ أبي حنيفة؛ حكاه الباجىّ . ورُوى عن المغيرة أنه قال : الجَدُّ أَوْلَى من الإخوة؛ والمشهور من المذهب ما قدّمناه . وقال أحمد : أحقّهم بالمرأة أن يزوّجها أبوها، ثم الابن، ثم الأخ ، ثم ابنُه ، ثم العمّ . وقال إسحاق : الابن أَوْلى من الأب؛ كما قاله مالكٌ ، واختاره ابنُ المنذر؛ لأن عمرَ بنَ أمّ سلمة زوّجها بإذنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : أخرجه النَّسائىّ عن أمّ سلمة وترجم له «إنكاح الابن أمّه» .

قلت : وكثيرا ما يستدل بهذا علماؤنا وليس بشىء؛ والدليل على ذلك ما ثبت فى الصّحيح أن عمر بنَ أبى سلمة قال : كنت غلاما فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يد تطيش فى الصحفة؛ فقال : "يا غلامُ سَمِّ اللهَ وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك" . وقال أبو عمر فى كتاب الاستيعاب : عمر بن أبى سلمة يُكنَى أبا حفص، وُلد فى السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة . وقيل : إنه كان يومَ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ابنَ تسع سنين

قلت : ومن كان سِنُّه هذا لا يصلح أن يكون وليًّا، ولكن ذكر أبو عمر أن لأبى سلمة من أمّ سلمة ابنا آخرَ اسمه سلمة ، وهو الذى عقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أُمّ سلمة ، وكان سلمةُ أسنَّ من أخيه عمر بن أبى سلمة ، ولا أحفظ له روايةً عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقد روى عنه عمرُ أخوه .

السادسة — واختلفوا فى الرجل يزوّج المرأةَ الأَبْعَدِ من الأولياء . كذا وقع ، والأفرد عبارةً أن يقال : اختُلف فى المرأة يزوّجها من أوليائها الأبعدُ والأقربُ(١) حاضر؛ فقال الشافعىّ النكاح باطل . وقال مالكٌ : النكاح جائز . قال ابن عبد البر : إن لم ينكر الأقعدُ شيئا من ذلك ولا ردّه نفَذ ، وإن أنكره وهى ثيّب أو بِكْرٌ بالغٌ يتيمةٌ ولا وصىّ لها فقد اختلف قول مالكٍ وأصحابِه وجماعةٍ من أهل المدينة فى ذلك؛ فقال منهم قائلون : لا يُردّ ذلك وينفذ لأنه نكاح انعقد بإذن ولىٍّ من الفخذ والعَشيرة . ومن قال هذا منهم لا ينْفُذ قال : إنما جاءت الرُّتبة فى الأولياء على الأفضل والأَوْلى ، وذلك مستحب وليس بواجب . وهذا تحصيل مذهب مالكٍ عند أكثر أصحابه، وإياه اختار إسماعيل بن إسحاق وأتباعُه . وقيل : ينظر السلطانُ فى ذلك ويسأل الولىّ الأقرب على ما ينكره ، ثم إن رأى إمضاءه أمضاه ، وإن رأى أن يردّه ردّه . وقيل : بل للأقعد ردّه على كل حال ، لأنه حقٌّ له . وقيل : له ردّه وإجازته مالم يطل مكثها وتلِد الأولاد؛ وهذه كلها أقاويل أهل المدينة .

(١) فى بعض نسخ الأصل : « والأقعد » . يقال : فلان أقعد من فلان : أى أقرب منه الى جده الأكبر .

السابعـــة — فلو كان الولىّ الأقرب محبوسا أو سـفيها زوّجها من يليـه من أوليائها، وعُدّ كالميت منهم؛ وكذلك اذا غاب الأقرب من أوليائها غيبة بعيدة أو غيبة لا يُرجى لها أوْبةٌ سريعةٌ زوّجها من يليه من الأولياء . وقـد قيل : إذا غاب أقرب أوليائها لم يكن للذى يليه تزويجها، و يزوّجها الحاكم، والأوّل قول مالك .

الثامنـــة — و إذا كان الوليّان قـد استو يا فى القُعْدُد (١) وغاب أحدهما وفوّضت المـرأة عقد نكاحها الى الحاضر لم يكن للغائب إن قدم نُكْرُه . و إن كانا حاضرَيْن ففوّضت أمرها إلى أحدهما لم يزوّجها إلا بإذن صاحبه؛ فإن اختلفا نظر الحاكم فى ذلك، وأجاز عليها رأيَ أحسنهما نظرا لها؛ رواه ابن وهب عن مالك .

التاســـعة — وأما الشهادة على النكاح فليست بركن عنـد مالكٍ وأصحابِه؛ و يكفى من ذلك شهرتُه والإعلانُ به، وخرج عن أن يكون نكاحَ سِرٍّ . قال ابن القاسم عن مالك : لو زوّج ببيّنة، وأمرهم أن يكتموا ذلك لم يجز النكاح؛ لأنه نكاحُ سِرّ . و إن تزوّج بغير بيّنة على غير استسرار جاز ، وأشهدا فيما يستقبلان . وروى ابن وهب عن مالك فى الرجل يتزوّج المرأة بشهادة رجلين و يستكتمهما قال : يُفَرَّق بينهما بتطليقة ولا يجوز النكاح، ولها صداقها إن كان أصابها ، ولا يُعاقب الشاهدان . وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأصحابُهما : إذا تزوّجها بشاهدين وقال لهما : اكتما جاز النكاح . قال أبو عمر : وهذا قول يحيى بنِ يحيى الليثىّ الأندلسىّ صاحبنا ، قال : كلّ نكاح شَهِد عليه رجلان فقد خرج من حدّ السرّ؛ وأظنه حكاه عن اللّيث ابن سـعد . والسِّرّ عند الشافعىّ والكوفيين ومن تابعهم : كلّ نكاح لم يَشهد عليـه رجلان فصاعدًا و يفسخ على كل حال .

قلت : قولُ الشافعى أصحّ للحديث الذى ذكرناه . وروى عن ابن عباس أنه قال : لا نكاح إلا بشاهِدَىْ عَدْلٍ ووَلِيٍّ مُرشِد؛ ولا مخالف له من الصحابة فيما علمتُه . واحتجّ مالكٌ

(١) القعدد (بضم القاف وسكون العين وضم الدال المهملة وفتحها) : القـريب من الجد الأكبر . وقيـل : هو أملك القرابة فى النسب .

لمذهبه أن البيوع التى ذكرها الله تعالى فيها الإشهادُ عند العقد؛ وقد قامت الدلالة بأن ذلك ليس من فرائض البيوع . والنكاح الذى لم يَذكر اللهُ تعالى فيه الأشهادَ أَحْرَى بألّا يكون الإشهاد فيه من شروطه وفرائضه؛ وإنما الغرض الإعلانُ والظهورُ لحفظ الأنساب . والإشهاد يصلح بعد العقد للتداعى والاختلاف فيما ينعقد بين المتناكحين؛ وقد رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أعلنوا النكاح" . وقولُ مالكٍ هذا قولُ ابنِ شهاب وأكثرِ أهل المدينة .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ ﴾ أى مملوك . ﴿ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ﴾ أى حسيب ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ أى حسبه وماله؛ حسب ما تقدّم . وقيل المعنى : ولرجل مؤمن ، وكذا ولأَمَة مؤمنة ، أى ولا مرأة مؤمنة ، كما بيّناه . قال صلى الله عليه وسلم : "كلّ رجالِكم عَبِيد الله وكلّ نسائكم إماء الله" . وقال : "لا تمنعوا إماء الله مساجدَ الله" . وقال تعالى : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » . وهذا أحسن ما حُمل عليه القول فى هذه الآية ، وبه يرتفع النزاع ويزول الخلاف؛ والله الموفق .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة للمشركين والمشركات . ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أى إلى الأعمال الموجبة للنار؛ فإن صحبتهم ومعاشرتهم توجب الانحطاط فى كثير من هواهم مع تربيتهم النَّسلَ . ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ ﴾ أى إلى عمل أهل الجنة . ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أى بأمره؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ عن السُّدّى أن السائل ثابتُ ابن الدَّحْداح . وقيل : أُسيد بن حُضير وعَبّاد بن بشر؛ وهو قول الأكثرين . وسببه فيما قال

قتادة وغيره : أن العرب فى المدينـة وما والاها كانوا قد ٱستنّوا بسُنّة بنى إسرائيل فى تجنُّب مؤاكلة الحائض ومساكنتها؛ فنزلت هذه الآية . وقال مجاهد : كانوا يتجنّبون النساء فى الحيض، ويأتونهنّ فى أدبارهن مدّةَ زمن الحيض؛ فنزلت . وفى صحيح مسلم عن أنس : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنّ فى البيوت؛ فسأل أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وسلم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى ٱلْمَحِيضِ» إلى آخر الآية؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اصنعوا كلَّ شيء إلا النكاح" فبلغ ذلك اليهودَ فقالوا : ما يريد هـذا الرجُل أن يَدَعَ من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه؛ فجاء أُسـيد بن الحضير وعبّاد بن بشر فقالا : يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهنّ ؟ فتغيّر وجهُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنه وَجَد عليهما (١)؛ فخرجا فاستقبلهما هديّةٌ من لَبَنٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل فى آثارهما فسقاهما؛ فعرفا أنه لم يَجِدْ عليهما . قال علماؤنا : كانت اليهود والمجوس تجتنب الحـائض؛ وكانت النصارى يجامعون الحُيّض؛ فأمر الله بالقصد بين هذين .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ المحيض : الحيض، وهو مصدر؛ يقال : حاضت المرأة حَيْضا ومَحَاضا ومَحِيضا، فهى حائض، وحائضة أيضا؛ عن الفرّاء . وأنشد :

* كحائضةٍ يُزْنَى بها غيرَ طاهرِ *

ونساء حُيّض وحوائض . والحَيضة : المرّة الواحدة . والحِيضة (بالكسر) الاسم، [والجمع] الحِيض . والحِيضة أيضا : الخِـرقة التى تستثْفِر (٢) بها المـرأة . قالت عائشة رضى الله عنها : ليتنى كنتُ حِيضَة مُلقاة . وكذلك المحيضة، والجمع المحائض . وقيـل : المحيض عبارة عن الزمان والمكان، وعن الحَيْض نفســه؛ وأصـله فى الزمان والمكان مجاز فى الحيض . وقال الطبرى : المحيض اسم للحيض؛ ومثله قول رُؤبة فى العيش :

إليك أشكو شدّةَ المعيش * ومَرَّ أعوامٍ نَتَفْنَ رِيشى

(١) وجد عليهما : غضب . ومضارعه بضم الجيم وكسرها . (٢) الاستثفار : أن تشد المرأة فرجها بخرقة عريضة، أو قطنة تحتشى بها وتوثق طرفيها فى شىء تشده على وسطها فتمنع سيلان الدم .

وأصل الكلمة من السيلان والانفجار؛ يقال : حاض السيل وفاض، وحاضت الشجرة أى سالت رطوبتها؛ ومنه الحيض، أى الحوض؛ لأن الماء يحيض اليه أى يسيل؛ والعرب تُدخل الواوَ على الياء والياءَ على الواو؛ لأنهما من حَيِّز واحد. قال ابن عرفة : المحيض والحيض اجتماع الدم إلى ذلك الموضع ؛ وبه سُمِّىَ الحوض لاجتماع الماء فيه؛ يقال : حاضت المرأة وتحيّضت ودَرَست وعَرَكت وطَمِثَت ، تحيض حَيْضا ومَحاضا ومَحِيضا إذا سال الدم منها فى أوقات معلومة . فإذا سال فى غير أيام معلومة ومن غير عِرْق المَحِيض قلتَ : ٱستُحِيضت، فهى مستحاضة . ابن العربى . ولها ثمانية أسماء : الأوّل — حائض . الثانى — عارك . الثالث — فارك . الرابع — طامس(١) . الخامس — دارس . السادس — كابر . السابع — ضاحك . الثامن — طامث . قال مجاهد فى قوله تعالى : « فضَحِكت » يعنى حاضت . وقيل فى قوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ» يعنى حِضْن . وسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثالثة — أجمع العلماء على أن للمرأة ثلاثة أحكام فى رؤيتها الدَّمَ الظاهرَ السائلَ من فرجها؛ فمن ذلك الحيْضُ المعروفُ، ودَمُه أسودُ خاثِرٌ تعلوه حُمرةٌ؛ تترك له الصلاةَ والصومَ؛ لاخلاف فى ذلك . وقد يتصل وينقطع ؛ فإن ٱتصل فالحكم ثابتٌ له ، وإن انقطع فرأت الدمَ يوما والطُّهرَ يوما ، أو رأت الدَّمَ يومين والطهرَ يومين أو يومًا فإنها تترك الصلاةَ فى أيام الدّم ، وتغتسل عند انقطاعه وتُصلّى؛ ثم تُلفِّق أيام الدّم وتُلغِى أيامَ الطهر المتخللةَ لها ، ولا تحتسب بها طهرا فى عدّة ولا ٱستبراء . والحَيْضُ خِلقةٌ فى النساء وطَبعٌ معتاد معروف منهنّ . روى البخارىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أَضْحًى أو فِطرٍ الى المُصَلَّى فمرّ على النساء فقال : "يا معشر النساء تصدّقن فإنى أُرِيتُكُنّ أكثرَ أهلِ النار — فقلن : وبِمَ يا رسول الله؟ قال — تُكثِرْنَ اللَّعنَ وتَكْفُرْنَ العشيرَ ما رأيت من ناقصاتِ عقلٍ ودِينٍ أذْهَبَ لِلُبِّ الرجلِ الحازمِ من إحداكُنّ — قلن : وما نقصانُ عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال — أليس شهادةُ المرأةِ مثلَ نصفِ شهادةِ الرجلِ — قلن : بلى؛ قال : فذلك من نقصان

(١) كذا فى الأصول وأحكام القرآن لابن العربى .

عقلها أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تَصُمْ — قلن : بلى يارسول الله ؛ قال — فذلكِ من نقصان دينها " .

وأجمع العلماء على أن الحائض تقضى الصومَ ولا تقضى الصلاةَ ؛ لحديث مُعاذةَ قالت : سألت عائشة فقلت : ما بالُ الحائض تقضى الصومَ ولا تقضى الصلاةَ؟ فقالت : أَحَرُورِيَّةٌ (١) أنتِ؟ قلتُ : لستُ بحرورية ، ولكني أسألُ . قالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة ؛ خرّجه مسلم . فإذا انقطع عنها كان طهرها منه الغسل ؛ على ما يأتى .

الرابعـــة — واختلف العلماء فى مقدار الحيض ؛ فقال فقهاء المدينة : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسةَ عشرَ يوما ، وجائزأن يكون خمسةَ عشرَ يوما فما دون ، وما زاد على خمسةَعشرَ يوما لايكون حيضا وإنما هو استحاضة ؛ هذا مذهب مالكٍ وأصحابِه . وقد رُوِى عن مالكٍ أنه لاوقت لقليل الحيض ولا لكثيره الا ما يوجد فى النساء ؛ فكأنه ترك قوله الأوّلَ ورجع إلى عادة النساء . وقال محمد بن مسلمة : أقلّ الطهر خمسة عشر يوما ؛ وهو أكثر اختيار البغداديين من المالكيين ، وهو قول الشافعيّ وأبى حنيفة وأصحابهما والثوريّ ؛ وهو الصحيح فى الباب ؛ لأن الله تعالى قد جعل عِدّة ذواتِ الأقراء ثلاثَ حِيَض ، وجعل عِدّة من لا تحيض من كِبر أو صِغر ثلاثةَ أشهر ؛ فكان كلُّ قَــرْءٍ عِوَضًا من شهر ، والشهر يجمع الطُّهْر والحيض . فإذا قلّ الحيض كثر الطّهر ، وإذا كثر الحيض قلّ الطهر ، فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يوما وجب أن يكون بإزائه أقلُّ الطهر خمسة عشر يوما ليكمل فى الشهر الواحد حيض وطهر ، وهو المُتعارَف فى الأغلب من خِلْقة النساء وجِبِلّتهن مع دلائل القرآن والسُّنّة . وقال الشافعيّ : أقلّ الحيض يومٌ وليلة ، وأكثره خمسة عشر يوما . وقد رُوِى عنه مثلُ قولِ مالكٍ : إن ذلك مردود الى عُرْف النساء . وقال أبو حنيفــة وأصحابه : أقلّ الحيض ثلاثة أيام ، وأكثره عشرة . قال ابن عبــد البرّ : ما نقص عند هؤلاء عن ثلاثة أيام فهو استحاضة ، لا يمنع من الصلاة إلا عند أوّل ظهوره ؛

(١) الحرورية : طائفة من الخوارج نسبوا إلى «حروراء» وهو موضــع قريب من الكوفة ، وهم الذين قاتلهم على رضى الله عنــه ، وكان عندهم من التشديد فى الدين ما هو معروف ؛ فلمـا رأت عائشة هــذه المرأة تشدد فى أمر الحيض شبهتها بالحرورية . وقيل : أرادت أنها خالفت السنة وخرجت عن الجماعة .

لأنه لا يُعلم مبلغُ مدّته. ثم على المرأة قضاءُ صلاةِ تلك الأوقات، وكذلك ما زاد على عشرة أيام عند الكوفيين. وعند الحجازيين ما زاد على خمسةَ عشرَ يوما فهو استحاضة، وما كان أقلَّ من يوم وليلة عند الشافعيّ فهو استحاضة؛ وهو قول الأوزاعيّ والطبريّ. وممن قال أقلّ الحيض يومٌ وليلةٌ وأكثره خمسة عشرَ يوما عطاءُ بنُ أبي رباح وأبو ثور وأحمدُ بن حنبل. قال الأوزاعي: وعندنا امرأة تحيض غُدْوةً وتطهُر عشيّةً. وقد أتينا على ما للعلماء في هذا الباب — من أكثر الحيض وأقلّه وأقلّ الطهر، وفي الاستظهار، والحجة في ذلك — في «المقتبَس في شرح موطأ مالك بن أنس». فإن كانت بِكْراً مبتدَأَةً فإنها تجلس أوّلَ ما ترى الدمَ في قول الشافعيّ خمسةَ عشر يوما، ثم تغتسل وتُعيد صلاة أربعةَ عشرَ يوما. وقال مالك: لا تقضي الصلاةَ ويُمسِك عنها زوجُها. عليّ بن زياد عنه: تجلس قَدْر لِداتها؛ وهذا قول عطاءٍ والثوريّ وغيرِهما. ابن حنبل: تجلس يوما وليلة، ثم تغتسل وتصلي ولا يأتيها زوجُها. أبو حنيفة وأبو يوسف: تَدَعُ الصلاة عشرا، ثم تغتسل وتصلي عشرين يوما، ثم تترك الصلاة بعد العشرين عشرا؛ فيكون هذا حالها حتى ينقطع الدم عنها. أمّا التي لها أيام معلومة فإنها تستظهر على أيامها المعلومة بثلاثة أيام؛ عن مالك: مالم تجاوز خمسة عشر يوما. الشافعيّ: تغتسل إذا انقضت أيامُها بغير استظهار.

والثاني من الدّماء: دمُ النفاس عند الولادة؛ وله أيضا عند العلماء حَدٌّ محدود اختلفوا فيه؛ فقيل: شهران؛ وهو قول مالك. وقيل: أربعون يوما؛ وهو قول الشافعيّ. وقيل غير ذلك. وطُهْرُها عند انقطاعه. والغسل منه كالغسل من الجنابة. قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: ودم الحيض والنفاس يمنعان أحد عشر شيئا: وهي وجوب الصلاة وصحةُ فعلها وفعلُ الصوم دون وجوبه — وفائدة الفرق لزوم القضاء للصوم ونفيُه في الصلاة — والجماعُ في الفرج وما دونه والعدّةُ والطلاقُ والطوافُ ومسُّ المصحف ودخولُ المسجد والاعتكافُ فيه؛ وفي قراءة القرآن روايتان.

والثالث من الدّماء: دمٌ ليس بعادة ولا طَبْع منهن ولا خِلْقة، وإنما هو عِرْق انقطع، سائلُه دمٌ أحمرُ لا ٱنقطاع له إلا عند البُرْء منه؛ فهذا حكمه أن تكون المرأة منه طاهرةً لا يمنعها من صلاة ولا صـوم؛ بإجماع من العلماء وٱتفاق من الآثار المرفوعة إذا كان معلوما أنه دَمُ عِرْق لا دَمُ حيض. روى مالكٌ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قالت فاطمةُ بنتُ أبى حُبَيْش: يارسول الله، إنى لا أطهرُ! أفأَدَعُ الصلاةَ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما ذلكِ عِرْقٌ وليس بالحيضة إذا أقبلتِ الحيضة فدَعِى الصلاة فاذا ذهب قدرها فٱغسلى عنك الدمَ وصلِّى". وفى هذا الحديث مع صحته وقلة ألفاظه ما يفسّر لك أحكامَ الحائض والمستحاضة، وهو أصح ما رُوِى فى هذا الباب، وهو يردُّ ما رُوِى عن عقبة ابن عامر ومكحول أن الحائض تغتسل وتتوضأ عند كل وقت صلاة، وتستقبل القبلة ذاكرة لله عزّ وجلّ جالسة. وفيه: أن الحائض لا تُصلِّى، وهو إجماع من كافّة العلماء إلا طوائفَ من الخوارج يرون على الحائض الصلاةَ. وفيه ما يدل على أن المستحاضة لا يلزمها غيرُ ذلك الغسلِ الذى تغتسل من حيضها، ولو لزمها غيره لأمرها به. وفيه ردّ لقول من رأى ذلك عليها لكل صلاة. ولقول من رأى عليها أن تجمع بين صلاتَىِ النهار بغُسل واحد، وصلاتَىِ الليل بغسل واحد وتغتسل للصبح. ولقول من قال: تغتسل من طهر الى طهر. ولقول سعيد بن المسيّب من طهر إلى طهر؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمرها بشىء من ذلك. وفيـه ردّ لقول من قال بالاستظهار؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمرها إذا علمت أن حيضتها قـد أدبرت وذهبت أن تغتسل وتصلى؛ ولم يأمرها أن تترك الصلاة ثلاثة أيام لانتظار حيض يجىء أوْ لا يجىء؛ والاحتياط إنما يكون فى عمل الصلاة لا فى تركها.

الخامســـة — قوله تعـالى: ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ أى هو شىء تتأذّى به المـرأة وغيرُها، أى برائحة دم الحيض. والأذى كناية عن القَذَر على الجملة. ويُطلق على القول المكروه؛ ومنه قوله تعالى: «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» أى بما تسمعه من المكروه. ومنه قوله تعـالى: «وَدَعْ أَذَاهُمْ» أى أَذَى المنافقين لا تُجازِهم إلا أن تؤمر فيهم. وفى الحـديث:

" وأميطوا عنه الأذى " يعني بـ « الأذى » الشعرَ الذى يكون على رأس الصبيّ حين يولد، يُحلق عنه يوم أسبوعه؛ وهي العقيقة . وفي حديث الإيمان : " وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" أي تنحيته؛ يعني الشوك والحجر، وما أشبه ذلك مما يتأذى به المارُّ . وقوله تعالى : « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ » وسيأتى .

السادســة — استدل من منع وطء المستحاضة بسيلان دمِ الاستحاضة، فقالوا : كلُّ دم فهو أذًى، يجب غَسلُه من الثوب والبدن؛ فلا فرق في المباشرة بين دم الحيض والاستحاضة لأنه كلَّه رجس . وأما الصلاة فرُخْصة وردت بها السُّنة كما يُصلَّى بسلس البول؛ هذا قول إبراهيم النخعيّ وسليمان بن يسار والحكم بن عيينة وعامرٍ الشعبيّ وابنِ سيرين والزهريّ. واختُلف فيه عن الحسن؛ وهو قول عائشة : لا يأتيها زوجُها؛ وبه قال ابن عُلَيّة والمغيرةُ ابن عبد الرحمن، وكان من أعلى أصحاب مالكٍ، وأبو مصعب، وبه كان يُفتي . وقال جمهور العلماء : المستحاضة تصوم وتُصلّي وتطوف وتقرأ، ويأتيها زوجها . قال مالك : جُلُّ أهلِ الفقه والعلم على هذا، وإن كان دمها كثيرا؛ رواه عنه ابنُ وهب . وكان أحمد يقول: أَحَبُّ اليّ ألّا يطأها إلا أن يطول ذلك بها . وعن ابن عباس في المستحاضة : لا بأس أن يصيبها زوجُها وإن كان الدم يسيل على عقبيها . وقال مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما ذلك عِرق وليس بالحيضة" . فإذا لم تكن حيضة فما يمنعه أن يصيبها وهي تُصلّي ! قال ابن عبد البر : لما حكم الله عز وجل في دم المستحاضة بأنه لا يمنع الصلاةَ وتعبّد فيه بعبادة غيرِ عبادة الحائض وجب ألّا يُحكَمَ له بشيء من حكم الحيض إلا فيما أجمعوا عليه من غَسله كسائر الدماء .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ أي في زمن الحيض، إن حملت المحيض على المصدر، أو في محل الحيض إن حملته على الاسم . ومقصودُ هذا النهي تركُ المجامعة .

وقد اختلف العلماء في مباشرة الحائض وما يُستباح منها؛ فرُوي عن ابن عباس وعَبيدةَ السَّلْماني أنه يجب أن يعتزل الرجلُ فراش زوجته إذا حاضت . وهذا قولٌ شاذٌّ خارجٌ عن

قول العلماء، وإن كان عمومُ الآية يقتضيه فالسُّنّة الثابتة بخلافه؛ وقد وقفَتْ على ابن عباس خالتُه ميمونةُ وقالت له : أراغب أنت عن سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم! وقال مالك والشافعيّ والأوزاعيُّ وأبو حنيفة وأبو يوسف وجماعةٌ عظيمة من العلماء : له منها ما فوق الإزار؛ لقوله عليه السلام للسائل حين سأله — : ما يَحِلّ لى من امرأتى وهى حائض؟ فقال — : "لِتشدّ عليها إزارَها ثم شأنَك بأعلاها"، وقولِه عليه السلام لعائشة حين حاضت : "شُدّى على نفسِك إزارَك ثم عُودِى الى مضجعِك" . وقال الثورى ومحمد بن الحسن وبعض أصحاب الشافعيّ : يجتنب موضعَ الدم؛ لقوله عليه السلام : "اصنعوا كلَّ شىء إلا النكاح" . وقد تقدّم . وهو قول داود، وهو الصحيح من قول الشافعيّ . وروى أبو مَعْشر عن ابراهيم عن مسروق قال : سألتُ عائشةَ : ما يحلّ لى من آمرأتى وهى حائض؟ فقالت : كلُّ شىء إلا الفرج . قال العلماء : مباشرةُ الحائض وهى مُتَّزِرة على الاحتياط والقطع للذريعة، ولأنه لو أباح فَخِذَيها كان ذلك منه ذريعةً الى موضع الدم المحرّم بإجماع؛ فأمر بذلك احتياطا، والمحرّم نفسُه موضعُ الدم؛ فتتفق بذلك معانى الآثار، ولا تضادّ، وبالله التوفيق .

الثامنــة — واختلفوا فى الذى يأتى آمرأته وهى حائض ماذا عليه؛ فقال مالك والشافعيّ وأبو حنيفة : يستغفر الله ولا شىء عليه؛ وهو قول ربيعةَ ويحيى بنِ سعيد، وبه قال داود . ورُوى عن محمد بن الحسن : يتصدّق بنصف دينار . وقال أحمدُ : يتصدّق بدينار أو نصفِ دينار . قال أحمد : ما أحْسنَ حديثَ عبدِ الحميد عن مِقْسَم عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يتصدّق بدينار أو نصفِ دينار" . أخرجه أبو داود وقال : هكذا الرواية الصحيحة قال : دينار أو نصفُ دينار؛ واستحبه الطبريُّ . فان لم يفعل فلا شىء عليه؛ وهو قول الشافعيّ ببغداد . وقالت فرقة من أهل الحديث : إن وَطِئ فى الدّم فعليه دينار، وإن وطئ فى انقطاعه فنصفُ دينار . وقال الأوزاعىّ : من وطئ امرأته وهى حائض تصدّق بخُمُسى دينار؛ والطُّرُق لهذا كلّه فى «سنن أبى داود والدَّارَقُطْنِيّ» وغيرهما . وفى كتاب الترمذى عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كان دما أحمرَ فدينارٌ وإن كان دما

اصفرّ فنصفُ دينـار". قال أبو عمر : حجة من لم يوجب عليه كفارةً إلا الاستغفارَ والتو اضطرابُ هـذا الحديث عن ابن عباس، وأن مثله لا تقوم به حُجّة، وأن الذّمة على البراءة ولا يجب أن يثبت فيها شيء لمسكين ولا غيره إلا بدليل لا مدفعَ فيه ولا مَطعنَ عليه؛ وذلك معدوم في هذه المسئلة .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ قال ابن العـربي : سمعت الشاشيَّ في مجلس النَّظر يقول : اذا قيل لا تَقْرَب (بفتح الراء) كان معناه : لا تَلَبَّسْ بالفعل و إن كان بضم الراء كان معناه : لا تَدْنُ منه . وقرأ نافعٌ وأبو عمرو وابنُ كثير وابنُ عامرٍ وعاصم في رواية حفص عنـه « يَطْهُرْنَ » بسكون الطاء وضم الهـاء . وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصم في رواية أبي بكر والمفضّل «يَطَّهَّرن» بتشديد الهاء والطاء وفتحهما . وفي مصحف أُبَيّ وعبد الله « يتطهرن » . وفي مصحف أنس بنِ مالكٍ « ولا تقربوا النساء في محيضهنّ واعتزلوهنّ حتى يتطهرن » . ورجّح الطبريُّ قراءةَ تشديد الطاء وقال : هي بمعنى يغتسلن ، لإجماع الجميع على أن حراما على الرجل أن يقرَب امرأته بعد انقطاع الدّم حتى تطهر . قال : و إنما الخلاف في الطهر ما هو؛ فقال قوم : هو الاغتسال بالمـاء . وقال قوم : هو وضُوء كوضوء الصلاة . وقال قوم : هو غسل الفرج؛ وذلك يُحلّها لزوجها و إن لم تغتسل من الحيضة، ورجّح أبو عليّ الفارسيّ قراءةَ تخفيف الطاء، إذ هو ثُلاثيٌّ مضادٌّ لطَمِث وهو ثلاثيّ .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ يعني بالمـاء؛ و إليـه ذهب مالك وجمهور العلماء، وأن الطهر الذي يَحِلّ به جماعُ الحائض التي يذهب عنها الدّمُ هو تطهرها بالمـاء كطهور الجنب، ولا يجزئ من ذلك تيممٌ ولا غيرُه؛ وبه قال مالك والشافعيّ والطبريّ ومحمدُ بن مسلمة وأهل المدينـة وغيرُهم . وقال يحي بن بُكير ومحمد بن كعب القَرَظيّ : إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماءَ حلّت لزوجها و إن لم تغتسل . وقال مجاهد وعكرمة وطاوس : انقطاع الدّم يحلّها لزوجها، ولكن بأن تتوضأ . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : إن انقطع دمُها بعـد مضيّ عشرة أيام جاز له أن يطأ قبـل الغسل ، و إن كان انقطاعه قبـل العشرة

لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت صلاة . وهذا تحكّم لا وجه له ؛ وقد حكموا للحائض بعد انقطاع دمها بحكم الحيض في العدّة وقالوا : لزوجها عليها الرجعةُ ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة ؛ فعلى قياس قولهم هــذا لا يجب أن تُوطأ حتى تغتسل ، مع موافقته أهل المدينــة . ودليلُنا أن الله ســبحانه علّق الحكم فيها على شرطين : أحدهما ــ انقطاع الدم ، وهو قوله تعالى « حتى يَطْهُرْنَ » . والثاني ــ الاغتسال بالمــاء ، : وهو قوله تعالى : «حتى يتطهرن» أى يفعلن الغسل بالمــاء ؛ وهذا مثل قوله تعالى : « وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » الآية ؛ فعلق الحكمَ وهو جواز دفع المــالَ على شرطين : أحدهما ــ بلوغُ المكلَّف النكاحَ . والثاني ــ إيناس الرُّشْد ، وكذلك قوله تعالى في المطلقة : « فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » ثم جاءت السنة باشتراط العُسَيْلة ؛ فوقف التحليل على الأمرين جميعا ، وهو انعقاد النكاح ووجودُ الوطء . احتج أبو حنيفة فقال : إن معنى الآية الغايةُ في الشرط هو المذكور في الغاية قبلها ؛ فيكون قولُهُ : «حتى يطهرن» مخففا هو بمعنَى قوله « يطّهّرن » مشدّدا بعينه ، ولكنه جمع بين اللغتين في الآية ؛ كما قال تعالى : « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » . قال الكُميت :

وما كانت الأنصار فيهــا أذلّةً * ولا غُيَّباً فيهــا إذ النــاسُ غُيَّبُ

وأيضا فان القراءتين كالآيتين فيجب أن يُعمل بهما ؛ ونحن نحمل كل واحدة منهما على معنًى ، فنحمل المخففة على ما اذا انقطع دَمُها للأقل ، فإنا لا نجوِّز وطأها حتى تغتسل ، لأنه لا يؤمن عوده . ونحمل القراءة الأخرى على ما إذا انقطع دمها للأكثر ؛ فيجوز وطؤها وإن لم تغتسل . قال ابن العــربي : وهذا أقوى ما لهم ؛ فالجواب عن الأوّل : أن ذلك ليس من كلام الفصحاء ولا ألسن البلغاء ؛ فان ذلك يقتضي التكرار في التعداد ، واذا أمكن حمل اللفظ على فائدة مجــردة لم يحمل على التكرار في كلام النــاس ، فكيف في كلام العليم الحكيم ! وعن الثــاني : أن كل واحد منهما محمول على معنًى دون معنى الآخر ؛ فيلزمهم إذا انقطع الدم ألا يُحكم لها بحكم الحيض قبل أن تغتسل في الرَّجعة ، وهم لا يقولون ذلك كما بيّناه ؛ فهي إذًا حائضٌ

والحائض لايجوز وطؤها اتفاقا، وأيضا فان ما قالوه يقتضي إباحة الوطء عند انقطاع الدم للأ
وما قلناه يقتضى الحَظْرَ، وإذا تعارض ما يقتضى الحظرَ وما يقتضى الإباحة ويُغلِّب باعثا
غُلِّب باعثُ الحظر، كما قال علىٌّ وعثمانُ فى الجمع بين الأختين بِمِلْك اليمين، أحلتهما آية وحرمة
أخرى، والتحريم أوْلى. والله أعلم.

الحادية عشرة — اختلف علماؤنا فى الكتابية هل تُجبَر على الاغتسال أم لا ؛ فقال مالك فى رواية ابن القاسم : نعم ؛ ليحِلَّ للزّوج وطؤها ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ » يقول بالماء، ولم يخُصّ مسلمة من غيرها. وروى أشهبُ عن مالكٍ أنها لا تُجبر على الاغتسال من الحيض ؛ لأنها غير معتقدة لذلك ؛ لقول الله تعالى : « وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » وهو الحيض والحمل وإنما خاطب الله عز وجل بذلك المؤمناتِ وقال : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » وبهذا كان يقول محمدُ بنُ عبد الحكم.

الثانية عشرة — وصفة غسل الحائض صفة غسلها من الجنابة، وليس عليها نقضُ شَعرها فى ذلك ؛ لما رواه مسلم عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله إنى أشُدُّ ضَفْرَ رأسي أفأنقضه لغسل الجنابة؟ قال : "لا إنما يكفيك أن تحْثِي على رأسك ثلاثَ حَثَياتٍ ثم تُفيضين عليك الماءَ فتطهرين" وفى رواية : أفأنقضه للحيضة والجنابة؟ فقال : "لا" زاد أبو داود : "واغْمِزِي قرونَك عند كل حَفْنة".

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى فجامعوهن، وهو أمر إباحة، وكَنَى بالإتيان عن الوطء، وهذا الأمر يُقوِّى ما قلناه من أن المراد بالتطهر الغسل بالماء ؛ لأن صيغة الأمر من الله تعالى لا تقع الا على الوجه الأكمل. والله أعلم.
و« مِن » بمعنى فى، أى فى حيث أمركم الله تعالى وهو القُبُل ؛ ونظيره قوله تعالى : «أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ » أى فى الأرض، وقوله : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ » أى فى يوم الجمعة. وقيل المعنى أى من الوجه الذى أُذِن لكم فيه، أى من غير صوم وإحرام

واعتكاف؛ قاله الأصم . وقال ابن عباس وأبو رَزِين : من قِبَل الطهر لا من قِبَل الحيض؛ وقاله الضحاك . وقال محمد بن الحنفية : المعنى من قبل الحلال لا من قبل الزنا .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ اختلف فيه؛ فقيل : التوابون من الذنوب والشرك . والمتطهرون أى بالماء من الجنابة والأحداث؛ قاله عطاء وغيره . وقال مجاهد : من الذنوب؛ وعنه أيضا : من إتيان النساء فى أدبارهن . ابن عطية : كأنه نظر إلى قوله تعالى حكاية عن قوم لوط : « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » . وقيل : المتطهرون الذين لم يُذنبوا .

فإن قيل : كيف قدّم بالذكر الذى أذنب على من لم يذنب؛ قيل : قدّمه لئلا يقنطَ التائب من الرحمة ولا يعجب المتطهر بنفسه؛ كما ذكر فى آية أخرى : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

فيه ستّ مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ روى الأئمة واللفظ لمسلم عن جابرِ ابنِ عبد الله قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجلُ امرأتَه من دُبُرِها فى قُبُلِها كان الولدُ أحولَ؛ فنزلت الآية : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » زاد فى رواية عن الزهرىّ : إن شاء مُجَبِّية(١) وإن شاء غيرَ مُجَبِّية غير أن ذلك فى صِمَام واحد . ويروى : فى سِمَام واحد بالسين؛ قاله الترمذى . وروى البخارى عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرُغَ منه؛ فأخذت عليه(٢) يوما؛ فقرأ سورة « البقرة » حتى انتهى إلى مكانٍ قال : أتدرى فِيمَ أنزلت ؟

(١) مجبية : أى منكبة على وجهها؛ تشبيها بهيئة السجود .

(٢) أخذت عليه : أى أمسكت المصحف وهو يقرأ عن ظهر قلب .

قلت : لا . قال : نزلت فى كذا وكذا ؛ ثم مضى . وعن عبد الصمد قال : حدّثنى أبى قال حدّثنى أيوب عن نافع عن ابن عمرَ « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » قال : يأتيها فى قُبُلها . قال الحُميدى : يعنى الفرج . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : ان آبن عمر والله يغفر له أوْهم ؛ إنما كان هذا الحىُّ من الأنصار، وهُم أهل وَثَنٍ، مع هذا الحىّ من يهود، وهم أهل كتاب؛ وكانوا يرون لهم فضــلا عليهم فى العلم؛ فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم؛ وكان من أمر أهل الكتاب ألّا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة؛ فكان هذا الحىُّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحىُّ من قريش يَشْرَحُون النساءَ شَرْحا (١) مُنكرا و يتلذذون منهنّ مُقْبِلاتٍ ومدبراتٍ ومستلقياتٍ ؛ فلما قــدم المهاجرون المدينةَ تزوج رجل منهم امرأةً من الأنصار؛ فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه ، وقالت : إنمــا كنا نُؤْتَى على حَرْفٍ ! فآصْنع ذلك وإلا فآجتنبنى ؛ حتى شَرِىَ (٢) أمرُهما ، فبلغ ذلك النبىَّ صلى الله عليــه وسلم ؛ فأنزل الله عز وجل : « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » أى مقبلاتٍ ومدبرات ومستلقياتٍ ، يعنى بذلك موضع الولد . وروى الترمذىّ عن ابن عباس قال : جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليــه وسلم فقال : يا رسول الله هلكتُ ! قال : "وما أهلكك" قال : حوّلت رحلى الليلة ؛ قال : فلم يَرُدَّ عليه رسول الله صلى الله عليــه وسلم شيئا ؛ قال : فأوحىَ إلى رسـول الله صلى الله عليــه وسلم هــذه الآيةُ : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وآتّقِ الدُّبُرَ والحَيْضةَ . قال : هــذا حديث حسن صحيح (٣) . وروى النسائىّ عن أبى النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمرَ : قد أُكثر عليك القولُ ! إنك تقول عن ابن عمر: أنه أفتى بأن يُؤْتَى النساءُ فى أدبارهن . قال نافع : لقد كذبوا علىّ ! ولكن سأخبرك كيف كان الأمر : إن ابن عمرَ عَرض علىّ المصحفَ يوما وأنا عنــده حتى بلغ : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » ؛ قال نافع : هل تدرى ما أمرُ هــذه الآية ؟ إنا كنا معشرَ قريش نُجَبِّي (٤) النساءَ فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساءَ الأنصار أردنا منهنّ ما كنا نريد

(١) شرح الرجل جاريته : إذا وطئها نائمة على قفاها .

(٢) شرى أمرهما (من باب رضى) : عظم وتفاقم ولجُّوا فيه . (٣) الذى فى صحيح الترمذى : « حسن غريب » .

(٤) تقدم معنى «التجبية» ص من هذا الجزء فانظره .

من نسائنا، فاذاهن قد كرهن ذلك وأعظمنه، وكان نساء الأنصار إنما يُؤتين على جنوبهن؛ فأنزل الله سبحانه : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » .

الثانيـــة — هذه الأحاديث نصٌّ في إباحة الحال والهيئات كلّها اذا كان الوطء في موضع الحَرْث ؛ أي كيف شئتم من خلفٍ ومن قُدّامٍ وباركةً ومستلقيةً ومضطجعةً ؛ فأما الإتيان في غير المَأْتَى فما كان مباحا، ولا يباح! وذكرُ الحرثِ يدل على أن الإتيان في غيرِ المَأْتَى محرم . و « حرث » تشبيه؛ لأنهن مُزْدَرَع الذُّرِّيّة؛ فلفظ « الحرث » يعطى أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصّةً إذ هو المزدرع . وأنشد ثعلب :

إنما الأرحام أر　　＊　　ضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها　　＊　　وعلى الله النبات

فقرج المرأة كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات ؛ فالحرث بمعنى المحترث . ووحّد الحرث لأنه مصدر؛ كما يقال : رجلٌ صومٌ، وقومٌ صومٌ .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ معناه عند الجمهور من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى : من أيّ وجهٍ شئتم مقبلة ومدبرة، كما ذكرنا آنفا . و«أَنَّى» تجيء سؤالا وإخبارا عن أمرٍ له جهات ؛ فهو أعمّ في اللغة من « كيف » ومن « أين » ومن « متى » ؛ هذا هو الاستعمال العربيّ في « أنّى » . وقد فسر الناس « أنّى » في هذه الآية بهذه الألفاظ . وفسرها سيبويه بـ « كيف » و « من أين » باجتماعهما . وذهبت فرقة ممن فسّرها بـ « مأين » إلى أن الوطء في الدبر مباح؛ وممن نُسب إليه هذا القولُ : سعيدُ بنُ المسيّب ونافعٌ وابنُ عمرَ ومحمد ابنُ كعبٍ القَرَظيّ وعبدُ الملك بن الماجشون . وحُكى ذلك عن مالكٍ في كتاب له يسمى « كتاب السرّ » . وحذّاقُ أصحابِ مالكٍ ومشايخهم يُنكرون ذلك الكتاب ؛ ومالكٌ أجلّ من أن يكون له « كتابُ سرٍّ » . ووقع هذا القول في العُتْبِيّة . وذكر ابن العربيّ أنّ ابنَ شعبان أسند جواز هذا القولِ إلى زُمرةٍ كبيرة من الصحابة والتابعين ، والى مالكٍ من روايات كثيرة في كتاب « جماع النّسوان وأحكام القرآن» . وقال الكِيَا الطبريّ : ورُوى عن محمد بن كعب القَرَظيّ أنه كان لا يرى بذلك بأسا؛ ويتأوّل فيه قولَ الله عز وجل : « أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ

العالمين . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم» وقال : فتقديره تتركون مثل ذلك من أزواجكم ولو لم يُبح مثلُ ذلك من الأزواج لما صح ذلك ، وليس المباح من الموضع الآخر مثلاً له ، حتى يقال : تفعلون ذلك وتتركون مثله من المباح . قال الكِيَا : وهذا فيه نظر ، إذ معناه : وتذرون ما خلق لكم ربُّكم من أزواجكم مما فيه تسكينُ شهوتكم ، ولذةُ الوقاع حاصلة بهما جميعا ، فيجوز التوبيخ على هـذا المعنى . وفى قوله تعـالى : « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ » مع قوله : «فَأْتُوا حَرْثَكُمْ» ما يدل على أن فى المَـأْتَى اختصاصا ، وأنه مقصور على موضع الولد .

قلت : هذا هو الحق فى المسألة . وقد ذكر أبو عمرُ بن عبد البر أن العلمـاء لم يختلفوا فى الرَّتْقاء التى لا يوصَل إلى وطئها أنه عيب تُرَدّ به ، إلا شيئا جاء عن عمرَ بنِ عبد العزيز من وجه ليس بالقـوىّ أنه لا تُرَدُّ الرتقاء ولا غيرُها ، والفقهاء كلُّهـم على خلاف ذلك ، لأن المسيس هو المبتغَى بالنكاح ، وفى إجماعهم على هذا دليل على أن الدُّبُر ليس بموضع وطء ، ولو كان موضعا للوطء ما رُدّت من لا يُوصَل إلى وطئها فى الفرج . وفى إجماعهم أيضا على أن العَقِيم التى لا تلد لا ترد . والصحيح فى هذه المسألة ما بيّناه . وما نُسب الى مالكٍ وأصحابِه من هذا باطل وهم مبرَّءون من ذلك ، لأن إباحة الإتيان مختصة بموضع الحرث ، لقوله تعالى : «فأتوا حرثكم» ؛ ولأن الحكمة فى خلق الأزواج بثّ النَّسل ؛ فغير موضع النسل لا يناله مِلْك النكاح ، وهـذا هو الحق . وقد قال أصحاب أبى حنيفة : إنه عنـدنا ولائطَ الذكر سـواء فى الحكم ؛ ولأن القَـذَر والأذَى فى موضع النجو(١) أكثرُ من دمِ الحيض ، فكان أشنعَ . وأما صِمَام البول فغير صِمام الرَّحِم . قال ابن العـربىّ فى قبسه : قال لنـا الشيخ الإمام فخرُ الاسلام أبو بكر محمـدُ ابنُ احمد بن الحسين فقيـه الوقت وإمامه : الفرج أشـبه شىء بخمسةٍ وثلاثين ؛ وأخرج يده عاقدا بها . وقال : مسلك البول ما تحت الثـلاثين ، ومسلك الذَّكَر والفرج ما اشتملت عليه الخمسةُ ؛ وقد حرّم الله تعالى الفـرجَ حالَ الحيض لأجل النجاسـة العارضة ، فأَوْلى أن يحرُم الدُّبُر لأجل النجاسة اللازمة . وقال مالك لابن وهب وعلىّ بن زياد لمـا أخبراه أن ناسا بمصر

---

(١) النجو : ما يخرج من البطن من ريح وغائط .

يتحدّثون عنه أنه يجيز ذلك ؛ فنفر من ذلك ، و بادر الى تكذيب النـاقل فقال : كذبوا علىّ ، كذبوا علىّ ، كذبوا علىّ ! ثم قال : ألستم قوما عَرَبًا ؟ ألم يقل الله تعالى : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » ؟ وهـل يكون الحرث إلا فى موضع المنبت ! وما استدل به المخالف من أن قوله عز وجل : «أنّى شئتم» شامل للمسالك بحكم عمومها فلا حجّة فيها ، إذ هى مخصصة بما ذكرناه ، وبأحاديثَ صحيحةٍ حِسانٍ شهيرةٍ رواها عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم اثنا عشر صحابيا بمُتُون مختلفة ، كلها متواردة على تحريم إتيان النساء فى الأدبار ، ذكرها أحمـد بنُ حنبل فى مسنده ، وأبو دواد والنَّسائىّ والترمذىّ وغيرهُم . وقد جمعها أبو الفرج بن الجوزىّ بطرقها فى جزء سماه « تحريم المحل المكروه » . ولشيخنا أبى العباس أيضا فى ذلك جزء سماه « إظهارُ إدبار، من أجاز الوطء فى الأدبار» .

قلت : وهـذا هو الحق المتّبع والصحيح فى المسألة ، ولا ينبغى لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يُعرِّج فى هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنـه . وقد حُذِّرنا من زَلّة العالم . وقـد رُوى عن ابن عمر خلافُ هـذا ، وتكفيرُ مَن فعله ؛ وهـذا هو اللائق به رضى الله عنـه . وكذلك كذّب نافعٌ مَن أخبر عنه بذلك ، كما ذكر النَّسائىّ ، وقد تقدّم . وأنكر ذلك مالكٌ واستعظمه ، وكذّب من نسب ذلك اليه . وروى الدّارمىّ أبو محمـد فى مسنده عن سـعيد ابن يسار أبى الحُبَاب قال : قلت لابن عمـر : ما تقول فى الجوارى حين أُحَمِّضُ[1] لهنّ ؟ قال : وما التَّحْمِيض ؟ فذكرت له الدُّبُرَ ؛ فقال : هل يفعل ذلك أحد من المسلمين ! وأَسند عن خزيمَة بن ثابت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أيها الناس إن الله لا يستحيى من الحق لا تأتوا النساء فى أعجازهن" . ومثـله عن علىّ بن طَلْق . وأسند عن أبى هريرة عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم قال : "من أتى آمرأة فى دُبُرِها لم ينظر الله تعالى إليـه يوم القيامـة" . وروى أبو داود الطَّيالِسىّ فى مسنده عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبـد الله بن عمرو عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "تلك اللُّوطيّة الصُّغْرَى" .

(١) التحميض : أن يأتى الرجل المرأة فى غير مأتاها الذى يكون موضع الولد .

يعنى إتيان المــرأة فى دبرها . وروى عن طاوس أنه قال : كان بدءُ عمــلِ قومِ لوطٍ إتيانَ النساء فى أدبارهنّ . قال ابن المنــذر : وإذا ثبت الشيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم آستُغنى به عما سواه .

الرابعــــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ أى قــدموا ما ينفعكم غدًا ، فحذف المفعول ، وقد صُرِّح به فى قوله تعالى : « وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِـدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ » فالمعنى قدّموا لأنفسكم الطاعةَ والعملَ الصالحَ . وقيل : ابتغاءَ الولد والنسل ؛ لأن الولد خير الدنيا والآخرة ؛ فقــد يكون شفيعا وجُنّة . وقيل : هو التزوّج بالعفائف ؛ ليكون الولد صالحا طاهرا . وقيل : هو تقدّم الأَفْراط(١) ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من قــدّم ثلاثةً من الولد لم يبلغوا الحِنث لم تمسه النــارُ إلا تَحِلّةَ القَسَم" الحديث . وسيأتى فى «مريم» إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس وعطاء : أى قدّموا ذكر الله عنــد الجماع ؛ كما قال عليه السلام : "لو أن أحدكم إذا أتى امرأته قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطانَ وجنّب الشيطانَ ما رزقتنا فإنه إن يُقدَّر بينهما ولدٌ لم يضرّه شيطانٌ أبدا" . أخرجه مسلم .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تحذير ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ خبرٌ يقتضى المبـالغةَ فى التحذير ؛ أى فهو مجازيكم على البِرّ والإثم . وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار قال : سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب يقول : "إنكم ملاقو اللهِ حُفاةً عُراةً مُشاةً غُرْلًا(٢) ــ ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ « واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه »" أخرجه مسلم بمعناه .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تأنيس لفاعل البرّ ومبتغى سنن الهدى .

قوله تعـالى : وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

(١) الأفراط (جمع فرط) : هم الأولاد الذين ماتوا قبل أن يبلغوا الحلم .
(٢) الغرل (بضم فسكون جمع الأغرل) : وهو الأقلف الذى لم يختن .

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قال العلماء : لمّا أمر الله تعالى بالإنفاق وصحبة الأيتام والنساء بجميل المعاشرة قال : لا تمتنعوا عن شيء من المكارم تعلّلا بأنا حلفنا ألا نفعل كذا ؛ قال معناه ابن عباس والنَّخَعيّ ومجاهد والربيع وغيرهم . قال سعيد بن جُبير : هو الرجل يحلف ألا يَبَرّ ولا يصل ولا يُصلح بين الناس ؛ فيقال له : بَرّ ؛ فيقول : قد حلفتُ . وقال بعض المتأوّلين : المعنى ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البرّ والتقوى والإصلاح ؛ فلا يحتاج الى تقدير «لا» بعد «أن» . وقيل : المعنى لا تستكثروا من اليمين بالله فإنه أهيب للقلوب ؛ ولهذا قال تعالى : « وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ » . وذمّ من كثّر اليمين فقال تعالى : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ » . والعرب تمدح بقلة الأيمان ؛ حتى قال قائلهم :

قليـل الأَلَايَا حافِـظٌ ليمينـه * وإن صدرت منه الأَلِيَّـةُ بَرّتِ

وعلى هذا « أن تبروا » معناه : أقِلّوا الأيمان لما فيه من البرّ والتقوى ؛ فإن الإكثار يكون معه الحِنْثُ وقلّةُ رَعْي لحقّ الله تعالى ؛ وهذا تأويل حسن . مالكُ بنُ أنس : بلغني أنه الحَلِف بالله فى كل شيء . وقيل : المعنى لا تجعلوا اليمين مبتذلة فى كل حق و باطل . وقال الزجاج وغيرُه : معنى الآية أن يكون الرجل اذا طُلب منه فعلُ خير اعتلّ بالله فقال : عليّ يمين ؛ وهو لم يحلف . القُتَبيّ : المعنى إذا حلفتم على ألّا تصلوا أرحامكم ولا تتصدّقوا ولا تُصلحوا ؛ وعلى أشباه ذلك من أبواب البرّ فكفّروا اليمين .

قلت : وهذا حسن لما بيّناه ؛ وهو الذى يدلّ عليه سببُ النزول ؛ على ما نبيّنه فى المسألة بعد هذا .

الثانيـة ــ قيل : نزلت بسبب الصدّيق إذ حلف ألّا يُنفق على مِسْطح حين تكلم فى عائشة رضى الله عنها ؛ كما فى حديث الإفْك ؛ وسيأتى بيانه فى «النور» ؛ عن ابن جُريج . وقيـل : نزلت فى الصدّيق أيضا حين حلف ألّا يأكل مع الأضياف . وقيـل : نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف ألا يكلّم بشيرَ بن النعمان وكان خَتَنَه على أخته ؛ والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ أى نصبا ؛ عن الجوهرى . وفلان عُرضةُ ذاك ، أى عرضةٌ لذلك ، أى مُقْرِنٌ له قوىٌّ عليه . والعُرْضَة : الهِمّة . قال :

* هم الأنصارُ عُرضتها اللقاء (١) *

وفلانٌ عُرْضَةٌ للناس : لا يزالون يقعون فيه . وجعلتُ فلانا عُرْضَةً لكذا أى نصبته له . وقيل : العُرْضَة من الشدّة والقوّة ؛ ومنه قولهم للمرأة : عُرْضَةٌ للنكاح ، إذا صلحت له وقويت عليه ؛ ولفلان عُرضةٌ : أى قوة على السفر والحرب ؛ قال كعب بن زُهير :

من كلِّ نَضّاخة الذِّفْرَى إذا عَرِقت * عُرْضَتُها طامِسُ الأعلامِ مجهولُ

وقال عبد الله بن الزبير :

فهذِى لأيامِ الحروب وهذه * لِلْهَوى وهذى عُرْضَةٌ لارتحالنا

أى عُدّة . وقال آخر :

* فلا تجعلنِّى عُرْضَةً لِلَّوائم *

وقال أوس بن حَجَر :

وأدماء مثل الفحل يوما عرضتها * لرحلِى وفيها هِزّة وتقاذُفُ

والمعنى : لا تجعلوا اليمين بالله قوّةً لأنفسكم وعُدّة فى الامتناع من البرّ .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا ﴾ مبتدأ وخبره محذوف ، أى البرّ والتقوى والاصلاح أوْلى وأمثل ؛ مثل « طاعةٌ وقولٌ معروف » ، عن الزّجاج والنحاس . وقيل : محله النصب ، أى لا تمنعكم اليمين بالله عز وجل البِرَّ والتقوى والإصلاحَ ؛ عن الزجاج أيضا . وقيل : مفعول من أجله . وقيل : معناه أن لا تبروا ، فحذف « لا » ؛ كقوله تعالى : « يُبيِّنُ اللهُ لكم أنْ تَضِلُّوا » أى لئلا تضلوا ؛ قاله الطبرىّ والنحاس . ووجه رابع من وجوه النصب : كراهة أن تبرّوا ، ثم حذفت ؛ ذكره النحاس والمهدوىّ . وقيل : هو فى موضع خفض

(١) عجز بيت لحسان بن ثابت رضى الله عنه ؛ وصدره : * وقال الله قد أعددت جندا *

على قول الخليل والكسائي؛ التقدير: في أن تبرّوا، فأضمرت «في» وخفضت بها. و﴿سَمِيعٌ﴾ أي لأقوال العباد. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ اللَّغْوُ: مصدر لغا يلغو ويلغى، ولَغِيَ يَلْغَى لَغًا إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، أو بما يلغى إثمه؛ وفي الحديث: "إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يومَ الجمعة أنصت فقد لغوت". ولغة أبي هريرة «فقد لغيت» وقال الشاعر(1):

وَرَبِّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّمِ ＊ عن اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

وقال آخر(2):

ولستَ بمأخوذ بلَغْوٍ تقوله ＊ إذا لم تَعَمَّدْ عاقدات العزائمِ

الثانيـة — واختلف العلماء في اليمين التي هي لَغْوٌ؛ فقال ابن عباس: هو قول الرجل في دَرْج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله؛ دون قصد لليمين. قال المَرْوَزِيّ: لغوُ اليمينِ التي اتفق العلماء على أنها لَغْوٌ هو قول الرجل: لاوالله، وبلى والله؛ في حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ولا مريدها. وروى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أن عروة حدّثه أن عائشة زوجَ النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت: أيمان اللّغو ما كانت في المراء والهزل والمزاحة والحديثِ الذي لا ينعقد عليه القلب. وفي البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزل قوله تعالى: «لَا يُؤاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» في قول الرجل: لا والله، وبلى والله. وقيل: اللغو ما يحلف به على الظّنّ؛ فيكون بخلافه؛ قاله مالك،

---

(1) هو العجاج؛ كما في ديوانه. (2) هو الفرزدق؛ كما في النقائض ص ٣٤٤ طبع أوربا.

حكاه ابن القاسم عنه ، وقال به جماعة من السلف . قال أبو هريرة : إذا حلف الرجل على الشيء لا يظنه إلا أنه إياه؛ فإذا ليس هو، فهو اللغو، وليس فيه كفارة ؛ ونحوه عن ابن عباس . ورُوى أن قوما تراجعوا القولَ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرمون بحضرته؛ فحلف أحدهم لقد أصبتُ وأخطأتَ يافلان؛ فإذا الأمر بخلاف ذلك؛ فقال الرجل: حَنِث يارسول الله؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أيمان الرُّماة لغو لا حِنْث فيها ولا كفارة" . وفى الموطأ قال مالك : أحسن ما سمعتُ فى هذا أن اللّغو حلف الإنسان على الشيء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد الأمر بخلافه؛ فلا كفارة فيه . والذى يحلف على الشيء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا أو يعتذر لمخلوق أو يقتطعَ به مالًا فهذا أعظمُ من أن يكون فيه كفارة؛ وإنما الكفارة على من حلف ألّا يفعل الشيءَ المباحَ له فعلُه ثم يفعله؛ أو أن يفعله ثم لا يفعله؛ مثل إن حَلَف ألّا يبيع ثوبَه بعشرة دراهم ثم يبيعه بمثل ذلك ، أو حَلَف ليضربنّ غلامَه ثم لا يضربه . ورُوى عن ابن عباس — إن صح عنه — قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان؛ وقاله طاوس . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يمينَ فى غَضَب" أخرجه مسلم . وقال سعيد بن جُبير : هو تحريم الحلال ؛ فيقول : مالى علىّ حرام إن فعلتُ كذا والحلال علىّ حرام ؛ وقاله مكحول الدّمشقىّ؛ ومالكٌ أيضا، إلا فى الزوجة فإنه ألزم فيها التحريمَ إلا أن يخرجها الحالف بقلبه . وقيل : هو يمين المعصية ؛ قاله سعيد بن المسيّب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن وعروة وعبد الله ابنا الزبير؛ كالذى يُقسم ليشربنّ الخمرَ أو ليقطعنّ الرَّحِم فبِرُّه تركُ ذلك الفعل ولا كفارة عليه ؛ وحجتهم حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليتركها فإنّ تركَها كفارتُها" أخرجه ابن ماجه فى سننه ، وسيأتى فى « المائدة » أيضا . وقال زيد بن أسلم : لغو اليمين دعاء الرجل على نفسه : أعمى الله بصره ، أذهب الله ماله ، هو يهودىّ ، هو مشرك ، هو لِغَيّة إن فعل كذا . مجاهد : هما الرجلان يتبايعان فيقول أحدهما : والله لا أبيعك بكذا ، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا . النَّخعىّ: هو الرجل يحلف ألا يفعل الشيء ثم ينْسَى فيفعله .

وقال ابن عباس أيضا والضحاك : لغو اليمين هي المكفَّرة ، أي إذا كُفِّرت اليمين سقطت وصارت لغوا ، ولا يؤاخذ اللهُ بتكفيرها والرجوع الى الذي هو خير . وحكى ابن عبد البر قولًا : أن اللغو أيمان المكرَه . قال ابن العربيّ : أما اليمين مع النسيان فلا شك في إلغائها ؛ لأنها جاءت على خلاف قصده ؛ فهي لغو محض .

قلت : ويمين المكرَه بمثابتها . وسيأتي حكم من حلف مُكْرَهًا في « النحل » إن شاء الله تعالى . قال ابن العربيّ : وأما من قال إنه يمين المعصية فباطل ؛ لأن الحالف على ترك المعصية تنعقد يمينُه عبادةً ، والحالف على فعل المعصية تنعقد يمينه معصية ؛ ويقال له : لا تفعل وكَفِّر ؛ فإن أقدَم على الفعل أثم في إقدامه وبرّ في قسمه . وأما من قال : إنه دعاء الإنسان على نفسه إن لم يكن كذا فينزل به كذا ؛ فهو قول لغو ، في طريق الكفارة ولكنه منعقد في القصد ، مكروه ، وربما يؤاخَذ به ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يَدْعُوَنّ أحدُكم على نفسه فربما صادف ساعة لا يسأل اللهَ أحدٌ فيها شيئا إلا أعطاه إياه" . وأما من قال إنه يمين الغضب فإنه يردّه حلِف النبيّ صلى الله عليه وسلم غاضبا ألّا يحمل الأشعريين وحملهم وكفّر عن يمينه . وسيأتي في « براءة »(١) . قال ابن العربيّ : وأما من قال : إنه اليمين المكفَّرة فلا متعلَّق له يُحكَى ؛ وضعّفه ابن عطية أيضا وقال : قد رفع الله عز وجل المؤاخذةَ بالإطلاق في اللغو ، فحقيقتها لا إثم فيه ولا كفارة ؛ والمؤاخذة في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في اليمين الغموس المصبورة(٢) ، وفيما تُرِك تكفيره مما فيه كفارة ، وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفَّرة ؛ لأن المؤاخذة قد وقعت فيها ؛ وتخصيص المؤاخذة بأنها في الآخرة فقط تحكُّمٌ .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ الأيمان جمع يمين ، واليمين الحَلِف ، وأصله أن العرب كانت إذا تحالفت أو تعاقدت أخذ الرجل يمينَ صاحبه بيمينه ؛ ثم كثُر ذلك حتى سُمّي

---

(١) في قوله تعالى : (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم ... الآية ٩٢) .

(٢) اليمين المصبورة هي التي ألزم بها الحالف وحبس عليها ، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم ؛ وقيل لها : « مصبورة » وان كان صاحبها في الحقيقة هو المصبور؛ لأنه انما صبر من أجلها ، أي حبس ، فوصفت بالصبر وأضيفت الى اليمين مجازا .

الحلفُ والعهدُ نفسُه يمينا . وقيل : يمين فعيل من اليُمْن ، وهو البَرَكة ؛ سماها الله تعالى بذلك لأنها تحفظ الحقوق . ويمين تُذكّر وتؤنث ، وتجمع أيمان وأيْمُن ؛ قال زهير :

* فتُجمَعُ أيْمُنٌ منّا ومنكم (١) *

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ مثل قوله : «وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ» . وهنالك يأتي الكلام فيه مستوفًى ، إن شاء الله تعالى . وقال زيد ابن أسلم : قوله تعالى : « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » هو في الرجل يقول : هو مشرك إن فعل ، أي هذا اللغو ، إلا أن يعقد الإشراك بقلبه ويكسبه . و﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ صفتان لائقتان بما ذُكر من طرح المؤاخذة ، إذ هو باب رفق وتوسعة .

قوله تعالى : لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ «يؤلون» معناه يحلفون ، والمصدر إيلاءٌ وأَلِيّةٌ وأَلْوَةٌ وإِلْوةٌ . وقرأ أُبَيٌّ وابن عباس « للذين يُقسمون » . ومعلوم أن « يقسمون » تفسير «يؤلون» . وقُرِئ «للذين آلَوْا» يقال : آلى يُؤْلي إيلاءً ، وتألّى تألّيًا ، وأْتَلى ائتلاءً ، أي حلف ؛ ومنه « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ » ؛ وقال الشاعر :

فآلَيْتُ لا أنفكُّ أحْدُو قصيدةً * تكون وإيّاها بها مثلًا بعْدِي

وقال آخر :

قليلُ الألَايَا حافظٌ ليمينه * وإنْ سَبقت منه الأَلِيّةُ برّتِ

وقال ابن دُرَيد :

أَلِيّةً باليَعْمَلاتِ يَرْتَمِي * بها النّجاءُ بين أجْوازِ الفَلَا

(١) هذا صدر بيت تمامه :

* بمقسمة تمور بها الدماء *

قال عبد الله بن عباس : كان إيلاء الجاهلية السَّنةَ والسنتين وأكثرَ من ذلك؛ يقصدون بذلك إيذاءَ المرأة عند المساءة؛ فوقّت لهم أربعةَ أشهر، فمن آلى بأقلّ من ذلك فليس بإيلاء حُكمي .

قلت : وقد آلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وطلّق ، وسبب إيلائه سؤالُ نسائه إياه من النفقة ما ليس عنده، كذا في صحيح مسلم . وقيـل : لأن زينب ردّت عليه هديته؛ فغضب صلى الله عليه وسلم فآلى منهنّ؛ ذكره ابن ماجه .

الثانيـــة — ويلزم الإيلاءُ كلَّ من يلزمه الطلاق؛ فالحرّ والعبد والسكران يلزمه الإيلاء . وكذلك السفيه والمُوَلَّى عليــه إذا كان بالغا غير مجنــون ، وكذلك الخصيّ إذا لم يكن مجبوبا، والشيخ إذا كان فيه بقيّةُ رَمَقٍ ونشاطٍ . واختلف قول الشافعيّ في المجبوب إذا آلى؛ ففي قول: لا إيلاء له . وفي قول: يصح إيلاؤه؛ والأول أصح وأقرب الى الكتاب والسنة، فإنّ الفَيْء هو الذي يُسقط اليمين؛ والفيء بالقول لا يسقطها؛ فاذا بقيت اليمين المانعة من الحنث بقي حكم الإيلاء . و إيلاء الأخرس بما يفهم عنه من كتابة أو إشارة مفهومةٍ لازمٌ له؛ وكذلك الأعجميّ إذا آلى من نسائه .

الثالثـــة — واختلف العلماء فيما يقع به الإيلاء من اليمين ؛ فقال قوم : لا يقع الإيلاء إلا باليمين بالله تعالى وحده لقوله عليه الســلام : "من كان حالفا فليحلف بالله أو ليَصْمُتْ". و به قال الشافعيّ في الجديد . وقال ابن عباس : كلّ يمينٍ مَنعتْ جماعا فهي إيلاء؛ و به قال الشعبيّ والنخعيّ ومالكٌ وأهـلُ الحجاز وسفيان الثوريّ وأهـل العراق، والشافعيّ في القول الآخر، وأبو ثور وأبو عبيد وابن المنذر والقاضي أبو بكر بن العربيّ . قال ابن عبد البر : وكلّ يمين لا يقدر صاحبها على جِماع آمرأته من أجلها إلا بأن يحنَث فهو بها مُولٍ، إذا كانت يمينه على أكثر من أربعة أشهر؛ فكلّ من حلف بالله أو بصفة من صفاته أو قال : أقسم بالله، أو أشهد بالله، أو عليّ عهدُ الله وكفالتُه وميثاقُه وذمّتُـه فإنه يلزمه الإيلاء . فإن قال : أقسم أو أعزم ولم يذكر بـ«بالله» فقيل: لا يدخل عليه الإيلاء، إلا أن يكون أراد بـ«بالله» ونواه.

ومن قال إنه يمين يدخل عليه؛ وسيأتى بيانه فى «المـائدة» إن شاء الله تعالى . فإن حلف بالصيام ألّا يطأ امرأته فقال : إن وطئتك فعلىّ صيام شهرٍ أو سنةٍ فهو مُولٍ . وكذلك كل ما يلزمه من حجّ أو طلاق أو عتق أو صلاة أو صدقة . والأصل فى هذه الجملة عموم قوله تعالى : «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ» ولم يفرق؛ فإذا آلى بصدقة أو عتق عبد معيّن أو غير معيّن لزم الايلاء .

الرابعـة — فإن حلف بالله ألّا يطأ واستثنى فقال : إن شاء الله فإنه يكون موليا ، فإن وطئها فلا كفارة عليه فى رواية ابن القاسم عن مالك . وقال ابن الماجشون فى المبسوط : ليس بمُولٍ؛ وهو أصح لأن الاستثناء يَحُلّ اليمين ويجعل الحالف كأنه لم يحلف ، وهو مذهب فقهاء الأمصار، لانه بيّن بالاستثناء أنه غير عازم على الفعل . ووجه ما رواه ابن القاسم مبنىّ على أن الاستثناء لا يَحُلّ اليمين ، ولكنه يؤثّر فى إسقاط الكفارة ، على ما يأتى بيانه فى «المائدة» فلما كانت يمينه باقية منعقدة لزمه حكم الإيلاء و إن لم تجب عليه كفارة .

الخامسـة — فإن حلف بالنبىّ أو الملائكة أو الكعبة ألّا يطأها ، أو قال هو يهودىّ أو نصرانىّ أو زانٍ إن وطئها؛ فهذا ليس بمولٍ؛ قاله مالك وغيره . قال الباجى : ومعنى ذلك عندى أنه أورده على غير وجه القَسَم، وأما لو أورده على أنه مُولٍ بما قاله من ذلك أو غيره ففى المبسوط أن ابن القاسم سئل عن الرجل يقول لامرأته : لا مرحبًا ، يريد بذلك الإيلاء يكون موليا . قال قال مالك : كلّ كلامٍ نوى به الطلاق فهو طلاق؛ وهذا والطلاق سواء .

السادسـة — واختلف العلماء فى الإيلاء المذكور فى القرآن ؛ فقال ابن عباس : لا يكون موليا حتى يحلف ألا يمسّها أبدا . وقالت طائفة : إذا حلف ألّا يقرب امرأته يوما أو أقلّ أو أكثر ثم لم يطأ أربعة أشهر بانت منه بالإيلاء؛ رُوى هذا عن ابن مسعود والنخعىّ وابن أبى ليلى والحكم وحمادِ بنِ أبى سليمان وقتادة ، وبه قال إسحاق . قال ابن المنذر : وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم . وقال الجمهور : الإيلاء هو أن يحلف ألّا يطأ أكثر من أربعة أشهر؛ فان حلف على أربعة فما دونها لا يكون موليا؛وكانت عندهم يمينًا محضًا لو وطئ فى هذه

المدّة لم يكن عليه شيء كسائر الأيمان؛ هــذا قول مالك والشافعيّ وأحمــد وأبي ثور . وقال الثوريّ والكوفيــون : الإيلاء أن يحلف على أربعــة أشهر فصاعدا؛ وهو قول عطاء . قال الكوفيون : جعل الله التربص في الإيلاء أربعة أشهر كما جعل عدّة الوفاة أربعة أشهر وعشرا، وفي العدّة ثلاثة قروء؛ فلا تربّص بعدُ . قالوا : فيجب بعد المدّة سقوط الإيلاء، ولا يسقط إلا بالفيء وهو الجماع في داخل المدّة . والطلاق بعد انقضاء الأربعة الأشهر . واحتج مالك والشافعيّ فقالا : جعل الله للمولي أربعة أشهر؛ فهي له بكمالها لا اعتراض لزوجته عليه فيها؛ كما أن الدّين المؤجل لا يستحق صاحبــه المطالبة به إلا بعــد تمام الأجل . ووجه قول إسحاق — في قليــل الأمد يكون صاحبــه به موليا إذا لم يطأ — القياس على من حلف على أكثر من أربعة أشهر فإنه يكون موليا؛ لأنه قصد الإضرار باليمين؛ وهــذا المعنى موجود في المدّة القصيرة .

السابعــــة — واختلفوا أن من حلف ألّا يطأ امرأته أكثر من أربعــة أشهر فانقضت الأربعــةُ الأشهر ولم تطالبه امرأتُه ولا رفعته الى السلطان ليوقفَه لم يلزمه شيء عنــد مالك وأصحابِه وأكثرِ أهلِ المدينة . ومن علمائنا من يقول : يلزمه بانقضاء الأربعة الأشهر طلقةٌ رجعيةٌ . ومنهم ومِن غيرهم من يقول : يلزمه طلقةٌ بائنة بانقضاء الأربعة الأشهر . والصحيح ما ذهب إليــه مالكٌ وأصحابُه؛ وذلك أن المُولي لا يلزمه طلاقٌ حتى يوقفــه السطان بمطالبة زوجته له ليفيء فيراجع امرأته بالوطء ويكفّر يمينه أو يطلّق، ولا يتركه حتى يفيءَ أو يطلّق. والفيء : الجماع فيمن يمكن مجامعتهــا . قال سليمان بن يسار : كان تسعة(1) رجال من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوقفون في الإيلاء؛ قال مالك : وذلك الأمر عندنا؛ وبه قال الليث والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور، واختاره ابن المنذر .

الثامنــــة — وأجلُ المُولِي من يومَ حلَف لا من يومِ تُخاصمه امرأتُه وترفعه إلى الحاكم؛ فان خاصمته ولم ترض بامتناعه من الوطء ضرب له السلطان أجلَ أربعةِ أشهر من يوم حلف؛

---

(1) في بعض الأصول : « كان تسعة عشر رجلا ... » .

فإن وطئ فقد فاء الى حق الزوجة وكفّر عن يمينه ، وإن لم يفئ طلّق عليه طلقة رجعيّة . قال مالك : فإن راجع لا تصحّ رجعته حتى يطأ فى العدّة . قال الأبهرىّ : وذلك أن الطلاق إنما وقع لدفع الضرر؛ فمتى لم يطأ فالضرر باقٍ، فلا معنى للرجعة إلا أن يكون له عذر يمنعه من الوطء فتصح رجعته؛ لأن الضرر قد زال، وامتناعه من الوطء ليس من أجل الضرر وإنما هو من أجل العذر .

التاسعة — واختلف العلماء فى الإيلاء فى غير حال الغضب؛ فقال ابن عباس : لا إيلاء إلا بغضب، ورُوى عن علىّ بن أبى طالب فى المشهور عنه، وقاله الليث والشعبىّ والحسن وعطاء، كلهم يقولون : الإيلاء لا يكون إلّا على وجه مغاضبة ومشارّة وحرج ومُناكدة ألّا يجامعها فى فرجها إضرارا بها؛ وسواء كان فى ضمن ذلك إصلاح ولد أم لم يكن . فان لم يكن عن غضب فليس بإيلاء . وقال ابن سيرين : سواء كانت اليمين فى غضب أو غير غضب هو إيلاء؛ وقاله ابن مسعود والثورىّ ومالكٌ وأهلُ العراق والشافعىّ وأصحابُه وأحمد، إلا أن مالكا قال : ما لم يرد إصلاحَ ولد . قال ابن المنذر : وهذا أصح؛ لأنهم لما أجمعوا أن الظِّهار والطلاق وسائرَ الأيمان سواءٌ فى حال الغضب والرّضا كان الإيلاء كذلك .

قلت : ويدل عليه عموم القرآن؛ وتخصيص حالة الغضب يحتاج الى دليل ولا يؤخذ من وجه يُلزِم . والله أعلم .

العاشرة — قال علماؤنا : ومن امتنع من وطء امرأته بغير يمين حلفها إضرارًا بها أمر بوطئها؛ فإن أبَى وأقام على امتناعه مضرًّا بها فُرِّق بينه وبينها من غير ضرب أجل . وقد قيل : يُضرب أجلُ الايلاء . وقيل : لا يدخل على الرجل الإيلاء فى هجرته من زوجته وإن أقام سنين لا يغشاها ، ولكنه يوعظ ويؤمر بتقوى الله تعالى فى ألّا يمسكها ضرارا .

الحادية عشرة — واختلفوا فيمن حلف ألّا يطأ امرأته حتى تَفْطِمَ ولدَها لئلا يَمغَل[1] ولدُها؛ ولم يرد إضرارا بها حتى ينقضى أمدُ الرّضاع لم يكن لزوجته عند مالكٍ مطالبةٌ لقصد

(١) المغل (بفتح الميم وسكون الغين وفتحها) : أن ترضع المرأة ولدها وهى حامل .

إصــلاح الولد . قال مالك : وقد بلغني أن عليّ بن أبي طالب سُئل عن ذلك فلم يره إيلاء ؛ وبه قال الشافعيّ في أحد قوليه ، والقول الآخر يكون مُولِيـًا ، ولا اعتبار برضاع الولد ؛ وبه قال أبو حنيفة .

الثانية عشرة — وذهب مالك والشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابُهم والأوزاعيّ وأحمد ابن حنبل إلى أنه لا يكون موليا من حلف ألّا يطأ زوجته في هذا البيت أو في هذه الدار لأنه يجد السبيل الى وطئها في غير ذلك المكان . قال ابن أبي لَيْلَى وإسحاق : إن تركها أربعةَ أشهر بانت بالإيلاء ؛ ألا ترى أنه يوقف عند الأشهر الأربعة ؛ فإن حلف ألّا يطأها في مصره أو بلده فهو مول عند مالك ؛ وهذا إنما يكون في سفر يتكلّف المئونة والكلفة دون جنته أو مزرعته القريبة .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ يدخل فيه الحرائر والذّمّيات والإماء إذا تزوجن . والعبد يلزمه الإيلاء من زوجته . قال الشافعيّ وأحمد وأبو ثور : إيلاؤه مثل إيلاء الحرّ ؛ وحجتهم ظاهر قوله تعالى : «للذين يؤلون من نسائهم» فكان ذلك لجميع الأزواج . قال ابن المنذر : وبه أقول . وقال مالك والزهريّ وعطاء بن أبي رَبَاح وإسحاق : أجله شهران . وقال الحسن والنخعيّ : إيلاؤه من زوجته الأَمَة شهران ، ومن الحرّة أربعةُ أشهر ؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشّعبيّ : إيلاء الأَمَة نصفُ إيلاءِ الحرّة .

الرابعة عشرة — قال مالك وأصحابه وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعيّ والنخعيّ وغيرُهم : المدخول بها وغيرُ المدخول بها سواءٌ في لزوم الإيلاء فيهما . وقال الزُّهريّ وعطاء والثّوريّ : لا إيلاء إلا بعد الدخول . وقال مالك : ولا إيلاءَ من صغيرة لم تَبْلُغ ، فإن آلى منها فبلغت لزم الإيلاء من يوم بلوغها .

الخامسة عشرة — وأما الذّمّيّ فلا يصح إيلاؤه ؛ كما لا يصح ظِهاره ولا طلاقه ؛ وذلك أن نكاح أهلِ الشّرك ليس عندنا بنكاح صحيح ، وإنما لهم شُبهة يد ، ولأنهم لا يكلّفون الشرائع فيلزمهم كفارات الأيمان ، فلو ترافعوا الينا في حُكم الإيلاء لم يَنْبغِ لحاكمنا أن يحكم

بينهم ، ويذهبون الى حكامهم؛ فان جرى ذلك مجرى التظالم بينهم حُكم بحكم الإسلام ؛ كما لو ترك المسلمُ وطء زوجته ضِرارا من غير يمين .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ التربص : التأنى والتأخر ؛ مقلوب التصبر؛ قال الشاعر :

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ المَنُونِ لعلّها * تُطلَّق يوما أو يموت حليلها

وأما فائدة توقيت الأربعة الأشهر فيما ذكر ابن عباس عن أهل الجاهلية كما تقدّم فمنع الله من ذلك وجعل للزوج مدّة أربعة أشهر فى تأديب المرأة بالهجر؛ لقوله تعالى : «وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ» وقد آلى النبيُّ صلى الله عليه وسلم من أزواجه شهرا تأديبا لهنّ . وقد قيل : الأربعة الأشهر هى التى لا تستطيع ذاتُ الزوج أن تصبر عنه أكثر منها؛ وقد رُوى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف ليلةً بالمدينة فسمع ٱمرأة تُنشد :

أَلَا طال هذا الليلُ وٱسودّ جانبُهْ * وأرّقنى أن لا حبيبَ ألاعبُهْ
فواللهِ لولا اللهُ لا شىءَ غيرُه * لزُعزع من هذا السرير جوانبه
مخافةَ ربِّى والحياءُ يكُفُّنِى * وإكرامَ بَعْلِى أن تُنال مراكبُهْ

فلما كان من الغد استدعى عمرُ بتلك المرأة وقال لها : أين زوجك ؟ فقالت : بعثتَ به الى العراق ! فاستدعى نساءً فسألهنّ عن المرأة كم مقدار ما تصبر عن زوجها؟ فقلن : شهرين؛ ويقلّ صبرُها فى ثلاثة أشهر، وينفَدُ صبرها فى أربعة أشهر، فجعل عمر مدّةَ غَزْوِ الرجل أربعةَ أشهر ؛ فإذا مضت أربعة أشهر استردّ الغازين ووجّه بقوم آخرين ؛ وهذا والله أعلم يُقوّى اختصاص مدّة الإيلاء بأربعة أشهر .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءُوا ﴾ معناه رجعوا ؛ ومنه « حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » ومنه قيل للظل بعد الزوال : فَىْء ؛ لانه رجع من جانب المشرق إلى جانب المغرب ؛ يقال : فاء يفىء فيئة وفيوءا . وإنه لسريع الفيئة، يعنى الرجوع . قال :

ففاءت ولم تقض الذى أقبلت له * ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

الثامنة عشرة — قال ابن المنذر : أجمع كلّ من يُحفظ عنه من أهـل العلم على أن الفيء الجماعُ لمن لا عذر له ؛ فان كان له عذر مرض أو سجن أو شبه ذلك فإن ارتجاعه صحيح وهي آمرأته ؛ فان زال العذر بقدومه من سفره أو إفاقته من مرضه ، أو انطلاقه من سجنـه فأبى الوطءَ فُرّق بينهما إن كانت المدّة قـد انقضت ؛ قاله مالك في المدّونة والمبسوط . وقال عبدالملك : وتكون بائنا منه يوم انقضت المدّة ، فإن صدق عذرُه بالفيئة إذا أمكنتْه حُكم بصدقه فيما مضى ؛ فإن أكذب ما آدّعاه من الفيئة بالامتناع حين القدرة عليها حُمل أمره على الكذب فيهـا واللَّدَد ، وأمضيت الأحكام على ما كانت تجب في ذلك الوقت . وقالت طائفة : إذا شهدت بينة بفيئته في حال العذر أجزأه ؛ قاله الحسن وعكرمة والنَّخَعيّ ، و به قال الأوزاعيّ . وقال النخعيّ أيضا : يصح الفيء بالقول والإشهاد فقط ، ويسقط حكم الايلاء ؛ أرأيت إن لم ينتشر للوطء ؛ قال ابن عطية : ويرجع هذا القول إن لم يطأ إلى باب الضّرر . وقال أحمد آبن حنبل : إذا كان له عذر يفيء بقلبه ؛ وبه قال أبو قِلابة . وقال أبو حنيفة : إن لم يقدر على الجماع فيقول : قد فِئتُ إليهـا . قال الكِيَا الطبريّ : أبو حنيفة يقول فيمن آلَى وهو مريض و بينه و بينها مدّة أربعة أشهر ، وهي رتقاء أو صغيرة أو هو مجبوب : إنه إذا فاء إليها بلسانه ومضت المدّة والعذر قائم فذلك فَيْءٌ صحيح ؛ والشافعيّ يخالفه على أحد مذهبيه . وقالت طائفة : لا يكون الفَيْء إلا بالجماع في حال العذر وغيره ؛ وكذلك قال سعيد بن جبير ، قال : وكذلك إن كان في سفر أو سجن .

التاسعة عشرة — أوجب مالك والشافعيّ وأبو حنيفـة وأصحابُهم وجمهورُ العلمـاء الكفارةَ على المُولِي إذا فاء بجماع آمرأته . وقال الحسن : لا كفارة عليه ؛ وبه قال النّخعيّ ؛ قال النخعيّ : كانوا يقولون إذا فاء لا كفارة عليه . وقال إسحاق : قال بعض أهل التأويل في قوله تعالى « فان فاءوا » يعني لليمين التي حنثوا فيها ؛ وهو مذهبٌ في الأيمان لبعض التـابعين فيمن حلف على بِرٍّ أو تَقْوَى أو باب من الخير ألّا يفعله فإنه يفعله ولا كفارة عليه .

والحجة له قوله تعالى : «فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ، ولم يذكر كفارة؛ وأيضا فإن هـذا يتركّب على أن لغو اليمين ما حلف على معصية ، وترْكُ وطء الزوجة معصية .

قلت : وقد يُستدل لهذا القول من السُّنّة بحديث عمرو بن شعيب عن أبيـه عن جدّه عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليتركها فان تركها كفارتها" خرّجه ابن ماجه فى سننه . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى آية الأيمان إن شاء الله تعالى . وحجة الجمهور قولُه عليه السلام : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفِّر عن يمينه" .

الموفية عشرين ـــ إذا كفّر عن يمينه سقط عنه الإيلاء؛ قاله علماؤنا . وفى ذلك دليل على تقـديم الكفارة على الحنث فى المـذهب ، وذلك إجماع فى مسألة الإيلاء ، ودليـل على أبى حنيفة فى مسألة الأيمان؛ إذ لا يرى جواز تقديم الكفارة على الحنث؛ قاله ابن العربىّ .

الحـادية والعشرون ـــ قلت : بهـذه الآية استدلّ محمـد بن الحسن على امتناع جواز الكفارة قبل الحنث فقال : لمـا حكم الله تعالى للمُولِى بأحد الحكمين من فىء أو عزيمة الطلاق؛ فلو جاز تقديم الكفارة على الحنث لبطل الإيلاء بغير فىء أو عزيمة طـلاق ؛ لأنه إن حَنِث لا يلزمه بالحنث شىء ، ومتى لم يلزم الحانث بالحنث شىء لم يكن مُولِيـًا . وفى جواز تقديم الكفارة إسقاط حكم الإيلاء بغير ما ذكر الله ، وذلك خلاف الكتاب .

الثـانية والعشرون ـــ قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . العزيـمة : تتميم العقد على الشىء ؛ يقال : عَزَم عليه يعزِم عُزما (بالضم) وعزيمـة وعزيما وعَزَمانا ، واعتزم اعتزاما ، وعزمتُ عليـك لتفعلَنّ ، أى أقسمت عليك . قال شَمِر : العزيمة والعزم ما عقدت عليه نفسك من أمر أنك فاعله . والطلاق من طلَقت المرأة تطلُق (على وزن نصر ينصر) طلاقا؛ فهى طالق وطالقة أيضا . قال الأعشى :

* أيا جارتا بِينى فإنكِ طالقهْ *

ويجوز طلُقت (بضم اللام) مثل عظم يعظم؛ وأنكره الأخفش . والطلاق حلّ عُقدة النكاح؛ وأصله الانطلاق . والمطلقات المخلَّيات . والطلاق : التخلية؛ يقال : نعجة طالق، وناقة طالق؛ أي مهملة قد تركت في المرعى لاقيد عليها ولا راعي . وبعير طُلُق (بضم الطاء واللام) غير مقيّد؛ والجمع أطلاق . وحُبِس فلان في السجن طَلْقًا أي بغير قيد . والطالق من الإبل : التي يتركها الراعي لنفسه لا يحتلبها على الماء؛ يقال : استطلق الراعي ناقة لنفسه . فسُمّيت المرأة المخلَّى سبيلها بما سُمّيت به النعجة أو الناقة المهمل أمرها . وقيل : إنه مأخوذ من طَلَق الفرس، وهو ذهابه شوطا لا يُمنع؛ فسُمّيت المرأة المخلّاة طالقا لا تُمنع من نفسها بعد أن كانت ممنوعة .

الثالثة والعشرون — في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ دليل على أنها لا تطلق بمضيّ مدّة أربعة أشهر؛ كما قال مالك، ما لم يقع إنشاء تطليق بعد المدّة ، وأيضا فإنه قال : «سميع» وسميع يقتضي مسموعا بعد المضيّ . وقال أبو حنيفة : «سميع» لإيلائه ، «عليم» بعزمه الذي دل عليه مضيّ أربعة أشهر . وروى سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال : سألت اثني عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يُولي من امرأته ؛ فكلهم يقول : ليس عليه شيء حتى تمضي أربعةُ أشهر فيُوقَف ؛ فإن فاء وإلا طلّق . قال القاضي ابن العربيّ : وتحقيق الأمر أن تقدير الآية عندنا : «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا» بعد انقضائها «فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم» . وتقديرها عندهم : «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا» فيها «فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق» بترك الفيئة فيها، يريد مدّة التربص فيها «فإن الله سميع عليم» . ابن العربيّ : وهذا احتمال متساوٍ، ولأجل تساويه توقّفت الصحابة فيه .

قلت : وإذا تساوى الاحتمال كان قول الكوفيين أقوى قياسا على المعتدّة بالشهور والأقراء، إذ كل ذلك أجلٌ ضربه الله تعالى؛ فبانقضائه انقطعت العصمة وأُبينت من غير خلاف، ولم يكن لزوجها سبيل عليها إلا بإذنها؛ فكذلك الإيلاء ، حتى لو نسي الفيء وانقضت المدّة لوقع الطلاق، والله أعلم .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ دليل على أن الأَمة بملك اليمين لا يكون فيها إيلاء، إذ لا يقع عليها طلاق، والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ ﴾ لما ذكر الله تعالى الإيلاء وأن الطلاق قد يقع فيه بيّن تعالى حكم المرأة بعد التطليق . وفي كتاب أبي داود والنّسائيّ عن ابن عباس قال في قول الله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلّق آمرأته فهو أحقّ بها وإن طلقها ثلاثا ، فنسخ ذلك وقال : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ » الآية . والمطلقات لفظ عموم، والمراد به الخصوص في المدخول بهنّ، وخرجت المطلقة قبل البناء بآية « الأحزاب » : « فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا » على ما يأتي . وكذلك الحاملُ بقوله : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » . والمقصود من الأقراء الاستبراء، بخلاف عدّة الوفاة التي هي عبادة . وجعل الله عدّة الصغيرة التي لم تحض والكبيرة التي قد يئست الشهورَ على ما يأتي . وقال قوم : إن العموم في المطلقات يتناول هؤلاء ثم نُسخن، وهو ضعيف؛ وإنما الآية فيمن تحيض خاصة . وهو عرف النساء وعليه معظمهنّ .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ التربّص الانتظار، على ما قدّمناه . وهذا خبرٌ والمراد الأمر؛ كقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ » وجمع رجل عليه ثيابه، وحسبك درهم، أي اكتف بدرهم؛ هذا قول أهل اللسان من غير خلاف بينهم فيما ذكر ابن الشَّجريّ . ابن العربيّ: وهذا باطل، وإنما هو خبر عن حكم الشرع؛ فإن وجدت مطلقة

لا تربص فليس من الشرع ، ولا يلزم من ذلك وقوعُ خبر الله تعالى على خلاف مخبره . وقيل : معناه ليتربصن ، فحذف اللام .

الثالثة — قرأ جمهور الناس « قروء » على وزن فعول ، اللام همزة . ويروى عن نافع « قُرُوّ » بكسر الواو وشدها من غير همز . وقرأ الحسن « قَرْءٍ » بفتح القاف وسكون الراء والتنوين . وقروء جمع أقرؤ وأقراء ، والواحد قرء بضم القاف ؛ قاله الأصمعيّ . وقال أبو زيد : « قَرء » بفتح القاف ، وكلاهما قال : أقرأت المرأةُ اذا حاضت ، فهي مُقْرِئ . وأقرأت طهرت . وقال الأخفش : أقرأت المرأة إذا صارت صاحبة حيض ، فاذا حاضت قلت : قرأت ، بلا ألف . يقال : أقرأت المرأة حيضة أو حيضتين . والقرء : ٱنقطاع الحيض . وقال بعضهم : مابين الحيضتين . وأقرأت حاجتك : دنت ، عن الجوهريّ . وقال أبو عمرو ٱبن العلاء : من العرب من يُسمِّى الحيض قرءا ، ومنهم من يُسمِّى الطهر قرءا ، ومنهم من يجمعهما جميعا ؛ فيُسمِّى الطهر مع الحيض قرءا ؛ ذكره النحاس .

الرابعة — واختلف العلماء في الأقراء ؛ فقال أهل الكوفة : هي الحَيض ، وهو قول عمر وعليّ وابن مسعود وأبي موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسُّدّيّ . وقال أهل الحجاز : هي الأطهار ؛ وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهريّ وأبان بن عثمان والشافعيّ . فمن جعل القرء اسما للحيض سمّاه بذلك ؛ لاجتماع الدّم في الرّحم ، ومن جعله اسما للطهر فلاجتماعه في البدن ؛ والذي يحقق لك هذا الأصل في القُرْء الوقت ؛ يقال : هبّت الريح لقرئها وقارئها أي لوقتها ؛ قال الشاعر (١) :

كرِهتُ العَقْر عَقْرَ بني شَلِيل (٢) * اذا هبّت لقارئها الرّياحُ

فقيل للحيض : وقت ، وللطهر وقت ؛ لأنهما يرجعان لوقت معلوم ؛ وقال الأعشى في الأطهار :

أفي كل عام أنت جاشم غزوةٍ * تشدّ لأقصاها عزيم عزائكا
مورِّثةٍ عِزًّا وفي الحيّ رفعةً * لِما ضاع فيها من قروء نسائكا

(١) هو مالك بن الحارث الهذلي (عن اللسان) .
(٢) العقر : اسم موضع . وشليل : جد جرير بن عبد الله البجلي .

وقال آخر فى الحيض :

يا رُبَّ ذى ضغن علىّ فارِض * له قروءٌ كقروء الحائِض

يعنى أنه طعنه فكان له دم كدم الحائض . وقال قوم : هو مأخوذ من قرء الماء فى الحوض ، وهو جمعه ؛ ومنه القرآن لاجتماع المعانى . و يقال لاجتماع حروفه ؛ و يقال : ما قرأتِ الناقةُ سَلًى قَطُّ ، أى لم يجتمع فى جوفها ؛ وقال عمرو بن كُلثوم :

ذِراعَىْ عَيْطَلٍ أدماءَ بِكرٍ * هِجانِ اللّونِ لم تَقرأ جنِينَا

فكأنّ الرّحم يجمع الدم وقتَ الحيض ، والجسم يجمعه وقت الطّهر . قال أبو عمر بن عبد البرّ : قول من قال : إن القرء مأخوذ من قولهم : قريت الماء فى الحوض ليس بشىء ؛ لأن القرء مهموز وهذا غير مهموز .

قلت : هذا صحيح بنقل أهل اللغة : الجوهرىّ وغيره . واسم ذلك الماء قِرًى (بكسر القاف مقصور) . وقيل : القرء ، الخروج إما من طهر الى حيض أو من حيض الى طهر ؛ وعلى هذا قال الشافعىّ فى قول : القرء الانتقال من الطهر الى الحيض ؛ ولا يرى الخروج من الحيض الى الطهر قرءا . وكان يلزم بحكم الاشتقاق أن يكون قرءا ، و يكون معنى قوله تعالى : « والمطلقات يتربّصن بأنفسهن ثلاثةَ قُرُوءٍ » . أى ثلاثة أدوار أو ثلاثة انتقالات ؛ والمطلقة متصفة بحالتين فقط ؛ فتارة تنتقل من طهر الى حيض ، وتارة من حيض الى طهر فيستقيم معنى الكلام ؛ ودلالته على الطهر والحيض جميعا فيصير الاسم مشتركا . و يقال : اذا ثبت أن القرء الانتقال فخروجها من طهر الى حيض غير مراد بالآية أصلا ، ولذلك لم يكن الطلاق فى الحيض طلاقا سُنِّيًّا مأمورا به ، وهو الطلاق للعدّة ؛ فان الطلاق للعدّة ما كان للطهر ، وذلك يدل على كون القرء مأخوذا من الانتقال ؛ فاذا كان الطلاق فى الطهر سُنِّيًّا فتقدير الكلام : فعدّتهن ثلاثة انتقالات ؛ فأوّلها الانتقال من الطهر الذى وقع فيه الطلاق ، والذى هو الانتقال من حيض الى طهر لم يجعل قرءا ؛ لأن اللغة لا تدلّ عليه ، ولكن عرفنا بدليل آخر ؛ أن الله تعالى لم يُرِد الانتقال من حيض الى طهر ؛ فاذا خرج أحدهما عن أن يكون

مرادا بقي الآخر وهو الانتقال من الطهر الى الحيض مرادا ؛ فعلى هذا عدّتها ثلاثة انتقالات ، أوّلها الطهر ، وعلى هذا يمكن استيفاء ثلاثةِ أقراء كاملة اذا كان الطلاق فى حالة الطهر ، ولا يكون ذلك حملا على المجاز بوجهٍ مّا . قال الكِيَا الطبرىّ : وهـذا نظر دقيق فى غاية الاتجاه لمذهب الشافعىّ ، ويمكن أن يذكر فى ذلك سرّ لا يبعد فهمـه من دقائق حِكَم الشريعـة ، وهو أن الانتقال من الطهر الى الحيض إنمـا جعل قرءا لدلالته على براءة الرّحم ؛ فإن الحامل لا تحيض فى الغـالب فبحيضها عُلم براءة رحمها . والانتقال من حيض الى طهر بخلافه ؛ فان الحائض يجوز أن تحبلَ فى أعقاب حيضها ، واذا تمادى أمد الحامل وقَوِي الولد انقطع دمها ؛ ولذلك تمتدح العرب بحمل نسائها فى حالة الطهر ، وقد مدحت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسـلم بقول الشاعر (١) :

ومُبَرَّإٍ من كل غُبَّرِ حَيضةٍ * وفسادِ مُرضِعةٍ وداءٍ مُغْيِلِ

يعنى أن أمّه لم تحمل به فى بقيّة حيضها . فهذا ما للعلماء وأهل اللسان فى تأويل القُرْء . وقالوا : قرأت المرأة قرءا إذا حاضت أو طهرت . وقرأت أيضـا إذا حملت . واتفقوا على أن القرء الوقت ، فاذا قلت : والمطلقـات يتربصن بأنفسهن ثلاثةَ أوقات ، صارت الآية مفسّرة فى العدد محتملة فى المعدود ، فوجب طلب البيان للمعدود من غيرها ؛ فدليلنا قول الله تعالى : « فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق وقت الطهر فيجب أن يكون هو المعتبر فى العدّة ؛ فانه قال : « فطلقوهنّ » يعنى وقتا تعتدّ به ، ثم قال تعالى : « وَأَحْصُوا الْعِـدَّةَ » . يريد ما تعتدّ به المطلقة وهو الطهر الذى تطلّق فيـه ؛ وقال صلى الله عليه وسـلم لعمر : "مُرْه فليُراجعها ثم يُمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فتلك العدّة التى أمر الله أن تطلّق لها النساء" . أخرجه مسلم وغيره . وهو نصّ فى أن زمن الطهر هو الذى يُسمَّى عدّة ، وهو الذى تطلق فيه النساء . ولا خلاف أن من طلق فى حال الحيض لم تعتدّ بذلك الحيض ، ومن طلّق فى حال الطهر فإنها تعتدّ عند الجمهور بذلك الطهر ؛ فكان ذلك أَوْلى . قال أبو بكر

(١) هو أبو كبير الهذلى (عن اللسان) .

ابن عبد الرحمن : ما أدركنا أحدا من فقهائنا إلا يقول بقول عائشة فى أن الأقراء هى الأطهار . فإذا طلق الرجل فى طهر لم يطأ فيه اعتدّت بما بقى منه ولو ساعة ولو لحظة ، ثم استقبلت طهرا ثانيا بعد حيضة، ثم ثالثا بعد حيضة ثالثة ؛ فاذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلّت للأزواج وخرجت من العدّة . فإن طلق مُطلّق فى طهر قد مسّ فيه لزمه الطلاق وقد أساء، وٱعتدّت بما بقى من ذلك الطهر . وقال الزهرىّ فى ٱمرأة طُلّقت فى بعض طهرها : إنها تعتدّ بثلاثة أطهار سوى بقية ذلك الطهر . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا ممن قال : الأقراءُ الأطهارُ يقول هذا غير ابن شهاب الزهرىّ ؛ فإنه قال : تُلغِى الطهر الذى طُلّقت فيه ثم تعتدّ بثلاثة أطهار؛ لأن الله عز وجل يقول : « ثلاثة قروء » .

قلت : فعلى قوله لا تحل المطلّقة حتى تدخل فى الحيضة الرابعة ؛ وقولُ ابن القاسم ومالك وجمهور أصحابه والشافعىّ وعلماءِ المدينة : إن المطلّقة إذا رأت أوّل نقطة من الحيضة الثالثة خرجت من العِصمة ، وهو مذهب زيد بن ثابت وعائشة وابن عمر ، وبه قال أحمد ٱبن حنبل ، واليه ذهب داود بن علىّ وأصحابه . والحجة على الزهرىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أذن فى طلاق الطاهر من غير جماع ، ولم يقل أوّل الطهر ولا آخره . وقال أشهب : لا تنقطع العصمة والميراث حتى يُتحقق أنه دم حيض؛ لئلا تكون دفعة دم من غير الحيض . احتج الكوفيون بقوله عليه السلام لفاطمة بنت أبى حُبيش حين شكت اليه الدّم : "إنما ذلكِ عرق فٱنظرى فإذا أتى قرؤك فلا تصلى واذا مرّ القرء فتطهرى ثم صلى من القرء الى القرء". وقال تعالى : « وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ » . فجعل المأيوس منه المحيض؛ فدل على أنه هو العِدّة، وجعل العِوض منه هو الأشهر اذا كان معدوما . وقال عمر بحضرة الصحابة : عِدّة الأَمَة حيضتان ، نصف عِدّة الحرة ، ولو قدرتُ على أن أجعلها حيضة ونصفا لفعلت ؛ ولم ينكر عليه أحد . فدل على أنه إجماع منهم ؛ وهو قول عشرة من الصحابة منهم الخلفاء الأربعة ، وحسبك ما قالوا ! وقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » يدل على ذلك ؛ لأن المعنى يتربّصن ثلاثة أقراء، يريد كوامل،

وهذا لا يمكن أن يكون إلا على قولنا بأن الأقراء الحيَض ؛ لأن من يقول : إنه الطهر يجوّز أن تعتدّ بطهرين و بعض آخر ؛ لأنه اذا طلق حال الطهر اعتدّت عنـده ببقية ذلك الطهر قرءا . وعندنا تستأنف من أوّل الحيض حتى يصدق الاسم ؛ فاذا طلّق الرجل المرأة فى طهر لم يطأ فيـه استقبلت حيضــة ثم حيضة ثم حيضة ؛ فإذا اغتسلت من الثالثة خرجت من العــدّة .

قلت : هــذا يردُّه قولُه تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ » فأثبت الهـاء فى «ثمانية أيام» ، لأن اليوم مذكر وكذلك القرء؛ فدل على أنه المراد. ووافقنا أبو حنيفة على أنها إذا طلقت حائضا أنها لا تعتدّ بالحيضة التى طُلِّقت فيها ولا بالطهر الذى بعدها ، و إنما تعتدّ بالحيض الذى بعــد الطهر . وعندنا تعتدّ بالطهر، على ما بيّناه . وقد استجاز أهل اللغة أن يعبّروا عن البعض باسم الجميع ؛ كما قال تعـالى : « الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ » والمراد به شهران و بعضُ الثالث ؛ فكذلك قوله : «ثلاثة قروء» . والله أعلم . وقال بعض من يقول بالحيض : إذا طهرت من الثالثة انقضت العدّة بعــد الغسل و بطلت الرجعة ؛ قاله سعيد بن جُبير وطاوس وابن شُبْرُمة والأوزاعىّ . وقال شُريك : اذا فرّطت المرأة فى الغسل عشرين سنة فلزوجها عليها الرجعة مالم تغتسل . ورُوى عن إسحاق بن راهْوَيْه أنه قال : إذا طعنت المرأة فى الحيضة الثالثة بانت وانقطعت رجعة الزوج ، إلا أنها لا يحل لها أن تتزوج حتى تغتسل من حيضتها . ورُوى نحوه عن ابن عباس ؛ وهو قول ضعيف ، بدليــل قول الله تعالى : «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ» على ما يأتى . وأما ما ذكره الشافعىّ من أن نفس الانتقال من الطهر الى الحيضــة يسمى قرءا ففائدته تقصير العــدّة على المرأة ، وذلك أنه إذا طلق المــرأة فى آخر ساعة من طهرها فدخلت فى الحيضة عدّته قرءا ، و بنفس الانتقال من الطهر الثالث انقطعت العصمة وحلّت . والله أعلم .

الخامســـة — والجمهور من العلمــاء على أن عدّة الأَمَة التى تحيض من طلاق زوجها حيضتان . ورُوى عن ابن ســيرين أنه قال : ما أرى عدّة الأَمَة إلا كعِدّة الحُرّة ، إلا أن

تكون مضت فى ذلك سُنّةٌ؛ فان السُّنّة أحقُّ أن تُتَّبَع . وقال الأصم عبـد الرحمن بن كَيْسان وداود بن علىّ وجماعةُ أهل الظاهر: إن الآيات فى عدّة الطلاق والوفاة بالأشهر والأقراء عامةٌ فى حق الأَمَة والحـرّة؛ فعدّة الحرّة والأمة سـواء . واحتج الجمهور بقوله عليـه السلام : "طلاق الأَمَة تطليقتان وعدّتها حيضتان". رواه ابن جُرَيج عن عطاء عن مظاهر بن أسلم عن أبيه عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "طلاق الأَمَة تطليقتان وقرؤها حيضتان" فأضاف اليها الطلاق والعدّة جميعا؛ إلا أن مظاهر بن أسلم انفرد بهذا الحديث وهو ضعيف . ورُوى عن ابن عمر : أيُّهما رَقّ نقص طلاقه؛ وقالت به فرقة من العلمـاء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ أى من الحيض؛ قاله عكرمة والزهرىّ والنخعىّ . وقيل : الحمـل؛ قاله عمر وابن عباس . وقال مجاهد : الحيض والحمل معا؛ وهذا على أن الحامل تحيض . والمعنى المقصود من الآية أنه لمـا دار أمر العـدّة على الحيض والأطهار ولا اطلاع عليهما إلا من جهـة النساء جُعل القولُ قولَهـا اذا ادّعت انقضاء العدّة أو عدمها، وجعلهنّ مؤتمنات على ذلك؛ وهو مقتضى قوله تعالى : «ولا يحل لهنّ أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهنّ» . وقال سليمان بن يسار : ولم نؤمر أن نفتح النساء فننظر إلى فروجهنّ، ولكن وُكِل ذلك إليهنّ إذ كنّ مؤتمنات . ومعنى النّهى عن الكتمان النّهىُ عن الإضرار بالزوج وإذهاب حقه؛ فاذا قالت المطلقـة : حضت؛ وهى لم تحض، ذهبت بحقـه من الارتجاع . وإذا قالت : لم أحض؛ وهى قـد حاضت، ألزمته من النفقة مالم يلزمه فأضرّت به، أو تقصد بكذبها فى نفى الحيض ألا تُرتجع حتى تنقضى العـدّة ويقطع الشرع حقـه . وكذلك الحـامل تكتم الحمل؛ لتقطع حقّـه من الارتجاع . قال قتادة : كانت عادتهنّ فى الجاهليـة أن يكتمن الحمـل ليُلحقن الولد بالزوج الجديد، ففى ذلك نزلت الآية . وحُكى أن رجلا من أشجعَ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : يارسول الله ، إني طلقتُ امرأتي وهي حبلى ، ولستُ آمنُ أن تتزوّج فيصير ولدى لغيرى ؛ فأنزل الله الآية ، ورُدّت امرأة الأشجعيّ عليه .

الثانيــة ـــ قال ابن المنذر : وقال كلّ مَن حفظت عنه من أهل العلم : إذا قالت المرأة في عشرة أيام : قد حضت ثلاث حِيَض وانقضت عدتى إنها لا تصدّق ولا يقبل ذلك منها ، إلا أن تقول : قد أسقطت سقطا قد آستبان خَلْقه . واختلفوا في المدّة التي تصدّق فيها المرأة ؛ فقال مالك : إذا قالت انقضت عدّتى في أَمدٍ تنقضي في مثله العدّة قُبل قولها ؛ فإن أخبرت بانقضاء العدّة في مدّة تقع نادرا فقولان . قال في المدونة : إذا قالت حضت ثلاث حيض في شهر صدّقت إذا صدّقها النساء ، وبه قال شُريح ، وقال له عليّ بن أبي طالب : قَالُون ! أي أصبت وأحسنتَ . وقال في كتاب محمد : لا تصدّق إلا في شهر ونصف . ونحوه قول أبي ثور ؛ قال أبو ثور : أقلّ ما يكون ذلك في سبعة وأربعين يوما ، وذلك أن أقلّ الطهر خمســة عشر يوما ، وأقلّ الحيض يوم . وقال النعمان : لا تصــدّق في أقل من ستين يوما ؛ وقال به الشافعيّ .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ هذا وعيدٌ عظيم شــديد لتأكيد تحريم الكتمان ، وإيجابٌ لأداء الأمانة في الإخبار عن الرَّحم بحقيقة مافيــه . أي فسبيل المؤمنات ألا يكتمن الحق ؛ وليس قوله : « إن كنّ يؤمنّ بالله » على أنه أبيح لمن لا يؤمن أن يكتم ؛ لأن ذلك لا يحل لمن لا يؤمن ، وإنمــا هو كقوله : إن كنت أخى فلا تظلمنى ؛ أي فينبغي أن يحجزك الإيمان عنه ؛ لأن هذا ليس من فعل أهل الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ ﴾ البعولة جمع البعل ، وهو الزوج ، سُمِّيَ بَعْلًا لعلوّه على الزوجة بما قد ملكه من زوجيتها ؛ ومنــه قوله تعــالى : «أَتَدْعُونَ بَعْلًا» أي رَبًّا ؛ لعلوّه في الربوبية ؛ يقال : بعل وبعولة ؛ كما يقال في جمع الذَّكَر : ذَكَر وذُكُورة ، وفي جمع الفحل : فحل وفحولة ؛ وهذه الهاء زائدة مؤكّدة لتأنيث الجماعة ، وهو شاذٌّ لا يقاس عليه ، ويعتبر فيها

السماع ؛ فلا يقال في لعب : لعوبة . وقيل : هي هاء تأنيث دخلت على فعول . والبعولة أيضا مصـدر البعل . وبَعَل الرجل يَبْعَل (مثـل منع يمنع) بُعولة ، أي صار بعلا . والمباعلة والبعال : الجماع ؛ ومنه قوله عليه السلام لأيام التشريق : "إنها أيام أكل وشرب وبِعال" وقد تقدّم . فالرجل بعل المرأة ، والمرأة بعلته . وباعل مباعلة إذا باشرها . وفلان بَعْلُ هذا ، أي مالكه وربّه . وله محامل كثيرة تأتي إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أي بمراجعتهنّ ؛ فالمراجعة على ضربين : مراجعة في العدّة على حديث ابن عمر . ومراجعة بعـد العدّة على حديث مَعْقِل ؛ وإذا كان هذا فيكون في الآية دليـل على تخصيص ما شمِله العموم في المُسمَّيات ؛ لأن قوله تعـالى : «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» عام في المطلقات ثلاثا ، وفيما دونها لا خلاف فيه . ثم قوله : « وبعولتهنّ أَحَقُّ » حكمٌ خاص فيمن كان طلاقها دون الثلاث . وأجمـع العلماء على أن الحرّ إذا طلّق زوجته الحرّة وكانت مدخولا بها تطليقةً أو تطليقتين أنه أحق برجعتها ما لم تنقض عدّتها وإن كرِهت المرأة . فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عدّتها فهي أحق بنفسها وتصـير أجنبيّة منه ؛ لا تحل له إلا بِخطبـة ونكاح مستأنَف بولِيّ وإشهاد ، ليس على سُـنّة المراجعة . وهذا إجماع من العلماء . قال المهلّب : وكل من راجع في العدّة فإنه لا يلزمه شيء من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط . وهذا إجماع من العلماء ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْـكُمْ » فذكر الإشهاد في الرجعة ولم يذكره في النكاح ولا في الطـلاق . قال ابن المنذر : وفيما ذكرناه من كتاب الله مع إجماع أهـل العلم كفايةٌ عن ذكر ما رُوِي عن الأوائل في هـذا الباب ؛ والله تعالى أعلم .

الثالثـــة ــ واختلفوا فيما يكون به الرجل مراجعا في العِدّة ؛ فقال مالك : إذا وطئهـا في العِدّة وهو يريد الرجعة وجهِل أن يُشهِد فهي رجعة . وينبغي للمرأة أن تمنعه الوطءَ حتى يُشهِد ؛ وبه قال إسحاق ، لقوله عليه السلام : "إنما الأعمال بالنيات وإنّمـا لكل امرئ ما نوى" .

فإن وطئ فى العدّة لا ينوى الرجعة فقال مالك : يراجع فى العدّة ولا يطأ حتى يستبرئها من مائه الفاسد . قال ابن القاسم : فإن انقضت عدّتها لم ينكحها هو ولا غيره فى بقية مدّة الاستبراء ؛ فإن فعل فسخ نكاحه ، ولا يتأبّد تحريمها عليه لأن الماء ماؤه . وقالت طائفة : إذا جامعها فقد راجعها ؛ هكذا قال سعيد بن المسيّب والحسن البصرى وابنُ سيرين والزهرى وعطاء وطاوس والثورى . قال : ويُشهِد ؛ وبه قال أصحاب الرأى والأوزاعى وابن أبى لَيْلَى ؛ حكاهُ ابن المنذر . وقال أبو عمر : وقد قيل : وطؤه مراجعةٌ على كل حال ، نواها أو لم ينوها ؛ ويُروى ذلك عن طائفة من أصحاب مالك ، وإليه ذهب اللّيث . ولم يختلفوا فيمن باع جاريته بالخيار أن له وطأها فى مدّة الخيار ، وأنه قد ارتجعها بذلك إلى ملكه ، واختار نقض البيع بفعله ذلك . وللطلقة الرجعية حكم من هذا . والله أعلم .

الرابعــة — من قبّل أو باشر ينوى بذلك الرجعة كانت رجعةً ، وإن لم ينو بالقُبْلة والمباشرة الرجعةَ كان آثما ، وليس بمُراجع . والسُّنّة أن يُشهد قبل أن يطأ أو قبل أن يُقبِّل أو يباشر . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن وطئها أو لمسها بشهوة أو نظر إلى فرجها بشهوة فهى رجعة ؛ وهو قول الثورى ، وينبغى أن يُشهِد . وفى قول مالك والشافعى وإسحاق وأبى عبيد وأبى ثور لا يكون رجعة ؛ قاله ابن المنذر . وفى « المنتقى » قال : ولا خلاف فى صحة الارتجاع بالقول ؛ فأما بالفعل نحو الجماع والقُبْلة فقال القاضى أبو محمد : يصح بها وبسائر الاستمتاع للّذة . قال ابن الموّاز : ومثل الجَسّة اللّذةُ ، أو أن ينظر الى فرجها أو ما قارب ذلك من محاسنها إذا أراد بذلك الرجعة ؛ خلافا للشافعى فى قوله : لا تصح الرجعة الا بالقول ؛ وحكاه ابن المنذر عن أبى ثور وجابر بن زيد وأبى قِلابة .

الخامســة — قال الشافعى : إن جامعها ينوى الرجعة أو لا ينوى فليس برجعة ، ولها عليه مهر مثلها . وقال مالك : لا شىء لها ؛ لأنه لو ارتجعها لم يكن عليه مهر ، فلا يكون الوطء دون الرجعة أَوْلى بالمهر من الرجعة . وقال أبو عمر : ولا أعلم أحدا أوجب عليه مهر المثل غير الشافعى ، وليس قوله بالقوى ؛ لأنها فى حكم الزوجات وترثه ويرثها ، فكيف يجب

مهر المثل فى وطء امرأة حكمها فى أكثر أحكامها حكم الزوجة! إلا أن الشبهة فى قول الشافعى قوية؛ لأنها عليه محرمة إلا برجعة لها . وقد أجمعوا على أن الموطوءة بشُبهة يجب لها المهر، وحسبك بهذا!

السادسة — واختلفوا هل يسافر بها قبل أن يرتجعها؛ فقال مالك والشافعىّ : لا يسافر بها حتى يراجعها . وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه إلا زُفَر فإنه روى عنه الحسن آبن زياد أن له أن يسافر بها قبل الرجعة ، وروى عنه عمرو بن خالد : لا يسافر بها حتى يراجع .

السابعة — واختلفوا هل له أن يدخل عليها ويرى شيئا من محاسنها، وهل تتزيّن له وتتشرّف[1]؛ فقال مالك . لا يخلو معها، ولا يدخل عليها إلا بإذن ، ولا ينظر إليها إلا وعليها ثيابها ، ولا ينظر الى شعرها ، ولا بأس أن يأكل معها اذا كان معهما غيرهما ، ولا يبيت معها فى بيت وينتقل عنها . وقال ابن القاسم : رجع مالك عن ذلك فقال : لا يدخل عليها ولا يرى شعرها. ولم يختلف أبو حنيفة وأصحابه فى أنها تتزيّن له وتتطيّب وتلبس الحُلِىّ وتتشرّف . وعن سعيد بن المسيّب قال : اذا طلق الرجل امرأته تطليقة فإنه يستأذن عليها، وتلبَس ما شاءت من الثياب والحُلِىّ ؛ فان لم يكن لهما إلا بيت واحد فليجعلا بينهما سترا ، ويسلّم اذا دخل ؛ ونحوُه عن قتادة ، ويُشعِرها اذا دخل بالتنحّم والتنحنح . وقال الشافعىّ: المطلقة طلاقا تملك رجعتها محرّمةٌ على مطلقها تحريم المبتوتة حتى يراجع ، ولا يراجع إلا بالكلام؛ على ما تقدّم .

الثامنة — أجمع العلماء على أن المطلق إذا قال بعد انقضاء العدّة : إنى كنت راجعتك فى العدّة وأنكرتْ أن القول قولُها مع يمينها ، ولا سبيل له إليها ؛ غير أن النعمان كان لا يرى يمينا فى النكاح ولا فى الرجعة ؛ وخالفه صاحباه فقالا كقول سائر أهل العلم . وكذلك اذا كانت الزوجة أَمَة وآختلف المَوْلَى والجارية ، والزوج يدّعى الرجعة فى العدّة بعد انقضاء العدّة

(١) التشرف : التطلع الى الشيء والنظر اليه .

وأنكرت فالقول قول الزوجة الأَمَةِ وإن كذبها مولاها ؛ هذا قول الشافعيّ وأبى ثور والنعمان .
وقال يعقوب ومحمد : القول قول المولى وهو أحق بها .

التاســـعة — لفظ الردّ يقتضى زوال العصمة؛ إلا أن علماءنا قالوا : إن الرّجعة محرّمة الوطء ؛ فيكون الردّ عائدا الى الحل . وقال اللّيث بن سعد وأبو حنيفة ومن قال بقولهما — فى أن الرجعة محلّلة الوطء ، وأن الطلاق فائدته تنقيص العدد الذى جُعل له خاصة ، وأن أحكام الزوجية باقية لم ينحل منهـا شىء — قالوا : وأحكام الزوجيـة وإن كانت باقية فالمرأة ما دامت فى العـدّة سائرةٌ فى سبيل الزوال بانقضاء العـدّة؛ فالرجعة ردّ عن هـذه السبيل التى أخذت المرأة فى سلوكها ، وهـذا ردّ مجازىّ ، والردّ الذى حكمنا به ردّ حقيقىّ؛ فإن هنالك زوال مستنجز وهو تحريم الوطء؛ فوقع الردّ عنه حقيقة، والله أعلم .

العاشرة — لفظ «أحق» يطلق عند تعارض حقّين، ويرجّح أحدهما؛ فالمعنى حقّ الزوج فى مدّة التربّص أحقّ من حقها بنفسها؛ فإنها إنما تملك نفسها بعد انقضاء العدّة؛ ومثل هذا قوله عليه السلام : "الأَيِّمُ أحقّ بنفسها من وَلِيّها" . وقد تقدّم .

الحادية عشرة — الرجل مندوب الى المراجعة ، ولكن إذا قصـد الإصلاح بإصـلاح حاله معها ، وإزالة الوحشة بينهما ؛ فأما إذا قصـد الإضرار وتطويل العدّة والقطع بها عن الخلاص من رِبْقة النكاح فمحرّم؛ لقوله تعالى : « وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا » ثم من فعل ذلك فالرجعة صحيحة ، وإن ارتكب النهى وظلم نفسه ؛ ولو علمنا نحن ذلك المقصد طلقناعليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ أى لهنّ من حقوق الزوجيّة على الرجال مثل ما للرجال عليهنّ ؛ ولهـذا قال ابن عباس : إنى لأتزيّن لامرأتى كما تتزيّن لى ، وما أحبّ أن أستنظف[(١)] كلّ حقى الذى لى عليها فتستوجب حقّها الذى لهـا علىّ؛ لأن الله تعالى قال : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » أى زينة من غير مأثم . وعنـه أيضا : أى لهنّ من حسن الصحبة

(١) استنظفت الشىء : إذا أخذته كله .

والعشرة بالمعروف على أزواجهنّ مثل الذى عليهنّ من الطاعة فيما أوجبه عليهنّ لأزواجهنّ .
وقيل : إن لهنّ على أزواجهنّ ترك مضارّتهن كما كان ذلك عليهنّ لأزواجهنّ ؛ قال الطبرىّ :
وقال ابن زيد : تتقون الله فيهنّ كما عليهنّ أن يتّقين الله عز وجل فيكم ؛ والمعنى متقارب .
والآية تعم جميع ذلك من حقوق الزوجية .

الثانيـة — قول ابن عباس : « إنى لأتزيّن لامرأتى » قال العلماء : أما زينة الرجال فعلى تفاوت أحوالهم ؛ فإنهم يعملون ذلك على اللَّبَق[1] والوفاق ؛ فربّما كانت زينة تليق فى وقت ولا تليق فى وقت ، وزينة تليق بالشباب ، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب ؛ ألا ترى أن الشيخ والكهل اذا حفّ شاربه لِيق به ذلك وزانه ، والشابّ اذا فعل ذلك سُمِج ومقت لأن اللّحية لم تَفِرْ بعدُ ، فاذا حفّ شاربه فى أوّل ما خرج وجهه سُمِج ، وإذا وَفَرت لحيته وحفّ شاربه زانه ذلك . ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أمرنى ربى أن أُعفِى لحيتى وأُحْفِى شاربى" . وكذلك فى شأن الكسوة ؛ ففى هذا كله ابتغاء الحقوق ؛ فإنما يعمل اللائقَ والوفاق ليكون عند امرأته فى زينة تسرّها ويعفّها عن غيره من الرجال . وكذلك الكحل من الرجال منهم من يليق به ومنهم من لا يليق به . فأما الطِّيب والسِّواكُ والخِلالُ والرمىُ بالدَّرَن وفضولِ الشَّعر والتطهيرُ وقلمُ الأظفار فهو بيّن موافق للجميع . والخِضاب للشيوخ والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة ؛ وهو حَلْىُ الرجال على ما يأتى بيانه فى سورة « النحل » .
ثم عليه أن يتوخّى أوقات حاجتها الى الرجال فيعفّها ويغنيها عن التطلّع الى غيره . وإن رأى الرجلُ من نفسه عجزا عن إقامة حقّها فى مضجعها أخذ من الأدوية التى تزيد فى باهه وتُقوّى شهوته حتى يعفّها .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أى منزلة . ومَدْرجةُ الطريق : قارعته ؛ والأصل فيه الطَّىُّ ؛ يقال : دَرَجوا ، أى طَوَوْا عمرهم ؛ ومنها الدّرجة التى يُرتَقى عليها .
ويقال : رَجُلٌ بين الرّجلة ، أى القوّة . وهو أرجل الرجلين ، أى أقواهما . وفرس رجيل ،

(١) اللبق بالفتح : اللباقة والحذق .

أي قويّ؛ ومنه الرِّجل، لقوّتها على المشي. فزيادة درجة الرجل بعقله وقوّته على الإنفاق وبالدّية والميراث والجهاد . وقال حُميد : الدّرجة اللّحية؛ وهذا إن صحّ عنه فهو ضعيف لا يقتضيه لفظ الاية ولا معناها . قال ابن العربيّ : فطُوبى لعبد أمسك عمّا لا يعلم، وخصوصا في كتاب الله تعالى ! ولا يخفى على لبيب فضلُ الرجال على النساء؛ ولو لم يكن إلا أن المرأة خُلقت من الرجل فهو أصلها . وله أن يمنعها من التصرّف إلا بإذنه؛ فلا تصوم إلا بإذنه ولا تحجّ إلا معه . وقيل : الدّرجةُ الصداقُ؛ قاله الشّعبيّ . وقيل : جواز الأدب . وعلى الجملة فدرجة تقتضي التفضيل، وتُشعر بأن حقّ الزوج عليها أوجبُ من حقّها عليه؛ ولهذا قال عليه السلام : "ولو أمرتُ أحدا بالسجود لغير الله لأمرتُ المرأةَ أن تسجد لزوجها" . وقال ابن عباس : الدرجةُ إشارةٌ الى حضّ الرجال على حسن العشرة، والتوسّع للنساء في المال والخُلُق؛ أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه . قال ابن عطيّة : وهذا قول حسنٌ بارعٌ . قال الماورديّ : يحتمل أنها في حقوق النكاح؛ له رفع العَقْد دونها؛ ويلزمها إجابته إلى الفراش، ولا يلزمه إجابتها .

قلت : ومن هذا قولُه عليه السلام : "أيُّما امرأة دعاها زوجُها إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تُصبح" . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي منيع السلطان لا معترِض عليه . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي عالم مصيب فيما يفعل .

قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٢٩)

قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكانت عندهم العدّة معلومة مقدّرة؛ وكان هذا فى أوّل الاسلام برهة، يطلّق الرجل آمرأته ماشاء من الطلاق؛ فاذا كادت تحلّ من طلاقه راجعها ما شاء؛ فقال رجل لآمرأته على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم : لا آويك ولا أدَعُك تحلّين؛ قالت : وكيف؟ قال : أطلّقك فاذا دنا مُضِيُّ عدّتِك راجعتك . فشكت المرأة ذلك إلى عائشة؛ فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى هـذه الآية بياناً لعدد الطلاق الذى للرء فيه أن يرتجع دون تجديد مهر ووَلِيٍّ ونسخ ما كانوا عليـه . قال معناه عروة بن الزبير وقَتادة وابنُ زيد وغيرُهم . وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرُهم : المراد بالآية التعريفُ بسُنّة الطلاق؛ أى من طلّق اثنتين فليتّق الله فى الثالثة، فإما تركها غير مظلومة شيئا من حقها، و إما أمسكها محسنا عشرتها؛ والآية تتضمّن هذين المعنيين .

الثانيـة — الطلاق هو حَلّ العِصمة المنعقـدةِ بين الأزواج بألفاظ مخصوصة . والطلاق مباح بهـذه الآية و بغيرها، و بقوله عليه السـلام فى حديث ابن عمر : "فإن شاء أمسك وإن شاء طلّق" وقد طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة ثم راجعها؛ خرّجه ابن ماجه . وأجمع العلماء على أن من طلّق آمرأته طاهرا فى طهر لم يمسها فيه أنه مطلّق للسُّنّة وللعِدّةِ التى أمر الله تعالى بها، وأن له الرّجعة إذا كانت مدخولا بها قبل أن تنقضيَ عدّتُها؛ فإذا انقضت فهو خاطب من الخُطّاب . فدلّ الكتاب والسنة و إجماع الأمّة على أن الطلاق مباح غيرُ محظور . قال ابن المنذر : وليس فى المنع منه خبر يَثْبت .

الثالثـة — روى الدّارَقُطْنِيّ « حدّثنى أبو العباس محمـد بن موسى بن علىّ الدُّولابِيّ و يعقوب بن ابراهيم قالا حدّثنا الحسن بن عرفة حدّثنا إسماعيل بن عيّاش عن حُميـد بن مالك اللَّخْمىّ عن مكحول عن معـاذ بن جبل قال قال لى رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "يا معاذ ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحبّ إليه من العِتاق ولا خلق الله تعـالى شيئا على وجه الأرض أبغض اليه من الطـلاق فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حُرٌّ إن شاء الله فهو حُرٌّ

ولا آستثناء له و إذا قال الرجل لامرأته : أنتِ طالق إن شاء الله فله آستثناؤه ولا طلاق عليه". حدّثنا محمد بن موسى بن علىّ حدّثنا حميد بن الربيع حدّثنا يزيد بن هارون أنبأنا إسماعيل بن عياش بإسناده نحوه . قال حميد قال لى يزيد بن هارون : وأىّ حديث لوكان حميد بن مالك اللخمىّ معروفا ! قلت : هو جَدِّى ! قال يزيد : سَرَرْتَنِي سررتنى، ألآن صار حديثا ! » . قال ابن المنذر : وممن رأى الاستثناء فى الطلاق طاوس وحماد والشافعىّ وأبو ثور وأصحابُ الرأى . ولا يجوز الاستثناء فى الطلاق فى قول مالك والأوزاعىّ؛ وهو قول الحسن وقتادة فى الطلاق خاصة . قال : وبالقول الأوّل أقول .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ ابتداء ، والخبر أمثل أو أحسن ؛ ويصح أن يرتفع على ابتداء خبر محذوف ؛ أى فعليكم إمساك بمعروف . أو فالواجب عليكم إمساك بمـا يُعرف أنه الحق . ويجوز فى غير القرآنــــ « فإمساكا » على المصدر . ومعنى «بإحسان» أى لا يظلمها شيئا من حقها ، ولا يتعدّى فى قول . والإمساك : خلافُ الإطلاق . والتّسريح : إرسال الشيء؛ ومنه تسريح الشعر؛ ليخلص البعض من البعض . وسرّح المـاشية : أرسلها . والتّسريح يحتمل لفظه معنيين : أحدهما — تركها حتى تتمّ العدّة من الطلقة الثانية ، وتكون أملكَ لنفسها؛ وهذا قول السُّدّىّ والضحاك . والمعنى الآخر أن يطلقها ثالثة فيسرّحها؛ هذا قول مجاهد وعطاء وغيرهما؛ وهو أصح لوجوه ثلاثة :

أحدها — ما رواه الدَّارَقُطْنِىّ عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، قال الله تعالى : «الطلاق مَرَّتَانِ» فلِم صار ثلاثا؟ قال : "إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان — فى رواية — هى الثالثة" . ذكره ابن المنذر .

الثـانى — أن التّسريح من ألفاظ الطلاق؛ ألا ترى أنه قد قُرِئَ «و إن عزموا السّراح» .

الثـالث — أنّ فعّل تفعيلا يعطى أنه أحدث فعلا مكرّرا على الطلقة الثانية؛ وليس فى الترك إحداث فعل يعبّر عنه بالتفعيل . قال أبو عمر : « وأجمع العلماء على أن قوله تعالى : « أو تسريح بإحسان » هى الطلقة الثالثة بعـد الطلقتين ؛ و إياها عنى بقوله تعـالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » . وأجمعوا على أن من طلق آمرأته طلقة أو طلقتين فله

مراجعتها؛ فإن طلقها ثلاثا لم تحل له حتى تنكح زوجا غيره . فكان هذا من محكم القرآن الذى لم يُختلف فى تأويله . وقد رُوى من أخبار العدول مثل ذلك أيضا : حدّثنا سعيد بن نصر قال حدّثنا قاسم بن أصبغ قال حدّثنا محمد بن وضّاح قال حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة قال حدّثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن سُميع عن أبى رُزين قال : جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله، أرأيت قول الله تعالى : « الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » فأين الثالثة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان " . ورواه الثّوريّ (١) وغيره عن إسماعيل بن سُميع عن أبى رزين مثله .

قلت : وذكر الكِيَا الطبرىّ هذا الخبر وقال : إنه غير ثابت من جهة النقل؛ ورجح قول الضحاك والسُّدّىّ وأن الطلقة الثالثة إنما هى مذكورة فى مساق الخطاب فى قوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » . فالثالثة مذكورة فى صلة هذا الخطاب ، مفيدة للبينونة الموجبة للتحريم إلا بعد زوج ؛ فوجب حمل قوله : « أو تسريح بإحسان » على فائدة مجدّدة ، وهو وقوع البينونة بالثنتين عند انقضاء العدّة ، وعلى أن المقصود من الآية بيان عدد الطلاق الموجب للتحريم ، ونسخ ما كان جائزا من إيقاع الطلاق بلا عدد محصور ؛ فلو كان قوله : « أو تسريح بإحسان » هو الثالثةَ لما أبان عن المقصد فى إيقاع التحريم بالثلاث ؛ إذ لو اقتصر عليه لما دلّ على وقوع البينونة المحرّمة بها إلا بعد زوج ؛ وإنما علم التحريم بقوله تعالى : « فإن طلّقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » . فوجب ألا يكون معنى قوله : « أو تسريح بإحسان » الثالثة ، ولو كان قوله : « أو تسريح بإحسان » بمعنى الثالثة كان قوله عقيب ذلك : « فإن طلّقها » الرابعةَ ؛ لأن الفاء للتعقيب ، وقد اقتضى طلاقا مستقبلا بعد ما تقدّم ذكره ؛ فثبت بذلك أن قوله : « أو تسريح بإحسان » هو تركها حتى تنقضى عدّتها .

الخامسة — ترجم البخارىّ على هذه الآية « باب من أجاز الطلاق الثلاث بقوله تعالى : الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . وهذا إشارة منه إلى أن هذا

(١) فى بعض الأصول : «الترمذى » والتصويب عن كتاب « الاستذكار » لأبى عمر بن عبد البر .

التمـديد إنما هو فسحة لهم؛ فمن ضيّق على نفسه لزمه . قال علماؤنا : واتفق أئمة الفتوى على لزوم إيقاع الطلاق الثلاث فى كلمة واحدة؛ وهو قول جمهور السلف . وشذّ طاوس وبعض أهل الظاهر إلى أن طلاق الثلاث فى كلمـة واحدة يقع واحدة؛ ويُروى هـذا عن محمد بن إسحاق والحجـاج بن أَرْطاة . وقيـل عنهما : لا يلزم منـه شيء؛ وهو قول مقاتل . ويحكى عن داود أنه قال لا يقع . والمشهور عن الحجـاج بن أرطاة وجمهـور السلف والأئمـة أنه لازم واقـع ثلاثا . ولا فرق بين أن يوقع ثلاثا مجتمعة فى كلمة أو متفرّقة فى كلمات؛ فأما من ذهب إلى أنه لا يلزم منه شيء فاحتج بدليل قوله تعـالى : « وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » . وهذا يعمّ كلّ مطلقة إلا ما خُصّ منه؛ وقد تقدّم . وقال : « الطلاق مرّتان » والثالثة «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» . ومن طلّق ثلاثا فى كلمة فلا يلزم؛ إذ هو غير مذكور فى القرآن . وأما من ذهب إلى أنه واقع واحدة فاستـدلّ بأحاديث ثلاثة : أحدها — حديث ابن عباس من رواية طاوس وأبى الصَّهْباء وعكرمة . وثانيها — حديث ابن عمر على رواية من روى أنه طلّق امرأته ثلاثا ، وأنه عليـه السلام أمره برجعتهـا واحتُسبت له واحدة . وثالثها — أن رُكَانة طلّق ٱمرأته ثلاثا فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم برجعتها؛ والرجعة تقتضى وقوع واحدة . والجواب عن الأحاديث ما ذكره الطحاوىّ أن سـعيد بن جُبير ومجاهدا وعطاء وعمـرو بن دينار ومالكَ بن الحُوَيرث ومحمد بن إياس بن البُكَير والنعمانَ ٱبن أبى عياش رووا عن ابن عباس فيمن طلّق ٱمرأته ثلاثا أنه قـد عصى ربّه وبانت منه ٱمرأته ، ولا ينكحها إلا بعد زوج . وفيما رواه هؤلاء الأئمة عن ابن عباس ممـا يوافق الجماعة ما يدلّ على وَهْن رواية طاوس وغيره؛ وما كان ابن عباس ليخالف الصحابة الى رأى نفسه . قال ابن عبد البر : ورواية طاوس وهم وغلط لم يعرّج عليهـا أحدٌ من فقهاء الأمصار بالحجـاز والشام والعراق والمشرق والمغرب ؛ وقد قيل : إن أبا الصهباء لا يُعرف فى موالى ابن عباس . قال القاضى أبو الوليد الباجى : « وعندى أن الرواية عن ٱبن طاوس بذلك صحيحة ، فقد رواه عنه الأئمة : معمر وابن جريج وغيرُهما ؛ وابن طاوس إمامٌ . والحديث الذى يشيرون اليه هو

ما رواه ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر بن الخطاب طلاقُ الثلاث واحدةً ؛ فقال عمر رضي الله عنه : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ؛ فلو أمضيناه عليهم ! فأمضاه عليهم . ومعنى الحديث أنهم كانوا يوقعون طلقة واحدة بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطليقات ؛ و يدل على صحة هذا التأويل أن عمر قال : إن الناس قد آستعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ؛ فأنكر عليهم أن أحدثوا في الطلاق استعجال أمر كانت لهم فيه أناة ؛ فلو كان حالهم ذلك في أوّل الإسلام في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما قاله ، ولا عاب عليهم أنهم استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة . و يدل على صحة هـذا التأويل ما رُوي عن ابن عباس من غير طريقٍ أنه أفتى بلزوم الطلاق الثلاث لمن أوقعها مجتمعة ؛ فإن كان هذا معنى حديث ابن طاوس فهو الذي قلناه ، و إن حُمل حديث ابن عباس على ما يتأوّل فيه من لا يُعبأ بقوله فقد رجع آبن عباس إلى قول الجماعة وانعقد به الإجماع . ودليلنا من جهة القياس أن هذا طلاق أوقعه من يملكه فوجب أن يلزمه . أصل ذلك إذا أوقعه مفرّقا » .

قلت : ما تأوّله الباجي هو الذي ذكر معناه الكِيَا الطبريّ عن علماء الحديث ؛ أي أنهم كانوا يطلّقون طلقة واحدة هـذا الذي يطلّقون ثلاثا ، أي ما كانوا يطلقون في كل قُرْء طلقـة ؛ و إنمـا كانوا يطلقون في جميع العدّة واحدة إلى أن تَبِين وتنقضي العدّة . وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : معناه أنـ الناس كانوا يقتصرون على طلقة واحدة ، ثم أكثروا أيام عمر من إيقاع الثلاث . قال القاضي : وهذا هو الأشبه بقول الراوي : إن الناس في أيام عمر آستعجلوا الثلاث فعجّل عليهم ؛ معنـاه ألزمهم حكمها . وأما حديث ابنِ عمر فإن الدَّارَقُطْنِيّ روى عن أحمد بنِ صُبيح عن طريف بن ناصح عن معاوية بن عمّار الدُّهنِيّ عن أبي الزبير قال : سألت ابن عمر عن رجل طلّق امرأته ثلاثا وهي حائض ؛ فقـال لي : أتعرف ابن عمر ؟ قلت : نعم ؛ قال : طلقت امرأتي ثلاثا على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم [وهي حائض[1]]

(١) زيادة عن سنن الدارقطني .

فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السّنّة . فقال الدّارَقُطْنِيّ : كلهم من الشّيعة، والمحفوظ أن ابن عمر طلق امرأته واحدة فى الحيض . قال عبد الله : وكان تطليقه إياها فى الحيض واحدة غير أنه خالف السّنّة . وكذلك قال صالح بن كَيْسان وموسى بن عقبة وإسماعيل ابن أُمّية وليث بن سعد وابن أبى ذئب وابن جُريج وجابر وإسماعيل بن ابراهيم بن عقبة عن نافع : أن ابن عمر طلّق تطليقة واحدة . وكذا قال الزهرىّ عن سالم عن أبيه ويونس ابن جبير والشّعبىّ والحسن . وأما حديث رُكَانة فقيل : إنه حديث مضطرب منقطع، لا يستند من وجه يحتج به ؛ رواه أبو داود من حديث ابن جُريج عن بعض بنى أبى رافع ، وليس فيهم من يحتج به عن عكرمة عن ابن عباس . وقال فيه : إن رُكَانة بن عبد يزيد طلق آمرأته ثلاثا ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ارجعها" . وقد رواه أيضا من طُرق عن نافع بن عُجَير أن رُكَانة بن عبد يزيد طلّق امرأته البتّة فاستحلفه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما أراد بها ؟ فحلف ما أراد إلا واحدة، فردّها اليه . فهذا اضطراب فى الاسم والفعل ، ولا يحتج بشىء من مثل هذا .

قلت : قد أخرج هذا الحديثَ من طُرقٍ الدّارَقُطْنِيُّ فى سُننه ؛ قال فى بعضها : « حدّثنا محمد بن يحيى بن مِرداس حدّثنا أبو داود السجستانىّ حدّثنا أحمد بن عمرو بن السرح وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبىّ وآخرون قالوا : حدّثنا محمد بن إدريس الشافعىّ حدّثنى عمّى محمد بن على بن شافع عن عبد الله بن علىّ بن السائب عن نافع بن عُجير بن عبد يزيد : أن رُكانة ابن عبد يزيد طلّق امرأته سُهَيْمة المُزَنيّة البَتّةَ، فأخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال : والله ما أردتُ إلا واحدة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والله ما أردتَ إلا واحدة" ؟ فقال رُكانة : واللهِ ما أردتُ إلا واحدة ؛ فردّها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلّقها الثانيةَ فى زمان عمر بن الخطاب ، والثالثةَ فى زمان عثمان . قال أبو داود : هذا حديث صحيح » . فالذى صحّ من حديث رُكانة أنه طلق امرأته البَتّةَ لا ثلاثا ؛ وطلاق البَتّةِ قد اختُلف فيه على ما يأتى بيانه فسقط الاحتجاج بغيره . والله أعلم . قال أبو عمر :

رواية الشافعيّ لحديث رُكانة عن عمّه أتمّ، وقد زاد زيادة لا تردّها الأصول؛ فوجب قبولها لثقة ناقليها، والشافعيّ وعمّه وجدّه أهلُ بيت رُكانة، كلّهم من بنى المطلب بن عبد مناف، وهم أعلم بالقصة التى عَرَضت لهم.

فصـــل — ذكر أحمـد بن محمد بن مُغيث الطُّلَيْطِليّ هـذه المسألةَ فى وثائقه فقال: الطلاق ينقسم على ضربين: طلاقِ سُنّةٍ، وطلاقِ بِدْعةٍ. فطلاق السُّنّة هو الواقع على الوجه الذى ندب الشرع اليه. وطلاق البدعة نقيضه؛ وهو أن يطلّقها فى حيض أو نفاس أو ثلاثا فى كلمة واحدة؛ فإن فعل لزمه الطلاق. ثم اختلف أهل العلم بعد إجماعهم على أنه مطلّق، كم يلزمه من الطلاق؛ فقال علىّ بن أبى طالب وابن مسـعود: يلزمه طلقـة واحدة وقاله ابن عباس وقال: قوله ثلاثا لا معنى له لأنه لم يطلق ثلاث مرّات وإنما يجوز قوله فى ثلاث إذا كان مخبرا عمـا مضى فيقول: طلقت ثلاثا فيكون مخبرا عن ثلاثة أفعال كانت منـه فى ثلاثة أوقات، كرجل قال: قرأت أمس سـورة كذا ثلاث مرّات فذلك يصح، ولو قرأها مرّة واحدة فقال: قرأتها ثلاث مرّات كان كاذبا. وكذلك لو حلف بالله ثلاثا يردّد الحلِف كانت ثلاث أيمـان، وأما لو حلف فقال: أحلف بالله ثلاثا لم يكن حلف إلا يمينا واحدة والطلاق مثـله. وقاله الزبير بن العوّام وعبـد الرحمن بن عوف. وروينـا ذلك كلّه عن ابن وضّاح؛ وبه قال من شيوخ قرطبة ابن زِنباع شيخ هدى ومحمد بن تقىّ بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الحسنىّ فريد وقته وفقيـه عصره وأصبغ بن الحباب وجماعة سواهم. وكان من حجة ابن عباس أن الله تعالى فرّق فى كتابه لفظ الطلاق فقال عزّ آسمه: «الطلاق مرّتانِ» يريد أكثر الطلاق الذى يكون بعـده الإمساك بالمعروف وهو الرجعة فى العـدّة. ومعنى قوله: «أو تسريحٌ بإحسانٍ» يريد تركها بلا ارتجاع حتى تنقضىَ عدّتهـا؛ وفى ذلك إحسان إليها إن وقع ندم بينهما؛ قال الله تعالى: «لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا». يريد الندم على الفرقة والرغبة فى الرجعة؛ وموقع الثلاث غير حسن؛ لأن فيه ترك المندوحة التى وسّع الله بها ونبّه عليهـا؛ فذكرُ الله سبحانه الطلاق مفرّقا يدل على أنه إذا جمع أنه لفظ

واحد . وقد يخرج بقياس من غير ما مسألة من المدوّنة ما يدل على ذلك ؛ من ذلك قولُ الإنسان : مالى صدقة فى المساكين أن الثلث يجزيه من ذلك . وفى الإشراف لابن المنذر : وكان سعيد بن جُبير وطاوس وأبو الشّعثاء وعطاء وعمرو بن دينار يقولون : من طلّق البكر ثلاثا فهى واحدة .

قلت : وربما اعتلُّوا فقالوا : غيرُ المدخول بها لا عِدّة عليها؛ فاذا قال : أنت طالق ثلاثا فقد بانت بنفس فراغه من قوله : أنت طالق ؛ فيرِد «ثلاثا» عليها وهى بائن فلا يؤثّر شيئا ؛ ولأن قوله : أنت طالق مستقل بنفسه ؛ فوجب ألا تقف البينونة فى غير المدخول بها على ما يَرِد بعده؛ أصله إذا قال : أنت طالق .

السادسة — استدل الشافعيّ بقوله تعالى : « أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » وقوله : «وَسَرِّحُوهُنَّ» على أن هذا اللفظ من صريح الطلاق . وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى؛ فذهب القاضى أبو محمد إلى أن الصّريح ما تضمّن لفظ الطلاق على أىّ وجه ؛ مثل أن يقول : أنت طالق، أو أنت مطلقة، أو قد طلقتك، أو الطلاق له لازم . وما عدا ذلك من ألفاظ الطلاق مما يستعمل فيه فهو كناية؛ وبهذا قال أبو حنيفة . وقال القاضى أبو الحسن : صريح ألفاظ الطلاق كثيرة ، وبعضُها أبينُ من بعض : الطلاق والسّراح والفراق والحرام والخَليّة والبَريّة . وقال الشافعيّ : الصريح ثلاثة ألفاظ؛ وهو ما ورد به القرآن من لفظ الطلاق والسّراح والفراق ؛ قال الله تعالى : « أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » وقال : « أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » وقال . «فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ» .

قلت : وإذا تقرر هذا فالطلاق على ضربين : صريح وكناية ؛ فالصّريح ما ذكرنا . والكناية ماعداه . والفرق بينهما أن الصّريح لا يفتقر إلى نيّة؛ بل بمجرّد اللفظ يقع الطلاق . والكناية تفتقر إلى نيّة . والحجة لمن قال : إن الحرام والخليّة والبريّة من صريح الطلاق كثرة آستعمالها فى الطلاق حتى عُرِفت به ؛ فصارت بيّنة واضحة فى إيقاع الطلاق ؛ كالغائط الذى وُضع للطمئن من الأرض، ثم استعمل على وجه المجاز فى إتيان قضاء الحاجة، فكان فيه أبين

وأظهر وأشهر منه فيما وضع له ، وكذلك في مسألتنا مثله . ثم إن عمر بن عبد العزيز قد قال : «لو كان الطلاق ألفًا ما أبقت ٱلْبَتَّةُ منه شيئا ؛ فمن قال : البتة ، فقد رمى الغاية القُصْوَى» أخرجه مالك . وقد روى الدَّارَقُطْنِيّ عن عليّ قال : الخليّة والبرية والبتّة والبائن والحرام ثلاث ، لا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره . وقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ٱلبتّة ثلاث ، من طريق فيه لين ؛ خرّجه الدَّارَقُطْنِيّ . وسيأتي عند قوله تعالى : «وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا» إن شاء الله تعالى .

السابعة — لم يختلف العلماء فيمن قال لامرأته : قد طلّقتك ، أنه من صريح الطلاق في المدخول بها وغير المدخول بها ؛ فمن قال لامرأته : أنت طالق فهي واحدة إلا أن ينوي أكثر من ذلك . فإن نوى اثنتين أو ثلاثا لزمه ما نواه ، فإن لم ينو شيئا فهي واحدة تملك الرجعة . ولو قال : أنت طالق ، وقال : أردت من وثاق لم يُقبل قوله ولزمه ، إلا أن يكون هناك ما يدلّ على صدقه . ومن قال : أنت طالق واحدة ، لا رجعة لي عليك فقوله : «لا رجعة لي عليك» باطل ، وله الرجعة لقوله واحدة ؛ لأن الواحدة لا تكون ثلاثا ؛ فإن نوى بقوله : «لا رجعة لي عليك» ثلاثا فهي ثلاث عند مالك .

واختلفوا فيمن قال لامرأته : قد فارقتك ، أو سرّحتك ، أو أنت خليّة ، أو برية ، أو بائن ، أو حَبْلك على غاربك ، أو أنت عليّ حرام ، أو ٱلْحَقِي بأهلِكِ ، أو قد وهبتك لأهلك ، أو قد خليت سبيلك ، أو لا سبيل لي عليك ؛ فقال أبو حنيفة وأبو يوسف : هو طلاق بائن . ورُوي عن ابن مسعود قال : إذا قال الرجل لامرأته : ٱستقِلِّي بأمرِك ، أو أمرُكِ لكِ ، أو ٱلحقِي بأهلك فقبلوها فواحدة بائنة . وروي عن مالك فيمن قال لامرأته : قد فارقتك ، أو سرّحتك ، أنه من صريح الطلاق ؛ كقوله : أنت طالق . ورُوي عنه أنه كناية يُرجع فيها الى نيّة قائلها ، ويُسأل ما أراد من العدد ، مدخولا بها كانت أو غير مدخول بها . قال ابن المَوّاز : وأصحّ قوليه في التي لم يدخل بها أنها واحدة ، إلا أن ينويَ أكثر ؛ وقاله ٱبن القاسم وابن عبد الحكم . وقال أبو يوسف : هي ثلاث ؛ ومثله خلعتك ، أو لا مِلْك لي عليك .

وأمّا سائر الكنايات فهي ثلاث عند مالك في كل من دخل بها لا يُنَوَّى فيها قائلها ، ويُنَوَّى في غير المدخول بهـا . فإن حلف وقال أردت واحدة كان خاطبا من الخُطّاب، لأنه لا يُخلى المرأة التي قد دخل بهـا زوجها ولا يبينها ولا يبريها إلا ثلاث تطليقات . والتي لم يدخل بها يُخليها ويُبريها ويُبينها الواحدة . وقد روى عن مالك وطائفة من أصحابه وهو قول جماعة من أهل المدينة أنه يُنَوَّى في هـذه الألفاظ كلها ويلزم من الطلاق ما نوى . وقد رُوى عنه في ٱلبَتّة خاصّةً من بين سائر الكنايات أنه لا ينَوَّى فيها لا في المدخول بها ولا في غير المدخول بها . وقال الثوريّ وأبو حنيفة وأصحابه : له نيته في ذلك كله، فإن نوى ثلاثا فهي ثلاث، وإن نوى واحدة فهي واحدة بائنـة وهي أحق بنفسها . وإن نوى اثنتين فهي واحدة . وقال زُفَر : إن نوى اثنتين فهي اثنتـان . وقال الشافعيّ : هو في ذلك كلّه غيرُ مطلّق حتى يقول : أردت بمخرج الكلام مني طلاقا فيكون ما نوى . فإن نوى دون الثلاث كان رجعيًّا، ولو طلقها واحدة بائنة كانت رجعيّة . وقال إسحاق : كل كلام يُشبِه الطلاق فهو ما نوى من الطلاق . وقال أبو ثور : هي تطليقة رجعيـة ولا يُسأل عن نيته . ورُوى عن ابن مسعود أنه كان لا يرى طلاقا بائنا إلا في خُلْع أو إيلاء وهو المحفوظ عنه؛ قاله أبو عبيد . وقد ترجم البخاريّ « باب إذا قال فارقتك أو سرّحتك أو البريّة أو الخلية أو ما عُنِي به الطلاق فهو على نيته » . وهذا منه إشارة إلى قول الكوفيين والشافعيّ وإسحاق في قوله : « أو ما عُنِي به من الطلاق » والحجة في ذلك أن كلّ كلمة تحتمل أن تكون طلاقا أو غير طلاق فلا يجوز أن يلزم بهـا الطلاق إلا أن يقول المتكلّم : إنه أراد بها الطلاق فيلزمه ذلك بإقراره، ولا يجوز إبطال النكاح لأنهم قد أجمعوا على صحته بيقين . قال أبو عمـر : واختلف قول مالكٍ في معنى قول الرجل لامرأته : اعتدّي، أو قد خلّيتك، أو حبلك على غاربك؛ فقال مرة : لا يُنَوَّى فيها وهي ثلاث . وقال مرّة : يُنَوَّى فيها كلّها، في المدخول بها وغير المدخول بها ؛ وبه أقول .

قلت : ما ذهب إليه الجمهور ، وما رُوى عن مالك أنه يُنَوَّى في هـذه الألفاظ ويحكم عليه بذلك هو الصحيح ؛ لمـا ذكرناه من الدليل ، وللحديث الصحيح الذي خرّجه أبو داود

وابن ماجه والدّارَقُطْنِيّ وغيرهُم عن يزيد بن ركانة: أن ركانة بن عبد يزيد طلّق امرأته سُهيمة ٱلبَتّة فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك؛ فقال: "آلله ما أردتَ إلا واحدة"؟ فقال ركانة: والله ما أردتُ الا واحدة؛ فردّها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن ماجه: سمعت أبا الحسن الطَّنافسيّ يقول: ما أشرف هذا الحديث! وقال مالك في الرجل يقول لامرأته: أنت عليّ كالميتة والدّم ولحم الخنزير: أراها البَتّة وإن لم تكن له نيّة، فلا تَحِلّ إلا بعدَ زوج. وفي قول الشافعيّ: إن أراد طلاقا فهو طلاق وما أراد من عدد الطلاق؛ وإن لم يرد طلاقا فليس بشيء بعد أن يحلف. وقال أبو عمر: أصل هذا البابِ في كل كناية عن الطلاق ما رُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال — للتي تزوّجها حين قالت: أعوذ بالله منك —: "قد عُذتِ بمعاذٍ الحَقِي بأهلك". فكان ذلك طلاقا. وقال كعب ابن مالك لامرأته حين أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بٱعتزالها: الحقي بأهلك فلم يكن ذلك طلاقا؛ فدلّ على أن هذه اللفظة مفتقرة إلى النية، وأنها لا يُقضى فيها إلا بما ينوِي اللافظ بها، وكذلك سائر الكنايات المحتملات للفراق وغيره. والله أعلم. وأما الألفاظ التي ليست من ألفاظ الطلاق ولا يكنى بها عن الفراق فأكثر العلماء لا يوقعون بشيء منها طلاقا وإن قصده القائل. وقال مالك: كل من أراد الطلاق بأيّ لفظ كان لزمه الطلاق، حتى بقوله: كُلِي وٱشربي وقومي وٱقعدي؛ ولم يتابع مالكا على ذلك إلا أصحابُه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

فيه خمس عشرة مسألة:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ «أن» في موضع رفع بـ«ـيحل». والآية خطاب للأزواج، نُهُوا أن يأخذوا من أزواجهم شيئا على وجه المُضارّة؛ وهذا هو الخُلْع الذي لا يصح إلا بألا ينفرد الرجل بالضرر؛ وخص بالذّكر ما آتى

الأزواجُ نساءهم؛ لأن العرف من الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج من يده لها صداقا وجهازا، فلذلك خصّ بالذكر . وقــد قيل : إن قوله « ولا يحل » فصل معترض بين قوله تعالى : « الطّلاق مرّتان » وبين قوله : « فإن طلّقها » .

الثانيـــة — والجمهور على أن أخذ الفِدية على الطلاق جائز . وأجمعوا على تحظير أخذ مالها إلا أن يكون النُّشوز وفساد العشرة من قِبلها . وحكى ابن المنــذر عن النعمان أنه قال : اذا جاء الظلم والنشوز من قِبَـلِه وخالعتــه فهو جائز ماض وهو آثم ، لا يحــل له ما صــنع ، ولا يجبر على ردّ ما أخذه . قال ابن المنذر : وهذا من قوله خلافُ ظاهرِ كتاب الله، وخلافُ الخبر الثابت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وخلافُ ما أجمع عليه عامة أهل العلم من ذلك ، ولا أحسب أنْ لو قيل لأحد : اجهد نفسك في طلب الخطأ ما وجد أمرا أعظم مِن أن ينطق الكتاب بتحريم شيء ثم يقابله مُقابل بالخلاف نَصًّا ؛ فيقول : بل يجوز ذلك، ولا يجبر على ردّ ما أخذ . قال أبو الحسن بن بَطّال : وروى ابن القاسم عن مالك مثله . وهذا القول خلافُ ظاهرِ كتاب الله تعالى، وخلافُ حديثِ امرأة ثابت؛ وسيأتي .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ حرّم الله تعالى في هــذه الآية ألا يأخذ إلا بعــد الخوف ألّا يقيما حدود الله . وأكّد التحريم بالوعيد لمن تعدّى الحدّ . والمعنى أن يظن كلّ واحد منهما بنفسه ألّا يقيم حق النكاح لصاحبه حسب ما يجب عليــه فيه لكراهة يعتقدها ؛ فلا حرج على المرأة أن تفتدِيَ ، ولا حرج على الزوج أن يأخذ . والخطاب للزوجين . والضمير في « أن يخافا » لهما، و « ألا يقيما » مفعول به . و « خفت » يتعدّى الى مفعول واحد . ثم قيل : هذا الخوف هو بمعنى العلم، أي أن يعلما ألا يقيما حدود الله، وهو من الخوف الحقيقيّ، وهو الإشــفاق من وقوع المكروه ، وهو قريب من معنى الظن . ثم قيل : « إلا أن يخافا » استثناء منقطع ؛ أي لكن إن كان منهن نشوز فلا جناح عليكم في أخذ الفِدْية . وقرأ حمزة « إلا أن يُخافا » بضم الياء على ما لم يسمّ فاعله . والفاعل محذوف وهو الولاة والحكام ؛ واختاره أبو عبيــد . قال : لقوله عزّ وجلّ « فإن خفتم »

قال : بجعل الخوف لغير الزوجين ، ولو أراد الزوجين لقال : فإن خافا ؛ وفى هذا حجة لمن جعل الخلع الى السلطان .

قلت : وهو قول سعيد بن جُبير والحسن وابن سيرين . وقال شُعبة : قلت لقَتادة : عمن أخذ الحسنُ الخلعَ الى السلطان؟ قال : عن زياد ، وكان واليا لعمر وعليّ . قال النحاس : وهـذا معروف عن زياد ، ولا معنى لهـذا القول لأن الرجل إذا خالع آمرأته فانمـا هو على ما يتراضيان به ، ولا يجبره السلطان على ذلك ؛ ولا معنى لقول من قال : هذا إلى السلطان . وقد أُنكر اختيار أبى عبيد ورُدّ ، وما علمت فى اختياره شيئا أبعد من هـذا الحرف ، لأنه لا يوجبه الإعراب ولا اللفظ ولا المعنى . أما الإعراب فإن عبد الله بن مسعود قرأ «إلا أن يخافا » تخافوا ؛ فهذا فى العربية إذا رُدّ إلى ما لم يسم فاعله قيل : إلا أن يُخاف . وأما اللفظ فإن كان على لفظ « يخافا » وجب أن يقال : فإن خيف . وإن كان على لفظ « فإن خفتم » وجب أن يقال : إلا أن تخافوا . وأما المعنى فإنه يبعد أن يقال : لا يحل لكم أن تأخذوا ممـا آتيتموهن شيئا ، إلا أن يخاف غيركم ولم يقل جلّ وعزّ : فلا جناح عليكم أن تأخذوا له منهـا فدية ؛ فيكون الخلع إلى السلطان . قال الطحاوىّ : وقد صحّ عن عمر وعثمان وابن عمر جوازه دون السـلطان ؛ وكما جاز الطلاق والنكاح دون السـلطان فكذلك الخلع ؛ وهو قول الجمهور من العلماء .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا ﴾ أى على أن لا يقيما . ﴿ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى فيما يجب عليهما من حسن الصحبة وجميـل العشرة . والمخاطبـةُ للحُكّام والمتوسّطين لمثل هـذا الأمر وإن لم يكن حاكما . وتركُ إقامة حدود الله هو استخفاف المرأة بحق زوجها ، وسوءُ طاعتها إياه ؛ قاله ابن عباس ومالكُ بن أنس وجمهورُ الفقهاء . وقال الحسن بن أبى الحسن وقوم معـه : إذا قالت المرأة لا أطيع لك أمرا ، ولا أغتسل لك من جنـابة ، ولا أبرّ لك قَسَمًا ، حلّ الخلع . وقال الشعبىّ : «ألّا يقيما حدود الله » ألا يطيعا الله ؛ وذلك أن المغاضـبة تدعو الى ترك الطاعة . وقال عطاء بن أبى رَباح : يُحلّ الخلعَ والأخذَ أن تقول

المرأة لزوجها : إنى أكرهك ولا أحبّك ، ونحو هـذا ﴿ فلا جناح عليهما فيما ٱفتدت به ﴾ .
روى البخاريّ من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبيَّ صلى الله عليـه وسلم فقالت : يا رســول الله ، ثابتُ بن قيس ما أعتِب عليـه فى خُلُق ولا دِين ولكنـ لا أطيقه ! فقال رســول الله صلى الله عليـه وسلم : "أتردّين عليـه حديقتــه" ؟ قالت : نعم . وأخرجه ابن ماجه عن قتادة عن عكرمة عن ابن عبـاس أن جميلة بنت سَـلول أتت النبيَّ صلى الله عليه وسـلم فقالت : والله ما أعيب على ثابت فى دِين ولا خُلُق ولكنى أكره الكفر فى الإســلام ، لا أُطيقه بُغْضًا ! فقال لها النبيّ صلى الله عليـه وسلم : "أتردّين عليه حديقته"؟ قالت : نعم . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد . فيقال : إنها كانت تُبغضه أشدّ البغض ، وكان يحبها أشدّ الحب ؛ ففرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما بطريق الخلع ؛ فكان أوّل خلع فى الإسلام . روى عكرمة عن ابن عباس قال : أوّل منـ خالع فى الإسلام أختُ عبد الله بن أُبَىّ ، أتت النبيّ صلى الله عليه وسـلم فقالت : يارسول الله ، لا يجتمع رأسى و رأسُه أبدا ، إنى رفعت جانب الخِباء فرأيته أقبــل فى عدّة إذ هو أشدّهم سوادا وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجها ! فقال : "أتردّين عليه حديقته" ؟ قالت : نعم ، و إن شاء زدته ؛ ففرّق بينهما . وهذا الحديث أصل فى الخلع ، وعليه جمهور الفقهاء . قال مالك : لم أزل أسمع ذلك من أهل العلم ، وهو الأمر المجتمع عليـه عندنا ، وهو أن الرجل إذا لم يضرّ بالمرأة ولم يسئ إليها ، ولم تُؤتَ من قِبَـلِه ، وأحبّت فراقه فإنه يحلّ له أن يأخذ منها كلّ ما ٱفتدت به ؛ كما فعـل النبيُّ صلى الله عليه وسلم فى ٱمرأة ثابت . و إن كان النّشوز من قِبَلِه بأن يضيّق عليها و يضرّها ردّ عليها ما أخذ منها .
وقال عقبة بن أبى الصَّهْباء : سألت بكر بن عبد الله المزنىّ عن الرجل تريد ٱمرأته أن تخالعه فقال : لا يحلّ له أن يأخذ منها شيئا . قلت : فأين قولُ الله عز وجل فى كتابه « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما ٱفتدت به » ؟ قال : نسخت . قلت : فأين جُعلت؟ قال : فى سـورة « النساء » : « وَإِنْ أَرَدْتُمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ

قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا » . قال النحاس : هـذا قول شاذّ، خارج عن الإجماع لشذوذه؛ وليست إحدى الآيتين دافعةً للأُخرى فيقع النسخ؛ لأن قوله « فإن خفتم » الآية ، ليست بمنزلة بتلك الآية ؛ لأنهما إذا خافا هـذا لم يدخل الزوج في « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » لأن هذا للرجال خاصّة . وقال الطبريّ : الآية مُحكَمة، ولا معنى لقول بكر : إن أرادت هي العطاء فقد جوّز النبيّ صلى الله عليه وسلم لثابت أن يأخذ من زوجته ما ساق اليها .

الخامسـة — تمسّك بهذه الآية من رأى اختصاص الخلع بحالة الشقاق والضرر، وأنه شَرْط في الخلع ، وعَضَد هذا بما رواه أبو داود عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت عند ثابت بن قيس بن شَمّاس فضربها فكسر نُغْضَها (١) ؛ فأتت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد الصبح فاشتكت إليه ؛ فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم ثابتا فقال : "خذ بعض مالها وفارقها" . قال : ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال : "نعم" . قال : فإني أصدقتها حديقتين وهما بيدها (٢) ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "خذهما وفارقها" فأخذهما وفارقها . والذي عليه الجمهور من الفقهاء أنه يجوز الخلع من غير ٱشتكاءِ ضررٍ، كما دلّ عليه حديث البخاريّ وغيره . وأما الآية فلا حجة فيها ؛ لأن الله عز وجل لم يذكرها على جهة الشّرط ، وإنما ذكرها لأنه الغالب من أحوال الخلع ؛ فخرَج القول على الغالب ؛ والذي يقطع العذر ويوجب العلم قولُه تعالى : « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » .

السادسـة — لما قال الله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ » دلّ على جواز الخلع بأكثر مما أعطاها . وقد اختلف العلماء في هذا ؛ فقال مالك والشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابهم وأبو ثور : يجوز أن تفتديَ منه بما تراضيا عليه ، كان أقل مما أعطاها أو أكثر منه . ورُوي

---

(١) في الأصول : «بعضها» . والتصويب عن سنن أبي داود . والنغض (بضم النون وفتحها وسكون الغين) : أعلى الكتف ، وقيل : هو العظم الرقيق الذي على طرفه .

(٢) في الأصول : «مع ما بيدها» والتصويب عن سنن أبي داود .

هذا عن عثمان بن عفان وابن عمر وقبيصة والنخعيّ . واحتج قبيصة بقوله : «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ» . وقال مالك : ليس من مكارم الأخلاق ولم أر أحدا من أهل العلم يكره ذلك . وروى الدّارقطنيّ عن أبي سعيد الخدريّ أنه قال : كانت أختي تحت رجل من الأنصار تزوّجها على حديقة، فكان بينهما كلام، فارتفعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "تردّين عليه حديقته ويطلّقك"؟ قالت : نعم، وأزيده . قال : "ردّى عليه حديقته وزيديه" . وفي حديث ابن عباس «وإن شاء زدته ولم ينكر» . وقالت طائفة : لا يأخذ منها أكثر مما أعطاها؛ كذلك قال طاوس وعطاء والأوزاعيّ ؛ قال الأوزاعيّ : كان القضاة لا يجيزون أن يأخذ إلا ما ساق إليها؛ وبه قال أحمد وإسحاق . واحتجّوا بما رواه ابن جريج : أخبرني أبو الزبير أن ثابت بن قيس بن شمّاس كانت عنده زينب بنت عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول، وكان أصدقها حديقة فكرهته؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أما الزيادة فلا ولكن حديقته" ؛ فقالت : نعم . فأخذها وخلّى سبيلها . فلما بلغ ذلك ثابت بن قيس قال : قد قبلت قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ سمعه أبو الزبير من غير واحد؛ أخرجه الدّارقطنيّ ، وروى عن عطاء مرسلا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاها" .

السابعة — الخلع عند مالك رضي الله عنه على ثمرة لم يبدُ صلاحها وعلى جمل شارد أو عبد آبق أو جنين في بطن أمّه أو نحو ذلك من وجوه الغرر جائز؛ بخلاف البيوع والنكاح . وله المطالبة بذلك كلّه؛ فإن سلم كان له ، وإن لم يسلم فلا شيء له . والطلاق نافذ على حكمه . وقال الشافعيّ : الخلع جائز وله مهر مثلها ؛ وحكاه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك قال : لأن عقود المعاوضات إذا تضمّنت بدلا فاسدا وفاتت رُجع فيها الى الواجب في أمثالها من البدل . وقال أبو ثور : الخُلْع باطل . وقال أصحاب الرأي : الخلع جائز؛ وله ما في بطن الأَمَة ، وإن لم يكن فيه ولد فلا شيء له . وقال في «المبسوط» عن ابن القاسم : يجوز بما يثمره نخله العامَ ، وما تلد غنمه العامَ خلافا لأبي حنيفة والشافعيّ ؛ والحجة لما ذهب إليه مالك

وابن القاسم عمومُ قوله تعالى : «فَلَا جُنَاحَ عليهما فيما ٱفتدتْ به» . ومن جهة القياس أنه مما يُملك بالهبة والوصـية ؛ فجاز أن يكون عِوَضًا فى الخلع كالمعلوم ؛ وأيضا فإن الخلع طلاق ، والطلاق يصح بغير عِوَض أصلا ؛ فإن صحّ على غير شىء فلأَنْ يَصِحّ بفاســد العِوَض أَوْلَى ؛ لأن أسوأحالِ المبذول أن يكون كالمسكوت عنه . ولمـّا كان النكاح الذى هو عقــدُ تحليلٍ لا يفسده فاسدُ العِوض فلأَن لا يفسُدَ الطلاق الذى هو إتلافٌ وحلّ عقدٍ أَوْلَى .

الثامنـــة — ولو اختلعت منه برضاع ٱبنها منه حولين جاز . وفى الخلع بنفقتها على ٱلابن بعد الحولين مدّةً معلومة قولان : أحدهما — يجوز؛ وهو قول المخزومىّ، واختاره سُحْنُون . والثـانى — لا يجوز؛ رواه ابن القاسم عن مالك، وإنْ شرطه الزوج فهو باطل موضوع عن الزوجة . قال أبو عمر : من أجاز الخلع على الجمل الشارد والعبـد الآبق ونحو ذلك من الغَرَر لزمه أن يجوِّز هـذا . وقال غيره من القَرَوِيّين : لم يمنـع مالك الخلعَ بنفقةِ ما زاد على الحولين لأجل الغَرَر ، وإنمـا منعه لأنه حقّ يختصّ بالأب على كل حال فليس له أن ينقله إلى غيره؛ والفرق بين هذا وبين نفقة الحولين أن تلك النفقة وهى الرضاع قد تجب على الأمّ حال الزوجية وبعد الطلاق إذا أعسر الأب ؛ فجاز أن تُنقل هـذه النفقةُ إلى الأمّ ؛ لأنهـا محلٌّ لها . وقــد احتج مالك فى « المبسوط » على هذا بقوله تعـالى : « وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » .

التاســـعة — فإن وقع الخلع على الوجه المبـاح بنفقة الآبن فمات الصبىّ قبـل انقضاء المدّة فهل للزوج الرجوعُ عليها ببقيّـة النفقة؛ فروى ابنُ المَوّاز عن مالك : لا يتبعها بشىء . وروى عنــه أبو الفرج : يتبعها ؛ لأنه حق ثبت له فى ذمّة الزوجة بالخُلع فلا يسـقط بموت الصبىّ؛ كما لو خالعها بمـال متعلّق بذمتها . ووجه الأوّل أنه لم يشترط لنفســه مالا يتموّله ، وإنمـا اشترط كفايةَ مُؤْنةِ ولده؛ فاذا مات الولد لم يكن له الرجوع عليها بشىء؛ كما لو تطوّع رجل بالإنفاق على صبىّ سنةً فمات الصبىّ لم يُرجع عليه بشىء ؛ لأنه إنمـا قصد بتطوّعه تحمّل مؤنته . والله أعلم . قال مالك : لم أر أحدا يتّبع بمثل هذا؛ ولو ٱتبعه لكان له فى ذلك قول.

واتفقوا على أنهـا إن ماتت فنفقــة الولد في مالها ؛ لأنه حق ثبت فيه قبـل موتها فلا يسقط بموتهـا .

العـاشرة — ومن اشـترط على امرأته في الخلع نفقة حملها وهي لا شيء لها فعليه النفقة إذا لم يكن لها مال تُنفق منـه ؛ وإن أيسرت بعد ذلك اتبعها بمـا أنفق وأخذه منها . قال مالك : ومن الحقّ أن يكلَّف الرجل نفقــةَ ولده وإن اشترط على أُمّه نفقته إذا لم يكن لها ما تنفق عليه .

الحادية عشرة — واختلف العلماء في الخلع هل هو طلاق أو فسخ ؛ فرُوِى عن عثمان وعليّ وابنِ مسعود وجماعةٍ من التابعين : هو طلاق ؛ وبه قال مالك والثّوريّ والأوزاعيّ وأبو حنيفة وأصحابه والشافعيّ في أحد قوليه . فمن نوى بالخلع تطليقتين أو ثلاثا لزمه ذلك عند مالك . وقال أصحاب الرأى : إن نوى الزوج ثلاثا كان ثلاثا ، وإن نوى ثنتين فهو واحدة بائنة . وقال الشافعيّ في أحد قوليــه : إن نوى بالخلع طلاقا وسمّاه فهــو طلاق ، وإن لم ينو طلاقا ولا سَمَّى لم تقع فرقة ؛ قاله في القديم . وقوله الأول أحبّ إلىّ . المزنيّ : وهو الأصح عندهم . وقال أبو ثور : اذا لم يُسمّ الطلاق فالخلع فرقة وليس بطلاق ، وإن سمّى تطليقة فهى تطليقة ؛ والزوج أملك برجعتها مادامت في العِدّة . وممن قال : إن الخلع فسخ وليس بطلاق إلا أن ينويَه ابنُ عباس وطاوس وعكرمة وإسحاق وأحمد . واحتجّوا بالحديث عن ابن عُيينة عن عمرو عن طاوس عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن أبى وقّاص سأله : رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منـه أيتزوّجهـا ؟ قال : نعم لينكحها ، ليس الخلع بطلاق ؛ ذكر الله عزّ وجلّ الطلاق في أوّل الآية وآخرها ، والخلع فيما بين ذلك ؛ فليس الخلع بشيء . ثم قال : «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح باحسان» . ثم قرأ «فإنْ طَلّقها فلا تَحِلّ له من بعدُ حتى تنكح زوجا غيره» . قالوا . ولأنه لو كان طلاقا لكان بعـد ذكر الطلقتين ثالثـا ، وكان قوله : «فان طلقها» بعد ذلك دالا على الطلاق الرابع ؛ فكان يكون التحريم متعلقا بأربع تطليقات . واحتجّوا أيضا بما رواه الترمذيّ وأبو داود والدّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس

اختلعت من زوجها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعتدّ بحيضــة . قال الترمذيّ : حديث حسن غريب . وعن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ بن عَفْرَاء أنها اختلعت على عهد النبيّ صلى الله عليه وســلم فأمرها النبيّ صلى الله عليه وسلم أو أُمِرت أن تعتدّ بحيضة . قال الترمذيّ : حديث الرُّبَيِّع الصحيحُ أنها أُمِرت أن تعتدّ بحيضة . قالوا : فهــذا يدلّ على أن الخلع فسخ لا طلاق ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » ولو كانت هذه مطلَّقة لم يُقتصر بها على قُرءٍ واحد .

قلت : فمن طلّق آمرأته تطليقتين ثم خالعها ثم أراد أن يتزوّجها فله ذلك ــ كما قال ابن عباس ــ وإن لم تنكح زوجا غيره ؛ لأنه ليس له غير تطليقتين والخلع لَغْوٌ . ومن جعل الخلع طلاقا قال : لم يجز أن يرتجعها حتى تنكح زوجا غيره ؛ لأنه بالخلع كَمُلَت الثّلاث ؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعــالى . قال القاضى إسماعيل بن إسحاق : كيف يجوز القول فى رجل قالت له آمرأته : طلِّقنى على مالٍ فطلقها إنه لا يكون طلاقا ، وهو لو جعل أمرها بيدها من غير شيء فطلّقت نفسها كان طلاقا ! . وأما قوله تعالى : «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره» فهو معطوف على قوله تعالى : «الطلاق مرّتان» ؛ لأن قوله : « أو تسريح بإحسان » إنما يُعنَى به أو تطليق . فلو كان الخلع معطوفا على التطليقتين لكان لا يجوز الخلع أصــلا إلا بعد تطليقتين وهذا لا يقوله أحد . وقال غيره : ما تأوّلوه فى الآية غلط فإن قوله : « الطلاق مرتان » أفاد حكم الاثنتين إذا أوقعهما على غير وجه الخلع ، وأثبت معهما الرجعة بقــوله : « فإمساك بمعروف » ثم ذكر حكمهما إذا كان على وجه الخلع فعاد الخلع إلى الثنتين المتقدّم ذكرهما ، إذ المراد بذلك بيانُ الطلاق المُطْلَق والطلاقِ بعوض ، والطلاق الثالث بعوض كان أو بغير عوض فإنه يقطع الحلّ إلا بعد زوج .

قلت : هــذا الجواب عن الآية ، وأما الحديث فقال أبو داود ــ لمـا ذكر حديث ابن عباس فى الحيضة ــ : هــذا الحديث رواه عبــد الرزاق عن مَعمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن النبيّ صــلى الله عليــه وسلم مرسلا . وحدّثنا القَعْنَبيّ عن مالكٍ عن نافع عن ابن عمر قال : عدّةُ المختلعةِ عدة المطلّقة . قال أبو داود : والعمل عندنا على هذا .

قلت : وهو مذهب مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق والثوريّ وأهل الكوفة . قال الترمذيّ : وأكثرِ أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرِهم .

قلت : وحديث ابن عباس في الحيضة مع غرابته كما ذكره الترمذيّ، وإرساله كما ذكر أبو داود فقد قيل فيه : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل عدّتها حيضة ونصفا ؛ أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ من حديث معمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم عدّتها حيضة ونصفا . والراوى عن معمر هنا في الحيضة والنصف هو الراوى عنه في الحيضة الواحدة، وهو هشام بن يوسف أبو عبد الرحمن الصنعاني اليماني ؛ خرّج له البخارى وحده . فالحديث مضطرب من جهة الإسناد والمتن ، فسقط الاحتجاج به في أن الخلع فسخ، وفي أن عدة المطلقة حيضة ؛ وبقي قوله تعالى : « والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفسهن ثلاثة قروء » نصًّا في كل مطلقة مدخولٍ بها كما تقدّم . قال الترمذيّ : «وقال بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : عدة المختلعة حيضة، قال إسحاق : وإن ذهب ذاهب الى هذا فهو مذهبٌ قويّ» . قال ابن المنذر : قال عثمان بن عفان وابن عمر : عدّتها حيضة ؛ وبه قال أبان بن عثمان وإسحاق . وقال عليّ بن أبي طالب : عدّتها عدّة المطلّقة . وبقول عثمان وابن عمر أقول ، ولا يثبت حديث عليّ .

قلت : قد ذكرنا عن ابن عمر أنه قال : عدّة المختلعة عدّة المطلقة ، وهو صحيح .

الثانية عشرة — واختلف قول مالك فيمن قصد إيقاع الخلع على غير عوض ؛ فقال عبد الوهاب : هو خلع عند مالك، وكان الطلاق بائنا . وقيل عنه : لا يكون بائنا إلا بوجود العوض ؛ قاله أشهب والشافعيّ ؛ لأنه طلاق عَرِيَ عن عوض واستيفاء عدد فكان رجعيّا كما لو كان بلفظ الطلاق . قال ابن عبد البر : وهذا أصح قوليه عندى وعند أهل العلم في النظر . ووجه الأوّل أن عدم حصول العوض في الخلع لا يخرجه عن مقتضاه ؛ أصل ذلك إذا خالع بخمر أو خنزير .

الثالثة عشرة — المختلعة هي التي تختلع من كلّ الذى لها . والمفتدية أن تفتدىَ ببعضه وتأخذ بعضه . والمبارئة هي التي بارأت زوجها من قبل أن يدخل بها فتقول : قد أبرأتك

فبارئني ؛ هـذا قول مالك . وروى عيسى بن دينـار عن مالك : المبارِئة هي التي لا تأخذ شيئا ولا تُعطِى . والمختلعة هي التي تعطى ما أعطاها وتزيد من مالها . والمفتدية هي التي تفتدى ببعض ما أعطاها وتمسك بعضه ؛ وهذا كله يكون قبل الدخول و بعده ؛ فما كان قبل الدخول فلا عِدّة فيه . والمصالحة مثل المبارِئة . قال القاضي أبو محمد وغيره : هذه الألفاظ الأربعة تعود إلى معنًى واحد وإن اختلفت صفاتها من جهة الإيقاع ، وهي طلقة بائنة سمّاها أو لم يُسمّها؛ لا رجعة له في العدّة ، وله نكاحها في العدّة و بعدها برضاها بوَلِيّ وصداق قبل زوج و بعـده ؛ خلافا لأبي ثور ؛ لأنها إنمـا أعطته العِوض لتملك نفسها . ولو كان طلاق الخلع رجعياً لم تملك نفسها ؛ فكان يجتمع للزّوج العِوَض والمعوّض عنه .

الرابعة عشرة — وهـذا مع إطلاق العقد نافذ؛ فلو بذلت له العِوض وشرط الرّجعة ؛ ففيهـا روايتان رواهما ابن وهب عن مالك : إحداهما ثبوتها؛ وبهـا قال سُحنون . والأخرى نفيها . قال سحنون : وجه الرواية الأولى أنهما قد اتفقا على أن يكون العوض في مقابلة ما يسقط من عدد الطلاق ، وهـذا جائز . ووجه الرواية الثانية أنه شرط في العقـد ما يمنع المقصود منه فلم يثبت ذلك ؛ كما لو شرط في عقد النكاح أنّى لا أطأ .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ لمـا بيّن تعالى أحكام النكاح والفراق قال : « تِلْكَ حدودُ اللهِ » التي أمرت بامتثالهـا ؛ كما بيّن تحريمات الصـوم في آية أخرى فقال : « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا » فقسّم الحدود قسمين ؛ منهـا حدود الأمر بالامتثال ، وحدود النهي بالاجتناب ؛ ثم أخبر تعـالى فقال : « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

قوله تعـالى : فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْـدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ فيه إحدى عشرة مســألة :

الأولى — احتج بعض مشايخ خراسان من الحنفية بهذه الآية على أن المختلعة يلحقها الطلاق ؛ قالوا : فشرع الله سبحانه صريحَ الطلاق بعد المفاداة بالطلاق ؛ لأن الفاء حرف تعقيب ؛ فيبعد أن يرجع إلى قوله : « الطّلاق مرّتان» لأن الذى تخلّل من الكلام يمنع بناء قوله «فإن طلّقها» على قوله «الطلاق مرّتان» بل الأقرب عوده على ما يليه كما فى الاستثناء ، ولا يعود إلى ما تقدّمه إلا بدلالة؛ كما أن قوله تعالى : «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » فصار مقصورا على ما يليه غير عائد على ما تقدّمه حتى لا يشترط الدخول فى أمّهات النساء .

وقد اختلف العلماء فى الطلاق بعد الخلع فى العدّة؛ فقالت طائفة : إذا خالع الرجل زوجته ثم طلقها وهى فى العدّة لحقها الطلاق ما دامت فى العدّة؛ كذلك قال سعيد بن المسيّب وشُريح وطاوس والنّخعىّ والزّهرىّ والحكم وحمّاد والثّورىّ وأصحاب الرأى . وفيه قول ثان وهو أن الطلاق لا يلزمها؛ وهو قول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة والحسن وجابر بن زيد والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأبى ثور؛ وهو قول مالك الا أن مالكا قال : إن افتدت منه على أن يطلقها ثلاثا متتابعا نَسَقًا حين طلقها فذلك ثابت عليه ، وإن كان بين ذلك صُمَات فما أتبعه بعد الصمات فليس بشىء، وإنما كان ذلك لأن نسق الكلام بعضه على بعض متصلا يوجب له حكما واحدا ، وكذلك إذا اتصل الاستثناء باليمين بالله أثّر وثبت له حكم الاستثناء، وإذا انفصل عنه لم يكن له تعلّق بما تقدّم من الكلام .

الثانيــة — المراد بقوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا » الطلقةُ الثالثــةُ فلا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره . وهذا مجمع عليه لا خلاف فيه .

واختلفوا فيما يكفى من النكاح ، وما الذى يبيح التحليل ؛ فقال سعيد بن المسيّب ومن وافقه : مجرّد العقد كافٍ . وقال الحسن بن أبى الحسن : لا يكفى مجرّد الوطء حتى

يكون إنزال . وذهب الجمهور من العلماء والكافةُ من الفقهاء إلى أن الوطء كاف فى ذلك، وهو آلتقاء الختانين الذى يوجب الحدّ والغسل، ويفسد الصوم والحج ويُحصن الزوجين ويوجب كمال الصداق . قال ابن العربيّ : ما مرّت بى فى الفقه مسألةٌ أعسرُ منها، وذلك أن من أصول الفقه أن الحكم هل يتعلق بأوائل الأسماء أو بأواخرها؟ فإن قلنا : إن الحكم يتعلق بأوائل الأسماء لزِمنا أن نقول بقول سعيد بن المسيّب . وإن قلنا: إن الحكم يتعلق بأواخر الأسماء لزِمنا أن نشترط الإنزال مع مغيب الحشفة فى الإحلال، لأنه آخر ذوق العُسَيلة على ما قاله الحسن . قال ابن المنذر : ومعنى ذوق العسيلة هو الوطء؛ وعلى هـذا جماعة العلماء إلا سعيد ابن المسيَّب فقال : أما الناس فيقولون : لا تحـل للأوّل حتى يجامعها الثانى؛ وأنا أقول : اذا تزوّجها تزوّجا صحيحا لا يريد بذلك إحلالَها فلا بأس أن يتزوّجها الأوّل . وهـذا قول لا نعلم أحدا وافقه عليه إلا طائفة من الخوارج؛ والسُّنّة مستغنًى بها عما سواها .

قلت : وقـد قال بقول سعيد بن المسيّب سـعيدُ بن جُبير؛ ذكره النحاس فى كتاب «معانى القرآن» له . قال : وأهل العلم على أن النكاح هاهنا الجماع؛ لأنه قال : «زوجا غيره» فقد تقدّمت الزوجية فصار النكاح الجماع؛ إلا سعيد بن جبير فإنه قال : النكاح هاهنا التزوّج الصحيح اذا لم يُرد إحلالها .

قلت : وأظنهما لم يبلغهما حديثُ العُسيلة أو لم يصح عندهما فأخذا بظاهر القرآن، وهو قوله تعالى : «حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» والله أعلم . روى الأئمة واللفظ للدَّارَقُطْنِيّ عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا لا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره ويذوق كلٌّ منهما عُسيلةَ صاحبه" . قال بعض علماء الحنفيّة : مَن عقد على مذهب سـعيد بن المسيّب فللقاضى أن يفسخه؛ ولا يعتبر فيه خلافه لأنه خارج عن إجماع العلماء . قال علماؤنا : ويفهم من قوله عليه السلام : "حتى يذوق كل منهما عُسيلة صاحبه" استواؤهما فى إدراك لذة الجماع؛ وهو حجة لأحد القولين عندنا فى أنه لو وطئها نائمة أو مُغمًى عليها لم تحلّ لمطلقها؛ لأنها لم تذق العُسيلة إذ لم تدركها .

الثالثــة ـــ روى النّسائىّ عن عبد الله قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشِمة والواصِـلة والمستوصِلة وآكلَ الربا ومؤكِلَه والمحلِّل والمحلَّل له . وروى الترمذىّ عن عبد الله بن مسعود قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلِّل والمحلَّل له . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقد رُوى هذا الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم من غير وجه . والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان وعبد الله بن عمرو وغيرهم ؛ وهو قول الفقهاء من التابعين ، وبه يقول سفيان الثورى وابن المبارك والشافعىّ ومالك وأحمد وإسحاق ، وسمعت الجارود يذكر عن وكيع أنه قال بهذا ، وقال : ينبغى أن يرمى بهـذا الباب من قول أصحاب الرأى . وقال سفيان : اذا تزوّج الرجل المرأة ليحلّها ثم بدا له أن يمسكها فلا تحِلّ له حتى يتزوّجها بنكاح جديد » .

قال أبو عمر بن عبد البر : اختلف العلماء فى نكاح المحلِّل ؛ فقال مالك : المحلِّل لا يقيم على نكاحه حتى يستقبل نكاحا جديدا ؛ فإن أصابها فلها مهر مثلها ، ولا تُحلّها إصابته لزوجها الأوّل ؛ وسـواء علما أو لم يعلما اذا تزوّجها ليحلّها ، ولا يُقَرّ على نكاحه ويُفسخ ؛ وبه قال الثورىّ والأوزاعىّ . وفيـه قولٌ ثانٍ رُوى عن الثّورىّ فى نكاح الخيار والمحلِّل أن النكاح جائز والشرطَ باطل ؛ وهو قول ٱبن أبى لَيْلَى فى ذلك وفى نكاح المُتْعة . ورُوى عن الأوزاعىّ فى نكاح المحلِّل : بئس ما صـنع والنكاح جائز . وقال أبو حنيفـة وأبو يوسف ومحمـد : النكاح جائز إن دخل بها ، وله أن يمسكها إن شاء . وقال أبو حنيفة مرة هو وأصحابه : لا تحلّ للأوّل إن تزوّجها ليُحلّها . ومرّة قالوا : تحلّ له بهـذا النكاح اذا جامعها وطلّقها . ولم يختلفوا فى أن نكاح هـذا الزوج صحيح ، وأن له أن يقيم عليه . وفيه قول ثالث ـــ قال الشافعىّ : اذا قال أتزوّجك لأُحِلّكِ ثم لا نكاح بيننا بعد ذلك فهذا ضربٌ من نكاح المتعة ، وهو فاسـد لا يُقَرّ عليـه ويُفسخ ؛ ولو وطئ على هـذا لم يكن تحليلا . فان تزوّجها تزوّجا مطلقا لم يشترط ولا ٱشتُرط عليـه التحليل فللشافعىّ فى ذلك قولان فى كتابه القديم : أحدهما

مثل قول مالك، والآخر مثل قول أبي حنيفة . ولم يختلف قوله في كتابه الجديد المصري أن النكاح صحيح اذا لم يشترط ؛ وهو قول داود .

قلت : وحكى الماوردي عن الشافعي أنه إن شرط التحليلُ قبل العقد صح النكاح وأحلّها للأوّل، وإن شرطاه في العقد بطل النكاح ولم يحلها للأوّل؛ قال : وهو قول الشافعي . وقال الحسن وإبراهيم : اذا همّ أحد الثلاثة بالتحليل فسد النكاح ؛ وهذا تشديد . وقال سالم والقاسم : لا بأس أن يتزوّجها ليُحلها إذا لم يعلم الزوجان وهو مأجور ؛ وبه قال ربيعة ويحيى بن سعيد، وقاله داود بن علي اذا لم يُظهر ذلك في اشتراطه في حين العقد .

الرابعة — مدار جواز نكاح التحليل عند علمائنا على الزوج الناكح ، وسواء شرط ذلك أو نواه ؛ ومتى كان شيء من ذلك فسد نكاحه ولم يُقَرّ عليه ، ولم يُحلّل وطؤه المرأةَ لزوجها . وعلمُ الزوج المطلّق وجهلُه في ذلك سواء . وقد قيل : إنه ينبغي له اذا علم أن الناكح لها لذلك تزوّجها أن يتنزّه عن مراجعتها ، ولا يُحلها عند مالك إلا نكاحُ رغبة لحاجته اليها ، ولا يُقصد به التحليل، ويكون وطؤه لها وطأ مباحا ، لا تكون صائمة ولا محُرِمة ولا في حيضتها، ويكون الزوج بالغا مسلما . وقال الشافعي : اذا أصابها بنكاح صحيح وغيّب الحشفة في فرجها فقد ذاقا العُسيلة ؛ وسواء في ذلك قويّ النكاح وضعيفُه ، وسواء أدخله بيده أم بيدها ؛ وكان من صبيّ أو مراهق أو مجبوب بقي له ما يُغيّبه كما يُغيب غير الخصيّ . وسواء أصابها الزوج محُرِمة أو صائمة ؛ وهذا كلّه — على ما وصف الشافعي — قولُ أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي والحسن بن صالح، وقول بعض أصحاب مالك .

الخامسة — قال ابن حبيب : وإن تزوّجها فإن أعجبته أمسكها، وإلا كان قد احتسب في تحليلها الأجر لم يجز؛ لما خالط نكاحه من نية التحليل ، ولا تحلّ بذلك للأوّل .

السادسة — وطء السيّد لأَمَته التي قد بتّ زوجُها طلاقها لا يُحلّها؛ إذ ليس بزوج، رُوي عن علي بن أبي طالب ، وهو قول عبيدة ومسروق والشعبي وإبراهيم وجابر بن زيد وسليمان بن يسار وحماد بن أبي سليمان وأبي الزناد؛ وعليه جماعة فقهاء الأمصار . ويُروى عن

عثمان وزيد بن ثابت والزبير خلافُ ذلك ، وأنه يُحلها إذا غشيها سيّدها غِشيانا لا يريد بذلك مخادعة ولا إحلالا ، وترجع إلى زوجها بخِطبة وصداق . والقول الأول أصح ؛ لقوله تعالى : «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» والسيّد إنما تسلط بملك اليمين وهذا واضح .

السابعــة — في موطأ مالك أنه بلغه أن سعيد بن المسيّب وسليمان بن يسار سئلا عن رجل زوّج عبدا له جارية له فطلّقها العبد البَتَّة ثم وهبها سيّدها له هل تحل له بمِلْك اليمين؟ فقالا : لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره .

الثامنــة — رُوِى عن مالك أنه سأل ٱبنَ شهاب عن رجل كانت تحته أَمَة مملوكة فاشتراها وقد كان طلقها واحدة؛ فقال : تحِلّ له بمِلْك يمينه ما لم يَبُتّ طلاقَها ؛ فإن بَتّ طلاقَها فلا تحل له بملك يمينه حتى تنكح زوجا غيره . قال أبو عمر : وعلى هذا جماعة العلماء وأئمة الفتوى : مالكٌ والثوريّ والأوزاعيّ والشافعيّ وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وكان ابن عباس وعطاء وطاوس والحسن يقولون : إذا اشتراها الذي بَتّ طلاقها حلّت له بمِلْك اليمين؛ على عموم قوله عز وجل : «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» . قال أبو عمر : وهذا خطأ من القول؛ لأن قوله عز وجل : « أو ما ملكت أيمانكم » لا يبيح الأمهات ولا الأخوات ، فكذلك سائر المحرّمات .

التاسـعة — إذا طلق المسلم زوجته الذّميّة ثلاثا فنكحها ذِمّيّ ودخل بها ثم طلقها؛ فقالت طائفة : الذّميّ زوج لها ، ولها أن ترجع إلى الأول؛ هكذا قال الحسن وسفيان والثوريّ(1) والشافعيّ وأبو عبيد وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : وكذلك نقول؛ لأن الله تعالى قال : « حتى تنكح زوجا غيره » والنصرانيّ زوج . وقال مالك وربيعة : لا يحلّها .

العاشرة — النكاح الفاسد لا يُحلّ المطلقة ثلاثا في قول الجمهور : مالكٍ والثوريّ والشافعي والأوزاعيّ وأصحاب الرأى وأحمد وإسحاق وأبي عبيد؛ كلهم يقولون : لا تحل للزوج الأول إلا بنكاح صحيح؛ وكان الحكم يقول : هو زوج . قال ابن المنذر : ليس بزوج؛

(1) في بعض الأصول : « ... وسفيان الثوري بدون واو العطف » .

لأن أحكام الأزواج في الظِّهار والإيلاء واللِّعان غير ثابتة بينهما . وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم أن المرأة اذا قالت للزوج الأوّل : قد تزوّجتُ ودخل عليّ زوجي وصدّقها أنها تحلّ للأوّل . قال الشافعيّ : والورع ألّا يفعل إذا وقع في نفسه أنها كذبته .

الحادية عشرة — جاء عن عمر بن الخطاب في هـذا الباب تغليـظ شديد وهو قوله : لا أُوتَى بمحلِّل ولا محلَّل له إلا رجمتهما . وقال أبو عمر : التحليل سفاح؛ لا يزالان زانيين ولو أقاما عشرين سنة . قال أبو عمر : لا يحتمل قول عمر إلا التغليظ؛ لأنه قد صح عنه أنه وضع الحدّ عن الواطئ فَرْجًا حراما قـد جهل تحريمَه وعذَره بالجهـالة ؛ فالتأويل أوْلى بذلك، ولا خلاف أنه لا رجم عليه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ يريد المتزوّج الثاني . ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أى المرأةِ والزّوجِ الأول؛ قاله ابن عباس، ولا خلاف فيه . قال ابن المنذر : أجمع أهـل العلم على أن الحرّ إذا طلّق زوجته ثلاثا ثم انقضت عدّتها ونكحت زوجا آخر ودخل بها ثم فارقها وانقضت عدّتها ثم نكحها الأول أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات .

واختلفوا في الرجـل يطلّق امرأته تطليقة أو تطليقتين ثم تتزوّج غيره ثم ترجع إلى زوجها الأوّل؛ فقالت طائفة : تكون على ما بقي من طلاقها؛ وكذلك قال الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسـلم : عمرُ بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وأُبَيّ بن كعب وعمران بن حصين وأبو هريرة . ورُوى ذلك عن زيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمرو بن العاص، وبه قال عَبِيـدة السَّلماني وسعيـد بن المسيّب والحسن البصريّ ومالك وسـفيان الثوريّ وابنُ أبي لَيْـلى والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور ومحمد بن الحسن وابن نصر . وفيه قول ثانٍ وهو أن النكاح جديد والطلاق جديد؛ هذا قول ابن عمر وابن عباس،

و به قال عَطاء والنَّخَعِيّ وشُرَيح والنعمان و يعقوب . وذكر أبو بكر بن أبي شَيْبة قال : حدّثنـا أبو معاوية ووَكِيع عن الأعمش عن ابراهيم قال : كان أصحاب عبد الله يقولون : أيَهدِم الزّوجُ الثلاث ، ولا يَهدِم الواحدة والاثنتين ! . قال : وحدثنا حَفْص عن حَجّاج عن طلحة عن إبراهيم أن أصحاب عبد الله كانوا يقولون : يَهدِم الزوج الواحدةَ والاثنتين كما يهدم الثلاث ، إلا عَبِيدة فانه قال : هي على ما بقي من طلاقها ؛ ذكره أبو عمر . قال ابن المنذر : و بالقول الأوّل أقول . وفيـه قول ثالث وهو : إن كان دخل بها الأخيرُ فطلاق جديد ونكاحٌ جديد ، وإن لم يكن دخل بها فعلى ما بقي ؛ هذا قول إبراهيم النخعيّ .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ ﴾ شرط . قال طاوس : إن ظنّا أن كل واحد منهما يُحسن عشرة صاحبه . وقيل : حدود الله فرائضـه ؛ أي إذا علمـا أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثاني . فمتى علم الزوج أنه يَعجِز عن نفقة زوجته أو صداقها أو شيء من حقوقها الواجبة عليه فلا يحلّ له أن يتزوّجها حتى يُبيِّن لها ، أو يعلم من نفسه القدرة على أداء حقوقها . وكذلك لو كانت به عِلّة تمنعه من الاستمتاع كان عليـه أن يبيّن ؛ كيلا يغرّ المـرأة من نفسه . وكذلك لا يجوز أن يغرّها بنَسَب يدّعيـه ولا مال ولا صـناعة يذكرها وهو كاذب فيها . وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج ، أو كان بها علّةٌ تمنع الاستمتاع من جنون أو جُذام أو بَرَص أو داء في الفرج لم يجز لهـا أن تَغُرّه ، وعليها أن تبيّن له ما بهـا من ذلك ؛ كما يجب على بائع السّلعة أن يبيّن ما بسلعته من العيوب . ومتى وجد أحدُ الزوجين بصاحبه عيبا فله الردّ ؛ فإن كان العيب بالرجل فلها الصداق إن كان دخل بها ، وإن لم يدخل بها فلها نصفه . وإن كان العيب بالمرأة ردّها الزوج وأخذ ما كان أعطاها من الصداق . وقد رُوي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّج امرأة من بني بَيَاضة فوجد بكَشْحها بَرَصًا فردّها وقال : "دَلّستم عليّ" .

واختلفت الرواية عن مالك فى امرأة العِنّين إذا سلّمت نفسها ثم فُرّق بينهما بالعُنّة؛ فقال مرّة : لها جميع الصداق . وقال مرّة : لها نصف الصداق ؛ وهـذا ينبنى على اختلاف قوله : بِمَ تستحقّ الصداق بالتسليم أو بالدخول؟ قولان .

الثالثـة — قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : واختلف أصحابنا هـل على الزوجة خدمة أو لا ؟ فقال بعض أصحابنا : ليس على الزّوجة خدمة؛ وذلك أن العقد يتناول الاستمتاع لا الخدمة؛ ألا ترى أنه ليس بعقد إجارة ولا تملّك رقبة و إنما هو عقد على الاستمتاع ، والمستحقّ بالعقد هو الاستمتاع دون غيره ؛ فلا تطالب بأكثر منه ؛ ألا ترى الى قوله تعـالى : « فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً » . وقال بعض أصحابنا : عليها خدمة مثلها؛ فإن كانت شريفة المحل ليسار أبوّة أو ترفّه فعليها التدبير للمنزل وأمر الخادم . و إن كانت متوسطة الحال فعليها أن تفرش الفراش ونحو ذلك . و إن كانت دون ذلك فعليها أن تَقُمّ البيت وتطبُخ وتغسل . و إن كانت من نساء الكُرْد والدَّيْلم والجبل فى بلدهن كُلّفت ما يكلفه نساؤهم ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » . وقد جرى عُرف المسلمين فى بلدانهم فى قديم الأمر وحديثه بما ذكرنا ؛ ألا ترى أن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يتكلّفون الطحين والخبز والطبيخ وفرش الفراش وتقريب الطعام وأشباه ذلك ، ولا نعلم امرأة امتنعت من ذلك ، ولا يسوغ لها الامتناع ، بل كانوا يضربون نساءهم إذا قصّرن فى ذلك ، و يأخذونهن بالخدمة؛ فلولا أنها مستحَقّة لما طالبوهنّ .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ حدود الله : ما منع منه . والحدّ مانع من الاجتراء على الفواحش . وأحدّت المرأة : امتنعت من الزينة . ورجل محدود : ممنوع من الخير . والبوّاب حدّاد أى مانع . وقد تقدّم هذا مستوفًى(١) . و إنما قال : « لقوم يعلمون » لأن الجاهل اذا كثر له أمره ونهيه فانه لا يحفظه ولا يتعاهده . والعالم يحفظ و يتعاهد ؛ فلهذا المعنى خاطب العلماء ولم يخاطب الجهال .

(١) تراجع المسألة الخامسة والثلاثون جـ ٢ ص ٣٣٧ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ معنى « بلغن » قاربن؛ بإجماع من العلماء . ولأن المعنى يضطر إلى ذلك ؛ لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك . وهو في الآية التي بعدها بمعنى التناهي ؛ لأن المعنى يقتضي ذلك ، فهو حقيقة في الثانية مجاز في الأولى .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ الإمساك بالمعروف هو القيام بما يجب لها من حقٍّ على زوجها ؛ ولذلك قال جماعة من العلماء : إن من الإمساك بالمعروف أن الزّوج إذا لم يجد ما ينفق على الزوجة أن يطلّقها ؛ فإن لم يفعل خرج عن حدّ المعروف ، فيطلّق عليه الحاكم من أجل الضرر اللاحق لها من بقائها عند من لا يقدر على نفقتها ، والجوعُ لا صبر عليه ؛ وبهــذا قال مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد ويحيى القطّان وعبـد الرحمن ابن مهـــديّ ، وقاله من الصحابة عمر وعليّ وأبو هريرة ، ومن التابعين ســعيد بن المسيّب وقال : إن في ذلك سُنّة . ورواه أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم . وقالت طائفة : لا يُفرّق بينهما ، ويلزمها الصبر عليه ، وتتعلّق النفقة بذمّته بحكم الحاكم ؛ وهــذا قول عطاء والزُّهْريّ ، وإليه ذهب الكوفيون والثَّوْريّ ؛ واحتجوا بقوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ » وقال : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » الآية ؛ فندب تعالى إلى إنكاح الفقير ، فلا يجوز أن يكون الفقر سببا للفرقة ، وهو مندوب معه الى النكاح . وأيضا فإن النكاح بين الزوجين قد انعقد بإجماع فلا يفرّق بينهما إلا بإجماع مثله ، أو بسُنّة عن الرسول صلى الله عليه وسلم

لا معارض لهـا . والحجة للاول قوله صلى الله عليـه وسلم فى صحيح البخارى : "تقول المرأة إمّا أن تُطعِمَني و إمّا أن تطلّقني" فهذا نص فى موضع الخلاف . والفرقة بالإعسار عندنا طلقة رجعية خلافا للشافعيّ فى قوله إنها طلقة بائنة ؛ لأن هذه فرقة بعد البناء لم يستكمل بهـا عدد الطلاق ولا كانت لِعوَض ولا لضرر بالزّوج فكانت رجعية ؛ أصلُه طلاق المُولِى .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعنى فطلّقوهنّ ؛ وقد تقدّم .

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ﴾ روى مالك عن ثور بن زيد الدِّيلى أن الرجل كان يطلّق امرأته ثم يراجعها ولا حاجة له بها ولا يريد إمساكها ؛ كيما يُطوّل بذلك العدّة عليها وليُضارها ؛ فأنزل الله تعالى : « وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » يعظُهم الله به . وقال الزّجاج : «فقد ظلم نفسه» يعنى عرّض نفسه للعذاب ؛ لأن إتيان ما نهى الله عنه تَعَرُّض لعذاب الله . وهذا الخبر موافق للخبر الذى نزل بترك ما كان عليه أهـل الجاهلية من الطلاق والارتجاع حسب ما تقدّم بيانه عند قوله تعـالى : « الطلاق مرّتان » . فأفادنا هـذان الخبران أن نزول الآيتين المذكورتين كان فى معنًى واحد متقارب وذلك حبْس الرجل المرأةَ ومراجعته لها قاصدا إلى الإضرار بها ؛ وهذا ظاهر .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ معناه لا تأخذوا أحكام الله تعالى فى طريق الهـزء فإنها جِدٌّ كلّها ؛ فمن هزأ فيهـا لزمته . قال أبو الدرداء : كان الرجل يطلق فى الجاهلية ويقول : إنمـا طلقت وأنا لاعب ؛ وكان يُعتِق ويَنكِح ويقول : كنت لاعبا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ فقال عليه السلام : "من طلّق أو حرّر أو نكح أو أنكح فزعم أنه لاعب فهو جادّ" . رواه معمر قال : حدّثنا عيسى بن يونس عن عمرو عن الحسن عن أبى الدرداء فذكره بمعناه . وفى موطأ مالكٍ أنه بلغـه أن رجلا قال لابن عباس : إنى طلّقت امرأتى مائة مرة فماذا ترى علىّ ؟ فقال ابن عباس : طلقتْ منك بثلاث ، وسبعٌ وتسعون اتّخذتَ بها آيات الله هزوًا . وخرّج الدّارَقُطْنِيّ من حديث إسماعيل بن أميّة القرشىّ عن علىّ قال : سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم رجلا طلّق البَتّةَ فغضب وقال : "تتخذون آيات الله هزوًا أوْ دِينَ الله هزوًا

ولعبا من طلّق ٱلبتّة ألزمناه ثلاثا لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ". إسماعيل بن أميّة هــذا كُوفِيّ ضعيف الحديث . ورُوى عن عائشة أن الرجل كان يطلّق ٱمرأته ثم يقول : والله لا أُوَرِّثك ولا أدعك . قالت : وكيف ذاك ؟ قال : إذا كدت تقضين عدّتك راجعتك ؛ فنزلت : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا » . قال علماؤنا : والأقوال كلها داخلة في معنى الآية ؛ لأنه يقال لمن سخِر من آيات الله : ٱتخذها هزوًا . ويقال ذلك لمن كفر بها ، ويقال ذلك لمن طرحها ولم يأخذ بها وعمل بغيرها ؛ فعلى هذا تدخل هذه الأقوالُ في الآية . وآياتُ الله : دلائله وأمره ونهيه .

الخامســـة — ولا خلاف بين العلماء أن من طلّق هازلا أن الطلاق يلزمه . واختلفوا في غيره على ما يأتي بيانه في « براءة » إن شاء الله تعـالى . وخرّج أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : " ثلاثٌ جِدّهن جِدّ وهزلهن جِدٌّ النكاحُ والطّلاق والرّجعــة " . ورُوى عن عليّ بن أبي طالب وٱبن مسعود وأبي الدّرداء كلهم قالوا : ثلاث لا لعب فيهنّ واللاعب فيهنّ جادٌّ : النكاحُ والطلاق والعِتاق . وقيل : المعنى لا تتركوا أوامر الله فتكونوا مقصّرين لاعبين . ويدخل في هذه الآية ٱلاستغفارُ من الذنب قولا مع الإصرار فعلا ؛ وكذا كل ما كان في هذا المعنى فٱعلمه .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بالإســلام وبيان الأحكام . ﴿ والحِكمة ﴾ : هي السُّنّة المبيِّنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرادَ اللهِ فيما لم يُنصّ عليه في الكتاب . ﴿ يَعِظُكُمْ به ﴾ أي يخوّفكم . ﴿ وَٱتَّقُوا اللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم .

قوله تعـالى : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ رُوى أن مَعْقِل بن يَسار كانت أخته تحت أبي البَدّاح[1] فطلّقها وتركها حتى انقضت عدّتها ، ثم ندم فخطبها فرضيت وأبى أخوها أن يزوّجها وقال : وَجْهِى من وجهك حرام إن تزوّجتيه فنزلت الآية . قال مقاتل : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَعْقِلا فقال : "إنْ كنتَ مؤمنا فلا تمنع أختك عن أبي البدّاح" فقال : آمنت بالله وزوّجتها منه . وروى البخاريّ عن الحسن أن أخت مَعْقِل بن يسار طلقها زوجها حتى انقضت عدّتها فخطبها فأبَى مَعْقِل فنزلت : « فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ » . وأخرجه أيضا الدَّارَقُطْنِيّ عن الحسن قال : حدّثني مَعْقِلُ بن يسار قال : كانت لى أختٌ تُخطَب الىّ فكنت أمنعها الناس، فأتى آبن عم لى فخطبها فأنكحتها إيّاه ، فاصطحبا ما شاء الله ثم طلقها طلاقا رجعيا ثم تركها حتى انقضت عدّتها فخطبها مع الخطّاب ؛ فقلتُ : منعتُها الناسَ وزوّجتك إياها ثم طلقتَها طلاقا له رجعة ثم تركتَها حتى انقضت عدّتها فلمّا خُطبت الىّ أتيتَنى تخطبها مع الخطاب ! لا أزوّجك أبدا ! فأنزل الله أو قال أنزلت : « وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ » فكفّرتُ عن يمينى وأنكحتها إيّاه . فى رواية للبخاريّ : « فحَمِي مَعْقِل من ذلكَ آنفا وقال خلا عنها وهو يقدر عليها ثم يخطبها ! فأنزل الله الآية ؛ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه الآية فترك الحميّة وانقاد لأمر الله تعالى . وقيل : هو معقل بن سنان (بالنون) . قال النحاس : رواه الشافعيّ فى كتبه عن معقل بن يسار أو سنان . وقال الطحاويّ : هو معقل بن سنان .

الثانيـة — إذا ثبت هـذا ففى الآية دليل على أنه لا يجوز النكاح بغير وليّ لأن أخت معقل كانت ثيّبا ، ولو كان الأمر إليها دون وليّها لزوّجت نفسها ، ولم تحتج إلى وليّها معقل . فالخطاب إذًا فى قوله تعالى : «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ» للأولياء، وأن الأمر إليهم فى التزويج

(١) فى الأصول : « أبى الدحداح » وهو تحريف .

مع رضاهنّ . وقد قيل : إن الخطاب فى ذلك للأزواج، وذلك بأن يكون الارتجاع مضارّة عَضْلا عن نكاح الغير بتطويل العدّة عليها . واحتجّ بها أصحاب أبى حنيفة على أن تزوّج المرأة نفسَها قالوا : لأن الله تعالى أضاف ذلك اليها كما قال : « فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » ولم يذكر الولِىّ . وقد تقدّم القول فى هذه المسألة مستوفى . والأوّل أصح لما ذكرناه من سبب النزول . والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ بلوغ الأجل فى هذا الموضع : تناهيه، لأن ابتداء النكاح إنما يُتصوّر بعد انقضاء العدّة . و « تعضلوهنّ » معناه تحبسوهنّ . وحكى الخليل : دجاجة مُعْضِلٌ : قد احتبس بيضها . وقيل : العضل التضييق والمنع وهو راجع إلى معنى الحبس؛ يقال : أردتُ أمرا فعضلتنى عنه أى منعتنى عنه وضيّقت علىّ . وأَعْضل الأمرُ : إذا ضاقت عليك فيه الحيل؛ ومنه قولهم : إنه لَعُضْلَةٌ من العُضَل إذا كان لا يُقدَر على وجه الحيلة فيه . وقال الأزهرىّ : أصل العضل من قولهم : عَضّلت الناقةُ إذا نُشِب ولدها فلم يسهل خروجه . وعَضّلت الدجاجةُ : نَشِب بيضها . وفى حديث معاوية : — «مُعْضِلة ولا أبا حَسَنٍ»؛ أى مسألة صعبة ضيّقة المخارج . وقال طاوس : لقد وردت عُضَلُ أقضيةٍ ما قام بها إلا ابن عباس . وكل مُشْكِل عند العرب مُعْضِل؛ ومنه قول الشافعىّ :

إذا ٱلمعضلاتُ تصدّيْنَنِى * كشفتُ حقائقها بالنظرْ

ويقال : أعضل الأمرُ اذا ٱشتدّ . وداءٌ عُضال أى شديدٌ عَسِرُ البُرْءِ أعيا الأطباءَ . وعَضَل فلانٌ أَيِّمَه أى منعها، يَعْضُلُها ويَعْضِلُها (بالضم والكسر) لغتان .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ ﴾ ولم يقل « ذلكم » لأنه محمول على معنى الجمع . ولو كان « ذلكم » لجاز؛ مثل ﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى ما لكم فيه من الصلاح . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

فيه ثمان عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ ﴾ ابتداء . ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ فى موضع الخبر . ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ ظرف زمان . ولما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ذكر الولد لأن الزوجين قد يفترقان وثَمّ ولد ؛ فالآية إذًا فى المطلّقات اللاتى لهنّ أولاد من أزواجهنّ ؛ قاله السُّدّيّ والضّحاك وغيرهما ، أى هنّ أحق برضاع أولادهنّ من الأجنبيات لأنهنّ أحْنَى وأرقّ ، وانتزاع الولد الصغير إضرارٌ به وبها ؛ وهذا يدل على أن الولد وإن فُطِم فالأم أحق بحضانته لفضل حنوّها وشفقتها ؛ وإنما تكون أحقَّ بالحضانة إذا لم تتزوّج على ما يأتى .

وعلى هذا يُشكِل قوله : «وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ» لأن المطلقة لاتستحقّ الكسوة إذا لم تكن رجعية بل تستحق الأجرة إلا أن يُحمل على مكارم الأخلاق فيقال : الأَوْلى ألّا تنقص الأجرة عما يكفيها لقوتها وكسوتها . وقيل : الآية عامّة فى المطلّقات اللّواتى لهنّ أولاد وفى الزوجات . والأظهر أنها فى الزوجات فى حال بقاء النكاح ؛ لأنهنّ المستحِقّات للنفقة والكسوة ؛ والزوجة تستحق النفقة والكسوة أرضعت أو لم تُرضع ؛ والنفقة والكسوة مقابلة التمكين ، فاذا اشتغلت بالإرضاع لم يكمل التمكين ؛ فقد يُتوهّم أن النفقة تسقط فأزال ذلك الوهم بقوله تعالى : « وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُ » أى الزوج رزقهنّ وكسوتهنّ فى حال الرضاع لأنه اشتغال فى مصالح الزوج ؛ فصارت كما لو سافرت لحاجة الزوج بإذنه فان النفقة لا تسقط .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يُرْضِعْنَ ﴾ خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، وعلى جهة الندب لبعضهن على ما يأتي . وقيل : هو خبر عن المشروعية كما تقدّم .

الثالثة — واختلف الناس في الرّضاع هل هو حقّ للأمّ أو هو حق عليها ؛ واللفظ محتمل لأنه لو أراد التّصريح بكونه عليها لقال : وعلى الوالدات رضاع أولادهنّ كما قال تعالى : « وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ » ولكن هو عليها في حالّ الزوجية، وهو عُرْف يلزم إذ قد صار كالشرط، إلا أن تكون شريفة ذات تَرَفُّهٍ فعُرْفُها ألّا تُرضع وذلك كالشرط . وعليها إن لم يقبل الولدُ غيرها واجب، وهو عليها إذا عدم لاختصاصها به . فإن مات الأب ولا مال للصبيّ فمذهب مالك في « المدوّنة » أن الرضاع لازم للأمّ بخلاف النفقة . وفي كتاب ابن الجلّاب : رضاعه في بيت المال . وقال عبد الوهاب : هو فقير من فقراء المسلمين . وأما المطلّقة طلاق بينونة فلا رضاع عليها، والرضاع على الزوج إلا أن تشاء هي ؛ فهي أحق بأجرة المِثْل ؛ هذا مع يسر الزوج فان كان مُعدِما لم يلزمها الرضاع الا أن يكون المولود لا يقبل غيرها فتُجبَر حينئذ على الإرضاع . وكل من يلزمها الإرضاع فان أصابها عذر يمنعها منه عاد الإرضاع على الأب . ورُوي عن مالك أن الأب إذا كان مُعدِما ولا مال للصبيّ أن الرضاع على الأم ؛ فإن لم يكن لها لبن ولها مال فالإرضاع عليها في مالها . قال الشافعي : لا يلزم الرضاع إلا والدا أو جدًّا وإن علَا ؛ وسيأتي ما للعلماء في هذا عند قوله تعالى : «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ » . يقال : رَضِع يَرْضَع رَضَاعة ورَضَاعا ، ورَضَع يَرضِع رِضاعا ورَضاعة (بكسر الراء في الأوّل وفتحها في الثاني) واسم الفاعل راضع فيهما . والرَّضاعة : اللّؤم (مفتوح الراء لا غير) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ ﴾ أي سنتين ، من حال الشيء إذا انقلب فالحول منقلب من الوقت الأوّل إلى الثاني . وقيل : سُمِّيَ العام حولا لاستحالة الأمور فيه في الأغلب . ﴿ كَامِلَيْنِ ﴾ قيّد بالكمال لأن القائل قد يقول : أقمت عند فلان حولين وهو يريد حولا وبعض حول آخر؛ قال الله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ » وإنما يتعجل

في يوم و بعض الثاني . وقوله تعالى : « لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » دليـل على أن إرضاع الحولين ليس حتما فانه يجوز الفطام قبل الحولين ، ولكنه تحـديد لقطع التنازع بين الزوجين في مدّة الرّضاع ، فلا يجب على الزوج إعطاء الأجرة لأكثر من حولين . و إن أراد الأب الفَطْم قبل هذه المدّة ولم ترض الأمّ لم يكن له ذلك . والزيادة على الحوالين أو النقصانُ إنمـا يكون عند عدم الإضرار بالمولود وعند رضا الوالدين . وقرأ مجاهد وابن مُحَيْصِن « لمن أراد أن تَمّ الرّضاعةُ » بفتح التاء ورفع « الرّضاعة » على إسناد الفعل إليها . وقرأ أبو حَيْوَة وابن أبي عَبْلة والجارود بن أبي سَبْرة بكسر الراء من « الرّضاعة » وهي لغة كالحَضارة والحِضارة . ورُوِي عن مجاهد أنه قرأ « الرضعة » على وزن الفعلة . ورُوِي عن ابن عباس أنه قرأ « أن يكمل الرضاعة » . النحاس : لا يعرف البصريون « الرضاعة » إلّا بفتح الراء، ولا «الرضاع» إلا بكسر الراء؛ مثل القتال . وحكى الكوفيون كسر الراء مع الهاء وفتحها بغير هاء .

الخامســـة — انتزع مالك رحمه الله تعالى ومن تابعه و جماعة من العلماء من هذه الآية أن الرّضاعة المحرِّمة الجارية مجرى النّسب إنمـا هي ما كان في الحولين لأنه بانقضاء الحولين تمّت الرضاعة ، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة . هذا قوله في موطّئه ، وهي رواية محمد بن عبد الحكم عنه ، وهو قول عمر وابن عباس ، و رُوِي عن ابن مسعود ، و به قال الزهري وقَتادة والشّعبيّ وسفيان الثوريّ والأوزاعيّ والشافعيّ وأحمد و إسحاق وأبو يوسف ومحمد وأبو ثور . وروى ابن عبد الحكم عنه الحولين وزيادة أيام يسيرة . عبدُ الملك : كالشّهر ونحوِه . و روى ابن القاسم عن مالك أنه قال : الرّضاع الحولين والشهرين بعد الحولين . وحكى عنه الوليد بن مسلم أنه قال : ما كان بعـد الحولين من رضاع بشهر أو شهرين أو ثلاثة فهو من الحولين ، وما كان بعد ذلك فهو عَبَث . وحُكِي عن النعمان أنه قال : وما كان بعد الحولين إلى ستة أشهر فهو رضاع ؛ والصحيح الأول لقوله تعـالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » وهذا يدلّ على أن لاحكم لمـا ارتضع المولودُ بعد الحولين . و روى سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا رضاع إلا ما كان في الحولين". قال الدّارَقُطْنِيّ : لم يسنده عن ابن عيينة غيرُ الهيثم بن جميل ، وهو ثقة حافظ .

قلت : وهــذا الخبر مع الآية والمعنى ينفي رضاعة الكبير وأنه لا حُرْمَة له . وقد رُوى عن عائشة القولُ به . وبه يقول اللّيث بن سعد من بين العلماء . ورُوى عن أبي موسى الأشعريّ أنه كان يرى رضاع الكبير . ورُوى عنه الرجوع عنه . وسيأتي في سورة « النساء » مبيّنا إن شاء الله تعالى .

السادســة — قال جمهور المفسرين : إن هذين الحولين لكل ولد . ورُوى عن ابن عباس أنه قال: هي في الولد يمكث في البطن ستة أشهر، فان مكث سبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا ، فان مكث ثمانية أشهر فرضاعه اثنان وعشرون شهرا، فان مكث تسعة أشهر فرضاعه أحد وعشرون شهرا لقوله تعالى : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » . وعلى هذا تتداخل مدّة الحمل ومدّة الرضاع ويأخذ الواحد من الآخر .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ أي وعلى الأب . ويجوز في العربية « وعلى المولود لهم » كقوله تعالى : « وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » لأن المعنى وعلى الذي وُلد له و «الذي» يُعبّر به عن الواحد والجمع كما تقدّم .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ الرزق في هذا الحكم الطعامُ الكافي، وفي هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لضعفه وعجزه . وسمّاه الله سبحانه للأمّ لأن الغــذاء يصل إليه بواسطتها في الرّضاع كما قال : « وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ » لأن الغذاء لا يصل إلا بسببها .

وأجمع العلماء على أن على المرء نفقةَ ولده الأطفال الذين لا مال لهم . وقال صلى الله عليه وسلم لهند بنت عتبة وقد قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح و إنه لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه فهل عليّ في ذلك جُناح؟ فقال — : " خُذِي ما يكفيك وولدَكِ بالمعروف " . والكسوة : اللباسُ . وقوله : « بالمعروف » أي بالمتعارف في عُرف الشرع من غير تفريط ولا إفراط . ثم بيّن تعالى أن الإنفاق على قدر غِنَى الزوج ومَنْصِبها من غير تقدير مُدٍّ ولا غيره بقوله تعالى : « لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا »

على ما يأتى بيـانه فى الطلاق إن شاء الله تعالى . وقيـل المعنى أى لا تكلّف المرأة الصبر على التقتير فى الأجرة ولا يكلّف الزوج ما هو إسراف بل يُراعَى القصد .

التاســعة — فى هذه الآية دليل لمالكٍ على أن الحضانة للأم؛ فهى فى الغلام إلى البلوغ، وفى الجارية إلى النـكاح؛ وذلك حق لهـا، وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعىّ : إذا بلغ الولد ثمـان سـنين وهو سنّ التمييز خُيِّر بين أبويه فإنه فى تلك الحـالة تتحرّك همته لتعلّم القرآن والأدب ووظائف العبادات، وذلك يستوى فيه الغلام والجارية . وروى النّسائىّ وغيره عن أبى هريرة أن امرأة جاءت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت له : زوجى يريد أن يذهب بآبنى، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "هذا أبوك وهـذه أمّك فخذ أيّهما شئت" فأخذ بيد أمّه . وفى كتاب أبى داود عن أبى هريرة قال : جاءت آمرأة إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأنا قاعد عنده فقالت : يارسول الله، إن زوجى يريد أن يذهب بآبنى، وقـد سقانى من بئر أبى عِنَبة، وقد نفعنى، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " اسْتَهِمَا عليه " فقال زوجها : من يُحَاقُّنِى فى ولدى ! فقال النبىّ صلى الله عليـه وسلم : " هذا أبوك وهذه أمّك فخذ بيد أحدهما شئت " فأخذ بيد أمّه فانطلقت به . ودليلنا ما رواه أبو داود عن الأوزاعىّ قال : حدّثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عبد الله بن عمرو أن آمرأة جاءت الى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله، إن آبنى هذا كان بطنى له وِعاء، وثديى له سِـقاء، وحِجْرى له حِواء، وإن أباه طلّقنى وأراد أن ينتزعه منّى؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنت أحقّ به ما لم تنكحى" . قال ابن المنذر : أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الزّوجين إذا افترقا ولها ولد أن الأمّ أحقّ به ما لم تنكح . وكذا قال أبو عمـر : لا أعلم خلافا بين السّلف من العلماء فى المرأة المطلّقة إذا لم تتزوج أنهـا أحقّ بولدها من أبيه ما دام طفلا صغيرا لا يُميّز شيئا إذا كان عندها فى حرز وكفاية ولم يثبت فيها فسق ولا تبرّج .

ثم اختلفوا بعـد ذلك فى تخييره إذا ميّز وعقَل بين أبيه وأمه وفيمن هو أوْلى به ؛ قال ابن المنذر : وثبت أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قضى فى آبنة حمزة للخـالة من غير تخيير .

روى أبو داود عن عليّ قال : خرج زيد بن حارثة الى مكة فقدِم بابنة حمزة، فقال جعفر : أنا آخذها أنا أحق بها ، ابنــةُ عمّي وخالتها عندى والخالة أمّ . فقال عليّ : أنا أحق بهـا ، ابنة عمّي وعندى ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أحق بها . فقال زيد : أنا أحق بها ، أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها . فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا قال : "وأما الجارية فأقضي بها لجعفر تكون مع خالتها وإنمـا الخالة أمّ" .

العاشرة — قال ابن المنذر : وقد أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن لا حق للأمّ فى الولد إذا تزوّجت .

قلت : كذا قال فى كتاب الإشراف له . وذكر القاضي عبد الوهاب فى شرح الرسالة له عن الحسن أنه لا يسقط حقها من الحضانة بالتزوّج . وأجمع مالك والشافعيّ والنعمان وأبو ثور على أن الجدّة أمَّ الأم أحقُّ بحضانة الولد . واختلفوا إذا لم يكن لها أمّ وكان لها جدّة هي أم الأب؛ فقال مالك : أمُّ الأبِ أحقّ إذا لم يكن للصبيّ خالة . وقال ابن القاسم قال مالك : وبلغني ذلك عنه أنه قال : الخالة أوْلى من الجدة أمِّ الأب . وفى قول الشافعيّ والنعمان : أمُّ الأب أحقّ من الخالة . وقد قيل : إن الأب أوْلى بابنه من الجدة أمِّ الأب . قال أبو عمر : وهذا عندى إذا لم يكن له زوجة أجنبية . ثم الأخت بعد الأب ثم العمة . وهــذا اذا كان كل واحد من هــؤلاء مأمونا على الولد ، وكان عنــده فى حِرْز وكفاية ؛ فاذا لم يكن كذلك لم يكن له حــق فى الحضانة ، وإنمـا يُنظر فى ذلك الى من يحوط الصبيّ ومن يحسن إليـه فى حفظه وتعلمه الخير . وهــذا على قول من قال إن الحضانة حقُّ الولد؛ وقــد رُوى ذلك عن مالك وقال به طائفة من أصحابه ؛ وكذلك لا يرون حضانة لفاجرة ولا لضعيفة عاجزة عن القيام بحق الصبيّ لمرض أو زَمانة . وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وابن المـاجشون عن مالك أن الحضانة للأم ثم الجــدّةِ للأمّ ثم الخـالة ثم الجــدّةِ للأب ثم أخت الصبيّ ثم عمــة الصبيّ ثم ابنــة أخى الصــبيّ ثم الأب . والجَــدّة للأب أوْلى من الأخت والأخت أوْلى من العمــة والعمة أوْلى ممن بعــدها وأوْلى من جميع الرجال الأولياء . وليس لابنة الخالة ولا لابنــة العمة ولا لبنات أخوات الصبيّ من حضانته شيء . فاذا كان الحاضن لا يُخاف منــه على الطفل

تضييع أو دخول فساد كان حاضنا له أبدا حتى يبلغ الحُلُم . وقد قيل : حتى يَثّغر[١] وحتى تتزوج الجارية ؛ إلا أن يريد الأب نُقلة سفر وإيطان فيكون حينئذ أحقّ بولده من أمّه وغيرها إن لم تُرد الانتقال . وإن أراد الخروج لتجارة لم يكن له ذلك . وكذا أولياء الصبيّ الذين يكون مآله[٢] إذا انتقلوا للاستيطان . وليس للأمّ أن تنقل ولدها عن موضع سكنى الأب إلا فيما يقرُب نحو المسافة التي لا تُقصر فيها الصلاة . ولو شرط عليها في حين انتقاله عن بلدها أنه لا يترك ولده عندها إلا أن تلتزم نفقته ومئونته سنين معلومة فإن التزمت ذلك لزمها؛ فان ماتت لم تُتبع بذلك ورثتها في تركتها . وقد قيل : ذلك دين يؤخذ من تركتها؛ والأوّل أصح إن شاء الله تعالى؛ كما لو مات الولد أو كما لو صالحها على نفقة الحمل والرّضاع فأسْقطت لم تُتّبع بشيء من ذلك .

الحادية عشرة — إذا تزوّجت الأمّ لم يُنزع منها ولدُها حتى يدخل بها زوجها عند مالك . وقال الشافعيّ : إذا نكحت فقد انقطع حقها . فان طلقها لم يكن لها الرجوع فيه عند مالك في الأشهر عندنا من مذهبه . وقد ذكر القاضي إسماعيل وذكره ابن خُوَيْزِمَنْدَاد أيضا عن مالك أنه اختلف قوله في ذلك ؛ فقال مرّة : يردّ إليها . وقال مرّة : لا يردّ . قال ابن المنذر : فإذا خرجت الأمّ عن البلد الذي به ولدها ثم رجعت إليه فهي أحقّ بولدها في قول الشافعيّ وأبي ثور وأصحاب الرأي . وكذلك لو تزوّجت ثم طُلّقت أو تُوفّي عنها زوجها رجعت في حقّها من الولد .

قلت : وكذلك قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب؛ فإن طلّقها الزوج أو مات عنها كان لها أخذه لزوال العذر الذي له جاز تركه .

الثانية عشرة — فإن تركت المرأة حضانة ولدها ولم تُرد أخذه وهي فارغة غير مشغولة بزوج ثم أرادت بعد ذلك أخذه نُظر لها؛ فان كان تركها له من عذر كان لها أخذه ، وإن كانت تركته رَفْضًا له ومَقْتًا لم يكن لها بعد ذلك أخذه .

---

(١) الاثغار : سقوط سن الصبي ونباتها . وفي بعض الأصول : حتى « يميز » .

(٢) كذا في الأصول ، ولعله مآله اليهم .

الثالثة عشرة — واختلفوا فى الزوجين يفترقان بطلاق والزوجة ذمّيـة ؛ فقالت طائفة : لا فرق بين الذمّية والمسلمة وهى أحق بولدها؛ هذا قول أبى ثور وأصحابِ الرأى وابنِ القاسم صاحبِ مالك . قال ابن المنذر : وقد روينا حديثا مرفوعا موافقا لهذا القول ؛ وفى إسناده مقال . وفيه قول ثان أن الولد مع المسلم منهما؛ هذا قول مالك وسوّار وعبد الله بن الحسن . وحُكى ذلك عن الشافعىّ . وكذلك اختلفوا فى الزّوجين يفترقان؛ أحدُهما حُرّ والآخر مملوك؛ فقالت طائفة : الحُرّ أَوْلى؛ هذا قول عطاء والثورىّ والشافعىّ وأصحابِ الرأى . وقال مالك : فى الأب إذا كان حرا وله ولد حُرّ والأمّ مملوكة : إن الأمّ أحقّ به إلا أن تُباع فتنتقل فيكون الأب أحقّ به .

الرابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ المعنى : لا تأبى الأمّ أنْ ترضعه إضرارا بأبيـه أو تطلب أكثر من أجر مثلها، ولا يَحِلّ للأب أن يمنع الأم من ذلك مع رغبتها فى الإرضاع؛ هذا قول جمهور المفسرين . وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائىّ «تُضارَّ» بفتح الراء المشدّدة وموضعه جزم على النهى؛ وأصله تضارر على الأصل، فأدغمت الراء الأولى فى الثانية وفتحت الثانية لالتقاء الساكنين ؛ وهكذا يُفعل فى المضاعف إذا كان قبـله فتح أو ألف؛ تقول : عَضَّ يارجل، وضارّ فلانا يارجل . أى لا ينزع الولد منها إذا رضيت بالإرضاع وألِفَها الصبىّ . وقرأ أبو عمرو وابن كَثير وأبان عن عاصم وجماعة «تُضارُّ» بالرفع عطفا على قوله : « تكلّف نفس » وهو خبر والمراد به الأمر . وروى يونس عن الحسن قال يقول : لا تضارّ زوجها، تقول : لا أرضعه ؛ ولا يضارّها فينزعه منها وهى تقول : أنا أرضعه . ويحتمل أن يكون الأصـل « تُضارِر » بكسر الراء الأولى ؛ ورواها أبان عن عاصم، وهى لغة أهل الحجاز . فـ « والدة » فاعله؛ ويحتمل أن يكون « تضارر » فـ « والدة » مفعول ما لم يسم فاعله . ورُوى عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه أنه قرأ « لا تُضارَر » براءين الأولى مفتوحة . وقـرأ أبو جعفر بن القَعْقاع « تضار » بإسكان الراء وتخفيفها . وكذلك « لا يضار كاتب » وهذا بعيد لأن المثلين إذا اجتمعا وهما أصليان لم يجز

حذف أحدهما للتخفيف؛ فإما الإدغام وإما الإظهار . ورُوى عنه الإسكان والتشديد . ورُوى عن ابن عباس والحسن « لا تُضارِر » بكسر الراء الأولى .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ هو معطوف على قوله : « وَعَلَى المولود » واختلفوا في تأويل قوله : « وعلى الوارث مثل ذلك » فقال قَتادة والسُّدِّيّ والحسن وعمر بن الخطاب رضي الله عنه : هو وارث الصبيّ أن لو مات . قال بعضهم : وارثه من الرجال خاصة يلزمه الإرضاع؛ كما كان يلزم أبا الصبيّ لو كان حيًّا؛ وقاله مجاهد وعطاء . وقال قَتادة وغيره : هو وارث الصبيّ من كان من الرجال والنساء، ويلزمهم إرضاعه على قدر مواريثهم منه؛ وبه قال أحمد وإسحاق . وقال القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق في كتاب « معاني القرآن » له : فأما أبو حنيفة فانه قال : تجب نفقة الصغير ورضاعه على كل ذي رَحِم مَحْرَم؛ مثل أن يكون رجل له ٱبن أختٍ صغير محتاج وابنُ عم صغير محتاج وهو وارثه؛ فان النفقة تجب على الخال لابن أخته الذي لا يرثه، وتسقط عن ابن العم لابن عمه الوارث . قال أبو إسحاق : فقالوا قولا ليس في كتاب الله ولا نعلم أحدا قاله . وحكى الطبريّ عن أبي حنيفة وصاحبيه أنهم قالوا : الوارث الذي يلزمه الإرضاع هو وارثه إذا كان ذا رَحِم مَحْرَم منه؛ فان كان ابن عَمٍّ وغيره ليس بذي رَحِم مَحْرَم فلا يلزمه شيء . وقيل : المراد عَصَبة الأب عليهم النفقة والكسوة . قال الضحاك : إن مات أبو الصبيّ وللصبيّ مال أخذ رضاعه من المال، وإن لم يكن له مال أخذ من العصبة، وان لم يكن للعصبة مال أجبرت الأمّ على رضاعه . وقال قَبيصة بن ذؤيب والضّحّاك وبشر بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز : الوارث هو الصبيّ نفسُه؛ وتأوّلوا قوله : «وَعَلَى ٱلْوَارِثِ» المولود، مثلُ ما على المولود له، أي عليه في ماله إذا ورِث أباه إرضاعُ نفسه . وقال سفيان : الوارث هنا هو الباقي من والدي المولود بعد وفاة الآخر منهما؛ فإن مات الأب فعلى الأمّ كفاية الطفل إذا لم يكن له مال، ويشاركها العاصب في إرضاع المولود على قدر حظه من الميراث . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : ولو كان اليتيم فقيرا لا مال له وجب على الإمام القيام به من بيت المال؛ فإن لم يفعل الإمام وجب ذلك على المسلمين، الأخصّ به

فالأخصّ ؛ والأمّ أخصّ به فيجب عليها إرضاعه والقيام به ، ولا ترجع عليه ولا على أحد . والرضاع واجب والنفقة استحباب؛ ووجه الاستحباب قوله تعـالى : « وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » وواجب على الأزواج القيام بهنّ ؛ فاذا تعـذّر استيفاء الحق لهنّ بموت الزّوج أو إعساره لم يسقط الحقّ عنهنّ ؛ ألا ترى أن العدّة واجبة عليهنّ والنفقة والسكنى على أزواجهنّ ، وإذا تعذرت النفقة لهن لم تسقط العدّة عنهنّ . وروى عبد الرحمن بن القاسم عن مالك في الأسدية أنه قال : لا يلزم الرجلَ نفقةُ أخٍ ولا ذِى قرابة ولا ذِى رَحِم منه . قال وقول الله عز وجل « وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ » هو منســوخ . قال النحاس : هـذا لفظ مالك ، ولم يبيّن ما الناسخ لها ولا عبـدُ الرحمن بن القاسم ، ولا علمت أن أحدا من أصحابهـم بيّن ذلك ؛ والذى يشـبه أن يكون الناسخ لها عنده والله أعلم أنه لمـا أوجب الله تعالى للمتوفَّى عنها زوجها من مال المتوفّى نفقةَ حول والسكنى ثم نسخ ذلك ورفعه ؛ نسخ ذلك أيضا عن الوارث .

قلت : فعلى هذا تكون النفقة على الصبيّ نفسِه من ماله ، لا يكون على الوارث منها شيء على ما يأتى . قال ابن العربى : قوله « وعلى الوارث مثل ذلك » قال ابن القاسم عن مالك هى منسوخة ؛ وهذا كلام تشمئز منه قلوب الغافلين ، وتحار فيه ألباب الشاذّين ، والأمر فيه قريب ! وذلك أن العلماء المتقدّمين من الفقهاء والمفسرين كانوا يسمّون التخصيص نسخا لأنه رفعٌ لبعض ما يتناوله العمـوم مسامحةً ، وجرى ذلك فى ألسنتهم حتى أشكل ذلك على من بعدهم ؛ وتحقيق القول فيه أن قوله تعالى: «وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ» إشارةٌ إلى ما تقدّم؛ فمن الناس من ردّه إلى جميعه من إيجاب النفقة وتحريم الإضرار، منهم أبو حنيفة من الفقهاء، ومن السلف قتادة والحسن ويسند إلى عمـر . وقالت طائفة من العلمـاء : إن معنى قوله « وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ » لا يرجع إلى جميع ما تقدّم ، وإنمـا يرجع الى تحريم الإضرار ؛ والمعنى : وعلى الوارث من تحريم الإضرار بالأم ما على الأب، وهذا هو الأصل ، فمن ادّعى أنه يرجع العطف فيه الى جميع ما تقدّم فعليه الدليل .

قلت : قوله « وهذا هو الأصل » يريد فى رجوع الضمير إلى أقرب مذكور، وهو صحيح؛ اذ لو أراد الجميع الذى هو الإرضاع والإنفاق وعدم الضرر لقال وعلى الوارث مثل هؤلاء؛ فدلّ على أنه معطوف على المنع من المضارّة؛ وعلى ذلك تأوّله كافّة المفسرين فيما حكى القاضى عبد الوهاب، وهو أن المراد به أن الوالدة لا تضارّ ولدها فى أن الأب إذا بذل لها أجرة المثل ألّا ترضعه، ولا مولود له بولده فى أن الأم إذا بذلت أن ترضعه بأجرة المثل كان لها ذلك؛ لأن الأم أرفق وأحنّ عليه، ولبنها خير له من لبن الأجنبية . قال ابن عطية : وقال مالك رحمه الله وجميع أصحابه والشّعبيّ أيضا والزّهرىّ والضّحاك وجماعة من العلماء: المراد بقوله « مثل ذلك » ألّا تضارّ؛ وأما الرزق والكسوة فلا يجب شيء منه . وروى ابن القاسم عن مالك أن الآية تضمّنت أن الرزق والكسوة على الوارث، ثم نسخ ذلك بالإجماع من الأمة فى ألا يضارّ الوارث؛ والخلاف هل عليه رزق وكسوة أم لا . وقرأ يحيى بن يَعْمُر «وعلى الورثة» بالجمع، وذلك يقتضى العموم؛ فان استدلوا بقوله عليه السلام . "لا يقبل الله صدقةً وذو رَحِم محتاجٌ" قيل لهم الرّحم عموم فى كل ذى رَحِم، مَحْرَمًا كان أو غير مَحْرَم، ولا خلاف أن صرف الصدقة إلى ذى الرّحم أولى لقوله عليه السلام : "إجعلها فى الأقربين" فحُمل الحديث على هذا، ولا حجة فيه على ما راموه؛ والله اعلم . وقال النحاس : وأما قول من قال « وعلى الوارث مثل ذلك » ألّا يضارّ فقول حسن؛ لأن أموال الناس محظورة فلا يخرج شى منها إلا بدليل قاطع . وأما قول من قال على ورثة الأب فالحجة أن النفقة كانت على الأب فورثته أولى من ورثة الآبن . وأما حجة من قال على ورثة الآبن فيقول كما يرثونه يقومون به . قال النحاس : وكان محمد بن جرير يختار قول من قال الوارث هنا الآبن؛ وهو وإن كان قولا غريبا فالاستدلال به صحيح والحجة به ظاهرة لأن ماله أولى به . وقد أجمع الفقهاء إلا من شذّ منهم أن رجلا لو كان له ولد طفل وللولد مال والأب موسر أنه لا يجب على الأب نفقة ولا رضاع، وأن ذلك من مال الصبى . فان قيل قد قال الله عزّ وجل «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ»؛ قيل : هذا الضمير للمؤنث، ومع هذا فان الإجماع

حدّ للآية مبينٌ لها، لا يسع مسلما الخروج عنه . وأما من قال ذلك على من بقي من الأبوين فحجته أنه لا يجوز للأم تضييع ولدها وقد مات من كان ينفق عليه وعليها . وقد ترجم البخاريّ على رد هذا القول «بابٌ — وعلى الوارث مثل ذلك، وهل على المرأة منه شيء» وساق حديث أمّ سلمة وهند . والمعنى فيه : أن أمّ سلمة كان لها أبناء من أبي سلمة ولم يكن لهم مال، فسألتِ النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرها أن لها في ذلك أجرا . فدلّ هذا الحديث على أن نفقة بنيها لا تجب عليها ، ولو وجبت عليها لم تقل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ولستُ بتاركتهم . وأما حديث هند فان النبيّ صلى الله عليه وسلم أطلقها على أخذ نفقتها ونفقة بنيها من مال الأب، ولم يوجبها عليها كما أوجبها على الأب . فاستدلّ البخاريّ من هذا على أنه لمّا لم يلزم الأمهاتِ نفقاتُ الأبناء في حيـاة الآباء فكذلك لا يلزمهنّ بموت الآباء . وأما قول من قال إن النفقة والكسوة على كل ذي رَحِم مَحْـرَم فحجّته أن على الرجل أن ينفق على كل ذي رَحِم مَحْرم إذا كان فقيرا. قال النحاس : وقد عُورض هذا القول بأنه لم يؤخذ من كتاب الله تعالى ولا من إجماعٍ ولا من سُـنّة صحيحة ، بل لا يُعرف من قولٍ سـوى ما ذكرناه . فأما القرآن فقد قال الله عز وجل : « وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْـلُ ذَٰلِكَ » فإن كان على الوارث النفقة والكسوة فقد خالفوا ذلك فقالوا : إذا ترك خاله وابنَ عمه فالنفقة على خاله وليس على ابن عمه شيء ؛ فهذا مخالف نصّ القرآن لأن الخال لا يرث مع ابن العم في قول أحد، ولا يرث وحده في قول كثير من العلماء . والذي احتجوا به من النفقة على كل ذي رَحِم مَحْرم أكثرُ أهل العلم على خلافه .

السادسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا ﴾ الضمير في « أرادا » للوالدين . و « فِصَالًا » معناه فطاما عن الرضاع ، أي عن الاغتـذاء بلبن أمّه الى غيره من الأقوات . والفِصال والفَصْل : الفطام؛ وأصـله التفريق، فهو تفريق بين الصبيّ والثّدي؛ ومنه سُمّيَ الفَصيل ، لأنه مفصول عن أمه . ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا ﴾ أي قبـل الحولين . ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي في فصله؛ وذلك أن الله سبحانه لمـا جعل مدّة الرضاع حولين بيّن أن فطامهما

هو الفطام ، وفصالها هو الفصال ليس لأحد عنه مَنْزَع ؛ إلا أن يتفق الأبوان على أقلّ من ذلك العدد من غير مضارّة بالولد ؛ فذلك جائز بهذا البيان . وقال قتادة : كان الرضاع واجبا في الحولين وكان يحرم الفطام قبله ، ثم خُفّف وأبيح الرضاع أقلّ من الحولين بقوله : « فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا » الآية . وفي هذا دليل على جواز الاجتهاد في الأحكام بإباحة الله تعالى للوالدين التشاورَ فيما يؤدّي إلى صلاح الصغير ؛ وذلك موقوف على غالب ظنونهما لا على الحقيقة واليقين . والتّشاور : استخراج الرأي ، وكذلك المشاورة . والمَشُورة كالمعونة . وشُرْت العسل : استخرجته . وشُرْت الدابة وشوّرتها أي أجريتها لاستخراج جريها . والشُّوار : متاع البيت ؛ لأنه يظهر للناظر . والشّارة : هيئة الرجل . والإشارة : إخراج ما في نفسك وإظهاره .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ أي لأولادكم غير الوالدة ؛ قاله الزجاج . قال النحاس : التقدير في العربية أن تسترضعوا أجنبيّة لأولادكم ؛ مثل « كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ » أي كالوا لهم أو وزنوا لهم ؛ وحذفت اللام لأنه يتعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف ؛ وأنشد سيبويه :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ به ۞ فقد تركتك ذا مال وذا نَشَبِ

ولا يجوز : دعوت زيدا ، أي دعوت لزيد ؛ لأنه يؤدّي الى التلبيس ، فيعتبر في هذا النوع السّماع .

قلت : وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز اتخاذ الظِّئْر إذا اتفق الآباء والأمهات على ذلك . وقد قال عِكرمة في قوله تعالى « لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ » معناه الظئر ؛ حكاه ابن عطية . والأصل أن كل أم يلزمها رضاع ولدها كما أخبر الله عز وجل ؛ فأمر الزوجات بإرضاع أولادهن ، وأوجب لهن على الأزواج النفقة والكسوة والزوجيّة قائمة ؛ فلو كان الرضاع على الأب لذكره مع ما ذكره من رزقهنّ وكسوتهنّ ؛ إلا أن مالكا رحمه الله دون فقهاء الأمصار استثنى الحَسِيبة فقال : لا يلزمها رضاعة ؛ فأخرجها من الآية وخصّصها بأصل من أصول الفقه وهو العمل بالعادة . وهذا أصل لم يتفطّن له إلا مالك . والأصل البديع فيه أن

هـذا أمر كان في الجاهلية في ذوى الحسب وجاء الإسـلام فلم يُغيره، وتمـادى ذوو الثروة والأحساب على تفريغ الأمهات للمُتعة بدفع الرضعاء للراضع إلى زمانه فقـال به وإلى زماننا فتحققناه شرعا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِذَا سَلَّمْتُمْ ﴾ يعنى الآباء، أى سلمتم الأجرة إلى المرضعة الظِّئر؛ قاله سفيان . مجاهد : سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما أرضعن إلى وقت إرادة الاسترضاع . وقرأ الستة من السبعة «ما آتيتم» بمعنى ما أعطيتم . وقرأ ابن كثير «أتيتم» بمعنى ما جئتم وفعلتم؛ كما قال زهير :

وما كان من خيرٍ أتوه فإنما * توارثه آباءُ آبائهم قبـــل

قال قتـادة والزُّهرىّ : المعنى سلمتم ما أتيتم من إرادة الاسـترضاع ، أى سلّم كل واحد من الأبوين ورضىَ؛ وكان ذلك على اتفاق منهما وقصدِ خيرٍ وإرادةِ معروف من الأمر . وعلى هـذا الاحتمال فيدخل في الخطاب سلمتم الرجالُ والنساء . وعلى القولين المتقدّمين الخطابُ للرجال . قال أبو علىّ : المعنى إذا سلمتم ما آتيتم نقده أو إعطاءه؛ فحذف المضافُ وأقيم الضمير مقامه، فكان التقدير: ما آتيتموه، ثم حذف الضمير من الصلة؛ وعلى هذا التأويل فالخطاب للرجال لأنهم الذين يُعطون أجر الرضاع . قال أبو علىّ : ويحتمل أن تكون « ما » مصدرية، اى اذا سلمتم الإتيـان ، والمعنى كالأوّل ، لكن يستغنى عن الصفة من حذف المضاف ثم حذف الضمير .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾

فيه خمس وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ لمـّا ذكر عزّ وجل عدّة الطلاق واتّصل بذكرها ذكرُ الإرضاع ذكَر عدّة الوفاة أيضا؛ لئلا يتوهّم أن عدّة الوفاة مثلُ عدّة الطلاق .

« والذين » أى والرجال الذين يموتون منكم . ﴿ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ أى يتركون أزواجا، أى ولهم زوجات؛ فالزوجات يتربّصن؛ قال معناه الزجاج واختاره النحاس . وحذْفُ المبتدا فى الكلام كثير؛ كقوله تعالى : « قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ» أى هو النار . وقال أبو علىّ الفارسى : تقديره والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بعدهم؛ وهو كقولك : السَّمْن مَنَوان بدرهم ، أى منوان منه بدرهم . وقيل : التقدير وأزواج الذين يُتوفّون منكم يتربّصن ؛ فجاءت العبارة فى غاية الإيجاز . وحكى المَهْدوِىّ عن سيبويه أن المعنى : وفيما يُتلى عليكم الذين يتوفّون . وقال بعض نحاة الكوفة : الخبر عن «الذين» متروك، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهنّ يتربّصن؛ وهذا اللفظ معناه الخبر عن المشروعية فى أحد الوجهين كما تقدّم .

الثانيـة — هذه الآية فى عدّة المتوفَّى عنها زوجها، وظاهرها العموم ومعناها الخصوص . وحكى المَهْدَوِىّ عن بعض العلماء أن الآية تناولت الحوامل ثم نُسخ ذلك بقوله « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » . وأكثر العلماء على أن هذه الآية ناسخة لقوله عزّ وجل : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » لأن الناس أقاموا بُرْهة من الإسلام إذا تُوفِّى الرجل وخلّف امرأته حاملا أوصى لها زوجها بنفقة سَنَة وبالسكنى ما لم تخرج فتتزوّج ؛ ثم نُسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر وبالميراث . وقال قوم : ليس فى هذا نسخ وإنما هو نقصان من الحول ؛ كصلاة المسافر لما نقصت من الأربع الى الاثنتين لم يكن هذا نسخا . وهذا غلط بيِّن ؛ لأنه إذا كان حكمها أن تعتدّ سَنة إذا لم تخرج فإن خرجت لم تُمنع ، ثم أزيل هذا ولزمتها العدّة أربعةَ أشهر وعشرا . وهذا هو النسخ، وليست صلاة المسافر من هذا فى شىء . وقالت عائشة : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيد فى صلاة الحضر وأُقِرّت صلاة السفر بحالها ؛ وسيأتى .

الثالثـة — عدّةُ الحامل المتوفَّى عنها زوجها وضعُ حملها عند جمهور العلماء . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب وابن عباس أن تمام عدّتها آخرُ الأجلين ؛ واختاره سُحْنون من علمائنا .

وقد رُوى عن ابن عباس أنه رجع عن هذا . والحجة لمـا رُوى عن علىّ وابن عباس رَوْمُ الجمع بين قوله تعالى : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» وبين قوله : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَـالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » وذلك أنهـا إذا قعدت أقصى الأجلين فقد عملت بمقتضى الآيتين ، وإن اعتدت بوضع الحمل فقـد تركت العمل بآية عدّة الوفاة ، والجمع أوْلى من الترجيح باتفاق أهل الأصول . وهـذا نظر حسن لولا ما يعكّر عليه من حديث سُبَيعة الأسلميّة وأنها نَفِست بعد وفاة زوجها بليال ، وأنها ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها أن تتزوج ؛ أخرجه الصحيح . فبيّن الحديثُ أن قوله تعالى : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » محمول على عمومه فى المطلّقات والمُتَـوفَّى عنهن أزواجهن ، وأن عدّة الوفاة مختصة بالحائل من الصِّنفين ؛ ويَعتضِد هذا بقول ابن مسعود : ومن شاء باهلته أن آية النساء القصرى نزلت بعـد آية عدّة الوفاة . قال علمـاؤنا : وظاهر كلامه أنها ناسخة لها وليس ذلك مراده والله أعلم . وإنمـا يَعْنِي أنها مخصصة لها ، فإنها أخرجت منها بعض متناولاتها . وكذلك حديث سُبَيعة متأخر عن عدة الوفاة ؛ لأن قصة سُبيعة كانت بعد حجّة الوَداع ، وزوجها هو سعد بن خَوْلة وهو من بنى عامر بن لُؤَىّ وهو ممن شهد بدرا ، تُوفِّىَ بمكة حينئذ وهى حامل ، وهو الذى رَثَى له رسـول الله صلى الله عليه وسلم من أن تُوُفِّى بمكة ، وولدت بعده بنصف شهر . وقال البخارىّ : بأربعين ليلة . وروى مسلم من حديث عمر بن عبد الله بن الأرقم أن سُبيعة سألت رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك قالت : فأفتانى بأنى قـد حللت حين وضعت حملى ، وأمرنى بالتزوج إن بدَالِى . قال ابن شهاب : ولا أرى بأسا أن تتزوّج حين وضعت وإن كانت فى دمها ، غير أن زوجها لا يقربهـا حتى تطهر ؛ وعلى هذا جمهور العلماء وأئمة الفقهاء . وقال الحسن والشّعبىّ والنَّخَعىّ وحماد : لا تنكح النفساء ما دامت فى دم نِفاسها . فاشترطوا شرطين : وضع الحمل ، والطهر من دم النفاس . والحديث حُجّة عليهم ، ولا حُجة لهم فى قوله : « فلمـا تعلّت من نفاسها تجمّلت للخُطّاب » كما فى صحيح مسـلم وأبى داود ؛ لأن « تعلت » وإن كان أصـله طهرت من دم نفاسها

— على ما قاله الخليل — فيحتمل أن يكون المراد به هاهنا تعلّت من آلام نفاسها؛ اى استقلت من أوجاعها . ولو سُلّم أن معناه ما قال الخليل فلا حُجة فيه؛ وإنما الحجة فى قوله عليه السلام لسبيعة : "قد حَلَلت حين وضعت" فأوقع الحِلّ فى حين الوضع وعلّقه عليه، ولم يقل إذا انقطع دمك ولا إذا طهرت؛ فصح ما قاله الجمهور .

الرابعة — ولا خلاف بين العلماء على أن أجل كلِّ حامل مطلّقةٍ يملك الزوج رجعتها أو لا يملك، حُرّةً كانت أو أَمَةً أو مُدَبَّرة أو مُكاتَبة أن تضع حملها .

واختلفوا فى أجل الحامل المُتوفَّى عنها كما تقدّم؛ وقد أجمع الجميع بلا خلاف بينهم أن رجلا لو تُوفِّيَ وترك امرأة حاملا فانقضت أربعة أشهر وعشر أنها لا تحلّ حتى تلد؛ فعُلم أن المقصود الولادة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ التربّص : التأنّى والتصبر عن النكاح، وترك الخروج عن مسكن النكاح وذلك بألّا تفارقه ليلا . ولم يذكر الله تعالى السكنى للمتوفّى عنها فى كتابه كما ذكرها للطلقة بقوله تعالى : «أَسْكِنُوهُنَّ» وليس فى لفظ العدّة فى كتاب الله تعالى ما يدل على الإحداد، وإنما قال : « يتربصن » فبيّنت السّنّة جميع ذلك . والأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم متظاهرةٌ بأن التربّص فى الوفاة إنما هو بإحداد، وهو الامتناع من الزينة ولُبْس المصبوغ الجميل والطِّيب ونحوه، وهذا قول جمهور العلماء . وقال الحسن ابن أبي الحسن : ليس الإحداد بشىء، إنما تتربص عن الزوج، ولها أن تتزيّن وتتطيّب؛ وهذا ضعيف لأنه خلاف السنّة على ما نبيّنه إن شاء الله تعالى . وثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للفُرَيعة بنت مالك بن سنان وكانت متوفًّى عنها : "أمكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله" قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا؛ وهذا حديث ثابت أخرجه مالك عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرة، رواه عنه مالك والثّورىّ ووُهيب(١) بن خالد وحماد ابن زيد وعيسى بن يونس وعدد كثير وابن عُيينة والقطّان وشعبة، وقد رواه مالك عن ابن شهاب

(١) فى الأصول : «وهب» والتصويب عن شرح الموطأ وتهذيب التهذيب .

وحسبك ! قال الباجيّ : لم يرو عنه غيره ، وقد أخذ به عثمان بن عفّان . قال أبو عمر : وقضى به في اعتداد المتوفّى عنهـا في بيتها ، وهو حديث معروف مشهور عنـد علماء الحجاز والعراق أن المتوفّى عنها زوجها عليها أن تعتدّ في بيتها ولا تخرج عنه ؛ وهو قول جماعة فقهاء الأمصار بالحجاز والشام والعراق ومصر . وكان داود يذهب إلى أن المتوفّى عنها زوجها ليس عليها أن تعتدّ في بيتها وتعتدّ حيث شاءت ؛ لأن السكنى إنمـا ورد بها القرآن في المطلّقات ؛ ومن حجته أن المسألة مسألة خلاف . قالوا : وهذا الحديث إنما ترويه امرأة غير معروفة بحمل العلم ؛ وإيجابُ السكنى إيجابُ حكم ، والأحكام لا تجب إلا بنصّ كتاب الله أو سُنّة أو إجماع . قال أبو عمر : أما السنّة فثابتة بحمـد الله ، وأما الإجماع فمستغنىً عنه بالسنّة ؛ لأن الاختلاف إذا نزل في مسألة كانت الحجـة في قول من وافقته السنة ، وبالله التوفيق . ورُوى عن عليّ وابن عباس وجابر وعائشة مثلُ قولِ داود ؛ وبه قال جابر بن زيد وعطاء والحسن البصريّ . قال ابن عباس : إنما قال الله تعالى : « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » ولم يقـل يعتددن في بيوتهن ولتعتدّ حيث شاءت ؛ ورُوى عن أبي حنيفة . وذكر عبـد الرزاق قال : حدّثنا مَعْمر عن الزُّهريّ عن عُروة قال : خرجت عائشة بأختها أمّ كلثوم — حين قُتل عنها زوجها طلحة بن عبيد الله — إلى مكة في عُمْرة ، وكانت تُفتِي المتوفّى عنها بالخروج في عدّتها . قال : وحدّثنا الثّوريّ عن عبيد الله بن عمر أنه سمع القاسم بن محمد يقول : أَبَى الناس ذلك عليها . قال وحدّثنا معمر عن الزّهريّ قال : أخذ المترخّصون في المتوفّى عنها زوجها بقول عائشة ، وأخذ أهـل الوَرَع والعَزْم بقـول ابن عمر . وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يردّ المتوفّى عنهنّ أزواجهن من البيداء يمنعهن الحج . وهـذا من عمر رضي الله عنه اجتهـاد ؛ لأنه كان يرى اعتـداد المرأة في منزل زوجها المتوفّى عنها لازما لهـا ؛ وهـو مقتضى القرآن والسّنّة ، فلا يجوز لها أن تخرج في حج ولا عمرة حتى تنقضي عدّتها . وقال مالك : تُرَدّ مالم تُحرِم .

السادســة — إذا كان الزوج يملك رقبة المسكن فإن للزوجة العدّة فيه ؛ وعليه أكثر الفقهاء : مالك وأبو حنيفة والشافعيّ وأحمـد وغيرهم لحديث الفُرَيعة . وهل يجوز بيع الدار

إذا كانت مِلكا للمتوفَّى وأراد ذلك الورثة؛ فالذى عليه جمهور أصحابنا أن ذلك جائز، ويشترط فيه العدّة للمرأة . قال ابن القاسم : لأنها أحق بالسكنى من الغُرَماء . وقال محمد بن عبد الحكم : البيع فاسد لأنها قد ترتاب فتمتدّ عدّتها . وجه قول ابن القاسم : أن الغالب السلامة، والرِّيبة نادرة، وذلك لا يؤثر فى فساد العقود؛ فان وقع البيع فيه بهذا الشرط فارتابت قال مالك فى كتاب محمد : هى أحق بالمُقام حتى تنقضى الرِّيبة ، وأحبّ إلينا أن يكون للمشترى الخيار فى فسخ البيع أو إمضائه ولا يرجع بشىء؛ لأنه دخل على العدّة المعتادة ، ولو وقع البيع بشرط زوال الرِّيبة كان فاسدا . وقال سُحْنون : لا حجة للمشترى وإن تمادت الرِّيبة الى خمس سنين؛ لأنه دخل على العدّة والعدّةُ قد تكون خمس سنين؛ ونحو هذا روى أبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة — فإن كان للزوج السُّكنى دون الرقبة فلها السكنى فى مدة العدّة، خلافا لأبى حنيفة والشافعى؛ لقوله عليه السلام للفُرَيعة وقد علم أن زوجها لا يملك رقبة المسكن : " امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله " . لا يقال إن المنزل كان لها فلذلك قال لها : " امكثى فى بيتك " فإن معمرا روى عن الزّهرىّ أنها ذكرت للنبىّ صلى الله عليه وسلم أن زوجها قُتل ، وأنه تركها فى مسكن ليس لها واستأذنته؛ وذكر الحديث . ولنا من جهة المعنى أنه ترك دارا يملك سكناها مِلْكا لا تَبِعة عليه فيه؛ فلزم أن تعتدّ الزوجة فيه؛ أصل ذلك إذا مَلَك رقبتها .

الثامنة — وهذا إذا كان قد أدّى الكراء ، وأما إذا كان لم يؤدّ الكراء فالذى فى المدونة أنه لا سكنى لها فى مال الميت وإن كان موسرا؛ لأن حقها إنما يتعلق بما يملكه من السكنى مِلكا تاما، وما لم ينقد عوضه لم يملكه مِلكا تاما . وإنما مَلَك العوض الذى بيده، ولا حق فى ذلك للزوجة إلا بالميراث دون السكنى ؛ لأن ذلك مالٌ وليس بسكنى . وروى محمد عن مالك أن الكِراء لازم للميّت فى ماله .

التاسعة — قوله صلى الله عليه وسلم للفُريعة : " امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله " يحتمل أنه أمرها بذلك لما كان زوجها قد أدى كراء المسكن ، أو كان أُسكن فيه

إلى وفاته، أو أن أهل المنزل أباحوا لها العدّة فيه بكراء أو غير كراء، أو ما شاء الله تعالى من ذلك مما رأى به أن المُقام لازم لها فيه حتى تنقضي عدّتها .

العاشــرة — واختلفوا في المرأة يأتيها نَعْيُ زوجها وهي في بيت غير بيت زوجها؛ فأمرها بالرجوع إلى مسكنه وقراره مالكُ بن أنس؛ ورُوي ذلك عن عمر بن عبد العزيز . وقال سعيد بن المسيّب والنّخعيّ : تعتدّ حيث أتاها الخبر، لا تبرح منه حتى تنقضي العدّة . قال ابن المنذر : قول مالك صحيح، إلا أن يكون نَقَلها الزوج إلى مكان فتلزم ذلك المكان .

الحادية عشرة — ويجوز لها أن تخرج في حوائجها من وقت انتشار الناس بُكْرَةً إلى وقت هدوئهم بعد العَتَمة، ولا تبيت إلا في ذلك المنزل . وفي البخاريّ ومسلم عن أم عطيّة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تُحِدّ ٱمرأةٌ على ميّت فوقَ ثلاثٍ إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ولا تلبَس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عَصْبٍ(١) ولا تَكْتَحِل ولا تَمَسّ طِيبًا إلا إذا طَهُرت نُبْذَةً(٢) من قُسْط أو أظفار" . وفي حديث أم حَبِيبة : "لا يحل لٱمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تُحِدّ على ميّت فوق ثلاثٍ إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" الحديث . الإحداد : ترك المرأة الزينةَ كلَّها من اللباس والطِّيب والحَلْي والكحل والخضاب بالحناء ما دامت في عدّتها؛ لأن الزينة داعية إلى الأزواج فنُهيت عن ذلك قطعا للذرائع وحمايةً لحُرُمات الله تعالى أن تنتهك . وليس دَهْن المرأة رأسها بالزيت والشَّيرج من الطيب في شيء . يقال : ٱمرأة حادٌّ ومُحِدٌّ . قال الأصمعيّ : ولم نعرف « حدّت » . وفاعل « لا يحل » المصدر الذي يمكن صياغته من « تُحِد » مع « أن » المرادة؛ فكأنه قال : الإحداد .

الثانية عشرة — وَصْفُه عليه السلام المرأةَ بالإيمان يدل على صحة أحد القولين عندنا في الكتابية المتوفَّى عنها زوجها إنها لا إحداد عليها؛ وهو قول ابن كنانة وابن نافع، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال أبو حنيفة وابن المنذر . وروى عنه ابن القاسم أن عليها الإحداد

(١) العصب (بفتح العين وسكون الصاد المهملتين) : من برود اليمن يعصب غزلها، أي يربط ثم يصبغ ثم ينسج مصبوغا فيخرج موشيا لبقاء ما عصب منه أبيض ولم ينصبغ، وإنما يعصب السدى دون اللحمة .

(٢) النبذة : الشيء اليسير . القسط والأظفار : نوعان من البخور .

كالمسلمة ؛ وبه قال الليث والشافعيّ وأبو ثور وعامة أصحابنا ؛ لأنه حكم من احكام العـدّة فلزمت الكتابية للسلم كلزوم المسكن والعدّة .

الثالثة عشرة — وفى قوله عليه السلام : "فوق ثلاث إلا على زوج" دليل على تحريم إحداد المسلمات على غير أزواجهن فوق ثلاث ، وإباحة الإحداد عليهم ثلاثا تبدأ بالعدد من الليلة التى تستقبلها إلى آخر ثالثها ؛ فإن مات حميمها فى بقية يوم أو ليـلة ألغته وحسبته من الليلة القابلة .

الرابعة عشرة — هذا الحديث بحكم عمومه يتناول الزوجات كلّهن المتوفَّى عنهنّ أزواجهنّ فيدخل فيه الإماء والحرائر والكبار والصغار ؛ وهو مذهب الجمهور من العلمـاء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا إحداد على أَمَة ولا على صغيرة ؛ حكاه عنه القاضى أبو الوليد الباجى . قال ابن المنـذر : أما الأَمَة الزوجة فهى داخلة فى جملة الأزواج وفى عموم الأخبار ؛ وهو قول مالك والشافعيّ وأبى ثور وأصحاب الرأى ؛ ولا أحفظ فى ذلك عن أحد خلافا ، ولا أعلمهم يختلفون فى الإحداد على أم الولد إذا مات سيّدها ؛ لأنها ليست بزوجة والأحاديث إنمـا جاءت فى الأزواج . قال الباجيّ : الصـغيرة إذا كانت ممن يعقل الأمر والنّهى وتلتزم ما حُدّ لهـا أُمرت بذلك ، وإن كانت لا تدرك شيئا من ذلك لصغرها فروى ابن مُزَين عن عيسى يُجَنّبها أهلها جميع ما تجتنبه الكبيرة ، وذلك لازم لها . والدليل على وجوب الإحداد على الصغيرة ما رُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سألته امرأة عن بنت لها تُوفّىَ عنها زوجها فاشتكت عينَهـا أفتكحلها ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "لا" مرّتين أو ثلاثا ؛ كل ذلك يقول "لا" ولم يسأل عن سِنّها ؛ ولو كان الحكم يفترق بالصغر والكبر لسأل عن سِنّها حتى يبيّن الحكم ، وتأخير البيان فى مثل هذا لا يجوز ، وأيضا فإن كل من لزمتها العدّة بالوفاة لزمها الإحداد كالكبيرة .

الخامسة عشرة — قال ابن المنذر : ولا أعلم خلافا أن الخضاب داخل فى جملة الزينـة المنهىّ عنهـا . وأجمعوا على أنه لا يجوز لها لباس الثياب المصبوغة والمعصفرة ، إلا ما صبغ

بالســواد فإنه رَخّص فيه عروة بن الزبير ومالك والشافعيّ ، وكرهه الزهرىّ وقال : لا تلبس ثوب عصب وهو خلاف الحديث . وفى المدوّنة قال مالك : لا تلبس رقيق عَصْب اليمن ، ووسّع فى غليظه . قال ابن القاسم : لأن رقيقه بمنزلة الثياب المصبغة ، وتلبس رقيق الثياب وغليظه من الحرير والكَتّان والقطن . قال ابن المنذر : ورخّص كل من أحفظ عنه فى لباس البياض . قال القاضى عِياض : ذهب الشافعىّ إلى أن كل صبغ كان زينة لا تمسّه الحادّ رقيقا كان أو غليظا ؛ ونحوه للقاضى عبد الوهاب قال : كل ما كان من الألوان تتزين به النساء لأزواجهن فلتمتنع منه الحادّ . ومنع بعض مشايخنا المتأخرين جيّد البياض الذى يُتزيّن به ، وكذلك الرفيع من السواد . وروى ابن المَوّاز عن مالك : لا تلبس حُلياً وإن كان حديدا ؛ وفى الجملة أن كل ما تلبسه المرأة على وجه ما يستعمل عليه الحلى من التجمّل فلا تلبسه الحادّ . ولم ينص أصحابنا على الجواهر واليواقيت والزمرّد وهو داخل فى معنى الحُلِيّ . والله أعلم .

السادسة عشرة — وأجمع الناس على وجوب الإحداد على المتوفَّى عنها زوجها إلا الحسن فإنه قال : ليس بواجب ؛ واحتج بما رواه عبد الله بن شدّاد بن الهاد عن أسماء بنت عُميس قالت : لما أصيب جعفر بن أبى طالب قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَسَلَّبِي[(١)] ثلاثا ثم اصنعى ما شئت" . قال ابن المنذر : كان الحسن البصرىّ من بين سائر أهل العلم لا يرى الإحداد، وقال : المطلقة ثلاثا والمتوفَّى عنها زوجها يكتحلان ويختضبان ويصنعان ماشاءا . وقد ثبتت الأخبار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم بالإحداد ، وليس لأحد بلغته إلا التسليمُ ؛ ولعلّ الحسن لم تبلغه ، أو بلغته فتأوّلها بحديث أسماء بنت عُميس أنها استأذنت النبىّ صلى الله عليه وسلم أن تُحِدّ على جعفر وهى امرأته ، فأذن لها ثلاثة أيام ثم بعث إليها بعد ثلاثة أيام أن تَطهّرى واكتحلى . قال ابن المنذر : وقد دفع أهل العلم هذا الحديث بوجوه ، وكان أحمد بن حنبل يقول : هذا الشاذ من الحديث لا يؤخذ به ، وقاله إسحاق .

---

(١) تسلبي : البسى ثياب الحداد السود ، وهى السلاب (ككتاب) .

السابعة عشرة — ذهب مالك والشافعيّ إلى أنْ لا إحداد على مطلّقة رجعيةً كانت أو بائنة واحدة أو أكثر، وهو قول ربيعة وعطاء . وذهب الكوفيون : أبو حنيفة وأصحابه والثوريّ والحسن بن حَيّ وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن المطلقة ثلاثا عليهــا الإحداد ؛ وهو قول ســعيد ابن المسيب وســليمان بن يَسار وابن سيرين والحكم بن عيينة . قال الحكم : هو عليهــا أوكد وأشدّ منه على المتوفَّى عنها زوجها ؛ ومن جهة المعنى أنهما جميعا فى عدّة يحفظ بها النّسب . وقال الشافعيّ وأحمد وإسحاق : الاحتياط أن تتقى المطلقة الزينة . قال ابن المنذر : وفى قول النبيّ صلى الله عليــه وسلم : "لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحِدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" دليلٌ على أن المطلقة ثلاثا والمطلّق حَيٌّ لا إحداد عليها .

الثامنة عشرة — أجمع العلماء على أن من طلّق زوجته طلاقا يملك رجعتها ثم تُوفِّىَ قبل انقضاء العدة أن عليهــا عدّة الوفاة وترثه . واختلفوا فى عدّة المطلقة ثلاثا فى المرض ؛ فقالت طائفة : تعتدّ عدّة الطلاق ؛ هــذا قول مالك والشافعيّ ويعقوب وأبى عبيد وأبى ثور . قال ابن المنذر : وبه نقول ؛ لأن الله تعالى جعل عدة المطلقات الأقراء ، وقد أجمعوا على المطلقة ثلاثا لو ماتت لم يرثها المطلّق ، وذلك لأنها غير زوجة ؛ وإذا كانت غير زوجة فهو غير زوج لها . وقال الثوريّ : تعتدّ بأقصى العدّتين . وقال النُّعمان ومحمد : عليها أربعة أشهر وعشر تستكمل فى ذلك ثلاثَ حِيَض .

التاسعة عشرة — وٱختلفوا فى المرأة يبلغها وفاة زوجها أو طلاقه ؛ فقالت طائفــة : العدّة فى الطلاق والوفاة من يوم يموت أو يطلّق ؛ هذا قول ابن عمر وابن مسعود وابن عباس ، وبه قال مسروق وعطاء وجماعة من التابعين ، وإليه ذهب مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو عبيد والثوريّ وأبو ثور وأصحاب الرأى وابن المنذر . وفيــه قول ثانٍ وهو أن عدّتها من يوم يبلغها الخبر ؛ رُوى هذا القول عن علىّ ، وبه قال الحسن البصريّ وقتادة وعطاء الخراسانىّ وجُلَاس ابن عمرو . وقال ســعيد بن المسيّب وعمر بن عبد العزيز : إن قامت بيّنة فعدّتهــا من يومَ مات أو طلّق ، وإن لم تقم بيّنة فمن يوم يأتيها الخبر ؛ والصحيح الأوّل لأنه تعالى علّق العدّة

بالوفاة أو الطلاق، ولأنها لو علمت بموته فتركت الإحداد انقضت العدّة ، فإذا تركته مع عدم العلم فهو أهون ؛ ألا ترى أن الصغيرة تنقضى عدّتها ولا إحداد عليها . وأيضا فقد أجمع العلماء على أنها لو كانت حاملا لا تعلم طلاق الزوج أو وفاته ثم وضعت حملها أن عدّتها منقضية . ولا فرق بين هذه المسألة وبين المسألة المختلف فيها . ووجه من قال بالعدّة من يوم يبلغها الخبر أن العدّة عبادة بترك الزينة وذلك لا يصح إلا بقصدٍ ونيّة، والقصدُ لا يكون إلا بعد العلم . والله أعلم .

الموفية عشرين — عدّة الوفاة تلزم الحـرّة والأَمَة والصغيرة والكبيرة والتى لم تبلغ المحيض والتى حاضت واليائسة من المحيض والكتابية دخل بها أو لم يدخل بها إذا كانت غير حامل — [وعدّة جميعهن إلا الأمة](١) أربعةُ أشهر وعشرةُ أيام؛ لعموم الآية فى قوله تعالى : « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » . وعدّة الأَمَة المتوفَّى عنها زوجها شهران وخمس ليال . قال ابن العربى : نصف عدّة الحرة إجماعا ، إلا ما يُحكى عن الأصم فإنه سوّى فيها بين الحرة والأَمَة وقد سبقه الإجماع ، لكن لصممه لم يسـمع . قال الباجى : ولا نعلم فى ذلك خلافا إلا ما يُروَى عن ابن سيرين، وليس بالثابت عنه أنه قال : عدّتها عدّة الحرّة .

قلت : قول الأصم صحيح من حيث النّظر؛ فإن الآيات الواردة فى عدة الوفاة والطلاق بالأشهر والأقراء عامةٌ فى حق الأَمَة والحـرّة؛ فعدّة الحرّة والأَمَة سواء على هـذا النظر؛ فإن العمومات لا فصل فيها بين الحُرّة والأَمَة؛ وكما استوت الأَمَةوالحرّة فى النكاح فكذلك تستوى معها فى العـدّة . والله أعلم . قال ابن العربى : ورُوى عن مالك أن الكتابيّة تعتدّ بثلاث حيض إذ بها يبرأ الرّحم ؛ وهذا منه فاسـد جدا ، لأنه أخرجها من عموم آية الوفاة وهى منها وأدخلها فى عموم آية الطلاق وليست منها(٢) .

قلت : وعليـه بناء ما فى المدوّنة لا عدّة عليهـا إن كانت غير مدخول بها ؛ لأنه قد علم براءة رَحِمها، وهذا يقتضى أن تتزوّج مسلما أو غيره إثْر وفاته؛ لأنه إذا لم يكن عليها عدّة للوفاة ولا استبراءٌ للدخول فقد حلّت للأزواج .

(١) الزيادة عن الباجى .
(٢) هذه عبارة ابن العربى كما وردت فى أحكام القرآن . وقد وردت مضطربة فى الأصول .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى عدّة أمّ الولد إذا توفّى عنها سيّدها ؛ فقالت طائفة : عدّتها أربعة أشهر وعشر ؛ قاله جماعة من التابعين منهم سعيد والزهرىّ والحسن البصرىّ وغيرهم ، وبه قال الأوزاعىّ وإسحاق . وروى أبو داود والدّارَقُطْنِىّ عن قَبِيصة بن ذؤيب عن عمرو بن العاص قال : لا تلبسوا علينا سُنّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، عدّة المتوفّى عنها أربعة أشهر وعشر ؛ يعنى فى أمّ الولد ؛ لفظ أبى داود . وقال الدارقطنىّ : موقوف وهو الصواب ، وهو مرسل لأن قبيصة لم يسمع من عمرو . قال ابن المنذر : وضعّف أحمد وأبو عبيد هذا الحديث. ورُوى عن على وابن مسعود أن عدّتها ثلاث حيض ؛ وهو قول عطاء وإبراهيم النّخعىّ وسفيان الثورىّ وأصحاب الرأى ؛ قالوا : لأنها عدة تجب فى حال الحرية فوجب أن تكون عدة كاملة ؛ أصله عدة الحرة . وقال مالك والشافعىّ وأحمد وأبو ثور : عدتها حيضة ؛ وهو قول ابن عمر . ورُوى عن طاوس أن عدّتها نصف عدّة الحرّة المتوفّى عنها ؛ وبه قال قَتادة . قال ابن المنذر : وبقول ابن عمر أقول ؛ لأنه الأقل مما قيل فيه وليس فيه سُنّة تتبع ولا إجماع يعتمد عليه . وذكر اختلافهم فى عدّتها فى العتق كهو فى الوفاة سواء ، إلا أن الأوزاعىّ جعل عدّتها فى العتق ثلاث حيض .

قلت : أصحّ هذه الأقوال قولُ مالك ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَالمطلّقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » فشرط فى تربّص الأقراء أن يكون عن طلاق ؛ فانتفى بذلك أن يكون عن غيره . وقال : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » فعلّق وجوب ذلك بكون المتربّصة زوجة ؛ فدلّ على أن الأَمَة بخلافها . وأيضا فإن هذه أَمَة موطوءة بملك اليمين فكان استبراؤها بحيضة ؛ أصل ذلك الأَمَة .

الثانية والعشرون — إذا ثبت هذا فهل عدّة أم الولد استبراءٌ محض أو عدّة ؛ فالذى ذكره أبو محمد فى معونته أن الحيضة استبراء وليست بعدّة . وفى المدوّنة أن أم الولد عليها العدّة ، وأن عدتها حيضة كعدّة الحرة ثلاث حيض . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا هى عدة فقد

قال مالك لا أحبّ أن تواعد أحدا ينكحها حتى تحيض حيضة . قال ابن القـاسم : وبلغنى عنه أنه قال : لا تبيت إلا فى بيتها؛ فأثبت لمدّة استبرائها حكم العدّة .

الثالثة والعشرون — أجمع أهل العلم على أن نفقة المطلقة ثلاثا أو مطلقةٍ للزّوج عليها رجعة وهى حامل واجبة؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » .

واختلفوا فى وجوب نفقة الحامل المتوفَّى عنها زوجها ؛ فقالت طائفة : لا نفقة لها ؛ كذلك قال جابر بن عبد الله وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء والحسن وعكرمة وعبد الملك ابن يَعْلَى ويحيى الأنصارى وربيعة ومالك وأحمد وإسحاق، وحكى أبو عبيد ذلك عن أصحاب الرأى . وفيه قول ثانٍ وهو أن لها النفقة من جميع المـال؛ رُوِى هذا القول عن علىّ وعبد الله، وبه قال ابن عمر وشُريح وابن سِيرين والشَّعبىّ وأبو العالية والنّخعىّ وجُلَاس بن عمرو وحمّاد بن أبى سليمان وأيوب السِّختيانى وسفيان الثورىّ وأبو عبيد . قال ابن المنـذر : وبالقول الأوّل أقول ؛ لأنهم أجمعوا على أن نفقة كل من كان يجبر على نفقته وهو حىٌّ مثلُ أولاده الأطفال وزوجته ووالديه تسقط عنه؛ فكذلك تسـقط عنه نفقة الحامل من أزاوجه . وقال القاضى أبو محمد : لأن نفقة الحمل ليست بدَين ثابت فتتعلّق بمـاله بعد موته، بدليل انها تسقط عنه بالإعسار فبأن تسقط بالموت أوْلى وأحْرى .

الرابعة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ اختلف العلماء فى الأربعة الأشهر والعشر التى جعلها الله ميقاتا لعِدّة المُتوفَّى عنها زوجها ، هل تحتاج فيها إلى حيضة أم لا؛ فقال بعضهم : لا تبرأ إذا كانت ممن توطأ إلا بحيضة تأتى بها فى الأربعة الأشهر والعشر، وإلا فهى مُسْترابة . وقال آخرون : ليس عليها أكثر من أربعة أشهر وعشر، إلا أن تستريب نفسها ريبة بيّنة ؛ لأن هذه المدّة لابدّ فيها من الحيض فى الأغلب من أمر النساء إلا أن تكون المراة ممن لا تحيض أو ممن عَرفت من نفسها أو عُرِف منهـا أن حيضتها لا تأتيها إلا فى أكثر من هذه المدة .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَعَشْرًا ﴾ روى وكيع عن ابى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية أنه سئل : لم ضُمّت العشرُ إلى الأربعة الأشهر ؟ قال : لأن الروح تنفخ فيها ، وسيأتى فى « الحج » بيان هذا إن شاء الله تعالى . وقال الأصمعى : ويقال إن ولد كل حامل يرتكض فى نصف حملها فهى مُرْكِض . وقال غيره : أركضت فهى مُرْكِضة؛ وأنشد :

ومُرْكِضةٌ صريحيٌّ أبوها * تهان لها الغلامةُ والغلامُ (١)

وقال الخطّابى : قوله «وعشرا» يريد — والله أعلم — الأيام بلياليها . وقال المبرّد : إنما أنث العشر لأن المراد به المدة . المعنى وعشر مُدَد ، كلّ مدّة من يوم وليلة ، فالليلة مع يومها مدّة معلومة من الدهر . وقيل : لم يقل عشرة تغليبا لحكم الليالى إذ الليلة أسبق من اليوم والأيام فى ضمنها . « وعشرا » أخف فى اللفظ ، فتُغلّب الليالى على الأيام إذا اجتمعت فى التاريخ ، لأن ابتداء الشهور بالليل عند الاستهلال ، فلما كان أول الشهر الليلة غلّب الليلة ؛ تقول : صمنا خمسا من الشهر ، فتغلّب الليالى وإن كان الصوم بالنهار . وذهب مالك والشافعى والكوفيون إلى أن المراد بها الأيام والليالى . قال ابن المنذر : فلو عقد عاقد عليها النكاح على هذا القول وقد مضت أربعة أشهر وعشر ليال كان باطلا حتى يمضى اليوم العاشر . وذهب بعض الفقهاء الى أنه إذا انقضى لها أربعة أشهر وعشر ليال حلّت للأزواج ، وذلك لأنه رأى العدّة مبهمة فغلّب التأنيث وتأوّلها على الليالى . والى هذا ذهب الأوزاعى من الفقهاء وأبو بكر الأصم من المتكلمين . ورُوى عن ابن عباس أنه قرأ « أربعةَ أشهر وعشرَ ليال » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — أضاف تعالى الأجل إليهنّ إذ هو محدود مضروب فى أمرهن ، وهو عبارة عن انقضاء العدة .

---

(١) البيت لأوس بن غلفاء الهجيمى يصف فرسا . والصريحى : نسبة الى الصريح وهو فحل من خيل العرب معروف . (عن اللسان) .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ خطاب لجميع النـاس، والتلبّس بهـذا الحكم هـو للحكام والأوليـاء . ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ ﴾ يريد به التزوج فما دونه من التزيّن واطّراح الإحداد . ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بمـا أذن فيه الشرع من اختيار أعيان الأزواج وتقدير الصّداق دون مباشرة العقد لأنه حقّ للأوليـاء كما تقدّم .

الثالثــة — فى هذه الآية دليـل على أن للأوليـاء منعهنّ من التبرج والتشوّف للزوج فى زمان العدّة . وفيها ردّ على إسحاق فى قوله : إن المطلقة إذا طعنت فى الحيضة الثالثة بانت وانقطعت رجعة الزوج الأوّل إلا أنه لا يحل لها أن تتزوّج حتى تغتسل . وعن شُريك أن لزوجها الرجعة ما لم تغتسل ولو بعـد عشرين سنة ؛ قال الله تعالى : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » وبلوغ الأجل هنا انقضاء العدة بدخولهـا فى الدّم من الحيضة الثالثة ولم يذكر غسلا ؛ فاذا انقضت عدّتها حلّت للازواج ولا جناح عليها فيما فعلت من ذلك . والحديث عن ابن عباس لو صح يحتمل أن يكون منه على الاستحباب ، والله أعلم .

قوله تعـالى : وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ الى قوله ﴿ معروفا ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ولا جُنَاحَ﴾ أى لا إثم . والجناح الإثم، وهو أصح فى الشرع . وقيل : بل هو الأمر الشاقّ، وهو أصح فى اللغة ؛ قال الشماخ :

إذا تعلُو براكبها خليجا * تذكّر ما لديه من الجناح

وقوله : ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ﴾ المخاطبة لجميع الناس؛ والمراد بحكمها هو الرجل الذى فى نفسه تزوّج معتـدّة؛ أى لا وِزْرَ عليكم فى التّعريض بالخطبة فى عدّة الوفاة . والتعريض : ضـدّ التصريح، وهو إفهام المعنى بالشيء المحتمل له ولغيره وهو من عُرْض الشيء وهو جانبه؛ كأنه يحوم به على الشيء ولا يظهره . وقيـل : هو من قولك عرّضت الرجل، أى أهديت إليـه تُحْفة؛ وفى الحديث : أن ركبا من المسلمين عَرَّضوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثيابا بيضا؛ أى أهدَوْا لهما . فالمعرّض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاما يفهم معناه .

الثانيـــة — قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدّة بما هو نصّ فى تزوّجها وتنبيهٌ عليه لايجوز . وكذلك أجمعت الأمة على ان الكلام معها بما هو رَفَث وذِكر جماع أو تحريضٌ عليه لا يجوز وكذلك ما أشبهه . وجوّز ما عدا ذلك . ومن أعظمه قربا الى التصريح قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لفـاطمة بنت قيس : "كونى عنـد أم شَريك ولا تسبقينى بنفسك" . ولا يجـوز التعريض لخطبة الرجعية إجماعا لأنهـا كالزوجة . وأما من كانت فى عدّة البينونة فالصحيح جواز التّعريض لخطبتهـا والله أعلم . ورُوى فى تفسير التعريض ألفاظ كثيرة جماعها يرجع إلى قسمين : الأوّل — أن يذكرها لوليها يقول له لا تسبقنى بها . والثانى — أن يشير بذلك إليها دون واسطة؛ فيقول لها : إنى أريد التزويج؛ أو إنك لجميلة، إنك لصالحة، إن الله لسائق إليك خيرا، إنى فيك لراغب، ومن يرغب عنك! إنك لنـافقة(١)، وإن حاجتى فى النساء، وإن يُقدّر الله أمرا يكن . هـذا هو تمثيل مالك وآبن شهاب . وقال ابن عباس : لا بأس أن يقول : لا تسبقينى بنفسك، ولا بأس أن يهدى اليها، وأن يقوم بشغلها فى العـدّة إذا كانت من شأنه؛ قاله ابراهيم . وجائز أن يمدح نفسـه ويذكر مآثره على وجه التعريض بالزواج؛ وقد فعله أبو جعفر محمد بن على بن حسين، قالت سكينة بنت حنظلة استأذن علىّ محمد بن علىّ ولم تنقض عدّتى من مهلك زوجى فقال : قد عرفت قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقرابتى من علىّ وموضعى فى العرب . قلت :

(١) نفقت الأيم : اذا كثر خطابها و رغب فيها .

غفــر الله لك يا أبا جعفر ! إنك رجل يؤخذ عنك، تخطبني في عدّتي ! قال : إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عليّ . وقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وهي متأيّمة من أبي سلمة فقال : "لقد علمت أني رســول الله وخيرته وموضعي في قومي" كانت تلك خِطبة؛ أخرجه الدّارَقُطْنيّ . والهديّة الى المعتدّة جائزة ، وهي من التعريض؛ قاله سُحنون وكثير من العلماء وقاله إبراهيم . وكره مجاهد أن يقول لها : لا تسبقيني بنفســك ورآه من المواعدة سرّا . قال القاضي أبو محمــد بن عطيّة : وهــذا عندي على أن يتأوّل قول النبيّ صلى الله عليه وســلم لفاطمة أنه على جهة الرأي لهــا فيمن يتزوّجها لا أنه أرادها لنفسه وإلا فهو خلاف لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثالثــــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ الخِطبة (بكسر الخاء) : فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول . يقال : خطبها يخطُبها خَطْبا وخِطبــة . ورجل خطّاب كثير التصرّف في الخِطبة؛ ومنه قول الشاعر :

برّح بالعيْنَين خَطّابُ الكُثَبْ　　*　　يقول إني خاطب وقد كذَبْ
*　وإنمــا يَخطُبُ عُسًّا من حَلَبْ (١)　*

والخطيب : الخاطب . والخِطِّيبَى : الخِطبة . قال عَدِيّ بن زيد يذكر قَصْد جَذِيمة الأبْرَش لخِطبة الزَّبّاء :

لِخِطِّيبَى التي غَدَرَتْ وخانَتْ　　*　　وهنّ ذوات غائلة لُحِينــا

والخِطْب : الرجل الذي يخطب المرأة؛ ويقال أيضا : هي خِطبُه وخِطبته التي يخطبها . والخِطبة فِعلةٌ كجِلسة وقِعْدة : والخُطبة (بضم الخاء) هي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره . قال النحاس : والخطبة ما كان لها أوّل وآخر ، وكذا ما كان على فُعلة نحو الأكلة والضُّغطة .

الرابعــــة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ معناه سترتم وأضمرتم من التزوّج بها بعد انقضاء عدّتها . والإكنان : السرّ والإخفاء؛ يقال : كَنَنْته وأكننته بمعنًى واحد . وقيل :

---

(١) الكثب بضم ففتح جمع كثبة ، وهي كل قليل جمعته من طعام أو لبن أو غير ذلك . والعس (بضم العين) : القدح الضخم . يريدان الرجل يجيء بعلة الخطبة وهو يريد القرى . قال ابن الأعرابي يقال للرجل اذا جاء يطلب القرى بعلة الخطبة : إنه ليخطب كثبة . (عن اللسان) .

كننته أى صنته حتى لا تصيبه آفة و إن لم يكن مستورا؛ ومنه بَيْض مَكْنُون ودُرٌّ مكنون . وأكننته أسررته وسترته . وقيل : كَنَنْتُ الشيء (من الأجرام) إذا سترته بثوب أو بيت أو أرض ونحـوه . وأكننت الأمر فى نفسى . ولم يسمع من العرب «كننته فى نفسى» . ويقال : أَكَنَّ البيتُ الإنسانَ؛ ونحو هذا . فرفع الله الجناح عمن أراد تزوّج المعتدّة مع التعريض ومع الإكنان؛ ونهى عن المواعدة التى هى تصريح بالتزويج وبناءٌ عليه واتفاق على وَعْد . ورخّص لعلمه تعالى بغلبة النفوس وطَمَحها وضعف البشر عن ملكها .

الخامســـة — استدلّت الشّافعية بهذه الآية على أن التّعريض لا يجب فيه حَدٌّ؛ وقالوا : لمـا رفع الله تعالى الحَرَج فى التعريض فى النكاح دلّ على أن التّعريض بالقذف لا يوجب الحدّ؛ لأن الله سبحانه لم يجعل التعريض فى النكاح مقام التصريح . قلنا : هذا ساقط لأن الله سبحانه وتعالى لم يأذن فى التصريح بالنكاح فى الخطبة وأذن فى التعريض الذى يُفهم منه النكاح فهذا دليل على أن التّعريض يُفهم منه القذف؛ والأعراض يجب صيانتها، وذلك يوجب حدّ المعرِّض لئلا يتطرّق الفَسَقة إلى أخذ الأعراض بالتّعريض الذى يُفهم منه ما يُفهم بالتصريح .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ أى إمّا سِرًّا وإمّا إعلانا فى نفوسـكم وبألسنتكم؛ فرخّص فى التعريض دون التصريح . الحسن معناه ستخطبونهنّ .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ أى على سرّ فحذف الحرف لأنه ممـا يتعدى الى مفعولين أحدهما بحرف جر .

واختلف العلماء فى معنى قوله تعالى : «سِرّا» فقيل : معناه نكاحا؛ أى لا يقل الرجل لهذه المعتـدة تزوّجينى؛ بل يعرّض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها ألا تنكح غيره فى استسرار وخفية؛ هذا قول ابن عباس وابن جُبير ومالك وأصحابه والشّعبىّ ومجاهد وعكرمة والسُّدّىّ وجمهورِ أهل العلم . «وسِرّا» على هذا التأويل نصب على الحال؛ أى مُسْتَسِرّين . وقيل : السر الزنا؛ أى لا يكونن منكم مواعدة على الزنا فى العدّة ثم التزوّج بعدها . قال معناه جابر بن

زيد وأبو مِجْلَز لاحق بن حُميـد والحسن بن أبي الحسن وقتادة والنّخعى والضّحاك وأن السرّ فى هـذه الآية الزنا ، أى لا تواعدوهنّ زنا ، واختاره الطبرى ؛ ومنـه قول الأعشى :

فلا تَقْرَبَنَّ جارةً إنّ سرّها　*　عليك حرام فانْكِحَنْ أو تأبّدا

وقال الحُطَيئة :

ويَحـرُمُ سِرُّ جارتهم عليهم　*　ويأكل جارُهم أنْفَ القِصاعِ

وقيـل : السرّ الجماع ، أى لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ترغيبا لهن فى النكاح فإنّ ذكر الجماع مع غير الزوجة فُحْش ؛ هذا قول الشافعىّ . وقال امرؤ القيس :

ألا زعمتْ بَسباسةُ اليومَ أنني　*　كَبِرت وألّا يُحسِن السِرَّ أمثالِي

وقال رؤبة :

* فكفّ عن إسرارها بعد العَسَقْ *

أى كفّ عن جماعها بعد ملازمته لذلك . وقد يكون السرّ عُقدة النكاح ، سِرًّا كان أوجهرا ، قال الأعشى :

فلن يطلبوا سرّها للغِـنَى　*　ولن يُسْلِموها لإزهادها

وأراد لن يطلبوا نكاحها لكثرة مالهـا ولن يسلموها لقِلّة مالها . وقال ابن زيد : معنى قوله «ولكن لا تواعدوهنّ سرّا» أى لا تنكحوهنّ وتكتمون ذلك ؛ فاذا حلّت أظهرتموه ودخلتم بهن ؛ وهذا هو معنى القول الأوّل ؛ فابن زيد على هذا قائل بالقول الأوّل ، وإنما شذّ فى أن سمّى العقد مواعدة ، وذلك قَلِق . وحكى مَكّىّ والثعلبىّ عنه أنه قال : الآية منسوخة بقوله تعالى : « وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ » .

الثامنــة — قال القاضى أبو محمد بن عطيّة : أجمعت الأمة على كراهة المواعدة فى العدّة للمرأة فى نفسها وللأب فى ابنته البكر وللسيد فى أمتـه . قال ابن الموّاز : وأما الوَلِىّ الذى لا يملك الجبر فأكرهـه وإن نزل لم أفسخه . وقال مالك رحمه الله فيمن يواعد فى العـدّة ثم يتزوج بعدها : فراقها أحبّ إلىّ ، دخل بهـا أو لم يدخل ، وتكون تطليقة واحدة ؛ فاذا

حلت خطبها مع الخُطّاب ؛ هـذه رواية ابن وهب . وروى أشهب عن مالك أنه يفرّق بينهما إيجابا ؛ وقاله ابن القـاسم . وحكى ابن الحارث مثله عن ابن المـاجشون ، وزاد ما يقتضى أن التحريم يتأبّد . وقال الشافعىّ : إن صرح بالخطبـة وصرحت له بالإجابة ولم يعقد النكاح حتى تنقضى العـدّة فالنكاح ثابت والتصريح لهما مكروه؛ لأن النكاح حادث بعد الخطبة؛ قاله ابن المنذر .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن؛ كقوله إلا خطأ أى لكن خطأ . والقول المعروف هو ما أبيح من التعريض . وقد ذكر الضحّاك أن من القول المعروف أن يقول للمعتدة : احبسى على نفسك فان لى بك رغبة؛ فتقول هى : وأنا مثل ذلك؛ وهذا شبه المواعدة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا ﴾ قد تقدّم القول فى معنى العزم؛ يقال: عزم الشىءَ وعزم عليه . والمعنى هنا : لا تعزموا على عقدة النكاح . ومن الأمر البيّن أن القرآن أفصح كلام؛ فما ورد فيه فلا معترض عليه، ولا يشك فى صحته وفصاحته؛ وقد قال الله تعـالى : « وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ » وقال هنا : « وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ » والمعنى : لا تعزموا على عقدة النكاح فى زمان العدّة ثم حذف على ما تقدّم . وحكى سيبويه : ضرب فلان الظهرَ والبطن ؛ أى على . قال سيبويه : والحذف فى هذه الأشياء لا يقاس عليه . قال النحاس : ويجوز أن يكون «ولا تعقدوا عقدة النكاح» ؛ لأن معنى «تعزموا وتعقدوا» واحد . ويقال : « تعزُموا » بضم الزاى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ يريد تمـام العدّة . والكتاب هنا هو الحـدّ الذى جُعل والقدر الذى رسم من المدّة؛ سماه كتابا إذ قد حدّه وفرضـه كتاب الله كما قال : « كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » وكما قال : « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » . فالكتاب : الفرض ، أى حتى يبلغ الفرض أجله ؛ كتب عليكم الصيام أى فُرض . وقيل:

فى الكلام حذف ، أى حتى يبـلغ فرض الكتاب أجله ؛ فالكتاب على هـذا التأويل بمعنى القرآن . وعلى الأوّل لا حذف فهو أولى ، والله أعلم .

الثالثـــة — حرّم الله تعالى عَقد النكاح فى العدّة بقوله تعالى : «وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» وهذا من المحكَم المجمَع على تأويله أن بلوغ أجله انقضاءُ العدّة . وأباح التعريض فى العدّة بقوله : « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ » الآية . ولم يختلف العلمـاء فى إباحة ذلك ، واختلفوا فى ألفـاظ التعريض على ما تقـدّم . واختلفوا فى الرجل يخطب امرأة فى عدّتهـا جاهلا ، أو يواعدها ويعقد بعد العدّة ؛ وقد تقدّم هـذا فى الآية التى قبلها . واختلفوا إن عَزم العُقدة فى العدّة وعُثر عليه ففسخ الحاكم نكاحه ، وذلك قبل الدخول وهى :

الرابعـــة — فقول عمر بن الخطاب وجماعةٍ من العلماء أن ذلك لا يؤبّد تحريما ، وأنه يكون خاطبا من الخُطّاب ؛ وقاله مالك وابن القاسم فى المدونة فى آخر البـاب الذى يليه « ضرب أجل المفقود » . وحكى ابن الجـلّاب عن مالك رواية أن التحريم يتأبّد فى العقد وإن فسخ قبل الدخول ؛ ووجهه أنه نكاح فى العِدّة فوجب أن يتأبّد به التحريم ؛ أصـله اذا بنى بها . وأما إن عقد فى العِدّة ودخل بعد انقضائها وهى :

الخامســـة — فقال قوم من أهل العـلم : ذلك كالدخول فى العِـدّة ؛ يتأبّد التحريم بينهما . وقال قوم من أهل العـلم : لا يتأبّد بذلك تحريم . وقال مالك : يتأبّد التحريم . وقال مرّة : وما التحـريم بذلك بالبيّن ؛ والقولان له فى المدوّنة فى طلاق السُّـنّة . وأما إن دخل فى العدّة وهى :

السادســـة — فقـال مالك والليث والأوزاعىّ : يُفرّق بينهما ولا تحـل له أبدا . قال مالك والليث : ولا بملك اليمين ؛ مع أنهم جوّزوا التزويج بالمزنىّ بها . واحتجّوا بأن عمر ابن الخطاب قال : لا يجتمعان أبدا . قال سعيد : ولها مهرها بما استحل من فرجها ؛ أخرجه مالك فى موطّئـه وسيأتى . وقال الثورىّ والكوفيون والشافعىّ : يُفـرّق بينهما ولا يتأبّد

التحريم بل يفسخ بينهما ثم تعتدّ منـه، ثم يكون خاطبا من الخطاب . واحتجوا بإجماع العلماء على أنه لو زنى بها لم يحرم عليه تزويجها ؛ فكذلك وطؤه إياها فى العِدّة . قالوا : وهو قول علىّ؛ ذكره عبد الرزاق . وذكر عن ابن مسعود مثله؛ وعن الحسن أيضا . وذكر عبد الرزاق عن الثورىّ عن أشعث عن الشّعبىّ عن مسروق أن عمر رجع عن ذلك وجعلهما يجتمعان . وذكر القاضى أبو الوليد الباجىّ فى المنتقى فقال : لا يخلو الناكح فى العدّة إذا بنى بها أن يبنى بها فى العِدّة أو بعدها؛ فإن كان بنى بها فى العدّة فإن المشهور من المذهب أن التحريم يتأبد؛ وبه قال أحمد بن حنبل . وروى الشيخ أبو القـاسم فى تفريعه أنّ فى التى يتزوّجها الرجل فى عدّة من طلاق أو وفاة عالمـا بالتحريم روايتين ؛ إحداهما — أن تحريمه يتأبّد على ما قدّمناه . والثانية — أنه زانٍ وعليه الحدّ، ولا يُلحق به الولد، وله أن يتزوّجها إذا انقضت عدّتها؛ وبه قال الشافعىّ وأبو حنيفة . ووجه الرواية الاولى وهى المشهورة ما ثبت من قضاء عمر بذلك، وقيامِه بذلك فى النـاس، وكانت قضاياه تسير وتنتشر وتنقل فى الأمصار ولم يُعلم له مخالف ؛ فثبت أنه إجماع . قال القاضى أبو محمـد : وقد رُوى مثـل ذلك عن علىّ بن أبى طالب ، ولا مخالف لهما مع شهرة ذلك وانتشاره ؛ وهـذا حكم الإجماع . ووجه الرواية الثانية أن هذا وطء ممنوع فلم يتأبّد تحريمه؛ كما لو زوّجت نفسها أو تزوّجت مُتْعة أو زنت . وقد قال القاضى أبو الحسن : إن مذهب مالك المشهور فى ذلك ضعيف من جهة النظر . والله أعلم . وأسـند أبو عمر : حدّثنا عبد الوارث بن سفيان حدّثنا قاسم بن أَصْبَغ عن محمـد ابن إسماعيـل عن نعيم بن حماد عن ابن المبارك عن أشْعث عن الشـعبىّ عن مسروق قال : بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوّجهـا رجل من ثَقيف فى عدّتها فأرسـل إليها ففرّق بينهما وعاقبهما وقال : لا تنكحها أبدا وجعـل صداقها فى بيت المـال ؛ وفشا ذلك فى الناس فبلغ عليًّـا فقال : يرحم الله أمير المؤمنين ! ما بالُ الصـداق وبيت المـال ! إنمـا جهِلا فينبغى للإمام أن يردّهما إلى السُّنّة . قيل : فمـا تقول أنت فيهما ؟ فقال : لها الصداق بمـا استُحِلّ من فرجها ، ويفرّق بينهما ولا جلد عليهما ، وتكمل عدّتها من الأوّل ثم تعتدّ من

الثـانى عدّة كاملة ثلاثة أقراء ثم يخطبها إن شاء . فبلغ ذلك عمـر فخطب الناس فقـال : أيها الناس، ردّوا الجهالات الى السُّنّة . قال الكِيَا الطبرى : ولا خلاف بين الفقهاء أن من عقد على آمرأة نكاحها وهى فى عدّة من غيره أن النكاح فاسد . وفى اتفاق عمر وعلىّ على نفى الحـدّ عنهما ما يدلّ على أن النكاح الفاسد لا يوجب الحـدّ ؛ إلا أنه مع الجهـل بالتحريم متفق عليـه ومع العـلم به مختلَف فيـه . واختلفوا هل تعتـدّ منهما جميعا ، وهذه مسألة العِدّتين وهى :

السابعـــة — فروى المدنيّون عن مالك أنها تتم بقيّة عدّتهـا من الأوّل وتستأنف عدّة أخرى من الآخر ؛ وهو قول الليث والحسن بن حىّ والشافعىّ وأحمد وإسحاق . ورُوى عن علىّ كما ذكرنا ، وعن عمر على ما يأتى . وروى محمد بن القاسم وابن وهب عن مالك أن عدّتها من الثانى تكفيها من يوم فرّق بينه وبينها ، سواء كانت بالحمل أو بالأقراء أو بالشهور ؛ وهو قول الثورىّ والأوزاعىّ وأبى حنيفة . وحجتهم الإجماع على أن الأوّل لا ينكحها فى بقيّة العدّة منه ؛ فدلّ على أنها فى عدّة من الثانى ولولا ذلك لنكحها فى عدّتها منه . أجاب الأوّلون فقالوا : هـذا غير لازم لأن مَنْع الأوّل من أن ينكحها فى بقيّة عدّتها إنما وجب لمـا يتلوها من عدّة الثانى ؛ وهما حقّان قـد وجبا عليها لزوجين كسائر حقوق الآدميين لا يدخل أحدهما فى صاحبه . وخرّج مالك عن آبن شهاب عن سعيد بن المسيّب وعن سليمان بن يسار أن طُليحة الأسدية كانت تحت رشيد الثقفىّ فطلّقها فنكحت فى عدّتهـا فضربها عمر وضرب زوجها بالمِخفقـة[١] ضربات وفرّق بينهما ؛ ثم قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أيُّما آمرأة نكحت فى عدّتها فإن كان زوجها الذى تزوّج بها لم يدخل بها فُرّق بينهما ثم اعتدّت بقية عدّتهـا من الزوج الأوّل ، ثم كان الآخر خاطبا من الخُطّاب ، وإن كان دخل بها فُرّق بينهما ثم اعتدّت بقية عدّتها من الأوّل ثم اعتدّت من الآخر ثم لا يجتمعان أبدا . قال [مالك][٢] : وقال سعيد بن المسيّب : ولها مهرها بمـا استُحلّ من فرجها . قال أبو عمر : وأما طُليحة هذه فهى طُليحة

---

(١) المخفقة : الدرة .		(٢) زيادة عن الموطأ .

بنت عبيد الله أخت طلحة بن عبيد الله التيمى" ، وفى بعض نسخ الموطأ من رواية يحيى طُليحة الأسدية وذلك خطأ وجهل ، ولا أعلم أحدا قاله .

الثامنـــة — قوله « فضربهــا عمر بالمخفقة وضرب زوجها ضربات » يريد على وجه العقوبة لمـا ارتكباه من المحظور وهو النكاح فى العــدة . وقال الزهرى : فلا أدرى كم بلغ ذلك الجلد . قال : وجلد عبدُ الملك فى ذلك كلَّ واحد منهما أربعين جلدة . قال : فسئل عن ذلك قَبيصــة بن ذؤيب فقال : لو كنتم خفّفتم لجلدتم عشرين ! وقال ابن حبيب فى التى تتزوج فى العــدة فيمسّها الرجل أو يُقبّل أو يبـاشر أو يَغمِز أو ينظر على وجه اللّذة أن على الزوجين العقوبة وعلى الولىّ وعلى الشهود ومن علم منهم أنهـا فى عدّة ، ومن جهل منهم ذلك فلا عقوبة عليه . وقال ابن المواز : يجلد الزوجان الحدّ إن كانا تعمّدا ذلك ؛ فيحمل قول ابن حبيب على من علم بالعدة ، ولعلّه جهل التحريم ولم يتعمّد ارتكاب المحظور فذلك الذى يعاقب ؛ وعلى ذلك كان ضرب عمر المرأة وزوجها بالمِخْفقة ضربات . وتكون العقوبة والأدب فى ذلك بحسب حال المعاقَب . ويحمل قول ابن المواز على أنهما علما التحريم واقتحما ارتكاب المحظور جُرْأة وإقداما . وقد قال الشيخ أبو القاسم : إنهما روايتان فى العَمْد ؛ إحداهما يُحدّ . والثانية يعاقب ولا يحدّ .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ هــذا نهاية التحذير من الوقوع فيما نهى عنه .

قوله تعــالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ ﴾ هــذا أيضا من أحكام المطلّقات ؛ وهو ابتداء إخبار برفع الحَرَج عن المطلّق قبــل البناء والجماع ، فَرَض مهرا أو لم

يفرض؛ ولمـا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التزوّج لمعنى الذّوق وقضاء الشهوة وأمر بالتزوّج لطلب العصمة والتمـاس ثواب الله وقصدِ دوام الصُّحبة وقع فى نفوس المؤمنين أن من طلّق قبل البناء قد واقع جزءا من هذا المكروه ؛ فنزلت الآية رافعة للجُناح فى ذلك اذا كان أصل النكاح على المقصد الحسَن . وقال قوم : « لا جناح عليكم » معناه لا طلب بجميع المهر بل عليكم نصف المفروض لمن فُرض لها والمُتْعة لمن لم يُفرَض لها . وقيل : لمـا كان أمر المهر مؤكّدا فى الشرع فقد يُتوهّم أنه لا بدّ من مهر إما مُسَمًّى وإما مهر المِثْـل ؛ فرفع الحرج عن المطلق فى وقت التطليق وإن لم يكن فى النكاح مهر . وقال قوم : « لا جناح عليكم » معناه فى أن ترسلوا الطلاق فى وقت الحيض ، بخلاف المدخول بها إذ غيرُ المدخول بها لا عدّة عليها .

الثانيـــة — المطلّقات أربع : مطلّقة مدخول بها مفروض لهـا وقـد ذكر الله حكمها قبل هـذه الآية ، وأنه لا يُستردّ منها شيء من المهر ، وأن عدّتهـا ثلاثة قروء . ومطلّقة غير مفروض لها ولا مدخول بها فهذه الآية فى شأنها ولا مهر لها ، بل أمر الربُّ تعالى بإمْتاعها ، وبيّن فى سورة «الأحزاب» أن غير المدخول بها اذا طُلِّقت فلا عدّة عليها ، وسيأتى . ومطلّقة مفروض لهـا غير مدخول بها ذكرها بعد هذه الآية إذ قال : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً» ، ومطلّقة مدخول بها غير مفروض لها ذكرها الله فى قوله : «فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» ؛ فذكر تعالى فى هذه الآية والتى بعدها مطلّقة قبل المَسيس وقبل الفرض ، ومطلّقةً قبل المسيس وبعـد الفرض ؛ فجعل للاولى المُتْعة ، وجعل للثانية نصف الصداق لمـا لحق الزوجة من دحض العقد ، ووصْم الحل الحاصل للزّوج بالعقد ؛ وقابل المسيسَ بالمهر الواجب .

الثالثـــة — لمـا قسّم الله تعـالى حال المطلّقة هنا قسمين : مطلّقة مسمًّى لهـا المهر ، ومطلّقة لم يسم لها دلّ على أن نكاح التفويض جائز ، وهو كلّ نكاح عُقد من غير ذكر الصداق ، ولا خلاف فيــه ، ويُفرض بعـد ذلك الصداقُ ، فإن فُرض التحق بالعقد وجاز ، وإن لم يُفرَض لهـا وكان الطلاق لم يجب صداق إجماعا ؛ قاله القـاضى أبو بكر بن العربىّ . وحكى

المَهْدوِىّ عن حماد بن أبى سليمان أنه اذا طلّقها ولم يدخل بها ولم يكن فرض لها أجبر على نصف صداق مثلها . و إن فرض بعد عقد النكاح وقبل وقوع الطلاق فقال أبو حنيفة : لا يتنصّف بالطلاق لأنه لم يجب بالعقد ؛ وهذا خلاف الظاهر من قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً » وخلافُ القياس أيضا ؛ فإن الفرض بعد العقد يلحق بالعقد فوجب أن يتنصّف بالطلاق ؛ أصله الفرض المقترن بالعقد .

الرابعــة ـــ إن وقع الموت قبل الفرض فذكر الترمذىّ عن ابن مسعود « أنه سئل عن رجل تزوّج امرأة لم يَفرِض لهــا ولم يدخل بهــا حتى مات ؛ فقال ابن مسعود : لهــا مثل صداق نسائها ، لا وَكْس ولا شطط ، وعليها العدّة ولها الميراث ؛ فقام مَعْقِل بن سِنان الأشجعىّ فقال : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بَرْوَعَ بنتِ واشِقٍ امرأةٍ منّا مثلَ الذى قضيت ؛ ففرح بها ابن مسعود . قال الترمذى : حديث ابن مسعود حديث حَسَن صحيح ، وقد رُوى عنه من غير وجه ، والعملُ على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، و به يقول الثّورىّ وأحمد و إسحاق ، وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم منهم علىّ بن أبى طالب و زيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر : إذا تزوّج الرجل امرأة ولم يدخل بها ولم يَفرِض لهــا صداقا حتى مات قالوا : لهــا الميراث ولا صداق لهــا وعليها العدّة ؛ وهو قول الشافعىّ . قال : ولو ثبت حديث بَرْوَعَ بنت واشــق لكانت الحجّة فيما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وســلم . وروى عن الشافعىّ أنه رجع بمصرَ بعدُ عن هــذا القول ، وقال بحديث بَرْوَعَ بنت واشق » .

قلت ـــ اختلف فى تثبيت حديث بَرْوَعَ ؛ فقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب فى شرح رسالة ابن أبى زيد : وأما حديث بَرْوَعَ بنت واشق فقد ردّه حُفّاظ الحديث وأئمة أهل العلم . وقال الواقدىّ : وقع هــذا الحديث بالمدينة فلم يقبله أحد من العلماء ؛ وصحّحه الترمذىّ كما ذكرنا عنه وابنُ المنذر . قال ابن المنذر : وقد ثبت مثل قول ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و به نقول . وذكر أنه قول أبى ثور وأصحاب الرأى . وذُكر عن الزهرى والأوزاعىّ

ومالك والشافعيّ مثلُ قول عليّ وابن زيد وابن عباس وابن عمر . وفي المسألة قول ثالث وهو انه لا يكون ميراث حتى يكون مهر؛ قاله مسروق .

قلت : ومن الحجة لمـا ذهب اليه مالك أنه فراق في نكاح قبل الفرض فلم يَجب فيه صداق؛ أصله الطلاق؛ لكن إذا صح الحديث فالقياس في مقابلته فاسد . وقد حكى أبو محمد عبد الحميد عن المذهب ما يوافق الحديث ، والحمد لله . وقال أبو عمر : حديث بَرْوَع رواه عبد الرزاق عن الثّوريّ عن منصور عن ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود، الحديث . وفيه : فقام معقل ابن سنان . وقال فيه ابن مَهدىّ عن الثّورىّ عن فِراس عن الشعبيّ عن مسروق عن عبد الله فقال معقل بن يسار ، والصواب عنـدي قول من قال معقل بن سِـنان لا معقل بن يسار ؛ لأن معقل بن يسار رجل من مُزَينة ، وهذا الحديث إنما جاء في آمرأة من أَشْجَع لا من مُزَينة ؛ وكذلك رواه داود عن الشعبيّ عن علقمة ؛ وفيه : فقال ناس من أشجع ، ومعقل بن سنان قُتل يوم الحَرّة؛ وفي يوم الحرّة يقول الشاعر :

أَلَا تلكُمُ الأنصارُ تبكى سَراتَها * وأشجعُ تبكى مَعْقِلَ بنَ سِنَانِ

الخامســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ مَا لم تَمَسُّوهُنَّ ﴾ « ما » بمعنى الذى ، أى إن طلقتم النساء اللّاتى لم تمسوهن . و « تمسوهن » قرئ بفتح التاء من الثلاثيّ، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وعاصم وابن عامر . وقرأ حمزة والكسائيّ « تماسوهن » من المفاعلة ؛ لأن الوطء تمّ بهما؛ وقد يَرِد في باب المفاعلة فاعل بمعنى فعل؛ نحو طارقت النعل، وعاقبت اللصّ . والقراءة الأولى تقتضي معنى المفاعلة في هذا الباب بالمعنى المفهوم من المَسّ؛ ورجّحها أبو عليّ لأن أفعال هـذا المعنى جاءت ثلاثية على هذا الوزن، جاء : نَكَح وسَفَد وقَرَع ودَفَط[1] وضرب الفحل؛ والقراءتان حسنتان. و « أو » في « أو تفرضوا » قيل هو بمعنى الواو؛ أى ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن؛ كقوله تعالى : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَـاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ » أى وهم قائلون . وقوله : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » أى ويزيدون .

(١) دفط (بالدال المهملة والفاء . وقيل بالذال المعجمة والقاف) وهي بمعنى سفد .

وقوله : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » أي وكفورا . وقوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » معناه وجاء أحد منكم من الغائط وأنتم مرضى أو مسافرون . وقوله : « إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » وما كان مثله . ويتعضد هذا بأنه تعالى عطف عليها بعد ذلك المفروضَ لها فقال : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً » . فلو كان الأوّل لبيان طلاق المفروض لهـا قبل المَسيس لما كرّره .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ معناه أعطوهن شـيئا يكون مَتاعًا لهن . وحمله ابن عمر وعليّ بن أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وسعيد بن جُبير وأبو قِلابة والزُّهريّ وقَتادة والضحّاك بن مُزاحم على الوجوب . وحمله أبو عبيد ومالك بن أنس وأصحابه والقاضي شُريح وغيرهم على النّدْب . تمسّك أهل القول الأوّل بمقتضى الأمر . وتمسك أهل القول الثـاني بقوله تعالى : « حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ » و « عَلَى الْمُتَّقِينَ » ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين . والقول الأوّل أَوْلى لأن عمومات الأمر بالإمتاع في قوله : «مَتِّعُوهُنَّ» وإضافةَ الإمتاع إليهن بلام التمليك في قوله : « وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ » أظهـرُ في الوجوب منه في النّدْب . وقوله : « عَلَى الْمُتَّقِينَ » تأكيد لإيجابهـا لأن كل واحد يجب عليه أن يتّقي الله في الإشراك به ومعاصيه؛ وقد قال تعالى في القرآن : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » .

السابعـــة ــ واختلفوا في الضمير المتّصل بقوله « وَمَتِّعُوهُنَّ » مَن المراد به من النساء؛ فقال ابن عباس وابن عمر وجابر بن زيد والحسن والشافعيّ وأحمد وعطاء وإسحاق وأصحاب الرأي : المُتْعَة واجبة للمطلّقة قبل البناء والفرض ومندوبة في حق غيرها . وقال مالك وأصحابه : المتعة مندوب إليهـا في كل مطلقة وإن دخل بها ، إلا في التي لم يدخل بهـا وقد فرض لها فحسبها ما فرض لها ولا مُتعة لها . وقال أبو ثور : لها المتعة ولكل مطلقة . وأجمع أهل العلم على أن التي لم يفرض لها ولم يدخل بها لا شيء لها غيرُ المتعة . قال الزُّهريّ : يقضي لهابهـا القاضي . وقال جمهور الناس : لا يقضى بها لها .

قلت : هــذا الإجماع إنمــا هو فى الحُرّة ، فأما الأَمَة إذا طُلّقت قبل الفرض والمسيس فالجمهور على أن لها المُتْعَة . وقال الأوزاعيّ والثوريّ : لا متعة لها لأنهــا تكون لسيدها وهو لا يستحق مالًا فى مقابلة تأذّى مملوكته بالطلاق . وأما رَبط مذهب مالك فقــال ابن شعبان : المتعة بإزاء غَمّ الطلاق ، ولذلك ليس للمُخْتَلِعة والمُبَارِئة والملاعنة مُتْعةٌ قبل البناء ولا بعده لأنهــا هى التى اختارت الطــلاق . وقال التّرمذىّ وعطاء والنّخَعىّ : للمختلعة متعة . وقال أصحاب الرأى : للملاعنة متعة . قال ابن القاسم : ولا متعة فى نكاح مفسوخ . قال ابن المَوّاز : ولا فيما يدخله الفسخ بعــد صحة العقد ، مثــل ملك أحد الزوجين صاحبه . قال ابن القاسم : وأصل ذلك قوله تعالى : « وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ » فكان هذا الحكم مختصا بالطلاق دون الفسخ . وروى ابن وهب عن مالك أن المخيّرة لهــا المتعة بخلاف الأَمَة تَعتِق تحت العبد فتختار هى نفسها ، فهذه لا متعة لها . وأما الحرة تُخَيَّر أو تُمَلَّك أو يتزوّج عليها أَمَة فتختار هى نفسَها فى ذلك كلّه فلها المتعة ؛ لان الزوج سبب للفراق .

الثامنــــة ـــ قال مالك : ليس للمتعة عنــدنا حدّ معروف فى قليلها ولا كثيرها . وقــد اختلف الناس فى هــذا ؛ فقال ابن عمر : أدْنى ما يجزئ فى المُتْعة ثلاثون درهما أو شبهها . وقال ابن عباس : أرفع المتعة خادم ثم كسوة ثم نفقة . عطاء : أوسطها الدّرع والخِمار والمِلْحفة . أبو حنيفة : ذلك أدناها . وقال ابن مُحَيْرِيز : على صاحب الديوان ثلاثة دنانير ، وعلى العبد المتعة . وقال الحسن : يُمَتِّع كلٌّ بقدره ، هذا بخادم وهــذا بأثواب وهذا بثوب وهــذا بنفقة ؛ وكذلك يقول مالك بن أنس ، وهو مقتضى القرآن فإن الله سبحانه لم يقدّرها ولا حدّدها وإنمــا قال : « عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ » . ومتّع الحسن بن علىّ بعشرين الفا وزِقاق من عسل . ومتّع شُرَيح بخمسمائة درهم . وقــد قيل : إن حالة المرأة معتبرة أيضا ؛ قاله بعض الشافعيّة قالوا : لو اعتبرنا حال الرجل وحده لزم منه أنه لو تزوّج آمرأتين إحداهمــا شريفة والأخرى دَنيّة ثم طلقهما قبل المَسيس ولم يُسمّ لهما أن يكونا متساويتين فى المتعة فيجب للدّنيّة ما يجب للشريفة وهــذا خلاف ما قال الله تعالى : « مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ » ويلزم منه أن

الموسر العظيم اليسار إذا تزوّج آمرأة دنيّة أن يكون مثلها؛ لأنه إذا طلقها قبل الدخول والفَرْض لزمته المتعة على قدر حاله ومهر مثلها ؛ فتكون المتعــة على هذا أضعافَ مهر مثلها ؛ فتكون قــد استحقّت قبل الدخول أضعاف ما تستحقه بعد الدخول من مهر المثل الذى فيه غاية الابتــذال وهو الوطء . وقال أصحاب الرأى وغيرهم : مُتْعة التى تُطلّق قبــل الدخول والفرض نصفُ مهر مثلها لا غير؛ لأن مهر المثل مستحق بالعقد والمتعة هى بعض مهر المثل؛ فيجب لها كما يجب نصف المسمّى إذا طلّق قبل الدخول ، وهــذا يرده قوله تعالى : « عَلَى الْمُوسِــعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ» وهذا دليل على رفض التحديد؛ والله بحقائق الأمور عليم . وقد ذكر الثَّعلبيّ حديثا قال : نزلت « لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » الآية ، فى رجل من الأنصار تزوج آمرأة من بنى حَنيفة ولم يسم لهـا مهرا ثم طلقها قبل أن يَمسّها فنزلت الآية ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " مَتّعْها ولو بقَلَنْسُوَتك " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن سُويد بن غَفَلة قال : كانت عائشة الخَثْعميّة عند الحسن بن علىّ بن أبى طالب فلما أصيب علىّ وبُويع الحسن بالخلافة قالت : لِتَهْنِكَ الخلافةُ يا أمير المؤمنين! فقال : يُقتل علىّ وتُظهرين الشّماتة! إذهبى فأنت طالق ثلاثا . قال : فتلفّعت بساجها(1) وقعدت حتى انقضت عدّتها؛ فبعث إليها بعشرة آلافٍ مُتعةً، وبقيّة ما بقى لها من صداقها . فقالت :

* متاعٌ قليل من حَبيب مُفارِق *

فلما بلغه قولها بكى وقال : لولا أنى سمعت جدّى — أو حدثنى أبى أنه سمع جدّى — يقول : أيّما رجل طلّق امرأته ثلاثا مُبْهمة أو ثلاثا عند الأقراء لم تَحِلّ له حتى تنكح زوجا غيره لراجعتُها. وفى رواية : أخبره الرسول فبكى وقال : لولا أنى أَبَنْتُ الطلاق لهـا لراجعتُها ، ولكنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أيّمـا رجل طلّق آمرأته ثلاثا عند كل طهر تطليقةً أو عند رأس كل شهر تطليقةً أو طلّقها ثلاثا جميعا لم تَحِل له حتى تنكح زوجا غيره " .

(1) فى بعض الأصـــول : « بجلبابها » . والساج : الطيلسان الضخم الغليظ . وقيــل هو الطيلسان المقــوّر ينســـج كذلك .

التاســعة — من جهـل المتعة حتى مضت أعوامٌ فليدفع ذلك إليهـا وإن تزوّجت، وإلى ورثتها إن ماتت؛ رواه ابن الموّاز عن ابن القاسم . وقال أَصْبغ : لا شيء عليه إن ماتت لأنها تسـلية للزوجة عن الطلاق وقد فات ذلك . ووجه الأوّل أنه حق ثبت عليـه و ينتقل عنها إلى ورثتها كسائر الحقوق، وهذا يشعر بوجوبها فى المذهب، والله أعلم .

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ دليل على وجوب المتعة . وقرأ الجمهور «الموسِع» بسكون الواو وكسر السين، وهو الذى اتسعت حاله؛ يقال: فلان ينفق على قدره، أى على وسعه . وقرأ أبو حَيْوَة بفتح الواو وشد السين وفتحها . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر «قدْره» بسكون الدال فى الموضعين . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وعاصم فى رواية حفص بفتح الدال فيهما . قال أبو الحسن الأخفش وغيره : هما بمعنًى، لغتان فصيحتان؛ وكذلك حكى أبو زيد، يقول : خذ قدْر كذا وقدَر كذا، بمعنًى . و يقرأ فى كتاب الله : « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » وقدْرِها، وقال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » ولو حركت الدال لكان جائزا . و « المُقْتِر » المُقل القليل المـال . و « متاعا » نصب على المصدر، أى متعوهن متاعا بالمعروف، أى بما عرف فى الشرع من الاقتصاد .

الحادية عشر — قوله تعالى : ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى يَحِقُّ ذلك عليهم حقا؛ يقال: حققت عليه القضاء وأَحْققت، أى أوجبت؛ وفى هذا دليل على وجوب المتعة مع الأمر بها؛ فقوله : « حقا » تأكيد للوجوب . ومعنى « على المحسنين، وعلى المتقين » أى على المؤمنين، إذ ليس لأحد أن يقول : لست بمحسن ولا مُتّق، والناس مأمورون بأن يكونوا جميعا محسنين متّقين؛ فيحسنون بأداء فرائض الله ويجتنبون معاصـيه حتى لا يدخلوا النـار؛ فواجب على الخلق أجمعين أن يكونوا محسنين متقين . و « حقا » صـفة لقوله « متاعا » أو نصب على المصدر، وذلك أدخل فى التأكيد للأمر؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — اختلف الناس في هذه الآية ؛ فقالت فرقة منها مالك وغيره : إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من حكم التمتّع إذ يتناولها قولُه تعالى : «وَمَتِّعُوهُنَّ» . وقال ابن المسيّب : نسخت هذه الآيةَ الآيةُ التي في « الأحزاب » لأن تلك تضمنت تمتيع كلّ من لم يدخل بها . وقال قتادة : نسخت هذه الآيةُ الآيةَ التي قبلها .

قلت : قول سعيد وقتادة فيه نظر، إذ شروط النّسخ غير موجودة والجمع ممكن . وقال ابن القاسم في المدوّنة : كان المَتاع لكل مطلّقة بقوله تعالى : « وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ» ولغير المدخول بها بالآية التي في سورة « الأحزاب » فاستثنى الله تعالى المفروضَ لها قبل الدخول بها بهذه الآية، وأثبت للمفروض لها نصفَ ما فُرض فقط . وقال فريق من العلماء منهم أبو ثور : المتعة لكل مطلّقة عموما، وهذه الآية إنما بيّنت أن المفروض لها تأخذ نصف ما فُرض لها، ولم يُعن بالآية إسقاط متعتها بل لها المتعة ونصف المفروض .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ أي فالواجب نصف ما فرضتم ، أي من المهر فالنصف للزوج والنصف للمرأة بإجماع . والنصف الجزء من اثنين ؛ فيقال : نصَفَ الماءُ القدحَ أي بلغ نصفه . ونصَف الإزارُ الساقَ؛ وكلّ شيء بلغ نصف غيره فقد نَصَفه . وقرأ الجمهور «فنصفُ» بالرفع . وقرأت فرقة «فنصفَ» بنصب الفاء؛ المعنى فادفعوا نصف . وقرأ عليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت «فنُصف» بضم النون في جميع القرآن وهي لغة . وكذلك روى الأصمعي قراءةً عن أبي عمرو بن العلاء يقال : نِصْف ونُصْف ونَصِيف ،

لغاتٌ ثلاث فى النصف ؛ وفى الحديث : "لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه " أى نصفه . والنَّصيف أيضا القِناع .

الثالثـــة — إذا أصـدقها ثم طلّقها قبل الدخول ونَمَا الصـداق فى يدها فقال مالك : كلّ عَرَض أصدقها أو عبدٍ فنماؤهما لها جميعا ونقصانه بينهما ، وتَوَاه(١) عليهما جميعا ليس على المرأة منـه شيء . فإن أصدقها عيناً ذهبا أو وَرِقا فاشترت به عبدا أو دارا أو اشترت به منه أو من غيره طيباً أو شُوارا أو غيرَ ذلك مما لها التصرّف فيه لجهازها وصلاح شأنها فى بقائها معه فذلك كله بمنزلة ما لو أصدقها إيّاه ، ونماؤه ونقصانه بينهما . وإن طلّقها قبل الدخول لم يكن لها إلا نصفه ، وليس عليها أن تغرَم له نصف ماقبضته منه ، وإن اشترت به أو منه شيئا تختصّ به فعليها أن تغرَم له نصف صداقها الذى قبضت منه ، وكذلك لو اشترت من غيره عبدا أو دارا بالألْف الذى أصدقها ثم طلّقها قبل الدخول رجع عليها بنصف الألف .

الرابعــة — لا خلاف أن من دخل بزوجته ثم مات عنها وقد سمّاها أن لها ذلك المسمّى كاملا والميراث وعليها العدّة .

واختلفوا فى الرجل يَخْلُو بالمرأة ولم يجامعها حتى فارقها ؛ فقـال الكوفيون ومالك : عليه جميع المهر وعليها العدة لخبر ابن مسعود قال : قضى الخلفاء الراشدون فيمن أغلق بابا أو أرخى سترا أن لها الميراث وعليها العدّة ؛ ورُوى مرفوعا خرّجه الدّارَقُطْنِيّ وسيأتى فى « النساء » . والشافعىّ لا يوجب مهرا كاملا ، ولا عدّة إذا لم يكن دخول لظاهر القرآن . قال شُريح : لم أسمع الله تعالى ذكر فى كتابه بابا ولا سترا ، إذا زعم أنه لم يمسّها فلها نصف الصداق ؛ وهو مذهب ابن عباس . وسيأتى ما لعلمائنا فى هـذا فى سورة « النساء » إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ » .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ الآية . «إلّا أن يعفون» استثناء منقطع لأن عفوهن عن النصف ليس من جنس أخذهن . و « يعفون»

(١) تواه : هلاكه .

معناه يتركن و يصفحن ، ووزنه يفعلن . والمعنى إلا أن يتركن النصف الذى وجب لهن عند الزوج ، ولم تسقط النون مع « أنْ » لأن جمع المؤنث فى المضارع على حالة واحدة فى الرفع والنصب والجزم ، فهى ضمير وليست بعلامة إعراب فلذلك لم تسقط ، ولأنه لو سقطت النون لاشتبه بالمذكّر . والعافيات فى هذه الآية كلّ امرأة تملك أمر نفسها ، فأذن الله تعالى لهن فى إسقاطه بعد وجوبه إذ جعله خالص حقهن فيتصرفن فيه بالإمضاء والإسقاط كيف شئن ، إذا مَلكْن أمر أنفسهن وكنّ بالغات عاقلات راشدات . وقال ابن عباس و جماعة من الفقهاء والتابعين: ويجوز عفو البكر التى لا وَلِىّ لها ؛ وحكاه سُحنون فى المدونة عن غير ابن القاسم بعد أن ذكر لابن القاسم أن وضعها نصف الصداق لا يجوز . وأما التى فى حجر أب أو وصىّ فلا يجوز وضعها لنصف صداقها قولا واحدا ، ولا خلاف فيه فيما أعلم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ ﴾ معطوف على الأوّل مبنىّ وهـذا معـرب . وقرأ الحسن « أَوْ يَعْفُو » ساكنة الواو ، كأنه استثقل الفتحة فى الواو . واختلف الناس فى المراد بقوله تعالى : « أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » فروى الدَّارَقُطْنِىّ عن جُبير ابن مُطعِم أنه تزوّج امرأة من بنى نصر فطلّقها قبل أن يدخل بها فأرسل إليها بالصداق كاملا وقال : أنا أحق بالعفو منها ، قال الله تعالى: «إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ» وأنا أحق بالعفو منهـا . وتأوّل قوله تعالى : «أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح» يعنى نفسه فى كل حال قبل الطلاق و بعده ، أى عقدة نكاحه ؛ فلما أدخل اللام حذف الهـاء كقوله : « فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى » أى مأواه . قال النابغة :

لهم شِيمَـــةٌ لم يُعطِهـا اللهُ غيرَهم * من الجُود والأحلامُ غيرُ عَوازِبِ

أى أحلامهم . وكذلك قوله : « عُقْـدَةُ النِّكَاحِ » أى عقدة نكاحه . و روى الدَّارَقُطْنِىّ مرفوعا من حديث قُتيبة بن سعيد حدّثنا ابن لَهِيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وَلِىّ عُقدة النكاح الزوج" . وأسند هذا عن علىّ وابن عباس وسعيد بن المسيّب وشُريح . قال : وكذلك قال نافع بن جُبير ومحمد بن كعب وطاوس ومجاهد

والشّعبيّ وسعيد بن جُبير، زاد غيره ومجاهد والثّوريّ؛ واختاره أبو حنيفة وهو الصحيح من قول الشافعي، كلهم لا يرى سبيلا للوَليّ على شيء من صداقها للإجماع على أن الوَليّ لو أبرأ الزوج من المهر قبل الطلاق لم يجز فكذلك بعده . وأجمعوا على أن الوَليّ لا يملك أن يَهَب شيئا من مالها ، والمهر مالها . وأجمعوا على أن من الأولياء من لا يجوز عفوهم وهم بنو العمّ وبنو الإخوة ، فكذلك الأب ، والله أعلم . ومنهم من قال هو الوَليّ ، أسنده الدّارَقُطْنِيّ أيضا عن آبن عباس قال : وهو قول ابراهيم وعلقمة والحسن ، زاد غيره وعِكرمة وطاوس وعطاء وأبي الزّناد وزيد بن أسلم وربيعة ومحمد بن كعب وابن شهاب والأسود بن يزيد والشّعبيّ وقَتادة ومالك والشافعيّ في القــديم . فيجوز للأب العفو عن نصف صداق ابنتــه البكر اذا طُلّقت ، بلغت المَحيض أم لم تبلغه . قال عيسى بن دِينار : ولا ترجع بشي منه على أبيها ، والدليل على أن المراد الوَليّ أن الله سبحانه وتعالى قال في أوّل الآية : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » فذكر الأزواج وخاطبهم بهذا الخطاب ، ثم قال : « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ » فذكر النّسوان ، « أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » فهو ثالث فلا يُرَدّ إلى الزوج المتقدم إلا لو لم يكن لغيره وجود وقد وُجِد وهو الوَليّ فهو المراد . قال معناه مَكّيّ وذكره آبن العربيّ . وأيضا فإن الله تعالى قال : « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ » ومعلوم أنه ليس كل امرأة تعفو ، فإن الصغيرة والمحجور عليها لا عفو لها ، فبيّن الله القسمين فقال : «إلا أن يعفون» أي إن كنّ لذلك أهلا ، «أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح» وهو الوَليّ لأن الأمر فيه إليه . وكذلك روى ابن وهب وأشهب وابن عبــد الحكم وابن القاسم عن مالك أنه الأب في ابنتــه البكر والسيّد في أَمَتــه . وإنما يجوز عَفْو الوليّ إذا كان من أهل السَّداد ، ولا يجوز عفوه إذا كان سفيها . فإن قيل : لا نسلّم أنه الوَليّ بل هو الزوج ، وهذا الاسم أَوْلى به لأنه أملك للعقد من الوَليّ على ما تقدّم . فالجواب ــ أنا لا نُسلِّم أن الزوج أملك بالعقد من الأب في ابنته البكر ، بل أب البكر يملكه خاصة دون الزّوج ؛ لأن المعقود عليه هو بُضْع البكر ولا يملك الزوج أن يعقد على ذلك بل الأب يملكه . وقد أجاز شُرَيح عفو الأخ عن نصف المهر ؛ وكذلك قال عكرمة : يجوز عفو الذي

عقـد عُقدة النكاح بينهما ، كان عمًّا أو أبا أو أخا ، و إن كرهتْ . وقرأ أبو نَهيك والشَّعبيّ «أو يعفو» بإسكان الواو على التشبيه[1] بالألف؛ ومثله قول الشاعر :

فما سوّدتني عامرٌ عن وراثة ❊ أبى الله أن أسمو بأمّ ولا أب

السابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْ تَعفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ ابتـداء وخبر، والأصـل تعفُوُوا أسكنت الواو الأولى لثقل حركتها ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وهو خطاب للرجال والنساء في قول ابن عباس فغلّب الذكور، واللام بمعنى إلى، أى أقرب إلى التقوى . وقـرأ الجمهور « تعفوا » بالتاء باثنتين من فوق . وقرأ أبو نَهيك والشعبيّ « وأن يعفوا » باليـاء ، وذلك راجع إلى الذى بيده عقدة النكاح .

قلت : ولم يُقرأ «وأن تعفون» بالتاء فيكون للنساء . وقرأ الجمهور «ولا تَنْسَوُا ٱلفضل» بضم الواو؛ وكسرها يحيى بن يَعمر . وقرأ علىّ ومجاهد وأبو حَيْوَة وابن أبى عَبْلَة «ولا تناسوا الفضل» وهى قراءة متمكنة المعنى؛ لأنه موضع تناس لا نسيان إلا على التشبيه . قال مجاهد: الفضل إتمام الرجل الصداقَ كلّه، أو ترك المرأة النصفَ الذى لها .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ خبر فى ضمنـه الوعد للمحسن والحرمان لغير المحسن، أى لا يخفى عليه عفوكم واستقضاؤكم .

قوله تعـالى : ﴿ حَـٰفِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ حَافِظُوا ﴾ خطاب لجميـع الأمة، والآية أمر بالمحافظة على إقامة الصلوات فى أوقاتها بجميع شروطها . والمحافظة هى المداومة على الشىء والمواظبة عليه .

(١) فى الأصول : «على النسبة بالألف» . وعبارة الكشاف : «وقرأ الحسن (أو يعفو الذى) بسكون الواو، وإسكان الواو والياء فى موضع النصب تشبيه لهما بالألف لأنهما أختاها» .

والوسطى تأنيث الأوسط . ووسـط الشيء خيره وأعدله ؛ ومنـه قوله تعـالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » وقد تقدم(١) . وقال أعرابيّ يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

يا أوْسَطَ الناس طُرًّا في مفاخرهم * وأكرم النـاس أُمًّا بَرّة وأبا

ووَسَط فلانٌ القومَ يَسِـطُهم أي صار في وسطهم . وأفرد الصـلاة الوُسْطَى بالذِّكر وقـد دخلت قبلُ في عموم الصلوات تشريفا لها ؛ كقوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ » ، وقوله : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » . وقرأ أبو جعفر الواسـطيّ « والصّـلاةَ الوُسْطَى » بالنصب على الإغراء ، أي والزموا الصـلاة الوسطى ، وكذلك قرأ الحُلْوانيّ . وقرأ قالُون عن نافع « الوصطى » بالصاد لمجاورة الطاء لها لأنهما من حَيِّز واحد ، وهما لغتان كالصراط ونحوه .

الثانيـــة — واختلف الناس في تعيين الصلاة الوسطى على عشرة أقوال :

الأول — أنهـا الظهر لأنهـا وسط النهار على الصحيح من القولين أن النهار أوله من طلوع الفجر كما تقدم ، وإنما بدأنا بالظهر لأنها أوّل صلاة صُلِّيت في الإسلام . وممن قال إنها الوسطى زيد بن ثابت وأبو سعيد الخُدْريّ وعبد الله بن عمر وعائشة رضي الله عنهم . ومما يدل على أنها وُسْطى ما قالته عائشة وحَفْصة حين أَمْلَتَا « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصـلاة العصر » بالواو . ورُوى أنهـا كانت أشقّ على المسلمين لأنها كانت تجيء في الهاجرة وهم قد تَفَهَّتهم(٢) أعمالُهم في أموالهم . وروى أبو داود عن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي الظهر بالهاجرة ولم تكن تُصلَّى صلاةٌ أشدّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، فنزلت : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقال : إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين . وروى مالك في موطّئه وأبو داود الطيالسي في مسنده عن زيد بن ثابت قال : الصلاة الوسطى صـلاة الظهر ؛ زاد الطيالسي : وكان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يُصلّيها بالهَجير .

---

(١) تراجع المسألة الأولى جـ ٢ ص ١٥٣ طبعة ثانية .	(٢) تفهه : أتعبه حتى انقطع .

الثـانى — أنها العصر لأن قبلها صلاتى نهارٍ و بعدها صلاتى ليلٍ . قال النحاس : وأجود من هـذا الاحتجاجُ أن يكون إنمـا قيل لها وُسْطَى لأنها بين صلاتين إحداهما أوّل ما فُرض والأخرى الثانية ممـا فُرض . وممن قال إنها وسطى علىّ بن أبى طالب وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد الخُدْرىّ ، وهو اختيار أبى حنيفة وأصحابه ، وقاله الشافعىّ وأكثر أهل الأثر ، وإليه ذهب عبد الملك بن حبيب واختاره ابن العربىّ فى قَبَسه وابن عطيّة فى تفسيره وقال : وعلى هذا القول الجمهور من الناس و به أقول . واحتجوا بالأحاديث الواردة فى هذا الباب خرّجها مسلم وغيره ، وأنصها حديث ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الصلاة الوسطى صلاة العصر " خرّجه الترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح . وقد أتينا زيادة على هذا فى المقتبس فى شرح موطّا مالك بن أنس .

الثـالث — أنها المغرب ، قاله قَبِيصة بن أبى ذُؤَيب فى جماعة . والحجة لهم أنها متوسطة فى عدد الركعات ليست بأقلها ولا أكثرها ولا تُقصر فى السفر ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤخرها عن وقتها ولم يعجلها ، و بعدها صلاتا جهر وقبلها صلاتا سر . ورُوِى من حديث عائشة رضى الله عنهـا عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : " إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يَحُطّها عن مسافر ولا مقيم فتح الله بها صلاة اللّيل وختم بها صـلاة النهار فمن صلّى المغرب وصلّى بعـدها ركعتين بَنَى الله له قصرا فى الجنـة ومن صلّى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنب عشرين سنة — أو قال — أربعين سنة " .

الرابـــع — صـلاة العشاء الآخرة لأنهـا بين صلاتين لا تقصران ، وتجئ فى وقت نوم و يستحب تأخيرها وذلك شاقّ فوقع التأكيد فى المحافظة عليها .

الخامس — أنهـا الصبح لأن قبلها صلاتى ليل يجهر فيهما و بعدها صـلاتى نهار يسرّ فيهما ، ولأن وقتها يدخل والناس نيام ، والقيام اليها شاقّ فى زمن البرد لشدّة البرد وفى زمن الصيف لقِصَر الليل . وممن قال إنها وسطى علىّ بن أبى طالب وعبد الله بن عبّاس ، أخرجه

الموطأ بلاغا[1]، وأخرجه الترمذيّ عن ابن عمر وابن عباس تعليقا[2]، ورُوى عن جابر بن عبد الله وهو قول مالك وأصحابه، واليه مَيْـل الشافعيّ فيما ذكر عنه القُشيريّ ، والصحيح عن عليّ أنها العصر، ورُوى عنه ذلك من وجه معروف صحيح. وقد استدلّ من قال إنها الصبح بقوله تعالى : « وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِينَ » يعنى فيهـا ، ولا صلاةَ مكتوبةٌ فيها قُنوت إلا الصبح . قال أبو رَجاء : صلّى بنا ابن عباس صلاة الغـداة بالبصرة فقَنَت فيها قبل الركوع ورفـع يديه ، فلما فرغ قال : هذه الصلاة الوسطى التى أمرنا الله تعالى أن نقوم فيها قانتين . وقال أنس : قَنَت النبيّ صلى الله عليه وسلم فى صلاة الصبح بعد الركوع ؛ وسيأتى حكم القنوت وما للعلماء فيه فى « آل عمران » عند قوله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ »[3] .

السادس — صلاة الجمعة لأنهـا خُصّت بالجمع لهـا والخطبة فيها وجُعلت عيدا؛ ذكره ابن حبيب ومَكيّ . وروى مسلم عن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لقوم يتخلّفون عن الجمعة : "لقد هَمَمت أن آمُر رجلا يصلّى بالناس ثم أُحَرِّق على رجال يتخلّفون عن الجمعة بيوتهـــم" .

السابع — أنها الصبح والعصر معا؛ قاله الشيخ أبو بكر الأَبْهَرِيّ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" الحديث، رواه أبو هريرة . وروى جَرير بن عبد الله قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر الى القمر ليلة البَدْر فقال : "أَمَا إنكم ستروْن ربّكم كما تَرَوْن هذا القمر لا تَضَامُّون[4] فى رؤيته فإن آستطعتم ألّا تُغْلبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها" يعنى العصر والفجر، ثم قرأ جرير «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» . وروى عُمارة بن رُؤَيْبة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لن يَلِج النار أحد صلّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها" يعنى

(١) أى قال مالك فى الموطأ إنه بلغه عنهما .		(٢) التعليق : رواية الحديث من غير سند .

(٣) آية ١٢٨		(٤) قال النووى : «تضامون» بتشديد الميم وتخفيفها ، فمن شدّدها فتح التاء، ومن خففها ضم التاء، ومعنى المشدّد أنكم لا تتضامون وتتلطفون فى التوصل الى رؤيته ، ومعنى المخفف أنه لا يلحقكم ضيم وهو المشقة والتعب .

الفجر والعصر . وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من صلّى البَرْدَين دخل الجنة" كلّه ثابت فى صحيح مسلم وغيره . وسُمّيتا البَرْدين لأنهما يُفعلان فى وقت البَرْد .

الثـامن — أنها العَتَمة والصبح . قال أبو الدَّرْداء رضى الله عنه فى مرضـه الذى مات فيه : اسمعوا وبلّغوا مَن خلفكم حافظوا على هاتين الصلاتين — يعنى فى جماعة — العشاء والصبح ، ولو تعلمون مافيهما لأتيتموهما ولو حَبْوًا على مرافقكم ورُكَبكم ؛ وقاله عمر وعثمان . وروى الأئمة عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أنه قال : " ولو يعلمون ما فى العَتَمة والصـبح لأتوهما ولو حَبْوًا — وقال — إنهما أشـدّ الصلوات على المنافقين " وجعل لمصلّى الصبح فى جماعة قيام ليـلة والعَتَمة نصف ليلة ؛ ذكره مالك موقوفا على عثمان ورفعه مسلم ، وخرّجه أبو داود والترمذىّ عنـه قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "من شَهِد العِشاء فى جماعة كان له قيامُ نصف ليلة ومن صلّى العِشاء والفجر فى جماعة كان له كقيام ليلة" وهذا خلاف مارواه مالك ومسلم .

التاسـع — أنهـا الصلوات الخمس بجملتها ؛ قاله معاذ بن جبـل ، لأن قوله تعـالى : «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ» يعمّ الفرض والنفل ، ثم خصّ الفرض بالذكر .

العـاشر — أنها غير معيّنة ؛ قاله نافع عن ابن عمر ، وقاله الربيع بن خُثَيْم ؛ فخبأها الله تعالى فى الصلوات كما خبأ ليلة القَدْر فى رمضان ، وكما خبأ ساعة يوم الجمعة وساعات الليل المستجاب فيها الدعاء ليقوموا بالليل فى الظلمات لمناجاة عالم الخفيّات . ومما يدلّ على صحة أنها مبهمة غير معيّنة مارواه مسلم فى صحيحه فى آخر الباب عن البَراء بن عازب قال : نزلت هذه الآية «حافظوا على الصلوات وصـلاة العصر» فقرأناها ما شاء الله ، ثم نسخها الله فنزلت : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » فقال رجل : هى إذًا صلاة العصر ؟ فقال البَراء : قد أخبرتك كيف نزلت وكيف نسخها الله تعـالى ، والله أعلم . فلزم من هـذا أنها بعد أن عُيِّنت نُسخ تعيينها وأبهمت فارتفع التّعيين ، والله أعلم . هـذا اختيار مُسْلم لأنه أتى به فى آخر البـاب ،

وقال به غير واحد من العلماء المتأخرين، وهو الصحيح ان شاء الله تعالى لتعارض الأدلة وعدم الترجيح، فلم يبق الا المحافظة على جميعها وأدائها فى أوقاتها، والله أعلم .

الثالثــة ــ وهذا الاختلاف فى الصلاة الوسطى يدل على بطلان من أثبت « وصلاة العصر » المذكور فى حديث أبى يونس مولى عائشة حين أمرته أن يكتب لها مصحفا قرآنا . قال علماؤنا : وإنمــا ذلك كالتفسير من النبيّ صلى الله عليه وسلم، يدل على ذلك حديث عمرو ابن رافع قال : أمرتنى حفصــة أن أكتب لهــا مصحفا، الحديث . وفيــه : فأملت علىّ « حافظوا على الصلوات والصلاة الوســطى وهى العصر وقوموا لله قانتين » وقالت : هكذا سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها . فقولها « وهى العصر » دليل على أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم فسر الصلاة الوسطى من كلام الله تعالى بقوله هو "وهى العصر" . وقد روى نافع عن حفصة « وصلاة العصر » كما روى عن عائشة وعن حفصة أيضا « صلاة العصر » بغير واو . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا الخلاف فى هذا اللفظ المزيد يدل على بطلانه وصحة ما فى الإمام مصحف جماعة المسلمين . وعليه حجة أخرى وهو أن من قال : والصلاة الوسطى وصلاة العصر جعل الصلاة الوسطى غير العصر؛ وفى هــذا دفعٌ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه عبد الله قال : شغل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب عن صلاة العصر حتى آصفرت الشمس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "شغلونا عن الصلاة الوسطى ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا" الحديث .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ دليــل على أن الوِتْر ليس بواجب؛ لأن المسلمين آتفقوا على أعداد الصلوات المفروضات أنها تنقص عن سبعة وتزيد على ثلاثة؛ وليس للثلاثة والسبعة فرد الا الخمسة، والأزواج لا وَسَط لها فثبت أنها خمسة . وفى حديث الإسراء "هى خمس وهى خمسون لا يبدّل القول لدىّ" .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ معناه فى صلاتكم . واختلف الناس فى معنى قوله «قانتين» فقال الشعبىّ : طائعين؛ وقاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جُبير .

وقال الضحاك : كل قنوت فى القرآن فإنما يعنى به الطاعة . وقال أبو سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن أهل كل دين فهم اليوم يقومون عاصين فقيل لهذه الأمة فقوموا لله طائعين". وقال مجاهد : معنى قانتين خاشعين . والقنوت طول الركوع والخشوع وغضّ البصر وخفض الجناح . وقال الربيع : القنوت طول القيام ؛ وقاله ابن عمر وقرأ « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا » . وقال عليه السلام : "أفضل الصلاة طول القنوت" خرّجه مسلم وغيره. وقال الشاعر :

قانتًا لله يـدعو ربّـه * وعلى عَمْد من الناس اعتزلْ

وقـد تقدّم[1] . وروى ابن عبـاس « قانتين » أى داعين . وفى الحديث : قنت رسـول الله صلى الله عليه وسلم شهرا يدعو على رِعْلٍ وذَكْوان[2] . قال قوم : معناه دعا ، وقال قوم : معناه طوّل قيامه . وقال السُّدّى : قانتين ساكتين ؛ دليله أن الآية نزلت فى المنع من الكلام فى الصلاة وكان ذلك مُباحا فى صدر الإسلام ؛ وهـذا هو الصحيح لمـا رواه مسلم وغيره عن عبد الله ابن مسعود قال : كنا نُسلّم على رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وهو فى الصـلاة فيردّ علينا ، فلمـا رجعنا من عند النّجاشيّ سلّمنا عليـه فلم يردّ علينا فقلنا : يا رسول الله ، كنا نُسلّم عليك فى الصلاة فتردّ علينا؟ فقال : "إن فى الصلاة شُغُلًا" . وروى زيد بن أَرْقم قال : كنا نتكلم فى الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه فى الصلاة حتى نزلت : « وقوموا لله قانتين » فأُمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام . وقيل : إن أصل القنوت فى اللغة الدوام على الشيء . ومن حيث كان أصـل القنوت فى اللغة الدوام على الشيء جاز أن يُسمّى مديم الطاعة قانتا ، وكذلك من أطال القيام والقراءة والدعاء فى الصلاة ، أو أطال الخشوع والسكوت ، كل هؤلاء فاعلون للقنوت .

السادسـة — قال أبو عمر : أجمع المسلمون طُرًّا أن الكلام عامدا فى الصلاة إذا كان المصلّى يعلم أنه فى صـلاة ولم يكن ذلك فى إصلاح صلاته أنه يفسد الصلاة إلا ما رُوى عن

(١) راجع المسألة الخامسة جـ ٢ ص ٨٦ طبعة ثانية .

(٢) رعل وذكوان : قبيلتان من سليم و إنمـا دعا عليهم لقتلهم القرّاء .

الأوزاعيّ أنه قال : من تكلّم لإحياء نفس أو مثل ذلك من الأمور الجسام لم تفسد صلاته بذلك . وهو قول ضعيف فى النظر؛ لقول الله عز وجل : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » وقال زيد ابن أَرْقم : كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت : «وقوموا لله قانتين» الحديث . وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله أحدث من أمره ألا تكلّموا فى الصلاة". وليس الحادث الجسيم الذى يجب له قطع الصلاة ومن أجله يمنع من الاستئناف . فمن قطع صلاته لما يراه من الفضل فى إحياء نفس أو مال أو ما كان بسبيل ذلك استأنف صلاته ولم يبن . هذا هو الصحيح فى المسألة إن شاء الله تعالى .

السابعــة — واختلفوا فى الكلام ساهيا فيها؛ فذهب مالك والشافعيّ وأصحابهما الى أن الكلام فيها ساهيا لا يفسدها ، غير أن مالكا قال : لا يفسد الصلاة تعمُّد الكلام فيها اذا كان فى شأنها و إصلاحها ؛ وهو قول ربيعة وابنِ القاسم . وروى سُحنون عن ابن القاسم عن مالك قال : لو أن قوما صلّى بهم الإمام ركعتين وسلّم ساهيا فسبّحوا به فلم يفقه فقال له رجل من خلفه ممن هو معه فى الصلاة : إنك لم تُتمّ فأتِمّ صلاتك؛ فالتفت الى القوم فقال : أحقٌّ ما يقول هــذا ؟ فقالوا ، نعم قال : يُصلّى بهم الإمام ما بقى من صلاتهم و يُصلّون معه بقيّة صلاتهم مَن تكلّم منهم ومن لم يتكلم ، ولا شيء عليهم ، و يفعلون فى ذلك ما فعل النبيّ صلى الله عليه وسـلم يوم ذى اليدين (١) . هــذا قول ابن القاسم فى المدوّنة وروايته عن مالك ، وهو المشهور من مذهب مالك و إياه تقلّد إسماعيل بن إسحاق واحتج له فى كتاب ردّه على محمد بن الحسن . وذكر الحارث بن مسكيـن قال : أصحاب مالك كلُّهـم على خلاف قول مالك فى مسألة ذى اليدين إلا ابن القاسم وحده فانه يقول فيها بقول مالك ، وغيرُهم يأبَوْنه و يقولون : إنما كان هذا فى صدر الإسلام ، فأما الآن فقد عرف الناس صلاتهم فمن تكلّم فيها أعادها ؛ وهذا هو قول العراقيين : أبى حنيفة وأصحابه والثوريّ فإنهم ذهبوا الى أن الكلام فى الصلاة يفسدها على أىّ حال كان سهوا أو عمدا لصلاة كان أو لغير ذلك؛ وهو قول إبراهيم النَّخَعيّ

(١) ذو اليدين اسمه الخرباق ، وقد كان يصلى خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من اثنتين — وكانت رباعية — فقال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ ... الخ .

وعطاء والحسن وحمـاد بن أبي سليمان وقتـادة . وزعم أصحاب أبي حنيفة أن حديث أبي هريرة هذا في قصة ذي اليدين منسوخ بحديث ابن مسعود وزيد بن أرقم، قالوا : وإن كان أبو هريرة متأخر الإسلام فإنه أرسل حديث ذي اليدين كما أرسـل حديث من أدركه الفجر جنبا فلا صوم له، قالوا : وكان كثير الإرسال . وذكر عليّ بن زياد قال حدّثنا أبو قُرّة قال سمعت مالكا يقول : يُستحبّ إذا تكلم الرجل في الصلاة أن يعود لها ولا يَبني . قال : وقال لنا مالك إنمـا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلّم أصحابه معه يومئذ لأنهم ظنّوا أن الصلاة قَصُرت ولا يجوز ذلك لأحد اليوم . وقد روى سُحنون عن ابن القاسم في رجل صلّى وحده ففرغ عند نفسه من الأربع، فقال له رجل الى جَنْبه : إنك لم تصلّ إلا ثلاثا، فالتفت إلى آخر فقال : أحقٌّ ما يقول هـذا ؟ قال نعم، قال : تفسد صـلاته ولم يكن ينبغي له أن يكلّمه ولا أن يلتفت اليه . قال أبو عمر : فكانوا يفرّقون في هذه المسألة بين الإمام مع الجمـاعة والمنفرد فيجيزون من الكلام في شأن الصلاة للإمام ومَن معه ما لا يجيزونه للمنفرد؛ وكان غير هؤلاء يحملون جواب ابن القاسم في المنفرد في هـذه المسألة وفي الإمام ومن معه على اختلاف قوله في استعمال حديث ذي اليدين كما اختلف قول مالك في ذلك . وقال الشافعيّ وأصحابه : من تعمّد الكلام وهو يعلم أنه لم يتمّ الصلاة وأنه فيها أفسد صلاته، فإن تكلّم ساهيا أو تكلم وهو يظن أنه ليس في الصـلاة لأنه قد أكملها عند نفسه فإنه يَبْني . واختلف قول أحمد في هـذه المسألة فذكر الأَثْرم عنه أنه قال : ما تكلم به الانسان في صـلاته لإصلاحها لم تفسد عليه صلاته، فإن تكلّم لغير ذلك فسدت؛ وهذا قول مالك المشهورُ . وذكر الخِرَقيّ[(1)] عنه أن مذهبه فيمن تكلّم عامدا أو ساهيا بطلت صلاته، إلا الإمام خاصة فإنه اذا تكلم لمصلحة صلاته لم تبطل صلاته . واستثنى سُحنون من أصحاب مالك أن من سلّم من اثنتين في الرباعية فوقع الكلام هناك لم تبطل الصلاة، وإن وقع في غير ذلك بطلت الصلاة . والصحيح ما ذهب اليه مالك في المشهور تمسُّكا بالحديث وحَمْلا له على الأصل الكُلِّيّ من تعدّي الأحكام

(١) الخرق (بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء) : أبو القاسم عمر بن الحسين شيخ الحنابلة .

وعموم الشريعة ودفعا لمـا يتوهّم من الخصوصية إذ لا دليل عليها . فإن قال قائل : فقد جرى الكلام في الصلاة والسهو أيضا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : "التسبيح للرجال والتصفيق للنساء" فلِمَ لمْ يُسبّحوا؟ فيقال : لعلّ في ذلك الوقت لم يكن أمرهم بذلك ، ولئن كان كما ذكرتَ فلم يسبّحُوا لأنهم توهّموا أن الصلاة قصُرت ؛ وقد جاء ذلك في الحديث قال : وخرج سَرَعانُ[1] الناس فقالوا : أقصُرت الصلاة ؟ فلم يكن بُدٌّ من الكلام لأجل ذلك . والله أعلم .

وقد قال بعض المخالفين : قول أبي هريرة « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم » يحتمل أن يكون مراده أنه صلّى بالمسلمين وهو ليس منهم ؛ كما رُوي عن النزال بن سَبْرة أنه قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "إنّا وإيّاكم كنّا نُدْعَى بني عبد مناف وأنتم اليوم بنو عبد الله ونحن بنو عبد الله" وإنمـا عنى به أنه قال ذلك لقومه وهذا بعيد؛ فانه لا يجوز أن يقول صلّى بنا وهو إذ ذاك كافر ليس من أهل الصلاة ويكون ذلك كذبا ، وحديث البَرَاء هو كان من جملة القوم وسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ماسمع . وأما ما ٱدّعته الحنفيّة من النسخ والإرسال فقد أجاب عن قولهم علماؤنا وغيرهم وأبطلوه ، وخاصة الحافظ أبا عمر ابن عبد البر في كتابه المسمّى بـ « التمهيد » وذكر أن أبا هريرة أسـلم عام خَيْبَرَ وقدم المدينة في ذلك العام وصحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعة أعوام ، وشهد قصة ذي اليَدَين وحضرها وانها لم تكن قبل بَدْر كما زعموا ، وأن ذا اليَدَين قُتل في بدر . قال : وحضور أبي هريرة يوم ذي اليدين محفوظ من رواية الحُفّاظ الثّقات ، وليس تقصير من قصّر عن ذلك بحجة على من علم ذلك وحفظه وذكره .

الثامنـــة — القنوت : القيام ، وهو أحد أقسامه فيما ذكر أبو بكر بن الأنباري . وأجمعت الأمّة على أن القيام في صلاة الفرض واجب على كل صحيح قادر عليه ، منفردا كان أو إماما . وقال صلى الله عليه وسلم : "إنما جُعل الإمام ليؤتمّ به فإذا صلّى قائما فصلّوا قياما" الحديث ،

(١) السرعان (بفتح السـين والراء ويجوز تسكين الراء) : أوائل الناس الذين يتسابقون الى الشيء و يقبلون عليـــه بسرعة .

أخرجه الأئمة، وهو بيان لقوله تعالى : «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» . واختلفوا فى المأموم الصحيح يُصلّى قاعدا خلف إمام مريض لا يستطيع القيام؛ فأجازت ذلك طائفة من أهل العلم بل جمهورهم لقوله صلى الله عليه وسلم فى الإمام : "وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون" وهذا هو الصحيح فى المسألة على ما نبيّنه آنفا إن شاء الله تعالى . وقد أجاز طائفة من العلماء صلاةَ القائم خلف الإمام المريض لأن كُلّا يؤدّى فرضه على قدر طاقته تأسّيا برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صلّى فى مرضه الذى تُوفّى فيه قاعدا وأبو بكر إلى جنبه قائما يصلّى بصلاته والناس قيام خلفه، ولم يُشِر إلى أبى بكر ولا إليهم بالجلوس، وأكمل صلاته بهم جالسا وهم قيام؛ ومعلوم أن ذلك كان منه بعد سقوطه عن فرسه؛ فعُلِم أن الآخر من فعله ناسخ للأوّل . قال أبو عمر : وممن ذهب الى هذا المذهب واحتج بهذه الحجة الشافعىّ وداود بن علىّ، وهى رواية الوليد بن مسلم عن مالك . قال : وأحبّ الىّ أن يكون الى جنبه من يُعلم الناس بصلاته، وهذه الرواية غريبة عن مالك . وقال بهذا جماعة من أهل المدينة وغيرهم وهو الصحيح إن شاء الله تعالى لأنها آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمشهور عن مالك أنه لا يَؤُمّ القُيّام أحد جالسا، فإن أمّهم قاعدا بطلت صلاته وصلاتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يؤمّنّ أحد بعدى قاعدا" . قال : فإن كان الإمام عَليلا تمّت صلاة الإمام وفسدت صلاة مَن خلفه . قال : ومن صلّى قاعدا من غير علة أعاد الصلاة؛ هذه رواية أبى مُصعب فى مختصره عن مالك، وعليها فيجب على مَن صلّى قاعدا الإعادةُ فى الوقت وبعده . وقد رُوى عن مالك فى هذا أنهم يعيدون فى الوقت خاصة، وقول محمد بن الحسن فى هذا مثل قول مالك المشهور . واحتج لقوله ومذهبه بالحديث الذى ذكره أبو مصعب، أخرجه الدّارَقُطْنِى عن جابر عن الشّعبىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يؤمنّ أحد بعدى جالسا" . قال الدّارَقُطْنِىّ : لم يروه غير جابر الجُعْفِىّ عن الشّعبىّ وهو متروك الحديث مُرْسَل لا تقوم به حُجّة . قال أبو عمر : جابر الجُعْفِىّ لا يحتجّ بشىء يرويه مُسنَدًا فكيف بما يرويه مُرْسلا؟ قال محمد بن الحسن : إذا صلّى الإمام المريضُ جالسا بقوم أصحّاء ومرضى

جلوسا فصلاته وصلاة من خلفه ممن لا يستطيع القيام صحيحةٌ جائزة، وصلاةُ مَن صلّى خلفه ممن حكمه القيام باطـلة . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : صـلاته وصلاتهم جائزة . وقالوا : لو صلّى وهو يُومِئ بقوم وهم يركعون ويسجدون لم تجزهم فى قولهم جميعا وأجزأت الإمامَ صلاتُه . وكان زُفَرُ يقول : تجزئهم صلاتهم لأنهم صلّوا على فرضهم وصلّى إمامهم على فرضه، كما قال الشافعىّ .

قلت : أما ما ذكره أبو عمر وغيره من العلماء قبله وبعده من أنها آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رأيت لغيرهم خلاف ذلك ممن جمع طرق الأحاديث فى هذا البـاب وتكلم عليها وذكر اختلاف الفقهاء فى ذلك ، ونحن نذكر ما ذكره ملخَّصا حتى يتبين لك الصواب إن شاء الله تعالى . وصحة قول من قال إن صلاة المأموم الصحيح قاعدا خلف الإمام المريض جائزة، فذكر أبو حاتم محمد بن حِبّان البُسْتِىّ فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى نفر من أصحابه فقال : "ألستم تعلمون أنى رسول الله إليكم "؟ قالوا : بلى، نشهد أنك رسول الله! قال : "ألستم تعلمون أنه من أطاعنى فقد أطاع الله ومن طاعة الله طاعتى"؟ قالوا : بلى، نشهـد أنه من أطاعك فقد أطاع الله ومن طاعة الله طاعتك . قال : " فإن من طاعة الله أن تطيعونى ومن طاعتى أن تطيعوا أمراءكم فإن صلّوا قعودا فصلّوا قعودا " . فى طريقه عُقبة بن أبى الصَّهباء وهو ثقة؛ قاله يحيى بن مَعين . قال أبو حاتم : فى هذا الخبر بيانٌ واضح أن صلاة المأمومين قعودا اذا صلّى إمامهم قاعدا من طاعة الله جلّ وعلا التى أمر الله بها عباده ، وهو عندى ضرب من الإجمـاع الذى أجمعوا على إجازته؛ لأن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعةً أفتَوْا به : جابر بن عبد الله وأبو هريرة وأُسَـيد بن حُضير وقيس بن قهـد (١) ، ولم يُرو عن أحد من الصحابة الذين شهدوا هبوط الوَحْى والتنزيل وأعيـذوا من التحريف والتبديل خلاف لهؤلاء الأربعة لا بإسـناد متّصـل ولا منقطع؛ فكأنّ الصحابة أجمعوا على أن الإمام اذا صلّى قاعدا كان على المأمومين أن يصلوا قعودا . وبه قال جابر بن زيد والأوزاعىّ ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل وإسحاق

(١) قهد بالقاف وفى آخره دال .

ابن ابراهيم وأبو أيوب سليمان بن داود الهاشميّ وأبو خيثمة وابن أبى شيبة ومحمد بن إسماعيل ومن تبعهم من أصحاب الحديث مثل محمد بن نصر ومحمد بن إسحاق بن خزيمة . وهذه السُّنّة رواها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنس بن مالك وعائشة وأبو هريرة وجابر بن عبد الله وعبدالله بن عمر بن الخطاب وأبو أُمامة الباهليّ . وأول من أبطل فى هذه الأمة صلاةَ المأموم قاعدا اذا صلّى إمامه جالسا المغيرةُ بن مِقْسَم صاحبُ النّخعىّ ، وأخذ عنه حماد بن أبى سليمان ثم أخذ عن حماد أبو حنيفة وتبعه عليه مَن بعده من أصحابه . وأعْلى شيء آحتجوا به فيه شيء رواه جابر الجُعْفِيّ عن الشّعبيّ قال قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : "لا يؤمّنّ أحد بعدى جالسا" وهذا لو صح إسناده لكان مُرْسَلا ، والمرسَل من الخبر وما لم يُرْوَ سيّان فى الحكم عنــدنا ؛ ثم إن أبا حنيفة يقول : ما رأيت فيمن لقيت أفضــل من عطاء ولا فيمن لقيت أكذب من جابر الجُعْفىّ ، وما أتيته بشيء قطّ من رأى إلا جاءنى فيــه بحديث ، وزعم أن عنده كذا وكذا ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينطق بها ، فهذا أبو حنيفة يجرح جابرًا الجُعْفىّ ويكذّبه ضــدّ قول من انتحل من أصحابه مذهبــه . قال أبو حاتم : وأما صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مرضه فجاءت الأخبار فيها مجملة ومختصرة ، وبعضها مفصلة مبيّنة ؛ ففى بعضها : فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم الى جنب أبى بكر فكان أبو بكر يأتمّ بالنبيّ صلى الله عليه وســلم والناس يأتمون بأبى بكر . وفى بعضها : فجلس عن يسار أبى بكر وهــذا مفسّر . وفيه : فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلّى بالناس قاعدا وأبو بكر قائما . قال أبو حاتم: وأما إجمال هذا الخبر فإن عائشة حكت هذه الصلاة الى هذا الموضع ، وآخر القصة عند جابر ابن عبد الله : أن النبيّ صلى الله عليه وســلم أمرهم بالقعود أيضا فى هــذه الصلاة كما أمرهم به عند ســقوطه عن فرســه ؛ أنبأنا محمد بن الحسن بن قُتيبة قال أنبأنا يزيد بن مَوْهَب قال حدّثنى اللّيث بن ســعد عن أبى الزبير عن جابر قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وســلم فصلّينا وراءه وهو قاعد وأبو بكر يُسمع النــاس تكبيره ، قال : فالتفت الينا فرآنا قيــاما فأشار الينا فقعدنا فصلّينا بصلاته قعودا ، فلمــا سلم قال : "كدتم أن تفعلوا فعل فارس والروم

يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم إن صلّى قائما فصلّوا قياما وإن صلّى قاعدا فصلوا قعودا" . قال أبو حاتم : ففي هذا الخبر المفسّر بيانٌ واضح أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم لما قعد عن يسار أبي بكر وتحوّل أبو بكر مأموما يقتدى بصلاته ويكبر يسمع الناس التكبير ليقتدوا بصلاته أمرهم صلى الله عليه وسلم حينئذ بالقعود حين رآهم قياما ، ولما فرغ من صلاته أمرهم أيضا بالقعود إذا صلّى إمامهم قاعدا . وقد شهد جابر بن عبد الله صلاته صلى الله عليه وسلم حين سقط عن فرسه فجُحِش شقّه الأيمن[1] ، وكان سقوطه صلى الله عليه وسلم في شهر ذي الحجة آخر سنة خمس من الهجرة ، وشهد هذه الصلاة في علّته صلى الله عليه وسلم في غير هذا التاريخ فأدّى كلّ خبر بلفظه ، ألا تراه يذكر في هذه الصلاة : رفع أبو بكر صوته بالتكبير ليقتدي به الناس ، وتلك الصلاة التي صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته عند سقوطه عن فرسه لم يحتج إلى أن يرفع صوته بالتكبير ليسمع الناس تكبيره على صغر حُجرة عائشة ، وإنما كان رفعه صوته بالتكبير في المسجد الأعظم الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في علّته ، فلما صحّ ما وصفنا لم يجز أن نجعل بعض هذه الأخبار ناسخا لبعض ؛ وهذه الصلاة كان خروجه إليها صلى الله عليه وسلم بين رجلين ، وكان فيها إماما وصلى بهم قاعدا وأمرهم بالقعود . وأما الصلاة التي صلاها آخر عمره فكان خروجه إليها بين بَرِيرَةَ وَنُوبَةَ وكان فيها مأموما وصلى قاعدا خلف أبي بكر في ثوب واحد مُتوشّحا به . رواه أنس ابن مالك قال : آخر صلاة صلاها رسول الله مع القوم في ثوب واحد متوشحا به قاعدا خلف أبي بكر ؛ فصلى عليه السلام صلاتين في المسجد جماعة لا صلاة واحدة . وإن في خبر عبيد الله عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج بين رجلين يريد أحدهما العباس والآخر عليّا . وفي خبر مسروق عن عائشة : ثم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خفّة فخرج بين بَرِيرَةَ ونُوبَةَ ، إني لأنظر إلى نعليه تخطّان في الحصى وأنظر إلى بطون قدميه ؛ الحديث . فهذا يدلّك على أنهما كانتا صلاتين لا صلاة واحدة . قال أبو حاتم : أخبرنا محمد

---

(1) جحش شقه : أي انخدش جلده .

ابن إسحاق بن خزيمة قال حدّثنا محمد بن بشار قال حدّثنا بَدَل بن المُحَبَّر قال حدّثنا شُـعبة عن موسى بن أبي عائشة عن عبيد الله بن عبـد الله عن عائشة أن أبا بكر صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه . قال أبو حاتم : خالف شُعبةُ بن الحجاج زائدةَ بن قُدامة في متن هذا الخبر عن موسى بن أبي عائشة فجعل شُعبةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مأموما حيث صلى قاعدا والقوم قيام، وجعل زائدة النبي صلى الله عليه وسلم إماما حيث صلى قاعدا والقوم قيام، وهما مُتقنان حافظان . فكيف يجوز أن يجعل إحدى الروايتين اللتين تضادّتا في الظاهر في فعل واحد ناسخا لأمر مطلق متقدم! فمن جعل أحد الخبرين ناسخا لمَـا تقدم من أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وترك الآخر من غير دليل ثبت له على صحته سوّغ لخصمه أخذ ما ترك من الخبرين وترك ما أخذ منهما . ونظير هـذا النوع من السُّنَن خبر ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم نكح ميمونة وهو مُحرِم، وخبر أبي رافع أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم نكحها وهما حلالان فتضادّ الخبران في فعـل واحد في الظاهر من غير أن يكون بينهما تضادّ عندنا؛ فجعل جماعة من أصحاب الحـديث الخبرين اللذين رُويا في نكاح ميمونة متعارضين، وذهبوا الى خبر عثمان بن عفّان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا ينكح المُحْرِم ولا ينكح" فأخذوا به، إذ هو يوافق إحدى الروايتين اللّتين رُويتا في نكاح ميمونة ، وتركو خبر ابن عبـاس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نكحها وهو مُحْرِم ؛ فمن فعل هذا لزمه أن يقول : تضادّ الخبران في صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم في عِلّته على حسب ما ذكرناه قبلُ ، فيجب أن يجيء الى الخبر الذى فيـه الأمر بصلاة المأمومين قعودا اذا صـلّى إمامهم قاعدا فيأخذ به ، إذ هو يوافق احدى الروايتين اللّتين رُويتا في صـلاة النبيّ صلى الله عليه وسـلم في علته ويترك الخبر المنفرد عنهما كما فعـل ذلك في نكاح ميمونة . قال أبو حاتم : زعم بعض العراقيّين ممن كان ينتحل مذهب الكوفيّين أن قوله : " وإذا صـلّى قاعدا فصلوا قعودا " أراد به واذا تشهّد قاعدا فتشهّدوا قعودا أجمعون فحرّف الخبر عن عموم ما ورد الخبر فيه بغير دليل ثبت له على تأويله .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ من الخوف الذى هو الفزع . ﴿ فَرِجَالًا ﴾ أى فصلّوا رجالا . ﴿ أَوْ رُكْبَانًا ﴾ معطوف عليه . والرجال جمع راجل أو رَجُل من قولهم : رَجِل الإنسـان يَرْجَل رَجَلا اذا عدم المركوب ومشى على قدميـه ، فهو رَجِل وراجل ورَجُل ــ (بضم الجيم) وهى لغة أهل الحجـاز؛ يقولون : مشى فلان الى بيت الله حافيا رَجُلا ؛ حكاه الطبرىّ وغيره ــ ورَجْلان ورَجيل ورَجْل، ويجمع على رِجال ورَجْلى ورُجّال ورَجّالة ورُجّالى ورُجْلان ورَجْلة ورِجَلة (بفتح الجيم) وأَرْجِلة وأَراجِل وأَراجيل . والرَّجُل الذى هو اسم الجنس يُجمع أيضا على رجال .

الثانيـــة ــ لمّـا أمر الله تعالى بالقيام له فى الصــلاة بحال قُنوت وهو الوقار والسّكينة وهـدوء الجوارح وهـذا على الحالة الغالبة من الأمن والطُّمأْنينة ذكر حالة الخوف الطارئة أحيانا ، وبيّن أن هذه العبادةَ لا تسقط عن العبد فى حال، ورخّص لعبيده فى الصلاة رجالا على الأقدام ورُكبانا على الخيل والإبل ونحوها ، إيماءً وإشارة بالرأس حيثما توجّه ؛ هـذا قول العلماء ، وهذه هى صلاة الفَذّ الذى قد ضايقه الخوف على نفسه فى حال المُسَايفة أو من سَبُع يطلبه أو من عدوّ يتبعه أو سَيْل يحمله ، وبالجملة فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح ما تضمّنته هذه الآية .

الثالثـــة ــ هذه الرخصة فى ضمنها إجمـاع العلماء أن يكون الإنسـان حيثما توجّه من السُّمُوت ويتقلّب ويتصرّف بحسب نظره فى نجاة نفسه .

الرابعـــة ــ واختُلف فى الخوف الذى تجوز فيه الصلاة رِجالا ورُكبانا؛ فقال الشافعىّ : هو إطلال العدوّ عليهــم فيتراءون معا والمسلمون فى غير حِصْن حتى ينالهم السـلاح من الرمى

أو أكثر من أن يقرب العدوّ فيه منهم من الطعن والضرب ، أو يأتى من يصدق خبره فيخبره بأن العدوّ قريب منه ومسيرهم جادّين اليه؛ فإن لم يكن واحد من هـذين المعنيين فلا يجوز له أن يصلّى صلاة الخوف . فإن صلّوا بالخبر صلاة الخوف ثم ذهب العدوّ لم يعيدوا ، وقيل : يعيدون ؛ وهو قول أبي حنيفة . قال أبو عمر : فالحال التي يجوز للخائف أن يصلى راجلا أو راكبا مستقبل القبلة أو غير مستقبلها هى حال شـدّة الخوف . والحال التى وردت الآثار فيها هى غير هذه وهى صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس وليس حكمها فى هذه الاية، وهذا يأتى بيانه فى سورة « النساء » إن[1] شاء الله تعالى . وفرّق مالك بين خوف العدوّ المقاتل وبين خوف السبع ونحوه من جمل صائل أو سَيْل أو ما الأغلب من شأنه الهلاك فانه استحب من غير خوف العدوّ الإعادةَ فى الوقت إن وقع الأمن . وأكثر فقهاء الأمصار على أن الأمر سواء .

الخامســـة — قال أبو حنيفة : إن القتال يفسد الصلاة ؛ وحديث ابن عمر يردّ عليه، وظاهر الآية أقوى دليل عليه ، وسيأتى هذا فى « النساء » إن شاء الله تعالى . قال الشافعىّ : لمـا رخّص تبارك وتعـالى فى جواز ترك بعض الشروط دلّ ذلك على أن القتال فى الصـلاة لا يفسدها، والله أعلم .

السادســـة — لا نقصان فى عدد الركعات فى الخوف عن صلاة المسافر عند مالك والشافعىّ وجماعة من العلمـاء . وقال الحسن بن أبى الحسن وقَتادة وغيرهما : يصلّى ركعة إيماء . روى مسلم عن بُكير بن الأخنس عن مجاهد عن ابن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحَضَر أربعا وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة . قال ابن عبـد البَرّ : انفرد به بُكَير بن الأخنس وليس بحجة فيما ينفرد به ، والصـلاة أَوْلى ما احتيط فيه، ومن صلّى ركعتين فى خوفه وسفره خرج من الاختلاف الى اليقين . وقال الضحاك ابنُ مزاحم : يصلّى صاحب خوف الموت فى المُسَايفة وغيرها ركعة فإن لم يقدر فليكبّر تكبيرتين . وقال إسحاق بن رَاهْوَيْه : فان لم يقدر إلا على تكبيرة واحدة أجزأت عنه؛ ذكره ٱبن المنذر .

---

(١) فى قوله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ... » آية ١٠٢

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ ﴾ أى ارجعوا الى ما أمرتم به من إتمام الأركان . وقال مجاهد : « أمنتم » خرجتم من دار السفر الى دار الإقامة؛ وردّ الطبرىّ على هذا القول . وقالت فرقة : «أمنتم» زال خوفكم الذى ألجأكم إلى هذه الصلاة .

السابعـــة — واختلف العلماء من هذا الباب فى بناء الخائف إذا أَمِن؛ فقال مالك : إن صلى ركعة آمِنًا ثم خاف ركب وبَنَى، وكذلك ان صلى ركعة راكبا وهو خائف ثم أَمِن نزل وبَنَى؛ وهو أحد قولى الشافعىّ، وبه قال المُزَنِىّ . وقال أبو حنيفة : إذا افتتح الصلاة آمنا ثم خاف استقبل ولم يَبْنِ، فإن صلّى خائفا ثم أَمِن بَنَى . وقال الشافعىّ : يبنى النازل ولا يبنى الراكب . وقال أبو يوسف : لا يبنى فى شىء من هذا كله .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ قيل : معناه اشـكروه على هـذه النعمة فى تعليمكم هذه الصلاة التى وقع بها الإجزاء، ولم تفتكم صلاة من الصلوات وهو الذى لم تكونوا تعلمونه . فالكاف فى قوله « كما » بمعنى الشكر؛ تقول : افعـل بى كما فعلت بك كذا مكافأة وشكرا . و « ما » فى قوله « ما لم » مفعولة بعلمكم .

التاســعة — قال علماؤنا : الصـلاة أصلها الدعاء ، وحالة الخوف أَوْلى بالدعاء فلهذا لم تسقط الصلاة بالخوف، فإذا لم تسقط الصلاة بالخوف فأَحْرَى ألّا تسقط بغيره من مرض أو نحوه، فأمر الله سـبحانه وتعالى بالمحافظة على الصلوات فى كل حال من صحـة أو مرض وحضر أو سفر وقدرة أو عجز وخوف أو أمن لا تسقط عن المكلف بحال ، ولا يتطرق الى فرضيتها اختلال . وسـيأتى بيان حكم المريض فى آخر « آل عمران[1] » إن شاء الله تعـالى . والمقصود من هـذا أن تفعل الصلاة كيف أمكن، ولا تسـقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلا بالإشارة بالعين لزم فعلها، وبهذا تميزت عن سائر العبادات كلها ، تسقط بالأعذار ويترخص فيها بالترخص . قال ابن العربىّ : ولهذا قال علماؤنا : وهى مسألة عظمى إن تارك الصلاة يقتل لأنها أشبهت الإيمان الذى لا يسقط بحال، وقالوا فيها : إحدى دعائم الإسلام لا تجوز

(١) فى قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياما ... » آية ١٩١ .

النيابة عنها ببدن ولا مال ، فيقتل تاركها . أصله الشهادتان . وسيأتى ما للعلماء فى تارك الصلاة فى « براءة »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ ذهب جماعة من المفسرين فى تأويل هذه الآية أنّ المُتوفَّى عنها زوجها كانت تجلس فى بيت المتوفَّى عنها حولا ويُنفَق عليها من ماله ما لم تخرج من المنزل، فإن خرجت لم يكن على الورثة جُناح فى قطع النفقة عنها؛ ثم نُسخ الحول بالأربعة الأشهر والعشر، ونُسخت النفقة بالرُّبُع والثُّمْن فى سورة «النساء»؛ قاله ابن عباس وقَتادة والضحّاك وابن زيد والرّبيع . وفى السُّكْنَى خلاف للعلماء، روى البخارىّ عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان هذه الآية فى « البقرة » : « وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا — الى قوله — غَيْرَ إِخْرَاجٍ » قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال : يابن أخى لا أُغيِّر(٢) شيئا منه من مكانه . وقال الطبرىّ عن مجاهد : إن هذه الآية مُحكَمة لا نسخ فيها ، والعِدّة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشرا ، ثم جعل الله لهن وصِيّة منه سُكْنَى سبعة أشهر وعشرين ليلة ، فإن شاءت المرأة سكنت فى وصّيتها و إن شاءت خرجت، وهو قول الله عز وجل : « غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » . قال ابن عطيّة : وهذا كله قد زال حكمه بالنسخ المتّفق عليه إلا ما قوّله الطبرىّ مجاهدا رحمهما الله تعالى ، وفى ذلك نَظَر على الطبرىّ . وقال القاضى عِياض : والإجماع منعقد على أن الحول منسوخ

(١) فى قوله تعالى : « فاذا انسلخ الأشهر ... » آية ٥ .

(٢) كذا فى صحيح البخارى . والذى فى الأصول : «... فلم تكتبها؟ قال : تدعها يابن أخى ... الخ» . قوله « أوتدعها » أى تتركها فى المصحف ، والشك من الراوى ، وكأن ابن الزبير ظن أن الذى ينسخ حكمه لا يكتب .

وأن عدتها أربعة أشهر وعشر . قال غيره : معنى قوله « وصيةً » أى من الله تعالى تجب على النساء بعد وفاة الزوج بلزوم البيوت سنة ثم نسخ .

قلت : ما ذكره الطبريّ عن مجاهد صحيح ثابت، خرّج البخاريّ قال : حدّثنا إسحاق قال حدّثنا رَوْح قال حدّثنا شِبْل عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا » قال : كانت هــذه العدة تعتدّ عند أهل زوجها واجبا (١) فأنزل الله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا — الى قوله — من معروف » قال : جعــل الله لها تمام السَّنَة سبعة أشهر وعشرين ليلة وَصِيّة، إن شاءت سكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت، وهو قول الله تعالى : « غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » إلا أن القول الأوّل أظهر لقوله عليه السلام : " إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة عند رأس الحول " الحديث . وهذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم عن حالة المُتوفَّى عنهن أزواجهن قبل ورود الشرع، فلما جاء الإسلام أمرهن الله تعالى بملازمة البيوت حولا ثم نسخ بالأربعة الأشهر والعشر. هذا مع وضوحه فى السُّنّة الثابتة المنقولة بأخبار الآحاد إجماعٌ من علماء المسلمين لا خلاف فيه؛ قاله أبو عمر قال: وكذلك سائر الاية . فقوله عز وجل : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » منسوخ كله عنــد جمهور العلمــاء ثم نسخ الوصية بالسكنى للزوجات فى الحول، إلا رواية شاذّة مهجورة جاءت عن ابن أبى نَجيح عن مُجاهد لم يتابَع عليها، ولا قال بها فيما زاد على الأربعــة الأشهر والعشر أحد من علماء المسلمين من الصحابة والتــابعين ومَن بعدهم فيما علمت (٢) . وقد روى ابن جُريج عن مُجاهد مثل ما عليه الناس، فانعقد الإجماع وارتفع الخلاف، وبالله التوفيق .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿وَصِيَّةً﴾ قرأ نافع وابن كَثير والكسائىّ وعاصم فى رواية أبى بكر «وصيةٌ» بالرفع على الابتداء، وخبره «لأزواجهم» . ويحتمل أن يكون المعنى عليهم وصية، ويكون قوله «لأزواجهم» صفة . قال الطبرىّ قال بعض النحاة : المعنى كُتب عليهم وصية،

(١) أى أمرا واجبا .　　(٢) فى الأصول : « ... ومن بعدهم من المخالفين فيما علمت » .

ويكون قوله «لأزواجهم» صفة . قال : وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود . وقرأ أبو عمرو وحمزة وابن عامر «وصيّةً» بالنصب، وذلك حُمِل على الفعل، أي فليُوصُوا وصية . ثم الميت لا يوصى ولكنه أراد إذا قَرُبوا من الوفاة . و «لأزواجهم» على هذه القراءة أيضا صفة . وقيل : المعنى أوصى الله وصية . ﴿ مَتَاعًا ﴾ أي متّعوهنّ متاعا، أو جعل الله لهن ذلك متاعا لدلالة الكلام عليه . ويجوز أن يكون نصبا على الحال أو بالمصدر الذي هو الوصية؛ كقوله «أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا» . والمتاع ها هنا نفقة سَنَتها .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ معناه ليس لأولياء الميت ووارثي المنزل إخراجها . و «غير» نصب على المصدر عند الأخفش، كأنه قال لا إخراجا . وقيل : نصب لأنه صفة المتـاع . وقيل : نصب على الحال من المُوصِين، أي متعوهن غير مُخْرَجات . وقيل : بنزع الخافض، أي من غير إخراج .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾ الآية . معناه باختيارهن قبل الحول . ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي لا حرج على أحد، وَلِيٍّ أو حاكم أوغيره، لأنه لا يجب عليها المقام في بيت زوجها حَوْلًا . وقيل : أي لا جناح في قطع النفقة عنهن ، أو لا جناح عليهن في التشرّف إلى الأزواج إذ قد انقطعت عنهن مراقبتكم أيها الورثة، ثم عليها ألا تتزوّج قبل إنقضاء العدّة بالحول، أو لا جناح في تزويجهن بعد إنقضاء العدّة لأنه قال «من معروف» وهو ما يوافق الشرع . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ صفة تقتضي الوعيد بالنسبة لمن خالف الحدّ في هذه النازلة فأخرج المرأة وهي لا تريد الخروج . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي مُحْكِم لما يريد من أمور عباده .

قوله تعـالى : وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

اختلف الناس في هـذه الآية؛ فقال أبو ثور : هي مُحْكَمَة والمُتْعَة لكل مطلقة؛ وكذلك قال الزُّهريّ حتى للأَمَة يطلّقها زوجها . وكذلك قال سعيد بن جُبير : لكل مطلقة مُتْعةٌ،

وهو أحد قول الشافعيّ لهذه الآية . وقال مالك : لكل مطلقة اثنتين أو واحدة بَنى بها أم لا، سَمى لها صداقا أم لا المُتْعةُ ، إلا المطلقة قبل البناء وقد سَمى لها صداقا فحسبها نصفه، ولو لم يكن سَمّى لها كان لها المتعة كانت أقل من صداق المِثْل أو أكثر ، وليس لهـذه المتعة حدّ ؛ حكاه عنه ابن القاسم . وقال ابن القاسم فى إرخاء الستور من المدوّنة : جعل الله تعالى المُتْعَة لكل مطلقة بهذه الآية ثم استثنى فى الآية الأخرى التى قد فرض لها ولم يدخل بهـا فأخرجها من المتعة ، وزعم ابن زيد أنهـا نسختها . قال ابن عطيّة : ففرّ ابن القاسم من لفظ النسخ الى لفظ الاستثناء والاستثناء لا يتّجه فى هذا الموضع بل هو نسخ محض كما قال زيد بن أسلم، واذا التزم ابن القاسم أن قوله : « وللمطلقات » يعم كل مطلقة لزمه القول بالنســخ ولا بدّ . وقال عطاء بن أبى رَبَاح وغيره : هذه الآية فى الثّيِّبات اللواتى قــد جُومعن ، إذ تقدّم فى غير هذه الآية ذكر المتعة للواتى لم يدخل بهن؛ فهــذا قول بأن التى قد فرض لها قبل المَسِيس لم تدخل قط فى العموم . فهذا يجيء على أن قوله تعالى : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تمسوهن » مخصصة لهــذا الصنف من النساء، ومتى قيل إن العموم تناولها فذلك نسخ لا تخصيص . وقال الشافعيّ فى القول الآخر : لا مُتعَةَ إلا للتى طُلّقت قبل الدخول وليس ثَمّ مسيس ولا فرض، لأن من استحقت شيئا من المهر لم يحتج فى حقها الى المتعة . وقول الله عز وجل فى زوجات النبيّ صلى الله عليه وسـلم : « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ » محمول على أنه تطوع من النبيّ صلى الله عليه وسلم لا وجوب له . وقوله : « فَمَـا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ » محمول على غير المفروضــة أيضا . قال الشافعى : والمفروض لهـا المهر إذا طُلّقت قبل المَسِيس لا متعة لها لأنها أخذت نصف المهر من غير جَرَيان وَطْء ، والمدخول بهـا اذا طُلّقت فلها المتعة، لأن المهر يقع فى مقابلة الوطء والمتعة بسبب الابتذال بالعقد . وأوجب الشافعيّ المتعة للمختلِعة والمبارِئة . وقال أصحاب مالك : كيف يكون للمُفْتَدِية متعة وهى تعطى، فكيف تأخذ متاعا ! لا متعة لمختارة الفراق من مختَلِعة أو مفتَدِية أو مبارِئة أو مصالحة أو ملاعِنة أو معتقة تختار الفراق، دخل بها أم لا، سَمّى لها صداقا أم لا ؛ وقد مضى هذا مبيّنا .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هذه رؤية القلب بمعنى ألم تعلم ، والمعنى عند سيبويه تنبّه الى أمر الدّين . ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين . وقرأ أبو عبد الرحمن السّلمىّ « ألم ترْ » بجزم الراء ، وحذفت الهمزة حذفا من غير إلقاء حركة لأن الأصل ألم ترء . وقصة هؤلاء أنهم قوم من بنى إسرائيل وقع فيهم الوَبَاء وكانو بقرية يقال لها « دَاوَرْدَان »(١) فخرجوا منها هاربين فنزلوا واديا فأماتهم الله تعالى . قال ابن عباس : كانو أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون وقالوا : نأتى أرضا ليس بها موت ، فأماتهم الله تعالى ، فمرّ بهم نبىّ فدعا الله تعالى فأحياهم . وقيل : إنهم ماتوا ثمانية أيام . وقيل سبعة ، والله أعلم . قال الحسن : أماتهم الله قبل آجالهم عقوبة لهم ، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم . وقيل : إنما فعل ذلك بهم معجزة لنبىّ من أنبيائهم ، قيل كان اسمه شَمْعون . وحكى النقّاش أنهم فرّوا من الحُمّى . وقيل : إنهم فرّوا من الجهاد لمّا أمرهم الله به على لسان حِزْقِيل النبىّ عليه السلام ، فخافوا الموت بالقتل فى الجهاد فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك . فأماتهم الله ليعرّفهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء ، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد بقوله تعالى : «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ» ؛ قاله الضحّاك . قال ابن عطية : وهذا القصص كله ليّن الأسانيد ، وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم إخبارا فى عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروْا هم وكلُّ مَن خَلَفَ مِن بعدهم أن الإماتة إنما هى بيد الله تعالى لا بيد غيره ؛ فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار

(١) داوردان (بفتح الواو وسكون الراء وآخره نون) : من نواحى شرقى واسط بينهما فرسخ . (معجم ياقوت) .

مُغْتَرّ. وجعل الله تعالى هذه الآية مقدّمة بين يدى أمر المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالجهاد؛ هذا قول الطبرى وهو ظاهرُ وصف الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ قال الجمهور : هى جمع ألف . قال بعضهم : كانوا ستمائة ألف . وقيل : كانوا ثمانين ألفا . ابن عباس : أربعين ألفا . أبو مالك : ثلاثين ألفا . السُّدِّى : سبعة وثلاثين ألفا . وقيل : سبعين ألفا ؛ قاله عطاء بن أبى رَبَاح . وعن ابن عباس أيضا أربعين ألفا وثمانية آلاف؛ رواه عنه ابن جُرَيج . وعنه أيضا ثمانية آلاف، وعنه أيضا أربعة آلاف ، وقيل ثلاثة آلاف . والصحيح أنهم زادوا على عشرة آلاف لقوله تعالى : « وَهُمْ أُلُوفٌ » وهو جمع الكثرة، ولا يقال فى عشرة فما دونها ألوف . وقال ابن زيد فى لفظة ألوف : إنما معناها وهم مؤتلفون، أى لم تخرجهم فُرقة قومهم ولا فتنةٌ بينهم إنما كانوا مؤتلفين، فخالفت هذه الفرقة فخرجت فرارا من الموت وابتغاءَ الحياة بزعمهم فأماتهم الله فى منجاهم بزعمهم . فألوف على هذا جمع آلف؛ مثل جالس وجلوس . قال ابن العربى : أماتهم الله تعالى [مدةً] (١) عقوبة لهم ثم أحياهم؛ وميتة العقوبة بعدها حياة، وميتة الأجل لا حياة بعدها . قال مجاهد : إنهم لما أُحيوا رجعوا إلى قومهم يُعرفون [أنهم كانوا موتى] (٢) سَحنة الموت على وجوههم، ولا يلبَس أحد منهم ثوبا إلا عاد كفنا دَسِماً (٣) حتى ماتوا لآجالهم التى كُتبت لهم . ابن جُرَيج عن ابن عباس : وبقيت الرائحة على ذلك السِّبْط من بنى إسرائيل إلى اليوم. ورُوى أنهم كانوا بواسط العراق . ويقال : إنهم أُحيوا بعد أن أنْتنوا؛ فتلك الرائحة موجودة فى نسلهم اليوم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أى لحذر الموت ؛ فهو نصب لأنه مفعول له . و « مُوتُوا » أمر تكوين، ولا يبعد أن يقال : نودوا وقيل لهم موتوا . وقد حُكى أن ملَكين صاحا بهم : موتوا فماتوا؛ فالمعنى قال لهم الله بواسطة الملكين موتوا، والله أعلم .

---

(١) زيادة عن كتاب أحكام القرآن لابن العربى .   (٢) زيادة عن الطبرى .

(٣) الدسم : الدنس والوساخة .

الثالثـــة ـــ أصح هذه الأقوال وأشهرها أنهم خرجوا فرارا من الوباء؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : خرجوا فرارا من الطاعون فماتوا، فدعى اللهَ نبيٌّ من الأنبيـاء أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم الله . وقال عمرو بن دينار فى هذه الآية : وقع الطاعون فى قريتهم فخرج أناس وبقى أناس ومن خرج أكثر ممن بقى ، قال : فنجا الذين خرجوا ومات الذين أقاموا ؛ فلما كان فى الثانية خرجوا بأجمعهم إلا قليلا فأماتهم الله ودوابّهم ، ثم أحياهم فرجعوا الى بلادهم وقـــد توالدت ذريتهم . وقال الحسن : خرجوا حذارا مـن الطاعون فأماتهم الله ودوابّهم فى ساعة واحدة وهم أربعون ألفا .

قلت : وعلى هـــذا تترتب الاحكام فى هـــذه الآية ؛ فروى الأئمة واللفظ للبخَارىّ من حديث عامر بن سعد بن أبى وقّاص أنه سمع أُسامة بن زيد يحدّث سعدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذَكر الوجعَ فقال : "رِجْزٌ وعذاب عُذِّب به بعضُ الأمم ثم بَقِىَ منه بقيّةٌ فيَذْهب المرّة ويأتى الأخرى فمن سمع به بأرض فلا يَقْدَمَنّ عليـــه ومن كان بأرض وقع بهـــا فلا يَخْرج فِرارا منه" . وأخرجه أبو عيسى التّرمذىّ فقال : حدّثنا قُتيبة أنبأنا حماد بن زيد عن عمرو ابن دينار عن عامر بن ســـعد عن أسامة بن زيد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ذكر الطاعون فقال : "بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بنى إسرائيل فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإذا وقع بأرض ولستم بهـــا فلا تهبطوا عليها" قال : حديث حَسَـــن صحيح . وبمقتضى هـــذه الأحاديث عمل عمر والصحابة رضـــوان الله عليهم لمـــا رجعوا من سَرْغ(١) حين أخبرهم عبـــد الرحمن بن عَوْف بالحديث، على ما هو مشهور فى الموطّأ وغيره . وقد كَرِه قوم الفِرار من الوباء والأرضِ السقيمة . رُوى عن عائشة رضى الله عنهـــا أنها قالت : الفِرار من الوباء كالفرار من الزّحْف . وقصة عمر فى خروجه الى الشام مع أبى عُبيدة معروفة ، وفيها : أنه رجع . وقال الطبرىّ : فى حديث سعد دلالة على أن على المرء تَوَقِّى المكاره قبل نزولها، وتجنُّب الأشياء المَخُوفة قبل هجومها، وأن عليه الصبر وتركَ الجزع بعد نزولها؛ وذلك أنه عليه

(١) سرغ : موضع من الشام، قيل انه بوادى تبوك، وقيل بقرب تبوك .

السـلام نهى من لم يكن فى أرض الوباء عن دخولها إذا وقع فيها ، ونهى من هو فيهـا عن الخروج منها بعد وقوعه فيها فرارا منه . فكذلك الواجب أن يكون حكم كل متّقٍ من الأمور غوائلها ، سبيله فى ذلك سبيل الطاعون . وهـذا المعنى نظير قوله عليه السلام : "لا تتمنّوا لقاء العدوّ وسَلُوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا" .

قلت : وهذا هو الصحيح فى الباب ، وهو مقتضى قول الرسول عليه السلام وعليه عمل أصحابه البَرَرة الكرام ، وقد قال عمر لأبى عُبيدة محتجًّا عليه لمـا قال له : أفرارا من قَدَر الله ! فقال عمر : لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة ! نعم ، نفِرّ من قَدَر الله إلى قَـدَر الله . المعنى : أى لا محيص للإنسان عمـا قدّره الله له وعليـه ، لكن أمرنا الله تعالى بالتحرّز من المخاوف والمَهْلَكات ، وباستفراغ الوسع فى التّوقى من المكروهات . ثم قال له : أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديا له عُدْوتان(١) إحداهما خِصْـبة والأخرى جَدْبة ، أليس إن رَعيْتَ الخصبةَ رَعيْتَها بقَـدَر الله ، وإن رعَيْت الجدبة رَعيتها بقَـدَر الله . فرجع عمر من موضـعه ذلك إلى المدينة . قال الكِيَا الطبرىّ : ولا نعلم خلافا أن الكفار أو قُطّاعَ الطريق إذا قصدوا بلدة ضعيفة لا طاقة لأهلها بالقاصدين فلهم أن يتنحّوْا من بين أيديهم ، وإن كانت الآجال المقدّرة لا تزيد ولا تنقص . وقد قيل : إنما نهى عن الفرار منه لأن الكائن بالموضع الذى الوباء فيه لعلّه قد أخذ بحظ منـه لاشتراك أهل ذلك الموضع فى سبب ذلك المرض العام ، فلا فائدة لفراره بل يضيف إلى ما أصابه من مبادىء الوباء مشقات السفر فتتضاعف الآلام ويكثر الضرر فيهلكون بكل طريق ويُطرحون فى كل فجْوة ومَضيق ، ولذلك يقال : ما فرّ أحد من الوباء فسَلِم ، حكاه ابن المدائنى . ويكفى فى ذلك موعظةً قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَـالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا » ولعلّه إن فرّ ونجا يقول : إنما نجوت من أجل خروجى عنه فيسوء اعتقاده . وبالجملة فالفرار منه ممنوع لمـا ذكرناه ولمـا فيه من تخلية البلاد ، ولا تخلو من مستضعَفين يصعب عليهم الخروج منها ، ولا يتأتّى لهم ذلك ،

(١) العدوة (بضم العين وكسرها وسكون الدال) : شاطئ الوادى وحافته .

ويتأذّون بخُلُوّ البلاد من المياسير الذين كانوا أركانًا للبلاد ومَعُونةً للمستضعَفين . وإذا كان الوباء بأرض فلا يَقدَم عليه أحد أَخْذًا بالحَزْم والحذَر والتحرُّز من مواضع الضرر، ودَفْعًا للأوهام المشوّشة بنفس الإنسان؛ وفى الدخول عليه الهلاك، وذلك لا يجوز فى حكم الله تعالى، فإن صيانة النفس عن المكروه واجبة، وقد يخاف عليه من سوء الاعتقاد بأن يقول : لولا دخولى فى هذا المكان لما نزل بى مكروه . فهذه فائدة النّهى عن دخول أرضٍ بها الطاعون أو الخروج منها، والله أعلم . وقد قال ابن مسعود : الطاعون فتنة على المقيم والفارّ؛ أما الفار فيقول : بفرارى نجوت، وأما المقيم فيقول : أقمت فمتّ؛ وإلى نحو هـذا أشار مالك حين سئل عن كراهة النظر إلى المجذوم فقال : ما سمعت فيـه بكراهة، وما أرى ما جاء من النهى عن ذلك إلا خيفة أن يُفزِعه أو يُخيفه شىء يقع فى نفسه؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الوباء : "إذا سمعتم به فى أرض فلا تقدَموا عليه وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" . وسُئل أيضا عن البلدة يقع فيها الموت وأمراضٌ، هل يكره الخروج منها؟ فقال : ما أرى بأسًا خرج أو أقام .

الرابعـــة — فى قوله عليه السلام : "إذا وقع الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" دليل على أنه يجوز الخروج من بلدة الطاعون على غير سبيل الفرار منه، إذا اعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئـه، وكذلك حكم الداخل إذا أيقن أن دخوله لا يجلب إليـه قَدَرا لم يكن الله قدّره له؛ فمباح له الدخول إليه والخروج منه على هذا الحدّ الذى ذكرناه، والله علم .

الخامســـة — فى فضل الصبر على الطّاعون وبيانه . الطّاعون وزنه فاعول من الطَّعْن، غير أنه لما عُدل به عن أصله وُضع دالّا على الموت العام بالوباء؛ قاله الجوهرىّ . ويُروى من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "فَناء أمّتى بالطَّعْن والطاعون" قالت : الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال : "غُدّة كغُدّة[1] البعير تخرج فى المَراقّ[2]

(١) الغدة : طاعون الإبل، وقلما تسلم منه . (٢) المراق : ما سفل من البطن فما تحته من المواضع التى ترق جلودها، واحدها مرق . وقال الجوهرى : لا واحد لها .

والاباط ". قال العلماء: وهذا الوباء قد يُرسله الله نقمة وعقوبة على من يشاء من العُصاة من عبيده وكَفَرتهم، وقد يُرسله شهادة ورحمة للصالحين؛ كما قال معاذ في طاعون عِمْوَاس(١): إنه شهادةٌ ورحمة لكم ودعوةُ نبيِّكم، اللّهمّ أعط معاذا وأهله نصيبهم من رحمتك. فطُعن في كفّه رضي الله عنه. قال أبو قِلابة: قد عرفت الشهادة والرحمة ولم أعرف مادعوة نبيِّكم فسألت عنها فقيل: دعا عليه السلام أن يجعل فناء أمته بالطعن والطاعون حين دعا ألّا يجعل بأس أمّته بينهم فمُنِعها فدعا بهذا. ويُروى من حديث جابر وغيره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الفارّ من الطاعون كالفارّ من الزّحف والصابرُ فيه كالصابر في الزحف". وفي البخاريّ عن يحيى بن يَعْمُر عن عائشة أنها أخبرته أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون فأخبرها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: "أنه كان عذابا يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمة للؤمنين فليس مِن عبْـد يقَعُ الطّاعونُ فيمكثُ في بلده صابرا يعـلم أنه لن يُصيبه إلا ما كَتب الله له إلا كان له مِثلُ أجْر الشهيد". وهذا تفسير لقوله عليه الصلاة والسلام: "الطاعون شهادة والمطعون شهيد" أي الصابر عليه المحتسب أجرَه على الله العالمُ أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله عليه؛ ولذلك تمنّى معاذٌ أن يموت فيه لعلمه أن من مات فهو شهيد. وأما من جَزِع من الطاعون وكَرِهه وفرّ منه فليس بداخل في معنى الحديث، والله أعلم.

السادسـة — قال أبو عمـر: لم يبلغني أن أحدا من حَمَلة العـلم فرّ من الطاعون إلا ما ذكره ابن المدائنيّ أن عليّ بن زيد بن جُدْعان هرب من الطاعون الى السّيَالة(٢) فكان يُجَمِّع كلّ جمعـة ويرجع؛ فكان إذا جمع صاحوا به: فرّ من الطاعون! فمات بالسّيالة. قال: وهَرَب عمرو بن عبيد ورباط بن محمد الى الرباطية فقال ابراهيم بن على الفُقَيمى في ذلك:

ولمـا استفز الموت كلّ مكذّب * صَبَرتُ ولم يَصبر رباط ولا عمرو

(١) عمواس (روى بكسر أوّله وسكون ثانيـه، وروى بفتح أوّله وثانيه وآخره سين مهملة): كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر رضي الله عنه ثم فشا في أرض الشام فمات منه خلق كثير لا يحصى من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم، وذلك في سنة ١٨ للهجرة.

(٢) السيالة (بفتح أوله وتخفيف ثانيه): موضع بقرب المدينة، وهي أول مرحلة لأهل المدينة اذا أرادوا مكة. وقيل: هي بين ملل والروحاء في طريق مكة الى المدينة. (عن شرح القاموس).

وذكر أبو حاتم عن الأصمعيّ قال : هَرَب بعض البصريين من الطاعون فركب حمارا له ومضى بأهله نحو سَفَوان[1]، فسمع حاديًا يَحْدُو خلفه :

لن يُسبَقَ الله على حمار * ولا على ذى مَنْعة طيّار

أو يأتىَ الحتف على مقدار * قد يُصبح الله أمام السّارى

وذكر المدائنى قال : وقع الطاعون بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مَرْوان فخرج هاربا منه فنزل قرية من قُرَى الصعيد يقال لها « سُكَّر »[2] . فقدِم عليه حين نزلها رسولٌ لعبد الملك ابن مروان . فقال له عبد العزيز : ما آسمك؟ فقال له : طالب بن مدرك . فقال : أَوْه[3] ! ما أرانى راجعا الى الفُسطاط ! فمات فى تلك القرية .

قوله تعالى : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

هذا خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالقتال فى سبيل الله فى قول الجمهور . وهو الذى ينوى به أن تكون كلمة الله هى العليا . وسُبُل الله كثيرة فهى عامة فى كل سبيل ؛ قال الله تعالى : « قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي » . قال مالك : سُبُل الله كثيرة، وما من سبيل إلا يُقاتَل عليها أو فيها أو لها ، وأعظمها دين الإسلام ، لا خلاف فى هذا . وقيل : الخطاب للذين أُحْيُوا من بنى إسرائيل ؛ رُوى عن ابن عباس والضّحاك . والواو على هذا فى قوله «وقاتلوا» عاطفة على الأمر المتقدم، وفى الكلام متروك تقديره وقال لهم قاتلوا . وعلى القول الأوّل عاطفة جملة كلام على جملة ما تقدّم ، ولا حاجة إلى إضمار فى الكلام . قال النحاس : « وقاتلوا » أمر

---

(١) سفوان (بالتحريك) : ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة . (معجم ياقوت) .

(٢) سكر (وزان زفر) : موضع بشرقية الصعيد بينه وبين مصر يومان ، كان عبد العزيز بن مروان يخرج اليه كثيرا . (عن ياقوت) . وقد ورد فى الأصول : «سكن» بالنون وهو تحريف .

(٣) أوه : كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجع وهى ساكنة الواو مكسورة الهاء ، وربما قلبوا الواو ألفا فقالوا : « آه من كذا » ، وربما شددوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء فقالوا : « أوّه » ، وبعضهم يفتح الواو مع التشديد فيقول : « أوَّه » . (عن النهاية) .

من الله تعالى للؤمنين ألا تهربوا كما هرب هؤلاء . ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى يسمع قولكم إن قلتم مثل ما قال هؤلاء ويعلم مرادكم به . وقال الطبرى : لا وجه لقول من قال إن الأمر بالقتال للذين أحيوا . والله أعلم .

قوله تعالى : مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ لما أمر الله تعالى بالجهاد والقتال على الحق، إذ ليس شيء من الشريعة إلا ويجوز القتال عليه وعنه وأعظمها دين الإسلام كما قال مالك، حرّض على الإنفاق فى ذلك . فدخل فى هذا الخبر المقاتل فى سبيل الله فإنه يُقرض به رجاءَ الثواب كما فعل عثمان رضى الله عنه فى جَيْش العُسْرة(١) . و «مَنْ» رفع بالابتداء، و «ذا» خبره، و «الذى» نعت لذا، وإن شئت بدل . ولما نزلت هذه الآية بادر أبو الدَّحْداح الى التصدّق بماله ابتغاءَ ثواب ربّه . أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام المحدّث القاضى أبو عامر(٢) يحيى بن عامر بن أحمد بن منيع الأشعرى نسبا ومذهبا بقُرْطُبة أعاذها الله فى ربيع الآخر عام ثمانية وعشرين وستمائة قراءة منّى عليه قال : أخبرنا أبى إجازة قال قرأت على أبى بكر عبد العزيز بن خلف بن مدين الأزدى عن أبى عبد الله بن سعدون سماعا عليه قال حدثنا أبو الحسن على بن مهران قال حدّثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن زكريّا بن حيوة النيسابورى سنة ست وستين وثلاثمائة قال أنبأنا عمى أبو زكريا يحيى بن زكريا قال حدّثنا محمد بن معاوية ابن صالح قال حدّثنا خلف بن خليفة عن حُميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله

(١) جيش العسرة : جيش غزوة تبوك؛ سمى بها لانه كان فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب البلاد؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس بالجهاز وحض أهل الغنى على النفقة فى سبيل الله، فأنفق عثمان رضى الله عنه فى ذلك نفقة عظيمة . قال ابن هشام : حدثنى من أثق به أن عثمان أنفق ألف دينار غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "اللهم ارض عن عثمان فانى عنه راض" .

(٢) فى بعض الأصول : «أبو عامر يحيى بن أحمد بن ربيع الأشعرى» .

ابن مسعود قال : لمـا نزلت « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » قال أبو الدَّحْداح : يا رسول الله: أوَ إن الله تعالى يريد منا القَرْض ؟ قال : "نعم يا أبا الدَّحْداح"! قال : أرنى يدك فناوله ؛ قال : فإنى أقرضت الله حائطا فيه ستمائة نخلة . ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأمّ الدّحْداح فيه وعياله ؛ فناداها : يا أمّ الدحداح ؛ قالت : لَبَّيك؛ قال : اخرجى، قد أقرضت ربّى عز وجل حائطا فيه ستمائة نخلة . وقال زيد بن أسلم : لمـا نزل «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» قال أبو الدحداح : فِداكَ أبى وأمّى يا رسول الله! إن الله يستقرضنا وهو غنى عن القرض؟ قال : "نعم يريد أن يدخلكم الجنة به". قال : فإنى إن أقرضت ربى قرضا يضمن لى به ولِصِبْيتى الدحداحة معى الجنة؟ قال : "نعم" قال : ناولنى يدك؛ فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده. فقال: إن لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، واللهِ لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضا لله تعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اِجعل إحداهما لله والأخرى دَعْها مَعيشةً لك ولعيالك". قال : فأشهدك يارسول الله أنى قد جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخـلة . قال : "إذًا يجـزيك الله به الجنة" . فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أُمّ الدحداح وهى مع صبيانها فى الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول :

هَـداكِ ربى سُـبُلَ الرّشادِ * إلى سبيل الخير والسّـدادِ
بِينِى من الحائـط بالـوداد * فقد مَضَى قَرْضًا الى التّناد
أقرضـتُه الله على ٱعتمادى * بالطّـوع لامَنٍّ ولا ٱرْتِدادِ
إلا رجاء الضّعف فى ٱلمَعادِ * فٱرْتَحِـلِى بالنّفس والأولادِ
والبِرّ لا شـكّ فخـيرُ زادِ * قـدّمه المـرء الى المَعـادِ

قالت أمّ الدّحداح : رَبِح بيعُك ! بارك الله لك فيما ٱشتريت ! وأجابتـه أمّ الدّحداح وأنشأت تقول :

بشّـركَ ٱلله بخـيرٍ وفـرَحْ * مِثلُك أدّى ما لديه ونَصَـحْ
قـد متّـع الله عِيالى ومَنَحْ * بالعَجْوة السّوداءِ والزّهْو البَلَحْ
والعبدُ يسعَى وله ما قد كَدَحْ * طولَ الليالى وعليه ما ٱجْتَرَحْ

ثم أقبلت أمّ الدحداح على صبيانها تُخرِج ما فى أفواههم وتنفُض ما فى أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كم من عِذْقٍ(١) رَدَاح ودارٍ فَيَاح(٢) لأبى الدَّحْداح" .

الثانيــة — قال ابن العربيّ : « انقسم الخلق بحكم الخالق وحكمته وقدرته ومشيئته وقضائه وقَدَره حين سمعوا هذه الآية أقساما فتفرّقوا فرقا ثلاثة : الفرقة الأولى الرَّذْلَى قالوا : إن ربّ محمد محتاج فقير إلينا ونحن أغنياء؛ فهذه جَهالة لا تخفى على ذى لُبّ؛ فردّ الله عليهم بقوله : « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ » . الفرقة الثانية لما سمعت هذا القول آثرتِ الشُّحّ والبخل وقدّمت الرّغبة فى المال؛ فما أنفقت فى سبيل الله ولا فكّت أسيرا ولا أعانت أحدا؛ تكاسُلًا عن الطاعة ورُكُونا الى هذه الدار . الثالثة لما سمعت بادرت الى امتثاله وآثر المجيب منهم بسرعة بماله كأبى الدّحداح وغيره » .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القَرْض : اسم لكل ما يُلتمَس عليه الجزاء . وأقرض فلان فلانا أى أعطاه ما يجازاه؛ قال الشاعر وهو لَبِيد :

وإذا جُوزِيتَ قَرْضًا فآجْزِهِ　*　إنما يَجزِى ٱلفتى ليس الجَمَلْ

والقِرْض بالكسر لغة فيه حكاها الكسائىّ . وٱستقرضت من فلان أى طلبت منه القَرْض فأقْرَضَنِي . وأقْرَضت منه أى أخذت القرض . وقال الزجاج : القَرْض فى اللغة البلاء الحَسَن والبلاء السيئ؛ قال أُمَيّة :

كلّ ٱمرئ سوف يُجْزَى قَرْضَه حَسَنًا　*　أو سـيّئًا ومَدِينًا مِثْلَ ما دَانَا

وقال آخر :

تُجازَى القروض بأمثالها　*　فبالخير خيرا وبالشر شرا

وقال الكسائى : القرض ما أسلفت من عملٍ صالح أو سيئ . وأصل الكلمة القطع؛ ومنه المِقْراض . وأقرضته أى قطعتُ له من مالى قطعة يُجازَى عليها . وٱنقرض القوم : انقطع

(١) العذق (بفتح فسكون) : النخلة . وبكسر فسكون : العرجون بما فيه من الشماريخ . ورداح ثقيلة .
(٢) الفياح (بالتشديد والتخفيف) : الواسع .

أثرهم وهلكوا . والقرض مهنا : اسم، ولولاه لقال إقراضا . واستدعاء القَرْض في هذه الآيةِ إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغنيّ الحميد؛ لكنه تعالى شبّه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء، حسب ما يأتي بيانه في « براءة »(١) . وقيل المراد بالآية الحثّ على الصدقة و إنفاق المال على الفقراء المحتاجين والتّوسعة عليهم، وفي سبيل الله بنصرة الدِّين . وكَنَى الله سبحانه عن الفقير بنفسه العليّة المنزّهة عن الحاجات ترغيبًا في الصدقة، كما كَنَى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام . ففي صحيح الحديث إخبارا عن الله تعالى : "يا بنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْنِي وٱستطعمتك فلم تُطعِمني واستسقيتك فلم تسقني" قال : يا رب كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين !؟ قال : "استسقاك عبدي فلان فلم تَسقِه أمَا إنك لو سقيتَه وجدتَ ذلك عندي" . وكذا فيما قبلُ؛ أخرجه مسلم والبخاريّ وهذا كله خَرجَ مخرج التّشريف لِمن كَنَى عنه ترغيبا لمن خُوطب به .

الرابعة — يجب على المستقرض ردّ القرض، لأنّ الله تعالى بيّن أنّ من أنفق في سبيل الله لا يضيع عند الله بل يردّ الثواب قطْعًا وأبهم الجزاء . وفي الخبر : "النفقة في سبيل الله تُضاعَف إلى سبعمائة ضعف وأكثر" على ما يأتي بيانه في هذه السورة عند قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ »(٢) الآية . وقال هاهنا « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً »، وهذا لا نهاية له ولا حدّ .

الخامسة — ثواب القَرْض عظيم لأنّ فيه تَوْسعة على المسلم وتفريجا عنه . خرّج ٱبن ماجه في سُنَنه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رأيت ليلةَ أُسرِيَ بي على باب الجنة مكتوبا الصّدقةُ بعشر أمثالها والقرضُ بثمانية عشر فقلت لجبريل ما بالُ القَرْض أفضل من الصدقة قال لأنّ السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجةٍ" . قال : حدّثنا محمد بن خلف العسقلانيّ حدّثنا يَعْلَى حدّثنا سليمان بن يُسَيْر

---

(١) في قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » آية ١١١ . (٢) آية ٢٦١

عن قيس بن رومى قال : كان سليمان بن أُذُنَانٍ(1) يُقرِض عَلْقمة ألف درهم إلى عطائه، فلما خرج عطاؤه تقاضاها منه واشتد عليه فقضاه ، فكأن علقمة غضب فمكث أشهرا ثم أتاه فقال : أقرِضني ألف درهم إلى عطائي ، قال : نعم وكرامة ! يا أمَّ عُتبة هَلُمِّي تلكَ الخريطةَ المختومة التي عندكِ ، قال : فجاءت بها فقال : أمَا والله إنها لَدراهِمُكَ التي قضيتني ما حرّكت منها درهما واحدا ، قال : فلله أبُوكَ ؟ ما حملك على ما فعلتَ بي ؟ قال : ما سمعتُ منك ، قال : ما سمعتَ منى ؟ قال : سمعتك تذكر عن ابن مسعود أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن مُسْلِم يُقرِض مُسْلما قَرْضًا مرّتين إلا كان كصدقتها مرّة " قال : كذلك أنبأني آبن مسعود .

السادســة — قرض الآدميّ للواحد واحد ، أي يردّ عليه مثل ما أقرضه . وأجمع أهل العلم على أن استقراض الدنانير والدراهم والحنطة والشعير والتمر والزبيب وكلّ ما له مِثْل من سائر الأطعمة جائز . وأجمع المسلمون نقلا عن نبيّهم صلى الله عليه وسلم أن اشتراط الزيادة في السَّلَف رِبًا ولو كان قَبْضة من عَلَف — كما قال ابن مسعود — أو حبّة واحدة . ويجوز أن يردّ أفضلَ مما يستلِف إذا لم يشترط ذلك عليه ، لأن ذلك من باب المعروف استدلالا بحديث أبي هريرة في البَكْر : " إنّ خِيارَكم أحسنُكم قضاء " رواه الأئمة : البخاريّ ومسلم وغيرهما . فأثنَى صلى الله عليه وسلم على مَن أحسَن القضاء ، وأطلق ذلك ولم يقيّده بصفة . وكذلك قَضَى هو صلى الله عليه وسلم في البَكْرِ وهو الفتى المختار من الإبل جَمَلا خِيارًا رباعيا . والخيار : المختار . والرّباعِي هو الذي دخل في السنة الرابعة لأنه يُلقِي فيها رَبَاعيته وهي التي تَلِي الثّنايا وهي أربع رَبَاعيات ، مخفّفة الباء . وهذا الحديث دليل على جواز قرض الحيوان ، وهو مذهب الجمهور ، ومنع من ذلك أبو حنيفة وقد تقدّم .

السابعــة — ولا يجوز أن يُهدِي من آستقرض هديّة لِلْمُقْرِض ، ولا يحِل لِلْمُقْرِض قبولها إلا أن يكون عادتهما ذلك ، بهذا جاءت السنة : خرّج آبن ماجه حدّثنا هشام بن عمار قال حدّثنا إسماعيل بن عيّاش حدّثنا عتبة بن حُميد الضبّي عن يحيى بن أبي إسحاق الهنائي قال :

---

(1) في القاموس وشرحه : سليمان بن أذنان (مثنى أذن) .

سألت أنس بن مالك عن الرجل منّا يُقرض أخاه المال فيُهدى إليه؟ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أقرض أحدكم أخاه قرضا فأهدى له أو حمله على دابته فلا يقبلها ولا يركبها إلا أن يكون جرى بينه و بينه قبل ذلك".

الثامنة — القرض يكون من المال — وقد بيّنا حكمه — و يكون من العِرْض؛ وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أَيعجِز أحدكم أن يكون كأبى ضَمْضَم كان إذا خرج من بيته قال اللّهمّ إنى قد تصدّقت بعِرْضى على عبادك". ورُوى عن ابن عمر: أقرِض من عِرْضك لِيوم فقرِك؛ يعنى من سبّك فلا تأخذ منه حَقّا ولا تُقِم عليه حَدًّا حتى تأتىَ يوم القيامة مُوفر الأجر. وقال أبو حنيفة: لا يجوز التصدّق بالعِرْض لانه حق الله؛ ورُوى عن مالك. ابن العربى: وهذا فاسد، قال عليه السلام فى الصحيح: "إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" الحديث. وهذا يقتضى أن تكون هذه المحترمات الثلاث تجرِى مَجْرًى واحدا فى كونها باحترامها حقًّا للآدمىّ.

التاسعة — قوله تعالى: ﴿حَسَناً﴾ قال الواقدىّ: محتسبا طيّبة به نفسُه. وقال عمرو ابن عثمان الصَّدَفى: لا يَمُنّ به ولا يؤذِى. وقال سهل بن عبد الله: لا يعتقد فى قرضه عوضًا.

العاشرة — قوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قرأ عاصم وغيره «فيضاعفه» بالألف ونصب الفاء. وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتشديد فى العين مع سقوط الألف ونصب الفاء. وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وشيبة بالتشديد ورفع الفاء. وقرأ الآخرون بالألف ورفع الفاء. فمن رفعه نسقه على قوله: «يقرض» وقيل: على تقدير هو يضاعفه. ومن نصب فجوابا للاستفهام بالفاء. وقيل: بإضمار «أن» والتشديد والتخفيف لغتان. دليل التشديد «أضعافا كثيرة» لأن التشديد للتكثير. قال الحسن والسُّدّى: لا نعلم هذا التّضعيف إلا لله وحده، لقوله تعالى: «وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا». قال أبو هريرة: هذا فى نفقة الجهاد، وكنا نَحْسَب والنبىّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا نفقةَ الرجل على نفسه و رفقائه وظَهْرِه بألْفَىْ ألف.

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ هـذا عام فى كل شىء فهـو القابض الباسط، وقد أتينا عليهما فى «شرح الأسماء الحسنى فى الكتاب الأسنى» .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وعيد، فيجازى كلا بعمله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

ذُكر فى التّحريض على القتال قصـة أخرى جَرَت فى بنى إسرائيل . والملأ : الأشراف من الناس، كأنهم ممتلئون شرفا . وقال الزّجاج : سُمّوا بذلك لأنهم ممتلئون مما يحتاج اليه منهم . والملأ فى هـذه الآية القومُ لأنّ المعنى يقتضـيه . والملأ : اسم للجمع كالقـوم والرّهْط . والملأ أيضا : حُسْن الخُلُق؛ ومنه الحديث "أَحْسِنُوا المَلَأ فكلّكم سَيَرْوَى" خرّجه مسلم .

قوله تعـالى : ﴿ مِنْ بَعْـدِ مُوسَى ﴾ أى من بعد وفاته . ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ قيـل : هو شمويل بن بال (١) بن علقمة و يعرف بٱبن العجوز . و يقال فيه : شمعون؛ قاله السُّدّىّ . وإنمـا قيـل ٱبن العجوز لأنّ أمّه كانت عجوزا فسألت الله الولدَ وقد كَبِرت وعقمت فوهبه الله تعالى لهـا . و يقال له : سمعون لأنها دَعت الله أن يرزقها الولدَ فسمع دعاءها فولدت غلاما فسمته «سمعون»، تقول : سمع الله دعائى، والسين تصير شينا بلغة العبرانية، وهو من ولد يعقوب . وقال مُقاتل : هو من نَسـل هارون . وقال قَتادة : هو يُوشع بن نُون . قال ابن عطيّة : وهذا ضعيف لأنّ مدّة داود هى من بعد موسى بقُرون من

(١) اضطربت الأصول فى هذا الاسم، ففى بعضها بالباء واللام، وفى أخرى بالياء والنون، وفى ثالثة بالنون واللام . والذى فى تفسير الطبرى : «بالى» .

الناس ، ويُوشع هو فَتَى موسى . وذكر المُحاسِبيّ أن آسمه إسماعيل ، والله أعلم . وهذه الآية هى خبرعن قوم من بنى إسرائيل نالتهم ذِلّة وغَلَبةُ عدوّ فطلبوا الإذنَ فى الجهاد وأن يُؤمَروا به ، فلما أُمِروا كَعّ(١) أكثرُهم وصَبَر الأقلّ فنصرهم الله . وفى الخبر أن هؤلاء المذكورين هم الذين أُمِيتوا ثم أُحْيُوا ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ نُقَاتِلْ ﴾ بالنون والجزم قراءة جمهور القرّاء على جواب الأمر . وقرأ الضحّاك وآبن أبى عَبْلَة بالياء ورفْع الفعلِ ، فهو فى موضع الصفة للملك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ و « عَسِيتم » بالفتح والكسر لغتان ، وبالثانية قرأ نافع ، والباقون بالأولى وهى الأشهر . قال أبو حاتم : وليس للكسر وجْه ، وبه قرأ الحسن وطَلْحة . قال مَكِّيّ فى اسم الفاعل : عَسٍ ، فهذا يدلّ على كسر السين فى الماضى . والفتح فى السين هى اللغة الفاشية . قال أبو علىّ : ووجه الكسر قول العرب : هو عَسٍ بذلك ، مثل حرٍ وشَجٍ ، وقد جاء فَعَل وفَعِل فى نحو نَقَم ونَقِم ، وكذلك عَسَيت وعَسِيت ، فإن أسند الفعل الى ظاهر فقياس عسيتم أن يقال : عَسِيَ زيد ، مثل رضِيَ زيد ، فإن قيل فهو القياس ، وإن لم يُقَل فسائغ أن يؤخذ باللغتين فتُستعمل إحداهما موضع الأخرى . ومعنى هذه المقالة : هل أنتم قريب من التولّى والفِرار . ﴿ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ قال الزجاج : « أَلَّا تُقَاتِلُوا » فى موضع نصب ، أى هل عسيتم مقاتلة . « قَالُوا وَمَالَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ » قال الأخفش : « أن » زائدة . وقال الفرّاء : هو محمول على المعنى ، أى وما منعنا ، كما تقول : مَالَكَ ألّا تُصَلِّي؟ أى ما منعك . وقيل : المعنى أىّ شىء لنا فى ألّا نقاتل فى سبيل الله ! قال النحاس : وهذا أجودها . «وأنْ» فى موضع نصب . ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا ﴾ تعليل ، وكذلك ﴿ وَأَبْنَائِنَا ﴾ أى بسبب ذرارينا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ﴾ أى فُرِض عليهم القتال ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ أخبر تعالى أنه لما فَرض عليهم القتالَ ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم الى مباشرة الحرب وأنّ نفوسهم

(١) يقال : رجل كع وكاع اذا جبن عن القتال . وقيل : هو الذى لا يمضى فى عزم ولا حزم وهو الناكص على عقبيه .

ربّما قد تذهب « تولّوا » اى اضطربت نيّاتهم وفترت عزائمهم ، وهـذا شأن الأمم المتنعّمة المائلة الى الدّعة تتمنّى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب كعّت وانقادت لطبعها . وعن هذا المعنى نهى النبيّ صلى الله عليـه وسلم بقوله : "لا تتمنّوا لقاء العدوّ وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فآثبتوا" رواه الأئمة . ثم أخبر تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال فى سبيل الله .

قوله تعـالى : وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ أى أجابكم الى ما سألتم ، وكان طالوتُ سَقّاء . وقيل دباغا . وقيل مُكَارِيا ، وكان عالمـا فلذلك رفعه الله على ما يأتى . قال : وكان من سِبط بِنْيامين ولم يكن من سِبط النبوة ولا من سِبط المُلْك ، وكانت النبوّة فى بَنِى لاوى ، والمُلْك فى سِبط يَهُوذا فلذلك أنكروا . قال وَهب بن مُنَبِّه : لمـا قال الملأ من بنى إسرائيل لشَمْويل بن بال ما قالوا سأل الله تعالى أن يَبعث إليهم مَلِكا و يدلّه عليه ؛ فقال الله تعالى : أنظر الى القَرَن[1] الذى فيه الدُّهن فى بيتك فاذا دخل عليك رجل فنَشّ[2] الدّهن الذى فى القَرَن فهو مَلِك بنى إسرائيل فادهن رأسه منه وملّكه عليهم . قال : وكان طالوت دبّاغا فخرج فى ابتغاء دابة أضلّها فقصد شمو يل عسى أن يدعو له فى أمر الدابة أو يجد عنده فرجا فنشّ الدّهن على ما زعموا ، قال : فقام اليه شمو يل فأخذه ودهن منه رأس طالوت وقال له : انت مَلِك بنى إسرائيل الذى أمرنى الله تعالى بتقديمه ، ثم قال لبنى إسرائيل : إن الله قد بعث لكم طالوت مَلِكا . وطالوت وجالوت إسمان أعجميان معربان ولذلك لم ينصرفا ،

(١) القرن (بالتحريك) : الجعبة من جلود تكون مشقوقة ثم تخرز .　　(٢) نش : صوّت .

وكذلك داود، والجمع طواليت وجواليت ودواويد، ولو سمّيت رجلا بطاوس وراقود(١) لصرفتَ وإن كانا أعجميين . والفرق بين هذا والأوّل أنك تقول : الطاوس، فتدخل الألف واللام فيمكن في العربيّة ولا يمكن هذا في ذاك .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أي كيف يملكنا ونحن أحقّ بالمُلْك منه ! . جَرَوْا على سُنّتهم في تعنيتهم الأنبياءَ وحَيْدهم عن أمر الله فقالوا : « أنَّى » أي من أي جهة، فأنَّى في موضع نصب على الظرف، ونحن من سِبْط الملوك وهو ليس كذلك وهو فقير، فتركوا السبب الأقوَى وهو قـدَر الله تعالى وقضاؤه السابق حتى ٱحتجّ عليهم نبيّهـم بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَاهُ ﴾ أي ٱختاره وهو الحجة القاطعة ، وبيّن لهم مع ذلك تعليـل ٱصطفاء طالوت وهو بَسْطته في العِلْم الذي هو مِلَاك الإنسان، والجسم الذي هو مُعِينه في الحرب وعُدّته عند اللقاء، فتضمّنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة وأنها مستحقة بالعلم والدِّين والقوّة لا بالنَّسب، فلا حظّ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس وأنها متقدّمة عليه، لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوّته وإن كانوا أشرف مُنْتَسبا . وقد مضى في أوّل السـورة من ذِكر الإمامـة وشروطها ما يَكْفي ويُغْنِي(٢) . وهـذه الآية أصل فيهـا . قال ابن عباس : كان طالوت يومئذ أعلمَ رجل في بني إسرائيل وأجمله وأتمه، وزيادة الجسم ممـا يهيب العدوّ . وقيـل : سُمِّيَ طالوت لطوله . وقيل : زيادة الجسم كانت بكثرة معاني الخير والشجاعة، ولم يُرِدْ عِظَم الجسم، ألم ترالى قول الشاعر(٣) :

تَرَى الرَّجلَ النَّحيف فتَزْدرِيهِ * وفي أثوابه أســـد هَصور(٤)
ويُعجِبك الطَّـرير فتَبْتَلِيـه * فيُخلِف ظنَّك الرَّجلُ الطَّرِير(٥)
وقـد عَظُم البَعير بغير لُبّ * فلم يَستغـن بالعِظَم البَعيرُ

(١) الراقود : الدن الكبير، أو هو دن طويل الأسفل . والجمع الرواقيد معرب . (٢) تراجع المسألة الرابعة وما بعدها جـ ١ ص ٢٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) هو العباس بن مرداس؛ كما في الحماسة وغيرها .
(٤) في بعض الأصول : «مزير» . والمزير : الشديد القلب القوي النافذ . والهصور : الشديد الذي يفترس ويكسر . (٥) الطرير : ذو الرواء والمنظر .

قلت : ومن هـذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لأزواجه : "أسرعكُنّ لحاقًا بي أطولكُنّ يدًا" فكُنّ يتطاولن؛ فكانت زينب أوّلهن موتا لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدّق؛ خرّجه مسلم . وقال بعض المتأوّلين : المراد بالعلم عِلْم الحروب، وهذا تخصيص العموم من غير دليل . وقد قيل : زيادة العلم بأن أوحى الله إليه، وعلى هذا كان طالوت نبيًّا، وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ذهب بعض المتأوّلين الى أن هـذا من قول الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو من قول شَمويل وهو الأظهر . قال لهم ذلك لما عَلم من تَعنُّتهم وجدالهم فى الحجج فأراد أن يتم كلامه بالقَطعىّ الذى لا اعتراض عليه فقال الله تعالى : « والله يؤتى ملكه من يشاء » . وإضافة ملك الدنيا الى الله تعالى إضافة مملوك الى مَلِك . ثم قال لهم على جهة التغبيط والتنبيه من غير سؤال منهم : « إن آية ملكه » . ويحتمل أن يكونوا سألوه الدّلالة على صدقه فى قوله : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » . قال ابن عطيّة : والأوّل أظهر بمساق الآية ، والثانى أشبه بأخلاق بنى إسرائيل الذميمة، واليه ذهب الطبرىّ .

قوله تعالى : وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾ أى إتيان التابوت، والتابوت كان من شأنه فيما ذُكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام، فكان عنده إلى أن وصل الى يعقوب عليـه السلام فكان فى بنى إسرائيل يَغلبون به من قاتلهم حتى عَصَوا فغُلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة : جالوتُ وأصحابُه فى قول السُّدّى، وسلبوا التابوت منهم .

قلت : وهذا أدلّ دليل على أن العصيان سبب الخذلان، وهـذا بيّن . قال النحاس : والاية فى التابوت على ما رُوى أنه كان يُسمع فيه أنين ، فإذا سمعوا ذلك ساروا لحربهـم ،

وإذا هدأ الأنين لم يسيروا ولم يَسِر التابوت . وقيل : كانوا يضعونه في مأزق الحرب فلا تزال تَغلِب حتى عصَوا فغُلِبوا وأُخذ منهم التابوت وذلّ أمرهم ؛ فلما رأوا آية الاصطلام (١) وذهاب الذكر أَنِف بعضهم وتكلّموا في أمرهم حتى اجتمع ملؤهم أن قالوا لنبيّ الوقت : إبعث لنا ملكا ؛ فلما قال لهم : ملككم طالوت راجعوه فيه كما أخبر الله عنهم ؛ فلما قطعهم بالحجة سألوه البيّنة على ذلك في قول الطبريّ . فلما سألوا نبيهم البيّنة على ما قال دعا ربّه فنزل بالقوم الذين أخذوا التابوت داء بسببه ، على خلاف في ذلك . قيل : وضعوه في كنيسة لهم فيها أصنام فكانت الأصنام تُصبح منكوسة . وقيل : وضعوه في بيت أصنامهم تحت الصنم الكبير فأصبحوا وهو فوق الصنم فأخذوه وشدّوه الى رجليه فأصبحوا وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه وألقيت تحت التابوت ؛ فأخذوه وجعلوه في قَرْية قوم فأصاب أولئك القومَ أوجاع في أعناقهم . وقيل : جعلوه في مَخْرأة قوم فكانوا يصيبهم الباسور (٢) ؛ فلما عظم بلاؤهم كيفما كانوا قالوا : ما هذا إلا لهذا التابوت! فلنردّه الى بني إسرائيل فوضعوه على عَجَلَة بين ثورين وأرسلوهما في الأرض نحو بلاد بني إسرائيل ، وبعث الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا على بني إسرائيل وهم في أمر طالوت فأيقنوا بالنصر ؛ وهذا هو حمل الملائكة للتابوت في هذه الرواية . ورُوي أن الملائكة جاءت به تحمله وكان يوشع بن نون قد جعله في البريّة ، فروى أنهم رأوا التابوت في الهواء حتى نزل بينهم ؛ قاله الربيع بن خُثَيْم . وقال وَهب بن مُنبِّه : كان قدر التابوت نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين . الكلبي : وكان من عود شمسار (٣) الذي يُتّخذ منه الأمشاط . وقرأ زيد بن ثابت « التابوه » وهي لغته ، والناس على قراءته بالتاء وقد تقدّم . ورُوي عنه « التيبوت » ذكره النحاس . وقرأ حُميد بن قيس « يحمله » بالياء .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ اختلف الناس في السكينة والبقيّة ؛ فالسكينة فعيلة مأخوذة من السكون والوقار والطمأنينة . فقوله « فيه سكينة » أي هو سبب سكون

---

(١) الاصطلام : الاستئصال والإبادة . (٢) في بعض نسخ الأصل : « الناسور » بالنون .

(٣) كذا في الأصول بالشين المعجمة والميم والسين المهملة . والذي في البحر لأبي حيان بالمعجمتين بينهما ميم .

قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت، ونظيره « فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ » أى أنزل عليه ما سكن قلبه . وقيل : أراد أن التابوت كان سبب سكون قلوبهم ، فأينما كانوا سكنوا اليه ولم يفرّوا من التابوت اذا كان معهم فى الحروب . وقال وَهب بن مُنَبّه : السّكينة روح من الله تتكلم، فكانوا إذا اختلفوا فى أمر نطقت ببيان ما يريدون، وإذا صاحت فى الحرب كان الظفر لهم . وقال على بن أبى طالب : هى ريح هفّافة لها وجه كوجه الإنسان . وروى عنه أنه قال : هى ريح خَجُوج(١) لها رأسان . وقال مجاهد : حيوان كالهرّ له جناحان وذَنَب ولعينيه شعاع، فإذا نظر الى الجيش انهزم . وقال ابن عباس : طَسْت من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، وقاله السُّدّى . قال ابن عطيّة : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن الى ذلك وتأنس به وتقوى .

قلت : وفى صحيح مسلم عن البَراء قال : كان رجل يقرأ سورة «الكهف» وعنده فرس مربوط بشَطَنَين(٢) فتغشّته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسُه ينفر منها ، فلما أصبح أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : "تلك السّكينة تنزّلت للقرآن" . وفى حديث أبى سعيد الخُدْرى أن أُسَيْد بن الحُضير بينما هو ليلةً يقرأ فى مِربَده(٣)، الحديث . وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأتَ لأصبحتْ يَراها الناس ما تستتر منهم" خرّجه البخارى ومسلم . فأخبر صلى الله عليه وسلم عن نزول السكينة مرة ومرة عن نزول الملائكة ؛ فدلّ أن السّكينة كانت فى تلك الظُّلّة وأنها تنزّل أبدا مع الملائكة . وفى هذا حجة لمن قال إن السكينة رُوح أو شىء له رُوح؛ لأنه لا يصح استماع القرآن إلا لمن يعقل، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَبَقِيَّةٌ ﴾ اختُلف فى البقيّة على أقوال؛ فقيل : عصى موسى وعصى هارون ورُضاض(٤) الألواح لأنها انكسرت حين ألقاها موسى؛ قاله ابن عباس . زاد عِكرمة :

---

(١) ريح خجوج : شديدة المرور فى غير استواء .
(٢) الشطن : الحبل، وجمعه أشطان .
(٣) المربد (بكسر فسكون ففتح» : الموضع الذى ييبس فيه التمر .
(٤) رضاض الشىء (بضم الراء) : فتاته .

التـوراة . وقال أبو صالح : البقيّة عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة . وقال عطيةُ بن سـعد : هى عصـا موسى وهارون وثيابهـما ورُضاض الألواح . وقال الثّورىّ : من النـاس من يقول البقية قفـيزان فى طَسْت من ذهب وعصا موسى وعمـامة هارون ورُضاض الألواح . ومنهم من يقول : العصى والنعلان . ومعنى هذا ما رُوى عن موسى لمـا جاء قومه بالألواح فوجدهم قد عبدوا العجل ألقى الألواح غضبا فتكسّرت؛ فنزع منها ما كان صحيحا وأخذ رُضاض ما تكسّر بجعله فى التابوت . وقال الضحّاك : البقية الجهاد وقتال الأعداء . قال ابن عطيّة : أى الأمر بذلك فى التابوت؛ إمّا أنه مكتوب فيـه وإما أن نفس الإتيان به كالأمر بذلك؛ وأسـند التّرك الى موسى وهارون من حيث كان الأمر مُندرجا من قوم الى قوم وكلهم آل موسى وآل هارون . وآل الرجل قرابته . وقد تقدّم (١) .

قوله تعـالى : فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ «فَصَل» معناه خرج بهم . فصَلْت الشيء فانفصل، أى قطعته فانقطع . قال وهب بن مُنَبِّه : فلما فصل طالوت قالوا له إن الميـاه لا تحملنا فَادْعُ الله أن يُجرى لنا نهرا؛ فقال لهم طالوت : إن الله مُبْتَلِيكم بنَهَر . وكان عدد الجنود فى قول السُّدّىّ ثمـانين ألفا لم يتخلّف عنـه إلا ذو عذر من صغر أو كبر أو مرض . والابتلاء الاختبار . والنَّهَر والنَّهْر لغتان ، واشـتقاقه من السعة؛ ومنه النهار وقد

(١) راجع المسألة الثانية والثالثة جـ ١ ص ٣٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

تقدّم[(١)] . قال قتادة : النهر الذى ابتلاهم الله به هو نهر بين الأُرْدُنّ وفلسطين . وقرأ الجمهور « بنهر » بفتح الهاء . وقرأ مُجاهد وحُميد الأعرج « بنَهْر » بإسكان الهاء . ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم ، فمن ظهرت طاعته فى ترك الماء عُلم أنه مطيع فيما عَدَا ذلك . ومن غلبته شهوته وعصى الأمرَ فهو فى العصيان فى الشدائد أحْرَى ؛ فرُوى أنهم أتوا النهر وقد نالهم عطش وهو فى غاية العذوبة والحُسْن فلذلك رخّص فى المطيعين فى الغَرْفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليَكْسِروا نزاع النفس فى هذه الحال . وبيّن أن الغَرْفة كافّةٌ ضرر العطش عند الحَزَمة الصابرين على شَظَف العيش الذين همهم فى غير الرفاهية ؛ كما قال عُروة :

* وأَحْسُوا قراح الماءِ والماء بارد *

قلت : ولهذا المعنى قوله عليه السلام : "حَسْب المرء لُقيماتٌ يُقِمن صلبه" . وقال بعض من يتعاطى غوامض المعانى : هذه الآية مَثَل ضربه الله للدنيا فشبهها الله بالنهر والشارب منه والمائل اليها والمستكثر منها ، والتارك لشُربه بالمنحرف عنها والزاهدِ فيها ، والمُغْترف بيده غَرْفة بالآخذ منها قدر الحاجة ، وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة .

قلت : ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف فى التأويل والخروج عن الظاهر ، لكن معناه صحيح من غير هذا .

الثانية — استدلّ من قال إن طالوت كان نبيًّا بقوله : « إن الله مبتليكم » وأن الله أوحى إليه بذلك وألهمه ، وجعل الإلهام ابتلاء من الله لهم . ومن قال لم يكن نبيا قال : أخبره نبيّهم شمويل بالوحى حين أخبر طالوت قومَه بهذا ، وإنما وقع الابتلاء ليتميّز الصادق من الكاذب . وقد ذهب قوم إلى أن عبد الله بن حُذافة السّهْمىّ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أمر أصحابه بإيقاد النار والدخول فيها تجربة لطاعتهم ، لكنه حمل مزاحه على تخشين الأمر الذى كلفهم ، وسيأتى بيانه فى « النساء[(٢)] » إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » آية ٥٩

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ شرب قيل معناه كَرَعَ . ومعنى «ليس مِني» أى ليس من أصحابى فى هـذه الحروب، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمـان . قال السّدى : كانوا ثمانين ألفا، ولا محالة أنه كان فيهم المؤمن والمنافق والمُجِـدّ والكسلان؛ وفى الحديث "من غشّنا فليس منا" أى ليس من أصحابنا ولا على طريقتنا وهَدْينا . قال :[1]

اذا حاولتَ فى أسَـد فجـوراً * فإنى لستُ منكَ ولستَ مِنِّى

وهذا مَهْيَعٌ[2] فى كلام العرب؛ يقول الرجل لابنه إذا سلك غير أسلوبه : ليس منى .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ يقال : طَعِمت الشيء أى ذقته . وأطعمته المـاء أى أذقته ولم يقل ومن لم يشربه لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئا أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات؛ فلا عِبرة بقَدْح من يقول : لا يقال طعمت المـاء .

الخامســـة ــ استدل علماؤنا بهذا على القول بسدّ الذرائع لأن أدنى الذوق يدخل فى لفظ الطعم، فاذا وقع النّهى عن الطعم فلا سبيل الى وقوع الشرب ممن يتجنب الطعم، ولهذه المبالغة لم يأت الكلام «ومن لم يشرب منه» .

السادســـة ــ لمـا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ ﴾ دلّ على أن المـاء طعام وإذا كان طعاما كان قوتا لبقائه واقتيات الأبدان به فوجب أن يجرى فيه الرّبا . قال ابن العربىّ : وهو الصحيح من المذهب . قال أبو عمر قال مالك : لا بأس ببيع المـاء على الشّطّ بالمـاء متفاضلا وإلى أجل؛ وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف . وقال محمد بن الحسن : هو مما يُكال و يوزن؛ فعلى هذا القول لا يجوز عنده التفاضل، وذلك عنده فيه رِبًا لأن علّته فى الربا الكيل والوزن . وقال الشافعىّ : لا يجوز بيع المـاء متفاضلا ولا يجوز فيه الأجل، وعلتـه فى الربا أن يكون مأكولا جنسا .

---

(١) هو النابغة الذبيانى، يقول هذا لعيينة بن حصن الفزارى، وكان قد دعاه وقومه الى مقاطعة بنى أسد ونقض حلفهم فأبى عليه وتوعده بهم، وأراد بالفجور نقض الحلف . (عن شرح الشواهد) .

(٢) المهيع : الواضح الواسع البين .

السابعة — قال ابن العربى" قال أبو حنيفة : من قال إنْ شَرِب عبدى فلان من الفُرات فهو حُرٌ فلا يعتق إلا أن يَكْرَع فيه . والكرع أن يشرب الرجل بفيه من النهر ، فإن شرب بيده أو اغترف بالإناء منه لم يعتق ؛ لأن الله سبحانه فرّق بين الكَرْع فى النهر و بين الشرب باليد . قال : وهذا فاسد لأن شرب الماء يطلق على كل هيئة وصفة فى لسان العرب من غَرْفٍ باليد أو كَرْع بالفم انطلاقا واحدا ، فاذا وُجد الشّرب المحلوفُ عليه لغة وحقيقةً حَنِث ، فاعلمه .

قلت : قول أبى حنيفة أصح ، فإن أهل اللغة فرقوا بينهما كما فرّق الكتاب والسُّنّة . قال الجوهرى وغيره : وكَرَع فى الماء كُروعا اذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفّيه ولا بإناء ، وفيه لغة أخرى « كَرِع » بكسر الراء كَرَعًا . والكَرَع : ماء السماء يُكْرَع فيه . وأما السُّنّة فذكر ابن ماجه فى سننه حدّثنا واصل بن عبد الأعلى حدّثنا ابن فُضَيل عن ليث عن سعيد بن عامر عن ابن عمر قال : مررنا على بركة فجعلنا نكرع فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَكْرَعوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناء أطيبَ من اليد" وهذا نصّ . وليث بن أبى سليم خرّج له مسلم وقد ضُعِّف .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ الاغتراف : الأخذ من الشيء باليد و بآلة ، ومنه المِغْرَفة ، والغَرْف مثلُ الاغتراف . وقرئ « غَرْفة » بفتح الغين وهى مصدر ، ولم يقل اغترافة لأن معنى الغرف والاغتراف واحد . والغَرْفة المرّة الواحدة . وقرئ « غُرْفة » بضم الغين وهى الشيء المغترَف . وقال بعض المفسرين : الغَرْفة بالكَفّ الواحد والغُرْفة بالكَفَّين . وقال بعضهم : كلاهما لغتان بمعنًى واحد . وقال علىّ رضى الله عنه : الأكُفّ أنظفُ الانية ؛ ومنه قول الحسن :

لا يَدلِفون الى ماء بآنية ❊ إلا اغترافا من الغُدْران بالرّاح

الدَّليف : المشىُ الرُّوَيد .

قلت : ومن أراد الحلال الصرف فى هذه الأزمان دون شبهة ولا امتراء ولا ارتياب فليشرب بكفيه الماءَ من العيون والأنهار المسخَّرة بالجريان آناءَ الليل والنهار، مُبْتغيا بذلك من الله كسب الحسنات ووضع الأوزار واللحوق بالأئمة الأبرار؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ شرب بيده وهو يقدر على إناء يريد به التواضع كتب الله له بعدد أصابعه حسنات وهو إناء عيسى بن مريم عليهما السلام إذ طرح القدح فقال أفّ هذا مع الدنيا". خرّجه ابن ماجه من حديث ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشرب على بطوننا وهو الكَرْع، ونهانا أن نغترف باليد الواحدة، وقال: "لا يَلَغ أحدكم كما يَلَغ الكلب ولا يشرب باليد الواحدة كما يشرب القوم الذين سخِط الله عليهم ولا يشرب بالليل فى إناء حتى يحرّكه إلا أن يكون إناء مُخَمَّرا ومن شرب بيده وهو يقدر على إناء" الحديثَ كما تقدّم، وفى اسناده بَقِيّة بن الوليد . قال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به . وقال أبو زُرعة : إذا حدّث بَقِيّة عن الثِّقات فهو ثقة .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس: شَرِبوا على قدر يقينهم، فشَرِب الكفار شُرب الهِيم(١) وشرِب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفا وبقى بعض المؤمنين لم يشرب شيئا وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يَرْوَ بل برّح به العطش، وأما من ترك الماء فحسُنَت حاله وكان أجْلَدَ ممن أخذ الغرفة .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ ﴾ الهاء تعود على النهر، «وهو» توكيد . «والذين» فى موضع رفع عطفا على المضمر فى جاوزه؛ يقال : جاوزت المكان مجاوزة وجِوازا . والمجاز فى الكلام ما جاز فى الاستعمال ونفذ واستمر على وجهه . قال ابن عباس والسُّدّى: جاز معه فى النهر أربعة آلاف رجل فيهم من شرب، فلما نظروا إلى جالوت وجنوده وكانوا مائة ألف كلهم شاكُون فى السلاح رجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون؛ فعلى هذا القول قال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله تعالى عند ذلك وهم عدّة أهل

(١) الهيم : الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء، واحدها أهيم، والأنثى هيماء .

بدر : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » . قال المفسرون : على أنه إنما جاز معه النهر من لم يشرب جملة ؛ فقال بعضهم : كيف نطيق العدوّ مع كثرتهم ! فقال أولوا العزم منهم : « كم من فئة قليلة غلبت فئــة كثيرة بإذن الله » . قال البراء بن عازب : كنا نتحدّث أن عدّة أهـل بدر كعدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معــه النهر ثلاثمائة وبضــعة عشر رجلا — وفي رواية وثلاثة عشر رجلا — وما جاز معه إلا مؤمن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ والظن هنا بمعنى اليقين . ويجوز أن يكون شكًّا لا علما ، أي قال الذين يتوهّمون أنهم يقتلون مع طالوت فيلقون الله شهداء ؛ فوقع الشك في القتل .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ الفئة الجماعة من الناس والقطعة منهم ، من فأَوْت رأسه بالسيف وفأيته أي قطعته . وفي قولهم رضي الله عنهم : « كم من فئة قليلة » الآيةَ ، تحريض على القتال واستشعارٌ للصبر واقتداءٌ بمن صدّق ربّه .

قلت : هكذا يجب علينا نحن أن نفعل ؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قُدّام اليسير من العدوّ كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا ! وفي البخاريّ : وقال أبو الدرداء إنما تقاتلون بأعمالكم . وفيه مُسند أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "هل تُرزقون وتنصرون إلا بضعفائكم". فالأعمال فاسدة والضعفاء مُهمَلون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة ! . قال الله تعالى : « اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ » وقال : « وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا » وقال : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » وقال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وقال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَــةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليــه راجعون على ما أصابنا وحلّ بنا ! بل لم يبق من الإســلام إلا ذكره ، ولا من الدّين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدوّ شرقا وغربا برا وبحرا ، وعمّت الفتن وعظُمت المحَن ولا عاصم إلا من رحم ! .

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)﴾

« برزوا » صاروا فى البَرَاز وهو الأفسح من الأرض المتّسع . وكان جالوت أمير العمالقة ومَلِكهم ظله مِيل . ويقال : إن البربر من نسله؛ وكان فيما رُوِى فى ثلاثمائة ألف فارس . وقال عكرمة : فى تسعين ألفا؛ ولما رأى المؤمنون كثرة عدوّهم تضرعوا إلى ربّهم؛ وهذا كقوله : «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ» الى قوله : «وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا» الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لَقِيَ العدوَّ يقول فى القتال : "اللّهُمّ بك أَصُول وأَجُول" وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا لَقِيَ العدوّ : "اللّهمّ إنى أعوذ بك من شرورهم وأجعلك فى نحورهم" ودعا يوم بَدْر حتى سقط رداؤه عن مَنْكِبَيْه لِيَسْتَنْجِز اللهَ وعدَه على ما يأتى بيانه فى «آل عمران»(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾

قوله تعالى : ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى فأنزل الله عليهم النصر؛ فهزموهم : فكسروهم . والهزم : الكسر؛ ومنه سِقاء مُتَهَزِّم؛ أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف . ومنه ما قيل فى زمزم : إنها هَزْمَةُ جِبْرِيل؛ أى هزمها جبريل برجله فخرج الماء . والهزم : ما تكسّر من يابس الحطب .

قوله تعالى : ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ وذلك أن طالوتَ المَلِكَ اختاره من بين قومه لقتال جالوت ، وكان رجلا قصيرا مِسْقاما مِصْغارا أصْفَرَ أزرق ، وكان جالوتُ من أشدّ الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده؛ وكان قَتْل جالوت وهو رأس العمالقة على يده وهو داود

(١) الآيات : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

ابن إيشي بكسر الهمزة، ويقال : داود بن زكريا بن رشوى وكان من سبط يهوذا بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وكان من أهل بيت المقدس جمع له بين النبوة والملك بعد أن كان راعيا وكان أصغر إخوته وكان يرعى غنما، وكان له سبعة إخوة في أصحاب طالوت؛ فلما حضرت الحرب قال في نفسه : لأذهبنّ إلى رؤية هذه الحرب ، فلما نهض في طريقه مرّ بحجر فناداه : يا داود خُذْني فبي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر ثم آخر فأخذهم وجعلهم في مِخْلاته وسار فخرج جالوت يطلب مبارزا فكَعّ(١) الناسُ عنه حتى قال طالوت : من يبرُز إليه ويقتله فأنا أزوّجه ابنتي وأحكّمه في مالي؛ فجاء داود عليه السلام فقال : أنا أبرز إليه وأقتله ، فازدراه طالوت حين رآه لصغر سنه وقصره فردّه، وكان داود أزرق قصيرا؛ ثم نادى ثانية وثالثة فخرج داود، فقال طالوت له : هل جرّبت نفسك بشيء ؟ قال نعم ؛ قال بماذا؟ قال : وقع ذئب في غنمي فضربته ثم أخذت رأسه فقطعته من جسده . قال طالوت : الذئب ضعيف، هل جربت نفسك في غيره؟ قال نعم، دخل الأسد في غنمي فضربته ثم أخذت بلحييْه فشققتهما ؛ أفترى هذا أشد من الأسد ! قال لا؛ وكان عند طالوت دِرْع لا تستوى إلا على من يقتل جالوت فأخبره بها وألقاها عليه فاستوت ؛ فقال طالوت : فاركب فرسي وخذ سلاحي ففعل ؛ فلما مشى قليلا رجع فقال الناس : جَبُن الفتى ! فقال داود : إن الله إن لم يقتله لي ويُعِنّي عليه لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السلاح، ولكني أحبّ أن أقاتله على عادتي . قال : وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل وأخذ مخلاته فتقلدها وأخذ مقلاعه وخرج الى جالوت وهو شاكٍ في سلاحه على رأسه بَيْضة فيها ثلاثمائة رطل فيما ذكر الماوردي وغيره؛ فقال له جالوت : أنت يا فتى تخرج إليّ! قال نعم؛ قال : هكذا كما تخرج الى الكلب ! قال نعم ، وأنت أهون . قال : لأطعمنّ لحمك اليوم للطير والسباع ؛ ثم تدانيا وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده استخفافا به ، فأدخل داود يده الى الحجارة فرُوِي أنها التأمَتْ فصارت حجرا واحدا فأخذه فوضعه في المقلاع وسمّى الله وأداره

(١) كع : جبن وضعف .

ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله ، وحزّ رأسه وجعله فى مِخْلاته واختلط الناس وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة . وقد قيل : إنما أصاب بالحجر من البَيْضة موضع أنفه ، وقيل عينه ،(١) وخرج من قفاه ، وأصاب جماعة من عسكره فقتلهم . وقيل : إن الحجر تفتّت حتى أصاب كل من فى العسكر شىء منه ؛ وكان كالقبضة التى رمى بها النبي صلى الله عليه وسلم هوازن يوم حُنين ، والله أعلم . وقد أكثر الناس فى قصص هذه الآى ، وقد ذكرت لك منها المقصود والله المحمود .

قلت : وفى قول طالوت : « من يبرز له ويقتله فأنا أزوّجه ابنتى وأحكّمه فى مالى » معناه ثابت فى شرعنا وهو أن يقول الإمام : من جاء برأس فله كذا أو أسير فله كذا على ما يأتى بيانه فى « الأنفال »(٢) إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على أن المبارزة لا تكون إلا بإذن الإمام؛ كما يقوله أحمد وإسحاق وغيرهما . واختُلف فيه عن الأوزاعىّ فحُكى عنه أنه قال : لا يحمل أحد إلا بإذن إمامه . وحُكى عنه أنه قال : لا بأس به ، فإن نهى الإمام عن البراز فلا يبارز أحد إلا بإذنه . وأباحت طائفة البراز ولم تذكر بإذن الإمام ولا بغير إذنه ؛ هذا قول مالك . سئل مالك عن الرجل يقول بين الصّفين : من يبارز؟ فقال : ذلك الى نيته إن كان يريد بذلك اللهَ فأرجو ألا يكون به بأس ، قد كان يُفعل ذلك فيما مضى . وقال الشافعىّ : لا بأس بالمبارزة . قال ابن المنذر : المبارزة بإذن الإمام حسن ، وليس على من بارز بغير إذن الإمام حرج ، وليس ذلك بمكروه لأنى لا أعلم خبرا يمنع منه .

﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ قال السدى : أتاه الله ملك طالوت ونُبوّة شمعون . والذى علّمه هو صنعة الدروع ومنطق الطير وغير ذلك من أنواع ما علّمه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : هو أن الله أعطاه سلسلة موصولة بالمَجرّة والفَلَك ورأسها عند صومعة داود ؛ فكان لا يحدث فى الهواء حَدَث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث ، ولا يمسّها ذو عاهة إلا برأ ؛ وكان علامة دخول قومه فى الدّين أن يمسوها بأيديهم ثم يمسحون أكفهم على صدورهم ، وكانوا يتحاكمون اليها بعد داود عليه السلام إلى أن رُفعت .

(١) فى بعض نسخ الأصل : « وفقأ عينه » . (٢) فى المسألة الخامسة من الآية الأولى .

قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ أى مما شاء، وقد يوضع المستقبل موضع الماضى، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ كذا قراءة الجماعة، إلا نافعا فإنه قرأ « دِفَاع » ويجوز أن يكون مصــدرا لفعل كما يقال : حسبت الشيء حسابا، وآب إيابا، ولقيته لقاء؛ ومثله كتبه كتابا؛ ومنــه « كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » . النحاس : وهذا حسن؛ فيكون دفاع ودَفْع مصدرين لدفع وهو مذهب سيبويه . وقال أبو حاتم : دافع ودفع بمعنًى واحد؛ مثل طَرَقت النعل وطارقت، أى خَصَفت إحداهما فوق الأخرى، والخصف : الخرز . واختار أبو عُبيدة قراءة الجمهور « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ » . وأنكر أن يقرأ « دفاع » وقال : لأن الله عز وجل لا يغالبه أحد . قال مَكِّيّ : هــذا وَهم توهّم فيه باب المفاعلة وليس به، واسم الله فى موضع رفع بالفعل، أى لولا أن يدفع الله . ودفع مرفوع بالابتداء عند سيبويه . « الناسَ » مفعول، « بعضَهم » بدل من الناس، « ببعض » فى موضع المفعول الثانى عند سيبويه، وهو عنده مثل قولك : ذهبت بزيد، فزيد فى موضع مفعول فاعلمه .

الثانيـــة — واختلف العلماء فى الناس المدفوع بهم الفساد مَن هم؛ فقيل : هم الأبدال فهم أربعون رجلا كلما مات رجل بَدّل الله آخر، فإذا كان عند القيامة ماتوا كلهم؛ اثنان وعشرون منهم بالشام وثمانية عشر بالعراق . ورُوى عن علىّ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء ويصرف بهم عن أهل الأرض البلاء" ذكره الترمذىّ الحكيم فى «نوادر الأصول» . وخرّج أيضا عن أبى الدرداء قال : إن الأنبياء كانوا أوتاد الأرض، فلما انقطعت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقال لهم الأبدال؛ لم يَفضُلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بحسن الخُلُق وصدق الوَرَع وحُسْن النية وسلامة القلوب لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم وُلُبّ

وتواضعٍ في غير مَذَلة، فهم خلفاء الأنبياء قوم اصطفاهم الله لنفسه واستخلصهم بعلمه لنفسه، وهم أربعون صِدّيقا منهــم ثلاثون رجلا على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن، يدفع الله بهــم المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس، وبهم يمطرون ويرزقون، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ مَن يخلفــه . وقال ابن عباس : ولولا دفع الله العدوّ بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخرّبوا البلاد والمساجد . وقال سُفيان الثَّوري : هم الشهود الذين تستخرج بهــم الحقوق . وحكى مَكّيّ أن أكثر المفسرين على أن المعنى : لولا أن الله يدفع بمن يصلّي عمن لا يصلي وبمن يتّقي عمن لا يتقي لأهلك الناسَ بذنوبهم؛ وكذا ذكر النحاس والثّعلبيّ أيضا . وقال سائر المفسرين : ولولا دفــع الله بالمؤمنين الأبرار عن الفجار والكفار لفسدت الأرض، أي هلكت . وذكر حديثا أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم قال : "إن الله يدفع العذاب بمن يصلّي من أمتي عمن لا يصــلي وبمن يُزكّي عمن لا يُزكّي وبمن يصوم عمن لا يصوم وبمن يحج عمن لا يحجّ وبمن يجاهــد عمن لا يجاهد، ولو اجتمعوا على ترك هــذه الأشياء ما أنظرهم الله طَرْفة عَيْن — ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولولا دَفْعُ اللهِ النــاسَ بعضَهم ببعض لفسدت الأرض" . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن لله ملائكة تنادي كل يوم لولا عباد رُكّع وأطفال رُضّع وبهائمُ رُتّع لصُبّ عليكم العذاب صَبًّا" خرّجه أبو بكر الخطيب بمعناه من حديث الفضيل بن عياض . حدّثنا منصور عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لولا فيكم رجال خُشّع وبهائم رُتّع وصبيان رُضّع لصُبّ العذاب على المؤمنين صَبًّا" . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال :

لولا عبـادٌ للإله رُكّـعُ * وصــبية من اليتامَى رُضّـعُ
ومُهْمَلات في الفَلاة رُتّـعُ * صُبَّ عليكم العذاب الأَوْجَعُ

وروى جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله لَيُصْلح بصلاح الرجل ولدَه وولدَ ولده وأهلَ دُوَيْرته ودويراتٍ حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم" . وقال قَتادة : يَبتلي اللهُ المؤمنَ بالكافر ويعافي الكافر بالمؤمن . وقال ابن عمر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

"إن الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مائة من أهل بيته وجيرانه البلاء" . ثم قرأ ابن عمر «ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفسدت الأرض» . وقيل : هذا الدفع بما شُرع على ألسنة الرسل من الشرائع، ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا، وهذا قول حسن فإنه عموم فى الكف والدفع وغير ذلك فتأمله . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ . بيّن سبحانه أن دفعه بالمؤمنين شرَّ الكافرين فضلًا منه ونعمة .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

« تلك » ابتداء « آيات » خبره، وإن شئت كان بدلا والخبر « نتلوها عليك بالحق » . «وإنك لمن المرسلين» ، خبر إن أى وإنك لمرسل . نبّه الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن هذه الآيات التى تقدم ذكرها لا يعلمها إلا نبيّ مرسل .

قوله تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

قوله تعالى : «تِلْكَ الرُّسُلُ» قال تلك ولم يقل ذلك مراعاة لتأنيث لفظ الجماعة، وهى رَفْعٌ بالابتداء . و «الرسل» نعته، وخبر الابتداء الجملة . وقيل : الرسل عطف بيان، و «فضّلنا» الخبر . وهذه آية مشكلة والأحاديث ثابتة بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا تُخيّروا بين الأنبياء ولا تُفَضّلوا بين أنبياء الله" رواها الأئمة الثّقات، أى لا تقولوا فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان . يقال : خيّر فلان بين فلان وفلان ، وفضّل

(مشدّدا) إذا قال ذلك . وقد اختلف العلماء فى تأويل هذا المعنى؛ فقال قوم : إن هذا كان قبل أن يُوحَى إليه بالتفضيل، وقبـل أن يعلم أنه سـيّد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للنع من التفضيل . وقال ابن قُتَيْبة : إنما أراد بقوله : "أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة" لأنه الشافع يومئذ وله لواء الحمـد والحوض . وأراد بقوله : «لا تخـيّرونى على موسى» على طـريق التواضع؛ كما قال أبو بكر : وليتكم ولستُ بخـيركم . وكذلك معنى قوله : "لا يَقُـلْ أحد أنا خير من يونس بن مَتّى" على معنى التواضع . وفى قوله تعالى : «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ» ممـا يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه، لأن الله تعالى يقول : ولا تكن مثله؛ فدلّ على أن قوله : "لا تفضّلونى عليه" من طريق التواضع . ويجوز أن يريد لا تفضّلونى عليـه فى العمل فلعله أفضل عملا منى، ولا فى البلوى والامتحان فإنه أعظم محنة منىّ . وليس ما أعطاه الله لنبينّا محمد صلى الله عليه وسلم من السُّودد والفضل يوم القيامة على جمـيع الأنبياء والرسل بعمله بل بتفضيل الله إيّاه واختصاصه له؛ وهـذا التأويل اختاره المُهَلَّب . ومنهم من قال : إنما نُهى عن الخوض فى ذلك، لأن الخوض فى ذلك ذَريعة إلى الجدال وذلك يؤدّى إلى أن يُذكر منهم ما لا ينبغى أن يُذكر ويقلّ احترامهم عند المماراة . قال شيخنا فلا يقال : النبىّ أفضـل من الأنبياء كلهم ولا من فلان ولا خير؛ كما هو ظاهر النهى لمـا يتوهّم من النقص فى المفضول، لأن النّهى اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى فإن الله أخبر بأن الرسل متفاضلون، فلا تقول : نبيّنا خير من الأنبياء ولا من فلان النبىّ اجتنابا لمـا نهى عنه وتأدبا به وعملا باعتقاد ما تضمّنه القرآن من التفضيل، والله بحقائق الأمور عليم .

قلت : وأحسن من هذا قول من قال : إن المنع من التفضيل إنمـا هو من جهة النبوّة التى هى خصـلة واحدة لا تفاضُل فيها، وإنمـا التفضيل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات، وأما النّبوّة فى نفسها فلا تتفاضل وإنما تتفاضل بأمور أُخَر زائدة عليها، ولذلك منهم رُسُل وأولوا عَزْم ومنهم من ٱتُّخِذ خليلا ومنهم من كلّم الله

ورفع بعضهم درجات، قال الله تعــالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » وقال : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : وهذا قول حَسَن، فإنه جمع بين الآى والأحاديث من غير نسخ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما مُنح من الفضائل وأُعطى من الوسائل، وقد أشار ابن عباس الى هذا فقال : إن الله فضّل محمدا على الأنبياء وعلى أهل السماء؛ فقالوا : بِمَ يابن عباس فضله على أهل السماء ؟ فقال : إن الله تعــالى قال : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ » . وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » . قالوا : فما فضله على الأنبياء؟ قال قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم : «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ» فأرسله الى الجن والأنس؛ ذكره أبو محمد الدّارِمىّ فى مسنده . وقال أبو هريرة : خَيْر بنى آدم نوح وإبراهيم وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهم أولُوا العَزْم من الرّسل . وهــذا نصٌّ من ٱبن عباس وأبى هريرة فى التَّعيين، ومعلوم أن من أرسل أفضــل ممن لم يرسل، فإنّ مَن أَرسل فُضّل على غيره بالرسالة واســتووا فى النبوة الى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم، وهذا مما لاخفاء به؛ إلا أن ٱبن عطية أبا محمد عبد الحق قال : إن القرآن يقتضى التفضيل، وذلك فى الجمــلة دون تعيين أحد مفضول، وكذا هى الأحاديث، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليــه وسلم : "أنا أكرم ولد آدم على ربّى" وقال : "أنا سيد ولد آدم" ولم يعين، وقال عليه السلام : "لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن مَتَّى" وقال : "لا تفضّلونى على موسى" . قال ابن عطيّة : وفى هذا نهى شديد عن تعيين المفضول لأن يونس عليــه السلام كان شابا وتَفَسَّخ(١) تحت أعباء النبوة . فاذا كان هــذا التوقيف لمحمد صلى الله عليه وسلم فغيره أَحْرى .

---

(١) يقال : تفسخ البعير تحت الحمل الثقيل إذا لم يطقه .

قلت : ما اخترناه أولى إن شاء الله تعالى فان الله تعالى لمّا أخبر أنه فضّل بعضهم على بعض جعل يبيّن بعض المتفاضلين و يذكر الأحوال التى فُضّلوا بها فقال : « مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ » وقال « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » وقال تعالى : « وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ » ، « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرَى لِلْمُتَّقِينَ » وقال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » وقال : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ » فعمّ ثم خصّ و بدأ بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا ظاهر .

قلت : وهكذا القول فى الصحابة إن شاء الله تعالى اشتركوا فى الصُّحبة ثم تباينوا فى الفضائل ، بما منحهم الله من المواهب والوسائل ، فهم متفاضلون بتلك مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليهم ، وحسبك بقوله الحق : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » إلى آخر السورة . وقال : « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا » ثم قال : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ » وقال : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » فعمّ وخصّ ، ونفى عنهم الشَّين والنّقص ، رضى الله عنهم أجمعين ونفعنا بحبهم آمين .

قوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ المُكلَّم موسى عليه السلام ، وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبيّ مرسل هو؟ فقال : "نعم نبيّ مكلّم" . قال ابن عطية : وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان فى الجنة ، فعلى هذا تبقى خاصيّة موسى . وحذفت الهاء لطول الاسم ، والمعنى مَن كلمه الله .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ قال النحاس : بعضهم هنا على قول ابن عباس والشعبيّ ومجاهد محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : "بُعثت إلى الأحمر والأسود وجُعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا ونُصرت بالرُّعْب (١) مسيرة شهر وأحلّت لى الغنائم وأُعطيت

(١) الرعب : الخوف والفزع . كان أعداء النبي صلى الله عليه وسلم قد أوقع الله تعالى فى قلوبهم الخوف ، فاذا كان بينه و بينهم مسيرة شهر هابوه وفزعوا منه . (عن النهاية) .

الشفاعة " . ومن ذلك القرآن وانشقاق القمر وتكليمه الشجر وإطعامه الطعام خَلْقا عظيما من تُميرات ودُرُور شاة أمّ مَعْبد بعد جَفاف . وقال ابن عطيّة معناه، وزاد: وهو أعظم الناس أمّة وخُتم به النبيّون إلى غير ذلك من الخُلُق العظيم الذى أعطاه الله . ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظُمت آياته، ويكون الكلام تأكيدا . ويحتمل أن يريد به رفع أدريس المكان المُعَلّى، ومراتب الأنبياء في السماء كما في حديث الإسراء، وسيأتي . وبَيّناتُ عيسى هي إحياء الموتى وإبراء الأَكْمَه والأَبْرص وخَلْق الطير من الطّين كما نُصّ عليه في التنزيل . ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾(١) قوّيناه . ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ جبريل عليه السلام، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد الرسل . قيل : الضمير لموسى وعيسى والاثنان جَمْع . وقيل : من بعد جميع الرسل، وهو ظاهر اللفظ . وقيل : إن القتال إنما وقع من الذين جاءوا بعدهم وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبيّ؛ وهذا كما تقول: اشتريت خيلا ثم بعتها؛ فجائز لك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرسا وبعته ثم آخر وبعته ثم آخر وبعته؛ وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبيّ فمنهم من آمن ومنهم من كفر بَغْيًا وحَسَدا وعلى حُطام الدنيا ، وذلك كلّه بقضاء وقَدَر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسرّ الحكمة في ذلك الفعل لما يريد . وكُسرت النون من « وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا » لالتقاء الساكنين ، ويجوز حذفها في غير القرآن؛ وأنشد سيبويه :

فلستُ بآتيه ولا أستطيعه ❊ ولاكِ اسْقِني إن كان ماؤُكَ ذَا فَضْلِ(٢)

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ مَنْ في موضع رفع بالابتداء والصفة .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

(١) جـ ٢ ص ٢٤ طبعة ثانية . (٢) البيت للنجاشي، وصف أنه اصطحب ذئبا في فلاة مضلة لا ماء فيها، وزعم أن الذئب رد عليه فقال: لست بآت ما دعوتني اليه من الصحبة ولا استطيعه لأنني وحشي وأنت إنسي ولكن اسقني ان كان ماؤك فاضلا عن ريك (عن شرح الشواهد للشنتمري) .

قال الحسن : هى الزكاة المفروضة . وقال ابن جُرَيج وسعيد بن جُبير : هذه الآية تجمع الزكاة المفروضة والتطوّع . قال ابن عطيّة . وهذا صحيح، ولكن ما تقدم من الايات فى ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين فى صدور الكافرين يترجّح منه أن هذا النّدب إنما هو فى سبيل الله، ويُقَوِّى ذلك فى آخر الآية قولُه : «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» أى فكافحوهم بالقتال بالأنفس و إنفاق الأموال .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون إنفاق المال مرّة واجبا ومرّة نَدْباً بحسب تعين الجهاد وعدم تعينه . وأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم الله وأنعم به عليهم ، وحذرهم من الإمساك الى أن يجىء يومٌ لا يمكن فيه بَيْعٌ ولا شِراء ولا استدراكُ نفقة ، كما قال : « فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ » . والخُلّة : خالص المودّة ، مأخوذة من تخلّل الأسرار بين الصديقين . والخِلالة والخَلالة والخُلالة : الصداقة والمودّة ، قال الشاعر[1] :

وكيف تَواصُلُ مَن أصبحتْ * خُلالَتُه كأبى مَرْحَب

وأبو مَرْحب هو كُنية الظّل ، ويقال : هو كُنية عُرْقوب الذى قيل فيه : مواعيد عرقوب . والخُلّة (بالضم أيضا) : ما خَلا من النّبت ، يقال : الخُلّة خبز الإبل والحمض فاكهتها . والخَلّة (بالفتح) : الحاجة والفقر . والخَلّة : ابن مَخاض ، عن الأصمعى . يقال : أتاهم بقُرْص كأنه فِرْسِن[2] خَلّة . والأنثى خَلّة أيضا . و يقال للميت : اللّهمّ أصلح خَلّته ، أى الثُّلْمة التى ترك . والخَلّة : الخمرة الحامضة . والخِلّة (بالكسر) : واحدة خِلَل السيوف ، وهى بطائن كانت تُغَشّى بها أجفان السيوف منقوشة بالذهب وغيره ، وهى أيضا سُيُور تُلبَس ظَهْر سِيَتى[3] القَوْس . والخِلّة أيضا : ما يبقى بين الأسنان . وسيأتى فى «النساء»[4] اشتقاق الخليل ومعناه . فأخبر الله تعالى ألّا خلة فى الآخرة ولا شفاعة إلا بإذن الله . وحقيقتها رحمة منه تعالى شرّف بها الذى أذن له فى أن يشفع . وقرأ ابن كَثير وأبو عمرو « لا بيعَ فيه ولا خلةَ

(١) هو النابغة الجعدى ، كما فى اللسان . (٢) الفرسن (بكسر الفاء والسين وسكون الراء) : عظم قليل اللحم ، وهو خف البعير ، كالحافر للدابة . (٣) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

(٤) فى قوله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ... » آية ١٢٥ .

ولا شفاعةَ » بالنصب من غير تنوين ، وكذلك فى سورة «ابراهيم» « لا بيعَ فيه ولا خلالَ » وفى « الطور » « لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ » وأنشد حسان بن ثابت :

ألَا طِعانَ ولا فُرسانَ عاديةً　*　إلّا تَجَشُّؤُكم عنـــد التنـانير (١)

وألف الاستفهام غير مغيِّرة عمل «لا» كقولك : ألَا رجلَ عنـدك ؛ ويجوز ألا رجل ولا آمرأةً كما جاز فى غير الاستفهام فاعلمه . وقرأ البـاقون جميع ذلك بالرفـع والتنوين ؛ كما قال الراعى :

وما صَرمْتُكِ حتى قلتِ مُعلنةً　*　لا ناقةٌ لىَ فى هذا ولا جَمَـلُ

ويروى « وما هَجرتُكِ » فالفتح على النّفى العـام المستغرق لجميع الوجوه من ذلك الصنف ؛ كأنه جواب لمن قال هل فيه من بيع؟ فسأل سؤالا عاما فأجيب جوابا عاما بالنفى . و «لا» مع الاسم المنفى بمنزلة اسم واحد فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر « فيه » . وإن شئت جعلته صـفة ليوم ، ومن رفع جعل « لا » بمنزلة ليس . وجعل الجواب غير عام ؛ وكأنه جواب من قال هل فيه بيع ؛ بإسـقاط من ، فأتى الجواب غيرَ مغـير عن رفعه ، والمرفوع مبتـدأ أو اسم ليس و«فيه» الخبر . قال مَكّىّ : والاختيار الرفع لأن أكثر القراء عليه ، ويجوز فى غير القرآن لا بيعَ فيه ولا خلّةٌ برفع خلة ؛ وأنشد سيبويه لرجل من مَذْحِج :

هـــذا لَعَمْرُكُمُ الصَّغارُ بعينه　*　لا أمَّ لى إن كان ذاكَ ولا أبُ

ويجـوز أن تبنى الأوّل وتنصب الثـانى وتنونه فتقول : لا رجلَ فيه ولا آمرأةً ؛ وأنشـد سـيبويه :

لا نَسبَ اليومَ ولا خُـلّةً　*　آتّسـع الخرقُ على الرّاقع

فلا زائدة فى الموضـعين ، الأوّل عطف على الموضع والثـانى على اللفظ . ووجه خامس أن ترفع الأوّل وتبنى الثانى كقولك : لا رجلٌ فيها ولا آمرأةَ ؛ قال أُميّة :

فلا لَغْوٌ ولا تأثيمَ فيها　*　وما فاهُوا به أبدا مقيمُ

(١) يقول هـذا لبنى الحارث بن كعب ومنهم النجاشى وكان يهاجيه فجعلهم أهل نهـم وحرص على الطعام لا أهل غارة وقتال . والعادية : المستطيلة . ويروى غادية (بالغين المعجمة) وهى التى تغدو للغارة ؛ وعادية أعم لأنهـا تكون بالغداة وغيرها . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

وهذه الخمسة الأوجه جائزة فى قولك : لا حول ولا قوّة إلا بالله ، وقد تقدّم هذا والحمد لله .
« والكافرون » ابتداء . « هم » ابتداء ثان ، « الظالمون » خبر الثـانى ؛ وإن شئت كانت « هم » زائدة للفصل و « الظالمون » خبر « الكافرون » . قال عطاء بن دِينار : والحمــد لله الذى قال والكافرون هم الظالمون ولم يقل والظالمون هم الكافرون .

قوله تعـالى : ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ هذه آية الكُرسىّ سيّدة آى القرآن وأعظم آية ، كما تقدم بيانه فى الفاتحة ، ونزلت ليلًا ودعا النبىّ صلى الله عليه وسلم زيدا فكتبها . رُوى عن محمد بن الحنفيّة أنه قال : لمـا نزلت آية الكرسى خرّ كل صنم فى الدنيا وخرّ كل مَلِك فى الدنيا وسقطت التيجان عن رءوسهم ، وهرَبت الشياطين يضرب بعضهم على بعض إلى أن أتوْا إبليس فأخبروه بذلك فأمرهم أن يبحثوا عن ذلك ، فجاءوا إلى المدينة فبلغهم أن آية الكرسى نزلت .
وروى الأئمة عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا المنذر أتدرى أىّ آية من كتاب الله معك أعظم " ؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " يا ابا المنذر أتدرى أىّ آية من كتاب الله معك أعظم " ؟ قال قلت : الله لا اله إلا هو الحىّ القيوم ؛ فضرب فى صدرى وقال : " لِيَهْنِكَ العلم يا أبا المنذر " . زاد الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله : فوالذى نفسى بيده إن لهذه الآية للسانا وشفتين تقدّس الملك عند ساق العرش . قال أبو عبد الله : فهذه آية أنزلها الله جل ذكره ، وجعل ثوابها لقارئها عاجلا وآجلا ؛ فأما فى العاجل فهى حارسة لمن قرأها من الآفات . ورُوى لنا عن نَوْف البِكَالىّ أنه قال : آية الكرسى تُدْعَى فى التوراة

وليّة الله . يريد يدعى قارئها في ملكوت السموات والأرض عزيزا . قال : فكان عبد الرحمن ابن عوف إذا دخل بيته قرأ آية الكرسي في زوايا بيته الأربع؛ معناه كأنه يلتمس بذلك أن تكون له حارسا من جوانبه الأربع، وأن تنفي عنه الشيطان من زوايا بيته . ورُوى عن عمر أنه صارع جنيًّا فصرعه عمر، فقال له الجنّي : خَلّ عني حتى أعلّمك ما تمتنعون به منا؛ فخلّى عنه وسأله فقال : إنكم تمتنعون منا بآية الكرسي .

قلت : هذا صحيح؛ وفي الخبر : من قرأ آية الكرسي دُبُر كل صلاة كان الذي يتولّى قبض روحه ذو الجلال والإكرام، وكان كمن قاتل مع أنبياء الله حتى يُستشهد . وعن عليّ رضي الله عنه قال : سمعت نبيّكم صلى الله عليه وسلم يقول وهو على أعواد المنبر : "من قرأ آية الكرسي دُبُر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله" . وفي البخاريّ عن أبي هريرة قال : وكّلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، وذكر قصة وفيها : فقلت يارسول الله، زعم أنه يعلّمني كلماتٍ ينفعني الله بها فخلّيت سبيله؛ قال : "ماهي"؟ قلت قال لي : إذا آويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أوّلها حتى تختم الله لا إله الا هو الحيّ القيوم . وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تُصبح، وكانوا[(1)] أحرص شيء على الخير . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : أما إنه قد صدقك وهو كذوب تَعلَمُ من تخاطب منذُ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هريرة"؟ قال لا؛ قال : "ذاك شيطان" . وفي مُسْند الدّارِمي أبي محمد قال الشعبيّ قال عبد الله بن مسعود : لَقِيَ رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم رجلا من الجنّ فصارعه فصرعه الإنسيّ، فقال له الإنسي : إني لأراك ضئيلا شخيتاً كأن ذُرَيْعتيْك ذُرَيعتا كلب فكذلك أنتم معشر الجن، أم أنت من بينهم كذلك؟ قال : لا والله! إني منهم لضَليع ولكن عاوِدْني الثانية فإن صرعتني علّمتك شيئا ينفعك؛ قال نعم، فصرعه؛ قال :

(1) الضمير في «كانوا» راجع الى الصحابة . قال القسطلاني : «وكان الأصل أن يقول "وكنا" لكنه على طريق الالتفات، وقيل : هو مدرج من كلام بعض رواته» .

تقرأ آية الكرسي" : الله لا إله إلا هو الحي القيوم؟ قال نعم، قال : فانك لا تقرأها فى بيت إلا خرج منه الشيطان له خَبَج كخبج الحمار ثم لايدخله حتى يُصبح . أخرجه أبو نعيم عن أبي عاصم الثقفي" عن الشعبي" . وذكره أبو عبيدة فى غريب حديث عمر حدثناه أبو معاوية عن أبي عاصم الثقفي عن الشعبي" عن عبد الله قال : فقيل لعبد الله : أهو عمر؟ فقال : ما عسى أن يكون إلا عمرا! . قال أبو محمد الدّارمي" : الضئيل الدقيق، والشَّخيت : المهزول، والضّليع : جيّد الأضلاع، والخَبَج : الريح . وقال أبو عبيدة : الخبج : الضراط، وهو الحبج أيضا بالحاء . وفى الترمذي" عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ حمٓ — المؤمن — الى اليه المصير وآية الكرسي حين يُصبح حُفظ بهما حتى يُمسي ومن قرأهما حين يُمسي حُفظ بهما حتى يُصبح" قال : حديث غريب . وقال أبو عبد الله الترمذي" الحكيم : و رُوي أن المؤمنين نُدبوا الى المحافظة على قراءتها فى دُبُر كل صلاة . عن أنس رَفَع الحديث الى النبي" صلى الله عليه وسلم قال : "أوحى الله الى موسى عليه السلام من داوم على قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة أعطيتُه فوق ما أعطى الشاكرين[1] وأجرَ النبيّين وأعمالَ الصدّيقين و بَسطْتُ عليه يميني بالرحمة ولم يمنعه أن أدخله الجنة إلا أن يأتيه مَلك الموت" قال موسى عليه السلام : يا ربّ من سمع بهذا لا يداوم عليه؟ قال : "إني لا أعطيه من عبادي إلا لنبي" أو صدّيق أو رجل أُحبّه أو رجل أريد قتله فى سبيلي" . وعن أُبَيّ بن كعب قال قال الله تعالى : "يا موسى من قرأ آية الكرسي فى دبر كل صلاة أعطيته ثواب الأنبياء" قال أبو عبد الله . معناه عندي أعطيته ثواب عمل الأنبياء، فأما ثواب النبوّة فليس لأحد إلا للأنبياء . وهـذه الآية تضمّنت التوحيد والصفات العلا وهي خمسون كلمة وفى كل كلمة خمسون بركة وهي تعـدل ثلث القرآن، ورد بذلك الحديث ذكره ابن عطية . و « الله» مبتدأ، و «لا إله» مبتدأ ثان وخبره محذوف تقديره معبود وموجود . و « إلا هو » بدل من موضع لا إله . وقيل : «الله لا اله الا هو» ابتداء وخبر، وهو مرفوع محمول على المعنى، أي ما إله إلا هو، ويجوز فى غير القرآن لا إله إلا إياه، نصب على

(١) فى الأصول : «... أعطيته قلوب الشاكرين» والتصويب عن كتاب «السر القدسي فى تفسير آية الكرسي» .

الاستثناء . قال أبو ذرّ في حديثه الطويل : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ آية أنزل الله عليك من القرآن أعظم؟ فقال : " الله لا إله الا هو الحي القيوم " . وقال ابن عباس : أشرف آية في القرآن آية الكرسي . قال بعض العلماء : لأنه يكرر فيها اسم الله تعالى بين مضمر وظاهر ثمان عشرة مرة .

﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ نعت لله عز وجل ، وإن شئت كان بدلا من « هو » ، وإن شئت كان خبرا بعد خبر ، وإن شئت على إضمار مبتدأ . ويجوز في غير القرآن النصب على المدح . و « الحيّ » اسم من أسمائه الحسنى يسمّى به ، ويقال : إنه اسم الله تعالى الأعظم . ويقال : إن عيسى ابن مريم عليه السلام كان إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء : ياحيّ ياقيوم . ويقال : إن آصف بن برخيا لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس الى سليمان دعا بقوله يا حيّ يا قيوم . ويقال : إن بني إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم فقال لهم : أيا هيا شرا هيا ، يعني ياحيّ ياقيوم . ويقال : هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق يدعون به . قال الطبريّ عن قوم : إنه يقال حيّ قيوم كما وصف نفسه ، وتسلّم ذلك دون أن ينظر فيه . وقيل : سمّى نفسه حيًّا لصرفه الأمور مصارفها وتقديره الأشياء مقاديرها . وقال قَتادة : الحيّ الذي لا يموت . وقال السُّدّي : المراد بالحيّ الباقي . قال لَبيد :

فإمّا تَرَيْني اليومَ أصبحتُ سالمًا * فلستُ بأحْيَا من كِلاب وجَعفَرِ

وقد قيل : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم . ﴿ القيوم ﴾ من قام ؛ أي القائم بتدبير ما خلق ؛ عن قَتادة . وقال الحسن : معناه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها من حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شيء منها . وقال ابن عباس : معناه الذي لا يحول ولا يزول ؛ قال أُمَية بن أبي الصَّلْت :

لم تُخلق السماء والنجومُ * والشمسُ معها قمرٌ يقومُ

قدّره مُهيمِن قيّوم * والحشر والجنة والنعيمُ

* إلا لأمر شأنه عظيمُ *

قال البَيْهَقِىّ : ورأيت فى «عيون التفسير» لإسماعيل الضرير فى تفسير القيوم قال: ويقال هو الذى لا ينـام ؛ وكأنه أخذه من قوله عزّ وجل عقيبه فى آية الكرسى : « لا تأخذه سِنَة ولا نوم» . وقال الكلبىّ : القيوم الذى لا بدىء له؛ ذكره أبو بكر الأنبارىّ (١) . وأصل قيّوم قيْوُوم اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى فى الثانية بعـد قلب الواو ياء؛ ولا يكون قيوم فعولا لأنه من الواو فكان يكون قووما . وقرأ ابن مسعود وعلقمة والأعمش والنخعى « الحى القيام » بالالف ، ورُوى ذلك عن عمر . ولا خلاف بين أهل اللغة فى أن القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء وأثبت علة . والقيّام منقول عن القوام الى القيّام، صرف عن الفعال الى الفيعال، كما قيل للصَّوّاغ الصَّيّاغ؛ قال الشاعر :

إن ذا العرش الذى يرزق النا * س وحَىٌّ عليهـــمُ قيّـــوم

ثم نفى عزّ وجل أن تأخذه سِـنة ولا نوم . والسِّـنة : النُّعاس فى قول الجميـع . والنُّعَاس ما كان من العين فإذا صار فى القلب صار نوما؛ قال عَدِىّ بن الرِّقاع يصف امرأة بفتور النَّظَـر (٢) :

وَسْنانُ أقْصَده النُّعاس فَرَنَّقتْ (٣) * فى عَيْنِـه سِـنَةٌ وليس بنـائم

وفرّق المُفَضَّـل بينهما فقـال : السِّـنَة من الرأس، والنُّعَاس فى العين، والنوم فى القلب . وقال ابن زيد : الوَسْنان الذى يقوم من النوم وهو لا يعقل، حتى ربّمـا جرد السيفَ على أهله . قال ابن عطيّة : وهذا الذى قال ابن زيد فيـه نَظَر، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب . وقال السُّدِّى : السِّنَةُ ريح النوم الذى يأخذ فى الوجه فينعَس الإنسان .

قلت : وبالجملة فهو فُتُور يعترى الإنسان ولا يفقِد معه عقله . والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه مَلل بحال من الأحوال . والأصل فى سِنَة وَسْنة حذفت الواو

(١) فى الأصول : «لا بديل له» والتصويب عن اللسان . (٢) هذا البيت فى وصف ظبى، وقبل هذا البيت :

لولا الحياء وأن رأسى قد عسا * فيـه المشيب لزرت أم القاسم

وكأنها وسط النسـاء أعارها * عينيه أحور من جآذر جاسم

(٣) رنق النوم فى عينه : خالطها .

كما حذفت من يسن (١) . والنوم هـو المستثقل الذى يزول معـه الذّهن فى حق البشر . والواو للعطف و «لا» توكيد .

قلت : والناس يذكرون فى هذا الباب عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى على المنبر قال : "وقع فى نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه فأرسل الله اليه مَلَكا فأرّقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين فى كل يَدٍ قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فينحّى إحداهما عن الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان — قال — ضرب الله له مَثَلا أن لوكان ينام لم تمتسك السماء والأرض" ولا يصح هذا الحديث، ضعّفه غير واحد منهم البَيْهقى .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بالمُلْك فهو مالك الجميع وربه . وجاءت العبارة بما وإن كان فى الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود . قال الطبرى : نزلت هذه الآية لمّـا قال الكفار : ما نعبد أوثانًا إلا ليقربونا الى الله زُلْفَى .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ «من» رفعٌ بالابتداء و«ذا» خبره، و«الذى» نعت لذا ، وان شئت بدل، ولا يجوز أن تكون «ذا» زائدة كما زيدت مع «ما» لأن ما مبهمة فزيدت ذا معها لشبهها بها . وتقرّر فى هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء فى الشفاعة وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم وشرفهم الله ثم لا يشفعون إلا لمن ارتضى؛ كما قال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » قال ابن عطيّة : والذى يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يَصل الى النـار وهو بين المنزلتين ، أو وصل ولكن له أعمال صالحة . وفى البخارىّ فى « بابٌ بَقيّة من أبواب الرؤية » : إن المؤمنين يقولون ربّنا إن إخواننا كانوا يُصلّون معنا و يصومون معنا . وهـذه شفاعة فيمن يقرب أمره ، وكما يشفع الطفل المُحْبَنْطِئُ (٢) على باب الجنة . وهذا إنمـا هو فى قراباتهم ومعارفهم . وإن الأنبياء يشفعون فيمن

(١) الذى فى كتب اللغة أن الفعل من باب « فرح » .

(٢) المحبنطئ : اللازق بالأرض . وفى الحديث « أن السقط يظل محبنطئا على باب الجنـة » قال ابن الأثير : المحبنطئ (بالهمز وتركه) : المتغضب المستبطئ للشيء . وقيل هو الممتنع امتناع طلبة لا امتناع إباء .

حصل في النار من عُصاة أممهم بذنوبٍ دون قُربَى ولا معرفة إلا بنفس الإيمان ، ثم تبقى شفاعة أرحم الراحمين في المستغرقين في الذنوب الذين لم تعمل فيهم شفاعة الأنبياء . وأما شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في تعجيل الحساب فخاصة له .

قلت : قد بيّن مسلم في صحيحه كيفية الشفاعة بيانا شافيا ، وكأنه رحمه الله لم يقرأه وأن الشافعين يدخلون النار ويُخرجون منها أناسا استوجبوا العذاب ؛ فعلى هذا لا يبعد أن يكون للؤمنين شفاعتان : شفاعة فيمن لم يَصل الى النار، وشفاعة فيمن وصل اليها ودخلها، أجارنا الله منها . فذكر من حديث أبي سعيد الخُدْرىّ : "ثم يُضرب الجسر على جهنم وتَحِلّ الشفاعة ويقولون اللّهمّ سَلِّم سَلِّم — قيل : يا رسول الله وما الجسر؟ قال — دَحْضٌ مَزِلَّة[1] فيها خطاطيفُ وكلاليبُ وحَسَكَةٌ[2] تكون بنجد فيها شُوَيكة يقال لها السَّعْدَان فيمرّ المؤمنون كطَرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب[3] فناجٍ مُسَلَّمٌ ومخدوش مُرسَل[4] ومكدوس[5] في نار جهنم حتى اذا خَلَص المؤمنون من النار فوالذى نفسي بيده ما من أحد منكم بأشدَّ مُناشدةً لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويُصلّون ويَحُجّون فيقال لهم أخرجوا مَن عرفتم فتُحَرَّم صورُهم على النار فيُخرجون خلقا كثيرا قد أخذتِ النارُ إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربَّنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول عز وجل ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقالَ دينار من خير فأخرجوه فيُخرجون خَلْقا كثيرا ثم يقولون ربَّنا لم نَذَر فيها أحدا ممن أمرتنا ثم يقول ارجعوا

---

(١) قال النووى : هو بتنوين «دحض» وداله مفتوحة والحاء ساكنة ، و «مزلة» بفتح الميم وفى الزاى لغتان الفتح والكسر، والدحض والمزلة بمعنى واحد وهو الموضع الذى تزل فيه الأقدام ولا تستقر .

(٢) الحسكة (بالتحريك) : واحدة الحسك وهو نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم يعمل من الحديد على مثاله ، وهو آلات العسكر تلقى حوله لتنشب في رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له . والسعدان منبته سهول الأرض وهو من أطيب مراعى الإبل مادام رطبا . (٣) الركاب : الإبل التى يسار عليها واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها . (٤) مخدوش مرسل أى مجروح مطلق من القيد .

(٥) مكدوس أى مدفوع في جهنم . قال ابن الأثير : وتكدس الانسان اذا دفع من ورائه فسقط . ويروى بالشين المعجمة من الكدش وهو السوق الشديد، والطرد والجرح أيضا .

فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربّنا لم نَذَر فيها خيرا — وكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدّقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم «إنّ الله لا يَظلِم مِثقالَ ذرّةٍ وإن تك حسنةً يُضاعِفْها ويُؤتِ مِن لَدُنْه أجرًا عظيما» — فيقول الله شفعت الملائكة وشفَع النبيّون وشفَع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيَقبِض قبضة من النار فيُخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قطُّ قد عادوا حُمَمًا[1]" وذكر الحديث. وذكر من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "فأقول يارَبِّ آئذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال ليس ذلك لك — أو قال ليس ذلك إليك — وعِزّتي وعظمتي وكبريائي لأُخرجنّ من قال لا إله إلا الله" . وذكر من حديث أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام : "حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لا يُشرك بالله شيئا ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيَعرفونهم في النار يَعرفونهم بأثَر السجود تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود" الحديث بطوله .

قلت : فدلّت هذه الأحاديث على أن شفاعة المؤمنين وغيرهم إنما هي لمن دخل النار وحصل فيها ، أجارنا الله منها ! وقول ابن عطية « ممن لم يَصل أو وصل » يحتمل أن يكون أخذه من أحاديث أخر، والله أعلم . وقد خرج ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُصفّ الناسُ يوم القيامة صفوفا — وقال ابن نمير أهل الجنة — فيمرّ الرجل من أهل النار على الرجل فيقول يا فلان أمَا تذكر يوم استسقيتَ فسقيتُك شَربة قال فيشفع له ويمرّ الرجل على الرجل فيقول أما تذكر يوم ناولتك طهورا فيشفع له — قال ابن نمير — ويقول يافلان أما تذكر يوم بعثتني لحاجة كذا وكذا فذهبتُ لك فيشفع له" .

---

(١) الحمم (بضم الحاء وفتح الميم الأولى المخففة) : الفحم ، الواحدة حممة كحطمة .

وأما شفاعات نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فاختُلف فيها؛ فقيل ثلاث ، وقيل اثنتان، وقيل خمس ، يأتي بيانها في «سبحان»[1] إن شاء الله تعالى . وقد أتينا عليها في كتاب «التذكرة» والحمـــد لله .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الضميران عائدان على كل من يعقل ممن تضمّنه قوله : « لَهُ مَا فِي السَّـمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ » . وقال مجاهد : « ما بين أيديهم » الدنيا «وما خلفهم» الآخرة . قال ابن عطيّة : وكل هذا صحيح في نفسه لا بأس به، لأن ما بين اليد هو كل ما تقدّم الإنسان، وما خلفه هو كل ما يأتي بعده؛ و بنحو قول مجاهد قال السُّدّي وغـــيره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَـا شَاءَ ﴾ العلم هنا بمعنى المعلوم ، أي ولا يحيطون بشيء من معلوماته ؛ وهذا كقول الخَضْر لموسى عليه السلام حين نقَر العصفور في البحر : ما نقَص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هـذا العصفور من هذا البحر . فهذا وما شاكله راجع الى المعلومات لأن علم الله سبحانه الذي هو صـفة ذاته لا يتبعّض . ومعنى الآية لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه .

قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِـيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ذكر ابن عساكر في تاريخه عن عليّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكرسي لؤلؤة والقلم لؤلؤة وطول القلم سبعمائة سنة وطول الكرسيّ حيث لا يعلمه إلا الله " . وروى حماد بن سلمة عن عاصم بن بَهْدَلة — وهو عاصم بن أبي النَّجود — عن زِرّ بن حُبيش عن ابن مسعود قال : بين كل سماء مسيرة خمسمائة عام وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي وبين العرش مسيرة خمسمائة عام ، والعرش فوق المـاء والله فوق المـاء والله فوق العرش يعلم ما أنتم فيه وعليـه . يقال : كُرسيّ وكِرسيّ والجمع كَراسِيّ . وقال ابن عباس : كرسيّه علمه . ورجّحه الطبري قال : ومنه الكُرّاســة التي تضم العلم؛ ومنه قيل للعلماء : الكراسيّ لأنهم المعتمد عليهم؛ كما يقال : أوتاد الأرض .

(١) أي سورة الإسراء في قوله تعالى : «ومن الليل فتهجد به نافلة لك ...» آية ٧٩

قال الشاعر :

يحفّ بهم بيض الوجوه وعُصبة * كراسىّ بالأحداث حين تنوب

أى علمـاء بحوادث الأمور . وقيل : كرسيّه قدرته التى يمسك بهـا السموات والأرض ؛ كما تقول : اجعل لهـذا الحائط كرسيا ؛ أى ما تعتمده . وهـذا قريب من قول ابن عباس فى قوله « وسع كرسـيه » . قال البيهقىّ : وروينا عن ٱبن مسعود وٱبن جُبير عن ابن عباس فى قوله « وسع كرسيه » أى علمه . وسائر الروايات عن ابن عباس وغيره تدل على أن المراد به الكرسى المشهور مع العرش . وروى إسرائيل عن السُّدِّى عن أبى مالك فى قوله « وسـع كرسيه السموات والأرض » قال : إن الصخرة التى عليها الأرض السابعة ومُنْتَهى الخلق على ارجائها ، عليها أربعة من الملائكة لكل واحد منهم أربعة وجوه : وجه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ؛ فهم قيام عليها قـد أحاطوا بالأرضين والسموات ، رءوسهم تحت الكرسىّ والكرسىّ تحت العرش والله واضع كرسيّه فوق العرش . قال البيهقِىّ : فى هذا إشارة إلى كرسيين : أحدهما تحت العرش ، والآخر موضوع على العرش . وفى رواية أسباط عن السُّدِّىّ عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ٱبن عباس وعن مُرّة الهَمْدانىّ عن ٱبن عباس وعن مُرّة الهمدانىّ عن ابن مسعود عن ناس من أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « وسع كرسيّه السموات والأرض » فإن السموات والأرض فى جوف الكرسىّ والكرسىّ بين يدى العرش . وأرباب الإلحاد يحملونهـا على عِظم المُلْك وجلالة السلطان ، وينكرون وجود العرش والكرسىّ وليس بشىء . وأهل الحق يجيزونهما ؛ إذ فى قدرة الله متّسع فيجب الإيمان بذلك . قال أبو موسى الأشـعرىّ : الكرسىّ موضع القـدمين وله أَطيط كأطيط المِرْجَل . قال البيهقىّ : قد روينا أيضا فى هـذا عن ابن عباس وذكرنا أن معناه فيما يُروى أنه موضوع من العرش موضع القدمين من السرير؛ وليس فيه إثبات المكان لله تعالى . وعن ٱبن بُريدة عن أبيه قال : لمـا قدم جعفر من الحبشة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعجب شىء رأيته " ؟ قال : رأيت ٱمرأة على رأسها مِكْتَلُ طعـام فمرّ فارس فأرداه فقعدت تجمع

طعامها، ثم التفتت اليه فقالت له : وَيلٌ لك يوم يضع الملك كرسيّه فيأخذ للظلوم من الظالم! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقا لقولها : "لا قُدّست أمّة — أو كيف تقدّس أمة — لا يأخذ ضعيفُها حقّه من شديدها" . قال ابن عطيّة : فى قول أبى موسى «الكرسي موضع القدمين» يريد هو من عرش الرحمن كموضع القدمين من أسِرّة الملوك، فهو مخلوق عظيم بين يدى العرش نسبته إليه كنسبة الكرسيّ إلى سرير الملك . وقال الحسن ابن أبى الحسن : الكرسيّ هو العرش نفسه؛ وهذا ليس بمرضيّ؛ والذى تقتضيه الأحاديث أن الكرسيّ مخلوق بين يدى العرش والعرش أعظم منه . وروى أبو إدريس الخولانيّ عن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله، أىّ ما أنزل عليك أعظم؟ قال : "آية الكرسى — ثم قال — يا أبا ذرّ ما السموات السبع مع الكرسيّ إلا كحَلْقة ملقاة فى أرض فلاة وفضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحَلْقة" . أخرجه الآجُرى وأبو حاتم البُسْتيّ فى صحيح مسنده والبَيْهقيّ وذكر أنه صحيح . وقال مجاهد : ما السموات والأرض فى الكرسى إلا بمنزلة حلقة ملقاة فى أرض فلاة . وهذه الآية منبئة عن عِظم مخلوقات الله تعالى ، ويستفاد من ذلك عِظم قدرة الله إذ لا يئوده حفظ هذا الأمر العظيم .

﴿ وَلَا يَئُودُهُ ﴾ معناه يثقله ؛ يقال : آدَنى الشيء بمعنى أثقلنى وتحمّلت منه المشقة؛ وبهذا فسّر اللفظة ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم . قال الزجاج : فجائز أن تكون الهاء لله عز وجل، وجائز أن تكون للكرسيّ؛ وإذا كانت للكرسيّ فهو من أمر الله تعالى . و ﴿ العَلِيُّ ﴾ يراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان لأن الله منّزه عن التحيُّز . وحكى الطبريّ عن قوم أنهم قالوا : هو العَلِيّ عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه . قال ابن عطيّة : وهذا قول جَهَلةٍ مجسّمين ، وكان الوجه ألا يُحكَى . وعن عبد الرحمن بن قُرط أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرى به سمع تسبيحا فى السموات العُلا : سبحان الله العَلِيّ الأعلى سبحانه وتعالى . والعِليّ والعالي : القاهر الغالب للأشياء ؛ تقول العرب : علا فلان فلانا أى غلبه وقهره؛ قال الشاعر :

فلما عَلَوْنا واستوينا عليهمُ * تركناهُمُ صَرْعَى لنَسْرٍ وكاسِرِ

ومنه قوله تعـالى : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ » . و ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ صفة بمعنى عظيم القــدر والخطر والشرف لا على معنى عظم الأجرام . وحكى الطبري عن قوم أن العظيم معناه المعظَّم ، كما يقال : العتيق بمعنى المعتَّق ، وأنشد بيت الأعشى :

* فكأنّ الخمر العتيق من الإِسْفَنْط(١) ممزوجةٌ بمـاءٍ زُلالِ *

وحكى عن قوم أنهـم أنكروا ذلك وقالوا : لو كان بمعنى معظَّم لوجب ألّا يكون عظيما قبـل أن يخلق الخلق و بعــد فنائهم إذ لا معظِّم له حينئذ .

قوله تعـالى : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ الدِّين في هذه الآية المعتقَد والملّة بقرينة قوله : « قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » . والإكراه الذي في الأحكام من الأيمان والبيوع والهبات وغيرها ليس هذا موضعه ، وإنما يجيء في تفسير قوله : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ »(٢) . وقرأ أبو عبد الرحمن « قد تبيّن الرَّشَــدُ مِنَ الْغَيّ » وكذا رُوى عن الحسن والشّعبيّ ؛ يقال : رَشَد يَرْشُد رُشْدا ، ورشِد يَرْشَد رَشَدا : إذا بلغ ما يُحبّ . وغَوَى ضدّه ؛ عن النحاس . وحكى ابن عطية عن أبي عبد الرحمن السّلميّ أنه قرأ « الرشاد » بالألف . ورُوى عن الحسن أيضا « الرُّشُد » بضم الراء والشــين . ﴿ الغَيُّ ﴾ مصدر من غَوَى يَغْوِي إذا ضلّ في معتقَد أو رأى ؛ ولا يقال الغيّ في الضلال على الإطلاق .

الثانيـــة ــ اختلف العلماء في هذا الآية على ستة أقوال :

---

(١) الإسفنط : ضرب من الأشربة ، فارسيّ معرّب .　　(٢) آية ١٠٦ سورة النحل .

(الأوّل) قيل إنها منسوخة لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام ؛ قاله سليمان بن موسى، قال : نسختها «يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» . ورُوِى هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين .

(الثانى) ليست بمنسوخة وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يُكرهون على الإسلام إذا أدَّوُا الجزية، والذين يكرهون أهلُ الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهم «يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ» . هذا قول الشّعبيّ وقتادة والحسن والضحّاك . والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسْلِمِى أيتها العجوز تسلمى ، إن الله بعث محمدا بالحق . قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إلىّ قريب ! فقال عمر : اللّهمّ اشهد، وتلا «لا إكراه فى الدِّين» .

(الثالث) ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال : نزل هذا فى الأنصار، كانت تكون المرأة مِقْلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهَوِّده ؛ فلما أُجْلِيَت بنو النَّضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى : «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» . قال أبو داود : والمِقْلات التى لا يعيش لها ولد . فى رواية : إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرههم عليه فنزلت : «لا إكراه فِى الدِّينِ» مَن شاء التحق بهم ومن شاء دخل فى الإسلام . وهذا قول سعيد بن جُبير والشّعبيّ ومجاهد إلا أنه قال : كان سبب كونهم فى بنى النضير الاسترضاع . قال النحاس : قول ابن عباس فى هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده، وأن مثله لا يأخذ بالرأى .

(الرابع) : قال السُّدِّى : نزلت الآية فى رجل من الأنصار يقال له أبو حُصين كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا حصين فدعوهما الى النصرانية فتنصَّرا ومضيا معهم الى الشام، فأتى أبوهما رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مشتكيا أمرَهما ورغب فى أن يبعث رسولُ الله صلى عليه وسلم من يردّهما فنزلت : «لا إكراه فى الدين» ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب . وقال : " أبعدهما الله هما أوّل من كفر" ! فوجد

أبو الحصين فى نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث فى طلبهما فأنزل الله جل ثناؤه «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ» الآية، ثم إنه نسخ «لا إكراه فى الدين» فأمر بقتال أهل الكتاب فى سورة « براءة » . والصحيح فى سبب قوله تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ» حديث الزبير مع جاره الأنصارى فى السَّقْى، على ما يأتى فى «النساء»(١) بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبرا مكرها؛ وهو القول الخامس . وقول سادس وهو أنها وردت فى السَّبْى متى كانوا من أهل الكتاب لم يُجبروا إذا كانوا كبارا، وإن كانوا مجوسا صغارا أو كبارا أو وثنيين فإنهم يُجبرون على الإسلام لأن مَن سباهم لا ينتفع بهم مع كونهم وثنيين؛ ألا ترى انه لا تؤكل ذبائحهم ولا توطأ نساؤهم، ويدينون بأكل الميتة والنجاسات وغيرهما، ويستقذرهم المالك لهم ويتعذّر عليه الانتفاع بهم من جهة الملك فجاز لهم الإجبار . ونحو هذا روى ابن القاسم عن مالك . وأما أشهب فقال : هم على دين من سباهم، فاذا امتنعوا أُجبروا على الإسلام، والصغار لا دين لهم فلذلك أجبروا على الدخول فى دين الاسلام لئلا يذهبوا إلى دين باطل . فأما سائر أنواع الكفر متى بذلوا الجِزْية لم نُكرههم على الإسلام سواء كانوا عربا أم عجما قريشا أو غيرهم . وسيأتى بيان هذا وما للعلماء فى الجزية ومن تُقبل منه فى « براءة »(٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ جزم بالشرط . والطاغوت مؤنثة من طَغَى يَطْغَى . — وحكى الطبرى يطغُو — إذا جاوز الحد بزيادة عليه . ووزنه فَعَلُوت، ومذهب سيبويه أنه اسم مذكر مفرد كأنه اسم جنس يقع للقليل والكثير . ومذهب أبى علىّ أنه مصدر كرَهَبُوت وجَبَرُوت، وهو يوصف به الواحد والجمع، وقُلبت لامه إلى موضع العين وعينه موضع اللام كجبذ وجذب، فقلبت الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها فقيل طاغوت؛ واختار هذا القول النحاس . وقيل : أصل طاغوت فى اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق، كما قيل لآلٍ من اللؤلؤ . وقال المبرّد : هو جمع . وقال ابن عطيّة : وذلك

---

(١) آية ٦٥ (٢) آية ٢٩

مردود . قال الجوهري : والطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال؛ وقد يكون واحدا قال الله تعالى : «يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» . وقد يكون جمعا قال الله تعالى : «أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ» والجمع الطواغيت . «وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ» عطف . ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ جواب الشرط؛ وجمع الْوُثْقَى الْوُثْق مثل الْفُضْلى والْفُضْل؛ فالْوُثْقى فُعْلَى من الوَثاقة؛ وهـذه الآية تشبيه . واختلفت عبـارة المفسرين في الشيء المشبّه به؛ فقال مجاهد : العروة الإيمان . وقال السُّدّي : الإسلام . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير والضحّاك : لا إله الا الله؛ وهذه عبارات ترجع إلى معنًى واحد . ثم قال : ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ قال مجاهـد : أي لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم؛ أي لا يزيل عنهم اسم الإيمان حتى يكفروا . والانفصام : الانكسار من غير بينونة . والقصم : كَسْر ببينونة؛ وفي صحيح الحديث «فيُفْصِم عنه الوَحيُ وإن جبينه ليتفصّد عَرَقًا» أي يُقْلِع . قال الجوهري : فصم الشيء كسره من غير أن يَبين؛ تقول : فصمته فانفصم؛ قال الله تعالى «لَا انْفِصَامَ لَهَا» وتفصّم مثله؛ قال ذو الرُّمّة يذكر غزالا يشبّهه بدُمْلُج فضّة :

كأنه دُمْلُجٌ من فضّـة نَبَـهٍ(١) * في مَلْعَب من جَوارِي الحيّ مفصُومُ

وإنمـا جعله مفصوما لتثنّيه وانحنائه إذا نام . ولم يقل « مقصوم » بالقاف فيكون بائنا باثنين . وافْصم المطر : أقلع . وأفصمت عـنه الحمّى . ولمـا كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ممـا ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن في الصفات « سميع » من أجل النطق « عليم » من أجل المعتقد .

قوله تعـالى : ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

(١) النبه (بفتح النون والباء) : كل شيء سقط من إنسان فنسيه ولم يهتد اليه . شبه الغزال وهو نائم بدملج فضة قد طرح ونسي .

قوله تعـالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الوَلِيّ فعيل بمعنى فاعل . قال الخطابيّ : الوليّ الناصر ينصر عباده المؤمنين؛ قال الله عز وجل : «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» ، وقال : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » . قال قتادة : الظلمات الضلالة ، والنور الهدى ، و بمعناه قال الضحاك والربيع . وقال مجاهد وعبدة وابن أبي لُبَابة : قوله « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا » نزلت في قوم آمنوا بعيسى فلما جاء محمد صلى الله عليـه وسلم كفروا به ، فذلك إخراجهم من النور الى الظلمات . قال ابن عطيّة : فكأن هذا المعتقِد أحرز نورا في المعتقَد خرج منـه الى الظلمات ، ولفظ الآية مستغنٍ عن هذا التخصيص[(1)] ، بل هو مترتّب في كل أُمّة كافرةٍ آمن بعضها كالعرب ، وذلك أن من آمن منهم فالله وليّه أخرجه من ظلمة الكفر الى نور الإيمـان ، ومن كفر بعد وجود النبي صلّى الله عليه وسلم الداعي المرسَل فشيطانه مُغْوِيه ، كأنه أخرجه من الايمان إذ هو مُعَدٌّ وأهلٌ للدخول فيه ، وحكم عليهم بالدخول في النار لكفرهم ، عَدْلا منه ، لا يسأل عما يفعل . وقرأ الحسن « أولياؤهم الطواغيت » يعني الشياطين ، والله أعلم .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هذه ألف التوقيف ، وفي الكلام معنى التعجب ، أي اعجبوا له . وقال الفرّاء : « الم تر » بمعنى هل رأيت ، أي هل رأيت الذي حاج إبراهيم ، وهل رأيت الذي مرّ على قرية وهو النمرود بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح مَلِكُ زمانه

(1) كذا في بعض نسخ الاصل ، وفي بعضها « ... هذا القول » وكذا في تفسير ابن عطية .

وصاحبُ النار والبعوضة ! هذا قول ابن عباس ومجاهد وقَتادة والرّبيع والسُّدّى وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم . وكان إهلاكه لما قصد المحاربة مع الله تعالى بأن فتح الله تعالى عليه بابا من البعوض فستروا عين الشمس وأكلوا عسكره ولم يتركوا إلا العظام، ودخلت واحدة منها فى دماغه فأكلته حتى صارت مثل الفأرة ؛ فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عتيدة لذلك ، فبقى فى البلاء أربعين يوما . قال ابن جُرَيج : هو أول ملك فى الأرض . قال ابن عطيّة : وهذا مردود . وقال قَتادة : هو أول من تجبّر وهو صاحب الصَّرْح ببابل . وقيل : إنه ملك الدنيا بأجمعها؛ وهو أحد الكافرين (١) ، والآخر بُخْتَنَصَّر . وقيـل : إن الذى حاج إبراهيم نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشـد بن سام ؛ حكى جميعَه ابن عطية . وحكى السُّهيلىّ أنه النمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح وكان ملكا على السودان وكان ملّكه الضحاك الذى يُعرف بالازدهاق واسمـه بيوراسب بن اندراست وكان ملك الأقاليم كلها، وهو الذى قتـله أفريدون بن أثفيان ؛ وفيه يقول حبيب (٢) :

وكأنه الضحّاك من فتكاته * فى العالمين وأنت أفريدُونُ

وكان الضحّاك طاغيا جبّارا ودام ملكه ألف عام فيما ذكروا . وهو أوّل من صلب وأوّل من قطع الأيدى والأرجل؛ وللنمرود ابن لصلبه يسمى « كوشا » أو نحو هذا الاسم ، وله ابن يسمى نمرود الأصغر . وكان مُلك نمرود الأصغر عاما واحدا ، وكان مُلك نمرود الأكبر أربعمائة عام فيما ذكروا . وفى قصص هـذه المحاجة روايتان : إحداهما أنهم خرجوا الى عيد لهم فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها؛ فلما رجعوا قال لهم : أتعبدون ما تنحتون؟ فقالوا : فمن تعْبد؟ قال : أعبد الذى يحيى ويميت . وقال بعضهم : إن نمرود كان يحتكر الطعام فكانوا اذا احتاجوا الى الطعـام يشترونه منـه ، فاذا دخلوا عليـه سجدوا له ؛ فدخل ابراهيم فلم يسجد له ، فقال : مالك لا تسجد لى ! قال : أنا لا أسجـد إلا لرّبى . فقال له نمرود : من ربّك ! ؟ قال ابراهيم : ربّىَ الذى يحيى ويميت . وذكر زيد بن أسلم أن النمرود هـذا قعد

(١) فى البحر لأبى حيان : «قال مجاهد : ملك الأرض مؤمنان سليمان وذو القرنين وكافران نمروذ و بختنصر» .
(٢) هو أبو تمام حبيب بن أوس .

يأمر الناس بالميرة (١) ، فكلما جاء قوم يقول : من ربكم وإلهكم ؟ فيقولون أنت ؛ فيقول : ميروهم . وجاء ابراهيم عليه السلام يمتار فقال له : من ربك وإلهك ؟ قال ابراهيم : ربيَ الذى يحيي ويميت ؛ فلما سمعها نمرود قال : أنا أحيي وأميت ؛ فعارضه ابراهيم بأمر الشمس فبُهت الذى كفر ، وقال لا تميروه ؛ فرجع ابراهيم الى اهله دون شيء فمرّ على كَثيب رمْلٍ كالدقيق فقال فى نفسه : لو ملأت غِرَارتىّ من هذا فاذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهما ؛ فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الغِرارتين ونام هو من الإعياء؛ فقالت امرأته : لو صنعتُ له طعاما يجده حاضرا إذا انتبه ، ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الحُوَّارَى (٢) فخبزته ، فلما قام وضعته بين يديه فقال : من أين هـذا ؟ فقالت : من الدقيق الذى سُقتَ . فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسّر لهم ذلك .

قلت : وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى صالح قال : انطلق ابراهيم النبىّ عليه السلام يمتار فلم يقدر على الطعام، فمرّ بسِهْلة (٣) حمراء فأخذ منهـا ثم رجع الى أهله فقالوا : ما هـذا ؟ فقال : حنطة حمراء؛ ففتحوها فوجدوها حنطة حمراء، قال : وكان إذا زرع منها شيئا جاء سنبله من أصلها الى فرعها حَبًّا متراكبا . وقال الرّبيع وغيره فى هذا القصص : ان النمرود لمـا قال أنا أحيي وأميت أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر فقال : قـد أحييت هذا وأمت هذا ؛ فلما رُدّ عليه بأمر الشمس بُهت . ورُوى فى الخبر أن الله تعالى قال وعزتى وجلالى لا تقوم الساعة حتى آتى بالشمس من المغرب ليعلم أنى أنا القـادر على ذلك ؛ ثم أمر نمرود بابراهيم فألقى فى النار ، وهكذا عادة الجبابرة أنهم اذا عُورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة فأنجاه الله من النار، على ما يأتى . وقال السُّدّى : إنه لمـا خرج ابراهيم من النار أدخلوه على الملك — ولم يكن قبل ذلك دخل عليـه — فكلّمه وقال له : من ربك ؟ فقال : ربى

---

(١) الميرة : الطعام ، قال ابن سيده : الميرة جلب الطعام .

(٢) الحوارى (بضم الحاء وتشديد الواو وفتح الراء) : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .

(٣) السهلة (بكسر السين) : رمل خشن ليس بالدقاق الناعم . والسهلة (بفتح السين) نقيض الحـزنة ، وهو ما غلظ من الأض .

الذى يحيى ويميت . قال النمرود : أنا أحيى وأميت ، أنا آخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتا ولا يُطعَمون شيئا ولا يُسقون حتى إذا جاءوا أخرجتُهم فأطعمت اثنين فحييا وتركت اثنين فماتا . فعارضه إبراهيم بالشمس فبهت . وذكر الأصوليّون فى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربّه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة لكنه أمرٌ له حقيقة ومجاز، قصد ابراهيم عليه السلام الى الحقيقة ، وفزع نمرود الى المجاز وموّه على قومه ؛ فسلّم له ابراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه . ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ أى انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول أنا الآتى بها من المشرق، لأن ذوى الألباب يكذّبونه .

الثانيـــة — هذه الآية تدلّ على جواز تسمية الكافر ملكا اذا آتاه الله المُلْك والعزّ والرِّفعة فى الدنيا ، وتدلّ على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة . وفى القرآن والسنّة من هذا كثير لمن تأمله ؛ قال الله تعالى : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » . « قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » أى من حُجّة . وقد وصف خصومة إبراهيم عليه السلام مع قومه وردّه عليهم فى عبادة الأوثان كما فى سورة « الأنبياء » وغيرها . وقال فى قصة نوح عليه السلام : « قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » الآياتِ الى قوله : « وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » . وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآى . فهو كلّه تعليم من الله عز وجل للسؤال والجواب والمجادلة فى الدِّين، لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حُجّة الحق ودَحْض حجة الباطل . وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وباهلهم[(1)] بعد الحجة، على ما يأتى بيانه فى «آل عمران» . وتحاجّ آدم وموسى فغلبه آدم بالحجة . وتجادل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم السَّقيفة وتدافعوا وتقرّروا وتناظروا حتى صدر الحق فى أهله، وتناظروا بعد مبايعة أبى بكر فى أهل الرِّدة، إلى غير ذلك مما يكثر إيراده . وفى قول الله عز وجل : « فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبّر . قال المُزَنّى صاحبُ الشافعىّ : ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل وأن يقبل منها ما تبيّن . وقالوا:

(1) المباهلة الملاعنة . ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم اذا اختلفوا فى شىء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا .

لا تصح المنـاظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين أو مستوين في مرتبـة واحدة من الدِّين والعقل والفهم والإنصاف ، وإلا فهو مِراء ومُكابرة .

قراءات — قرأ عليّ بن أبي طالب « ألم ترْ » بجزم الراء ، والجمهور بتحريكها ، وحذفت الياء للجزم . « أنْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ » في موضع نصب ، أي لأن آتاه الله ، أو من أجل أن آتاه الله . وقرأ جمهور القرّاء « أَنَ أُحْيِي » بطرح الألف التي بعد النون من « أنا » في الوصل ، وأثبتها نافع وابن أبي أُويس اذا لقيتها همزة في كل القرآن إلا في قوله تعالى : « إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ » فإنه يطرحها في هذا الموضع مثل سائر القراء لقلة ذلك ، فإنه لم يقع منـه في القرآن إلا ثلاثة مواضع أجراها مجرى ما ليس بعده همزة لقلته فحذف الألف في الوصـل . قال النحويون : ضمير المتكلم الأسم فيه الهمزة والنون ، فإذا قلت : أنا أو أَنَهْ فالألف والهاء لبيان الحركة في الوقف ، فإذا اتّصلت الكلمة بشيء سقطت ، لأن الشيء الذى تتصل به الكلمة يقوم مقام الألف ، فلا يقال : أنا فعلت بإثبات الألف إلا شاذا في الشعر كما قال الشاعر :

أنا سيف العَشيرة فاعرفوني ＊ حُميدا[(١)] قــد تذرّيت السَّناما

قال النحاس : على أن نافعا قــد أثبت الألف فقرأ « أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ » ولا وجه له . قال مَكّيّ : والألف زائدة عند البصريين ، والاسم المضمر عندهم الهمزة والنون وزيدت الألف للتقوية . وقيل : زيدت للوقف لتظهر حركة النون . والاسم عند الكوفيين « أنا » بكماله ؛ فنافع في إثبات الألف على قولهم على الأصل ، وإنما حذف الألف مَن حذفها تخفيفا ، ولأن الفتحة تدل عليها . قال الجوهري : وأما قولهم « أنا » فهو اسم مَكْنيّ وهو للمتكلم وحده ، وإنمـا بُني على الفتح فرقا بينه وبين « أنْ » التي هي حرف ناصب للفعل ، والألف الأخيرة إنمـا هي لبيان الحركة في الوقف فإن توسّطت الكلام سقطت إلا في لغة رديئة ؛ كما قال :

أنا سيف العشيرة فاعرفوني ＊ حُميدا قــد تذرّيت السَّناما

---

(١) كذا في بعض نسخ الأصل والصحاح للجوهري ، وذكر الجوهري أن الشاعر هو حميد . وفي البعض الآخر واللسان وشرح القاموس : «جميعا» .

وبَهُت الرجل وبَهِت وبُهِت إذا انقطع وسكت متحيّرا؛ عن النحاس وغيره . وقال الطبري : وحُكى عن بعض العرب في هذا المعنى « بَهَت » بفتح الباء والهاء . قال ابن جني قرأ أبو حَيْوة : « فَبَهُت الذي كفر» بفتح الباء وضم الهاء، وهي لغة في « بُهِت » بكسر الهاء . قال : وقرأ ابن السَّمَيْقَع « فبَهَت » بفتح الباء والهاء على معنى فبهت إبراهيم الذي كفر؛ فالذي في موضع نصب . قال : وقد يجوز أن يكون بَهَت بفتحها لغة في بَهُت . قال : وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة « فبَهِت » بكسر الهاء كغرق ودَهِش . قال : والأكثرون بالضم في الهاء . قال ابن عطية : وقد تأول قوم في قراءة من قرأ « فبَهَت » بفتحها أنه بمعنى سب وقذف، وأن نمرود هو الذي سبّ حين انقطع ولم يكن له حيلة .

قوله تعالى : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ «أو» للعطف حملا على المعنى، والتقدير عند الكسائي والفراء : هل رأيت كالذي حاج إبراهيم في ربه أو كالذي مرّ على قرية . وقال المبرّد : المعنى ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه، ألم تر من هو ! كالذي مرّ على قرية . فأضمر في الكلام من هو . وقرأ أبو سفيان بن حسين « أَوَ كالذي مرّ » بفتح الواو، وهي واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام الذي معناه التقرير . وسُمّيت القرية قرية لاجتماع الناس فيها؛ من قولهم : قَرَيت المـاءَ أي جمعته، وقد تقدّم[(١)] . قال سليمان بن بُريدة

(١) راجع المسألة الثانية جـ ١ ص ٤٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

وناجية بن كعب وقتادة وابن عباس والربيع وعكرمة والضحاك : الذى مر على القرية هو عُزير . وقال وهب بن مُنبّه وعبد الله بن عبيد بن عمير وعبدالله بن بكر بن مضر : هو إرمياء وكان نبيًّا . وقال ابن إسحاق : إرمياء هو الخضر ، وحكاه النقّاش عن وهب بن مُنبّه . قال ابن عطية : وهذا كما تراه إلا أن يكون اسما وافق اسما لأن الخضر معاصر لموسى ، وهذا الذى مرّ على القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فيما رواه وهب بن منبه .

قلت : إن كان الخضر هو إرمياء فلا يبعد أن يكون هو لأن الخضر لم يزل حيًّا من وقت موسى حتى الآن على الصحيح فى ذلك ، على ما يأتى بيانه فى سورة «الكهف»(1) . وإن كان مات قبل هذه القصة فقول ابن عطية صحيح ، والله أعلم . وحكى النحاس ومكّيّ عن مجاهد أنه رجل من بنى إسرائيل غير مُسمًّى . قال النقاش : ويقال هو غلام لوط عليه السلام . وحكى السُّهيليّ عن القُتَبى هو شَعْيا فى أحد قوليه . والذى أحياها بعد خرابها كوشك الفارسيّ . والقرية المذكورة هى بيت المقدس فى قول وهب بن منبه وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم . قال : وكان مقبلا من مصر ، وطعامه وشرابه المذكوران تين وعنب وركوة(2) من خمر . وقيل من عصير . وقيل : قُلّة ماء هى شرابه . والذى أخلى بيت المقدس حينئذ بُخْتَنَصّر وكان واليا على العراق للهراسب ثم ليستاسب بن لهراسب والد اسبنديار . وحكى النقّاش أن قوما قالوا هى المؤتفكة . وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح : إن بختنصر غزا بنى إسرائيل فسَبَى منهم أناسا كثيرة فجاء بهم وفيهم عزير بن شرخيا وكان من علماء بنى إسرائيل فجاء بهم الى بابل ، فخرج ذات يوم فى حاجة له إلى دير هِزْقِل على شاطئ الدّجلة ، فنزل تحت ظل شجرة وهو على حمار له ، فربط الحمار تحت ظل الشجرة ثم طاف بالقرية فلم ير بها ساكنا وهى خاوية على عروشها فقال : أنّى يحيى هذه الله بعد موتها . وقيل : إنها القرية التى خرج منها الألوف حذر الموت ؛ قاله ابن زيد . وعن ابن زيد أيضا أن القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا مرّ رجل عليهم وهم عظام تلوح فوقف ينظر فقال : أنّى يحيى هذه الله بعد موتها ! فأماته الله

(1) فى قوله تعالى : «فوجدا عبدا من عبادنا ...» آية ٦٥
(2) الركوة : اناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

مائة عام . قال : ابن عطية : وهـذا القول من ابن زيد مناقض لألفاظ الآية ، إذ الآية إنمـا تضمّنت قرية خاوية لا أنيس فيها، والاشارة بهذه إنمـا هى الى القرية . وإحياؤها إنمـا هو بالعمارة ووجود البناء والسكان . وقال وهب بن منبّه وقتادة والضّحاك والربيع وعكرمة : القرية بيت المقـدس لمـا خرّبها بختنصر البابلىّ . فى الحـديث الطويل حين أحدثت بنو إسرائيـل الأحداث وقف إرميـاء أو عُزَير على القرية وهى كالتّل العظيم وسط بيت المقدس، لأن بختَنَصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل ، ورأى إرمياء البيوت قد سقطت حيطانها على سُقُفها فقال : أنَّى يحيى هـذه الله بعد موتها .

والعريش : سقف البيت . وكل ما يتهيأ لِيُظل أو يُكنّ فهو عريش ؛ ومنـه عريش الدالية ؛ ومنه قوله : « وَمِمَّـا يَعْرِشُونَ » . قال السُّـدِّى : يقول هى ساقطة على سقفها ، أى سقطت السُّقُف ثم سقطت الحيطان عليها ؛ واختاره الطبرىّ . وقال غير السُّدِّى : معناه خاوية من الناس والبيوتُ قائمة . وخاوية معناه خالية؛ وأصل الخَوَاء الخلو؛ يقال : خَوَت الدار وخَوِيت تخوى خَواء (ممدود) وخُوِيًّا : أَقْوت ، وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قوله تعالى: « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً » أى خاليـة ، ويقال ساقطة ؛ كما يقال فهى خاوية على عروشها، أى ساقطة على سُقُفها . والخَوَاء الجوع لخلو البطن من الغذاء . وخوت المرأة وخَوِيت أيضا خَوًى أى خلا جوفها عنـد الولادة . وخوّيت لها تخوِية إذا عملت لهـا خَوِيّة تأكلها وهى طعام . والخَوِىّ البطن السهل من الأرض على فعيل . وخَوّى البعيرُ إذا جافى بطنـه عن الأرض فى بروكه، وكذلك الرجل فى سجوده .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ معناه من أىّ طريق وبأىّ سبب، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان ، كما يقال الآن فى المدن الخربة التى يبعـد أن تعمر وتسكن، أنَّى تعمر هذه بعد خرابها . فكأن هذا تلهّف من الواقف المعتبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبّته . وضرب له المَثَل فى نفسه بما هو أعظم ممـا سأل عنه، والمثال الذى ضرب له فى نفسه يحتمل أن يكون على أن سؤاله إنمـا كان على إحياء الموتى من بنى آدم ،

أى أنى يحيي الله موتاها . وقـد حكى الطبرى عن بعضهم أنه قال : كان هـذا القول شـكًّا فى قدرة الله تعـالى على الإحياء فلذلك ضرب له المثل فى نفســه . قال ابن عطيّة : وليس يدخل شكّ فى قدرة الله تعالى على إحياء قرية بجلب العمارة إليها و إنما يتصور الشك [من جاهل](١) فى الوجه الآخر، والصواب ألا يتأوّل فى الآية شك .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ « مائة » نصب على الظرف . والعـام : السنة؛ يقال : سِنون عُوَّم وهو توكيد للأول؛ كما يقال : بينهم شُغْلٌ شاغلٌ . وقال العجّاج :

* من مرّ أعوامِ السِّنين العُوَّم *

وهو فى التقدير جمـع عائم ، إلا أنه لا يفرد بالذّكر لأنه ليس باسم و إنمـا هو توكيـد ؛ قاله الجوهرى . وقال النقاش : العام مصدر كالعَوْم؛ سُمِّيَ به هذا القدر من الزمان لأنها عومة من الشمس فى الفَلك . والعَوْم كالسَّبْح ؛ وقال الله تعالى : « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . قال ابن عطية : هذا بمعنى قول النقاش ، والعامُ على هذا كالقول والقال ، وظاهر هذه الإماتة أنها بإخراج الروح من الجسد . وروى فى قصص هذه الآية أن الله تعالى بعث لها ملكا من الملوك يعمرها ويجدّ فى ذلك حتى كان كمال عمارتها عنـد بعث القائل . وقد قيل : إنه لمـا مضى لموته سبعون سنة أرســل الله ملكا من ملوك فارس عظيما يقال له « كوشك » فعمرها فى ثلاثين سنة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ معناه أحياه، وقد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ اختُلف فى القائل له كم لبثت ؛ فقيل : الله جل وعز؛ ولم يقل له إن كنت صادقا كما قال للملائكة على ما تقدم . وقيل : سمع هاتفا من السماء يقول له ذلك . وقيل : خاطبه جبريل . وقيل : نبيّ . وقيل : رجل مؤمن ممن شاهده من قومه عند موته وعمر إلى حين إحيائه قال له : كم لبثت .

قلت : والأظهر أن القائل هو الله تعالى ؛ لقوله « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا » والله أعلم . وقرأ أهل الكوفة « كم لبِتّ » بإدغام الثـاء فى التاء لقربها منها

(١) زيادة عن ابن عطية .

فى المخرج . فإن مخرجهما من طرف اللسان وأصول الثنايا وفى أنهما مهموستان[١] . قال النحاس ؛ والإظهار أحسن لتباين مخرج الثـاء من مخرج التاء . ويقال : كان هـذا السؤال بواسطة الملك على جهة التقرير . و « كم » فى موضع نصب على الظرف .

« قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » إنما قال هذا على ما عنده وفى ظنه ، وعلى هذا لا يكون كاذبا فيما أخبر به ؛ ومثـله أصحاب الكهف « قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » وإنمـا لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين — على ما يأتى — ولم يكونوا كاذبين لأنهم أخبروا عما عندهم ، كأنهم قالوا الذى عندنا وفى ظنوننا أننا لبثنا يوما أو بعض يوم . ونظيره قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قصة ذى اليَدَين : " لم أقصر ولم أَنْس " . ومن الناس من يقول : إنه كذبٌ على معنى وجود حقيقة الكذب فيه ولكنه لا مؤاخذة به ، وإلا فالكذب الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليـه وذلك لا يختلف بالعلم والجهل ، وهذا بيّن فى نظر الأصول . فعلى هـذا يجوز أن يقال : إن الأنبياء لا يُعصمون عن الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه إذا لم يكن عن قصد ، كما لا يعصمون عن السهو والنسيان . فهذا ما يتعلق بهذه الآية ، والقول الأول أصح . قال ابن جُريج وقَتادة والربيع : أماته الله غُدوةَ يومٍ ثم بُعث قبل الغروب فظن هـذا اليومَ واحدا فقال : لبثتُ يوما ، ثم رأى بقيةّ من الشمس فخشى أن يكون كاذبا فقال : أو بعض يوم . فقيل : بل لبثتَ مائة عام ؛ ورأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها ما دلّه على ذلك .

قوله تعالى : ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ وهو التّين الذى جمعه من أشجار القرية التى مرّ عليها . ﴿وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وقرأ ابن مسعود «وهذا طعامك وشرابك لم يتسنّه» . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وغيره «وانظر لطعامك وشرابك لمـائة سنة» . وقرأ الجمهور بإثبات الهاء فى الوصل إلا الآخرين[٢]

(١) الحروف المهموسة عشرة أحرف يجمعها قولك «حثه شخص فسكت» قال ابن جنى : فأما حروف الهمس فان الصوت الذى يخرج معها نفس وليس من صوت الصدر انمـا يخرج منسلا وليس كنفخ الزاى والظاء .

(٢) عبارة البحر : وقرأ حمزة والكسائى بحذف الهـاء فى الوصل على أنها هاء السكت وقرأ باقى السـبعة باثبات الهـاء فى الوصل والوقف .

فإنهما يحذفانها، ولا خلاف أن الوقف عليها بالهاء . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف أيضا «لم يَسَّنّ» «وانظر» أدغم التاء في السين؛ فعلى قراءة الجمهور الهاء أصلية، وحذفت الضمة للجزم، ويكون «يتَسَنَّه» من السَّـنة أي لم تُغيِّره السِّنون . قال الجوهريّ : ويقال سُنون ، والسَّنَة واحدة السِّنين ، وفي نقصانها قولان : أحدهما الواو ، والآخر الهاء . وأصلها سَنْهة مثل الجَبْهة لأنها من سَنِهَت النخلةُ وتسنَّهت إذا أتت عليها السِّنون . ونخلة سَنّاء أي تحمل سـنة ولا تحمل أخرى؛ وسنهاء أيضا ، قال بعض الأنصار(١) :

فليســتْ بسَنْهاء ولا رُجَبِيَّـة(٢) * ولكن عَرَايَا(٣) في السِّنين الجَوائح(٤)

وأسْنهتُ عند بني فلان أقمت عندهم ، وتَسنَّيت أيضا . واستأجرته مساناة ومُسانهة أيضا . وفي التصغير سُنَيَّة وسنيهة . قال النحاس : من قرأ « لم يتسنّ » و « انظر » قال في التصغير سنية وحذف الألف للجـزم ، ويقف على الهـاء فيقول « لم يتسنَّهْ » تكون الهـاء لبيان الحركة . قال المَهْدَويّ : ويجوز أن يكون أصـله من سانيته مساناة ، أي عاملتـه سنَةً بعد سنة ، أو من سانهت؛ فإن كان من سانيت فأصله يتسنَّى فسقطت الألف للجزم ، وأصله من الواو بدليل قولهم سنوات والهاء فيه للسكت ، وإن كان من سانهت فالهاء لام الفعل؛ وأصل سنة على هـذا سَنْهة . وعلى القول الأول سَنَوة . وقيل : هو من أَسِنَ المـاء إذا تغيّر، وكان يجب أن يكون على هـذا يتأسّن . أبو عمرو الشيباني : هو من قوله « حَمَإٍ مَسْنُونٍ » فالمعنى لم يتغيّر . الزجاج ، ليس كذلك لأن قوله « مسنون » ليس معناه متغيّر وإنما معناه مصبوب على سُنَّة الأرض . قال المهدوي . وأصله على قول الشيباني « يتسنَّن » فأبدلت إحدى

---

(١) هو سويد بن الصامت (عن اللسان) .	(٢) نخلة رجبية (كعمرية وتشدد الجيم ، وكلاهما نسب نادر) وترجيبها أن تضم أعذاقها (عراجينها) إلى سعفاتها ثم تشد بالخوص لئلا ينفضها الريح . وقيل : هو أن يوضع الشوك حوالى الأعذاق لئلا يصل إليها آكل فلا تسرق ، وذلك إذا كانت غريبة طريفة .	(٣) العرايا (واحدتها عرية) : النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا .	(٤) في الأصول : «المواحل» والتصويب عن كتب اللغة . وقبل هذا البيت :

أدين وما ديني عليكم بمغرم * ولكن على الشم الجلاد القراوح

والجوائح : السنون الشداد التي تجيح المال .

النونين الفا كراهة التضعيف فصار يتسنى، ثم سقطت الألف للجزم ودخلت الهاء للسكت . وقال مجاهد : «لم يتسنه» لم ينتن . قال النحاس : أصح ما قيل فيه أنه من السَّنة، أى لم تغيّره السّنون . ويحتمل أن يكون من السَّـنة وهى الجَدْب ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِين » وقوله عليه السـلام : "اللّهمّ اجعلها عليهم سِنِينَ كسِنِي يوسف" . يقال منـه : أسنَتَ القومُ أى أجدبوا ؛ فيكون المعنى لم يغـيّر طعامك القحوط والجدوب ، أو لم تغيّره السّنون والأعوام، أى هو باق على طَراوته وغضارته .

قوله تعالى : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ قال وهب بن مُنَبِّه وغيره : وانظر إلى اتصال عظامه وإحيائه جزءا جزءا . ويُروى أنه أحياه الله كذلك حتى صار عظاما ملتئمة، ثم كساه لحما حتى كمل حمارا، ثم جاءه ملَك فنفخ فيـه الروح فقام الحمـار ينهق؛ على هـذا أكثر المفسرين . ورُوى عن الضحّاك ووهب بن منبّه أيضا أنهما قالا : بل قيل له وآنظر إلى حمارك قائما فى مربطه لم يصبه شيء مائة عام؛ وإنمـا العظام التى نظر إليها عظام نفسه بعـد أن أحيا الله منه عينيه ورأسه وسائرُ جسده ميت، قالا : وأعمى الله العيون عن إرمياء وحماره طول هذه المدة .

قوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال الفراء : إنما أدخل الواو فى قوله «ولنجعلك» دلالة على أنها شرط لفعل بعده، معناه ولنجعلك آية للنـاس ودلالة على البعث بعـد الموت جعلنا ذلك . وإن شئت جعلت الواو مُقْحمة زائدة . وقال الأعمش : موضع كونه آية هو أنه جاء شابا على حاله يوم مات فوجد الأبناء والحَفَدة شيوخا . عِكرمة : وكان يوم مات ابنَ أربعين سنة . ورُوى عن على رضوان الله عليه أن عُزيرا خرج من أهله وخلّف آمرأته حاملا وله خمسون سنة فأماته الله مائة عام، ثم بعثه فرجع الى أهله وهو ابن خمسين سنة وله ولد من مائة سنة فكان ابنه أكبر منه بخمسين سنة . ورُوى عن ابن عباس قال : لمـا أحيا الله عُزيرا ركب حمـاره فأتى محلّته فأنكر الناسَ وأنكروه ، فوجد فى منزله عجوزا عمياء كانت أمَة لهم خرج عنهم عُزير وهى بنت عشرين سـنة ، فقال لها : أهـذا منزل عُزير؟ فقالت نعم ! ثم بكت وقالت : فارقنا عُزير منذ كذا وكذا سنة ! قال : فأنا عُزير؛ قالت : إن عزيرا فقدناه منذ

مائة سنة . قال : فالله أماتني مائة سنة ثم بعثني . قالت : فعزير كان مستجاب الدعوة للمريض وصاحب البلاء فيفيق ، فادع الله يرد عليّ بصري ؛ فدعا الله ومسح على عينيها بيـده فصحّت مكانَها كأنما أُنشِطت من عِقَال . قالت : أشهد أنك عُزير ! ثم انطلقت إلى ملأ بني إسرائيل وفيهم ابنٌ لعزير شيخٌ ابن مائة وثمانية وعشرين سنة ، وبنو بنيه شـيوخ ، فقالت : يا قوم ، هذا والله عُزير ! فأقبل اليه ابنه مع النـاس فقال ابنه : كانت لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه ؛ فنظرها فاذا هو عزير . وقيـل : جاء وقد هلك كلّ من يعرف ، فكان آيةً لمن كان حيًّا من قومه إذ كانوا موقنين بحاله سماعا . قال ابن عطية : وفي إماتته هذه المدّة ثم إحيائه بعدها أعظم آية ، وأمره كلّه آية غابر الدهر ولا يحتاج الى تخصيص بعض ذلك دون بعض .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاى والباقون بالراء . وروى أَبَانُ عن عاصم «نَنْشُرُها» بفتح النون وضم الشين والراء ، وكذلك قرأ ابن عباس والحسن وأبو حَيْوَة ؛ فقيل هما لغتان في الإحياء بمعنى ؛ كما يقال : رَجَع ورَجَعْتُه ، وغاض المـاء وغِضْته ، وخسِرت الدابةُ وخَسِرتهـا ؛ إلا أن المعروف في اللغة أنشر الله الموتى فَنشُروا ، أي أحياهم الله فحيوا ؛ قال الله تعالى : «ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ» ويكون نَشْرها مثل نشر الثوب . نشَرَ الميّتُ ينشُر نُشورا أي عاش بعد الموت ؛ قال الأعشى :

حتى يقولَ الناسُ مما رأوْا * يا عَجَبَـا للميّت النّـاشِرِ

فكأنّ الموت طيٌّ للعظام والأعضاء ، وكأن الإحياء وجمعَ الأعضاء بعضها الى بعض نشر . وأما قراءة «ننشزها» بالزاى فمعناه نرفعها . والنَّشَز : المرتفع من الأرض ؛ قال :

ترى الثعلب الحولى فيهـا كأنه * اذا ما علا نَشزا حصـان مجلّل

قال مكيّ : المعنى : أُنظر الى العظام كيف نرفع بعضهـا على بعض في التركيب للإحيـاء ؛ لأن النشز الارتفاع ؛ ومنه المرأة النُّشُوز ، وهي المرتفعة عن موافقة زوجها ؛ ومنه قوله تعالى : «وَإِذَا قِيلَ ٱنْشُزُوا فَانْشُزُوا» أي ارتفعوا وانضموا . وأيضا فإن القراءة بالراء بمعنى الإحياء ، والعظام لا تحيي على الانفراد حتى ينضم بعضها الى بعض ، والزاى أَوْلى بذلك المعنى ، إذ هو

بمعنى الانضمام دون الإحياء . فالموصوف بالإحيـاء هو الرجل دون العظام على انفرادها، ولا يقال هذا عظم حىّ، وإنمـا المعنى فانظر الى العظام كيف نرفعها من أماكنها من الأرض الى جسم صاحبها للإحيـاء . وقرأ النخعى « نَنْشُرُها » بفتح النون وضم الشـين والزاى؛ ورُوى ذلك عن ابن عباس وقَتادة . وقرأ أبىّ بن كعب « ننشيها » بالياء .

والكسوة : ما وارى من الثياب، وشُبّه اللحم بها، وقد استعاره النابغة للإسلام فقال :

* حتى اكتسيْتُ من الإسلام سِرْبالَا *

وقد تقدّم أوّل السورة .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بقطع الألف . وقد رُوى أن الله جل ذكره أحيا بعضـه ثم أراه كيف أحيا باقى جسده . قال قَتادة : إنه جعل ينظر كيف يوصل بعض عظامه الى بعض، لأن أوّل ما خلق الله منه رأسه وقيل له انظر، فقال عند ذلك « أعلم » بقطع الألف، أى أعلم هذا . وقال الطبرى : المعنى فى قوله « فلمـا تَبيّن له » أى لمـا اتضح له عيانا ما كان مستنكرا فى قدرة الله عنده قبل عيانه قال أعلم . قال ابن عطية : وهـذا خطأ لأنه ألزم ما لا يقتضـيه اللفظ ، وفسّر على القول الشاذ والاحتمال الضعيف . وهـذا عندى ليس بإقرار بمـا كان قبـل ينكره كما زعم الطبرىّ بل هو قولٌ بعثه الاعتبار ؛ كما يقول الإنسان المؤمن اذا رأى شيئا غريبا من قدرة الله تعـالى : لا إله إلا الله ونحو هذا . وقال أبو علىّ : معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذى لم أكن علمته .

قلت : قد ذكرنا هـذا المعنى عن قتادة ، وكذلك قال مَكّىّ رحمه الله ، قال مَكّىّ : إنه أخبر عن نفسه عندما عاين من قدرة الله تعالى فى إحيائه الموتى فتيقن ذلك بالمشاهدة فأقرّ أنه يعـلم أن الله على كل شىء قـدير، أى أعلم هـذا الضرب من العـلم الذى لم أكن أعلمه على معاينة ؛ وهـذا على قراءة من قرأ « أعلم » بقطع الألف وهم الأكثر من القراء . وقرأ حمزة والكسائىّ بوصـل الألف ، ويحتمل وجهين : أحدهمـا قال له الملك اعلم ، والآخر هو أن

ينزل نفســه منزلة المخاطب الأجنبي المنفصل ؛ فالمعنى فلما تبين له قال لنفسه آعلمي يا نفس هذا العلم اليقين الذى لم تكونى تعلمين معاينة؛ وأنشد أبو علىّ فى مثل هذا المعنى .

* ودّع هريرةَ إن الرّكب مُرتحِـلُ *

* ألم تغتمض عيناك ليــلة أَرْمَدَا *

قال ابن عطية : وتأنّس أبو على فى هذا المعنى بقول الشاعر :

تذكّر من أنّى ومن أين شُرْبُهُ * يؤامر نفْسيه كذى الهَجْمَة الأَبِل (١)

قال مكّى : ويبعد أن يكون ذلك أمرا من الله جل ذكره له بالعلم لأنه قد أظهر اليه قدرته ، وأراه أمرا أيقن صحته وأقرّ بالقدرة فلا معنى لأن يأمره الله بعلم ذلك ، بل هو يأمر نفسه بذلك وهو جائز حسَن . وفى حرف عبد الله ما يدل على أنه أمرٌ من الله تعالى له بالعلم على معنى إلزم هذا العلم لما عاينت وتيقنت ، وذلك أن فى حرفه قيل اعلمْ . وأيضا فإنه موافق لما قبله من الأمر فى قوله « انظر الى طعامك » و « انظر الى حمارك » و « انظر الى العظام » فكذلك و « اعلم أن الله » وقد كان ابن عباس يقرؤها « قيل اعلم » ويقول أهو خير أم ابراهيم إذ قيل له : واعلم أن الله عزيز حكيم . فهذا يبيّن أنه من قول الله سبحانه له لمّا عاين من الإحياء .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

اختلف الناس فى هذا السؤال هل صدر من إبراهيم عن شكّ أم لا ؛ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكًّا فى إحياء الله الموتى قطُّ وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس

(١) الهجمة (بفتح فسكون) : القطعة الضخمة من الإبل ، وقيل هى ما بين الثلاثين والمائة . ورجل أبل (ككتف) : حذق مصلحة الإبل .

مستشرفة إلى رؤية ما أُخبرت به ؛ ولهذا قال عليه السلام : " ليس الخبر كالمعاينة " رواه ابن عباس لم يروه غيره؛ قاله أبو عمر . قال الأخفش : لم يُرد رؤية القلب و إنما أراد رؤية العين . وقال الحسن وقَتادة وسـعيد بن جُبير والربيع : سأل ليزداد يقينا إلى يقينه . قال ابن عطية : وترجم الطبريّ في تفسيره فقال : وقال آخرون سأل ذلك ربّه لأنه شك في قدرة الله تعـالى . وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس قال : ما في القرآن آية أرجى عنـدي منها . وذكر عن عطاء بن أبي رَبَاح أنه قال : دخل قلبَ ابراهيم بعضُ ما يدخل قلوب النـاس فقال : رب أرني كيف تحيي الموتى . وذكر حديث أبي هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " نحن أحقّ بالشك من إبراهيم " الحديث؛ ثم رجّح الطبرى هذا القول .

قلت : حديث أبي هريرة خرّجه البخارى ومُسْلم عنه أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " نحن أحق بالشّـك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي و يرحم الله لوطا لقد كان يأوِي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعيَ " . قال ابن عطية : وما ترجم به الطبريّ عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأوّل؛ فأما قول ابن عباس «هي أرجى آية» فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا وليست مظنة ذلك . ويجوز أن يقول هي أرجى آية لقوله «أو لم تؤمن» أي إن الإيمان كاف لا يحتاج معه الى تنقير وبحث . وأما قول عطاء «دخل قلبَ ابراهيم بعضُ ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدم . وأما قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نحن أحق بالشك من إبراهيم " فمعناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فإبراهيم عليـه السلام أحْرَى ألّا يشك؛ فالحـديث مبنيّ على نفي الشك عن إبراهيم ، والذي رُوي فيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك محض الإيمان إنما هو في الخواطر التي لا تثبت ، وأما الشك فهو توقّف بين أمرين لا مزيّة لأحدهما على الآخر؛ وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام . وإحياء الموتى انمـا يثبت بالسمع وقد كان ابراهيم عليه السلام أعلم به؛ يدلّك على ذلك قوله « رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ » فالشك يبعد على من

تثبت قدمه في الإيمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخُـلّة ، والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعا . وإذا تأملت سؤاله عليـه السلام وسائر الألفاظ للآية لم تعط شكا؛ وذلك أن الاستفهام بكيف إنمـا هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول؛ نحو قولك : كيف عِلْمُ زيد؟ وكيف نَسْجُ الثوب؟ ونحو هذا . ومتى قلت : كيف ثوبُك ؟ وكيف زيد؟ فانما السؤال عن حال من أحواله . وقد يكون « كيف » خبرا عن شيء شأنه أن يُستفهم عنه بكيف، نحو قولك : كيف شئت فكن ، ونحو قول البخاريّ : كيف كان بدء الوَحْي . و« كيف » في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر، ولكن لمـا وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح؛ مثال ذلك أن يقول مدّع : أنا أرفع هـذا الجبل؛ فيقول المكذب له : أرني كيف ترفعه ! فهـذه طريقة مجاز في العبارة ومعناها تسليم جدل ، كأنه يقول : افرض أنك ترفعه ، فأرني كيف ترفعه ! فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازي خلص الله له ذلك وحمله على أن بيّن له الحقيقة فقال له : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى » فكمل الأمر وتخلّص من كل شك ، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة .

قلت : هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمـان بالبعث . وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » وقال اللعين : إلا عبادك منهـم المخلصين؛ وإذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم، وإنمـا سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها ؛ فأراد أن يترقّى من علم اليقين إلى عين اليقين؛ فقوله « أرني كيف » طلب مشاهدة الكيفية . وقال بعض أهل المعاني : إنمـا أراد إبراهيم من ربّه أن يريه كيف يحيي القلوب ؛ وهـذا فاسد

مردود بمـا تعقّبه من البيان ، ذكره المـاوردىّ وليست الألف فى قوله « أوَلم تؤمن » ألف استفهام وإنما هى ألف إيجاب وتقرير كما قال جرير :

* ألســتم خيرَ من ركب المطَايا *

والواو واو الحال . و « تُؤْمِنْ » معناه إيمانا مطلقا ، دخل فيه فضل إحياء الموتى .

﴿ قَالَ بَلَى وَلَـٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ أى سألتك ليطمئن قلبى بحصول الفَرْق بين المعلوم برهانا والمعلوم عيانا . والطمأنينة : اعتدال وسكون ؛ فطمأنينة الأعضاء معروفة ، كما قال عليه السلام : "ثم ٱركع حتى تطمئنّ راكعا" الحـديث . وطمأنينة القلب هى أن يسكن فكره فى الشيء المعتقَد . والفكر فى صورة الإحياء غير محظور كما لنا نحن اليوم أن نفكر إذ هى فكَر فيها عبر فأراد الخليل أن يعاين فتذهب فكره فى صورة الإحياء . وقال الطبرىّ : معنى «ليطمئن قلبى» ليوقن ؛ وحُكى نحو ذلك عن سعيد بن جُبير ، وحُكى عنـه ليزداد يقينا ؛ وقاله ابراهيم وقتادة . وقال بعضهم : لأزداد إيمانا مع إيمانى . قال ابن عطية : ولا زيادة فى هذا المعنى تمكن إلا السكون عن الفكر وإلا فاليقين لا يتبعّض . وقال السُّدّى وابن جُبير أيضا : أوَلم تؤمن بأنك خليلى ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى بالخُلّة . وقيل : دعا أن يريه كيف يحيى الموتى ليعلم هل تستجاب دعوته ؛ فقال الله له أوَلم تؤمن أنى أجيب دعاءك ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى أنك تجيب دعائى .

واختلف فى المحرّك له على ذلك ؛ فقيـل : إن الله وعده أن يتخذه خليـلا فأراد آيةً على ذلك ؛ قاله السائب بن زيد . وقيل : قول النمرود أنا أحيى وأميت . وقال الحسن : رأى جيفة نصفها فى البر توزّعها السباع ونصفها فى البحر توزعها دواب البحر ، فلما رأى تفرّقها أحبّ أن يرى انضمامها فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى كيفية التفريق ؛ فقيل له : خذ أربعة من الطير . قيل : هى الدِّيك والطاووس والحمام والغراب ؛ ذكر ذلك ابن إسحاق عن بعض أهل العلم ، وقاله مجاهد وابن جُريج وعطاء بن يسار وابن زيد . وقال ابن عباس مكان الغراب الكُرْكىّ ، وعنه أيضا مكان الحمام النَّسر . فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكّاها

ثم قطعها قطعا صغارا ، وخلط لحوم البعض الى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب ، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءا على كل جبل ، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رءوس الطير في يده ثم قال : تعالين بإذن الله ، فتطايرت تلك الأجزاء وطار الدم الى الدم والريش الى الريش حتى التأمت كما كانت أولا وبقيت بلا رءوس ، ثم كرر النداء فجاءته سَعْيًا ، أى عَدْوًا على أرجلهن . ولا يقال للطائر « سعى » اذا طار إلا على التمثيل ؛ قاله النحاس . وكان إبراهيم إذا أشار الى واحد منها بغير رأسه تباعد الطائر ، واذا أشار اليه برأسه قُرب حتى لقى كل طائر رأسه ، وطارت بإذن الله . وقال الزجاج : المعنى ثم ٱجعل على كل جبل من كل واحد جزءا . وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو جعفر « جُزُؤًا » على فُعُل . وعن أبي جعفر أيضا « جُزًّا » مشددة الزاى . الباقون مهموز مخفّف ، وهى لغات ، ومعناه النصيب . ﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ نصب على الحال . و « صرهن » معناه قطعهن ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وأبو عبيدة وابن الأنبارى ؛ يقال : صار الشيءَ يَصُوره أى قطعه ؛ وقاله ابن إسحاق . وعن أبي الأسود الدؤلى هو بالسريانية التقطيع ؛ قال تَوْبة بن الحُمَيِّر يصف :

لما جذبت الحبل أطّت نُسوعُه * بأطراف عيدان شديد سيورها

فأدْنت لىَ الأسباب حتى بلغتُها * بنهضى وقد كاد ارتقائى يصورها

أى يقطعها . والصَّوْر : القطع . وقال الضّحاك وعكرمة وابن عباس فى بعض ما روى عنه : إنها لفظة بالنبطية معناه قَطِّعهن . وقيل : المعنى اِملْهُنّ إليك ، أى اضممهن وٱجمعهن إليك ؛ يقال : رجل أَصْور إذا كان مائل العنق . وتقول : إنى إليكم لأَصْور ، يعنى مشتاقا مائلا . وٱمرأة صَوْراء ، والجمع صور مثل أَسْود وسُود ؛ قال الشاعر :

اللهُ يعلم أنّا فى تلفُّتِنا * يومَ الفراق إلى جيراننا صُورُ

فقوله « إليك » على تأويل التقطيع متعلق بخذ ولا حاجة إلى مضمر ، وعلى تأويل الإمالة والضم متعلق بصرهن وفى الكلام متروك : فأمِلْهُنّ إليك ثم قطعهن . وفيها خمس قراءات : ثنتان فى السبع وهما ضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء . وقرأ قوم « فصُرَّهن » بضم الصاد

وشدّ الراء المفتوحة ، كأنه يقول فشدّهن ؛ ومنه صرة الدنانير . وقرأ قوم « فصِرّهن » بكسر الصـاد وشدّ الراء المفتوحة ، ومعناه صيّحهن ؛ من قولك : صرّ البـابُ والقلمُ إذا صوّت ؛ حكاه النّقاش . قال ابن جِنّي : هي قراءة غريبة ، وذلك أن يفعِل بكسر العين في المضاعف المتعدّي قليل ، وإنما بابه يفعُل بضم العين ؛ كشدّ يشـدّ ونحوه ؛ لكن قد جاء منه نمّ الحديثَ ينُمّه ويَنِمّه ، وهرّ الحربَ يهُرُّها ويهِرّها ؛ ومنه بيت الأعشى :

* ليعتورنْك القول حتى تهرّه *

الى غير ذلك في حروف قليلة . قال ابن جِنّي : وأما قراءة عِكرمة بضم الصاد فيحتمل في الراء الضم والفتح والكسر؛ كمدّ وشدّ؛ والوجه ضم الراء من أجل ضمة الهاء من بعد .

القراءة الخامسة « صَرِّهن » بفتح الصاد وشدّ الراء مكسورة؛ حكاها المَهْدَوِيّ وغيره عن عكرمة، بمعنى فاحبسهن؛ من قولهم : صَرَّى يُصَرِّى إذا حبس ؛ ومنه الشاة المُصَرّاة . وهنـا اعتراض ذكره المـاوردي يقال : فكيف أجيب إبراهيم إلى آيات الآخرة دون موسى في قوله «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» ؟ فعنه جوابان : أحدهما أن ما سأله موسى لا يصح مع بقاء التكليف، وما سأله إبراهيم خاص يصح معه بقاء التكليف . الثاني أن الأحوال تختلف فيكون الأصلح في بعض الأوقات الإجابة وفي وقت آخر المنع فيما لم يتقدّم فيـه إذن . وقال ابن عبـاس : أمر الله تعالى إبراهيم بهذا قبل أن يولد له وقبل أن ينزل عليه الصحف، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ـــ لمـا قص الله سبحانه ما فيه من البراهين حثّ على الجهاد وأعلم أن من جاهد بعد هذا البرهان الذي لا يأتي به إلا نبيّ فله في جهاده الثواب العظيم . روى البُستيّ في صحيح

مسنده عن ابن عمر قال : لمـا نزلت هذه الآية قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "رب زد أمتى" فنزلت « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسـنا فيضاعفه له أضـعافا كثيرة » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رب زد أمتى" فنزلت « إنمـا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» . وهذه الآية لفظها بيان مثال لشرف النفقة فى سبيل الله ولحسنها، وضمنها التحريض على ذلك . وفى الكلام حذف مضاف تقـديره مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّة . وطريق آخر: مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع فى الأرض حبّة فأنبتت الحبة سبع سنابل؛ يعنى أخرجت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة؛ فشبّه المتصدّق بالزارع وشبّه الصدقة بالبَذر فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة،ثم قال تعالى: « والله يضاعف لمن يشاء » يعنى على سبعمائة؛ فيكون مثل المتصدّق مثَل الزارع، إن كان حاذقا فى عمله ويكون البذر جيدا وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر؛ فكذلك المتصـدّق اذا كان صالحا والمـال طيبا ويضعه موضعه فيصير الثواب أكثر. خلافا لمن قال : ليس فى الآية تضعيف على سبعمائة، على ما نبيّنه إن شاء الله .

الثانيـــة — رُوى أن هــذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عَوف رضى الله عنهمـا ، وذلك أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لمـا حثّ الناس على الصـدقة حين أراد الخروج الى غَزْوة تبُـوك جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال : يارسـول الله ، كانت لى ثمانية آلاف فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربّى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت" . وقال عثمان : يارسول الله علىّ جهاز من لا جهاز له؛ فنزلت هذه الآية فيهما . وقيل : نزلت فى نفقة التطوع . وقيل : نزلت قبل آية الزكاة ثم نُسخت بآية الزكاة، ولا حاجة الى دعوى النّسخ؛ لأن الإنفاق فى سبيل الله منـدوب إليه فى كل وقت . وسبل الله كثيرة وأعظمها الجهـاد لتكون كلمة الله هى العليا .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ الحبة اسم جنس لكل ما يزدرعه ابن آدم ويقتاته؛ وأشهر ذلك البُرّ فكثيرا ما يراد بالحَبّ؛ ومنه قول المُتَلَمِّس :

آليتَ حَبَّ العراقِ الدّهرَ أطعمُه * والحَبُّ يأكله فى القرية السُّوسُ

وحَبّة القلب : سُوَيْداؤه ، ويقال ثمرته وهو ذاك . والحِبّة (بكسر الحاء) : بذور البقول مما ليس بقوت ؛ وفى حديث الشفاعة : "فينبتُون كما تنبُت الحِبّة فى حَمِيل السَّيْل" (١) والجمع حِبَب . والحُبّة (بالضم) الحُبّ ؛ يقال : نَعَم وحُبّة وكرامة . والحُبُّ المحبّة ، وكذلك الحِبّ (بالكسر) . والحِبّ أيضا الحبيب ؛ مثل خِدْن وخَدِين . وسنبلة فُنعلة من أسْبَل الزرع اذا صار فيه السُّنبل ، أى استرسل بالسنبل كما يسترسل السّتر بالاسبال . وقيـل : معناه صار فيه حب مستور كما يُستر الشيء بإرسال الستر عليـه . والجمع سنابل . ثم قيـل : المراد سنبل الدُّخْن فهو الذى يكون فى السّنبلة منه هذا العدد .

قلت : هذا ليس بشيء فإن سنبل الدخن يجيء فى السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر، على ما شاهدناه . قال ابن عطية : وقد يوجد فى سنبل القمح ما فيه مائة حبة، فأما فى سائر الحبوب فأكثر ولكن المثال وقع بهذا القدر . وقال الطبرىّ فى هذه الآية : إن قوله «فى كل سنبلة مائة حبة» معناه إن وجد ذلك ، وإلا فعلى أن يفرضه، ثم نقل عن الضحّاك أنه قال : « فى كل سنبلة مائةُ حبة » معناه كل سنبلة أنبتت مائة حبة . قال ابن عطيـة : فجعل الطـبرىّ قول الضحاك نحو ما قال وذلك غير لازم من قول الضحاك . وقال أبو عمرو الدّانِىّ : وقرأ بعضهم « مائة » بالنصب على تقدير أنبتت مائة حبةً .

قلت : وقال يعقوب الحضرمىّ : وقرأ بعضهم «فى كل سنبلة مائةَ حبة» على : أنبتت مائة حبة، وكذلك قرأ بعضهم « وللذين كفروا بربهـم عذابَ جهنم » على « واعتدنا لهم عذاب السعير» وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى «أنبتت سبع سنابل» بإدغام التاء فى السين لأنهما مهموستان، ألا ترى أنهما يتعاقبان . وأنشد أبو عمرو :

---

(١) حميل السيل : ما يحمل من الغثاء والطين .

يالعنَ اللهُ بني السِّـــعْلاةِ (١) * عَمرَو بنَ مَيمون لِئامَ النّاتِ (٢)

أراد الناس فحوّل السين تاء . الباقون بالإظهار على الأصل لأنهما كلمتان .

الرابعـــة — ورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البرّ بعشرة أمثالها، واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف . واختلف العلماء في معنى قوله « والله يضاعف لمن يشاء » فقالت طائفة : هي مبيِّنة مؤكدة لما تقدّم من ذكر السبعمائة، وليس ثَمّ تضعيف فوق السبعمائة . وقالت طائفة من العلماء : بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف .

قلت : وهذا القول أصح لحديث ابن عمر المذكور أوّل الآية . وروى ابن ماجه حدثنا هارون بن عبد الله الحمال حدثنا ابن أبي فُديك عن الخليل بن عبد الله عن الحسن بن عليّ ابن أبي طالب وأبي الدرداء وعبد الله بن عمر وأبي أُمامة الباهليّ وعبد الله بن عمرو وجابر ابن عبد الله وعمران بن حُصين كلهم يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه (٣) فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم — ثم تلا — والله يضاعف لمن يشاء الله" . وقد روى عن ابن عباس أن التضعيف لمن شاء الله إلى ألفي ألف . قال ابن عطية : وليس هذا بثابت الإسناد عنه .

الخامســـة — في هذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحِرَف التي يتخذها الناس والمكاسب التي يشتغل بها العمال؛ ولذلك ضرب الله به المَثَل فقال : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ » الآية . وفي صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة" . وروى هشام بن عروة

(١) السعلاة : أخبث الغيلان . فإذا كانت المرأة قبيحة الوجه سيئة الخلق شبهت بالسعلاة .

(٢) الذي في كتب اللغة (مادة نوت) : « عمر بن يربوع » .

(٣) الذي في ابن ماجة : «في وجه ذلك» .

عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "التمسوا الرزق فى خبايا الأرض" يعنى الزرع ، أخرجه الترمذىّ . وقال صلى الله عليه وسلم فى النخل : " هى الراسخات فى الوَحَل المُطْعِمات فى المَحْل" . وهذا خرج مخرج المدح . والزراعة من فروض الكفاية فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها وما كان فى معناها من غرس الأشجار . ولقِىَ عبدُ الله بن عبد الملك ٱبنَ شهاب الزُّهْرىّ فقال : دُلّنى على مالٍ أعالجه ؛ فأنشأ ٱبن شهاب يقول :

أقول لعبـد الله يومَ لقيتــه * وقد شَدّ أحلاسَ المَطىّ مُشَرِّقا
تتبّع خبايا الأرض وٱدعُ مليكَها * لعـلّك يوما أن تجـاب فترزقا
فيؤتيـك مالا واسـعًا ذا مَثابة * إذا ما مياه الأرض غارت تدفّقا

وحُكى عن المعتضد أنه قال : رأيت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام يناولنى مِسْحاة وقال : خذها فإنها مفاتيح خزائن الأرض .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٦٢)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قيل : إنها نزلت فى عثمان ابن عفان رضى الله عنه . قال عبد الرحمن بن سَمُرة : جاء عثمان بألف دينار فى جيش العُسْرة فصبّها فى حِجْر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدخل يده فيها و يقلّبها و يقول : "ما ضرّ ٱبن عفان ما عمل بعد اليوم اللّهمّ لا تنس هذا اليومَ لعثمان" . وقال أبو سعيد الخُدْرىّ : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم رافعا يديه يدعو لعثمان يقول : "يا ربّ عثمان إنى رضيت عن عثمان فٱرض عنه" فما زال يدعو حتى طلع الفجر فنزلت : «ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى » الآية .

الثانيـــة ــ لمـا تقدّم فى الآية التى قبلُ ذِكْرُ الإنفاق فى سبيل الله على العموم بيّن فى هذه الآية أن ذلك الحكم والثواب إنما هو لمن لا يُتْبِع إنفاقه منًّا ولا أذًى ؛ لأن المنّ والأذى مبطلان (١) لثواب الصدّقة كما أخبر تعالى فى الآية بعد هذا ، وإنمـا على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوابه بإنفاقه على المنفَق عليـه ولا يرجو منـه شيئا ولا ينظر من أحواله فى حالٍ سوى أن يراعىَ استحقاقه ؛ قال الله تعالى : «لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا» . ومتى أنفق ليريد من المنفق عليه جزاء بوجهٍ من الوجوه فهذا لم يرد وجه الله ؛ فهـذا إذا أخلف ظنه فيه مَنّ بإنفاقه وآذى . وكذلك من أنفق مضطرا دافعَ غُرْم إمّا لمانّة للمنفَق عليه أو لقرينة أخرى من اعتناء مُعْتَن فهذا لم يرد وجه الله . وإنمـا يقبل ما كان عطاؤه لله وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله ؛ كالذى حُكى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أعرابيًّا أتاه فقال :

يا عُمَرَ الخيرِ جُزيت الجنهْ * اُكْسُ بُنَيَّاتِى وأُمَّهُنَّـــهْ
وكُنْ لنا من الزمان جُنّـهْ * أُقســـم بالله لتفعلَنّــــهْ

قال عمر : إن لم أفعل يكون ماذا؟ ! قال :

* إذًا أبا حَفْصٍ لأذْهَبَنَّهْ *

قال : إذا ذهبتَ يكون ماذا ؟ ! قال :

تكون عن حالى لَتُسألنَّـهْ * يوم تكون الأُعْطِياتُ هَنَّهْ
وموقف المسئول بينَهُنَّهْ * إمّا إلى نارٍ وإمّا جَنّـهْ

---

(١) عبارة ابن عطية كما فى تفسيره : « ... وذلك أن المنفق فى سبيل الله إنما يكون على أحد ثلاثة أوجه : إما أن يريد وجه الله تعالى ويرجو ثوابه فهذا لا يرجو من المنفق عليـه شيئا ، ولا ينظر من أحواله فى حال سوى أن يراعى استحقاقه .

وإما أن يريد من المنفق عليه جزاء بوجه من الوجوه فهذا لم يرد وجه الله ، بل نظر الى هذه الحال من المنفق عليه . وهذا هو الذى متى أخلف ظنه منّ بإنفاقه وآذى .

وإما أن ينفق مضطرا دافع غرم إما لمـانّة للمنفق عليه أو قرينة أخرى من اعتناء معتن ونحوه ؛ فهذا قد نظر فى حال ليست لوجه الله ، وهذا هو الذى متى توبع وجرح بوجه من وجوه الجرح آذى . فالمن والأذى يكشفان ممن ظهرا منه أنه انمـا كان على ما ذكرناه من المقاصـد ، وأنه لم يخلص لوجه الله تعالى . فلهذا كان المن والأذى مبطلين للصدقة من حيث بيّن كل واحد منهما أنها لم تكن صدقة » .

فبكى عمر حتى اخضلّت لحيته، ثم قال : يا غلام، أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره ! والله لا أملك غيره . قال المـاوردىّ : وإذا كان العطاء على هذا الوجه خاليا من طلب جزاء وشكر وعريّا عن آمتنان ونشر كان ذلك أشرف للباذل وأهنأ للقابل . فأما المعطى اذا التمس بعطائه الجزاء، وطلب به الشكر والثناء، كان صاحب سُمعة ورياء، وفى هذين من الذّم ما يُنافى السخاء . وإن طلب الجزاء كان تاجرا مُربحًا لا يستحق حمدا ولا مدحا . وقد قال ابن عباس فى قوله تعالى : «ولا تمنن تستكثر» أى لا تعطى عطية تلتمس بها أفضل منها . وذهب ابن زيد إلى أن هذه الآية إنما هى فى الذين لا يخرجون فى الجهاد بل ينفقون وهم قعود، وأن الآية التى قبلهـا هى فى الذين يخـرجون بأنفسهم ، قال : ولذلك شرط على هؤلاء ولم يشترط على الأوّلين . قال ابن عطيّة : وفى هذا القول نظر لأن التحكّم فيه بادٍ .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ المَنّ ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها؛ مثل أن يقول : قد أحسنت إليك ونَعَشْتُك وشبهه . وقال بعضهم : المَنّ التحدّث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطَى فيؤذيه . والمَنّ من الكبائر، ثبت ذلك فى صحيح مسلم وغيره، وأنه أحد الثلاثة الذين لا ينـظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وروى النّسائىّ عن ابن عمـر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاقّ لوالديه والمرأة المترجّلة تتشبّه بالرجال والدّيّوث وثلاثة لا يدخلون الجنة العاق لوالديه والمُدْمِن الخمر والمنّان بما أعطى" . وفى بعض طُرُق مُسْلم "المنّان هو الذى لا يعطى شيئا إلا مَنّه" . والأذى : السبّ والتشكّى، وهو أعمّ من المَنّ لأن المَنّ جزء من الأذى لكنه نصّ عليه لكثرة وقوعه . وقال ابن زيد : لئن ظننتَ أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلّم عليه . وقالت له امرأة : يا أبا أُسامة دلّنى على رجل يخرج فى ســبيل الله حقًّا فإنهم إنما يخرجون يأكلون الفواكه فإن عندى أسهما وجَعبة . فقال : لا بارك الله فى أسهمك وجَعبتك فقد آذيتهم قبل أن تُعطيهم . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فمن أنفق فى سبيل الله ولم يُتبعه مَنًّا ولا أذًى كقوله : ما أشدّ إلحاحك ! وخلّصنا الله منك ! وأمثال هذا فقد تضمّن الله له بالأجر، والأجر الجنة،

ونفى عنــه الخوف بعــد موته لمـا يستقبل ، والحزن على ما سلف من دنياه لانه يغتبط بآخرته فقال : « لهم أجرهم عنــد ربهم ولا خوف عليهــم ولا هم يحزنون » . وكفى بهذا فضــلا وشرفا للنفقة فى سبيل الله . وفيها دلالة لمن فضّــل الغنيّ على الفقير حسب ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ إبتداء والخبر محذوف ، أى قول معروف أوْلى وأمثل ؛ ذكره النحاس والمَهْــدَوِيّ . قال النحاس : ويجوز أن يكون « قول معروف » خبر ابتــداء محذوف ، أى الذى أمرتم به قول معروف . والقول المعروف هو الدعاء والتأنيس والترجية بمـا عند الله خير من صدقة هى فى ظاهرها صــدقة وفى باطنها لا شيء ؛ لأن ذِكر القول المعروف فيه أجروهذه لا أجر فيها . قال صلى الله عليه وسلم : "الكلمة الطيّبة صدقة وإن من المعروف أن تلقَى أخاك بوجه طَلْق" أخرجه مسلم . فيتلقى السائلَ بالبشر والترحيب ، ويقابله بالطلاقة والتقريب ؛ ليكون مشكورا إن أعطى ومعذورا إن منع . وقــد قال بعض الحكماء : الق صــاحب الحاجة بالبِشر فإن عدِمت شكره لم تعــدم عذره . وحكى ابن لَنْكَك(1) أن أبا بكر بن دُريد قصد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها وظهر له منــه ضجر فقــال :

لا تدخلنّك ضَجْرة من سائلٍ ＊ فلخير دهــرك أن ترى مسئولَا
لا تَجْبَهَنْ بالردّ وجهَ مؤمّــلٍ ＊ فبقاءُ عزّك أن تُرى مأمولا
تلقَى الكريمَ فتســتدلّ ببشره ＊ وترى العبوس على اللئيم دليلا
وٱعلم بأنك عن قليــل صائرٌ ＊ خَبَرًا فكُنْ خَبرا يَروق جميــلا

(1) هو أبو الحسن محمد بن محمد ؛ فرد البصرة وصدر أدبائها . (عن يتيمة الدهر ج ٢ ص ١١٦) .

وروى من حديث عمر رضي الله عنه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منهـا ثم رُدّوا عليه بوَقار ولين أو بَبْذلٍ يسير أو رَدّ جميل فقد يأتيكم من ليس بإنس ولا جانّ ينظرون صنيعكم فيما خولكم الله تعالى" .

قلت : دليله حديث أبرص وأقرع وأعمى ، خرّجه مسلم وغيره . وذلك أن مَلَكا تصوّر في صورة أبرص مرّة وأقرع أخرى وأعمى أخرى امتحانا للسئول . وقال بشر بن الحارث : رأيت عليًّا في المنـام فقلت : يا أمير المؤمنين ! قل لى شيئا ينفعنى الله به ؛ قال : ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بموعود الله . فقلت يا أمير المؤمنين زدني ؛ فولّى وهو يقول :

قد كنتَ مَيْتًا فصرتَ حيّا * وعن قليـل تصير مَيْتَا
فآخرب بدار الفناء بَيْتًـا * وآبن بدار البقاء بيتـا

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ المغفرة هنا السّتر للخَلّة وسوء حالة المحتاج ؛ ومن هذا قول الأعرابيّ — وقد سأل قوما بكلام فصيح فقال له قائل مِمّن الرجل؟ فقال له : اللّهمّ غَفْرًا ! سُوء الاكتساب يمنع من الانتساب . وقيل : المعنى تجاوزٌ عن السائل إذا ألح وأغلظ وجَفَى خير من التصدّق عليه مع المنّ والأذى ؛ قال معناه النقاش . وقال النحاس : هـذا مُشْكِل يبينه الإعراب . « مغفرة » رفع بالابتداء والخبر « خير من صدقة » . والمعنى والله أعلم وفِعْل يؤدى الى المغفرة خير من صـدقة يتبعها أذى ، وتقديره في العربية وفِعلُ مَغْفِرَةٍ . ويجوز أن يكون مثل قولك : تفضل الله عليك أكبر من الصدقة التى تَمُنّ بها ، أى غفران الله خير من صدقتكم هذه التى تَمُنُّون بها .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ أخبر تعالى بغناه المطلق أنه غنى عن صدقة العبـاد ؛ وإنمـا أمرهم بها ليُثيبهـم ، وعن حلمه بأنه لا يُعاجل بالعقوبة مَن مَنّ وآذى بصـــدقته .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

فيه ثلاث مسائل .

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ قد تقدّم معناه . وعبّر تعالى عن عدم القبول وحرمان الثواب بالإبطال ، والمراد الصدقة التي يُمَنّ بها ويُؤْذى لا غيرها . والعقيدة أن السيئات لا تبطل الحسنات ولا تُحبطها ؛ فالمَنّ والأذى في صدقة لا يبطل صدقة غيرها .

قال جمهور العلماء في هذه الآية : إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ أو يُؤْذى بها فإنها لا تُقبل . وقيــل : بل قد جعل الله للَملَك عليها أمارة فهو لا يكتبها ؛ وهذا حسن . والعرب تقول لما يُمَنّ به : يَدٌ سوداء . ولما يُعطَى عن غير مسألة : يَدٌ بيضاء . ولما يُعطى عن مسألة : يَدٌ خضراء . وقال بعض البلغاء مَن مَنّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أُعجب بعمله حَبِط أجره . وقال بعض الشعراء :

وصاحب سلفتْ منـــه اليّ يدٌ * أبطا عليــه مكافاتى فعـادانى
لمّا تيقّن أن الدهر حاربنى * أبدَى الندامةَ فيما كان أولانى

وقال آخر :

أفسدتَ بالمَنّ ما أسديْتَ من حَسَنٍ * ليس الكريم إذا أسْـــدَى بمنّانِ

وقال أبو بكر الورّاق فأحسن :

أحسَنُ مِن كلِ حَسَنْ * فى كل وقت وزَمَنْ
صـــنيعـة مَرْبُـــوبة * خاليـــة من المِنَنْ

وسمع ابن ســيرين رجلا يقول لرجل : فعلت اليك وفعلتُ ! فقــال له : اسكت فلا خير في المعروف إذا أُحْصِيَ . ورُوِى عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم أنه قال : "إياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الأجر — ثم تلا — لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى" .

الثانيـــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : كره مالك لهذه الآية أن يُعطى الرجل صدقته الواجبةَ أقاربَه لئلا يعتاض منهم الحمــد والثناء ، ويُظهر منته عليهم ويكافئوه عليها فلا تخلُص لوجه الله تعالى . واستحبّ أن يعطيها الأجانب ، واستحب أيضا أن يولِّى غيره تفريقها إذا لم يكن الإمام عدلا لئـلا تحبط بالمَنّ والأذى والشكر والثنـاء والمكافأة بالخدمة من المُعْطَى . وهــذا بخلاف صدقة التطوّع السر لأن ثوابها إذا حبط سَلِم من الوعيد وصار في حُكم من لم يفعل ، والواجب إذا حبط ثوابه توجه الوعيد عليه لكونه في حكم من لم يفعل .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّـاسِ ﴾ الكاف في موضع نصب ، أى إبطالا كالذى ، فهى نعت للصدر المحذوف . ويجوز أن تكون في موضــع الحال . مَثّل الله تعــالى الذى يَمُنّ ويُؤْذِى بصدقته بالذى ينفق رئاء الناس لا لوجه الله تعــالى ، وبالكافر الذى ينفق ليقال جواد وليُثْنَى عليه بأنواع الثناء . ثم مَثّل هذا المنفق أيضا بصَفْوان عليه تراب ليظنه الظانّ أرضا مُنبتة طيّبة ، فاذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقى صَلْداً ؛ فكذلك هذا المُرائى . فالمَنّ والأذَى والرياء يكشف عن النيــة في الآخرة فيبطل الصدقة كما يكشف الوابل عن الصفوان وهو الحجر الكبير الأملس . وقيل : المراد بالآية إبطال الفضل دون الثواب ، فالقاصد بنفقته الرياء غير مُثَاب كالكافر ، لأنه لم يقصد به وَجْهَ الله تعــالى فيستحق الثواب . وخالف صاحب المنّ والأذى القاصدَ وجهَ الله المستحقّ ثوابه وان كرر عطاءه وأبطل فضله . وقد قيل : إنمــا يبطل من ثواب صــدقته من وقت مَنّه وإيذائه ، وما قبل ذلك يكتب له ويضاعف ، فاذا منّ وآذى انقطع التضعيف ، لأن الصدقة تُرَبَّى لصاحبها حتى تكون أعظم من الجبل ، فاذا خرجت من يد صاحبها خالصةً على الوجه المشروع ضُوعفت ، فاذا جاء المنّ بها والأذى وقف بها هناك وانقطع زيادة التضعيف عنها ؛ والقول الأوّل أظهر والله أعلم .

والصفوان جمع واحده صَفْوانة؛ قاله الأخفش. قال وقال بعضهم: صَفْوانٌ واحدٌ؛ مثل حجر. وقال الكسائي: صَفْوان واحد وجمعه صِفْوان وصُفِيّ وصِفِيّ؛ وأنكره المبرّد وقال: إنما صُفِيّ جمع صَفًا كقفا وقُفِيّ؛ ومن هــذا المعنى الصَّفْواء والصَّفَا (١)؛ وقــد تقدّم. وقرأ سعيد بن المسيّب والزُّهري «صَفَوان» بتحريك الفاء؛ وهي لغة. وحكى قُطْرب صِفْوان. قال النحاس: صَفْوان وصَفَوان يجوز أن يكون جمعا ويجوز أن يكون واحدا؛ إلا أن الأوْلى به أن يكون واحدا لقوله عز وجل «عليه تراب فأصابه وابل» وإن كان يجوز تذكير الجمع إلا أن الشيء لا يخرج عن بابه إلا بدليل قاطع؛ فأمّا ما حكاه الكسائي في الجمع فليس بصحيح على حقيقة النظر؛ ولكن صِفْوان جمع صفًا؛ وصفًا بمعنى صَفْوان؛ ونظيره وَرَل (٢) ووِرْلان وأَخٌ وإخوانٌ وكَرًا وكِرْوان؛ كما قال الشاعر:

لنــا يوم وللكِرْوان يوم * تطير البائسات ولا نطير

والضعيف في العربية كِرْوان جمع كَرَوان؛ وصُفِيّ وصِفِيّ جمع صَــفًا مثل عصا. والوابل: المطر الشديد. وقد وَبَلت السماء تَبِل؛ والأرض مَوْبُولة. قال الأخفش: ومنه قوله تعالى: «أَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا» أي شديدا. وضَرْبٌ وَبيل؛ وعذاب وبيل أي شديد. والصَّلْد: الأملس من الحجــارة. قال الكسائي: صَلِد يصلَد صَلَدا بتحريك اللام فهو صَلْد بالإسكان؛ وهو كل ما لا ينبت شيئا؛ ومنه جَبِينٌ أَصْلَد؛ وأنشد الأصمعيّ لرُؤْبة:

* بَرّاق أَصْلاد الجبين الأَجْلَهِ (٣) *

قال النقاش: الأصلد الأجرد بلغة هُذيل. ومعنى «لا يقدرون» يعني المرائي والكافر والمانّ على شيء؛ أي على الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم وهو كسبهم عند حاجتهم إليه إذ كان لغير الله؛ فعبّر عن النفقة بالكسب لأنهم قصدوا بها الكسب. وقيل: ضَرب هذا مَثَلا للمُرائي في إبطال ثوابه؛ ولصاحب المنّ والأذى في إبطال فضله؛ ذكره المــاوردي.

---

(١) راجع المسألة الثانية ج ٢ ص ١٧٩ طبعة ثانية. (٢) الورل (بالتحريك): دابة على خلقة الضب إلا أنها أعظم منه تكون في الرمال والصحاري؛ والعرب تستخبث الورل وتستقذره فلا تأكله.

(٣) الجله: أشد من الجلح وهو ذهاب الشعر من مقدّم الجبين.

قوله تعالى : وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ « ابتغاء » مفعول من أجله . « وتثبيتا من أنفسهم » عطف عليه . وقال مكّيّ في المشكل : كلاهما مفعول من أجله . قال ابن عطيّة : وهو مردود، ولا يصح في « تثبيتا » أنه مفعول من أجله، لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت . و «ابتغاء» نصب على المصدر في موضع الحال، وكان يتوجّه فيه النصب على المفعول من أجله لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذى هو « تثبيتا » عليه . ولما ذكر تعالى صفة صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم ونهى المؤمنين عن مواقعة ما يشبه ذلك بوجه ما عقّب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين تزكو صدقاتهم اذ كانت على وفق الشرع ووجهه. و«ابتغاء» معناه طلب . و «مرضات» مصدر من رَضِيَ يَرْضَى . « وتثبيتا » معناه أنهم يتثبّتون أين يضعون صدقاتهم؛ قاله مجاهد والحسن . قال الحسن : كان الرجل اذا همّ بصدقة تثبّت، فإن كان ذلك لله أمضاه وإن خالطه شك أمسك . وقيل : معناه تصديقا ويقينا؛ قاله ابن عباس . وقال ابن عباس أيضا وقتادة : معناه واحتسابا من أنفسهم . وقال الشعبي والسُّدّي وقتادة أيضا وابن زيد وأبو صالح وغيرهم : وتثبيتا معناه وتيقّنا ، أى أن نفوسهم لها بصائر فهي تثبّتهم على الإنفاق في طاعة الله تعالى تثبيتا . وهذه الأقوال الثلاث أصوب من قول الحسن ومجاهد، لأن المعنى الذى ذهبا إليه إنما عبارته وتثبيتا مصدَر على غير المصدر . قال ابن عطيّة : وهذا لا يسوغ إلا مع ذكر الصدر والإفصاح بالفعل المتقدم؛ كقوله : « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » ، « وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » . وأما إذا لم يقع إفصاح بفعل فليس لك أن تأتى بمصدر في غير معناه ثم تقول : أحمله على معنى كذا وكذا، لفعل لم يتقدّم له ذكر . قال ابن عطية : هذا مَهْيَع كلام العرب

فيما علمت . وقال النحاس : لو كان كما قال مجاهد لكان وتثبُّتا من تثبّتُّ كتكرّمت تكرُّما ، وقول قتادة احتسابا لا يُعرف ، إلا أن يراد به أن أنفسهم تثبتهم محتسبة ، وهذا بعيد . وقول الشعبي حَسَن ، أي تثبيتا من أنفسهم لهم على إنفاق ذلك في طاعة الله عز وجل ؛ يقال : ثبّتُّ فلانا في هذا الأمر ، أي صححت عزمه ، وقوّيت فيه رأيه ، أثبته تثبيتا ، أي أنفسهم مُوقنة بوعد الله على تثبيتهم في ذلك . وقيل : «وتثبيتا من أنفسهم» أي يُقرّون بأن الله تعالى يثيب عليها ، أي وتثبيتا من أنفسهم لثوابها بخلاف المنافق الذي لا يحتسب الثواب .

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ الجنة : البُستان ، وهي قطعة أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطّيها ، فهي مأخوذة من لفظ الجن والجنين لاستتارهم ، وقد تقدم . والرُّبوة : المكان المرتفع ارتفاعا يسيرا معه في الأغلب كَثافة تراب ، وما كان كذلك فنباته أحسن ، ولذلك خصّ الرّبوة بالذّكر . قال ابن عطية : ورياض الحَزْن ليست من هذا كما زعم الطبريّ ، بل تلك هي الرياض المنسوبة إلى نَجْد لأنها خير من رياض تهامة ، ونبات نجد أعطر ونسيمه أبرد وأرقّ ، ونجد يقال لها حزن . وقلما يصلح هواء تهامة إلا بالليل ، ولذلك قالت الأعرابية : «زوجي كلَيل تهامة» . وقال السُّدّي : «بربوةٍ» أي برباوة ، وهو ما انخفض من الأرض . قال ابن عطية : وهذه عبارة قلِقة ، ولفظ الربوة هو مأخوذ من ربا يربو إذا زاد .

قلت : عبارة السُّدّي ليست بشيء ، لأن بناء «رَ بَ وَ» معناه الزيادة في كلام العرب ، ومنه الرَّبْو للنَّفَس العالي . رَبَا يربُو إذا أخذه الرَّبو . ورَبَا الفرسُ إذا أخذه الربو من عَدْو أو فزع . وقال الفراء في قوله تعالى : «أَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً» أي زائدة ، كقولك : أَرْبيت إذا أخذتَ أكثر مما أعطيت . ورَبَوْتُ في بني فلان ورَبِيت أي نشأت فيهم . وقال الخليل : الرَّبْوة أرض مرتفعة طيّبة وخصّ اللهُ بالذّكر التي لا يجرى فيها ماء من حيث العُرف في بلاد العرب ، فمثّل لهم ما يحسُّونه ويدركونه . وقال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع الذي لا تجرى فيه الأنهار ، لأن قوله «أَصَابَهُ وَابِلٌ» إلى آخر الآية يدلّ على أنها ليس فيها ماء جارٍ ، ولم يرد جنس التي تجرى فيها الأنهار ، لأن الله تعالى قد ذكر «رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» .

والمعروف من كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر .
وفيها خمس لغات « رُبوة » بضم الراء، وبها قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى ونافع وأبو عمرو .
و« رَبوة » بفتح الراء، وبها قرأ عاصم وابن عامر والحسن . « ورِبوة » بكسر الراء، وبها قرأ ابن عباس وأبو إسحاق السّبيعى . و « رَباوة » بالفتح، وبها قرأ أبو جعفر وأبو عبد الرحمن؛ وقال الشاعر :

مَن منزلى فى رَوْضة برَباوة * بين النخيل الى بَقيع الغَرْقَد

و « رِباوة » بالكسر، وبها قرأ الأشهب العُقَيلى . قال الفراء : ويقال برَباوة وبرِباوة، وكلّه من الرابية، وفعله رَبا يربو .

قوله تعالى : ﴿أَصَابَهَا﴾ يعنى الربوة . ﴿وَابِلٌ﴾ أى مطر شديد؛ قال الشاعر[1] :

ما رَوْضةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبةٌ * خضراء جادَ عليها وابلٌ هَطِلُ

﴿فَآتَتْ﴾ أى أعطت . ﴿أُكُلَهَا﴾ بضم الهمزة : الثمر الذى يؤكل؛ ومنه قوله تعالى : « تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ » . والشىء المأكول من كل شىء يقال له أُكُل . والأُكْلة : اللقمة؛ ومنه الحديث : "فإن كان الطعام مَشْفُوها[2] قليلا فليضع[3] فى يده منه أُكْلَة أو أُكْلتين" يعنى لقمة أو لقمتين، خرّجه مسلم . وإضافته الى الجنة إضافة اختصاص، كسرج الفرس وباب الدار. وإلا فليس الثمر مما تأكله الجنة . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « أُكْلَها » بضم الهمزة وسكون الكاف، وكذلك كل مضاف [الى] مؤنث، وفارقهما أبو عمرو فيما أضيف الى مذكّر مثل أُكله، أو كان غير مضاف إلى شىء مثل « أُكُلٍ خَمْطٍ » فثقّل أبو عمرو ذلك وخفّفاه . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى فى جميع ما ذكرناه بالتثقيل . ويقال : أُكُل وأُكْل بمعنًى .
﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أى أعطت ضعفى ثمر غيرها من الأرَضين . وقال بعض أهل العلم : حملت مرتين فى السنة؛ والأوّل أكثر، أى أخرجت من الزرع ما يخرج غيرها فى سنتين .

---

(١) هو اعشى بنى ثعلبة (عن اللسان وتفسير الطبرى) . (٢) المشفوه : القليل ؛ وأصله الماء الذى كثرت عليه الشفاه حتى قل . (٣) فى الأصول : « فليطعمه منه ... » والتصويب عن صحيح مسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ تأكيد منه تعالى لمدح هذه الربوة بأنها إن لم يصبها وابل فإن الطّلّ يكفيها وينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين، وذلك لكرم الأرض وطيبها. قال المبرّد وغيره : تقديره فطلّ يكفيها . وقال الزجاج : فالذي يصيبها طلّ. والطل : المطر الضعيف المستدِق من القطر الخفيف؛ قاله ابن عباس وغيره، وهو مشهور اللغة. وقال قوم منهم مجاهد : الطلّ : النّدى . قال ابن عطية : وهو تجوّز وتشبيه . قال النحاس : وحكى أهل اللغة وَبَلَت وَأَوْبَلَت، وطلّت وأطلّت . وفي الصّحاح : الطل أضعف المطر والجمع الطّلال؛ تقول منه : طُلّت الأرض وأطلّها الندى فهي مَطْلولة . قال الماوردِيّ : وزرع الطل أضعف من زرع المطر وأقل رَيْعا وفيه و إن قلّ تماسكٌ ونَفْع . قال بعضهم : في الآية تقديم وتأخير، ومعناه كمثل جنة بربوة أصابها وابل فإن لم يصبها وابل فطل فآتت أُكُلها ضعفين . يعني اخضرت أوراق البستان وخرجت ثمرتها ضعفين .

قلت : التأويل الأوّل أصوب ولا حاجة الى التقديم والتأخير . فشبّه تعالى نموّ نفقات هؤلاء المخلصين الذين يُرَبِّي الله صدقاتهم كتربية الفُلُوّ(١) والفصيل بنموّ نبات الجنة بالربوة الموصوفة؛ بخلاف الصّفْوان الذي انكشف عنه ترابه فبقي صَلْدا . وخرّج مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يتصدّق أحد بتمرة من كسب طيّب إلا أخذها الله بيمينه فيُرَبِّيها كما يُرَبِّي أحدكم فُلُوّه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل أو أعظم" خرّجه الموطأ أيضا .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعد ووعيد . وقرأ الزُّهريّ « يعملون » بالياء كأنه يريد به الناس أجمع أو يريد المنفقين فقط؛ فهو وعد محض .

---

(١) الفلو (بضم الفاء وفتحها مع ضم اللام، وبكسرها مع سكون اللام) : المهر الصغير، وقيل : هو العظيم من أولاد ذات الحافر .

قوله تعالى : أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

قوله تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ حكى الطبرىّ عن السُّدّى أن هذه الآية مَثَلٌ آخر لنفقة الرياء، ورجّح هو هذا القول .

قلت ورُوى عن ابن عباس أيضا قال : هذا مَثَلٌ ضربه الله للرائين بالأعمال يبطلها يوم القيامة أحوج ما كان إليها ، كمثل رجل كانت له جنّة وله أطفال لا ينفعونه فكَبِر وأصاب الجنة إعصار أى ريح عاصف فيه نار فاحترقت ففقدها أحوج ما كان إليها . وحُكى عن ابن زيد أنه قرأ قول الله تعالى « يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمَنّ والأذى » الآية، قال : ثم ضرب فى ذلك مثلا فقال : « أيود أحدكم » الآية . قال ابن عطية : وهذا أبين من الذى رجّح الطبرىّ، وليست هذه الآية بمَثَل آخر لنفقة الرياء؛ هذا هو مقتضى سياق الكلام . وأما بالمعنى فى غير هذا السياق فتشبّه حال كل منافق أو كافر عمل عملا وهو يحسب أنه يحسن صُنْعًا فلما جاء الى وقت الحاجة لم يجد شيئا .

قلت قد رُوى عن ابن عباس أنها مَثَلٌ لمن عمل لغير الله من منافق وكافر على ما يأتى ، إلا أن الذى ثبت فى البخارىّ عنه خلاف هذا . خرج البخارى عن عُبيد بن عُمير قال قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب »؟ قالوا : الله ورسوله أعلم؛ فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم! فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين؛ قال : يابن أخى قل ولا تحقّر نفسك؛ قال ابن عباس : ضُربت مَثلا لعملٍ . قال عمر : أى عملٍ؟ قال ابن عباس : لعملِ رجل غَنِيّ يعمل بطاعة الله ثم بعث الله عز وجل له الشيطان فعمل

في المعاصي حتى أحرق عمله . في رواية فإذا فني عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال الشقاء، فرضي ذلك عمره . وروى ابن أبي مُليكة أن عمر تلا هذه الآية . وقال : هذا مثل ضرب الإنسان يعمل عملا صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء. قال ابن عطية : فهــذا نظر يحمل الآية على كل ما يدخل تحت ألفاظها ؛ وبنحــو ذلك قال مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم . وخصّ النخيل والأعناب بالذّكر لشرفهما وفضلهما على سائر الشجر . وقرأ الحسن « جنات » بالجمع . ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقدم ذكره . ﴿ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ يريد ليس شيء من الثمار إلا وهو فيها نابت .

قوله تعالى ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ عطف ماضيًا على مستقبل وهو «تكون» وقيل «يودّ» فقيل : التقدير وقد أصابه الكبر . وقيل إنه محمول على المعنى، لأن المعنى أيودّ أحدكم أن لو كانت له جنة . وقيل الواو واو الحال، وكذا في قوله تعالى « وله » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ قال الحسن « إعصار فيه نار » ريح فيها برد شــديد . الزجاج : الإعصار في اللغة الريح الشديدة التي تَهُبّ من الأرض الى السماء كالعمود، وهي التي يقــال لها الزوبعة . قال الجوهريّ : الزوبعــة رئيس من رؤساء الجن ؛ ومنه سُمّيَ الإعصار زوبعة . ويقال : أمّ زوبعة، وهي ريح تثير الغبار وترتفع إلى السماء كأنها عمود . وقيــل : الإعصار ريح تثير سحابا ذا رعد وبرق . المَهْــدَوِيّ : قيل لها إعصار لأنها تلتفّ كالثوب إذا عُصِر . ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل هو صحيح لأنه المشاهد المحسوس، فإنه يصعد عمودا مُلْتَفًّا . وقيل : إنما قيل للريح إعصار لأنه يعصر الســحاب ، والسحاب مُعْصِرات إمّا لأنهــا حوامل فهي كالمعصر من النساء . وإمّا لأنهــا تنعصر بالرياح . وحكى ابن سِيدَه أن المعصرات فسرها قوم بالرياح لا بالسحاب . ابن زيد : الإعصار ريح عاصف وسَموم شــديدة ؛ وكذلك قال السُّــدّي : الإعصار الريح والنار السَّموم . ابن عباس : ريح فيها سموم شديدة . قال ابن عطية : ويكون

ذلك فى شدّة الحرّ ويكون فى شدّة البرد، وكل ذلك من فَيْح(1) جهنم ونفَسِها؛ كما تضمن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إذا اشتدّ الحر فأبْرِدوا عن الصلاة فإن شدّة الحر من فَيْح جهنم وان النار اشتكت الى ربها" الحديث. وروى عن ابن عباس وغيره أن هـذا مَثَل ضربه الله تعالى للكافرين والمنافقين، كهيئة رجل غرس بستانا فأكثر فيـه من الثمر فأصابه الكِبَر وله ذُرّية ضعفاء — يريد صِبيانا بناتٍ وغِلمانا — فكانت معيشته ومعيشة ذرّيته من ذلك البستان، فأرسل الله على بستانه ريحا فيها نار فأحرقته، ولم يكن عنده قوة فيغرسه ثانية، ولم يكن عند بنيه خير فيعودون على أبيهم. وكذلك الكافر والمنافق اذا ورد إلى الله تعالى يوم القيامة ليست له كرّة يُبعث فيرد ثانية، كما ليست عند هذا قوة فيغرس بستانه ثانية، ولم يكن عند من افتقر اليه عند كبَر سنه وضعف ذريته غِنًى عنه.

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ يريد كى ترجعوا إلى عظمتى ورُبوبيّتى ولا تتخذوا من دونى أولياء. وقال ابن عباس أيضا: تتفكرون فى زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٢٦٧)

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا ﴾ هذا خطاب لجميع أمّة محمد صلى الله عليـه وسلم. واختلف العلماء فى المعنى المراد بالإنفاق هنا؛ فقال علىّ بن أبى طالب وعَبِيدة السَّلمانىّ وابن سيرين: هى الزكاة المفروضة، نهى الناس عن إنفاق الردئ فيها بدل الجيّد. قال ابن عطية: والظاهر من قول البَرَاء بن عازب والحسن وقتادة أن الآية فى التطوع، نُدبوا الى

(1) الفيح: سطوع الحرّ وفورانه.

ألا يتطوعوا إلا بمختار جيد. والآية تعم الوجهين؛ لكن صاحب الزكاة تعلق بأنها مأمور بها والأمر على الوجوب وبأنه نهى عن الرديء وذلك مخصوص بالفرض، وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بالقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر، ودرهمٌ خير من تمرة. تمسك أصحاب الندب بأن لفظة اِفْعَلْ صالح للندب صلاحيته للفرض؛ والرديء منهيٌّ عنه في النفل كما هو منهيٌّ عنه في الفرض؛ والله أحق من آختير له. وروى البَراء أن رجلا علّق قِنْوَ حَشَفٍ (١)، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "بئسما علّق" فنزلت الآية؛ خرّجه الترمذيّ وسيأتي بكماله. والأمر على هذا القول على الندب، ندبوا الى ألّا يتطوعوا إلا بجيّد مختار. وجمهور المتأولين قالوا: معنى «من طيبات» من جيد مختار ما كسبتم. وقال ابن زيد: من حلال ما كسبتم.

الثانيــة — الكسب يكون بتعب بدن وهي الإجارة وسيأتي حكمها، أو مناولة في تجارة وهو البيع وسيأتي بيانه. والميراث داخل في هذا لأن غير الوارث قد كسبه. قال سهل بن عبد الله: وسئل ابن المبارك عن الرجل يريد أن يكتسب وينوي باكتسابه أن يصل به الرحم وأن يجاهد ويعمل الخيرات ويدخلَ في آفات الكسب لهذا الشأن. قال: إن كان معه قِوَام من العيش بمقدار ما يكفّ نفسه عن الناس فتركُ هذا أفضل؛ لأنه إذا طلب حلالا وأنفق في حلال سئل عنه وعن كسبه وعن إنفاقه؛ وترك ذلك زهد فإن الزهد في ترك الحلال.

الثالثــة — قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: ولهذه الآية جاز للوالد أن يأكل من كسب ولده؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أولادكم من طيّب أكسابكم فكلوا من أموال أولادكم هنيئا".

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يعني النبات والمعادن والرِّكاز؛ وهذه أبواب ثلاثة تضمّنتها هذه الآية. أما النبات فروى الدّارَقُطْنِيّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: جرت السُّنّة من رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس فيما دون خمسة

(١) القنو (بكسر القاف وضمها وسكون النون): العذق (العرجون) بما فيه من الرطب.

أَوْسُق زكاة". والوَسْق ستون صاعا، فذلك ثلاثمائة صاع من الحنطة والشعير والتمر والزبيب. وليس فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة. وقد آحتج قوم لأبي حنيفة بقول الله تعالى: «وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» وإن ذلك عمومٌ في قليل ما تُخرجه الأرض وكثيره وفي سائر الأصناف، ورأوا ظاهر الأمر الوجوب. وسيأتي بيان هذا في «الأنعام»(١) مستوفًى. وأما المَعْدِن فروى الأئمة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العجماء(٢) جَرحها جُبار والبئر جُبار والمَعْدن جُبَار وفي الرّكاز الخمس". قال علماؤنا: لما قال صلى الله عليه وسلم: "وفي الرّكاز الخمس" دل على أن الحكم في المعادن غير الحكم في الركاز؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قد فصل بين المعادن والرّكاز بالواو الفاصلة، ولو كان الحكم فيهما سواء لقال والمعدن جُبار وفيه الخمس، فلما قال "وفي الركاز الخمس" عُلم أن حكم الركاز غير حكم المعدن فيما يؤخذ منه، والله أعلم.

والركاز أصله في اللغة ما آرتكز بالأرض من الذهب والفضة والجواهر، وهو عند سائر الفقهاء كذلك؛ لأنهم يقولون في النَّدْرة(٣) التي توجد في المعدن مرتكزة بالأرض لا تُنال بعمل ولا بسَعْي ولا نَصب فيها الخمسُ لأنها رِكاز. وقد رُوي عن مالك أن الندرة في المعدن حكمها حكم ما يُتكلّف فيه العمل مما يُستخرج من المعدن في الرّكاز؛ والأول تحصيل مذهبه وعليه فتوى جمهور الفقهاء. وروى عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبيه عن جدّه عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الركاز قال: "الذهب الذي خلق الله في الأرض يوم خلق السموات والأرض". عبد الله بن سعيد هذا متروك الحديث، ذكر ذلك ابن أبي حاتم. وقد رُوي من طريق أخرى عن أبي هريرة ولا يصح، ذكره الدَّارَقُطْنِيّ. ودَفْنُ الجاهلية لأموالهم عند جماعة العلماء ركاز أيضا لا يختلفون فيه اذا كان

(١) في قوله تعالى: «وهو الذي أنزل من السماء ماء ...» آية ٩٩ (٢) العجماء: البهيمة. وجبار: هدر. والمعدن: المكان من الأرض يخرج منه شيء من الجواهر والأجساد كالذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والكبريت وغيرها؛ من عدن بالمكان اذا أقام به. ومعنى الحديث أن تنفلت البهيمة فتصيب من انفلاتها إنسانا أو شيئا فجرحها هدر، وكذلك البئر العادية يسقط فيها إنسان فيهلك فدمه هدر، والمعدن اذا انهار على حافره فقتله فدمه هدر. راجع معاجم اللغة وكتب السنة. (٣) الندرة (بفتح فسكون): القطعة من الذهب والفضة توجد في المعدن.

دفنه قبل الإســلام من الأموال العادية ، وأما ما كان من ضرب الإســلام فحكمه عندهم حكم اللُّقَطــة .

الخامســة — واختلفوا فى حكم الركاز إذا وُجد؛ فقال مالك: ما وُجد من دَفْن الجاهليّة فى أرض العرب أو فى فيافِى الأرض التى ملكها المسلمون بغير حرب فهو لواجده وفيه الخمس، وأما ما كان فى أرض الإســلام فهو كاللقطة . قال : وما وُجد من ذلك فى أرض العَنْــوة فهو للجماعة الذين افتتحوها دون واجده ، وما وُجد من ذلك فى أرض الصُّلْح فإنه لأهل تلك البلاد دون الناس، ولا شيء للواجد فيه إلا أن يكون من أهل الدار فهو له دونهم . وقيل: بل هو لجملة أهل الصلح . قال إسماعيل : وإنما حكم للركاز بحكم الغنيمة لأنه مالُ كافرٍ وجده مسلم فأنزل منزلة من قاتله وأخذ ماله، فكان له أربعة أخماسه . وقال ابن القاسم : كان مالك يقول فى العُروض والجواهر والحديد والرصاص ونحوه يوجد ركازا إنّ فيه الخمس، ثم رجع فقال: لا أرى فيه شيئا، ثم آخر ما فارقناه أن قال: فيه الخمس . وهو الصحيح لعموم الحديث وعليه جمهور الفقهاء . وقال أبو حنيفــة ومحمد فى الركاز يوجد فى الدار : إنه لصاحب الدار دون الواجد وفيه الخمس . وخالفه أبو يوسف فقال : إنه للواجد دون صاحب الدار؛ وهو قول الثوريّ . فان وجد فى الفلاة فهو للواجد فى قولهم جميعا وفيه الخمس . ولا فرق عندهم بين أرض الصلح وأرض العَنْوة، وسواء عنــدهم أرض العرب وغيرها، وجائز عندهم لواجده أن يحتبس الخمس لنفسه إذا كان محتاجا وله أن يعطيه للمساكين . ومن أهل المدينــة وأصحاب مالك من لا يفرّق بين شيء من ذلك وقالوا : ســواء وجد الركاز فى أرض العَنْــوة أو أرض الصلح أو أرض العرب أو أرض الحــرب اذا لم يكن مِلْكا لأحد ولم يَدّعه أحد فهو لواجده وفيه الخمس على عموم ظاهر الحديث ، وهو قول اللّيث وعبد الله بن نافع والشافعيّ وأكثر أهل العلم .

السادســة — وأما ما يوجد من المعادن ويخرج منها فاختلف فيه؛ فقال مالك وأصحابه : لا شيء فيما يخرج مــن معادن من ذهب أو فضة حتى يكون عشرين مثقالا ذهبا أو خمس

أواق فضة ، فإذا بلغتا هـذا المقدار وجبت فيهما الزكاة، وما زاد فبحساب ذلك ما دام في المعدن نيل؛ فإن انقطع ثم جاء بعـد ذلك نيل آخر فانه تبتدأ فيه الزكاة مكانه . والركاز عنـدهم بمنزلة الزرع تؤخذ منـه الزكاة في حينه ولا يُنْتَظَر به حَوْلًا . قال سُحنون في رجل له معادن : إنه لا يضم ما في واحد منها إلى غيرها ولا يزكى إلا عن مائتي درهم أو عشرين دينارا في كل واحد . وقال محمد بن مسلمة : يضم بعضها إلى بعض ويزكى الجميع كالزرع . وقال أبو حنيفة وأصحابه : المعدن كالركاز، فما وجد في المعدن من ذهب أو فضة بعد إخراج الخمس اعتبر كل واحدمنهما ، فمن حصل بيده ماتجب فيه الزّكاة زكاه لتمام الحول إن أتى عليه حول وهو نصاب عنده؛ هذا اذا لم يكن عنده ذهب أو فضة وجبت فيه الزكاة . فإن كان عنده من ذلك ماتجب فيه الزكاة ضمه الى ذلك وزكّاه . وكذلك عندهم كل فائدة تضم في الحول إلى النصاب من جنسها وتزكّى لحول الأصل؛ وهو قول الثّوري . وذكر المُزَنيّ عن الشافعيّ قال : وأما الذي أنا واقف فيه فما يخرج من المعادن . قال المُزَنيّ : الأوْلى به على أصله أن يكون مايخرج من المعدن فائدة يُزكّى بحوله بعد إخراجه . وقال اللّيث بن سعد : ما يخرج من المعادن من الذهب والفضة فهو بمنزلة الفائدة يستأنف به حولا ؛ وهو قول الشافعيّ فيما حصّله المُزَنيّ من مذهبه، وقال به داود وأصحابه اذا حال عليها الحول عند مالك صحيح المِلْك؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "من استفاد مالًا فلا زكاة عليـه حتى يحول عليه الحول" أخرجه التّرمذيّ والدّارَقُطْنيّ . واحتجوا أيضا بما رواه عبد الرحمن بن أَنْعُم عن أبي سعيد الخُدْريّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أعطى قوما من المُؤَلّفة قلوبهم ذُهيبة (١) في تربتها بعثها عليّ رضى الله عنه من اليَمَن . قال الشافعيّ : والمؤلّفـة قلوبُهم حقّهم في الزكاة؛ فتبيّن بذلك أن المعادن سُنّتُها سُنّة الزكاة . وحجة مالك حديثٌ عن ربيعـة بن أبي عبد الرحمن أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أقطع بلالَ بنَ الحارث المعادنَ القَبَلِيّة (٢) وهي من ناحية الفُرْع ، فتلك المعادن لا يؤخذ منها إلى اليوم إلا الزكاة. وهذا

(١) هي تصغير ذهب ، وأدخل الهاء فيها لأن الذهب يؤنث ، والمؤنث الثلاثي إذا صغر ألحق في تصغيره الهاء نحو شميسة . وقيل : هو تصغير ذهبة على نية القطعة منها فصغرها على لفظها .

(٢) القبلية (بالتحريك) : منسوبة الى قبل موضـع . والفرع (بضم فسكون) : قرية من نواحي الربذة عن يسار السقيا بينها وبين المدينة ثمـانية برد على طريق مكة ، وقيل أربع ليال ، بها منبر ونخل ومياه كثيرة .

حديث منقطع الإسناد لا يحتج بمثله أهل الحديث، ولكنه عمل يعمل به عندهم في المدينة . ورواه الدَّرَاوَرْدِيّ عن ربيعة عن الحارث بن بلال المُزَنِيّ عن أبيه . ذكره البزار، ورواه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أقطع بلالَ بنَ الحارث المعادنَ القَبَلِيّة جَلْسِيَّها وغَوْرِيَّها (١) ، وحيث يصلُح للزرع من قُدْس (٢) ولم يُعْطه حقّ مُسْلم ؛ ذكره البزار أيضا ، وكثيرٌ مجتمعٌ على ضعفه . هـذا حكم ما أخرجته الأرض، وسيأتي في سورة « النحل » حكم ما أخرجه البحر إذ هو قَسِيم الأرض (٣) . ويأتي في « الأنبياء» معنى قوله عليه السلام : "العَجْماء جُرْحها جُبَار" (٤) كلٌّ في موضعه إن شاء الله تعالى .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ تيمموا معناه تقصدوا، وسـتأتي الشواهد من أشعار العرب في أن التيمم القَصْد في « النساء » إن شاء الله تعـالى . ودلّت الآية على أن المكاسب فيها طيب وخبيث . وروى النَّسائي عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف في الآية التي قال الله فيها : «وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ» قال : هو الجُعْرُور ولَوْن حُبَيْق (٥) ؛ فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخذا في الصدقة . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة فجاء رجل من هـذا السُّحّل (٦) بكبائس — قال سـفيان : يعني الشِّيص — فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن جاء بهذا"؟ ! وكان لا يجيء أحد بشيء إلا نُسب إلى الذي جاء به . فنزلت : « ولا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْـهُ تُنْفِقُونَ » . قال : ونَهَى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الجُعْرُور ولَوْن الحُبَيق أن يؤخذا في الصدقة — قال الزهريّ : لونين من تمر المدينة — وأخرجه

---

(١) الجلس (بفتح فسكون) : كل مرتفع من الأرض . والغور . ما انخفض منها .

(٢) القدس (بضم القاف وسكون الدال) : جبل معروف . وقيل : هو الموضع المرتفع الذي يصلح للزراعة .

(٣) في قوله تعالى : «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه ... » آية ١٤

(٤) في المسألة الرابعة عشرة في قوله تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث ... » آية ٧٨

(٥) الجعرور (بضم الجيم وسكون العين وراء مكررة) : ضرب رديء من التمر يحمل رطبا صغارا لا خير فيه . وحبيق (بضم الحاء المهملة وفتح الباء) : نوع رديء من التمر منسوب الى ابن حبيق وهو اسم رجل .

(٦) السحل (بضم السين وفتح الحاء مشدّدة) : الرطب الذي لم يتم ادراكه وقوته .

الترمذي من حديث البراء وصححه، وسيأتي . وحكى الطبري والنحاس أن في قراءة عبد الله «وَلَا تَأَمَّمُوا» وهما لغتان . وقرأ مسلم بن جُندب «ولا تُيَمِّمُوا» بضم التاء وكسر الميم . وقرأ ابن كثير «تَّيمموا» بتشديد التاء . وفي اللفظة لغات، منها «أَمَمْتُ الشيء» مخففة الميم الأولى و«أممته» بشدّها، و«يَمَّمْتُه وتيممته» . وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ «ولا تُؤَمِّمُوا» بهمزة بعد التاء المضمومة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ قال الجُرجاني في كتاب «نظم القرآن» : قال فريق من الناس : إن الكلام تمّ في قوله تعالى «الْخَبِيثَ» ثم ابتدأ خبرا آخر في وصف الخبيث فقال «منه تنفقون» وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغْمضتم أي تساهلتم؛ كأن هذا المعنى عتاب للناس وتقريع . والضمير في «منه» عائد على الخبيث وهو الدون والرديء . قال الجرجاني : وقال فريق آخر : الكلام متصل الى قوله «منه»؛ فالضمير في «منه» عائد على «ما كسبتم» ويجيء «تنفقون» كأنه في موضع نصب على الحال؛ وهو كقولك : أنا أخرج أجاهد في سبيل الله .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ أي لستم بآخذيه في ديونكم وحقوقكم من الناس إلا أن تتساهلوا في ذلك وتتركوا من حقوقكم، وتكرهونه ولا ترضونه . أي فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم؛ قال معناه البَرَاء بن عازب وابن عباس والضحّاك . وقال الحسن : معنى الآية : ولستم بآخذيه لو وجدتموه في السوق يباع إلا أن يهضم لكم من ثمنه . ورُوي نحوه عن عليّ رضي الله عنه . قال ابن عطية : وهذان القولان يشبهان كون الآية في الزكاة الواجبة . قال ابن العربي : لو كانت في الفرض لما قال «ولستم بآخذيه» لأن الرديء والمعيب لا يجوز أخذه في الفرض بحال لا مع تقدير الإغماض ولا مع عدمه، وإنما يؤخذ مع عدم إغماض في النفل . وقال البراء بن عازب أيضا : ولستم بآخذيه لو أهدى لكم إلا أن تغمضوا، أي تستحي من المُهدي فتقبل منه ما لا حاجة لك به ولا قَدْر له في نفسه . قال ابن عطيّة : وهذا يشبه كون الآية في التطوّع . وقال ابن زيد : ولستم بآخذي الحرام إلّا أن تُغمضوا في مكروهه .

العــاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا ﴾ كذا قراءة الجمهور، من أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه ورضي ببعض حقه وتجاوز . ومن ذلك قول الطِّرِمّاح :

لم يَفُتْنَا بالوَتْرِ قــومٌ وللــذُّ ‍ ‍ لِّ أناسٌ يَرضَوْن بالإغْماضِ

وقد يحتمل أن يكون منتزعا إمّا من تغميض العين، لأن الذى يريد الصبر على مكروه يغمض عينيه ــ قال :

إلى كَمْ وكَمْ أشيـاءَ منـك تُرِيبُنِي ‍ ‍ أُغَمِّضُ عنها لستُ عنها بذى عَمَى

وهذا كالإغضاء عند المكروه . وقد ذكر النقّاش هذا المعنى في هذه الآية وأشار اليه مكّيّ ــ وإمّا من قول العرب : أغمض الرجل إذا أتى غامضا من الأمر؛ كما تقول : أَعْمَن أى أتى عُمَان، وأَعْرَق أى أتى العِراق ، وأنجد وأغور أى أتى نجدا والغور الذى هو تِهامة، أى فهو يطلب التأويل على أخذه . وقرأ الزُّهريّ بفتح التاء وكسر الميم مخففا، وعنه أيضا «تُغَمِّضوا» بضم التــاء وفتح الغين وكسر الميم وشدّها . فالأولى على معنى تهضموا سومها من البائع منــكم فيحطّكم . والثانية، وهى قراءة قتادة فيما ذكر النحاس، أى تأخذوا بنقصان . وقال أبو عمرو الدّانيّ : معنى قراءة الزُّهريّ حتى تأخذوا بنقصــان . وحكى مكّيّ عن الحسن « إلّا أن تُغَمَّضوا » مشدّدة الميم مفتوحة . وقرأ قتادة أيضا « تُغْمَضوا » بضم التــاء وسكون الغين وفتح الميم مخففا . قال أبو عمرو الدّانيّ : معناه إلا أن يغمض لكم؛ وحكاه النحاس عن قتادة نفســه . وقال ابن جنى : معناها تُوجَدوا قد غمضتم فى الأمر بتأوّلكم أو بتساهلكم وجريتم على غير السابق الى النفوس . وهذا كما تقول: أحمدت الرجل وجدته محمودا، الى غير ذلك من الأمثلة . قال ابن عطيّة : وقراءة الجمهور تخرج على التجاوز وعلى تغميض العين؛ لأن أغمض بمنزلة غمّض . وعلى أنها بمعنى حتى تأتوا غامضا من التأويل والنظر فى أخذ ذلك؛ إما لكونه حراما على قول ابن زيد، وإما لكونه مُهْدًى أو مأخوذا فى دَيْن على قول غيره . وقال المَهْدَوِيّ : ومن قرأ تُغْمِضُوا فالمعنى تُغْمِضُوا أعينَ بصائركم عن أخذه . قال الجوهريّ : وغَمَّضْتُ عن فلان اذا تساهلت عليــه فى بيع أو شراء وأَغْمَضت، وقال تعــالى : « ولستم

بِآخِذِيهِ إِلا أن تُغْمِضوا فيهِ» . يقال : أَغْمِض لى فيما بعتنى؛ كأنك تريد الزيادة منــه لرداءته والحطّ من ثمنه . و « أن » فى موضع نصب، والتقدير إلا بأن .

الحادية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ نبّه سبحانه وتعالى على صفة الغنى ، أى لاحاجة به الى صدقاتكم؛ فمن تقرّب وطلب مثوبةً فليفعل ذلك بما له قَدْرٌ وبال، فإنمــا يقدّم لنفسه . و « حميــد » معناه محمود فى كل حال . وقد أتينا على معانى هــذين الاسمين فى « الكتاب الأسنى » والحمــد لله . قال الزجاج فى قوله « واعْلَمُوا أنّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيــدٌ » : أى لم يأمركم أن تَصَدّقوا من عَوَز ولكنه بَلَا أخبارَكم فهو حميد على ذلك على جميع نِعمه .

قوله تعــالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ ﴾ تقدّم معنى الشيطان واشتقاقه[(١)] فلا معنى لإعادته . و « يعدكم » معناه يخوّفكم الفقر، أى بالفقر لئلا تُنفقوا . فهذه الآية متصلة بمــا قبلُ، وأن الشيطان له مدخل فى التثبيط للإنسان عن الإنفاق فى سبيل الله، وهو مع ذلك يأمر بالفحشاء وهى المعاصى والإنفاق فيها . وقيل : بأن لا تتصدّقوا فتعصوا وتتقاطعوا . وقرئ « الفُقْرَ » بضم الفاء وهى لغة . قال الجوهرىّ : والفُقْر لغة فى الفَقْر، مثل الضُّعف والضَّعف .

الثانيـــة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾ الوعد فى كلام العــرب إذا أطلق فهو فى الخير، وإذا قُيّد بالموعود ماهو فقد يقدّر بالخير وبالشر كالبشارة. فهذه الآية ممــا يُقيّد فيها الوعد بالمعنيين جميعا . قال ابن عباس : فى هــذه الآية اثنتان من الله تعــالى واثنتان من الشيطان . وروى الترمذىّ عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع المسألة العاشرة جـ ١ ص ٩٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

عليه وسلم : " إنّ للشيطان لَمّة(1) بآبن آدمَ وللمَلَك لَمّةً فأمّا لمّة الشيطان فإيعادٌ بالشّر وتكذيبٌ بالحق وأمّا لمّة الملَك فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقّ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ومَن وجد الأخرى فليتعوّذ بالله من الشيطان — ثم قرأ — الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ". قال : هـذا حسن صحيح(2) . ويجوز في غير القرآن «ويأمركم الفحشاء» بحذف الباء ؛ وأنشد سـيبويه :

أمرتُكَ الخيرَ فافعل ما أُمرتَ به * فقــد تركتك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

والمغفرة هي السّتر على عباده في الدنيا والآخرة . والفضل هو الرزق في الدنيا والتّوسعة والنّعيم في الآخرة ؛ وبكلٍّ قد وعد الله تعالى .

الثالثــة — ذكر النقّاش أن بعض النـاس تأنّس بهذه الآية في أن الفقر أفضــل من الغنى ؛ لأن الشيطان إنما يُبعد العبد من الخير، وهو بتخويفه الفقر يُبعد منه . قال ابن عطيّة : وليس في الآية حجة قاطعة بل المعارضة بهـا قويّة . ورُوي أن في التوراة " عبدي أنفق من رزقي أَبْسُطْ عليك فضلي فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسـوطة " . وفي القرآن مِصداقه وهو قوله : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » ذكره ابن عبـاس . ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(3) تقـدم معناه . والمراد هنا أنه سـبحانه وتعالى يُعطي من سَعة ويعلم حيث يضع ذلك ، ويعلم الغيب والشهادة . وهمـا اسمان من أسمائه ذكرناهما في جملة الأسماء في « الكتاب الأسنى » والحمد لله .

قوله تعـالى : يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

---

(1) اللمة (بفتح اللام) : الهمة والخطرة تقع في القلب . أراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه ؛ فما كان من خطرات الخير فهو من الملك ، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان . (عن نهاية ابن الأثير) .

(2) كذا في الأصل . والذي في سنن الترمذي : « ... حسن غريب » .

(3) راجع المسألة الخامسة جـ ٢ ص ٨٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يعطيها لمن يشاء من عباده . واختلف العلماء في الحكمة هنا؛ فقال السُّدّي : هي النبوّة . ابن عباس : هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدّمه ومؤخره . وقال قتادة ومجاهد : الحكمة هي الفقه في القرآن . وقال مجاهد : الإصابة في القول والفعل . وقال ابن زيد : الحكمة العقل في الدِّين . وقال مالك بن أنس : الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتّباع له . وروى عنه ابن القاسم أنه قال : الحكمة التفكر في أمر الله والاتّباع له . وقال أيضا : الحكمة طاعة الله والفقهُ في الدِّين والعملُ به . وقال الربيع بن أنس : الحكمة الخشية . وقال إبراهيم النَّخَعِيّ : الحكمة الفهم في القرآن ؛ وقاله زيد بن أسلم . وقال الحسن : الحكمة الورع .

قلت : وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السُّدّي والربيع والحسن قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الاتقان في قول أو فعل؛ فكل ما ذُكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس؛ فكتاب الله تعالى حكمة ، وسُنّة نبيّه حكمة، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة . وأصل الحكمة ما يمتنع به من السَّفه؛ فقيل للعلم حكمة ، لأنه يمتنع به، وبه يعلم الإمتناع من السّفه وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم. وفي البخاريّ : "من يُرِد الله به خيرا يفقّهه في الدِّين". وقال هنا : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » وكرر ذكر الحكمة ولم يضمرها اعتناءً بها، وتنبيها على شرفها وفضلها حسب ما تقدّم بيانه عند قوله : «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا»(١) . وذكر الدّارميّ أبو محمد في مسنده حدّثنا مروان بن محمد حدّثنا رِفْدة الغسّانيّ قال أخبرنا ثابت بن عجلان الأنصاري قال : كان يقال إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم المعلّم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم . قال مروان : يعني بالحكمة القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ يقال : إن من أُعطيَ الحكمة والقرآن فقد أُعطيَ أفضل ما أعطى من جمع علم كتب الأوّلين من

(١) راجع المسألة الثالثة جـ ١ ص ٤١٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

الصحف وغيرها، لأنه قال لاولئك: « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . وسمّى هذا خيرا كثيرا لأن هذا هو جوامع الكلم . وقال بعض الحكماء : من أعطى العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم؛ فانما أعطى أفضل ما أعطى أصحاب الدنيا؛ لأن الله تعالى سمّى الدنيا متاعا قليلا فقال : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ » وسمّى العلم والقرآن خيرا كثيرا . وقرأ الجمهور « وَمَنْ يُؤْتَ » على بناء الفعل للفعول . وقرأ الزُّهرِيّ و يعقوب «ومن يؤتِ» بكسر التاء على معنى ومن يؤت الله الحكمة، فالفاعل اسم الله عز وجل . و «مَنْ» مفعول أوّل مقدم، والحكمة مفعول ثان . والألباب : العقول، واحدها لُبّ وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

شرط وجوابه، وكانت النذور من سيرة العرب تُكثِر منها؛ فذكر تعالى النوعين، ما يفعله المرء متبرّعا، وما يفعله بعد إلزامه لنفسه . وفي الآية معنى الوعد والوعيد ، أى من كان خالص النية فهو مُثاب ، ومن انفق رياء أو لمعنًى آخر مما يكسبه المَنّ والأذى ونحو ذلك فهو ظالم، يذهب فعله باطلا ولا يجد له ناصرًا فيه . ومعنى « يعلمه » يُحصيه؛ قاله مجاهد . ووحّد الضمير وقد ذكر شيئين، فقال النحاس : التقدير وما أنفقتم من نفقة فإن الله يعلمها، أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ، ثم حذف . ويجوز أن يكون التقدير : وما أنفقتم فإن الله يعلمه وتعود الهاء على « ما » كما أنشده سيبويه :

فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها * لِما نسجتها من جَنُوبٍ وشَمْأَلِ (٢)

ويكون « أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ » معطوفا عليه . قال ابن عطيّة : ووحّد الضمير في « يعلمه » وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذكر أو نصّ .

---

(١) راجع المسألة الرابعة عشرة جـ ٢ ص ٤١٢ طبعة ثانية .

(٢) البيت لامرئ القيس في معلقته . وتوضح والمقراة : موضعان ، وهما عطف على «حومل» في البيت قبله .

قلت : وهذا حسن : فإن الضمير قد يراد به جميع المذكور وإن كثر. والنذر حقيقة العبارة عنه أن تقول : هو ما أوجبه المكلّف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه؛ تقول : نذر الرجل كذا اذا التزم فعله، ينذر (بضم الذال) وينذِر (بكسرها). وله أحكام يأتى بيانها فى غير هذا الوضع إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾

ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية فى صدقة التطوع لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات الإخفاءُ أفضل فى تطوّعها لانتفاء الرّياء عنها، وليس كذلك الواجبات. قال الحسن : إظهار الزكاة أحسن، و إخفاء التطوّع أفضل؛ لأنه أدلّ على أنه يراد الله عز وجل به وحده. قال ابن عباس : جعل الله صدقة السر فى التطوّع تفضُل علانيتها يقال بسبعين ضِعفا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سِرها يقال بخمسة وعشرين ضِعفا. قال : وكذلك جميع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها.

قلت : مِثل هذا لا يقال من جهة الرأى و إنما هو توقيف؛ وفى صحيح مسلم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة"(١) وذلك أن الفرائض لا يدخلها رِياء والنوافل عُرضة لذلك. وروى النَّسائىّ عن عُقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الذى يجهر بالقرآن كالذى يجهر بالصدقة والذى يُسِرّ بالقرآن كالذى يُسِرّ بالصدقة". وفى الحديث : "صدقة السرّ تُطْفِئ غضب الربّ".

قال ابن العربىّ : « وليس فى تفضيل صدقة العلانية على السر، ولا تفضيل صدقة السر على العلانية» حديث صحيح ولكنه الاجماع الثابت؛ فأمّا صدقة النفل فالقرآن ورد مصرّحا

---

(١) عبارة مسلم كما فى صحيحه : « ... فان خير صلاة المرء فى بيته إلا الصلاة المكتوبة ».

بأنها فى السر أفضل منها فى الجهر؛ بَيْدَ أن علماءنا قالوا : ان هذا على الغالب مخرجه . والتحقيق فيه أن الحال [فى الصدقة](1) تختلف بحال المُعْطِى [لهـا](1) والمعطَى إياها والناس الشاهدين [لها](1) . أما المعطى فله فيها فائدة إظهار السُّنَّة وثواب القدوة .

قلت : هذا لمن قَوِيت حاله وحسنت نيّته وأمن على نفسه الرياء . وأما من ضعف عن هذه المرتبة فالسرّ له أفضل .

وأما المُعْطَى إياها فإن السرّ له أسلم من احتقار الناس له أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنى عنها وتَرْكَ التعفف؛ وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم، من جهة أنهم ربما طعنوا على المعطى لهـا بالرياء وعلى الاخذ لهـا بالاستغناء ؛ ولهم فيها تحريك القلوب إلى الصدقة؛ لكن هذا اليوم قليل » .

وقال يزيد بن أبى حبيب : إنما نزلت هـذه الآية فى الصدقة على اليهود والنصارى ، وكان يأمر بقَسْم الزكاة فى السرّ. قال ابن عطيّة : وهذا مردود، لا سيّما عند السلف الصالح؛ فقد قال الطبرىّ : أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل .

قلت : ذكر الكِيَا الطبرىّ أن فى هذه الآية دلالة على قول إخفاء الصدقات مطلقا أَوْلى، وأنها حق الفقير وأنه يجوز لرب المـال تفريقها بنفسه، على ما هو أحد قولى الشافعىّ . وعلى القول الآخر ذكروا أن المراد بالصدقات ها هنا التطوع دون الفرض الذى إظهاره أَوْلى لئلا يلحقه تُهَمة، ولأجل ذلك قيل صلاة النفل فُرَادَى أفضل والجماعة فى الفرض أبعد عن التُّهَمة . وقال المَهْدَوِىّ : المراد بالآية فرض الزكاة وما تطوع به، فكان الإخفاء أفضل فى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم ساءت ظنون الناس بعد ذلك، فاستحسن العلماء إظهار الفرائض لئلا يُظَنَّ بأحد المنع . قال ابن عطيّة : وهذا القول مخالف للآثار، ويشبه فى زماننا أن يحسن التستر بصدقة الفرض، فقد كثر المانع لها وصار إخراجها عُرضة للرياء . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : وقد يجوز أن يراد بالآية الواجبات من الزكاة والتطوع ؛ لأنه ذكر الإخفاء

(1) الزيادة عن ابن العربى .

ومدحه والإظهار ومدحه، فيجوز أن يتوجّه اليهما جميعا . وقال النقّاش : إن هذه الآية نسخها قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً » الآية .

قوله تعالى ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ ثنـاء على إبداء الصـدقة ، ثم حكم على أن الإخفاء خير من ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فآستره ، وإذا اصطُنع اليك فآنشره . قال دِعْبِل الخُزَاعِيّ :

إذا انتقمـوا أعلَنُوا أمرَهم * وإن أَنْعَمُوا أنعموا باكتِتامِ

وقال سهل بن هارون :

خِلٌّ إذا جئتَـه يوما لتسـألَه * أعطاك ما ملكتْ كفّاه واعتذرَا

يُخفِي صنائعَـه واللهُ يُظْهِـرها * إن الجميل إذا أخفيتَه ظَهرَا

وقال العباس بن عبـد المطلب رضي الله عنه : لا يتمّ المعروف إلا بثـلاث خصال : تعجيله وتصغيره وستره ؛ فإذا أعجلته هنّيته ، وإذا صغّرته عظّمته ، وإذا سترته أتممته . وقال بعض الشعراء فأحسن :

زاد معروفُك عنـدى عِظَماً * أنه عنـدك مستور حقـير

تتنـاساه كأنْ لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير

واختلف القـراء فى قوله « فنِعِمّا هِيَ » فقرأ أبو عمـرو ونافع فى رواية وَرْش وعاصم فى رواية حفص وابن كثـير « فنِعِمّا هيَ » بكسر النون والعين . وقرأ أبو عمرو أيضا ونافع فى غير رواية وَرْش وعاصم فى رواية أبى بكر والمفضَّل «فنِعْمّا» بكسر النون وسكون العين . وقرأ الأعمش وابن عامر وحمـزة والكسائىّ «فَنَعِمَّا» بفتح النون وكسر العين، وكلهم سكن الميم . ويجوز فى غير القرآن فَنِعْمَ مَا هى . قال النحاس : ولكنـه فى السّواد متصل فلزم الإدغام . وحكى النحويون فى «نعم» أربع لغات : نَعِمَ الرجلُ زيدٌ ، هـذا الأصل . ونِعِمَ الرجل، بكسر النون لكسر العين . ونَعْمَ الرجل، بفتح النـون وسكون العين، والأصـل نَعِمَ حذفت الكسرة لأنها ثقيلة . ونِعْمَ الرجل، وهذا أفصح اللغات، والأصل فيها نَعِمَ . وهى تقع

فى كل مدح ، فخففت وقلبت كسرة العين على النون وأسكنت العين ، فمن قرأ «فَنِعِمَّا هِيَ» فله تقديران : أحدهما أن يكون جاء به على لغة من يقول نِعِم . والتقدير الآخر أن يكون على اللغة الجيّدة ، فيكون الأصل نِعْمَ ، ثم كسرت العين لالتقاء الساكنين . قال النحاس : فأمّا الذى حُكى عن أبى عمرو ونافع من إسكان العين فمحال . حُكى عن محمد بن يزيد أنه قال : أمّا إسكان العين والميم مشدّدة فلا يقدر أحد أن ينطق به ، وإنما يَرُوم الجمع بين ساكنين ويحرّك ولا يأبَهُ .
وقال أبو علىّ : من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله ، لأنه جمع بين ساكنين الأوّل منهما ليس بحرف مدّ ولين ، وإنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأوّل حرف مدّ ، إذ المدّ يصير عوضا من الحركة ، وهــذا نحو دابّة وضَوالّ ونحوه . ولعل أبا عمرو أخفى الحركة واختلسها كأخذه بالإخفاء فى «بارئكم ويأمركم» فظنّ السامع الإخفاء إسكانا للطف ذلك فى السمع وخفائه .
قال أبو علىّ : وأمّا من قرأ « نَعِمّا » بفتح النون وكسر العين فإنما جاء بالكلمة على أصلها ؛ ومنه قول الشاعر :

ما أقلّتْ قــدماى إنهــمُ * نَعِمَ السّاعون فى الأمر المُبِرّْ

قال أبو علىّ : و « ما » من قوله تعالى : « نِعِمَّا » فى موضع نصب ، وقوله « هى » تفسير للفاعل المضمر قبل الذكر ، والتقدير نعم شيئا إبداؤها ، والإبداء هو المخصوص بالمدح إلا أن المضاف حذف وأقيم المضاف اليه مقامه . ويدلّك على هذا قوله « فهو خير » أى الإخفاء خير . فكما أن الضمير هنا للإخفاء لا للصدقات فكذلك ، أوّلا الفاعل هو الإبداء وهو الذى اتصل به الضمير ، فحذف الإبداء وأقيم ضمير الصدقات مثــله . ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا ﴾ شرط ، فلذلك حذفت النون . ﴿ وَتُؤْتُوهَا ﴾ عطف عليه . والجواب ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ . ﴿ وَيُكَفِّرُ ﴾ اختلف القراء فى قراءته ؛ فقرأ أبو عمرو وابن كثـير وعاصم فى رواية أبى بكر وقتادة وابن أبى اسحاق «ونُكَفِّرُ» بالنون ورفع الراء . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائىّ بالنون والجزم فى الراء ، ورُوى مثل ذلك أيضا عن عاصم . وروى الحسين بن علىّ الجُعْفِىّ عن الأعمش «يُكَفِّرَ» بنصب الراء . وقرأ ابن عامر بالياء ورفع الراء ، ورواه حفص عن عاصم ، وكذلك روى عن الحسن ، ورُوى عنه بالياء والجزم . وقرأ ابن عباس «وتُكَفِّرْ» بالتاء وكسر الفاء وجزم الراء . وقرأ عكرمة «وتُكَفَّرْ»

بالتاء وفتح الفاء وجزم الراء . وحكى المَهْدَوِىّ عن ابن هُرْمُز أنه قرأ « وتُكَفِّرُ » بالتاء ورفع الراء . وحُكى عن عكرمة وشَهْر بن حَوْشب أنهما قرأا بتاء ونصب الراء . فهـذه تسع قراءات أَبْيَنُهَا « ونُكَفِّرُ » بالنون والرفع . هـذا قول الخليل وسيبويه . قال النحاس قال سيبويه : والرفع ها هنا الوجه وهو الجيِّـد ، لأن الكلام الذى بعد الفـاء يجرى مجراه فى غير الجزاء . وأجاز الجزم بحمـله على المعنى ، لأن المعنى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء يكن خيرلكم وتكفر عنكم . وقال أبو حاتم : قرأ الأعمش « يُكَفِّرُ » بالياء دون واو قبلها . قال النحاس : والذى حكاه أبو حاتم عن الأعمش بغير واو جزما يكون على البـدل ، كأنه فى موضـع الفاء . والذى روى عن عاصم « ويُكَفِّرُ » بالياء والرفع يكون معناه ويُكَفِّرُ الله ؛ هـذا قول أبى عُبَيد . وقال أبو حاتم : معناه يكفِّر الإعطاء . وقرأ ابن عباس « وتُكَفِّرْ » يكون معناه وتكفِّر الصدقات . وبالجملة فما كان من هذه القراءات بالنون فهى نون العظمة ، وما كان منها بالتاء فهى الصدقة فاْعلمه ؛ إلا ما رُوى عن عكرمة من فتح الفاء فإن التاء فى تلك القراءة إنما هى للسيئات ، وما كان منها بالياء فالله تعالى هو المكفِّر ، والإعطاء فى خفاء مكفر أيضـا كما ذكرنا ، وحكاه مَكِّىّ . وأما رفع الراء فهـو على وجهين : أحدهمـا أن يكون الفعل خبر ابتـداء تقديره ونحن نكفِّر أو وهى تكفِّر، أعنى الصدقة ، أو والله يكفِّر . والثـانى القطع والاستئناف لا تكون الواو العاطفة للاشتراك لكن بعطف جملة كلام على جملة . وقـد ذكرنا معنى قراءة الجزم . فأما نصب «ونُكَفِّرَ» فضعيف وهو على إضمار أن وجاز على بُعْد . قال المَهْدَوِىّ : وهو مشبه بالنصب فى جواب الاستفهام ، إذ الجزاء يجب به الشىء لوجوب غيره كالاستفهام . والجزم فى الراء أفصح هـذه القراءات ، لأنها تُؤْذِن بدخول التكفير فى الجزاء وكونه مشروطا إن وقع الإخفاء . وأما الرفع فليس فيه هذا المعنى .

قلت : هـذا خلاف ما اختـاره الخليل وسيبويه . و «مِن» فى قوله «مِن سيئاتِكم» للتبعيض المحض . وحكى الطبرىّ عن فرقة أنها زائدة . قال ابن عطيّة : وذلك منهم خطأ . ﴿ وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وعد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ هذا الكلام متّصل بذكر الصدقات ، فكأنه بيّن فيه جواز الصدقة على المشركين . روى سعيد بنُ جبير مُرْسَلاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدّقون على فقراء أهل الذمّة . فلما كثُر فقراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تتصدّقوا إلا على أهل دينكم". فنزلت هـذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دِين الإسـلام . وذكر النقّاش أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بصدقات فجاءه يهوديّ فقال : أعطني . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس لك من صدقة المسلمين شيء". فذهب اليهوديّ غير بعيد فنزلت : «ليس عليك هداهم» فدعاه رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فأعطاه ، ثم نسخ الله ذلك بآية الصـدقات . وروى ابن عباس قال : إنه كان ناس من الأنصار لهم قرابات في بني قُرَيظة والنَّضير ، وكانوا لا يتصدّقون عليهم رغبة منهم في أن يُسلموا إذا احتاجوا ، فنزلت الآية بسبب أولئك . وحكى بعض المفسّرين أن أسماء ابنـة أبي بكر الصدّيق أرادت أن تصل جَدَّها أبا قُحافة ثم امتنعت من ذلك لكونه كافرا فنزلت الآية في ذلك . وحكى الطبريّ أن مقصد النبيّ صلى الله عليه وسلم بمنع الصدقة إنما كانوا ليسلموا ويدخلوا في الدِّين ، فقال الله تعالى : « ليس عليك هداهم » . وقيل : « ليس عليك هداهم » متّصل بما قبلُ ، فيكون ظاهرا في الصدقات وصرفها إلى الكفار ، بل يحتمل أن يكون معناه ابتداء كلام .

الثانيـــة ــ قال علماؤنا : هذه الصدقة التي أبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوّع ، وأما المفروضة فلا يُجزئ دفعها لكافر ، لقوله عليـه السلام : "أُمرتُ أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها على فقرائكم". قال ابن المُنْذِر : أجمع كلّ من أحفظُ عنه

من أهل العلم أن الذمّيّ لا يُعْطَى من زكاة الأموال شيئا؛ ثم ذكر جماعةً ممن نصّ على ذلك ولم يذكر خلافا . وقال المَهْدَوِيّ : رُخِّص للسلمين أن يُعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة لهـذه الآية . قال ابن عطيّة : وهذا مردود بالإجماع . والله أعلم . وقال أبو حنيفة : تصرف إليهم زكاة الفطر . ابن العربيّ : "وهذا ضعيف لا أصل له . ودليلنا أنها صدقة طُهْرة واجبةٌ فلا تصرف إلى الكافر كصدقة الماشية والعين ؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم" : "أغنوهم عن سؤال هذا اليوم" يعني يوم الفطر .

قلت : وذلك لتشاغلهم بالعيد وصلاة العيد وهـذا لا يتحقق فى المشركين . وقد يجوز صرفها إلى غير المسلم فى قول من جعلها سُنّة؛ وهو أحد القولين عندنا ؛ وهو قول أبي حنيفة على ما ذكرنا ؛ نظـرا إلى عمـوم الآية فى البِرّ وإطعام الطعام وإطلاق الصـدقات . قال ابن عطّية : وهذا الحكم متصوّر للسلمين مع أهل ذِمتهم ومع المسترقّين من الحربيّين .

قلت : وفى التنزيل « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » والأسير فى دار الإسلام لا يكون إلا مشركا . وقال تعـالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ » . فظواهر هذه الآيات تقتضي جواز صرف الصدقات إليهم جملة ؛ إلا أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم خصّ منها الزكاة المفروضة؛ لقوله عليه السلام لمُعَاذ : "خُذِ الصدقة من أغنيائهم وردّها على فقرائهم" واتفق العلماء على ذلك على ما تقدّم . فيدفع إليهم من صـدقة التطوّع اذا احتاجوا؛ والله أعلم . قال ابن العربيّ : فأما المسلم العاصي فلا خلاف أن صدقة الفطر تصرف إليه إلا إذا كان يترك أركان الإسلام من الصلاة والصيام فلا تدفع إليه الصدقة حتى يتوب . وسائر أهل المعاصي تصرف الصدقة إلى مرتكبيها لدخولهم فى اسم المسلمين . وفى صحيح مسلم أن رجلا تصدّق على غَنِيّ وسارقٍ وزانية وتُقبّلت صدقته؛ على ما يأتي بيانه فى آية الصدقات (١) .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يرشد من يشاء . وفى هذا ردّ على القَدَرية وطوائف من المعتزلة على ما تقدّم .

(١) فى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ... » آية ٦٠ سورة براءة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ شرط وجوابه . والخير في هـذه الآية المـال لأنه اقترن بذكر الإنفاق ؛ فهـذه القرينـة تدل على أنه المـال ، ومتى لم تقترن بمـا يدل على أنه المـال فلا يلزم أن يكون بمعنى المـال ؛ نحو قوله تعالى : « خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا » وقوله : « مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » إلى غير ذلك . وهـذا تحرُّز من قول عكرمة : كل خير في كتاب الله تعالى فهو المـال . وحُكي أن بعض العلماء كان يصـنع كثيرا من المعروف ثم يحلف أنه ما فعل مع أحد خيرا ، فقيل له في ذلك فيقول : إنمـا فعلت مع نفسي ؛ ويتلو « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ » . ثم بيّن تعالى أن النفقة المعتدّ بقبولهـا إنما هي ما كان ابتغاء وجهه . و « ابتغاء » هو على المفعول له . وقيل : إنه شهادة من الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم أنهم إنما ينفقون ابتغاء وجهه ؛ فهذا خرج مخرج التفضيل والثناء عليهـم . وعلى التأويل الأوّل هو اشتراط عليهم ، ويتناول الاشتراط غيرهم من الأمة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقّاص : "إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أُجِرْتَ بها حتى ما تجعل في فم امرأتك" .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ « يُوَفَّ إليـكم » تأكيـد وبيانٌ لقوله : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » وأن ثواب الإنفاق يُوفّى إلى المنفقين ولا يُبخسون منه شيئا فيكون ذلك البخس ظلما لهم .

قوله تعـالى : لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ اللام متعلقة بقوله « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ » وقيل : بمحذوف تقديره الإنفاق أو الصـدقة للفقراء . قال السُّـدّي ومجاهد وغيرهما : المراد بهؤلاء

الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقراء غابرَ الدهر. وإنما خصّ فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصُّفّة وكانوا نحوا من أربعمائة رجل، وذلك أنهم كانوا يَقْدَمون فقراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما لهم أهل ولا مال فبُنيت لهم صُفّة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لهم: أهل الصُّفّة. قال أبو ذرّ: كنت من أهل الصّفة وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر كلَّ رجل فينصرف برجل ويبقى مَن بقي من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤتَى النبيّ صلى الله عليه وسلم بعشائه ونتعشّى معه. فإذا فرغنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ناموا في المسجد". وخرّج الترمذيّ عن البَراء بن عازب «وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ» قال: نزلت فينا معشر الأنصار كنا أصحاب نخل، قال: فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلّته، وكان الرجل يأتي بالقِنْو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفّة ليس لهم طعام؛ فكان أحدهم إذا جاع أتى القُنْوَ وضربه بعصاه فيسقط من البُسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي بالقنو فيه الشّيص والحَشَف وبالقنو قد انكسر فيعلقه في المسجد، فأنزل الله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ». قال: ولو أنّ أحدكم أُهْدِيَ إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض وحياء. قال: فكنا بعد ذلك يأتي الرجل بصالح ما عنده. قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. قال علماؤنا: وكانوا رضي الله عنهم في المسجد ضرورة، وأكلوا من الصدقة ضرورة؛ فلما فتح الله على المسلمين استغنَوْا عن تلك الحال وخرجوا ثم ملكوا وتأمّروا. ثم بيّن سبحانه من أحوال أولئك الفقراء والمهاجرين ما يوجب الحُنُوّ عليهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والمعنى حُبِسوا ومُنِعوا. قال قتادة وابن زيد: معنى «أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» حبسوا أنفسهم عن التصرُّف في معايشهم خوف العدوّ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ لكون البلاد كلها كفرا مطبقا.

وهذا فى صدر الإسلام ، فقلتهم تمنع من الاكتساب بالجهاد ، وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنع من التصرف فى التجارة فبقوا فقراء . وقيل : معنى « لا يستطيعون ضربا فى الأرض » أى لما قد ألزموا أنفسهم من الجهاد . والأول أظهر . والله أعلم .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ أى أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء . وفيه دليل على أن اسم الفقر يجوز أن يطلق على من له كسوة ذات قيمة ولا يمنع ذلك من إعطاء الزكاة اليه . وقد أمر الله بإعطاء هؤلاء القـــوم وكانوا من المهاجرين الذين يقاتلون مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم غير مَرْضَى ولا عُمْيَان . والتعفف تفعّل ، وهو بناء مبالغة من عفّ عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزّه عن طلبه ؛ وبهذا المعنى فسر قَتادة وغيره . وفتْح السين وكسرها فى « يحسبهم » لغتان . قال أبو علىّ : والفتح أقيْس ، لأن العين من المـاضى مكسورة فبابهـا أن تأتى فى المضارع مفتوحة . والقراءة بالكسر حسنة ، لمجيء السمع به وإن كان شاذا عن القياس . و « من » فى قوله « من التعفف » لابتداء الغاية . وقيل لبيان الجنس .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ فيه دليل على أن للسِّيما أثرا فى اعتبار من يظهر عليه ذلك ، حتى إذا رأينا ميتا فى دار الإسلام وعليه زُنَّار(١) وهو غير مختون لا يدفن فى مقابر المسلمين ؛ ويقدم ذلك على حكم الدار فى قول أكثر العلماء ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » . فدلّت الآية على جواز صرف الصدقة إلى من له ثياب وكسوة وزىّ فى التجمّل . واتّفق العلمـاء على ذلك وإن ٱختلفوا بعده فى مقـدار ما يأخذه إذا احتاج . فأبو حنيفة اعتبر مقدار ما تجب فيه الزكاة ، والشافعىّ اعتبر قوت سنة ، ومالك اعتبر أربعين درهما ؛ والشافعىّ لا يصرف الزكاة الى المكتسب .

السيما (مقصورة) : العلامة ، وقد تمدّ فيقال السيماء . وقد اختلف العلمـاء فى تعيينها هنا ؛ فقال مجاهد : هى الخشوع والتواضع . السُّدّى : أثر الفاقة والحاجة فى وجوههم وقلّة

(١) الزنار (بضم الزاى وتشديد النون) : ما يشدّه الذمى على وسطه .

النّعمة . ابن زيد: رثاثة ثيابهم . وقال قوم وحكاه مكّى : أثر السجود . ابن عطيّة : وهذا حسن، وذلك لأنهــم كانوا متفرغين متوكلين لا شغل لهم فى الأغلب إلا الصلاة ، فكان أثر السجود عليهم .

قلت : وهــذه السِّيما التى هى أثر السجود اشترك فيها جميع الصحابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى فى آخر «الفتح» بقوله : «سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» فلا فرق بينهم وبين غيرهم؛ فلم يبق إلا أن تكون السيماء أثر الخصاصة والحاجة، أو يكون أثر السجود أكثر فيعرفون بصفرة الوجوه من قيام الليــل وصوم النهار. والله أعلم . وأما الخشوع فذلك محله القلب ويشترك فيه الغنىّ والفقير، فلم يبق إلا ما اخترناه . والموفّق الإله .

الرابعــــة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّـاسَ إِلْحَـافًا ﴾ مصدر فى موضع الحـال ، أى ملحفين؛ يقال : ألحف وأحفى وألحّ فى المسألة سواء؛ ويقال :

* وليس للْمُلْحِف مِثْــلُ الرّد (١) *

واشتقاق الإلحاف من اللّحاف ، سُمِّىَ بذلك لاشتماله على وجوه الطلب فى المسألة كاشتمال اللحاف من التغطية، أى هذا السائل يعم الناس بسؤاله فيُلحفهم ذلك؛ ومنه قول ابن أحمر :

فظَلّ يحُفُّهن بقَفْقَفَيْه (٢) * ويَلْحَفُهُنّ هَفْهافًا ثَخِينا

يصف ذكر النعام يحضُن بيضا بجناحيه ويجعل جناحه لهـا كاللحاف وهو رقيق مع ثخنــه . وروى النَّسائىّ ومسلم عن أبى هريرة أنــ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان إنمـا المسكين المتعفِّف اقرءوا إن شئتم «لا يسألون الناس إلحافا»" .

الخامســـة — واختلف العلماء فى معنى قوله « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » على قولين؛ فقال قوم منهم الطبرىّ والزّجاج : إن المعنى لا يسألون البتّةَ، وهــذا على أنهم متعففون عن

(١) هذا عجز بيت لبشار بن برد وصدره كما فى ديوانه واللسان :

* الحرّ يلحى والعصا للعبد *

(٢) قفقفا الطائر : جناحاه .

المسألة عِفّــة تامة؛ وعلى هــذا جمهور المفسرين؛ ويكون التعفف صفة ثابتــة لهم، أى لا يسألون الناس إلحاحا ولا غير إلحاح . وقال قوم : إن المراد نفى الإلحاف، أى أنهم يسألون غير إلحاف، وهذا هو السابق للفهم، أى يسألون غير ملحفين . وفى هذا تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافا . روى الأئمة واللفظ لمسلم عن معاوية بن أبى سفيان قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "لا تُلْحِفوا فى المسألة فوالله لا يسألنى أحد منــكم شيئا فتُخرِج له مسألتُه منّى شيئا وأنا له كاره فيُبارَكَ له فيما أعطيته". وفى الموطّأ «عن زيد بن أســلم عن عطاء بن يَسار عن رجل من بنى أسد أنه قال : نزلت أنا وأهلى ببقيع الغَرْقَد[1] فقال لى أهلى : إذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله لنا شيئا نأكله؛ وجعلوا يذكرون من حاجتهم؛ فذهبت إلى رسول الله صلى الله عليــه وسلم فوجدت عنده رجلا يسأله ورسول الله صــلى الله عليه وسلم يقول : "لا أجد ما أُعطيك" فتولّى الرجل عنه وهو مُغْضَب وهو يقول : لَعَمْرِى إنك لتُعْطِى من شئت ! فقال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "إنه لَيغضب علىّ ألّا أجد ما أعطيه مَن سأل منكم وله أُوقِيّــة أو عِدْلُها فقد ألحف". فقال الأسدىّ : فقلت لَلِقْحَةٌ[2] لنا خير من أوقيّــة — قال مالك : والأوقيّة أربعون درهما — قال : فرجعت ولم أسأله . فقُــدِم على رســول الله صلى الله عليه وســلم بعــد ذلك بشــعير وزَبيب فقسم لنــا منه حتى أغنانا الله » . قال ابن عبد البر : هكذا رواه مالك وتابعه هشام بن ســعد وغيره، وهو حديث صحيح، وليس حكم الصحابىّ[3] إذا لم يُسَمّ كحكم مَن دونه إذا لم يُسَمّ عند العلماء؛ لارتفاع الجُرْحة عن جميعهم وثبوت العدالة لهم . وهذا الحديث يدلّ على أن السؤال مكروه لمن له أوقية من فضة؛ فمن سأل وله هذا الحدّ والعدد والقدر من الفضة أو مايقوم مقامها ويكون عِدْلًا منها فهو مُلْحِف، وما علمت أحدا من أهل العلم إلا وهو يكره السؤال لمن له هذا المقدار من الفضة أو عدلها من الذهب على ظاهر هــذا الحديث . وما جاءه من غير مسألة فجائز له أن يأكله

(١) بقيع الغرقد : مقبرة مشهورة بالمدينة .

(٢) اللقحة (بفتح اللام وكسرها) : الناقة القريبة العهد بالنتاج، أو التى هى ذات لبن .

(٣) فى الأصول : «الصاحب» .

إن كان من غير الزكاة ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافا ، فإن كان من الزكاة ففيه خلاف يأتى بيانه فى آية الصدقات إن شاء الله تعالى .

السادسة — قال ابن عبد البر : من أحسن ما رُوى من أجوبة الفقهاء فى معانى السؤال وكراهيته ومذهب أهل الوَرَع فيه ما حكاه الأَثْرَم عن أحمد بن حنبل وقد سئل عن المسألة متى تحِلّ قال : إذا لم يكن عنده ما يُغدّيه و يُعشّيه على حديث سهل بن الحَنْظَلِيّة . قيل لأبى عبد الله : فإن اضطر الى المسألة؟ قال : هى مباحة له إذا اضطر . قيل له : فإن تعفّف ؟ قال : ذلك خير له . ثم قال : ما أظن أحدا يموت من الجوع! الله يأتيه برزقه . ثم ذكر حديث أبى سعيد الخُدْرى "مَن استعفّ أعفّه الله". وحديثَ أبى ذَرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : "تعفف" . قال له أبو بكر : وسمعته يسأل عن الرجل لا يجد شيئا أيسأل الناس أم يأكل الميتة ؟ فقال : أيأكل الميتة وهو يجد من يسأله ، هذا شنيع . قال : وسمعته يسأله هل يسأل الرجل لغيره ؟ قال لا ، ولكن يُعَرِّض ، كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم حين جاءه قوم حُفَاة عُراة مُجْتَابِى النِّمار[(١)] فقال : "تصدّقوا" ولم يقل أعطوهم . قال أبو عمر : قد قال صلى الله عليه وسلم "اشفعوا تُؤجَرُوا" . وفيه إطلاق السؤال لغيره . والله أعلم . وقال : "ألَا رجلٌ يتصدّق على هذا" ؟ قال أبو بكر : قيل له — يعنى أحمد بن حنبل — فالرجل يذكر الرجل فيقول : إنه محتاج ؟ فقال : هذا تعريض وليس به بأس ، إنما المسألة أن يقول أعطه . ثم قال : لا يعجبنى أن يسأل المرء لنفسه فكيف لغيره؟ والتعريض هنا أحبّ الىّ .

قلت : قد روى أبو داود والنَّسائى وغيرهما أن الفراسيّ[(٢)] قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أسأل يا رسول الله ؟ قال : "لا وإن كنتَ سائلا لابُدّ فاسأل الصالحين" . فأباح صلى الله عليه وسلم سؤال أهل الفضل والصلاح عند الحاجة إلى ذلك ، وإن أوقع حاجته

(١) اجتاب فلان ثوبا اذا لبسه . والنمار (بكسر النون جمع نمرة) وهى كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض . أراد أنه جاء قوم لابسى أزر مخططة من صوف (عن نهاية ابن الأثير) .

(٢) هو من بنى فراس بن مالك بن كنانة (عن الاستيعاب) .

بالله فهو أعلى . قال إبراهيم بن أدهم : سؤال الحاجات من النـاس هي الحجاب بينك وبين الله تعـالى ، فأنزل حاجتك بمن يملك الضرّ والنفع ، وليكن مفزعك إلى الله تعالى يكفيك الله ما سواه وتعيش مسرورا .

السابعــة — فإن جاءه شيء من غير سـؤال فله أن يقبله ولا يردّه ، إذ هو رزق رزقه الله . روى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إلى عمر بن الخطاب بعطاء فردّه ، فقـال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم رددته" ؟ فقال : يا رسول الله ، أليس أخبرتنا أن أحدنا خير له ألا يأخذ شيئا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما ذاك عن المسألة فأما ما كان من غير مسألة فإنما هو رزق رزقكه الله". فقال عمر بن الخطاب : والذي نفسي بيده لا أسأل أحدا شـيئا ولا يأتيني بشيء من غير مسألة إلا أخذته . وهذا نصّ . وخرّج مسلم في صحيحه والنسائيّ في سننه وغيرهما عن ابن عمر قال سمعت عمر يقول : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه منّي ، حتى أعطاني مرّة مالا فقلت : أعطه أفقر إليـه منّي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذه وما جاءك من هذا المـال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك" . زاد النسائي — بعد قوله " خذه — فتموّله أو تصدّق به " . وروى مسلم من حديث عبد الله ابن السّعديّ المـالكيّ عن عمر فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أعطيت شيئا من غير أن تسأل فكل وتصدّق " . وهذا يصحح لك حديث مالك المرسل . قال الأثرم سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يسأل عن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما أتاك من غير مسألة ولا إشراف" أيّ الإشراف أراد ؟ فقال : أن تستشرفه وتقول : لعلّه يبعث اليّ بقلبك . قيل له : وإن لم يتعرّض ، قال نعم إنمـا هو بالقلب . قيل له : هذا شديد ! قال : وإن كان شديدا فهو هكذا . قيل له : فإن كان الرجل لم يعوّدني أن يرسل إليّ شيئا إلا أنه قد عرض بقلبي فقلت : عسى أن يبعث اليّ . قال : هـذا إشراف ، فأما اذا جاءك من غير أن تحتسبه ولا خطر على قلبك فهذا الآن ليس فيه إشراف . قال أبو عمر : الإشراف في اللغة رفع الرأس إلى المطموع

عنده والطموع فيه ، وأن يهش الإنسان ويتعرض . وما قاله أحمد فى تأويل الإشراف تضييق وتشديد وهو عندى بعيد، لأن الله عز وجل تجاوز لهذه الأمة عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمله جارحة . وأما ما اعتقده القلب من المعاصى ما خلا الكفر فليس بشىء حتى يعمل به ؛ وخطرات النفس متجاوز عنها بإجماع .

الثامنـــة — الإلحاح فى المسألة والإلحاف فيها مع الغنى عنها حرام لا يحلّ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سأل الناس أموالهم تكثُّرًا فإنما يسأل جَمْرًا فليستقِلّ أو ليستكثِر" رواه أبو هريرة خرّجه مسلم . وعن ابن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقَى الله وليس فى وجهه مُزْعَةُ(١) لحم" رواه مسلم أيضا .

التاســـعة — السائل إذا كان محتاجا فلا بأس أن يكرر المسألة ثلاثا إعذارا وإنذارا والأفضل تركه . فإن كان المسئول يعلم بذلك وهو قادر على ما سأله وجب عليه الإعطاء ، وإن كان جاهلا به فيعطيه مخافة أن يكون صادقا فى سؤاله فلا يفلح فى ردّه .

العاشرة — فإن كان محتاجا الى ما يُقيم به سُنّة كالتجمّل بثوب يلبسه فى العيد والجمعة فذكر ابن العربىّ : "سمعت بجامع الخليفة ببغداد رجلا يقول : هذا أخوكم يحضر الجمعة معكم وليس عنده ثياب يُقيم بها سُنّة الجمعة . فلما كان فى الجمعة الأخرى رأيت عليه ثيابا أخر، فقيل لى : كساه إياها أبو الطاهر البرسنى أَخْذَ الثناء" .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٧٤)

فيه مسألة واحدة :

رُوى عن ابن عباس وأبى ذرّ وأبى أُمامة وأبى الدرداء وعبدالله بن بشر الغافقىّ والأوزاعىّ أنها نزلت فى علف الخيل المربوطة فى سبيل الله . وذكر ابن سعد فى الطبقات قال : أُخبرت عن محمد بن شعيب بن شابور قال أنبأنا سعيد بن سِنان عن يزيد بن عبد الله بن عَريب عن

(١) المزعة (بضم الميم واسكان الزاى) القطعة . قال القاضى عياض : قيل معناه يأتى يوم القيامة ذليلا ساقطا لا وجه له عند الله . وقيل : هو على ظاهره ، فيحشر ووجهه عظم لا لحم عليه ، عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه .

أبيه عن جدّه عَريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى : «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهـار سرًّا وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » قال : "هم أصحاب الخيل". وبهذا الإسناد قال قال رسول الله صلى عليه وسلم : "المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها وأبوالُها وأرواثُها [عند الله] (١) يوم القيامة كذَكِيّ المسك".

ورُوى عن ابن عباس أنه قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، كانت معه أربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرّا وبدرهم جهرا؛ ذكره عبد الرزاق قال أخبرنا عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس. ابنُ جُريج: نزلت في رجل فعل ذلك، ولم يُسَمّ عليًّا ولا غيره. وقال قَتادة. هذه الآية نزلت في المنفقين من غير تبذير ولا تقتير. ومعنى « بالليل والنهار» في الليل والنهار، ودخلت الفـاء في قوله تعالى: « فلهم» لأن في الكلام معنى الجزاء. وقد تقدّم. ولا يجوز زيد فمنطلق.

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

(١) الزيادة عن كتاب الطبقات.

الآيات الثلاث تضمّنت أحكام الربا وجواز عقود المبايعات ، والوعيد لمن استحل الربا وأصرّ على فعله . وفى ذلك ثمان وثلاثون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا ﴾ يأكلون يأخذون ، فعبّر عن الأخذ بالأكل لأن الأخذ إنما يراد للأكل . والربا فى اللغة الزيادة مطلقا ؛ يقال : ربا الشيء يربو اذا زاد ، ومنه الحديث : "فلا والله ما أخذنا من لقمة إلّا رَبَا من تحتها" يعنى الطعام الذى دعا فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم بالبركة ؛ خرّج الحديث مسلم رحمه الله . وقياس كتابته بالياء للكسرة فى أوله ، وقد كتبوه فى القرآن بالواو . ثم إن الشرع قد تصرّف فى هذا الإطلاق فقصره على بعض موارده ؛ فمرّة أطلقه على كسب الحرام ؛ كما قال تعالى فى اليهود : «وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ» . ولم يرد به الربا الشرعيّ الذى حكم بتحريمه علينا وإنما أراد المال الحرام ؛ كما قال تعالى : «سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» يعنى به المال الحرام من الرشا ، وما استحلوه من أموال الأمّيين حيث قالوا : «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» . وعلى هذا فيدخل فيه النهى عن كل مال حرام بأيّ وجه اكتُسب . والربا الذى عليه عُرف الشرع شيئان : تحريم النَّسَاء ، والتفاضل فى العقود وفى المطعومات على ما نبيّنه . وغالبه ما كانت العرب تفعله ، من قولها للغريم : أتقضى أم تُرْبِى ؟ فكان الغريم يزيد فى عدد المال ويصبر الطالب عليه . وهذا كله محرّم باتفاق الأمة .

الثانيـــة — أكثر البيوع الممنوعة إنما تجد منعها لمعنى زيادةٍ إمّا فى عَين مال ، وإمّا فى منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه . ومن البيوع ما ليس فيه معنى الزيادة ؛ كبيع الثمرة قبل بُدُوّ صلاحها ، وكالبيع ساعة النداء يوم الجمعة ؛ فان قيل لفاعلها ؛ آكل الربا فتجوّز وتشبيه .

الثالثـــة — روى الأئمة واللّفظ لمُسْلِم عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُرّ بالبُرّ والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مِثْلا بِمِثل يدًا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربىَ الآخذ والمعطى فيه سواء" .

وفي حديث عُبادة بن الصّامت : "فإذا اختلفت هــذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد" . وروى أبو داود عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الذهب بالذهب تِبْرُها وعَيْنُها والفضة بالفضة تبرها وعينها والبُرّ بالبرّ مُدْىٌ بمُدْىٍ[(1)] والشعير بالشعير مُدْى بمُدْى والتمر بالتمر مُدْىٌ بمُـدْيٍ والملحُ بالملح مُدْىٌ بمُدْيٍ فمن زاد أو ازداد فقــد أرْبَى ولا بأس ببيع الذهب بالفضة والفضةُ أكثرهما يدًا بيد وأمّا نَسيئة فلا ولا بأس ببيع البُرّ بالشعير والشعيرُ أكثرهما يدًا بيد وأما نسيئة فلا" . وأجمع العلمــاء على القول بمقتضى هــذه السُّنّة وعليها جماعة فقهاء المســلمين إلا في البُرّ والشعير فإن مالكا جعلهما صــنفا واحدا ، فلا يجوز منهما اثنــان بواحد ، وهو قول الليث والأوزاعيّ ومعظم علمــاء المدينة والشام ، وأضاف مالك إليهما السُّلْت . وقال الليث : السلت والدُّخن والذرة صنف واحد ، وقاله ابن وهب .

قلت : وإذا ثبتت السُّنّة فلا قول معها . وقد قال عليه السلام : "فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد" . وقوله : "البُرّ بالبُرّ والشعير بالشعير" دليل على أنهما نوعان مختلفان كمخالفة البُرّ للتمر ، ولأن صفاتهما مختلفة وأسماؤهما متباينة ، ولا اعتبار بالمنبت والمحصد إذا لم يعتبره الشرع ، بل فصل وبيّن ؛ وهذا مذهب الشافعيّ وأبي حنيفة والثّوريّ وأصحاب الحديث .

الرابعــة ــ كان معاوية بن أبي ســفيان يذهب إلى أن النهى والتحريم إنمــا ورد من النبيّ صلى الله عليه وســلم في الدِّينار المضروب والدرهم المضروب لا في التِّبْر من الذهب والفضة بالمضروب ، ولا في المَصُوغ بالمضروب . وقد قيل : إن ذلك إنما كان منه في المصوغ خاصة ، حتى وقع له مع عُبادة ما خرّجه مسلم وغيره ، قال : غَزَوْنا وعلى الناس معاويةُ فغنمنا غنائمَ كثيرةً ، فكان ممــا غنمنا آنية من فضــة فأمر معاوية رجلا ببيعها في أَعْطِيَات الناس ،

---

(1) أي مكيال بمكيال . والمدى (بضم الميم وســكون الدال والياء) قال ابن الأعرابي : هو مكيال ضخم لأهل الشام وأهل مصر ، والجمــع أمداء . وقال ابن بري : المدى مكيال لأهل الشام يقال له الجريب يســع خمسة وأربعين رطلا . وهو غير المد (بالميم المضمومة والدال المشددة) . قال الجوهري : المد مكيال وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز والشافعي ، ورطلان عند أهل العراق وأبي حنيفة .

فتنازع الناس فى ذلك فبلغ عبادةَ بن الصامت ذلك فقام وقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينْهَى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُرّ بالبُرّ والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح إلا سواءً بسواء عيْنًا بعيْن من زاد أو ازداد فقد أرْبَى ؛ فردّ الناس ما أخذوا ، فبلغ ذلك معاويةَ فقام خطيبا فقال : ألَا ما بالُ رجالٍ يتحدّثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديثَ قد كنّا نشهده ونصحبه فلم نسمعها منه ! فقام عُبَادة بن الصامت وأعاد القصة ثم قال : لنحدّثنّ بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كره معاويةُ — أو قال وإن رَغِم — ما أُبالِى ألّا أصحبَه فى جُنْدِه ليلةً سَوْداء . قال حمّادٌ(١) هذا أو نحوَه . قال ابن عبد البرّ : وقد رُوِى أن هذه القصة إنما كانت لأبى الدّرداء مع معاوية . ويحتمل أن يكون وقع ذلك لهما معه ، ولكن الحديث فى العُرْف محفوظ لعُبَادة ، وهو الأصل الذى عوّل عليه العلماء فى باب « الربا » . ولم يختلفوا أنّ فعل معاوية فى ذلك غير جائز ، وغير نكير أن يكون معاوية خفِى عليه ما قد علِمه أبو الدرداء وعُبادة فإنهما جليلان من فقهاء الصحابة وكبارهم ، وقد خفِى على أبى بكر وعمر ما وُجد عند غيرهم ممن هو دونهم ، فمعاويةُ أحرى . ويحتمل أن يكون مذهبه كمذهب ابن عباس ، فقد كان وهو بحرٌ فى العلم لا يرى الدرهم بالدرهمين بأسا حتى صرفه عن ذلك أبو سعيد . وقصة معاوية هذه مع عبادة كانت فى ولاية عمر . قال قَبيصة بن ذُؤيب : إن عُبادة أنكر على معاوية شيئا فقال : لا أُساكنك بأرض أنت بها ودخل المدينة . فقال له عمر : ما أقدمك؟ فأخبره . فقال : ارجع إلى مكانك ، فقبّح الله أرضا لست فيها ولا أمثالك! وكتب الى معاوية « لا إمارة لك عليه » .

الخامســة — روى الأئمة واللفظ للدّارَقُطْنِىّ عن علىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فَضْلَ بينهما من كانت له حاجة بورِق فلْيَصرِفْها بذهب وإن كانت له حاجةٌ بذهب فليصرفها بورِق هَاءَ وهَاء(٢) " . قال العلماء فقوله عليه

(١) هو حماد بن زيد أحد رجال سند هذا الحديث .

(٢) قال ابن الأثير : « هو أن يقول كل واحد من البيِّعَيْن « ها » فيعطيه ما فى يده ، يعنى مقابضة فى المجلس . وقيل : معناه هاك وهات ، أى خذ وأعط . قال الخطابى : أصحاب الحديث يروونه « هاوها » ساكنة الألف ، =

السلام : "الدينــار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فَضْــل بينهما" إشارةٌ الى جنس الأصل المضروب؛ بدليل قوله : "الفضة بالفضة والذهب بالذهب" الحديث . والفضة البيضاء والسوداء والذهب الأحمر والأصفر كل ذلك لا يجوز بيع بعضه ببعض إلا مِثْلا بِمثْل ســواء بسواء على كل حال ؛ على هــذا جماعة أهل العلم على ما بينا . واختلفت الرواية عن مالك فى الفلوس فألحقها بالدراهم من حيث كانت ثمنا للأشــياء، ومنع من إلحاقها مرّة من حيث إنها ليست ثمنا فى كل بلد وإنما يختص بها بلد دون بلد .

السادســـة ـــ لا اعتبار بمــا قد رُوى عن كثير من أصحاب مالك وبعضهم يرويه عن مالك فى التــاجر يحفِزه الخروج وبه حاجة إلى دراهمَ مضروبةٍ أو دنانيرَ مضروبةٍ، فيأتى دار الضرب بفضته أو ذهبه فيقول للضرّاب : خذ فضّتِي هذه أو ذهبِي وخذ قدر عمل يدك وادفع الىّ دنانير مضروبةً فى ذهبِي أو دراهمَ مضروبةً فى فضّتِي هذه لأنى محفوز للخروج وأخاف أن يفوتنى من أخرج معه، أن ذلك جائز للضرورة، وأنه قد عمل به بعض الناس . وحكاه ابن العربىّ فى قبسه عن مالك فى غير التاجر، وأن مالكا خفّف فى ذلك؛ فيكون فى الصورة قد باع فضــته التى زنتها مائة وخمسة دراهم أجرة بمــائة وهــذا محض الربا . والذى أوجب جواز ذلك أنه لو قال له : إضرب لى هــذه وقاطعه على ذلك بأجرة ، فلمــا ضربها قبضها منه وأعطاه أجرتها ؛ فالذى فعل مالك أوّلا هو الذى يكون آخرا، ومالك إنما نظر إلى المــال فركّب عليــه حكم الحال ، وأباه سائر الفقهاء . قال ابن العربىّ : والحجة فيه لمــالك بيِّنة . قال أبو عمر رحمه الله: وهذا هو عين الرِّبَا الذى حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : "من زاد أو ازداد فقــد أرْبَى". وقد ردّ ابن وهب هذه المسألة على مالك وأنكرها . وزعم الأَبْهرِىّ أن ذلك من باب الرفق لطاب التجارة ولئلا يفوت السوق ، وليس الربا إلا على من أراد أن يُرْبِي ممن يقصد إلى ذلك ويبتغيه . ونسى الأَبْهَرِىّ أصله فى قطع الذرائع، وقوله

═ والصواب مدها وفتحها، لأن أصلها هاك، أى خذ فحذفت الكاف وعوضت منها المــدّة والهمزة، يقال للواحد هاء، وللاثنين هاؤما وللجمع هاؤم . وغير الخطابى يجيز فيها السكون على حذف العوض وتتنزل منزلة «ها» التى للتنبيه . وفيها لغــات أخرى» .

فيمن باع ثوبا بنسيئة وهو لا نيّة له فى شرائه ثم يجده فى السوق يباع : إنه لا يجوز له ابتياعه منه بدون ما باعه به وإن لم يقصد إلى ذلك ولم يبتغه ؛ ومثله كثير . ولو لم يكن الربا إلا على مَن قصده ما حُرّم إلا على الفقهاء . وقد قال عمر : لا يتّجر فى سوقنا إلا من فَقُه وإلّا أكل الربا . وهذا بيّن لمن رُزق الإنصاف وأُلْهِم رشده .

قلت : وقد بالغ مالك رحمه الله فى منع الزيادة حتى جعل المتوهَّم كالمتحقق ، فمنع دينارا ودرهما بدينار ودرهم سَدًّا للذّريعة وحَسْمًا للتوهُّمات ؛ إذ لولا توهّم الزيادة لما تبادلا . وقد عُلّل منع ذلك بتعذر المماثلة عند التوزيع ؛ فانه يلزم منه ذهب وفضة بذهب . وأوضح من هذا منعه التفاضل المعنوىّ ، وذلك أنه منع دينارا من الذهب العالى ودينارا من الذهب الدّون فى مقابلة العالى وألغى الدون ، وهذا من دقيق نظره رحمه الله ؛ فدلّ [ذلك] أن تلك الرواية عنه مُنْكَرة لا تصح . والله أعلم .

السابعــة — قال الخطّابىّ : التِّبْر قِطَع الذهب والفضة قبل أن تُضرَب وتُطبع دراهم أو دنانير ، واحدتها تِبْرة . والعَيْن : المضروب من الدراهم أو الدنانير . وقد حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يباع مثقال ذهب عَيْنٍ بمثقالٍ وشيء من تِبْرٍ غيرِ مضروب . وكذلك حرّم التفاوت بين المضروب من الفضة وغير المضروب منها ؛ وذلك معنى قوله : "تِبْرُها وعَيْنُها سواء" .

الثامنــة — أجمع العلماء على أن التمر بالتمر لا يجوز إلا مِثْلًا بمِثْل . واختلفوا فى بيع التمرة الواحدة بالتمرتين ، والحبة الواحدة من القمح بحبّتين ؛ فمنعه الشافعىّ وأحمد وإسحاق والثورىّ ، وهو قياس قول مالك وهو الصحيح ؛ لأن ما جرى الرِّبا فيه بالتفاضل فى كثيره دخل قليله فى ذلك قياسا ونَظَرا . احتجّ من أجاز ذلك بأن مستهلك التمرة والتمرتين لا تجب عليه القيمة ، قال : لأنه لا مكيل ولا موزون فجاز فيه التفاضل .

التاسعــة — اعلم رحمك الله أن مسائل هذا الباب كثيرة وفروعه منتشرة ، والذى يربط لك ذلك أن تنظر إلى ما اعتبره كل واحد من العلماء فى عِلّة الربا ؛ فقال أبو حنيفة :

علّة ذلك كونه مَكيلا أو موزونا جنسا ، وكل ما يدخله الكيل والوزن عنده من جنس واحد، فإن بيـع بعضـه ببعض متفاضلا أو نَسيئًا لا يجوز ؛ فمنع بَيْع التراب بعضه ببعض متفاضلا لأنه يدخله الكيل ، وأجاز الخبزَ قُرْصا بقرصين لأنه لم يدخل عنده في الكيل الذى هو أصله ، فخرج من الجنس الذى يدخله الربا الى ما عداه . وقال الشافعيّ : العلّة كونه مطعوما جنْسًا . هذا قوله في الجديد؛ فلا يجوز عنده بيع الدقيق بالخبز ولا بيع الخبز بالخبز متفاضلا ولا نسيئا ، وسواء أكان الخبز خمـيرا أو فطيرا . ولا يجوز عنده بيضة ببيضتين ، ولا رُمّانة برمانتين ، ولا بطيخة ببطيختين لا يَدًا بيَد ولا نسيئة ، لأن ذلك كله طعام مأكول . وقال في القديم : كونه مكيلا أو موزونا . واختلفت عبارات أصحابنا المـالكية في ذلك ؛ وأحسن ما في ذلك كونه مقتاتا مدّخرا للعيش غالبا جنسا كالحنطة والشعير والتمر والملح المنصوص عليها ، وما في معناها كالأرز والذرة والدخن والسمسم ، والقَطَانِيّ كالفول والعـدس واللُّوبياء والحِمّص ، وكذلك اللحوم والألبـان والخلول والزيوت ، والثمار كالعنب والزبيب والزيتون ، واختُلف في التين ، ويلحق بها العسل والسكر . فهذا كله يدخله الربا من جهة النَّسَاء . وجائز فيه التفاضل لقوله عليه السلام : "فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد" . ولا ربا في رطب الفواكه التى لا تبقى كالتفاح والبطيخ والرمان والكُمَّثْرَى والقِثّاء والخيار والباذنجان وغير ذلك من الخضراوات . قال مالك : لا يجوز بيـع البيض بالبيض متفاضلا لأنه ممـا يدّخر، ويجوز عنده مِثْلا بمِثْل . وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : جائزٌ بيضة ببيضتين وأكثر لأنه ممـا لا يدّخر، وهو قول الأوزاعيّ .

العـاشرة — اختلف النحاة في لفظ « الربا » فقال البصريون : هو من ذوات الواو ، لأنك تقول في تثنيته : ربوان؛ قاله سيبويه . وقال الكوفيون : يكتب بالياء ، وتثنيته بالياء لأجل الكسرة التى في أوّله . قال الزجاج : ما رأيت خطأ أقبح من هذا ولا أشنع ! لا يكفيهم الخطأ في الخط حتى يُخطئوا في التثنية وهم يقرءون « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » قال محمد بن يزيد : كُتب « الربا » في المصحف بالواو فرقا بينه وبين الزنى، وكان الربا أوْلى بالواو؛ لأنه من ربا يربو .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ الجملة خبر الابتداء وهو « الذين » . والمعنى من قبورهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبير وقتادة والربيع والضحّاك والسُّدّي وابن زيد . وقال بعضهم : يجعل معه شيطان يخنقه . وقالوا كلهم : يُبعث كالمجنون عقوبةً له وتمقيتًا عند جميع أهل المَحْشَر . ويُقَوِّي هذا التأويل المُجْمَع عليه أن في قراءة ابن مسعود « لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم » .

قال ابن عطيّة : وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بِحرْص وجَشَع إلى تجارة الدنيا بقيام المجنون ، لأن الطمع والرغبة تستفِزّه حتى تضطرب أعضاؤه ؛ وهذا كما تقول لمسرع في مشيه يخلط في هيئة حركاته إما مِن فزع أو غيره : قد جُنّ هذا ! وقد شبّه الأَعْشَى ناقته في نشاطها بالجنون في قوله :

وتُصبِح عن غِبّ السُّرى وكأنما * أَلَمّ بها من طائفِ الجنّ أَوْلَقُ

وقال آخر :

* لَعَمْرُكَ بي من حُبِّ أسماءَ أَوْلَقُ *

لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود وتظاهرت به أقوال المفسرين يضعّف هذا التأويل .

و « يتخبطه » يتفعله من خَبَط يخبِط ؛ كما تقول : تملّكه وتعبّده . فجعل الله هذه العلامة لأكلة الربا ، وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم ، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون . ويقال : إنهم يُبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبالى ، وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم . وقال بعض العلماء : إنما ذلك شِعارٌ لهم يُعرفون به يوم القيامة ثم العذاب من وراء ذلك ؛ كما أن الغَالَّ يجيء بما غَلّ يوم القيامة بشهرة يشهر بها ثم العذاب من وراء ذلك . وقال تعالى : « يأكلون » والمراد يكسبون الربا ويفعلونه . وإنما خَصّ الأكل بالذّكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال ، ولأنه دالّ على الجشع وهو أشد الحرص ؛ يقال : رجل جَشِع بيّن الجَشَع وقوم جَشِعون ؛ قاله في المُجْمَل . فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كلّه ؛ فاللباس والسكنى والادّخار والإنفاق على العيال داخل في قوله : « الذين يأكلون » .

الثانية عشرة — في هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصَّرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع ، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مَسٌّ ، وقد مضى الرد عليهم فيما تقدّم من هذا الكتاب . وقد روى النَّسائيّ عن أبي اليَسَر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : " اللّهمّ إني أعوذ بك من التَّرَدِّي والهدم والغرق والحريق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مُدْبِرا وأعوذ بك أن أموت لديغا " . وروى من حديث محمد بن المُثَنَّى حدّثنا أبو داود حدّثنا همّام عن قَتادة عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " اللّهمّ إني أعوذ بك من الجنون والجُذام والبَرَص وسَيِّئ الأسقام " . والمس : الجنون ؛ يقال : مُسَّ الرّجُل وأُلِسَ ؛ فهو ممسوس ومألُوس إذا كان مجنونا ؛ وذلك علامة الربا في الآخرة . وروى في حديث الإسراء : فانطلق بي جبريل فمررت برجال كثيرة كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضَّخْم متصدين على سابلة آلِ فرعون وآلُ فرعون يُعرضون على النار بُكْرةً وعَشِيًّا فيقبلون مثل الإبل المَهيومة[(1)] يتخبّطون الحجارة والشجرة لا يسمعون ولا يعقلون فإذا أحسّ بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فتميل به بطنه فيصرع فلا يستطيعون بَرَاحًا حتى يغشاهم آل فرعون فيطئوهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم في البَرْزَخ بين الدنيا والآخرة وآل فرعون يقولون اللهم لا تُقِم الساعةَ أبدا ؛ فإن الله تعالى يقول : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » — قلت — ياجبريل من هؤلاء؟ قال : " هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ " . والمسّ الجنون وكذلك الأَوْلَق والأَلْس والرّود[(2)] .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ معناه عند جميع المتأولين في الكفار ، ولهم قيل : فله ما سلف ، ولا يقال ذلك لمؤمن عاص بل ينقض بيعه

(1) المهيوم : المصاب بداء الهيام ، وهو داء يصيب الابل من ماء تشربه مستنقعا فتهيم في الأرض لا ترعى . وقيل : هو داء يصيبها فتعطش فلا تروى ؛ وقيل : داء من شدّة العطش .

(2) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول .

ويرد فعله وإن كان جاهلا . فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ" . لكن قد يأخذ العصاة فى الربا بطرف من وعيد هذه الآية .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ أى إنما الزيادة عند حلول الأجل آخرا كمثل أصل الثمن فى أوّل العقد، وذلك أن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك؛ فكانت إذا حل دينها قالت للغريم : إما أن تقضىَ وإما أن تُرْبِى ، أى تزيد فى الدّين . فحرّم الله سبحانه ذلك وردّ عليهم قولهم بقوله الحق : « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» وأوضح أن الأجل اذا حل ولم يكن عنده ما يؤدّى أُنْظِر الى المَيْسرة . وهذا الربا هو الذى نسخه النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله يوم عرفة لما قال : "ألا إن كل ربا موضوع وإن أول ربا أضعه ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله" . فبدأ صلى الله عليه وسلم بعمه وأخص الناس به . وهذا من سنن العدل للإمام أن يُفيض العدل على نفسه وخاصته فيستفيض حينئذ فى الناس .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ هذا من عموم القرآن ، والألف واللام للجنس لا للعهد إذ لم يتقدّم بيع مذكور يُرجع اليه ؛ كما قال تعالى : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » ثم استثنى « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . وإذا ثبت أن البيع عام فهو مخصّص بما ذكرناه من الربا وغير ذلك مما نُهى عنه ومنع العقد عليه ؛ كالخمر والميتة وحَبَل الحَبَلة[1] وغير ذلك مما هو ثابت فى السّنّة وإجماع الأمة النّهىُ عنه . ونظيره « اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ» وسائر الظواهر هى التى تقتضى العمومات ويدخلها التخصيص ، وهذا مذهب أكثر الفقهاء . وقال بعضهم : هو من مجمل القرآن الذى فسّر بالمحلّل من البيع وبالمحرّم فلا يمكن أن يستعمل فى إحلال البيع وتحريمه إلا أن يقترن به بيانٌ من سُنّة الرسول صلى الله عليه وسلم وإن دل على إباحة البيوع فى الجملة دون التفصيل . وهذا فرق ما بين العموم والمجمل ؛

(١) الحبل (بالتحريك) مصدر سمى به المحمول كما سمى بالحمل ، وإنما دخلت عليه التاء للاشعار بمعنى الأنوثة فيه ؛ فالحبل الأول يراد به ما فى بطون النوق من الحَمَل ، والثانى حَبَل ما فى بطون النوق . وإنما نهى عنه لمعنيين : أحدهما أنه غُرور وبيع شىء لم يخلق بعد ، وهو أن يبيع ما سوف يحمله الجنين الذى فى بطن الناقة على تقدير أن تكون أنثى ؛ فهو بيع نتاج النتاج . وقيل : أراد بحبل الحبلة أن يبيعه الى أجل ينتج فيه الحمل الذى فى بطن الناقة ؛ فهو أجل مجهول ولا يصح . (عن نهاية ابن الأثير) .

فالعموم يدل على إباحة البيوع فى الجملة والتفصيل مالم يخص بدليل . والمجمل لا يدل على إباحتها فى التفصيل حتى يقترن به بيان . والأول أصح . والله أعلم .

السادسة عشرة — البيع فى اللغة مصدر باع كذا بكذا ، أى دفع عِوضا وأخذ مُعوَّضا . وهو يقتضى بائعا وهو المالك أو من يُنَزَّل منزلته ، ومُبتاعا وهو الذى يبذل الثمن ، ومَبيعا وهو المثمون وهو الذى يُبْذَل فى مقابلته الثمن . وعلى هذا فأركان البيع أربعة : البائع والمبتاع والثمن والمُثمَّن . ثم المعاوضة عند العرب تختلف بحسب اختلاف ما يضاف إليه ؛ فإن كان أحد المعوضين فى مقابلة الرَّقبة سُمِّىَ بيعا ، وإن كان فى مقابلة منفعة رقبة فإن كانت منفعة بُضْع سُمِّىَ نكاحا ، وإن كان منفعة غيرها سُمِّىَ إجارة ، وإن كان عَيْنا بعَيْن فهو بيع النقد وهو الصرف ، وإن كان بدين مؤجّل فهو السَّلَم ، وسيأتى بيانه فى آية الدَّين . وقد مضى حكم الصَّرْف ، ويأتى حكم الإجارة فى « القصص »(١) وحكم المهر فى النكاح فى « النساء »(٢) كل فى موضعه إن شاء الله تعالى .

السابعة عشرة — البيع قبولٌ وإيجاب يقع باللفظ المستقبل والماضى ؛ فالماضى فيه حقيقة والمستقبل كناية ، ويقع بالصَّريح والكناية المفهوم منها نقل الملك . فسواء قال : بعتك هذه السِّلْعة بعشرة فقال اشتريتها ، أو قال المشترى اشتريتها وقال البائع بعْتُكها ، أو قال البائع أنا أبيعك بعشرة فقال المشترى أنا أشترى أو قد اشتريت ، وكذلك لو قال خذها بعشرة أو أعطيتكها أو دونكها أو بُورك لك فيها بعشرة أو سلّمتها اليك — وهما يريدان البيع — فذلك كلّه بيع لازم(٣) . ولو قال البائع : بعتك بعشرة ثم رجع قبل أن يقبل المشترى فقد قال ليس له أن يرجع حتى يسمع قبول المشترى أو ردّه ، لأنه قد بذل ذلك من نفسه وأوجبه عليها ، وقد قال ذلك له لأن العقد لم يتم عليه . ولو قال البائع : كنت لاعبا ، فقد اختلفت الرواية عنه ؛ فقال مرّة : يلزمه البيع ولا يلتفت الى قوله . وقال مرّة : يُنْظَر الى قيمة السلعة

---

(١) فى قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت استأجره ... » آية ٢٦　　(٢) فى قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ... » آية ٢٠ .　　(٣) كذا فى الأصل . ولم ندر من المسند اليه هذا القول .

فإن كان الثمن يشبه قيمتها فالبيع لازم ، وإن كان متفاوتا كعبد بدرهم ودار بدينار عُلم أنه لم يُرد به البيع وإنما كان هازلا فلم يلزمه .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ الألف واللام هنا للعهد، وهو ما كانت العرب تفعله كما بيّناه، ثم تتناول ما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه من البيع الذي يدخله الربا وما في معناه من البيوع المنهيّ عنها .

التاسعة عشرة — عقد الربا مفسوخ لا يجوز بحال ؛ لما رواه الأئمة واللفظ لمسلم عن أبي سعيد الخُدْريّ قال : جاء بلال بتمر بَرْنِيّ[1] فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أين هذا " ؟ فقال بلال : من تمرٍ كان عندنا رديء، فبعت منه صاعين بصاع لمَطْعَم النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : " أَوْهِ[2] عَيْنُ الرِّبَا لا تفعلْ ولكن اذا أردت أن تشتريَ التمر فبعه ببيع آخر ثم اشتر به " في رواية " هذا الرِّبا فردّوه ثم بيعوا تمرنا واشتروا لنا من هذا " . قال علماؤنا : فقوله : " أوهِ عين الربا " . أي هو الربا المحرّم نفسه لا ما يشبهه . وقوله : " فردّوه " يدل على وجوب فسخ صفقة الربا وأنها لا تصح بوجه؛ وهو قول الجمهور، خلافا لأبي حنيفة حيث يقول : إن بيع الربا جائز بأصله من حيث هو بيع ، ممنوع بوصفه من حيث هو رِبًا، فيسقط الربا ويصح البيع . ولو كان على ما ذُكر لما فسخ النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه الصفقة، ولأمره بردّ الزيادة على الصاع ولصحّح الصفقة في مقابلة الصاع .

الموفية عشرين — كل ما كان من حرام بيّن فَفُسخ فعلى المبتاع ردّ السلعة بعينها . فإن تلفت بيده ردّ القيمة فيما له القيمة، وذلك كالعقار والعُروض والحيوان، والمِثْل فيما له مثل من موزون أو مكيل من طعام أو عَرَض . قال مالك : يُردّ الحرام البيّن فات أو لم يفت، وما كان مما كره الناس رُدّ إلّا أن يفوت فيترك .

---

(١) البرني (بفتح الموحدة وسكون الراء في آخره ياء مشددة) : ضرب من التمر أحمر بصفرة كثير اللحاء (وهو ما كسا النواة) عذب الحلاوة .

(٢) تراجع هامشة ٣ ص ٢٣٦ من هذا الجزء .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قال جعفر بن محمد الصّادق رحمهما الله : حرّم الله الربا ليتقارض الناس . وعن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "قَرْضٌ مرتين بعدل صدقة مرة" أخرجه البزّار ، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى . وقال بعض الناس : حرّمه الله لأنه مَتْلَفة للأموال مَهْلَكة للناس . وسقطت علامة التأنيث فى قوله تعالى : « فمن جاءه » لأن تأنيث « الموعظة » غير حقيقيّ وهو بمعنى وعظ . وقرأ الحسن « فمن جاءته » بإثبات العلامة .

هذه الآية تلتها عائشة لمّا أُخبرت بفعل زيد بن أَرْقَم . روى الدّارَقُطْنِي عن العالية بنت أنفع قالت : خرجت أنا وأم مُحِبّة الى مكة فدخلنا على عائشة رضى الله عنها فسلمنا عليها فقالت لنا : ممن أنتن؟ قلنا من أهل الكوفة . قالت : فكأنها أعرضت عنا . فقالت لها أم مُحِبّة : يا أمّ المؤمنين ! كانت لى جارية وإنى بعتها من زيد بن أرقم الأنصاريّ بثمانمائة درهم إلى عطائه وإنه أراد بيعها فابتعتُها منه بستمائة درهم نقدا . قالت : فأقبلت علينا فقالت : بئسما شريت وما اشتريت ! فأبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يتوب . فقالت لها : أرأيت إن لم آخذ منه إلا رأس مالى ؟ قالت : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ » . العالية هى زوج أبى إسحاق الهَمْدانىّ الكوفى السَّبيعىّ أم يونس بن أبى إسحاق . وهذا الحديث أخرجه مالك من رواية ابن وهب عنه فى بيوع الآجال ، وإن كان منها ما يؤدّى الى الوقوع فى المحظور منع منه وإن كان ظاهره بيعا جائزا . وخالف مالكا فى هذا الأصل جمهور الفقهاء وقالوا : الأحكام مبنيّة على الظاهر لا على الظنون . ودليلنا القول بسدّ الذرائع ؛ فإن سُلِّم وإلا استدللنا على صحته . وقد تقدّم . وهذا الحديث نص ؛ ولا تقول عائشة « أبلغى زيدا فانه قد أبطل جهادَه إلا أن يتوب » إلا بتوقيف ؛ إذ مثله لا يقال بالرأى فإن إبطال الأعمال لا يتوصل الى معرفتها إلا بالوحى كما تقدّم . وفى صحيح مسلم عن النُّعْمان بن بَشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الحلالُ بَيّن والحرامُ بيّن وبينهما أمورٌ متشابهات لا يعلمها كثيرٌ من الناس فمن اتّقى

الشبهات استبرأ لدينه وعِرْضه ومن وقع فى الشّبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمَى يُوشك أن يقع فيــه ألا و إن لكل مَلِكٍ حِمًى ألاّ و إنّ حِمَى الله محَارِمُه" . وجهُ دلالته أنه منع من الإقدام على المتشابهات مخافة الوقوع فى المحرّمات وذلك سدًّا للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم : "إن من الكبائر شتْم الرجل والديه" قالوا : وكيف يشتم الرجل والديه؟ قال . "يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه و يسبُّ أمَّه فيسب أمه" . فجعل التعريض لسبّ الآباء كسبّ الآباء . ولعن صلى الله عليه وسلم اليهود إذا أكلوا ثمن ما نُهُوا عن أكله . وقال أبو بكر فى كتابه : لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة . ونهى ابن عباس عن دراهم بدراهم بينهما جريرة . واتفق علماؤنا على منع الجمع بين بيع وسلف ، وعلى تحريم قليل الخمر و إن كان لا يُسكِر ، وعلى تحريم الخَلْوة بالأجنبية و إن كان عِنّينا ، وعلى تحريم النظر إلى وجه المرأة الشابة الى غير ذلك مما يكثُر و يعلم على القطع والبتات أنّ الشرع حكم فيها بالمنع لأنها ذرائع المحرّمات . والربا أحق ما حُمِيَتْ مراتعه وسُدّت طرائقه . ومن أباح هذه الأسباب فليُبِح حفر البئر ونصب الحبالات لهــلاك المسلمين والمسلمات ، وذلك لا يقوله أحد . وأيضا فقــد اتّفقنا على منع من باع بالعينة إذا عُرِف بذلك وكانت عادته ، وهى فى معنى هذا الباب . والله الموفق للصــــواب .

الثانية والعشرون — روى أبو داود عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا تبايعتم بالعينــةِ وأخذتم أذنابَ البقر ورَضِيتم بالزّرْع وتركتم الجهادَ سلّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزِعه عنكم حتى ترجعوا إلى دِينكم" . فى إسناده أبو عبد الرحمن الخُرَاسانىّ . ليس بمشهور (١) . وفسّر أبو عُبيدة الهَرَوىّ العِينةَ فقال : هى أن يبيع من رجل سِلعةً بثمن معلوم إلى أجلٍ مسمّى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذى باعها به . قال : فإن اشــترى بحضرة طالب العِينة سِلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العِينة بثمن أكثر مما اشتراه إلى أجل مسمى ، ثم باعها المشترى من البائع الأوّل بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضا عِينةٌ ،

(١) فى بعض نسخ الأصل : فى إسناده أبو عبد الرحمن الخراسانى اسمه اسحاق بن أسيد نزيل مصر لا يحتج به . وفيه أيضا عطاء الخراسانى ، وفيه فقال لهم لم يذكره الشيخ رضى الله عنه ليس بمشهور .

وهى أهون من الأولى ، وهو جائز عند بعضهم . وسمّيت عِينةً لحضور النقد لصاحب العينة ، وذلك أن العَيْن هو المـال الحاضر والمشترى انمـا يشتريها ليبيعها بعين حاضر ليصل اليـه من فوره .

الثالثة والعشرون — قال علماؤنا : فمَنْ باع سلعةً بثمن إلى أجل ثم ابتاعها بثمن من جنس الثمن الذى باعها به ، فلا يخلو أن يشتريها منه بنقد ، أو إلى أجلٍ دون الأجل الذى باعها إليه ، أو الى أبعد منه ، بمثل الثمن أو بأقل منه أو بأ كثر ؛ فهذه ثلاث مسائل . فأما الأولى والثانية فان كان بمثل الثمن أو أ كثر جاز ، ولا يجوز بأقـل على مقتضى حديث عائشة ؛ لأنه أعطى ستمائة ليأخذ ثمانمائة والسلعة لغو ، وهـذا هو الربا بعينه . وأما الثالثة إلى أبعد من الأجل ، فان كان اشتراها وحدها أو زيادة فيجوز بمثل الثمن أو أقل منه ، ولا يجوز بأ كثر ؛ فان اشترى بعضها فلا يجوز على كل حال لا بمثل الثمن ولا بأقل ولا بأ كثر . ومسائل هذا البـاب حصرها علماؤنا فى سبع وعشرين مسألة ، ومدارها على ما ذكرناه ، فاعلم .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ أى من أمر الربا لا تِباعةَ عليـه منه فى الدنيـا ولا فى الآخرة ؛ قاله السُّدّى وغيره . وهـذا حكم من الله تعالى لمن أسلم من كفار قريش وثَقِيف ومن كان يتّجر هنالك . وسلف : معناه تقدّم فى الزمن وانقضى .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ فـيه أربع تأويلات : أحدها أن الضمير عائد الى الربا ، وأمر الربا الى الله فى إمرار تحريمه أو غير ذلك . والآخر أن يكون الضمير عائدا على « ما سلف » أى أمره إلى الله فى العفو عنه وإسقاط التّبِعة فيه . والثالث أن يكون الضمير عائدا على ذى الربا ، بمعنى أمره الى الله فى أن يُثيبه على الانتهاء أو يعذّبه على المعصية فى الربا . واختار هذا القول النحاس ، قال : وهذا قول حسن بيّن ، أى وأمره الى الله فى المستقبل إن شاء ثبّته على التحريم وإن شاء أباحه . والرابع أن يعـود الضمير على المنتهى ، ولكن بمعنى التأنيس له وبسط أمله فى الخير ؛ كما تقول : وأمره الى طاعة وخير ، وكما تقول : وأمره فى نمو وإقبال إلى الله وإلى طاعته .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ يعني إلى فعل الربا حتى يموت ؛ قاله سفيان . وقال غيره : مَنْ عاد فقال إنما البيع مثل الربا فقد كفر . قال ابن عطية : إن قدّرنا الآية في كافر فالخلود خلود تأبيد حقيقي ، و إن لحظناها في مسلم عاص فهذا خلود مستعار على معنى المبالغة ؛ كما تقول العرب : مُلْكٌ خالد ، عبارةً عن دوام ما لا يبقى على التأبيد الحقيقي .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ يعني في الدنيا أي يذهب بركته و إن كان كثيرا . روى ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنّ الرِّبَا و إن كَثُر فعاقبتُه إلى قُلّ" . وقيل : يمحق الله الربا يعني في الآخرة . وعن ابن عباس في قوله تعالى : « يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا » قال : لا يقبل منه صدقةً ولا حجًّا ولا جهادًا ولا صِلةً . والمَحْق : النقص والذهاب ؛ ومنه مُحَاق القمر وهو انتقاصه . « وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ » أي يُنَمِّيها في الدنيا بالبركة و يُكثر ثوابها بالتضعيف في الآخرة . وفي صحيح الحديث : "إنّ صدقةَ أحدِكم لَتقع في يد الله فيُرَبِّيها له كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه أو فصيلَه حتى يجيء يوم القيامة و إنّ اللّقمة لعلى قدر أُحُد" . وقرأ ابن الزبير « يُمَحِّق » بضم الياء وكسر الحاء مشدّدة « وَيُرَبِّي » بفتح الراء وشدّ الباء ، ورُوِيت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك .

الثامنة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ ووصف كَفّار بأثيم مبالغة ، مِن حيث اختلف اللفظان . وقيل : لإزالة الاشتراك في كَفّار إذ قد يقع على الزارع الذي يستر الحب في الأرض ؛ قاله ابن فُوْرَك .

وقد تقدّم القول في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ . وخص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمّنهما عمل الصالحات تشريفًا لهما وتنبيها على قدرهما إذ هما رأس الأعمال ؛ الصلاة في أعمال البدن ، والزكاة في أعمال المال .

التاسعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضا و إن كان معقودا قبل

نزول آية التحريم ، ولا يتعقب بالفسخ ما كان مقبوضا . وقد قيل : إن الآية نزلت بسبب ثقيف ، وكانوا عاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من الربا على الناس فهو لهـــم وما للناس عليهم فهو موضوع عنهم؛ فلما أن جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضـاء ، وكانت الديون لبنى عبدة وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف وكانت على بنى المغـيرة المخزوميّين . فقال بنو المغيرة : لا نُعطى شيئا فإن الربا قد رُفِع . ورفعوا أمرهم الى عتّاب بن أَسِيد، فكتب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم، ونزلت الآية فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عتّاب ؛ فعلمت بها ثقيف فكفّتْ . هـذا سبب الآية على اختصار مجموع ما رَوى ابن إسحاق وابن جريج والسُّدِّى وغيرهم . والمعنى اجعلوا بينكم و بين عذاب الله وقاية بترككم ما بقى لكم من الربا وصَفْحِكم عنه .

المُوفية ثلاثين — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرطٌ محض فى ثقيف على بابه ؛ لأنه كان فى أوّل دخولهم فى الإسلام . و إذا قدرنا الآية فيمن تقرّر إيمانه فهو شرط مجازىّ على جهة المبالغة ؛ كما تقول لمن تريد إقامة نفسه : إن كنت رجلا فافعل كذا . وحكى النقّاش عن مُقاتل بن سليمان أنه قال : إنّ «إن» فى هذه الآية بمعنى «إذ» . قال ابن عطيّة : وهذا مردود لا يعرف فى اللغة . وقال ابن فُوْرَك : يحتمل أن يريد يأيها الذين آمنوا بمن قبل محمد من الأنبياء ذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا ينفع الأوّل إلا بهذا . وهذا مردود بما روى فى سبب الاية .

الحادية والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ هـذا وعيد إن لم يذروا الربا . والحرب داعية القتل . روى ابن عباس أنه يقال يوم القيامة لآكل الربا : خُذْ سلاحك للحرب . وقال ابن عبّاس أيضا : مَنْ كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحقّ على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع و إلّا ضرب عنقه . وقال قتـادة : أوعد الله أهل الربا القتل ، فجعلهم بَهْرَجًا(١) أينمـا ثُقِفوا(٢) . وقيـل : المعنى إن لم تنتهوا فأنتم حربٌ لله ولرسوله ، أى

(١) البهرج : الشىء المباح .   (٢) ثقفه : أخذه أو ظفر به أو صادفه .

أعداء . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالاً كانوا مرتدّين، والحكم فيهم كالحكم فى أهل الردّة ، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالاً جاز للإمام محاربتُهم . ألا ترى أن الله تعالى قد أذن فى ذلك فقال : « فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ » . وقرأ أبو بكر عن عاصم « فَآذِنُوا » على معنى فأعلموا غيركم أنكم على حربهم .

الثانية والثلاثون — ذكر ابن بكير قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله، إنى رأيت رجلا سكرانًا يتعاقر يريد أن يأخذ القمر، فقلت : امرأتى طالق إن كان يدخل جوف ابن آدم أشرُّ من الخمر . فقال : ارجعْ حتى أنظر فى مسألتك . فأتاه من الغد فقال له : ارجع حتى أنظر فى مسألتك . فأتاه من الغد فقال له : امرأتك طالق، إنى تصفّحت كتاب الله وسنّة نبيه فلم أر شيئا أشرَّ من الربا ، لأن الله أذن فيه بالحرب .

الثالثة والثلاثون — دلّت هذه الآية على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف فى ذلك على ما نبيّنه . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يأتى على الناس زمانٌ لا يبقى أحد إلا أكل الربا ومن لم يأكل الربا أصابه غُباره" . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة[(1)] أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لدرهمُ رِبًا أشدُّ عند الله من ست وثلاثين زَنْيَة فى الخطيئة" وروى عنه عليه السلام أنه قال : "الربا تسعةٌ وتسعون بابا أدناها كإتيان الرجل بأمِّه" يعنى الزنا بأمه . وقال ابن مسعود آكل الربا ومُوكِّله وكاتبه وشاهده ملعون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وروى البخاريّ عن أبى جُحَيْفَةَ قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الدم[(2)] وثمن الكلب وكسب الأَمَة ونهى عن الواشمة والموشومة[(3)] وآكل الربا وموكله ولعن المصوّر . وفى صحيح مسلم عن أبى هُرَيْرَةَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اجتنبوا السبعَ المُوبِقات ... وفيها وأكل الربا " .

---

(١) ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب أن حنظلة الغسيل قتل يوم أحد شهيدا قتله أبو سفيان . كان قد ألمّ بأهله فى حين خروجه الى أُحُد ثم هجم عليه من الخروج فى النفير ما أنساه الغسل وأعجله عنه ، فلما قتل شهيدا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته .

(٢) أى أجرة الحجامة ، وأطلق عليه الثمن تجوّزا .

(٣) كذا فى صحيح البخارى . والذى فى الأصول : « ولعن الواشمة والمستوشمة » .

وفى مصنف أبى داود عن ابن مسعود قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده .

الرابعـة والثلاثون — قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ روى أبو داود عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى حجّة الوداع: "ألا إن كلّ رِبًا من ربا الجاهليّـة موضوعٌ لكم رءوسُ أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون"، وذكر الحديث . فردّهم تعالى مع التوبة إلى رءوس أمـوالهم وقال لهم: «لَا تَظْلِمُونَ» فى أخذ الربا «وَلَا تُظْلَمُونَ» فى أن يُتَمَسّك بشىء من رءوس أموالكم فتذهب أموالكم . ويحتمـل أن يكون «لا تَظْلِمُونَ» فى مَطْل لأن مطل الغنىّ ظلم؛ فالمعنى أنه يكون القضاء مع وضع الربا، وهكذا سنة الصلح، وهذا أشبه شىء بالصلح . ألا ترى أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم لمـا أشار إلى كعب بن مالك فى دَيْن ابن أبى حَدْرَد بوضـع الشطر فقال كعب نعم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للآخر: "قُمْ فاقضِه" . فتلقّى العلماء أمره بالقضاء سنّة فى المصالحات . وسيأتى فى «النّساء» وبيان الصلح وما يجوز منه ومالا يجوز، إن شاء الله تعالى .

الخامسة والثلاثون — قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ تأكيد لإبطال مالم يُقْبَض منه وأخذ رأس المـال الذى لا ربا فيه . فاستدل بعض العلماء بذلك على أن كلّ ما طـرأ على البيع قبـل القبض ممـا يوجب تحريم العقـد أبطل العقد؛ كما إذا اشـترى مسلم صيدا ثم أحرم المشترى أو البائع قبل القبض بطل البيـع لأنه طـرأ عليه قبـل القبض ما أوجب تحريم العقـد؛ كما أبطل الله تعالى من الربا ما لم يقبض؛ لأنه طرأ عليـه ما أوجب تحريمه قبـل القبض، ولو كان مقبوضا لم يؤثر . هـذا مذهب أبى حنيفـة، وهو قول لأصحاب الشافعى . ويستدل به على أن هلاك المبيع قبل القبض فى يد البائع وسقوط القبض فيه يوجب بطلان العقد خلافًا لبعض السلف؛ ويروى هذا الخلاف عن أحمد . وهذا إنمـا يتمشّى على قول من يقول: إن العقد فى الربا كان فى الأصل منعقدا، وإنمـا بطل بالإسـلام الطارئ قبل القبض . وأمّا من يمنع انعقاد الربا فى الأصل لم يكن هـذا الكلام

صحيحا، وذلك أن الربا كان محرما فى الأديان والذى فعلوه فى الجاهلية كان عادة المشركين وأن ما قبضوه منه كان بمثابة أموال وصلت اليهم بالهبة فلا يتعرّض له . فعلى هذا لا يصح الاستشهاد على ما ذكروه من المسائل . واشتمالُ شرائع الأنبياء قبلنا على تحريم الربا مشهور مذكور فى كتاب الله تعالى؛ كما حكى عن اليهود فى قوله تعالى: «وَأَكْلِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ». وذكر فى قصة شعيب أن قومه أنكروا عليه وقالوا: «اتنهانا أن نفعل فى أموالنا ما نشاء» فعلى هذا لا يستقيم الاستدلال به . نعم، يفهم من هذا أن العقود الواقعة فى دار الحرب إذا ظهر عليها الإمام لا يعترض عليها بالفسخ اذا كانت معقودة على فساد .

السادسة والثلاثون — ذهب بعض الغلاة من أرباب الورع إلى أن المال الحلال إذا خالطه حرام حتى لم يتميّز ثم أُخرج منه مقدار الحرام المختلط به لم يحلّ ولم يطب؛ لأنه يمكن أن يكون الذى أُخرج هو الحلال والذى بقى هو الحرام . قال ابن العربى: وهذا غلوٌّ فى الدين؛ فإن كل ما لم يتميز فالمقصود منه ماليّته لا عينه، ولو تلف لقام المِثْل مقامه والاختلاط إتلاف لتميزه؛ كما أن الإهلاك إتلاف لعينه، والمِثْل قائم مقام الذاهب، وهذا بيّن حِسًّا بيّن معنى . والله أعلم .

قلت: قال علماؤنا: إنّ سبيل التوبة مما بيده من الأموال الحرام إن كانت من ربًا فليردّها على من أربى عليه، ويطلبه إن لم يكن حاضرا، فإنْ أَيِس من وجوده فليتصدّق بذلك عنه . وإن أخذه بظلم فليفعل كذلك فى أمر من ظلمه . فإن التبس عليه الأمر ولم يدركم الحرام من الحلال مما بيده، فانه يتحرّى قدر ما بيده مما يجب عليه ردّه، حتى لا يشك أن ما يبقى قد خلص له فيردّه من ذلك الذى أزال عن يده إلى من عُرف ممن ظلمه أو أربى عليه . فان أيس من وجوده تصدّق به عنه . فان أحاطت المظالم بذمّته وعلم أنه وجب عليه من ذلك مالا يُطيق أداءَه أبدًا لكثرته فتوبته أن يُزيل ما بيده أجمع إما إلى المساكين أو الى ما فيه صلاح المسلمين، حتى لا يبقى فى يده إلا أقلّ ما يجزئه فى الصلاة من اللباس وهو ما يستر العورة وهو من سُرّته الى ركبته، وقوتُ يومه لأنه الذى يجب له

أن يأخذه من مال غيره اذا اضطرّ اليه و إن كره ذلك من يأخذه منه . وفارق هاهنا المفلس في قول أكثر العلماء ؛ لأنّ المفلس لم يصر اليه أموال النـاس باعتداء بل هم الذين صيّروها اليه ، فيُترك له ما يُواريه وما هو هيئة لباسه . وأبو عُبَيْـد وغيره يرى ألّا يترك للمفلس من اللباس إلا أقل ما يجزئه في الصلاة وهو ما يواريه من سُرّته الى ركبته . ثم كل ما وقع بيد هذا شيء أخرجه عن يده ولم يمسك منه إلا ما ذكرنا حتى يعلم هو ومن يعلم حاله أنه أدّى ما عليه .

السابعة والثلاثون — هذا الوعيد الذي وعد الله به في الربا من المحاربة قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثلُه في المخابرة . روى أبو داود قال أخبرنا يحيى بن مَعين قال أخبرنا ابن رجاء[1] قال ابن خثيم حدّثني عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ لم يَذَرِ المخـابَرَة فليُؤْذنْ بحربٍ من الله ورسوله" . وهـذا دليل على منع المخابرة وهي أخذ الأرض بنصف أو ثلث أو ربع ، ويسمّى المزارعة . وأجمع أصحاب مالك كلهـم والشافعيّ وأبو حنيفة وأتباعهـم وداود على أنه لا يجـوز دفع الأرض على الثلث والربع ولا على جزء ممـا تخرج لأنه مجهول ؛ إلا أن الشافعيّ وأصحابه وأبا حنيفـة قالوا بجواز كراء الأرض بالطعام اذا كان معلوما ؛ لقوله عليه السلام : "فأمّا شيء معلوم مضمون فلا بأس به" خرّجه مسلم . وإليـه ذهب محمد بن عبـد الله بن عبد الحـكم ؛ ومنعه مالك وأصحابه ، لمـا رواه مسلم أيضا عن رافع بن خَديج قال : كنّا نُحَاقِل بالأرض على عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم فنكريها بالثلث والربع والطعام المسمّى ، فجـاءنا ذات يوم رجل من عمومتي فقـال : نهانا رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن أمرٍ كان لنـا نافعا ، وطواعيةُ الله ورسوله أنفع لنا ، نهانا أن نُحَاقِل بالأرض فنكتريها على الثلث والربع والطعام المسمّى ، وأمر ربَّ الأرض أن يزرعها أو يُزارعها ، وكرِه كِرَاءها وما سوى ذلك . قالوا : فلا يجـوز كراء الأرض بشيء من الطعام مأكولا كان أو مشروبا على حال ؛ لأن ذلك في معنى بيـع الطعام بالطعام نسيئا . وكذلك لا يجوز عنـدهم كراء الأرض بشيء ممـا يخرج منها و إنـ لم يكن

(١) في الأصول : «أبو رجاء» . والتصويب عن سنن أبي داود .

طعاما مأكولا ولا مشروبا ، سوى الخشب والقصب والحطب ؛ لأنه عندهم فى معنى المُزَابنة.(١) هذا هو المحفوظ عن مالك وأصحابه . وقد ذكر ابن سُحْنون عن المُغيرة بن عبد الرحمن المخزومىّ المدنىّ أنه قال : لا بأس بكراء الأرض بطعام لا يخرج منها . وروى يحيي بن عمر عن المغيرة أن ذلك لايجوز؛ لقول سائر أصحاب مالك . وذكر ابن حبيب أن ابن كنانة كان يقول : لا تكرى الأرض بشى إذا أعيد فيها نبت ، ولا بأس أن تكرى بما سوى ذلك من جميع الأشياء مما يؤكل ومما لا يؤكل خرج منها أو لم يخرج منها ؛ وبه قال يحيي بن يحيي ، وقال : إنه من قول مالك . قال : وكان ابن نافع يقول : لا بأس أن تُكْرَى الأرض بكل شىء من طعام وغيره خرج منها أو لم يخرج ، ماعدا الحِنْطة وأخواتها فإنها المحاقلة(٢) المنهىّ عنها . وقال مالك فى الموطّأ : فأما الذى يعطى أرضه البيضاء بالثلث والربع مما يخرج منها فذلك مما يدخله الغَرَر ؛ لأن الزرع يقل مرّة ويكثر أخرى ، وربما هلك رأسا فيكون صاحب الأرض قد ترك كراء معلوما ؛ وإنما مثل ذلك مثل رجل استأجر أجيرا لسفر بشىء معلوم ، ثم قال الذى استأجر للأجير : هل لك أن أُعطيك عشر ما أربح فى سفرى هذا إجارةً لك . فهذا لا يحلّ ولا ينبغى . قال مالك : ولا ينبغى لرجل أن يؤاجر نفسه ولا أرضه ولا سفينته ولا دابّته إلا بشىء معلوم لا يزول . وبه يقول الشافعىّ وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال أحمد بن حنبل والليث والثورىّ والأوزاعىّ والحسن بن حىّ وأبو يوسف ومحمد : لا بأس أن يعطى الرجل أرضه على جزء

---

(١) المزابنة : كل شىء من الجزاف الذى لا يعلم كيله ولا وزنه ولا عدده أُبتيع بشىء مسمى من الكيل أو الوزن أو العدد . وذلك أن يقول الرجل للرجل يكون له الطعام المصبر الذى لا يعلم كيله من الحنطة أو التمر أو ما أشبه ذلك من الأطعمة . أو يكون للرجل السلعة من الحنطة او النوى أو القضب أو العصفر أو الكتان أو ما أشبه ذلك من السلع لا يعلم كيل شىء من ذلك ولا وزنه ولا عدده ؛ فيقول الرجل لرب تلك السلعة : كِل سلعتك هذه أو مُرْ من يكيلها أو زن من ذلك يوزن أو عدّ منها ما كان يُعَدّ فما نقص عن كيل كذا وكذا صاعا ، لتسمية يسميها ، أو وزن كذا وكذا رطلا أو عدد كذا وكذا فما ينقص من ذلك فعلى غُرمه حتى أوفيك تلك التسمية ، وما زاد على تلك التسمية فهو لى أضمن ما نقص من ذلك ، على أن يكون لى ما زاد . فليس ذلك بيعا ولكنه المخاطرة والضرر والقمار يدخل هذا . وقيل : المزابنة اسم لبيع الثمر بالتمر كيلا ورطب كل جنس بيابسه ، ومجهول منه بمعلوم (عن الموطأ) .

(٢) المحاقلة : بيع الزرع قبل بدو صلاحه . وقيل بيع الزرع فى سنبله بالحنطة . وقيل : المزارعة على نصيب معلوم بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر . وقيل : اكتراء الأرض بالحنطة .

مما تخرجه نحو الثلث والربع ؛ وهو قول ابن عمر وطاوس . واحتجّوا بقصة خَيْبَر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل أهلها على شطرِ ما تخرجه أرضهم وثمارهم . قال أحمد : حديث رافع بن خَديج فى النهى عن كِراء المزارع مضطرب الألفاظ ولا يصح ، والقول بقصة خَيْبر أولى وهو حديث صحيح . وقد أجاز طائفة من التابعين ومن بعدهم أن يُعطى الرجل سفينته ودابّته كما يُعطى أرضه بجزء ممـا يرزقه الله فى العِلاج بهـا . وجعلوا أصلهم فى ذلك القِراض (١) المُجْمَع عليه على ما يأتى بيانه فى « المُزَّمِّل » ان شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » . وقال الشافعى فى قول ابن عمـر : كنا نُخَابِر ولا نرى بذلك بأسا حتى أخبرنا رافع بن خَديج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؛ أى كنا نكرِى الأرضَ ببعض ما يخرج منها . قال : وفى ذلك نسخ لسُنّة خَيْبَر .

قلت : وممـا يصحح قول الشافعيّ فى النسخ ما رواه الأئمة واللفظ للدّارَقُطْنِيّ عن جابر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى عن المُحاقَلة والمُزَابَنة والمخابرة وعن الثُّنْيَا (٢) إلا أن تعلم . صحيح . وروى أبو داود عن زيد بن ثابت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المُخَابرة . قلت : وما المخابرة؟ قال : أن تأخذ الارض بنصف أو ثلث أو ربع .

الثامنة والثلاثون — فى القراءات . قرأ الجمهور «مَا بَقِيَ» بتحريك الياء ، وسكنها الحسن ؛ ومثله قول جرير :

هو الخليفة فارْضَوْا ما رَضِى لكمُ * ماضِى العزيمةِ ما فى حُكْمِه جَنَفُ

وقال عمر بن أبى ربيعة :

كم قد ذكرتك لو أُجْزَى بذكركُمُ * يا أشبهَ الناسِ كلِّ الناسِ بالقمرِ
إنى لأجذَلُ ان أُمسِى مُقَابِلَهُ * حُبًّا لرؤية من أشبهتِ فى الصور

---

(١) القراض (بكسر القاف) عند المالكية هو ما يسمى بالمضاربة عند الحنفية ؛ وهو إعطاء المقارض (بكسر الراء وهو رب المال) المقارض (بفتح الراء وهو العامل) مالا ليتجر به على أن يكون له جزء معلوم من الربح .

(٢) الثنيا : هى أن يستثنى فى عقد البيع شىء مجهول فيفسده . وقيل : هو أن يباع شىء جزافا ؛ فلا يجوز أن يستثنى منه شىء قل أو كثر . وتكون « الثنيا » فى المزارعة أن يستثنى بعد النصف أو الثلث كيل معلوم . (عن النهاية) .

أصله «ما رَضِىَ» و «ان أُمْسِىَ» فأسكنها وهو فى الشعر كثير . ووجهه أنه شبّه الياء بالألف فكما لا تصل الحركة إلى الألف فكذلك لا تصل هنا الى الياء . ومن هذه اللغة أحِبّ أن أدْعُوك ، واشتهى أن أقْضِيك ، بإسكان الواو والياء . وقرأ الحسن «ما بَقَى» بالألف ، وهى لغة طيٍّ ، يقولون للجارية : جاراة ، وللناصية : ناصاة ؛ وقال الشاعر :

لَعَمْرُكَ لا أخشى التّصَعْلُكَ ما بَقَى * على الأرض قَيْسِىٌّ يسوق الأباعرا

وقرأ السُّمّال من بين جميع القراء « مِنَ الرِّبُوْ » بكسر الراء المشدّدة وضم الباء وسكون الواو . وقال أبو الفتح عثمان بن جنّى : شذّ هذا الحرف من أمرين ، أحدهما الخروج من الكسر الى الضم ، والآخر وقوع الواو بعد الضم فى آخر الاسم . وقال المهْدَوِىّ . وَجْهُها أنه فخّم الألف فانتحى بها نحو الواو التى الألفُ منها ؛ ولا ينبغى أن يحمل على غير هذا الوجه إذ ليس فى الكلام اسم آخره واو ساكنة قبلها ضمّة . وأمال الكسائىّ وحمزة « الرِّبا » لمكان الكسرة فى الراء . الباقون بالتفخيم لفتحة الباء . وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة « فَآذِنُوا » على معنى فآذِنوا غيركم ، فحذف المفعول . وقــرأ الباقون « فَأْذَنُوا » أى كونوا على إذن ؛ من قولك : إنى على علم ؛ حكاه أبو عبيد عن الأصمعىّ . وحكى أهل اللغــة أنه يقال : أَذِنت به إذْناً ، أى علمت به . وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : معنى « فَأْذَنُوا » فاستيقنوا الحرب من الله ، وهو بمعنى الاذن . ورجّح أبو علىّ وغيره قراءة المدّ قال : لأنهم اذا أُمِروا بإعلام غيرهم ممن لم ينته عن ذلك عِلموا هم لا محالة . قال : ففى إعلامهم عِلْمُهم وليس فى علمهم إعلامهم . ورجّح الطبرىّ قــراءة القصر لأنها تختص بهم . وانما أُمروا على قراءة المد بإعلام غيرهم ، وقرأ جميــع القراء « لا تَظْلِمُونَ » بفتح التاء « ولا تُظْلَمُونَ » بضمها . وروى المفضَّل عن عاصم لا تُظْلَمُونَ ولا تَظْلِمُون بضم التــاء فى الأولى وفتحها فى الثانية على العكس . وقال أبو علىّ : تترجح قراءة الجماعة بأنها تناسب قوله : « وإن تُبْتُمْ » فى إسناد الفعلين الى الفاعل ؛ فيجىء « تَظْلِمُون » بفتح التــاء أشكل بمــا قبله .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨٠)

فيه تسع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ لمـّا حكم جلّ وعزّ لأرباب الربا برءوس أموالهم عنـد الواجدين للمـال حكم فى ذى العسرة بالنَّظِرة إلى حال الميسرة ؛ وذلك أن ثقيفا لمـّا طلبوا أموالهم التى لهم على بنى المُغيرة شكوا العُسْرة ــ يعنى بنى المغيرة ــ وقالوا : ليس لنا شىء ، وطلبوا الأجل إلى وقت ثمارهم ؛ فنزلت هذه الآية «وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ» .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ مع قوله «وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوالِكُمْ» يدلّ على ثبوت المطالبـة لصاحب الدين على المدين وجواز أخذ ماله بغير رضاه . ويدلّ على أن الغريم متى امتنع من أداء الدين مع الإمكان كان ظالما ؛ فإن الله تعالى يقول : «فلكم رءوسُ أموالكم» فجعل له المطالبة برأس ماله . فإذا كان له حقّ المطالبة فعلى مَنْ عليه الدينُ لا محالة وجوب قضائه .

الثالثـــة ــ قال المَهْدَوِىّ وقال بعض العلماء : هــذه الآية ناسخة لمـا كان فى الجاهليّة من بيع من أعسر . وحكى مكىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر به فى صَدْر الإسلام . قال ابن عطيّة : فإن ثبت فعلُ النبى صلى الله عليه وسلم فهو نسخ وإلّا فليس بنسخ . قال الطحاوىّ : كان الحُرّ يباع فى الدَّين أوّل الإسلام إذا لم يكن له مال يقتضيه عن نفسه حتى نسخ الله ذلك فقال جلّ وعزّ : «وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة» . واحتجوا بحديث رواه الدارقطنىّ من حديث مســلم بن خالد الزنجىّ أخبرنا زيد بن أسلم عن ابن البيلمانى[(١)] عن سُرّق قال : كان لرجل علىّ مالٌ ــ أو قال دَيْنٌ ــ فذهب بى الى رســول الله صلى الله عليــه وســلم فلم يُصِبْ لى مالاً فباعنى منــه أو باعنى له . أخرجه البزّار بهذا الإسناد أطول منه . ومسلم ابن خالد الزنجى وعبــد الرحمن بن البيلمانى لا يحتجّ بهما . وقال جماعة من أهل العلم :

(١) فى الأصول : «عن ابن السلمانى عن مسروق» وهو تحريف . راجع تهذيب التهذيب .

قوله تعالى : « فنظرة الى ميسرة » عامة فى جميع الناس، فكل من أعسر أُنْظِرَ؛ وهـذا قول أبى هريرة والحسن وعامّة الفقهاء . قال النحاس : وأحسن ما قيل فى هذه الآية قول عطاء والضّحاك والربيع بن خُثَيْم . قال : هى لكل مُعْسِرٍ يُنْظَر فى الربا والدين كله . فهذا قول يجمع الأقوال لأنه يجوز أن تكون ناسخة عامّة نزلت فى الربا ثم صار حكم غيره كحكمه، ولأن القراءة بالرفع بمعنى وإن وقـع ذو عسرة من الناس أجمعين . ولو كان فى الربا خاصّـة لكان النصب الوجه، بمعنى وإن كان الذى عليه الربا ذا عُسرة . وقال ابن عباس وشريح : ذلك فى الربا خاصة؛ فأمّا الديون وسائر المعاملات فليس فيها نَظِرةٌ بل يؤدى الى أهلها أو يُحْبَس فيـه حتى يُوَفِّيه؛ وهو قول إبراهيم . واحتجّوا بقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » الآية . قال ابن عطيّة : فكان هذا القول يترتب إذا لم يكن فقرٌ مُدْقِع، وأمامع العُدْم والفقر الصريح فالحكم هو النَّظِرة ضرورة .

الرابعـــة — مَنْ كثرت ديونه وطلب غرماؤه ما لهم فللحاكم أن يخلعه عن كل ماله ويترك له ما كان من ضرورته . روى ابن نافـع عن مالك أنه لا يترك له إلا ما يُوارِيه . والمشهور أنه يترك له كسوته المعتادة ما لم يكن فيها فضل، ولا يُنْزَع منـه رداؤه إن كان ذلك مُزْرِيا به . وفى ترك كسوة زوجتـه وفى بيع كتبه إن كان عالمـا خلاف . ولا يترك له مسكن ولا خادم ولا ثوب جمعة ما لم تقلّ قيمتها؛ وعند هذا يَحْرُم حَبْسُـه . والأصل فى هذا قوله تعالى : «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» . روى الأئمة واللفظ لمسلم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : أُصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمـار ابتاعها فكثُر دينه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تصدّقوا عليه" فتصدّق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رســول الله صلى الله عليه وســلم لغرمائه : " خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك " . وفى مصنف أبى داود : فلم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم غُرماءه على أن خلَع لهم مالَه . وهذا نص؛ فلم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبس الرجل، وهو مُعَاذ بن جَبَل كما قال شُرَيح، ولا بملازمته، خلافا لأبى حنيفة فإنه قال : يلازم لإمكان أن يظهر له مال، ولا يُكَلَّف أن يكتسب لمـا ذكرنا . والله الموفق .

الخامســـة — ويحبس المُفلس في قول مالك والشافعيّ وأبي حنيفة وغيرهم حتى يتبين عُدْمُه . ولا يُحْبَس عنــد مالك إن لم يُتَّهــم أنه غيّب ماله ولم يتبين لَدَدُه . وكذلك لا يحبس إن صح عُسْرُه على ما ذكرنا .

السادســة — فإن جُمــع مال المفلس ثم تلف قبل وصوله إلى أربابه وقبل البيع فعلى المُفلس ضمانُه ، ودين الغرماء ثابت في ذمته . فإن باع الحاكم ماله وقبض ثمنــه ثم تلف الثمن قبل قبض الغرماء له كان عليهم ضمانه وقد برئ المفلس منه . قال محمد بن عبد الحكم : ضمانُه من المفلس أبدا حتى يصل الى الغرماء .

السابعــة — العُسْرة ضيق الحال من جهة عدم المال؛ ومنه جيش العُسْرة . والنَّظِرة التاخير . والمَيْسَرة مصدر بمعنى اليسر . وارتفع « ذو » بكان التامة التي بمعنى وجد وحدث؛ هذا قول سيبويه وأبي عليّ وغيرهما . وأنشد سيبويه :

فِدًى لبني ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَ ناقتي * إذا كان يومٌ ذو كواكبَ أشْهبُ (١)

ويجوز النصب . وفي مصحف أُبَيّ بن كعب « وإنْ كَانَ ذَا عُسْرَة » على معنى وإن كان المطلوبُ ذا عسرة . وقــرأ الأعمش « وإنْ كَانَ مُعْسِرًا فَنظِرةٌ » . قال أبو عمرو الدانيّ عن أحمد بن موسى : وكذلك في مصحف أُبَيّ بن كعب . قال النحاس ومكيّ والنقّاش : وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهــل الربا ، وعلى من قــرأ « ذو » فهي عامة في جميع من عليــه دين ، وقد تقدّم . وحكى المَهْدَويّ أن مصحف عثمان « فَإنْ كَانَ — بالفاء — ذو عُسْرَة » . وروى المُعْتمِر عن حجاج الورّاق قال : في مصحف عثمان « وإنْ كانَ ذَا عُسْرَةٍ » ذكره النحاس . وقراءة الجماعة بكسر الظاء . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن «فَنَظْرَةٌ» بسكون الظاء، وهي لغة تميمية وهم الذين يقولون : كَرْمَ زيدٌ بمعنى كَرُمَ زيدٌ، ويقولون كَبْد في كَبِد . وقرأ نافع وحده

---

(١) البيت لمقاس العائذي، واسمه مسهر بن النعمان . أراد : وقع يوم أو حضر يوم ونحو ذلك مما يقتصر فيه على الفاعل . وأراد باليوم يوما من أيام الحرب ، وصفه بالشدة فجعله كالليل تبــدو فيه الكواكب ، ونسبه الى الشهبة إما لكثرة السلاح الصقيل فيه ، وإما لكثرة النجوم . وذهل بن شيبان من بني بكر بن وائل ، وكان مقاس نازلا فيهم ، وأصله من قريش من عائذة وهم حي منهم . (عن شرح الشواهد للشنتمري) .

« مَيْسُرَة » بضم السين ، والجمهور بفتحها . وحكى النحاس عن مجاهد وعطاء « فَنَاظِـرُهُ — على الأمر — الى مَيْسُرِ» هي بضم السين وكسر الراء و إثبات اليـاء في الإدراج . وقُرِئَ « فناظرة » قال أبو حاتم لا يجوز فناظرة، إنمـا ذلك في « النمل » لأنها امرأة تكلمت بهذا لنفسها، من نظرت تنظر فهي ناظرة؛ وأما في « البقرة » فمن التأخير، من قولك : أنظرتُك بالدين، أي أخّرتك به . ومنه : «فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» . وأجاز ذلك أبو اسحاق الزجاج وقال : هي من أسماء المصادر؛ كقوله تعـالى : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » . وكقوله تعالى : « تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » وكـ«خَائِنَةَ الأَعْيُنِ » وغيره .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا ﴾ ابتداء، وخبره «خير» . ندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصـدقة على المُعْسِر وجعـل ذلك خيرا من إنظاره ؛ قاله السُّـدِّيّ وابن زيد والضّحاك . وقال الطبريّ : وقال آخرون : معنى الآية وأن تَصَدّقوا على الغَنِيّ والفقير خيرٌ لكم . والصحيح الأوّل، وليس في الآية مدخل للغنيّ .

التاســعة — روى أبو جعفر الطحاوي عن بُرَيْدة بن الحصيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أنظر معسِرًا كان له بكل يوم صدقة" ثم قلت : بكل يوم مثله صدقة ؛ قال فقال : "بكل يوم صدقة ما لم يَحِلّ الدين فإذا أنظره بعد الحلّ فله بكل يوم مثله صدقة". وروى مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "حُوسِبَ رجل ممن كان قبلكم فلم يُوجَدْ له من الخـير شيء إلا أنه كان يُخالط النـاس وكان مُوسِرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المُعْسِر قال قال الله عزّ وجلّ نحن أحقّ بذلك منه تجاوزوا عن عبدي". ورَوى عن أبي قتادة أنه طلب غَرِيمًا له فتوارى عنه ثم وجده فقال : إني مُعْسِرٌ . فقال : آللهِ؟ قال : اللهِ (١) . قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ سرّه أن يُنجِيه الله من كُرَب يوم القيامة فلْيُنَفِّس عن مُعْسِرٍ أو يَضَعْ عنه" ؛ وفي حديث أبي اليَسَر الطويل (٢) ، واسمه

(١) قوله : « قال آلله قال ألله » قال النووي : « الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام ، والثاني بلا مد ، والهاء فيهما مكسورة . قال القاضي : ورويناه بفتحهما معا وأكثر أهل العربية لا يجيزون إلا الكسر » .

(٢) الطويل : صفة للحديث .

كعب بن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " مَنْ أنظر مُعْسِرًا أو وضع عنه أظلّه الله فى ظِلّه " . ففى هــذه الأحاديث من الترغيب ماهو منصوص فيها . وحديث أبى قتادة يدلّ على أن ربّ الدين إذا علِم عُسْرةَ أو ظنها حَرُمت عليــه مطالبته و إن لم تثبت عُسرته عند الحاكم . و إنظار المُعْسِر تأخيره إلى أن يُوسِر . والوضع عنــه إسقاط الدَّين عن ذمته . وقد جمــع المعنيين أبو اليَسَر لغريمــه حيث محا عنــه الصحيفة وقال له : إنْ وجدتَ قضاءً فآقضِ و إلّا فأنت فى حِلٍّ (١) .

قوله تعــالى : وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

قيل : إن هذه الآية نزلت قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بتسع ليال ثم لم ينزل بعدها شيء؛ قاله ابن جُرَيج . وقال ابن جُبَيْر ومقاتل : بسبع ليــال . وروى بثلاث ليال . وروى أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنه عليــه السلام قال : " اجعلوها بين آية الربا وآية الدَّيْن " . وحكى مكى أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم قال : " جاءنى جبريل فقال اجعلها على رأس مائتين وثمــانين آية " .

قلت : وحُكى عن أُبَىّ بن كعب وآبن عبّاس وقتادة أن آخر ما نزل : « لَقَــدْ جَاءَكُمْ رَسُــولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » الى آخر الآية (٢) . والقول الأوّل أعرف وأ كثر وأصح وأشهر . ورواه أبو صالح عن آبن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » فقال جبريل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : " يا محمد ضعها على رأس ثمــانين ومائتين من البقرة " . ذكره أبو بكر الأنبارىّ فى كتاب الرّد له؛ وهو قول ابن عمر رضى الله عنه أنها آخر ما نزل، وأنه عليه السلام عاش بعدها إحدى وعشرين يوما، على ما يأتى بيانه فى آخر سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » إن شاء الله . والآية وعظ لجميــع

(١) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٩٤ طبعة بلاق .　　(٢) فى سورة التوبة آية ١٢٨

الناس وامر يخص كل إنسان . و«يوماً» منصوب على المفعول لا على الظرف . «تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» من نعته . وقرأ أبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم؛ مثل «إن إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ» واعتبارا بقراءة أُبيّ «يَوْمًا يَصِيرونَ فيه الى الله» . والباقون بضم التاء وفتح الجيم؛ مثل «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ» . «ولَئِن رُدِدْتُ إلى ربي» واعتبارا بقراءة عبد الله «يَوْمًا تُرَدُّونَ فِيهِ الى الله» . وقرأ الحسن «يرجعون» بالياء، على معنى يرجع جميع الناس . قال ابن جِنّي : كأن الله تعالى رفق بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة، إذ هي ما تتفطر لها القلوب فقال لهم : «وَاتَّقُوا يَوْمًا» ثم رجع في ذكر الرجعة الى الغيبة رِفْقًا بهم . وجمهور العلماء على أن هـذا اليوم المحذَّر منه هو يوم القيامة والحساب والتوفية . وقال قوم : هو يوم الموت . قال ابن عطيّة : والأوّل أصح بحكم الألفاظ في الآية . وفي قوله «إِلَى اللهِ» مضاف محذوف؛ تقديره إلى حكم الله وفصل قضائه . «وَهُمْ» ردّ على معنى «كُلّ» لا على اللفظ، إلا على قراءة الحسن «يرجعون» فقوله «وَهُمْ» ردّ على ضمير الجماعة في يرجعون . وفي هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلّق بكسب الأعمال، وهو ردّ على الجبرية، وقد تقدّم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ

ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

فيه اثنتان وخمسون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ الآية . قال سعيد بن المسيّب : بلغني أن أحدث القرآن بالعرش آية الدَّين . وقال ابن عباس : هذه الآية نزلت في السَّلَم خاصة . معناه أنّ سَلَم أهل المدينة كان سبب الآية ، ثم هي تتناول جميع المُداينات إجماعا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : إنها تضمنت ثلاثين حُكْما . وقد استدلّ بها بعض علمائنا على جواز التأجيل في القروض، على ما قال مالك، إذ لم يفصل بين القرض وسائر العقود في المداينات . وخالف في ذلك الشافعية وقالوا : الآية ليس فيها جواز التأجيل في سائر الديون ، وإنما فيها الأمر بالإشهاد اذا كان دينا مؤجلا ، ثم يعلم بدلالة أخرى جواز التأجيل في الدين وامتناعه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ بِدَيْنٍ ﴾ تأكيد ، مثل قوله « وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » . « فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ » . وحقيقة الدَّين عبارة عن كل معاملة كان أحد العِوَضين فيها نقدا والآخر في الذمة نسيئة، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا، والدَّيْن ما كان غائبا؛ قال الشاعر :

وَعَدَتْنا بِدِرْهَمَيْنا طِلاءً * وشِواءً مُعَجَّلًا غيرَ دينِ

وقال آخــر :

لِتَرْمِ بي المنايا حيث شاءت * إذا لم تَرْمِ بي في الحُفْرَتَيْنِ
إذا ما أوقــدوا حطبًا ونارًا * فذاك الموتُ نقــدًا غيرَ دَيْنِ

وقد بيّن الله هذا المعنى بقوله الحقّ « إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قال ابن المنذر : دلّ قول الله « إلى أجل مسمى » على أن السَّلَم إلى الأجل المجهول غير جائز، ودلّت سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم على مثل معنى كتاب الله. ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدِم المدينة وهم يَسْتلِفون فى الثمار السنتين والثلاث؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَسْلَفَ فى تمرٍ فَلْيُسْلِف فى كيلٍ معلوم ووزنٍ معلوم إلى أجلٍ معلوم" رواه ابن عبّاس. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. وقال ابن عمر : كان أهل الجاهليـة يتبايعون لحم الجَزُور إلى حَبَل الحَبَلة. وحبل الحبلة : أن تنتج الناقة ثم تحمل التى نُتِجت. فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك. وأجمع كل من يُحْفَظ عنـه من أهل العلم على أن السَّلَم الجائز أن يُسلِم الرجل الى صاحبه فى طعام معلوم موصوف من طعام أرض عامّة لا يُخطِئ مثلهـا بكيل معلوم إلى أجلٍ معلوم بدنانير أو دراهم معلومةٍ، يدفع ثمن ما أسلم فيه قبل أن يفترقا من مُقامهما الذى تبايعا فيه وسَمَّيا المكان الذى يُقْبَض فيـه الطعام. فإذا فعلا ذلك وكان جائز الأمر كان سَلَمًا صحيحا لا أعلم أحدًا من أهل العلم يُبطله.

قلت : وقال علماؤنا : إن السَّلَم الى الحصاد والجَذَاذ والنَّيْروز والمِهْرَجان جائز؛ إذ ذاك يختص بوقت وزمن معلوم.

الرابعـــة — حدّ علماؤنا رحمة الله عليهم السَّلَم فقالوا : هو بيعُ معلومٍ فى الذمّة محصورٍ بالصفة بعين حاضرةٍ أو ما هو فى حكمها إلى أجلٍ معلوم. فتقييده بمعلوم فى الذمّة يُفيد التحرّز من المجهول ومن السَّلَم فى الأعيان المعيّنة؛ مثل الذى كانوا يستلفون فى المدينة حين قَدِم عليهم النبيّ عليه السلام فإنهم كانوا يستلفون فى ثمار نخيلٍ بأعيانها؛ فنهاهم عن ذلك لمـا فيه من الغَرَر؛ إذ قد تُخْلِف تلك الأشجارُ فلم تُثْمِر شيئا.

وقولهم « محصور بالصفة » تحرّز عن المعلوم على الجملة دون التفصيل؛ كما لو أسلم فى تمر أو ثياب أو حيتان ولم يبيّن نوعها ولا صفتها المعيّنة.

وقولهم « بعين حاضرة » تحرّز من الدَّين بالدَّين. وقولهم « وما هو فى حكمها » تحرّز من اليومين والثلاثة التى يجوز تأخير مال السَّلَم إليـه، فإنه يجوز تأخيره عندنا ذلك القَـدْرَ بشرط

أو بغير شرط لقرب ذلك، ولا يجوز اشتراطه عليها . ولم يُجز الشافعيّ ولا الكوفيّ تأخير رأس مال السَّلَم عن العقد والافتراق، ورأوا أنه كالصرف . ودليلنا أن البابين مختلفان بأخصّ أوصافهما ؛ فإن الصرف باب ضيِّق كثُرت فيه الشروط بخلاف السَّلَم فإن شوائب المعاملات عليه أكثر . والله أعلم .

وقولهم « إلى أجل معلوم » تحرز من السَّلَم الحالّ فإنه لا يجوز على المشهور وسيأتى . ووصف الأجل بالمعلوم تحرز من الأجل المجهول الذى كانوا فى الجاهليّة يُسلمون إليه .

الخامســة — السَّلَم والسَّلَف عبارتان عن معنى واحد وقد جاءا فى الحديث ؛ غير أن الاسم الخاص بهذا الباب « السَّلَم » لأنّ السَّلَف يقال على القرض . والسَّلَم بيع من البيوع الجائزة بالاتّفاق، مستثنًى من نهيه عليه السلام عن بيع ما ليس عندك . وأُرخص فى السلم لأن السلم لمّا كان بيع معلوم فى الذمة كان بيع غائب تدعو إليه ضرورة كل واحد من المتبايعين ؛ فإن صاحب رأس المال محتاج إلى أن يشترى الثمرة ، وصاحب الثمرة محتاج إلى ثمنها قبل إبّانها ليُنْفِقه عليها . فظهر أن بيع السَّلَم من المصالح الحاجيّة ، وقد سمّاه الفقهاء بيع المحاويج . فإن جاز حالًّا بطلت هذه الحكمة وارتفعت هذه المصلحة ، ولم يكن لاستثنائه من بيع ما ليس عندك فائدة . والله أعلم .

السادســة — فى شروط السَّلَم المتّفق عليها والمختلَف فيها وهى تسعة : ستة فى المُسْلَم فيه ، وثلاثة فى رأس مال السَّلَم . أمّا الستّة التى فى المُسْلَم فيه فأنْ يكون فى الذمة ، وأن يكون موصوفا ، وأن يكون مقدّرا ، وأن يكون مؤجّلا ، وأن يكون الأجل معلوما ، وأن يكون موجودا عند محلّ الأجل . وأما الثلاثة التى فى رأس مال السلم فان يكون معلوم الجنس ، مقدّرا ، نقدا . وهذه الشروط الثلاثة التى فى رأس المال متّفق عليها إلا النقد حَسْبَ ما تقدّم . قال ابن العربيّ : وأمّا الشرط الأوّل وهو أن يكون فى الذمة فلا إشكال فى أن المقصود منه كونه فى الذمة ، لأنه مداينة ، ولولا ذلك لم يشرع دينًا ولا قصد الناس إليه ربحًا ورفقا . وعلى ذلك القول اتّفق الناس . بَيْدَ أنّ مالكا قال : لا يجوز السَّلَم فى العين إلا بشرطين :

أحدهما أن يكون قرية مأمونة ، والثانى أن يشرع فى أخذه كاللبن من الشاة والرطب من النّخْلة ، ولم يقل ذلك أحد سواه . وهاتان المسألتان صحيحتان فى الدليل ؛ لأن التعيين امتنع فى السَّلَم مخافة المزابنة والغَرَر لئلا يتعذّر عند المحلّ . واذا كان الموضع مأمونا لا يتعذر وجود ما فيه فى الغالب جاز ذلك إذ لا يُتَيَقّن ضمان العواقب على القطع فى مسائل الفقه ؛ ولا بد من احتمال الغرر اليسير ، وذلك كثير فى مسائل الفروع تعدادها فى كتب المسائل . وأمّا السَّلَم فى اللبن والرطب مع الشروع فى أخذه فهى مسألة مدنيّة اجتمع عليها أهل المدينة ، وهى مبنيّة على قاعدة المصلحة ؛ لأن المرء يحتاج إلى أخذ اللبن والرطب مياومة ويشقّ أن يأخذ كل يوم ابتداء ، لأن النقد قد لا يحضره ولأن السعر قد يختلف عليه ، وصاحب النخل واللبن محتاج إلى النقد لأن الذى عنده عروض لا يتصرّف له . فلما اشتركا فى الحالة رُخّص لهما فى هذه المعاملة قياسًا على العَرَايا وغيرها من أصول الحاجات والمصالح . وأمّا الشرط الثانى وهو أن يكون موصوفا فمتّفق عليه ، وكذلك الشرط الثالث . والتقدير يكون من ثلاثة أوجه : الكيل ، والوزن ، والعدد ، وذلك ينبنى على العُرْف ؛ وهو إمّا عُرْف الناس وإمّا عُرْف الشرع . وأما الشرط الرابع وهو أن يكون مؤجّلا فاختُلف فيه ؛ فقال الشافعىّ : يجوز السَّلَم الحالّ ، ومنعه الأكثر من العلماء . قال ابن العربىّ : واضطربت المالكية فى تقدير الأجل حتى ردّوه إلى يوم ؛ حتى قال بعض علمائنا : السَّلَم الحالّ جائز . والصحيح أنه لابدّ من الأجل فيه ؛ لأن المبيع على ضربين : معجّل وهو العين ، ومؤجّل . فإن كان حالًّا ولم يكن عند المُسْلَم إليه فهو من باب بيع ما ليس عندك ، فلابدّ من الأجل حتى يخلص كل عقد على صفته وعلى شروطه ، وتتنزّل الأحكام الشرعية منازلَها . وتحديده عند علمائنا مدّة تختلف الأسواق فى مثلها . وقول الله تعالى : « إلى أجل مسمى » وقوله عليه السلام : « إلى أجل معلوم » يُغْنى عن قول كل قائل .

قلت — الذى أجازه علماؤنا من السَّلَم الحالّ ما تختلف فيه البلدان من الأسعار ، فيجوز السَّلَم فيما كان بينه وبينه يوم أو يومان أو ثلاثة . فأمّا فى البلد الواحد فلا ، لأن سعره واحد ؛

والله أعلم . وأمّا الشرط الخامس وهو أن يكون الأجل معلوما فلا خلاف فيه بين الأمة، لوصف الله تعالى ونبيّه الأجل بذلك . وانفرد مالك دون الفقهاء بالأمصار بجوازا البيع إلى الجَذَاذ والحَصَاد لأنه رآه معلوما . وقد مضى القول في هذا عند قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عن الأهِلّة » . وأمّا الشرط السادس وهو أن يكون موجودا عند المحل فلا خلاف فيه بين الأمة أيضا ؛ فإن انقطع المبيع عند محلّ الأجل بأمر من الله تعالى انفسخ العقد عند كافّة العلماء .

السابعة — ليس من شرط السَّلَم أن يكون المُسْلَم اليه مالكا للمُسْلَم فيه خلافا لبعض السلف، لما رواه البخاريّ عن محمد بن المُجَالِد قال : بعثني عبد الله بن شدّاد وأبو بُرْدَةَ الى عبد الله بن أبي أوْفى فقالا : سَلْه هل كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يُسْلفون في الحنطة؟ فقال عبد الله : كنّا نُسْلِف نَبِيط[1] أهلِ الشام في الحنْطة والشعير والزيت في كيل معلوم الى أجل معلوم . قلت : إلى من كان أصله عنده؟ قال : ما كنّا نسألهم عن ذلك . ثم بعثاني إلى عبد الرحمن بن أَبْزَى فسألته فقال : كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يُسْلِفون على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم نسألهم ألهم حَرْثٌ أم لا . وشرط أبو حنيفة وجود المُسْلَم فيه من حين العقد إلى حين الأجل ، مخافة أن يُطْلَبَ المُسْلَمُ فيه فلا يوجد فيكون ذلك غَرَرا؛ وخالفه سائر الفقهاء وقالوا : المُرَاعَى وجوده عند الأجل. وشرط الكوفيون والثوريّ أن يذكر موضع القبض فيما له حملٌ ومؤنة وقالوا : السّلَم فاسد إذا لم يذكر موضع القبض . وقال الأوزاعيّ : هو مكروه . وعندنا لو سكتوا عنه لم يفسُد العقد ويتعيّن موضع القبض ؛ وبه قال أحمد وإسحاق وطائفة من أهل الحديث ؛ لحديث ابن عبّاس فإنه ليس فيه ذكر المكان الذي يُقْبَض فيه السَّلَم، ولو كان من شروطه لبيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم كما بيّن الكيل والوزن والأجل؛ ومثله حديث ابن أبي أَوْفَى .

(١) النبيط (بفتح النون وكسر الموحدة وآخره طاء مهملة) : أهل الزراعة . وقيل : قوم ينزلون البطائح ؛ وسموا به لاهتدائهم الى استخراج المياه من الينابيع لكثرة معالجتهم الفلاحة . وقيل : نصارى الشام الذين عمروها . (عن القسطلاني) .

الثامنـــة ــ روى أبو داود عن سـعد (يعنى الطائى) عن عطية بن سـعد عن أبى سـعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "مَنْ أسلف فى شىء فلا يَصْرِفْه الى غيره" . قال أبو محمد عبد الحق بن عطيّة : هو العَوْفِىّ(١) ولا يحتج أحد بحديثه، وإن كان الجِلّة قد رَوَوْا عنه . قال مالك : الأمر عندنا فيمن أسلف فى طعام بسـعر معلوم إلى أجلٍ معلوم فحلّ الأجل فلم يجد المُبتاع عند البائع وفاءً مما ابتاعه منه فأقاله أنه لا ينبغى أن يأخذ منه إلّا وَرِقه أو ذَهَبه أو الثمن الذى دفع اليـه بعينه، وأنه لا يشترى منـه بذلك الثمن شيئا حتى يقبِضه منه ؛ وذلك أنه إذا أخذ غير الثمن الذى دفع اليـه أو صرفه فى سلعة غير الطعام الذى ابتاع منه فهو بيع الطعام قبل أن يستوفى . قال مالك : وقد نهى رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن بيع الطعام قبل أن يستوفى .

التاســعة ــ قوله تعالى . ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ يعنى الدَّيْن والأجل . ويقال : أمر بالكتابة ولكن المراد الكتابة والإشهاد لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة . ويقال : أُمِرْنا بالكتابة لكيلا ننسى . وروى أبو داود الطيالسىّ فى مُسنده عن حمّاد بن سَلَمة عن علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهْران عن ابن عبّاس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله عزّ وجلّ « اذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ » الى آخر الآية : "إنّ أوّلَ مَنْ جحد آدمُ عليه السلام إن الله أراه ذُرّيته فرأى رجلًا أزهر ساطعًا نورُه فقال يا ربّ مَنْ هذا قال هذا ابنك داود قال يا ربّ فما عمره قال ستون سـنة قال يا ربّ زد فى عمره قال لا إلا أن تزيده من عمرك قال وما عُمرى قال ألف سنة قال آدم فقد وهبتُ له أربعين سنة قال فكتب الله عليه كتابًا وأشهد عليه ملائكته فلما حضرته الوفاة جاءته الملائكة قال إنه بقى من عمرى أربعون سنة قالوا إنك قد وهبتها لابنك داود قال ما وهبت لأحد شيئا قال فأخرج الله تعالى الكتاب وشهد عليه ملائكته ــ فى رواية : وأتم لداود مائة سنة ولآدم عمره ألف سنة ." خرّجه الترمذى أيضا . وفى قوله « فٱكتبوه » إشارة ظاهرة الى أنه يكتبه بجميـع صفته المبيِّنة له

(١) العوفى : لقب عطية بن سعد .

المُعْرِبة عنه ، للاختلاف المتوّهم بين المتعاملين المعرّفة للحاكم ما يحكم به عند ارتفاعهما اليه . والله أعلم .

العاشرة — ذهب بعض الناس إلى أن كتب الديون واجب على أربابها فرض بهذه الآية بيعا كان أو قرضا ، لئلا يقع فيه نسيان أو جحود ، وهو اختيار الطبرىّ . وقال ابن جُرَيْج : مَن ادّان فليكتب ، ومن باع فليُشْهِد . وقال الشعبىّ : كانوا يرون أن قوله «فَإِنْ أَمِنَ» ناسخ لأمره بالكَتْب . وحكى نحوه ابن جُرَيج ، وقاله ابن زيد ، وروى عن أبى سعيد الخُدْرى . وذهب الربيع الى أن ذلك واجب بهذه الألفاظ ، ثم خففه الله تعالى بقوله : «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» . وقال الجمهور : الأمر بالكَتْب ندبٌ إلى حفظ الأموال و إزالة الريب . و إذا كان الغريم تَقِيًّا فما يضرّه الكتاب ، و إن كان غيرَ ذلك فالكتاب ثقاف فى دينه وحاجة صاحب الحق . قال بعضهم : إن أَشْهَدْتَ فَحَزْمٌ ، و إن ائتمنتَ ففى حِلٍّ وسعةٍ . ابن عطيّة : وهذا هو القول الصحيح . ولا يترتب نسخٌ فى هذا لأن الله تعالى ندب الى الكتاب فيما للمرء أن يهبه ويتركه بإجماع ، فندبه إنما هو على جهة الحَيْطة للناس .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ قال عطاء وغيره : واجب على الكاتب أن يكتب ؛ وقاله الشعبىّ ، وذلك إذا لم يوجد كاتب سواه فواجبٌ عليه أن يكتب . السُّدّىّ : واجبٌ مع الفراغ . وحذفت اللام من الأوّل وأُثبتت فى الثانى لأن الثانى غائبٌ والأوّل للمخاطب . وقد ثبتت فى المخاطب ؛ ومنه قوله تعالى : «فلتفرحوا» بالتاء . وتحذف فى الغائب ؛ ومنه :

محمدُ تفدِ نفسَك كلُّ نَفْسٍ * إذا ما خِفتَ مِن شىء تَبَالَا

الثانية عشرة — قوله تعالى : «بِالْعَدْلِ» أى بالحق والمعدلة ، أى لا يكتب لصاحب الحق أكثر مما قاله ولا أقلّ . و إنما قال «بَيْنَكُمْ» ولم يقل أحدكم لأنه لما كان الذى له الدَّيْن يَتَّهِم فى الكتابة الذى عليه الدَّين وكذلك بالعكس شرع الله سبحانه كاتبا غيرهما يكتب بالعدل لا يكون فى قلبه ولا قلمه مُوَادّةٌ لأحدهما على الآخر . وقيل : إن الناس لمّا كانو يتعاملون

حتى لا يشذ أحدهم عن المعاملة، وكان منهم من يكتب ومن لا يكتب، أمر الله سبحانه أن يكتب بينهم كاتب بالعدل .

الثالثة عشرة — الباء في قوله تعالى «بِالْعَدْلِ» متعلّقة بقوله : «وليكتب» وليست متعلّقة بكاتب؛ لأنه كان يلزم ألا يكتب وثيقةً إلا العدلُ في نفسه، وقد يكتبها الصبيّ والعبد والمتحوط(١) إذا أقاموا فقهها . أمّا المنتصبون(٢) لكتبها فلا يجوز للولاة أن يتركوهم إلا عدولا مرضيين . قال مالك رحمه الله تعالى : لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها عدلٌ في نفسه مأمون؛ لقوله تعالى : « وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ » .

قلت : فالباء على هذا متعلقة بكاتب، أي ليكتب بينكم كاتب عَدْلٌ؛ فبالعدل في موضع الصفة .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ ﴾ نهى الله الكاتب عن الإباء .

واختلف الناس في وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد؛ فقال الطبري والربيع : واجبٌ على الكاتب إذا أمر أن يكتب . وقال الحسن : ذلك واجب عليه في الموضع الذي لا يُقْدَر على كاتب غيره، فيضر صاحب الدّين إن امتنع؛ فان كان كذلك فهو فريضة، وإن قُدِر على كاتبٍ غيره فهو سعة إذا قام به غيره . السدّى : واجبٌ عليه في حال فراغه، وقد تقدّم . وحكى المَهْدَوِيّ عن الربيع والضحّاك أنّ قوله « وَلَا يَأْبَ » منسوخ بقوله « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » .

قلت : هذا يتمشى على قول من رأى أو ظن أنه قد كان وجب في الأوّل على كل من اختاره المتبايعان أن يكتب وكان لا يجوز له أن يمتنع حتى نسخه قوله تعالى : « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» وهذا بعيد فإنه لم يثبت وجوب ذلك على كل من أراده المتبايعان كائنًا من

(١) اضطربت الأصول في رسم هذه الكلمة؛ ففي نسخة : «والمتحوط» وفي أخرى : «والمسخوط» وفي ثالثة : «والمسحوط» . وأيضا اضطرب رسمها في تفسير ابن عطية؛ ففي النسخة التيمورية : «والمستحوط» . وفي النسخة الأزهرية : « والمسخوطة » ، ولم نوفق لوجه الصواب فيها .

(٢) وردت هذه الجملة في الأصول وتفسير ابن عطية والبحر لأبي حيان : « أما أن المنتصبين لكتبها لا يجوز... الخ » وهي بهذه الصورة غير واضحة .

كان . ولو كانت الكتابة واجبةً ما صحّ الاستئجار بها لأن الإجارة على فعل الفروض باطلة ، ولم يختلف العلماء فى جواز أخذ الأجرة على كَتْب الوثيقة . ابن العربى : والصحيح أنه أمرُ إرشادٍ فلا يكتب حتى يأخذ حقّه . وأَبَى يَأْبَى شاذّ ، ولم يجئ إلا قَلَى يَقْلَى وأبَى يأبَى وَعَسَى يَعْسَى وجَنَى الخراج يجنَى ، وقد تقدّم .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ الكاف فى «كما» متعلّقة بقوله «أن يَكْتُبَ» المعنى كَتْبًا كما علمه الله . ويحتمل أن تكون متعلقة بما فى قوله «وَلَا يَأْبَ» من المعنى ، أى كما أنعم الله عليه بعلم الكتابة فلا يأب هو ولْيُفضِلْ كما أفضل الله عليه . ويحتمل أن يكون الكلام على هذا المعنى تامًّا عند قوله « أَنْ يَكْتُبَ » ثم يكون «كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ» ابتداء كلام ، وتكون الكاف متعلقة بقوله « فَلْيَكْتُبْ » .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ وهو المديون المطلوب يُقِرّ على نفسه بلسانه ليُعلَم ما عليه . والإملاء والإملال لغتان ، أملّ وأملَى ؛ فأمَلّ لغة أهل الحجاز وبنى أسد ، وتميم تقول : أمْلَيْتُ . وجاء القرآن باللغتين ؛ قال عزّ وجل : « فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأصِيلًا » . والأصل أمْلَلْتُ ، أُبدل من اللام ياء لأنه أخفّ . فأمر الله تعالى الذى عليه الحق بالإملاء لأن الشهادة إنما تكون بسبب إقراره . وأمره تعالى بالتقوى فيما يُمِلّ ونهى عن أن يبخَس شيئا من الحق . والبخس النقص . ومن هذا المعنى قوله تعالى : « وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ » .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ﴾ قال بعض الناس : أى صغيرا . وهو خطأ فإنّ السفيه قد يكون كبيرا على ما يأتى بيانه . « أو ضعيفا » أى كبيرا لا عقل له . ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ ﴾ جعل الله الذى عليه الحق أربعة أصناف : مستقل بنفسه يُمِلّ ، وثلاثة أصناف لا يُمِلُّون وتقع نوازلهم فى كل زمن ، وكون الحق يترتّب لهم فى جهات سوى المُعاملات كالمواريث إذا قُسِمت وغير ذلك ، وهم السفيه والضعيف والذى لا يستطيع أن يُمِلّ . فالسفيهُ المُهَلْهَل الرأى فى المال الذى لا يحسن الأخذ لنفسه ولا الإعطاء

منها، مشبّه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج . والبذيء اللسانِ يسمَّى سفيها لأنه لا تكاد تتفق البذاءة إلا فى جهّال الناس وأصحاب العقول الخفيفة . والعرب تُطلق السفه على ضعف العقل تارةً وعلى ضعف البدن أُخرى ؛ قال الشاعر :

نخافُ أن تَسْفَهَ أحلامُنا * ويجهل الدهرُ مع الحالِم

وقال ذو الرُّمّة :

مَشَيْنَ كما اهتزّتْ رِماحٌ تَسَفَّهتْ * أعالِيَهَا مَرُّ الرياحِ النَّـــواسِمِ

أى استضعفها واستلانها فحركها . وقد قالوا : الضعف بضم الضاد فى البدن و بفتحها فى الرأى ، وقيل : هما لغتان . والأول أصح، لمـا روى أبو داود عن أنس بن مالك أنّ رجلا على عهد النبيّ صلى الله عليـه وسلم كان يبتاع وفى عقله ضعف فأتى أهلُه نبيَّ الله صلى الله عليه وسـلم فقالوا : يانبيّ الله ، اُحْجُرْ على فلان فإنه يبتاع وفى عقله ضعف . فدعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم فنهاه عن البيع ؛ فقال : يارسول الله، إنى لا أصبر عن البيع ساعة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ان كنتَ غير تاركِ البيع فقل هَا وهَا ولا خِلَابة"(١) . وأخرجه أبو عيسى محمد بن عيسى السلمىّ الترمذىّ من حديث أنس وقال : هو صحيح ، وقال : إنّ رجلا كان فى عقله ضعف ؛ وذكر الحديث . وذكره البخارىّ فى التاريخ وقال فيه : "اذا بايعت فقل لاخِلابةَ وأنت فى كل سِلْعة ابتعتها بالخيـار ثلاثَ ليال" . وهذا الرجل هو حِبَّان بن مُنْقِذ بن عمرو الأنصارىّ والد يحيى وواسع ابنى حِبّان ، وقيل : هو منقذ جد يحيى وواسع شيخى مالك ووالده حِبّان ، أتى عليه مائة وثلاثون سنة ، وكان شُجّ فى بعض مَغازيه مع النبيّ صلى الله عليه وسلم مأمومةً(٢) خُبِل منها عقلُه ولسانُه . وروى الدّارَقُطْنِيّ قال : كان حِبّان بن مُنْقِذ رجلا ضعيفا ضرير البصر وكان قد سُفِع(٣) فى رأسه مأمومةً ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم له الخيار فيما يشترى ثلاثة أيام ، وكان قد ثقُل لسانُه ، فقال له رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "بِـعْ وقُلْ لاخِلَابةَ" فكنت

(١) الخلابة : المخادعة . وقوله عليه السلام : "هاوها" تقدم الكلام عليه فى ص ٣٥٠ من هـذا الجزء .

(٢) شجّة آمة ومأمومة : بلغت أم الرأس . (٣) سفع فلان فلانا : لطمه وضربه .

أسمعه يقول : لاخِذابةَ لاخِذابة . أخرجه من حديث ابن عمرو . الخِلابة : الخديعة؛ ومنه قولهم : «إذا لم تَغلِبْ فاخْلُبْ»[(١)] .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء فيمن يُخْدَع في البيوع لقـلّة خبرته وضعف عقله فهل يُحْجَر عليه أو لا؛ فقال بالحجر عليه أحمد وإسحاق . وقال آخرون : لا يحجر عليه . والقولان في المذهب، والصحيح الأوّل لهذه الآية، ولقوله في الحديث: "يا نبيّ الله أحجر على فلان" . وإنما ترك الحجر عليه لقوله : «يا نبيّ الله إني لا أصبر عن البيع» . فأباح له البيع وجعله خاصًّا به؛ لأن من يُخْدَع في البيوع ينبغي أن يُحْجَر عليه لا سيما اذا كان ذلك لخَبَل عقله . ومما يدلّ على الخصوصية ما رواه محمد بن إسحاق قال : حدّثني محمد بن يحيى بن حِبّان قال : هو جدي مُنْقِذ بن عمرو وكان رجلا قـد أصابته آمّةٌ في رأسه فكسَرت لسانه ونازعته عَقْـلَه ، وكان لا يدع التِّجارة ولا يزال يُغْبَن ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم فذكر ذلك له؛ فقال : "إذا بِعْتَ فقل لا خِلَابةَ ثم أنت في كل سلعة تبتاعها بالخيار ثلاث ليال فإن رضِيت فأمسِكْ وإن سَخِطتَ فارْدُدْها على صاحبها" . وقد كان عُمِّر عمرًا طويلا، عاش ثلاثين ومائة سنة، وكان في زمن عثمان بن عفّان رضى الله عنـه حين فشا الناس وكَثُروا، يبتاع البيعَ في السوق ويرجع به الى أهـله وقد غُبِن غبنًا قبيحا، فيلومونه ويقولون لم تبتاع ؟ فيقول : أنا بالخيار، إن رضِيت أخذتُ وإن سخِطتُ رددت، قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلني بالخيار ثلاثا . فيردّ السلعةَ على صاحبها من الغد وبعد الغد؛ فيقول: والله لا أقبَلُها، قد أخذت سِلعتي وأعطيتَني دراهم؛ قال فيقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـد جعلني بالخيار ثلاثا . فكان يمرّ الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم فيقول للتاجر : ويحك ! إنه قد صدق؛ إن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قد كان جعله بالخيار ثلاثا . أخرجه الدارقطنيّ . وذكره أبو عمر في الاستيعاب وقال : ذكره البخاري في التاريخ عن عيّـاش بن الوليـد عن عبد الأعلى عن ابن إسحاق .

---

(١) في لسان العرب : «من قاله بالضم فمعناه فاخدع . ومن قال بالكسر فمعناه فانْتِشْ قليلا شيئا يسيرا بعد شيء ، كأنه أخذ من مخلب الجارحة . قال ابن الأثير : معناه اذا أعياك الأمر مغالبة فاطلبه مخادعة» .

التاسعة عشرة ـــ قوله تعالى: ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ الضعيف هو المدخول العقل الناقص الفِطْنة العاجز عن الإملاء، إمّا لِعَتَهِه أو لخرَسه أو جهله بأداء الكلام ؛ وهـذا أيضا قد يكون وليّه أبًا أو وصيًّا . الذى لا يستطيع أن يُمِلّ هو الصغير، ووليّه وصيه أو أبوه ؛ والغائبُ عن موضع الإشهاد إما لمرض أو غير ذلك من العذر . ووليّه وكيله . وأما الأخرس فيسوغ أن يكون من الضعفاء، والأولى أنه ممن لا يستطيع . فهذه أصناف تتميز، وسيأتى فى «النساء» بيانها والكلام عليها إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين ـــ قوله تعالى : ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ ذهب الطبرىّ إلى أن الضمير فى « وليّه » عائد على « الحق » وأسند فى ذلك عن الربيع وعن ابن عباس . وقيل : هو عائد على « الذى عليه الحق » وهو الصحيح . وما رُوى عن ابن عباس لا يصح . وكيف تشهد البينة على شيء وتُدخل مالًا فى ذمّة السفيه بإملاء الذى له الدين ! هذا شيء ليس فى الشريعة . إلا أن يريد قائلُه : إن الذى لا يستطيع أن يُمِلّ لمرض أو كبر سنّ لثقـل لسانه عن الإملاء أو لخرَس، وإذا كان كذلك فليس على المريض ومن ثقُل لسانه عن الإملاء لخرس ولىٌّ عند أحد من العلماء مثل ما ثبت على الصبىّ والسفيه عند من يحجر عليـه . فإذا كان كذلك فليُمِلّ صاحب الحق بالعدل ويسمع الذى عجز، فإذا كمل الإملاء أقرّ به . وهذا معنًى لم تَعْنِ الآية إليه . ولا يصح هذا إلا فيمن لا يستطيع أن يُمِلّ لمرض ومن ذكر معه .

الحادية والعشرون ـــ لما قال تعالى : ﴿ فَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ دلّ على أنه مؤتمن فيما يورده ويُصدره، فيقتضى ذلك قبول قول الراهن مع يمينه إذا اختلف هو والمرتهن فى مقدار الدَّين والرهن قائم، فيقول الراهن رهنت بخمسين والمرتهن يدّعى مائةً، فالقول قول الراهن والرهنُ قائم، وهو مذهب أكثر الفقهاء : سفيان الثورىّ والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى، واختاره ابن المنذر قال : لأن المرتهن مدّعٍ للفضل، وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "البيّنةُ على المُدّعِى واليمينُ على المدّعَى عليـه" . وقال مالك : القول قول المرتهن فيما بينه وبين قيمة الرهن ولا يصدّق على أكثر من ذلك . فكأنه يرى أنّ الرهن ويمينَه شاهد للمرتهن ؛ وقوله تعالى

«فليملل الذى عليه الحق» ردٌّ عليه . فإن الذى عليه الحق هو الراهن . وستأتى هذه المسألة . وإن قال قائل : إن الله تعالى جعل الرهن بدلًا عن الشهادة والكتاب والشهادةُ دالّة على صدق المشهود له فيما بينه وبين قيمة الرهن فاذا بلغ قيمته فلا وثيقة فى الزيادة . قيل له : الرهن لا يدلّ على أن قيمته تجب أن تكون مقدار الدَّين؛ فإنه ربما رهن الشيء بالقليل والكثير . نعم لا ينقص الرهن غالبا عن مقدار الدين، فأمّا أن يطابقه فلا . وهذا القائل يقول : يصدَّق المرتهن مع اليمين فى مقدار الدين إلى أن يساوى قيمة الرهن . وليس العرف على ذلك فربما نقص الدين عن الرهن وهو الغالب، فلا حاصل لقولهم هذا .

الثانية والعشرون — وإذا ثبت أن المراد الولىّ ففيه دليلٌ على أن إقراره جائز على يتيمه؛ لإنه إذا أملاه فقد نفذ قوله عليه فيما أملاه .

الثالثة والعشرون — وتصرُّف الصبى المحجور عليه دون إذن وليّه فاسدٌ إجماعا مفسوخ أبدًا لا يوجب حكما ولا يؤثِّر شيئا . فإن تصرّف سفيه ولا حجرَ عليه ففيه خلاف يأتى بيانه فى «النساء» إن شاء الله تعالى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ الاستشهاد طلب الشهادة . واختلف الناس هل هى فرض أو ندب، والصحيح أنه ندب على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ شَهِيدَيْنِ ﴾ رتّب الله سبحانه الشهادة بحكمته فى الحقوق المالية والبدنيّة والحدود وجعل فى كل فنٍّ شهيدين إلّا فى الزنا، على ما يأتى بيانه فى سورة «النساء» . وشهيد بناء مبالغة . وفى ذلك دلالةٌ على من قد شهد وتكرر ذلك منه، فكأنها إشارة الى العدالة . والله أعلم .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ نصٌّ فى رفض الكفّار والصبيان والنساء، وأمّا العبيد فاللفظ يتناولهم . وقال مجاهد : المراد الأحرار، واختاره القاضى أبو إسحاق وأطنب فيه . وقد اختلف العلماء فى شهادة العبيد؛ فقال شُريح وعثمان البَتِّى وأحمد وإسحاق

وأبو ثور : شهادة العبد جائزة اذا كان عدلاً ؛ وغلّبوا لفظ الآية . وقال مالك وأبو حنيفة والشافعيّ وجمهور العلماء : لا تجوز شهادة العبد ؛ وغلّبوا نقص الرّقّ، وأجازها الشعبيّ والنخعيّ في الشيء اليسير . والصحيح قول الجمهور ؛ لأن الله تعالى قال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ » وساق الخطاب إلى قوله « من رجالكم » فظاهر الخطاب يتناول الذين يتداينون والعبيد لا يملكون ذلك دون إذن السادة . فإن قالوا : إن خصوص أول الآية لا يمنع التعلق بعموم آخرها . قيل لهم : هذا يخصه قوله تعالى : « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » على ما يأتي بيانه . وقوله « من رجالكم » دليل على أن الأعمى من أهل الشهادة، لكن إذا علم يقيناً ؛ مثل ما روى عن ابن عباس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشهادة فقال : "ترى هذه الشمس فَاشْهَدْ على مثلها أو دَعْ" . وهذا يدل على اشتراط معاينة الشاهد لما يشهد به لا من يشهد بالاستدلال الذى يجوز أن يخطئ . نعم يجوز له وطء امرأته إذا عرَف صوتها، لأن الإقدام على الوطء جائز بغلبة الظن ؛ فلو زُفّت إليه امرأة وقيل هذه امرأتك وهو لا يعرفها جاز له وطؤها ، ويحل له قبول هدية جاءته بقول الرسول . ولو أخبره مخبرٌ عن زيد بإقرار أو بيع أو قذف أو غصب لَمَا جاز له إقامة الشهادة على المُخْبَر عنه ؛ لأن سبيل الشهادة اليقين، وفي غيرها يجوز استعمال غالب الظن . ولذلك قال الشافعيّ وابن أبي لَيْلَى وأبو يوسف : إذا علمه قبل العمى جازت الشهادة بعد العمى، ويكون العمى الحائل بينه وبين المشهود عليه كالغيبة والموت في المشهود عليه . فهذا مذهب هؤلاء . والذى يمنع أداء الأعمى فيما تحمّل بصيرًا لا وجهَ له ، وتصح شهادته بالنسب الذى يَثبت بالخبر المستفيض ، كما يخبر عما تواتر حكمه من الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن العلماء مَنْ قَبِلَ شهادة الأعمى فيما طريقُه الصوت، لأنه رأى الاستدلال بذلك يترقى الى حدّ اليقين، ورأى أن اشتباه الأصوات كاشتباه الصور والألوان . وهذا ضعيف يلزم منه جواز الاعتماد على الصوت للبصير .

قلت : مذهب مالك في شهادة الأعمى على الصوت جائزةٌ في الطلاق وغيره إذا عرَف الصوت . قال ابن قاسم : قلت لمالك : فالرجل يسمع جاره من وراء الحائط ولا يراه، يسمعه

يطلق امرأته فيشهد عليه وقد عَرف الصوت ؟ قال قال مالك : شهادته جائزة . وقال ذلك عليّ بن أبي طالب والقاسم بن محمد وشُرَيح الكندى والشَّعْبِيّ وعطاء بن أبي رَبَاح و يحيى بن سعيد و ربيعة و إبراهيم النَّخَعِيّ ومالك واللَّيث .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ المعنى إن لم يأت الطالب برجلين فليأت برجل وامرأتين؛ هذا قول الجمهور . «فرجل» رفع بالابتداء، « وامرأتان » عطف عليه والخبر محذوف . أي فرجل وامرأتان يقومان مقامهما . و يجوز النصب فى غير القرآن، أي فاستشهدوا رجلا وامرأتين . وحكى سيبو يه إنْ خَنْجَرًا فَخَنْجَرًا . وقال قوم : بل المعنى فإن لم يكن رجلان ، أي لم يوجدا فلا يجوز استشهاد المرأتين إلا مع عدم الرجال . قال ابن عطيّة : وهذا ضعيف، فلفظ الآية لا يعطيه، بل الظاهر منه قول الجمهور، أي إن لم يكن المُسْتَشْهَدُ رجلين، أي إن أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لِعُذْرٍ مّا فليستشهد رجلا وامرأتين . فجعل تعالى شهادة المرأتين مع الرجل جائزة مع وجود الرجلين فى هذه الآية ،ولم يذكرها فى غيرها ،فأُجيزت فى الأموال خاصة فى قول الجمهور بشرط أن يكون معهما رجل . وإنما كان ذلك فى الأموال دون غيرها لأن الأموال كثّر الله أسباب توثيقها لكثرة جهات تحصيلها وعموم البلوى بها وتكررها ؛ فجعل فيها التوثّق تارة بالكَتْبة وتارة بالإشهاد وتارة بالرهن وتارة بالضمان، وأدخل فى جميع ذلك شهادة النساء مع الرجال . ولا يتوهّم عاقل أن قوله تعالى « إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ » يشتمل على دين المهر مع البُضْع وعلى الصلح على دم العمد فإن تلك الشهادة ليست شهادة على الدَّيْن بل هى شهادة على النكاح . وأجاز العلماء شهادتهن منفردات فيما لا يطّلع عليه غيرهن للضرورة . وعلى مثل ذلك أجيزت شهادة الصبيان فى الجراح فيما بينهم للضرورة .

وقد اختلف العلماء فى شهادة الصبيان فى الجراح وهى :

الثامنة والعشرون — فأجازها مالك ما لم يختلفوا ولم يفترقوا . ولا يجوز أقل من شهادة اثنين منهم على صغير لكبير ولكبير على صغير . وممن كان يقضى بشهادة الصبيان فيما بينهم من

الجراح عبد الله بن الزُّبَير . وقال مالك : وهو الأمر عندنا المجتمَع عليه . ولم يُجز الشافعىّ وأبو حنيفة وأصحابه شهادتهم ؛ لقوله تعــالى « مِنْ رِجَالِكُمْ » وقوله « مِمَّنْ تَرْضَوْنَ » وقوله « ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » وهذه الصفات ليست فى الصبىّ .

التاسعة والعشرون — لمـا جعل الله سبحانه شهادة امرأتين بدل شهادة رجل وجب أن يكون حكمهما حكمه ؛ فكما له أن يحلف مع الشاهد عندنا ، وعند الشافعىّ كذلك ، يجب أن يحلف مع شهادة امرأتين بمطلق هذه العِوَضيّة . وخالف فى هذا أبو حنيفة وأصحابه فلم يروا اليمين مع الشاهد وقالوا : إن الله سبحانه قسم الشهــادة وعدّدها ، ولم يذكر الشاهد واليمين ، فلا يجوز القضاء به لأنه يكون قسما زائدا على ما قسمه الله ، وهــذه زيادة على النص ، وذلك نسخ . وممن قال بهذا القول الثورىّ والأوزاعىّ وعطاء والحكم بن عُيَيْنة وطائفة . قال بعضهم : الحكم باليمين مع الشاهــد منسوخ بالقرآن . وزعم عطاء أن أول من قضى به عبد الملك ابن مروان ، وقال : الحَكَم : القضاء باليمين والشاهد بِدعة ، وأول من حكم به معاوية . وهذا كله غلط وظنٌّ لا يُغنى من الحق شيئا ، وليس من نفَى وجهل كمن أثبت وعلِم ! وليس فى قول الله تعالى : « وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » الآية ، ما يرد به قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليمين مع الشاهد ، ولا أنه لا يتوصل إلى الحقوق ولا يستحق إلا بما ذكر فيها لا غير ، فان ذلك يبطُل بنكول المطلوب ويمين الطالب فان ذلك يستحق به المــال إجماعا وليس فى كتاب الله تعــالى ، وهذا قاطع فى الرّد عليهــم . قال مالك : فمن الحجة على من قال ذلك القول أن يقال له : أرأيت لو أن رجلا ادعى على رجل مالا أليس يحلف المطلوب ما ذلك الحق عليه ، فان حلف بطل ذلك الحق عنه ، وإن نكل عن اليمين حلف صاحب الحق إن حقه لحقٌّ وثبت حقه على صاحبه . فهذا مما لا اختلاف فيه عند أحد من الناس ولا ببلد من البلدان ، فبأىّ شىء أخذ هــذا وبأىّ كتاب الله وجده ؟ فمن أقر بهــذا فليُقر باليمين مع الشاهد . قال علمــاؤنا : ثم العجب مع شهرة الأحاديث وصحتهــا بدعوى من عمل بهــا حتى نقضوا حكمه واستقصروا رأيه ، مع أنه قد عمل بذلك الخلفاء الأربعة وأُبَىّ بن كعب ومعاوية وشُريح وعمر

ابن عبد العزيز — وكتب به الى عمـــاله — وإياس بن معاوية وأبو سلمـــة بن عبد الرحمن وأبو الزّناد وربيعة؛ ولذلك قال مالك : وإنه ليكفى من ذلك ما مضى من عمل السُّنّة؛ أترى هؤلاء تنقض أحكامهم ويحكم ببدعتهم ! هذا إغفال شديد، ونظر غير سديد . روى الأئمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قضى باليمين مع الشاهد. قال عمرو بن دِينار : فى الأموال خاصة؛ رواه سيف بن سليمان عن قيس بن سعد عن عمرو بن دِينار عن آبن عباس . قال أبو عمر : هـذا أصح إسـناد لهذا الحديث ، وهو حديث لا مطعن لأحد فى إسـناده ، ولا خلاف بين أهل المعرفة بالحديث فى أن رجاله ثِقات . قال يحيى القَطّان : سيف بن سليمان ثَبَتٌ ، ما رأيت أحفظ منه . وقال النَّسائىّ : هذا إسناد جيّد ، سَيْف ثقة، وقيس ثقة . وقد خرّج مسلم حديث ابن عباس هذا . قال أبو بكر البزّار : سيف بن سليمان وقيس بن سعد ثقتان ، ومَن بعـدهما يستغنى عن ذكرهما لشهرتهما فى الثّقة والعدالة . ولم يأت عن أحد من الصحابة أنه أنكر اليمين مع الشاهد بل جاء عنهم القول به ، وعليه جمهور أهل العلم بالمدينة . واختُلف فيـه عن عُرْوة بن الزّبير وابن شِهاب؛ فقال مَعْمَر : سألت الزُّهرىّ عن اليمين مع الشاهد فقال : هذا شىء أحدثه الناسُ، لا بدّ من شاهدين . وقد رُوى عنه أنه أوّل ما وَلِى القضاء حكم بشاهد ويمين؛ وبه قال مالك وأصحابه والشافعىّ وأتباعه وأحمد وإسحاق وأبو عُبَيْد وأبو ثور وداود بن علىّ وجماعة أهل الأثر، وهو الذى لا يجوز عندى خلافُه لتواتر الآثار به عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعمل أهل المدينة قرناً بعد قرن . وقال مالك : يُقْضَى باليمين مع الشاهد فى كل البـلدان ولم يحتجّ فى موطّئه لمسألة غيرها . ولم يُخْتَلَف عنـه فى القضاء باليمين مع الشاهد ولا عن أحد من أصحابه بالمدينـة ومصر وغيرهما، ولا يعرف المـالكيون فى كل بلد غير ذلك من مذهبهم إلا عندنا بالأندَلُس؛ فإن يحيى زعم أنه لم ير اللّيث يُفتى به ولا يذهب إليه . وخالف يحيى مالكا فى ذلك مع مخالفته السُّنّة والعمل بدار الهجرة . ثم اليمين مع الشاهد زيادة حُكْم على لسان رســول الله صلى الله عليه وسلم، كنَهْيه عن نكاح المرأة على عمّتها وعلى خالتها مع قول الله تعالى : «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ» . وكنهيه عن أكل لحوم الحُمُر الأهليّة

وكل ذى ناب من السباع مع قوله : «قُلْ لَا أَجِدُ» . وكالمسح على الخُفَّين، والقرآن إنما ورد بغسل الرجلين أو مسحهما؛ ومثل هذا كثير . ولو جاز أن يقال إن القرآن نسخ حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمين مع الشاهد لجاز أن يقول إن القرآن فى قوله عز وجل : «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» وفى قوله : «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ» ناسخ لنهيه عن المُزَابنة وبيع الغَرَر وبيع مالم يُخْلَق، إلى سائر مانهى عنه فى البيوع، وهذا لا يسوغ لأحد لأن السُّنّة مبيِّنة للكتاب . فإن قيل : إنما ورد من الحديث قضيّة فى عين فلا عموم . قلنا : بل ذلك عبارة عن تقعيد هذه القاعدة؛ فكأنه قال : أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم باليمين مع الشاهد . ومما يشهد لهذا التأويل ما رواه أبو داود فى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بشاهد ويمين فى الحقوق . ومن جهة القياس والنظر أنا وجدنا اليمين أقوى من المرأتين لأنهما لا مدخلَ لهما فى اللِّعان واليمين تدخل فى اللِّعان . واذا صحّت السُّنّة فالقول بها يجب ولا تحتاج السنّة إلى ما يتابعها؛ لأن من خالفها محجوج بها . وبالله التوفيق .

الموفية ثلاثين — وإذا تقرّر وثبت الحكم باليمين مع الشاهد فقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : ذلك فى الأموال وما يتعلّق بها دون حقوق الأبدان، للإجماع على ذلك من كل قائل باليمين مع الشاهد . قال : لأن حقوق الأموال أخفض من حقوق الأبدان بدليل قبول شهادة النساء فيها . وقد اختلف قول مالك فى جِراح العَمْد، هل يجب القَوَد فيها بالشاهد واليمين؛ فيه روايتان : أحداهما أنه يجب به التخيير بين القَوَد والدِّيَة . والأخرى أنه لا يجب به شىء لأنه من حقوق الأبدان . قال : وهو الصحيح . قال مالك فى الموطأ : وإنما يكون ذلك فى الأموال خاصّة؛ وقاله عمرو بن دِينار . وقال المازَرِىّ[1] : يقبل فى المال المحض من غير خلاف، ولا يقبل فى النكاح والطلاق المحضين من غير خلاف . وإن كان مضمون الشهادة

---

(١) المازرى : أبو عبد الله محمد بن على بن عمر بن محمد التيمى الفقيه المالكى ؛ توفى سنة ست وثلاثين وخمسمائة . والمازرى بفتح الميم وبعدها ألف ثم زاى مفتوحة وقد كسرت أيضا ثم راء ؛ هذه النسبة الى «مازر» وهى بليدة بجزيرة صقلية . (عن ابن خلكان) .

ما ليس بمـال ولكنه يؤدّى الى المـال كالشهادة بالوصية والنكاح بعد الموت حتى لا يُطْلَبَ من ثبوتها إلا المال إلى غير ذلك، ففى قبوله اختلاف؛ فمن راعى المال قبله كما يقبله فى المال، ومن راعى الحال لم يقبله . وقال المَهْدَوِىّ : شهادة النساء فى الحدود غير جائزة فى قول عامة الفقهاء ، وكذلك فى النكاح والطلاق فى قول أكثر العلمـاء ؛ وهو مذهب مالك والشافعىّ وغيرهما ؛ وإنمـا يشهَدْن فى الأموال . وكل ما لا يشهدن فيه فلا يشهدن على شهادة غيرهن فيه، كان معهن رجل أو لم يكن، ولا ينقلن شهادة إلا مع رجل نقلن عن رجل أو امرأة . ويقضى باثنتين منهن فى كل ما لا يحضره غيرهن كالولادة والاستهلال ونحو ذلك . هـذا كله مذهب مالك وفى بعضه اختلاف .

الحـادية والثلاثون — قوله تعـالى : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ فى موضع رفع على الصفة لرجل وامرأتين . قال ابن بكير وغيره : هـذه مخاطبة للحكام . ابن عطيّة : وهذا غير نبيل، وانمـا الخطاب لجميع الناس، لكن المتلبِّس بهذه القضية إنمـا هم الحكام، وهذا كثير فى كتاب الله يعمّ الخطاب فيما يتلبّس به البعض .

الثانيـــة والثلاثون — لمّـا قال الله تعـالى : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ دل على أن فى الشهود من لا يُرْضَى فيجىء من ذلك أن الناس ليسوا محمولين على العدالة حتى تثبت لهم، وذلك معنًى زائدٌ على الإسلام؛ وهذا قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: كل مسلم ظاهر الإسلام مع السلامة من فسق ظاهر فهو عدلٌ وإن كان مجهول الحال . وقال شُرَيح وعثمان البَتِّى وأبو ثور : هم عدول المسلمين وإن كانوا عبيدا .

قلت — فعمّمُوا الحكم؛ ويلزم منه قبول شهادة البَدَوِى على القَرَوِىّ إذا كان عدلاً مرضياً، وبه قال الشافعىّ ومن وافقه، وهو من رجالنا وأهل ديننا. وكونُه بدوياً ككونه من بلد آخر. والعمومات فى القرآن الدالّة على قبول شهادة العـدول تسوّى بين البَدَوِىّ والقَرَوِى؛ قال الله تعالى : «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ» وقال تعالى: «وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ» . فمنكم خطاب للسلمين . وهذا يقتضى قطعا أن يكون معنى العدالة زائداً على الإسلام ضرورة أن الصفة زائدة

على الموصوف، وكذلك «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ» مثله، خلاف ما قال أبو حنيفة، ثم لا يعلم كونه مرضياً حتى يُخْتَبَر حاله، فيلزمه ألّا يكتفى بظاهر الإسلام . وذهب أحمد بن حنبل ومالك فى رواية ابن وهب عنه الى ردّ شهادة البَدَوِىّ على القَرَوِىّ لحديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تجوز شهادة بَدَوِىّ على صاحب قرية". والصحيح جواز شهادته إذا كان عدلًا مرضيا، على ما يأتى بيانه فى «النساء» و «براءة» إن شاء الله تعالى . وليس فى حديث أبى هريرة فرق بين القروِىّ فى الحضر أو السفر، ومتى كان فى السفر فلا خلاف فى قبوله .

قال علماؤنا : العـدالة هى الاعتدال فى الأحوال الدِّينيـة ، وذلك يتمّ بأن يكون مجتنبا للكبائر محافظًا على مروءته وعلى ترك الصغائر، ظاهر المـروءة والأمانة غير مغفَّل . وقيـل : صفاء السريرة وٱستقامة السّيرة فى ظن المعدِّل، والمعنى متقارب .

الثالثة والثلاثون ـــ لمـا كانت الشهادة ولايةً عظيمة ومرتبةً منيفة وهى قبول قول الغير على الغير شَرَط فيها تعالى الرضا والعـدالة . فمن حكم الشاهـد أن تكون له شمائل ينفرد بهـا وفضائل يتحلّى بها حتى تكون له مزيّةٌ على غيره توجب له تلك المزيّة رتبة الاختصاص بقبول قوله ويُحْكَمُ بشغل ذمة المطلوب بشهادته . وهذا أدلّ دليل على جواز الاجتهاد والاستدلال بالأمارات والعلامات عند علمائنا على ما خفى من المعانى والأحكام . وسيأتى لهذا فى سورة «يوسف» زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وفيه ما يدلّ على تفويض الأمر الى اجتهاد الحكّام؛ فربمـا تفرّس فى الشاهد غفلةً أو رِيبةً فيردّ شهادته لذلك .

الرابعة والثلاثون ـــ قال أبو حنيفة : يكتفى بظاهر الإسلام فى الأموال دون الحدود. وهذه مناقضة تُسقط كلامه وتُفسد عليه مرامـه؛ لأننا نقول حقٌّ من الحقوق. فلا يكتفى فى الشهادة عليه بظاهر الدين كالحدود؛ قاله ابن العربىّ .

الخامسة والثلاثون ـــ وإذ قد شرط الله تعالى الرضا والعدالة فى المداينة كما بيّنّا فاشتراطُها فى النكاح أَوْلَى. خلافا لأبى حنيفـة حيث قال : إنّ النكاح ينعقـد بشهادة فاسقين. فنفى

الاحتياط المأمور به فى الأموال عن النكاح ، وهو أولى لمـا يتعلق به من الحلّ والحُرْمة والحدّ والنسب .

قلت : قول أبى حنيفة فى هـذا الباب ضعيف جدًّا لشرط الله تعـالى الرضا والعدالة ، وليس يعلم كونه مرضيا بمجرد الإسلام ، وإنما يعلم بالنظر فى أحواله حَسْبَ ما تقدم . ولا يُغْتَرّ بظاهر قوله أنا مسلم فربمـا انطوى على ما يوجب ردّ شهادته ؛ مثـل قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ » الى قوله « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ » . وقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ » الآية .

السادسة والثلاثون ـــ قوله تعالى : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ قال أبو عُبَيْد : معنى تَضِل تَنْسَى . والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء ، ويبقى المرء حَيْران بين ذلك ضالًّا . ومن نسى الشهادة جُمْلَةً فليس يقال ضَلّ فيها . وقرأ حمزة « إن » بكسر الهمزة على معنى الجزاء ، والفاء فى قوله « فَتُذَكِّرُ » جوابه ، وموضع الشرط وجوابه رفع على الصفة للرأتين والرجل ، وارتفع « تُذَكِّر » على الاستئناف ، كما ارتفع قوله « وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ » هذا قول سيبويه . ومن فتح « أَنْ » فهى مفعول له والعامل محـذوف . وانتصب « فَتُذَكِّرَ » على قراءة الجماعة عطفا على الفعل المنصوب بأن . قال النحاس : يجوز « تَضَلَّ » بفتح التاء والضاد ، ويجوز تِضَلّ بكسر التاء وفتح الضاد . فمن قال : « تَضَلّ » جاء به على لغة من قال : ضَلِلتَ تَضَلّ . وعلى هـذا تقول تِضَلّ فتكسر التـاء لتدلّ على أن المـاضى فَعِلْت . وقرأ الجَحْدَرِىّ وعيسى ابن عمران « تُضَلَّ » بضم التاء وفتح الضاد بمعنى تُنْسَى ، وهكذا حكى عنهما أبو عمرو الدانىّ . وحكى النقّاش عن الجَحْدَرِىّ ضم التاء وكسر الضاد بمعنى أن تُضِلّ الشهادة . تقول : أضللت الفرس والبعير اذا تلفا لك وذهبا فلم تجدهما .

السابعة والثلاثون ـــ قوله تعـالى : ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ خفف الذال والكاف ابن كَثير وأبو عمرو . وعليه فيكون المعنى أن تَرُدّها ذَكَرًا فى الشهادة ، لأن شهادة امرأة نصفُ شهادة ؛ فاذا شهدتا صار مجموعهما كشهادة ذَكَرٍ ؛ قاله سُفْيان بن عُيَيْنة وأبو عمرو بن العلاء . وفيه

بعدُ؛ إذ لا يحصل في مقابلة الضَّلال الذي معناه النسيان إلّا الذِّكْر؛ وهو معنى قراءة الجماعة « فتُذَكِّر » بالتشديد؛ أي تنبهها إذا غفلت ونَسِيت .

قلت : واليها ترجع قراءة أبي عمرو؛ أي إنْ تنسَ إحداهما فتُذَكِّرُها الأُخْرى ؛ يقال : تذَكَّرت الشيءَ وأذْكَرْتُه غيري وذَكَّرْتُه بمعنًى؛ قاله في الصحاح .

الثامنة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ قال الحسن : جمعت هذه الآية أمرين وهما ألا تأبى إذا دُعِيت الى تحصيل الشهادة ولا إذا دُعِيت إلى أدائها؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة والربيع وابن عباس : أي لِتَحَمُّلها وإثباتها في الكتاب . وقال مجاهد : معنى الآية إذا دُعِيت إلى اداء شهادة وقد حَصَلتْ عندك . وأسند النقّاش الى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه فسّر الآية بهذا؛ قاله مجاهد . فأما إذا دُعِيت لتشهد أوّلًا فإن شئت فاذهب وإن شئت فلا؛ وقاله أبو مِجْلَز وعطاء وإبراهيم وابن جُبَيْر والسدّي وابن زيد وغيرهم . وعليه فلا يجب على الشهود الحضور عند المتعاقدين؛ وإنما على المتداينين أن يحضرا عند الشهود؛ فاذا حضراهم وسألاهم إثبات شهادتهم في الكتاب فهذه الحالة التي يجوز أن تراد بقوله تعالى : « ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا » لإثبات الشهادة فإذا ثبتت شهادتهم ثم دُعُوا لإقامتها عند الحاكم فهذا الدعاء هو بحضورهما عند الحاكم ، على ما يأتي . وقال ابن عطيّة : والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة الندب ؛ فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم ؛ فإذا كانت الفسحة لكثرة الشهود والأمن من تعطّل الحق فالمدعوّ مندوب، وله أن يتخلّف لأدنى عذر؛ وإن تخلّف لغير عذر فلا إثم عليه ولا ثوابَ له . واذا كانت الضرورة وخِيف تعطل الحق أدنى خوف قَوِي الندب وقَرُب من الوجوب ، واذا علم أن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة فواجب عليه القيامُ بها ؛ لاسيما إن كانت محصَّلة وكان الدعاء الى أدائها ، فإن هذا الظرف آكد؛ لأنها قلادة في العنق وأمانة تقتضي الأداء .

قلت : وقد يستلوح من هذه الآية دليل على أن جائزا للإمام أن يقيم للناس شهودا ويجعل لهم من بيت المال كفايتهم ، فلا يكون لهم شغل إلا تحمُّل حقوق الناس حفظًا لها ، وان لم

يكن ذلك ضاعت الحقوق وبطلت . فيكون المعنى ولا يأب الشهداء إذا أخذوا حقوقهم أن يُجيبوا . والله أعلم . فإن قيل : هذه شهادة بالأجرة ؛ قلنا : إنمـا هى شهادة خالصة من قوم استوفوا حقوقهم من بيت المـال ؛ وذلك كأرزاق القضاة والولاة وجميـع المصالح التى تعن للسلمين وهذا من جملتها . والله أعلم . وقد قال تعالى : « والعاملين عليها » ففرض لهم .

التاسعة والثلاثون — لمـا قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ دلّ على أن الشاهد هو الذى يمشى الى الحاكم ؛ وهذا أمر بُنى عليه الشرع وعُمِل به فى كل زمان وفهمته كل أمة ؛ ومن أمثالهم : « فى بَيْته يُؤْتَى الحَكَمُ » .

الموفية أربعين — وإذا ثبت هـذا فالعبد خارج من جملة الشهداء ؛ وهو يخص عموم قوله : « مِنْ رجالكم » لأنه لا يمكنه أن يجيب ؛ ولا يصح له أن يأتى ؛ لأنه لا استقلال له بنفسه ؛ وإنمـا يتصرف بإذن غيره ؛ فانحط عن منصب الشهادة كما انحط عن منزل الولاية . نعم ! وكما انحط عن فرض الجمعة والجهاد والحج ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الحادية والأربعون — قال علماؤنا : هـذا فى حال الدعاء إلى الشهادة . فأمّا من كانت عنده شهادة لرجل لم يعلمها مستحقها الذى ينتفع بها ؛ فقال قوم : أداؤها ندب لقوله تعالى : «ولا يأب الشهـداء اذا ما دعوا» ففرض الله الأداء عند الدعاء؛ فاذا لم يُدْعَ كان ندبا لقوله عليه السلام : "خيرُ الشهـداءِ الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسْأَلها" رواه الأئمـة . والصحيح أن أداءها فرض وإن لم يُسْأَلها إذا خاف على الحق ضياعه أو فوته ؛ أو بطلاق أو عتق على من أقام على تصرفه على الاستمتاع بالزوجة واستخدام العبد إلى غير ذلك ؛ فيجب على من تحمّـل شيئا من ذلك اداء تلك الشهادة ؛ ولا يقف أداؤها على أن تسأل منه فيضيع الحق ؛ وقد قال تعالى : «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ» وقال : «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليـه وسـلم : "اُنْصُرْ أخاك ظالمـا أو مظلوما" . فقد تعيّن عليـه نصرُه بأداء الشهادة التى له عنده إحياءً لحقه الذى أماته الإنكار .

الثانيـة والأربعون — لا إشكال فى أن من وجبت عليه شهادةٌ على أحد الأوجه التى ذكرناها فلم يؤدها أنها جرحة فى الشاهد والشهادة؛ ولا فرق فى هذا بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين؛ هذا قول ابن القاسم وغيره . وذهب بعضهم إلى أن تلك الشهادة إن كانت بحق من حقوق الآدميين كان ذلك جرحةً فى تلك الشهادة نفسها خاصة فلا يصلح له أداؤها بعد ذلك . والصحيح الأول؛ لأن الذى يوجب جرحه إنما هو فسقه بامتناعه من القيام بما وجب عليه من غير عذر؛ والفسق يسلب أهليّة الشهادة مطلقا؛ وهذا واضح .

الثالثة والأربعون — لا تعارض بين قوله عليه السلام : "خيرُ الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أنْ يُسألها" و بين قوله عليه السلام فى حديث عِمران بن حُصَيْن : "إنّ خيرَكم قَرْنِى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم — ثم قال عِمران : فلا أدرى أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قرنه مرتين أو ثلاثا — ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يُؤْتَمنون ويَنْذِرون ولا يُوفون ويظهر فيهم السِّمَن" أخرجهما الصحيحان . وهذا الحديث محمول على ثلاثة أوجه؛ أحدها أن يراد به شاهد الزور؛ فإنه يشهد بما لم يستشهد؛ أى بما لم يتحمّله ولا حمله . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بباب الجابية فقال : إنّ رسول الله صلى الله علية وسلم قام فينا كمقامى فيكم ثم قال : "يأيها الناس اتّقوا الله فى أصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب وشهادات الزُّور" . الوجه الثانى أن يراد به الذى يحمله الشَّرَهُ على تنفيذ ما يشهد به ؛ فيبادر بالشهادة قبل أن يُسْألها ؛ فهذه شهادة مردودة ؛ فإن ذلك يدل على هوًى غالب على الشاهد . الثالث ما قاله إبراهيم النَّخَعِىّ راوى طرق بعض هذا الحديث : كانوا يَنْهَوْننا ونحن غلمان عن العهد والشهادات .

الرابعة والأربعون — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ تسأموا معناه تَمَلُّوا . قال الأخفش : يقال سَئِمْتُ أَسْأَم سآمةً وسَآمًا وسَأْمًا؛ كما قال الشاعر :

سَئِمْتُ تكاليف الحياة ومَن يعش * ثمانين حولا لا أبالك يسأم

«أن تكتبوه» فى موضع نصب بالفعل . «صغيرا أو كبيرا» حالان من الضمير فى «تكتبوه» وقدّم الصغير اهتماما به . وهذا النهى عن السآمة إنمـا جاء لتردّد المداينة عندهم فخيف عليهم أن يَمَلُّوا الكَتْب ، ويقول أحدهم : هذا قليـل لا احتياج الى كَتْبه ؛ فأكّد تعالى التحضيض فى القليل والكثير . قال علماؤنا : إلا ما كان من قيراط ونحوه لنزارته وعدم تشوّف النفس اليه إقرارًا وإنكارا .

الخـامسة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ معنـاه أعدل ، يعنى أن يُكْتَبَ القليل والكثير ويُشْهَدَ عليه . ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾ أى أصح وأحفظ . ﴿ وَأَدْنَىٰ ﴾ معناه أقرب . و﴿ تَرْتَابُوا ﴾ تشكّوا .

السادسة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾ دليل على أن الشاهد إذا رأى الكتاب ولم يذكر الشهادة لا يؤدّيها لمـا دخل عليه من الريبة فيها ، ولا يؤدّى إلّا ما يعلم ، لكنه يقول : هذا خطّى ولا أذكر الآن ما كتبتُ فيه . قال ابن المنذر : أكثر من يُحْفَظ عنه من أهل العلم يمنع أن يشهد الشاهد على خطه اذا لم يذكر الشهادة . واحتجّ مالك على جواز ذلك بقوله تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا » . وقال بعض العلماء : لمـّا نسب الله تعالى الكتابة إلى العدالة وسعه أن يشهد على خطه وإن لم يذكر . ذكر ابن المبارك عن مَعْمَر عن ابن طاوُس عن أبيه فى الرجل يشهد على شهادة فينساها قال : لا بأس أن يشهد إن وجد علامته فى الصَّكّ أو خطّ يده . قال ابن المبارك : استحسنتُ هذا جدًّا . وفيما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حكم فى أشياء غير واحدة بالدلائل والشواهد ، وعن الرسل من قبله ما يدلّ على صحة هذا المذهب . والله أعلم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « الأحقاف » إن شاء الله تعـالى .

السابعة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ «أن» فى موضع نصب استثناءٌ ليس من الأوّل . قال الأخفش : أى إلّا أن تقع تجارة ، فكان بمعنى وقع وحدث . وقال غيره : « تُديرونها » الخبر . وقرأ عاصم وحده « تِجَارَةً » على خبر

كان واسمها مضمر فيها . « حَاضِرَةً » نعت لتجارة ، والتقدير إلا أن تكون التجارةُ تجارةً ، أو إلا أن تكون المبايعةُ تجارةً ؛ هكذا قدّره مكّى وأبو علىّ الفارسىّ ؛ وقد تقدم نظائره والاستشهاد عليه . ولمّا علم الله تعالى مشقّة الكتاب عليهم نص على ترك ذلك ورفع الجناح فيه فى كل مبايعة بنقد ، وذلك فى الأغلب إنما هو فى قليل كالمطعوم ونحوه لا فى كثير كالأملاك ونحوها . وقال السُّدّىّ والضحّاك : هذا فيما كان يدًا بيد .

الثامنة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ يقتضى التقابض والبينونة بالمقبوض . ولمّا كانت الرِّباع والأرض وكثير من الحيوان لا يقبل البينونة ولا يغاب عليه حَسُن الكَتْبُ فيها ولحقت فى ذلك مبايعة الدَّين ؛ فكان الكتاب توثّقا لما عسى أن يطرأ من اختلاف الأحوال وتغيُّر القلوب . فأما اذا تفاصلا فى المعاملة وتقابضا وبان كل واحد منهما بما ابتاعه من صاحبه فيقل فى العادة خوف التنازع إلا بأسباب غامضة . ونبه الشرع على هذه المصالح فى حالة النسيئة والنقد وما يغاب عليه وما لا يغاب بالكتاب والشهادة والرهن . قال الشافعى : البيوع ثلاثة : بيع بكتاب وشهود ، وبيع برِهان ، وبيع بأمانة ؛ وقرأ هذه الآية . وكان ابن عمر اذا باع بنقد أشهد واذا باع بنسيئة كتب .

التاسعة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ﴾ قال الطبرىّ : معناه وأشهدوا على صغير ذلك وكبيره . واختلف الناس هل ذلك على الوجوب أو الندب ؛ فقال أبو موسى الأشعرى وابن عمر والضحاك وسعيد بن المسيِّب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علىّ وابنه أبو بكر : هو على الوجوب ؛ ومن أشدهم فى ذلك عطاء قال : أشْهد إذا بعتَ وإذا اشتريت بدرهم أو نصف درهم أو ثلث درهم أو أقلّ من ذلك ؛ فإن الله عز وجل يقول : «واشهدوا إذا تبايعتم» . وعن إبراهيم قال : أشْهدْ إذا بعتَ وإذا اشتريت ولو دَسْتَجَةَ بَقْل (١) . وممن كان يذهب الى هذا ويرجّحه الطبرىّ وقال : لا يحلّ لمسلم إذا باع وإذا اشترى إلا أن يُشْهِد ، وإلا كان مخالفا كتاب الله عزّ وجل ، وكذا إن كان الى أجل فعليه أن يكتُب ويُشْهِد

(١) الدستجة : الحزمة .

إن وجد كاتبا . وذهب الشعبي والحسن إلى أن ذلك على النـدب والإرشاد لا على الحتْم . ويُحكى أن هذا قول مالك والشافعيّ وأصحاب الرأى . وزعم ابن العربيّ أن هذا قول الكافّة، قال : وهو الصحيح . ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك . قال وقد باع النبيّ صلى الله عليه وسلم وكتب . قال : ونسخةُ كتابه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اشترى العدّاء ابن خالد بن هَوْذَة من محمد رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، اشترى منه عبدًا أو أَمَة لا داء(١) ولا غائلة ولا خِبْثة بَيْع المُسْلم للسلم . وقد باع ولم يُشْهِد ، واشترى ورهَن دِرْعه عند يهوديّ ولم يُشْهِد . ولو كان الإشهاد أمرًا واجبا لوجب مع الرهن لخوف المنازعة .

قلت : قد ذكرنا الوجوب عن غير الضحاك . وحديث العدّاء هـذا أخرجه الدارَقُطْنيّ وأبو داود . وكان إسلامه بعد الفتح وحُنَيْن، وهو القائل : قاتلْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنَيْن فلم يُظْهِرنا الله ولم ينصرنا ، ثم أسلم فحَسُن إسـلامه . ذكره أبو عمر وذكر حديثه هـذا ، وقال في آخره : « قال الأصمعيّ : سألت سـعيد بن أبي عَرُوبة عن الغائلة فقال : الإباق والسرقة والزنا ، وسألته عن الخِبْثـة فقال : بيع أهل عهـد المسلمين » . وقال الإمام أبو محمد بن عطيّة : والوجوب في ذلك قَلِق ، أمّا في الوثائق فصَعْب شاقّ ، وأما ما كثُر فربما يقصد التاجر الاستئلاف بترك الإشهاد ، وقد يكون عادة في بعض البلاد ، وقد يستحيي من العالم والرجل الكبير الموقّر فلا يُشْهِد عليـه ، فيدخل ذلك كله في الائتمـان ويبقى الأمر بالإشهاد ندبًا لمـا فيه من المصلحة في الأغلب مالم يقع عذرٌ يمنع منه كما ذكرنا . وحكى المهدويّ والنحّاس ومكيّ عن قوم أنهم قالوا « وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » منسوخ بقوله : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » . وأسنده النحاس عن أبي سعيد الخُدْريّ وأنه تلا « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » الى قوله « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ » ، قال : نسخَتْ هذه الاية ما قبلها . قال النحاس : وهذا قول الحسن والحكم وعبد الرحمن ابن زيد . قال الطبريّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن هذا حكمٌ غير الأوّل ، وإنمـا هذا حكم من

(١) الداء : ما دلس فيه من عيب يخفى أو علة باطنة لا ترى . وسيذكر المؤلف رحمه الله معنى الغائلة والخبثة .

لم يجد كاتبا قال الله عز وجل : « وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا — أى فلم يطالبه برهن — فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ » . قال : ولو جاز أن يكون هذا ناسخا للأوّل لجاز أن يكون قوله عز وجل : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » الآية ناسخا لقوله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » الآية ولجاز أن يكون قوله عز وجل : « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » ناسخا لقوله عزّ وجل : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » وقال بعض العلماء : إن قوله تعالى « فان أمن بعضكم بعضا » لم يتبين بآخر نزوله عن صدر الآية المشتملة على الأمر بالإشهاد، بل وردا معا . ولا يجوز أن يرد الناسخ والمنسوخ معا جميعا فى حالة واحدة . قال : وقد روى عن ابن عباس أنه قال لمّا قيل له : إن آية الدَّين منسوخة قال لا والله إن آية الدين مُحكَمة ليس فيها نسخ . قال : والإشهاد إنما جعل للطمأنينة، وذلك أن الله تعالى جَعل لتوثيق الدَّين طرقا منها الكتاب ومنها الرهن ومنها الإشهاد . ولا خلاف بين علماء الأمصار أن الرهن مشروع بطريق الندب لا بطريق الوجوب . فيعلم من ذلك مثله فى الإشهاد . وما زال الناس يتبايعون حضرا وسفرا وبرا وبحرا وسهلا وجبلا من غير إشهاد مع علم الناس بذلك من غير نكير ؛ ولو وجب الإشهاد ما تركوا النكير على تاركه .

قلت : هذا كله استدلال حسن، وأحسن منه ما جاء من صريح السنّة فى ترك الإشهاد، وهو ما خرّجه الدارقطنيّ عن طارق بن عبد الله المحاربيّ قال : "أقبلنا فى ركب من الرَّبَذَة وجنوب الرَّبَذَة (١) حتى نزلنا قريبًا من المدينة ومعنا ظَعِينةٌ لنا . فبينَا نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلّم فرددنا عليه، فقال : مِنْ أين القوم؟ فقلنا : من الرَّبَذَة وجنوب الرَّبَذَة . قال : ومعنا جمل أحمر؛ فقال : تبيعونى جملكم هذا ؟ فقلنا نعم . قال بكم ؟ قلنا : بكذا وكذا صاعا من تمر . قال : فما استوضَعَنا شيئا وقال : قد أخذتُه، ثم أخذ برأس الجمل حتى

(١) الربذة (بالتحريك) : من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عِرق على طريق الحجاز اذا رحلت من فَيْد تريد مكة ؛ وبهذا الموضع قبر أبى ذر الغفارى رضى الله عنه، وكان قد خرج إليها مغاضبا لعثمان بن عفان رضى الله عنه فأقام بها الى أن مات فى سنة ٣٢ هـ (عن معجم البلدان لياقوت) .

دخل المدينة فتوارى عنّا . فتلاومنا بيننا وقلنا : أعطيتم جملكم من لا تعرفونه ! فقالت الظعينة : لا تلاوموا فقد رأيت وجه رجل ما كان ليخفركم ، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه . فلمّا كان العشاء أتانا رجل فقال : السلامُ عليكم ، أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا ، وتكتالوا حتى تستوفوا . قال : فأكلنا حتى شبعنا ، واكتلنا حتى استوفينا» . وذكر الحديثَ الزُّهْرِيّ عن عمارة بن خُزَيْمة أنّ عمه حدّثه وهو من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابيّ ؛ الحديث . وفيه : فطفِق الأعرابيّ يقول : هَلُمّ شاهدًا يشهد أنّى بعتُك . قال خزيمة بن ثابت : أنا أشهد أنك بعتَه . فأقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم على خُزَيْمة فقال : "بم تشهَد"؟ فقال : بتصديقك يارسول الله . قال : فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شهادةَ خُزَيْمة بشهادة رجلين . أخرجه النَّسائى وغيره .

الموفية خمسين — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

الأوّل — لا يكتب الكاتب ما لم يُمَلّ عليه ، ولا يزيد الشاهد فى شهادته ولا ينقص منها ؛ قاله الحسن وقَتَادة وطاوُس وابن زيد وغيرهم .

ورُوِى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء أنّ المعنى لا يمتنع الكاتب أن يكتب ولا الشاهدُ أن يشهد . « وَلَا يُضَارَّ » على هذين القولين أصله يُضارِرْ بكسر الراء ثم وقع الإدغام ، وفُتِحت الراء فى الجزم لخفة الفتحة . قال النحّاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ، قال : لأن بعده «وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم » فالأولى أن تكون من شهد بغير الحق أو حرف فى الكتابة أن يقال له فاسق ، فهو أولى بهذا ممن سأل شاهدا أن يشهد وهو مشغول . وقرأ عمر بن الخطّاب وابن عبّاس وابن أبى إسحاق يُضارِرْ بكسر الراء الأولى .

وقال مجاهد والضحاك وطاوُس والسدّىّ وروى عن ابن عباس : معنى الآية ولا يُضارَر كاتب ولا شهيد بأن يُدْعَى الشاهد إلى الشهادة والكاتبُ إلى الكَتْب وهما مشغولان ، فإذا اعتذرا بعذرهما أخرجهما وآذاهما وقال : خالفتما أمر الله ، ونحو هذا من القول

فيضرّ بهما . وأصل يُضارّ على هذا يُضارَر بفتح الراء؛ وكذا قرأ ابن مسعود يضارر بفتح الراء الأولى؛ فنهى الله سبحانه عن هذا لأنه لو أطلقه لكان فيه شغل لها عن أمر دينهما ومعاشهما. ولفظ المضارّة؛ إذ هو من اثنين؛ يقتضى هذه المعانى . والكاتب والشهيد على القولين الأوّلين رفع بفعلهما؛ وفى القول الثالث رفع على المفعول الذى لم يسم فاعله .

الحادية والخمسون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَفْعَلُوا ﴾ يعنى المضارّة؛ ﴿ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ أى معصية؛ عن سفيان الثّورىّ . فالكاتب والشاهد يعصيان بالزيادة أو النقصان؛ وذلك من الكذب المؤْذى فى الأموال والأبدان؛ وفيه إبطال الحق . وكذلك أذيّتهما اذا كانا مشغولين معصية وخروج عن الصواب من حيث المخالفة لأمر الله . وقوله « بكم » تقديره فسوقٌ حالٌّ بكم .

الثانية والخمسون — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وعدٌ من الله تعالى بأن من آتقاه علّمه؛ أى يجعل فى قلبه نوراً يفهم به ما يُلْقَى إليه؛ وقد يجعل الله فى قلبه ابتداء فرقاناً أى فَيْصلا يفصل به بين الحق والباطل؛ ومنه قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً » . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

فيه خمس وعشرون مسألة(1) :

الأولى — لما ذكر الله تعالى النَّدْبَ الى الإشهاد والكَتْب لمصلحة حفظ الأموال والأبدان عقّب ذلك بذكر حال الأعذار المانعة من الكَتْب وجعل لها الرهن؛ ونصّ من

(1) يلاحظ أن المذكور أربع وعشرون مسألة كما يرى القارئ .

أحوال العذر على السفر الذى هو غالبُ الأعذار لا سيّما فى ذلك الوقت لكثرة الغزو، ويدخل فى ذلك المعنى كل عذر . فُربّ وقت يتعذّر فيه الكاتب فى الحَضَر كأوقات أشغال النـاس وبالليل ، وأيضا فالخوف على خراب ذمّة الغريم عذرٌ يوجب طلب الرهن . وقد رهن النبي صلى الله عليـه وسلم درعه عند يهودى طلب منه سلف الشـعير فقال : إنمـا يريد محمدٌ أن يذهب بمالى . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كذب إنى لأمينٌ فى الأرض أمينٌ فى السماء ولو ائتمننى لأدّيت اذهبوا اليه بدرعى" فمات ودِرْعه مرهونةٌ صلى الله عليه وسلم، على ما يأتى بيانه آنفا .

الثانيـــة ـــ قال جمهور من العلماء : الرهن فى السفر بنص التنزيل ، وفى الحضر ثابتٌ بسنّة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا صحيح . وقد بيّنا جوازه فى الحَضَر من الآية بالمعنى، إذ قـد تترتّب الأعذار فى الحضر، ولم يرو عن أحدٍ منعُه فى الحضر سـوى مجاهد والضحّاك وداود، متمسكين بالآية . ولا حجة فيها؛ لأن هذا الكلام وإن كان خرج مخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال . وليس كون الرهن فى الآية فى السفر ممـا يحظر فى غيره . وفى الصحيحين وغيرهما عن عائشة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودى طعاماً إلى أجلٍ ورهنه دِرعاً له من حديد . وأخرجه النَّسائى من حديث ابن عباس قال : توفّى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ودرعه مرهونةٌ عند يهودىٍّ بثلاثين صاعاً من شعير لأهله .

الثالثـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً ﴾ قرأ الجمهور كاتباً بمعنى رجل يكتُب . وقرأ ابن عباس وأُبَىّ ومجاهد والضحّاك وعِكْرِمة وأبو العالية «ولم تجدوا كِتَابا» . قال أبو بكر الأنبـارى : فسّره مجاهد فقال معناه فإن لم تجدوا مِدادا يعنى فى الأسفار . ورُوِى عن ابن عباس «كُتَّابا» . قال النحّاس : هذه القراءة شاذّة والعامّة على خلافها، وقلّما يخرج شىء عن قراءة العامة إلا وفيـه مطعن ؛ ونسـق الكلام على كاتب؛ قال الله عز وجل قبل هـذا : «وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» وكُتَّابٌ يقتضى جماعة . قال ابن عطيّة : كُتَّابا يحسُن من حيث لكل نازلة كاتب، فقيـل للجماعة : "ولم تجدوا كتّابا . وحكى المَهْدَوِىّ عن أبى العالية أنه قرأ

« كُتُباً » وهذا جمع كِتاب من حيث النوازل مختلفة . وأمّا قراءة أبيّ وابنِ عباس « كِتَاباً » فقال النحاس ومكّى : هو جمع كاتب كقائم وقِيَام . مكّى : المعنى وإن عُدِمت الدواةُ والقلمُ والصحيفة . ونفى وجود الكاتب يكون بعدم أى آلة آتّفق ، ونَفْى الكاتب أيضا يقتضى نفى الكِتَاب ؛ فالقراءتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير « فَرُهُنٌ » بضم الراء والهاء ، وروى عنهما تخفيف الهاء . وقال الطبرىّ : تأوّل قوم أن « رُهُنا » بضم الراء والهاء جمع رِهان ، فهو جمع جمع ، وحكاه الزّجاج عن الفَرّاء . وقال المَهْدَوِى : فرهان إبتداء والخبر محذوف ، والمعنى فرهان مقبوضة يكفى من ذلك . قال النحاس : وقرأ عاصم بن أبى النَّجُود « فرُهْن » بإسكان الهاء ، ويُروى عن أهل مكة . والباب فى هذا « رهان » ؛ كما يقال : بَغْل وبِغال ، وكَبْش وكِبَاش ؛ ورُهُن سبيله أن يكون جمعَ رِهان ؛ مثل كِتَاب وكتب . وقيل : هو جمع رَهْن ؛ مثل سَقْف وسُقُف ، وحَلْق وحُلُق ، وفَرْش وفُرُش ، ونسر ونسر[(1)] ، وشبهه . « ورهْن » بإسكان الهاء سبيله أن تكون الضمة حذفت لثقلها . وقيل : هو جمع رهن ؛ مثل سَهْمٍ حَشْرٍ أى دقيق ، وسِهَام حَشْر . والأوّل أَوْلى ؛ لأن الأوّل ليس بنعت وهذا نعت . وقال أبو على الفارسى : وتكسير « رهن » على أقل العدد لم أعلمه جاء ، فلو جاء كان قياســه أَفْعُلا ككاب وأَكْلُب ؛ وكأنهـــم استغنوا بالقليل عن الكثير ، كما استغنى ببناء الكثير عن بناء القليـــل فى قولهم : ثلاثة شُسُوع ، وقد استغنى ببنـــاء القليل عن الكثير فى رَسَن وأَرْسان ؛ فَرَهْن يجمع على بناءين وهما فُعُــل وفِعال . الأخفش : فَعْل على فُعُل قبيح وهو قليل شاذّ ، قال : وقد يكون « رُهُن » جمعا للرهان ، كأنه يجمع رَهْن على رهان ، ثم يجمع رهان على رُهُن ؛ مثل فراش وفرش .

---

(١) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة ؛ ففى بعضها : « نسر » بالنون ، وفى أخرى : « بسر » بالباء . وفى تفسير ابن عطية : « أسد » ولم نوفق لوجه الصواب فيها .

الخامســـة ـــ معنى الرّهْن احتباس العين وثيقة بالحق ليُسْتَوْفَى الحق من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم؛ هكذا حدّه العلماء، وهو فى كلام العرب بمعنى الدوام والاستمرار . وقال ابن سِيدَه : ورهنه أى أدامه؛ ومن رهن بمعنى دام قول الشاعر :

الخُبْزُ واللّحمُ لهم راهِنٌ * وقَهْوَةٌ راوُوقُها ساكِبُ

قال الجوهرى : ورهن الشيء رهنا أى أدام . وأرهنت لهم الطعام والشراب أدمتــه لهم ، وهو طعام راهن . والراهن : الثابت ، والراهن : المهزول من الإبل والناس؛ قال :

إما تَرَىْ جِسْمِيَ خَلًّا قــد رَهَنْ * هَزْلًا وما مَجْدُ الرجالِ فى السِّمَنْ

قال ابن عطية : ويقال فى معنى الرهن الذى هو الوثيقــة من الرهن : أرهنت ارهانا ؛ حكاه بعضهم . وقال أبو علىّ : أرهنت فى المعاملات ، وأما فى القرض والبيع فرهنت . وقال أبو زيد : أرهنت فى السلعة إرهانا : غاليت بها؛ وهو فى الغلاء خاصة . قال :

* عِيدِيّة أُرهِنَتْ فيها الدّنانيرُ *

يصف ناقة . والعِيــدُ بطن من مَهْرة[(1)] وإبِلُ مَهْرة موصــوفة بالنجابة . وقال الزجاج : يقال فى الرهن رهنت وأرهنت؛ وقاله ابن الأعرابى والأخفش . قال عبد الله بن هَمّام السَّلُولى :

فلما خَشِيتُ أظافِيرَهُمْ * نَجَوْتُ وأرهنُهم مالكا

قال ثعلب : الرواة كلهم على أرهنتهم ، على أنه يجوز رهنتــه وأرهنته ، إلا الأصمعى فإنه رواه وأرْهَنُهُم ، على أنه عطف بفعل مستقبل على فعل ماض ، وشبّهه بقولهم : قمتُ وأصُكّ وجهَه ، وهو مذهب حَسَن لأن الواو واو الحال؛ فجعل أصكّ حالا للفعل الأوّل على معنى قمت صاكا وجهه ، أى تركته مقيما عندهم؛ لأنه لا يقال : أرهنت الشيء ، وإنما يقال : رهنته . وتقول : رهنت لسانى بكذا ، ولا يقال فيه : أرهنت . وقال ابن السِّكّيت : أرهنت فيها بمعنى أسلفت . والمرتَهِن : الذى يأخذ الرّهن . والشيء مرهون ورهين ، والأنثى رَهينة . وراهنت فلانا على كذا مُراهنة : خاطرته . وأرهنت به ولدى إرهانا : أخطرتهم به خَطَرا . والرهينة واحدة

(1) هو مهرة بن حَيْدان أبو قبيلة وهم حىّ عظيم .

الرهائن؛ كلّه عن الجوهريّ . ابن عطيـة : ولا خلاف أنه يقال فى البيع والقرض رهنت رهنا، ثم سُمّىَ بهذا المصدر الشيء المدفوع تقول : رهنت رهنا؛ كما تقول رهنت ثوبا .

السادســـة — قال أبو علي : ولمـا كان الرهن بمعنى الثبوت والدوام فمن ثَمّ بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتهن الى الراهن بوجه من الوجوه؛ لأنه فارق ما جُعل له .

قلت — هــذا هو المعتمد عندنا فى أن الرهن متى رجع إلى الراهن باختيار المرتهن بطل الرهن؛ وقاله أبو حنيفة، غير أنه قال : إن رجع بعارية أو وديعة لم يبطل . وقال الشافعيّ : إن رجوعه إلى يد الراهن مطلقا لا يُبطل حكم القبض المتقدّم . ودليلنا «فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ»، فاذا خرج عن يد القابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغة فلا يصدق عليه حُكْمًا، وهذا واضح .

السابعـــة — إذا رهنه قولا ولم يقبضه فعــلا لم يوجب ذلك حكما؛ لقــوله «فرهان مقبوضة» . قال الشافعى : لم يجعل الله الحكم إلا برهن موصوف بالقبض، فاذا عُدمت الصفة وجب أن يُعدَم الحكم، وهــذا ظاهر جدًّا . وقالت المــالكية : يلزم الرهن بالعقد ويجبر الراهن على دفع الرهن ليحوزه المرتهن؛ لقوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » وهــذا عقد، وقوله «بالعهد» وهذا عهد . وقوله عليه السلام : "المؤمنون عند شروطهم" وهذا شرط، فالقبض عندنا شرط فى كمال فائدته . وعندهما شرط فى لزومه وصحته .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ يقتضى بينونة المرتهن بالرهن . وأجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وَكيله . واختلفوا فى قبض عدل يوضع الرهن على يده؛ فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء : قبض العــدل قَبْض . وقال ابن أبى لَيْلَى وقَتادة والحَكَم وعطاء : ليس بقبض، ولا يكون مقبوضا إلا اذا كان عند المرتهِن، ورأوا ذلك تَعَبُّدًا . وقول الجمهور أصح من جهة المعنى؛ لأنه إذا صار عند العدل صار مقبوضا لغة وحقيقة، لأن العدل نائب عن صاحب الحق وبمنزلة الوكيل؛ وهذا ظاهر .

التاســـعة — ولو وُضع الرهن على يدى عدل فضاع لم يضمن المرتهن ولا الموضوع على يده ؛ لأن المرتهن لم يكن فى يده شيء يضمنه . والموضوع على يده أمين والأمين غير ضامن .

العـــاشرة — لـــا قال تعالى : «مَقْبُوضَةٌ» قال علماؤنا : فيه ما يقتضى بظاهره ومطلقه جواز رهن المشاع . خلافا لأبي حنيفة وأصحابه لا يجوز عندهم أن يرهنه ثلث دار ولا نصفا من عبـــد ولا سيفٍ ، ثم قالوا : إذا كان لرجلين على رجل مال هما فيـــه شريكان فرهنهما بذلك أرضا فهو جائز إذا قبضاها . قال ابن المنذر : وهذا إجازة رهن المشاع لأن كل واحد منهما مرتهن نصف دار . قال ابن المنذر : رهن المشاع جائز كما يجوز بيعه .

الحادية عشرة — ورهن ما فى الذمّة جائز عند علمائنا لأنه مقبوض خلافا لمن منع ذلك ؛ ومثاله رجلان تعاملا لأحدهما على الآخر دين فرهنه دينه الذى عليه . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : وكل عَرَض جاز بيعه جاز رهنه ، ولهذه العـــلة جوّزنا رهن ما فى الذمة ، لأن بيعه جائز ولأنه مال تقع الوثيقة به فجاز أن يكون رهنا ، قياسا على سلعة موجودة . وقال من منع ذلك : لأنه لا يتحقق إقباضه والقبض شرط فى لزوم الرهن لأنه لابد أن يستوفى الحق منه عنـــد المحل ، ويكون الاستيفاء من ماليته لا من عينه ولا يتصور ذلك فى الدّين .

الثانية عشرة — روى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الظَّهْرُ يُرْكَب بنفقته إذا كان مرهونا ولبن الدَّرّ يشرب بنفقته إذا كان مرهونا وعلى الذى يَركب ويَشرب النفقة" . وأخرجه أبو داود وقال بدل يشرب فى الموضعين : يحلب . قال الخطّابىّ : هذا كلام مبهم ليس فى نفس اللفظ بيان من يركب ويحلب ، هل الراهن أو المرتهن أو العدل الموضوع على يده الرهن .

قلت : قد جاء ذلك مبيّناً مفسّرا فى حديثين وبسببهما اختلف العلماء فى ذلك ؛ فروى الدَّارَقُطْنىّ من حديث أبى هريرة ذكر النبىّ صـــلى الله عليـــه وسلم قال : "إذا كانت الدابة مرهونة فعلى المرتهن علفها ولبن الدّرّ يُشرب وعلى الذى يَشرب نفقتـــه" . أخرجه عن أحمد ابن علىّ بن العلاء حدّثنا زياد بن أيوب حدّثنا هشيم حدّثنا زكريا عن الشّعبىّ عن أبى هريرة . وهو قول أحمـــد وإسحاق أن المرتهن ينتفع من الرهن بالحلب والركوب بقدر النفقة . وقال أبو ثور : إذا كان الراهن ينفق عليه لم ينتفع به المرتهن . وإن كان الراهن لا ينفق عليه وتركه

فى يد المرتهن فأنفق عليه فله ركوبه واستخدام العبد . وقاله الأوزاعى واللّيث . الحديث الثانى خرّجه الدّارَقُطْنِىّ أيضا ، وفى إسناده فقال يأتى بيانه من حديث إسماعيل بن عياش عن ابن أبى ذئب عن الزُّهرِىّ عن المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يَغْلَق(1) الرهن لصاحبه غُنْمه وعليه غُرْمه" . وهو قول الشافعىّ والشّعبىّ وابن سيرين ، وهو قول مالك وأصحابه . قال الشافعى : منفعة الرهن للراهن ، ونفقته عليه ، والمرتهن لا ينتفع بشىء من الرهن خَلَا الإحفاظ للوثيقة . قال الخطّابى : وهو أوْلى الأقوال وأصحها ، بدليل قوله عليه السلام : "لا يَغْلَق الرهنُ من صاحبه الذى رهنه" . والعرب تضع « من » موضع اللام ، كقولهم :

* أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ *

قلت : قد جاء صريحا لصاحبه فلا حاجة للتأويل . وقال الطحاوى : كان ذلك وقت كون الرِّبَا مباحا ، ولم ينه عن قَرْض جَرَّ منفعة ، ولا عن أخذ الشىء بالشىء وإن كانا غير متساويين ثم حرّم الربا بعد ذلك . وقد أجمعت الأُمّة على أن الأَمَة المرهونة لا يجوز للراهن أن يطأها ؛ فكذلك لا يجوز له خدمتها . وقد قال الشعبىّ : لا يُنتفع من الرهن بشىء . وهذا الشعبى روى الحديث وأفتى بخلافه ، ولا يجوز عنده ذلك إلا وهو منسوخ . وقال ابن عبد البر : وقد أجمعوا أن لبن الرهن وظَهْره للراهن . ولا يخلو من أن يكون احتلاب المرتهن له بإذن الراهن أو بغير إذنه ؛ فان كان بغير إذنه ففى حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم : "لا يحتلبنّ أحد ماشية إلا بإذنه" ما يردّه ويقضى بنسخه . وإن كان بإذنه ففى الأصول المجتمَع عليها فى تحريم المجهول والغَرَر وبيع ما ليس عندك وبيع ما لم يخلق ما يردّه أيضا ؛ فإنّ ذلك كان قبل نزول تحريم الربا . والله أعلم .

وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولو شرط المرتهن الانتفاع بالرهن فلذلك حالتان : إن كان من قرض لم يجز ، وإن كان من بيع أو إجارة جاز ؛ لأنه يصير بائعا للسلعة بالثمن المذكور ومنافع

---

(1) غلق الرهن : بقى فى يد المرتهن لا يقدر راهنه على تخليصه . والمعنى أنه لا يستحقه المرتهن إذا لم يستفكه صاحبه ؛ وكان هذا من فعل الجاهلية أن الراهن اذا لم يؤد ما عليه فى الوقت المعين ملك المرتهن الرهن فأبطله الإسلام . (عن ابن الأثير) .

الرهن مدّة معلومة فكأنه بيعٌ و إجارة[1]، وأما في القرض فإنه يصير قرضا جرّ منفعة، ولأن موضوع القرض أن يكون قُرْبة، فإذا دخله نفع صار زيادة في الجنس وذلك رِبا .

الثالثة عشرة — لا يجوز غَلْق الرهن وهو أن يشترط المرتهن أنه له بحقه إن لم يأته به عند أجله . وكان هذا من فعل الجاهلية فأبطله النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : "لا يَغْلَقُ الرهن" هكذا قيّدناه برفع القاف على الخبر، أي ليس يغلق الرهن . تقول : أغلقت الباب فهو مُغْلَق . وغلق الرهن في يد مرتهنه اذا لم يفتكّ؛ قال الشاعر :

أجارتنا من يجتمع يتفرق * ومن يك رهنا للحوادث يغلق

وقال زهير :

وفارَقَتْك برَهْن لا فَكاك له * يومَ الوَداع فأمسى الرهن قد غَلَقَا

الرابعة عشرة — روى الدَّارَقُطْني من حديث سفيان بن عُيَيْنَة عن زياد بن سعد عن الزُّهري عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يَغْلَق الرهن له غُنْمه وعليه غُرْمه" . زياد بن سعد أحد الحُفّاظ الثقات، وهذا إسناد حسن . وأخرجه مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيِّب مُرْسَلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يغلق الرهن" . قال أبو عمر : وهكذا رواه كل من روى الموطأ عن مالك فيما علمت؛ إلا مَعْن بن عيسى فإنه وصله، ومَعْنٌ ثقة؛ إلا أني أخشى أن يكون الخطأ فيه من علي بن عبد الحميد الغضائري عن مجاهد بن موسى عن مَعْن بن عيسى . وزاد فيه أبو عبد الله عبدوس عن الأَبْهَرِيّ بإسناد له : "له غنمه وعليه غرمه" . وهذه اللفظة قد اختلف الرواة في رفعها؛ فرفعها ابن أبي ذِئب ومَعْمَر وغيرهما . ورواه ابن وهب وقال : قال يونس قال ابن شهاب : وكان سعيد بن المسيِّب يقول : الرهن ممن رهنه، له غنمه وعليه غرمه؛ فأخبر ابن شهاب أن هذا من قول سعيد لا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . إلا أن مَعْمرا ذكره عن ابن شهاب مرفوعا، ومَعْمر أثبت الناس في ابن شهاب . وتابعه على رفعه يحيى بن أبي أُنَيْسة

---

(١) في بعض نسخ الأصل : « ومنافع المرهون معلومة » .

ويحيى ليس بالقوىّ . وأصل هذا الحديث عند أهل العلم بالنقل مُرْسَل، وان كان قد وصل من جهات كثيرة فانهم يعللونها . وهو مع هذا حديث لا يرفعه أحد منهم وان اختلفوا فى تأويله ومعناه . ورواه الدّارَقُطْنِىّ أيضا عن إسماعيل بن عَيّاش عن ابن أبى ذِئب عن الزّهرىّ عن سعيد عن أبى هريرة مرفوعا . قال أبو عمر : لم يسمعه إسماعيل من ابن أبى ذئب وإنما سمعه من عباد بن كثير عن ابن أبى ذئب، وعباد عندهم ضعيف لا يحتج به . وإسماعيل عندهم أيضا غير مقبول الحديث إذا حدّث عن غير أهل بلده ؛ فاذا حدّث عن الشاميين فحديث مستقيم، واذا حدّث عن المدنيين وغيرهم ففى حديثه خطأ كثير واضطراب .

الخامسة عشرة — نماء الرهن داخل معه إن كان لا يتميّز كالسِّمَن أو كان نَسْلا كالولادة والنتاج ؛ وفى معناه فَسِيل النخل . وما عدا ذلك من غلة وثمرة ولبن وصوف فلا يدخل فيه إلا أن يشترطه . والفرق بينهما أن الأولاد تبع فى الزكاة للأمهات، وليس كذلك الأصواف والألبان وثمر الأشجار؛ لأنها ليست تبعا للأمهات فى الزكاة ولا هى فى صورها ولا فى معناها ولا تقوم معها ، فلها حُكم نفسها لا حُكم الأصل خلاف الولد والنِّتاج . والله أعلم بصواب ذلك .

السادسة عشرة — ورهن من أحاط الدَّين بماله جائز ما لم يُفلِس ويكون المرتهن أحق بالرهن من الغُرَماء؛ قاله مالك وجماعة الناس . ورُوِى عن مالك خلاف هذا . وقاله عبد العزيز ابن أبى سَلمة أن الغُرَماء يدخلون معه فى ذلك وليس بشىء ؛ لأن من لم يحجر عليه فتصرفاته صحيحة فى كل أحواله من بيع وشراء، والغرماء عامَلوه على أنه يبيع ويشترى ويقضى ، لم يختلف قول مالك فى هذا الباب، فكذلك الرهن . والله أعلم .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ الآية . شَرْط رُبط به وصية الذى عليه الحق بالاداء وترك المطل . يعنى إن كان الذى عليه الحق أمينا عند صاحب الحق وثِقة فلْيُؤَدّ له ما عليه ائتمن . وقوله ﴿فلْيُؤَدّ﴾ من الأداء مهموز، ويجوز تخفيف همزه فتقلب الهمزة واوا ولا تقلب ألفا ولا تجعل بَيْنَ بَيْن؛ لأن الألف لا يكون ما قبلها الا مفتوحا . وهو

أمر معناه الوجوب، بقرينة الإجماع على وجوب أداء الديون وثبوت حكم الحاكم به وجبره الغرماء عليه، وبقرينة الأحاديث الصحاح في تحريم مال الغير.

الثامنة عشرة — قوله تعالى: ﴿أَمَانَتَهُ﴾ الأمانة مصدر سُمِّيَ به الشيء الذي في الذِّمة، وأضافها إلى الذي عليه الدَّين من حيث لها إليه نسبة؛ كما قال تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ».

التاسعة عشرة — قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي في ألّا يكتم من الحق شيئا. وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ تفسير لقوله: «ولا يضارِر» بكسر العين. نهى الشاهد عن أن يضر بكتمان الشهادة، وهو نهي على الوجوب بعدة قرائن منها الوعيد. وموضع النهي هو حيث يخاف الشاهد ضياع حق. وقال ابن عباس: على الشاهد أن يشهد حيث ما استشهد، ويخبر حيث ما استخبر، قال: ولا تقل أخبر بها عند الأمير بل أخبره بها لعله يرجع ويَرْعَوِي. وقرأ أبو عبد الرحمن «ولا يكتموا» بالياء، جعله نهيا للغائب.

الموفية عشرين — إذا كان على الحق شهود تعيّن عليهم أداؤها على الكفاية، فإن أداها اثنان واجتزأ الحاكم بهما سقط الفرض عن الباقين، وإن لم يجتزأ بها تعيّن المشي إليه حتى يقع الإثبات. وهذا يعلم بدعاء صاحبها، فإذا قال له: أحي حقي بأداء ما عندك لي من الشهادة تعيّن ذلك عليه.

الحادية والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ خص القلب بالذكر إذ الكتم من أفعاله، وإذ هو المُضْغَة التي بصلاحها يصلح الجسد كلّه كما قال عليه السلام؛ فعبّر بالبعض عن الجملة، وقد تقدّم. وقال الكِيَا: لما عزم على ألا يؤدّيها وترك أداءها باللسان رجع المأثم إلى الوجهين جميعا. فقوله: «آثم قلبه» مجاز، وهو آكد من الحقيقة في الدلالة على الوعيد، وهو من بديع البيان ولطيف الإعراب عن المعاني. يقال: إثْم القلب سبب مسخه، والله تعالى إذا مسخ قلبا جعله منافقا وطبع عليه، نعوذ بالله منه. و «قلبه» رفع بآثم، و «آثم» خبر «إنّ»، وإن شئت رفعت آثما بالابتداء، و«قلبه» فاعل يسدّ مسد

الخبر والجملة خبر إن . وإن شئت رفعت آثما على أنه خبر الابتداء تنوى به التأخير . وإن شئت كان « قلبه » بدلا من « آثم » بدل البعض من الكل . وإن شئت كان بدلا من المضمر الذى فى « آثم » . وتعرضت هنا ثلاث مسائل تتمة أربع وعشرين .

الأولى — اعلم أن الذى أمر الله تعالى به من الشهادة والكتابة لمراعاة صلاح ذات البَيْن ونفى التنازع المؤدّى الى فساد ذات البين لئلا يسوّل له الشيطان جحود الحق وتجاوز ما حَدّ له الشرع ، أو ترك الاقتصار على المقدار المستحق ؛ ولأجله حرم الشرع البياعات المجهولة التى اعتيادها يؤدّى الى الاختلاف وفساد ذات البَيْن وإيقاع التضاغُن والتباين . فمن ذلك ما حرم الله من المَيْسر والقمار وشرب الخمر بقوله تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ » الآية . فمن تأدّب بأدب الله فى أوامره وزواجره حاز صلاح الدنيا والدِّين ؛ قال الله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لكان خيرا لهم » الآية .

الثانيــة — روى البخارىّ عن أبى هُرَيرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله" . وروى النَّسائىّ عن ميمونة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم أنها استدانت ، فقيل : يا أمّ المؤمنين ، تستدينين وليس عندك وَفاء؟ قالت : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من أخذ دَيْنًا وهو يريد أن يؤدّيَه أعانه الله عليه" . وروى الطحاوىّ وأبو جعفر الطبرىّ والحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تخيفوا الأنفس بعد أمنها" قالوا : يا رسول الله ، وما ذاك ؟ قال : "الدَّين" . وروى البخارىّ عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى دعاء ذكره : "اللّهمّ أنى أعوذ بك من الهَمّ والحَزَن والعَجْز والكَسَل والجُبْن والبُخْل وضَلَع الدَّين وغَلَبة الرّجال" . قال العلماء : ضَلَع الدَّين هو الذى لا يجد دائنه من حيث يؤدّيه . وهو مأخوذ من قول العرب حِمْل مُضْلِع أى ثقيل . ودابّة مُضْلِع لا تقوى على الحَمْل ؛ قاله صاحب العَيْن . وقال صلى الله عليه وسلم : "الدَّين شَيْن الدِّين" . وروى عنه أنه قال : "الدَّين هَمٌّ بالليل ومَذَلّة بالنهار" . قال

علماؤنا : وإنما كان شيناً ومذلّة لما فيه من شغل القلب والبال والهمّ اللازم في قضائه، والتذلل للغريم عند لقائه، وتحمل منّته بالتأخير الى حين أوانه . وربّما يعد من نفسه القضاء فيخلف، أو يحدث الغريم بسببه فيكذب، أو يحلف له فيحنث؛ الى غير ذلك . ولهذا كان عليه السلام يتعوّذ من المأثم والمغرَم، وهو الدَّين . فقيل له : يا رسول الله، ما أكثر ما تتعوّذ من المغرَم؟ فقال : "إن الرجل إذا غَرِم حدّث فكذب ووعد فأخلف" . وأيضا فربّما قد مات ولم يقض الدَّين فيرتهن به؛ كما قال عليه السلام : "نَسْمة المؤمن مرتهنة في قبره بدَيْنه حتى يُقضى عنه" . وكل هذه الأسباب مشائن في الدِّين تذهب جماله وتنقص كماله . والله أعلم .

الثالثــة — لمّا أمر الله تعالى بالكَتْب والإشهاد وأخذ الرّهان كان ذلك نصًّا قاطعا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها . وردًّا على الجَهَلة المتصوفة ورَعاعها الذين لا يرون ذلك، فيخرجون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم؛ ثم إذا احتاج وافتقر عياله فهو إما أن يتعرّض لِمنن الإخوان أو لصـدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظَلَمتهم، وهـذا الفعـل مذموم منْهِيّ عنـه . قال أبو الفرج الجَوْزيّ : ولست أعجب من المتزهّدين الذين فعلوا هذا مع قلة علمهم، إنمـا أتعجب من أقوام لهم عِلم وعقل كيف حثّوا على هـذا وأمروا به مع مضادته للشرع والعقل . فذكر المُحَاسِبيّ(1) في هذا كلاما كثيرا، وشيّده أبو حامد الطُّوسيّ ونصره . والحارث عندي أعذر من أبي حامد؛ لأن أبا حامد كان أفقه، غير أن دخوله في التصوّف أوجب عليه نصرة ما دخل فيـه . قال المحاسبي في كلام طويل له : ولقد بلغني أنه لمـا تُوفِّيَ عبـد الرحمن بن عَوْف قال ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم : إنما نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب : سبحان الله! وما تخافون على عبد الرحمن، كسب طَيِّباً وأنفق طيبا وترك طيبا . فبلغ ذلك أبا ذَرٍّ فخرج مُغْضَباً يريد كعبا، فمر بلَحْي(2) بعير فأخذه بيـده، ثم ٱنطلق يطلب كعبا؛ فقيل لكعب : إن أبا ذَرٍّ يطلبك . فخرج هاربا حتى

---

(1) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد الزاهد المحاسبي؛ وسمي المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه . (عن أنساب السمعاني) .

(2) اللحى : عظم الحنك وهو الذي عليه الأسنان .

دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر . فأقبل أبو ذرّ يقصّ الأثر في طلب كعب حتى انتهى الى دار عثمان ، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من أبي ذر ، فقال له أبو ذرّ : يابن اليهوديّة ، تزعم ألّا بأس بما تركه عبد الرحمن ! لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : "الأكثرون هم الأقلّون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا"(١) . قال المحاسبي : فهذا عبد الرحمن مع فضله يوقف في عَرْصة القيامة بسبب ما كسبه من حلال للتعفّف وصنائع المعروف فيمنع السعى الى الجنة مع الفقراء وصار يحبُو في آثارهم حَبْوًا ، إلى غير ذلك من كلامه . ذكره أبو حامد وشيّده وقوّاه بحديث ثعلبة ، وأنه أُعْطِيَ المال فمنع الزكاة . قال أبو حامد : فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف الى الخيرات ، إذ أقلّ ما فيه اشتغال الهمّة بإصلاحه عن ذكر الله . فينبغي للمريد أن يخرج عن ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته ، فما بقي له درهم يلتفت اليه قلبه فهو محجوب عن الله تعالى . قال الجَوْزِيّ : وهذا كله خلاف الشرع والعقل وسوء فهم المراد بالمال ، وقد شرّفه الله وعظّم قدره وأمر بحفظه ، إذ جعله قِوامًا للآدميّ الشريف فهو شريف ، فقال تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » . ونهى جلّ وعزّ أن يُسَلَّم المال إلى غير رشيد فقال : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » . ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال ، قال لسعد : "إنّك أنْ تَذَر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس" . وقال : "ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر" . وقال لعمرو بن العاص : "نِعم المال الصالح للرجل الصالح" . ودعا لأنس ، وكان في آخر دعائه : "اللّهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيه" . وقال كعب : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال : "أَمْسِك عليك بعض مالك فهو خير لك" . قال الجَوْزِيّ : هذه الأحاديث مُخْرَجة في الصحاح ، وهي

(١) أي إلا من صرف المال على الناس في وجوه البر والصدقة . قال ابن الأثير : « العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على الكلام واللسان ، فتقول : قال بيده أي أخذ ، وقال برجله أي مشى ، وقال بثوبه أي رفعه . وكل ذلك على المجاز والاتساع » .

على خلاف ما تعتقده المتصوفة من أن إكثار المـال حجاب وعقوبة، وأن حبسه ينافى التوكّل، ولا ينكر أنه يخاف من فتنته، وأن خلقا كثيرا اجتنبوه لخوف ذلك، وإن جمعـه من وجهه ليَعْزُ، وإن سـلامة القلب من الافتتان به يقلّ، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة يندُر، فلهذا خيف فتنته . فأما كسب المـال فإن من اقتصر على كسب البُلْغة من حلّها فذلك أمر لا بُدّ منه، وأما من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال نُظر فى مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصـد إعفاف نفسه وعائلته، وادّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح أثيب على قصده، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات . وقد كانت نيات خلق كثير من الصحابة فى جمع المـال سليمة لحسن مقاصدهم بجمعه، فحرصوا عليه وسألوا زيادته . ولمـا أقطع النبيّ صلى الله عليه وسلم الزُّبيرَ حُضْرَ فرسه(١) أجْرَى الفرسَ حتى قام ثم رمى سوطه، فقال : "أعطوه حيث بلغ سوطه" . وكان سـعد بن عُبَادة يقول فى دعائه : اللّهُمّ وَسّع علىّ . وقال إخوة يوسف : « وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ » . وقال شعيب لموسى : « فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ » . وإن أيّوب لمـا عُوفِىَ نثر عليه رِجْلٌ(٢) من جراد من ذهب، فأخذ يَحْثِى فى ثوبه ويستكثر منه، فقيل له : أمَا شبعت؟ فقال: يا ربّ فقير يشبع من فضلك . وهذا أمر مركوز فى الطباع . وأما كلام المُحاسِبيّ فخطأ يدل على الجهل بالعلم، وما ذكره من حديث كعب وأبى ذَرّ فمحال، من وضع الجهال وخفيت عدم صحته عنه للحوقه بالقوم . وقد روى بعض هذا وإن كان طريقه لا يثبت لأن فى مسنده ابن لهيعة وهو مطعون فيه . قال يحيى : لا يحتج بحديثه . والصحيح فى التـاريخ أن أبا ذَرّ تُوفِّىَ سـنة خمس وعشرين، وعبد الرحمن بن عوف تُوفِّى سـنة اثنتين وثلاثين، فقد عاش بعـد أبى ذَرّ سبع سنين . ثم لفظ ما ذكروه من حديثهـم يدل على أن حديثهم موضوع، ثم كيف تقول الصحابة : إنا نخاف على عبد الرحمن ! أوليس الإجماع منعقدا على إباحة المـال من حِلّه، فمـا وجه الخوف مع الإباحة، أو يأذن الشرع فى شىء ثم

(١) الحضر (بضم فسكون) والإحضار : ارتفاع الفرس فى عدوه .
(٢) الرجل (بكسر فسكون) : الطائفة من الشىء (أنثى) ؛ وخص بعضهم به القطعة العظيمة من الجراد .

يعاقب عليه؛ هذا قلة فهم وفقه . ثم أينكر أبو ذرّ على عبد الرحمن وعبد الرحمن خير من أبى ذرّ بما لا يتقارب، ثم تعلّقه بعبد الرحمن وحده دليل على أنه لم يسبر سير الصحابة؛ فإنه قد خلف طلحة ثلاثمائة بُهار فى كل بُهار ثلاثة قناطير . والبُهار الحِمْل . وكان مال الزبير خمسين ألفا ومائتى ألف . وخلّف ابن مسعود تسعين ألفا . وأكثر الصحابة كسبوا الأموال وخلفوها ولم ينكر أحد منهم على أحد . وأما قوله : « إن عبد الرحمن يَحْبُو حَبْوًا يوم القيامة » فهذا دليل على أنه ما عرف الحديث، وأعوذ بالله أن يحبو عبد الرحمن فى القيامة؛ أفترى من سبق وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ومن أهل بَدْر والشُّورَى يحبو ؟ ثم الحديث يرويه عمارة ابن زاذان، وقال البخارىّ : ربما اضطرب حديثه . قال أحمد : يروى عن أنس أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم الرازى : لا يحتجّ به . وقال الدَّارَقُطْنىّ : ضعيف . وقوله : « تَرْكُ المال الحلال أفضل من جمعه » ليس كذلك، ومتى صح القصد بجمعه أفضل بلا خلاف عند العلماء . وكان سعيد بن المسيِّب يقول : لا خير فيمن لا يطلب المال؛ يقضى به دينه ويصون عِرْضه؛ فإن مات تركه ميراثا لمن بعده . وخلف ابن المسيِّب أربعمائة دينار، وخلف سفيان الثَّورىّ مائتين، وكان يقول : المال فى هذا الزمان سلاح . وما زال السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء؛ وإنما تحاماه قوم منهم إيثارا للتشاغل بالعبادات وجمع الهمّ فقنعوا باليسير . فلو قال هذا القائل : إن التقليل منه أَوْلى قرب الأمر ولكنه زاحم به مرتبة الإثم .

قلت : ومما يدلّ على حفظ الأموال ومراعاتها إباحة القتال دونها وعليها؛ قال صلى الله عليه وسلم : "من قتل دون ماله فهو شهيد". وسيأتى بيانه فى «المائدة» ان شاء الله تعالى .

قوله تعالى : لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — اختلف الناس في قوله تعالى : « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » على أقوال خمسة :

الأول — أنها منسوخة ؛ قاله ابن عباس وابن مسعود وعائشة وأبو هُريرة والشَّعْبيّ وعطاء ومحمد بن سِيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة وجماعة من الصحابة والتابعين ، وأنه بقي هذا التكليف حَوْلًا حتى أنزل الله الفرج بقوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » . وفي صحيح مُسْلم عن ابن عباس قال : لما نزلت « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » قال : دخل قلوبَهم منها شيءٌ لم يدخل قلوبَهم من شيء ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا" قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى : «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» [قال : "قد فعلت"][1] رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا [قال : "قد فعلت"][1] وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا [قال : "قد فعلت"][1] : في رواية فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى؛ فأنزل الله تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » وسيأتي .

الثاني — قال ابن عباس وعِكْرمة والشَّعْبيّ ومجاهد : إنها مُحْكَمة مخصوصة ، وهي في معنى الشهادة التي نُهي عن كتمها ، ثم أعلمَ في هذه الآية أن الكاتم لها المُخْفِي ما في نفسه محاسَب .

الثـالث — أن الآية فيما يطرأ على النفوس من الشك واليقين ؛ وقاله مجاهد أيضا .

الرابـــع — أنها مُحْكَمة عامة غير منسوخة ، والله محاسِب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم وأضمروه ونَوَوْه وأرادُوه ؛ فيغفر للؤمنين و يأخذ به أهل الكفر والنفاق ؛ ذكره الطبريّ عن قوم ، وأدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا . روى عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : لم تُنْسخ ، ولكن إذا جمع الله الخلائق يقول : "إني أخبركم

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

بما أكننتم فى أنفسكم" فأما المؤمنون فيخبرهم ثم يغفر لهم، وأما أهل الشك والرّيب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب؛ فذلك قوله : «يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» وهو قوله عز وجل : «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ» من الشك والنفاق . وقال الضحاك : يعلمه الله يوم القيامة بما كان يسرّه ليعلم أنه لم يخف عليه . وفى الخبر : "إن الله تعالى يقول يوم القيامة هذا يومٌ تُبْلَى فيه السرائر وتخرج الضمائر وأن كُتَّابى لم يكتبوا عليك الا ما ظهر من أعمالكم وأنا المطلع على ما لم يطلعوا عليه ولم يُخبروه ولا كتبوه فأنا أخبركم بذلك وأحاسبكم عليه فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء" فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين . وهذا أصح ما فى الباب، يدل عليه حديث النَّجْوَى على ما يأتى بيانه فى «الأنفال» . فقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "إن الله تجاوز لأمّتى عما حدّثت به أنفسها مالم يتكلّموا أو يعملوا به". فإنا نقول: ذلك محمول على أحكام الدنيا؛ مثل الطلاق والعتاق والبيع التى لا يلزمه حكمها مالم يتكلم به ؛ والذى ذُكر فى الآية فيما يؤاخذ العبد به بينه و بين الله تعالى فى الآخرة . وقال الحسن : الآية مُحْكَمَة ليست بمنسوخة . قال الطبرىّ : وقال آخرون نحو هـذا المعنى الذى ذُكر عن ابن عباس؛ إلا أنهم قالوا : إن العذاب الذى يكون جزاء لمـا خطر فى النفوس وصحبه الفكر إنما هو بمصائب الدنيا وآلامها وسائر مكارهها . ثم اسند عن عائشة نحو هـذا المعنى ؛ وهو القول الخامس . ورجّح الطبرىّ أن الآية مُحْكَمَة غير منسوخة . قال ابن عطية : وهذا هو الصواب، وذلك أن قوله تعـالى : «وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِـكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ» معناه ممـا هو فى وسعكم وتحت كسبكم، وذلك استصحاب المعتقد والفكر؛ فلما كان اللفظ ممـا يمكن أن تدخل فيه الخواطر أشـفق الصحابة والنبيّ صلى الله عليه وسلم، فبيّن الله لهم ما أراد بالآية الأخرى، وخصّصها ونصّ على حكمه أنه لا يكلّف نفسا إلا وُسْعها، والخواطر ليست هى ولا دفعها فى الوسع، بل هو أمر غالب وليست مما تكتسب؛ فكان فى هذا البيان فرجهم وكشف كُرَبهم، وباقى الاية مُحْكَمَة لا نسخ فيها . ومما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر والأخبار لا يدخلهـا النسخ ؛ فإن ذهب ذاهب الى تقـدير النسخ فإنما يترتّب له فى الحكم الذى لحق الصحابة حين فزعوا من الآية، وذلك أن قـول النبيّ صلى الله

عليه وسلم لهم : "قولوا سمعنا وأطعنا" يجيء منه الأمر بأن يثبتوا على هذا و يلتزموه و ينتظروا لطف الله فى الغفران . فإذا قُرّر هذا الحكم فصحيح وقوع النسخ فيه، وتشبه الآية حينئذ قوله تعـالى : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ » فهذا لفظه الخبر ولكن معناه التزموا هذا واثبتوا عليه واصبروا بحسبه، ثم نسخ بعد ذلك . وأجمع الناس فيما علمت على أن هـذه الآية فى الجهاد منسـوخة بصبر المـائة للمـائتين . قال ابن عطيّة : وهـذه الآية التى فى « البقرة » أشبه شيء بها . وقيل : فى الكلام إضمار وتقييد، تقديره يحاسبكم به الله إن شاء، وعلى هـذا فلا نسخ . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيـل فى الآية وأشـبه بالظاهر قول ابن عباس إنها عامة ، ثم أدخل حديث ابن عمر فى النَّجْوَى ، أخرجه البخاريّ ومسلم وغيرهما ، واللفظ لمسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يُدْنَى المؤمن [يوم القيامة](١) من ربّه جلّ وعزّ حتى يضَعَ عليه كَنَفَه فيُقرّرُه بذنو به فيقول هل تعرف فيقول [أىْ](١) ربِّ أعرف قال فإنى قـد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم فيُعْطَى صحيفـة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهـم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله" . وقد قيل : إنهـا نزلت فى الذين يتولون الكافرين من المؤمنين ، أى وإن تعلنـوا ما فى أنفسكم أيها المؤمنون من ولاية الكفار أو تسروها يحاسبكم به الله؛ قاله الواقديّ ومُقاتل . واستدلوا بقوله تعالى فى (آل عمران) « قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ـــ من ولاية الكفار ـــ يَعْلَمْـه اللَّهُ » يدل عليـه ما قبله من قوله : « لَا يَتَّخِـذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِيـــنَ » .

قلت : وهذا فيه بُعْدٌ، لأن سياق الآية لا يقتضيه ، و إنمـا ذلك بيّن فى « آل عمران » والله أعلم . وقد قال سفيان بن عُيَينة : بلغنى أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يأتون قومهم بهذه الآية « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » .

قوله تعالى : ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى « فيغفر و يعـذب » بالجزم عطف على الجـواب ، وقرأ ابن عامر وعاصم بالرفع

فيهما على القطع، أى فهو يغفر ويعذب . ورُوى عن ابن عباس والأعرج وأبى العالية وعاصم الجَحْدرى بالنصب فيهما على إضمار «أنْ» . وحقيقتـه أنه عطف على المعنى؛ كما فى قوله تعالى : «فيضاعفه له» وقد تقدم . والعطف على اللفظ أجود للمشاكلة؛ كما قال الشاعر :

ومتى ما يَعِ منـك كلامًا * يتكلَّمْ فيُجِبْك بعقـل

قال النحاس : ورُوى عن طلحة بن مُصَرِّف «يحاسبكم به الله يغفر» بغير فاء على البدل . ابن عطية : وبها قرأ الجُعْفِىّ وخلّاد، ورُوى أنها كذلك فى مصحف ابن مسعود . قال ابن جِنِّى : هى على البدل من «يحاسبكم» وهى تفسير المحاسبة؛ وهذا كقول الشاعر :

رُوَيْدًا بَنِى شيبانَ بعضَ وعيدِكم * تُلاقُوا غدًا خيـلى على سَفَوانِ

تُلاقُوا جِيادًا لا تَحِيد عن الوَغَى * اذا ما غَدَتْ فى المأزِق المُتَدانِى

فهذا على البدل . وكرر الشاعر الفعل لأن الفائدة فيما يليه من القول . قال النحاس : وأجود من الجزم لو كان بلا فاء الرفعُ، يكون فى موضع الحال؛ كما قال الشاعر :

متى تأْتِه تَعْشُو إلى ضـوء ناره * تجـد خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

قوله تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ﴾ سبب نزولها الآية التي قبلها وهي « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » فإنه لما أنزل هذا على النبيّ صلى الله عليه وسلم اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الرُّكَب فقالوا : أي رسولَ الله، كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غُفْرانك ربَّنا وإليك المصير" فقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما اقترأها القوم وذلّت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » . فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » قال "نعم" « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » قال "نعم" « رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » قال "نعم" « وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » قال "نعم" . أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

قال علماؤنا : قوله في الرواية الأولى "قد فعلت" وهنا قال "نعم" دليل على نقل الحديث بالمعنى، وقد تقدّم . ولما تقرر الأمر على أن قالوا سمعنا وأطعنا مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، ورفع المشقّة في أمر الخواطر عنهم؛ وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع الى الله تعالى؛ كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمّهم وتحميلهم المشقات من الذّلّة والمَسْكَنة والانجلاء إذ قالوا : سمعنا وعصينا ؛ وهذه ثمرة العصيان والتمرّد على الله تعالى، أعاذنا الله من نِقَمه بمنه وكَرَمه . وفي الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قيل له : إن بيت ثابت بن قيس بن شَمّاس

يَزْهَر كل ليلة بمصابيح . قال : "فلعلّه يقرأ سورة البقرة" فسئل ثابت قال : قرأت من سورة البقرة « آمن الرسول » نزلت حين شقّ على أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ماتوعّدهم الله تعـالى به من محاسبتهم على ما أخفته نفوسهم ، فشكوا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "فلعلكم تقـولون سمعنا وعصينا كما قالت بنـو اسرائيل" قالوا بل سمعنا وأطعنا ؛ فأنزل الله تعالى ثناء عليهم « آمن الرسول بِمَـا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » فقال صلى الله عليه وسلم : "وحقّ لهم أن يؤمنوا" .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ آمَنَ ﴾ أى صدّق، وقد تقدّم. والذى أنزل هو القرآن . وقرأ ابن مسعود « وآمن المؤمنون كل آمن بالله » على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن «آمنوا» على المعنى . وقرأ نافع وابن كَثير وعاصم فى رواية أبى بكر وابن عامر « وكتبه » على الجمع . وقرءوا فى « التحريم » كتابه ، على التوحيـد . وقرأ أبو عمرو هنا وفى « التحريم » وكتبه ، على الجمع . وقرأ حمزة والكِسائىّ وكتابه، على التوحيد فيهما . فمن جمع أراد جمع كتاب، ومن أفرد أراد المصدر الذى يجمع كل مكتوب كان نزوله من عند الله . ويجوز فى قراءة من وحّد أن يراد به الجمع ، يكون الكتاب اسمـا للجنس فتستوى القراءتان ؛ قال الله تعالى : « فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ » . قرأت الجماعة « ورسُله » بضم السين، وكذلك « رُسُلنا ورسلكم ورسلك » ؛ إلا أبا عمرو فروى عنه تخفيف « رسْلنا ورسْلكم » ، ورُوى عنه فى « رسلك » التثقيل والتخفيف . قال أبو علىّ : من قرأ « رُسُـلك » بالتثقيل فذلك أصل الكلمة ، ومن خفّف فكما يخفّف فى الآحاد؛ مثـل عُنْق وطُنْب . واذا خفّف فى الآحاد فذلك أَحْرى فى الجميع الذى هو أثقـل ؛ وقال معناه مكّىّ . وقرأ جمهـور الناس «لا نفرق» بالنون، والمعنى يقولون لا نفرق ، فحذف القول ، وحذف القول كثير ؛ قال الله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . أى يقولون سلام عليكم . وقال : « وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلًا » أى يقولون ربّنـا ، وما كان مثله . وقرأ سـعيد بن جُبير ويحيى بن يَعْمر وأبو زُرعة بن عمـرو بن جرير

ويعقوب « لا يفرق » بالياء، وهذا على لفظ كل . قال هارون : وهي في حَرْف ابن مسعود « لا يفرقون » . وقال « بين أحد » على الإفراد ولم يقـل آحاد؛ لأن الأحد يتناول الواحد والجميع ؛ كما قال تعـالى : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » فحاجزين صفة لأحد ؛ لأن معناه الجمـع . وقال صلى الله عليه وسـلم : "ما أحلّت الغنائم لأحد سـود الرءوس غيركم" وقال رُؤْبة :

إذا أمور النـاس دِينت دينكا * لا يرهبون أحدا من دونكا

ومعنى هـذه الآية : أن المؤمنين ليسوا كاليهـود والنصارى في أنهـم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فيه حذف، أي سمعنا سماع قابلين . وقيل سمع بمعنى قبِل؛ كما يقال : سمع الله لمن حمده، فلا يكون فيه حذف . وعلى الجملة فهذا القول يقتضي المـدح لقائله . والطاعة قبول الأمر . وقوله « غُفْرانك » مصدر كالكُفْران والخُسْران ، والعامل فيه فعل مقدَّر ، تقديره : اغفر غفرانك؛ قاله الزجاج . غيره : نطلب أو أسأل غفرانك . ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ إقرار بالبعث والوقوف بين يدي الله تعالى . ورُوي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا نزلت عليه هذه الآية قال له جبريل : إن الله قد أحلّ الثناء عليك وعلى أمتك فسل تُعْطَه " فسأل إلى آخر السورة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ التكليف هو الأمر بمـا يشق عليه . وتكلّفت الأمر تجشّمته؛ حكاه الجوهري . والوسع : الطاقة والجِدَة . وهذا خَبرٌ جزْمٌ . نصّ الله تعالى على أنه لم يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب والجوارح إلا وهي في وسع المكلف وفي مقتضى إدراكه وبنيته؛ وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأوّلهم أمر الخواطر . وفي معنى هذه الآية ما حكاه أبو هريرة رضي الله عنه قال : ما وَدِدْتُ أن أحدا ولدتني أمّه إلا جعفر بن أبي طالب ، فإني تبعته يوما وأنا جائع فلما بلغ

منزله لم يجـد فيه سوى نِحْى سمن قد بقى فيه أثارة فشـقّه بين أيدينا ، بجعلنا نلعق ما فيه من السمن والرُّب(١) وهو يقول :

ما كلف الله نفسا فـوق طاقتها * ولا تجـود يدٌ إلا بمـا تَجِـدُ

الخامســة — اختلف الناس فى جواز تكليف ما لا يطاق فى الأحكام التى هى فى الدنيا ، بعـد اتفاقهم على أنه ليس واقعا فى الشرع ، وأن هذه الآية آذنت بعدمه ؛ قال أبو الحسن الأشعرىّ وجماعة من المتكلمين : تكليف مالا يطاق جائز عقلا ، ولا يخرم ذلك شـيئا من عقائد الشرع ، ويكون ذلك أمارة على تعذيب المكلّف وقطعاً به ، وينظر الى هـذا تكاليف المصور أن يعقد شعيرة . واختلف القائلون بجوازه هل وقع فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أم لا ؛ فقالت فرقة : وقع فى نازلة أبى لهب ، لأنه كلفه بالإيمـان بجملة الشريعة ، ومن جملتها أنه لا يؤمن لأنه حكم عليه بتَبّ اليدين وصَلْى النار ، وذلك مُؤْذن بأنه لا يؤمن ؛ فقد كلّفه بأن يؤمن بأنه لا يؤمن . وقالت فرقة : لم يقـع قَطُّ . وقد حكى الإجماع على ذلك . وقوله تعالى : « سَيَصْلَى نارًا » معناه إن وَافى ؛ حكاه ابن عطية . و « يُكَلِّفُ » يتعدى إلى مفعولين أحدهمـا ؛ محذوف تقديره عبادة أو شيئا . فالله سبحانه بلطفه وإنعامه علينا وإن كان قد كلفنا بمـا يشق ويثقل كثبوت الواحد للعشرة وهجـرة الإنسان وخروجه من وطنه ومفارقة أهـله ووطنه وعادته لكنه لم يكلفنا بالمشقات المثقلة ولا بالأمور المؤلمة ؛ كما كلف مَن قبلنا بقتل أنفسهم وقَرْض موضع البـول من ثيابهم وجلودهم ، بل سهل ورفق ووضـع عنا الإصْر والأغلال التى وضعها على من كان قبلنا . فلله الحمد والمِنّة ، والفضل والنّعمة .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ يريد من الحسنات والسيئات ؛ قاله السُّدّى . وجماعة المفسرين لا خلاف بينهم فى ذلك ؛ قاله ٱبن عطية . وهو مثـل قوله : «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا» . والخـواطر ونحوها ليست من كسب الإنسان . وجاءت العبارة فى الحسنات بـ«لَهَا» من حيث هى مما

(١) الرب (بالضم) : ما يطبخ من التمر .

يفرح المرء بكسبه ويسر المرء بها فتضاف إلى ملكه . وجاءت في السيئات بـ«عليها» من حيث هى أثقال وأوزار ومتحمّلات صعبة؛ وهذا كما تقول: لى مال وعلى دين . وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسنا لنمط الكلام؛ كما قال : «فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا» . قال ابن عطية : ويظهر لى فى هذا أن الحسنات هى مما تكتسب دون تكلّف ، إذ كاسبها على جادة أمر الله تعالى ورسم شرعه . والسيئات تكتسب ببناء المبالغة ، اذ كاسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ويتخطّاه اليها ؛ فيحسن فى الآية مجىء التصريفين إحرازا لهذا المعنى .

السابعـــة — فى هذه الآية دليل على صحة إطلاق أئمتنا على أفعال العباد كسبا واكتسابا ، ولذلك لم يطلقوا على ذلك لا خلق ولا خالق؛ خلافا لمن أطلق ذلك من مجـترئة المبتدعة . ومن أطلق من أئمتنا ذلك على العبد وأنه فاعل فبالمجاز المحض . وقال المَهْدَوىّ وغيره : وقيل معنى الآية لا يؤاخذ أحد بذنب أحد . قال ابن عطيّة : وهذا صحيح فى نفسه ولكن من غير هذه الآية .

الثامنـــة — قال الكِيَا الطـبرىّ : قوله تعالى : «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» يُستدلّ به على أن من قتـل غيره بمثقّل أو بخنق أو تغريق فعليه ضمانه قصاصا أو ديةً؛ خلافا لمن جعل ديتـه على العاقلة . وذلك يخالف الظاهر ، ويدل على أن سـقوط القصاص عن الأب لا يقتضى سقوطه عن شريكه . ويدل على وجوب الحدّ على العاقلة إذا مكّنت مجنونا من نفسها . وقال القاضى أبو بكر بن العربىّ : « ذكر علماؤنا هذه الآية فى أن القَوَد واجب على شريك الأب خلافا لأبى حنيفة ، وعلى شريك الخاطىء خلافا للشافعى وأبى حنيفـة ؛ لأن كل واحد منهما قد اكتسب القتل . وقالوا : إن اشتراك من لا يجب عليـه القصاص مع من يجب عليه القصاص لا يكون شبهة فى درء ما يدرأ بالشبهة» .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ المعنى: أعف عن إثم ما يقع منا على هذين الوجهين أو أحدهما؛ كقوله عليه السلام : "رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان

وما اسْتُكْرِهوا عليه" أى إثم ذلك . وهـذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع ، وإنمـا اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام ، هل ذلك مرفوع لا يلزم منه شيء أو يلزم أحكام ذلك كله ، اختلف فيه . والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع ، فقسم لا يسقط باتّفاق كالغرامات والديات والصلوات المفروضات . وقسم يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر . وقسم ثالث يختلف فيـه كمن أكل ناسيا فى رمضان أو حَنِث ساهيا ، وما كان مثله ممـا يقع خطأ ونسيانا ، ويعرف ذلك فى الفروع .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا ﴾ أى ثِقْلا . قال مالك والربيع : الإصرُ الأمرُ الغليظ الصعب . وقال سعيـد بن جُبير : الإصر شـدة العمل ، وما غلظ على بنى إسرائيل من البول ونحوه . قال الضحاك : كانوا يحملون أمورا شدادا ، وهذا نحو قول مالك والربيع ، ومنه قول النابغة :

يا مانِـعَ الضيم أن يَغشى سراتهم * والحامل الإصْر عنهم بعدما عرفُوا

عطاء : الإصر المسخ قِـرَدة وخنازير ، وقاله ابن زيد أيضا . وعنـه أيضا أنه الذنب الذى ليس فيه توبة ولا كفارة . والإِصْر فى اللغة العهـد ، ومنه قوله تعالى : «وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِى» . والإصر : الضيق والذنب والثّقل . والإصار : الحبل الذى تربط به الأحمال ونحوها ، يقال : أَصَر يأصِر أَصْرا حبسـه . والإصر (بكسر الهمزة) مـن ذلك . قال الجوهرىّ : والموضع مأصِر ومأْصَر والجمع مآصِر ، والعامة تقول معاصر . قال ابن خُوَيْزِمَنْـدَاد : ويمكن أن يستدل بهذا الظاهر فى كل عبادة آدعى الخصم تثقيلها ، فهو نحو قوله تعالى : «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» ، وكقول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "الدِّين يُسْرٌ فيَسِّروا ولا تُعسِّروا" . اللّهمّ شُقّ على من شَقّ على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ونحوه قال الكِيَا الطبرىّ قال : يحتـج به فى نفى الحرج والضيق المنافى ظاهره للحنيفيّة السّمْحة ، وهذا بيّن .

الحادية عشرة — قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال قَتَادة : معناه لا تشدّد علينا كما شدّدت على مَن كان قبلنا . الضحاك : لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق ؛ وقال نحوه ابن زيد . ابنُ جريج : لا تمسخنا قِردة ولا خنازير . وقال ســلّام بن سابور : الذى لا طاقة لنا به : الغُلْمة(١)؛ وحكاه النقاش عن مجاهد وعطاء . وروى أن أبا الدَّرْدَاء كان يقول فى دعائه : وأعوذ بك من غُلْمة ليس لها عُدّة . وقال السُّــدِّى : هو التغليظ والأغلال التى كانت على بنى إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا ﴾ أى عن ذنوبنا . عفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه . ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ أى استر على ذنوبنا . والغفر : الستر . ﴿ وَٱرْحَمْنَا ﴾ أى تفضّل برحمة مبتــدئا منك علينا . ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أى وليّنا وناصرنا . وخرج هذا مخرج التعليم للخلق كيف يدعون. رُوى عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال آمين . قال ابن عطية : هــذا يظن به أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإن كان ذلك فكمال، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هنالك دعاء وهنا دعاء فَحَسَن . وقال على بن أبى طالب : ما أظن أن أحدا عقل وأدرك الإسلام ينام حتى يقرأهمــا .

قلت : قد روى مسلم فى هذا المعنى عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة « البقرة » فى ليــلة كَفَتَاه" . قيــل من قيام الليــل ؛ كما روى عن ابــن عمر قال : سمعت النبيّ صلى الله عليــه وسلم يقول : " أنزل الله علىّ آيتين من كنوز الجنة ختم بهما سورة البقرة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألف عام من قرأهما بعد العشاء مرتين أجزأتاه من قيام الليل «آمن الرسول» الى آخر البقرة " . وقيــل : كفتاه من شر الشيطان فلا يكون له عليه سلطان . وأســند أبو عمرو الدّانىّ عن حذيفة بن اليَمَــان قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " إنّ الله جل وعز كتَب كتابا قبــل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام فأنزل منه هــذه الثلاث آيات

(١) الغلمة : (بضم الغين المعجمة) : هيجان شهوة النكاح من المرأة والرجل وغيرهما .

التى ختم بهن البقرة من قرأهنّ فى بيته لم يقرب الشيطان بيته ثلاث ليال" . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهنّ نبيّ قبلى" . وهذا صحيح . وقد تقدّم فى الفاتحة نزول المَلَك بها مع الفاتحة . والحمد لله .

تم الجزء الثالث من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع ،

وأوّله : سورة آل عمران

(مطبعة الدار ١٩٣٤/٣٧/٥٠٠٠)

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع

الثمن ٣٢

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع

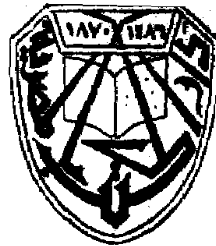

الثمن ٣٣

فهـــرس الجـــزء الرابع

تفســـير ســـورة « آل عمران »

صفحة

صفحة

صفحة

بيـان

تم تحقيق هـذا الجزء على الأصول الآتيــة :

(١)	نســخة	رقـم ٩٥	تفسـير المـرموز إليهـا بحــرف					ا
(٢)	»	»	٢٦٨	»	»	»	»	ب
(٣)	»	»	٢٨٣	»	»	»	»	ج
(٤)	»	»	٢٧٥	»	»	»	»	د
(٥)	»	»	٢٨٤	»	»	»	»	هـ
(٦)	»	»	٩٢	»	»	»	»	و
(٧)	»	»	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية مرموز إليها بحرف				ز
(٨)	»	»	١	حليم مرموز إليهـا بحـرف				ح
(٩)	»	»	٣١٨	»	»	»	»	ط
(١٠)	»	»	٣٠٧	»	»	»	»	ى

وقد وصفت هـذه النسخ جميعها فى مقدمة الجزء الثالث (الطبعة الثـانية)

شعبان ١٣٧٦
مارس ١٩٥٧

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿ الٓمٓ . ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ هذه السورة مدنية بإجماع. وحكى النقاش أن اسمها في التوراة طَيِّبة، وقرأ الحسن وعمرو بن عُبَيْد وعاصم بن أبي النَّجُود وأبو جعفر الرُّؤاسِيّ[1] «الٓمٓ . أللهُ» بقطع ألف الوصل، على تقدير الوقف على « الٓمٓ » كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد في نحو واحد، إثنان ، ثلاثة، أربعة ، وهم واصلون . قال الأخفش سعيد : ويجوز « الٓمِ الله » بكسر الميم لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : هذا خطأ، ولا تقوله العرب لثقله . قال النحاس : القراءة [الأولى[2]] قراءة العامة ، وقد تكلم فيها النحويون القدماء، فمذهب سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين، واختاروا لها الفتح لئلا يُجمع بين كسرة وياء وكسرة قبلها . وقال الكسائيّ : حروف التهجّي إذا لقيتها ألفُ وصل فحذفتَ ألف الوصل حرّكتها بحركة الألف فقلت : الٓمٓ اللهُ، والٓمٓ اذكر، والٓمِ اقتربت . وقال الفرّاء : الأصل «الٓمٓ أللهُ» كما قرأ الرؤاسيّ فألقيت حركة الهمزة على الميم . وقرأ عمر بن الخطاب «الحَيُّ القَيَّامُ» . وقال خارجة : في مصحف عبد الله «الحَيُّ القَيِّمُ» . وقد تقدّم ما للعلماء [من آراء[3]] في الحروف التي في أوائل السور في أوّل « البقرة[4] » . ومن حيث جاء في هذه السورة « ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ » جملةٌ قائمة بنفسها فتتصوّر تلك الأقوال كلها .

(١) في القاموس وشرحه (مادة رأس) : «وبنو رؤاس (بالضم) : حي من عامر بن صعصعة ، قال الأزهري : وكان أبو عمر الزاهد يقول في أبي جعفر الرؤاسي أحد القرّاء والمحدثين أنه الرواسي، بفتح الراء و بالواو من غير همز، منسوب الى رواس قبيلة من سليم ، وكان ينكر أن يقول الرؤاسي بالهمزة كما يقوله المحدثون وغيرهم . قلت : و يعنى بأبي جعفر هذا محمد بن سادة الرواسي، ذكر ثعلب أنه أوّل من وضع نحو الكوفيين، وله تصانيف » .

(٢) التكملة عن إعراب القرآن للنحاس . (٣) زيادة يقتضيها السياق . (٤) راجع جـ ١ ص ١٥٤

الثانيـــة — روى الكِسائيّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه صلّى العشاء فآستفتح «آل عمران» فقرأ « الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحىّ القَيُّومُ» فقرأ فى الركعة الأولى بمائة آية، وفى الثانية بالمـائة الباقية . قال علماؤنا : ولا يقرأ سورة فى ركعتين، فإن فعل أجزأه . وقال مالك فى المجموعة : لا بأس به، وما هو بالشأن .

قلت : الصحيح جواز ذلك . وقد قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم بالأعراف فى المغرب فرّقها فى ركعتين . خرّجه النّسائى أيضا، وصحّحه أبو محمد عبد الحق، وسيأتى .

الثالثـــة — هـذه السورة ورد فى فضلها آثار وأخبار، فمن ذلك ما جاء أنها أَمَانٌ من الحيات، وكنزٌ للصُّعلوك، وأنها تُحَاجّ عن قارئها فى الآخرة، ويُكْتَب لمن قرأ آخرها فى ليلة كقيام ليلة، إلى غير ذلك. ذكر الدارِمىّ أبو محمد فى مسنده حدّثنا أبو عُبَيْد القاسم بن سلّام قال حدّثنى عُبَيْد الله الأشجعىّ قال : حدّثنى مِسْعَر قال حدّثنى جابر[1]، قبل أن يقع فيما وقع فيه، عن الشَّعْبىّ قال قال عبد الله : نِعم كنزُ الصُّعْلوك سورةُ «آل عمران» يقوم بها فى آخر الليل . حدّثنا محمد بن سعيد حدّثنا عبد السلام عن الجُرَيْرِىّ[2] عن أبى السَّلِيل[3] قال : أصاب رجل دمًا قال : فأوى إلى وادى مَجَنّة : وادٍ لا يمشى فيه أحدٌ إلا أصابته حَيَّةٌ، وعلى شَفِير الوادى راهبان، فلمّا أمسى قال أحدهما لصاحبه : هلك والله الرجل ! قال : فآفتتح سورةَ «آل عمران» قالا : فقرأ سورة طَيْبَة لعله سينجو . قال : فأصبح سليما . وأسند عن مَكْحُول قال : من قرأ سورة « آل عمران » يوم الجمعة صلت عليه الملائكة إلى الليل . وأسند عن عثمان بن عفان قال : من قرأ آخر سورة « آل عمران » فى ليلة كتب له قيام ليلة . فى طريقه آبنُ لَهِيعَة . وخرّج مسلم عن النوّاس بن سَمْعَان الكِلَابِىّ قال سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول: "يُؤْتَى

(١) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجُعْفِىّ . توفى سنة ١٢٨ هـ . قال آبن سعد : كان يدلس وكان ضعيفا جدا فى رأيه وروايته . وقال العجلىّ : كان ضعيفا يغلو فى التشيع . وقال أبو بدر : كان جابر يهيج به مرة فى السنة مرّة فيهذى و يخلط فى الكلام . فلعل ما حكى عنه كان فى ذلك الوقت . وقال الأشجعى مبينا ما وقع فيه بأنه ما كان من تغير عقله . (عن تهذيب التهذيب) . (٢) الجريرى : بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، وهو سعيد بن إياس ، ينسب إلى جرير بن عباد . (عن تهذيب التهذيب) . (٣) أبو السليل (بفتح المهملة وكسر اللام) هو ضريب (بالتصغير) بن نقير ، ويقال نفير ، ويقال نقيل . (عن تهذيب التهذيب) .

بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران — وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثالٍ ما نسيتهنّ بعدُ ، قال : — كأنهما غمامتان أو ظُلّتان سَوْداوان بينهما شَرْقٌ(١) ، أو كأنّهما حِزْقانِ(٢) من طيرٍ صَوافَّ تُحاجّان عن صاحبهما . وخرّج أيضا عن أبي أُمَامَة الباهِلِيّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزَّهْرَاوَيْن البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيَايَتان أو كأنهما فِرْقَانِ من طير صَوَافّ تُحاجّان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإن أَخْذَها بَركةٌ وتركها حسْرةٌ ولا يستطيعها البَطَلَة " . قال معاوية(٣) : وبلغني أن البطلة السَّحَرَة .

الرابعة — للعلماء في تسمية « البقرة وآل عمران » بالزَّهْرَاوَيْن ثلاثة أقوال :

الأول — أنهما النيّرتان ، مأخوذ من الزَّهْر والزُّهْرَة ؛ فإمّا لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما ، أي من معانيهما .

وإمّا لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة ، وهو القول الثاني .

الثالث — سُمّيتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم ؛ كما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن اسمَ الله الأعظم في هاتين الآيتين وإِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(٤) والتي في آل عمران الله لا إله إلا هو الحَيُّ القَيُّومُ " أخرجه ابن ماجه أيضا . والغمام : السحاب المُلْتَفّ ، وهو الغَيَايَة إذا كانت قريبا من الرأس ، وهي الظُّلَّة أيضا . والمعنى : أن قارئهما في ظِلّ ثوابهما ؛ كما جاء " الرجل في ظِلّ صدقته(٥) " وقوله : " تُحاجّان " أي يخلق الله من يجادل عنه بثوابهما ، ملائكة كما جاء في بعض الحديث : " إن من قرأ شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ الآية خلق الله سبعين ملكا يستغفرون له إلى يوم القيامة " . وقوله : " بينهما شَرْقٌ " قُيِّد بسكون الراء وفتحها ،

(١) الشرق : الضوء . وسكون الراء فيه أشهر من فتحها . (٢) في الأصول : « فرقان » بالفاء . والتصويب عن صحيح مسلم . والفرق : القطعة . والحزق والحزيقة : الجماعة من كل شيء .
(٣) هو معاوية بن سلام أحد رجال سند هذا الحديث . (٤) راجع جـ ٢ ص ١٩٠
(٥) كذا في نسخة : جـ وهو الصحيح ، وكشف الخفاء جـ ١ ص ٤٢٤ . وفي الأصول الأخرى : إن المؤمن .

وهو تنبيه على الضياء ؛ لأنه لمـا قال : " سَـوْداوان " قد يُتَوَهَّم أنهما مُظْلمتان ، فنفى ذلك بقـوله " بينهما شَرْق " . ويعنى بكونهما سـوداوان أى من كثافتهما التى بسببها حالتـا بين مَنْ تحتهما وبين حرارة الشمس وشدّة اللّهَب . والله أعلم .

الخامســـة ـــ صَدْرُ هذه السورة نزل بسبب وفد نَجْران فيما ذكر محمد بن إسحاق عن محمد آبن جعفر بن الزبير، وكانوا نصارى وَفَدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى ستّين راكبا، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلا ، فى الأربعةَ عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم : العـاقب[1] أميرُ القوم وذو آرائهم وآسمه عبد المسيح ، والسيّد ثِمـالُهم[2] وصاحب مُجْتَمَعهم وآسمه الأيْهم ، وأبو حارثة بن عَلْقَمَة أحد بكر بن وائل أُسْـقُفُّهم وعالمهم ؛ فدخلوا على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أثر صلاة العصر، عليهم ثياب الحِـبَرات[3] جُبَبٌ وأرْدية . فقال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : ما رأينا وفدًا مثلهم جَمالا وجلالة . وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المَشْرِق . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " دَعُوهم " . ثم أقاموا بها أياما يُناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى و يزعمون أنه آبن الله، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبْصرون، ونزل فيهم صَدْر هذه السورة إلى نَيِّف وثمانين آية ؛ إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إلى المباهَلة[4] ، حسب ما هو مذكور فى سيرة آبن إسحاق[5] وغيره .

قوله تعـالى : نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾

(١) السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مراتبهم، والعاقب يتلو السيد . (٢) الثمال (بالكسر) : الملجأ والغياث والمطعم فى الشدّة . (٣) الحبرات (بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة) : ضرب من الثياب اليمانية .

(٤) فى الأصول : الابتهال ، والصـواب ما أثبت ، باهل القـوم بعضهم بعضا وتباهلوا وتبهلوا : تلاعنوا . والمباهلة : أن يجتمع القوم إذا آختلفوا فى شىء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا .

(٥) راجع سيرة آبن هشام ص ٤٠١ طبع أوربا .

قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق، وقيل : بالحجة الغالبة . والقرآن نزل نجوما : شيئا بعد شيء؛ فلذلك قال « نَزَّلَ » والتنزيل مرّة بعد مرّة . والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة؛ فلذلك قال «أَنْزَلَ» . والباء فى قوله « بِالْحَقِّ » فى موضع الحال من الكتاب، والباء متعلقة بمحذوف، التقدير آتيا بالحق . ولا تتعلّق بـ « نَزَّلَ »؛ لأنه قد تعدّى إلى مفعولين أحدهما بحرف جر، ولا يتعدّى إلى ثالث . و «مُصَدِّقًا» حال مؤكّدة غير منتقلة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدِّق، أى غير موافق؛ هذا قول الجمهور . وقدّر فيه بعضهم الآنتقال، على معنى أنه مصدِّق لنفسه ومصدِّق لغيره .

قوله تعالى : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى من الكتب المنزّلة، والتوراة معناها الضياء والنور؛ مشتقة من وَرَى الزَّنْد ووَرِىَ لغتان إذا خرجت ناره . وأصلُها تَوْرِيَةٌ على وزن تَفْعِلَة، التاء زائدة، وتحركت الياء وقبلها فتحة فقلبت ألفا . ويجوز أن تكون تَفْعَلة فتنقل الراء من الكسر إلى الفتح؛ كما قالوا فى جارِيَة : جَارَاة، وفى نَاصِيَة ناصاة؛ كلاهما عن الفرّاء[1] . وقال الخليل : أصلُها فَوْعَلة ؛ فالأصل وَوْرَيَةٌ، قُلبت الواو الأولى تاء كما قلبت فى تَوْلَج[2]، والأصل وَوْلَج فَوْعَلٌ من وَلَجَ، وقلبت الياء ألفا لحركتها وآنفتاح ما قبلها . وبناء فَوْعَلَة أكثر من تَفْعَلَة . وقيل : التوراة مأخوذة من التَّوْرِيَة، وهى التعريض بالشيء والكتمان لغيره؛ فكأن أكثر التوراة معاريضُ وتلويحات من غير تصريح وإيضاح؛ هذا قول المؤرِّج . والجمهور على القول الأوّل لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ[3] » يعنى التوراة . والإنجيل إفْعِيلٌ من النَّجْل وهو الأصل ، ويجمع على أَنَاجِيل ، وتوراة على تَوَارٍ ؛ فالإنجيل أصلٌ لعلوم وحِكَم . ويقال : لعن الله نَاجِلَيْه، يعني والديه، إذ كانا أصلَه . وقيل : هو من نَجَلْتُ الشيء إذا آستخرجته ؛ فالإنجيل مستخرج به علوم وحِكَم ؛ ومنه سُمّى الولدُ والنَّسْل نَجْلًا لخروجه ؛ كما قال :

إلى مَعْشَرٍ لم يُورِثِ اللؤمَ جَدُّهم * أصاغرَهم وكلُّ فَحْلٍ لهم نَجْلُ

(١) هى لهجة طائية، يقولون فى مثل جارية جاراة، وناصية ناصاة وكاسية كاساة .

(٢) التولج : كناس الظبى أو الوحش الذى يلج فيه . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٥

والنَّجْل المـاء الذى يخرج من النَّزّ . وٱستَنْجَلت الأرضُ ، و بها نِجَالٌ إذا خرج منها المـاء، فسمّى الإنجيل به ؛ لأن الله تعالى أخرج به دَارِسًا من الحق عافيًا . وقيل : هو من النَّجَل فى العين (بالتحريك) وهو سَعَتُها، وطعنة نَجْلاء، أى واسعة؛ قال :

رُبَّمـا ضَرْبةٍ بسيفٍ صقيلٍ * بيرب بُصْرَى وطعنةٍ نَجْلاء

فسمّىَ الإنجيل بذلك؛ لأنه أصلٌ أخرجه لهم ووسّعه عليهم ونُورًا وضياء . وقيل: التّنَاجُل التنازُع؛ وسمّى إنجيلًا لتنازُع الناس فيه . وحكى شَمِرٌ عن بعضهم: الإنجيلُ كلُّ كتاب مكتوب وافر السطور . وقيل : نَجَل عَمِل وصنَع ؛ قال :

* وأنْجُلُ فى ذاك الصنيع كما نَجَلْ *

أى أعمـل وأصنع . وقيل : التوراة والإنجيل من اللغة السُّرْيانية . وقيـل : الإنجيل بالسُّريانية إنْكليون (١) ؛ حكاه الثعلبى . قال الجوهرى : الإنجيل كتاب عيسى عليه السـلام يذكَّر و يؤنّث ؛ فمن أنّث أراد الصحيفة ، ومن ذكر أراد الكتاب . قال غيره : وقد يُسَمّى القرآن إنجيلا أيضا ؛ كما روى فى قصة مناجاة موسى عليه السـلام أنه قال : " يارب أرى فى الألواح أقواما أناجيلُهم فى صدورهم فٱجعلهم أمّتى". فقال الله تعالى له : "تلك أمّة أحمد" صلى الله عليه وسلم؛ وإنما أراد بالأناجيل القرآن . وقرأ الحسن: «والأَنْجيل» بفتح الهمزة، والباقون بالكسر مثل الإكليل ، لغتان . ويحتمل [ان سمع] (٢) أن يكون ممـا عرّبته العرب من الأسماء الأعجمية، ولا مثال له فى كلامها .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ قال ٱبن فورك (٣) : التقدير هدى للناس المتقين ؛ دليله فى البقرة « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » فردّ هذا العامّ إلى ذلك الخاص . و «هدى» فى موضع نصب على الحال . و ﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ القرآن . وقد تقدّم .

---

(١) فى بعض كتب اللغة : إنجيل لفظ يونانى . (٢) الزيادة من نسخة : ب .

(٣) ٱبن فورك (بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء) هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك، المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهانى، توفى سنة ست وأربعمائة . (عن ابن خلكان) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (٥)

هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل؛ ومثله في القرآن كثير . فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهـا أو آبن إله وهو تخفى عليه الأشياء ! .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٦)

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ ﴾ أخبر تعالى عن تصويره للبشر في أرحام الأمهات . وأصل الرحم من الرّحمة، لأنها مما يُتراحَم به . وآشتقاق الصُّورَة من صاره إلى كذا إذا أماله ؛ فالصورة مائلة إلى شَـبَه وهَيْئة . وهـذه الآية تعظيم لله تعـالى ، وفي ضمنها الرد على نصارى نَجْـران، وأنّ عيسى من المصَوَّرين، وذلك ممـا لا ينكره عاقل . وأشار تعـالى إلى شرح التّصْوير في سورة « الحجّ »[(١)] و« المؤمنون » . وكذلك شرحه النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث آبن مسعود، على ما يأتي هناك [بيانه][(٢)] إن شاء الله تعالى . وفيها الرّد على الطبائعيين أيضا إذْ يجعلونها فاعلةً مستبِدّة . وقد مضى الرّد عليهم في آية التوحيد[(٣)] وفي مسند آبن سنجر — وآسمه محمد بن سَنْجر — حديث " إنّ الله تعالى يخلق عِظام الجنين وغَضَاريفه[(٤)] من منِي الرجل وشحمه ولحمه من مَنِيّ المرأة " . وفي هذا أدَلُّ دليل على أن الولد يكون من ماء الرجل والمرأة، وهو صريح [في][(٥)] قوله تعالى: « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى »[(٦)] . وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان وفيه : أنّ اليهوديّ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان . قال : " ينفعك إن حدّثتك " ؟ .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٦ فما بعد وص ١٠٩ فما بعد .   (٢) الزيادة من نسخة : ب .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠١   (٤) الغضاريف : جمـع غضروف (بضم الغين) وهو كل عظم رخص يؤكل ، وهـو مارن الأنف ، ونغض الكتف (العظم الرقيق على طرفها) ، ورءوس الأضلاع ، ورهابة الصدر (عظيم في الصدر مشرف على البطن) ، وداخل قوف الأذن .   (٥) الزيادة في : جـ .
(٦) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٠

قال: أسمعُ بأُذُنى، قال: جئتك أسألك عن الولد. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "ماء الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعَلا مَنِىُّ الرجلِ مَنِىَّ المرأةِ أذكَرَا بإذنِ الله تعالى وإذا علَا مَنِىُّ المرأة مَنِىَّ الرجلِ آنثَا بإذن الله" الحديث(١). وسيأتى بيانه آخر «الشورى»(٢) إن شاء الله تعالى.

الثانيـــة — قـوله تعـالى: ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ يعنى من حُسْن وقُبْح وسَوَاد وبيَاض وطُول وقِصَر وسَلامة وعاهة، إلى غير ذلك من الشقاء والسعادة. وذُكر عن إبراهيم بن أدهم أنّ القـرّاء اجتمعوا إليـه ليسمعوا ما عنده من الأحاديث، فقـال لهم: إنى مشغول عنكم بأربعة أشياء، فلا أتفرّغ لرواية الحديث. فقيل له: وما ذاك الشغل؟ قال: أحدها أنِّى أتفكر فى يومِ المِيثاق حيث قال: "هؤلاء فى الجنة ولا أُبَالِى وهؤلاء فى النار ولا أُبَالى". فلا أدرى من أى الفريقين كنتُ فى ذلك الوقت. والثانى حيث صُوِّرتُ فى الرَّحِم فقال الملك الذى هو موكَّل على الأرحام: "يارِبِّ شَقِىٌّ هو أم سعيد" فلا أدرى كيف كان الجواب فى ذلك الوقت. والثالث حين يقبِضُ ملكُ الموت روحى فيقول: "يارَبِّ مع الكفر أم مع الإيمان" فلا أدرى كيف يخرج الجواب. والرابع حيث يقول: « وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ »(٣) فلا أدرى فى أىِّ الفريقين أكونُ. ثم قال تعالى: ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا خالِق ولا مصوّر [سواه](٤)؛ وذلك دليل على وحدانيته، فكيف يكون عيسى إلها مُصَوَّرا وهو مُصَوَّر. ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يغالب. ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة أو المُحْكِم، وهذا أخصّ بما ذكر من التصوير.

قوله تعـالى: هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

(١) راجع الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٩٩ طبع بولاق. (٢) راجع جـ ١٦ ص ٤٨ فما بعد.
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٤٦ (٤) زيادة لا بد منها.

فيه تسع مسائل :

الأولى — خرّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فٱحذروهم " . وعن أبى غالب قال : كنت أمشى مع أبى أمامة وهو على حمار له ، حتى إذا ٱنتهى إلى دَرَج مسجد دمشق فإذا رءوس منصوبة ، فقال : ما هذه الرُّءوس ؟ قيل : هذه رءوس خوارج يجاء بهم من العراق . فقال أبو أمامة : كِلابُ النار كِلابُ النار كِلابُ النار! شرُّ قتلى تحت ظل السماء ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه — يقولها ثلاثا — ثم بكى . فقلت : ما يبكيك يا أبا أُمامة ؟ قال : رحمةً لهم ، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه ؛ ثم قرأ « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » إلى آخر الآيات . ثم قرأ «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ»(1) . فقلت : يا أبا أُمامة، هُم هؤلاء؟ قال نعم . قلتُ : أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: إنى إذًا لجرىءٌ إنى إذا لجرىء! بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس ولا ست ولا سبع، ووضع أصبعيه فى أُذُنَيْه، قال : و إلّا فصُمّتا — قالها ثلاثا — ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقةً واحدةٌ فى الجنة وسائرهم فى النار ولَتزيدنّ عليهم هـذه الأمّة واحدةً واحدةٌ فى الجنة وسائرُهم فى النار" .

الثانيـــة — ٱختلف العلماء فى المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ؛ فقال جابر بن عبدالله ، وهو مقتضى قول الشعبيّ وسفيان الثوريّ وغيرهما : المحكمات من آى القرآن ما عُرِف تأويله وفهم معناه وتفسيره . والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما ٱستأثر الله تعالى بعلمه

(1) راجع هذا الجزء ص ١٦٦

دون خلقه . قال بعضهم : وذلك مِثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة فى أوائل السور .

قلت : هذا أحسنُ ما قيل فى المتشابه . وقد قدّمنا فى أوائل سورة البقرة عن الربيع بن خيثم أنّ الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء ؛ الحديثَ . وقال أبو عثمان : المحكم فاتحة الكتاب التى لا تجزئ الصلاة إلا بها . وقال محمد بن الفضل : سورة الإخلاص ، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط . و [قد] قيل : القرآن كله محكم : لقوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ »(١) . وقيل : كله متشابه ؛ لقوله : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا »(٢) .

قلت ؛ وليس هذا من معنى الآية فى شىء ؛ فإن قوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياته » أى فى النظم والرصْف وأنه حق من عند الله . ومعنى « كتابا مُتَشَابِهًا » ، أى يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا . وليس المراد بقوله «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» «وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ» هذا المعنى ؛ وإنما المتشابِه فى هذه الآية من باب الآحتمال والآشتباه ، من قوله « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا »(٣) أى آلتبس علينا ، أى يحتمل أنواعا كثيرة من البقر . والمراد بالمحكم ما فى مقابلة هذا ، وهو ما لا التباس فيه ولا يحتمل إلا وجها واحدا . وقيل : إنّ المتشابه ما يحتمل وجوها ، ثم إذا رُدَّتْ الوجوه إلى وجه واحد وأبطِل الباقى صار المتشابِه محكما . فالمحكم أبدا أصل تردّ إليه الفروع ؛ والمتشابه هو الفرع . وقال آبن عباس : المحكمات هو قوله فى سورة الأنعام « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »(٤) إلى ثلاث آيات ، وقوله فى بنى إسرائيل : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »(٥) . قال آبن عطية : وهذا عندى مثال أعطاه فى المحكمات . وقال آبن عباس أيضا : المحكمات ناسخه وحرامه وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به ، والمتشابهات المنسوخات ومقدّمه ومؤخّره وأمثالُه وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به . وقال آبن مسعود وغيره : المحكمات الناسخات ، والمتشابهات المنسوخات ؛ وقاله قتادة والربيع والضحاك . وقال محمد بن جعفر بن الزبير : المحكمات هى التى فيها حجة الرب

(١) راجع جـ ٩ ص ٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٣) راجع جـ ١ ص ٤٥١
(٤) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٨

وعصمة العباد ودفع الخُصُوم والباطل ، ليس لهـا تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه . والمتشابهات لهنّ تصريف وتحريف وتأويل، ٱبتلى الله فيهنّ العباد؛ وقاله مجاهد وٱبن إسحاق . قال ٱبن عطية : وهـذا أحسن الأقوال فى هـذه الآية . قال النحاس : أحسن ما قيـل فى المحكمات ، والمتشابهات أنّ المحكمات ما كان قائمـا بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره؛ نحو « لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »[(١)] « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ »[(٢)] . والمتشابهات نحـو « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا »[(٣)] يرجع فيـه إلى قـوله جل وعلا : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » و إلى قوله عن وجل : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ »[(٤)] .

قلت : ما قاله النحاس يبين ما ٱختاره ٱبنُ عطية، وهو الجارى على وَضْع اللسان؛ وذلك أن المُحكَم ٱسم مفعول من أُحْكِم ، والإحكام الإتقان ؛ ولا شـك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيـه ولا تردد ، إنمـا يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته و إتقان تركيبها ؛ ومتى ٱختَلّ أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . والله أعلم . وقال ٱبن خويزِمَنْـدَاد : للمتشابه وجوهٌ، والذى يتعلق به الحكم ما ٱختلف فيـه العلماء أىّ الآيتين نسخت الأخرى؛ كقول علىّ وٱبن عباس فى الحامل المتوفى عنها زوجها تعتدّ أقْصَى الأجلين. فكان عمر وزيد بن ثابت وٱبن مسعود وغيرهم يقولون وضع الحمل ، و يقولون : سورة النساء القصرى[(٥)] نسختْ أربعة أشهر وعَشْرا . وكان علىّ وٱبن عباس يقولان لم تنسخ . وكٱختلافهم فى الوصية للوارث هل نُسخت أم لم تُنْسَخ . وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن تقدّم إذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه؛ كقوله تعالى : «وأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ»[(٦)] يقتضى الجمع بين الأقارب من مِلك اليمين؛ وقوله تعالى : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ »[(٦)] يمنع ذلك . ومنه أيضا تعارض الأخبار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وتعارض الأقْيِسَة ، فذلك المتشابه . وليس من المتشابه أن تقرأ الآية بقراءتين و يكون الاسم[(٧)] محتملا أو مجملا يحتاج إلى تفسير ؛ لأن الواجب منـه قدر ما يتناوله الاسم أو جميعه . والقراءتان كالآيتين يجب العمل بموجبهما جميعا ؛ كما قرئ :

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ١١ ص ١٢٣ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٧
(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥ (٥) هى سورة الطلاق . ومراده منها « وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ » آية ٤ (٦) راجع جـ ٥ ص ١١٦ و ١٢٤ (٧) فى نسخة : ب ، الأمر .

« وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ »(١) بالفتح والكسر، على ما يأتى بيـانه « فى المـائدة » إن شاء الله تعـالى .

الثالثـــة — روى البخارى(٢) عن سعيد بن جبير قال قال رجل(٣) لٱبن عباس : إنى أجد فى القرآن أشياءَ تختلفُ علىّ . قال : ما هو ؟ قال : «فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ»(٤) وقال : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »(٥) وقال : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا »(٦) وقال « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »(٧) فقد كتموا فى هذه الآية . وفى النازعات « أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ... إلى قوله : دَحَاهَا »(٨) فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال « أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... إلى : طَائِعِينَ »(٩) فذكر فى هـذا خلق الأرض قبل خلق السماء . وقال : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا »(١٠) . « وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »(١١) . « وكان اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا »(١٢) فكأنه كان ثم مضى . فقال ٱبن عباس : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » فى النفخة الأولى ، ثم ينفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنساب بينهم عنـد ذلك ولا يتسـاءلون؛ ثم فى النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وأمّا قوله : « مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» «وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا» فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: تعالوا نقول : لم نكن مشركين؛ فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم؛ فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثا،وعنده يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وخلق الله الأرض فى يومين ، ثم ٱستوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات فى يومين ، ثم دحا الأرض أى بسـطها فأخرج منها المـاء والمرعى ، وخلق فيهـا الجبال والأشجـار والآكام وما بينهـا فى يومين آخرين؛ فذلك قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » . فخلقت الأرض وما فيهـا فى أربعـة أيام ، وخلقت السماء فى يومين . وقوله : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا »(١٣) يعنى نفســه

(١) راجع جـ ٦ ص ٨٠ (٢) الحديث فى البخارى فى كتاب التفسير (ســورة السجدة) . وبين ما فى البخارى وما فى الأصول ٱختلاف فى بعض الكلمات . (٣) هو نافع ٱبن الأزرق الذى صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج (القسطلانى) . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١٥١ (٥) راجع جـ ١٥ ص ٨١
(٦) راجع جـ ٥ ص ١٩٨ (٧) راجع جـ ٦ ص ٤٠١ (٨) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ فما بعد .
(٩) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢ (١٠ — ١١ — ١٢ — سورة النساء ١٣) عبارة البخاري (سمي نفسه) .

ذلك ، أى لم يزل ولا يزال كذلك ؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد . ويحك ! فلا يختلف عليك القرآن ؛ فإن كلا من عند الله .

الرابعــــة — قوله تعـالى : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ لم تصرف « أُخَرُ » لأنها عدلت عن الألف واللام ؛ لأن أصلها أن تكون صفة بالألف واللام كالكبر والصغر ؛ فلما عدلت عن مجرى الألف واللام منعت الصرف . أبو عبيد : لم يصرفوها لأن واحدها لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة . وأنكر ذلك المبرد وقال : يجب على هذا ألا ينصرف غِضاب وعِطاش . الكسائى : لم تنصرف لأنهـا صفة . وأنكره المبرد أيضا وقال : إن لبدا وحطما صفتان وهما منصرفان . سيبويه : لا يجوز أن تكون أُخَر معدولة عن الألف واللام؛ لأنها لو كانت معدولة عن الألف واللام لكان معرفة ، ألا ترى أن سحر(١) معرفة فى جميع الأقاويل لمـا كانت معدولة [عن السحر] ، وأَمْسِ فى قول من قال : ذهب أمسِ معدولا عن الأمس ؛ فلو كان أخر معدولا أيضا عن الألف واللام لكان معرفة ، وقد وصفه الله تعالى بالنكرة .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ الذين رفع بالابتداء ، والخبر « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْـهُ » . والزيغ الميـل ؛ ومنه زاغت الشمس ، وزاغت الأبصار . ويقال : زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »(٢) . وهذه الآية تعمّ كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة ، وإن كانت الإشارة بها فى ذلك الوقت إلى نصارى نجران . وقال قتادة فى تفسير قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » : إن لم يكونوا الحرورية(٣) وأنواع الخوارج فلا أدرى من هم .

قلت : قد مرّ هذا التفسير عن أبى أمامة مرفوعا ، وحسبك .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه : متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلبا للتشكيك

(١) أى إذا أردت به سحر ليلتك . فإن نكرته صرفته .

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٨٢		(٣) راجع الحاشية ٢ جـ ٢ ص ٢٥١

فى القرآن وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة[1] الطاعنون فى القرآن؛ أو طلبا لاعتقاد ظواهر المتشابه، كما فعلتـه المجسّمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم وصورة مصوّرة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وأصبع، تعالى الله عن ذلك ! ؛ أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها، أو كما فعل صبيغ[2] حين أكثر على عمر فيه السؤال . فهذه أربعة أقسام :

الأوّل — لا شك فى كفرهم، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة .

الثانى — [الصحيح[3]] القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور، ويستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفعل بمن ارتدّ .

الثالث — اختلفوا فى جواز ذلك بناء على الخلاف فى جواز تأويلها . وقد عرف أنّ مذهب السلف ترك التعرض لتأويلها مع قطعهـم باستحالة ظواهرها، فيقـولون أمرّوها كما جاءت . وذهب بعضهم إلى إبداء تأويلاتها وحملها على ما يصح حمله فى اللسان عليها من غير قطع بتعيين مجمل منها .

الرابـع — الحكم فيـه الأدب البليغ، كما فعله عمر بصبيغ . وقال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمـة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفسـير الحروف المشكلات فى القرآن، لأن السائل إن كان يبغى بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير، وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب، إذ أوجد للمنافقين الملحدين فى ذلك الوقت سبيلا إلى أن يقصدوا ضَعَفَة المسلمين بالتشكيك والتضليل فى تحريف القرآن عن مناهج التنزيل وحقائق التأويل . فمن ذلك ما حدّثنـا إسماعيل بن إسحاق القاضى أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن صبيغ بن عِسل

(١) القرامطة : فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقـدون نبوّة زرادشت ومزدك ومانى، وكانوا يبيحون المحرّمات . (راجع عقد الجمان للعينى فى حوادث سنة ٢٧٨) .

(٢) صـبيغ (وزان أمير) بن شريك بن المنـذر بن قطن بن قشع بن عسل (بكسر العين) بن عمرو بن يربوع التميمى، وقد ينسب إلى جدّه الأعلى فيقال : صبيغ بن عسل . وراجع القاموس وشرحه مادّة « صبغ وعسل » .

(٣) الزيادة من نسخ : ب، ز، د .

قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء؛ فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعدّ له عراجين من عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر رضى الله عنه : وأنا عبد الله عمر؛ ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجّه، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين! فقد والله ذهب ما كنت أجدُ فى رأسى . وقد آختلفت الروايات فى أدبه، وسيأتى ذكرها فى « الذاريات » . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها فى قلبه فتاب وحسنت توبته . ومعنى «آبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ» طلب الشبهات واللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم، ويردّوا الناس إلى زيغهم . وقال أبو إسحاق الزجاج : معنى «آبتغاء تأويله» أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم، فأعلم الله جل وعز أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ـــ أى يوم يرون مايوعدون من البعث والنشور والعذاب ـــ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ـــ أى تركوه ـــ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ»[(١)] أى قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل . قال : فالوقف على قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » أى لا يعلم أحد متى البعث إلا الله .

السابعة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ يقال : إن جماعة من اليهود منهم حيي بن أخطب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بلغنا أنه نزل عليك «الٓمٓ»، فإن كنت صادقا فى مقالتك فإن ملك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة؛ لأن الألف فى حساب الجمل واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فنزل « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . والتأويل يكون بمعنى التفسير، كقولك : تأويل هذه الكلمة على كذا . ويكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه . وآشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه، أى صار . وأوّلته تأويلا أى صيرته . وقد حدّه بعض الفقهاء فقالوا : هو إبداء آحتمال فى اللفظ مقصود بدليل خارج عنه . فالتفسير بيان اللفظ؛ كقوله « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لا شك . وأصله من الفسر وهو البيان؛ يقال : فسرت

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٧

الشيء (مخففا) أفسِره (بالكسر) فَسْرا . والتأويل بيان المعنى؛ كقوله لا شك فيه عند المؤمنين . أو لأنه حق فى نفسه فلا يقبل ذاته الشك وإنما الشك وصف الشاك . وكقول ٱبن عباس فى الجد أبا؛ لأنه تأول قول الله عز وجل : « يَا بَنِي آدَمَ » .

الثامنــة ــ قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ٱختلف العلماء فى «والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» هل هو ٱبتداء كلام مقطوع مما قبله ، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع. فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع مما قبله ،وأنّ الكلام تمّ عند قوله «إلّا اللهُ» هذا قول ٱبن عمر وٱبن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ،وهو مذهب الكسائى والأخفش والفراء وأبى عبيد[وغيرهم](١). قال أبو نهيك الأسدى : إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة. وما ٱنتهى علم الراسخين الا إلى قولهم « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » . وقال مثل هذا عمر بن عبد العزيز، وحكى الطبرى نحوه عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس . و « يقولون » على هذا خبر«الراسخون» . قال الخطابى : وقد جعل الله تعالى آيات كتابه الذى أمرنا بالإيمان به والتصديق بما فيه قسمين : محكما ومتشابها ؛ فقال عز من قائل : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ... إلى قوله : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فأعلَمَ أنّ المتشابه من الكتاب قد ٱستأثر الله بعلمه ، فلا يعلم تأويله أحَدٌ غيره ، ثم أثنى الله عز وجل على الراسخين فى العلم بأنهم يقولون آمنا به . ولولا صحة الإيمان منهم لم يستحقوا الثناء عليه . ومذهب أكثر العلماء أن الوقف التام فى هذه الآية إنما هو عند قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » وأن ما بعده ٱستئناف كلام آخر ، وهو قوله « والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » . وروى ذلك عن ٱبن مسعود وأبى بن كعب وٱبن عباس وعائشة . وإنما روى عن مجاهد أنه نَسَق « الراسخون» على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه . وٱحتج له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين آمنا ؛ وزعم أن موضع « يقولون » نصب على الحال . وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا، ولا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل؛ فإذا لم يظهر فعل فلا يكون حال؛ ولو جاز ذلك لجاز

(١) الزيادة من نسخة : ج .

أن يقال : عبد الله راكبا، بمعنى أقبل عبد الله راكبا ؛ و إنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : عبد الله يتكلم يصلح بين الناس ؛ فكان « يصلح » حالا له ؛ كقول الشاعر — أنشدنيه أبو عمر قال أنشدنا أبو العباس ثعلب — :

أرسلتُ فيها قَطِمًا لُكَالِكَا[1] * يَقْصُرُ يَمْشِي و يطول بَارِكَا

أى يقصر ماشيا ؛ فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده، وأيضا فإنه لا يجوز أن ينفى الله سبحانه شيئا عن الخلق ويثبته لنفسه ثم يكون له فى ذلك شريك . ألا ترى قوله عز وجل: «قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ»[2] وقوله : « لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ »[3] وقوله : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »[4]، فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه بعلمه لا يُشْرِكه فيه غيره . وكذلك قوله تبارك وتعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . ولو كانت الواو فى قوله : «وَالرَّاسِخُونَ»[5] للنسق لم يكن لقوله : « كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » فائدة . والله أعلم .

قلت : ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد روى عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون فى علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به ؛ وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم . و «يقولون» على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين ؛ كما قال :

الريحُ تَبْكِي شَجْوَها * والبرقُ يلمع فى الغَمَامَهْ

وهذا البيت يحتمل المعنيين ؛ فيجوز أن يكون «والبرق» مبتدأ، والخبر «يلمع» على التأويل الأول، فيكون مقطوعا مما قبله . ويجوز أن يكون معطوفا على الريح، و «يلمع» فى موضع الحال على التأويل الثانى أى لامعا . واحتج قائلو هذه المقالة أيضا بأن الله سبحانه مدحهم

(١) فى الأصول : « أرسلت فيها رجلا » والتصويب عن اللسان وشرح القاموس . والقطم : الغضبان ؛ وفحل قطم وقطم وقطيم : صؤول . والقطم أيضا : المشتهى اللحم وغيره . واللكالك (بضم اللام الأولى وكسر الثانية) : الجمل الضخم المرمى باللحم . قال أبو على الفارسى : «يقصر إذا مشى لانخفاض بطنه وضخمه وتقاربه من الأرض ، فإذا برك رأيته طويلا لارتفاع سنامه ؛ فهو باركا أطول منه قائما » . (اللسان مادة لكك) . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٢٥
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٥ (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٢ (٥) فى الأصول : «والراسخون معا للنسق» .

بالرسوخ فى العلم ، فكيف يمدحهم وهم جهّال ! وقد قال ٱبن عباس : أنا ممن يعلم تأويله . وقرأ مجاهد هذه الآية وقال : أنا ممن يعلم تأويله ؛ حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالى .

قلت — وقد ردّ بعض العلماء هذا القول إلى القول الأوّل فقال : وتقدير تمـام الكلام «عِند اللهِ» أن معناه وما يعلم تأويلَه إلا الله يعنى تأويلَ المتشابهات ، والراسخون فى العلم يعلمون بعضه قائلين آمنّا به كلٌّ من عند ربنا بمـا نُصب من الدلائل فى المُحْكَم ومكّن من ردّه إليه . فإذا علموا تأويل بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آمنا بالجميع كلٌّ من عند ربنا ، وما لم يحط به علمنا من الخفايا مما فى شرعه الصّالح فعلمه عند ربّنا . فإن قال قائل : قد أشكل على الراسخين بعض تفسيره حتى قال ٱبن عباس : لا أدرى ما الأوّاهُ ولا ما غِسْلِين ، قيل له : هذا لا يلزم ؛ لأن ٱبن عباس قد علم بعد ذلك ففسر ما وقف عليه . وجوابٌ أقطع من هذا وهو أنه سبحانه لم يقل وكل راسخ فيجب هذا ، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر . ورجّح ٱبن فورك أنّ الراسخين يعلمون التأويل وأطنب فى ذلك ؛ وفى قوله عليه السلام لأبن عباس : "اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل" ما يبين لك ذلك ، أى علمه معانى كتابك . والوقف على هذا يكون عند قوله « والرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ » . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وهو الصحيح ؛ فإن تسميتهم راسخين يقتضى أنهم يعلمون أكثر من المُحْكَم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب . وفى أىّ شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ! . لكن المتشابه يتنوع ، فمنه ما لا يعلم البتّة كأمر الرُّوح والساعة ممـا ٱستأثر الله بغيبه ، وهـذا لا يتعاطى عِلمه أحد لا ٱبن عباس ولا غيره . فمن قال من العلماء الحُذّاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع ، وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغـة ومَنَاحٍ فى كلام العرب فيُتأوّل ويُعلم تأويله المستقيم ، ويُزال ما فيه مما عسى أن يتعلق من تأويل غير مستقيم ؛ كقوله فى عيسى : «وَرُوحٌ مِنْهُ»[(1)] إلى غير ذلك . فلا يُسمّى أحدٌ راسخا إلا بأن يعلم من هـذا النوع كثيرا بحسب ما قُدّر له . وأمّا من يقول : إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخالُ الراسخين فى علم التأويل ؛ لكنّ تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح .

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١

والرسوخ : الثبوت فى الشيء ، وكل ثابت راسخ . وأصله فى الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر فى الأرض ؛ قال الشاعر :

لقد رَسَخَتْ فى الصَّدْر مِنّى مودّةٌ * لِلَيْلَى أبَتْ آياتُها أنْ تَغَيَّرا

ورَسَخ الإيمان فى قلب فلان يَرْسَخ رسوخا . وحكى بعضهم : رسخ الغَدِيرُ : نَضَب ماؤه ؛ حكاه ابن فارس فهو من الأضداد . ورَسَخ ورَضَخ ورَصَن ورسَب كله ثبت فيه . وسئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الراسخين فى العلم فقال : "هو مَنْ بَرّتْ يمينُه وصدَق لسانُه واستقام قلبه". فإن قيل : كيف كان فى القرآن متشابه والله يقول : «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»(١) فكيف لم يجعله كله واضحا ؟ قيل له : الحكمة فى ذلك — والله أعلم — أن يظهر فضل العلماء ؛ لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضلُ بعضهم على بعض . وهكذا يفعل من يصنِّف تصنيفا يجعل بعضه واضحا و بعضه مشكلا ، و يترك للجُثْوة(٢) موضعا ؛ لأن ما هان وجودُه قلّ بهاؤه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى مُحكمه ومُتشابهه ؛ والتقدير : كله من عند ربنا . وحذف الضمير لدلالة « كلّ » عليه ؛ إذ هى لفظة تقتضى الإضافة . ثم قال : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو ٱلْأَلْبَابِ﴾ أى ما يقول هذا و يُؤمن و يقف حيث وقف و يَدَع اتّباع المتشابه إلا ذو لُبّ ، وهو العقل . ولُبّ كل شيء خالصه ؛ فلذلك قيل للعقل لُبّ . و « أولو » جمع ذو .

قوله تعالى : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ فى الكلام حذف تقديره يقولون . وهذا حكاية عن الراسخين . ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد ، ويقال : إزاغة القلب فسادٌ

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ (٢) كذا وردت هذه الكلمة فى أكثر الأصول ، وفى بعضها وردت بهذا الرسم من غير إعجام ، ومعناها : الجماعة .

ومَيْل عن الدِّين، أفكانوا يخافون وقد هُدُوا أن ينقلهم الله إلى الفساد؟ فالجواب أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألّا يبتليهم بمـا يثقُل عليهم من الأعمال فيَعجِزوا عنه؛ نحو «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ»(١). قال ابن كيسان: سألوا ألا يَزِيغوا فيُزِيغ الله قلوبهم؛ نحو «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»(٢) أى ثبِّتنا على هدايتك إذ هديتنا وألا نَزِيغ فنستحق أن تُزِيغ قلوبنا. وقيل: هو منقطع مما قبلُ؛ وذلك أنه تعالى لمـا ذكر أهل الزيغ عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليـه فى ألا يكونوا من الطائفة الذميمة التى ذُكِرت وهى أهـل الزَّيْغ. وفى الموطأ عن أبى عبد الله الصنابِحِيّ أنه قال: قدِمتُ المدينة فى خلافة أبى بكر الصـديق فصليتُ وراءه المغرب، فقـرأ فى الركعتين الأُوليين بأم القرآن وسورة من قصار المُفَصَّل، ثم قام فى الثالثة، فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية «رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا» الآية. قال العلماء: قراءته بهـذه الآية ضربٌ من القُنوت والدعاء لمـا كان فيه من أمر أهل الرِّدّة. والقنوت جائز فى المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفى كل صلاة أيضا إذا دهِم المسلمين أمرٌ عظيم يُفزِعهم ويخافون منه على أنفسهم. وروى الترمِذِيّ من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال قلت لأم سَلَمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثرُ دعاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه "يا مُقَلِّب القلوب ثَبِّتْ قلبى على دِينك". فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعاءَك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك! قال: "يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ". فتلا معاذ(٣) «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا». قال: حديث حسن. وهذه الآية حجـة على المعتزلة فى قولهم: إن الله لا يضل العبـاد(٤). ولو لم تكن الإزاغة من قِبله لمـا جاز أن يُدْعَى فى دفع ما لا يجوز عليه فعلُه. وقرأ أبو واقد الجرّاح «لاتَزِغْ قُلُوبُنَا» بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه رغبة إلى الله تعالى. ومعنى الآية على القراءتين ألا يكون منك خلق الزيغ فيها فتزيغ.

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٠ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨٢ (٣) هو أحد رجال سند هذا الحديث.
(٤) يعنى قولهم إن العباد هم الخالقون لأفعالهم.

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أى من عندك ومن قِبلك تفضلا لا عن سبب مِنا ولا عمل . وفى هذا ٱستسلام وتطارح . وفى «لَدُنْ» أربع لغات : لَدُن بفتح اللام وضم الدال وجزم النون ، وهى أفصحها ؛ وبفتح اللام وضم الدال وحذف النون ؛ وبضم اللام وجزم الدال وفتح النون ؛ وبفتح اللام وسكون الدال وفتح النون . ولعل جُهّال المتصوّفة وزنادقة الباطنية يتشبثون بهذه الآية وأمثالها فيقولون : العلم ما وهبه الله ٱبتداء من غير كسب ، والنظرُ فى الكتب والأوراق حجابٌ . وهــذا مردود على ما يأتى بيانه فى هــذا الموضع . ومعنى الآية : هب لنا نعيما صادرا عن الرحمة ؛ لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات فلا يتصوّر فيها الهبة . يقال : وَهب يَهَب ؛ والأصل يُوهِب بكسر الهاء . ومن قال : الأصل يوهب بفتح الهاء فقد أخطأ ؛ لأنه لو كان كما قال لم تحذف الواو ، كما لم تحذف فى يَوْجَل . وإنما حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة ؛ ثم فتح بعد حذفها لأن فيه حرفا من حروف الحلق .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

أى باعثهم ومحييهم بعــد تفرقهم ، وفى هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة . قال الزجاج : هذا هو التأويل الذى عَلِمه الراسخون وأقرّوا به ، وخالف الذين ٱتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه . والريْبُ الشّك ، وقد تقدّمت محامله فى البقرة[1] . والميعاد مِفْعَال من الوعد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

معناه بَيِّنٌ ، أى لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقرأ السُّلَمى[2] «لَنْ يُغْنِىَ» بالياء لتقدّم الفعل ودخول الحائل بين الأسم والفعل . وقرأ الحسن «يُغْنِى» بالياء وسكون الياء الآخرة للتخفيف ؛ كقول الشاعر :

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٩ (٢) السلمى (بضم السين) هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين الصوفى الأزدى . (عن تذكرة الحفاظ وأنساب السمعانى) .

كفى باليأس من أسماء كافى * وليس لسقمها إذ طال شافى

وكان حقه أن يقول كافيا ، فأرسل الياء . وأنشد الفراء فى مثله :

كأن أيديهن بالقـاع القرق * أيدى جوار يتعاطين الورق

القرق والقرقة لغتان فى القاع (١) . و « من » فى قوله « من الله » بمعنى عند ؛ قاله أبو عبيدة . ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ والوقود آسم للحطب ، وقد تقدّم فى «البقرة» (٢) . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف «وقود» بضم الواو على حذف مضاف تقديره حطب وقود النـار . ويجوز فى العربية إذا ضم الواو أن تقول أقود مثـل أقتت . والوقود بضم الواو المصدر ؛ وقدت النار تقد إذا آشتعلت . وخرّج آبن المبارك من حديث العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبـارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا من أقرأ منا من أعلم منا ؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل ترون فى أولئكم من خير" ؟ قالوا لا . قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار" .

قوله تعـالى : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

الدأب العـادة والشأن . ودأب الرجل فى عمـله يدأب دأبا ودءوبا إذا جدّ وآجتهد ، وأدأبته أنا . وأدأب بعيره إذا جهده فى السير . والدائبان الليل والنهـار . قال أبو حاتم : وسمعت يعقوب يذكر « كدأب » بفتح الهمـزة ، وقال لى وأنا غليم : على أى شىء يجـوز « كدأب » ؟ فقلت له : أظنه من دئب يدأب دأبا . فقبل ذلك منى وتعجب من جودة تقديرى على صغرى ؛ ولا أدرى أيقال أم لا . قال النحاس : « وهذا القول خطأ ، لا يقال

(١) كذا فى الأصول . والذى فى لسان العـرب وغيره من معجمات اللغة أنه القرق (بفتح القاف وكسر الراء) والقرق (بفتح القاف والراء) والقرق (بكسر القاف وسكون الراء) . والقاع القرق : الطيب الذى لا حجارة فيه .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٥ .

البتّة دَئب، وإنما يقال : دَأَب يدْأَب دُءُوبا [ودَأْبا](١)؛ هكذا حكى النحويون ، منهم الفرّاء حكاه فى كتاب المصادر؛ كما قال آمرؤ القيس :

كدأْبِك مِن أم الحُوَيْرِث قبلَها * وجارتِها أمِّ الرَّبَابِ بمأْسَلِ(٢)

فأمّا الدَّأَب فإنه يجوز؛ كما يقال : شَعْرٌ وشَعَرٌ ونَهْرٌ ونَهَرٌ؛ لأن فيه حرفا من حروف الحلق» .
وآختلفوا فى الكاف؛ فقيل : هى فى موضع رفع تقديره دَأْبُهم كدَأْب آل فرعون، أى صنيع الكفّار معك كصنيع آل فرعون مع موسى . وزعم الفرّاء أن المعنى : كفرت العرب ككفر آل فرعون . قال النحاس : لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا ، لأن كفروا داخلة فى الصّلة . وقيل: هى متعلقة بـ«فأَخَذَهُمُ اللهُ» ، أى أخذهم أخذا كما أخذ آل فرعون . وقيل: هى متعلقة بقوله «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ» أى لم تُغْنِ عنهم غَنَاء كما لم تُغن الأموال والأولاد عن آل فرعون. وهذا جواب لمن تخلّف عن الجهاد وقال : شغلتنا أموالنا وأهلونا .
ويصح أن يعمل فيه فعلٌ مقدّر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه فى نفس الاحتراق. ويؤيد هذا المعنى « ... وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»(٣) . والقول الأوّل أرجح ،وآختاره غيرواحد من العلماء.
قال آبن عرفة : « كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» أى كعادة آل فرعون . يقول : آعتاد هؤلاء الكفرة الإلحاد والإعنات للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما آعتاد آل فرعون من إعنات الأنبياء؛وقال معناه الأزهرىّ . فأمّا قوله فى سورة (الأنفال) « كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ»(٤) فالمعنى جُوزِى هؤلاء بالقتل والأسر كما جُوزِى آل فرعون بالغرق والهلاك .

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوّة ، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدّلالة على الوحدانية . ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

---

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس . (٢) أم الحويرث : هى « هر » أم الحارث بن حصين آبن ضمضم الكلابى ، وكان آمرؤ القيس يشبب بها فى أشعاره . وأم الرباب من كلب أيضا . ومأسل : موضع . يقول : لقيت من وقوفك على هذه الديار وتذكرك أهلها كما لقيت من أم الحويرث وجارتها . (عن شرح المعلقات) .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣١٨ (٤) راجع جـ ٨ ص ٢٩

قوله تعـالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾

يعني اليهود . قال محمـد بن إسحاق : لمـا أصاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم قريشا ببدر وقدم المدينة جمع اليهود فقال : " يا معشر اليهود آحذروا من الله مثـل ما نزل بقريش يوم بدرٍ قبل أن ينزل بكم ما نزل بهـم فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم"، فقالوا : يا محمد، لايغرنك أنك قتلت أقواما أغمارا(١) لا عِلم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصـة ! والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن النـاس . فأنزل الله تعالى « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ» بالتاء يعني اليهود : أي تهزمون «وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ» في الآخرة . فهذه رواية عِكرمة وسعيد بن جبير عن آبن عباس . وفي رواية أبي صالح عنه أن اليهود لمـا فرحوا بمـا أصاب المسلمين يوم أُحُد نزلت . فالمعنى على هذا «سَيُغْلَبُونَ» بالياء، يعني قريشا، «ويُحْشَرُونَ» بالياء فيهما ، وهي قراءة نافع .

قوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ يعني جهنم ؛ هـذا ظاهر الآية . وقال مجاهد : المعنى بئس ما مهدوا لأنفسهم ، فكأن المعنى : بئس فعلهم الذي أداهم إلى جهنم .

قوله تعـالى : قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أي علامة . وقال « كان » ولم يقل « كانت » لأن «آية» تأنيثها غير حقيقي . وقيل : ردّها إلى البيان ، أي قد كان لكم بيان ؛ فذهب إلى المعنى وترك اللفظ ؛ كقول آمرئ القيس :

---

(١) الأغمار : جمع غمر (بضم) وهو الجاهل الغرّ الذي لم يجرّب الأمور .

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ * كَخُرْعُوبَةِ الْبَانَةِ الْمُنْفَطِرْ[(١)]

ولم يقل المنفطرة؛ لأنه ذهب إلى القضيب . وقال الفرّاء : ذكّره لأنه فرّق بينهما بالصفة، فلمـا حالت الصفة بين الاسم والفعل ذُكِّر الفعل . وقد مضى هـذا المعنى فى البقرة فى قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ »[(٢)] .

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يعنى المسلمين والمشركين يوم بدر ﴿فِئَةٌ﴾ قرأ الجمهور «فئة» بالرفع، بمعنى إحداهما فئة . وقرأ الحسن ومجاهد « فِئَةٍ » بالخفض « وأُخْرَى كَافِرَةٍ » على البدل . وقرأ ٱبن أبى عبلة بالنصب فيهما . قال أحمد بن يحيى : ويجوز النصب على الحال، أى التقتا مختلفتين مؤمنة وكافرة . قال الزجاج : النصب بمعنى أعنى . وسمِّيت الجماعة من الناس فئة لأنها يُفَاء إليها، أى يرجع إليها فى وقت الشدّة . وقال الزجاج : الفئة الفرقة، مأخوذة من فَأَوْتُ رأسه بالسيف — ويقال : فأيته — إذا فلقته[(٣)] . ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هى إلى يوم بَدْر . وٱختلف من المخاطب بها؛ فقيل : يحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، ويحتمل أن يخاطب بها جميع الكفار، ويحتمل أن يخاطب بها يهود المدينة؛ وبكل ٱحتمال منها قد قال قوم . وفائدة الخطاب للؤمنين تثبيت النفوس وتشجيعها حتى يقدموا على مثليهم وأمثالهم كما قد وقع .

قوله تعـالى : ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ قال أبو علىّ : الرؤية فى هذه الآية رؤية عين؛ ولذلك تعدّت إلى مفعول واحد . قال مكىّ والمهدوىّ : يدل عليه «رَأْيَ الْعَيْنِ» . وقرأ نافع «تَرَوْنَهُمْ» بالتاء والباقون بالياء[(٤)] . ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ نصب على الحال من الهـاء والميم فى « ترونهم » . والجمهـور من الناس على أن الفاعل بترون هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار . وأنكر أبو عمـرو أن يقرأ

---

(١) البرهرهة : الرقيقة الجلد، أو هى الملساء المترجرجة . والرؤدة والرءودة : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء . والرخصة : اللينة الخلق . والخرعوبة : القضيب الغض اللدن . والبانة : واحد شجر البان . والمنفطر : المتشقق . يقال : قد ٱنفطر العود إذا ٱنشق وأخرج ورقه . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢٥٧ ، وص ٢٦٨

(٣) الذى فى نسخ : أ وب وجـ : قلعته، والمثبت ما فى المعاجم .

(٤) الذى فى تفسير النيسابورى : « ترونهم بتاء الخطاب أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب الباقون بالياء » .

« ترونهم » بالتاء؛ قال : ولو كان كذلك لكان مِثليكم . قال النحاس : وذا لا يلزم، ولكن يجوز أن يكون مِثلى أصحابكم . قال مكىّ : « تَرَوْنَهُم » بالتاء جرى على الخطاب فى « لَكُمْ » فيحسن أن يكون الخطاب للسلمين ، والهاء والميم للشركين . وقد كان يلزم من قرأ بالتاء أن يقرأ مثليكم بالكاف ، وذلك لا يجوز لمخالفة الخط ؛ ولكن جرى الكلام على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »(١)، وقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُم مِن زَكَاةٍ »(٢) فخاطب ثم قال : « فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ » فرجع إلى الغيبة . فالهاء والميم فى « مِثْلَيْهِم » يحتمل أن يكون للشركين، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلْىْ ما هم عليه من العدد؛ وهو بعيد فى المعنى؛ لأن الله تعالى لم يُكَثِّر المشركين فى أعين المسلمين بل أعلمنا أنه قلّلهم فى أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المؤمنون المشركين مِثليكم فى العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلَّل الله المشركين فى أعين المسلمين فأراهم إياهم مِثلْىْ عِدّتهم لتقوى أنفسُهم ويقع التجاسُر، وقد كانوا أُعلِموا أنّ المـائة منهم تغلب المـائتين من الكفار، وقلّل المسلمين فى أعين المشركين ليجْترئوا عليهم فينفُذ حكم الله فيهم . ويحتمل أن يكون الضمير فى «مِثلَيْهِم» للسلمين، أى ترون أيها المسلمون المسلمين مِثلْىْ ما أنتم عليه من العدد، أى ترون أنفسكم مثلْىْ عددكم؛ فعل الله ذلك بهم لتقوى أنفسهم على لقاء المشركين . والتأويل الأوّل أولى؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا »(٣) وقوله : « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا » . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين؟ قال : أظنهم مائة . فلما أخذنا الأسارى أخبرونا أنهم كانوا ألفا . وحكى الطبرىّ عن قوم أنهم قالوا : بل كثّر الله عدد المؤمنين فى عيون الكافرين حتى كانوا عنـدهم ضِعفيْهم . وضعّف الطبرى هذا القول . قال ابن عطية : وكذلك هو مردود من جهات . بل قلّل الله المشركين فى أعين المؤمنين كما تقدّم . وعلى هذا التأويل كان يكون « ترون » للكافرين، أى ترون أيها الكافرون المؤمنين مثليهم ، ويحتمل مثليكم ، على ما تقدّم . وزعم الفرّاء أنّ المعنى

---

(١) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ (٢) راجع ج ١٦ ص ٣٥ (٣) راجع ج ٨ ص ٢٢

ترونَهم مثلَيهم ثلاثةَ أمثالهم . وهو بعيدٌ غير معروف فى اللغة . قال الزجاج : وهذا باب الغلط ، فيه غلط فى جميع المقاييس؛ لأنا إنمـا نعقل مثل الشيء مساوياً له ، ونعقل مثليْه ما يساويه مرتين . قال ابن كَيْسان : وقد بين الفرّاء قوله بأن قال : كما تقول وعندك عبدٌ : أحتاج إلى مثله ، فأنت محتاج إليـه و إلى مثله . وتقول : أحتاج إلى مثليه، فأنت محتاج إلى ثلاثة . والمعنى على خلاف ما قال، واللغةُ . والذى أوقع الفرّاء فى هذا أن المشركين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين يوم بدر؛ فتوهّم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عِدّتهم، وهـذا بعيد وليس المعنى عليه . و إنما أراهم الله على غير عِدّتهم لجهتين : إحداهما أنه رأى الصلاح فى ذلك؛ لأن المؤمنين تقوى قلوبهم بذلك . والأخرى أنه آية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى ذكر وقعة بدر(١) إن شاء الله تعـالى . وأمّا قراءة الياء فقال ابن كيسان : الهـاء والميم فى « يرونهم » عائدة على « وَأُخْرَى كَافِرَةٌ » والهاء والميم فى « مثليهم » عائدة على « فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ » وهذا من الإضمار الذى يدل عليه سياق الكلام ، وهو قوله : « يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ » . فدل ذلك على أن الكافرين كانوا مِثْلَى المسلمين فى رأى العين وثلاثة أمثالهم فى العدد . قال : والرؤية هنا لليهود . وقال مكيّ : الرؤية للفئة المقاتلة فى سبيل الله، والمرئية الفئة الكافرة؛ أى ترى الفئةُ المقاتلة فى سبيل الله الفئةَ الكافرة مِثْلَى الفئة المؤمنة ، وقد كانت الفئة الكافرة ثلاثة أمثال المؤمنة فقلّلهم الله فى أعينهم على ما تقدّم . والخطاب فى « لكم » لليهود . وقرأ ابن عباس وطلحة « تُرَوْنَهم » بضم التاء، والسلميّ بالتاء مضمومة على ما لم يسم فاعله .

﴿ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ ﴾ تقدّم معناه والحمد لله .

قوله تعـالى : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

(١) فى ص ١٩٠ فما بعد من هذا الجزء .

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ زين من التزيين . وآختلف الناس مَن المزيِّن؛ فقالت فرقةٌ : الله زيّن ذلك ؛ وهو ظاهر قول عمــر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكــره البخاريّ . وفى التنزيل : «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا» (١) ؛ ولمـا قال عمر : الآن يارب حين زيّنتها لنا ! نزلت « قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ » وقالت فرقة : المزيِّن هو الشيطان؛ وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال : مَنْ زيّنها؟ ما أحدٌ أشدّ لها ذمّا من خالقها . فتزيين الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للآنتفاع وإنشاء الجِبِلّة على الميل إلى هذه الأشياء . وتزيين الشيطان إنما هو بالوَسْوَسة والخديعة وتحسين أَخْذها من غير وجوهها . والآية على كلا الوجهين آبتداءُ وعظ لجميع الناس، وفى ضمن ذلك توبيخٌ لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم . وقرأ الجمهور « زُيِّنَ » على بناء الفعل للفعول، ورفع «حُبُّ» . وقرأ الضحاك ومجاهد «زَيَّنَ» على بناء الفعل للفاعل، ونصب « حُبَّ » . وحركت الهاء من « الشَّهَوَاتِ » فرقا بين الآسم والنعت . والشَّهوات جمع شَهْوة وهى معروفة. ورجل شهوان للشئ (٢)، وشئ شهىّ أى مُشْتَهًى . وآتباع الشهوات مردٍ وطاعتها مهلكة . وفى صحيح مسلم : " حُفَّتِ الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات" رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لاتنال إلا بقطع مفاوز المكاره و بالصبر عليها . وأن النار لا يُنْجَى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:"طريق الجنة حَزْنٌ (٣) بِرَبْوة وطريق النار سهل بسَهْوَة"؛ وهو معنى قوله : " حفت الجنة بالمكاره وحفت النـار بالشهوات" . أى طريق الجنة صعبة المسلك فيه أعلى ما يكون من الرَّوابِي، وطريق النار سهل لا غِلظ فيه ولا وعورة، وهو معنى قوله " سهل بسهوة " وهو بالسين المهملة .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣

(٢) هذه عبارة الصحاح الذى يعتمد عليه المؤلف كثيرا . وفى الأصول : « الشهوان للشىء » .

(٣) الحزن (بفتح فسكون) : المكان الغليظ الخشن . والربوة (بالضم والفتح) : ما آرتفع من الأرض . والسهوة : الأرض اللينة التربة .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهنّ لكثرة تشوّف النفوس إليهن؛ لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تركت بعدى فتنةً أشدَّ على الرجال من النساء" أخرجه البخارىّ ومسلم. ففتنة النساء أشدّ من جميع الأشياء. ويقال: فى النساء فتنتان، وفى الأولاد فتنة واحدة. فأمّا اللتان فى النساء فإحداهما أن تؤدّى إلى قطع الرحم؛ لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمّهات والأخوات. والثانية يُبتلى بجمع المال من الحلال والحرام. وأمّا البنون فإن الفتنة فيهم واحدة، وهو ما ٱبْتُلِي بجمع المال لأجلهم. وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُسْكِنوا نساءكم الغُرَف ولا تُعَلِّموهنّ الكِتاب". حذرهم رسول[1] الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن فى إسكانهن الغرف تطلّعا إلى الرجال، وليس فى ذلك تحصينٌ لهن ولا سِتْر؛ لأنهن قد يُشْرِفْن على الرجال فتحدُث الفتنة والبلاء، ولأنهن قد خُلِقْن من الرجل؛ فهِمّتها فى الرجل والرجلُ خُلِق فيه الشهوة وجُعِلَتْ سَكَنًا له؛ فغير مأمونٍ كل واحد منهما على صاحبه. وفى تعلمهن الكتاب هـذا المعنى من الفتنة وأشد. وفى كتاب الشِّهاب عن النبى صلى الله عليه وسلم: "أَعْرُوا النساء يَلْزَمْن الحِجَال". فعلى الإنسان إذا لم يصبر فى هـذه الأزمان أن يبحث عن ذات الدِّين ليسلَم له الدِّين؛ قال صلى الله عليه وسلم: "عَلَيْكَ بذاتِ الدين تَرِبَتْ[2] يداك" أخرجه مسلم عن أبى هريرة. وفى سنن ٱبن ماجه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تَزَوَّجوا النساء لحسنهن فعسى حسنُهن أن يُرْدِيهن ولا تزوجوهنّ لأموالهن فعسى أموالهن أن تُطْغِيهن ولكن تَزوجوهن على الدِّين ولأَمَةٌ سَوْداء خَرْماء[3] ذات دِين أفضلُ".

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿وَالْبَنِينَ﴾ عطف على ما قبله. وواحد من البنين ٱبن. قال الله تعالى مخبرا عن نوح: "إنّ ٱبني مِنْ أَهْلِي[4]". وتقول فى التصغير «بُنَيّ» كما قال لقمان. وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأشعث بن قيس: "هل لك من ٱبنة حمزة من

(١) الزيادة فى د. (٢) ترب الرجل: ٱفتقر، أى لصق بالتراب؛ وأترب إذا ٱستغنى. وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب، وإنما يريدون الحث والتحريض.
(٣) خرماء: مقطوعة بعض الأنف ومثقوبة الأذن. (٤) راجع جـ ٩ ص ٤٥

ولد"؟ قال؟ نعم، لى منها غلام ولوددتُ أن لى به جَفنَةً من طعام أطعمها مَن بقى من بنى جَبَلة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "لئن قلت ذلك إنهم لثمرة القلوب وقرّة الأعين و إنهم مع ذلك لَمَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ(١) " .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ ﴾ القناطير جمع قنطار، كما قال تعالى: «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا(٢) » وهو العُقْدة الكبيرة من المال، وقيـل : هو آسم للمِعْيار الذى يُوزَن به؛ كما هو الرطل والربع . ويقال لِما بَلَغ ذلك الوزنَ : هذا قنطار، أى يعدل القنطار. والعرب تقول : قَنْطَر الرجلُ إذا بلغ ماله [أن] يوزن بالقنطار . وقال الزجاج : القِنطار مأخوذ من عقد الشئ و إحكامه؛ تقول العرب : قنطرتَ الشيء إذا أحكمته ؛ ومنه سميت القنطرة لإحكامها . قال طرفة :

كَقَنْطَرَةِ الرُّومىِّ أقسم ربُّهـا * لتُكْتَنَفَنْ حتى تُشَادَ بقَرْمَدِ(٣)

والقنطرة المعقودة؛ فكأن القنطار عَقْدُ مالٍ. وآختلف العلماء فى تحرير حَدِّه كم هو على أقوال عديدة ؛ فروى أُبَىُّ بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " القنطار ألف أُوقِيَّة ومائتا أوقية"؛ وقال بذلك معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وجماعة من العلماء . قال آبن عطية : «وهو أصح الأقوال ، لكن القنطار على هذا يختلف بآختلاف البلاد فى قدر الأوقية» . وقيل : آثنا عشر ألف أوقية ؛ أسنده البستى فى مسنده الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " القنطار آثنا عشر ألف أُوقية الأوقية خير مما بين السماء والأرض " . وقال بهـذا القول أبو هريرة أيضا . وفى مسـند أبى محمد الدارمى عن أبى سعيد الخدرى قال : «من قرأ فى ليلة عشر آيات كُتِب من الذاكرين، ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بخمسمائة آية إلى الألف أصبح وله قنطار من الأجر» قيل :

---

(١) أى أن الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفا من الموت فيصيب أبناءهم اليتم وآلامه ، ويجعـلونهم يبخلون فلا ينفقون فيما ينبغى أن ينفق فيه إيثارا لهم بالمال ، ويجعلونهم يحزنون عليهم إن أصابهم مرض ونحوه .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٩٩ (٣) القرمد الآجر والحجارة .

وما القنطار ؟ قال : «ملء مَسْك ثَوْرٍ ذهبًا» . موقوف؛ وقال به أبو نَضْرَة العَبْدى . وذكر ابن سِيدَه أنه هكذا بالسريانية . وقال النقاش عن ابن الكلبي أنه هكذا بلغة الروم . وقال ابن عباس والضحاك والحسن : ألف ومائتا مثقالٍ من الفضة ؛ ورفعه الحسن . وعن ابن عباس : اثنا عشر ألف درهم من الفضة ، ومن الذهب ألف دينار دِية الرجل المسلم؛ وروى عن الحسن والضحاك . وقال سعيد بن المسيِّب : ثمانون ألفا . قتادة : مائة رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة . وقال أبو حمزة الثُّمالى[1] : القنطار بإفريقية والأندلس ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة . السدى : أربعة آلاف مثقال . مجاهد : سبعون ألف مثقال ؛ وروى عن ابن عمر . وحكى مكى قولا أن القنطار أربعون أوقية من ذهب أوفضة؛ وقاله ابن سِيدَه فى المحكم ، وقال : القنطار بلغة بَرْبَرْ ألف مثقال . وقال الربيع ابن أنس : القنطار المال الكثير بعضه على بعض ؛ وهذا هو المعروف عند العرب ، ومنه قوله : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا » أى مالا كثيرا . ومنه الحديث : " إنّ صفوان بن أمية قَنْطَر فى الجاهلية وقَنْطَر أبوه " أى صار له قنطار من المال . وعن الحكم : القنطار هو ما بين السماء والأرض . واختلفوا فى معنى «المُقَنْطَرَةِ» فقال الطبرى وغيره : معناه المُضَعَّفَة ، وكأنّ القناطير ثلاثةٌ والمقنطرة تسعٌ . وروى عن الفرّاء أنه قال : القناطير جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع ، فيكون تسع قناطير . السدى : المقنطرة المضروبة حتى صارت دنانير أو دراهم . مكى : المقنطرة المُكَمَّلة ؛ وحكاه الهروى ؛ كما يقال : بِدَرٌ مُبَدَّرَة ، وآلافٌ مؤلَّفة . وقال بعضهم . ولهذا سمى البناء القنطرة لتكاثف البناء بعضه على بعض . ابن كيسان والفرّاء : لا تكون المقنطرة أقل من تسع قناطير . وقيل : المُقَنْطَرة إشارة إلى حضور المال وكونه عتيدا . وفى صحيح البستىّ عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطِرين " .

---

(١) الثمالى (بضم المثلثة وتخفيف الميم ولام) : نسبة إلى ثمالة بطن من الأزد .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّـةِ ﴾ الذهب مؤنثة[1] ؛ يقال : هى الذهب الحسنةُ ، جمعها ذهاب وذُهُوب[2] . ويجوز أن يكون جمع ذَهْبَة ، ويجمع على الأذْهَاب . وذهب فلان مذهبا حسنا . والذهب : مكيالٌ لأهل اليمن . ورجل ذَهِبٌ إذا رأى معـدِن الذّهَب فدَهِش . والفضّة معروفة ، وجمعها فِضَضٌ . فالذهب مأخوذة من الذَّهَاب ، والفضة مأخوذة من آنفَضّ الشيء تفرّق ؛ ومنه فَضَضْتُ القوم فآنفضوا ، أى فرقتهم فتفرّقوا . وهـذا الآشتقاق يُشعر بزوالها وعدم ثُبوتهما كما هو مشاهد فى الوجود . ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم :

النّـار آخِرُ دِينـارٍ نطقتَ به * والهمُّ آخِرُ هذا الدِّرْهِمِ الجارى
والمرءُ بينهما إن كان ذا وَرَعٍ * مُعذَّبَ القلبِ بَيْنَ الهَمِّ والنار

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ والخَيْلِ ﴾ الخيل مؤنثة . قال آبن كيسان : حُدِّثت عن أبى عبيدة أنه قال : واحد الخيل خائل ، مثل طائر وطير ، وضائن وضَيْن ؛ وسمّى الفرس بذلك لأنه يختال فى مشيه . وقال غيره : هو آسم جمع لا واحد له من لفظه ، واحده فرس ، كالقوم والرهْط والنساء والإبل ونحـوها . وفى الخبر من حديث علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق الفرس من الريح ولذلك جعلها تطير بلا جناح" . وَهْبُ بن مُنَبِّه : خلقها من ريح الجَنُوب . قال وهب : فليس تسبيحة ولا تكبيرة ولا تهليلة يكبرها صاحبها إلا وهو يسمعها فيجيبه بمثلها . وسيأتى لذكر الخَيْل ووصفها فى ســـورة « الأنفال »[3] مافيه كفايةٌ إن شاء الله تعالى . وفى الخبر : " إن الله عرض على آدم جميع الدواب ، فقيـل له : آختر منها واحدا فآختار الفرس ؛ فقيل له : آخترت عِزّك ؛ فصار آسمه الخير من هذا الوجه . وسمّيت خيلا لأنها مَوْسُـومَة بالعزّ فمن ركبـه آعتز بنِحْلة الله له ويختال به على أعداء الله تعالى . وسمى فرسا

---

(١) هذا رأى المؤلف ، وقد ذكره شارح القاموس (فى مادة ذهب) . والمشهور أن الذهب يذكر و يؤنث كما فى معجمات اللغة . (٢) فى الأصول : والذى فى معجمات اللغة أن الذهب يجمع على أذهاب وذهوب وذهبان (بكسر أوّله) كبرق و برقان وذهبان (بضم أوّله) كحمل وحملان . فلعل ما فى الأصول محرّف عن «ذهبان» .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٥

لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا ، و يقطعها كالالتهام بيديه على شيء خبطا وتناولا ، وسمى عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت ، و إسماعيل عربى ، فصار له نِحلة من الله تعالى فسمى عربيا . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الشيطان دارا فيها فرس عتيق " . و إنما سمى عتيقا لأنه قد تخلص من الهجانة (١) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " خير الخيلِ الأدهم الأقرح الأرثم (٢) [ثم الأقرح المحجل (٣)] طلق اليمين فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية " . أخرجه الترمذيّ عن أبى قتادة . وفى مسند الدارمىّ عنه أن رجلا قال : يا رسول الله، إنى أريد أن أشترى فرسا [فأيها أشترى (٤)]؟ قال : " اشترِ أدهم أرثم محجلا (٥) طلق اليمين أو من الكميت على هذه الشية تغنم وتسلم " . وروى النسائى عن أنس قال : لم يكن أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل . وروى الأئمة عن أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل ثلاثة لرجلٍ أجر ولرجلٍ سِتر ولرجل وِزر " الحديث بطوله ، شهرته أغنت عن ذكره . وسيأتى ذكر أحكام الخيل فى « الأنفال (٦) » و « النحل » بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ يعنى الراعية فى المروج والمسارح ؛ قاله سعيد ابن جبير . يقال : سامت الدابة والشاة إذا سرحت تسوم سوما فهى سائمة . وأسمتها أنا إذا تركتها لذلك فهى مسامة . وسوّمتها تسويما فهى مُسَوَّمة . وفى سنن ابن ماجه عن علىّ قال : نهى

---

(١) الهجين الذى ولدته برذونة من حصان عربى .

(٢) الأقرح : ما فى جبهته قرحة ، وهى بياض يسير فى وجه الفرس دون الغرة . والأرثم : أبيض الأنف والشفة العليا . والمحجل : أن تكون قوائمه الأربع بيضا يبلغ منها ثلث الوظيف (مستدق الذراع والساق أو ما فوق الرسغ إلى الساق) أو نصفه أو ثلثيه بعد أن يجاوز الأرساغ ولا يبلغ الركبتين والعرقوبين . وطلق اليمين : لاتحجيل فيها . والكميت : ما لونه بين السواد والحمرة . والشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره .

(٣) زيادة عن سنن الترمذىّ . (٤) زيادة عن مسند الدارمى .

(٥) فى مسند الدارمى والأصول : « محجل » . (٦) راجع جـ ٨ ص ٣٦ و جـ ١٠ ص ٧٣

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السَّوْم[(١)] قبل طلوع الشمس ، وعن ذبح ذوات الدَّر . السوم هنا في معنى الرعي . وقال الله عز وجل : « فِيهِ تُسِيمُونَ[(٢)] » . قال الأخطل :

مثل ٱبنِ بزعة[(٣)] أو كآخر مثـلِه * أَولى لك[(٤)] ٱبن مسيمةِ الأجْمـالِ

أراد ٱبن راعيـة الإبل . والسوام : كل بهيمة ترعى ، وقيـل : المعدّة للجهـاد ؛ قاله ٱبن زيد . مجاهد : المُسَوَّمَة المطَهَّمَة الحسان . وقال عِكرمة : سـوّمها الحسن ؛ وٱختاره النحاس ، مِن قولهم : رجل وسِـيم . وروى عن ٱبن عباس أنه قال : المسومة المعلمة بشيات الخيل في وجوهها ، من السيما وهي العلامة . وهذا مذهب الكِسائِيّ وأبي عبيدة .

قلت : كل ما ذكر يحتمله اللفظ ، فتكون راعية مُعَدّة حسانا مُعْلَمَة لِتُعرفَ من غيرها . قال أبو زيد : أصل ذلك أن تجعل عليها صوفة أو علامة تخالف سائر جسدها لتبين من غيرها في المرعى . وحكى ٱبن فارس اللغويّ في مجمله : المسوَّمَة المرْسَلَة وعليها ركبانها . وقال المؤرِّج[(٥)] : المسوّمة المكْوية . المبرّد : المعروفة في البلدان . ٱبن كيسان : البُلْقُ . وكلها متقارب من السيما . قال النابغة :

وضُمْرٍ كالقِـدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ * عليهـا مَعْشَرٌ أشْـباهُ جِنِّ

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامِ ﴾ قال ٱبن كيسان : إذا قلت نَعَمٌ لم تكن إلا الإبل ، فإذا قلت أنعامٌ وقعت للإبل وكل ما يرعى . قال الفرّاء : هو مُذَكَّرٌ ولا يؤنّث ؛ يقولون :

---

(١) في حاشية السندي على سنن ٱبن ماجه واللسان (مادة سوم) عند الكلام عن هــذا الحديث : « السوم : أن يساوم بسلعته ، ونهى عن ذلك في ذلك الوقت لأنه وقت يذكر الله فيه فلا يشتغل بغيره . ويحتمل أن المراد بالسوم الرعي ؛ لأنها إذا رعت الرعي قبل شروق الشمس وهو عليه ند أصابها منه داء قتلها ؛ وذلك معروف عند أهل المـال من العرب » .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٨٢

(٣) كذا في ديوانه . ورواية الأغاني (جـ ٨ ص ٣١٩ طبع دار الكتب المصرية) : « كابن البزيعة ... » . والذي في الأصــول : « ضل ٱبن زرعة ... » . ويعني بٱبن بزعة : شداد بن المنــذر أخا حصين الذهلي . وقوله « كآخر مثـله » يعني حوشب بن رؤيم .

(٤) أولى لك : ويل لك ، فهي كلمة تقال في مقام التهـديد والوعيد . وقال الأصمعي : معناه قاربه ما يهلكه ، أي نزل به .

(٥) المؤرج (كمحدث) : أبو فيد عمرو بن الحارث السدوسي النحوي البصري ، أحد أئمة اللغة والأدب .

هـذا نَعَمٌ واردٌ ، ويجمع أنعاما . قال الهَروِيّ : والنَّعَم يذكَّر و يؤنَّث، والأنعام المَواشي من الإبل والبقر والغنم ؛ و إذا قيل : النَّعَم فهو الإبل خاصّة . وقال حسان :

وكانت لا يزال بها أنِيس * خِلَالَ مُروجِها نَعَمٌ وشَاءُ

وفي سنن ابن ماجه عن عروة البارِقِيّ يرفعه قال : " الإبلُ عِزٌّ لأهلها والغنم بركةٌ والخيرُ معقودٌ في نواصي الخيل إلى يوم القيامة " . وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشاة من دوابّ الجنة " . وفيه عن أبي هريرة قال : أمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدَّجَاج . وقال : عند اتخاذ الأغنياءِ الدجاج يأذن الله تعالى بهلاك القرى . وفيه عن أُمّ هانِئ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لها : " اتَّخِذِي غَنَمًا فإنّ فيها بركة " . أخرجه عن أبي بكر بن أبي شَيْبة عن وكيع عن هِشام بن عُرْوة عن أبيه عن أمّ هانِئ ، إسناد صحيح .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ والحَرْثِ ﴾ الحرث هنا اسم لكل ما يُحْرَث، وهو مصدر سمّي به ؛ تقول : حَرَث الرجل حَرْثا إذا أثار الأرض لمعنى الفِلَاحَة ؛ فيقع اسم الحِراثة على زرع الحبوب وعلى الجَنّات وعلى غير ذلك من نوع الفِلاحة . وفي الحديث : " احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا " . يقال حرثت واحترثت . وفي حديث عبـد الله " احْرُثوا هذا القرآن " أي فتّشوه . قال ابن الأعرابيّ : الحرث التَّفتيش ؛ وفي الحديث : " أصدقُ الأسماء الحارثُ " لأن الحـارث هو الكاسب ، واحتراث المـال كسبه ، والمِحْرَاث مُسْعر النار والحَرَاثُ مَجْـرى الوَتَر في القوس، والجمع أحْرِثة، وأحرث الرجل ناقته أهْزَلها . وفي حديث معاوية : ما فعلتْ نَواضِحُكم[1] ؟ قالوا : حَرَثْناها يومَ بَدْر . قال أبو عبيد : يعنون هزلناها ؛ يقـال : حرثت الدابة وأحرثتها، لغتان . وفي صحيح البخاريّ عن أبي أُمامة الباهِلِيّ قال وقد رأى سِكّة[2]

(١) النواضح من الإبل التي يستق عليها ؛ واحدها ناضح . والخطاب للأنصار : وقد قعدوا عن تلقيه لما حج ؛ وأراد معاوية بذكر نواضحهم تقريعا لهم وتعريضا ، لأنهم كانوا أهل زرع وحرث وسق ؛ فأجابوه بما أسكته ، فهم يريدون بقولهم « هزلناها يوم بدر » التعريض بقتل أشياخه يوم بدر . (النهاية) .

(٢) السكّة (بكسر السين وتشديد الكاف المفتوحة) : الحديدة التي تحرث بها الأرض .

وشيئا من آلة الحرث فقال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يدخلُ هـذا بيت قومٍ إلا دخله الذّل". قيل : إنّ الذلّ هنا ما يلزَم أهل الشغلَ بالحرث من حقوق الأرض التي يطالبهم بها الأئمة والسلاطين . وقال المهلب : معنى قوله فى هذا الحديث والله أعلم الحَضّ على مَعالى الأحـوال وطلب الرزق من أشرف الصناعات ؛ وذلك لمـا خشى النبيّ صلى الله عليه وسلم على أمته من الآشتغال بالحرث وتضييع ركوب الخيل والجهاد فى سبيل الله ؛ لأنهم إن آشتغلوا بالحرث غلبتهم الأمم الراكبة للخيل المتعيشة من مكاسبها ؛ فحضهم على التعيُّش من الجهاد لا من الخـلود(١) إلى عمارة الأرض ولزوم المِهْنة . ألا ترى أنّ عمر قال : تمعْدَدوا(٢) وآخْشَوْشِنوا وآقطعوا الرُكُبَ(٣) وثِبوا على الخيل وَثْباً لا تغلبنّكم عليهـا رعاة الإبل . فأمرهم بملازمة الخيل، ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما مِن مسلم غَرَسَ غَرْسًا أو زَرَع زرعاً فيأ كل منـه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة " .

قال العلماء : ذكر الله تعـالى أربعة أصناف من المـال ، كل نوع من المـال يتموّل به صنف من الناس ؛ أمّا الذهب والفضة فيتموّل بها التجار ، وأمّا الخيل المسوّمة فيتموّل بها الملوك ، وأمّا الأنعام فيتموّل بهـا أهل البوادِى ، وأمّا الحرث فيتموّل بها أهل الرساتيق(٤) . فتكون فتنة كل صنف فى النوع الذى يتموّل ، فأمّا النساء والبنون ففتنة للجميع .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى ما يُتَمتَّع به فيها ثم يذهب ولا يبقى . وهذا منه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة . روى آبن ماجه وغيره عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنمـا الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة " . وفى الحديث : " اِزهد فى الدنيـا يحبك الله " أى فى متاعها من الجـاه والمـال الزائد على الضرورىّ . قال صلى الله عليه وسلم : "ليس لآبن آدم حق فى سوى هذه

---

(١) اللغة الفصحى « من الإخلاد » . (٢) يقال : تمعدد الغلام إذا شب وغلظ . وقيل : أراد تشبهوا بعيش معدّ بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقشف ؛ أى كونوا مثلهم ودعوا التنعم وزى العجم . (٣) فى مسند الإمام أحمد بن حنبل : «وألقوا الركب» جمع ركاب : هي الرواحل من الإبل ، أو جمع ركوب وهى كل ما يركب من دابة.
(٤) الرساتيق : السواد والقرى واحدها رستاق ، وفى ز : البساتين .

الخصالِ بيتٌ يسكنه وثوبٌ يُوارِى عورتَه وجِلْفُ[1] الخبز والمـاء" أخرجه الترمذى من حديث المِقدام بن معدِ يكرب . وسئل سهل بن عبـد الله : بِمَ يسهل على العبد ترك الدنيا وكل الشهوات ؟ قال : بتشاغله بمـا أُمِر به .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَـآبِ ﴾ إبتداءٌ وخبر . والمآب المرجع ؛ آب يؤوب إيابا إذا رجع ؛ قال آمرؤ القيس .

وقد طوفت فى الآفاق حتى * رضيتُ من الغَنِيمَةِ بالإيابِ

وقال آخر :

وكلّ ذى غَيْبَـةٍ يؤُوبُ * وغائِبُ المْوَتِ لا يؤوبُ

وأصل مآب مأوب، قلبت حركة الواو إلى الهمزة وأبدل من الواو ألف، مثل مقال. ومعنى الآية تقليل الدنيا وتحقيرها والترغيب فى حسن المرجع إلى الله تعالى فى الآخرة .

قوله تعـالى : قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

منتهى الآستفهام عند قوله « مِن ذَٰلِكُمْ » ، « لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا » خبر مقدم، و « جنات » رَفْع بالآبتداء . وقيل : منتهاه «عِنْدَ رَبِّهِمْ»، و «جنات» على هذا رفع بآبتداء مضمر تقديره ذلك جنات . ويجوز على هذا التأويل « جَنَّاتٍ » بالخفض بدلًا من «خَيْرٍ» ولا يجوز ذلك على الأول . قال آبن عطية : وهذه الآية والتى قبلها نظير قوله عليه السلام : " تُنْكَح المرأة لأربع لِمـا لها وحسبها و جمالها ودِينها فآظفر بذات الدِّين تَرِبَتْ[2] يَداك " خرّجه مسلم وغيره . فقوله " فآظْفَرْ بذات الدين " مِثال لهذه الآية . وما قبـلُ مثالٌ للأولى . فذكر تعالى هذه تسليةً عن الدنيـا وتقويةً لنفوس تاركيها . وقد تقـدّم فى البقرة[3] معانى ألفاظ هذه الآية .

(١) الجلف (بكسر فسكون) : الخبز وحده لا أُدم معه ؛ وقيل : هو الخبز الغليظ اليابس .
(٢) راجع هامشة ١ ص ٢٩ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ فما بعد .

والرضوان مصدر من الرضا، وهو أنه إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تعالى لهم "تريدون شيئا أزيدكم" ؟ فيقولون : ياربنا وأى شىء أفضل من هذا ؟ فيقول : "رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا" خرجه مسلم . وفى قوله تعالى : « وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » وعدٌ ووعيدٌ .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

﴿الَّذِينَ﴾ بدل من قوله «لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا» وإن شئت كان رفعا أى هم الذين، أونصبا على المدح . ﴿رَبَّنَا﴾ أى يا ربنا . ﴿إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أى صدّقنا . ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ دعاء بالمغفرة . ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ تقدّم فى البقرة (١) . ﴿الصَّابِرِينَ﴾ يعنى عن المعاصى والشهوات، وقيل : على الطاعات . ﴿والصَّادِقِينَ﴾ أى فى الأفعال والأقوال ﴿والقَانِتِينَ﴾ الطائعين . ﴿والْمُنْفِقِينَ﴾ يعنى فى سبيل الله . وقد تقدّم فى البقرة (٢) هذه المعانى على الكمال . ففسر تعالى فى هذه الآية أحوال المتقين الموعودين بالجنات .

وٱختلف فى معنى قوله تعالى : ﴿والْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ فقال أنس بن مالك : هم السائلون المغفرة . قتادة : المصلّون .

قلت : ولا تناقض، فإنهم يصلون ويستغفرون . وخص السَّحَر بالذكر لأنه مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام لبنيه : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى» (٣) : "إنه أخر ذلك إلى السحر" خرّجه الترمذى وسيأتى . وسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم جبريل "أىّ الليل أسمع" ؟ فقال : "لا أدرى غير أنّ العرش يهتزّ عند السحر" . يقال سحر وسحر، بفتح الحاء وسكونها ، وقال الزجاج : السحر من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثانى، وقال ٱبن زيد : السحر هو سدس الليل الآخر .

(١) راجع المسألة الثانية جـ ٢ ص ٤٣٣ وراجع المسألة الخامسة جـ ٣ ص ٢١٣

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨، ١٧٩، ٢٣٣، ٣٧١

(٣) راجع جـ ٩ ص ٢٦٢

قلت : أصح من هذا ما روى الأئمة عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأوّل فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيه من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر " فى رواية « حتى ينفجر الصبح » لفظ مسلم . وقد آختُلف فى تأويله ؛ وأولى ما قيل فيه ما جاء فى كتاب النّسائىّ مفسّرا عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله عز وجل يمهل حتى يمضى شطرُ الليل الأوّل ثم يأمر مناديا فيقول هل من داعٍ يُستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يُعطى " . صححه أبو محمد عبد الحق ، وهو يرفع الإشكال ويوضح كل آحتمال ، وأنّ الأوّل من باب حذف المضاف ، أى ينزل ملَكُ ربنا فيقول . وقد روى « يُنْزَل » بضم الياء ، وهو يبيّن ما ذكرنا ، وبالله توفيقنا . وقد أتينا على ذكره فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى » .

مسألة — الأستغفار مندوبٌ إليه ، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين فى هذه الآية وغيرها فقال : « وبِالأسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »(١) . وقال أنس بن مالك : أُمرنا أن نستغفر بالسحر سبعين آستغفارة . وقال سفيان الثورىّ : بلغنى أنه إذا كان أوّل الليل نادى منادٍ ليقم القانتون(٢) فيقومون كذلك يصلّون إلى السحر ، فإذا كان عند السحر نادى مناد : أين المستغفرون فيستغفر أولئك ، ويقوم آخرون فيصلون فيلحقون بهم . فإذا طلع الفجر نادى منادٍ : ألا ليقم الغافلون فيقومون من فرشهم كالموتى نُشروا من قبورهم . وروى عن أنس سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يقول إنى لأهمّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى عُمّار بيوتى وإلى المتحابّين فىّ وإلى المتهجدين والمستغفرين بالأسحار صرفت عنهم العذاب بهم " . قال مكحول : إذا كان فى أمّة خمسة عشر رجلا يستغفرون الله كل يوم خمسا وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامّة . ذكره أبو نعيم فى كتاب الحلية له . وقال نافع : كان آبن عمر يحيى(٣) الليل ثم

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٧ (٢) فى نسخ الأصول : المستغفرين ، عدا : ح . فنها التصويب .
(٣) فى ا : يقوم .

يقول : يا نافع أسحرنا ؟ فأقول لا . فيعاود الصــلاة ثم يسأل ، فإذا قلت نعم قعد يستغفر .
وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيــه قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحيــة المسجد يقول :
يا ربّ ، أمرتنى فأطعتك ، وهــذا سحرٌ فآغفر لى . فنظرت فإذا [هو](١) آبن مسعود .

قلت : فهذا كله يدل على أنه آستغفار باللسان مع حضور القلب ، لا ما قال آبن زيد
أن المراد بالمستغفرين الذين يصلون صلاة الصبح فى جماعة . والله أعلم . وقال لقمان لآبنه :
"يابنىّ لا يكنِ الدِّيك أكيسَ منك، ينادِى بالأسحار وأنت نائم" . والمختار من لفظ الآستغفار
ما رواه البخارى عن شدّاد بن أوس، وليس له فى الجامع غيره، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم
قال : " سيد الآستغفار أن تقول اللهم أنت ربّى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على
عهدك ووعدك ما آستطعت أعـوذ بك من شر ما صنعتُ أبُوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى
فآغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت — قال — ومَنْ قالها من النهار مُوقِنا بها فمات من يومه
قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو مُوقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح
فهو من أهل الجنة" . وروى أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد من حديث آبن لَهِيعَةَ عن أبى صخر
عن أبى معاوية عن سعيد بن جُبَيْر عن أبى الصَّهْباء البكرىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله
عنــه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه ثم قال :
" ألا أُعَلِّمك كلماتٍ تقولهنّ لو كانت ذنوبك كَمَدَبِّ النمل — أو كَمَدَبّ الذّرّ — لغفرها الله لك
على أنه مغفور لك : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فآغفر لى فإنه
لا يغفر الذنوب إلا أنت " .

قوله تعـالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فلما نزلت هذه
الآية خَرَرْنَ سُجّدا . وقال الكلبىّ : لمـا ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه

(١) فى نسخة : ز .

حبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ الذى يخرج فى آخر الزمان! . فلما دخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له : أنت محمد؟ قال "نعم". قالا : وأنت أحمد؟ قال : "نعم". قالا : نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدّقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَلَانى". فقالا : أخبرنا عن أعظم[1] شهادة فى كتاب الله . فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ » فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن المراد بأولي العلم الأنبياء عليهم السلام . وقال آبن كيسان : المهاجرون والأنصار . مقاتل : مؤمنوا أهل الكتاب . السدى والكلبيّ : المؤمنون كلهم؛ وهو الأظهر لأنه عام .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنهم الله باسمه وآسم ملائكته كما قرن آسم العلماء . وقال فى شرف العلم لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا »[2] . فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منـه كما أمر أن يستزيده من العـلم . وقال صلى الله عليه وسلم : "إنّ العلماء ورثة الأنبياء" . وقال : "العلماء أُمَنَاء الله على خلقه" . وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحلٌّ لهم فى الدِّين خطير . وخرّج أبو محمد عبد الغنيّ الحافظ من حديث بَرَكة آبن نَشِيط — وهو عَنْكَل بن حكارك وتفسيره بركة بن نشيط — وكان حافظا، حدّثنـا عمر آبن المؤمل حدّثنا محمد بن أبي الخصيب حدّثنا عنكل حدّثنا محمد بن إسحاق حدّثنا شريك عن أبى إسحاق عن البراء قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان فى البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة" . وفى هذا الباب [حديث] عن أبى الدرداء خرّجه أبو داود .

الثالثـــة — روى غالب القطان قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليـه . فلما كان ليـلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فتهجد من الليل فقرأ بهـذه الآية « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هو

(١) فى ا : الأعظم .	(٢) راجع ج ١١ ص ٢٥

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » ، قال الأعمش : وأنا أشهد بمـا شهد الله به ، وأستودع الله هـذه الشهادة ، وهى لى [عند الله](١) وديعة ، وأن الدين عند الله الإسلام — قالهـا مرارا — فغدوت إليه وودّعته ثم قلت : إنى سمعتك تقرأ هذه الآية فمـا بلغك فيها ؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدّثنى به . قال : والله لاحدّثتك به سنة . قال : فأقمت وكتبت على بابه ذلك اليوم ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة . قال : حدّثنى أبو وائل ، عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُجَاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعـالى عبدى عهِد إلىّ وأنا أحَقّ من وَفّى أدْخِلوا عبدى الجنة " . قال أبو الفرج الجوزىّ : غالب القطّان هو غالب بن خَطّاف(٢) القطّان ، يروى عن الأعمش حديث " شهد الله " وهو حديث مُعْضَـل(٣) . قال ٱبن عدِىّ الضعف على حديثه بَيِّن . وقال أحمـد بن حنبل : غالب بن خطّاف القَطّان ثِقةٌ ثقة . وقال ٱبن معِين : ثِقة . وقال أبو حاتم : صدوق صالح .

قلت : يكفيك من عدالته وثقته أن خرّج له البخارىّ ومسلم فى كتابيهما ، وحسبك . وروى من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " منْ قرأ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ عند منامه خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة " . ويقال من أقرّ بهـذه الشهادة عن عقد من قلبه فقـد قام بالعدل . وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمـائة وستون صنما لكل حَىّ من أحْيَـاء(٤) العرب صنمٌ أو صنمان . فلما نزلت هـذه الآية أصبحت الأصنام قد خرت ساجدة لله .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ أى بَيّن وأعلم ، كما يقال : شهِد فلان عند القاضى إذا بيّن وأعلم لمن الحقّ ، أو على مَنْ هو . قال الزجاج : الشاهد هو الذى يعلم الشىء ويبيّنه ، فقد دلّنا الله تعالى على وحدانيته بمـا خَلَق وبَيّن . وقال أبو عُبَيْدة : « شهِد الله » بمعنى قضى الله ، أى أعلم . وقال ٱبن عطية : وهذا مردود من جهات . وقرأ الكسائى بفتح « أنّ » فى قوله

(١) الزيادة فى نسخ ب ، ز ، جـ . (٢) بضم الخاء ، وقيل بفتحها .
(٣) المعضل : ماسقط من إسناده اثنان فصاعدا . (٤) فى ا .

«أنّه لا إله إلّا هُو» وقولِه «أنّ الدِّينَ» . قال المبرد : التقدير : أن الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو ، ثم حذفت البـاء كما قال : أمرتُك الخيرَ . أى بالخير . قال الكِسائىّ : أنصِبْهما جميعا ، بمعنى شهد الله أنه كذا ، وأنّ الدين عند الله . قال ٱبن كيسان : «أنّ» الثانية بدل من الأولى ؛ لأن الإســلام تفسير المعنى الذى هو التوحيد . وقرأ ٱبن عباس فيما حكى الكِسائى «شَهِدَ اللهُ إنّهُ» بالكسر «أنّ الدِّين» بالفتح . والتقدير : شهد الله أن الدين الإسلام ، ثم ٱبتدأ فقال : إنه لا إله إلا هو . وقرأ أبو المهلّب وكان قارئا ــ شُهَدَاءَ اللهِ بالنصب على الحال ، وعنــه « شُهَدَاءُ الله » . وروى شعبة عن عاصم عن زِرّ عن أُبَىّ عن النبىّ صــلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ (١) «أن الدين عندالله الحنيفية (٢) لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية» . قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا يخفى على ذى تمييز أن هذا الكلام من النبىّ صلى الله عليه وسلم على جهة التفسير ، أدخله بعض من نقل الحديث فى القرآن . و ﴿ قَآئِمَۢا ﴾ نصب على الحال المؤكّدة من ٱسمه تعالى فى قوله «شَهِدَ اللهُ» أو من قوله «إلّا هُوَ» . وقال الفرّاء : هو نصب على القطع ، كان أصله القائم ، فلما قطعت الألف واللام نُصب كقوله : «وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا» (٣) . وفى قراءة عبد الله « القَائِمُ بِالقِسْطِ » على النعت ، والقِسط العدل . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ كرّر لأن الأولى حلّتْ محلّ الدعوى ، والشهادة الثانيــة حلّت محل الحُكم . وقال جعفــر الصادق : الأولى وصفٌ وتوحيدٌ ، والثانيــة رَسْمٌ وتعليمٌ ؛ يعنى قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم .

قوله تعــالى : إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ﴾ الدِّين فى هذه الآية الطاعة والمِلّة ، والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ؛ قاله أبو العالية ، وعليه جمهور المتكلمين . والأصل فى مسمى الإيمان

(١) فى ح : يقول . (٢) فى ح : الحنيفية . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١١٤

والإسلام التَّغايُر؛ لحديث جبريل[1] . وقد يكون بمعنى المُرادَفة . فيسمى كل واحد منهما بآسم الآخر؛ كما فى حديث وفد عبد القيس[2] وأنه أمرهم بالإيمان [بالله][3] وحده وقال: "هل تدرون ما الإيمان"؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمسا من المغنم" الحديث . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "الإيمان بِضع وسبعون بابا فأدناها إماطة الأذى وأرفعها قول لا إله إلا الله" أخرجه الترمذى . وزاد مسلم "والحياء شعبة من الإيمان" . ويكون أيضا بمعنى التداخل، وهو أن يطلق أحدهما ويراد به مسماه فى الأصل ومسمى الآخر، كما فى هذه الآية إذ قد دخل فيها التصديق والأعمال ؛ ومنه قوله عليه السلام : "الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان" . أخرجه آبن ماجه ، وقد تقدّم . والحقيقة هو الأوّل وضعا وشرعا، وما عداه من باب التوسع . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ الآية . أخبر تعالى عن آختلاف أهل الكتاب أنه كان على عِلمٍ منهم بالحقائق، وأنه كان بغيا وطلبا للدنيا . قاله آبن عمر وغيره . وفى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى : وما آختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ قاله الأخفش . قال محمد بن جعفر بن الزبير : المراد بهذه الآية النصارى ، وهى توبيخ لنصارى نَجْرَانَ . وقال الربيع بن أنس : المراد بها اليهود . ولفظ الذين أوتوا الكتاب يعمّ اليهود والنصارى ؛ أى « وما آختلف الذين أوتوا الكتاب » يعنى فى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » يعنى بيان صفته ونبوّته فى كتبهم . وقيل : أى وما آختلف الذين أوتوا الإنجيل[4] فى أمر عيسى وفرّقوا فيه القول إلا من بعد ما جاءهم العلم بأن الله إله واحد، وأن عيسى عبد الله ورسوله . و « بَغْيًا » نصب على المفعول من أجله ، أو على الحال من "الذين" . والله تعالى أعلم .

---

(١) راجع هذا الحديث فى صحيحى البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان الجزء الأول .

(٢) هو عبد القيس بن أفصى بن دعمى ، أبو قبيلة ، كانوا ينزلون البحرين وكان قدومهم عام الفتح وعلى رأسهم عبد الله بن عوف الأشج . (راجع كتاب الطبقات الكبير ج أ قسم ثان ص ٥٤ طبع أوربا ، وشرح القسطلانى ج ١ ص ١٩٣ طبع بولاق) .

(٣) فى ب، وز، وا، ود .

(٤) فى أ، ود : الكتاب .

قوله تعالى : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى جادلوك بالأقاويل المزوّرة والمغالطات ، فأَسْنِدْ أمرك إلى ما كُلِّفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك. وقوله « وَجْهِيَ » بمعنى ذاتى؛ ومنه الحديث "سجد وجهى للذى خلقه وصوّره" . وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد؛ كما تقول : خرج فلان فى وجه كذا. وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة مستوفى (١) ؛ والأوّل أولى . وعبر بالوجه عن سائر الذات إذ هو أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس . وقال :

أسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ * له المُـزْنُ تحمل عَذْباً زُلالَا

وقد قال حذاق المتكلمين فى قوله تعالى: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ» (٢) : إنها عبارة عن الذات، وقيل : العمل الذى يقصد به وجهه . وقوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » « من » فى محل رفع عطفا على التاء فى قوله « أَسْلَمْتُ » أى ومن اتبعن أسلم أيضا ، وجاز العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد للفصل بينهما . وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء « اتبعنِ » على الأصل، وحذف الآخرون اتباعا للصحف إذ وقعت فيه بغير ياء . وقال الشاعر :

ليس تُخفى يَسارتى قدرَ يوم * ولقد تُخْفِ شِيمتى إعسارى

قوله تعالى : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعنى اليهود والنصارى «والأميين» الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب . « أَأَسْلَمْتُمْ » استفهام معناه التقرير وفى ضمنه الأمر، أى أسلموا؛ كذا قال الطبرى وغيره . وقال الزجاج : «أأسلمتم» تهديد . وهذا حسن، لأن المعنى أأسلمتم أم لا . وجاءت العبارة فى قوله « فَقَدِ اهْتَدَوْا » بالماضى مبالغة فى الإخبار بوقوع الهدى لهم

(١) راجع ج٢ ص ٧٥ (٢) راجع ج ١٧ ص ١٦٥

وتحصيله . و« البلاغ » مصدر بلغ بتخفيف عين الفعل، أى إنمـا عليك أن تُبلِّغ . وقيل: إنه ممـا نسخ بالجهاد . وقال ابن عطية : وهـذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ؛ وأمّا على ظاهر نزول هذه الآيات فى وَفْد نجران فإنمـا المعنى فإنمـا عليك أن تبلغ ما أنزل إليك بما فيه من قتال وغيره .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (٢٢)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّين ﴾ قال أبو العباس المبرد : كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم(١) بالإسلام فقتلوهم؛ ففيهم نزلت هذه الآية . وكذلك قال معقل بن أبى مسكين : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجيء إلى بنى إسرائيـل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن اتبعهم فيأمرون بالقسط ، أى بالعدل ، فيُقتَلون . وقد روى عن ابن مسعود قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، بئس القوم قوم يمشى المؤمن بينهم بالتَّقِيّة" وروى أبو عبيدة بن الجراح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيـا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عُبّاد بنى إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعا فى آخر النهار من ذلك اليوم وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية" . ذكره المهدوِيّ وغيره . وروى شعبة عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم سبعين نبيا ثم تقوم سُوقُ بَقْلِهم من آخر

(١) فى ز : يأمرونهم .

النهار . فإن قال قائل : الذين وُعظوا بهذا لم يقتلوا نبيا . فالجواب عن هذا أنهم رضوا فعل من قتل فكانوا بمنزلته ؛ وأيضا فإنهم قاتلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهموا بقتلهم ؛ قال الله عز وجل : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ »(١) .

الثانيـــة — دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان واجبا فى الأمم المتقـدمة ، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوّة . قال الحسن قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم : "من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه" . وعن درّة بنت أبى لهب قالت : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : مَن خيرُ الناس يارسول الله؟ قال : "آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم لرحمه". وفى التنزيل: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ» ثم قال : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(٢) . فجعل تعـالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ؛ فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليـه . ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد ، وإنمـا يقوم به السلطان إذ كانت إقامة الحدود إليه ، والتعزير إلى رأيه ، والحبس والإطلاق له ، والنفى والتغريب ؛ فينصب فى كل بلدة رجلا صالحا قويا عالمـا أمينا ويأمره بذلك ، ويمضى الحدود على وجهها من غير زيادة . قال الله تعالى : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ »(٣) .

الثالثـــة — وليس من شرط النّاهى أن يكون عدلا عند أهـل السنة ، خلافا للمبتدعة حيث تقول : لا يغيره إلا عَدْل . وهذا ساقط ؛ فإن العدالة محصورة فى القليل من الخلق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عام فى جميع الناس . فإن تشبثوا بقوله تعالى : «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ »(٤) وقوله : « كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ »(٥) ونحوه ، قيل لهم : إنمـا وقع الذمّ ها هنا على ٱرتكاب ما نهى عنـه لا على نهيه عن المنكر . ولا شك

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ وص ٢٠٢ (٣) راجع جـ ١٢ ص ٧٢
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٦٤ (٥) راجع جـ ١٨ ص ٨١

فى أن النهى عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه ، ولذلك يدور فى جهنم كما يدور الحمار بالرحى ؛ كما بيناه فى البقرة عند قوله تعالى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» (١) .

الرابعـــة — أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبـد البر أنّ المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه ، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذى لا يتعدّى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره ؛ فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليـه أكثر من ذلك . وإذا أنكر بقلبه فقد أدّى ما عليـه إذا لم يستطع سوى ذلك . قال : والأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى تأكيد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جدا ولكنها مقيدة بالاستطاعة . قال الحسن : إنمـا يُكلَّم مؤمن يُرجى أو جاهل يُعلَّم ؛ فأمّا من وضع سيفه أو سوطه فقال : ٱتّقِنى ٱتّقِنى فمـا لك وله . وقال ابن مسعود : بِحسب المرء إذا رأى منكرا لا يستطيع تغييره أن يعـلم الله من قلبـه أنه له كاره . وروى ابن لَهِيعَة عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليـه وسلم : "لا يحِل لمؤمن أن يُذِلّ نفسه" . قالوا : يا رســول الله وما إذلاله نفسه ؟ قال : "يتعرّض من البلاء لمـا لا يقوم له" .

قلت : وخرّجه ابن ماجه عن عليّ بن زيد بن جدعان عن الحسن بن جندب عن حذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما قد تُكُلِّم فيـه . وروى عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل إذا رأى منكرا لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات « اللهم إنّ هـذا منكر» فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليـه ، وزعم ابن العربيّ أن من رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضربَ أو القتلَ جاز له عند أكثر العلماء الاقتحامُ عند هذا الغَرَر (٢) ، وإن لم يرجُ زواله فأيّ فائدة عنده . قال : والذى عندى أن النية إذا خلصت فليقتحم كيف ما كان ولا يبالى .

قلت : هذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع . وهـذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع خوف القتل . وقال تعالى : « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ» (٣) . وهذا إشارة إلى الإذاية .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٦٥ (٢) الغرر : الخطر . المصباح . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٨

الخامسة — روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان". قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، و باللسان على العلماء، و بالقلب على الضعفاء، يعني عوام الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهي فليفعله، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو بالقتل فليفعل، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل؛ وهذا تُلُقِّيَ من قول الله تعالى: «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»(١). وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل(٢) على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفس غيره فله ذلك ولا شيء عليه. ولو رأى زيد عمرا وقد قصد مال بكر فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادرا عليه ولا راضيا به؛ حتى لقد قال العلماء: لو فرضنا [قودا](٣). وقيل: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء: إمامٌ عادلٌ لا يظلم، وعالم على سبيل الهُدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ويُحرِّضون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى.

السادسة — روى أنس بن مالك قال قيل: يا رسول الله، متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: " إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم ". قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: " الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رُذَالتكم ". قال زيد: تفسير معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " والعلم في رذالتكم " إذا كان العلم في الفساق. خرّجه ابن ماجه. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في « المائدة »(٤) وغيرها إن شاء الله تعالى. وتقدّم معنى « فَبَشِّرْهُم » « وحَبِطَتْ »(٥) في البقرة فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣١٩ (٢) في د: القاتل. (٣) بياض في أكثر الأصول. الزيادة من د و ب: يعني: لو فرضنا أن دفع الجاني أدى إلى موته فأخذ فيه بالقود فلا عليه لأنه ناج عند الله. والله أعلم. (٤) راجع جـ ٦ ص ٢٥٣ (٥) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ و جـ ٣ ص ٤٨

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال آبن عباس : هذه الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المِدْرَاس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله . فقال له نُعَيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنى على مِلة إبراهيم" . فقالا : فإن إبراهيم كان يهوديا . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم" . فأبيا عليه فنزلت الآية . وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هلموا إلى التوراة ففيها صفتى" فأبوا . وقرأ الجمهور «لِيَحْكُمَ» وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع «لِيُحكم» بضم الياء . والقراءة الأولى أحسن ؛ لقوله تعالى : « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » .

الثانيـــة — فى هـذه الآية دليـل على وجوب آرتفاع المدعو إلى الحـاكم لأنه دعى إلى كتاب الله ؛ فإن لم يفعل كان مخالفا يتعين عليه الزجر بالأدب على قدر المخالِف والمخالَف . وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس وبلاد المغرب وليس بالديار المصرية . وهـذا الحكم الذى ذكرناه مبيَّن فى التنزيل فى سـورة « النور » فى قوله تعـالى : « وإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ — إلى قوله — بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »(١) . وأسند الزهرىّ عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ولا حق له" . قال آبن العربىّ : وهذا حديث باطل . أمّا قوله « فهو ظالم » فكلام صحيح . وأمّا قوله «فلا حق له» فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق . قال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد المـالكىّ : واجب على كل من دُعِى إلى مجلس الحـاكم أن يجيب ما لم يُعلم أنّ الحاكم فاسق ، أو يُعلم عداوُه(٢) من المدعى والمدعى عليه .

الثالثـــة — وفيهـا دليل على أن شرائع من قبلنا شريعة لنا إلا ما علمنا نسخه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا ، على ما يأتى بيانه . وإنمـا لا نقرأ التوراة ولا نعمـل

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٣ فما بعد .

(٢) فى الأصول : عداوة بين المدعى والمدعى عليه ؛ والتصويب من ز .

بمـا فيها لأن من هى فى يده غير أمين عليها وقد غيرها و بدلها ، ولو علمنا أن شيئا منها لم يتغير ولم يتبدّل جاز لنا قراءته . ونحو ذلك روى عن عمر حيث قال لكعب : إن كنت تعلم أنها التـوراة التى أنزلها الله على موسى بن عمران فاقرأها . وكان عليه السلام عالمـا بما لم يغيّر منها فلذلك دعاهم إليها و إلى الحكم بهـا . وسيأتى بيان هـذا فى « المـائدة »(١) والأخبار الواردة فى ذلك إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إن هذه الآية نزلت فى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

إشارة إلى التـولّى والإعراض ، واغترار منهم فى قولهم : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ »(٢) إلى غير ذلك من أقوالهم . وقد مضى الكلام فى معنى قولهم: « لن تمسنا النار» فى البقرة(٣) .

قوله تعـالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته على جهة التوقيف والتعجُّب ، أى فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة واضمحلت عنهم تلك الزخارف التى ادّعوها فى الدنيا ، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم(٤) وقبيح أعمالهم . واللام فى قوله «ليوم» بمعنى «فى» ؛ قاله الكسائى . وقال البصريون : المعنى لحساب يوم . الطبرىّ : لمـا يحدث فى يوم .

قوله تعـالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٢ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٠ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٠ (٤) فى د : اجترامهم .

قال عليّ رضي الله عنه قال النبيّ صلّى الله عليـه وسلم : " لمـا أراد الله تعالى أن ينزل فاتحـة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله وقل اللهمّ مالك الملك إلى قوله بغير حســاب تعلقن بالعرش وليس بينهن و بين الله حجاب وقلن يا رب تهبط بنـا دار الذنوب و إلى من يعصيك فقال الله تعالى وعزتي وجلالي لا يقرأكنّ عبد عقب كل صلاة مكتوبة إلا أسكنته حظيرة القدس على ما كان منه،و إلا نظرت إليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة،و إلا قضيت له في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة،و إلا أعذته من كل عدوّ ونصرته عليه ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت " . وقال معاذ بن جبل : آحتبست عن النبيّ صلى الله عليه وسلم يوما فلم أصلّ معه الجمعة فقال : "يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة" ؟ قلت : يا رسول الله، كان ليوحنا بن باريا اليهوديّ عليّ أوقيّة من تبر وكان على بابي يرصدني فأشفقت أن يحبسني دونك . قال : " أتحب يا معاذ أن يقضي الله دينـك " ؟ قلت نعم . قال : " قل كل يوم ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ — إلى قوله — ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء آقض عني ديني فلو كان عليك ملء الأرض ذهبا لأداه الله عنك".
خرّجه أبو نعيم الحافظ، أيضا عن عطاء الخراسانيّ أن معاذ بن جبل قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم آياتٍ من القرآن — أو كلماتٍ — ما في الأرض مسلم يدعو بهنّ وهو مكروب أو غارم أو ذو دين إلا قضى الله عنه وفرّج همه ، آحتبست عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذكره . غريب من حديث عطاء أرسـله عن معاذ . وقال آبن عبـاس وأنس بن مالك : لمـا آفتتح رسول الله صلى الله عليه وسـلم مكة ووعد أمّته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم! هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكفه مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل : نزلت دامغة لباطل نصارى أهل نجران في قولهم : إن عيسى هو الله؛ وذلك أن هذه الأوصاف تبيّن لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس في شيء منها . قال آبن إسحاق : أعلم الله عز وجل في هذه الآية بعنادهم وكفرهم ، وأن عيسى صلى الله عليه وسلم وإن كان الله تعالى

أعطاه آياتٍ تدل على نبــوّته من إحيــاء الموتى وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المنفرد بهذه الأشــياء؛ من قوله : « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ » . وقوله : « تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فلو كان عيسى إلٰهًا كان هذا إليه ؛ فكان فى ذلك آعتبار وآية بينة (١) .

قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ آختلف النحويون فى تركيب لفظة «اللهم» بعد إجماعهم أنها مضمومة الهاء مشدّدة الميم المفتوحة، وأنها منادى؛ وقد جاءت مخففة الميم فى قول الأعشى :

كَحَلْفَــةٍ من أبى رَبَاحٍ ＊ يسمعهــا اللَّهُمُ الكُبَار (٢)

قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم يا ألله ، فلما آستعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو « يا » جعلوا بدله هذه الميم المشدّدة فجاءوا بحرفين وهما الميمان عوضا من حرفين وهما الياء والألف ، والضمة فى الهاء هى ضمة الآسم المنــادى المفرد . وذهب الفرّاء والكوفيون إلى أن الأصل فى اللهم يا ألله أُمَّنا بخير؛ فحذف وخلط الكلمتين، وأن الضمة التى فى الهاء هى الضمة التى كانت فى أُمَّنَا لمــا حذفت الهمزة آنتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطإ العظيم، والقول فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الزجاج : محال أن يترك الضم الذى هو دليل على النداء المفرد ، وأن يجعل فى آسم الله ضمة أُمّ ، هــذا إلحاد فى آسم الله تعالى . قال آبن عطية : وهذا غلوّ من الزجاج ، وزعم أنه ما سمع قط يا أللهُ أُمّ، ولا تقول العرب يا اللَّهُمّ . وقال الكوفيون : إنه قد يدخل حرف النــداء على « اللهــم » وأنشدوا على ذلك قول الراجز :

＊ غفرتَ أو عذّبت يا اللّهما ＊

آخــــر :

وما عليــكِ أن تقولى كلّمــا ＊ ســبّحتِ أو هلّلتِ يا اللهمّ ما (٣)
اردُدْ علــينا شــيخَنا مسلَّمــا ＊ فإننــا من خيره لن نُعْدَما

(١) فى ب ود : آعتبارا به بينة .　　(٢) هكذا نسخ الأصل ومعانى القرآن للفراء ، وفى اللسان : لاهم الكبار ، بتخفيف الميم .
(٣) فى اللسان : يا اللهما ، وما فى الأصول ومعانى القرآن ج ١ ص ٢٠٣ والخزانة ج ١ ص ٣٥٨ هو ما أثبتناه .

آخـــر :

إنى إذا مـا حَـدَثٌ أَلَمَّا * أقـول يا اللّهــم يا اللّهُمّـا

قالوا : فلو كان الميم عوضا من حرف النداء لما آجتمعا . قال الزجاج : وهـذا شاذٌّ ولا يعرف قائله ، ولا يترك له ما كان فى كتاب الله وفى جميع دِيْوان العرب ؛ وقد ورد مثله فى قوله (١) :

همـا نفثا فى فِىّ من فَمَوَيْهمـا * على النّابِح العَاوِى أشَــدَّ رِجَامِ

قال الكوفيون : وإنما تزاد الميم مخفّفة فى فَم وآبْنُم ، وأما ميم مشدّدة فلا تزاد . وقال بعض النحويين : ما قاله الكوفيون خطأ ؛ لأنه لو كان كما قالوا كان يجب أن يقال : «اللهم» ويُقتصر عليه لأنه معه دعاء . وأيضا فقد تقول : أنت اللهم الرزّاق . فلو كان كما آدّعوا لكنت قد فصلت بجملتين بين الآبتداء والخبر . قال النّضر بن شُمَيْل : من قال اللهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه كلها . وقال الحسن : اللهم تجمع الدعاء .

قوله تعـالى : ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ قال قتادة : بلغنى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سأل الله عز وجل أن يعطى أمته ملك فارس فأنزل الله هذه الآية . وقال مقاتل : سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له ملك فارس والروم فى أمّته ؛ فعلّمه الله تعالى بأن يدعو بهذا الدعاء . وقد تقدّم معناه . و « مالك » منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ؛ ومثله قوله تعالى : « قُلِ اللّهُمّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ (٢) » ولا يجوز عنده أن يوصف اللّهمّ ؛ لأنه قد ضمت إليه الميم . وخالفه محمد بن يزيد وإبراهيم بن السرىّ الزجاج (٣) فقالا : « مالِكَ » فى الإعراب صفة لآسم الله تعـالى ، وكذلك «فَاطِرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ » . قال أبو علىّ ؛ هو مذهب

(١) القائل هو الفرزدق . وصف شاعرين من قومه نزع فى الشعر إليهما . وأراد بالنابح العاوى من هجاه ، وجعل الهجاء كالمراجمة لجعله المهاجى كالكلب النابح ؛ والرجام المراجمة . كذا عن شرح الشواهد . والرجام الحجارة .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٥

(٣) فى الأصول : والزجاج بالواو وليس بشىء . لأن الزجاج هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج .

أبى العباس المبرد، وما قاله سيبويه أصْوَب وأبْيَن، وذلك أنه ليس فى الأسماء الموصوفة شيء على حدّ « اللهم » لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت ، والأصوات لا توصف ، نحو غاقِ وما أشبهه . وكان حكم الاسم المفرد ألا يوصف وإن كانوا قد وصفوه فى مواضع . فلما ضُمّ هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمنزلة صوت ضم إلى صوت، نحو حَيّهَل فلم يوصف . و ﴿ المُلْكُ ﴾ هنا النبوة، عن مجاهد . وقيل، الغلَبة . وقيل : المال والعبيد . الزجاج : المعنى مالك العباد وما ملكوا . وقيل : المعنى مالك الدنيا والآخرة . ومعنى ﴿ تُؤْتِى المُلْكَ ﴾ أى الإيمان والإسلام[1] . ﴿ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أى من تشاء أن تؤتيه إياه، وكذلك ما بعده ، ولابدّ فيه من تقدير الحذف ، أى وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه منه ، ثم حذف هذا، وأنشد سيبويه :

ألا هل لهذا الدهر من مُتَعَلَّلِ * على الناس مهما شاء بالناس يفعلِ[2]

قال الزجاج : مهما شاء أن يفعل بالناس يفعل . وقوله : ﴿ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يقال : عز إذا علا وقهر وغلب، ومنه، « وعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ »[3] . ﴿ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ ذل يذل ذُلّا [إذا غلب وعلا وقهر][4] . قال طرفة :

بطيء عن الجُلَّى سريع إلى الخَنَا * ذليل بأجماع الرجال مُلَهَّدِ[5]

﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ أى بيدك الخير والشر فحذف، كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »[6] . وقيل : خص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة فى فضله . قال النقاش : بيدك الخير، أى النصر والغنيمة . وقال أهل الإشارات . كان أبو جهل يملك المال الكثير، ووقع فى الرس[7] يوم بدر، والفقراء صُهَيْب وبلال وخَبّاب لم يكن لهم مال، وكان ملكهم الإيمان « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » تقيم الرسولَ يتيمَ أبى طالب على رأس الرّس حتى يُنادى أبدانا قد انقلبت

(١) فى ز : توتى الإيمان . (٢) البيت للأسود بن يعفر النهشلى . يقول : إن هذا الدهر يذهب ببهجة الإنسان وشبابه، ويتعلل فى فعله ذلك تعلل المتجنى على غيره (عن شرح الشواهد) . (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٧٤ (٤) من ب ود .
(٥) الجلى : الأمر العظيم الذى يدعى له ذوو الرأى . والخنا : الفساد والفحش فى المنطق . والذليل : المقهور، وهو ضدّ العزيز . وأجماع : جمع جُمْع ، وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . والملهد : المضروب ، وهو المدفع . (عن شرح المعلقات) . (٦) راجع جـ ١٠ ص ١٦٠ (٧) الرس : البئر المطوية بالحجارة .

إلى القليب : ياعُتْبَة ، ياشَيْبَة تعز من تشاء وتُذِلّ من تشاء . أى صُهَيب ، أى بِلال ، لاتعتقدوا أنا منعناكم من الدنيا[1] ببغضكم[2] . بيـدك الخير ما مَنْعُكم مِن عَجْز « إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » إنعامُ الحقّ عامٌّ يتولى من يشاء .

قوله تعـالى : تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْـرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

قال آبن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدى فى معنى قوله « تُولِـجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ » الآية ، أى تدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر ، حتى يصير النهـار خمس عشرة ساعة وهو أطولُ ما يكون ، والليل تسع ساعات وهو أقصرُ ما يكون ، وكذا ﴿تُولِـجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ وهو قول الكلبى ، وروى عن آبن مسعود . وتحتمل ألفاظ الآية أنـ يدخل فيها تعاقب الليل والنهار ، كأن زوال أحدهما ولوج فى الآخر . وآختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فقال الحسن : معناه تُخرج المؤمنَ من الكافر والكافر من المؤمن ، وروى نحوه عن سَلْمَان الفارسى . وروى معْمَر عن الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسـلم دخل على نسائه فإذا بآمرأة حسنة الهيئة قال : " من هذه " ؟ قلن إحدى خالاتك . قال : " ومن هى " ؟ قلن : هى خالدة بنت الأسـود بن عبد يغوث . فقال النبى صلى الله عليـه وسلم : "سبحان الذى يخرج الحىّ من الميت" . وكانت آمرأة صالحة وكان أبوها كافرا . فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن ؛ فالموت والحياة مستعاران[3] . وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت فى الآية حقيقتان ؛ فقال عِكرمة : هى إخراج الدّجاجة وهى حية من البيضة وهى ميتة ، وإخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية . وقال آبن مسعود : هى النطفة تخرج من الرجل وهى ميتة وهو حى ، ويخرج الرجل منها حيا وهى ميتة . وقال عِكرمة والسّدى : هى الحبة تخرج من السنبلة والسنبلة تخرج من الحبة ، والنواة من النخلة والنخلة

(١) فى ز : صهيبا وبلالا . (٢) فى ز : منعنا كم الدنيا ، وفى د : إنما منعناكم . (٣) فى د ، ب : يستعاران .

تخرج من النواة، والحياة فى النخلة والسنبلة تشبيه . ثم قال : ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى بغير تضييق ولا تقتير، كما تقول : فلان يعطى بغير حساب ؛ كأنه لا يحسب ما يعطى .

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٢٨)

فيه مسألتان :

الأولى — قال آبن عباس : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء ؛ ومثله « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ »[١] وهناك يأتى بيان هذا المعنى . ومعنى ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أى فليس من حزب الله ولا من أوليائه فى شىء ؛ مثل « وَآسْأَلِ الْقَرْيَةَ »[٢] . وحكى سيبويه « هو مِنى فرسخين » أى من أصحابى ومعى . ثم آستثنى وهى :

الثانيــة — فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد : كانت التقية فى جِدّة الإسلام قبل قوة المسلمين ؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم . قال آبن عباس : هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمـان، ولا يُقتل ولا يأتى مَأْثَمـا . وقال الحسن : التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ، ولا تقية فى القتل . وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحاك : « إلا أن تتّقُوا منهم تَقِيَّةً » وقيل : إن المؤمن إذا كان قائمـا بين الكفار فله أن يداريهم[٣] باللسان إذا كان خائفا على نفسه وقلبُه مطمئن بالإيمان . والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم[٤] . ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلّب ولا يجيب إلى التلفظ بكلمة الكفر ؛ بل يجوز له ذلك على ما يأتى بيانه فى « النحل »[٥] إن شاء الله تعالى . وأمال حمزة والكسائى « تقاة » ، وفخم الباقون ؛ وأصل « تقاة » وُقَيَة على وزن فُعَلَة ؛ مثل

(١) راجع ص ١٧٨ من هذا الجزء .　(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٤٦　(٣) فى ز : أن يداهنهم .
(٤) فى ب وز : ولا يجب التلفظ .　(٥) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠

تُؤَدَة وتُهَمة، قلبت الواو تاء والياء ألفا . وروى الضحاك عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عبادة بن الصامت الأنصارى وكان بدريا تقيا وكان له حِلف من اليهود؛ فلما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال عبادة : يا نبيّ الله ، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدوّ . فأنزل الله تعالى : « لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » الآية . وقيل : إنها نزلت في عمار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون ، على ما يأتى بيانه في « النحل » .

قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ قال الزجاج : أي ويحذركم الله إياه . ثم آستغنوا عن ذلك بهذا وصار المستعمل ؛ قال تعالى : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ »[1] فمعناه تعلم ما عندى وما في حقيقتى ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك . وقال غيره : المعنى ويحذركم الله عقابه ؛ مثل « وَٱسْأَلِ القرية » . وقال : « تعلم ما في نفسى » أى مغيَّبى ، فجعلت النفس في موضع الإضمار لأنه فيها يكون . ﴿ وإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى وإلى جزاء الله المصير . وفيه إقرار بالبعث .

قوله تعالى : قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

فهو العالم بخفيات الصدور وما آشتملت عليه، وبما في السموات والأرض وما آحتوت عليه ، علام الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا يغيب عنه شيء ، سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة .

قوله تعالى : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۛ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٧٦

«يوم» منصوب متصل بقوله : « ويُحذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ . يَوْمَ تَجِدُ » . وقيل : هو متصل بقوله : « وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ . يَوْمَ تَجِدُ » . وقيل : هو متصل بقوله : « واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يَوْمَ تَجِدُ » ويجوز أن يكون منقطعا على إضمار آذكر ؛ ومثله قوله : « إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ »[1] . و « مُحْضَرًا » حال من الضمير المحذوف من صلة « ما » تقديره يوم تجد كل نفس ما عملته من خير محضرا . هذا على أن يكون « تجد » من وجدان الضالة . و « ما » من قوله « وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ » عطف على « ما » الأولى . و « تَوَدّ » في موضع الحال من « ما » الثانية . وإن جعلت « تَجِدُ » بمعنى تعلم كان « مُحْضَرًا » المفعول الثانى ، وكذلك تكون « تَوَدّ » في موضع المفعول الثانى ؛ تقديره يوم تجد كل نفس جزاء ما عملت محضرا . ويجوز أن تكون « ما » الثانية رفعا بالابتداء ، و « تَوَدّ » في موضع رفع على أنه خبر الابتداء ، ولا يصح أن تكون « ما » بمعنى الجزاء ؛ لأن « تَوَدّ » مرفوع ، ولو كان ماضيا لجاز أن يكون جزاء ، وكان يكون معنى الكلام : وما عملت من سوء ودّت لو أنّ[2] بينها وبينه أمدا بعيدا ؛ أى كما بين المشرق والمغرب . ولا يكون المستقبل إذا جعلت « ما » للشرط إلا مجزوما ؛ إلا أن تحمله على تقدير حذف الفاء ، على تقدير : وما عملت من سوء فهى تودّ . أبو علىّ : هو قياس قول الفرّاء عندى ؛ لأنه قال فى قوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »[3] : إنه على حذف الفاء . والأمد : الغاية ، وجمعه آماد . ويقال : آستولى على الأمد ، أى غلب سابقا . قال النابغة :

إلّا لِمثلِك أو من أنت سابِقُه * سبْقَ الجَوادِ إذا آستولى على الأمَدِ

والأمَدُ : الغضب . يقال : أمِد أمَدًا ، إذا غضِب [غضبا][4] .

قوله تعالى : قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

الحُبُّ : المحبة ، وكذلك الحِبّ بالكسر . والحِب أيضا الحبيب ؛ مثل الخِدْن والخَدِين ؛ يقال أحبّه فهو مُحِبّ ، وحبّه يَحِبُّه (بالكسر) فهو مَحْبُوب . قال الجوهرىّ : وهذا شاذّ ؛ لأنه

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٨٢ (٢) فى د : لو كان . (٣) راجع جـ ٧ ص ٧٧
(٤) الزيادة من د وفى ب : أي غضب .

لا يأتى فى المضاعف يفعِل بالكسر . قال أبو الفتح : والأصل فيه حَبُب كظَرُف ، فأسكنت الباء وأدغمت فى الثانية . قال آبن الدهان سعيد : فى حَبّ لغتان : حَبّ وأَحَبّ ، وأصل « حب » فى هذا البناء حَبُب كظَرُف ؛ يدل على ذلك قولهم : حَبُبْت ، وأكثر ما ورد فعِيل من فَعُل . قال أبو الفتح : والدلالة على أَحَبّ قوله تعالى : « يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَه » بضم الياء . و « آتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ » و « حَبّ » يرد على فَعُل لقولهم حَبِيب . وعلى فعِل كقولهم محبوب : ولم يرد آسم الفاعل من حَبّ المتعـدى ، فلا يقال : أنا حَابّ . ولم يرد آسم المفعول من أفعل إلا قليلا ؛ كقوله :

* مِنِّى بمـنزلة المُحَبّ المُكْرَمِ (1) *

وحكى أبو زيد : حَبَبْتُه أَحِبُّه . وأنشد :

فوالله لولا تَمْــرهُ ما حَبَبْتُــهُ * ولا كان أَدْنَى من عُوَيْفٍ وهاشِم

وأنشـــد :

لَعَمْرُك إنّنِى وطِلابَ مِصْرٍ * لَكَالْمُزْدادِ مِمّا حَبّ بُعْـدَا

وحكى الأصمعىّ فتح حرف المضارعة مع اليـاء وحدها . والحُبّ الخابية ، فارسىّ معرّب ، والجمع حِبَاب وحِبَبَة ؛ حكاه الجوهرىّ . والآية نزلت فى وفد نَجران إذْ زعموا أن ما آدّعوه فى عيسى حُبٌّ لله عز وجل ؛ قاله محمد بن جعفر بن الزبير . وقال الحسن وآبن جُرَيج : نزلت فى قوم من أهل الكتاب قالوا : نحن الذين نُحِبّ ربنـا . وروى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، والله إنا لنُحِب ربنا ؛ فأنزل الله عز وجل : « قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فآتَّبِعُونِى » . قال آبن عرفة : المحبّة عند العرب إرادةُ (2) الشيء على قصد له . وقال الأزهرى : محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما وآتباعه أمرهما ؛ قال الله تعالى : « قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فآتَّبِعُونِى » . ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران ؛ قال الله تعالى : « إنّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » أى لا يغفر لهم . وقال سهل بن عبـد الله : علامة حُبِّ الله حب القرآن ، وعلامة حب

(1) هذا عجز بيت لعنترة فى معلقته وصدره : * ولقد نزلت فلا تظنى غيره *

(2) فى ب و د : إرادتها .

القرآن حب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبيّ صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبيّ وحب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه ، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزّاد والبُلْغَة . وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ قال : " على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس " خرّجه أبو عبد الله الترمذيّ . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أراد أن يحبه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة وألّا يؤذى جاره " . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إني أحب فلانا فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادى في السماء فيقول إنّ الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء — قال — ثم يوضع له القبول في الأرض ، و إذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل السماء إن الله يُبغض فلانا فأبغضوه — قال — فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض " . وسيأتي لهذا مزيد بيان في آخر سورة « مريم »(١) إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو رجاء العُطارِديّ " فاتَّبَعونى "(٢) بفتح الباء ، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ عطف على « يُحْبِبْكُمْ » . وروى محبوب عن أبي عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من « يغفر » في اللام من « لكم » . قال النحاس : لا يجيز الخليل وسيبويه إدغام الراء في اللام ، وأبو عمرو أجلّ من أن يغلط في مثل هذا ، ولعله كان يُخفي الحركة كما يفعل في أشياء كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ يأتي بيانه في « النساء »(٣) .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ شرط ، إلا أنه ماض لا يعرب . والتقدير فإن تولوا على كفرهم وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم كما تقدّم .

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٠
(٢) كذا في الأصول ، راجع البحر ج ٣ ص ٤٣١ ، في الشواذ ص ٢٠ : يحبكم بفتح الياء .
(٣) راجع ج ٥ ص ٢٥٨

وقال « فإنّ الله » ولم يقل « فإنه » لأن العرب إذا عظمت الشئ أعادت ذكره؛ وأنشد سيبويه :

لا أرَى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغّصَ المـوتُ ذَا الغِنَى والفقِـيرا [1]

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَى آدَمَ ونُوحًا ﴾ آصطفى آختار ، وقد تقدّم في البقرة [2] . وتقدّم فيها آشتقاق آدم [3] وكنيته ، والتقدير إن الله آصطفى دينهم وهو دين الإسلام ؛ فحذف المضاف . وقال الزجاج : آختارهم للنبوّة على عالمي زمانهم . « ونوحا » قيل إنه مشتق من ناح ينوح ، وهو آسم أعجميّ إلا أنه آنصرف لأنه على ثلاثة أحرف ، وهو شيخ المرسلين ، وأوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر القرابات ، ومن قال : إن إدْرِيسَ كان قبله من المؤرّخين فقد وَهِم على ما يأتي بيانه في « الأعراف [4] » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وآلَ إِبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ تقدّم في البقرة معنى الآل وعلى ما يطلق مستوفًى [5] . وفي البخاريّ عن آبن عباس قال : آل إبراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد ؛ يقول الله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ آتَّبَعُوهُ وهَذَا النَّبِيّ والَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » وقيل : آل إبراهيم إسمعيل و إسحق و يعقوب والأسباط ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم . وقيل : آل إبراهيم نفسه ، وكذا آل عمران؛ ومنه قوله تعالى : « وبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ [6] » . وفي الحديث : " لقد أُعْطِي مِزمارًا من مزامير آل داود " ؛ وقال الشاعر :

(١) البيت لسوادة بن عديّ . وقيل : لأمية بن أبي الصلت . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٣٣ (٣) راجع ج ١ ص ٢٧٩ (٤) راجع ج ٧ ص ٢٣٢

(٥) راجع ج ١ ص ٣٨١ (٦) راجع ج ٣ ص ٢٤٧

ولا تَبْكِ مَيْتاً بعد مَيْتٍ أَجَنّه[1] * عليٌّ وعبّاس وآلُ أبي بكر

وقال آخر :

يُلاقِي من تَذَكُّرِ آلِ لَيْلَى * كما يَلْقَى السَّليمُ من العِدَادِ[2]

أراد من تذكر ليلى نفسها . وقيل : آل عمران آل إبراهيم؛ كما قال: « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » . وقيل : المراد عيسى، لأن أمّه ٱبنة عمران . وقيل : نفسه كما ذكرنا . قال مقاتل : هو عمران أبو موسى وهارون ، وهو عمران بن يَصْهُر بن فاهاث بن لاوى بن يعقوب . وقال الكلبي : هو عمران أبو مريم ، وهو من ولد سليمان عليه السلام . وحكى السهيلي : عمران ٱبن ماتان، وٱمرأته حَنَّة (بالنون) . وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بقَضّهم وقَضِيضهم من نسلهم . ولم ينصرف عِمران لأن في آخره ألفا ونونا زائدتين . ومعنى قوله : « عَلَى الْعَالَمِينَ » أي على عالمي زمانهم ، في قول أهل التفسير . وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن عليّ : جميع الخلق كلهم . وقيل « عَلَى الْعَالَمِينَ » : على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصور، وذلك أن هؤلاء رُسُلٌ وأنبياء فهم صفوة الخلق؛ فأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جازت[3] مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[4] » فالرسل خلقوا للرحمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خُلق بنفسه رحمةً ، فلذلك صار أمانا للخلق ، لمّا بعثه الله أَمِنَ الخلقُ العذاب إلى نفخة الصور . وسائر الأنبياء لم يحلّوا هذا المحل ؛ ولذلك قال عليه السلام : "أنا رحمة مهداة" يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله . وقوله "مهداة" أي هدية من الله للخلق . ويقال : ٱختار آدم بخمسة أشياء : أولها أنه خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته ، والثاني أنه علّمه الأسماء كلها ، والثالث أمر الملائكة بأن يسجدوا له ، والرابع أسكنه الجنة ، والخامس جعله أبا البشر . وٱختار نوحا بخمسة

(١) في الأصول : « ولا تنس » والتصويب من تفسير ٱبن عطية ، والبيت لأراكة بن عبد الله الثقفي في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم . أي أحبه علي وعباس وأبو بكر ، ويريد جميع المؤمنين (ٱبن عطية) والذي يروى : أجنه : أي ستره في التراب .

(٢) العداد : ٱهتياج وجع اللديغ ، وذلك إذا تمت له سنة مذ يوم لدغ هاج به الألم . وقيل : عداد السليم أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ، وما لم تمض قيل : هو في عداده .

(٣) في ب و د : حازت .

(٤) راجع جـ ١١ ص ٣٥٠

أشياء : أولها أنه جعله أبا البشر ؛ لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته هم الباقين ، والثانى أنه أطال عمــره ؛ ويقال : طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ، والثالث أنه آستجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين ، والرابع أنه حمله على الســفينة ، والخامس أنه كان أول من نسخ الشرائع ؛ وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعمات . وآختار إبراهيم بخمســة أشياء : أولها أنه جعله أبا الأنبياء ؛ لأنه روى أنه خرج من صلبه ألف(١) نبىّ من زمانه إلى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والثـانى أنه آتخذه خليــلا ، والثالث أنه أنجاه من النـار ، والرابع أنه جعله إماما للنـاس ، والخامس أنه آبتــلاه بالكلمات فوفّقــه حتى أتمهن . ثم قال : « وَآلَ عِمْرَانَ » فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما آختارهما على العالمين حيث بعث على قومه المنّ والسلْوى وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء فى العالم . وإن كان أبا مريم فإنه آصطفى له مريم بولادة عيسى بغير أب ولم يكن ذلك لأحد فى العالم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

تقــدّم فى البقــرة معنى الذرية وآشتقاقها(٢) . وهى نصب على الحـال ؛ قاله الأخفش . أى فى حال كون بعضهم من بعض ، أى ذرية بعضها من ولد بعض . الكوفيون : على القطع . الزجاج : بدل ، أى آصطفى ذرّية بعضها من بعض ، ومعنى بعضها من بعض ، يعنى فى التناصر فى الدين ؛ كما قال : «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»(٣) يعنى فى الضلالة ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : فى الآجتباء والآصطفاء والنبوّة . وقيل : المراد به التناسل ، وهذا أضعفها .

قوله تعـالى : إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

(١) فى هذا نظر لأن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا كما ورد فى الخبر ؛ أكثرهم من ذريته عليه السلام .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ (٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٩

فيه ثمــان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ قال أبو عبيدة : « إذ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : التقـدير آذكر إذ . وقال الزجاج : المعنى وآصطفى آل عمران إذ قالت آمرأة عمران . وهى حَنّة (بالحاء المهملة والنون) بنت فاقود بن قنبل أم مريم جدّة عيسى عليه السلام، وليس بآسم عربى ولا يعرف فى العربية حَنّة آسم آمرأة . وفى العربية أبو حَنّة البدرى، ويقال فيه : أبو حبّة (بالباء بواحدة) وهو أصح، وآسمه عامر ، ودير حَنّة بالشأم، ودير آخر أيضا يقال له كذلك (١) ؛ قال أبو نُوَاس :

يا دَيْرَ حَنّةَ مِن ذاتِ الأُكَيْرَاحِ (٢) * مَن يَصْحُ عنك فإنّى لستُ بالصّاحِى

وحَبّة فى العرب كثير، منهم أبو حَبّة الأنصارى، وأبو السَّنابل بن بَعْكَك المذكورُ فى حديث سُبَيْعَة (٣) حَبّة ، ولا يعرف خنّة بالخـاء المعجمة إلا بنت يحيى بن (٤) أكثم القـاضى ، وهى أم محمد (٥) بن نصر، ولا يعـرف جنة (بالجـيم) إلا أبو جنـة، وهو خال ذى الرُّمّة الشـاعر . كل هذا من كتاب آبن مَاكُولاَ .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ تقدّم معنى النذر (٦)، وأنه لا يلزم العبد إلا بأن يلزمه نفسه . ويقال : إنها لمـا حملت قالت : لئن نجّانى الله ووضعت

---

(١) هو « دير حنة » بالحيرة من بناء نوح (راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٣١٢ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) الأكيراح (بالضم ثم الفتح وياء ساكنة وراء وألف وحاء) : مواضع تخرج إليها النصارى فى أعيادهم . (عن القاموس) . وفى مسالك الأبصار : (أنها قباب صغار يسكنها رهبان يقال للواحد منها الكرح) .

(٣) هى سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت زوجة لسعد بن خولة فمات عنها بمكة فقال لهـا أبو السنابل حبة : إن أجلك أربعة أشهر وعشر، وقد كانت وضعت بعد وفاة زوجها بليال ؛ قيل خمس وعشرون ليلة ، وقيل أقل من ذلك ؛ فلما قال لها أبو السنابل ذلك أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال لها : " قد حللت فأنكحى من شئت " . روى عنها فقهاء أهل المدينة وفقهاء أهل الكوفة من التابعين حديثها هذا . وذكر آبن سـعد أن أبا السنابل بن بعكك قـد كان فيمن خطبها . وذكر آبن البرقى أنه تزوجها وأولدها آبنه سـنابل . (راجع الاستيعاب وتهذيب التهذيب وآبن سعد) . (٤) وفى المشتبه للذهبى : بالخاء المعجمة ونون . (٥) الذى فى المشتبه : «زوجة محمد» .

(٦) راجع جـ ٣ ص ٣٣٠

ما فى بطنى لجعلته مُحَرَّرا . ومعنى «لك» أى لعبادتك . «محرّرا» نصب على الحال ، وقيل : نعت لمفعول محذوف ، أى إنى نذرت لك ما فى بطنى غلاما محرّرا ، والأوّل أولى من جهة التفسير وسِيَاق الكلام والإعراب : أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجـوز فى مواضع ، ويجوز على المجاز فى أخرى ، وأما التفسير فقيل إن سبب قول آمرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تَلِد ، وكانوا أهل بيت من الله بمكان ، وأنها كانت تحت شجرة فبَصُرت بطائر يَزُقّ فَرْخًا فتحرّكت نفسُها لذلك ، ودعت ربها أن يَهَب لها ولدا ، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها(1) مُحرّرا : أى عتيقا خالصا لله تعالى ، خادما للكنيسة حَبِيسا عليها ، مُفرّغا لعبادة الله تعالى . وكان ذلك جائزا فى شريعتهم ، وكان على أولادهم أن يطيعوهم . فلما وضعت مريم قالت : «رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى» يعنى أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة . قيل لما يصيبها من الحَيْض والأذى . وقيـل : لا تصلح لمخالطـة الرجال . وكانت ترجـو أن يكون ذَكَرا(2) فلذلك حَرّرت .

الثالثـــة — قال آبن العربى : « لا خلاف أن آمرأة عِمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرّة ، فلو كانت آمرأته أمَة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر فى ولده وكيفما تصرفت حاله ؛ فإنه إن كان الناذر عبدا فلم يتقرّر له قول فى ذلك ؛ و إن كان حرا فلا يصح أن يكون مملوكا له ، وكذلك المرأة مثله ؛ فأىّ وجه للنذر فيه؟ و إنما معناه — والله أعلم — أن المرء إنما يريد ولده للأُنس به والآستنصار والتسلّى ، فطلبت هـذه المرأةُ الولدَ أُنْسًا به وسُكونًا إليه ؛ فلما منّ الله تعالى عليها به نذرت أن حَظّها من الأُنْس به متروك فيه ، وهو على خدمة الله تعالى موقوف ، وهذا نذر الأحرار من الأبرار . وأرادت به مُحَرّرا من جهتى ، محرّرا من رِقّ الدنيا وأشغالها ؛ وقـد قال رجل من الصُّوفيّة لأمّه : يا أُمَّهْ : ذَرِينى لله أتعبّـد له وأتعلم العلم ، فقالت نعم . فسار حتى تبصّر ثم عاد إليها فدقّ الباب ، فقالت مَنْ ؟ فقال لها : آبنُك فلان ، قالت : قد تركناك لله ولا نعود فيك .

الرابعـــة — قوله تعالى :﴿ مُحَرَّرًا ﴾ مأخوذ من الحُرِّية التى هى ضد العُبودِيّة ؛ من هذا تحرير الكتاب ، وهو تخليصه من الآضطراب والفساد . وروى خُصَيف عن عِكرمة ومجاهد :

---

(1) فى ب : ما ولدته . (2) فى ب ر د : غلاما .

أن المحرّر الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا . وهذا معروف في اللغة أن يقال لكل ما خلَص : حُرّ ، ومحرّر بمعناه ؛ قال ذو الرُّمّة :

والقُرط في حُرّة الذِّفْرَى مُعلَّقُه * تباعد الحبلُ منه فهو يَضطرِب (١)

وطين حُرّ لا رمل فيه ، وباتت فلانة بليلةٍ حُرّة إذا لم يصل إليها زوجها أوّل ليلة ؛ فإن تمكّن منها فهي بليلة شَيْباء .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النّذر إلا الذكور، فقبِل الله مريم . « وأنثى » حال ، وإن شئت بدلٌ . فقيل : إنها ربّتها حتى ترعرعت وحينئذ أرسلتها ؛ رواه أشهب عن مالك : وقيل : لفّتها في خِرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوفّت بنذرها وتبرّأت منها . ولعل الحجاب لم يكن عندهم كما كان في صدر الإسلام ؛ ففي البخاريّ ومسلم أن امرأة سوداء كانت تَقُمّ المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . الحديث .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ هو على قراءة من قرأ « وضعتُ » بضم التاء من جملة كلامها ؛ فالكلام متصل . وهي قراءة أبي بكر وابن عامر، وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له [أن يخفى عليه شيء] (٢) ، ولم تقله على طريق الإخبار لأن علم الله في كل شيء قد تقرّر في نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله تعالى . وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل قُدِّم، وتقديره أن يكون مؤخّرا بعد « وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » والله أعلم بما وضعت ؛ قاله المَهْدويّ . وقال مكّيّ : هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت فقال : والله أعلم بما وضعت أمّ مريم قالته أو لم تقله . ويقوّي ذلك أنه لو كان من كلام أمّ مريم لكان وجه الكلام : وأنت أعلم بما وضعتُ ؛ لأنها نادته في أوّل الكلام في قولها : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى . ورُوي عن ابن عباس « بما وضعتِ » بكسر التاء ، أي قيل لها هذا .

---

(١) الذفريان : ما بين يمين العنق ويساره ، وتباعد الحبل منه ، أي تباعد حبل العنق من القرط لأنها طويلة العنق ليست بوقصاء ، ومعلقه ، أي مكان تعليقه . (٢) الزيادة من ب و د .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ ٱستدل به بعض الشافعية على أن المطاوعة في نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه في وجوب الكفارة عليها ، ٱبنُ العربي : وهذه منه غفلة ، فإن هـذا خبر عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به ، وهـذه الصالحة إنمـا قصدت بكلامها ما تشهد له به بيِّنة حالها ومَقْطَع كلامها ، فإنها نذرت خدمة المسجد في ولدها ، فلما رأته أنثى لا تصلح وأنها عورة ٱعتذرت إلى ربِّها من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها . ولم ينصرف «مريم» لأنه مؤنث معرفة ، وهو أيضا أعجمي ؛ قاله النحاس . والله تعالى أعلم .

(١)

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ يعني خادم الربّ في لغتهم . ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ يعني مريم . ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ يعني عيسى . وهذا يدلّ على أن الذرّية قد تقع على الولد خاصّة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يولد إلا نَخَسه الشيطان فيستهلّ صارخا من نخسة [الشيطان](٢) إلا ٱبنَ مريم وأمّه " ثم قال أبو هريرة : ٱقرءوا إن شئتم «وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» . قال علماؤنا : فأفاد هـذا الحديثُ أن الله تعالى ٱستجاب دعاء أمّ مريم ، فإن الشيطان يَنخَس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وٱبنها . قال قتادة : كل مولود يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وأمّه جُعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شيء ؛ قال علماؤنا : وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما ، ولا يلزم من هـذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس وإغواؤه فإن ذلك ظنّ فاسد ؛ فكم تعرّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك فعصمهم الله مما يَرُومه الشيطان(٣) ، كما قال تعالى : «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ»(٤) . هذا مع أن كل واحد من بني آدم قد وُكل به قَرِينه من الشياطين ؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمَرْيَمُ وَٱبْنُهَا وإن عُصِما من نخسه فلم يُعصَما من ملازمته لهما ومقارنته . والله أعلم .

---

(١) في ب : له ، وفي ز : من وجود مالها . (٢) زيادة من صحيح مسلم .
(٣) كذا في ب و د بالفاء . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٨

قوله تعالى : فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ المعنى : سلك بها طريق السعداء ؛ عن ابن عباس . وقال قوم : معنى التقبّل التكفّل فى التربية والقيامُ بشأنها . وقال الحسن : معنى التقبل أنه ما عذّبها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار . ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يعنى سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت فى اليوم ما ينبت المولود فى عام واحد . والقبول والنبات مصدران على غير المصدر ، والأصل تقبُّلا وإنباتا . قال الشاعر :

أكُفْرًا بعد ردّ الموت عنّى * وبعدَ عطائكَ المائةَ الرِّتاعا

أراد بعد إعطائك ، لكن لما قال « أنبتها » دل على نَبَت ؛ كما قال امرؤ القيس :

فصِرْنا إلى الحسنى ورَقّ كلامُنا * ورُضْتُ فذلّت صعبةً أىَّ إذلالِ

وإنما مصدر ذَلّتْ ذُلٌّ ، ولكنه ردّه على معنى أذْلَلْتُ ؛ وكذلك كل ما يَرِد عليك فى هذا الباب . فمعنى تقبّل وقَبِل واحد ، فالمعنى فقَبِلها ربُّها بقبول حَسَن . ونظيره قولُ رُؤْبَة :

* وقد تَطَوّيْتُ انطواءَ الحِضْبِ (١) *

[الأفعى] (٢) لأن معنى تَطَوّيتُ وانطويت واحد ؛ ومثله قول القَطامىّ :

وخيرُ الأمرِ ما استقبلت منه * وليس بأن تَتَبَّعَه اتّباعا

لأن تَتَبّعت واتّبعت واحد . وفى قراءة ابن مسعود « وأَنْزَلَ الملائكةَ تَنْزِيلًا (٣) » لأن معنى نزّل وأنزل واحد . وقال المُفَضّل : معناه وأنبتها فنبتتْ نَباتًا حَسَنًا . ومراعاة المعنى أولى

(١) الحضب (بفتح الحاء وكسرها وسكون الضاد) .
(٢) الزيادة فى نسخ : ج ، ب ، د .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٤

كما ذكرنا . والأصل فى القبول الضم ؛ لأنه مصـدر مثل الدخول والخـروج ، والفتح جاء فى حروف قليـلة ؛ مثل الوَلوع والوَزوع ؛ هـذه الثلاثة لا غيرُ ؛ قاله أبو عمرو والكسائى والأئمة . وأجاز الزجاج « بقُبُول » بضم القاف على الأصل .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى ضَمها إليه . أبو عبيدة : ضَمِن القيام بهـا . وقرأ الكوفيون « وكفّلها » بالتشديد ، فهو يتعدّى إلى مفعولين ؛ والتقدير وكفّلها ربُّها زكريا ، أى ألزمه كفالتها وقـدّر ذلك عليـه ويَسّره له . وفى مصحف أُبَىّ « وأكفلها » والهمزة كالتشديد فى التعدّى ؛ وأيضا فإن قَبْله « فتقبلها ، وأنبتها » فأخبر تعالى عن نفسه بمـا فعل بها ، فجاء « كفّلها » بالتشديد على ذلك . وخففه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا . فأخبر الله تعالى أنه هو الذى تولّى كفالتها والقيامَ بها ؛ بدلالة قوله : « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » . قال مَكّىّ : وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف ،لأن الله تعالى إذا كفّلها زكريا كفَلها بأمر الله ، ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته ؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان . وروى عمرو بن موسى عن عبـد الله بن كَثِير وأبى عبد الله المُزَنِى « وكَفِلها » بكسر الفاء . قال الأخفش : يقال كَفَلَ يَكْفُلُ وكَفِلَ يَكْفَلُ ولم أسمع كَفُلَ ، وقد ذُكِرت . وقرأ مجاهد « فتقبّلْها » بإسكان اللام على المسألة والطلب . «رَبّها» بالنصب نداء مضاف . « وأنبتْها » بإسكان التاء « وكفلْها» بإسكان اللام « زكرياء » بالمدّ والنصب . وقرأ حفص وحمزة والكسـائى «زكريا» بغير مد ولا همز، ومدّه الباقون وهَمَزُوه . وقال الفَرّاء: أهل الحجاز يمدّون « زكرياء » ويُقْصرونه ، وأهل نَجْد يحذفون منـه الألف ويصرفونه فيقولون : زكرِىٌّ . قال الأخفش : فيه أربع لغات : المـد والقصر، وزكرِىٌّ بتشديد الياء والصرف ، وزكَرٍ ورأيت زكرِيا . قال أبو حاتم : زكرى بلا صرف لأنه أعجمىّ وهذا غلط ؛ لأن ما كان فيه « يا » مثل هـذا انصرف مثل كرسىّ ويحيى ، ولم ينصرف زكرياء فى المد والقصر لأن فيه ألف تأنيث والعجمة والتعريف .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ المحراب فى اللغة أكرم موضع فى المجلس . وسيأتى له مزيد بيان فى سورة « مريم »(١) . وجاء فى الخبر : إنها كانت فى غرفة كان زكريا يصعد إليها بسُلّم . قال وَضّاح اليَمَن(٢) :

رَبَّةُ مِحرابٍ إذا جئتُها * لم أَلْقها حتى ٱرتَقِي سُلَّما

أى رَبّة غرفة . روى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : حملت ٱمرأة عِمران بعد ما أسنّت فنذرت ما فى بطنها محرّرا فقال لها عمران : ويحك ! ما صنعت ؟ أرأيت إن كانت أنثى ؟ فٱغتما لذلك جميعا . فهلك عِمران وحَنّة حامل فولدت أنثى فتقبلها الله بقبول حَسَن ، وكان لا يُحرّر إلا الغلمان فتساهم عليها الأحبار بالأقلام التى يكتبون بها الوَحى ، على ما يأتى . فكفلها زكريا وأخذ لها موضعا فلما أسنّت جعل لها مِحرابا لا يرتقى إليه إلا بسلم، وٱستأجر لها ظِئرا وكان يُغلِق عليها بابا، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبِرت ، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها ٱمرأة زكريا فى قول الكَلْبِى . قال مُقاتِل : كانت أختها ٱمرأة زكريا ، وكانت إذا طهرت من حيضتها وٱغتسلت ردّها إلى المحراب . وقال بعضهم : كانت لا تحيض وكانت مطهّرة من الحيض . وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء فى القَيْظ وفاكهة القيظ فى الشتاء فقال: يا مريم أنّى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله . فعند ذلك طمِع زكريا فى الولد وقال : إن الذى يأتيها بهذا قادر أن يرزقنى ولدا . ومعنى « أنّى » من أين ؛ قاله أبو عبيدة . قال النحاس : وهذا

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٤ (٢) فى الأصول : « قال عدى بن زيد » والتصويب عن الأغانى ولسان العرب وشرح القاموس . وهذا البيت من قصيدة لوضاح اليمن أولها :

يابنة الواحد جودى فما * إن تصرمينى فبما أو لما

وفى د : لم أدن . راجع ترجمته فى الأغانى جـ ٦ ص ٢٠٩ — ٢٤٠ طبع دار الكتب المصرية .

فيه تساهل؛ لأن « أين » سؤال عن المواضع و « أنّى » سؤال عن المذاهب والجهات . والمعنى من أى المذاهب ومن أىّ الجهات لكِ هذا . وقد فرّق الكُمَيت بينهما فقال :

أنّى ومن أينَ آبــك الطّرب * من حيث لا صَبْوة ولا رِيَب

و « كلّما » منصوب بـ « وَجَدَ » ، أى كلّ دَخْلة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قيل : هو من قول مريم ، ويجوز أن يكون مستأنفا ؛ فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد .

الثانيــة ــ قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ هنالك فى موضع نصب ؛ لأنه ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصله للمكان . وقال المُفَضَّل بن سَلَمة : « هنالك » فى الزمان و « هناك » فى المكان ، وقد يجعل هذا مكان هذا . و ﴿ هَبْ لِي ﴾ أعطنى . ﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ مِن عِندك . ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أى نَسلا صالحا . والذُّرّية تكون واحدة وتكون جمعا ذكرا وأنثى ، وهو هنا واحد . يدل عليه قوله « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا »(1) ولم يقل أولياء ، وإنما أنّث « طَيِّبة » لتأنيث لفظ الذرية ؛ كقوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنّث ولدته لتأنيث لفظ الخليفة . ورُوِى من حديث أنس قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أىّ رجل مات وترك ذُرّية طيبة أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئا " . وقد مضى فى « البقرة » آشتقاق الذرية(2) . و﴿ طَيِّبَةً ﴾ أى صالحة مباركة . ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ أى قابله ؛ ومنه(3) : سمِع الله لمن حمده .

الثالثــة ــ دلّت هذه الآية على طلب الولد ، وهى سُنّة المرسلين والصدّيقين ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً »(4) . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وَقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتّل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أجاز له ذلك لآختصينا . وخرج آبن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النكاح من سُنّتى فمن لم يعمل بسُنّتى فليس منّى وتزوجوا فإنى مكاثرٌ بكم الأمم ومن كان

(1) راجع جـ ١١ ص ٧٧ (2) راجع المسئلة التاسعة عشرة جـ ٢ ص ١٠٧
(3) فى ب : ومنه قوله . (4) راجع جـ ٩ ص ٣٢٧

ذا طَول فَلْيَنْكِح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وِجاء ”(١) . وفي هذا ردٌّ على بعض جُهّال المتصوفة حيث قال: الذي يطلب الولدَ أحمق، وماعَرَف أنه [هو](٢) الغبيُّ الأخرق؛ قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل : «وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ»(٣) وقال : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ »(٣) . وقد ترجم البخاري على هذا « باب طلب الولد » . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي طَلْحة حين مات ابنه : ” أعْرَسْتم الليلة “ ؟ قال نعم . قال : ” بارك الله لكما في غابر ليلتكما “ . قال فحملت . في البخاري : قال سفيان فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولادٍ كلهم قد قرءوا القرآن . وترجم أيضا « باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة» وساق حديث أنس بن مالك قال قالت أمّ سُلَيم : يارسول الله، خادمك أنس أدع الله له . فقال : ” اللّهُمّ أكثر ماله وولده و بارك له فيما أعطيته “ . وقال صلى الله عليه وسلم : ” اللّهُمّ اغفر لأبي سَلَمة وارفع درجته في المهدِيِّين واخلفه في عَقِبه في الغابرين “ . خرّجه البخاري ومسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : ” تزوجوا الوَلود الوَدود فإني مكاثر بكم الأمم “ . أخرجه أبو داود . والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته و بعد موته . قال صلى الله عليه وسلم : ”إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث“ فذكر ” أو ولد صالح يدعو له“ . ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية .

الرابعة — فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرّع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا مُعينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما في أُولاه وأخراه؛ ألا ترى قول زكريا « وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا »(٤) وقال : « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » . وقال : « هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس فقال : ” اللّهُمّ أكثر ماله وولده و بارك له فيه“ . خرّجه البخاري ومسلم، وحسبُك .

---

(١) الوجاء : أن ترض عروق أنثيا الفحل رضا يذهب شهوة النكاح وهو شبيه بالخصاء . أراد أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الوجاء .　(٢) كذا في ب، و د .　(٣) راجع جـ ١٣ ص ١١٢ وص ٨٢
(٤) راجع جـ ١١ ص ٨١

قوله تعالى : فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قرأ حمزة والكسائى « فناداه » بالألف على التذكير ، ويُميلانها لأن أصلها الياء، ولأنها رابعة . وبالألف قراءة آبن عباس وآبن مسعود ، وهو آختيار أبى عبيد . وروى عن جرير عن مُغيرة عن إبراهيم قال : كان عبد الله يذكّر الملائكة فى [كلّ](١) القرآن . قال أبو عبيد : نراه آختار ذلك خلافا على المشركين لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله . قال النحاس : هذا آحتجاج لا يُحصَّل منه شيء ؛ لأن العرب تقول : قالت الرجال ، وقال الرجال ، وكذا النساء ، وكيف يحتجّ عليهم بالقرآن ، ولو جاز أن يحتج عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجّوا بقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » ولكن الحجة عليهم فى قوله عز وجل : « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ »(٢) أى فلم يشاهدوا، فكيف يقولون إنهم إناث فقد عُلم أن هذا ظنّ وهوًى . وأما « فناداه » فهو جائز على تذكير الجمع ، « ونادته » على تأنيث الجماعة . قال مكّىّ : والملائكة ممن يعقل فى التكسير يجرى فى التأنيث مجرى ما لا يعقل ، تقول : هى الرّجال، وهى الجُذوع، وهى الجمال، وقالت الأعراب . ويقوّى ذلك قوله : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » وقد ذكر فى موضع آخر فقال : « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ »(٣) وهذا إجماع . وقال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ »(٤) فتأنيث هذا الجمع وتذكيره حَسَنان . وقال السُّدّى : ناداه جبريل وحده ؛ وكذا فى قراءة آبن مسعود . وفى التنزيل « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ »(٥) يعنى جبريل ، والروح الوحْى . وجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع . وجاء فى التنزيل « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ »(٦) يعنى نُعيم بن مسعود ؛ على ما يأتى . وقيل : ناداه جميع الملائكة، وهو الأظهر . أى جاء النداء من قِبلَهم .

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٣ (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٩
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣١٢ (٥) راجع جـ ١٠ ص ٦٧ (٦) راجع ص ٢٧٩ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ « وهو قائم » ابتداء وخبر « يصلّي » في موضع رفع ، وإن شئت كان نصبا على الحال من المضمر . « أنّ الله » أي بأن الله . وقرأ حمزة والكسائي(١) « إنّ » أي قالت إن الله ؛ فالنداء بمعنى القول . «يبشرك» بالتشديد قراءة أهل المدينة . وقرأ حمزة «يَبْشُرُك» مخففا ؛ وكذلك حُميد بن القيس المكيّ إلا أنه كسر الشين وضم الياء وخفف الباء . قال الأخفش : هي ثلاث لغات بمعنًى واحد .

دليـل الأولى هي قراءة الجمـاعة أن ما في القرآن من هـذا من فعل ماض أو أمر فهو بالتثقيل ؛ كقوله تعالى : «فَبَشِّرْ عِبَادِي»(٢) «فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ» «فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ»(٣) «قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ»(٤) . وأما الثانية وهي قراءة عبد الله بن مسعود فهي من بَشَر يَبْشُر(٥) وهي لغة تهامة ؛ ومنه قول الشاعر :

بَشَرتُ عيالِي إذْ رأيتُ صحيفةً * أتتك من الحجّاج يُتلى كتابُها

وقال آخر(٦) :

وإذا رأيت الباهشين إلى النّدى(٧) * غُبرًا أكُفُّهم بِقاعٍ مُمْحِلِ

فأعِنْهُم وٱبْشَرْ بما بَشِروا به * وإذا همُ نزلُوا بضَنْكٍ فٱنزِلِ

وأما الثالثة فهي من أبشر يُبشر إبشارا قال :

يا أمّ عَمْرو أبشري بالبُشْرَى * موتٌ ذريعٌ وجَرادٌ عَظْلَى(٨)

قوله تعالى : ﴿ يَحْيَى ﴾ كان ٱسمه في الكتاب الأول حيا ، وكان ٱسم سارّة زوجة إبراهيم عليه السلام يسارة ، وتفسيره بالعربية لا تلد ، فلما بُشِّرت بإسحاق قيل لها : سارة ، سمّاها

(١) كذا في الأصول وإعراب القرآن للنحاس ، والذي في البحر وغرائب القرآن للنيسابوري وٱبن عطية : وقرأ ٱبن عامر وحمزة « إن الله » بكسر الهمزة ، وقرأ الباقون بفتح الهمزة . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٣ وص ١١ وص ١١٢ . وفي أكثر الأصول : « عبادى » بالياء وهو رسم ورش في مصاحف المغرب .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٦٩ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ (٥) كذا في الأصول والبغوي . والذي في البحر وٱبن عطية : « وفي قراءة عبد الله بن مسعود يبشرك بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة من أبشر ، وهكذا قرأ في كل القرآن » . (٦) هو عطية بن زيد ، وقال ٱبن برّي هو لعبد القيس بن خفاف البرجمي . (عن اللسان) .

(٧) قال أبو عبيد : يقال للإنسان إذا نظر إلى شيء فأعجبه وٱشتهاه فتناوله وأسرع نحـوه وفرح به : بهش إليه .

(٨) جراد عاظلة وعظلى : لا تبرح . في اللسان : « أراد أن يقول : يا أم عامر فلم يستقم له البيت فقال يا أم عمرو ، وأم عامر كنية الضبع . ومن كلامهم للضبع : أبشرى بجراد عظلى ، وكم رجال قتلى » .

بذلك جبريل عليه السلام . فقالت : يا إبراهيم لِمَ نقص من آسمي حرف؟ فقال إبراهيم ذلك لجبريل عليهما السلام . فقال : " إن ذلك الحرف زيد في آسم آبنٍ لها من أفضل الأنبياء آسمه حيّ وسمي بيحيى" . ذكره النقاش . وقال قَتَادة: سمي بيحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان والنبوة . وقال بعضهم : سُمّي بذلك لأن الله تعالى أحيا به الناس بالهُدَى . وقال مُقَاتِل : آشتق آسمه من آسم الله تعالى حيّ فسمّي يحيى . وقيل : لأنه أحيا به رحم أمّه .

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ يعني عيسى في قول أكثر المفسرين . وسمّي عيسى كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى التي هي « كن » فكان من غير أب . وقرأ أبو السَّمّال العَدَوِيّ « بكِلْمة » مكسورة الكاف ساكنة اللام في جميع القرآن ، وهي لغة فصيحة مثل كِتْف وفِخْذ . وقيل : سمّي كلمة لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله تعالى . وقال أبو عبيد : معنى « بكلمة من الله » بكتاب من الله . قال : والعرب تقول أنشدني كلمة أي قصيدة ؛ كما رُوِي أن الحُوَيْدِرة(1) ذُكِر لحسّان فقال : لعن الله كلمته ، يعني قصيدته . وقيل غير هذا من الأقوال . والقول الأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . و «يحيى» أول من آمن بعيسى عليهما السلام وصَدّقه ، وكان يحيى أكبَر من عيسى بثلاث سنين . ويقال بستة أشهر . وكانا آبني خالة ، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمّه إليه وهو في خِرَقه . وذكر الطبريّ أن مريم لما حملت بعيسى حملت أيضا أختها بيحيى ؛ فجاءت أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعرت أني حملت ؟ فقالت لها مريم : أشعرت أنت أني حملت ؟ فقالت لها : وإني لأجد ما في بطني يسجد لما في بطنك . وذلك أنه رُوِي أنها أحست جنينها يخر برأسه إلى ناحية بَطْن مريم . قال السديّ : فذلك قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ » . « ومصدّقا » نصب على الحال . ﴿وَسَيِّدًا﴾ السيد : الذي يسود قومه ويُنْتَهَى إلى قوله ، وأصله سَيْوِد يقال : فلان أسْوَد من

---

(1) الحويدرة تصغير الحادرة وهو لقب غلب عليه ، وآسمه قطبة بن محصن بن جرول . ويعني حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدته التي مطلعها :

بكرت سمية غدونا فتمتعي * وغدت غدوّ مفارق لم يربع

(راجع المفضليات ص ٤٨ طبع أوروبا وكتاب الأغاني ج ٣ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية) .

فلان، أفعل من السيادة؛ ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيّدا كما يجوز أن يسمى عزيزا أو كريما . وكذلك رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لبني قُريظة : " قوموا إلى سيدكم " . وفى البخارى ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى الحسن : " إن آبنى هذا سيّدٌ ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " وكذلك كان ، فإنه لما قُتل علىّ رضى الله عنه بايعه أكثر من أربعين ألفا وكثير ممن تخلّف عن أبيه وممن نَكث بيعته ، فبقى نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وما وراءها من خُراسان، ثم سار إلى معاويةَ فى أهل الحجاز والعراق وسار إليه معاويةُ فى أهل الشام؛ فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له «مَسْكِن» من أرض السّواد بناحية الأنبار كرِه الحسَنُ القتالَ لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلِب حتى تهلِك أكثر الأخرى فيهلك المسلمون ؛ فسلّم الأمر إلى معاوية على شروط شرطها عليه ، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية ؛ فآلتزم كل ذلك معاوية فصدَق قوله عليه السلام : " إن آبنى هذا سيّد " ولا أسْود ممن سوّده الله تعالى ورسوله . قال قَتادة فى قوله تعالى « وَسَيِّدًا » قال : فى العلم والعبادة . آبن جبير والضحاك : فى العلم والتُّقى . مجاهد : السيّد الكريم . آبن زيد : الذى لا يغلبه الغضب . وقال الزجاج : السيّد الذى يفوق أقرانه فى كل شيء من الخير . وهذا جامع . وقال الكِسائِىّ : السيد من المَعز المسِنّ . وفى الحديث " ثَنِيٌّ من الضأن خير من السيِّد المعز " . قال :

سواءٌ عليه شاةُ عامٍ دَنتْ له * ليذبحها للضّيف أم شاةُ سيِّد

﴿ وحَصُورا ﴾ أصله من الحصر وهو الحبس . حَصَرنى الشيء وأحصرنى إذا حبسنى . قال آبن ميّادة :

وما هجرُ ليلَى أن تكون تباعدت * عليكَ ولا أن أحْصَرتك شُغولُ

وناقة حصور : ضيّقة الإحليل . والحَصُور الذى لا يأتى النساء كأنه مُحِجم عنهن ؛ كما يقال : رجل حصور وحصير إذا حبَس رِفده ولم يخرج مايخرجه النّدامَى . يقال : شرب القوم فحصِر عليهم فلان، أى بخِل ؛ عن أبى عمرو . قال الأخطل :

وشارِبٍ مُرْبحٍ بالكأس نادمني * لا بالحَصُور ولا فيها بِسوّارِ[١]

وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا »[٢] أى محبِسا. والحصِير المَلِك لأنه محجوب. وقال لبيد :

وقَمَاقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنهم * جِنٌّ لدى باب الحصِير قِيام[٣]

فيحيى عليه السلام حصور، فعول بمعنى مفعول لا يأتى النساء؛ كأنه ممنوع مما يكون فى الرجال؛ عن ٱبن مسعود وغيره. وفعول بمعنى مفعول كثير فى اللغة، من ذلك حلوب بمعنى محلوبة؛ قال الشاعر :

فيها ٱثنتان وأربعون حَلُوبةً * سُودًا كخافية الغراب الأسْحَمِ[٤]

وقال ٱبن مسعود أيضا وٱبن عباس وٱبن جُبير وقَتادة وعطاء وأبو الشعْثاء والحسنُ والسُّدِّى وٱبن زيد : هو الذى يكُفّ عن النساء ولا يقربهن مع القدرة. وهذا أصح [الأقوال لو]جهين[٥] : أحدهما أنه مَدْحٌ وثناءٌ عليه، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسَب دون الجِبِلّة فى الغالب. الثانى أن فعولا فى اللغة من صيغ الفاعلين؛ كما قال[٦] :

ضَروبٌ بنصل السّيف سُوقَ سِمانِها * إذا عَدِموا زادا فإنك عاقِرُ

فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات. ولعلّ هذا كان شرعَه؛ فأما شرعُنا فالنكاح، كما تقدّم. وقيل : الحصور العِنِّين الذى لا ذَكَر له يتأتّى له به النكاح ولا يُنْزِل؛ عن ٱبن عباس أيضا وسعيد ٱبن المسيب والضحاك. وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كلّ ٱبن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذّبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيي

(١) سوار : معربد وثاب. وقد روى «سآر» بوزن سعار، أى أنه لا يسئر فى الإناء سؤرا بل يشتفه كله.
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٤
(٣) القماقم من الرجال : السيد الكثير الخير الواسع الفضل. والقماقم العدد الكثير.
(٤) البيت لعنترة العبسى فى معلقته. والخوافى : أواخر ريش الجناح مما يلى الظهر.
(٥) كذا فى د. قلت : هذا هو اللائق بالعصمة النبوية.
(٦) البيت لأبى طالب بن عبد المطلب. مدح رجلا بالكرم فيقول : يضرب بسيفه سوق السمان من الإبل للأضياف إذا عدموا الزاد ولم يظفروا بجواد لشدة الزمان وكَلَبه، وكانوا إذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها. (عن شرح الشواهد).

آبن زكريا فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين " — ثم أهوى النبي صلى الله عليه وسلم بيده إلى قذاة[1] من الأرض فأخذها وقال : "كان ذكره [هكذا][2] مثل هذه القذاة". وقيل : معناه الحابس نفسه عن معاصي الله عز وجل . «ونبيًّا مِنَ الصالِحِينَ» قال الزجاج : الصالح الذي يؤدّي لله ما آفترض عليه ، وإلى الناس حقوقهم .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠)

قيل : الرب هنا جبريل ، أي قال لجبريل : ربّ — أي يا سيدي — أنّى يكون لي غلام؟ يعني ولدا ؛ وهذا قول الكلبي . وقال بعضهم : قوله « رب » يعني الله تعالى . «أنّى» بمعنى كيف ، وهو في موضع نصب على الظرف . وفي معنى هذا الآستفهام وجهان : أحدهما أنه سأل هل يكون له الولد وهو وآمرأته على حاليهما أو يُردّان إلى حال مَن يَلِد ؟ . الثاني سأل هل يُرزق الولد من آمرأته العاقر أو من غيرها . وقيل : المعنى بأيّ منزلة آستوجب هذا وأنا وآمرأتي على هذه الحال ؛ على وجه التواضع . ويروى أنه كان بين دعائه والوقت الذي بُشّر فيه أربعون سنة ، وكان يوم بشر آبن تسعين سنة وآمرأته قريبة السنّ منه . وقال آبن عباس والضحاك : كان يوم بُشّر آبن عشرين ومائة سنة وكانت آمرأته بنت ثمان وتسعين سنة ؛ فذلك قوله « وآمْرَأَتِي عَاقِرٌ » أي عَقيم لا تلد . يقال : رجل عاقر وآمرأة عاقر بيّنة العقْر . وقد عَقُرت وعَقُر (بضم القاف فيهما) تعقُر عُقْرا صارت عاقرا ، مثل حسنت تحسن حسنا ؛ عن أبي زيد . وعُقارة أيضا . وأسماء الفاعلين من فعُل فعيلة ، يقال : عظمت فهي عظيمة ، وظرفت فهي ظريفة . وإنما قيل عاقر لأنه يراد به ذات عُقْر على النسب ، ولو كان على الفعل لقال : عقرت فهي عقيرة كأنّ بها عقرا ، أي كبرا من السنّ يمنعها من الولد . والعاقر : العظيم من الرمل لا ينبت شيئا . والعُقْر أيضا مهر المرأة إذا وُطئت على شُبهة . وبيضة العُقْر : زعموا هي بيضة الديك ؛ لأنه يبيض في عمره بيضة واحدة إلى الطّول . وعُقْر النار أيضا .

(١) القذاة : ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .	(٢) من د .

وسطها ومعظمها . وعَقْر الحوض: مؤخّره حيث تقف الإبل إذا وردت؛ يقال : عُقْر وعُقُر مثل عُسْر وعُسُر ؛ والجمع الأعقار فهو لفظ مشترك . والكاف في قوله «كذلك» في موضع نصب؛ أي يفعل الله ما يشاء مثل ذلك . والغلام مشتق من الغُلْمة وهو شدّة طلب النكاح. وٱغتلم الفحل غُلْمة هاج من شهوة الضِّراب . وقالت لَيْلَى الأَخْيلِيّة :

شفاها من الداء العُضال الذى بها * غلامٌ إذا هَزَّ القنــاة ســقاها

والغــلام الطارّ الشارب . وهو بيّن الغُلومة والغُلومِيّة، والجمع الغِلْمة والغِلمان . ويقال : إن الغَيْلم الشابّ والجارية أيضا . والغَيْلم : ذكر السُّلَحْفاة . والغيلم موضع . وٱغتــلم البحر هاج وتلاطمت أمواجه .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً﴾ «جعل» هنا بمعنى صيّر لتعديه إلى مفعولين . و «لى» في موضع المفعول الثانى . ولمــا بُشِّر بالولد ولم يَبْعُد عنده هذا في قدرة الله تعالى طلب آية ــ أى علامة ــ يعرف بها صحة هذا الأمر وكونَه من عنــد الله تعالى ؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآيَة بعد مُشافهة الملائكة إياه ؛ قاله أكثر المفسرين . قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض خرَسٌ أو نحوه ففيه على كل حال عقاب مّا . قال ٱبن زيد: إن زكريا عليه السلام لمــا حملت زوجه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدا ، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله تعالى ؛ فإذا أراد مقاولة أحد لم يطقه .

الثانيــــة ــ قوله تعالى : ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ الرمز فى اللغة الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل فى الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين؛ وأصله الحركة . وقيل : طلبَ تلك الآية زيادة طمأنينة . المعنى: تمّم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة ؛ فقيل له : «آيتك

ألا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ » أى تمنع من الكلام ثلاث ليال ؛ دليل هذا القول قوله تعالى بعد بشرى الملائكة له . « وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ولَمْ تَكُ شَيْئاً »(١) أى أوجدتك بقدرتى فكذلك أوجد لك الولد . وٱختار هـذا القول النحاس وقال : قول قتادة إن زكريا عوقب بترك الكلام قول مرغوب عنه ؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا أنه أذنب ولا أنه نهاه عن هـذا ؛ والقول فيه أن المعنى ٱجعل لى علامة تدل على كون الولد ، إذ كان ذلك مغيبا عنى . و « رَمْزًا » نصب على الٱستثناء المنقطع ؛ قاله الأخفش . وقال الكسائى : رمز يرمز ويرمِز . وقرئ « إلا رمزا » بفتح الميم و « رمزا » بضمها وضم الراء، الواحدة رمزة .

الثالثــة ــ فى هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود فى كثير من السنة ، وآكد الإشارات ما حكم به النبيّ صلى الله عليــه وسلم من أمر السوداء حين قال لها : "أين الله" ؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : "أعتقها فإنها مؤمنة" . فأجاز الإسلام بالإشارة الذى هو أصل الديانة الذى يحرز الدم والمــال وتستحق به الجنة وينجى به من النار ، وحكم بإيمـانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ؛ فيجب أن تكون الإشارة عاملة فى سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء . وروى ٱبن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق إنه يلزمه . وقال الشافعيّ فى الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس فى الرجعــة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف، وإن شك فيها فهى باطل، وليس ذلك بقياس وإنما هو ٱستحسان . والقياس فى هذا كله أنه باطل ؛ لأنه لا يتكلم ولا تعقل إشارته . قال أبو الحسن بن بطّال : وإنما حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التى جاءت بجواز الإشارات فى أحكام مختلفة فى(٢) الديانة . ولعـل البخارى حاول بترجمته « باب الإشارة فى الطلاق والأمور » الردّ عليه . وقال عطاء : أراد بقوله « ألّا تُكَلِّمَ النَّاسَ » صوم ثلاثة أيام . وكانوا إذا صاموا لا يتكلمون إلا رمزا . وهذا فيه بُعْدٌ . والله أعلم .

الرابعــة ــ قال بعض من يجيز نسخ القرآن بالسّنة : إن زكريا عليه السلام مُنع الكلامَ وهو قادر عليه ، وإنه منسوخ بقوله عليه الســلام : "لا صَمتَ يوما إلى الليل"(٣) . وأكثر

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٤ (٢) فى د : من الديانة . (٣) وفى البحر وٱبن عطية « لا صمت يوم » . ورواية أبى داود « ولا صمات يوم إلى الليل » راجع الحديث فى اللسان مادة صمت .

العلماء على أنه ليس بمنسوخ، وأن زكريا إنما منع الكلام بآفة[1] دخلت عليه منعته إياه، وتلك الآفة[1] عدم القدرة على الكلام مع الصحة؛ كذلك قال المفسرون . وذهب كثير من العلماء إلى أنه " لا صَمتَ يوما إلى الليل " إنما معناه عن ذكر الله ، وأما عن الهَذَر وما لا فائدة فيه، فالصمت عن ذلك حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ ﴾ أمره بألا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه ؛ على القول الأول . وقد مضى في البقرة[2] معنى الذكر . وقال محمد ابن كعب القرظي : لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا بقول الله عز وجل « أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً » ولرخص للرجل يكون في الحرب بقول الله عز وجل : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً[3] » . وذكره الطبري . «وسَبِّحْ» أي صلِّ ؛ سميت الصلاة سُبْحَة لما فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء . و«العشيّ» جمع عشية . وقيل : هو واحد . وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ؛ عن مجاهد . وفي الموطأ عن القاسم بن محمد قال : ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر بعشيّ . « والإبكار » من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاكِ ﴾ أي اختارك، وقد تقدم[4] . ﴿ وطَهَّرَكِ ﴾ أي من الكفر ؛ عن مجاهد والحسن . الزجاج : من سائر الأدناس من الحيض والنفاس وغيرهما ، واصطفاك لولادة عيسى ﴿ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يعني عالمي زمانها ؛ عن الحسن وابن جُريج وغيرهما . وقيل : « على نساء العالمين » أجمع إلى يوم الصور، وهو الصحيح على ما نبينه ، وهو قول الزجاج وغيره . وكرر الاصطفاء لأن معنى الأول الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني لولادة عيسى . وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كمل

(١) في د : بآية، وتلك الآية . (٢) راجع ج١ ص ٣٣١ (٣) راجع ج٨ ص ٢٣ (٤) راجع ج٢ ص ١٣٣

من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمـران وآسية آمرأة فرعون و إنّ فضـل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : الكمال هو التناهي والتمام؛ ويقال في ماضيه «كمل» بفتح الميم وضمها، ويكمل في مضارعه بالضم، وكمال كل شيء بحسبه . والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة . ولاشك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين . وإذا تقرر هذا فقد قيل : إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوّة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيّتين ، وقد قيل بذلك . والصحيح أن مريم نبيّة؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدّم ويأتي بيانه أيضا في « مريم »(١) . وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوّتها دلالة واضحة بل على صدّيقيتها وفضلها، على ما يأتي بيانه في «التحريم»(٢) . وروى من طرق صحيحة أنه عليه السـلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة : " خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسـية بنت مزاحم آمرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمـة بنت محمد " . ومن حديث آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسـية بنت مزاحم آمرأة فرعون " . وفي طريق آخر عنـه : " سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة " . فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضـل من جميع نساء العـالم من حوّاء إلى آخر آمرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء؛ فهي إذًا نبيّة والنبيّ أفضل من الوليّ فهي أفضل من كل النساء : الأوّلين والآخرين مطلقا . ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية . وكذلك رواه موسى بن عقبـة عن كُرَيْب عن آبن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " سـيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسِـية " . وهـذا حديث حسن يرفع الإشكال . وقد خصّ الله مريم بمـا لم يؤته أحدا من النساء؛ وذلك أن روح القـدس كلمها وظهر لها ونفخ في دِرعها ودنا منها للنفخة؛ فليس هذا لأحد من النساء . وصدّقت بكلمات

(١) راجع جـ ١١ ص ٩　　(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٣

ربها ولم تسأل آية عنـدما بُشِّرت كما سأل زكريا صلى الله عليه وسلم من الآية ؛ ولذلك سماها الله فى تنزيله صِدّيقة فقال : « وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ »(١) . وقال : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ »(٢) فشهد لهـا بالصدّيقية وشهد لها بالتصـديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقُنُوت . و إنمـا بشر زكريا بغـلام فلحظ إلى كبر سـنه وعقامة رحم آمرأته فقال : أنى يكون لى غلام وآمرأتى عاقر ؛ فسـأل آية ؛ وبشرت مريم بالغـلام فلحظت أنهـا بِكْرٌ ولم يمسسها بشر فقيل لها : « كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ »(٣) فآقتصرت على ذلك ، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كُنْه هـذا الأمر ، ومن لآمرأة فى جميع نساء العالمين من بنـات آدم ما لها من هـذه المناقب ! . ولذلك روى أنها سبقت السابقين مع الرسـل إلى الجنة ؛ جاء فى الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : "لو أقسمتُ لبَرَرْتُ لا يدخل الجنة قبل سابق أمتى إلا بضعة عشر رجلا منهـم إبراهيم و إسمعيل و إسحق و يعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم آبنـة عمران " . وقد كان يحق على من آنتحل علم الظاهر وآستدل بالأشـياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " أنا سيد ولد آدم ولا فخـر " وقوله حيث يقول : " لواء الحمد يوم القيامة بيدى ومفاتيح الكرم بيـدى وأنا أول خطيب وأول شفيع وأول مُبشِّر وأول وأول " . فلم ينل هـذا السّؤدد فى الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم فى الباطن . وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله فى التنزيل بالصدّيقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية . ومن قال لم تكن نبية قال : إن رؤيتها للملك كما رؤى جبريل عليـه السـلام فى صفة دِحية الكلبى حين سـؤاله عن الإسلام والإيمـان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء والأول أظهر وعليه الأكثر . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾

أى أطيلى القيام فى الصـلاة ؛ عن مجاهد . قتادة : أديمى الطاعة . وقد تقدّم القول فى القنوت(٤) . قال الأوزاعىّ : لمـا قالت لها الملائكة ذلك قامت فى الصـلاة حتى وَرِمت

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٠ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٣ (٣) راجع جـ ١١ ص ٩١
(٤) راجع جـ ٢ ص ٨٦ وجـ ٢ ص ٢١٣

قدماها وسالت دما وقيحا عليها السلام . ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى ﴾ قدّم السجود ها هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب ؛ وقد تقدّم الخلاف فى هذا فى البقرة عند قوله تعالى : « إِنَّ الصَّفَا والمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ »[(١)] . فإذا قلت : قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد ، فعلى هذا يكون المعنى وٱركعى وٱسجدى . وقيل : كان شرعهم السجود قبل الركوع . ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ قيل : معناه ٱفعلى كفعلهم و إن لم تصلى معهم . وقيل : المراد به صلاة الجماعة . وقد تقدّم فى البقرة[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى الذى ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فيه دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب ؛ وأخبر عن ذلك وصدّقه أهل الكتاب بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » فردّ الكناية إلى « ذلك » فلذلك ذُكِّر . والإيحاء هنا الإرسال إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوحى يكون إلهاما و إيماء وغير ذلك . وأصله فى اللغة إعلام فى خفاء ؛ ولذلك صار الإلهام يسمى وحيا ؛ ومنه « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ »[(٣)] وقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »[(٤)] وقيل : معنى « أوحيت إلى الحواريين » أمرتهم ؛ يقال : وحى وأوحى ، ورمى وأرمى بمعناه . قال العجاج :

* أوحى لها القرار فٱستقرّت *

أى أمر الأرض بالقرار . وفى الحديث : " الوحى الوحى " وهو السرعة ؛ والفعل منه توحيت توحيا . قال ٱبن فارس : الوحى الإشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٤٤	(٢) راجع المسألة الخامسة وما بعدها جـ ١ ص ٣٤٤
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٦٣	(٤) راجع جـ ١٠ ص ١٣٣

حتى يعلمه وحى كيف كان . والوحِىّ السريع . والوَحَى الصَّوْت؛ ويقال : آستوحيناهم أى آستصرخناهم . قال :

* أوحيت ميمونا لها[(١)] والأزراق *

الثانيـــة — قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى وما كنت يا محمد لديهم ، أى بحضرتهم وعندهم . ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ جمع قَلَم ؛ من قَلَمه إذا قطعه . قيل : قداحهم وسهامهم . وقيل : أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة ، وهو أجود ؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال «ذَلِكُمْ فِسْقٌ»[(٢)] . إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التى كانت عليها الجاهلية تفعلها . ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أى يحضنها ، فقال زكريا : أنا أحق بها ، خالتها عندى . وكانت عنده أشيع بنت فاقود أخت حَنّة بنت فاقود أمّ مريم . وقال بنو إسرائيل : نحن أحق بها ، بنت عالمنا . فآقترعوا عليها وجاء كل واحد بقلمه ، وآتفقوا أن يجعلوا الأقلام فى الماء الجارى فمن وقف قلمه ولم يجره الماء فهو حاضنها . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "جرت الأقلام وعال قلم زكريا" . وكانت آية له ؛ لأنه نبىّ تجرى الآيات على يديه . وقيل غير هذا . و « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » آبتداء وخبر فى موضع نصب بالفعل المضمر الذى دل عليه الكلام ؛ التقدير : ينظرون أيهم يكفل مريم . ولا يعمل الفعل فى لفظ « أى » لأنها آستفهام .

الثالثـــة — آستدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القُرْعة ، وهى أصل فى شرعنا لكل من أراد العدل فى القسمة ، وهى سنة عند جمهور الفقهاء فى المستويين فى الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظِّنة عمن يتولى قسمتهم ، ولا يفضـل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد آتباعا للكتاب والسنّة . وردّ العملَ بالقُرْعة أبو حنيفة وأصحابه ، وردّوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التى نهى الله عنها . وحكى آبن المنذر عن أبى حنيفة أنه جوّزها وقال : القرعة فى القياس لا تستقيم ، ولكنا تركنا القياس فى ذلك وأخذنا بالآثار والسنّة . قال أبو عبيد : وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال آبن المنذر . وآستعمال القرعة

(١) فى نسخة : د ، لهم . (٢) راجع ج ٦ ص ٦٠

كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردّها . وقد ترجم البخاريّ في آخر كتاب الشهادات (باب القُرْعة في المشكلات وقول الله عز وجل « إذْ يُلْقُونَ أقلامَهُمْ ») وساق حديث النعمان بن بشير : "مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن (١) فيها مثل قوم آستهموا على سفينة ..." الحديثَ . وسيأتى فى «الأنفال» (٢) إن شاء الله تعالى، وفى سورة «الزخرف» (٣) أيضا بحول الله سبحانه ، وحديث أمّ العلاء، وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهمُه فى السُّكْنى حين آقترعت الأنصار سُكْنَى المهاجرين ، الحديث ، وحديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها؛ وذكر الحديث .

وقد آختلفت الرواية عن مالك فى ذلك؛ فقال مرّةً : يقرع للحديث . وقال مرّةً : يسافر بأوفقهنّ له فى السفر . وحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم الناس ما فى النِّداء والصّفّ الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لآستهموا " . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة . وكيفية القُرْعة مذكورة فى كتب الفقه والخلاف . وآحتج أبو حنيفة بأن قال : إن القرعة فى شأن زكريا وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز. قال آبن العربيّ : « وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفى عند التشاحّ (٤)؛ فأما ما يخرجه التراضى [فيه (٥)] فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجرى مع موضع التراضى، فإنها لا تكون أبدا مع التراضى» وإنما تكون فيما يَتَشاحّ الناس فيه ويُضَنّ به . وصفة القرعة عند الشافعيّ ومن قال بها : أن تُقطع رِقاع صغار مستوية فيكتب فى كل رقعة آسم ذى السهم ثم تجعل فى بنادق طين مستوية لا تفاوت فيها ثم تجفف قليلا ثم تلق فى ثوب رجل لم يحضر ذلك ويغطى عليها ثوبه ثم يدخل يده ويخرج، فإذا أخرج آسم رجل أُعطى الجزء الذى أُقرع عليه .

(١) كذا فى نسخ الأصل ، وهو لفظ البخارى عن النعمان فى « كتاب المظالم » . وروايته فى « كتاب الشهادات » : « ... مثل المدهن فى حدود الله والواقع فيها مثل ... » . والمدهن الذى يرائى .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٢		(٣) راجع جـ ١٦ ص ٨٦		(٤) تشاح الخصمان : أراد كل أن يكون هو الغالب .		(٥) زيادة عن أحكام القرآن لآبن العربى .

الرابعـــة — ودلت الآية أيضا على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدّة، وقد قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى آبنة حمزة — وآسمها أمة الله — لجعفر وكانت عنده خالتها، وقال : "إنمـا الخالة بمنزلة الأم"(١) وقد تقدّمت فى البقرة هذه المسألة . وخرّج أبو داود عن عليّ قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بآبنة حمزة فقال جعفر: أنا آخذها أنا أحق بها آبنة عمى وخالتها عندى، و إنمـا الخالة أم . فقال عليّ : أنا أحق بهـا آبنة عمى وعنـدى آبنة رسـول الله صلى الله عليه وسلم فهى أحق بها . وقال زيد : أنا أحق بها، أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بهـا ؛ فخرج النبيّ صلى الله عليه وسـلم فذكر حديثـا قال : " وأما الجارية فأقضى بها لجعفر تكون مع خالتها و إنمـا الخالة أمٌّ " . وذكر آبن أبى خيثمة أن زيد بن حارثة كان وصيّ حمزة، فتكون الخالة على هذا أحقّ من الوصيّ و يكون آبن العمّ إذا كان زوجا غير قاطع بالخالة فى الحضانة و إن لم يكن محْرَمًا لها .

قوله تعـالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّـاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٤٦) ﴾

دليل على نبوّتها كما تقدّم . و«إذ» متعلقة بـ«يختصمون» . و يجوز أن تكون متعلقة بقوله : «وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ» . ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ وقرأ أبو السّمال «بِكِلْمَة منه» ، وقد تقدّم . ﴿ٱسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ ولم يقل آسمها لأن معنى كلمة معنى ولد . والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصدّيق ؛ قاله إبراهيم النخعيّ . وهو فيما يقال معرّب وأصله الشين وهو مشترك . وقال آبن فارس : والمسِيح العرق، والمَسِيح الصّدّيق(٣)، والمَسِيح الدرهم الأطلس(٢) لا نقش فيه . والمَسْح الجماع؛ يقال مسحها . والأَمْسح : المكان الأملس . والمسحاء المرأة الرّسْحاء التى لا آسْتَ لها . و بفلان مَسْحة من جمال . والمسائح قِسِيٌّ جياد، واحدتها مَسِيحة . قال :

(١) راجع جـ ٣ ص ١٦٤ (٢) كذا فى بعض النسخ والمصباح، وفى اللسان : الطلس : المحو، والطلس كتاب قد محى ولم ينعم محوه، ثم قال : والأطلس الثوب الخلق . وفى ز : الدرهم الأملس لا نقش عليه .
(٣) الظاهر أن هنا سقطا كأن الأصل : يقال مسحها إذا جامعها .

لها مَسائحُ زُورٌ فى مراكضها * لِينٌ وليس بها وَهْن ولا رَقَق[(١)]

وآختلِف فى المسيح آبن مريم مما ذا أخذ؛ فقيل : لأنه مسح الأرض، أى ذهب فيها فلم يستكنّ بِكِنّ . وروِى عن آبن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برِئ ؛ فكأنه سمى مسيحا لذلك، فهو على هذا فعيلٌ بمعنى فاعل . وقيل : لأنه ممسوح بدهن البركة، كانت الأنبياء تُمسح به، طيّبِ الرائحة ؛ فإذا مُسح به عُلم أنه نبيّ . وقيل : لأنه كان ممسوح الأخمصين . وقيل : لأن الجمال مسحه، أى أصابه وظهر عليه . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه مسح بالطُّهر[(٢)] من الذنوب . وقال أبو الهيثم : المسيح ضِد المسيخ؛ يقال : مسحه الله أى خلقه خلقا حسنا مباركا ، ومسخه أى خلقه خلقا ملعونا قبيحا . وقال آبن الأعرابى : المسيح الصِّدّيق ، والمسيخ الأعور ، وبه سمى الدّجال . وقال أبو عبيد : المسيح أصله بالعبرانية مِشيحا بالشين فعرّب كما عرب موشى بموسى . وأما الدّجال فسمى مسيحا[(٣)] لأنه ممسوح إحدى العينين . وقد قيل فى الدجال مِسِّيح بكسر الميم وشد السين . وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة . وبعضهم يقول مسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف؛ والأول أشهر وعليه الأكثر. سمى به لأنه يسيح فى الأرض أى يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس؛ فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض مِحْنَةً ، وآبن مريم يمسحها مِنْحَةً . وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول . وقال الشاعر :

* إنّ المسيح يقتل المسيخا *

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس من بلد إلا سيطؤه الدّجال إلا مكّةَ والمدينةَ " الحديث . ووقع فى حديث عبد الله بن عمرو "إلا الكعبة وبيت المقدس" ذكره أبوجعفر الطبرى . وزاد أبو جعفر الطحاوىّ "ومسجد الطور"؛ رواه من حديث جُنَادَة بن أبى أمية عن بعض أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وفى حديث أبى بكر بن أبى شيبة عن سمرة بن جُنْدُب عن النبىّ

(١) زور : جمع زوراء، وهى المائلة . والوهن الضعف ، والرقق : ضعف العظام . (٢) فى ز : التطهر فى ب ود : التطهير . (٣) فى ز، د : مسيخا — بالمعجمة — وأنه ممسوخ إحدى العينين .

صلى الله عليه وسلم " وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم و بيت المقدس وأنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس" وذكر الحديث. وفى صحيح مسلم : " فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح آبن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شَرْقِيَّ دِمَشق بين مَهْرُودتين (١) واضعا كفَّيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قَطَر و إذا رفعه تحدّر منه جُمَان (٢) كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طَرْفه فيطلبه حتى يدركَه بباب لُدٍّ (٣) فيقتله" الحديث بطوله (٤). وقد قيـل : إن المسيح آسم لعيسى غير مشتق سماه الله به . فعلى هذا يكون عيسى بدلا من المسيح من البدل الذى هو هو . وعيسى آسم أعجمى فلذلك لم ينصرف و إن جعلتـه عربيّا لم ينصرف فى معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف تأنيث . و يكون مشتقًّا من عاسـه يَعُوسه إذا ساسه وقام عليه . ﴿وَجِيهًا﴾ أى شريفا ذا جاهٍ وقَدرٍ، وآنتصب على الحال؛ قاله الأخفش. ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى وهو معطوف على « وجيها » أى ومُقَرَّبا؛ قاله الأخفش . وجمع وجيه وُجهاء ووِجهاء . ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ عطف على «وجيها»؛ قاله الأخفش أيضا . و ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ مضجع الصبيّ فى رضاعه . ومهـدت الأمر هيأته ووطّأته . وفى التـنزيل « فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٥) » . وآمتهد الشيء آرتفع كما يمتهد سـنام البعير . ﴿وَكَهْلًا﴾ الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة . وآمرأة كهلة . وآكتهلت الروضة إذا عمها النَّوْر . يقول: يكلم الناس فى المهد آية، و يكلمهم كهلا بالوحى والرسالة . وقال أبو العباس : كلمهم فى المهد حين برّأ أمَّه فقال: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ (٦)» الآية . وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله تعالى [من السماء] (٧) أنزله على صورة آبن ثلاثٍ وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم: «إنى عبدالله» كما قال فى المهد. فهاتان آيتان وحجتان . قال المهدوى : وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السـلام يكلمهم فى المهد و يعيش إلى أن يكلمهم كهلا، إذ كانت العادة أن من تكلم فى المهد لم يعش :

(١) قوله : مهرودتين ، أى فى شقتين أو حلتين . وقيل : الثوب المهرود الذى يصبغ بالورس ثم بالزعفران .
(٢) الجمان (بضم الجيم وتخفيف الميم) : حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار .
(٣) لد (بضم اللام وتشديد الدال) : قرية فى فلسطين قريبة من بيت المقدس .
(٤) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٧٦ طبع بولاق . (٥) راجع القرطبي ج ١٤ ص ٤٤
(٦) راجع ج ١١ ص ١٠٢ (٧) الزيادة عن البحر لأبى حيان .

قال الزجاج : « وكهلا » بمعنى ويكلم الناس كهلا . وقال الفرّاء والأخفش : هو معطوف على « وجيها » . وقيل : المعنى ويكلم النـاس صغيرا وكهلا . وروى ٱبن جُرَيج عن مجاهد قال : الكهل الحليم . قال النحاس : هذا لا يُعرف فى اللغة، وإنمـا الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين . وقال بعضهم : يقال له حَدَث إلى ستّ عشرة سـنة . ثم شابّ إلى ٱثنتين وثلاثين . ثم يَكْتَهل فى ثلاثٍ وثلاثين ؛ قاله الأخفش . ﴿ ومن الصالِحين ﴾ عطف على « وجيها » أى وهو من العِباد الصالحين . ذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا عبـد الله بن إدريس عن حُصين عن هلال بن يِسَاف . قال: لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى وصاحب يوسف وصاحب جريج ، كذا قال : « وصاحب يوسف » . وهو فى صحيح مسـلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لم يتكلم فى المهـد إلا ثلاثة عيسى ٱبن مريم وصاحب جُرَيج وصاحب الجبار وبيْنا صبىّ يرضع من أمّه " وذكر الحديث بطوله[1] . وقـد جاء من حديث صُهيب فى قصة الأُخدود " أنـ ٱمرأة جِىء بها لتُلقى فى النار على إيمـانها ومعها صبىّ " . فى غير كتاب مسلم " يرضع فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أُمَّه ٱصبرى فإنك على الحق" . وقال الضحاك : تكلم فى المهد ستة : شاهد يوسف وصبىّ ماشِطة ٱمرأة فرعون وعيسى ويحيى وصاحب جُرَيج وصاحب الجبّار . ولم يذكر الأخدود، فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة . ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام: "لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة " بالحصر فإنه أخبر بمـا كان فى علمه ممـا أوحى إليـه فى تلك الحال ، ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بمـا شاء من ذلك فأخبر به .

قلت : أما صاحب يوسف فيأتى الكلام فيه ، وأما صاحب جُرَيج وصاحب الجَبّـار وصاحب الأخدودِ ففى صحيح مسلم . وستأتى قصة الأخدود فى سورة « البروج »[2] إن شاء ٱلله تعالى . وأما صبىّ ماشطةِ [ٱمرأةِ] فرعون ، فذكر البيهقىّ عن ٱبن عبـاس قال قال النبىّ صلى ٱلله عليه وسلم : " لمـا أُسرِى بى سِرْت فى رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة قالوا ماشطة

---

(١) راجع صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢٧٦ طبع بولاق راجع جـ ١٩	(٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٨٤

ٱبنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت : بسم ٱلله فقالت ٱبنة فرعون : أبى ؟ قالت : ربّى وربّك وربُّ أبيك قالت أوَلكِ ربّ غير أبى ؟ قالت : نعم ربى وربّك وربّ أبيك اللهُ — قال — فدعاها فرعون فقال : ألكِ ربّ غيرى ؟ قالت : نعم ربى وربّكَ الله — قال — فأمر بنُقرة من نُحاس فأحميت ثم أمر بها لتلق فيها قالت : إن لى إليك حاجةً قال : ما هى ؟ قالت : تجمع عظامى وعظامَ ولدى فى موضع واحد قال : ذاك لكِ لما لكِ علينا من الحق . فأمر بهم فالقوا واحدًا بعد واحد حتى بلغ رضيعا فيهم فقال قَعِى يا أمّه (١) ولا تقاعِسِى فإنا على الحق — قال — وتكلم أربعة وهم صغار : هذا وشاهد يوسف وصاحب جُريج وعيسى ٱبن مريم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ ﴾ أى ياسيّدى . تخاطب جبريل عليه السلام؛ لأنه لما تمثّل لها قال لها : إنما أنا رسولُ ربّكِ ليَهب لكِ غلاما زكيا . فلما سمعت ذلك من قوله ٱستفهمت عن طريق الولد فقالت : أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ أى بنكاح . (٢)[فى سورتها] «وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا» (٣) ذكرت هذا تأكيدا ؛ لأن قولها « لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » يشمل الحرام والحلال . تقول : العادة الجارية التى أجراها الله فى خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سِفاح . وقيل : ما ٱستبعدت من قدرة الله تعالى شيئا، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد : أمِن قِبل زوج فى المستقبل أم يخلقه الله ٱبتداء ؟ فرُوى أن جبريل عليه السلام حين قال لها « كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » « قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ » . نفخ فى جَيب دِرعها وكُمّها ؛ قاله ٱبن جُريج . قال ٱبن عباس : أخذ جبريل رُدْنَ (٤) قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه فى سورتها إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت

(١) يبدو هنا سقط فى كل الأصول، فقوله : واحدا بعد واحد من قصة أصحاب الأخدود لا صلة له بما قبله . راجع ج١٩ ص٢٨٦
(٢) الزيادة فى نخ : ب ، و د . أى فى سورة مريم «ولم أك بغيا» . (٣) راجع ج١١ ص٩١ (٤) الردن (بالضم) أصل الكم .

بذلك . وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذُرّيته فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرحام الأمّهات فإذا آجتمع الماءان صارا ولدا ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعا في مريم بعضه في رحمها وبعضه في صُلبها ، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها ؛ لأن المرأة ما لم تَهِج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في صُلبها في رَحِمها فآختلط الماءان فعلقت بذلك ؛ فذلك قوله تعالى « إِذَا قَضَى أَمْرًا » يعني إذا أراد أن يخلق خلقا « فإنما يقول له كن فيكون » . وقد تقدّم في « البقرة » القول فيه مستوفًى (١) .

قوله تعالى : وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ قال آبن جُريج : الكتاب الكتابة والخط . وقيل : هو كتاب غير التوراة والإنجيل علّمه الله عيسى عليه السلام . ﴿ وَرَسُولًا ﴾ أي ونجعله رسولا . أو يكلمهم رسولا . وقيل : هو معطوف على قوله « وجيها » . وقال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو في قوله « ورسولا » مُقْحَمة والرسول حالا للهاء، تقديره ويعلمه الكتاب رسولا . وفي حديث أبي ذَرّ الطويل "وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليه السلام" . ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ ﴾ أي أصوّر وأقدّر لكم ﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر « كهيّة » بالتشديد . الباقون بالهمز .

(١) راجع جـ ١ ص ٨٧

والطير يذكر و يؤنث . ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ أى فى الواحد منه أو منها أو فى الطين فيكون طائرا . وطائر وطَيْر مثل تاجر وتَجْر . قال وَهْب : كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى . وقيل: لم يخلق غيرَ الخُفّاش لأنه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ فى القدرة ، لأن لهـا ثَدْيًا وأسنانا وأذنا ، وهى تحيض وتطهر وتلد . و يقال : إنما طلبوا خَلْق خُفّاش لأنه أعجب من سائر الخلق؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش و يلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضرّع يخرج منه اللبن، ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل، و إنما يرى فى ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة و بعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جدا ، و يضحك كما يضحك الإنسان ، و يحيض كما تحيض المرأة . ويقال : إن ســؤالهم كان له على وجه التعنّت فقالوا : أخلق لنا خُفّاشا وآجعل فيــه روحا إن كنت صادقا فى مقالتك ؛ فأخذ طينا وجعل منــه خفاشا ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الأكمه : الذى يولد أعمى؛ عن آبن عباس . وكذا قال أبو عبيدة قال : هو الذى يولد أعمى ؛ وأنشــد لرؤبة :

* فآرتدّ آرتداد الأكمه *

وقال آبن فارس : الكَمَه العمَى يولد به الإنسان وقد يعرِض . قال سُويد :

* كَمِهت عيناه حتى آبيضّتا *

مجاهد : هو الذى يُبصر بالنهار ولا يُبصر بالليل . عكرمة : هو الأعمش ، ولكنه فى اللغــة العمى؛ يقال كَمِه يَكْمه كَمَها وكَمَّهْتها أنا إذا أعميتها . والبرص معروف وهو بياض يعترى الجلد، والأبرص القمر، وسامُّ أَبْرَص معروف ، ويجمع على الأبارص . وخُصّ هذان بالذكر لأنهما عياءان . وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطبّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قيل : أحيا أربعة أنفس : العاذر وكان صديقا له ، وآبن العجوز

وابنة العاشر وسام بن نوح؛ فالله أعلم ، فأما العاذر فإنه كان قد توفى قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله وودكه يقطر فعاش وولد له ؛ وأما ابن العجوز فإنه مرّ به يُحمل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله ، وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك وولد لها؛ فلما رأوا ذلك قالوا : إنك تحيى من كان موته قريبا فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتةٌ فأحى لنا سام بن نوح . فقال لهم : دلّونى على قبره فخرج وخرج القوم معه حتى انتهى إلى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه . فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن فى زمانكم شيْبٌ ؟ فقال : يا روح الله ، إنك دعوتنى فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله ، فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول ذلك شاب رأسى . فسأله عن النزع فقال : يا روح الله ، إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتى؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة؛ فقال للقوم : صدّقوه فإنه نبىّ ؛ فآمن به بعضهم وكذّبه بعضهم وقالوا : هذا سحر . وروى من حديث إسمعيل ابن عياش قال : حدّثنى محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى ابن مريم كان إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين يقرأ فى الأولى « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ» . وفى الثانية «تنزيل السجدة» فإذا فرغ حمد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديمُ يا خَفىّ يادائمُ يا فَرْدُ يا وتْرُ يا أحد يا صمد ؛ ذكره البيهقى وقال : ليس إسناده بالقوىّ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بالذى تأكلونه وماتدخرون . وذلك أنهم لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا : أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندّخر للغد ؛ فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا؛ فذلك قوله «وأنبئكم» الآية . وقرأ مجاهد والزهرىّ والسختيانىّ « وما تذخرون » بالذال المعجمة مخففا . وقال سعيد بن جبير وغيره : كان يخبر الصبيان فى الكُتّاب بما يدخرون حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه . قتادة : أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما ادّخروه منها خِفية .

(١) هذا الحديث لا يصح لأن السورتين من القرآن ولا يجوز أن يكون شىء من القرآن من الكتب السابقة .

قوله تعالى : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾

﴿ ومُصَـدِّقًا ﴾ عطف على قوله : « ورَسُـولًا » . وقيل : المعنى وجئتكم مصـدقا . ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ ﴾ لمـا قبـلي . ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ ﴾ فيـه حذف ، أى ولأحل لكم جئتكم . ﴿ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعنى من الأطعمة . قيـل : إنمـا أحل لهم عيسى عليه السـلام ما حُرّم عليهم بذنو بهم ولم يكن فى التـوراة ، نحو أكل الشحوم وكل ذى ظفر . وقيـل : إنمـا أحل لهم أشياء حرّمتها عليهم الأحبار ولم تكن فى التوراة محرّمة عليهم . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون « بعض » بمعنى كل ؛ وأنشد لبيد :

تَرّاكُ أمْكِنَـةٍ إذا لم أرضهـا * أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل فى هذا الموضع ، لأن عيسى صلى الله عليه وسلم إنمـا أحل لهم أشياء ممـا حرّمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها ولم يحل لهم القتـل ولا السرقة ولا فاحشة . والدليل على هـذا أنه روى[1] عن قتادة أنه قال : جاءهم عيسى بألْيَنَ ممـا جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا ؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها . وقرأ النَّخَعِيّ « بَعْضَ الَّذِي حَرُمَ عَلَيْكُمْ » مثل كرم ، أى صار حراما . وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر[2] :

أبا مُنْـذِرٍ أفْنَيتَ فاستبقِ بعضَـنا * حَنَانَيْكَ بعضُ الشر أهْوَنُ من بعضِ

يريد بعض الشر أهون من كله . ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ إنمـا وحد وهى آيات[3] لأنها جنس واحد فى الدلالة على رسالته .

(١) فى د : ماروى . (٢) هو طرفة بن العبد ؛ خاطب به عمرو بن هند الملك ، وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله . (٣) فى د : آياته

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى من بنى إسرائيل . وأحس معناه علم ووجد؛ قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة: معنى «أحس» عرف ، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة . والإحساس : العلم بالشيء؛ قال الله تعالى : «هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ»(١) والحس القتل؛ قال الله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ »(٢) . ومنه الحديث فى الجراد "إذا حَسَّهُ الْبَرْدُ". ﴿ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى الكفر بالله . وقيل: سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفرّاء: أرادوا قتله . ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ آستنصر عليهم . قال السدى والثورى وغيرهما : المعنى مع الله ، فإلى بمعـنى مع ؛ كقوله تعـالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ »(٣) أى مع . والله أعلم . وقال الحسن : المعنى من أنصارى فى السبيل إلى الله؛ لأنه دعاهم إلى الله عز وجل . وقيل: المعنى من يضم نصرته إلى نصرة الله عز وجل . فإلى على هذين القولين على بابها ، وهو الجيِّد . وطلب النصرة ليحتمى بها من قومه و يظهر الدعوة ؛ عن الحسن ومجاهد . وهـذه سنة الله فى أنبيائه وأوليائه . وقد قال لوط : «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»(٤) أى عشيرة وأصحاب ينصروننى . ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أى أنصار نبيه ودينه . والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام ، وكانوا آثنى عشر رجلا ؛ قاله الكلبى وأبو رَوْق .

وآختلف فى تسميتهم بذلك ؛ فقـال آبن عباس : سموا بذلك لبياض ثيابهـم ، وكانوا صـيادين . آبن أبى نَجِيح وآبن أرْطَاة : كانوا قصّارين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب . قال عطاء : أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شـتى ، وآخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصبّاغين ، فأراد معلِّم عيسى السفر ، فقال لعيسى : عندى ثيـاب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فآصبغها . فطبخ عيسى حُبا(٥) واحدا وأدخله جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك . فقـدم الحوارى والثياب كلها فى الحُبِّ فلما رآها قال : قـد أفسدتها ؛

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٢ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٣٥ (٣) راجع جـ ٥ ص ١٠
(٤) راجع جـ ٩ ص ٧٨ (٥) الحب بالضم : الخابية .

فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب عليه صبغه؛ فعجب الحواريّ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به؛ فهم الحواريون . قتادة والضحاك : سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء . يريدان لنقاء(١) قلوبهم . وقيل : كانوا ملوكا، وذلك أن الملك صنع طعاما فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لاتنقص، فقال الملك له : من أنت ؟ قال : عيسى ٱبن مريم . قال : إني أترك ملكي هذا وأتبعك . فٱنطلق بمن ٱتبعه معه ، فهم الحواريون؛ قاله ٱبن عون . وأصل الحَوَر في اللغة البياض ، وحـوّرت الثياب بيضتها ، والحُوَّارَى من الطعـام ما حُوِّر، أي بيض ، وٱحْوَرّ ٱبيض ، والجَفْنَة المحوّرة : المبيضة بالسنام ، والحوارِيّ أيضا الناصر؛ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل نبيّ حواريّ وحوارِيّي الزبير" . والحَوارِيّاتُ : النساء لبياضهن؛ وقال :

فقُلْ للحَواريات يَبْكِينَ غيرَنا * ولا تَبْكنا إلا الكلابُ النَّوابحُ

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ (٥٣)

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ أي يقولون ربنا آمنا . ﴿ بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ يعني في كتابك وما أظهرته من حكمك . ﴿وَٱتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعني عيسى . ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ عن ٱبن عباس . والمعنى أثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا من جملتهم . وقيل : المعنى فٱكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق .

قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ (٥٤)

قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا﴾ يعني كفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، أي قتله(٢) . وذلك أن عيسى عليه السلام لما أخرجه قومه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به ، فذلك مكرهم . ومكر الله : ٱستدراجه لعباده من حيث لا يعلمون؛ عن الفراء وغيره . قال ٱبن عباس : كلما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة . وقال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرهم؛ فسمى الجزاء بٱسم الابتداء؛ كقوله :

(١) في ز : لصفاء . (٢) في ز : بقتله .

«اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم»(١) ، «وَهُوَ خَادِعُهُم»(٢) . وقد تقدّم في البقرة . وأصل المكر في اللغة الاحتيال والخداع . والمكر : خَدَالة(٣) الساق . وامرأة ممكورة الساقين . والمكر : ضرب من الثياب . ويقال : بل هو المَغَرة ؛ حكاه ابن فارس . وقيل : «مكر الله» إلقاء شَبَه عيسى على غيره ورَفْع عيسى إليه ، وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرفعه جبريل من الكوّة إلى السماء ؛ فقال ملكهم لرجل منهم خبيث يقال له يهوذا : ادخل عليه فاقتله ، فدخل الخوخة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى ، فلما خرج رأوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه . ثم قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى ، وبدنه يشبه بدن صاحبنا ؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضا ؛ فذلك قوله تعالى : « ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ » . وقيل غير هذا على ما يأتي .

﴿ واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ اسم فاعل من مَكَر يمكُر مَكْرا . وقد عدّه بعض العلماء في أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به : يا خير الماكرين امكر لي . وكان عليه السلام يقول في دعائه : "اللهم امكر لي ولا تمكر عليّ" . وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى . والله أعلم .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ العامل في « إذْ » مكروا ، أو فعل مضمر . وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى : « إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ورَافِعُكَ إِلَيَّ » على التقديم والتأخير ؛ لأن الواو لا توجب الرتبة . والمعنى : إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ؛ كقوله : « ولَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى»(٤) ؛ والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما . قال الشاعر :

(١) راجع ج ١ ص ٢٠١ (٢) راجع ج ٥ ص ٤٢١
(٣) في اللسان : حسن خدالة الساقين أي امتلاؤها واستدارتها . (٤) راجع ج ١١ ص ٢٦٠

أَلَا يا نخلة من ذات عِرْق * عليكِ ورحمةُ الله السـلامُ

أى عليك السلام ورحمة الله . وقال الحسن وآبن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ؛ مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته . وقال وهب بن منبه : توفى الله عيسى عليه السـلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء . وهذا فيه بعد ؛ فإنه صح فى الأخبـار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزولُه وقتلُه الدجّال على ما بيناه فى كتاب التذكرة، وفى هـذا الكتاب حسب ما تقدّم، ويأتى . وقال آبن زيد : متوفيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعدُ . وروى آبن طلحة عن آبن عباس معنى متوفِّيك مميتُك . الربيع آبن أنس : وهى وفاة نوم ؛ قال الله تعالى : « وهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ »(١) أى يُنيمكم لأن النوم أخو الموت؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لمـا سئل : أفى الجنة نوم؟ قال : " لا، النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها " . أخرجه الدارقطنيّ . والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وآبن زيد، وهو آختيار الطبرى، وهو الصحيح عن آبن عباس ، وقاله الضحاك . قال الضحاك : كانت القصّة لمـا أرادوا قتـل عيسى آجتمع الحواريون فى غرفة وهم آثنـا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مِشكاة الغـرفة ، فأخبر إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة . فقال المسيح للحواريين : أيّكم يخرج ويُقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يانبي الله ؛ فألق إليه مِدْرعَة(٢) من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شَبَه عيسى ، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه . وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا أبو معاوية حدّثنا الأعمش عن المِنهال عن سـعيد بن جبير عن آبن عباس قال : لمـا أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحـابه وهم آثنا عشر رجلا من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال لهم : أما إنّ منكم من سيكفر بى آثنتى عشرة مرة بعـد أن آمن بى، ثم قال : أيكم يُلقَى عليه شَبَهى فيقتل مكانى ويكون معى

(١) راجع جـ ٧ ص ٥   (٢) المدرعة (بالكسر) : الدراعة وهى ثوب من كتان .

فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم فقال أنا . فقال عيسى : آجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال عيسى : آجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال نعم أنت ذاك . فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام . قال : ورفع الله تعالى عيسى من رَوْزَنة(١) كانت فى البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه ، وكفر به بعضهم آثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ؛ فتفرّقوا ثلاث فرق : قالت فرقة : كان فينا الله ما شاء ثم صعِد إلى السماء ، وهؤلاء اليَعْقُوبية . وقالت فرقة : كان فينا آبن الله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النَّسْطُورِيّة . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فقتلوا؛ فأنزل الله تعالى « فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا(٢) » أى آمن آباؤهم فى زمن عيسى «عَلَى عَدُوِّهِمْ» بإظهار دينهم على دين الكفار « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلنّ آبن مريم حكما عادلا فليكسِرنّ الصليب وليقتلنّ الخنزير وليضعن الجزية ولَتُترَكُنّ القِلَاصُ(٣) فلا يسعى عليها ولَتذهبَن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعونّ إلى المال فلا يقبله أحد". وعنه أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "والذى نفسى بيده ليُهلنّ آبن مريم بفَجّ الرَّوْحاء(٤) حاجا أو معتمِرا أو ليَثنِيَنّهما" ولا ينزل بشرع مبتدإ فينسخ به شريعتنا بل ينزل مجدِّدا لما دَرَس منها متبعها . كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كيف أنتم إذا نزل آبن مريم فيكم وإمامكم منكم" . وفى رواية : "فأمّكم منكم" . قال آبن أبى ذِئب : تدرى ما أمّكم منكم ؟ . قلت : تخبرنى . قال : فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنةِ نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التذكرة) والحمد لله . و « مُتَوَفِّيكَ » أصله متوفِّيُك حذفت الضمة آستثقالا ،

---

(١) الروزنة : الكوة . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٩٠

(٣) القلاص (بالكسر) : جمع قلوص وهى الناقة الشابة . (٤) فج الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ، كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر وإلى مكة عام الفتح وعام الحج . (عن معجم ياقوت) .

وهو خبر إنّ . «ورافعك» عطف عليه ، وكذا «مطهّرك» وكذا «وجاعل الذين اتّبعوك» . ويجوز «وجاعلٌ الذين»[1] وهو الأصل . وقيل : إن الوقف التام عند قوله : «ومطهّرك من الذين كفروا» . قال النحاس : وهو قول حسن . «وجاعل الذين اتّبعوك» يا محمد «فوق الذين كفروا» أي بالحجة وإقامة البرهان . وقيل بالعز والغلبة . وقال الضحاك ومحمد ابن أبان : المراد الحواريون . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يعني بالقتل والصلب والسبي والجزية ، وفي الآخرة بالنار . ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ «ذلك» في موضع رفع بالابتداء وخبره «نتلوه» . ويجوز : الأمر ذلك ، على إضمار المبتدإ .

قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ دليل على صحة القياس . والتشبيه واقع على أن عيسى خُلِقَ من غير أبٍ كآدم ، لا على أنه خلق من تراب . والشيء قد يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد ؛ فإن آدم خُلِقَ من تراب ولم يُخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة ، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أبٍ ؛ ولأن أصل خِلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يخلق من نفس التراب ،

(١) كذا في بعض الأصول وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفي ز : وجمل .

ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالا ثم خلقه منه ، فكذلك عيسى حوّله من حال إلى حال، ثم جعله بشرا من غير أب . ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله : " إن عيسى عبد الله وكلمته" فقالوا : أرنا عبدا خلق من غير أب ؛ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آدم من كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم " . فذلك قوله تعالى: « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى فى عيسى « إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ » فى آدم « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » (١) . وروى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك . فقال : "كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث : قولكم ٱتخذ الله ولدا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب" . فقالوا : من أبو عيسى ؟ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » إلى قوله : « فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» . فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم ٱضطرم الوادى عليكم نارا . فقالوا : أما تَعرض علينا سوى هذا ؟ فقال : "الإسلام أو الجزية أو الحرب" فأقرّوا بالجزية على ما يأتى . وتمّ الكلام عند قوله « آدَمَ » . ثم قال : « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فكان . والمستقبل يكون فى موضع الماضى إذا عرف المعنى . قال الفرّاء : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ مرفوع بإضمار هو . أبو عبيدة : هو ٱستئناف كلام وخبره فى قوله « مِنْ رَبِّكَ » . وقيل هو فاعل ، أى جاءك الحق . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكا فى أمر عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أى جادلك وخاصمك يا محمد «فيه»، أى فى عيسى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأنه عبد الله ورسوله . ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا ﴾ أى أقبلوا . وضع لمن له جلالة ورفعة ثم صار فى الآستعمال لكل داع إلى الإقبال، وسيأتى له مزيد بيان فى « الأنعام » (١) . ﴿ نَدْعُ ﴾ فى موضع جزم . ﴿ أَبْنَاءَنَا ﴾ دليل على أن أبناء البنات يسمّون أبناء؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء بالحسن والحسين وفاطمة تمشى خلفه وعليّ خلفها وهو يقول لهم: "إن أنا دعوت فأمّنوا" وهو معنى قوله ﴿ ثم نبتهل ﴾ أى نتضرع فى الدعاء؛ عن آبن عباس . أبو عبيدة والكسائى : نلتعن . وأصل الآبتهال الآجتهاد فى الدعاء باللعن وغيره . قال لبيد :

فى كهولٍ سادةٍ من قومه * نظر الدهرُ إليهم فآبتهل

أى آجتهد فى إهلاكهم . يقال : بهله الله أى لعنه . والبهل اللعن . والبهل الماء القليل . وأبهلته إذا خليته و إرادته . وبهلته أيضا . وحكى أبو عبيدة : بهله الله يبهله بهلة أى لعنه . قال آبن عباس : هم أهل نجران : السيد والعاقب وآبن الحارث رؤساؤهم . ﴿ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

الثانيـــة — هذه الآية من أعلام نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه آضطرم عليهم الوادى نارا فإن محمدا نبيّ مرسل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى؛ فتركوا المباهلة وآنصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدّوا فى كل عام ألف حُلَّة فى صَفَر وألف حلة فى رَجَب فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بدلا من الإسلام .

الثالثـــة — قال كثير من العلماء : إن قوله عليه السلام فى الحسن والحسين لما باهل « نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ » وقوله فى الحسن : "إن آبنى هذا سيد" مخصوص بالحسن والحسين أن يسمّيا آبنَىْ النبيّ صلى الله عليه وسلم دون غيرهما؛ لقوله عليه السلام : "كل سبب ونسب

(١) راجع ٧ ص ١٣٠

ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي " ولهذا قال بعض أصحاب الشافعي فيمن أوصى لولد فلان ولم يكن له ولد لصلبه وله ولد ابن وولد ابنة : إن الوصية لولد الابن دون ولد الابنة؛ وهو قول الشافعي . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « الأنعام والزخرف »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ الإشارة في قوله « إن هذا » إلى القرآن وما فيه من الأقاصيص، سميت قصصا لأن المعاني تتتابع فيها؛ فهو من قولهم : فلان يقص أثر فلان ، أي يتبعه . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ « من » زائدة للتوكيد ، والمعنى وما إله إلا الله ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الذي لا يغلب . ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة . وقد تقدم مثله والحمد لله .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ ﴾ الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسدي لأهل نجران . وفي قول قتادة وابن جريج وغيرهما ليهود المدينة، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب . وقيل : هو لليهود والنصارى جميعا . وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى [أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام](٢) أسلم تسلم

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢ وجـ ١٦ ص ٧٧ فما بعد . (٢) زيادة عن صحيح مسلم .

[وأَسْلِم][1] يؤتِك الله أجرك مرتين و إن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[2] ، و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سـواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله — إلى قوله : « فقولوا آشهدوا بأنا مسلمون » . لفظ مسلم . والسواء العدل والنصفة ؛ قاله قتادة . وقال زهير :

أرونى خُطّة لا ضَيْمَ فيها * يُسَوِّى بيننـا فيها السَّوَاء

الفـرّاء : ويقال فى معنى العـدل سِوًى وسُوًى ، فإذا فتحت السـين مددت و إذا كسرت أو ضممت قصرت؛ كقوله تعالى : « مَكَانًا سُوًى » . قال : وفى قراءة عبد الله « إلى كلمة عدل بيننا و بينكم » وقرأ قَعْنَب[3] « كِلْمَـة » بإسكان اللام ، ألقى حركة اللام على الكاف ؛ كما يقال كِبْد . فالمعنى أجيبوا إلى ما دعيتم إليه ، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها ميل عن الحق؛ وقد فسرها بقوله تعـالى : « أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ » فموضع « أن » خفض على البدل من « كلمة » ، أو رفع على إضمار مبتدإ ، التقدير هى أن لا نعبد إلا الله . أوتكون مفسرة لا موضع لها ، ويجوز مع ذلك فى « نعبد » وما عطف عليه الرفع والجزم : فالجزم على أن تكون « أن » مفسرة بمعنى أى ؛ كما قال عز وجل : « أَنِ آمْشُوا » وتكون « لا » جازمة . هذا مذهب سيبو يه . ويجوز على هـذا أن ترفع « نعبد » وما بعده يكون خبرا . ويجوز الرفع بمعنى أنه لا نعبد؛ ومثله « أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا »[4] . وقال الكسائى والفـرّاء : « وَلَا نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذْ » بالجزم على التوهم أنه ليس فى أوّل الكلام أن .

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أى لا نتبعه فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى . وهو نظير قوله تعـالى : « آتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »[5] معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم فى قبول تحريمهم وتحليلهم لمـا لم يحرمه الله ولم يحله الله . وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذى لا يستند إلى دليل شرعىّ؛ قال الكيا الطبرىّ : مثل آستحسانات أبى حنيفة فى التقديرات التى قدرها دون مستندات بينة . وفيه ردّ على الروافض الذين يقولون : يجب قبول[قول] الإمام دون إبانة

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) الأريسيين : الأكارون والفلاحون والخدم والخول ، كل ذلك وارد فى معنى هذه الكلمة . (٣) هو أبو السمال العدوىّ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ (٥) راجع جـ ٨ ص ١١٩

مستند شرعىّ، وأنه يحل ما حرّمه الله من غير أن يبين مستندا من الشريعة. وأرباب جمع رب. و « دون » هنا بمعنى غير.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عما دعوا إليه. ﴿ فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أى متصفون بدين الإسلام منقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا فى ذلك من المِنَن والإنعام، غير متخذين أحدا ربّا لا عيسى ولا عُزَيرا ولا الملائكة ؛ لأنهم بشر مثلنا محدَث كحدوثنا ، ولا نقبل من الرّهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرّمه الله علينا ، فنكون قد اتخذناهم أربابا . وقال عكرمة : معنى « يَتَّخِذَ » يسجد . وقد تقدّم أن السجود كان إلى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم ثم نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم مُعاذا لما أراد أن يسجد ؛ كما مضى فى البقرة(1) بيانه . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ، أينحنى بعضنا لبعض ؟ قال "لا" قلنا : أيعانق بعضنا بعضا ؟ قال "لا ولكن تصافحوا" أخرجه ابن ماجه فى سننه . وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان فى سورة « يوسف(2) » [إن(3) شاء الله] ، وفى « الواقعة(4) » مس القرآن أو بعضه على غير طهارة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الأصل « لما » فحذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر . وهذه الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه ، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده ؛ فذلك قوله : « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ » . قال الزجاج : هذه الآية أَبْيَنُ حجة على اليهود والنصارى ؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيهما(5) اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام فى كل كتاب . ويقال : كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى أيضا ألف سنة . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ دحوض حجتكم وبطلان قولكم . والله أعلم .

(1) راجع جـ ١ ص ٢٩٣ (2) راجع جـ ٩ ص ٢٦٥ (3) الزيادة من نسخ : ز ، ب .
(4) إيراد هذه الجملة هنا غير واضح المناسبة . (5) فى الأصول : فيها والمثبت فى : د .

قوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ ﴾ يعنى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم كانوا يعلمونه فيما يجدون من نعته فى كتابهم فحاجوا فيه بالباطل . ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعنى دعواهم فى إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا . والأصل فى « هاأنتم » أأنتم فأبدل من الهمزة الأولى هاء لأنها أختها ؛ عن أبى عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير « هأنتم » مثل هعنتم . والأحسن منه أن يكون الهاء بدلا من همزة فيكون أصله أأنتم . ويجوز أن تكون ها للتنبيه دخلت على « أنتم » وحذفت الألف لكثرة الاستعمال . وفى « هؤلاء » لغتان المدّ والقصر ومن العرب من يقصرها . وأنشد أبو حاتم :

لعمرك إنا والأحاليف هاؤلا * لفى مِحنة أظفارها لم تُقَلَّم

وهؤلاء هاهنا فى موضع النداء يعنى يا هؤلاء . ويجوز هؤلاء خبر أنتم ، على أن يكون أولاء بمعنى الذين وما بعده صلة له . ويجوز أن يكون خبر « أنتم » حاججتم . وقد تقدّم هذا فى « البقرة »[(١)] والحمد لله .

الثانيـــة — فى الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له ، والحظر على من لا تحقيق عنده فقال عز وجل : « هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » . وقد ورد الأمر بالجدال لمن علِم وأيقن فقال تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[(٢)] . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال : يا رسول الله ، إن امرأتى ولدت غلاما أسود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل لك من إبل" ؟ قال نعم . قال :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٤ ، جـ ٢ ص ٢٠ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠

" ما ألوانها " ؟ قال : حُمْرٌ . قال . " هل فيها من أَوْرَقَ[١] " ؟ قال نعم . قال : " فمن أين ذلك " ؟ قال : لعل عِرْقا نزعه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وهذا الغلام لعل عِرقا نزعه " . وهذا حقيقة الجدال ونهايةٌ في تبيين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة، وبين أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركا. والحنيف : الذي يوحد ويحج ويضحي ويختتن ويستقبل القبلة . وقد مضى في « البقرة » اشتقاقه[٢] . والمسلم في اللغة : المتذلل لأمر الله تعالى المنطاع له . وقد تقدّم في «البقرة» معنى الإسلام[٣] مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وقال ابن عباس : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أنا أولى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، فإنه كان يهوديا وما بك إلا الحسد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ أَوْلَى ﴾ معناه أحق، قيل : بالمعونة والنصرة . وقيل بالحجة . ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ على ملته وسنته . ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ أفرد ذكره تعظيما له ؛ كما قال « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ[٤] »وقد تقدّم في « البقرة » هذا المعنى مستوفى . و « هذا » في موضع رفع عطف على الذين، و « النبيّ » نعت لهذا أو عطف بيان، ولو نصب لكان جائزا في الكلام عطفا على الهاء في « اتبعوه » . ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ناصرهم . وعن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

(١) الأورق : الذي لونه بين السواد والغبرة .	(٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٩
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٤	(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥

"إن لكل نبيّ ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي — ثم قرأ — إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين ٱتبعوه وهذا النبيّ" .

قوله تعالى : وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة و بني قينقاع إلى دينهم . وهذه الآية نظير قوله تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا » (١) . و « مِنْ » على هذا القول للتبعيض . وقيل : جميع أهل الكتاب ، فتكون « مِنْ » لبيان الجنس . ومعنى « لَوْ يُضِلُّونَكُمْ » أي يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له . وقال ٱبن جُريج : « يُضِلُّونكم » أي يهلكونكم ؛ ومنه قول الأخطل :

كُنْتَ الْقَذَى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ * قَذَفَ الْأَتِيُّ (٢) به فضلّ ضلالا

أي هلك هلاكا . ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نفي وإيجاب . ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي يفطنون (٣) أنهم لا يصلُون إلى إضلال المؤمنين . وقيل : «وما يشعرون» أي لا يعلمون بصحة الإسلام وواجب عليهم أن يعلموا ؛ لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة ، والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

أي بصحة الآيات التي عندكم في كتبكم ؛ عن قتادة والسّدي . وقيل : المعنى وأنتم تشهدون بمثلها من آيات (٤) الأنبياء التي أنتم مقرّون بها .

قوله تعالى : يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٠ (٢) الأتيّ : كل سيل يأتي من حيث لا تعلم .
(٣) في جـ : يقطمون . (٤) في ز : من الآيات البينات التي الخ .

اللبس الخلط، وقد تقدّم في البقرة.(١) ومعنى هذه الآية والتي قبلها معنى ذلك.(٢) ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ ويجوز «تكتموا» على جواب الاستفهام. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصّيف وغيرهما، قالوا للسفلة من قومهم: آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، يعني أوّله. وسمي وجها لأنه أحسنه، وأوّل ما يُوَاجه منه أوّلُه. قال الشاعر:

وتُضيءُ في وجه النهارِ منيرةً * كجُمَانة البحريّ سُلّ نظامُها(٣)

وقال آخر:

من كان مسرورا بمقتل مالكٍ * فليأتِ نسوتنا بوجه نهارِ

وهو منصوب على الظرف، وكذلك «آخِرَه». ومذهب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليشككوا المسلمين. والطائفة الجماعة، من طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة. ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد في أوّل النهار ثم ٱكفروا به آخرَه؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ٱرتياب في دينه فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا. وقيل: المعنى آمنوا بصلاته في أوّل النهار إلى بيت المقدس فإنه الحق، وٱكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قبلتكم؛ عن ٱبن عباس وغيره. وقال مقاتل: معناه أنهم جاءوا محمدا صلى الله عليه وسلم أوّل النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسّفلة: هو حق فٱتبعوه، ثم قالوا: حتى ننظر في التوراة ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا: قد نظرنا في التوراة فليس هو به. يقولون إنه ليس بحق، وإنما أرادوا أن يُلبسوا على السّفلة وأن يُشكّكوا فيه.

(١) راجع جـ ١ ص ٣٤٠ (٢) في جـ: معنى تلك.

(٣) البيت للبيد. والجمانة: حبة تعمل من الفضة كالدرة، والذي في اللسان والتاج: وتضيء في وجه الظلام.

قوله تعالى : وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ هذا نهى، وهو من كلام اليهود بعضهم لبعض، أى قال ذلك الرؤساء للسّفلة. وقال السدى : من قول يهود خيبر ليهود المدينة. وهذه الآية أشكل ما فى السورة. فروى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم فإنكم أصح منهم دينا. و«أن» و«يحاجوكم» فى موضع خفض، أى بأن يحاجوكم أى بآحتجاجهم، أى لا تصدّقوهم فى ذلك فإنهم لا حجة لهم. ﴿ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من التوراة والمنّ والسلوى وفرق البحر وغيرها من الآيات والفضائل . فيكون «أن يؤتى» مؤخرا بعد « أو يُحَاجّوكم »، وقوله «إنّ الْهُدَى هُدَى اللهِ» آعتراض بين كلامين . وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدّقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب إلى أنه معطوف . وقيل : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالمدّ على الآستفهام أيضا تأكيد للإنكار الذى قالوه إنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ أى لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالكلام على نسقه. و«أن» فى موضع رفع على قول من رفع فى قولك أزيد ضربته، والخبر محذوف تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تصدّقون أو تقرون، أى إيتاء موجود مصدَّق أو مُقَرّ به ، أى لا تصدّقون بذلك . ويجوز أن تكون « أن » فى موضع نصب على إضمار فعل؛ كما جاز فى قولك أزيدا ضربته، وهذا أقوى فى العربية لأن الآستفهام بالفعل أولى، والتقدير أتقرّون أن يؤتى، أو أتشيعون ذلك، أو أتذكرون ذلك ونحوه. وبالمد قرأ آبن كثير وآبن محيصن وحميد. وقال أبو حاتم : «آن» معناه «أَلأَنْ»، فحذفت لام الجر آستخفافا وأبدلت مدّة؛ كقراءة من

قرأ « آنْ كَانَ ذَا مَالٍ »[1] أى ألأن . وقوله « أو يُحَاجُّوكُم » على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين؛ أو تكون « أو » بمعنى « أَنْ » لأنهما حَرْفَا شكّ وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر[2] . وتقدير الآية : وأن يحاجوكم عند ربكم يا معشر المؤمنين، فقل : يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه . ومن قرأ بترك المدّ قال : إن النفى الأوّل دلّ على إنكارهم فى قولهم ولا تؤمنوا . فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم : لا تصدّقوا بأن يُؤْتَى أحد مثل ما أوتيتم ، أى لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمنّ والسلْوَى وفَلْق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات ، أى إنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم . فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة . ومن آستثنى ليس من الأوّل ، وإلا لم يجز الكلام . ودخلت « أَحَدٌ » لأن أوّل الكلام نفى ، فدخلت فى صلة «أن» لأنه مفعول الفعل المنفى؛ فأن فى موضع نصب لعدم الخافض . وقال الخليل : (أنْ) فى موضع خفض بالخافض المحذوف . وقيل : إن اللام ليست بزائدة ، و « تُؤْمِنُوا » محمول على تُقِرّوا . وقال آبن جريج : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم . وقيل : المعنى لا تخبروا بما فى كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لمن تبع دينكم لئلا يكون طريقا إلى عبَدَة الأوثان إلى تصديقه . وقال الفرّاء : يجوز أن يكون قد آنقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل « إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم « قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ » . أى إن البيان الحق هو بيان الله عز وجل « أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » بيّن ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، و « لا » مقدرة بعد «أن» أى لئلا يؤتى؛ كقوله « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »[3] أى لئلا تضلوا ، فلذلك صلح دخول « أحد » فى الكلام . و « أو » بمعنى « حتى » و « إلا أن » ؛ كما قال آمرؤ القيس :

فقلتُ له لا تَبْكِ عَيْنُك إنما * نحاول مُلكًا أو نموتَ فنُعذَرا

وقال آخر[4] :

وكنتُ إذا غَمَزْتُ قَنَاةَ قوم * كسرتُ كُعُوبَها أو تستقيما

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٣٦ (٢) فى الأصول : إحداهما موضع الأخرى .
(٣) راجع ج ٦ ص ٢٨ (٤) هو زياد الأعجم .

ومثله قولهم : لا نلتقي أو تقوم الساعة ، بمعنى «حتى» أو «إلى أن» ؛ وكذلك مذهب الكسائيّ .
وهي عند الأخفش عاطفة على «وَلَا تُؤْمِنُوا» وقد تقدّم . أي لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فعطف على المعنى . ويحتمل أن تكون الآية كلها خطابا للؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم والتشحيذ لبصائرهم ؛ لئلا يشكّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم . والمعنى لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم ، ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدِّين ، ولا تصدّقوا أن يحاجّكم في دينكم عند ربّكم مَن خالفكم أو يقدر على ذلك ، فإن الهُدَى هدى الله وإن الفضل بيد الله . قال الضحاك : إن اليهود قالوا إنا نحاجّ عند ربنا مَن خالفنا في ديننا ؛ فبيّن الله تعالى أنهم هم المُدْحَضُون المعذَّبون وأن المؤمنين هم الغالبون . ومحاجّتهم خصومتهم يوم القيامة . ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن اليهود والنصارى يحاجُّونا عند ربّنا فيقولون أعطيتنا أجرًا واحدا وأعطيتهم أجرين فيقول هل ظلمتكم من حقوقكم شيئا قالوا (١) لا قال فإن ذلك فضلي أُوتيه من أشاء" . قال علماؤنا : فلو علموا أن ذلك من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا ؛ فأعلم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أنهم يحاجونكم يوم القيامة عند ربكم ، ثم قال : قل لهم [الآن] (٢) « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . وقرأ ابن كثير « آنْ يؤتى » بالمدّ على الاستفهام ؛ كما قال الأعشى :

آأنْ رأت رَجُلًا أعشَى أضَرَّ بِهِ * رَيْبُ المَنُون ودهْرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ (٣)

وقرأ الباقون بغير مدّ على الخبر . وقرأ سعيد بن جبير «إن يؤتى» بكسر الهمزة ، على معنى النفي ، ويكون من كلام الله تعالى كما قال الفرّاء . والمعنى : قل يا محمد « إن الهُدَى هدَى الله إن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » يعني اليهود — بالباطل فيقولون نحن أفضل منكم . ونصب « أو يحاجوكم » يعني بإضمار « أن » و « أو » تضمر بعدها « أن » إذا كانت بمعنى « حتى » و «إلّا أن» . وقرأ الحسن «أن يؤتِيَ» بكسر التاء وياء مفتوحة ، على معنى أن يؤتِيَ أحدٌ أحدًا مثل ما أوتيتم ؛ فحذف المفعول .

---

(١) في د : فيقولون . (٢) من ب ، د . (٣) متبل : مسقم ، وخبل : ملتو على أهله لا يرون فيه سرورا .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الهدى إلى الخير والدلالة إلى الله عز وجل بيد الله جل ثناؤه يؤتيه أنبياءه، فلا تنكروا(١) أن يؤتى أحد سواكم مثل ما أوتيتم، فإن أنكروا ذلك فقل لهم « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » . والقول الآخر : قل إن الهدى هدى الله الذى آتاه المؤمنين من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لا غيره . وقال بعض أهل الإشارات فى هذه الآية : لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

أى بنبوّته وهدايته؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . ٱبن جُريج : بالإسلام والقرآن « من يشاء » . قال أبو عثمان : أجمل القول ليبقى معه رجاء الراجى وخوف الخائف ، ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ مثل عبد الله بن سَلَام . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وهو فنحاص بن عازوراء اليهودىّ، أودعه رجل دينارا فخانه . وقيل : كعب بن الأشرف وأصحابه . وقرأ ٱبن وثّاب والأشهب العقيلى « مَنْ إِنْ تِيمَنْه » على لغة من قرأ «نِستعين» وهى لغة بكر وتميم . وفى حرف عبد الله « مالك لا تِيمَنَّا على يوسف» . والباقون بالألف . وقرأ نافع والكسائى « يؤدِّهِى » بياء فى الإدراج . قال أبو عبيد : وٱتفق أبو عمرو والأعمش وعاصم وحمزة فى رواية أبى بكر

(١) هذا نهى ، وفى جـ ، و د : فلا تنكرون . على الخبر .

على وقف الهـاء، فقرءوا «يؤدّهْ إليك» . قال النحاس : بإسكان الهـاء لا يجوز إلا في الشعر عنـد بعض النحويين ، وبعضهم لا يجيزه ألبتّةَ ويَرى أنه غلط ممن قـرأ به ، وأنه توهّم أن الجزم يقع على الهـاء ، وأبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه مثل هذا . والصحيح عنه أنه كان يكسر الهـاء ؛ وهي قراءة يزيد بن القَعْقاع . وقال الفـرّاء : مذهب بعض العرب يجزمون الهـاء إذا تحرك ما قبلها ، يقولون : ضربتهْ ضربا شديدا؛ كما يسكنون ميم أنتم وقمتم وأصلها الرفع ؛ كما قال الشاعر :

لمـا رأى أن لّا دعَهْ ولا شِـبَعْ * مال إلى أرْطَاة حِقْفٍ[(١)] فآضطَجعْ

وقيل : إنمـا جاز إسكان الهـاء في هذا الموضع لأنهـا وقعت في موضع الجزم وهي اليـاء الذاهبة . وقرأ أبو المُنْذِر سلّام والزُّهرِيّ « يؤدّهُ » بضم الهـاء بغير واو . وقرأ قَتادة وحُميد ومجاهد « يؤدِّهُو » بواو في الإدراج ، آختِير لهـا الواو لأن الواو من الشّـفة والهـاء بعيدة المخرج . قال سيبويه : الواو في المذكّر بمنزلة الألف في المؤنّث ويبدل منها ياء لأن الياء أخف إذا كان قبلها كسرة أو ياء، وتحذف اليـاء وتبقى الكسرة لأن الياء قد كانت تحذف والفعل مرفوع فأثبتت بحالهـا .

الثانيـــة — أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الخائنَ والأمينَ، والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغي آجتناب جميعهم . وخصّ أهل الكتاب بالذّكر وإن كان المؤمنون كذلك؛لأنّ الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب . والله أعلم . وقد مضى تفسير القنطار . وأما الدينار فأربعة وعشرون قيراطا والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير، فمجموعه آثنتان وسبعون حبة، وهو مُجْمَع عليه . ومن حفِظ الكثير وأدّاه فالقليل أوْلى ، ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر . وهذا أدلّ دليل على القول بمفهوم الخطاب.وفيه بين العلماء خلاف [كثير][(٢)] مذكور في أصول الفقه . وذكر تعالى قسمين : من يؤدّى ومن لا يؤدّى إلا بالملازمة عليه ؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدّى وإن دُمت عليه قائما . فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب

---

(١) الأرطاة : واحدة الأرطى، وهو شجر من شجر الرمل . والحقف (بالكسر) : ما آعوج من الرمل . (٢) من د.

والمعتاد والثالث نادر ؛ فخرج الكلام على الغالب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلمي وغيرهما «دِمت» بكسر الدال وهما لغتان، والكسر لغة أَزْد السَّراة ؛ من «دِمْت تدام» مثل خفت تخاف . وحكى الأخفش دِمت تدوم ، شاذًّا .

الثالثـة — آستدلّ أبو حنيفة على مذهبه في ملازمة الغَرِيم بقوله تعالى : «إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا» وأباه سائر العلماء، وقد تقدّم في البقرة (١) . وقد آستدل بعض البَغْداديِّين [من علمائنا] (٢) على حبس المِديان بقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » فإذا كان له ملازمته ومنعه من التصرف، جاز حبسه . وقيل : إن معنى «إلا مادمت عليه قائما» أي بوجهك فيهَابُك ويستحي منك، فإن الحياء في العينين ؛ ألا ترى إلى قول آبن عباس رضي الله عنه : لا تطلبوا من الأعمى حاجة فإن الحياء في العينين . وإذا طلبت من أخيك حاجة فآنظر إليه بوجهك حتى يستحي فيقضيها . ويقال : «قائما» أي ملازما له ؛ فإن أنظرته أنكرك . وقيل : أراد بالقيام إدامة المطالبة لا عين القيام . والدِّينار أصله دِنّار فعوّضت من إحدى النونين ياء طلبا للتخفيف لكثرة آستعماله . يدل عليه أنه يجمع دنانير ويصغر دُنَيْنِير .

الرابعـة — الأمانة عظيمة القَدْر في الدِّين، ومن عِظم قدرها أنها تقوم هي والرَّحم على جَنَبَتَي (٣) الصراط ؛ كما في صحيح مسلم . فلا يُمَكّن من الجواز إلا من حفظهما . وروى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، قال : "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه" الحديث . وقد تقدم بكماله أوّل البقرة (٤) . وروى آبن ماجه حدّثنا محمد آبن المُصَفَّى حدّثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سِنان عن أبي الزاهِريّة عن أبي شجرة كثير آبن مُرة عن آبن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء لم تَلقه إلا مَقِيتاً مُمَقَّتاً فإذا لم تلقه إلا مَقِيتاً مُمَقَّتاً نُزِعت منه الأمانة فإذا نزعت منه الأمانة لم تَلقه إلا خائنا مُخَوَّنا فإذا لم تلقه إلا خائنا مخونا نُزعت منه

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧١   (٢) نخ : ب .   (٣) جنبة الوادي (بفتح النون) : جانبه وناحيته . والجنبة (بسكون النون) : الناحية ؛ يقال : نزل فلان جنبة أي ناحية .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٨٨ ؛ وصحيح مسلم جـ ١ ص ٥١ طبع بولاق .

الرحمة فإذا نُزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعنا فإذا لم تَلقه إلا رجيما مُلَعَّناً نزعت منه رِبْقة الإسلام" . وقد مضى فى البقرة معنى قولِه عليه السلام : "أدِّ الأمانة إلى من ٱئتمنك ولا تخن من خانك" . والله أعلم .

الخامســـة — ليس فى هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافا لمن ذهب إلى ذلك ؛ لأن فُسّاق المســلمين يوجد فيهم من يؤدّى الأمانة ويؤمن على المـال الكثير ولا يكونون بذلك عدولا . فطريق العدالة والشهادة ليس يجزئ فيــه أداء الأمانة فى المـال من جهة المعاملة والوديعة؛ ألا ترى قولهم : «لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» فكيف يعدل من يعتقد ٱســتباحة أموالنا وحَريمنا بغير حرج عليــه ؛ ولو كان ذلك كافيا فى تعديلهــم لسُمعت شهادتهم على المسلمين .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ يعنى اليهود ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ قيل : إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون : ليس علينا فى الْأُمِّيِّينَ سبيل — أى حرج فى ظلمهم — لمخالفتهم إيّانا . وٱدّعوا أن ذلك فى كتابهم؛ فأكذبهم الله عز وجل وردّ عليهم فقال : « بلى » أى بلَى عليهم سبيل العــذاب بكذبهم وٱستحلالهم أموال العرب . قال أبو إسحاق الزجاج : وتمّ الكلام . ثم قال « مَنْ أَوْفَى بِعَهْــدِهِ وَٱتَّقَى » . ويقال : إن اليهود كانوا قد ٱستدانوا من الأعراب أموالا فلما أســلم أرباب الحقوق قالت اليهود : ليس لكم علينا شىء، لأنكم تركتم دِينكم فسقط عنا دَينكم . وٱدّعوا أنه حكم التوراة فقال الله تعـالى : « بلى » ردّا لقولهم « لَيْسَ عَلَيْنَــا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » . أى ليس كما تقولون ، ثم ٱســتأنف فقال : « مَنْ أَوْفَى بِعَهْــدِهِ وَٱتَّقَى » الشركَ فليس من الكاذبين بل يحبه الله ورسوله .

السابعـــة — قال رجل لٱبن عباس : إنّا نُصيب فى العَمْــد من أموال أهــل الذمة الدّجاجة والشــاة ونقول : ليس علينا فى ذلك بأس . فقال له : هــذا كما قال أهل الكتاب « ليس علينا فى الأمِّيين سبيل » إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب

أنفسهم ؛ ذكره عبد الرازق عن معمر عن أبي إسحاق الهَمْداني عن صَعْصعة أن رجلا قال لابن عباس ؛ فذكره .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن الكافر لا يُجعل أهلا لقبول شهادته ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه كذاب . وفيه ردّ على الكفرة الذين يحرِّمون ويحلّلون غير تحريم الله وتحليله ويجعلون ذلك من الشرع . قال ابن العربي : ومن هذا يخرج الرّد على من يحكم بالاستحسان من غير دليل ، ولست أعلم أحدا من أهل القِبْلة قاله . وفي الخبر : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ إلا الأمانة فإنها مؤدّاة إلى البَرّ والفاجر " .

قوله تعالى : بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

« من » رفع بالابتداء وهو شرط . و « أوفى » في موضع جزم . و « اتقى » معطوف عليه ، أي واتقى الله ولم يكذب ولم يستحل ما حُرِّم عليه . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي يُحب أولئك . وقد تقدّم معنى حب الله لأوليائه . والهاء في قوله « بعهده » راجعة إلى الله عز وجل . وقد جرى ذكره في قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ويجوز أن تعود على الموفي ومتقي الكفر والخيانة ونقض العهد . والعهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — روى الأئمة عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدّمته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل

لك بينة "؟ قلت لا، قال لليهودي: "احلف" قلت: إذًا يحلف فيذهب بمالي؛ فأنزل الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا » إلى آخر الآية. وروى الأئمة أيضا عن أبي أُمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة". فقال له رجل: و إن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: "و إنْ كان قضيبا من أَرَاك"(١). وقد مضى في البقرة معنى « لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ »(٢).

الثانيـــة — ودلّتْ هذه الآية والأحاديثُ أن حكم الحاكم لايُحلّ المال في الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانَه؛ وقد روى الأئمة عن أمّ سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر ولعلّ بعضكم أن يكون ألْحن بحجّته من بعض وإنما أقضي بينكم على نحوٍ مما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة". وهذا لا خلاف فيه بين الأئمة(٣)، و إنما ناقض أبو حنيفة وغلا وقال: إن حكم الحاكم المبنيّ على الشهادة الباطلة يُحلّ الفرج لمن كان محرّما عليه؛ كما تقدّم في البقرة(٤). وزعم أنه لو شهد شاهدا زورٍ على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما فإن فرجها يحل لمتزوّجها ممن يعلم أن القضية باطل. وقد شُنّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح، و بأنه صان الأموال ولم ير استباحتها بالأحكام الفاسدة، ولم يصن الفروج عن ذلك، والفروج أحقُّ أن يحتاط لها وتُصان. وسيأتي بطلان قوله في آية اللعان(٥) إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

(١) الأراك شجر من الحمض يستاك بقضبانه، الواحدة أراكة. (٢) ج ٢ ص ٢٣٤
(٣) في د: بين الأمة. (٤) راجع المسئلة الثالثة ج ٢ ص ٣٣٨ (٥) راجع ج ١٢ ص ١٨٢

يعنى طائفة من اليهـود . ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ﴾ وقرأ أبو جعفر وشيبة «يُلَوُّون» على التكثير . إذا أماله ؛ ومنـه والمعنى يحرفون الكلم ويعدلون به عن القصد . وأصل اللّيّ الميل . لَوى بيده، ولَوى برأسه قوله تعالى : « لَيًّا بألسنتهم »[1] أى عنادا عن الحق ومَيْلًا عنه إلى غيره . ومعنى « ولا تلوون على أحد »[1] أى لا تعرجون عليه ؛ يقال لَوى عليـه إذا عرّج وأقام . واللّى المطْل . لواه بدَينه يَلْوِيه لَيًّا ولِيَانا مَطَله . قال :

قد كنت داينت بها حسّانا　＊　مخافة الإفلاس واللّيانا

＊ يحسن بيع الأصـل والعيانا ＊

وقال ذو الرمّة :

تريدين لَيّانى[2] وأنت مَلِيئـةٌ　＊　وأحسن يا ذات الوِشاح التّقاضيا

وفى الحديث " لَىُّ الواجِد يُحِلّ عِرضَه وعقوبته " . وألْسِنة جمع لسان فى لغة من ذكّر، ومن أنّث قال ألسن .

قوله تعـالى : مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)

﴿ ما كان ﴾ معنـاه ما ينبغى ؛ كما قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُـلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً » و « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ »[3] . و «مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا»[4] يعنى ماينبغى . والبشر يقع للواحد والجمع لأنه بمنزلة المصـدر ؛ والمراد به هنا عيسى فى قول الضحّاك والسـّدّى . والكتاب : القرآن . والحكم : العلم والفهم . وقيل أيضا : الأحكام . أى إن الله لا يصطفى لنبوّته الكَذَبة، ولو فعل ذلك بشر لسلبه الله آيات النبوّة وعلاماتها . ونصب «ثم يقولَ» على الأشتراك بين « أن يؤتيه » وبين « يقول » أى لا يجتمع لنبىّ إتيان النبوّة وقوله : «كُونُوا عِبَادًا لِى مِنْ دُونِ اللهِ» . ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أى ولكن جائز أن يكون النبىّ يقول لهم

(١) جـ ٥ ص ٢٣٩ وص ٢٤٣ من هذا الجزء .　(٢) فى ديوانه : «تطلبين» .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٠٧　(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٩٧

كونوا ربّانيّين . وهذه الآية قيل إنها نزلت فى نصارى نَجْران . وكذلك رُوى أن السورة كلها إلى قوله : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ » كان سبب نزولهـا نصارى نَجْران ولكن مُزِج معهم اليهود؛ لأنهم فعلوا من الجَحْد والعِناد فِعلَهم .

والرَّبانيُّون واحِدهم ربّانِىّ منسوب إلى الرَّبّ . والربّانِىّ الذى يُرَبِّى الناس بصغار العـلم قبل كباره ؛ وكأنه يقتدى بالرب سبحانه فى تيسير(1) الأمور؛ رُوى معناه عن ٱبن عباس . قال بعضهم : كان فى الأصل رَبِّىّ فأدخلت الألف والنون للبالغة ؛ كما يقال للعظيم اللحية : لِحْيَانِىّ ولعظيم الجُمّة جُمّانى ولغليظ الرَّقبة رَقَبانىّ . وقال المبرّد : الربّانيون أرباب العلم، واحدهم ربّان، من قولهم : رَبَّه يَرُبّه فهو ربّان إذا دَبّره وأصلحه ؛ فمعناه على هذا يدبّرون أمور الناس ويصلحونها . والألف والنون للمبـالغة كما قالوا رَيّان وعطشان، ثم ضمت إليها ياء النسـبة كما قيل : لِحيّانىّ ورَقَبانىّ وجمّانىّ . قال الشاعر :

لو كنتُ مُرتَهنًا فى الجوّ(2) أنزلنى * منـه الحديث وربّانىُّ أحبارى

فمعنى الربّانِىّ العـالم بدين الربّ الذى يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم . وقد تقدم هـذا المعنى فى البقرة : وقال أبو رزين : الربانىّ هو العالم الحكيم . وروى شعبة عن عاصم عن زِرّ عن عبد الله بن مسعود «ولكن كونوا ربّانيين» قال : حكماء علماء . ٱبن جُبير : حكماء أتقياء . وقال الضحاك : لا ينبغى لأحد أن يدع حفظ القرآن جُهـدَه فإن الله تعـالى يقول: « وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » . وقال ٱبن زيد : الربانيُّون الولاة، والأحبار العلماء . وقال مجاهد : الربانيون فوق الأحبار . قال النحاس : وهو قول حسن؛ لأن الأحبار هم العلماء . والربانىّ الذى يجمع إلى العلم البصَر بالسياسـة ؛ مأخوذ من قول العرب : رَبّ أمرَ النـاس يَرُبّه إذا أصلحه وقام به، فهـو رابٌّ وربّانِىّ على التكثير . قال أبو عبيـدة : سمعت عالما يقول: الربانىّ العالمُ بالحلال والحرام والأمر والنهى، العارفُ بأنباء الأمّة وما كان وما يكون . وقال محمـد بن الحنفيّة يوم مات ٱبنُ عباس : اليومَ مات ربانِىُّ هـذه الأمّة . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حرّ ولا مملوك إلا ولله عزّ وجل

(1) فى د : جميع ؛ وفى ز : تفسير . (2) فى : ز و ا : فى الحق .

عليه حق أن يتعلم من القرآن و يتفقه في دينه — ثم تلا هذه الآية —وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّين" الآية . رواه ٱبن عباس .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ قرأه أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف من العلم . وٱختار هذه القراءة أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصديقها « تَدْرُسُونَ » ولم يقل « تُدَرِّسون » بالتشديد من التدريس . وقرأ ٱبن عامر وأهل الكوفة « تُعلّمون » بالتشديد من التعليم ؛ وٱختارها أبو عبيد . قال : لأنها تجمع المعنيين « تَعْلَمون، وتدرسون » . قال مَكّيّ : التشديد أبلغ ؛ لأن كل معلِّم عالِمٌ بمعنى يَعْلم وليس كل من عَلِم شيئا مُعَلِّمًا ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط ، فالتعليم أبلغ وأمدح وغيره أبلغ في الذم . ٱحتج من رجح قراءة التخفيف بقول ٱبن مسعود « كونوا ربانيين » قال : حكماء علماء، فيبعد أن يقال كونوا فقهاء حكماء علماء بتعليمكم . قال الحسن، كونوا حكماء علماء بعلمكم . وقرأ أبو حَيْوَة « تُدرِسون » من أدرس يُدرس . وقرأ مجاهد « تَعلّمون » بفتح التاء وتشديد اللام، أي تتعلمون .

قوله تعالى : وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قرأ ٱبن عامر وعاصم وحمزة بالنصب عطفا على « أَنْ يُؤْتِيَهُ » . ويقويه أن اليهود قالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نتخذك يا محمد ربًّا ؟ فقال الله تعالى : « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ — إلى قوله : ولا يأمركم » . وفيه ضمير البشر ، أي ولا يأمركم البشر يعني عيسى وعُزيرا . وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأوّل ، وفيه ضمير ٱسم الله عز وجل ، أي ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقوّى هذه القراءة أن في مصحف عبد الله « ولن يأمركم » فهذا يدل على الاستئناف ، والضمير أيضا لله عز وجل ؛ ذكره مكّي، وقاله سيبويه والزجاج . وقال ٱبن جُرَيج وجماعة : ولا يأمركم محمد

عليه السلام . وهذه قراءة أبى عمرو والكسائى وأهل الحرمين . ﴿ أَنْ تَتَّخِذُوا ﴾ أى بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أَرْبَابًا . وهذا موجود فى النصارى يعظّمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أربابا . ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ على طريق الإنكار والتعجب ؛ فحرّم الله تعالى على الأنبياء أن يتخذوا النـاس عبادا يتألّهون لهم ولكن ألزم الخلق حرمتهم . وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم أنه قال : " لا يقولنّ أحدكم عَبْدِى وأَمَتِى وليقل فَتَاىَ وفَتَاتِى ولا يقل أحدكم رَبِّى وليقل سَـيِّدِى "(١) . وفى التنزيل « اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » . وهناك يأتى بيان هذا [المعنى(٢)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

قيل : أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصـدّق بعضهم بعضا ويأمر بعضهم بالإيمـان بعضا ؛ فذلك معنى النُّصرة بالتصديق . وهـذا قول سعيد بن جُبير وقَتادة وطاوس والسُّدى والحسن ، وهو ظاهر الآية . قال طاوس : أخذ الله ميثاق الأوّل من الأنبياء أن يؤمن بمـا جاء به الآخر . وقرأ ابن مسـعود « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . قال الكسائى : يجوز أن يكون « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » بمعنى وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين . وقال البصريون : إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقـد أخذ ميثاق الذين معهم ؛ لأنهم قد اتبعوهم وصدّقوهم . و « ما » فى قوله « لَمَـا » بمعنى الذى . قال سيبويه : سألت الخليل ابن أحمد عن قوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَـا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » فقال : لمـا بمعنى الذى . قال النحاس : التقدير على قول الخليل للذى آتيتكموه ، ثم حذف

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٥ (٢) الزيادة من د ، ب .

الهاء لطول الاسم . و « الذى » رفع بالابتداء وخبره « من كتاب وحكمة » . و « من » لبيان الجنس . وهذا كقول القائل : لزيد أفضل منك؛ وهو قول الأخفش أنها لام الابتداء . قال المهدوىّ : وقوله « ثم جاءكم » وما بعده جملة معطوفة على الصلة، والعائد منها على الموصول محذوف؛ والتقدير ثم جاءكم رسول مصدّق به .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قول علىّ وابن عباس رضى الله عنهما . واللفظ و إن كان نكرة فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً — إلى قوله : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ »[1] . فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم . واللام من قوله « لتؤمنن به » جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف . وهو كما تقول فى الكلام : أخذت ميثاقك لتفعلن كذا ، كأنك قلت استحلفك ، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذى هو « لِمَا » فى قراءة ابن كثير على ما يأتى . ومن فتحها جعلها متلقية للقسم الذى هو أخذ الميثاق . واللام فى « لتؤمنن به » جواب قسم محذوف، أى والله لتؤمنن به . وقال المبرّد والكسائى والزجاج: «ما» شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن، ومعناه [لمهما][2] آتيتكم؛ فموضع «ما» نصب، وموضع « آتيتكم » جزم، و «ثم جاءكم» معطوف عليه، ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ اللام فى قوله « لتؤمنن به » جواب الجزاء؛ كقوله تعالى : «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ»[3] ونحوه . وقال الكسائىّ : لتؤمنن به مُعتمد القسم فهو متصل بالكلام الأول، وجواب الجزاء قوله « فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ » . ولا يحتاج على هذا الوجه إلى تقدير عائد . وقرأ أهل الكوفة « لِمَا آتيتكم » بكسر اللام، وهى أيضا بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ، أى أخذ الله ميثاقهم لأجل الذى آتاهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به من بعد الميثاق ؛ لأن أخذ الميثاق فى معنى الاستحلاف كما تقدّم . قال النحاس : ولأبى عبيدة فى هذا قول حسن . قال : المعنى و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

(١) راجع ج ١٠ ص ١٩٤

(٢) كذا فى ب، ود . وفى السمين : التقدير والله لأى شىء آتيتكم من كذا وكذا لتؤمنن به .

(٣) راجع ج ١٠ ص ٣٢٥

لتؤمننّ به لما آتيتكم من ذكر التوراة . وقيل : في الكلام حذف ، والمعنى وَإِذْ أخذ الله ميثاق النبيّين لَتُعَلِّمُنّ الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ، ولتأخذنّ على النـاس أن يؤمنوا . ودلّ على هذا الحذف « وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى » . وقيل : إن اللام فى قوله « لِمَا » فى قراءة من كسرها بمعنى بعد ، يعنى بعد ما آتيتكم من كتاب وحكمة ؛ كما قال النابغة :

توهّمتُ آيات لهـا فعرفتُهـا * لستّةِ أعوام وذا العامُ سابع

أى بعد ستة أعوام . وقرأ سعيد بن جُبير « لمّا » بالتشديد ، ومعناه حين آتيتكم . وآحتمل أن يكون أصلها التخفيف فزيدت « مِن » على مذهب من يرى زيادتها فى الواجب فصارت لمن ما ، وقلبت النون ميما للإدغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الأولى منهن آستخفافا . وقرأ أهل المدينة « آتيناكم » على التعظيم . والباقون « آتيتكم » على لفظ الواحد . ثم كلّ الأنبياء لم يُؤتوا الكتاب وإنما أوتى البعض ؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب . والمراد أخذ ميثاق جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو فى حكم من أوتى الكتاب لأنه أوتى الحُكْمَ والنبوّة . وأيضا من لم يؤت الكتاب أمر بأن يأخذ بكتاب من قبله فدخل تحت صفة من أوتى الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ « أقررتم » من الإقرار ، والإِصْر والأَصْر لغتان ، وهو العهـد . والإصر فى اللغة الثِّقَل ؛ فسُمِّى العهد إصرًا لأنه مَنْع وتشديد . ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ أى آعلموا ؛ عن آبن عباس . الزجاج : بيّنوا لأن الشاهد هو الذى يصحّح دعوى المدّعِى . وقيل : المعنى آشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم . ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عليكم وعليهم . وقال سعيد بن المسيّب : قال الله عز وجل للملائكة فآشهدوا عليهم ، فتكون كناية عن غير مذكور .

قوله تعـالى : فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

« مَنْ » شرط . فمن تولّى من أمم الأنبياء عن الإيمان بعد أخذ الميثاق ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى الخارجون عن الإيمـان . والفاسق الخارج . وقد تقدّم (١) .

(١) راجع ١ ص ٢٤٤

قوله تعالى : أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ قال الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه آختصموا مع النصارى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيّنا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كلا الفريقين برىءٌ من دينه" . فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك؛ فنزل « أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ » يعني يطلبون . ونصبت « غير » بيبغون، أي يبغون غير دين الله . وقرأ أبو عمرو وحده « يبغون » بالياء على الخبر « وإليه ترجعون » بالتاء على المخاطبة . قال : لأن الأوّل خاصّ والثاني عامّ ففرق بينهما لآفتراقهما في المعنى . وقرأ حفص وغيره « يبغون، ويرجعون » بالياء فيهما؛ لقوله : « فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » . وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله «لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ أي آستسلم وآنقاد وخضع وذلّ ، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه . قال قتادة : أسلم المؤمن طوعًا والكافر عند موته كرهًا ولا ينفعه ذلك؛ لقوله : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »(١) . قال مجاهد : إسلام الكافر كرهًا بسجوده لغير الله وسجود ظلّه لله، «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ»(٢) . «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ »(٣) . وقيل : المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم؛ فمنهم الحسن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم منقادون آضطرارًا ، فالصحيح منقاد طائع محبّ لذلك ، والمريض منقاد خاضع وإن كان كارها . والطوع الآنقياد

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٦ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١١ (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٠١

والاتبـاع بسهولة . والكره ما كان بمشقة و إباء من النفس . و ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ مصدران في موضع الحال ، أي طائعين ومكرهين . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » قال : " الملائكة أطاعوه في السماء والأنصارُ وعبـدُ القَيْس في الأرض " . وقال عليه السـلام : " لا تَسُبُّوا أصحابي فإن أصحابي أسلموا من خوف الله وأسلم الناس من خوف السيف " . وقال عِكْرِمة : «طوعا» مَن أسلم من غير مُحاجّة « وكرها » مَن اضطرته الحجة إلى التوحيد . يدلّ عليه قوله عز وجل : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[1] « ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّـرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[2] . قال الحسن : هو عمـوم معناه الخصوص . وعنـه : « أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » وتمّ الكلام . ثم قال : « وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » . قال : والكاره المنافق لا ينفعه عمـله . و « طوعا وكرها » مصدران في موضـع الحال . عن مجاهد عن ابن عباس قال : إذا استصعبتْ دابّةُ أحدكم أو كانت شَمُوسًا[3] فليقرأ في أذنها هذه الآية : « أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » إلى آخر الآية .

قوله تعـالى : وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

« غير » مفعول بيبتغ ، « دينا » منصوب على التفسير ، ويجوز أن ينتصب دينا بيبتغ ، وينتصب « غير » على أنه حال من الدِّين . قال مجاهد والسُّدِّي : نزلت هذه الآية في الحارث ابن سُويد أخو الجُلَاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتدّ عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفارا ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . ورُوِي ذلك عن ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٢٣ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٦١

(٣) شمست الدابة : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

قال هشام : أى وهو خاسر فى الآخرة من الخاسرين؛ ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول . وقال المازنى : الألف واللام مثلها فى الرجل . وقد تقدّم هذا فى البقرة (١) عند قوله : «وإنّه فى الآخرة لمن الصالحين» .

قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾

قال ٱبن عباس: إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ٱرتدّ ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه : سَلُوا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لى مِنْ توبة ؟ فجاء قومُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: هل له من توبة ؟فنزلت «كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ» إلى قوله : «غَفُورٌ رَحِيمٌ» فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النسائى . وفى رواية : أن رجلا من الأنصار ٱرتدّ فلحق بالمشركين، فأنزل الله «كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا» إلى قوله : «إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا» فبعث بها قومُه إليه، فلما قرئت عليه قال: والله ما كَذَبنى قومى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أكذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله، والله عز وجل أصدق الثلاثة؛ فرجع تائبا، فقبِل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه . وقال الحسن : نزلت فى اليهود لأنهم كانوا يبشّرون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ويَسْتَفْتِحون على الذين كفروا؛ فلما بُعث عاندوا وكفروا، فأنزل الله عز وجل «أُولَـٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والمَلَائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ» . ثم قيل : «كيف» لفظة ٱستفهام ومعناه الجَحْد، أى لا يهدى الله . ونظيره قوله : «كَيفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ رَسُولِه» (٢) أى لا يكون لهم عهد؛ وقال الشاعر :

كيف نومى على الفراش ولمّا * يشمل القومَ غارةٌ شعواءُ

أى لا نوم لى . ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يقال : ظاهر الآية أنّ من كفر بعد إسلامه لايهديه الله ومن كان ظالما، لا يهديه الله ؛ وقد رأينا كثيرا من المرتدّين قد أسلموا

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٣		(٢) راجع جـ ٨ ص ٧٧

وهــداهم الله ، وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم . قيــل له : معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقبِلون على الإســلام ؛ فأما إذا أسلموا وتابوا فقــد وفقهم الله لذلك . والله تعالى أعلم .

قوله تعــالى : ﴿أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

أى إن داموا على كفرهم . وقد تقدّم معنى لعنة الله والناس فى «البقرة»(١) فلا معنى لإعادته . ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى لا يؤخرون ولا يؤجّلون ، ثم ٱستثنى التائبين فقال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ هو الحارث بن سُوَيْد كما تقدّم . ويدخل فى الآية بالمعنى كلُّ من راجع الإسلام وأخلص .

قوله تعــالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

قال قتادة وعطاء الخراسانىّ والحسن : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ٱزدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته ، « ثم ٱزدادوا كفرا » بإقامتهم على كفرهم . وقيل : «ٱزدادوا كفرا» بالذنوب التى ٱكتسبوها . وهذا ٱختيار الطبرى ، وهى عنده فى اليهود . ﴿لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ مشكل لقوله : «وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ»(٢) فقيــل : المعنى لن تقبل توبتهم عنــد الموت . قال النحاس : وهــذا قول حسن ؛ كما قال عز وجل : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ »(٣) . وروى عن الحسن وقتادة وعطاء . وقد قال صلى الله عليه وســلم : " إن الله

(١) راجع ج ٢ ص ١٨٨ (٢) راجع ج ١٦ ص ٢٥ (٣) راجع ج ٥ ص ٩٠

يقبل توبة العبد مالم يغرغر"(١). وسيأتى فى «النساء» بيان هذا المعنى. وقيل: «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» التى كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر قد أحبطها . وقيل: «لن تقبل توبتهم» إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر؛ وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام . وقال قطرب . هذه الآية نزلت فى قوم من أهل مكة قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون، فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا . فأنزل الله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » أى لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر؛ فسماها توبة غير مقبولة؛ لأنه لم يصح من القوم عزم، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

الملء (بالكسر) مقدار ما يملأ الشىء، والملء (بالفتح) مصدر ملأت الشىء؛ ويقال: أعطنى مِلأه ومِلأيه وثلاثة أملائه . والواو فى « وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » قيل : هى مقحمة زائدة؛ المعنى : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو افتدى به . وقال أهل النظر من النحويين : لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنها تدل على معنى . ومعنى الآية : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا تبرعا ولو افتدى به . و«ذهبا» نصب على التفسير فى قول الفراء . قال المفضّل : شرط التفسير أن يكون الكلام تاما وهو مبهم؛ كقولك عندى عشرون؛ فالعدد معلوم والمعدود مبهم؛ فإذا قلت درهما فسرت . وإنما نصب التمييز لأنه ليس له مايخفضه ولا ما يرفعه، وكان النصب أخف الحركات فجعل لكل ما لا عامل فيه . وقال الكسائى : نصب على إضمار مِنْ، أى من ذهب؛ كقوله : « أو عدل ذلك صياما »(٢) أى من صيام . وفى البخارى ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "يجاء بالكافر

(١) أى ما لم تبلغ روحه حلقومه؛ فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به المريض، راجع جـ ٥ ص ٩٢
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣١٦

يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به فيقـول نعم فيقال له قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك" . لفظ البخارى . وقال مسلم بدل " قـد كنت ، كذبتَ ، قد سُئلتَ " .

قوله تعـالى : لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

فيه مسألتـان :

الأولى ـــ روى الأئمة واللفظ للنسائى عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» قال أبو طلحة : إن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يارسول الله أنى جعلت أرضى لله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آجعلها فى قرابتك فى حسان آبن ثابت وأبى بن كعب". وفى الموطأ «وكانت أحب أمواله إليه بَيْرُحاء[1]، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب» . وذكر الحديث. ففى هذه الآية دليل على آستعمال ظاهر الخطاب وعمومه؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك. ألا ترى أبا طلحة حين سمع « لن تنالوا البر حتى تنفقوا » الآية، لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذى يريد اللهُ أن ينفق منه عبادُه بآية أخرى أو سنة مبيِّنة لذلك فإنهم يحبون أشياء كثيرة . وكذلك فعل زيد آبن حارثة، عَمِد مما يحب إلى فرس يقال له "سَبَل" وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلىّ من فرسى هذه، فجاء بها [إلى][2] النبى صلى الله عليه وسلم فقال: هذا فى سبيل الله. فقال لأسامة بن زيد "آقبضه". فكأن زيداً وجد من ذلك فى نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد قبلها منك" . ذكره أسد بن موسى . وأعتق آبن عمر نافعا مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار . قالت صفية بنت أبى عبيد : أظنه تأول قول الله عز وجل : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» . وروى شِبل عن [3] أبى نَجيح

(١) بيْرحاء : مال وموضع كان لأبى طلحة بالمدينة . (٢) من د، و ز . (٣) فى د : آبن أبى نجيح .

عن مجاهـد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشـعرى أن يبتاع له جارية من سَبْى جَلُولاء[(١)] يوم فتح مدائن كِسْرَى ؛ فقال[(٢)] سـعد بن أبى وقاص : فدعا بهـا عمر فأعجبته ، فقال إن الله عز وجل يقول : «لن تنالوا البِر حتى تنفِقوا مِما تحبون» فأعتقها عمر رضى الله عنه . وروى عن الثورى أنه بلغه أن أمّ ولد الرّبيع بن خُثَيْم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لى : يا فلانة أعطى السائل سكرا، فإن الربيع يحب السكر . قال سفيان : يتأول قوله جل وعز : « لن تنالوا البِر حتى تنفِقوا ممـا تحبون » . وروى عن عمر بن عبـد العزيز أنه كان يشـترى أعدالا من سكر و يتصدّق بها . فقيل له : هلا تصدّقت بقيمتها؟ فقال : لأن السكر أحب إلىّ فأردت أن أنفق ممـا أحب . وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركوا[(٣)] ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانيـــة — وٱختلفوا فى تأويل « البر» فقيـل الجنة ؛ عن ٱبن مسعود وٱبن عبـاس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدى . والتقدير لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون. والنَّوَال العطاءُ، من قولك نولته تنويلا أعطيته . ونالنى من فلان معروف ينالنى، أى وصل إلىّ . فالمعنى لن تصلوا إلى الجنـة وتعطوها حتى تنفقوا ممـا تحبون . وقيـل : البر العمل الصالح. وفى الحديث الصحيح : "عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر و إن البر يهدى إلى الجنة". وقد مضى فى البقرة[(٤)] . قال عطية العوفى : يعنى الطاعة . عطاء : لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر . وعن الحسن، «حتى تنفِقوا» هى الزكاة المفروضـة . مجاهد والكلبي : هى منسوخة، نسختها آية الزكاة . وقيـل : المعنى حتى تنفقوا ممـا تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع . وروى النسائىّ عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذرّ قال : قلت حدّثنى قال : نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد مسـلم ينفق من كل ماله زوجين فى سبيل الله إلا ٱستقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده " . قلت : وكيف ذلك؟ قال : إن كانت إبلا فبعيرين،

(١) جلولاء : قرية قرب خانقين — بالعراق — على سبعة فراسخ منها كانت للسلمين بها وقعة على الفرس .
(٢) فى ب : فى قتال سعد .	(٣) فى : ا، و ب، و ز : تدركون .	(٤) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣

و إن كانت بقرا فبقرتين . وقال أبو بكر الورّاق : دلّهم بهذه الآية على الفُتُوّة[١] . أى لن تنالوا بِرّى بكم إلا ببِرّكم بإخوانكم والإنفاق عليهـم من أموالكم وجاهكم؛ فإذا فعلتم ذلك نالكم بِرى وعطفى . قال مجاهد : وهو مثل قوله : «ويُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا»[٢] . ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أى و إذا علِم جازى عليه .

قوله تعـالى : ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿حِلًّا﴾ أى حلالا ، ثم آستثنى فقال : ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِـهِ﴾ وهو يعقوب عليه الســلام . فى الترمذىّ عن آبن عباس أن اليهود قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أخبرنا ، ماحرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : "كان يسكن البدو فآشتكى عِرق النَّسا[٣] فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرّمها" . قالوا : صـدقت . وذكر الحديث . و يقال: [أنه][٤] نذر إن برأ[٥] منه ليتركن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها . وقال آبن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : أقبل يعقوب عليه السلام من حرّان يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عِيصو ، وكان رجلا بطشا قويًّا ، فلقيه ملك فظنّ يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه ، فغمز الملك فخذ يعقوب عليه السلام ، ثم صعد الملك إلى السماء و يعقوب ينظر إليه فهاج عليـه[٦] عِرق النَّسا ، ولقِى من

(١) الفتوة : يعبر بها عن مكارم الأخلاق . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٥

(٣) النسا (بالفتح مقصور) : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ .

(٤) كذا فى ب و د . (٥) برأ من المرض (بالفتح) لغة أهل الحجاز . وسائر العرب يقولون : برئت (بالكسر) .

(٦) فى ب و د : به .

ذلك بلاء شديدا ، فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله زقاء(١) أى صياح ، فحلف يعقوب عليه السلام إن شفاه الله جل وعز ألّا يأكل عِرْقا ، ولا يأكل طعاما فيه عِرق فحرّمها على نفسه ؛ فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق فيخرجونها من اللحم . وكان سبب غمز الملَك(٢) ليعقوب أنه كان نذر إن وهب الله له آثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم(٣) . فكان ذلك للمخرج من نذره ؛ عن الضحاك .

الثانيـــة — وآختلف هل كان التحريم من يعقوب بآجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى؟ والصحيح الأوّل ؛ لأن الله تعـالى أضاف التحريم إليـه بقوله تعالى : « إلّا مَا حَرَّمَ » وأن النبي إذا أدّاه آجتهاده إلى شيء كان دِينًا يلزمنا آتباعُه لتقرير الله سبحانه إياه على ذلك . وكما يوحى إليـه ويلزم آتباعه ، كذلك يؤذن له ويجتهد ، ويتعين موجب آجتهاده إذا قدر عليه ، ولولا تقدّم الإذن له فى تحريم ذلك ما تسوّر(٤) على التحليل والتحريم . وقد حرم نبينا صـلى الله عليه وسلم العسل على الرواية الصحيحة ، أو خادمه مارية فلم يقرّ الله تحريمه ونزل « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ » على ما يأتى بيانه فى «التحريم»(٥) . قال الكيا الطبرى : فيمكن أن يقال : مطلق قوله تعـالى : « لِمَ تحرم ما أحل الله » يقتضى الا يختص بمـارية ؛ وقد رأى الشافعىّ أن وجوب الكفارة فى ذلك غير معقول المعنى ، فجعلها مخصوصا بموضـع النص ، وأبو حنيفة رأى ذلك أصلا فى تحريم كل مباح وأجراه مجرى اليمين .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ قُـلْ فَأْتُوا بِالتَّـوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ ﴾ قال آبن عباس : لمـا أصاب يعقوب عليه السلام عِرق النَّسا وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل فحرّمها على نفسه . فقالت اليهود : إنما نحرّم على أنفسنا لحوم الإبل؛ لأن يعقوب حرّمها وأنزل الله تحريمها فى التوراة ؛ فأنزل الله هذه الآية . قال الضحاك : فكذبهم الله وردّ عليهم فقال : يا محمد « قُـلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فلم يأتوا . فقال عز وجل : ﴿ فَمَنِ آفْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلك فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال الزجاج : فى هذه الآية

(١) فى ز و ا : رغاء ، والتصحيح من ب ، و د و ح و ه و ج . (٢) فى ب و د ، وفى الأصول الأخرى : غمز الملك فخذه . (٣) فى د : أحدهم . (٤) تسوّر : هجم . (٥) راجع جـ ١٨ ص ١٧٧

أعظم دلالة لنبوة محمد نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ أخبرهم أنه ليس فى كتابهم ، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة فأبوا؛ يعنى عرفوا أنه قال ذلك بالوحى . وقال عطية العوفى : إنما كان ذلك حراما عليهم بتحريم يعقوب ذلك عليهم . وذلك أن إسرائيل قال حين أصابه عِرق النسا : والله لئن عافانى الله منه لا يأكله لى ولد؛ ولم يكن ذلك محرّما عليهم . وقال الكلبى : لم يحرمه الله عز وجل فى التوراة عليهم وإنما حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم ، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله تعالى عليهم طعاما طيبا ، أو صب عليهم رجزا وهو الموت ؛ فذلك قوله تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »(١) الآية . وقوله : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ » الآية — إلى قوله : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ »(٢) .

الرابعــة — ترجم ابن ماجه فى سننه «دواء عِرق النسا» حدثنا هشام بن عمار وراشد ابن سعيد الرملى قالا حدّثنا الوليد بن مسلم حدّثنا هشام بن حسّان حدّثنا أنس بن سيرين أنه سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " شفاء عِرق النسا ألية شاة [أعرابية](٣) تذاب ثم تُجزّأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الريق فى كل يوم جزء " . وأخرجه الثعلبىّ فى تفسيره أيضا من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِرق النسا : " تؤخذ أليـة كبش عربىّ لا صغير ولا كبير فتقطع صغارا فتخرج إهالته(٤) فتقسم ثلاثة أقسام فى كل يوم على ريق النفس ثلثا " قال أنس : فوصفته لأكثر من مائة فبرأ بإذن الله تعالى . شعبة : حدّثنى شيخ فى زمن الحجاج بن يوسف فى عِرق النَّسا : أقسم لك بالله الأعلى لئن لم تنته لأكوينّك بنار أو لأحلقنّك بموسى . قال شعبة : قد جربته ، تقوله ، وتمسح على ذلك الموضع .

قوله تعالى : قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٧ (٣) زيادة عن سنن ابن ماجه .
(٤) الإهالة (بالكسر) : الشحم المذاب ، أو كل ما ائتدم به من الأدهان .

أى قل يا محمد صدق الله؛ إنه لم يكن ذلك فى التوراة محرما . ﴿فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أمر بآتباع دينه . ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ردّ عليهم فى دعواهم الباطل كما تقدّم .

قوله تعالى : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوّل مسجد وضع فى الأرض قال : "المسجد الحرام". قلت : ثم أى ؟ قال : "المسجد الأقصى". قلت : كم بينهما ؟ قال : "أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل". قال مجاهد وقتادة : لم يوضع قبله بيت . قال علىّ رضى الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة، والمعنى أنه أوّل بيت وضع للعبادة . وعن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجَر[1] الأنبياء وفى الأرض المقدسة . وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل؛ فأنزل الله هذه الآية . وقد مضى فى البقرة[2] بنيان البيت وأوّل من بناه . قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفى سنة، وأن قواعده لفى الأرض السابعة السفلى . وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام؛ كما خرجه النسائى بإسناد صحيح من حديث عبدالله بن عمرو . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : "أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثة [سأل الله عز وجل][3] حكما يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكا

(١) المهاجر (بفتح الجيم) : موضع المهاجرة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٢٠

(٣) زيادة عن سنن النسائى .

لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألّا يأتيه أحد لا يَنْهزه[(١)] إلا الصلاةُ فيـه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه " . فجاء إشكالٌ بين الحديثين؛ لأن بين إبراهيم وسليمان آمادا طويلة . قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة . فقيل : إن إبراهيم وسـليمان عليهما السلام إنمـا جدّدا ما كان أسَّسه غيرهما . وقد روى أن أوّل من بنى البيت آدم عليـه السلام كما تقـدّم . فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاما ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيت بإذن الله؛ وكل محتمل . والله أعلم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت في الأرض وأن يطوفوا به؛ وكان هذا قبـل خلق آدم، ثم إن آدم بنى منـه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم آستتم بناءه إبراهيم عليه السلام .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر «إن» واللام توكيد . و « بكة » موضع البيت، ومكة سائر البلد؛ عن مالك بن أنس . وقال محمـد بن شهاب : بَكّة المسجد، ومكة الحرم كله، تدخل فيه البيوت . قال مجاهد: بكة هي مكة . فالميم على هذا مُبْدَلَة من البـاء؛ كما قالوا : طين لازِبٌ ولازم . وقاله الضحاك والمؤرّج . ثم قيـل : بكة مشتقة من البَكّ وهو الآزدحام . تباكّ القوم آزدحموا . وسميت بكة لآزدحام الناس في موضع طوافهم . والبكّ دَقّ العنق . وقيل : سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألْحَدوا فيها بظلم . قال عبد الله بن الزبير : لم يقصدها جبار قَطُّ بسـوء إلا وَقَصَه[(٢)] الله عز وجل . وأما مكة فقيل : إنها سميت بذلك [لقلة مائها وقيل : سميت بذلك][(٣)] لأنها تَمُكّ المخّ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة؛ من قولهم : مَكَكْت العظم إذا أخرجت ما فيه . ومَكّ الفصيلُ ضرع أمه وآمْتَكّه إذا آمْتَصّ كل ما فيه من اللبن وشربه ؛ قال الشاعر :

* مَكّتْ فلم تُبقِ في أجْوافها دِرَرا *

وقيـل : سميت بذلك لأنها تَمُكّ من ظَلَم فيها ؛ أى تهلكه وتنقصه . وقيل : سميت بذلك لأن الناس كانوا يَمُكّون و يضحكون فيها؛ من قوله : «وما كان صَلَاتُهُم عِنْدَ الْبَيْتِ إِلّا مُكَاءً

(١) النهز : الدفع . (٢) الوقص : الكسر والدق . (٣) الزيادة في د .

وتَصْدِيَةً»[1] أى تَصْفِيقا وتَصْفيرا . وهذا لا يوجبه التصريف ؛ لأن «مكة» ثنائى مضاعف و « مُكَاءً » ثلاثى معتل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿مُبَارَكًا﴾ جعله مباركا لتضاعف العمل فيه ؛ فالبركة كثرة الخير ، ونصب على الحال من المضمر فى «وُضِعَ» أو بالظرف من « بَكَّةَ » ، المعنى : الذى ٱستقر «بِبَكَّةَ مُبَارَكًا» ويجوز فى غير القرآن «مبارك» ؛ على أن يكون خبرا ثانيا ، أو على البدل من الذى ، أو على إضمار مبتدأ . ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ عطف عليه ، ويكون بمعنى وهو هدى للعالمين . ويجوز فى غير القرآن «مباركٍ» بالخفض يكون نعتا للبيت .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ رفع بالآبتداء أو بالصفة . وقرأ أهل مكة وٱبن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير «آية بينة» على التوحيد ، يعنى مقام إبراهيم وحده . قالوا : أثر قدميه فى المقام آية بينة . وفسر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله ؛ فذهب إلى أن من آياته الصفا والمروة والركن والمقام . والباقون بالجمع . أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها . قال : أبو جعفر النحاس : من قرأ «آيات بينات» فقراءته أبين ؛ لأن الصفا والمروة من الآيات ، ومنها أن الطائر لا يعلو البيت صحيحا ، ومنها أن الجارح[2] يطلب الصيد فإذا دخل الحرم تركه ، ومنها أن الغيث إذا كان ناحية الركن اليمانى كان الخصب باليمن ، وإذا كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام ، وإذ عم البيت كان الخصب فى جميع البلدان ، ومنها أن الجمار على ما يُزاد عليها تُرى[3] على قدر واحد . والمَقام من قولهم : قمت مَقاما ، وهو الموضع الذى يُقام فيه . والمُقام من قولك : أقمت مُقاما . وقد مضى هذا فى البقرة[4] ، ومضى الخلاف أيضا فى المقام والصحيح منه . وٱرتفع المقام على الآبتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير منها مقام إبراهيم ؛ قاله الأخفش . وحكى عن محمد بن يزيد أنه قال : «مقام» بدل من «آيات» . وفيه قول ثالث بمعنى هى مقام إبراهيم . وقول الأخفش معروف فى كلام العرب . كما قال زهير :

(١) راجع ج ٧ ص ٤٠٠ (٢) فى د : أن الحاج يتبع ، والصواب ما أثبتناه من ز ، و ب .
(٣) فى ز : على ما يراد منها ترمى . (٤) راجع ج ٢ ص ١١٢

لها متاعٌ وأعوانٌ غَدَوْنَ به * قِتْبٌ(١) وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ ٱنْسَحَقَا

أى مضى وبَعُدَ سيلانه. وقول أبى العباس: إن مقاما بمعنى مقامات؛ لأنه مصدر. قال الله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ(٢)». وقال الشاعر:

* إنّ العيون التى فى طَرْفِها مَرَضٌ(٣) *

أى فى أطرافها. ويقوى هذا الحديثُ المروىّ(٤) "الحج [كله] مقام إبراهيم".

الخامسة — قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال قتادة: ذلك أيضا من آيات الحرم. قال النحاس: وهو قول حسن؛ لأن الناس كانوا يُتَخَطَّفون من حواليه، ولا يصل إليه جبار، وقد وصل إلى بيت المقدس وخرب، ولم يوصل إلى الحرم. قال الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(٥)». وقال بعض أهل المعانى: صورة الآية خبر ومعناها أمر، تقديرها ومن دخله فأمّنوه؛ كقوله: «فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ(٦)» أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا. ولهذا المعنى قال الإمام السابق النعمان بن ثابت: من ٱقترف ذنبا وٱستوجب به حدا ثم لجأ إلى الحرم عصمه، [لقوله تعالى:] «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا»؛ فأوجب الله سبحانه الأمن لمن دخله. ورُوى ذلك عن جماعة من السلف منهم ٱبن عباس وغيره من الناس. قال ٱبن العربىّ: «وكل من قال هذا فقد وهم من جهتين: إحداهما أنه لم يفهم من الآية أنها خبر عما مضى، ولم يقصد بها إثبات حكم مستقبل، الثانى أنه لم يعلم أنّ ذلك الأمن قد ذهب وأن القتل والقتال قد وقع بعد ذلك فيها، وخبر الله لا يقع بخلاف مخبره؛ فدل ذلك على أنه كان فى الماضى هذا. وقد ناقض أبوحنيفة فقال، إذا لجأ إلى الحَرَم لا يُطعَم ولا يُسْقى ولا يُعامَل ولا يُكلَّم حتى يخرج، فٱضطراره(٧) إلى الخروج ليس يصح معه أمْنٌ. وروى عنه أنه قال: يقع القصاص فى الأطراف فى الحرم ولا أمن أيضا مع هذا».

(١) قوله: لها متاع، أى لهذه الناقة التى يستقى عليها. والقِتْب (بالكسر): جميع أداة السانية من أعلاقها وحبالها. والسانية: ما يسق عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره. والغرب: الدلو العظيمة. (٢) راجع ج ١ ص ١٨٥ (٣) البيت لجرير، والذى فى الديوان: فى طرفها حور. (٤) فى د و ز و ه. هذا من قول سعيد ابن جبير كما فى تفسير ٱبن كثير وفيه توجيه ج ٣ ص ١٩١ (٥) ج ٢٠ ص ١٨٧ (٦) ج ٢ ص ٤٠٧

(٧) فى د و ز: فٱضطرّه، وفى الأصول الأخرى: فٱضطروه، والتصحيح من ٱبن العربى.

والجمهور من العلماء على أن الحدود تُقام فى الحرم ، وقــد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتل ٱبن خَطَل (١) وهو متعلّق بأستار الكعبة .

قلت : وروى الثوريّ عن منصور عن مجاهد عن ٱبن عباس : من أصاب حدًّا [فى الحرم] (٢) أقيم عليه فيه ، وإن أصابه فى الحِلّ ولجأ إلى الحرم لم يُكلّم ولم يبايع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ ؛ وهو قول الشّعبيّ . فهذه حجة الكوفيين ، وقد فهم ٱبن عباس ذلك من معنى الآية ، وهو حَبْر الأمّة وعالِمُها . والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النّعم على كل من كان بها جاهلا ولها منكرا من العرب ؛ كما قال تعالى : «أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» (٣) ؛ فكانوا فى الجاهلية من دخله ولجأ إليه أمِن من الغارة والقتل ؛ على ما يأتى بيانه فى «المــائدة» (٤) إن شاء الله تعالى . قال قتادة : ومن دخله فى الجاهلية كان آمنا . وهذا حسن . وروى أن بعض المُلْحِدة قال لبعض العلماء : أليس فى القرآن « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » فقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا فلم يأمن من كان فيــه ! قال له : ألست من العرب ! ما الذى يريد القائل من دخل دارى كان آمنا (٥) ؟ أليس أن يقول لمن أطاعه : كفّ عنه فقد أمّنته وكففت عنه ؟ قال بلى . قال : فكذلك قوله « ومن دخله كان آمِنا » . وقال يحيى بن جَعْــدة : معنى « ومن دخله كان آمِنا » يعنى من النار .

قلت : وهــذا ليس على عمومه ؛ لأن فى صحيح مســلم عن أبى سعيد الخــدرىّ حديث الشفاعة الطويل "فوالذى نفسى بيده ما منكم من أحدٍ بأشدّ مناشَدةً لله فى ٱستقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار يقولون ربّنا كانوا يصومون معنــا ويصلون ويحُجّون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم" الحديثَ . وإنما يكون آمنا من النار من دخله لقضاء النُّسُك معظِّما له عارفا بحقه متقرِّبا إلى الله تعالى . قال جعفر الصادق : من دخله على الصفاء

---

(١) ٱبن خطل (بالتحريك) هو عبد الله بن خطل ، رجل من بنى تيم بن غالب ، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلما فبعثه صلى الله عليه وســلم مصدقا وبعث معه رجلا من الأنصار وكان معه مولى يخدمه مسلما فنزل منزلا وأمر المولى أن يذبح له تيسا فيصنع له طعاما فنام ؛ فٱستيقظ ولم يصنع له شيئا فعدا عليه فقتله ثم ٱرتدّ . راجع الطبرى وٱبن هشام .

(٢) من د و ز . (٣) راجع ج ١٣ ص ٣٦٣ (٤) راجع ج ٦ ص ٣٢٥

(٥) فى د : فهو آمن .

كما دخله الأنبياء والأولياء كان آمنا من عذابه . وهـذا معنى قوله عليه السلام : " من حجّ فلم يرفُثْ ولم يفْسُق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه والحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة " .

قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . وأنشد :

يا كعبةَ الله دعوة اللّاجى * دعـــوة مستشعرٍ ومحتـاج
ودّع أحبـابَه ومسكنه * لجـاء ما بيـن خائف راجى (١)
إنـ يقبل الله سـعيه كرما * نجـا ، وإلا فليس بالنّـاجى
وأنت ممّن تُرجى شـــفاعتُه * فٱعطفْ على وافد بن حجّـاج

وقيل : المعنى ومن دخله عام عمرة القضاء مع محمد صـلى الله عليه وسلم كان آمنا . دليلهُ قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ آمِنِينَ (٢) » . وقد قيل : إن «مَنْ» هاهنا لمن لا يعقل ؛ والآية فى أمان الصـيد ؛ وهو شاذّ ؛ وفى التنزيل : « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى على بَطْنِهِ (٣) » الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلِلهِ ﴾ اللام فى قوله «ولله» لام الإيجاب والإلزام، ثم أكده بقوله تعالى : ﴿عَلَى﴾ التى هى من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب ؛ فإذا قال العربى : لفلان علىّ كذا ، فقد وكّده وأوجبه . فذكر الله تعالى الحج [بأبلغ] (٤) ألفاظ الوجوب تأكيدا لحقّه وتعظيما لحُرْمته . ولا خلاف فى فريضته (٥) ، وهو أحد قواعد الإسلام ، وليس يجب إلا مرة فى العمر .

وقال بعض الناس : يجب فى كل خمسة أعوام [مرة] (٦) ، ورووا فى ذلك حديثا أسندوه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والحديث باطل لا يصح ، والإجماع صادّ فى وجوههم .

قلت : وذكر عبد الرزاق قال : حدّثنا سفيان [الثورى] (٧) عن العلاء بن المسيّب عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الرب جل وعز إن عبدا أوسعت عليه فى الرزق فلم يعد إلىّ فى كل أربعة أعوام لمحروم" مشهور من حديث العلاء بن المسيب بن رافع الكاهلىّ الكوفىّ من أولاد المحدّثين ، روى عنه غير واحد ، منهم من قال : فى كل خمسة أعوام ،

(١) فى د : ما بين خائفه والراجى . (٢) راجع ج ١٦ ص ٢٨٩ (٣) راجع ج ١٢ ص ٢٩١
(٤) فى د و ب و ز و هـ . وفى ا : باوكد . (٥) فى د و ب : فرضيته . (٦) فى ب و د . (٧) فى د .

ومنهم من قال: عن العلاء عن يونس بن خَبّاب(١) عن أبى سعيد، فى غير ذلك من الآختلاف.
وأنكرت الملحدة الحجّ، فقالت: إن فيه تجريد الثياب وذلك يخالف الحياء، والسعى وهو يناقض الوَقار، ورمى الجمار لغير مرمى وذلك يضادّ العقل؛ فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلها باطلة؛ إذ لم يعرفوا لها حِكمة ولا عِلة، وجهلوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد، أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به، ولا أن يطلع على فائدة تكليفه، وإنما يتعين عليه الآمتثال، ويلزمه الآنقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود. ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول فى تلبيته: "لبيْك حقّا حقّا تعبُّدا ورِقّا لبيْك إلهَ الحق". وروى الأئمة عن أبى هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أيها الناس قد فَرض الله عليكم الحجَّ فحجّوا". فقال رجل: كلَّ عام يارسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو قلت نعم لوجبتْ ولما آستطعتم" ثم قال: "ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم وآختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما آستطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه" لفظ مسلم. فبيّن هذا الحديثُ أن الخطاب إذا توجه على المكلفين بفرض أنه يكفى منه فعل مرة ولا يقتضى التكرار؛ خلافا للأستاذ أبى إسحق الأسفرايِني وغيره. وثبت أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له أصحابه: يا رسول الله، أحجُّنا لعامِنا هذا أم للأبد؟ فقال: "لا بل للأبد". وهـذا نص فى الردّ على من قال: يجب فى كل خمس سنين مرة. وقد كان الحج معلوما عند العرب مشهورا لديهم، وكان ممـا يرغب فيه لأسواقها وتَبَرُّرِها(٢) وتحنُّفها؛ فلما جاء الإسـلام خوطبوا بما علموا وألزموا بما عرفوا. وقد حج النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل حجّ الفرض، وقد وقف بعرفة ولم يغيّر من شرع إبراهيم ما غيروا؛ حين كانت قريش تقف بالمَشْعَر الحرام ويقولون: نحن أهل الحرم فلا نخرج منه؛ ونحن الحُمْس(٣). حسب ماتقدّم بيانه فى «البقرة»(٤).

قلت: من أغرب ما رأيته أن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم حج قبل الهجرة مرتين وأن الفرض سقط عنـه بذلك؛ لأنه قـد أجاب نداء إبراهيم حين قيـل له: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

(١) فى أ: ابن حبان، والتصويب من د و ز و ب. (٢) التبرر: الطاعة، وفى أ: تجبيعها: طلب الكلإ. فى د: تحنفها. (٣) الحمس جمع الأحمس، وهم قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس؛ سموا حمسا لأنهم تحمسوا فى دينهم، أى تشددوا. (٤) راجع جـ ٢ ص ٣٤٥

بالحج » . قال الكيا الطبرى : وهذا بعيد؛ فإنه إذا ورد فى شرعه : « ولله على الناس حج البيت »[1] فلا بدّ من وجوبه عليه بحكم الخطاب فى شرعه . ولئن قيل : إنما خاطب من لم يحج ، كان تحكّما وتخصيصا لا دليل عليه ، ويلزم عليه ألا يجب بهذا الخطاب على من حج على دين إبراهيم ، وهذا فى غاية البعد .

الثانيـــة ــ ودلّ الكتاب والسنة على أن الحج على التراخى لا على الفور؛ وهو تحصيل مذهب مالك فيما ذكر ٱبن خُوَيزِ مَنْدَاد ، وهو قول الشافعىّ ومحمد بن الحسن وأبى يوسف فى رواية عنه . وذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المالكيين إلى أنه على الفور ، ولا يجوز تأخيره مع القدرة عليه؛ وهو قول داود . والصحيح الأوّل؛ لأن الله تعالى قال فى سورة الحج : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا » وسورة الحج مكية[2] . وقال تعالى : « ولله على الناس حج البيت » الآية . وهذه السورة نزلت عام أُحُد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سنة عشر . أما السُّنّة فحديث ضِمام بن ثعلبة السعدىّ من بنى سعد بن بكر قدم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن الإسلام فذكر الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج . رواه ٱبن عباس وأبو هريرة وأنس ، وفيها كلها ذكر الحج ، وأنه كان مفروضا ، وحديث أنس أحسنُها سياقا وأتمُّها . وٱختلف فى وقت قدومه؛ فقيل : سنة خمس . وقيل : سنة سبع . وقيل : سنة تسع ؛ ذكره ٱبن هشام عن أبى عبيدة الواقدى عام الخَنْدَق بعـد ٱنصراف الأحزاب . قال ٱبن عبد البر : ومن الدليل على أن الحج على التراخى إجماع العلماء على ترك تفسيق القادر على الحج إذا أخره العام والعامين ونحوهما ، وأنه إذا حج من بعد أعوام من حين ٱستطاعته فقد أدّى الحج الواجب عليـه فى وقته ، وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاة حتى خرج وقتهـا فقضاها بعد خروج وقتها ، ولا كمن فاته صيام رمضان لمرض أو سـفر فقضاه ، ولا كمن أفسد حجه فقضاه ، فلمـا أجمعوا على أنه لا يقال لمن حج بعد أعوام من وقت ٱستطاعته : أنت قاضٍ لمـا وجب عليك؛ علمنا أن وقت الحج مُوسَّع فيه وأنه على التراخى لا على الفور . قال أبو عمر : كل من قال بالتراخى لا يُحُدّ فى ذلك حدا؛ إلا ما روى عن سحنـون وقد سـئل عن الرجل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٧
(٢) والصحيح أن سورة الحج مدنية بدليل آية الجهاد ، وسيأتى فى جـ ١٢ من هذا التفسير .

يجد ما يحج به فيؤخر ذلك إلى سنين كثيرة مع قدرته على ذلك هل يُفَسَّق بتأخيره الحج وتُرَد شهادتُه؟ قال: لا وإن مضى من عمره ستون سنة، فإذا زاد على الستين فُسّق وردّت شهادته. وهذا توقيف وحَدّ، والحدود في الشرع لا تؤخذ إلا عمن له أن يَشْرَع .

قلت : وحكاه آبن خويزمنداد عن آبن القاسم. قال آبنُ القاسم وغيره : إن أخره ستين سنة لم يُحَرَّج[1]، وإن أخره بعد الستين حُرِّج؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وقل من يتجاوزها" فكأنه في هذا العشر قد يتضايق عليه الخطاب. قال أبو عمر : وقد آحتج بعض الناس [كسحنون[2]] بقوله صلى الله عليه وسلم : " معترك أمتي بين الستين إلى السبعين وقل من يجاوز ذلك " . ولا حجة فيه ؛ لأنه كلام خرج على الأغلب من أعمار أمته لو صحّ الحديث. وفيه دليل على التوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضا ، ولا ينبغي أن يقطع بتفسيق من صحت عدالته وأمانته بمثل هذا من التأويل الضعيف . وبالله التوفيق .

الثالثة — أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ عام في جميعهم مسترسل على جملتهم . قال آبن العربيّ : « وإن كان الناس قد آختلفوا في مطلق العمومات بَيْدَ أنهم آتفقوا على حمل هذه الآية على جميع الناس ذكرهم وأنثاهم، خلا الصغير فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف، وكذلك العبد لم يدخل فيه؛ لأنه أخرجه عن مطلق العموم قوله تعالى [في التمام[2]]: «مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» والعبد غيرُ مستطيع؛ لأن السيّد يمنعه لحقوقه عن هذه العبادة. وقد قدّم الله سبحانه حقّ السيد على حقه رفقًا بالعباد ومصلحةً لهم. ولا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة، فلا نَهْرِف[3] بما لا نعرف، ولا دليل عليه إلا الإجماعُ » . قال آبن المنذر: أجمع عامّة أهل العلم إلا من شَذّ منهم ممن لا يعدّ خلافا، على أن الصبيّ إذا حَجّ في حال صغره، والعبد إذا حج في حال رِقّه، ثم بلغ الصبي وعَتَق العبد إنّ عليهما حجة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلا . وقال أبو عمر : خالف داود جماعة فقهاء الأمصار وأئمة الأثر في المملوك وأنه عنده مخاطب بالحج، وهو عند جمهور العلماء خارج من الخطاب العام في قوله تعالى : «وَلِلَّهِ عَلَى

(١) حرج (من باب علم) : أثم .	(٢) في د و ب .	(٣) الهرف : شبه الهذيان من الإعجاب بالشيء . في د و ب : لا يهرف ، لا يعرف ، بالبناء للمجهول .

النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» بدليل عدم التصرف، وأنه ليس له أن يحج بغير إذن سيده؛ كما خرج من خطاب الجمعة وهو قوله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»(١) الآية ـ عند عامة العلماء إلا من شذ. وكما خرج من خطاب إيجاب الشهادة، قال الله تعالى: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا»(٢) فلم يدخل فى ذلك العبدُ. وكما جاز خروج الصبيّ من قوله: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهو من الناس بدليل رفع القلم عنه. وخرجت المرأة من قوله: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ» وهى ممن شملِه ٱسم الإيمان، وكذلك خروج العبد من الخطاب المذكور. وهو قول فقهاء الحجاز والعراق والشام والمغرب، ومثلهم لا يجوز عليهم تحريف تأويل الكتاب. فإن قيل: إذا كان حاضرَ المسجد الحرام وأذِن له سيدُه فلِمَ لا يلزمه الحج؟ قيل له: هذا سؤال على الإجماع وربما لا يُعَلَّل ذلك، ولكن إذا ثبت هذا الحكم على الإجماع ٱستدللنا به على أنه لا يُعتدّ بحجه فى حال الرِّقّ عن حجة الإسلام؛ وقد روى عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أيّما صبيّ حجّ ثم أدرك فعليه أن يحج حجة أخرى وأيّما أعرابيّ حجّ ثم هاجر فعليه أن يحج حجة أخرى وأيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى". قال ٱبن العربيّ: «وقد تساهل بعض علمائنا فقال: إنما لم يثبت الحج على العبد وإن أذِن له السيد لأنه كان كافرا فى الأصل ولم يكن حَجُّ الكافر معتدّا به، فلما ضُرب عليه الرق ضربا مؤبّدا لم يخاطب بالحج؛ وهذا فاسد من ثلاثة أوجه فٱعلموه: أحدها ــ أن الكفار عندنا مُخاطبون بفروع الشريعة، ولا خلاف فيه فى قول مالك. الثانى ــ أن سائر العبادات تلزمه من صلاة وصوم مع كونه رقيقا، ولو فعلها فى حال كفره لم يعتدّ بها، فوجب أن يكون الحج مثلها. الثالث ــ أن الكفر قد ٱرتفع بالإسلام فوجب ٱرتفاع حكمه. فتبين أن المعتمد ما ذكرناه من تقدّم حقوق السيد». والله الموفق.

الرابعة ــ قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «مَنْ» فى موضع خفض على بدل البعض من الكل؛ هذا قول أكثر النحويين. وأجاز الكسائى أن يكون «من» فى موضع رفع بحج، التقدير أن يحج البيت من. وقيل هى شرط. و «ٱستطاع» فى موضع جزم، والجواب

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٩٨

محذوف، أى من آستطاع إليه سبيلا فعليه الحج . روى الدارقطني عن آبن عباس قال : قيل يا رسول الله الحج كلّ عام؟ قال : "لا بل حجة"؟ قيل : فما السبيل، قال : "الزاد والراحلة". ورواه عن أنس وآبن مسعود وآبن عمر وجابر وعائشة وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وعن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «ولله على الناس حج البيت من آستطاع إليه سبيلا» قال فسئل عن ذلك فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أن تجد ظهر بعير" . وأخرج حديثَ آبن عمر أيضا آبنُ ماجه في سُننه ، وأبو عيسى الترمذيّ في جامعه وقال : «حديث حَسَن ، والعمل عليه عند أهل العلم أنّ الرجل إذا ملك زادًا وراحلة وجب عليه الحج . وإبراهيم بن يزيد هو الخُوزيّ المكيّ [1] ، وقد تكلم فيه بعض أهل الحديث من قِبَل حِفْظه» . وأخرجاه عن وَكيع والدَّارَقُطْنِيّ عن سفيان بن سعيد قالوا : حدّثنا إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عبّاد عن آبن عمر قال : قام رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، مايوجب الحج؟ . قال : "الزاد والراحلة" قال : يارسول الله ، فما الحاج؟ قال : "الشَّعِث التَّفِل [2]" . وقام آخر فقال : يا رسول الله وما الحج؟ قال : "العَجّ والثَّجّ" . قال وكيع : يعنى بالعج العجيج بالتلبية والثّج نحر البُدْن ؛ لفظ آبن ماجه . وممن قال إن الزاد والراحلة شرط في وجوب الحج : عمر بن الخطاب وآبنــه عبد الله وعبد الله بن عباس والحسن البصرى وسعيد بن جُبير وعطاء ومجاهد . و إليه ذهب الشافعيّ والثوريّ وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد و إسحاق وعبد العزيز بن أبي سلمة وآبن حبيب ، وذكر عبدوس [3] مثله عن سُحْنون . قال الشافعيّ : الآستطاعة وجهان : أحدهما أن يكون مستطيعا ببــدنه واجدا من ماله ما يبلّغه الحج . والثــانى أن يكون معضوبا [4] في بدنه لايثبت على مَرْكبه وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه بأجرة و بغير أجرة ، على ما يأتى بيــانه . أما المستطيع ببــدنه فإنه يلزمــه فرض الحج بالكتاب بقوله عز وجل : « مَنِ آسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » . وأما المستطيع بالمــال فقــد لزمه فرض الحج بالسُّنة بحديث الخثعمية على ما يأتى . وأما المستطيع بنفسه وهو القويّ الذى لا تلحقه مشــقّة غير محتملة

---

(١) هو أحد رجال سند حديث آبن عمر . (٢) الشعث : متلبد الشعر . والتفل : الذى قد ترك آستعمال الطيب .
(٣) في ب : « ابن عبدوس » . (٤) المعضوب : الزمن الذى لا حراك به .

فى الركوب على الراحلة ؛ فإن هذا إذا ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج بنفسه ، و إن عدم الزاد والراحلة أو أحدهما ســقط عنه فرضُ الحج ؛ فإن كان قادرا على المشى مُطيقا له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد فى طريقه بصنعةٍ مثل الخرز والحجامة أو نحوهما فالمستحب له أن يحُج ماشياً رَجلًا كان أو آمرأةً . قال الشافعيّ : والرجل أقلّ عُذرًا من المرأة لأنه أقوى . وهذا عندهم على طريق الأستحباب لا على طريق الإيجاب ، فأما إن قدر على الزاد بمسألة الناس فى الطريق كَرِهت له أن يحجّ لأنه يصير كَلًّا على الناس . وقال مالك بن أنس رحمــه الله : إذا قَدَر على المشى ووجد الزاد فعليه فرض الحج ، و إن لم يجــد الراحلة وقَدَر على المشى نُظر ؛ فإن كان مالكا للزاد وجب عليه فرض الحج ، و إن لم يكن مالكا للزاد ولكنه يقدر على كسب حاجته منه فى الطريق نُظر أيضا ؛ فإن كان من أهل المروءات ممن لا يكتسب بنفسه لا يجب عليه ، و إن كان ممن يكتسب كفايته بتجارة أو صناعة لزمه فرض الحج ، وهكذا إن كانت عادته مسألة الناس لزمه فرض الحج . وكذلك أوجب مالكٌ على المطيق المشى الحجّ ، و إن لم يكن معه زاد وراحلة . وهو قول عبد الله بن الزبير والشَّعْبيّ وعكرمة . وقال الضحاك : إن كان شابًّا قويًّا صحيحا ليس له مال فعليه أن يؤجّر نفسه بأكله أو عقبه[(١)] حتى يقضِي حجّه . فقال له مقاتل : كلّف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو أن لأحدهم مــيراثا بمكة أكان تاركَه ؟ ! بل ينطلق إليه ولو حَبْوًا ، كذلك يجب عليه الحج . واحتج هؤلاء بقوله عز وجل : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا[(٢)] » أى مُشاةً . قالوا : ولأن الحج من عبادات الأبدان من فرائض الأعيان ، فوجب ألا يكون الزاد من شروط وجوبها ولا الراحلة كالصلاة والصيام . قالوا : ولو صح حديث الخُوزِيّ الزاد والراحلة لحملناه على عموم الناس والغالبُ منهم فى الأقطار البعيدة . وخروج مطلق الكلام على غالب الأحوال كثيرٌ فى الشريعة وفى كلام العرب وأشعارها . وقد روى آبن وهب وآبن القاسم وأشهب عن مالك أنه سئل عن هذه الآية فقال : الناس فى ذلك

---

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل ولعل المراد الولد ينتفع بأجر عمله . فليتأمل . وفى البحر لأبى حيان : « ... بأكله حتى ... » . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٧ .

على قدر طاقتهم و يُسرهم وجَلَدهم . قال أشهبُ لمالكٍ : أهو الزاد والراحلة؟ . قال : لا والله ، ما ذاك إلا على قدر طاقة الناس ، وقد يجد الزادَ والراحلة ولا يقدر على السير ، وآخر يقدر أن يمشى على رجليه .

الخامســة — إذا وُجدت الاستطاعة وتوجّه فرضُ الحج فقد يعرض مايمنع منه كالغريم يمنعه عن الخروج حتى يؤدّىَ الدَّين ؛ ولا خلاف فى ذلك . أو يكون له عِيَال يجب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكوِّن لهم نفقتهم مدّةَ غيبته لذهابه ورجوعه ، لأن هـذا الإنفاق فرض على الفَوْر ، والحجّ فرضٌ على التّراخى ، فكان تقديم العيال أوْلى . وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "كَفَى بالمرء إثما أن يُضيِّع من يقوت" . وكذلك الأَبَوان يخاف الضيعةَ عليهما وعَدَم العوض فى التلطّف بهما ، فلا سبيل له إلى الحج ؛ فإن مَنَعاه لأجل الشّوق والوَحْشة فلا يُلتفت إليه . والمرأة يمنعها زوجها ، وقيل لايمنعها . والصحيح المنع ؛ لاسيما إذا قلنا إن الحج لايلزم على الفَوْر . والبحر لا يمنع الوجوب إذا كان غالبه السلامة — كما تقدّم بيانه فى البقرة (١) — ويعلم من نفسه أنه لا يَمِيد (٢) . فإن كان الغالب عليه العَطَب أو المَيْد حتى يعطل الصلاة فلَا . وإن كان لا يجد موضعا لسجوده لكثرة الراكب وضيق المكان فقد قال مالك : إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه فلا يركبه . ثم قال : أيركب حيث لا يُصلِّى ! ويْلٌ لمن ترك الصلاة ! . ويسقط الحج إذا كان فى الطريق عدوّ يطلب الأنفس أو يطلب من الأموال ما لم يتحدّد بحدّ مخصوص أو يتحدّد بقدر مُجحِف . وفى سقوطه بغير المُجْحِف خلاف . وقال الشافعىّ : لا يعطى حبة ويسقط فرض الحج . ويجب على المتسوّل إذا كانت تلك عادته وغلب على ظنه أنه يجد من يعطيه . وقيل لا يجب ، على ما تقدّم من مراعاة الاستطاعة .

السادســة — إذا زالت الموانع ولم يكن عنده من النّاضّ (٣) مايحجّ به وعنده عُروض فيلزمه أن يبيع من عُروضه للحج مايُباع عليه فى الدَّيْن . وسئل ابن القاسم عن الرجل تكون له القرْية

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٥

(٢) المائد : الذى يركب البحر فتغثى نفسه من نتن ماء البحر حتى يدار به ويكاد يغشى عليه .

(٣) الناض : الدراهم والدنانير .

ليس له غيرُها ، أيبيعها في حجة الإسلام و يترك ولده ولا شيء لهم يعيشون به ؟ . قال : نعم ، ذلك عليه و يترك ولده في الصدقة . والصحيح القول الأول ؛ لقوله عليه السلام : "كفى بالمرء إثمـا أن يُضيّع من يقوت" وهو قول الشافعي . والظاهر من مذهبه أنه لا يلزم الحج إلا من له ما يكفيه من النفقة ذاهبا وراجعا — قاله في الإملاء — و إن لم يكن له أهل وعيال . وقال بعضهم : لا يعتبر الرجوع لأنه ليس عليه كبير مشقة في تركه القيام ببلده ؛ لأنه لا أهل له فيه ولا عيال وكلُّ البلاد له وطن . والأوّل أصوب ؛ لأن الإنسان يستوحش لفراق وطنه كما يستوحش لفراق سكنه . ألا ترى أن البكر إذا زنا جُلد وغُرِّب عن بلده سواء كان له أهل أو لم يكن . قال الشافعي في الأمّ : إذا كان له مسكن وخادم وله نفقة أهله بقدر غيبته يلزمه الحج . وظاهر هذا أنه ٱعتبر أن يكون مال الحج فاضلا عن الخادم والمسكن ؛ لأنه قدّمه على نفقة أهله ، فكأنه قال : بعد هذا كله . وقال أصحابه : يلزمه أن يبيع المسكن والخادم ويَكْتَرِي مسكنا وخادما لأهـله ، فإن كان له بضاعة يَتّجر بهـا وربحها قدر كفايته وكفاية عياله على الدوام ، ومتى أنفق من أصل البضاعة ٱختلّ عليه ربحها ولم يكن فيه قدر كفايته ، فهل يلزمه الحج من أصل البضاعة أم لا ؟ قولان : الأوّل للجمهور وهو الصحيح المشهور ؛ لأنه لا خلاف في أنه لو كان له عقَار تكفيه غلّته لزمه أن يبيع أصل العقَار في الحج ، فكذلك البضاعة . وقال ٱبن سُريج : لا يلزمه ذلك ويُبقي البضاعة ولا يحج من أصلها ؛ لأن الحج إنما يجب عليه في الفاضل من كفايته . فهذا الكلام في الاستطاعة بالبدن والمـال .

السابعـــة — المريض والمَعْضُوب ، والعَضْب القطع ، ومنه سُمّي السيف عَضْبا ، وكأن من ٱنتهى إلى ألّا يقدر أن يستمسك على الراحلة ولا يثبت عليها بمنزلة من قُطعت أعضاؤه ؛ إذ لا يقدر على شيء . وقد ٱختلف العلماء في حكمهما بعد إجماعهم أنه لا يلزمهما المسير إلى الحج ؛ لأن الحج إنما فرضه الله على المستطيع إجماعا ، والمريض والمعضوب لا ٱستطاعة لهما . فقال مالك : إذا كان معضُوبا سقط عنـه فرض الحج أصلا ، سواء كان قادرا على من يحجّ عنه بالمـال أو بغير المـال لا يلزمه فرض الحج . ولو وجب عليـه الحج ثم عُضِب وزَمِن سقط عنـه فرض الحج ؛

ولا يجوز أن يُحَجّ عنه فى حال حياته بحال، بل إن أوْصى أن يُحَج عنه بعد موته حُجّ عنه من الثلث، وكان تطوّعا ؛ واحتج بقوله تعالى : «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» (١) فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى . فمن قال : إنه له سَعى غيره فقد خالف ظاهر الآية . وبقوله تعالى : «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهذا غير مستطيع ؛ لأن الحج هو قصد المكلّف البيتَ بنفسه ، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة مع العجز عنها كالصلاة . وروى محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله عز وجل ليُدخل بالحجّة الواحدة ثلاثةً الجنةَ الميّتَ والحاجّ عنه والمنفِذَ ذلك" . خرّجه الطبرانى أبو القاسم سليمان بن أحمد قال حدثنا عمرو بن (٢) حصين السَّدوسى قال حدّثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر ، فذكره .

قلت : أبو معشر اسمه نَجيح وهو ضعيف عندهم . وقال الشافعىّ : فى المريض الزَّمِن والمعضوب والشيخ الكبير يكون قادرا على من يطيعه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطيع استطاعةً مّا . وهو على وجهين : أحدهما أن يكون قادرا على مال يستأجر به من يَحج عنه فإنه يلزمه فرض الحج ؛ وهذا قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، رُوى عنه أنه قال لشيخ كبير لم يَحج : جهّز رجلا يحجّ عنك . وإلى هذا ذهب الثّورى وأبو حنيفة وأصحابه وابن المبارك وأحمد وإسحاق . والثانى أن يكون قادرا على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحجّ عنه ، فهذا أيضا يلزمه الحج [عنه] (٣) عند الشافعىّ وأحمد وابن راهَوَيه ، وقال أبو حنيفة : لا يلزم الحج ببذل الطاعة بحال . استدل الشافعىّ بما رواه ابن عباس أن امرأة من خَثْعم سألتِ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إن فريضة الله على عباده فى الحجّ أدركت أبى شيخاً كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحجّ عنه؟ قال : "نعم" . وذلك فى حجّة الوَدَاع . فى رواية : لا يستطيع أن يستوىَ على ظهر بعيره . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "فحُجِّى عنه أرأيتِ لو كان على أبيك دَيْنٌ أكنتِ قاضِيَته" ؟ قالت نعم . قال : "فدَيْن الله أحقّ أن يقضى" . فأوجب النبىّ صلى الله عليه وسلم الحج بطاعة ابنته إياه وبذلها من نفسها له بأن تحجّ عنه ؛ فإذا وجب ذلك

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٢ (٢) فى ب : عمر بن حفص . (٣) فى د .

بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المـال الذى يستأجر به أولى . فأما إن بذل له المـال دون الطاعة فالصحيح أنه لا يلزمه قبوله والحج به عن نفســه ولا يصير ببذل المـال له مستطيعا . وقال علماؤنا : حديث الخثعمية ليس مقصودُه الإيجابَ و إنمـا مقصوده الحثّ على بِرّ الوالدين والنظر فى مصالحهما دُنْيا ودِينًا وجلب المنفعة إليهما جِبِلّة وشرعا؛ فلما رأى من المرأة ٱنفعالا وطواعية ظاهرة ورغبةً صادقة فى بِرها بأبيها وحرصًا على إيصال الخير والثواب إليـه، وتأسّفت أن تفوته بركة الحج أجابها إلى ذلك . كما قال للأُخرى التى قالت : إن أُمّى نذرت أن تحـجّ فلم تحجّ حتى ماتت أفأحجّ عنها ؟ قال : " حُجّى عنها أرأيتِ لو كان على أمّك دَين أكنتِ قاضيتَـه " ؟ قالت نعم . ففى هـذا ما يدل على أنه من باب التطوّعات وإيصـال البرّ والخيرات للأموات ؛ ألَا ترى أنه قد شـبّه فعلَ الحج بالدَّين . و بالإجمـاع لو مات ميّت وعليه دَين لم يجب على وَلِيّه قضـاؤه من ماله ، فإن تطوّع بذلك تأدّى الدَّين عنه . ومن الدليل على أن الحج فى هـذا الحديث ليس بفرض على أبيهـا ماصرّحت به هـذه المرأة بقولها «لا يستطيع» ومن لا يستطيع لا يجب عليه . وهذا تصريح بنفى الوجوب ومنع الفريضة؛ فلا يجوز ما ٱنتفى فى أوّل الحديث قطعا أن يثبت فى آخره ظَنًّا؛ يحقّقه قوله : " فدَين الله أحقّ أن يقضى " فإنه ليس على ظاهره إجماعا؛ فإن دَين العبد أولى بالقضاء، و به يبدأ إجماعا لفقر الآدمى وٱستغناء الله تعالى؛ قاله ٱبن العربى . وذكر أبو عمر بن عبد البر أن حديث الخثعمية عند مالك وأصحابه مخصوصٌ بها . وقال آخرون : فيه ٱضطراب . وقال ٱبن وهب وأبو مصعب : هو فى حق الولد خاصّةً . وقال ٱبن حبيب : جاءت الرخصة فى الحج عن الكبير الذى لا مُنهض له ولم يحج وعمن مات ولم يحج، أن يحج عنه ولده و إن لم يُوص به و يجزئه إن شاء الله تعالى . فهذا الكلام على المعضوب وشبهه . وحديثُ الخثعمية أخرجه الأئمة، وهو يرد على الحسن قولَه : إنه لا يجوز حجّ المرأة عن الرجل .

الثامنـــة — وأجمع العلماء على أنه إذا لم يكن للمكلَّف قوت يتزوّده فى الطريق لم يلزمه الحج . و إن وهب له أجنبى مالًا يحجّ به لم يلزمه قبوله إجماعا ؛ لمـا يلحقه من المِنّة فى ذلك . فلو كان رجل وهب لأبيه مالًا فقد قال الشافعى : يلزمه قبوله ؛ لأن ٱبن الرجل من كسبه ولا مِنّة عليه

فى ذلك . وقال مالك وأبو حنيفة : لا يلزمه قبوله ؛ لأن فيه سقوط حرمة الأبوة ؛ إذ يقال : قد جزاه وقد وفاه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا . وقال الحسن البصري وغيره : إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . وروى الترمذي عن الحارث عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله يقول فى كتابه وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ". قال أبو عيسى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث يُضعَّف » . وروى نحوه عن أبى أمامة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . وعن عبد خير بن يزيد(١) عن علي بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته : " يأيها الناس إن الله فرض عليكم الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء إن شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائر ألا نصيب له فى شفاعتى ولا ورود حوضى ". وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحل فيه الزكاة فلم يزكه سأل عند الموت الرجعة " . فقيل يابن عباس إنا كنا نرى هذا للكافرين . فقال : أنا أقرأ عليكم به قرآنا « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ(٢) » . قال الحسن بن صالح فى تفسيره : فأزكى وأحج . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله عن الآية فقال : " من حج لا يرجو ثوابا أو جلس لا يخاف عقابا فقد كفر به " . وروى قتادة عن الحسن قال قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له مال ولم يحج فيضربون عليه الجزية ؛ فذلك قوله تعالى : « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

(١) كذا فى ب و ج و د . وهو الخيوانى الهمدانى ، وفى ح و أ و ز ، عبد الله بن جبير ، ولا يصح لأن عبد خير هو الذى يروى عن علي كما فى ابن سعد ج ٦ ص ١٥٤ (٢) راجع ج ١٨ ص ١٢٩

قلت: هذا خرج مخرج التغليظ؛ ولهذا قال علماؤنا: تضمّنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجّه عليه، ولا يجزئ أن يحجّ عنه غيره؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد. والله أعلم. وقال سعيد بن جُبير: لو مات جارٌ لى وله مَيْسرة ولم يحج لم أصلّ عليه.

قوله تعالى: قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى تصرفون عن دين الله ﴿مَنْ آمَنَ﴾. وقرأ الحسن «تُصِدون» بضم التاء وكسر الصاد وهما لغتان: صَدّ وأَصدّ؛ مثل صَلّ اللحمُ وأَصلّ إذا أَنتن، وخَمِ وأَخَمَ أيضا إذا تغير. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تطلبون لها، فحذف اللام؛ مثل «وَإِذَا كَالُوهُمْ»[1]. يقال: بغيت له كذا أى طلبته. وأبغيته كذا أى أعنته. والعِوَج: المَيْل والزَّيغ (بكسر العين) فى الدِّين والقول والعمل وما خرج عن طريق الاستواء. و(بالفتح) فى الحائط والجدار وكل شخص قائم؛ عن أبى عبيدة وغيره. ومعنى قوله تعالى: «يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ»[2] أى لايقدرون أن يَعوجُوا[3] عن دعائه. وعاج بالمكان وعوّج أقام ووقف. والعائج الواقف؛ قال الشاعر:

هـــلَ انتم عائجـون بنـا لَعنّا[4] * نرى العَرَصاتِ[5] أو أثَرَ الخيـام

والرجل الأعوج: السّيء الخلق، وهو بيّن العَوَج. والعُوج من الخيل التى فى أرجلها تحْنيب[6]. والأعوجيّة من الخيل تُنسب إلى فرس كان فى الجاهلية سابقا. ويقال: فرس مُحنَّب إذا كان بعيد ما بين الرجلين بغير فَحَج، وهو مَدْحٌ. ويقال: الحَنَب اعوجاجٌ فى السّاقين. قال الخليل التّحْنيب يوصف فى الشدّة، وليس ذلك باعوجاج.

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٨ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٤٦ (٣) فى حـ و ا: لا يقدرون بالا يعوجوا عن مكانه. (٤) لعنا: لغة فى لعل. (٥) العرصة: كل بقعة بين الدور ليس فيها بناء. وعرصة الدار: وسطها. (٦) التحنيب: احديداب فى وظيفى الفرس أيضا.

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ أى عقلاء . وقيل : شهداء أنّ فى التوراة مكتوبا أن دين الله الذى لا يُقبل غيرُه الإسلام ، إذ فيه (١) نعتُ محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ (١٠٠)

نزلت فى يهودىّ أراد تجديد الفتنة بين الأَوْس والخَزْرَج بعد انقطاعها بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجلس بينهم وأنشدهم شِعْرًا قاله أحدُ الحَيَّين فى حربهم . فقال الحَيّ الآخر : قد قال شاعرنا فى يوم كذا وكذا ، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء ، فقالوا : تعالَوْا نردّ الحربَ جَذَعَاءَ كما كانت . فنادى هؤلاء : يا آلَ أَوْسَ . ونادى هؤلاء . يا آل خَزْرج ؛ فآجتمعوا وأخذوا السلاح وآصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية ؛ فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى وقف بين الصّفين فقرأها ورفع صوته ، فلما سمعوا صوته أَنْصَتوا له وجعلوا يستمعون ، فلما فرغ ألقوا السّلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون ؛ عن عكرمة وآبن زيد وآبن عباس . والذى فعل ذلك شاس بن قيس اليهودىّ ، دَسّ على الأوس والخَزْرج من يذكّرهم ما كان بينهم من الحروب ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أتاهم وذكّرهم ، فعرف القوم أنها نَزْغَةٌ من الشيطان ، وكَيْدٌ من عدوّهم ؛ فألقوا السلاح من أيديهم و بكوا وعانق بعضهم بعضا ، ثم آنصرفوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم سامعين مُطيعين ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى الأوس والخزرج . ﴿ إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يعنى شاسًا وأصحابه . ﴿ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ قال جابر بن عبد الله : ما كان طَالِعٌ أكرَه إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلينا بيده فكَفَفنا وأصلح الله تعالى ما بيننا ؛ فما كان شخصٌ أحبّ إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيتُ يوما أقبح ولا أَوْحَش أولاً وأحسَن آخرًا من ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١٠١)

(١) فى د و ب : وأن فيه .

قاله تعالى على جهة التعجب[1] ، أى ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم . قال ٱبن عباس : كان بين الأَوْس والخَزْرَج قتالٌ وشرٌّ فى الجاهلية، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيوف؛ فَأُتِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم فذُكِر ذلك له فذهب إليهم؛ فنزلت هذه الآية « وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ — إلى قوله تعالى : فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ويدخل فى هذه الآية مَن لم يَرَ النبى صلى الله عليه وسلم؛ لأن ما فيهم من سُنّته يقوم مقام رؤيته . قال الزّجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصةً؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه . ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذى أوتِىَ فِينا مكانَ النبىّ صلى الله عليه وسلم فِينَا وإن لم نشاهده . وقال قَتادة : فى هذه الآية عَلَمان بيّنان : كتابُ الله ونبىّ الله؛ فأما نبىّ الله فقد مضى، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً؛ فيه حلالُه وحرامُه، وطاعته ومعصيته . ﴿وكيفَ﴾ فى موضع نصب، وفتحت الفاء عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين، وٱختِير لها الفتح لأن ما قبل الفاء ياء فثَقُل أن يجمعوا بين ياء وكسرة . قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ أى يمتنع ويتمسّك بدينه وطاعته . ﴿ فَقَدْ هُدِىَ ﴾ وُفِّق وأرشد ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . ٱبن جُريج « يعتصم بِاللهِ » يؤمن به . وقيل : المعنى ومن يعتصم بِاللهِ أى يتمسّك بحبل الله، وهو القرآن . يقال : أعصم به وٱعتصم، وتمسّك وٱستمسك إذا ٱمتنع به من غيره . وٱعتصمت فلانا هيّأتُ له ما يَعتصم به . وكل متمسِّك بشىء مُعصِم ومُعتصِم . وكل مانع شيئا فهو عاصم؛ قال الفرزدق :

أنا ٱبن العاصمينَ بَنِي تَمِيم * إذا مَا أَعْظَمُ الحِدْثانِ نَابَا

قال النابغة :

يَظَلّ من خوفه المَلّاح معتصِمًا * بالخَيْزُرانة بعد الأَيْن والنَّجَدِ[2]

---

(١) كذا فى ب وز وح . أى التعجيب والإنكار كما فى الكشاف .

(٢) الخيزرانة : السكان، وهو ذنب السفينة . والأين : الفترة والأعياء، والنجد (بالتحريك) : العرق من عمل أو كرب أو غيره .

وقال آخر[(١)]:

فأَشرطَ فيها نفسه وهو مُعصِمٌ * وألقى بأسباب له وتوكّلا

وعصمه الطعامَ : منع الجوعَ منه ؛ تقول العرب : عَصَ[ـم فلانا] [(٢)] الطعامُ أى منعه من الجوع ؛ فكَنّوا السّوِيق بأبى عاصم لذلك . قال أحمد بن يحيى : العرب تُسمّى الخبز عاصما وجابرا ؛ وأنشد :

فلا تلوميني ولُومِي جابِرًا * فجابرٌ كلّفني الهواجِرَا

ويُسمونه عامرا . وانشد :

أبو مالك يعتادنِي بالظّهائر * يجيء فيُلقى رحلَه عند عامِرِ

أبو مالك كنية الجوع .

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

فيه مسألة واحدة :

روى البخارى عن مُرة[(٣)] عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حقّ تقاته أن يطاع فلا يُعصَى وأن يُذكَر فلا يُنسى وأن يُشكر فلا يُكفر". وقال ابن عباس : هو ألا يُعصَى طَرْفة عَيْن . وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله، من يَقْوَى على هذا؟ وشقّ عليهم فأنزل الله عز وجل «فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ»[(٤)] فنسخت هذه الآيةَ ؛ عن قَتادة والرّبيع وابن زيد . قال مقاتل : وليس فى آل عمران من المنسوخ شىء إلا هذه الآية . وقيل : إن قوله « فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ » بيانٌ لهذه الآية . والمعنى : فاتّقوا الله حق تُقاته ما استطعتم ، وهذا أصوب[(٥)] ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أوْلَى . وقد روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: قول الله عز وجل « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » لم تُنسخ ، ولكن «حقّ تُقاته» أن يُجاهد فى[سبيل][(٦)] الله حق

(١) هو أوس بن حجر . وفى الديوان : فأشرط فيه رأسه ... وألقى بأسبات ...

(٢) من د . وفى جـ : عصمه .

(٣) فى ز ، و هـ : النحاس ، عن مرة عن يحيى عن عبد الله .

(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٤٤

(٥) فى ز : هذا ضرب أصوب .

(٦) فى د .

جهاده، ولا تأخذكم في الله لَوْمَةُ لائم[1] ، وتقـوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأبنـائكم . قال النحاس : وكلما ذكر في الآية واجبٌ على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ. وقد مضى في البقرة معنى قوله تعالى :﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[2] .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٣)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا ﴾ العصمة المَنَعَة؛ ومنه يقال للبَذْرَقَة : عِصْمَةٌ . والبذرقة : الخَفَارَة للقافلة، وذلك بأن يرسل معها من يحميها ممن يؤذيها . قال ٱبن خالويه : البذرقة ليست بعربية وإنما هي كلمة فارسية عرّبتها العرب؛ يقال : بعث السلطان بذرقة مع القافلة .

والحَبْل لفظ مشترك، وأصـله في اللغة السبَبُ الذي يوصـل به إلى البغية والحاجة . والحبل : حبل العاتق[3] . والحبل : مستطيل من الرمل؛ ومنه الحديث[4] : والله ماتركتُ من حبل إلا وقفتُ عليه، فهل لي مِن حجٍّ؛ والحبل الرَّسَنُ . والحبل العهد؛ قال الأعشى :

وإذا تُجَـــوِّزُها حِبـالُ قَبِيـــلةٍ * أخذتْ من الأُخْرَى إليك حِبالَها

يريد الأمان . والحبل الداهية؛ قال كُثَيِّر[5] :

فلا تعجَلِي يا عَزُّ أن تَتَفَهَّـــمِي * بنُصْح أتى الواشُـــون أم بِحُبُولِ

---

(١) في د : قاله .   (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٤   (٣) حبل العاتق : وصل ما بين العاتق والمنكب .
(٤) حديث عروة بن مضرس : أتيتك من جبلي طيء .   (٥) في الأصول : «لبيد» . والتصـويب عن اللسان وشرح القاموس مادة « حبل » .

والحَبالة[1] : حِبالة الصّائد. وكلها ليس مرادا فى الآية إلا الذى بمعنى العهد؛ عن ٱبن عباس. وقال ٱبن مسعود : حبـل الله القرآن . ورواه عليّ وأبو سعيد الخدريّ عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم ، وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك . وأبو معاوية عن الهَجَرى[2] عن أبي الأحوص عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن هو حبل الله " . و روى بَقيّ بن مخلّد حدّثنا يحيى بن عبـد الحميد حدّثنا هشيم عن العوّام بن حوشب عن الشعبيّ عن عبـد الله بن مسعود « وٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » قال : الجمـاعة ؛ روى عنه و[عن غيره][3] من وجوه، والمعنى كله متقارب مُتَدَاخل ؛ فإن الله[4] تعالى يأمر بالألفة و ينهى عن الفُرْقة فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة . ورحم الله ٱبن المبارك حيث قال :

إن الجمـاعة حَبْلُ الله فٱعتَصِموا * منـه بعُرْوَته الوُثْقى لمن دَانا

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿ ولا تَفرّقُوا ﴾ [يعنى فى دينكم][5] كما ٱفترقت اليهود والنصارى فى أديانهم ؛ عن ٱبن مسعود وغيره. و يجوز أن يكون معناه ولا تفرّقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفــة ، وكونوا فى دين الله إخوانا ؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر ؛ ودل عليه ما بعده وهو قوله تعالى : « وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » . وليس فيه دليل على تحريم الٱختلاف فى الفروع ؛ فإن ذلك ليس ٱختلافا إذ الٱختلاف ما يتعذر معه الٱئتلاف والجمع ، وأما حكم مسائل الٱجتهاد فإن الٱختلاف فيها بسبب[6] ٱستخراج الفرائض ودقائق معانى الشرع ؛ وما زالت الصحابة يختلفون فى أحكام الحوادث ، وهم مع ذلك متآلفون[7]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ٱختلاف أمتى رحمة" و إنما منع الله ٱختلافا هو سبب الفساد . روى الترمذيّ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة أو ٱثنتين وسبعين فِرقة والنصارى مثل ذلك وتفـترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة " . قال الترمذى : هـذا حديث صحيح . وأخرجه أيضا عن ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليأتين على أمتى ما أتى

(١) فى جـ : حبال ، والتصـويب من د ، واللسان وغيره . (٢) الهجـرى : بهاء وجيم مفتوحتين ، نسبة إلى هجر . وهو إبراهيم بن مسلم العبدى . (عن تهذيب التهذيب) . (٣) الزيادة فى ب . (٤) و د : فإن كتاب الله . (٥) الزيادة فى د . (٦) فى د : سبب لٱستخراج . (٧) فى د : متواصلون .

على بنى إسرائيل حَذْوَ النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتى أمه علانية لكان من أمتى من يصنع ذلك و إن بنى إسرائيل تفرّقت آثنتين وسبعين مِلّة وتفترق أمّتى على ثلاث وسبعين مِلة كلهم فى النار إلا مِلة واحدة" قالوا : من هى يا رسول الله؟ قال : "ما أنا عليه وأصحابى". أخرجه من حديث عبد الله بن زياد الأفريقى، عن عبد الله بن يزيد عن آبن عمر، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه / قال أبو عمر : وعبد الله الأفريقى ثِقة وثقه قومه وأثنوا عليه، وضعّفه آخرون . وأخرجه أبو داود فى سننه من حديث معاوية بن أبى سفيان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " قال ألا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب آفترقوا على آثنتين وسبعين مِلّة و إن هــذه المِلة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النـــار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة و إنه سيخرج من أمتى أقوامٌ تجارى بهم تلك الأهْواء كما يتجارى الكَلَبُ(١) بصاحبه لا يَبْقَ منه عِرقٌ ولا مِفصَــلٌ إلا دخله " . وفى سنن آبن ماجه عن أنس آبن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له و إقامِ الصلاة و إيتاء الزكاة مات واللهُ عنه راض " . قال أنس : وهو دِين الله الذى جاءت به الرســل و بلّغوه عن ربهم قبل هَرج الأحاديث وآختلاف الأهْوَاء، وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما نزل، يقول الله : « فَإِنْ تَابُوا » قال : خلعوا الأوثان وعبادتها «وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ»(٢) ، وقال فى آية أخرى : « فإنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ »(٢) . أخرجه عن نصر بن على الجَهْضَمِىّ عن أبى أحمــد عن أبى جعفر الرازىّ عن الربيع بن أنس عن أنس . قال أبو الفرج الجَوْزىّ : فإن قيل هــذه الفِرقَ معروفة؛ فالجواب أنا نعرف الآفتراق وأصول الفِرق وأن كل طائفة من الفِرق آنقسمت إلى فِرَق، و إن لم نُحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها، فقد ظهر لنا من أصول الفِرق الحَرُورِيّة والقَدَرية والجَهْمِية والمُرجِئة والرافِضَة والجَبْرِية . وقال بعض أهل العلم: أصل الفرق الضّالة هذه الفرق السّتّ، وقد آنقسمت كل فرقة منها آثنتى عشرة فرقة، فصارت آثنتين وسبعين فرقة .

(١) الكلب (بالتحريك) : داء يعرض للإنسان من عض الكلب الكلب فيصيبه شبه الجنون، فلا يعض أحدا إلا كلِب، وتعرض له أعراض رديئة، و يمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا . (٢) راجع جـ٨ ص ٧٤، وص ٨٠

انقسمت الحَرُورية اثنتى عشرة فرقة؛ فأولهم الأَزْرَقِيّة[١] — قالوا : لا نعلم أحدا مؤمنا ؛ وكفّروا أهل القِبْلة إلّا مَن دان بقولهم . والأباضية — قالوا : من أخذ بقولنا فهو مؤمن ، ومن أعرض عنه فهو منافق[٢] . والثعلبيّة — قالوا : إن الله عز وجل لم يقض ولم يُقَدِّر . والخازِميّة — قالوا : لا ندرى ما الإيمان ، والخلق كلهم معذورون . والخَلَفِية — زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر أو أنثى كفر . والكوزية[٣] — قالوا: ليس لأحد أن يَمسّ أحدا لأنه لا يعرف الطاهر من النّجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب و يغتسل . والكَنْزِيّة — قالوا: لا يسع أحدا أن يُعطى مالَه أحدا ؛ لأنه ربما لم يكن مستحقا بل يكنزه فى الأرض حتى يظهر أهل الحق . والشّمراخِيَة — قالوا : لا بأس بمسّ النساء الأجانب لأنهن[٤] رياحين . والأخْنَسية — قالوا : لا يلحق الميت بعد موته خير ولا شر . والحكمِيّة — قالوا : مَن حاكم إلى مخلوق فهو كافر . والمعتزِلة[٥] — قالوا : اشتبه علينا أمر علىّ ومعاوية فنحن نتبرّأ من الفريقين . والميمونية — قالوا : لا إمام إلا برضا أهل محبتنا .

وانقسمت القَدَرية اثنتى عشرة فرقة : الأحمرية — وهى التى زعمت أن فى شرط العدل من الله أن يملّك عباده أمورَهم ، ويحول بينهم و بين معاصيهم . والثَّنَويّة — وهى التى زعمت أن الخير من الله والشر من الشيطان . والمعتزِلة[٥] — وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا [صفات][٦] الرّبوبيّة . والكَيْسانية — وهم الذين قالوا: لا ندرى هذه الأفعال من الله أو من العباد ، ولا نعلم أيثاب الناس بعدُ أو يعاقبون . والشيطانية — قالوا : إن الله تعالى لم يخلق الشيطان . والشّريكية — قالوا : إن السيئات كلها مقدرة إلا الكفر . والوَهْمِيّة — قالوا : ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات ، ولا للحسنة والسيئة ذات . والزِّبْرِيّة[٧] — قالوا: كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق ، ناسخا كان أو منسوخا . والمسعدية[٨] — زعموا

---

(١) لم نعثر فى المظان لذكر بعض من الفرق الآتية .
(٢) الأباضية يقولون : من دان لله بما بلغ إليه من الإسلام وعمل به ، فهو ناج ما لم يهدم ركنا من الدين أو يرتطم فى التخطية ، وليسوا حرورية .
(٣) فى جـ و ا : « الكروية » براء وواو وفى ز : الكدرية .
(٤) فى الأصول : لأنهم .
(٥) كذا فى الأصول : كلها وليس فى غير القدرية معتزلة .
(٦) الزيادة فى : ز .
(٧) فى ب و د و و : الزبوندية .
(٨) فى د و ب و و : المتبرية .

أن من عصى ثم تاب لم تقبل توبته والناكثية — زعموا أن من نكث بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا إثم عليه . والقاسطية — تبعوا إبراهيم بن النظام فى قوله : من زعم أن الله شىء فهو كافر(١) . وانقسمت الجهمية اثنتى عشرة فرقة : المعطّلة — زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق ، وأن من ادعى أن الله يُرى فهو كافر . والمريسية قالوا : أكثر صفات الله تعالى مخلوقة . والمُلتزِقة — جعلوا البارى سبحانه فى كل مكان . والوارِديّة — قالوا لا يدخل النار من عرف ربه ، ومن دخلها لم يخرج منها أبدا . والزنادِقة(٢) — قالوا : ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربا ؛ لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس ، وما لا يُدرك لا يثبت . والحَرْقيّة — زعموا أن الكافر تحرقه النار مرّة واحدة ثم يبقى محترقا أبدا لا يجد حرّ النار . والمخلوقية — زعموا أن القرآن مخلوق . والفانية — زعموا أن الجنة والنار يفنيان ، ومنهم من قال لم يُخلقا . والعبدية(٣) — جحدوا الرسل وقالوا إنما هم حكماء . والواقفية — قالوا : لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق . والقبْرية — ينكرون عذاب القبر والشفاعة . واللفظية — قالوا : لفظنا بالقرآن مخلوق .

وانقسمت المرجئة اثنتى عشرة فرقة : التارِكيّة — قالوا ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به ، فمن آمن به فليفعل ما شاء . والسائبيّة — قالوا : إن الله تعالى سيب خلقه ليفعلوا ما شاءوا . والراجيّة — قالوا : لا يُسمّى الطائع طائعا ولا العاصى عاصيا ، لأنّا لا ندرى ما له عند الله تعالى . والسالبيّة(٤) — قالوا : الطاعة ليست من الإيمان . والبهيشية(٥) — قالوا : الإيمان عِلْمٌ ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر . والعَمَليّة — قالوا : الإيمان عَمَلٌ . والمنقوصيّة — قالوا : الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمستثنية — قالوا : الاستثناء من الإيمان . والمشبّهة — قالوا : بَصَرٌ كبصرٍ ويَدٌ كيد(٦) . والحشوية — قالوا(٧) : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ فعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض . والظاهِرية — الذين نفوا القياس . والبِدْعية — أول من ابتدع هذه الأحداث فى هذه الأمة .

(١) فى أ : ليس بكافر . (٢) فى ب ، و ، د : « الزيارقة » (٣) فى ب ، د ، و : « العبرية » .
(٤) فى د : الشاكية . (٥) فى ب ، و ، ز : « البيهسية » وفى د : « البيسمية » .
(٦) كذا فى الأصول ، وفيه سقط واضح لعله : قالوا لله بصر . (٧) فى ب : جعلوا .

وانقسمت الرافضة آثنتى عشرة فرقة : العلوية — قالوا : إن الرسالة كانت إلى علىّ وإن جبريل أخطأ . والأمرية — قالوا : إن عليًّا شريك محمد فى أمره . والشّيعة — قالوا : إن عليًّا رضى الله عنه وصىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووَلِيّه من بعده، وإن الأمة كفرت بمبايعة غيره . والإسحاقية — قالوا : إن النبوّة متصلة إلى يوم القيامة، وكلّ مَن يعلم علم أهل البيت فهو نبىّ . والناوُوسيّة — قالوا : علىّ أفضل الأمة، فمن فضّل غيره عليه فقد كفر . والإمامية — قالوا : لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين ، وإن الإمام يعلّمه جبريل عليه السلام ، فإذا مات بدّل غيره مكانه . والزيدية — قالوا : ولد الحسين كلهم أئمة فى الصلوات ، فمتى وُجد منهم أحد لم تجز الصلاةُ خلف غيرهم، برّهم وفاجرهم . والعباسية — زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره . والتناسخية — قالوا : الأرواح تتناسخ ؛ فمن كان مُحسنًا خرجت روحه فدخلت فى خلق يسعد بعيشه . والرّجعية — زعموا أن عليًّا وأصحابه يرجعون إلى الدنيا، وينتقمون من أعدائهم . واللّاعِنَة(١) — يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشةَ وغيرَهم . والمتربّصة — تشبهوا بزىّ النُّسّاك ونصبوا فى كل عصر رجلا ينسُبون إليه الأمر، يزعمون أنه مَهدِىُّ هذه الأمة، فإذا مات نصبوا آخر .

ثم آنقسمت الجَبْرية اثنتى عشرة فرقة : فمنهم المضطرية(٢) — قالوا : لا فعل للآدمىّ، بل الله يفعل الكل . والأفعالية — قالوا : لنا أفعال ولكن لا آستطاعة لنا فيها، وإنما نحن كالبهائم نقاد بالحبل . والمفروغية — قالوا : كل الأشياء قد خُلقت، والآن لا يُخلق شىء . والنجارية — زعمت أن الله تعالى يعذّب الناس على فعله لا على فعلهم . والمنّانيّة — قالوا : عليك بما يخطر بقلبك ، فآفعل ما توسّمت منه الخير . والكَسْبية — قالوا : لا يكتسب العبد ثوابا ولا عقابا . والسّابقية — قالوا : من شاء فليعمل ومن شاء [ف]لا يعمل(٣)، فإن السعيد لا تضرّه ذنوبه والشّقى لا ينفعه برّه . والحِبِّية — قالوا : من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان . والخوفية — قالوا : من أحبّ الله تعالى لم يسعه أن يخافه ؛ لأن الحبيب لا يخاف حبيبه . والفكرِيّة(٤) — قالوا : من آزداد علما أسقط عنه بقدر ذلك من العبادة .

(١) فى د : اللاعنية . (٢) كذا فى ب ، وفى الأصول الأخرى المضطربة . (٣) كذا فى د ، وفى غيرها من الأصول : من شاء فليفعل ومن شاء لم يفعل . (٤) فى ب ، هـ ، د ، و ، وفى ز ، حـ ، أ : الفركية ، وفى جـ : النكرية . وفى د : أسقط . وفى سائر الأصول سقط .

والحشبية(١) ــ قالوا : الدنيا بين العباد سواء ، لا تفاضُل بينهم فيما ورَّثهـم أبوهم آدم .
والمنيه(٢) ــ قالوا : منا الفعل ولنا الاستطاعة . وسيأتى بيان الفرقة التى زادت فى هذه الأمة فى آخر سورة «الأنعام»(٣) إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس لسماك الحنفى : يا حنفى ، الجماعةَ الجماعةَ ! ! فإنما هلكت الأمم الخاليـة لتفرقها ؛ أما سمعت الله عز وجل يقول : «وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثا و يكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا(٤) و يكره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال و إضاعة المـال » . فأوجب تعالى علينـا التمسك بكتابه وسـنة نبيه والرجوع إليهما عنـد الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسـنة اعتقادا وعملا ؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذى يتم به مصالح الدنيـا والدين ، والسلامة من الاختلاف ، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذى حصل لأهل الكتابين . هذا معنى الآية على التمام ، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور فى موضعه من أصول الفقه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ . أمر تعـالى بتذكّر نعمه وأعظمها الإسلام واتباع نبيه محمد عليه السلام ؛ فإن به زالت العداوة والفرقة وكانت المحبـة والألفـة . والمراد الأوس والخزرج ؛ والآية تعم . ومعنى « فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » أى صرتم بنعمة الإسلام إخوانا فى الدِّين . وكل ما فى القرآن « أصبحتم » معناه صرتم ؛ كقوله تعالى : « إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا(٥) » أى صار غائرا . والإخوان جمع أخ ، وسُمِّى أخا لأنه يتوخى مذهبَ أخيه ، أى يقصده . وشفا كلِّ شيء حرفهُ ؛ وكذلك شفيره ومنه قوله تعالى : « على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ(٦) » . قال الراجز :

نحن حفرنا للحجيج سَجْلَهْ(٧) * نابتة فوق شِفاها بَقْـلَهْ

(١) فى جـ و ز : «الحشبية» بالحاء المهملة ، وفى ب الخشبية . وفى ا : « الحيشبية » بالياء المثناة من تحت والشين . وفى د : الحسبية . (٢) فى ب و هـ و د و ز : «المعية» بالعين. (٣) راجع : جـ٧ص١٤١
(٤) سقط من النسخ : « وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » . (٥) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٢
(٦) راجع جـ ٨ ص ٢٦٤ (٧) السجلة : الدلو الضخمة المملوءة ماء . والمراد هنا البئر .

وأشفى على الشيء أشرف عليه ؛ ومنه أشفى المريض على الموت . وما بقي منه إلا شَفًا أي قليل . قال ابن السِّكِّيت : يقال للرجل عند موته وللقمر عند امّحاقه وللشمس عند غروبها : ما بقي منه إلا شفًا أي قليل . قال العجاج :

ومَرْبَإٍ عالٍ لمن تشرَّفَا * أشرفتُه بلا شفًى أو بشفَى

قوله « بلا شفى » أي غابت الشمس . «أو بشفى» وقد بقيت منها بقيّة . وهو من ذوات الياء، وفيه لغة أنه من الواو . وقال النحاس : الأصل في شفا شَفَو، ولهذا يكتب بالألف ولا يمال . وقال الأخفش : لمّا لم تجز فيه الإمالة عُرف أنه من الواو ؛ ولأن الإمالة بين الياء، وتثنيته شفوان . قال المَهْدَوِيّ : وهذا تمثيل يراد به خروجهم من الكفر إلى الإيمان.

قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قد مضى القولُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه السورة(١) . و «مِن» في قوله « مِنكم » للتبعيض ، ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء . وقيل : لبيان الجنس ، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك .

قلت : القول الأوّل أصح؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عيّنهم الله تعالى بقوله : «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ»(٢) الآية . وليس كل الناس مُكِّنُوا . وقرأ ابن الزبير : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسْتَعِينُونَ اللهَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ» . قال أبو بكر الأنباري : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه غَلِط فيه بعض الناقلين(٣) فألحقه بألفاظ القرآن؛ يدلّ على صحة ما أَصِفُ الحديثُ الذي حدّثنيه أبي حدّثنا [حسن](٤) بن عرفة حدّثنا وكيع عن أبي عاصم عن أبي عون(٤) عن صبيح قال : سمعت عثمان بن عفّان يقرأ « ويأمرون بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عن المنكر ويستعينون الله على ما أصابهم » فما يشكّ عاقل في أن عثمان لا يعتقد(٥)

(١) راجع ص ٤٦   (٢) راجع ج ١٢ ص ٧٢   (٣) في ه : الغافلين .
(٤) في ب ، د ، ه وفيها : أبي عوف .   (٥) في ب ، د ، ه : لا يعتد .

هذه الزيادة من القرآن، إذ لم يكتبها في مصحفه الذي هو إمام المسلمين ، وإنما ذكرها واعظا بها ومؤكدا ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾

يعني اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين . وقال بعضهم : هم المبتدعة من هذه الأمة . وقال أبو أمامة : هم الحَرُورِيّة؛ وتلا الآية . وقال جابر بن عبد الله : ﴿الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ اليهود والنصارى . « جاءهم » مذكر على الجمع ، وجاءتهم على الجماعة .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوهُ المؤمنين مبيضّة ووجُوه الكافرين مسْوَدّة . ويقال : إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسناته آستبشر وآبيَضّ وجهُه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته آسودّ وجهه . ويقال : إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته آبيضّ وجهه، وإذا رجحت سيئاته آسودّ وجهه . ويقال : ذلك عند قوله تعالى : «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ»(١) . ويقال : إذا كان يوم القيامة يُؤمر كل فريق بأن يجتمع إلى معبوده، فإذا آنتهوا إليه حزِنوا وآسودّت وجوههم، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون؛ فيقول الله تعالى للؤمنين : « من ربكم » ؟ فيقولون : ربنا الله عز وجل . فيقول لهم : « أتعرفونه إذا رأيتموه » . فيقولون : سبحانه ! إذا آعترف عرفناه(٢) . فيرونه كما شاء الله .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٤٦ (٢) هذه عبارة ابن الأثير ، أي إذا وصف نفسه بصفة نحققه بها عرفناه في ب : إذا عرّفناه عرفناه، وفي هـ : إذا عرفناه عرفنا . وفي د : إذا رأيناه عرفناه .

فيخرّ المؤمنون سُجّدا لله تعالى ، فتصير وجوههم مثـل الثلج بياضا ، ويبقى المنافقون وأهـل الكتاب لا يقدرون على السجود فيحزنوا وتسودّ وجوههم؛ وذلك قوله تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْـوَدُّ وُجُوهٌ » . ويجوز « تِبْيَضّ وتِسْوَدّ » بكسر التائين؛ لأنك تقول : ٱبيضت، فتكسر التاء كما تكسر الألف ، وهي لغـة تميم وبها قرأ يحيى بن وثاب . وقرأ الزهري « يوم تبياض وتسوادّ » و يجوز كسر التـاء أيضا ، و يجوز « يوم يبيض وجوه » بالياء على تذكير الجمع، ويجوز « أجوه » مثل « أقتت » . وٱبيِضَاض الوجوه إشراقها بالنّعيم . وٱسْوِدادها هو ما يرهقها من العذاب الأليم .

الثانيـــه — وٱختلفوا في التعيين؛ فقال ٱبن عباس : تبيضّ وجُوه أهلِ السنّة وتسودّ وجوه أهل البِدعة .

قلت : وقول ٱبن عباس هذا رواه مالك بن سليمان الهروي أخو غسّان عن مالك بن أنس عن نافع عن ٱبن عمر قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» قال: "يعني تبيض وجوه أهل السنة وتسودّ وجوه أهل البدعة" ذكره أبو بكر[1] أحمد بن علي بن ثابت الخطيب . وقال فيــه : منكر من حديث مالك . قال عطاء : تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسودّ وجوه بني قريظة والنضير . وقال أبيّ بن كعب : الذين ٱسودّت وجوههم هم الكفارُ، وقيل لهم : أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أُخْرِجتم من ظهر آدم كالذّرّ . هذا ٱختيار الطبري . الحسن : الآية في المنافقين . قتادة هي في المرتدّين . عِكرمة : هم[2] قوم من أهل الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائهم مصدقين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بُعث عليه السلام كفروا به ؛ فذلك قوله : « أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » . وهو ٱختيار الزجاج . مالك بن أنس : هي في أهل الأهواء . أبو أمامة الباهِلي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : هي في الحرورية . وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال : «هي في القدرية» . روى الترمذيّ عن أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رءوسا منصوبة على باب دمشق[3]، فقال

---

(١) كذا في د ر ب و هـ وفي ز : أبو بكر محمد .	(٢) في هـ و د : هؤلاء قوم .

(٣) في صحيح الترمذي : « على درج مسجد دمشق » ، في د و هـ : على برج دمشق .

أبو أُمَامة : كلابُ النـار شرُّ قتلى تحت أَدِيم السماء ، خيرُ قتلى من قتلوه — ثم قرأ — « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » إلى آخر الآية . قلت لأبى أمامة : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا — حتى عدّ سبعا — ماحدثتكموه . قال : هذا حديث حسن . وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى فرطكم[1] على الحوض من مرّ علىّ شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا لَيرِدنّ علىّ أقوام أعرِفهم و يعرِفونى ثم يحال بينى و بينهم". قال أبو حازم[2] : فسمعنى النُّعمان بن أبى عياش فقال : أهكذا سمعتَ من سهل بن سعد؟ فقلت نعم . فقال : أشهد على أبى سعيدٍ الخدرىّ لسمعته وهو يزيد فيها : " فأقول إنهم منّى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا سحقا لمن غيّر بعدى" . وعن أبى هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرِد على الحوضَ يوم القيامة رهْطٌ من أصحابى فيُجْلَون عن الحَوْض فأقول يا ربِّ أصحابى فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعـدك إنهـم آرتدّوا على أدبارهم القهقرى " . والأحاديث فى هـذا المعنى كثيرة . فمن بدّل أو غيّر أو آبتدَعَ فى دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذَنْ به الله فهو من المطْرُودين عن الحوض المبتَعِدين منـه المسودِّى الوُجُوه ، وأشدّهم طردا و إبعادا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم ؛ كالخوارج على آختلاف فِرَقها ، والرَّوافِض على تَباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ؛ فهؤلاء كلهم مبـدِّلون ومبتدِعون ، وكذلك الظلمة المسرفون فى الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله و إذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخِفُّون بالمعاصى ، و جماعة أهل الزَّيْغ والأهْواء والبِـدَع ؛ كلٌّ يُخاف عليهم أن يكونوا عُنُوا بالآية ، والخبركما بيّنا ، ولا يَخلُد فى النـار إلا كافر جاحِدٌ ليس فى قلبـه مثقالُ حبّةِ خرْدلٍ من إيمان . وقد قال آبن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهْواء من هو شرٌّ من أهل الأهواء . وكان يقول : تمـام الإخلاص تجنّب المعاصى .

---

(١) الفرط (بفتحتين) : الذى يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض .

(٢) أبو حازم هو سلمة بن دينار، أحد رجال سند هذا الحديث .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فيقال لهم ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ يعنى يوم الميثاق حين قالوا بلى . و يقال : هـذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به . وقال أبو العالية : هذا للمنافقين، يقال(١) : أكفرتم فى السر بعد(٢) إقراركم فى العلانية . وأجمع أهل العربية على أنه لا بدّ من الفاء فى جواب « أما » لأن المعنى فى قولك : « أما زيد فمنطلق، مهما يكن من شيء فزيد منطلق » . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ هـؤلاء أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهـده . ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى فى جنته ودار كرامته خالدون باقـون . جعلنا الله منهـم وجنّبنا طرق البِـدَع والضّلالات ، ووفقنا لطريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات . آمين .

قوله تعـالى : تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ ٱبتداء وخبر، يعنى القرآن . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ يعنى نتزل عليك جبريل فيقرؤها عليـك . ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى بالصـدق . وقال الزجاج : « تلك آيات الله » المذكورة حُجَجُ الله ودلائله . وقيل : « تلك » بمعنى هذه ولكنها لمـا ٱنقضت صارت كأنهـا بَعُدَتْ فقيـل « تلك » ، ويجـوز أن تكون « آيات الله » بدلا من « تلك » ولا تكون نعتا ؛ لأن المبهم لا ينعت بالمضـاف . ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعنى أنه لا يعذبهم بغير ذنب . ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال المهدوىّ : وجه ٱتصال هذا بما قبله أنه لمـا ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلما للعالمين، وصله بذكر ٱتّساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما فى السموات وما فى الأرض [فى قبضته ، وقيـل : هو ٱبتداء كلام، بيّن لعباده أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض(٣)] له حتى يسألوه و يعبدوه ولا يعبدوا غيره .

---

(١) فى د و ب و هـ : يقول .　(٢) فى د و هـ و ب : مع .　(٣) الزيادة من نسخ : د .

قوله تعـالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى الترمذي عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال: "أنتم تُتِمّون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله» . وقال : هـذا حديث حسن . وقال أبو هريرة : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام . وقال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بَدْرا والحُدَيْبِيَة . وقال عمر بن الخطاب : من فعل فعلهم كان مثلهم . وقيل : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى الصالحين منهم وأهل الفضل . وهم الشهداء على الناس يوم القيامة ؛ كما تقدّم فى البقرة[(١)] . وقال مجاهد : «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» على الشرائط المذكورة فى الآية . وقيـل : معناه [كُنتم][(٢)] فى اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم مُذْ آمنتم خيرَ أُمّة . وقيل: جاء ذلك لتقدّم البشارة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته. فالمعنى كنتم عند من تقدّمكم من أهـل الكتب خيرَ أمة . وقال الأخفش : يريد أهل أمّـة ، أى خير أهل دين ؛ وأنشد :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسك رِيبـةً وهل يأثَمَنْ ذو أُمّـةٍ وهو طائعُ[(٣)]

وقيل : هى كان التامّة ، والمعنى خُلِقْتم ووُجِدتُم خيرَ أمّة . «فخير أمّة» حال . وقيل : كان زائدة ، والمعنى أنتم خير أمّة . وأنشد سيبويه :

* وجيرانٍ لنـا كانوا كِرامِ[(٤)] *

(١) راجع ج ٢ ص ١٥٤ (٢) الزيادة فى د و ب . (٣) البيت للنابغة الذبياني . أمة بالضم والكسر : ذو أمة : ذو دين واستقامة ، والأمة : النعمة . (٤) هذا عجز بيت للفرزدق . وصدره :

* فكيف إذا رأيت ديار قوم *

ومثله قوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا »[1] . وقوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ »[2] . وقال في موضع آخر : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ »[2] . وروى سفيان عن مَيْسَرة الأشجعيّ عن أبي حازم عن أبي هريرة « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » قال : تجرّون الناس بالسلاسل إلى الإسلام. قال النحاس: والتقدير على هذا كنتم للناس خير أمّة. وعلى قول مجاهد : كنتم خيرَ أمّةٍ إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. وقيل : إنما صارت أمّة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمّة لأن المسلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أَفْشَى . فقيل : هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "خير الناس قرني" أي الذين بعثت فيهم .

الثانيــة — وإذا ثبت بنَصّ التنزيل أن هـذه الأمة خير الأمم، فقد روى الأئمة من حديث عِمران بن حصين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". [الحديث][3] وهذا يدل على أن أوّل هذه الأمة أفضل ممن بعدهم، وإلى هذا ذهب معظم العلماء ، وأن من صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرّة في عمره أفضل ممن[3] يأتي بعده ، وأن فضيلة الصحبة لا يعدِلها عمل .

وذهب أبو عمر بن عبد البرّ إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة ، وأن قوله عليه السلام : "خير الناس قرني" ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول . وقد جمع قرنه جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهلِ الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود ، وقال لهم : ما تقولون في السارق والشارب والزاني . وقال مُواجهةً لمن هو في قرنه : "لا تسبوا أصحابي" . وقال لخالد ابن الوليد في عمّار : "لا تسب من هو خير منك" وروى أبو أُمَامة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي". وفي مسند أبي داود الطيالسيّ عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أتدرون أي الخلق أفضل إيمانا" قلنا

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠١　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٩ ، وص ٣٩٤
(٣) الزيادة من هـ و د و ب . في د و ب : من كل من يأتي .

الملائكة . قال : "وحق لهم بل غيرهم" قلنا الأنبياء . قال : "وحق لهم بل غيرهم" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضل الخلق إيمانا قوم فى أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى يجدون ورقا فيعملون بما فيها فهم أفضل الخلق إيمانا" . وروى صالح بن جبير عن أبى جُمُعَة قال : قلنا يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ قال: "نعم قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتابا بين لوحين فيؤمنون بما فيه و يؤمنون بى ولم يرونى" . وقال أبو عمر : وأبو جمعة له صحبة واسمه حَبِيب بن سِبَاع ، وصالح بن جبير من ثِقات التابعين . وروى أبو ثعلبة الخشنى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن أمامكم أياما الصّابر فيها على دينه كالقابض على الجَمْر للعامل فيها أجر خمسين رجلا يعمل مثل عمله" قيل : يا رسول الله ، منهم ؟ قال : "بل منكم" . قال أبو عمر : وهذه اللفظة « بل منكم » قد سكت عنها بعض المحدّثين فلم يذكرها . وقال عمر بن الخطاب فى تأويل قوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ" قال : من فعل مثل فعلكم كان مثلكم . ولا تعارض بين الأحاديث ؛ لأن الأوّل على الخصوص ، والله الموفّق .

وقد قيل فى توجيه أحاديث هذا الباب : إن قرنه إنما فُضِّل لأنهم كانوا غُرَبَاء فى إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، و إن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدِّين وتمسّكوا به وصبروا على طاعة ربهم فى حين ظهور الشر والفسق والهَرَج والمعاصى والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غُرَبَاء ، وزكت أعمالهم فى ذلك الوقت كما زكَتْ أعمال أوائلهم ، و[مما](١) يشهد لهذا قوله عليه السلام : "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء" . ويشهد له أيضا حديث أبى ثعلبة ، ويشهد له أيضا قوله صلى الله عليه وسلم : "أمّتى كالمطر لا يُدْرَى أوّلُه خيرٌ أم آخره" . ذكره أبو داود الطيالسىّ وأبو عيسى الترمذى ، ورواه هشام بن عبيد الله الرازى عن مالك عن الزهرى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثل أمتى مثل المطر لا يُدْرَى أوّله خيرٌ أم آخره" . ذكره الدارقطنى فى مسند حديث مالك . قال أبو عمر : هشام بن عبيد الله ثقةٌ لا يختلفون فى ذلك . وروى أن عمر ابن عبدالعزيز لما ولى الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله أن اكتب إلىّ بسيرة عمر بن الخطاب

(١) فى د و ب و ه .

لأعمل بها؛ فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمر، فأنت أفضل من عمر لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر . قال : وكتب إلى فقهاء زمانه ، فكلّهم كتب إليه بمثل قول سالم . وقد عارض بعض الجِلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : "خير الناس قرني" بقوله صلى الله عليه وسلم : "خير الناس من طال عمره وحَسُن عملُه وشرّ الناس من طال عمره وساء عمله" . قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضى مع تَوَاتُر طرقها وحسنها التّسويةَ بين أوّلِ هذه الأمّة وآخرِها . والمعنى فى ذلك ما تقدّم ذكره من الإيمان والعمل الصالح فى الزمان الفاسد الذى يرفع فيه من أهل العلم والدين ، ويكثر فيه الفسق والهَرَج ، ويُذَلّ المؤمنُ ويُعَزّ الفاجر ويعود الدين غَريبا كما بدا غَريبا ويكون القائمُ فيه كالقابض على الجمر ، فيستوى حينئذ أوّل هذه الأمّة بآخرها فى فضل العمل إلا أهل بَدْر والحُدَيبية ، ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصّواب[(١)] ، والله يؤتى فضله من يشاء .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ مدح لهذه الأمّة ما أقاموا ذلك واتّصفوا به . فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذّمّ ، وكان ذلك سببا لهلاكهم . وقد تقدّم الكلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أوّل السورة[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبىّ صلى الله عليه وسلم خيرٌ لهم ، وأخبر أن منهم مؤمنا وفاسقا ، وأن الفاسق أكثر .

قوله تعالى : لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ يعنى كذبهم وتحريفهم وبُهْتَهم ؛ لا أنه تكون لهم الغَلَبَة ؛ عن الحسن وقتادة . فالاستثناء متّصل ، والمعنى لن يضروكم إلا ضرا يسيرا ؛ فوقع الأذى موقع المصدر . فالآية وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام[(٣)] إلا إيذاء بالبهت

(١) فى ذ و ب : الكتاب . (٢) راجع ص ٤٦ من هذا الجزء . (٣) الاصطلام : الاستئصال .

والتحريف ، وأما العاقبة فتكون للؤمنين . وقيـل : هو منقطع ، والمعـنى لن يضروكم ألبتة، لكن يؤذونكم بما يُسمّعونكم . قال مقاتل : إن رءوس اليهود : كعب وعديّ والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وآبن صوريا عمـدوا إلى مؤمنيهم : عبد الله بن سـلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم؛ فأنزل الله تعالى : « لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى » يعنى باللسان، وتمّ الكلام . ثم قال : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ يعنى منهزمين ، وتم الكلام . ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ مستأنف ؛ فلذلك ثبتت فيه النون . وفى هذه الآية معجزة للنبيّ عليه السلام؛ لأن من قاتله من اليهود ولاه دبره .

قوله تعـالى : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ يعنى اليهود . ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ أى وُجدوا ولُقُوا، وتمّ الكلام . وقد مضى فى البقرة (١) معنى ضربِ الذّلّة عليهم . ﴿ إِلَّا بِحَبْـلٍ مِنَ اللهِ ﴾ آستثناء منقطع ليس من الأوّل . أى لكنهم يعتصمون بحبـل من الله . ﴿ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ يعنى الذّمّة التى لهم . والنـاس : محمدٌ والمؤمنـون يؤدّون إليهـم الخَراج فيؤمّنونهم . وفى الكلام

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠

آختصار، والمعنى : إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، فحذف ؛ قاله الفرّاء . ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾(١) أى رجعوا . وقيل آحتملوا . وأصله فى اللغة أنه لزمهم ، وقــد مضى فى البقرة . ثم أخبر لم فعل ذلك بهم؛ فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾(٢) وقــد مضى فى البقرة مستوفى . ثم أخبر فقال : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ وتم الكلام . والمعنى: ليس أهل الكتاب وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم سواء ؛ عن آبن مسعود . وقيل : المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء . وذكر أبو خَيْثَمَة زُهَيْر بن حَرْب حدّثنا هاشم بن القاسم حدّثنا شيبان عن عاصم عن زر عن آبن مسعود قال : أخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم [ليلة](٣) صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: "إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى فى هذه الساعة غيركم" قال : وأنزلت هذه الآية « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ — إلى قوله : وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » وروى آبن وهب مثله . وقال آبن عباس : قول الله عز وجل «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ » من آمن مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال آبن إسحاق عن آبن عباس لمــا أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سَعْيَة(٤)، وأَسِيد(٥) بن سعية، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود؛ فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الإسلام ورسخوا(٦) فيه ، قالت أحبار يهــود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعــه إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ؛ فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهم : « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْــلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . إلى قوله : وَأُولَئِــكَ مِنَ الصَّالِحِــينَ » . وقال الأخفش : التقــدير من أهل الكتاب ذو أمّة ، أى ذو طريقــة حسنة . وأنشد :

* وهل يَأْثَمَنْ ذُو إِمَّةٍ وهْوَ طَائِــعُ *

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٠ وص ٤٣٠ (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣١ (٣) الزيادة فى د .
(٤) سعية : بالسين والعين المهملتين وياء بآثنتين . (٥) فى الأستيعاب فى ترجمة أسيد هذا : «رواه يونس ابن بكير عن آبن إسحاق (أَسِــيد) بفتح الهمزة وكسر السين ، وكذلك قال الواقدى . وفى رواية إبراهيم آبن سعد عن آبن إسحاق (أسيد) بالضم . والفتح عندهم أصح » . (٦) فى د وب : نجحوا فيه .

وقيـل : فى الكلام حذف ؛ والتقدير من أهـل الكتاب أمّة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى ٱكتفاء بالأولى ؛ كقول أبى ذؤيب :

عصانى إليهـا القلبُ إنّى لأمرِه[(١)] * مُطيعٌ فمـا أدرى أرُشْـدٌ طِلابُها

أراد : أرُشْد أم غَىّ، فحذف . قال الفرّاء : «أمّة» رفع بـ«سواء»، والتقدير: ليس يستوى أمّة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمّة كافرة . قال النحاس : هذا قول خطأ من جهات : إحداها أنه يرفع « أمّة » بـ«سواء» فلا يعود على ٱسم ليس بشىء، ويرفع بما ليس جاريا على الفعل ويضمر ما لا يحتاج إليه، لأنه قد تقدّم ذكر الكافر فليس لإضمار هـذا وجه . وقال أبو عبيدة : هذا مثل قولهم : أكلونى البراغيثُ ، وذهبوا أصحابُك . قال النحاس : وهـذا غلط؛ لأنه قد تقدّم ذكرهم، وأكلونى البراغيث لم يتقدّم لهم ذكر . و﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته . واحدها إِنًى وأَنًى وإِنْىٌ، وهو منصوب على الظرف . و﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ يصلون ؛ عن الفراء والزجاج ؛ لأن التـلاوة لا تكون فى الركُوع والسّجود . نظيره قوله : « وَلَهُ يَسْجُدُونَ[(٢)] » أى يصلون . وفى الفرقان : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ[(٣)]» وفى النجم «فَٱسْجُدُوا لِلهِ وَٱعْبُدُوا[(٤)]» . وقيل : يراد به السجود المعـروف خاصة . وسبب النزول يردّه ، وأن المراد صـلاة العتمة كما ذكرنا عن ٱبن مسعود؛ فعبدة الأوثان ناموا حيث جنّ عليهم الليل، والموَحِّدون قيام بين يدى الله تعالى فى صلاة العشاء يتلون آيات الله؛ ألا ترى لمـا ذكر قيامهم قال«وَهُمْ يَسْجُدُونَ» أى مع القيام أيضا . الثورىّ : هى الصـلاة بين العشاءين . وقيل : هى فى قيام الليـل . وعن رجل من بنى شيبة كان يدرس الكتب قال: إنّا نجد كلاما من كلام الرب عز وجل : أيحسب راعى إبل أو راعى غنم إذا جنه الليل ٱنخذل[(٥)] كمن هو قائم وساجد آناء الليل . ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ يعنى يقرون بالله ويصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قيل : هو عموم . وقيل: يراد به الأمر بٱتباع النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ والنهى عن المنكر النهى عن مخالفتـه . ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ﴾ التى يعملونهـا مبادرين غير متثاقلين

(١) فى الأصول : * عصيت إليهـا القلب إنى لأمرها *
والتصويب عن ديوان أبى ذؤيب . يقول : عصانى القلب وذهب إليها فأنا أتبع ما يأمرنى به .

(٢) راجع جـ٧ص٣٥٦ (٣) راجع جـ١٣ص٦٤ (٤) راجع جـ١٧ص١٢١ (٥) ٱنخذل: ٱنفرد .

لمعرفتهم بقدر ثوابهم . وقيل : يبادرون(١) بالعمل قبل الفوت . ﴿ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى مع الصالحين ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الجنة . ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ قرأ الأعمش وآبن وثّاب وحمزة والكسائى وحفص وخلف بالياء فيهما، إخبارا عن الأمة القائمة ، وهى قراءة آبن عباس وآختيار أبى عبيد . وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب، لقوله تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » . وهى آختيار أبى حاتم، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعا الياء والتاء . ومعنى الآية : وما تفعلوا من خير فلن تُجحدوا ثوابه بل يُشكَر لكم وتُجازون عليه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ آسم إن، والخبر ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ . قال مقاتل : لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم وهو قوله « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » . وقال الكلبى : جعل هذا آبتداء فقال : إن الذين كفروا لن تغنى عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئا . وخص الأولاد لأنهم أقرب أنسابهم إليهم . ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ آبتداء وخبر، وكذا و﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وقد تقدّم جميع هذا .

قوله تعالى : مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ «ما» تصلح أن تكون مصدرية، وتصلح أن تكون بمعنى الذى والعائد محذوف، أى مثل ما ينفقونه . ومعنى « كَمَثَلِ رِيحٍ » كمثل مَهبّ(٢) ريح . قال آبن عباس : والصِّرّ البرد الشديد . قيل : أصله من الصرير

(١) فى ب : مبادرين . (٢) فى ب ود وهـ : مهلك ريح .

الذى هو الصوت ، فهـو صوت الريح الشديدة . الزجاج : هو صوت لهب النار التى كانت فى تلك الريح . وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة (١) . وفى الحديث : إنه نهى عن الجراد الذى قتله الصِّر (٢) . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشىء بعد ما كانوا يرجون فائدته (٣) ونفعه. قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بذلك ﴿ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى . وقيل : ظلموا أنفسهـم بأن زرعوا فى غير وقت الزراعة أو فى غير موضعها فأدّبهم الله تعالى ؛ لوضعهم الشىء فى غير موضعه ؛ حكاه المَهْدوِىّ .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١١٨)

فيه ست مسائل :

الأولى — أكّد الله تعالى الزَّجْر عن الركون إلى الكفار . وهو متصل بما سبق من قوله : « إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . والبِطَانَةُ مصدر، يُسَمّى به الواحد والجمع . وبِطَانَةُ الرجل خاصّتُه الذين يستبطنون أمره ، وأصله من البَطْن الذى هو خلاف الظَّهْر . وبَطن فلان بفلان يبْطُن بُطونا وبِطَانَةً إذا كان خاصّا به . قال الشاعر :

أولئـــك خُلْصانى (٤) نَعَمْ وبِطَانَتِى * وهم عَيْبَتِى من دون كلّ قَرِيب

الثانيـــة — نهى الله عز وجل المؤمنين بهـذه الآية أن يتّخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهْوَاء دُخَلاءَ ووُلَجاء، يفاوضونهم فى الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم . ويقال : كل من كان على خلاف مَذْهَبك ودينك فلا ينبغى لك أن تحادثه ؛ قال الشاعر :

عن المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عن قَرِينِه * فكُلُّ (٥) قَرِينٍ بالمُقارِن يَقْتَدِى

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣١٩ (٢) الصر فى هذا الحديث : البرد . (٣) فى ب وهـ ود : عائدته .
(٤) فى هـ : خلصانى ، عيبتى : خاصتى وموضع سرى . (٥) فى د : فكم من قرين ، وفى هـ : فإن القرين .

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " المرء على دِين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " . وروى عن آبن مسعود أنه قال : آعتبروا النـاس بإخوانهم . ثم بيّن تعالى المعنى الذى لأجله نهى عن المواصلة فقال : ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يقول فسادا . يعنى لا يتركون الجهد فى فسادكم ، يعنى أنهم وإن لم يقاتلوكم فى الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد فى المكر والخديعة، على ما يأتى بيانه . وروى عن أبى أُمَامَة(١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» قال: " هم الخوارج" . ورُوى أن أبا موسى الأشعرى آستكتب ذِمّيا فكتب إليه عمر يعنّفه وتلا عليه هذه الآية . وقدِم أبو موسى الأشعرى على عمر رضى الله عنهما بحساب فرفعه إلى عمر فأعجبه ، وجاء عمر كتابٌ فقال لأبى موسى : أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد . فقال : لِمَ ! أجُنُبٌ هو ؟ قال : إنه نصرانى ، فآنتهره وقال : لا تُدْنِهم وقد أقصاهم الله ، ولا تُكرمهم وقد أهانهم الله ، ولا تأْمَنهم وقد خوّنهم الله . وعن عمر رضى الله عنه قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرِّشا(٢) ، وآستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى . وقيل لعمر رضى الله عنه : إن ههنا رجلا من نصارى الحِيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ(٣) بِطانة من دون المؤمنين . فلا يجوز آستكتاب أهل الذّمة ، ولا غير ذلك من تصرفاتهم فى البيع والشراء والآستنابة إليهم .

قلت : وقد آنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بآتخاذ أهل الكتاب كَتَبة وأُمناء وتَسوّدوا بذلك عند الجَهَلة الأغبياء من الوُلاة والأمراء . روى البخارىّ عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما بعث الله من نبىّ ولا آستخلف مِن خليفةٍ إلا كانت له بِطانتان بِطانة تأمره بالمعروف وتحُضّه عليه و بطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه فالمعصوم من عَصَمَ الله تعالى(٤)" . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تستضيئوا بِنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم غربيا " . فسّره الحسن بن أبى الحسن فقال: أراد عليه

(١) فى ب و د و هـ : روى أبو امامة . (٢) فى ا : الربا . (٣) فى ب و د و هـ : إذا آتخذ الخ .
(٤) الحديث كما فى النسخة الأميرية ، وسائر الأصول : بالخير ، بدل المعروف ، وفى جـ : تحثه عليه .

السلام لا تستشيروا المشركين فى شىء من أموركم، ولا تنقشوا فى خواتيمكم محمدا . قال الحسن : وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل : « يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » الآية .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِكُمْ ﴾ أى من سواكم . قال الفرّاء : « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى سوى ذلك . وقيل : « مِن دونكم » يعنى فى السير وحسن المذهب . ومعنى « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا » لا يقصّرون فيما فيه الفسادُ عليكم . وهو فى موضع الصفة لـ « بِطَانَةً من دُونِكُمْ » . يقال : لا آلُو جهدا أى لا أقصّر . وأَلَوْتُ أُلُوًّا قصرت ؛ قال آمرؤ القيس :

وما المرءُ ما دامتْ حُشاشَةُ نفسِه * بمُدْرِكِ أطْرافِ الخُطُوبِ ولا آلِ

والخَبَال : الخَبْل . والخَبْـل : الفساد، وقد يكون ذلك فى الأفعال والأبدان والعقـول . وفى الحديث : "من أُصيب بدَمٍ أو خَبْل" أى جُرْح يُفسد العضو . والخَبْل : فساد الأعضاء، ورجلٌ خَبِلٌ ومُخْتَبَلٌ، وخَبَله الحبُّ أى أفسده . قال أوْسٌ :

أَبَنِى لُبَيْنَى لستم بيَـدٍ * إلَّا يدًا مَخْبولَةَ العَضُدِ

أى فاسدة العضد . وأنشد الفرّاء :

نَظَـــر آبنُ ســـعدٍ نظرةً وبَّتْ بها * كانت لِصُحْبِـــك والمطِىِّ خَبالَا

أى فساد . وآنتصب « خَبَالًا » بالمفعول الثانى؛ لأن الأَلْوَ يتعدّى إلى مفعولين، وإن شئت على المصدر، أى يخبلونكم خبالا : وإن شئت بنزع الخافض، أى بالخبال؛ كما قالوا : أوجعته ضربا : « وما » فى قوله : ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ مصدرية، أى وَدّوا عنتكم . أى ما يشق عليكم . والعنت المشقّة، وقد مضى فى « البقرة » معناه .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعنى ظهرت العـداوة والتكذيب لكم من أفواههم . والبغضاء : البغض، وهو ضدّ الحُبّ . والبغضاء مصدر مؤنث . وخصّ تعالى الأفواه بالذِّكر دون الألسنة إشارةً إلى تَشدُّقهم وثَرْثَرَتهم فى أقوالهم هذه، فهم

(١) فى ب و د و هـ : يعنى . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٢ . (٣) الذى فى ديوانه :
* إلا يدا ليست لها عضد * (٤) الوب : التهيؤ للحملة فى الحرب . (٥) راجع جـ ٣ ص ٦٦

فوق المتستر الذى تبدو البغضاء فى عينيه . ومن هذا المعنى نهيه عليه السلام أن يشتحى(١) الرجل فاه فى عِرض أخيه . معناه أن يفتح ؛ يقال : شحى الحمار فاه بالنهيق ، وشحى الفمُ نفسه . وشحى اللِّجامُ فمَ الفرس شَحْيًا ، وجاءت الخيل شَوَاحِىَ : فاتحاتٍ أفواهَها . ولا يفهم من هذا الحديث دليلُ خطاب على الجواز فيأخذ أحدٌ فى عِرض أخيه هَمْسًا ؛ فإن ذلك يحرمُ باتفاق من العلماء . وفى التنزيل « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا(٢) » الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : "إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" . فذِكر الشَّحْو إنما هو إشارة إلى التشدّق والانبساط ، فاعلم .

الخامســة — وفى هذه الآية دليل على أن شهادة العدوّ على عدوه لا تجوز ، و بذلك قال أهل المدينة وأهل الحجاز ؛ ورُوى عن أبى حنيفة جواز ذلك . وحكى ابن بَطّال عن ابن شعبان أنه قال : أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة العدوّ على عدوه فى شىء و إن كان عدلا ، والعداوة تزيل العدالة فكيف بعداوة كافر .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ إخبار و إعلام بأنهم يُبطنون من البغضاء أكثرَ مما يُظهِرون بأفواههم . وقرأ عبد الله بن مسعود : « قد بدأ البغضاءُ » بتذكير الفعل ؛ لما كانت البغضاء بمعنى البغض .

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين ؛ دليله قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا » ؛ قاله أبو العالية ومقاتل . والمحبة هنا بمعنى المصافاة ، أى أنتم أيها المسلمون تُصافونهم ولا يُصافونكم لنفاقهم . وقيل : المعنى تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر . وقيل : المراد اليهود ؛ قاله الأكثر . والكتاب اسم جنس ؛ قال ابن عباس : يعنى

(١) فى هـ ود : يشحى . وفى اللسان : شحا يشحو فاه فتحه ، وشحا يشحاه . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٣٤

بالكُتُب . واليهود يؤمنون بالبعض؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ »(١) . ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فيما بينهم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ يعنى أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ والحنق عليكم؛ فيقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هؤلاء ظهروا وكثروا . والعَضّ عبارة عن شدّة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه؛ ومنه قول أبى طالب :

* يَعُضُّونَ غَيْظًا خَلْفَنَا بِالْأَنَامِلِ *

وقال آخر :

إذا رَأَونى — أطال الله غيظَهُم * عَضُّوا من الغَيْظ أطْرافَ الأَبَاهِيمِ

يقال : عَضّ يَعُضّ عَضًّا وعَضِيضًا . والعُضُّ (بضم العين) : عَلَف دَوَابّ أهل الأمصار مثل الكُسْب والنَّوَى المَرْضُوخ؛ يقال منه : أعَضّ القوم، إذا أكلت إبلهم العض . وبعير عُضَاضِىٌّ، أى سمين كأنه منسوب إليه . والعِضّ (بالكسر) : الداهى من الرجال والبليغ المَكْر(٢) . وعَضّ الأنامل من فعل المُغْضَب الذى فاته ما لا يقدر عليه، أو نزل به ما لا يقدر على تغييره . وهذا العَضّ هو بالأسنان كعَضّ اليد على فائت(٣) قريب الفوات . وكقرع السِّن النادمة، إلى غير ذلك من عدّ الحصى والخَطّ فى الأرض للهموم . ويكتب هذا العض بالضاد الساقطة، وعَظّ الزمان بالظاء المشالة؛ كما قال :

وعَظُّ زمانٍ يا بن مَرْوان لم يَدَعْ * من المال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ(٤)

وواحد الأنامل أنملة (بضم الميم) ويقال بفتحها، والضمّ أشهر . وكان أبو الجَوْزَاء إذا تلا هذه الآية قال : هم الأباضِيَّة(٥) . قال ابن عطية : وهذه الصفة قد تترتب فى كثير من أهل البدع(٦) إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن قيل : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشىء : كن فيكون . قيل عنه جوابان : أحدهما — قال فيه الطبرىّ وكثير

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩   (٢) فى ب وهـ وجـ : المنكر .   (٣) فى ب ود وهـ : كعض اليد على اليد .

(٤) البيت للفرزدق . وفى النقائض : « وعض زمان » بالضاد وهذه الكلمة فى هذا المعنى تقال بالضاد وبالظاء كما فى القاموس . والمسحت : المستأصل . والمجلف : الذى بقيت منه بقية . ويروى : المجرف .   (٥) الأباضية بريئون من ذلك، وتفسير كلام الله ينزه عن مثل هذا التقوّل .   (٦) فى ب وهـ ود : فى أهل البدع من الناس .

من المفسرين : هو دعاء عليهم . أى قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا . فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مُواجهةً وغيرَ مواجهة بخلاف اللَّعْنَة .

الثانى — أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون ، فإن الموت دون ذلك . فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقى معنى التقريع والإغَاظَة . ويجرى[1] هذا المعنى مع قول مسافر ابن أبى عمرو :

ويتمنى[2] فى أُرُومتنا * ونَفْقَأُ عينَ من حسدا

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ[3] » .

قوله تعالى : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : « إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ » قرأ السُّلَمِىّ بالياء والباقون بالتاء . واللفظ عام فى كل ما يحسُن ويسوء . وما ذكره المفسرون من الخِصْب والجَدْب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلة وليس باختلاف . والمعنى فى الآية : أن من كانت هذه صفته من شدّة العداوة والحِقد والفرح بنزول الشدائد على[4] المؤمنين ، لم يكن أهلا لأن يتخذ بطانة ، لا سيما فى هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذى هو مِلاك الدنيا والآخرة ؛ ولقد أحسن القائل فى قوله :

كلّ العداوة قد تُرجَى إفاقتُها * إلّا عداوة مَن عاداك مِنْ حسدِ

﴿ وإنْ تَصْبِرُوا ﴾ أى على أذاهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين . ﴿ وَتَتَّقُوا لَا يَضُرْكُمْ[5] كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ يقال : ضاره يَضُوره ويَضِيره ضَيْرا وضَوْرًا ؛ فشرط تعالى نفى ضررهم بالصبر والتقوى ، فكان ذلك تسليةً للمؤمنين وتقويةً لنفوسهم .

(١) فى د : يجوز . (٢) فى ه : وتمنى ، وفى ابن عطية ونبى ، وفى الأغانى : وزمزم من أرومتنا .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢١ . (٤) فى دوب وه : بالمؤمنين . (٥) قراءة نافع .

قلت[١] — قرأ الحَرَميّان وأبو عمــرو « لَا يَضِرْكُمْ » من ضار يضير كما ذكرنا؛ ومنه قوله « لَا ضَيْرَ » ، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ لأنك لما حذفت الضمة من الراء بقيت الراء ساكنة والياء ساكنة فحذفت الياء ، وكانت أولى بالحذف ؛ لأن قبلها ما يدل عليها . وحكى الكسائيّ أنه سمــع « ضَارَه يَضُورُه » وأجاز « لا يَضُرْكُم » وزعم أن في قراءة أُبَيّ بن كعب « لا يَضْرُرْكُم »[٢] . [وقرأ الكوفيون : « لا يضرّكم » بضم الراء وتشديدها من ضَرّ يَضُرّ][٣] . ويجوز أن يكون مرفوعا على تقدير إضمار الفاء؛ والمعنى : فلا يضركم ، ومنه قول الشاعر[٤] :

* مَن يفعلِ الحسناتِ اللهُ يَشْكُرُها *

هذا قول الكسائي والفرّاء ، أو يكون مرفوعا على نية التقديم ؛ وأنشد سيبويه :

* إنك إن يُصرَعْ أخوك تُصْرَعُ[٥] *

أي لا يضرّكم أن تصبروا وتتقوا . ويجوز أن يكون مجزوما، وضمت الراء لالتقاء الساكنين على إتباع الضم . وكذلك قراءة من فتح الراء على أن الفعل مجزوم ، وفتح « يَضُرَّكم » لالتقاء الساكنين لخفّة الفتح ؛ رواه أبو زيد عن المفضّل عن عاصم ، حكاه المَهْدَوِيّ . وحكى النحاس : وزعم المفضل الضبيّ عن عاصم « لا يضُرِّكم » بكسر الراء لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ العامل في « إِذْ » فعل مضمر تقديره : واذكر إذ غدوت ، يعني خرجت بالصباح . ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ من منزلك من عند عائشة . ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ هذه غزوة أُحُد وفيها نزلت هذه الآية كلها . وقال مجاهد والحسن ومقاتل والكلبي : هي غزوة الخَنْدَق . وعن الحسن أيضا : يومَ بَدْرٍ . والجمهور على أنها غزوة أُحُد ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا » وهذا إنما كان يوم أُحُد، وكان المشركون قصدوا المدينة في ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا بثأرهم

(١) كذا في د ، وفي ب و ا : قراآت قرأ، وفي ز و جـ : قرأ . (٢) في د وهـ : يضور والتصحيح من البحر قال : بفك الإدغام وهي لغة أهل الحجاز . (٣) الزيادة من ب و د وهـ .
(٤) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه . وتمامه : * والشر بالشر عند الله سيان *
(٥) هذا عجز بيت لجرير بن عبد الله . وصدره : * يا أقرع بن حابس يا أقرع *

فى يوم بدر؛ فنزلوا عند أُحُد على شَفِير الوادى بقناةٍ مقابل المدينة، يوم الأربعاء الثانى عشر من شوّال سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أَحَد وثلاثين شهرا من الهجرة، فأقاموا هنالك يوم الخميس والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة؛ فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه أن فى سيفه ثُلْمَة، وأن بقرا له تُذبح، وأنه أدخل يده فى دِرع حصينة؛ فتأوّلها أن نفرا من أصحابه يُقتلون، وأن رجلاً من أهل بيته يصاب، وأن الدّرع الحصينة المدينة. أخرجه مسلم. فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الغزاة. وأصل التبوّء آتخاذ المنزل، بوّأته منزلا إذا أسكنته إياه؛ ومنه قوله عليه السلام: "من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار" أى ليتخذ فيها منزلا. فمعنى «تبوّئ المؤمنين» تَتخذ لهم مَصاف. وذكر البيهقى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رأيت فيما يرى النائم كأنى مردِف كبشا وكأن ضَبّة سيفى آنكسرت فأوّلت أنى أقتل كبش القوم وأوّلت كسر ضَبّة سيفى قتل رجل من عِترتى" فقُتل حمزة وقَتل رسول الله صلى الله عليه وسلم طلحةَ، وكان صاحب اللّواء. وذكر موسى بن عقبة عن آبن شهاب: وكان حامل لواء المهاجرين رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا عاصم إن شاء الله لما معى؛ فقال له طلحة بن عثمان أخو سعيد آبن عثمان اللخمىّ: هل لك يا عاصم فى المبارزة؟ قال نعم؛ فبدره ذلك الرجل فضرب بالسيف على رأس طلحة حتى وقع السيف فى لحيته فقتله؛ فكان قتل صاحب اللّواء(١) تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم "كأنى مردف كبشا".

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

العامل فى «إذ» «تبوّئ» أو «سميع عليم». والطائفتان: بنو سلِمة من الخزرج، و بنو حارثة من الأوس، وكانا جناحى العسكر يوم أُحُد. ومعنى ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أن تَجْبُنا. وفى البخارىّ عن جابر قال: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة و بنو سلِمة، وما نحب أنها لم تنزل؛ لقول الله عز وجل: «وَاللهُ وَلِيُّهُمَا». وقيل:

(١) فى ب و هـ و حـ و ز: صاحب لواء المشركين. ما أثبتناه من د.

هم بنو الحارث وبنــو الخزرج وبنو النبيت ، والنّبيت هو عمرو بن مالك من بنى الأوس .
والفشل عبارة عن الجبن؛ وكذلك هو فى اللغــة . والهَمّ من الطائفتين كان بعد الخروج لمـا رجع عبد الله بن أُبَىّ بمن معه من المنافقين لحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا؛ فذلك قوله تعالى : «وَاللهُ وَلِيُّهُمَا» يعنى حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهمّ . وقيل : أرادوا التقاعد عن الخروج، وكان ذلك صغيرة منهم . وقيل : كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم فأطلع الله نبيه عليه السلام عليــه فآزدادوا بصيرة؛ ولم يكن ذلك الخور(١) مكتسبا لهم فعصمهم الله ، وذمّ بعضهم بعضا، ونهضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أطلّ على المشركين، وكان خروجه من المدينة فى ألف ، فرجع عنه عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول بثلاثمائة رجل مغاضبا(٢)؛ إذ خولف رأيه حين أشار بالقعود والقتال فى المدينة إن نهض إليهم العــدو، وكان رأيه وافَقَ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى ذلك أكثر الأنصار ، وسيأتى .
ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فآستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة . قال مالك رحمه الله : قتل من المهاجرين يوم أُحُد أربعةٌ، ومن الأنصار سبعون رضى الله عنهم .
والمقاعِد : جمع مقعد وهو مكان القعود، [وهذا](٣) بمنزلة مَوَاقف، ولكن لفظ القعود دالّ على الثبوت؛ ولا سِيما أن الرماة كانوا قعودا . هذا معنى حديث غزاة أحد على الآختصار، وسيأتى من تفصيلها ما فيه شِفاء . وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد، ولم يكن مع المسلمين يومئذ فرس . وفيها جُرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه وكُسرت رَباعِيته اليمنى السفلى بحجر وهُشِمت البَيْضَةُ(٤) من على رأسه صلى الله عليه وسلم ، وجزاه عن أمّته ودِينه بأفضل ما جزى به نبيًّا من أنبيائه على صبره . وكان الذى تَوَلّى ذلك من النبي صلى الله عليــه وسلم عمرو بن قَمِيئَة الليثى ، وعُتبــة بن أبى وَقّاص . وقد قيل : إن عبد الله بن شِهاب جدّ الفقيه محمــد بن مسلم بن شهاب هو الذى شَجّ رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى جبهته . قال الواقِدى : والثابتُ(٥) عندنا أن الذى رمى فى وجهِ(٦) النبي صلى الله عليــه وسلم آبن قميئة ، والذى

(١) كذا فى د وز وب . (٢) كذا فى د وب وه وج . (٣) من د وب وه .
(٤) البيضة : الخوذة ، وهى زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، وفى ب ود وه : هشمت البيضة رأسه . (٥) فى ب ود وه : الثبت . (٦) فى د وه وب : وجنتى النبي .

أدمى[1] شفته وأصاب رباعيته عُتبةُ بن أبي وَقّاص . قال الواقديّ بإسناده عن نافع بن جبير قال : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أُحُدا فنظرت إلى النبل تأتى من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل [ذلك[1]] يصرف عنه . ولقد رأيت عبد الله آبن شِهاب الزّهْرِيّ يقول يومئذ : دُلّونى على محمد دلونى على محمد، فلا نجوت إن نجا . [وإنّ[2]] رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه، فعاتبه فى ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته ، أحلِف بالله إنه مِنّا ممنوعٌ! خرجنا أربعةً فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله [فلم نخلص إلى ذلك[2]] . وأكبّت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط فى حفرة، كان أبو عامر الرّاهب قد حفرها مكيدة للمسلمين، فخرّ عليه السلام على جنبه وآحتضنه طلحة حتى قام ، ومَصّ مالك بن سِنان والد أبى سعيد الخدرِيّ من جُرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الدّم، وتشبّثت[3] حلقتان من دِرع المِغْفَر فى وجهه صلى الله عليه وسلم فآنتزعهما أبو عبيدة بن الجرّاح وعَضّ عليهما بِثَنِيتيه فسقطتا؛ فكان أهْتَم يزينه هَتَمُه رضى الله عنه . وفى هذه الغزاة قُتل حمزةُ رضى الله عنه ، قتله وحشِى ، وكان وَحْشِيّ مملوكا لجبير بن مُطْعِم . وقد كان جبير قال له : إن قتلت محمدا جعلنا لك أعِنّة الخيل، وإن أنت قتلت علىّ بن أبى طالب جعلنا لك مائة ناقة كلُّها سُود الحَدَق ، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حُرٌّ . فقال وحشِيّ : أما محمد فعليه حافظٌ من الله لا يخلُص إليه أحدٌ . وأما علىّ ما برز إليه أحد إلّا قتله . وأما حمزة فرجل شجاع ، وعسى أن أصادفه فأقتله . وكانت هِنْد كلما تهيّأ وَحْشِيٌّ أو مرّت به قالت : إيهًا أبا دَسْمَة آشفِ وآستشفِ . فكَمَن له خلف صَخْرة ، وكان حمزة حمل على القوم من المشركين؛ فلما رجع من حملته ومرّ بوحشِيّ زَرَقه بالمِزْرَاق فأصابه فسقط ميّتا[4] ، رحمه الله ورضى عنه . قال آبن إسحاق : فبقرت هِنْدٌ عن كبد حمزة فلاكتها ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها ثم علت على صخرة مُشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحنُ جَزَيْنـاكم بيَوْم بَدْر　*　والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعُرِ
ما كان عن عُتْبَة لى من صَبْرِ　*　ولا أخى وعَمّه وبَكْرى

---

(١) فى ب ود وه : رمى .
(٢) زيادة عن مغازى الواقدى .
(٣) فى د : تشبت ، وفى ه : نشبت .
(٤) كذا فى د ، وفى ب وه وح : فسقط منها .

شَفَيْتُ نفسي وقضَيْتُ نَذْرِى * شفيتَ وَحْشِيُّ غَلِيلَ صَدْرِى
فشكْرُ وحْشِى علىّ عُمْرِى * حتى تَرِمّ أعظُمِى فى قَبْرِى

فأجابتها هِنْدُ بنت أُثَاثة بن عبّاد بن عبد المطلب فقالت :

خَزِيتِ فى بدْرٍ وبعد بدر * يا بنت وَقّاعٍ عظيم الكُفْرِ
صبّحكِ اللهُ غَداةَ الفجرِ * مِلْهاشِمِيِّين الطِّوال الزُّهْرِ
بكل قَطّاعٍ حُسامٍ يَفْرِى * حمزةُ لَيْثِى وعلىٌّ صَقْرِى
إذ رَامَ شَيْبُ(١) وأبوكِ غَدْرِى * فخَضَّبَا(٢) منه ضَوَاحِى النَّحْرِ
* ونَذْرِكِ السُّوءَ فشرّ نَذْرِ *

وقال عبد الله بن رواحة يبكى حمزة رضى الله عنه :

بكت عينى وحق لها بُكاها * وما يغنى البكاء ولا العَوِيل
على أسَدِ الإله غَداة قالوا * أحَمْزَةُ ذاكم الرّجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعا * هناك ، وقد أصيب به الرّسول
أبا يَعْلَى لك الأركان هُدّت * وأنت الماجد البرّ الوَصُول
عليك سلام ربك فى جِنانٍ * مخالِطها نعيم لا يزول
ألا يا هاشم الأخيارِ صبرا * فكل فعالِكم حسن جميل
رسول الله مصطبِر كريم * بأمر الله ينطق إذ يقول
ألا من مُبْلِغ عنى لُؤَيًّا * فبعد اليومِ دائلةٌ تَدُول
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا * وقائِعنا بها يُشْفَى الغَلِيل
نَسِيتُم ضربَنا بِقَلِيبِ(٣) بَدْرٍ * غداةَ أتاكم الموتُ العَجِيل
غَداةَ ثَوَى أبو جهل صريعًا * عليه الطَّيْرُ حَائِمَةٌ تَجُول
وعُتْبَةُ وابْنُه خَرّا جميعا * وشَيْبَةُ عضّه السيفُ الصَّقِيل

(١) أرادت شيبة بن ربيعة أخا عتبة بن ربيعة أبا هند . وقد رخم هنا فى غير النداء لضرورة الشعر .
(٢) فى د : مخضبا . (٣) القليب (بفتح أوّله وكسر ثانيه) : البئر العادية القديمة التى لا يعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى ، يذكر ويؤنث .

ومـتركا أميـة مجلعبا (١) * وفى حيزومه (٢) لدن نبيـل
وهام بني ربيعـة سائلوها * ففى أسـيافنا منهـا فلول
الا يا هند لا تبـدى شماتا * بحمزة إن عزكم ذليـل
ألا يا هنـد فابكى لا تملى * فأنت الواله العبرى الهبول (٣)

ورثته أيضا أخته صفية، وذلك مذكور فى السيرة، رضى الله عنهم أجمعين .

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهى بيان التوكل . والتوكل فى اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير (٤) . وواكل فلان إذا ضيع أمره متكلا على غيره .

واختلف العلماء فى حقيقة التوكل؛ فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال : قالت فرقة الرضا بالضمان، وقطع الطمع من المخلوقين . وقال قوم : التوكل ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب؛ فإذا شغله السبب عن المسبب زال عنه اسم التوكل . قال سهل : من قال إن التوكل يكون بترك السبب فقد طعن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل يقول : «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» (٥) فالغنيمة اكتساب . وقال تعالى : «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» (٦) فهذا عمل . وقال النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله يحب العبد المحترف" . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرضون على السرية (٧) . وقال غيره : وهذا قول عامة الفقهاء، وأن التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة . وإلى هذا ذهب محققو الصوفية، لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب؛ فإنها لاتجلب نفعا ولا تدفع ضرا، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكل منه وبمشيئته؛ ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسـباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم . ثم المتوكلون على

(١) المجلعب : المصروع إما ميتا وإما صرعا شديدا . (٢) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام . واللدن : الرمح . (٣) الهبول من النساء : الثكول . (٤) فى ب و د : غيرك وفى هـ : غيره . (٥) راجع جـ ٨ ص ٥١ (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٧٧ (٧) السرية : طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة؛ سموا بذلك لأنهم تكون من خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السرى : النفيس .

حالين : الأوّل — حال المتمكّن فى التوكُّل فلا يلتفت إلى شىء من تلك الأسـباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر . الثانى — حال غير المتمكّن وهو الذى يقع له الآلتفات إلى تلك الأسـباب أحيانا غير أنه يدفعها عن نفسـه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحالية ؛ فلا يزال كذلك إلى أن يُرَقّيه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين ، ويلحقه بدرجات العارفين .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ ﴾ كانت بدر يوم سـبعة عشر من رمضان ، يوم جمعة لثمـانية عشر شهـرا من الهجرة ، وبدر ماءٌ هنالك وبه سمى الموضـع . وقال الشـعبىّ : كان ذلك المـاء لرجل من جُهَينة يسـمى بدرا ، وبه سمى الموضـع . والأول أكثر . وقال الواقِدى وغيره : بدر آسم لموضع غير منقول . وسـيأتى فى قِصة بدرٍ فى « الأنفال »(١) إن شاء الله تعـالى . و ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ معناها قليلون ؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثمـائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا . وكان عدوّهم ما بين التسعمائة إلى الألف . و « أذلة » جمع ذليل . وآسم الذل فى هذا الموضع مستعار ، ولم يكونوا فى أنفسهم إلّا أعِزّة ، ولكن نسبتهم إلى عدوّهم وإلى جميع الكفار فى أقطار الأرض تقتضى عند التأمل ذِلّتهم وأنهم يُغلبون . والنصر العون ؛ فنصرهم الله يوم بَدْرٍ ، وقتل فيه صناديد المشركين ، وعلى ذلك اليوم آبتُنِى(٢) الإسلام ، وكان أوّل قتال قاتله النبى صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن بُرَيدة قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة ، قاتل فى ثمـان منهنّ . وفيه عن آبن إسحاق قال : لقيت

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٧٠ فما بعد . (٢) فى ب ، ود : آبتنى .

زيد بن أرقم فقلت له : كم غزا رسـول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال تسـع عشرة غزوة . فقلت : فكم غزوتَ أنت معه ؟ فقال : سبع عشرة غزوة . قال فقلت : فما أول غزوة غزاها؟ قال : ذات العُسَير أو العشير . وهذا كله مخالف لما عليه أهل التواريخ والسير. قال محمد بن سعد فى كتاب الطبقات له : إن غزواتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون غزوة، وسراياه ست وخمسون، وفى رواية ست وأربعون(١)، والتى قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بَدْر وأُحُد والمُرَيْسِيع والخَنْدَق وخَيْبَر وقُرَيْظَة والفتْح وحُنَيْن والطائف. قال ٱبن سعد : هـذا الذى ٱجتمع لنا عليه . وفى بعض الروايات أنه قاتل فى بنى النضـير وفى وادى القرى مُنصرفه من خَيْبَر وفى الغَابَة(٢) . وإذا تقرّر هـذا فنقول : زيد وبُريدة إنما أخبر كل واحد منهما بما فى علمه أو شاهده . وقول زيد : « إن أول غزاة غزاها ذات العسيرة » مخالف أيضا لما قال أهل التواريخ والسير . قال محمد بن سـعد : كان قبل غزوة العشيرة ثلاث غزوات ، يعنى غزاها بنفسه . وقال ٱبن عبد البر فى كتاب الدرر فى المغازى والسير. أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسـلم غزوة وَدّان(٣) غزاها بنفسه فى صَفَر ؛ وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل، أقام بها بقيةَ ربيع الأوّل، وباقى العام كله إلى صفر من سنة ٱثنتين من الهجرة : ثم خرج فى صفر المذكور وٱستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ وَدّان فوادع(٤) بنى ضَمْرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حَرْبا ، وهى المسماة بغزوة الأَبْوَاء . ثم أقام بالمدينة إلى [شهر] ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خرج فيها وٱستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بَوَاط(٥) من ناحية رَضْوَى(٦)، ثم رجع إلى المدينة

---

(١) الذى فى كتاب الطبقات لابن سعد : « وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وأربعين سرية » .

(٢) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام . (٣) ودان (بفتح الواو وشدّ المهملة) : قرية جامعة من أمهات القرى من عمل الفرع . وقيل : واد فى الطريق يقطعه المصعدون من حجاج المدينة . (عن شرح المواهب) .

(٤) الموادعة : المصالحة . (٥) بواط (بفتح الموحدة وقد تضم وتخفيف الواو وآخره طاء مهملة) : جبل من جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة . (٦) رضوى (بفتح الراء وسكون المعجمة مقصور) : جبل بالمدينة ، وهو على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة .

ولم يلق حربا، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى، ثم خرج غازيا وآستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وأخذ على طريق مِلْكٍ(١) إلى العُسَيْرة .

قلت : ذكرآبن إسحاق عن عمار بن ياسر قال : كنت أنا وعليّ بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العشيرة من بطن يَنْبُع فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهرا فصالح بها بنى مُدْلِج وحلفاءَهم من بنى ضَمْرة فوادعهم؛ فقال لى على بن أبى طالب : هل لك أبا اليقظان أن تأتى هؤلاء ؟ نفر من بنى مُدْلج يعملون فى عين لهم ننظر كيف يعملون . فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة ثم غشِينا النوم فعمدنا إلى صور(٢) من النخل فى دَقْعاء من الأرض فَنِمْنا فيه؛ فوالله ما أهبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدمه؛ فجلسنا وقد تتربنا من تلك الدقعاء فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : "ما بالك يا أبا تراب"؛ فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال : "ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين" قلنا : بلى يارسول الله؛ فقال : "أُحَيْمِر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا علىّ على هذه — ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسه — حتى يَبُلّ منها هذه" ووضع يده على لحيته . فقال أبو عمر : فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مُدْلِج ثم رجع ولم يلق حربًا . ثم كانت بعد ذلك غزوة بدرٍ الأولى بأيام قلائل ، هذا الذى لا يشك فيه أهل التواريخ والسير، فزيد بن أرقم إنما أخبر عما عنده . والله أعلم . ويقال : ذات العسير بالسين والشين، ويزاد عليها هاء فيقال: العشيرة. ثم غزوة بدر الكبرى وهى أعظم المشاهد فضلا لمن شهدها، وفيها أمدّ الله بملائكته نبيه والمؤمنين فى قول جماعة العلماء ، وعليه يدل ظاهر الآية ، لا فى يوم أُحُد . ومن قال : إن ذلك كان يوم أُحُد جعل قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ » إلى قوله : «تَشْكُرُونَ» آعتراضا بين الكلامين . هـذا قول عامر الشعبيّ ، وخالفه النـاس . وتظاهرت الروايات بأنّ الملائكة حضرت يوم بَدر وقاتلت؛ ومن ذلك قول أبِى أُسَيد مالكِ بنِ ربيعة وكان شهيد

---

(١) ملك (بالكسر ثم السكون والكاف) : واد بمكة .

(٢) الصور : جماعة النخل الصغار؛ لا واحد له من لفظه . الدقعاء : التراب .

بدر : لو كنتُ معكم الآن ببَدْر ومعي بصري لأريتكم الشِّعْب(١) الذى خرجتْ منه الملائكةُ ، لا أشك ولا أمترِي . رواه عقيل عن الزُّهرِىّ عن أبى حازم سلمَة بن دينار . قال ٱبن أبى حاتم : لا يُعرف للزّهرىّ عن أبى حازم غيرُ هذا الحديث الواحد ، وأبو أُسَيد يقال إنه آخر من مات من أهل بدر ؛ ذكره أبو عمر فى الٱستيعاب وغيره . وفى صحيح مسلم من حديث عمر ٱبن الخطاب قال : لما كان يومُ بَدْر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ ، وأصحابه ثلاثُمائةٍ وتسعة عشر رجلا ، فٱستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مدّ يدَيْه فجعل يَهْتِف بربِّه : "اللّهم أنجِز لِي ما وَعَدْتَنِي اللّهم آتِ ما وعدْتَنِي اللّهم إن تَهْلِك هذه العِصَابَةُ من أهل الإسلام لا تُعْبَدُ فى الأَرض" فما زال يَهْتِف بربه مادّا يديْه مُستقبلَ القِبلة حتى سقط رداؤُه عن مَنْكِبَيْه ، فأتاه أبو بكر فأخذَ رداءَه فألقاه على مَنْكِبَيْه ، ثم ٱلْتزمه من وَرائه وقال : يا نبيّ الله ، كفاك مناشَدَتُك ربَّك ، فإنه سيُنْجِزُ لك ما وَعَدَك ؛ فأنزل الله عز وجل : «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(٢)» فأمدّه الله تعالى بالملائكة . قال أبو زُمَيْل(٣) : فحدّثنى ٱبن عباس قال : بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يَشْتَدّ فى أثر رجل من المشركين أمامَه إذ سمع ضربةً بالسَّوْط فوقَه وصوتَ الفارس يقول : أَقْدِمْ حَيْزُومُ(٤) ؛ فنظر إلى المشرِك أمامه نَخَرّ مستلقيًا ، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفُه وشُقّ وجهُه [كضربة السوط(٥)] فٱخْضَرّ ذلك أجْمَعُ . فجاء الأنصارىّ فحدّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "صدقتَ ذلك من مَدَد السَّماء الثالثة" فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر الحديث . وسيأتى تمامُه فى آخر «الأنفال(٦)» إن شاء الله تعالى . فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور ، والحمد لله . وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجِبْرِيل : "مَنِ القائلُ يوم بدر من الملائكة أقدِم حَيْزُوم"؟ فقال جبريل : "يا محمد ما كل أهل السماء أعرف" . وعن علىّ رضى الله عنه أنه خطب الناس فقال : بينا أنا أَمْتَح(٧) من قَلِيب بَدْر جاءت ريحٌ شديدة لم أر مثلها قَطّ ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التى كانت

(١) الشعب (بالكسر) : الطريق فى الجبل . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧٠ (٣) أبو زميل (بالتصغير) هو سماك بن الوليد . (تهذيب التهذيب) . (٤) حيزوم : ٱسم فرس من خيل الملائكة . (٥) زيادة عن صحيح مسلم ، وٱخضر : ٱسود . (٦) جـ ٨ ص ٤٨ (٧) متح : جذب الدلو من البئر مستقيا ، والماتح : المستقى .

قبلها . قال : وأظنه ذكر : ثم جاءت ريح شديدة، فكانت الرّيح الأولى جبريل نزل فى ألف من الملائكة مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الريح الثانية مِيكَائيل نزل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة إسْرافيل نزل فى ألف من الملائكة عن مَيْسَرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى الميسرة . وعن سَهل بن حُنَيف رضى الله عنه قال : لقد رأيتُنا يوم بدْر وأنّ أحدَنا يُشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يَصل إليه . وعن الرّبيع بن أنس قال : كان الناس يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة ممّن قتلوهم بضربٍ فوقَ الأعناق وعلى البنَان مثل سِمَة النـار قد أُحرِق به؛ ذكر جميعه البَيْهَقِيّ رحمه الله . وقال بعضهم : إن الملائكة كانوا يقاتلون وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة؛ لأن كلّ موضع أصابتْ ضربتهم ٱشتعلت النار فى ذلك الموضع، حتى إن أبا جهل قال لٱبن مسعود : أنت قتلتَنِي؟ ! إنمـا قتلنى الذى لم يصل سِنَانى إلى سُنْبُك فرسه[(1)] و إن ٱجتهدتَ . و إنمـا كانت الفائدة فى كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين؛ ولأنّ الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة؛ فكل عسكر صَبَر وٱحتسب تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم . وقال ٱبن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكةُ إلا يوم بَدْر، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنمـا يكونون عددا أو مددا . وقال بعضهم : إنمـا كانت الفائدة فى كثرة الملائكة أنهم كانوا يَدْعُون ويسبّحون، ويكثّرون[(2)] الذين يقاتلون يومئذ؛ فعلى هذا لم تقاتل الملائكةُ يوم بدر وإنما حضروا للدعاء بالتثبيت[(3)]، والأول أكثر . قال قتادة : كان هذا يوم بدر، أمدّهم الله بألف ثم صـاروا ثلاثةَ آلاف، ثم صاروا خمسـة آلاف؛ فذلك قوله تعـالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِـدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَـلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ[(4)] » وقوله : « أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ » وقوله : « بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » فصبر المؤمنون يوم بَدْر وٱتقوا الله فأمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وَعَدَهم؛ فهذا كله يوم بدر . وقال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف رِدْءٌ[(5)] للمؤمنين إلى يوم القيامة . قال الشعبيّ : بلغ النبيّ

(1) فى د : قدميه . وسنبك الدابة طرف حافرها . (2) فى د وهـ وب : والثواب للذين يقاتلون ...
(3) فى هـ ود : إلا يوم بدر . (4) راجع جـ ٧ ص ٣٧٠ . (5) الردء : العون والناصر .

صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كُرْز بن جابر المُحارِبيّ يريد أن يمدّ المشركين فشق ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ — إلى قوله : مُسَوِّمِينَ ﴾ فبلغ كُرْزا الهزيمةُ فلم يُمدّهم ورجع ، فلم يمدهم الله أيضا بالخمسة آلاف ، وكانوا قد (١) مدّوا بألف . وقيل : إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته ، واتقوا محارمه أن يمدّهم أيضا فى حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا محارمه إلا فى يوم الأحزاب ، فأمدّهم حين حاصروا قُرَيْظة . وقيل : إنما كان هذا يوم أُحُد ، وعدهم الله المدد إن صبروا ، فما صبروا فلم يُمدّهم بملَك واحد ، ولو أُمِدّوا لما هُزِموا ؛ قاله عكرمة والضحاك . فإن قيل : فقد ثبت عن سعد بن أبى وقّاص أنه قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يومَ بدْر (٢) رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشدّ القتال ، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ . قيل له : لعل هذا مختص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، خصّه بملكين يقاتلان عنه ، ولا يكون هذا إمدادا للصحابة . والله أعلم .

الثانية — نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوق فلْيَعْلَق القلب بالله ولْيَثِق به ، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ؛ « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٣) . لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التى قد خلت من قبل ، « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا » (٤) ، ولا يَقْدَح ذلك فى التوكّل . وهو ردّ على من قال : إن الأسباب إنما سُنّت فى حق الضعفاء لا للأقوياء ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء ؛ وهذا واضح . و « مدّ » فى الشر و « أمدّ » فى الخير . وقد تقدّم فى البقرة (٥) . وقرأ أبو حَيْوة « مُنْزِلِينَ » بكسر الزاى مخففا ، يعنى منزلين النصرَ . وقرأ ابن عامر مشدّدة الزاى مفتوحة على التكثير . ثم قال : ﴿ بَلَى ﴾ وتمّ الكلام . ﴿ إِنْ تَصْبِرُوا ﴾ شرط ، أى على لقاء العدو . ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ عطف عليه ، أى معصيته . والجواب ﴿ يُمْدِدْكُمْ ﴾ . ومعنى « مِنْ فَوْرِهِمْ » من وجههم . هذا عن عكرمة وقتادة والحسن

(١) فى جـ و ا : فأمدهم . والمثبت هو ما فى باقى الأصول وهو التحقيق قال الألوسى : ولم يمدوا بها بناء على تعليق الإمداد بها بمجموع الأمور الثلاثة الخ . (٢) فى ب و هـ : يوم أحد .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٦٠ (٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ (٥) راجع جـ ١ ص ٢٠٩

والربيع والسدى وآبنِ زيد . وقيل : مِن غَضَبِهم؛ عن مجاهد والضحاك . كانوا قد غضبوا يوم أُحُد ليوم بَدْر مما لَقُوا . وأصل الفَوْر القصد إلى الشيء والأخذ فيه بِجِدّ؛ وهو من قولهم : فارتِ القِدْر تَفُور فَوْرًا وفَوَرَانا إذا غَلَت . والفَوْر الغَلَيَان . وفارَ غضبه إذا جاش . وفعله من فَوْره أى قبل أن يسْكُن . والفوّارة ما يَفُور من القِدر . وفى التنزيل « وفَارَ التَّنُّورُ »[1] . قال الشاعر :

* تَفُورُ علينا قِدْرُهُم فنُدِيمُها *

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مُسَوَّمِينَ ﴾ بفتح الواو آسم مفعول ، وهى قراءة آبن عامر وحمزة والكسائى ونافع . أى معلّمين بعلامات . و« مُسَوِّمين » بكسر الواو آسم فاعل ، وهى قراءة أبى عمرو وآبن كثير وعاصم ؛ فيحتمل من المعنى ما تقدّم ؛ أى قد أعلموا أنفسهم بعلامة ، وأعلموا خَيْلَهم . ورجّح الطبرىّ وغيره هذه القراءة . وقال كثير من المفسرين : مُسَوِّمين أى مُرسِلين خيلهم فى الغارة . وذكر المهدوىّ هذا المعنى فى « مُسَوَّمِينَ » بفتح الواو ، أى أرسلهم الله تعالى على الكفار . وقاله آبن فُورَك أيضا . وعلى القراءة الأولى آختلفوا فى سِيما الملائكة ؛ فرُوِى عن على بن أبى طالب وآبن عباس وغيرِهما أن الملائكة آعتمّت بعمائم بِيض قد أرسلوها بين أكتافهم؛ ذكره البيهقِىّ عن آبن عباس ، وحكاه المهدوِىّ عن الزجاج . إلا جبريل فإنه كان بعمامة صَفْراء على مِثال الزبير بن العوام ، وقاله آبن إسحاق . وقال الربيع : كانت سِيماهم أنهم كانوا على خَيْل بُلْق .

قلت : ذكر البيهقِىّ عن سهيل بن عمرو رضى الله عنه قال : لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضا على خيلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض معلَّمين يقتلون ويأسرون . فقوله : « معلمين » دل على أن الخيل البُلْق ليست السيما . والله أعلم . وقال مجاهد : كانت خيلهم مَجْزُوزة الأذناب والأعْرَاف معلَّمة النَوَاصِي والأذناب بالصّوف والعِهْن[2] . وروى عن آبن عباس : تسوّمت الملائكة يوم بدر بالصّوف الأبيض فى نَوَاصى الخيل وأذنابها . وقال عبّاد بن عبد الله بن الزبير وهِشام بن عُروة والكلبى : نزلت الملائكة فى سِيما الزُّبير عليهم عمائم صُفْر مُرْخَاة على أكتافهم . وقال ذلك عبد الله وعروة آبنا الزبير . وقال عبد الله : كانت ملاءة صفراء آعتمّ بها الزبير رضى الله عنه .

قلت : ودلت الآية —

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣ (٢) العهن : الصوف المصبوغ ألوانا .

وهى الرابعة — على اتخاذ [الشارة و](١) العلامة للقبائل والكتائب يجعلها السلطان لهم؛ لتتميز كل قبيلة وكتيبة من غيرها عند الحرب، وعلى فضل الخيل البُلْق لنزول الملائكة عليها .

قلت : — ولعلها نزلت عليها موافقة لفرس المِقْداد ، فإنه كان أبلق ولم يكن لهم فرس غيره، فنزلت الملائكة على الخيل البُلْق إكراما للمقداد ؛ كما نزل جبريل مُعْتَجِرا(٢) بعمامة صفراء على مِثال الزبير . والله أعلم . ودلت الآية أيضا —

وهى الخامسة — على لِباس الصُّوف وقد لَبِسه الأنبياء والصالحون . وروى أبو داود وابن ماجه واللفظ له عن أبى بُرْدة عن أبيه قال قال لى أبى : لو شهدتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء لحسبت أن رِيحنا ريح الضّأن . ولبس صلى الله عليه وسلم جُبّة رُومية من صوف ضَيِّقة الكُمّين ؛ رواه الأئمة . ولبسها يُونُس عليه السلام ؛ رواه مسلم . وسيأتى لهذا المعنى مزيد بيان فى « النحل »(٣) إن شاء الله تعالى .

السادسة — قلت : وأما ما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت مَجْزوزة الأذناب والأَعْراف فبعيدٌ؛ فإن فى مصنف أبى داود عن عُتْبة بن عبد السُّلَمى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تَقُصّوا نواصى الخيل ولا معارفها ولا أذنابها فإن أذنابها مَذَابُّها ومعارفها دفاؤها ونواصيها معقود فيها الخير " . فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة . والله أعلم .

ودلّت الآية على حُسْن الأبيض والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك ، وقد قال ابن عباس : من لبس نَعلا أصْفَر قضيت حاجته . وقال عليه السلام : " اِلْبَسوا من ثيابكم البياض فإنه من خير ثيابكم وكفّنوا فيه موتاكم وأما العمائم فتيجان العرب ولباسها " . وروى رُكَانة — وكان صارع النبىّ صلى الله عليه وسلم فصرعه النبىّ صلى الله عليه وسلم — قال رُكَانة : وسمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " فرق ما بيننا و بين المشركين العمائم على القلانس " أخرجه أبو داود . قال البخارى(٤) : إسناده مجهول لا يعرف سماع بعضه من بعض .

---

(١) من د وفى هـ : الإشارة، والشارة : الهيئة .	(٢) الاعتجار بالعمامة : هو أن يلفها على رأسه و يرد طرفها على وجه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه ، وفى ب : معتما .	(٣) جـ ١٠ ص ١٥٤
(٤) كذا فى د و هـ و ب . وفى ا و حـ : النحاس .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ﴾ الهاء للمَدَد ، وهو الملائكة أو الوعد أو الإمداد ، ويدل عليه «يُمْدِدْكُمْ» أو للتسويم أو للإنزال أو العَدَد على المعنى؛ لأن خمسة آلاف عددٌ . ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ اللام لام كى، أى ولتطمئن قلوبكم به جعله؛ كقوله : «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا»(١) أى وحفظا لها جعل ذلك . ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ يعنى نصر المؤمنين، ولا يدخل فى ذلك نصر الكافرين؛ لأن ماوقع لهم من غلبة إنما هو إملاءٌ محفوفٌ بخِذلانٍ وسوءِ عاقبة وخسرانٍ . ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بالقتل . ونظم الآية : ولقد نصركم الله ببدر ليقطع . وقيل : المعنى وما النصر إلا من عند الله ليقطع . ويجوز أن يكون متعلقا بـ«يُمْدِدْكُمْ» ، أى يمددكم لِيقطع . والمعنى : من قُتِل من المشركين يوم بَدْر؛ عن الحسن وغيره . السدى : يعنى به من قُتِل من المشركين يوم أُحُد وكانوا ثمانية عشر رجلا . ومعنى ﴿ يَكْبِتَهُمْ ﴾ يحزنهم؛ والمكْبُوت المحزون . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبى طلحة فرأى ابنه مَكْبُوتا فقال : " ما شأنه "؟ . فقيل : مات بعيره . وأصله فيما ذكر بعض أهل اللغة « يكبِدهم » أى يصيبهم بالحزن والغيظ فى أكبادهم، فأبدلت الدال تاء، كما قلبت فى سَبَتَ رأسه وسبده أى حلقه . كبت الله العدوّ كَبْتا إذا صرفه(٢) وأذلّه، وكبَدَه أصابه فى كبِدَه؛ يقال : قد أحرق الحزن كبده، وأحرقت العداوة كبِدَه . وتقول العرب للعدوّ : أسْوَد الكَبِد؛ قال الأعشى :

فما أَجْشَمتِ(٣) من إتْيَانِ قَوْمٍ * هُمُ الأعْداءُ والأكْبادُ سُودُ

كأن الأكباد لما احترقت بشدّة العداوة اسودت . وقرأ أبو مِجْلَز « أو يكبِدهم » بالدال . والخائِبُ : المنقطعُ الأمَل . خاب يخِيب إذا لم ينل ما طلب . والخيّاب : القِدْح لا يُورِى .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٥ (٢) فى ب : أى صرفه . (٣) أجشمت : كلفت على مشقة .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كُسِرت رَباعيته يوم أُحُد ، وشُجّ فى رأسه ، فجعل يَسْلُت الدمَ عنه ويقول : "كيف يُفلح قوم شجّوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى". فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. الضحاك : همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ على المشركين فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . وقيل : آستأذن فى أن يدعو فى آستئصالهم ، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيُسلِم وقد آمن كثير منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم . وروى الترمذى عن آبن عمر قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر فأنزل الله عز وجل « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » فهداهم الله للإسلام . وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هو معطوف على « لِيَقْطَعَ طَرَفًا » . والمعنى : ليقتل طائفة منهم، أو يخزيهم بالهزيمة أو يتوب عليهم أو يعذبهم . وقد تكون « أو » هاهنا بمعنى « حتى » و « إلا أن » . قال آمرؤ القيس :

* ... أو نَموتَ فنُعْذَرَا *

قال علماؤنا : قوله عليه السلام : "كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم" آستبعاد لتوفيق مَن فَعل ذلك به . وقوله تعالى : «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» تقريب لما آستبعده وإطماع فى إسلامهم، ولما أُطمع فى ذلك قال صلى الله عليه وسلم : "اللّهم آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" كما فى صحيح مسلم عن آبن مسعود قال : كأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : "رب آغفر لقومى فإنهم

لا يعلمون". قال علماؤنا: فالحاكى فى حديث ٱبن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو المحكى عنه؛ بدليل ما قد جاء صريحا مبيّنا أنه عليه الصلاة والسلام لما كُسرت رَباعيته وشُجّ وجهه يوم أُحُد شقّ ذلك على أصحابه شقّا شديدا وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: "إنى لم أبعث لعّانا ولكنى بعثت داعيا ورحمة، اللّهم ٱغفر لقومى فإنهم لا يعلمون". فكأنه عليه السلام أوحى إليه بذلك قبل وقوع قضية أُحُد، ولم يعيّن له ذلك النبيّ؛ فلما وقع له ذلك تعيّن أنه المعنىّ بذلك بدليل ما ذكرنا. ويُبيّنه أيضا ما قاله عمر له فى بعض كلامه: بأبى أنت وأمى يارسول الله! لقد دعا نوح على قومه فقال: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا»(١) الآية. ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا؛ فقد وُطِئ ظهرك وأُدمى وجهك وكُسرت رَبَاعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت: "رب ٱغفر لقومى فإنهم لا يعلمون". وقوله: "ٱشتد غضب الله على قوم كسروا رَباعية نبيهم" يعنى بذلك المباشرَ لذلك، وقد ذكرنا ٱسمه على ٱختلاف فى ذلك، وإنما قلنا إنه خصوص فى المباشر؛ لأنه قد أسلم جماعة ممن شهد أُحُدا وحسن إسلامهم.

الثانيـــة — زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للقُنُوت الذى كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع فى الركعة الأخيرة من الصبح، وٱحتج بحديث ٱبن عمر أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول فى صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال: "اللّهم ربنا ولك الحمد فى الآخرة — ثم قال — اللّهم ٱلعن فلانا وفلانا" فأنزل الله عز وجل «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ» الآية. أخرجه البخارىّ، وأخرجه مسلم أيضا من حديث أبى هريرة أتمّ منه. وليس هذا موضع نسخ وإنما نبّه الله تعالى نبيه على أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئا إلا ما أعلمه، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويعجل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شيء ولله ما فى السموات وما فى الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء. فلا نسخ، والله أعلم. وبيّن بقوله: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ»(٢) أن الأمور بقضاء الله وقدره ردّا على القدرية وغيرهم.

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢ (٢) فى نسخة: هـ و ب و د، وفى غيرها: الأمر.

الثالثة — واختلف العلماء فى القُنُوت فى صلاة الفجر وغيرها ؛ فمنع الكوفيون منه فى الفجر وغيرها . وهو مذهب الليث ويحيى بن يحيى الليثى الأندلسى صاحب مالك ، وأنكره الشعبى . وفى الموطأ عن ابن عمر : أنه كان لا يَقْنُت فى شىء من الصلاة . وروى النسائى أنبأنا قتيبة عن خلف عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه قال : صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم فلم يقْنُت ، وصليت خلف أبى بكر فلم يقْنُت ، وصليت خلف عمر فلم يقْنُت ، وصليت خلف عثمان فلم يقْنُت وصليت خلف على فلم يقْنُت ؛ ثم قال : يا بُنَىّ إنها بدعة . وقيل : يقنت فى الفجر دائما وفى سائر الصلوات إذا نزل بالمسلمين نازلةٌ ؛ قاله الشافعى والطبرى . وقيل : هو مُسْتَحَب فى صلاة الفجر ، وروى عن الشافعى . وقال الحسن وسُحْنون : إنه سنة . وهو مقتضى رواية على بن زياد عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمدا . وحكى الطبرى الإجماع على أن تركه غير مفسد للصلاة . وعن الحسن : فى تركه سجود السَّهْو ؛ وهو أحد قولى الشافعى . وذكر الدارقطنى عن سعيد ابن عبد العزيز فيمن نسِى القنوت فى صلاة الصبح قال : يسجد سجدتى السَّهْو . واختار مالك قبل الركوع ؛ وهو قول إسحاق . ورُوى أيضا عن مالك بعد الركوع ، ورُوى عن الخلفاء الأربعة ؛ وهو قول الشافعى وأحمد وإسحاق أيضا . ورُوى عن جماعة من الصحابة التخيير فى ذلك . وروى الدارقطنى بإسناد صحيح عن أنس أنه قال : ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقنت فى صلاة الغداة حتى فارق الدنيا . وذكر أبو داود فى المراسيل عن خالد بن أبى عمران قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على مُضَر إذ جاءه جبريل فأَوْمَأ إليه أن اسكت فسكت ؛ فقال : " يا محمد إن الله لم يبعثك سبّابا ولا لعّانا وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك عذابا ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ " قال : ثم علّمه هذا القُنُوت فقال : " اللّهم إنا نستعينُك ونستغفرُك ونؤمنُ بك ونَخْنَع(١) لك ونَخْلَع ونتْرُكُ مَن يكْفُرك اللّهم إياك نَعْبُد ولك نصلّى ونَسْجُدُ وإليك نسْعَى ونَحْفِدُ(٢) ونرجو رحمتك ونخافُ عذابك الجِدَّ إن عذابك بالكافرين مُلْحِقٌ(٣) " .

(١) الخنوع : الخضوع والذل . (٢) الحفد (بفتح فسكون) : الإسراع فى العمل والخدمة .

(٣) الرواية بكسر الحاء ، أى من نزل به عذابك ألحقه بالكفار . وقيل : هو بمعنى لاحق ، لغة فى لحق . ويروى بفتح الحاء على المفعول ، أى إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به . (عن ابن الأثير) .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعافاً مُضاعَفَةً ﴾ هذا النهى عن أكل الربا آعتراض بين أثناء قصة أُحد . قال آبن عطية : ولا أحفظ فى ذلك شيئا مرويا .

قلت : قال مجاهد : كانوا يبيعون البيع إلى أجل، فإذا حلّ الأجل زادوا فى الثمن على أن يؤخّروا؛ فأنزل الله عز وجل «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً» . [قلت](1) وإنما خص الربا من بين سائر المعاصى؛ لأنه الذى أذن الله فيه بالحرب فى قوله : «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»(2) والحرب يؤذن بالقتل؛ فكأنه يقول : إن لم تتقوا الربا هُزِمتم وقُتلتم . فأمرهم بترك الربا؛ لأنه كان معمولا به عندهم . والله أعلم . و ﴿ أَضْعَافاً ﴾ نصب على الحال و ﴿ مُضَاعَفَةً ﴾ نعته . وقرئ « مُضَعَّفَةً » ومعناه : الربا الذى كانت العرب تُضْعف فيه الدَّيْن، فكان الطالب يقول : أتقضى أم تُرْبى؟ كما تقدّم فى « البقرة » . و ﴿ مُضَاعَفَةً ﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام كما كانوا يصنعون؛ فدلت هذه العبارة المؤكدة على شُنعة فعلهم وقُبحه؛ ولذلك ذكرت حالة التضعيف خاصة .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى أموال الربا فلا تأكلوها . ثم خوفهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ قال كثير من المفسرين : وهذا الوعيد لمن آستحل الربا، ومن آستحل الربا فإنه يكفُر [ويكفّر](3) . وقيل : معناه آتقوا العمل الذى ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار؛ لأن من الذنوب مايستوجب به صاحبه نزع الإيمان ويخاف عليه؛ من ذلك عقوق الوالدين . وقد جاء فى ذلك أثر : أن رجلا كان عاقا لوالديه يقال له عَلْقَمة؛ فقيل له عند الموت : قل لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمه فرضيت عنه . ومن ذلك قطيعة الرحم وأكل الربا والخيانة

(1) فى هـ . (2) راجع جـ ٣ ص ٢٥٦ (3) فى د وهـ وفى ب : ويضر .

فى الأمانة . وذكر أبو بكر الورّاق عن أبى حنيفة أنه قال : أكثر ما ينزع الإيمان من العبد عند الموت . ثم قال أبو بكر : فنظرنا فى الذنوب التى تنزع الإيمان فلم نجد شيئا أسرع نزعا للإيمان من ظلم العباد . وفى هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة ردا على الجهمية؛ لأن المعدوم لا يكون مُعَدّا. ثم قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ [يعنى أطيعوا الله](١) فى الفرائض ﴿ والرَّسُولَ ﴾ فى السنن : وقيل : « أَطِيعُوا اللهَ » فى تحريم الربا « والرسول » فيما بلّغكم من التحريم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى كى يرحمكم الله . وقد تقدّم(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وسَارِعُوا ﴾ قرأ نافع وآبن عامر « سَارِعُوا » بغير واو؛ وكذلك هى فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ باقى السبعة « وَسَارِعُوا » بالواو . وقال أبو على : كلا الأمرين شائع(٣) مستقيم؛ فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجملة على الجملة ، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانية ملتبسةٌ بالأولى مستغنيةٌ بذلك عن العطف بالواو . والمسارعة المبادرة ، وهى مفاعلة . وفى الآية حذف، أى سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهى الطاعة . قال أنس آبن مالك ومَكْحُول فى تفسير ﴿ سَارِعُوا إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ : معناه إلى تكبيرة الإحرام . وقال على بن أبى طالب : إلى أداء الفرائض . عثمان بن عفان : إلى الإخلاص . الكلبى : إلى التوبة من الربا . وقيل : إلى الثبات فى القتال . وقيل غير هذا . والآية عامّة فى الجميع ، ومعناها معنى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ »(٤) وقد تقدّم .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تقديره كعرض فحذف المضاف؛ كقوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ »(٥) أى إلا كخلق نفس واحدة وبعثها . قال الشاعر :

(١) فى ه . (٢) راجع ج ١ ص ٢٢٧ (٣) فى ه : سائغ . (٤) راجع ج ٢ ص ١٦٥
(٥) راجع ج ١٤ ص ٧٨

حَسِبْتَ بُغَـامَ رَاحِلَتِى عَنَـاقًا * وما هى وَيْبَ غيرِك بالعَنَـاقِ (١)

يريد صوت عناق. نظيره فى سـورة الحديد «وَجَنَّـةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ والأَرْضِ» (٢).

وآختلف العلماء فى تأويله؛ فقال آبن عباس: تُقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب و يوصل بعضها ببعض؛ فذلك عرض الجنة، ولا يعلم طولها إلا الله. وهذا قول الجمهور، وذلك لاينكر؛ فإن فى حديث أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم "ما السموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى إلا كدراهم أُلقيت فى فلاةٍ من الأرض وما الكرسى فى العرش إلا كحَلْقة (٣) أُلقيت فى فلاة من الأرض". فهذه مخلوقات أعظم بكثير جدًا من السموات والأرض، وقدرة الله أعظم من ذلك كله. وقال الكلبى: الجِنَان أربعـة: جنة عدن وجنة المأوى وجنة الفِردوس وجنة النعيم، وكل جنة منها كعرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض. وقال إسماعيل السدى: لو كسرت السموات والأرض وصرن خردلا، فبكل خردلة جنة عرضها كعرض السماء والأرض. وفى الصحيح: "إن أدنى أهل الجنة منزلة من يتمنّى ويتمنّى حتى إذا آنقطعت به الأمانى قال الله تعالى: لك ذلك وعشرة أمثاله" رواه أبو سعيد الخدرى، خرجه مسلم وغيره. وقال يعلى بن أبى مُرّة: لقِيتُ التَّنُوخِىّ رسول هِرَقْل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بحِمْص شيخا كبيرا قال: قدِمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلا عن يساره؛ قال: فقلت من صاحبكم الذى يقـرأ؟ قالوا: معاوية؛ فإذا كتاب صاحبى: إنك كتبت تدعونى إلى جنـة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار". و بمثل هـذه الحجة آستدل الفاروق على اليهود حين قالوا له: أرأيت قولكم «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ» فأين النار؟ فقالوا له: لقد نزعت بمـا (٤) فى التوراة. ونبّه تعالى بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر

---

(١) بغام الناقة: صوت لا تفصح به. والعناق (بالفتح): الأنثى من المعز. وويب، بمعنى ويل. والبيت لذى الخرق الطهوى يخاطب ذئبا تبعه فى طريقه. (عن اللسان). (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٤

(٣) فى هـ: من حديد. (٤) نزعت بما فى التوراة. جئت بما يشبهها.

العرض . قال الزُّهْرِيّ : إنما وصف عرضها، فأما طولها فلا يعلمه إلا الله؛ وهذا كقوله تعالى : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ »(١) فوصف البِطَانَة بأحسن ما يعلم من الزينة، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن . وتقول العرب : بلاد عريضة ، وفلاة عريضة، أي واسعة؛ قال الشاعر :

كأنّ بلادَ الله وهْيَ عَرِيضَةٌ * على الخائف المطلوب كِفَّةُ حَابِلِ(٢)

وقال قوم : الكلام جارٍ على مَقْطَعَ العرب من الاستعارة؛ فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غايةٍ قصوى حسنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض؛ كما تقول للرجل : هذا بحرٌ(٣)، ولشخص كبير من الحيوان : هذا جبل . ولم تقصد الآية تحديد العرض ، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه . وعامّة العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة : لقوله ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهو نص حديث الإسراء وغيره في الصحيحين وغيرهما . وقالت المعتزلة : إنهما غير مخلوقتين في وقتنا، وإن الله تعالى إذا طوى السموات والأرض ابتدأ خلق الجنةِ والنارِ حيث شاء؛ لأنهما دار جزاء بالثواب والعقاب ، فخلقتا بعد التكليف في وقت الجزاء ؛ لئلا تجتمع دار التكليف ودار الجزاء في الدنيا، كما لم يجتمعا في الآخرة . وقال ابن فورك : الجنة يزاد فيها يوم القيامة . قال ابن عطية : وفي هذا متعلَّق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال : إن الجنة لم تخلق بعد . قال ابن عطية : وقول ابن فورك « يزاد فيها » إشارة إلى موجود ، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر في الزيادة .

قلت : صدق ابن عطية رضي الله عنه فيما قال : وإذا كانت السموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسي كدراهم ألقيت في فلاة من الأرض ، والكرسيّ بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ؛ فالجنة الآن على ما هي عليه في الآخرة عرضها كعرض السموات والأرض؛ إذ العرش سقفها، حسب ماورد في صحيح مسلم . ومعلوم أن السقف يحتوي على ماتحته ويزيد . وإذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذي يقدّره ويعلم طوله وعرضه إلا الله خالقه الذي لا نهاية لقدرته(٤)، ولا غاية لسعة مملكته، سبحانه وتعالى .

(١) راجع ج ١٧ ص ١٧٩
(٢) الكفة (بالكسر) : ما يصاد به الظباء، يجعل كالطوق .
(٣) في د و ه : ولكنه يراد .
(٤) في د و ب و ه : لمقدوراته .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ هذا من صفة المتقين الذين أعدّت لهم الجنة، وظاهر الآية أنها مدح بفعل المندوب إليه . و﴿السَّرَّاءِ﴾ اليسر ﴿والضَّرَّاءِ﴾ العسر؛ قاله ٱبن عباس والكلبيّ ومقاتل . وقال عبيد بن عمير والضحاك : السرّاء والضرّاء الرخاء والشدّة . ويقال في حال الصحة والمرض . وقيل : في السرّاء في الحياة، وفي الضرّاء يعني يوصي بعد الموت . وقيل : في السرّاء في العرس والولائم ، وفي الضرّاء في النوائب والمآتم . وقيل : في السرّاء النفقة التي تسرّكم؛ مثل النفقة على الأولاد والقرابات ، والضرّاء على الأعداء . ويقال : في السرّاء ما يضيف به الفتى[(١)] ويُهدى إليه . والضرّاء ما ينفقه على أهل الضر ويتصدّق به عليهم .

قلت : — والآية تعم . ثم قال تعالى : ﴿والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ وهي المسألة :

الثانيـــة — وكَظْم الغيظ ردّه في الجوف؛ يقال : كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوّه؛ وكظمت السِّقاء أي ملأته وسددت عليه، والكِظامة ما يسدّ به مجرى الماء؛ ومنه الكِظام للسير الذي يسدّ به فَمُ الزِّقِّ والقِربة . وكظم البعير جِرّته[(٢)] إذا ردّها في جوفه؛ وقد يقال لحبسه الجِرّة قبل أن يرسلها إلى فيه : كظم؛ حكاه الزجاج . يقال : كظم البعير والناقة إذا لم يَجْتَرّا ؛ ومنه قول الراعي :

فأفَضْنَ بعــد كُظومِهِن بِجِـرّةٍ * من ذي الأبارق[(٣)] إذ رَعَيْن حَقِيلا

الحقيل : موضع . والحقيل نبت . وقد قيل : إنها تفعل ذلك عند الفزع والجهد فلا تجترّ؛ قال أعشى باهلة يصف رجلا نحّارا للإبل فهي تفزع منه :

قد تكظِم البُزْلُ[(٤)] منه حين تُبصره * حتى تَقَطَّع في أجوافها الجِرَرُ

---

(١) في د، وز : الغني . (٢) الجرة (بالكسر) : ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه .
(٣) في ب وهـ و د : ذي الأباطح . (٤) البزل (بضم فسكون) : جمع بازل؛ وهو البعير الذي كلت قوّته ودخل في التاسعة وفطر نابه .

ومنـه : رجل كَظِيم ومكظوم إذا كان ممتلئا غمـا وحزنا . وفى التنزيل : « وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ »(١) . « ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » . « إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ » . والغيظ أصل الغضب ، وكثيرا ما يتلازمان لكن فُرْقانُ ما بينهما ، أنّ الغيظ لا يظهر على الجوارح ، بخلاف الغضب فإنه يظهر فى الجوارح مع فعـل مّا ولا بدّ ؛ ولهذا جاء(٢) إسناد الغضب إلى الله تعـالى إذ هو عبارة عن أفعاله فى المغضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس الغيظ بالغضب ؛ وليس بجيد . والله أعلم .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ العفو عن الناس أَجَلُّ ضُرُوبِ فعل الخير ؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث يتّجه حقه . وكل من آستحق عقوبة فتُرِكت له فقد عُفِي عنه . وآختلف فى معنى « عَنِ النَّاسِ » ؛ فقال أبو العالية والكلبي والزجاج : « والعافين عن الناس » يريد عن المـاليك . قال آبن عطية : وهذا حسن على جهة المثال ؛ إذ هُم الخَدَمَة فهم يذنبون كثيرا والقدرة عليهم متيسرة ، و إنفاذ العقوبة سهل ؛ فلذلك مثل هذا المفسِّر به . ورُوِى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيهـا مَرَقَة حارّة ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يامولاى ، آستعمل قول الله تعالى : « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » . قال لها : قد فعلت . فقالت : آعمل بمـا بعده « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » . فقال : قد عفوتُ عنك . فقالت الجارية : « وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . قال ميمون : قد أحسنت إليكِ ، فأنتِ حرّة لوجه الله تعالى . ورُوِى عن الأحنف بن قيس مثله . وقال زيد آبن سلم : « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »(٣) عن ظلمهم و إساءتهم . وهـذا عام ، وهو ظاهر الآية . وقال مقاتل بن حيان فى هذه الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك : " إنّ هؤلاء من أمّتى قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت " . فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال : « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ »(٤) ، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله : « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » ، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم فى ذلك . ووردت فى كظم الغيظ والعفو عن الناس وملك النفس عنـد الغضب أحاديثُ ؛ وذلك من

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٧ وجـ ١٠ ص ١١٦ وجـ ١٨ ص ٢٥٢ (٢) فى د : جاز .
(٣) فى هـ : عمن ظلمهم وأساء إليهم . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٣٥

أعظم العبادة وجهادِ النفس ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " ليس الشديد بالصُّرَعة[(١)] ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب " . وقال عليه السلام " ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجرا من جرعةِ غيظٍ فى الله " . وروى أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما أشدّ من كل شىء ؟ قال : " غضب الله " . قال فما ينجى من غضب الله ؟ قال : " لا تغضب " . قال العرجىّ :

وإذا غضبتَ فكن وَقُورا كاظِما * للغيظ تُبْصِر ما تقول وتسمع

فكفى به شرفا تَصَبُّر ساعةٍ * يرضى بها عنك الإله وتُرفع

وقال عروة بن الزبير فى العفو :

لن يبلغ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا * حتى يُذَلُّوا وإن عَزّوا لأقوامِ

ويُشْتَموا فترى الألوانَ مُشرِقَة * لا عَفْو ذُلٍّ ولكن عَفْو إكرامِ

وروى أبو داود وأبو عيسى الترمذىّ عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنِىّ عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء" قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال من ذا الذى أجره على الله فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب". ذكره الماوردى . وقال ابن المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ بين يدى الله عز وجل من كانت له يد عند الله فليتقدّم فلا يتقدّم إلا من عفا عن ذنب" ، فأمر بإطلاقه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى يُثيبهم على إحسانهم . قال سَرِىّ السَّقَطِى : الإحسان أن تحسن وقت الإمكان ، فليس كل وقت يمكنك الإحسان ، قال الشاعر :

(١) الصرعة (بضم الصاد وفتح الراء) : المبالغ فى الصراع الذى لا يغلب ؛ فنقله إلى الذى يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها .

بادِرْ بخيرٍ إذا ما كنتَ مُقْتدِرا * فليس في كلِّ وقتٍ أنتَ مُقتدِرُ

وقال أبو العباس الجُمّانِيّ فأحسن :

ليس في كلِّ ساعةٍ وأَوانِ * تَتَهيّأُ صنائعُ الإحسانِ
وإذا أَمْكَنَتْ فبادِرْ إليها * حَذَرًا من تَعَذُّرِ الإمكانِ

وقد مضى في « البقرة »(١) القول في المحسن والإحسان فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية صِنْفا، هم دون الصِّنف الأوّل فألحقهم به برحمته ومَنِّه(٢)؛ فهؤلاء هم التوّابون . قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت هذه الآية في نَبْهان التَّمّار — وكنيته أبو مُقْبِل — أتته امرأة حَسْناء باع منها تمرا ، فضمّها إلى نفسه وقبّلها فندم(٣) على ذلك ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ؛ فنزلت هذه الآية . وذكر أبو داود الطيالسيّ في مسنده عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : حدّثني أبو بكر — وصَدَق أبو بكر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له — ثم تلا هذه الآية — وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ — الآية ، والآية الأخرى — وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ(٤)". وخرّجه الترمذيّ وقال : حديث حسن . وهذا عامٌّ . وقد تنزل الآية بسبب خاص ثم تتناول جميع مَن فعل ذلك أو أكثر منه . وقد قيل : إن سبب نزولها أن ثَقَفِيا خرج في غزاة وخلّف صاحبا له أنصاريا على أهله ، فخانه فيها بأن

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٥
(٢) في ابن عطية : بهم .
(٣) في ب ود وهـ : ثم .
(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٨٠

آقتحم عليها فدفعت عن نفسها فقبّل يدها ، فندم على ذلك فخرج يَسيح فى الأرض نادما تائبا ؛ فجاء الثقفىّ فأخبرته زوجته بفعل صاحبه ، فخرج فى طلبه فأتى به إلى أبى بكر وعمر رَجاءَ أن يجد عندهما فرجا فوبّخاه ؛ فأتى النبي صلى الله عليــه وسلم فأخبره بفعله ؛ فنزلت هذه الآية . والعموم أولى للحديث . وروى عن آبن مسعود أن الصحابة قالوا : يا رســول الله ، كانت بنو إسرائيل أكرَمَ على الله مِنّا ، حيث كان المذنب منهم تُصْبح عقوبتُه [مكتوبةً] على باب داره ، وفى رواية : كفارةُ ذنْبه مكتوبةً على عَتَبة داره : آجْدَعْ أنفَك ، آقْطَع أُذُنَك ، آفعل كذا ؛ فأنزل الله تعـالى هذه الآية تَوْسِعةً ورحمةً وعِوَضًا من ذلك الفعـل ببنى إسرائيل . ويُروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية . والفاحشة تطلق على كل معصية ، وقد كثر آختصاصها بالزنا حتى فسر جابر بن عبـد الله والسّدّى هـذه الآية بالزنا . و « أَوْ » فى قوله « أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » قيـل هى بمعنى الواو ؛ والمـراد ما دون الكبائر . ﴿ ذَكَرُوا اللهَ ﴾ معناه بالخوف من عقابه والحيَاءِ منه . الضحاك : ذكروا العَرْضَ الأكبر على الله . وقيل تفكروا فى أنفسهم أن الله سائلهم عنــه ؛ قاله الكلبيّ ومقاتل . وعن مقاتل أيضا : ذكروا الله باللسان عنــد الذنوب . ﴿ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى طلبوا الغفران لأجل ذنوبهم . وكل دعاء فيه هذا المعنى أو لفظه فهو آستغفار . وقد تقدّم فى صدر هذه السورة[3] سيد الآستغفار ، وأن وقته الأسحار . فالآستغفار عظيم وثوابه جسيم ، حتى لقـد رَوى الترمذيّ عن النبيّ صـلى الله عليـه وسلم أنه قال : "من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليــه غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف" . ورَوى مَكْحُول عن أبى هريرة قال : ما رأيت أكثر آستغفارا من رســول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مكحول : ما رأيت أكثر آستغفارا من أبى هريرة . وكان مكحول كثير الآستغفار . قال علماؤنا : الآستغفار المطلوب هو الذى يَحُلّ عَقْدَ الإصرار ويثبت معناه فى الجَنَـان ، لا التلفظ باللسان . فأما من قال بلسانه : أسـتغفر الله ، وقلبه مصِرّ على معصيته فآستغفاره ذلك يحتاج إلى آستغفار ، وصغيرته لاحقة بالكبائر . وروى عن الحسن البصرىّ أنه قال : آستغفارنا يحتاج إلى استغفار .

(١) فى ب ود وهـ : ثم . (٢) كذا فى آبن عطية ، وهى الرواية . (٣) راجع ص ٣٨

قلت : هذا يقوله فى زمانه ، فكيف فى زماننا هذا الذى يُرى فيه الإنسانُ مُكِبّا على الظلم! حريصا عليه لا يُقلِع ، والسُّبْحَة فى يده زاعما أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك آستهزاء منه وآستخفاف . وفى التنزيل « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا »(١) . وقد تقدّم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾ أى ليس أحد يغفر المعصية ولا يزيل عقوبتها إلا الله . ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ أى ولم يثبتوا و يعزموا على مافعلوا . وقال مجاهد : أى ولم يمضوا . وقال معبد بن صُبَيح : صليت خلف عثمان وعلىٌّ إلى جانبى ، فأقبل علينا فقال : صليتُ بغير وضوء ثم ذهب فتوضأ وصلّى . ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه . ومنه صَرّ الدنانير أى الربط عليها؛ قال الحطيئة يصف الخيل :

عوابس بالشُّعْثِ الكُماة إذا آبتغوا * عُلَالَتَها بالمُحْصَدَاتِ(٢) أصَرَّتِ

أى ثبتت على عَدْوِها . وقال قتادة : الإصرار الثبوت على المعاصى؛ قال الشاعر :

يُصِرّ بالليـــل ما تُخْفِى شَوَاكِلُه(٣) * يا ويحَ كلِّ مُصِرّ القلبِ خَتَّار(٤)

قال سهل بن عبد الله : الجاهل ميِّتٌ ، والناسى نائمٌ ، والعاصى سَكْران ، والمصِرّ هالك ، والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول : أتوب غدا؛ وهذا دعوى النفس ، كيف يتوب غدا وغدا لا يملكه ! . وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينوى ألّا يتوب فإذا نوى التوبة [النصوح](٥) خرج عن الإصرار . وقول سهلٍ أحسن . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا توبة مع إصرار" .

الثالثـــة — قال علماؤنا : الباعث على التّوبة وحلّ الإصرار إدامةُ الفكر فى كتاب الله العزيز الغفّار ، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين ، وما وصفه من

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٦ وجـ ٣ ص ١٥٦ (٢) العلالة (بالضم) : بقية جرى الفرس ، والمحصدات : السياط المفتولة . (٣) الشواكل : الطرق المنشعبة عن الطريق الأعظم .
(٤) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . وقيل : هو أسوأ الغدر وأقبحه ، و « ختار » للبالغة .
(٥) فى ب و د .

عذاب النار وتهدّد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوِى خوفه ورجاؤه فدعا الله رَغَبا و رَهَبا؛ والرَّغْبَــة والرَّهبة ثمرة الخــوف والرجاء، يخــاف من العقاب ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب. وقد قيــل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلٰهِيٌّ ينبّه به من أراد سـعادته؛ لِقبح الذنوب وضررها إذ هي سُموم مهلكة.

قلت: وهــذا خلاف في اللفظ لا في المعنى، فإن الإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعيده إلا بتَنْبيهه؛ فإذا نظر العبــد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشْحُونة بذنوبٍ اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندمُ على ما فرط، وترك مثلَ ما سبق مخــافةَ عقوبة الله تعالى صَدَق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصِرّا على المعصية وملازِما لأسباب الهلكة. قال سهل بن عبــد الله: علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا (١).

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه أقوال. فقيل: أي يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها. قال النحاس: وهذا قول حسن. وقيل: « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أني أعاقب على الإصرار. وقال عبد الله بن عُبيد بن عُمير: « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنهم إن تابوا تاب الله عليهم. وقيل: « يَعْلَمُونَ » أنهم إن استغفروا غفر لهم. وقيل: « يَعْلَمُونَ » بما حرّمتُ عليهم؛ قاله ابن إسحاق. وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أن الإصرار ضار، وأن تركه خير من التمادي. وقال الحسن بن الفضل: « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أن لهم ربا يغفر الذنب.

قلت: وهــذا أخذه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: "أذنبَ عبدٌ (٢) ذنبا فقال اللّهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنبا فعلِم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أيْ ربِّ اغفر لي ذنبي — فذكر مثله مرتين، وفي آخره: اعمــل ما شئتَ فقد غفرتُ لك" أخرجه مسلم.

(١) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيعة. تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه "لا تكلمنّ أحدا من هؤلاء الثلاثة" إلى أن نزل فيهم قوله تعالى: « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ... » راجع جـ ٨ ص ٢٨١، وسيرة ابن هشام ص ٨٩٣ طبع أوروبا. (٢) في هـ: عبدي. والثابت هو ما في مسلم.

وفيه دليلٌ على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب ؛ لأن التوبة الأولى طاعةٌ وقد انقضت وصحّت ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة ، والعود إلى الذنب و إن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف(١) إلى الذنب نقض التوبة ، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف(١) إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم ، وأنه لا غافر للذنوب سواه . وقوله في آخر الحديث "اعمل ما شئت" أمرٌ معناه الإكرام في أحد الأقوال ؛ فيكون من باب قوله : «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ»(٢) . وآخر الكلام خبرٌ(٣) عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه ، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه . ودلّت الآية والحديثُ على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ، قال صلى الله عليه وسلم : " إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه " أخرجاه في الصحيحين . وقال :

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترف　*　بما جنَى من الذنوب واقترف

وقال آخر :

أقرِرْ بذنبك ثم اطلُبْ تجاوُزَه　*　إن الجُحُودَ جُحُودَ الذّنْب ذنبان

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لو لم تُذنِبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيغفر لهم". وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفّار والتوّاب ، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

الخامســة ــ الذنوب التي يُتاب منها إمّا كُفرٌ أو غيره ، فتوبة الكافر إيمانُه مع ندمه على ما سلف من كفره ، وليس مجرّدُ الإيمان نفسَ توبة ، وغير الكفر إمّا حقٌّ لله تعالى ، وإمّا حقٌّ لغيره ، فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه التّركُ ؛ غير أن منها مالم يكتف الشرع فيها بمجرّد الترك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاءً كالصلاة والصوم ، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث في الأيمان والظّهار وغير ذلك ، وأمّا حقوقُ الآدميّين فلا بدّ من إيصالها إلى مستحقيها ، فإن لم يوجَدوا تُصدق عنهم ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو الله مأمولٌ ، وفضله مبذولٌ ؛ فكم ضمِن من التبِعات وبدّل من السيئات بالحسنات . وستأتي زيادة بيان لهذا المعنى(٤) .

---

(١) في ب و د و هـ : أنضاف .　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢ ، وجـ ١٧ ص ٢١
(٣) في ا و حـ : أخبر .　(٤) راجع جـ ١٣ ص ٧٧

السادســـة — ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذَنْبه ويعلمه أن يتوب منه بعينه، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنبا تاب منه . وقد تأول كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطى الأسكندرانيّ رضى الله عنه أن الإمام المحاسبيّ رحمه الله يرى أن التوبة من أجناس المعاصى لا تصح، وأن النــدم على جملتها لا يكفى، بل لا بدّ أن يتوب من كل فعــل بجارحته وكل عقد بقلبه على التعيين . ظنوا ذلك من قوله، وليس هــذا مراده، ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلَّف إذا عرف حكم أفعاله، وعرف المعصية من غيرها، صحّتْ منه التوبة من جملة ما عرف؛ فإنه إن لم يعرف كون فعله المــاضى معصية لا يمكنه أن يتوب منــه لا على الجملة ولا على التفصيل؛ ومثاله رجل كان يتعاطى بابا من أبواب الربا ولا يعــرف أنه رِبا فإذا سمع كلام الله عز وجل: « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ »(١) عظم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا، فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لابَسَ منه شيئا كثيرا فى أوقات متقدمة، صحّ أن يندم عليــه الآن جمــلة، ولا يلزمه تعيينُ أوقاته، وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالغيبة والنَّميمة وغيرِ ذلك من المحرّمات التى لم يعرف كونها محرّمة، فإذا فَقُه العبد وتفقّد ما مضى من كلامه تاب من ذلك جملةً، ونَدم على ما فرّط فيه من حق الله تعالى، وإذا استحلّ مَن كان ظلمه فحالّلَهُ على الجملة وطابت نفسه بترك حقه جاز؛ لأنه من باب هبة المجهول، هذا مع شُحّ العبد وحرصه على طلب حقه، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والعفوِ عن المعاصى صغارها وكبارها . قال شيخنا رحمه الله تعالى : هذا مراد الإمام، والذى يدل عليه كلامه لمن تفقّده، وما ظنه به الظّانّ من أنه لا يصح الندم إلا على فعلٍ فعلٍ وحركةٍ حركةٍ وسكنةٍ سكنةٍ على التعيين هو من باب تكليف ما لا يُطاق، الذى لم يقع شرعا وإن جاز عقلا، ويلزم عنه أن يعرف كم جرعة جرعها فى شرب الخمر، وكم حركة تحركها فى الزنا، وكم خطوة مَشاها إلى محرّم، وهذا ما لا يطيقه أحدٌ، ولا تتأتّى منه توبة على التفصيل . وسيأتى لهذا الباب مزيدُ بيــان من أحكام التوبة وشروطها فى « النساء »(٢) وغيرها إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٦٢ (٢) راجع جـ ٥ ص ٩٠، وجـ ١١ ص ٢٣١، وجـ ١٢ ص ٢٣٨

السابعة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ حُجَّةٌ واضحة ودلالة قاطعة لما قاله سيف السنة، ولسان الأمة القاضى أبو بكر بن الطيب : أن الإنسان يؤاخذ بما وطّن عليه بضميره (١)، وعزم عليه بقلبه من المعصية .

قلت : وفى التنزيل « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢) » وقال : « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٣) » . فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم وسيأتى بيانه . وفى البخارى "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار" قالوا : يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال : "إنه كان حريصا على قتل صاحبه" . فعلق الوعيد على الحرص وهو العزم وألغى إظهار السلاح ، وأنصّ من هذا ما خرّجه الترمذىّ من حديث أبى كبشة الأنمارىّ وصححه مرفوعا " إنما الدنيا لأربعة نفرٍ رجل أعطاه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربّه و يصلُ فيه رحمه و يعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالاً فهو [صادق النية (٤)] يقول لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علما فهو [يخبط فى ماله بغير علم (٤)] لا يتقى فيه ربه ولا يصل به رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علما فهو يقول لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء" . وهذا الذى صار إليه القاضى هو الذى عليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين ، ولا يُلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يَهُمّ الإنسانُ به وإن وَطّن عليه (٥) لا يؤاخذ به . ولا حجة [له (٦)] فى قوله عليه السلام : "من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كتبت سيئة واحدة" لأن معنى "فلم يعملها" فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا ، ومعنى "فإن عملها" أى أظهرها أو عزم عليها بدليل ما وصفنا . و بالله توفيقنا .

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

رتب تعالى بفضله وكرمه غفران الذنوب لمن أخلص فى توبته ولم يصرّ على ذنبه . و يمكن أن يتّصل هذا بقصّة أُحُد ، أى من فرّ ثم تاب ولم يصرّ فله مغفرة الله .

(١) فى أ و ح : وطن عليه ضميره ، وعلى ما أثبت يقدر المعمول .
(٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٤   (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٤١   (٤) زيادة عن سنن الترمذى .
(٥) المعمول محذوف فى كل الأصول، وتقديره فى قول القاضى السابق .   (٦) فى ح .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١٣٧)

هذا تسلية من الله تعالى للؤمنين ، والسُّنَن جمع سُنَّة وهى الطريق المستقيم . وفلان على السنة أى على طريق الاستواء لا يَميل إلى شيء من الأهواء ، قال الهذلىّ :

فلا تَجزَعَن مِنْ سُنَّة أنت سِرْتَها * فأوّلُ راضٍ سُنَّةً مَن يَسيرها

والسنة : الإمام المتّبع المؤتَمّ به ، يقال : سنّ فلانٌ سنة حسنة وسيئةً إذا عمل عملا اقتُدِى به فيه من خيرٍ أو شر ، قال لبيد :

مِن معشرٍ سَنَّت لهم آباؤهم * ولكلّ قـومٍ سُـنةٌ وإمامُها

والسنة الأمّة ، والسنن الأُمَمُ ، عن المفضل . وأنشد :

ما عايَنَ الناسُ من فَضْلٍ كفضلِهم * ولا رَأوا مِثلَهم فى سالِف السُّنَنِ

وقال الزجاج : والمعنى أهل سنن ، فحذف المضاف . وقال أبو زيد : أمثال . عطاء : شرائع . مجاهد : المعنى « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » يعنى بالهلاك فيمن كذّب قبلكم كعادٍ وثمود . والعاقبة : آخر الأمر ، وهـذا فى يوم أُحُد . يقول فأنا أمهلهم وأُمْلِي لهم وأستَدْرِجُهم حتى يبلغ الكتاب أجله ، يعنى بنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٨)

يعنى القرآن ، عن الحسن وغيره . وقيل : هذا إشارة إلى قوله : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » . والموعظة الوعظ . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩)

عزّاهم وسلّاهم بما نالهم يوم أُحُد من القتل والجراح، وحثّهم على قتال عدوّهم ونهاهم عن العجز والفشل فقال ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ أى لا تضعفوا ولا تجبُنوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لمـا

أصابكم . «وَلَا تَحْزَنُوا» على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة . «وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ» أى لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى بصدق وعدى . وقيل : « إن » بمعنى « إذ » . قال ابن عباس : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد فبيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين ، يريد أن يعلو عليهم الجبل ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللّهم لا يعلُنّ علينا اللّهم لا قوة لنا إلا بك اللّهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر" . فأنزل الله هذه الآيات . وثاب[1] نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم ؛ فذلك قوله تعالى : « وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ » يعنى الغالبين على الأعداء بعد أُحد . فلم يُخرجوا بعد ذلك عسكرا إلّا ظفروا فى كل عسكر كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى كل عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيه واحدٌ من الصحابة كان الظفر لهم، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون فى ذلك الوقت . وفى هذه الآية بيان فضلِ هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه ؛ لأنه قال لموسى : « إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى »[2] وقال لهذه الأمة : « وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ » . وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلى، وقال للؤمنين : « وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ » .

قوله تعالى : إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ القرح الجرح . والضم والفتح فيه لغتان عن الكسائى والأخفش ؛ مثل عَقْر وعُقْر[3] . الفراء : هو بالفتح الجَرح، وبالضم ألمه . والمعنى : إن يمسسكم يوم أُحد قَرح فقد مَسّ القوم يوم بَدْر قَرح مثله . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع « قرح » بفتح

(١) فى ح و ا : بات . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٢٣ (٣) فى الأصول : «نفر ونفر» وهو تحريف .

القاف والراء على المصـدر . ﴿ وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ قيل : هذا فى الحرب ، تكون مرة للؤمنين لينصر الله عز وجل دينه ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويُمحِّص ذنوبهم ؛ فأما إذا لم يَعْصوا فإنّ حزب الله هم الغالبون . وقيل : « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » من فَرَح وغَم وصحّةٍ وسُقْم وغِنًى وفقْرٍ . والدُّولَةُ الكَرَّة ؛ قال الشاعر :

فيومٌ لنـا ويومٌ علينـا * ويومٌ نُسَـاءُ ويومٌ نُسَرّ

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ معناه ، وإنما كانت هذه المداوَلةُ ليُرَى المؤمنُ من المنافق فيُميَّز بعضُهم من بعض ؛ كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا »(1) . وقيل : ليعلمَ صبر المؤمنين ، العلمَ الذى يقع عليه الجزاء كما علمه غَيْبا قبل أن كلّفهم . وقد تقدّم فى « البقرة »(2) هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : « وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ » أى يكرمكم بالشهادة ؛ أى لِيُقتَلَ قومٌ فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل : لهذا قيل شهيد : وقيل : سمى شهيدا لأنه مشهود له بالجنة وقيل : سمى شهيدا لأن أرواحهم احتضرت(3) دار السلام ، لأنهم أحياء عند ربهم ، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة ؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة ، وهذا هو الصحيح على ما يأتى والشهادة فضلها عظيم ، ويكفيك فى فضلها قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ »(4) الآية . وقوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » إلى قـوله : « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(5) . وفى صحيح البُسْتى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدُكم من القَرْحة " . وروى النسائى عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يُفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال : " كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة " . وفى البخارى : « من قُتل من المسلمين

(1) راجع ص ٢٦٥ من هذا الجزء . (2) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ (3) فى ب ، د ، هـ : أحضرت .
(4) راجع جـ ٨ ص ٢٦٦ (5) راجع جـ ١٨ ص ٨٦

يوم أُحد » منهم حمزةُ واليمَان والنضر بن أنس ومصعب بن عُمير،[1] حدّثني عمرو بن عليّ أن معاذ ابن هشام قال حدّثني أبي عن قتادة قال : ما نعلم حيًّا من أحياء العرب أكثر شهيدا أعزّ يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحُد سبعون ، و يوم بئر مَعُونَة سبعون، و يوم اليمَامَة سبعون . قال : وكان بئر معونة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، و يوم اليَمَامَة على عهد أبي بكر يوم مُسَيْلِمة الكذّاب . وقال أنس : أُتِي النبي صلى الله عليه وسلم بعليّ بن أبي طالب و به نيف وستون جراحة من طعنة وضربة ورمْية، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسحها وهي تَلْتَئم بإذن الله تعالى كأن لم تكن .

الثانيـــة — في قوله تعالى : « وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ » دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقوله أهل السنة ؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين : حمزةَ وأصحابه وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراده فواقعه آدم ، وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فامتنع منه ؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق : «وَلَكِن كَرِهَ اللهُ ٱنبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ»[2] . و إن كان قد أمر جميعهم بالجهاد ، ولكنه خلق الكَسَل والأسباب القاطعة عن المسير فقعدوا .

الثالثـــة — رُوي عن علي[3] بن أبي طالب رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال له : " خيِّر أصحابك في الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفِداء على أن يقتل منهم عام المقبِل مثلهم فقالوا الفداء و يقتل منا " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خيّرهم فآختاروا القتل . ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين ، أي وإن أنال[4] الكفارَ من المؤمنين فهو لا يحبهم ، و إن أحلّ ألمـاً بالمؤمنين فإنه يحب المؤمنين .

قوله تعالى : وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾

---

(١) الذي في شرح القسطلاني على صحيح البخاري : « وأنس بن النضر ، وهو عم أنس بن مالك كما ذكره أبو نعيم وابن عبد البر وغيرهما . ولأبي ذر « النضر بن أنس » وهو خطأ ، والصواب الأول » .

(٢) راجع جـ ٨ ص ١٥٦ (٣) في ب و د و هـ : روى علي . (٤) في هـ و د : أدال .

فيه ثلاثة أقوال: يُمَحِّص يختبر. الثانى — يطهِّر؛ أى من ذنوبهم فهو على حذف مضاف. المعنى: وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا؛ قاله الفرّاء. الثالث — يُمَحِّص يخلِّص؛ فهذا أغربها. قال الخليل: يقال مَحِصَ الحبلُ يَمْحَص مَحْصًا إذا انقطع وَبَرُه؛ ومنه "اللّهم محِّص عنا ذنوبنا" أى خلصنا من عقوبتها. وقال أبو إسحاق الزجاج: قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل: التمحيص التخليص. يقال: محَّصه [يمحصه](1) مَحْصا إذا خلصه؛ فالمعنى عليه ليبتلى المؤمنين ليُثيبهم ويخلِّصهم من ذنوبهم. ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

«أم» بمعنى بل. وقيل: الميم زائدة؛ والمعنى أحسبتم يامن انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الّذين قُتلوا وصبروا على ألَم الجراح والقتل من غير أن تَسْلُكوا طريقهم وتصبروا صبرهم لا؛ حتى ﴿ يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ أى عِلْم شهادة حتى يقع عليه الجزاء. والمعنى: ولم تجاهدوا فيعلم ذلك منكم؛ فلما بمعنى لم. وفرق سيبويه بين «لم» و «لما»، فزعم أن «لم يَفعلْ» نفى فَعَل، وأن «لمّا يفعلْ» نفى قد فَعَل. ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ منصوب بإضمار أن؛ عن الخليل. وقرأ الحسن ويحيى بن يَعمَر «يَعْلَمِ الصَّابرينَ» بالجزم على النسق. وقرئ بالرفع على القطع، أى وهو يعلم. وروى هذه القراءة عبد الوارث عن أبى عمرو. وقال الزجاج: الواو هنا بمعنى حتى، أى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلم صبرهم كما تقدم آنفا.

قوله تعالى: وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ﴾ أى الشهادة من قبل أن تلقوه. وقرأ الأعمش «مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلاقُوهُ» أى من قبل القتل. وقيل: من قبل أن تلقوا أسباب الموت؛ وذلك أن كثيرا ممن لم يحضروا بدرا كانوا يتمنّون يوما يكون فيه قتال،

(1) فى ب ودوه.

فلما كان يوم أُحُد انهزموا ، وكان منهم من تجلّد حتى قُتل ، ومنهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، فإنه قال لما انكشف المسلمون : اللّهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، و باشر القتال وقال : إيْهاً إنها ريح الجنة ! إنى لأجدها ، ومضى حتى استشهد . قال أنس : فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بِضعا وثمانين جراحة . وفيه وفى أمثاله نزل « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ »(١) . فالآية عِتاب فى حق من انهزم ، لاسِيّما وكان منهم حَمْلٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم على الخروج من المدينة ، وسيأتى . وتمنّى الموت يرجع من المسلمين إلى تمنّى الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد ، لا إلى قتل الكفار لهم ؛ لأنه معصيةٌ وكفرٌ ولا يجوز إرادة المعصية ، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة ، فيسألون الصبر على الجهاد و إن أدّى إلى القتل .

قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال الأخفش : هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله : «فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ» مثل « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »(٢) . وقيل : معناه وأنتم بُصَراء ليس فى أعينكم عِلَلٌ ؛ [كما](٣) تقول : قد رأيت كذا وكذا وليس فى عينيك عِلّة ، أى فقد رأيته رؤية حقيقة ؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد . وقال بعضهم : « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وفى الآية إضمار ، أى فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلِمَ انهزمتم ؟ .

قوله تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — روى أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أُحُد حين صاح الشيطان : قد قتل محمد . قال عطية العوفى : فقال بعض الناس : قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم . وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ألا تَمْضُون على ما مضى عليه نبيكم حتى

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٥٨	(٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٩	(٣) فى ب و د و هـ .

تلحقوا به ؛ فأنزل الله تعالى فى ذلك ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ إلى قوله : «فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» . وما نافية، وما بعدها ابتداء وخبر، و بطل عمل «ما» . وقرأ ابن عباس « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ » بغير ألِف ولام . فأعلم الله تعالى فى هذه الآية أن الرسل ليست بباقية فى قومها أبدا ، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فُقِد الرسول بموتٍ أو قتلٍ . وأكرم نبيه صلى الله عليه وسلم [وصفيه](١) بآسمين مشتقّين من اسمه : محمّد وأحْمَد ، تقول العرب : رجل مَحْمُودٌ ومُحَمَّد إذا كثُرت خصاله المحمودة ، قال الشاعر :

* إلى المـاجد القَرْمِ الجَوَاد المحمَّدِ(٢) *

وقد مضى هذا فى الفاتحة(٣) . وقال عباس بن مِرداس :

يا خـاتِمَ النُّبَآءِ إنـك مُرْسَـلٌ * بالخيْر كلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَا كا
إنَّ الإله بَنَى(٤) عليك مَحَبَّـةً * فى خَلْقِـه ومُحَمَّـدًا سَمَّـا كا

فهذه الآية من تَتِمّة العِتاب مع المنهزِمين ، أى لم يكن لهم الانهزام وإن قتـل محمدٌ ، والنبوّة لا تدْرأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء . والله أعلم .

الثانيـــة ــ هذه الآية أدلّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته ، فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم بيانه فى « البقرة(٥) » فظهرت عنده شجاعته وعلمه . قال النـاس : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علىّ، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح(٦)، الحديث ؛ كذا فى البخارى . وفى سنن ابن ماجه عن عائشة قالت : « لما قبض رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأبو بكر عند آمرأته ابنة خارجة بالعوالى ، فجعلوا يقولون : لم يمت النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما هو بعض ما كان يأخذه عند

(١) فى ب و هـ . (٢) هذا عجز بيت للأعشى ، وصدره : * إليك أبيت اللعن كان كلالها * والذى فى الديوان : الماجد الفرع . كذا فى ب و د و هـ . وفرع كل شىء : أعلاه . (٣) راجع جـ ١ ص ١٣٣
(٤) فى د ، واللسان : ثنى ولم يعرف هذا فى اللغة . والأصول بنى . (٥) راجع جـ ٢ ص ١٧٦
(٦) السنح (بضم أوّله وسكون النون وقد تضم) : موضع بعوالى المدينة ، وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج ، بينها وبين منزل النبىّ صلى الله عليه وسلم ميل .

الوحى . فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه وقال : أنت أكرم على الله من أن يميتك ! مرتين ، قد والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر فى ناحية المسجد يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يموت حتى يقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . فقام أبو بكر فصعد المنبر فقال : من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » . قال عمر : « فلكأنّى لم أقرأها إلا يومئذ » . ورجع عن مقالته التى قالها فيما ذكر الوائلى أبو نصر عبيد الله فى كتابه الإبانة : عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد قبل أبى بكر فقال : أمّا بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلتُ ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ولا فى عهد عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرَنا — يريد أن يقول حتّى يكون آخرنا موتا — فاختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الوائلى أبو نصر : المقالة التى قالها ثم رجع عنها هى «أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيدى رجال وأرجلهم» وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه ، وخشى الفتنة وظهور المنافقين ، فلما شاهد قوة يقين الصدّيق الأكبر أبى بكر ، وتفوّهه بقول الله عز وجل : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ »(1) وقوله : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »(2) وما قاله ذلك اليوم — تنبّه وتثبّت وقال : كأنى لم أسمع بالآية إلا من أبى بكر . وخرج الناس يتلونها فى سكك المدينة ، كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم . ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا اختلاف ، فى وقت دخوله المدينة فى هجرته حين اشتدّ الضحاء ، ودفن يوم الثلاثاء ، وقيل ليلة الأربعاء . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(1) راجع ص ٢٩٧ من هذا الجزء ، و ج ١١ ص ٢٨٧		(2) راجع ج ١٥ ص ٢٥٤

ألا يا رســول الله كنت رجاءنا * وكنت بنا برًّا ولم تك جافيا
وكنت رحيا هاديا ومُعلِّما * ليبْك عليك اليومَ من كان باكيا
لعمــرك ما أبكي النبيَّ لفقــده * ولكن لما أخشى من الهَرْج آتيا
كأنّ على قلبي لذِكرِ محمــدٍ * وما خِفت من بعــد النبي المكاوِيا
أفاطــم صلى الله رب محمــدٍ * على جَدَثٍ أمسى بيثْرب ثاويا
فِــدًى لرسـول الله أُمّي وخالتي * وعمي وآبائي ونفسي ومالِيا
صــدَقْتَ وبلّغتَ الرسالة صادقا * ومتّ صَليبَ العـودِ أبْلَجَ صافيا
فلو أن رب النـاس أبقى نبينـا * سعِدنا، ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحيــةً * وأُدْخِلت جناتٍ من العَدْن راضيا
أرى حســنا أيتمتَــه وتركتَه * يُبــكّي ويدعــو جده اليــوم ناعيا (١)

فإن قيل وهي :

الثالثـــة — فلِم أُخِّر دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال لأهل بيت أخّروا دفن ميتهم : "عجلوا دفن جيفتكم ولا تؤخروها". فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول — ما ذكرناه من عدم اتفاقهم على موته . الثاني — لأنهم لا يعلمون حيث يدفنونه . قال قوم في البَقيع، وقال آخرون في المسجد، وقال قوم : يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم . حتى قال العالم الأكبر (٢) : سمعته يقول : "ما دفن نبيّ إلا حيث يموت" ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما . الثالث — أنهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استتب الأمر وانتظم الشمل واستوثقت (٣) الحال، واستقرت الخلافة في نصابها فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعة أخرى عن ملأٍ منهم ورضا، فكشف الله به الكُرْبة من أهل الردّة، وقام به الدّين، والحمد لله رب العالمين . ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنظروا في دفنه وغسّلوه وكفّنوه . والله أعلم .

---

(١) في جـ و ب و د : ناثيا . (٢) يريد به أبا بكر رضي الله عنه . (٣) في هـ : استوسقت .

الرابعة — واخْتُلِف هل صُلّي عليه أم لا ، فمنهم من قال : لم يصلِّ عليه أحدٌ ، وإنما وقف كل واحد يدعو ، لأنه كان أشرف من أن يُصَلَّى عليه . وقال ابن العربي : وهذا كلام ضعيف ؛ لأن السنة تقام بالصلاة عليه في الجنازة ، كما تقام بالصلاة عليه في الدعاء ، فيقول : اللّهم صل على محمد إلى يوم القيامة ، وذلك منفعة لنا . وقيل : لم يصلَّ عليه ؛ لأنه لم يكن هناك إمام . وهذا ضعيف ؛ لأن الذي كان يقيم بهم الصلاة الفريضة هو الذي كان يَؤُمّ بهم في الصلاة . وقيل : صلّى عليه الناس أفذاذا ؛ لأنه كان آخر العهد به ، فأرادوا أن يأخذ كل أحد بركته مخصوصا دون أن يكون فيها تابعا لغيره . والله أعلم بصحة ذلك .

قلت : قد خرّج ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه : فلما فرغوا من جَهازه يوم الثلاثاء وُضِع على سريره في بيته ، ثم دخل الناسُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا (١) يُصلّون عليه ، حتى إذا فرغوا أدخلوا النساء ، حتى إذا فرغن أدخلوا الصبيان ، ولم يَؤُمّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ . خرّجه عن نصر ابن علي الجَهْضَمِيّ أنبأنا وهب بن جرير حدّثنا أبي عن محمد بن إسحاق قال حدّثني حسين ابن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس ، الحديثَ بطوله .

الخامسة — في تغيير الحال بعدموت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، عن أنس قال : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كلّ شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلّ شيء ، وما نَفَضْنا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا . أخرجه ابن ماجه ، وقال : حدّثنا محمد بن بشّار أخبرنا عبد الرحمن بن مهديّ حدّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كنا نتّقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن ينزل فينا القرآن ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلّمنا . وأسند عن أم سلَمة بنت أبي أمية زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم [أنها قالت] (٢) : كان الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المُصَلِّي [يصلي] (٢) لم يَعْدُ بصرُ

(١) أرسالا : أفواجا وفرقا متقطعة بعضهم يتلو بعضا ؛ واحدهم رسل ، بفتح الراء والسين .

(٢) زيادة عن ابن ماجه .

أحدهم موضع قدميه، فلما تُوفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر، فكان النـاس إذا قام أحدهم يصلى لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع جبينه، فتوفى أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يعْدُ بصر أحدهم موضع القبلة ، فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فتلفت الناس فى الصلاة يميناً وشمالا .

قوله تعالى : ﴿أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ﴾ «أفإين مات» شرط، «أو قتل» عطف عليه، والجواب «ٱنقَلَبْتُمْ» . ودخل حرف الآستفهام على حرف الجزاء لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة وخبرا واحدا . والمعنى : أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قُتِل؟ وكذلك كل استفهام دخل على حرف الجـزاء ؛ فإنه فى غير موضعه ، وموضعه أن يكون قبل جواب الشرط . وقوله «ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ» تمثيل، ومعناه ارتددتم كفارا بعد إيمانكم، قاله قتادة وغيره . ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه : انقلب على عقبيه . ومنه «نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ»(١) . وقيل : المراد بالآنقلاب هنـا الآنهزام ، فهو حقيقة لا مجـاز . وقيل : المعنى فعلتم فعل المرتدّين وإن لم تكن رِدَّةٌ .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئًا ﴾ بل يضر نفسه ويعرّضها للعقاب بسبب المخالفة، والله تعالى لاتنفعه الطاعة ولا تضرّه(٢) المعصية لغناه . ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ، أى الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا . وجاء « وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ » بعد قوله : « فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئًا » فهو اتصال وعدٍ بوعيد .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ هـذا حَضٌّ على الجهاد، وإعلامٌ أن الموت لابدّ منه وأن كلّ إنسانٍ مقتولٍ أو غير مقتولٍ ميّتٌ إذا بلغ أجلَه المكتوبَ له ؛ لأن معنى « مُّؤَجَّلًا » إلى أجل . ومعنى « بإذن الله » بقضاء الله وقدره . و « كِتَٰبًا » نصب على المصدر ، أى كتب الله كتابا مؤجلا . وأجلُ الموت هو الوقت الذى

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦ (٢) فى هـ و د : ولا يتضرر بالمعصية .

فى معلومه سبحانه ، أن روح الحيّ تفارق جســده ، ومتى قُتل العبد علمنا أن ذلك أجله . ولا يصحّ أن يقال : لو لم يقتل لعاش . والدليـل على قوله : « كتابا مؤجّلا » « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[1] « إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ » « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » . والمعتزلِيّ يقـول : يتقدم الأجل و يتأخر ، وأن من قتل فإنمـا يهلك قبل أجله ، وكذلك كلّ ما ذبح من الحيوان كان هلاكه قبل أجله ؛ لأنه يجب على القاتل الضّمان والدية . وقد بيّن الله تعالى فى هذه الآية أنه لا تهلك نفس قبل أجلها . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأعراف»[2] إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على كتب العلم وتدوينه . وسيأتى بيانه فى « طه » عند قوله : « قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ »[3] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ يعنى الغنيمة . نزلت فى الذين تركوا المركز طلبا للغنيمة . وقيـل : هى عامّة فى كل من أراد الدنيـا دون الآخرة ؛ والمعنى نؤته منها ما قُسم له . وفى التنزيل : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »[4] . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أى نؤته جزاء عمـله ، على ما وصف الله تعـالى من تضعيف الحسنات لمن يشاء . وقيل : المراد منها[5] عبد الله بن جُبَيْر ومن لزم المركز معه حتى قتِـلوا . ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ أى نؤتيهـم الثواب الأبديّ جزاءً لهم على ترك الانهـزام ، فهو تأكيد لمـا تقدّم من إيتاء مزيد الآخرة . وقيـل : « وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » من الرزق فى الدنيا لئلا يُتَوَهّم أن الشاكر يُحرم ما قُسم له ممـا يناله الكافر .

قوله تعـالى : وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢ و جـ ١٣ ص ٣٢٧ و جـ ٩ ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠٥ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥ (٥) فى د و جـ : بهذا .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ(١) مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قال الزهرى : صاح الشيطان يوم أُحُد : قتِل محمد؛ فآنهزم جماعة من المسلمين . قال كعب بن مالك : فكنت أوّل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأيتُ عينيه من تحت المِغْفر تزهران ، فناديت بأعلى صوتى : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلىّ أن اسكت ، فأنزل الله عز وجل : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا » الآية . و « كأين » بمعنى كَمْ . قال الخليل وسيبويه : هى أىّ دخلت عليها كاف التشبيه وبنيت معها فصار فى الكلام معنى كم وصوّرت فى المصحف نونا؛ لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغيّر لفظها لتغير معناها ، ثم كثر استعمالها فتلعّبت(٢) بها العرب وتصرفت فيها بالقلب والحذف ، فحصل فيها لغات أربعٌ قُرِئَ بها . وقرأ ابن كثير « وَكَائِنْ » مثـل وكَاعِنْ ، على وزن فاعل ، وأصله كَيْءٍ فقلبت الياء ألفا ، كما قلبت فى يَيْأَس(٣) فقيل يَاءَس؛ قال الشاعر :

وكَائِنْ بالأَبَاطِحِ من صَدِيقٍ * يَرَانِى لَوْ أُصِبْتُ هو المُصَابَا

وقال آخر :

وكَائِنْ رَدَدْنا عنكم مِن مُدَجَّجٍ * يَجِيءُ أمامَ الرَّكْب يَرْدِى(٤) مُقَنَّعَا

وقال آخر :

وكَائِنْ فى المَعَاشِرِ(٥) من أُنَاس * أخـوهم فَوْقَهم وهُمُ كِرَامُ

وقرأ ابن محيصن « وكَئِنْ » مهموزا مقصورا مثـل وكَعِن ، وهو من كَائِنْ حذفت ألفه . وعنه أيضا «وكَأْيِن» مثل وكَعْيِنْ وهو مقلوب كَيْءٍ المخفف . وقرأ الباقون « كَأَيِّنْ» بالتشديد مثل كَعَيِّن وهو الأصل، قال الشاعر :

كَأَيِّنْ من أُناسٍ لم يزالوا * أخـوهم فوقَهم وهُمُ كرامُ

---

(١) قراءة نافع . (٢) فى ا و ح : فلعبت . (٣) القلب فى ذلك على لغة من يقلب حرف العلة الساكن المفتوح ماقبله ألفا ، وهى لغة بلحارث بن كعب وخثعم وزبيد وقبائل من اليمن ، كما ذكره الواحدى فى وسيطه فى تفسير قوله تعالى : « إن هذان لساحران » . (٤) يردى : يمشى الرديان (بالتحريك) وهو ضرب من المشى فيه تبختر . والمقنع : الذى تقنع بالسلاح ؛ كالبيضة والمغفر . (٥) فى البحر : المعاشر .

وقال آخر :

كَأَيِّنْ أَبَدْنا من عدوٍ بِعِزِّنا * وكائنْ أجرْنا من ضَعِيفٍ وخائفِ

فجمع بين لغتين : كَأَيِّنْ وكَائِنْ ، ولغة خامسة كَيْئِنْ مثل كَيْعِنْ ، وكأنه مخفف من كَيِّئٍ مقلوب كَأَيِّنْ . ولم يذكر الجوهري غير لغتين : كَائِنْ مثل كاعِنْ، وكَأَيِّنْ مثل كَعَيِّنْ؛ تقول كَأَيِّنْ رجلا لقيتُ؛ بنصب ما بعد كَأَيِّنْ على التمييز . وتقول أيضا : كَأَيِّنْ مِن رجل لقيت؛ وإدخال مِن بعد كأيِّنْ أكثرُ من النصب بها وأجودُ . وبكَأَيِّنْ تبيع هذا الثوب؟ أي بكم تبيع؛ قال ذو الرمّة :

وكَائِنْ ذَعَرْنا من مَهَاةٍ ورَامِحٍ * بِلَادُ العِدَا[(1)] لَيْسَتْ له بِبِلادِ

قال النحاس : ووقف أبو عمرو « وكَأَيْ » بغير نون؛ لأنه تنوين . وروى ذلك سَوْرَةُ ابن المبارك عن الكسائيّ . ووقف الباقون بالنون اتباعا لخط المصحف . ومعنى الآية تشجيع المؤمنين ، والأمر بالاقتداء بمن تقدم من خِيار أتباع الأنبياء؛ أي كثير من الأنبياء قُتِل معه رِبِّيون كثير، أو كثير من الأنبياء قتِلوا فما ارتدّ أممهم؛ قولان : الأوّل للحسن وسعيد بن جبير . قال الحسن : ما قُتِل نبي في حرب قط . وقال ابن جبير : ما سمعنا أن نبيا قتل في القتال . والثاني عن قتادة وعكرمة . والوقف — على هذا القول — على « قُتِل » جائز ، وهي قراءة نافع وابن جبير وأبي عمرو ويعقوب . وهي قراءة ابن عباس واختارها أبو حاتم . وفيه وجهان : أحدهما أن يكون « قُتِل » واقعا على النبيّ وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله « قُتِل » ويكون في الكلام إضمار، أي ومعه ربيون كثير؛ كما يقال : قُتِل الأمير معه جيش عظيم، أي ومعه جيش . وخرجتُ معي تجارة؛ أي ومعي . الوجه الثاني أن يكون القتل نال النبيّ ومن معه من الربِّيين، ويكون وجه الكلام قتِل بعض من كان معه؛ تقول العرب : قتلنا بني تميم وبني سليم، وإنما قتلوا بعضهم . ويكون قوله « فَمَا وَهَنُوا » راجعا إلى من بقي منهم . قلت : وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقتل، وقُتِل معه جماعة من أصحابه . وقرأ الكوفيون وابن عامر « قَاتَلَ » وهي قراءة

(1) كذا في الأصول المهاة : البقرة الوحشية . والرامح : الثور الوحشي؛ لأن قرنه بمنزلة الرمح فهو رامح : والمعنى لا يقيم مع الإنس في مكان . الذي في ديوانه : « بلاد الورى ليست له ببلاد » .

ابن مسعود ؛ واختارها أبو عبيد وقال · إن الله إذا حمد من قاتل كان من قُتل داخلا فيه ، وإذا حمد من قُتِل لم يدخل فيه غيرهم ؛ فقاتل أعم وأمدح . و « الرِّبيون » بكسر الراء قراءة الجمهور . وقراءة علىّ رضى الله عنه بضمها . وابن عباس بفتحها ؛ ثلاث لغات . والرِّبِّيون الجماعات الكثيرة ؛ عن مجاهد وقتادة والضحّاك وعكرمة ، واحدهم رُبِّىّ بضم لراء وكسرها ؛ منسوب إلى الرِّبة بكسر الراء أيضا وضمها ، وهى الجماعة . وقال عبد الله بن مسعود : الرِّبِّيّون الألوف الكثيرة . وقال ابن زيد : الربِّيون الأتباع . والأوّل أعرف فى اللغة ؛ ومنه يقال للخرقة التى تجمع فيها القِدَاح : رِبّةٌ ورُبّة . والرِّبَاب قبائل تجمّعت . وقال أَبَان بن ثعلب : الرِّبِّى عشرة آلاف . وقال الحسن : هم العلماء الصُّبُر . ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسّدى : الجَمْعُ الكثير ؛ قال حسّان :

وإذا مَعْشَرٌ تجافَوْا عن الحَـ * ـقِّ حَمَلْنَا عليهم رُبِّيَّا

وقال الزجاج : هاهنا قراءتان « رُبِّيُّـون » بضم الراء « ورِبِّيُّـون » بكسر الراء؛ أما الرُّبيون (بالضم) : الجماعات الكثيرة . ويقال : عشرة آلاف . قلت : وقد روى عن ابن عباس « رَبِّيُّون» بفتح الراء منسوب إلى الرب . قال الخليل : الرِّبِّى الواحد من العبّاد الذين صبروا مع الأنبياء . وهم الربانيون نسبوا إلى التألُّه والعبادة ومعرفة الرُّبوبية لله تعالى . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ « وَهَنُوا » أى ضعُفوا، وقد تقدّم والوهن : انكسار الجِدّ[1] بالخوف . وقرأ الحسن وأبو السَّمّال « وَهِنُوا » بكسر الهاء وضمها، لغتان عن أبى زيد . وهَن الشيء يهِن وَهْنا . وأوْهَنْته أنا ووهّنته ضعّفته . والواهِنة : أسفل الأضلاع وقِصارُها[1] . والوَهَن من الإبل : الكثيف . والوَهْن : ساعة تمضى من الليل، وكذلك المَوْهِن . وأوْهَنا صِرْنا[2] فى تلك الساعة؛ أى ما وَهَنوا لقتل نبيهم، أو لقتل مَن قُتِل منهم، أى ما وهن باقيهم ؛ فحذف المضاف . ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ أى عن عدوّهم . ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُوا ﴾ أى لما أصابهم فى الجهاد . والاستكانة : الذّلة والخضوع ؛ وأصلها « ٱسْتَكَنُوا » على افتعلوا ؛ فأُشبِعت فتحةُ الكاف فتولّدت منها ألفٌ . ومن جعلها من الكَوْن فهى استفعلوا ؛ والأول

(١) الواهنة : القصيرى وهى أسفل الأضلاع . (٢) كذا فى د واللسان ، وفى هـ و ا و ح : ضربنا .

أشبه بمعنى الآية . وقُرِئ « فَمَا وَهْنُوا وَمَا ضَعْفُوا » بإسكان الهاء والعين . وحكى الكسائى « ضَعَفُوا » بفتح العين . ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قُتل منهم أو قتل نبيّهم بأنهم صبروا ولم يفِرّوا ووطّنوا أنفسهم على الموت ، واستغفروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رُزِقوا الشهادة ، ودعوا فى الثبات حتى لا ينهزموا ، وبالنصر على أعدائهم . وخَصّوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها . يقول : فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟ فأجاب دعاءهم وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة فى الدنيا والمغفرة فى الآخرة إذا صاروا إليها . وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه، الثابتين عند لقاء عدوّه بوعده الحق ، وقوله الصدق . ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ يعنى الصابرين على الجهاد . وقرأ بعضهم « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ » بالرفع؛ جعل القول آسما لكان؛ فيكون معناه وما كان قولهم إلا قولهم : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ومن قرأ بالنصب جعل القول خبر كان . وآسمها « إِلَّا أَنْ قَالُوا » . « رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » يعنى الصغائر ﴿ وَإِسْرَافَنَا ﴾ يعنى الكبائر . والإسراف : الإفراط فى الشيء ومجاوزة الحدّ . وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء " اللهم آغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى " وذكر الحديث . فعلى الإنسان أن يستعمل ما فى كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويَدَع ما سواه، ولا يقول أختار كذا؛ فإن الله تعالى قد اختار لنبيّه وأوليائه وعلّمهم كيف يدعون .

قوله تعالى : فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآتَاهُمُ اللهُ ﴾ أى أعطاهم ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ ، يعنى النصر والظفر على عدوّهم . ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ يعنى الجنة . وقرأ الجحدرى « فَأَثَابَهُمُ اللهُ » من الثواب . ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

لما أمر الله تعالى بالاقتداء بمن تقدّم من أنصار الأنبياء حَذّرَ طاعة الكافرين؛ يعنى مشركى العرب : أبا سفيان وأصحابه . وقيل : اليهود والنصارى . وقال علىّ رضى الله عنه : يعنى المنافقين فى قولهم للؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين آبائكم . ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ أى إلى الكفر . ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى فترجعوا مغبونين . ثم قال : ﴿ بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى مُتَوَلّى نصركم وحفظكم إن أطعتموه . وقُرِئَ « بَلِ اللهَ » بالنصب ، على تقدير بل وأطيعوا الله مولاكم .

قوله تعالى : سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

نظيره « وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ »(١) . وقرأ ابن عامر والكسائى « الرُّعُب » بضم العين؛ وهما لغتان . والرُّعْب : الخوف؛ يقال : رَعَبْتُه رُعْبا ورُعُبا، فهو مَرْعُوب . ويجوز أن يكون الرُّعْب مصدرا ، والرُّعُب الاسم . وأصله من المَلْء؛ يقال : سَيْل راعب يملأ الوادى . ورعبت الحوض ملأته . والمعنى : سَنَملأ قلوب المشركين(٢) خوفا وفزعا . وقرأ السَّختيانى « سَيُلْقِى » بالياء ، والباقون بنون العظمة . قال السُّدّى وغيره : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحُد متوجّهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا! قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشَّرِيد(٣) تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هَمُّوا به . والإلقاء يستعمل حقيقة فى الأجسام؛ قال الله تعالى : « وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ »(٤) « فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ » « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ » . قال الشاعر :

* فألقَتْ عصاها واستقرّ بها النَّوَى *

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣ (٢) فى د وجـ و هـ : الكافرين . (٣) فى د : الشديد .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٨٨ و ٢٥٦ و جـ ١٣ ص ٩٧

ثم قد يستعمل مجازا كما فى هذه الآية، وقوله : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي »[1] . وألق عليك مسألة .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ تعليل ؛ أى كان سبب إلقاء الرعب فى قلوبهم إشراكهم؛ فما للصدر . ويقال : أشرك به أى عَدَل به غيره ليجعله شريكا .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ حجّةً وبيانا ، وعُذْرا وبرهانا؛ ومن هذا قيل للوالى سلطان ؛ لأنه حجة الله عز وجل فى الأرض . ويقال : إنه مأخوذ من السَّلِيط وهو ما يضاء به السِّراج ، وهو دُهْنُ السِّمْسِم ؛ قال آمرؤ القيس :

* أَمَالَ[2] السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ *

فالسلطان يُستضاء به فى إظهار الحق وقمع الباطل . وقيل السَّلِيط الحديد . والسَّلاطَة الحدّة . والسلاطة من التسليط وهو القهر؛ والسلطان من ذلك ، فالنون زائدة . فأصل السلطان القوة؛ فإنه يُقهر بها كما يُقهر بالسلطان . والسلِيطة المرأة الصَّخَّابَة . والسليط الرجل الفصيح اللسان . ومعنى هذا أنه لم تثبت عبادة الأوثان فى شىء من المِلَل ، ولم يَدُلّ عقلٌ على جواز ذلك . ثم أخبر تعالى عن مصيرهم ومرجعهم فقال : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ ثم ذمّه فقال : ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ والمَثْوَى : المكان الذى يقام فيه؛ يقال : ثَوَى يَثْوِى ثَوَاءً . والمأوى : كل مكان يرجع إليه شىءٌ ليلا أو نهاراً .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

قال محمد بن كعب القرظى : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أُحُد وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ! فنزلت هذه الآية . وذلك أنهم قتلوا صاحبَ لِوَاء المشركين وسبعةَ نفر منهم بعده على اللواء ، وكان

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٦   (٢) فى الأصول : أهان : والذى أثبتناه هو ما فى الديوان وكتب اللغة .

الظفر ابتداءً للسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة، وترك بعضُ الرّماة أيضا مركَزهم طلباً للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة . روى البخارى عن البَراء بن عازب قال : لما كان يوم أُحُد ولقينا المشركين أجلس رسـول الله صلى الله عليه وسلم أناسا من الرُّماة وأمَّر عليهم عبد الله ابن جبير وقال لهم : "لا تبرحـوا من مكانكم [إن رأيتمونا ظهرنا عليهـم فلا تبرحوا][1] و إن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تُعينونا عليهم" قال : فلمّا التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يَشْتَدِدْن[2] فى الجبل ، وقد رفعن عن سُـوقهن قد بدت خلاخِلُهن فجعلوا يقولون : الغنيمةَ الغنيمةَ . فقال لهم عبد الله : أمهلوا ! أما عَهِد إليكم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ألّا تبرحوا ، فآنطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقُتِل من المسلمين سبعون رجلا . ثم إنّ أبا سفيان بن حرب أشرف علينا وهو فى نَشَز فقال : أفى القوم محمدٌ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُجيبوه" حتى قالها ثلاثا . ثم قال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ ثلاثا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تُجيبوه" ثم قال : أفى القوم عمر [بن الخطاب][3]؟ ثلاثا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تُجيبوه" ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمّا هؤلاء فقد قتِلوا . فلم يملك عمر رضى الله عنه نفسه دون أن قال : كذبتَ يا عدوّ الله ! قد أبقى الله لك من يُخزيك به . فقال : أُعْلُ هُبَلُ[4] ؛ مرتين . فقال النبيّ صلى الله عليـه وسلم : "أجيبوه" فقالوا : ما نقول يا رسول الله؟ قال "قولوا اللهُ أعْلَى وأجَلّ" . قال أبو سفيان : لنـا العُزَّى[5] ولا عُزّى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أجيبوه" . قالوا : ما نقول يا رسول الله؟ قال : قولوا "الله مولانا ولا مَوْلَى لكم" . قال أبوسفيان : يومٌ بيوم بَدْر ، والحرب سِجَال ، أمّا إنكم ستجدون فى القوم مُثْلة لم آمر بها ولم تسؤنى . وفى البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أُحُد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم أشدّ القتال . وفى رواية عن سـعد : عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ . يعنى جبريل وميكائيل . وفى رواية أخرى : يقاتلان عن رسول الله

(١) زيادة عن صحيح البخارى . والذى فيه : « لا تبرحوا إن رأيتمونا » . (٢) أى يسرعن المشى .
(٣) فى ج و هـ و د . (٤) أى أظهر دينك ، أو زد علوا ، أو ليرتفع أمرك و يعز دينك فقد غلبت .
(٥) العزى : اسم صنم لقريش .

صلى الله عليه وسلم أشدّ القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده . وعن مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة معهم يومئذ، ولا قبله ولا بعده إلا يوم بدر . قال البيهقي : إنما أراد مجاهد أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُد عن القوم حين عصوا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به . وعن عروة بن الزبير قال : وكان الله عز وجل وعدهم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين : وكان قد فعل؛ فلما عَصَوْا أمر الرسول وتركوا مَصَافَّهم وترك الرماةُ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ألّا يبرحوا من منازلهم، وأرادوا الدنيا، رُفع عنهم مددُ الملائكة، وأنزل الله تعالى «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ» فصدق الله وعده وأراهم الفتح، فلما عَصَوْا أعقبهم البلاء . وعن عمير بن إسحاق قال : لما كان يوم أُحُد انكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعدٌ يَرمِي بين يديه، وفَتًى يُنَبِّل له، كلما ذهبت نَبْلَةٌ[1] أتاه بها . قال : ارْمِ أبا إسحاق . فلما فرغوا نظروا من الشابّ؟ فلم يروه ولم يعرفوه . وقال محمد بن كعب : ولما قُتِل صاحب لواء المشركين وسقط لواؤهم، رفعته عَمْرَة بنت علقمة الحارثية؛ وفي ذلك يقول حسّان :

فلولا لِواءُ الحارثيةِ أصبحوا * يباعُون في الأسواق بَيْعَ الجلائب

و﴿ تَحُسُّونَهُمْ ﴾ معناه تقتلونهم وتستأصلونهم؛ قال الشاعر :

حَسَسْناهم بالسّيف حَسًّا فأصبحتْ * بقيّتُهم قد شُرِّدُوا وتَبَدَّدُوا

وقال جرير :

تَحُسُّهُمُ السُّيُوفُ كما تَسامَى * حَرِيقُ النَّارِ في الأَجَمِ الحَصِيدِ

قال أبو عبيد : الحَسُّ الاستئصال بالقتل؛ يقال : جراد محسوس إذا قتله البردُ . والبرد مَحَسَّةٌ للنبت . أي مُحْرِقَةٌ له ذاهبة به . وسَنَةٌ حَسُوس أي جدبة تأكل كل شيء؛ قال رؤبة :

إذا شَكَوْنا سَنَةً حَسُوسَا * تأكل بعدَ الأَخْضَرِ[2] اليَبِيسَا

وأصله من الحِسّ الذي هو الإدراك بالحاسة . فمعنى حَسّه أذهب حِسّه بالقتل . ﴿ بإذنِهِ ﴾ بعلمه، أو بقضائه وأمره . ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ أي جَبُنتم وضَعُفتم . يقال : فَشِل يفْشَل فهو

(١) في د : نقله محمد بن كعب . (٢) في اللسان : الخضرة .

فَشِل وفَشُل . وجواب « حتى » محذوف، أى حتى إذا فشلتم امْتُحِنتم . ومثل هـذا جائز كقوله : « فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ »(١) فأفعـل . وقال الفرّاء: جواب «حَتَّى» ، «وَتَنَازَعْتُمْ » والواو مقحمة زائدة؛ كقوله « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ »(٢) أى ناديناه . وقال ٱمرؤ القيس :

* فلمّا أجزْنا ساحةَ الحىِّ وٱنتحى *

أى انتحى . وعنـد هؤلاء يجوز إقحام الواو من « وَعَصَيْتُمْ » . أى حتى إذا فشلتم وتنازعتم عصيتم . وعلى هذا فيـه تقديم وتأخير، أى حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشلتم . وقال أبو على : يجوز أن يكون الجواب « صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » ، و«ثم» زائدة، والتقدير حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم . وقد أنشد بعض النحويين فى زيادتها قول الشاعر :

أرانى إذا ما بِتُّ بِتّ على هوًى * فثُمَّ إذا أصبحتُ أصبحتُ عاديا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة؛ كما فى قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ »(٣) . وقيل : « حـتى » بمعنى « إلى » وحينئـذ لا جواب له؛ أى صـدقكم الله وعده إلى أن فشـلتم ، أى كان ذلك الوعد بشرط الثبات . ومعنى ﴿ تَنَازَعْتُمْ ﴾ اختلفتم؛ يعنى الرماة حين قال بعضهم لبعض : نلحق الغنائم . وقال بعضهم : بل نثبت فى مكاننا الذى أمرنا النبي صلى الله عليـه وسلم بالثبوت فيـه . ﴿ وَعَصَيْتُمْ ﴾ أى خالفتم أمر الرسول فى الثبوت . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ يعنى من الغلبة التى كانت للسلمين يوم أُحُد أوّل أمرهم؛ وذلك حين صُرِع صاحب لواء المشركين على ما تقـدّم ، وذلك أنه لمـا صُرِع انتشر النبي صلى الله عليـه وسلم وأصحابه وصاروا كتائب متفرّقة فحاسُوا(٤) العدوّ ضربا حتى أجْهَضُوهم(٥) عن أثقالهم . وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات كل ذلك تُنْضَح بالنَّبْل فترجع مغلوبة(٦) ، وحمل المسلمون فنهكوهم قتلا . فلما أبصر الرماةُ الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهـم قالوا : والله ما نجلس

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٧ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٩ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٨١

(٤) الحوس : شدّة الاختلاط ومداركة الضرب . أى بالغوا النكاية فيهم؛ فى هـ و د : جاسوا .

(٥) أى نحوهم عنها وأزالوهم . (٦) فى د : مفلولة .

ههنا لشيء ، قد أهلك الله العدوّ وإخواننا فى عسكر المشركين . وقال طوائف منهم : عَلامَ نقفُ وقد هزم الله العدوّ؟ فتركوا منازلهم التى عهد إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ألّا يتركوها ، وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول فأوجَفت الخيل فيهم قتلا . وألفاظ الآية تقتضى التوبيخ لهم ، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر فى الثبات لا فى الانهزام . ثم بيّن سبب التنازع فقال : ﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعنى الغنيمة . قال ابن مسعود : ما شعرنا أن أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحُد . ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا فى مركزهم ، ولم يخالفوا أمر نبيهم صلى الله عليه وسلم مع أميرهم عبد الله بن جبير؛ فحمل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل عليه ، وكانا يومئذ كافرين فقتلوه مع من بقى ، رحمهم الله . والعتاب مع مَن انهزم لا مع مَن ثبت ، فإن من ثبت فاز بالثواب ، وهذا كما أنه إذا حل بقوم عقوبة عامة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون ؛ ولكن لا يكون ما حل بهم عقوبة ، بل هو سبب المثوبة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أى بعد أن استوليتم عليهم ردّكم عنهم بالانهزام . ودلّ هـذا على أن المعصية مخلوقة لله تعـالى . وقالت المعتزلة : المعنى ثم انصرفتم ؛ فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاءً لهم . قال القشيرى : وهذا لا يغنيهم ، لأن إخراج الرعب من قلوب الكافرين حتى يستخفّوا بالمسلمين قبيحٌ ولا يجوز عنـدهم ، أن يقع من الله قبيحٌ ، فلا يبقى لقوله : « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » معنًى . وقيل : معنى « صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » أى لم يكلفكم طلبهم .

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ واللهُ ذُو فَضْـلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى لم يستأصلكم بعـد المعصية والمخالفة . والخطاب قيل هو للجميع . وقيل : هو للرماة الذين خالفوا ما أُمروا به ، واختاره النحاس . وقال أكثر المفسرين : ونظير هـذه الآية قوله : « ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ »(٢) . ﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو والمغفرة . وعن ابن عباس قال : ما نُصر النبيّ صلى الله

(١) الإيجاف : سرعة السير .   (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٧

عليه وسلم فى موطن كما نُصر يوم أُحد، قال: وأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بينى و بين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل، إن الله عز وجل يقول فى يوم أُحد: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ — يقول ابن عباس: والحَسّ القتـل «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْـدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» وإنمـا عنى بهذا الرماة. وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أقامهم فى موضـع ثم قال: "احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنِمنا فلا تشركونا". فلمـا غنِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين انكفأت الرماةُ جميعا فدخلوا فى العسكر ينتهبون، وقد التقت صفوف أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، فهم هكذا — وشبّك أصابع يديه — والتبسوا. فلما أخَلّ الرماةُ تلك الخَلّة[(١)] التى كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضا والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسـلم وأصحابِه أوّلُ النهار حتى قتل من أصحاب لواءِ المشركين سـبعة أو تسعة، وجال المسلمون نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس: الغار[(٢)]، إنما كانوا تحت المِهراس[(٣)] وصاح الشيطان: قتل محمد. فلم يُشَكّ فيه أنه حق، فمـا زلنا كذلك ما نشك أنه قتِل حتى طلع علينا رســول الله صلى الله عليه وسـلم بين السَّعدَين[(٤)]، نعرفـه بتكفئِه[(٥)] إذا مشى. قال: ففرحنا حتى كأنّا لم يصبنا ما أصابنا. قال: فرقى نحونا وهو يقول: "اشـتدّ غضب الله على قوم دمّوا وجه نبيهم[(٦)]". وقال كعب بن مالك: أنا كنت أوّل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسـلم من المسلمين؛ عرفته بعينيه من تحت المِغفَر تزهران فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمين! ابشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل. فأشار إلىّ أن اسكت.

---

(١) أخل بالمكان وبمركزه: غاب عنه وتركه. والخلة: الطريق. (٢) كذا فى الأصـول. والذى فى الدر المنثور، والمستدرك للحاكم: «... أغاب» بالباء بدل الراء. (٣) المهراس: ماء بجبل أحد.

(٤) السعدان: سعد بن معاذ وسـعد بن عبادة. (٥) التكفؤ: التمايل إلى قـدّام كما تتكفأ السفينة فى جريها. (٦) فى د ره وجه: وجه رسوله.

قوله تعالى : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

« إذ » متعلق بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » . وقراءة العامة « تُصْعِدُونَ » بضم التاء وكسر العين . وقرأ أبو رجاء العطارِدِيّ وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة بفتح التاء والعين ، يعنى تصعدون الجبل . وقرأ ابن مُحَيْصن وشِبْل « إذ يصعدون ولا يلوون » بالياء فيهما . وقرأ الحسن «تَلُون» بواو واحدة . وروى أبو بكر بن عيّاش عن عاصم «ولا تُلوون» بضم التاء؛ وهى لغة شاذة ذكرها النحاس . وقال أبو حاتم : أصعدت إذا مضيت حيال وجهك ، وصعِدت إذا ٱرتقيت فى جبل أو غيره . فالإصعاد : السير فى مستوٍ من الأرض و بطون الأودية والشِّعاب . والصعود : الآرتفاع على الجبال والسطوح والسّلالِيم والدَّرَج . فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل بعد إصعادهم فى الوادى ؛ فيصح المعنى على قراءة « تُصْعِدون » و « تَصْعَدون » . قال قتادة والربيع : أصعدوا يوم أحد فى الوادى . وقراءة أُبَىّ « إذ تَصعدون فى الوادى » . قال ابن عباس : صعِدوا فى أُحُد فرارا . فكلتا القراءتين صواب ؛ كان يومئذ من المنهزمين مُصْعِد وصاعد . والله أعلم . قال القُتَبِىّ والمبرد : أصعد إذا أبعد فى الذهاب وأمعن فيه؛ فكأن الإصعاد إبعاد فى الأرض كإبعاد الارتفاع ؛ قال الشاعر (١) :

ألا أيهذا السائلى أيْنَ أصْعدتْ (٢) * فإنّ لها من بطن يثْرِب موعِدا

وقال الفرّاء : الإصعاد الابتداء فى السفر، والانحدار الرجوع منه ؛ يقال : أصعدنا من بغداد إلى مكة و إلى خراسان وأشباه ذلك إذا خرجنا إليها وأخذنا فى السفر، وانحدرنا إذا رجعنا . وأنشد أبو عبيدة :

قد كنتِ تبكين على الإصعاد * فاليوم سُرِّحْتِ وصاح الحادِى

---

(١) هو أعشى قيس . (٢) الذى فى ديوان الأعشى وسيرة ابن هشام ص ٢٥٥ طبع أوربا : « أين يممت » . والبيت من قصيدة يمدح بها النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ومطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا * وعادك ما عاد السليم المسهدا

وقال المفضل : صَعِد وأَصْـعَد وصَعَّد بمعنى واحد . ومعنى « تَلْوُونَ » تعرجون وتقيمون، أى لا يلتفت بعضكم إلى بعض هَرَبا ؛ فإن المُعَرِّج على الشيء يلوى إليه عُنقه أو عنان دابته . ﴿ عَلَى أَحَدٍ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ قاله الكلبي . ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ أى فى آخركم ؛ يقال : جاء فلان فى آخر الناس وأُخَرة الناس وأُخْرَى الناس وأخرَيات الناس . وفى البخارى « أُخْرَاكُمْ » تأنيث آخركم : حدّثنا عمرو بن خالد حدّثنا زهير حدّثنا أبو إسحاق قال سمعت البراء بن عازب قال : جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم على الرَّجَّالة يوم أُحُد عبد الله ابن جبير وأقبـلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسـول فى أخراهم . ولم يبق مع النبيّ صلى الله عليه وسلم غير آثنى عشر رجلا . قال ابن عباس وغيره : كان دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أى عباد الله ارجعوا" . وكان دعاءه تغييرا للنكر ، ومحـال أن يرى عليه السلام المنكر وهو الآنهزام ثم لا ينهى عنه .

قلت : هـذا على أن يكون الآنهـزام معصية وليس كذلك ، على ما يأتى بيـانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ الغم فى اللغة : التغطية . غممت الشيء غطيته . ويوم غَمٌّ وليلة غَمَّةٌ إذا كانا مظلمين . ومنه غمّ الهلال إذا لم ير، وغمّنى الأمر يَغُمُّنِي . قال مجاهد وقتادة وغيرهما : الغَمّ الأوّل القتل والجراح ، والغم الثانى الإرجاف بقتل النبيّ صلى الله عليه عليه وسلم ؛ إذ صاح به الشيطان . وقيل : الغم الأوّل ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثانى ما أصابهم من القتل والهزيمة . وقيل : الغَمّ الأوّل الهزيمة، والثانى إشراف أبى سفيان وخالد عليهم فى الجبـل ؛ فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك ، وظنوا أنهـم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هـذا ما نالهم ؛ فعند ذلك قال النبيّ صـلى الله عليه وسـلم : "اللّهم لا يَعْلُنّ علينا" كما تقـدّم . والباء فى « بِغَمٍّ » على هذا بمعنى على . وقيل : هى على بابها ، والمعنى أنهم غموا النبيّ صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم إياه، فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم . وقال الحسن : «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا» يوم أحد «بِغَمٍّ» يوم بدر للشركين . وسمى الغم ثوابا كما سمى جزاء الذنب ذنبا . وقيل : وقفهم الله على ذنبهم فشغلوا بذلك عما أصابهم .

قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ اللام متعلقة بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » وقيل : هي متعلقة بقوله : « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ » أى كان هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من الهزيمة . والأول أحسن . و « ما » في قوله « مَا أَصَابَكُمْ » في موضع خفض . وقيل : « لا » صلة . أى لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبةً لكم على مخالفتكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو مثل قوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »(١) أى أن تسجد . وقوله « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ »(٢) أى ليعلم ، وهذا قول المفضَّل . وقيل : أراد بقوله « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ » أى توالت عليكم الغموم ، لكيلا تشتغلوا بعد هذا بالغنائم . « وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » فيه معنى التحذير والوعيد .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا ﴾ الأمَنَة والأمن سواءٌ . وقيل : الأمنة إنما تكون مع أسباب الخوف ، والأمن مع عدمه . وهي منصوبة بـ « أَنْزَلَ » و « نعاسا » بدلٌ منها . وقيل : نصب على المفعول له ؛ كأنه قال : أنزل عليكم للأمنة نعاسا(٣) . وقرأ ابن مُحَيْصِن « أَمْنَةً » بسكون الميم . تفضل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغموم في يوم

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٩ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٦
(٣) في ز و هـ و د : أنزل عليهم للأمنة نعاسا ، وفي جـ : أنزل عليكم الأمنة .

أُحُد بالنعاس حتى نام أكثرهم ؛ وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام . روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن فى مصافّنا يوم أحد، قال : فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه، ويسقط وآخذه . ﴿ يَغْشَى ﴾ قرئ بالياء والتاء . الياء للنعاس، والتاء للأمنة . والطائفة تطلق على الواحد والجماعة . ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ يعنى المنافقين : مُعَتّب بن قُشير وأصحابه ، وكانوا خرجوا طمعا فى الغنيمة وخوف المؤمنين فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتأسّفون على الحضور ، ويقولون الأقاويل . ومعنى « قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » حملتهم على الهمّ ، والهمّ ما هممت به؛ يقال : أهمّنى الشىء أى كان من همى . وأمرٌ مُهِمٌّ : شديد . وأهمّنى الأمر أقلقنى ، وهمّنى أذابنى(١) . والواو فى قوله « وطائفةٌ » واو الحال بمعنى إذْ ، أى إذ طائفةٌ يَظُنُّونَ أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم باطل ، وأنه لا يُنصر . ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أى ظنّ أهْلِ الجَاهلِيَّة ، فحذف . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لفظه استفهام ومعناه الجحد ، أى ما لنا شىء من الأمر ، أى من أمر الخروج ، وإنما خرجنا كرها ؛ يدلّ عليه قوله تعالى إخبارا عنهم : « لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا » . قال الزبير : أُرسِل علينا النوم ذلك اليوم، وإنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير والنعاسُ يغشانى يقول : لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتلنا هاهنا . وقيل : المعنى يقول ليس لنا من الظَّفَر الذى وَعَدَنا به محمد شىءٌ . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو و يعقوب « كُلُّه » بالرفع على الابتداء ، وخبره « لِلّه » ، والجملة خبر « إن » . وهو كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ(٢) » . والباقون بالنصب؛ كما تقول : إن الأمر أجمع لله . فهو توكيد ، وهو بمعنى أجمع فى الإحاطة والعموم ، وأجمع لا يكون إلا توكيدا . وقيل : نعت للأمر . وقال الأخفش : بدل ؛ أى النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذل من يشاء . وقال جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » يعنى التكذيب بالقَدَر . وذلك أنهم تكلّموا فيه ، فقال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » يعنى القَدَر خيره وشره من الله . ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى من الشّرك

(١) أى حزنه الأمر حتى أذابه . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٣

والكفر والتكذيب . ﴿ مَا لَا يُبْـدُونَ لَكَ ﴾ يظهرون لك . ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَـا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ أى ما قُتِل عشائرنا . فقيل : إن المنافقين قالوا لو كان لنا عقل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة ، ولمَـا قتِل رؤساؤنا . فردّ الله عليهم فقال : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ﴾ أى لخـرج . ﴿ الَّذِينَ كُتِبَ ﴾ أى فـرض . ﴿ عَلَيْهِمُ الْقَتْـلُ ﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ . ﴿ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أى مصارعهم . وقيل : « كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ » أى فرض عليهم القتال ، فعبّر عنه بالقتل؛ لأنه قد يؤول إليه . وقرأ أبو حَيْوَة « لَبُرِّزَ » بضم الباء وشدّ الراء ؛ بمعنى يُجعل يَخرج . وقيـل : لو تخلفتم أيها المنافقون لبرزتم إلى موطن آخر غيره تُصرعون فيه حتى يَبتلى الله ما فى الصدور و يُظهره للؤمنين . والواو فى قوله ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ﴾ مقحمة كقوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[(1)] أى ليكون ، وحذف الفعـل الذى مع لام كى . والتقـدير ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أُحد ليختبر صـبركم ويُمحِّص عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم . وقيـل : معنى « لِيَبْتَلِيَ » ليعاملكم معاملة المختبر . وقيـل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غَيْبًا . وقيل : هو على حذف مضاف ، والتقدير ليبتلى أوليـاء الله تعالى . وقد تقدّم معنى التمحيص . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى ما فيهـا من خير وشر . وقيل : ذات الصدور هى الصدور ؛ لأن ذات الشيء نفسه .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ هذه الجملة هى خبر « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا » . والمراد من تولّى عن المشركين يوم أُحد؛ عن عمر رضى الله عنـه وغيره . السُّدّى : يعنى من هرب إلى المدينة فى وقت الهزيمة دون من صَعِد الجبل. وقيل : هى فى قوم بأعيانهم تخلّفوا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى وقت هزيمتهم ثلاثة أيام ثم انصرفوا . ومعنى « اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ » اسـتدعى زللهم بأن ذكّرهم خطايا سلفت منهم ، فكرهوا الثبوت لئـلا يُقتلوا .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣

وهو معنى « ببعض ما كسبوا » . وقيل : « ٱسْتَزَلَّهُمُ » حملهم على الزلل ، وهو استفعل من الزلّة وهى الخَطِيئة . وقيل : زَلّ وأزَلّ بمعنًى واحد . ثم قيل : كرهوا القتال قبــل اخلاص التوبة ، فإنما تولّوا لهذا ، وهذا على القول الأول . وعلى الثانى بمعصيتهم النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى تركهم المركز ومَيْلِهم إلى الغنيمة . وقال الحسن : « مَا كَسَبوا » قَبُولهم من إبليس ما وســوس إليهم . وقال الكلبيّ : زيّن لهم الشيطان أعمالهم . وقيــل : لم يكن الانهزام معصية؛ لأنهم أرادوا التحصُّن بالمدينة،فيقطع العدوّ طمعه فيهم لمّا سمعوا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قُتِل. ويجوز أن يقال : لم يسمعوا دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم لِلهَوْل الذى كانوا فيه. ويجوز أن يقال : زاد عدد العدوّ على الضِّعف؛ لأنهم كانوا سبعمائة والعدوّ ثلاثة آلاف . وعند هذا يجوز الانهزام ولكن الانهزام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم خطأٌ لا يجوز ، ولعلّهم توهّموا أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم انحاز إلى الجبــل أيضا . وأحسنها الأول . وعلى الجملة فإن حُمِــل الأمر على ذنب مُحَقَّق فقد عفا الله عنه ، و إن حُمِل على انهزام مُسَوّغ فالآية فيمن أبْعَد فى الهزيمة وزاد على القدر المسوّغ . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنديّ نصر بن محمد بن إبراهيم قال : حدّثنا الخليل بن أحمد قال حدّثنا السراج قال حدّثنا قتيبة قال حدّثنا أبو بكر بن غَيْلان عن جرير : أن عثمان كان بينه و بين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أَتَسُبُّنى وقد شهدتُ بَدْرًا ولم تَشْهَد، وقــد بايعتُ تحت الشجرة ولم تبايع ، وقد كنتَ تُوَلِّى مع من تَولَّى يوم الجَمْع ، يعنى يوم أُحُد . فردّ عليه عثمان فقال : أما قولك : أنا شهدتُ بدرا ولم تشهد ، فإنى لم أَغِب عن شيء شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مريضةً وكنت معها أُمَرِّضها ، فضرب لى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهما فى سهام المسلمين ، وأما بيعة الشّجرة فإن رســول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى رَبِيئَــةً على المشركين بمكة ــ الرَّبِيئَةُ هو الناظر ــ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينه على شماله فقال : " هذه لعثمان " فيمين رســول الله صلى الله عليه وسلم وشماله خير لى من يمينى وشمالى . وأما يوم الجَمْع فقال الله تعالى : « وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ » فكنتُ فيمن عفا الله عنهم . فحجّ(1) عثمانُ عبدَ الرحمن .

(1) فى ب وهـ و د : فخاصم ، وفى جـ : فحاج .

قلت : وهذا المعنى صحيحٌ أيضا عن ابن عمر، كما فى صحيح البخارى قال : حدّثنا عَبْدان أخبرنا أبو حمزة عن عثمان بن مَوْهَب قال : جاء رجلٌ حجّ البيتَ فرأى قوما جلوسا فقال : مَن هؤلاء القعود؟ قالوا : هؤلاء قريش . قال : مَن الشيخ؟ قالوا : ابن عمر، فأتاه فقال : إنى سائلك عن شىء أتحدّثنى ؟ قال : أَنْشُدكَ بحُرْمة هـذا البيت ، أتعلم أن عثمانَ بنَ عفّان فَرَّ يوم أُحُد ؟ قال : نعم . قال : فتعلَمُه تغيّب عن بَدْرٍ فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أنه تخلّف عن بيعة الرِّضوان فلم يشهدها ؟ قال نعم . قال : فكَبّر . قال ابن عمر : تعالَ لِأخبرك ولأبيّن لك عما سألتنى عنه ؛ أمّا فِراره يوم أُحُد فأشهَدُ أن الله عفا عنه . وأما تغيُّبُه عن بَدْرٍ فإنه كان تحتـه بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضةً ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن لكَ أجرَ رجل ممن شَهِد بَدْرًا وسَهْمَه " . وأما تغيُّبُه عن بيعة الرِّضوان فإنه لو كان أحَدٌ أعزّ ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه . فبعث عثمانَ وكانت بيعةُ الرضوان بعد ما ذهب عثمانُ إلى مكة ؛ فقال[1] النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : " هذه يد عثمان " فضرب بها على يده[2] فقال : " هذه لعثمان " . آذهب بهذا[3] الآن معك .

قلت : ونظير هذه الآية توبةُ الله على آدمَ عليه السلام . وقوله عليه السلام : " فحجّ آدمُ موسى " أى غلبه بالحُجّة ؛ وذلك أن موسى عليه السلام أراد توبيخ آدمَ ولومَه فى إخراج نفسه وذرّيّته من الجنة بسبب أكله من الشجرة ؛ فقال له آدم : " أفتلومُنى على أمر قدّره الله تعالى علىّ قبل أن أخلَق بأربعين سنة تاب علىّ منه ومن تاب عليه فلا ذنب له ومن لاذنب له لايتوجّه عليه لومٌ " . وكذلك من عفا الله عنه . وإنمـا كان هذا لإخباره تعالى بذلك ، وخبرُه صِدْقٌ . وغيرهما من المذنبين التائبين يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فهم على وَجَل وخوف ألّا تُقبل توبتهم ، وإن قُبلت فالخوف أغلبُ عليهم إذ لا عِلْمَ لهم بذلك . فآعلم .

(١) قال : أشار ، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده أى أخذ ، وقال برجله أى مشى ، وقال بثوبه أى رفعه ، وكل ذلك على الاتساع والمجاز (عن نهاية ابن الأثير) .

(٢) أى اليسرى .

(٣) فى رواية " بها " أى بالأجوبة التى أجبتك بها حتى يزول عنك ما كنت تعتقده من عيب عثمان . (عن القسطلانى) فى ب و هـ و د : بهذه .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى المنافقين . ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعنى فى النفاق أو فى النسب فى السرايا التى بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بئر مَعُونة . ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ فنُهِى المسلمون أن يقولوا مثلَ قولهم . وقوله : ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ هو لِما مضى ؛ أى إذْ ضربوا ؛ لأن فى الكلام معنى الشرط من حيث كان « الذين » مُبْهَما غير موقّت ، فوقع « إذا » موقِـعَ « إذْ » كما يقع المـاضى فى الجزاء موضع المستقبل . ومعنى ﴿ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ﴾ سافروا فيها وساروا لتجارة أو غيرها فـماتوا . ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ غُزاة فقُتِلوا . والغُزَّى جمعُ منقوص لايتغيّر لفظُها فى رفع وخفض ،واحدهم غازٍ، كراكع ورُكَّع، وصائم وصُوَّم ، ونائم ونُوَّم ، وشاهِد وشُهَّد، وغائِب وغُيَّب . ويجوز فى الجمع غُزاة مثل قُضاة، وغُزّاء بالمد مثل ضُرّاب وصوّام . ويقال : غَزِيّ(١) جمع الغَزاة . قال الشاعر(٢) :

* قل للقوافِل والغَزِيّ إذا غَزَوْا *

ورُوِى عن الزُّهرِى أنه قرأه « غُزًى » بالتخفيف . والمُغْزِيَةُ المرأة التى غَزَا زوجُها . وأَتَانٌ مُغْزِيَةٌ متأخِّرةُ النّتاج ثم تُنْتَجُ . وأَغزَت النّاقةُ إذا عَسُر لِقَاحُها . والغَزْوُ قصدُ الشىء. والمَغْزَى المَقْصِدُ . ويُقَال فى النَّسب إلى الغَزْو : غَزَوِيٌّ .

---

(١) فى اللسان مادة « غزا » أنه جمع غاز مثل حاج وحجيج وقاطن وقطين وناد وندى وناج ونجى .

(٢) هو زياد الأعجم . وقيل : هو الصلتان العبدى، وتمامه كما فى اللسان :

* والباكرين وللمجدّ الرائح *

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى ظنّهم وقولهم . واللّام متعلقة بقوله « قالوا » أى ليجعل ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قُتلوا . « حَسْرَةً » أى ندامة « فى قُلُوبِهِمْ » . والحسرة الاهتمام على فائت لم يُقدر بلوغُه؛ قال الشاعر :

فوَاحسرتى لم أقضِ منها لُبانَتِي * ولم أتمتّعْ بالجُـوَارِ وبالقُربِ

وقيل : هى متعلقة بمحذوف . والمعنى : لا تكونوا مثلَهم « ليجعل الله ذلك » القولَ « حسرةً فى قلوبهم » لأنهم ظهر نفاقهم . وقيل : المعنى لا تصدّقوهم ولا تلتفتوا إليهم؛ فكان ذلك حسرة فى قلوبهم . وقيل : « لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ » يوم القيامة لِمَا هم فيه من الخزى والندامة، ولِمَا فيه المسلمون من النعيم والكرامة .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى يقدر على أن يُحيى من يخرج إلى القتال، ويميت من أقام فى أهله . ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ قرئ بالياء والتاء . ثم أخبر تعالى أن القتل فى سبيل الله والموت فيه خيرٌ من جميع الدنيا .

قوله تعالى : وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

جواب الجزاء محذوف، استغنى عنه بجواب القسم فى قوله :﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ ﴾ وكان الاستغناء بجواب القَسَم أولى؛ لأنّ له صَدْر الكلام، ومعناه ليغفرنّ لكم . وأهل الحجاز يقولون : مِتُّم ، بكسر الميم مثل نِمتم ، من مات يمات مثل خِفت يخاف . وسُفْلَى مُضَر يقولون : مُتم، بضم الميم مثل صمتم، من مات يموت . كقولك كان يكون، وقال يقول . هذا قول الكوفيين وهو حسن . وقوله : ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وَعْظٌ . وعظهم الله بهذا القول، أى لا تفِرّوا من القتال ومما أمركم به، بل فِرّوا من عقابه وأليم عذابه، فإن مَرَدّكم إليه لا يملك لكم أحد ضرّا ولا نفعا غيره . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

« ما » صلةٌ فيها معنى التأكيد ، أى فبرحمة؛ كقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ »(١) « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ »(٢) « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ »(٣) . وليست بزائدة على الإطلاق ، و إنما أطلق عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زال عملها . ابن كَيْسان : « ما » نكرة فى موضع جر بالباء ﴿ورَحْمَةٍ﴾ بَدلٌ منها . ومعنى الآية : أنه عليه السلام لما رَفَق بمن تولى يومَ أُحُدٍ ولم يُعنِّفهم بيّن الرّبُّ تعالى أنه إنما فعَل ذلك بتوفيق الله تعالى إياه . وقيل : « ما » استفهامٌ . والمعنى : فبأيّ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُم؛ فهو تعجيب . وفيه بُعْدٌ؛ لأنه لو كان كذلك لكان « فبم » بغير ألف . ﴿لِنتَ﴾ من لَانَ يَلِينُ لِينًا ولَيَانًا بالفتح . والفَظُّ الغَلِيظُ الجَافِي . فَظِظْتَ تَفَظُّ فَظَاظَةً وفَظَاظًا فأنت فَظٌّ . والأنثى فَظَّةٌ والجمع أفْظَاظ . وفى صفة النبيّ عليه السلام ليس بفَظٍّ ولا غَلِيظٍ ولا صَخّابٍ فى الأسواق؛ وأنشَدَ المُفَضّل فى المذكّر :

وليس بفَظٍّ فى الأدَانِي والأولى * يَؤُمُّونَ جَدْوَاه ولكنّه سَهْلُ
وفَظٌّ على أعدائه يَحْذَرُونَه * فَسَطْوَتُه حَتْفٌ ونائلُه جَزْلُ

وقال آخرُ فى المُؤَنّث :

أَمُوتُ مِن الضُّرّ فى منزلى * وغيرى يموتُ من الكِظَّهْ(٤)
ودُنْيَا تَجودُ على الجاهلين * وهْى على ذِى النُّهَى فَظَّهْ

وغِلَظُ القلب عِبارةٌ عن تَجَهُّم الوجه، وقِلّةِ الانفعالِ فى الرَّغائِب ، وقِلّةِ الإشْفَاقِ والرّحمة ؛ ومن ذلك قولُ الشّاعر :

يُبْكَى عَلَيْنَا ولا نَبْكِى على أَحدٍ؟ * لَنَحْنُ أغلَظُ أكْبَادًا من الإبِلِ

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ١١٤ (٣) راجع ١٥ ص ١٥١
(٤) الكظة : البطنة .

ومعنى ﴿ لَانْفَضُّوا ﴾ لتفرقوا؛ فضضتهم فانفضوا، أى فرّقتهم فتفرقوا؛ ومن ذلك قول أبي النّجم يصف إبلا :

مستعجلات القيض[1] غير جُرْد[2] * ينفض عنهن الحصى بالصَّمْد[3]

وأصل الفض الكسر؛ ومنه قولهم : لا يَفْضُضِ الله فاكَ . والمعنى : يا محمدُ لولا رفقُك لَمَنَعَهم الاحتِشَامُ والهيبةُ من القُربِ منك بعد ما كان من تَوَلِّيهم .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قال العلماء : أمر الله تعالى نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ؛ وذلك أنه أمره بأن يَعفُوَ عنهم ما له في خاصّته عليهم من تَبِعة؛ فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفِر فيما لله عليهم من تَبِعَة أيضا، فإذا صاروا في هذه الدّرجة صاروا أهْلًا للاستشارة في الأمور . قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول العرب : شُرْتُ الدابة وشوّرتُها إذا علمت خبرها بجرى أو غيره . ويقال للموضع الذي تركُضُ فيه : مِشْوار . وقد يكون من قولهم : شُرْت العسلَ واشْتَرْتُه فهو مَشُور ومُشْتار إذا أخذته من موضعه، قال عَدِيّ بنُ زَيد :

في سَمَاعٍ يأذَنُ الشَّيْخُ له * وحَديثٍ مثلِ مَاذِيٍّ مُشَار[4]

الثانيــة — قال ابنُ عَطِية : والشُّورَى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يَسْتشِيرُ أَهلَ العِلم والدِّين فعزلُهُ واجبٌ . هذا ما لا خلاف فيه . وقد مدح الله المؤمنين بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ[5] » . قال أعرابيٌّ : ما غُبِنْتُ قَطُّ حتى يُغْبَنَ قومي؛ قيل :

(١) كذا في الأصول بالقاف والياء المثناة، ولعله مصحف عن « القبض » بالقاف والباء الموحدة وهو السوق السريع، وإنما سمى السوق السريع قبضا لأن السائق للإبل يقبضها أى يجمعها إذا أراد سوقها، فإذا انتشرت تعذر عليه سوقها، أو القبص بمهملة : العدو الشديد . (٢) كذا في الأصول بالمعجمة، ولعله « حرد » بالحاء المهملة، والحرد في البعير أن تنقطع عصبة ذراعه فتسترخى يده فلا يزال يخفق بها أبدا . (٣) الصمد : المكان الغليظ المرتفع من الأرض لا يبلغ أن يكون جبلا . (٤) يأذن : يستمع . والماذى : العسل الأبيض . والمشار : المجتنى . (٥) راجع جـ ١٦ ص ٣٦

وكيف ذلك ؟ قال لا أُفعل شيئا حتى أُشَاوِرَهُم . وقال ابنُ خُوَيْزِمَنْدَاد : واجب على الوُلَاةِ مشاورَةُ العلماء فيما لا يَعْلَمُون ، وفيما أَشْكَل عليهم من أمور الدِّين، ووُجُوه الجَيش فيما يتعَلَّقُ بالحرب ، ووجوه النـاس فيما يَتَعَلَّقُ بالمصالح ، ووُجُـوهِ الكُتّاب والوزراءِ والعمالِ فيما يتعلّقُ بمصالح البـلاد وعِمَارتها . وكان يقال : ما ندم من استشار (١) . وكان يُقال : من أُعْجِبَ برأيه ضَـلّ .

الثالثــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ يَدُلُّ على جواز الاجتهاد فى الأُمُورِ والأخذِ بالظُّنُونِ مع إمكان الوَحْى ؛ فإن الله أَذِن لرسوله صلى الله عليه وسـلم فى ذلك . واختَلَف أهل التأويلِ فى المعنى الذى أمَرَ الله نبيَّهُ عليه السلام أن يُشَاوِرَ فيه أصحابَه ؛ فقالت طائفة : ذلك فى مكائد الحُروب ، وعند لِقَاء العَدُو ، وتطييبا لِنُفُوسهم ، ورَفْعًـا لِأَقدارِهم ، وتألُّفًا على دينهم ، وإنْ كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوَحْيه . رُوِى هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعىّ . قال الشافعىّ : هو كقـوله " والبِكرُ تُسْتَأْمَرُ " تطييبا لقلبها ؛ لا أنّه واجبٌ . وقال مُقَاتِلُ وقَتَادَةُ والربيـع : كانت سَاداتُ العرب إذا لم يُشَاوَرُوا فى الأمر شقّ عليهم : فأمر الله تعالى نبيّه عليه السلام أن يُشاوِرَهم فى الأمر : فإن ذلك أَعْطَفُ لهم عليه وأذهبُ لأضغانهم ، وأَطيبُ لنفوسهم . فإذا شاورَهم عَرَفُوا إكرامَه لهم . وقال آخرون : ذلك فيما لم يأته فيه وَحْىٌ . رُوِى ذلك عن الحسن البصرى والضحاك قالا : ما أمَرَ الله تعالى نبيه بالمُشَاوَرة لحاجةٍ منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يُعلِّمَهم ما فى المُشَاوَرةِ من الفضل ، ولِتَقْتَدِىَ به أُمّتُه من بعدِه . وفى قراءة ابنِ عباس : « وَشَاوِرْهُمْ فِي بعضِ الأمرِ » ولقد أحسن القائل :

شَاوِر صديقَكَ فى الخَفِىِّ المُشْكِلِ * واقبَــلْ نصِيحَةَ ناصِحٍ مُتَفضِّـــلِ
فاللهُ قـــد أَوْصَى بذاكَ نَبِيَّـــهُ * فى قَولِه : (شاوِرْهُم) و (تَوكَّلِ)

الرابعـــة ــ جاء فى مصنّف أبى داود عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : " المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَن » . قال العلماء : وصِفةُ المُستشارِ إن كان فى الأَحْكامِ أن

(١) هـذا حديث رواه الطبرى فى أوسطه والقضاعى عن أنس وحسنه السيوطى وفى كشف الخفا : فى سنده ضعيف جدا .

يكون عالمًا دَيِّنًا، وقلّما يكونُ ذلك إلّا في عاقل . قال الحسن : ما كَمُل دِينُ امرئٍ ما لم يكمل عقلُه . فاذا استُشِيرَ مَنْ هذه صِفَتُهُ واجتهد في الصَّلاح و بَذَلَ جُهدَه فوقعت الإشارةُ خَطأً فلا غَرامةَ عليه؛ قاله الخطّابيُّ وغيرهُ .

الخامسة — وصفةُ المُستشارِ في أمورِ الدنيا أن يكون عاقلا مُجرِّبًا وادًّا في المُستَشير . قال :

* شاورْ صديقَك في الخفِي المُشْكِلِ *

وقد تقدّم . وقال آخر :

و إنْ بَابُ أمرٍ عليك ٱلتَوَى * فَشَاوِر لبيبًا ولا تَعْصِه

في أبيات(١) . والشُّورى بَرَكَةٌ . وقال عليه السلام : " ما نَدِمَ مَن اسْتَشَار ولا خَابَ مَن اسْتَخَار " . وروى سهلُ بنُ سعد السّاعدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما شَقِيَ قَطُّ عبدٌ بمشورة وما سَعِد باستغناء رأى " . وقال بعضهم : شَاوِرْ من جَرَّبَ الأمورَ؛ فإنه يُعطيك من رأيه ماوقع عليه غاليا وأنت تأخذه مجانا . وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة — وهي أعظم النّوازِل — شورى . قال البخاريّ : وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستَشِيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها . وقال سفيان الثوريّ : ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة، ومن يخشى الله تعالى . وقال الحسن : والله ما تشاوَرَ قوم بينهم إلا هداهم لِأفضل ما يحضر بهم(٢) . ورُوى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم كانت لهم مشورةٌ فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه في مشورتهم إلا خِيرَ لهم " .

---

(١) وقبل هذا البيت :

إذا كنت في حاجة مرسلا * فأرسل حكيما ولا توصه

وبعده :

ونص الحديث إلى أهله * فإن الوثيقة في نصه

إذا المرء أضمر خوف الإله * به تبين ذلك في شخصه

(٢) في ب وجـ : ما بحضرتهم .

السادســـة ــ والشُّورى مبنيّة على ٱختلاف الآراء، والمستشير ينظر فى ذلك الخلاف، وينظر أقربها قولا إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ماشاء منه عزم عليه وأنفــذه متوكّلا عليه، إذْ هــذه غاية الاجتهاد المطلوب؛ وبهذا أمر الله تعــالى نبيّه فى هذه الآية .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ قال قتادة : أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يَمضِىَ فيه ويتوكّل على الله، لا على مشاورتهم . والعزم هو الأمر المُــرَوَّى المنقّح، وليس ركوب الرأى دون رَوِية عزما، إلا على مقطع المُشيحين من فُتّاك العرب؛ كما قال[1] :

إذا همَّ ألقَى بين عينَيْه عزمَــهُ * ونَكّب عن ذِكر العواقِب جانِبَا
ولم يستشِر فى رأيه غيرَ نفســه * ولم يَرضَ إلا قائمَ السّيفِ صاحِبَا

وقال النّقاش : العزم والحزم واحد، والحاء مُبْدلة من العين . قال ابن عطية : وهذا خطأ؛ فالحزم جودة النّظر فى الأمر وتنقيحُه والحذرُ من الخطأ فيه . والعزمُ قصدُ الإمضاء؛ والله تعالى يقــول : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ » . فالمشاورة وما كان فى معناها هو الحــزم . والعرب تقول : قد أَحْزِم لو أَعْزِم[2] . وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد : « فَإِذَا عَزَمْتُ » بضم التــاء . نسب العزم إلى نفسه سبحانه إذ هو بهدايته وتوفيقه؛ كما قال : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ[3] » . ومعنى الكلام أى عزمتُ لك ووفقتك وأرشــدتك « فتوكل على اللهِ » . والباقون بفتح التــاء . قال المُهَلَّب : وامتثل هــذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم من أمر ربِّه فقــال : " لا ينبــغى لنبيّ يلبَس لأْمتَه[4] أن يضعها حتى يحكم الله " . أى ليس ينبغى له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقضٌ للتوكُّل الذى شرطه الله عز وجل مع العزيمة . فلُبْسه لأْمَتَهُ صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه بالخروج يوم أُحُد مَن أكرمه الله بالشهادة فيه، وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بَدْرٌ : يارسول الله ٱخرج بنا إلى عدوّنا؛ دالّ على العزيمة . وكان

(١) هو سعد بن ناشب المــازنى (عن الكامل للبرد وخزانة الأدب للبغدادى) . (٢) يقول : أعرف وجه الحزم؛ فإن عزمت فأمضيت الرأى فأنا حازم ، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيعت العــزم لم ينفعنى حزمى . (عن الكامل للبرد) . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٨٤ (٤) اللأْمة : الدرع، وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداتها . وقد يترك الهمز تخفيفا .

صلى الله عليه وسلم أشار بالقعود، وكذلك عبد الله بن أبيّ أشار بذلك وقال : أقم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس ، فإنْ هم أقاموا أقاموا بشرّ مجلس ، وإن جاءونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية وأفواه السِّكك ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام[(١)] ، فوالله ما حارَ بنا قطُّ عدوٌّ في هذه المدينة إلا غلبناه ، ولا خرجنا منها إلى عدوّ إلا غَلَبنا . وأبى هذا الرأيَ من ذكرنا ، وشجّعوا الناس ودَعَوْا إلى الحرب . فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة ، ودخل إثر صلاته بيتَه ولبِس سلاحه ، فندم أولئك القوم وقالوا : أكرهْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما خرج عليهم في سلاحه قالوا : يا رسول الله ، أقِم إن شئت فإنا لا نريد أن نُكرِهَك ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغي لنبيّ إذا لبِس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل " .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ التوكّل : الاعتماد على الله مع إظهار العجز ، والاسم التُّكْلان . يقال منه : اتّكلت عليه في أمري ، وأصله : « أوْ تَكَلْت » قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، ثم أبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال . ويقال : وكّلته بأمري توكيلا ، والاسم الوَكالة بكسر الواو وفتحها .

واختلف العلماء في التوكل ؛ فقالت طائفة من المتصوّفة : لا يستحقه إلا من لم يخالط قلبَه خوفُ غير الله من سَبُعٍ أو غيره ، وحتى يترك السعي في طلب الرزق لضمان الله تعالى . وقال عامّة الفقهاء : ما تقدّم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[(٢)] . وهو الصحيح كما بيناه . وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما في قوله « لَا تَخَافَا »[(٣)] . وقال : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ »[(٣)] . وأخبر عن إبراهيم بقوله : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ »[(٤)] . فإذا كان الخليل وموسى والكليم قد خافا — وحسبك بهما — فغيرهما أولى . وسيأتي بيان هذا المعنى .

قوله تعالى : إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

(١) الآطام (جمع أطم بضمتين) : الأبنية المرتفعة كالحصون . وقيل : حصون مبنية بالحجارة .
(٢) راجع ص ١٨٩ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠١ و ٢٢١ (٤) راجع جـ ٩ ص ٦٢

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ أى عليه توكّلوا فإنه إن يُعنكم و يمنعكم من عدوّكم لن تُغلبـوا . ﴿ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ ﴾ يترككم من معونتـه . ﴿ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْـدِهِ ﴾ أى لا ينصركم أحد من بعـده ، أى من بعد خذلانه إيّاكم ؛ لأنه قال : « وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ » والخذلان ترك العون . والمخذول : المتروك لا يُعبأ به . وخَذَلت الوحشية أقامت على ولدها فى المرعى وتركت صواحباتها ؛ فهى خذول . قال طَرَفة :

خَذُولٌ تُراعِى رَبْرَبًا بِخَمِيـلةٍ * تَناولُ أطرافَ البَرِيرِ وتَرْتَدِى[(١)]

وقال أيضا :

نظرتْ إليك بعـين جارية * خَذَلت صواحبها على طِفْلِ

وقيل : هذا من المقلوب ؛ لأنها هى المخذولة إذا تُركت . وتخاذلت رجلاه إذا ضَعُفَتا . قال :

* وخَذُولِ الرِّجْلِ مِن غـيرِ كَسَح[(٢)] *

ورجل خُذَلة للذى لا يزال يَخْذُل . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ۚ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — لمـا أخلّ الرُّماة يوم أُحُد بمراكزهم — على ما تقدّم — خوفًا من أن يستولى المسلمون على الغنيمة فلا يُصرف إليهم شىء، بيّن الله سبحانه أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم لا يجور فى القسمة ؛ فما كان من حقّكم أن تتهموه . وقال الضحاك : بل السبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع فى بعض غزواته ثم غَنِم قبل مجيئهم ؛ فقسمَ للناس ولم يقسم للطلائع ؛ فأنزل الله عليه عِتابا : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ » أى يقسم لبعض و يترك بعضا . ورُوى نحو هذا القول عن ابن عباس . وقال ابن عباس أيضا وعِكرمة وابن جُبير وغيرهم :

---

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش والظباء وغير ذلك . الخميـلة : الأرض السهلة اللينة ذات الشـجر . البرير : ثمر الأراك . (٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره :

* كل وضاح كريم جدّه *

نزلت بسبب قطيفة حمراء فُقدت في المغانم يوم بدر ؛ فقال بعض من كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم : لعلّ أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذها ، فنزلت الآية أخرجه أبو داود والتّرمذيّ وقال : هذا حديث حسن غريب . قال ابن عطية : قيل كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنّوا أن في ذلك حَرجًا . وقيل : كانت من المنافقين . وقد رُوى أن المفقود كان سيفا . وهذه الأقوال تُخَرّج على قراءة «يَغُل» بفتح الياء وضم الغين . وروى أبو صخر عن محمد بن كعب «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ» قال : تقول وما كان لنبيّ أن يكتم شيئا من كتاب الله . وقيل : اللام فيه منقولة ، أي وما كان نبيّ ليغُل ؛ كقوله : « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ »(١) . أي ما كان الله ليتخذ ولدا . وقرئ « يُغَل » بضم الياء وفتح الغين . وقال ابن السِّكّيت : [لم نسمع في المَغْنَم إلا غَلّ غُلولا ، وقرئ و(٢)] ما كان لنبيّ أن يَغُلّ و يُغَلّ . قال : فمعنى « يَغُل » يَخُون ، ومعنى « يُغَـلّ » يُخَوَّن ، ويحتمل معنيين : أحدهما يُخَـان أي يؤخذ من غنيمته ، والآخر يُخَوّن أن يُنسب إلى الغُلُول : ثم قيل : إن كل من غَلّ شيئا في خفاء فقد غَلّ يَغُلّ غُلولا : قال ابن عرفة : سُمّيت غُلولا لأن الأيدي مَغلولةٌ منها ، أي ممنوعة . وقال أبو عبيد : الغُـلُول من المَغْنم خاصّةً ، ولا نراه من الخيـانة ولا من الحِقد . وممـا يُبَيِّن ذلك أنه يقال من الخيانة : أَغَلّ يغـل ، ومن الحِقد : غَلّ يَغِلّ بالكسر ، ومن الغُلول : غَلّ يَغُلّ بالضم . وغَلّ البعير أيضا [يَغَلّ غلة(٣)] إذا لم يَقْض رِيّه وأَغَلّ الرجل خان ، قال النَّمِر :

جزى الله عنـا حَمْزَةَ(٤) ابنة نَوْفَلٍ * جزاءَ مُغِـلٍّ بالأمانة كاذبِ

وفي الحديث : "لا إغلالَ ولا إسْلال" أي لا خيانة ولا سرقة ، ويقال : لا رِشْوة . وقال شُرَيح : ليس على المُسْتعير غير المُغِـلّ ضمانٌ . وقال صلى الله عليه وسلم : "ثلاثٌ لا يُغَـلّ عليهنّ قلبُ مؤمن" من رواه بالفتح(٥) فهو من الضِّغن . وغَلّ [دخل(٣)] يتعدّى ولا يتعدّى ؛ يقال :

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠٥ (٢) زيادة عن الصحاح واللسان . (٣) زيادة عن كتب اللغة .
(٤) كذا في الأصول واللسان ، وفي الصحاح للجوهري «جمرة» بالجيم المعجمة والراء . (٥) أي بفتح الياء .

غَلّ فـلان المفاوز، أى دخلها وتوسّـطها . وغَلّ من المغنم غلولا ، أى خان . وغَلّ المـاءُ بين الأشجار إذا جرى فيها ؛ يَغُلّ بالضم فى جميع ذلك (١) . وقيل : الغُلُول فى اللغـة أن يأخذ من المَغْنَم شيئا يسـتره عن أصحابه ؛ ومنه تَغلغل المـاء فى الشجر إذا تخلّلها . والغَلَل : المـاء الجـارى فى أصول الشجر؛ لأنه مستتر بالأشجار؛ كما قال (٢) :

لَعِب السُّـيُول به فأصبح ماؤه * غَلَلًا يُقطّع فى أصـول الخِروْع

ومنه الغِلَالة للثوب الذى يُلبس تحت الثياب . والغالُّ : أرض مطمئنة ذات شجـر . ومنابت السَّلَم (٣) والطَّلح يقال لهـا : غالّ . والغالّ أيضا نَبْت ، والجمع غُلّان بالضم . وقال بعض الناس : إن معنى « يُغَلّ » يوجد غالّا ؛ كما تقول : أحمدت الرجل وجدته محمودا . فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى « يَغُل » بفتح الياء وضم الغين . ومعنى « يُغَلّ » عند جمهور أهل العلم أى ليس لأحد أن يَغُـلّه ، أى يخونه فى الغنيمة . فالآية فى معنى نَهْى الناس عن الغلول فى الغنائم، والتّوَعُّد عليه . وكما لا يجوز أن يُخان النبىّ صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يُخان غيرُه، ولكن خصّه بالذكر لأن الخيانة معه أشدُّ وقعًا وأعظمُ وِزْرا؛ لأن المعاصى تعظم بحضرته لِتعيُّن توقيره . والوُلاة إنمـا هم على أمر النبى صلى الله عليـه وسلم فلهم حظّهـم من التّوقير . وقيل : معنى « يغل » أى ما غَل نبىٌّ قطُّ ، وليس الغرض النَّهْى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَـا غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته ، مُعذّبا بحمله وثِقَله ، ومَرعُوبا بصوته، ومُوَبَّخا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد؛ على ما يأتى . وهـذه الفضيحة التى يُوقعها الله تعالى بالغالّ نظيرُ الفضيحة التى توقع بالغادر ، فى أن يُنصب له لِواء عند آسْتِه بقدر غَدْرَته . وجعل الله تعـالى هذه المعاقبَات حَسْبَما يَعْهَدُهُ البَشَر ويَفْهَمُونه ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

أَسُمَىَّ ويْحَكِ هَلْ سَمِعتِ بِغَدْرَةٍ * رُفِـعَ اللواءُ لنـا بها فى المَجْمَعِ

(١) أى بضم الغين . (٢) البيت لحويدرة؛ كما فى اللسان . (٣) فى ب و د : الساج .

وكانت العرب ترفع للغادر لِواءً ، وكذلك يُطاف بالجاني مع جنايته . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغُلول فعظّمه وعظّم أمره ثم قال : "لا أُلفِيَنّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رُغاء يقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِيَنّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحَمة (١) فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِيَنّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِيَنّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نَفْسٌ لها صِياح فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِيَنّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رِقاع تَخفِق (٢) فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا أُلفِيَنّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت (٣) فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك " وروى أبو داود عن سَمُرة (٤) بن جُندب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصاب غنيمة أمر بلالًا فنادى في الناس فيجيئون بغنائمهم فيخمّسه ويقسمه ، فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من الشَّعَر فقال : يارسول الله هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة . فقال : " أسمعت بلالا ينادي ثلاثا "؟ قال : نعم . قال : " فما منعك أن تجيء به "؟ فاعتذر إليه . فقال : " كلا (٥) أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبلَه منك ". قال بعض العلماء : أراد يُوافي بوزر ذلك يوم القيامة ، كما قال في آية أخرى : «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ» (٦) . وقيل : الخبر محمول على شهرة الأمر ؛ أي يأتي يوم القيامة قد شَهّر الله أمره كما يُشهَّر لو حَمَل بعيرا له رُغاء أو فرسا له حَمْحَمَةٌ .

قلت : وهذا عُدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه ، وإذا دار الكلامُ بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل كما في كُتُب الأصول . وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحقيقة ،

(١) حمحمة الفرس : صوته دون الصهيل ، والثغاء : صياح الغنم . (٢) الرقاع (بالكسر جمع رقعة بالضم) وهي التي تكتب . وأراد بها ما عليها من الحقوق المكتوبة . وخفوقها : حركتها . (٣) الصامت : الذهب والفضة ، خلاف الناطق وهو الحيوان . (٤) في سنن أبي داود : « عن عبد الله بن عمرو » ، وكذا في مسند الإمام أحمد بن حنبل . (٥) في سنن أبي داود « كن أنت تجيء به » . (٦) راجع جـ ٦ ص ٤١٣

ولا عِطْرَ بعــد عَرُوس . ويُقال : إنّ مَن غَلّ شيئًا فى الدنيا يُمَثَّلُ له يومَ القيامة فى النار ، ثم يُقَالُ له : ٱنزِلْ إليه فَخُذْه ، فيَهبِطُ إليه، فإذا ٱنْتَهى إليه حَمَلَه ؛ حتى إذا انتهى إلى الباب سَقَط عنه إلى أســفل جَهَنّم ، فَيرجِــعُ إليه فيأخُذُه ؛ لا يَزالُ هكذا إلَى ماشَاءَ الله . ويقال « يأْتِ بِما غَلّ » يعنى تَشْهدُ عليه يَومَ القِيامَة تِلْك الخيَانةُ والغُلولُ .

الثالثـــة ـــ قال العلماء: والغُلولُ كبيرةٌ من الكبَائر؛ بدليل هذه الآية وماذَكَرْنَاهُ من حديث أبى هُرَيرَة : أنّه يَحْمِلُه عَلَى عُنُقِه . وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مِدْعَم[(١)]: "والذى نفسى بيده أن الشَّمْلة التى أخذ يوم خَيْبَرَ من المغانم لم تُصبها المَقاسم لتشتعل عليــه نارا" قال : فلمـا سمع النـاس ذلك جاء رجل بشِراك أو شِراكين إلى رســول الله صلى الله عليه وســلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "شِراكٌ أو شِراكان من نار" . أخرجه الموطّأ . فقوله عليه السلام : "والذى نفسى بيــده" وٱمتناعُه من الصــلاة على من غَلّ دليلٌ على تعظيم الغُلول وتعظيم الذنب فيه وأنه من الكبائر، وهو من حقوق الآدميين ولابدّ فيه من القصاص بالحسنات والسيئات، ثم صاحبه فى المشيئة . وقوله : "شِراكٌ أو شِراكان من نار" مثل قوله : "أدُّوا الخِياط[(٢)] والمِخْيَط". وهذا يدل على أن القليل والكثير لا يحلّ أخذُه فى الغَزْو قبل المقَاسم، إلا ما أجمعوا عليه من أكل المطاعم[(٣)] فى أرض الغَزْو ومن الاحتطاب والاصطياد . وقد رُوى عن الزُّهْرِىّ أنه قال : لا يؤخذ الطعام فى أرض العدوّ إلا بإذن الإمام . وهذا لا أصل له ؛ لأن الآثار تخالفه ، على ما يأتى . قال الحسن : كان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتحوا المدينةَ أو الحِصْن أكلوا من السَّوِيق والدقيق والسَّمن والعسل . وقال إبراهيم : كانوا يأكلون من أرض العــدوّ الطعامَ فى أرض الحرب ويعلِفون قبل أن يُخَمِّسُوا . وقال عطاء : فى الغزاة يكونون فى السَّرِيّة فيصيبون أَنْحاء[(٤)] السمن والعسل والطعام فيأكلون، وما بَقِى ردُّوه إلى إمامهم؛ وعلى هذا جماعة العلماء .

---

(١) مدعم : عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر . (٢) الخياط هاهنا الخيط . والمخيط بالكسر : الإبرة . (٣) فى هـ و د و جـ و ب : الطعام ، وكلها : أرض العدو ، إلا ب : أرض الغزو . (٤) أنحاء : جمع نحى بالكسر وهو زق السمن . وقيل مطلقا .

الرابعة : وفي هذا الحديث دليلٌ على أن الغالّ لا يُحرق متاعه؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُحْرِق متاع الرجل الذي أخذ الشَّمْلة[1]، ولا أَحْرَق متاع صاحب الخَرَزات[2] الذي ترك الصلاةَ عليه ، ولو كان حرق متاعه واجبا لفعله صلى الله عليه وسلم، ولو فعله لنُقِل ذلك في الحديث . وأما مارُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا وجدتم الرجل قد غَلّ فأحرقوا متاعَه وٱضربوه ". فرواه أبو داود والترمذيّ من حديث صالح بن محمد بن زائدة، وهو ضعيف لايُحتجّ به. قال التِّرمذيّ : سألت محمدا — يعني البخاريّ — عن هذا الحديث فقال : إنما رَوى هذا صالح بن محمد وهو أبو واقد الليثي وهو منكَر الحديث . وروى أبو داود أيضا عنه قال : غزونا مع الوليد بن هِشام ومعنا سالم بن عبد الله بن عمر وعمر بن عبد العزيز، فغَلّ رجل متاعا فأمر الوليد بمتاعه فأحرق، وطِيف به ولم يُعطِه سهمه . قال أبو داود : وهذا أصح الحديثين . وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر حَرّقوا متاع الغالّ وضربوه . قال أبو داود : وزاد فيه عليّ بن بحر عن الوليد — ولم أَسْمَعْهُ منه — : ومَنَعُوه سهمه . قال أبو عمر : قال بعض رواة هذا الحديث : واضربوا عنقه وأحرقوا متاعه . وهذا الحديث يدور على صالح ابن محمد وليس ممن يُحتجّ به . وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يَحِلّ دَمُ ٱمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث" وهو ينفي القتل في الغلول . وروى ابن جُرَيج عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على الخائن ولا على المُنْتَهِب ولا على المختلس قَطْعٌ " . وهذا يعارض حديثَ صالح بن محمد وهو أقوى من جهة الإسناد . والغالّ خائن في اللغة والشريعة وإذا انتفى عنه القطع فأحرى القتل . وقال الطّحاويّ : لو صحّ حديثُ صالح المذكور احتمل أن يكون حين كانت العقوبات في الأموال ؛ كما قال في مانع

(١) في هـ و جـ و ب : لم يحرق رحل الذي أخذ الشملة .

(٢) صاحب الخرزات : رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم يسمه أبو داود في سننه) توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " صلوا على صاحبكم " فتغيرت وجوه الناس لذلك ، فقال " إن صاحبكم غل في سبيل الله " ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز يهود لا يساوي درهمين (عن سنن أبي داود) .

الزكاة : " إنا آخذوها وشَطْرَ ماله ، عَزْمةً من عزماتِ الله تعالى "[1] . وكما قال أبو هريرة في ضالّة الإبل المكتومة : فيها غرامتُها ومثلُها معها . وكما روى عبد الله بن عمرو بن العاص في الثمر المعلّق غرامةُ مثليه وجلداتُ نكالٍ . وهذا كله منسوخ ، والله أعلم .

الخامسة — فإذا غلّ الرجل في المَغْنَم ووُجِد أُخِذ منه ، وأُدِّب وعُوقب بالتعزير . وعند مالك والشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابهم والليث : لا يُحرق متاعه . وقال الشافعيّ والليث وداود : إن كان عالما بالنّهي عُوقب . وقال الأَوْزاعيّ : يحرق متاع الغالّ كلّه إلا سلاحه وثيابه التي عليه وسَرْجه ، ولا تُنزع منه دابّته ، ولا يُحرق الشيء الذي غُلّ . وهذا قول أحمد و إسحاق ، وقاله الحسن ؛ إلا أن يكون حيوانا أو مصحَفا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ورُوِي أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ضربا الغالّ وأحرقا متاعه . قال ابن عبد البر : وممن قال يُحرق رَحْل الغالّ ومتاعُه مَكْحُولٌ وسعيدُ بن عبد العزيز . وحجة من ذهب إلى هذا حديثُ صالح المذكور . وهو عندنا حديث لا يجب به انتهاك حُرْمة ، ولا إنفاذ حُكْمٍ ؛ لما يعارضه من الآثار التي هي أقوى منه . وما ذهب إليه مالك ومن تابعه في هذه المسألة أصحُّ من جهة النظر وصحيح الأثر . والله أعلم .

السادسة — لم يختلف مذهب مالكٍ في العقوبة على البَدَن ، فأما في المال فقال في الذّمّي يبيع الخمرَ من المسلم : تُراق الخمر على المسلم ، ويُنزع الثمن من الذّمّي عقوبةً له ؛ لئلا يبيع الخمر من المسلمين . فعلى هذا يجوز أن يقال : تجوز العقوبة في المال . وقد أراق عمرُ رضي الله عنه لَبَنًا شِيب بماء .

السابعة — أجمع العلماء على أن للغالّ أنْ يردّ جميع ما غَلّ إلى صاحب المقاسِم قبل أن يفترق الناس إن وجد السبيلَ إلى ذلك ، وأنه إذا فعل ذلك فهي تَوْبةٌ له ، وخروج عن ذنبه .

---

(١) في نهاية ابن الأثير : « قال الحربي غلط الراوي في لفظ الرواية ، إنما هو وشطر ماله شطرين ، أي يجعل ماله شطرين ، ويتخير عليه المصدق فيأخذ الصدقة من خير النصفين عقوبة لمنعه الزكاة فأما ما لا تلزمه فلا » . وعزمة : حق من حقوقه وواجب من واجباته .

واختلفوا فيما يفعل به إذا افترق أهل العسكر ولم يصل إليه؛ فقال جماعة من أهل العلم : يدفع إلى الإمام خُمُسه ويتصدّق بالباقي . هذا مذهب الزُّهْرِيّ ومالكٍ والأَوْزاعِيّ واللَّيث والثَّوْرِيّ؛ ورُوِي عن عُبادة بن الصّامت ومعاوية والحسنِ البصريّ . وهو يُشْبه مذهبَ ابن مسعود وابن عباس؛ لأنهما كانا يَرَيان أن يُتصدّق بالمال الذي لا يُعرف صاحبُه؛ وهو مذهب أحمد ابن حنبل . وقال الشافعيّ : ليس له الصدقة بمال غيره . قال أبو عمر : فهذا عندي فيما يمكن وجود صاحبه والوصولُ إليه أو إلى ورثته ، وأما إن لم يكن شيء من ذلك فإن الشافعيّ لا يكره الصدقة حينئذ إن شاء الله . وقد أجمعوا في اللُّقَطة على جواز الصدقة بها بعد التعريف لها وانقطاع صاحبها ، وجعلوه إذا جاء — مخيّراً بين الأجر والضمان ، وكذلك المغصوب . وبالله التوفيق . وفي تحريم الغُلُول دليل على اشتراك الغانمين في الغنيمة ، فلا يحل لأحد أن يستأثر بشيء منها دون الآخر ؛ فمن غَصَب شيئا منها أُدِّب اتفاقا ، على ما تقدّم .

الثامنــة — وإن وَطئ جارية أو سَرق نِصابا فاختلف العلماء في إقامة الحد عليه؛ فرأى جماعة أنه لا قطع عليه .

التاسعــة — ومن الغُلُول هدايا العمال ، وحُكْمه في الفضيحة في الآخرة حُكْم الغالّ . روى أبو داود في سُننه ومُسْلِمٌ في صحيحه عن أبي حُميد الساعِديّ أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من الأَزْد يقال له ابن اللُّتْبِيَّة(١) [قال ابن السرح ابن الأُتْبِيَّة(٢)] على الصدقة ، فجاء فقال : هـذا لكم وهذا أُهدي لي . فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم على المِنْبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : " ما بالُ العامل نَبعثه فيجيء فيقول هذا لكم وهذا أُهْدِيَ لي ألا جلس في بيت أمّه أو أبيه فينظر أيُهدَى إليه أم لا ، لا يأتي أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بعيرًا فله رُغاء وإن كانت بقرة فلها خُوار أو شاةً تَيْعَر(٣) " — ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَتَيْ(٤) إبطيه ثم قال : — " اللّهمّ هل بَلّغتُ اللّهُمّ هل بَلّغتُ " . وروى أبو داود عن بُرَيدة عن النبيّ

(١) ابن اللتبية (بضم فسكون) هو عبد الله بن اللتبية الصحابي ، واللتبية أمه . ويروى بفتح اللام والمثناة .
(٢) هذه الزيادة في صلب : ج و ه و د ، وابن السرح هو أحمد بن عمرو الأموى أبو الطاهر المصرى .
(٣) اليعار (بضم الياء) : صوت الغنم والمعزى . يعرت بفتح العين تيعر بالكسر والفتح يعارا بالضم .
(٤) العفرة (بضم فسكون) : بياض ليس بالناصع الشديد ، ولكن كلون عفر الأرض وهو وجهها .

صلى الله عليه وسلم قال : "من استعملناه على عمل فرزقناه رِزْقا فما أخَذ بعد ذلك فهو غُلول".
ورَوى أيضا عن أبي مسعود الأنصارى قال : بَعثنى رســول الله صلى الله عليه وســلم ساعِيًا ثم قال : " انطلق أبا مسعود ولا أُلفِينَّك يوم القيامة تأتى على ظهرك بعيرٌ من إبل الصّدقة له رُغاءٌ قد غَلَلْتَه " . قال : إذا لا أنطلق . قال : " إذًا لا أُكرهك " . وقد قيّد هذه الأحاديث مارواه أبو داود أيضا عن المُسْتَوْرِد بن شداد قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان لنـا عاملا فلْيَكْتَسِب[1] زوجةً فإن لم يكن له خادم فلْيَكْتَسِب خادِما فإن لم يكن له مسكن فليكتسِب مسكنا " . قال فقال أبو بكر : أُخبرت أن النبيّ صلى الله عليه وســلم قال : " من ٱتخذ غير ذلك فهو غالٌّ سارق " . والله أعلم .

العاشــــرة — ومن الغُلول حبس الكُتُب عن أصحابها، و يدخل غيرها فى معناها . قال الزُّهرِىّ : إيّاك وغلولَ الكتب . فقيل له : وما غُلُول الكتب؟ قال : حبسها عن أصحابها .
وقد قيــل فى تأويل قوله تعــالى : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ » أن يكتم شيئا من الوَحْى رَغْبةً أو رَهْبةً أو مُداهنة . وذلك أنهم كانوا يكرهون ما فى القرآن من عَيْب دينهم وسَبّ آلهتهم ، فسألوه أن يطوِى ذلك؛ فأنزل الله هذه الآية؛ قاله محمد بن بشّار[2] . وما بدأنا به قول الجمهور .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ تقدّم القول فيه[3] .

قوله تعـالى : أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ ﴾ يُريد بتَرك الغُلول والصّبر على الجهاد . ﴿ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ﴾ يُريد بكُفْرٍ أوغُلولٍ أو تولٍّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الحرب . ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أى مَثْوَاهُ النّار، أى إن لم يَتُب أو يعفو الله عنهُ . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع . وقرئ

(١) والحديث بالسند والمتن فى ابن كثير . (٢) فى د و هـ و ب : يسار . هو أبو عبدالله المروزى الخرسانى؛ وابن بشار هو ابن عثمان بن داود بن كيسان العبدى البصرى . (٣) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥

رِضوانُ بكسر الرّاء وضَمّها كالعُدوان[والعِدوان](١). ثم قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾ أى ليس من اتّبع رِضوان الله كَمَن باء بِسخَط منه . قيل: «هُمْ دَرَجَاتٌ» مُتفاوِتةٌ، أى هم مُختلفُوا المنازِل عندالله؛ فلمن اتّبع رضوانه الكَرامةُ والثوابُ العظيمُ، ولِمَن باءَ بِسَخط منه المَهانةُ والعذابُ الأليمُ. ومعنى «هُمْ دَرَجَاتٌ» . أى ذَوُو دَرَجاتٍ. أو على دَرجات، أو فى دَرجاتٍ، أو لهم دَرجاتٌ . وأهل النار أيضا ذوو درجات؛ كما قال: "وجدته فى غَمَرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح"(٢). فالمؤمن والكافر لا يستويان فى الدّرجة؛ ثم المؤمنون يختلفون أيضا ، فبعضهم أرفع درجة من بعض، وكذلك الكفار . والدّرجةُ الرّتبةُ، ومنه الدَّرج؛ لأنه يُطوَى رُتْبةً بعد رُتْبةٍ . والأشهر فى منازل جهنم دَرَكات؛ كما قال: « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »(٣) فلمن لم يَغُلّ درجات فى الجنة ، ولمن غَلّ دَرَكاتٌ فى النار . قال أبو عبيدة : جهنمُ أَدْرَاكٌ ، أى منازل؛ يقال لكل منزل منها : دَرَك ودَرْك . والدَّرَكُ إلى أسفل، والدَّرجُ إلى أعلى .

قوله تعالى : لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

بيّن الله تعالى عظيمَ مِنّته عليهم ببعثه محمدا صلى الله عليه وسلم . والمعنى فى المِنّة فيه أقوال: منها أن يكون معنى ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى بشرٌ مثلُهم . فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم عُلِم أن ذلك من عند الله . وقيل : « مِن أَنْفُسِهِم » منهم . فشَرُفُوا به صلى الله عليه وسلم، فكانت تلك المِنّة . وقيل : «مِن أَنْفُسِهم» ليعرفوا حاله ولا تخفى عليهم طريقته . و إذا كان محله فيهم هذا كانوا أحقَّ بأن يقاتلوا عنه ولا ينهزموا دونه . وقرِئ فى الشّواذ(٤) «من أَنْفَسِهِم» (بفتح الفاء) يعنى من أشرفهم؛ لأنه من بنى هاشم، و بنو هاشم أفضلُ من قريش، وقريشٌ أفضل من العرب ، والعربُ أفضل من غيرهم . ثم قيل : لفظ المؤمنين عامّ ومعناه خاص

(١) فى هـ وجـ و د .
(٢) الضحضاح: مارق من الماء على وجه الأرض ولا يبلغ الكعبين ، فاستعاره للنار .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤
(٤) هذه قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة وابن عباس رضى الله عنهما .

فى العرب؛ لأنه ليس حىّ من أحياء العرب إلا وقد ولَده صلى الله عليه وسلم، ولهم فيه نسب؛ إلا بنى تَغْلِب فإنهم كانوا نصارى فطهّره الله من دَنَس النّصرانية . وبيان هذا التأويل قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ »(١) . وذكر أبو محمد عبد الغنى قال : حدّثنا أبو أحمد البصرى(٢) حدّثنا أحمد بن علىّ بن سعيد القاضى أبو بكر المَرْوَزى حدّثنا يحيى بن مَعِين حدّثنا هشام بنُ يوسف عن عبد الله بن سُلَيمان النَّوفَلى عن الزُّهرىّ عن عُروةَ عن عائشة رضى الله عنها : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » قالت : هذه للعرب خاصّةً . وقال آخرون : أرادَ به المؤمنين كلّهم . ومعنى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أنّه واحدٌ منهم وبَشَرٌ مثلُهم، وإنما امتاز عنهم بالوحى؛ وهو معنى قوله « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ »(٣) وخَصّ المؤمنين بالذّكر لأنهم المُنتفِعون به، فالمنّةُ عليهم أعْظَم . وقولُه تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ « يتلو » فى موضع نَصْب نعتٌ لرسُول، ومعناه يقرأ . والتّلاوةُ القِراءةُ . ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ تقدّم فى «البقرة»(٤) . ومعنى ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى ولقد كانوا من قبل، أى من قبل محمد، وقيل : « إنْ » بمعنى ما، واللام فى الخبر بمعنى إلّا، أى وما كانوا من قبلُ إلّا فى ضلال مبين . ومثله « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ »(٥) أى وما كنتم من قبله إلا من الضالين . وهذا مذهب الكوفيين . وقد تقدّم فى « البقرة » معنى هذه الآية .

قوله تعالى : أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

الألف للاستفهام، والواو للعطف . ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ أى غلبة . ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾ يوم بَدْر بأن قتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين . والأسير فى حكم المقتول؛ لأن الآسر يقتل أسيره إن أراد . أى فهزمتموهم يوم بَدْر ويوم أُحُد أيضا فى الابتداء، وقتلتم فيه قريبا من

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩١ (٢) فى ب و هـ و د : المصرى . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠١
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٣٠ (٥) راجع جـ ٢ ص ٤٢٧

عشرين ، قتلتم منهم في يومين ، ونالوا منكم في يوم أُحُد . ﴿ قُلْتُمْ أَنَّى هَـٰذَا ﴾ أي من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل، ونحن نقاتل في سبيل الله، ونحن مسلمون، وفينا النبيّ والوحي، وهم مشركون ! . ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني مخالفة الرُّماة . وما من قوم أطاعوا نبيّهم في حرب إلّا نُصروا ؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون . وقال قتادة والرّبيع بن أنس: يعني سؤالهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يخرج بعد ما أراد الإقامة بالمدينة. وتأوّلها في الرؤيا التي رآها درعا حصينة(١) . عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : هو اختيارهم الفِداء يوم بَدْر على القتل . وقد قيل لهم : إن فاديتم الأسارى قُتل منكم على عِدّتهم . وروى البَيْهَقي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في الأسارى يوم بدر : " إن شئتم قتلتموهم و إن شئتم فاديتموهم وآستمتعتم بالفداء واستُشهد منكم بعدّتهم " . فكان آخرَ السبعين ثابتُ بن قيس قُتل يوم اليمامة . فمعنى « مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ » على القولين الأوّلين بذنوبكم . وعلى القول الأخير باختياركم .

قوله تعالى : وَمَا أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

يعني يوم أُحُد من القتل والجَرح والهزيمة ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بعلمه . وقيل : بقضائه وقَدَره . قال القَفّال : أي فبتَخْلِيته بينكم و بينهم ، لا أنه أراد ذلك . وهذا تأويل المعتزلة . ودخلت الفاء في « فبإذن الله » لأن « ما » بمعنى الذي . أي والذي أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ؛ فأشبه الكلام معنى الشرط ، كما قال سيبويه : الذي قام فله درهم . ﴿ وَلِيَعْلَمَ

(١) كذا في د و ب و جـ و حـ و هـ، وفي ا : حصنا حصينا .

الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ أى ليُمَيِّز . وقيل ليرى . وقيل : ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم فى القتال، وليظهر كفر المنافقين بإظهارهم الشّماتة فيعلمون ذلك . والإشارة بقوله : ﴿ نَافَقُوا وَقِيـلَ لَهُمْ ﴾ هى إلى عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه الذين آنصرفوا معـه عن نُصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ثلاثمائة ، فمشى فى أثرهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام الأنصارى ، أبو جابر ابن عبد الله ، فقال لهم : آتّقوا الله ولا تتركوا نبيّكم ، وقاتلوا فى سبيل الله أو آدفعوا ، ونحو هذا من القول . فقال له ابن أبىّ : ما أرى أن يكون قِتال ، ولو علمنا أن يكون قِتال لكنّا معكم . فلما يئس منهم عبـد الله قال : آذهبوا أعداءَ الله فسيُغنِى اللهُ رسـولَه عنكم . ومضى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم واستُشهد رحمه الله تعالى .

واختلف الناس فى معنى قوله : ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا﴾ فقال السُّدّى وابن جريج وغيرهما : كَثِّروا سوادنا وإن لم تقاتلوا معنا؛ فيكون ذلك دَفْعًا وقَمْعًا للعـدوّ؛ فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدو . وقال أنس بن مالك : رأيت يوم القادِسيّة عبد الله بن أمّ مَكْتُوم الأعمى وعليه دِرْع يجرّ أطرافها، وبيده رايةٌ سـوداء؛ فقيل له (١) : [أليس] (٢) قد أنزل الله عذرك ؟ قال : بلى ! ولكنى أكثِّر [سواد] (٢) المسلمين بنفسى . ورُوى عنه أنه قال : فكيف بسوادى فى سبيل الله ! وقال أبو عون الأنصارى : معنى «أو آدفعوا» رابطوا . وهذا قريب من الأوّل . ولا محالة أن المرابط مدافع؛ لأنه لولا مكان المرابطين فى الثّغور لجاءها العدو . وذهب قوم من المفسرين إلى أن قول عبـد الله بن عمرو « أو آدفعوا » إنما هو آسـتدعاء إلى القتال [حميـة؛ لأنه استدعاهم إلى القتال] (٣) فى سبيل الله ، وهى أن تكون كلمة الله هى العليا، فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك عرض عليهم الوجه الذى يحْشِمهم ويبعث الأَنَفة . أى أو قاتلوا دِفاعًا عن الحَوْزة . ألا ترى أن قُزْمان (٤) قال : والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى . وألا ترى أن بعض الأنصار

---

(١) فى ز : فقلت له . (٢) الزيادة من ابن عطية . (٣) الزيادة من ب و د و جـ .

(٤) هو قزمان بن الحارث العبسى المنافق الذى قال فيـه رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر " .

قال يوم أحد لما رأى قريشا قد أرسلت الظَّهر[١] فى زروع قَناة[٢] ، أَتُرْعَى زروع بنى قَيْلَة[٣] ولما نضارِب ؟ والمعنى إن لم تقاتلوا فى سبيل الله فقاتلوا دَفْعًا عن أنفسكم وحَرِيمكم .

قوله تعالى : ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أى بيّنوا حالهم، وهتكوا أستارَهم، وكشَفُوا عن نفاقِهم لمن كان يظُنّ أنهم مسلمون؛ فصاروا أقربَ إلى الكفر فى ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق . وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى أظهَروا الإيمان، وأَضْمَرُوا الكفر . وذِكْرُ الأفواه تأكيدٌ؛ مثل قوله : «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ»[٤] .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾[٥] معناه لأجل إخوانهم، وهم الشهداء المقتولون من الخزرج؛ وهم إخوة نسب ومجاورة، لا إخوة الدِّين . أى قالوا لهؤلاء الشهداء : لو قعدوا، أى بالمدينة ما قتلوا . وقيل : قال عبد الله بن أبيّ وأصحابُه لإخوانهم ، أى لأشكالهم من المنافقين : لو أطاعونا، هؤلاء الذين قُتلوا، لما قتلوا. وقوله ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يريد فى ألّا يخرجوا إلى قريش . وقوله : ﴿وَقَعَدُوا﴾ أى قالوا هذا القول وقعدوا بأنفسهم عن الجهاد؛ فردّ الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أى قل لهم يا محمد : إن صدقتم فادفعوا الموت عن أنفسكم . والدَّرْء الدفعُ . بيّن بهذا أن الحَذَر لا ينفع من القَدَر، وأن المقتولَ يقتل بأجله ، وما عَلِم الله وأخبر به كائنٌ لا محالَة . وقيل : مات يومَ قيل هذا، سبعون منافقا . وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ : سمعت بعض المفسّرين بسَمَرْقَنْد يقول : لما نزلت الآية « قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » مات يومئذ سبعون نفسا من المنافقين .

---

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال فى السفر؛ لحملها إياها على ظهورها . (٢) قناة : واد بالمدينة، وهى أحد أوديتها الثلاثة ، عليه حرث ومال . قال المدائنى : وقناة يأتى من الطائف ويصب فى الأرحضية وقرقرة الكدر، ثم يأتى بئر معونة، ثم يمر على طرف القدوم فى أصل قبور الشهداء بأحد . (عن معجم البلدان) .

(٣) قيلة : أم الأوس والخزرج؛ وهى قيلة بنت كاهل بن عذرة ، قضاعية . ويقال : بنت جفنة ، غسانية . (عن شرح القاموس) . (٤) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ (٥) فى ب : لأهل .

قوله تعـالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى ــ لمـا بيّن الله تعالى أنّ ما جرى يوم أُحد كان ٱمتحاناً يُميِّز المنافق من الصادق ، بيّن أن من لم ينهزم فقُتل له الكرامةُ والحياةُ عنده . والآية فى شُهَداء أُحد . وقيل : نزلت فى شهداء بئر مَعُونة . وقيـل : بل هى عامّة فى جميع الشهداء . وفى مصنف أبى داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لمّـا أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم فى جَـوْف طَير خضر تَرِد أنهـار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديلَ من ذهب معلّقةٍ فى ظلّ العَرْش فلما وجدوا طِيب مأْكَلِهم ومَشْرَبهم ومَقِيلهم قالوا مَن يُبَلِّغ إخوانَنا عنّا أنّا أحياءٌ فى الجنـة نُرْزَق لئلا يَزْهَدوا فى الجهاد ولا يَنْكُلوا عند الحرب فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم "ــ قال ــ فأنزل الله " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا ... " إلى آخر الآيات . وروى بَقِىّ بن مَخْلَد(١) عن جابر قال : لقِيَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ياجابر مالى أراك مُنكِّسًا مُهتمًّا" ؟ قلت : يارسول الله ، ٱستُشْهِد أبى وترك عِيالًا وعليه دَيْن ؛ فقال : "ألا أبَشِّرك بما لقِىَ اللهُ عز وجل به أباك"؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : "إن الله أحْيَا أباك وكلمه كِفاحًا(٢) وما كلّم أحد قطُّ إلا من وراء حجاب فقال له يا عبدى تَمَنّ أُعْطِك قال يارب فرُدّنى إلى الدنيـا فأُقْتَل فيك ثانيةً فقال الربّ تبارك وتعـالى إنه قد سبق مِنى أنهم [إليها](٣) لا يرجعون قال يارب فأبلغ مَن ورائى" فأنزل الله عز وجل «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ » الآية . أخرجه ابن ماجه فى سُـنَنه ، والتِّرمذِىّ فى جامعه وقال : هـذا حديث حسن غريب . وروى وَكِيع عن سالم بن الأفْطَس عن سعيد بن جبير «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيل

(١) حافظ الأندلس ابن يزيد القرطبى . (٢) كفاحا (بكسر الكاف) أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول . (٣) زيادة عن سنن الترمذى وابن ماجه .

اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ » قال : لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومُصْعَب بن عُمير ورأوا ما رُزقوا من الخير قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كى يزدادوا فى الجهاد رَغْبَة ؛ فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا — إلى قوله : لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » . وقال أبو الضُّحى : نزلت هذه الآية فى أهل أُحد خاصّةً . والحديثُ الأوّل يقتضى صحةَ[1] هذا القول . وقال بعضهم : نزلت فى شهداء بَدْر وكانوا أربعة عشر رجلا ، ثمانيةٌ من الأنصار ، وستة من المهاجرين . وقيل : نزلت فى شهداء بئر مَعُونة[2] ، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق وغيره . وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسّروا وقالوا : نحن فى النعمة والسرور ، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا فى القبور . فأنزل الله تعالى هذه الآية تَنْفِيسًا عنهم وإخبارًا عن حال قتلاهم .

قلت : وبالجملة وإن كان يحتمل أن يكون النّزول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياءٌ فى الجنة يُرزقون ، ولا مَحالةَ أنهم ماتوا وأن أجسادهم فى التراب ، وأرواحهم حيّة كأرواح سائر المؤمنين ، وفُضّلوا بالرزق فى الجنّة من وقت القَتْل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى . فالذى عليه المعظم هو ما ذكرناه ، وأن حياة الشهداء محققة . ثم منهم من يقول : تُرَدُّ إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون ، كما يحيا الكفار فى قبورهم فيُعذبون . وقال مجاهد : يرزقون من ثَمَر الجنة ، أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وصار قوم إلى أن هذا مجاز ، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقّون للتنعُّم فى الجنة . وهو كما يقال : ما مات فلان ، أى ذكره حىّ ؛ كما قيل :

مَوْتُ التَّقِىّ حياةٌ لا فناءَ لها * قَدْ مات قومٌ وهُمْ فى الناس أحْيَاءُ

(١) كذا فى ا و ح . وفى د : يقتضى هذا القول ، وفى ب و ج و هـ : يقضى بصحة الخ .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ٦٤٨ طبع أوربا .

فالمعنى أنهم يرزقون الثناءَ الجميــل . وقال آخرون : أرواحهم فى أجواف طَـيْرٍ خُضْرٍ وأنهم يُرزقون فى الجنة و يأكلون و يتنعّمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال؛ لأن ما صحّ به النقل فهو الواقع . وحديثُ ابن عباس نصٌّ يرفع الخلاف . وكذلك حديث ابن مسعود خرّجه مسلم . وقد أتينا على هذا المعنى مبيّنًا فى كتاب « التّذكِرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . والحمد لله .

وقد ذكرنا هناك كم الشهداء، وأنهم مختلفو الحال . وأما من تأوّل فى الشهداء أنهم أحياء بمعنى أنهم سيحْيَوْن فبعيدٌ يردّه القرآن والسنة؛ فإن قوله تعالى : « بَلْ أَحْيَاءٌ » دليل على حياتهم، وأنّهم يرزقون ولا يُرزق إلا حىّ . وقد قيــل : إنه يكتب لهم فى كل سَــنَة ثوابُ غزوة؛ ويُشركون فى ثواب كلّ جهاد كان بعدهم إلى يوم القيامة؛ لأنهم سَنّوا أمر الجهاد . نظيره قوله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا »(1) . على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعــالى . وقيل : لأن أرواحَهــم تركَع وتسجُد تحت العرش إلى يوم القيامة، كأرواح الأحياء المؤمنين الذين باتُوا على وُضُوء . وقيل : لأن الشهيد لا يَبلى فى القبر ولا تأكله الأرض . وقد ذكرنا هــذا المعنى فى « التّذكِرة » وأن الأرض لا تأكل الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذّنين المحتَسبين وحملة القرآن .

الثانيـــة — إذا كان الشّهيد حيًّا حُكمًا فلا يُصــلّى عليه ، كالحىّ حِسًّا . وقد اختلف العلماء فى غُسل الشهداء والصّــلاة عليهم ؛ فذهب مالك والشافعىّ وأبو حنيفة والثّورىّ إلى غُسل جميع الشّهداء والصلاة عليهم ؛ إلا قتيلَ المُعتَرك فى قتال العدوّ خاصة؛ لحديث جابر قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أدفنوهم بدمائهم" يعنى يوم أُحُد ولم يُغسِّلهم، رواه البخارىّ . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم بقتلى أُحُد أن يُنزَع عنهم الحديدُ والجلودُ وأن يُدفَنُوا بدمائهم وثيابهم . و بهذا قال أحمدُ و إسحاقُ والأوزاعىّ وداود بن علىّ وجماعةُ فُقَهاء الأمصار وأهل الحديث وابنُ عُلَيّة . وقال سعيد بن المُسَيّب والحَسَن : يُغسّلون . قال أحدهما : إنما لم تُغَسّل شهداء أُحُد لكثرتهم والشُّغل عن ذلك . قال أبو عُمَر : ولم يقل بقول سعيد والحسن هــذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عبيد الله بن الحسن العَنْبَرى ، وليس

(1) راجع جـ ٦ ص ١٤٥

ما ذكروا من الشُّغل عن غُسل شهداء أحد علّة ؛ لأن كل واحد منهم كان له وليٌّ يشتغل به ويقوم بأمره . والعلة فى ذلك — والله أعلم — ما جاء فى الحديث فى دمائهم "أنها تأتى يوم القيامة كريح المِسْك" فبانَ أن العلّة ليست الشُّغل كما قال من قال فى ذلك، وليس لهذه المسألة مدخل فى القياس والنظر، وإنما هى مسألة آتّباعٍ للأثر الذى نقله الكافّة فى قتلى أُحُد لم يُغسّلوا .

وقد آحتج بعض المتأخرين ممن ذهب مذهب الحسن بقوله عليه السلام فى شهداء أُحُد : "أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة" . قال : وهذا يدل على خصوصهم وأنه لا يَشْرَكهم فى ذلك غيرهم . قال أبو عمر : وهذا يشبه الشذوذ، والقول بترك غُسلهم أولى ؛ لثبوت ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قتلى أحد وغيرهم . وروى أبو داود عن جابر قال : رُمِىَ رجل بسهم فى صدره أو فى حلقه فمات فأُدرِج فى ثيابه كما هو . قال : ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة — وأما الصلاةُ عليهم فاختلف العلماء فى ذلك أيضا ؛ فذهب مالك والليث والشافعيّ وأحمد وداود إلى أنه لا يُصلّى عليهم ؛ لحديث جابر قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول : "أيّهما أكثر أخذًا للقرآن" ؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدّمه فى اللّحد وقال : "أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة" وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُغسّلوا ولم يُصلّ عليهم . وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام : يُصلّى عليهم . وروَوْا آثارًا كثيرة أكثرها مراسيل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى على حمزة وعلى سائر شهداء أُحُد .

الرابعة — وأجمع العلماء على أن الشّهيد إذا حُمل حيًّا ولم يمت فى المُعتَرَك وعاش وأكل فإنه يُصلّى عليه ؛ كما قد صُنع بعمر رضى الله عنه .

واختلفوا فيمن قُتل مظلوما كقتيل الخوارج وقُطّاع الطريق وشبه ذلك ؛ فقال أبو حنيفة والثّورى : كل من قتل مظلوما لم يُغسّل، ولكنه يُصلّى عليه وعلى كل شهيد؛ وهو قول سائر أهل العراق . وروَوْا من طُرق كثيرة صحاح عن زيد بن صُوحان، وكان قتل يوم الجمل : لا تنزعوا عنّى ثوبًا ولا تغسلوا عنى دمًا[1] . وثبت عن عمار بن ياسر أنه قال مثل قول زيد

(١) كذا فى د و جـ و هـ و ب . وفى أ و حـ : روى .

ابن صُوحان . وقُتل عمار بن ياسر بصفّين ولم يغسّله علىّ . وللشافعى قولان : أحدهما — يُغسّل بجميع الموتى إلا من قتله أهـل الحرب ؛ وهذا قول مالك . قال مالك : لا يُغسّل من قتله الكفار ومات فى المُعترك . وكل مقتول غير قتيل المُعترَك — قتيل الكفار — فإنه يُغسّل ويُصلّى عليه . وهذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنـه . والقول الآخر للشافعى — لا يُغسّل قتيل البُغاة . وقول مالك أصح ؛ فإنّ غُسل الموتى قد ثبت بالإجماع ونَقْلِ الكافّة . فواجبٌ غُسلُ كلّ ميت إلا من أخرجه إجماعٌ أو سُنّةٌ ثابتة . وبالله التوفيق .

الخامسة — العـدو إذا صبّح قوما فى منزلهم ولم يَعلموا به فقتَل منهم فهل يكون حكمه حكم قتيل المعتَرك، أو حكم سائر الموتى ؛ وهذه المسألة نزلت عندنا بقُرطُبَة أعادها الله: أغارَ العدو — قَصَمه الله — صَبيحَةَ الثّالثِ من رَمضانَ المُعظَّم سنةَ سَبعٍ وعشرين وسِتّمائة والناس فى أجرانهم على غَفلة، فقتَل وأسَر، وكان من جُملة من قُتل والدى رحمه الله، فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبى حجة (1) فقال ؛ غَسّله وصلّ عليه، فإن أباك لم يُقتَل فى المُعتَرك بين الصَّفين . ثم سألت شيخنا ربيعَ بن عبـد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبىّ فقال : إن حكمه حكم القتلى فى المعـترك . ثم سألت قاضى الجماعة أبا الحسن علىّ بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا : غسّـله وكفّنه وصلّ عليه؛ ففعلت . ثم بعـد ذلك وقَفتُ على المسـألة فى « التّبصرة » لأبى الحسن اللّخمىّ وغيرها ، ولو كان ذلك قبـل ذلك ما غسّلته، وكنت دفنته بدمه فى ثيابه .

السادســة — هذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل فى سبيل الله والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " القتل فى سبيل الله يكفّر كل شىء إلا الدّين كذلك قال لى جبريل عليه السلام آنفا " . قال علماؤنا ذِكر الدَّين تنبيه على ما فى معناه من الحقوق المتعلقـة بالذمم ، كالغصب وأخذ المـال بالباطل وقتل العمـد وجراحه وغير ذلك من التَّبِعات ، فإن كل هـذا أَوْلى ألّا يُغفرَ بالجهاد من الدَّين فإنه أشد ، والقصاص فى هذا

(1) فى ج : « بابن حجة » .

كله بالحسنات والسيئات حسبما وردت به السنّة الثابتة . روى عبد الله بن أُنَيْس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يحشر الله العباد — أو قال الناس، شكّ همّام(١)، وأومأ بيده إلى الشام — عُراة غُرْلا(٢) بُهْمًا . قلنا : ما بُهْمٌ(٣) ؟ قال : ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه مَن قَرُب ومَن بَعُد أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتّى اللطْمة . قال قلنا : كيف وإنما نأتى الله حفاة عراة غرلا . قال : بالحسنات والسيئات " . أخرجه الحارث بن أبى أُسامة(٤) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون من المفلس " ؟ . قالوا : المفلِس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : " إن المفْلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتَم هذا وقذَف هذا وأكل مالَ هذا وسفكَ دمَ هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه أخِذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار " . وقال صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لو أن رجلا قُتل فى سبيل الله ثم أُحْيَ ثم قتل ثم أحيي ثم قُتل وعليه دَيْن ما دخل الجنة حتى يُقْضى عنه " . وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نفس المؤمن معلّقة ما كان عليه دَيْن " . وقال أحمد بن زُهَير : سئل يحيى بن مَعين عن هذا الحديث فقال : هو صحيح . فإن قيل : فهذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل، ولا تكون أرواحهم فى جَوف طير كما ذكرتم، ولا يكونون فى قبورهم، فأيْنَ يكونون ؟ قلنا : قد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بَارِقٌ يخرج عليهم رزقهم من الجنة بُكْرَةً وعَشِيًّا " فلعلهم هؤلاء . والله أعلم . ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية : وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنهم « يُرْزَقُونَ » . وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى فى سننه عن

(١) هو همام بن يحيى، أحد رجال سند هذا الحديث .　(٢) الغرل (بضم فسكون) : جمع الأغرل، وهو الأقلف .　(٣) فى ط وهـ وب : ما بهما ؟ .　(٤) فى جـ : أمامة . والصحيح ما أثبت كما فى التهذيب

سـليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة يقول سمعت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : "شهيد البحر مثل شهيدَىْ البَرّ(١) والمـائدُ(٢) فى البحر كالمُتَشَحِّط(٣) فى دَمِه فى البر وما بين المَوْجَتين كقاطع الدنيـا فى طاعة الله و إن الله عزّ وجلّ وكّل ملك الموت بقبض الأرواح إلا شهداء البحـر فإنه سبحانه يتولّى قَبضَ أرواحهم و يَغْفِر لشهيد البرّ الذنوبَ كلَّها إلا الدَّين و يغفر لشهيد البحر الذنوب كلها والدينْ " .

السابعــة ــ الدَّين الذى يُحْبَس به صاحبه عن الجنـة ــ والله أعلم ــ هو الذى قد ترك له وفاء ولم يُوص به . أو قَدر على الأداء فلم يؤدّه ، أو آدّانه فى سَرَف أو فى سفهٍ ومات ولم يوفّه . وأما من آدّان فى حق واجب لِفاقةٍ وعُسْر ومات ولم يترُك وفاء فإن الله لا يحبسه عن الجنة إن شاء الله ؛ لأن على السلطان فرضًا أن يؤدّىَ عنه دينه ، إما من جملة الصدقات ، أو من سهم الغارمين ، أو من الفَىْء الراجع على المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : " من ترك دَيْنًا أو ضَياعا(٤) فعلى الله ورسوله ومن ترك مالا فلورثته " . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التذكرة) والحمد لله .

الثامنــة ــ قوله تعـالى : ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فيه حذف مضاف تقديره عند كرامة ربّهم . و « عِند » هنا تقتضى غايةَ القُرْب ، فهى كـ(لدى) ولذلك لم تصغر فيقال ! عُنيد ؛ قاله سيبويه . فهــذه عِنْدِيّة الكرامة لا عِنْدِية المسافة والقُــرْب . و « يرزقون » هو الرزق المعروف فى العادات . ومن قال : هى حياة الذِّكْر قال : يرزقون الثناء الجميل . والأوّل الحقيقة . وقد قيل : إن الأرواح تُدرِك فى تلك الحال التى يسرحون فيها من روائح الجنة وطِيبها ونعيمها وسرورها ما يَليق بالأرواح ؛ ممـا ترتزق وتنتعش به . وأما اللذات الجسمانية فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها آستوفت من النعيم جميعَ ما أعدّ الله لها . وهذا قول حسن ، و إن كان فيه نوع من المجاز ، فهو الموافق لمـا آخترناه . والموفّق الإله . و﴿ فَرِحِينَ ﴾ نصب فى موضع الحال

(١) قال فى شرح الجامع : بلفظ التثنية . (٢) المـائد : الذى تدور رأسه من ريح البحر، وآضطراب السفينة بالأمواج . (٣) تشحّط المقتول فى دمه تخبط فيه واضطرب وتمرّغ . (٤) الضياع : (بفتح أوّله) : العيال .

من المضمر فى « يُرْزَقُونَ » . ويجوز فى الكلام « فَرِحُون » على النعت لأَحْيَاء . وهو من الفرح بمعنى السرور . والفضل فى هذه الآية هو النّعيمُ المذكور . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «فَارِحِين» بالألف وهما لغتان كالفَرِه والفاره، والحَذِر والحاذِر، والطَّمِع والطَّامِع، والبَخِل والباخِل . قال النحاس : ويجوز فى غير القرآن رَفعُه، يكون نعتا لأحياء .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ المعنى لم يلحقوا بهم فى الفضل، وإن كان لهم فضل . وأصله من البَشْرة(١)؛ لأن الإنسان إذا فَرِح ظهر أثر السّرور فى وجهه . وقال السّدى : يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر مَن يَقْدَمُ عليه من إخوانه، فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقُدومه فى الدنيا . وقال قَتادةُ وابن جُرَيْج والرّبيعُ وغيرُهم : استبشارهم بأنهم يقولون : إخواننا الذين تركنا خلفنا فى الدنيا يقاتلون فى سبيل الله مع نبيّهم، فيستشهدون فينالون من الكرامة مثلَ ما نحن فيه ؛ فيسرّون ويفرحون لهم بذلك . وقيل : إن الإشارة بالاستبشار للذين لم يَلحقوا بهم إلى جميع المؤمنين وإن لم يُقتَلوا، ولكنهم لما عاينوا ثواب الله وقع اليقين بأن دين الإسلام هو الحق الذى يثيب الله عليه؛ فهم فَرِحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، مستبشرون للؤمنين بأن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . ذهب إلى هذا المعنى الزجّاج وابن فُورَك .

قوله تعالى : يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

أى بجنة من الله . ويقال : بمغفرة من الله . ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ هذا لزيادة البيان . والفضل داخل فى النعمة ، وفيه دليل على اتساعها، وأنها ليست كنِعَم الدنيا . وقيل : جاء الفضل بعد النعمة على وجه التأكيد ؛ روى التِّرمذىّ عن المِقْدام بن مَعْدِيكرِب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "للشّهيد عند الله ستُّ خِصال — كذا فى الترمذىّ وابن ماجه «ستّ»،

(١) كذا فى ب و ز و هـ و جـ . وفى ط : البشرة والبشارة .

وهي في العدد سبع — يغفر له في أول دُفعة[1] ويرى مَقعده من الجنة ويُجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاجُ الوَقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويُزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العِين ويُشَفَّع في سبعين من أقاربه" قال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وهـذا تفسير للنّعمة والفضل. والآثار في هـذا المعنى كثيرة. ورُوى عن مجاهد أنه قال: السـيوف مفاتيح الجنة. وروى عن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أنه قال: "أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات لم يُكرم بها أحدا من الأنبياء ولا أنا أحدها أن جميع الأنبيـاء قبض أرواحَهم مَلَكُ الموت وهو الذي سيقبض رُوحى وأما الشهداء فالله هو الذي يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء ولا يُسلّط على أرواحهم مَلَكُ الموت، والثاني أن جميع الأنبياء قد غُسِّلوا بعد الموت وأنا أُغَسَّل بعد الموت والشهداء لا يُغَسَّلُون ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا، والثالث أن جميع الأنبيـاء قد كُفِّنوا وأنا أُكَفَّن والشهداء لا يُكَفَّنون بل يُدفنون في ثيابهـم، والرابع أن الأنبياء لمـا ماتوا سُمُّـوا أمواتا وإذا مِت يقال قـد مات والشهداء لا يُسَمَّون مَوْتَى، والخامس أن الأنبياء تُعطَى لهم الشفاعةُ يوم القيامة وشـفاعتي أيضا يوم القيامة وأما الشهداء فإنهم يشفعون في كل يوم فيمن يشفعون".

قوله تعـالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ قرأه الكسائي بكسر الألف، والباقون بالنصب؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه يستبشرون بنعمة من الله ويستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. ومن قرأ بالكسر فعلى الابتداء. ودليله قراءة ابن مسعود «وَٱللَّهُ لا يضيع أجر المؤمنين».

قوله تعـالى: ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

---

(١) في حاشية السندي على سنن ابن ماجه: «قوله ست خصال المذكورات سبع إلا أن يجعل الإجارة والأمن من الفزع واحدة». (٢) دفعة: قال الدميري: ضبطناه في جامع الترمذي بضم الدال، وكذلك قال أهل اللغة: الدفعة بالضم ما دفع من إناء أو سقاء فانصب بمرة؛ وكذلك الدفعة من المطر وغيره مثل الدفقة بالقاف. وأما الدفعة بالفتح فهي المرة الواحدة فلا يصلح ههنا».

﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع رفع على الابتداء ، وخبره « مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » . ويجوز أن يكون فى موضع خفض، بدلٌ(١) من المؤمنين، أو من « الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا» . ﴿ ٱسْتَجَابُوا ﴾ بمعنى أجابوا، والسين والتاء زائدتان . ومنه قوله :

* فلم يَسْتَجِبْه عنـــد ذاك مُجِيبُ(٢) *

وفى الصحيحين عن عروة بن الزبير قال قالت لى عائشــة رضى الله عنهــا : كان أبوك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح . لفظ مسلم . وعنه عن عائشة : ياآبن أختى كان أبواك — تعنى الزبير وأبا بكر — من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح . وقالت : لمــا آنصرف المشركون من أُحُد وأصاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ما أصابهم خاف أن يرجعوا فقال : "من يَنتدب لهؤلاء حتى يعلموا أن بنا قوّة" قال . فانتَدَب أبو بكر والزّبير فى سبعين؛ فخرجوا فى آثار القوم ، فسمعوا بهم وآنصرفوا بنعمة من الله وفضل . وأشارت عائشة رضى الله عنها إلى ماجرى فى غَزوة حَمْراء الأسَد، وهى على نحو ثمــانية أميال من المدينة؛ وذلك أنه لمــا كان فى يوم الأحد ،وهو الثانى من يوم أُحُد، نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس بإتباع المشركين، وقال : "لا يخرج معنا إلا من شهدها بالأمس" فنهض معه مائتا رجل من المؤمنين . فى البخاريّ فقال : "من يذهب فى إثرهم" فانتدب منهم سبعون رجلا . قال : كان فيهم أبو بكر والزبير على ماتقدّم ، حتى بلغ حمراء الأسد ، مُرْهِبًا للعدوّ؛ فرُبّمــا كان فيهم المُثْقَل بالجراح لا يستطيع المشى ولا يجد مركُوبًا، فرُبّما يحمل على الأعناق؛ وكل ذلك آمتثالٌ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبة فى الجهاد . وقيل : إن الآية نزلت فى رجلين من بنى عبد الأَشْهل كانا مُثْخَنَين بالجراح ؛ يتوكّأ أحدهما على صاحبه ، وخرجا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فلما وصلوا حمرآء الأسد، لقيهم نُعيم بن مسعود فأخبرهم أن أبا سفيان آبن حرب ومن معه من قريش قد جَمَعُوا جُموعهم، وأجمعوا رأيهم على أن يأتوا(٣) إلى المدينــة

(١) كذا فى الأصول . والذى فى النحاس والعبارة له : بدلا .
(٢) هذا عجز بيت لكعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار؛ وصدره :
* وداع دعا يامن يجيب إلى الندى *
(٣) فى ج و ه و ط : يرجعوا .

فيستأصلوا أهلها ؛ فقالوا ما أخبرنا الله عنهم : « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . و بينا قريش قد أجمعوا على ذلك إذ جاءهم مَعْبَد الخُزَاعىّ، وكانت خُزاعةُ حُلفاءَ النبىّ صلى الله عليه وسلم وعَيبةَ(١) نُصْحه ، وكان قد رأى حال أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وما هم عليه ؛ ولما رأى عزمَ قريش على الرجوع ليستأصلوا أهل المدينة احتمله خوفُ ذلك ، وخالصُ نصحه للنبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أنْ خَوّف قريشا بأن قال لهم : قد تركت محمدا وأصحابه بحمراء الأسد فى جيش عظيم، قد آجتمع له من كان تخلّف عنه، وهم قد تحرّقوا عليكم ؛ فالنّجاء النّجاء ! فإنى أنهاك عن ذلك ، فوالله لقد حملنى ما رأيتُ أن قلتُ فيه أبياتا من الشعر . قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحلَتِى * إذ سالت الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ(٢)
تُرْدِى بأُسْدٍ كرامٍ لا تَنابلةٍ * عند اللّقاء ولا مِيلٍ معازيلِ(٣)
فَظَلْتُ عَدْوًا أظنّ الأرضَ مائلةً * لمّا سَمَوْا برئيس غير مخذولِ
فقلتُ وَيْلَ آبنِ حَرْبٍ من لقائكُمُ * إذا تَغَطْمَطَتِ البَطْحاء بالخيلِ(٤)
إنى نذير لأهل البَسْل ضاحيةً * لكلّ ذى إرْبةٍ منهم ومعقولِ
من جيش أحمدَ لا وَخْشٌ قنابِلُهُ * وليس يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقِيلِ(٥)

قال : فثَنَى ذلك أبا سُفيان ومن معه ، وقذَف الله فى قلوبهم الرُّعْب ، ورجعوا إلى مكة خائفين مسرعين، ورجع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى أصحابه إلى المدينة منصورا ؛ كما قال الله تعالى : « فَٱنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » أى قتال ورُعْب . وآستأذن

(١) عيبة الرجل : موضع سره . (٢) الجرد : خيل قصيرة شعر الجلد . أبابيل : فرقا .

(٣) ردت الخيل رديا ورديانا : رجمت الأرض بحوافرها فى سيرها وعدوها . والتنابلة : القصار ؛ واحدهم تنبال . والأميل : الذى يميل على السرج ولا يستوى عليه . وقيل : هو الكسل الذى لا يحسن الركوب والفروسية . والمعازيل : القوم ليس معهم سلاح ؛ واحدهم معزال . (٤) فى الروض الأنف : « تغطمطت البطحاء » لفظ مستعار من الغطمطة ، وهو صوت غليان القدر . قوله (الخيل) وفى هـ وابن هشام ط أوربا : الجيل . والأول فيه سناد . ولعله : الخيل جمع أخيل فلا سناد .

(٥) الوخش : رذال الناس . والقنابل : الطائفة من الناس ومن الخيل ؛ وفى جـ و ز و السيرة ط مصر مع الروض : تنابلة . وفى ط وى وهـ : تنابلة : تنتل الرجل إذا تقذر بعد التنظف .

جابر بن عبد الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في الخروج معه فأذن له . وأخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تحصّل لهم بهذه القَفْلة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنها غَزْوة" . هذا تفسير الجمهور لهذه الآية . وشذّ مجاهد وعكرمة رحمهما الله تعالى فقالا : إن هذه الآية من قوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ — إلى قوله : — عَظِيمٌ » إنما نزلت في خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بَدْرِ الصُّغرى . وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أُحُد، إذ قال : مَوْعِدنا بَدْرٌ من العام المُقبِل . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قولوا نعم" فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل بَدْرٍ، وكان بها سُوق عظيم، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه دراهم؛ وقَرُب من بَدْرٍ فجاءه نُعَيم بن مسعود الأشجَعِيّ، فأخبره أن قريشا قد آجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن آنضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك، لكنهم قالوا : « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » فصَمَّموا[1] حتى أتوا بدرا فلم يجدوا أحدا، ووجدوا السُّوق فاشتروا بدراهمهم أُدْمًا وتجارة، وآنقلبوا ولم يَلقَوا كَيْدًا، ورَبِحوا في تجارتهم؛ فذلك قوله تعالى : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ » أي وفضل في تلك التجارات . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

اختُلف في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ فقال مُجاهد ومُقاتِل وعِكرمة والكَلْبيّ : هو نُعَيم بن مسعود الأشجعيّ . واللفظ عامّ ومعناه خاص؛ كقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ »[2] يعني محمدا صلى الله عليه وسلم . السُّدّي : هو أعرابيّ جُعِل له جُعْل على ذلك . وقال آبن إسحاق وجماعةٌ : يريد بالناس رَكْبَ عبدِ القيس، مَرّوا بأبي سفيان فدسّهم إلى المسلمين ليثبّطوهم . وقيل : الناس هنا المنافقون . قال السُّدّي : لما تجهّز النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه للسير إلى بَدْرِ الصغرى لميعاد أبي سفيان أتاهم المنافقون وقالوا : نحن أصحابكم الذين

(١) صمم في السير وغيره : مضى .	(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٠

نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا ، وقد قاتلوكم فى دياركم وظفروا؛ فإن أتيتموهم فى ديارهم فلا يرجع منكم أحد . فقالوا : « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . وقال أبو مَعْشر : دخل ناس من هُذيل من أهل تِهامة المدينةَ ، فسألهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى سفيان فقالوا : « قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » جموعا كثيرة « فَاخْشَوْهُمْ » أى فخافوهم وآحذروهم؛ فإنه لا طاقة لكم بهم . فالناس على هذه الأقوال على بابه من الجمع . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَـانًا ﴾ أى فزادهم قولُ الناس إيمـانا ، أى تصديقا ويقينا فى دينهم ، وإقامةً على نُصرتهم ، وقوةً وجراءة واستعدادا . فزيادة الإيمـان على هذا هى فى الأعمال . وقد اختلف العلماء فى زيادة الإيمـان ونقصانه على أقوال . والعقيدة فى هذا على أن نفس الإيمـان الذى هو تاجٌ واحدٌ، وتصديق واحد بشىء مّا، إنمـا هو معنًى فَرْدٌ، لا يدخل معه زيادة إذا حصل ، ولا يبقى منه شىء إذا زال؛ فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان فى متعلّقاته دون ذاته . فذهب جمع من العلمـاء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه ، لا سيما أن كثيرا من العلماء يوقعون آسم الإيمـان على الطاعات؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الإيمـان بضع وسبعون بابًا فأعلاها قول لا إله إلا اللهُ وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " أخرجه الترمذىّ ، وزاد مسلم " والحياء شُعْبَةٌ من الإيمـان " وفى حديث علىّ رضى الله عنه : إن الإيمـان ليبدو لُمَظَةً بيضاء فى القلب ، كلما آزداد الإيمـان آزدادت اللُّمَظَة . وقوله « لمظة » قال الأصمعىّ : اللمظة مثل النُّكْتة ونحوها من البياض؛ ومنه قيل : فرس أَلْمَظ ، إذا كان بجحفلته شىء من بياض . والمحدّثون يقولون « لمظة » بالفتح . وأما كلام العرب فبالضم؛ مثل شُبهة ودهمة وخُمرة . وفيه حُجّةٌ على من أنكر أن يكون الإيمـان يزيد وينقص . ألا تراه يقول : كلما آزداد الإيمـان آزدادت اللُّمْظة حتى يبيضّ القلبُ كلّه . وكذلك النفاق يبـدو لُمَظةً سوداءَ فى القلب كلما آزداد النفاق آسودّ القلب حتى يسودّ القلب كلّه . ومنهم من قال : إن الإيمـان عَرَض ، وهو لا يَثْبُتُ زمانيـن ؛ فهو للنبىّ صلى الله عليه وسـلم وللصُّلحاء متعاقب ، فيزيد باعتبار توالى أمثاله على قلب المؤمن ، وباعتبار دوام حضوره .

وينقص بتوالى الغفَلات على قلب المؤمن . أشار إلى هذا أبو المعالى . وهذا المعنى موجود فى حديث الشفاعة، حديثِ أبى سعيد الخُدْرِىّ أخرجه مسلم . وفيه : " فيقول المؤمنون يا ربّنا إخواننا كانوا يصومون ويُصلّون ويَحجّون فيُقال لهم أخرجوا من عرفتم فتُحَرَّم صُوَرهم على النار فيُخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نِصف ساقَيْه وإلى رُكبتيه ثم يقولون ربّنا ما بَقِىَ فيها أحدٌ ممن أمرتنا به فيقول ٱرْجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقالَ دِينار من خير فأخرجوه فيُخرِجون خلقًا كثيرا ثم يقولون ربّنا لم نَذَرْ فيها أحدًا ممن أمرتنا ثم يقول ٱرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقال نِصف دِينار من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقًا كثيرا ثم يقولون ربّنا لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ٱرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقال ذَرّةٍ من خير فأخرجوه " وذكر الحديث[(١)] . وقد قيل : إن المراد بالإيمان فى هذا الحديث أعمالُ القلوب ؛ كالنّية والإخلاص والخوف والنصيحة وشبه ذلك . وسمّاها إيمانا لكونها فى محل الإيمان أو عنى بالإيمان، على عادة العرب فى تسمية الشىء باسم الشىء إذا جاوره، أو كان منه بسبب . دليل هذا التأويل قولُ الشافعين بعد إخراج من كان فى قلبه مثقالُ ذرّة من خير : "لم نَذَرْ فيها خيرا" مع أنه تعالى يُخرج بعد ذلك جموعا كثيرة ممن يقول لا إله إلا الله، وهم مؤمنون قطعا ؛ ولو لم يكونوا مؤمنين لما أخرجهم . ثم إن عُدِم الوجود الأوّل الذى يُرَكَّب[(٢)] عليه المِثْل لم تكن زيادةٌ ولا نقصان . وقُدِّر ذلك فى الحركة . فإن الله سبحانه إذا خَلق عِلْما فَرْدًا وخلق معه مِثْلَه أو أمثالَه بمعلومات فقد زاد علمه ؛ فإن أعدم الله الأمثال فقد نقص، أى زالت الزيادة . وكذلك إذا خلق حركةً وخلق معها مثلها أو أمثالها . وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصَه إنما هو من طريق الأدلة ، فتزيد الأدلّة عند واحد فيقال فى ذلك : إنها زيادة فى الإيمان ؛ وبهذا المعنى — على أحد الأقوال — فُضّل الأنبياء على الخلق ، فإنهم عَلِموه من وجوه كثيرة، أكثر من الوجوه التى علمه الخلق بها . وهذا القول خارج عن مقتضى الآية ؛ إذ لا يُتصوّر أن تكون الزيادة فيها من جهة الأدلة . وذهب قوم : إلى أن الزيادة فى الإيمان إنما هى بنزول الفرائض والأخبار فى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم، وفى المعرفة بها بعد الجهل غابرَ الدهر .

---

(١) بقيته "فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا" مسلم ج١ ص١١٦ . (٢) فى ز : يتركب .

وهذا إنمـا هو زيادة إيمـان ؛ فالقول فيه إنّ الإيمـان يزيد قول مَجازيّ ، ولا يُتصوّر فيه النقص على هذا الحدّ ، وإنمـا يتصوّر بالإضافة إلى من عُلِم . فاعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ أى كافينا الله . وحسب مأخوذ من الإحساب ، وهو الكفاية . قال الشاعر :

فتمـــلأُ بيتنا إقْطًا(١) وسَمْنًا * وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ

روى البخاريّ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ — إلى قوله : — «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلْقِيَ فى النار . وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم . والله أعلم .

قوله تعـالى : فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

قال علماؤنا : لمـا فوّضوا أمورَهم إليه ، وآعتمدوا بقلوبهم عليـه، أعطاهم من الجزاء أربعةَ معانٍ: النعمة، والفضل، وصرف السوء، وآتباع الرضا . فرضّاهم عنه، ورضِي عنهم .

قوله تعـالى : إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

قال ابن عبـاس وغيره : المعنى يخوفكم أولياءه ؛ أى بأوليائه ، أو من أوليائه ؛ فحذف حرف الجر ووصل الفعل إلى الآسم فنصب . كما قال تعالى: «لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا»(٢) أى لينذركم ببأس شـديد ؛ أى يخوّف المؤمن بالكافر . وقال الحسن والسُّـدِّى : المعنى يخوّف أولياءه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين . فأما أوليـاء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوّفهـم . وقد

(١) الأقِط : شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ و يترك حتى يمصل . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦

قيل: إن المراد هذا الذى يخوّفكم بجمع الكفار شيطانٌ من شياطين الإنس؛ إمّا نُعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف فى ذلك كما تقدّم . ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أى لا تخافوا الكافرين المذكورين فى قوله : « إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » . أو يرجع إلى الأولياء إن قلت : إن المعنى يخوّف بأوليائه أى يخوّفكم أولياءه .

قوله تعالى : ﴿وَخَافُونِ﴾ أى خافون فى ترك أمرى إن كنتم مصدّقين بوعدى . والخوف فى كلام العرب الذُّعْر . وخَاوَفَنِى فلان فخُفْتُه ، أى كنتُ أشدّ خوفاً منه . والخَوْفاءُ (١) المفَازَة لا ماء بها . و يقال: ناقةٌ خَوْفَاء وهى الجَرْبَاء . والخافة كالخريطة (٢) من الأَدَم يُشْتَارُ فيها العَسَل . قال سَهلُ بنُ عبد الله : اجتمع بعض الصدّيقين إلى إبراهيم الخَلِيل فقالوا : ما الخوفُ؟ فقال: لا تأمن حتى تبلغ المأمن . قال سهل : وكان الربيع بن خيثم إذا مرّ بِكِيرٍ (٣) يُغْشَى عليه ؛ فقيل لعلىّ ٱبن أبى طالب ذلك ؛ فقال : إذا أصابه ذلك فأعلمونى . فأصابه فأعلموه ، فجاءه فأدخل يده فى قميصه فوجد حركته عالية فقال : أشهد أنّ هذا أخوف [أهل] (٤) زمانكم . فالخائف من الله تعالى هو أن يخافَ أن يُعاقِبَه إمّا فى الدنيا و إمّا فى الآخرة ؛ ولهذا قيل : ليس الخائف الذى يبكى و يمسح عينيه ، بل الخائفُ الذى يترك ما يخَافُ أن يُعذَّب عليه . ففرض الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال : ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال : « وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » . ومدح المؤمنين بالخوف فقال : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ » . ولأرباب الإشارات فى الخوف عبارات مرجعها إلى ما ذكرنا . قال الأستاذ أبو علىّ الدّقاق : دخلت على أبى بكر بن فُورَك رحمه الله عائدا ، فلما رآنى دَمعتْ عيناه ، فقلت له : إنّ الله يعافيك ويَشْفيك . فقال لى : أترى أنّى أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت . وفى سُنن ٱبن ماجه عن أبى ذرّ قال

---

(١) يقال مفازة خوقاء (بالقاف لا بالفاء) أى واسعة الجوف أو لا ماء بها ؛ كما يقال ناقة خوقاء (بالقاف كذلك) أى جرباء . (انظر اللسان مادة خوق) وليس فيه ولا فى كتاب آخر من كتب اللغة هذان المعنيان فى مادة «خوف» بالفاء .

(٢) كذا فى الأصول . وفى اللسان : والخافة : خريطة . (٣) الكير : كير الحدّاد ، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات ؛ وهو المعروف الآن بالمنفاخ . وأما الكور فهو المبنى من الطين . (٤) عن ج و ر د .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء (١) وحقّ لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصُّعُدات (٢) تجأرون (٣) إلى الله والله لوددت أنى كنت شجرة تُعضد (٤)". خرّجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال : "لوددت أنّى كنت شجرة تُعضد" . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ هؤلاء قوم أسلموا ثم ارتدّوا خوفا من المشركين ؛ فاغتمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : «وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ» . وقال الكلبيّ : يعنى به المنافقين ورؤساء اليهود ؛ كتموا صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الكتاب فنزلت . ويقال : إن أهل الكتاب لمّا لم يؤمنوا شقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الناس ينظرون إليهم ويقولون إنهم أهل كتاب ؛ فلو كان قوله حقًّا لاتبعوه ، فنزلت «وَلَا يُحْزِنْكَ» . قراءة نافع بضم الياء وكسر الزاى حيث وقع إلا فى — الأنبياء — «لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ (٥)» فإنه بفتح الياء وبضم الزاى . وضده أبو جعفر . وقرأ ابن مُحَيصن كلّها بضم الياء و[كسر] (٦) الزاى . والباقون كلّها بفتح الياء وضمّ الزاى .

(١) الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها . أى إن كثرة ما فى السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت . وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثم أطيط ، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله عز وجل (عن ابن الأثير) . (٢) الصعدات : الطرق ، وهى جمع صعد ؛ كطرق وطرقات . وقيل : جمع صعدة ؛ كظلمة وهى فناء باب الدار ، وممر الناس بين يديه . (٣) جأر القوم جؤارا : رفعوا أصواتهم بالدعاء متضرعين . (٤) تعضد : تقطع بالمعضد ؛ والمعضد والمعضاد مثل المنجل يقطع به الشجر .

(٥) راجع جـ ١١ ص ٣٤٦ (٦) الأصول كلها : بضم الياء والزاى . والصواب ما أثبتناه . راجع ص ٣٤٦ جـ ١١

وهما لغتان : حَزَنَنِي الأمر يَحْزُنُنِي ، وأَحْزَنَنِي أيضا وهي [لغة](١) قليلة ؛ والأولى أفصح اللغتين ؛ قاله النحاس . وقال الشاعر في « أحزن » :

* مَضَى صَحْبِي وأَحْزَنَنِي الدِّيارُ *

وقراءة العامة « يُسَارِعُونَ » . وقرأ طلحة « يُسْرِعون في الكفر » . قال الضحّاك : هم كفار قريش . وقال غيره : هم المنافقون . وقيل : هو ما ذكرناه قبل . وقيل : هو عامّ في جميع الكفار . ومُسارعتهم في الكفر المظاهرةُ على محمد صلى الله عليه وسلم . قال القُشَيري : والحُزْن على كُفرِ الكافر طاعة ؛ ولكنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُفرِط في الحزن على كفر قومه ، فنُهي عن ذلك ؛ كما قال : «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ(٢)» وقال : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا(٣)» .

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصون من مُلْك الله وسلطانه شيئا ؛ يعني لا ينقص بكفرهم . وكما رُوي عن أبي ذَرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما رَوى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : "يا عبادِي إني حرّمت الظُّلمَ على نفسي وجعلته بينكم مُحَرَّمًا فلا تَظالَموا . يا عبادِي كلُّكم ضالٌّ إلا من هَدَيْتُه فاستهدوني أَهْدِكم . يا عبادي كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعموني أُطْعِمْكم . يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كَسَوْتُه فاستكسوني أَكْسُكم . يا عبادِي إنكم تُخطِئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي إنكم لن تَبلغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني ولن تَبلُغوا نفعي فتَنفعُوني . يا عبادي لو أن أوّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقَى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئا . يا عبادي لو أن أوّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلبِ رجُلٍ واحدٍ ما نَقَصَ ذلك من مُلْكي شيئا . يا عبادي لو أن أوّلَكُم وآخرَكُم وإنْسَكُم وجِنَّكم قاموا في صَعيدٍ واحدٍ فسألُوني فأعطيتُ كُلَّ إنسان مَسْألتَه ما نَقَصَ ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحر . يا عبادي إنما هي أعمالُكم أُحْصِيها لكم ثم أُوَفِّيكُم إياها فمن وَجَد خيرًا فلْيَحْمَدِ الله ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلُومَنّ إلا نَفْسَه" . خرّجه مسلم في صحيحه والترمذي وغيرهما ، وهو حديث عظيم فيه طول

(١) عن ط .   (٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٢٤   (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣ ... (٧)

يكتب كله . وقيل : معنى « لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا » أى لن يضُرُّوا أولياء الله حين تركوا نصرهم إذ كان الله عز وجل ناصرهم .

قوله تعـالى : ﴿ يُرِيدُ اللّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى نصيبا . والحظّ النصيب والجَدّ . يقال : فلان أحظّ من فلان، وهو محظوظ . وجمـع الحَظ أحاظ على غير قياس[1] . قال أبو زيد : يقال رجل حَظِيظ، أى جديدٌ إذا كان ذا حظّ من الرزق . وحَظِظْت فى الأمر أحَظّ . وربمـا جُمع الحظ أُحُظًّا . أى لا يجعـل لهم نصيبا فى الجنـة . وهو نَصّ فى أن الخير والشر بإرادة الله تعالى .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ تقدّم فى البقرة[2] . ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا ﴾ كرّر للتأكيد . وقيل : أى من سوء تدبيره استبدال الإيمـان بالكفر وبيعه به ؛ فلا يخاف جانبَه ولا تدبيره . وانتصب « شيئا » فى الموضعين لوقوعه موقع المصدر؛ كأنه قال : لن يضروا الله ضررا قليـلا ولا كثيرا . ويجوز انتصابه على تقدير حذف البـاء؛ كأنه قال : لن يضروا الله بشيء .

قوله تعـالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ﴾ الإملاء طول العمـر ورَغَد العيش . والمعنى : لا يحسبن هؤلاء الذين يُخَوِّفون المسـلمين ؛ فإن الله قادر

(١) قال الجوهرى : كأنه جمع أحظ . قال ابن برى : وقوله « أحاظ على غير قياس » وهم منه ؛ بل أحاظ جمع أحْظ ؛ وأصله أحظظ فقلبت الظاء الثانية ياء فصارت أحظ ، ثم جمعت على أحاظ . (عن اللسان) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢١٠

على إهلاكهم، وإنما يُطوِّل أعمارهم ليعملوا بالمعاصي، لا لأنه خير لهم . ويقال : « أنما نملي لهم » بما أصابوا من الظَّفَر يومَ أُحُد لم يكن ذلك خيرا لأنفسهم؛ وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة . ورُوي عن ابن مسعود أنه قال : ما من أحد برّ ولا فاجر إلا والموتُ خير له؛ لأنه إن كان برًّا فقد قال الله تعالى : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ »(١) وإن كان فاجرا فقد قال الله : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ . وقرأ ابن عامر وعاصم « لايَحسبن » بالياء ونصب السين . وقرأ حمزة : بالتاء ونصب السين . والباقون : بالياء وكسر السين . فمن قرأ بالياء فالذين فاعلون . أي فلا يحسبن الكفار . و « أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ » تسدّ مسدّ المفعولين . و «ما» بمعنى الذي، والعائد محذوف، و « خير » خبر «أنّ» . ويجوز أن تقدر «ما» والفعل مصدرا؛ والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم . ومن قرأ بالتاء فالفاعل هو المخاطب، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . و «الذين» نصب على المفعول الأوّل لتحسب . وأن وما بعدها بدل من الذين، وهي تسدّ مسدّ المفعولين، كما تسد لو لم تكن بدلا . ولا يصلح أن تكون «أنّ» وما بعدها مفعولا ثانيا لتحسب؛ لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو الأوّل في المعنى؛ لأن حسب وأخواتها داخلة على المبتدإ والخبر؛ فيكون التقدير : ولا تحسبن أنما نملي لهم خير . هذا قول الزجاج . وقال أبو عليّ : لو صحّ هذا لقال «خيرا» بالنصب؛ لأن «أنّ» تصير بدلا من «الذين كفروا»؛ فكأنه قال : لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيرا؛ فقوله «خيرا» هو المفعول الثاني لحسب . فإذًا لا يجوز أن يقرأ «لا تحسبن» بالتاء إلا أن تكسر «إنّ» في «أنما» وتنصب خيرا، ولم يُرْوَ ذلك عن حمزة، والقراءة عن حمزة بالتاء؛ فلا تصح هذه القراءة إذًا . وقال الفرّاء والكسائيّ : قراءة حمزة جائزة على التكرير؛ تقديره ولا تحسبن الذين كفروا، ولا تحسبن أنما نملي لهم خير؛ فسدّت «أن» مسدّ المفعولين لتحسب الثاني، وهي وما عملت مفعول ثانٍ لتحسب الأوّل . قال القشيريّ : وهذا قريب مما ذكره الزجاج في دعوى البدل، والقراءة صحيحة . فإذًا غرض أبي عليّ تغليط الزجاج . قال النحاس : وزعم أبو حاتم أنّ قراءة حمزة بالتاء هنا، وقوله : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » لحن لا يجوز . وتبعه على ذلك جماعة .

(١) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء .

قلت : وهذا ليس بشيء؛ لما تقدم بيانه من الإعراب، ولصحة القراءة وثبوتها نقلا. وقرأ يحيى بن وثاب « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » بكسر إنّ فيهما جميعا. قال أبو جعفر : وقراءة يحيى حسنة. كما تقول : حسبت عمرا أبوه خالد. قال أبو حاتم : وسمعت الأخفش يذكر كسر «إن» يحتج به لأهل القدر؛ لأنه كان منهم. ويجعل على التقديم والتأخير «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا إنما نملى لهم خير لأنفسهم». قال : ورأيت في مصحف في المسجد الجامع قد زادوا فيه حرفا فصار « إنما نملى لهم إيمانا » فنظر إليه يعقوب القارئ فتبين اللحن فحكه. والآية نصٌّ في بطلان مذهب القدرية؛ لأنه أخبر أنه يطيل أعمارهم ليزدادوا الكفر بعمل المعاصي، وتوالى أمثاله على القلب. كما تقدم بيانه في ضده وهو الإيمان. وعن ابن عباس قال: ما من برّ ولا فاجر إلا والموت خير له ثم تلا «إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا» وتلا « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » أخرجه رزين.

قوله تعالى : مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

قال أبو العالية : سأل المؤمنون أن يعطوا علامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق؛ فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية. واختلفوا مَن المخاطب بالآية على أقوال. فقال ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين : الخطاب للكفار والمنافقين. أي ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم. قال الكلبي : إن قريشا من أهل مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجلُ منا تزعم أنه في النار، وأنه إذا ترك دِيننا واتبع دينكَ قلتَ هو من أهل الجنة! فأخبرنا عن هذا من أين هو؟ وأخبرنا مَن يأتيك منا ؟ ومَن لم يأتك؟ . فأنزل الله عز وجل « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ

المؤمنين على ما أنتم عليه» من الكفر والنفاق «حتى يميز الخبيث من الطيب». وقيل : هو خطاب للشركين . والمراد بالمؤمنين فى قوله : « ليذر المؤمنين » من فى الأصلاب والأرحام ممن يؤمن . أى ما كان الله ليذر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك ، حتى يفرق بينكم و بينهم ؛ وعلى هــذا ﴿ وما كان الله ليطلعكم ﴾ كلام مستأنف . وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين . وقيل : الخطاب للؤمنين . أى وما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من آختلاط المؤمن بالمنافق ، حتى يميز بينكم بالمحنة والتكليف ؛ فتعرفوا المنافق الخبيث ، والمؤمن الطيب . وقد ميز يوم أحد بين الفريقين . وهــذا قول أكثر أهل المعانى . ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ يا معشر المؤمنين . أى ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم ، ولكن يظهر ذلك لكم بالتكليف والمحنة ، وقد ظهر ذلك فى يوم أحد ؛ فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشماتة ، فما كنتم تعرفون هذا الغيب قبل هذا ، فالآن قد أطلع الله محمدا عليه السلام وصحبه على ذلك . وقيل : معنى «ليطلعكم» أى وما كان [الله] (١) ليعلمكم ما يكون منهم . فقوله : « وما كان الله ليطلعكم [على الغيب] (١) » على هذا متصل ، وعلى القولين الأولين منقطع . وذلك أن الكفار لما قالوا : لم لم يوح إلينا ؟ قال : «وما كان الله ليطلعكم على الغيب » أى على من يســتحق النبوة ، حتى يكون الوحى باختياركم . ﴿ ولكن الله يجتبى ﴾ أى يختار ﴿من رسله﴾ لإطلاع غيبه ﴿من يشاء﴾ يقال : طلعت على كذا وآطلعت [عليــه] (١) ، وأطلعت عليه غيرى ؛ فهو لازم ومتعد . وقرئ « حتى يميز » بالتشديد من ميز ، وكذا فى « الأنفال » (٢) وهى قراءة حمزة . والباقون « يميز » بالتخفيف من ماز يميز . يقــال : مزت الشىء بعضه من بعض أميزه ميزا ، وميزته تمييزا . قال أبو معاذ : مزت الشىء أميزه ميزا إذا فرقت بين شيئين . فإن كانت أشياء قلت : ميزتها تمييزا . ومثله إذا جعلت الواحد شيئين قلت : فرقت بينهما ، مخففا ؛ ومنه فرق الشعر . فإن جعلته أشياء قلت : فرقته تفريقا .

قلت : ومنــه آمتاز القوم ، تميز بعضهم عن بعض . و يكاد يتميز : يتقطع ؛ و بهذا فسر قوله تعالى : «تكاد تميز من الغيظ» (٣) وفى الخبر "من ماز أذى عن الطريق فهو له صدقة" .

(١) وزوهو جـ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢١٨

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ يقال : إن الكفار لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم من يؤمن منهم (١)، فأنزل الله « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » يعنى لا تشتغلوا بما لا يَعنيكم، وآشتغلوا بما يَعنيكم وهو الإيمان . ﴿ فَآمِنُوا ﴾ أى صدقوا، أى عليكم التصديق لا التشوّف إلى آطلاع الغيب . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى الجنة . ويذكر أن رجلا كان عند الحجّاج بن يوسف الثقفي مُنَجِّما ؛ فأخذ الحجاج حَصَياتٍ بيده قد عَرف عددها فقال للمُنَجِّم : كم فى يدى؟ فحَسَب فأصاب المنجم . فأغفله الحجّاج وأخذ حَصَياتٍ لم يَعُدّهنّ فقال للنجم : كم فى يدى ؟ فحَسَب فأخطأ، ثم حسَب أيضا فأخطأ ؛ فقال : أيها الأمير، أظنك لا تعرف عدد ما فى يدك ؟ قال لا . قال : فما الفرق بينهما ؟ فقال : إن ذاك أحْصيتَه فخرج عن حدّ الغيب ، فحَسَبتُ فأصبتُ، وإنّ هذا لم تَعرف عددَها فصار غَيْبا ، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى . وسيأتى هذا البابُ فى « الأنعام » (٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٨٠)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ (٣) « الذين » فى موضع رفع ، والمفعول الأوّل محذوف . قال الخليل وسيبويه والفَرّاء : المعنى البخل خيرا لهم ، أى لا يحسبَنّ الباخلون البخلَ خيرا لهم . وإنما حذف لدلالة يبخلون على البخل، وهو كقوله : من صدق كان خيرا له . أى كان الصدق خيرا له . ومن هذا قول الشاعر :

إذا نُهِيَ السّفيه جَرَى إليه * وخالَفَ والسَّفيهُ إلى خِلافِ

فالمعنى : جَرَى إلى السَّفه ؛ فالسّفيه دلّ على السَّفه . وأما قراءة حمزة بالتاء فبعيدة جدًّا ؛ قاله النحاس . وجوازها أن يكون التقدير : لا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيرا لهم . قال

(١) فى ط و جـ و هـ : أيهم . (٢) راجع جـ ٧ ص ١ فما بعد . (٣) فى ط و جـ .

الزجاج : وهي مثل « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » . و « هو » في قوله « هُوَ خَيْراً لَهُمْ » فاصلة عند البصريين ، وهي العماد عند الكوفيين . قال النحاس : ويجوز في العربية « هو خير لهم » ابتداء وخبر .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر، أي البخل شرّ لهم . والسين في «سَيُطَوَّقُونَ» سين الوعيد، أي سوف يُطَوَّقون ؛ قاله المبرّد . وهذه الآية نزلت في البخل بالمـال والإنفاق في سبيل الله ، وأداء الزكاة المفروضة . وهذه كقوله : « وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ » الآية . ذهب إلى هـذا جماعةٌ من المتأوّلين ، منهم ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل وأبو مالك والسُّـدّي والشَّعْبيّ قالوا : ومعنى ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ ﴾ هو الذي ورد في الحديث عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " من آتاه الله مالا فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّـل له يوم القيامة شُجاعا(١) أقْرَعَ(٢) له زَبِيبتان(٣) يُطَوِّقه يوم القيـامة ثم يأخذ بلِهزِمتيه(٤) ثم يقول أنا مالُك أنا كنزك — ثم تلا هـذه الآية — « وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ » الآية . أخرجه النسائي(٥) . وخرّجه ابن ماجه عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن أحدٍ لا يُؤدِّي زكاةَ مالِه إلا مُثِّل له يومَ القيامة شُجاع أقْرَعُ حتى يُطَوَّقَ به في عنقه" ثم قرأ علينا النبيّ صلى الله عليه وسلم مِصداقه من كتاب الله تعالى « وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » الآية . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال"ما من ذي رَحِمٍ يأتي ذَا رَحِمه فيسأله من فضل ماعنده فيبخل به عليه إلا أُخرج له يوم القيامة شُجاعٌ من النار يتلمظ(٦) حتى يُطَوِّقه " . وقال ابن عباس أيضا : إنما نزلت في أهل الكتاب و بخلهم ببيان ما علموه من أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ذلك مُجاهد و جماعة من أهل العلم . ومعنى «سَيُطَوَّقُونَ» على هذا التأويل سيحملون عقاب ما بخلوا به ؛ فهو من الطاقة كما قال تعالى : « وَعَلَى ٱلَّذِينَ

(١) الشجاع (بالضم) : الحية الذكر؛ أو الذي يقوم على ذنبه و يواثب الراجل والفارس .
(٢) الأقرع : هو الذي تمرط جلد رأسه ؛ لكثرة سمه وطول عمره .　(٣) الزبيبتان : النكتتان السوداوان فوق عينيه ، وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه . وقيل : هما زبدتان في شدق الحية .
(٤) اللهزمتان : شدقاه . وقيل : هما عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين .　(٥) هذه رواية البخاري عن أبي هريرة ولفظه . أما ما خرجه النسائي فبلفظ آخر عن ابن مسـعود . راجع صحيح البخاري وسنن النسائي في باب الزكاة .　(٦) تلمظت الحية : أخرجت لسانها كتلمظ الآكل .

يُطِيقُونَهُ » وليس من التّطويق . وقال إبراهيم النَّخَعِيّ : معنى « سَيُطَوَّقون » سيُجعل لهم يوم القيامة طَوْقٌ من النار . وهذا يجرى مع التأويل الأوّل [أى](١) قول السدى . وقيل : يُلزَمون أعمالهم كما يلزم الطّوق العنق؛ يقال : طُوِّق فلان عملَه طَوْقَ الحمامة، أى أُلزِم عمله . وقد قال تعالى : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ »(٢) . ومن هذا المعنى قولُ عبد الله ابن جَحْش لأبى سفيان :

أبلِغْ أبا سفيان عن * أمْرٍ عواقبُه ندامه
دارَ ابن عمِّك بِعتَها(٣) * تقضى بها عنك الغرامهْ
وحَلِيفُكم بالله ربِّ الناسِ مجتهِدُ القَسامهْ
اذهب بها اذهب بها * طُوِّقتَها طوقَ الحمامهْ

وهذا يجرى مع التأويل الثانى . والبُخْل والبَخَل فى اللغة أن يَمنع الإنسانُ الحقَّ الواجبَ عليه . فأما من منَع ما لا يجب عليه فليس ببخيل؛ لأنه لا يُذَم بذلك . وأهل الحجاز يقولون : يَبْخُلون وقد بَخُلوا . وسائر العرب يقولون : بَخِلوا يَبْخَلون؛ حكاه النحاس . وبَخِل يَبْخَل بُخْلًا وبَخَلًا؛ عن ابن فارس .

الثالثة — فى ثمرة البخل وفائدته . وهو ما رُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : " من سَيّدكم ؟ " قالوا الجَدّ بن قيس على بُخْلٍ فيه . فقال صلى الله عليه وسلم : " وأىّ داء أَدْوَى(٤) من البخل " قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : " إن قوما نزلوا بساحل البحر فكَرِهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا : ليبعد الرجال منّا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف بِبُعْد النساء، وتعتذر النساء بِبُعْد الرجال؛ ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء " ذكره الماوردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » . والله أعلم .

---

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٩ (٣) لما هاجر بنو جحش من مكة إلى المدينة تركوا دورهم مجرة مغلقة، ليس فيها ساكن؛ فباعها أبو سفيان من عمرو بن علقمة . فقال عبد الله لأبى سفيان هذه الأبيات بعد فتح مكة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٣٣٩ طبع أوربا). (٤) أى أى عيب أقبح منه .

الرابعــة ــ واختلف فى البُخْل والشُّحّ؛ هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين . فقيل : البخل الامتناع من إخراج ما حصل عندك . والشُّح : الحِرصُ على تحصيل ما ليس عندك .

وقيل : إن الشُّح هو البخل مع حِرص . وهو الصحيح لمـا رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اتقوا الظلم فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة وآتقوا الشُّحّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم وآستحلوا محارمهم" . وهذا يرد قول من قال : إن البخلَ منعُ الواجب ، والشحّ منعُ المستحبّ . إذ لو كان الشح منع المستحب لمـا دخل تحت هذا الوعيد العظيم، والذم الشديد الذى فيه هلاك الدنيا والآخرة (١) .

ويؤيد هذا المعنى ما رواه النسائى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليــه وسلم "لا يجتمع غُبارٌ فى سبيل الله ودخان جنهم فى مِنخَرَىْ رجلٍ مسلمٍ أبدا ولا يجتمع شحٌّ وإيمانٌ فى قلب رجل مسلم أبدا" . وهذا يدل على أن الشُّح أشدّ فى الذم من البخل ؛ إلا أنه قد جاء ما يدل على مساواتهما وهو قوله ــ وقد سئل : أيكون المؤمن بخيلا؟ قال : "لا" وذكر المـاوردىّ فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : "من سيّدكم" قالوا : الجدّ بن قيس على بُخْل فيه ؛ الحديثَ . وقد تقدم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أخبر تعـالى ببقائه ودوام مُلكه . وأنه فى الأبد كهو فى الأزل غنىٌّ عن العالمين، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم؛ فتبقى الأملاك والأموال لا مُدَّعى فيها . فجرى هذا مجرى الوراثة فى عادة الخلق، وليس هذا بميراث (٢) فى الحقيقة؛ لأن الوارث فى الحقيقة هو الذى يرث شيئا لم يكن مَلَكه من قبل،والله سبحانه وتعالى مالكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما ، وكانت السموات وما فيها ، والأرض وما فيهاله ،وأن الأموال كانت عارية عند أربابها ؛فإذا ماتوا رُدَّت العارية إلى صاحبها الذى كانت له فى الأصل . ونظير هذه الآية قوله تعـالى : « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا (٣) » الآية . والمعنى فى الآيتـين أن الله تعـالى أمر عباده بأن يُنفقوا ولا يَبْخَلوا قبـل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثا لله تعالى، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا .

(١) فى جـ : هلاك الدنيا والأخرى والدين . (٢) فى الأصول : الميراث . والصواب ما ذكر .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٠٥

قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ذكر تعالى قبيحَ قولِ الكفار لاسيّما اليهود . وقال أهل التفسير : لما أنزل الله « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا »[1] قال قوم من اليهود — منهم حُيَيّ بن أخطب ؛ في قول الحسن . وقال عكرمة وغيره : هو فنحاص بن عازوراء — إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ يقترض منا . وإنما قالوا هذا تَمويهًا على ضعفائهم ، لا أنهم يعتقدون هذا ؛ لأنهم أهل كتاب . ولكنهم كفروا بهذا القول ؛ لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين ، وتكذيبَ النبيّ صلى الله عليه وسلم . أى إنه فقير على قول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه اقترض منا . ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ سنجازيهم عليه . وقيل : سنكتبه فى صحائف أعمالهم ، أى نأمر الحَفَظة بإثبات قولهم حتى يقرءوه يوم القيامة فى كتبهم التى يُؤتونها ؛ حتى يكون أوكدَ للحجة عليهم . وهذا كقوله : « وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ »[2] . وقيل : مقصود الكتابة الحفظ ، أى سنحفظ ما قالوا لنجازيهم . «وما» فى قوله «ما قالوا» فى موضع نصب بـ«سنكتب» . وقرأ الأعمش وحمزة « سيُكتب » بالياء ؛ فيكون « ما » اسم ما لم يُسمّ فاعله . واعتبر حمزة ذلك بقراءة ابن مسعود : « ويقال ذوقوا عذاب الحريق » .

قوله تعالى : ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أى ونكتب قتلَهم الأنبياء ، أى رضاءهم بالقتل . والمراد قتل أسلافهم الأنبياء ؛ لكن لما رَضُوا بذلك صحت الإضافة إليهم . وحسّن رجل عند الشعبيّ قتل عثمان رضى الله عنه فقال له الشعبيّ : شَرِكتَ فى دمه . فجعل الرضا بالقتل قتلا ؛ رضى الله عنه .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٣٩

قلت : وهذه مسألة عُظمَى، حيث يكون الرضا بالمعصية معصيةً . وقد روى أبو داود عن العُرْس بن عَميرة الكِندى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا عمِلت الخطيئة فى الأرض كان من شهِدها فكرِهها — وقال مرة فأنكرها — كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضِيها كان كمن شهِدها ". وهذا نص . قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ تقدم معناه فى البقرة[1] . ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى يقال لهم فى جهنم، أو عند الموت، أو عند الحساب هذا . ثم هذا القول من الله تعالى، أو من الملائكة ؛ قولان . وقراءة ابن مسعود « ويقال » . والحريق اسم للملتهبة من النار، والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة . قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى ذلك العذاب بما سلف من الذنوب . وخصّ الأيدى بالذكر ليدلّ على تولّى الفعل ومباشرته ؛ إذ قد يضاف الفعل إلى الإنسان بمعنى أنه أمر به ؛ كقوله : « يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ[2] » وأصل « أَيْدِيكُمْ » أيديُكم فحذفت الضمة لثقلها . والله أعلم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض بدلا من « الَّذِينَ » فى قوله عز وجل « لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا » أو نعت « للعبيد » أو خبر ابتداء، أى هم الذين قالوا . وقال الكلبيّ وغيره . نزلت فى كعب بن الأشرف، ومالك بن الصَّيْف، ووهب بن يهوذا، وفنحاص بن عازورا وجماعةٍ أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا له : أتزعم أن الله أرسلك إلينا، وأنه أنزل علينا كتابا عهِد إلينا فيه ألّا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقُربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدّقناك . فأنزل الله هذه الآية . فقيل : كان هذا فى التوراة، ولكن كان تمام الكلام : حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما من غير قربان .

(١) راجع ج ١ ص ٤٣١ (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٤٧ .

وقيل : كان أمر القرابين ثابتا إلى أن نُسخت على لسان عيسى بن مريم . وكان النبيّ منهم يَذْبح ويدعو فتنزل نار بيضاء لها دوِيّ وحفيف لا دخان لها ، فتأكل القُرْبان . فكان هذا القول دعْوَى من اليهود ؛ إذ كان ثَمّ ٱستثناء فأخفوه ، أو نسخٌ ، فكانوا في تمسّكهم بذلك مُتعنّتين ، ومعجزاتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم دليل قاطع في إبطال دعواهم ، وكذلك معجزات عيسى؛ ومن وجب صدقه وجب تصديقه . ثم قال تعالى : إقامة للحجة عليهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ ﴾ يا معشر اليهود ﴿ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ من القربان ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعني زكريا ويحيى وشَعْيا ، وسائر من قُتِلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم . أراد بذلك أسلافهم . وهذه الآية هي التي تلاها عامر الشعبيّ رضي الله عنه ، فٱحتجّ بها على الذي حسّن قتل عثمان رضي الله عنه كما بيّناه . وأن الله تعالى سمّى اليهود قَتَلَة لرضاهم بفعل أسلافهم ، وإن كان بينهم نحوٌ من سبعمائة سنة . والقُرْبان ما يُتقرب به إلى الله تعالى من نُسُك(1) وصدقة وعملٍ صالح؛ وهو فُعلان من القُرْبة . ويكون ٱسما ومصدرا؛ فمثال الأسم السّلطان والبُرْهان . والمصدر العُدْوان والخُسْران . وكان عيسى ٱبن عمر يقرأ « بِقُرُبانٍ » بضم الراء ٱتباعا لضمة القاف؛ كما قيل في جمع ظلمة : ظُلُمات ، وفي حجرة حُجُرات . ثم قال تعالى معزّيا لنبيه ومؤنسا له : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالدلالات . ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ أي الكتب المزبورة، يعني المكتوبة . والزُّبُر جمع زَبور وهو الكتاب . وأصله من زَبَرت أي كتبت . وكل زبور فهو كتاب؛ قال ٱمرؤ القيس :

لِمَنْ طَلَلٌ أبصرتُه فشجانِي * كخط زبور في عسيبِ(2) يمانى

وأنا أعرف تَزْبِرَتِي أي كتابتي . وقيل : الزَّبُور من الزَّبْر بمعنى الزَّجْر . وزَبَرت الرجل ٱنتهرته . وزَبَرْت البئر : طويتها بالحجارة . وقرأ ٱبن عامر « بِالزُّبُرِ وبِالكِتَابِ المُنِيرِ » بزيادة باء في الكلمتين(3) . وكذلك هو في مصاحف أهل الشام . ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أي الواضح المضيء؛ من قولك : أَنَرت الشيء أُنِيره، أي أوضحته : يقال : نار الشيء وأناره ونوّره وٱستناره بمعنًى،

(1) في هـ و ط : نسيكة . (2) العسيب : سعف النخل الذي جرد عنه خوصه ، وهي الجريدة .
(3) في ط و ب : في الحرفين .

وكل واحد منهما لازمٌ ومتعدٍّ . وجَمَع بين الزبر والكتاب — وهما بمعنًى — لاختلاف لفظهما ، وأصلها كما ذكرنا .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (١٨٥)

فيه سبع[(١)] مسائل :

الأولى — لما أخبر جلّ وتعالى عن الباخلين وكفرهم في قولهم : « إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ » وأمر المؤمنين بالصبر على أذاهم في قوله « لَتُبْلَوُنَّ » الآية — بيّن أن ذلك مما ينقضي ولا يدوم؛ فإن أمد الدنيا قريب، ويوم القيامة يوم الجزاء . ﴿ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ من الذّوق، وهذا مما لا مَحِيص عنه للإنسان، ولا مَحِيد عنه لحيوان . وقد قال أميّة بن أبي الصلت :

من لم يمت عَبْطَةً[(٢)] يَمُت هَرَمًا ＊ لِلموت كأسٌ والمرءُ ذائقُها

وقال آخر :

الموتُ بابٌ وكلُّ الناس داخلُه ＊ فليتَ شِعْرِيَ بعد البابِ ما الدّار

الثانية — قراءة العامة «ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» بالإضافة . وقرأ الأعمش ويحيى وابن أبي إسحاق « ذائقةٌ الموتَ » بالتنوين ونصب الموت . قالوا : لأنها لم تُذق بعدُ . وذلك أن اسم الفاعل على ضربين : أحدهما أن يكون بمعنى المُضِيّ . والثاني بمعنى الاستقبال؛ فإن أردت الأوّل لم يكن فيه إلا الإضافة إلى ما بعده؛ كقولك : هذا ضارب زيدٍ أمسِ، وقاتل بكرٍ أمسِ؛ لأنه يُجرى مجرى الاسم الجامد وهو العلم، نحو غلامُ زيدٍ، وصاحبُ بكرٍ . قال الشاعر :

الحافِظُو عَوْرةِ العشيرة لا يَأ ＊ تيهمُ مِن وَرَائِهمْ وَكَفُ[(٣)]

---

(١) كذا في الأصول والتقسيم ثمانية إلا ج فسبعة وعليها الاعتماد .　(٢) مات عبطة : أي شابا صحيحا .

(٣) الوكف : العيب : والبيت لعمرو بن امرئ القيس ، ويقال لقيس بن الخطيم . (عن اللسان) .

وإن أردت الثاني جاز الجر ، والنصب والتنوين فيما هذا سبيله هو الأصل؛ لأنه يجرى مجرى الفعل المضارع . فإن كان الفعل غير متعدّ ، لم يتعدّ نحو قائمٌ زيدٌ . وإن كان متعدّيا عدّيته ونصبت به ، فتقول : زيدٌ ضاربٌ عمــروا بمعنى يضرب عمــروا . ويجوز حذف التنوين والإضافة تخفيفا ، كما قال المرّار :

سَلِّ الهمومَ بكلِّ مُعطِى رأسِه * ناجٍ مُخالِطِ صُهْبةٍ مُتعيِّسِ(١)
مُغْتالِ أَحْبُــلِهِ مُبِينٍ عنقُـــه * فى مَنْكِبٍ زَبَنَ المَطِىَّ عَرَنْدَسِ(٢)

[فحذف التنوين تخفيفا ، والأصل : معْطٍ رأسَه بالتنوين والنصب ، ومثل هذا أيضا في التنزيل قوله تعالى : « هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ »(٣) وما كان مثله] .

الثالثــة ــ ثم ٱعلم أن للموت أسبابا وأمارات؛ فمن علامات موت المؤمن عَرَقُ الجبين . أخرجه النّسائى من حديث بُريدة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المؤمن يموت بعَرَق الجَبِين » . وقد بيّناه فى «التذكرة» فإذا احتُضِر لُقِّن الشهادة؛ لقوله عليه السلام : "لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله" لتكون آخر كلامه فيُختمَ له بالشهادة؛ ولا يعاد عليه منها لئلا يضجَر . ويستحبّ قراءة « يسٓ » ذلك الوقت ؛ لقوله عليــه السلام : « ٱقرءوا يسٓ على موْتاكم » أخرجه أبو داود . وذكر الآجُرِّى فى كتاب النصــيحة من حديث أم الدرداء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما من ميت يُقرأ عنده سورة يسٓ إلا هُوِّن عليه الموت" . فإذا قُضِى وتَبِــع البصرُ الروح ــ كما أخبر صــلى الله عليــه وسلم فى صحيح مســلم ــ وارتفعت العبادات : وزال التكليف ، توجّهت على الأحياء أحكام ؛ منها تغميضُه ، وإعلامُ إخوانه الصُّلَحاء بموته ؛ وكرِهه قــوم وقالوا : هو من النعى . والأول أصحّ ، وقــد بيّناه فى غير هــذا الموضع . ومنها الأخذ فى تجهيزه بالغسل والدّفن لئلا يُسرِع إليه التغيُّر؛ قال صلى الله عليه وسلم لقوم أخّروا دفن ميتهم : "عجّلوا بدفن جيفتكم"؛ وقال : "أسرعوا بالجنازة" الحديثَ، وسيأتى .

---

(١) قوله معطى رأســه ، أى ذلول . وناج : سريع . والصهبة : أن يضرب بياضه إلى الحمــرة . والمتعيس والأعيس : الأبيض؛ وهو أفضل ألوان الإبل . والمعنى : ســل همومك اللازمة لفراق من تهوى ونأيه عنك بكل بعير ترتحله للسفر . (٢) وصف بعيرا بعظم الجوف؛ فإذا شد رحله عليه اغتال أحبله (جمع حبل) واستوفاها لعظم جوفه . والاغتيال : الذهاب بالشىء . والمبين : البين الطويل . وزبن : زاحم ودفع . والعرندس : الشديد . ويروى : متين عنقه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٣) الزيادة من ج و ط و د و ه .

الثالثــة — فأما غسله فهو سُنّة لجميع المسلمين حاشا الشّهيدَ على ماتقدم . وقيل : غسله واجب . قاله القاضي عبد الوهاب . والأوّل : مذهب الكتّاب[1]، وعلى هذين القولين العلماءُ . وسبب الخلاف قوله عليه السلام لأم عطية في غسلها ابنته زينب ، على ما في كتاب مسـلم . وقيل : هي أم كلثوم، على ما في كتاب أبي داود : "اَغْسِلنَهَا ثلاثا أو خمسا أو أكثرَ من ذلك إن رأيتُنّ ذلك" الحديث . وهــو الأصل عند العلماء في غسل الموتى . فقيل : المراد بهذا الأمر بيانُ حكم الغسل فيكون واجبا . وقيل : المقصود منه تعليم كيفية الغسل فلا يكون فيه ما يدل على الوجوب . قالوا و يدلّ عليــه قوله : "إن رأيتُنّ ذلك" وهــذا يقتضي إخراج ظاهر الأمر عن الوجوب ؛ لأنه فوّضه إلى نظرهن . قيل لهم : هــذا فيه بُعدٌ ؛ لأن ردّك "إن رأيتن" إلى الأمر، ليس السابق إلى الفهم بل السابق رجوع هــذا الشرط إلى أقرب مذكور، وهو "أكثر من ذلك" أو إلى التخيير في الأعداد . وعلى الجملة فلا خلاف في أن غسل الميت مشروع معمول به في الشريعة لا يُترك . وصفته كصفة غسل الجنابة على ما هو معروف . ولا يجاوز السبع غسلات في غُسل الميت بإجماع ؛ على ماحكاه أبو عمر . فإن خرج منــه شيء بعــد السبع غسِل الموضع وحده، وحكمه حكم الجُنب إذا أحدث بعــد غسله . فإذا فرغ من غسله كفّنه في ثيابه وهي :

الرابعــة — والتكفين واجب عند عامة العلماء ، فإن كان له مال فمن رأس ماله عنــد عامّة العلمــاء ، إلا ما حكى عن طاوس أنه قال : من الثلث كان المــال قليلا أوكثيرا . فإن كان الميت ممن تلزم غيره نفقته في حياته من ســيّد — إن كان عبدا — أو أب أو زوج أو آبن ؛ فعلى السيد باتفاق ، وعلى الزوج والأب والآبن باختلاف . ثم على بيت المــال أو على جماعة المسلمين على الكفاية . والذى يتعيّن منه بتعيين الفرض سَترُ العورة؛ فإن كان فيــه فضل غير أنه لا يعم جميع الجسد غطى رأسه ووجهه ؛ إكراما لوجهه وسترا لمــا يظهر من تغيّر محاسنه . والأصل في هذا قصّة مُصعب بن عُمير، فإنه ترك يوم أحد نَمِرة[2] كان

(١) كذا في كل الأصول .
(٢) النمرة (بفتح فكسر) : شملة فيها خطوط بيض وسود ، أو بردة من صوف تلبسها الأعراب .

إذا غُطِّىَ رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غُطّى رجلاه خرج رأسهُ ؛ فقال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "ضَعوها مما يلي رأسَه وآجعلوا على رجليه من الإذخر"[١] أخرج الحديث مسلم . والوتر مستحبّ عند كافة العلماء فى الكَفن، وكلهم مجمعون على أنه ليس فيه حَدّ . والمستحبّ منه البياض؛ قال صلى الله عليه وسلم :"البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفّنوا فيها موتاكم" أخرجه أبو داود . وكُفّن صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية من كُرْسُف[٢] . والكفن فى غير البياض جائز إلا أن يكون حريرا أو خَزًّا . فإن تشاحّ الورثة فى الكفن قُضى عليهم فى مثل لباسه فى جُمعته وأعياده؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إذا كَفّن أحدُكم أخاه فَلْيُحسِّن كفنه" أخرجه مسلم . إلا أن يوصى بأقلّ من ذلك . فإن أوصى بسَرَف قيـل : يبطل الزائد . وقيـل : يكون فى الثلث . والأول أصح ؛ لقوله تعـالى : (وَلَا تُسْرِفُوا)[٣] . وقال أبو بكر : إنه للمُهْـلَة[٤] . فإذا فرغ من غسله وتكفينه ووُضع على سريره وآحتمله الرجال على أعناقهم وهى :

الخامســة — فالحكم الإسراع فى المشى؛ لقوله عليه السلام : "أسرعوا بالجنازة فإن تَكُ صالحةً فخيرٌ تُقدِّمونها إليه وإن تكن غير ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم" . لا كما يفعله اليوم الجهّـال فى المشى رُويدا، والوقوفِ بها المرّةَ بعد المرّة، وقراءةِ القرآن بالألحان إلى مالا يحل ولايجوز حسب مايفعله أهل الديار المصرية بموتاهم . روى النّسائى: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال حدّثنـا خالد قال أنبـأنا عُيينة بن عبد الرحمن قال حدّثنى أبى قال : شَهدت جنازة عبد الرحمن بن سَمُرة وخرج زياد يمشى بين يدى السرير، فجعـل رجال من أهل عبد الرحمن ومواليهم يستقبلون السرير ويمشون على أعقابهم ويقولون : رُويداً رويدا ، بارك الله فيكم ! فكانوا يَدِبّون دَبيبا ، حتى إذا كنا ببعض طريق المِرْبَد[٥] لحقنا أبو بكرة رضى الله عنه على بغلة فلما

(١) الإذخر (بكسر الهمزة) : حشيشة طيبة الرائحة، يسقف بها البيوت فوق الخشب . (٢) قوله : سحولية ، يروى بفتح السين وضمها ؛ فالفتح منسوب إلى السحول، وهو القصار لأنه يسحلها أى يغسلها ، أو إلى سحول وهى قرية باليمن . وأما الضم فهو جمع سحل، وهو الثوب الأبيض النقى ؛ ولا يكون إلا من قطن . والكرسف كعصفر: القطن . (٣) راجع جـ ٧ ص ١١٠ (٤) المهلة (مثلثة الميم) : القيح والصديد الذى يذوب فيسيل من الجسد . (٥) المربد كمنبر : موضع قرب المدينة .

رأى الذين يصنعون حمل عليهم ببغلته وأهوى إليهم بالسَّـوْط فقال : خلوا ! فوالذى أكرم وجه أبي القاسم صلى الله عليـه وسلم لقد رأيتُنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم و إنها لنكاد نرمُل بهـا رَمْلا، فانبسط القومُ . و روى أبو ماجدة عن ابن مسعود قال سألنا نبينا صلى الله عليه وسلم عن المشى مع الجنازة فقال : " دون الخَبَب إن يكن خيرا يعجّل إليـه و إن يكن غير ذلك فبعدًا لأهل النـار " الحديث . قال أبو عمـر : والذى عليـه جماعة العلماء فى ذلك الإسراع فوق السجيّة قليلا ، والعجلة أحبّ إليهم من الإبطاء . ويكره الإسراع الذى يَشقّ على ضَعَفة الناس ممن يتبعها . وقال إبراهيم النَّخَعىّ : بَطِّئوا بها قليلا ولا تَدِبُّوا دبيب اليهود والنصارى . وقـد تأوّل قوم الإسراع فى حديث أبى هريرة تعجيل الدفن لا المشى، وليس بشىء لمـا ذكرنا . وبالله التوفيق .

السادسـة ـــ وأما الصلاة عليه فهى واجبَة على الكفاية كالجهاد . هذا هو المشهور من مذاهب العلماء : مالك وغيره؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى النجاشى : " قوموا فصلّوا عليه ". وقال أصْبغ : إنها سُنّة . وروى عن مالك . وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان فى «براءة» (١) .

السابعـة ـــ وأمّا دفنه فى التراب ودسه وستره فذلك واجب ؛ لقوله تعالى : « فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ » (٢) . وهناك يذكر حكم بنيان القبر وما يستحب منه، وكيفية جعل الميت فيه . ويأتى فى «الكهف» حكم بناء المسجد عليه (٣) ، إن شاء الله تعالى .

فهذه جملة من أحكام الموتى وما يجب لهم على الأحياء . وعن عائشة قالت قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تَسبّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا " أخرجه مسلم . وفى سُنن النَّسائى عنها أيضا قالت : ذُكر عند النبىّ صلى الله عليـه وسلم هالكٌ بسوء فقال : " لا تذكروا هَلْكاكم إلا بخير " .

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٨ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٤١ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٨

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فأجْرُ المؤمن ثواب ، وأجر الكافر عقاب ، ولم يعتدّ بالنعمة والبليـة فى الدنيا أجرا وجزاء ؛ لأنها عرصةَ الفناء . ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّـارِ ﴾ أى أُبعد . ﴿ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ ظَفِر بمـا يرجو، ونجا ممـا يخاف. وروى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبـد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من سَرّه أن يُزحزَح عن النار وأن يدخل الجنـة فلتأته منيّته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويأتى إلى الناس الذى يُحب أن يُؤتى إليه".
عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » " .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُـرُورِ ﴾ أى تَغرّ المؤمنَ وتخـدعُه فيَظُن طول البقاء وهى فانية . والمتاع ما يُتمتع به وينتفع؛ كالفأس والقِـدْر والقَصعة ثم يزول ولا يبقى ملكه ؛ قاله أكثر المفسرين . قال الحسن : كخُضرة النبات، ولعب البنات لا حاصل له . وقال قَتادة: هى متاع متروك توشـك أن تضمحل بأهلها ؛ فينبغى للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع . ولقد أحسن من قال :

هى الدار دارُ الأذى والقَـذَى * ودارُ الفنـاء ودارُ الغِـيَرْ (١)
فلـو نلتَهـا بحـذافيرها * لمُتّ ولم تَقض منهـا الوَطَـرْ
أيا مَن يؤمّل طـولَ الخـلود * وطـولُ الخلود عليـه ضَرَرْ
إذا أنت شِبْت وبان الشّباب * فلا خير فى العيش بعـد الكِبَرْ

والغَرور (بفتح الغين) الشـيطان ؛ يَغُر الناس بالتّمنية والمواعيـد الكاذبة . قال ابن عرفة : الغرور ما رأيتَ له ظاهرًا تحبّـه ، وفيه باطن مكروه أو مجهول . والشـيطان غَرور ؛ لأنه يحمل على محاب النفس ، ووراء ذلك ما يسوء . قال : ومن هـذا بيع الغَرر، وهـو ما كان له ظاهرُ بيعٍ يَغُر وباطنٌ مجهول .

(١) فى جـ : العبر.

قوله تعالى : لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٨٦)

هـذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته والمعنى : لَتُختَبرنّ ولَتُمتحنن فى أموالكم بالمصائب والأرزاء بالإنفاق فى سبيل الله وسائر تكاليف الشرع . والابتلاء فى الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب . وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها . ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ إن قيل : لم ثبتت الواو فى « لتبلوُن » وحذفت من « وَلَتَسْمَعُنَّ » ؛ فالجواب أن الواو فى « لتبلون » قبلها فتحة فحركت لالتقاء الساكنين ، وخُصّت بالضمة لأنها واو الجمع ، ولم يجز حذفها لأنها ليس قبلها ما يدل عليها ، وحذفت من «ولتسمعن» لأن قبلها ما يدل عليها . ولا يجوز همز الواو فى « لتبلوُن » لأن حركتها عارضة ؛ قاله النحاس وغيره . ويقال للواحد من المذكر : لَتُبْلَيَنَّ يارجل . وللإثنين : لتبليانّ يا رجلان . ولجماعة الرجال : لتبلوُنّ . ونزلت بسبب أن أبا بكر رضى الله عنه سمع يهوديا يقول : إن الله فقير ونحن أغنياء . ردًّا على القرآن واستخفافا به حين أنزل الله «مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» فلطمه ؛ فشكاه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت . قيل : إن قائلها فِنحاص اليهودى ؛ عن عكرمة . الزُّهرىّ : هو كعب ابن الأشرف نزلت بسببه ؛ وكان شاعرا ، وكان يهجو النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ، ويُؤَلِّب عليه كفار قريش ، ويُشَبِّب بنساء المسلمين حتى بعث [إليه] (١) رسولُ الله صلى الله عليه وسلم محمدَ بنَ مَسْلَمة وأصحابَه فقتله القِتْلة المشهورة فى السِّيَر وصحيح الخبر (٢) . وقيل غير هذا . وكان صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان بها اليهود والمشركون ، فكان هو وأصحابه يسمعون أذًى كثيرا . وفى الصحيحين أنه عليه السلام مرّ بآبن أُبَىّ وهو عليه السلام على حمار فدعاه إلى الله تعالى فقال ابن أُبَىّ : إن كان ماتقول حقًّا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ! ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه . وقبض على أنفه لئلا يصيبه غبار الحمار ، فقال

(١) فى جـ و هـ و ز .	(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ٥٤٨ طبع أوربا .

ابن رَوَاحة : نعم يا رسول الله ، فاْغشنا فى مجالسنا فإنا نحبّ ذلك . واستبّ المشركون الذين كانوا حول ابن أُبَىّ والمسلمون ، وما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم يسكّنهم حتى سكنوا . ثم دخل على سعد بن عُبادة يعوده وهو مريض ، فقال : "ألم تسمع ما قال فلان" فقال سعد : أعف عنه واصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نَزل ، وقد اصطلح أهل هذه البُحيْرة(١) على أن يتوّجوه و يعصبوه بالعصابة ، فلما ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شَرِق به ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزلت هذه الآية . قيل : هذا كان قبل نزول القتال ، ونَدَب الله عباده إلى الصبر والتقوى وأخبر أنه من عزم الأمور . وكذا فى البخارىّ فى سياق الحديث ، أن ذلك كان قبل نزول القتال . والأظهر أنه ليس بمنسوخ ؛ فإن الجدال بالأحسن والمداراة أبدا مندوب إليها ، وكان عليه السلام مع الأمر بالقتال يوادع اليهود ويُداريهم ، و يصفح عن المنافقين ، وهذا بيّن . ومعنى ﴿ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ شدّها(٢) وصلابتها(٣) . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُو الكِتَابَ ﴾ هذا متّصل بذكر اليهود ؛ فإنهم أمِروا بالإيمان بمحمد عليه السلام و بيانِ أمره ، فكتموا نعته(٤) . فالآية توبيخ لهم ، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم . قال الحسن وقتادة : هى فى كل من أوتى علم شىء من الكتاب . فمن علم شيئا فليعلّمه ، وإيّاكم وكتمانَ العلم فإنه هلَكة . وقال محمد بن كعب : لا يحلّ لعالم أن يسكت على علمه ، ولا للجاهل أن يسكت على جهله ؛ قال الله تعالى «وَإِذْ أَخَذَ

---

(١) يريد المدينة . (٢) فى ج و هـ و ز و ى : سدّها وصلاحها . من السداد .
(٣) راجع جـ ٣ ص ١١٠ (٤) فى جـ : أمره . وفى ز : بعثه .

اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » الآية . وقال : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١) » . وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدّثتكم بشيء ؛ ثم تلا هذه الآية « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . وقال الحسن بن عمارة : أتيت الزُّهرى بعد ما ترك الحديث ، فألفيتُه على بابه فقلت : إن رأيتَ أن تحدّثنى . فقال : أمَا علمتَ أنى تركتُ الحديث ؟ فقلت : إمّا أن تُحدّثنى وإمّا أن أحدّثك . قال حدّثنى . قلت : حدّثنى الحَكَم ابن عُتَيبة عن يحيى بن الجزار قال سمعت علىّ بن أبى طالب يقول : ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يُعلّموا . قال : فحدّثنى أربعين حديثا .

الثانيـــة — الهـاء فى قوله : ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يجرِ له ذِكْرٌ . وقيل : ترجع إلى الكتاب ؛ ويدخل فيه بيان أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه فى الكتاب . وقال : ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ ولم يقل تَكْتُمُنَّهُ لأنه فى معنى الحال ، أى لتبيننه غير كاتمين . وقرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر وأهل مكة « لَتُبَيِّنُنَّهُ » بالتاء على حكاية الخطاب . والباقون بالياء لأنهم غُيَّب (٢) . وقرأ ابن عباس (٣) « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَيُبَيِّنُنَّهُ » . فيجىء قـوله ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ عائدا على النـاس الذين بيّن لهم الأنبيـاء . وفى قراءة ابن مسـعود « لَيُبَيِّنُونَه » دون النون الثقيـلة . والنَّبْذ الطّرح . وقد تقـدّم بيانه فى « البقرة (٤) » . ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مبالغة فى الأطراح ؛ ومنه « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » وقد تقـدّم فى « البقرة (٤) » بيانه أيضا . وتقدّم معنى قوله : ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فى « البقرة (٥) » فلا معنى لإعادته . ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ تقدّم أيضا (٦) . والحمد لله .

قوله تعـالى : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ وجـ ١١ ص ٢٧٢ (٢) كذا فى جـ و د وهـ و ز و ب ، وفى أ و حـ : لأنه غيب . (٣) الذى فى الطبرى أنها قراءة عبد الله ؛ وسيأتى . (٤) راجع جـ ٢ ص ٤٠ (٥) راجع جـ ١ ص ٣٣٤ (٦) راجع جـ ٢ ص ٢٧

أى بمـا فعلوا من القعود فى التخلف عن الغزو وجاءوا به من العذر . ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخُدْرِى أن رجالا من المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمَقْعدهم خِلافَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم النبى صلى الله عليه وسلم اعتذروا إليـه وحلفوا ، وأحبوا أن يُحمدوا بمـا لم يفعلوا ؛ فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية . وفى الصحيحين أيضا أن مَرْوان (1) قال لبوّابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرئ منّا فرح بمـا أوتِىَ وأحبّ أن يُحمد بمـا لم يفعل معذَّبًا لنعذَّبن أجمعون . فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية ! إنما أنزلت هذه الآية فى أهل الكتاب . ثم تلا ابن عباس « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » و « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » . وقال ابن عباس : سألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بمـا أتَوْا من كتمانهم إياه ، وما سألهم عنه . وقال محمد بن كعب القُرَظى : نزلت فى علماء بنى إسرائيل الذين كتموا الحق ، وأتوا ملوكهم من العلم ما يوافقهم فى باطلهم ، « وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أى بما أعطاهم الملوك من الدنيا ؛ فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . فأخبر أن لهم عذابا أليما بما أفسدوا من الدِّين على عباد الله . وقال الضحاك : إن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد فى كتابنا أن الله يبعث نبيًّا فى آخر الزمان يختم به النبوّة ؛ فلمـا بعثه الله سألهم الملوك أهو هذا الذى تجدونه فى كتابكم ؟ فقال اليهود طمعا فى أموال الملوك : هو غير هذا ، فأعطاهم الملوك الخزائن ؛ فقال الله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا » الملوكَ من الكذب حتى يأخذوا عَرَض الدنيا . والحديث الأول خلاف مقتضى الحديث الثانى . ويحتمل أن يكون نزولها على السببين

(1) هو مروان بن الحكم بن العاصى ، وكان يومئذ أميرا على المدينة من قبل معاوية . (عن شرح القسطلانى) .

لاجتماعهما فى زمن واحد، فكانت جوابا للفريقين . والله أعلم . وقوله : واستحمدوا بذلك إليه ، أى طلبوا أن يحمدوا . وقول مروان : لئن كان كلّ آمرئ منا الخ دليلٌ على أن للعموم صِيَغًا مخصوصة ، وأن « الذين » منها . وهذا مقطوع به من تفهّم ذلك من القرآن والسُّنّة . وقوله تعالى : « وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » إذا كانت الآية فى أهل الكتاب لا فى المنافقين المتخلّفين ؛ لأنهم كانوا يقولون : نحن على دين إبراهيم ولم يكونوا على دينه ، وكانوا يقولون : نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب ؛ يريدون أن يُحمَدوا بذلك . و « الذين » فاعل بيحسبنّ بالياء . وهى قراءة نافع وابن عامر وابن كَثير وأبى عمرو ؛ أى لا يحسبنّ الفارحون فرحَهم مُنجيًا لهم من العذاب . وقيل : المفعول الأوّل محذوف، وهو أنفسهم . والثانى « بمفازة » . وقرأ الكوفيون « تحسبَنّ » بالتاء على الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا تحسبن يا محمد الفارحين بمفازة من العذاب . وقوله « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ » بالتاء وفتح الباء، إعادةُ تأكيد، ومفعوله الأوّل الهاء والميم، والمفعول الثانى محذوف؛ أى كذلك، والفاء عاطفة أو زائدة على بدل الفعل الثانى من الأوّل . وقرأ الضحّاك وعيسى بن عمر بالتاء وضم الباء « فلا تَحْسَبُنَّهم » أراد محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقرأ مجاهد وابن كَثير وأبو عمرو ويحيى بن يعمر بالياء وضم الباء خبرا عن الفارحين ؛ أى فلا يَحسَبُنّ أنفسهم ؛ « بِمَفَازَةٍ » المفعول الثانى . ويكون « فلا يحسبنهم » تأكيدا . وقيل : « الذين » فاعل « يحسبن » ومفعولاها محذوفان لدلالة « يحسبنهم » عليه ؛ كما قال الشاعر :

بأىّ كتاب أم بأيّة آية[1] * ترى حبّهم عارًا علىّ وتحسَبُ

آستغنى بذكر مفعول الواحد عن ذكر مفعول الثانى ، و « بمفازة » الثانى، وهو بدل من الفعل الأوّل فأغنى لإبداله منه عن ذكر مفعولَيْه ، والفاء زائدة . وقيل : قد تجىء هذه الأفعال ملغاة لا فى حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر :

وما خِلْت أبقى بيننا من مودّة * عِراض المَذاكى المُسْنِفاتِ القلائصا

(١) فى ط وز : سنة . وهى الرواية المشهورة .

المَذَاكِى : الخيل التى قد أتى عليها بعد قروحها سنةٌ أو سنتان ؛ الواحد مُذَكٍّ، مثل المُخْلِف من الإبل ؛ وفى المثــل جَرْى المُذَكِّيَات غِلَاب (١) ، والمستفات اسم مفعول ؛ يقال : سَنَفْتُ البعيرَ أسنِفهُ سَـنْفًا إذا كففته بزمامه وأنت راكبه ، وأسنف البعيرَ لغة فى ستفه ، وأسنف البعيرُ بنفسه إذا رفع رأسه؛ يتعدّى ولا يتعدّى . وكانت العرب تركب الإبل وتَجْنُب الخيل؛ تقول : الحرب لا تُبقِى مودّة . وقال كعب (٢) بن أبى سُلْمَى :

أرجو وآمل أن تَدْنُو مَوَدّتُها * وما إخالُ لَدَيْنا منكِ تَنوِيلُ

وقرأ جمهور القرّاء السبعة وغيرهم «أتوا» بقصر الألف ، أى بما جاءوا به من الكذب والكتمان . وقرأ مَرْوان بن الحَكَم والأعمش وإبراهيم النَّخَعِىّ « آتوا » بالمد ، بمعنى أعْطَوا : وقرأ سعيد ابن جَبير « أُوتوا » على ما لم يسم فاعله ؛ أى أعطوا . والمفازة المنجاة ، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا ؛ أى ليسوا بفائزين . وسُمِّى موضع المخاوف مفازة على جهة التفاؤل؛ قاله الأصمعى . وقيل : لأنها موضع تفويز ومَظِنّة هلاك؛ تقول العرب : فوّز الرجل إذا مات . قال ثعلب : حكيت لابن الأعرابى قول الأصمعى فقال أخطأ ، قال لى أبو المكارم : إنما سُمِّيت مفازة ؛ لأن من قطعها فاز . وقال الأصمعىّ : سُمّى اللَّدِيغ سـليمًا تفاؤلا . قال ابن الأعرابى : لأنه مُسْتَسْلِم لمـا أصابه . وقيـل : لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب ؛ لأن الفوز التباعدُ عن المكروه . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٨٩)

هـذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقـير ونحن أغنياء، وتكذيب لهم . وقيل : المعنى لا تظُنّن الفرحين ينجون من العذاب؛ فإن لله كلّ شىء، وهم فى قبضة القدير؛ فيكون معطوفا على الكلام الأوّل، أى إنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء . ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أى مُمكن ﴿ قَدِيرٌ ﴾ وقد مضى (٣) فى « البقرة » .

(١) الغلاب : المغالبة . أى أن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوّته .

(٢) كذا فى الأصول . وهو اختصار من كعب بن زهير الخ .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٢٤

قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ
فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ
فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾
رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ
وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ
خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

فيه خمس وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم معنى هـذه الآية في « البقرة »(١) في غير موضع . ختم تعالى هـذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته ؛ إذ لا تصدر إلا عن حيّ قيّوم قدير قدّوس سلام غنيّ عن العالمين؛ حتى يكون إيمانُهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليـد . ﴿ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الذين يستعملون عقولهم في تأمّل الدلائل . ورُوى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لمـا نزلت هـذه الآية على النبيّ صلى الله عليه وسلم قام يُصلّي ، فأتاه بلالٌ يُؤْذِنُه بالصلاة ، فرآه يبكي فقال : يارسول الله ، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ! فقال : " يا بلالُ ، أفلا أكون عبدا شكورا ولقـد أنزل الله عليّ الليـلة آية « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » — ثم قال : وَيْلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها " .

الثانيـــة — قال العلماء : يستحبّ لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه ، ويستفتح قيامه بقراءة هـذه العشر الآيات اقتداءً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما وسيأتي ؛ ثم يصلّي ما كُتب له ، فيجمع بين التفكّر والعمل ، وهو أفضـل العمل على ما يأتي بيانه في هذه الآية بعد هذا . ورُوى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة « آل عمران » كل ليلة ، خرّجه أبو نصر الوائلي السِّجِسْتانيّ الحافظ في كتاب « الإبانة » من حديث سليمان بن موسى عن مظاهر بن أسـلم المخزوميّ عن المَقْبُريّ عن أبي هريرة . وقـد تقدّم أوّل السورة(٢) عن عثمان قال : من قرأ آخر آل عمران في ليلة كُتب له قيام ليلة .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلوا ابن آدم منهـا في غالب أمره ، فكأنها تحصُر زمانه . ومن هـذا المعنى قولُ عائشة رضي الله عنهـا : كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يذكر الله على كل

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ . (٢) راجع ص ٢ من هذا الجزء .

أحيانه . أخرجه مسلم . فدخل في ذلك كونه على الخلاء وغيرُ ذلك . وقد اختلف العلماء في هذا؛ فأجاز ذلك عبد الله بن عمرو وابن سيرين والنَّخعيّ ، وكره ذلك ابن عباس وعطاء والشعبيّ . والأول أصح لعموم الآية والحديث . قال النَّخعيّ : لا بأس بذكر الله في الخلاء فإنه يَصعد . المعنى : تصعد به الملائكة مكتوبا في صحفهم؛ فحذف المضاف . دليله قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »[1] . وقال : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ »[2] . ولأن الله عز وجل أمر عباده بالذكر على كل حال ولم يستثن فقال : «اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا »[3] وقال : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ»[4] وقال: «إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا»[5] فعمّ . فذاكر الله تعالى على كل حالاته مُثابٌ مأجور إن شاء الله تعالى . وذكر أبو نعيم قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدّثني أبي قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن أبي مَرْوان عن أبيه عن كعب الأحبار قال قال موسى عليه السلام : "يا ربّ أقريبٌ أنت فأُناجيك أم بعيد فأُناديك قال: ياموسى أنا جليسُ مَن ذكرني قال : يارب فإنا نكون من الحال على حال نُجلّك ونُعظّمك أن نذكُرك قال : وما هي؟ قال: الجنابة والغائط قال: ياموسى اذكرني على كل حال". وكراهية من كره ذلك إمّا لتنزيه ذِكر الله تعالى في المواضع المرغوب عن ذكره فيها ككراهية قراءة القرآن في الحمّام، وإما إبقاء على الكرام الكاتبين على أن يحلّهم موضع الأقذار والأنجاس لكتابة ما يلفظ به . والله أعلم . و﴿ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ نُصب على الحال . ﴿ وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ في موضع الحال؛ أي ومضطجعين ومثله قوله تعالى : « دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا »[6] على العكس؛ أي دعانا مضطجعا على جَنبه . وذهب جماعة من المفسرين منهم الحسن وغيره إلى أن قوله « يَذْكُرُونَ اللَّهَ » إلى آخره ، إنما هو عبارة عن الصلاة ؛ أي لا يضيعونها ، ففي حال العذر يصلونها قعودا أو على جنوبهم . وهي مثل قوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ »[7] في قول ابن مسعود على ما يأتي بيانه . وإذا كانت الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلّي قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا، فإن لم يستطع فعلى جَنبه ؛ كما ثبت عن عِمران

(١) راجع جـ ١٧ ص ٨ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٥ (٣) راجع جـ ١٤ ص ١٩٧ (٤) راجع جـ ٢ ص ١٧١ (٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٥ (٦) راجع جـ ٨ ص ٣١٧ (٧) راجع جـ ٥ ص ٣٧٣

ابن حُصين قال : كان بى البوَاسِير فسألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال : " صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جُنُب " رواه الأئمة . وقد كان صلى الله عليه وسلم يصلى قاعدا قبل موته بعام فى النافلة ؛ على ما فى صحيح مسلم . وروى النَّسائىّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى متربّعا . قال أبو عبد الرحمن[1] : لا أعلم أحدا روى هذا الحديث غير أبى داود الحَفَرِىّ[2] وهو ثقة، ولا أحسَب هذا الحديث إلا خطأ . والله أعلم .

الرابعة — واختلف العلماء فى كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك أنه يتربّع فى قيامه، وقاله البُوَيْطِىّ عن الشافعىّ . فإذا أراد السجود تهيّأ للسجود على قدر ما يطيق، قال : وكذلك المتنفل . ونحوه قول الثورى، وكذلك قال الليث وأحمد وإسحاق وأبو يوسف ومحمد . وقال الشافعىّ فى رواية المُزَنِىّ : يجلس فى صلاته كلها كجلوس التشهد . وروى هذا عن مالك وأصحابه ؛ والأوّل المشهور[3] وهو ظاهر المدوّنة . وقال أبو حنيفة وزفر : يجلس كجلوس التشهد، وكذلك يركع ويسجد .

الخامسة — قال[4] : فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير؛ هذا مذهب المدوّنة وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم يصلى على ظهره ، فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن ثم على جنبه الأيسر . وفى كتاب ابن الموّاز عكسه ، يصلى على جنبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظهر . وقال سحنون : يصلى على الأيمن كما يجعل فى لحده، وإلا فعلى ظهره وإلا فعلى الأيسر . وقال مالك وأبو حنيفة : إذا صلى مضطجعا تكون رجلاه مما يلى القِبلة . والشافعىّ والثورىّ : يصلى على جنبه ووجهه إلى القِبلة .

السادسة — فإن قوى لخفة المرض وهو فى الصلاة ؛ قال ابن القاسم : إنه يقوم فيما بقى من صلاته ويبنى على ما مضى ؛ وهو قول الشافعىّ وزفر والطبرىّ . وقال أبو حنيفة

(١) أبو عبد الرحمن : كنية النسائى .
(٢) الحفرى (بفتح المهملة والفاء) نسبة إلى موضع بالكوفة واسمه عمر بن سعد بن عبيد .
(٣) فى ى : المذهب . وذلك فى الهامش تصحيحا . (٤) فى هـ .

وصاحباه يعقوب ومحمد فيمن صلى مضطجعا ركعة ثم صحّ : إنه يستقبل الصلاة من أوّلها ، ولو كان قاعدا يركع ويسجد ثم صحّ بنى فى قول أبى حنيفة ولم يَبْنِ فى قول محمد . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا افتتح الصلاة قائما ثم صار إلى حدّ الإيماء فليَبْن ؛ وروى عن أبى يوسف . وقال مالك فى المريض الذى لا يستطيع الركوع ولا السجود وهو يستطيع القيام والجلوس : إنه يصلى قائما ويومئ إلى الركوع، فإذا أراد السجود جلس وأومأ إلى السجود؛ وهو قول أبى يوسف وقياس قول الشافعىّ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يصلى قاعدا .

السابعة — وأما صلاة الراقد الصحيح فروى من حديث عِمران بن حصين زيادة ليست موجودة فى غيره، وهى «صلاة الراقد مثل نصف صلاة القاعد» . قال أبو عمر: وجمهور أهل العلم لا يُجيزون النافلةَ مضطجعا ؛ وهو حديث لم يروه إلا حسين المعلّم وهو حسين ابن ذَكْوان عن عبد الله بن بُرَيْدة عن عِمران بن حصين، وقد اختلف على حسين فى إسناده ومتنه اختلافا يوجب التوقف عنه ، وإن صحّ فلا أدرى ما وجهه ؛ فإن كان أحد من أهل العلم قد أجاز النافلة مضطجعا لمن قدر على القعود أو على القيام فوجهه هذه الزيادة فى هذا الخبر، وهى حجة لمن ذهب إلى ذلك . وإن أجمعوا على كراهة النافلة راقدا لمن قدر على القعود أو القيام ، فحديث حسين هذا إمّا غلط وإما منسوخ . وقيل : المراد بالآية الذين يستدلون بخلق السموات والأرض على أن المتغيِّر لابدّ له من مُغيِّر، وذلك المغير يجب أن يكون قادرا على الكمال ، وله أن يبعث الرسل ، فإن بعث رسولا ودل على صدقه بمعجزة واحدة لم يبق لأحد عذر؛ فهؤلاء هم الذين يذكرون الله على كل حال . والله أعلم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قد بينا معنى « ويذكرون » وهو إما ذِكر باللسان وإمّا الصلاة فرضها ونفلها؛ فعطف تعالى عبادة أخرى على إحداهما بعبادة أخرى[1]، وهى التفكر فى قدرة الله تعالى ومخلوقاته والعِبر الذى بثّ[2]؛ ليكون ذلك أزيد فى بصائرهم :

وفى كلِّ شَيْءٍ له آيةٌ * تَدُلُّ على أنّهُ واحدُ

---

(١) فى ا و ج و ب و هـ و ى و ط : بعبادة أخرى وهى الفكر .
(٢) كذا فى هـ و ب و د و ج و ى . وفى ا و حـ : نبه؛ وفى ز : ثبت .

وقيل : « يتفكرون » عطف على الحال . وقيل : يكون منقطعا ؛ والأول أشبه . والفكرة : تردّد القلب فى الشىء؛ يقال : تفكّر؛ ورجل فِكّير كثير الفِكْر؛ ومرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكّرون فى الله فقال : " تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره " وإنمـا التفكر والاعتبار وانبساط الذهن فى المخلوقات كما قال : « ويتفكرون فِى خلقِ السموات والأرضِ » . وحكى أن سفيان الثورى رضى الله عنه صلى خلف المقام ركعتين ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشى عليــه ، وكان يبول الدّم من طول حزنه وفكرته . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بينما رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال أشهد أن لك ربا وخالقا اللهمّ اغفر لى فنظر الله إليــه فغفر له " وقال صلى الله عليه وســلم : " لا عبادة كتفكر " . وروى عنــه عليه السلام قال : " تفكر ساعةٍ خير من عبادة ســنة " . وروى ابن القاسم عن مالك قال: قيل لأم الدرداء : ما كان أكثر شأن أبى الدرداء؟ قالت : كان أكثر شأنه التفكر . قيــل له : أفترى التفكر عمــلا من الأعمال ؟ قال : نعم ، هو اليقين . وقيــل لابن المسيّب فى الصلاة بين الظهر والعصر ، قال : ليست هــذه عبادة ، إنمـا العبادة الورع عما حرم الله والتفكر فى أمر الله . وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة؛ وقاله ابن عباس وأبو الدرداء. وقال الحسن : الفكرة مرآة المؤمن ينظر فيهـا إلى حسناته وسيئاته . وممـا يتفكر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنشر والجنة ونعيمها والنار وعذابها . ويروى أن أباسليمان الدارانىّ رضى الله عنه أخذ قدح المـاء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف ، فرآه لمـا أدخل أصبعه فى أذن القدح أقام لذلك متفكرا حتى طلع الفجر ، فقال له : ما هذا يا أبا سليمان ؟ قال : إنى لمـا طرحت أصبعى فى أذن القدح تفكرت فى قول الله تعالى «إِذِ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ»[(1)] تفكرت فى حالى وكيف أتلقى الغــل إن طرح فى عنقى يوم القيامة ، فمـا زلت فى ذلك حتى أصبحت . قال ابن عطية : « وهذا نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها ، وليس علمـاء الأمة الذين هم الحجة على هــذا المنهاج ، وقراءة علم كتاب الله تعـالى ومعانى ســنة رسول الله

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٢

صلى الله عليه وسلم لمن يفهم ويُرجى نفعه أفضلُ من هذا» . قال ابن العربيّ : اختلف الناس أى العملين أفضل : التفكر أم الصلاة ؛ فذهب الصوفية إلى أن التفكر أفضل؛ فإنه يثمر المعرفة وهو أفضل المقامات الشرعية . وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل؛ لما ورد فى الحديث من الحث عليها والدعاء إليها والترغيب فيها . وفى الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خالته مَيْمُونَة ، وفيه : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران ، وقام إلى شَنّ (١) معلّق فتوضأ وضوءا خفيفا ثم صلى ثلاث عشر ركعة ؛ الحديث . فأنظروا رحمكم الله إلى جمعه بين التفكر فى المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده ؛ وهذه السنة هى التى يعتمد عليها . فأما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يوما وليلة وشهرا مفكرا لا يفتر ؛ فطريقة بعيدة عن الصواب غير لائقة بالبشر، ولا مستمرّة على السنن . قال ابن عطية : وحدّثنى أبى عن بعض علماء المشرق قال : كنت بائتا فى مسجد الأقدام (٢) بمصر فصليت العتمة فرأيت رجلا قد اضطجع فى كساء له مسجًّى بكسائه حتى أصبح ، وصلينا نحن تلك الليلة ؛ فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلى مع الناس، فاستعظمت جراءته فى الصلاة بغير وضوء ؛ فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه ، فلما دنوت منه سمعته ينشد شعرا :

مُسجّى الجسمِ غائبٌ حاضر * مُنْتَبِه القلبِ صامتٌ ذاكِر
منقبض فى الغُيوب منبسط * كذاكَ من كان عارفا ذاكِر
يَبيتُ فى ليلِه أخا فِكَرٍ * فهو مَدَى الليلِ نائمٌ ساهر

قال : فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة، فانصرفتُ عنه .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا﴾ أى يقولون : ما خلقته عبثا وهزلا ، بل خلقته دليلا على قدرتك وحكمتك . والباطل : الزائل الذاهب ؛ ومنه قول لَبِيد :

* ألا كلّ شَىْء ما خَلا اللهَ باطِلُ *

(١) الشن : القربة . (٢) مسجد الأقدام : مسجد كان بجهة مصر العتيقة قريبا من سقاية ابن طولون . راجع المقريزى جـ ٢ ص ٤٤٥ طبع بولاق .

أى زائل . و « بَاطِلًا » نصب لأنه نعت مصدر محذوف ؛ أى خلقا باطلا . وقيل : انتصب على نزع الخافض ، أى ما خلقتها للباطل . وقيل : على المفعول الثانى ، و يكون خلق بمعنى جعل . ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أسند النحاس عن موسى بن طلحة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى « سبحان الله » فقال : "تنزيه الله عن السوء" وقد تقدم(1) فى « البقرة » معناه مستوفى . ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أجرنا من عذابها ، وقد تقدّم(2) .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أى أذللته وأهنته . وقال المفضل : أى أهلكته ، وأنشد :

أَخْزَى الإلهُ من الصَّليب عبيدَه * واللابِسين قَلَانس الرهبانِ

وقيل : فضحته وأبعدته ؛ يقال : أخزاه الله : أبعده ومقته . والاسم الخِزْى . قال ابن السكيت : خَزِىَ يَخْزَى خِزْيا إذا وقع فى بليّة . وقد تمسك بهذه الآية أصحاب الوعيد وقالوا : من أدخل النار ينبغى ألا يكون مؤمنا ؛ لقوله تعالى : « فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ » ؛ فإن الله يقول : « يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ »(3) . وما قالوه مردود؛ لقيام الأدلة على أن من ارتكب كبيرة لا يزول عنه اسم الإيمان، كما تقدّم و يأتى. والمراد من قوله : «مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ» من تخلد فى النار ؛ قاله أنس بن مالك . وقال قتادة : تدخل مقلوب تخلد ، ولا نقول كما قال أهل حروراء . وقال سعيد بن المسيب : الآية خاصة فى قوم لا يخرجون من النار ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أى الكفار . وقال أهل المعانى : الخزى يحتمل أن يكون بمعنى الحَيَاء؛ يقال : خَزِىَ يَخْزَى خَزَايَةً إذا استحيا ، فهو خَزْيان . قال ذو الرمة :

خَزَايَةً أدركتْه عِنْد(4) جَوْلَتِه * من جانب الحَبْل مخلوطا بها الغضبُ

فخزى المؤمنين يومئذ استحياؤهم فى دخول النار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا منها . والخزى للكافرين هو إهلاكهم فيها من غير موت ؛ والمؤمنون يموتون ، فافترقوا . كذا ثبت فى صحيح السنة من حديث أبى سعيد الخدرى ، أخرجه مسلم . وقد تقدّم و يأتى .

(1) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ (2) راجع جـ ٢ ص ٤٣٣ (3) راجع جـ ١٨ ص ١٩٧
(4) فى الديوان : بعد .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين . وقال قتادة ومحمد بن كعب القرظي : هو القرآن ، وليس كلهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . دليل هذا القول ما أخبر الله تعالى عن مؤمني الجن إذ قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ »[1] . وأجاب الأولون فقالوا : من سمع القرآن فكأنما لقي النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا صحيح معنى . وأن[2] من ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ في موضع نصب على حذف حرف الخفض ، أي بأن آمنوا . وفي الكلام تقديم وتأخير ، أي سمعنا مناديا للإيمان ينادي ؛ عن أبي عبيدة . وقيل : اللام بمعنى إلى ، أي إلى الإيمان ؛ كقوله : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[3] . وقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا »[4] وقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا »[5] أي إلى هذا ، ومثله كثير . وقيل : هي لام أجل ، أي لأجل الإيمان .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ تأكيد ومبالغة في الدعاء . ومعنى اللفظين واحد ؛ فإن الغفر والكفر : الستر . ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي أبرارا مع الأنبياء ، أي في جملتهم . واحدهم بَرّ وبارّ وأصله من الاتساع ؛ فكأن البرّ متسع في طاعة الله ومتسعة له رحمة الله .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنة رسلك ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »[6] . وقرأ الأعمش والزهري « رُسْلِكَ » بالتخفيف ، وهو ما ذكر من استغفار الأنبياء والملائكة للؤمنين ؛ والملائكة يستغفرون لمن في الأرض . وما ذكر من دعاء نوح للؤمنين ودعاء إبراهيم واستغفار النبي صلى الله عليه وسلم لأمته . ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ أي لا تعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا ، ولا تهنا ولا تبعدنا ولا تمقتنا يوم القيامة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ . إن قيل : ما وجه قولهم « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » وقد علموا أنه لا يخلف الميعاد ؛ فالجواب من ثلاثة أوجه :

الأول — أن الله سبحانه وعد من آمن بالجنة ، فسألوا أن يكونوا ممن وُعد بذلك دون الخزي والعقاب .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٦ . (٢) من هو جـ و ط . (٣) راجع جـ ١٧ ص ٢٩٠
(٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٩ (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨ (٦) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ .

الثـانى ــ أنهم دعوا بهذا الدعاء على جهة العبادة والخضوع؛ والدعاء مُخ العبادة . وهذا كقوله : « قُل رَبِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ »(1) و إن كان هو لا يقضى إلّا بالحق .

الثـالث ــ سألوا أن يُعطوا ما وعِدوا به من النصر على عدوّهم معجّلا؛ لأنها حكاية عن أصحـاب النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، فسألوه ذلك إعزازا للدّين . والله أعلم . وروى أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : "من وعده الله عز وجل على عمل ثوابا فهو مُنْجِزُه له رحمة ومَن وعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار" . والعرب تذم بالمخالفة فى الوعد وتمدح بذلك فى الوعيد؛ حتى قال قائلهم(2) :

ولا يرهَبُ ٱبنُ العمّ ما عِشتُ صَوْلَتِى * ولا أختفِى(3) من خَشْيَةِ المتَهَدِّدِ
وإنّى متى(4) أوعَـدتُه أو وعـدته * لَمخلِفُ إيعادِى ومُنجِزُ مَوْعِـدِى

الرابعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى أجابهم . قال الحسن : ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى ٱستجاب لهم . وقال جعفر الصادق : من حَزَبه(5) أمرٌ فقال خمس مرات ربنـا أنجاه الله ممـا يخاف وأعطاه ما أراد . قيـل : وكيف ذلك ؟ قال : إقرءوا إن شئتم « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ــ إلى قوله : إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » .

الخامسة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ أَنِّى ﴾ أى بأنى . وقرأ عيسى بن عمر « إنى » بكسر الهمزة، أى فقال: إنى . وروى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله ، ألا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ الآية . وأخرجه الترمذى . ودخلت « من » للتأكيد؛ لأن قبلها حرف نفى . وقال الكوفيون : هى للتفسير ولا يجوز حذفها ؛ لأنها دخلت لمعنى لا يصلح الكلام إلا به ، وإنمـا تحذف إذا كانت تأكيدا للجحد . ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ ابتداء وخبر، أى دِينكم واحد . وقيل : بعضكم من بعض فى الثواب والأحكام والنصرة وشبه ذلك . وقال الضحاك : رجالكم شكل نسائكم فى الطاعة، ونساؤكم شكل رجالكم فى الطاعة؛ نظيرها قوله

(1) على قراءة نافع راجع جـ ١١ ص ٣٥١ (2) هو عامر بن الطفيل؛ كما فى اللسان .
(3) فى هـ و ى : أختبى . (4) كذا فى جميع الأصول ، والذى فى اللسان : و إنى إن ، وفى التاج : و إنى وإن ، (5) حزبه الأمر : إذا نزل به مهم أو أصابه غم .

عز وجل : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »(١) . ويقال : فلان مِنّى ، أى على مذهبي وخلق .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ ابتداء وخبر ، أى هجروا أوطانهم وساروا إلى المدينة . ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ فى طاعة الله عز وجل . ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ أى وقاتلوا أعدائى . ﴿ وَقُتِلُوا ﴾ أى فى سبيلى . وقرأ ابن كثير وابن عامر : «وقاتلوا وقُتِّلوا» على التكثير . وقرأ الأعمش « وقتِلوا وقاتلوا » لأن الواو لا تدل على أن الثانى بعد الأول . وقيل : فى الكلام إضمار قد، أى قتِلوا وقد قاتلوا ؛ ومنه قول الشاعر :

* تَصابَى وأمسَى عَلاهُ الكِبَرْ *

أى وقد علاه الكبر . وقيل : أى وقد قاتل من بَقِىَ منهم ؛ تقول العرب : قتلنا بنى تميم ، وإنما قتل بعضهم . وقال امرؤ القيس :

* فإنْ تَقْتُلونَا نُقَتِّلْكُمْ *

وقرأ عمر بن عبد العزيز : « وَقَتَلُوا وقُتِلُوا » خفيفة بغير ألف . ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى لأسترنّها عليهم فى الآخرة، فلا أوبّخهم بها ولا أُعاقبهم عليها . ﴿ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين؛ لأن معنى « لأدخلنهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار » لأثيبنّهم ثوابا . الكسائى : انتصب على القطع . الفرّاء : على التفسير . ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ أى حسن الجزاء ، وهو ما يرجع على العامل من جراء(٢) عمله ؛ من ثاب يثوب .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ قيل : الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد الأمة . وقيل : للجميع . وذلك أن المسلمين قالوا : هؤلاء الكفار لهم تجائر وأموال واضطراب فى البلاد ، وقد هلكنا نحن من الجوع ؛ فنزلت هذه الآية . أى لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم فى أسفارهم . ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى تقلبهم متاع قليل . وقرأ يعقوب « يَغُرَّنْكَ » ساكنة النون ؛ وأنشد :

لا يَغُرَّنْكَ عِشاءٌ ساكِنٌ * قد يُوافِى بالمَنِيّاتِ السَّحَرْ

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠٢ . (٢) فى ز و هـ و د و جـ : جزاء .

ونظير هذه الآية قوله تعالى: «فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ»(١) . والمتاع: ما يعجّل الانتفاع به؛ وسمّاه قليلا لأنه فانٍ ، وكل فانٍ وإن كان كثيرا فهو قليل . وفى صحيح الترمذى عن المستورد الفهرى قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بماذا يرجع" . قيل: "يرجع" بالياء والتاء. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى بئس ما مهّدوا لأنفسهم بكفرهم ، وما مهد الله لهم من النار .

الثامنة عشرة — فى هذه الآية وأمثالها كقوله: «إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ»(٢) الآية . «وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ»(٣) . «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ»(٤) . «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ»(٣) دليل على أن الكفار غير مُنْعَم عليهم فى الدنيا؛ لأن حقيقة النعمة الخلوصُ من شوائب الضرر العاجلة والآجلة ، ونعم الكفار مَشُوبَةٌ بالآلام والعقوبات ، فصار كمن قدّم بين يدى غيره حلاوة من عسل فيها السمّ ، فهو وإن استلذّ آكله لا يقال: أُنعم عليه؛ لأن فيه هلاك روحه . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء ، وهو قول الشيخ أبى الحسن الأشعرى . وذهب جماعة منهم سيف السنة ولسان الأمة القاضى أبو بكر: إلى أن الله أنعم عليهم فى الدنيا . قالوا: وأصل النِّعمة من النعمة بفتح النون ، وهى لين العيش؛ ومنه قوله تعالى: «وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ»(٥) . يقال: دقيق ناعم ، إذا بُولِغ فى طحنه وأُجيد سحقه . وهذا هو الصحيح ، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلّفين فقال: «فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ»(٣) . «وَاشْكُرُوا لِلَّهِ»(٦) والشكر لا يكون إلا على نعمة . وقال: «وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»(٧) وهذا خطاب لقارون . وقال: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً»(٨) الآية. فنبّه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نِعمة دُنْياوِية فجحدوها . وقال: «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا»(٨) وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»(٩) . وهذا عام

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ .
(٢) راجع ص ٢٨٦ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ وص ٢٣٧ .
(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٣٠ .
(٥) راجع جـ ١٦ ص ١٣٨ .
(٦) راجع جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٧) راجع جـ ١٣ ص ٣١٤ .
(٨) راجع جـ ١٠ ص ١٩٣ . وص ١٦١ .
(٩) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ .

فى الكفار وغيرهم . فأما إذا قدّم لغيره طعاما فيه سمّ فقد رفق به فى الحال؛ إذْ لم يجرعه السمّ بحتا، بل دَسّه فى الحلاوة، فلا يستبعد أن يقال: قد أنعم عليه، وإذا ثبت هذا فالنِّعم ضربان: نِعَمُ نفع ونِعَمُ دفع؛ فنِعم النفع ما وصل إليهم من فنون اللذات، ونِعم الدفع ماصرف عنهم من أنواع الآفات . فعلى هذا قد أنعم على الكفار نِعم الدفع قولا واحدا؛ وهو ما زُوِىَ عنهم من الآلام والأسقام، ولا خلاف بينهم فى أنه لم يُنعم عليهم نِعمة دِينية . والحمد لله .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ إستدراك بعد كلام تقدّم فيه معنى النفى ؛ لأن معنى ما تقدّم ليس لهم فى تقلّبهم فى البلاد كبير[1] الانتفاع، لكن المتقون لهم الانتفاع الكبير[1] والخُلْد الدائم . فموضع « لكن » رفع بالابتداء . وقرأ يزيد بن القعقاع « لكنّ » بتشديد النون .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ نُزُلًا مثل ثوابا عند البصريين ، وعند الكسائى يكون مصدرا . الفراء : هو مفسر . وقرأ الحسن والنخعى «نُزْلًا» بتخفيف الزاى استثقالا لضمتين، وثقّله الباقون . والنُّزُل : مايُهيأ للنزيل، والنزيل الضيف . قال الشاعر :

نَزِيلُ القـوم أعظمُهم حقـوقا * وحَـقُّ اللهِ فى حـقِّ النزيلِ

والجمع الأنزال . وحظ نزيل: مجتمِعٌ . والنزل[2] : أيضا الرَّيْع؛ يقال؛ طعام كثير النزْل والنزَل .

الحادية والعشرون — قلت : ولعل النزل — والله أعلم — ما جاء فى صحيح مسلم من حديث[3] ثَوْبَان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصة الحَبْر الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تبدّل الأرضُ غير الأرض والسمواتُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هم فى الظلمة دون الجسر" قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : "فقراء المهاجرين" قال اليهودى : فما تُحفَتُهم حين يدخلون الجنة ؟ قال "زيادة كبِد النون" قال : فما غذاؤهم على إثرها ؟ فقال : "ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها" قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : "من عين فيها تسمى سلسبيلا" وذكر الحديث . قال أهل

(١) فى جـ و أ : كثير . (٢) النزل . بضم فسكون و بالتحريك .
(٣) من جـ و هـ و ى و د . وفى ب و أ : من حديث .

اللغة : والتحفة ما يتحف به الإنسان من الفواكه . والطُّرَف محاسنه وملاطفه، وهذا مطابق لما ذكرناه فى النزل ، والله أعلم . وزيادة الكَبِد : قطعة منه كالأصبع . قال الهروىّ : « نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ » أى ثوابا . وقيل رزقا . ﴿ وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ أى مما يتقلب به الكفار فى الدنيا . والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ الآية . قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن : نزلت فى النجاشىّ، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "قوموا فصلوا على أخيكم النجاشى" ؛ فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نصلى على عِلْج من عُلُوج الحبشة ؛ فأنزل الله تعالى « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ » . قال الضحاك : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ القرآن . ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ التوراة والإنجيل . وفى التنزيل : « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ »(١) . وفى صحيح مسلم : "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين — فذكر — رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران" وذكر الحديث . وقد تقدم فى « البقرة »(٢) الصلاة عليه وما للعلماء فى الصلاة على الميت الغائب ، فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد وابن جُرَيج وابن زيد: نزلت فى مؤمنِى أهل الكتاب، وهذا عام والنجاشىّ واحد منهم . وآسمه أَصْحَمَة، وهو بالعربية عطية . و ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ أذلّة، ونصب على الحال من المضمر الذى فى «يؤمن» . وقيل : من الضمير فى « إِلَيْهِمْ » أو فى « إليكم » . وما فى الآية بيّنٌ، وقد تقدّم .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ﴾ الآية . ختم تعالى السورة بما تضمنته هذه الآية العاشرة من الوصاة التى جمعت الظهور فى الدنيا على الأعداء والفوز بنعيم الآخرة ؛ فحضّ على الصبر على الطاعات وعن الشهوات ، والصبر الحبس، وقد تقدّم فى « البقرة » بيانه(٣) . وأمر بالمصابرة فقيل : معناه مصابرة الأعداء ؛ قاله زيد بن أسلم .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٧ (٢) راجع جـ ٢ ص ٨١ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٧٤

وقال الحسن : على الصلوات الخمس . وقيل : إدامة مخالفة النفس عن شهواتها فهى تدعو وهو يَنْزِع . وقال عطاء والقرظى : صابروا الوَعْد الذى وُعِدتم . أى لا تيأسوا وانتظروا الفرج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "آنتظار الفرج بالصبر عبادة" . وآختار هذا القول أبو عمر رحمه الله . والأوّل قول الجمهور ؛ ومنه قول عنترة :

فلم أرَ حَيًّا صابروا مثل صبرِنا * ولا كافَحوا مثلَ الذين نُكَافِحُ

فقوله « صابروا مثل صبرنا » أى صابروا العدوّ فى الحرب ولم يبدُ منهم جُبْن ولا خَوَر . والمكافحة : المواجهة والمقابلة فى الحرب ؛ ولذلك اختلفوا فى معنى قوله ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ فقال جمهور الأمة : رابطوا أعداءكم بالخيل ، أى آرتبطوها كما يرتبطها أعداءكم ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ » (١) . وفى الموطأ عن مالك عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة ابن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يَتَخَوّف منهم ؛ فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مُنَزَّلِ شدّة يجعل الله له بعدها فَرَجا ، وإنه لن يغلب عسر يُسرين ، وإن الله تعالى يقول فى كتابه « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : هذه الآية فى آنتظار الصلاة بعد الصلاة ، ولم يكن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غَزْوٌ يرابط فيه ؛ رواه الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه . وآحتج أبو سلمة بقوله عليه السلام : "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط" ثلاثا ؛ رواه مالك . قال آبن عطية : والقول الصحيح هو أن الرباط [هو] (٢) الملازمة فى سبيل الله . أصلها من ربط الخيل ، ثم سُمِّى كل ملازم لِثَغْر من ثُغُور الإسلام (٣) مرابطا ، فارسا كان أو راجلا . واللفظ مأخوذ من الربط . وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم "فذلكم الرباط" إنما هو تَشْبِيهٌ بالرباط فى سبيل الله . والرباط اللغوىّ هو الأوّل ؛ وهذا (٤) كقوله : "ليس الشديد بالصُّرَعة (٥)" وقوله "ليس المسكين بهذا الطواف" إلى غير ذلك .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦ (٢) من ب وجـ وهـ وط . (٣) فى ب : المسلمين .
(٤) فى ب : هكذا . (٥) الصرعة بضم ففتح المبالغ فى الصراع الذى لا يغلب .

قلت : قـوله « والرباط اللغوى هو الأوّل » ليس بمسلّم ، فإن الخليل بن أحمـد أحد أئمة اللغـة وثقاتها قد قال : الرِّباط ملازمة الثغور ، ومواظبة الصـلاة أيضا ، فقد حصل أن آنتظار الصلاة رِباط لغوىّ حقيقة ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . وأكثر من هذا ما قاله الشـيبانى أنه يقال : ماءٌ مترابِطٌ أى دائم لا يَنْزَحُ(١) ، حكاه آبن فارس ، وهو يقتضى تعـدية الرباط لغةً إلى غير ما ذكرناه . فإن المرابطة عند العرب : العقد على الشىء حتى لا يحل ، فيعود إلى ما كان صبَر عنه ، فيحبس القلب على النية الحسنة والجسم على فعل الطاعة . ومن أعظمها وأهمها آرتباط الخيل فى سبيل الله كما نص عليه فى التنزيل فى قوله : « وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » على ما يأتى . وآرتباط النفس على الصلوات كما قاله النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ رواه أبو هريرة وجابر وعلىّ ، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس .

الرابعة والعشرون — المرابط فى سبيل الله عند الفقهاء هو الذى يَشْخَص إلى ثَغْر من الثُّغور ليرابط فيه مدةً ما ؛ قاله محمد بن المَوّاز [ورواه](٢) . وأما سُكّان الثّغور دائما بأهليهم الذين يعمرون و يكتسبون هنالك ، فهم و إن كانوا حُماة فليسوا بمرابطين . قاله آبن عطية . وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد: وللرِّباط حالتـان : حالة يكون الثَّغر مأمونا مَنيعا يجوز سكناه بالأهل والولد . و إن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال ، ولا ينقل إليه الأهلَ والولدَ لئـلا يظهر العدوّ فيَسبِي و يسترِقّ . والله أعلم .

الخامسة والعشرون — جاء فى فضل الرِّباط أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارىّ عن سهل بن سَعد السّاعِدىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رِباطُ يومٍ فى سبيل الله خيرٌ عند الله مِن الدنيا وما فيها" . وفى صحيح مُسلم عن سَلمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : "رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهر وقيامه و إن مات جَرَى عليـه عملُه الذى كان يعمله وأُجْرِى عليه رزقه وأمِن الفُتّان(٣)" . وروى أبو داود فى سُنَنه عن فَضَالة

(١) فى الأصول : لا يبرح . والتصويب من اللسان . (٢) كذا فى ز و ب و ج و د و هـ و ى و ط وابن عطية وفى ا و ح وداود . (٣) الفُتّان : الشيطان . و يروى بفتح الفاء وضمها . فمن رواه بالفتح فهو واحد ، لأنه يفتن الناس عن الدين . ومن رواه بالضم فهو جمع فاتن ؛ أى يعاون أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق و يفتنونهم .

ابن عبيد أن رسول الله صلى عليه وسلم قال : " كلّ ميّت يُختم على عمله إلا المرابط فإنه يَنْمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتّان القبر" . وفي هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت؛ كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا مات الإنسان(١) انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثة إلا من صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له " وهو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم؛ فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهابِ العلم وموتِ الولد . والرباط يُضاعف أجرهُ إلى يوم القيامة؛ لأنه لامعنى للنّماء إلا المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضلٌ دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة . وهذا لأن أعمال البِرّ كلّها لا يُتمكّن منها إلا بالسلامة من العدوّ والتحرّز منه بحراسة بَيْضة الدِّين وإقامة شعائر الإسلام . وهذا العمل الذي يجرى عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة؛ خرّجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من مات مرابطا في سبيل الله أجْرى عليه أجرَ عمله الصالح الذي كان يعمل وأجْرَى عليه رزقه وأَمِنَ من الفُتّان وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع " . وفي هذا الحديث قيدٌ ثان وهو الموت حالة الرّباط . والله أعلم .

ورُوى عن عثمان بن عفّان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رابط ليلة في سبيل الله كانت له كألف ليلة صيامها وقيامها " . ورُوى عن أُبَيّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَرِباط يوم في سبيل الله من وراء عَورة المسلمين مُحتسبًا من غير شهر رمضان أعظمُ أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباطُ يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين مُحتسباً من شهر رمضان أفضلُ عند الله وأعظم أجرا —

(١) هذه رواية مسلم كما في كتاب الوصية . وكذا في ز و ط ى و جـ و هـ . وفي رواية : " ابن آدم " والحديث رواه الترمذي وأبو داود والنسائي بلفظ : " إلا من ثلاث صدقة " الحديث، والبخاري في الأدب المفرد .

أراه قال : — من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فإن ردّه الله إلى أهــله سالمـا لم تكتب عليه سيئة ألف ســنة وتكتب له الحسنات ويُجــرَى له أجرُ الرباط إلى يوم القيــامة "(١) .
ودلّ هذا الحديث على أن رِباط يوم فى شهر رمضان يحصل له من الثواب الدائم و إن لم يمت مرابطا . والله أعلم . وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " حَرَس ليلة فى سبيل الله أفضلُ من صيام رجل وقيامه فى أهله ألف سنةٍ السّنة ثلاثمــائة يوم [وستّون(٢) يوما] واليوم كألف سنة " .

قلت : وجاء فى آنتظار الصلاة بعد الصلاة أنه رِباط ؛ فقـد يحصل لمُنْتظِر الصلواتِ ذلك الفضل إن شاء الله تعــالى . وقد روى أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا سليمان بن أحمد قال حدّثنــا على بن عبد العزيز قال حدّثنــا حَجّاج بن المِنْهال ح(٣) وحدّثنــا أبو بكر بن مالك قال : حدّثنــا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدّثنى أبى قال حدّثنى الحسن بن موسى قال حدّثنــا حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانِىّ عن أبى أيوب الأزدى عن نَوْف البِكَالِىّ عن عبد الله بن عمرو أن النبىّ صــلى الله عليه وســلم صلى ذات ليــلةٍ المغرب فصــلينا معه فعقب مــن عقب ورجع من رجع ، فجاء رســول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يثوِّب(٤) الناس لصلاة العشاء ، فجــاء وقد حضره الناس رافعا أصبعَه وقد عقد تِسعا وعشرين يُشير بالسبّابة إلى السماء فحَسَر ثوبه عن ركبتيه وهو يقــول : " أبشروا مَعشرَ المسلمين هذا ربُّــكم قد فتح بابا من أبواب السماء يُباهِى بكم الملائكةَ يقول يا ملائكتى آنظروا إلى عبــادى هؤلاء قضَوْا فريضــةً وهم ينتظرون أخرى " . ورواه حمّاد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن مُطَرِّف بن عبد الله : أن نَوْفا

(١) رواية ابن ماجه . (٢) فى جـ .

(٣) جرت عادة المحدّثين أنه إذا كان للحديث إســنادان أو أكثر ، كتبوا عنــد الانتقال من إسناد إلى إسناد « ح » وهى حاء مهملة مفردة . والمختار أنهـا مأخوذة من التحوّل لتحوّله من إسناد إلى إسناد ، وأنه يقول القارئ إذا انتهى إليها : « ح » ويستمر فى قراءة مابعدها . وقيل : إنهـا من حال بين الشيئين إذا حجز؛ لكونها حالت بين الإسنادين ، وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ، وليست من الرواية . وقيــل : إنها رمز إلى قــوله : الحديث . وأن أهل المغرب كلهم يقولون إذا وصلوا إليها : الحديث . ثم هذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا وهى كثيرة فى صحيح مسلم قليلة فى صحيح البخارى . (راجع مقدّمة النووىّ على صحيح مسلم) . (٤) فى جـ : يتوجه .

وعبد الله بن عمرو اجتمعا فحدّث نَوْفٌ عن التوراة وحدّث عبد الله بن عمرو بهذا الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أى لم تؤمروا بالجهاد من غير تقوى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لتكونوا على رجاء من الفلاح . وقيل : لعل بمعنى لِكى . والفلاح البقاء، وقد مضى هذا كله فى « البقرة » مستوفى[1]، والحمد لله .

نجز تفسير سورة آل عمران من (جامع أحكام القرآن والمبيّن لما تضمن من السنة وآى الفرقان) بحمد الله وعونه .

صححه

أبو إسحاق إبراهيم اطفيش

(١) راجع ج ١ ص ١٦١، ١٨٢، ٢٢٧

تمّ الجزء الرابع من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس، وأوله : « سورة النساء »

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء الرابع (الطبعة الثانية)
من كتاب " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي بمطبعة دار الكتب المصرية
فى شوال سنة ١٣٧٦ (مايو سنة ١٩٥٧) م

محمد حمدى على جنيدى

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الخامس

القســم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الخامس

فهـــرس الجـــزء الخـامس

تفســـير ســـورة « النســاء »

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

وهى مَدنيّة، إلّا آيةً واحدة نزلت بمكّة عامَ الفتح فى عثمان بن طَلْحة الحَجَبِيّ وهى قوله : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا »(1) على ما يأتى بيانه . قال النقّاش : وقيل نزلت عند هِجْرة النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى المدينة . وقد قال بعض الناس : إنّ قوله تعالى « يَأَيُّهَا النّاسُ » حيث وقع إنما هو مَكّيّ ؛ وقاله علقمة وغيره . فيشبه أن يكون صدر السورة مَكّيًّا وما نزل بعد الهجرة فإنما هو مَدَنِيّ . وقال النحاس : هذه السورة مكية .

قلت : والصحيح الأوّل، فإن فى صحيح البُخارِيّ عن عائشة أنها قالت : ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ تعنى قد بَنَى بها . ولا خلاف بين العلماء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما بَنَى بعائشة بالمدينة . ومن تبيّن أحكامها علم أنها مَدنيّة لا شكّ فيها . وأما من قال : إن قوله « يَأَيُّهَا النّاسُ » مَكّيٌّ حيث وقع فليس بصحيح ؛ فإن البقرة مدنيّة وفيها قوله : « يَأَيُّهَا النّاسُ » فى موضعين(2)، وقد تقدّم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

---

(1) آية ٥٨ من هذه السورة . (2) آية ٢١ و ١٦٨ من هذه السورة .

فيه ستّ مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ قد مضى فى « البقرة »(١) آشتقاق «الناس» ومعنى التقوى والربّ والخلق والزّوج والبثّ، فلا معنى للإعادة . وفى الآية تنبيه على الصانع . وقال « واحدةٍ » على تأنيث لفظ النّفس . ولفظ النّفس يُؤنّث و إن عُنِي به مُذَكّر . ويجوز فى الكلام « من نفس واحد » ، وهذا على مراعاة المعنى ؛ إذ المراد بالنفس آدم عليه السلام ؛ قاله مجاهد وقتادة . وهى قراءة آبن أبى عَبْلَة «واحد» بغير هاء . ﴿وبَثّ﴾ فرّق ونشر فى الأرض ؛ ومنه « وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ » وقد تقدّم فى«البقرة» . ﴿مِنْهُمَا﴾ يعنى آدم وحوّاء . قال مجاهد : خُلقتِ حَوّاء من قُصَيْرَى(٢) آدم . وفى الحديث "خلقت المرأة من ضِلع عوجاء" ، وقد مضى فى البقرة(٣) . ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ حَصَر ذرّيتهما فى نوعين ؛ فآقتضى أن الخُنْثَى ليس بنوع، لكن له حقيقة تردّه إلى هـذين النوعين وهى الآدمية فيلحق بأحدهما ، على ما تقدّم ذكره فى « البقرة(٣) » من آعتبار نقص الأعضاء وزيادتها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ كرّر الآتقاء تأكيدا وتنبيها لنفوس المأمورين . و « الذى » فى موضع نصب على النّعت . « والأرحامَ » معطوف . أى آتقوا الله أن تَعصوه ، وآتقوا الأرحام أن تقطعوها . وقرأ أهل المدينـة « تسّاءلون » بإدغام التاء فى السين . وأهل الكوفة تحذف التاء، لاجتماع تاءين، وتخفّف السين لأن المعنى يعرف ؛ وهو كقوله : « وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ » و « تنزّل » وشـبهه . وقرأ النحويّون : إبراهيمُ النَّخَعِيّ وقتـادةُ والأعمش وحمـزة « والأرحامِ » بالخفض . وقـد تكلم النحويون فى ذلك . فأما البصريون فقـال رؤساؤهم : هو لَحن لا تحـلّ القراءة به . وأما الكوفيون فقالوا : هو قبيح؛ ولم يزيدوا على هـذا ولم يذكروا علّة قُبحه؛ قال النحاس : فيما علمت .

(١) راجع جـ ١ ص ١٣٦ و ١٦١ و ٢٢٦ و ٣٠١ طبعة ثانية أو ثالثة وجـ ٢ ص ١٩٦ طبعة ثانية .
(٢) القصيرى : أسفل الأضلاع . وقيل : الضلع التى تلى الشاكلة بين الجنب والبطن .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٠١ طبعة ثانية أو ثالثة .

وقال سيبويه : لم يُعطف على المضمر المخفوض لأنه بمنزلة التنوين ، والتنوين لا يعطف عليه . وقال جماعة : هو معطوف على المَكْنِيّ ؛ فإنهم كانوا يتساءلون بها ، يقول الرجل : سألتك بالله والرَّحِم ؛ هكذا فسّره الحسن والنَّخَعِيّ ومجاهد ، وهو الصحيح في المسألة ، على ما يأتي . وضعّفه أقوام منهم الزجاج ، وقالوا : يَقْبُح عطفُ الظاهر على المضمر في الخفض إلا بإظهار الخافض ؛ كقوله « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ » ويَقْبُح « مررت به وزيدٍ » . قال الزجاج عن المازِنيّ : لأن المعطوف والمعطوفَ عليه شريكان ، يحلّ كل واحد منهما محل صاحبه ؛ فكما لا يجوز « مررت بزيد وَكَ » كذلك لا يجوز « مررت بك وزيدٍ » . وأما سيبويه فهي عنده قبيحة ولا تجوز إلا في الشعر ؛ كما قال :

فاليومَ قرَّبتَ تهجُونا وتشتِمُنا * فاذهب فما بكَ والأيامِ من عَجَبِ

عطف «الأيام» على الكاف في « بك » بغير الباء للضرورة . وكذلك قال الآخر :

نعلِّق في مِثل السّوَارِي سيوفَنا * وما بينها والكَعْبِ مَهْوًى نَفَانِفُ (١)

عطف «الكعب» على الضمير في «بينها» ضرورةً . وقال أبو عليّ : ذلك ضعيف في القياس . وفي كتاب التذكرة المهدية (٢) عن الفارسي أن أبا العباس المبرّد قال : لو صلّيتُ خلف إمام يقرأ « مَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيِّ » و « ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلأرحامِ » لأخذت نَعْلِي ومضيت . قال الزجاج : قراءة حمزة مع ضعفها وقبحها في العربية خطأ عظيم في أصول أمر الدِّين ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحلِفوا بآبائكم " فإذا لم يجز الحلِف بغير الله فكيف يجوز بالرَّحِم . ورأيت إسماعيل بن إسحاق يذهب إلى أن الحلِف بغير الله أمر عظيم ، وأنه خاصّ لله تعالى . قال النحاس : وقول بعضهم « والأرحامِ » قَسَمٌ خطأ من المعنى والإعراب ؛ لأن الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم يدلّ على النصب . وروى شُعبة عن عَوْن بن

(١) المهوى والمهواة : ما بين الجبلين ونحو ذلك . والنفنف : الهواء . وقيل : الهواء بين الشيئين ؛ وكل شيء بينه وبين الأرض مهوى فهو نفنف . وقد ورد :

* وما بينها والأرض غوط نفانف *

والغوط (بفتح الغين) : المتسع من الأرض مع طمأنينة . (٢) في بعض الأصول : المهذبة » .

أبى جحيفة عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى جاء قوم من مُضَرَ حُفاةٌ عُراةٌ، فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغيّر لِما رأى من فاقتهم؛ ثم صلّى الظهر وخطب الناس فقال : " يأيها الناس ٱتقوا ربكم، الى : والأرحام " . ثم قال : " تصدّق رجل بديناره وتصدّق رجل بدرهمه وتصدّق رجل بصاع تمره " وذكر الحديث[1] . فمعنى هـذا على النصب؛ لأنه حضّهم على صلة أرحامهم . وأيضا فقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم " مَن كان حالِفًا فليحلف بالله أو ليصمُت " . فهذا يردّ قول من قال : المعنى أسألك بالله وبالرّحم . وقد قال أبو إسحاق: معنى « تساءلون به » يعني تطلبون حقوقكم به . ولا معنى للخفض أيضا مع هذا .

قلت : هذا ما وقفت عليه من القول لعلماء اللسان في منع قراءة « والأرحام » بالخفض، واختاره ابن عطية . وردّه الإمام أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشيريّ ، واختار العطف فقال : ومثل هذا الكلام مردود عنـد أئمة الدِّين ؛ لأن القراءاتِ التي قرأ بها أئمة القُرّاء ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم تَوَاتُرًا يعرفه أهل الصنعة؛ وإذا ثبت شيء عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم فمن ردّ ذلك فقد ردّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم، واستقبح ما قرأ به . وهـذا مقام محذور ولا يُقلَّد فيه أئمة اللغة والنحو؛ فإن العربية تُتلقّى من النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا يشك أحد في فصاحته . وأما ماذكر في الحديث ففيه نَظر؛ لأنه عليه السلام قال لأبي العُشَراء[2] : " وأبيك لو طعنت في خاصرته " . ثم النَّهيُ إنمـا جاء في الحِلف بغير الله ، وهذا توسّل إلى الغير بحق الرّحِم فلا نهي فيه . قال القُشيريّ : وقد قيل هذا إقسام بالرّحم، أي ٱتقوا الله وحقّ الرّحم؛ كما تقول: افعل كذا وحقِّ أبيك . وقد جاء في التنزيل : « والنَّجْمِ، والطُّورِ ، والتِّينِ، لَعَمْرُكَ » وهذا تكلّف .

قلت : لا تكلُّفَ فيه ؛ فإنه لا يبعد أن يكون « والأرحامِ » من هذا القبيل ، فيكون قَسَمًا كما أقسم بمخلوقاته الدّالّة على وحدانيته وقدرته تأكيدا لها حتى قرنها بنفسه . والله أعلم .

---

(١) راجع صحيح مسلم كتاب الزكاة . (٢) في تهذيب التهذيب : « أبو العشراء الدارمي عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم " لو طعنت في فخذها لأجزاك " » .

ولله أن يُقسِم بما شاء ويمنع ما شاء ويُبيح ما شاء ، فلا يبعد أن يكون قسمًا . والعرب تقسِم بالرحم . ويصحّ أن تكون الباء مرادةً فحذَفَها كما حذفها في قوله :

مَشائيمُ ليسوا مُصلِحين عشيرةً * ولا ناعِبٍ إلا بِبَيْنٍ غُرابُها

فجرّ وإن لم يتقدّم باء . قال ابن الدّهان أبو محمد سعيد بن المبارك : والكوفيّ يجيز عطف الظاهر على المجرور ولا يمنع منه . ومنه قوله :

آبَكَ أيِّهْ بِيَ أو مُصَدَّرِ * من حُمُرِ الجِلّةِ جأْبٍ حَشْوَرِ(١)

ومنه :

* فاذهبْ فما بِكَ والأيامِ مِن عَجَبِ *

وقال آخر :

* وما بينها والكَعْبِ غَوطٌ نفانِفُ *

وقال آخر :

* فحَسْبُكَ والضّحاكِ سَيْفٌ مُهنّدُ *

وقول الآخر :

وقد رام آفاق السماءِ فلم يجِدْ * له مَصعَدًا فيها ولا الأرضِ مَقعدَا

وقال الآخر :

ما إنْ بها ولا الأمورِ من تَلَفٍ * ما حُمّ من أمْرِ غَيْبِه وقَعَا

وقال آخر :

أمُرّ على الكَتيبة لستُ أدري * أحَتْفِيَ كان فيها أم سِواهَا

« فسواها » مجرور الموضع بفي . وعلى هذا حمل بعضهم قولَه تعالى : « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ » فعطف على الكاف والميم . وقرأ عبد الله بن زيد «والأرحامُ»

---

(١) آبك : مثل ويلك . والتأييه : الدعاء؛ يقال : أيهت بالإبل إذا صحت بها . والمصدّر : الشديد الصدر. والجأب : الغليظ . والحشور : الخفيف . والجلة : المسانّ ، واحدها جليل . والشاهد في عطف « المصدّر » على المضمر المجرور دون إعادة الجار .

بالرفع على الابتـداء، والخبر مقدر تقديره : والأرحامُ أهلٌ أن تُوصـل . ويحتمل أن يكون إغراء؛ لأن من العرب من يرفع المُغْرَى . وأنشد :

إنّ قومًا منهـم عُميرٌ وأشـبا * ه عُمـيرٍ ومنهـم السّـفاحُ

لجـديرون باللقـاء إذا قا * ل أخو النجدة السّلاحُ السلاح

وقد قيـل : إن « والأرحام » بالنصب عطف على موضع به؛ لأن موضعه نصب ؛ ومنه قوله :

* فلسنَا بالجبـال ولا الحـديدَا (١) *

وكانوا يقولون : أنشُدُك بالله والرّحِمَ . والأظهر أنه نصب بإضمـار فعلٍ كما ذكرنا .

الثالثـة — ٱتّفقت المِلّة على أن صلة الرّحِم واجبة وأن قطيعتها مُحرّمة . وقد صحّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأسماء وقد سألتـه : "صِلي أمَّكِ" فأمرها بصلتها وهى كافرة . فلتأكيدها دخل الفضل فى صلة الكافر، حتى ٱنتهى الحال بأبى حنيفة وأصحابِه فقالوا بتوارث ذوِى الأرحام إن لم يكن عصبة ولا فرضٌ مُسَمًّى، ويعتقون على من ٱشتراهم من ذوِى رَحِمهم لحُرمة الرّحِم . وعَضَدُوا ذلك بما رواه أبو داود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مَن مَلَكَ ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ فهو حُرّ" . وهو قول أكثر أهل العلم . رُوِى ذلك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعبدِ الله بن مسعود، ولا يُعرف لهما مخالف من الصحابة . وهو قول الحسن البَصْرِىّ وجابر بن زيد وعطاء والشّعْبِىّ والزُّهرِى، وإليـه ذهب الثّوْرِىّ وأحمد وإسحاق . ولعلمائنا فى ذلك ثلاثة أقـوال : الأوّل — أنه مخصوص بالآباء والأجداد . الثـانى — الجناحان يعنى الإخوة . الثـالث — كقول أبى حنيفة . وقال الشافِعىّ : لا يَعتِق عليـه إلا أولادُه وآباؤه وأمهاته، ولا يعتِق عليـه إخوتُه ولا أحدٌ من ذوى قرابتِه ولُحْمتِـه . والصحيح الأوّل للحديث الذى ذكرناه وأخرجه التِّرمِذىّ والنَّسائِى . وأحسن طُرقِه روايةُ النَّسائِى له ؛ رواه من حديث ضَمْرة عن سفيان عن عبد الله بنِ دِينار عن ٱبن عمر قال قال رسول الله صـلى الله عليه

(١) هذا عجز بيت لعقيبة الأسدى، وصدره : * معاوى إننا بشر فأسجح *
أراد معاوية بن أبى سفيان . شكا إليه جور عماله . وأسجح : سهل وأرفق .

وسلم : "من ملك ذا رحم محرم فقد عتق عليه" . وهو حديث ثابت بنقل العدل عن العدل، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بعلة توجب تركه . غير أن النسائي قال في آخره : هذا حديث منكر. وقال غيره : تفرد به ضمرة، وهذا هو معنى المنكر والشاذ في اصطلاح المحدثين . وضمرة عدل ثقة، وانفراد الثقة بالحديث لا يضره . والله أعلم .

الرابعة — واختلفوا في هذا الباب في ذوي المحارم من الرضاعة . فقال أكثر أهل العلم : لا يدخلون في مقتضى الحديث . وقال شريك القاضي بعتقهم . وذهب أهل الظاهر وبعض المتكلمين إلى أن الأب لا يعتق على الابن إذا ملكه؛ واحتجوا بقوله عليه السلام : "لا يجزي ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه" . قالوا : فإذا صح الشراء فقد ثبت الملك، ولصاحب الملك التصرف . وهذا جهل منهم بمقاصد الشرع؛ فإن الله تعالى يقول : « وبالوالدين إحسانا » فقد قرن بين عبادته وبين الإحسان للوالدين في الوجوب، وليس من الإحسان أن يبقى والده في ملكه وتحت سلطانه ؛ فإذا يجب عليه عتقه إما لأجل الملك عملا بالحديث " فيشتريه فيعتقه "، أو لأجل الإحسان عملا بالآية . ومعنى الحديث عند الجمهور أن الولد لما تسبب إلى عتق أبيه باشترائه نسب الشرع العتق إليه نسبة الإيقاع منه . وأما اختلاف العلماء فيمن يعتق بالملك فوجه القول الأول ما ذكرناه من معنى الكتاب والسنة، ووجه الثاني إلحاق القرابة القريبة المحرمة بالأب المذكور في الحديث، ولا أقرب للرجل من أبيه فيحمل على الأب، والأخ يقاربه في ذلك لأنه يدلي بالأبوة ؛ فإنه يقول : أنا ابن أبيه . وأما القول الثالث فمتعلقه حديث ضمرة وقد ذكرناه . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ الرحم اسم لكافة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره . وأبو حنيفة يعتبر الرحم المحرم في منع الرجوع في الهبة، ويجوز الرجوع في حق بني الأعمام مع أن القطيعة موجودة والقرابة حاصلة؛ ولذلك تعلق بها الإرث والولاية وغيرهما من الأحكام. فاعتبار المحرم زيادة على نص الكتاب من غير مستند . وهم يرون ذلك نسخا، سيما وفيه إشارة إلى التعليل بالقطيعة، وقد جوزها في حق بني الأعمام والأخوال والخالات . والله أعلم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أى حفيظا ؛ عن آبن عباس ومجاهد . آبن زيد : عليما . وقيــل : « رقيبا » حافظا ؛ فعيــل بمعنى فاعل . فالرّقيب من صفات الله تعالى، الرّقيب الحافظ والمنتظِر؛ تقول: رَقَبت أرْقُب رِقْبة و رِقْباناً إذا انتظرت. والمَرْقَب: المكان العالى المُشرِف، يقف عليه الرّقيب . والرّقيب : السّهم الثالث من السبعة التى لها أنصباء[1] . ويقال : إن الرَّقيب ضرب من الحيّات، فهو لفظ مشترك . والله أعلم .

قوله تعالى : وَءَاتُوا ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَآتُوا ٱلْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ وأراد باليتامى الذين كانوا أيتاما ؛ كقوله : « فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ » ولا سِحر مع السّجود ، فكذلك لا يُتْم مع البـلوغ . وكان يقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : « يَتِيمُ أبى طالب » آستصحاباً لِمـا كان . « وآتوا » أى أعطوا . والإيتاء الإعطاء . ولفلان أَتْوٌ، أى عطاء . أبو زيد: أَتَوْتُ الرجل آتُوه إتاوةً، وهى الرشوة . واليتيم من لم يبلغ الحُلُمَ ، وقد تقــدّم فى « البقرة » مستوفًى[2] . وهــذه الاية خطابٌ للأَوْلياء والأوصِياء . نزلت فى قول مُقاتِل والكَلْبىّ فى رجلٍ من غَطَفانَ عنــده مال كثير لأبنِ أخٍ له يتيم ، فلمـا بلغ اليتيمُ طلب المـالَ فمنعه عَمُّه؛ فنزلت فقال العمّ : نعوذ بالله من الحُوب[3] الكبيرِ ! وردّ المـال . فقال النبيّ صلى الله عليــه وسلم : "مَن يُوقَ شُحَّ نفسه ورجع به هكذا فإنه يَحُلُّ داره يعني جنّته" . فلما قبض الفتى المـاَل أنفقه فى سبيل الله، فقال عليه السلام : "ثَبت الأجْرُ وبقِيَ الوِزرُ" . فقيل : كيف يا رســول الله ؟ فقال : "ثبت الأجر للغلام وبقِيَ الوِزرُ على والده" لأنه كان مشركًا .

---

(١) وهم : الفذ، التوأم، الرقيب، الحلس، النافز، المسبل . راجع جـ ٣ ص ٥٨ طبعة أولى وثانية .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .
(٣) الحوب : المـأثم .

الثانيـة — وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين : أحدهما — إجراء الطعام والكسوة مادامت الولاية؛ إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكلّي والاستبداد كالصغير والسفيه الكبير . الثاني — الإيتاء بالتمكّن وإسلام المال إليه ، وذلك عند الابتلاء والإرشاد ، وتكون تسميته مجازا ، المعنى : الذى كان يتيما ، وهو استصحاب الأسم ؛ كقوله تعالى : « فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ » أى الذين كانوا سحرة . وكان يقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : « يتيم أبي طالب » . فاذا تحقّق الوليّ رشده حَرُم عليه إمساكُ ماله عنه وكان عاصيًا . وقال أبو حنيفة : إذا بلغ خمسا وعشرين سنة أُعطِيَ ماله كلّه على كل حال؛ لأنه يصير جدّا .

قلت : لمّا لم يذكر الله تعالى فى هذه الاية إيناسَ الرُّشد وذكره فى قوله تعالى : « وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » . قال أبو بكر الرازيّ الحنفيّ فى أحكام القرآن : لمّا لم يُقيد الرّشدُ فى موضع وقيّد فى موضع وجب استعمالها ، فأقول : إذا بلغ خمسا وعشرين سنة وهو سفيه لم يؤنس منه الرشد وجب دفع المال إليه ، وإن كان دون ذلك لم يجب، عملا بالآيتين . وقال أبو حنيفة : لما بلغ أشدّه وصار يصلح أن يكون جدّا فإذا صار يصلح أن يكون جدّا فكيف يصلح إعطاؤه المال بعلة اليتم وباسم اليتيم ؟ ! وهل ذلك إلا فى غاية البُعْد . قال ابن العربيّ : وهذا باطل لا وجه له ؛ لا سيما على أصله الذى يرى المقدّرات لا تثبت قياسا وإنما تؤخذ من جهة النص، وليس فى هذه المسألة . وسيأتى ما للعلماء فى الحَجْر إن شاء الله تعالى .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ أى لا تتبدّلوا الشاة السّمينة من مال اليتيم بالهزيلة ، ولا الدّرهمَ الطيِّبَ بالزّيف . وكانوا فى الجاهلية لعدم الدِّين لا يتحرجون عن أموال اليتامى ، فكانوا يأخذون الطّيبَ والجيّدَ من أموال اليتامى ويبدّلونه بالرديء من أموالهم، ويقولون : آسمٌ بآسم ورأسٌ برأس ؛ فنهاهم الله عن ذلك . هذا قول سعيد بن المُسَيّب والزُّهريّ والسُّدِّى والضحّاك وهو ظاهر الاية . وقيل : المعنى لا تأكلوا أموال اليتامى وهى محرّمة خبيثة وتَدَعُوا الطيب وهو مالكم . وقال مجاهد وأبو صالح وباذانُ : لا تعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا آنتظار الرّزق الحلال من الله . وقال ابن زيد :

كان أهل الجاهلية لا يورِّثون النساء والصبيان و يأخذ الأكبرُ الميراث . عطاء : لا تربح على يتيمك الذى عندك وهو غِرٌّ صغير . وهذان القولان خارجان عن ظاهر الاية ؛ فإنه يقال: تبدّل الشيء بالشيء أى أخذه مكانه . ومنه البَدَل .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد : هذه الآية ناهيةٌ عن الخلط فى الإنفاق؛ فإن العرب كانت تَخلِط نفقتها بنفقــة أيتامها فنُهوا عن ذلك، ثم نُسخ بقوله «وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ» . وقال ابن فُورَك عن الحسن : تأوّل الناس فى هذه الآية النهيَ عن الخلط فآجتنبوه مِن قبــل أنفسهم فخفّف عنهم فى آية البقرة (١) . وقالت طائفة من المتأخرين : إن «إلى» بمعنى مع؛ كقوله تعالى «مَنْ أَنْصَارِى إِلَى ٱللَّهِ» . وأنشد القُتَبِىّ :

يَســدّون ابوابَ القِباب بِضُمَّرٍ * إلى عُنُنٍ مُســتَوْثِقاتِ الأواصِرِ (٢)

وليس بجيّــد . وقال الحُــذّاق : «إلى» على بابهــا وهى تتضمن الإضافة ، أى لا تضيفوا أموالهم وتضمّوها إلى أموالكم فى الأكل . فنُهوا أن يعتقدوا أموال اليتامى كأموالهم فيتسلّطوا عليها بالأكل والانتفاع .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ «إنه» أى الأكل . «كان حوبا كبيرا» أى إثمــا كبيرا؛ عن ابن عباس والحسن وغيرهما . يقال : حاب الرجل يَحُوب حَوْبا إذا أثم . وأصله الزجر للإبل؛ فسُمّىَ الإثم حَوْبا لأنه يزجر عنه و به . ويقال فى الدعاء: اللّهُمّ آغفر حَوْبَتِى ؛ أى إثمى . والحَوْبة أيضا الحــاجة . ومنه فى الدعاء : إليــك أرفع حَوْبَتِى ؛ أى حاجتى . والحُوب الوحشة؛ ومنه قوله عليه السلام لأبى أيوب : "إن طلاق أمّ أيوب لحُوب" . وفيه ثلاث لغات «حُوبًا» بضم الحاء وهى قراءة العامة ولغة أهل الحجاز . وقرأ الحسن «حَوْبا» بفتح الحاء . وقال الأخفش : وهى لغــة تميم . ومقاتل : لغــة الحبش .

---

(١) آية ٢٢٠ ج ٣ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت لسلمة بن الخرشب يصف الخيل ؛ يريد خيلا ربطت بأفنيتهم . والعنن : كنف سترت بهــا الخيل من الريح والبرد . والأواصر : الأرانى والأوارى واحدتها آصرة . وهو حبل تشدّ به الدابة فى محبسها . (عن اللسان مادة أصر) .

والحَوْب المصدر، وكذلك الحِيابة. والحُوب الاسم. وقرأ أُبَيّ بن كعب « حابا » على المصدر مثل القال. ويجوز أن يكون اسما مثل الزاد. والحَوْأب (بهمزة بعد الواو): المكان الواسع. والحَوْأب ماء أيضا. ويقال: ألحق الله به الحَوْبة، أى المسكنة والحاجة؛ ومنه قولهم: بات بحِيبة سُوء. وأصل الياء الواو. وتحوّب فلان أى تعبّد وألقى الحَوْب عن نفسه. والتحوّب أيضا التحزّن. وهو أيضا الصياح الشديد، كالزجر. وفلان يتحوّب من كذا أى يتوجّع. قال طُفيل:

فذُوقوا كما ذُقنا غداةَ مُحَجَّرٍ[1] * من الغيظ فى أكبادنا والتَّحَوُّبِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (٣)

فيه أربع عشرة مسألة:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ شرط، وجوابه « فَانْكِحُوا ». أى إن خفتم ألا تعدلوا فى مهورهن وفى النفقة عليهن ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ أى غيرهن. وروى الأئمة واللفظ لمسلم عن عروة بن الزبير عن عائشة فى قوله تعالى « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » قالت: يابن أختى هى اليتيمة تكون فى حِجر وَلِيّها تشاركه فى ماله فيُعجبه مالُها وجمالُها فيريد وَلِيُّها أن يتزوّجها من غير أن يُقسط فى صداقها فيعطِيَها مثلَ ما يعطِيها غيره فنهوا أن يَنكحوهنّ إلا أن يُقسطوا لهن ويَبلُغوا بهنّ أعلى سُنّتهن من الصداق وأُمِروا أن يَنكحوا ما طاب لهم من النساء سِواهنّ. وذكر الحديث. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: ولهذا قلنا إنه يجوز أن يشترى الوصيّ من مال اليتيم لنفسه، ويبيع من نفسه من غير محاباة. وللموكِّل النظرُ فيما اشترى وكيله لنفسه أو باع منها. وللسلطان النظرُ فيما يفعله

(١) محجّر (كمعظم ومحدث): اسم موضع.

الوصيّ من ذلك . فأمّا الأب فليس لاحد عليــه نظر ما لم تظهر عليه المحاباة فيعترض عليــه السلطان حينئذ؛ وقد مضى فى «البقرة»(١) القولُ فى هذا. وقال الضحاك والحسن وغيرهما : إن الآية ناسخة لمـا كان فى الجاهلية وفى أوّل الإسلام؛ من أن للرجل أن يتزوّج من الحرائر ماشاء، فقصرتهنّ الآية على أربع . وقال ابن عباس وابن جُبير وغيرهما : المعنى وإن خفتم ألّا تُقسِطوا فى اليتامى فكذلك خافوا فى النساء؛ لأنهم كانوا يتحرّجون فى اليتامى ولا يتحرّجون فى النساء . و «خِفْتم» من الأضداد ؛ فإنه يكون المخوف منه معلومَ الوقوع ، وقد يكون مظنونا ؛ فلذلك اختلف العلماء فى تفسير هذا الخوف . فقال أبو عبيدة : «خِفتم» بمعنى أيقنتم . وقال آخرون : « خِفتم » ظننتم . قال ابن عطية : وهــذا الذى آختاره الحُــذّاق ، وأنه على بابه من الظن لا من اليقين . التقدير من غَلَب على ظنه التقصيرُ فى القسط لليتيمة فلْيعدِل عنها . و «تُقْسِطوا» معناه تعدلوا . يقال : أقسط الرجل إذا عدل . وقَسَط إذا جار وظلم صاحبه . قال الله تعالى: « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً » يعنى الجائرون . وقال عليــه السلام : "المقسطون فى الدّين على منابر من نور يوم القيامة" يعنى العادلين . وقرأ ابن وثّاب والنَّخَعِيّ «تَقْسِطوا» بفتح التاء من قَسَط على تقدير زيادة «لا» ؛ كأنه قال وإن خفتم أن تجوروا .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ إن قيل: كيف جاءت «ما» للآدميين وإنما أصلها لمَا لا يَعقل؛ فعنه أجوبة خمسة: الأول — أن «من» و«ما» قد يتعاقبان؛ قال الله تعالى : «وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا» أى ومَن بناها . وقال «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ» . فما ههنا لِمن يعقل وهن النساء؛ لقوله بعد ذلك «من النِّساءِ» مبيِّنا لمبهم . وقرأ آبن أبى عَبْلة «مَن طاب» على ذِكر مَن يعقل . الثانى — قال البصريون : «ما» تقع للنعوت كما تقع لمَـا لا يعقل؛ يقال: ما عندك. فيقال: ظريف وكريم. فالمعنى فانكحوا الطيِّب من النساء؛ أى الحلال، وما حرّمه الله فليس بطيِّب . وفى التنزيل « وَمَا رَبُّ العالمِين » فأجابه موسى على وَفْق ما سأل ؛ وسيأتى . الثـالث — حكى بعض

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

الناس أن «ما» في هذه الآية ظرفية، أي مادمتم تستحسنون النكاح . قال ابن عطية : وفي هذا المنزع ضعف . جواب رابع — قال الفراء : «ما» ههنا مصدر . وقال النحاس : وهذا بعيد جدا؛ لا يصح فانكحوا الطيبة . قال الجوهري : طاب الشيء يطيب طيبة وتطيابا . قال علقمة :

* كأن تطيابها في الأنف مشموم[1] *

جواب خامس — وهو أن المراد بما هنا العقد؛ أي فانكحوا نكاحا طيبا . وقراءة ابن أبي عبلة ترد هذه الأقوال الثلاث . وحكى أبو عمرو بن العلاء أن أهل مكة إذا سمعوا الرعد قالوا : سبحان ما سبح له الرعد . أي سبحان من سبح له الرعد . ومثله قولهم : سبحان ما سخركن لنا . أي من سخركن . واتفق كل من يعاني العلوم على أن قوله تعالى : «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى» ليس له مفهوم؛ إذ قد أجمع المسلمون على أن من لم يخف القسط في اليتامى له أن ينكح أكثر من واحدة؛ اثنتين أو ثلاثا أو أربعا كمن خاف . فدل على أن الآية نزلت جوابا لمن خاف ذلك، وأن حكمها أعم من ذلك .

الثالثة — تعلق أبو حنيفة بهذه الآية في تجويز نكاح اليتيمة قبل البلوغ . وقال : إنما تكون يتيمة قبل البلوغ، وبعد البلوغ هي امرأة مطلقة لا يتيمة؛ بدليل أنه لو أراد البالغة لما نهى عن حطها عن صداق مثلها، لأنها تختار ذلك فيجوز إجماعا . وذهب مالك والشافعي والجمهور من العلماء إلى أن ذلك لا يجوز حتى تبلغ وتستأمر؛ لقوله تعالى : «ويستفتونك في النساء» والنساء اسم ينطلق على الكبار كالرجال في الذكور، واسم الرجل لا يتناول الصغير؛ فكذلك اسم النساء، والمرأة لا تتناول الصغيرة . وقد قال : «في يتامى النساء» والمراد به هناك اليتامى هنا؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها . فقد دخلت اليتيمة الكبيرة في الآية فلا تزوج إلا بإذنها، ولا تنكح الصغيرة إذ لا إذن لها، فإذا بلغت جاز نكاحها لكن لا تزوج إلا بإذنها . كما رواه الدارقطني من حديث محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال : زوجني خالي قدامة بن مظعون بنت أخيه عثمان بن مظعون فدخل المغيرة بن شعبة على أمها

---

(١) هذا أعجز بيت، وصدره : * يحملن أترجة نضخ العبير بها *

فأرغبها فى المـال وخطبها إليها، فرُفع شأنُها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال قُدامة: يارسول الله، ٱبنة أخى وأنا وصِيّ أبيها ولم أقصّر بها، زوّجتُها مَن قد علمت فضله وقرابته . فقال له رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " إنها يتيمة واليتيمة أَوْلَى بأمرها " . فنُزعت منّى وزوّجها المغيرة ابن شعبة . قال الدّارَقُطْنِيّ : ولم يسمعه محمد بن إسحاق من نافع وإنما سمعه من عمر بن حسين عنــه . ورواه ٱبن أبى ذئب عن عمر بن حسين عن نافع عن عبــد الله بن عمر : أنه تزوج بنت خاله عثمان بن مظعون قال : فذهبَتْ أُمُّها إلى رسول الله صلى الله عليــه وسلم فقالت : إن ٱبنتى تكره ذلك . فأمره النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يفارقها ففارقها . وقال : "ولا تنكحوا اليتامى حتى تستأمروهنّ فاذا سكتْن فهو إذنهـا " . فتزوّجها بعدَ عبدِ الله المغيرةُ بن شعبة . فهــذا يردّ ما يقوله أبو حنيفة من أنهـا إذا بلغت لم تحتَجْ إلى وَلِيّ، بناءً على أصــله فى عدم ٱشتراط الولىّ فى صحة النكاح . وقد مضى فى « البقرة »(1) ذكره؛ فلا معنى لقولهم : إن هــذا الحديث محمول على غير البالغة لقوله "إلا بإذنها" فإنه كان لايكون لذكر اليتيم معنًى . والله أعلم .

الرابعــة — وفى تفسير عائشة للآية من الفقه ما قال به مالك من صداق المِثْل ، والردّ إليه فيما فسد من الصداق ووقع الغبن فى مقداره؛ لقولها : بأدنى من سُنّة صداقها . فوجب أن يكون صداق المثل معروفا لكل صِنف من النـاس على قدر أحوالهم . وقد قال مالك : للناس مناكح عرفت لهم وعرفوا لها . أى صَدُقات وأكفاء . وسئل مالك عن رجل زوّج ٱبنته [غنية](2) من ٱبن أخ له فقير فٱعترضت أمّها فقال : إنى لأرى لها فى ذلك متكلّما . فسوّغ لها فى ذلك الكلام حتى يظهر هو من نظره ما يسقط اعتراض الأم عليه . وروى « لا أرى » بزيادة ألف، والأوّل أصح . وجائز لغير اليتيمة أن تنكح بأدنى من صــداق مثلها؛ لأن الآية إنمـا خرجت فى اليتامى . هذا مفهومها وغير اليتيمة بخلافها .

الخامســـة — فإذا بلغت اليتيمة وأقسط الولىّ فى صداقها جاز له أن يتزوّجها، ويكون هو الناكح والمنكِح على ما فسرته عائشة . وبه قال أبو حنيفة والأوزاعىّ والثورىّ وأبو ثور،

(١) راجع جـ ٣ ص ٧٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) زيادة من أحكام القرآن لابن العربى .

وقاله من التابعين الحسن وربيعة، وهو قول اللّيث . وقال زُفَر والشافعيّ : لا يجـوز له أن يتزوجها إلا بإذن السلطان، أو يزوّجها منه وليّ لها هو أقعد[1] بهـا منه ، أو مثلُه في القُعْدُد[2]؛ وأمّا أن يتولّى طرفي العقـد بنفسه فيكون ناكحا منكِحا فلا . وآحتجوا بأن الولاية شرط من شروط العقد لقوله عليه السلام: "لا نكاحَ إلا بولِيّ وشاهدَى عدل". فتعديد الناكح والمنكِح والشهود واجب؛ فإذا آتحد اثنان منهم سقط واحد من المذكورين . وفي المسألة قول ثالث، وهو أن تجعل أمرها إلى رجل يزوّجها منه. رُوى هذا عن المغيرة بن شعبة، وبه قال أحمد، ذكره ابن المنذر .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ معناه ما حلّ لكم؛ عن الحسن وآبن جُبـير وغيرهما . واكتفى بذكر من يجوز نكاحه؛ لأن المحرمات من النساء كثير. وقرأ آبن إسحاق والجَحْدرى وحمزة «طاب» بالإمالة. وفي مصحف أُبَيّ «طِيب» بالياء؛ فهذا دليل الإمالة . « من النساءِ » دليل على أنه لا يقال نساء إلا لمن بلغ الحلم . وواحد النساء نِسوة، ولا واحد لنِسوة من لفظه، ولكن يقال امرأة .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ وموضعها من الإعراب نصب على البدل من «ما» وهي نكرة لا تنصرف؛ لأنها معدولة وصفة؛ كذا قال أبو عليّ. وقال الطبريّ : هي معارف؛ لأنها لا يدخلها الألف واللام، وهي بمنزلة عُمَر في التعريف؛ قاله الكوفي. وخطأ الزجاج هذا القول . وقيل : لم ينصرف؛ لأنه معدول عن لفظه ومعناه، فأحاد معدول عن واحد واحد، ومثنى معدولة عن آثنين آثنين، وثلاث معـدولة عن ثلاثة ثلاثة، ورُباع عن أربعـة أربعة . وفي كل واحد منها لغتان : فُعال ومَفْعَل؛ يقال : أحاد ومَوْحَد وثُناء ومَثْنَى وثُلاث ومَثْلَث ورُباع ومَربَع ، وكذلك إلى مَعشر وعُشار . وحكى أبو إسحاق الثّعلبيّ لغـة ثالثة : أُحَد وثُنَى وثُلَث ورُبَع مثلُ عمر وزُفَر . وكذلك قال النَّخعِيّ في هذه الآية . وحكى

(١) أقعد : أقرب إلى الجد الأكبر .

(٢) القعدد (بضم القاف وفتح الدال وضمها) : أملك القرابة في النسب .

المَهدوى عن النَّخعِىّ وابن وثّاب «ثلاث ورُبَع» بغير ألف فى ربع، فهو مقصور من رُباع استخفافا؛ كما قال:

أقبل سَيْلٌ جاء من أمرِ الله * يَحْـــرِدُ حَرْدَ(١) الجنّةِ المُغِـــلّة

قال الثعلبىّ: ولا يزاد من هذا البناء على الأربع إلا بيتٌ جاء عن الكُمَيت:

ولم يســـتريثُوكَ حتى رَمَيْـ * ـتَ فوقَ الرجالِ خِصالًا عُشارا

يعنى طعنت عشرة. وقال ابن الدهان: وبعضهم يقف على المســموع وهو من أحاد إلى رباع ولا يعتبر بالبيت لشـــذوذه. وقال أبو عمرو بن الحاجب: ويقال أحاد ومَوْحَد وثُناء ومَثْنى وثُلاث ومَثْلَث ورُباع ومَرْبَع. وهل يقال فيما عداه إلى التسعة أو لا يقال؛ فيه خلاف أصحها أنه لم يثبت. وقد نصّ البخارىّ فى صحيحه على ذلك. وكونه معدولا عن معناه أنه لا يستعمل فى موضع تستعمل فيه الأعداد غير المعدولة؛ تقول: جاءنى اثنان وثلاثة، ولا يجوز مثنى وثلاث حتى يتقدّم قبله جمع، مثل جاءنى القوم أحاد وثناء وثلاث ورباع من غير تكرار. وهى فى موضع الحال هنا وفى الآية، وتكون صفة. ومثال كون هـــذه الأعداد صفة يتبيّن فى قوله تعـــالى: «أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ» فهـــذه صفة للأجنحة نكرة. وقال ساعدة بن جُؤَيّة:

ولكنّما أهـــلى بِوادٍ أنِيسُـــهُ * ذِئابٌ تَبَغَّى(٢) الناسَ مَثْنَى ومَوْحَدُ

وأنشد الفـــراء:

قتلنا به من بين مَثْنَى ومَوْحَد * بأربعـــة منكم وآخَرَ خامسُ

فوصف ذئابا وهى نكرة بمثنى وموحد، وكذلك بيت الفراء؛ أى قتلنا به ناسا فلا تنصرف إذا هذه الأسماء فى معرفة ولا نكرة. وأجاز الكسائىّ والفرّاء صرفَه فى العدد على أنه نكرة. وزعم الأخفش أنه إن سُمّىَ به صرفه فى المعرفة والنكرة، لأنه قد زال عنه العدل.

(١) حرد يحرد بالكسر حردا: قصد. تقول للرجل: حردت حردك؛ أى قصدت قصدك.

(٢) تبغى الناس: تطلبهم.

الثامنة — اعلم أن هذا العدد مَثْنَى وثُلاث ورُباع لا يدل على إباحة تسع، كما قاله من بَعُد فهمُه للكتاب والسنة، وأعرض عما كان عليه سلف هذه الأمة، وزعم أن الواو جامعة؛ وعضَد ذلك بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم نكح تسعا، وجمع بينهن في عصمته. والذي صار إلى هذه الجهالة، وقال هذه المقالَة الرافضةُ وبعض أهل الظاهر؛ فجعلوا مثنى مثل اثنين، وكذلك ثُلاث ورُباع. وذهب بعض أهل الظاهر أيضا إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة الجمع بين ثمانِ عشرة؛ تمسّكًا منه بأن العدد في تلك الصيغ يفيد التكرار والواو للجمع؛ فجعل مثنى بمعنى اثنين اثنين وكذلك ثلاث ورباع. وهذا كله جهل باللسان والسُّنّة، ومخالفَة لإجماع الأمة؛ إذ لم يُسمع عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع في عصمته أكثر من أربع. وأخرج مالك في الموطأ، والنّسائي والدّارَقُطْنِيّ في سننهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لغَيْلان بن أُمَيّة الثّقَفِيّ وقد أسلم وتحته عشر نسوة: "اختر منهن أربعا وفارق سائرهن". وفي كتاب أبي داود عن الحارث بن قيس قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: "اختر منهن أربعا". وقال مقاتل: إن قيس بن الحارث كان عنده ثمان نسوة حرائر، فلما نزلت الآية أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلّق أربعا ويُمسك أربعا. كذا قال: «قيس بن الحارث»، والصواب أن ذلك كان حارث بن قيس الأسدي كما ذكر أبو داود. وكذا روى محمد بن الحسن في كتاب السير الكبير أن ذلك كان حارث ابن قيس، وهو المعروف عند الفقهاء. وأما ما أبيح من ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فذلك من خصوصياته؛ على ما يأتي بيانه في «الأحزاب». وأما قولهم: إن الواو جامعة؛ فقد قيل ذلك، لكن الله تعالى خاطب العرب بأفصح اللغات. والعرب لا تدع أن تقول تسعة وتقول اثنين وثلاثة وأربعة. وكذلك تستقبح ممن يقول: أعطِ فلانا أربعة ستة ثمانية، ولا يقول ثمانية عشر. وإنما الواو في هذا الموضع بدل؛ أي انكحوا ثلاثا بدلا من مثنى، ورباع بدلا من ثلاث؛ ولذلك عطف بالواو ولم يعطف بأو. ولو جاء بأو لجاز ألا يكون لصاحب المثنى ثلاث، ولا لصاحب الثلاث رباع. وأما قولهم: إن مثنى تقتضي اثنين، وثلاث ثلاثة،

ورباع أربعة، فتحكّم بما لا يوافقهم أهلُ اللسان عليه، وجهالةٌ منهم. وكذلك جهله الآخرون؛ لأن مثنى تقتضى اثنين اثنين، وثلاث ثلاثة ثلاثة، ورباع أربعة أربعة، ولم يعلموا أن اثنين اثنين، وثلاثا ثلاثا، وأربعا أربعا، حصرٌ للعدد. ومثنى وثلاث ورباع بخلافها، ففى العدد المعدول عند العرب زيادةُ معنًى ليست فى الأصل؛ وذلك أنهـا إذا قالت: جاءت الخيل مثنى، إنما تعنى بذلك اثنين اثنين؛ أى جاءت مزدوجة. قال الجوهرى: وكذلك معدول العدد. وقال غيره: فاذا قلت جاءنى قوم مثنى أو ثلاث أو أحاد أو عشار، فانمـا تريد أنهم جاءوك واحدا واحدا، أو اثنين اثنين، أو ثلاثة ثلاثة، أو عشرة عشرة، وليس هـذا المعنى فى الأصل؛ لأنك إذا قلت جاءنى قوم ثلاثة ثلاثة، أو قوم عشرة عشرة، فقد حصرت عِدّة القوم بقولك ثلاثة وعشرة. فاذا قلت جاءونى رُباع وثُناء فلم تحصر عِدّتهم. وإنما تريد أنهم جاءوك أربعة أربعة أو اثنين اثنين. وسواء كثر عددهم أو قلّ فى هـذا الباب فقصرهم كل صيغة على أقل ما تقتضيه بزعمه تحكّم.

وأما اختلاف علماء المسلمين فى الذى يتزوّج خامسة وعنده أربع وهى:

التاســعة — فقال مالك والشافعى: عليــه الحدّ إن كان عالمـا. وبه قال أبو ثَوْر. وقال الزُّهرِىّ: يُرجَم إن كان عالمـا، وإن كان جاهلا أدْنى الحـدّين الذى هو الجلد، ولها مهرها ويُفرّق بينهما ولا يجتمعان أبدا. وقالت طائفة: لا حدّ عليه فى شىء من ذلك. هذا قول النعمان. وقال يعقوب ومحمد: يُحدّ فى ذات المَحْرَم ولا يحدّ فى غير ذلك من النكاح. وذلك مثل أن يتزوّج مجوسيّةً أو خمسةً فى عُقدة أو تزوّج معتدّة أو تزوّج بغير شهود، أو أَمَةً تزوّجها بغير إذن مولاها. وقال أبو ثَوْر: إذا علم أن هذا لا يحلّ له يجب أن يُحـدّ فيه كلّه إلا التزوّج بغير شهود. وفيــه قول ثالث قاله النَّخَعِىّ فى الرجل ينكح الخامسة متعمّدا قبل أن تنقضى عدّة الرابعة من نسائه: جلدُ مائة ولا يُنْفَى. فهــذه فُتْيَا علمائنا فى الخامسة على ما ذكره ابن المنذر فكيف بمـا فوقها.

العاشرة — ذكر الزبير بن بكّار حدّثنى إبراهيم الحزامىّ عن محمد بن معْن الغفارىّ قال : أتت آمرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنّ زوجى يصوم النهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه ، وهو يعمل بطاعة الله عز وجل . فقال لها : نِعم الزوجُ زوجُك . فجعلت تكرّر عليه القول ويكرّر عليها الجواب . فقال له كعب الأسدىّ : يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها فى مباعدته إيّاها عن فراشه . فقال عمر : كما فهمتَ كلامها فآقض بينهما . فقال كعب : علىّ بزوجها؛ فأُتِىَ به فقال له : إن آمرأتك هذه تشكوك . قال : أفى طعام أو شراب ؟ قال لا . فقالت المرأة :

يأيها القاضى الحكيمُ رَشَدُهْ * ألْهَى خليلى عن فراشى مسجدُهْ
زهّده فى مَضْجَعى تعبُّدُهْ * فآقضِ القضا كعبُ ولا تُردِّدُهْ
نهاره وليله ما يرقُدُهْ * فلستُ فى أمر النساءِ أحمَدُهْ

فقال زوجها :

زهّدنى فى فرشها وفى الحَجَلْ (١) * أنى آمرؤ أذهلنى ما قد نَزَلْ
فى سورة النّحل وفى السبع الطُّوَلْ (٢) * وفى كتاب الله تخويفٌ جَلَلْ

فقال كعب :

إن لها عليك حقًّا يا رَجُلْ * نصيبها فى أربع لمن عقَلْ
* فآعطها ذاك ودَعْ عنك العِلَلْ *

ثم قال : إن الله عز وجل قد أحلّ لك من النساء مثنى وثلاث ورُباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهنّ تعبد فيهنّ ربك . فقال عمر : والله ما أدرى من أىّ أمْرَيك أعجب ؟ أمن فهمك أمرَهُما أم من حكمك بينهما؟ آذهب فقد ولّيتك قضاء البصرة . وروى أبو هُدْبة إبراهيمُ

(١) الحجل : جمع حجلة بفتحتين؛ وهى بيت يزين للعروس بالثياب والأسرة والستور .

(٢) السبع الطول من سور القرآن سبع سور وهى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف . واختلفوا فى السابعة فنهم من قال السابعة براءة والأنفال وعدها سورة واحدة ، ومنهم من جعلها سورة يونس . والطول جمع الطولى .

ابنُ هُدبة حدّثنا أنس بن مالك قال : أتت النبيَّ صلى الله عليه وسلم آمرأةٌ تستعدِى زوجَها، فقالت : ليس لى ما للنساء؛ زوجى يصوم الدهر . قال : " لك يومٌ وله يومٌ . للعبادة يوم وللمرأة يوم " .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك وغيره : فى المَيْل والمحبّة والجماع والعِشرة والقَسْم بين الزوجات الأربع والثلاث والآثنين فواحدةً . فمنع من الزيادة التى تؤدّى إلى ترك العدل فى القَسْم وحُسن العِشرة . وذلك دليل على وجوب ذلك، والله أعلم . وقرئ بالرفع، أى فواحدةٌ فيها كفاية أو كافية . وقال الكِسائى : فواحدة تقنع . وقرئت بالنصب بإضمار فعل، أى فانكحوا واحدة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ يريد الإماء . وهو عطف على واحدة . أى إن خاف ألّا يعدِل فى واحدة فما ملَكت يمينُه . وفى هذا دليل على ألّاحقّ لِملك اليمين فى الوطء ولا القَسْم ؛ لأن المعنى « فإن خِفتم ألا تعـدِلوا » فى القَسْم « فواحدةً أو ما ملكت أيمـانكم » فجعل مِلك اليمين كلّه بمنزلة واحدة فانتفى بذلك أن يكون للإماء حقٌّ فى الوطء أو فى القَسْم . إلا أنّ مِلك اليمين فى العدل قائم بوجوب حُسن المَلَكة والرفق بالرقيق . وأسند تعالى المِلْك إلى اليمين إذ هى صفةُ مدح، واليمين مخصوص بالمحاسن لتمكّنها . ألا ترى أنها المنفِقـة ؛ كما قال عليه السـلام : " حتّى لا تعـلم شماله ما تُنفق يمينه " وهى المعاهِـدة المبايِعة، وبها سميت الألِيّة يمينًا، وهى المتلقية لرايات المجد؛ كما قال :

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجْدٍ * تلقّاهـا عَرَابةُ باليمين (١)

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أى ذلك أقرب إلى ألّا تميلوا عن الحق وتجوروا؛ عن ابن عباس ومجاهـد وغيرهما . يقال : عال الرجل يعول إذا جار ومال . ومنـه قولهم : عال السّهمُ عن الهدَف مال عنـه . قال ابن عمر : إنه لعائل الكيل والوزن؛ قال الشاعر :

(١) البيت للشماخ، يمدح عرابة الأوسىّ . وقبله :

رأيت عرابة الأوسىّ يسمو * الى الخيرات منقطع القرين

قالوا تبعنا(١) رسولَ الله وٱطّرحوا * قولَ الرسولِ وعالُوا فى الموازِينِ

أى جاروا . وقال أبو طالب :

بميزانِ صِدقٍ لا يُغِلّ شعيرةً * له شاهدٌ من نفسه غيرُ عائِلِ

يريد غير مائل . وقال آخر :

ثلاثة أنفسٍ وثلاثُ ذَوْدٍ(٢) * لقد عال الزمان على عِيالِى

اى جار ومال . وعال الرجل يعِيل إذا ٱفتقر فصار عالة . ومنه قوله تعالى : « وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً » . ومنه قول الشاعر :

وما يَدرِى الفقيرُ متى غِناهُ(٣) * وما يَدرِى الغنِىّ متى يَعِيلُ

وهو عائِل وقوم عَيْلة . والعَيْلة والعالة الفاقة . وعالنى الشيء يعُولنى إذا غلبنى وثقُل علىّ . وعال الأمر اشتدّ وتفاقم . وقال الشافعىّ « ألّا تعولوا » ألا تكثر عيالكم . قال الثّعلبىّ : وما قال هذا غيره ، و إنما يقال أعال يُعِيل إذا كثر عِياله . وزعم ابن العربىّ أن عال على سبعة معان لا ثامن لها ، يقال : عال مال ، الثانى زاد ، الثالث جار ، الرابع افتقر ، الخامس أثقل ؛ حكاه ابن دريد . قالت الخنساء :

* ويكفى العشيرة ما عالها *

السادس عال قام بمئونة العيال ؛ ومنه قوله عليه السلام : " وٱبدأ بمن تَعُول " . السابع عال غلب ؛ ومنه عِيل صبره . أى غلِب . ويقال : أعال الرجل كثر عِياله . وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصحّ .

---

(١) فى اللسان مادة عول : إنا تبعنا ... الخ . (٢) البيت للحطيئة . وفيه شاهد آخر ، وهو تذكير الثلاثة وإن كانت النفس مؤنثة ؛ لأنه حملها على معنى الشخص وهو مذكر . والذود من الإبل : ما بين الثلاث الى العشر . وثلاث ذود : ثلاث أنوق كان يتقوت ألبانها و يقوم بها على عياله فضلت له . والذود اسم واحد مؤنث منقول من المصدر يقع على الجمع فيضاف العدد إليه كما يضاف الى الجموع . (عن شرح الشواهد) .

(٣) البيت لأحيحة ابن الجلاح . وبعده :

وما تدرى اذا أزمعت أمرا * بأى الأرض يدركك المقيل

قلت : أما قول الثعلبي «ما قاله غيره» فقد أسنده الدَّارَقُطْنِيّ في سننه عن زيد بن أسلم، وهو قول جابر بن زيد؛ فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعيّ إليه. وأما ما ذكره ابن العربيّ من الحصر وعدم الصحة فلا يصح. وقد ذكرنا : عال الأمر اشتد وتفاقم؛ حكاه الجوهريّ. وقال الهَرَوِيّ في غريبيه: «وقال أبو بكر : يقال عال الرجل في الأرض يَعيل فيها إذا ضرب فيها. وقال الأحمر : يقال عالني الشيء يَعيلني عَيْلاً ومَعِيلا إذا أعجزك». وأما عال كَثُرَ عياله فذكره الكسائيّ وأبو عمر الدُّورِي وابن الأعرابي. قال الكِسائي أبو الحسن علي بن حمزة : العرب تقول عال يعول وأعال يُعيل أي كثر عياله. وقال أبو حاتم : كان الشافعيّ أعلمَ بلغة العرب منا، ولعله لغة. قال الثّعلبي المفسِّر : قال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب : سألت أبا عمر الدُّورِي عن هذا وكان إماما في اللغة غير مدافع فقال : هي لغة حِمْير؛ وأنشد :

وإن الموت يأخذ كل حَيّ * بلا شك وإن أمشَى وعالَا

يعني وإن كثرت ماشيته وعياله. وقال أبو عمرو بن العلاء : لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ على لاحن لحناً. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «ألّا تُعيلوا» وهي حجة الشافعيّ رضي الله عنه. قال ابن عطية : وقدح الزجاج وغيره في تأويل عال من العيال بأن قال : إن الله تعالى قد أباح كثرة السَّراري وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقربَ إلى ألا يكثر العيال. وهذا القدح غير صحيح؛ لأن السَّراري إنما هي مال يُتصرّف فيه بالبيع، وإنما القادح الحرائرُ ذوات الحقوق الواجبة. وحكى ابن الأعرابيّ أن العرب تقول : عال الرجل إذا كثر عياله.

الرابعة عشرة — تعلّق بهذه الآية من أجاز للملوك أن يتزوج أربعا؛ لأن الله تعالى قال : «فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» يعني ما حل «مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ» ولم يخص عبدا من حُر. وهو قول داود والطبريّ، وهو المشهور عن مالك وتحصيل مذهبه على ما في موطّئه، وكذلك روى عنه ابن القاسم وأشهب. وذكر ابن المَوّاز أن ابن وهب روى عن مالك أن العبد لا يتزوّج إلا اثنتين؛ قال وهو قول الليث. قال أبو عمر : قال الشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابهما والثوريّ

والليث بن سعد : لا يتزوج العبد أكثر من آثنتين؛ وبه قال أحمد وإسحاق . وروى عن عمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف فى العبد لا ينكح أكثر من اثنتين ؛ ولا أعلم لهم مخالفا من الصحابة . وهو قول الشعبى وعطاء وابن سيرين، والحسن وإبراهيم . والحجة لهذا القول القياسُ الصحيح على طلاقه واحدة . وكلّ من قال حدّه نصف حدّ الحر، وطلاقه تطليقتان، وإيلاؤه شهران، ونحو ذلك من أحكامه فغير بعيد أن يقال تناقض فى قوله « ينكح أربعا » والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَآتُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ ﴾ الصَّدُقات جمعٌ، الواحدة صَدُقة . قال الأخفش : وبنو تميم يقولون صُدْقة والجمع صُدْقات، وإن شئت فتحت وإن شئت أسكنت . قال المازنى : يقال صِداق المرأة، ولا يقال بالفتح . وحكى يعقوب وأحمد بن يحيى بالفتح عن النحاس . والخطاب فى هذه الآية للأزواج؛ قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد وابن جريج . أمرهم الله تعالى أن يتبرّعوا بإعطاء المهور نِحلة منهم لأزواجهم . وقيل : الخطاب للأولياء؛ قاله أبو صالح . وكان الولىّ يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئا، فنُهُوا عن ذلك وأمروا أن يدفعوا ذلك إليهن . قال فى رواية الكلبى : إن أهل الجاهلية كان الولىّ إذا زوّجها فإن كانت معه فى العشرة لم يعطها من مهرها كثيرا ولا قليلا، وإن كانت غريبة حملها على بعير إلى زوجها ولم يعطها شيئا غير ذلك البعير؛ فنزل « وَآتُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً » . وقال المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه : زعم حضرمىّ أن المراد بالآية المتشاغرون الذين كانوا يتزوجون آمرأة بأخرى، فأمروا أن يضربوا المهور . والأول أظهر؛ فإن الضمائر واحدة وهى

بجملتها للأزواج فهم المراد؛ لأنه قال : « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَامَىٰ » إلى قوله : «وَآتُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً» . وذلك يوجب تناسق الضمائر وأن يكون الأوّل فيها هو الآخر.

الثانيـــة — هـذه الآية تدلّ على وجوب الصداق للمرأة ، وهو مُجمَع عليه لا خلاف فيه إلا ماروى عن بعض أهل العلم من أهل العراق أن السّيد إذا زوّج عبدَه من أَمَته أنه لا يجب فيـه صداق؛ وليس بشيء لقوله تعـالى : « وَآتُوا النِّسَاءَ صَـدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً » فعمّ . وقال : « فَآنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُن بِالْمَعْرُوفِ » . وأجمع العلماء أيضا أنه لاحدّ لكثيره، واختلفوا في قليـله على ما يأتي بيانه في قوله : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً » . وقرأ الجمهور « صَدُقَاتِهِن » بفتح الصاد وضم الدال . وقرأ قتادة « صُدْقَاتِهِن » بضم الصاد وسكون الدال . وقرأ النَّخَعىّ وابن وَثّاب بضمهما والتوحيد « صُدُقَتِهِن » .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿نِحْلَةً﴾ النِّحلة والنُّحلة، بكسر النون وضمها لغتان. وأصلها من العطاء؛ نحلتُ فلانا شيئا أعطيته. فالصداق عطيّة من الله تعالى للمرأة . وقيل: «نحلة» أى عن طيب نفس من الأزواج من غير تنازع . وقال قتادة : معنى « نحلة » فريضة واجبـة . ابن جُريج وابن زيد : فريضة مُسمّاة . قال أبو عبيدة : ولا تكون النّحلة إلا مسمّاة معلومة . وقال الزجاج : « نحلة » تَديُّنًا . والنِّحلة الديانة والمِلّة . يقال : هذا نِحلته أى دينه . وهذا حَسَن مع كون الخطاب للأولياء الذين كانوا يأخذونه في الجاهليـة ، حتى قال بعض النساء فى زوجها : لا يأخذ الحُلْوان من بناتنا . تقول : لا يفعل ما يفعله غيره . فانتزعه الله منهم وأمر به للنساء . و « نِحلةً » منصوب على أنهـا حال من الأزواج بإضمار فعل من لفظها ، تقديره انحلوهن نِحلة . وقيل : هى نصب على التفسير . وقيل : هى مصدر على غير الصدر فى موضع الحال .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْـهُ نَفْسًا ﴾ مخاطبـة للأزواج ، ويدل بعمومه على أن هِبـة المرأة صداقها لزوجها بِكْراً كانت أو ثيِّبا جائزة ؛ وبه قال جمهور الفقهاء . ومنع مالكٌ من هِبـة البِكر الصَّداقَ لزوجها وجعـل ذلك للولِّي مع أن المِلك لها ،

وزعم الفراء أنه مخاطبة للاولياء ؛ لأنهم كانوا يأخذون الصداق ولا يُعطون المرأة منه شيئا، فلم يُبَح لهم منه إلا ما طابت به نفس المرأة . والقول الأوّل أصح؛ لأنه لم يتقدّم للأولياء ذِكْر، والضمير فى «منه» عائد على الصداق . وكذلك قال عِكرمة وغيره . وسبب الآية فيما ذُكِر أن قوما تحرّجوا أن يرجع إليهم شيء مما دفعوه إلى الزوجات فنزلت « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ » .

الخامسة — واتفق العلماء على أن المرأة المالكة لأمر نفسها اذا وهبت صداقها لزوجها نفذ ذلك عليها ، ولا رجوع لها فيه . إلا أن شُرَيْحًا رأى الرجوع لها فيه ، واحتج بقوله : «فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا» وإذا كانت طالبة له لم تطب به نفسا . قال ابن العربى: وهذا باطل؛ لأنها قد طابت وقد أكل فلا كلام لها، إذ ليس المراد صورة الأكل وإنما هو كناية عن الإحلال والاستحلال، وهذا بيّن .

السادسة — فإن شرطت عليه عند عقد النكاح أنه لا يتزوّج عليها، وحطّت عنه لذلك شيئا من صداقها، ثم تزوّج عليها فلا شيء لها عليه فى رواية ابن القاسم ؛ لأنها شرطت عليه مالا يجوز شرطه . كما اشترط أهل بَرِيرة (١) أن تعتقها عائشة والولاء لبائعها، فصحّح النبيّ صلى الله عليه وسلم العقد وأبطل الشرط . كذلك ههنا يصحّ إسقاط بعض الصداق عنه ويبطل ما التزمه . وقال ابن عبد الحكم : إن كان بقى من صداقها مثلُ صداق مثلها أو أكثرُ لم ترجع عليه بشيء، وإن كانت وضعت عنه شيئا من صداقها فتزوّج عليها رجعت عليه بتمام صداق مثلها؛ لأنه شرط على نفسه شرطا وأخذ عنه عِوَضا كان لها واجبا أخذه منه، فوجب عليه الوفاء لقوله عليه السلام : "المؤمنون عند شروطهم" .

السابعة — وفى الآية دليل على أن العتق لا يكون صداقا لأنه ليس بمال؛ إذ لا يمكن المرأة هبته ولا الزوج أكله . وبه قال مالك وأبو حنيفة وزُفَر ومحمد والشافعىّ . وقال أحمد ابن حنبل وإسحاق ويعقوب : يكون صداقا ولا مهر لها غير العتق ؛ على حديث صفية (٢) رواه

(١) بريرة : مولاة عائشة رضى الله عنها كانت لعتبة بن أبى لهب . وقيل لبعض بنى هلال ، فكاتبوها ثم باعوها فاشترتها عائشة ، وجاء الحديث فى شأنها بأن الولاء لمن أعتق .

(٢) هى صفية بنت حيىّ بن أخطب، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأئمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أعتقها وجعل عتقها صداقها . ورُوى عن أنس أنه فعله ، وهو راوى حديث صَفِيّة . وأجاب الأوّلون بأن قالوا : لا حجة فى حديث صَفِيّة؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مخصوصا فى النكاح بأن يتزوج بغير صداق، وقد أراد زينبَ فحُرِمت على زيد فدخل عليها بغير ولىّ ولا صداق . فلا ينبغى الاستدلال بمثل هذا؛ والله أعلم .

الثامنـــة ــ قوله تعالى : ﴿ نَفْسًا ﴾ قيل : هو منصوب على البَيَان . ولا يجيز سيبويه ولا الكُوفيّون أن يتقدّم ما كان منصوبا على البيَان، وأجاز ذلك المَـازِنىّ وأبو العباس المُبَرِّد إذا كان العاملُ فِعلًا . وأنشد :

* وما كان نفْسًا بالفِرَاقِ تَطِيبُ[1] *

وفى التنزيل « خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ » فعلى هذا يجوز «شَحْمًا تفقّأت . ووجها حَسُنْت» . وقال أصحاب سـيبويه : إن « نفسا » منصوبة بإضمار فعل تقــديره أعنى نفسا، وليست منصوبة على التمييز؛ وإذا كان هذا فلا حجة فيه . وقال الزجاج . الرواية :

* وما كان نفسى ... *

واتفق الجميع على أنه لا يجوز تقديم المميز إذا كان العامل غير متصرّف كعشرين درهما .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ ﴾ ليس المقصود صورةَ الأكل ، وإنمـا المراد به الاستباحةُ بأى طريق كان، وهو المعنىُّ بقوله فى الآية التى بعدها « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا » . وليس المراد نفسَ الأكل؛ إلا أن الأكل لمـا كان أوفَق أنواع التمتّع بالمـال عُبّر عن التصرفات بالأكل . ونظيره قوله تعالى : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » يعلم أن صورة البيع غيرُ مقصودة ، وإنمـا المقصود مايشغله عن ذكر الله تعالى مثل النكاح وغيره؛ ولكن ذُكر البيعُ لأنه أهمّ مايشتغل به عن ذكر الله تعالى .

العاشــرة ــ قوله تعـالى : ﴿ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ منصوب على الحال من الهاء فى « كلوه » وقيل : نعت لمصدر محذوف، أى أكلا هنيئا بطيب الأنفس . هَنَأه الطعامُ والشّراب يَهْنِئه،

(١) هذا عجز بيت للخبل السعدى ، وصدره :

* أتهجر ليلى بالفراق حبيبها *

وما كان هنيئا؛ ولقد هَنُؤَ، والمصدر الهَنْءُ. وكل ما لم يأت بمشقة ولا عناء فهو هنيء. وهنيء اسم فاعل من هَنُؤَ كظريف من ظَرُفَ. وهنِيَء يهنأ فهو هَنِيء على فَعِل كزمن. وهَنَأَنِي الطعام ومَرأنى على الإتباع؛ فاذا لم يذكر «هَنَأنى» قلت: أمرأنى الطعام بالألف، أى انهضم. قال أبو عليّ: وهذا كما جاء فى الحديث "ارجعنَ مأزورات غيرَ مأجورات". فقلبوا الواو من «موزورات» ألفًا إتباعا للفظ مأجورات. وقال أبو العباس عن ابن الأعرابىّ: يقال هَنِيء وهَنأنِى ومرأَنِى وأمرأَنِى ولا يقال مرئَنى؛ حكاه الهَرَوِىّ. وحكى القُشيرِىّ أنه يقال: هنأنِى ومَرِئَنى بالكسر يَهنأنى ويَمرأنى، وهو قليل. وقيل: «هَنيئاً» لا إثم فيه، و «مَرِيئاً» لا داء فيه. قال كُثيّر:

هنيئًا مريئًا غيرَ داءٍ مُخامرٍ * لِعزّة من أعراضِنا ما آستحلّت

ودخل رجل على علقمة وهو يأكل شيئا وهبته آمرأته من مهرها فقال له: كُلْ من الهنيء والمريء. وقيل: الهنيء الطيّب المساغ الذى لا ينغّصه شيء، والمريء المحمود العاقبة، التامّ الهضم الذى لا يضرّ ولا يُؤذى. يقول لا تخافون فى الدنيا به مطالبة، ولا فى الآخرة تَبعة. يدلّ عليه ما روى ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن هذه الآية «فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ» فقال: إذا جادت لزوجها بالعطيّة طائعةً غيرَ مُكرهة لا يقضى به عليكم سلطان، ولا يؤاخذكم الله تعالى به فى الآخرة. ورُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال: إذا آشتكى أحدكم شيئا فليسأل امرأته دراهم من صداقها، ثم ليشتر به عسلا فليشربه بماء السماء؛ فيجمع الله عز وجل له الهنيء والمريء والماء المبارك. والله أعلم.

قوله تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى — لما أمر الله تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم فى قوله «وآتوا اليتامى أموالهم» وإيصال الصدقات إلى الزوجات، بيّن أن السفيه وغيرَ البالغ لا يجوز دفعُ ماله إليه. فدلّت

الآية على ثبوت الوَصِيّ والوَلِيّ والكفيل للايتام . وأجمع أهل العلم على أن الوصية إلى المسلم الحرّ الثّقة العدل جائزةٌ . وآختلفوا في الوصيّة إلى المرأة الحرة؛ فقال عوام أهل العلم : الوصيّة لها جائزةٌ . وآحتجّ أحمد بأن عمر أوصى إلى حفصة . ورُوى عن عطاء بن أبي رَباح أنه قال في رجل أوْصى إلى آمرأته قال : لا تكون المرأة وصيّا ؛ فان فعل حُوّلت إلى رجل من قومه . وآختلفوا في الوصيّة إلى العبـد ؛ فمنعه الشافعيّ وأبو ثور ومحمد ويعقوب . وأجازه مالك والأوزاعيّ وآبن عبد الحكم . وهو قول النّخَعِيّ إذا أوصى إلى عبده . وقد مضى القول في هذا في «البقره»[1] مستوفًى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ ٱلسُّفَهَاءَ ﴾ قد مضى في «البقرة»[2] معنى السّفه لغة . وآختلف العلمـاء في هؤلاء السفهاء من هم؛ فروى سالم الأفطس عن سـعيد بن جُبير قال : هم اليتامى لا تُؤتوهم أموالكم . قال النحاس : وهـذا من أحسن ما قيل في الآية . وروى إسمعيل بن أبي خالد عن أبي مالك قال : هم الأولاد الصغار ، لا تعطوهم أموالكم فيفسـدوها وتبقوا بلا شيء . وروى سفيان عن حُميد الأعرج عن مجاهد قال : هم النساء . قال النحاس وغيره : وهذا القول لا يصح؛ إنمـا تقول العرب في النساء سفائه أو سَفِيهات؛ لأنه الأكثر في جمع فَعِيلة . ويقال : لا تدفع مالك مضاربةً ولا إلى وكيل لا يحسن التجارة . ورُوى عن عمر أنه قال : من لم يتفقّه فلا يتّجر في سوقنا؛ فكذلك قوله : «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم» يعني الجهال بالأحكام . ويقال : لا تدفع إلى الكفار؛ ولهـذا كره العلماء أن يوكّل المسلم ذِميًّا بالشراء والبيع، أو يدفع إليه مُضاربةً . وقال أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه : السفهاء هنا كل مَن يستحق الحجر . وهـذا جامع . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : وأما الحجر على السـفيه فالسفيه له أحوال : حال يُحجر عليه لصغره ، وحالة لعدم عقله بجنون أو غيره ، وحالة لسوء نظره لنفسه في ماله . فأما المُغْمَى عليه فآستحسن مالكٌ ألاّ يُحجر عليه لسرعة زوال ما به . والحجر يكون مَرّةً في حق الإنسان ومرّةً في حق غيره ؛ فأما المحجور عليه في حقّ نفسـه من

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٠٥ طبعة ثانية وثالثة .

ذكرنا . والمحجور عليه فى حق غيره العبدُ والمِدْيان والمريض فى الثلثين، والمفلس وذاتُ الزوج لحق الزوج، والبكرُ فى حق نفسها . فأما الصغير والمجنون فلا خلاف فى الحجر عليهما . وأما الكبير فلأنه لا يحسُن النّظرَ لنفسه فى ماله، ولا يؤمَن منه إتلاف ماله فى غير وجه، فأشبه الصبيّ ؛ وفيه خلاف يأتى . ولا فرق بين أن يُتلف ماله فى المعاصى أو فى القُرَب والمباحات . وآختلف أصحابنا إذا أتلف ماله فى القُرَب ؛ فمنهم من حجر عليه، ومنهم من لم يحجر عليه . والعبد لا خلاف فيه . والمِديان يُنزع ما بيده لغرمائه؛ لإجماع الصحابة ، وفعل عمر ذلك بأُسَيْفِع جُهَيْنة؛ ذكره مالك فى الموطأ . والبكر ما دامت فى الخدْر محجور عليها؛ لأنها لا تحسن النظر لنفسها . حتى إذا تزوّجت دخل إليها الناس ، وخرجت وبَرَز وجهها عرَفت المضار من المنافع . وأما ذات الزوج فلأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يجوز لآمرأة ملك زوجُها عصمتها قضاءٌ فى مالها إلا فى ثلثها" .

قلت : وأما الجاهل بالأحكام وإن كان غيرَ محجور عليه لتنميته لماله وعدم تدبيره ، فلا يدفع إليه المال؛ لجهله بفاسد البياعات وصحيحها وما يحلّ وما يَحرُم منها . وكذلك الذميّ مثلُه فى الجهل بالبياعات ولما يخاف من معاملته بالرّبا وغيره . والله أعلم . وآختلفوا فى وجه إضافة المال إلى المخاطبين على هذا وهى للسفهاء؛ فقيل : إضافتها إليهم لأنها بأيديهم وهم الناظرون فيها فنُسبت إليهم آتساعا ؛ كقوله تعالى : « فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وقوله « فاقتلوا أنفسكم » . وقيل : أضافها إليهم لأنها من جنس أموالهم؛ فإن الأموال جُعلت مشتركة بين الخلق تنتقل من يد إلى يد ، ومن مِلك إلى مِلك، أى هى لهم إذا آحتاجوها كأموالكم التى تقى أعراضكم وتصونكم وتعظّم أقداركم، وبها قِوام أمركم. وقول ثان قاله أبو موسى الأشعرىّ وابنُ عباس والحسن وقَتادة : أن المراد أموال المخاطبين حقيقة . قال ابن عباس : لا تدفع مالك الذى هو سبب معيشتك إلى آمرأتك وآبنك وتبقى فقيرا تنظر إليهم وإلى ما فى أيديهم؛ بل كن أنت الذى تنفق عليهم . فالسفهاء على هذا هم النساء والصبيان ؛ صغارُ ولد الرجل وآمرأته . وهذا يخرج على قول مجاهد وأبى مالك فى السفهاء .

الثالثـة — ودلّت الآية على جواز الحجر على السفيه؛ لأمر الله عز وجل بذلك فى قوله : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ » وقال « فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا » . فأثبت الولاية على السفيه كما اثبتها على الضعيف . وكان معنى الضعيف راجعا إلى الصغير . ومعنى السفيه إلى الكبير البالغ؛ لأن السّفه اسمُ ذمٍّ ولا يذم الإنسان على مالم يكتسب، والقلم مرفوع عن غير البالغ، فالذم والحرج منفيّان عنه؛ قاله الخطّابى .

الرابعـة — واختلف العلماء فى أفعال السفيه قبل الحجر عليه؛ فقال مالك وجميع أصحابه غير ابن القاسم : إنّ فعـل السفيه وأمرَه كلّه جائز حتى يضرب الإمام على يده . وهو قول الشافعى وأبى يوسف . وقال ابن قاسم : أفعاله غير جائزة وإن لم يضرب عليه الإمام . وقال أَصْبَغ : إن كان ظاهر السفه فأفعاله مردودة، وإن كان غير ظاهر السفه فلا تُرَدّ أفعاله حتى يحجر عليه الإمام . واحتجّ سُحنون لقول مالك بأن قال : لو كانت أفعال السفيه مردودةً قبل الحجر ما آحتاج السلطان أن يحجر على أحد . وحجة ابن القاسم ما رواه البخارىّ من حديث جابر أن رجلا أعتق عبدا ليس له مال غيره فردّه النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم يكن حجر عليـه قبل ذلك .

الخامسـة — وآختلفوا فى الحجر على الكبير؛ فقال مالك وجمهور الفقهاء : يحجر عليه . وقال أبو حنيفة : لا يحجر على من بلغ عاقلا إلا أن يكون مفسدًا لمـاله؛ فإذا كان كذلك مُنع من تسليم المـال إليه حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة، فإذا بلغها سُلّم إليه بكل حال، سواء كان مفسدا أو غير مفسد؛ لأنه يُحبَـل منه لآثنتى عشرة سـنة، ثم يولد له لستة أشهر فيصير جَدًّا، وأنا أستحى أن أحجر على مَن يصلح أن يكون جدًّا . وقيل عنه : إن فى مدّة المنع من المـال إذا بلغ مفسدا ينفذ تصرفه على الإطلاق، وإنما يُمنع من تسليم المـال آحتياطًا . وهذا كله ضعيف فى النظر والأثر . وقد روى الدَّارَقُطْنِىّ حدّثنا محمد بن أحمد بن الحسن الصوّاف أخبرنا حامد بن شعيب أخبرنا شُرَيح بن يونس أخبرنا يعقوب بن إبراهيم — هو أبو يوسف القاضى — أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الله بن جعفر أتى الزبير فقال: إنى اشتريت

بيع كذا وكذا ، وإن علياً يريد أن يأتى أمير المؤمنين فيسأله أن يحجر علىّ فيه . فقال الزبير : أنا شريكك فى البيع . فأتى علىٌّ عثمانَ فقال : إن ابن جعفر اشترى بيع كذا وكذا فاحجر عليه . فقال الزبير : فأنا شريكه فى البيع . فقال عثمان : كيف أحجر على رجل فى بيع شريكُه فيه الزبير. قال يعقوب : أنا آخذ بالحجر وأراه، وأحجر وأبطل بيع المحجور عليه وشراءه، وإذا اشترى أو باع قبل الحجر أجزت بيْعه . قال يعقوب بن إبراهيم : وإن أبا حنيفة لا يحجر ولا يأخذ بالحجر. فقول عثمان : كيف أحجر على رجل ، دليل على جواز الحجر على الكبير؛ فإن عبد الله بن جعفر ولدته أمه بأرض الحبشة وهو أوّل مولود وُلد فى الإسلام بها، وقدِم مع أبيه على النبىّ صلى الله عليه وسلم عامَ خَيْبر فسمع منه وحفِظ عنه . وكانت خيبر سنة خمس من الهجرة . وهذا يردّ على أبى حنيفة قوله . وستأتى حجّته إن شاء الله تعالى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ أى لمعاشكم وصلاح دينكم . وفى « التى » ثلاث لغات : التى واللّتِ بكسر التاء واللّتْ بإسكانها . وفى تثنيتها أيضا ثلاث لغات : اللتانِ واللّتا بحذف النون واللتانّ بشد النون . وأما الجمع فتأتى لغاته فى موضعه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى (١) . والقِيام والقِوام ما يُقيمك بمعنًى . يقال : فلان قِيام أهله وقِوام بيته ، وهو الذى يقيم شأنه، أى يصلحه . ولما انكسرت القاف من قوام أبدلوا الواو ياء . وقراءة أهل المدينة «قِيَمًا» بغير ألف . قال الكِسائىّ والفراء : قِيما وقِواما بمعنى قياما، وانتصب عندهما على المصدر . أى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى تصلح بها أموركم فيقوموا بها قياما . وقال الأخفش : المعنى قائمة بأموركم . يذهب إلى أنها جمع . وقال البصريون : قِيَمًا جمع قِيمة؛ كدِيمَة ودِيَم، أى جعلها الله قِيمة للأشياء . وخطّأ أبو علىّ هذا القولَ وقال : هى مصدر كقِيام وقِوام وأصلها قِوم، ولكن شذّت فى الردّ إلى الياء كما شذّ قولهم : جياد فى جمع جواد ونحوه . وقِوَمًا وقِوامًا وقِياما معناه ثباتا فى صلاح الحال ودوامًا فى ذلك . وقرأ الحسن والنَّخَعِىّ « اللاتِى » على جمع التى، . وقراءة العامة « التِى » على لفظ الجماعة . قال الفراء : الأكثر فى لفظ العرب «النساء اللّواتى، والأموال التى» وكذلك غير الأموال؛ ذكره النحاس.

(١) فى قوله تعالى : «واللاتى يأتين الفاحشة ...» آية ٢٥ .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ ﴾ قيل : معناه اجعلوا لهم فيها أو أفرضوا لهم فيها . وهذا فيمن يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجته وبنيه الأصاغر . فكان هذا دليلا على وجوب نفقة الولد على الوالد والزوجةِ على الزوج . وفى البخاريّ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أفضلُ الصدقة ماترك غنًى واليُد العليا خير من اليد السفلى وٱبدأ بمن تعول. تقول المرأة إمّا أن تُطعمَنى وإمّا أن تطاقنى ويقول العبد أطعمنى وٱستعمِلنى ويقول الابن أطعمنى إلى مَن تَدَعُنى " . فقالوا : يا أبا هريرة، سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا، هذا من كِيسِ أبى هريرة! . قال المهلّب: النفقة على الأهل والعيال واجبة بإجماع؛ وهذا الحديث حجة فى ذلك .

الثامنــة — قال ابن المنذر: واختلفوا فى نفقة من بلغ من الأبناء ولا مال له ولا كَسْب؛ فقالت طائفة : على الأب أن ينفق على ولدِه الذكور حتى يحتلموا، وعلى النساء حتى يتزوجن ويُدخل بهن. فإن طلقها بعد البِناء أو مات عنها فلا نفقة لها على أبيها. وإن طلّقها قبل البِناء فهى على نفقتها .

التاســعة — ولا نفقة لولد الولد على الجدّ؛ هــذا قول مالك . وقالت طائفة : ينفق على ولدِ ولدِه حتى يبلغوا الحُلَم والمحيض. ثم لا نفقة عليه إلا أن يكونوا زَمْنَى، وسواء فى ذلك الذكور والإناث مالم يكن لهم أموال،وسواء فى ذلك ولده أو ولد ولده وإن سَفِلوا مالم يكن لهم أب دونه يقدِر على النفقة عليهم؛ هذا قول الشافعى . وأوجبت طائفة النفقة لجميع الأطفال البالغين من الرجال والنساء إذا لم يكن لهم أموال يستغنون بها عن نفقة الولد؛ على ظاهر قوله عليه السلام لهند : " خُذِى ما يكفيك وولدَك بالمعروف " . وفى حديث أبى هريرة " يقول الابن أطعِمْنِى إلى مَن تَدَعُنى " يدل على أنه إنما يقول ذلك من لا طاقة له على الكسب والتَّحَرُّف . ومن بلغ سِنّ الحُلم فلا يقول ذلك ؛ لأنه قد بلغ حدّ السعى على نفسه والكسب لها ، بدليل قوله تعالى : «حتى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ» الآية . فجعل بلوغ النكاح حدًّا فى ذلك . وفى قوله " تقول المرأة إما أن تُطعِمَنى وإمّا أن تُطَلّقنى " يردّ على من قال : لا يفترق بالإعسار ويلزم المرأة الصبر؛ وتتعلّق النفقة بذمّته بحكم الحاكم . هــذا قول عطاء

والزُّهْرِيّ . وإليه ذهب الكوفيون متمسّكين بقوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ » . قالوا : فوجب أن يُنْظَر إلى أن يُوسِر . وقوله تعالى : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » الآية . قالوا : فندب تعالى إلى إنكاح الفقير؛ فلا يجوز أن يكون الفقر سببا للفُرْقة وهو مندوب معه إلى النكاح . ولا حجة لهم في هذه الآية على ما يأتي بيانه في موضعها . والحديث نصٌّ في موضع الخلاف . وقيل : الخطاب لوليّ اليتيم لينفق عليه من ماله الذي له تحت نظره ؛ على ما تقدّم من الخلاف في إضافة المال . فالوصيّ ينفق على اليتيم على قدر ماله وحاله ؛ فإن كان صغيرا ومالُه كثير اتّخذ له ظِئْرًا وحواضنَ ووسّع عليه في النفقة . وإن كان كبيرا قدّر له ناعم اللباس وشهيّ الطعام والخدم . وإن كان دون ذلك فبحسبه . وإن كان دون ذلك فخشن الطعام واللباس قدر الحاجة . فإن كان اليتيم فقيرا لا مال له وجب على الإمام القيامُ به من بيت المال ؛ فإن لم يفعل الإمام وجب ذلك على المسلمين الأخصّ به فالأخص . وأُمُّه أخصّ به فيجب عليها إرضاعه والقيامُ به . ولا يرجع عليه ولا على أحد . وقد مضى في البقرة عند قوله : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ »(1) .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ أراد تليين الخطاب والوعدَ الجميل . واختُلف في القول المعروف؛ فقيل : معناه ادعوا لهم : بارك الله فيكم ، وحاطكم وصنع لكم ، وأنا ناظر لك ، وهذا الاحتياط يرجع نفعه إليك . وقيل : معناه وعِدوهم وَعْداً حسنا ؛ أي إن رشدتم دفعنا إليكم أموالكم . ويقول الأب لابنه : مالي إليك مصيره ، وأنت إن شاء الله صاحبُه إذا ملكت رشدك وعرفت تصرفك .

قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

(1) راجع جـ ٣ ص ١٦٠ ، ١٦١ طبعة أولى أو ثانية .

فيه سبع عشرة مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَى ﴾ الابتلاء الاختبار ؛ وقد تقدم (١) . وهذه الآية خطاب للجميع فى بيان كيفية دفع أموالهم . وقيل : إنها نزلت فى ثابت بن رِفاعة وفى عمه . وذلك أن رفاعة تُوُفِّىَ وترك ٱبنه وهو صغير، فأتى عمُّ ثابت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن ٱبن أخى يتيم فى حِجْرى فما يحلّ لى من ماله ، ومتى أدفع إليه ماله ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الثانيــة — واختلف العلماء فى معنى الاختبار ؛ فقيل : هو أن يتأمّل الوصىُّ أخلاقَ يتيمه ، ويستمع إلى أغراضه ، فيحصل له العلم بنجابته ، والمعرفة بالسعى فى مصالحه وضبط ماله ، والإهمال لذلك . فإذا توسّم الخير قال علماؤنا وغيرهم : لا بأس أن يدفع إليه شيئا من ماله يبيح له التصرف فيه ، فإن نمّاه وحسّن النظر فيه فقد وقع الاختبار ، ووجب على الوصىّ تسليمُ جميع ماله إليه . وإن أساء النظر فيه وجب عليه إمساك ماله عنده . وليس فى العلماء من يقول : إنه إذا اختبر الصبىّ فوجده رشيدا ترتفع الولايه عنه ، وأنه يجب دفع ماله إليه وإطلاقُ يده فى التصرف ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى إذا بَلَغُوا النِّكَاحَ » . وقال جماعة من الفقهاء : الصغير لا يخلو من أحد أمرين ؛ إما أن يكون غلاما أو جارية ؛ فإن كان غلاما ردّ النظر إليه فى نفقة الدار شهرا ، أو أعطاه شيئا نَزْرًا ليتصرّف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرفه ، وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه ؛ فإن أتلفه فلا ضمان على الوصىّ . فإذا رآه متوخّيًا سلّم إليه ماله وأشهد عليه . وإن كان جارية ردّ إليها ما يُرَدّ إلى رَبّة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه ، فى الاستغزال والاستقصاء على الغزّالات فى دفع القطن وأجرته ، واستيفاء الغزل وجودته . فإن رآها رشيدة سلّم أيضا إليها مالَها وأشهد عليها . وإلا بقيا تحت الحَجْر حتى يُؤنس رُشدهما . وقال الحسن ومجاهد وغيرهما : ٱختبروهم فى عقولهم وأديانهم وتَنْمية أموالهم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ أى الحُلُم ؛ لقوله تعالى : « وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ » أى البلوغ . وحال النكاح والبلوغ يكون بخمسة أشياء : ثلاثة

(١) راجع المسألة الثالثة عشرة جـ ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

يشترك فيها الرجال والنساء، واثنان يختصان بالنساء وهما الحيض والحَبَل. فأما الحيض والحَبَل فلم يختلف العلماء فى أنه بلوغ، وأن الفرائض والأحكام تجب بهما . واختلفوا فى الثلاث؛ فأما الإنبات والسن فقال الأوزاعىّ والشافعىّ وابن حنبل : خمس عشرة سنة بلوغ لمن لم يحتلم . وهو قول ابن وهب وأَصْبَغ وعبد الملك بن الماجشون وعمر بن عبد العزيز وجماعة من أهل المدينة ، واختاره ابن العربى . وتجب الحدود والفرائض عندهم على من بلغ هذا السنّ . قال أَصْبَغ بن الفرج : والذى نقول به إن حدّ البلوغ الذى تلزم به الفرائض والحدود خمس عشرة سنة؛ وذلك أحبّ ما فيه إلىّ وأحسنه عندى ؛ لأنه الحدّ الذى يُسهَم فيه فى الجهاد ولمن حضر القتال . واحتج بحديث ابن عمر إذ عُرِض[(١)] يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجيز، ولم يُجَز يوم أُحد لأنه كان ابنَ أربع عشرة سنة . أخرجه مسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : هذا فيمن عرف مولده، وأمّا من جهل مولده وعدم سنّه أو جحده فالعمل فيه بما روى نافع عن أسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب إلى أمراء الأجناد : ألّا تَضرِبوا الجزية إلا على مَن جرت عليه المَوَاسِى . وقال عثمان فى غلام سَرَق : انظروا إن كان قد اخضر مِئزره فاقطعوه . وقال عطية القُرَظى : عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة فكلّ من أنبت منهم قتله بحكم سعد بن معاذ[(٢)]، ومن لم ينبِت منهم استحياه؛ فكنت فيمن لم يُنبِت فتركَنِى . وقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : لا يُحكم لمن لم يحتلم حتى يبلغ مالم يبلغه أحد إلا احتلم، وذلك سبع عشرة سنة؛ فيكون عليه حينئذ الحدّ إذا أتى ما يجب عليه الحدّ . وقال مالك مرّة : بلوغه بأن يغلُظ صوته وتنشق أرنبته . وعن أبى حنيفة رواية أخرى : تسع عشرة؛ وهى الأشهر . وقال فى الجارية : بلوغها لسبع عشرة سنة وعليها النظر . وروى اللؤلئى عنه ثمان عشرة سنة . وقال داود : لا يبلغ بالسن ما لم يحتلم ولو بلغ أربعين سنة . فأما الإنبات فمنهم من قال يستدلّ به على البلوغ ؛ روى عن ابن القاسم وسالم، وقاله

(١) أى عرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرف حاله .

(٢) كان حكمه فيهم أنه تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذريتهم . وقد قال له صلى الله عليه وسلم : "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات" . وراجع ترجمته فى كتاب الاستيعاب .

مالك مرة، والشافعي في أحد قوليه، و به قال أحمد و إسحاق وأبو ثور . وقيل : هو بلوغ؛ إلا أنه يحكم به في الكفار فيقتــل من أنبت و يُجعل من لم ينبت في الذراري؛ قاله الشافعيّ في القول الآخر لحديث عطية القُرَظي، ولا اعتبار بالخضرة والزَّغَب، وإنمـا يترتب الحكم على الشعر . وقال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : العمل عندى على حديث عمر بن الخطاب لو جرت عليـه المَوَاسِى لحددته . قال أَصْبَغ : قال لى ابن القـاسم وأحب إلىّ ألّا يقـام عليه الحدّ إلا باجتماع الإنبات والبلوغ . وقال أبو حنيفة : لا يثبت بالإنبات حكم ، وليس هو ببلوغ ولا دِلالة على البـلوغ . وقال الزهرى وعطاء : لا حدّ على من لم يحتلم؛ وهو قول الشافعيّ، ومال إليـه مالك مرة، وقال به بعض أصحـابه . وظاهره عدم اعتبار الإنبـات والسنّ . قال ابن العربى : « إذا لم يكن حديث ابن عمر دليلا في السنّ فكل عدد يذكرونه من السنين فإنه دعوى ، والسنّ التى أجازها رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أولى من سنّ لم يعتـبرها ، ولا قام في الشرع دليـل عليها ، وكذلك اعتبر النبي صلى الله عليـه وسلم الإنبات في بنى قريظة؛ فمن عَذِيرى ممن ترك أمرين اعتبرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فيتأوله و يعتبر مالم يعتبره النبيّ صلى الله عليه وسلم لفظا، ولا جعل الله له في الشريعة نظرا » .

قلت : هذا قوله هنا، وقال في سـورة الأنفال عكسَه؛ إذ لم يعرّج على حديث ابن عمر هناك، وتأوله كما تأوله علماؤنا . وأن موجبه الفرق بين من يطيق القتال ويُسهَّم له وهو ابن خمس عشرة سنة ، ومن لا يطيقه فلا يُسهَّم له فيجعل في العيال . وهـو الذى فهمه عمر بن عبد العزيز من الحديث . والله أعلم .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ أى أبصرتم ورأيتم؛ ومنه قوله تعالى : « آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا » أى أبصر و رأى . قال الأزهرى : تقول العرب اذهب فاستأنس هل ترى أحدا؛ معناه تبصّر . قال النابغة :

* ... على مستأنِس وَحِدِ (1) *

(1) تمام البيت : كأن رحلى وقد زال النهار بنا * يوم الجليل على مستأنس وحد
الوحد : المنفرد .

أراد ثورا وحشيا يتبصّر هل يرى قانصا فيحذره . وقيل: آنست وأحسست ووجدت بمعنى واحد ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ أى علمتم . والأصل فيه أبصرتم . وقراءة العامة « رُشْدا » بضم الراء وسكون الشين . وقرأ السُّلَمِيّ وعيسى الثَّقَفِيّ وابن مسعود رضى الله عنهم « رَشَدا » بفتح الراء والشين ، وهما لغتان . وقيل : رُشْدًا مصدر رَشَد . ورَشَدًا مصدر رَشِد، وكذلك الرَّشاد . والله أعلم .

الخامسة — واختلف العلماء فى تأويل « رُشْدًا » فقال الحسن وقَتادة وغيرهما : صلاحًا فى العقل والدِّين . وقال ابن عباس والسُّدِّى والثَّورى : صلاحًا فى العقل وحفظ المال . قال سعيد بن جُبير والشَّعبى : إن الرجل ليأخذ بلحيته وما بلغ رشده، فلا يُدفع إلى اليتيم مالُه وإن كان شيخا حتى يؤنَس منه رشده . وهكذا قال الضحاك : لا يُعطَى اليتيم وإن بلغ مائة سنة حتى يُعلم منه إصلاحُ ماله . وقال مجاهد : « رشدا » يعنى فى العقل خاصة . وأكثر العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم وإن شاخ لا يزول الحجر عنه؛ وهو مذهب مالك وغيره . وقال أبو حنيفة : لا يحجر على الحرّ البالغ إذا بلغ مبلغ الرجال ، ولو كان أفسق الناس وأشدهم تبذيرا إذا كان عاقلا . وبه قال زُفَر بن الهُذَيل، وهو مذهب النخعى . واحتجوا فى ذلك بما رواه قَتادة عن أنس أن حَبّان[1] بن مُنقِذ كان يبتاع وفى عقله ضعف ، فقيل : يا رسول الله آحجر عليه؛ فإنه يبتاع وفى عقله ضعف . فاستدعاه النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "لا تبع" . فقال : لا أصبر. فقال له : "إذا بايعت فقل لا خِلابة ولك الخيار ثلاثا" . قالوا : فلما سأله القوم الحجر عليه لمّا كان فى تصرفه من الغبن ولم يفعل عليه السلام ثبت أن الحجر لا يجوز . وهذا لا حجة لهم فيه؛ لأنه مخصوص بذلك على ما بيناه فى البقرة[2] ، فغيره بخلافه . وقال الشافعى : إن كان مفسدا لماله ودينه أو كان مفسدا لماله دون دينه حُجِر عليه ، وإن كان مفسدا لدينه

---

(١) حبان : بفتح الحاء، وقد ذكر فى ج ٣ ص ٣٨٦ بكسرها خطأ .

(٢) راجع ج ٣ ص ٣٨٦ طبعة أولى أو ثانية .

مصلحا لمـاله فعلى وجهين : أحدهما يحجر عليه، وهو اختيار أبى العباس بن سريج . والثانى لا حجر عليه، وهو اختيار أبى إسحاق المَرْوَزِىّ، والأظهر من مذهب الشافعى . قال الثعلبى: وهذا الذى ذكرناه من الحجر على السفيه قول عثمان وعلىّ والزبير وعائشة وابن عباس وعبد الله ابن جعفر رضوان الله عليهم ، ومن التابعين شريح ، وبه قال الفقهاء مالك وأهـل المدينة والأوزاعىّ وأهل الشام وأبو يوسف ومحمد وأحمد وإسحاق وأبو ثور . قال الثعلبى : وآدّعى أصحابنا الإجماع فى هذه المسألة .

السادســة — إذا ثبت هذا فاعلم أن دفع المـال يكون بشرطين : إيناس الرشد والبلوغ؛ فإن وُجد أحدهما دون الاخر لم يجز تسليم المـال . كذلك نص الآية . وهو رواية ابن القاسم وأشهب وابن وهب عن مالك فى الآية . وهو قول جماعة الفقهاء إلا أبا حنيفة وزُفَر والنَّخَعى فإنهم أسقطوا إيناس الرشد ببلوغ خمس وعشرين سنة . قال أبو حنيفة : لكونه جدًّا . وهذا يدلّ على ضعف قوله ، وضعف ما احتج به أبو بكر الرازى فى أحكام القرآن له من استعمال الآيتين حسب ما تقدم؛ فإن هـذا من باب المطلق والمقيّد، والمطلق يردّ الى المقيّد باتفاق أهل الأصـول . وماذا يغنى كونه جَدًّا اذا كان غير جدّ(١) ، أى بخت . إلا أن علماءنا شرطوا فى الجارية دخول الزوج بها مع البلوغ، وحينئذ يقع الابتلاء فى الرشـد . ولم يره أبو حنيفة والشافعىّ، ورأوا الاختبار فى الذكر والأنثى واحدا على ما تقدم . وفرّق علمـاؤنا بينهما بأن قالوا : الأنثى مخالفة للغلام لكونها محجوبة لا تعانى الأمور ولا تبرز لأجل البكارة ؛ فلذلك وقف فيها على وجود النكاح . فبـه تفهم المقاصد كلها . والذكر بخـلافها ؛ فإنه بتصرفه وملاقاته للناس من أوّل نشئه الى بلوغه يحصل له الاختبار ، ويكمل عقله بالبلوغ، فيحصل له الغرض . وما قاله الشافعىّ أصوب؛ فإن نفس الوطء بإدخال الحشفة لا يزيدها فى رشدها اذا كانت عارفة بجميع أمورها ومقاصدها ، غير مبذرة لمـالها . ثم زاد علماؤنا فقالوا : لابدّ بعد

(١) كذا فى الأصول . وفى أحكام القرآن لابن العربى : « قلنا هذا ضعيف ؛ لأنه اذا كان جدّا ولم يكن ذا جدّ فاذا ينفعه جدّ النسب وجدّ البخت فائت » .

دخول زوجها من مضيّ مدّة من الزمان تمارس فيها الاحوال . قال ابن العربيّ : وذكر علماؤنا فى تحديدها أقوالا عديدة ؛ منها الخمسة الأعوام والستة والسبعة فى ذات الأب . وجعلوا فى اليتيمة التى لا أب لها ولا وصيّ عليها عاما واحدا بعد الدخول ، وجعلوا فى المُوَلَّى عليها مؤبّدا حتى يثبت رشدها . وليس فى هذا كله دليل . وتحديد الأعوام فى ذات الأب عسير، وأعسر منه تحديد العام فى اليتيمة . وأما تمادى الحجر فى المُوَلَّى عليها حتى يتبيّن رشدها فيخرجها الوصيّ عنه ، أو يخرجها الحكم منه فهو ظاهر القرآن . والمقصود من هذا كله داخل تحت قوله تعالى : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » فتعيّن اعتبار الرشد ولكن يختلف إيناسه بحسب اختلاف حال الراشد . فاعرفه وركّب عليه واجتنب التحكّم الذى لا دليل عليه .

السابعة — واختلفوا فيما فعلته ذات الأب فى تلك المدة ؛ فقيل : هو محمول على الرّدّ لبقاء الحجر ، وما عملته بعده فهو محمول على الجواز . وقال بعضهم : ما عملته فى تلك المدّة محمول على الرّدّ إلى أن يتبيّن فيه السداد ، وما عملته بعد ذلك محمول على الإمضاء حتى يتبيّن فيه السّفه .

الثامنة — واختلفوا فى دفع المال المحجور عليه هل يحتاج إلى السلطان أم لا ؛ فقالت فرقة : لا بدّ من رفعه الى السلطان، ويثبت عنده رشده حتى يدفع إليه ماله . وقالت فرقة : ذلك موكول الى اجتهاد الوصيّ دون أن يحتاج الى رفعه الى السلطان . قال ابن عطية : والصواب فى أوصياء زماننا ألّا يُستغنى عن رفعه الى السلطان وثبوت الرشد عنده ، لما حفظ من تواطؤ الأوصياء على أن يرشد الصبيّ ، ويبرأ المحجور عليه لسفهه وقلة تحصيله فى ذلك الوقت .

التاسعة — فإذا سُلّم المال إليه بوجود الرشد ، ثم عاد الى السفه بظهور تبذير وقلة تدبير عاد اليه الحجر عندنا ، وعند الشافعى فى أحد قوليه . وقال أبو حنيفة : لا يعود لأنه بالغ عاقل؛ بدليل جواز إقراره فى الحدود والقصاص. ودليلنا قوله تعالى: « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » وقال تعالى : « فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا

أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ» ولم يفرق بين أن يكون محجورا سفيها أو يطرأ ذلك عليه بعد الإطلاق .

العاشـــرة — ويجوز للوصيّ أن يصنع في مال اليتيم ما كان للأب أن يصنعه من تجارة وبضاعة وشراء وبيع . وعليه أن يؤدّى الزكاة من سائر أمواله : عَيْنٍ وحَرْث وماشية وفِطْر . ويؤدّى عنه أُروش الجنايات وقِيَمَ المتلفات ، ونفقةَ الوالدين وسائرَ الحقوق اللازمة . ويجوز أن يزوّجه ويؤدّى عنه الصداق، ويشترى له جارية يتسرّى بهـا، ويصالح له وعليه على وجه النظر له . وإذا قضى الوصيّ بعض الغرماء وبَقِىَ من المـال بقيّة تفِى ما عليه من الدّين كان فعل الوصيّ جائزا . فإن تلِف باقى المـال فلا شىء لباقى الغرماء على الوصيّ ولا على الذين ٱقتضوا . وإن اقتضى الغرماء جميـع المـال ثم أتى غرماء آخرون فإن كان عالمـا بالدّين الباقى ، أو كان الميت معروفا بالدين الباقى ضمن الوصيّ لهؤلاء الغرماء ما كان يصيبهم فى المحاصّـة، ورجع على الذين اقتضوا دينهم بذلك . وإن لم يكن عالمـا ، ولا كان الميت معروفا بالدين فلا شىء على الوصيّ . وإذا دفع الوصيّ دين الميت بغـير إشهاد ضمن . وأما إن أشهد وطال الزمان حتى مات الشهود فلا شىء عليـه . وقد مضى فى البقرة[1] عند قوله تعـالى : « وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ » من أحكام الوصى فى الإنفاق وغيره ما فيه كفاية، والحمد لله .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ ليس يريد أن أكل مالهم من غير إسراف جائز، فيكون له دليـل خطاب، بل المراد ولا تأكلوا أموالهم فإنه إسراف . فنهى الله سبحانه وتعالى الأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم ، على ما يأتى بيانه . والإسراف فى اللغة الإفراط ومجاوزة الحدّ . وقد تقدّم فى آل عمران[2] . والسرف الخطأ فى الإنفاق . ومنه قول الشاعر[3] :

أَعطَوْا هُنَيْـدَةَ يحدُوها ثمـانيةٌ * ما فى عطائهمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

أى ليس يخطئون مواضع العطاء . وقال آخر :

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٣١ طبعة أولى أو ثانيـة .
(٣) البيت لجرير يمدح بنى أمية . وهنيدة : اسم لكل مائة من الإبل .

وقال قائلهم والخيل تخبطهم * أسرفتمُ فأجبنا أننا سرف

قال النضر بن شُميل : السرف التبذير ، والسرف الغفلة . وسيأتي لمعنى الإسراف زيادة بيان في « الأنعام » إن شاء الله تعالى[1] . ﴿ وَبِدَارًا ﴾ معناه ومبادرة كِبرهم ، وهو حال البلوغ . والبِدار والمبادرة كالقتال والمقاتلة . وهو معطوف على « إسرافا » . و﴿ أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ في موضع نصب ببدارا ، أي لا تستغنم مال محجورك فتأكله وتقول أبادر كِبره لئلا يرشد ويأخذ ماله ؛ عن ابن عباس وغيره .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ الآية . بيّن الله تعالى مايحل لهم من أموالهم ؛ فأمر الغنيّ بالإمساك وأباح للوصيّ الفقير أن يأكل من مال وَلِيّه بالمعروف. يقال : عَفّ الرجل عن الشيء واستعفّ إذا أمسك . والاستعفاف عن الشيء تركه . ومنه قوله تعالى : « وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا » . والعِفة : الامتناع عما لا يحل ولا يجب فعله . روى أبو داود من حديث حسين المعلّم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم . قال فقال : "كُلْ من مال يتيمك غيرَ مُسرف ولا مبادِر ولا متأثّل[2]" .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء مَن المخاطب والمراد بهذه الآية ؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة في قوله تعالى : « وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » قالت : نزلت في وليّ اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجا جاز أن يأكل منه . في رواية : بقدر ماله بالمعروف . وقال بعضهم : المراد اليتيم إن كان غنيا وُسّع عليه وأعفّ من ماله ، وإن كان فقيرا أنفق عليه بقدره ؛ قاله ربيعة ويحيى بن سعيد . والأوّل قول الجمهور وهو الصحيح ؛ لأن اليتيم لا يخاطَب بالتصرّف في ماله لصغره ولسفهه . والله أعلم .

الرابعة عشرة — واختلف الجمهور في الأكل بالمعروف ما هو ؛ فقال قوم : هو القرض إذا احتاج ويقضي إذا أيسر؛ قاله عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة وابن جُبير والشّعبيّ

(١) في المسألة الثالثة والعشرين من تفسير قوله تعالى : «وهو الذي أنشأ جنات معروشات» آية ١٤١
(٢) متأثل : جامع ؛ يقال : مال مؤثل أي مجموع ذو أصل .

ومجاهد وأبو العالية، وهو قول الأوزاعى. ولا يتسلف أكثر من حاجته. قال عمر : ألَا إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة الوَلِىّ من مال اليتيم، إنِ ٱستغنيتُ ٱستعففتُ، و إن ٱفتقرتُ أكلت بالمعروف، فاذا أيسرتُ قضيت . روى عبد الله بن المبارك عن عاصم عن أبى العالية « وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » قال قرضا — ثم تلا « فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِـمْ » . وقول ثان رُوى عن إبراهيم وعطاء والحسن البصرى والنخعى وقتادة : لا قضاء على الوصىّ الفقير فيما يأكل بالمعروف، لأن ذلك حقّ النظر، وعليه الفقهاء . قال الحسن : هو طعمة من الله له ؛ وذلك أنه يأكل ما يسدّ جوعته ، ويكسى ما يستر عورته، ولا يلبس الرفيع من الكتّان ولا الحُلل . والدليل على صحة هـذا القول إجماعُ الأمة على أن الإمام الناظر للسلمين لا يجب عليـه غُرم ما أكل بالمعروف؛ لأن الله تعالى قد فرض سهمه فى مال الله . فلا حجة لهم فى قول عمـر : فإذا أيسرتُ قضيتُ — أن لو صح . وقد رُوى عن ابن عباس وأبى العالية والشعبى أن الأكل بالمعروف هو كالانتفاع بألبان المواشى ، واستخدام العبيد، وركوب الدواب إذا لم يضرّ بأصل المـال؛ كما يهنأ الجَرْباء(١)، ويَنْشُد الضالّة، ويلُوط(٢) الحوض، ويجُذّ الثمر . فأما أعيان الأموال وأصـولها فليس للوصىّ أخذها . وهذا كله يخرج مع قول الفقهاء : إنه يأخذ بقدر أجر عمله ؛ وقالت به طائفـة وأن ذلك هو المعروف ، ولا قضـاء عليه ، والزيادة على ذلك محرّمة . وفرق الحسن بن صالح بن حىّ — ويقال ابن حيان — بين وصىّ الأب والحاكم؛ فلوصىّ الأب أن يأكل بالمعروف ، وأما وصىّ الحاكم فلا سبيل له إلى المـال بوجه ؛ وهو القول الثالث . وقول رابع رُوى عن مجاهد قال : ليس له ان يأخذ قرضـا ولا غيره . وذهب إلى أن الآية منسوخة، نسخها قوله تعـالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ» وهذا ليس بتجارة . وقال زيد بن أسلم : إن الرخصـة فى هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلْمًا » الآية . وحكى بشر بن الوليد عن أبى يوسف قال: لا أدرى، لعل هذه الآية

---

(١) هنأ الإبل : طلاها بالهناء، وهو ضرب من القطران . (٢) لاط الحوض : طلاه بالطين وأصلحه .

منسوخةٌ بقوله عز وجل : « يأيها الذين أمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم » . وقول خامس — وهو الفرق بين الحضر والسفر؛ فيُمنع إذا كان مقيما معه فى المصر . فإذا احتاج أن يسافر من أجله فله أن يأخذ ما يحتاج إليه ، ولا يقتنى شيئا ؛ قاله أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد. وقول سادس — قال أبو قِلَابة : فليأكل بالمعروف مما يَجنِي من الغَلّة ؛ فأما المال الناضّ (١) فليس له أن يأخذ منه شيئا قرضا ولا غيره . وقول سابع — روى عِكرمة عن ابن عباس « وَمَنْ كَانَ فقيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمعروفِ » قال : إذا احتاج وٱضطر . وقال الشعبيّ : كذلك إذا كان منه بمنزلة الدم ولحم الخنزير أخذ منه ؛ فإن وَجد أوفَى. قال النحاس : وهذا لا معنى له ؛ لأنه إذا ٱضطر هذا الاضطرار كان له أخذ ما يُقيمه من مال يتيمه أو غيره من قريب أو بعيد . وقال ابن عباس أيضا والنَّخَعيّ : المراد أن يأكل الوصيّ بالمعروف من مال نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم؛ فيستعفف الغنيّ بغناه ، والفقير يقتّر على نفسه حتى لا يحتاجَ إلى مال يتيمه . قال النحاس : وهذا من أحسن ما روى فى تفسير الآية؛ لأن أموال الناس محظورةٌ لا يُطلق شيء منها إلا بحجة قاطعة .

قلت : وقد اختار هذا القولَ الكِيَا الطّبريّ فى أحكام القرآن له ؛ فقال : « توهّم متوهّمون من السلف بحكم الاية أن للوصيّ أن يأكل من مال الصبى قدرا لا ينتهى إلى حدّ السرف، وذلك خلاف ما أمر الله تعالى به فى قوله : « لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ منكم » ولا يتحقق ذلك فى [مال] (٢) اليتيم . فقوله : « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ » يرجع إلى [أكل] (٢) مال نفسه دون مال اليتيم . فمعناه ولا تأكلوا أموال اليتيم مع أموالكم، بل ٱقتصروا على أكل أموالكم . وقد دل عليه قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا » . وبان بقوله تعالى : « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » الاقتصارُ على البُلْغة ، حتى لا يحتاجَ إلى أكل مال اليتيم ؛ فهذا تمام معنى الآية .

---

(١) الناضّ : الدرهم والدينار عند أهل الحجاز؛ وسمى ناضًّا إذا تحول عينا بعد أن كان متاعا .

(٢) زيادة عن أحكام القرآن للكيا الطبرى .

فقد وجدنا آيات محكمات تمنع أكل مال الغير دون رضاه، سيما فى حق اليتيم . وقد وجدنا هذه الآية محتملة للمعانى فحملها على موجب الآيات المحكمات متعين » . فإن قال من ينصر مذهب السلف : إن القضاة يأخذون أرزاقهم لأجل عملهم للسلمين ، فهلا كان الوصىّ كذلك إذا عمل لليتيم ، ولم لا يأخذ الأجرة بقدر عمله ؟ . قيل له : اعلم أن أحدا من السلف لم يجوّز للوصىّ أن يأخذ من مال الصبى مع غنى الوصىّ ، بخلاف القـاضى ؛ فذلك فارق بين المسألتين . وأيضا فالذى يأخذه الفقهاء والقضاة والخلفاء القائمون بأمور الإسلام لا يتعيّن له مالك . وقد جعل الله ذلك المـال الضائع لأصناف بأوصاف، والقضاة من جملتهم، والوصىّ إنمـا يأخذ بعمـله مال شخص معيّن من غير رضاه ؛ وعمله مجهول وأجرته مجهولة وذلك بعيد عن الاستحقاق .

قلت : وكان شيخنا الإمام أبو العبـاس يقول : إن كان مال اليتيم كثيرا يحتاج إلى كبير قيام عليـه بحيث يشغل الولىّ عن حاجاته ومهماته فُرض له فيـه أجرُ عمله ، وإن كان تافها لا يشغله عن حاجاته فلا يأكل منه شيئا؛ غير أنه يستحب له شرب قليل اللبن وأكلُ القليل من الطعام والسمن، غير مضرّ به ولا مستكثر له ، بل على ما جرت العادة بالمسامحة فيه . قال شيخنا : وما ذكرته من الاجرة، ونيل اليسير من التمر واللبن كل واحد منهما معروف؛ فصلح حمل الآية على ذلك . والله أعلم .

قلت : والاحتراز عنه أفضل، إن شاء الله . وأما ما يأخذه قاضى القسمة ويسميه رسما ونهب أتباعه فلا أدرى له وجها ولا حِلاًّ ، وهم داخلون فى عموم قوله تعـالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا » .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أمر اللهُ تعالى بالإشهاد تنبيها على التحصين وزوالًا للتُّهم . وهذا الإشهاد مستحبّ عند طائفة من العلماء ؛ فإن القول قولُ الوصىّ لأنه أمين . وقالت طائفة : هو فرض ؛ وهو ظاهر الآية ، وليس بأمين فيقبل قوله كالوكيل إذا زعم أنه قـد ردّ ما دُفع إليه او المودع ، وإنما هو أمين للاب،

ومتى ائتمنه الأب لا يُقبل قولُه على غيره . ألا ترى أن الوكيل لو ادعى أنه قد دفع لزيد ما أمره به بعدالته لم يُقبل قوله إلا ببيّنة ؛ فكذلك الوصيّ . ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن جبير أن هذا الإشهاد إنما هو على دفع الوصيّ في يُسره ما استقرضه من مال يتيمه حالة فقره . قال عبيدة : هذه الآية دليل على وجوب القضاء على من أكل ؛ المعنى : فإذا اقترضتم أو أكلتم فأشهدوا إذا غرمتم . والصحيح أن اللفظ يعم هذا وسواه . والظاهر أن المراد إذا أنفقتم شيئا على المُولَى عليه فأشهدوا ، حتى لو وقع خلاف أمكن إقامة البينة ؛ فإن كل مال قُبض على وجه الأمانة بإشهاد لا يبرأ منه إلا بالإشهاد على دفعه ؛ لقوله تعالى : « فَأَشْهِدُوا » فإذا دفع لمن دفع إليه بغير إشهاد فلا يحتاج في دفعها لإشهاد إن كان قبضها بغير إشهاد . والله أعلم .

السادسة عشرة — كما على الوصيّ والكفيل حفظ مال يتيمه والتثمير له ، كذلك عليه حفظ الصبيّ في بدنه . فالمال يحفظه بضبطه ، والبدن يحفظه بأدبه . وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[1] . وروى أن رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن في حجري يتيما أآكل من ماله ؟ قال : " نعم غير متأثّل[2] مالًا ولا واقٍ مالكَ بماله " . قال : يارسول الله ، أفأضربه ؟ قال : " ما كنتَ ضاربا منه ولدك " . قال ابن العربيّ : وإن لم يثبت مسندا فليس يجد أحد عنه مُلتحدًا[3] .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي كفى اللهُ حاسبًا لأعمالكم ومجازيا بها . ففي هذا وعيد لكل جاحد حق . والباء زائدة ، وهو في موضع رفع .

قوله تعالى : لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٢ ، طبعة أولى أو ثانية . (٢) متأثل : جامع .
(٣) الملتحد : منصرفا .

فيه خمس مسائل :

الأولى — لمّا ذكر الله تعالى أمر اليتامى وصَله بذكر المواريث . ونزلت الآية فى اوس ابن ثابت الأنصارى، تُوفِّىَ وترك آمرأة يقال لها أمّ كُجَّةَ وثلاثَ بنات له منها؛ فقام رجلان هما آبنا عم الميت ووَصِيّاه يقال لهما سُـويد وعَرْفَجَة؛ فأخذا ماله ولم يُعطيا آمرأته وبناته شيئا ، وكانوا فى الجاهلية لا يورِّثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا، ويقولون : لا يُعطَى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح ، وضارب بالسيف ، وحاز الغنيمة . فذكرت أمّ كُجَّة ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهما ، فقالا : يارسول الله، وَلدُها لا يركب فرسا، ولا يحمل كَلًّا ولا ينكأ عدوّا . فقال عليه السلام : "انصرفا حتى أنظر ما يُحدث الله لى فيهن" . فأنزل الله هــذه الآية رَدًّا عليهم ، وإبطالا لقولهم وتصرفهم بجهلهم ؛ فان الورثة الصغار كان ينبغى أن يكونوا أحقّ بالمـال من الكبار، لعدم تصرفهم والنظر فى مصالحهم ، فعكسوا الحكم، وأبطلوا الحكمة فضلّوا بأهوائهم، وأخطئوا فى آرائهم وتصرفاتهم .

الثانيـــة — قال علماؤنا : فى هذه الآية فوائدُ ثلاث : إحداها — بيان علّة الميراث وهى القرابة . الثانية — عموم القرابة كيفما تصرّفت من قريب أو بعيد . الثالثة — إجمال النصيب المفروض . وذلك مبيَّن فى آية المواريث ؛ فكان فى هذه الآية توطئةٌ للحكم، وإبطال لذلك الرأى الفاسد حتى وقع البيان الشافى .

الثالثـــة — ثبت أن أبا طلحة لمـا تصدّق بماله — بئر حاء — وذكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : "اجعلها فى فقراء أقاربك" فجعلها لحسّان وأُبَىّ . قال أنس : وكانا أقرب إليه منّى . قال أبو داود : بلغنى عن محمد بن عبد الله الأنصارى أنه قال : أبو طلحة الأنصارى زيد بن سهل بن الأســود بن حَرام بن عمرو بن زيد مَناة بن عَدِى بن عمرو بن مالك بن النجار . وحسان بن ثابت بن المنذر بن حَرام يجتمعان فى الأب الثالث وهو حرام . وأُبَىّ بن كعب بن قيس بن عُبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار . قال الأنصارى : بين أبى طلحة وأُبَىّ ستة آباء . قال : وعمرو بن مالك يجمع حسان وأُبَىّ بن كعب

وأبا طلحة . قال أبو عمر : فى هذا ما يقضى على القرابة أنها ما كانت فى هذا القُعْدُد ونحوه ، وما كان دونه فهو أحرى أن يلحقه آسم القرابة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ أثبت الله تعالى للبنات نصيبا فى الميراث ولم يبيِّن كم هو؛ فأرسل النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى سُويد وعَرْفَجَةَ ألّا يُفرّقا من مال أوْس شيئا ؛ فإن الله جعل لبناته نصيبا ولم يبيّن كم هو حتى أنظرَ ما ينزل ربُّنا . فنزلت « يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ » إلى قوله تعالى « الفَوْزُ العَظِيمُ » فأرسل إليهما أن أعطيا أمّ كُجّة الثُّمن مما ترك أوْس، ولبناته الثلثين، ولكما بقيّة المال .

الخامسة — استدلّ علماؤنا بهذه الآية فى قسمة المتروك على الفرائض إذا كان فيه تغيير عن حاله ، كالحمّام والبيت وبَدّ الزيتون والدار التى تبطل منافعها بإقرار أهل السهام فيها . فقال مالك : يقسم ذلك وإن لم يكن فى نصيب أحدهم ما ينتفع به ؛ لقوله تعالى : « مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا » . وهو قول ابن كنانة ، وبه قال الشافعيّ ، ونحوه قول أبى حنيفة . قال أبو حنيفة : فى الدار الصغيرة بين اثنين فطلب أحدهما القسمة وأبَى صاحبُه قسمت له . وقال ابن أبى لَيْلَى : إن كان فيهم من لا ينتفع بما قسم له فلا يقسم . وكلّ قسم يدخل فيه الضرر على أحدهما دون الآخر فإنه لا يقسم ؛ وهو قول أبى ثور . قال ابن المنذر : وهو أصح القولين . ورواه ابن القاسم عن مالك فيما ذكر ابن العربيّ . قال ابن القاسم : وأنا أرى أن كل ما لا ينقسم من الدُّور والمنازل والحمامات ، وفى قسمته الضرر ولا ينتفع به إذا قسم أن يباع ولا شُفعة فيه ؛ لقوله عليه السلام . "الشفعة فى كل ما لا يقسم فإذا وقعت الحدود فلا شفعة" . فجعل عليه السلام الشفعة فى كل ما يتأتّى فيه إيقاع الحدود . وعلّق الشفعة فيما لم يقسم مما يمكن إيقاع الحدود فيه . هذا دليل الحديث .

قلت : ومن الحجة لهذا القول ما خرّجه الدّارَقُطْنِيّ من حديث ابن جُريج أخبرنى صُدَيق ابن موسى عن محمد بن أبى بكر عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تَعْضِيَة

على أهل الميراث إلا ما حَمَل القَسْم" . قال أبو عبيد : هو أن يموت الرجل ويدَع شيئا إن قُسم بين ورثته كان فى ذلك ضرر على جميعهم أو على بعضهم . يقول : فلا يقسم؛ وذلك مثل الجوهرة والحمام والطّيلسان وما أشبه ذلك . والتّعضِيَة التفريق ؛ يقال : عَضّيت الشيء إذا فرقته . ومنه قوله تعـالى : « الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ » . وقال تعالى : « غَيْرَ مُضَارٍّ » فنفى المضارة . وكذلك قال عليه السلام : "لا ضَرَر ولا ضِرَار" . وأيضا فإن الآية ليس فيها تعرّض للقسمة ، وإنمـا اقتضت الآية وجوب الحظ والنصيب للصـغير والكبير قليلا كان أو كثيرا، ردًّا على الجاهلية فقال : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ » « لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ » وهذا ظاهر جدا . فأما إبراز ذلك النصيب فإنما يؤخذ من دليل آخر؛ وذلك بأن يقول الوارث : قد وجب لى نصيبٌ بقول الله عز وجل فمكّنونى منه ؛ فيقول له شريكه : أما تمكينك على الاختصاص فلا يمكن ؛ لأنه يؤدّى إلى ضرر بينى وبينك من إفساد المـال ، وتغيير الهيئـة ، وتنقيص القيمـة ؛ فيقع التّرجيح . والأظهر سـقوط القسمة فيما يُبطل المنفعـة وينقص المـال مع ما ذكرناه من الدّليل . والله الموفّق .

قال الفرّاء : «نَصِيباً مَفْرُوضًا» هو كقولك : قسما واجبا ، وحقًّا لازمًا؛ فهو آسم فى معنى المصدر فلهذا انتصَب . الزّجاج : آنتصَب على الحال . أى لهؤلاء أنصباء فى حال الفَرْض . الأخفش : أى جعل الله ذلك لهم نصيبًا . والمفروض : المقدّر الواجب .

قوله تعـالى : وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ بيّن الله تعالى أن من لم يستحق شيئا إرثًا وحَضَر القسمة، وكان من الأقارب أو اليتامى والفقراء الذى لا يرثون أن يُكرَموا ولا يُحرَموا ، إن كان المـال كثيرا ؛ والاعتذار إليهم إن كان عَقـارا أو قليـلا لا يقبل الرَّضْخ[1] . وإن كان عطاء من القليل ففيه أجرٌ عظيم ؛

(١) الرضخ هنا : العطاء .

درهم يتسبق مائة ألف . فالآية على هذا القول مُحْكَمَة ؛ قاله ابن عباس . وامتثل ذلك جماعة من التابعين : عروة بن الزبير وغيره، وأمر به أبو موسى الأشعري . ورُوى عن ابن عباس أنها منسوخة نسخها قوله تعالى « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ » . وقال سعيد ابن المسيِّب : نسخها آية الميراث والوصيّة . وممن قال إنها منسوخة أبو مالك وعكرمة والضحّاك . والأوّل أصح ؛ فإنها مبيِّنة استحقاق الورثة لنصيبهم ، واستحباب المشاركة لمن لا نصيب له ممن حضرهم . قال ابن جُبير : ضيّع الناس هذه الآية . قال الحسن : ولكن الناس شحّوا . وفى البخاريّ عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ » قال : هى محكمة وليست بمنسوخة . وفى روايةٍ قال : إن ناسا يزعمون أن هذه الآيةَ نُسخت، لا والله ما نسخت ! ولكنها مما تهاون بها، هما واليان : والٍ يرث وذلك الذى يرزق، ووالٍ لا يرث وذلك الذى يقول « بالمعروف » ويقول : لا أملك لك أن أُعطيَك . قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يَصِلُوا أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فان لم تكن وصيةٌ وَصَل لهم من الميراث . قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل فى الآية أن يكون على الندب والترغيب فى فعل الخير، والشكر لله عز وجل . وقالت طائفة : هذا الرَّضْخ واجب على جهة الفرض، تعطى الورثةُ لهذه الأصناف ما طابت به نفوسهم، كالماعون والثوب الخَلَق وما خفّ . حكى هذا القولَ ابنُ عطية والقُشيريّ . والصحيح أن هذا على الندب ؛ لأنه لو كان فرضا لكان استحقاقا فى التركة ومشاركةً فى الميراث ؛ لأحد الجهتين معلوم وللآخر مجهول . وذلك مناقض للحكمة ، وسبب للتنازع والتقاطع . وذهبت فرقة إلى أن المخاطَبَ والمرادَ فى الاية المحتضَرون الذين يقسمون أموالهم بالوصية لا الورثة . ورُوى عن ابن عباس وسعيد بن المسيّب وابن زيد . فإذا أراد المريض أن يفرّق ماله بالوصايا وحضره من لا يرث ينبغى له ألّا يحرمه . وهذا — والله أعلم — يتنزّل حيث كانت الوصيةُ واجبةً، ولم تنزل آية الميراث . والصحيح الأول وعليه المعوّل .

الثانيـــة – فإذا كان الوارث صغيرا لا يتصرّف فى ماله؛ فقالت طائفة : يُعطى وليّ الوارث الصغيرَ من مال محجوره بقدر ما يرى . وقيل : لا يعطى بل يقول لمن حضر القسمة : ليس لى شىء من هذا المـال إنما هو لليتيم، فإذا بلغ عرّفتُه حقّكم . فهذا هو القول المعروف . وهـذا إذا لم يُوص الميت له بشىء؛ فإن أوصى يصرف له ما أوصى . ورأى عَبيدة ومحمد ابن سيرين أن الرزق فى هـذه الآية أن يصنع لهم طعاما يأكلونه؛ وفعلَا ذلك، ذَبحَا شاة من التركة، وقال عبيدة : لولا هذه الآية لكان هذا من مالى . وروى قَتادة عن يحيى بن يَعْمَر قال : ثلاثٌ مُحْكَمَات تركهن الناس : هـذه الآية، وآية الاستئذان « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الذين مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »، وقوله : « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » .

الثالثـــة – قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ ﴾ الضمير عائد على معنى القسمة، إذ هى بمعنى المـال والميراث؛ لقوله تعالى : « ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ » أى السقاية؛ لأن الصُّواع مذكّر . ومنه قوله عليه السلام : ”واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب“ فأعاد مذكّرا على معنى الدعاء . وكذلك قوله لسُويد بن طارق الجُعْفِيّ حين سأله عن الخمر ”إنه ليس بدواء ولكنه داء“ فأعاد الضمير على معنى الشراب . ومثـله كثير . يقال : قاسمه المـالَ وتقاسماه واقتسماه، والاسم القِسمة مؤنثة؛ والقَسْم مصـدر قسمت الشىء فآنقسم، والموضع مَقْسِم مثل مجلِس، وتقسّمهم الدهر فتقسّموا، أى فرّقهم فتفرّقوا . والتقسيم التفريق . والله أعلم .

الرابعـــة – قوله تعـالى : ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال سعيد بن جبير : يقال لهم خذوا بورِك لكم . وقيل : قولوا مع الرزق وددت أن لو كان أكثر من هـذا . وقيـل : لا حاجة مع الرزق إلى عذر، نعم إن لم يُصرف إليهم شىء فلا أقـلّ من قول جميـل ونوع اعتذار .

قوله تعـالى : وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ﴾ حذفت الألف من « ليَخش » للجزم بالأمر ، ولا يجوز عند سيبويه إضمار لام الأمر قياسا على حروف الجر إلا في ضرورة الشعر . وأجاز الكوفيون حذف اللام مع الجزم؛ وأنشد الجميع :

مُحمدُ تَفْدِ نفسَك كلُّ نفس * إذا ما خِفْتَ من شيء تَبَالا

أراد لتَفْد، ومفعول «يخش» محذوف لدلالة الكلام عليه . و ﴿ خَافُوا ﴾ جواب «لو» . التقدير لو تركوا لخافوا . ويجوز حذف اللام في جواب «لو» . وهذه الآية قد اختلف العلماء في تأويلها؛ فقالت طائفة : هذا وَعظٌ للأوصياء، أي آفعلوا باليتامى ما تُحبّون أن يُفعل بأولادكم من بعدكم؛ قاله ابن عباس . ولهذا قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا » . وقالت طائفة : المراد جميع الناس، أمرهم بآتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس ؛ وإن لم يكونوا في حجورهم . وأن يُسدّدوا لهم القول كما يريد كل واحد منهم أن يُفعل بولده بعده . ومن هذا ماحكاه الشيبانيّ قال : كنا على قُسْطَنْطِينِيّة في عسكر مَسْلَمة بن عبد الملك، فجلسنا يوما في جماعة من أهل علم فيهم آبن الدَّيْلَميّ، فتذاكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان . فقلت له : يا أبا بشر، وُدّي ألّا يكون لي ولد . فقال لي : ما عليك! مامن نَسَمة قضى الله بخروجها من رجل إلا خرجت، أحَبّ أو كَرِه، ولكن إن أردت أن تأمن عليهم فآتق الله في غيرهم؛ ثم تلا الآية . وفي رواية : ألَا أدلّك على أمر إن أنت أدركته نجّاك الله منه ، وإن تركتَ ولدا من بعدك حفظهم الله فيك ؛ فقلت : بلى ! فتلا هذه الآية « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا » إلى آخرها .

قلت : ومن هذا المعنى ما روى محمد بن كعب القُرَظيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مَن أحسن الصدقة جاز على الصراط ومن قضى حاجة أرْمَلة أخلف الله في تركته" . وقول ثالث قاله جمع من المفسرين : هذا في الرجل يحضره الموت فيقول له من بحضرته عند وصيته : إن الله سيرزق ولدك فآنظر لنفسك، وأوْص بمالك في سبيل الله، وتصدّق وأعتق . حتى يأتي على عامّة ماله أو يستغرقه فيضرّ ذلك بورثته؛ فنُهوا عن ذلك .

فكأن الآية تقول لهم كما تخشون على ورثتكم وذريتكم بعدكم، فكذلك فٱخشوْا على ورثة غيركم ولا تحملوه على تبذير ماله؛ قاله ابن عباس وقَتادة والسُّدّى وابن جُبير والضحاك ومجاهد. روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس أنه قال: إذا حضر الرجل الوصيّةَ فلا ينبغى أن يقول أوْصِ بمالك فإن الله تعالى رازق ولدك، ولكن يقول قدّم لنفسك واترك لولدك. فذلك قوله تعالى: « فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ ». وقال مِقْسَم وحضْرَمِىّ: نزلت فى عكس هذا، وهو أن يقول للمحتضَر مَن يحضره أمسك على ورثتك، وأبقِ لولدك فليس أحد أحقّ بمالك من أولادك، وينهاه عن الوصية، فيتضرر بذلك ذَوو القربى وكل من يستحق أن يُوصَى له؛ فقيل لهم: كما تخشوْن على ذريتكم وتُسَرّون بأن يحسن إليهم، فكذلك سدِّدوا القول فى جهة المساكين واليتامى، واتقوا الله فى ضررهم. وهذان القولان مبنيان على وقت وجوب الوصية قبل نزول آية المواريث؛ رُوى عن سعيد بن جبير وابن المسيّب. قال ابن عطية: وهذان القولان لا يطّرد كل واحد منهما فى كل الناس، بل الناس صنفان؛ يصلح لأحدهما القولُ الواحد، ولآخرَ القولُ الثانى. وذلك أن الرجل إذا ترك ورثته مستقلين بأنفسهم أغنياء حسُن أن يندب إلى الوصية، ويُحمَل على أن يقدّم لنفسه. وإذا ترك ورثةً ضعفاء مُهمَلين مقلّين حسُن أن يندب إلى الترك لهم والاحتياط. فإنّ أجره فى قصد ذلك كأجره فى المساكين؛ فالمراعاة إنما هو الضعف فيجب أن يمال معه.

قلت: وهذا التفصيل صحيح؛ لقوله عليه السلام لسعد: "إنك إنْ تَذَر ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكفّفون الناس". فإذا لم يكن للإنسان ولد، أو كان وهو غنىّ مستقلّ بنفسه وما له عن أبيه فقد أمن عليه؛ فالأولى بالإنسان حينئذ تقديمُ ماله بين يديه حتى لا ينفقه مَن بعده فيما لا يصلح، فيكون وزره عليه.

الثانية — قوله تعالى: ﴿ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ السديد: العدل والصواب من القول؛ أى مُرُوا المريض بأن يُخرج من ماله ما عليه من الحقوق الواجبة، ثم يوصى لقرابته بقدرٍ لا يضرّ بورثته الصغار. وقيل: المعنى قولوا للميت قولا عدلا، وهو أن يلقنه

بلا إله إلا الله ، ولا يأمره بذلك ، ولكن يقول ذلك في نفسه حتى يسمع منـه ويتلقّن . هكذا قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم "لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله" ولم يقـل مُرُوهم ؛ لأنه لو أمر بذلك لعلّه يغضَب ويجحد . وقيل : المراد اليتيم ؛ أي لا تنهروه ولا تستخفّوا به .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْـوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾ رُوى أنها نزلت في رجل من غَطَفانَ يقال له مَرْثَد بن زيد وَلِيَ مالَ ابنِ أخيه وهو يتيم صغير فأكله ؛ فأنزل الله تعالى فيه هـذه الآية ؛ قاله مُقاتل بن حيّان . ولهذا قال الجمهور : إن المراد الأوصياء الذين يأكلون مالم يُبح لهم من مال اليتيم . وقال ابن زيد : نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورّثون النساء ولا الصغارَ . وسُمِّيَ أخذ المـال على كل وجوهه أكلًا لمـّا كان المقصود هو الأكل وبه أكثر إتلاف الأشياء . وخصّ البطون بالذكر لتبيين نقصهم ، والتشنيع عليهم بضدّ مكارم الأخلاق . وسُمِّيَ المأكول نارا بمـا يئول إليه ؛ كقوله : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أي عِنَبًا . وقيل : نارا أي حراما ؛ لأن الحرام يوجب النار ، فسمّاه الله تعالى باسمه . وروى أبو سعيد الخُدْرِىّ قال : حدّثنا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ليـلة أُسرِى به قال : "رأيت قوما لهم مشافِرُ كمشافر الإبل وقـد وُكِّلَ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعـل في أفواههم صخرا من نار يخرج من أسافلهم فقلت ياجبريل من هؤلاء قال هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما" . فدلّ الكتاب والسُّنّة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر . وقال صلى الله عليه وسـلم : "اجتنبوا السبعَ المُوبِقات" وذكر فيها "وأكل مال اليتيم" .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَـعِيرًا ﴾ وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية ابن عباس بضم الياء على اسم ما لم يُسمّ فاعله ؛ من أصلاه الله حَرّ النار إصلاء . قال الله تعـالى : «سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» . وقرأ أبو حَيْوَة بضمّ الياء وفتح الصاد وتشديد اللام من التَّصْلية لكثرة الفعل

مرة بعد أخرى . دليله قوله تعالى : « ثم الْجَحِيمَ صَلُّوهُ » . ومنه قولهم : صلّيته مرّة بعد أخرى .
وتصلّيت : استدفأت بالنار . قال :

وقـد تصلّيتُ حَرَّ حَرْبهـم * كما تَصَلَّى المقرورُ من قَرَسِ(١)

وقرأ الباقون بفتح الياء من صَلِيَ النارَ يصلاها صَلًى وصِلاءً . قال الله تعالى : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى » . والصِّلاء هو التسخن بقرب النار أو مباشرتها ؛ ومنه قول الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُناتهـا عَلِمَ اللّـ * ـهُ وإنّي لحرّها اليومَ صالِ

والسعير : الجمر المشتعل .

الثالثــة — وهذه آية من آيات الوعيد ، ولا حجة فيهـا لمن يكفر بالذنوب . والذى يعتقده أهل الســنة أن ذلك نافذ على بعض العصاة فيصلى ثم يحترق و يموت ؛ بخلاف أهل النار لا يموتون ولا يَحْيَوْن ، فكأن هــذا جمع بين الكتاب والسـنة ، لئلا يقع الخبر فيهما على خلاف مخبَره . ساقطٌ بالمشيئة عن بعضهم ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وهكذا القول فى كل مايرد عليك من هــذا المعنى . روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن ولكن ناسٌ أصابتهم النـار بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فَحْمًا أُذِن بالشفاعة فجىء بهم ضَبائرَ ضَبائرَ(٢) فبُثُّوا على أنهار الجنة ثم قيـل يأهل الجنة أَفِيضوا عليهم فينبُتون كما تَنْبُت الحِبَّةُ(٣) فى حَمِيل السَّيْل(٤)". فقال رجل من القوم كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان بالبادية .

قوله تعـالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ

(١) قرس المقرور: إذا لم يستطع عملا بيده من شدّة الخصر. والخصر (بالتحريك) : البرد يجده الإنسان فى أطرافه.
(٢) الضبائر : الجماعة فى تفرقة . (٣) الحبة (بالكسر) : بذور الصحراء ممـا ليس بقوت .
(٤) حميل السيل : ما يحمل من الغثاء والطين .

فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

فيه خمس وثلاثون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ بيّن تعالى فى هذه الاية ما أجمله فى قوله : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ » و « لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ » فدلّ هذا على جواز تأخير البيان عن وقت السؤال . وهذه الآية ركن من أركان الدين ، وعُمدة من عُمَد الأحكام ، وأمّ من أمّهات الآيات ؛ فإن الفرائض عظيمةُ القدر حتى أنها ثلث العلم ، وروى نصف العلم . وهو أوّل علم ينزع من الناس ويُنْسَى . رواه الدَّارَقُطْنِيّ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله

عليه وسـلم قال : " تَعلّمُوا الفرائض وعَلّموها الناسَ فإنه نصف العـلم وهو أوّل شيء يُنسَى وهو أوّل شيء ينتزع من أمتي " . وروى أيضا عن عبد الله بن مسعود قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلّموا القرآن وعلّموه الناس وتعلّموا الفرائض وعلّموها الناس وتعلّموا العلمَ وعلّموه الناسَ فإني آمرؤ مقبوض وإنّ العلم سيقبض وتظهر الفِتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يَفصِل بينهما " . وإذا ثبت هذا فاعلم أن الفرائض كان جلّ علم الصحابة، وعظيمَ مناظرتهم، ولكنّ الخلق قد ضيّعوه . وقد روى مُطَرِّف عن مالك قال عبدالله ابن مسعود : من لم يتعلّم الفرائض والطلاقَ والحجّ فيم يفضل أهل البادية ؟ وقال آبن وهب عن مالك : كنت أسمع ربيعة يقول مَن تعلّم الفرائض من غيرعلم بهـا من القرآن ما أسرعَ ما ينساها . قال مالك : وصدق .

الثانيــة — روى أبو داود والدَّارَقُطْنِيّ عن عبـد الله بن عمرو بن العاص أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العلم ثلاثةٌ وما سِوى ذلك فهو فضلٌ : آيةٌ مُحْكَمَةٌ أو سُنّةٌ قائمةٌ أوفريضة عادلة " . قال الخَطّابِيّ أبو سليمان : الآية المُحْكَمَة هي كتاب الله تعالى، واشترط فيها الإحكام ؛ لأن من الآي ما هو منسوخ لا يُعمَل به ، وإنمـا يُعمل بناسخه . والسـنة القائمة هي الثابتة ممـا جاء عنه صلى الله عليه وسلم من السنن الثابتة . وقوله : " أو فريضة عادلة " يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما — أن يكون من العـدل في القسمة ؛ فتكون معـدّلةً على الأنصباء والسّهام المذكورة في الكتاب والسنة . والوجه الآخر — أن تكون مستنبطةً من الكتاب والسـنة ومن معناها؛ فتكون هـذه الفريضة تعدِل ما أُخذ من الكتاب والسـنة إذ كانت في معنى ما أخذ عنهما نَصًّا . روى عِكرِمة قال : أرسـل ابن عباس إلى زيد بن ثابت يسأله عن آمرأة تركت زوجها وأبويها . قال : للزوج النصف، وللأمّ ثلث ما بقي . فقال : تجده في كتاب الله أو تقوله برأي ؟ قال : أقوله برأي؛ لا أفضل أُمًّا على أبٍ . قال أبو سليمان : فهـذا من باب تعديل الفريضة إذا لم يكن فيها نص ؛ وذلك أنه اعتبرها بالمنصوص عليه ، وهو قوله تعالى : « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ » . فلما وجد نصيب الأم الثلث ، وكان باقي

المـال وهو الثلثان للأب ، فاس النصف الفاضلَ من المـال بعد نصيب الزوج على كل المـال إذا لم يكن مع الوالدين ٱبنٌ أو ذو سَهْم ؛ فقسمه بينهما على ثلاثة ، للأم سهم وللأب سهمان وهو الباقى . وكان هذا أعدل فى القسمة من أن يعطى الأمّ من النصف الباقى ثلث جميع المـال ، وللأب ما بقى وهو السدس ، ففضّلها عليه فيكون لها وهى مفضولة فى أصل الموروث أكثر مما للأب وهو المقدّم والمفضَّلُ فى الأصل . وذلك أعدل مما ذهب إليه ابن عباس من توفير الثلث على الأمّ ، وبَخْسِ الأبِ حقّه بردّه إلى السـدس ؛ فتُرِكَ قوله وصار عامّة الفقهاء إلى زيد . قال أبو عمر وقال عبـد الله بن عباس رضى الله عنـه فى زوج وأبوين : للزوج النصف ، وللأم ثلث جميع المـال ، وللأب ما بقى . وقال فى ٱمرأة وأبوين : للمرأة الربع ، وللأم ثلث جميع المـال ، والباقى للأب . وبهـذا قال شُريح القاضى ومحمد بن سِيرين وداود ابن علىّ ، وفرقة منهـم أبو الحسين محمـد بن عبـد الله الفَرَضى البصير المعروف بابن اللبان فى المسألتين جميعا . وزعم أنه قياس قولِ علىّ فى المشتركة . وقال فى موضع آخر : إنه قد روى ذلك عن علىّ أيضا . قال أبو عمر : المعروف المشهور عن علىّ وزيد وعبد الله وسائرِ الصحابة وعامّـة العلماء ما رسمـه مالك . ومن الحجـة لهم على ابن عباس : أن الأبوين إذا اشتركا فى الوراثة ، ليس معهما غيرهما ، كان للأم الثلث وللأب الثلثان . وكذلك إذا اشتركا فى النصف الذى يفضُل عن الزوج ، كانا فيه كذلك على ثلث وثلثين . وهذا صحيح فى النظر والقياس .

الثالثـة — وٱختلفت الروايات فى سبب نزول آية المواريث ؛ فروى الترمذىّ وأبو داود وابن ماجه والدَّارَقُطْنِىّ عن جابر بن عبد الله أن ٱمرأة سعد بن الربيع قالت : يا رسول الله ، إن سعدا هلك وترك ابنتين وأخاه ، فعمَد أخوه فقبض ما ترك سعد ، وإنما تُنكح النساء على أموالهن ؛ فلم يجبها فى مجلسها ذلك . ثم جاءته فقالت : يا رسول الله ، ابنتا سعد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أدع لى أخاه " فجاء فقال : " ادفع إلى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقى " . لفظُ أبى داود . فى رواية الترمذىّ وغيره : فنزلت آية الميراث . قال : هـذا حديث صحيح . وروى جابر أيضا قال : عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر

فى بنى سَـلِمة يمشيان، فوجدانى لا اعقل ، فدعا بمـاء فتوضأ ، ثم رشّ علىّ منـه فأفَقْتُ .
فقلت : كيف أصنع فى مالى يا رسول الله ؟ فنزلت « يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ » . أخرجاه فى الصحيحين . وأخرجه الترمذى وفيــه « فقلت يا نبىّ الله كيف أقسم مالى بين ولدىّ ؟ فلم يردّ علىّ شيئا فنزلت « يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ » الآية . قال : حديث حسن صحيح » . وفى البخارىّ عن ابن عباس أن نزول ذلك كان من أجل أن المـال كان للولد ، والوصـية للوالدَيْن ، فنُسخ ذلك بهـذه الآية . وقال مُقاتل والكَلْبىّ : نزلت فى أمّ كُجّة ، وقد ذكرناها . السُّدّى : نزلت بسبب بنات عبـد الرحمن بن ثابت أخى حسان ابن ثابت . وقيل : إن أهل الجاهلية كانوا لا يُوَرِّثون إلا من لاقَى الحروب وقاتل العدوّ ؛ فنزلت الآية تبيينا أن لكل صـغير وكبير حظّه . ولا يبعد أن يكون جوابا للجميع ، ولذلك تأخّر نزولها . والله أعلم . قال الكِيَا الطّبرى : وقد ورد فى بعض الآثار أن ما كانت الجاهلية تفعله من ترك توريث الصغير كان فى صدر الإسـلام إلى أن نسخته هذه الآية . ولم يثبت عندنا اشتمال الشريعة على ذلك، بل ثبت خلافه ؛ فإن هـذه الآية نزلت فى ورثة سعد بن الربيع . وقيـل : نزلت فى ورثة ثابت بن قيس بن شَمَّاس . والأوّل أصح عند أهل النقل . فاسترجع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم الميراث من العمّ ، ولو كان ذلك ثابتا من قبل فى شرعنا ما آسترجعه . ولم يثبت قطُّ فى شرعنا أن الصبىّ ما كان يُعْطَى الميراث حتى يقاتل على الفرس ويذبّ عن الحريم .

قلت : وكذلك قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : ودلّ نزول هذه الاية على نكتة بديعة ؛ وهو أنّ ما كانت الجاهلية تفعله من أخذ المـال لم يكن فى صدر الإسـلام شرعا مسكوتا مُقَرًّا عليــه ؛ لأنه لو كان شرعا مُقَرًّا عليه لمـا حكم النبىّ صلى الله عليــه وسلم على عمّ الصبيتّين بردّ ما أخذ من مالها ؛ لأن الأحكام إذا مضت وجاء النسخ بعدها إنمـا يؤثّر فى المستقبل فلا يُنقض به ما تقدّم وإنمـا كانت ظلامة رفعت (١) . قاله ابن العربى .

(١) فى ابن العربى : « وقعت » .

الرابعـة — قوله تعالى : « يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ » قالت الشافعية : قول الله تعالى « يوصيكم الله في أولادكم » حقيقةٌ فى أولاد الصُّلْب ، فأما ولد الابن فإنما يدخل فيه بطريق المجاز ؛ فإذا حلف لا ولد له وله ولد ابن لم يحنَث ؛ وإذا أوصى لولدِ فلان فلم يدخل فيه ولد ولده . وأبو حنيفة يقول : إنه يدخل فيه إن لم يكن له ولد صُلْب . ومعلوم أن الألفاظ لا تتغيّر بما قالوه .

الخامسـة — قال ابن المنـذر : لما قال تعالى « يوصيكم الله فِي أولادِكم » فكان الذى يجب على ظاهر الآية أن يكون الميراث لجميع الأولاد، المؤمنِ منهم والكافرِ؛ فلما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يرث المسلم الكافر " عُلِم أن الله أراد بعض الأولاد دون بعض ، فلا يرث المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ على ظاهر الحديث .

قلت : ولما قال تعالى : « فِي أولادِكم » دخل فيه الأسير فى أيدى الكفار؛ فإنه يرث ما دام تُعلم حياته على الإسلام . وبه قال كافة أهل العلم؛ إلا النَّخَعيّ فإنه قال : لا يرث الأسير . فأما إذا لم تعلم حياته فحكمه حكم المفقود . ولم يدخل فى عموم الآية ميراثُ النبيّ صلى الله عليه وسلم لقوله : " لا نُورَث ما تركناه صدقة " . وسيأتى بيانه فى « مريم » إن شاء الله تعالى . وكذلك لم يدخل القاتل عمدا لأبيه أو جَدّه أو أخيه أو عَمّه بالسُّنّة وإجماع الأمة، وأنه لا يَرِث من مال مَن قتله ولا من دِيَته شيئا؛ على ما تقدّم بيانه فى البقرة . فإن قتله خطأ فلا ميراث له من الدّية، ويرث من المال فى قول مالك ، ولا يرث فى قول الشافعيّ وأحمد وسفيان وأصحابِ الرأى من المال ولا من الدّية شيئا؛ حسبما تقدّم بيانه فى البقرة[1] . وقول مالك أصح، وبه قال إسحاق وأبو ثور . وهو قول سعيد بن المُسَيّب وعطاء بن أبى رَباح ومجاهد والزّهريّ والأوزاعى وابن المنذر ؛ لأن ميراث من ورّثه الله تعالى فى كتابه ثابت لا يستثنى منه إلا بسُنّة أو إجماع . وكل مختلَف فيه فمردود إلى ظاهر الآيات التى فيها المواريث .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٥٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

السادسة — اعلم أن الميراث كان يُستحَقّ فى أوّل الإسلام بأسباب ؛ منها الحِلْف والهجرة والمعاقدة، ثم نسخ على ما يأتى بيانه فى هذه السورة عند قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ »(1) إن شاء الله تعالى . وأجمع العلماء على أن الأولاد إذا كان معهم من له فرض مُسَمًّى أعطِيَه ، وكان ما بقى من المال للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لقوله عليه السلام : " ألحقوا الفرائض بأهلها " رواه الأئمة . يعنى الفرائض الواقعة فى كتاب الله تعالى . وهى ستة : النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس . فالنصف فرض خمسة : ابنة الصُّلْب ، وابنة الابن ، والأخت الشقيقة ، والأخت للأب ، والزوج . وكل ذلك إذا انفردوا عمن يحجبهنّ عنه . والربع فرض الزوج مع الحاجب، وفرض الزوجة والزوجات مع عدمه . والثمن فرض الزوجة والزوجات مع الحاجب . والثلثان فرض أربع : الاثنتين فصاعدا من بنات الصلب، وبنات الابن، والأخوات الأشقاء، أو للأب. وكل هؤلاء إذا انفردن عمن يحجبهن عنه . والثلث فرض صنفين : الأم مع عدم الولد ، وولد الابن وعدم الاثنين فصاعدا من الإخوة والأخوات ، وفرض الاثنين فصاعدا من ولد الأم . وهذا هو ثلث كل المال . فأما ثلث ما يبقى فذلك للأم فى مسألة زوج أو زوجة وأبوان؛ فللأم فيها ثلث ما يبقى . وقد تقدّم بيانه . وفى مسائل الجدّ مع الإخوة إذا كان معهم ذو سهم وكان ثلث ما يبقى أحظى له . والسدس فرض سبعة : الأبوان والجدّ مع الولد وولد الابن ، والجدّة والجدّات إذا اجتمعن ، وبنات الابن مع بنت الصلب ، والأخوات للأب مع الأخت الشقيقة ، والواحد من ولد الأم ذكرا كان أو أنثى . وهذه الفرائض كلها مأخوذة من كتاب الله تعالى إلا فرض الجدّة والجدّات فإنه مأخوذ من السنة . والأسباب الموجبة لهذه الفروض بالميراث ثلاثة أشياء : نَسَبٌ ثابت ، ونكاح منعقد ، وولاءُ عَتَاقة . وقد تجتمع الثلاثة الأشياء فيكون الرجل زوجَ المرأة ومولاها وابنَ عمّها . وقد يجتمع فيه منها شيئان لا أكثر، مثل أن يكون زوجها ومولاها، أو زوجَها وابنَ عمها؛ فيرث بوجهين ويكون له جميع المال إذا انفرد، نصفه

(1) آية ٣٣

بالزوجية ونصفه بالولاء أو بالنسب . ومثل أن تكون المرأة ٱبنـةَ الرجل ومولاته ، فيكون لها أيضا جميع المـال إذا انفردت ، نصفه بالنسب ونصفه بالولاء .

السابعـــة — ولا ميراث إلا بعـد أداء الدَّين والوصيـة ؛ فإذا مات المُتوفَّى أخرج من تركته الحقوق المعيَّنات ، ثم ما يلزم من تكفينه وتقبيره ، ثم الديون على مراتبها ، ثم يُخرج من الثلث الوصايا ، وما كان فى معناها على مراتبها أيضا ، ويكون الباقى ميراثا بين الورثة . وجملتهم سبعة عشر . عشرة من الرجال : الابن وٱبن الآبن وإن سفل ، والأب وأب الأب وهو الجدّ وإن علا ، والأخ وٱبن الأخ ، والعمّ وٱبن العمّ ، والزوج ومولى النّعمة . ويرث من النساء سبع : البنت وبنت الابن وإن سفلت ، والأم والجدّة وإن علت ، والأخت والزوجة ، ومولاة النّعمة وهى المعتِقة . وقد نظمهم بعض الفضلاء فقال :

والوارثون إن أردت جَمْعَهم * مع الإناث الوارثات معهم
عشرة من جملة الذُّكرانِ * وسبع أشخاص من النّسوانِ
وهم وقد حصرتهم فى النظمِ * الآبنُ وابنُ الآبنِ وٱبنُ العمِّ
والأب منهم وهْوَ فى الترتيبِ * والجَدّ من قَبل الأخِ القريبِ
وٱبن الأخ الأدنى أجَلْ والعَمُّ * والزوج والسـيِّد ثمّ الأَمُّ
وٱبنة الآبن بعـدها والبنتُ * وزوجة وجَدّة وأختُ
والمرأة المولاة أعنى المُعْتِقه * خذها إليـك عِدةً مُحقّقه

الثامنـــة — لمـا قال تعالى : « فِى أَوْلَادِكُمْ » يتناول كلَّ ولد كان موجودا أو جنينـا فى بطن أمه ، دِنْيا او بعيدا ، من الذكور أو الإناث ما عدا الكافر كما تقدّم . قال بعضهم : ذلك حقيقـةٌ فى الأَدْنَين مجازٌ فى الأبعدين . وقال بعضهم : هو حقيقة فى الجميع ؛ لأنه من التولد غير أنهـم يرثون على قدر القرب منهم ؛ قال الله تعـالى : « يَا بَنِى آدَمَ » . وقال عليه السلام : "أنا سيّد ولد آدم" . وقال : "يا بنى اسماعيل ٱرْموا فإن أباكم كان راميا" إلا أنه غلب عرف الاستعمال فى إطلاق ذلك على الأعيـان الأدنين على تلك الحقيقـة ؛ فإن كان

فى ولد الصلب ذَكَرٌ لم يكن لولد الولد شىء ، وهذا ممـا أجمع عليه أهل العلم . وإن لم يكن فى ولد الصّلب ذَكَر وكان فى ولد الولد بُدِئَ بالبنات للصلب ، فأعطين إلى مبلغ الثلثين ، ثم أعطى الثلث الباقى لولد الولد إذا اسـتوَوْا فى القُعْدُد ، أو كان الذَّكر أسـفلَ ممن فوقه من البنـات ، للذَّكَر مثلُ حظّ الأنثيين . هـذا قول مالك والشافعىّ وأصحابِ الرأى . وبه قال عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومَن بعـدهم ؛ إلا ما يروى عن ٱبن مسعود أنه قال : إن كان الذكر من ولد الولد بإزاء الولد الأنثى ردّ عليها ، وإن كان أسفلَ منهـا لم يردّ عليها ؛ مراعيا فى ذلك قولَه تعـالى : « فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ » فلم يجعل للبنات وإن كثرن إلا الثلثين .

قلت : هكذا ذكر ٱبن العربىّ هـذا التفصيل عن ٱبن مسعود ، والذى ذكره ٱبن المنذر والباجى عنـه : أن ما فضَل عن بنات الصُّلْب لبنى الٱبن دون بنـات الٱبن ، ولم يفصّلا . وحكاه ٱبن المنـذر عن أبى ثَور . ونحوه حكى أبو عمـر ، قال أبو عمـر : وخالف فى ذلك ٱبن مسعود فقال : وإذا استكمل البنات الثلثين فالباقى لبنى الٱبن دون أخواتهـم ، ودون مَن فوقهم من بنات الابن ، ومَن تحتهم . وإلى هذا ذهب أبو ثَور وداود بن علىّ . ورُوِى مثلُه عن علقمة . وحجة من ذهب هـذا المذهب حديثُ ٱبنِ عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أقسِمُوا المـال بين أهل الفرائض على كتاب الله فمـا أبقت الفرائض فلأَوْلَى رجلٍ ذكر " . خرّجه البخارىّ ومسلم وغيرُهما . ومن حجة الجمهور قولُ الله عز وجل : « يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ » لأن ولد الولد ولدٌ . ومن جهة النظر والقياس أن كلّ مَن يعصّب من فى درجته فى جملة المـال فواجب أن يعصّبه فى الفاضل من المـال ؛ كأولاد الصلب . فوجب بذلك أن يَشْرَك ٱبنُ الٱبن أختَـه ، كما يَشْرَك الٱبنُ للصلب أختَه . فإن احتجّ محتجٌّ لأبى ثَوْر وداود أن بنت الٱبن لمـّا لم ترث شيئا من الفاضل بعد الثلثين منفردةً لم يعصّبها أخوها . فالجواب أنهـا إذا كان معها أخوها قَوِيت به وصارت عصَـبَةً معه . وظاهرُ قولِه تعالى : « يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَولادِكم » وهى من الولد .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ الآية . فرض تعالى للواحــدة النصف ، وفرض لمــا فوق الثنتين الثلثين ، ولم يفرض للثنتين فرضا منصوصا فى كتابه ؛ فتكلم العلماء فى الدّليل الذى يوجب لهما الثلثين ما هو ؛ فقيل : الإجماع ، وهو مردود ؛ لأن الصحيح عن ٱبن عباس أنه أعطى البنتين النّصفَ ؛ لأن الله عز وجل قال : « فإن كُنَّ نِساءً فوق ٱثنتين فلهن ثُلُثَا ما ترَكَ » وهــذا شرطٌ وجزاء . قال : فلا أعطى البنتين الثلثين . وقيل : أعطيتا الثلثين بالقياس على الأختين ؛ فإن الله سبحانه لمّــا قال فى آخر السورة : « وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ » وقال تعالى : « فَإِنْ كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ » فألحقت الأبنتان بالأختين فى الآشــتراك فى الثلثين ، وألحقت الأخوات إذا زدن على ٱثنتين بالبنات فى الآشتراك فى الثلثين . واعتُرض هــذا بأن ذلك منصوص عليه فى الأخوات ، والإجماع منعقد عليه فهو مسلم لذلك . وقيل : فى الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين ، وذلك أنه لمــا كان للواحدة مع أخيها الثلث إذا انفردت ، علمنا أن للاثنتين الثلثين . احتج بهذه الحجة ، وقال هــذه المقالةَ إسماعيلُ القاضى وأبو العباس المبرّد . قال النحاس : وهــذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط ؛ لأن الاختلاف فى البنتين وليس فى الواحدة . فيقول مخالفه : إذا ترك بنتين وٱبنا فللبنتين النصف ؛ فهذا دليل على أن هذا فرضهم . وقيل : « فوق » زائدة ، أى إن كن نساء اثنتين . كقوله تعــالى : « فَٱضْرِبُوا فَوْقَ الأعناقِ » أى الأعناق . وردّ هــذا القولَ النحاسُ وابنُ عطيّة وقالا : هو خطأ ؛ لأن الظروف وجميع الأسماء لايجوز فى كلام العرب أن تزاد لغير معنى . قال ٱبن عطية : ولأن قوله تعالى : « فَٱضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ » هو الفصيح ، وليست فوق زائدة بل هى مُحْكَمَــة للمعنى ؛ لأن ضربة العنق إنمــا يجب أن تكون فوق العظام فى المفصل دون الدّماغ . كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة : اخفض عن الدّماغ وارفع عن العظم ؛ فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال . وأقوى الاحتجاج فى أن للبنتين الثلثين الحديثُ الصحيح المروِىّ فى سبب النزول . ولغة أهل الحجاز وبنى أســد الثُّلُث والرُّبُع إلى العُشُر . ولغة بنى تميم وربيعة

الثُّلْث بإسكان اللام إلى العُشْر . ويقال: ثَلَثْتُ القوم أثْلِثهم، وثَلَثْتُ الدراهم أثْلِثها إذا تممتها ثلاثة، وأثْلَثَتْ هي؛ إلا أنهم قالوا في المـائة والألف : أمأيتها وآلفتها وأمْأتْ وآلفَتْ .

العاشرة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةٌ فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ قرأ نافع وأهـل المدينة « واحدةٌ » بالرفع على معنى وقعت وحدثت، فهي كان التامة؛ كما قال :

إذا كان الشتاء فأدفئونى * فإن الشيخ يُهرِمه الشتاء

والباقون بالنصب . قال النحاس : وهذه قراءة حسنة . أى وإن كانت المتروكة أو المولودة « واحدةً » مثـل « فإن كن نِساء » . فإذا كان مع بنات الصُّلب بناتُ آبن ، وكان بنـات الصّلب اثنتين فصاعِداً حجَبْنَ بنات الآبن أن يَرِثْنَ بالفرض؛ لأنه لا مدخل لبنات الابن أن يَرِثن بالفرض في غير الثلثين . فإن كانت بنت الصلب واحدةً فان آبنة الآبن أو بنـات الآبن يَرِثْن مع بنات الصلب تكملةَ الثلثين ؛ لأنه فرضٌ يرثه البنتان فما زاد . وبنات الآبن يَقمْنَ مقـامَ البنات عند عدمهن . وكذلك أبناء البنين يقومون مقامَ البنين في الحَجْب والميراث . فلما عُدِم من يستحق منهنّ السدس كان ذلك لبنت الآبن، وهي أوْلى بالسدس من الأخت الشقيقة للتوفّ . على هذا جمهور الفقهاء من الصحابة والتابعين؛ إلا ما يُروى عن أبي موسى وسليمان بن أبي ربيعة أن للبنت النصفَ ، والنصف الثـاني للأخت ، ولا حقّ في ذلك لبنت الآبن . وقد صح عن أبي موسى ما يقتضي أنه رجع عن ذلك . رواه البخاري حدّثنا آدمُ حدّثنا شعبةُ حدّثنا أبو قيس سمعت هُزيلَ بنَ شَرَحْبِيل قال : سئل أبو موسى عن آبنة وآبنةِ آبنٍ وأخت . فقال : للآبنة النصف، وللأخت النصف؛ وأْتِ آبنَ مسعود فإنه سيتابِعُني . فسئل آبنُ مسعود وأُخبِر بقول أبي موسى فقال : لقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين ! أقْضي فيها بما قضى النبيّ صلى الله عليه وسـلم : للآبنة النصفُ، ولآبنة الابن السدسُ تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هـذا الحِبْر فيكم . فإن كان مع بنت الآبن أو بنـاتِ الآبن آبنٌ في درجتها أو أسـفلَ منها عصّبها، فكان النصف الثاني بينهما، للذكر مثل حظ الأنثيين بالغا ما بلغ ــ خلافا لآبن مسعود على

ما تقدّم — إذا استوفى بناتُ الصلب أو بنتُ الصلب وبناتُ الآبن الثلثين . وكذلك يقول فى الأخت لأب وأمّ ، وأخوات وإخوة لأب : للأخت من الأب والأمّ النصف ، والباقى للإخوة والأخوات ، ما لم يصبهن من المقاسمة أكثر من السدس ؛ فإن أصابهنّ أكثر من السدس أعطاهنّ السدس تكملة الثلثين ، ولم يزدهنّ على ذلك . وبه قال أبو ثَوْر .

الحادية عشرة — إذا مات الرجل وترك زوجته حُبلَى فإن المال يُوقف حتى يتبيّن ما تضع . وأجمع أهل العلم على أن الرجل إذا مات وزوجته حُبلَى أن الولد الذى فى بطنها يرث ويُورث إذا خرج حَيًّا وآستهلّ[(1)] . وقالوا جميعا : إذا خرج ميتا لم يرث ؛ فإن خرج حَيا ولم يَستهلّ فقالت طائفة : لا ميراث له وإن تحرك أو عَطَس ما لم يستهلّ . هذا قول مالك والقاسم آبن محمد وآبن سيرين والشَّعبيّ والزُّهريّ وقَتادة . وقالت طائفة : إذا عُرفت حياة المولود بتحريك أو صياح أو رضاع أو نَفَس فأحكامُه أحكامُ الحيّ . هذا قول الشافعيّ وسفيان الثَّوريّ والأوزاعى . قال آبن المنذر : الذى قاله الشافعيّ يحتمل النظر، غير أن الخبر يمنع منه وهو قولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يُولد إلا نَخَسه الشيطان فيستهلّ صارخا من نَخْسة الشيطان إلا آبن مريم وأمّه " . وهذا خبر، ولا يقع على الخبر النسخ .

الثانية عشرة — لما قال تعالى : « فِى أَوْلَادِكُمْ » تناول الخُنْثَى وهو الذى له فرجان . وأجمع العلماء على أنه يُورَّث من حيث يبول ؛ إن بال من حيث يبول الرجل وَرِث ميراثَ الرجل، وإن بال من حيث تبول المرأة وَرِث ميراثَ المرأة . قال آبن المنذر : ولا أحفظ عن مالكٍ فيه شيئا، بل قد ذكر آبن القاسم أنه هاب أن يسأل مالكا عنه . فإن بال منهما معا فالمعتبر سبقُ البول ؛ قاله سعيد بن المسيّب وأحمد وإسحاق . وحُكى ذلك عن أصحاب الرأى . وروى قَتادة عن سعيد بن المسيّب أنه قال فى الخنثى : يُوَرَّثُه من حيث يبول ؛ فإن بال منهما جميعا فمن أيهما سبق ، فإن بال منهما معًا فنصف ذكر ونصف أنثى . وقال يعقوب ومحمد : من أيهما خرج أكثر ورث ؛ وحُكى عن الأَوْزاعيّ . وقال النعمان : إذا خرج

(1) استهل الصبي : رفع صوته بالبكاء عند الولادة .

منهما معًا فهو مُشْكِل، ولا أنظر إلى أيّهما أكثر . ورُوى عنه أنه وقف عنه إذا كان هكذا . وحُكى عنــه قال : إذا أشكل يُعْطَى أقلّ النصيبين . وقال يحيى بن آدم : إذا بال من حيث يبول الرجل و يحيض كما تحيض المرأة وَرِث من حيث يبول؛ لأن فى الأثر : يورَّث من مَباله . وفى قول الشافعى : إذا خرج منهما جميعا ولم يسـبق أحدهما الآخر يكون مُشْـكِلًا، و يُعطَى من الميراث ميراث أنثى، و يوقف الباقى بينه و بين سائر الورثة حتى يتبيّن أمره أو يصطلحوا؛ و به قال أبو ثور . وقال الشّعبيّ : يُعطى نصفَ ميراث الذكر، ونصف مـيراث الأنثى ؛ و به قال الأوزاعى ، وهو مذهب مالك . قال آبن شاس فى جواهره الثمينة، على مذهب مالك عالم المدينة : الخنثى يعتبر إذا كان ذا فرجين فرج المرأة وفرج الرجل بالمَبَال منهما؛ فيُعطَى الحكم لِمَا بال منــه، فإن بال منهما اعتبرت الكثرة من أيّهما، فإن تساوى الحال أُعتبر السبق ، فإن كان ذلك منهما معًا أُعتبر نبات اللحية أو كبر الثّديين ومشابهتهما لثـدى النساء ، فإن اجتمع الأمران أُعتبر الحال عند البلوغ ، فإن وُجد الحيض حُكم به ، وإن وُجد الاحتلام وحده حُكم به ، فإن اجتمعا فهو مُشْكِل . وكذلك لو لم يكن فـرج ، لا المختص بالرجال ولا المختص بالنساء ، بل كان له مكان يبول منــه فقط انتظر به البلوغ ؛ فإن ظهرت علامة مميزة وإلّا فهو مُشْكِل . ثم حيث حكمنا بالإشكال فميراثه نصفُ نصيبى ذكر وأنثى .

قلت : هــذا الذى ذكروه من العــلامات فى الخنثى المشكل . وقد أشرنا إلى علامــة فى « البقرة »(١) وصدرِ هذه السورة تلحقه بأحد النوعين، وهى آعتبار الأضلاع . وهى مروية عن علىّ رضى الله عنه وبها حَكم . وقد نظم بعض العلماء حكم الخنثى فى أبيات كثيرة أولها :

وأنه معتــبرُ الأحــوالِ * بالثّـدْى واللِّحيــة والمَبـالِ

وفيها يقول :

وإن يكن قد آستوت حالاته * ولم تَبِن وأشكلت آياته

فحظّه من مَوْرِث القــريبِ * ستة أثمان من النّصيبِ

هذا الذى استحقّ للإشكالِ * وفيــه ما فيه من النّكالِ

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

و واجب فى الحق ألا ينكحا * ما عاش فى الدنيا وألا يُنكحا
إذ لم يكن من خالص العيالِ * ولا ٱغتدى من جملة الرجال
وكلّ ما ذكرته فى النّظم * قد قاله سُراة أهل العلم
وقد أبَى الكلام فيه قوم * منهم ولم يجنح اليه لوم
لفرط ما يبدو من الشّناعه * فى ذكره وظاهر البشاعه
وقد مضى فى شأنه الخفىّ * حكم الإمام المرتضى علىّ
بأنه إن نقصت أضلاعه * فللرجال ينبغى إتباعه
فى الإرث والنكاح والإحرامِ * فى الحجّ والصلاة والأحكامِ
وإن تزد ضلعا على الذّكرانِ * فإنها من جملة النّسوانِ
لأن للنّسوان ضلعا زائده * على الرجال فٱغتنمها فائده
إذ نقصت من آدمَ فيما سبَقْ * لخلْقِ حوّاءَ وهذا القول حَقّْ
عليه مما قاله الرسول * صلّى عليه ربُّنا دليلُ

قال أبو الوليد بن رشد : ولا يكون الخنثى المشكل زوجا ولا زوجة ، ولا أبًا ولا أمًّا . وقد قيل : إنه قد وُجد من له ولدٌ من بطنه وولد من ظهره . قال ابن رشد : فإن صحّ وَرِث من آبنه لصلبه ميراثَ الأب كاملا ، ومن آبنه لبطنه ميراثَ الأمّ كاملا . وهذا بعيد، والله أعلم . وفى سُنن الدَّارَقُطْنِيّ عن أبى هانئ عمر بن بشير قال : سئل عامر الشَّعبيّ عن مولود ليس بذكر ولا أنثى ، ليس له ما للذّكر ولا ما للأنثى، يخرج من سرته كهيئة البول والغائط ؛ فسئل عامر عن ميراثه فقال عامر : نصفُ حظّ الذكر ونصفُ حظّ الأنثى .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أى لأبوى الميت . وهذا كنايةٌ عن غير مذكور، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه؛ كقوله : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » و « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . و﴿السُّدُسُ﴾ رفع بالابتداء، وما قبله خبره : وكذلك «الثلث . والسدس» . وكذلك «نصف ما ترك» وكذلك «فلكم» . وكذلك «ولهن الربع . وفلهن الثمن» وكذلك «فلكل

واحد منهما السدس» . والأبوان تثنية الأب والأبة . واستغنى بلفظ الأم عن أن يقال لها أبة . ومن العرب من يجرى المختلفين مجرى المتفقين؛ فيغلب أحدهما على الآخر لخفته أو شهرته . جاء ذلك مسموعا فى أسماء صالحة؛ كقولهم للأب والأم : أبوان . وللشمس والقمر : القمران . ولِلّيل والنهـار : المَلَوان . وكذلك العُمَران لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما . غلّبوا القمر على الشمس لخفة التذكير، وغلّبوا عُمَر على أبى بكر لأن أيام عمر امتدّت فاشتهرت . ومن زعم أنه أراد بالعُمَرين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز فليس قوله بشىء؛ لأنهم نطقوا بالعُمَرين قبل أن يروا عمر بن عبد العزيز ؛ قاله ابن الشَّجَرى . ولم يدخل فى قوله تعالى : «ولأبوَيْه» من علا من الأباء دخول من سفَل من الأبناء فى قوله « أولادِكم » ؛ لأن قوله : « ولأبويه » لفظ مثنًّى لا يحتمل العموم والجمع أيضا ؛ بخلاف قوله « أولادِكم » . والدليل على صحة هذا قولُه تعـالى : « فَإِن لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ » والأمّ العُليا جَدّة ولا يفرض لهـا الثلث بإجماع، لخروج الجدّة عن هذا اللفظ مقطوع به، وتناوُله للجَدّ مختلَف فيه . فممّن قال إنه أب وحَجَب به الإخوة أبو بكر الصدّيق رضى الله عنــه ولم يخالفه أحد من الصحابة فى ذلك أيامَ حياته ، واختلفوا فى ذلك بعد وفاته ؛ فممّن قال إنه أب آبنُ عباس وعبـدُ الله آبن الزبير وعائشــة ومعاذ بن جبل وأُبَىّ بن كعب وأبو الدرداء وأبو هريرة ، كلهم يجعلون الجَدّ عنــد عدم الأب كالأب سواء، يحجبون به الإخوة كلَّهم ولا يرثون معه شيئا . وقاله عطاء وطاوس والحسن وقَتادة . وإليه ذهب أبو حنيفة وأبو ثَوْر وإسحاق . والحجّة لهم قولُه تعالى : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » «يابنى آدم» ، وقولُه عليه السلام: ” يا بنى إسماعيل آرموا فإن أباكم كان راميا “ . وذهب علىّ بن أبى طالب وزيد وآبن مسـعود إلى توريث الجـَدّ مع الإخوة ، ولا ينقص من الثلث مع الإخـوة للأب والأم وللأب إلا مع ذوى الفـروض ؛ فإنه لا ينقص معهم من السدس شيئا فى قول زيد . وهو قول مالك والأوزاعىّ وأبى يوسف ومحمد والشافعىّ. وكان علىّ يُشرك بين الإخوة والجَدّ إلى السدس ولا ينقصه من السدس شيئا مع ذوى الفرائض وغيرهم . وهو قول آبن أبى لَيْلَى وطائفة. وأجمع العلماء على أن الجَدّ لا يرث

مع الأب وأن الابن يحجب أباه . وأنزلوا الجدّ بمنزلة الأب في الحجب والميراث إذا لم يترك المتوفَّى أباً أقرب منه في جميع المواضع . وذهب الجمهور إلى أن الجَدّ يُسقط بنى الإخوة من الميراث، إلا ما رُوى عن الشَّعبيّ عن عليّ أنه أجرى بنى الإخوة في المقاسمة مجرى الإخوة . والحجة لقول الجمهور أن هذا ذَكَرٌ لا يعصّب أخته فلا يقاسم الجَدّ كالعمّ وابن العمّ . قال الشعبي : أوّل جَدّ وُرِّث في الإسلام عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه؛ مات ابن لعاصم بن عمر وترك أخوين فأراد عمر أن يستأثر بماله فاستشار عليًّا وزيدا في ذلك فمثّلا له مَثلا فقال: لولا أنّ رأيكما اجتمع ما رأيت أن يكون ابنى ولا أكون أباه . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن زيد بن ثابت أن عمر بن الخطاب استأذن عليه يوما فأذن له، ورأسُه في يد جارية له تُرَجِّله ، فنزع رأسه ؛ فقال له عمر : دعها ترجِّلك . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إليّ جئتُك . فقال عمر : إنما الحاجة لى، إنى جئتك لننظر في أمر الجَدّ . فقال زيد : لا والله! (١) ما تقول فيه . فقال عمر : ليس هو بوَحْيٍ حتى نزيدَ فيه وننقص، إنما هو شيء تراه (٢) ، فإن رأيته وافقنى تبعته، وإلا لم يكن عليك فيه شيء . فأبى زيد، فخرج مُغْضَبًا وقال : قد جئتك وأنا أظن ستفرغ من حاجتى . ثم أتاه مرّة أخرى في الساعة التي أتاه المرّةَ الأولى ، فلم يزل به حتى قال : فسأكتب لك فيه . فكتبه في قطعة قتب (٣) وضرب له مثلا : إنما مثلُه مثلُ شجرة تنبت على ساق واحدة ، فخرج فيها غصن ثم خرج في غصن غصنٌ آخر؛ فالساق يسقى الغصن . فإن قطعت الغصن الأوّل رجع الماء إلى الغصن، وإن قطعت الثاني رجع الماء إلى الأوّل . فأُتِى به فخطب الناس عمر ثم قرأ قطعة القتب عليهم ثم قال : إن زيد بن ثابت قد قال في الجَدّ قولًا وقد أمضيته . قال : وكان عمر أوّلَ جَدّ كان؛ فأراد أن يأخذ المال كلَّه، مالَ ابنِ ابنه دون إخوته، فقسمه بعد ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(١) قوله : لا والله . أى ليس القول في هذه المسئلة الذى ينبغى في هذه الواقعة كما تقول .

(٢) قوله : ليس هو بوحى . أى ليس الذى جرى بينى وبينك فيه نص من القرآن حتى يحرم مخالفته والزيادة فيه أو النقصان عنه . وقوله : إنما هو شيء تراه . أى تقوله برأيك وأنا أقول برأيى . (عن شرح سنن الدارقطنى) .

(٣) القتب (بكسر القاف وسكون التاء وبتحريكهما) : الأمعاء .

الرابعة عشرة — وأما الجَدّة فأجمع أهل العلم على أن للجَدّة السدس إذا لم يكن للميّت أمّ . وأجمعوا على أن الأمّ تحجب أمّها وأمّ الأب . وأجمعـوا على أن الأب لا يحجب أمّ الأمّ . واختلفوا فى توريث الجَدّة وآبنُها حىّ ؛ فقالت طائفة : لا ترث الجَـدّة وآبنها حىّ . رُوى عن زيد بن ثابت وعثمان وعلىّ . وبه قال مالك والثَّورىّ والأوزاعِىّ وأبو ثَوْر وأصحاب الرأى . وقالت طائفة : ترث الجَدّة مع آبنها . رُوى عن عمر وآبن مسعود وعثمان وعلىّ وأبى موسى الأشـعرى . وقال به شُريح وجابر بن زيد وعبيـد الله بن الحسن وشُريك وأحمـد و إسحاق وآبن المنذر . وقال : كما أن الجَدّ لا يحجبه إلا الأب كذلك الجدّة لا يحجبها إلا الأمّ . وروى الترمذِىّ عن عبد الله قال فى الجدّة مع ابنها : إنها أوّل جَدّة أطعمها رسول الله صلى الله عليه وسلم سدسا مع آبنها وآبنُها حىّ . والله أعلم .

الخامسة عشرة — واختلف العلماء فى توريث الجَدّات ؛ فقال مالك : لا يرث إلا جدّتان ، أمُّ أمٍّ وأمُّ أبٍ وأمّهاتهما . وكذلك روى أبو ثَوْر عن الشافعىّ ، وقال به جماعة من التابعين . فإن آنفردت إحداهما فالسّدسُ لها ، وإن آجتمعتا وقرابتُهما سواء فالسدس بينهما . وكذلك إن كَثُرْن إذا تساوَيْن فى القُعْدُد ؛ وهذا كله مجتمع عليه . فإن قَرُبت التى مِن قِبلَ الأمّ كان لها السدس من دون غيرها ، وإن قَرُبت التى مِن قِبلَ الأب كان بينهـا وبين التى مِن قِبل الأمّ وإن بعدت . ولا ترث إلا جَدّةٌ واحدةٌ من قِبَـل الأمّ . ولا ترث الجـدّةُ أمُّ أبِ الأمّ على حال . هذا مذهب زيد بن ثابت ، وهو أثبت ما رُوى عنه فى ذلك . وهو قول مالك وأهلِ المدينة . وقيل : إن الجَدّاتِ أمهاتٌ ، فإذا اجتمعت فالسدس لأقربهن ؛ كما أن الآباء إذا آجتمعوا كان أحقَّهم بالميراث أقربُهم ؛ فكذلك البنون والإخوة ، وبنو الإخوة وبنو العَمّ إذا اجتمعوا كان أحقهم بالميراث أقربهم ؛ فكذلك الأمّهات . قال آبن المنذر : هذا أصح ، وبه أقول . وكان الأوزاعى يورّث ثلاثَ جدّاتٍ : واحدةً مِن قِبلِ الأمّ واثنتين من قبل الأب . وهو قول أحمد بن حنبل ؛ رواه الدَّارَقُطْنِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم مُرْسَلًا . وروى عن زيد بن ثابت عكس هذا ؛ أنه كان يورّث ثلاث جدّات : ثنتين من جهة الأمّ وواحدة

من قِبل الأب . وقول عليّ رضى الله عنه كقول زيد هذا . وكانا يجعلان السدس لأقربهما، من قِبل الأم كانت أو من قِبل الأب . ولا يَشْرَكُها فيه من ليس فى قُعْدُدها ؛ وبه يقول الثَّورِيّ وأبو حنيفة وأصحابه وأبو ثور . وأما عبد الله بن مسعود وابنُ عباس فكانا يورّثان الجدّات الأربع؛ وهو قول الحسن البَصْرِيّ ومحمد بن سِيرين وجابر بن زيد. قال آبن المنذر : وكلّ جدّة إذا نسبت إلى المُتَوَفَّى وقع فى نسبها أبٌ بين أمّين فليست ترث ، فى قول كل من يُحفظ عنه من أهل العلم .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ فرض تعالى لِكل واحد من الأبوين مع الولد السّدسَ؛ وأبهم الولد فكان الذكر والأنثى فيه سواء . فإن مات رجل وترك آبنا وأبوين فلأَبَوَيْه لكل واحد منهما السدس، وما بقى فللآبن . فإن ترك آبنة وأبوين فللآبنة النصف وللأبوين السدسان ، وما بَقِيَ فلأقرب عصبة وهو الأب ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أبقت الفروضُ فلأوْلَى رجل ذكر " . فآجتمع للأب الآستحقاقُ بجهتين : التعصيب والفرض . ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ فأخبر جل ذكره أن الأبوين إذا ورثاه أن للأم الثلث . ودلّ بقوله « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ » وإخبارِه أن للأم الثلث أن الباقى وهو الثلثان للأب . وهذا كما تقول لرجلين : هذا المال بينكما ، ثم تقول لأحدهما : أنت يافلان لك منه ثلث؛ فإنك حددت للآخر منه الثلثين بنصّ كلامك؛ ولأن قوة الكلام فى قوله « وَوَرِثَه أَبَوَاهُ » يدلّ على أنهما منفردان عن جميع أهل السهام من ولد وغيره، وليس فى هذا آختلاف .

قلت : وعلى هذا يكون الثلثان فرضا للأب مسمًّى لا يكون عَصَبة . وذكر ابن العربيّ أن المعنى فى تفضيل الأب بالثلث عند عدم الولد للذكورية والنصرة، ووجوب المؤنة عليه . وثبتت الأم على سهم لأجل القرابة .

قلت : وهذا منتَقَض؛ فإن ذلك موجود مع حياته فلم حُرِم السدس . والذى يظهر أنه إنما حُرِم السدسَ فى حياته إرفاقا بالصبيّ وحِياطة على ماله؛ إذ قد يكون إخراج جزء من ماله إجحافا به . أو أن ذلك تعبُّدًا ، وهو أوْلى ما يقال . والله الموفق .

السابعة عشرة — إن قيل ما فائدة زيادة الواو فى قوله : « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ » ، وكان ظاهر الكلام أن يقول : فإن لم يكن له ولد ورثه أبواه . قيل له : أراد بزيادتها الإخبارَ ليبيّن أنه أمر مستقِرّ ثابت ، فيخبر عن ثبوته واستقراره ، فيكون حال الوالدين عند انفرادهما كحال الولدين ، للذَّكَر مثل حظّ الأنثيين . ويجتمع للأب بذلك فرضان السهم والتعصيب إذ يحجب الإخوة كالولد . وهذا عَدل فى الحُكْم ، ظاهر فى الحكمة . والله أعلم .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ قرأ أهل الكوفة « فَلِإِمِّهِ الثُّلُثُ » وهى لغة حكاها سيبويه . قال الكسائى : هى لغة كثير من هوازنَ وهُذيل . ولأن اللام لمّا كانت مكسورةً وكانت متصلةً بالحرف كَرِهوا ضمة بعد كسرة ، فأبدلوا من الضمة كسرة ؛ لأنه ليس فى الكلام فِعل . ومن ضمّ جاء به على الأصل ؛ ولأن اللام تنفصل لأنها داخلةٌ على الاسم . قال جميعه النحاس .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ الإخوة يحجبون الأمّ عن الثلث إلى السدس ، وهذا هو حجب النقصان ، وسواء كان الإخوة أشقّاء أو للأب أو للأم ، ولا سهم لهم . ورُوى عن ابن عباس أنه كان يقول : السّدس الذى حجب الأخوةُ الأمّ عنه هو للإخوة . ورُوى عنه مثلُ قولِ الناس إنه للأب . قال قَتادة : وإنما أخذه الأب دونهم ؛ لأنه يَمونهم ويَلِى نكاحهم والنفقةَ عليهم . وأجمع أهل العلم على أن أخوين فصاعدا ذُكرانا كانوا أو إناثا من أب وأم ، أو من أب أو من أم يحجُبون الأم عن الثلث إلى السدس ؛ إلا ما روى عن ابن عباس أن الاثنين من الإخوة فى حكم الواحد ، ولا يحجُب الأم أقلُّ من ثلاث . وقد صار بعض الناس إلى أن الأخوات لا يحجبن الأم من الثلث إلى السدس ؛ لأن كتاب الله فى الإخوة وليست قوّة ميراثِ الإناث مثلَ قوّة ميراث الذكور حتى تقتضى العِبرةُ الإلحاق . قال الكِيَا الطبرى : ومقتضى أقوالهم ألّا يَدخلن مع الإخوة ؛ فإن لفظ الإخوة بمطلقه لا يتناول الأخوات ، كما أن لفظ البنين لا يتناول البنات . وذلك يقتضى ألّا تُحجب الأمُّ بالأخ الواحد والأخت من الثلث إلى السدس ؛ وهو خلاف إجماع

المسلمين . وإذا كنّ مراداتٍ بالآية مع الإخوة كنّ مرادات على الانفراد . واستدلّ الجميع بأن أقلّ الجمع اثنان؛ لأن التثنية جمع شيء إلى مثله، فالمعنى يقتضي أنها جمع . وقال عليه السلام: "الاثنان فما فوقهما جماعة". وحُكي عن سيبويه أنه قال : سألت الخليل عن قوله «ما أحسن وجوههما»؟ فقال : الاثنان جماعة . وقد صح قول الشاعر :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ * ظهراهما مثلُ ظهورِ التُّرْسَيْنِ[1]

وأنشد الأخفش :

لما أتتنا المرأتان بالخَبَرْ * فقلن إن الأمر فينا قد شُهِرْ

وقال آخر :

يُحَيَّ بالسلام غنيُّ قومٍ * ويُبخل بالسلام على الفقيرِ
أليس الموت بينهما سواء * إذا ماتوا وصاروا في القبورِ

ولمّا وقع الكلام في ذلك بين عثمان وابنِ عباس قال له عثمان : إن قومك حجبوها ، يعني قريشا، وهم أهل الفصاحة والبلاغة . وممن قال: إن أقل الجمع ثلاثة — وإن لم يقل به هنا — ابنُ مسعود والشافعيّ وأبو حنيفة وغيرهم . والله أعلم .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم « يوصى » بفتح الصاد . الباقون بالكسر، وكذلك الآخر . واختلفت الرواية فيهما عن عاصم . والكسر آختيار أبي عُبيد وأبي حاتم؛ لأنه جرى ذكر الميت قبل هذا . قال الأخفش : وتصديق ذلك قوله « يوصِين » و « توصون » .

الحادية والعشرون — إن قيل : ما الحكمة في تقديم ذكر الوصيّة على ذكر الدَّين، والدَّين مُقدَّم عليها بإجماع . وقد روى الترمذيّ عن الحارث عن عليّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قضى بالدَّين قبل الوصية، وأنتم تقرءون الوصيّة قبل الدَّين . قال: والعمل على هذا عند عامة

(١) هذا البيت من رجز لخطام المجاشعي، وهو شاعر إسلامي . والمهمه : القفر المخوف . والقذف (بفتحتين وبضمتين) : البعيد من الأرض . ويروى : «فدفدين» . والفدفد : الأرض المستوية . والمرت (بفتح الميم وسكون الراء بعدها مثناة فوقية) : الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات . والظهر : ما آرتفع من الأرض .

أهـل العلم أنه يُبدأ بالدّين قبل الوصية . وروى الدَّارَقُطْنِيّ من حديث عاصم بن ضمرة عن عليّ قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "الدَّين قبل الوصيّة وليس لوارث وصيّة" . رواه عنهما أبو إسحاق الهَمْدَانيّ . فالجواب من أوجهٍ خمسة : الأوّل — إنمـا قصد تقديم هذين الفصلين على الميراث ولم يقصد ترتيبهما فى أنفسهما؛ فلذلك تقدّمت الوصية فى اللفظ. جواب ثان — لمـا كانت الوصية أقلّ لزوما من الدَّين قدّمها اهتماما بها ؛ كما قال تعالى : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً » . جواب ثالث — قدّمها لكثرة وجودها ووقوعها؛ فصارت كاللازم لكل ميّت مع نصّ الشرع عليها ، وأخّر الدَّين لشذوذه، فإنه قد يكون وقد لا يكون . فبـدأ بذكر الذى لا بُدّ منه ، وعطف بالذى قد يقع أحيانا . ويقوّى هذا : العطفُ بأوْ، ولو كان الدَّين راتبـا لكان العطف بالواو . جواب رابع — إنمـا قدّمت الوصية إذ هى حظّ مساكين ضعفاء ، وأخّر الدَّين إذ هو حظّ غريمٍ يطلبه بقوّةٍ وسـلطان وله فيه مقال . جواب خامس — لمـا كانت الوصـية ينشئها مِن قِبَـل نفسه قدّمها، والدَّين ثابت مؤدّى ذكره أو لم يذكره .

الثانية والعشرون — ولمـا ثبت هذا تعلّق الشافعيّ بذلك فى تقديم دَين الزكاة والحج على الميراث فقال : إن الرجل إذا فرّط فى زكاته وجب أخذُ ذلك من رأس ماله . وهذا ظاهر ببادئ الرأى ؛ لأنه حقٌّ من الحقـوق فيلزم أداؤه عنه بعـد الموت كحقوق الآدميين لا سيما والزكاة مصرفها إلى الآدميّ . وقال أبو حنيفـة ومالك : إن أوصى بهـا أُدّيت من ثلثه ، وإن سكت عنها لم يُخرَج عنه شيء. قالوا : لأن ذلك موجب لترك الورثة فقراء؛ إلا أنه قد يتعمد ترك الكل حتى إذا مات استغرق ذلك جميعَ ماله فلا يبقى للورثة حق .

الثالثة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴾ رفع بالابتـداء والخبر مضمر، تقديره هم المقسوم عليهم وهم المعطَوْن .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ قيل : فى الدنيا بالدعاء والصدقة ؛ كما جاء فى الأثر "إن الرجل لَيُرفع بدعاء ولده من بعده". وفى الحديث الصحيح

" إذا مات الرجل انقطع عمله إلا من ثلاث — فذكر — أو ولد صالح يدعو له ". وقيل : فى الآخرة؛ فقد يكون الأبن أفضلَ فيشفع فى أبيه ؛ عن ابن عباس والحسن . وقال بعض المفسرين : إن الأبن إذا كان أرفعَ من درجة أبيه فى الآخرة سأل اللهَ فرفع إليه أباه، وكذلك الأب إذا كان أرفعَ من ٱبنه؛ وسيأتى فى « الطور »(١) بيانه . وقيل : فى الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن زيد . واللفظ يقتضى ذلك .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً ﴾ «فريضة» نصب على المصدر المؤكّد؛ إذ معنى « يوصيكم » يُفرض عليكم. وقال مَكِّيّ وغيره : هى حال مؤكّدة؛ والعامل «يوصيكم» وذلك ضعيف . والآية متعلّقة بما تقدم؛ وذلك أنه عرّف العباد أنهم كُفُوا مُؤنة الاجتهاد فى إيصاء القرابة مع اجتماعهم فى القرابة، أى أن الآباء والأبناء ينفع بعضهم بعضا فى الدنيا بالتناصر والمواساة ، وفى الآخرة بالشفاعة . وإذا تقرّر ذلك فى الآباء والأبناء تقرّر ذلك فى جميع الأقارب ؛ فلو كان القسمة موكولة إلى الاجتهاد لوجوب النظر فى غِنَى كلّ واحد منهم ، وعند ذلك يخرج الأمر عن الضبط إذ قد يختلف الأمر ؛ فبيّن الربّ تبارك وتعالى أن الأصلح للعبد ألا يُوكل إلى اجتهاده فى مقادير المواريث، بل بيّن المقادير شرعا . ثم قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ أى بقسمة المواريث ﴿ حَكِيمًا ﴾ حكم قسمتها وبيّنها لأهلها . وقال الزجاج : « عليما » أى بالأشياء قبل خلقها « حكيما » فيما يقدّره ويمضيه منها. وقال بعضهم: إن الله سبحانه لم يزل ولا يزال، والخبر منه بالماضى كالخبر منه بالاستقبال . ومذهب سيبويه انهم رأوا حكمة وعلما فقيل لهم : إن الله عز وجل كان كذلك لم يزل على ما رأيتم .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾ الآيتين . الخطاب للرجال. والولد هنا بنو الصُّلب وبنو بنيهم وإن سَفَلوا، ذُكرانا وإناثا واحدا فما زاد بإجماع . وأجمع العلماء على أن للزّوج النصفَ مع عدم الولد أو ولد الولد ، وله مع وجوده الربع . وترث المرأة من زوجها الرّبعَ مع فقد الولد ، والثمنَ مع وجوده . وأجمعوا على أن

(١) فى قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ... » آية ٢١ .

حكم الواحدة من الأزواج والثنتين والثلاث والاربع فى الربع إن لم يكن له ولد، وفى الثمن إن كان له ولد واحد ، وأنهنّ شركاء فى ذلك ؛ لأن الله عز وجل لم يفـرق بين حكم الواحدة منهنّ وبين حكم الجميع ، كما فرق بين حكم الواحدة من البنات والواحدة من الأخوات وبين حكم الجميع منهنّ .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ الكلالة مصدرٌ؛ مِن تكلّله النسب أى احاط به . وبه سُمّى الإكليل، وهى منزلة من منازل القمر لإحاطتها بالقمر إذا آحتلّ بها . ومنـه الإكليل أيضا وهو التاج والعِصابة المحيطة بالرأس . فاذا مات الرجل وليس له ولد ولا والد فورثته كلالة . هـذا قول أبى بكر الصديق وعمر وعلىّ وجمهور أهل العلم . وذكر يحيي بن آدم عن شريك وزهير وأبى الأحوص عن أبى إسحاق عن سليمان ابن عبـد قال : ما رأيتهم إلا وقـد تواطئوا وأجمعـوا على أن الكلالة من مات ليس له ولد ولا والد . وهكذا قال صاحب كتاب العين وأبو منصور اللُّغوِىّ وابن عرفة والقُتَبِىّ وأبو عبيد وابن الأنبـارى . فالأب والابن طرفان للرجل ؛ فاذا ذهبا تكلله النسب . ومنـه قيل : روضة مكلّلة إذا حُفّت بالنور . وأنشدوا :

مسكنُهُ روضـــةٌ مُكَلّلةٌ * عمّ بهـا الأَيْهُقَانُ والذُّرَقُ (١)

يعنى نبتين . وقال آمرؤ القيس :

أصاحِ ترى بَرْقًا أُرِيك وميضَــه * كلمع اليَــدينِ فى حَبِىّ مُكَلَّـــلِ (٢)

فسموا القرابة كلالة ؛ لأنهـم أطافوا بالميت من جوانبـه وليسوا منـه ولا هو منهـم ، وإحاطتهم به أنهم ينسبون معه . كما قال أعرابىّ : مالى كثير ويرثنى كلالة متراخٍ نسبهم . وقال الفرزدق :

وِرثتم قنـاة المجـد لا عن كلالةٍ * عن آبنى منافٍ عبدِ شمسٍ وهاشمِ

(١) الأيهقان : الجرجير البرى . والذرق : بقلة وحشيشة كالفث الرطب . (٢) ومض البرق : لمع . وكلمع اليدين : يريد كحركة اليدين . والحبى : السحاب المرتفع . والمكلل : ما يكون فى جوانب السماء كالإكليل .

وقال آخر :

وإنّ أبا المَـرْءِ أَحْمَى له * ومَوْلَى الكلالة لا يغضَب[1]

وقيل : إن الكلالة مأخوذة من الكَلَال وهو الإعياء ؛ فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بُعد وإعياء . قال الأعشى :

فآليت لا أرثى لهـا من كلالةٍ * ولا من وَجًى حتى تلاقِي محمّدا[2]

وذكر أبو حاتم والأثرم عن أبي عبيدة قال : الكَلَالة كل من لم يرثه أبٌ أو ٱبن أو أخ فهـو عند العرب كَلَالة . قال أبو عمر : ذِكْرُ أبي عبيدة الأخَ هنا مع الأب والاَبن في شرط الكلالة غلط لا وجه له ، ولم يذكره في شرط الكلالة غيرُه . ورُوى عن عمر بن الخطاب أن الكلالة من لا ولد له خاصّـة ؛ ورُوى عن أبي بكر ثم رجعا عنـه . وقال ٱبن زيد : الكَلَالةُ الحيّ والميت جميعا . وعن عطاء : الكَلَالة المـال . قال ٱبن العربيّ : وهذا قول طريف ضعيف لا وجه له .

قلت : له وجهٌ يتبـيّن بالإعراب . وروى عن ابن الأعرابيّ أن الكلالة بنـو العمّ الأباعد . وعن السُّدّى أن الكلالة الميت . وعنـه مثل قول الجمهور . وهذه الأقوال تتبيّن وجوهها بالإعراب ؛ فقرأ بعض الكوفيين « يُورِّث كلالة » بكسر الراء وتشـديدها . وقرأ الحسن وأيوب « يُورِث » بكسر الراء وتخفيفها ، على اختلاف عنهما . وعلى هاتين القراءتين لا تكون الكلالة إلا الورثة أو المـال . كذلك حكى أصحاب المعاني ؛ فالأول من ورّث ، والثاني من أورث . و «كلالة» مفعوله . و «كان» بمعنى وقع . ومن قرأ «يورث» بفتح الراء احتمل أن تكون الكلالة المـال ، والتقدير : يورث وراثة كلالة ، فتكون نعتا لمصدر محذوف . ويجوز أن تكون الكلالة اسمـا للورثة وهي خبر كان ؛ فالتقدير : ذا ورثة . ويجوز أن تكون تامة بمعنى وقع ، ويُورَث نعت لرجل ، ورجل رفع بكان ، وكلالةً نصب على التفسير أو الحال ؛ على أن الكلالة هو الميت ، التقدير : وإن كان رجل يورث متكلل النسب إلى الميت .

(١) أراد أن أبا المرء أغضب له إذا ظُلم . وموالى الكلالة وهم الإخوة والأعمام وبنو الأعمام وسائر القرابات لا يغضبون للمرء غضب الأب .

(٢) الوَجَى : الحفَى .

الثامنة والعشرون — ذكر الله عز وجل فى كتابه الكلالة فى موضعين : آخر السورة وهنا ، ولم يذكر فى الموضعين وارثا غير الإخوة . فأما هذه الآية فأجمع العلماء على أن الإخوة فيها عنى بها الإخوة للأم؛ لقوله تعالى : «فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ» . وكان سعد بن أبى وقّاص يقرأ «وله أخ أو أخت مِن أمّه» . ولا خلاف بين أهل العلم أن الإخوة للأب والأم أو للأب ليس ميراثهم كهذا ؛ فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين فى آخر السورة هم إخوة المتوفَّى لأبيــه وأمه أو لأبيه ؛ لقــوله عز وجل « وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ » . ولم يختلفوا أن ميراث الإخوة للأم ليس هكذا ؛ فدلّت الآيتان أن الإخوة كلهم جميعا كلالة . وقال الشّعبىّ : الكلالة ما كان سوى الولد والوالد من الورثة إخوة أو غيرهم من العصبة . كذلك قال علىّ وابن مسعود وزيد وابن عباس ، وهو القول الأول الذى بدأنا به . قال الطبرىّ : الصواب أن الكلالة هم الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده ، لصحة خبر جابر : فقلت يا رســول الله إنمـا يرثنى كلالة ، أفأوصى بمـالى كله ؟ قال : "لا" .

التاسعة والعشرون — قال أهل اللغــة : يقال رجل كلالة وآمرأة كلالة . ولا يثنى ولا يجمع ؛ لأنه مصــدر كالوكالة والدلالة والسماحة والشجاعة . وأعاد ضمير مفرد فى قوله : « وله أخ » ولم يقل لهما . ومضى ذكر الرجل والمرأة على عادة العرب إذا ذكرت اسمــين ثم أخبرت عنهما وكانا فى الحكم سواء ربمـا أضافت إلى أحدهما وربمـا أضافت إليهما جميعا ؛ تقــول : من كان عنده غلام وجارية فليحسن إليه وإليها وإليهما وإليهم ؛ قال الله تعالى : « وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ » . وقال تعالى : « إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا » ويجــوز أولى بهم ؛ عن الفراء وغيره . ويقال فى آمرأة : مرأة ، وهو الأصــل . وأخ أصله أخوٌ ، يدل عليه أخوان ؛ فحذف منه وغير على غير قياس . قال الفراء : ضُمّ أوّل أخت ؛ لأن المحذوف منهـا واو . وكسر أوّل بنت لأن المحذوف منها ياء . وهــذا الحذف والتعليل على غير قياس أيضا .

الموفية ثلاثين — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ هذا التشريك يقتضى التسويةَ بين الذكر والأنثى وإن كثروا . وإذ كانوا يأخذون بالأم فلا يفضل الذكر على الأنثى . وهذا إجماع من العلماء ، وليس فى الفرائض موضع يكون فيه الذكر والأنثى سواء إلا فى ميراث الإخوة للأم. فإذا ماتت امرأة وتركت زوجها وأمها وأخاها لأمها فللزوج النصف وللأم الثلث وللأخ من الأم السدس. فإن تركت أخوين وأختين — والمسألة بحالها — فللزّوج النصف وللأم السدس وللأخوين والأختين الثلث ، وقد تمت الفريضة . وعلى هذا عامة الصحابة ؛ لأنهم حجبوا الأم بالأخ والأخت من الثلث إلى السدس . وأما ابن عباس فإنه لم يرَ العَوْل ولو جعل للأم الثلث لعالت المسألة، وهو لا يرى ذلك . والعَوْل[(١)] مذكور فى غير هذا الموضع، ليس هذا موضعه . فإن تركت زوجها وإخوةً لأم وأخًا لأب وأم؛ فللزوج النصف، ولإخوتها لأمها الثلث، وما بقى فلأخيها لأمها وأبيها. وهكذا من له فرض مُسَمًّى أُعطِيَه، والباقى للعصبة إن فضل. فإن تركت ستة إخوة مفترقين فهذه الحِمَاريّة[(٢)]، وتسمّى أيضا المشتركة . قال قوم : للأخوة للأم الثلث، وللزوج النصف، وللأم السدس، وسقط الأخ والأخت من الأب والأم ، والأخُ والأختُ من الأب . رُوى عن علىّ وابن مسعود وأبى موسى والشَّعْبىّ وشُريك ويحيى بن آدم ، وبه قال أحمد بن حنبل واختاره ابن المنذر ؛ لأن الزوج والأم والأخوين للأم أصحابُ فرائضَ مسماةٍ ولم يبق للعصبة شىء . وقال قوم : الأم واحدة، وهَبْ أن أباهم كان حِمارا ! وأشركوا بينهم فى الثلث؛ ولهذا سُمِّيت المشتركة والحِمَاريّة . رُوى هذا عن عمر وعثمان وابن مسعود أيضا وزيد بن ثابت ومسروق وشُريح، وبه قال مالك والشافعى وإسحاق. ولا تستقيم هذه المسألة أنْ لو كان الميت رجلا. فهذه جملةُ علم الفرائض تضمّنتها الآية ، والله الموفق للهداية .

وكانت الوراثة فى الجاهلية بالرُّجولة والقوّة ، وكانوا يورّثون الرجال دون النساء؛ فأبطل الله عز وجل ذلك بقوله : « لِلرِّجالِ نَصِيبٌ . ولِلنساءِ نَصِيب » كما تقدّم . وكانت الوراثة

(١) عالت الفريضة : ارتفعت وزادت سهامها على أصل حسابها الموجب عن عدد وارثيها .

(٢) من قولهم : هب أن أبانا كان حمارا ؛ كما سيجىء .

أيضا فى الجاهلية و بدء الإسلام بالمحالفة ، قال الله عز وجل : « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » على ما يأتى بيانه (١) . ثم صارت بعد المحالفة بالهجرة ؛ قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا » (٢) وسيأتى . وهنالك يأتى القول فى ذوى الأرحام وميراثهم ، إن شاء الله تعالى . وسيأتى فى سورة «النور» (٣) ميراث ولد الملاعنة و ولد الزنا والمكاتب بحول الله تعالى . والجمهور من العلماء على أن الأسير المعلومَ حياته أن ميراثه ثابت ؛ لأنه داخل فى جملة المسلمين الذين أحكام الإسلام جارية عليهم . وقد روى عن سعيد بن المُسَيِّب أنه قال فى الأسير فى يد العدوّ : لا يرث . وقد تقدّم ميراث المرتدّ فى سورة «البقرة» (٤) والحمد لله .

الحادية والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ نصب على الحال والعامل «يوصى» . أى يوصى بها غير مضار ، أى غير مدخل الضرر على الورثة . أى لا ينبغى أن يوصى بدين ليس عليه ليضرّ بالورثة ، ولا يُقِرّ بدَين . فالإضرار راجع إلى الوصية والدَّين ؛ أما رجوعه إلى الوصية فبأن يزيد على الثلث أو يُوصِيَ لوارث ، فإن زاد فإنه يردّ إلا أن يجيزه الورثة ؛ لأن المنع لحقوقهم لا لحق الله تعالى . و إن أوصى لوارث فإنه يرجع ميراثا . وأجمع العلماء على أن الوصية للوارث لا تجوز . وقد تقدّم هذا فى «البقرة» (٥) . وأما رجوعه إلى الدَّين فبالإقرار فى حالة لا يجوز له فيها ؛ كما لو أقرّ فى مرضه لوارثه أو لصديق ملاطف ؛ فإن ذلك لا يجوز عندنا . وروى عن الحسن أنه قرأ « غير مضارِّ وصيةٍ » على الإضافة . قال النحاس : وقد زعم بعض أهل اللغة أن هذا لحن ؛ لأن اسم الفاعل لا يضاف إلى المصدر . والقراءة حسنة على حذف ، والمعنى : غير مضار ذى وصية ، أى غير مضار بها ورثته فى ميراثهم . وأجمع العلماء على أن إقراره بدَين لغير وارث حال المرض جائز إذا لم يكن عليه دَين فى الصحة .

الثانية والثلاثون — فإن كان عليه دَيْن فى الصحة ببيّنة وأقرّ لأجنبى بدَين ؛ فقالت طائفة : يُبدأ بدَين الصحة ؛ هذا قول النَّخَعِيّ والكوفيين . قالوا : فإذا استوفاه صاحبه

(١) آية ٣٣ من هذه السورة . (٢) آية ٧٢ سورة الأنفال .

(٣) راجع المسئلة التاسعة والعشرين فى تفسير قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ... » آية ٦

(٤) راجع جـ ٣ ص ٤٩ طبعة أولى أو ثانية . (٥) راجع جـ ٢ ص ٢٥٧ طبعة ثانية .

فأصحاب الإقرار فى المرض يتحاصّون . وقالت طائفة : هما سواء إذا كان لغير وارث . هذا قول الشافعيّ وأبى ثور وأبى عُبيد، وذكر أبو عبيد أنه قول أهل المدينة ورواه عن الحسن .

الثالثة والثلاثون — قد مضى فى «البقرة» الوعيد فى الإضرار فى الوصية ووجوهها . وقد روى أبو داود من حديث شَهْر بن حَوْشَب (وهو مطعون فيه) عن أبى هريرة حدّثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل أو المرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضارّان فى الوصية فتجب لهما النار ". قال : وقرأ علَىّ أبو هريرة من هاهنا « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ » حتى بلغ « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . قال ابن عباس : الإضرار فى الوصية من الكبائر؛ ورواه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ إلا أن مشهور مذهب مالك وابن القاسم أن المُوصِى لا يُعدّ فعله مضارّة فى ثلثه ؛ لأن ذلك حقّه فله التّصرّف فيه كيف شاء . وفى المذهب قولٌ : أن ذلك مضارّة تُرَدّ . وبالله التوفيق .

الرابعة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ وَصِيَّةً ﴾ « وصيّة » نصب على المصدر فى موضع الحال والعامل « يُوصِيكم » . ويصح أن يعمل فيها « مُضَارٍّ » والمعنى أن يقع الضّرر بها أو بسببها فأوقع عليها تجوّزا، قاله ابن عطية؛ وذكر أن الحسن بن أبى الحسن قرأ « غَيْرَ مُضَارِّ وَصِيَّةٍ » بالإضافة ؛ كما تقول : شجاعُ حربٍ . وبضّةُ[1] المُتَجَرَّدِ ؛ فى قول طَرَفة بن العبد . والمعنى على ما ذكرناه من التّجوّز فى اللفظ لصحّة المعنى . ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ يعنى عليم بأهل الميراث حليم على أهل الجهل منكم . وقرأ بعض المتقدّمين « والله عليم حكيم » يعنى حكَمَ بقسمة الميراث والوصية .

الخامسة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ و «تلك» بمعنى هذه، أى هذه أحكام الله قد بيّنها لكم لتعرفوها وتعملوا بها . ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى قسمة المواريث فيُقِرّ بها ويعمل بها كما أمر الله تعالى ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ جملة فى موضع نصب على النعت لجنات . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يريد فى قسمة المواريث فلم

(١) البضة : البيضاء الرخصة . والمتجرد : جسدها المتجرّد من ثيابها .

يقسمها ولم يعمل بهـا ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ أى يخالف أمره ﴿ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾ . والعصـيان إن أريد به الكفر فالخلود على بابه، وإن أريد به الكبائر وتجاوز أمر الله تعالى فالخلود مستعار لمدّة مّا . كما تقول : خلّد الله ملكه . وقال زهير :

﴿ ولا أرى خالدا إلا الجبال الرواسيا ﴾

وقد تقدّم هـذا المعنى فى غير موضع . وقرأ نافع وابن عامر « ندخله » بالنون فى الموضعين، على معنى الإضافة إلى نفسه سبحانه . الباقون بالياء كلاهمـا ؛ لأنه سبق ذكر آسم الله تعالى أى يدخله الله .

قوله تعـالى : وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى ــ لمـا ذكر الله تعالى فى هـذه السّورة الإحسانَ إلى النساء وإيصالَ صدُقاتهنّ إليهنّ، وآنجرّ الأمر إلى ذكر ميراثهنّ مع مواريث الرجال، ذكر أيضا التغليظَ عليهنّ فيما يأتين به من الفاحشة ؛ لئلا تتوهّم المرأة أنه يسوغ لهـا ترك التعفّف .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّٰتِي ﴾ «اللّاتى» جمع الّتى، وهو آسم مُبهم للؤنث، وهى معرفة ولا يجوز نزع الألف واللام منه للتنكير، ولا يتمّ إلا بصلة ؛ وفيه ثلاث لغات كما تقدّم. ويجمع أيضا « اللّاتِ » بحذف الياء وإبقاء الكسرة، و « اللّائى » بالهمز وإثبات اليـاء، و « اللّاءِ » بكسر الهمزة وحذف الياء، و« اللّا » بحذف الهمزة . فإن جمعت الجمع قلت فى اللّاتى : اللّواتى، وفى اللّاء : اللّوائى . وقد رُوى عنهـم « اللّواتِ » بحذف الياء وإبقاء الكسرة؛ قاله آبن الشجرى . قال الجوهرى : أنشد أبو عبيد :

من اللَّواتِى والَّتِى واللَّاتِ * زَعمْنَ أن قد كَبُرتُ لِداتِ

واللَّوا باسقاط التاء . وتصغير التى اللَّتَيَّا بالفتح والتشديد؛ قال الراجز:

* بعدَ اللُّتَيَّا واللَّتَيَّا والّتِى *(١)

وبعض الشعراء أدخل على « التى » حرف النداء، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا فى قولنـا : يا ألله وحده؛ فكأنه شبّهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لهـا . وقال :

من اَجْلِكِ يالّتِى تيَّمْتِ قلبِى * وانتِ بخيـلةٌ بالودّ عَنِّى

ويقال : وقع فى اللُّتَيَّا والتى؛ وهما اسمان من أسمـاء الداهية .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفاحشة فى هذا الموضع الزّنا ، والفاحشة الفعلة القبيحة، وهى مصدر كالعاقبة والعافية . وقرأ ابن مسعود « بِالفاحِشةِ » بباء الجر .

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ إضافة فى معنى الإسلام وبيان حال المؤمنات؛ كما قال : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » لأن الكافرة قـد تكون من نساء المسلمين بنسب ولا يلحقها هذا الحكم .

الخامســة — قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ أى من المسلمين، فجعل الله الشهادة على الزنا خاصة أربعة تغليظا على المدّعِى وسـترا على العباد . وتعديد الشهود بالأربعة فى الزّنا حكمٌ ثابت فى التـوراة والإنجيل والقرآن؛ قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» وقال هنا : «فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ» . وروى أبو دواد عن جابر بن عبد الله قال : جاءت اليهود برجل وامرأة منهـم زنَيَا فقال : "ائتونى بأعلم رجلين منكم" فأتوه بابنى صوريا فنشدهما: "كيف تجدان أمر هذين فى التوراة" قالا : نجد فى التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المُكْحُلة رُجما . قال: "فما يمنعكما أن ترجموهما" ؟ قالا : ذهب سلطاننا فكرهنا القتل؛ فدعا رسول الله صلى الله

(١) هذا صدر بيت للعجاج، وعجزه : * إذا علتها نفس تردّت *

عليه وسلم بالشهود، فجاءوا أربعة فشهدوا أنهم رأوا ذَكَره فى فرجها مثلَ المِيل فى المُكْحُلة ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما . وقال قوم : إنما كان الشهود فى الزّنا أربعة ليترتب شاهدان على كل واحد من الزّانيين كسائر الحقوق؛ إذ هو حقّ يؤخذ من كل واحد منهما، وهذا ضعيف؛ فإن اليمين تدخل فى الأموال واللوث (١) فى القسامة، ولا مدخل لواحد منهما هنا .

السادسة — ولا بدّ أن يكون الشهود ذكورا لقوله : « مِنكم »، ولا خلاف فيه بين الأمة . وأن يكونوا عدولا ؛ لأن الله تعالى شرط العدالة فى البيوع والرجعة . وهذا أعظم، وهو بذلك أوْلى. وهذا من حمل المطلق على المقيّد بالدليل، على ماهو مذكور فى أصول الفقه. ولا يكونون ذِمّة، وإن كان الحكم على ذمة، وسيأتى ذلك فى «المائدة» (٢) . وتعلق أبو حنيفة بقوله : « أربعةً مِنكم » فى أن الزوج إذا كان أحد الشهود فى القذف لم يلاعن . وسيأتى بيانه فى « النّور » إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ هذه أول عقوبات الزُّناة ؛ وكان هذا فى ابتداء الإسلام؛ قاله عُبادة بن الصامت والحسن ومجاهد حتى نسخ بالأذى الذى بعده. ثم نسخ ذلك بآية «النّور» وبالرجم فى الثيّب. وقالت فرقة: بل كان الإيذاء هو الأوّل ثم نسخ بالإمساك ، ولكنّ التلاوة أُخِّرت وقدّمت ؛ ذكره ٱبن فُورَك . وهذا الإمساك والحبس فى البيوت كان فى صدر الإسلام قبل أن يكثر الجناة . فلما كثروا وخشى قوّتهم ٱتُّخذ لهم سجن؛ قاله ٱبن العربىّ .

الثامنة — واختلف العلماء هل كان هذا السجن حدّا أو توعُّدًا بالحدّ على قولين : أحدهما — أنه توعُّدٌ بالحدّ، والثانى — أنه حدّ ؛ قاله ٱبن عباس والحسن. زاد ٱبن زيد : وأنهم مُنِعوا من النكاح حتى يموتوا عقوبةً لهم حين طلبوا النكاح من غير وجهه . وهذا يدلّ

(١) اللوث : هو أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول قبل أن يموت أن فلانا قتلنى، أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما أو تهديد منه له ، أو نحو ذلك . (عن اللسان) .

(٢) فى قوله تعالى : « يأيها الذين كونوا قوامين ... » آية ٨

على أنه كان حدّا بل أشدّ ؛ غير أن ذلك الحكم كان محدودا إلى غاية وهو الأذى فى الآية الأخرى ، على اختلاف التأويلين فى أيهما قبلُ ؛ وكلاهما محدود إلى غاية وهى قوله عليه السلام فى حديث عُبادة بن الصامت : "خذُوا عنّى خذوا عنّى قد جعل الله لهن سبيلا البِكْرُ بالبِكر جلدُ مائةٍ وتغريبُ عامٍ والثَّيِّبُ بالثيبِ جلدُ مائة والرجمُ" . وهـذا نحو قوله تعالى : « ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ » فإذا جاء الليل ارتفع حكم الصيام لانتهاء غايته لا لنسخه . هذا قول المحققين المتأخرين من الأصوليين؛ فان النسخ إنما يكون فى القولين المتعارضين من كل وجه للذَيْن لا يمكن الجمع بينهما ، والجمع ممكن بين الحبس والتعيير والجلد والرجم ، وقد قال بعض العلماء : إن الأذى والتعيير باق مع الجلد ؛ لأنهما لا يتعارضان بل يحملان على شخص واحد . وأما الحبس فمنسوخ بإجماع ، و إطلاق المتقدمين النسخ على مثل هـذا تجوّز ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَاللَّذَانِ﴾ « اللذان » تثنية الذى ، وكان القياس أن يقال : اللّذَيان كرَحَيان ومُصْطَفيان وشجَيان . قال سيبويه : حذفت الياء ليفرق بين الأسماء المتمكنة والأسماء المبهمات . وقال أبو علىّ : حذفت الياء تخفيفا ، إذ قد أمن اللّبس فى اللّذان ؛ لأن النون لا تحذف ، ونون التسمية فى الأسماء المتمكنة قد تحذف مع الإضافة فى رحياك ومصطفيا القوم ؛ فلو حذفت الياء لاشتبه المفرد بالاثنين . وقرأ ابن كثير « اللذانّ » بتشديد النون ، وهى لغة قريش ؛ وعلته أنه جعل التشديد عوضا من ألف « ذا » على ما يأتى بيانه فى سورة « القصص » عند قوله تعالى : « فذانّك برهانان »(١) . وفيها لغة أخرى « اللّذا » بحذف النون . هذا قول الكوفيين . وقال البصريون : إنما حذفت النون لطول الاسم بالصلة . وكذلك

(١) آية ٣٢

قرأها « ذانّ » و « فذانّك برهانان » بالتشديد فيهما . والباقون بالتخفيف . وشدّد أبو عمرو « فذانّك برهانانِ » وحدها . و « اللّذان » رفع بالابتداء . قال سيبويه : المعنى وفيما يتلى عليكم اللذان يأتيانها، أي الفاحشة منكم . ودخلت الفاء في « فآذوهما » لأن في الكلام معنى الأمر؛ لأنه لما وصل الذي بالفعل تمكن فيه معنى الشرط؛ إذ لا يقع عليه شيء بعينه، فلما تمكن الشرط والإبهام فيه جرى مجرى الشرط فدخلت الفاء ولم يعمل فيه ما قبله من الإضمار كما لا يعمل في الشرط ما قبله؛ فلمّا لم يحسن إضمار الفعل قبلهما لينصبا رُفعا بالابتداء؛ وهذا اختيار سيبويه . ويجوز النصب على تقدير إضمار فعل، وهو الاختيار إذا كان في الكلام معنى الأمر والنهي نحو قولك : اللذَيْن عندك فأكرمهما .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَآذُوهُمَا ﴾ قال قَتادة والسُّدّي : معناه التوبيخ والتعيير . وقالت فرقة : هو السبّ والجفاء دون تعيير . ابن عباس : النَّيْلُ باللسان والضربُ بالنعال . قال النحاس : وزعم قوم أنه منسوخ .

قلت : رواه ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد قال : « واللّاتي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ » و « واللّذانِ يأتيانِها » كان في أوّل الأمر فنسختها الآية التي في « النور » . قال النحاس : وقيل وهو أولى إنه ليس بمنسوخ ، وأنه واجب أن يؤدّبا بالتوبيخ فيقال لهما : فجرتما وفسقتما وخالفتما أمر الله عز وجل .

الثالثـــة — واختلف العلماء في تأويل قوله تعالى : « وَاللَّاتِي » وقوله : « واللَّذَانِ » فقال مجاهـد وغيره : الاية الأولى في النساء عامّةً محصناتٍ وغير محصناتٍ ، والاية الثانيـة في الرجال خاصّةً. وبيّن بلفظ التثنية صنفي الرجال من أحصن ومن لم يُحصن؛ فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى . وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نصُّ الكلام أصنافَ الزّناة . ويؤيّده من جهة اللفظ قوله في الأُولى : «مِن نِسائِكم» وفي الثانية «مِنكم»؛ واختاره النحاس ورواه عن ابن عباس . وقال السدي وقتادة وغيرهما : الاولى في النساء المحصنات . يريد : ودخل معهن من أحصِن من الرجال بالمعنى ، والثانية في الرجل والمرأة البِكْرَيْن . قال

ابن عطية : ومعنى هـذا القول تام إلا أن لفظ الآية يقلَق عنه . وقد رجّحه الطبرى، وأباه النحاس وقال : تغليب المؤنث على المذكر بعيد؛ لأنه لا يخرج الشيءُ إلى المجاز ومعناه صحيح فى الحقيقة . وقيل : كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل؛ فخُصّت المرأة بالذّكر فى الإمساك ثم جمعا فى الإيذاء . قال قتادة : كانت المرأة تُحبَس و يؤذيان جميعا ؛ وهذا لأن الرجل يحتاج إلى السعى والاكتساب .

الرابعــة — واختلف العلماء أيضا فى القول بمقتضى حديث عُبادة الذى هو بيانٌ لأحكام الزّناة على ما بيّناه ؛ فقال بمقتضاه علىّ بن أبى طالب لا اختلاف عنه فى ذلك، وأنه جلد شُرَاحة الهَمْدانية مائةً ورجمها بعد ذلك، وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بهذا القول الحسن البَصْرىّ والحسن بن صالح بن حَىّ و إسحاق . وقال جماعة من العلمـاء : بل على الثيّب الرجمُ بلا جلد . وهـذا يُروى عن عمر وهو قول الزهرىّ والنَّخَعىّ ومالك والثَّورىّ والأوزاعىّ والشافعىّ وأصحابِ الرأى وأحمدَ وأبى ثَوْر ؛ متمسّكين بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم رَجم ماعِزًا والغامديّة ولم يجلدهما، وبقوله عليه السلام لأنيس : "أُغْدُ على آمرأةِ هذا فإن آعترفت فارجمها" ولم يذكر الجلد ؛ فلو كان مشروعا لمـا سكت عنه . قيل لهم : إنمـا سكت عنه لأنه ثابت بكتاب الله تعالى، فليس يمتنع أن يسكت عنه لشهرته والتنصيص عليه فى القرآن ؛ لأن قوله تعالى : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » يعم جميع الزُّناة . والله أعلم . ويبيّن هذا فعل علىّ بأخذه عن الخلفاء رضى الله عنهم ولم يُنكر عليه فقيل له : عملت بالمنسوخ وتركت الناسخ . وهذا واضح .

الخامســة — واختلفوا فى نفى البِكر مع الجلد ؛ فالذى عليه الجمهور أنه يُنفَى مع الجلد ؛ قاله الخلفاء الراشدون : أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ، وهو قول ابن عمر رضى الله عنـه ، و به قال عطاء وطاوس وسفيان ومالك وابن أبى لَيْلَى والشافعى وأحمـد و إسحاق وأبو ثَوْر . وقال بتركه حماد بن أبى سليمان وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن . والحجة للجمهور حديثُ عُبادة المذكور،

وحديثُ أبي هريرة وزيد بن خالد حديثُ العسيف[1] وفيه : فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله أمّا غنمك وجاريتك فردٌّ عليك" وجلد ابنه مائةً وغرّبه عاما . أخرجه الائمة . ٱحتج من لم ير نفيه بحديث أبي هريرة في الأَمَة ، ذكر فيه الجلد دون النفي . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن الزُّهْرِيّ عن سعيد بن المُسَيِّب قال : غرّب عُمَرُ ربيعة بن أبي أميّة بن خلف في الخمر إلى خَيْبَرَ فلحِق بهِرَقْل فتنصّر؛ فقال عمر : لا أغرّب مسلما بعد هذا . قالوا : ولو كان التغريب حدًّا لله تعالى ما تركه عُمَرُ بعدُ . ثم إن النص الذى في الكتاب إنما هو الجلد ، والزيادة على النص نسخ ؛ فيلزم عليه نسخ القاطع بخبر الواحد . والجواب : أمّا حديث أبي هريرة فإنما هو في الإماء لا في الأحرار . وقد صح عن عبد الله بن عمر أنه ضرب أَمَته في الزنا ونفاها . وأمّا حديث عمر وقولُه : لا أغرّب بعده مسلما ، فيعني في الخمر — والله أعلم — لما رواه نافع عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ضرب وغرّب ، وأن أبا بكر ضرب وغرّب ، وأن عمر ضرب وغرّب . أخرجه الترمذى في جامعه والنَّسائى في سُنَنه عن أبي كُرَيب محمد بن العلاء الهَمْدانيّ عن عبد الله بن إدريس عن عبيد الله بن عمر عن نافع . قال الدَّارَقُطْنِيّ : تفرّد به عبد الله بن إدريس ولم يسنده عنه أحد من الثّقات غير أبي كُرَيب ، وقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم النفى فلا كلام لأحد معه ، ومن خالفته السُّنّة خاصمته . وبالله التوفيق .

وأما قولهم : الزيادة على النص نسخ ، فليس بمسلّم ، بل زيادة حكم آخر مع الأصل . ثم هو قد زاد الوضوء بالنبيذ بخبر لم يصحّ على الماء ، واشترط الفقر في القربى[2]؛ إلى غير ذلك مما ليس منصوصا عليه في القرآن . وقد مضى ذلك في البقرة[3] ويأتى .

السادســة — القائلون بالتّغريب لم يختلفوا في تغريب الذَّكَر الحرّ ، وٱختلفوا في تغريب العبد والأمة ؛ فممن رَأَى التّغريب فيهما ٱبنُ عُمَرَ جَلَد مملوكةً له في الزّنا ونفاها إلى فَدَك[4] ؛

---

(١) العسيف (بالسين المهملة والفاء) : الأجير . (٢) راجع تفسير قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم ... » آية ٤١ سورة الأنفال . (٣) راجع جـ ٢ ص ٦١ وما بعدها طبعة ثانية .

(٤) فدك (بالتحريك) : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة . (عن معجم البلدان) .

و به قال الشافعيّ وأبو ثور والثوريّ والطبري وداود . وآختلف قول الشافعيّ في نفي العبد، فمرّة قال : أستخير الله في نفي العبد، ومرة قال : يُنفَى نصفَ سنة، ومرّة قال : يُنفى سنة إلى غير بلده؛ وبه قال الطّبريّ. واختلف أيضا قوله في نفي الأمة على قولين. وقال مالك: ينفى الرّجُل ولا تُنفى المرأة ولا العبد . ومن نُفِي حُبس في الموضع الذي يُنفى إليه. ويُنفى من مصر إلى الحجاز وشَغْب(١) وأسْوان ونحوها، ومن المدينة إلى خَيْبَر وفَدَك؛ وكذلك فَعَل عمر بن عبد العزيز. ونَفَى عليٌّ من الكُوفة إلى البَصْرة . وقال الشافعيّ : أقلُّ ذلك يوم وليلة . قال آبن العربيّ : كان أصل النفي أن بني إسرائيل أجمع رأيهم على أن من أحدث حدَثا في الحَرَم غُرّب منه، فصارت سُنّة فيهم يدينون بها؛ فلأجل ذلك آستنّ الناس إذا أحدث احد حدَثا غُرّب عن بلده، وتمادى ذلك في الجاهلية إلى أن جاء الإسلام فأقره في الزّنا خاصّة. آحتجّ من لم ير النفي على العبد بحديث أبي هريرة في الأَمَة ؛ ولأن تغريبه عقوبةٌ لمالكه تمنعه من منافعه في مدّة تغريبه، ولا يناسب ذلك تصرّف الشرع، فلا يعاقب غير الجاني. وأيضا فقد سقط عنه الجمعة والحج والجهاد الذي هو حق لله تعالى لأجل السيد؛ فكذلك التغريب . والله أعلم .

والمرأة إذا غُرّبت ربما يكون ذلك سببا لوقوعها فيما أُخرجت من سببه وهو الفاحشة، وفي التغريب سبب لكشف عورتها وتضييع لحالها؛ ولأن الأصل منعها من الخروج من بيتها وأن صلاتها فيه أفضل. وقال صلى الله عليه وسلم: "أَعْرُوا النساء يلزَمْنَ الحِجال(٢)" فحصل من هذا تخصيص عموم حديث التغريب بالمصلحة المشهود لها بالاعتبار. وهو مختلف فيه عند الأصوليين والنظّار. وشذّت طائفة فقالت : يُجمع الجلد والرجم على الشيخ، ويُجلد الشاب؛ تمسُّكا بلفظ «الشيخ» في حديث زيد بن ثابت أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ٱلْبَتَّةَ" خرّجه النّسائي. وهذا فاسد؛ لأنه قد سمّاه في الحديث الآخر «الثّيّب».

السابعــة — قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ أي من الفاحشة. ﴿وَأَصْلَحَا﴾ يعني العمل فيما بعد ذلك. ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي آتركوا أذاهما وتعييرهما . وإنما كان هذا قبل نزول الحدود؛

(١) شغب (بفتح فسكون): منهل بين مصر والشأم . (عن القاموس) . (٢) الحجال : جمع حجلة بالتحريك، هو بيت كالقبة يستر بالثياب . والمعنى : جردوهن من الملابس التي يخرجن بها يلزمن البيوت .

فلما نزلت الحدود نُسخت هذه الآية . وليس المراد بالإعراض الهَجْر، ولكنها متاركة معرض؛ وفى ذلك احتقار لهم بسبب المعصية المتقدّمة، وبحسب الجهالة فى الآية الأخرى . والله توّاب أى راجع بعباده عن المعاصى .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

فيهما أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ قيل : هذه الآية عامّةٌ لكل من عمل ذنبا . وقيل : لمن جهل فقط، والتوبة لكل من عمل ذنبا فى موضع آخر . واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين؛ لقوله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ » . وتصح من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه — خلافا للمعتزلة فى قولهم : لا يكون تائبا مَن أقام على ذنب، ولا فرق بين معصية ومعصية — هذا مذهب أهل السنة . وإذا تاب العبد فالله سبحانه بالخيار إن شاء قبلها ، وإن شاء لم يقبلها . وليس قبول التوبة واجبا على الله من طريق العقل كما قال المخالف ؛ لأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجَب عليه ، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم، والمكلِّف لهم؛ فلا يصح أن يوصف بوجوب شيء عليه، تعالى عن ذلك، غير أنه أخبر سبحانه وهو الصادق فى وعده بأنه يقبل التوبة عن العاصين من عباده بقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ » . وقوله : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » . وقوله : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » فإخباره سبحانه وتعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضى وجوب تلك الأشياء . والعقيدةُ

أنه لا يجب عليــه شيء عقلا ؛ فأما السمع فظاهره قبــول توبة التائب . قال أبو المعالى وغيره : وهــذه الظواهر إنمـا تُعطى غلبة ظن، لا قطعا على الله تعالى بقبــول التوبة . قال ابن عطية : وقد خولف أبو المعالى وغيره فى هــذا المعنى . فإذا فرضنا رجلا قد تاب توبة نَصُوحًا تامّةَ الشروط فقال أبو المعالى : يغلب على الظن قبول توبته . وقال غيره : يقطع على الله تعالى بقبــول توبته كما أخبر عن نفسه جل وعز . قال ٱبن عطية : وكان أبى رحمه الله يميل إلى هــذا القول ويرجّحه ، وبه أقول ، والله تعــالى أرحم بعباده من أن ينخرم فى هذا التائب المفروض معنى قوله : « وهو ٱلذى يقبل التوبة عن عِبادِهِ » وقوله تعالى : « وإنى لغفّار » . وإذا تقرّر هذا فٱعلم أن فى قوله « على الله » حذفا وليس على ظاهره، وإنمـا المعنى على فضل الله ورحمته بعباده . وهــذا نحو قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : "أتدرى ما حقّ العباد على الله" ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : "أن يُدخلهم الجنة" . فهذا كله معناه : على فضله ورحمته بوعده الحق وقوله الصدق . دليله قوله تعالى : « كَتَبَ عَلَى نفسِهِ الرحمة » أى وعد بهـا . وقيل : « على » هاهنا معناها « عند » والمعنى واحد، التقدير : عند الله ، أى أنه وَعد ولا خُلف فى وعده أنه يقبل التوبة إذا كانت بشروطها المصحِّحة لهـا ؛ وهى أربعة : الندم بالقلب، وترك المعصية فى الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثلها ، وأن يكون ذلك حياءً من الله تعالى لا من غيره ؛ فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التــوبة . وقد قيل من شروطها : الاعتراف بالذنب وكثرة الاستغفار ، وقد تقــدّم فى « آل عمران » كثير من معانى التوبة وأحكامها (١) . ولا خلاف فيما أعلمه أن التوبة لا تسقط حدًّا ؛ ولهــذا قال علمــاؤنا : إن السارق والسارقة والقاذفَ متى تابوا وقامت الشهادة عليهم أقيمت عليهم الحدود . وقيــل : « على » بمعنى « مِن » أى إنمـا التوبة من الله للذين ؛ قاله أبو بكر بن عبــدوس ، والله أعلم . وسيأتى فى « التحريم » (٢) الكلام فى التوبة النّصُــوح والأشياء التى يُتاب منهـا .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانيــة .

(٢) فى تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا توبوا ... » آية ٨

الثانيـــة ـ قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ السوء فى هذه الاية ، و «الأنعام» «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ» يعمّ الكفر والمعاصى ؛ فكل من عصى ربّه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته . قال قَتادة : أجمع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن كل معصية فهى بجهالة ، عمدًا كانت أو جهلا ؛ وقاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد والسُّدّى . وروى عن الضحاك ومجاهد أنهما قالا : الجهالة هنا العمد . وقال عِكرمة : أمور الدنيا كلها جهالة ؛ يريد الخاصةَ بها الخارجةَ عن طاعة الله . وهذا القول جار مع قوله تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو » . وقال الزجاج : يعنى قوله « بجهالة» اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية . وقيل : « بجهالة » أى لا يعلمون كُنْه العقوبة ؛ ذكره ابن فُورَك . قال ابن عطية : وضَعّف قولَه هذا وردّ عليه .

الثالثـــة ـ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ قال ابن عبّاس والسُّدّى : معناه قبل المرض والموت . ورُوى عن الضحّاك أنه قال : كلّ ما كان قبل الموت فهو قريب . وقال أبو مِجْلَز والضحّاك أيضا وعِكْرِمة وابن زيد وغيرهم : قبـل المعاينة للملائكة والسَّوْق (١) ، وأن يغلب المرء على نفسه . ولقد أحسن محمود الورّاق حيث قال :

قـــدّم لنفسـك توبة مرجوّة * قبل المماتِ وقبل حبس الألسُنِ
بادِرْ بهـا غَـلَق (٢) النفوسِ فإنهـا * ذُخْرٌ وغُـــنْم للمنيبِ المحسِنِ

قال علماؤنا رحمهم الله : وإنما صحّت التوبةُ منه فى هذا الوقت ؛ لأن الرجاء باقٍ ويصحّ منه الندم والعزم على ترك الفعل . وقـد روى الترمذيّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ الله يقبل توبةَ العبد ما لم يُغَرغِر " . قال : هذا حديث حسن غريب . ومعنى مالم يغرغر : ما لم تبلغ روحه حلقومه؛ فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به . قاله الهَرَوىّ :

(١) السوق : النزع ؛ كأنّ روحه تساق لتخرج من بدنه .

(٢) يقال : غلق الرهن إذا لم يقدر على افتكاكه . يريد : بادر بالتوبة قبل ضياع الفرصة .

وقيل المعنى يتوبون على قُرب عهد من الذنب من غير إصرار . والمبادِر فى الصحة أفضل، وألحق لأمله من العمل الصالح . والبعدُ كلُّ البعدِ الموتُ، كما قال :

* وأين مكان البُعْد إلا مَكانيا (١) *

وروى صالح المُرّى عن الحسن قال : من عيّر أخاه بذنب قد تاب إلى الله منه ٱبتلاه الله به . وقال الحسن أيضا : إن إبليس لما هبط قال : بعزّتك لا أفارق ٱبن آدم ما دام الرُّوح فى جسده . قال الله تعالى : " فبعزتى لا أحجب التوبة عن ٱبن آدم ما لم تُغَرْغِر نفسه " .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ ﴾ نفى سبحانه أن يَدخل فى حكم التائبين من حضره الموت وصار فى حين اليأس ؛ كما كان فرعون حين صار فى غمرة الماء والغرق فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان ؛ لأن التوبة فى ذلك الوقت لا تنفع ، لأنها حال زوال التكليف . وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجمهور المفسرين . وأما الكفار يموتون على كفرهم فلا توبة لهم فى الآخرة ، وإليهم الإشارة بقوله تعالى : « وَأُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » وهو الخلود . وإن كانت الإشارة بقوله إلى الجميع فهو فى جهة العُصاة عذاب لا خلود معه ؛ وهذا على أن السيئات ما دون الكفر ؛ أى ليست التوبة لمن عمل دون الكفر من السيئات ثم تاب عند الموت ، ولا لمن مات كافرا فتاب يوم القيامة . وقد قيل : إن السيئاتِ هنا الكفر ، فيكون المعنى وليست التوبة للكفار الذين يتوبون عند الموت ، ولا للذين يموتون وهم كفار . قال أبو العالية : نزل أوّل الآية فى المؤمنين « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ » . والثانية فى المنافقين . « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » يعنى عدم قبول التوبة للذين أصروا على فعلهم . ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ يعنى السوق والنّزع ومعاينة ملَك الموت . ﴿ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ ﴾ فليس لهذا توبة . ثم ذكر توبة الكفار فقال تعالى : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى وجيعا دائما . وقد تقدّم (٢) .

---

(١) هذا عجز بيت لمالك بن الريب المازنى . وصدره :

* يقولون لا تبعد وهم يدفنوننى *

(٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ هـذا متّصل بمـا تقـدّم ذكره من الزّوجات ، والمقصود نفى الظلم عنهنّ و إضرارهنّ ؛ والخطاب للأولياء . و « أنْ » فى موضع رفع بيحل ؛ أى لا يحلّ لكم وِراثة النساء . و ﴿ كَرْهًا ﴾ مصدر فى موضع الحال . واختلفت الروايات وأقوال المفسرين فى سبب نزولهـا ؛ فروى البُخارىّ عن ابن عباس « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنـوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ » قال : كانوا إذا مات الرجل كان أوليـاؤه أحقَّ بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوّجها ، و إن شاءوا زوّجوها ، و إن شاءوا لم يزوّجوها ؛ فهم أحقّ بهـا من أهلها فنزلت هـذه الآية فى ذلك . وأخرجه أبو داود بمعناه . وقال الزُّهرِىّ وأبو مِجلَز : كان من عادتهم إذا مات الرجل يُلقِى ٱبنُـه من غيرها أو أقربُ عصبته ثوبَه على المرأة فيصير أحقَّ بها من نفسها ومن أوليائها ؛ فإن شاء تزوّجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصـدقها الميت ، و إن شاء زوّجها من غيره وأخذ صداقها ولم يُعطها شيئا ، و إن شاء عَضَلها لتَفْتَدِىَ منه بمـا ورثته من الميت أو تموت فيرثها ، فأنزل الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا » . فيكون المعنى : لا يحلّ لكم أن ترثوهنّ من أزواجهنّ فتكونوا أزواجا لهنّ . وقيل : كان الوارث إن سبق فألقَى عليها ثوبًا فهو أحقّ بها ، و إن سبقته فذهبت إلى أهلها كانت أحقَّ بنفسها ؛ قاله السدى . وقيل : كان يكون عند الرجل عجوز ونفســه تتوق إلى الشابّة فيكره فراق العجوز لمـالها فيمسكها ولا يقربها حتى تَفْتَدِى منه بمالها أو تموت فيرثهـا

فنزلت هذه الآية . وأمر الزّوج أن يطلقها إن كَرِه صحبتها ولا يمسكها كرها ؛ فذلك قوله تعالى : « لَا يَحِلّ لَكُم أن تَرِثُوا النساء كَرْهًا » . والمقصود من الاية إذ هابُ ما كانوا عليه فى جاهليتهم ، وألّا تجعل النساء كالمـال يُورَثن عن الرجال كما يُورَث المـال . و « كُرْهًا » بضم الكاف قراءة حمزة والكِسائىّ ، الباقون بالفتح ، وهما لغتان . وقال القُتَبِىّ : الكَرْه (بالفتح) بمعنى الإكراه ، والكُرْه (بالضم) المشقّة . يقال : لِتفعل ذلك طَوْعا أو كَرها ، يعنى طائعا أو مكرها . والخطاب للأولياء . وقيـل : لأزواج النساء إذا حبسوهنّ مع سوء العِشرة طَماعية إرثهـا ، أو يَفتدين ببعض مهورهنّ ، وهذا أصح . واختاره ابن عطية قال : ودليل ذلك قوله تعـالى : « إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ » و إذا أتت بفاحشة فليس للوَلِىّ حبسها حتى يذهب بمالها إجماعاً من الأمة ، و إنمـا ذلك للزّوج ، على ما يأتى بيانه فى المسألة بعد هذا .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ قد تقدّم معنى العَضْل وأنه المنع فى «البقرة»(1) . ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ اختلف الناس فى معنى الفاحشة ؛ فقال الحسن : هو الزنا ، و إذا زنت البكر فإنها تُجلد مائةً وتُنفَى سنةً، وتَرُدّ إلى زوجها ما أخذت منه . وقال أبو قِلَابة : إذا زنت آمرأة الرجل فلا بأس أن يُضارّها و يشقّ عليها حتى تَفْتَدِىَ منه . وقال السُّـدِّى : إذا فعلنَ ذلك فخذوا مهورَهنّ . وقال ابن سِيرين وأبو قِلابة : لا يحلّ له أن يأخذ منها فِدْية إلا أن يجـد على بطنها رجلا ، قال الله تعـالى : « إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَـةٍ مُبَيِّنَةٍ » . وقال ابن مسعود وابن عباس والضحّاك وقتادة : الفاحشة المبينة فى هـذه الاية البُغْض والنُّشُوز ، قالوا : فإذا نَشَزت حلّ له أن يأخذ مالها ؛ وهذا هو مذهب مالك . قال ابن عطية : إلا أنى لا أحفظ له نَصًّا فى الفاحشة فى الآية . وقال قوم : الفاحشة البَذاء باللسان وسُـوء العشرة قولا وفعلا ؛ وهذا فى معنى النشوز . ومن أهل العلم من يُجيز أخذ المـال من الناشز على جهة الخُلْع ؛ إلا أنه يرى ألّا يجاوز ما أعطاها رُكُونًا إلى قوله تعالى : «لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ» . وقال مالك و جماعة من أهل العلم : للزّوج أن يأخذ من الناشز جميعَ ما تملك . قال ابن عطية :

---

(1) راجع جـ ٣ ص ١٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

والزنا أصعب على الزوج من النشوز والأذى ، وكل ذلك فاحشة تحل أخذ المال . قال أبو عمر: قول ابن سيرين وأبي قلابة عندى ليس بشيء؛ لأن الفاحشة قد تكون البذاء والأذى؛ ومنه قيل للبذيء: فاحش ومتفحش، وعلى أنه لو اطلع منها على الفاحشة كان له لعانها، وإن شاء طلقها ؛ وأما أن يضارها حتى تفتدى منه بمالها فليس له ذلك ، ولا أعلم أحدا قال له أن يضارها ويسيء إليها حتى تختلع منه إذا وجدها تزنى غير أبي قلابة . والله أعلم . وقال الله عز وجل : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » يعنى فى حسن العشرة والقيام بحق الزوج وقيامه بحقها « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ » . وقال الله عز وجل : « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » فهذه الآيات أصل هذا الباب . وقال عطاء الخراسانى: كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها، فنسخ ذلك بالحدود . وقول رابع — « إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ » إلا أن يزنين فيحبسن فى البيوت ؛ فيكون هذا قبل النسخ، وهذا فى معنى قول عطاء وهو ضعيف .

الثالثة — وإذا تنزلنا على القول بأن المراد بالخطاب فى العضل الأولياء ففقهه أنه متى صح فى ولي أنه عاضل نظر القاضى فى أمر المرأة وزوجها، إلا الأب فى بناته؛ فإن كان فى عضله صلاح فلا يعترض قولا واحدا؛ وذلك بالخاطب والخاطبين. وإن صح عضله ففيه قولان فى مذهب مالك : أنه كسائر الأولياء، يزوج القاضى من شاء التزويج من بناته وطلبه. والقول الآخر — لا يعرض له .

الرابعة — يجوز أن يكون « تَعْضُلُوهُنَّ » جزما على النهى، فتكون الواو عاطفة جملة كلام مقطوعة من الأولى، ويجوز أن يكون نصبا عطفا على « أَنْ تَرِثُوا » فتكون الواو مشتركة عطفت فعلا على فعل . وقرأ ابن مسعود « ولا أن تعضلوهن » فهذه القراءة تقوى احتمال النصب، وأن العضل مما لا يجوز بالنص .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مُبَيِّنَةٍ ﴾ بكسر الباء قراءة نافع وأبى عمرو، والباقون بفتح الياء . وقرأ ابن عباس « مبينة » بكسر الباء وسكون الياء، من أبان الشيء؛ يقال: أبان الأمر بنفسه، وأبنته وبين وبينته؛ وهذه القراءات كلها لغات فصيحة .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى على ما أمر الله به من حسن المعاشرة . والخطاب للجميع ، إذ لكل أحدٍ عِشْرة ، زوجا كان أو وليا ؛ ولكنّ المراد بهذا الأمر فى الأغلب الأزواجُ ؛ وهو مثل قوله تعالى : « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ » . وذلك تَوْفِيَةُ حقّها من المهر والنفقة ، وألا يعبس فى وجهها لغير ذنب ، وأن يكون منطلقا فى القول لافظًا ولاغليظا ولا مُظهِرا ميلا إلى غيرها . والعشرة : المخالطة والممازجة . ومنه قول طَرَفة :

فلئن شَطّتْ نواها مرّةً * لعلَى عهد حَبيبٍ مُعْتَشِرْ

جعل الحبيب جمعا كالخليط والغريق . وعاشره معاشرة، وتعاشر القوم واعتشروا . فأمر الله سبحانه بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون أُدْمَة(١) ما بينهم وصحبتهم على الكمال ؛ فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش . وهذا واجب على الزّوج ولا يلزمه فى القضاء . وقال بعضهم : هو أن يتصنّع لها كما تتصنّع له . قال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلىّ : أتيت محمد بن الحنفيّة فخرج إلىّ فى مِلحفَة حمراء ولِحيتُه تقطر من الغالِيَة(٢)، فقلت : ما هذا ؟ قال : إن هذه الملحفة ألقتها علىّ آمرأتى ودهنتنى بالطّيب ، وإنهن يشتهين منّا ما نشتهيه منهنّ . وقال ابن عباس رضى الله عنه : إنى أُحبّ أن أتزيّن لآمرأتى كما أُحب أن تتزين لى ؛ وهذا داخل فيما ذكرناه . قال ابن عطية : وإلى معنى الآية ينظر قولُ النبىّ صلى الله عليه وسلم : " فاستمتع بها وفيها عِوَج " . أى لا يكن منك سُوءُ عشرة مع آعوجاجها ؛ فعنها تنشأ المخالفة وبها يقع الشّقاق، وهو سبب الخُلْع .

السابعــة — آستدل علماؤنا بقوله تعالى : « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمعروفِ » على أن المرأة إذا كانت لا يكفيها خادم واحد أن عليه أن يخدُمها قدر كفايتها، كآبنة الخليفة والمَلِك وشبههما ممن لا يكفيها خادم واحد ، وأن ذلك هو المعاشرة بالمعروف . وقال الشافعىّ وأبو حنيفة : لا يلزمه إلا خادم واحد، وذلك يكفيها خِدمة نفسها، وليس فى العالم آمرأة إلا وخادم واحد يكفيها ؛ وهذا كالمقاتل تكون له أفراس عِدّة فلا يُسهم له إلا لفرس واحد، لأنه لا يمكنه القتال إلا على فرس . قال علماؤنا : وهذا غلط ؛ لأن مثل بنات الملوك اللاتى لهنّ خِدمة

(١) الأدمة : الخلطة .   (٢) الغالية : نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن .

كثيرة لا يكفيها خادم واحد ؛ لأنها تحتاج من غسل ثيابهــا و إصلاح مضجعها وغيرِ ذلك إلى ما لا يقوم به الواحد ، وهذا بيّن . والله أعلم .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ ﴾ أى لِدمامةٍ أو سوء خُلُق من غير ارتكاب فاحشة أو نشوز ؛ فهــذا يندب فيه إلى الاحتمال ، فعسى أن يئول الأمر إلى أن يرزق الله منها أولادا صالحين . و « أن » رفع بعسى، وأن والفعل مصدر .

قلت : ومن هذا المعنى ما ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم " لا يَفْرَكْ مؤمِن مؤمِنةً إن كَرِه منها خُلُقا رَضِىَ مِنهـا آخَرَ" أو قال " غيره " . المعنى : أى لا يبغضها بغضا كُلّيا يحمله على فراقها . أى لا ينبغى له ذلك بل يغفر سيئتها لحسنتها ويتغاضى عما يكره لمـا يحب . وقال مَكْحُول : سمعت ابن عمر يقول : إن الرجل ليستخير الله تعالى فيُخار له ، فيسخط على ربّه عز وجل فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة فإذا هو قد خِير له . وذكر ابن العربىّ قال : أخبرنى أبو القاسم بن حبيب بالمَهْدية عن أبى القاسم السّــيُورى عن أبى بكر بن عبــد الرحمن قال : كان الشــيخ أبو محمد بن أبى زيد من العــلم والدّين فى المنزلة والمعرفة ، وكانت له زوجة سيئة العشرة وكانت تقصّر فى حقوقه وتؤذيه بلسانهــا ؛ فيقال له فى أمرها و يُعذَل بالصبر عليها ، فكان يقول : أنا رجل قد أكمل الله علىّ النعمة فى صحة بدنى ومعرفتى وما ملكت يمينى ، فلعلّها بُعثت عقوبةً على ذنبى فأخاف إن فارقتها أن تنزل بى عقوبةٌ هى أشدّ منها . قال علماؤنا : فى هذا دليل على كراهة الطلاق مع الإباحة . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله لا يكره شيئا أباحه إلا الطلاق والأكل و إنّ الله ليبغض المِعَى إذا امتلأ " .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — لمـا مضى فى الآية المتقدّمة حكم الفِراق الذى سببه المرأةُ ، وأنّ للزّوج أخذَ المـال منها عقّب ذلك بذكر الفراق الذى سببه الزّوجُ ، وبيّن أنه إذا أراد الطلاق من غير نُشُوز وسوء عشرة فليس له أن يطلب منها مالًا .

الثانيـــة — واختلف العلمـاء إذا كان الزوجان يريدان الفراق وكان منهما نُشوز وسوء عشرة؛ فقال مالك رضى الله عنه : للزّوج أن يأخذ منها إذا تسبّبتْ فى الفراق ولا يُراعَى تسبُّبه هو . وقالت جماعة من العلمـاء : لا يجوز له أخذ المـال إلا أن تنفرد هى بالنشوز وتطلبه فى ذلك .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا ﴾ الآية . دليل على جواز المغالاة فى المهور ؛ لأن الله تعالى لا يُمَثِّل إلا بمباح . وخطب عمر فقال : ألَا لا تَغالَوْا فى صدُقات النساء فإنها لو كانت مَكْرُمة فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ما أصدق قطُّ آمرأةً من نسائه ولا بناته فوق آثنتَىْ عشرة أُوقيّة . فقامت إليه آمرأة فقالت : يا عمر، يعطينا الله وتَحرِمُنا ! أليس الله سبحانه وتعالى يقول : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطارا فـلا تأخذوا مِنـه شيئا » ؟ قال عمـر : أصابت آمرأة وأخطأ عمـر . وفى رواية فأطرق عمر ثم قال : كل الناس أفقـه منك يا عمر ! . وفى أخرى : آمرأة أصابت ورجل أخطأ ، والله المستعان؛ وترك الإنكار . أخرجه أبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيح مسنده عن أبى العجفاء السّلمى قال : خطب عمرُ الناسَ ، فذكره إلى قوله : آثنتَىْ عشرة أوقية، ولم يذكر : فقامت آمرأة إلى آخره . وأخرجه آبن ماجه فى سننه عن أبى العجفاء وزاد بعد قوله أوقية : وأن الرجل ليثقل صدُقة آمرأته حتى يكون لهـا عداوة فى نفسه ويقول : قـد كلِفت إليك عَلَق القِربة أو عَرَق القِربة؛ وكنتُ رجلا عربيّا مولَّدا ما أدرى ما عَلَق القربة أو عَرَق القِربة . قال الجوهرى : وعَلَق القربة لغة فى عَرَق القِربة . قال غيره : ويقال عَلَق القربة عِصامها الذى تُعلَّق به . تقول : كلِفت إليك حتى عِصام القِربة . وعَرَق القربة ماؤها ؛ يقـول :

جَشِمت إليك حتى سافرت وٱحتجت إلى عَرَق القِربة ، وهـو ماؤها فى السفر . و يقال : بل عَرَق القِربة أن يقول: نَصِبت لك وتكلّفت حتى عَرِقت عَرَق القربة ، وهو سيلانها . وقيل : إنهم كانوا يتزوّدون المـاء فيعلّقونه على الإبل يتناوبونه فيشق على الظهر ؛ ففسّر به اللفظان : العَرَق والعَلَق . وقال الأصمعى : عَرَق القِربة كلمة معناها الشـدّة . قال : ولا أدرى ما أصلها . قال الأصمعى : وسمعت ابن أبى طرفة وكان من أفصح من رأيت يقول: سمعت شِيخاننا يقولون : لقِيت من فلان عَرَق القِربة ، يعنون الشدّة . وأنشدنى لٱبن أحمر:

ليستْ بمَشْتَمَةٍ تُعَـدُّ وعفـوُها * عَرَق السِّقاءِ على القَعُودِ اللّاغِبِ

قال أبو عبيد : أراد أنه يسمع الكلمة تَغيظه وليست بشتم فيؤاخذ صاحبها بهـا وقد أُبْلِغَتْ إليه كعرق القربة، فقال : كعَرَق السِّقاء لمـّا لم يمكنه الشعر ؛ ثم قال : على القعود اللاغِب، وكان معناه أن تعلق القربة على القَعود فى أسفارهم . وهذا المعنى شبيه بمـا كان الفَرّاء يَحكيه ؛ زعم أنهـم كانوا فى المفاوز فى أسـفارهم يتزوّدون المـاء فيعلّقونه على الإبل يتناوبونه ؛ فكان فى ذلك تعب ومشقة على الظهر . وكان الفراء يجعل هذا التفسير فى عَلَق القِربة باللام .

وقال قوم : لا تُعطِى الآيةُ جواز المغالاة بالمهـور ؛ لأن التمثيل بالقنطار إنمـا هو على جهـة المبالغة ؛ كأنه قال : وآتيتم هذا القدر العظيم الذى لا يؤتيه أحد . وهذا كقوله صلى الله عليه وسـلم : "من بنى مسجدا لله ولو كمَفْحَص قَطاة بنى الله له بيتـا فى الجنة"(١) . ومعلوم أنه لا يكون مسجد كمَفْحَص قطاة . وقد قال صلى الله عليه وسلم لٱبن أبى حَدْرَدٍ وقد جاء يستعينه فى مهره فسأله عنـه فقال : مائتين ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عُرْض الحَرّة(٢) أو جبل" . فاستقرأ بعض الناس من هذا منع المغالاة بالمهور ؛ وهذا لا يلزم، و إنكار النبيّ صلى الله عليه وسلم على هذا الرجل المتزوّج ليس إنكارا لأجل المغالاة والإكثار فى المهور ، و إنما الإنكار لأنه كان فقيرا فى تلك الحال فأحوج نفسه إلى الاستعانة والسؤال ، وهذا مكروه باتفاق . وقد أصدق عمرُ أم كلثوم بنت علىّ من

(١) مفحص القطاة : موضعها الذى تجثم فيه وتبيض . (٢) الحرّة : أرض ذات حجارة نخرة سود .

فاطمة رضى الله عنها أربعين ألف درهم . وروى أبو داود عن عُقبة بن عامر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لرجل : "أترضى أن أزوّجك فلانة" ؟ قال : نعم . وقال للرأة : "أترضين أن أزوّجك فلانا" ؟ قالت : نعم . فزوج أحدهما من صاحبه ؛ فدخل بها الرجل ولم يفرض لها صداقا ولم يعطها شيئا ، وكان ممن شهد الحُدَيْبِيَة وله سهم بخَيْبر ؛ فلما حضرته الوفاة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّجنى فلانة ولم أفرض لهـا صداقا ولم أعطها شيئا ، وإنى أُشهدكم أنى قد أعطيتها من صداقها سهمى بخيبر ؛ فأخذت سهمها فباعته بمائة ألف . وقد أجمع العلمـاء على ألّا تحـديد فى أكثر الصداق ؛ لقوله تعالى : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا » واختلفوا فى أقلّه ، وسيأتى عند قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ » . ومضى القول فى تحديد القنطار فى « آل عمران »(١) . وقرأ ابن مُحَيْصن « وآتيتمُ احداهنّ » بوصل ألف «إحداهن» . وهى لغة ؛ ومنه قول الشاعر :

* وتسمع من تحت العجَاج لهـا ازْمَلا(٢) *

وقول الآخر :

* إن لم أقاتل فالبِسُونى بُرْقعـا *

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تَأْخُذُوا مِنْـهُ شَيْئًا ﴾ قال بكر بن عبـد الله المُزَنىّ : لا يأخذ الزّوج من المختلعة شيئا ؛ لقول الله تعالى : « فَلَا تَأْخُذُوا » ، وجعلها ناسخة لآية « البقرة » . وقال ابن زيد وغيره : هى منسوخة بقوله تعالى فى سـورة البقرة « وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا(٣) » . والصحيح أن هذه الآيات مُحْكَمة وليس فيها ناسخ ولا منسوخ وكلها يبنى بعضها على بعض . قال الطبرىّ : هى محكمة ، ولا معنى لقول بكر إن أرادت هى العطاء ؛ فقد جوّز النبيّ صلى الله عليه وسلم لثابت أن يأخذ من زوجته ما ساق إليها . و﴿ بُهْتَانًا ﴾ مصدر فى موضع الحال ﴿ وَإِثْمًـا ﴾ معطوف عليه ﴿ مُبِينًا ﴾ من نعته .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية .   (٢) الأزمل : الصوت .

(٣) راجع جـ ٣ ص ١٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

الخامســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ ﴾ الآية . تعليل لمنع الأخذ مع الخلوة . وقال بعضهم : الإفضاء إذا كان معها فى لحاف واحد جامَعَ أو لم يُجامع ؛ حكاه الهروىّ وهو قول الكلْبىّ . وقال الفراء : الإفضاء أن يخلو الرجلُ والمرأةُ وإن لم يجامعها . وقال ابن عباس ومجاهد والسُّدِّى وغيرهم : الإفضاء فى هذه الآية الجماع . قال ابن عباس : ولكنّ الله كريم يَكْنِي . وأصل الإفضاء فى اللغة المخالَطة؛ ويقال للشيء المختلط : فَضًا . قال الشاعر :

فقلتُ لهـا يا عَمَّتِي لكِ ناقتِي * وتَمْرٌ فَضًا فِي عَيْبَتِي وزَبِيبُ[(1)]

ويقال : القوم فَوْضَى فَضًا ، أى مختلطون لا أمير عليهم . وعلى أن معنى «أفضى» خلا وإن لم يكن جامَع هل يتقرّر المهر بوجود الخلوة أم لا ؛ اختلف علماؤنا فى ذلك على أربعة أقوال : يستقرّ بمجرّد الخلوة . لا يستقرّ إلا بالوطء . يستقرّ بالخلوة فى بيت الإهـداء . التفرقة بين بيته وبيتها . والصحيح استقراره بالخلوة مطلقا ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ قالوا : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعِدّة دخل بها أو لم يدخل بها ؛ لما رواه الدّارَقُطْني عن ثَوْبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصّداق " . وقال عمر : إذا أغلق بابا وأرخى سترا ورأى عوْرة فقد وجب الصداق وعليها العدّة ولها الميراث . وعن علىّ : إذا أغلق بابا وأرخى سترا ورأى عورة فقد وجب الصداق . وقال مالك : إذا طال مكثه معها مثل السنة ونحوها ، واتفقا على ألا مِسيس وطلبت المهر كلّه كان لها . وقال الشافعىّ : لا عِدّة عليها ولها نصف المهر . وقد مضى فى « البقرة »[(2)] .

السادســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ فيه ثلاثة أقوال . قيل : هو قوله عليه السلام " فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله " . قاله عكرمة والربيع . الثانى ـــ قوله تعالى : « فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » قاله الحسن وابن سِيرين وقَتادة والضحاك والسُّدِّى . الثالث ـــ عقدة النكاح قول الرجل : نكحت وملكت النكاح ؛ قاله مجاهد وابن زيد . وقال قوم : الميثاق الغليظ الولد . والله أعلم .

(١) العيبة : زَبيل من أدم ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين . وما يجعل فيه الثياب .
(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٠٥

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ يقال : كان الناس يتزوجون آمرأةَ الأبِ برضاها بعد نزول قوله تعالى: « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا » حتى نزلت هذه الآية: « وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ » فصار حراما فى الأحوال كلها ؛ لأن النكاح يقع على الجماع والتزوّج ، فإن كان الأب تزوّج آمرأة أو وطئها بغير نكاح حَرُمت على آبنه؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿ مَا نَكَحَ ﴾ قيل: المراد بها النساء . وقيل: العقد، أى نكاح آبائكم الفاسد المخـالف لدين الله؛ إذ الله قد أحكم وجه النكاح وفصّل شروطه . وهو اختيار الطبرى . فِمنْ متعلّقة بتنكحوا و «ما نكح» مصدر . قال : ولو كان معناه ولا تنكحوا النساء اللاتى نكح آباؤكم اوجب أن يكون موضع « ما » « من » . فالنهى على هذا إنمـا وقع على ألا ينكحوا مثل نكاح آبائهم الفاسد . والأوّل أصح، وتكون « ما » بمعنى «الذى» و «من» . والدليل عليه أن الصحابة تلقّت الآية على ذلك المعنى ؛ ومنه استدلت على منع نكاح الابنـاء حلائل الآباء . وقد كان فى العرب قبائل قد آعتادت أن يَخْلُفَ آبنُ الرجل على آمرأة أبيه، وكانت هذه السيرة فى الأنصار لازمةً، وكانت فى قريش مباحة مع التراضى. ألا ترى أن عمرو ابن امية خَلَف على آمرأة أبيه بعد موته فولدت له مُسافِرًا وأبا مُعَيط ، وكان لهـا من أُميّة أبو العِيص وغيره ؛ فكان بنو أمية إخوةَ مُسافر وأبى مُعيط وأعمـامَهما . ومن ذلك صفوان ابن أمية بن خلف تزوّج بعد أبيه آمرأتَه فاخِتةَ بنت الأسود بن المطّلب بن أسد، وكان أمية قُتـل عنها . ومن ذلك منظور بن زبّان خَلَف على مُليكة بنت خارجة ، وكانت تحت أبيـه زَبّان بن سَـيّار . ومن ذلك حِصْن بن أبى قيس تزوج آمرأة أبيـه كُبيشةَ بنت مَعْن . والاسـود بن خلف تزوّج آمرأة أبيه . وقال الأشعث بن سوار : تُوفِّى أبو قيس وكان من

صالحي الأنصار نخطب ٱبنُه قيسٌ ٱمرأةَ أبيه فقالت : إني أَعُدّك ولدا ، ولكني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره ؛ فأتته فأخبرته فأنزل الله هذه الآية . وقد كان في العرب من تزوّج ٱبنته ، وهو حاجب بن زُرارة تمجّس وفعلَ هـذه الفعلة ؛ ذكر ذلك النَّضر بن شُميل في كتاب المثالب . فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آباؤهم من هذه السيرة .

الثالثـة ـــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي تقدّم ومضى . والسلف : من تَقَدّم من آبائك وذوي قرابتك . وهـذا استثناء منقطع ، أي لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودَعُوه . وقيل : « إلا » بمعنى بعد ، أي بعد ما سلف ؛ كما قال تعـالى : « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَى » أي بعد الموتة الأولى . وقيل : « إلا ما قـد سلف » أي ولا ما سلف؛ كقوله تعالى : « مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً » يعني ولا خطأ . وقيل : في الاية تقديم وتأخير ، معناه : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا إلا ما قد سلف . وقيـل : في الآية إضمـار لقوله « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » فإنكم إن فعلتم تُعاقَبون وتؤاخَذون إلا ما قد سلف .

الرابعـة ـــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَـةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ عقّب بالذم البـالغ المتتابع ، وذلك دليل على أنه فِعل انتهى من القبح إلى الغاية . قال أبو العباس : سألت ٱبن الأعرابيّ عن نكاح المقْت فقال : هو أن يتزوّج الرجل ٱمرأة أبيه إذا طلّقها أو مات عنها ؛ ويقال لهذا الرجل : الضَّيْزَن . وقال ابن عرفة : كانت العرب إذا تزوّج الرجل ٱمرأة أبيه فأولدها قيل للولد : المَقْتِيّ . وأصل المَقْت البغض ؛ من مَقَته يَمْقُته مَقْتًا فهو مَمْقُوت ومَقيت . فكانت العرب تقول للرجل من ٱمرأة أبيـه : مَقِيت ؛ فسَمَّى تعالى هذا النكاح مَقْتا إذ هو ذا مقت يلحق فاعلَه . وقيـل : المراد بالاية النّهي عن أن يطأ الرجل ٱمرأةً وطِئها الاباء ، إلا ما قـد سلف من الاباء في الجـاهلية من الزنا بالنساء لا على وجه المناكحـة فإنه جائز لكم زواجهنّ . وأن تطئوا بعقـد النكاح ما وطئه آباؤكم من الزنا ؛ قاله ٱبن زيد . وعليه فيكون الاستثناء متصلا ، ويكون أصلا في أن الزنا لا يحرِّم على ما يأتي بيانه . والله اعلم .

قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ الآية . أى نكاح أمهاتكم ونكاح بناتكم ؛ فذكر الله تعالى فى هذه الآية ما يحل من النساء وما يحرم ، كما ذكر تحريم حليلة الأب، فحرّم الله سبعا من النسب وستًّا من بين رَضاع وصِهْر، وألحقت السّنة المتواترة سابعة ؛ وذلك الجمع بين المرأة وعمتها ، ونصّ عليه الإجماع وثبتت الرواية . عن ابن عباس قال : حرم من النسب سبع ومن الصهر سبع ، وتلا هذه الآية . وقال عمرو بن سالم مولى الأنصار مثل ذلك ، وقال : السابعة قوله تعالى : « والمحصنات » . فالسبع المحرّمات من النسب : الأمّهات والبنات والأخوات والعمات والخالات، وبنات الأخ وبنات الأخت . والسبع المحرّمات بالصِّهر والرّضاع : الأمّهات من الرّضاعة والأخوات من الرّضاعة، وأمّهات النساء، والربائب[1] وحلائل الأبناء والجمع بين الأختين، والسابعة « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم » . قال الطحاوى : وكل هذا من المُحْكَم المتّفق عليه ، وغير جائز نكاح واحدة منهنّ بإجماع إلا أمّهات النساء اللواتى لم يدخل بهنّ أزواجهنّ ؛ فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة، ولا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم؛ وبهذا قال جميع أئمة الفتوى بالأمصار . وقالت طائفة من السّلف : الأمّ والرّبيبة سواء، لا تحرم منهما واحدةٌ إلا بالدخول بالأخرى .

(١) الربائب : واحدها ربيبة، وربيبة الرجل : بنت امرأته من غيره .

قالوا : ومعنى قوله « وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ » أى اللاتى دخلتم بهنّ . « وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » . وزعموا أن شرط الدخول راجع إلى الأمّهات والربائب جميعا ؛ رواه خِلاس[1] عن علىّ بن أبى طالب . ورُوى عن ابن عباس وجابر وزيد بن ثابت ، وهو قول الزبير ومجاهد . قال مجاهد : الدخول مرادٌ فى النازلتين ؛ وقول الجمهور مخالف لهذا وعليه الحكم والفُتْيا . وقد شدّد أهل العراق فيه حتى قالوا : لو وطئها بزنًا أو قبّلها أو لمسها بشهوة حَرُمت عليه ابنتُها . وعندنا وعند الشافعىّ إنما تحرُم بنكاح صحيح ؛ والحرام لا يحرّم الحلال على ما يأتى . وحديثُ خِلاس عن علىّ لا تقوم به حجة ؛ ولا تصحّ روايتُه عند أهل العلم بالحديث ، والصحيحُ عنه مثلُ قولِ الجماعة . قال ابن جُريج : قلت لعطاء : الرجلُ ينكِح المرأة ثم لا يراها ولا يجامعها حتى يطلقها أتحِلّ له أمُّها ؟ قال : لا ، هى مرسلة دخل بها أو لم يدخل . فقلت له : أكان ابن عباس يقرأ : « وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » ؟ قال : لا لا . وروى سعيد عن قَتادة عن عِكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ » قال : هى مبهمة لا تحِل بالعقد على الابنة ؛ وكذلك روى مالك فى موطّئه عن زيدِ بن ثابتٍ ، وفيه : « فقال زيد لا ، الأمّ مبهمة [ليس فيها شرط][2] وإنما الشرط فى الربائب » . قال ابن المنذر : وهذا هو الصحيح ؛ لدخول جميع أمّهات النساء فى قوله تعالى : « وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُم » . ويؤيّد هذا القول من جهة الإعراب أن الخبرين إذا اختلفا فى العامل لم يكن نعتهما واحدا ؛ فلا يجوز عند النحويين مررت بنسائك وهربت من نساء زيد الظريفاتِ ، على أن تكون « الظريفاتِ » نعتًا لنسائك ونساء زيد ؛ فكذلك الآية لا يجوز أن يكون « اللاتى » من نعتهما جميعا ؛ لأن الخبرين مختلفان ، ولكنه يجوز على معنى أعنِى . وأنشد الخليل وسيبويه :

إنّ بها أكْتَلَ أو رِزامَا * خُوَيْرِبَيْنِ يَنْقُفَانِ الهَامَا[3]

خويربين يعنى لِصّين ، بمعنى أعنى . وينقفان : يكسِران ؛ نقَفت رأسه كسرته . وقد جاء صريحا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا

(١) خلاس (بكسر الخاء المعجمة وتخفيف اللام) : ابن عمرو الهجرى . (٢) زيادة عن الموطأ .
(٣) أكتل ورزام : رجلان . وخويربان أى خاربان ، وهما أكتل ورزام .

نكح الرجل المرأة فلا يحلّ له أن يتزوّج أمّها دخل بالبنت أو لم يدخل وإذا تزوّج الأمّ فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوّج البنت " أخرجه في الصحيحين .

الثانيــة — وإذا تقرّر هذا وثبت فاعلم أن التحريم ليس صفةً للأعيان ، والأعيان ليست موردا للتحليل والتحريم ولا مصدرا ، وإنما يتعلق التكليف بالأمر والنهى بأفعال المكلّفين من حركةٍ وسكونٍ ؛ لكن الأعيان لمّا كانت موردا للأفعال أضيف الأمر والنهى والحكم إليها وعُلّق بها مجازا على معنى الكناية بالمحل عن الفعل الذى يَحُل به .

الثالثــة — قوله تعالى : « أُمَّهَاتُكُمْ » تحريم الأمهات عامٌّ فى كل حال لا يتخصص بوجهٍ من الوجوه؛ ولهذا يُسمِّيه أهل العلم المبهم ، أى لا باب فيه ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوّته ؛ وكذلك تحريم البنات والأخوات ومن ذكر من المحرّمات . والأمهات جمع أمّهة؛ يقال : أمّ وأمّهة بمعنًى واحد، وجاء القرآن بهما . وقد تقدّم فى الفاتحة بيانه (1) . وقيل : إن أصل أمّ أمّهة على وزن فُعّلة مثل قُبّرة وحُمّرة لطَيرين ، فسقطت وعادت فى الجمع . قال الشاعر :

* أمّهتى خِنْدِفُ والدَّوْس أبى *

وقيل : أصل الأمّ أمّة، وأنشدوا :

تقبلتها عن أمّة لك طالما * تثوب إليها فى النوائب أجمعا

ويكون جمعها أمّات . قال الراعى :

كانت نجائبُ مُنْذِرٍ ومُحرِّقٍ * أُمّاتِهنّ وطَرْقُهُنّ فَحِيلَا

فالأمّ اسم لكل أنثى لها عليك ولادة؛ فيدخل فى ذلك الأمّ دِنْيَةً (2)، وأمهاتُها وجدّاتُها وأمّ الاب وجدّاته وأن عَلَوْن . والبنت اسم لكل أنثى لك عليها ولادة ، وإن شئت قلت : كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات ؛ فيدخل فى ذلك بنت الصلب وبناتها وبنات الأبناء وإن نَزَلْن . والأخت اسم لكل أنثى جاورتك فى أصليك أو فى أحدهما . والبنات

(1) راجع جـ ١ ص ١١٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

(2) يقال : هو ابن عمى دِنية ودِنيا (منون وغير منون) ودُنيا (بضم الدال والقصر) إذا كان ابن عمه لحًّا ، أى لاصق النسب .

جمع بنت، والأصل بَنَيَة، والمستعمل ٱبنة و بنت . قال الفراء : كُسرت الباء من بنت لتدل الكسرة على الياء، وضُمّت الألف من أخت لتدل على حذف الواو ، فإن أصل أخت أخوة، والجمع أخوات . والعمة ٱسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدّك فى أصليه أو فى أحدهما . و إن شئت قلت : كل ذَكَر رجع نسبه إليك فأخته عمتك . وقد تكون العمة من جهة الأم، وهى أخت أب أمك . والخـالة ٱسم لكل أنثى شاركت أمّك فى أصليها أو فى أحدهما . و إن شئت قلت : كل أنثى رجع نسبها إليك بالولادة فأختها خالتك . وقـد تكون الخالة من جهـة الأب وهى أخت أم أبيك . و بنت الأخ ٱسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بواسطة أو مباشرة ؛ وكذلك بنت الأخت . فهـذه السبع المحرّمات من النسب . وقرأ نافع فى رواية أبى بكر بن أبى أُوَيْس بتشديد الخاء من الأخّ إذا كانت فيه الألف واللام مع نقل الحركة .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ وهى فى التحريم مثلُ مَن ذكرنا ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "يَحْرُم من الرّضاع ما يَحْرُم من النسب" . وقرأ عبد الله « وأمهاتكم اللاى » بغير تاء؛ كقوله تعالى : « وَٱللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ » . قال الشاعر :

مِن اللّاء لم يحججن يبغين حِسبة * ولكن ليقتلن البرئ المغفّـلَا

﴿ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ فإذا أرضعت المرأة طفلا حُرِمت عليه لأنهـا أمّه، و بنتُها لأنها أخته، وأختُها لأنها خالته، وأمُّها لأنها جَدّته، و بنتُ زوجها صاحبِ اللّبن لأنها أخته، وأخته لأنها عمته، وأُمّه لأنها جَدّته، وبناتُ بنيها وبناتُها لأنهنّ بنات إخوته وأخواته .

الخامســـة ــ قال أبو نُعيم عبيد الله بن هشام الحلبىّ : سئِل مالك عن المرأة أتحج معها أخوها من الرّضاعة ؟ قال نعم . قال أبو نعيم : وسئل مالك عن ٱمرأة تزوّجت فدخل بهـا زوجها، ثم جاءت ٱمرأة فزعمت أنها أرضعتهما؛ قال: يُفَرَّق بينهما، وما أخذت من شيء له فهو لهـا، وما بَقِىَ عليه فلا شيء عليه . ثم قال مالك : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم سئل عن مثل هذا فأمر بذلك ؛ فقالوا : يا رسول الله، إنها ٱمراة ضعيفة ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أليس يقال إن فلانا تزوج أخته" .

السادسة — التحريم بالرضاع إنما يحصل إذا اتفق الإرضاع في الحولين؛ كما تقدم في « البقرة »[1] . ولا فرق بين قليل الرضاع وكثيره عندنا إذا وصل إلى الأمعاء ولو مصة واحدة . واعتبر الشافعي في الإرضاع شرطين : أحدهما خمس رضعات ؛ لحديث عائشة قالت : كان فيما أنزل الله عشر رضعات معلومات يُحرِّمن ، ثم نُسخن بخمس معلومات ، وتُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهنّ مما يُقرأ من القرآن . موضع الدليل منه أنها أثبتت أن العشر نُسخن بخمس ، فلو تعلق التحريم بما دون الخمس لكان ذلك نسخا للخمس . ولا يقبل على هذا خبر واحد ولا قياس ؛ لأنه لا ينسخ بهما . وفي حديث سَهْلة[2] "أرضعيه خمس رضعات يحرم بهن" . الشرط الثاني — أن يكون في الحولين ، فإن كان خارجا عنهما لم يحرم ؛ لقوله تعالى : « حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » . وليس بعد التمام والكمال شيء . واعتبر أبو حنيفة بعد الحولين ستة أشهر . ومالك الشهر ونحوه . وقال زُفَر : ما دام يجتزئ باللبن ولم يُفطم فهو رضاع وإن أتى عليه ثلاث سنين . وقال الأوزاعي : إذا فُطم لسنة واستمر فطامه فليس بعده رضاع . وانفرد الليث بن سعد من بين العلماء إلى أن رضاع الكبير يوجب التحريم ؛ وهو قول عائشة رضي الله عنها ، ورُوي عن أبي موسى الأشعري ، ورُوي عنه ما يدل على رجوعه عن ذلك ، وهو ما رواه أبو حصين عن أبي عطية قال : قدم رجل بامرأته من المدينة فوضعت وتورّم ثديها ، فجعل يمصّه ويمجّه فدخل في بطنه جرعة منه ؛ فسأل أبا موسى فقال : بانت منك ، وائت ابن مسعود فأخبره ، ففعل ؛ فأقبل بالأعرابي إلى أبي موسى الأشعري وقال : أرضيعًا ترى هذا الأشمط[3] ! إنما يحرم من الرضاع ما يُنبت اللحم والعظم . فقال الأشعري : لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم . فقوله :

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٦١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هي سهلة بنت سهيل ، امرأة أبي حذيفة ابن عتبة . وكان زوجها تبنى « سالما » الذي يقال له سالم مولى أبي حذيفة ؛ فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، كنا نرى سالما ولدا ، وكان يدخل علي وأنا فُضُل (أي في ثوب واحد وبعض جسدها متكشف) وليس لنا إلا بيت واحد . فقال لها الرسول صلوات الله عليه : "أرضعيه ... الخ . راجع الموطأ .

(٣) الشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده . وقيل : اللحية .

« لا تسألونى » يدل على أنه رجع عن ذلك . وآحتجّت عائشة بقصة سالم مولى أبى حذيفة وأنه كان رجلا . فقال النبىّ صلى الله عليـه وسلم لسَهْلة بنت سُهَيل : " أرضـعيه " خرّجه الموطّأ وغيره . وشذّت طائفة فاعتبرت عشر رضعات ؛ تمسُّكًا بأنه كان فيما أنزل عشر رضعات ، وكأنه لم يبلغهم الناسخ . وقال داود : لا يحرم إلا بثلاث رضعات ؛ وآحتجّ بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحرّم الإملاجة والإملاجتان(١) " خرجه مسلم . وهو مروىّ عن عائشــة وآبن الزبير ، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثَوْر وأبو عبيد ، وهـو تمسّك بدليل الخطاب وهو مختلَف فيــه . وذهب من عدَا هؤلاء من أئمة الفتوى إلى أن الرضعة الواحدة تحـرّم إذا تحققت كما ذكرنا ؛ متمسّكين بأقلّ ما ينطلق عليــه آسم الرضاع . وعُضِد هذا بمـا وُجد من العمل عليه بالمدينة وبالقياس على الصِّهر ؛ بعلّة أنه معنًى طارئ يقتضى تأبيد التحريم فلا يشترط فيــه العدد كالصّهر . وقال الليث بن ســعد : أجمع المسلمون على أن قليل الرّضاع وكثيرَه يحرّم فى المهــد ما يُفطِر الصائم . قال أبو عمر : لم يقف آلليث على الخلاف فى ذلك .

قلت — وأنصّ ما فى هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تُحرِّم المصة ولا آلمصتان " . أخرجه مسلم فى صحيحه . وهو يفسر معنى قوله تعـالى : « وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » أى أرضعنكم ثلاث رضعات فأكثر ؛ غير أنه يمكن أن يحمل على ما إذا لم يتحقق وصوله إلى جوف الرضيع ؛ لقوله : « عشر رضعات معلومات . وخمس رضعات معلومات » . فوصفُها بالمعلومات إنمـا هو تحرُّز ممـا يتوهم أو يشك فى وصوله إلى الجوف . ويفيد دليل خطابه أن الرضعات إذا كانت غير معلومات لم تحرّم . والله أعلم . وذكر الطحاوىّ أن حديث آلإملاجة وآلإملاجتين لا يثبت ؛ لأنه مرّة يرويه آبن الزبير عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ومرة يرويه عن عائشة ، ومرة يرويه عن أبيــه ؛ ومثلُ هــذا آلاضطراب يُسقِطه . ورُوى عن عائشة أنه لا يحــرم إلا سبع رضعات . ورُوى عنها أنهـا أمرت أختها « أم كلثوم » أن تُرضِع سالم بن عبد الله

(١) الإملاجة : المرة من الإرضاع . يعنى أن المصة والمصتين لا يحرمان مايحرمه الرضاع الكامل .

عشر رضعات . ورُوى عن حفصة مثله ، ورُوى عنها ثلاث، ورُوى عنها خمس؛ كما قال الشافعيّ رضى الله عنه، وحكى عن إسحاق .

السابعة — قوله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ آستدلّ به من نَفَى لبن الفحل، وهو سعيد بن المسيِّب وإبراهيم النَّخَعِيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وقالوا : لبن الفحل لا يُحرِّم شيئا من قِبل الرجل . وقال الجمهور : قوله تعالى « وأمهاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » يدلّ على أن الفحل أب ؛ لأن اللبن منسوب إليه فإنه دَرّ بسبب ولده . وهذا ضعيف ؛ فإن الولد خُلق من ماء الرجل والمرأة جميعا ، واللبن من المرأة ولم يخرج من الرجل، وما كان من الرجل إلا وطء هو سبب لنزول الماء منه ، وإذا فصل الولد خلق الله اللبن من غير أن يكون مضافا إلى آلرجل بوجه ما ؛ ولذلك لم يكن للرجل حقّ فى اللبن، وإنما اللبن لها ، فلا يمكن أخذ ذلك من القياس على الماء. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَحْرُم من الرضاع ما يَحْرُم من النسب" يقتضى التحريم من الرضاع ، ولا يظهر وجه نسبة الرضاع إلى الرجل مثل ظهور نسبة الماء إليه والرضاع منها . نعم، الأصل فيه حديث الزُّهْرِىّ وهشام ابن عروة عن عروة عن عائشة رضى الله عنها : أن أفلح أخا أبى القعيس جاء يستأذن عليها، وهو عمها من آلرضاعة بعد أن نزل الحجاب . قالت : فأبَيْتُ أن آذن له ؛ فلما جاء النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبرته فقال : "لِيلِج عليكِ فإنه عمُّك تَرِبَتْ يمينك". وكان أبو القعيس زوجَ المرأة التى أرضعت عائشة رضى الله عنها ؛ وهذا أيضا خبر واحد . ويحتمل أن يكون « أفلح » مع أبى بكر رضيعى لِبَانٍ فلذلك قال "ليلج عليك فإنه عمك" . وبالجملة فالقول فيه مُشكِل والعلم عند الله، ولكن العمل عليه، وآلاحتياط فى التحريم أولى، مع أن قوله تعالى : « وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ » يقوّى قولَ المخالِف .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ﴾ وهى الأخت لأب وأم، وهى التى أرضعتها أمّك بلِبانِ أبيك؛ سواء أرضعتها معك أو وُلِدت قبلك أو بعدك . والأخت

من الأب دون الأم، وهى التى أرضعتها زوجة أبيك . والأخت من الأم دون الأب، وهى التى أرضعتها أمّك بلبان رجل آخر .

ثم ذكر التحريم بالمصاهرة فقال تعالى : ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ والصّهر أربع : أم المرأة وٱبنتها وزوجة الأب وزوجة الآبن . فأمّ المرأة تحـرُم بمجرد العقد الصحيح على ٱبنتها ؛ على ما تقدّم .

التاســعة ـــ قوله تعالى : « وَرَبَائِبُكُمُ ٱللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ ٱللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » هذا مستقلّ بنفسه . ولا يرجع قوله : « من نسائكم ٱللَّاتِي دخلتم بهنّ » إلى الفريق الأوّل، بل هو راجع إلى الرّبائب، إذ هو أقرب مذكور كما تقدّم . وٱلرّبيبة : بنت ٱمرأة الرجل من غيره ؛ سُمّيت بذلك لأنه يربّيها فى حِجره فهى مربوبة ، فعيلة بمعنى مفعولة . وٱتفق الفقهاء على أن الرّبيبة تَحْرُم على زوج أمّها إذا دخل بالأمّ، وإن لم تكن الرّبيبة فى حِجره . وشذّ بعض المتقدّمين وأهل الظاهر فقالوا : لا تحرُم عليــه الرّبيبة إلا أن تكون فى حِجر المتزوّج بأمها ؛ فلو كانت فى بلد آخر وفارق الأمّ بعد الدخول فله أن يتزوّج بهـا ؛ وٱحتجّوا بالآية فقالوا : حرم الله الرّبيبة بشرطين : أحدهما ـــ أن تكون فى حِجر المتزوّج بأمّها . والثانى ـــ الدخول بالأمّ ؛ فإذا عدم أحد الشرطين لم يوجد التحريم . وٱحتجّوا بقوله عليــه السلام : " لو لم تكن ربيبتى فى حِجرى ما حلّت لى إنها ٱبنة أخى من الرّضاعة " فشرط الحِجر . ورووْا عن علىّ ٱبن أبى طالب إجازة ذلك . قال ٱبن المنذر والطحاوىّ : أمّا الحديث عن علىّ فلا يَثْبت ؛ لأن راويه إبراهيم بن عبيد عن مالك بن أوس عن علىّ ، وإبراهيم هــذا لا يُعرف ، وأكثر أهــل العلم قــد تلقّوه بالدّفع والخلاف . قال أبو عبيد : ويدفعــه قوله " فلا تَعرِضْنَ علىّ بناتِكن ولا أخواتِكن " فعمّ . ولم يقل اللائى فى حِجرى ، ولكنه ســوّى بينهنّ فى التحريم . قال الطحاوى : وإضافتهن إلى الحجور إنما ذلك على الأغلب مما يكون عليه الرّبائب؛ لا أنهنّ لا يحرمن إذا لم يكنّ كذلك .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ يعنى بالأمهات . ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعنى فى نكاح بناتهن إذا طلقتموهن أو متن عنكم . وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حلّ له نكاحُ ابنتها . واختلفوا فى معنى الدّخول بالأمّهات الذى يقع به التحريم للربائب ؛ فروى عن ابن عباس أنه قال : الدّخول الجماع ؛ وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وغيرهما . واتفق مالك والثّوري وأبو حنيفة والأوزاعيّ والليث على أنه إذا مسها بشهوة حَرُمت عليه أمّها وابنتها وحَرُمت على الأب والابن ، وهو أحد قولى الشافعيّ . واختلفوا فى النظر ؛ فقال مالك : إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أو شىء من محاسنها للذة حرمت عليه أمّها وابنتها . وقال الكوفيون : إذا نظر إلى فرجها للشّهوة كان بمنزلة اللّمس للشهوة . وقال الثّوريّ : [يحرم][1] إذا نظر إلى فرجها متعمدا أو لمسها ؛ ولم يذكر الشهوة . وقال ابن أبى لَيْلَى : لا تحرم بالنظر حتى يلمس ؛ وهو قول الشافعيّ . والدليل على أن بالنظر يقع التحريم أن فيه نوع استمتاع بجرى مجرى النكاح ؛ إذ الأحكام تتعلق بالمعانى لا بالألفاظ . وقد يحتمل أن يقال : إنه نوع من الاجتماع بالاستمتاع ؛ فإن النظر اجتماع ولقاء ، وفيه بين المحبّين استمتاع ؛ وقد بالغ فى ذلك الشعراء فقالوا :

أليس الليل يجمع أمّ عمرٍو * وإيّانا فذاك بنا تَدانِ
نعم ، وترى الهِلال كما أراه * ويعلوها النهار كما علانِى

فكيف بالنظر والمجالسة واللذة .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ ﴾ الحلائل جمع حَلِيلة ، وهى الزوجة . سُمّيت حلِيلة لأنها تَحُل مع الزوج حيث حلّ ؛ فهى فعيلة بمعنى فاعلة . وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال ؛ فهى حليلة بمعنى محلّلة . وقيل : لأن كل واحد منهما يَحُل إزار صاحبه .

الثانية عشرة — أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء ، وما عقد عليه الأبناء على الآباء ، كان مع العقد وطء أو لم يكن ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ

(١) الزيادة عن البحر لأبى حيان .

مِنَ النِّسَاءِ » وقوله تعـالى : « وَحَلَائِلُ أَبْنَـائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْـلَابِكُمْ » . فإن نكح أحدهما نكاحا فاســدا حَرُم على الآخر العقدُ عليها كما يحرُم بالصحيح ؛ لأن النكاح الفاســد لا يخلو : إما أن يكو متّفقًا على فساده أو مختلَفا فيــه . فإن كان متّفقا على فساده لم يوجِب حُكما وكان وجوده كعدمه . وإن كان مختلَفا فيه فيتعلّق به من الحرمة ما يتعلّق بالصحيح ؛ لآحتمال أن يكون نكاحا فيدخل تحت مطلق آللفظ . وآلفروج إذا تعارض فيها التحريم والتحليل غُلِّب التحريم . والله أعلم . قال آبن المنذِر : أجمع كلّ من يحفظ عنه من علمـاء الأمصار على أن الرجل إذا وطِئ آمرأة بنكاح فاسد أنها تحرُم على أبيه وآبنه وعلى أجداده و ولد ولده . وأجمع العلمـاء وهي :

الثالثة عشرة — على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرّمها على أبيه وآبنه ؛ فإذا آشترى الرجل جارية فلمس أو قبّل حَرُمت على أبيه وآبنه ، لا أعلمهم يختلفون فيه ؛ فوجب تحريم ذلك تسليما لهم . ولمـا اختلفوا في تحريمها بالنظر دون اللّمس لم يجز ذلك لآختلافهم . قال آبن المنـذِر : ولا يصحّ عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليــه وسلم خلاف ما قلناه . وقال يعقوب ومحمد : إذا نظر رجل في فرج آمرأةٍ من شهوة حَرُمت على أبيه وآبنه ، وتحرُم عليه أمّها وآبنتها . وقال مالك : إذا وَطِئ آلأمة أو قعَد منها مقعدا لذلك و إن لم يُفْضِ إليها ، أو قبّلها أو باشرها أو غمزها تلذُّذا فلا تحلّ لآبنه . وقال الشافعيّ : إنمـا تحرُم باللّمس ولا تحرُم بالنظر دون اللمس ؛ وهو قول الأوزاعيّ .

الرابعة عشرة — وآختلفوا في الوطء بالزنا هل يحرّم أم لا ؛ فقـال أكثر أهل العلم : لو أصاب رجل آمرأة بزنًا لم يحرُم عليــه نكاحها بذلك ؛ وكذلك لا تحرُم عليــه آمرأته إذا زنا بأمها أو بآبنتها ، وحسبه أن يقام عليه الحد ، ثم يدخل بآمرأته . ومن زَنَا بآمرأة ثم أراد نكاح أمّها أو آبنتها لم تحرُما عليــه بذلك . وقالت طائفة : تحرُم عليــه . رُوِي هــذا القول عن عِمران بن حُصين ؛ وبه قال الشَّعبيّ وعطاء والحسن وسفيان الثَّورِيّ وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأي ، وروى عن مالك ؛ وأن الزنا يحرّم الأم والابنة وأنه بمنزلة الحلال ، وهو قول

أهل العراق . والصحيح من قول مالك وأهل الحجاز : أن الزنا لا حكم له ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : « وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ » وليست التي زنا بها من أمهات نسائه ، ولا ٱبنتها من ربائبه . وهو قول الشافعيّ وأبي ثَوْر ؛ لأنه لما ٱرتفع الصداق في الزنا ووجوب العدة والميراث ولحوق الولد ووجوب الحد ٱرتفع أن يحكم له بحكم النكاح الجائز . وروى الدّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِيّ عن عُروة عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل زنا بٱمرأة فأراد أن يتزوّجها أو ٱبنتها فقال : "لا يحرّم الحرام الحلال إنما يحرّم ما كان بنكاح" . ومن الحجة للقول الآخر إخبارُ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن جُريج وقوله : "يا غلام من أبوك" ؟ قال : فلان الراعي . فهذا يدل على أن الزنا يحرّم كما يحرّم الوطء الحلالُ ؛ فلا تحِلّ أمّ المَزْنِي بها ولا بناتها لآباء ٱلزاني ولا لأولاده ؛ وهي رواية ٱبن القاسم في المدوّنة . ويستدلّ به أيضا على أن المخلوقة من ماء الزاني لا تحلّ للزاني بأمّها ، وهو المشهور . قال عليه السلام : "لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج ٱمرأة وٱبنتها" ولم يفصل بين الحلال والحرام . وقال عليه السلام : "لا ينظر الله إلى مَن كشف قِناع ٱمرأة وٱبنتها" . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولهذا قلنا إن القُبْلة وسائرَ وجوه ٱلاستمتاع ينشر الحرمة . وقال عبد الملك بن الماجِشُون : إنها تحلّ ؛ وهو الصحيح لقوله تعالى : « وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا » يعني بالنكاح الصحيح ، على ما يأتي في « الفرقان » بيانه . ووجه التمسّك من الحديث على تلك المسألتين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد حكى عن جُرَيج أنه نسب ٱبن الزنا للزاني ، وصدق الله نسبته بما خرق له من العادة في نُطق الصبيّ بالشهادة له بذلك ؛ وأخبر بها النبيّ صلى الله عليه وسلم عن جُريج في معرِض المدح وإظهار كرامته ؛ فكانت تلك النسبة صحيحة بتصديق الله تعالى وبإخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فثبتت البنوّة وأحكامها .

فإن قيل : فيلزم على هذا أن تجري أحكام البنوّة والأبوّة من التوارث والولايات وغير ذلك ، وقد ٱتفق المسلمون على أنه لا توارث بينهما فلم تصح تلك النسبة .

فالجواب — أن ذلك موجب ما ذكرناه . وما ٱنعقد عليه الإجماع من الأحكام استثنيناه وبقي الباقي على أصل ذلك الدليل، والله أعلم .

الخامسة عشرة — واختلف العلماء أيضا من هذا الباب في مسألة اللائط ؛ فقال مالك والشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابهم: لا يحرم النكاح باللواط . وقال الثوريّ : إذا لعب بالصبي حرمت عليه أمّه ؛ وهو قول أحمد بن حنبل . قال : إذا تلوّط بٱبن ٱمرأته أو أبيها أو أخيها حُرمت عليه ٱمرأته . وقال الأوزاعيّ : إذا لاط بغلام ووُلِد للفجور به بِنت لم يجز للفاجر أن يتزوّجها ؛ لأنها بنت من قد دخل به . وهو قول أحمد بن حنبل .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ تخصيص ليخرج عنه كلّ من كانت العرب تتبنّاه ممن ليس للصّلب . ولمّا تزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱمرأة زيد بن حارثة قال المشركون : تزوّج ٱمرأة ٱبنه ! وكان عليه السلام تبنّاه؛ على ما يأتي بيانه في « الأحزاب »(1) . وحرمت حليلة الٱبن من الرضاع — وإن لم يكن للصّلب — بٱلإجماع المستند إلى قوله عليه السلام : " يحرُم من الرّضاع ما يحرُم من النّسب " .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ موضع « أنْ » رفعٌ على العطف على « حُرّمت عليكم أمّهاتُكم » . والأختان لفظ يعم الجميع بنكاح وبِملك يَمِين . وأجمعت الأمة على منع جمعهما في عقد واحد من النكاح لهذه الآية ، وقولِه عليه السلام : " لا تَعرِضْنَ عليّ بناتكن ولا أخواتكن " . وٱختلفوا في الأختين بِملك اليمين ؛ فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما بالمِلْك في الوَطْء ، وإن كان يجوز الجمع بينهما في المِلك بإجماع ؛ وكذلك المرأة وٱبنتها صفقة واحدة . واختلفوا في عقد النكاح على أخت الجارية التي وطئها ؛ فقال الأوزاعيّ : إذا وَطِئَ جارية له بِمِلْك اليمين لم يجز له أن يتزوّج أختها . وقال الشافعيّ : مِلْك اليمين لا يمنع نكاح الأخت . قال أبو عمر : من جَعلَ عقد النكاح كالشّراء أجازَه ، ومن جعله كالوطء لم يُجِزْه . وقد أجمعوا على أنه لا يجوز العقد على أخت

(1) آية ٣٧

الزوجة؛ لقول الله تعالى : « وأن تجمعوا بين الأختين » يعنى الزوجتين بعقد النكاح . فقف على ما أجمعوا عليه وما آختلفوا فيه يتبيّن لك الصّواب . والله أعلم .

الثامنة عشرة — شَذَّ أهل الظاهر فقالوا : يجوز الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء، كما يجوز الجمع بينهما فى المِلْك . وآحتجّوا بما رُوى عن عثمان فى الأختين من مِلْك اليمين : «حرّمتهما آية وأحلّتهما آية» . ذكره عبد الرزاق حدّثنا معمر عن الزُّهْرى عن قَبِيصة بن ذُؤَيب أن عثمان بن عفان سئِل عن الأختين مما ملكت اليمين فقال : لا آمرك ولا أنهاك أحلّتهما آية وحرّمتهما آية؛ فخرج السائل فلقى رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال معمر : أحسبه قال علِىّ — قال : ما سألتَ عنه عثمان؟ فأخبره بما سأله وبما أفتاه؛ فقال له : لكنّى أنهاك، ولو كان لى عليك سبيل ثم فعلتَ لجعلتُك نَكالًا . وذكر الطّحاوىّ والدّارَقُطْنِىّ عن علىّ وابن عباس مثلَ قول عثمان . والآية آلتى أحلّتهما قولُه تعالى : « وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ » . ولم يلتفت أحد من أئمة آلفتوى إلى هذا القول؛ لأنهم فهموا من تأويل كتاب الله خلافه، ولا يجوز عليهم تحريف التأويل . وممن قال ذلك من الصحابة : عمر وعلىّ وابن مسعود وابن عباس وعمار وابن عمر وعائشة وابن الزبير؛ وهؤلاء أهل العلم بكتاب الله، فمن خالفهم فهو متعسِّف فى التأويل . وذكر آبن المنذِر أن إسحاق بن رَاهَوَيْه حرّم الجمع بينهما بالوطء، وأن جمهور أهل العلم كرِهوا ذلك، وجعَلَ مالكٌ فيمن كرِهه . ولا خلاف فى جواز جمعهما فى المِلك، وكذلك الأمّ وآبنتها . قال ابن عطية : ويجىء من قول إسحاق أن يرجم الجامع بينهما بالوطء، وتُستقرأ الكراهية من قول مالك : إنه إذا وطِىء واحدة ثم وطِىء آلأخرى وقف عنهما حتى يحرّم إحداهما؛ فلم يلزمه حدّا . قال أبو عمر : « أما قول علىّ لجعلته نكالا » ولم يقل لحددته حدّ الزّانى؛ فلأن من تأوّل آية أو سُنّة ولم يَطَأ عند نفسه حراما فليس [بزان] (١) بإجماع وإن كان مخطئاً، إلا أن يدعى فى ذلك مالا يعذر بجهله . وقول بعض السلف

(١) زيادة عن كتاب الاستذكار لأبى عمر بن عبد البر .

فى الجمع بين ٱلأختين بملك اليمين : «أحلّتهما آية وحرّمتهما آية» معلوم محفوظ ؛ فكيف يُحَدّ حدّ الزانى مَن فعل ما فيه مثل هذا من الشّبهة القويّة . وبالله التّوفيق » .

التاسعة عشرة — وٱختلف العلماء إذا كان يَطَأ واحدة ثم أراد أن يطأ ٱلأخرى؛ فقال علىّ وٱبن عمر والحسن البَصْرِىّ والأوْزاعىّ والشافعىّ وأحمد وإسحاق : لا يجوز له وطء الثانيــة حتى يُحرّم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه ببيع أو عتق ، أو بأن يزوجها . قال ٱبن المنذِر : وفيــه قول ثان لقَتادة ، وهو أنه إذا كان يطأ واحدة وأراد وطء الأخرى فإنه ينوى تحريم الأولى على نفسه وألّا يَقْرَبها، ثم يُمسك عنهما حتى يستبرِئ الأولى المحرّمة، ثم يَغْشَى الثانية . وفيه قول ثالث — وهو إذا كان عنده أختان فلا يَقْرَب واحدة منهما . هكذا قال الحكم وحماد ؛ ورُوِى معنى ذلك عن النّخَعِىّ . ومذهب مالك : إذا كان أختان عند رجل بِمِلْك فله أن يطأ أيّتَهما شاء، والكَفُّ عن الأخرى موكول إلى أمانته . فاذا أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرّم على نفسه فَرْج الأولى بفعل يفعله من إخراج عن الملك : إما بتزويج أو بيع أو عتق إلى أجل أو كتابة أو إخدام طويل . فإن كان يطأ إحداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما، ولم يَجُزْ له قُرب إحداهما حتى يحرم الأخرى؛ ولم يُوكل ذلك إلى أمانته لأنه مُتّهَم فيمن قد وطِئ؛ ولم يكن قبلُ متّهما إذ كان لم يطأ إلا واحدة . ومذهب الكوفيين فى هذا الباب والثّوْرِىّ وأبى حنيفة وأصحابه أنه إن وطِئ إحدى أَمَتَيْه لم يطأ الأخرى؛ فإن باع الأولى أو زوّجها ثم رجعت إليه أمسك عن الأخرى؛ وله أن يطأها ما دامت أختُها فى العدّة من طلاق أو وفاة . فأما بعد ٱنقضاء العدة فلا ، حتى يُمَلِّك فرج التى يطأ غيرَه؛ وروى معنى ذلك عن علىّ رضى الله عنه. قالوا : لأن المِلْك الذى مَنع وطءَ الجارية فى ٱلابتداء موجود، فلا فرق بين عودتها إليه وبين بقائها فى مِلْكه . وقول مالك حسنٌ؛ لأنه تحريم صحيح فى الحال ولا يلزم مراعاة المآل؛ وحسبه إذا حرّم فرجها عليه ببيع أو بتزويج أنها حرمت عليه فى الحال . ولم يختلفوا فى العتق لأنه لا يتصرف فيه بحال ؛ وأما المكاتَبة فقد تَعجِز فترجع إلى ملكه . فإن كان عند رجل أَمَة يطؤها ثم تزوج أختها

ففيهـا فى المذهب ثلاثة أقوال فى النكاح . الثالث — فى المدوّنة أنه يوقف عنهما إذا وقع عقد النكاح حتى يحرم إحداهما مع كراهيةٍ لهـذا النكاح؛ إذ هو عقد فى موضع لا يجوز فيـه الوطء . وفى هذا ما يدل على أن مِلْك اليمين لا يمنع النكاح؛ كما تقدّم عن الشافعيّ . وفى الباب بعينه قول آخر: أنّ النكاح لا ينعقد؛ وهو معنى قول الأوْزاعيّ . وقال أشهب فى كتاب الاستبراء : عقد النكاح فى الواحدة تحريم لفرج المملوكة .

الموفيـة عشرين — وأجمع العلماء على أن الرجل إذا طلّق زوجته طلاقا يملك رجعتها أنه ليس له أن ينكِح أختها أو أربعا سـواها حتى تنقضِى عدة المطلّقة . واختلفوا إذا طلقها طلاقا لا يملك رجعتها؛ فقالت طائفة : ليس له أن ينكِح أختها ولا رابعة حتى تنقضِى عدّة التى طلّق ؛ ورُوِى عن علىّ وزيد بن ثابت، وهو مذهب مجاهد وعطاء بن أبى رَبَاح والنَّخَعِىّ، وسفيان الثَّوْرِىّ وأحمد بن حنبل وأصحاب الرأى . وقالت طائفة : له أن ينكح أختها وأربعا سواها؛ ورُوِى عن عطاء، وهو أثبت الروايتين عنه، وروى عن زيد بن ثابت أيضا ؛ وبه قال سعيد بن المسيِّب والحسن والقاسم وعُروة بن الزّبير وابن أبى لَيْلَى والشافعىّ وأبو ثَوْر وأبو عبيد . قال ابن المنذر : ولا أحسبه إلا قول مالك وبه نقول .

الحادية والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ يحتمل أن يكون معناه معنى قوله : « إلّا ما قد سَلَف » فى قوله : « ولَا تَنْكِحُوا مَا نَكَح آباؤكم من النّساء إلا ما قد سلف » . ويحتمل معنى زائدا وهو جواز ما سلف، وأنه إذا جرى الجمع فى الجاهلية كان النكاح صحيحا، وإذا جرى فى الإسـلام خُيِّر بين الأختين؛ على ما قاله مالك والشافعىّ، من غير إجراء عقود الكفار على مُوجَب الإسلام ومقتضى الشرع؛ وسواء عقد عليهما عقدا واحدا جَمَع به بينهما أو جَمَـع بينهما فى عقدين . وأبو حنيفة يبطِل نكاحهما إن جُمِـع فى عقد واحد . وروى هشام بن عبد الله عن محمد بن الحسن أنه قال: كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرّمات كلّها التى ذكرت فى هذه الآية إلا آثنين؛ إحداهما نكاح آمرأة الأب، والثانى الجمع بين الأختين؛ ألا ترى أنه قال : « ولا تَنكِحوا ما نكح آباؤكم من النّساء إلا ما قد سلف » . « وأن تجمعوا بين الأُخْتَين إلا ما قد سلف » ولم يذكر فى سائر المحرّمات « إلا ما قد سلف » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَاتُ ﴾ عطف على المحرمات المذكورات قبلُ . والتحصّن: التمنع؛ ومنه الحِصْن لأنه يُمتنع فيه؛ ومنه قوله تعالى: « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ » أي لتمنعكم ؛ ومنه الحِصان للفرس (بكسر الحاء) لأنه يمنع صاحبه من الهلاك . والحصان (بفتح الحاء) : المرأة العفيفة لمنعها نفسها من الهلاك . وحَصُنت المرأة تَحْصُن فهي حَصان؛ مثل جبنت فهي جبان . وقال حسان في عائشة رضي الله عنها :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنّ بِرِيبَةٍ(1) * وتُصبِح غَرْثَى من لُحومِ الغوافِلِ

والمصدر الحصانة (بفتح الحاء) والحِصْن كالعِلْم(2) . فالمراد بالمحصَنات ها هنا ذوات الأزواج؛ يقال : امرأة مُحْصَنة أي متزوّجة ، ومحصَنة أي حُرّة ؛ ومنه « والمُحْصَناتُ مِنَ المؤمناتِ والمُحْصَنات مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . ومحصَنة أي عفيفة ؛ قال الله تعالى : « مُحْصَناتٍ غيرَ مُسَافِحاتٍ » وقال : « مُحْصِنِين غيرَ مسافِحِين » . ومُحْصَنة ومُحْصِنة وحَصان أي عفيفة، أي ممتنعة من الفسق ؛ والحرّية تمنع الحُرّة مما يتعاطاه العبيد . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » أي الحرائر ، وكان عُرْف الإماء في الجاهلية الزّنا ؛ ألا ترى إلى قول هِند بنتِ عُتبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم حين بايعته : « وَهَلْ تَزْنِي الحُرّة»؟ والزوج أيضا يمنع زوجه من أن تزوّج غيره؛ فبناء (ح ص ن) معناه المنع كما بيّنا . ويستعمل الإحصان في الإسلام؛

(1) تزن : تتهم . وغرثى : جائعة . والمراد أنها لا تغتاب غيرها . (2) في كتب اللغة أنه مثلث الحاء .

لأنه حافظ ومانع ، ولم يرد فى الكتاب وورد فى السنة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " الإيمان قَيّد الفَتْك [1] " . ومنه قول الهُذَليّ :

فليس كعهــدِ الدّار يا أم مالكٍ * ولكن أحاطت بالرّقاب السلاسِلُ

وقال الشاعر :

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت لا * يأبى عليــكِ اللهُ والإســلامُ

ومنه قول سُحَيم :

* كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا *

الثانيــة — إذا ثبت هــذا فقد ٱختلف العلمــاء فى تأويل هذه الآية ؛ فقال ابن عباس وأبو قِلابة وٱبن زيد ومَكْحُولٌ والزُّهرِىّ وأبو سعيد الخُدْرِىّ : المراد بالمحصَنات هنا المَسْبِيّات ذواتُ الأزواج خاصة ، أى هنّ محرّمات إلا ما ملكت اليمين بالسّبْى من أرض الحرب ، فإن تلك حلال للّذى تقع فى سهمه وإن كان لهـا زوج . وهو قول الشافعىّ فى أن السِّباء يقطع العِصمة ؛ وقاله ابن وهب وابن عبد الحكم وروياه عن مالك ، وقال به أَشْهب . يدلّ عليه ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم يومَ حُنَينٍ بعث جيشا إلى أوطاسٍ [2] فلقوا العدوّ فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سَـبَايَا ؛ فكان ناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم تحرّجوا من غِشْيانهنّ من أجل أزواجهنّ من المشركين ، فأنزل الله عزّ وجلّ « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » . أى فهنّ لكم حلال إذا انقضت عدّتهنّ فى ذلك . وهذا نصّ صريحٌ فى أن الآية نزلت بسبب تحرّج أصحاب النبيّ صـلى الله عليه وسـلم عن وطء المَسْبِيّات ذواتِ الأزواج ؛ فأنزل الله تعـالى فى جوابهم « إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ » . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأبو ثَوْر ، وهــو الصحيح إن شاء الله تعالى . وٱختلفـوا فى استبرائها بمـاذا يكون ؛ فقال

(١) قال أبو عبيد : الفتك أن يأتى الرجل صاحبه وهو غارّ غافل حتى يشُدّ عليه فيقتله وإن لم يكن أعطاه أمانا قبل ذلك ؛ ولكن ينبغى له أن يعلمه ذلك . (عن اللسان) . (٢) أوطاس : واد بديار هوازن .

الحسن : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليــه وسلم يستبرئون المَسْبِيّة بحيضة ؛ وقد رُوى ذلك من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ فى سبايا أوطاس " لا توطأ حاملٌ حتى تضع ولا حائل حتى تحيض " . ولم يجعــل لفراش الزوج السابق أثرا حتى يقال إن المسبية مملوكةٌ ولكنها كانت زوجة زال نكاحها فتعتد عدّة الإماء ، على ما نُقل عن الحسن بن صالح قال : عليهــا العدّة حيضتان إذا كان لهــا زوج فى دار الحرب . وكافة العلماء رأوا استبراءها واستبراء التى لا زوج لهــا واحدا فى أن الجميع بحيضة واحدة . والمشهور من مذهب مالك أنه لا فرق بين أن يُسْبَى الزوجان مجتمعَيْن أو متفرّقين . ورَوى عنــه ابن بكير أنهما إن سبِيا جميعا وٱستُبْقِىَ الرجل أقِرّا على نكاحهما ؛ فرأى فى هذه الرواية أن استبقاءه إبقاء لمــا يملكه لأنه قد صار له عَهْدٌ وزوجتــه من جملة ما يملكه ، فلا يحال بينه وبينها ؛ وهو قول أبى حنيفة والثَّوْرِىّ ، وبه قال ابن القاسم ورواه عن مالك . والصحيح الأول لمــا ذكرناه ؛ ولأن الله تعالى قال : « إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فأحال على مِلك اليمين وجعله هو المؤثِّر فيتعلّق الحكم به من حيث العموم والتعليل جميعا ، إلا ما خصّــه الدليل . وفى الآية قول ثان قاله عبد الله بن مســعود وســعيد بن المسيِّب والحسن بن أبى الحسن وأُبَىّ بن كعب وجابر بن عبــد الله وابن عباس فى رواية عِكرِمة : أن المراد بالآية ذواتُ الأزواج ، أى فهنّ حرام إلا أن يشــترى الرجل الأَمَةَ ذاتَ الزوج فإن بيعها طلاقُها والصدقة بها طلاقُها وأن تورث طلاقها وتطليق الزوج طلاقها . قال ابن مسعود : فإذا بيعت الأمة ولهــا زوج فالمشترى أحق ببُضْعهــا وكذلك المَسْبِية ؛ كل ذلك موجب للفُرقة بينهــا وبين زوجها . قالوا : وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون بيع الأمة طلاقا لها ؛ لأن الفرج محرّم على آثنين فى حالة واحدة بإجماع من المسلمين .

قلت : وهــذا يردّه حديث بَرِيرة ؛ لأن عائشة رضى الله عنها آشترت بَرِيرة وأعتقتها ثم خيّرها النبىّ صلى الله عليه وسلم وكانت ذات زوج ؛ وفى إجماعهم على أن بَرِيرة قــد خُيِّرت تحت زوجها مُغيث بعد أن اشترتها عائشة فأعتقتها دليلٌ على أن بيع الأَمَة ليس طلاقا؛ وعلى ذلك جماعة فقهاء الأمصار من أهل الرأى والحديث ، وألّا طلاق لهــا إلا الطلاق . وقد

ٱحتجّ بعضهم بعموم قوله : «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» وقياسا على المَسْبِيّات. وما ذكرناه من حديث بريرة يخصه ويرده ، وأن ذلك إنما هو خاص بالمَسْبِيّات على حديث أبى سعيد، وهو الصواب والحق إن شاء الله تعالى . وفى الآية قول ثالث — روى الثَّوْرِىّ عن مجاهد عن إبراهيم قال ابن مسعود فى قوله تعالى : «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» قال : ذوات الأزواج من المسلمين والمشركين . وقال علىّ بن أبى طالب : ذوات الأزواج من المشركين . وفى الموطّأ عن سعيد بن المسيّب «والمحصنات من النساء» هنّ ذواتُ الأزواج، ويرجع ذلك إلى أن الله حرّم الزّنا . وقالت طائفة : المحصنات فى هذه الآية يراد به العفائف ، أى كل النساء حرام . وألبسهن ٱسم الإحصان من كان منهن ذات زوج أو غير ذات زوج ، إذ الشرائع فى أنفسها تقتضى ذلك .

﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ قالوا : معناه بنكاح أو شراء . هذا قول أبى العالية وعَبيدة السَّلْمانىّ وطاوس وسعيد بن جُبير وعطاء ، ورواه عَبِيدة عن عمر؛ فأدخلوا النكاح تحت مِلك اليمين، ويكون معنى الاية عندهم فى قوله تعالى : «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» يعنى تملكون عصمتهنّ بالنكاح وتملكون الرقبة بالشراء ، فكأنهن كلهن مِلك يمين وما عدا ذلك فزِناً ؛ وهذا قول حسن . وقد قال ابن عباس : «المحصنات» العفائف من المسلمين ومن أهل الكتاب . قال ابن عطية : وبهذا التأويل يرجع معنى الآية إلى تحريم الزنا ؛ وأسند الطَّبرِىّ أن رجلا قال لسعيد بن جُبير : أما رأيتَ ابنَ عباس حين سئل عن هذه الآية فلم يقل فيها شيئا ؟ فقال سعيد : كان ابن عباس لا يعلمها. وأسند أيضا عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يُفَسِّر لى هذه الآيةَ لضربت إليه أكباد الإبل : قولَه «والمحصنات» إلى قوله «حكيما» . قال ابن عطية : ولا أدرى كيف نسب هذا القول إلى ابن عباس ولا كيف انتهى مجاهد إلى هذا القول .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ كِتَابَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ نصب على المصدر المؤكّد، أى حُرّمت هذه النساء كتابًا من الله عليكم . ومعنى «حُرّمت عليكم» كتب الله عليكم . وقال الزجاج

والكوفيون : هو نصب على الإغراء، أى الزموا كتاب الله، أو عليكم كتاب الله . وفيه نظر على ما ذكره أبو علىّ؛ فإن الإغراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب على حرف الإغراء، فلا يقال: زيدا عليك، وزيدا دونك؛ بل يقال: عليك زيدا ودونك عمرا، وهذا الذى قاله صحيح على أن يكون منصوبا بعليكم، وأما على تقدير حذف الفعل فيجوز . ويجوز الرفع على معنى هذا كتاب الله وفرضه . وقرأ أبو حَيْوَة ومحمد بن السَّمَيقع «كتب الله عليكم» على الفعل الماضى المسند إلى اسم الله تعالى، والمعنى كتب الله عليكم ما قصّه من التحريم . وقال عَبيدة السَّلْمانى وغيره: قوله «كِتَابَ اللهِ عليكم» إشارة إلى ما ثبت فى القرآن من قوله تعالى: «مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ» وفى هذا بُعْدٌ؛ والأظهر أن قوله «كِتَابَ اللهِ عليكم» إنما هو إشارة التحريم الحاجز بين الناس وبين ما كانت العرب تفعله .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ قرأ حمـزة والكسائىّ وعاصم فى رواية حفص «وأُحِلّ لكم» ردًّا على «حُرِّمت عليكم» . الباقون بالفتح ردًّا على قوله تعالى: «كِتَابَ اللهِ عليكم» . وهذا يقتضى ألّا يحرم من النساء إلا مَن ذُكر، وليس كذلك؛ فإن الله تعالى قد حرّم على لسان نبيّه مَن لم يذكر فى الآية فيُضمّ إليها؛ قال الله تعالى : «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» . روى مُسْلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يجمع بين المرأة وعمّتها ولا بين المرأة وخالتها" . قال ابن شهاب: فنرى خالة أبيها وعمّة أبيها بتلك المنزلة ، وقد قيل : إن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها متلقٌّ من الآية نفسها؛ لأن الله تعالى حرم الجمعَ بين الأختين ، والجمع بين المرأة وعمتها فى معنى الجمع بين الأختين، أولأن الخالة فى معنى الوالدة والعمّةَ فى معنى الوالد . والصحيح الأوّل ، لأن الكتاب والسّنة كالشىء الواحد ؛ فكأنه قال أحللت لكم ما وراء ما ذكرنا فى الكتاب ، وما وراء ما أكملتُ به البيان على لسان محمد عليه السلام . وقول ابن شهاب « فنرى خالة أبيها وعمة أبيها بتلك المنزلة » إنما صار إلى ذلك لأنه حمل الخالة والعمة على العموم وتمّ له ذلك ؛ لأن العمة آسمٌ لكل أنثى شاركت أباك فى أصليه أو فى أحدهمـا والخالة كذلك كما بينّاه .

وفى مصنّف أبى داود وغيره عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تنكح المرأة على عمّتها ولا العمةُ على بنت أخيها ولا المرأةُ على خالتها ولا الخالةُ على بنت اختها ولا تُنكح الكبرى على الصُّغرى ولا الصغرى على الكبرى" . وروى ابو داود أيضا عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كرِه أن يجمع بين العمّة والخالة وبين العمّتين والخالتين. الرواية «لا يجمعُ» برفع العين على الخبر عن المشروعية فيتضمن النهى عن ذلك ، وهذا الحديث مُجْمَعٌ على العمل به فى تحريم الجمع بين مَن ذكر فيه بالنكاح . وأجاز الخوارج الجمع بين الأختين وبين المرأة وعمتها وخالتها ، ولا يُعْتد بخلافهم لأنهم مَرَقُوا من الدّين وخرجوا منه ، ولأنهم مخالفون للسنّة الثابتة . وقوله "لا يُجمع بين العمتين والخالتين" فقد أشكل على بعض أهل العلم وتحيّر فى معناه حتى حمله على ما يبعد أو لا يجوز؛ فقال: معنى بين العمتين على المجاز، أى بين العمة وبنت أخيها؛ فقيل لهما عمتان كما قيل : سُنّةُ العُمَرَين أبى بكر وعمر؛ قال: وبين الخالتين مثله . قال النحاس : وهذا من التعسُّف الذى لا يكاد يُسمع بمثله، وفيه أيضا مع التعسُّف أن يكون كلاما مكررا لغير فائدة ؛ لأنه إذا كان المعنى نهى أن يجمع بين العمة وبنت أخيها وبين العمتين يعنى به العمة وبنت أخيها صار الكلام مكررا لغير فائدة؛ وأيضا فلو كان كما قال لوجب أن يكون وبين الخالة، وليس كذلك الحديث ؛ لأن الحديث نهى أن يجمع بين العمة والخالة. فالواجب على لفظ الحديث ألا يجمع بين امرأتين إحداهما عمّة الأخرى والأخرى خالة الأخرى . قال النحاس : وهذا يخرج على معنًى صحيح ، يكون رجل وابنه تزوجا آمرأة وابنتها؛ تزوج الرجلُ البنتَ وتزوّج الآبْنُ الأمّ فوُلد لكلِ واحد منهما ابنةٌ من هاتين الزوجتين؛ فآبنة الأب عمّةُ آبنةِ آلآبنِ، وآبنةُ الابنِ خالةُ آبنة الأب . وأما الجمع بين الخالتين فهذا يوجب أن يكونا آمرأتين كُلّ واحدة منهما خالة الأخرى ؛ وذلك أن يكون رجل تزوّج آبنة رجل وتزوّج الآخرُ آبنته، فوُلد لكل واحد منهما آبنة فآبنة كل واحد منهما خالةُ الأخرى . وأما الجمع بين العمّتين فيوجب ألّا يُجمع بين امرأتين كلُّ واحدة منهما عمّةُ الأخرى ؛ وذلك أن يتزوج رجل أمَّ رجل ويتزوج الآخر أم الآخر، فيولد لكل واحد منهما آبنة فآبنةُ كلِّ واحد

منهما عمةُ الأخرى ؛ فهـذا ما حرّم الله على لسان رسـوله محمد صلى الله عليه وسلم ممـا ليس في القرآن .

الخامســة — وإذا تقرّر هذا فقد عقد العلماء فيمن يحرم الجمع بينهنّ عقـدا حسنا ؛ فروى مُعْتَمِر بن سليمان عن فُضيل بن ميسرة عن أبي جرير عن الشعبيّ قال : كل آمرأتين إذا جعلت موضع إحداهما ذكرا لم يجز له أن يتزوّج الأخرى فالجمع بينهما باطل. فقلت له : عمن هذا؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال سفيان الثّورِيّ : تفسيره عندنا أن يكون من النسب ، ولا يكون بمنزلة آمرأة وابنة زوجها يجمع بينهما إن شاء . قال أبو عمر : وهـذا على مذهب مالك والشافعيّ وأبي حنيفة والأوزاعي وسائر فقهاء الأمصار من أهل الحديث وغيرهم فيما علمت لا يختلفون في هـذا الأصل . وقد كرِه قوم من السلف أن يجمع الرجل بين آبنـة رجل وآمرأته من أجل أن أحدهمـا لو كان ذكرا لم يحل له نكاح الأخرى. والذي عليه العلماء أنه لا بأس بذلك ، وأن المراعَى النسب دون غيره من المصاهرة؛ ثم ورد في بعض الأخبار التنبيه على العـلّة في منع الجمع بين مَن ذُكر ، وذلك ما يُفضي إليـه الجمع من قطع الأرحام القريبة ممـا يقع بين الضرائر من الشَّنآن والشرور بسبب الغَيْرَة ؛ فروى ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوّج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة ، وقال : إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ؛ ذكره أبو محمـد الأصيلي في فوائده وابن عبد البر وغيرهمـا . ومن مراسيل أبي داود عن حسين بن طلحة قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على أخواتها مخافة القطيعة ؛ وقد طرد بعض السلف هذه العلة فمنع الجمع بين المرأة وقريبتها ، وسواء كانت بنت عمّ أو بنت عمة أو بنت خال أو بنت خالة ؛ روى ذلك عن إسحاق بن طلحة وعِكرمة وقتـادة وعطاء في رواية ابن أبي نجيح ، وروى عنه ابن جُريج أنه لا بأس بذلك وهو الصحيح . وقد نكح حسن بن حسين بن عليّ في ليلة واحدة آبنةَ محمد بن عليّ وآبنة عمر بن عليّ فجمع بين آبنتي عمّ ؛ ذكره عبد الرزاق . زاد ابن عيينة : فأصبح نساؤهم لا يدرين إلى أيّتهما يذهبن ؛ وقد كرِه مالك هـذا ، وليس بحرام عنده .

وفي سماع ابن القاسم: سئل مالك عن ابنتي العم أيجمع بينهما؟ فقال: ما أعلمه حراما. قيل له: أفتكرهه؟ قال: إن ناسا ليتقونه؛ قال ابن القاسم: وهو حلال لا بأس به. قال ابن المنذر: لا أعلم أحدا أبطل هذا النكاح. وهما داخلتان في جملة ما أبيح بالنكاح غير خارجتين منه بكتاب ولا سنة ولا إجماع، وكذلك الجمع بين ابنتي عمة وابنتي خالة. وقال السدي في قوله تعالى «وأحل لكم ما وراء ذلكم»: يعني النكاح فيما دون الفرج. وقيل: المعنى وأحل لكم ما وراء ذوات المحارم من أقربائكم. قتادة: يعني بذلك ملك اليمين خاصة.

السادسة — قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ لفظ يجمع التزوج والشراء. و«أن» في موضع نصب بدل من «ما»، وعلى قراءة حمزة في موضع رفع؛ ويحتمل أن يكون المعنى لأن، أو بأن؛ فتحذف اللام أو الباء فيكون في موضع نصب. و﴿مُحْصِنِينَ﴾ نصب على الحال، ومعناه متعففين عن الزنا. ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي غير زانين. والسفاح الزنا، وهو مأخوذ من سفح الماء، أي صبه وسيلانه؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع الدفاف في عرس: "هذا النكاح لا السفاح ولا نكاح السر". وقد قيل: إن قوله «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» يحتمل وجهين: أحدهما — ما ذكرناه وهو الإحصان بعقد النكاح، تقديره اطلبوا منافع البضع بأموالكم على وجه النكاح لا على وجه السفاح؛ فتكون الآية على هذا الوجه عموم. ويحتمل أن يقال: «محصنين» أي الإحصان صفة لهن، ومعناه لتزوجوهن على شرط الإحصان فيهن؛ والوجه الأول أولى لأنه متى أمكن جري الآية على عمومها والتعلق بمقتضاها فهو أولى؛ لأن مقتضى الوجه الثاني أن المسافحات لا يحل التزوج بهن، وذلك خلاف الإجماع.

السابعة — قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ أباح الله تعالى الفروج بالأموال ولم يفصل فوجب إذا حصل بغير المال ألا تقع الإباحة به؛ لأنها على غير الشرط المأذون فيه، كما لو عقد على خمر أو خنزير أو ما لا يصح تملكه، ويرد على أحمد قوله في أن العتق يكون صداقا؛ لأنه ليس فيه تسليم مال وإنما فيه إسقاط الملك من غير أن استحقت به تسليم مال إليها؛ فإن الذي

كان يملكه المَوْلى من عنده لم ينتقل إليها وإنما سقط. فإذا لم يُسلِّم الزوج إليها شيئا ولم تستحق عليه شيئا، وإنمـا أتلف به مِلكه لم يكن مهرا. وهذا بيّن مع قوله تعالى: «وَآتُوا النِّسَاءَ» وذلك أمر يقتضى الإيجـاب، وإعطاء العتق لا يصح. وقوله تعالى: «فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ» وذلك محال فى العتق فلم يبق أن يكون الصداق إلا مالاً؛ لقوله تعالى: «بِأموالِكم». واختلف من قال بذلك فى قدر ذلك؛ فتعلق الشافعىّ بعموم قوله: «بِأموالِكم» فى جواز الصداق بقليل وكثير، وهو الصحيح؛ ويَعضُده قولُه عليه السلام فى حديث الموهوبة: "ولو خاتَمـا من حديد". وقوله عليه السلام: "أنكحوا الأيامى"؛ ثلاثا. قيل: وما العلائق بينهم يا رسول الله؟ قال: "ما تراضى عليه الأهلون ولو قضيبا من أراك". وقال أبو سعيد الخدرى: سألنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن صداق النساء فقال: "هو ما آصطلح عليه أهلوهم". وروى جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو أن رجلا أعطى امرأة ملء يديه طعاما كانت به حلالا". أخرجهما الدَّارَقُطْنِيّ فى سننه، قال الشافعىّ: كل ما جاز أن يكون ثمنا لشيء أو جاز أن يكون أجرة جاز أن يكون صداقا؛ وهذا قول جمهور أهل العلم. وجماعةُ أهـل الحديث من أهل المدينة وغيرها، كلُّهم أجاز الصداق بقليل المـال وكثيره، وهو قول عبدالله بن وهب صاحب مالك، واختاره ابن المنذر وغيرُه. قال سعيد بن المُسَيِّب لو أصـدقها سوطا حلّت به، وأنكح ابنته من عبد الله بن وداعة بدرهمين. وقال ربيعة: يجوز النكاح بدرهم. وقال أبو الزّناد: ما تراضى به الأهلون. وقال مالك: لا يكون الصداق أقلّ من ربع دينار أو ثلاثة دراهم كيلا. قال بعض أصحابنا فى تعليل له: وكان أشبه الأشياء بذلك قطع اليد، لأن البُضع عضو واليد عضو يستباح بمقدّر من المـال، وذلك ربع دينـار أو ثلاثة دراهم كيلا؛ فردّ مالك البضع إليه قياسا على اليد. قال أبو عمر: قد تقدّمه إلى هذا أبو حنيفة، فقاس الصداق على قطع اليد، واليـد عنده لا تقطع إلا فى دينار ذهبا أو عشرة دراهم كيلا، ولا صداق عنده أقل من ذلك؛ وعلى ذلك جماعة أصحابه وأهل مذهبه، وهو قول أكثر أهل بلده فى قطع اليد لا فى أقل الصداق. وقد قال الدَّراوَرْدِىّ لمـالك إذ قال لا صداق

أقل من ربع دينار : تعرقت فيها يا أبا عبد الله . أى سلكت فيها سبيل أهل العراق . وقد احتجّ أبو حنيفة بما رواه جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا صداق دون عشرة دراهم" أخرجه الدّارَقُطْنِيّ . وفى سنده مبشر بن عبيد متروك . وروى عن داود الأَوْدِيّ عن الشَّعْبِيّ عن علىّ عليه السلام : لا يكون المهر أقلّ من عشرة دراهم . قال أحمد بن حنبل : لقّن غِياث بن إبراهيم داودَ الأودِى عن الشعبى عن علىّ لا مهر أقل من عشرة دراهم فصار حديثا . وقال النَّخَعِيّ : أقله أربعون درهما . سعيد بن جُبير : خمسون درهما . ابن شُبْرُمَة : خمسة دراهم . ورواه الدّارَقُطْنِي عن ابن عباس عن علىّ رضى الله عنه : لا مهر أقلّ من خمسة دراهم

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ الاستمتاع التلذذ . والأجور المهور ؛ وسُمِّىَ المهر أجرا لأنه أجر الاستمتاع ، وهذا نصٌّ فى أن المهر يسمى أجرا ، ودليلٌ على أنه فى مقابلة البُضع ؛ لأن ما يقابل المنفعة يُسمَّى أجرا . وقد اختلف العلماء فى المعقود عليه فى النكاح ما هو : بَدَنُ المرأة أو منفعةُ البُضع أو الحلّ ؛ ثلاثة أقوال ، والظاهر المجموع ؛ فإن العقد يقتضى كل ذلك . والله أعلم .

التاسعة — واختلف العلماء فى معنى الآية ؛ فقال الحسن ومجاهد وغيرهما : المعنى فما انتفعتم وتلذّذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح فآتوهن أجورهن أى مهورهن ، فإذا جامعها مرّة واحدة فقد وجب المهر كاملا إن كان مُسَمًّى ، أو مهر مثلها إن لم يُسَمّ . فإن كان النكاح فاسدا فقد اختلفت الرواية عن مالك فى النكاح الفاسد هل تستحق به مهر المِثْل أو المُسَمَّى إذا كان مهرا صحيحا ؛ فقال مرة : المهر المُسَمَّى ، وهو ظاهر مذهبه ؛ وذلك أن ما تراضوا عليه يقين ، ومهر المثل اجتهاد فيجب أن يرجع إلى ما تيقّناه لأن الأموال لا تستحق بالشك . ووجه قوله «مهر المثل» أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "أيُّما امرأة نُكحت بغير إذن وَلِيِّها فنكاحها باطل فإن دُخل بها فلها مهر مثلها بما ٱستُحِلّ من فرجها" . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولا يجوز أن تحمل الآية على جواز المُتْعة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه

وسلم نهى عن نكاح المُتْعة وحرّمه ، ولأن الله تعـالى قال : « فَٱنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ » ومعلوم أن النكاح بإذن الأهلين هـو النكاح الشرعى بوَلِيٍّ وشاهـدين ، ونكاحُ المتعة ليس كذلك . وقال الجمهور : المراد نكاح المتعـة الذى كان فى صدر الإسـلام . وقرأ ابن عباس وأُبَىّ وابن جُبـير « فمـا استمتعتم بِهِ مِنهن إلى أجلٍ مُسَمًّى فآتوهنّ أجورهنّ » ثم نهى عنها النبيّ صلى الله عليـه وسلم . وقال سـعيد بن المسيِّب : نسختها آية الميراث؛ إذ كانت المتعة لا ميراث فيها . وقالت عائشة والقاسم بن محمد : تحريمُهـا ونسخُها فى القرآن ؛ وذلك قوله تعـالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » . وليست المتعة نكاحا ولا مِلْكَ يمين . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن علىّ بن أبى طالب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة ، قال : وإنمـا كانت لمن لم يجد فلما نزل النّكاح والطّلاق والعِـدّة والميراث بين الزوج والمرأة نُسخت . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : نَسخَ صوم رمضان كلَّ صوم، ونسخت الزكاةُ كلَّ صدقة، ونسخ الطلاقُ والعدّةُ والميراثُ المتعةَ، ونسخت الأُضْحِية كلَّ ذَبْح . وعن آبن مسعود قال : المتعة منسوخة نسخها الطلاق والعـدّة والميراث . وروى عطاء عن آبن عباس قال : ما كانت المتعة إلا رحمة من الله تعالى رحم بها عبادَه، ولولا نهى عمر عنها ما زنى إلا شقىّ .

العـاشرة — واختلف العلمـاء كم مرّة أبيحت ونُسخت؛ ففى صحيح مُسْلم عن عبد الله قال : كنا نَغْزُو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا نساء ؛ فقلنا : ألا نَسْتَخْصِى؟ فنهانا عن ذلك، ثم رَخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أَجَل . قال أبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيحه : قولهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم «ألا نستخصى» دليل على أن المُتْعة كانت محظورة قبل أن أبيح لهم الاستمتاع ، ولو لم تكن محظورة لم يكن لسؤالهم عن هـذا معنًى ، ثم رخّص لهم فى الغزو أن ينكحوا المرأة بالثوب إلى أجل ثم نهى عنها عامَ خَيْبَر ، ثم أذن فيها عامَ الفتح ، ثم حرّمها بعـد ثلاث ، فهى محرّمة إلى يوم القيامة . وقال ابن العربىّ : وأما متعة النساء فهى من غرائب الشريعة؛ لأنهـا أبيحت فى صدر الإسلام ثم حُرّمت يومَ خيبر، ثم أبيحت فى غزوة

أَوْطاسٍ ، ثم حُرِّمت بعد ذلك واستقرّ الأمر على التحريم ، وليس لها أختٌ فى الشريعة إلا مسألة القِبْلة ، فإن النّسخ طرأ عليها مرّتين ثم آستقرّت بعد ذلك . وقال غيره ممن جمع طرق الأحاديث فيها : إنها تقتضى التحليل والتحريم سبع مرات ؛ فروى آبن أبى عمرة أنها كانت فى صدر الإسلام . وروى سلمة بن الأكْوَع أنها كانت عامَ أَوْطاسٍ . ومن رواية علىّ تحريمها يوم خَيْبَر . ومن رواية الربيع بن سَبْرة إباحتها يوم الفتح .

قلت : وهذه الطرق كلّها فى صحيح مسلم؛ وفى غيره عن علىّ نهيه عنها فى غزوة تَبُوك ؛ رواه إسحاق بن راشد عن الزُّهْرِىّ عن عبدالله بن محمد بن علىّ عن أبيه عن علىّ ، ولم يتابع إسحاق بن راشد على هذه الرواية عن ابن شهاب ؛ قاله أبو عمر رحمه الله . وفى مصنّف أبى داود من حديث الرّبيع بن سَبْرة النّهى عنها فى حجة الوَداع ، وذهب أبو داود إلى أن هذا أصحّ ما رُوى فى ذلك . وقال عمرو عن الحسن : ما حلّت المتعة قطُّ إلا ثلاثا فى عُمْرة القضاء ما حلّت قبلها ولا بعدها . وروى هذا عن سبرة أيضا ؛ فهذه سبعة مواطن أحلّت فيها المتعة وحُرّمت . قال أبو جعفر الطحاوىّ : كل هؤلاء الذين رووْا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم إطلاقَها أخبروا أنها كانت فى سفر ، وأن النّهى لحقها فى ذلك السفر بعد ذلك ، فمنع منها، وليس أحد منهم يخبر أنها كانت فى حَضَر ؛ وكذلك رُوِى عن ابن مسعود. فأما حديث سَبْرة الذى فيه إباحةُ النبىّ صلى الله عليه وسلم لها فى حجّة الوَدَاع فخارج عن معانيها كلّها ، وقد اعتبرنا هذا الحرف فلم نجده إلا فى رواية عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز خاصّةً، وقد رواه إسماعيل بن عيّاش عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فذكر أن ذلك كان فى فتح مكة وأنهم شكَوْا إليه العُزْبة[1] فرخّص لهم فيها ، ومُحال أن يشكُوا إليه العُزْبة فى حجة الوَداع؛ لأنهم كانوا حجوا بالنساء، وكان تزويج النساء بمكّة يمكنهم، ولم يكونوا حينئذ كما كانوا فى الغزوات المتقدّمة . ويحتمل أنه لما كانت عادة النبىّ صلى الله عليه وسلم تكريرَ مثل هذا فى مغازيه

(١) العزبة : (بضم عين مهملة وزاى معجمة) التجرد عن النساء . ويحتمل أن يكون بغين معجمة وراء مهملة أى الفراق عن الأوطان لما فيه من فراق الأهل (عن ابن ماجه) .

وفى المواضـع الجامعة ، ذكر تحريمها فى حجة الوَداع لاجتماع النـاس حتى يسـمعه من لم يكن سمعه ، فأكّد ذلك حتى لا تبقى شُبهة لأحد يدّعى تحليلها ، ولأنـ أهل مكة كانوا يستعملونها كثيرا .

الحادية عشرة — روى الليث بن سعد عن بُكير بن الأشجّ عن عمّار مَوْلَى الشَّرِيد قال : سألت ابن عباس عن المُتْعة أسفاح هى أم نكاح؟ قال: لا سفاح ولا نكاح. قلت: فما هى؟ قال : المتعة كما قال الله تعالى . قلت : هل عليها عِدّة؟ قال : نعم حيضَة . قلت : يتوارثان، قال لا . قال أبو عمر : لم يختلف العلمـاء من السَّلَف والخَلَف أن المتعـة نكاح إلى أجل لا ميراث فيه ، والفرقة تقع عند انقضاء الأجل من غير طلاق . وقال ابن عطية : « وكانت المتعة أن يتزوّج الرجل المرأة بشاهدين وإذن الوَلِىّ إلى أجل مُسَمًّى وعلى ألّا ميراث بينهما ، و يعطيها ما اتفقا عليه ؛ فإذا انقضت المدّة فليس له عليها سبيل و يستبرئ رَحِمها ، لأن الولد لاحِق فيـه بلا شك ، فإن لم تحمل حلّت لغيره . وفى كتاب النحاس فى هـذا خطأ وأن الولد لا يلحق فى نكاح المتعة » .

قلت : هذا هو المفهوم من عبارة النحاس ؛ فإنه قال : و إنمـا المتعة أن يقول لهـا: أتزوّجك يومًا — أو ما أشـبه ذلك — على أنه لا عدّة عليـك ولا ميراث بيننـا ولا طلاق ولا شاهد يشهد على ذلك؛ وهذا هو الزنا بعينه ولم يبح قط فى الإسلام؛ ولذلك قال عمر: لا أوتى برجل تزوج مُتعة إلا غيّبته تحت الحجارة .

الثانية عشرة — وقد اختلف علماؤنا إذا دخل فى نكاح المُتْعة هل يُحَدّ ولا يلحق به الولد، أو يُدفع الحدّ للشبهة ويلحق به الولد على قولين ؛ ولكن يُعـذر و يعاقب . إذا لحق اليـوم الولد فى نكاح المتعة فى قول بعض العلماء مع القول بتحريمه، فكيف لا يلحق فى ذلك الوقت الذى أبيح ؛ فدلّ على أنـ نكاح المتعة كان على حكم النكاح الصحيح ويفارقه فى الأجل والميراث. وحكى المَهْدَوِىّ عن ابن عباس أن نكاح المتعة كان بلا ولىّ ولا شهود. وفيما حكاه ضعف لمـا ذكرنا . قال ابن العربىّ : وقد كان ابن عباس يقول بجوازها، ثم ثبت رجوعه

عنها، فانعقد الإجماع على تحريمها؛ فإذا فعلها أحد رُجم في مشهور المذهب. وفي رواية أخرى عن مالك: لا يرجم؛ لأن نكاح المتعة ليس بحرام، ولكن لأصل آخر لعلمائنا غريب انفردوا به دون سائر العلماء؛ وهو أن ما حُرّم بالسُّنّة هل هو مثلُ ما حُرّم بالقرآن أم لا؛ فمن رواية بعض المدنيّين عن مالك أنهما ليسا بسواء، وهذا ضعيف. وقال أبو بكر الطَّرَسُوسيّ: ولم يُرخِّص في نكاح المتعة إلا عِمْرانُ بن حُصين وابن عباس وبعض الصحابة وطائفة من أهل البيت. وفي قول ابن عباس يقول الشاعر:

أقول للرَّكْب إذ طال الثَّوَاء بنـا　＊　يا صاح هل لك في فُتْيَا ابنِ عبّاس

في بَضّةٍ رَخْصة الأطراف ناعمةٍ　＊　تكون مَثْواك حتى مرجع الناس

وسائر العلماء والفقهاء من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين على أن هذه الآية منسوخة، وأن المتعة حرام. وقال أبو عمر: أصحابُ ابن عباس من أهل مكة واليمن كلُّهم يرون المتعة حلالا على مذهب ابن عباس وحرّمها سائر الناس. وقال مَعْمر قال الزُّهْرِيّ: ازداد الناس لهـا مَقْتًا حتى قال الشاعر:

قال المحـدّث لمـا طال مجلسه　＊　ياصاح هل لك في فُتْيَا ابنِ عبّاس

كما تقـدّم.

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿ أُجُورَهُنَّ ﴾ يعمّ المـال وغيره، فيجوز أن يكون الصداق منافع أعيان. وقد اختلف في هذا العلماء؛ فمنعه مالك والمُزَنِيّ واللّيث وأحمـد وأبو حنيفة وأصحابه؛ إلا أن أبا حنيفة قال: إذا تزوج على ذلك فالنكاح جائز وهو في حكم من لم يُسمّ لها، ولها مهر مثلها إن دخل بهـا، وإن لم يدخل بها فلها المتعة. وكرهه ابن القاسم في كتاب محمد وأجازه أَصْبَغ. قال ابن شاس: فإن وقع مَضَى في قول أكثر الأصحاب. وهي رواية أَصْبَغ عن ابن القاسم. وقال الشافعيّ: النكاح ثابت وعليه أن يُعلمها ما شَرط لها. فإن طلقها قبل الدخول ففيها للشافعيّ قولان: أحدهما أن لها نصفَ أجر تعليم تلك السورة، والآخر أن لهـا نصف مهر مثلها. وقال إسحاق: النكاح جائز. قال أبو الحسن اللَّخْميّ: والقول بجواز جميع ذلك أحسن. والإجارة والحج كغيرهما من الأموال التي تُتَمَلّك وتُباع وتشترى. وإنما كره ذلك

مالكٌ لأنه يستحب أن يكون الصداق معجّلا، والإجارة والحج فى معنى المؤجّل . احتج أهل القول الأوّل بأن الله تعالى قال : « بِأموالِكم » وتحقيق المـال ما تتعلق به الأطماع، ويُعـدّ للآنتفاع، ومنفعة الرقبـة فى الإجارة ومنفعة التعليم للعلم كله ليس بمـال . قال الطحاوىّ : والأصل المجتمَع عليه أن رجلا لو آستأجر رجلا على أن يعلّمه سورة من القرآن سمّـاها بدرهم لم يجز؛ لأن الإجارات لا تجوز إلا لأحد معنيين، إمّا على عملٍ بعينه كخياطة ثوب وما أشبهه، وإمّا على وقت معلوم؛ وكان إذا استأجره على تعليم سورة فتلك إجارة لا على وقت معلوم ولا على عمل معلوم، وإنما استأجره على أن يُعلِّم، وقد يفهم بقليل التعليم وكثيره فى قليل الأوقات وكثيرها . وكذلك لو باعه داره على أن يعلّمه ســورة من القرآن لم يجز للمعـانى التى ذكرناها فى الإجارات . وإذا كان التعليم لا يُمَلَّك به المنافع ولا أعيانـ الأموال ثبت بالنظر أنه لا تُمَلَّك به الأبضاع . والله الموفق . احتج من أجاز ذلك بحديث سهل بن سعد فى حديث الموهوبة، وفيه فقال : " اذهب فقد ملّكْتُكها بمـا معك من القرآن " . فى رواية قال : " آنطلق فقد زوّجتكها فعلّمها من القرآن" . قالوا : ففى هذا دليل على انعقاد النكاح وتأخر المهر الذى هو التعليم، وهذا على الظاهر من قوله " بما معك من القرآن " فإن الباء للعوض؛ كما تقول : خذ هـذا بهذا، أى عوضا منـه . وقوله فى الرواية الأخرى " فعلّمهـا " نصّ فى الأمر بالتعليم، والمساق يشهد بأن ذلك لأجل النكاح، ولا يُلتفت لقول من قال إن ذلك كان إكراما للرجل بمـا حفظ من القرآن، أى لمـا حفظه، فتكون الباء بمعنى اللام؛ فإن الحديث الثانى يصرح بخلافه فى قوله "فعلّمها من القرآن" . ولا حجة فيما روى عن أبى طلحة أنه خطب أم سُليم فقالت : إنْ أسلم تزوّجته . فأسلم فتزوّجها؛ فلا يُعلم مهر كان أكرمَ من مهرها، كان مهرها الإســلام؛ فإن ذلك خاص به . وأيضا فإنه لا يصل إليهـا منه شىء بخلاف التعليم وغيره من المنافع . وقد زوّج شعيب عليه السلام آبنته من موسى عليـه السلام على أن يَرْعَى له غنما فى صداقها؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « القصص » . وقد رُوِى من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال لرجل من أصحابه : " يا فلان هل

تزوجت" ؟ قال : لا وليس معى ما أتزوج به. قال: "أليس معك « قل هو الله أحد »" ؟ قال : بلى ! قال : "ثلث القرآن . أليس معك آية الكرسى" ؟ قال : بلى ! قال : "ربع القرآن . أليس معك « إذا جاء نصر الله والفتح »" ؟ قال : بلى ! قال : "ربع القرآن . أليس معك « إذا زلزلت »" ؟ قال : بلى ! قال : "ربع القرآن . تزوج تزوج" .

قلت : وقد أخرج الدّارَقُطْنِيّ حديث سهل من حديث ابن مسعود ، وفيه زيادة تبيين ما احتجّ به مالك وغيره ، وفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من ينكح هذه"؟ فقام ذلك الرجل فقال : أنا يا رسول الله ؛ فقال : "ألك مال"؟ قال : لا يا رسول الله ؛ قال : "فهل تقرأ من القرآن شيئا" ؟ . قال : نعم، سورة البقرة ، وسورة المُفَصّل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد أنكحتكها على أن تُقرئها وتعلّمها وإذا رزقك الله عوّضتَها" . فتزوّجها الرجل على ذلك . وهذا نص — لو صح — فى أن التعليم لا يكون صداقا . قال الدّارَقُطْنِيّ : تفرّد به عتبة بن السكن وهو متروك الحديث . و﴿ فَرِيضَةً ﴾ نصب على المصدر فى موضع الحال، أى مفروضة .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ أى من زيادة ونقصان فى المهر؛ فإن ذلك سائغ عند التراضى بعد استقرار الفريضة . والمراد إبراء المرأة عن المهر، أو توفية الرجل كل المهر إن طلّق قبل الدخول . وقال القائلون بأن الآية فى المتعة : هذا إشارة إلى ما تراضيا عليه من زيادة فى مدّة المتعة فى أوّل الإسلام؛ فانه كان يتزوّج الرجل المرأة شهرا على دينار مثلا، فاذا انقضى الشهر فربما كان يقول : زِيديني فى الأجل أزِدْكِ فى المهر . بيّن أن ذلك كان جائزا عند التراضى .

قوله تعالى : وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ الآية . نبّه تعالى على تخفيف في النكاح وهو نكاح الأَمَة لمن لم يجد الطَّوْل . واختلف العلماء في معنى الطَّوْل على ثلاثة أقوال : الأوّل — السَّعة والغِنَى ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير والسُّدّي وابن زيد ومالك في المدوّنة . يقال : طال يطول طَوْلا في الإفضال والقدرة . وفلان ذو طَوْل أي ذو قدرة في ماله (بفتح الطاء) . وطُولا (بضم الطاء) في ضدّ القِصَر . والمراد هٰهنا القدرة على المهر في قول أكثر أهل العلم ، وبه يقول الشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثَوْر . قال أحمد بن المُعَذَّل قال عبدالملك : الطَّوْل كلّ ما يُقْدَر به على النكاح من نقد أو عَرَض أو دَيْن على مَلِيء . قال : وكل ما يمكن بيعه وإجارته فهو طَوْل . قال : وليست الزوجة ولا الزوجتان ولا الثلاثة طَوْلا . وقال : وقد سمعت ذلك من مالك رضي الله عنه . قال عبدالملك : لأن الزوجة لا ينكح بها ولا يصل بها إلى غيرها إذ ليست بمال . وقد سئل مالك عن رجل يتزوج أَمَة وهو ممن يجد الطَّول ؛ فقال : أرى أن يفرق بينهما . قيل له : إنه يخاف العنَت . قال : السَّوْط يضرب به . ثم خففه بعد ذلك . القول الثاني — الطَّوْل الحُرَّة . وقد اختلف قول مالك في الحرّة هل هي طول أم لا ؛ فقال في المدوّنة : ليست الحرّة بطَول تمنع من نكاح الأَمَة ؛ إذا لم يجد سَعة لأخرى وخاف العَنَت . وقال في كتاب محمد ما يقتضي أن الحُرّة بمثابة الطَّوْل . قال اللَّخْميّ : وهو ظاهر القرآن . ورُوي نحو هذا عن ابن حبيب ، وقاله أبو حنيفة . فيقتضي هذا أن من عنده حُرّة فلا يجوز له نكاح أَمَة وإن عدم السَّعَة وخاف العَنَت ؛ لأنه طالب شهوة وعنده آمرأة ، وقال به الطَّبَرِيّ وآحتجّ له . قال أبو يوسف : الطَّوْل هو وجود الحرّة

تحته؛ فإذا كانت تحته حرّة فهو ذو طول، فلا يجوز له نكاح الأَمَة . القول الثالث — الطَّوْل الجَلَدُ والصّبر لمن أحبّ أَمَة وهَوِيَها حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوّج غيرها، فإن له أن يتزوّج الأَمَة إذا لم يملك هواها وخاف أن يَبْغِي بها وإن كان يجد سَعة فى المال لنكاح حُرّة ؛ هذا قول قَتادة والنَّخَعِيّ وعطاء وسفيان الثّورى . فيكون قوله تعالى : « لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَت» على هذا التأويل فى صفة عَدم الجَلَد. وعلى التأويل الأوّل يكون تزويج الأَمة معلّقًا بشرطين: عَدَم السَّعَة فى المال ، وخَوف العَنت؛ فلا يصح إلا باجتماعهما . وهذا هو نص مذهب مالك فى المدوّنة من رواية ابن نافع وابن القاسم وابن وهب وابن زياد . قال مُطَرِّف وابن الماجشُون: لايحل للرجل أن ينكح أَمَة ولا يُقَرّان إلا أن يجتمع الشرطان كما قال الله تعالى؛ وقاله أَصْبَغ . ورُوِى هذا القول عن جابر بن عبد الله وابن عباس وعطاء وطاوس والزُّهْرِيّ ومَكْحول، وبه قال الشافعيّ وأبو ثَوْر وأحمد وإسحاق، واختاره ابن المنذر وغيره . فإن وجد المهر وعدم النفقة فقال مالك فى كتاب محمد : لايجوز له أن يتزوّج أَمَة . وقال أَصْبَغ : ذلك جائز؛ إذ نفقة الأَمَة على أهلها إذا لم يضمّها إليه . وفى الآية قول رابع — قال مجاهد : مما وسّع الله على هذه الأمّة نكاحُ الأَمَة والنّصرانية ، وإن كان موسرا . وقال بذلك أبو حنيفة أيضا ، ولم يشترط خوف العنت ؛ إذا لم تكن تحته حُرّة . قالوا : لأن كل مال يمكن أن يتزوّج به الأَمَة يمكن أن يتزوّج به الحرّة؛ فالآية على هذا أصلٌ فى جواز نكاح الأَمَة مطلقا . قال مجاهد : وبه يأخذ سفيان ، وذلك أنّى سألته عن نكاح الأمة فحدّثنى عن ابن أبى لَيْلى عن المِنْهال عن عباد بن عبد الله عن علىّ رضى الله عنه قال : إذا نُكحت الحُرّة على الأَمَة كان للحرّة يومان وللأَمَة يوم. قال : ولم يرعلىٌّ به بأسا . وحجّة هذا القول عمومُ قوله تعالى : « وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ » . وقوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا » إلى قوله : « ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنْكُمْ » ؛ لقوله عز وجل: « فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » . وقد اتفق الجميع على أن للحُرّ أن يتزوّج أربعا وإن خاف أَلّا يَعدل. قالوا: وكذلك له تزوّج الأَمَة وإن كان واجدا للطَّوْل غير خائف للعَنَت . وقد

رُوى عن مالك فى الذى يجد طَوْلا لحرّة أنه يتزوّج أَمَة مع قدرته على طَوْل الحُرّة ؛ وذلك ضعيف من قوله . وقد قال مرّة أخرى : ما هو بالحرام البَيِّن وأَجَوِّزه . والصحيح أنه لا يجوز للحرّ المسلم أن يَنكح أَمَةً غيرَ مسلمة بحال، ولا له أن يتزوّج بالأَمَة المسلمة إلا بالشرطين المنصوص عليهما كما بيّنا . والعَنَت الزّنا ؛ فإن عدِم الطّول ولم يَخْش العَنَت لم يجز له نكاح الأمة، وكذلك إن وجد الطّول وخشي العَنَت . فإن قَدَر على طَوْل حرّة كتابيّة وهى المسألة :

الثانيـة — فهل يتزوّج الأَمَة ؛ اختلف علماؤنا فى ذلك، فقيل : يتزوّج الأَمَة فإن الأَمَة المسلمة لا تلحق بالكافرة، فأَمَةٌ مؤمنةٌ خيرٌ من حُرّة مشركة . واختاره ابن العربى . وقيل : يتزوّج الكتابية ؛ لأن الأَمَة وإن كانت تفضُلها بالإيمان فالكافرة تفضلها بالحرّية وهى زوجة . وأيضا فإن ولدها يكون حرّا لا يسترقّ ، وولد الأمة يكون رقيقا ؛ وهذا هو الذى يتمشّى على أصل المذهب .

الثالثـة — واختلف العلماء فى الرجل يتزوّج الحُرّة على الأَمَة ولم تعلم بها ؛ فقالت طائفة : النكاح ثابت . كذلك قال سعيد بن المُسَيِّب وعطاء بن أبى رَباح والشافعى وأبو ثَوْر وأصحاب الرأى ، وروى عن علىّ . وقيل : للحرّة الخيار إذا علمت . ثم فى أى شىء يكون لها الخيار ؛ فقال الزُّهْرِى وسعيد بن المُسَيِّب ومالك وأحمد وإسحاق فى أن تُقيم معه أو تفارقه . وقال عبد الملك : فى أن تُقِرّ نكاح الأمة أو تفسخه . وقال النَّخَعِى : إذا تزوّج الحرّة على الأمة فارق الأَمَة إلا أن يكون له منها ولد ؛ فإن كان لم يُفرّق بينهما . وقال مسروق : يُفسخ نكاح الأمة ؛ لأنه أمرٌ أبيح للضرورة كالميتة ، فإذا ٱرتفعت الضرورة ارتفعت الإباحة .

الرابعـة — فإن كانت تحته أَمَتان عَلِمت الحُرّةُ بواحدة منهما ولم تعلم بالأخرى فإنه يكون لها الخيار . ألا ترى لو أن حُرة تزوّج عليها أَمَة فرضيت ، ثم تزوّج عليها أَمَة فرضيت، ثم تزوّج عليها أخرى فأنكرت كان ذلك لها ؛ فكذلك هذه إذا لم تعلم بالأَمَتين وعلمت بواحدة . قال ابن القاسم قال مالك : وإنما جعلنا الخيار للحرة فى هذه المسائل لما قال العلماء قبلى ؛

يريد سعيد بنَ المُسَيَّب وابنَ شهاب وغيرهما . قال مالك : ولولا ما قالوه لرأيتُـه حلالا ؛ لأنه فى كتاب الله حلال . فإن لم تَكْفِه الحـرة وآحتاج إلى أخرى ولم يقـدر على صـداقها جاز له أن يتزوج الأَمَة حتى ينتهى إلى أربع بالتزويج بظاهر القرآن . رواه ابن وهب عن مالك . وروى ابن القاسم عنه : يرد نكاحه . قال ابن العربى : والأوّل أصح فى الدليل، وكذلك هو فى القرآن ؛ فإن من رضى بالسبب المحقَّق رضى بالسبب المرتب عليه، وألّا يكون لها خيار ؛ لأنها قد علِمت أن له نكاح الأربع، وعلِمت أنه إن لم يقدر على نكاح حُرّة تزوج أَمَة، وما شرط الله سبحانه عليها كما شرطت على نفسها ، ولا يعتبر فى شروط الله سبحانه وتعالى علمها . وهذا غاية التحقيق فى الباب والإنصاف فيه .

الخامســة ـــ قوله تعـالى : ﴿ ٱلْمُحْصَنَاتِ ﴾ يريد الحرائر؛ يدل عليـه التقسيم بينهن وبين الإماء فى قوله : «مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» . وقالت فرقة : معناه العفائف . وهو ضعيف؛ لأن الإماء يقعن تحتـه فأجازوا نكاح إماء أهـل الكتاب ، وحرّموا البغايا من المؤمنات والكتابيّات . وهو قول ابن مَيْسرة والسُّدِّى . وقد اختلف العلماء فيما يجوز للحُرّ الذى لا يجد الطَّوْل ويخشى العَنَت من نكاح الإماء ؛ فقال مالك وأبو حنيفـة وابن شهاب الزُّهْرِىّ والحارث العُكْلِىّ[(١)] : له أن يتزوج أربعا . وقال حمـاد بن أبى سليمان : ليس له أن ينكح من الإماء أكثر من آثنتين . وقال الشافعىّ وأبو ثَوْر وأحمد و إسحـاق : ليس له أن ينكح من الإماء إلّا واحدة . وهو قول ابن عباس ومسروق و جماعة؛ واحتجّوا بقوله تعالى : « ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ » وهذا المعنى يزول بنكاح واحدة .

السادســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أى فليتزوّج بأَمَة الغير . ولا خلاف بين العلمـاء أنه لا يجوز له أن يتزوّج أَمَةَ نفسه؛ لتعارض الحقوق واختلافها .

السابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ ﴾ أى المملوكات، وهى جمع فتاة . والعرب تقول للملوك : فَتًى، وللمملوكة فتاة . وفى الحديث الصحيح : "لا يقولنّ أحدكم عَبْدِى وأَمَتِى

(١) العكلى : بالضم والسكون نسبة إلى عكل بطن من تميم .

ولكن ليقــل فَتَاىَ وفتاتِى" وسيأتى . ولفظ الفتى والفتاة يطلق أيضا على الأحرار فى ابتـداء الشباب، فأما فى المـاليك فيطلق فى الشباب وفى الكِبَر .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ بيّن بهذا أنه لا يجوز التزوّج بالأَمَة الكتابية، فهذه الصفة مشترطة عند مالك وأصحابه، والشافعىّ وأصحابه، والثورى والأوْزاعىّ والحسن البَصْرىّ والزُّهْرِىّ ومَكْحول ومجاهد . وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحـاب الرأى : نكاح الأمة الكتابية جائز . قال أبو عمر : ولا أعلم لهم سَلَفًا فى قولهم، إلا أبا مَيْسرة عمرو بن شَرَحْبِيــل فإنه قال : إماء أهــل الكتاب بمنزلة الحرائر منهنّ . قالوا : وقوله « المؤمناتِ » على جهة الوصف الفاضــل وليس بشرط ألا يجوز غيرها ؛ وهــذا بمنزلة قوله تعالى : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْـدِلُوا فَوَاحِدَةً » فإن خاف ألّا يعـدِل فتزوّج أكثر من واحدة جاز ، ولكن الأفضل ألا يتزوّج ؛ فكذلك هنا الأفضل ألّا يتزوّج إلا مؤمنة، ولو تزوّج غير المؤمنة جاز . واحتجُّوا بالقياس على الحرائر، وذلك أنه لمـا لم يمنع قوله : « المؤمناتِ » فى الحرائر من نكاح الكتابيات فكذلك لا يمنع قوله : « المؤمناتِ » فى الإماء من نكاح إماءِ الكتابيـات . وقال أشهب فى المدوّنة : جائز للعبد المسلم أن يتزوّج أَمَةً كتابية . فالمنع عنــده أن يفضل الزوج فى الحُـرّية والدِّين معًا . ولا خلاف بين العلمــاء أنه لا يجوز لمسلم نكاحُ مجوسيّة ولا وَثَنِيّة ، وإذا كان حراما بإجماع نكاحُهما فكذلك وطؤهما بِمِلْك اليَمين قياسا ونظرا . وقــد روى عن طاوس ومجاهد وعطاء وعمرو بن دِينار أنهم قالوا : لا بأس بنكاح الأَمَة المجوسيّة بملك اليَمين . وهو قول شاذّ مهجور لم يلتفت إليه أحد من فقهاء الأمصار . وقالوا : لا يحلّ أن يطأها حتى تُسلم . وقد تقدّم القول فى هذه المسألة فى «البقرة»(1) مستوفًى .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ﴾ المعنى أن الله عليم ببواطن الأمور ولكم ظواهرها، وكلّكم بنو آدم وأكرمكم عند الله أتقاكم، فلا تستنكِفُوا من التزوّج بالإماء عنــد الضرورة، وإن كانت حديثةَ عهدٍ بِسِباء، أو كانت خرساء وما أشبه ذلك . ففى اللفظ تنبيه على أنه ربّمـا كان إيمـان أَمَة أفضل من إيمـان بعض الحرائر .

---

(1) راجع جـ ٣ ص ٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ ابتداء وخبر ؛ كقولك زيد فى الدار . والمعنى أنتم بنو آدم . وقيل : أنتم مؤمنون . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ المعنى : ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصناتِ المؤمناتِ فلْينكح بعضُكم من بعض : هذا فتاة هذا ، وهذا فتاة هذا . فبعضكم على هذا التقدير مرفوع بفعله وهو فلينكح . والمقصود بهذا الكلام تَوْطِئة نفوس العرب التى كانت تستهجن ولد الأَمَة وتُعَيِّره وتُسَمِّيه الهَجِين(١)، فلما جاء الشرع بجواز نكاحها علموا أن ذلك التهجين لا معنى له ، وإنما انحطت الأَمَة فلم يجز للحُر التزوج بها إلا عند الضرورة ؛ لأنه تسبب إلى إرقاق الولد ، وأن الأَمَة لا تَفرُغ للزوج على الدوام ، لأنها مشغولة بخدمة المَوْلَى .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أى بولاية أربابهن المالكين وإذنهم . وكذلك العبد لا ينكح إلا بإذن سيّده ؛ لأن العبد مملوك لا أمر له ، وبدنه كله مستغرَق ، لكن الفرق بينهما أن العبد إذا تزوج بغير إذن سيده فإن أجازه السيد جاز ؛ هذا مذهب مالك وأصحاب الرأى ، وهو قول الحسن البَصْرِيّ وعطاء بن أبى رَباح وسعيد بن المسيِّب وشُرَيح والشَّعْبِيّ . والأَمَةُ إذا تزوّجت بغير إذن أهلها فُسِخ ولم يجز بإجازة السيد ؛ لأن نقصان الأنوثة فى الأَمَة يمنع من انعقاد النكاح ألْبَتّة . وقالت طائفة : إذا نكح العبد بغير إذن سيده فسخ نكاحه ؛ هذا قول الشافعيّ والأَوْزاعِيّ وداود بن عليّ ، قالوا : لا تجوز إجازة المَوْلَى إن لم يحضره ؛ لأن العقد الفاسد لا تصح إجازته ، فإن أراد النكاح استقبله على سُنّته . وقد أجمع علماء المسلمين على أنه لا يجوز نكاح العبد بغير إذن سيده . وقد كان ابن عمر يَعُدّ العبد بذلك زانيًا ويحدّه ؛ وهو قول أبى ثَوْر . وذكر عبد الرزاق عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ، وعن مَعْمَر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر أنه أخذ عبدا له نكح بغير إذنه فضربه الحدّ وفرّق بينهما وأبطل صداقها . قال : وأخبرنا ابن جُرَيج عن موسى بن عقبة أنه أخبره عن نافع عن ابن عمر أنه كان يرى نكاح العبد بغير إذن وَلِيّه زنًا ، ويرى عليه الحدّ ،

---

(١) الهجين : الذى أبوه عربى وأمه أمة غير محصنة .

ويعاقب الذين أنكحوهما. قال: وأخبرنا ابن جريج عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال سمعت جابر بن عبد الله يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيّما عبدٍ نكح بغير إذن سيده فهو عاهر ". وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو نكاح حرام؛ فإن نكح بإذن سيده فالطلاق بيد من يستحل الفرج. قال أبو عمر : على هذا مذهب جماعة فقهاء الأمصار بالحجاز والعراق ، ولم يُختلَف عن ابن عباس أن الطلاق بيد السيّد ؛ وتابعه على ذلك جابر بن زيد وفرقة. وهو عند العلماء شذوذ لا يُعرَّج عليه، وأظن ابن عباس تأول فى ذلك قول الله تعالى : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ » . وأجمع أهل العلم على أن نكاح العبد جائز بإذن مولاه ؛ فإن نكح نكاحا فاسدا فقال الشافعي: إن لم يكن دخل فلا شيء لها، وإن كان دخل فعليه المهر إذا عتق ؛ هذا هو الصحيح من مذهبه، وهو قول أبي يوسف ومحمد لا مهر عليه حتى يعتِق . وقال أبو حنيفة : إن دخل بها فلها المهر . وقال مالك والشافعي : إذا كان عبد بين رجلين فأذن له أحدهما فى النكاح فنكح فالنكاح باطل، فأما الأمة إذا آذنت أهلها فى النكاح فأذنوا جاز ، وإن لم تباشر العقد لكن تُوَلِّي من يعقده عليها .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ دليلٌ على وجوب المهر فى النكاح، وأنه للأَمَة . ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ معناه بالشرع والسُّنّة ، وهذا يقتضى أنهنّ أحقُّ بمهورهنّ من السادة، وهو مذهب مالك. قال فى كتاب الرّهون : ليس للسيّد أن يأخذ مهر أَمَته ويَدَعها بلا جهاز . وقال الشافعي: الصداق للسيّد؛ لأنه عوض فلا يكون للأمة. أصله إجارة المنفعة فى الرقبة، وإنما ذكرت لأن المهر وجب بسببها . وذكر القاضى إسماعيل فى أحكامه : زعم بعض العراقيين إذا زوج أمته من عبده فلا مهر . وهذا خلاف الكتاب والسنة وأطنب فيه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ أى عفائف . وقرأ الكِسَائِيّ « محصِناتٍ » بكسر الصاد فى جميع القرآن، إلا فى قوله تعالى : « وَٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ النساءِ » . وقرأ الباقون بالنصب فى جميع القرآن . ثم قال : ﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ أى غير زوانٍ ، أى مُعْلِنات بالزّنا ؛ لأن أهل الجاهلية كان فيهم الزّوانى فى العلانية ، ولهنّ رايات منصوبات كراية البيطار .

﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ أصدقاء على الفاحشة، واحدهم خِدْن وخِدين، وهو الذى يخادنك، ورجل خُدَنَةٌ، إذا اتخذ أخدانا أى أصحابا ؛ عن أبى زيد . وقيل : المسافِحة المجاهِرة بالزنا، أى التى تكرى نفسها لذلك . وذات الخِدْن هى التى تزنى سرًّا . وقيل : المسافِحة المبذولة . وذات الخدن التى تزنى بواحد . وكانت العرب تعيب الإعلان بالزنا ، ولا تعيب آتخاذ الأخدان ، ثم رَفع الإسلام جميع ذلك ؛ وفى ذلك نزل قوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » ؛ عن ابن عباس وغيره .

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ قراءة عاصم وحمزة والكِسائِى بفتح الهمزة. الباقون بضمها . فبالفتح معناه أَسْلَمن، وبالضم زُوِّجن . فإذا زنت الأَمَة المسلمة جُلدت نصف جلد الحرة؛ وإسلامها هو إحصانها فى قول الجمهور : ابنِ مسعود والشعبىّ والزُّهْرِىّ وغيرهم. وعليه فلا تُحدّ كافرة إذا زنت؛ وهو قول الشافعىّ فيما ذكر آبن المُنْذِر. وقال آخرون : إحصانها التزوّج بحرّ؛ فإذا زنت الأَمَة المسلمة التى لم تتزوّج فلا حدّ عليها ، قاله سعيد بن جُبير والحسن وقتادة ، وروى عن ابن عباس وأبى الدَّرْدَاء ، وبه قال أبو عبيد . قال : وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن حدّ الأمة فقال : إنّ الأَمَة ألقت فَرْوَة رأسها من وراء الدار . قال الأصمعى : الفروة جلدة الرأس . قال أبو عبيد : وهو لم يُرد الفروة بعينها، وكيف تُلقى جلدة رأسها من وراء الدار ، ولكن هذا مثل ! إنما أراد بالفَرْوة القِناع ، يقول : ليس عليها قناع ولا حجاب، وأنها تخرج إلى كل موضع يرسلها أهلها إليه، لا تقدر على الامتناع من ذلك ؛ فتصير حيث لا تقدر على الامتناع من الفجور، مثل رعاية الغنم وأداء الضريبة ونحو ذلك ؛ فكأنه رأى ألّا حدّ عليها إذا فجرت لهذا المعنى . وقالت فرقة : إحصانها التزوّج، إلا أن الحدّ واجب على الأَمَة المسلمة غير المتزوجة بالسنة؛ كما فى صحيح البُخارِىّ ومُسْلم أنه قيل : يا رسول الله، الأَمَة إذا زنت ولم تُحصن ؟ فأوجب عليها الحدّ . قال الزُّهْرِىّ : فالمتزوجة محدودةٌ بالقرآن ، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث . قال القاضى إسماعيل فى قول من قال : إذا أُحصِنّ أَسْلَمن : بُعْدٌ؛ لأن ذكر

الإيمان قد تقدّم لهن فى قوله تعالى « مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ » . وأما من قال : إذا أُحْصِنّ تزوّجن، وأنه لا حدّ على الأمة حتى تتزوج؛ فإنهم ذهبوا إلى ظاهر القرآن وأحسَبهم لم يعلموا هذا الحديث . والأمر عندنا أن الأَمَة إذا زنت وقد أحصنت مجلودة بكتاب الله، واذا زنت ولم تحصن مجلودةٌ بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا رجم عليها ؛ لأن الرجم لا يتنصّف . قال أبو عمر : ظاهر قولِ الله عز وجل يقتضى ألّا حدّ على أَمَة وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج، ثم جاءت السنة بجلدها وإن لم تحصن، فكان ذلك زيادة بيان .

قلت : ظَهْر المؤمن حِمًى لا يُستباح إلا بيقين ، ولا يقين مع الاختلاف ، لولا ما جاء فى صحيح السُّنّة من الجلد فى ذلك . والله أعلم . وقال أبو ثَوْر فيما ذكر ابن المنذر : وإن كانوا اختلفوا فى رجمهما فإنهما يُرجمان إذا كانا محصنَيْن، وإن كان إجماعٌ فالإجماع أَوْلى .

الخامسة عشرة — وآختلف العلماء فيمن يُقيم الحدّ عليهما ؛ فقال ابن شهاب : مضت السُّنّة أن يَحُدّ العبدَ والأَمَة أهلوهم فى الزنا ، إلّا أن يُرفع أمرهم إلى السلطان فليس لأحد أن يفتات عليه؛ وهو مقتضى قوله عليه السلام : "إذا زنت أَمَةُ أحدِكم فلْيحدها الحَدّ" . وقال علىّ رضى الله عنه فى خطبته: يأيها الناس، أقيموا على أرِقّائكم الحدّ، من أحصن منهم ومن لم يحصِن، فإن أَمَةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت فأمرنى أن أجلدها، فإذا هى حديث عهد بنفاس ، فخشيت إن أنا جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أحسنت" . أخرجه مسلم موقوفا عن علىّ . وأسنده النسائى وقال فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم من أحصن منهم ومن لم يحصِن". وهذا نص فى إقامة السادة الحدودَ على المماليك من أحصن منهم ومن لم يحصن . قال مالك رضى الله عنه : يَحُدّ المولى عبده فى الزنا وشرب الخمر والقذف إذا شهد عنده الشهود بذلك، ولا يقطعه فى السرقة ، وإنما يقطعه الإمام؛ وهو قول الليث . وروى عن جماعة من الصحابة أنهم أقاموا الحدود على عبيدهم، منهم ابن عمر وأنس، ولا مخالِف لهم من الصحابة . ورُوى عن آبن أبى لَيْلَى أنه قال : أدركت بقايا الأنصار يضربون الوَلِيدة من ولائدهم إذا

زنت في مجالسهم . وقال أبو حنيفة : يقيم الحـدود على العبيـد والإماء السلطانُ دون المَوْلَى في الزنا وسائر الحدود ، وهو قول الحسن بن حيّ . قال الشافعيّ : يحـدّه المولى في كل حدّ ويقطعه ؛ واحتج بالأحاديث التي ذكرنا . وقال الثَّوْرِيّ والأَوْزاعِيّ : يحده في الزنا ، وهو مقتضى الأحاديث ، والله أعلم . وقد مضى القول في تغريب العبيد في هذه السورة .

السادسة عشرة — فإن زَنَت الأمة ثم عَتقت قبل أن يحدّها سيّدها لم يكن له سبيل إلى حدّها ، والسلطان يجلدها إذا ثبت ذلك عنده ؛ فإن زنت ثم تزوجت لم يكن لسيدها أن يجلدها أيضا لحق الزوج ؛ إذ قد يضره ذلك . وهـذا مذهب مالك إذا لم يكن الزوج مِلْكا للسيد ، فلو كان ، جاز للسيد ذلك لأن حقّهما حقّه .

السابعة عشرة — فإن أقرّ العبـد بالزنا وأنكره المولى فإن الحدّ يجب على العبد لإقراره ، ولا التفات لمـا أنكره المولى ، وهذا مجمع عليه بين العلماء . وكذلك المدَبّر وأمّ الولد والمكاتَب والمُعْتَق بعضه . وأجمعوا أيضا على أن الأَمَة اذا زنت ثم أُعتقت حُدّت حدّ الإماء ؛ وإذا زنت وهي لا تعلم بالعتق ثم علمت وقد حُدّت أقيم عليها تمام حدّ الحرة ؛ ذكره ابن المنذر .

الثامنة عشرة — واختلفوا في عفو السيد عن عبده وأَمَته إذا زنيا ؛ فكان الحسن البصريّ يقول : له أن يعفُوَ . وقال غير الحسن : لا يسعه إلا إقامة الحدّ ، كما لا يسع السلطان أن يعفُوَ عن حدّ إذا علمه ، لم يسع السيّد كذلك أن يعفُوَ عن أَمَته إذا وجب عليها الحدّ ؛ وهذا مذهب أبي ثور . قال ابن المنذر : وبه نقول .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي الجلد . ويعني بالمحصنات ها هنا الأبكار الحرائر ؛ لأن الثيب عليها الرجم والرجم لا يتبعّض ، وإنما قيل للبكر محصنة وإن لم تكن متزوجة لأن الإحصان يكون بها ؛ كما يقال : أُضحيّة قبل أن يُضَحّى بها ؛ وكما يقال للبقرة مثيرة قبـل أن تُثير . وقيـل : «المحصنات» المتزوجات ؛ لأن عليها الضرب والرّجم في الحديث ، والرّجم لا يتبعّض فصار عليهن نصف الضرب . والفائدة في نقصان حدّهن أنهن أضعف من الحـرائر . ويقال : إنهن لا يصلْن إلى مرادهن كما تصل الحرائر . وقيل :

لأن العقوبة تجب على قدر النعمة؛ ألا ترى أن الله تعالى قال لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» فلما كانت نعمتهن أكثر جعل عقوبتهن أشدّ، وكذلك الإماء لما كانت نعمتهن أقل فعقوبتهن أقلّ. وذكر في الآية حدّ الإماء خاصّة ولم يذكر حدّ العبيد؛ ولكن حدّ العبيد والإماء سواء: خمسون جلدة في الزنا، وفي القذف وشرب الخمر أربعون؛ لأن حدّ الأَمَة إنما نقص لنقصان الرّق فدخل الذكور من العبيد في ذلك بعلة المملوكية، كما دخل الإماء تحت قوله عليه السلام: "من أعتق شِرْكًا(١) له في عبد". وهذا الذي يسميه العلماء القياسَ في معنى الأصل؛ ومنه قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ» الآية. فدخل في ذلك المحصنين قطعا؛ على ما يأتي بيانه في سورة «النُّور» إن شاء الله تعالى.

الموفيـة عشرين — وأجمع العلماء على أن بيع الأَمَة الزانية ليس بواجب لازم على ربّها، وإن اختاروا له ذلك؛ لقوله عليه السلام: "إذا زَنت أَمَةُ أحدكم فتبيّن زناها فلْيجلدها الحدّ ولا يُثرِّبْ(٢) عليها ثم إن زَنت فلْيجلدها الحدّ ولا يُثرِّبْ عليها ثم إن زنت الثالثةَ فتبيّن زناها فلْيبِعْها ولو بحبلٍ من شَعَر". أخرجه مسلم عن أبي هريرة. وقال أهل الظاهر بوجوب بيعها في الرابعة. منهم داود وغيره؛ لقوله: "فليبعها" وقوله: "ثم بيعوها ولو بضفير". قال ابن شهاب: فلا أدرى بعد الثالثة أو الرابعة؛ والضفير الحبل. فإذا باعها عرّف بزناها لأنه عيب فلا يحل أن يكتم. فإن قيل: إذا كان مقصود الحديث إبعاد الزانية ووجب على بائعها التعريف بزناها فلا ينبغي لأحد أن يشتريها لأنها مما قد أمر بإبعادها. فالجواب أنها مال ولا تُضاع؛ للنهي عن إضاعة المال، ولا تُسيَّب لأن ذلك إغراء لها بالزنا وتمكين منه، ولا تحبس دائما فإن فيه تعطيلَ منفعتها على سيدها فلم يبق إلا بيعها. ولعل سيّدها الثاني يَعِفّها بالوطء أو يبالغ في التحرز فيمنعها من ذلك. وعلى الجملة فعند تبدّل المُلّاك تختلف عليها الأحوال. والله أعلم.

---

(١) أي حصة ونصيبا. (٢) لا يثرب: لا يبكتها ولا يقرعها بعد الضرب.

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى الصبر على العُزْبة خير من نكاح الأمة؛ لأنه يُفضي إلى إرقاق الولد، والغضُّ من النفس والصبرُ على مكارم الأخلاق أولى من البذالة . ورُوى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: أيّما حُرٍّ تزوج أَمَةً فقد أرقّ نصفه . يعنى يصيّر ولده رقيقا ؛ فالصبر عن ذلك أفضل لكيلا يرقّ الولد . وقال سعيد بن جُبير : ما نكاح الأمة من الزنا إلا قريب[(١)]، قال الله تعالى : « وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ » ، أى عن نكاح الإماء. وفى سنن ابن ماجه عن الضحّاك بن مُزاحِم قال: سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من أراد أن يَلْقَ الله طاهرا مطهّرا فلْيتزوج الحرائر". ورواه أبو إسحاق الثعلبي من حديث يونس بن مِرْداس، وكان خادما لأنس، وزاد: فقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الحرائر صلاح البيت والإماءُ هلاك البيت — أو قال — فساد البيت" .

قوله تعالى : يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

أى ليبيّن لكم أمرَ دينكم ومصالح أمرِكم ، وما يحلّ لكم وما يحرُم عليكم . وذلك يدل على امتناع خلوّ واقعة عن حكم الله تعالى ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » على ما يأتى . وقال بعد هذا « يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ » فجاء هذا « بأن » والأول باللام . فقال الفرّاء : العرب تعاقب بين لام كى وأن ؛ فتأتى باللام التى على معنى « كى » فى موضع « أن » فى أردت وأمرت ؛ فيقولون : أردت أن تفعل ، وأردت لتفعل ؛ لأنهما يطلبان المستقبل . ولا يجوز ظننت لتفعل؛ لأنك تقول ظننت أن قد قمت . وفى التنزيل « وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ » . « وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ » . « يريدون أن يطفئوا نور الله » . قال الشاعر[(٢)] :

---

(١) عبارة سعيد بن جبير كما فى تفسير الطبرى : « ما أزحف ناكح الأمة عن الزنا إلا قليلا » . أى ما تنحى وما تباعد . (٢) هو كثير عزة .

أريد لأنسى ذكرها فكأنما * تمثّل لى ليـــلى بكل سـبيل

يريد أن أنسى. قال النحاس: وخطأ الزجاج هذا القول وقال: لو كانت اللام بمعنى «أن» لدخلت عليها لامٌ أخرى؛ كما تقول: جئت كى تكرمنى، ثم تقول جئت لكى تكرمنى. وأنشدنا:

أردتُ لكيما يعلم الناس أنها * سراويل قَيْس والوفود شهود (١)

قال: والتقدير أراد به ليبين لكم. قال النحاس: وزاد الأمر على هذا حتى سماها بعض القراء لام أن؛ وقيل: المعنى يريد الله هذا من أجل أن يبيّن لكم.

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى من أهل الحق. وقيل: معنى «يهديكم» يبيّن لكم طرق الذين من قبلكم من أهل الحق وأهل الباطل. وقال بعض أهل النظر: فى هذا دليل على أن كل ما حَرّم الله قبل هذه الآية علينا فقد حُرّم على مَن كان قبلنا. قال النحاس: وهــذا غلط؛ لأنه يكون المعنى ويبيّن لكم أمر من كان قبلكم ممن كان يجتنب ما نُهى عنه، وقد يكون يُبيّن لكم كما بيّن لمن قبلكم من الأنبياء فلا يومَى به إلى هــذا بعينه. ويقال: إن قوله «يريد الله» ابتــداء القصة، أى يريد الله أن يبيّن لكم كيفية طاعتــه. «ويهديكم» يعرفكم «سنن الذين من قبلكم» أنهــم لـمـا تركوا أمرى كيف عاقبتهم، وأنتم إذا فعلتم ذلك لا أعاقبكم ولكنى أتوب عليكم. ﴿ والله عليمٌ ﴾ بمن تاب ﴿ حكيم ﴾ بقبول التوبة.

قوله تعـالى: وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ابتداء وخبر. و «أنْ» فى موضع نصب بيريد، وكذلك «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ»؛ فأن يخفف فى موضع نصب بيريد؛ والمعنى:

(١) البيت لقيس بن عبادة، وبعده:

وألا يقولوا غاب قيس وهذه * سراويل عادى نمتــه ثمــود

قال ابن سيده: بلغنا أن قيسا طاول روميا بين يدى معاوية أو غيره من الأمراء، فتجرد قيس من سراويله وألقاها إلى الرومى ففضلت عنه؛ فقال هذين البيتين يعتذر من إلقاء سراويله فى المشهد المجموع. (عن اللسان مادة «سرل»).

يريد توبتكم، أى يقبلها فيتجاوز عن ذنوبكم ويريد التخفيف عنكم . قيل : فى جميع أحكام الشرع، وهو الصحيح . وقيـل : المراد بالتخفيف نكاحُ الأمة، أى لمّا علمنا ضعفكم عن الصبر عن النساء خفّفنا عنكم بإباحة الإماء؛ قاله مجاهد وابن زيد وطاوس . قال طاوس : ليس يكون الإنسان فى شيء أضعف منه فى أمر النساء . وآختلِف فى تعيين المتَّبِعين للشهوات؛ فقال مجاهد : هم الزناة . السُّدّى : هم اليهود والنصارى . وقالت فرقة : هم اليهود خاصّة؛ لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون فى نكاح الأخوات من الأب . وقال ابن زيد : ذلك على العموم، وهو الأصح . والميل : العدول عن طريق الاستواء؛ فمن كان عليها أحبّ أن يكون أمثاله عليها حتى لا يلحقه مَعَرّة .

قوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ نصب على الحال؛ والمعنى أن هواه يستميله وشهوته وغضبه يستخفانه؛ وهذا أشدّ الضعف فآحتاج إلى التخفيف . وقال طاوس : ذلك فى أمر النساء خاصة . وروى عن ابن عباس أنه قرأ « وخَلَقَ الإنسانَ ضعيفا » أى وخلق الله الإنسان ضعيفا، أى لا يصبر عن النساء . قال آبن المسيِّب : لقد أتى علىّ ثمانون سنة وذهبت إحدى عينىّ وأنا أَعشُو بالأخرى وصاحبى أعمى أصمّ — يعنى ذَكَره — وإنى أخاف من فتنة النساء . ونحوه عن عُبادة بن الصّامت رضى الله عنه، قال عُبادة : ألا ترونى لا أقوم إلا رِفْدًا(١) ولا آكل إلا ما لُوِّق لى — قال يحيي : يعنى لُيِّن وسُخِّن — وقد مات صاحبى منذ زمان — قال يحيي : يعنى ذكره — وما يَسرّنى أنى خلوت بامرأة لا تحل لى، وأنّ لى ما تطلع عليه الشمس مخافة أن يأتينى الشيطان فيحرّكه، على أنه لا سمع له ولا بصر ! .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(١) أى إلا أن أعان على القيام .

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ أى بغير حق . ووجوه ذلك تكثر على ما بيناه ؛ وقد قدّمنا معناه فى البقرة(١) . ومن أكل المال بَيْعُ العُرْبان؛ وهو أن يأخذ منك السلعة أو يكترىَ منك الدابة ويعطيَك درهما فما فوقه ، على أنه إن اشتراها أو ركب الدابة فهو من ثمن السلعة أو كِراء الدابة ؛ وإن ترك ابتياع السلعة أو كِراء الدابة فما أعطاك فهو لك . فهذا لا يصلح ولا يجوز عند جماعة فقهاء الأمصار من الحجازيين والعراقيين ، لأنه من باب بيع القِمار والغَرَر والمخاطرة، وأكلِ المال بالباطل بغير عِوض ولا هبة، وذلك باطل بإجماع . وبيع العُرْبان منسوخ إذا وقع على هذا الوجه قبل القبض وبعده ، وتردّ السلعة إن كانت قائمة، فإن فاتت ردّ قيمتها يوم قبضها . وقد رُوى عن قوم منهم ابن سِيرين ومجاهد ونافع ابن عبد الحارث وزيد بن أسلم أنهم أجازوا بيع العربان على ما وصفنا . وكان زيد بن أسلم يقول : أجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو عمر : هذا لا يُعرف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه يصحّ، وإنما ذكره عبد الرزاق عن الأسلمي عن زيد بن أسلم مُرْسَلًا؛ وهذا مثله ليس حجة . ويحتمل أن يكون بيع العربان الجائز على ما تأوّله مالك والفقهاء معه؛ وذلك أن يُعَرْبِنه ثم يحسُب عُرْبانه من الثمن إذا آختار تمام البيع . وهذا لا خلاف فى جوازه عن مالك وغيره . وفى موطّأ مالك عن الثقة عنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع العُرْبان . قال أبو عمر : قد تكلم الناس فى الثقة عنده فى هذا الموضع، وأشبه ما قيل فيه أنه أخذه عن ابن لَهِيعة أو عن ابن وهب عن ابن لهيعة ؛ لأن آبن لَهِيعة سمعه من عمرو بن شعيب ورواه عنه . حدّث به عن ابن لهيعة آبنُ وهب وغيرُه ، وابن لهيعة أحد العلماء إلا أنه يقال : إنه احترقت كتبه فكان إذا حدّث بعد ذلك من حفظه غَلِط . وما رواه عنه ابن المبارك وابن وهب فهو عند بعضهم صحيح . ومنهم من يضعّف حديثَه كلَّه، وكان عنده علم واسع وكان كثير الحديث، إلا أن حاله عندهم كما وصفنا .

(١) راجع ج ٢ ص ٣٣٨ طبعة ثانية .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ هذا استثناء منقطع ، أي ولكن تجارة عن تراض . والتجارة هي البيع والشراء ، وهذا مثل قوله تعالى : « وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » على ما تقدم . وقرئ « تجارةٌ » ، بالرفع أي إلا أن تقع تجارة ؛ وعليه أنشد سيبويه :

فِدًى لِبَنِي ذُهْلِ بنِ شَيبانَ ناقتي * إذا كان يومٌ ذو كواكبَ أشهبُ

وتسمى هذه كان التامة ، لأنها تمت بفاعلها ولم تحتج إلى مفعول . وقرئ « تجارةً » بالنصب ؛ فتكون كان ناقصة لأنها لا تتم بالاسم دون الخبر ، فاسمها مضمر فيها ، وإن شئت قدرته ؛ أي إلا أن تكون الأموال أموال تجارة ؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقد تقدم هذا ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تِجَارَةً ﴾ التجارة في اللغة عبارة عن المعاوضة ؛ ومنه الأجر الذي يعطيه البارئ سبحانه العبد عوضا عن الأعمال الصالحة التي هي بعضٌ من فعله ؛ قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » . وقال تعالى : « يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ » . وقال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » الآية . فسمى ذلك كله بيعا وشراء على وجه المجاز ، تشبيها بعقود الأشربة والبياعات التي تحصل بها الأغراض ، وهو نوعان : تقلُّب في الحضر من غير نُقْلة ولا سفر ، وهذا تربُّص واحتكار قد رغب عنه أولو الأقدار وزهد فيه ذوو الأخطار . والثاني تقلب المال بالأسفار ونقله إلى الأمصار ، وهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعةً ، غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "المسافر وماله لعلى قَلَتٍ إلا ما وَقَى الله"[1] . يعنى على خطر . وقيل : في التوراة يا بن آدم ، أحدث سفرا أحدث لك رزقا . الطبري : وهذه الآية أدل دليل على فساد قول[2] ... ...

(١) نسب صاحب اللسان هذه العبارة إلى أعرابي . راجع مادة (قلت) . والقلت بالتحريك الهلاك .

(٢) بياض بالأصول . والذي في الطبري : «ففي هذه الآية إبانة من الله تعالى ذكره عن تكذيب قول الجهلة المتصوفة المنكرين طلب الأقوات بالتجارات والصناعات والله تعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » اكتسابا أحل ذلك لها . راجع الطبري في تفسير الآية وسيأتي في ص ١٥٦

الرابعـة — اعلم أن كلّ معاوضة تجارةٌ على أيّ وجه كان العِوَض ، إلا أن قوله « بِالباطِلِ » أخرج منها كل عوض لا يجوز شرعا من رِبًا أو جهالة أو تقدير عِوَض فاسد كالخمر والخنزير وغير ذلك. وخرج منها أيضا كلّ عقد جائز لا عِوَض فيه؛ كالقرض والصدقة والهبة لا للثواب . وجازت عقود التبرعات بأدلة أخرى مذكورة فى مواضعها. فهذان طرفان متّفق عليهما . وخرج منها أيضا دعاء أخيك إياك إلى طعامه. روى أبو داود عن ابن عباس فى قوله تعالى : « لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » فكان الرجل يَحْرَج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية؛ فنسخ ذلك بالآية الأخرى التى فى « النور »؛ فقال : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ » إلى قوله « أَشْتَاتًا »(١)؛ فكان الرجل الغنيّ يدعو الرجلَ من أهله إلى طعامه فيقول : إنّى لأجْنَح أن آكل منه — والتجنّح الحَرَج — ويقول : المسكين أحقّ به منّى . فأحلّ فى ذلك أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وأحلّ طعام أهل الكتاب .

الخامسة — لو اشتريتَ من السوق شيئا؛ فقال لك صاحبه قبل الشراء : ذُقه وأنت فى حلّ؛ فلا تأكل منه، لأن إذنه بالأكل لأجل الشراء، فرُبّما لا يقع بينكما شراء فيكون ذلك الأكل شبهة، ولكن لو وصف لك صفة فاشتريته فلم تجده على تلك الصفة فأنت بالخيار.

السادسة — والجمهور على جواز الغَبْن فى التجارة؛ مثل أن يبيع رجل ياقوتة بدرهم وهى تساوى مائة فذلك جائز، وأن المالك الصحيح الملك جائز له أن يبيع ماله الكثير بالتافه اليسير، وهذا ما لا اختلاف فيه بين العلماء إذا عرف قدر ذلك، كما تجوز الهبة لو وهب . واختلفوا فيه إذا لم يعرف قدر ذلك؛ فقال قوم : عرف قدر ذلك أو لم يعرف فهو جائز إذا كان رشيدا حُرًّا بالغا . وقالت فرقة : الغَبْن إذا تجاوز الثلث مردود، وإنما أبيح منه المتقارِبُ المتعارَف فى التجارات ، وأما المتفاحش الفادح فلا؛ وقاله ابن وهب من أصحاب

(١) آية ٦١

مالك . والأوّل أصح؛ لقوله عليه السلام في حديث الأَمَة الزانيــة "فليْبعها ولو بضَفِير" وقوله عليه السلام لعمر "لا تبتعه — يعني الفرس — ولو أعطاكه بدرهم واحد" وقوله عليه السلام: "دعوا النــاس يرزق الله بعضهم من بعض" وقوله عليه السلام : "لا يَبِـعْ حاضرٌ لِبَادٍ"(١) وليس فيها تفصيل بين القليل والكثير من ثلث ولا غيره .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ أي عن رِضاً، إلا أنها جاءت من المفاعلة إذ التجارة من آثنين . وآختلف العلمــاء في التراضي؛ فقالت طائفة : تمــامه وجزمه بافتراق الأبدان بعد عقدة البيع، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه : اِخْتَرْ؛ فيقول : قد اخترت، وذلك بعد العقدة أيضا فينجزم أيضا وإن لم يتفرّقا؛ قاله جماعة من الصحابة والتابعين، وبه قال الشافعيّ والثَّوْريّ والأوزاعي والليث وابن عُيَيْنة وإسحاق وغيرهم. قال الأوزاعيّ: هما بالخيار ما لم يتفرقا؛ إلّا بيوعا ثلاثة : بيع السلطان المغانم، والشركةُ في الميراث، والشركة في التجارة؛ فإذا صافقه في هذه الثلاثة فقد وجب البيع وليسا فيه بالخيار . قال : وحدّ الفرقة أن يتوارى كل واحد منهما عن صاحبه؛ وهو قول أهل الشام. وقال الليث: التفرق أن يقوم أحدهما . وكان أحمــد بن حنبل يقول : هما بالخيار أبدا ما لم يتفرقا بأبدانهما ، وسواء قالا اختر أو لم يقولاه حتى يفترقا بأبدانهما من مكانهما ؛ وقاله الشافعي أيضا . وهو الصحيح في هذا الباب للأحاديث الواردة في ذلك . وهو مرويّ عن ابن عمر وأبي بَرْزة وجماعة من العلماء . وقال مالك وأبو حنيفة: تمام البيع هو أن يعقد البيع بالألسنة فينجزم العقد بذلك ويرتفع الخيار. قال محمد بن الحسن : معنى قوله في الحديث "البَيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا" أن البائع إذا قال قــد بعتك فله أن يرجع ما لم يقل المشتري قد قبلت ؛ وهو قول أبي حنيفة ، ونصّ مذهب مالك أيضا ، حكاه ابن خُوَيْزِمَنْداد(٢) . وقيل : ليس له أن يرجع . وقد مضى في «البقرة» . احتج

---

(١) الحاضر : المقيم في المدن والقرى . والبادي : المقيم بالبادية . والمنهي عنه أن يأتي البدوي البلدة ومعه قوت يبغي التسارع الى بيعه رخيصا ؛ فيقول له الحضري : اتركه عندي لأغالي في بيعه . فهذا الصنيع محرّم لما فيه من الإضرار بالغــير . والبيع اذا جرى مع المغالاة منعقد . وسئل ابن عباس عن معــنى الحديث فقال : لا يكون له سمســارا . (عن ابن الأثير) .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٣٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

الأولون بما ثبت من حديث سَمُرة بن جُنْدب وأبي برزة وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاصي وأبي هريرة وحَكيم بن حِزام وغيرهم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا أو يقول أحدهما لصاحبه اِخْتَرْ". رواه أيوب عن نافع عن ابن عمر؛ فقوله عليه السلام في هذه الرواية "أو يقول أحدهما لصاحبه اختر" هو معنى الرواية الأخرى "إلا بيع الخيارِ" وقوله "إلا أن يكون بيعهما عن خيار" ونحوه. أي يقول أحدهما بعد تمام البيع لصاحبه: اختر إنفاذ البيع أو فسخه؛ فإن اختار إمضاء البيع تمّ البيع بينهما وإن لم يتفرّقا. وكان ابن عمر وهو راوي الحديث إذا بايع أحدا وأحبّ أن يُنفذ البيع مشى قليلا ثم رجع. وفي الأصول أن من روى حديثا فهو أعلم بتأويله لا سيما الصحابة إذ هم أعلم بالمقال وأقعد بالحال. وروى أبو داود والدّارَقُطْنِي عن أبي الوَضِيء (١) قال: كنا في سفر في عسكر فأتى رجل معه فرس فقال له رجل منا: أتبيع هذا الفرس بهذا الغلام؟ قال نعم؛ فباعه ثم بات معنا، فلما أصبح قام إلى فرسه، فقال له صاحبنا: مالَك والفرس! أليس قد بِعتنيها؟ فقال: مالي في هذا البيع من حاجة. قال: مالَك ذلك، لقد بعتني. فقال لهما القوم: هذا أبو برزة صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتياه؛ فقال لهما: أترضيان بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالا نعم. فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا" وإني لا أراكما افترقتما. فهذان صحابيان قد علما مخرج الحديث وعملا بمقتضاه، بل هذا كان عمل الصحابة. قال سالم قال ابن عمر: كنا إذا تبايعنا كان كل واحد منا بالخيار ما لم يتفرق المتبايعان. قال: فتبايعت أنا وعثمان فبعته مالي بالوادي بمالٍ له بخَيْبر؛ قال: فلما بعته طفِقت أنكص القَهْقَرى، خشية أن يُرادّني عثمان البيع قبل أن أفارقه. أخرجه الدّارَقطني ثم قال: إن أهل اللغة فرّقوا بين فرَقْت مخففا وفرّقت مثقلا؛ فجعلوه بالتخفيف في الكلام وبالتثقيل في الأبدان. قال أحمد بن يحيى ثعلب أخبرني ابن الأعرابي عن المفضل قال: يقال فرقت بين الكلامين مخففا فافترقا، وفرّقت بين اثنين مشددا فتفرّقا؛ فجعل الافتراق في القول، والتفرق في الأبدان.

---

(١) أبو الوضيء (بفتح الواو وكسر المعجمة المخففة مهموز): عباد بن نسيب. (عن التهذيب).

احتجت المالكية بما تقدّم بيانه فى آية الدَّين ، وبقوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » وهذان قد تعاقدا . وفى هذا الحديث إبطال الوفاء بالعقود . قالوا : وقد يكون التفرق بالقول كعقد النكاح ووقوع الطلاق الذى سماه الله فراقا ؛ قال الله تعالى : « وإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِه » وقال تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا » وقال عليه السلام "تفترق أمّتى" ولم يقل بأبدانها . وقد روى الدّارَقُطْنِيّ وغيره عن عمرو بن شعيب قال سمعت شعيبا يقول سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "أيّما رجلٍ ابتاع من رجل بيعة فإنّ كلّ واحد منهما بالخيار حتى يتفرّقا من مكانهما إلا أن تكون صفقة خيار ولا يحلّ لأحدهما أن يفارق صاحبه مخافة أن يُقيله" . قالوا : فهذا يدل على أنه قد تمّ البيع بينهما قبل الافتراق ؛ لأن الإقالة لا تصح إلا فيما قد تمّ من البيوع . قالوا : ومعنى قوله "المتبايعان بالخيار" أى المتساومان بالخيار مالم يعقِدا فإذا عقدا بطل الخيار فيه . والجواب — أمّا ما اعتلّوا به من الافتراق بالكلام فإنّما المراد بذلك الأديان كما بيناه فى «آل عمران» ، وإن كان صحيحا فى بعض المواضع فهو فى هذا الموضع غير صحيح . وبيانه أن يقال : خبِّرونا عن الكلام الذى وقع به الاجتماع وتمّ به البيع ، أهو الكلام الذى أريد به الافتراق أم غيره ؟ فإن قالوا : هو غيره فقد أحالوا وجاءوا بما لا يعقل ؛ لأنه ليس ثَمّ كلام غير ذلك الكلام ، وإن قالوا : هو ذلك الكلام بعينه قيل لهم : كيف يجوز أن يكون الكلام الذى به اجتمعا وتمّ به بيعهما ، به افترقا ، هذا عين المحال والفاسد من القول . وأما قوله : "ولا يحل له أن يفارق صاحبه مخافة أن يُقيله" فمعناه — إن صح — على النّدب ؛ بدليل قوله عليه السلام "من أقال مسلما أقاله الله عَثْرته" وبإجماع المسلمين على أن ذلك يحل لفاعله على خلاف ظاهر الحديث ، ولإجماعهم أنه جائز له أن يفارقه لينفذ بيعه ولا يقيله إلا أن يشاء . وفيما أجمعوا عليه من ذلك ردٌّ لرواية من روى لا يحل ؛ إن لم يكن وجه هذا الخبر الندب ، وإلا فهو باطل بالإجماع . وأما تأويل «المتبايعان» بالمتساومَيْن فعدول عن ظاهر اللفظ ، وإنما معناه المتبايعان بعد عقدهما مخيّران ما داما فى مجلسهما ، إلا بيعا يقول أحدهما لصاحبه فيه :

اِخْتَرْ فيختار؛ فإن الخيار ينقطع بينهما و إن لم يتفرقا ؛ فإن فُرِض خيارٌ فالمعنى: إلا بيع الخيار فإنه يبقى الخيار بعد التفرق بالأبدان . وتتميم هذا الباب فى كتب الخلاف . وفى قول عمرو بن شعيب «سمعت أبى يقول» دليل على صحة حديثه ؛ فإن الدّارَقُطْنِيّ قال حدّثنا أبو بكر النيسابُوريّ حدّثنا محمد بن علىّ الورّاق قال قلت لأحمد بن حنبل : شعيبٌ سمع من أبيه شيئا ؟ قال : يقول حدّثنى أبى . قال فقلت : فأبوه سمع من عبد الله بن عمرو ؟ قال: نعم، أراه قد سمع منه . قال الدّارَقُطْنِيّ سمعت أبا بكر النيسابُوريّ يقـول : هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاصى ، وقد صح سمـاع عمرو بن شعيب من أبيه شعيب وسماعُ شعيب من جدّه عبد الله بن عمرو .

الثامنـــة — روى الدّارَقُطْنِيّ عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التاجر الصدوق الأمين المسلم مع النبيّين والصدّيقين والشهداء يوم القيامة ". ويكره للتاجر أن يحلف لأجل ترويج السلعة وتزيينها، أو يصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى عرض سلعته؛ وهو أن يقول: صلى الله على محمد! ما أجود هذا . ويستحبّ للتاجر ألا تشغله تجارته عن أداء الفرائض؛ فإذا جاء وقت الصلاة ينبغى أن يترك تجارته حتى يكون من أهل هذه الاية: « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ »(١) وسيأتى .

التاســعة — وفى هــذه الآية مع الأحاديث التى ذكرناها ما يردّ قول من ينـكر طلب الأقوات بالتجارات والصناعات من المتصوّفة الجهلة ؛ لأن الله تعـالى حرّم أكلها بالباطل وأحلها بالتجارة، وهذا بيّن .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه مسئلة واحدة — قرأ الحسن « تقتّلوا » على التكثير . وأجمع أهل التأويل على أن المراد بهذه الآية النهى أن يقتل بعض الناس بعضا . ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصدٍ منه للقتل فى الحرص على الدنيا وطلب المـال؛

(١) فى سورة النور ، آية ٣٧

بأن يحمل نفسه على الغرر المؤدّى إلى التلف . ويحتمل أن يقال : « ولا تقتلوا أنفسكم » فى حال ضجر أو غضب ؛ فهذا كله يتناوله النهى . وقد احتجّ عمرو بن العاصى بهذه الآية حين امتنع من الاغتسال بالماء البارد حين أجنب فى غزوة ذات السلاسل خوفا على نفسه منه ؛ فقرّر النبيّ صلى الله عليه وسلم احتجاجه وضحك عنده ولم يقل شيئا . خرّجه أبو داود وغيره، وسيأتى .

قوله تعالى : وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

ذلك إشارة إلى القتل لأنه أقرب مذكور ؛ قاله عطاء . وقيل : هو عائد إلى أكل المال بالباطل وقتل النفس؛ لأن النهى عنهما جاء متّسقا مسرودا ، ثم ورد الوعيد حسب النهى. وقيل : هو عام على كل ما نهى عنه من القضايا، من أوّل السورة إلى قوله تعالى : « ومن يفعل ذلك » . وقال الطبرى : ذلك عائد إلى ما نهى عنه من آخر وعيد، وذلك قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرها » لأن كل ما نهى عنه من أوّل السورة قُرن به وعيد، إلا من قوله «يأيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم» فإنه لا وعيد بعده إلا قوله « ومن يفعل ذلك عدوانا » . والعدوان تجاوز الحدّ . والظلم وضع الشيء فى غير موضعه، وقد تقدّم (١) . وقيّد الوعيد بذكر العدوان والظلم ليخرج منه فعل السهو والغلط، وذكر العدوان والظلم مع تقارب معانيهما لاختلاف ألفاظهما ، وحسُن ذلك فى الكلام كما قال :

* وألفى قولها كذبا ومينا (٢) *

وحسُن العطف لاختلاف اللفظين؛ يقال : بُعدًا وسُحقًا ؛ ومنه قول يعقوب : « إنّما أشكو بثّى وحُزنى إلى الله » . فحسن ذلك لاختلاف اللفظ . و « نُصليه » معناه نمسّه حرّها . وقد بيّنا

(١) راجع المسألة الثالثة عشرة ج ١ ص ٣٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) هذا عجز بيت لعدى بن زيد، وصدره :

* فقدّدت الأديم لراهشيه *

معنى الجمع بين هذه الآى وحديث أبى سعيد الخُدْرى فى العصاة وأهل الكبائر لمن أنفــذ عليه الوعيــد؛ فلا معنى لإعادة ذلك . وقرأ الأعمش والنَّخَعِى «نَصليه» بفتح النــون ، على أنه منقول من صَلِىَ نارا، أى أصليته؛ وفى الخبر «شاة مَصْلِيّة» . ومن ضم النون منقول بالهمزة، مثل طعمت وأطعمت .

قوله تعــالى : إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

فيــه مسألتان :

الأولى ــ لمـا نهى تعالى فى هذه السورة عن آثام هى كبائر وعَد على آجتنابها التخفيفَ من الصغائر، ودلّ هــذا على أن فى الذنوب كبائرَ وصغائرَ . وعلى هــذا جماعة أهل التأويل وجماعة الفقهاء، وأن اللّمسة والنظرة تُكفَّر باجتناب الكبائر قَطْعًا بوعده الصدق وقوله الحق، لا أنه يجب عليه ذلك . ونظير الكلام فى هذا ما تقدّم بيانه فى قبول التوبة فى قوله تعالى : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ » ، فالله تعالى يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، لكن بضميمةٍ أخرى إلى الآجتناب وهى إقامة الفرائض . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صــلى الله عليه وســلم : " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لمـا بينهنّ إذا آجتُنِبت الكبائر " . وروى أبو حاتم البُسْتِى فى صحيح مســنده عــن أبى هريرة وأبى سعيد الخُدْرِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر ثم قال : "والذى نفسى بيده ثلاث مرات " ثم سكت فأكبّ كل رجل منا يبكى حزِينًا ليمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : " ما من عبــد يؤدّى الصلوات الخمس ويصــوم رمضان ويجتنب الكبائر الســبع إلا فُتحت له ثمانيــة أبواب من الجنة يوم القيامة حتى إنهـا لتصفّق " ثم تلا « إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » . فقد تعاضد الكتاب وصحيحُ السنة بتكفير الصغائر قطعا كالنظر وشبهه . وبيّنت السنة أن المراد «بتجتنبوا» ليس كلّ الاجتناب لجميع الكبائر . والله أعلم . وأما الأصوليون فقالوا : لا يجب على القطع تكفير الصــغائر باجتناب الكبائر،

وإنما يحمل ذلك على غلبة الظنّ وقوة الرجاء والمشيئةُ ثابتةٌ . ودلّ على ذلك أنه لو قطعنا لمجتنب الكبائر وممتثل الفرائض تكفيرَ صغائره قطعاً لكانت له فى حكم المباح الذى يقطع بالا تباعة فيه ، وذلك نقض لعُرَى الشريعة ، ولا صغيرة عندنا . قال القُشيرىّ عبد الرحيم : والصحيح أنها كبائر ولكن بعضها أعظم وقعا من بعض ، والحكمة فى عدم التمييز أن يجتنب العبد جميع المعاصى .

قلت : وأيضا فإن من نظر إلى نفس المخالفة كما قال بعضهم : — لا تنظرْ إلى صِغر الذنب ولكن آنظر من عصيت — كانت الذنوب بهذه النسبة كلها كبائر ، وعلى هذا النحو يخرج كلام القاضى أبى بكر بن الطيّب والأستاذ أبى إسحاق الأسفراينى وأبى المعالى وأبى نصر عبد الرحيم القشيرى وغيرهم ؛ قالوا : وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها ، كما يقال الزنا صغيرة بإضافته إلى الكفر ، والقُبْلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا ، ولا ذنب عندنا يُغفر باجتناب ذنب آخر بل كل ذلك كبيرة ومرتكبه فى المشيئة غير الكفر ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » واحتجوا بقراءة من قرأ « إن تجتنِبوا كبير ما تُنهون عنه » على التوحيد ، وكبير الإثم الشرك . قالوا : وعلى الجمع فالمراد أجناس الكفر . والآيةُ التى قيّدت الحكم فتردّ إليها هذه المطلَقات كلّها قوله تعالى : « ويغفِر ما دون ذلِك لِمن يشاء » . واحتجوا بما رواه مُسلم وغيرُه عن أبى أُمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَن آقتطع حقّ آمرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة" فقال له رجل : يا رسول الله ، وإن كان شيئا يسيرا ؟ قال : "وإن كان قضيباً من أراك" . فقد جاء الوعيد الشديد على اليسير كما جاء على الكثير . وقال ابن عباس : الكبيرة كلّ ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وقال ابن مسعود : الكبائر ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية ، وتصديقُه قوله تعالى « إن تجتنِبوا كبائرَ ما تُنهون عنه » . وقال طاوس : قيل لابن عباس الكبائر سبع ؟ قال : هى إلى السبعين أقرب . وقال سعيد بن جُبير : قال رجل لابن عباس الكبائر سبع ؟ قال : هى إلى السبعمائة أقرب منها إلى

السبع؛ غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار . وروى عن ابن مسعود أنه قال : الكبائر أربعة : اليأس من رَوح الله ، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله ، والشّرك بالله؛ دل عليها القرآن . وروى عن ابن عمر : هى تسع : قتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ، ورَمْى المحصنة، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والفِرار من الزّحف، والسحر، والإلحاد فى البيت الحرام . ومن الكبائر عند العلماء : القِمار والسرقة وشرب الخمر وسَبّ السّلَف الصالح وعُدول الحكام عن الحق واتباع الهوى واليمين الفاجرة والقنوط من رحمة الله وسَبّ الإنسان أبويه — بأن يسُبّ رجلا فيَسُبّ ذلك الرجلُ أبويه — والسعى فى الأرض فسادا —؛ إلى غير ذلك مما يكثر تَعداده حسب ما جاء بيانها فى القرآن، وفى أحاديث خرجها الأئمة ، وقد ذكر مسلم فى كتاب الإيمان منها جملةً وافرة . وقد آختلف الناس فى تَعدادها وحصرها لاختلاف الآثار فيها ؛ والذى أقول : إنه قد جاءت فيها أحاديث كثيرة صِحاح وحِسان لم يُقصد بها الحصر ، ولكن بعضها أكبر من بعض بالنسبة إلى ما يكثر ضرره ؛ فالشرك أكبر ذلك كله، وهو الذى لا يُغفر لنصّ الله تعالى على ذلك، وبعده اليأس من رحمة الله ؛ لأن فيه تكذيب القرآن ؛ إذ يقول وقوله الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » وهو يقول : لا يغفر له ؛ فقد حَجّر واسعا . هذا إذا كان معتقدا لذلك ؛ ولذلك قال الله تعالى : « إِنَّه لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » . وبعده القنوط؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » . وبعده الأمن من مكر الله فيسترسل فى المعاصى ويتكل على رحمة الله من غير عمل ؛ قال الله تعالى : « أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » . وقال تعالى : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . وبعده القتل؛ لأن فيه إذهاب النفوس وإعدامَ الوجود، واللّواطُ فيه قطع النَّسل، والزنا فيه اختلاط الأنساب بالمياه، والخمرُ فيه ذهاب العقل الذى هو مناط التكليف، وترك الصلاة والأذان فيه تركُ إظهار شعائر الإسلام، وشهادةُ الزور فيها استباحة الدماء والفروج والأموال، إلى غير ذلك مما هو بيّن الضرر؛ فكلّ ذنب عظّم الشّرع التوعُّدَ عليه

بالعقاب وشدّده، أو عظُم ضرره فى الوجود كما ذكرنا فهو كبيرة وما عداه صغيرة . فهذا يربط لك هذا الباب و يضبطه، والله أعلم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ قرأ أبو عمرو وأكثر الكوفيين «مُدخلا» بضم الميم، فيحتمل أن يكون مصدرا، أى إدخالا، والمفعول محذوف أى وندخلكم الجنة إدخالا . و يحتمل أن يكون بمعنى المكان فيكون مفعولا . وقرأ أهل المدينة بفتح الميم، فيجوز أن يكون مصدر دخل وهو منصوب بإضمار فعل؛ التقدير وندخلكم فتدخلون مَدخلا، ودلّ الكلام عليه . و يجوز أن يكون اسم مكان فينتصب على أنه مفعول ، أى وندخلكم مكانا كريما وهو الجنة . وقال أبو سعيد بن الأعرابى : سمعت أبا داود السِّجستانِىّ يقول سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: المسلمون كلهم فى الجنة؛ فقلت له : وكيف؟ قال : يقول الله عز وجل « إِن تجتنِبوا كبائِر ما تُنْهَوْنَ عنه نكفِّر عنكم سيئاتِكم ونُدخِلكم مُدْخلا كرِيما » يعنى الجنة . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: ” ادّخرتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى “. فإذا كان الله عز وجل يغفر ما دون الكبائر والنبىُّ صلى الله عليــه وسلم يشفع فى الكبائر فأىّ ذنب يبقى على المسلمين . قال علماؤنا : الكبائر عند أهــل السنة تُغفر لمن أقلع عنها قبل الموت حسب ما تقدّم . وقد يُغفر لمن مات عليها من المسلمين؛ كما قال تعالى : « وَيَغْفِر ما دُونَ ذلِكَ لِمن يشاء » والمراد بذلك من مات على الذنوب؛ فلوكان المراد من تاب قبل الموت لم يكن للتفرقة بين الإشراك وغيره معنًى؛ إذ التائب من الشرك أيضا مغفور له . ورُوِى عن ابن مسعود أنه قال: خمس آيات من سورة النساء هى أحبّ إلىّ من الدنيا جميعا، قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائِر ما تُنهون عنه » وقوله « إن الله لا يغفر أن يشرك بِهِ و يغفر » الآية، وقوله تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » الآية ، وقوله تعالى : « وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا » ، وقوله تعالى: « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ » . وقال ابن عباس : ثمان آيات فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : « يُرِيدُ اللهُ لِيبيّن لكم » ، « واللهُ يُرِيد أن يتوب عليكم » ، « يُرِيد الله ان يخفّف عنكم » ، « إن تجتنبوا كبائِر ما تُنهون عنه نكفر عنكم

سيئاتكم » ، الآية ، « إن الله لا يغفر أن يشرك بِهِ » ، « إِن اللهَ لا يظلِمُ مثقـالَ ذَرَّة » ، « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نفسه » ، « مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعذابِكم » الآية .

قوله تعـالى : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى الترمذي عن أم سلمة أنها قالت : يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث؛ فأنزل الله تعالى « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ » قال مجاهد : فأنزل فيها « إنّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ » ، وكانت أم سلمة أول ظَعينة قدمت المدينة مهاجرة . قال أبو عيسى : هذا حديث مرسَل ، ورواه بعضهم عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد مرسَلٌ[(1)] أن أم سلمة قالت كذا . وقال قتادة : كان الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصبيان؛ فلما وُرِّثوا وجُعل للذكر مثل حظّ الأنثيين تمنّى النساء أن لو جُعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال . وقال الرجال : إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث؛ فنزلت « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ » .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا ﴾ التمنى نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل ، كالتلهف نوع منها يتعلق بالمـاضى؛ فنهى الله سبحانه المؤمنـين عن التمنى ، لأن فيـه تعلّق البال ونسيان الأجل . وقد اختلف العلمـاء هل يدخل فى هـذا النهى الغِبْطَةُ وهى أن يتمنى الرجل أن يكون له حال صاحبـه وإن لم يتمنّ زوال حاله . والجمهور على إجازة ذلك : مالك وغيره ؛ وهو المراد عند بعضهم فى قوله عليه السلام " لا حسد إلا فى آثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقـوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالًا فهـو ينفقه آناء الليـل وآناء

(1) كذا ورد بالرفع فى جميع نسخ الأصل وصحيح الترمذى .

النهار " . فمعنى قوله " لا حسد " أى لا غِبطة أعظم وأفضل من الغبطة فى هذين الأمرين. وقد نبّه البخارى على هذا المعنى حيث بوب على هذا الحديث (باب الاغتباط فى العلم والحكمة). قال المهلّب : بيّن الله تعالى فى هذه الآية ما لا يجوز تمنّيه، وذلك ما كان من عَرَض الدنيا وأشباهها . قال ابن عطيّة : وأما التمنّى فى الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن، وأما إذا تمنّى المرء على الله من غير أن يُقرن أمنيته بشىء مما قدمنا ذكره فذلك جائز؛ وذلك موجود فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : " وَدِدت أن أُحْيَا ثم أقتل " .

قلت : هذا الحديث هو الذى صدّر به البخارى كتاب التمنى فى صحيحه، وهو يدل على تمنى الخير وأفعال البر والرغبة فيها ، وفيه فضل الشهادة على سائر أعمال البر؛ لأنه عليه السلام تمناها دون غيرها، وذلك لرفيع منزلتها وكرامة أهلها، فرزقه الله أياها؛ لقوله : " ما زالت أُكْلَة خَيْبَرَ تُعادُّنِى الآن أَوَان قَطعَتْ أَبْهَرِى"(١) .وفى الصحيح: " أن الشهيد يقال له تمنّ فيقول أتمنّى أن أرجع إلى الدنيا حتى أقتَل فى سبيلك مرة أخرى " . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمنى إيمانَ أبى طالب وأبى لهب وصناديد قريش مع علمه بأنه لا يكون؛ وكان يقول : " واشوقاه إلى إخوانى الذين يجيئون من بعدى يؤمنون بى ولم يرَوْنِى ". وهذا كله يدل على أن التمنى لا ينهى عنه إذا لم يكن داعية إلى الحسد والتباغض ، والتمنى المنهى عنه فى الآية من هذا القبيل ؛ فيدخل فيه أن يتمنى الرجل حال الآخر من دِين أو دنيا على أن يذهب ما عند الآخر، وسواء تمنّيت مع ذلك أن يعود إليك أَوْ لا. وهذا هو الحسد بعينه، وهو الذى ذمّه الله تعالى بقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه » . ويدخل فيه أيضا خِطبة الرجل على خِطبة أخيه وبيعه على بيعه ؛ لأنه داعية الحسد والمَقْت . وقد كره بعض العلماء الغبطة وأنها داخلة فى النهى، والصحيح جوازها على ما بينا، وبالله توفيقنا. قال الضحاك : لا يحل لأحد أن يتمنى مال أحد ، ألم تسمع الذين قالوا : « يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ » إلى أن

(١) الأكلة (بالضم) : اللقمة . وتعادنى : تراجعنى ويعاودنى ألم سمّها فى أوقات معلومة . والأبهر : عرق مستبطن فى الصلب والقلب متصل به، فاذا انقطع لم تكن معه حياة . وحديث الشاة المسمومة وأكله صلى الله عليه وسلم منها مذكور فى غزوة خيبر؛ فليراجع .

قال : « وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ » حين خسف به و بداره و بأمواله « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا » . وقال الكلبيّ : لا يتمنى الرجل مالَ أخيـه ولا امرأتَه ولا خادمَه ولا دابته؛ ولكن ليقل: اللهم آرزقني مثله . وهو كذلك في التوراة، وكذلك قوله في القرآن : « وَآسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » . وقال ابن عباس : نهى الله سبحانه أن يتمنّى الرجل مال فلان وأهلَه ، وأمر عباده المؤمنين أن يسألوه من فضله . ومن الحجة للجمهور قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الدنيا لأربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلما فهو يتّقِي فيـه ربّه و يَصِلُ به رَحِمَه و يعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل . ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالًا فهو صادق النيّة يقول لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء" الحديث، وقد تقدّم . خرّجه الترمذي وصححه . وقال الحسن : لا يتمنّ أحدُكم المـالَ وما يدريه لعلّ هلاكَه فيه ؛ وهذا إنما يصح إذا تمناه للدنيا ، وأما إذا تمنّاه للخير فقـد جوّزه الشرع، فيتمنّاه العبد ليصـل به إلى الرب، ويفعل الله ما يشاء .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ﴾ يريد من الثواب والعقاب . ﴿ وَلِلنِّسَاءِ ﴾ كذلك؛ قاله قتادة . فللمرأة الجزاء على الحسنة بعشر أمثالهـا كما للرجال . وقال آبن عباس : المراد بذلك الميراث . والاكتساب على هذا القول بمعنى الإصابة، للذّكَر مثل حظ الأنثيين؛ فنهى الله عز وجل عن التمنّي على هذا الوجه لمـا فيه من دواعي الحسد، ولأن الله تعالى أعلمُ بمصالحهم منهم؛ فوضع القسمة بينهم على التفاوت على ما عَلِم من مصالحهم .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ روى الترمذيّ عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَلُوا الله من فضله فإنه يحب أنْ يُسأل وأفضل العبادة آنتظار الفرج". وخرّج أيضا آبن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم يسأل الله يغضب عليه" . وهذا يدلّ على أن الأمر بالسؤال لله تعالى واجب؛ وقـد أخذ بعض العلمـاء هذا المعنى فنظمه فقال :

الله يغضب إن تركت سؤاله * وبنيّ آدم حين يُسأل يَغضبُ

وقال أحمد بن المعذَّل أبو الفضل الفقيه المالكى فأحسن :

التمس الأرزاق عند الذى * ما دونه إن سِيلَ من حاجب
مَنْ يُبغض التاركَ تَسْآلَهُ * جودًا ومن يرضى عن الطالب
ومَنْ إذا قال جرى قوله * بغير توقيع إلى كاتب

وقد أشبعنا القول فى هذا المعنى فى كتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة» . وقال سعيد بن جُبير : « وآسألوا الله من فضله » العبادة ، ليس من أمر الدنيا . وقيل : سَلُوه التوفيقَ للعمل بما يرضيه . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سَلُوا ربَّكم حتى الشِّسع ؛ فإنه إن لم ييسِّره الله عز وجل لم يتيسّر . وقال سفيان بن عُيَينة : لم يأمر بالسؤال إلا ليعطىَ .

وقرأ الكسائى وآبن كثير : « وَسَلُوا اللهَ » بغير همز فى جميع القرآن . الباقون بالهمز « وآسألوا الله » ، وأصله بالهمز إلا أنه حذفت الهمزة للتخفيف . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِىَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ (٣٣)

فيه خمس مسائل :

الأولى — بيّن تعالى أن لكل إنسان ورَثَةً وموَالِىَ ؛ فليقتنع كلُّ أحدٍ بما قسم الله له من الميراث ، ولا يتمنّ مالَ غيره . روى البخارىّ فى كتاب الفرائض من رواية سعيد بن جُبير عن آبن عباس : « وَلِكُلٍّ جعلنا مَوَالِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عقدت أَيْمَانُكُمْ » قال : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصارىُّ المهاجرىَّ دون ذوى رحمه ؛ للأخوّة ٱلتى آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ، فلما نزلت « وَلِكُلٍّ جعلنا مَوَالِىَ » قال : نسختها « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » . قال أبو الحسن بن بطّال : وقع فى جميع النسخ «وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِىَ» قال : نسختها « والذين عَقَدَتْ أيمانكم » . والصواب أن الآية الناسخة « ولكلٍّ جعلنا موَالِىَ » والمنسوخة « والذين عقدت أيمانكم » ، وكذا رواه الطبرىّ فى روايته .

ورُوى عن جمهور السلف أن الآية النـاسخة لقوله : « والذين عقدت أيمانكم » قولُه تعـالى فى «الأنفال» : « وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ » . روى هـذا عن ٱبن عباس وقَتادة والحسن البَصْرِىّ؛ وهو الذى ٱنتبه أبو عبيد فى كتاب «ٱلناسخ وٱلمنسوخ» له . وفيها قول آخر رواه الزُّهْرِىّ عن سعيد بن المُسَيَّب قال : أمر الله عز وجل الذين تَبَنَّوْا غير أبنائهم فى الجاهلية وورثوا فى الإســلام أن يجعلوا لهم نصيبا فى الوصـيّة وردّ الميراث إلى ذَوِى الرَّحِم والعَصَبة . وقالت طائفة : قوله تعـالى « وٱلذين عقدت أيمانكم » مُحْكَمٌ وليس بمنسوخ ؛ وإنما أمر الله المؤمنين أن يُعْطُوا الحلفاء أنصباءهم من النُّصرة والنصيحة وما أشبه ذلك؛ ذكره ٱلطبرىّ عن ٱبن عباس . ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ من النُّصرة والنصيحة والرِّفادة[1] ويُوصِى لهم وقد ذهب الميراث ؛ وهو قول مُجاهد والسُّدِّى .

قلت — وٱختاره النحاس ؛ ورواه عن سـعيد بن جبير ، ولا يصح النسخ ؛ فإن الجمع ممكن كما بيّنه ٱبن عباس فيما ذكره الطبرى ، ورواه البخارىّ عنه فى كتاب التفسير . وسـيأتى ميراث « ذوى الأرحام » فى « ٱلأنفال » إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — « كُلّ » فى كلام العـرب معناها ٱلإحاطة والعمـوم . فإذا جاءت مفردة فلا بد أن يكون فى الكلام حذف عند جميع النحويين؛ حتى أن بعضهم أجاز مررت بكلٍّ، مثل قبل و بعد . وتقدير الحذف : ولكلّ أحدٍ جعلنا موالى ، يعنى ورثة . « وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ » يعنى بالحِلف؛ عن قتادة . وذلك أن الرجل كان يعاقد الرجل فيقول : دَمِى دَمُك، وهَدَمِى هَدَمُك[2]، وثأرى ثأرك، وحَرْبى حربُك، وسِلْمى سِلْمك، وتَرِثُنى وأرِثك، وتطلب بى وأطلب بك، وتَعْقِل عنى وأعْقِل عنك؛ فيكون للحليف السُّدُس من ميراث الحَلِيف ثم نسخ.

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ مَوَالِيَ ﴾ اعلم أن المولى لفظ مشترك يطلق على وجوه ؛ فيُسَمَّى المُعْتِق مَوْلًى والمُعْتَـق مَوْلًى . ويقال : المَوْلَى الأسـفل والأعلى أيضا . ويُسَـمَّى

(١) الرفد (بكسر الراء) : العطاء والصلة .

(٢) قوله : هدمى هدمك ، أي نحن شيء واحد فى النصرة ، تغضبون لنا ونغضب لكم .

الناصر المَوْلَى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّ الكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » . ويُسَمَّى ابن العم مَوْلَى والجار مَوْلَى . فأما قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ » يريد عَصبة ؛ لقوله عليه السلام : " ما أبقت السِّهام فَلِأَوْلَى عَصَبةٍ ذَكَرٍ " . ومن العصبات المَوْلَى الأعلى لا الأسفل، على قول أكثر العلماء؛ لأن المفهوم فى حق المعتِق أنه المُنْعِم على المُعْتَق، كالموجِد له ؛ فاستحق ميراثه لهذا المعنى . وحكى الطحاوىّ عن الحسن بن زياد أن المولى الأسفل يرث من الأعلى؛ واحتج فيه بما روى أن رجلا أعتق عبدا له فمات المُعْتِق ولم يترك إلا المُعْتَق فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ميراثه للغلام المُعْتَق . قال الطحاوى : ولا معارض لهذا الحديث، فوجب القول به ؛ ولأنه إذا أمكن إثبات الميراث للمعتِق على تقدير أنه كان كالموجِد له ، فهو شبيه بالأب ، والمولى الأسفل شبيه بالابن؛ وذلك يقتضى التَّسوية بينهما فى الميراث، والأصل أن الاتصال يَعُمّ . وفى الخبر « مَوْلَى القوم منهم » . والذين خالفوا هذا وهم الجمهور قالوا : الميراث يَستدعِى القرابة ولا قرابة ، غير أنا أثبتنا للمُعْتِق الميراث بحكم الإنعام على المُعْتَق ؛ فيقتضى مقابلة الإنعام بالمجازاة ، وذلك لا ينعكس فى المَوْلَى الأسفل . وأما الابن فهو أَوْلَى الناس بأن يكون خليفة أبيه وقائما مقامه ، وليس المعتَق صالحا لأن يقوم مقام معتِقه، وإنما المعتِق قد أنعم عليه فقابله الشّرع بأن جعله أحقّ بمولاه المُعْتَق ، ولا يوجد هذا فى المولى الأسفل؛ فظهر الفرق بينهما .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ روى علىّ بن كَبْشة عن حمزة « عقّدت » بتشديد القاف على التكثير . والمشهور عن حمزة « عقَدت أيمانكم » مخفّفة القاف، وهى قراءة عاصم والكسائى ، وهى قراءة بعيدة ؛ لأن المعاقدة لا تكون إلا من اثنين فصاعدًا ، فبابها فاعل . قال أبو جعفر النحاس : وقراءة حمزة تجوز على غموض فى العربية، يكون التقدير فيها والذين عقدتهم أيمانُكم الحِلْف، وتعدّى إلى مفعولين ؛ وتقديره : عقدَتْ لهم أيمانُكم الحِلْف ؛ ثم حذفت اللام مثل قوله تعالى : « وَإِذَا كَالُوهُمْ » أى كالُوا لهم . وحذف المفعول الثانى، كما يقال : كِلْتك، أى كِلْتُ لك بُرًّا . وحذف المفعول الأول لأنه متّصل فى الصِّلة .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أى قد شهد معاقدتكم إياهم، وهو عز وجل يُحب الوفاء .

قوله تعـالى : ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ ابتداء وخبر، أى يقومون بالنفقة عليهن والذَّبِّ عنهن ؛ وأيضا فإن فيهم الحكام والأمراء ومن يغزو، وليس ذلك فى النساء . يقال : قوّام وقَيِّم . والآية نزلت فى سعد بن الربيع (١) نَشَزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد ابن خارجة بن أبى زهير فلطمها؛ فقال أبوها : يارسول الله، أفرشتُه كريمتى فلطمها ! فقال عليه السلام : " لتَقْتَصّ من زوجها " . فانصرفت مع أبيها لتقتصّ منه، فقال عليه السلام : " ارجعوا هذا جبريل أتانى " فأنزل الله هذه الآية؛ فقال عليه السلام : " أردنا أمْرًا وأراد الله غيره " . وفى رواية أخرى : " أردتُ شيئا وما أراد الله خير " . ونقض الحكم الأوّل . وقد قيل : إن فى هذا الحكم المردود نزل « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » . ذكر إسماعيل بن إسحاق قال : حدّثنا حجّاج بن المِنْهال وعارم بن الفضل — واللفظ لحجاج — قال حدّثنا جرير بن حازم قال سمعت الحسن يقول : إن امرأة أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زَوْجى لطم وجهى . قال : " بينكما القِصاص " ؛ فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » . ومسك النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى نزل :

(١) هو سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير بن مالك بن امرئ القيس الخزرجى عقبى بدرى وكان أحد نقباء الأنصار وكانت له زوجتان . (عن أسد الغابة) .

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » . وقال أبو رَوْق : نزلت فى جميلة بنت أُبَيّ وفى زوجها ثابت آبن قيس بن شمّاس . وقال الكلبي : نزلت فى عميرة بنت محمد بن مسلمة وفى زوجها سعد بن الربيع . وقيل : سببها قولُ أمِّ سلمة المتقدّم . ووجه النظم أنهن تكلمن فى تفضيل الرجال على النساء فى آلإرث، فنزلت « وَلَا تَتَمَنَّوْا » الآية . ثم بيّن تعالى أن تفضيلهم عليهنّ فى الإرث لِما على الرجال من المهر وآلإنفاق؛ ثم فائدة تفضيلهم عائدةٌ إليهنّ . ويقال : ان الرجال لهم فضيلة فى زيادة العقل والتدبير؛ فجعل لهم حق القيام عليهنّ لذلك . وقيل : للرجال زيادة قوّة فى النفس والطبع ما ليس للنساء ؛ لأن طبع الرجال غلب عليه الحرارة واليبوسة ، فيكون فيـه قوّة وشـدّة، وطبع النساء غلب عليـه الرطوبة والبرودة، فيكون فيه معنى اللين والضعف؛ فجعل لهم حق القيام عليهنّ بذلك، وبقوله تعالى : « وَبِمَـا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .

الثانيـــة — ودلّت هذه الآية على تأديب الرجال نساءَهم ، فإذا حفِظن حقوق الرجال فلا ينبغى أن يسِيء الرّجل عِشرتها . و « قَوّام » فعّال للمبالغة؛ من القيام على الشيء وآلاستبداد بالنظر فيه وحفظه بآلاجتهاد . فقيام الرّجال على النساء هو على هذا الحدّ؛ وهو أن يقوم بتدبيرها وتأديبها وإمساكها فى بيتها ومنعِها من البروز ، وأن عليهـا طاعتَه وقبولَ أمره مالم تكن معصية؛ وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة والعقل والقوّة فى أمر الجهاد وآلميراث وآلأمر بالمعروف وآلنهى عن آلمنكر . وقـد راعى بعضهم فى التفضيل اللِّحْيَةَ وليس بشيء ؛ فإن اللِّحْيَةَ قد تكون وليس معها شيء مما ذكرنا . وقد مضى الردّ على هذا فى « البقرة » (١) .

الثالثـــة — فهِم العلماء من قوله تعالى : « وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قوّاما عليها، وإذا لم يكن قَوّاما عليها كان لها فسخ العقد؛ لزوال المقصود الذى شُرع لأجله النكاح . وفيه دلالة واضحةٌ من هذا الوجه على ثبوت فسخ النكاح عند الإعسار بالنفقة والكسوة؛ وهو مذهب مالك والشافعيّ . وقال أبو حنيفة : لا يفسخ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ » وقد تقدّم القول فى هذا فى هذه السورة .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٢٤ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ ﴾ هذا كله خبر ، ومقصوده الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه فى ماله وفى نفسها فى حال غيبة الزوج . وفى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خير النساء التى إذا نظرت إليهـا سَرَّتْك و إذا أمرتها أطاعتك و إذا غِبْت عنها حفِظتك فى نفسها ومالِك" قال : وتلا هذه الآية « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » الى آخر الآية . وقال صلى الله عليه وسلم لعمر : "ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء المرأةُ الصالحة إذا نظر إليها سرّته و إذا أمرها أطاعته و إذا غاب عنها حفظته" أخرجه أبو داود . وفى مصحف ابن مســعود « فالصّوالح قوانِت حوافِظ » . وهذا بناء يختص بالمؤنث . قال ابن جِنّى : والتكسير أشبه لفظًا بالمعنى ؛ إذ هو يعطى الكثرة وهى المقصود ها هنا . و «ما» فى قوله : « بِمَا حَفِظَ اللهُ » مصدرية ، أى بحفظ الله لهن . ويصح أن تكون بمعنى الذى ، ويكون العائد فى «حفظ» ضمير نصب . وفى قراءة أبى جعفر «بما حفِظ اللهَ» بالنصب . قال النحاس : الرفع أبين ؛ أى حافظات لمغيب أزواجهن بحفظ الله ومعونته وتشـديده . وقيــل : بمـا حفِظ الله فى أمورهن وعشرتهن . وقيــل : بمـا استحفظهن الله إياه من أداء الأمانات إلى أزواجهن . ومعنى قراءة النصب : بحفظهن الله ؛ أى بحفظِهن أمره أو دينه . وقيل فى التقدير: بما حفِظن الله ، ثم وُحِّد الفعل ؛ كما قيل:

* فإن الحوادث أوْدَى بها *

وقيل : المعنى بحفظ الله ؛ مثل حفِظت الله .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ اللاتى جمع التى وقد تقدّم . قال ابن عباس : تخافون بمعنى تعلمون وتتيقّنون . وقيــل هو على بابه . والنُّشوز العصيان ؛ مأخوذ من النَّشْز، وهو ما ارتفع من الأرض . يقال : نَشَز الرجل ينشِز و ينشُز إذا كان قاعدا فنهض قائمـا ؛ ومنه قوله عز وجل : « وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا » أى ارتفعوا وانهضوا إلى حرب أو أمر من أمور الله تعالى . فالمعنى : أى تخافون عِصيانهن وتعاليهن عمـا أوجب الله عليهن من طاعة الأزواج . وقال أبو منصور اللُّغَــوِيّ : النشوز كراهيــةُ كلّ واحد من

الزوجين صاحبَه ؛ يقال: نشزت تنشِز فهى ناشِز بغـير هاء . ونَشَصت تنشص وهى السيئة للعشرة . قال ٱبن فارس : ونشزت ٱلمرأة ٱستصعبت على بعلها، ونشز بعلها عليها إذا ضربها وجفاها . قال ٱبن دُرَيد : نشزت المرأة ونشست ونشصت بمعنًى واحد .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ أى بكتاب الله ؛ أى ذكّروهن ما أوجب الله عليهن من حسن الصحبة وجميل العشرة للزوج، والاعتراف بالدرجة التى له عليها، ويقول : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " . وقال : " لا تمنعه نفسها و إن كانت على ظهر قتبٍ(١) " . وقال : " أيُّمـا ٱمرأة باتت هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح " فى رواية " حتى تراجع وتضع يدها فى يده " . وما كان مثل هذا .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ وقرأ ابن مسـعود والنّخَعِىّ وغيرهما « فى المضجع » على الإفراد؛ كأنه اسم جنس يؤدّى عن الجميع . والهجر فى المضاجع هو أن يضاجعها و يُوليهـا ظهره ولا يجامعها ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : جنّبوا مضاجعهن ؛ فيتقدر على هـذا الكلام حذف ، ويَعضُده « اهجروهن » من الهجران، وهو البعد؛ يقال : هجره أى تباعد ونأى عنه . ولا يمكن بعدها إلا بترك مضاجعتها . وقال معناه إبراهيم النَّخَعِىّ والشّعبِىّ وقَتادة والحسن البصرىّ، ورواه ابن وهب وابن القاسم عن مالك، وٱختاره ابن العربى وقال : حَمَـلُوا الأمر على الأكثر المُوفِى . ويكون هذا القول كما تقول : ٱهجره فى الله . وهذا أصل مالك .

قلت : هذا قول حَسَن؛ فان الزوج إذا أعرض عن فراشها فإن كانت محبة للزوج فذلك يشقّ عليها فترجع للصلاح ، وإن كانت مُبغِضة فيظهر النشوز منهـا ؛ فيتبيّن أن النشوز من قِبَلها . وقيل : « اهجروهن » من الهُجر وهو القبيح من الكلام، أى غلّظوا عليهن فى القول

---

(١) القتب (محرّكة) : إكاف (برذعة) صغير على قدر سنام البعير . ومعناه الحث لهن على مطاوعة أزواجهن، وأنه لا يسعهن الامتناع فى هذه الحال فكيف فى غيرها .

وضاجعوهن للجماع وغيره؛ قال معناه سفيان، وروى عن ابن عباس . وقيل : أى شدّوهن وَثَاقا فى بيوتهن؛ من قولهم : هجَرَ البعيرَ أى ربطه بالهِجار، وهو حبـل يُشَدّ به البعير؛ وهو اختيار الطبرى وقدح فى سائر الأقوال . وفى كلامه فى هذا الموضع نظر . وقد ردّ عليه القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه فقال : يا لها من هفوة من عالم بالقرآن والسنة! والذى حمله على هذا التأويل حديثٌ غريب رواه ابن وهبٍ عن مالك أن أسمـاء بنت أبى بكر الصـديق آمرأةَ الزبير بن العوّام كانت تخرج حتى عوتب فى ذلك . قال : وعتب عليها وعلى ضَرّتها، فعقد شعر واحدة بالأخرى ثم ضربهما ضربا شديدا ، وكانت الضَّرة أحسن آتقاء ، وكانت أسماء لا تتّقى فكان الضرب بها أكثر؛ فشكَتْ إلى أبيها أبى بكر رضى الله عنه فقال لها : أىْ بُنيّة أصبِرى؛ فإن الزّبير رجل صالح ، ولعـلّه أن يكون زوجَك فى الجنة ؛ ولقـد بلغنى أن الرجل إذا آبتكر بامرأة تزوّجها فى الجنة . فرأى الربط والعقـد مع آحتمال اللفظ مع فعل الزبير فأقدم على هذا التفسير . وهذا الهجر غايته عند العلماء شهر؛ كما فعل النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أسَرّ إلى حفصـة فأفشته إلى عائشـة ، وتظاهرتا عليـه . ولا يبلغ به الأربعة الأشهر التى ضرب الله أجلا عذرا للمُولِى .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ أمر الله أن يبـدأ النساء بالموعظة أولا ثم بالهجران ، فإن لم يَنْجَعا فالضرب؛ فإنه هو الذى يصلِحها له ويحملها على تَوْفِيَة حقه . والضرب فى هذه الاية هو ضرب الأدب غير المُبَرِّح، وهو الذى لا يكسر عظما ولا يشين جارحة كاللَّكْزة ونحوها ؛ فإن المقصود منـه الصلاح لا غير . فلا جَرَم إذا أدّى إلى الهلاك وجب الضمان ، وكذلك القول فى ضرب المؤدّب غلامه لتعليم القرآن والأدب . وفى صحيح مسلم : "آتقوا الله فى النســاء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله وآسـتحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن ألّا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدا تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن ضَرْباً غيرَ مُبَرِّح" الحديث . أخرجه من حديث جابر الطويل فى الحج ، أى لا يُدخِلن منازلكم أحدا مِمن تكرهونه من الأقارب والنسـاء والأجانب . وعلى هـذا يُحمل ما رواه التِّرْمِذِىّ وصحّحه عن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة

الوَداع مع رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ فقـال : " ألَا وآستَوْصُوا بالنساء خيرا فإنهن عَوَانٍ(١) عنـدكم ليس تملكون منهن شـيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مُبَيِّنة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع وآضربوهن ضربا غيرَ مُبَرِّح فإن أطعْنَكم فلا تَبْغُوا عليهن سبيلا ألَا إنّ لكم على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقا فأما حقكم على نسائكم فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم مَن تكرهون ولا يأذنّ في بيوتكم من تكرهون ألَا وحقُّهنّ عليكم أن تحسِـنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن " . قال : حديث حسن صحيح . فقوله : « بفاحِشة مُبَيِّنة » يريد لا يُدخِلن مَن يكرهه أزواجُهن ولا يُغضِبنهم . وليس المراد بذلك الزنا ؛ فإن ذلك محرّم ويلزم عليه الحدّ . وقد قال عليـه السلام : " أضرِبوا النساء إذا عَصَينكم في معروفٍ ضَرْبًا غيرَ مُبَرِّح " . قال عطاء : قلت لآبن عباس ما الضرب غيرُ المُبَرِّح ؟ قال بالسـواك ونحوه . وروى أن عمر رضي الله عنه ضرب آمرأته فعُذِل في ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يُسأل الرجل فِيم ضرب أهله " .

التاســعة — قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ ﴾ أي تركوا النشوز . ﴿ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ أي لا تَجْنُوا عليهن بقولٍ أو فعلٍ . وهذا نهيٌ عن ظلمهن بعد تقرير الفضل عليهن والتمكين من أدبهن . وقيل : المعنى لا تكلفوهن الحُبَّ لكم فإنه ليس إليهن .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ إشارة إلى الأزواج بخفض الجَناح ولِين الجانب ؛ أي إن كنتم تقدِرون عليهن فتذكّروا قدرة الله ؛ فيَدُه بالقدرة فوق كل يد . فلا يَستعلِي أحد على آمرأته فالله بالمرصاد؛ فلذلك حسن الآتصاف هنا بالعلوّ والكبر .

الحادية عشرة — وإذا ثبت هذا فآعلم أن الله عزّ وجلّ لم يأمر في شيء من كتابه بالضرب صُراحًا إلا هنا وفي الحدود العظام ؛ فسَاوى معصيتهن بأزواجهن بمعصية الكبائر ، وولّى الأزواج ذلك دون الأئمة ، وجعله لهم دون القُضاة بغير شهود ولا بيّنات آئتمانا من الله تعالى للأزواج على النساء . قال المُهَلّب : إنما جوّز ضربُ النساء من أجل آمتناعهن على أزواجهن

(١) واحدة العواني : عانية ، وهي الأسيرة . يقول : إنما هن عندكم بمنزلة الأسرى .

فى المباضعة . وآختلف فى وجوب ضربها فى الخدمة؛ والقياس يوجب أنه إذا جاز ضربها فى المباضعة جاز فى الخدمة الواجبة للزوج عليها بالمعروف . وقال آبن خُوَيْزِمَنْداد : والنشوز يسقط النفقة وجميع الحقوق الزوجية ، ويجوز معه أن يضربها الزوج ضرب الأدب غير المُبَرِّح ، والوعظ والهجر حتى ترجع عن نشوزها ، فإذا رجعت عادت حقوقها ؛ وكذلك كل ما آقتضى الأدب فجائز للزوج تأديبها . ويختلف الحال فى أدب الرفيعة والدنيئة ؛ فأدب الرفيعة العذل ، وأدب الدنيئة السَّوْط . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " رحم الله آمرأ علّق سوطه وأدّب أهله " . وقال : " إن أبا جَهْم لا يضع عصاه عن عاتقه " . وقال بَشّار :

* الحُرّ يُلْحَى والعصا للعبد *

يُلْحَى أى يلام ؛ وقال آبن دُرَيد :

وآللَّوْمُ للحرّ مقيمٌ رادعٌ * والعبد لا يَرْدَعه إلا العصَا

قال آبن آلمنذر : آتفق أهل العلم على وجوب نفقات الزوجات على أزواجهن إذا كانوا جميعا بالِغين إلا الناشز منهنّ المتنعة . وقال أبو عمر : من نشزت عنه آمرأته بعد دخوله سقطت عنه نفقتها إلا أن تكون حاملا . وخالف آبن القاسم جماعة الفقهاء من نفقة الناشز فأوجبها ، وإذا عادت الناشز إلى زوجها وجب فى المستقبل نفقتها . ولا تَسقط نفقةُ المرأة عن زوجها لشيء غير النشوز ؛ لا من مرض ولا حَيض ولا نفاس ولا صوم ولا حج ولا مَغيب زوجها ولا حبسه عنها فى حق أو جوْرٍ غير ما ذكرنا . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ قد تقدّم معنى الشقاق فى « البقرة »(١) . فكأن كل واحد من الزوجين يأخذ شِقًّا غير شِقّ صاحبه ، أى ناحية غير ناحية صاحبه .

(١) راجع ج ١ ص ٤٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة ، ج ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

والمراد إن خفتم شقاقا بينهما ؛ فأضيف المصدر إلى الظرف كقولك : يعجبنى سيرُ الليلة المقمرة ، وصومُ يومِ عرفة . وفى التنزيل : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » . وقيل : إن « بين » أجرى مجرى الأسماء وأزيل عنه الظرفية؛ إذ هو بمعنى حالها وعشرتهما ، أى و إن خفتم تباعد عشرتهما وصحبتهما « فَابعثوا » . و « خِفْتُمْ » على الخلاف المتقدّم(١) . قال سعيد بن جُبير : الحُكْم أن يعظَها أوّلا ، فإن قبِلت و إلا هجرها ، فإن هى قبِلت وإلا ضربها ، فإن هى قبِلت و إلا بعث الحاكم حَكَمًا من أهله وحَكَمًا من أهلها ؛ فينظران ممن الضرر ، وعند ذلك يكون الخُلْع . وقد قيل : له أن يضرب قبل الوعظ . والأوّل أصح لترتيب ذلك فى الآية .

الثانيــة — الجمهور من العلماء على أن المخاطَب بقوله : « وَإِنْ خِفْتُمْ » الحُكَّامُ والأمراء . وأن قوله : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ يعنى الحكمين؛ فى قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . أى إن يريد الحكمان إصلاحًا يُوفّق الله بين الزوجين . وقيل : المراد الزوجان؛ أى إن يريد الزوجان إصلاحا وصدقا فيما أخبرا به الحكمين « يوفق الله بينهما » . وقيل : الخطاب للأولياء . يقول : « إن خِفتم » أى علمتم خِلافا بين الزوجين « فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » والحكمان لا يكونان إلا من أهل الرجل والمرأة ؛ إذ هما أقعد بأحوال الزوجين ، ويكونان من أهل العدالة وحسن النظر والبصر بالفقه . فإن لم يوجد من أهلهما مَن يصلح لذلك فيُرسِل من غيرهما عدلين عالمين ؛ وذلك إذا أشكل أمرهما ولم يُدْرَ ممن الإساءة منهما . فأمّا إن عرِف الظالم فإنه يؤخذ له الحق من صاحبه ويُجبر على إزالة الضرر . ويقال : إن الحَكَم من أهل الزوج يخلو به ويقول له : أخبرنى بما فى نفسك أتهواها أم لا حتى أعلم مرادك ؟ فإن قال : لا حاجة لى فيها خذ لى منها ما استطعت وفرّق بينى وبينها ، فيُعرف أن من قِبله النشوز . وإن قال : إنى أهواها فأرضها من مالى بما شئت ولا تفرّق بينى وبينها ، فيُعلم أنه ليس بناشز . ويخلو بالمرأة ويقول لها : أتهوى زوجك أم لا ؛ فإن قالت : فرّق بينى وبينه وأعطه من مالى ما أراد؛ فيعلم أن النشوز من قِبلها . وان قالت : لا تفرّق بيننا ولكن حُثّه

(١) فى آية ٣ من هذه السورة ص ١١

على أن يزيد فى نفقتى ويحسن إلىّ ، علم أن النشـوز ليس من قِبلهـا . فإذا ظهر لهما الذى كان النشوز من قبله يقبلان عليــه بالعظة والزجر والنهى؛ فذلك قوله تعـالى : « فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » .

الثالثـــة ــ قال العلمـاء : قَسّمت هـذه الآيةُ النساءَ تقسيما عقليًّا ؛ لأنهنّ إمّا طائعة وإما ناشز؛ والنشوز إمّا أن يرجع إلى الطّواعيَة أوْ لَا . فإن كان الأول تُرِكَا؛ لمـا رواه النّسائى أن عَقِيل بن أبى طالب تزوّج فاطمةَ بنتَ عتبة بن ربيعة فكان إذا دخل عليها تقول: يا بنى هاشم ، واللهِ لا يحبكم قلبى أبدا ! أين الذين أعناقهم كأباريق الفضـة ! تُرَدّ أنوفهـم قبل شِفاهِهِم، أين عُتبةُ بن ربيعة، أين شَيْبة بن ربيعة؛ فيسكت عنها، حتى دخل عليها يوما وهو بَرِمٌ فقالت له : أين عُتبة بن ربيعة ؟ فقال : على يسارك فى النار إذا دخلت؛ فنشرت عليها ثيابها، فجاءت عثمان فذكرت له ذلك؛ فأرسل ٱبنَ عباس ومعاويةَ، فقال ٱبن عباس : لأفرقنّ بينهما ؛ وقال معاوية : ما كنت لأفرّق بين شـيخين من بنى عبـد مناف . فأتياهما فوجداهما قد سدّا عليهما أبوابهما وأصلحا أمرهما . فإن وجداهما قد ٱختلفا ولم يصطلحا وتفاقم أمرهما سَعَيَا فى الألفة جهدهما ، وذَكّرا بالله وبالصحبة . فإن أنابا ورجعا تركاهما، وإن كانا غير ذلك ورأيا الفرقة فرّقا بينهما . وتفريقهما جائز على الزوجين ؛ وسواء وافق حكم قاضى البلد أو خالفه، وكّلاهما الزوجان بذلك أولم يوكّلاهما . والفِراق فى ذلك طلاقٌ بائن. وقال قوم : ليس لهما الطلاق مالم يوكّلهما الزّوج فى ذلك، وليعرّفا الإمام؛ وهذا بناء على أنهما رسولان شاهدان . ثم الإمام يفرّق إن أراد ويأمر الحكم بالتفريق . وهـذا أحد قولى الشافعىّ ؛ وبه قال الكوفيون ، وهو قول عطـاء وٱبن زيد والحسن ، وبه قال أبو ثور . والصحيح الأوّل ، وأن للحكمين التطليقَ دون توكيل ؛ وهو قول مالك والأوزاعىّ وإسحاق، ورُوِى عن عثمان وعلى وٱبن عباس ، وعن الشّعْبىّ والنَّخَعِىّ ، وهو قول الشافعى ؛ لأن الله تعـالى قال : « فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » وهـذا نص من الله سبحانه بأنهما قاضيان لا وكيلان ولا شاهدان . وللوكيل ٱسم فى الشريعة ومعنًى ، وللحَكَم ٱسم فى الشريعـة

ومعنًى؛ فإذا بيّن الله كل واحد منهما فلا ينبغى لشاذّ — فكيف لعالم — أن يركّب معنى أحدهما على الآخر! . وقد روى الدّارَقُطْنِيّ من حديث محمد بن سِيرين عن عَبيدة فى هذه الآية « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » قال : جاء رجل وآمرأة إلى علىّ مع كل واحد منهما فِئامٌ[1] من الناس فأمرهم فبعثوا حَكَمًا منْ أهله وحَكَمًا من أهلها، وقال للحكمين : هل تَدْرِيان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما . فقالت المرأة : رضيت بكتاب الله بما علىّ فيه ولِى . وقال الزوج : أما الفرقة فلا . فقال علىّ : كذبت، والله لا تبرح حتى تُقِرّ بمثل الذى أقرت به . وهذا إسناد صحيح ثابت رُوى عن علىّ من وجوه ثابتة عن آبن سيرين عن عَبيدة؛ قاله أبو عمر . فلو كانا وكيلين أو شاهدين لم يقل لهما «أتدريان ما عليكما» إنما كان يقول أتدريان بما وُكِّلتما؛ وهذا بيّن. احتج أبو حنيفة بقول علىّ رضى الله عنه للزوج «لا تبرح حتى ترضى بما رضيت به» فدلّ على أن مذهبه أنهما لا يفرقان إلا برضا الزوج، وبأن الأصل المجتمع عليه أن الطلاق بيد الزوج أو بيد من جعل ذلك إليه . وجعله مالك ومن تابعه من باب طلاق السلطان على المُوْلى والعِنّين .

الرابعة — فإن آختلف الحَكَمان لم ينفذ قولهما ولم يلزم من ذلك شىء إلا ما اجتمعا عليه . وكذلك كل حكمين حَكَمَا فى أمر؛ فإن حكم أحدهما بالفرقة ولم يحكم بها الآخر، أو حكم أحدهما بمال وأَبىَ الآخر فليسا بشىء حتى يتّفقا . وقال مالك فى الحكمين يطلقان ثلاثا قال : تلزم واحدة وليس لهما الفراق بأكثر من واحدة بائنة؛ وهو قول ابن القاسم . وقال ابن القاسم أيضا : تلزمه الثلاث إن اجتمعا عليها؛ وقاله المغيرة وأشهب وابن الماجِشُون وأَصْبَغ . وقال ابن المَوّاز : إن حكم أحدهما بواحدة والآخر بثلاث فهى واحدة . وحكى ابن حبيب عن أَصْبَغ أن ذلك ليس بشىء .

الخامسة — ويجزئ إرسال الواحد؛ لأن الله سبحانه حكم فى الزنا بأربعة شهود، ثم قد أرسل النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى المرأة الزانية أُنَيْسًا وحده وقال له : "إن اعترفت فآرجُمْها" وكذلك قال عبد الملك فى المدوّنة .

(١) الفئام : الجماعة .

قلت : وإذا جاز إرسال الواحد فلو حكّم الزوجان واحدا لأجزأ وهو بالجـواز أولى إذا رضيا بذلك ، وإنمـا خاطب الله بالإرسال الحُكّامَ دون الزوجين . فإن أرسـل الزوجان حَكَمَين وحَكَما نفـذ حكمُهما، لأن التحكيم عندنا جائز، وينفُذ فعلُ الحَكَم فى كل مسألة . هـذا إذا كان كل واحد منهما عدلا ، ولو كان غير عدل قال عبـد الملك : حكمه منقوض؛ لأنهما تخاطرا بمـالا ينبغى من الغَرَر . قال ابن العربى : والصحيح نفوذه؛ لأنه إن كان توكيلا ففِعْـل الوكيل نافذ ، وإن كان تحكيما فقـد قدّماه على أنفسهما وليس الغرر بمؤثّر فيـه كما لم يؤثر فى باب التوكيل ، وبابُ القضـاء مبنِيٌّ على الغَرَر كله ، وليس يلزم فيـه معرفة المحكوم عليه بمـا يئول إليه الحكم . قال ابن العربى : مسألة الحَكَمين نصّ اللهُ عليها وحكَمَ بها عند ظهور الشقاق بين الزوجين، واختلاف ما بينهما . وهى مسألة عظيمة اجتمعت الأمة على أصلها فى البعث، وإن اختلفوا فى تفاصيل ماترتب عليـه . وعجبًا لأهل بلدنا حيث غفَلوا عن موجب الكتاب والسنة فى ذلك وقالوا : يُجعلان على يدى أمين؛ وفى هذا من معاندة النصّ ما لا يخفى عليكم ، فلا بكتاب الله ائتمروا ولا بالأقْيِسة اجتزوا . وقد ندبت إلى ذلك فمـا أجابنى إلى بعث الحَكَمين عند الشقاق إلا قاضٍ واحد، ولا بالقضاء باليمين مع الشاهد إلا آخر، فلما ملّكنى الله الأمر أجْريت السُّنّة كما ينبغى . ولا تعجب لأهل بلدنا لمـا عندهم من الجهالة، ولكن اعجب لأبى حنيفة ليس للحَكَمين عنده خبر، بل اعجب مرّتين للشافعى فإنه قال : الذى يشبه ظاهر الآية أنه فيما عمّ الزوجين معًا حتى يشتبه فيـه حالاهما . قال : وذلك أنى وجدت الله عزّ وجلّ أذِن فى نشوز الزوج بأن يصطَلِحا وأذن فى خوفهما ألا يقيما حدود الله بالخُلْع وذلك يشبه أن يكون برضا المرأة . وحظر أن يأخذ الزوج مما أعطى شيئا إذا أراد استبدال زوج مكان زوج؛ فلما أمر فيمن خِفنا الشقاق بينهما بالحكمين دلّ على أن حكمهما غير حكم الأزواج، فاذا كان كذلك بعث حكما من أهله وحكما من أهلها . ولا يبعث الحكمين إلا مأمونين برضا الزوجين وتوكيلهما بأن يجمعا أو يُفرّقا إذا رأيا ذلك . وذلك يدل على أن

الحكمين وكيلان للزوجين . قال ابن العربي: هذا منتهى كلام الشافعي، وأصحابه يفرحون به وليس فيه ما يلتفت إليه ولا يشبه نصابه في العلم، وقد تولّى الردّ عليه القاضي أبو إسحاق ولم ينصفه في الأكثر . أما قوله « الذى يشبه ظاهر الاية أنه فيما عمّ الزوجين » فليس بصحيح، بل هو نصّه، وهي من أبين آيات القرآن وأوضحها جَلاء؛ فإن الله تعالى قال : «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» . ومن خاف من امرأته نشوزا وعَظَها، فان أنابت وإلا هجرها في المَضْجَع، فان ارْعَوَتْ وإلا ضربها، فان استمرّت في غلوائها مشى الحكمان إليهما . وهذا إن لم يكن نصًّا فليس في القرآن بيان . ودَعْه لا يكون نصًّا، يكون ظاهرا؛ فأما أن يقول الشافعي يشبه الظاهر فلا ندرى ما الذى أشبه الظاهر . ثم قال : « وأذِن في خوفهما ألّا يقيما حدود الله بالخُلْع وذلك يشبه أن يكون برضا المرأة» بل يجب أن يكون كذلك وهو نصه . ثم قال : «فلما أمر بالحكمين علمنا أن حكمهما غير حكم الأزواج» ويجب أن يكون غيره بأن ينفذ عليهما من غير اختيارهما فتتحقق الغَيْرِيّة . فأما إذا نفّذا عليهما ما وكّلاهما به فلم يحكما بخلاف أمرهما فلم تتحقق الغَيْرِيّة . وأما قوله « برضا الزوجين وتوكيلهما » فخطأٌ صُراح ؛ فإن الله سبحانه خاطب غير الزوجين إذا خاف الشقاق بين الزوجين بإرسال الحكمين، وإذا كان المخاطب غيرهما كيف يكون ذلك بتوكيلهما، ولا يصح لهما حكم إلا بما اجتمعا عليه . هذا وجه الإنصاف والتحقيق في الردّ عليه . وفي هذه الآية دليل على إثبات التحكيم ، وليس كما تقول الخوارج إنه ليس التحكيم لأحد سوى الله تعالى . وهذه كلمة حق يريدون بها الباطل .

قوله تعالى : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

فيه ثمان عشرة مسألة :

الأولى — أجمع العلماء على أن هذه الآية من المُحْكَم المتفق عليه، وليس منها شيء منسوخ. وكذلك هي في جميع الكتب. ولو لم يكن كذلك لعُرِف ذلك من جهة العقل وإن لم ينزل به الكتاب. وقد مضى معنى العبودية وهي التذلل والافتقار، لمن له الحكم والاختيار؛ فأمر الله تعالى عباده بالتذلل له والإخلاص فيه. فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره؛ قال الله تعالى « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » حتى لقد قال بعض علمائنا : إنه من تطهر تبرُّدًا أو صام مُحِمًّا لمَعِدَته ونَوَى مع ذلك التقرب لم يُجْزِه؛ لأنه مزج في نية التقرب نيّةً دنياوية وليس لله، إلا العمل الخالص؛ كما قال تعالى : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وقال تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » . وكذلك إذا أحسّ الرجل بداخلٍ في الركوع وهو إمام لم ينتظره؛ لأنه يُخرج ركوعه بانتظاره من كونه خالصا لله تعالى . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى أنا أغْنَى الشركاء عن الشّرك من عمِل عملا أشْرَك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه " . وروى الدَّارَقُطْنيّ عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتُنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى للملائكة ألقُوا هذا وٱقْبَلُوا هذا فتقول الملائكة وعزتك ما رأينا إلا خيرًا فيقول الله عز وجل وهو أعلم إن هذا كان لغيري ولا أقبل اليومَ من العمل إلا ما ٱبْتُغِي به وجهي " . وروى أيضا عن الضحاك بن قيس الفِهْري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي يأيها الناس أخْلِصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرَّحِم فإنها للرَّحِم وليس لله منها شيء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء " .

مسألة — إذا ثبت هذا فاعلم أن علماءنا رضى الله عنهم قالوا : الشرك على ثلاث مراتب وكله محرم . وأصــله اعتقاد شريك لله فى أُلُوهيّته ، وهو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية ، وهو المراد بقوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . ويليه فى الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى فى الفعل ، وهو قول من قال : إن موجودا مّا غيرَ الله تعــالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده وإن لم يعتقد كونَه إلهًا كالقدرية مجوس هذه الأمة ، وقد تبرّأ منهم ابن عمر كما فى حديث جبريل عليه السلام . ويلى هــذه الرتبة الإشراك فى العبادة وهو الرياء ، وهو أن يفعل شيئا من العبادات التى أمر الله بفعلها له لغيره . وهذا هو الذى سيقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه ، وهو مبطل للأعمال وهو خفيّ لا يعرفه كلُّ جاهلٍ غبيّ . ورضى الله عن المُحاسِبيّ فلقد أوضحه فى كتابه «الرعاية» وبيّن إفساده للأعمال . وفى سنن ابن ماجه عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى وكان من الصحابة قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيــه نادى منادٍ مَن كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك " . وفيه عن أبى ســعيد الخُدْرِىّ قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليــه وسلم ونحن نتذاكر المَسِيح الدّجال فقال : " ألَا أخبركم بمــا هو أخوف عليكم عندى من المسيخ الدجال ؟ " قال : فقلنا بلى يا رسول الله ؛ فقال : " الشِّرْك الخَفِىّ أن يقوم الرجل يصلّى فيزَيِّن صلاته لمــا يرى من نظر رجل " : وفيه عن شدّاد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ أخوفَ ما أتخوّف على أمتى الإشراك بالله أما إنى لست أقول يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وَثَنًا ولكن أعمالا لغير الله وشَهوة خفية " خرّجه الترمذىّ الحكيم . وسيأتى فى آخر الكهف ، وفيه بيان الشهوة الخفية . وروى ابن لَهِيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشهوة الخفية فقال : " هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه " . قال سهل بن عبد الله التُّسْتُرِىّ رضى الله عنــه : الرياء على ثلاثة وجوه ؛ أحدها — أن يعقد فى أصل فعله لغير الله ويريد به أن يعرف أنه لله ، فهذا صنف من النفاق وتشكك فى الإيمان . والآخر —

يدخل فى الشيء لله فإذا اطّلع عليه غير الله نَشِط، فهذا إذا تاب يريد أن يعيد جميع ما عمِل. والثالث — دخل فى العمــل بالإخلاص وخرج به لله فعُرِف بذلك ومُدِح عليــه وسكن إلى مدحهم؛ فهذا الرياء الذى نهى الله عنه. قال سهل قال لقمان لأبنه: الرياء أن تطلب ثواب عملك فى دار الدنيا، وإنمــا عمل القوم للآخرة. قيل له: فما دواء الرياء؟ قال: كتمان العمل، قيــل له: كيف يكتم العمل؟ قال: ما كلفت إظهاره من العمل فلا تدخل فيــه إلا بالاخلاص، ومالم تتكلف إظهاره أحبّ ألّا يطلع عليه إلا الله. قال: وكل عمل اطلع عليــه الخلق فلا تعدّه من العمل. وقال أيوب السَّخْتِيَانِيّ: ما هو بعــاقل من أحب أن يعرف مكانه من عمله.

قلت: قول سهل «والثالث دخل فى العمل بالإخلاص» إلى آخره، إن كان سكونه وسروره إليهم لتحصل منزلته فى قلوبهم فيحمَدوه ويجلّوه ويَبَرُّوه وينال ما يريده منهم من مال أو غيره فهذا مذموم؛ لأن قلبه مغمور فرحًا باطّلاعهم عليه، وإن كانوا قد اطّلعوا عليه بعد الفراغ. فأمّا من أطلع الله عليه خلقه وهو لا يحب اطّلاعهم عليه فيُسَرّ بصنع الله وبفضله عليه فسروره بفضل الله طاعة؛ كما قال تعالى: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ». وبَسْطُ هذا وتَتميمه فى كتاب «الرعاية للمُحَاسِبي»، فمن أراده فليقف عليه هناك. وقد سئل سهل عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم "إنى أُسِرّ العمل فيُطّلع عليه فيعجبنى" قال: يعجبه من جهة الشكر لله الذى أظهره الله عليه أو نحو هذا. فهذه جملة كافية فى الرياء وخُلوص الأعمال. وقد مضى فى «البقرة»(١). حقيقة الإخلاص. والحمد لله.

الثانيــــة — قوله تعــالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قد تقدّم فى صدر هذه السورة أنّ من الإحسان إليهما عتقَهما، ويأتى فى «سُبْحَان» حكم برّهما مُسْتَوْفًى. وقرأ ابن أبى عبلة «إحسان» بالرفع أى واجب الإحسان إليهما. الباقون بالنصب، على معنى أحسنوا إليهما إحسانا. قال العلماء: فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزامِ البِرّ والطاعةِ

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤٦ طبعة ثانية.

والإذعان من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره بشكره وهما الوالدان؛ فقال تعالى: « أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » . وروى شُعبة وهُشيم الواسطيّان عن يعلَى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " رِضَا الرَّبِّ في رضا الوالدَيْن وسُخْطُه في سُخْط الوالدين " .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ ﴾ وقد مضى الكلام فيه في «البقرة»(١) .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ أمّا الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيامِ بحقه والوَصاة برعى ذمّته في كتابه وعلى لسان نبيّه . ألا تراه سبحانه أكّد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى : « وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ » أى القريب . « والجَـارِ ٱلْجُنُبِ » أى الغريب؛ قاله ابن عباس ، وكذلك هو في اللغة . ومنه فلان أجنبيّ ، وكذلك الجنابة البعد . وأنشد أهل اللغة :

فلا تَحرِمَنّى نائلًا عن جَنابةٍ * فإنى آمرُؤٌ وسْطَ القِبابِ غريبُ(٢)

وقال الأعشى :

أتيت حُرَيثا زائرا عن جنـابةٍ * فكان حُرَيثٌ في عطائيَ جاهـدَا(٣)

وقرأ الأعمش والمُفَضَّل « والجارِ الجَنْبِ » بفتح الجيم وسكون النون وهما لغتـان ؛ يقال : جَنْب وجُنُب وأجْنَب وأجنَبيّ إذا لم يكن بينهما قرابة، و جمعه أجانب . وقيـل : على تقدير حذف المضاف ، أى والجـار ذى الجنب أى ذى الناحية . وقال نَوْف الشاميّ : « الجـارِ ذِى القربى » المسلم « والجارِ الجنبِ » اليهوديّ والنصرانيّ .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .

(٢) البيت لعلقمة بن عَبَدة يخاطب به الحارث بن جبلة يمدحه ، وكان قد أسر أخاه شأسا . وأراد بالنائل إطلاق أخيه شأسا من سجنه فأطلقه ومن أسر معه من بنى تميم . (عن اللسان) .

(٣) فى الأصول : * فكان حريث عن عطائى جامدا *

والتصويب عن تفسير الطبرى .

قلت : وعلى هــذا فالوصاة بالجار مأمور بهـا مندوب إليها مسلما كان أو كافرا ، وهو الصحيح . والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حُسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه . روى البخاريّ عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه " . وروى عن أبي شُريح أن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم قال : " واللهِ لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن " قيل : يارسول الله ومَنْ ؟ قال : " الذى لا يأمن جارُه بوائقَه " وهــذا عام فى كل جارٍ . وقد أكّد عليه السـلام ترك إذايته بقَسَمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره . فينبغى للؤمن أن يحذر أذَى جاره ، وينتهى عمـا نهى الله ورسـوله عنه ، ويرغب فيما رضياه وحضَّا العباد عليه . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " الجيران ثلاثة فجارٌ له ثلاثة حقوق وجارٌ له حقان وجارٌ له حَقّ واحد فأما الجار الذى له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب له حقّ الجوار وحقُّ القرابة وحقُّ الإسـلام والجارُ الذى له حقّان فهو الجار المسلم فله حق الإسـلام وحقّ الجوار والجار الذى له حقّ واحد هو الكافر له حقّ الجوار" .

الخامســـة — روى البخارى عن عائشة قالت : قلت يا رسـول الله، إن لى جارَين فإلى أيِّهما أُهْدِى، قال : " إلى أقربهما منكِ بابا " . فذهب جماعة من العلمـاء إلى أن هذا الحديث يفسّر المراد من قوله تعـالى : « والجارِ ذِى القُرْبَى » وأنه القريبُ المسكنِ منك . «والجارِ الجنبِ» هو البعيد المسكن منك . واحتجّوا بهذا على إيجاب الشفعة للجار، وعَضَدُوه بقوله عليه السلام : " الجار أحقّ بصَقَبه[(١)] " . ولا حجة فى ذلك ، فإن عائشة رضى الله عنها إنمـا سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عمن تبدأ به من جيرانها فى الهدية فأخبرها أن مَن قَرُب بابه فإنه أولى بهـا من غيره . قال ابن المُنْذِر : فدلّ هــذا الحديثُ على أن الجار يقع على غير اللَّصيق . وقد خرج أبو حنيفة عن ظاهر هــذا الحديث فقال : إن الجار اللَّصيق إذا ترك الشفعة وطلبها الذى يليه وليس له جدار إلى الدار ولا طريقٌ لا شفعة فيه له . وعوَام العلماء

(١) الصقب : الملاصقة والقرب، والمراد به الشفعة .

يقولون : إذا أوصى الرجل لجيرانه أعطى اللَّصيق وغيره؛ إلا أبا حنيفة فإنه فارق عوام العلماء وقال : لا يُعطَى إلا اللَّصيق وحده .

السادســـة — وآختلف الناس في حدّ الجيرة ، فكان الأوزاعيّ يقول : أربعون دارًا من كل ناحية ، وقاله آبن شهاب . ورُوى أن رَجلًا جاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : إنى نزلت مَحَلّة قوم وإن أقربهم إلىّ جُوَارًا أشدّهم لى أذًى ، فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليًّا يصيحون على أبواب المساجد : ألّا إنّ أربعين دارًا جارٌ ولا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقه (١) . وقال علىّ بن أبى طالب : مَن سَمِـع النّداء فهو جارٌ . وقالت فرقة : من سمع إقامة الصلاة فهو جارُ ذلك المسجد . وقالت فرقة : من ساكن رجلا فى مَحَلّة أو مدينة فهو جارٌ . قال الله تعـالى : « لئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنَافِقُون » إلى قوله : « ثُمّ لا يُجَاوِرُونَك فِيهَـا إلَّا قَلِيلًا » فجعل تعالى اجتماعهم فى المدينة جُواراً . والجيرَة مراتب بعضها ألصقُ من بعض ، أدناها الزوجة ؛ كما قال :

* أيَا جَارَتَا بِينِى فإنكِ طَالقه (٢) *

السابعـــة — ومن إكرام الجار ما رواه مسلم عن أبى ذَرّ قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذَرّ إذا طَبَخت مَرَقةً فأكْثِر ماءهَا وتعاهد جيرانك " . فحضّ عليه السّلام على مكارم الأخلاق ؛ لِمَـا يترتّب عليها من المحبّة وحسن العِشرة ودفع الحاجة والمَفْسدة ؛ فإن الجار قـد يتأذّى بقُتَارِ (٣) قدر جاره ، وربما تكون له ذُرِّية فتهَيج من ضعفائهم الشّهوة ، ويعظُم على القائم عليهم الألَمُ والكُلْفة ، لاسيّما إذا كان القائم ضعيفا أو أرْمَلَة فتعظُم المشقّة ويشتدّ منهم الألم والحسرة . وهذه كانت عقوبة يعقوب فى فِراق يوسف عليهما السلام فيما قيـل . وكل هذا يندفع بتشريكهم فى شىء من الطّبيخ يُدفع إليهم ؛ ولهـذا المعنى حضّ عليه السّلام الجار القريب بالهَدِيّة ، لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منهـا ، فإذا رأى ذلك أحبّ

(١) بوائقه : أى غوائله وشروره ؛ واحدها بائقة ، وهى الداهية .
(٢) هذا صدر بيت للأعشى ، وعجـــزه : * كذاك أمور الناس غاد وطارقه *
(٣) القتار (بضم القاف) : ريح القدر والشواء ونحوهما .

أن يشارك فيه؛ وأيضا فإنه اسرعُ إجابةً لجاره عند ماينُوبُه من حاجة فى أوقات الغفلة والغِرّة، فلذلك بدأ به على مَن بعُدَ بابه و إن كانت داره أقرب . والله أعلم .

الثامنــة ــ قال العلماء : لمّا قال عليه السّلام "فأكثِرْ ماءَها" نبّه بذلك على تيسير الأمر على البخيل تنبيهًا لطيفًا، وجعَل الزّيادة فيما ليس له ثمن وهو المـاء؛ ولذلك لم يقل إذا طَبختَ مَرَقةً فأكثر لحمها، إذ لا يسهُل ذلك على كل أحد . ولقد أحسن القائل :

قِدْرِى وقِدْرُ الجار واحدةٌ * و إليه قَبْــلى تُرفع القِدر

ولا يُهدى النّزر اليسير المحتقَر؛ لقوله عليــه السلام : "ثم آنظر أهلَ بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف" أى بشىء يُهدَى عُرفًا؛ فإن القليل و إن كان مما يُهدَى فقد لايقع ذلك الموقع، فلولم يتيّسر إلا القليل فَلْيُهدِه ولا يحتقره، وعلى المُهْــدى إليه قبوله ؛ لقوله عليه السـلام : "يا نِساءُ المُؤْمِنَاتُ لا تحقِرنّ إحداكنّ لجارتها ولو كُرَاع[1] شاةٍ مُحرقًا" أخرجه مالك فى موطّئه. وكذا قيدناه « يا نِساءُ المؤمِنَاتُ » بالرفع على غير الإضافة، والتقدير : يأيها النّساء المؤمنات؛ كما تقول يا رجالُ الكرامُ؛ فالمنادى محذوف وهو يأيها، والنّساء فى تقدير النعت لأيها، والمؤمنات نعت للنساء . وقد قيل فيه : يا نساءَ المؤمناتِ بالإضافة، والأوّل أكثر .

التاســعة ــ من إكرام الجار ألّا يُمنع من غَرْز خشبة له إرفاقًا به؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يَمنعْ أحدُكم جارَه أن يَغرِز خَشَبةً فى جداره". ثم يقول أبو هريرة: مالى أراكم عنها معرضين، والله لأرمينّ بها بين أكتافكم . رُوى « خُشُبَه وخَشَبةً » على الجمع والإفراد . وروى « أكتافكم » بالتـاء و « أكنافكم » بالنــون . ومعنى « لأرمينّ بهـا » أى بالكلمة والقصّة . وهل يُقضى بهذا على الوجوب أو النّدب؛ فيه خلاف بين العلمـاء . فذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابهما إلى أن معناه النّدب إلى برّ الجار والتجاوز له والإحسان إليه، وليس ذلك على الوجوب؛ بدليل قوله عليه السلام "لا يحلّ مالُ آمرئٍ مُسلِمٍ إلا عن

(١) الكراع من البقر والغنم : بمنزلة الوظيف من الخيل والإبل والحمر، وهو مستدق الساق العارى من اللحم، يذكر ويؤنث، والجمع أكرع ثم أكارع .

طِيبِ نفسٍ منه". قالوا: ومعنى قوله "لا يمنعْ أحدكم جارَه" هو مثلُ معنى قولِه عليه السلام: "إذا آستأذنت أحدَكم آمرأتُه إلى المسجد فلا يمنعْها". وهذا معناه عند الجميع النّدب، على مايراه الرجل من الصّلاح والخير فى ذلك. وقال الشافعيّ وأصحابه وأحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثَوْر وداود بن علىّ وجماعة أهل الحديث: إلى أن ذلك على الوجوب. قالوا: ولولا أن أبا هريرة فهِم فيما سمِع من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم معنى الوجوب ما كان ليُوجِب عليهم غير واجب. وهو مذهب عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ فانه قَضَى على محمد بن مسلمة للضحّاك بن خليفة فى الخليج أن يمُرّ به فى أرض محمد بن مسلمة، فقال محمد بن مسلمة: لا والله. فقال عمر: واللهِ ليَمُرَّنّ به ولو على بطنك. فأمره عمر أن يمرّ به ففعل الضحاك؛ رواه مالك فى الموطّأ[1]. وزعم الشافعىّ فى كتاب الرّد أن مالكًا لم يَروِ عن أحدٍ من الصّحابة خلافَ عمر فى هذا الباب؛ وأنكر على مالك أنه رواه وأدخله فى كتابه ولم يأخذ به وردّه برأيه. قال أبو عمر: ليس كما زعم الشافعى؛ لأن محمد بن مسلمة كان رأيه فى ذلك خلاف رأى عمر، ورأى الأنصار أيضا كان خِلافًا لرأى عمر وعبد الرحمن بن عوف فى قصة الرّبيع وتحويله[1] — والرّبيع الساقية — وإذا آختلفت الصّحابة وجب الرجوع إلى النّظر، والنّظر يدلّ على أن دماء المسلمين وأموالَهم وأعراضَهم بعضهم على بعض حرام إلا ما تَطِيب به النفس خاصة؛ فهذا هو الثابت عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم. ويُدلّ على الخلاف فى ذلك قول أبى هريرة: مالى أراكم عنها مُعرِضين واللهِ لأرمينّكم بها؛ هذا أو نحوه. أجاب الأوّلون فقالوا: القضاء بالمِرْفَق خارج بالسنّة عن معنى قوله عليه السلام: "لا يحلّ مالُ آمرئٍ مُسلِمٍ إلا عن طيب نفسٍ منه" لأن هذا معناه التّمليك وآلاستهلاك وليس المِرْفَق من ذلك؛ لأن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قد فَرَق بينهما فى الحكم. فغير واجب أن يُجمَع بين مافرَق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وحكَى مالك أنه كان بالمدينة قاض يقضى به يُسمّى أبو المطلب[2]. وآحتجوا من الأثر بحديث الأعمش عن أنس قال:

---

(١) راجع الموطأ باب «القضاء فى المرافق».

(٢) فى الأصول: «يسمى المطلب» والتصويب عن شرح الموطأ.

استُشهد منا غلام يوم أُحُد فجعلت أمّه تمسح التّراب عن وجهه وتقول: أبشرْ هنيئاً لك الجنة؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "وما يُدْريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه و يمنع ما لا يضرّه". والأعمش لا يصحّ له سَماعٌ من أنس، والله أعلم . قاله أبو عمر .

العـاشرة — وَرَد حديثٌ جَمَع النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه مرافق الجار، وهو حديث معاذ بن جبل قال: قلنـا يارسول الله، ما حقّ الجار؟ قال: "إن آستقرضَك أقرضتَه و إن آستعانك أعنته و إن آحتاج أعطيته و إن مَرِض عُدْته و إن مات تبعت جنـازته و إن أصابه خير سرّك وهنّيتَه و إن أصابته مصيبة ساءتك وعزّيتَه ولا تؤذه بقُتَار قِدْرِك إلا أن تَغْرُفَ له منها ولا تستطِلْ عليه بالبناء لتُشرف عليه وتسدّ عليه الريح إلا باذنه و إن اشتريت فاكهة فأهدِ له منها و إلا فأدخِلْها سرًّا لا يخرج وَلَدُك بشيء منه يغيظون به وَلَدَه وهل تفقهون ما أقول لكم لن يُؤَدِّىَ حقّ آلجار إلا القليل ممن رَحِمَ الله" أو كلمة نحوها . هـذا حديث جامع وهو حديث حَسَن، فى إسناده أبو الفضل عثمان بن مطر الشيبانى غير مَرْضِيّ .

الحادية عشرة — قال العلماء: الأحاديث فى إكرام الجار جاءت مُطْلَقَةً غيرَ مقيّدة حتى الكافر كما بيّنا . وفى الخبر قالوا: يا رسول الله أنطعمهم من لحوم النُّسُك؟ قال: "لا تُطعموا المشركين من نُسُك المسلمين" . ونهيـه عن إطعام المشركين من نسك المسلمين يحتمل النّسك الواجب فى الذمة الذى لا يجوز للنّاسك أن يأكل منه ولا أن يُطعمه الأغنياء؛ فأما غير الواجب الذى يُجزيه إطعام الأغنياء فجائز أن يطعمه أهـل الذمة . قال النبيّ صـلى الله عليه وسلم لعائشة عند تفريق لحم الأُضْحِيَة: "ابدَئى بجارنا اليهودى". ورُوى أن شاةً ذُبحت فى أهل عبد الله بن عمر فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودى — ثلاث مرات — سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه" .

الثـانية عشرة — قوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ أى الرفيق فى السّفر . وأسـند الطّبرى أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان معـه رجل من أصحابه وهمـا على راحلتين ،

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم غَيْضة(١)، فقطع قضيبين أحدهما معوجّ، فخرج وأعطى لصاحبه القَوِيمَ؛ فقال: كنتَ يارسول الله أحقّ بهذا! فقال: "كلّا يافلان إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسئول عن صحابته ولو ساعةً من نهار". وقال ربيعة بن أبى عبد الرحمن: للسّفر مُرُوءةٌ وللحضَر مُروءةٌ؛ فأما المروءة فى السّفر فبذل الزاد، وقلّة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المِزاح فى غير مَساخط الله. وأما المروءة فى الحضَر فالإدمان إلى المساجد، وتلاوة القرآن وكثرة الإخوان فى الله عزّ وجلّ. ولبعض بنى أسد — وقيل إنها لحاتم الطائى:

إذا ما رفيق لم يكن خلف ناقتى * له مركب فضلًا فلا حملت رِجلِى

ولم يك من زادى له شطر مِزوَدِى * فلا كنت ذازادٍ ولا كنت ذافضلِ

شريكان فيما نحن فيه وقد أرى * علىّ له فضلًا بما نال من فضلِى

وقال علىّ وابن مسعود وابن أبى لَيْلَى: «الصاحِب بِالجنبِ» الزوجة. ابن جُريج: هو الذى يصحبك ويلزمك رجاء نفعك. والأوّل أصحّ؛ وهو قول ابن عباس وابن جُبير وعِكرمة ومجاهد والضحاك. وقد تتناول الآية الجميع بالعموم. والله أعلم.

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ السَّبِيلِ﴾ قال مجاهد: هو الذى يجتاز بك مارًّا. والسبيل الطريق؛ فنسب المسافر إليه لمروره عليه ولزومه إياه. ومن الإحسان إليه إعطاؤه وإرفاقه وهدايته ورشده.

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أمر الله تعالى بالإحسان إلى المماليك، وبيّن ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فروى مسلم وغيره عن المَعْرُور بن سُوَيْد قال: مررنا بأبى ذرّ بالرَّبَذَة(٢) وعليه بُرْد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلّة؛ فقال: إنه كان بينى وبين رجل من إخوانى كلام، وكانت أمّه أعجميّة فعيّرته بأمّه، فشكانى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فلقيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أبا ذرّ إنك امرؤ فيك جاهلية"

(١) الغيضة (بالفتح): الأجمة ومجتمع الشجر فى مغيض ماء.

(٢) الربذة (بالتحريك): من قرى المدينة على ثلاثة أميال، بها مدفن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه.

قلت : يارسول الله، مَن سَبَّ الرجال سَبّوا أباه وأمّه . قال : " يا أبا ذَرّ إنك آمرؤٌ فيك جاهلية هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبِسوهم مما تلبَسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعِينوهم " . وروى عن أبى هريرة أنه ركب بغلة ذات يوم فأردف غلامه خلفه، فقال له قائل : لو أنزلته يسعى خلف دابتك؛ فقال أبو هريرة : لأن يسعى معى ضِغثان (١) من نارٍ يحرقان منى ما أحرقا أحبّ إلىّ من أن يسعى غلامى خلفى . وخرّج أبو داود عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن لَايَمَكُمْ مِن مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تكتسون ومن لا يُلايمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله ". لايمكم وافقكم، والملايمة الموافقة . وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " للملوك طعامه وكِسوته ولا يُكلَّف من العمل إلا ما يطيق ". وقال عليه السلام : " لا يقل أحدكم عبـدى وأَمَتِي بل لِيَقُل فتَاىَ وفتَـاتِى " وسيأتى بيـانه فى سورة يوسف عليه السلام . فندب صلى الله عليه وسلم السادة إلى مكارم الأخلاق وحضّهم عليها وأرشدهم إلى الإحسان وإلى سلوك طريق التواضع حتى لا يروا لأنفسهم مزيّة على عبيدهم ، إذ الكل عبيد الله والمـال مال الله ، ولكن سخّر بعضهم لبعض ، وملّك بعضهم بعضا إتمـاما للنعمـة وتنفيذا للحكمة ؛ فإن أطعموهم أقلّ ممـا يأكلون، وألبسوهم أقل ممـا يلبسون صفة ومقدارا جاز إذا قام بواجبه عليه . ولا خلاف فى ذلك والله أعلم . وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو إذ جاءه قَهرمان (٢) له فدخل فقال : أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال لا . قال : فآنطلِق فأعطِهم ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَفَى بالمرء إثمًـا أن يَحْبِس عمّن يَملكُ قُوتهم " .

الخامسة عشرة — ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من ضرب عبده حَدًّا لم يأته أو لطمه فكفّارتُه أن يعتقه " . ومعناه أن يضرب به قدر الحدّ ولم يكن عليه حدّ . وجاء عن نفر من الصحابة أنهم آقتصُّوا للخـادم من الولد فى الضرب وأعتقوا الخادم لمّـا لم يرد

(١) ضغثان : حزمتان من حطب فاستعارهما للنار، يعنى أنهما قد اشتعلتا وصارتا نارا .

(٢) القهرمان (بفتح القاف وتضم) كالخازن والوكيل، والحافظ لمـا تحت يده والقائم بأمور الرجل؛ بلغة الفرس .

القِصاص. وقال عليه السلام: ”من قذف مملوكه بالزنا أقام عليه الحدّ يوم القيامة ثمانين“. وقال عليه السلام: ”لا يدخل الجنة سَيِّء المَلَكَة“ (١). وقال عليه السلام: ”سُوءُ الخُلُق شُؤْمٌ وحسن المَلَكَة نماء وصِلة الرَّحِم تزيد فى العمر والصدقة تدفع مِيتة السّوء“.

السادسة عشرة — واختلف العلماء من هذا الباب أيّهما أفضل الحرّ أو العبد؛ فروى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”للعبد المملوك المُصْلح أجران“ والذى نفسُ أبى هريرة بيده لولا الجهاد فى سبيل الله والحجّ وبِرّ أمّى لأحببت أن أموت وأنا مملوك. ورُوى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ”إنّ العبد إذا نصح لسيّده وأحسن عبادة الله فله أجره مرّتين“. فاستُدِلّ بهذا وما كان مثله من فضّل العبد؛ لأنه مخاطب من جهتين: مطالب بعبادة الله، مطالب بخدمة سيده. وإلى هذا ذهب أبو عمر يوسف بن عبد البر النَّمَرِىّ وأبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد العامرى البَغدادِىّ الحافظ.

استدلّ من فضّل الحرّ بأن قال: الاستقلال بأمور الدِّين والدّنيا إنما يحصل بالأحرار، والعبدُ كالمفقود لعدم استقلاله، وكالآلة المصرّفة بالقهر، وكالبهيمة المسخَّرة بالجبر؛ ولذلك سُلب مناصب الشهادات ومعظم الوَلايات، ونقصت حدوده عن حدود الأحرار إشعارا بخسة المقدار. والحرّ وإن طولب من جهة واحدة فوظائفه فيها أكثر، وعناؤه أعظم فثوابه أكثر. وقد أشار إلى هذا أبو هريرة بقوله: لولا الجهاد والحج؛ أى لولا النقص الذى يلحق العبد لفوت هذه الأمور. والله أعلم.

السابعة عشرة — روى أنس بن مالك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: ”ما زال جبريل يُوصِينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه. وما زال يوصينى بالنساء حتى ظننت أنه سيحرّم طلاقهنّ. وما زال يوصينى بالمماليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم مدّة إذا انتهَوْا إليها عَتَقُوا. وما زال يوصِينى بالسِّواك حتى ظننت أنه يُحْفِى فَمِى — وروى حتى كاد —.

(١) أى الذى يسىء صحبة المماليك.

وما زال يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لا ينامون ليلا " . ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ﴾ أي لا يرضى . ﴿ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ فنفى سبحانه محبته ورضاه عمن هذه صفته ؛ أي لا يُظهر عليه آثار نِعَمه في الآخرة . وفي هذا ضرب من التَّوعُّد . والمختال ذو الخُيَلاء أي الكِبر . والفخور : الذي يعدّد مناقبه كِبْرًا . والفخر : البَذَخ والتطاول . وخصّ هاتين الصفتين بالذكر هنا لأنهما تحملان صاحبيهما على الأنفَة من القريب الفقير والجارِ الفقير وغيرهم ممن ذُكر في الآية فيضيع أمر الله بالإحسان إليهم . وقرأ عاصم فيما ذكر المُفَضَّل عنه « والجارِ الجَنْبِ » بفتح الجيم وسكون النون . قال المَهْدَوِيّ : هو على تقدير حذف مضاف ؛ أي والجار ذي الجنب أي ذي الناحية . وأنشد الأخفش :

* الناسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ[1] *

والجَنْب الناحية ، أي المتنحّى عن القرابة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ « الَّذِينَ » في موضع نصب على البدل من « مَن » في قوله : « مَنْ كَانَ » ولا يكون صفة ؛ لأن « من » و « ما » لا يوصفان ولا يوصف بهما . ويجوز أن يكون في موضع رفع بدلا من المضمر الذي في فخور . ويجوز أن يكون في موضع رفع فيعطف عليه[2] . ويجوز أن يكون ابتداء والخبر محذوف ، أي الذين يبخلون لهم كذا ، أو يكون الخبر « إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار

(١) كأنه عدله بجميع الناس .

(٢) أي فيعطف عليه قوله تعالى : «والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس» كما في إعراب القرآن للنحاس .

أعنى، فتكون الآية فى المؤمنين؛ فتجىء الآية على هذا التأويل أن الباخلين منفيّة عنهم محبّةُ الله، فأحسنوا أيها المؤمنون إلى من سُمِّىَ فإن الله لايحب من فيه الخلالُ المانعةُ من الإحسان.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ البخل المذموم فى الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه . وهو مثل قوله تعالى: « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » الآية. وقد مضى فى «آل عمران» القول فى البخل وحقيقته، والفرق بينه وبين الشُّحّ مُسْتَوْفًى[(١)] . والمراد بهذه الآية فى قول ابن عباس وغيره اليهودُ؛ فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله من التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد المنافقون الذين كان إنفاقهم وإيمانهم تَقِيَّةً ، والمعنى أن الله لا يحب كلّ مختال فخور، ولا الذين يبخلون ؛ على ما ذكرنا من إعرابه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ فصل تعالى توعُّد المؤمنين الباخلين من توعّد الكافرين بأن جعل الأوّل عدم المحبة والثانى عذابا مهينا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ عطف تعالى على « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » : « الذين ينفقون أموالهم رِئاءَ الناس » . وقيل : هو عطف على الكافرين؛ فيكون فى موضع خفض . ومن رأى زيادة الواو أجاز أن يكون الثانى عنده خبرا للأوّل . قال الجمهور : نزلت فى المنافقين؛ لقوله تعالى : « رِئاءَ الناس » والرِّئاء من النفاق . مجاهد : فى اليهود. وضعّفه الطبرى؛ لأنه تعالى نفى عن هذه الصِّنْفَة[(٢)] الإيمانَ بالله واليوم الآخر ، واليهودُ

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ طبعة أولى وثانية .
(٢) الصنفة (بكسر الصاد وسكون النون) : طائفة من القبيلة . وقيل : طائفة من كل شىء .

ليس كذلك . قال ابن عطية : وقول مجاهد متّجه على المبالغة والإلزام؛ إذ إيمانهم باليوم الآخر كَلَا إيمان من حيث لاينفعهم . وقيل : نزلت فى مُطْعِمِى يوم بدر ، وهم رؤساء مكة أنفقوا على الناس ليخرجوا إلى بدر . قال ابن العربيّ : ونفقة الرياء تدخل فى الأحكام من حيث إنها لا تجـــزئ .

قلت : ويدلّ على ذلك من الكتاب قوله تعالى : « قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ » وسيأتى .

الثانيـــة ــ قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ﴾ فى الكلام إضمار تقديره « ولا يؤمنون بِاللهِ ولا بِاليومِ الآخِرِ » فقرينهم الشيطان « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ له قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً » . القرين : المقارن، أى الصاحب والخليل وهو فعِيل من الإقران . قال عدِيّ ابن زيد :

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قَرِينه * فكلّ قَرِينٍ بالمُقارِن يَقتدى

والمعنى: مَن قَبِل من الشيطان فى الدّنيا فقد قارنه . ويجوز أن يكون المعنى مَن قُرِن به الشيطان فى النار ﴿ فساء قرِينا ﴾ أى فبئس الشيطان قرينا، وهو نصب على التمييز .

قوله تعـالى : وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴿٣٩﴾

« ما » فى موضع رفع بالابتــداء و « ذا » خبره، وذا بمعنى الذى . ويجــوز أن يكون ما وذا اسمــا واحدا . فعلى الأوّل تقديره وما الذى عليهم، وعلى الثانى تقديره وأىّ شىء عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر، أى صدّقوا بواجب الوجود ، وبمـا جاء به الرسول من تفاصيل الآخرة ، وأنفقوا مما رزقهم الله . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴾ تقدّم معناه فى غير موضع .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أى لا يبخسهم ولا ينقصهم من ثواب عملهم وَزْنَ ذرّة بل يجازيهم بها ويُثيبهم عليها . والمراد من الكلام أن الله تعالى لا يظلم قليلا ولا كثيرا ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . والذرّة : النملة الحمراء ؛ عن ابن عباس وغيره ، وهى أصغر النمل . وعنه أيضا رأس النملة . وقال يزيد بن هارون : زعموا أن الذّرة ليس لها وزن . ويُحكَى أن رجلا وضع خبزا حتى علاه الذرّ مقدار ما يستره ثم وزنه فلم يزد على وزن الخبز شيئا .

قلت : والقرآن والسّنة يدلان على أن للذّرة وَزْنًا ؛ كما أن للدّينار ونصفه وزْنًا . والله أعلم . وقيل : الذرة الخردلة ؛ كما قال تعالى : « فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » . وقيل غير هذا ، وهى فى الجملة عبارة عن أقلّ الأشياء وأصغرها . وفى صحيح مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يظلم مؤمنًا حَسَنَةً يُعْطَى بها فى الدنيا ويجزَى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمِل بها لله فى الدنيا حتى إذا أفضَى إلى الآخرة لم تكن له حسنةٌ يُجْزَى بها " .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً نُضَاعِفْهَا﴾ أى يُكثر ثوابها . وقرأ أهل الحجاز « حسنةٌ » بالرفع ، والعامة بالنصب ؛ فعلى الأول « تك » بمعنى تحدث ، فهى تامة . وعلى الثانى هى الناقصة ، أى إن تك فَعْلَتُه حسَنة . وقرأ الحسن « نضاعِفها » بنون العظمة . والباقون بالياء ، وهى أصح ، لقوله « ويُؤتِ » . وقرأ أبو رَجاء « يضعّفها » ، والباقون « يضاعِفها » وهما لغتان معناهما التكثير . وقال أبو عبيدة : « يضاعفها » معناه يجعله أضعافا كثيرة ، « ويضعّفها » بالتشديد يجعلها ضِعفين . ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ من عنده . وفيه أربع لغات [(١)] : لَدُنْ ولُدْن ولَدُ ولَدَى ؛ فإذا أضافوه إلى أنفسهم شدّدوا النون ، ودخلت عليه « مِن » حيث كانت « مِن » الداخلة لابتداء الغاية و« لدن » كذلك ، فلما تشا كلا حسُن دخول « من » عليها ؛ ولذلك قال سيبويه فى لدن : إنه الموضع الذى هو أوّل الغاية . ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى الجنة . وفى صحيح مسلم من حديث

(١) فى كتب اللغة أكثر من أربع لغات ؛ فليراجع .

أبي سعيد الخُدْرِيّ الطويل — حديث الشفاعة — وفيه: "حتى إذا خَلَص المؤمنون من النار فوالَّذي نفسي بيده ما منكم مِن أحدٍ بأشَدّ مُناشَدَةً لله في ٱستقصاء الحق من المؤمنين لله يومَ القيامة لأخوانهم الّذين في النار يقولون ربّنا كانوا يصومون معنا ويُصلّون ويَحُجّون فيقال لهم أخرِجوا مَن عرفتم فتُحَرّم صُوَرُهم على النار فيخرِجون خَلْقًا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقَيه وإلى رُكْبَتيه ثم يقولون ربّنا ما بَقِيَ فيها أحدٌ ممن أمَرْتَنا به فيقول ٱرجِعُوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ دِينار مِن خير فأخرجوه فيخرجون خَلْقًا كثيرا ثم يقولون ربّنا لم نَذَرْ فيها أحدا ممن أمَرْتَنا به ثم يقول ٱرجِعُوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ نصف دينار من خير فأخرجوه فيُخرِجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربّنا لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ٱرجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا".

وكان أبو سعيد الخُدْرِيّ يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم «إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثقالَ ذَرَّةٍ وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا» وذكر الحديث.

وروى عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يُؤْتَى بالعبد يوم القيامة فيُوقَفُ ويناِدي مُنادٍ على رءوس الخلائق هذا فلان بن فلان مَن كان له عليه حقّ فلْيأتِ إلى حقه ثم يقول آتِ هؤلاء حقوقهم فيقول يارب مِن أين لي وقد ذهبت الدنيا عنى فيقول الله تعالى للملائكة ٱنظروا إلى أعماله الصالحة فأعطوهم منها فان بَقِيَ مثقالُ ذَرَّة من حسنة قالت الملائكة يا رب وهو أعلم بذلك منهم قد أعطى لكلّ ذى حقٍّ حقه وبَقِيَ مثقال ذَرّة من حسنة فيقول الله تعالى للملائكة ضعّفوها لعبدى وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة ومصداقه «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا» — وإن كان عبدا شَقِيًّا قالت الملائكة إلهنا فنِيَتْ حسناته وبقيت سيئاته وبقى طالبون كثير فيقول تعالى خذوا من سيئاتهم وأضيفوها إلى سيئاته ثم صكّوا له صكًّا إلى النار". فالآية على هذا التأويل في الخصوم، وأنه تعالى لا يظلم مثقالَ ذرّةٍ للخصم على الخصم يأخذ له منه، ولا يظلم مثقالَ ذرّة تبقى له بل يُثيبه عليها ويُضَعِّفها له؛ فذلك قوله تعالى: «وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا». وروى أبو هريرة قال سمعت رسول

الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " إن الله يعطى عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفى ألف حسـنة " وتلا « إِنّ اللهَ لا يَظلِمُ مِثقالَ ذَرّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يضاعِفها ويُؤتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجرًا عَظِيمًا » . قال عَبيدة قال أبو هريرة : وإذا قال الله « أجرًا عظيمًا » فمن الذى يقـدّر قدْره ! وقد تقدّم عن ابن عباس وابن مسعود أن هذه الآية إحدى الآيات التى هى خير مما طلعت عليه الشمس .

قوله تعـالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾

فتحت الفاء لالتقاء الساكنين ، و « إذا » ظرف زمان والعامل فيـه « جئنا » . ذكر أبو الليث السَّمَرْقَندى حدّثنا الخليل بن أحمد قال حدّثنا ابن مَنيع قال حدّثنا ابن كامل قال حدّثنا فُضيل عن يونس عن محمد بن فضالة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فى بنى ظفر فجلس على الصخرة التى فى بنى ظَفَر (١) ومعـه ابن مسعود ومعاذ وناس من أصحـابه فأمر قارئا يقـرأ حتى أتى على هـذه الآية « فَكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيدًا » بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آخضلّت وجنتاه؛ فقال : " يارب هـذا على من أنا بين ظهرانيهم فكيف من لم أرهم " . وروى البخارىّ عن عبـد الله قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آقرأ علىّ " قلت : آقرأ عليك وعليك أُنزِل؟ قال : " إنى أُحب أن أسمعه من غيرى " فقرأت عليه سورة « النساء » حتى بلغت « فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أمّةٍ بشهيدٍ وجِئْنا بِكَ على هؤلاءِ شهيدا » قال : " أمسك " فإذا عيناه تذرفان . وأخرجه مسلم وقال بدل قوله " أمسك " : فرفعت رأسى — أو غمزنى رجل إلى جنبى — فرفعت رأسى فرأيت دموعه تسيل . قال علمـاؤنا : بكاءُ النبىّ صلى الله عليه وسلم إنمـا كان لعظيم ما تضمّنته هذه الآية من هول المَطْلَع وشدّة الأمر ؛ إذ يُؤتَى بالأنبياء شُهَداء على أممهم بالتّصديق والتّكذيب ، ويؤتى به صلى الله عليـه وسلم يوم القيامة شهيدًا . والإشارة بقـوله

(١) بنو ظفر (محرّكة) : بطن فى الأنصار ، وبطن فى بنى سليم .

« على هؤُلَاءِ » إلى كفّار قريش وغيرهم من الكفّار ؛ وإنمـا خصّ كفّار قريش بالذكر لأن وظيفة العذاب أشدّ عليهم منها على غيرهم ؛ لعنادهم عند رؤية المعجزات، وما أظهره الله على يديه من خوارق العادات . والمعنى فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة « إذا جِئنا مِن كلّ أمّةٍ بشهيدٍ وجِئنا بِك على هؤلاءِ شهيدا » أى مُعذّبين أم منعّمين. وهذا استفهام معناه التوبيخ. وقيل : الإشارة إلى جميع أمته. ذكر ٱبن المبارك أخبرنا رجل من الأنصار عن المِنْهال ٱبن عمرو حدّثه أنه سمع سعيد بن المُسَيِّب يقول: ليس من يوم إلا تُعرض على النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّته غُدوةً وعشيّةً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم ؛ يقول الله تعـالى « فكيف إذا جِئنا مِن كل أمةٍ بشهيدٍ » يعنى نبيّها « وجِئنا بِك على هؤلاءِ شهيدا ». وموضع « كيف » نصب بفعل مضمر، التقدير فكيف يكون حالهم ؛ كما ذكرنا . والفعل المضمر قد يسـدّ مسدّ « إذا » ، والعـامل فى « إذا » « جِئنا » . و « شهيدا » حال . وفى الحديث من الفقه جواز قراءة الطالب على الشيخ والعرض عليـه ، ويجوز عكسه . وسيأتى بيـانه فى حديث أُبَىّ فى سورة « لم يكن » ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

ضُمّت الواو فى « عَصَوُا » لالتقاء السّاكنين ، ويجـوز كسرها . وقرأ نافع وٱبن عامر « تَسَّوّى » بفتح التّاء والتشديد فى السّين . وحمزة والكسائى كذلك إلا أنهما خفّفا السّين . والباقون ضمّوا التّاء وخفّفوا السّين، مَبْنِياً للفعول والفاعل غير مُسمّى . والمعنى لو يُسوّى الله بهم الأرض، أى يجعلهم والأرضَ سواء . ومعنى آخر : تمنّـوا لو لم يبعثهم الله وكانت الأرض مستوية عليهم؛ لأنهم من التراب نقلوا . وعلى القراءة الأولى والثانية فالأرض فاعلة، والمعنى تمنّوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها؛ قاله قَتادة . وقيل : الباء بمعنى على، أى لو تُسوّى عليهم أى تنشق فتسوّى عليهم ؛ عن الحسن . فقراءة التّشديد على الإدغام ، والتخفيف على

حذف التاء . وقيل : إنما تمنّوا هذا حين رأوا البهائم تصير ترابا وعلموا أنهم مُخلَّدون فى النار؛ وهذا معنى قوله تعالى : «وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً» . وقيل : إنما تمنّوا هذا حين شهدت هذه الأمةُ للأنبياء على ماتقدّم فى «البقرة» (١) عند قوله تعالى : «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» الآية . فتقول الأمم الخالية : إن فيهم الزُّناة والسرّاق فلا تقبل شهادتهم فيزكّيهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيقول المشركون : «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» فيختم على أفواههم وتشهد أرجلهم وأيديهم بما كانوا يكسبون ؛ فذلك قوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ» يعني تخسف بهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال الزجاج قال بعضهم : «لا يكتمون الله حديثا» مستأنَف ؛ لأن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانه . وقال بعضهم : هو معطوف ، والمعنى يودّ لو أن الأرض سوّيت بهم وأنهم لم يكتموا الله حديثا لأنه ظهر كذبهم . وسئل ابن عباس عن هذه الآية، وعن قوله تعالى : «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» فقال : لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا «والله ربّنا ما كنا مشركين» ختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلُهم فلا يكتمون الله حديثا . وقال الحسن وقَتادة : الآخرة مواطن يكون هذا فى بعضها وهذا فى بعضها . ومعناه أنه لما تبيّن لهم وحوسبوا لم يكتموا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأنعام» إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٣ طبعة ثانية .

فيه أربع وأربعون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ خصّ الله سبحانه وتعالى بهذا الخطاب المؤمنين ؛ لأنهم كانوا يقيمون الصلاة وقد أخذوا من الخمر وأتلفت عليهم أذهانَهم فخُصُّوا بهذا الخطاب، إذ كان الكفار لا يفعلونها صُحاةً ولا سُكارى. روى أبو داود عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال عمر : اللّٰهُمّ بيّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا ؛ فنزلت الآية التى فى البقرة « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ» قال : فَدُعِىَ عمر فقرئت عليه فقال : اللّٰهُمّ بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا ؛ فنزلت الآية التى فى النساء « يأيها الذين آمنوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأَنْتُمْ سُكَارَى » فكان مُنادِى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة ينادى : ألَا لا يقربنّ الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللّٰهُمّ بيّن لنا بيانا شافيا؛ فنزلت هذه الآية : « فهل أنتم منتهون » قال عمر : انتهينا . وقال سعيد بن جُبير : كان الناس على أمر جاهليتهم حتى يُؤمروا أو ينهوا ؛ فكانوا يشربونها أوّلَ الإسلام حتى نزلت : « يسألونك عنِ الخمرِ والميسرِ قلْ فيهما إثْمٌ كبيرٌ ومنافعُ لِلنّاسِ » . قالوا: نشربها للمنفعة لا للإثم؛ فشربها رجل فتقدّم يصلّى بهم فقرأ : قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون؛ فنزلت : « يأيها الذين آمنوا لا تَقْرَبُوا الصّلاةَ وأنْتُمْ سُكَارَى » . فقالوا : فى غير عين الصلاة . فقال عمر : اللّٰهُمّ أنزل علينا فى الخمر بيانا شافيا ؛ فنزلت : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ » الآية . فقال عمر : انتهينا، انتهينا . ثم طاف منادِى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: ألَا إنما الخمرُ قد حُرِّمت؛ على ما يأتى بيانه فى « المائدة » إن شاء الله تعالى. وروى التِّرمِذىّ عن علىّ بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عَوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدّمونى فقرأت: قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون . قال : فأنزل الله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ووجه الاتصال والنظم بما قبله أنه قال سبحانه وتعالى : « وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » . ثم ذكر بعد الإيمـان الصلاةَ التي هي رأس العبادات ؛ ولذلك يُقتـل تاركُها ولا يسقط فرضها، وانجرّ الكلام إلى ذكر شروطها التي لا تصح إلا بها .

الثانيـــة — والجمهور من العلمـاء وجماعة الفقهاء على أن المراد بالسكر سكر الخمر ؛ إلا الضحاك فانه قال : المراد سكر النوم؛ لقوله عليه السلام: " إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقُدْ حتى يذهب عنه النوم، فإنه لا يدرى لعلّه يستغفر فيَسبّ نفسه " . وقال عَبيدة السّلمانِيّ : « وأنتم سكارى » يعني إذا كنت حاقنا(١) ؛ لقوله عليه السلام : " لا يصلّيَنّ أحدكم وهو حاقن " في رواية " وهو ضام بين فخذيه " .

قلت : وقول الضحاك وعَبيدة صحيحُ المعنى ؛ فإن المطلوب من المصلّي الإقبـالُ على الله تعالى بقلبه وتركُ الالتفات إلى غيره ، والخلوُّ عن كل ما يشوّش عليه من نوم وحُقنة وجوع، وكل ما يشغَل البال ويغيّر الحال . قال صلى الله عليه وسلم " إذا حضر العَشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعَشاء". فراعى صلى الله عليه وسلم زوال كلّ مشوّش يتعلّق به الخاطر، حتى يُقبل على عبادة ربّه بفراغ قلبه وخالص لُبّه ، فيخشع في صلاته، ويدخل في هـذه الآية : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » على ما يأتي بيانه . وقال ابن عباس : إن قوله تعـالى « يأيها الذين آمنوا لا تقرَبُوا الصلاة وأنتم سُكَارَى » منسوخٌ بآية المـائدة : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا » الآية . فأُمِروا على هذا القول بألّا يصلّوا سكارى، ثم أمِروا بأن يصلوا على كل حال ؛ وهذا قبل التحريم . وقال مُجاهد : نسخت بتحريم الخمر . وكذلك قال عِكرِمة وقَتادة، وهو الصحيح في الباب لحديث عليّ المذكور . وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أقيمت الصـلاة فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسـلم لا يَقْرَبَنّ الصلاة سكران ؛ ذكره النحاس . وعلى قول الضحاك وعَبيدة الآية مُحْكَمَةٌ لا نسخ فيها .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوا ﴾ إذا قيـل : لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تَلْبَس بالفعـل، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تَدْنُ منه . والخطاب لجماعة الأمة

(١) الحاقن : المجتمع بوله كثيرا .

الصاحين . وأما السّكران إذا عدم المَيْز لسكره فليس بمخاطب فى ذلك الوقت لذهاب عقـله ؛ وإنمـا هو مخاطب بامتثال ما يجب عليه ، و بتكفير ما ضيّع فى وقت سكره من الأحكام التى تقرّر تكليفه إياها قبل السكر .

الرابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ الصَّلَاةَ ﴾ اختلف العلماء فى المراد بالصـلاة هنا ؛ فقالت طائفة : هى العبادة المعروفة نفسها ؛ وهو قول أبى حنيفة ؛ ولذلك قال «حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» . وقالت طائفة : المراد مواضع الصلاة ؛ وهو قول الشافعى ، فحذف المضاف . وقد قال تعالى « لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ » فسمّى مواضع الصلاة صلاةً . ويدلّ على هذا التأويل قوله تعالى « وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ » وهذا يقتضى جواز العُبُور للجُنُب فى المسجد لا الصلاة فيه . وقال أبو حنيفة : المراد بقوله تعالى « ولا جُنُباً إلا عابِرِى سبِيلٍ » المسافر إذا لم يجد المـاء فإنه يتيمم ويصلّى؛ وسـيأتى بيانه . وقالت طائفـة : المراد الموضع والصـلاة معا ؛ لأنهم كانوا حينئذٍ لا يأتون المسجد إلا للصلاة ولا يصلون إلا مجتمعين ، فكانا متلازمين .

الخامســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ ابتـداء وخبر ، جملة فى موضع الحال من « تقربوا » . و « سُكَارى » جمع سكران ؛ مثل كسلان وكسالى . وقرأ النَّخَعِىّ « سَكْرَى » بفتح السين على مثال فَعْلَى ، وهو تكسير سكران ؛ وإنمـا كُسّر على سكرى لأن السّكر آفة تلحق العقل فجرى مجرى صَرْعَى وبابِه . وقرأ الأعمش « سُكرَى » كحبلى فهـو صفة مفردة ؛ وجاز الإخبار بالصـفة المفردة عن الجمـاعة على ما يستعملونه من الإخبار عن الجمـاعة بالواحد . والسكر : نقيض الصحو ؛ يقال : سَكِر يَسْكَرَ سكراً ، من باب حَمِد يحمَد . وسَكِرت عينه تَسْكَرُ أى تحيّرت ؛ ومنـه قوله تعـالى : « إِنَّمَـا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا » . وسكرت الشّق سـددته . فالسكران قد ٱنقطع عمـا كان عليه من العقل .

السادســـة ـــ وفى هذه الآية دليل بل نصّ على أن الشرب كان مباحا فى أوّل الإسلام حتى ينتهى بصاحبه إلى السكر . وقال قوم : السّكر محرّم فى العقل وما أبيح فى شىء من

الأديان ؛ وحملوا السّكر في هذه الآية على النوم . وقال القفّال : يحتمل أنه كان أبيح لهم من الشراب ما يحرك الطبع إلى السخاء والشجاعة والحميّة .

قلت : وهذا المعنى موجود في أشعارهم ؛ وقد قال حسان :

* ونشربها فتتركنا ملوكا *

وقد أشبعنا هذا المعنى في «البقرة»(١) . قال القفّال : فأمّا ما يزيل العقل حتى يصيّر صاحبه في حدّ الجنون والإغماء فما أبيح قَصْدُه، بل لو آتفق من غير قصد فيكون مرفوعا عن صاحبه .

قلت : هذا صحيح، وسيأتي بيانه في « المائدة » إن شاء الله تعالى في قصة حمزة(٢) . وكان المسلمون لما نزلت هذه الآية يجتنبون الشراب أوقات الصلوات ، فإذا صلّوا العشاء شربوها ؛ فلم يزالوا على ذلك حتى نزل تحريمها في « المائدة » في قوله تعالى : « فهل أنتم منتهون(٢) » .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ أي حتى تعلموه متيقّنين فيه من غير غلط . والسكران لا يعلم ما يقول؛ ولذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : إن السكران لا يلزمه طلاقه . وروى عن ابن عباس وطاوس وعطاء وآلقاسم وربيعة ، وهو قول اللّيث ابن سعد وإسحاق وأبي ثور والمُزَني؛ وآختاره الطحاوي وقال : أجمع العلماء على أن طلاق المَعْتُوه لا يجوز، والسكران مَعْتُوه كالمُوَسْوِس معتوه بالوَسواس . ولا يختلفون أن من شرب البنج فذهب عقله أن طلاقه غير جائز؛ فكذلك من سكر من الشراب . وأجازت طائفة طلاقَه ؛ وروى عن عمر بن الخطاب ومعاوية وجماعة من التابعين ، وهو قول أبي حنيفة والثّوريّ والأوزاعيّ ، واختلف فيه قول الشافعيّ . وألزمه مالك الطلاق والقَوَد في الجراح والقتل، ولا يلزمه النكاح والبيع . وقال أبو حنيفة : أفعال السكران وعقوده كلّها ثابتة كأفعال الصاحي، إلا الرّدّة فإنه إذا آرتدّ لا تَبين منه آمرأته إلا استحسانا . وقال أبو يوسف : يكون مُرْتَدًّا في حال سكره ؛ وهو قول الشافعيّ إلا أنه لا يقتله في حال سكره ولا يستتيبه .

(١) راجع ج ٣ ص ٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) في المسألة الثالثة آية ٩٠ .

وقال الإمام أبو عبـد الله المَـازَرِى : وقد رُويت عنـدنا رواية شاذة أنه لا يلزم طلاق السكران . وقال محمد بن عبـد الحكم : لا يلزمه طلاق ولا عتاق . قال آبن شاس : ونزّل الشيخ أبو الوليد الخِلاف على المُخَلِّط الذى معه بقيّة من عقله إلا أنه لا يملك آلاختلاط من نفســه فيخطِئ ويصيب . قال : فأما السكران الذى لا يعرف آلأرض من السماء ولا آلرجل من آلمرأة فلا آختلاف فى أنه كالمجنــون فى جميع أفعاله وأحواله فيما بينــه وبين الناس ، وفيما بينه وبين الله تعالى أيضا ؛ إلا فيما ذهب وقته من الصلوات ، فقيل : إنها لا تسقط عنــه بخلاف المجنون ؛ من أجل أنه بإدخاله السكر على نفسه كالمتعمّد لتركها حتى خرج وقتهـا . وقال سفيان الثَّوْرِىّ : حدّ السكر آختــلال العقل ؛ فإذا آستُقْرِئ خلط فى قراءته وتكلّم بمـا لا يعرف جُلِد . وقال أحمد : إذا تغيّر عقله عن حال الصحة فهو سكران ؛ وحُكِى عن مالك نحوه . قال آبن المُنْذِر : إذا خلط فى قراءته فهو سكران ؛ استدلالاً بقول الله تعالى: « حتى تعلموا ما تقولون » . فإذا كان بحيث لا يعلم ما يقــول تجنّب المسجد مخافةَ التلويث ؛ ولا تصح صلاته وإن صلى قضى. وإن كان بحيث يعلم مايقول وأتى بالصلاة فَحُكْمه حُكم الصّاحِى .

الثامنـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنُبًا ﴾ عطف على موضع الجملة المنصوبة فى قوله : « حَتَّى تَعْلَمُوا » أى لا تصلوا وقد أجنبتم . ويقال : تجنبتم وأجنبتم وجُنِبْتم بمعنًى . ولفظ الجُنُب لا يُؤنّث ولا يُثَنَّى ولا يُجمع ؛ لأنه على وزن المصدر كالبُعْد والقُرْب . ورُبّمـا خففوه فقالوا : جَنْب؛ وقد قرأه كذلك قوم. وقال الفَرّاء : يقال جَنُبَ الرجل وأجنب من الجنابة . وقيل : يجمع الجُنُب فى لغـة على أجناب؛ مثلُ عنقٍ وأعناقٍ، وطُنُبٍ وأطنابٍ . ومن قال للواحد جانب قال فى الجمع : جُنّاب ، كقولك : راكِب وركاب . والأصل البعـد ؛ كأنّ الجُنُبَ بَعُدَ بخروج المـاء الدّافق عن حال الصلاة ؛ قال :

فلا تَحْـرِمَنِّى نائلا عن جَنابةٍ * فإنى آمرُؤٌ وَسْطَ القِبَاب غَرِيبُ (١)

ورجل جُنُب : غريب . والجنابة مخالطة الرّجل المرأة .

(١) راجع الحاشية ٢ ص ١٨٣ من هذا الجزء .

التاسعة — والجمهور من الأمة على أن الجُنُب هو غير الطاهر من إنزال أو مجاوزة ختان . وروى عن بعض الصحابة أن لا غسل إلا من إنزال ؛ لقوله عليه السلام : " إنما الماء من الماء " أخرجه مسلم . وفى البخارى عن أُبَىّ بن كعب أنه قال : يا رسول الله، إذا جامع الرجل المرأةَ فلم ينزِل؟ قال : " يَغسِل ما مسّ المرأة منه ثم يتوضأ ويُصلّ ". قال أبو عبد الله[1] : الغسل أحوط ؛ وذلك الآخَر[2] إنما بيناه لاختلافهم . وأخرجه مسلم فى صحيحه بمعناه ، وقال فى آخره : قال أبو العلاء بن الشِّخِّير كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسخ حديثُه بعضُه بعضا كما ينسخ القرآن بعضه بعضا . قال أبو إسحاق : هذا منسوخ . وقال الترمذىّ : كان هذا الحُكْم فى أوّل الإسلام ثم نسِخ .

قلت : على هذا جماعة العلماء من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ، وأن الغسل يجب بنفس التقاء الختانين . وقد كان فيه خِلاف بين الصحابة ثم رجعوا فيه إلى رواية عائشة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جَلس بين شُعَبِها الأربع ومَسّ الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل " . أخرجه مسلم . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قعد بين شُعَبِها الأربع ثم جَهَدَها[3] فقد وجب عليه الغسل " . زاد مسلم " وإن لم ينزِل ". قال ابن القَصّار : وأجمع التابعون ومَن بعدهم بعد خلاف من قبلهم على الأخذ بحديث " إذا التَقَى الختانان " وإذا صح الإجماع بعد الخلاف كان مُسْقِطا للخلاف. قال القاضى عِياض: لانعلم أحدا قال به بعد خلاف الصحابة إلا ما حُكى عن الأَعْمَش ثم بعده داود الأصبهانى. وقد روى أن عمر رضى الله عنه حمل الناس على ترك الأخذ بحديث" الماء من الماء " لما اختلفوا . وتأوّله ابن عباس على الاحتلام ؛ أى إنما يجب الاغتسال بالماء من إنزال الماء فى الاحتلام . ومتى لم يكن إنزال وإن رأى أنه يجامع فلا غسل . وهذا ما لا خلاف فيه بين كافة العلماء .

(١) أبو عبد الله : كنية البخارىّ . (٢) قوله : « وذلك الآخر» أى ذلك الوجه الآخر، أو الحديث الآخر الدال على عدم الغسل . (٣) جهدها : دفعها وحفزها . وقيل : الجهد من أسماء النكاح .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ ﴾ يقال : عَبَرت الطريق أى قطعته من جانب إلى جانب . وعَبَرت النهر عُبورا ، وهذا عِبْر النهر أى شطّه ، و يقال عَبْره . والمِعْبَر ما يُعْبَر عليه من سفينة أو قنطرة . وهذا عابرُ السبيل مارّ الطريق . وناقة عُبْرُ أسفار : لا تَزال يُسافَر عليها ويُقطَع بها الفلاة والهاجرة لسرعة مَشيها . قال الشاعر :

عَيْرانَةٌ سُرُحُ اليَـدَيْن شِمِـلَّةٌ * عُبْرُالهوَاجِرِ كالهِزَفِّ الخاضب (١)

وعَبَرَ القومُ ماتوا . وأنشد :

قضاء الله يغلب كلّ شيء * ويلعب بالجَزُوع وبالصَّبُورِ
فإن نَعْـبُرْ فإنّ لنـا لُمَـاتٍ * وإن نَغْـبُرْ فنحن على نُذُورِ

يقول : إن مِتْنا فلنا أقران ، و إن بقِينا فلا بدّ لنا من الموت ، حتى كأنّ علينا فى إتيانه نذورا .

الحادية عشرة — واختلف العلماء فى قوله : «إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ» فقال علىّ رضى الله عنه وابن عباس وابن جُبير ومُجاهـد والحَكَم : عابِر السبيل المسافر . ولا يصح لأحد أن يقرب الصلاة وهو جُنُب إلا بعد الاغتسال ، إلا المسافر فإنه يتيمم ؛ وهـذا قول أبى حنيفة لأن الغالب فى المـاء لا يُعـدَم فى الحضر . والحاضر يغتسل لوجود المـاء ، والمسافر يتيمّم إذا لم يجده . قال ابن المُنْذِر : وقال أصحـاب الرأى فى الجنب المسافرِ يمرّ على مسجدٍ فيه عين ماء يتيمّم الصعيدَ ويدخل المسجد ويستقى منهـا ثم يُخرج المـاء من المسجد . ورخّصت طائفة فى دخول الجنب المسجد . واحتج بعضهم بقول النبىّ صلى الله عليـه وسلم : "المؤمن ليس بنجس" . قال ابن المُنْـذِر : وبه نقول . وقال ابن عباس أيضا وابن مسعود وعِكرمة والنَّخَعِىّ : عابر السبيل الخاطر المجتاز ؛ وهو قول عمرو بن دِينار ومالك والشافعىّ . وقالت طائفة : لا يمرّ الجنب فى المسجد إلّا ألا يجِد بُدًّا فيتمم ويمرّ فيه ؛ هكذا قال الثورىّ وإسحاق ابن رَاهَوَيْه . وقال أحمـد وإسحـاق فى الجنب : إذا توضّأ لا بأس أن يجلس فى المسجد ؛

---

(١) العيرانة من الإبل : الناجية فى نشاط . والسرح من الإبل : السريعة المشى . وشملة : خفيفة سريعة مشمرة . والهزف : الجافى من الظلمان . وقيل : الطويل الريش . والخاضب : الظليم اذا أكل الربيع فاحمرّت ساقاه وقوادمه .

حكاه ابن المنذر . وروى بعضهم فى سبب الآية أن قوما من الأنصار كانت أبواب دُورِهم شارِعةً فى المسجد، فإذا أصاب أحدهم الجنابة اضطر إلى المرور فى المسجد .

قلت : وهذا صحيح ؛ يَعْضُده ما رواه أبو داود عن جَسْرة بنت دَجاجة قالت سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه بيوتِ أصحابه شارِعة فى المسجد ؛ فقال : " وجِّهُوا هـذه البيوت عن المسجد " . ثم دخل النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم يصنع القوم شيئا رجاءَ أن ينزل فيهم رخصة فخرج إليهم بعدُ فقال : " وجِّهُوا هذه البيوت عن المسجد فإنى لا أُحِل المسجد لحائِض ولا جُنُب " . وفى صحيح مسلم : "لا تبقيَنّ فى المسجد خَوْخَة إلا خَوْخة أبى بكر". فأمر صلى الله عليه وسلم بسدّ الأبواب لما كان يؤدّى إلى اتخاذ المسجد طريقا والعُبورِ فيه. واستثنى خَوْخة أبى بكر إكراما له وخصوصية ؛ لأنهما كانا لا يفترقان غالبا . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن أذن لأحد أن يمرّ فى المسجد ولا يجلس فيه إلا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . رواه عطيّة العَوْفِىّ عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ينبغى لمسلم ولا يصح أن يجنب فى المسجد إلا أنا وعلىّ " . قال علماؤنا : وهـذا يجوز أن يكون ذلك ؛ لأن بيت علىّ كان فى المسجد، كما كان بيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المسجد . و إن كان البيتان لم يكونا فى المسجد ولكن كانا متصِلَيْن بالمسجد وأبوابهما كانت فى المسجد فجعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد فقال : " ما ينبغى لمسلم " الحديث . والذى يدلّ على أن بيت علىّ كان فى المسجد ما رواه ابن شِهاب عن سالم بن عبد الله قال : سأل رجل أبِى عن علىّ وعثمان رضى الله عنهما أيّهما كان خيرا ؟ فقال له عبد الله بن عمر : هذا بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأشار إلى بيت علىّ إلى جنبه ، لم يكن فى المسجد غيرهما ؛ وذكر الحديث . فلم يكونا يجنبان فى المسجد وإنما كانا يجنبان فى بيوتهما، وبيوتهما من المسجد إذ كان أبوابهما فيه ؛ فكانا يستطرقانه فى حال الجنابة إذا خرجا من بيوتهما . ويجوز أن

(١) الخوخة (بفتح الخاء) : الباب الصغير بين البيتين أو الدارين .

يكون ذلك تخصيصا لها ؛ وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم خُصّ بأشياء ، فيكون هذا مما خُصّ به، ثم خص النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا عليه السلام فرخّص له في ما لم يرخِّص فيه لغيره . وإن كانت أبواب بيوتهم في المسجد، فإنه كان في المسجد أبواب بيوتٍ غيرِ بَيْتَيْهما ؛ حتى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بسدّها إلا باب عليّ . وروى عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سُدُّوا الأبواب إلا باب عليّ" فخصّه عليه السلام بأن ترك بابه في المسجد، وكان يجنب في بيتــه وبيته في المسجد . وأما قوله : "لا تبقينّ في المسجد خَوْخة إلا خَوْخة أبي بكر" فإن ذلك كانت — والله أعلم — أبوابا تطلع إلى المســجد خوخات، وأبواب البيوت خارجة من المسجد ؛ فأمر عليــه السلام بســدّ تلك الخَوْخات وترك خَوْخة أبي بكر إكرامًا له . والخَوْخات كالكُوَى والمشاكى وباب عليّ كان بابَ البيت الذى كان يدخل منــه ويخرج . وقد فسّر ابن عمر ذلك بقــوله : ولم يكن في المسجد غيرهمــا .

فإن قيل : فقد ثبت عن عطاء بن يَسار أنه قال : كان رجال من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم تصيبهم الجنابة فيتوضئون ويأتون المسجد فيتحدّثون فيه . وهذا يدل على أن اللّبث في المسجد للجنب جائز إذا توضأ ؛ وهو مذهب أحمد وإسحاق كما ذكرنا . فالجواب أن الوضوء لا يرفع حدث الجنابة،وكلُّ موضع وُضِع للعبادة وأُكرِم عن النجاسة الظاهرة ينبغى ألّا يدخله من لا يرضى لتلك العبادة، ولا يصح له أن يتلبس بهــا . والغالب من أحوالهم المنقولة أنهم كانوا يغتسلون في بيوتهــم . فإن قيــل : يبطل بالمحدث . قلنا : ذلك يكثر وقوعه فيشــقّ الوضوء منــه ؛ وفي قوله تعالى : « وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ » ما يُغْنى ويَكْفِى . وإذا كان لا يجوز له اللبث في المسجد فأحرى له ألّا يجوز له مسّ المصحف ولَا القراءة فيــه ؛ إذ هو أعظم حُرْمة . وسيأتي بيانه في «الواقعة» (١) إن شاء الله تعالى .

الثــانية عشرة — ويُمنع الجُنُب عند علمائنا من قراءة القرآن غالبًا إلا الآيات اليســيرة للتعوّذ . وقد روى موسى بن عُقبــة عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليــه

(١) آية ٧٩

وسلم : " لا يقرأ الْجُنُبُ والحائضُ شيئا من القرآن " أخرجه ٱبن ماجه. وأخرج الدّارَقُطْنِيّ من حديث سُفيان عن مِسْعَر وشعبة عن عمرو بن مُرّة عن عبد الله بن سَلمة عن عليّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحجبه عن قراءة القرآن شيء إلا أن يكون جُنُباً . قال سفيان قال لى شعبة : ما أحدّث بحديث أحسنَ منه . وأخرجه ٱبن ماجه قال : حدّثنا محمد ٱبن بشّار حدّثنا محمد بن جعفر حدّثنا شعبة عن عمرو بن مرّة ؛ فذكره بمعناه ، وهذا إسناد صحيح . وعن ٱبن عباس عن عبد الله بن رَوَاحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَى أن يَقرأ أحَدُنا القرآن وهو جنُب ؛ أخرجه الدّارَقُطْنِيّ . ورَوَى عن عكرمة قال : كان ٱبن رَوَاحة مضطجِعاً إلى جَنْب ٱمرأته فقام إلى جارية له فى ناحية الحجرة فوقع عليها ؛ وفزعت ٱمرأته فلم تجده فى مضجعه ، فقامت وخرجت فرأته على جاريته ، فرجعت إلى البيت فأخذت الشَّفرة ثم خرجت ، وفرغ فقام فلقيها تحمل الشَّفْرة فقال : مَهْيَمْ؟[1] قالت : مَهْيَمْ ! لو أدركتك حيث رأيتك لَوَجَأْتُ[2] بين كتفيك بهذه الشَّفرة . قال : وأين رأيتنى ؟ قالت : رأيتك على الجارية ؛ فقال : ما رأيتنى ؛ وقد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقرأ أحدُنا القرآن وهو جُنُب . قالت : فٱقرأ ، فقال :

أتانا رسول الله يتلو كتابه * كما لاح مشهورٌ من الفجر ساطِعُ
أتى بالهدى بعد العَمَى فقلوبُنا * به موقنات أنّ ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه * إذا ٱستثقلت بالمشركين المضاجع

فقالت : آمنت بالله وكذّبت البصر . ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ؛ فضحك حتى بَدَت نواجِذُه صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ نهى الله سبحانه وتعالى عن الصلاة إلا بعد الاغتسال ، والاغتسال معنًى معقول ، ولفظه عند العرب معلوم ، يعبّر به عن إمرار

(١) مهيم : كلمة يمانية يستفهم بها ، معناها : ما حالك وما شأنك ، وما هذا الذى أرى بك ، ونحو هذا من الكلام .
(٢) الوجء : الضرب .

اليد مع المـاء على المغسول، ولذلك فرّقت العرب بين قولهم : غسلت الثوب، وبين قولهم : أفضتُ عليه المـاء وغمسته فى المـاء . وإذا تقرّر هـذا فآعلم أن العلمـاء آختلفوا فى الجُنُب يَصُبُّ على جسده المـاء أو ينغمِس فيه ولا يتدلّك؛ فالمشهور من مذهب مالك أنه لا يجزئه حتى يتدلّك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمر الجُنُب بالآغتسال، كما أمر المتوضئَ بغسل وجهه ويديه ؛ وهـذا قول المُزَنِيّ وآختياره . قال أبو الفرج عمرو بن محمد المـالكى : وهـذا هو المعقول من لفظ الغسل ؛ لأن الاغتسال فى اللغة هو الآفتعال ، ومن لم يمرّ يديه فلم يفعل غير صب المـاء لا يسميه أهل اللّسان غاسِلا، بل يسمّونه صابّاً للمـاء ومنغمِسًا فيه . قال : وعلى نحوِ هذا جاءت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تحت كلِّ شعرةٍ جنابة فآغسِلوا الشعر وأنْقُوا البشرة" قال: وإنقاؤه ـــ والله أعلم ـــ لا يكون إلا بتَتَبُّعه؛ على حدّ ما ذكرنا .

قلت : لا حجة فيما آستُدِلّ به من الحديث لوجهين: أحدهما ـــ أنه قد خُولف فى تأويله؛ قال سفيان بن عُيَيْنَة : المراد بقوله عليه السلام "وأَنْقُوا البَشَرة" أراد غسل الفرج وتنظيفه، وأنه كنى بالبشرة عن الفرج . قال ابن وهب :ما رأيت أعلم بتفسير الأحاديث من آبن عيينة .

الثـانى : أن الحديث أخرجه أبو داود فى سننه وقال فيه : وهـذا الحديث ضعيف؛ كذا فى رواية آبن داسته . وفى رواية اللُّؤْلُئِيّ عنـه : الحارث بن وجيه ضعيف ، حديثـه منكر ؛ فسقط الاستدلال بالحديث ، وبقِي المعوّل على اللسان كما بيّنا . ويَعْضُـدُه ما ثبت فى صحيح الحديث أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أُتِيَ بصبيّ فبال عليه ، فدعا بمـاء فأتبعه بولَه ولم يغسله ؛ رواته عائشة، ونحوه عن أم قيس بنت محصن؛ أخرجهما مسلم . وقال الجمهور من العلماء وجماعة الفقهاء : يُجزِئ الجُنُبَ صَبُّ المـاء والآنغماس فيـه إذا أسبغ وعمّ وإن لم يتدلّك ؛ على مقتضى حديث ميمونة وعائشة فى غسل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . رواهما الأئمة، وأن النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم كان يفيض المـاء على جسده ؛ وبه قال محمد بن عبد الحكم، وإليـه رجع أبو الفرج ورواه عن مالك قال : وإنمـا أمر بإمرار اليـدين فى الغسل لأنه لا يكاد من لم يُمِرّ يديه عليه يسلم من تنكّب المـاء عن بعض ما يجب عليه من جسده . قال

آبن العربي : وأعجب لأبي الفرج الذى رأى وحكى عن صاحب المذهب أن الغسل دون ذلك يجزئ ! وماقاله قطُّ مالكٌ نَصًّا ولا تَخْرِيجا، و إنما هى من أوهامه .

قلت : قد رُوِى هذا عن مالك نصًّا؛ قال مروان بن محمد الظّاهرى وهو ثِقة من ثِقات الشاميين : سألت مالك بن أنس عن رجلٍ آنغمس فى ماء وهو جُنُب ولم يتوضأ ، قال : مضت صلاته . قال أبو عمر : فهذه الرواية فيها لم يتدلّك ولا توضّأ ، وقد أجزأه عند مالك . والمشهور من مذهبه أنه لا يُجزِئه حتى يتدلّك ؛ قياسًا على غَسْل الوجه واليدين . وحجة الجماعة أن كل من صبّ عليه الماء فقد آغتسل . والعرب تقول : غسلتنى السّماء . وقد حكت عائشة وميمونة صفة غُسْل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يذكرا تدلّكا ، ولو كان واجبًا ماتركه ؛ لأنه المبيّن عن الله مرادَه ، ولو فعله لَنُقِل عنه ؛ كما نُقِل تخليلُ أصولِ شعره بالماء وغَرْفه على رأسه ، وغيرذلك من صفة غُسْله ووضوئه عليه السلام . قال أبو عمر : وغير نكير أن يكون الغسل فى لسان العرب مرّةً بالعَرْك(1) ومرّةً بالصّبّ والإفاضة؛ وإذا كان هذا فلا يمتنع أن يكون الله جلّ وعزّ تعبّد عِباده فى الوضوء بإمرار أيديهم على وجوههم مع الماء ويكون ذلك غَسْلًا ، وأن يفيضوا الماء على أنفسهم فى غُسْل الجنابة والحيض ويكون ذلك غُسْلَا موافقا للسّنّة غير خارج من اللّغة ، ويكون كل واحد من الأمرين أصلًا فى نفسه ، لا يجب أن يردّ أحدهما إلى صاحبه ؛ لأن الأصول لا يُرَدّ بعضها إلى بعض قياسًا — وهذا ما لاخلاف فيه بين علماء الأمة — و إنما تردّ الفروع قياسا على الأصول . وبالله التوفيق .

الرابعة عشرة — حديث ميمونة وعائشة يردّ ما رواه شعبة مولى آبن عباس عن آبن عباس أنه كان إذا آغتسل من الجنابة غَسَل يديه سبعًا وفرْجَه سبعًا . وقد روى عن آبن عمر قال : كانت الصلاة خمسين، والغسل من الجنابة سبع مرار، وغسل البول من الثوب سبع مرار؛ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل حتى جعِلت الصلاة خمسا، والغسل من الجنابة

(1) العرك : الدلك .

مرة، والغسل من البول مرة . قال ٱبن عبد البر : و إسناد هـذا الحديث عن ابن عمر فيـه ضَعْف ولين، و إن كان أبو داود قد خرّجه والذى قبله عن شعبة مولى ابن عباس، وشـعبة هذا ليس بالقوِىّ، و يردّهما حديث عائشة وميمونة .

الخامسة عشرة — ومن لم يستطِع إمرار يده على جسده فقد قال سُحْنُون : يجعل من يلِي ذلك منه، أو يعالجه بخِرقة . وفى الواضحة يمرّ يديه على ما يدرِكه من جسـده، ثم يفيض المـاء حتى يعمّ ما لم تبلغه يداه .

السادسة عشرة — واختلف قول مالك فى تخليـل الجنب لحيته ؛ فروى ٱبن القاسم عنه أنه قال : ليس عليـه ذلك . وروى أشهب عنه أن عليـه ذلك . قال ٱبن عبـد الحكم : ذلك هو أحب إلينا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخلّل شعره فى غسـل الجنابة، وذلك عامّ و إن كان الأظهر فيه شعر رأسه ؛ وعلى هـذين القولين العلماءُ . ومن جهة المعنى أن ٱستيعاب جميع الجسد فى الغسل واجب ،والبشرةُ التى تحت اللحية من جملته؛ فوجب إيصال المـاء إليها ومباشرتها باليد . و إنمـا انتقل الفرض الى الشعر فى الطهارة الصغرى لأنها مبنية على التخفيف . ونيابة الأبدال فيهـا من غير ضرورة ؛ ولذلك جاز فيها المسـح على الخفين ولم يجز فى الغسل .

قلت : ويَعْضُد هذا قولهُ صلى الله عليه وسلم : ”تحت كلِّ شعرةٍ جنابة“ .

السابعة عشرة — وقد بالغ قوم فأوجبوا المضمضة والٱستنشاق؛ لقوله تعالى : « حَتَّى تَغْتَسِـلُوا » منهم أبو حنيفة ؛ ولأنهما من جمـلة الوجه وحكمهما حكم ظاهرِ الوجه كالخـدّ والجبين، فمن تركهما وصـلّى أعاد كمن ترك لُمْعة (١) ، ومن تركهما فى وضوئه فلا إعادة عليـه . وقال مالك : ليستا بفَرْضٍ لا فى الجنـابة ولا فى الوضوء ؛ لأنهما باطنان كداخل الجسـد . وبذلك قال محمد بن جرير الطّبرِىّ والليث بن سعد والأوْزاعِىّ وجماعة من التابعين . وقال ٱبن أبى لَيْلَى وحماد بن أبى سليمان : هما فرض فى الوضوء والغسـل جميعا؛ وهو قول إسحاق

---

(١) اللمة : الموضع لا يصيبه المـاء فى الوضوء أو الغسل .

وأحمد بن حنبل و بعض أصحاب داود . ورُوى عن الزُّهْرِيّ وعطاء مثل هذا القول. وروى عن أحمد أيضا أن المضمضة سنة والاستنشاق فرض ؛ وقال به بعض أصحاب داود . وحجة من لم يوجبهما أن الله سبحانه لم يذكرهما فى كتابه ، ولا أوجبهما رسوله ، ولا آتفق الجميع عليه؛ والفرائض لا تثبت إلا بهذه الوجوه . احتجّ من أوجبهما بالآية، وقوله تعالى : « فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ » فما وجب فى الواحد من الغسل وجب فى الآخر ؛ والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُحفظ عنه أنه ترك المضمضة والاستنشاق فى وضوئه ولا فى غسله من الجنابة ؛ وهو المُبَيِّن عن الله مرادَه قولًا وعملا . احتجّ من فَرَق بينهما بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فعل المضمضة ولم يأمر بها ، وأفعاله مندوب إليها ليست بواجبة إلا بدليل ، وفعلَ الاستنشاق وأمر به ؛ وأمْرُه على الوجوب أبدا .

الثامنة عشرة — قال علماؤنا : ولا بدّ فى غسل الجنابة من النيّة؛ لقوله تعالى : « حَتَّى تَغْتَسِلُوا » وذلك يقتضى النية ؛ و به قال مالك والشافعيّ وأحمد و إسحاق وأبو ثَوْر، وكذلك الوضوء والتيمم. وعَضَدُوا هذا بقوله تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » والإخلاصُ النيّةُ فى التقرُّب الى الله تعالى ، والقصدُ له بأداء ما آفترض على عباده المؤمنين، وقال عليه السلام : " إنما الأعمال بالنيات " وهذا عمل . وقال الأَوْزَاعِيّ والحسن : يُجْزِئ الوضوءُ والتيممُ بغير نيّة . وقال أبو حنيفة وأصحابه : كلّ طهارة بالماء فإنها تُجزِئ بغير نية ، ولا يُجزِئ التيممُ إلا بنية ؛ قياسا على إزالة النجاسة بالإجماع من الأبدان والثياب بغير نية . و رواه الوليد بن مسلم عن مالك .

التاسعة عشرة — وأما قدر الماء الذى يغتسل به ؛ فروى مالك عن آبن شهاب عن عُروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل من إناء هو الفرق من الجنابة . « الفرق » تُحرَّك راؤه وتُسكّن . قال آبن وهب : « الفرق » مكيال من الخشب، كان آبن شهاب يقول : إنه يسع خمسة أقساط بأقساط بنى أميّة . وقد فسر محمد بن عيسى الأعشى « الفرق » فقال : ثلاثة آصُع ، قال وهى خمسة أقساط ، قال

وفى الخمسة أقساط اثنا عشرا مُدًّا بمُدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم. وفى صحيح مسلم قال سفيان: « الفرق » ثلاثة آصع. وعن أنس قال: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمُدّ ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد. وفى رواية: يغتسل بخمسة مكاكِيك ويتوضأ بمَكُّوك[1]. وهذه الأحاديث تدل على آستحباب تقليل الماء من غير كيل ولا وزن، يأخذ منه الإنسان بقدر ما يكفي ولا يُكثِر منه، فإن الإكثار منه سَرَف والسَّرف مذموم. ومذهب الأباضيّة الإكثار من الماء، وذلك من الشيطان.

الموفية عشرين — قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ ٱلْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ هذه آية التيمم، نزلت فى عبد الرحمن بن عوف أصابته جنابة وهو جريح؛ فرُخّص له فى أن يتيمّم، ثم صارت الاية عامّة فى جميع الناس. وقيل: نزلت بسبب عدم الصحابة الماء فى غزوة «المُرَيْسِيع»[2] حين انقطع العِقد لعائشة. أخرج الحديث مالك من رواية عبد الرحمن ابن القاسم عن أبيه عن عائشة. وترجم البخاريّ هذه الآية فى كتاب التفسير: حدّثنا محمد قال أخبرنا عَبدة عن هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: هلكت قِلادة لأسماء فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم فى طلبها رجالا، فحضرت الصلاة وليسوا على وضوء ولم يجدوا ماء فصلوا وهم على غير وضوء؛ فأنزل الله تعالى آية التّيَمُّم.

قلت: وهذه الرواية ليس فيها ذكر للموضع، وفيها أن القِلادة كانت لأسماء؛ خلافُ حديث مالك. وذكر النَّسائيّ من رواية على بن مُسْهِر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها آستعارت من أسماء قِلادةً لها وهى فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآنسلّت منها وكان ذلك المكان يقال له الصُّلْصل[3]؛ وذكر الحديث. ففى هذه الرواية عن

(١) المكوك (كتنور): مكيال معروف لأهل العراق، والجمع مكاكيك ومكاكىّ؛ وأراد به المدّ. وقيل: الصاع. والأول أشبه لأنه جاء فى حديث آخر مفسرا بالمدّ.

(٢) المريسيع (مصغر مرسوع): بئر أو ماء لخزاعة على يوم من الفرع، وإليه تضاف غزوة بنى المصطلق.

(٣) الصلصل (بضم أوله و يفتح): موضع على بعد سبعة أميال من المدينة. (عن معجم البلدان).

هشام أن القِلادة كانت لأسماء، وأن عائشة استعارتها من أسماء. وهذا بيان لحديث مالك إذ قال: انقطع عِقد لعائشة، ولحديث البخاري إذ قال: هلكت قِلادة لأسماء. وفيه أن المكان يقال له الصلصل. وأخرجه الترمذي حدّثنا الحُمَيْدي حدّثنا سفيان حدّثنا هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة أنها سقطت قِلادتُها ليلة الأَبْواء، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين في طلبها؛ وذكر الحديث. ففي هذه الرواية عن هشام أيضا إضافة القِلادة إليها، لكن إضافة مستعير بدليل حديث النّسائي. وقال في المكان: «الأبواء» كما قال مالك، إلا أنه من غير شك. وفي حديث مالك قال: وبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العِقد تحته. وجاء في البخاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجده. وهذا كله صحيح المعنى، وليس اختلاف النَّقَلة في العِقد والقِلادة ولا في الموضع ما يقدح في الحديث ولا يُوهِن شيئا منه؛ لأن المعنى المرادَ من الحديث والمقصودَ به إليه هو نزول التيمم، وقد ثبتت الروايات في أمر القِلادة. وأما قوله في حديث التِّرمذي: فأرسل رجلين قيل أحدهما أسيد ابن حُضير. ولعلهما المراد بالرّجال في حديث البخاري فعبّر عنهما بلفظ الجمع، إذ أقل الجمع اثنان، أو أردف في أثرهما غيرهما فصح إطلاق اللفظ، والله أعلم. فبعثوا في طلبها فطلبوا فلم يجدوا شيئا في وجهتهم، فلما رجعوا أثاروا البعير فوجدوه تحته. وقد رُوي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابتهم جِراحة ففشت فيهم ثم ٱبتُلوا بالجنابة فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية. وهذا أيضا ليس بخلاف لما ذكرنا؛ فإنهم ربما أصابتهم الجِراحة في غزوتهم تلك التي قفلوا منها إذ كان فيها قتال فشكَوْا وضاع العِقد ونزلت الآية. وقد قيل: إن ضياع العِقد كان في غَزاة بني المُصْطَلِق. وهذا أيضا ليس بخلاف لقول من قال في غزاة المُرَيْسيع، إذ هي غزاة واحدة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم غزا بني المُصْطَلِق في شعبان من السنة السادسة من الهجرة، على ما قاله خليفة بن خَيّاط وأبو عمر بن عبد البر، واستعمل على المدينة أبا ذَرٍّ الغِفاري. وقيل: بل نُمَيلة بن عبد الله اللَّيثي. وأغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المُصْطَلِق وهم غارون على ماء يقال له

المُرَيْسِيع من ناحية قُدَيدٍ مما يلي الساحل، فقتل مَن قتل وسَبَى النساءَ والذّرية وكان شعارهم يومئـذ : أمِتْ أمِت . وقد قيل : إن بني المُصْطَلِق جمعوا لرسول الله صلى الله عليـه وسلم وأرادوه، فلما بلغه ذلك خرج إليهم فلَقِيَهم على ماء . فهذا ما جاء في بدء التيمم والسبب فيه . وقد قيـل : إن آية المـائدة آيةُ التيمم ، على ما يأتي بيانه هناك . قال أبو عمر : فأنزل الله تعـالى آية التيمم، وهي آية الوضوء المذكورة في سورة « المـائدة »، أو الآية التي في سورة «النساء» ؛ ليس التيمم مذكورا في غير هاتين الآيتين وهما مَدَنيّتان .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مَرْضَى ﴾ المرض عبارة عن خروج البدن عن حدّ الأعتدال ، والأعتياد إلى الأعوجاج والشـذوذ . وهو على ضربين : كثير ويسير؛ فإذا كان كثيرا بحيث يخاف الموت لبرد المـاء ، أو للعلة التي به ، أو يخاف فوت بعض الأعضاء ، فهذا يتيمم بإجمـاع؛ إلا ما رُوِي عن الحسن وعطاء أنه يتطهر و إن مات . وهـذا مردود بقوله تعالى : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وقوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن سعيد بن جُبير عن آبن عباس في قوله عز وجل: « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ » قال : إذا كانت بالرجل الجِراحة في سبيل الله أو القروح أو الجُدَرِيّ فيَجْنَب فيخاف أن يموت إن آغتسل تيمم . وعن سعيد بن جُبير أيضا عن آبن عباس قال : رُخِّص للمريض في التيمم بالصَّعيد. وتيمّم عمرو بن العاص لمـا خاف أن يَهلِك من شدّة البرد ولم يأمره صلى الله عليه وسلم بغسلٍ ولا إعادة . فإن كان يسيرا إلّا أنه يخاف معه حدوثَ علة أو زيادتَها أو بطء بُرْءٍ فهؤلاء يتيمّمون بإجماع من المذهب . قال آبن عطية : فيما حفظت .

قلت : قد ذكر البَاجِيّ فيه خلافا ؛ قال القاضي أبو الحسن : مثل أن يخاف الصحيح نَزْلةً أو حُمّى ، وكذلك إن كان المريض يخاف زيادة مرض ؛ و بنحو ذلك قال أبو حنيفة . وقال الشافعيّ: لايجوز له التيمم مع وجود المـاء إلا أن يخاف التلف؛ ورواه القاضي أبو الحسن عن مالك . قال آبن العربيّ : « قال الشافعيّ لا يباح التيمم للمريض إلا إذا خاف التلف ، لأن زيادة المرض غير متحققة ؛ لأنها قد تكون وقد لا تكون ، ولا يجوز ترك الفرض المتيقّن

للخوف المشكوك . قلنا : قد ناقضت ؛ فإنك قلت إذا خاف التلف من البرد تيمم ؛ فكما يبيح التيمم خوف التلف كذلك يبيحه خوف المرض ؛ لأن المرض محذور كما أن التلف محذور . قال : وعجباً للشافعيّ يقول : لو زاد الماء على قدر قيمته حبة لم يلزمه شراؤه صيانة للمال ويلزمه التيمم ، وهو يخاف على بدنه المرض! وليس [عليه][1] لهم كلام يساوى سماعه » .

قلت : الصحيح من قول الشافعيّ فيما قال القُشيرِيّ أبو نصر عبد الرحيم فى تفسيره : والمرض الذى يباح له التيمم هو الذى يخاف فيه فوت الروح أو فوات بعض الأعضاء لو استعمل الماء . فإن خاف طول المرض فالقول الصحيح للشافعيّ : جواز التيمم . روى أبو داود والدّارَقُطْنِيّ عن يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبى حبيب عن عمران بن أبى أنس عن عبد الرحمن ابن جُبير عن عمرو بن العاص قال : احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلِك ؛ فتيممت ثم صلّيتُ بأصحابى الصبح ؛ فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عمرو : " صليت بأصحابك وأنت جنب " ؟ فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال وقلت : إنى سمعت الله عز وجل يقول : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » فضحك نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا . فدلّ هذا الحديثُ على إباحة التيمم مع الخوف لا مع اليقين ، وفيه إطلاق اسم الجنب على المتيمم وجواز صلاة المتيمم بالمتوضئين ؛ وهذا أحد القولين عندنا ؛ وهو الصحيح الذى أقرأه مالك فى موطّئه وقُرِئ عليه إلى أن مات . والقول الثانى — أنه لا يصلى؛ لأنه أنقص فضيلة من المتوضئ ، وحُكم الإمام أن يكون أعلى رتبة ؛ وقد روى الدّارَقُطْنِيّ من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤُمّ المتيمم المتوضئين " إسناده ضعيف . وروى أبو داود والدّارَقُطْنِيّ عن جابر قال : خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجّه فى رأسه ثم احتلم ، فسأل أصحابه هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ؛ فاغتسل فمات ، فلما قدِمنا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أُخبِر بذلك فقال:

(١) زيادة عن ابن العربى .

" قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شِفاء ٱلعِيِّ[(١)] السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويَعْصِر أو يَعصِب — شكّ موسى — على جرحه خرقة ثم يمسح عليها و يغسل سائر جسده " . قال الدّارَقُطْنِيّ : «قال أبو بكر هذه سنة تفرّد بها أهل مكة وحملها أهل الجزيرة، ولم يروه عن عطاء عن جابر غير الزّبير بن خُرَيق ، وليس بالقوىّ، وخالفه الأوزاعى فرواه عن عطاء عن ٱبن عباس. وٱختُلف على الأوزاعى فقيل عنه عن عطاء، وقيل عنه : بلغنى عن عطاء، وأرسل الأوزاعىّ آخره عن عطاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وقال ابن أبى حاتم : سألت أَبِى وأبا زُرْعة عنه فقالا : رواه ٱبن أبى العشرين عن الأوزاعىّ عن إسماعيل بن مسلم عن عطاء عن ٱبن عباس، وأسند الحديث » . وقال داود : كل من ٱنطلق عليه ٱسم المريض بجائزله التيمم ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى » . قال ابن عطية : وهذا قول خُلْف ، وإنما هو عند علماء الأمة لمن خاف من ٱستعمال الماء أو تأذّيه به كالمجدور والمحصوب ، والعلل المَخُوف عليها من الماء ؛ كما تقدّم عن ٱبن عباس .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ يجوز التيمم بسبب السفر طال أو قصر عند عدم الماء، ولا يشترط أن يكون مما تقصر فيه الصلاة؛ هذا مذهب مالك وجمهور العلماء . وقال قوم : لا يتيمم إلا فى سفر تقصر فيه الصلاة . وٱشترط آخرون أن يكون سفر طاعة . وهذا كله ضعيف . والله أعلم .

الثالثة والعشرون — أجمع العلماء على جواز التيمم فى السفر حسبما ذكرنا، واختلفوا فيه فى الحضر؛ فذهب مالك وأصحابه إلى أن التيمم فى الحضر والسفر جائز؛ وهو قول أبى حنيفة ومحمد . وقال الشافعى : لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف ؛ وهو قول الطبرى . وقال الشافعى ايضا والليث والطبرى : إذا عَدِم الماءَ فى الحضر مع خوف الوقت الصحيحُ والسقيمُ تيمّم وصلّى ثم أعاد . وقال أبو يوسف وزُفَر : لا يجوز التيمم فى الحضر لا لمرض ولا لخوف الوقت . وقال الحسن وعطاء : لا يتيمم المريض إذا وجد الماء ولا غير

(١) العى (بالكسر) : الجهل .

المريض . وسبب الخلاف آختلافهــم فى مفهوم الآية ؛ فقال مالك ومن تابعــه : ذكر الله تعالى المرضى والمسافرين فى شرط التيمم خُرِّج على الأغلب فيمن لا يجد المــاء ، والحاضرون الأغلب عليهم وجودُه فلذلك لم ينصّ عليهم . فكل من لم يجد المــاء أو منعــه منه مانع أو خاف فوات وقت الصــلاة تيم المسافر بالنص ، والحاضرُ بالمعنى . وكذلك المريض بالنص والصحيح بالمعنى . وأما من مَنعه فى الحضر فقال : إن الله تعالى جعل التيمم رخصة للريض والمسافر ؛ كالفِطر وقصر الصلاة ، ولم يبـح التيمم إلا بشرطين : وهما المرض والسفر ؛ فلا دخول للحاضر الصحيح فى ذلك لخروجه من شرط الله تعالى . وأما قول الحسن وعطاء الذى منعه جمــلةً مع وجود المــاء فقال : إنمــا شرطه الله تعالى مع عدم المــاء ؛ لقوله تعالى : « فلم تجدوا ماءً فتيمموا » فلم يُبح التيمم لأحد إلا عند فقد المــاء . وقال أبو عمر : ولولا قول الجمهـور وما رُوى من الأثر لكان قول الحسن وعطاء صحيحا ؛ والله أعلم . وقــد أجاز رســول الله صلى الله عليه وسلم التيمم لعمرو بن العاص وهو مسافر إذ خاف الهلاك إن آغتسل بالمــاء ، فالمريض أحرى بذلك .

قلت : ومن الدليل على جواز التيمم فى الحضر إذا خاف فوات الصــلاة إن ذهب إلى المــاء الكتابُ والسنة :

أما الكتاب فقوله سبحانه : « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » يعنى المقيم إذا عدِم المــاء تيم . نصّ عليــه القُشَيْرِىّ عبد الرحيم قال : ثم يقطع النظر فى وجوب القضاء ؛ لأن عدم المــاء فى الحضر عذر نادر وفى القضاء قولان .

قلت : وهكذا نص أصحــابنا فيمن تيم فى الحضر ، فهل يعيــد إذا وجد المــاء أم لا ؛ المشهور من مذهب مالك أنه لا يعيد وهو الصحيح . وقال آبن حبيب ومحمد بن عبد الحكم : يعيد أبدا ؛ ورواه آبن المُنذر عن مالك . وقال الوليد عنه : يغتسل وإن طلعت الشمس .

وأما السُّنّة فمــا رواه البخارىّ عن أبى الجُهَيم بن الحارث بن الصِّمّة الأنصارىّ قال : أقبل النبىّ صلى الله عليه وسلم من نحو « بئر جَمَل »(١) فلقيه رجل فسلّم عليه فلم يردّ عليــه النبىّ

(١) بئر جمل : موضع بقرب المدينة .

صلى الله عليه وسلم حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه، ثم ردّ عليه السلام . وأخرجه مُسْلم وليس فيـه لفظ « بِئر » (١) . وأخرجه الدّارقطنيّ من حديث ابن عمر وفيـه « ثم ردّ على الرّجل السلام وقال : " إنه لم يمنعنى أن أردّ عليك السلام إلا أنى لم أكن على طهرٍ " » .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ الغائط أصـله ما انخفض من الأرض، والجمـع الغيطان والأغواط ؛ وبه سُمِّىَ غُوطة دِمَشْـق . وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تَسَتُّراً عن أعين الناس، ثم سُمِّىَ الحدث الخارج من الإنسان غائطا للمقارنة . وغاط فى الأرض يغوط إذا غاب .

وقرأ الزُّهْرِىّ : « من الغَيْطِ » فيحتمل أن يكون أصـله الغَيِّط فخفف ، كهَـين وميّت وشبهه . ويحتمل أن يكون من الغوط ؛ بدلالة قولهم تغوّط إذا أتى الغائط ، فقلبت واو الغـوط ياء ؛ كما قالوا فى لا حَوْل لا حَيْل . و « أو » بمعنى الواو ، أى إن كنتم مرضى أو على سفر وجاء أحد منكم من الغائط فتيمموا فالسبب الموجِب للتيمم على هذا هو الحدث لا المرض والسفر ؛ فدلّ على جواز التيمم فى الحضر كما بيناه . والصحيح فى « أو » أنها على بابهـا عند أهل النظر . فلِأَوْ معناها، وللواو معناها . وهـذا عندهم على الحذف ، والمعنى وإن كنتم مرضى مرضا لا تقدرون فيه على مَسّ المـاء أو على سفرٍ ولم تجـدوا ماء واحتجتم إلى المـاء . والله أعلم .

الخامسة والعشرون — لفظ « الغائِط » يجمع بالمعنى جميع الأحداث الناقضـة للطهارة الصغرى . وقد اختلف الناس فى حصرها، وأَنْبَل ما قيل فى ذلك أنها ثلاثة أنواع، لا خلاف فيها فى مذهبنا : زوال العقل، خارج معتاد، ملامسة . وعلى مذهب أبى حنيفة ما خرج من الجسد من النجاسات ، ولا يُراعى المخرج ولا يعـدّ اللس . وعلى مذهب الشافعىّ ومحمد ابن عبد الحكم ما خرج من السبيلين، ولا يراعى الاعتياد، ويعدّ اللس . وإذا تقرر هذا فاعلم أن المسلمين أجمعوا على أن من زال عقله بإغمـاء أو جنون أو سُكْر فعليه الوضوء، واختلفوا

(١) الذى فى مسلم : « ... من نحو بئر جمل » كرواية البخارى .

فى النوم هل هو حدث كسائر الأحداث ، أو ليس بحَدَث أو مَظِنّة حدث ؛ ثلاثة أقوال : طرفان وواسطة .

الطرف الأوّل — ذهب المُزَنِيّ أبو إبراهيم إسماعيل إلى أنه حَدَث ، وأن الوضوء يجب بقليله وكثيره كسائر الأحداث ؛ وهو مقتضى قول مالك فى الموطأ لقوله : ولا يتوضأ إلا من حَدَث يخرج من ذَكَر أو دُبُر أو نوم . ومقتضى حديث صفوان بن عَسال أخرجه النَّسائِيّ والدّارَقُطْنِيّ والتّرمِذِيّ وصححه . رَوَوْه جميعا من حديث عاصم بن أبى النَّجُود عن زِرّ ابن حُبيش فقال : أتيت صفوان بن عَسّال المرادِيّ فقلت : جئتك أسألك عن المسح على الخُفّين ؛ قال : [نعم](١) كنت فى الجيش الذى بَعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمَرَنا أن نمسح على الخفين إذا نحن أدخلناهما على طهر ثلاثا إذا سافرنا ، ويوما وليلة إذا أقمنا ، ولا نخلعهما من بَوْل ولا غائط ولا نوم [ولا نخلعهما](١) إلا من جنابة . ففى هذا الحديث وقول مالكٍ التسويةُ بين الغائط والبول والنوم . قالوا : والقياس أنه لما كان كثيره وما غلب على العقل منه حَدَثاً وجب أن يكون قليله كذلك . وقد روى عن علىّ بن أبى طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وِكاء السَّهِ(٢) العينان فمن نام فليتوضأ " وهذا عامّ . أخرجه أبو داود ، وأخرجه الدّارَقُطْنِيّ من حديث معاوية بن أبى سفيان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأما الطرف الآخر فرُوِى عن أبى موسى الأَشْعَرِيّ ما يدلّ على أن النوم عنده ليس بحدث على أى حال كان ، حتى يُحدِث النائم حَدَثاً غير النوم ؛ لأنه كان يوكّل من يحرسه إذا نام . فإن لم يخرج منه حدث قام من نومه وصلّى ؛ ورُوِى عن عَبيدة وسعيد بن المُسَيِّب والأوْزاعِيّ فى رواية محمود بن خالد . والجمهور على خلاف هذين الطرفين . فأما جملة مذهب مالك فإن كل نائم استثقل نوما ، وطال نومه على أى حال كان ، فقد وجب عليه الوضوء ؛ وهو قول الزُّهْرِيّ وربيعة والأوزاعىّ فى رواية الوليد بن مسلم . قال أحمد بن حنبل : فإن كان النوم

(١) الزيادة عن سنن الدارقطنى .

(٢) السّه : الأست ؛ وأصله السّته بالتحريك فحذفت عين الفعل ، ويروى (الست) بحذف لام الفعل .

خفيفا لا يخامر القلب ولا يغمره لم يضر. وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا وضـوء إلا على من نام مضطجعا أو متوركا . وقال الشافعيّ : من نام جالسا فلا وضوء عليه؛ ورواه ابن وهب عن مالك . والصحيح من هذه الأقوال مشهورُ مذهب مالك؛ لحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شُغِل عنها ليلة [يعنى العشاء](١) فأخرها حتى رقدنا [فى المسجد](١) ثم آستيقظنا ثم رقدنا ثم آستيقظنا ثم خرج علينا النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم قال : " ليس أحد من أهـل الأرض ينتظر الصلاة غيركم " رواه الأئمة واللفظ للبخارى ؛ وهو أصح ما فى هـذا الباب من جهة الإسناد والعمل . وأما ما قاله مالك فى مُوطّئه وصفوان بن عَسّال فى حديثـه فمعناه : ونوم ثقيـل غالب على النفس ؛ بدليل هـذا الحديث وما كان فى معناه . وأيضا فقد روى حديث صفوانٍ وكيعٌ عن مِسْعر عن عاصم بن أبى النَّجُود فقـال : « أو ريح » بدل « أو نوم »، فقال الدّارَقُطْنِيّ : لم يقل فى هذا الحديث « أو ريح » غيرُ وَكيع عن مِسْعر .

قلت : وكيعٌ ثقةٌ إمامٌ أخرج له البخاريّ ومسلم وغيرهما من الأئمة ؛ فسقط الاستدلال بحديث صفوان لمن تمسّك به فى أن النوم حَدَث . وأما ما ذهب إليه أبو حنيفة فضعيف ؛ رواه الدّارَقُطْنِيّ عن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم نام وهو ساجد حتى غَطّ أو نفخ ثم قام فصـلّى ، فقلت : يا رسول الله إنك قد نمت ! فقال : " إن الوضوء لا يجب إلا على من نام مضطجعا فإنه إذا آضطجع آسترخت مفاصله " . تفرّد به أبو خالد عن قَتادة ولا يصح؛ قاله الدّارَقُطْنِيّ . وأخرجه أبو داود وقال : قوله الوضوء على من نام مضجعا هو حديث مُنْكَرٌ لم يَرْوِه إلا أبو خالد يزيد الدّالانِيّ عن قَتادة، وروى أوّله جماعةٌ عن آبن عباس لم يذكروا شيئا من هـذا . وقال أبو عمر بن عبد البر : هذا حديث مُنْكَر لم يروِه أحد من أصحاب قَتادة الثقات، وإنمـا آنفرد به أبو خالد الدّالانيّ، وأنكروه وليس بحجة فيما نقل . وأما قول الشافعيّ : على كلّ نائم الوضوءُ إلا على الجالس وحده ، وأن كلّ من زال عن حدّ الاستواء ونام فعليه الوضوء ؛ وهو قول الطبريّ وداود، وروى عن عليّ وآبن مسعود وآبن

---

(١) الزيادة عن البخارى .

عمر؛ لأن الجالس لا يكاد يستثقل، فهو في معنى النوم الخفيف . وقد روى الدَّارَقُطْنِيّ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من نام جالسا فلا وضوء عليه ومن وضع جنبه فعليه الوضوء" . وأما الخارج؛ فلنا ما رواه البخاريّ قال : حدّثنا قُتيبة حدّثنا يزيد بن زُريع عن خالدٍ عن عِكرمة عن عائشة قالت : ٱعتكفَتْ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱمرأةٌ من أزواجه فكانت ترى الدّم والصُّفْرة والطَّسْت تحتها وهي تصلّي . فهذا خارج من غير المعتاد ، وإنما هو عرق ٱنقطع فهو مرض ؛ وما كان هذا سبيله مما يخرج من السبيلين فلا وضوء فيه عندنا إيجابا ، خلافا للشافعيّ كما ذكرنا . وبالله توفيقنا . ويردّ على الحنفيّ حيث راعى الخارج النجس . فصح ووضح مذهب مالك ابن أنس رضي الله عنه ما تردّد نفس، وعنهم أجمعين .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ قرأ نافع وٱبن كَثير وأبو عمرو وعاصم وٱبن عامر « لامستم » . وقرأ حمزة والكسائي : « لمستم » وفي معناه ثلاثة أقوال : الأول — أن يكون لمستم جامعتم . الثاني — لمستم باشرتم . الثالث — يجمع الأمرين جميعا . و « لامستم » بمعناه عند أكثر الناس ، إلا أنه حكي عن محمد بن يزيد أنه قال : الأَوْلى في اللغة أن يكون « لامستم » بمعنى قبّلتم أو نظيره ؛ لأن لكل واحد منهما فِعلا . قال : و « لمستم » بمعنى غشيتم ومسستم ، وليس للمرأة في هذا فعل .

واختلف العلماء في حكم الآية على مذاهب خمسة ؛ فقالت فرقة : الملامسة هنا مختصة باليد ، والجُنُب لا ذِكر له إلا مع الماء ؛ فلم يدخل في المعنى المرادِ بقوله : « وإن كنتم مرضى » الآية ، فلا سبيل له إلى التيمم ، وإنما يغتسل الجُنُب أو يَدَع الصلاة حتى يجِد الماء ؛ رُوِي هذا القولُ عن عمر وٱبن مسعود . قال أبو عمر : ولم يقل بقول عمر وعبدالله في هذه المسألة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي وحَمَلة الآثار ؛ وذلك والله أعلم لحديث عمّار وعِمران ٱبن حُصين وحديث أبي ذَرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في تيمّم الجُنُب . وقال أبو حنيفة عكس هذا ٱلقول ، فقال : الملامسة هنا مختصة باللمس الذي هو الجماع . فالجنب يتيمم واللامس

بيده لم يحرك له ذِكر ؛ فليس بحَدَث ولا هو ناقض لوضوئه . فإذا قَبّـل الرجل آمرأته للذّة لم ينتقض وضوءه ؛ وعضَدوا هذا بمـا رواه الدارقُطني عن عائشة أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصـلاة ولم يتوضأ . قال عروة : فقلت لها من هى إلا أنتِ ؟ فضحكت . وقال مالك : الملامس بالجماع يتيمّم، والملامس باليد يتيمّم إذا آلتذّ . فإذا لمسّها بغير شهوة فلا وضـوء ؛ و به قال أحمـد و إسحاق، وهو مقتضى الآية . وقال علىّ آبن زياد : و إن كان عليهـا ثوب كثيف فلا شىء عليـه، و إن كان خفيفا فعليه الوضوء . وقال عبد الملك بن المـاجِشُون : من تعمّد مسّ آمرأته بيده لملاعبة فليتوضأ آلتذّ أو لم يلتذ . قال القاضى أبو الوليد الباجى فى المُنْتَقَى : والذى تحقّق من مذهب مالك وأصحابه أن الوضوء إنمـا يجب لقصده آللذّة دون وجودها؛ فمن قصَــد اللذّة بلمسه فقد وجب عليـه الوضوء، آلتذّ بذلك أو لم يلتذ؛ وهذا معنى ما فى العُتْبِيّة من رواية عيسى عن آبن القاسم . وأما آلإنعاظ بمجرده فقد روى آبن نافع عن مالك أنه لا يوجب وضوءا ولا غسل ذَكَر حتى يكون معه لَمْسٌ أو مَذْىٌ . وقال الشـيخ أبو إسحاق : من أنعظ إنعاظا آنتقض وضوءه ؛ وهـذا قول مالك فى المدوّنة . وقال الشافعىّ : إذا أفضى الرجل بشىء من بدنه إلى بدن آلمرأة سواء كان باليد أو بغيرها من أعضاء الجســد تعلّق نقض الطهر به ؛ وهو قول آبن مســعود وآبن عمر والزهرى وربيعة . وقال الأوزاعىّ : إذا كان اللّمس باليــد نقض الطُّهر، و إن كان بغير اليد لم ينقضه ؛ لقوله تعالى : « فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ » . فهذه خمسة مذاهب أسدّها مذهب مالك؛ وهو مروىّ عن عمر وآبنه عبدالله ، وهو قول عبدالله بن مسعود أن الملامسة ما دون الجماع ، وأن الوضوء يجب بذلك، و إلى هذا ذهب أكثر الفقهاء . قال آبن العربىّ : وهو الظاهر من معنى الآية؛ فإن قوله فى أوّلها : « ولا جُنُبًا » أفاد الجمـاع ، وأن قوله : « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » أفاد الحدث ، وأن قوله : « أَوْ لَامَسْتُمْ » أفاد اللّمس والقُبَل . فصارت ثلاث جمل لثلاثة أحكام ، وهذه غاية فى العلم والإعلام . ولو كان المراد باللّمس الجمـاع كان تكرارا فى الكلام .

قلت : وأما ما ٱستدل به أبو حنيفة من حديث عائشة فحديث مُرْسل؛ رواه وَكِيع عن الأَعْمَش عن حبيب بن أبي ثابت عن عُروة عن عائشة . قال يحيى بن سعيد : وذَكَر حديثَ الأعمش عن حبيب عن عروة فقال : أمَا إنّ سفيان الثّوْرِيّ كان أعلمَ الناس بهذا زعم ، إن حبيبا لم يسمع من عروة شيئا؛ قاله الدّارَقُطْنِيّ . فإن قيل : فأنتم تقولون بالمُرْسَل فيلزمكم قبولُه والعمل به . قلنا : تركناه لظاهر الآية وعملِ الصحابة . فإن قيل : إن الملامسة هي الجماع وقد رُوِي ذلك عن ٱبن عباس . قلنا : قد خالفه الفاروق وٱبنه وتابعهما عبد الله بن مسعود وهو كوفيّ ، فما لكم خالفتموه؟ ! فإن قيل : الملامسة من باب المفاعلة، ولا تكون إلا من ٱثنين ، واللمس باليد إنما يكون من واحد ؛ فثبت أن الملامسة هي الجماع . قلنا : الملامسة مقتضاها ٱلتقاء البشرتين ، سواء كان ذلك من واحد أو من ٱثنين ؛ لأن كل واحد منهما يوصف لامِسٍ وملموس .

جواب آخر — وهو أن الملامسة قد تكون من واحد؛ ولذلك نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الملامسة ، والثوب ملموس وليس بلامس؛ وقد قال ٱبن عمر مُخْبِرًا عن نفسه « وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام » . وتقول العرب : عاقبت اللص وطارقت النعل، وهو كثير .

فإن قيل : لما ذكر سبحانه سبب الحَدَث، وهو المجيء من الغائط ذَكر سبب الجنابة وهو الملامسة، فبيّن حكم الحَدَث والجنابة عند عدم الماء، كما أفاد بيان حكمهما عند وجود الماء . قلنا : لا نمنع حمل اللفظ على الجماع واللمس ، ويفيد الحكمين كما بيّنا . وقد قرئ « لَمَسْتم » كما ذكرنا . وأما ما ذهب إليه الشافعيّ من لمس الرجل المرأة ببعض أعضائه لا حائل بينه وبينها لشهوة أو لغير شهوة وجب عليه الوضوء فهو ظاهر القرآن أيضا؛ وكذلك إن لَمَسَته هي وجب عليه الوضوء، إلا الشَّعر؛ فإنه لا وضوء لمن مسّ شعر ٱمرأته لشهوة كان أو لغير شهوة، وكذلك السنّ والظفر ؛ فإن ذلك مخالف للبشرة . ولو ٱحتاط فتوضأ إذا مس شعرها كان حسنًا . ولو مسّها بيده أو مسّته بيدها من فوق الثوب فالتذّ بذلك

أو لم يلتـذ لم يكن عليهـما شيء حتى يُفضى إلى البشرة ، وسواء فى ذلك كان متعمّدا أو ساهيا، كانت ٱلمرأة حيّة أو ميتة إذا كانت أجنبية . وٱختلف قوله إذا لَمَس صبيّة صغيرة أو عجوزا كبيرة بيده أو واحدة من ذوات محارمه ممن لا يحلّ له نكاحها ، فمرّة قال : ينتقض الوضوء؛ لقوله تعـالى « أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» فلم يفرّق . والثـانى لا يُنقض؛ لأنه لا مدخل للشهوة فيهنّ . قال المَرْوَزِىّ : قول الشافعىّ أشبه بظاهر الكتاب؛ لأن الله عزّ وجلّ قال: « أو لامستم النّساء » ولم يقـل بشهوة أو من غير شهوة؛ وكذلك الذين أوْجبوا الوضـوء من أصحـاب النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يشـترطوا الشهوة . قال : وكذلك عامة التابعين . قال المَرْوَزِىّ : فأمّا ما ذهب إليه مالك من مراعاة الشهوة وٱللذّة من فوق الثوب يوجب الوضوء فقد وافقه على ذلك اللّيث بن سعد، ولا نعلم أحدا قال ذلك غيرهما . قال : ولا يصحّ ذلك فى النظر؛ لأن من فعل ذلك فهو غير لامِسٍ لٱمرأته، وغير مُمَـاسّ لها فى الحقيقة، إنمـا هو لامس لثوبها . وقد أجمعوا أنه لو تلذذ وٱشتهى أن يلمِس لم يجب عليه وضوء؛ فكذلك من لمس فوق الثوب لأنه غير مُمَاسّ للمرأة .

قلت : أمّا ما ذُكر من أنه لم يوافق مالكا على قوله إلا اللّيث بن سـعد، فقد ذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر أن ذلك قول إسحاق وأحمد ، ورُوِى ذلك عن الشّعْبِىّ والنَّخَعِىّ كلهم قالوا : إذا لمس فٱلتذّ وجب الوضوء، وإن لم يلتذ فلا وضوء . وأما قوله : «ولا يصح ذلك فى النّظر» فليس بصحيح ؛ وقد جاء فى صحيح الخبر عن عائشة قالت : كنت أنام بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسـلم ورجلاى فى قِبْلته، فإذا سجـد غمزنى فقبضت رجلىّ ، وإذا قام بسطتهما ثانيا، والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح . فهذا نصّ فى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان الملامس، وأنه غمز رجلىْ عائشـة؛ كما فى رواية القاسم عن عائشة « فإذا أراد أن يسجد غمز رِجلىّ فقبضتهما » أخرجه البخارىّ . فهذا يخصّ عموم قوله : « أو لامستم » فكان واجبا لظاهر الآية ٱنتقاض وضوء كل ملامس حيث لامس . ودلّت السّنة التى هى البيان لكتاب الله تعالى أن الوضوء على بعض الملامسين دون بعض ، وهو من لم يلتذ ولم يقصد؛

ولا يقال : فلعلّه كان على قدمى عائشة ثوب، أو كان يضرب رجليها بكُمّه ؛ فإنا نقول : حقيقة الغَمْز إنما هو باليد ؛ ومنه غَمْزُك الكبش أى تَجُسه لتنظر أهو سمين أم لا . فأما أن يكون الغَمز الضَّرْب بالكُمّ فلا . والرِّجل الغالبُ عليها ظهورها من النائم ؛ لا سيما مع امتداده وضيق حاله . فهذه كانت الحال فى ذلك الوقت؛ ألا ترى إلى قولها : « وإذا قام بسطتهما » وقولها : « والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح » . وقد جاء صريحا عنها قالت : « كنت أمدّ رجلىّ فى قِبْلة النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلّى فإذا سجد غمزنى فرفعتهما ، فإذا قام مددتهما » أخرجه البخارىّ . فظهر أن الغمز كان على حقيقته مع المباشرة. ودليل آخر — وهو ما روته عائشة أيضا رضى الله عنها قالت : فقَدْت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فآلتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان؛ الحديث . فلما وضعت يدها على قدمه وهو ساجد وتمادَى فى سجوده كان دليلا على أن الوضوء لا ينتقض إلا على بعض الملامسين دون بعض .

فإن قيل : كان على قدمه حائل كما قاله المُزَنىّ . قيل : القَدَم قَدَمٌ بلا حائل حتى يثبت الحائل، والأصل الوقوف مع الظاهر؛ بل بمجموع ماذكرنا يجتمع منه كالنصّ .

فإن قيل : فقد أجمعت الأمّة على أن رجلا لو آستكره آمرأة فمسّ خِتانه خِتانها وهى لا تلتذّ لذلك ، أو كانت نائمة فلم تلتذ ولم تشتهِ أن الغُسْل واجب عليها ؛ فكذلك حكم من قبّل أو لامس بشهوة أو لغير شهوة آنتقضت طهارته ووجب عليه الوضوء ؛ لأن المعنى فى الجسّة واللّمس والقُبلة الفعلُ لا آللذة . قلنا : قد ذكرنا أن الأعمش وغيره قد خالف فيما آدّعيتموه من الإجماع . سلمناه ، لكن هذا آستدلال بالإجماع فى محل النّزاع فلا يلزم ؛ وقد آستدللنا على صحة مذهبنا بأحاديث صحيحة . وقد قال الشافعى — فيما زعمتم — إنه لم يُسبَق إليه ، وقد سبقه إليه شيخه مالك ؛ كما هو مشهور عندنا « إذا صحّ الحديث فخذوا به ودعوا قولى » وقد ثبت الحديث بذلك فلم لاتقولون به ؟! ويلزم على مذهبكم أن من ضرب آمرأته فلطمها بيده تأديبا لها وإغلاظا عليها أن ينتقض وضوءه؛ إذ المقصود وجود

الفعل ، وهــذا لا يقوله أحد فيما أعلم ، والله أعلم . وروى الأئمة مالك وغيرُه أنه صــلى الله عليــه وسلم كان يُصلّى وأُمَامَة بنت أبى العاص آبنة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقه ، فإذا رَكَع وضعها ، وإذا رفع من السجود أعادها . وهــذا يردّ ما قاله الشافعىّ فى أحد قوليه : لو لمس صغيرة لا ينقض طهره تمسّكا بلفظ النساء ، وهــذا ضعيف ؛ فإن لمس الصغيرة كلمس الحائط . وآختلف قوله فى ذوات المحارم لأجل أنه لا يعتبر اللّذة ، ونحن آعتــبرنا اللّذة فحيث وُجدت وُجِد الحكم ، وهــو وجوب الوضوء . وأما قول الأوزاعِىّ فى آعتباره اليد خاصّة ؛ فلأن اللّمس أكثر ما يستعمل باليد ، فقَصَره عليه دون غيره من الأعضاء ؛ حتى أنه لو أدخل الرجل رجليــه فى ثيــاب آمرأته فمسّ فرجها أو بطنها لا ينتقض بذلك وضــوءه . وقال فى الرجل يقبّــل آمرأته : إن جاء يسألنى قلت يتوضأ ، وإن لم يتوضأ لم أعِبه . قال أبو ثَوْر : لا وضوء على من قبّل آمرأته أو باشرها أو لمسها . وهــذا يُخرج على مذهب أبى حنيفة ، والله أعلم .

السابعـــة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ الأسباب التى لا يجد المسافرُ معها المــاءَ هى إما عدمه جملة أو عدم بعضه ، وإما ان يخاف فوات الرفيق ، أو على الرحل بسبب طلبه ، أو يخاف لصوصا أو سِباعا ، أو فوات الوقت ، أو عطشا على نفسه أو على غيره ؛ وكذلك لطبيخ يطبُخُه لمصلحة بدنه . فإذا كان أحد هذه الأشياء تيمّم وصلّى . ويترتب عدمه للمريض بألّا يجــد من يناوله ، أو يخاف من ضرره . ويترتب أيضا عدمه للصّحيح الحاضر بالغَــلاء الذى يَعُم جميع الأصناف ، أو بأن يُسجَن أو يُربَط . وقال الحسن : يشترى الرجل المــاء بماله كلّه ويبقى عديما ، وهــذا ضعيف ، لأن دِين الله يُسْر . وقالت طائفة : يشتريه مالم يَزِد على القيمة الثلث فصاعدًا . وقالت طائفة : يشترى قيمة الدّرهم بالدّرهمين والثلاث ونحو هــذا ؛ وهذا كله فى مذهب مالك رحمه الله . وقيل لأشهب : أتَشتَرى القِربة بعشرة دراهم ؟ فقال : ماأرى ذلك على الناس . وقال الشافعىّ بعدم الزيادة .

الثامنـــة والعشرون — واختلف العلماء هل طلبُ المـاء شرط فى صحة التيمم أم لا ؛ فظاهر مذهب مالك أن ذلك شرط ؛ وهو قول الشافعىّ . وذهب القاضى أبو محمد بن نصر إلى أن ذلك ليس بشرط فى صحة التيمّم ؛ وهو قول أبى حنيفة . ورُوى عن آبن عمر أنه كان يكون فى السفر على غَلْوتين (١) من طريقه فلا يَعـدِل إليه . قال إسحـاق : لا يلزمه الطلب إلا فى موضعه ، وذكر حديث آبن عمــر ؛ والأول أصحّ وهو المشهور من مذهب مالك فى الموطّأ ؛ لقوله تعالى : « فلم تَجِدُوا مَاءً » وهـذا يقتضى أن التيّمم لا يُستعمل إلا بعد طلب المـاء . وأيضا من جهة القياس أن هذا بدل مأمورٌ به عند العجز عن مُبْدَله ، فلا يجزئ فعله إلا مع تيقّن عدم مُبْدَله ؛ كالصوم مع العتق فى الكفارة .

التاسعة والعشرون — و إذا ثبت هذا وعُدِم المـاء ، فلا يخلو أن يغلب على ظنّ المكلّف اليأس من وجوده فى الوقت ، أو يغلب على ظنّــه وجوده ويَقْــوَى رجاؤه له ، أو يتساوى عنده الأمران ؛ فهذه ثلاثة أحوال :

فالأوّل — يستحب له التيمم والصلاة أوّل الوقت ؛ لأنه إذا فاتتــه فضيلة المـاء فإنه يستحب له أن يُحْرِز فضيلة أوّل الوقت .

الثـانى — يتيمّم وسط الوقت ؛ حكاه أصحاب مالك عنه ، فيؤخّر الصّلاة رجاء إدراك فضيلة المـاء ما لم تَفُته فضيلة أوّل الوقت ؛ فإن فضيلة أوّل الوقت قد تدرك بوسَــطه لقُرْبه منــه .

الثـالث — يؤخّر الصّلاة إلى أن يجـد المـاء فى آخر الوقت ؛ لأن فضيلة المـاء أعظم من فضيلة أوّل الوقت ، لأن فضيلة أول الوقت مختلَف فيها ، وفضيلة المـاء متفق عليهـا ، وفضيلة أوّل الوقت يجوز تركها دون ضرورة ولا يجوز ترك فضيلة المـاء إلا لضرورة ، والوقت فى ذلك هــو آخر الوقت المختار ؛ قاله آبن حبيب . ولو عَلِم وجود المـاء فى آخر الوقت فتيمّم فى أوّله وصلّى فقد قال آبن القاسم : يُجزئه ، فإن وجد المـاء أعاد فى الوقت خاصّــة . وقال عبد الملك بن الماجشُون : إن وجد المـاء بَعْدُ أعاد أبدا .

(١) الغلوة (بفتح فسكون بعدها واو مفتوحة) : قدر رمية بسهم ، ويقال : هى قدر ثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة .

الموفية ثلاثين — والذى يُراعَى من وجود المـاء أن يجد منه مايكفيه لطهارته ، فإن وجد أقل من كفايته تيمّم ولم يستعمل ما وجد منه . هذا قول مالك وأصحابه ؛ و به قال أبو حنيفة والشافعى فى أحد قوليه ، وهو قول أكثر العلماء ؛ لأن الله تعالى جعل فرضــه أحد الشيئين ، إمّا المـاءُ و إمّا الترابُ . فإذا لم يجـد المـاء مُغنِيا عن التيمّم كان غير موجود شرعا ؛ لأن المطلوب من وجوده الكفاية . وقال الشافعىّ فى القول الأخير : يستعمِل ما معــه من المـاء و يتيمّم ؛ لأنه واجِد ماءً فلم يتحقق شرط التيمم ؛ فإذا آستعمله وفَقَد المـاء تيمم لمّـا لم يجد . وآختلف قول الشافعىّ أيضا فيما إذا نَسِى المـاء فى رحلِهِ فتيمم ؛ والصحيح أنه يعيد لأنه إذا كان المـاء عنده فهو واجد و إنما فرّط . والقول الآخر لا يعيد ؛ وهو قول مالك ، لأنه إذا لم يعلمه فلم يجده .

الحادية والثلاثون — وأجاز أبو حنيفة الوضوء بالمـاء المتغيّر ؛ لقوله تعـالى : « مَاءً » فقال : هذا نفىٌ فى نكرة ، وهو يَعُمّ لغة ؛ فيكون مفيدا جواز الوضوء بالمـاء المتغيّر وغير المتغيّر ؛ لانطلاق آسم المـاء عليــه . قلنا : النفى فى النّكرة يَعُمّ كما قلتم ، ولكن فى الجنس ، فهو عام فى كل ما كان من سماء أو نهر أو عينٍ عذبٍ أو ملح . فأما غير الجنس وهو المتغيّر فلا يدخل فيه ؛ كما لا يدخل فيه ماء الباقِلاء ولا ماء الورد ، وسيأتى حكم المياه فى « الفرقان »(١) . إن شاء الله تعـالى :

الثانية والثلاثون — وأجمعوا على أن الوضوء والاغتسال لا يجوز بشىء من الأشربة سوى النبيذ عند عدم المـاء . وقوله تعالى : « فَلَمْ تَجِدوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا » يردّه . والحديث الذى فيه ذكر الوضــوء بالنبيذ رواه آبن مسعود ، وليس بثابت ؛ لأن الذى رواه أبو زيد ، وهو مجهول لا يعرف بصحبة عبد الله ؛ قاله آبن المنذر وغيره . وسيأتى فى « الفرقان » بيانه .

الثالثة والثلاثون — المـاء الذى يبيح عدمه التيمّم هو الطّـاهر المطهّر الباقى على أصــل خِلقته . وقال بعض من ألّف فى أحكام القرآن لمـا قال تعالى : « فلم تجدوا ماء فتيمّموا »

(١) آية ٤٨

فإنما أباح التيمّم عند عدم كل جزء من ماء؛ لأنه لفظ مُنكّر يتناول كل جزء منه، سواء كان مخالطا لغيره أو منفردا بنفسه . ولا يمتنع أحد أن يقول فى نبيذ التمر ماء؛ فلمّا كان كذلك لم يجب التيمم مع وجوده . وهذا مذهب الكوفيين أبى حنيفة وأصحابه؛ وآستدلوا على ذلك بأخبار ضعيفة يأتى ذكرها فى سورة « الفرقان » ، وهناك يأتى القول فى الماء إن شاء الله تعالى .

الرابعة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ فَتَيَمَّمُوا ﴾ التيمّم مما خُصّت به هذه الأمّة توسِعة عليها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " فُضِّلنا على الناس بثلاث جُعلت لنا الأرض كلها مسجدا وجُعِلت تُربتُها لنا طهورا " وذكر الحديث ، وقد تقدّم ذكر نزوله ، وذلك بسبب القلادة حسبما بيّناه . وقد تقدّم ذكر الأسباب التى تبيحه ، والكلام ها هنا فى معناه لغة وشرعا ، وفى صفته وكيفيته وما يُتيمّم به وله ، ومن يجوز له التيمّم ، وشروط التيمّم إلى غير ذلك من أحكامه .

فالتيمّم لغة هو القصد . تيمّمت الشيء قصدته، وتيمّمت الصعيد تعمدته، وتيمّمته بُرمحى وسهمى أى قصدته دون مَن سواه . وأنشد الخليل (١) :

يممته الرمحَ شَزْرًا (٢) ثم قلت له * هذى البَسالة (٣) لا لِعْبُ الزَّحاليقِ (٤)

قال الخليل : من قال أممته فقد أخطأ؛ لأنه قال : « شَزْرا » ولا يكون الشّزر إلا من ناحية ولم يقصد به أمامه . وقال آمرؤ القيس :

تيممتها (٥) من أذرِعاتٍ وأهلُها * بيَثْرِب أدْنَى دارِها نظرٌ عالِ

(١) القائل هو عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، يعنى به ضرار بن عمرو الضبي .

(٢) الشزر (بمعجمة مشدّدة وزاى ساكنة) : النظر عن اليمين والشمال ، وليس بمستقيم الطريقة . وقيل : هو النظر بمؤخر العين .

(٣) هكذا فى الأصول . وفى اللسان : « المروءة » .

(٤) الزحاليق : جمع زحلوقة ، وهى آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل .

(٥) هكذا فى الأصول . والذى فى ديوان امرئ القيس وشرح الشواهد لسيبويه : « تنورتها من أذرعات » والمعنى : نظرت إلى نارها من أذرعات . و « أذرعات » بلد فى أطراف الشام ، يجاور أرض البلقاء وعمان ، ينسب إليه الخمر . ويثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وآله .

وقال أيضا :

تيمّمتِ العينَ التى عند ضارجٍ * يفيء عليها الظلُّ عَرْمَضُها طامى (١)

آخر :

إنى كذاك إذا ما ساءنى بلد * يممت بعيرى غيره بلدا (٢)

وقال أعشى باهلة :

تيمّمتُ قيْسًا وكم دونه * من الأرض من مَهْمَهٍ ذى شَزَنْ (٣)

وقال حُميد بن ثور :

سلِ الربع أنّى يممتْ أمّ طارقٍ * وهل عادةٌ للربع أن يتكلّما

وللشافعىّ رضى الله عنه :

عِلمى معى حيث يممت أحمِله * بطنى وِعاء له لا بطن صندوق

قال ٱبن السِّكّيت : قوله تعالى : « فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا » أى ٱقصدوا ؛ ثم كثر استعمالهم لهذه الكلمة حتى صار التيمم مسحَ الوجه واليدين بالتراب . وقال ٱبن الأنبارىّ فى قولهم : « قد تيمم الرجل » معناه قد مسح التراب على وجهه ويديه .

قلت : وهذا هو التيمم الشرعىّ، إذا كان المقصود به القُرْبة . ويمّمت المريض فتيمّم للصلاة . ورجل مُيَمَّم يظفر بكلّ ما يطلب؛ عن الشيبانى . وأنشد :

إنا وجدنا أعْصُرَ بن سعدِ * مُيَمَّم البيتِ رفيعَ المجدِ

وقال آخر :

أزهَر لم يولَد بنَجْمِ الشُّحِّ * مُيَمَّم البيت كريم السِّنْحِ (٤)

---

(١) ضارج : اسم موضع فى بلاد بنى عبس . والعرمض : الطحلب . وقيل : الخضرة على الماء، والطحلب : الذى يكون كأنه نسج العنكبوت . وطامى : مرتفع . (٢) هكذا ورد البيت فى جميع نسخ الأصل . ولعل الرواية : إنى كذاك اذا ما ساءنى بلد * يممت وجه بعيرى غيره بلدا

(٣) المهمه : المفازة البعيدة . والشزن (بالتحريك) : الغليظ من الأرض . (٤) البيت لرؤبة . وقد أراد بالسنح السنخ (بالخاء المعجمة) فأبدل من الخاء حاء لمكان الشح ، وبعضهم يرويه بالخاء ، وجمع بينها وبين الحاء لأنهما جميعا حرفا حلق . والسنخ (بكسر السين) : الأصل من كل شيء . (عن اللسان) .

الخامسة والثلاثون — لفظ التيمم ذكره الله تعالى في كتابه في « البقرة»[1] وفي هذه السورة و « المائدة[2] » والتي في هذه السورة هي آية التيمم . والله أعلم . وقال القاضي أبو بكر ابن العربي : هذه مُعضِلة ما وجدت لدائها من دواء عند أحد؛ هما آيتان فيهما ذكر التيمم . [إحداهما][3] في « النساء » والأخرى في « المائدة » . فلا نعلم أيّةَ آيةٍ عَنَت عائشة بقولها : « فأنزل الله آية التيمم » . ثم قال : وحديثها يدل على أن التيمم قبل ذلك لم يكن معلوما ولا مفعولا لهم .

قلت : أما قوله : «فلا نعلم أيّةَ آيةٍ عَنَت عائشة» فهي هذه الآية على ما ذكرنا . والله أعلم . وقوله : «وحديثها يدل على أن التيمم قبل ذلك لم يكن معلوما ولا مفعولا لهم» فصحيح ولا خلاف فيه بين أهل السِّيَر؛ لأنه معلوم أن غسل الجنابة لم يُفترض قبل الوضوء، كما أنه معلوم عند جميع أهل السير أن النبيّ صلى الله عليه وسلم منذ ٱفتُرِضت عليه الصلاة بمكة لم يُصَلّ إلا بوضوء مثل وضوئنا اليوم . فدل على أن آية الوضوء إنما نزلت ليكون فرضها المتقدّم مَتْلُوًّا في التنزيل . وفي قوله : « فنزلت آية التيمم » ولم يقل آية الوضوء ما يبيّن أن الذي طرأ لهم من العلم في ذلك الوقت حكم التيمم لا حكم الوضوء ؛ وهذا بيّن لا إشكال فيه .

السادسة والثلاثون — التيمم يلزم كل مكلّف لزمته الصلاة إذا عدِم الماء ودخل وقت الصلاة . وقال أبو حنيفة وصاحباه والمُزَنِيّ صاحبُ الشافعيّ : يجوز قبله لأن طلب الماء عندهم ليس بشرطٍ قياسا على النافلة؛ فلما جاز التيمم للنافلة دون طلب الماء جاز أيضا للفريضة . وٱستدلوا من السنة بقوله عليه السلام لأبي ذَرّ : " الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو لم يجد الماء عشر حِجج " . فسمى عليه السلام الصعيد وضوءا كما يسمّى الماء؛ فحكمه إذًا حكم الماء . والله أعلم . ودليلنا قوله تعالى : « فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً » ولا يقال لم يجد الماء إلا لمن طلب ولم يجد . وقد تقدم هذا المعنى ؛ ولأنها طهارةُ ضرورةٍ كالمستحاضة، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فأينما أدركتك الصلاة تيممت وصليت " . وهو قول الشافعيّ وأحمد، وهو مرويّ عن عليّ وٱبن عمر وٱبن عباس .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٢٥ طبعة أولى وثانية . (٢) آية ٦ (٣) الزيادة عن ابن العربي .

السابعة والثلاثون — وأجمع العلماء على أن التيمم لا يرفع الجنابة ولا الحدث، وأن المتيمم لها اذا وجد المـاء عاد جُنُبًا كما كان أو مُحْـدِثا؛ لقوله عليه السـلام لأبى ذَرٍّ : "اذا وجدت المـاء فأمِسّـه جلدك" إلا شيء رُوِى عن أبى سلمة بن عبـد الرحمن ، رواه آبن جُريج وعبد الحميد بن جُبير بن شيبة عنه ؛ ورواه آبن أبى ذئب عن عبد الرحمن بن حَرْملة عنه قال فى الجنب المتيمّم يجِد المـاء وهو على طهارته : لا يحتاج الى غسل ولا وضوء حتى يُحدِث . وقد روى عنه فيمن تيم وصلّى ثم وجد المـاء فى الوقت أنه يتوضأ ويعيد تلك الصلاة . قال آبن عبـد البر : وهـذا تناقض وقلة رواية ، ولم يكن أبو سلمة عنـدهم يفقه كفقه أصحابه التابعين بالمدينة .

الثامنة والثلاثون — وأجمعوا على أن من تيم ثم وجد المـاء قبـل الدخول فى الصـلاة بطل تيممه، وعليه آستعمال المـاء . والجمهور على أن من تيم وصلّى وفرغ من صلاته، وقد كان اجتهد فى طلبـه ولم يكن فى رَحلِه أن صـلاته تامة؛ لأنه أدّى فرضه كما أُمِر . فغير جائز أن توجب عليه الإعادة بغير حجة . ومنهم من آستحب له أن يعيد فى الوقت إذا صلّى وآغتسل . وروِى عن طاوس وعطاء والقاسم بن محمـد ومكحول وابن سيرين والزهرىّ وربيعـة كلهم يقول : يعيد الصلاة . وآستحب الأوزاعىّ ذلك وقال : ليس بواجب؛ لـما رواه أبو سعيد الخُدْرِىّ قال : خرج رجلان فى سفر فحضرت الصـلاة وليس معهما ماء فتيما صعيدا طيبا فصليا، ثم وجدا المـاء فى الوقت فأعاد أحدهما الصلاة بالوضوء ولم يعِد الآخر، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال للذى لم يُعِد : "أصبت السنة وأجزأتك صلاتك" وقال للذى توضأ وأعاد : "لك الأجر مرتين" . أخرجه أبو داود وقال : وغير [ابن][1] نافع يرويه عن اللّيث عن عميرة بن أبى ناجية عن بكر بن سوادة عن عطاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وذِكْر أبى سعيد فى هذا الإسناد ليس بمحفوظ . وأخرجه الدّارَقُطْنِىّ وقال فيه : ثم وجد المـاء بعدُ [فى][2] الوقت .

(١) زيادة عن أبى داود؛ لأن عبد الله بن نافع هو الراوى للحديث . (٢) الزيادة عن الدارقطنى .

التاســعة والثلاثون — واختلف العلماء إذا وجد المــاء بعد دخوله فى الصــلاة ؛ فقال مالك : ليس عليه قطع الصلاة واستعمالُ المــاء وليُتِمّ صلاته وليتوضأ لمــا يُستقبل ؛ وبهــذا قال الشافعيّ واختاره ابن المُنْذر . وقال أبو حنيفة وجماعة منهم أحمــد بن حنبل والمُزَنِيّ : يقطع ويتوضأ ويستأنف الصلاة لوجود المــاء . وحجتهم أن التيمم لمــا بطل بوجود المــاء قبل الصلاة فكذلك يبطل ما بقى منها ، وإذا بطل بعضها بطل كلّهــا؛ لإجماع العلماء على أن المعتدة بالشهور لا يبقى عليها إلا أقلّها ثم تحيض أنها تستقبل عدّتها بالحيض . قالوا : والذى يطرأ عليه المــاء وهو فى الصلاة كذلك قياسا ونظرا . ودليلنا قوله تعالى : «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» . وقد اتفق الجميع على جواز الدخول فى الصــلاة بالتيمم عند عدم المــاء ، واختلفوا فى قطعها إذا رؤى المــاء ؛ ولم تثبت سُــنّة بقطعها ولا إجماع . ومن حجتهم أيضا أن من وجب عليه الصوم فى ظِهارٍ أو قتل فصام منه أكثره ثم وجد رقبة لا يُلْغِى صومه ولا يعود إلى الرقبــة . وكذلك من دخل فى الصلاة بالتيمم لا يقطعها ولا يعود إلى الوضوء بالمــاء .

الموفية أربعين — واختلفوا هل يُصلّى به صلوات أم يلزم التيمم لكل صلاة فرض ونفل؛ قال شُريك بن عبد الله القاضى : يتيمم لكل صلاة نافلة وفريضة . وقال مالك : لكل فريضة؛ لأن عليه أن يبتغى المــاء لكل صلاة ، فمن ابتغى المــاء فلم يجده فإنه يتيمم . وقال أبو حنيفة والثورىّ والليث والحسن بن حىّ وداود : يصلى ما شاء بتيمم واحد ما لم يحدث؛ لأنه طاهر ما لم يجد المــاء ، وليس عليه طلب المــاء إذا يئس منه . وما قلناه أصح ؛ لأن الله عز وجل أوجب على كل قائم إلى الصلاة طلب المــاء ، وأوجب عند عدمه التيمم لاستباحة الصــلاة قبل خروج الوقت ، فهى طهارة ضرورةٍ ناقصــةٌ بدليل إجماع المسلمين على بطلانها بوجود المــاء وإن لم يحدث ؛ وليس كذلك الطهارة بالمــاء . وقد ينبنى هذا الخلاف أيضا فى جواز التيمم قبل دخول الوقت؛ فالشافعىّ وأهــل المقالة الأولى لا يجوّزونه ، لأنه لمــا قال الله تعالى « فلم تجِدوا ماءً فتيمّمُوا » ظهر منــه تعلّق أجزاء التيمم بالحاجة ، ولا حاجة قبــل الوقت . وعلى هذا لا يصلّى فرضين بتيمم واحد ، وهذا بيّن . واختلف علماؤنا فيمن صلى فرضين بتيمم

واحد؛ فروى يحيى بن يحيى عن ابن القاسم : يعيد الثانية ما دام فى الوقت . وروى أبو زيد ابن أبى الغمر عنه : يعيد أبدا . وكذلك رُوى عن مُطَرِّف وابن الماجشون يعيد الثانية أبدا . وهو الذى يناظر عليه أصحابنا ؛ لأن طلب الماء شرط . وذكر ابن عَبْدُوس أن ابن نافع روى عن مالك فى الذى يجمع بين الصلاتين أنه يتيمم لكل صلاة . وقال أبو الفرج فيمن ذكر صلواتٍ : إنْ قضاهن بتيمم واحد فلا شىء عليه وذلك جائز له . وهذا على أن طلب الماء ليس بشرط . والاوّل أصح . والله أعلم .

الحادية والأربعون — قوله تعالى : ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ الصعيد : وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن ؛ قاله الخليل وابن الأعرابى والزجاج . قال الزجاج : لا أعلم فيه خلافا بين أهل اللغة ، قال الله تعالى : « وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى أرضا غليظة لا تنبت شيئا . وقال تعالى « فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا » . ومنه قول ذى الرمة :

كأنّه بالضُحَى تَرْمِى الصعيدَ به * دَبّابَةٌ فى عظام الرأس خُرْطُومُ(١)

وإنما سمى صعيدا لأنه نهاية ما يُصْعَد إليه من الأرض . وجمع الصعيد صُعُدات ؛ ومنه الحديث " إياكم والجلوس فى الصُّعُدات(٢) " . واختلف العلماء فيه من أجل تقييده بالطِّيب ؛ فقالت طائفة : يتيمم بوجه الأرض كله ترابا كان أو رملا أو حجارة أو معدنا أو سَبخة . هذا مذهب مالك وأبى حنيفة والثَّوْرِىّ والطبرىّ . « وطيبا » معناه طاهرا . وقالت فرقة : « طيبا » حلالا ؛ وهذا قلق . وقال الشافعىّ وأبو يوسف : الصعيد التراب المنبت وهو الطيب؛ قال الله تعالى : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ » فلا يجوز التيمم عندهم على غيره . وقال الشافعىّ : لا يقع الصعيد إلّا على تراب ذى غُبار . وذكر عبد الرزاق عن ابن عباس أنه سئل أى الصعيد أطيب؟ فقال: الحَرْث . قال أبو عمر : وفى قول ابن عباس هذا مايدل على أن الصعيد يكون غير أرض الحرث . وقال علىّ رضى الله عنه : هو التراب

(١) الصعيد : التراب . والدبابة يعنى الخمر . والخرطوم : الخمر وصفوتها . يقول : ولد الفلبية لا يرفع رأسه ، وكأنه رجل سكران من ثقل نومه فى وقت الضحى .

(٢) الصعدات : الطرق .

خاصة . وفى كتاب الخليل : تيمم بالصعيد، أى خذ من غباره؛ وحكاه ابن فارس . وهو يقتضى التيمم بالتراب فإن الحجر الصَّلْد لا غبار عليه . قال الكِيَا الطبرىّ : واشترط الشافعىّ أن يَعْلَق التراب باليد و يتيمم به نقلا إلى أعضاء التيمم ، كالماء ينقل إلى أعضاء الوضوء . قال الكيا : ولا شك أن لفظ الصعيد ليس نصا فيما قاله الشافعىّ ، إلّا أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جُعلت لِى الأرض مسجدا وترابها طهورا " بيّن ذلك .

قلت : فاستدل أصحاب هذه المقالة بقوله عليه السلام : " وجعلت تربتها لنا طهورا " وقالوا : هذا من باب المُطْلَق والمُقَيَّد وليس كذلك ، و إنما هو من باب النص على بعض أشخاص العموم؛ كما قال تعالى: « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » وقد ذكرناه فى «البقرة» عند قوله « وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وجِبرِيل ومِيكَالَ »(١) . وقد حكى أهل اللغة أن الصعيد اسم لوجه الأرض كما ذكرنا ، وهو نصّ القرآن كما بينا ، وليس بعد بيان الله بيان . وقال صلى الله عليه وسلم للجنب : " عليك بالصعيد فإنه يكفيك " وسيأتى . فصعيدا على هذا ظرف مكان . ومن جعله للتراب فهو مفعول به بتقدير حذف الباء أى بصعيد . و « طيبا » نعت له . ومن جعل « طيبا » بمعنى حلالا نصبه على الحال أو المصدر .

الثانية والأربعون — و إذا تقرر هذا فاعلم أن مكان الإجماع مما ذكرناه أن يتيمم الرجل على تراب منبت طاهر غير منقول ولا مغصوب . ومكان الإجماع فى المنع أن يتيمم الرجل على الذهب الصِّرف والفضة والياقوت والزُّمُرُّد والأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما ، أو على النجاسات . واختلف فى غير هذا كالمعادن ؛ فأجيز وهو مذهب مالك وغيره . ومُنع وهو مذهب الشافعىّ وغيره . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : ويجوز عند مالك التيمم على الحشيش إذا كان دون الأرض وٱختلف عنه فى التيمم على الثلج ففى المدوّنة والمبسوط جوازه، وفى غيرهما منعه. واختلف المذهب فى التيمم على العُود ؛ فالجمهور على المنع. وفى مختصر الوقّار(٢) أنه جائز .

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦ طبعة ثانية .

(٢) الوقار (كسحاب) : لقب زكريا بن يحيى بن إبراهيم المصرى الفقيه .

وقيل : بالفرق بين أن يكون منفصلا أو متصلا فأجيز على المتصل ومنع من المنفصل . وذكر الثعلبي أن مالكا قال : لو ضرب بيده على شجرة ثم مسح بها أجزأه . قال : وقال الأوْزاعِيّ والثَّوْرِيّ : يجوز بالأرض وكل ما عليها من الشجر والحجـر والمَدَر وغيرها ، حتى قالا : لو ضرب بيده على الجَمَد(١) والثلج أجزأه . قال ابن عطية : وأما التراب المنقول فى طبق أو غيره فجمهور المـذهب على جواز التيمم به ، وفى المذهب المنع وهـو فى غير المذهب أكثر ، وأما ما طُبـخ كالجصّ والآجُرّ ففيـه فى المذهب قولان : الإجازة والمنع ؛ وفى التيمم على الجدار خلاف .

قلت : والصحيح الجواز لحديث أبى جُهيم بن الحارث بن الصِّمّة الأنصارىّ قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نحو بئر جمل فلقيه رجل فسلم عليه ، فلم يردّ عليه النبىّ صلى الله عليـه وسلم حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ، ثم ردّ عليه السلام . أخرجه البخارىّ . وهو دليـل على صحة التيمم بغـير التراب كما يقوله مالك ومن وافقه . ويردّ على الشافعىّ ومن تابعـه فى أن الممسوح به تراب طاهر ذو غبار يَعْلَق باليد . وذكر النقّاش عن ابن عُلَيّـة وابن كَيْسان أنهما أجازا التيمم بالمِسْك والزّعفران . قال ابن عطية : وهـذا خطأ بَحْتٌ من جهات . قال أبو عمر : وجماعة العلمـاء على إجازة التيمم بالسباخ إلا إسحاق بن رَاهَوَيْه . وروى عن ابن عباس فيمن أدركه التيمم وهو فى طين قال يأخذ من الطين فيطلِي به بعض جسده ، فإذا جفّ تيمم به . وقال الثّوْرِىّ وأحمد : يجوز التيمم بغبار اللِّبْـد . قال الثّعلبىّ : وأجاز أبو حنيفـة التيمم بالكحل والزِّرنيخ والنُّورة والجص والجوهر المسحوق . قال : فإذا تيمم بسُحالة الذهب والفضة والصُّفْر(٢) والنحاس والرصاص لم يجـز ؛ لأنه ليس من جنس الأرض .

الثالثة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ المسح لفظ مشترك يكون بمعنى الجماع ؛ يقال : مسح الرجل المرأة إذا جامعها . والمسح : مسح الشىء بالسيف

---

(١) الجمد (بالتحريك) : المـاء الجامد .
(٢) الصفر (بالضم) : الذى تعمل منه الأوانى .

وقطعه به . ومسحت الإبل يومها إذا سارت . والمسحاء المرأة الرسحاء التى لا أَسْت لهـا . وبفلان مَسْحة من جمالٍ . والمراد هنا بالمسح عبارةٌ عن جرّ اليـدُ على الممسوح خاصّـة، فإن كان بآلة فهو عبارة عن نقل الآلة إلى اليـد وجرها على الممسوح ، وهو مقتضى قوله تعـالى فى آية المـائدة : « فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْـهُ » . فقوله « مِنه » يدل على أنه لا بدّ من نقل التراب إلى محل التيمم . وهو مذهب الشافعى ولا نشترطه نحن؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا وضع يديه على الأرض ورفعهما نفخ فيهما ؛ وفى رواية نفض . وذلك يدل على عدم اشتراط الآلة ؛ يوضّحه تيممه على الجدار . قال الشافعيّ : لمـا لم يكن بُدٌّ فى مسح الرأس بالمـاء من بللٍ ينقل إلى الرأس، فكذلك المسح بالتراب لا بُدّ من النقل . ولا خلاف فى أن حكم الوجه فى التيمم والوضوء الاستيعابُ وتتبعُ مواضعه؛ وأجاز بعضهم ألا يُتتبّع كالغضون فى الخفين وما بين الأصابع فى الرأس ، وهو فى المذهب قول محمد بن مسلمة؛ حكاه ابن عطية . وقال الله عز وجل : « بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ » فبدأ بالوجه قبل اليدين وبه قال الجمهور . ووقع فى البُخاريّ من حديث عمّار فى « باب التيمم ضربة » ذِكْرُ اليدين قبل الوجه . وقاله بعض أهل العلم قياسا على تنكيس الوضوء .

الرابعة والأربعون — واختلف العلمـاء أين يبلغ بالتيمم فى اليدين؛ فقال ابن شهاب : إلى المناكب . وروى عن أبى بكر الصديق . وفى مصنّف أبى داود عن الأعمش أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم مسح إلى أنصاف ذراعيه . قال ابن عطية : ولم يقل أحد بهـذا الحديث فيما حفظت . وقيل : يبلغ به إلى المرفقين قياسا على الوضوء . وهو قول أبى حنيفة والشافعيّ وأصحابهما والثّورِيّ وابن أبى سلمة واللّيث كلهم يرون بلوغ المرفقين بالتيمم فرضا واجبا . وبه قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وابن نافع، وإليه ذهب إسماعيل القاضى . قال ابن نافع : من تيمم إلى الكوعين أعاد الصـلاة أبدا . وقال مالك فى المدوّنة : يعيـد فى الوقت . ورَوى التيممّ إلى المرفقين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم جابرُ بن عبد الله وابن عمر وبه كان يقول . قال الدّارَقُطْنيّ : سئل قتادة عن التيمم فى السفر فقال: كان ابن عمر يقول

إلى المرفقين . وكان الحسن وإبراهيم النّخَعِيّ يقولان إلى المرفقين . قال : وحدّثني محـدِّث عن الشّعْبِيّ عن عبدالرحمن بن أَبْزَى عن عَمّار بن ياسر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إلى المرفقين" . قال أبو إسحاق : فذكرته لأحمد بن حنبل فعجب منه وقال ما أحسنَه ! . وقالت طائفة : يبلغ به إلى الكوعين وهما الرسغان . رُوى عن عليّ بن أبى طالب والأوزاعِيّ وعطاء والشّعْبِيّ فى رواية ، وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن رَاهْوَيْه وداود بن عليّ والطبرِيّ . وروى عن مالك وهو قول الشافعيّ فى القديم . وقال مَكْحُول : اجتمعتُ أنا والزُّهْرِيّ فتذاكرنا التيمم فقال الزُّهْرِيّ : المسح إلى الآباط . فقلت : عمن أخذت هذا؟ فقال : عن كتاب الله عز وجل ، إن الله تعالى يقول : « فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ » فهى يد كلها . قلت له : فإن الله تعـالى يقول : « وَالسّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » فمن أين تقطع اليد ؟ قال : فخصمته . وحُكى عن الدّراوَرْدِيّ[1] أن الكوعين فرض والآباط فضـيلة . قال ابن عطية : هذا قول لا يَعْضُده قياس ولا دليل ، وإنما عمّم قوم لفظ اليد فأوجبوه من المَنْكِب ، وقاس قوم على الوضوء فأوجبوه من المرافق وهنا جمهور الأمة ، ووقف قوم مع الحديث فى الكوعين ، وقِيس أيضا على القطع إذ هو حكم شرعى وتطهير كما هذا تطهير ، ووقف قوم مع حديث عمّار فى الكفين . وهو قول الشّعْبِيّ .

الخامسة والأربعون — واختلف العلماء أيضا هل يكفى فى التيمم ضربةٌ واحدة أم لا ؛ فذهب مالك فى المدوّنة أن التيمم بضربتين : ضربة للوجه وضربة لليدين ؛ وهو قول الأوزاعِيّ والشافعيّ وأبى حنيفة وأصحابهم ، والثّوْرِيّ واللّيث وابن أبى سلمة . ورواه جابر بن عبد الله وابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ابن أبى الجهم : التيمم بضربة واحدة . وروى عن الأوزاعيّ فى الأشهر عنه ؛ وهو قول عطاء والشعبيّ فى رواية . وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وداود والطبرِيّ . وهو أثبت ما روى فى ذلك من حديث عمار . قال مالك فى كتاب محمـد : إن تيمم بضربة واحدة أجزأه . وقال ابن نافع : يعيد أبدا . قال أبو عمر وقال ابن

(١) كذا فى الأصول . وفى ابن عطية : « الداودى » .

أبى لَيْلَى والحسن بن حَىّ : ضربتان؛ يمسح بكل ضربة منهما وجهه وذراعيه ومرفقيه . ولم يقل بذلك أحد من أهل العلم غيرهما . قال أبو عمر : لما اختلفت الآثار فى كيفية التيمم وتعارضت كان الواجب فى ذلك الرجوع إلى ظاهر الكتاب ، وهو يدل على ضربتين : ضربة للوجه ، ولليدين أخرى إلى المرفقين ، قياسا على الوضوء واتباعا لفعل ابن عمر؛ فإنه من لا يُدفع علمه بكتاب الله . ولو ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك شىء وجب الوقوف عنده . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ أى لم يزل كائنا يقبل العفو وهو السهل، ويغفر الذنب أى يستر عقوبته فلا يعاقب .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾

نزلت في يهود المدينة وما وَالَاها . قال ابن إسحاق : وكان رِفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهودَ، إذا كلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه وقال : أرْعِنا سَمْعك يا محمد حتى نفهمك؛ ثم طعن في الإسلام وعابه فأنزل الله عز وجل « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ » إلى قوله «قَلِيلًا» . ومعنى «يَشْتَرُونَ» يستبدلون فهو في موضع نصب على الحال، وفي الكلام حذف تقديره يشترون الضلالة بالهدى ؛ كما قال تعالى « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى » قاله القتبي وغيره . ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ عطف عليه، والمعنى تضلوا طريق الحق . وقرأ الحسن « تُضَلُّوا » بفتح الضاد أي عن السبيل .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ يريد منكم ؛ فلا تستصحبوهم فإنهم أعداؤكم . ويجوز أن يكون « أعلم » بمعنى عليم؛ كقوله تعالى « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » أي هيّن . ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا ﴾ الباء زائدة؛ زيدت لأن المعنى اكتفوا بالله فهو يكفيكم أعداءكم . و « وليًّا » و « نَصِيرًا » نصب على البيان، وإن شئت على الحال .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ قال الزجاج : إن جُعلت « مِن » متعلقة بما قبلُ فلا يوقف على قوله « نصيرا »، وإن جعلت منقطعة فيجوز الوقف على « نصيرا » والتقدير من الذين هادوا قوم يحرّفون الكلم؛ ثم حذف . وهذا مذهب سيبويه، وأنشد النحويون :

لو قلتَ ما في قومها لم تِيثَمِ (١) * يفضُلها في حسبٍ ومِبْسَمِ

(١) تيثم (بكسر التاء) : وهي لغة لبعض العرب ، وذلك أنهم يكسرون حرف المضارعة في نحو نعلم وتعلم ؛ فلما كسروا التاء انقلبت الهمزة ياء . والميسم (بوزن المجلس) : الثغر .

قالوا : المعنى لو قلت مافى قومها أحد يفضُلها ؛ ثم حذف . وقال الفراء : المحذوف «مَن» ، المعنى : مِن الذين هادوا مَن يحرّفون . وهـذا كقوله تعالى : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » أى من له . وقال ذو الرُّمّة :

فظلّوا ومنهم دَمْعُــه سابقٌ له * وآخر يُذرِى عَبرة العين بالهَمْلِ (١)

يريد ومنهم مَن دمعه ، لحذف الموصول . وأنكره المبرّد والزجاج ؛ لأن حذف الموصول كحذف بعض الكلمة . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ وإبراهيم النَّخَعِيّ « الكلام » . قال النحاس : و «الكلِم» فى هذا أَوْلى ؛ لأنهم إنما يحرّفون كَلِم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو ماعندهم فى التوراة ، وليس يحرّفون جميــع الكلام ، ومعنى ﴿ يُحَرِّفُونَ ﴾ يتأوّلونه على غير تأويله . وذمّهم الله تعالى بذلك لأنهم يفعلونه متعمدين . وقيل : ﴿ عن مواضِعِه ﴾ يعنى صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَـا وَعَصَيْنَا ﴾ أى سمعنا قولك وعصينا أمرك . ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْــمَعٍ ﴾ قال ٱبن عباس : كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ٱسمع لاسمعتَ ، هذا مرادهم — لعنهم الله — وهم يظهرون أنهم يريدون اسمع غير مسمَع مكروها ولا أذًى . وقال الحسن ومجاهد : معناه غير مسمع منك ، أى مقبول ولا مجاب إلى ما تقول . قال النحاس : ولو كان كذا لكان غير مسموع منك . وتقدّم القول فى ﴿ راعِنَا ﴾ (٢) . ومعنى ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ أى يلوُون ألسنتهم عن الحق أى يُميلونها إلى ما فى قلوبهم . وأصل اللّيّ الفَتْل وهو نصب على المصدر ، وإن شئت كان مفعولا من أجله . وأصله لَوْيًا ثم أدغمت الواو فى الياء . ﴿ وَطَعْنًا ﴾ معطوف عليــه أى يطعنون فى الدّين ، أى يقولون لأصحابهم لو كان نبيًّا لدَرَى أنـا نَسُبُّه ، فأظهر الله تعالى نبيّه على ذلك فكان من علامات نبوته ، ونهاهم عن هذا القول . ومعنى ﴿ أَقْوَمَ ﴾ أصوب لهم فى الرأى . ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى إلا إيمانا قليلا لا يستحقون به اسم الإيمان . وقيل : معناه لا يؤمنون إلا قليلا منهم ؛ وهذا بعيد لأنه عز وجل قد أخبر عنهم أنه لعنهم بكفرهم .

(١) فى ديوان ذى الرمة : «يثنى» . وهملان العين فيضانها بالدمع .

(٢) راجع ج ٢ ص ٥٧ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ قال ابن إسحاق : كلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساءَ من أحبار يهود منهم عبد الله بن صُورِيا الأعور وكعب بن أسد فقال لهم : " يامعشر يهود ٱتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به الحق " قالوا : ما نعرف ذلك يا محمد . وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر ؛ فأنزل الله عز وجل فيهم « يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا » إلى آخر الآية .

قوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ نصب على الحال . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ الطّمْس استئصال أثر الشيء ؛ ومنه قوله تعالى : « فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ » . ونطمِس ونطمُس بكسر الميم وضمها فى المستقبل لغتان . ويقال فى الكلام : طَسَم يَطْسِم ويَطْسُم بمعنى طَمَس ؛ يقال : طَمَس الأثرُ وطَسَم أى ٱمّحى ، كله لغات ؛ ومنه قوله تعالى : « رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِم » أى أهلكها ؛ عن ابن عرفة . ويقال : طَمَسته فطَمَس لازم ومتعد . وطمس الله بصره ، وهو مطموس البصر إذا ذهب أثر العين ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ » يقول أعميناهم .

واختلف العلماء فى المعنى المراد بهذه الآية ؛ هل هو حقيقة فيجعل الوجه كالقفا فيذهب بالأنف والفم والحاجب والعين . أو ذلك عبارة عن الضلالة فى قلوبهم وسَلْبهم التوفيق ؛ قولان . رُوى عن أُبَىّ بن كعب أنه قال : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِس » من قبل أن نضلكم إضلالا لا تهتدون بعده . يذهب إلى أنه تمثيل وأنهم إن لم يؤمنوا فعل هذا بهم عقوبةً . وقال قَتادة : معناه من قبل أن نجعل الوجوه أقفاء . أى يذهب بالأنف والشفاه والأعين والحواجب ؛ هذا معناه عند أهل اللغة . ورُوى عن ابن عباس وعطية العَوْفىّ : أن الطّمس أن تُزال العينان خاصّةً وتردّ فى القفا ، فيكون ذلك رَدًّا على الدبر ويمشى القَهْقَرَى . وقال مالك : كان أوّل إسلام كعب الأحبار أنه مَرّ برجل من الليل وهو يقرأ هذه الآية : « يَأيها الّذِين أُوتوا الكِتّابَ آمِنوا » فوضع كفّيه على وجهه ورجع القَهْقَرَى إلى بيته فأسلم مكانه وقال :

والله لقد خفت ألا أبلغ بيتي حتى يُطمَس وجهي . وكذا فعل عبد الله بن سَلَام لما نزلت هذه الآية وسمعها أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتي أهله وأسلم وقال : يا رسول الله، ما كنت أدرى أن أصل إليك حتى يحوّل وجهي في قفاى . فإن قيل: كيف جاز أن يهدّدهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم ؛ فقيل : إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقين. وقال المُبَرّد : الوعيد باق منتظر . وقال : لا بدّ من طمس في اليهود ومسخ قبل يوم القيامة .

قوله تعالى: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ أي أصحاب الوجوه كما لعنا أصحاب السبت ، أي نمسخهم قردة وخنازير ؛ عن الحسن وقتادة . وقيل: هو خروج من الخطاب الى الغيبة . ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا ﴾ أي كائنا موجودا . و يراد بالأمر المأمور فهو مصدر وقع موقع المفعول ؛ فالمعنى أنه متى أراده أوجده . وقيل : معناه أن كل أمر أَخْبر بكونه فهو كائن على ما أخبر به .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تلا « إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا » فقال له رجل : يا رسول الله والشرك ! فنزل « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وهذا من المحكم المتفق عليه الذى لا اختلاف فيه بين الأمة . ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من المتشابه الذى قد تكلم العلماء فيه. قال محمد بن جرير الطبري: قد أبانت هذه الآية أن كلّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شِرْكًا بالله تعالى. وقال بعضهم : قد بين الله تعالى ذلك بقوله : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ . فأعلم أنه يشاء أن يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ولا يغفرها لمن أتى الكبائر . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخةٌ لِلّتي في آخر « الفُرْقان » . قال زيد ابن ثابت : نزلت سورة «النساء» بعد «الفرقان» بستة أشهر، والصحيح أن لا نسخ ؛ لأن النسخ في الأخبار يستحيل . وسيأتي الجمع بين الآى في هذه السورة وفي « الفُرْقان » إن شاء الله تعالى . وفي التّرمذيّ عن عليّ بن أبي طالب قال : ما في القرآن آية أحبّ إليّ من هذه

الآية « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » قال : هـذا حديث حسن غريب .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ هذا اللفظ عام فى ظاهره ولم يختلف أحد من المتأولين فى أن المراد اليهود . واختلفوا فى المعنى الذى زكّوا به أنفسهم ؛ فقال قَتادة والحسن : ذلك قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى » وقال الضحّاك والسُّدّى : قولهم لا ذنوب لنا وما فعلناه نهارا غُفر لنا ليلا وما فعلناه ليلا غفر لنـا نهارا ، ونحن كالأطفال فى عدم الذنوب . وقال مجاهد وأبو مالك وعِكْرِمة : تقديمهم الصغار للصلاة ؛ لأنهم لا ذنوب عليهم . وهذا يبعد من مقصد الآية . وقال ابن عباس : ذلك قولهم آباؤنا الذين ماتوا يشفعون لنا ويزكّوننا . وقال عبـد الله ابن مسعود : ذلك ثنـاء بعضهم على بعض . وهذا أحسن ما قيل ، فإنه الظـاهر من معنى الآية . والتزكية التطهير والتبرية من الذنوب .

الثانيـــة — هذه الآية وقولُه تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » يقتضى الغَضّ من المُزَكِّى لنفسه بلسانه ، والإعلام بأن الزّاكى المُزَكَّى من حسنت أفعاله وزكّاه الله عز وجل فلا عبرة بتزكية الإنسان نفسه ، وإنما العبرة بتزكية الله له . وفى صحيح مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سمّيت ابنتى بَرّة ، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم ، وسُمّيتُ بَرّة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " أتزكّوا أنفسكم الله أعلم بأهل البِر منكم " فقالوا : بِمَ نسميها ؟ فقال : " سمّوها زينب " . فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسَه ، ويجرى هـذا المجرى ما قد كثر فى هذه الديار المصرية من نعتهم أنفسَهم بالنعوت التى تقتضى التزكية ؛ كزكىّ الدين ومُحْى الدين وما أشبه ذلك ، لكن لمـا كثرت قبائح المسمين بهذه الأسمـاء ظهر تخلف هذه النعوت عن أصلهـا فصارت لا تفيد شيئا .

الثالثة — فأما تزكية الغير ومدحُه له ؛ ففى البخارى من حديث أبى بكرة أن رجلا ذُكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرًا، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " وَيْحَكَ قطعت عنق صاحبك — يقوله مرارا — إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يَرى أنه كذلك وحَسِيبه الله ولا يزكّى على الله أحدا " فنهى صلى الله عليه وسلم أن يُفرَط فى مدح الرجل بما ليس فيه فيدخله فى ذلك الإعجاب والكِبْر، ويظن أنه فى الحقيقة بتلك المنزلة فيحمله ذلك على تضييع العمل وترك الازدياد من الفضل؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " وَيْحَك قطعت عنق صاحبك ". وفى الحديث الآخر " قطعتم ظهر الرجل " حين وصفوه بما ليس فيه . وعلى هذا تأوّل العلماء قولَه صلى الله عليه وسلم : " آحْثُوا التراب فى وجوه المدّاحين " أن المراد به المدّاحون فى وجوههم بالباطل وبما ليس فيهم، حتى يجعلوا ذلك بضاعة يستأكلون به الممدوح ويَفتنونه ؛ فأما مدح الرجل بما فيه من الفعل الحَسَن والأمر المحمود ليكون منه ترغيبا له فى أمثاله وتحريضا للناس على الاقتداء به فى أشباهه فليس بمدّاح ، وإن كان قد صار مادحا بما تكلم به من جميل القول فيه . وهذا راجع إلى النيات « والله يعلم المفسِد من المصلِح » . وقد مدح صلى الله عليه وسلم فى الشعر والخطب والمخاطبة ولم يَحْثُ فى وجوه المدّاحين التراب، ولا أمر بذلك . كقول أبى طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثِمال اليتامى عصمة للأرامل

وكمدح العباس وحسّان له فى شعرهما ، ومدَحه كعب بن زُهير ، ومدح هو أيضا أصحابه فقال : " إنكم لتقِلون عند الطمع وتَكْثرون عند الفزع " . وأما قوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح الحديث " لا تُطرُونى كما أطرتِ النصارى عيسى آبن مريم وقولوا عبد الله ورسوله " فمعناه لا تصفونى بما ليس فىّ من الصفات تلتمسون بذلك مَدْحِى، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه ، فنسبوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلّوا . وهذا يقتضى أن من رفع آمرأ فوق حدّه وتجاوز مقداره بما ليس فيه فمتعدّ آثم ؛ لأن ذلك لو جاز فى أحد لكان أَوْلى الخلق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ الضمير فى «تظلمون» عائد على المذكورين ممن زكى نفسه وممن يزكيه الله عز وجل . وغيرُ هذين الصنفين عُلِم أن الله تعالى لا يظلمه من غير هذه الاية . والفَتِيل الخيط الذى فى شَقّ نواة التمرة؛ قاله ابن عبـاس وعطاء ومجاهد . وقيــل : القشرة التى حول النواة بينهـا وبين البشرة . وقال ابن عباس أيضـا وأبو مالك والسُّدِّى : هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفّيك من الوسخ إذا فتلتهما ؛ فهو فعِيل بمعنى مفعول . وهذا كله يرجع إلى الكناية عن تحقير الشيء وتصغيره، وأن الله لا يظلمه شيئا . ومثل هــذا فى التحقير قوله تعــالى : « وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِــيرًا » وهو النكتة التى فى ظهر النواة، ومنه تنبت النخلة ؛ وسيأتى . قال الشاعر يذمّ بعض الملوك :

تجمع الجيش ذا الألوف وتغزو * ثم لا ترزأ العـــدو فتيـــلا

ثم عجّب النبيّ صلى الله عليــه وسلم من ذلك فقال : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ فى قولهم نحن أبنـاء الله وأحباؤه . وقيل : تزكيتهم لأنفسهم ؛ عن ابن جُريج . وروى أنهم قالوا : ليس لنا ذنوب إلا كذنوب أبنائنا يوم تولد . والافتراء الاختلاق؛ ومنه افترى فلان على فلان أى رماه بمـا ليس فيــه . وفريت الشيء قطعته . ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ نصب على البيان . والمعنى تعظيم الذنب وذمه . والعرب تستعمل مثل ذلك فى المدح والذم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعنى اليهود ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ اختلف أهل التأويل فى تأويل الجبت والطاغوت؛ فقال ابن عباس وابن جُبير وأبو العالية: الجبت الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت الكاهن . وقال الفاروق عمر رضى الله عنه : الجبت السحر والطاغوت الشيطان . ابن مسعود : الجبت والطاغوت ها هنا كعب ابن الأشرف وحُيَيّ بن أخطب . عِكرمة : الجبت حيي بن أخطب والطـاغوت كعب ابن الأشرف؛ دليله قوله تعالى: « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ» . قتادة : الجبت الشيطان والطاغوت الكاهن . وروى ابن وهب عن مالك بن أنس : الطاغوت ما عُبِد من دون الله . قال : وسمعت من يقول إن الجبت الشيطان؛ ذكره النحاس . وقيــل : هما كل معبود من

دون الله ، أو مطاع فى معصية الله؛ وهذا حسن . وأصل الجبت الجبس وهو الذى لا خير فيه فأبدلت التاء من السين؛ قاله قُطْرُب . وقيل : الجبت إبليس والطاغوتُ أولياؤه . وقول مالك فى هذا الباب حَسَن ؛ يدل عليه قوله تعالى : « أَنِ ٱعْبُدوا ٱللّهَ وَٱجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقال تعالى : « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا » . وروى قَطَن بن المخارِق عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الطَّرْق والطِّيَرة والعِيافة من الجبت " . الطَّرْق الزجر، والعِيافة الخطُّ(١)؛ خرّجه أبو داود فى سننه . وقيــل : الجبت كل ما حرم الله ، والطاغوت كل ما يطغى الإنسان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى يقــول اليهود لكفار قريش أنتم أهــدى سبيلا من الذين آمنوا بمحمد . وذلك أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكبا من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحُد ليحالفوا قريشا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دُور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعنّ على قتال محمد؛ فقال أبو سفيان : إنك آمرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أُمِّيُّون لانعلم، فأيّنا أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق نحن أم محمد ؟ فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا ممــا عليه محمد .

قوله تعــالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ أى ألَهم، والميم صلة . « نَصِيبٌ » حظّ من الملك، وهذا على وجه الإنكار؛ يعنى ليس لهم من المُلْك شيء، ولو كان لهم منه شيء لم يعطوا أحدا منه شيئا لبخلهم وحسدهم . وقيل : المعنى بل ألهم نصيب؛ فتكون أم منقطعة ومعناها الإضراب عن الأوّل والاستئناف للثانى . وقيل : هى عاطفة على محذوف لأنهم أنِفُــوا من آتباع محمد صلى الله عليه وسلم. والتقدير : أهم أَوْلى بالنبوّة ممن أرسلتُه أم لهم نصيب من الملك؟ . ﴿ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أى يمنعون الحقوق. خبّر الله عز وجل عنهم بمــا يعلمه منهم. والنَّقير : النكتة فى ظهر النــواة ؛ عن ابن عباس وقَتادة وغيرهما . وعن ابن عباس أيضا :

---

(١) فى سنن أبى داود : « قال عوف : العيافة زجر الطير، والطرق الخط يخط فى الأرض » . والذى فى اللسان : «الطرق الضرب بالحصى، وقيل هو الخط فى الرمل . والطيرة : بوزن العنبة وقد تسكن الياء، وهو ما يتشاءم به من الفأل الردىء . والعيافة : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب كثيرا » .

النقير : ما نقر الرجل بأصبعه كما ينقر الأرض . وقال أبو العالية : سألت ابن عباس عن النقير فوضع طرف الإبهام على باطن السبابة ثم رفعهما وقال : هذا النقير . والنقير : أصل خشبة ينقر و ينبذ فيه ؛ وفيه جاء النهى ثم نسخ . وفلان كريم النَّقِير أى الأصل . و « إذًا » هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها ، ولو نصب لجاز . قال سيبويه : « إذًا » فى عوامل الأفعال بمنزلة « أظن » فى عوامل الأسمـاء ، أى تُلْغَى إذا لم يكن الكلام معتمدا عليها ، فإن كانت فى أوّل الكلام وكان الذى بعدها مستقبلا نصبت ؛ كقولك : أزورك ، فيقول مجيبا لك إذًا أكرمَك . قال عبد الله بن عَنَمة الضَّبِّى :

أُردد حِمارَك لا يرتع بِرَوْضَتِنا * إِذَنْ يُرَدَّ وقَيْدُ العَيْرِ مكروبُ (١)

نُصب لأن الذى قبل «إذن» تام فوقعت ابتداء كلام . فإن وقعت متوسطة بين شيئين كقولك زيد إذًا يزورك ألغيت ؛ فإن دخل عليها فاء العطف أو واو العطف فيجوز فيها الإعمـال والإلغاء ؛ أما الإعمـال فلأن ما بعـد الواو يستأنف على طريق عطف الجمـلة على الجملة ، فيجوز فى غير القرآن فإذًا لا يُؤتوا . وفى التـنزيل « وإِذًا لَا يَلْبَثُـونَ » وفى مصحف أُبَىّ « وإذًا لا يلبثوا » . وأما الإلغاء فلأن ما بعد الواو لا يكون إلا بعـد كلام يعطف عليه ، والناصب للفعل عند سيبويه « إذًا » لمضارعتها « أن » ، وعند الخليل أن مضمرة بعد إذا . وزعم الفَـرّاء أن إذًا تكتب بالألف وأنهـا منوّنة . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول سمعت ابا العباس محمد بن يزيد يقول : أشتهى أن أكوى يدَ مَن يكتب إذًا بالألف ؛ إنها مثل لن وأن ، ولا يدخل التنوين فى الحروف .

قوله تعـالى : أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

(١) كَرَبت القيد إذا ضيقته على المقيد . والمعنى : لا تعرض لشتمنا فإنا قادرون على تقييد هذا العير ومنعه من التصرف . (اللسان) .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ﴾ يعنى اليهود . ﴿ النَّاس ﴾ يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّــةً ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهمــا . حسدوه على النبوّة وأصحابَه على الإيمــان به . وقال قتادة : « النــاس » العرب، حسدتهم اليهود على النبوّة . الضحاك : حسدت اليهود قريشا ؛ لأن النبوّة فيهم . والحسد مذموم وصاحبــه مغموم وهو يأكل الحسنات كما تأكل النــار الحطب؛ رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم . وقال الحسن : ما رأيت ظالمــا أشبه بمظلوم من حاســد ؛ نفَس دائم ، وحزن لازم ، وعَبرة لا تنفد . وقال عبد الله ابن مسعود : لا تُعادُوا نِعم الله . قيل له : ومَن يعادى نِعم الله؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، يقول الله تعالى فى بعض الكتب : الحسود عدوّ نعمتى متسخِّطٌ لقضائى غيرُ راضٍ بقسمتى . ولمنصور الفقيه :

ألا قــل لمن ظل لى حاســدا * أتدرى على من أسأت الأدبْ
أسأت على الله فى حكمه * إذا أنت لم ترض لى ما وهبْ

ويقال : الحســد أوّل ذنب عُصى الله به فى السماء، وأول ذنب عُصى به فى الأرض ؛ فأما فى السّماء فحَسَدُ إبليس لآدم، وأما فى الأرض فحسدُ قابيل لهابيل . ولأبى العتاهية فى الناس :

فيا رب إن النــاس لا يُنصفوننى * فكيف ولو أنصــفتُهم ظلمونِى
وإن كان لى شىء تصدّوْا لأخذه * وإن شئتُ أبغى شيئَهم منعونِى
وإن نالهم بذْلى فلا شكر عنــدهم * وإن أنا لم أبذُلْ لهم شتمــونِى
وإن طَرَقَتْنى نكبةٌ فَكِهُوا بهــا * وإن صحِبتنى نعمة حســدونِى
سأمنــع قلبى أنــ يَحنّ إليهمو * وأحجب عنهم ناظرى وجُفونِى

وقيل : إذا سرك أن تسلم من الحاسد فعَمِّ عليه أمرك . ولرجل من قريش :

حسدوا النعمة لمــا ظهرت * فــرموها بأباطيـــل الكَلِمْ
وإذا ما الله أســـدى نعمة * لم يضِرها قول أعداء النِّعَــمْ

ولقد أحسن من قال :

آصبر على حسـد الحسو * د فإنّ صـبرك قاتـله
فالنـار تأكل بعضـها * إن لم تجـد ما تأكله

وقال بعض أهل التفسير فى قول الله تعـالى : « رَبَّنَـا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ » . إنه إنمـا أراد بالذى من الجنّ إبليس والذى من الإنس قابيـل ؛ وذلك أن إبليس كان أوّل من سنّ الكفر ، وقابيل كان أوّل من سنّ القتل ، وإنمـا كان أصل ذلك كله الحسد . وقال الشاعر :

إن الغراب وكان يمشى مشـية * فيما مضى من سالف الأحـوالِ
حسد القَطاة فرام يمشى مشيهـا * فأصـابه ضرب من التّعقالِ

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا ﴾ ثم أخبر تعـالى أنه آتى آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتاهم ملكا عظيما . قال همام بن الحارث : أيِّدوا بالملائكة . وقيل : يعنى ملك سليمان ؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا : المعنى أم يحسدون محمدا على ما أحلّ الله له من النساء . فيكون المُلْك العظيم على هـذا أنه أحل لداود تسعا وتسعين آمرأة ولسليمان أكثر من ذلك . واختار الطّبرىّ أن يكون المراد ما أوتيـه سليمان من الملك وتحليـل النساء . والمراد تكذيب اليهود والردّ عليهـم فى قولهم : لو كان نبيًّا ما رغب فى كثرة النساء ولشغلته النبوّة عن ذلك ؛ فأخبر الله تعالى بمـا كان لداود وسليمان يوبّخهم ، فأقرّت اليهود أنه اجتمع عنـد سليمان ألف آمرأة ، فقال لهم النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ألف آمرأة" ؟ ! قالوا : نعم ثلاثمـائة مَهْرِيّة ، وسبعمائة سَرِيّة ، وعنـد داود مائة آمرأة . فقال لهم النبىّ صـلى الله عليه وسـلم : "ألف عند رجل ومائة عند رجل أكثر أو تسع نسوة" ؟ فسكتوا . وكان له يومئذ تسع نسوة .

الثالثـــة — يقال : إن سـليمان عليه السلام كان أكثر الأنبياء نساء . والفائدة فى كثرة تزوّجه أنه كان له قوّة أربعين نبيًّا وكل من كان أقوى فهو أكثر نكاحا . ويقال : إنه أراد بالنكاح كثرةَ العشـيرة ؛ لأن لكل آمرأة قبيلتين قبيلةً من جهة الأب وقبيلةً من جهة الأم ؛

فكل ما تزوّج آمرأة صرف وجوه القبيلتين إلى نفسه فتكون عَونا له على أعدائه . ويقال : إن كل من كان أتقى فشهوته أشدّ ؛ لأن الذى لا يكون تقيًّا فإنما يتفرّج بالنظر والمس ؛ ألا ترى ما رُوى فى الخبر : العينان تزنيان واليدان تزنيان . فإذا كان فى النظر والمس نوع من قضاء الشهوة قل الجماع ، والمُتَّقِى لا ينظر ولا يمس فتكون الشهوة مجتمعة فى نفسه فيكون أكثرَ جماعا . وقال أبو بكر الورّاق : كلّ شهوة تقسى القلب إلا الجماع فإنه يصفى القلب؛ ولهذا كان الأنبياء يفعلون ذلك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ يعنى بالنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه تقدّم ذكره وهو المحسود . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ أعرض فلم يؤمن به . وقيل : الضمير فى « بِهِ » راجع إلى إبراهيم . والمعنى : فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من صدّ عنه . وقيل : يرجع إلى الكتاب . والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

قد تقدّم معنى الإصلاء أوّل السورة[1] . وقرأ حُميد بن قيس « نَصليهم » بفتح النون أى نشويهم . يقال : شاة مَصْلِية . ونصب « نَارًا » على هذه القراءة بنزع الخافض تقديره بنار . ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ ﴾ يقال : نضِج الشئ نُضْجًا ونَضْجا ، وفلان نضيج الرأى مُحْكَمُهُ . ومعنى الآية : تبدّل الجلود جلودا أخر . فإن قال من يطعن فى القرآن من

(١) راجع المسئلة الثانية ص ٥٣ من هذا الجزء .

الزنادقة : كيف جاز أن يعـذّب جِلدا لم يَعصِه؟ قيل له : ليس الجلد بمعذّب ولا معاقب، وإنمـا الألم واقع على النفوس ؛ لأنها هى التى تُحس وتعرف فتبديل الجلود زيادة فى عذاب النفوس . يدل عليه قوله تعالى : « لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ » وقوله تعالى : « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ». فالمقصود تعذيب الأبدان وإيلام الأرواح . ولو أراد الجلود لقال: لِيذوقنّ العذاب . مقاتل : تأكله النار كل يوم سبع مرات . الحسن : سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فعـادوا كما كانوا . ابن عمـر : إذا احترقوا بدّلت لهم جلود بيض كالقراطيس . وقيل : عنى بالجلود السرابيل، كما قال تعالى : « وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِـرَانٍ » سميت جلودا للزومها جلودهم على المجـاورة، كما يقال للشيء الخاص بالإنسان : هو جِلدة ما بين عينيه . وأنشد ابن عمر رضى الله عنه :

يـلوموننى فى سـالِمٍ وألومهــم * وجِلدة ما بين العينِ والأنف سالم

فكلمـا أُحرقت السرابيل أعيدت . قال الشاعر :

كسا اللؤم تَيْمًا خضرة فى جلودها * فويل لتَيم من سرابيلها الخضر

فكنى عن الجلود بالسرابيل . وقيـل : المعنى أعدنا الجلد الأوّل جديدا ؛ كما تقول للصائغ : صُغ لى من هذا الخاتم خاتما غيره ؛ فيكسره ويصوغ لك منه خاتما . فالخاتم المصوغ هو الأوّل إلا أن الصياغة تغيرت والفضة واحدة . وهـذا كالنفس إذا صـارت ترابا وصارت لا شيء ثم أحياها الله تعالى . وكعهدك بأخ لك صحيحا ثم تراه سـقيما مُدْنِفا فتقول له : كيف أنت ؟ فيقول : أنا غير الذى عهدت . فهو هو، ولكن حاله تغيرت . فقول القائل : أنا غير الذى عهدت، وقوله تعالى : « غيرها » مجاز . ونظيره قوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ » وهى تلك الأرض بعينها إلا أنها تغير آكامها وجبالها وأنهـارها وأشجارها ، ويزاد فى سـعتها ويسوّى ذلك منهـا ؛ على ما يأتى بيانه فى سورة «إبراهيم» عليه السلام . ومن هـذا المعنى قول الشاعر :

فمـا الناس بالناس الذين عهدتهم * ولا الدار بالدار التى كنت أعرف

وقال الشَّعْبيّ : جاء رجل إلى ابن عباس فقال: ألا ترى ما صنعت عائشة! ذمّت دهرها ، وأنشدت بيتَيْ لَبِيد :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم * وبقيت في خَلْف كجلد الأجرب[1]
يتلذذون مَجانةً ومَذلّةً * ويُعاب قائلهم وإن لم يَشْغَبِ

فقالت : رحم الله لَبيدا فكيف لو أدرك زماننا هذا ! فقال ابن عباس : لئن ذمّت عائشة دهرها لقد ذمّت « عاد » دهرها ؛ لأنه وُجِد في خِزَانة « عاد » بعد ما هلكوا بزمن طويل سهم كأطول ما يكون من رماح ذلك الزمن عليه مكتوب :

بلاد بها كُنّا ونحن بأهلها * إذ النّاس ناسٌ والبلادُ بِلادُ

البلاد باقية كما هي إلا أن أحوالها وأحوال أهلها تنكّرت وتغيّرت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا ﴾ أي لا يُعجزه شيء ولا يفوته . ﴿ حَكِيمًا ﴾ في إيعاده عباده . وقوله في صفة أهل الجنة: ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ يعني كثيفا لا شمس فيه . الحسن : وُصِف بأنه ظليل؛ لأنه لا يدخله ما يدخل ظِلّ الدنيا من الحر والسّموم ونحو ذلك . وقال الضحاك : يعني ظلال الأشجار وظلال قصورها . الكلبي : « ظِلًّا ظَلِيلًا » أي دائما .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ ﴾ هذه الآية من أمّهات الأحكام تضمّنت جميع الدِّين والشرع . وقد اختلف مَن المخاطب بها ؛ فقال عليّ بن أبي

(١) الخلف (بسكون اللام) : الأردياء الأخساء . والمجانة : ألا يبالي الإنسان بما صنع وما قيل له . ويروى : يتحدثون مخانة وملاذة . والمخانة مصدر من الخيانة والميم زائدة . ويشغب : يميل عن الطريق والقصد .

طالب وزيد بن أسلم وشَهْر بن حَوْشَب وآبن زيد : هـذا خطاب لولاة المسلمين خاصّة ، فهى للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمَرائه ، ثم تتناول من بعدهم . وقال آبن جريج وغيره : ذلك خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة فى أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة ابن أبى طلحة الحَجَبى العَبْدَرى من بنى عبـد الدار ومن آبن عمه شـيبة بن عثمان بن أبى طلحة وكانا كافرين وقت فتح مكة ، فطلبه العباس بن عبد المطلب لتنضاف له السِّدانة إلى السِّقاية ؛ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسـلم الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان ، وأخرج مقام إبراهيم ونزل عليه جبريل بهذه الآية . قال عمر بن الخطاب : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية ، وما كنت سمعتها قبلُ منه ، فدعا عثمان وشيبة فقال : "خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم". وحكى مَكِّيّ : أن شيبة أراد ألا يدفع المفتاح . ثم دفعه ، وقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : خذه بأمانة الله . وقال ابن عباس : الآية فى الولاة خاصة فى أن يعظوا النساء فى النشوز ونحوه ويردّوهن إلى الأزواج . والأظهر فى الآية أنها عامة فى جميع الناس فهى تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات فى قسمة الأموال ورد الظلامات والعـدل فى الحكومات . وهـذا اختيار الطبرى . وتتناول مَن دونهم من النـاس فى حفظ الودائع والتحرز فى الشهادات وغير ذلك ، كالرجل يحكم فى نازلة مّا ونحوه ؛ والصـلاةُ والزكاةُ وسائرُ العبادات أمانة الله تعالى . ورُوى هذا المعنى مرفوعا من حديث ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "القتل فى سبيل الله يكفّر الذنوب كلّها" أو قال : "كلَّ شىء إلا الأمانة فى الصلاة والأمانة فى الصوم والأمانة فى الحديث وأشدّ ذلك الودائع". ذكره أبو نعيم الحافظ فى الحِلية . وممن قال إن الآية عامة فى الجميع البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبىّ ابن كعب قالوا : الأمانة فى كل شىء فى الوضوء والصـلاة والزكاة والجنابة والصوم والكيل والوزن والودائع . وقال ابن عباس : لم يرخّص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة .

قلت : وهـذا إجماع . وأجمعـوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابهـا الأبرارِ منهم والفجار ؛ وقاله ابن المنـذر . والأمانة مصدر بمعنى المفعول فلذلك جُمع . ووجه النظم بمـا

تقدّم أنه تعالى أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم: إن المشركين أهدَى سبيلا ، فكان ذلك خيانة منهم فانجرّ الكلام إلى ذكر جميع الأمانات ؛ فالآية شاملة بنظمها لكل أمانة وهي أعداد كثيرة كما ذكرنا . وأمهاتها في الأحكام : الوَدِيعة واللُّقَطَة والرهن والعارِيّة . وروى أُبَيّ بن كعب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تَخُن من خانك" . أخرجه الدّارَقُطْنِيّ . ورواه أنس وأبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد تقدّم في « البقرة » معناه . وروى أبو أمامة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته عام حَجّة الوَداع : "العارِيّة مؤدّاة والمِنْحة مردودة والدَّين مُقْضًى والزّعيم غارم" . صحيح أخرجه الترمذي وغيره . وزاد الدّارَقُطْنِيّ « فقال رجل : فَعَهْدُ الله ؟ قال : عهد الله أحقّ ما أُدّى » . وقال بمقتضى هذه الآية والحديث في ردّ الوديعة وأنها مضمونة — على كل حال كانت مما يغاب عليها أو لا يغاب تُعدّى فيها أو لم يُتعدّ — عطاء والشافعيّ وأحمد وأشهب . وروى أن ابن عباس وأبا هريرة ضمنا الوديعة . وروى ابن القاسم عن مالك أن من استعار حيوانا أو غيره مما لا يغاب عليه فتلف عنده فهو مصدّق في تَلَفه ولا يضمنه إلا بالتّعدّي . وهذا قول الحسن البصري والنَّخَعي، وهو قول الكوفيين والأوزاعيّ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام: "العارِيّةُ مؤدّاة" هو كمعنى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » . فإذا تَلِفَت الأمانة لم يلزم المؤتَمن غُرمها لأنه مصدق ؛ فكذلك العارِيّة إذا تَلِفت من غير تعدٍّ؛ لأنه لم يأخذها على الضمان ، فإذا تَلِفَت بتعدّيه عليها لزمه قيمتها لجنايته عليها . وروى عن عليّ وعمر وابن مسعود أنه لا ضمان في العارِيّة . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا ضمان على مؤتَمَن". واحتج الشافعيّ فيما استدلّ به بقول صَفْوان للنبيّ صلى الله عليه وسلم لما استعار منه الأدراع : أعارِيّة مضمونة أو عارِيّة مؤدّاة؟ فقال : "بل مؤدّاة" .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ قال الضحاك : بالبيّنة على المدّعى واليمين على من أنكر . وهـذا خطاب للولاة والأمراء والحكام ، ويدخل فى ذلك بالمعنى جميعُ الخلق كما ذكرنا فى أداء الأمانات . قال صلى الله عليه وسلم : " إن المُقسطين يوم القيامة على منابرَ من نور عن يمينِ الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وَلُوا " . وقال : "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راعٍ على أهله وهو مسئول عنهم والمرأة راعيـة على بيت زوجها وهى مسئولة عنـه والعبد راعٍ على مال سـيّده وهو مسئول عنـه ألَا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" . فجعل فى هذه الأحاديث الصحيحة كلَّ هؤلاء رعاة وحكّاما على مراتبهم ، وكذلك العالم الحاكم ؛ لأنه إذا أفتى حكم وقضى وفصَل بين الحلال والحرام ، والفرض والندب ، والصحة والفساد ، فجميعُ ذلك أمانة تؤدَّى وحكم يُقضَى . وقد تقدّم فى « البقرة »(١) القول فى « نِعِمَّا » .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وصف الله تعالى نفسه بأنه سميع بصـير يَسمع ويرى ؛ كما قال تعالى : « إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » فهـذا طريق السمع . والعقل يدل على ذلك ؛ فإن انتفاء السمع والبصر يدل على نقيضيهما من العمى والصمم ، إذ المحل القابل للضـدّين لا يخلو من أحدهما ، وهو تعالى مقدّس عن النقائص ويستحيل صـدور الأفعال الكاملة من المتّصف بالنقائص ؛ كخلق السـمع والبصر ممن ليس له سمع ولا بصر . وأجمعت الأمة على تنزيهه تعالى عن النقائص . وهو أيضا دليل سمعيّ يُكتفَى به مع نص القرآن فى مناظرة من تجمعهم كلمة الإسلام . جلّ الرب تبارك وتعالى عما يتوهمه المتوهمون ويختلقـه المفترون الكاذبون « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

(١) راجع : ج ٣ ص ٣٣٤ طبعة أولى أو ثانية .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تقدّم إلى الولاة فى الآية المتقدّمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، تقدّم فى هذه الآية إلى الرعيّة فأمر بطاعته جل وعز أوّلا ، وهى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ثم بطاعة رسوله ثانيا فيما أمر به ونهى عنه ، ثم بطاعة الأمراء ثالثا ؛ على قول الجمهور وأبى هريرة وابن عباس وغيرهم . قال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : أطيعوا السلطان فى سبعة : ضرب الدراهم والدنانير ، والمكاييل والأوزان ، والأحكام والحج والجمعة والعيدين والجهاد . قال سهل : إذا نهى السلطان العالِمَ أن يُفتِيَ فليس له أن يفتِيَ ؛ فإن أفتى فهو عاصٍ و إن كان أميرا جائرا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : وأما طاعة السلطان فتجب فيما كان لله فيه طاعة ، ولا تجب فيما لله فيه معصية ؛ ولذلك قلنا إن ولاة زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم ، ويجب الغزو معهم متى غَزَوْا ، والحُكْمُ مِن قِبَلهم ، وتولية الإمامة والحِسبة ؛ وإقامة ذلك على وجه الشريعة . و إن صلّوا بنا وكانوا فَسَقة من جهة المعاصى جازت الصلاة معهم ، و إن كانوا مُبْتَدِعة لم تجز الصلاة معهم إلّا أن يُخافوا فيصلَّى معهم تَقيّة وتعاد الصلاة .

قلت : روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : حقٌّ على الإمام أن يحكم بالعدل، و يؤدّى الأمانة؛ فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه؛ لأن الله تعالى أمر بأداء الأمانة والعدل ثم أمر بطاعته . وقال جابر بن عبد الله ومجاهد : « أُولُو الْأَمْرِ » أهل القرآن والعلم ؛ وهو اختيار مالك ، ونحوُه قولُ الضحاك قال : يعنى الفقهاء والعلماء فى الدين . وحكى عن مُجاهد أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصّة . وحكى عن عِكرمة أنها إشارة إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما خاصّة . وروى سفيان بن عُيينة عن الحكم بن أَبَان أنه سأل عِكرمة عن أمّهات الأولاد فقال : هن حرائر . فقلت بأى شىء ؟ قال بالقرآن . قلت : بأى شىء فى القرآن ؟ قال قال الله تعالى : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وكان عمر من أولى الأمر ؛ قال : عَتَقت ولو بسقط . وسيأتى هذا المعنى مُبَيَّنًا

فى سورة « الحَشْر » عند قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .
وقال ابن كَيْسان : هم أولوا العقل والرأى الذين يدبّرون أمر الناس .

قلت : وأصح هذه الأقوال الأوّلُ والثانى ؛ أما الأوّل فلأن أصــل الأمر منهم والحكم إليهم . وروى الصحيحان عن ابن عباس قال : نزل « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولِى الأمرِ منكم » فى عبد الله بن حُذافة بن قيس بن عَدِىّ السَّهْمِىّ إذ بعثه النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى سَرِيّة . قال أبو عمر : وكان فى عبـد الله بن حذافة دُعابةٌ معروفة ؛ ومن دعابتـه أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أمّره على سَرِيّة فأمرهم أن يجمعوا حطبا ويوقدوا نارا ؛ فلما أوقدوها أمرهم بالتقحُّم فيها ، فقال لهم : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعتى ؟ ! وقال : "من أطاع أميرى فقد أطاعنى" . فقالوا : ما آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجوا من النار ! فصوّب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلهم وقال : " لا طاعة لمخلوق فى معصـية الخالق قال الله تعـالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » " . وهـو حديث صحيح الإسناد مشهور . وروى محمد بن عمرو بن علقمة عن عمرو بن الحكم عن ثَوْبان أن أبا سعيد الخُدْرِىّ قال : كان عبد الله بن حذافة بن قيس السَّهْمِىّ من أصحاب بَدْر وكانت فيه دُعابة. وذكر الزبير قال : حدّثنى عبـد الجبار بن سعيد عن عبد الله بن وهب عن اللّيث بن سـعد قال : بلغنى أنه حلّ حزام راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، حتى كاد رســول الله صلى الله عليه وســلم يقع . قال ابن وهب : فقلت لليث لِيُضْحِكه ؟ قال : نعم كانت فيه دُعابة . قال ميمون بن مَهران ومُقاتل والكلبى : « أولو الأمر » أصحاب السّرايا .
وأما القول الثانى فيدلّ على صحته قوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَالرَّسُولِ » . فأمر تعـالى بردّ المتنازَع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليس لغير العلمـاء معرفة كيفية الردّ إلى الكتاب والسنة . ويدل هذا على صحة كون سؤال العلمـاء واجبا، وامتثال فتـواهم لازما . قال سهل بن عبـد الله : لا يزال الناس بخـير ما عظّموا السلطان والعلماء ؛ فاذا عظموا هذين أصلح الله دنيـاهم وأخراهم ، وإذا استخفُّوا بهذين فسَد دنياهم

وأخراهم . وأما القول الثالث فخاص، وأخص منه القول الرابع . وأما الخامس فيأباه ظاهر اللفظ و إن كان المعنى صحيحا؛ فان العقل لكل فضيلة أُسّ، ولكل أدب ينبوع، وهو الذى جعله الله للدين أصلا وللدنيا عِمادا، فأوجب الله التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبَّرة بأحكامه؛ والعاقل أقرب إلى ربه تعالى من جميع المجتهدين بغير عقل. وروى هذا المعنى عن ابن عباس. وزعم قوم أن المراد بأولى الأمر علىٌّ والأئمة المعصومون . ولو كان كذلك ما كان لقوله : « فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ » معنًى ، بل كان يقول فردّوه الى الإمام وأولى الأمر، فإن قوله عند هؤلاء هو المحكم على الكتاب والسنة . وهذا قولٌ مهجور مخالف لما عليه الجمهور . وحقيقة الطاعة امتثال الأمر، كما أن المعصية ضدّها وهى مخالفة الأمر . والطاعة مأخوذة من أطاع إذا انقاد . والمعصية مأخوذة من عصى إذا اشتدّ . و « أولو » واحدهم « ذو » على غير قياس كالنساء والإبل والخيل، كلّ واحد اسمُ الجمع ولا واحد له من لفظه . وقد قيل فى واحد الخيل : خائل وقد تقدّم[(1)] .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أى تجادلتم واختلفتم ؛ فكأن كل واحد ينتزع حجّة الآخر ويُذهبها . والنزع الجذب . والمنازعة مجاذبة الحجج ؛ ومنه الحديث " وأنا أقول مالِى ينازعنى[(2)] القرآن ". وقال الأعشى :

نازعتهم قُضُبَ الرَّيحان متكئًا * وقهوةً مُزّةً رَاوُوقها[(3)] خَضِــل

﴿ فِي شَيْءٍ ﴾ أى من أمر دينكم. ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ أى ردّوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى الرسول بالسؤال فى حياته، أو بالنظر فى سنّته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ؛ هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة وهو الصحيح. ومن لم يرَ هذا اختلّ إيمانه لقوله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ » . وقيل: المعنى قولوا اللهُ ورسولُه أعلم؛ فهذا هو الردّ. وهذا كما

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى نهاية ابن الأثير ولسان العرب : « مالى أنازع القرآن » . و ينازعنى : يجاذبنى فى القراءة؛ ذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعه قراءته فشغله، فنهاه عن الجهر بالقراءة فى الصلاة خلفه . (٣) الراووق : المصفاة . والخضل : المبتل المندى .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: الرجوع الى الحق خير من التمادى فى الباطل . والقول الأوّل أصح ؛ لقول علىّ رضى الله عنه : ما عندنا إلا ما فى كتاب الله وما فى هذه الصحيفة، أو فَهْمٌ أُعطِيَه رجل مسلم . ولو كان كما قال هذا القائل لبطل الاجتهاد الذى خُصّ به هذه الأمة والاستنباطُ الذى أعطِيَها، ولكن تُضرب الأمثال و يطلب المثال حتى يخرج الصواب. قال أبو العاليـة : وذلك قوله تعالى : « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ » . نعم، ما كان ممّـا استأثر الله بعلمه ولم يُطلِـع عليه أحدا من خلقه فذلك الذى يقال فيه : الله أعلم . وقد آستنبط علىّ رضى الله عنه مدّة أقلّ الحَمْل — وهو ستّة أشهر — من قوله تعالى: « وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا » وقوله تعالى : « وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فإذا فَصَلنا الحولين من ثلاثين شهرا بقيت ســتة أشهر ؛ ومثله كثير . وفى قوله تعالى: « وَإِلَى ٱلرَّسُولِ » دليل على أن سُنّته صلى الله عليه وسلم يُعمَل بهـا و يُمتَثل ما فيها . قال صلى الله عليه وسـلم : " ما نَهيْتكم عنــه فآجتنبوه وما أمرتكم به فآفعلوا منــه ما آستطعتم فإنمـا أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم وآختلافُهم على أنبيائهم " أخرجه مسلم . وروى أبو داود عن أبى رافع عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا أُلفِيَنّ أحدَكم متّكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ممـا أمرت به أو نَهيت عنه فيقول لا ندرى ماوجدنا فى كتاب الله آتّبعناه ". وعن العِرْبَاض بن سارية أنه حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس وهو يقول : " أيحسب أحدكم متّكئًا[1] على أَرِيكته وقد يَظُنّ أن الله لم يحرّم شيئا إلا ما فى هــذا القرآن ألَا و إنى والله قد أمَرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنهـا لمثل القــرآن أو أكثر" . وأخرجه الترمذىّ من حديث المِقْــدام بن مَعْدِى كَرِب بمعناه وقال : حديث حسن غريب . والقاطع قولُه تعالى : « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ » الآية . وسيأتى .

(١) قوله متكئا « على أريكته » : جالسا على سريره المزين؛ وهذا بيان لحماقته وسوء أدبه كما هو دأب المتنعمين المغرورين بالمـال . وقال الخطابى : أراد به أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا بالأسفار الحديث من أهله فيرده حيث لا يوافق هواه . (عن ابن ماجه) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أى ردّكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنّة خير من التنازُع . ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى مَرجِعا ؛ من آل يئول إلى كذا أى صار . وقيل : من ألتُ الشيء إذا جمعته وأصلحته . فالتأويل جمع معانى ألفاظ أشكلت بلفظ لا إشكال فيه ؛ يقال : أوّل الله عليك أمرَك أى جمعه . ويجوز أن يكون المعنى وأحسن من تأويلكم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

روى يزيد بن زُريع عن داود بن أبى هند عن الشّعبيّ قال : كان بين رجل من المنافقين و رجل من اليهود خصومة ، فدعا اليهوديُّ المنافق إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه علم أنه لا يقبل الرّشْوة . ودعا المنافق اليهوديَّ إلى حكّامهم ؛ لأنه علم أنهم يأخذون الرّشوة فى أحكامهم ؛ فلما اختلفا اجتمعا على أن يحكّما كاهناً فى جُهينة ؛ فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى المنافق . ﴿ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى اليهودى . ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ قال الضحاك : دعا اليهوديُّ المنافقَ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ودعاه المنافقُ إلى كعب بن الأشرف وهو « الطّاغوت » . ورواه أبو صالح عن ابن عباس قال : كان بين رجل من المنافقين — يقال له بشر — و بين يهوديّ خصومة ؛ فقال اليهوديّ : انطلق بنا إلى محمد ، وقال المنافق : بل إلى كعب بن الأشرف — وهو الذى سمّاه الله « الطاغوت » أى ذو الطغيان — فأبى اليهوديّ أن يخاصمه إلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما رأى ذلك المنافق أتى معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لليهوديّ .

فلما خرجا قال المنافق : لا أرضى ، اِنطلق بنا إلى أبى بكر؛ فحكم لليهودىّ فلم يرض — ذكره الزّجاج — وقال : انطلق بنا إلى عمر فأقبلا على عمر فقال اليهودىّ : إنا صِرْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إلى أبى بكر فلم يرض ؛ فقال عمر للمنافق : أكذاك هو ؟ قال : نعم . قال : رُوَيْدَكُما حتى أخرج إليكما . فدخل وأخذ السّيف ثم ضرب به المنافق حتى بَرَد (١) ، وقال : هكذا أقضى على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ؛ وهَرَب اليهودىّ ، ونزلت الآية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنت الفَارُوق" . ونزل جبريل وقال : إن عمر رضى الله عنه فَرَق بين الحقّ والباطل؛ فسُمِّى الفاروق . وفى ذلك نزلت الآيات كلّها إلى قوله : « وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » وانتصب : ﴿ ضَلَالًا ﴾ على المعنى ، أى فيضلون ضلالا ؛ ومثله قوله تعالى : « والله أَنبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا » (٢) . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفى . و ﴿ صُدُودًا ﴾ اسم للصدر عند الخليل ، والمصدر الصدّ . والكوفيون يقولون هما مصدران .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

أى ﴿ فكيف ﴾ يكون حالهم ، أو ﴿ فكيف ﴾ يصنعون ﴿ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ أى من ترك الاستعانة بهم ، وما يلحقهم من الذل فى قوله : « فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » . وقيل : يريد قتل صاحبهم ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وتم الكلام . ثم ابتدأ يُخبر عن فعلهم ؛ وذلك أن عمر لما قَتَل صاحبَهم جاء قومُه يطلبون دِيَتَه ويحلفون ما نريد بطلب دِيَته إلا الإحسان وموافقة الحقّ . وقيل : المعنى ما أردنا بالعدول عنك فى المحاكمة إلا التوفيق بين الخصوم ، والإحسان بالتقريب فى الحكم . ابن كَيْسان : عدلا

(١) برد (بفتح الموحدة والراء) : أى مات . (٢) راجع جـ ٤ ص ٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

وحقًّا، نظيرها « وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى » فقال الله تعالى مكذّبا لهم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ قال الزجاج : معناه قد علم الله أنهم منافقون . والفائدة لنا : اعلموا أنهم منافقون . ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قيل : عن عقابهم . وقيل : عن قبول اعتذارهم ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أى خوّفهم . قيل : فى الملأ . ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ أى ازجرهم بأبلغ الزجر فى السرّ والخلاء . الحسن : قل لهم إن أظهرتم ما فى قلوبكم قتلتكم . وقد بَلُغَ القول بلاغة، ورجل بليغٌ يَبلغ بلسانه كُنْهَ مافى قلبه . والعرب تقول : أَحْمَقُ بَلْغٌ وَبِلْغٌ، أى نهاية فى الحماقة . وقيل : معناه يبلغ مايريد وإن كان أحمق . ويقال : إن قوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » نزل فى شأن الذين بَنَوا مسجد الضِّرار[1]؛ فلما أظهر الله نفاقهم، وأمرهم بهدم المسجد حلفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعا عن أنفسهم « ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة الله وموافقة الكتاب » .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴾ « مِنْ » زائدة للتوكيد . ﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ فيما أمر به ونهى عنه . ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ بعلم الله . وقيل : بتوفيق الله . ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءُوكَ ﴾ روى أبو صالح عن عليّ قال : قَدِم علينا أعرابيّ بعد ما دفنّا رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحثا على رأسه من ترابه ؛ فقال : قلتَ يا رسول الله فسمعنا قولك، ووَعَيْتَ عن الله فوعَيْنا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » الآية، وقد ظلمتُ نفسى وجئتك

---

(١) هو مسجد بقباء، وهى قرية على بعد ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة ؛ وهذا المسجد يتطوع العوام بهدمه . (معجم البلدان) .

تســتغفرَ لى . فنودى من القبر أنه قد غُفر لك . ومعنى ﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ أى قابلا لتوبتهم، وهما مفعولان لا غير .

قوله تعـالى : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُـمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قال مجاهـد وغيره : المراد بهـذه الآية من تقدّم ذكره ممن أراد التّحاكم إلى الطاغوت وفيهم نزلت . وقال الطّبرِىّ : قوله « فَلَا » ردٌّ على ما تقدّم ذكره، تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، ثم استأنف القسم بقوله : « وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ». وقال غيره : إنمـا قدّم « لا » على القسم اهتماما بالنفى وإظهارا لقـوّته، ثم كرره بعـد القسم تأكيدا للتهمّم بالنفى، وكان يصح إسقاط « لا » الثانية ويبقى أكثر الاهتمام بتقديم الأولى، وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفى ويذهب معنى الاهتمام . و﴿ شَجَرَ ﴾ معناه اختلف واختلط؛ ومنه الشجر لاختلاف أغصانه . ويقال لعصا الهَوْدَج : شِجَار؛ لتداخل بعضها فى بعض . قال الشاعر :

نفسى فداؤك والرّماح شَوَاجِر * والقوم ضُنك لِلقـاءِ قيـام

وقال طـــرفة :

وهُمُ الحكام أربابُ الهـدى * وسعاة الناس فى الأمر الشَّجِر

وقالت طائفة : نزلت فى الزُّبير مع الأنصارىّ، وكانت الخصومة فى سَقْى بستان؛ فقال عليه السلام للزبير : "أَسقِ أرضك ثم أرسل المـاء إلى أرض جارك" . فقال الخصم : أراك تُحابِى آبن عمتك؛ فتلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للزّبير : "أَسق ثم آحبس المـاء حتى يبلغ الجَدْر(١)" ونزل : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ » . الحديث ثابت صحيح رواه البخارىّ

(١) الجدر : وهو ما رفع حول المزرعة كالجدار .

عن عليّ بن عبد الله عن محمد بن جعفر عن مَعْمَر، ورواه مسلم عن قُتَيبة كلاهما عن الزّهريّ.
واختلف أهل هـذا القول فى الرجل الأنصارى ؛ فقال بعضهم : هو رجل من الأنصار من أهل بدر . وقال مكى والنحاس : هو حاطِب بن أبى بَلْتَعة . وقال الثعلبيّ والواحديّ والمهدوِيّ : هو حاطِب . وقيل : ثعلبـة بن حاطِب . وقيل غيره . والصحيح القول الأوّل ؛ لأنه غير معيّن ولا مُسمّى؛ وكذا فى البخاريّ ومسلم أنه رجل من الأنصار . وٱختار الطّبريّ أن يكون نزول الآية فى المنافق واليهودى . كما قال مجاهد، ثم تتناول بعمومها قصّة الزّبير . قال ٱبن العربى : وهو الصحيح ؛ فكل من ٱتّهم رسول الله فى الحكم فهو كافر، لكن الأنصاريّ زَلّ زلّة فأعرض عنه النبيّ صلى الله عليه وسلم وأقال عثرته لعلمه بصحة يقينه ، وأنها كانت فَلْتَة وليست لأحد بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم . وكل من لم يرض بحكم الحاكم وطعن فيه ورده فهى رِدّة[(١)] يُستتاب . وأمّا إن طعن فى الحاكم نفسه لا فى الحكم فله تعزيره وله أن يصفح عنه . وسيأتى بيان هذا فى آخر سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

الثانيــة — وإذا كان سبب نزول هذه الآية ما ذكرناه من الحديث ففقهُها أنه عليه السلام سلك مع الزّبير وخصمه مَسلك الصلح فقال : " أَسْقِ يا زُبير " لقربه من الماء " ثم أَرسل المـاء إلى جارك " . أى تساهل فى حقّك ولا تستوفه وعجّل فى إرسال المـاء إلى جارك . فحضّه على المسامحة والتّيسير، فلما سمع الأنصاريّ هذا لم يرض بذلك وغضب؛ لأنه كان يريد ألّا يُمسَك المـاء أصلا ، وعنـد ذلك نَطَق بالكلمة الجائرة المُهلِكة الفاقرة فقال : آن كان ٱبن عمتك ؟ بمد همزة « أَنْ » المفتوحة على جهـة الإنكار؛ أى أتحكم له علىّ لأجل أنه قرابتك . فعند ذلك تلوّن وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم غضبا عليه، وحكم للزّبير باستيفاء حقه من غير مسامحة له . وعليه لا يقال : كيف حَكَم فى حال غضبه وقد قال : " لا يَقضى القاضى وهو غضبان " ؟ فإنا نقول : فإنه معصوم من الخطأ فى التبليغ والأحكام ، بدليـل العقل الدالّ على صدقه فيما يبلّغه عن الله تعالى فليس مثل غيره من الحكّام . وفى هذا الحديث

(١) عبارة ٱبن العربى : وكل من لم يرض بحكم الحاكم بعده فهو عاص آثم .

إرشاد الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم و إن ظَهَر الحقّ . ومنعه مالك ، وآختلف فيه قول الشافعي . وهـذا الحديث حجة واضحة على الجواز ؛ فان آصطلحوا و إلا آستَوْفَى لذى الحقّ حقّه وثَبتَ الحكم .

الثالثـــة — وآختلف أصحاب مالك فى صفة إرسال المـاء الأعلى إلى الأسفل؛ فقال ابن حبيب : يُدخل صاحب الأعلى جميعَ المـاء فى حائطه و يسق به، حتى إذا بلغ المـاء من قاعة الحائط إلى الكعبين من القائم فيه أغلق مدخل المـاء، وصرف مازاد من المـاء على مقدار الكعبين إلى من يليه، فيصنع به مثل ذلك حتى يبلغ السيل إلى أقصى الحوائط . وهكذا فسّره لى مُطَرِّف وابن المـاجِشُون، وقاله ابن وهب . وقال ابن القـاسم : إذا انتهى المـاء فى الحائط إلى مقدار الكعبين أرسله كله إلى من تحته ولا يحبس منـه شيئا فى حائطه . قال ابن حبيب : وقول مُطَرِّف وابن المـاجِشون أحبُّ إلىّ وهم أعلم بذلك؛ لأن المدينة دارهما وبها كانت القصة وفيها جرى العمل .

الرابعـــة — روى مالك عن عبد الله بن أبى بكر أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى سَيْل مَهْزور و مُذَيْنِب(١): " يُمْسَك حتى الكعبين ثم يُرْسِل الأعلى على الأسفل " . قال أبو عمر : « لا أعلم هذا الحديث يتصل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه من الوجوه، وأرفعُ أسانيده ما ذكره محمد بن إسحاق عن أبى مالك بن ثعلبة عن أبيـه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم [أتاه أهـل مهزور فقضى أن المـاء إذا بلغ الكعبين لم يحبس الأعلى . وذكر عبد الرازق عن أبى حازم القرطبي عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢)] قضى فى سَيْل مَهْزُور أن يُحبس على كل حائط حتى يبلغ الكعبين ثم يُرْسَـل . وغيره من السـيول كذلك . وسئل أبو بكر البزّار عن حديث هذا الباب فقال : لست أحفظ فيه عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم حديثـا يثبت . قال أبو عمر : فى هذا المعنى — و إن لم يكن بهذا اللفظ — حديث ثابت

(١) مهزور ومذينب : واديان بالمدينة يسيلان بماء المطر خاصة .

(٢) زيادة عن كتاب « التمهيد » لأبى عمر بن عبد البر .

مجتمع على صحته . رواه ابن وهب عن الليث بن سعد ويونس بن يزيد جميعا عن ابن شهاب أن عُرْوَة بن الزبير حدّثه أن عبد الله بن الزبير حدّثه عن الزّبير أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شَهِد بَدْرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شِرَاج الحَرّة(١) كانا يسقيان بها كلاهما النخل؛ فقال الأنصارى : سَرِّح الماء ؛ فأبى عليه ، فاختصما إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم » وذكر الحديث . قال أبو عمر : وقوله فى الحديث : "ثم يرسل" وفى الحديث الآخر "إذا بلغ الماء الكعبين لم يحبس الأعلى" يشهد لقول ابن القاسم . ومن جهة النظر أن الأعلى لو لم يرسل إلا ما زاد على الكعبين لا يقطع ذلك الماء فى أقل مدة ، ولم ينته حيث ينتهى إذا أرسل الجميع ، وفى إرسال الجميع بعد أخذ الأعلى منه ما بلغ الكعبين أعم فائدة وأكثر نفعا فيما قد جعل الناس فيه شركاء؛ فقول ابن القاسم أولى على كل حال . هذا إذا لم يكن أصله ملكا للأسفل مختصا به ، فإن ما استحق بعمل أو بملك صحيح أو استحقاق قديم وثبوت ملك فكلٌّ على حقه على حسب ما كان من ذلك بيده وعلى أصل مسألته . وبالله التوفيق .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ ثم لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ﴾ أى ضِيقا وشَكًّا ؛ ومنه قيل للشجر الملتف : حَرَج وحَرَجة ، وجمعها حِرَاج . قال الضحاك : أى إثما بإنكارهم ما قضيت . ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أى ينقادوا لأمرك فى القضاء . وقال الزجاج : « تسليما » مصدر مؤكد ؛ فإذا قلت : ضربت ضربًا فكأنك قلت لا أشكّ فيه ؛ وكذلك « ويُسَلِّموا تسليمًا » أى ويُسلّموا لحكمك تسليما لا يُدخلون على أنفسهم شكًّا .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

(١) شراج : بشين معجمة مكسورة آخره جيم جمع شرجة بفتح فسكون ، وهى مسايل الماء بالحرة (بفتح فتشديد) وهى أرض ذات حجارة سود .

سبب نزولها ما رُوى أن ثابت بن قيس بن شَمّاس تفاخر هو ويهوديّ؛ فقال اليهوديّ : والله لقــد كُتِب علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا، وبلغت القتلى سبعين ألفا ؛ فقال ثابت : والله لو كَتَبَ الله علينا أن ٱقتلوا أنفسكم لفعلنا . وقال أبو إسحـاق السَّبِيعى : لمـا نزلت « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ » الآية ، قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا . فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: ”إنّ من أُمّتى رجالا الإيمانُ أثْبَت فى قلوبهم من الجبال الرّواسِى“. قال ٱبن وَهْب قال مالك : القائل ذلك هو أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه؛ وهكذا ذكر مَكّيّ أنه أبو بكر . وذكر النّقّاش أنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وذُكر عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : لو كُتِب علينا ذلك لبدأت بنفسى وأهلِ بيتى . وذكر أبو اللّيث السّمَرْقَندىّ أن القائل منهم عمّار بن ياسر وٱبن مسعود وثابت بن قيس، قالوا : لو أن الله أمَرَنا أن نقتل أنفسنا أو نَخرج من ديارنا لفعلنا؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: ”الإيمـان أثبت فى قلوب الرّجال من الجبال الرّواسى“ . و « لو » حرف يَدلّ على ٱمتناع الشيء لٱمتناع غيره؛ فأخبر الله سبحانه أنه لم يكتب ذلك علينا رِفْقا بنا لئلا تظهر معصيتُنا . فكم من أمر قصّرنا عنه مع خِفّته فكيف بهذا الأمر مع ثِقَله ! لكن أَمَا والله لقــد ترك المهاجرون مساكنهم خاوية وخرجوا يطلبون بها عيشة راضية . ﴿ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى القتــل والخروج ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ « قليل » بدل من الواو ، والتقــدير ما فعله أحد إلا قليل . وأهل الكوفة يقــولون : هو على التكرير ، ما فعلوه ما فعــله إلا قليل منهم . وقرأ عبــد الله بن عامر وعيسى بن عمر « إلا قليلا » على الاستثناء . وكذلك هو فى مصاحف أهل الشام . الباقون بالرفع ، والرفع أجود عند جميع النحويين . وقيل : انتصب على إضمار فعل ، تقديره إلا أن يكون قليلا منهم . وإنمـا صار الرفع أجود لأن اللفظ أولى من المعنى ، وهو أيضا يشـتمل على المعنى . وكان من القليــل أبو بكر وعمر وثابت بن قيس كما ذكرنا . وزاد الحسنُ ومُقاتلٌ عمّـارًا وابنَ مسعود وقــد ذكرناهما . ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أى فى الدنيا والآخرة . ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ أى على الحق . ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى ثوابا فى الآخرة . وقيل : اللام لام الجواب ، و « إذا » دالة على الجزاء ، والمعنى لو فعلوا ما يوعظون به لآتيناهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ لمـا ذكر تعالى الأمرَ الذى لو فعله المنافقون حين وُعظوا به وأنابوا إليه لأنعم عليهم ذَكَر بعد ذلك ثوابَ مَن يفعله . وهذه الآية تفسير قوله تعالى: « ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » وهى المراد فى قوله عليه السلام عند موته "اللّهُمَّ الرّفيقَ الأعلى" . وفى البخارىّ عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : "ما من نَبِىّ يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة" كان فى شكواه الذى مرض فيه أخذته بُحّـة[1] شديدة فسمعته يقول : "مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداءِ والصالحين" فعلمت أنه خُيِّر . وقالت طائفة : إنمـا نزلت هذه الآية لمـا قال عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصارىّ ــ الذى أُرِى الأذان ــ : يا رسول الله ، إذا مِتّ ومِتْنا كنتَ فى عِلِّيين لانراك ولا نجتمع بك؛ وذكر حزنه على ذلك فنزلت هذه الاية . وذكر مَكِّىّ عن عبد الله هـذا وأنه لمـا مات النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: اللّهُمّ أعْمِنِى حتى لا أرى شيئا بعده ؛ فعَمِىَ . وحكاه القُشَيْرِىّ فقال : اللّهُمّ أعْمنى فلا أرى شيئا بعد حبيبى حتى ألْقى حبيبى؛ فعمى مكانه . وحكى الثَّعْلَبِىّ : أنها نزلت فى ثَوْبان مولى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شديدَ الحُبّ له قليلَ الصبر عنه؛ فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونُه ونَحِلَ جسمه ، يُعرف فى وجهه الحزن ؛ فقال له : "يا ثَوْبان ما غيّر لونك" ؟ فقال : يا رســول الله مابِى ضُرّ ولا وجع ، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وَحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألّا أراك هناك؛ لأنى عرفت أنك تُرفع مع النبيّين وأنى إن دخلت

(١) البحة (بالضم) : غلظ فى الصوت وخشونة .

الجنة كنتُ فى منزلة هى أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حينٌ لا أراك أبدا؛ فأنزل الله هذه الآية. ذكره الواحدىّ عن الكلبىّ. وأسند عن مسروق قال قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رُفعت فوقنا ؛ فأنزل الله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّين » . وفى طاعة الله طاعةُ رسوله ولكنه ذكره تشريفا لقدره وتنويها بآسمه صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى هم معهم فى دار واحدة ونعيم واحد يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم ، لا أنهم يساوونهم فى الدرجة ؛ فإنهـم يتفاوتون لكنهـم يتزاورون للاتباع فى الدنيا والاقتداء . وكلّ مَن فيها قد رُزق الرضا بحاله ، وقد ذهب عنه اعتقاد أنه مفضول . قال الله تعالى : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ » . والصِّدِّيقُ فِعِّيلٌ ، المبالغ فى الصدق أو فى التصديق ، والصِّـدّيق هو الذى يحقق بفعله ما يقوله بلسانه . وقيــل : هم فضلاء أتباع الأنبياء الذين يسبقونهم إلى التصديق كأبى بكر الصدّيق . وقد تقدّم فى البقرة اشتقاق الصدّيق(1) ومعنى الشهيد . والمراد هنا بالشهداء عمر وعثمان وعلىّ ، والصالحين سائر الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . وقيل : « الشهداءِ » القتلى فى سبيل الله . « والصالِحِين » صالحى أمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : واللفظ يعم كل صالح وشهيد ، والله أعلم . والرِّفق لين الجانب . وسُمّى الصاحب رفيقا لارتفاقك بصحبته ؛ ومنــه الرُّفقة لارتفاق بعضهم ببعض . ويجــوز « وحسن أولئك رفقاء » . قال الأخفش : « رفيقا » منصوب على الحال وهو بمعنى رفقاء ؛ وقال : انتصب على التمييز فوُحِّد لذلك ؛ فكأنّ المعنى وحسن كل واحد منهـم رفيقا . كما قال تعـالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْـلًا » أى نخرج كل واحد منكم طفلا . وقال تعالى : « يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ » وينظر(2) إلى معنى هذه الآية قولُه صلى الله عليه وسلم : " خير الرُّفقاء أربعة " ولم يذكر الله تعالى هنا إلا أربعة فتأمله .

---

(1) راجع جـ ١ ص ٢٣٣ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٢ ص ١٧٣ طبعة ثانية . وجـ ٤ ص ٢٦٨ .

(2) ينظر : يقابل ؛ تقول العرب : دور آل فلان تنظر إلى دور آل فلان ؛ أى هى بإزائها ومقابلة لهـا .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على خلافة أبى بكر رضى الله عنه ؛ وذلك أن الله تعالى لمّا ذكر مراتب أوليائه فى كتابه بدأ بالأعلى منهم وهم النبيّون، ثم ثنّى بالصدّيقين ولم يجعل بينهما واسطة . وأجمع المسلمون على تسمية أبى بكر الصـدّيق رضى الله عنه صدّيقا ، كما أجمعوا على تسمية محمد عليه السلام رسولا ، وإذا ثبت هذا وصح أنه الصديق وأنه ثانى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لم يجز أن يتقدّم بعده أحد . والله أعلم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أخبر تعالى أنهم لم ينالوا الفضل بطاعتهم بل نالوها بفضل الله تعالى وكرمه . خلافا لما قالت المعتزلة : إنما ينال العبد ذلك بفعله . فلما آمتنّ الله سبحانه على أوليائه بما آتاهم من فضله ، وكان لا يجوز لأحد أن يُثْنِيَ على نفسه بما لم يفعله دلّ ذلك على بطلان قولهم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأمرٌ لهم بجهاد الكفار والخروج فى سبيل الله وحماية الشرع . ووجه النظم والاتصال بما قبلُ أنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله ، أمر أهل الطاعة بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته ، وأمرهم ألا يقتحموا على عدوّهم على جهالة حتى يتحسّسوا إلى ما عندهم ، ويعلموا كيف يرِدُون عليهم ؛ فذلك أثبت لهم فقال : « خُذُوا حِذْرَكُمْ » فعلّمهم مباشرة الحروب . ولا ينافى هذا التوكُّلَ بل هو عين التوكل كما تقدّم فى « آل عمران »[1] ويأتى . والحِذْر والحَذَر لغتان كالمِثْل والمَثَل . قال الفراء : أكثر الكلام الحَذَر ، والحِذْر مسموع أيضا ؛ يقال : خذ حِذْرك ، أى احذر . وقيل : خذوا السلاح حَذَرا ؛ لأن به الحذر والحذر لا يدفع القدر . وهى :

(١) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـة — خلافا للقدرية فى قولهم : إن الحذر يدفع و يمنع من مكايد الأعداء ، ولو لم يكن كذلك ما كان لأمرهم بالحذر معنًى . فيقال لهم : ليس فى الآية دليل على أن الحذر ينفع من القدر شيئا ، ولكنّا تُعبِّدنا بألا نُلقي بأيدينا إلى التهلكة ؛ ومنه الحديث " اِعقِلْها وتوكّل ". و إن كان القدر جار يا على ما قضى ، و يفعل الله ما يشاء ؛ فالمراد منه طمأنينة النفس ، لا أنّ ذلك ينفع من القدر وكذلك أخذ الحذر . والدليل على ذلك أن الله تعالى أثنى على أصحاب نبيّه صلى الله عليه وسلم بقوله : « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا » فلو كان يصيبهم غير ما قضى عليهم لم يكن لهذا الكلام معنًى .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ فَٱنْفِرُوا ثُبَاتٍ ﴾ يقال : نَفَر ينفِر (بكسر الفاء) نفيرا . ونفرت الدابة تنفُر (بضم الفاء) نفـورا ؛ المعنى : انهَضُوا لقتال العـدو . وآستنفر الإمام الناسَ دعاهم إلى النّفر ، أى للخروج إلى قتال العدو . والنّفير اسم للقوم الذين ينفرون ، وأصله من النِّفار والنُّفور وهو الفزع ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً » أى نافرين . ومنـه نَفَر الجلدُ أى وَرِم . وتخلّل رجلٌ بالقصَب فنفَر فمُه أى وَرِم . قال أبو عبيد : إنمـا هو من نِفار الشيء من الشيء وهو تجافيه عنه وتباعُدُه منه . قال ابن فارس : النَّفَر عِدّة رجال من ثلاثة إلى عشرة . والنّفـير النفَر أيضا ، وكذلك النَّفْر والنَّفْرة ، وحكاها الفراء بالهـاء . و يوم النفـير : يوم ينْفِر الناس عن مِنًى . و « ثُبَاتٍ » معناه جماعات متفرّقات . و يقال : ثُبِينَ يجمع جمع السلامة فى التأنيث والتذكير . قال عمرو بن كلثوم :

فأما يومَ خَشْيَتِنَا عليهـم * فتُصبِح خيلُنا عُصَبًا[1] ثُبِينَا

فقوله تعـالى : ﴿ ثبات ﴾ كنايةٌ عن السَّرايا ، الواحدة ثُبَة وهى العصابة من الناس . وكانت فى الأصل الثُّبيَة . وقد ثَبّيت الجيشَ جعلتهم ثُبَةً ثُبَةً . والثُّبَة : وسط الحوض الذى يثوب إليه المـاء أى يرجع . قال النحاس : وربمـا توهم الضعيف فى العربية أنهما واحد ، وأن أحدهما من الآخر ؛ و بينهما فرق ؛ فثُبَة الحوض يقال فى تصغيرها ثُوَيْبَة ؛ لأنهـا من ثاب يثوب .

(١) العصب (جمع عصبة) : الجماعات .

و يقال فى الجماعة : ثُبَيّة . قال غيره : فثبة الحوض محذوفة الواو وهو عين الفعل، وثبة الجماعة معتل اللام من ثَبَا يثبو مثل خلا يخلو . و يجوز أن يكون الثبة بمعنى الجماعة من ثبة الحوض؛ لأن الماء إذا ثاب اجتمع؛ فعلى هذا تصغّر به الجماعة ثُوَيْبة فتدخل إحدى الياءين فى الأخرى . وقد قيل : إن ثبة الجماعة إنما اشتقت من ثَبَّيت على الرجل إذا أثنيت عليه فى حياته وجمعت محاسن ذكره فيعود إلى الاجتماع .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿أَوِ ٱنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ معناه الجيش الكثيف مع الرسول عليه السلام ؛ قاله ابن عباس وغيره . ولا تخرج السرايا إلا بإذن الإمام ليكون متجسسا لهم ، عَضُدًا من ورائهم ، وربما احتاجوا إلى دَرْئه . وسيأتى حكم السّرايا وغنائمهم وأحكام الجيوش ووجوب النفير فى « الأنفال » و « براءة » إن شاء الله تعالى .

الخامسة — ذكر ابن خُوَيْزِمَنْداد : وقيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « ٱنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » وبقوله : « إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ » ؛ ولأن يكون « ٱنفِروا خفافا وثقالا » منسوخا بقوله : « فَٱنْفِروا ثُبَاتٍ أوِ ٱنفِرُوا جميعا » وبقوله : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » أَوْلَى ، لأن فرض الجهاد تقرر على الكفاية ، فمتى سَدّ الثغورَ بعضُ المسلمين أسقط الفرض عن الباقين . والصحيح أن الآيتين جميعا مُحْكَمَتان، إحداهما فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى تعيّن الجميع، والأخرى عند الاكتفاء بطائفة دون غيرها .

قوله تعالى : وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾ يعنى المنافقين . والتّبطئة والإبطاء التأخر؛ تقول : ما أبطأك عنا ؛ فهو لازم . ويجوز بطأت فلانا عن كذا أى أخرته ؛ فهو متعدّ .

والمعنيان مراد فى الآية ؛ فكانوا يَقعـدون عن الخروج ويُقعـدون غيرهم . والمعنى أن من دخلائكم وجنسكم وممن أظهر إيمـانه لكم . فالمنافقون فى ظاهر الحال من أعداد المسلمين بإجراء أحكام المسلمين عليهم . واللام فى قوله « لَمَن » لام توكيد ، والثانيــة لام قسم ، و « مَن » فى موضـع نصب ، وصلتها « ليبطئن » لأن فيه معنى اليمين ، والخبر « مِنكم » . وقرأ مجاهد والنَّخَعِيّ والكَلْبِيّ «وإن مِنكم لَمَن لَيُبْطِئَنّ» بالتخفيف، والمعنى واحد . وقيل : المراد بقوله « وإنّ مِنكم لمن لَيُبَطِّئَنّ » بعض المؤمنين؛ لأن الله خاطبهم بقوله : « وإن مِنكم » وقد فرّق الله تعالى بين المؤمنين والمنافقين بقوله « ومَا هُمْ مِنكُمْ » وهذا يأباه مَساق الكلام وظاهره . وإنما جمع بينهم فى الخطاب من جهة الجنس والنسب كما بيّنا لا من جهة الإيمان . هذا قول الجمهور وهو الصحيح إن شاء الله تعالى، والله أعلم . يدلّ عليه قوله : ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أى قتْل وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ يعنى بالقعود، وهذا لا يصدر إلا من منافق لا سيّما فى ذلك الزمان الكريم ، بعيد أن يقوله مؤمن . ويَنْظُر إلى هــذه الآية ما رواه الأئمة عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم إخبـارا عن المنافقين "إن أثقل صـلاة عليهم صلاة العشاء وصـلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتَوْهُما ولو حَبْوًا" الحديث . فى رواية "ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سَمِينا لشهدها" يعنى صلاة العشاء . يقول : لو لاح شيء من الدنيا يأخذونه وكانوا على يقين منــه لبادروا إليه . وهو معنى قوله : ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أى غنيمة وفتح ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هــذا المنافق قولَ نادم حاسد ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَــهُ مَوَدَّةٌ﴾ فالكلام فيه تقديم وتأخير . وقيل : المعـنى ليقولن كأن لم يكن بينكم و بينه مودّة ؛ أى كأن لم يعاقدكم على الجهاد . وقيــل : هو فى موضع نصب على الحال . وقرأ الحسن « ليقولُنّ » بضم اللام على معنى «مَن» ؛ لأن معنى قوله « لمن ليبطئن » ليس يعنى رجلا بعينــه . ومن فتــح اللام أعاد فوحد الضمير على لفظ « مَن » . وقرأ ابن كَثير وحفص عن عاصم « كأن لم تكن » بالتاء على لفظ المودة . ومن قرأ بالياء جعل مودّة بمعنى الود . وقول المنافق « يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ » على وجه الحسد أو الأسف

على فوت الغنيمة مع الشك فى الجزاء من الله . ﴿ فَأَفُوزَ ﴾ جواب التَّمنِّى ولذلك نصب . وقرأ الحسن « فأفوزُ » بالرفع على أنه تمنى الفوز ، فكأنه قال : ياليتنى أفوز فوزا عظيما . والنصب على الجواب ؛ والمعنى إن أكن معهم أَفُزْ . والنصب فيه بإضمار « أن » لأنه محمول على تأويل المصدر ؛ التقدير ياليتنى كان لى حضورٌ ففوزٌ .

قوله تعالى : فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الخطاب للمؤمنين ؛ أى فليقاتل فى سبيل الله ﴿ الَّذِينَ يَشْرُونَ ﴾ أى يبيعون ، أى يبذلون أنفسهم وأموالهم لله عز وجل ﴿ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى بثواب الآخرة .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ شرط . ﴿ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ﴾ عطف عليه ، والمجازاة ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ومعنى « فيقتل » يستشهد . « أَوْ يَغْلِبْ » يظفر فيغنم . وقرأت طائفة « ومن يقاتِلْ » « فلْيقاتِلْ » بسكون لام الأمر . وقرأت فرقة « فلِيقاتل » بكسر لام الأمر . فذكر تعالى غاية حالة المقاتل واكتفى بالغايتين عمّا بينهما ؛ ذكره ابن عطية .

الثالثـة — ظاهر الآية يقتضى التسوية بين من قُتل شهيدا أو انقلب غانما . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تضمّن الله لمن خرج فى سبيله لا يُخرجه إلا جهادٌ فى سبيلى وإيمانٌ بى وتصديقٌ برسلى فهو علىّ ضامن أن أُدخله الجنة أو أَرْجِعَه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة" وذكر الحديث . وفيه عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما مِن غازية تَغْزُو فى سبيل

الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجّلوا ثلثى اجرِهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث و إن لم يصيبوا غنيمة تمّ لهم أجرهم" . فقوله : " نائلا ما نال من أجر أو غنيمة " يقتضى أن لمن لم يستشهد من المجاهدين أحدَ الأمرين ؛ إما الأجر إن لم يغنم ، و إما الغنيمة ولا أجر، بخلاف حديث عبد الله ابن عمرو . ولمـا كان هـذا قال قوم : حديث عبد الله بن عمرو ليس بشيء ؛ لأن فى إسناده حُمَيْد بن هَانِىء وليس بمشهور ، ورجّحوا الحديث الأوّل عليه لشهرته . وقال آخرون : ليس بينهما تعارض ولا اختلاف . و « أو » فى حديث أبى هريرة بمعنى الواو، كما يقوله الكوفيون . وقد دلت عليه رواية أبى داود فإنه قال فيه : " من أجر وغنيمة " بالواو الجامعة . وقد رواه بعض رواة مسلم بالواو الجامعة أيضا . وحُمَيْد بن هانِىء مصرِىّ سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلِى وعمرو آبن مالك ، ورَوَى عنـه حَيْوة بن شُريح وآبن وهب؛ فالحديث الأوّل محمول على مجرّد النيّة والإخلاص فى الجهاد؛ فذلك الذى ضمن الله له إما الشهادة، و إما ردّه إلى أهله مأجورا غانما . ويُحمَل الثانى على ما إذا نَوَى الجهاد ولكن مع نيل المَغْنَم ، فلمـا آنقسمت نيّته آنحطّ أجره ؛ فقد دلّت السنّة على أن للغانم أجرا كما دَلّ عليه الكتاب فلا تعارض . ثم قيل : إن نقص أجر الغانم على من لم يغنم إنما هو بما فتح الله عليه من الدنيا فتمتّعَ به وأزال عن نفسه شَظَف عيشه ؛ ومن أخفق فلم يصِب شيئا بقِى على شَظَف عيشه والصّبر على حالته ، فبقى أجره مُوَفّرا بخلاف الأوّل . ومثـله قوله فى الحديث الاخر : فمنا من مات لم يأ كل من أجره شيئا منهم مصْعَب آبن عُمَير، ومنا من أَيْنَعَت له ثمرته فهو يَهْدِبُها[(١)] .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥)

---

(١) هدَب الثمرة تهديبا واهتدبها : جناها .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَالَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ حَضٌّ على الجهاد . وهو يتضمّن تخليص المستضعَفين من أيدى الكَفَرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ، و يفتِنونهم عن الدّين ؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمتـه و إظهار دينـه واستنقاذ المؤمنين الضّعفاء من عباده ، و إن كان فى ذلك تَلَف النفوس . وتخليص الأُسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال و إما بالأموال؛ وذلك أوجب لكونها دون النفوس إذ هى أهون منها . قال مالك : واجب على الناس أن يَفْـدُوا الأسارى بجميع أموالهم . وهـذا لا خلاف فيه ؛ لقوله عليه السلام "فُكّوا العانى" وقد مضى فى «البقرة»(1) . وكذلك قالوا : عليهم أن يُواسُوهم فإن المواساة دون المفـاداة . فإن كان الأسير غنيًّا فهل يرجع إليه الفادى أم لا ؛ قولان للعلماء، أصحّهما الرجوع .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ عطف على اسم الله عزّ وجلّ ، أى وفى سبيل المستضعفين فإن خلاص المستضعفين من سبيل الله . وهذا اختيار الزّجّاج وقاله الزهرى . وقال محمـد بن يزيد : أختارُ أن يكون المعنى وفى المستضعفين فيكون عطفا على السبيل ؛ أى وفى المستضعفين لاستنقاذهم ؛ فالسبيلان مختلفان . ويعنى بالمستضعفين من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال كفرة قريش وأذاهم وهم المعنيّون بقوله عليه السلام : "اللهمّ أَنْجِ الوليد ٱبن الوليد وسـلمة بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين" . وقال ٱبن عباس : كنت أنا وأمّى من المستضعفين . فى البخارىّ عنه « إلا المستضعَفِين مِن الرّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ » قال : كنت أنا وأمّى مِمّن عَذَر اللهُ ، أنا من الولدان وأمّى من النّساء .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ القـرية هنا مكة بإجماع من المتأولين . ووصفها بالظلم وإن كان الفعل للأهل لعُلْقة الضمير . وهذا كما تقول : مررت بالرجل الواسعةِ دارُه ، والكريمِ أبوه ، والحسنةِ جاريتُه . و إنما وصف الرجل بها للعُلْقة اللفظية

(1) راجع جـ ٢ ص ٢١ طبعة ثانية .

بينهما وهو الضمير، فلو قلت : مررت بالرجل الكريم عمرو لم تجز المسألة ؛ لأن الكرم لعمرو فلا يجوز أن يجعل صفة لرجل إلا بعلقة وهى الهاء . ولا تثنى هذه الصفة ولا تجمع، لأنها تقوم مقام الفعل ؛ فالمعنى أى التى ظلم أهلها ولهذا لم يقل الظالمين . وتقول : مررت برجلين كريم أبواهما حسنةٍ جاريتاهما، وبرجال كريم آباؤهم حسنةٍ جواريهم . ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ أى من عندك ﴿ وَلِيًّا ﴾ أى من يستنقذنا ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ أى ينصرنا عليهم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى فى طاعته . ﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ قال أبو عبيدة والكسائى : الطاغوت يذكّر ويؤنث . قال أبو عبيد : وإنما ذُكِّر وأُنِّث لأنهم كانوا يسمّون الكاهن والكاهنة طاغوتا . قال : حدثنا حجّاج عن ٱبن جُريج قال حدثنا أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله وسئل عن الطاغوت التى كانوا يتحاكمون اليها فقال: كانت فى جُهينة واحدة وفى أسْلم واحدة، وفى كل حىّ واحدة . قال أبو إسحاق : الدليل على أنه الشيطان قوله عز وجل: ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ أى مكره ومكر من ٱتبعه . ويقال : أراد به يوم بدر حين قال للشركين « لا غَالِبَ لكم اليومَ مِن النَّاسِ وإِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ » على ما يأتى .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ

كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

روى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة فقالوا : يا نبيّ الله، كنا فى عز ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة ؟ فقال : "إنى أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم". فلما حوّله الله تعالى الى المدينة أمره بالقتال فكفّوا فنزلت الآية . أخرجه النسائى فى سننه، وقاله الكلبي . وقال مجاهد : هم يهود. قال الحسن : هى فى المؤمنين؛ لقوله : ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ أى مُشركى مكة ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فهى على ما طبع عليه البشر من المخافة لا على المخالفة . قال السُّدّى : هم قوم أسلموا قبل فرض القتال فلما فُرض كرِهوه . وقيل : هو وصف للمنافقين؛ والمعنى يخشون القتل من المشركين كما يخشون الموت من الله . ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أى عندهم وفى اعتقادهم .

قلت : وهذا أشبه بسياق الآية؛ لقوله : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أى هلّا، ولا يليها إلا الفعل. ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابيّ كريم يعلم أن الآجال محدودة والأرزاق مقسومة ، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين سامعين طائعين، يرون الوصول الى الدار الآجلة خيرا من المقام فى الدار العاجلة، على ما هو معروف من سيرتهم رضى الله عنهم . اللّهُمّ إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ فى الإيمان قدمه، ولا انشرح بالإسلام جنانه ، فإن أهل الإيمان متفاضلون فمنهم الكامل ومنهم الناقص، وهو الذى تنفر نفسه عما يؤمر به فيما تلحقه فيه المشقة وتدركه فيه الشدّة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ابتداء وخبر . وكذا ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أى المعاصى؛ وقد مضى القول فى هذا فى «البقرة»(١) . ومتاعُ الدنيا منفعتها والاستمتاعُ بلذاتها .

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة .

وسماه قليــلا لأنه لا بقاء له . وقال النبيّ صلىّ الله عليه وسـلم : "مَثَلِي ومثَلُ الدنيا كراكبٍ قال قيلولة[1] تحت شجرة ثم راح وتركها" . وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة» مستوفًى .

قوله تعالى : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ شرط ومجازاة، و« ما » زائدة. وهــذا الخطاب عام وإن كان المراد المنافقين أو ضَعَفة المؤمنين الذين قالوا : « لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى إلى أن نموت بآجالنا ، وهو أشبه بالمنافقين كما ذكرنا؛ لقولهم لمـا أصيب أهل أُحد، قالوا : «لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » فردّ الله عليهم « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » قاله ابن عباس فى رواية أبى صالح عنه . وواحد البروج بُرْج ، وهو البناء المرتفع والقصر العظيم . قال طَرَفة يصف ناقة :

كأنها بُرْج رُومِيٍّ تكفّفها * بانٍ بشِيـــدٍ[2] وآجُرٍّ وأحجـــارِ

وقرا طلحة بن سليمان «يدرِكُكم» برفع الكاف على إضمار الفاء، وهو قليل لم يأت إلا فى الشعر نحو قوله :

* من يفعل الحسناتِ الله يشكُرُها *

أراد فالله يشكرها .

واختلف العلماء وأهل التأويل فى المراد بهــذه البُرُوج؛ فقال الأكثر وهو الأصح : إنه أراد البروج فى الحصون التى فى الأرض المَبْنِيّة؛ لأنها غاية البَشَر فى التحصُّن والمَنَعة، فمثّل الله

(١) القيلولة : النوم فى الظهيرة . وقيل : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن مع ذلك نوم .

(٢) الشيد (بالكسر) : كل ما طلى به الحائط من جص أو بلاط .

لهم بها . وقال قتادة : فى قصور محصّنة . وقاله ابن جُريج والجمهور؛ ومنه قول عامر بن الطُّفيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : هل لك فى حصن حصين ومَنَعة ؟ وقال مجاهد : البروج القصور . ابن عباس : البروج الحصون والآطام والقلاع . ومعنى مشيّدة مطوّلة ؛ قاله الزجاج والقُتَبي . عِكرِمةُ : المزيّنة بالشِّيد وهو الجص . قال قَتادة : محصّنة . والمُشَيَّدة والمَشِيد سواء ؛ ومنه « وقَصْرٍ مَشِيدٍ » والتشديد للتكثير . وقيل : المُشَيَّد المُطَوَّل ، والمَشِيد المَطْليّ بالشِّيد . يقال : شاد البنيان وأشاد بذكره . وقال السُّدِّى : المراد بالبروج بروج فى السماء الدنيا مبنية . وحكى هذا القول مَكِّيّ عن مالك أنه قال : ألا ترى إلى قوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ » و « جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » . وحكاه ابن العربيّ أيضا عن ابن القاسم عن مالك . وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال : « فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » معناه فى قصور من حديد . قال ابن عطية : وهذا لا يعطيه ظاهر اللفظ .

الثانية — هذه الآية تردّ على القدرية فى الاجال؛ لقوله تعالى « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » فعرفهم بذلك أن الآجال متى انقضت فلا بد من مفارقة الروح الجسدَ، كان ذلك بقتل أو موت أو غير ذلك مما أجرى الله العادة بزُهُوقها به . وقالت المعتزلة : إن المقتول لو لم يقتله القاتل لعاش . وقد تقدّم الرّد عليهم فى « آل عمران »[(1)] ويأتى؛ فوافقوا بقولهم هذا الكفارَ والمنافقين .

الثالثة — اتخاذ البلاد وبنائها ليُمتنع بها فى حفظ الأموال والنفوس ، وهى سُنّة الله فى عباده . وفى ذلك أدلّ دليل على ردّ قول من يقول : التوكُّلُ ترك الأسباب ؛ فإن اتخاذ البلاد من أكبر الأسباب وأعظمها وقد أمرنا بها ، واتخذها الأنبياء وحفروا حولها الخنادق عُدّة وزيادة فى التمنع . وقد قيل للأحنف : ماحكمة السُّور ؟ فقال : ليردع السفيه حتى يأتى الحكيم فيحميه .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٦ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعـــة — و إذا تنزلنا على قول مالك والسُّدّى فى إنهـا بروج السماء ؛ فبروج الفَلَك اثنا عشر بُرُجا مشيّدة من الرفع، وهى الكواكب العظام . وقيل للكواكب بروج لظهورها، من بَرِج يَبْرَج إذا ظهر وٱرتفع؛ ومنه قوله : « وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » . وخلقها الله تعـالى منازل للشمس والقمر وقدّر فيها ورتّب الأزمنة عليها ، وجعلها جنوبية وشماليـة دليلا على المصالح وعَلَما على القِبلة ، وطريقا إلى تحصيل آناء الليل وآناء النهار لمعرفة أوقات التهجُّد وغير ذلك من أحوال المعاش .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ﴾ أى إن يصب المنافقين خِصب قالوا هذا من عند الله . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سيئة ﴾ أى جَدْبٌ ومَحْل قالوا هذا من عندك ، أى أصابنـا ذلك بشؤمك وشـؤم أصحابك . وقيل : الحســنة السلامة والأمن ، والسيئة الأمراض والخوف . وقيل : الحسنة الغنى، والسيئة الفقر . وقيل : الحسنة النعمة والفتح والغنيمة يوم بدر ، والسيئة البلية والشدّة والقتل يوم أُحد . وقيل : الحسنة السراء ، والسيئة الضراء . هـذه أقوال المفسرين وعلمـاء التأويل — ابن عباس وغيره — فى الآية . وأنها نزلت فى اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم لمـا قدم رسول الله صلى الله عليـه وسلم المدينة عليهم قالوا : ما زلنا نعرف النقص فى ثمـارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هــذا الرجل وأصحابه . قال ابن عباس : ومعنى « مِن عِندكَ » أى بسوء تدبيرك . وقيل : « من عِندك » بشؤمك، كما ذكرنا ، أى بشـؤمك الذى لَحِقنا ، قالوه على جهــة التطيُّر . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ﴾ اى الشدة والرخاء والظَّفَر والهزيمة من عند الله ؛ أى بقضاء الله وقَدَره . ﴿ فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ يعنى المنـافقين ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ أى ماشأنهم لا يفقهون أنّ كلا من عند الله .

قوله تعـالى : مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَـنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أى ما أصابك يا محمد من خِصب ورخاءٍ وصحةٍ وسلامةٍ فبفضل الله عليك وإحسانه إليك ، وما أصابك من جَدْب وشدّة فبذنب أتيته عوقبت عليه . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته . أى ما أصابكم يامعشر الناس من خصب واتساع رزق فمن تفضل الله عليكم ، وما أصابكم من جدب وضيق رزق فمن أنفسكم ؛ أى من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم . قاله الحسن والسُّدّى وغيرهما ؛ كما قال تعالى : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » . وقد قيل : الخطاب للإنسان والمراد به الجنس ؛ كما قال تعالى : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » أى إن الناس لفى خسر ، ألا تراه استثنى منهم فقال « إِلَّا الذين آمنوا » ولا يستثنى إلا من جملة أو جماعة . وعلى هذا التأويل يكون قوله « مَا أَصَابَكَ » استئنافا . وقيل : فى الكلام حذف تقديره يقولون . وعليه يكون الكلام متصلا ؛ والمعنى فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا حتى يقولوا ما أصابك من حسنة فمن الله . وقيل : إن ألف الاستفهام مضمرة ؛ والمعنى أفمن نفسك . ومثله قوله تعالى: « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ » والمعنى أو تلك نعمة ؟ وكذا قوله تعالى : « فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي » أى أهذا ربى ؟ قال أبو خِراش الهُذَلىّ :

رَمَوْنى[(١)] وقالوا يا خُوَيلد لم تُرَعْ * فقلت وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

أراد «أهم» فأضمر ألف الاستفهام وهو كثير وسيأتى . قال الأخفش «ما» بمعنى الذى . وقيل هو شرط . قال النحاس : والصواب قول الأخفش ؛ لأنه نزل فى شىء بعينه من الجدب ، وليس هذا من المعاصى فى شىء ولو كان منها لكان وما أصبت من سيئة . وروى عبدالوهاب ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس وأُبَىّ وابن مسعود «ما أصابك مِن حسنةٍ فمن الله وما

(١) فى اللسان مادة « رفأ » :

* رفونى وقالوا يا خويلد لا ترع *

ورفوت الرجل : سكنته ؛ يقول : سكنونى . وقال ابن هانئ : يريد رفئونى فألق الهمزة ؛ قال : والهمزة لا تلق إلا فى الشعر ، وقد ألقاها فى هذا البيت ؛ ومعناه : أنى فزعت فطار قلبى فضموا بعضى إلى بعض .

أصابكَ مِن سيئةٍ فمِن نَفْسِك وأنا كتبتها عليك » فهـذه قراءة على التفسير ، وقد أثبتها بعض أهلِ الزّيغ من القرآن ، والحديثُ بذلك عن ابن مسعود وأبَى منقطع ؛ لأن مجاهدا لم ير عبدالله ولا أُبَيًّا . وعلى قول من قال : الحسنة الفتح والغنيمة يوم بدر، والسيئة ما أصابهم يوم أحد ؛ أنهم عوقبوا عند خلاف الرُّماة الذين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحموا ظَهْره ولا يبرحوا من مكانهم ، فرأوا الهزيمـة على قريش والمسلمون يغتَمون أموالهم فتركوا مصافهم ، فنظر خالد بن الوليد وكان مع الكفار يومئذ ظَهْر رسول الله صلى الله عليه وسلم قـد انكشف من الرُّماة فأخذ سَرِيّة ودار حتى صار خلف المسلمين وحمل عليهم ، ولم يكن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرّماة إلا صاحبُ الراية ، حفظ وصية رسول الله صلى الله عليـه وسلم فوقف حتى استُشهد مكانه ؛ على ما تقدّم فى « آل عمران » بيانه . فأنزل الله تعالى نظيرَ هذه الآية وهو قوله تعالى : « أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ » يعنى يوم أُحد « قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا » يعنى يوم بدر « قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ » . ولا يجوز أن تكون الحسنة هاهنا الطاعة ، والسيئة المعصـية كما قالت القـدرية ؛ إذ لو كان كذلك لكان ما أصبت كما قدّمنا ، إذ هو بمعنى الفعل عنـدهم والكسب عندنا ، و إنمـا تكون الحسنة الطاعة والسيئة المعصية فى نحو قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ومن جاء بِالسيِّئةِ فلا يُجْزَى إلّا مِثْلَها » وأما فى هذه الآية فهى كما تقـدّم شَرْحُنا له من الخصب والجَدْب والرخاء والشدّة ، على نحو ما جاء فى آية «الأعراف» وهو قوله تعالى : « ولقد أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ »(١) . « بِالسِّنِينَ » بالجَدْب سنةً بعد سَنَة ؛ حبس المطر عنهم فنقصت ثمارهم وغلت أسعارهم . « فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ » أى يتشاءمون بهم و يقولون هـذا من أجل اتباعنا لك وطاعتنا إياك ، فردّ الله عليهم بقوله : « أَلَا إِنَّمَـا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ » يعنى أن طائر البركة وطائر الشؤم من الخير والشر والنفع والضّر من الله تعالى لا صُنع فيه لمخلوق ؛ فذلك قوله تعالى فيما أخبر عنهم أنهم يُضيفونه للنبيّ صلى الله

(١) آية ١٣٠

عليه وسلم حيث قال : « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » كما قال : « أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ » وكما قال تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ » أى بقضاء الله وقدره وعلمه ، وآياتُ الكتاب يشهد بعضها لبعض. قال علماؤنا : ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشك فى أن كل شىء بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته ؛ كما قال تعالى : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » وقال تعالى : « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » .

مسألة — وقد تجاذب بعض جُهال أهل السنة هذه الآيةَ واحتجّ بها ؛ كما تجاذبها القَدرية واحتجوا بها ، ووجه احتجاجهم بها أن القَدرية يقولون : إن الحسنة هاهنا الطاعة ، والسيئة المعصية ؛ قالوا : وقد نسب المعصية فى قوله تعالى : « وما أصابك مِن سيئة فمِن نفسك » إلى الإنسان دون الله تعالى ؛ فهذا وجه تعلقهم بها . ووجه تعلّق الآخرين منها قوله تعالى : « قل كل من عِند الله » قالوا : فقد أضاف الحسنة والسيئة إلى نفسه دون خلقه . وهذه الآية إنما يتعلق بها الجهال من الفريقين جميعا ؛ لأنهم بنوا ذلك على أن السيئة هى المعصية ، وليست كذلك لما بيناه . والله أعلم . والقدرية إن قالوا « ما أصابك مِن حسنةٍ » أى من طاعة « فمِن الله » فليس هذا اعتقادهم ؛ لأن اعتقادهم الذى بنوا عليه مذهبهم أن الحسنة فعل المحسن والسيئة فعل المسىء . وأيضا فلو كان لهم فيها حجة لكان يقول : ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة لأنه الفاعل للحسنة والسيئة جميعا ، فلا يضاف إليه إلا بفعله لها لا بفعل غيره . نصّ على هذه المقالة الإمام أبو الحسين شبيبُ[(١)] بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة فى كتابه المسمى بحز الغَلاصم فى إفحام المخاصم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ مصدر مؤكّد ، ويجوز أن يكون المعنى ذا رسالة . ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ نصب على البيان والباء زائدة ، أى كفى الله شهيدا على صدق رسالة نبيه وأنه صادق .

(١) كذا فى الأصول . والذى فى البحر لأبى حيان : « أبو الحسن شيث » .

قوله تعـالى : مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ أعلم الله تعالى أن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم طاعةٌ له . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم أنه قال : " من أطاعنى فقــد أطاع الله ومن يَعْصِنى فقد عصى الله ومن يُطع الأمير فقــد أطاعنى ومن يَعْصِ الأمير فقد عصانى " فى رواية . " ومن أطاع أميرى ومن عصى أميرى " .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ أى أعرض . ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى حافظا ورقيبا لأعمالهم ، إنما عليك البلاغ . وقال القُتَبِيّ : محاسبا ، فنسخ الله هذا بآية السيف وأمره بقتال من خالف الله ورسوله .

قوله تعـالى : وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

قوله تعـالى : ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أى أمْرُنا طاعةٌ ، ويجوز « طاعةً » بالنصب ، أى نطيع طاعة ، وهى قراءة نصر بن عاصم والحسن والجَحْـدَرِى . وهــذا فى المنافقين فى قول أكثر المفسرين ؛ أى يقــولون إذا كانوا عنــدك : أمْرُنا طاعةٌ ، أو نطيع طاعةً ، وقولهم هــذا ليس بنافع ؛ لأن من لم يعتقد الطاعة ليس بمطيع حقيقة ، لأن الله تعـالى لم يحقق طاعتهم بما أظهروه ، فلو كانت الطـاعة بلا اعتقاد حقيقة لحكم بهـا لهم ؛ فثبت أن الطاعة بالاعتقاد مع وجودها .
﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ أى خرجوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُــمْ﴾ فذكّر الطائفة لأنهـا فى معنى

رجال . وأدغم الكوفيون التاء فى الطاء؛ لأنهما من مخرج واحد ، واستقبح ذلك الكسائىّ فى الفعل وهو عند البصريين غير قبيح . ومعنى « بَيَّتَ » زَوّر ومَوّه . وقيل : غيّر و بدّل وحرّف؛ أى بدّلوا قول النبىّ صلى الله عليه وسلم فيما عَهِده إليهم وأمرهم به . والتّبييت التبديل؛ ومنه قول الشاعر(١) :

أتَوْنى فلم أرْضَ ما بيّتُوا * وكانوا أتونى بأمرٍ نُكُرْ
لِأُنكِحَ أَيِّمَهم مُنْذِرًا * وهل يُنكِح العبدَ حُرٌّ لِحُرْ

آخر(٢) :

بيّت قولِىَ عبدُ الملِـ * ـك قاتله الله عبدا كفورا

و بيّت الرجل الأمر إذا دبّره ليلا ؛ قال الله تعالى : « إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ » . والعرب تقول : أمرٌ بُيِّت بليلٍ إذا أُحكِم . و إنما خُص الليل بذلك لأنه وقت يُتفرّغ فيه . قال الشاعر :

أجمعوا أمرهم بليلٍ فلما * أصبحوا أصبحت لهم ضَوضَاء

ومن هذا بيّت الصيامَ . والبَيُّوت : الماء يَبيت ليلا . والبَيُّوت : الأمر يُبيَّت عليه صاحبُه مُهْتَمًّا به ؛ قال الهذلى :

وأجعلُ فِقرتها عُدّةً * إذا خِفتُ بَيُّوتَ أمْرٍ عُضالْ

والتّبييت والبَيات أن يأتى العدوّ ليلا . و بات يفعل كذا إذا فعله ليلا ؛ كما يقال : ظل بالنهار . و بيّت الشىء قَدّر . فإن قيل : فما وجه الحكمة فى ابتدائه بذكر جملتهم ثم قال : « بَيَّت طائفةٌ منهم » ؟ قيل : إنما عبّر عن حال من علِم أنه بَقِىَ على كفره ونفاقه ، وصفح عمن علِم أنه سيرجع عن ذلك . وقيل : إنما عبّر عن حال من شَهِد وحار فى أمره ، وأما من سمع وسكت فلم يذكره . والله أعلم . ﴿ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أى يثبته فى صحائف أعمالهم ليجازيهم عليه . وقال الزجاج : المعنى ينزله عليك فى الكتاب . وفى هذه الآية دليل على أن

(١) هو الأسود بن يعفر؛ كما فى اللسان مادة «نكر» .
(٢) هو الأسود بن عامر بن جرير الطائى؛ يعاتب رجلا . كما فى تفسير الطبرى جـ ٥ ص ١٧٤ طبع بلاق .

مجرّد القول لا يفيد شيئا كما ذكرنا ؛ فإنهم قالوا : طاعة ، ولفظوا بهـا ولم يحقق الله طاعتهم ولا حكم لهم بصحتها ؛ لأنهم لم يعتقدوها . فثبت أنه لا يكون المطيع مطيعا إلا باعتقادها مع وجودها .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَى بِٱللَّهِ وَكِيلًا . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ ﴾ أى لا تخبر بأسمائهم ؛ عن الضحاك ، يعنى المنافقين . وقيل : لا تعاقبهم . ثم أمره بالتوكل عليه والثقة به فى النصر على عدوّه . ويقال : إن هـذا منسوخ بقوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ » ثم عاب المنافقين بالإعراض عن التدبّر فى القرآن والتفكّر فيـه وفى معانيه . تدبّرت الشيء فكّرت فى عاقبته . وفى الحديث "لا تدابروا" أى لا يولّى بعضكم بعضـا دُبُره . وأدبر القومُ مضى أمرهم إلى آخره . والتدبير أن يُدبِّر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته . ودلّت هـذه الآية وقولُه تعـالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » على وجوب التدبر فى القرآن ليعرف معناه . وكان فى هذا ردّ على فساد قول من قال : لا يؤخذ من تفسـيره إلا ما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، ومنع أن يُتأوّل على ما يسوّغه لسان العرب . وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال و إبطال التقليد ، وفيه دليل على إثبات القياس .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ أى تفاوتا وتناقضا ؛ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد . ولا يدخل فى هـذا اختلاف ألفاظ القراءات وألفاظ الأمثـال والدلالات ومقادير السُّوَر والآيات . و إنمـا أراد اختـلاف التناقض والتفاوت . وقيـل : المعنى لو كان ما تُخْبرون به من عند غير الله لاختلف . وقيـل : إنه ليس من متكلم يتكلم كلاما كثيرا إلا وُجد فى كلامه اختلاف كثير؛ إما فى الوصف واللفظ، و إما فى جودة المعـنى ، و إما فى التناقض، و إما فى الكذب . فأنزل الله عز وجل القـرآن وأمرهم بتدبّره؛ لأنهم لا يجدون فيه اختلافا فى وَصْف ولا ردًّا له فى معنًى ، ولا تناقضا ولا كذبا فيما يخبَرون به من الغيوب وما يُسِرُّون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ ﴾ فى « إذا » معنى الشرط ، ولا يُجازَى بها وإن زيدت عليها «ما» وهى قليلة الاستعمال . قال سيبويه . والجيّد ما قال كعب بن زهير :

وإذا ما تشاء تبعثُ منها * مغربَ الشمسِ ناشِطًا مذعورا(١)

يعنى أن الجيد لا يجزم بإذا ما كما لم يجزم فى هذا البيت؛ وقد تقدّم فى أوّل «البقرة(٢)» . والمعنى أنهم إذا سمعوا شيئا من الأمور فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتلِ عدوّهم ﴿ أَوِ الْخَوْفِ ﴾ وهو ضدّ هذا ﴿ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ أى أفشوه وأظهروه وتحدّثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته . فقيل : كان هذا من ضَعفة المسلمين ؛ عن الحسن . لأنهم كانوا يفشون أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ويظنّون أنهم لا شيء عليهم فى ذلك . وقال الضحاك وابن زيد : هو فى المنافقين فنُهُوا عن ذلك لما يلحقهم من الكذب فى الإرجاف .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ أى لم يحدّثوا به ولم يفشوه حتى يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الذى يحدّث به ويُفشيه . أو أولوا الأمر وهم أهل العلم والفقه ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . السُّدّى وابن زيد : الولاة . وقيل : أمراء السرايا . ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ أى يستخرجونه، أى لعلموا ما ينبغى أن يفشى منهم وما ينبغى أن يكتم . والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته . والنَّبَط : الماء المستنبط أوّلَ ما يخرج من ماء البئر أوّل ما تُحفر . وسُمّى النَّبَط نبطا لأنهم

---

(١) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ؛ فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد إلى بلد ؛ فذلك أوحش له وأذعر . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٠١ طبعة ثانية أو ثالثة .

يستخرجون ما فى الأرض . والاستنباط فى اللغـة الاستخراج ، وهو يدل على الاجتهاد إذا عُدم النّص والإجمـاع كما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ رفع بالابتداء عند سيبويه ، ولا يجوز أن يظهر الخبر عنده . والكوفيون يقولون : رفع بلولا . ﴿ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فى هذه الآية ثلاثة أقوال ؛ قال ابن عباس وغيره : المعنى أذاعوا به إلا قليلا منهم لم يُذِع ولم يُفِش . وقاله جماعة من النحويين : الكسائى والأخفش وأبو عبيد وأبو حاتم والطبرى . وقيـل : المعنى لعلمــه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا منهم ؛ عن الحسن وغيره ، واختاره الزجاج قال : لأن هذا الاستنباط الأكثرُ يعرفه ؛ لأنه استعلام خبر . واختار الأوّل الفراء قال : لأن علم السرايا إذا ظهر علِمــه المستنبط وغيره ، والإذاعة تكون فى بعض دون بعض . قال الكَلْبىّ عنه : فلذلك استحسنتُ الاستثناء من الإذاعة . قال النحاس : فهذان قولان على المجـاز ؛ يريد أن فى الكلام تقديما وتأخيرا . وقول ثالث بغير مجاز : يكون المعنى ولولا فضل الله ورحمته بأن بعث فيكم رســولا أقام فيكم الحجة لكفرتم وأشركتم إلا قليلا منكم فإنه كان يُوحّد . وفيه قول رابع ـــ قال الضحاك : المعنى لاتبعتم الشيطان إلا قليـلا ، أى أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حدّثوا أنفسهم بأمر من الشيطان إلا قليلا ، يعنى الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . وعلى هذا القول يكون قوله « إلا قليلا » مستثنًى من قوله « لَٱتَّبَعْتُمُ الشيطان » . قال المهدوىّ : وأنكر هذا القول أكثر العلماء ، إذ لولا فضل الله ورحمته لاتّبع الناسُ كلُّهم الشيطانَ .

قوله تعـالى : فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هذه الفاء متعلقة بقوله « وَمَن يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِب فسوف نُؤْتِيهِ أَجْرًا عظِيما فقاتِلْ فِى سبِيلِ اللهِ » أى من أجل هـذا فقاتل .

وقيل : هى متعلقة بقوله : « وما لكم لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فقاتل » . كأن هذا المعنى : لا تَدَع جهاد العدوّ والاستنصار عليهم للمستضعَفِين من المؤمنين ولو وحدك ؛ لأنه وَعَده بالنصر . قال الزجاج : أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد و إن قاتل وحده ؛ لأنه قد ضَمِن له النصرة . قال ابن عطية : « هذا ظاهر اللفظ ، إلا أنه لم يجئ فى خبر قطّ أن القتال فُرِض عليــه دون الأمة مدّة ما ؛ فالمعنى والله أعلم أنه خطاب له فى اللفظ ، وهو مثال ما يقال لكل واحدٍ فى خاصّة نفسه ؛ أى أنت يامحمد وكلّ واحد من أمّتك القولُ له ؛ فقاتل فى سبيل الله لا تكلّف إلا نفسك . ولهذا ينبغى لكل مؤمن أن يجاهد ولو وحده ؛ ومن ذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : ” والله لأقاتلنّهم حتى تنفرد سالِفتى “[1] . وقولُ أبى بكر وقت الرِّدة : ولو خالفتنى يمينى لجاهدتها بشمالى » . وقيــل : إن هذه الآية نزلت فى موسم بدر الصغرى ؛ فإن أبا سفيان لمـا انصرف من أُحدٍ واعد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم موسِمَ بدرِ الصغرى ؛ فلما جاء الميعاد خرج إليهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين راكبا فلم يحضر أبو سفيان ولم يتّفق قتال . وهذا على معنى ما قاله مجاهــد كما تقدّم فى « آل عمران »[2] . و وجه النظم على هذا والاتصال بما قبلُ أنه وصف المنافقين بالتخليط و إيقاع الأراجيف ، ثم أمر النبىَّ صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم و بالجدّ فى القتال فى سبيل الله و إن لم يساعده أحد على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ « تُكَلَّفُ » مرفوع لأنه مستقبل ، ولم يجزم لأنه ليس علّة للاوّل . و زعم الأخفش أنه يجــوز جزمه . « إلا نَفْسَك » خبر ما لم يسم فاعله ؛ والمعنى لا تُلزَم فعل غيرك ولا تؤاخَذ به .

قوله تعالى : ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى حضّهم على الجهاد والقتال . يقال : حرّضت فلانا على كذا إذا أمرته به . وحارض فلان على الأمر وأكبّ وواظب بمعنًى واحد .

---

(١) أى حتى أموت . والسالفة : صفحة العنق ؛ وكنى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا به .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٧٧ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إطماع ، والإطماع من الله عز وجل واجب . على أن الطمع قد جاء فى كلام العرب على الوجوب ؛ ومنه قوله تعالى : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » . وقال ابن مُقْبِل :

ظنّي بهم كعسى وهم بِتَنُوفةٍ (١) * يتنازعون جوائز الأمثال (٢)

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا ﴾ أى صولة وأعظم سلطانا وأقدر بأسا على ما يريده . ﴿ وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ أى عقوبة ؛ عن الحسن وغيره . قال ابن دُرَيد : رماه الله بنُكْلة ، أى رماه بما ينكِّله . قال : ونكّلت بالرجل تنكيلا من النَّكال . والمَنْكَل الشيء الذى يُنَكِّل بالإنسان . قال :

* وارم على أقفائهم بمنْكَل (٣) *

الثالثـة — إن قال قائل : نحن نرى الكفار فى بأس وشدّة ، وقلتم : إن عسى بمعنى اليقين فأين ذلك الوعد ؟ قيل له : قد وُجد هذا الوعد ولا يلزم وجوده على الاستمرار والدوام ، فمتى وُجد ولو لحظة مثلا فقد صدق الوعد ؛ فكفّ الله بأس المشركين ببدر الصغرى ، وأخلفوا ما كانوا عاهدوه من الحرب والقتال « وكفى الله المؤمنين القتالَ » وبالحُدَيْبِيَة أيضا عما راموه من الغدر وانتهاز الفرصة ، ففطِن بهم المسلمون فخرجوا فأخذوهم أسْرَى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم فى الصلح ، وهو المراد بقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » على ما يأتى . وقد ألقى الله فى قلوب الأحزاب الرُّعْب وانصرفوا من غير قتل ولا قتال ؛ كما قال تعالى « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ » . وخرج اليهود من ديارهم وأموالهم بغير قتال المؤمنين لهم ، فهذا كله بأس قد كفّه الله عن المؤمنين ، مع أنه قد دخل من اليهود والنصارى العددُ الكثير والجَمّ الغفير تحت الجِزْية صاغرين وتركوا المحاربة داخِرين (٤) ، فكف الله بأسهم عن المؤمنين . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) التنوفة : القفر من الأرض . (٢) فى الأصول : « يتنازعون خزائن الأموال » . والتصويب عن اللسان مادة « عسا » . (٣) هذا صدر بيت ، وعجزه : * بصخرة أو عرض جيش جحفل *

(٤) الداخر : الذليل المهين .

قوله تعالى : ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ ﴾ أصل الشفاعة والشّفعة ونحوها من الشَّفْع وهو الزوج في العدد ؛ ومنه الشَّفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شَفْعا . ومنه ناقة شفوع إذا جمعت بين مِحْلَبَين في حلبةٍ واحدة . وناقة شَفِيع (١) إذا اجتمع لها حَمْل وولد يتبعها . والشفع ضم واحد إلى واحد . والشُّفْعة ضم مِلْكِ الشريك إلى ملكك ؛ فالشفاعة إذًا ضَمّ غيرك إلى جاهك ووسيلتك ، فهي على التحقيق إظهارٌ لمنزلة الشفيع عند المشفَّع وإيصال المنفعة إلى المشفوع له .

الثانيـة — واختلف المتأوّلون في هذه الآية ؛ فقال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم : هي في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم ؛ فمن يشفع لينفع فله نصيب ، ومن يشفع ليضر فله كِفْل . وقيل : الشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة ، والسيئةُ في المعاصي . فمن شَفَع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر . ومن سعى بالنميمة والغِيبة أثم ، وهذا قريب من الأوّل . وقيل : يعني بالشفاعة الحسنة الدعاءَ للسلمين ، والسيئةِ الدعاءَ عليهم . وفي صحيح الخبر : " من دعا بظهر الغيب استجيب له وقال المَلَك آمين ولك بمثل " . هذا هو النصيب ، وكذلك في الشر ؛ بل يرجع شؤم دعائه عليه . وكانت اليهود تدعو على المسلمين . وقيل : المعنى من يكن شَفْعًا لصاحبه في الجهاد يكن له نصيبه من الأجر ، ومن يكن شفعا لآخر في باطل يكن له نصيبه من الوِزْر . وعن الحسن أيضا : الحسنة ما يجوز في الدِّين ، والسيئة ما لا يجوز فيه . وكأنّ هذا القول جامع . والكِفل الوِزر والإثم ؛ عن الحسن وقَتادة . السدى وابن زيد هو النصيب . واشتقاقه من الكِساء الذى يحويه راكب البعير على سنامه

(١) كذا في الأصول ؛ والذى في كتب اللغة : « شفوع وشافع » وهي التي شفعها ولدها .

لئلا يسقط . يقال : اكتفل البعير إذا أدرت على سنامه كِساء ورَكبت عليه . ويقال له : اكتفل لأنه لم يستعمل الظَّهر كله بل استعمل نصيبا من الظهر . ويستعمل فى النصيب من الخير والشر، وفى كتاب الله تعالى « يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » . والشافع يؤجر فيما يجوز وإن لم يُشَفَّع ؛ لأنه تعالى قال « من يَشْفع » ولم يقل يُشَفَّع . وفى صحيح مسلم "اشْفَعُوا تُؤْجروا ولْيَقْضِ اللهُ على لسان نبيّه ما أحبّ" .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ « مقتيا » معناه مُقتدرا، ومنه قول الزّبير بن عبد المطلب :

وذى ضِغْنٍ كففتُ النفسَ عنه * وكنتُ على مَساءته مُقِيتَا

أى قديرا . فالمعنى أن الله تعالى يعطى كل إنسان قُوته ؛ ومنه قوله عليه السلام : "كفى بالمرء إثما أن يُضَيِّع من يَقيت" . على من رواه هكذا ، أى مَن هو تحت قدرته وفى قبضته من عيال وغيره ؛ ذكره ابن عطية . يقول منه : قُتُّه أقوته قَوْتا ، وأَقَتُّه أُقِيته إقاتة فأنا قائت ومُقيت . وحكى الكِسائى : أقات يُقيت . وأما قول الشاعر (١) :

* ... إنّى على الحساب مُقيتُ *

فقال فيه الطبرى : إنه من غير هذا المعنى المتقدم ، وإنه بمعنى الموقوف . وقال أبو عبيدة : المقيت الحافظ . وقال الكِسائى : المقيت المقتدر . وقال النحاس : وقول أبى عبيدة أَوْلى ؛ لأنه مشتق من القَوْت ، والقوت معناه مقدار ما يحفظ الإنسان . وقال الفراء : المقيت الذى يعطى كلّ رجلٍ قوته . وجاء فى الحديث : "كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يَقوت ويَقيت" . ذكره الثعلبى . وحكى ابن فارس فى المُجْمَل : المقيت المقتدر ، والمقيت الحافظ والشاهد ، وما عنده قِيتُ ليلةٍ وقُوتُ ليلة . والله أعلم .

---

(١) هو السموءل بن عاديا ، والبيت بتمامه :

أَلِىَ الفضلُ أم علىّ إذا حو * سبت إنى على الحساب مقيت

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

فيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ﴾ التّحِيّة تفعله من حيّيت ؛ فالأصل تَحْيِيَة مثل تَرْضية وتَسْمِية، فأدغموا الياء فى الياء . والتحية السلام . وأصل التحية الدعاء بالحياة . والتحيات لله، أى السلام من الآفات . وقيل : المُلْك . قال عبد الله بن صالح العِجْلِيّ : سألت الكسائى عن قوله « التحيات لله » ما معناها؟ فقال : التحيات مثل البركات؛ فقلت : ما معنى البركات ؟ فقال : ما سمعت فيها شيئا . وسألت عنها محمد بن الحسن فقال : هو شيء تعبّد الله به عباده . فقدِمت الكوفة فلقيت عبد الله بن إدريس فقلت : إنى سألت الكسائى ومحمدا عن قوله « التحيات لله » فأجابانى بكذا وكذا؛ فقال عبد الله بن إدريس : إنهما لا علم لهما بالشّعر وبهذه الأشياء ؟ ! التحية الملك؛ وأنشد (١) :

أَؤُمُّ بها أبا قابوس حتى * أُنِيخَ على تحيّته بجُنْدِى

وأنشد ابن خُوَيْزِمَنْداد :

أَسِير به إلى النّعمان حتى * أُنيخ على تحيّته بجندِى

يريد على ملكه . وقال آخر (٢) :

ولَكُلُّ ما نال الفتى * قد نِلْتُه إلا التَّحِيّة

وقال القتبيى : إنما قال « التحيات لله » على الجمع؛ لأنه كان فى الأرض ملوك يُحَيَّوْن بتحياتٍ مختلفات؛ فيقال لبعضهم : أَبَيْتَ اللّعْنَ ، ولبعضهم اسْلَمْ وانْعَم ، ولبعضهم عِش ألف سنة . فقيل لنا : قولوا التحيات لله ؛ أى الألفاظ التى تدل على المُلْك، ويكنى بها عنه لله تعالى .

---

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب ، وقبله :

وكل مفاضة بيضاء زغف * وكل معاود الغارات جلد

(٢) هو زهير بن جناب الكلبي .

ووجه النظم بمـا قبلُ أنه قال : إذا خرجتم للجهاد كما سبق به الأمر فحُيّيتم فى سـفركم بتحيـة الإسلام فلا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ، بل ردُّوا جواب السلام؛ فان أحكام الإسلام تجرى عليهم .

الثانيــة — واختلف العلماء فى معنى الآية وتأويلها؛ فروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك أن هذه الآية فى تشميت العاطس والردّ على المُشَمِّت . وهذا ضعيف؛ إذ ليس فى الكلام دلالة على ذلك ، أمّا الردُّ على المشمِّت فمما يدخل بالقيـاس فى معنى ردّ التحية؛ وهـذا هو مَنْحَى مالك إن صح ذلك عنه . والله أعلم . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : وقد يجوز أن تُحمل هذه الآية على الهبة إذا كانت للثواب؛ فمن وُهِب له هِبة على الثواب فهو بالخيار إن شاء ردّها وإن شاء قبِلها وأثاب عليها قيمتها .

قلت : ونحو هذا قال أصحاب أبى حنيفة، قالوا : التحية هنـا الهدية ؛ لقوله تعالى : «أو ردّوها» ولا يمكن ردّ السلام بعينــه . وظاهر الكلام يقتضى أداء التحيــة بعينها وهى الهدية، فأمر بالتعويض إن قَبِل أو الردّ بعينه، وهذا لا يمكن فى السلام . وسيأتى بيان حكم الهبة للثواب والهدية فى سورة «الروم» عند قوله : «وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا»(١) إن شاء الله تعالى . والصحيح أن التحية ههنا السلامُ؛ لقوله تعالى : «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ» . وقال النابغة الذُّبيانىّ :

تُحَيِّيهـم بيضُ الـولائدِ بينهـم * وأكسيةُ الإضريجِ فوق المشاجبِ(٢)

أراد: ويسلّم عليهم . وعلى هذا جماعة المفسرين . وإذا ثبت هذا وتقرّر ففقهُ الآية أن يقال : أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سُنّة مرغّب فيها، وردّه فريضة؛ لقوله تعالى : «فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا» . واختلفوا إذا ردّ واحد من جماعة هل يجـزئ أو لا؛ فذهب مالك والشافعىّ إلى الإجزاء، وأن المسلم قد ردّ عليه مثلَ قوله . وذهب الكوفيون إلى أن ردّ السلام

(١) آية ٣٩ (٢) الولائد : الإماء . والإضريج : الخز الأحمر، وقيل : هو الخز الأصفر . والمشاجب (جمع مشجب بكسر الميم) : عيدان يضم رءوسها و يفرج بين قوائمها وتوضع عليها الثياب .

من الفروض المتعيّنة؛ قالوا : والسلام خلاف الردّ لأن الابتـداء به تطوّع و ردّه فريضة . ولو ردّ غير المسلم عليهم لم يُسقط ذلك عنهم فرض الردّ ، فدل على أن ردّ السلام يلزم كل إنسان بعينه؛ حتى قال قتـادة والحسن : إن المصلّي يردّ السلام كلاما إذا سُلّم عليه ولا يقطع ذلك عليه صلاتَه؛ لأنه فعل ما أمر به . والناس على خلافه . احتج الأوّلون بمـا رواه أبو داود عن عليّ بن أبي طالب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يُجزئ من الجماعة إذا مَرُّوا أن يُسلّم أحدهم . ويجزئ عن الجلوس أن يردّ أحدهم " . وهذا نصٌّ في موضع الخلاف . قال أبو عمر : وهو حديث حسَن لا معارض له ، وفي إسناده سعيد بن خالد ، وهو سعيد بن خالد الخزاعيّ مدنيّ ليس به بأس عنـد بعضهم؛ وقـد ضعّفه بعضهم منهم أبو زُرعة وأبو حاتم ويعقوب بن شيبة وجعلوا حديثه هـذا منكرا لأنه انفرد فيه بهذا الإسناد؛ على أن عبـد الله ابن الفضل لم يسمع من عبيد الله بن أبي رافع؛ بينهما الأعرج في غير ما حديث . والله أعلم . واحتجّوا أيضا بقوله عليه السلام : "يُسلم القليل على الكثير" . ولمـّا أجمعوا على أن الواحد يسلم على الجماعة ولا يحتاج إلى تكريره على عداد الجماعة ، كذلك يردّ الواحد عن الجماعة وينوب عن الباقين كفروض الكفاية . وروى مالك عن زيد بن أسـلم أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "يسلم الراكب على المـاشي و إذا سلم واحد من القوم أجزأ عنهم". قال علماؤنا : وهذا يدل على أن الواحد يكفي في الرد؛ لأنه لا يقال أجزأ عنهم إلا فيما قد وجب . والله أعلم .

قلت : هكذا تأوّل علماؤنا هذا الحديث وجعلوه حجة في جواز رد الواحد؛ وفيه قلَق .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ ردُّ الأحسن أن يزيد فيقول : عليك السلام ورحمة الله؛ لمن قال : سلام عليك . فإن قال : سلام عليك ورحمة الله؛ زدت في ردّك : و بركاته . وهذا هو النهاية فلا مزيد . قال الله تعالى مخبرا عن البيت الكريم «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . فإن انتهى بالسلام غايتَه ، زدت في ردّك الواو في أوّل كلامك فقلت : وعليك السلام ورحمـة الله و بركاته . والردّ بالمثل أن تقول لمن قال السلام عليك : عليك السـلام ، إلا أنه ينبغي أن يكون السـلام كلّه بلفظ الجماعة و إن كان

المُسَلّم عليه واحدا . روى الأَعْمَش عن إبراهيم النَّخَعِيّ قال : إذا سلّمت على الواحد فقل : السلام عليكم، فإن معه الملائكة . وكذلك الجواب يكون بلفظ الجمع ؛ قال ابن أبى زيد : يقول المُسَلِّم السلام عليكم ، ويقول الرادّ وعليكم السلام ، أو يقول السلام عليكم كما قيل له ؛ وهو معنى قوله « أَوْ رُدُّوهَا » ولا تقل فى ردّك : سلام عليك .

الرابعة — والاختيارُ فى التسليم والأدبُ فيه تقديم آسم الله تعالى على اسم المخلوق؛ قال الله تعالى : « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » . وقال فى قصة إبراهيم عليه السلام : « رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » . وقال مخبرا عن إبراهيم : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » . وفى صحيح البُخارِىّ ومُسْلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول صلى الله عليه وسلم : "خلق الله عز وجل آدمَ على صورته[(1)] طوله ستون ذراعا فلما خلقه قال اذهب فسَلّم على أولئك النّفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيّونك فانها تحيّتك وتحيّة ذريتك — قال — فذهب فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله — قال — فزادوه ورحمة الله — قال — فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق يَنْقُص بعدَه حتى الآن" .

قلت : فقد جمع هذا الحديث مع صحته فوائد سبع : الأولى — الإخبار عن صفة خلق آدم . الثانية — أنا ندخل الجنة عليها بفضله . الثالثة — تسليم القليل على الكثير . الرابعة — تقديم اسم الله تعالى . الخامسة — الرد بالمثل لقولهم : السلام عليكم . السادسة — الزيادة فى الردّ . السابعة — إجابة الجميع بالرد كما يقول الكوفيون . والله أعلم .

الخامسة — فإن ردّ فقدّم اسمَ المُسَلّمَ عليه لم يأت محرّما ولا مكروها؛ لثبوته عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حيث قال للرجل الذى لم يحسن الصلاة وقد سلّم عليه : "وعليك السلام . آرْجع فصَلّ فإنك لم تُصَلِّ" . وقالت عائشة : وعليه السلام ورحمة الله؛ حين أخبرها النبىّ صلى الله عليه وسلم أن جبريل يقرأ عليها السلام . أخرجه البخارىّ . وفى حديث عائشة

(1) قال النووى : « هـذه الرواية ظاهرة فى أن الضمير فى صورته عائد إلى آدم ، وأن المراد أنه خلق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض وتوفّى عليها » .

من الفقه أن الرجل إذا أرسل إلى رجل بسلامه فعليه أن يردّ كما يردّ عليــه إذا شافهه . وجاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبي يقرئك السلام؛ فقال : "عليك وعلى أبيك السلام" . وقد روى النَّسائيّ وأبو داود من حديث جابر بن سليم قال : لقيت رســول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : عليك السلام يا رسول الله؛ فقال : "لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحيّة الميت ولكن قُل السلام عليك". وهذا الحديث لا يثبت ، إلا أنه لمـا جرت عادة العرب بتقديم اسم المدعو عليه في الشر كقولهم : عليه لعنة الله وغضب الله . قال الله تعالى : "وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ" . وكان ذلك أيضا دأب الشعراء وعادتهم في تحية الموتى؛ كقولهم :

عليك سلام الله قيسَ بن عاصم * ورحمتـه ما شاء أن يترحّمَا

وقال آخر هو الشّمّاخ :

عليك سلام من أمير وباركت * يَدُ الله في ذاك الأديم المُمَــزَّقِ

نهـاه عن ذلك ، لا أن ذاك هو اللفظ المشروع في حق الموتى؛ لأنه عليه السلام ثبت عنـه أنه سلّم على الموتى كما سلّم على الأحياء فقال : "السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" . فقالت عائشة : قلت يارسول الله ، كيف أقول إذا دخلت المقابر ؟ قال : "قولي السلام عليكم أهل الديار من المؤمنيـــن" الحـديث ؛ وسيأتي في سورة « أَلْهَـاكُم » إن شاء الله تعالى .

قلت : وقـد يحتمل أن يكون حديث عائشة وغيره في السلام على أهـل القبور جميعهم إذا دخلها وأشرف عليها ، وحديث جابر بن سليم خاصّ بالسلام على المرور المقصود بالزيارة . والله أعلم .

السادســـة — من السُّنّة تسليم الراكب على المـاشي ، والقائم على القاعد ، والقليل على الكثير ؛ هكذا جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " يسلم الراكب " فذكره فبدأ بالراكب لعلو مرتبته ؛ ولأن ذلك أبعد له من الزهو ،

وكذلك قيل فى المـاشى مثله . وقيل : لمـا كان القاعد على حال وقار وثبوت وسـكون فله مزيّةٌ بذلك على المـاشى ؛ لأن حاله على العكس من ذلك . وأما تسـليم القليـل على الكثير فمراعاة لشرفية جمع المسلمين وأكثريتهم . وقد زاد البُخارِىّ فى هذا الحديث "ويسلم الصغير على الكبير" . وأما تسليم الكبير على الصغير فروى أشعث عن الحسن أنه كان لايرى التسليم على الصبيان ؛ قال : لأن الردّ فرض والصبى لايلزمه الردّ فلا ينبغى أن يُسلَّم عليهم . وروى عن ابن سِـيرين أنه كان يسلم على الصبيان ولكن لايسمعهم . وقال أكثر العلماء : التسليم عليهم أفضل من تركه . وقد جاء فى الصحيحين عن سَـيّار قال : كنت أمشى مع ثابت فمرّ بصبيان فسلّم عليهم ، وذكر أنه كان يمشى مع أنس فمرّ بصبيان فسلّم عليهم ، وحدّث أنه كان يمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ بصبيان فسلّم عليهم . لفظ مسلم . وهذا من خُلُقه العظيم صلى الله عليه وسلم ، وفيه تدريب للصغير وحضٌّ على تعليم السُّنَن ورياضةٌ لهم على آداب الشريعة فيه ؛ فلتقتد .

وأما التسليم على النساء فجائز إلا على الشابّات منهن خوف الفتنة من مكالمتهنّ بنزعة شيطان أو خائنة عَيْن . وأما المتجالات (١) والعُجُز فحَسَن للأمن فيما ذكرناه ؛ هـذا قول عطاء وقتادة ، وإليه ذهب مالك وطائفة من العلماء . ومنعه الكوفيون إذا لم يكن منهنّ ذوات مَحْرَم وقالوا : لمـا سقط عن النساء الأذان والإقامة والجهر بالقراءة فى الصلاة سـقط عنهن ردّ السلام فلا يسلَّم عليهن . والصحيح الأوّل لمـا خرّجه البخارىّ عن سهل بن سـعد قال : كنّا نفرح بيوم الجمعة . قلت ولِمَ؟ قال : كانت لنا عجوز ترسِل إلى بُضاعة ــ قال ابن مَسْلمة : نخلٌ بالمدينة ــ فتأخذ من أصول السِّلْق (٢) فتطرحه فى القِدر وتُكَرْكِر حبّاتٍ من شعيرٍ ، فإذا صلينا الجمعة انصرفنا فنُسلّم عليها فتقدّمه إلينا فنفرح من أجله ، وما كنّا نَقِيل ولا نتغـدّى إلا بعد الجمعة . تكركر أى تطحن؛ قاله القُتَبِى .

---

(١) المتجالة : الهرمة المسـنة .

(٢) السلق (بكسر السين) : نبت له ورق طوال وأصل ذاهب فى الأرض وورقه رخص يطبخ .

الثامنــة — والسنة فى السلام والجواب الجهر، ولا تكفى الإشارة بالإصبع والكف عند الشافعيّ، وعندنا تكفى إذا كان على بُعد؛ روى ابن وهب عن ابن مسعود قال : السلام اسم من أسماء الله عز وجل وضعه الله فى الأرض فأفشُوه بينكم؛ فإن الرجل إذا سلّم على القوم فردّوا عليه كان له عليهم فضلُ درجةٍ لأنه ذكرهم، فإن لم يردّوا عليه ردّ عليه من هو خير منهم وأطيب . وروى الأعمش عن عمرو بن مُرّة عن عبد الله بن الحارث قال : إذا سلّم الرجل على القوم كان له فضل درجة، فإن لم يردّوا عليه ردّت عليه الملائكة ولعنتهم . فإذا ردّ المسلَّم أسمع جوابه لأنه إذا لم يُسْمِع المُسَلِّمَ لم يكن جوابا له؛ ألا ترى أن المُسَلِّمَ إذا سلّم بسلام لم يسمعه المُسَلَّم عليه لم يكن ذلك منه سلاما، فكذلك إذا أجاب بجواب لم يُسمَع منه فليس بجواب. ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا سلّمتم فأسمعوا و إذا رددتم فأسمعوا و إذا قعدتم فاقعدوا بالأمانة ولا يرفعن بعضكم حديث بعض" . قال ابن وهب : وأخبرنى أسامة بن زيد عن نافع قال : كنت أساير رجلا من فقهاء الشام يقال له عبد الله زكريا فحبستنى دابتى تبول، ثم أدركته ولم أسلم عليه؛ فقال : ألا تسلم؟ فقلت : إنما كنت معك آنفا؛ فقال : و إن صحّ؛ لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسايرون فيفرُق بينهم الشجر فإذا التقوا سلّم بعضهم على بعض .

التاسعة — وأما الكافر فحكم الردّ عليه أن يقال له : وعليكم . قال ابن عباس وغيره : المراد بالآية : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ » فإذا كانت من مؤمن « فَحَيُّوا بِأَحسن مِنها » و إن كانت من كافر فردّوا على ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال لهم "وعليكم" . وقال عطاء : الآية فى المؤمنين خاصّة، ومن سلّم من غيرهم قيل له : عليك؛ كما جاء فى الحديث .

قلت : فقد جاء إثبات الواو و إسقاطها فى صحيح مسلم "عليك" بغير واو وهى الرواية الواضحة المعنى، وأما مع إثبات الواو ففيها إشكال؛ لأن الواو العاطفة تقتضى التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دَعَوْا به علينا من الموت أو من سآمة ديننا؛ فاختلف المتأوّلون لذلك على أقوال : أولاها أن يقال : إن الواو على بابها من العطف، غير أنا نُجاب عليهم ولا

يُجابون علينا ، كما قال صلى الله عليـه وسلم . وقيل : هى زائدة . وقيـل للاستئناف . والأولى أوْلى . ورواية حذف الواو أحسنُ معنى و إثباتُها أصحّ روايةً وأشهر، وعليها من العلماء الأكثر .

العاشرة — واختُلف فى ردّ السلام على أهل الذّمة هل هو واجب كالردّ على المسلمين؛ و إليـه ذهب ابن عباس والشَّعْبىّ وقَتادة تمسّكا بعموم الآية و بالأمر بالردّ عليهم فى صحيح السنة . وذهب مالك فيما رَوى عنـه أشهب وابن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب ؛ فإن رددت فقل : عليك . واختار ابن طاوس أن يقول فى الرّد عليهم : علاكَ السلام، أى ارتفع عنك . واختار بعض علمائنا السِّلام (بكسر السين) يعنى به الحجارة. وقول مالك وغيره فى ذلك كاف شاف كما جاء فى الحديث ، وسـيأتى فى سورة « مريم » القولُ فى ابتـدائهم بالسلام عند قوله تعالى إخبارا عن إبراهيم فى قوله لإبيه «سلامٌ عليك»(١) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تَحابُّوا أَوَلَا أَدُلّكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم أَفْشُوا السلام بينكم" . وهذا يقتضى إفشاءه بين المسلمين دون المشركين .

الحادية عشرة — ولا يُسَلِّم على المُصَلِّى فإن سُلِّم عليه فهو بالخيار إن شاء ردّ بالإشارة بإصبعه و إن شاء أمسك حتى يَفْرُغ من الصلاة ثم يردّ . ولا ينبغى أن يُسَلَّم على من يقضى حاجته فإن فُعل لم يلزمه أن يردّ عليه . دخل رجل على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الحال فقال له : " إذا وجدتنى أو رأيتنى على هـذه الحال فلا تُسَلِّم علىّ فإنك إن سلّمت علىّ لم أردّ عليك" . ولا يُسَلَّم على من يقرأ القرآن فيقطع عليه قراءته ، وهو بالخيار إن شاء ردّ و إن شاء أمسك حتى يَفْرُغ ثم يردّ . ولا يُسَلَّم على من دخل الحمّام وهو كاشف العورة أو كان مشغولا بما له دَخْل بالحمّام؛ ومن كان بخلاف ذلك سُلِّم عليه .

---

(١) آية ٤٧

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ معناه حفيظا. وقيل : كافيا ؛ من قولهم : أَحْسَبَنِي كذا أى كفانى، ومثله حَسْبُكَ اللهُ . وقال قتادة : محاسبا؛ كما يقول أَكِيل بمعنى مواكل . وقيل : هو فعِيل من الحساب، وحسُنت هذه الصفة هنا ؛ لأن معنى الآية فى أن يزيد الإنسان أو ينقص أو يُوَفِّى قدر ما يجيء به . روى النَّسائيّ عن عِمران بن حُصين قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم لجاء رجل فسلّم، فقال : السلام عليكم . فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "عشر" ثم جلس؛ وجاء آخر فسلم فقال : السلام عليكم ورحمة الله؛ فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "عشرون" ثم جلس؛ وجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله و بركاته ؛ فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " ثلاثون " . وقد جاء هذا الخبر مُفَسَّرا وهو أن من قال لأخيه المسلم : سلام عليكم كتب له عشر حسنات ، و إن قال السلام عليكم ورحمة الله كتب له عشرون حسنة . فإن قال السلام عليكم ورحمة الله و بركاته كتب له ثلاثون حسنة، وكذلك لمن ردّ من الأجر. والله أعلم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ابتداء وخبر . واللام فى قوله ﴿ ليجمعنكم ﴾ لام القَسم ؛ نزلت فى الذين شكُّوا فى البَعْث فأقسم الله تعالى بنفسه . وكل لام بعدها نون مشدّدة فهو لام القَسَم . ومعناه فى الموت وتحت الأرض ﴿ إلى يوم القِيامةِ ﴾ . وقال بعضهم « إلى » صلة فى الكلام، معناه ليجمعنكم يوم القيامة . وسُمّيت القيامة قيامةً لأن الناس يقومون فيه لرب العالمين جل وعز ؛ قال الله تعالى : « أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . وقيل : سُمِّيَ يوم القيامة لأن الناس يقومون من قبورهم إليها؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا » . وأصل القيامة الواو . ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾ نصب على البيان، والمعنى لا أحد أصدق من الله . وقرأ حمزة

والكسائيّ « ومن أزدق » بالزاى . الباقون : بالصاد ، وأصله الصاد إلا أن لِقُرب مخرجها جعل مكانها زاى .

قوله تعالى : فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ « فئتين » أى فرقتين مختلفتين . روى مسلم عن زيد بن ثابت أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خرج إلى أُحُد فرجع ناس ممن كان معه ، فكان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين ؛ فقال بعضهم : نقتلهم . وقال بعضهم لا ؛ فنزلت « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ » . وأخرجه الترمذيّ وزاد « وقال : " إنها طيبةُ تَنفِي الخبيث كما تنفى النار خبث الحديد " قال : حديث حسن صحيح » . وقال البخاريّ : " إنها طيبة تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة " . والمعنيّ بالمنافقين هنا عبد الله ابن أُبَيّ وأصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا ؛ كما تقدّم في « آل عمران » . وقال ابن عباس : هم قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة ، قال الضحاك : وقالوا إن ظهر محمد صلى الله عليه وسلم فقد عرفنا ، وإن ظهر قومنا فهو أحبّ إلينا . فصار المسلمون فيهم فئتين قوم يتولّونهم وقوم يتبرءون منهم ؛ فقال الله عز وجل « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ » . وذكر أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أنها نزلت في قوم جاءوا إلى المدينة وأظهروا الإسلام فأصابهم وباء المدينة وحُمّاها ؛ فأُرْكِسوا فخرجوا من المدينة ، فاستقبلهم نفر من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما لكم رجعتم؟ قالوا : أصابنا وباء المدينة فٱجْتَوَيناها (١) ؛ فقالوا : ما لكم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَة ؟ فقال بعضهم : نافقوا . وقال بعضهم : لم ينافقوا ، هم مسلمون ؛ فأنزل الله عز وجل « فما لكم فِي المنافِقِين فِئَتَيْنِ والله أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا » الآية . حتى جاءوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ، ثم ٱرتدّوا بعد ذلك ، فٱستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليأتوا

(١) اجتويت البلد : إذا كرهت المقام فيها وإن كنت فى نعمة .

ببضائع لهم يتّجرون فيها ، فاختلف فيهم المؤمنون فقائل يقول : هم منافقون ، وقائل يقول : هم مؤمنون؛ فبيّن الله تعالى نفاقهم وأنزل هذه الآية وأمر بقتلهم .

قلت : وهذان القولان يَعْضُدُهما سياق آخر الآية من قوله تعالى : « حتى يُهاجروا »، والأوّل أصح نقـلا ، وهو اختيار البخارىّ ومسلم والترمذى . و « فِئَتَيْنِ » نصب على الحال؛ كما يقال : مالك قائمـا ؛ عن الأخفش . وقال الكوفيون : هو خبر « ما لكم » كخبر كان وظننت ، وأجازوا إدخال الألف واللام فيه . وحكى الفراء «أركسهم، وركسهم» أى ردّهم إلى الكفر ونكسهم؛ وقال النّضر بن شُمَيل والكسائى . والرّكس والنكس قلب الشىء على رأسه، أو ردّ أوّله على آخره ، والمركوس المنكوس . وفى قراءة عبد الله وأُبَىّ رضى الله عنهما « والله رَكَسهم» . وقال ابن رَوَاحة : هم أركسوا فى فتنة مظلمة كسواد الليل يتلوها فتن. أى نكسوا. وارتكس فلان فى أمر كان نجا منـه . والرُّكُوسِيَّة قوم [لهم دين](١) بين النصارى والصابئين . والراكس الثَّور وسَط البَيْدر(٢) والثيران حواليه حين الدِّياس . ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ أى ترشدوه إلى الثواب بأن يُحْكَم لهم بحكم المؤمنين . ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ أى طريقا إلى الهُدَى والرّشد وطلب الحجة . وفى هذا ردّ على القَدرية وغيرهم القائلين بخلق هداهم وقد تقدّم(٣) .

قوله تعـالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)

(١) زيادة عن كتب اللغة . (٢) البيدر (بوزن خيبر) : الموضع الذى يداس فيه الطعام .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيـه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى تمنّوا أن تكونوا كهم فى الكفر والنفاق شَرْعٌ سـواء ، فأمر الله تعـالى بالبراءة منهم فقال : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ ؛ كما قال تعالى : « مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا » والهجرة أنواع : منها الهجرة إلى المدينة لنُصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه واجبة أوّل الإسلام حتى قال : " لا هجرة بعد الفتح " . وكذلك هجرة المنافقين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الغزوات . وهجرة من أسلم فى دار الحرب فإنها واجبة . وهجرة المسلم ما حُرّم عليـه ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " والمهاجر من هجر ما حرم الله عليه " . وهاتان الهجرتان ثابتتان الآن . وهجرة أهل المعاصى حتى يرجعوا تأديبا لهم فلا يُكَلَّمون ولا يخالَطون حتى يتوبوا ؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم مع كعب وصاحبيه . ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ ﴾ يقول : إن أعرضـوا عن التوحيد والهجرة فأْسروهم واقتلوهم . ﴿ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ عامّ فى الأماكن من حِلّ وحَرَم . والله أعلم . ثم استثنى وهى :

الثانيـة — فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ أى يتّصلون بهم ويدخلون فيما بينهم من الجوار والحِلف ؛ المعنى : فلا تقتلوا قوما بينهم وبين مَن بينكم وبينهم عهد فإنهم على عهدهم ، ثم انتسخت العهود فانتسخ هذا . هذا قول مجاهد وابن زيد وغيرهم ، وهو أصح ما قيل فى معنى الآية . قال أبو عبيد : يَصِلون ينتسبون ؛ ومنه قول الأعشى :

إذا اتّصَلَتْ قالت لبكرِ بن وائلٍ * وبَكْرٌ سَـبَتْها والأنوفُ رواغِمُ

يريد إذا انتسبَتْ . قال المهـدوىّ : وأنكره العلمـاء ؛ لأن النسب لا يمنع من قتال الكفار وقتلهم . وقال النحاس : وهذا غلط عظيم ؛ لأنه يذهب إلى ان الله تعـالى حظر أن يُقاتَل أحد بينه وبين المسلمين نسب ، والمشركون قد كان بينهم وبين السابقين الأوّلين أنساب ، وأشد من هـذا الجهلُ بأنه كان ثم نُسخ ؛ لأن أهل التأويل مجمعون على أن الناسخ له « براءة » وإنما نزلت « براءة » بعد الفتح وبعد أن انقطعت الحروب . وقال معناه الطبرىّ .

قلت : حمل بعض العلماء معنى ينتسبون على الأمان ؛ أى أن المنتسب إلى أهل الأمان آمن إذا أمن الكل منهــم ، لاعلى معنى النسب الذى هو بمعنى القرابة . واختُلف فى هؤلاء الذين كان بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم ميثاق ؛ فقيل : بنو مُدْلِج . عن الحسن : كان بينهم وبين قريش عقد ، وكان بين قريش وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد . وقال عِكْرِمة : نزلت فى هلال بن عُوَيْمِر وسُراقة بن جُعْشُم وخُزيمــة بن عامر بن عبــد مناف كان بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم عهد . وقيل : خزاعة . وقال الضحاك عن ابن عباس : أنه أراد بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق بنى بكر بن زيد بن مَناة ، كانوا فى الصلح والهُدْنة .

الثالثــة — فى هــذه الآية دليل على إثبات الموادعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كان فى الموادعة مَصْلحة للسلمين ، على ما يأتى بيانه فى «الأنفال و براءة» إن شاء الله تعالى .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ أى ضاقت . وقال لَبِيد :

أسهلْت وٱنتصبَتْ كَجِذْعِ مُنِيفةٍ * جَرداءَ يَحْصُــر دونهــا جرامهــا [1]

أى تضيق صدورهم من طول هــذه النخلة ؛ ومنه الحصر فى القول وهو ضيق الكلام على المتكلم . والحَصِر الكتوم للسر ؛ قال جرير :

ولقد تَسَقَّطَنِي الوشــاة فصادفوا * حَصِــرًا بِسِرّكِ يا أُميمُ ضَــنِينا

ومعنى « حَصِرت » قد حصِرت فأضمرت قــد ؛ قاله الفراء . وهو حال من المضمر المرفوع فى جاءوكم ؛ كما تقول : جاء فلان ذهب عقله ، أى قد ذهب عقله . وقيل : هو خبر بعد خبر ؛ قاله الزجاج . أى جاءوكم ثم أخبر فقــال : « حَصِرت صــدورهم » فعــلى هــذا يكون « حصِرت » بدلا من جاءوكم . وقيل : « حصرت » فى موضع خفض على النعت لقوم . وفى حَرْف أُبَيّ « إلا الذين يَصِلُون إلى قوم بينكم وبينهم مِيثاقٌ حَصِرتْ صدورُهم » ليس فيه « أو جاءوكم [2] » . وقيل : تقديره أو جاءوكم رجالا أو قوما حصِرت صدورهم ؛ فهى صفة موصوف منصوب على الحال . وقرأ الحسن « أو جاءوكم حَصِرةً صــدورهم » نصب على

---

(١) جرام (جمع جارم) وهو الذى يصرم التمر ويجذه .

(٢) كذا فى الأصول وتفسير ابن عطية . والذى فى البحر والدر المصون والكشاف : «جاءوكم بغير أو» .

الحال، ويجوز رفعه على الإبتداء والخبر . وحكى « أو جاءوكم حصِراتٍ صدورهم » ، ويجوز الرفع . وقال محمــد بن يزيد : « حصِرت صدورهم » هو دعاء عليهــم؛ كما تقول : لعن الله الكافر؛ وقاله المبرد . وضعفه بعض المفسرين وقال : هذا يقتضى ألا يقاتلوا قومهم؛ وذلك فاسد لأنهم كفار وقومهم كفار . وأجيب بأن معنـاه صحيح ؛ فيكون عدم القتال فى حق المسلمين تعجيزا لهم، وفى حق قومهم تحقيرا لهم . وقيل : « أو » بمعنى الواو؛ كأنه يقول : إلى قوم بينكم و بينهم ميثـاق وجاءوكم ضيقة صدورهم عن قتالِكم والقتالِ معكم فكرهوا قتـال الفريقين . ويحتمــل أن يكونوا معاهَــدين على ذلك فهو نوع من العهــد ، أو قالوا نســلم ولانقاتل؛ فيحتمل أن يقبل ذلك منهم فى أول الإسلام حتى يفتح الله قلوبهم للتقوى و يشرحها للإسلام . والأول أظهر . والله أعلم . ﴿ أَوْ يُقَاتِلُوا ﴾ فى موضع نصب؛ أى عن أن يقاتلوكم .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ تسليط الله تعالى المشركين على المؤمنين هو بأن يقــدرهم على ذلك و يقويهم إمّا عقوبةً و نقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصى، و إما ابتلاء واختبارا كما قال تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » ، و إما تمحيصا للذنوب كما قال تعــالى : « وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » . ولله أن يفعل مايشاء و يسلط من يشاء على من يشاء إذا شاء . ووجه النظم والاتصال بما قبل أى آقتلوا المنـافقين الذين اختلفتم فيهم إلا أن يهـاجروا ، و إلا أن يتصلوا بمن بينكم و بينهم ميثاق فيدخلون فيما دخلوا فيه فلهم حكمهم، و إلا آلذين جاءوكم قد حصرت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم فدخلوا فيكم لاتقتلوهم .

قوله تعـالى : سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ج فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ج وَأُوْلَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

قوله تعالى — ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ معناها معنى الآية الأولى . قال قتادة : نزلت فى قوم من تهامة طلبوا الأمان من النبيّ صلى الله عليه وسلم ليأمنوا عنده وعنـد قومهم . مجاهـد : هى فى قوم من أهل مكة . وقال السُّـدّى : نزلت فى نُعيم ابن مسـعود كان يأمن المسلمين والمشركين . وقال الحسن : هـذا فى قوم من المنافقين . وقيل : نزلت فى أسد وغَطَفان قدموا المدينة فأسلموا ثم رجعوا إلى ديارهم فأظهروا الكفر .

قوله تعـالى : ﴿ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ قرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش « رِدُّوا » بكسر الراء؛ لأن الأصل « رَدِدُوا » فأدغم وقلبت الكسرة على الراء . « إلى الفتنة » أى الكفر « أُرْكِسُوا فيها » . وقيـل : أى ستجدون مَن يُظهر لكم الصلح ليأمنوكم ، وإذا سنحت لهم فتنة كان مع أهلها عليكم . ومعنى « أُرْكِسُوا فيها » أى انتكسوا على عهدهم الذين عاهدوا . وقيل : أى إذا دُعُوا إلى الشرك رجعوا وعادوا إليه .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)

فيـــه عشرون مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾ هـذه آية من أمّهات الأحكام . والمعنى ما ينبغى لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ؛ فقوله «وما كان» ليس على النفى وإنمـا هو على التحريم والنهى، كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ » ولو كانت على النفى لمـا وجد مؤمن قتل مؤمنا قط؛ لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده، كقوله

تعـالى : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا » . فلا يقـدر العباد أن ينبتوا شجرها أبدا . وقال قتادة : المعنى ما كان له ذلك فى عهد الله . وقيـل : ما كان له ذلك فيما سلف، كما ليس له الآن ذلك بوجه، ثم استثنى استثناء منقطعا ليس من الأول وهو الذى يكون فيه «إلا» بمعنى « لكنْ » والتقدير ما كان له أن يقتله ألبتّة لكنْ إن قتله خطأ فعليه كذا ؛ هذا قول سيبويه والزجاج رحمهما الله . ومن الاستثناء المنقطع قوله تعـالى : « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ » . وقال النابغة :

وقفت فيهـا أُصَيْلاناً[1] أسائلهـا * عَيّتْ جوابا وما بالرَبع من أَحَدِ
إلّا الأَوَارِىَّ لَأْياً ما أُبَيِّنُهـا * والنُّؤْىُ كالحَوض بالمظلومة الجَلَدِ[2]

فلمـا لم تكن «الأوارىّ» من جنس أحدٍ حقيقة لم تدخل فى لفظه . ومثله قول الآخر :

أمسى سُقَامٌ خَلاءً لا أنيسَ به * إلا السـباعَ ومرّ الريح بالغُرُفِ[3]

وقال آخر :

وبـلدةٍ ليس بهـا أنيسُ * إلا اليعـافيرُ وإلا العيس[4]

وقال آخر :

وبعضُ الرجال نخلةٌ لا جَنَى لهـا * ولا ظلَّ إلا أن تُعَدّ من النّخل

أنشده سيبويه؛ ومثله كثير، ومن أبدعه قول جرير :

مِن البِيضِ لم تَظْعَن بعيدا ولم تطأ * على الأرض إلّا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ[5]

---

(١) أصيلان : فصغر أصلان جمع الأصيل وهو وقت ما بعد العصر الى المغرب . (٢) الأوارى : جمع آرى، وهو حبل تشدّ به الدابة فى محبسها . واللأى : الشدّة . والنؤى : حفرة تجعل حول البيت والخيمة لئلا يصل إليها الماء . والمظلومة : الأرض التى حفر فيها حوض لم تستحق ذلك ؛ يعنى أرضا مروا بها فى برية فتحوّضوا حوضا سقوا فيه إبلهم وليست بموضع تحويض . والجلد : الأرض التى يصعب حفرها . (٣) البيت لأبى خراش الهذلى . وسقام : واد بالحجاز . الغرف (بالتحريك و بالفتح والسكون) : شجر يدبغ به . (٤) اليعافير : الظباء، واحدها يعفور . والعيس : بقر الوحش لبياضها ، والعيس البياض وأصله فى الإبل فاستعاره للبقر .

(٥) المرحل : ضرب من برود اليمن؛ سمى مرحلا لأن عليه تصاوير رحل .

كأنه قال : لم تطأ على الأرض إلا أن يطأ ذيل البُرْد . ونزلت الآية بسبب قتل عيّاش ابن أبي ربيعة الحارثَ بن يزيد بن أبي أنيسة العامري[1] لِحِنَة[2] كانت بينهما ، فلما هاجر الحارث مُسْلما لَقِيَه عيّاشٌ فقتله ولم يشعر بإسلامه ؛ فلما أخبر أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، إنه قد كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت، ولم أشعر بإسلامه حتى قتلتُه ؛ فنزلت الآية . وقيل : هو استثناء متّصل، أي وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا ولا يقتصّ منه إلا أن يكون خطأ ؛ فلا يقتص منه، ولكن فيه كذا وكذا . ووجه آخر وهو أن يقدّر كان بمعنى استقرّ ووُجد ؛ كأنه قال : وما وُجد وما تقرّر وما ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ إذ هو مغلوب فيه أحيانا ؛ فيجيء الاستثناء على هذين التأويلين غير منقطع . وتتضمّن الآية على هذا إعظامَ العَمْد وبشاعةَ شأنه؛ كما تقول : ما كان لك يا فلان أن تتكلم بهذا إلا ناسيا ؟ إعظاما للعمد والقصد مع حظر الكلام به ألبتّة . وقيل : المعنى ولا خطأ . قال النحاس : ولا يجوز أن تكون « إلا » بمعنى الواو، ولا يعرف ذلك في كلام العرب ولا يصح في المعنى ؛ لأن الخطأ لا يحظر . ولا يُفهم من دليل خطابه جواز قتل الكافر المسلمَ فإن المسلم محترم الدم ، وإنما خصّ المؤمن بالذكر تأكيدا بحنانه وأخوّته وشفقته وعقيدته . وقرأ الأعمش « خطاء » ممدودا في المواضع الثلاث . ووجوه الخطأ كثيرة لاتُحصى يربطها عدم القصد؛ مثل أن يَرْمي صفوف المشركين فيصيبَ مسلما . أو يسعى بين يديه مَن يستحق القتلَ من زان أو محارب أو مرتدّ فطلبه ليقتله فلقِي غيره فظنه هو فقتله فذلك خطأ . أو يرمي إلى غرض فيصيب إنسانا أو ما جرى مجراه؛ وهذا مما لا خلاف فيه . والخطأ آسم من أخطأ خطأ وإخطاء إذا لم يصنع عن تعمّد ؛ فالخطأ الآسم يقوم مقام الإخطاء . ويقال لمن أراد شيئا ففعل غيره : أخطأ، ولمن فعل غير الصواب : أخطأ . قال ابن المنذر : قال الله تعالى : « وما كان لِمُؤمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً » إلى قوله تعالى « وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ » فحكَم الله جل ثناؤه

---

(١) يقال فيه : الحارث بن زيد؛ كما يقال: ابن أنيسة . راجع ترجمته في كتاب «الإصابة في أسماء الصحابة» .

(٢) الحنة والإحنة : الحقد .

فى المؤمن يَقْتُل خطأ بالدّية، وثبتت السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، وأجمع أهل العلم على القول به .

الثانيـــة — ذهب داود إلى القصاص بين الحرّ والعبد فى النّفْس، وفى كل ما يستطاع القصاص فيــه من الأعضاء؛ تمسُّكا بقوله تعالى: « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » إلى قوله تعالى : « والجُرُوحَ قِصَاصٌ » ، وقولِه عليه السلام : " المسلمون تتكافأ دماؤهم " فلم يفرق بين حرّ وعبد؛ وهو قول ابن أبى لَيْلَى . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا قصاص بين الأحرار والعبيد إلا فى النفس فيُقتل الحرّ بالعبــد، كما يقتل العبــد بالحرّ، ولا قصاص بينهما فى شىء من الجراح والأعضاء . وأجمع العلمــاء على أن قوله تعــالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً » أنه لم يدخل فيه العبيد، وإنمــا أريد به الأحرار دون العبيد؛ فكذلك قوله عليه السلام : " المسلمون تتكافأ دماؤهم " أريد به الأحرار خاصة . والجمهور على ذلك . وإن لم يكن قصاص بين العبيد والأحرار فيما دون النفس فالنّفسُ أحرى بذلك؛ وقد مضى هذا فى « البقرة »[1] .

الثالثـــة — قوله تعــالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَــةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ أى فعليــه تحرير رقبة؛ هــذه الكفارة التى أوجبها الله تعالى فى كفارة القتل والظِّهار أيضا على ما يأتى . واختلف العلمــاء فيما يجزئ منها؛ فقال ابن عباس والحسن والشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ وقَتادة وغيرهم : الرقبة المؤمنــة هى التى صَلّت وعَقَلت الإيمــان، لا تجزئ فى ذلك الصغيرة؛ وهو الصحيح فى هذا الباب . قال عطاء بن أبى رباح : يجزئ الصــغير المولود بين المسلمين . وقال جماعة منهم مالك والشافعىّ : يجزئ كل من حُكم له بحكم فى الصلاة عليه إن مات ودفنه . وقال مالك : ومن صلّى وصام أحبّ إلىّ . ولا يجزئ فى قول كافة العلمــاء أعمى ولا مُقْعَد ولا مقطوع اليــدين أو الرجلين ولا أشلّهما ، ويجزئ عند أكثرهم الأعرج والأعور . قال مالك : إلا أن يكون عَرَجًا شديدا . ولا يجزئ عند مالك والشافعىّ وأكثر العلماء أقطع إحدى اليدين أو إحدى

(١) راجع ج ٢ ص ٢٤٦ طبعة ثانية .

الرجلين، ويجزئ عند أبي حنيفة وأصحابه . ولا يجزئ عند أكثرهم المجنون المُطْبَق . ولا يجزئ عند مالك الذي يُجَنّ ويُفيق ، ويجزئ عند الشافعيّ . ولا يجزئ عند مالك المُعْتَق إلى سنين، ويجزئ عند الشافعيّ . ولا يجزئ المُدَبَّر عند مالك والأوزاعيّ وأصحاب الرأى، ويجزئ في قول الشافعيّ وأبي ثور، واختاره ابن المنذر. وقال مالك : لا يصح من أُعتِق بعضه لقوله تعالى : « فتحرِير رقبةٍ » . ومن أعتق البعضَ لا يقال حَرّر رقبة وإنما حرّر بعضها ؛ واختلفوا أيضا في معناها فقيل : اوجبت تمحيصا وطهورا لِذنب القاتل، وذنبُه ترك الاحتياط والتحفّظ حتى هلك على يديه آمرؤ مَحْقُون الدّم . وقيل : أوجبت بدلًا من تعطيل حق الله تعالى في نفس القتيل ؛ فإنه كان له في نفسه حق وهو التنعّم بالحياة والتصرّف فيما أُحِل له تصرّف الأحياء، وكان لله سبحانه فيه حق ، وهو أنه كان عبدا من عباده يجب له من آسم العبودية صغيرا كان أو كبيرا حرّا كان أو عبدا مسلما كان أو ذِمّيًّا ما يتميز به عن البهائم والدّواب ، ويُرْتَجى مع ذلك أن يكون من نسله من يعبد الله ويطيعه ، فلم يَخْلُ قاتله من أن يكون فوّت منه الأسم الذي ذكرنا ، والمعنى الذي وصفنا ؛ فلذلك ضمن الكفارة . وأي واحد من هذين المعنيين كان ، ففيه بيان أن النص وإن وقع على القاتل خطأ فالقاتل عمدا مثله ، بل أوْلى بوجوب الكفارة عليه منه ؛ على ما يأتي بيانه ، والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ ﴾ الدّية ما تُعْطَى عِوَضا عن دم القتيل إلى وَلِيه . ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ مدفوعة مؤدّاة، ولم يُعيِّن الله في كتابه ما يُعْطَى في الدية وإنما في الآية إيجاب الدية مطلقا وليس فيها إيجابها على العاقلة أو على القاتل ، وإنما أُخِذ ذلك من السنة ، ولا شكّ أن إيجاب المواساة على العاقلة خلاف قياس الأصول في الغرامات وضمان المُتْلَفات، والذي وجب على العاقلة لم يجب تغليظا ، ولا أن وزر القاتل عليهم ولكنه مواساةٌ مَحْضة . واعتقد أبو حنيفة أنها باعتبار النصرة فأوجبها على أهل ديوانه . وثبتت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الدية مائة من الإبل ، ووَدَاها صلى الله عليه وسلم في عبد الله بن سهل

المقتول بخيبر لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة[(١)] وعبـد الرحمن؛ فكان ذلك بيانا على لسان نبيّـه عليه السلام لمُجْمَل كتابه . وأجمع أهل العـلم على أن على أهل الإبل مائةً من الإبل . واختلفوا فيما يجب على غير أهل الإبل ؛ فقالت طائفـة : على أهل الذهب ألفُ دينار ، وهم أهل الشام ومصر والمغرب؛ هذا قول مالك وأحمد و إسحاق وأصحابِ الرأى والشافعيّ فى أحد قوليه فى القديم . ورُوى هـذا عن عمر وعروة بن الزبير وقَتادة . وأما أهل الوَرِق فآثنـا عشر ألف درهم ، وهم أهل العراق وفارس وخراسان؛ هـذا مذهب مالك على مابلغه عن عمر أنه قوّم الدية على أهل القرى فجعل على أهـل الذهب ألف دينار وعلى أهـل الوَرِق اثنى عشر ألف درهم . وقال المُزَنِيّ : قال الشافعيّ الدّية الإبل ؛ فإن أعوزت فقيمتها بالدراهم والدنانير على ما قوّمها عمر ألفُ دينار على أهـل الذهب واثنـا عشر ألف درهم على أهل الوَرِق . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثَّوْرِيّ : الدِّية من الوَرِق عشرة آلاف درهم . رواه الشَّعْبِيّ عن عَبيدة عن عمر أنه جعل الدِّية على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الوَرِق عشرة آلاف درهم، وعلى أهل البقر مائتى بقرة ، وعلى أهل الشاءِ ألفَ شاة ، وعلى أهل الإبل مائة من الإبل ، وعلى أهل الحُلَل مائتى حُلّة . قال أبو عمـر : فى هـذا الحديث مايدل على أن الدنانير والدراهم صِنف من أصناف الدّية لا على وجه البدل والقيمة؛ وهو الظاهر من الحديث عن عثمان وعليّ وابن عبـاس . وخالف أبو حنيفـة مارواه عمر فى البقر والشاء والحلل . و به قال عطاء وطاوس وطائفة من التابعين ، وهو قول الفقهاء السبعة المدنيّين . قال ابن المنذر : وقالت طائفة دية الحر المسلم مائة من الإبل لادِيَةَ غيرها ، كما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا قول الشافعى و به قال طاوس . قال ابن المنذر : دية الحرّ المسلم مائة من الإبل فى كل زمان، كما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم . واختلفت الروايات عن عمر فى أعداد الدراهم، وما منها شيء يصحّ عنه لأنها مراسيل، وقد عرّفتك مذهب الشافعى و به نقول .

---

(١) حويصة ومحيصة (بضم ففتح ثم ياء مشددة مكسورة، ومخففة ساكنة والأشهر التشديد) .

الخامســة — واختلف الفقهاء فى أسنان دية الإبل؛ فروى أبو داود من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى أن مَن قُتِل خطأ فديتُه مائةٌ من الإبل: ثلاثون بنت مخاض، وثلاثون بنت لبون، وثلاثون حِقّــة، وعشر بنى لَبُون(١). قال الخطّابى: هذا الحديث لا أعرف أحدا قال به من الفقهاء، وإنما قال أكثر العلماء: دية الخطأ أخماس. كذا قال أصحاب الرأى والثورى، وكذلك مالك وابن سيرين وأحمد بن حنبل إلا أنهم اختلفوا فى الأصناف؛ فقال أصحاب الرأى وأحمد: خمس بنو مخاض، وخمس بنات مخاض، وخمس بنات لبون، وخمس حِقاق، وخمس جِذاع. ورُوى هــذا القول عن ابن مسعود. وقال مالك والشافعى: خمس حِقاق، وخمس جِذاع، وخمس بنات لَبون، وخمس بنات مخاض، وخمس بنو لبون. وحُكى هــذا القول عن عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يَسار والزُّهرى وربيعة والليث بن سعد. قال الخطّابى: ولأصحاب الرأى فيه أثر، إلا أن راويه عبد الله بن خِشْف بن مالك وهو مجهول لا يعرف إلا بهــذا الحديث. وعدَل الشافعى عن القول به لما ذكرنا من العلة فى راويه؛ ولأن فيه بَنِى مَخاض ولا مدخل لبنى مخاض فى شىء من أسنان الصّدقات. وقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة القَسامة أنه وَدَى قتيــلَ خَيْبَر مائةً من إبل الصدقة وليس فى أسنان الصدقة ابن مخاض. قال أبو عمر: وقد روى زيد بن جبير عن خِشف بن مالك عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الدية فى الخطأ أخماسا، إلا أن هذا لم يرفعه إلا خِشف بن مالك الكوفى الطائى وهو مجهول؛ لأنه لم يروه عنه إلا زيد بن جُبير بن حَرْمل الطائى من بنى جُشم ابن معاوية أحد ثقات الكوفيين.

قلت: قد ذكر الدَّارَقُطْنِى فى سننه حديثَ خِشف بن مالك من رواية حجّاج بن أَرْطاة عن زيد بن جُبير عن خِشف بن مالك عن عبد الله بن مسعود قال: قضى رســول الله صلى

(١) فى شرح الموطأ للباجى: «قال محمد بن عيسى الأعشى فى المزنية: بنت مخاض وهى التى تتبع أمها وقد حملت أمها. وبنت اللبون وهى التى تتبع أمها أيضا وهى ترضع. والحقة وهى التى تستحق الحمل. وأما الجذعة من الإبل فهى ما كان من فوق أربعة وعشرين شهرا».

الله عليه وسلم فى دِيَة الخطأ مائةً من الإبل ؛ منها عشرون حِقّة، وعشرون جَذَعة، وعشرون بنات لَبون، وعشرون بنات مَخاض، وعشرون بنو مخاض . قال الدّارَقُطْنِيّ : « هذا حديث ضعيف غير ثابت عنـد أهل المعرفة بالحديث من وجوه عِدّة ؛ أحدها أنه مخالف لمـا رواه أبو عُبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه بالسند الصحيح عنه، الذى لا مطعن فيه ولا تأويل عليـه ، وأبو عبيـدة أعلم بحديث أبيـه و بمذهبه [وفُتْيـاه][1] من خِشف بن مالك ونظرائه ، وعبد الله بن مسعود أتْقَى لربّه وأشحّ على دينه من أن يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يقضى بقضاء ويُفتى هو بخلافه ؛ هـذا لا يتوهّم مثله على عبد الله بن مسعود وهو القائل فى مسألة وردت عليه لم يسمع فيها من رسول الله صلى الله عليه وسـلم شيئا ولم يبلغه عنه فيها قول : أقول فيها برأيى فإن يكن صوابا فمن الله ورسوله ، وأن يكن خطأ فمنّى ؛ ثم بلغه بعد [ذلك][1] أن فُتْياه فيها وافقَ قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثلها، فرآه أصحابه عند ذلك فرِح فرحا لم يروه فرح مثله ، من موافقة فتياه قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن كانت هذه صفته وهذا حاله فكيف يصح عنه أن يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [شيئا][1] ويخالفه . ووجه آخر — وهو أن الخبر المرفوع الذى فيـه ذُكر بنى المخاض لانعلمه رواه إلا خِشْف بن مالك عن ابن مسعود وهو رجل مجهول لم يروه عنـه إلا زيد بن جُبير بن حَرْمل الجشمى ، وأهل العلم بالحديث لايحتجّون بخبر ينفرد بروايته رجل غير معروف، وإنما يثبت العلم عندهم بالخبر إذا كان راويه عدلا مشهورا ، أو رجلا قـد ارتفع عنه اسم الجهـالة ، وارتفاع اسم الجهالة عنـه أن يَرْوِىَ عنه رجلان فصاعدا ؛ فإذا كانت هـذه صفته ارتفع عنه حينئذٍ اسم الجهالة ، وصار حينئذ معروفا . فأما من لم يرو عنه إلا رجل واحد وانفرد بخبر وجب التوقّف عن خبره ذلك حتى يوافقه عليه غيره . والله أعلم . ووجه آخر — وهو أن [حديث] خِشْف بن مالك لا نعلم أحدا رواه عن زيد بن جبير عنه إلا الحجاج بن أرْطاة ، والحجاج رجل مشهور بالتدليس وبأنه يحدّث عمن لم يَلْقه ولم يسمع منه ؛ وترك الرواية عنه سفيانُ بن عُيينة ويحيى بن سعيد

(١) الزيادة عن الدارقطنى .

القطان وعيسى بن يونس بعـد أن جالسوه وخبروه ، وكفاك بهم علما بالرجال ونُبْلا . وقال يحيي بن مَعين : حجاج بن أرطاة لا يُحتجّ بحديثه . وقال عبد الله بن إدريس : سمعت الحجاج يقول لا يَنْبُل الرجل حتى يدع الصلاة في الجماعة . وقال عيسى بن يونس : سمعت الحجاج يقول : أخرج إلى الصلاة يزاحمني الحمّالون والبقالون . وقال جرير : سمعت الحجاج يقول : أهلكني حبّ المـال والشّرف» . وذكر (١) أوجها أخر ؛ منها أن جماعة من الثقات رَوَوْا هـذا الحديث عن الحجاج بن أرطاة فاختلفوا عليه فيه . إلى غير ذلك مما يطول ذكره ؛ وفيما ذكرناه ممـا ذكروه كفايةٌ ودِلالة على ضعف ما ذهب إليه الكوفيون في الدِّية ، وإن كان ابن المنذر مع جلالته قد اختاره على ما يأتي . وروى حمـاد بن سلمة حدّثنـا سليمان التيمي عن أبي مِجْلَز عن أبي عبيدة أن ابن مسعود قال : دِيَة الخطأ خمسة أخماس عشرون حقّة، وعشرون جذعة وعشرون بنات مخاض، وعشرون بنات لبون وعشرون بني لَبُون ذكور . قال الدارقطني : هذا إسناد حسن ورواته ثقات، وقد رُوي عن علقمة عن عبد الله نحو هذا .

قلت : وهـذا هو مذهب مالك والشافعي أن الدية مُخَمّسة . قال الخطّابي : روى عن نفر من العلماء أنهم قالوا دية الخطأ أرباع ؛ وهم الشَّعْبِي والنَّخَعِي والحسن البصري ، وإليه ذهب إسحاق بن رَاهْوَيه ؛ إلا أنهـم قالوا : خمس وعشرون جذعة وخمس وعشرون حِقـة وخمس وعشرون بنات لبون وخمس وعشرون بنـات مخاض . وقد روى ذلك عن علي بن أبي طالب . قال أبو عمر : أما قول مالك والشافعي فروى عن سليمان بن يَسار وليس فيه عن صحابي شيء ، ولكن عليه عمل أهل المدينة . وكذلك حكى ابن جريج عن ابن شهاب .

قلت : قد ذكرنا عن ابن مسعود ما يوافق ما صار إليه مالك والشافعي . قال أبو عمر : وأسنان الإبل في الديات لم تؤخذ قياسا ولا نظرا ، وإنمـا أُخذت اتباعا وتسليما ، وما أخذ من جهة الأثر فـلا مدخل فيـه للنظر ؛ فكلٌّ يقول بمـا قد صحّ عنـده من سلفه ؛ رضي الله عنهـم .

---

(١) أي الدارقطني .

قلت : وأما ماحكاه الخطّابيّ من أنه لا يعلم من قال بحديث عمرو بن شعيب فقد حكاه ابن المنذر عن طاوس ومجاهد، إلا أن مجاهدا جعل مكان بنت مخاض ثلاثين جذعة. قال ابن المنـذر : وبالقول الأول أقول . يريد قول عبد الله وأصحاب الرأى الذى وضعه الدّارَقُطْنِي والخطّابيّ . وابن عبد البر قال : لأنه الأقل مما قيل ؛ وبحديث مرفوع رويناه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم يوافق هذا القول .

قلت — وعجبا لابن المنذر؟ مع نقـده واجتهاده كيف قال بحديث لم يوافقه أهل النقد على صحته! لكن الذهول والنسيان قد يعترى الإنسان، وإنمـا الكمال لعزة ذى الجلال .

السادســة — ثبتت الأخبار عن النبيّ المختار محمد صـلى الله عليه وسـلم أنه قضى بدية الخطأ على العاقلة ، وأجمع أهل العلم على القول به . وفى إجماع أهل العلم أن الدية فى الخطأ على العاقلة دليلٌ على أن المراد من قول النبيّ صلى الله عليه وسـلم لأبى رِمثة حيث دخل عليه ومعه ابنه : "إنه لا يجنى عليك ولا تجنى عليه" العمد دون الخطأ . وأجمعوا على أن مازاد على ثلث الدية على العاقلة. واختلفوا فى الثلث ؛ والذى عليه جمهور العلماء أن العاقلة لاتحمل عمدا ولا اعترافا ولا صلحا ، ولا تحمل من دية الخطأ إلا ما جاوز الثلث ، وما دون الثلث فى مال الجانى . وقالت طائفة : عَقْل الخطأ على عاقلة الجانى، قلّت الجناية أو كثرت؛ لأن من غَرِم الأكثر غَرِم الأقلّ . كما عقل العمد فى مال الجانى قلّ أو كثر؛ هذا قول الشافعيّ .

السابعــة — وحكمها أن تكون مُنجَّمة على العاقلة، والعاقلة العَصَبة. وليس ولد المرأة إذا كان من غير عصبتها من العاقلة ، ولا الإخوة من الأم بعصبة لأخوتهم من الأب والأم، فلا يعقلون عنهم شـيئا . وكذلك الديوان لا يكون عاقلة فى قول جمهور أهـل الحجاز . وقال الكوفيون : يكون عاقلة إن كان من أهل الديوان ؛ فتُنَجَّم الدية على العاقلة فى ثلاثة أعوام على ماقضاه عمر وعليّ؛ لأن الإبل قد تكون حواملَ فتضرّ به . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعطيها دفعة واحدة لأغراض ؛ منها أنه كان يعطيها صلحا وتسديدا . ومنها أنه كان يعجّلها تأليفا . فلما تمهّد الإسلام قدّرتها الصحابة على هذا النظام؛ قاله ابن العربيّ . وقال أبو عمر:

أجمع العلماء قديما وحديثا أن الدّية على العاقلة لا تكون إلا فى ثلاث سنين ولا تكون فى أقلّ منها . وأجمعوا على أنها على البالغين من الرجال . وأجمع أهل السِّيَر والعلم أن الدّية كانت فى الجاهلية تحملها العاقلة فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام ، وكانوا يتعاقلون بالنصرة ؛ ثم جاء الإسلام فجرى الأمر على ذلك حتى جعل عمر الديوان . واتفق الفقهاء على رواية ذلك والقول به . وأجمعوا أنه لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زمن أبى بكر ديوان ، وأن عمر جعل الديوان وجمع بين الناس ، وجعل أهل كل ناحية يدا وجعل عليهم قتالَ مَن يَلِيهم من العدوّ .

الثامنة — قلت : ومما ينخرط فى سلك هذا الباب ويدخل فى نظامه قَتْلُ الجَنِين فى بطن أمه ؛ وهو أن يُضرب بطن أمه فتُلقيه حيا ثم يموت ؛ فقال كافة العلماء : فيه الدية كاملةً فى الخطأ وفى العَمْد بعد القَسامة . وقيل : بغير قسامة . وآختلفوا فيما به تُعلم حياتُه بعد اتفاقهم على أنه اذا آستَهَلّ صارخا أو آرتضع أو تنفّس نفَسًا مُحقَّقة حَيٌّ ، فيه الدّية كاملة ؛ فإن تحرّك قال الشافعىّ وأبو حنيفة : الحركة تدلّ على حياته . وقال مالك : لا ، إلّا أن يقارنها طول إقامة . والذكر والأنثى عند كافة العلماء فى الحُكْم سواء . فإن ألقته مَيّتًا ففيه غُرّة (١) : عبدٌ أو وَلِيدةٌ . فان لم تُلقه وماتت وهو فى جوفها لم يخرج فلا شىء فيه . وهذا كله إجماع لا خلاف فيه . ورُوى عن اللّيث بن سعد وداود أنهما قالا فى المرأة إذا ماتت من ضرب بطنها ثم خرج الجنين ميتا بعد موتها ففيه الغرة ، وسواء رمته قبل موتها أو بعد موتها ؛ المعتبر حياة أمه فى وقت ضربها لا غير . وقال سائر الفقهاء : لا شىء فيه إذا خرج ميتا من بطنها بعد موتها . قال الطحاوىّ محتجا لجماعة الفقهاء بأن قال : قد أجمعوا والليث معهم على أنه لو ضُرب بطنها وهى حية فماتت والجنين فى بطنها ولم يسقط أنه لا شىء فيه ؛ فكذلك إذا سقط بعد موتها .

التاسعة — ولا تكون الغُرة إلا بيضاء . قال عمرو بن العلاء فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فى الجَنِين غُرّةٌ عبدٌ أو أمَةٌ " — لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد

(١) الغرة : العبد نفسه أو الأمة ؛ وسيأتى الكلام فيها فى المسئلة التاسعة .

بالغُرّة معنًى لقال : فى الجنين عبد أو أمة، ولكنه عنى البياض؛ فلا يقبــل فى الدّية إلا غلام أبيض أو جارية بيضاء، لا يقبل فيها أسود ولا سوداء . وٱختلف العلماء فى قيمتها ؛ فقال مالك : تقوّم بخمسين دينـارا أو ستمائة درهم ؛ نصف عُشْر دِيَة الحر المسلم ، وعُشر دية أُمّه الحرة ؛ وهو قول ابن شهاب وربيعة وسائر أهل المدينــة . وقال أصحاب الرأى : قيمتهــا خمسمائة درهم . وقال الشافعىّ : سِنّ الغُرّة سبع سنين أو ثمــان سنين؛ وليس عليه أن يقبلها مَعيبة. ومقتضى مذهب مالك أنه مخيّر بين إعطاء غُرّة أو عُشر دية الأم، من الذهب عشرون دينارا إن كانوا أهل ذهب، ومن الورِق — إن كانوا أهل ورِق — ستمائة درهم، أو خمس فرائض(١) من الإبل . قال مالك وأصحابه : هى فى مال الجانى؛ وهو قول الحسن بن حَىّ . وقال أبو حنيفة والشافعىّ وأصحابهما : هى على العاقلة . وهو أصح ؛ لحديث المُغيرة بن شعبة أن امرأتين كانتا تحت رجلين من الأنصار — فى رواية فتغايرتا — فضربت إحداهما الأخرى بعمود فقتلتها ، فاختصم إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم الرجلان فقالا(٢) : نَدِى من لا صاح ولا أكل ، ولا شرب [ولا ٱستهل ، فمثــل ذلك يطل(٣) !] ؛ فقال : " أَسَجْعٌ كسَجْع(٤) الأعراب " . فقضى فيه غُرّةً وجعلها على عاقلة المرأة . وهو حديث ثابت صحيح ، نصٌّ فى موضع الخلاف يوجب الحكم . ولما كانت دِيَةُ المرأة المضروبة على العاقلة كان الجَنين كذلك فى القياس والنظر . واحتج علماؤنا بقول الذى قُضى عليه : كيف أغرم ؟ قالوا : وهــذا يدلّ على أن الذى قُضى عليه معيّن وهو الجانى . ولو أن دية الجنين قضى بها على العاقلة لقال : فقال الذى قضى عليهم . وفى القياس أن كلّ جانٍ جنايتُه عليه ، إلا ما قام بخلافه الدليــلُ الذى لا معارِض له ؛ مثلُ إجماعٍ لا يجوز خلافه، أو نصّ سنةٍ من جهة نقل الآحاد العدول لا معارِض لها، فيجب الحكم بها ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

---

(١) الفرائض : جمع فريضة ؛ وهو البعير المأخوذ فى الزكاة، سمى فريضة لأنه فرض واجب على رب المــال ، اتسع فيه حتى سمى البعير فريضة فى غير الزكاة . (٢) فى سنن أبى داود : « فقال أحد الرجلين » .

(٣) زيادة عن كتب الحديث لا يستقيم الكلام بدونها . ويطل : يهدردمه .

(٤) قال الخطابى : لم يعبه بمجرد السجع بل بما تضمنه سجعه من الباطل .

العاشـرة — ولا خلاف بين العلماء أنّ الجنين إذا خرج حَيًّا فيه الكفارة مع الدِّية . واختلفوا فى الكفارة إذا خرج ميتا ؛ فقال مالك : فيه الغُرّة والكفارة . وقال أبو حنيفة والشافعيّ : فيه الغُرّة ولا كفارة . واختلفوا فى ميراث الغرّة عن الجنين ؛ فقال مالك والشافعيّ وأصحابهما : الغُرّة فى الجنين موروثةٌ عن الجنين على كتاب الله تعالى ؛ لأنها دية . وقال أبو حنيفة وأصحابه : الغُرّة للأمّ وحدها ؛ لأنها جناية جنى عليها بقطع عضو من أعضائها وليست بدية . ومن الدليل على ذلك أنه لم يُعتبر فيــه الذكر والأنثى كما يلزم فى الديات ، فدلّ على أن ذلك كالعضو . وكان ابن هُرْمُز يقول : دِيتُه لأبويه خاصّةً ؛ لأبيه ثلثاها ولأمّه ثلثها ، من كان منهما حَيًّا كان ذلك له ، فإن كان أحدهما قـد مات كانت للباقى منهما أبا كان أو أما ، ولا يرث الإخوة شيئا .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ أصله « أن يتصدقوا » فأدغمت التاء فى الصاد . والتصدق الإعطاء ؛ يعنى إلا أن يبرئَ الأولياءُ ورثةُ المقتول [القاتلين] ممـا أوجب الله لهم من الدية عليهم . فهذا استثناء ليس من الأول . وقرأ أبو عبد الرحمن ونُبَيح « إلا أن تَصَدّقوا » بتخفيف الصاد والتاء . وكذلك قرأ أبو عمرو ، إلا أنه شدّد الصاد . ويجوز على هذه القراءة حذف التـاء الثانية ، ولا يجوز حذفها على قراءة اليـاء . وفى حرف أُبَىّ وابن مسعود « إلا أن يتصـدقوا » . وأما الكفارة التى هى لله تعـالى فلا تسقط بإبرائهم ؛ لأنه أتلف شخصا فى عبادة الله سبحانه ، فعليه أن يخلّص آخَرَ لعبادة ربّه ، وإنمـا تسقط الدّية التى هى حقّ لهم . وتجب الكفارة فى مال الجـانى ولا تُتَحَمَّل .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ هـذه مسألة المؤمن يُقتل فى بلاد الكفار أو فى حروبهم على أنه من الكفار . والمعنى عنـد ابن عبـاس وقَتادةَ والسُّدّى وعكرمةَ ومجاهد والنَّخَعِىّ : فإن كان هـذا المقتول رجلا مؤمنا قد آمن وبَقِىَ فى قومه وهم كفرة « عَدُو لكم » فلا دِيَة فيه ؛ وإنمـا كفارته تحرير الرّقبة . وهو المشهور من قول مالك ، وبه قال أبو حنيفة . وسـقطت الدّية لوجهين : أحدهما — أن أوليـاء

القتيل كفار فلا يصح أن تدفع إليهم فيتقووا بهـا . والثانى — أن حرمة هذا الذى آمن ولم يُهاجر قليلةٌ ؛ فلا دية لقوله تعـالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا » . وقالت طائفة : بل الوجه فى سقوط الدية أن الأولياء كفار فقط ؛ فسواء كان القتل خطأ بين أظهر المسلمين أو بين قومه ولم يهاجر أو هاجر ثم رجع إلى قومه كفارته التحرير ولا دية فيه ، إذ لا يصح دفعها إلى الكفار، ولو وجبت الدية لوجبت لبيت المـال على بيت المـال ؛ فلا تجب الدية فى هـذا الموضع وإن جَرَى القتل فى بلاد الإسلام . هذا قول الشافعىّ وبه قال الأوزاعِىّ والثَّـوْرِىّ وأبو ثَوْر . وعلى القول الأوّل إن قتِـل المؤمن فى بلاد المسلمين وقومه حرب ففيه الدية لبيت المـال والكفارة .

قلت : ومن هذا الباب ما جاء فى صحيح مسلم عن أسامة قال : بعثَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيَّة فصبَّحْنا الحُرُقاتِ[1] من جُهَينة فأدركت رجلا فقال: لا إله إلا الله؛ فطعنته فوقع فى نفسى من ذلك ، فذكرته للنبىّ صلى الله عليه وسـلم فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "أقال لا إله إلا الله وقتلته" ! قال: قلت يارسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح؛ قال : " أفلا شَققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا " . فلم يحكم عليه صـلى الله عليه وسـلم بقصاص ولا دية. وروى عن أسامة أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لى بعد ثلاث مرات ، وقال: " أعتق رقبة " ولم يحكم بقصاص ولا دية. فقال علماءنا : أما سقوط القصاص فواضح إذ لم يكن القتل عدوانا ؛ وأما سقوط الدية فلأوجهٍ ثلاثة: الأول — لأنه كان أذِن له فى أصـل القتـال فكان عنـه إتلاف نفس محترمة غَلَطًا كالخاتن والطبيب . الثـانى — لكونه من العدوّ ولم يكن له ولىٌّ من المسلمين يكون له ديته ؛ لقوله تعـالى « فَإِنْ كَانَ من قَوْمٍ عَدُوٍّ لكم » كما ذكرنا . الثالث — أن أسامة اعترف بالقتل ولم تقم بذلك بينة ولا تعقل العاقلة اعترافا، ولعل أسامة لم يكن له مال تكون فيه الدية . والله أعلم .

---

(١) الحرقات (بضم الحاء وفتح الراء وضمها) : موضع ببلاد جهينة .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ هذا في الذمّي والمعاهَد يقتل خطأ فتجب الدية والكفارة ؛ قاله ابن عباس والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ والشافعيّ. واختاره الطبريّ قال : إلا أن الله سبحانه وتعالى أبهمه ولم يقل وهو مؤمن، كما قال في القتيل من المؤمنين ومن أهل الحرب . وإطلاقه ما قيّد قبلُ يدلّ على أنه خلافه . وقال الحسن وجابر بن زيد وإبراهيم أيضا : المعنى وإن كان المقتول خطأ مؤمنا من قوم معاهدين لكم فعهدهم يوجب أنهم أحقّ بدية صاحبهم، فكفارته التحرير وأداء الدية. وقرأها الحسن: « وإن كان مِن قوم بينكم وبينهم ميثاق وهو مؤمن » . قال الحسن : إذا قتل المسلم الذميّ فلا كفارة عليه . قال أبو عمر : وأما الآية فمعناها عند أهل الحجاز مردود على قوله « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » ثم قال تعالى : « وإن كان مِن قوم » يريد ذلك المؤمن . والله أعلم . قال ابن العربيّ : والذى عندى أن الجملة محمولةٌ حملَ المطلق على المقيَّد .

قلت : وهذا معنى ما قاله الحسن وحكاه أبو عمر عن أهل الحجاز . وقوله : ﴿ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ ﴾ على لفظ النكرة ليس يقتضى ديةً بعينها . وقيل : هذا في مشركى العرب الذين كان بينهم وبين النبيّ عليه السلام عهد على أن يُسلموا أو يؤذَنوا بحرب إلى أجل معلوم، فمن قُتل منهم وجبت فيه الدّية والكفارة ثم نسخ بقوله تعالى: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

الرابعة عشرة — وأجمع العلماء على أن دية المرأة على النصف من ديّة الرجل؛ قال أبو عمر : إنما صارت ديتها — والله أعلم — على النصف من دية الرّجل من أجل أن لها نصفَ ميراث الرجل ، وشهادة امرأتين بشهادة رجل . وهذا إنما هو في دية الخطأ ، وأما العمد ففيه القصاص بين الرجال والنساء لقوله عز وجل : « النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » . و « الحُرُّ بِالحُرّ » كما تقدّم في « البقرة »[1] .

(١) راجع المسألة الخامسة وما بعدها جـ ٢ ص ٢٤٦ طبعة ثانية .

الخامسة عشرة — روى الدَّارَقُطْنِيّ من حديث موسى بن عليّ بن رَبَاح اللَّخْمِيّ قال : سمعت أبي يقول إن أعمى كان يُنشد [في الموسم](١) في خلافة عمر رضي الله عنه وهو يقول :

أيُّهـا النـاسُ لقيت منكـرا * هل يَعْقِل الأعمى الصحيحَ المبصرا

* خَرّا معًـا كلاهمـا تكسّرا *

وذلك أن الأعمى كان يقوده بصير فوقعا في بئر، فوقع الأعمى على البصير فمات البصير؛ فقضى عمر بعقل البصير على الأعمى. وقد ٱختلَف العلماء في الرجل يسقط على آخر فيموت أحدهما؛ فرُوِي عن ٱبن الزّبير: يضمن الأعلى الأسفل، ولا يضمن الأسفلُ الأعلى. وهذا قول شُرَيح والنَّخَعِيّ وأحمد وإسحاق . وقال مالك في رجلين جَرّ أحدهمـا صاحبَه حتى سقطا وماتا : على عاقلة الذي جَبَذَه الدّية . قال أبو عمر : ما أَظُنّ في هذا خِلافا — والله أعلم — إلا ما قال بعض المتأخّرين من أصحابنا وأصحاب الشافعيّ يضمن نصف الدّية ؛ لأنه مات من فعله، ومن سقوط السّاقط عليه . وقال الحَكَم وٱبن شُبْرُمة : إن سـقط رجل على رجل من فوق بيت فمات أحدهمـا، قالا : يضمن الحيّ منهما . وقال الشافعيّ في رجلين يصدم أحدهما الآخر فماتا، قال : دية المصدوم على عاقلة الصادم ، ودية الصادم هدْر . وقال في الفارِسَيْن إذا اصطدما فماتا : على كل واحد منهما نصفُ دية صاحبه؛ لأن كل واحد منهما مات مِن فعل نفسه وفعل صاحبه ؛ وقاله عثمان البَتِّي وزُفَر . وقال مالك والأوزاعيّ والحسن بن حَيّ وأبو حنيفة وأصحابه في الفارسَيْن يصطدمان فيموتان : على كل واحد منهما دية الآخر على عاقلته . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : وكذلك عندنا السفينتان تصطدمان إذا لم يكن النُّوتِيّ صرف السفينة ولا الفارس صرف الفرس. وروى عن مالك في السفينتين والفارِسَيْن على كل واحد منهما الضمان لقيمة ما أتلف لصاحبه كاملا .

السادسة عشرة — واختلف العلماء من هذا الباب في تفصيل دية أهل الكتاب؛ فقال مالك وأصحابه : هي على النصف من دية المسلم ، ودية المجوسي ثمانمائة درهم ، ودية نسائهم

(١) الزيادة عن الدارقطني .

على النصف من ذلك . رُوى هذا القول عن عمر بن عبد العزيز وعروة بن الزبير وعمرو بن شعيب وقال به أحمد بن حنبل . وهـذا المعنى قد روى فيه سليمان بن بلال عن عبد الرحمن ابن الحارث بن عَيّاش بن أبي ربيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل دية اليهوديّ والنصرانِيّ على النصف من دية المسلم . وعبد الرحمن هـذا قد روى عنه الثَّوْرِيّ أيضا . وقال ابن عباس والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ : المقتول من أهل العهد خطأ لا تُبالى مؤمنا كان أو كافرا على عهد قومه فيـه الدية كدية المسـلم ؛ وهو قول أبي حنيفة والثَّـوْرِيّ وعثمان البَتِّيّ والحسن بن حَيّ ؛ جعلوا الديات كلَّها سـواء ؛ المسـلم واليهوديّ والنصرانيّ والمجوسيّ والمعاهـد والذميّ ، وهو قول عطاء والزهري وسـعيد بن المُسَيّب . وحجتهم قوله تعالى : « فَدِيَةٌ » وذلك يقتضى الدّية كاملة كدية المسلم . وعَضَدُوا هذا بمـا رواه محمـد بن إسحاق عن داود بن الحُصَين عن عِكرمة عن ابن عبـاس في قصة بني قُرَيظة والنَّضِير أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم جعل ديتهم سـواء دية كاملة . قال أبو عمر : هذا حديث فيه لين وليس في مثله حجة . وقال الشافعيّ : دية اليهوديّ والنصراني ثلثُ دية المسلم ، ودية المجوسي ثمـانمائة درهم ؛ وحجتهم أن ذلك أقل ممـا قيل في ذلك ، والذمة بريئة إلا بيقين أو حجة . وروى هذا القول عن عمر وعثمان ، وبه قال ابن المُسَيّب وعطاء والحسن وعِكرمة وعمرو بن دينـار وأبو ثَوْر وإسحاق .

السابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِـدْ ﴾ أى الرقبة ولا اتسع ماله لشرائهـا . ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ أى فعليه صيام شهرين . ﴿ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ حتى لو أفطر يوما آستأنف ؛ هذا قول الجمهور . وقال مَكِّيّ عن الشَّعْبِي : ان صيام الشهرين يجزئ عن الدية والعتق لمن لم يجد . قال ابن عطية : وهـذا القول وَهَم ؛ لأن الدية إنمـا هي على العاقلة وليست على القـاتل . والطبريّ حكى هذا القول عن مسروق .

الثامنة عشرة — والحَيْض لا يمنع التتابع من غير خلاف ، وأنهـا إذا طهرت ولم تؤخر وصلت باقي صيامها بمـا سلف منه ؛ لا شيء عليها غير ذلك إلا أن تكون طاهرا قبل الفجر

فتترك صيام ذلك اليوم عالمة بطهرها ، فإن فعلت استأنفت عند جماعة العلماء ؛ قاله أبو عمر .
واختلفـوا فى المريض الذى قد صام من شهرى التتابع بعضهما على قولين ؛ فقـال مالك : وليس لأحد وجب عليه صيام شهرين متتـابعين فى كتاب الله تعـالى أن يُفطر إلا من عذر أو مرض أو حيض، وليس له أن يسافر فيُفطر . وممن قال يَبْنِى فى المرض سعيد بن المُسَيِّب وسليمان بن يَسار والحسن والشّعْبىّ وعطاء ومجاهد وقتادة وطاوس . وقال سعيد بن جُبير والنَّخَعِىّ والحكم بن عيينة وعطاء الخراسانى : يستأنف فى المرض ؛ وهو قول أبى حنيفة وأصحابه والحسن بن حَىّ ؛ وأحد قولى الشـافعى ؛ وله قول آخر : أنه يبنى كما قال مالك . وقال ابن شُبْرُمة : يقضى ذلك اليوم وحده إن كان عذر غالب كصوم رمضان . قال أبو عمر : حجة من قال يبنى لأنه معـذور فى قطع التتـابع لمرضه ولم يتعمّد ، وقد تجاوز الله عن غير المتعمد . وحجّة من قال يسـتأنف لأن التتابع فرض لا يسـقط لعذر ، وإنمـا يسقط المأثم قياسا على الصلاة ؛ لأنها ركعات متتابعات فإذا قطعها عذر استأنف ولم يَبْنِ .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر ، ومعناه رجوعا . وإنمـا مسّت حاجة المخطئ إلى التوبة لأنه لم يتحرّز وكان من حقه أن يتحفّظ . وقيل : أى فليأت بالصيام تخفيفا من الله تعالى عليه بقبول الصوم بدلا عن الرّقَبة ؛ ومنه قوله تعـالى : « عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ » اى خفف ، وقوله تعالى : « عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ » .

الموفيـة عشرين — ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ أى فى أزله وأبده . ﴿ عَلِيمًا ﴾ بجميع المعلومات . ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما حكم وأبرم .

قوله تعـالى : وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ ﴾ « من » شرط ، وجوابه « فَجَزَاؤُهُ » وسيأتي . واختلف العلماء في صفة المتعمِّد في القتل ؛ فقال عطاء والنَّخَعِيّ وغيرهما : هو من قُتل بحديدة كالسيف والخنجر وسنان الرمح ونحو ذلك من المشحوذ [المُعَدّ للقطع](١) أو بما يُعلم أن فيه الموتَ من ثقال الحجارة ونحوها . وقالت فرقة : المتعمّد كل مَن قتل بحديدة كان القتل أو بحجر أو بعصا أو بغير ذلك ؛ وهذا قول الجمهور .

الثانية — ذكر الله عز وجل في كتابه العمد والخطأ ولم يذكر شِبْهَ العمد وقد اختلف العلماء في القول به ؛ فقال ابن المنذر : أنكر ذلك مالك ، وقال : ليس في كتاب الله إلا العمد والخطأ . وذكره الخَطّابِيّ أيضا عن مالك وزاد : وأما شبه العمد فلا نعرفه . قال أبو عمر : أنكر مالك والليث بن سعد شبه العمد ؛ فمن قُتل عندهما بما لا يَقتل مثلُه غالبا كالعَضَّة واللّطْمة وضربة السوط والقَضِيب وشبه ذلك فإنه عَمْد وفيه القَوَد . قال أبو عمر : وقال بقولهما جماعة من الصحابة والتابعين . وذهب جمهور فقهاء الأمصار إلى أن هذا كلّه شبهُ العمد . وقد ذُكر عن مالك وقاله ابن وهب وجماعة من الصحابة والتابعين . قال ابن المنذر : وشبه العمد يُعمل به عندنا . وممن أثبت شِبْهَ العَمْد الشّعْبِيُّ والحَكَم وحماد والنَّخَعِيّ وقَتادةُ وسفيان الثَّوْرِيّ وأهلُ العراق والشافعيّ ، وروينا ذلك عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما .

قلت : وهو الصحيح ؛ فإن الدماء أحقُّ ما احتِيط لها إذ الأصل صيانتها في أُهُبِها(٢) ، فلا تُستباح إلا بأمر بيّن لا إشكال فيه ، وهذا فيه إشكال ؛ لأنه لمّا كان متردّدا بين العَمْد والخطأ حكم له بشبه العمد ؛ فالضرب مقصود والقتل غير مقصود ، وإنما وقع بغير القصد فيسقط القَوَد وتُغلّظ الدية . وبمثل هذا جاءت السنة ؛ روى أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألَا إن دِيَةَ الخطأ شبهِ العمد ما كان بالسوط والعصا مائةٌ من الإبل منها أربعون في بطونها أولادُها " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس قال قال رسول

(١) زيادة عن ابن عطية .	(٢) الأهب (بضمتين جمع الإهاب) : الجلد .

الله صلى الله عليه وسلم : " العَمْد قَوَد اليد والخطأ عقل لاقود فيه ومن قُتل فى عِمِّيَّة (١) بحجر أو عصا أو سوط فهو دية مغلّظة فى أسنان الإبل " . وروى أيضا من حديث سليمان بن موسى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عقل شبه العمد مغلّظ مثلُ قتل العمد ولا يقتل صاحبه " . وهذا نصّ . وقال طاوس فى الرجل يصاب فى الرِّمِّيَّا (٢) فى القتال بالعصا أو السوط أو الترامى بالحجارة : يُودَى ولا يقتل به من أجل أنه لا يُدْرَى مَن قاتله . وقال أحمد بن حنبل: العِمِّيّا هو الأمرُ الأعمى للعَصَبِيَّة لاتستبين ماوجهُه . وقال إسحاق: هذا فى تحارب القوم وقتلِ بعضهم بعضا . فكأن أصله من التّعمية وهو التلبيس ؛ ذكره الدّارَقُطْنِيّ .

مسألة — واختلف القائلون بشبه العمد فى الدية المغلّظة، فقال عطاء والشافعيّ: هى ثلاثون حِقّة (٣) وثلاثون جَذَعة وأربعون خَلِفة . وقد رُوى هذا القول عن عمر و زيد بن ثابت والمغيرةَ بنِ شعبة وأبى موسى الأشعرى ؛ وهو مذهب مالك حيث يقول بشبه العمد ، ومشهور مذهبه أنه لم يقل به إلا فى مثل قصة المُدْلِجى بابنه حيث ضربه بالسيف . وقيل : هى مُرَبَّعة : ربع بنات لبون ، وربع حِقاق ، وربع جِذاع ، وربع بنات مخاض . هذا قول النعمان ويعقوب ؛ وذكره أبو داود عن سفيان عن أبى إسحاق عن عاصم بن ضَمْرة عن علىّ . وقيل : هى مُخَمَّسة : عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لَبُون وعشرون ابن لبون وعشرون حِقة وعشرون جذعة ؛ هذا قول أبى ثَوْر . وقيل : أربعون جذعة إلى بازل عامها ، وثلاثون حِقة ،

---

(١) العمية (بكسر العين والميم وتشديد الياء) أى فى حال يعمى أمره ولا يتبين قاتله ولا حال قتله .

(٢) الرميا : بكسر وتشديد وقصر ، بوزن الهجيرى من الرمى ، مصدر يراد به المبالغة .

(٣) قال أبو داود فى صحيحه : « قال أبو عبيد وغير واحد : إذا دخلت الناقة فى السنة الرابعة فهو حِق والأنثى حِقة ، لأنه يستحق أن يحمل عليه و يركب ؛ فاذا دخل فى الخامسة فهو جذع وجذعة ، فاذا دخل فى السادسة وألق ثنيته فهو ثنى ؛ فاذا دخل فى السابعة فهو رباع ورباعية ؛ فاذا دخل فى الثامنة وألق السن الذى بعد الرباعية فهو سديس وسدس ؛ فاذا دخل فى التاسعة فطر نابه وطلع فهو بازل ؛ فاذا دخل فى العاشرة فهو مخلف ؛ ثم ليس له اسم ولكن يقال بازل عام و بازل عامين ، ومخلف عام ومخلف عامين إلى ما زاد . وقال النضر بن شميل : ابنة مخاض لسنة وابنة لبون لسنتين ، وحقة لثلاث وجذعة لأربع والثنيّ لخمس ورباع لست وسديس لسبع و بازل لثمان .

وثلاثون بنات لبون . ورُوى عن عثمان بن عفان وبه قال الحسن البصرى وطاوس والزُّهرِى . وقيل : أربع وثلاثون خَلِفة إلى بازل عامها ، وثلاث وثلاثون حِقّة ، وثلاث وثلاثون جذعة ؛ وبه قال الشافعى والنَّخعِى ، وذكره أبو داود عن أبى الأحوص عن أبى إسحاق عن عاصم بن ضَمْرة عن علىّ .

الثالثة — واختلفوا فيمن تلزمه دية شبه العمد ؛ فقال الحارث العُكْلِى وابن أبى لَيْلَى وابن شُبْرُمة وقَتادةُ وأبو ثَوْر : هو عليه فى ماله . وقال الشَّعْبِى والنَّخَعِى والحَكَم والشافعى والثَّوْرى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى : هو على العاقلة . قال ابن المنذر : قولُ الشَّعبِى أصح ؛ لحديث أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم جعل دية الجنين على عاقلة الضاربة .

الرابعة — أجمع العلماء على أن العاقلة لا تحمل دِيَة العمد وأنها فى مال الجانى ؛ وقد تقدّم ذكرها فى «البقرة»(١) . وقد أجمعوا على أن على القاتل خطأً الكفارةُ ؛ واختلفوا فيها فى قتل العمد ؛ فكان مالك والشافعى يريان على قاتل العمد الكفارةَ كما فى الخطأ . قال الشافعى : إذا وجبت الكفارة فى الخطأ فلأن تجب فى العمد أوْلى . وقال : إذا شُرِع السجود فى السهو فلأن يُشرع فى العمد أوْلى ، وليس ما ذكره الله تعالى فى كفارة العمد بمُسقط ماقد وجب فى الخطأ . وقد قيل : إن القاتل عمدا إنما تجب عليه الكفارة إذا عُفِى عنه فلم يقتل ، فأما إذا قُتِل قَوَدًا فلا كفارة عليه تُؤخذ من ماله . وقيل تجب . ومن قَتَل نفسه فعليه الكفارة فى ماله . وقال الثَّورِى وأبو ثَوْر وأصحاب الرأى : لاتجب الكفارة إلا حيث أوجبها الله تعالى . قال ابن المُنْذِر : وكذلك نقول ؛ لأن الكفارات عبادات ولا يجوز التمثيل . وليس يجوز لأحد أن يفرض فرضا يَلزمه عباد الله إلا بكتاب أو سنة أو إجماع ، وليس مع مَن فَرض على القاتل عمدًا كفارةً حجةٌ من حيث ذُكرت .

الخامسة — واختلفوا فى الجماعة يقتلون الرجل خطأً ؛ فقالت طائفة : على كل واحد منهم الكفارة ؛ كذلك قال الحسن وعِكرمة والنَّخعِى والحارث العُكْلِى ومالك والثورى والشافعى

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥٢ طبعة ثانية .

وأحمـد و إسحاق وأبو ثور وأصحـاب الرأى . وقالت طائفة : عليهم كلهم كفارة واحدة ؛ هكذا قال أبو ثور، وحكى ذلك عن الأوزاعىّ . وفرّق الزهرىّ بين العتق والصوم؛ فقال فى الجماعة يَرمون بالمَنْجَنيق فيقتلون رجلا : عليهم كلهم عتق رقبة، و إن كانوا لا يجدون فعلى كل واحد منهم صوم شهرين متتابعين .

السادســة — رَوى النّسائىّ : أخبرنا الحسن بن إسحاق المَرْوَزىّ ثِقةٌ قال حدّثنى خالد ابن خِداش قال حدّثنا حاتم بن إسماعيل عن بشير بن المهاجر عن عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قتل المؤمن أعظمُ عنـد الله من زوال الدنيا " . و روى عن عبد الله قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : " أوّل ما يحاسَب به العبد الصلاةُ وأوّل ما يُقْضَى بين الناس فى الدماء " . و روى إسماعيل بن إسحاق عن نافع بن جبير ابن مُطعِم عن عبد الله بن عباس أنه سأله سائل فقال : يا أبا العباس، هل للقاتل تو بة؟ فقال له ابن عباس كالمتعجّب من مسألته : ماذا تقول! مرتين أو ثلاثا . ثم قال ابن عباس : ويحك! وأنّى له تو بة! سمعت نبيّكم صلى الله عليه وسلم يقول : " يأتى المقتول معلّقا رأسَه بإحدى يديه مُتَلَبِّباً قاتلَه بيده الأخرى تشخب أوداجه دمًا حتى يُوقفا فيقول المقتول لله سبحانه وتعالى ربّ هـذا قتلنى فيقول الله تعالى للقاتل تَعِسْت ويُذهب به إلى النار " . وعن الحسن قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " ما نازلْتُ ربِّى فى شىء ما نازلته فى قتـل المؤمن فلم يجبنى " .

السابعــة — واختلف العلماء فى قاتل العمد هل له من تو بة ؛ فروى البُخارىّ عن سعيد ابن جُبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال : نزلت هذه الآية « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ » هى آخر ما نزل وما نسخها شىء . و روى النَّسائى عنه قال : سألت ابن عباس هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة؟ قال لا . وقرأت عليه الآيةَ التى فى الفرقان : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلَٰهًا آخَرَ » قال : هذه آية مكية نسختها آية مدنية « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِ » . و روى

عن زيد بن ثابت نحوه، وأن آية النساء نزلت بعد آية الفرقان بستة أشهر، وفى رواية بثمانية أشهر؛ ذكرهما النسائي عن زيد بن ثابت . وإلى عموم هذه الآية مع هذه الأخبار عن زيد وابن عباس ذهبت المعتزلة وقالوا : هذا مخصّص عموم قوله تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ورأوا أن الوعيد نافذ حتما على كل قاتل؛ فجمعوا بين الآيتين بأن قالوا : التقدير ويغفر مادون ذلك لمن يشاء إلا من قتل عمدا . وذهب جماعة من العلماء منهم عبد الله بن عمر — وهو أيضا مروى عن زيد وابن عباس — إلى أن له توبة . روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا أبو مالك الأشجعي عن سعيد بن عبيدة قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال ألمن قتل مؤمنا متعمدا توبة ؟ قال لا ، إلا النار؛ قال : فلما ذهب قال له جلساؤه : أهكذا كنت تفتينا؟ كنت تفتينا أنّ لمن قتل توبةً مقبولة؛ قال : إنى لأحسبه رجلا مُغْضَباً يريد أن يقتل مؤمنا . قال : فبعثوا فى إثره فوجدوه كذلك . وهذا مذهب أهل السنة وهو الصحيح ، وأن هذه الآية مخصوصة ، ودليل التخصيص آيات وأخبار . وقد أجمعوا على أن الآية نزلت فى مِقْيَس ابن صُبابة[1] ؛ وذلك أنه كان قد أسلم هو وأخوه هشام بن صبابة ؛ فوجد هشاما قتيلا فى بنى النجار فأخبر بذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم، فكتب له إليهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه وأرسل معه رجلا من بنى فهر؛ فقال بنو النجار : والله لا نعلم له قاتلا ولكنا نؤدّى الدّية ؛ فأعطَوْه مائة من الإبل ؛ ثم انصرفا راجعَيْن إلى المدينة فعدَا مِقيس على الفهرى فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة كافرا مُرْتَدًّا ؛ وجعل ينشد :

قتلتُ به فِهْرًا وحمّلتُ عقلَه * سُراةَ بنى النجار أربابَ فارِعِ[2]
حَلَلْتُ به وِتْرى وأدركت ثورتى * وكنت إلى الأوثان أوّلَ راجعِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أؤمّنه فى حل ولا حَرَم ". وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلّق بالكعبة . وإذا ثبت هذا بنقل أهل التفسير وعلماء الدّين فلا ينبغى أن يحمل على المسلمين، ثم ليس الأخذ بظاهر الآية بأوْلى من الأخذ بظاهر قوله : « إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ

(١) كذا ورد فى بعض المصادر بالصاد المهملة . وفى بعضها بالضاد المعجمة (٢) فارع : حصن بالمدينة .

السّيئات» وقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » وقوله : «وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» . والأخذ بالظاهرين مناقض فلا بد من التخصيص . ثم إن الجمع بين آية «الفرقان» وهــذه الآية ممكن فلا نسخ ولا تعارض ، وذلك أن يحمــل مطلق آية « النساء » على مُقَيَّد آية «الفرقان» فيكون معناه : فجزاؤه كذا إلا من تاب؛ لاسيما وقد ٱتحد الموجِب وهو القتل والموجَب وهو التواعد بالعقاب . وأما الأخبار فكثيرة كحديث عُبادة بن الصامت الذى قال فيه : "تُبايعونى على ألّا تشركوا بالله شيئا ولا تَزْنُوا ولا تقتلوا النفسَ التى حرّم الله إلا بالحق فمن أصاب شيئا من ذلك فهو كفارة ومن أصاب شـيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه". رواه الأئمة أخرجه الصحيحان . وكحديث أبى هريرة عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فى الذى قتـل مائة نفس . أخرجه مسلم فى صحيحه وابن ماجه فى سننه وغيرهما إلى غير ذلك من الأخبار الثابتة . ثم إنهم قد أجمعوا معنا فى الرجل يُشهد عليه بالقتل، ويُقِرّ بأنه قتل عمدا ، ويأتى السلطانَ الأوليـاءُ فيقام عليه الحدّ ويُقتل قَوَدًا ، فهذا غير متّبَع فى الآخرة ، والوعيد غير نافذ عليه إجماعا على مقتضى حديث عُبادة ؛ فقد انكسر عليهم ما تعلّقوا به من عموم قوله تعالى : « ومن يقتل مُؤمِناً متعمِّدًا فجزاؤه جهنم » ودخله التخصيص بمـا ذكرنا ، وإذا كان كذلك فالوجه أن هذه الآية مخصوصة كما بينّا ، أو تكون محمولة على ماحُكى عن ابن عبـاس أنه قال : متعمّدا مستحلا لقتله ؛ فهذا أيضـا يئول إلى الكفر إجماعا . وقالت جماعة : إن القاتل فى المشيئة تاب أو لم يتب ؛ قاله أبو حنيفة وأصحابه . فإن قيل : إن قوله تعالى : « فجزاؤه جهنمُ خالدا فيها وغضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ » دليل على كفره ؛ لأن الله تعـالى لايغضب إلا على كافر خارج من الإيمـان . قلنا : هــذا وعيد ، والخلف فى الوعيد كرم ؛ كما قال :

وإنّى متى أوعدته أو وعــدته ✽ لَمُخْلِف إيعادى ومُنْجِزُ مَوْعِدِى

وقد تقدّم . جواب ثان ــ إن جازاه بذلك ؛ أى هو أهل لذلك ومستحقه لعظيم ذنبه . نصّ على هذا أبو مِجْلَز لاحِق بن حُميد وأبو صالح وغيرهما . وروى أنس بن مالك عن رسـول الله

صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا وَعد الله لعبد ثوابا فهو مُنْجزه وإن أوعد له العقوبة فله المشيئة إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه". وفي هذين التأويلين دَخَل؛ أما الأول — فقال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن كلام الرب لا يقبل الخُلْف إلا أن يراد بهذا تخصيص العام؛ فهو إذًا جائز في الكلام. وأما الثاني — وإن رُوِي أنه مرفوع فقال النحاس: وهذا الوجه الغلط فيه بيّن، وقد قال الله عز وجل: « ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا » ولم يقل أحد: إن جازاهم؛ وهو خطأ في العربية لأن بعده « وغضب الله عليه » وهو محمول على معنى جازاه. وجواب ثالث — فجزاؤه جهنم إن لم يتب وأصرّ على الذنب حتى وافَى ربَّه على الكفر بشؤم المعاصي. وذكر هبة الله في كتاب « الناسخ والمنسوخ » أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: « وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »، وقال: هذا إجماع الناس إلا ابن عباس وابن عمر فإنهما قالا هي مُحْكَمة. وفي هذا الذي قاله نظر؛ لأنه موضع عموم وتخصيص لا موضع نسخ؛ قاله ابن عطية.

قلت: هذا حسن؛ لأن النسخ لا يدخل الأخبار إنما المعنى فهو يجزيه. وقال النحاس في « معاني القرآن » له: القول فيه عند العلماء أهلِ النظر أنه مُحْكَم وأنه يجازيه إذا لم يتب، فإن تاب فقد بيّن أمره بقوله: « وإني لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » فهذا لا يخرج عنه، والخلود لا يقتضي الدوام، قال الله تعالى: « وما جعلنا لِبشرٍ من قَبْلِك الخُلْدَ » الآية. وقال تعالى: « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ». وقال زهير:

* ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا (١) *

وهذا كله يدل على أن الخُلْد يطلق على غير معنى التأبيد؛ فإن هذا يزول بزوال الدنيا. وكذلك العرب تقول: لأخلدنّ فلانا في السجن، والسجن ينقطع ويفنى، وكذلك المسجون. ومثله قولهم في الدعاء: خلّد الله ملكه وأبّد أيامه (٢). وقد تقدم هذا كله لفظا ومعنًى. والحمد لله.

(١) هذا عجز بيت. وصدره: * ألا لا أرى على الحوادث باقيا *

(٢) راجع ج ١ ص ٢٤١ طبعة ثانية أو ثالثة.

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٩٤)

فيـــه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ هذا متصل بذكر القتل والجهاد . والضرب : السّير فى الأرض؛ تقول العرب : ضربت فى الأرض إذا سرتَ لتجارة أو غزْوٍ أو غيره؛ مقترنة بفى . وتقول : ضربت الأرض، دون «فى» إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لايخرج الرجلان يضربان الغائط يتحدّثان كاشـفَين عن فرْجَيهما فإن الله يمقت على ذلك" . وهـذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين مرُّوا فى سفر برجل معه جمل وغُنَيمة يبيعها فسلّم على القوم وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فحمل عليـه أحدهم فقتله . فلما ذكر ذلك للنبيّ صـلى الله عليه وسـلم شقّ عليه ونزلت الآية . وأخرجه البخاريّ عن عطاء عن ابن عبـاس، قال قال ابن عباس : كان رجل فى غُنَيمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم؛ فقتلوه وأخذوا غنيمته؛ فأنزل الله فى ذلك إلى قوله : « عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » تلك الغُنَيمة . قال قرأ ابن عباس « السلام » . فى غير البخارى : وحمل رسول الله صلى الله عليه وسـلم ديته إلى أهله وردّ عليه غُنيماته . وٱختُلف فى تعيين القاتل والمقتول فى هذه النازلة؛ فالذى عليه الأكثر وهو فى سِيَر ابن إسحاق ومصنَّف أبى داود والٱستيعاب لٱبن عبـد البر أن القاتل محلم بن جَثّامة ، والمقتول عامر بن الأضـبط فدعا عليــه السلام على محلم فمـا عاش بعد ذلك إلا سبعا ثم دفن فلم تقبله الأرض ثم دفن فلم تقبله ثم دفن ثالثة فلم تقبله؛ فلما رأوا أن الأرض لاتقبله ألقوْه فى بعض تلك الشّعاب؛ وقال عليه السلام : "إن الأرض لتقبل من هو شرّ منه" . قال الحسن : أمَا إنها تحبس من هو

شر منه ولكن وعظ القوم ألّا يعودوا . وفى سنن ابن ماجه عن عمران بن حُصين قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين إلى المشركين فقاتلوهم قتالا شديدا ، فمنحوهم أكتافهم فحمل رجل من لُحْمَتِي على رجل من المشركين بالرمح فلما غَشِيه قال : أشهد أن لا إله إلّا الله ، إنى مسلم ؛ فطعنه فقتله ؛ فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، هلكتُ ! قال : "وما الذى صنعت"؟ مرة أو مرتين ، فأخبره بالذى صنع ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فهلّا شققتَ عن بطنه فعلِمتَ ما فى قلبه"؟ فقال : يارسول الله ، لو شققتُ بطنه أكنت أعلم ما فى قلبه؟ قال : "لا فلا أنت قبِلت ماتكلّم به ولا أنت تعلم ما فى قلبه". قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يلبث الا يسيرا حتى مات فدفناه ، فأصبح على وجه الأرض ؛ فقلنا : لعل عدواً نبشه ، فدفناه ثم أمرنا غلماننا يحرسونه فأصبح على ظهر الأرض ؛ فقلنا : لعل الغلمان نعَسوا ، فدفناه ثم حرسناه بأنفسنا فأصبح على ظهر الأرض ، فألقيناه فى بعض تلك الشعاب . وقيل : إن القاتل أسامةُ بن زيد والمقتول مِرداس بن نَهِيك الغطَفانى ثم الفَزَارِىّ من بنى مُرّة من أهل فَدَك . وقاله ابن القاسم عن مالك . وقيل : كان مرداس هذا قد أسلم من الليلة وأخبر بذلك أهله ؛ ولما عظّم النبىُّ صلى الله عليه وسلم الأمرَ على أسامة حلف عند ذلك ألا يقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله . وقد تقدم القول فيه . وقيل : القاتل أبو قتادة . وقيل : أبو الدرداء . ولا خلاف أن الذى لفَظته الأرض حين مات هو مُحَلِّم الذى ذكرناه . ولعل هذه الأحوال جرت فى زمان متقارب فنزلت الآية فى الجميع . وقد رُوى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ردّ على أهل المسلم الغنم والجمل وحمل ديته على طريق الائتلاف . والله أعلم . وذكر الثّعلبىّ أن أمير تلك السّرِيّة رجل يقال له غالب بن فضالة الليثى . وقيل : المقداد ؛ حكاه السُّهيلىّ .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أى تأمّلوا . «وتبينوا» قراءة الجماعة وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ وقالا : من أمر بالتبيّن فقد أمر بالتثبّت ؛ يقال : تبيّنت الأمرَ وتبيّن الأمرُ بنفسه ؛ فهو متعدٍّ ولازمٌ . وقرأ حمزة «فتثبّتوا» من التثبت بالثاء مثلثة وبعدها باء بواحدة .

« وتبينوا » فى هذا أوكد؛ لأن الإنسان قد يتثبت ولا يتبين . وفى « إذا » معنى الشرط، فلذلك دخلت الفاء فى قوله « فتبينوا » . وقد يجازى بهـا كما قال :

* وإذا تُصبك خَصاصة فتجمّل (١) *

والجيّد ألا يُجازى بها كما قال الشاعر :

والنفس راغبـــة إذا رغّبتهـا * وإذا تُـرَدّ إلى قليـــل تقنَــعُ

والتبيّن التثبت فى القتل واجب حضرا وسفرا لاخلاف فيـه ، وإنما خصّ السفر بالذكر لأن الحادثة التى فيها نزلت الآيةُ وقعت فى السفر .

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ السِّلْم والسَّلَم والسـلام واحد؛ قاله البخارِىّ . وقرئ بهـا كلّها . واختـار أبو عبيد القـاسمُ بن سـلّام « السلام » . وخالفه أهل النظر فقالوا : « السّلَم » ههنا أشبه لأنه بمعنى الانقياد والتسلم ؛ كما قال جل وعز : « فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ » فالسّلَمَ الاستسلام والانقياد . اى لاتقولوا لمن ألقى بيده واستسلم لكم وأظهر دعوته لستَ مُؤْمِناً . وقيل : السلام قوله السلام عليكم، وهو راجع إلى الأول؛ لأن سلامه بتحية الإسلام مؤذن بطاعته وانقياده، ويحتمل أن يراد به الانحياز والترك . قال الأخفش : يقال [فلان] سلام إذا كان لايخالط أحدا . والسِّلْم (بشد السين وكسرها وسكون اللام) الصفح .

الرابعـــة — وروى عن أبى جعفر انه قرأ « لَسْتَ مُؤْمَنًا » بفتح الميم الثانية، من آمنته إذا أجرْته فهو مؤمَن .

الخامســـة — والمسلم إذا لقِىَ الكافرَ ولا عهد له جاز له قتله ؛ فإن قال : لا إلٰه إلا الله لم يجز قتله ؛ لأنه قد آعتصم بعصام الإسلام المـانع من دمه وماله وأهله ؛ فإن قتله بعد ذلك قُتل به . وإنمـا سقط القتل عن هؤلاء لأجل أنهم كانوا فى صدر الإسلام وتأولوا أنه قالها متعوِّذا وخوفا من السلاح، وأن العاصم قولُها مطمئنا، فأخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه عاصم

---

(١) هذا عجز بيت وصدره : * واستغن ما أغناك ربك بالغنى *

كيفما قالها؛ ولذلك قال لأسامة : " أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا " أخرجه مسلم . أى تنظر أصادق هو فى قوله أم كاذب ؛وذلك لا يمكن ،فلم يبق إلا أن يبيّن عنه لسانه . وفى هذا من الفقه باب عظيم ،وهو أن الأحكام تناط بالمظانّ والظواهر لا على القطع واطلاع السرائر.

السادســة — فإن قال : سلام عليكم فلا ينبغى أن يُقتل أيضا حتى يعلم ماوراءَ هذا ؛ لأنه موضع إشكال . وقد قال مالك فى الكافر يوجد فيقول جئت مُستأمَنا أطلب الأمان : هذه أمور مشكلة ، وأرى أن يُردّ إلى مأمنه ولا يُحكم له بحكم الإسلام ؛ لأن الكفر قد ثبت له فلا بد أن يظهر منــه مايدل على قوله ، ولا يكفى أن يقول أنا مسلم ولا أنا مؤمن ولا أن يصلّيَ حتى يتكلم بالكلمة العاصمة التى علّق النبيّ صـلى الله عليه وسلم الحكمَ بها عليه فى قوله : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " .

السابعــة — فإن صلى أو فعل فعلا من خصائص الإســلام فقد اختلف فيه علماؤنا ؛ فقال ابن العربيّ : نرى أنه لا يكون بذلك مسلما ، أمّا أنه يقال له : ماوراء هــذه الصلاة؟ فإن قال : صــلاة مسلم ، قيل له : قل لا إله إلا الله ؛ فإن قالها تبيّن صدقه ، و إن أبَى علِمنا أن ذلك تلاعب ، وكانت عند من يرى إســلامه رِدّة ؛ والصحيح أنه كُفْرٌ أصليّ ليس بردّة. وكذلك هذا الذى قال : سلام عليكم ، تكلّف(1) الكلمة ؛ فإن قالها تحقق رشاده ، و إن أبَى تبيّن عناده وقُتل . وهــذا معنى قوله « فتبيّنوا » أى الأمر المشكل ، أو تثبتوا ولا تعجلوا ؛ المعنيان سواء . فإن قتله أحد فقد أتى منهياً عنه . فإن قيل : فتغليظ النبيّ صلى الله عليه وسـلم على مُحَلِّم ، ونبذه من قبره كيف مخرجه ؟ قلنا : لأنه علم من نيته أنه لم يبال بإسلامه فقتله متعمدا لأجل الحِنَة التى كانت بينهما فى الجاهلية .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى تبتغون أخذ ماله . ويسمّى متاع الدنيا عَرَضاً لأنه عارض زائل غير ثابت . قال أبو عبيدة : يقال جميع متاع الدنيا عَرَض بفتح الراء ؛ ومنه : " الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرّ والفاجر" . والعَرْض (بسكون الراء)

(1) تكلف الشيء : تجشمه على مشقة وعلى خلاف عادته .

ما سوى الدنانير والدراهم؛ فكل عَرْض عَرَض، وليس كل عَرَض عَرْضا . وفى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض إنما الغِنَى غِنَى النفس " . وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى فنظمه :

تقنّع بما يكفيك وٱستعملِ الرضا * فإنك لاتــدرى أتُصبح أم تُمسِى

فليس الغنى عن كثرة المـال إنما * يكون الغنى والفقر من قِبَل النفس

وهذا يصحّح قول أبى عبيدة : فإن المـال يشمل كل ما يُتموّل . وفى كتاب العَيْن : العَرَض ما نِيل من الدنيا؛ ومنه قوله تعالى : «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا» وجمعه عروض . وفى المجمل لابن فارس : والعَرَض ما يعترض للإنسان من مرض . وعَرَض الدنيا ما كان فيها من مال قلّ أو كثر . والعَرْض من الأثاث ما كان غير نقد . وأعرض الشيءُ إذا ظهر وأمكن . والعَرْض خلاف الطول .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ فَعِنْدَ اللّٰهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ عِدَة من الله تعالى بما يأتى به على وجهه ومن حِلّه دون ٱرتكاب محظور، أى فلا تتهافتوا . ﴿ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى كذلك كنتم تخفون إيمانكم عن قومكم خوفا منكم على أنفسكم حتى منّ الله عليــكم بإعزاز الدِّين وغَلَبة المشركين، وهم الآن كذلك كل واحد منهــم فى قومه متربّص أن يصل إليــكم، فلا يصلح إذ وصل اليكم أن تقتلوه حتى تتبيّنوا أمره . وقال ابن زيد : المعنى كذلك كنتم كفرة ﴿ فَمَنَّ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن أسلمتم فلا تنكروا أن يكون هو كذلك ثم يُسْلِم لحينه حين لَقِيكم فيجب أن تتثبّتوا فى أمره .

العــاشرة — استدلّ بهذه الآية من قال : إن الإيمان هو القول؛ لقوله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا » . قالوا : ولمـا مُنع أن يقال لمن قال لا إله إلا الله لست مؤمنا مُنع من قتلهم بمجرد القول . ولولا الإيمان الذى هو هذا القول لم يُعَب قتلهم . قلنا : إنما شكّ القوم فى حالة أن يكون هذا القول منه تعوّذا فقتلوه ، والله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " وليس فى ذلك أن الإيمــان هو الإقرار فقط؛ ألا ترى أن المنافقين كانوا يقولون هــذا القول

وليسوا بمؤمنين حسب ما تقدّم بيانه فى «البقرة»(١) وقد كشف البيان فى هذا قوله عليه السلام : " أفلا شققت عن قلبه " . فثبت أن الإيمان هو الإقرار وغيره، وأن حقيقته التصديق بالقلب ولكن ليس للعبد طريق إليه إلا ما سمع منه فقط . واستدل بهذا أيضا من قال : إن الزنديق تقبل توبته إذا أظهر الإسلام ؛ قال : لأن الله تعالى لم يفرق بين الزنديق وغيره متى أظهر الإسلام . وقد مضى القول فى هذا فى أول البقرة(٢) . وفيها ردّ على القدرية، فإن الله أخبر أنه مَنّ على المؤمنين من بين جميع الخلق بأن خصّهم بالتوفيق ، والقدرية تقول خلقهم كلهم للإيمان ؛ ولو كان كما زعموا لما كان لاختصاص المؤمنين بالمنّة من بين الخلق معنًى .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أعاد الأمر بالتبيين للتأكيد . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ تحذير عن مخالفة أمر الله ؛ أى احفظوا أنفسكم وجنّبوها الزلل المُوبِق لكم .

قوله تعالى : لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : لا يستوى القاعدون عن بَدْر والخارجون إليها . ثم قال : ﴿ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ ﴾ والضَّرَرُ الزمانة . روى الأئمة واللفظ لأبى داود عن زيد بن ثابت قال : كنت إلى جَنْب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيته السَّكينة فوقعتْ فخذُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى ، فما وجدت ثِقَل شىء

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سُرِّى عنه فقال: "اُكتب" فكتبت في كَتِف[1] «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» إلى آخر الآية؛ فقام ابن أمِّ مكتوم — وكان رجلا أعمى — لما سمع فضيلة المجاهدين فقال: يارسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم السكينةُ فوقعتْ فخذه على فخذى، ووجدت من ثقلها في المرّة الثانية كما وجدت في المرة الأولى، ثم سُرِّىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "اقرأ يازيد" فقرأت «لايستوى القاعدون من المؤمنين» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ» الآيةَ كلها. قال زيد: فأنزلها الله وحدها فألحقتها؛ والذى نفسى بيده لكأنى انظر إلى مُلْحقها عند صَدْع في كتف.
وفي البخاري عن مِقْسم مولى عبد الله بن الحارث أنه سمع ابن عباس يقول: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين» عن بدر والخارجون إلى بدر. قال العلماء: أهل الضرر هم أهل الأعذار إذ قد أضرت بهم حتى منعتهم الجهاد. وصح وثبت في الخبر أنه عليه السلام قال وقد قَفَل من بعض غزواته: "إن بالمدينة رجالا ماقطعتم واديًا ولا سِرتم مسيرا إلا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر". فهذا يقتضى أن صاحب العذر يُعطَى أجر الغازى؛ فقيل: يحتمل أن يكون أجره مساويا، وفي فضل الله متّسَع، وثوابه فضل لا استحقاق؛ فيثيب على النية الصادقة مالا يثيب على الفعل. وقيل: يُعطى أجره من غير تضعيف فيفضله الغازى بالتضعيف للمباشرة. والله أعلم.

قلت: والقول الأول أصح — إن شاء الله — للحديث الصحيح في ذلك "إن بالمدينة رجالا" ولحديث أبي كبشة الأنمارى قوله عليه السلام "إنما الدنيا لأربعة نفر" الحديث، وقد تقدم في سورة «آل عمران». ومن هذا المعنى ما ورد في الخبر "إذا مَرِض العبد قال الله تعالى اُكتبوا لعبدى ما كان يعمله في الصحة إلى أن يبرأ أو أقبضه إلىّ".

---

(١) الكتف: عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم.

الثانيـــة — وقد تمسك بعض العلماء بهذه الآية بأن أهل الديوان أعظم أجرا من أهل التطوع؛ لأن أهل الديوان لما كانوا متملّكين بالعطاء، ويُصرَّفون في الشدائد، وتروّعهم البعوث والأوامر، كانوا أعظم من المتطوّع؛ لسكون جاشه ونَعْمة باله في الصوائف(١) الكبار ونحوها. قال ابن مُحيريز: أصحاب العطاء أفضل من المتطوعة لما يروَّعون. قال مكحول: روعات البعوث تَنفِي روعات القيامة.

الثالثـــة — وتعلّق بها أيضا من قال: إن الغِنى أفضل من الفقر؛ لذكر الله تعالى المال الذي يوصل به إلى صالح الأعمال. وقد اختلف الناس في هذه المسألة مع اتفاقهم أن ما أحوج من الفقر مكروه، وما أبطر من الغِنى مذموم؛ فذهب قوم إلى تفضيل الغنى لأن الغَنِيّ مقتدر والفقير عاجز، والقدرة أفضل من العجز. قال المَاوَرْدِيّ: وهذا مذهب من غلب عليه حبّ النباهة. وذهب آخرون إلى تفضيل الفقر، لأن الفقير تارك والغَنِيّ ملابس، وترك الدنيا أفضل من ملابستها. قال المَاوَرْدِيّ: وهذا مذهب من غَلَب عليه حب السلامة. وذهب آخرون إلى تفضيل التوسّط بين الأمرين بأن يخرج عن حدّ الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ليصل إلى فضيلة الأمرين، وليسلم من مذمة الحالين. قال المَاوَرْدِيّ: وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وأن خير الأمور أوسطها. ولقد أحسن الشاعر الحكيم حيث قال:

ألا عائذا بالله من عـدم الغنى * ومن رغبة يوما إلى غير مرغب

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ قراءة أهل الكوفة وأبو عمرو «غيرُ» بالرفع؛ قال الأخفش: هو نعت للقاعدين؛ لأنهم لم يُقصد بهم قوم بأعيانهم فصاروا كالنكرة فجاز وصفهم بغير؛ والمعنى لايستوى القاعدون غير أولى الضرر؛ أى لايستوى القاعدون الذين هم غير أولى الضرر. والمعنى لايستوى القاعدون الأصحاء؛ قاله الزجاج. وقرأ أبو حَيْوة «غيرِ» جعله نعتا للمؤمنين؛ أى من المؤمنين الذين هم غير أولى الضرر من المؤمنين الأصحاء.

(١) الصائفة: الغزوة في الصيف.

وقرأ أهل الحَرَمين « غيرَ » بالنصب على الاستثناء من القاعدين أو من المؤمنين؛ أى إلا أولى الضرر فإنهم يستوون مع المجاهدين . وإن شئت على الحال من القاعدين ؛ أى لايستوى القاعدون من الأصحاء أى فى حال صحتهم ؛ وجازت الحال منهم لأن لفظهم لفظ المعرفة ، وهو كما تقول : جاءنى زيد غير مريض . وما ذكرناه من سبب النزول يدلّ على معنى النصب، والله أعلم .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ وقد قال بعد هذا « درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمة » فقال قوم : التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات إنما هو مبالغة وبيان وتأكيد . وقيل : فضّل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واحدة ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير عذر درجات ؛ قاله ابن جُرَيج والسُّدِّى وغيرهما . وقيل : إن معنى درجة علو، أى أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح والتقريظ . فهذا معنى درجة، ودرجات يعنى فى الجنة . قال ابن مُحَيْرِيز : سبعين درجة بين كل درجتين حُضْرُ[1] الفرس الجَواد سبعين سنة . «ودرجات» بدل من أجر وتفسيرله، ويجوز نصبه أيضا على تقدير الظرف؛ أى فضّلهم بدرجات، ويجوز أن يكون توكيدا لقوله « أَجْرًا عَظِيمًا » لأن الأجر العظيم هو الدرجات والمغفرة والرحمة، ويجوز الرفع؛ أى ذلك درجات . و « أَجْرًا » نصب بفضّل ،وإن شئت كان مصدرا وهوأحسن، ولا ينتصب بفضّل؛ لأنه قد استوفى مفعوليه وهما قوله «المجاهدين» و «على القاعدين» ؛ وكذا «درجة». فالدرجات منازل بعضها أعلى من بعض . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " إن فى الجنة مائةَ درجةٍ أعدّها الله للمجاهدين فى سبيله بين الدرجتين كما بين السماء والأرض" . ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ « كلا » منصوب بوعد، و « الحسنى » الجنة ؛ أى وعد الله كُلًّا الحسنى . ثم قيل : المراد (بكل) المجاهدون خاصة . وقيل : المجاهدون وأولو الضرر . والله أعلم .

---

(١) الحضر (كقفل) : ارتفاع الفرس فى عدوه .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾

المراد بها جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا وأظهروا للنبيّ صلى الله عليه وسلم الإيمان به، فلما هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم أقاموا مع قومهم وفُتن منهم جماعة فآفتتنوا، فلما كان أمر بَدْر خرج منهم قوم مع الكفار؛ فنزلت الآية. وقيل: إنهم لما استحقروا عدد المسلمين دخلهم شك في دينهم فارتدّوا فقُتِلوا على الرِّدّة؛ فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرِهوا على الخروج فآستغفروا لهم؛ فنزلت الآية. والأوّل أصح. روى البخاريّ عن محمد ابن عبد الرحمن قال: قُطِع على أهل المدينة بَعْث[(١)] فاكْتُتِبتُ فيه فلَقِيت عِكْرِمةَ مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشدّ النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يُكَثِّرون سواد المشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي السهم فيُرْمَى به فيصيب أحدَهم فيقتله أو يُضرب فيُقتل؛ فأنزل الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ».

قوله تعالى: ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ يحتمل أن يكون فعلا ماضيا لم يستند بعلامة تأنيث، إذ تأنيث لفظ الملائكة غير حقيقي، ويحتمل أن يكون فعلا مستقبلا على معنى تتوفاهم؛ فحذفت إحدى التاءين. وحكى ابن فُورَك عن الحسن أن المعنى تحشرهم إلى النار. وقيل: تقبض أرواحهم؛ وهو أظهر. وقيل: المراد بالملائكة مَلَك الموت؛ لقوله تعالى: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ». ﴿وَظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ نصب على الحال؛ أي في حال ظلمهم

(١) أي ألزموا بإخراج جيش لقتال أهل الشام في خلافة عبد الله بن الزبير على مكة (عن شرح القسطلاني).

أنفسهم ، والمراد ظالمين أنفسهم لحذف النون استخفافا وأضاف ؛ كما قال تعالى : « هَدْيًا بَالِـغَ الْكَعْبَةِ » . وقول الملائكة : « فيم كنتم » سؤال تقريع وتوبيخ ، أى أكنتم فى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أم كنتم مشركين! وقول هؤلاء : « كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ » يعنى مكة ، اعتذار غير صحيح ؛ إذ كانوا يستطيعون الحيل ويهتدون السبيل ، ثم وقّفتهم الملائكة على دينهم بقولهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً » . ويفيد هذا السؤال والجواب أنهم ماتوا مسلمين ظالمين لأنفسهم فى تركهم الهجرة ، وإلا فلو ماتوا كافرين لم يقل لهم شيء من هذا ، وانما أضرب عن ذكرهم فى الصحابة لشدّة ما واقعوه ، ولعدم تعيّن أحدهم بالإيمان ، واحتمال ردّته . والله أعلم . ثم استثنى تعالى منهم من الضمير الذى هو الهاء والميم فى «مَأْوَاهُمْ» من كان مستضعَفًا حقيقة من زَمْنى الرجال وضَعفة النساء والوِلدان ؛ كعيّاش بن أبى ربيعة وسلمة ابن هشام وغيرهم الذين دعالهم الرسول صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كنت أنا وأُمّى ممن عَنى اللهُ بهذه الآية ؛ وذلك أنه كان من الوِلدان إذ ذاك ، وأمّه هى أم الفضل بنت الحارث واسمها لُبابة ، وهى أخت ميمونة ، وأختها الأخرى لبابة الصغرى ، هن تسع أخوات . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهن : "الأخوات مؤمنات"(1) . ومنهنّ سلمى والعصماء وحفيدة ويقال فى حفيدة أم حفيد ، واسمها هزيلة . وهنّ ست شقائق وثلاث لأم ؛ وهنّ سلمى ، وسلامة ، وأسماء بنت عُميس الخَثْعَمِيّة امرأة جعفر بن أبى طالب ، ثم امرأة أبى بكر الصدّيق ، ثم امرأة علىّ رضى الله عنهم أجمعين .

قوله تعالى : ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ سؤال توبيخ ، وقد تقدم . والأصل «فيما» ثم حذفت الألف فرقًا بين الاستفهام والخبر ، والوقف عليها فِيمه ؛ لئلا تحذف الألف والحركة . والمراد بقوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً ﴾ المدينــة ؛ أى ألم تكونوا متمكنين قادرين على الهجرة والتباعد ممن كان يستضعفهم ! وفى هذه الآية دليل على هِجران الأرض التى يُعمل فيهــا بالمعاصى . وقال سعيد بن جُبير : إذا عُمِل بالمعاصى فى أرض فاخرج منهــا ؛ وتلا « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ

(1) فى تهذيب التهذيب حرف اللام : (الأخوات الأربع مؤمنات) .

واسعةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من فَرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا آستوجب الجنة وكان رفيقَ إبراهيم ومحمدٍ عليهما السلام" .
﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مثواهم النار . وكانت الهجرة واجبةً على كل من أسلم. ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ نصب على التفسير . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ الحيلة لفظ عام لأنواع أسباب التخلص . والسبيل سبيل المدينة ؛ فيما ذكر مجاهد والسُّدِّيّ وغيرهما ، والصواب أنه عام في جميـع السُّبُل . وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ هذا الذى لا حيلة له في الهجرة لا ذنب له حتى يُعْفَى عنـه ؛ ولكن المعنى أنه قد يُتَوَهَّم أنه يجب تحمّل غاية المشقة في الهجرة ، حتى أن من لم يتحمل تلك المشقة يعاقَب فأزال الله ذلك الوهم ؛ إذ لا يجب تحمل غايةِ المشقـة ، بل كان يجوز ترك الهجرة عنـد فقد الزاد والراحلة . فمعنى الآية : فأولئك لا يُستقصى عليهم في المحاسـبة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ والمـاضي والمستقبل في حقه تعالى واحد ، وقد تقدّم .

قوله تعـالى : وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ ﴾ شرطٌ وجوابه . ﴿ فِي الأرض مُرَاغَمًا ﴾ اُختلِف في تأويل المراغَم ؛ فقال مجاهد : المُراغَم المتزحزَح . وقال ابن عباس والضحاك والربيع وغيرهم : المراغم المتحوَّل والمَذْهب . وقال ابن زيد : المراغَم المهاجَر ؛ وقاله أبو عبيدة . قال النحاس : فهذه الأقوال متفقة المعاني . فالمراغَم المَذْهب والمتحَوَّل في حال هجرة ، وهو اسم الموضع الذى يُراغَم فيـه ، وهو مشتق من الرَّغام . ورَغِم أنف فلان أي لصق بالتراب . وراغمت فلانا هجرته وعاديته ، ولم أبال إن رَغِم أنفه . وقيل : إنمـا سمى مهاجرا ومراغما

لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه وهجرهم فسُمِّى خروجه مراغما ، وسُمِّى مصيره إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم هجرة . وقال السُّدِّىّ : المراغَم المبتغى للعيشة . وقال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : المراغَم الذهاب فى الأرض . وهذا كله تفسير بالمعنى ، وكله قريب بعضه من بعض ؛ فأما الخاص باللفظة فإن المراغَم موضع المراغمة كما ذكرنا ، وهو أن يرغِم كل واحد من المتنازعين أنفَ صاحبه بأن يغلبه على مراده ؛ فكأنّ كفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة ، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أنوف قريش لحصوله فى مَنعة منهم ، فتلك المنعة هى موضع المراغمة . ومنه قول النابغة :

كطَوْدٍ يُـلاذ بأركانِـه * عزيزِ المُـراغَمِ والمَهْـرَبِ

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَسَعَةً ﴾ أى فى الرزق ؛ قاله ابن عباس والربيع والضحاك . وقال قَتادة : المعنى سعة من الضلالة إلى الهدى ومن العَيْلة إلى الغِنى . وقال مالك : السعة سعة البلاد . وهذا أشبه بفصاحة العرب ؛ فإن بسعة الأرض وكثرة المعاقل تكون السعة فى الرزق ، واتساع الصدر لهمومه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرج . ونحو هذا المعنى قول الشاعر :

وكنتُ إذا خليلٌ رام قطْعِى * وجدتُ ورَاىَ منفسَحًا عَرِيضًا

آخـر :

لكان لى مُضْـطَربٌ واسِـعٌ * فى الأرض ذاتِ الطّولِ والعَرْضِ

الثالثـة — قال مالك . هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المُقام بأرض يُسَبّ فيها السلف ويُعمل فيها بغير الحق . وقال : والمراغم الذهاب فى الأرض ، والسعة سعة البلاد على ما تقدم . واستدلّ أيضا بعض العلماء بهذه الآية على أن للغازى إذا خرج إلى الغَزْوِ ثم مات قبل القتال له سهمه وإن لم يحضر الحرب ؛ رواه ابن لَهِيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أهل المدينة . ورُوِى ذلك عن ابن المبارك أيضا .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الآية . قال عِكرمة مَوْلى ابن عباس : طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته . وفى قول

عِكرمة هذا دليل على شرف هذا العلم قديما ، وأن الاعتناء به حَسَن والمعرفة به فضل؛ ونَحْوٌ منه قول ابن عباس : مكثت سنين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعني إلا مهابته . والذي ذكره عِكرمة هو ضَمْرة بن العِيص أو العِيص بن ضمرة بن زِنْباع؛ حكاه الطبريّ عن سعيد بن جُبير . ويقال فيه : ضميرة أيضا . ويقال : جُنْدَع بن ضَمْرة من بني ليث، وكان من المستضعَفين بمكة وكان مريضا، فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال : أخرجوني؛ فهُيِّئ له فراش ثم وُضع عليه وخُرج به فمات في الطريق بالتنعيم[1] ، فأنزل الله فيه « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مهاجِراً » الآية . وذكر أبو عمر أنه قد قِيل فيه : خالد بن حزام بن خويلد ٱبن أخي خديجة، وأنه هاجر إلى أرض الحبشة فنهشته حيّة في الطريق فمات قبل أن يبلغ أرض الحبشة ؛ فنزلت فيه الآية، والله أعلم . وحكى أبو الفرج الجَوْزيّ أنه حبيب بن ضمرة . وقيل : ضمرة بن جُنْدب الضمريّ ؛ عن السُّدّي . وحُكي عن عِكرمة أنه جندب بن ضمرة الجُنْدَعيّ . وحُكي عن ابن جابر أنه ضمرة بن بغيض الذي من بني ليث . وحكى المهدويّ أنه ضمرة بن ضمرة بن نُعيم . وقيل : ضمرة بن خزاعة ، والله أعلم . وروى معمر عن قَتادة قال : لما نزلت « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ » الآية ، قال رجل من المسلمين وهو مريض : والله ما لي من عذر ! إني لدليل في الطريق ، وإني لموسر، فاحملوني فحملوه فأدركه الموت في الطريق؛ فقال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : لو بلغ إلينا لتمّ أجره؛ وقد مات بالتنعيم . وجاء بنوه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبروه بالقصة ، فنزلت هذه الآية « ومن يخرج من بيته مهاجرا » الآية . وكان ٱسمه ضمرة بن جُنْدب ، ويقال : جندب ابن ضمرة على ما تقدم . ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا ﴾ لما كان منه من الشرك . ﴿ رَحِيمًا ﴾ حين قَبِل توبته .

الخامسة — قال ٱبن العربي : قسم العلماء رضي الله عنهم الذّهاب في الأرض قسمين : هَرَبًا وطلبا ؛ فالأول ينقسم إلى ستة أقسام : الأول — الهجرة وهي الخروج من

---

(١) التنعيم : موضع بمكة .

دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكانت فرضا فى أيام النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة ، والتى آنقطعت بالفتح هى القصد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حيث كان (١) ؛ فإن بقى فى دار الحرب عصى ، ويختلف فى حاله . الثانى — الخروج من أرض البدعة ؛ قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يُسَبّ فيها السلف . قال ابن العربى : وهذا صحيح ؛ فإن المنكر إذا لم تقدر أن تغيّره فزل عنه ، قال الله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » إلى قوله « الظَّالِمِين » . الثالث — الخروج من أرض غلب عليها الحرام ؛ فإنّ طلب الحلال فرض على كل مسلم . الرابع — الفرار من الأذية فى البدن ؛ وذلك فضلٌ من الله أرخص فيه ؛ فإذا خشى على نفسه فقد أذن اللهُ فى الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور . وأوّل من فعله إبراهيم عليه السلام ؛ فإنه لما خاف من قومه قال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي » ، وقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » . وقال مخبرا عن موسى : « فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » . الخامس — خوف المرض فى البلاد الوَخِمَة والخروج منها إلى الأرض النَّزِهة . وقد أذن صلى الله عليه وسلم للرّعاة حين آستوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المسرح فيكونوا فيه حتى يَصِحّوا » وقد آستُثنى من ذلك الخروج من الطاعون ؛ فمنع الله سبحانه منه بالحديث الصحيح عن نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدّم بيانه فى « البقرة » (٢) . بَيْدَ أن علماءنا قالوا : هو مكروه . السادس — الفرار خوف الأذية فى المال ؛ فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه ، والأهل مثله وأوكد . وأما قِسْم الطلب فينقسم قسمين : طلب دِين وطلب دُنيا ؛ فأما طلب الدِّين فيتعدّد بتعدّد أنواعه إلى تسعة أقسام : الأول — سفر العِبرة ؛ قال الله تعالى : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وهو كثير . ويقال : إن ذا القرنين إنما طاف [الأرض] (٣) ليرى عجائبها . وقيل : لينفذ الحق فيها . الثانى — سفر الحج . والأول وإن كان

(١) كذا فى الأصول . والذى فى ابن العربى : «حيث كان أسلم فى دار الحرب وجب عليه الخروج الى دار الاسلام» .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) الزيادة عن ابن العربى .

نَدْبا فهذا فرض . الثالث — سفر الجهاد وله أحكامه . الرابع — سفر المعاش؛ فقد يتعذر على الرجل معاشُه مع الإقامة فيخرج في طلبه لا يزيد عليه، من صيد أو احتطاب أو احتشاش؛ فهو فرض عليه . الخامس — سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى؛ قال الله تعالى: « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ » يعني التجارة، وهي نِعمة منّ الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت . السادس — في طلب العِلم وهو مشهور . السابع — قصد البِقاع؛ قال صلى الله عليه وسلم: "لا تُشَدّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد" . الثامن — الثُّغور للرباط بها وتكثير سوادها للذَّبّ عنها . التاسع — زيارة الإخوان في الله تعالى؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "زار رجل أخًا له في قريةٍ فأرصد الله له مَلَكا على مَدْرَجته(١) فقال أين تريد فقال أريد أخًا لي في هذه القرية قال هل لك من نعمةٍ تَرُبُّها(٢) عليه قال لا غير أني أحببته في الله عز وجل قال فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه". رواه مسلم وغيره .

قوله تعالى : وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم، وقد تقدّم . واختلف العلماء في حكم القصر في السفر؛ فرُوي عن جماعة أنه فرض . وهو قول عمر بن عبد العزيز والكوفيين والقاضي إسماعيل وحماد بن أبي سليمان؛ واحتجوا بحديث عائشة رضي الله عنها « فُرِضت الصلاة ركعتين ركعتين » الحديث، ولا حجة فيه لمخالفتها له؛ فإنها كانت تُتِمّ في السفر وذلك يُوهِنه . وإجماع فقهاء الأمصار على أنه ليس بأصل يعتبر في صلاة المسافر خلف المقيم؛ وقد قال غيرها من

(١) أرصده : أقعده يرقبه . والمدرجة (بفتح الميم والراء) : الطريق .
(٢) ربيت الأمر : أصلحته ومتنته .

الصحابة كعمر وابن عباس وجُبير بن مُطْعِم : « إن الصلاة فُرِضت في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة » رواه مسلم عن ابن عباس . ثم إن حديث عائشة قد رواه ابن عَجْلان عن صالح بن كَيْسان عن عُروة عن عائشة قالت : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة ركعتين ركعتين . وقال فيه الأوزاعيّ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت : فرض الله الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ركعتين ؛ الحديث ، وهذا اضطراب . ثم إن قولها : "فرضت الصلاة" ليس على ظاهره ؛ فقد خرج عنه صلاة المغرب والصبح ؛ فإن المغرب ما زِيد فيها ولا نقص منها ، وكذلك الصبح ، وهذا كله يضعّف متنه لا سنده . وحكى ابن الجَهْم أن أشهب روى عن مالك أن القصر فرض ، ومشهور مذهبه وجُلّ أصحابه وأكثر العلماء من السلف والخلف أن القصر سُنّة ، وهو قول الشافعيّ ، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه إن شاء الله . ومذهب عامة البغداديين من المالكيين أن الفرض التخيير ؛ وهو قول أصحاب الشافعيّ . ثم اختلفوا في أيّهما أفضل ؛ فقال بعضهم : القصر أفضل ؛ وهو قول الأَبْهَرِيّ وغيره . وقيل : إن الإتمام أفضل ؛ وحكى عن الشافعيّ . وحكى أبو سعيد الفَرْوِيّ المالكيّ أن الصحيح في مذهب مالك التخييرُ للمسافر في الإتمام والقصر .

قلت — وهو الذي يظهر من قوله سبحانه وتعالى : « فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ » إلا أن مالكا رحمه الله يستحبّ له القصر ، وكذلك يرى عليه الإعادة في الوقت إن أتم . وحكى أبو مُصْعَب في « مختصره » عن مالك وأهل المدينة قال : القصر في السفر للرجال والنساء سُنَّةٌ . قال أبو عمر : وحَسْبُك بهذا في مذهب مالك ، مع أنه لم يختلف قوله أنّ من أتم في السفر يعيد ما دام في الوقت ؛ وذلك استحباب عند من فَهِم ، لا إيجاب . وقال الشافعيّ : القصر في غير الخوف بالسُّنّة ، وأما في الخوف مع السفر فبالقرآن والسُّنّة ؛ ومن صلى أربعا فلا شيء عليه ، ولا أحبّ لأحد أن يتم في السفر رَغْبةً عن السنة . وقال أبو بكر الأثرم : قلت لأحمد بن حنبل للرجل أن يصلّي في السفر أربعا ، قال : لا ، ما يعجبني ، السنة ركعتان . وفي موطأ مالك عن ابن شِهاب عن رجل من آل خالد بن أَسِيد ، أنه سأل عبد الله بن عمر

فقال : ياأبا عبد الرحمن إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر فى القرآن ولا نجد صلاة السفر؟ فقال عبد الله بن عمر : ياابن أخى إن الله تبارك وتعالى بعث إلينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئا، فإنا نفعل كما رأيناه يفعل . ففى هذا الخبر قصرُ الصلاة فى السفر من غير خوف سُنّةٌ لا فريضة؛ لأنها لا ذِكر لها فى القرآن ، و إنما القصر المذكور فى القرآن إذا كان سفرا وخوفا واجتمعا ؛ فلم يُبح القصرَ فى كتابه إلا مع هذين الشرطين . ومثله فى القرآن « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ » الآية، وقد تقدّم . ثم قال تعالى : « فإِذَا ٱطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى فأتموها؛ وقصرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أربع إلى ٱثنتين إلا المغرب فى أسفاره كلها آمنا لا يخاف إلا الله تعالى؛ فكان ذلك سُنّةً مسنونةً منه صلى الله عليه وسلم، زيادة فى أحكام الله تعالى كسائر ما سَنّه و بيّنه، مما ليس له فى القرآن ذكر. وقوله « كما رأيناه يفعل» مع حديث عمر حيث سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصر فى السفر من غير خوف؛ فقال : " تلك صدقة تصدّق الله بها عليكم فٱقبلوا صدقته " يدلّ على أن الله تعالى قد يبيح الشيء فى كتابه بشرط ثم يبيح ذلك الشيءَ على لسان نبيّه من غير ذلك الشرط . وسأل حنظلةُ ٱبنَ عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان .

قلت : فأين قوله تعالى : « إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ونحن آمنون؟ قال : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فهذا ابن عمر قد أطلق عليها سُنّة ،وكذلك قال ابن عباس . فأين المذهب عنهما . قال أبو عمر : ولم يقم مالك إسناد هذا الحديث؛ لأنه لم يُسَمّ الرجل الذى سأل ابن عمر، وأسقط من الإسناد رجلا ، والرجل الذى لم يسمّه هو أُمَيّة بن عبد الله ابن خالد بن أَسِيد بن أبى العِيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، والله أعلم .

الثانيـــة ــ وٱختلف العلماء فى حدّ المسافة التى تقصر فيها الصلاة ؛ فقال داود : تقصر فى كل سفر طويل أو قصير، ولو كان ثلاثة أميال من حيث تؤتى الجمعة ؛ متمسكا بما رواه مسلم عن يحيى بن يزيد الهُنَائىّ قال : سألت أنس بن مالك عن قصر الصلاة فقال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرةَ ثلاثةِ أميالٍ أو ثلاثةِ فراسخ — شُعْبَةُ الشاكُّ(١) — صلّى ركعتين . وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه مشكوك فيه ، وعلى تقدير أحدهما فلعلّه حدّ المسافة التي بدأ منها القصر ، وكان سفرا طويلا زائدا على ذلك ، والله أعلم . قال ابن العربيّ : وقد تلاعب قوم بالدِّين فقالوا : إن من خرج من البلد إلى ظاهره قصر وأكل ، وقائل هذا أعجميٌّ لا يعرف السفر عند العرب أو مستخفٌّ بالدّين ، ولولا أن العلماء ذكروه لما رضيت أن ألمحه بمُؤْخرِ عيني ، ولا أفكر فيه بفضول قلبي . ولم يذكروا حدّ السفر الذي يقع به القصر لا في القرآن ولا في السنة ، وإنما كان كذلك لأنها كانت لفظة عربية مستَقِرٌّ علمُها عند العرب الذين خاطبهم الله تعالى بالقرآن؛ فنحن نعلم قطعا أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافرا لغة ولا شرعا، وأن مشى مسافرا ثلاثة أيام فإنه مسافر قطعا . كما أنا نحكم على أن من مشى يوما وليلة كان مسافرا؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يَحِل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرةَ يوم إلا مع ذي مَحْرَم منها". وهذا هو الصحيح؛ لأنه وسط بين الحالين وعليه عوّل مالك ، ولكنه لم يجد هذا الحديث متّفقًا عليه، ورُوي مرة يوما وليلة ومرة ثلاثة أيام ، فجاء إلى عبد الله بن عمر وعوّل على فعله؛ فإنه كان يقصر الصلاة إلى رِئْم(٢)، وهي أربعة بُرُد؛ لأن ابن عمر كان كثير الاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم . قال غيره : وكافة العلماء على أن القصر إنما شُرِع تخفيفا ، وإنما يكون في السفر الطويل الذي تلحق به المشقة غالبا ، فراعى مالك والشافعيّ وأصحابُهما واللّيث والأوْزاعِيّ وفقهاء أصحاب الحديث أحمد وإسحاق وغيرهما يوماً تاماً . وقول مالك يوما وليلة راجع إلى اليوم التام ؛ لأنه لم يُرِد بقوله مسيرة يوم وليلة أن يسير النهار كله والليل كله ، وإنما أراد أن يسير سيرا يبيت فيه [بعيدا] عن أهله ولا يمكنه الرجوع إليهم. وفي البخاري : وكان ابن عمر وابن عباس يُفطران ويَقصران في أربعة برد ، وهي ستة عشر فرسخا ؛ وهذا مذهب مالك . وقال الشافعيّ والطبريّ : ستة وأربعون مِيلا . وعن مالك في العتبية فيمن خرج الى ضَيعته على خمسة وأربعين مِيلا

(١) أحد رواة سند هذا الحديث .

(٢) رئم (بكسر أوله وهمز ثانيه وسكونه وقيل بالياء من غير همز) : واد بالمدينة .

قال يقصر؛ وهو أمر متقارب . وعن مالك فى الكتب المنشورة أنه يقصر فى ستة وثلاثين ميلا ، وهى تقرب من يوم وليلة . وقال يحيى بن عمر : يعيد أبدا . ابن عبد الحكم : فى الوقت . وقال الكوفيون : لا يقصر فى أقل من مسيرة ثلاثة أيام ؛ وهو قول عثمان وابن مسعود وحذيفة . وفى صحيح البخارىّ عن ابن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذى مَحْرَم " . قال أبو حنيفة : ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومَشْى الأقدام . وقال الحسن والزّهْرِى : تقصر الصلاة فى مسيرة يومين ؛ ورُوى هذا القول عن مالك، ورواه أبو سعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا تسافر المرأة مسيرة ليلتين إلا مع زوج أو ذى مَحْرَم " . وقَصَر ابن عمر فى ثلاثين ميلا ، وأنس فى خمسة عشر ميلا . وقال الأوزاعىّ : عامة العلماء فى القصر على اليوم التام ، وبه نأخذ . قال أبو عمر : اضطربت الآثار المرفوعة فى هذا الباب كما ترى فى ألفاظها ؛ ومَحْمَلُها عندى — والله أعلم — أنها خرجت على أجوبة السائلين ، فحدّث كل واحد بمعنى ماسمع ، كأنه قيل له صلى الله عليه وسلم فى وقت ما : هل تسافر المرأة مسيرةَ يوم بغير مَحْرَم ؟ فقال لا . وقيل له فى وقت آخر : هل تسافر المرأة يومين بغير مَحْرَم ؟ فقال لا . وقال له آخر : هل تسافر المرأة ثلاثة أيام بغير مَحْرَم ؟ فقال لا . وكذلك معنى الليلة والبَرِيد على ما رُوى ، فأدّى كل واحد ما سمع على المعنى ، والله أعلم . ويجمع معانى الآثار فى هذا الباب — وإن اختلفت ظواهرها — الحظرُ على المرأة أن تسافر سفرا يخاف عليها فيه الفتنة بغير مَحْرَم ، قصيرا كان أو طويلا . والله أعلم .

الثالثة — واختلفوا فى نوع السفر الذى تُقصر فيه الصلاة ؛ فأجمع الناس على الجهاد والحج والعُمْرة وما ضارعها من صلة رَحِم وإحياء نفس . واختلفوا فيما سوى ذلك ؛ فالجمهور على جواز القصر فى السفر المباح كالتجارة ونحوها . وروى عن ابن مسعود أنه قال : لا تقصر الصلاة إلا فى حج أو جهاد . وقال عطاء : لا تقصر إلا فى سفر طاعة وسبيل من سبل الخير . وروى عنه أيضا : تقصر فى كل السفر المباح مثل قول الجمهور . وقال مالك : إن خرج للصيد لا لمعاشه ولكن متنزّها ، أو خرج لمشاهدة بلدة متنزها ومتلذذا لم يقصر .

والجمهور من العلماء على أنه لا قصر فى سفر المعصية؛ كالباغى وقاطع الطريق وما فى معناهما. ورُوى عن أبى حنيفة والأوزاعىّ إباحة القصر فى جميع ذلك، وروى عن مالك. وقد تقدّم فى «البقرة»[1]. وآختُلف عن أحمد؛ فمرة قال بقول الجمهور، ومرة قال لا يقصر إلا فى حج أو عمرة. والصحيح ما قاله الجمهور؛ لأن القصر إنمـا شُرع تخفيفا عن المسافر للمشقات اللاحقة فيه، ومعونتــه على ما هو بصدده ممـا يجوز، وكل الأسفار فى ذلك سواء؛ لقوله تعالى : « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أى إثم « أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ » فعمّ . وقال عليه السلام : " خير عباد الله الذين إذا سافروا قصروا وأفطروا " . وقال الشعبىّ : إن الله يحب أن يُعمل برُخَصه كما يحب أن يعمل بعزائمه. وأما سفر المعصية فلا يجوز القصر فيه؛ لأن ذلك يكون عونا له على معصية الله، والله تعالى يقول: « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .

الرابعـــة ـــ واختلفوا متى يقصر؛ فالجمهور على أن المسافر لا يقصر حتى يخـرج من بيوت القرية، وحينئذٍ هو ضارب فى الأرض؛ وهو قول مالك فى المدوّنة . ولم يحُـدّ مالك فى القرب حدّا . ورُوى عنه إذا كانت قرية تجمع أهلها فلا يقصر أهلها حتى يجاوزوها بثلاثة أميال، وإلى ذلك فى الرجوع . وإن كانت لا تجمع أهلها قصروا إذا جاوزوا بساتينها . ورُوى عن الحارث بن أبى ربيعة أنه أراد سفرا فصلّى بهم ركعتين فى منزله، وفيهم الأسود بن يزيد وغير واحد من أصحاب ابن مسعود؛ وبه قال عطاء بن أبى رَباح وسليمان بن موسى .

قلت : ويكون معنى الآية على هذا : وإذا ضربتم فى الأرض؛ أى إذا عزمتم على الضرب فى الأرض . والله أعلم . وروى عن مجاهــد أنه قال : لا يقصر المسافر يومه الأولَ حتى الليل . وهــذا شاذ؛ وقد ثبت من حديث أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم صلى الظهر بالمدينة أربعًا وصلّى العصر بذى الحُلَيفة ركعتين . أخرجه الأئمة، وبين ذى الحُليفة وبين المدينة نحوٌ من ستة أميال أو سبعة .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٧٧ طبعة ثانية .

الخامسة — وعلى المسافر أن ينوى القصر من حين الإحرام ؛ فإن افتتح الصلاة بنيّة القصر ثم عزم على المُقام فى أثناء صلاته جعلها نافلة ، وإن كان ذلك بعد أن صلّى منها ركعة أضاف إليها أخرى وسلم ، ثم صلّى صلاة مقيم . قال الأَبْهَرِىّ وابن الجلاب : هذا — والله أعلم — استحباب ، ولو بنى على صلاته وأتمها أجزأته صلاته . قال أبو عمر : هو عندى كما قالا ؛ لأنها ظُهر ، سفرية كانت أو حضرية وكذلك سائر الصلوات الخمس .

السادسة — واختلف العلماء من هذا الباب فى مدّة الإقامة التى إذا نواها المسافر أتم ؛ فقال مالك والشافعىّ والليْث بن سعد والطبرىّ وأبو ثور : إذا نوى الإقامة أربعة أيام أتم ؛ ورُوى عن سعيد بن المُسَيِّب . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورىّ : إذا نوى إقامة خمس عشرة ليلة أتمّ ، وإن كان أقل قصر . وهو قول ابن عمر وابن عباس ولا مخالف لهما من الصحابة فيما ذكر الطحاوى ، ورُوى عن سعيد أيضا . وقال أحمد : إذا جمع (1) المسافر مُقامَ إحدى وعشرين صلاة مكتوبة قصر ، وإن زاد على ذلك أتم ؛ وبه قال داود . والصحيح ما قاله مالك ؛ لحديث ابن الحَضْرَمىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه جعل للمهاجر أن يقيم بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثة أيام ثم يُصدر . أخرجه الطحاوى وابن ماجه وغيرهما . ومعلوم أن الهجرة إذا كانت مفروضة قبل الفتح كان المقام بمكة لا يجوز ؛ فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم للمهاجر ثلاثة أيام لتقضية حوائجه وتهيئة أسبابه ، ولم يحكم لها بحكم المقام ولا فى حيّز الإقامة ، وأبقى عليه فيها حكم المسافر ، ومنعه من مقام الرابع ، فحكم له بحكم الحاضر القاطن ؛ وكان ذلك أصلا معتمَدًا عليه . ومثله ما فعله عمر رضى الله عنه حين أجلى اليهود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجعل لهم مقام ثلاثة أيام فى قضاء أمورهم . قال ابن العربىّ : وسمعت بعض أحبار المالكية يقول : إنما كانت الثلاثة أيام خارجةً عن حكم الإقامة ، لأن الله تعالى أرجأ فيها من أنزل به العذاب وتيقّن الخروج عن الدنيا ؛ فقال تعالى : « تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » . وفى المسألة قول غير هذه الأقوال ، وهو أن المسافر يقصر أبدا حتى يرجع إلى وطنه ، أو ينزل وطنًا له . رُوى عن أنس أنه أقام سنتين بنَيْسابور

(1) جمع : عزم .

يقصر الصلاة . وقال أبو مِجْلَز: قلت لابن عمر آتى المدينةَ فأقيم بها السبعة أشهر والثمانية طالبا حاجة ؛ فقال : صلّ ركعتين . وقال أبو إسحاق السَّبِيعى : أقمنا بسِجِسْتَان ومعنا رجال من أصحاب ابن مسعود سنتين ونُصلّى ركعتين . وأقام ابن عمر بأَذْرِبِيجان يصلّى ركعتين ركعتين، وكان الثلج حال بينهم وبين القُفُول . قال أبو عمر : محمل هذه الأحاديث عندنا على أن لا نية لواحد من هؤلاء المقيمين هذه المدّة؛ وإنما مثل ذلك أن يقول : أخرج اليوم، أخرج غدا؛ وإذا كان هكذا فلا عزيمة ههنا على الإقامة .

السابعة — روى مسلم عن عُروة عن عائشة قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين، ثم أتمها فى الحضر، وأقِرّت صلاة السفر على الفريضة الأولى . قال الزُّهْرِىّ : فقلت لعروة ما بال عائشة تُتِمّ فى السفر؟ قال : لأنها تأوّلت ما تأوّل عثمان . وهذا جواب ليس بمُوعِب . وقد اختلف الناس فى تأويل إتمام عثمان وعائشة رضى الله عنهما على أقوال : فقال معمر عن الزهرى : إن عثمان رضى الله عنه إنما صلّى بِمِنًى أربعا لأنه أجمع على الإقامة بعد الحج . وروى مُغيرة عن إبراهيم أن عثمان صلى أربعا لأنه اتخذها وطنا . وقال يونس عن الزُّهْرِىّ قال : لما اتخذ عثمان الأموال بالطائف وأراد أن يقيم بها صلّى أربعا . قال: ثم أخذ به الأئمة بعده . وقال أيوب عن الزُّهْرِىّ : إن عثمان بن عفان أتم الصلاة بِمِنًى من أجل الأعراب؛ لأنهم كثروا عامئذ فصلّى بالناس أربعا ليعلمهم أن الصلاة أربع . ذكر هذه الأقوال كلها أبو داود فى مصنّفه فى كتاب المناسك فى باب الصلاة بِمِنًى . وذكر أبو عمر فى (التمهيد) قال ابن جريج: وبلغنى انما أوفاها عثمان أربعا بمِنًى من أجل أن أعرابيا ناداه فى مسجد الخَيْف بمِنًى فقال: يا أمير المؤمنين، ما زِلتُ أصلّيها ركعتين منذ رأيتك عامَ الأول ؛ فخشى عثمان أن يظن جهال الناس أن الصلاة ركعتان . قال ابن جُريج : وإنما أوفاها بمِنًى فقط . قال أبو عمر : وأما التأويلات فى إتمام عائشة فليس منها شىء يُرْوَى عنها ، وإنما هى ظنون وتأويلات لا يَصحَبُها دليل . وأضعف ما قيل فى ذلك أنها أم المؤمنين ، وأن الناس حيث كانوا هم بنوها، وكان منازلهم منازلها، وهل كانت أمّ المؤمنين إلا أنها زوجُ النبىّ أبى المؤمنين صلى الله

عليه وسلم ، وهو الذى سنّ القصر فى أسفاره وفى غزواته وحجّه وعُمْرته . وفى قراءة أُبَىّ بن كعب ومصحفه « النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُه أمهاتُهم وهو أبٌ لهم » . وقال مجاهد فى قوله تعالى : « هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » قال : لم يكنّ بناته ولكن كن نساءَ أمّته ، وكلُّ نبىّ فهو أبو أمّته .

قلت : وقد اعتُرض هـذا بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان مُشَرِّعا ، وليست هى كذلك فانفصلا . وأضعف من هذا قولُ من قال : إنها حيث أتمّت لم تكن فى سفر جائز ؛ وهـذا باطل قطعا ، فإنهـا كانت أخوفَ لله وأتقى من أن تخرج فى سفر لا ترضاه . وهـذا التأويل عليها من أكاذيب الشِّيعة المبتدِعة وتشنيعاتهم ؛ سبحانك هذا بهتان عظيم ! . وإنمـا خرجت رضى الله عنها مجتهدة محتسِبة تريد أن تطفئ نار الفتنة ، إذ هى أحق أن يستحيا منها ، فخرجت الأمور عن الضبط . وسيأتى بيان هـذا المعنى إن شاء الله تعالى . وقيل : إنها أتمّت لأنها لم تكن ترى القصر إلا فى الحج والعمرة والغزوة . وهـذا باطل ؛ لأن ذلك لم يُنقل عنهـا ولا عُرِف من مذهبها ، ثم هى قد أتمت فى سفرها إلى علىّ . وأحسن ما فى قصرها وإتمامها أنها أخذت برخصة الله ؛ لترى الناس أن الإتمام ليس فيه حرج وإن كان غيره أفضل . وقد قال عطاء : القصر سُنّة ورُخصة ؛ وهو الراوى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صام وأفطر وأتم الصلاة وقصر فى السفر ؛ رواه طلحة بن عمر . وعنه قال : كل ذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صام وأفطر وقصر الصلاة وأتم . وروى النَّسائى بإسناد صحيح أن عائشة اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة [حتى إذا قدمت مكة](١) قالت : يارسـول الله ، بأبى أنتَ وأُمّى ! قصَرتَ وأتممتُ وأفطرتَ وصمت ؟ فقـال : " أحسنتِ ياعائشة " وما عاب علىّ . كذا هو مقيَّد بفتح التاء الأولى وضم الثانية فى الكلمتين . وروى الدَّارَقُطْنِىّ عن عائشـة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقصر فى السفر ويتم ويفطر ويصوم ؛ قال : إسناد صحيح .

---

(١) زيادة عن سنن النسائى .

الثامنـــة ــ قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ «أنْ» فى موضع نصب، أى فى أن تَقْصُروا . قال أبو عبيد : فيها ثلاث لغات : قَصَرتُ الصلاة وقصّرتها وأقصرتها . وٱختلف العلماء فى تأويله؛ فذهب جماعة من العلماء إلى أنه القصر إلى اثنتين من أربع فى الخوف وغيره؛ لحديث يَعْلَى بن أميّة على ما يأتى . وقال آخرون : إنما هو قصر الركعتين إلى ركعة؛ والركعتان فى السفر إنما هى تمام؛ كما قال عمر رضى الله عنه : تمام غير قصر، وقصرُها أن تصير ركعة . قال السُّدِّىّ : إذا صلّيت فى السفر ركعتين فهو تمام، والقصر لا يحلّ إلا أن تخاف؛ فهذه الآية مبيحة أن تصلّى كُلّ طائفة ركعة لا تزيد عليها شيئا، ويكون للإمام ركعتان . ورُوى نحوه عن ابن عمر وجابر بن عبد الله وكعب، وفعله حذيفة بطَبَرِسْتان وقد سأله الأمير سعيد ابن العاصى عن ذلك . وروى عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى كذلك فى غزوة ذى قَرَد(١) ركعة لكل طائفة ولم يقضوا . وروى جابر بن عبد الله أن النبىّ صلى الله عليه وسلم صلى كذلك بأصحابه يوم [غزوة] مُحارب(٢) خَصَفَة وبنى ثعلبة . وروى أبو هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى كذلك بين ضَجَنان(٣) وعُسْفان(٤) .

قلت : وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الحَضَر أربعا وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة . وهذا يؤيد هذا القول ويَعْضُده، إلا أن القاضى أبا بكر بن العربىّ ذكر فى كتابه المسمى (بالقبس) قال علماؤنا : هذا الحديث مردود بالإجماع .

قلت : وهذا لا يصح، وقد ذكر هو وغيره الخلاف والنزاع فلم يصح ما ادعوْه من الإجماع؛ وبالله التوفيق . وحكى أبو بكر الرازىّ الحنفى فى (أحكام القرآن) أن المراد بالقصر ههنا القصر

---

(١) ذو قرد (بفتح القاف والراء والدال المهملة) : موضع على نحو يوم من المدينة . (٢) وردت هذه الجملة مضطربة فى الأصول . والتصويب عن كتب السير والبخارى . (٣) ضجنان (بالتحريك وقيل بسكون الجيم) : جبل بناحية تهامة وقيل : جبيل على بريد من مكة . وقال الواقدى : بين ضجنان ومكة خمسة وعشرون ميلا .

(٤) عسفان (بضم أوله وسكون ثانيه) : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وقيل : قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلا من مكة، وهى حد تهامة . (راجع معجم البلدان) .

فى صفة الصلاة بترك الركوع والسجود إلى الإيماء، و بترك القيام إلى الركوب . وقال آخرون : هذه الآية مبيحة للقصر من حدود الصلاة وهيئتها عند المسايفة واشتعال الحرب، فأبيح لمن هذه حاله أن يصلّى إيمـاء برأسه، و يصلى ركعة واحدة حيث توجه إلى ركعتين؛ على ما تقدّم فى «البقرة»(١) . و رجّح الطبرىّ هذا القول وقال: إنه يعادله قوله تعالى: « فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » أى بحدودها وهيئتها الكاملة .

قلت : هذه الأقوال الثلاثة فى المعنى متقاربة، وهى مبنيّة على أن فرض المسافر القصر، وأن الصلاة فى حقه ما نزلت إلا ركعتين، فلا قصر . ولا يقال فى العزيمة لا جناح، ولا يقال فيما شرع ركعتين إنه قصر، كما لا يقال فى صلاة الصبح ذلك . وذكر الله تعالى القصر بشرطين، والذى يعتبر فيـه الشرطان صلاة الخوف ؛ هذا ما ذكره أبو بكر الرازىّ فى (أحكام القرآن) واحتج به، ورُدّ عليه بحديث يَعْلَى بن أمية على ما يأتى، إن شاء الله تعالى .

التاســعة ـــ قوله تعالى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ ﴾ خرج الكلام على الغالب، إذ كان الغالب على المسلمين الخوف فى الأسفار، ولهـذا قال يَعْلَى بن أمية لعمر : مالنا نقصر وقـد أمِنّا . فقال عمر : عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته " .

قلت : وقد استدلّ أصحاب الشافعىّ وغيرُهم على الحنفية بحديث يَعْلَى بن أمية هذا فقالوا : إن قوله « ما لنا نقصر وقد أمِنّا » دليل قاطع على أن مفهوم الآية القصر فى الركعات . قال الكِيَا الطبرىّ : ولم يذكر أصحاب أبى حنيفة على هـذا تأويلا يساوى الذّكْر ؛ ثم إن صلاة الخوف لا يعتبر فيهـا الشرطان ؛ فإنه لو لم يُضرب فى الأرض ولم يوجَد السـفر بل جاءنا الكفـار وغزَوْنا فى بلادنا فتجوز صـلاة الخوف ؛ فلا يعتـبر وجود الشرطيـن على ما قاله . وفى قراءة أُبَىّ « أَنْ تَقْصُرُوا من الصـلاة أن يَفْتِنَكُمُ الّذِين كَفَرُوا » بسـقوط « إن خفتم» . والمعنى على قراءته : كراهية أن يفتنكم الذين كفروا . وثبت فى مصحف عثمان « إن

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٢٣ طبعة أولى أو ثانية .

خفتم » . وذهب جماعة إلى أن هذه الآية إنما هى مبيحة للقصر فى السفر للخائف من العدوّ، فمن كان آمنـا فلا قصر له . روى عن عائشـة رضى الله عنها أنهـا كانت تقول فى السفر : أتموا صلاتكم ؛ فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان يقصر ؛ فقالت : إنه كان فى حرب وكان يخاف ، وهل أنتم تخافون ! . وقال عطاء : كان يتمّ من أصحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم عائشة وسعد بن أبى وقّاص وأتم عثمان؛ ولكن ذلك معلّل بعلل تقـدّم بعضها . وذهب جماعة إلى أن الله تعالى لم يبح القصر فى كتابه إلا بشرطين : السفر والخوف؛ وفى غير الخوف بالسنة ؛ منهم الشافعى وقد تقـدّم . وذهب آخرون إلى أن قوله تعـالى : « إن خفتم » ليس متصلا بما قبل، وأن الكلام تم عند قوله : « من الصلاة » ثم افتتح فقال : « إن خفتم أن يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا » فأقم لهم يامحمد صلاة الخوف . وقوله : « إن الكافِرِين كانوا لكم عَدُوًّا مُبِينًا » كلام معترض ؛ قاله الجُرْجانى وذكره المهدوىّ وغيرهما . وردّ هذا القولَ القُشَيْرِىُّ والقاضى أبو بكر بن العربى . قال القُشَيْرِىّ أبو نصر : وفى الحمل على هـذا تكلّف شديد، وإن أطنب الرجل — يريد الجرجانىّ — فى التقدير وضرب الأمثلة . قال ابن العربىّ : وهذا كله لم يفتقر إليه عمر ولا ٱبنه ولا يَعْلَى بن أميّة معهما .

قلت : قد جاء حديثٌ عما قاله الجُرْجانى ذكره القاضى أبو الوليد بن رشد فى مقدّماته، وابن عطية أيضا فى تفسـيره عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه أنه قال : سأل قوم من التجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا نضرب فى الأرض فكيف نصلى ؟ فأنزل الله تعـالى : « وإذا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ » ثم انقطع الكلام ؛ فلما كان بعـد ذلك بحَوْل غزا رسول الله صلى الله عليـه وسلم فصلّى الظهر ؛ فقال المشركون : لقد أمكنكم محمـد وأصحابه من ظهورهم هلّا شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم : إن لهم أخرى فى أثرها ؛ فأنزل الله تعـالى بين الصلاتين « إن خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا » إلى آخر صلاة الخوف . فإن صحّ هذا الخبر فليس لأحد معه مقال، ويكون فيه دليل على القصر فى غير الخوف بالقرآن . وقد رُوى عن ابن عباس أيضا مثله قال : إن قوله تعالى « وإذا ضربتم

فِي الأَرْضِ فليس عليكم جُناح أن تَقْصُروا مِن الصلاة » نزلت فى الصلاة فى السفر ثم نزل « إِن خِفتم أن يَفْتِنكم الذين كفروا » فى الخوف بعدها بعام . فالآية على هذا تضمّنت قضيتين وحُكمين . وقوله « وإذا ضَربتم فِي الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا مِن الصلاةِ » يعنى به فى السفر ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فريضة أخرى فقدم الشرط ؛ والتقدير : إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة . والواو زائدة ، والجواب « فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ » . وقوله : « إِنّ الكافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا » اعتراض . وذهب قوم إلى ان ذكر الخوف منسوخ بالسنة ، وهو حديث عمر إذ روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : ” إن هذه صدقة تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته “ . قال النحاس : من جعل قصر النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غير خوف وفعله ذلك ناسخا للآية فقد غلط ؛ لأنه ليس فى الآية منع للقصر فى الأمن ، وإنما فيها إباحة القصر فى الخوف فقط .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال الفراء : أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل . وربيعة وقيس وأسد وجميع أهل نجد يقولون أفتنت الرجل . وفرّق الخليل وسيبويه بينهما فقالا : فتنته جعلت فيه فتنة مثل كحلته ، وأفتنته جعلته مُفْتَنًا . وزعم الأصمعى أنه لا يعرف أفتنته . ﴿إِنَّ الْكافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ « عدوّا » ههنا بمعنى أعداء . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ روى الدّارَقُطْنِيّ عن أبى عيّاش الزرقىّ قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعُسْفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليـد وهم بيننا وبين القبلة ، فصلّى بنا النبىّ صلى الله عليـه وسلم الظهر، فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غِرّتهم ؛ قال : ثم قالوا تأتى الآن عليهم صـلاة هى أحبّ إليهم من أبنائهـم وأنفسهم ؛ قال : فنزل جبريل عليـه السلام بهذه الآية بين الظهر والعصر « وإذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ » . وذكر الحديث . وسيأتى تمامه إن شاء الله تعالى . وهـذا كان سببَ إسلام خالد رضى الله عنـه . وقد آتصلت هذه الآية بمـا سبق من ذكر الجهاد . وبيّن الرب تبارك وتعالى أن الصلاة لا تسقط بعذر السفر ولا بعـذر الجهاد وقتال العدوّ، ولكن فيها رُخَصٌ على ما تقدّم فى « البقرة » وهذه السورة بيانه من اختلاف العلماء . وهذه الآية خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو يتناول الأمراء بعـده إلى يوم القيامة ، ومثله قوله تعـالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » . هذا قول كافة العلماء . وشذّ أبو يوسف وإسماعيل بن عُلَيّة فقالا : لا نصلّى صلاة الخوف بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الخطاب كان خاصا له بقوله تعـالى : « وإذا كنتَ فِيهم » وإذا لم يكن فيهم لم يكن ذلك لهم؛ لأن النبىّ صلى الله عليـه وسلم ليس كغيره فى ذلك ، وكلهم كان يحب أن يؤتمّ به ويصلّى خلفه، وليس أحد بعده يقوم فى الفضل مقامه ، والنـاس بعده تستوى أحوالهم وتتقارب؛ فلذلك يصلى الإمام بفريق ويأمر من يصلّى بالفريق الآخر ، وأما أن يصلوا بإمام واحد فلا . وقال الجمهور : إنا قـد أمرنا باتباعه والتأسّى به فى غير ما آية وغير حديث ، فقال تعـالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَـةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم : "صلّوا كما رأيتمونى أصلى" . فلزم اتباعه مطلقا حتى يدلّ دليل واضح على الخصوص؛ ولو كان ما ذكروه دليلا على الخصوص للزم قصر الخطابات على من توجهت له ، وحينئذ يلزم ان تكون الشريعة قاصرة على من خوطب بها؛ ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين اطّرحوا توهّم الخصوص

فى هــذه الصلاة وعَدَّوْه إلى غير النبيّ صلى الله عليه وســلم، وهم أعلم بالمقال وأقعــد بالحال . وقد قال تعالى : « وإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » وهذا خطاب له ، وأمّتهُ داخلة فيه، ومثله كثير . وقال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » وذلك لا يوجب الاقتصار عليه وحده، وأن مَن بعده يقوم فى ذلك مقامه؛ فكذلك قــوله : « وإذا كنت فِيهم » . ألا ترى أن أبا بكر الصــدّيق فى جماعة الصحابة رضى الله عنهم قاتلوا من تأوّل فى الزكاة مثل ما تأوّلوه فى صلاة الخوف . قال أبو عمر : ليس فى أخذ الزكاة التى قد استوى فيها النبيّ صلى الله عليه وسلم ومَن بعده من الخلفاء ما يشبه صلاة من صلى خلف النبيّ صلى الله عليه وســلم وصلى غيره خلف غيره؛ لأن أخذ الزكاة فائدتها توصيلها للمساكين، وليس فيها فضل للمعطى كما فى الصلاة فضل للمصلى خلفه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُــمْ مَعَكَ ﴾ يعنى جماعة منهــم تقف معك فى الصلاة . ﴿ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ يعنى الذين يصلون معك . ويقال « وليأخذوا أسلحتهم » الذين هم بإزاء العدوّ، على ما يأتى بيانه . ولم يذكر الله تعالى فى الآية لكل طائفة إلا ركعةً واحدة، ولكن رُوى فى الأحاديث أنهم أضافوا إليها أخرى، على ما يأتى . وحذفت الكسرة من قوله « فلْتَقُمْ » و « لْيكونوا » لثقلها . وحكى الأخفش والفرّاء والكسائى أن لام الأمر ولام كى ولام الجحــود يُفتَحْن، وسيبويه يمنع من ذلك لعلة موجبة وهى الفرق بين لام الجر ولام التأكيد . والمراد من هذا الأمر الانقسام ، أى وسائرهم وُجاه[(1)] العدوّ حَذَرا من توقّع حملته .

وقــد اختلفت الروايات فى هيئة صــلاة الخوف، واختلف العلمــاء لاختلافها؛ فذكر ابن القصّار أنه صلى الله عليه وسلم صلاها فى عشرة مواضع . قال ابن العربى : رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه صلّى صــلاة الخوف أربعا وعشرين مرّة . قال الإمام أحمد بن حنبل وهو إمام أهل الحديث والمقدَّم فى معرفة علل النقل فيه : لا أعلم أنه رُوى فى صلاة الخوف إلا حديث ثابت وهى كلها صحاح ثابتة، فعلى أى حديث صلّى منها المصلى صلاة الخوف أجزأه

(١) وجاه (مثلث الواو) أى مقابلتهم وحذاءهم .

إن شاء الله. وكذلك قال أبو جعفر الطبري. وأما مالك وسائر أصحابه إلا أشهب فذهبوا في صلاة الخوف إلى حديث سهل بن أبي حَثْمَة، وهو ما رواه في موطّئه عن يحيى بن سعيد عن القاسم ابن محمد عن صالح بن خَوّات الأنصاري أن سهل بن أبي حَثْمة حدّثه أن صلاة الخوف أن يقوم الإمام ومعه طائفة من أصحابه وطائفة مواجِهة العـدو، فيركع الإمام ركعة ويَسجُد بالّذين معه ثم يقوم، فإذا ٱستوى قائمـا ثبت، وأتمّوا لأنفسهم الركعة الباقية ثم يُسلّمون وينصرفون والإمام قائم، فيكونون وجاه العـدو، ثم يُقبل الآخرون الذين لم يصلوا فيكبّرون وراء الإمام فيركع بهم [الركعة] ويسجد ثم يسلم، فيقومون ويركعون لأنفسهم الركعة الباقية ثم يسلمون. قال ابن القـاسم صاحبُ مالك: والعمل عند مالك على حديث القـاسم بن محمد عن صالح ابن خوّات. قال ابن القاسم: وقد كان يأخذ بحديث يزيد بن رُومان ثم رجع إلى هذا. قال أبو عمر: حديث القاسم وحديث يزيد بن رُومان كلاهمـا عن صالح بن خوّات؛ إلا أن بينهما فصلا في السـلام، ففي حديث القاسم أن الإمام يسلم بالطائفة الثانية ثم يقومون ويقضون لأنفسهم الركعة، وفي حديث يزيد بن رُومان أنه ينتظرهم ويسـلّم بهم. وبه قال الشافعيّ وإليـه ذهب؛ قال الشافعيّ: حديث يزيد بن رُومان عن صالح بن خوّات هـذا أشبه الأحاديث في صلاة الخوف بظاهر كتاب الله، وبه أقول. ومن حجة مالك في اختياره حديث القاسم للقياس على سائر الصلوات، في أن الإمام ليس له أن ينتظر أحدا سـبقه بشيء منها، وأن السـنة المجتمَع عليها أن يقضي المأمومون ما سُبِقوا به بعد سـلام الإمام. وقول أبي ثور في هـذا الباب كقول مالك، وقال أحمـد كقول الشافعيّ في المختار عنـده؛ وكان لا يَعيب من فعل شيئا من الأوجه المروية في صـلاة الخوف. وذهب أشهب من أصحاب مالك إلى حديث ابن عمر قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة والطائفةُ الأخرى مواجِهةً العـدوّ، ثم انصرفوا وقاموا مقام أصحابهم مقبلين على العدوّ، وجاء أولئك ثم صلّى بهم النبيّ صـلى الله عليه وسلم ركعـة ثم سلّم النبيّ صلّى الله عليه وسلم، ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة. قال ابن عمر: فإذا كان خوفٌ أكثرَ من ذلك صلّى

راكعا أو قائما يومئ إيماء؛ أخرجه البخاريّ ومسلم ومالك وغيرهم . وإلى هذه الصفة ذهب الأوزاعيّ، وهو الذى ارتضاه أبو عمر بن عبد البر، قال : لأنه أصحها إسنادا، وقد ورد بنقل أهل المدينة وبهم الحجة على من خالفهم، ولأنه أشبه بالأصول ؛ لأن الطائفة الأولى والثانية لم يقضوا الركعة إلا بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم من الصلاة، وهو المعروف من سنّته المجتمَع عليها فى سائر الصلوات . وأما الكوفيون : أبو حنيفة وأصحابه إلا أبا يوسف القاضي يعقوب فذهبوا إلى حديث عبد الله بن مسعود، أخرجه أبو داود والدارقطنى قال : صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فقاموا صفين ، صَفًّا خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وصفا مستقبِل العدوّ ، فصلّى بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ركعة ، وجاء الآخرون فقاموا مقامهم ، واستقبل هؤلاء العدوّ فصلّى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سلم، فقام هؤلاء فصلّوا لأنفسهم ركعة ثم سلّموا ثم ذهبوا فقاموا مقام أولئك مستقبلين العدوّ ، ورجع أولئك إلى مقامهم فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا . وهذه الصفة والهيئة هى الهيئة المذكورة فى حديث ابن عمر إلا أن بينهما فرقا ؛ وهو أن قضاء أولئك فى حديث ابن عمر يظهر أنه فى حالة واحدة ويبقى الإمام كالحارس وحده، وهاهنا قضاؤهم متفرق على صفة صلاتهم . وقد تأول بعضهم حديث ابن عمر على ما جاء فى حديث ابن مسعود . وقد ذهب إلى حديث ابن مسعود الثوريُّ — فى إحدى الروايات الثلاث عنه — وأشهبُ بن عبد العزيز فيما ذكر أبو الحسن اللخمى عنه؛ والأول ذكره أبو عمر وابن يونس وابن حبيب عنه . وروى أبو داود من حديث حذيفة وأبى هريرة وابن عمر أنه عليه السلام صلى بكل طائفة ركعة ولم يَقضوا ، وهو مقتضى حديث ابن عباس «وفى الخوف ركعة» . وهو قول إسحاق وقد تقدّم فى «البقرة» الإشارة إلى هذا، وأن الصلاة أولى ما احتيط لها، وأن حديث ابن عباس لا تقوم به حجة، وقوله فى حديث حذيفة وغيره : « ولم يقضوا » أى فى علم من روى ذلك؛ لأنه قد رُوى أنهم قضوا ركعة فى تلك الصلاة بعينها، وشهادة من زاد أوْلى . ويحتمل أن يكون المراد لم يقضوا؛ أى لم يقضوا إذا أمنوا ، وتكون فائدة ان الخائف إذا امن لا يقضى ما صلّى على تلك الهيئة

من الصلوات فى الخوف؛ قال جميعَه أبو عمر. وفى صحيح مسلم عن جابر أنه عليه السلام صلى بطائفة ركعتين ثم تأخّروا، وصلّى بالطائفة الثانية ركعتين . قال : فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركعات وللقوم ركعتان . وأخرجه أبو داود والدّارَقُطْنِي من حديث الحسن عن أبى بكرة، وذكرا فيه أنه سلم من كل ركعتين . وأخرجه الدّارَقُطْنِي أيضا عن الحسن عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى بهم ركعتين ثم سلم، ثم صلى بالآخرين ركعتين ثم سلّم . قال أبو داود : وبذلك كان الحسن يفتى، وروى عن الشافعىّ . وبه يحتجّ كل من أجاز اختلاف نية الإمام والمأموم فى الصلاة، وهو مذهب الشافعىّ والأوزاعىّ وابن عُلَيّة وأحمد بن حنبل وداود. وعَضَدُوا هذا بحديث جابر : أن معاذا كان يصلى مع النبىّ صلى الله عليه وسلم العشاء ثم يأتى فيؤم قومه؛ الحديث . وقال الطحاوىّ : إنما كان هذا فى أول الإسلام إذ كان يجوز أن تُصلَّى الفريضة مرتين ثم نسخ ذلك، والله أعلم . فهذه أقاويل العلماء فى صلاة الخوف .

الثالثة — وهذه الصلاة المذكورة فى القرآن إنما يُحتاج إليها والمسلمون مستدبرون القبلة ووجه العدوّ القبلة، وإنما اتفق هذا بذات الرِّقاع، فأما بعُسْفان والموضع الآخر فالمسلمون كانوا فى قُبالة القبلة . وما ذكرناه من سبب النزول فى قصة خالد بن الوليد لا يلائم تفريق القوم إلى طائفتين، فإن فى الحديث بعد قوله : « فأقمت لهم الصلاة » قال : فحضرت الصلاة فأمرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا السلاح وصَفّنا خلفه صفين، قال : ثم ركع فركعنا جميعا، قال : ثم رفع فرفعنا جميعا، قال: ثم سجد النبىّ صلى الله عليه وسلم بالصف الذى يليه، قال : والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا مكانهم، قال : ثم تقدّم هؤلاء فى مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء إلى مصافّ هؤلاء، قال : ثم ركع فركعوا جميعا، ثم رفع فرفعوا جميعا، ثم سجد النبىّ صلى الله عليه وسلم والصف الذى يليه، والآخرون قيام، يحرسونهم فلما جلس الآخرون سجدوا ثم سلّم عليهم . قال : فصلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة بعُسْفان ومرّة فى أرض بنى سليم . وأخرجه أبو داود من حديث أبى عيّاش

الزُّرَقيّ وقال : وهو قول الثوريّ وهو أحوطها . وأخرجه أبو عيسى الترمذيّ من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بين ضَجْنان وعُسْفان ؛ الحديث . وفيه أنه عليه السلام صدعهم صدعين وصلّى بكل طائفة ركعة ، فكانت للقوم ركعة ركعة ، وللنبيّ صلى الله عليه وسلم ركعتان ؛ قال : حديث حسن صحيح غريب . وفي الباب عن عبد الله ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وجابر وأبي عَيّاش الزُّرَقي واسمه زيد بن الصامت ، وابن عمر وحذيفة وأبي بكر وسهل بن أبي حَثْمَة .

قلت : ولا تعارض بين هذه الروايات ، فلعله صلّى بهم صلاة كما جاء في حديث أبي عياش مجتمعين ، وصلّى بهم صلاة أخرى مفترقين كما في حديث أبي هريرة ، ويكون فيه حجة لمن يقول صلاة الخوف ركعة . قال الخطّابيّ : صلاة الخوف أنواعٌ صلاها النبيّ صلى الله عليه وسلم في أيام مختلفة وأشكال متباينة ، يتوخّى فيها كلها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ للحراسة .

الرابعة — واختلفوا في كيفية صلاة المغرب ؛ فروى الدّارَقُطْنيّ عن الحسن عن أبي بكرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى بالقوم صلاة المغرب ثلاث ركعات ثم انصرفوا ، وجاء الآخرون فصلّى بهم ثلاث ركعات ؛ فكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ستا وللقوم ثلاثا ثلاثا ؛ وبه قال الحسن . والجمهور في صلاة المغرب على خلاف هذا ، وهو أنه يصلّي بالأولى ركعتين وبالثانية ركعة وتُقضى على اختلاف أصولهم فيه متى يكون؟ قبل سلام الإمام أو بعده . هذا قول مالك وأبي حنيفه لأنه أحفظ لهيئة الصلاة . وقال الشافعيّ : يُصلّي بالأولى ركعة ؛ لأن عليًّا رضي الله عنه فعلها ليلة الهَرير(١) ، والله تعالى أعلم .

الخامسة(٢) — واختلفوا في صلاة الخوف عند التحام الحرب وشدّة القتال وخَيْف خروج الوقت ؛ فقال مالك والثّوريّ والأوزاعيّ والشافعيّ وعامة العلماء : يصلّي كيفما أمكن ؛ لقول ابن عمر . فإن كان خوف أكثر من ذلك يصلّي راكبا أو قائما يومئ إيماء . قال في الموطأ : مستقبل القبلة وغير مستقبلها ؛ وقد تقدّم في «البقرة» قول الضحاك وإسحاق . وقال الأوزاعيّ :

(١) ليلة الهرير كأمير من ليالي (صفين) . (٢) الخيف (بفتح الخاء) : مصدر من مصادر «خاف» يقال : خاف يخاف خوفا وخيفا ومخافة وخيفة (بالكسر) .

إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلّوا إيمـاء كلُّ امرئ لنفسه ؛ فإن لم يقدروا على الإيمـاء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين ، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين ، فإن لم يقدروا يجزئهم التكبير ويؤخروها حتى يأمنوا ؛ وبه قال مَكْحُول .

قلت : وحكاه الكِيَا الطبرى فى « أحكام القـرآن » له عن أبى حنيفة وأصحابه ، قال الكِيا : وإذا كان الخوف أشدّ من ذلك وكان التحام القتال فإن المسلمين يصلّون على ما أمكنهم مستقبلى القبلة ومستدبريها ؛ وأبو حنيفة وأصحابه الثلاثة متّفقون على أنهم لا يصلون والحالة هذه بل يؤخرون الصلاة . وإن قاتلوا فى الصلاة قالوا : فسدت الصلاة . وحُكى عن الشافعىّ أنه إن تابع الطعن والضرب فسدت صلاته .

قلت : وهذا القول يدلّ على صحة قول أنس : حضرت مناهضة حِصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر ، واشتد اشتعال القتال فلم نقدر على الصلاة إلا بعـد ارتفاع النهـار ؛ فصليناها ونحن مع أبى موسى ففُتح لنا . قال أنس : وما يَسُرّنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها ؛ ذكره البخارىّ . وإليه كان يذهب شيخنا الأستاذ أبو جعفر أحمـد بن محمد بن محمد القَيْسى القرطبى المعروف بأبى حجة ؛ وهو اختيار البخارىّ فيما يظهر لأنه أردفه بحديث جابر ، قال : جاء عمر يوم الخَنْدق فجعل يَسبُّ كفار قريش ويقول : يارسول الله ، ماصلّيتُ العصر حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " وأنا والله ما صليتها " قال : فنزل إلى بُطْحان[(١)] فتوضأ وصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى المغرب بعدها .

السادسـة — واختلفوا فى صلاة الطالب والمطلوب ؛ فقال مالك وجماعة من أصحابه : هما سـواء ، كلّ واحد منهما يصلى على دابتـه . وقال الأوزاعىّ والشافعىّ وفقهاء أصحاب الحديث وابن عبد الحكم : لا يصلّى الطالب إلا بالأرض وهو الصحيح ؛ لأن الطلب تطوّعٌ ، والصلاة المكتوبة فرضها أن تصلّى بالأرض حيثما أمكن ذلك ، ولا يصليها راكب إلا خائف شديدٌ خوفُه وليس كذلك الطالب . والله أعلم .

---

(١) بطحان : واد بالمدينة .

السابعة — واختلفوا أيضا في العسكر إذا رأوا سوادا فظنوه عدوّا فصلّوا صلاة الخوف ثم بان لهم أنه غير شيء؛ فلعلمائنا فيه روايتان : إحداهما يعيدون، وبه قال أبو حنيفة. والثانية لا إعادة عليهم، وهو أظهر قولي الشافعيّ. ووجه الأُولى أنهم تبيّن لهم الخطأ فعادوا إلى الصواب كحكم الحاكم . ووجه الثانية أنهم عملوا على اجتهادهم بجازلهم كما لو أخطئوا القبلة؛ وهذا أولى لأنهم فعلوا ما أُمِروا به . وقد يقال : يعيدون في الوقت ، فأما بعد خروجه فلا . والله أعلم .

الثامنة — قوله تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ وقال: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ هذا وصاة بالحذر وأخذ السلاح لئلا ينال العدو أملَه ويدرك فرصته . والسلاح ما يَدفع به المرء عن نفسه في الحرب؛ قال عنترة :

كَسَوْتُ الجَعْدَ جعدَ بني أَبانٍ * سلاحِي بعد عُرْيٍ وٱفتضاح

يقول : أعرته سلاحي ليمتنع بها بعد عُريه من السلاح . قال ابن عباس : « وليأخذوا أسلحتهم » يعني الطائفة التي وجاه العدوّ؛ لأن المُصَلّية لا تحارب . وقال غيره: هي المُصَلّية، أي وليأخذ الذين صلّوا أوّلًا أسلحتهم؛ ذكره الزجاج . قال : ويحتمل أن تكون الطائفة الذين هم في الصلاة أُمِروا بحمل السلاح ؛ أي فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإنه أرهَبُ للعدوّ . النحاس : يجوز أن يكون للجميع ؛ لأنه أَهيب للعدوّ . ويحتمل أن يكون للتي وجاه العدوّ خاصة . قال أبو عمر : أكثر أهل العلم يستحبّون للمصلي أخذ سلاحه إذا صلى في الخوف، ويحملون قوله «وَلْيَأْخُذُوا أسلحتهم» على النّدب؛ لأنه شيء لولا الخوف لم يجب أخذه؛ فكان الأمر به ندْبا . وقال أهل الظاهر: أخذ السّلاح في صلاة الخوف واجب لأمر الله به، إلا لمن كان به أذًى من مَطر؛ فإن كان ذلك جاز له وضع سلاحه. قال ٱبن العربيّ: إذا صلّوا أخذوا سلاحهم عند الخوف؛ وبه قال الشافعيّ وهو نصّ القرآن . وقال أبو حنيفة: لا يحملونها ؛ لأنه لو وجب عليهم حملها لبطَلت الصلاة بتركها . قلنا : لم يجب حملها لأجل الصلاة وإنما وجب عليهم قوّةً لهم ونظرًا .

التاســـعة — قوله تعـالى : ﴿ فإذا سجدوا ﴾ الضمير فى « سجدوا » للطائفة المصلّيـة فلينصرفوا ؛ هـذا على بعض الهيئات المرويّة . وقيـل : المعنى فإذا سجدوا ركعة القضاء ؛ وهذا على هيئة سهل بن أبى حَثْمَة . ودلت هذه الآية على أن السجود قد يُعبّر به عن جميع الصلاة؛ وهو كقوله عليه السلام : " إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدتين". أى فليصل ركعتين وهو فى السـنّة . والضّمير فى قوله : ﴿ فَلْيَكُونُوا ﴾ يحتمل أن يكون للذين سجدوا، ويحتمل أن يكون للطائفة القائمة أوّلًا بإزاء العدوّ .

العاشـــرة — قوله تعـالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى تمنّى وأحبّ الكافرون غفلتكم عن أخذ السّـلاح لِيَصلوا إلى مقصودهم ؛ فبيّن الله تعـالى بهذا وجهَ الحكمة فى الأمر بأخذ السلاح ، وذكر الحِذْر فى الطائفة الثانيـة دون الأولى لأنهـا أَوْلى بأخذ الحِذْر ؛ لأن العدوّ لا يؤخّر قصده عن هـذا الوقت لأنه آخر الصـلاة ؛ وأيضا يقول العدوّ قد أثقلهم السلاح وكَلّوا . وفى هذه الآية أدلّ دليل على تعاطى الأسباب ، واتخاذ كل ما يُنجى ذوى الألباب ، ويوصّل إلى السّلامة ، ويبلّغ دار الكرامة . ومعنى ﴿ مَيْـلَةً وَاحِدَةً ﴾ مبالغة، أى مستأصلة لا يُحتاج معها إلى ثانية .

الحادية عشرة — قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ﴾ الآية . للعلماء فى وجوب حمل السلاح فى الصلاة كلام قد أشرنا إليه ، فإن لم يَجب فيستحب للاحتياط . ثم رُخّص فى المطر وضعه لأنه تبتلّ المبطّنات وتثقل ويصدأ الحديد . وقيل : نزلت فى النبيّ صلى الله عليـه وسلم يوم بطن نَخْلة (١) لـما انهزم المشركون وغنم المسلمون ؛ وذلك أنه كان يوما مَطيرا وخرج النبيّ صلى الله عليـه وسلم لقضاء حاجته واضـعا سلاحه، فرآه الكفار منقطعا عن أصحابه فقصده غَوْرَث بن الحارث فانحدر عليه من الجبل بسيفه، فقال : مَن يمنعك منّى اليوم؟ فقـال: "الله" ثم قال : "اللّهمّ اكفنى الغورث بمـا شئت". فأهوى بالسيف إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ليضربه، فانكبّ لوجهه لزلقة زلقها . وذكر الواقدىّ أن جبريل عليه

(١) قرية قريبة من المدينة .

السلام دفعه فى صدره على ما يأتى فى المائدة، وسقط السيف من يده فأخذه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : "من يمنعك منى يا غَوْرث" ؟ فقال : لا أحد . فقال : "تشهد لى بالحق وأعطيك سيفك" ؟ قال لا، ولكن أشهد ألّا أقاتلك بعد هذا ولا أعين عليك عدوّا ؛ فدفع إليه السيف ونزلت الآية رخصة فى وضع السلاح فى المطر ومَرَض عبد الرحمن بن عَوْف من جرح كما فى صحيح البخاريّ . فرخص الله سبحانه لهم فى ترك السلاح والتأهب للعدوّ بعذر المطر، ثم أمرهم فقال : « خُذُوا حِذْرَكُمْ » أى كونوا مستيقظين، وضعتم السلاح أو لم تضعوه . وهذا يدل على تأكيد التأهب والحذر من العدوّ فى كل الأحوال وترك الاستسلام؛ فإن الجيش ما جاءه مصاب قطّ إلا من تفريط فى حذر . وقال الضحاك فى قوله تعالى : «وخذوا حذركم» بمعنى تقلدوا سيوفكم فإن ذلك هيئة الغزاة .

قوله تعالى : فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ ﴿ قَضَيْتُمْ ﴾ معناه فرغتم من صلاة الخوف . وهذا يدل على أن القضاء يستعمل فيما قد فُعل فى وقته؛ ومنه قوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ » وقد تقدّم[(1)] .

الثانيــة ــ ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾ ذهب الجمهور إلى أن هذا الذكر المأمور به إنما هو إثر صلاة الخوف؛ أى إذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله بالقلب واللسان ، على أى حال كنتم ؛ قياما وقعودا وعلى جنوبكم ، وأديموا ذكره بالتكبير والتهليل والدعاء بالنصر لا سيما فى حال القتال . ونظيره « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٣١ طبعة ثانية .

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . ويقال : فإذا قضيتم الصلاة » بمعنى إذا صلّيتم فى دار الحرب فصلّوا على الدواب، أو قياما أو قعودا أو على جنوبكم إن لم تستطيعوا القيام، إذا كان خوفا أو مرضا؛ كما قال تعالى فى آية أخرى : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا » . وقال قوم : هذه الآية نظيرة التى فى «آل عمران»؛ فروى أن عبد الله بن مسعود رأى الناس يَضجّون فى المسجد فقال: ما هذه الضجة ؟ قالوا : أليس الله تعالى يقول « ٱذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وقُعُودًا وعَلَى جُنُوبِكم » ؟ قال : إنما يعنى بهذا الصلاةَ المكتوبة إن لم يستطع قائما فقاعدا، وإن لم فَصَلِّ على جنبك . فالمراد نفس الصلاة ؛ لأن الصلاة ذكر الله تعالى، وقد اشتملت على الأذكار المفروضة والمسنونة؛ والقول الأوّل أظهر .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ ﴾ أى أمنتم . والطُّمَأْنينة سكون النفس من الخوف . ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى فأتوها بأركانها وكمال هيئتها فى السفر، وبكمال عددها فى الحَضَر . ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ أى مؤقتة مفروضة . وقال زيد ٱبن أسلم : « موقوتا » مُنَجَّمًا، أى تؤدونها فى أنجمها ؛ والمعنى عند أهل اللغة : مفروض لوقت بعينه ؛ يقال : وقَته فهو موقوت . ووقّته فهو مؤقّت . وهذا قول زيد بن أسلم بعينه . وقال : « كِتَابا » والمصدر مذكر؛ فلهذا قال : « موقوتا » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ أى لا تَضْعُفوا، وقد تقدم فى «آل عمران»(1) . ﴿ فِى ٱبْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ طلبهم . قيل : نزلت فى حرب أُحُد حيث أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالخروج فى آثار المشركين، وكان بالمسلمين جراحات، وكان أمر ألّا يخرج معه إلا من كان فى الوقعة؛ كما تقدّم فى « آل عمران » وقيل : هذا فى كل جهاد .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ ﴾ أى تتألمون مما أصابكم من الجراح فهم يتألمون أيضا مما يصيبهم ، ولكم مَزِيّة وهى أنكم ترجون ثواب الله وهم لا يرجونه؛ وذلك أن من لا يؤمن بالله لا يرجو من الله شيئا . ونظير هذه الآية « إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ

(1) راجع ج ٤ ص ٢١٦ طبعة أولى وثانية .

الْقَوْم قَرْحٌ مِثْلُهُ» وقد تقدّم. وقرأ عبد الرحمن الأعرج «أن تكونوا» بفتح الهمزة، أي لأن. وقرأ منصور بن المعتمر «إن تكونوا تِئْلَمُون» بكسر التاء. ولا يجوز عند البصريين كسر التاء لثقل الكسر فيها. ثم قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف؛ لأن من رجا شيئا فهو غير قاطع بحصوله فلا يخلو من فوت مايرجو. وقال الفرّاء والزجاج: لا يُطلق الرجاء بمعنى الخوف إلا مع النفي؛ كقوله تعالى: «مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» أي لا تخافون له عَظَمةً. وقوله تعالى: «لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ» أي لا يخافون. قال القُشيري: ولا يبعد ذكر الخوف من غير أن يكون للكلام نفي، ولكنهما آدّعيا أنه لم يوجد ذلك إلا مع النفي. والله أعلم.

قوله تعالى: إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى — في هذه الآية تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وتكريمٌ وتعظيمٌ وتفويضٌ إليه، وتقويمٌ أيضا على الجادّة في الحكم، وتأنيبٌ على ما رُفع إليه في أمر بني أبيرق، وكانوا ثلاثة إخوة: بشر وبشير ومبشر، وأسير بن عروة آبن عمّ لهم؛ نقبوا مَشْرَبة[(1)] لِرفاعة بن زيد في الليل وسرقوا أدراعا له وطعاما، فعثُر على ذلك. وقيل: إن السارق بشير وحده، وكان يُكْنَى أبا طعمة أخذ دِرعا؛ قيل: كان الدّرع في جِراب فيه دقيق، فكان الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى آنتهى إلى داره، فجاء ابن أخي رِفاعة وآسمه قتادة بن النعمان يشكوه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فجاء أسير بن عروة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن هؤلاء عَمَدوا إلى أهل بيت هم أهل صلاح ودِين فأنّبوهم بالسرقة ورَمَوْهم بها من غير بينة؛ وجعل يجادل عنهم حتى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتادة ورفاعة؛ فأنزل الله تعالى «وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ» الآية. وأنزل الله تعالى «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً

(1) المشربة (بفتح الراء وضمها): الغرفة.

أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا » . وكان البريءُ الذى رموه بالسرقة لبيد بن سهل . وقيل : زيد بن السَّمين . وقيل : رجل من الأنصار . فلما أنزل الله ما أنزل ، هرب ابن أبيرق السارق إلى مكة ، ونزل على سلافة بنت سعد بن شهيد؛ فقال حسان بن ثابت بيتا يُعَرِّض فيه بها ، وهو :

وقـد أنزلَتْه بنتُ سعد وأصبحت * ينـازعها جِلْدَ آســتها وتنـازعه
ظننتم بأن يخفى الذى قـد صنعتمو * وفينا نبيٌّ عنـــده الوَحْىُ واضـــعه

فلمـا بلغها قالت : إنما أهديْتَ لى شعر حسان؛ وأخذت رحله فطرحته خارج المنزل ، فهرب إلى خيبر وارتد. ثم إنه نقَب بيتا ذات ليلة لِيَسْرِق فسقط الحائط عليه فمات مرتدا. ذكر هذا الحديث بكثير من ألفاظه الترمذيّ وقال : حديث حسن غريب ، لانعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحرّانى . وذكره الليث والطبرىّ بألفاظ مختلفة. وذكر قصة موته يحيي بن سلام فى تفسيره ، والقشيرى كذلك وزاد ذكر الردّة ، ثم قيل : كان زيد بن السَّمين ولبيد بن سهل يهوديين . وقيل : كان لَبِيد مسلما . ذكره المهدوىّ؛ وأدخله أبو عمر فى كتاب الصحابة له ، فدل ذلك على إسلامه عنده . وكان بشير رجلا منافقا يهجو أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وينحل الشعرَ غيرَه ، وكان المسلمون يقولون : والله ما هو إلا شعر الخبيث . فقال شعرا يتنصّل فيه؛ فمنه قوله :

أوَ كلما قال الرجال قصيـــدة * نُحلت وقالـــوا ٱبن الأبيرق قالهـا

وقال الضحاك : أراد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقطع يده وكان مطاعا ، فجاءت اليهود شاكين فى السلاح فأخذوه وهربوا به؛ فنزل « هأنتم هؤلاءِ » يعنى اليهود . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾ معناه على قوانين الشرع ؛ إمّا بوَحْيٍ ونَصّ ، أو بنظر جارٍ على سنن الوَحْى . وهذا أصل فى القياس ، وهو يدل على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى شيئا أصاب؛ لأن الله تعالى أراه ذلك ، وقد ضمن الله تعالى لأنبيائه العصمة؛ فأما أحدنا إذا رأى شيئا يظنه فلا قطع فيما رآه ، ولم يرِد رؤية العين هنا؛ لأن الحكم لا يرى

بالعين . وفى الكلام إضمار ، أى بمـا أراكه الله ، وفيـه إضمار آخر ، وآمض الأحكام على ما عرفناك من غير اغترار باسترلالهم .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ اسم فاعل ، كقولك جالسته فأنا جليسه ، ولا يكون فعيلا هنا بمعنى مفعول ، يدل على ذلك « وَلَا تُجَادِلْ » فالخصيم هو المجادل ، وجمع الخصيم خصماء . وقيل : خصيما مخاصما اسم فاعل أيضا . فنهى الله عز وجل رسوله عن عَضْدِ أهل التّهم والدفاع عنهم بما يقوله خصمهم فى الحجة . وفى هذا دليل على أن النيابة عن المبطل والمتّهَـم فى الخصومة لا تجوز . فلا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعـد أن يعلم أنه مُحِقّ . ومشى الكلام فى السورة على حفظ أموال اليتامى والناس ، فبيّن أن مال الكافر محفوظ عليه كمال المسلم ، إلا فى الموضع الذى أباحه الله تعالى .

المسألة الرابعــة — قال العلماء : ولا ينبغى إذا ظهر للسلمين نفاقُ قوم أن يُجادل فريق منهم فريقا عنهم ليحموهم و يدفعوا عنهم ، فإن هذا قد وقع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيهـم نزل قوله تعـالى : « وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا » وقـوله : « وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ » . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمرادُ منـه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه لوجهين : أحدهمـا — أنه تعالى أبان ذلك بمـا ذكره بعـدُ بقوله : « هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . والآخر — أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان حكما فيما بينهم ، ولذلك كان يُعتذر إليه ولا يَعتذر هو إلى غيره ، فدلّ أن القصد لغيره .

قوله تعـالى : وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

فيه مسألة واحدة :

ذهب الطبرى إلى أن المعنى : استغفر الله من ذنبك فى خصامك الخائنين ، فأمره بالاستغفار لمـا همّ بالدفع عنهـم وقطع يد اليهودى . وهـذا مذهب من جوّز الصغائر على الأنبيـاء . قال ابن عطية : وهذا ليس بذنب ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا دافع على الظاهر وهو

يعتقد براءتهم . والمعنى : واستغفر الله للمذنبين من أمتك والمتخاصمين بالباطل ؛ ومحلّك من الناس أن تسمع من المُتَداعيين وتقضى بنحو ما تَسمع، وتستغفر للمذنب . وقيل : هو أمر بالاستغفار على طريق التسبيح ، كالرجل يقول : أستغفر الله ؛ على وجه التسبيح من غير أن يقصد توبة من ذنب . وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد بنو أُبَيرِق ؛ لقوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ »، « فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ » .

قوله تعالى : وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

أى لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم ؛ نزلت فى أُسَير بن عُرْوة كما تقدّم . والمجادلة المخاصمة ، من الجَدْل وهو الفَتْل ؛ ومنه رجل مَجْدُول الخَلْق(١) ، ومنه الأَجْدَل للصّقر . وقيل : هو من الجَدَالة وهى وجه الأرض ، فكل واحد من الخصمين يريد أن يُلْقِى صاحبه عليها ؛ قال العجّاج :

قـد أركب الحالة بعد الحالة * وأَتْرُك العاجز بالجَـدَاله
* مُنْعَفِرًا ليست له محاله *

الجَدَالة الأرض ؛ من ذلك قولهم : تركته مُجَدَّلا ؛ أى مطروحا على الجَدَالة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ ﴾ أى لا يَرضَى عنه ولا يُنَوِّه بذكره . ﴿ مَنْ كَانَ خَوَّانًا ﴾ خائنا . وخَوّانا أبلغ ؛ لأنه من أبنية المبالغة ؛ وإنما كان ذلك لعظم قدر تلك الجناية . والله أعلم .

قوله تعالى : يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

(١) مجدول الخلق : لطيف القصب محكم الفتل .

قال الضحاك : لما سَرَق الدّرع ٱتخذ حُفْرة فى بيته وجعل الدّرع تحت التّراب ؛ فنزلت ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ ﴾ يقول: لا يخفى مكان الدّرع على الله وهو معهم؛ أى رقيب حفيظ عليهم . وقيل : « يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ » أى يَستترون ؛ كما قال تعالى : « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ » أى مستتر . وقيل: يَستحيون من الناس؛ وهذا لأن الاستحياء سبب الاستتار . ومعنى ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ أى بالعلم والرؤية والسّمع ؛ هذا قول أهل السنة . وقالت الجَهْمية والقَدرية والمعتزلة : هو بكل مكان ؛ تمسّكًا بهذه الآية وما كان مثلها ؛ قالوا : لما قال « وهو معهم » ثَبتَ أنه بكل مكان؛ لأنه قد أثبت كونه معهم تعالى الله عن قولهم ؛ فإن هذه صفة الأجسام والله تعالى مُتَعالٍ عن ذلك . ألا ترى مناظرة بشر فى قول الله عز وجل : « مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » حين قال : هو بذاته فى كل مكان. فقال له خصمه : هو فى قَلَنْسُوَتك وفى حَشْوك وفى جوف حِمارك . تعالى الله عما يقولون ! حكى ذلك وَكِيع رضى الله عنه . ومعنى ﴿ يُبَيِّتُونَ ﴾ يقولون ؛ قاله الكَلْبيّ عن أبى صالح عن ٱبن عباس . ﴿ مَالَا يَرْضَى ﴾ أى مالا يرضاه الله لأهل طاعته . ﴿ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى من الرأى والاعتقاد ؛ كقولك مذهب مالك والشافعيّ . وقيل : «القول» بمعنى المَقُول؛ لأن نفس القول لا يُبيَّت .

قوله تعالى : ﴿ هَأَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ ﴾ يريد قوم بَشير السّارق لما هَرَبوا به وجادلوا عنه . قال الزجاج : « هٰؤُلَاءِ » بمعنى الذين . ﴿ جَادَلْتُمْ ﴾ حاججتم . ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ استفهام معناه الإنكار والتوبيخ . ﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ الوكيل: القائم بتدبير الأمور ؛ فالله تعالى قائم بتدبير خلقه . والمعنى: لا أحَدَ لهم يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه وأدخلهم النار .

قوله تعالى : وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

قال ابن عباس : عَرضَ الله التوبة على بنى أبيرق بهذه الآية ؛ أى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ﴾ بأن يسرق ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ بأن يشرك ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ يعنى بالتوبة ؛ فإن الاستغفار باللسان من غير توبة لا ينفع ، وقد بيّناه فى «آل عمران» . وقال الضّحاك : نزلت الآية فى شأن وَحْشِىّ قاتِل حمزة أشرك بالله وقتل حمزة ، ثم جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : إنى لنَادِم فهل لى من تَوْبة ؟ فنزل : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » الآية . وقيل : المراد بهذه الآية العُموم والشّمول لجميع الخلق . وروى سفيان عن أبى إسحاق عن الأسود وعَلْقَمة قالا : قال عبد الله بن مسعود من قرأ هاتين الآيتين من سورة « النساء » ثم استغفر غُفِر له : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا » « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا » . ورُوِى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : كنت إذا سَمِعت حديثا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نَفَعنى الله به ما شاء ، وإذا سَمِعته من غيره حالفته ، وحدثنى أبو بكر وصَدَق أبو بكر : ما من عبد يُذنب ذنبا ثم يتوضأ ويُصلّى ركعتين ويستغفر الله إلا غُفِر له ؛ ثم تلا هذه الآية « ومن يعمل سُوءًا أو يظلِم نفسه ثم يستغفِرِ اللهَ يجِدِ الله غفورا رحيما » .

قوله تعالى : وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا ﴾ أى ذنبا ﴿ فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أى عاقبته عائدة عليه . والكسب ما يجر به الإنسان إلى نفسه نفعا أو يدفع عنه ضررا . ولهذا لا يسمى فعل الرب تعالى كسبا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ﴾ قيل : هما بمعنى واحد كُرّر لاختلاف اللفظ تأكيدا . وقال الطّبرى : إنما فرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة تكون عن عَمْد وعن غير

عَمْد، والإثم لايكون إلا عن عَمْد . وقيل : الخطيئة مالم تتعمّده كالقتل بالخطأ . وقيــل : الخطيئة الصغيرة، والإثم الكبيرة . وهذه الآية لفظها عام يندرج تحته أهل النازلة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ﴾ قد تقدّم اسم البرىء. والهاء فى « به » للإثم أو للخطيئة؛ لأن معناها الإثم، أولها جميعا . وقيل: ترجع إلى الكسب . ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ تشبيه؛ إذ الذنوب ثِقل ووزر فهى كالمحمولات . وقال تعالى : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » . والبهتان من البُهْت، وهو أن تستقبل أخاك بأن تقـذفه بذنب وهو منه برىء . روى مسلم عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما الغِيبة "؟ قالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال : " ذِكْرُك أخاك بما يكره " . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال : " إن كان فيه ماتقول فقد ٱغتبتَه وإن لم يكن فيه فقد بهته " . وهذا نص؛ فرمى البرئ بُهْت له . يقال : بهته بَهْتا وبَهَتًا وبُهتانا إذا قال عليه مالم يفعله . وهو بَهّات والمقـول له مبهوت . ويقال : بَهِت الرجل (بالكسر) إذا دهش وتحيّر . وبَهُت (بالضم) مثله ، وأفصح منهما بُهِت؛ كما قال الله تعالى : « فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ » لأنه يقال رجل مبهوت ولا يقال باهت ولا بهيت؛ قاله الكسائى .

قوله تعالى : وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ ما بعد « لولا » مرفوع بالابتداء عنـد سيبويه ، والخبر محـذوف لا يظهر؛ والمعنى : « ولولا فضلُ اللهِ عليك ورحمته » بأن نبّهك على الحق؛ وقيل : بالنبوة والعِصْمة . ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ عن الحق؛ لأنهم

سألوا رسول الله صلى الله عليه وسـلم أن يبرئ ٱبن أُبَيْرِق من التُّهَمة ويُلحقها اليهوديّ؛ فتفضل الله عز وجل على رسوله عليه السلام بأن نبّهه على ذلك وأعلمه إياه . ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ لأنهم يعملون عمل الضالين، فوباله راجع عليهم . ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ لانك معصوم . ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ هذا ابتداء كلام . وقيل : الواو للحال؛ كقولك جئتك والشمس طالعة؛ ومنه قول ٱمرئ القيس :

* وقد أغتـــدِى والطيرُ فى وُكُناتها *

فالكلام متصل؛ أى ما يَضُرّونك من شيء مع إنزال الله عليك القرآن . « والحِكْمة » القضاء بالوَحْى . ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ يعنى من الشرائع والأحكام . و « تعـلم » فى موضـع نصب؛ لأنه خبر كان . وحذفت الضمة من النون للجزم، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين .

قوله تعـالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١١٤)

أراد ماتفاوض به قوم بنى أبيرق من التدبير وذكروه للنبيّ صلى الله عليه وسلم . والنَّجْوَى : السر بين الاثنين؛ تقول : ناجيت فلانا مُناجاة ونِجاء وهم يَنْتَجُون ويَتَنَاجَوْن . ونَجَوْت فلانا أنجُوه نَجْوًا ، أى ناجيتـه؛ فنجْوَى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه، أى خلصتـه وأفردته؛ والنجوة من الأرض المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله؛ قال الشاعر :

فَمَنْ بِنَجْوتِهِ كمن بِعَقْـــوتِهِ * والمُسْتَكِنّ كمن يَمْشِى بِقِرواحِ (١)

فالنَّجْوَى المسارّة مصدر، وقـد تُسمَّى به الجماعة؛ كما يقـال : قومٌ عدلٌ ورِضًا . قال الله تعـالى : « وَإِذْ هُمْ نَجْوَى »؛ فعلى الأول يكون الأمر أمر استثناء من غير الجنس، وهو

(١) البيت لأوس بن حجر . والعقوة : الساحة وما حول الدار والمحلة . والقرواح : البارز الذى ليس يستره من السماء شيء .

الاستثناء المنقطع وقد تقــدم ؛ وتكون « مَن » فى موضــع رفع ؛ أى لكن من أمر بصدقة أو معروف أو إصــلاح بين النــاس ودعا إليــه ففى نجواه خير . ويجوز أن تكون « من » فى موضــع خفض ويكون التقــدير : لا خير فى كثير من نجواهم إلا نجوى من أمر بصدقة ثم حذف . وعلى الثانى وهو أن يكون النجوى اسما للجماعة المنفردين ، فتكون « مَن » فى موضع خفض على البدل ؛ أى لا خير فى كثير من نجواهم إلا فيمن أمر بصدقة . أو تكون فى موضع نصب على قول من قال : ما مررت بأحد إلا زيدا . وقال بعض المفسرين منهم الزجاج : النجوى كلام الجمــاعة المنفردة أو الآثنين كان ذلك سِرًّا أو جهرا ، وفيه بُعْدٌ . والله أعلم . والمعروف : لفظ يَعُمّ أعمالَ البِرّ كلَّها . وقال مُقاتِل : المعروف هنا القرض ؛ والأول أصح . وقال صلى الله عليه وسلم : "كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلق أخاك بوجه طَلْق". وقال صلى الله عليه وسلم : "المعروف كاسمه أول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله". وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لا يزهدنك فى المعــروف كفر من كفره ، فقــد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر . وقال الحُطَيئة :

مَن يفعل ٱلخير لا يَعدَم جوازِيَه * لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

وأنشد الرِّياشىّ :

يَدُ المعروفِ غُنْمٌ حيث كانت * تحمّلهــا كفورٌ أم شــكور
ففى شكر الشكور لهــا جزاء * وعنــد الله ما كفر الكفور

وقال المــاوَرْدِى : « فينبغى لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجّله حذار فواته ، ويبادر به خِيفة عجزه ، وليعلم أنه من فُرَص زمانه ، وغنائم إمكانه ، ولا يهمله ثقةً بالقدرة عليه ، فكم واثق بقدرةٍ فاتت فأعقبت نَدَما ، ومعوّل على مِكْنة زالت فأوْرثَتْ خجلا ، كما قال الشاعر :

مازلت أسمع كم من واثق خجل * حتى ٱبتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فَطِن لنوائب دهره ، وتحفّــظ من عواقب مكره لكانت مغانمــه مذخورة ، ومغارمه مجبورة ؛ فقد روى عن النبىّ صــلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَن فُتح عليه باب من الخير

فليتهزه فإنه لا يدرى متى يُغلق عنه " . ورُوى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لكل شيء ثمرة وثمرةُ المعروف السّراح[1] " . وقيل لأنو شِرْوَان : ما أعظمُ المصائب عندكم ؟ قال : أن تقدر على المعروف فلا تصطنعه حتى يفوت . وقال عبد الحميد : من أخّر الفرصة عن وقتها فليَكُن على ثقة من فوتها . وقال بعض الشعراء :

إذا هَبّت رياحُك فاغتنِمْها * فإنّ لكل خافقة سكونُ
ولا تغفَل عن الإحسان فيها * فماتدرى السكون متى يكون

وكتب بعض ذوى الحُرُمات إلى وَالٍ قَصّر فى رعاية حُرْمته :

أعَلَى الصراط تريد رِعْيـة حرمتى * أم فى الحساب تمنّ بالإنعام
للنفع فى الدنيا أريدك ، فانتبه * لحوائجى من رقدة النوّام

وقال العباس : لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال : تعجيله وتصغيره وستره ؛ فإذا عجّلته هنأته ، وإذا صغّرته عظّمته ، وإذا سترته أتممته . وقال بعض الشعراء :

زاد معروفُك عندى عظما * إنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شرط المعروف تركُ الامتنان به ، وتركُ الإعجاب بفعله ؛ لما فيهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر» . وقد تقدّم فى « البقرة[2] » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ عامٌّ فى الدماء والأموال والأعراض ، وفى كل شيء يقع التّداعى والاختلافُ فيه بين المسلمين ، وفى كل كلام يراد به وجه الله تعالى . وفى الخبر : "كلام ٱبنِ آدم كلُّه عليه لاله إلا ما كان من أمرٍ بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكرِ الله تعالى" . فأما من طلب الرياء والترؤس فلا ينال الثواب . وكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه : ردّ الخصوم حتى يصطلحوا ؛ فإن القضاء يُورِث بينهم الضغائن . وسيأتى فى « المجادلة » ما يحرم من المناجاة وما يجوز إن شاء الله تعالى . وعن أنس بن مالك

(١) السراح : التعجيل . (٢) راجع ج ٣ ص ٣١١ طبعة أولى أو ثانية .

رضي الله عنه أنه قال : من أصلح بين آثنين أعطاه الله بكل كلمة عتقَ رقبة . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب : " ألا أدلّك على صدقة يحبها الله ورسوله تصلح بين أناس إذا تفاسدوا وتقرّب بينهم إذا تباعدوا " . وقال الأوزاعيّ : ما خطوة أحبّ إلى الله عز وجل من خطوة في إصلاح ذات البين، ومن أصلح بين اثنين كتب الله له براءة من النار. وقال محمد بن المُنْكَدِر : تنازع رجلان في ناحية المسجد فمِلْت إليهما فلم أزل بهما حتى اصطلحا؛ فقال أبو هريرة وهو يراني : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أصلح بين آثنين استوجب ثواب شهيد " . ذكر هذه الأخبار أبو مطيع مكحول بن المفضّل النسفيّ في كتاب اللُّؤلُئِيّات له، وجدته بخط المصنف في وريقة ولم ينبّه على موضعها رضي الله عنه . و﴿ ابتغاءَ ﴾ نصب على المفعول من أجله .

قوله تعالى : وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قال العلماء : هاتان الآيتان نزلتا بسبب آبن أُبَيْرِق السارق، لما حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقطع وهرب إلى مكة وآرتدّ؛ قال سعيد بن جبير : لما صار إلى مكة نقَب بيتا بمكة فلحقه المشركون فقتلوه؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ » إلى قوله : « فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا » . وقال الضحاك : قَدِم نفر من قريش المدينةَ وأسلموا ثم آنقلبوا إلى مكة مرتدّين فنزلت هذه الآية «ومن يشاقِق الرسول» . والمشاقّة المعاداة . والآية وإن نزلت في سارق الدّرع أو غيره فهي عامّة في كل من خالف طريقَ المسلمين . والهُدَى :

الرشـد والبيان، وقد تقدم[1] . وقوله تعالى : ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ يقال : إنه نزل فيمن ٱرتد ؛ والمعنى : نتركه وما يعبد ؛ عن مجاهد . أى نَكِله إلى الأصنام التى لا تنفع ولا تضرّ؛ وقاله مقاتل . وقال الكلبي : نزل قوله تعالى : « نُوَلِّهِ مَا تولَّى » فى ٱبن أُبَيرق ؛ لمـا ظهرت حاله وسرقتـه هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطا لرجل بمكة يقال له : حجّاج بن عِلَاط ، فسقط فبقى فى النّقْب حتى وُجد على حاله ، وأخرجوه من مكة؛ فخرج إلى الشام فسرق بعضَ أموال القافلة فرجموه فقتلوه ، فنزلت « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْـلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » . وقرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو « نُوَلِّهْ » و « نُصْلِهْ » بجزم الهـاء، والباقون بكسرها، وهما لغتان .

الثانيـــة — قال العلماء فى قوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ » دليل على صحة القول بالإجماع . وفى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » ردّ على الخوارج؛ حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر . وقد تقدّم القول فى هـذا المعنى . وروى التّرمذيّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : ما فى القرآن آيةٌ أحبُّ إلىّ من هذه الآية « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ » [قال :] هذا حديث غريب . قال ابن فُورَك : وأجمع أصحابنا على أنه لا تخليد إلا للكافر ، وأن الفاسق من أهل القِبْلة إذا مات غيرَ تائب فإنه إن عُذّب بالنار فلا محالة أنه يخرج منها بشفاعة الرسول؛ أو بابتداء رحمةٍ من الله تعالى . وقال الضحاك : إن شيخًا من الأعراب جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : يارسول الله، إنى شـيخ منهمك فى الذّنوب والخطايا ، إلا أنى لم أشرك بالله شيئا منذ عرفتُه وآمنتُ به ، ولم أتخـذ من دونه وَلِيًّا، ولم أُوقع المعاصى جرأة على الله ولا مكابرة له ، وإنى لنـادم وتائب ومستغفر ، فما حالى عند الله ؟ فأنزل الله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » الآية .

قوله تعـالى : إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾

(١) راجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية وثالثة .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى من دون الله إلا إناثا . نزلت فى أهـل مكة إذ عبدوا الأصنام . و « إِنْ » نافية بمعنى « ما » . و « إناثا » أصناما ، يعنى اللّات والعُزّى ومَناة . وكان لكل حىّ صنم يعبدونه ويقولون أنثى بنى فلان ؛ قاله الحسن وابن عباس ، وأنّ مع كل صنم شيطانه يتراءى للسَّدَنة والكهنة ويكلمهم ؛ فخرج الكلام مخرج التعجب ؛ لأن الأنثى من كل جنس أخسّه ؛ فهذا جهل ممن يشرك بالله جمادا فيسميه أنثى ، أو يعتقده أنثى . وقيل : « إِلَّا إِنَاثًا » مَوَاتًا لأن الموات لا رُوح له ، كالخشبة والحجر . والموات يُخبر عنه كما يخبر عن المؤنث لاتّضاع المنزلة ؛ تقول : الأحجار تعجبنى ، كما تقول : المرأة تعجبنى . وقيل : « إلا إناثا » ملائكة ؛ لقولهم : الملائكة بنات الله ، وهى شفعاؤنا عند الله ؛ عن الضحّاك . وقـراءة ابن عباس « إِلا وَثَنا » بفتح الواو والثاء على إفراد اسم الجنس ؛ وقـرأ أيضا « وُثُنا » بضم الواو والثاء جمع وَثَن . وأوثان أيضا جمع وَثَن مثل أسد وآساد . النحاس : ولم يقرأ به فيما علمت .

قلت : قد ذكر أبو بكر الأنبارى — حدّثنا أبى حدّثنا نصر بن داود حدثنا أبو عبيد حدّثنا حجاج عن ابن جُريج عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنهـا كانت تقرأ « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَوْثَانًا » . وقرأ ابن عباس أيضا « إلا أُثُنًا » كأنه جمع وَثَنًا على وِثان ؛ كما تقول : جمل وجِمال ، ثم جمع وِثانا على وُثُن ؛ تقول : مِثال ومُثُل ؛ ثم أبدل من الواو همـزة لمـا انضمت ؛ كما قال جل وعز : « وَإِذَا الرُّسُـلُ أُقِّتَتْ » من الوقت ؛ فأُثُن جمع الجمع . وقرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم « إلا أُنُثًا » جمع أنيث كغدير وغدر . وحكى الطبرى أنه جمعُ إناث كثِمار وثمر . حكى هـذه القراءة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أبو عمرو الدّانِىّ ؛ قال : وقرأ بها ابن عباس والحسن وأبو حَيْوَة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ يريد إبليس ؛ لأنهم إذا أطاعوه فيما سوّل لهم فقـد عبدوه ؛ ونظيره فى المعنى « اتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »(١) أى أطاعوهم فيما أمروهم به ؛ لا أنهم عبدوهم . وسيأتى . وقد تقدّم اشتقاق لفظ الشيطان . والمَرِيد

(١) راجع جـ ١ ص ٩٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

العاتى المتمرّد ، فعيل من مَرد إذا عتَا . قال الأزهرى : المَرِيد الخارج عن الطاعة ، وقد مَرُد الرجل يَمْرُد مرودا إذا عتا وخرج عن الطاعة ، فهو مارد ومريد ومتمرد . ابن عرفة : هو الذى ظهر شره ؛ ومن هذا يقال : شجرة مرداء إذا تساقط ورقها فظهرت عيدانها ؛ ومنه قيل للرجل : أمرد ، أى ظاهر مكان الشعر من عارضيه .

قوله تعـالى : لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أصل اللّعن الإبعادُ ، وقد تقدّم[1] . وهو فى العرف إبعادٌ مقترِنٌ بسَخَط وغضب ؛ فلعنة إبليس — عليه لعنة الله — على التعيين جائزة ، وكذلك الكَفرة الموتى كفرعون وهامان وأبى جهل ؛ فأما الأحياء فقد مضى الكلام فيه فى « البقرة »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أى وقال الشيطان ؛ والمعنى : لأستخلصنهم بغَوايتى وأضلنهم بإضلالى ، وهم الكفرة والعصاة . وفى الخبر " من كل ألف واحد لله والباق للشيطان " .

قلت : وهذا صحيح معنًى ؛ يَعْضُده قوله تعالى لآدم يوم القيامة : «ابعث بعث النار فيقول وما بعث النـار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . أخرجه مسلم . وبعث النار هو نصيب الشيطان . والله أعلم . وقيل : من النصيب طاعتهـم إياه فى أشياء ، منهـا أنهم كانوا يضربون للولود مسمارا عند ولادته ، ودورانهم به يوم أسبوعه يقولون ليعرفه العُمّار[3] .

قوله تعـالى : وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٨٨ طبعة ثانية .
(٣) عمار البيوت : سكانها من الجن .

فيـــه تسع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ أى لأصرفنّهم عن طريق الهدى . ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أى لأسوّلنّ لهم من التمنى ، وهــذا لاينحصر إلى واحد من الأمنية ؛ لأن كل واحد فى نفسه إنمـا يمنّيه بقــدرِ رغبته وقرائن حاله . وقيل : لأمنّينهم طول الحياة الخيرَ والتوبةَ والمعرفةَ مع الإصرار . ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ﴾ البَتْك القطع؛ ومنه سيف باتِك. أى أحملهم على قطع آذان البَحيرة والسائبة ونحوه . يقال: بتَكَه و بتّكه، (مخففا ومشدّدا) وفى يده بِتْكَة أى قطعة،والجمع بِتَك؛ قال زهير (١) :

* طارت وفى كفه من ريشها بِتَكُ *

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُـمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ اللّامات كلها للقسم . واختلف العلماء فى هذا التفسير إلى ماذا يرجع؛ فقالت طائفة: هوالخِصاء وفقء الأعين وقطع الآذان؛ قال معناه ابن عباس وأنس وعِكرمة وأبو صالح . وذلك كله تعذيب للحيوان وتحريم وتحليل بالطغيان ، وقول بغير حجة ولا برهان. والآذان فى الأنعام جَمال ومنفعة، وكذلك غيرها من الأعضاء؛ فلذلك رأى الشيطانُ أن يغير ما خلق الله تعالى . وفى حديث عِياض بن حِمار المُجاشعيّ " وأنى خلقت عبادى حنفاء كلّهم وأن الشياطين أتتهم فاَجتالتهم (٢) عن دينهم فحرّمتْ عليهم ما أحللت لهم وأمَرَتْهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا وأمَرَتْهم أن يغيّروا خلقى ". الحديث، أخرجه القاضى إسماعيل ومسلم أيضا . ورَوى إسماعيل قال حدّثنا أبو الوليد وسليمان ابن حرب قالا حدّثنا شـعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قَشِف الهيئة، قال : " هل لك من مال " ؟ قلت : نعم . قال: " من أى المـال " ؟ قلت : من كل المـال، من الخيل والإبل والرقيق ــ قال أبو الوليد : والغنم ــ قال : " فإذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ عليك أثره " ثم قال: "هل تُنْتِجُ (٣) إبِلَ قومِك صِحاحا

---

(١) هذا عجز بيت، وصدره * حتى إذا ماهوت كف الغلام لها *		(٢) اجتالتهم : استخفتهم .

(٣) نتجت الناقة (من باب ضرب) : إذا ولدتها وولِيت نتاجها .

آذانُهـا فتعمِدُ إلى موسَى فتشقّ آذانَهـا وتقول هـذه بُحُر وتشق جلودَها وتقول هـذه صُرُم(١) لتحرِّمها عليك وعلى أهلك " ؟ قال : قلت أجل . قال : "وكلّ ما آتاك الله حِلّ ومُوسَى الله أحدُّ من مُوسِك وساعد الله أشـدّ من ساعدك " . قال قلت : يا رسول الله، أرأيتَ رجلا نزلْتُ به فلم يَقْرِنى ثم نزل بى أفأَقْريه أم أكافئه ؟ فقال : " بل اقْرِه " .

الثالثـــة — ولمـا كان هذا من فعل الشيطان وأثره أمرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم "أن نَستشرف(٢) العين والأذن ولا نضحِّى بعوراءَ ولا مُقابَلة ولا مُدابَرة ولا خرقاء ولا شرقاء". أخرجه أبو داود عن علىّ قال : أمرَنا ، فذكره . المقابَلة : المقطوعة طرف الأذن . والمدابرة : المقطوعة مؤخّر الأذن . والشرقاء: مشقوقة الأذن . والخرقاء التى تخرِق أذنَها السِّمَة . والعيب فى الأذن مراعًى عنـد جماعة العلمـاء . قال مالك والليث : المقطوعة الأذن لاتجزئ أو جُلّ الأذن ، والشقّ للمِيسَم يجزئ ؛ وهو قول الشافعىّ و جماعة الفقهاء . فإن كانت سَكّاء وهى التى خُلقت بلا أذن فقال مالك والشافعى : لا يجوز . و إن كانت صغيرة الأذن أجزأت ؛ ورُوِى عن أبى حنيفة مثل ذلك .

الرابعـــة — وأما خِصاء البهائم فرخص فيه جماعة من أهل العلم إذا قصدت فيه المنفعة ، إما لسمن أو غيره . والجمهـور من العلمـاء وجماعتهم على أنه لا بأس أن يُضحَّى بالخصى ، واستحسنه بعضهم إذا كان أسمنَ من غيره . ورَخّص فى خِصاء الخيل عمرُ بن عبد العزيز . وخَصَى عروة بن الزبير بغلا له . ورخّص مالك فى خِصاء ذكور الغنم ، و إنما جاز ذلك لأنه لا يقصد به تعليق(٣) الحيوان بالدِّين لصنم يُعبد ، ولا لرب يوحَّد ؛ وإنما يقصد به تطييب اللحم [فيما يؤكل](٤) ، وتقوية الذَّكَر إذا انقطع أمله عن الأنثى . ومنهم من كره ذلك ؛ لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون". واختاره ابن المنذر قال : لأن ذلك

---

(١) صرم (جمع صريم) : وهو المقطوع الأذن . (٢) تشرف الشىء واستشرفه : وضع يده على حاجبه كالذى يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه . ومعنى الحديث : أن نتأمل سلامتهما من آفة تكون بهما ؛ وآفة العين عورها ، وآفة الأذن قطعها . (٣) كذا فى الأصول . والذى فى ابن العربى : « تعليق الحال بالدين » . (٤) زيادة عن ابن العربى .

ثابت عن ابن عمر، وكان يقول : هو نماء خلق الله . وكره ذلك عبد الملك بن مروان . وقال الأوزاعيّ : كانوا يكرهون خِصاء كل شيء له نَسل. وقال ابن المنذر : وفيه حديثان؛ أحدهما عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن خصاء الغنم والبقر والإبل والخيل . والآخر حديث ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نهى عن صَبْر(١) الروح وخِصاء البهائم . والذى فى الموطأ من هذا الباب ما ذكره عن نافع عن ابن عمر أنه كان يكره الإخصاء ويقول : فيه تمام الخلْق . قال أبو عمر : يعنى فى ترك الإخصاء تمام الخلق، وروى نماء الخلق .

قلت : أسند أبو محمد عبد الغنى من حديث عمر بن إسماعيل عن نافع عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تخصوا ما يُنْمِى خلق الله" . رواه عن الدارقطنى شيخه قال : حدّثنا عباس بن محمد حدّثنا قُراد حدّثنا أبو مالك النخعيّ عن عمر بن اسماعيل؛ فذكره . قال الدارقطنى : ورواه عبد الصمد بن النعمان عن أبى مالك .

الخامســة — وأما الخصاء فى الآدمى فمصيبة؛ فإنه إذا خُصى بطل قلبه وقوّته، عكس الحيوان، وانقطع نسله المأمور به فى قوله عليه السلام: "تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم". ثم إن فيه ألما عظيما ربما يُفضى بصاحبه إلى الهلاك، فيكون فيه تضييع مال وإذهاب نفس، وكل ذلك منهيّ عنه . ثم هذه مُثْلة، وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن المُثْلة؛ وهو صحيح . وقد كره جماعة من فقهاء الحجازيين والكوفيين شراء الخصى من الصّقالبة وغيرهم وقالوا : لو لم يشتروا منهم لم يخصوا . ولم يختلفوا أن خصاء بنى آدم لا يحلّ ولا يجوز؛ لأنه مُثْلة وتغيير لخلق الله تعالى، وكذلك قطع سائر أعضائهم فى غير حَدّ ولا قَوَد؛ قاله أبو عمر .

السادســة — وإذا تقرر هذا فاعلم أن الوَسْم والإشعار مستثنًى من نهيه عليه السلام عن شريطة الشيطان، وهى ما قدمناه من نهيه عن تعذيب الحيوان بالنار، والوَسم الكَيّ بالنار وأصله العلامة؛ يقال : وَسَم الشيء يَسِمه إذا علّمه بعلامة يُعرف بها؛ ومنه قوله تعالى : « سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم » . فالسيما العلامة والمِيسَم المكواة . وثبت فى صحيح مسلم عن أنس

(١) صبرُ الانسانِ وغيره على القتل : هو أن يحبس ويرمى حتى يموت .

قال : رأيت فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم المِيسَم وهو يسم إبل الصدقة والفىء وغير ذلك حتى يعرف كلّ مال فيؤدى فى حقه ؛ ولا يتجاوز به إلى غيره .

السابعــة — والوَسم جائز فى كل الأعضاء غير الوجه ؛ لما رواه جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضرب فى الوجه وعن الوسم فى الوجه ؛ أخرجه مسلم . وإنما كان ذلك لشرفه على الأعضاء ؛ إذ هو مَقَرّ الحسن والجمال ، ولأن به قِوام الحيوان ؛ وقد مرّ النبىّ صلى الله عليه وسلم برجل يضرب عبدَه فقال : "اتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته". أى على صورة المضروب ؛ أى وَجْهُ هذا المضروب يشبه وجهَ آدمَ ، فينبغى أن يُحترم لشبهه . وهذا أحسن ما قيل فى تأويله والله أعلم . وقالت طائفة : الإشارة بالتغيير إلى الوشم وما جرى مجراه من التصنّع للحسن ؛ قاله ابن مسعود والحسن . ومن ذلك الحديث الصحيح عن عبد الله قال : "لعن الله الواشمات والمُستوشِمات [والنّامصات](1) والمتنمّصات [والمُتفلِّجات] للحُسْن المغيّرات خلقَ الله" الحديث . أخرجه مسلم ، وسيأتى بكماله فى الحشر إن شاء الله تعالى . والوشم يكون فى اليدين ، وهو أن يُغرز ظهرُ كف المرأة ومعصمُها بإبرة ثم يُحشى بالكحل أو بالنَّؤُور(2) فيخضرّ . وقد وَشَمَت تَشِم وَشْماً فهى واشمة . والمستوشمة التى يفعل ذلك بها ؛ قاله الهروىّ . وقال ابن العربىّ : و رجال صِقِلّيّة و إفريقيّة يفعلونه ؛ ليدلّ كل واحد منهم على رُجْلِيّة فى حداثته . قال القاضى عِياض : وقع فى رواية الهَرَوىّ — أحد رواة مسلم — مكان «الواشمة والمستوشمة» الواشية والمستوشِيَةُ ، (بالياء مكان الميم) وهو من الوَشْى وهو التزيّن ؛ وأصل الوشى نسج الثوب على لونين ، وثور مُوَشًّى فى وجهه وقوائمه سواد ؛ أى تشى المرأة نفسها بما تفعله فيها من التنمّص والتفليج والأشْر . والمتنمّصات جمع متنمّصة وهى التى تقلع الشعر من وجهها بالمِنماص ، وهو الذى يقلع الشعر ؛ و يقال لها النامصة . ابن العربى : وأهل مصر ينتفون شعر العانة وهو منه ؛ فإن السنّة حلق العانة ونتف الإبط ، فأما نتف الفرج فإنه يُرخيه و يؤذيه ، ويُبطل كثيرا من المنفعة فيه . والمُتَفَلِّجات جمع متفلجة ، وهى التى تفعل الفَلَج

(1) الزيادة عن صحيح مسلم . (2) النئور : دخان الشحم .

فى أسنانها ؛ أى تعانيه حتى تَرجع المُضْمَتة الأسنان خِلْقة فلجاءَ صَنْعةً . وفى غير كتاب مُسلم : الواشرات ، وهى جمع واشرة ، وهى التى تشر أسنانها ؛ أى تصنع فيها أشرا ، وهى التحزيزات التى تكون فى أسـنان الشبان ، تفعل ذلك المرأة الكبيرة تشبُّهاً بالشابة . وهـذه الأمور كلها قد شهدت الأحاديث بلعن فاعلها وأنهـا من الكبائر . واختُلف فى المعنى الذى نُهى لأجلها ؛ فقيل : لأنها من باب التدليس . وقيل : من باب تغيير خلق الله تعالى ؛ كما قال ابن مسعود وهو أصح ، وهو يتضمن المعنى الأول . ثم قيل : هذا المنهى عنه إنمـا هو فيما يكون باقيا ؛ لأنه من باب تغيير خلق الله تعالى ، فأما مالا يكون باقيا كالكحل والتزين به للنساء فقد أجازه العلماء مالك وغيره ، وكرهه مالك للرجال . وأجاز مالك أيضا أن تَشِىَ المرأة يديها بالحناء . ورُوى عن عمر إنكار ذلك وقال : إمّا أن تخضب يديها كلّها و إما أن تَدَع ، وأنكر مالك هذه الرواية عن عمر ، ولا تدع الخضاب بالحناء ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم رأى امرأة لا تختضب فقال : " لا تدع إحداكن يدها كأنها يد رجل " فما زالت تختضب وقـد جاوزت التسعين حتى ماتت . قال القاضى عياض : وجاء حديث بالنّهى عن تسـويد الحناء ، ذكره صاحب النصائح . ولا تتعطل ، ويكون فى عنقها قلادة من سير فى خرز ؛ فإنه يُروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة : " إنه لا ينبغى أن تكونى بغير قلادة إما بخيط و إما بسير " . وقال أنس : يستحب للمرأة أن تعلق فى عنقها فى الصلاة ولو سيرا . قال أبو جعفر الطبرى : حديث ابن مسعود دليل على أنه لا يجوز تغيير شىء من خلقها الذى خلقها الله عليه بزيادة أو نقصان ، التماسَ الحُسْن لزوج أو غيره ، سواء فلّجت أسنانها أو وَشرتها ، أو كان لها سن زائدة فأزالتها أو أسـنان طِوال فقطعت أطرافها . وكذا لا يجوز لها حلق لِحية أو شارب أو عنفقة و إن نبتت لها ؛ لأن كل ذلك تغيير خلق الله . قال عياض : و يأتى على ماذكره أن من خُلق بأصبع زائدة أو عضو زائد لا يجوز له قطعه ولا نزعه ؛ لأنه من تغيير خلق الله تعالى ، إلا أن تكون هذه الزوائد تؤلمه فلا بأس بنزعها عند أبى جعفر وغيره .

الثامنــة — قلت : ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة " أخرجه مسلم . فنهى صلى الله عليه وسلم عن وصل المرأة شعرها، وهو أن يضاف إليه شعر آخر يكثر به، والواصلة هي التي تفعل ذلك ، والمستوصلة هي التي تستدعي من يفعل ذلك بها . مسلم عن جابر قال : زجر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن تصل المرأة بشعرها(١) شيئا . وخرّج عن أسماء بنت أبي بكر قالت : جاءت امرأة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله، إن لي ابنةً عُرَيِّساً(٢) أصابتها حصبة فتمرّق شعرها أفأصلُه ؟ فقال : " لعن الله الواصلة والمستوصلة ". وهذا كله نص في تحريم وصل الشعر، وبه قال مالك وجماعة العلماء . ومنعوا الوصل بكل شيء من الصوف والخرق وغير ذلك؛ لأنه في معنى وَصْلِه بالشعر . وشذّ الليث بن سعد فأجاز وصله بالصوف والخرق وما ليس بشعر ؛ وهذا أشبه بمذهب أهل الظاهر . وأباح آخرون وضع الشعر على الرأس وقالوا : إنما جاء النهي عن الوصل خاصّة، وهذه ظاهرية محضة وإعراض عن المعنى . وشذ قوم فأجازوا الوصل مطلقا ، وهو قول باطل قطعا ترده الأحاديث . وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها ولم يصح . وروى عن ابن سيرين أنه سأله رجل فقال : إن أمّي كانت تمشُط النساء ، أتراني آكل من مالها ؟ فقال : إن كانت تصل فلا . ولا يدخل في النهي ما ربط بخيوط الحرير الملوّنة على وجه الزينة والتجمل، والله أعلم .

التاسعة — وقالت طائفة : المراد بالتغيير لخلق الله هو أن الله تعالى خلق الشمس والقمر والأحجار والنار وغيرها من المخلوقات؛ ليعتبر بها وينتفع بها ، فغيّرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة . قال الزجاج : إن الله تعالى خلق الأنعام لتُركب وتُؤكل فحرّموها على أنفسهم، وجعل الشمس والقمر والحجارة مسخّرة للناس فجعلوها آلهة يعبدونها ، فقد غيّروا ما خلق الله . وقاله جماعة من أهل التفسير : مجاهد والضحاك وسعيد بن جُبير وقتادة . ورُوي عن ابن عباس

---

(١) هكذا في الأصول . وفي صحيح مسلم : « برأسها » . (٢) عريسا (بضم العين وفتح الراء وتشديد الياء المكسورة) تصغير عروس والعريس يقع على المرأة والرجل عند الدخول بها .

« فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ » دين الله؛ وقاله النخعيّ، واختاره الطبري قال : وإذا كان ذلك معناه دخل فيه كل ما نهى الله عنه من خصاء ووشم وغير ذلك من المعاصي ؛ لأن الشيطان يدعو إلى جميع المعاصي؛ أي فليغيرن ما خلق الله في دينه. وقال مجاهد أيضا : «فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ» فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ يعني أنهم وُلدوا على الإسلام فأمرهم الشيطان بتغييره ، وهو معنى قوله عليه السلام : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويُمجّسانه". فيرجع معنى الخلق إلى ما أوجده فيهم يوم الذّر من الإيمان به في قوله تعالى: « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى » . قال ابن العربيّ : رُوي عن طاوس أنه كان لا يحضر نكاح سوداءَ بأبيضَ ولا بيضاء بأسودَ، ويقول : هذا من قول الله « فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ » . قال القاضي : وهذا وإن كان يحتمله اللفظ فهو مخصوص بما أنفذه النبيّ صلى الله عليه وسلم من نكاح مولاه زيد وكان أبيض، بظئره بركة الحبشية أم أسامة وكان أسود من أبيض، وهذا مما خفي على طاوس مع علمه .

قلت : ثم أنكح أسامةَ فاطمةَ بنت قيس وكانت بيضاء قرشية . وقد كانت تحت بلال أختُ عبد الرحمن بن عوف زُهرِيّةٌ . وهذا أيضا يُخصّ وقد خفي عليهما .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي يطيعه ويدَع أمر الله . ﴿ فَقَدْ خَسِرَ ﴾ أي نقص نفسه وغبنها بأن أعطى الشيطان حق الله تعالى فيه وتركه من أجله .

قوله تعالى : يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ ﴾ المعنى يعدهم أباطيله وتُرّهاته من المال والجاه والرياسة، وأن لا بعث ولا عقاب ، ويُوهمهم الفقر حتى لا ينفقوا في الخير ﴿ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ لذلك ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي خديعة . قال ابن عرفة : الغرور ما رأيتَ له ظاهرا تحبه وفيه

باطن مكروه أو مجهول. والشيطان غَرور لأنه يحمل على محابّ النفس، ووراء ذلك ما يســوء. ﴿أولئك﴾ ابتداء ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ابتداء ثان ﴿جَهَنَّمُ﴾ خبر الثاني والجملة خبر الأول. و ﴿مَحِيصًا﴾ ملجأ، والفعل منه حاص يحيص. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ابتداء وخبر. ﴿قِيلًا﴾ على البيان؛ قال قيلا وقولا وقالا، بمعنى لا أحد أصدق من الله. وقد مضى الكلام على ما تضمنته هــذه الآى من المعانى والحمد لله.

قوله تعـالى : لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ . وقرأ أبو جعفر المــدنيّ « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِى أَهْلِ الْكِتَابِ » بتخفيف الياء فيهما جميعا . ومن أحسن ما رُوى فى نزولها ما رواه الحكم بن أبان عن عِكرمة عن ابن عباس قال : قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة إلا من كان منا. وقالت قريش: ليس نبعث؛ فأنزل الله «لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ» . وقال قَتادة والسُّدِّيّ : تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبيُّنا قبــل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحقّ بالله منكم . وقال المؤمنون : نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على سائر الكتب؛ فنزلت الآية .

قوله تعالى : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ . السوء ههنا الشرك؛ قال الحسن : هذه الآية فى الكافر، وقرأ « وَهَــلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ » . وعنه أيضا « من يعمل ســوءا يجز به » قال : ذلك لمن أراد الله هَوانَه، فأما من أراد كرامته فلا؛ قد ذكر الله قوما فقال : « أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ » . وقال الضحاك : يعنى اليهــود والنصارى والمجوس وكفار العرب. وقال الجمهور : لفظ الآية عام؛ والكافر والمؤمن مجاز بعمله السوء؛ فأما مجازاة الكافر فالنــار لأن كفره أَوْبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيـا ؛ كما رَوى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة

قال : لمـا نزلت « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ » بلغتْ من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " قارِبوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارةٌ حتى النَّكْبةِ يُنْكَبُها والشوكةِ يُشاكُها ". وخرّج الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول، فى الفصل الخامس والتسعين) حدّثنا إبراهيم بن المستمر الهذلى قال حدّثنا عبد الرحمن ابن سليم بن حيّان(١) أبو زيد قال سمعت أبى يذكر عن أبيـه قال صحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة فقال لنافع : لا تمرّ بى على المصلوب؛ يعنى ابن الزبير، قال فمـا بَغَتَه(٢) فى جوف الليل أن صكّ مَحْمِلَه جِذعُه، فمسح عينيه ثم قال : يرحمك الله أبا خُبيب أن كنت وأن كنت ! ولقد سمعت أباك الزبير يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من يعمل سوءا يُجْزَبه فى الدنيا أو فى الآخرة " فإن يك هذا بذاك فهِيه . قال الترمذى أبو عبد الله : فأما فى التنزيل فقد أجمله فقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرا » فدخل فيه البرّ والفاجر والعدوّ والولىّ والمؤمن والكافر، ثم ميّز رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث بين الموطنين فقال : " يجزبِهِ فى الدنيا أو فى الآخرة " وليس يجمع عليه الجزاء فى الموطنين ؛ ألا ترى أن ابن عمر قال : فإن يك هذا بذاك فهِيَه، معناه أنه قاتل فى حرم الله وأحدث فيه حدثا عظيما حتى أحرق البيت ورمى الحجر الأسود بالمَنْجَنيق فانصدع حتى ضُبّب بالفضة فهو إلى يومنا كذلك ، وسمع للبيت أنينا : آه آه ! فلما رأى ابن عمر فعله ثم رآه مقتولا مصلوبا ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يعمل سـوءا يجزبه " . ثم قال : إن يك هـذا القتل بذاك الذى فعله فهِيَه؛ أى كأنه جُوزى بذلك السـوء هذا القتل والصلب . رحمـه الله ! ثم ميّز رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر بين الفريقين؛ حدّثنا أبى رضى الله عنه قال حدّثنا أبو نعيم قال حدّثنا محمد بن مسلم عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثىّ قال : لما نزلت «من يعمل سوءا يجز به» قال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه : ما هذه بمبقية منا؛ قال : "يا أبا بكر إنما يُجزى المؤمن بها فى الدنيا ويُجزى بهـا الكافر يوم القيامة " . حدّثنا الجارود قال حدّثنا وكيع وأبو معـاوية

(١) يروى بالياء والباء. (التقريب) . (٢) بغته الأمر وبغاه (بالكسر والفتح) : هجم عليه من غير أن يشعر به .

وعبــدة بن إسماعيل بن أبى خالد عن أبى بكر بن زهير الثقفىّ قال : لمـا نزلت « من يعمل سوءا يجز بِهِ » قال أبو بكر : كيف الصلاح يارسول الله مع هذا ؟ كل شيء عملناه جُزينا به ؛ فقال: "غفر الله لك يا أبابكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأْواء(١)"؟ قال بلى . قال : "فذلك ممـا تجزون به" ففسر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أجمله التنزيل من قوله « من يعمل ســوءا يجز بِهِ » . وروى الترمذىّ عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنها لمـا نزلت قال له النبى صلى الله عليه وسلم : "أمّا أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة" . قال : حديث غريب وفى إسناده مَقال ، وموسى بن عبيدة يضعَّف فى الحديث ، ضعَّفه يحيى ابن سعيد القطّان وأحمد بن حنبل . ومولى بن سبّاع مجهول ، وقد روى هذا من غير وجه عن أبى بكر وليس له إسناد صحيح أيضا ؛ وفى الباب عن عائشة .

قلت : خرّجه إسماعيل بن إسحاق القاضى قال حدّثنـا سليمان بن حرب قال حدّثنا حماد ابن سلمة عن علىّ بن يزيد عن أمّه أنها سألت عائشة عن هذه الآية «وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ او تُخْفُوهُ » وعن هــذه الآية « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ » فقالت عائشة : ما سألنى أحد مذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ؛ فقال : يا عائشة ، هذه مبايعة الله بمـا يصيبه من الحُمّى والنكبة والشوكة حتى البضاعة يضعها فى كمه فيفقدها فيفزع فيجدها فى عَيْبته ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التِّبر من الكير . واسم « ليس » مضمر فيها فى جميع هذه الأقوال ؛ والتقدير : ليس الكائن من أموركم ما تمنوه بل من يعمل سوءا يجز به . وقيل : المعنى ليس ثواب الله بأمانيــكم ؛ إذ قد تقدم « والذين آمنوا وعملوا الصالحـات سندخلهم جنـاتٍ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يعنى المشركين ؛ لقوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » . وقيل : « من يعمل

(١) اللأْواء : الشدّة والمحنة .

سوءا يجز بِهِ » إلا أن يتوب . وقراءة الجماعة « ولا يجدْ له » بالجزم عطفا على « يُجزَ بهِ » . وروى ابن بكار عن ابن عامر «ولا يجدُ» بالرفع استئنافا . فإن حُملت الآية على الكافر فليس له غَدًا وليٌّ ولا نصير . و إن حملت على المؤمن فليس وليٌّ ولا نصير دون الله .

قوله تعالى : وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

شرط الإيمان لأن المشركين أدلوا بخدمة الكعبة و إطعام الحجيج وقِرَى الأضياف ، وأهل الكتاب لسبقهم وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه ؛ فبيّن تعالى أنّ الأعمال الحسنة لا تقبل من غير إيمان . وقرأ « يُدْخَلُون الجنة » الشيخان أبو عمرو وابن كثير (بضم الياء وفتح الخاء) على مالم يسم فاعله . الباقون بفتح الياء وضم الخاء؛ يعني الجنة بأعمالهم . وقد مضى ذكر النّقير وهي النكتة في ظهر النواة .

قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ فُضِّل دين الإسلام على سائر الأديان و﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ معناه أخلص دينه لله وخضع له وتوجه إليه بالعبادة . قال ابن عباس : أراد أبا بكر الصديق رضي الله عنه . وانتصب « دِينا » على البيان . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال ، أي موحد فلا يدخل فيه أهل الكتاب ؛ لأنهم تركوا الإيمان بمحمد عليه السلام . والمِلّة الدِّين، والحَنِيف المسلم وقد تقدّم(١) .

(١) راجع ج ٢ ص ١٣٩ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ قال ثعلب : إنما سُمّى الخليل خليلا لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا إلا ملأته ؛ وأنشد قول بشار :

* قد تخللت مسلك الروح منى *

وبه سُمّى الخليل خليلا وخليل فعيل بمعنى فاعل كالعليم بمعنى العالم . وقيل : هو المفعول كالحبيب بمعنى المحبـوب ، وإبراهيم كان محبا لله وكان محبوبا . وقيـل : الخليل من الاختصاص فالله عز وجل أعلم آختصّ إبراهيمَ فى وقته للرسالة . واختار هذا النحاسُ قال : والدليل على هذا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم " وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا " يعنى نفسه . وقال صـلى الله عليه وسلم : " لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا " أى لو كنت مختصا أحدا بشىء لاختصصت أبا بكر رضى الله عنه . وفى هـذا ردٌّ على من زعم أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم آختص بعض أصحابه بشىء من الدِّين . وقيـل : الخليل المحتاج؛ فإبراهيم خليل الله على معنى أنه فقير محتاج إلى الله تعالى؛ كأنه الذى به الاختلال . وقال زُهير يمدح هَرِم بن سِنان :

وإنـ أتاه خليلٌ يوم مَسْغبةٍ * يقـــول لا غائبٌ مالِى ولا حَرِمُ

أى لا ممنوع . قال الزجاج : ومعنى الخليل : الذى ليس فى محبتـه خلل؛ فجائز أن يكون سمى خليلا لله بأنه الذى أحبه واصطفاه محبة تامة . وجائز أن يسمى خليل الله أى فقيرا إلى الله تعالى؛ لأنه لم يجعل فقره ولا فاقته إلا إلى الله تعـالى مخلصا فى ذلك . والاختلال الفقر؛ فروى أنه لمـا رُمى بالمَنْجَنيق وصار فى الهواء أتاه جبريل عليـه السلام فقـال : ألك حاجة ؟ قال : أمّا إليك فلا . فخُلَّة الله تعـالى لإبراهيم نصرته إياه . وقيـل : سمى بذلك بسبب أنه مضى إلى خليل له بمصر، وقيل : بالموصل لِيَمْتار من عنده طعاما فلم يجد صاحبه ، فملأ غرائره رملا وراح به إلى أهله فحطه ونام ؛ ففتحه أهله فوجدوه دقيقا فصنعوا له منه ، فلما قدّموه إليه قال : من أين لكم هـذا ؟ قالوا : من الذى جئت به من عنـد خليلك المصرى ؛ فقال : هو من عنـد خليلى ؛ يعنى الله تعالى فسُمِّى خليل الله بذلك . وقيـل : إنه أضاف رؤساء الكفار وأهدى لهم هدايا وأحسن إليهم فقالوا له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتى أن تسجدوا

لله سجدة ؛ فسجدوا فدعا الله تعالى وقال : اللّهُمّ إنى قد فعلت ما أمكننى فافعل بالله ما أنت له أهــل ؛ فوفّقهم الله تعالى للإسلام فاتخذه الله خليلا لذلك . وقيل : لمــا دخلت عليــه الملائكة بشبه الآدميين وجاء بعجل سمين فلم يأكلوا منه وقالوا : إنا لا نأكل شـيئا بغير ثمن فقال لهم : أعطوا ثمنه وكلوا، قالوا : وما ثمنه ؟ قال : أن تقولوا فى أوله باسم الله وفى آخره الحمد لله ، فقالوا فيما بينهم : حق على الله أن يتخذه خليلا ؛ فآتخذه الله خليلا . وروى جابر ابن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اتخذ الله إبراهيم خليلا لإطعامه الطعام وإفشائه السلام وصـلاته بالليل والناسُ نيـام " . وروى عبد الله بن عمرو بن العاصى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يا جبريل لِمَ آتخذ الله إبراهيم خليلا " ؟ قال : لإطعامه الطعام يامحمد . وقيل : معنى الخليل الذى يوالى فى الله و يعادى فى الله . والخُلّة بين الآدميين الصداقة ؛ مشتقة من تخلل الأسرار بين المتخالين . وقيــل : هى من الخَلّة فكل واحد من الخليلين يسُدّ خَلّة صاحبــه . وفى مصنف أبى داود عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم قال : " الرجل على دين خليله فلينظر أحدُكم من يخالل " . ولقد أحسن من قال :

من لم تكن فى الله خُلّتُــه * فخليــله منــه على خطــر

آخــــر :

إذا ما كنتَ متّخذا خليــلاً * فـلا تثقَنْ بكل أخى إخاءِ
فإن خُيّرتَ بينهمُ فألصــق * بأهــل العقل منهم والحياءِ
فإن العقــل ليس له إذا ما * تفاضلت الفضائل من كفاءِ

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

أخلاء الرجال همُ كثيرٌ * ولكن فى البــلاء هم قليــلُ
فلا تغررك خُلّة من تؤاخى * فمــالك عند نائبــة خليل
وكل أخ يقــول أنا وَفِىٌّ * ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خِل له حسب ودِين * فذاك لمــا يقول هو الفعول

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ مِلْكا واختراعا . والمعنى أنه اتخذ إبراهيم خليـلا بحسن طاعتـه لا لحاجته إلى مخالّتـه ولا للتكثير به والاعتضاد ؛ كيف وله ما فى السموات وما فى الأرض ؟ وإنمـا إكرامه لامتثاله لأمره .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطًا ﴾ أى أحاط علمه بكل الأشياء .

قوله تعـالى : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن فى الميراث وغير ذلك؛ فأمر الله نبيه عليه السلام أن يقول : الله يفتيكم فيهن؛ أى يبين لكم حكم ما سألتم عنه . وهذه الآية رجوع إلى ما آفتتحت به السورة من أمر النساء، وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا فقيل لهم : إن الله يفتيكم فيهن . روى أشهب عن مالك قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسأل فلا يجيب حتى ينزل عليـه الوحى ، وذلك فى كتاب الله « يَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ قل الله يُفتيكم فيهن » . «ويسألونك عن الْيَتَامى» . و « يسألونك عن الخمر والمَيْسِر » . « يسألونك عن الجبال » .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ « ما » فى موضع رفع، عطف على اسم الله تعـالى . والمعنى : والقرآن يفتيكم فيهن، وهو قوله : «فَٱنْكِحوا ما طاب لكم من النساء» وقد تقدّم . وقوله تعالى : «وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنّ» أى وترغبون عن أن تنكحوهنّ ثم حذفت «عن» .

وقيل : وترغبون فى أن تنكحوهنّ ثم حذفت «فى» . قال سعيد بن جبير ومجاهد : ويُرغب فى نكاحها إذا كانت كثيرة المال . وحديث عائشة يقوّى حذف « عن » فإن فى حديثها : وترغبون أن تنكحوهن رغبة أحدكم عن يتيمته التى تكون فى حجره، وحين تكون قليلة المال والجمال؛ وقد تقدّم أول السورة .

قوله تعالى : وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾ رفع بإضمار فعل يفسره مابعده. و﴿خافت﴾ بمعنى توقّعت . وقول من قال تيقنت خطأ . قال الزجاج : المعنى وإن امرأة خافت من بعلها دوام النشوز . قال النحاس : الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز التباعد ، والإعراض ألّا يكلمها ولا يأنس بها . ونزلت الآية بسبب سَوْدة بنت زَمعة . روى الترمذيّ عن ابن عباس قال : خَشِيَتْ سَودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : لا تطلقنى وأمسكنى، وٱجعل يومى منك لعائشة ؛ ففعل فنزلت : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز ؛ قال : هذا حديث حسن غريب . وروى ابن عيينة عن الزُّهرِىّ عن سعيد بن المسيب أن رافع بن خَدِيج كانت تحته خَوْلة ابنة محمد بن مسلمة؛ فكره من أمرها إما كِبرًا وإما غيره فاراد أن يطلقها فقالت : لا تطلّقنى وٱقسم لى ما شئت ؛ فجرت السنة بذلك ونزلت « وإِن ٱمرأة خافت مِن بَعْلِها نُشوزا أو إعراضا » . وروى البخارىّ عن عائشة رضى الله عنها « وإِن ٱمرأة خافت مِن بعلِها نشوزا أو إعراضا » قالت : الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأنى فى حِلّ ؛ فنزلت هذه الآية . وقراءة العامة « أن يصّالحا » .

وقرأ أكثر الكوفيين « أن يُصْلِحا » . وقرأ الجَحْـدَرِيّ وعثمان البتى « أَنْ يَصَّلِحا » والمعنى يصطلحا ثم أدغم .

الثانيـــة — فى هذه الآية من الفقه الردّ على الرُّعْن الجهال الذين يرون أن الرجل إذا أخذ شباب المرأة وأسنّت لا ينبغى أن يتبدّل بهـا . قال ابن أبى مليكة : إن ســودة بنت زَمعة لمـا أسنّت أراد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يطلقها ، فآثرت الكون معه فقالت له : أمسكنى واجعل يومى لعائشة ؛ ففعل صلى الله عليه وسلم وماتت وهى من أزواجه .

قلت : وكذلك فعلت بنت محمد بن مسلمة ؛ روى مالك عن ابن شهاب عن رافع بن خديج أنه تزوج بنت محمد بن مسلمة الأنصارية ، فكانت عنده حتى كَبِرت ، فتزوج عليها فتاة شابة فآثر الشابة عليهـا ، فناشدته الطلاق فطلقها واحدة ، ثم أمهلها حتى إذا كانت تحلّ راجعها ، ثم عاد فآثر الشابة عليها فناشدته الطلاق فطلقها واحدة ، ثم راجعها فآثر الشابة عليها فناشدته الطلاق فقال : إنما بَقِيت واحدة ، فإن شئت آستقررتِ على ما تَرَيْنَ من الأَثَرَة ، وإن شئت فارقتك ؟ قالت : بل أستقر على الأثرة . فأمسكها على ذلك ؛ ولم يرَ رافع عليه إثما حين قرت عنده على الأثرة . رواه معمر عن الزُّهْرِيّ بلفظه ومعناه وزاد : فذلك الصلح الذى بلغنا أنه نزل فيه «وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» . قال أبو عمر بن عبد البر : قوله والله أعلم «فآثر الشابة عليها» يريد فى الميل بنفسه إليها والنشاط لها ؛ لا أنه آثرها عليها فى مطعم وملبس ومبيت ؛ لأن هذا لا ينبغى أن يُظَنّ بمثل رافع ، والله أعلم . وذكر أبو بكر بن أبى شيبــة قال : حدثنا أبو الأحوص عن سِمَاك بن حرب عن خالد بن عَرْعَرة عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن رجلا سأله عن هذه الآية فقال : هى المرأة تكون عند الرجل فتَنْبُو عيناه عنها من دمامتها أو فقرها أو كِبَرها أو سوء خُلُقها وتكره فراقه ؛ فإن وضعت له من مهرها شــيئا حلّ له ، وإن جعلت له من أيامها فلا حَرَج . وقال الضحاك : لا بأس أن يُنقصها من حقها إذا تزوج من هى أشبّ منها وأعجب إليـه . وقال مُقاتل بن حيان : هو الرجل تكون تحته المرأة الكبيرة فيتزوج عليها الشابّة ؛ فيقول لهذه الكبيرة :

أعطيك من مالى على أن أَقسم لهذه الشابة أكثرَ مما أَقسم لك من الليل والنهار؛ فترضى الأخرى بمـا اصطلحا عليه؛ وإن أبت ألّا ترضى فعليه أن يَعدِل بينهما فى القَسْم .

الثالثـــة — قال علماؤنا : وفى هــذا أن أنواع الصلح كلّها مباحة فى هذه النازلة؛ بأن يُعطِىَ الزوج على أن تصبر هى، أو تعطىَ هى على أن يؤثر الزوج، أو على أن يؤثر و يتمسك بالعصمة، أو يقع الصلح على الصبر والأثرة من غير عطاء؛ فهذا كله مباح. وقد يجوز أن تصالح إحداهن صاحبتها عن يومها بشىء تعطيها، كما فعل أزواج النبىّ صلى الله عليــه وسلم؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غضب على صَفِيّة فقالت لعائشة : أصلحى بينى و بين رســول الله صلى الله عليه وسلم وقد وهبت يومى لك . ذكره ابن خُوَيزِمَنْــداد فى أحكامه عن عائشة قالت: وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على صَفِية فى شىء، فقالت لى صفية : هل لكِ أن تُرضِين رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى ولك يومى؟ قالت : فلبست خمارا كان عنـدى مصبوغا بزعفران ونضحته، ثم جئت فجلست إلى جنب رســول الله صلى الله عليه وســلم فقال : ” إليك عنى فإنه ليس بيومك“ . فقلت : ذلك فضل الله يؤتيــه من يشاء؛ وأخبرته الخبر فرضى عنها . وفيــه أن ترك التسوية بين النساء وتفضيل بعضهن على بعض لا يجوز إلا بإذن المفضولة ورضاها .

الرابعـــة — قرأ الكوفيون «يُصْلِحا». والباقون « أن يَصّالَحَا » . الجَحْدرِى« يَصَّلحا » . فمن قرأ « يَصّالحا » فوجهه أن المعروف فى كلام العرب اذا كان بين قوم تشاجر أن يقال : تصالح القوم، ولا يقال : أصلح القوم ؛ ولو كان أصلح لكان مصدره إصلاحا . ومن قرأ « يَصّلِحا » فقد استعمل مثله فى التشاجر والتنازع؛ كما قال « فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ » . ونصب قوله : « صلحا » على هــذه القراءة على أنه مفعول، وهو اسم مثل العطاء من أعطيت . فأصلحت صلحا مثــل أصلحت أمرا ؛ وكذلك هــو مفعول أيضا على قراءة من قرأ « يَصّالحا » لأن تفاعل قد جاء متعديا ؛ ويحتمل أن يكون مصــدرا حذفت زوائده . ومن قرأ « يَصّلحا »

فالأصل يصتلحا ثم صار إلى يصطلحا ، ثم أبدلت الطاء صادا وأدغمت فيها الصاد ؛ ولم تبدل الصاد طاء لما فيها من امتداد الزفير .

الخامســـة — قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام مطلق يقتضى أن الصّلح الحقيقيّ الذى تسكن إليه النفوس ويزول به الخلاف خيرٌ على الإطلاق . ويدخل فى هذا المعنى جميع مايقع عليه الصلح بين الرجل وآمرأته فى مال أو وطء أو غير ذلك . ﴿خير﴾ أى خير من الفرقة ؛ فإن التمادى على الخلاف والشحناء والمباغضة هى قواعد الشر، وقد قال عليه السلام فى البُغْضة : " إنها الحالقة " يعنى حالقة الدِّين لا حالقة الشعر .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ إخبار بأن الشُّـح فى كل أحد ، وأن الإنسان لا بد أن يَشِحّ بحكم خلقته وجِبِلّته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره ؛ يقال : شَحّ يَشِح (بكسر الشين) . قال ابن جُبير: هو شُحّ المرأة بالنفقة من زوجها و بقَسْمه لها أيامها . وقال ابن زيد : الشح هنا منه ومنها . قال ابن عطية : وهذا أحسن ؛ فإن الغالب على المرأة الشّح بنصيبها من زوجها ، والغالب على الزوج الشح بنصيبه من الشابة . والشـح الضبط على المعتقَدات والإرادةُ فى الهمم والأموال ونحو ذلك؛ فما أُفرط منه على الدِّين فهو محمود ، وما أُفرط منه فى غيره ففيه بعض المذمة ، وهو الذى قال الله فيه : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» . وماصار إلى حَيِّز منع الحقوق الشرعية [أو](١) التى تقتضيها المروءة فهو البخل وهى رذيلة . و إذا آل البخل إلى هذه الأخلاق المذمومة والشِّـيَم اللئيمة لم يبق معه خير مرجُوّ ولا صلاح مأمول .

قلت : وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : " مَنْ سيّدكم "؟ قالوا : الجَدُّ آبن قيس على بُخْل فيه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وأيّ داء أدْوَى من البخل"! قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال : " إن قوما نزلوا بساحل فكرهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف ببُعد النساء و يعتذر النساء

---

(١) الزيادة عن ابن العربى .

ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء ". وقد تقدم[1]؛ ذكره الماوردي.

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ شرط « فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » جوابه . وهذا خطاب للأزواج من حيث إن للزوج أن يشح ولا يحسن؛ أى إن تحسنوا وتتقوا فى عشرة النساء بإقامتكم عليهن مع كراهتكم لصحبتهن واتقاء ظلمهن فهو أفضل لكم .

قوله تعالى : وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ أخبر تعالى بنفى الاستطاعة فى العدل بين النساء، وذلك فى ميل الطبع فى المحبة والجماع والحظ من القلب . فوصف الله تعالى حالة البشر وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض؛ ولهذا كان عليه السلام يقول : " اللهم إن هذه قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك " . ثم نهى فقال : ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ . قال مجاهد : لا تتعمدوا الإساءة بل الزموا التسوية فى القسم والنفقة؛ لأن هذا مما يستطاع . وسيأتى بيان هذا فى « الأحزاب » مبسوطا إن شاء الله تعالى . وروى قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل " .

قوله تعالى : ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أى لا هى مطلقة ولا ذات زوج؛ قاله الحسن . وهذا تشبيه بالشيء المعلق من شيء؛ لأنه لا على الأرض استقر ولا ما علق عليه انحمل؛ وهذا مطرد فى قولهم فى المثل : « ارض من المركب بالتعليق » . وفى عرف النحويين فى تعليق

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٢ طبعة أولى أو ثانية .

الفعـل . ومنـه فى حديث أم زَرْع فى قول المـرأة : زَوْجِى العَشَنَّق إن أنْطِق أطَلَّق وإن أسـكت أعَلَّق[1] . وقال قتادة : كالمسجونة؛ وكذا قرأ أُبَىّ « فتذروها كالمسجونة » . وقرأ ابن مسعود « فتذروها كأنها معلقة » . وموضع « فتذروها » نصب؛ لأنه جواب النهى . والكاف فى « كالمعلقة » فى موضع نصب أيضا .

قوله تعـالى : وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ﴾ أى وإن لم يصطلحا بل تفرقا فليُحْسنا ظنّهما بالله ، فقـد يُقيّض للرجل امرأةً تقرّ بها عينه ، وللمرأة من يُوسّع عليها . ورُوى عن جعفر بن محمد أن رجلا شكا إليه الفقر فأمره بالنكاح، فذهب الرجل وتزوج؛ ثم جاء إليه وشكا إليه الفقر فأمره بالطلاق؛ فسئل عن هـذه الآية فقال : أمرتُه بالنكاح لعلّه من أهل هذه الآية « إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » فلمـا لم يكن من أهل تلك الآية أمرتُه بالطلاق فقلت : فلعلّه من أهل هذه الآية « وإنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ » .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى الأمر بالتقوى كان عاما لجميع الأمم؛ وقد مضى القول فى التّقوى[2] . ﴿ وإيَّاكُمْ ﴾ عطف على ﴿ الَّذِين ﴾ . ﴿ أَنِ ٱتَّقُوا اللهَ ﴾ فى موضع نصب؛ قال الأخفش : أى بأن اتقوا الله . وقال بعض العارفين : هذه الآية هى رحى آى القرآن؛ لأن جميعه يدور عليها .

(١) العشنق : الطويل الممتد القامة؛ أرادت أن له منظرا بلا مَخْبر .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ إن قال قائل: ما فائدة هذا التكرير؟ فعنه جوابان: أحدهما — أنه كرر تأكيدا ليتنبّه العباد وينظروا ما في ملكوته وملكه وأنه غنيّ عن العالمين. الجواب الثاني — أنه كرر لفوائد: فأخبر في الأوّل أن الله تعالى يُغني كُلا من سعته؛ لأن له ما في السموات وما في الأرض فلا تَنْفَد خزائنه. ثم قال: أوصينا كم وأهلَ الكتاب بالتقوى، وإن تكفروا فإنه غنيّ عنكم؛ لأن له ما في السموات وما في الأرض. ثم أعلم في الثالث بحفظ خلقه وتدبيره إياهم بقوله ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ لأن له ما في السموات وما في الأرض. وقال: ﴿ ما فِي السموات ﴾ ولم يقل من في السموات؛ لأنه ذهب به مذهب الجنس، وفي السموات والأرض مَن يعقل ومَن لا يعقل.

قوله تعالى: إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يعني بالموت. ﴿ أَيُّهَا النَّاسُ ﴾. يريد المشركين والمنافقين. ﴿ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ يعني بغيركم. ولما نزلت هذه الآية ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهر سَلْمان وقال: "هم قوم هذا". وقيل: الآية عامّة، أي وإن تكفروا يُذهبكم ويأت بخَلْق أطوعَ لله منكم. وهذا كما قال في آية أخرى: « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ». وفي الآية تخويف وتنبيه لجميع من كانت له ولاية وإمارة ورياسة فلا يعدل في رعيته، أوكان عالما فلا يعمل بعلمه ولا ينصح الناس أن يُذهبَه ويأت بغيره. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ والقدرة صفة أزلية لا تتناهى مقدوراته كما لا تتناهى معلوماته، والماضي والمستقبل في صفاته بمعنًى واحد، وإنما خص الماضي بالذكر لئلا يتوهّم أنه يحدث في ذاته وصفاته. والقدرة هي التي يكون بها الفعل ولا يجوز وجود العجز معها.

قوله تعالى: مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

أى مَن عمل بما افترضه الله عليه طلبـا للآخرة أتاه الله ذلك فى الآخرة، ومن عمل طلبا للدنيا أتاه بما كتب له فى الدنيا وليس له فى الآخرة من ثواب؛ لأنه عمل لغير الله كما قال تعالى: « وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيب ». وقال تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ». وهذا على أن يكون أراد بالآية المنافقين والكفار، وهو اختيار الطبرى. ورُوى أن المشركين كانوا لا يؤمنون بالقيامة، وإنما يتقربون إلى الله تعالى ليوسّـع عليهم فى الدنيا ويرفع عنهـم مكروهها؛ فأنزل الله عز وجل « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فعِنْـدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وكانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيراً » أى يسمع ما يقولونه ويُبصر ما يُسرونه .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ ﴾ «قوامين» بناء مبالغة، أى ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل فى شهادتكم على أنفسكم، وشهادةُ المرء على نفسه إقراره بالحقوق عليها. ثم ذكر الوالدين لوجوب بِرّهما وعِظَم قدْرِهما، ثم ثَنّى بالأقربين إذهم مظنة المودة والتعصُّب؛ فكان الأجنبيّ من النـاس أحْرى أن يقام عليه بالقسط ويشهد عليه، فجاء الكلام فى السورة فى حفظ حقوق الخلق فى الأموال .

الثانيـــة — لا خلاف بين أهـل العلم فى صحة أحكام هـذه الآية وأن شهادة الولد على الوالدين ماضيةٌ، ولا يمنع ذلك برّهما بل من برّهما أن يشهد عليهما أو يخلّصهما من الباطل، وهو معنى قوله تعالى : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً » فإن شهد لهما أو شهدا له وهى :

الثالثة — فقد اختُلف فيها قديما وحديثا ؛ فقال ابن شهاب الزهري : كان مَن مضى من السلف الصالح يجيزون شهادة الوالدَيْن[1] والأخ ، ويتأوّلون في ذلك قولَ الله تعالى : « كُونُوا قَوّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ » فلم يكن أحد يُتَّهم في ذلك من السلف الصالح رضوان الله عليهم . ثم ظهرت من الناس أمور حملت الولاة على اتهامهم ، فتركت شهادة من يُتَّهم ، وصار ذلك لا يجوز في الولد والوالد والأخ والزوج والزوجة ؛ وهو مذهب الحسن والنَّخَعِيّ والشَّعْبِيّ وشُرَيح ومالك والثَّوْرِيّ والشافعيّ وابن حنبل . وقد أجاز قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانوا عدولا . ورُوي عن عمر بن الخطاب أنه أجازه ؛ وكذلك رُوي عن عمر بن عبد العزيز ، وبه قال إسحاق والثَّوْرِيّ والمُزَنِيّ . ومذهب مالك جواز شهادة الأخ لأخيه إذا كان عدلا إلا في النسب . ورَوى عنه ابنُ وهب أنها لا تجوز إذا كان في عياله أو في نصيب من مال يرثه . وقال مالك وأبو حنيفة : شهادة الزوج لزوجته لا تُقبل ؛ لتواصل منافع الأملاك بينهما وهي محل الشهادة . وقال الشافعيّ : تجوز شهادة الزوجين بعضهما لبعض ؛ لأنهما أجنبيان ، وإنما بينهما عقد الزوجية وهو مُعَرَّض للزوال . والأصل قبول الشهادة إلا حيث خُصّ فيما عدا المخصوص فبقي على الأصل ؛ وهذا ضعيف ؛ فإن الزوجية توجب الحنان والمواصلة والألفة والمحبة فالتُّهمة قوية ظاهرة . وقد روى أبو داود من حديث سليمان بن موسى عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رَدَّ شهادة الخائن والخائنة وذي الغِمْر على أخيه ، ورَدَّ شهادة القانع لأهل البيت وأجازها لغيرهم . قال الخطابيّ : ذو الغِمْر هو الذي بينه وبين المشهود عليه عداوة ظاهرة ، فتردّ شهادته للتُّهَمة . وقال أبو حنيفة : شهادته على العدوّ مقبولة إذا كان عدلا . والقانع السائل والمستطعَم ، وأصل القنوع السؤال . ويقال في القانع : إنه المنقطع إلى القوم يخدُمهم ويكون في حوائجهم ؛ وذلك مثل الأجير أو الوكيل ونحوه . ومعنى ردّ هذه الشهادةِ التُّهَمَةُ في جَرّ المنفعة إلى نفسه ؛ لأن القانع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم من نفع . وكلّ من جَرّ إلى نفسه بشهادته نفعا فشهادته مردودة ؛

(١) عبارة ابن العربي : « ... الوالد والأخ لأخيه ... الخ » .

كمن شهد لرجل على شراء دارٍ هو شفيعها ، أو كمن حُكِم له على رجل بدَيْن وهو مفلس فشهد المفلس على رجل بدَيْن ونحوِه . قال الخطّابي : ومن ردّ شهادة القانع لأهل البيت بسبب جَرّ المنفعة فقياسُ قوله أن يردّ شهادة الزوج لزوجته لأن ما بينهما من التُّهَمَة في جرالمنفعة أكثر؛ وإلى هذا ذهب أبو حنيفة . والحديث أيضا حجةٌ على من أجاز شهادة الأب لآبنه ؛ لأنه يجرّ به النفع لما جُبِل عليه من حُبّه والميل إليه؛ ولأنه يتملّك عليه ماله، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أنت ومالك لأبيك " . وممن تردّ شهادته عند مالك البَدَوِيّ على القَرَوِيّ؛ قال : إلا أن يكون في بادية أو قرية ، فأما الذي يُشهِد في الحضر بَدوِيًّا ويدع جيرته من أهل الحَضَر عندي مُرِيب . وقد روى أبو داود والدَّارَقُطْنِيّ عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تجوز شهادة بدَوِيّ على صاحب قرية " . قال ابن الحكم : تأوّل مالك هذا الحديثَ على أن المراد به الشهادة في الحقوق والأموال، ولا تُرد الشهادة في الدماء وما في معناها مما يطلب به الخلق . وقال عامة أهل العلم : شهادة البدوى إذا كان عدلا يقيم الشهادة على وجهها جائزة؛ والله أعلم . وقد مضى القول في هذا في «البقرة»(1)، ويأتي في «براءة» تمامها إن شاء الله تعالى .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ نصب على النعت لقوّامين، وإن شئت كان خبرا بعد خبر . قال النحاس : وأجود من هذين أن يكون نصبا على الحال بما في «قوّامين» من ذكر الذين آمنوا ؛ لأنه نفس المعنى ، أي كونوا قوّامين بالعدل عند شهادتكم . قال ابن عطية : والحال فيه ضعيفة في المعنى ؛ لأنها تُخَصِّص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط . ولم ينصرف «شهداء» لأن فيه ألف التأنيث .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ ﴾ معناه لذات الله ولوجهه ولمرضاته وثوابه . ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ متعلق بشهداء ؛ هذا هو الظاهر الذي فسّر عليه الناس، وأن هذه الشهادة المذكورة هي في الحقوق فيُقِرّ بها لأهلها، فكذلك قيامه بالشهادة على نفسه ؛ كما تقدّم .

---

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٨٩ وما بعدها ، طبعة أولى أو ثانية .

أدّب الله تعالى المؤمنين بهذا؛ كما قال ابن عباس : أمروا أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم . ويحتمل أن يكون قوله : « شُهَدَاءَ لِلَّهِ » معناه بالوحدانيـة لله ، ويتعلق قوله : « وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » بقوّامين، والتـأويل الأوّل أبين .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ في الكلام إضمار وهو اسم كان ؛ أي إن يكن الطالب أو المشهود عليـه غنيًّا فلا يُراعىَ لغناه ولا يُخاف منه ، وإن يكن فقيرا فلا يراعى إشفاقا عليه . « فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِما » فيما اختار لهما من فقر وغِنًى . قال السُّدّى : اختصم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم غنيّ وفقير فكان ضَلْعه[1] مع الفقير، ورأى أنّ الفقير لا يَظلم الغنى؛ فنزلت الآية .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿ فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ إنما قال «بهما» ولم يقل به و إن كانت « أو » إنمـا تدل على الحصـول الواحد ؛ لأن المعنى فالله أولى بكل واحد منهما . وقال الأخفش : تكون « أو » بمعنى الواو ؛ أى إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بالخصمين كيف ما كانا ؛ وفيه ضعف . وقيل : إنمـا قال « بِهِما » لأنه قد تقدّم ذكرهما؛ كما قال تعالى : « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » .

الثامنـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى ﴾ نَهْىٌ، فإن اتباع الهوى مُرْدٍ، أى مهلك؛ قال الله تعالى : « فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » فاتباع الهوى يحمل على الشهادة بغـير الحق ، وعلى الجور في الحكم، إلى غير ذلك . وقال الشَّعْبيّ : أخذ الله عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء : ألا يتّبعوا الهوى، وألّا يخشوا الناس ويخشوه، وألا يشتروا بآياته ثمنا قليلا . ﴿ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ في موضع نصب .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَلْوُوا ﴾ قرئ « وإن تلووا » من لَوَيت فلانا حقه لَيًّا إذا دفعتَه به ، والفعل منه « لَوَى » والأصل فيه « لَوَيَ » قلبت الياء ألفا لحركتها وحركة ما قبلها ، والمصدر « لَيًّا » والأصل لَوْيًا، ولِيَانًا والأصل لِوْيَانًا ، ثم أدغمت الواو في الياء .

(١) الضلع : الميل .

وقال القُتَبِيّ : « تلووا » من اللىّ فى الشهادة والميــل إلى أحد الخَصْمين . وقرأ ابن عامر والكوفيون « تَلُوا » أراد قمتم بالأمر . وقيل : إن معنى « تَلُوا » الإعراض . فالقراءة بضم اللام تفيد معنيين : الولاية والإعراض ، والقراءة بواوين تفيد معنى واحدا وهو الإعراض . وزعم بعض النحويين أن من قرأ « تلوا » فقد لحن ؛ لأنه لا معنَى للولاية ههنا . قال النحاس وغيره : وليس يلزم هـذا ولا تكون « تَلُوا » بمعنى «تَلْوُوا » وذلك أن أصله «تَلْوُوا» فاستثقلت الضمة على الواو بعدها واوٌ أخرى ، فألقيت الحركة على اللام وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين ؛ وهى كالقراءة بإسكان اللام وواوين ؛ ذكره مكىّ . وقال الزجاج : المعنى على قراءته « إن تَلْوُوا » ثم همز الواو الأولى فصارت « تلؤوا » ثم خفّفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام فصارت « تَلُوا » وأصلها « تَلْوُوا » . فتتفق القراءتان على هذا التقدير. وذكره النحاس ومَكِّىّ وابن العربى وغيرهم . قال ابن عباس : هو فى الخصمين يجلسان بين يدى القاضى فيكون لَىّ القاضى وإعراضــه لأحدهما على الآخر؛ فاللَّىُّ على هذا مطل الكلام وجَرّه حتى يفوت فصل القضاء وإنفاذه للذى يميل القاضى عليه . قال ابن عطية : وقد شاهدت بعض القضاة يفعلون ذلك ، والله حسيب الكل . وقال ابن عباس أيضا والسُّــدّى وابن زيد والضحاك ومجاهد : هى فى الشهود يلوى الشهادة بلسـانه ويحرّفها فلا يقــول الحق فيهـا ، أو يُعرض عن أداء الحق فيهـا . ولفظ الآية يعم القضاء والشهادة ، وكل إنسان مأمور بأن يعدل . وفى الحديث : "لَىُّ الواجِدِ يُحِل عِرضَه وعقوبته" . قال ابن الأعرابىّ : عقوبته حبسه، وعرضه شكايته .

العـاشرة — وقد استدل بعض العلماء فى رد شهادة العبد بهذه الآية؛ فقال: جعل تعالى الحاكم شاهدا فى هذه الآية ، وذلك أدلّ دليل على أن العبد ليس بأهل الشهادة؛ لأن المقصود منــه الاستقلال بهذا المهم إذا دعت الحاجة إليــه ، ولا يتأتّى ذلك من العبــد أصلا فلذلك ردّت الشهادة .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾

نزلت فى جميع المؤمنين؛ والمعنى : يأيها الذين صدّقوا أقيموا على تصديقكم وآثبتوا عليه . ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِه ﴾ أى القرآن . ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى كل كتاب أنزل على النبيين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « نُزِّل » و « أُنزِل » بالضم . الباقون « نزل » و « أنزل » بالفتح . وقيل : نزلت فيمن آمن بمن تقدّم محمدا صلى الله عليه وسلم من الأنبياء عليهم السلام . وقيل : إنه خطاب للمنافقين ؛ والمعنى على هذا يأيها الذين آمنوا فى الظاهر أخلصوا لله . وقيل : المراد المشركون ؛ والمعنى يأيها الذين آمنوا باللات والعُزّى والطّاغوت آمنوا بالله؛ أى صدقوا بالله و بكتبه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا (١٣٧) ﴾

قيل : المعنى آمنوا بموسى وكفروا بعُزَير، ثم آمنوا بعُزَير ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الذين آمنوا بموسى ثم آمنوا بعُزير، ثم كفروا بعد عُزير بالمسيح، وكفرت النصارى بما جاء به موسى وآمنوا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من القرآن . فإن قيل : إن الله تعالى لا يغفر شيئا من الكفر فكيف قال : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكنِ الله لِيغفِر لهم » فالجواب أن الكافر إذا آمن غُفر له كفره ، فإذا رجع فكفر لم يغفر له الكفر الأول؛ وهذا كما جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله قال قال أناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

[يا رسول الله[١]] أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية؟ قال : " أمّا من أحسن منكم فى الإسلام فلا يؤاخذ بها ومن أساء أخذ بعمله فى الجاهلية والإسلام ". وفى رواية "ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر" . الإساءة هنا بمعنى الكفر ؛ إذ لا يصح أن يراد بها ٱرتكاب سيئة ، فإنه يلزم عليه ألا يهدم الإسلام ما سبق قبله إلا لمن يُعصم من جميع السيئات إلى حين موته ، وذلك باطل بالإجماع . ومعنى : « ثم ازدادوا كفرا » أصرّوا على الكفر . ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ ﴾ يرشدهم . ﴿ سبيلا ﴾ طريقا إلى الجنة . وقيل : لا يخصهم بالتوفيق كما يخص أولياءه . وفى هذه الآية ردّ على أهل القدر؛ فإن الله تعالى بيّن أنه لايهدى الكافرين طريق خير ليعلم العبد أنه إنما ينال الهدى بالله تعالى ، ويُحرَم الهدى بإرادة الله تعالى أيضا . وتضمنت الآية أيضا حكم المرتدين ، وقد مضى القول فيهم فى « البقرة[٢] » عند قوله تعالى : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ » .

قوله تعالى : بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾

التبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشرة ، وقد تقدّم بيانه فى « البقرة[٣] » ومعنى النفاق .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « الذين » نعت للمنافقين . وفى هذا دليل على أن من عمل معصية من الموحّدين ليس بمنافق؛ لأنه لا يتولّى الكفار. وتضمّنت المنع من موالاة الكافر، وأن يتّخذوا أعوانا على الأعمال المتعلقة بالدّين . وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا من المشركين لحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم يقاتل معه ؛ فقال له : " ارجع فإنا لا نستعين بمشرك " . « العزّة » أى الغلبة ؛ عزّه يعزّه

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ ؛ طبعة ثانية أو ثالثة .

عَزًّا إذا غلبه . ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى الغلبة والقوة لله . قال ابن عباس : « يبتغون » يريدون عبد بنى قَيْنُقاع . قال ابن أُبَىّ : كان يُواليهم .

قوله تعالى : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من محقق ومنافق؛ لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله . فالمنزَّل قولُه تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » . وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرون من القرآن . وقرأ عاصم ويعقوب « وقد نَزَّل » بفتح النون والزاى وشدّها ؛ لتقدّم اسم الله جل جلاله فى قوله تعالى: « فإن العزة لله جميعا » . وقرأ حُميد كذلك ، إلا أنه خفف الزاى . الباقون « نُزِّل » غير مسمى الفاعل . ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ ﴾ موضع « أن إذا سمعتم » على قراءة عاصم ويعقوب نصب بوقوع الفعل عليه . وفى قراءة الباقين رفع ؛ لكونه ٱسم مالم يسم فاعله . ﴿ يُكْفَرُ بِهَا ﴾ إى إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله ؛ فأوقع السماع على الآيات والمراد سماع الكفر والاستهزاء ؛ كما تقول : سمعت عبد الله يلام، أى سمعت اللوم فى عبد الله .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُـوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أى غير الكفر . ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ فدلّ بهـذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصى إذا ظهر منهـم منكر ؛ لأن من لم يجتنبهم فقد رضِى فعلهم ، والرّضا بالكفر كفر ؛ قال الله عز وجل : « إِنكم إِذًا مِثْلُهم » . فكل من جلس فى مجلس معصية ولم ينكِر عليهم يكون معهم فى الوِزر سواء ، وينبغى أن ينكِر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعمِلوا بها ؛ فإن لم يقدر على النّكير عليهم فينبغى أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية . وقد رُوى عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر ، فقيل له عن أحد الحاضرين : إنه صائم ؛ فحمل عليه الأدب وقرأ هذه الآية « إنكم إذًا مِثْلُهم » أى إن الرضا بالمعصية معصية ؛ ولهذا يؤاخذ الفـاعل والراضى بعقوبة المعاصى حتى يهلكوا بأجمعهم . وهذه المماثلة ليست فى جميع الصفات ، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة ؛ كما قال :

* فكل قرين بالمقارِن يقتدى *

وقد تقدّم . و إذا ثبت تجنّب أصحـاب المعاصى كما بيّنا فتجنّبُ أهـل البدع والأهواء أوْلى . وقال الكَلْبىّ : قوله تعالى « فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » نسخ بقوله تعالى : « وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » . وقال عامة المفسرين : هى مُحْكَمَة . و روى جُوَيْبر عن الضحاك قال : دخل فى هـذه الآية كلّ محدِث فى الدِّين مُبْتَدِع إلى يوم القيامة .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ الأصل « جامعٌ » بالتنوين فحذف استخفافا ؛ فإنه بمعنى يجمع . ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ يعنى المنـافقين ، أى ينتظرون بكم الدوائر . ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ ﴾ أى غلبـة على اليهود وغنيمة . ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أى أعطونا من الغنيمة . ﴿ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أى ظَفَر . ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى ألم نغلب عليكم حتى هابكم المسلمون وخذلنـاهم عنكم . يقال : استحوذ على كذا أى غَلَب عليـه ؛ ومنه قوله تعالى : « اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ » . وقيل : أصل الاستحواذ الحَوْط ؛ حاذه يحوذه حَوْذًا إذا حاطه . وهـذا الفعل جاء على الأصـل ، ولو أُعِلّ لكان ألم نستحِذ ، والفعل على

الإعلال استحاذ يستحيذ، وعلى غير الإعلال استحوذ يستحوذ. ﴿وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بتخذيلنا إياهم عنكم، وتفريقنا إياهم مما يريدونه منكم. والآية تدل على أن المنافقين كانوا لا يُعطونهم الغنيمة ولهذا طلبوها وقالوا: ألم نكن معكم! ويحتمل أن يريدوا بقولهم «ألم نكن معكم» الامتنان على المسلمين؛ أى كنا نعلمكم بأخبارهم وكنا أنصارا لكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» للعلماء فيه تأويلات خمس: أحدها — ما روى عن يُثَيْع[1] الحضرمىّ قال كنت عند علىّ فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أرأيت قول الله: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» كيف ذلك، وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحيانا! فقال علىّ رضى الله عنه: معنى ذلك يوم القيامة يوم الحُكْم. وكذا قال ابن عباس: ذاك يوم القيامة. قال ابن عطية: وبهذا قال جميع أهل التأويل. قال ابن العربىّ: وهذا ضعيف؛ فأخّر الحكم إلى يوم القيامة، لعدم فائدة الخبر فيه وإن أوهم صدر الكلام معناه؛ لقوله تعالى: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وجعل الأمر فى الدنيا دُولا تغلِب الكفار تارة وتُغلَب أخرى؛ بما رأى من الحكمة وسَبَق من الكلمة. ثم قال: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» فتوهّم من توهّم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله، وذلك يسقط فائدته؛ إذ يكون تكرارا.

الثانى — أن الله لا يجعل لهم سبيلا يمحو به دولة المؤمنين، ويُذهب آثارهم ويستبيح بَيْضتهم؛ كما فى صحيح مسلم من حديث ثَوْبَان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "وإنى سألت ربّى ألا يهلكها بسنة عامّة وألا يُسلط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربى قال يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ وإنى قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو آجتمع عليهم مَن بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويَسْبِى بعضهم بعضا".

(١) اضطربت الأصول وبعض المصادر فى ضبط هذا الاسم: والذى فى القاموس وشرحه أنه «أثيع» كزبير أو «يثيع» بقلب الهمز ياء.

الثـالث — أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا إلا أن يتواصَوْا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسليط العــدوّ من قبلهم؛ كما قال تعالى : « وما أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » . قال ابن العربي : وهذا نفيس جدا .

قلت : ويدلّ عليه قوله عليه السلام في حديث ثوبان "حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويَسبي بعضهم بعضا" وذلك أن « حتى » غاية؛ فيقتضى ظاهر الكلام أنه لا يسلّط عليهم عدوّهم فيستبيحهم إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي بعضهم لبعض ، وقد وجد ذلك في هذه الأزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين؛ فغلظت شوكة الكافرين وآستولوا على بلاد المسلمين حتى لم يبق من الإسلام إلا أقله؛ فنسأل الله أن يتداركنا بعفوه ونصره ولطفه .

الرابــع — أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعا ؛ فإن وجد فبخلاف الشرع .

الخـامس — « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » أي حجة عقلية ولا شرعية يستظهرون بها إلا أبطلها ودُحضت .

الثانيــة — ابن العربي : ونزع علماؤنا بهذه الآية في الاحتجاج على أن الكافر لا يملك العبـد المسلم ؛ وبه قال أشهب والشافعيّ، لأن الله سبحانه نفى السبيل فليس للكافر عليــه بالشراء سبيل . فلا يُشرع له ولا ينعقد العقد بذلك . وقال ابن القاسم عن مالك، وهو قول أبي حنيفــة : إن معنى « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » في دوام المِلْك ؛ لأنا نجد الابتداء يكون له [عليه] (١) وذلك بالإرث، وصورته أن يُسلم عبد كافر في يد كافر فيلزم القضاء عليه ببيعه ، فقَبْل الحكم عليــه ببيعه مات، فيرث العبدَ المسلمَ [وارثُ] (٢) الكافر . فهذه سبيل قد ثبت قهرا لا قصــد فيه ، وأن ملك الشراء ثبت بقصــد النية ، فقد أراد الكافر تملكه باختياره، فإن حُكم بعقد بيعه وثبوت ملكه فقد حُقّق فيه قصــده، ويُجعل له سبيل إليه .
قال أبو عمر : وقد أجمع المسلمون على أن عتق النصراني واليهودي لعبده المسلم صحيح نافذ عليه . وأجمعوا أنه إذا أســلم عبد الكافر فبيع عليه أن ثمنه يدفع إليه . فدلّ على أنه على ملكه بيع

(١) زيادة عن ابن العربي .

وعلى ملكه ثبت العتق له ، إلا أنه ملك غير مستقر لوجوب بيعه عليه ؛ وذلك والله أعلم لقول الله عز وجل : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » يريد الاسترقاق والملك والعبودية مِلْكا مستقِرًّا دائمـا .

واختلف العلماء في شراء العبد الكافر العبدَ المسلمَ على قولين : أحدهما — البيع مفسوخ. والثاني — البيع صحيح ويباع على المشترى .

الثالثــة — واختلف العلماء أيضا من هذا الباب في رجل نصرانى دَبّر عبدا له نصرانيا فأسلم العبد، فقال مالك والشافعيّ في أحد قوليه : يحال بينه وبين العبد، ويخارَج على سيده النصرانى، ولا يباع عليه حتى يتبين أمره . فان هلك النصرانى وعليه دَين قُضى دينه من ثمن العبد المدبَّر، إلا أن يكون في ماله ما يحمل المُدَبَّر فيعتق المدبَّر . وقال الشافعيّ في القول الآخر : إنه يباع عليه ساعة أسلم؛ واختاره المُزَنيّ، لأن المدبَّر وصية ولا يجوز ترك مسلم في يد مشرك يُذلّه ويخارجه، وقد صار بالإسلام عدوًّا له . وقال الليث بن سعد : يباع النصرانى من مسلم فيعتقه ويكون ولاؤه للذى اشتراه وأعتقه، ويُدفع إلى النصرانى ثمنه . وقال سفيان والكوفيون : إذا أسلم مُدَبَّر النصرانى قُوِّم قيمته فيسعى في قيمته، فإن مات النصرانى قبل أن يفرغ المدبَّر من سعايته عتق العبد وبطلت السعاية .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ قد مضى في « البقرة » معنى الخدع (١) . والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله . قال الحسن : يُعْطَى كل إنسان من مؤمن ومنافق نورٌ يوم القيامة فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا ؛ فإذا جاءوا إلى الصراط طُفِئ نور كل منافق، فذلك قولهم : « أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » .

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾ أى يُصَلّون مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون ، لا يرجون ثوابا ولا يعتقدون على تركها عقابا . وفى صحيح الحديث : " إن أثقل صلاة على المنافقين العَتَمَةُ والصبح " . فإن العَتَمة تأتى وقد أتعبهم عمل النهار فيثقل عليهم القيام لها ، وصلاةُ الصبح تأتى والنوم أحبّ إليهم من مفروح به ولولا السيف ما قاموا .

والرياء : إظهار الجميل ليراه الناس ، لا لاتّباع أمر الله؛ وقد تقدّم بيانه (٢) . ثم وصفهم بقلة الذكر عند المراءاة وعند الخوف . وقال صلى الله عليه وسلم ذامًّا لمن أخّر الصلاة : " تلك صلاة المنافقين — ثلاثا — يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان أو على قرنى الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا " رواه مالك وغيره . فقيل : وصفهم بقلة الذكر لأنهم كانوا لا يذكرون الله بقراءة ولا تسبيح ، وإنما كانوا يذكرونه بالتكبير . وقيل : وصفه بالقلة لأن الله تعالى لا يقبله . وقيل : لعدم الإخلاص فيه . وهنا مسألتان :

الأولى — بيّن الله تعالى فى هذه الآية صلاة المنافقين ، وبيّنها رسولهُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم؛ فمن صلّى كصلاتهم وذَكَر كذكرهم لحق بهم فى عدم القبول ، وخرج من مقتضى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » . وسيأتى . اللّهمّ إلا أن يكون له عذر فيقتصر على الحسن حسب ما علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم للأعرابى حين رآه أخلّ بالصلاة فقال له : " إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم آستقبل القبلة فكبر ثم آقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم آركع حتى تطمئن راكعا ثم آرفع حتى تعتدل قائما ثم آسجد حتى تطمئن ساجدا ثم آرفع حتى تطمئن جالسا ثم آفعل ذلك فى صلاتك كلّها " . رواه الأئمة . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " . وقال : " لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صُلْبه فى الركوع والسجود " . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، والعملُ على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ومَن بعدهم ، يرون أن

(٢) راجع جـ ٣ ص ٣١٢ طبعة أولى أو ثانية .

الرجل يقيم صُلْبه فى الركوع والسجود . قال الشافعيّ وأحمد وإسحاق : من لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود فصلاته فاسدة ؛ لحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود". قال ابن العربيّ : وذهب ابن القاسم وأبو حنيفة إلى أن الطُّمأنينة ليست بفرض . وهى رواية عراقية لا ينبغى لأحد من المالكيين أن يشتغل بها . وقد مضى فى « البقرة » هذا المعنى .

الثانية — قال ابن العربيّ : إن من صلّى صلاة ليراها الناس ويرونه فيها فيشهدون له بالإيمان أو أراد طلب المنزلة والظهور لقبول الشهادة وجواز الإمامة فليس ذلك الرياء المنهى عنه، ولم يكن عليه حَرَج؛ وإنما الرياء المعصية أن يُظهِرها صَيْدا للناس وطريقا إلى الأكل، فهذه نية لا تجزئ وعليه الإعادة .

قلت : قوله « وأراد طلب المنزلة والظهور لقبول الشهادة » فيه نظر . وقد تقدّم بيانه فى « النساء » فتأمله هناك . ودلّت هذه الآية على أن الرياء يدخل الفرض والنفل؛ لقول الله تعالى : « وإذا قاموا إلى الصلاة » يعمّ . وقال قوم: إنما يدخل النفل خاصة؛ لأن الفرض واجب على جميع الناس والنفل عرضة لذلك . وقيل بالعكس ، لأنه لو لم يأت بالنوافل لم يؤاخذ بها .

قوله تعالى : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

المذبذب المتردّد بين أمرين؛ والذبذبة الاضطراب . يقال : ذَبْذَبْته فتذبذب ؛ ومنه قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كلّ ملْك دونها يتذبذب

آخر :

خيال لأم السلسبيل ودونها * مسيرة شهر للبريد المذبذب

كذا روى بكسر الذال الثانية . قال ابن جنّى : أى المتر القلِق الذى لا يثبت ولا يتمهل . وهؤلاء المنافقون متردّدون بين المؤمنين والمشركين، لامخلصين الإيمان ولا مصرحين بالكفر. وفى صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "مثل المنافق كمثل الشاة العائرة[1] بين الغنمين تَعير إلى هذه مرّة وإلى هذه أخرى" وفى رواية "تَكِرُ" بدل "تعير". وقرأ الجمهور «مُذَبْذَبِين» بضم الميم وفتح الذالين . وقرأ ابن عباس بكسر الذال الثانية . وفى حرف أُبَىّ «متذبذبين» . ويجوز الإدغام على هذه القراءة «مذّبذِبين» بتشديد الذال الأولى وكسر الثانية . وعن الحسن «مَذَبذِبين» بفتح الميم والذالين .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٤٤)

مفعولان؛ أى لاتجعلوا خاصتكم وبطانتكم منهم؛ وقد تقدّم هذا المعنى . ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أى فى تعذيبه إياكم بإقامة حجته عليكم إذ قد نهاكم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)

قوله تعالى : ﴿فِي الدَّرَكِ﴾ قرأ الكوفيون «الدَّرْك» بإسكان الراء، والأولى أفصح؛ لأنه يقال فى الجمع : أدراك مثل جمل وأجمال؛ قاله النحاس . وقال أبو علىّ : هما لغتان كالشَّمْع والشَّمَع ونحوه، والجمع أدراك . وقيل : جمع الدَّرْك أَدْرُك؛ كفَلْس وأفلُس . والنار دركات سبعة؛ أى طبقات ومنازل؛ إلا أن استعمال العرب لكل ما تسافل أدراك . يقال للبئر: أدراك، ولما تعالى دَرَج؛ فللجنة دَرَج، وللنار أدراك . وقد تقدّم هذا[2] . فالمنافق فى الدرك الأسفل وهى الهاوية؛ لغلظ كفره وكثرة غوائله وتمكّنه من أذى المؤمنين . وأعلى الدركات جهنم ثم لظى

(١) العائرة : المتردّدة بين قطيعين لا تدرى أيهما تتبع .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

ثم الحُطَمة ثم السّعِير ثم سَـقَر ثم الجحيم ثم الهـاوية ؛ وقد يسمى جميعها باسم الطبقة الأولى ، أعاذنا الله من عذابهـا بمَنّه وكَرَمه . وعن ابن مسـعود فى تأويل قوله تعـالى : « فى الدّرك الأسـفل من النار » قال : توابيت من حديد مقفلةٌ فى النار تطبق عليهم . وقال ابن عمر : إن أشدّ النـاس عذابا يوم القيامة المنـافقون ومَن كفر من أصحاب المـائدة وآل فوعون ، تصديق ذلك فى كتاب الله تعالى ، قال الله تعالى : « إنّ المنافقين فى الدّركِ الأسفلِ من النار» . وقال تعـالى فى أصحاب المـائدة : « فإنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَـالَمِينَ » . وقال فى آل فرعون : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٤٦)

استثناء ممن نافق . ومِن شرط التائب من النفاق أن يُصلح فى قوله وفعله . و يعتصم بالله أى يجعله ملجأ ومعاذا ، و يخلِص دينه لله ؛ كما نصت عليه هـذه الآية ، و إلا فليس بتائب . ولهذا أوقع أجر المؤمنين فى التسو يف لانضمام المنـافقين إليهم . والله أعلم . روى البخاريّ عن الأسـود قال : كنا فى حَلْقة عبد الله فجاء حذيفـة حتى قام علينا فسلّم ثم قال : لقد نزل النفاق على قوم خيرٍ منكم ؛ قال الأسود : سـبحان الله ! إن الله تعالى يقول : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » . فتبّسم عبد الله ، وجلس حذيفة فى ناحية المسجد ؛ فقام عبد الله فتفرّق أصحابه فرمانى بالحصى فأتيته ، فقال حذيفة : عجبت من ضحكه وقد عرف ما قلت : لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيرا منكم ثم تابوا فتاب الله عليهم . وقال الفراء : معنى « فأولئك مع المؤمنين» أى من المؤمنين . وقال القُتَبِي : حاد عن كلامهم غضبا عليهـم فقال « فأولئك مع المؤمنين» ولم يقل هم المؤمنون . وحذفت الياء من «يؤت» فى الخط كما حذفت فى اللفظ ؛ لسكونها وسكون اللام بعدها ، ومثله « يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِى » و « سَنَدعُ الزَّبَانِيَةَ » و « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِى» حذفت الواو لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (١٤٧)

استفهام بمعنى التقرير للمنافقين . التقدير : أيّ منفعة له فى عذابكم إن شكرتم وآمنتم ؛ فنبّه تعالى أنه لا يعذب الشاكرَ المؤمن ، وأنّ تعذيبه عباده لا يزيد فى ملكه ، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه . وقال مكحول : أربع مَن كنّ فيه كنّ له ، وثلاث مَن كنّ فيه كنّ عليه ؛ فالأربع التى له : فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار ، قال الله تعالى : «مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ» وقال الله تعالى : «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» وقال تعالى : «قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» . وأما الثلاث اللاتى عليه : فالمكر والبَغْيُ والنَّكْث ؛ قال الله تعالى : «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» قال تعالى : «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» وقال تعالى : «إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ» .

﴿ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أى يشكر عبادَه على طاعته . ومعنى «يشكرهم» يُثيبهم ؛ فيتقبل العمل القليل ويُعطى عليه الثوابَ الجزيل ، وذلك شكر منه لعباده . والشكر فى اللغة الظهور ؛ يقال : دابة شَكُور إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعْطَى من العلف ؛ وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى (١) . والعرب تقول فى المَثَل : «أَشْكَرُ مِنْ بَرْوَقَة (٢)» لأنه يقال : تَخضَرّ وتنضُر بظلّ السحاب دون مطر . والله أعلم .

(١) راجع ج ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) البروق : ما يكسو الأرض من أول خضرة النبات . وقيل : هو نبت معروف .

تم الجزء الخامس من تفسير القرطبي

يتلوه ان شاء الله تعالى الجزء السادس ، وأوّله قوله تعالى :
« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول »

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السادس

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السادس

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

فهـــرس الجـــزء الســـادس

صفحة

سورة المائدة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ســورة الأنعـام

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ وتم الكلام . ثم قال جلّ وعزّ : ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ آستثناء ليس من الأوّل فى موضع نصب ؛ أى لكن من ظُلِم فله أن يقول ظلمنى فلان . ويجوز أن يكون فى موضع رفع ويكون التقدير ؛ لا يُحبّ الله أن يجهر أحدٌ بالسّوء إلا من ظُلم . وقراءة الجمهور « ظُلِمَ » بضم الظّاء وكسر اللّام ؛ ويجوز إسكانها . ومن قرأ « ظَلَمَ » بفتح الظّاء وفتح اللّام وهو زيد بن أسلم وآبن أبى إسحق وغيرُهما على ما يأتى فلا يجوز له أن يسكّن اللّام لخفّة الفتحة . فعلى القراءة الأولى قالت طائفة : المعنى لا يحبّ الله أن يجهر أحدٌ بالسوء من القول إلا من ظُلم فلا يُكره له الجهر به . ثم آختلفوا فى كيفية الجهر بالسوء وما هو المباح من ذلك ؛ فقال الحسن : هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه، ولكن ليقل : اللّهم أعِنّى عليه، اللّهم آستخرج حقّى، اللّهم حُلْ بينه وبين ما يريد من ظلمى ؛ فهذا دعاء فى المدافعة وهى أقلّ منازل السّوء . وقال آبن عباس وغيره : المباح لمن ظُلم أن يدعوَ على من ظلمه، وإن صَبَر فهو خير له ؛ فهذا إطلاق فى نوع الدعاء على الظالم . وقال أيضا والسُّدّى : لا بأس لمن ظُلم أن ينتصر ممّن ظلمه بمثل ظلمه ويجهر له بالسّوء من القول . وقال آبن المستنير : « إلا من ظُلِم » معناه ؛ إلا من أُكرِه على أن يجهر بسوء من القول كفرٍ أو نحوه فذلك مباح . والآية على هذا فى الإكراه ؛ وكذا قال قُطْرُب :

« إلا من ظُلِمَ » يريد المكره؛ لأنه مظلوم فذلك موضوع عنه وإن كفر؛ قال : ويجوز أن يكون المعنى « إلا من ظَلَمَ » على البدل؛ كأنه قال: لا يحبّ الله إلا من ظَلَم ،أى لا يحبّ الله الظّالم؛ فكأنه يقول : يحبّ من ظُلم أى يأجُر من ظُلم . والتقدير على هذا القول : لا يحبّ الله ذا الجهر بالسّوء إلا من ظُلم ،على البدل . وقال مجاهد : نزلت فى الضِّيافة فرُخِّص له أن يقول فيه . قال ٱبن جُريج عن مجاهد : نزلت فى رجل ضاف رجلا بفلاةٍ من الأرض فلم يُضَيِّفه فنزلت « إلا من ظُلِمَ » ورواه ٱبن أبى نَجيح أيضا عن مجاهد؛ قال: نزلت هذه الآية « لا يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ » فى الرجل يمرّ بالرجل فلا يُضيِّفه فرُخّص له أن يقول فيه إنه لم يُحسن ضيافته . وقد ٱستدلّ من أوجب الضِّيافة بهذه الآية؛ قالوا: لأن الظّلم ممنوع منه فدلّ على وجوبها؛ وهو قول اللّيث بن سعد . والجمهور على أنها من مكارم الأخلاق وسيأتى بيانها فى «هود»(١) والذى يقتضيه ظاهر الآية أن للظلوم أن ينتصر من ظالمه ـــ ولكن مع ٱقتصاد ـــ إن كان مؤمنا كما قال الحسن؛ فأما أن يقابل القذف بالقذف ونحوه فلا؛ وقد تقدّم فى « البقرة »(٢) . وإن كان كافرا فأرسل لسانك وٱدع بما شئت من الهَلَكة وبكل دعاء؛ كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : "اللّهمّ ٱشدُدْ وطأتك على مُضَر وٱجعلْها عليهم سِنِينَ كَسِنِى يوسف" وقال : "اللّهم عليكَ بفلانٍ وفلانٍ" سمّاهم . وإن كان مجاهرا بالظلم دعى عليه جهرا ، ولم يكن له عِرْض محترم ولا بدن محترم ولا مال محترم. وقد رَوى أبو داود عن عائشة قالت: سُرق لها شيءٌ فجعلتْ تدعو عليه(٣)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُسَبِّخى عنه" أى لا تُخَفِّفى عنه العقوبة بدعائك عليه . وروى أيضا عن عمرو بن الشَّريد عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لَىُّ(٤) الواجِد ظُلم يُحِلُّ عِرضَه وعُقوبته". قال ٱبن المبارك : يُحِلّ عِرْضَه يُغلَظ له ، وعقوبته يُحبَس . وفى صحيح مسلم "مَطْلُ الغنىِّ ظلمٌ". فالموسر المتمكّن إذا طُولب بالأداء ومَطل ظَلم، وذلك يبيح من عِرْضه أن يقال

---

(١) فى المسئلة الثانية من آية ٦٩ . (٢) راجع ج ٢ ص ٣٦٠ طبعة ثانية .
(٣) أى السارق . (٤) اللّى : المطل . الواجد : القادر على أداء دينه .

فيه فلان يَمطُل الناس ويحبس حقوقهم ويبيح للإمام أدبه وتعزيره حتى يرتدع عن ذلك ؛ حُكى معناه عن سفيان ، وهو معنى قول آبن المبارك رضى الله عنهما .

الثانيــة — وليس من هذا الباب ما وقع فى صحيح مسلم من قول العبّاس فى علىّ رضى الله عنهما بحضرة عمر وعثمان والزّبير وعبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين آقض بينى وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن . الحديث . ولم يردّ عليه واحد منهم ؛ لأنها كانت حكومة ، كل واحد منهما يعتقدها لنفسه ، حتى أنفذ فيها عليهم عمر الواجب ؛ قاله آبن العربى . وقال علماؤنا : هذا إنما يكون فيما إذا آستوت المنازل أو تقاربت ، فأما إذا تفاوتت فلا تمكّن الغوغاء من أن تستطيل على الفضلاء ، وإنما تطلب حقها بمجرّد الدعوى من غير تصريح بظلم ولا غضب ؛ وهذا صحيح وعليه تدل الآثار . ووجه آخر — وهو أن هذا القول أخرجه من العبّاس الغضب وصولة سلطة العمومة ؛ فإن العمّ صِنْو[(١)] الأب ، ولا شكّ أن الأب إذا أطلق هذه الألفاظ على ولده إنما يُحمل ذلك منه على أنه قصد الإغلاظ والرّدع مبالغة فى تأديبه ، لا أنه موصوف بتلك الأمور ؛ ثم آنضاف إلى هذا أنهم فى محاجّة وِلاية دينية ؛ فكان العباس يعتقد أن مخالفته فيها لا تجوز ، وأن مخالفته فيها تؤدّى إلى أن يتصف المخالف بتلك الأمور ؛ فأطلقها ببوادر الغضب على هذه الأوجه ؛ ولما علم الحاضرون ذلك لم ينكروا عليه ؛ أشار إلى هذا المازَرِىّ والقاضى عياض وغيرهما .

الثالثــة — فأمّا من قرأ « ظَلَم » بالفتح فى الظاء واللام — وهى قراءة زيد بن أسلم ، وكان من العلماء بالقرآن بالمدينة بعد محمد بن كعب القُرَظِىّ ، وقراءة آبن أبى إسحق والضحّاك وآبن عباس وآبن جُبير وعطاء بن السّائب — فالمعنى : إلا من ظلم فى فعل أو قول فآجهروا له بالسّوء من القول ؛ فى معنى النّهى عن فعله والتّوبيخ له والردّ عليه ؛ المعنى لا يُحبّ الله أن يقال لمن تاب من النفاق : ألستَ نافقتَ ، إلا من ظَلَم ، أى أقام على النفاق ؛ ودلّ على هذا قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » . قال آبن زيد : وذلك أنه سبحانه لما أخبر عن المنافقين

---

(١) الصّنو : المثل .

أنهم فى الدّرك الأسفل من النار كان ذلك جهرا بسوء من القول ، ثم قال لهم بعد ذلك : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ » على معنى التأنيس والاستدعاء إلى الشكر والإيمان . ثم قال للؤمنين : « لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » فى إقامتـه على النّفاق؛ فإنه يقال له : ألستَ المنافق الكافر الذى لك فى الآخرة الدرك الأسفل من النار؟ ونحو هذا من القول. وقال قوم : معنى الكلام : لا يُحبّ الله أن يجهر أحد بالسّوء من القول، ثم استثنى استثناء منقطعا؛ أى لكن من ظَلَم فإنه يجهر بالسوء ظلما وعدوانا وهو ظالم فى ذلك .

قلت : وهذا شأن كثير من الظَّلَمة ودأبهم؛ فإنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم وينالون من عِرض مظلومهم ما حرّم عليهم . وقال أبو إسحق الزّجاج : يجوز أن يكون المعنى «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ» فقال سوءا؛ فإنه ينبغى أن تأخذوا على يديه؛ ويكون الاستثناء ليس من الأوّل .

قلت : ويدلّ على هذا أحاديث منها قوله عليه السلام : "خذوا على أيدى سفهائكم" . وقوله : "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" قالوا : هذا ننصُره مظلوما فكيف ننصُره ظالما ؟ قال : "تَكُفّه عن الظّلم" . وقال الفرّاء : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » يعنى ولا من ظلم .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ تحذير للظالم حتى لا يَظلم، وللظلوم حتى لا يتعدّى الحدّ فى الانتصار. ثم أتبع هذا بقوله : ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ فندب إلى العفو ورغّب فيه . والعفو من صفة الله تعالى مع القدرة على الانتقام؛ وقد تقدّم فى «آل عمران» (1) فضل العافين . ففى هذه الألفاظ اليسيرة معانٍ كثيرة لمن تأملها . وقيل : إن عفوتَ فإن الله يعفو عنك . روى ابن المبارك قال : حدثنى من سمع الحسن يقول : إذا جثَتْ الأممُ بين يدى ربّ العالمين يوم القيامة نُودى ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا فى الدنيا؛ يُصدّق هذا الحديث قوله تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٠٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ لمّا ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفّار من أهل الكتاب، اليهود والنصارى؛ إذ كفروا بمحمد عليه السلام، وبيّن أن الكفر به كفر بالكلّ؛ لأنه ما من نبيّ إلا وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبجميع الأنبياء عليهم السلام. ومعنى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي بين الإيمان بالله ورسله؛ فنصّ سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر؛ وإنما كان كفرا لأنّ الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرّسل، فإذا جحدوا الرّسل ردّوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوا منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها؛ فكان كجَحْد الصانع سبحانه، وجحد الصّانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية. وكذلك التفريق بين رسله في الإيمان بهم كفر، وهي :

المسئلة الثانيــة — لقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ وهم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد؛ وقد تقدّم هذا من قولهم في «البقرة»(١). ويقولون لعوامّهم: لم نجد ذكر محمد في كتبنا. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي يتّخذوا بين الإيمان والجَحْد طريقا، أي دينا مبتدعا بين الإسلام واليهوديّة. وقال: «ذلك» ولم يقل ذينك؛ لأن ذلكَ تقع للاثنين ولو كان ذينك لجاز.

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ تأكيد يزيل التوهّم في إيمانهم حين وصفهم بأنهم يقولون نؤمن ببعض، وأن ذلك لا ينفعهم إذا كفروا برسوله؛ وإذا

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ طبعة ثانية .

كفروا برسوله فقد كفروا به عزّ وجلّ ، وكفروا بكل رسول مبشّر بذلك الرّسول ؛ فلذلك صاروا الكافرين حقًّا . و﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ يقوم مقام المفعول الثانى لأعتدنا؛ أى أعتدنا لجميع أصنافهم ﴿ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ أى مُذِلًّا .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

يعنى به النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾

سألت اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزّل عليهم كتابا مكتوبا فيما يدّعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالتوراة؛ تعنّتا له صلى الله عليه وسلم؛ فأعلم الله عزّ وجلّ أن آباءهم قد عنّتوا موسى عليه السلام بأكبر من هذا ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أى عِيانا؛ وقد تقدّم فى «البقرة»[(1)] . و «جَهْرَةً» نعت لمصدر محذوف أى رؤيةً جهرةً؛ فعوقبوا بالصّاعقة لِعظم ما جاءوا به من السؤال والظّلم بعد ما رأوا من المعجزات .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ فى الكلام حذف تقديره : فأحييناهم فلم يبرحوا فاتّخذوا العجل؛ وقد تقدّم فى « البقرة »[(2)] ويأتى ذكره فى «طـه»[(3)] . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أى البراهين والدّلالات والمعجزات الظاهرات من اليد والعصا وفلْق البحر وغيرها بأنه

(1) راجع جـ ١ ص ٤٠٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) راجع جـ ١ ص ٣٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة .
(3) فى آية ٨٨ .

لا معبود إلا الله عزّ وجلّ . ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ﴾ أى عمّا كان منهم من التعنّت . ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ أى حجّة بيّنة وهى الآيات التى جاء بها؛ وسُمّيت سلطانا لأن من جاء بها قاهر بالحجة، وهى قاهرة للقلوب، بأن يُعلَم أنه ليس فى قُوَى البشر أن يأتوا بمثلها .

قوله تعالى : وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ أى بسبب نقضهم الميثاق الذى أخذ منهم ، وهو العمل بما فى التّوراة؛ وقد تقدّم رفع الجبل ودخولهم الباب فى « البقرة »(١) . ﴿ وسُجَّدًا ﴾ نصب على الحال . وقرأ ورش وحده «وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعَدُّوا فِى السَّبْتِ» بفتح العين من عدا يَعْدو عَدْوًا وعُدْوانا وعُدُوًّا وعَدَاءً ، أى باقتناص الحيتان كما تقدّم فى « البقرة »(٢) . والأصل فيه تعتدوا أدغمت التاء فى الدال(٣)؛ قال النّحاس : ولا يجوز إسكان العين ولا يوصل إلى الجمع بين ساكنين فى هذا، والذى يقرأ بها إنما يروم الخطأ . ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ يعنى العهد الذى أُخذ عليهم فى التوراة . وقيل : عهد مؤكّد باليمين فسُمّى غليظا لذلك .

قوله تعالى : فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ « فَبِمَا نَقْضِهِمْ » خفض بالباء و « ما » زائدة مؤكّدة كقوله : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ »(٤) وقد تقدّم؛ والباء متعلقة بمحذوف، التقدير : فبنقضهم ميثاقهم لعنّاهم؛ عن قَتادة وغيره . وحذف هذا لعلم السّامع . وقال أبو الحسن علىّ بن حمزة الكسائىّ : هو متعلق بما قبله؛ والمعنى فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٠، ص ٤٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) أى فيما قرأ به ورش . (٤) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ طبعة أولى وثانية .

إلى قوله : « فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُم » قال : ففسر ظلمهم الذى أخذتهم الصاعقة من أجله بما بعده من نقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وسائر ما بيّن من الأشياء التى ظلموا فيها أنفسهم . وأنكر ذلك الطّبرىّ وغيره؛ لأن الذين أخذتهم الصّاعقة كانوا على عهد موسى ، والذين قتلوا الأنبياء ورَمَوا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان ، فلم تأخذ الصّاعقة الذين أخذتهم برميهم مريم بالبهتان . قال المهدوىّ وغيره : وهذا لا يلزم؛ لأنه يجوز أن يخبر عنهم والمراد آباؤهم؛ على ما تقدّم فى «البقرة» (١) . الزّجاج : المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرّمنا عليهم طيباتٍ أحلّت لهم؛ لأن هذه القصّة ممتدّة إلى قوله : « فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا » . ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبيّنوا صفة النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى فبنقضهم ميثاقهم وفعلهم كذا وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم . وقيل : المعنى بنقضهم لا يؤمنون إلا قليلا؛ والفاء مقحمة . و﴿ كُفْرِهِم ﴾ عطف، وكذا و﴿ قَتْلِهِم ﴾ . والمراد ﴿ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ كُتُبهم التى حرّفوها . و﴿ غُلْفٌ ﴾ جمع غِلاف؛ أى قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا . وقيل : هو جمع أَغْلَف وهو المُغَطَّى بالغِلاف؛ أى قلوبنا فى أغطية فلا نفقه ما تقول؛ وهو كقوله : « قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ » وقد تقدّم هذا فى « البقرة » (٢) وغرضهم بهذا دَرْء حجّة الرسل . والطبع الختم؛ وقد تقدّم فى «البقرة» (٣) . ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أى جزاء لهم على كفرهم؛ كما قال : « بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » أى إلا إيمانا قليلا أى ببعض الأنبياء، وذلك غير نافع لهم . ثم كرر ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ ليخبر أنهم كفروا كفرا بعد كفر . وقيل : المعنى « وبكفرهم » بالمسيح؛ فحذف لدلالة ما بعده عليه، والعامل فى « بكفرهم » هو العامل فى « بنقضهم » لأنه معطوف عليه، ولا يجوز أن يكون العامل فيه « طَبَعَ » . والبهتان العظيم رميها بيوسف النّجار وكان من الصالحين منهم . والبهتان الكذب المفرط الذى يتعجب منه وقد تقدّم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ﴾ كُسرت « إنّ » لأنها مبتدأة بعد القول وفتحها لغة ؛ وقد تقدّم في « آل عمران »(١) آشتقاق لفظ المسيح . ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ بدل ؛ وإن شئت على معنى أعني . ﴿ وَمَا قَتَلُوه وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ ردّ لقولهم . ﴿ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي ألقي شبهه على غيره كما تقدّم في « آل عمران »(٢) . وقيل : لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكّون فيه ؛ كما قال : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ . والإخبار قيل : إنه عن جميعهم . وقيل : إنه لم يختلف فيه إلا عوامّهم ؛ ومعنى آختلافهم قول بعضهم إنه إلٰه ، وبعضهم هو ابن الله . قال الحسن : وقيل آختلافهم أن عوامهم قالوا قتلنا عيسى . وقال من عاين رفعه إلى السّماء : ما قتلناه . وقيل : آختلافهم أن النُّسْطُوريّة من النّصارى قالوا : صُلِب عيسى من جهة ناسُوته لا من جهة لاهُوته . وقالت الملْكانية : وقع الصّلب والقتل على المسيح بكماله ناسُوتِه ولاهُوتِه . وقيل : آختلافهم هو أنهم قالوا : إن كان هذا صاحبُنا فأين عيسى ؟! وإن كان عيسى فأين صاحبُنا ؟! وقيل : آختلافهم هو أن اليهود قالوا : نحن قتلناه ؛ لأن يَهُوذا رأس اليهود وهو الذي سعى في قتله . وقالت طائفة من النصارى : بل قتلناه نحن . وقالت طائفة منهم : بل رفعه الله إلى السماء ونحن ننظر إليه . ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مِن زائدة ؛ وتمّ الكلام . ثم قال جلّ وعزّ : ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ آستثناء ليس من

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٨ طبعة أولى أو ثانية .	(٢) راجع جـ ٤ ص ١٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

الأوّل فى موضع نصب، ويجوز أن يكون فى موضع رفع على البدل؛ أى ما لهم به من علم إلا اتّباع الظّن . وأنشد سيبويه :

وبَلْدةٍ ليس بها أَنِيسُ * إلّا اليعافيرُ(١) وإلّا العِيسُ

قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ قال ابن عباس والسُّدى : المعنى ما قتلوا ظنّهم يقينا؛ كقولك قتلتُه عِلْما إذا عَلِمتَه علما تامّا؛ فالهاء عائدة على الظّنّ . قال أبو عبيد : ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقينا لقال : وما قتلوه فقط . وقيل : المعنى وما قتلوا الذى شُبّه لهم أنه عيسى يقينا؛ فالوقف على هذا على « يَقِينا » . وقيل : المعنى وما قتلوا عيسى، والوقف على « وَمَا قَتَلُوهُ » و « يَقِينًا » نعت لمصدر محذوف، وفيه تقديران : أحدهما — أى قالوا هذا قولا يقينا، أو قال الله هذا قولا يقينا . والقول الآخر — أن يكون المعنى وما علموه عِلْما يقينا . النحاس : إن قدرت المعنى بل رفعه الله إليه يقينا فهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد « بل » فيما قبلها لضعفها . وأجاز ابن الأنبارىّ الوقف على «وما قتلوه» على أن ينصب «يقينا» بفعل مضمر هو جواب القسم، تقديره : ولقد صدّقتم يقينا أى صدقا يقينا . ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ ابتداء كلام مستأنف؛ أى إلى السماء، والله تعالى متعال عن المكان؛ وقد تقدّم كيفية رفعه فى « آل عمران »(٢) . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ أى قويا بالنّقمة من اليهود فسلّط عليهم بطرس ابن أستيسانوس الرّومى فقتل منهم مقتلة عظيمة . ﴿ حَكِيمًا ﴾ حكم عليهم باللّعنة والغضب .

قوله تعالى : وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ . قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعِكْرِمة : المعنى ليُؤْمِنَنّ بالمسيح قبل موته اى الكتابىّ؛ فالهاء الاولى عائدة على عيسى، والثانية على الكتابىّ؛ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب

(١) اليعافير : أولاد الظباء واحدها يعفور . والعيس بقر الوحش لبياضها، والعيس البياض، وأصله فى الإبل استعاره للبقر .

(٢) راجع ج ٤ ص ٩٩ وما بعدها طبعة أولى وثانية .

اليهود والنصارى إلا و يؤمن بعيسى عليه السلام إذا عاين المَلَك، ولكنه إيمان لا ينفع؛ لأنه إيمان عند اليأس وحين التلبّس بحالة الموت؛ فاليهوديّ يقرّ في ذلك الوقت بأنه رسول الله، والنّصرانيّ يُقرّ بأنه كان رسول الله . ورُوِى أن الحجّاج سأل شَهْرَ بن حَوْشَب عن هذه الآية فقال : إني لأُوتى بالأسير من اليهود والنصارى فآمر بضرب عنقه، وأنظر إليه في ذلك الوقت فلا أرى منه الإيمان؛ فقال له شهر ابن حَوْشَب : إنه حين عاين أمر الآخرة يقرّ بأنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه فيؤمن به ولا ينفعه؛ فقال له الحجاج : من أين أخذت هذا؟ قال : أخذته من محمد بن الحنفيّة؛ فقال له الحجّاج : أخذت من عينٍ صافية . ورُوِى عن مجاهد أنه قال : ما من أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موته؛ فقيل له : إن غَرِق أو احترق أو أكله السَبع يؤمن بعيسى ؟ فقال : نعم ! وقيل : إن الهاءين جميعا لعيسى عليه السلام؛ والمعنى ليُؤْمننّ به من كان حيّا حين نزوله يوم القيامة؛ قاله قتادة وابن زيد وغيرهما واختاره الطّبريّ . ورَوى يزيد بن زُرَيْع عن رجل عن الحسن في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ » قال : قبل موت عيسى؛ والله إنه لحيّ عند الله الآن؛ ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون؛ ونحوه عن الضحّاك وسعيد بن جُبَير . وقيل : « لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ » أي بمحمد عليه السلام و إن لم يَجْرِ له ذكر؛ لأن هذه الأقاصيص أنزلت عليه والمقصود الإيمان به، والإيمان بعيسى يتضمّن الإيمان بمحمد عليه السلام أيضا؛ إذ لا يجوز أن يُفرّق بينهم . وقيل : « لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ » أي بالله تعالى قبل أن يموت ولا ينفعه الإيمان عند المعاينة . والتأويلان الأوّلان أظهر . ورَوى الزُّهريّ عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليَنزِلَنّ ابنُ مريمَ حكما عدلا فليَقْتُلَنّ الدجال وليَقْتُلَنّ الخنزيرَ وليَكسِرَنّ الصّليب وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين" ثم قال أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم « وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ » قال أبو هريرة : قبل موت عيسى؛ يُعيدها ثلاث مرات . وتقدير الآية عند سيبويه؛ و إن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننّ به . وتقدير الكوفيين : و إن من أهل الكتاب إلّا مَنْ لَيُؤْمِنَنَّ به، وفيه قبح؛ لأن فيه حذف الموصول، والصلة بعض الموصول فكأنه حذف بعض الاسم .

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى بتكذيب مَن كذّبه وتصديق مَن صدّقه .

قوله تعالى : فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ قال الزّجاج : هذا بدل من « فَبِمَا نَقْضِهِمْ » . والطيبات مانصّه فى قوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ » . وقدّم الظّلم على التّحريم إذ هو الغرض الذى قصد إلى الإخبار عنه بأنه سبب التحريم . ﴿ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى بصدّهم أنفسهم وغيرهم عن ٱتباع محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ كله تفسير للظلم الذى تعاطوه، وكذلك ما قبله من نقضهم الميثاق وما بعده ؛ وقد مضى فى « آل عمران » ٱختلاف العلماء (1) فى سبب التحريم على ثلاثة أقوال هذا أحدها .

الثانية — قال ٱبن العربى : لا خلاف فى مذهب مالك ان الكفّار مخاطبون، وقد بيّن الله فى هذه الآية أنهم قد نُهوا عن الربا وأكْل الأموال بالباطل؛ فإن كان ذلك خبرا عما نزل على محمد فى القرآن وأنهم دخلوا فى الخطاب فبها ونعمتْ ، وإن كان خبرا عما أنزل الله على موسى فى التّوراة، وأنهم بدّلوا وحرّفوا وعَصَوْا وخالفوا فهل يجوز لنا معاملتهم والقوم قد أفسدوا أموالهم فى دينهم أم لا ؟ فظنت طائفة أنّ معاملتهم لاتجوز؛ وذلك لما فى أموالهم من هذا الفساد . والصحيح جواز معاملتهم مع رباهم وٱقتحام ما حرّم الله سبحانه عليهم؛ فقد قام الدليل القاطع على ذلك قرآنا وسنة؛ قال الله تعالى : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ »

(1) راجع ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وهذا نص ؛ وقد عامل النبيّ صلى الله عليه وسلم اليهود ومات ودرعه مرهونة عند يهوديّ في شعير أخذه لعياله . والحاسم لداء الشكّ والخلاف آتفاقُ الأمّة على جواز التّجارة مع أهل الحرب ؛ وقد سافر النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم تاجرا ، وذلك من سفره أمر قاطع على جواز السفر إليهم والتجارة معهم . فإن قيل : كان ذلك قبل النبوّة ؛ قلنا : إنه لم يتدنس قبل النبوّة بحرام — ثبت ذلك تواترا — ولا آعتذر عنه إذ بُعث ، ولا منع منه إذ نُبِّئ ، ولا قطعه أحدٌ من الصحابة في حياته ، ولا أحد من المسلمين بعد وفاته ؛ فقد كانوا يسافرون في فكّ الأسرى وذلك واجب ، وفي الصّلح كما أرسل عثمان وغيره ؛ وقد يجب وقد يكون ندبا ؛ فأمّا السفر إليهم لمجرّد التجارة فمباح .

قوله تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُولَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ آستثنى مؤمني أهل الكتاب ؛ وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا : إن هذه الأشياء كانت حراما في الأصل وأنت تُحلّها ولم تكن حُرّمت بظلمنا ؛ فنزل « لَٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » والراسخ هو المبالغ في علم الكتاب الثابت فيه ، والرّسوخ الثبوت ؛ وقد تقدّم في « آل عمران »(١) والمراد عبد الله بن سلّام وكعب الأحبار ونظراؤهما . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي من المهاجرين والأنصار ، أصحاب محمد عليه السلام . ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ وقرأ آلحسن ومالك بن دينار وجماعة : « وَالْمُقِيمُونَ » على العطف ، وكذا هو في حَرْف عبد الله ، وأما حرف أبيّ فهو فيه « وَالْمُقِيمِينَ » كما في المصاحف . وآختلف في نصبه على أقوال ستّة ؛ أصحّها قول سيبويه بأنه نُصب على المدح ؛ أي وأعني المقيمين ؛ قال سيبويه : هذا باب ما ينتصب على التعظيم ؛ ومن ذلك والمقيمين الصلاة ؛ وأنشد :

(١) راجع جـ ٤ ص ١٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وكُلُّ قومٍ أطاعُوا أمرَ سيِّدِهمْ * إلَّا نُميرًا أطاعتْ أمرَ غاوِيها

ويروى (أمر مرشدهم) .

الظَّاعِنين ولمَّا يُظْعِنُوا أحدًا (١) * والقائلون لِمَنْ دارٌ نُخلِّيها

وأنشــد (٢) :

لا يَبْعَـدَنْ قومى الَّذين هُمُ * سُمُّ العُـداةِ وآفَةُ الجُــزْرِ

النَّـازِلِين بكُلِّ مُعْـتَرَكٍ * والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزْرِ

قال النّحاس : وهذا أصحّ ما قيل فى «المُقِيمِينَ» . وقال الكِسائىّ : «والمُقِيمِينَ» معطوف على «ما» . قال النحاس قال الأخفش : وهــذا بعيد ؛ لأن المعنى يكون ويؤمنون بالمقيمين . وحكى محمد بن جرير أنه قيل له : إن المقيمين ههنا الملائكة عليهم السلام ؛ لدوامهم على الصّــلاة والتّسبيح والاستغفار ، واختارَ هذا القولَ ، وحَكى أن النّصب على المدح بعيد ؛ لأن المدح إنما يأتى بعد تمام الخبر ، وخبر الراسخين فى «أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عظيمًا» فلا ينتصب «المقيمين» على المدح . قال النحاس : ومذهب سيبويه فى قوله : «وَالْمُؤْتُونَ» رفع بالابتداء . وقال غيره : هو مرفوع على إضمار مبتدأ ؛ أى هم المؤتون الزكاة . وقيل : «والمُقِيمِينَ» عطف على الكاف التى فى «قَبْلِكَ» . أى من قبلك ومن قبل المقيمين . وقيل : «المُقِيمِينَ» عطف على الكاف التى فى «إِلَيْكَ» . وقيل : هو عطف على الهاء والميم اى منهم ومن المقيمين ؛ وهذه الأجوبة الثلاثة لاتجوز ؛ لأن فيها عطف مظهر على مضمر مخفوض . والجواب السادس ــ ما رُوى أن عائشة رضى الله عنها سئلت عن هــذه الآية وعن قوله : «إِنْ هٰذانِ لَسَاحِرَانِ» وقوله : «والصَّابِئُونَ» فى «المــائدة» فقالت للسائل : يابن أخى الكُتَّاب (٣) أخطئوا . وقال

(١) قوله : (الظاعنين ولما يظعنوا أحدا) أى يخافون من عدوّهم لقلتهم وذلهم فيظعنون ، ولا يخاف منهــم عدوّهم فيظعن عن دارهم خوفا منهــم . وقوله : (لمن دار نخليها) أى إذا ظعنوا عن دار لم يعرفوا من يحلها بعــدهم لخوفهم من جميع القبائل . والبيتان لابن خياط . (٢) البيتان لخرنق بنت عفان من بنى قيس ؛ وصفت قومها بالظهور على العدوّ ، ونحر الجزر للأضياف ، والملازمة للحرب ، والعفة عن الفواحش .

(٣) فى الطبرى (يابن أختى) .

أَبَانَ آبن عثمان : كان الكاتب يُمْلَى عليه فيكتب فكتب « لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ» ثم قال : ما أكتب؟ فقيل له : آكتب «وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ» فمن ثَمَّ وقع هذا. قال القُشَيرى : وهذا المسلك باطل؛ لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة فى اللغة؛ فلا يُظَنّ بهم أنهم يدرجون فى القرآن مالم ينزل . وأصح هذه الأقوال قول سيبويه وهو قول الخليل، وقول الكسائىّ هو آختيار القَفّال والطبرىّ .

قوله تعالى : إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ . هذا متصل بقوله : « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ » فأعلم تعالى أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم كأمر من تقدّمه من الأنبياء . وقال آبن عبّاس فيما ذكره آبن إسحق : نزلت فى قوم من اليهود — منهم سُكَيْن وعَدِىّ بن زيد — قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى فكذّبهم الله . والوحى إعلام فى خفاء ؛ يقال وَحَى إليه بالكلام يَحِى وَحْيًا، وأَوْحَى يُوحِى إيحاء . ﴿ إِلَى نُوحٍ ﴾ قدّمه لأنه أوّل نبىّ شُرعت على لسانه الشرائع . وقيل غير هذا ؛ ذكر الزُّبير بن بَكّار حدّثنى أبو الحسن على آبن المغيرة عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : أوّل نبىّ بعثه الله فى الأرض إدريس وآسمه أَخْنُوخ[(١)]، ثم آنقطعت الرسل حتى بعث الله نوح بن لَمَك[(٢)] بن مُتَوَشْلَخ[(٣)] بن أَخْنُوخ ، وقد كان سام بن نوح نبيا، ثم آنقطعت الرُّسُل حتى بعث الله إبراهيم نبيا وآتخذه خليلا، وهو إبراهيم بن تَارَح وآسم تارَح

(١) أخنوخ : (بفتح الهمزة) وحكى صاحب تاج العروس عن شيخه (الضم) . (٢) لمك : بفتحتين . وقيل : (بفتح فسكون) . (روح المعانى) . (٣) متوشلخ (بضم الميم وفتح التاء الفوقية والواو وسكون الشين المعجمة ؛ وقيل : بفتح الميم وضم المثناة الفوقية المشدّدة وسكون الواو ولام مفتوحة وخاء معجمة (روح المعانى) .

آزر ، ثم بعث إسمعيل بن إبراهيم فمات بمكة ، ثم إسحق بن إبراهيم فمات بالشام ، ثم لوط وإبراهيم عمه ، ثم يعقوب وهو إسرائيل بن إسحق ، ثم يوسف بن يعقوب ثم شعيب بن يوبب[(١)] ، ثم هود بن عبد الله ، ثم صالح بن أسف ، ثم موسى وهارون ابنا عمران ، ثم أيوب ثم الخضر وهو خضرون ، ثم داود بن إيشا ، ثم سليمان بن داود ، ثم يونس بن متى ، ثم إلياس ، ثم ذا الكفل واسمه عويدنا من سبط يهوذا بن يعقوب ؛ قال : وبين موسى بن عمران ومريم بنت عمران أم عيسى ألف سنة وسبعمائة سنة وليسا من سبط ؛ ثم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي صلى الله عليه وسلم . قال الزبير : كل نبي ذكر في القرآن من ولد إبراهيم غير إدريس ونوح ولوط وهود وصالح . ولم يكن من العرب أنبياء إلا خمسة : هود وصالح وإسمعيل وشعيب ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين ؛ وإنما سموا عربا لأنه لم يتكلم بالعربية غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ هذا يتناول جميع الأنبياء ؛ ثم قال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ فخص أقواما بالذكر تشريفا لهم ؛ كقوله تعالى : «وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ» ثم قال : ﴿ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ ﴾ قدم عيسى على قوم كانوا قبله ؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب ، وأيضا فيه تخصيص عيسى ردا على اليهود . وفي هذه الآية تنبيه على قدر نبينا صلى الله عليه وسلم وشرفه حيث قدمه في الذكر على أنبيائه ؛ ومثله قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ » الآية ؛ ونوح مشتق من النوح ؛ وقد تقدم ذكره موعبا في «آل عمران»[(٢)] وانصرف وهو اسم أعجمي ؛ لأنه على ثلاثة أحرف خفف ؛ فأما إبراهيم وإسمعيل [وإسحق][(٣)] فأعجمية وهي معرفة ولذلك لم تنصرف ، وكذا يعقوب وعيسى وموسى إلا أن عيسى وموسى يجوز أن تكون الألف فيهما للتأنيث فلا ينصرفان في معرفة ولا نكرة ؛ فأما يُونس ويُوسف فروى عن الحسن أنه قرأ « ويونِس » بكسر النون وكذا يوسِف » يجعلهما من آنس وآسف ، ويجب على هذا أن يصرفا ويهمزا ويكون جمعهما يآنس ويآسف . ومن لم يهمز قال : يوانس

---

(١) يوبب : (بمثناة تحتية وواوو موحدتين) بوزن جعفر . (روح المعاني) .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) الزيادة عن (إعراب القرآن) للنحاس .

ويَوَاسِف . وحكى أبو زيد : يُونَس ويُوسَف بفتح النون والسين ؛ قال المهدوىّ : وكان « يُونِس » فى الأصل فِعلًا مبنيًّا للفاعل، و « يُونَس » فعلٌ مبنيٌّ للمفعول، فسُمِّى بهما .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ الزّبور كتاب داود وكان مائة وخمسين سورة ليس فيها حُكْم ولا حلال ولا حرام، وإنما هى حِكمٌ ومواعظ . والزّبْر الكتابة، والزّبور بمعنى المزبور أى المكتوب، كالرّسول والرّكوب والحَلُوب . وقرأ حمزة «زُبُوراً» بضم الزاى جمع زَبْر كفَلْس وفُلُوس ، وزَبْر بمعنى المزبور ؛ كما يقال هـذا الدرهم ضَرْب الأمير أى مَضروبه ؛ والأصـل فى الكلمة التوثيق ؛ يقـال : بئر مَزْبورة أى مطويّة بالحجارة، والكتاب يسمى زَبُورا لقـوّة الوثيقة به . وكان داود عليه السّلام حسن الصّوت ؛ فإذا أخذ فى قراءة الزّبور اجتمع إليـه الإنس والجنّ والطّير والوحْش لحسن صوته، وكان متواضـعا يأكل من عمَـل يده . روى أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنـا أبو أسامة عن هشام بن عُروة عن أبيـه قال : أن كان داود صلى الله عليـه وسلم لَيخطب الناس وفى يده القفّة من الخوص ، فإذا فرغ ناولهـا بعضَ مَن إلى جنبه يبيعها، وكان يصنع الدروع ؛ وسيأتى . وفى الحديث : " الزرقة فى العين يُمْن " وكان داود أزرق .

قوله تعـالى : وَرُسُـلًا قَـدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْـكَ مِن قَبْـلُ وَرُسُـلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى بمكة . ﴿ وَرُسُلًا ﴾ منصوب بإضمار فعل، أى وأرسلنا رسلا ؛ لأن معنى « أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ » وأرسلنا نوحا . وقيـل : هو منصوب بفعل دلّ عليه « قَصَصْنَاهُمْ » أى وقَصَصْنَا رسلا ؛ ومثله ما أنشد سيبويه (١) :

أَصبحتُ لا أحملُ السّلاحَ ولا * أملكُ رأسَ البعـيرِ إنْ نَفَـرَا
والذّئبَ أخشاه إن مررتُ بهِ * وحدى وأخشى الرّياحَ والمَطَرَا

(١) البيتان للربيع بن ضبع الفزارىّ؛ وهو أحد المعمّرين ، وصف فيهما انتهاء شبيبته وذهاب قوته .

أى وأخشى الذّئب . وفى حرف أبىّ « وَرُسُلٌ » بالرفع على تقدير ومنهم رُسُل . ثم قيل : إن الله تعالى لمّا قصّ فى كتابه بعض أسماء أنبيائه ، ولم يذكر أسماء بعض، ولمن ذكر فضل على من لم يذكر قالت اليهود : ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى؛ فنزلت ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ «تكليما» مصدر معناه التأكيد؛ يدلّ على بطلان من يقول: خلق لنفسه كلاما فى شجرة فسمعه موسى ، بل هو الكلام الحقيق الذى يكون به المتكلم متكلّما . قال النّحاس : وأجمع النحويّون على أنك إذا أكّدتَ الفعل بالمصدر لم يكن مجازا، وأنه لا يجوز فى قول الشاعر:

* ٱمتلأَ الحوضُ وقال قَطْنِى *

أن يقول : قال قَوْلًا ؛ فكذا لمّا قال : « تكليما » وجب أن يكون كلاما على الحقيقة من الكلام الذى يُعقل . وقال وهب بن منبِّه : إن موسى عليه السلام قال : « يا ربّ بِمَ ٱتخذتنى كليما »؟ طلبَ العمل الذى أسعده الله به ليكثر منه؛ فقال الله تعالى له : أتذكر إذ ندّ من غنمك جَدْىٌ فٱتبعته أكثر النهار وأتعبك، ثم أخذته وقبّلته وضممته إلى صدرك وقلت له : أتعبتنى وأتعبت نفسك، ولم تغضب عليه؛ من أجل ذلك ٱتخذتك كليما .

قوله تعالى : رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ هو نصب على البدل من « وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ » ويجوز أن يكون على إضمار فعل ؛ ويجوز نصبه على الحال ؛ أى كما أوحينا إلى نوح والنّبيين من بعده رسلا . ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فيقولوا ما أرسلت إلينا رسولا، وما أنزلت علينا كتابا ؛ وفى التنزيل « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » وقوله : « وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ » وفى هذا كله دليل واضح أنه لا يجب شىء من ناحية العقل . ورُوى عن كعب الأحبار أنه قال : كان الأنبياء[1] ألفَىْ ألف ومائتى ألف . وقال مقاتل : كان الأنبياء

(١) هذه الرواية نسبها (البحر) و(روح المعانى) إلى كعب الأحبار .

ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة وعشرين ألفا . وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بعثتُ على أثر ثمانية آلاف من الأنبياء ومنهم أربعة آلاف من بنى إسرائيل " ذكره أبو اللّيث السمرقندىّ فى التفسير له ؛ ثم أسند عن شُعبة عن أبى إسحق عن الحارث الأعور عن أبى ذرّ الغفارىّ قال : قلت يا رسول الله كم كانت الأنبياء وكم كان المرسلون ؟ قال : " كانت الأنبياء مائة ألف نبىّ وأربعة وعشرين ألف نبىّ وكان المرسلون ثلثمائة وثلاثة عشر " .

قلت : هذا أصحّ ما رُوى فى ذلك ؛ خرّجه الآجُرىّ وأبو حاتم البُستىّ فى المسند الصحيح له .

قوله تعالى : لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ ﴾ رفع بالابتداء ، وإن شئت شدّدت النون ونصبت . وفى الكلام حذف دلّ عليه الكلام ؛ كأنّ الكفّار قالوا : ما نشهد لك يا محمد فيما تقول فمن يشهد لك ؟ فنزل « لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ » . ومعنى ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أى وهو يعلم أنك أهل لإنزاله عليك ؛ ودلّت الآية على أنه تعالى عالم بعلم . ﴿ وَٱلْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ ذكر شهادة الملائكة ليقابل بها نفى شهادتهم . ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أى كفى الله شاهدا ، والباءُ زائدة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى اليهود . ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى عن اتّباع محمد صلى الله عليه وسلم بقولهم : ما نجد صفته فى كتابنا ، وإنما النُّبوة فى ولد هارون وداود ، وإن فى التّوراة أنّ شرع موسى لا يُنسخ . ﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ لأنهم كفروا ومع ذلك منعوا الناس من الإسلام .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ يعنى اليهود ؛ أى ظلموا محمدا بكتمان نعتـه ، وأنفسهم إذ كفروا ، والناس إذ كتموهم . ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ هـذا فيمن يموت على كفره ولم يَتُب .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ هـذا خطاب للكُلّ . ﴿ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ ﴾ يريد محمدا عليه الصلاة والسلام . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالقرآن . وقيل : بالدّين الحقّ ؛ وقيل : بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ وقيل : البـاء للتعدية ؛ أى جاءكم ومعه الحقّ ؛ فهو فى موضع الحال .

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ فى الكلام إضمار ؛ أى وأتوا خَيْرا لكم ؛ هذا مذهب سيبويه ، وعلى قول الفراء نعت لمصدر محذوف ؛ أى إيمـانا خيرا لكم ، وعلى قول أبى عُبيدة يكُنْ خيرا لكم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ نهى عن الغلوّ . والغُلُوّ التجاوز في الحدّ ؛ ومنه غَلَا السّعر يَغْلو غَلاء ؛ وغَلا الرجلُ في الأمر غُلُوّا ، وغَلا بالجارية لحمُها وعظمُها إذا أسرعت الشّباب فجاوزت لِداتها (١) ؛ ويعني في ذلك فيما ذكره المفسرون غُلوّ اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم ، وغُلوّ النّصارى فيه حتى جعلوه ربًّا ؛ فالإفراط والتقصير كله سيئة وكُفْر ؛ وكذلك قال مُطَرِّف بن عبد الله : الحسنة بين سيِّئتين ؛ قال الشاعر :

وأوفِ ولا تستوفِ حقّك كلّه * وصافحْ فلم يستوفِ قطّ كريمُ
ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقتصدْ * كِلَا طَرَفي قصْدِ الأمورِ ذَميمُ

وقال آخر :

عليكَ بأوساطِ الأمور فإنها * نجاةٌ ولا تَرْكبْ ذَلولًا ولا صَعْبًا

وفي صحيح البخاريّ عنه عليه السلام : " لا تُطْروني (٢) كما أَطْرَتِ النّصارى عيسى وقولوا عبدُ الله ورسولُه " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أي لا تقولوا إن له شريكا أو ابنا . ثم بيّن تعالى حال عيسى عليه السلام وصفته فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾ وفيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمَسِيحُ » المسيح رفع بالابتداء ؛ و« عِيسَى » بدل منه وكذا « ابْنُ مَرْيَمَ » . ويجوز أن يكون خبرَ الابتداء ويكون المعنى : إنما المسيحُ ابنُ مريم . ودلّ بقوله : « عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » على أن من كان منسوبا بوالدته كيف يكون إلها ، وحقّ الإله أن يكون قديما لا مُحدَثا . ويكون « رَسُولُ اللَّهِ » خبرا بعد خبر .

الثانية — لم يذكر الله عزّ وجلّ امرأة وسمّاها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران ؛ فإنه ذكر اسمها في نحوٍ من ثلاثين موضعا لحكمة ذكرها بعض الأشياخ ؛ فإن الملوك والأشراف

---

(١) اللّدات (جمع لِدة كعدة) : التِّرب ، وهو الذي وُلد معك وتربى .

(٢) الاطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه .

لا يذكرون حرائرهم فى الملأ، ولا يبتذلون أسماءهنّ، بل يكنون عن الزوجة بالعِرْس والأهل والعيال ونحو ذلك؛ فإن ذكروا الإماء لم يكنوا عنهنّ ولم يصونوا أسماءهنّ عن الذّكر والتّصريح بهـا؛ فلما قالت النّصارى فى مريم ما قالت، وفى ٱبنها صرّح الله بٱسمها، ولم يَكْنِ عنها بالأُمُوّة والعبوديّة التى هى صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب فى ذكر إمائها .

الثالثـــة — ٱعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرّر ذكره منسوبا للأم ٱستشعرت القلوبُ مايجب عليهـا ٱعتقادُه من نفى الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أى هو مكوّن بكلمة « كُنْ » فكان بشرا من غير أب ؛ والعرب تسمّى الشّىء بٱسم الشّىء إذا كان صادرا عنــه . وقيل : « كَلِمَتُهُ » بشارة الله تعـالى مريم عليها السلام ، ورسالتـه إليها على لسان جبريل ؛ وذلك قوله : « إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْـهُ » . وقيل : « الْكَلِمَةَ » هٰهنا بمعنى الآية ؛ قال ٱلله تعالى : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا » ، « وَمَا نَفِدَتْ كَلِمَـاتُ ٱللَّهِ » . وكان لعيسى أربعة أسمـاء ؛ المسيحُ وعيسى وكلمـةٌ ورُوحٌ ، وقيل غير هذا ممـا ليس فى القرآن . ومعنى ﴿ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أمر بها مريمَ .

قوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ . هذا الذى أوقع النّصارى فى الإضلال؛ فقالوا : عيسى جزء منه فجهلوا وضلّوا؛ وعنه أجوبة ثمانية : الأول — قال أُبَىّ بن كعب : خلق الله أرواح بنى آدم لمّـا أخذ عليهم الميثاق، ثم ردّها إلى صُلْب آدم وأمسك عنده رُوحَ عيسى عليه السلام ؛ فلما أراد خلقه أرســل ذلك الرّوحَ إلى مريم، فكان منه عيسى عليــه السلام ؛ فلهذا قال : « وَرُوحٌ مِنْهُ » . وقيل : هذه الإضافة للتّفضيل وإن كان جميع الأرواح من خلقه؛ وهــذا كقوله : « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ » . وقيل : قد يُسمّى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحًا، وتضاف إلى الله فيقال : هذا رُوح من الله أى من خلقه؛ كما يقال فى النّعمة إنها من الله . وكان عيسى يُبْرِئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى فاستحقّ هذا الاسم . وقيل : يُسمَّى رُوحًا بسبب

نفخة جبريل عليه السلام ، ويسمى النفخ روحا لأنه ريح يخرج من الروح؛ قال الشاعر — هو ذو الرمة — :

فقلتُ له ٱرْفَعها إليكَ وأَحْيِهَا * بِرُوحِكَ(١) وٱقْتَتْهُ لها قِيتةً قَدْرَا

وقد وَرَد أن جبريل نفخ في دِرْع مريم فحمَلَتْ منه بإذن الله؛ وعلى هذا يكون « وَرُوحٌ مِنْهُ » معطوف على المضمر الذي هو ٱسم الله في « أَلْقَاهَا » التقدير: ألقى الله وجبريل الكلمة إلى مريم . وقيل : « رُوحٌ مِنْهُ » أي من خلقه؛ كما قال : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » أي من خلقه . وقيل : « رُوحٌ مِنْهُ » أي رحمة منه؛ وكان عيسى رحمة من الله لمن ٱتّبعه؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ » أي برحمة؛ وقرئ « فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ » . وقيل : « وَرُوحٌ مِنْهُ » وبرهان منه؛ وكان عيسى برهانا وحجة على قومه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أي آمنوا بأن الله إله واحد خالق المسيح ومُرسِله، وآمنوا برسُله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلهـا . ﴿ وَلَا تَقُولُوا ﴾ آلهتنا ﴿ ثَلَاثَةٌ ﴾ عن الزجاج . قال ٱبن عباس: يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبته وٱبنه . وقال الفراء وأبو عُبيد : أي لا تقولوا هم ثلاثة؛ كقوله تعالى : «سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ» . أبو عليّ : التقدير ولا تقولوا هو ثالثُ ثلاثة؛ فحذف المبتدأ والمضاف . والنصارى مع فِرقهم مجمعون على التثليث ويقولون : إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم؛ فيجعلون كل أُقنوم إلهـا ويعنون بالأقانيم الوجود والحياة والعلم ، وربما يعبّرون عن الأقانيم بالأب والابن ورُوح ٱلقُدس؛ فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح، في كلام لهم فيه تخبّط بيانه في أصول الدين . ومحصول كلامهم يئول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يُجريه الله سبحانه على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته؛ وقالوا : قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفا بالإلٰهية؛ فيقال لهم : لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلّا به

(١) بروحك : بنفخك . «وٱقتته لها قيتة» : يأمره بالرفق والنفخ القليل في النار، وأن يطعمها حطبا قليلا قليلا .

كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرّهم عنه من مقدوراته ، وليس كذلك ؛ فإن آعترفت النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلا به ؛ و إن لم يُسلّموا ذلك فلا حجّة لهم أيضا ؛ لأنهم معارَضون بموسى عليه السّلام ، وما كان يجرى على يديه من الأمور العظام ، مثل قَلْب العصا ثعبانا ، وفَلْق البحر واليد البيضاء والمنّ والسّلوى ، وغير ذلك ؛ وكذلك ما جرى على يد الأنبياء ؛ فإن أنكروا ذلك فننكر ما يدّعونه هم أيضا من ظهوره على يد عيسى عليه السّلام ، فلا يمكنهم إثبات شيء من ذلك لعيسى ؛ فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن ، ويكذّبون من أتى به ، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التّواتر .

وقد قيل : إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعد ما رُفع عيسى ؛ يُصَلّون إلى القِبْلة ، و يصومون شهر رمضان ، حتى وقع فيما بينهم و بين اليهود حرب ، وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بُولس ، قتل جماعة من أصحاب عيسى فقال : إن كان الحق مع عيسى فقد كَفَرنا و جَحدنا والنار مصيرنا ، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنّة ودخلنا النّار ؛ و إنّى أحتال فيهم فأضلّهم فيدخلون النّار ؛ وكان له فرس يقال له العُقاب ، فأظهر النّدامة ووضع على رأسه التراب وقال للنصارى : أنا بُولس عدوّكم قد نوديتُ من السماء أن ليست لك تو بةٌ إلا أن تتنصّر ، فأدخلوه فى الكنيسة بيتا فأقام فيه سنة لايخرج ليلا ولا نهارا حتى تعلّم الإنجيل ؛ فخرج وقال : نوديتُ من السّماء أن الله قد قَبِل تو بتكَ فصدّقوه وأحبّوه ، ثم مضى إلى بيت المقدس وآستخلف عليهم نُسْطُورًا وأعلمه أن عيسى بن مريم إله ، ثم توجه إلى الرّوم وعلّمهم اللّاهوت والنّاسوت وقال : لم يكن عيسى بإنس فتأنّس ولا بجسم فتجسّم ولكنه آبنُ الله . وعلّم رجلا يقال له يعقوب ذلك ؛ ثم دعا رجلا يقال له المَلْك (١) فقال له : إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى ؛ فلما آستمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحدا واحدا وقال له : أنت خالصتى ولقد رأيتُ المسيح فى النّوم ورَضى عنّى ، وقال لكل واحد منهم : إنى غدًا أذبح نفسى وأتقرب

(١) كذا فى الأصول : والذى فى كتاب « الملل والنحل » : الملكانية أصحاب مَلْكا الذى ظهر ببلاد الروم وآستولى عليها . وفى (صبح الأعشى) : الملكانية هم أتباع مَلْكان الذى ظهر ببلاد الروم ؛ فهو مَلْكا أو مَلْكان .

بها ، فآدع الناس إلى نحلتك ، ثم دخل المذبح فذبح نفسه ؛ فلما كان يومُ ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نِحْلَته ، فتبع كل واحد منهم طائفة ، فآقتتلوا وآختلفوا إلى يومنا هذا ؛ فجميع النّصارى من الفرق الثلاث ؛ فهذا كان سبب شركهم فيما يقال ؛ وآلله أعلم . وقد رُويت هذه القصّة في معنى قوله تعالى : « فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »(١) وسيأتي إن شاء الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ ٱنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ «خيرا» منصوب عند سيبويه بإضمار فعل ؛ كأنه قال : ائتوا خيرا لكم ؛ لأنه إذا نهاهم عن الشّرك فقد أمرهم بإتيان ما هو خير لهم ؛ قال سيبويه : وفيما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره « ٱنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ » لأنك إذا قلت : آنته فأنت تخرجه من أمر وتُدخله في آخر ؛ وأنشد :

فَوَاعِدِيهِ سَرْحَتَيْ مَالِكٍ(٢) * أَوِ الرُّبَا بَيْنَهُمَا أَسْهَلَا

ومذهب أبي عبيدة : انتهوا يَكُنْ خيرا لكم ؛ قال محمد بن يزيد : هذا خطأ ؛ لأنه يضمر الشّرط وجوابه ، وهذا لا يوجد في كلام العرب . ومذهب الفرّاء أنه نعت لمصدر محذوف ؛ قال عليّ بن سليمان : هذا خطأ فاحش ؛ لأنه يكون المعنى : آنتهوا الآنتهاء الذى هو خير لكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ آبتداء وخبر ؛ و « وَاحِدٌ » نعتٌ له . ويجوز أن يكون « إله » بدلا من آسم الله عزّ وجلّ و « واحدٌ » خبره ؛ التقدير إنما المعبود واحد . ﴿ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أى تنزيها عن أن يكون له ولد ؛ فلما سقط « عن » كان « أَنْ » في محل النّصب بنزع الخافض ؛ أي كيف يكون له ولد ، وولد الرجل مُشْبِه له ، ولا شبيه لله عزّ وجلّ . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلا شريك له ، وعيسى من جملة ما في السّموات والأرض ، وما فيهما مخلوق ، فكيف يكون عيسى إلها وهو مخلوق ! وإن جاز ولد فليجزْ أولاد حتى يكون كلّ من ظهرت عليه معجزة ولدا له . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى لأوليائه ؛ وقد تقدّم .

---

(١) في آية ١٤ من سورة « المائدة » . (٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، و «سرحتا مالك» : موضع بعينه ، والسرحتان شجرتان شهر الموضع بهما ، والربا : جمع ربوة وهى المشرف من الأرض .

قوله تعالى : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)﴾

قوله تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أى لن يأنف ولن يحتشم . ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أى من أن يكون ؛ فهو فى موضع نصب . وقرأ الحسن : « إِنْ يَكُونُ » بكسر الهمزة على أنها نفى بمعنى « ما » والمعنى ما يكون له ولد ؛ وينبغى رفع يكون ولم يذكره الرواة . ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أى من رحمة الله ورضاه ؛ فدلّ بهذا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وكذا « وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ » وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا المعنى فى « البقرة »(1) . ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ﴾ أى يأنف ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ فلا يفعلها . ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى إلى المحشر . ﴿جَمِيعًا﴾ فيجازى كُلًّا بما يستحق ، كما بيّنه فى الآية بعد هذا « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » إلى قوله : « نَصِيرًا » . وأصل « يَسْتَنْكِفْ » نَكَفَ ؛ فالياء والسّين والتاء زوائد ؛ يقال : نَكِفْتُ من الشّىء وٱستنكفْتُ منه وأَنْكَفْتُه أى نزّهته عما يُستنكف منه ؛ ومنه الحديث سُئل عن «سبحان الله» فقال : "إنْكَاف الله من كلّ سوءٍ" يعنى تنزيهه وتقديسه عن الأنداد والأولاد . وقال الزّجاج : ٱستنكف أى أَنِف مأخوذ من نَكَفْت الدّمع إذا نحّيته بإصبعك عن خدّك ؛ ومنه الحديث "ما يُنْكَفُ العرَقُ عن جبينه" أى ما ينقطع ؛ ومنه الحديث "جاء بجيش لا يُنْكَف آخره" أى لا ينقطع آخره . وقيل : هو من النَّكَف وهو العيب ؛

(1) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

يقال : ما عليه فى هذا الأمر نَكَف ولا وَكَف أى عيب ؛ أى لن يمتنع المسيح ولن يتنزّه من العبوديّة ولن ينقطع عنها ولن يعيبها .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم؛ عن الثّورىّ؛ وسمّاه برهانا لأن معه البرهان وهو المعجزة . وقال مجاهد: البرهان هٰهنا الحجّة؛ والمعنى متقارب؛ فإن المعجزات حجته صلى الله عليه وسلم . والنور المنزّل هو القرآن؛ عن الحسن؛ وسماه نورا لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضّلالة، فهو نور مبين، أى واضح بيّن .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أى بالقرآن عن معاصيه ، وإذا اعتصموا بكتابه اعتصموا به وبنبيّه . وقيل : « اعْتَصَمُوا بِهِ » أى بالله . والعصمة الامتناع، وقد تقدّم [(١)] . ﴿ وَيَهْدِيهِمْ ﴾ أى وهو يهديهم ؛ فأضمر هو ليدل على أن الكلام مقطوع مما قبله . ﴿ إِلَيْهِ ﴾ اى إلى ثوابه . وقيل : إلى الحقّ ليعرفوه . ﴿ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى دينا مستقيما . و « صِرَاطًا » منصوب بإضمار فعل دلّ عليه « وَيَهْدِيهِمْ » التقدير ؛ ويعرّفهم صراطا مستقيما . وقيل : هو مفعول ثان على تقدير ؛ ويهديهم إلى ثوابه صراطا مستقيما . وقيل : هو حال . والهاء فى « إِلَيْهِ » قيل: هى للقرآن، وقيل: للفضل، وقيل: للفضل والرحمة؛ لأنهما بمعنى الثّواب . وقيل: هى لله عزّ وجلّ على حذف المضاف كما تقدّم من أن المعنى ويهديهم إلى ثوابه . ابو علىّ: الهاء راجعة إلى ماتقدّم من اسم الله عزّ وجلّ؛ والمعنى ويهديهم إلى صراطه؛ فإذا جعلنا « صراطا مستقيما » نصبا على الحال كانت الحال من

(١) راجع جـ ٤ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

هـذا المحذوف . وفى قوله : « وَفَضْلٍ » دليلٌ على أنه تعالى يتفضل على عباده بثوابه ؛ إذ لو كان فى مقابلة العمل لما كان فضلا . والله أعلم .

قوله تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قال البَراء بن عازب : هذه آخر آية نزلت فى القرآن ؛ كذا فى كتاب مسلم . وقيل : نزلت والنبيّ صلى الله عليه وسلم متجهز لحجّة الوَداع ، ونزلت بسبب جابر ؛ قال جابر آبن عبد الله : مرضت فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يعودانى ماشيَين ، فأُغمى علىّ ؛ فتوضأ ثم صبّ علىّ من وَضوئه فأفقتُ ، فقلتُ : يا رسول الله كيف أقضى فى مالى ؟ فلم يردّ علىّ شيئا حتى نزلت آيةُ الميراث « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ » رواه مسلم ؛ وقال : آخر آية نزلت « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » (١) وقد تقدّم . ومضى فى أوّل السورة الكلام فى « الكلالة » (٢) مستوفى ، وأن المراد بالإخوة هنا الأخوة للأب والأم ، وكان لجابر تسع أخوات .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أى ليس له ولد ولا والد ؛ فاكتفى بذكر أحدهما ؛ قال الجُرجانى : لفظ الولد ينطلق على الوالد والمولود ؛ فالوالد يسمّى والدا لأنه وَلَد ، والمولود يسمى ولدا لأنه وُلد ؛ كالذّريّة فإنها من ذَرا ثم تطلق على المولود وعلى الوالد ؛ قال الله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » .

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ٧٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الثالثة — والجمهور من العلماء من الصّحابة والتّابعين يجعلون الأخوات عصبة البنات وإن لم يكن معهنّ أخ غير آبن عباس؛ فإنه كان لا يجعل الأخوات عصبة البنات؛ وإليه ذهب داود وطائفة؛ وحجّتهم ظاهر قول الله تعالى: «إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ» ولم يورّث الأختَ إلّا إذا لم يكن للميّت ولد؛ قالوا: ومعلوم أن الآبنة من الولد، فوجب ألّا ترثَ الأختُ مع وجودها. وكان آبن الزّبير يقول بقول آبن عبّاس في هذه المسئلة حتى أخبره الأسود بن يزيد: أن معاذا قضى في بنت وأخت فجعل المال بينهما نصفين.

الرابعة — هذه الآية تسمّى بآية الصّيف؛ لأنها نزلت في زمن الصّيف؛ قال عمر: إني والله لا أدع شيئا أهمّ إلى من أمر الكلالة، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أغلظ لى فى شيء ما أغلظ لى فيها، حتى طعن بإصبعه فى جنبي أو فى صدري ثم قال: "يا عمر ألّا تكفيك آية الصّيف التى أُنزلت فى آخر سورة النّساء". وعنه رضى الله عنه قال: ثلاث لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّنهن أحبّ إلىّ من الدّنيا وما فيها؛ الكلالة والرّبا والخلافة؛ خرّجه آبن ماجه فى سننه.

الخامسة — طعن بعض الرافضة بقول عمر: "والله لا أدع" الحديث.

السادسة — قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ قال الكسائىّ: المعنى يبيّن الله لكم لئلّا تضلّوا. قال أبو عُبيد: فحدّثت الكسائىّ بحديث رواه آبن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يدعونّ أحدُكم على ولده أن يوافق من الله إجابة" فآستحسنه. قال النحاس: والمعنى عند أبى عبيد لئلّا يوافق من الله إجابة، وهذا القول عند البصريّين خطأ؛ [لأنهم][1] لا يجيزون إضمار لا؛ والمعنى عندهم: يُبيّن الله لكم كراهة أن تضلّوا، ثم حذف؛ كما قال: «وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ» وكذا معنى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أى كراهية أن يوافق من الله إجابة. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقدّم فى غير موضع. والله أعلم.

تمّت سورة «النّساء» والحمد لله الذى وفّق.

(١) الزيادة عن «إعراب القرآن» للنحاس.

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر

تفسير سورة المائدة

بحول الله تعالى وقوته؛ وهى مدنية بإجماع؛ ورُوى أنها نزلت مُنْصَرَف رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من الحُدَيبية . وذكر النّقاش عن أبى سَلَمة أنه قال : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحُدَيبية قال : "ياعليّ أشعرتَ أنه نزلت عليّ سورة المائدة ونعمت الفائدة" . قال آبن العربى : هذا حديث موضوع لايحلّ لمسلم آعتقاده؛ أما إنّا نقول: سورة «المائدة، ونعمت الفائدة» فلا نأثره عن أحد ولكنه كلام حسن . وقال آبن عطية : وهذا عندى لا يشبه كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سورة المائدة تُدعى فى ملكوت الله المنقذة تُنقذ صاحبها من أيدى ملائكة العذاب" . ومن هذه السورة ما نزل فى حجة الوَداع ، ومنها ما أُنْزِل عامَ الفتح وهو قوله تعالى : «لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ» الآية . وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو مدنيّ ، سواء نزل بالمدينة أو فى سَفَر من الأسفار . وإنما يُرسم بالمكيّ ما نزل قبل الهجرة . وقال أبو ميسرة : «المائدة» من آخر ما نزل ليس فيها منسوخ ، وفيها ثمان عشرة فريضة ليست فى غيرها ؛ وهى : «ٱلْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ» ، «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ» ، «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» ، «وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» ، «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» وتمام الطّهور «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» ، «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ» ، «لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ» إلى قوله : «عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ» ، «مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ» . وقوله تعالى : «شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» الآية .

قلت : وفريضة تاسعة عشرة وهى قوله : «وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» ليس للأذان ذكر فى القرآن إلا فى هذه السّورة؛ أما ما جاء فى سورة «الجمعة» فمخصوص بالجمعة، وهو

فى هذه السورة عامّ لجميع الصلوات . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ سورة « المائدة » فى حجّة الوداع وقال : "يأيها الناس إنّ سورة المائدة آخرُ ما نزل فأحلّوا حلالها وحرّموا حرامها" ونحوه عن عائشة رضى الله عنها موقوفا ؛ قال جُبير بن نُفير : دخلتُ على عائشة رضى الله عنها فقالت : هل تقرأ سورة « المائدة » ؟ فقلت : نعم ، فقالت : فإنها من آخر ما أنزل الله ، فما وجدتم فيها من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه . وقال الشَّعْبيّ : لم يُنسخ من هذه السّورة إلا قوله : « وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ » الآية . وقال بعضهم : نُسخ منها « أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال عَلْقَمة : كلُّ ما فى القرآن « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فهو مَدنىّ و « يَأَيُّهَا النَّاسُ » فهو مكّىّ ؛ وهذا خرج على الأكثر ، وقد تقدّم. وهذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلّة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام ؛ فإنها تضمّنت خمسة أحكام: الأول — الأمر بالوفاء بالعقود؛ الثانى — تحليل بهيمة الأنعام؛ الثالث — آستثناء ما يلى بعد ذلك؛ الرابع — آستثناء حال الإحرام فيما يصاد ؛ الخامس — ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم . وحكى النّقاش أن أصحاب الكِنْدِىّ قالوا له : أيّها الحكيم آعمل لنا مثل هذا القرآن فقال : نعم ! أعمل مثل بعضه ؛ فآحتجب أيّاما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ؛ إنى فتحت المصحف فخرجت سورة « المائدة » فنظرت فإذا هو قد نَطق بالوفاء ونَهى عن النّكث ، وحلّل تحليلا عامّا ،

ثم آستثنى آستثناء بعد آستثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا إلا فى أجلاد .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ أَوْفُوا ﴾ يقال : وَفَى وأَوْفَى لغتان، قال الله تعالى : « وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ » وقال تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّى » وقال الشاعر (١) :

أَمّا آبْنُ طَوْق فقــد أَوْفَى بِذِمَّتِهِ * كَمَا وَفَى بِقِلَاصِ النَّجْمِ حَادِيهَا

فجمع بين اللّغتين . ﴿ بِالْعُقُودِ ﴾ العقود الرّبوط، واحدها عَقْد، يقال : عَقَدْتُ العهدَ والحبلَ، وعَقّدتُ العسلَ فهو يستعمل فى المعانى والأجسام ؛ قال الحُطَيْئة :

قَــومٌ إذا عَقَــدُوا عَقْدًا لِجَــارِهِمُ * شَــدُّوا العِنَاجَ (٢) وشَدُّوا فوقَه الكَرَبا

وأَمَر الله سبحانه بالوفاء بالعقود ؛ قال الحسن : يعنى بذلك عقود الدّين وهو ما عقــده المرء على نفســه، من بيع وشراء وإجارة وكِراء ومُناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وتدبير وغير ذلك من الأمور، ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة، وكذلك ما عقــده على نفســه لله من الطّاعات ؛ كالحجّ والصّــيام والآعتكاف والقيام والنّــذر وما أشــبه ذلك من طاعات ملّة الإســلام . وأما نذر المبــاح فلا يلزم بإجماع من الأمة، قاله آبن العربى . ثم قيل : إن الآية نزلت فى أهل الكتاب، لقوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » . قال آبن جُريج : هو خاصّ بأهل الكتاب وفيهم نزلت . وقيل : هى عامّة وهو الصحيح ؛ فإن لفظ المؤمنين يعمّ مؤمنى أهل الكتاب، لأنّ بينهم وبين الله عقدا فى أداء الأمانة فيما فى كتابهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم مأمورون بذلك فى قوله : «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» وغيرِ موضع . قال آبن عباس : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » معناه بما أحلّ وبما حرّم وبما فرض وبما حدّ فى جميع الأشياء، وكذلك قال مجاهد وغيره . وقال آبن شهاب :

(١) الشاعر هو طفيل الغنوى، وقلاص النجم : هى العشرون نجما التى ساقها الدَّبَران فى خطبة الثريا كما تزعم العرب .

(٢) العناج : خيط أو سير يشدّ فى أسفل الدّلو ثم يشدّ فى عروتها ؛ والكرب : الحبل الذى يشدّ على الدلو بعد المنين، وهو الحبل الأوّل، فاذا انقطع المنين بقى الكرب . وقيل : غير هذا . وهذه أمثال ضربها الحطيئة لإيفائهم بالعهد .

قرأت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى نجران وفى صدره : " هذا بيان للناس من الله و رسوله « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ » فكتب الآيات فيها إلى قوله : « إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » " . وقال الزجاج : المعنى أوفوا بعقد الله عليكم و بعقدكم بعضكم على بعض . وهذا كله راجع إلى القول بالعموم وهو الصحيح فى الباب ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "المؤمنون عند شروطهم" وقال : "كُلُّ شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل و إن كان مائة شرط" فبيّن أن الشرط أو العقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله أى دين الله ؛ فإن ظهر فيها ما يخالف رُدّ ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "من عَمِل عَمَلًا ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ" . ذكر ٱبن إسحٰق قال : ٱجتمعت قبائل من قريش فى دار عبدالله ٱبن جُدْعان — لشرفه ونسبه — فتعاقدوا وتعاهدوا على ألّا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مَظلمتُه ؛ فسمَّتْ قريشٌ ذلك الحِلْف حِلْفَ الفُضُول ؛ وهو الذى قال فيه الرّسول صلى الله عليه وسلم : "لقد شَهِدتُ فى دار ٱبن جُدْعان حِلْفًا ما أحبُّ أنّ لى به حُمْر النَّعَم ولو ٱدُّعِىَ به فى الإسلام لَأجبتُ" . وهذا الحِلْف هو المعنى المراد فى قوله عليه السلام : " وأيّما حِلْفٍ كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شِـدّةً " لأنه موافق للشّرع إذ أمر بالانتصاف من الظّالم ؛ فأما ما كان من عهودهم الفاسدة وعقودهم الباطلة على الظّلم والغارات فقد هدمه الإسلام والحمد لله . قال ٱبن إسحٰق : تحامل الوليدُ بن عُتبة على الحسين ابن علىّ فى مال له — لسلطان الوليد ؛ فإنه كان أميرا على المدينة — فقال له الحسين : أَحلِفُ بالله لَتُنصفَنِّى من حقّى أو لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأَدعوَنّ بحِلْف الفُضُول . قال عبد الله بن الزّبير: وأنا أَحلِفُ بالله لئن دعانى لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف من حقّه أو نموت جميعا ؛ و بلغت المِسْوَر بن مَخْرمة فقال مثل ذلك ؛ و بلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التَّيْمىّ فقال مثل ذلك ؛ فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ ﴾ الخطاب لكلّ من ٱلتزم الإيمان على وجهه وكماله ؛ وكانت للعرب سنن فى الأنعام من البَحِيرة والسّائبة والوَصيلة والحام يأتى

بيانها ؛ فنزلت هـذه الآية رافعة لتلك الأوهام الخيالية ، والآراء الفاسدة الباطلة . وآختلف في معنى « بهيمة الأنعام » والبهيمة آسم لكل ذى أربع ؛ سمّيت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها ؛ ومنه باب مبْهم أى مُغلق ، وليل بَهِيم ، وبُهْمة للشّجاع الذى لا يُدْرَى من أين يُؤْتَى له . و « الأنعام » : الإبل والبقر والغنم ، سمّيت بذلك للين مشيها ؛ قال الله تعالى : « وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ » إلى قوله : « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ » وقال تعالى : « وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا » يعنى كبارا وصغارا ؛ ثم بيّنها فقال : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » إلى قوله : « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ » وقال تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا » يعنى الغنم « وَأَوْبَارِهَا » يعنى الإبل . « وَأَشْعَارِهَا » يعنى المعز ؛ فهذه ثلاثة أدلّة تنبئ عن تضمّن آسم الأنعام لهـذه الأجناس ؛ الإبل والبقر والغنم ؛ وهو قول آبن عباس والحسن . قال الهَرَوِىّ : وإذا قيل النَّعَم فهو الإبل خاصة . وقال الطَّبَرِىّ : وقال قوم « بَهِيمَةُ الأنعامِ » وحشيّها كالظّباء وبقر الوحش والحُمُر وغير ذلك . وذكره غير الطّبَرِىّ عن السُّدّى والرّبيع وقَتادة والضّحاك ، كأنه قال : أحلّت لكم الأنعام ؛ فأضيف الجنس إلى أخصّ منه . قال آبن عطيّة : وهـذا قول حسن ؛ وذلك أن الأنعام هى الثمانية الأزواج ، وما آنضاف إليها من سائر الحيوان يقال له أنعام بمجموعه معها ، وكأن المفترس كالأسـد وكلّ ذى ناب خارج عن حدّ الأنعام ؛ فبهيمة الأنعام هى الرّاعى من ذوات الأربع .

قلت : فعلى هذا يدخل فيها ذوات الحوافر لأنها راعية غير مفترسـة وليس كذلك ؛ لأن الله تعالى قال : « وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ » ثم عطف عليها قوله : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ » فلما آستأنف ذكرها وعطفها على الأنعام دلّ على أنها ليست منها ؛ وآلله أعلم . وقيل : « بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ » ما لم يكن صيدا ؛ لأن الصيد يُسمّى وحشا لا بهيمة ، وهذا راجع إلى القول الأوّل . ورُوى عن عبـد الله بن عمر أنه قال : « بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ » الأجنّة التى تخرج عند الذبح من بطون الأمّهات ؛ فهى تؤكل دون ذكاة ، وقاله آبن عباس وفيه بُعد ؛

لأن الله تعالى قال : « إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » وليس فى الأجنّة ما يُستثنى ؛ قال مالك : ذكاة الذبيحة ذكاة لجنينها إذا لم يُدرَك حيًّا وكان قد نبت شعره وتمّ خلقه ؛ فإن لم يتمّ خلقُه ولم يَنبت شعرُه لم يؤكل إلّا أن يُدرَك حيًّا فيُذكّى ؛ وإن بادروا إلى تذكيته فمات بنفسه فقيل : هو ذَكِيّ . وقيل : ليس بذَكِيّ ؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى :

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى يقرأ عليكم فى القرآن والسّنة من قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » وقوله عليه الصّلاة والسّلام : "وكلّ ذى ناب من السّباع حرام". فإن قيل : الذى يُتلى علينا الكتابُ ليس السّنة ؛ قلنا : كل سُنّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهى من كتاب الله ؛ والدّليل عليه أمران : أحدهما — حديث العَسيف "لأقضيَنّ بينكما بكتاب الله" والرّجم ليس منصوصا فى كتاب الله . الثانى — حديث ابن مسعود : ومالى لا ألعن من لَعَن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله ؛ الحديث . وسيأتى فى سورة « الحشر »[(١)] . ويحتمل « إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » الآن أو « مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » فيما بعدُ من مستقبل الزمان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيكون فيه دليل على جواز تأخير البيان عن وقت لا يُفتقر فيه إلى تعجيل الحاجة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ أى ما كان صيدا فهو حلال فى الإحلال دون الإحرام ، وما لم يكن صيدا فهو حلال فى الحالين . واختلف النّحاة فى « إِلَّا مَا يُتْلَى » هل هو استثناء أو لا ؟ فقال البصريون : هو استثناء من « بهيمة الأنعام » و « غير محلى الصيد » استثناء آخر أيضا منه ؛ فالاستثناءان جميعا من قوله : « بهيمة الانعام » وهى المستثنى منها ؛ التقدير : إلّا مَا يُتْلَى عليكم إلّا الصّيدَ وأنتم مُحرِمون ؛ بخلاف قوله : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ » على ما يأتى . وقيل : هو مستثنى مما يليه من الاستثناء ؛ فيصير بمنزلة قوله عزّ وجلّ : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ » ولو كان كذلك لوجب إباحة الصّيد فى الإحرام ؛ لأنه مستثنى من المحظور إذا كان قوله تعالى : « إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ »

---

(١) راجع المسئلة السابعة من تفسير آية ٧ .

مستثنى من الإباحة ؛ وهذا وجه ساقط؛ فإذًا معناه أحلّت لكم بهيمة الأنعام غير محلى الصيد وأنتم حُرُمٌ إلّا ما يُتلى عليكم سوى الصّيد . ويجوز أن يكون معناه أيضا أوفوا بالعقود غير مُحلِّي الصّيد وأحلّت لكم بهيمة الأنعام إلّا ما يُتلى عليكم . وأجاز الفرّاء أن يكون « إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ » في موضع رفع على البدل على أن يعطف بإلّا كما يعطف بلا ؛ ولا يجيزه البصريون إلا في النكرة أو ما قاربها من [أسماء][1] الأجناس نحو جاء القوم إلّا زيدٌ . والنّصب عنده بأنّ « غيرَ مُحِلِّي الصَّيد » نصب على الحال ممـا في «أوفوا» ؛ قال الأخفش : يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود غيرَ مُحلّي الصّيد . وقال غيره : حال من الكاف والميم في « لَكُمْ » والتقدير: أُحلّت لكم بهيمة الأنعام غير محلّي الصّيد . ثم قيل : يجوز أن يرجع الإحلال إلى الناس ، أي لا تُحلوا الصّيد في حال الإحرام ، ويجوز أن يرجع إلى الله تعالى أي أحللت لكم البهيمة إلا ما كان صيدا في وقت الإحرام كما تقول : أحللت لك كذا غير مبيح لك يوم الجمعة . فإذا قلت يرجع إلى الناس فالمعنى : غيرَ مُحلّين الصيد ، فحذفت النّون تخفيفا .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ يعني الإحرام بالحجّ والعُمرة ؛ يقال : رجل حرام وقوم حُرُم إذا أحرموا بالحجّ ؛ ومنه قول الشاعر[2] :

فقلتُ لها فِيئي إليك فإنّني * حرامٌ وإنّي بعد ذاك لَبِيب

أي مُلَبٍّ ؛ وسُمي ذلك إحراما لما يحرّمه من دخل فيه على نفسه من النساء والطّيب وغيرهما . ويقال أحرم دخل في الحرم ؛ فيحرُم صَيْد الحرم أيضا . وقرأ الحسن وإبراهيم ويحيى بن وثّاب « حُرْم » بسكون الرّاء ؛ وهي لغة تميميّة يقولون في رُسُل رُسْل وفي كُتُب كُتْب ونحوه .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ تقوية لهذه الأحكام الشّرعية المخالفة لمعهود أحكام العرب ؛ أي فأنت يا محمد السامع لنسخ تلك التي عهدت من أحكامهم تنبّه ؛ فإن الذي هو مالك الكلّ « يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » « لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ » يُشرّع ما يشاء كما يشاء .

---

(١) الزيادة عن ابن عطية . (٢) هو المُضَرِّب بن كعب بن زهير .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تُحِلُّوا شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ خطاب للؤمنين حقّا؛ أى لا تتعدّوا حدود الله فى أمر من الأمور . والشّعائر جمع شَعيرة على وزن فَعيلة . وقال ابن فارس : ويقال للواحدة شِعَارة؛ وهو أحسن . والشعيرة البَدَنة تُهدى ، وإشعارها أن يُجَزّ سنامها حتى يسيل منه الدّم فيعلم أنها هَدْىٌ . والإشعار الإعلام من طريق الإحساس؛ يقال : أشعر هَدْيه أى جعل له علامة ليُعرف أنه هَدْىٌ؛ ومنه المشاعر المعالم ، واحدها مَشعر وهى المواضع التى قد أشعرت بالعلامات . ومنه الشّعر؛ لأنه يكون بحيث يقع الشّعور؛ ومنه الشّاعر؛ لأنه يشعر بفطنته لما لا يفطن له غيره؛ ومنه الشّعير لشَعرته التى فى رأسه؛ فالشّعائر على قولٍ ما أُشعر من الحيوانات لتُهْدى إلى الله ، وعلى قولٍ جميع مناسك الحجّ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : الصّفا والمَرْوة والهَدْىُ والبُدْن كل ذلك من الشّعائر . وقال الشاعر :

نُقَتِّلُهم جِيلًا فجِيلًا تراهُمُ * شَعَائِرَ قُرْبانٍ بها يُتَقَرَّبُ

وكان المشركون يَحجّون ويَعتمرون ويُهدون فأراد المسلمون أن يُغيروا عليهم؛ فقال الله تعالى : « لَا تُحِلُّو شَعَائِرَ اللّهِ » . وقال عطاء بن أبى رَباح : شعائر الله جميع ما أمر الله به ونهى عنه . وقال الحسن : دين الله كله؛ كقوله : « ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » أى دين الله .

قلت : وهـذا القول هو الراجح الذى يقـدّم على غيره لعمومه . وقـد اختلف العلمـاء فى إشعار الهَدْى وهى :

الثانيـة ــ فأجازه الجمهـور ؛ ثم ٱختلفوا فى أى جهة يُشـعَر ؛ فقال الشـافعى وأحمد وأبو ثَوْر : يكون فى الجانب الأيمن ؛ ورُوى عن ٱبن عمر . وثبت عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أشعر ناقته فى صفحة سَنامها الأيمن ؛ أخرجه مسلم وغيره وهو الصحيح . ورُوى أنه أشـعر بُدْنه من الجانب الأيسر ؛ قال أبو عمر بن عبد البرّ : هـذا عندى حديث منكر من حديث ٱبن عباس ؛ والصحيح حديث مسلم عن ٱبن عباس ، قال : ولا يصح عنه غيره . وصفحة السَّنام جانبه ، والسَّنام أعلى الظهر . وقالت طائفة : يكون فى الجانب الأيسر ؛ وهو قول مالك ، وقال : لابأس به فى الجانب الأيمن . وقال مجاهد : من أىّ الجانبين شاء ؛ وبه قال أحمد فى أحد قوليه . ومنع من هـذا كلّه أبو حنيفة وقال : إنه تعـذيب للحيوان ، والحديث يردّ عليه ؛ وايضا فذلك يجرى مجرى الوَسْم الذى يُعرف به المِلْك كما تقدّم ؛ وأوغل ٱبن العربى على أبى حنيفة فى الردّ وٱلإنكار حين لم ير الإشعار فقال : كأنه لم يَسمع بهذه الشّعيرة فى الشّريعة ! لهى أشهر منه فى العلمـاء .

قلت : والذى رأيته منصوصا فى كتب علماء الحنفية الإشعار مكروه من قول أبى حنيفة ، وعند أبى يوسف ومحمـد ليس بمكروه ولا سنّة بل هو مباح ؛ لأن الإشعار لمّـا كان إعلاما كان سـنّة بمنزلة التّقليـد ، ومن حيث إنه جرح ومُثْلَة كان حراما ، وكان مشتملا على السّنة والبدعة فجُعل مباحا . ولأبى حنيفة أن الإشعار مُثْلَة وأنه حرام من حيث إنه تعذيب الحيوان فكان مكروها ؛ وما رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّمـا كان فى أوّل الاْبتداء حين كانت العرب تنتهب كلّ مال إلا ماجُعل هَدْيا ، وكانوا لايعرفون الهَدْى إلا بالإشعار ثم زال لزوال العذر ؛ هكذا رُوى عن ٱبن عباس . وحُكى عن الشيخ الإمام أبى منصور المـاتُرِيدىّ رحمه الله تعـالى أنه قال : يحتمل أن أبا حنيفة كره إشـعار أهل زمانه وهو المبالغة فى البَضْع على وجه يُخاف منه السِّراية ، أما ما لم يجاوز الحدّ فُعِل كما كان يُفعَل فى عهد رسول الله صلى

الله عليه وسلم فهو حسن؛ وهكذا ذكر أبو جعفر الطّحاوى"؛ فهذا اعتذار علماء الحنفية لأبي حنيفة عن الحديث الذى ورد فى الإشعار، فقد سمعوه ووصل إليهم وعلموه؛ قالوا: وعلى القول بأنه مكروه لا يصير به أحدٌ محرما؛ لأن مباشرة المكروه لا تُعدّ من المناسك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ اسم مفرد يدلّ على الجنس فى جميع الأشهر الحُرُم وهى أربعة: واحد فرد وثلاثة سَرْدٌ(١) يأتى بيانها فى «براءة»(٢)؛ والمعنى: لا تستحلّوها للقتال ولا للغارة ولا تبدّلوها ؛ فإن استبدالها استحلال، وذلك ما كانوا يفعلونه من النّسىء ؛ وكذلك قوله : « وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ » أى لا تستحلّوه؛ وهو على حذف مضاف أى ولا ذوات القلائد جمع قِلَادة . فنهى سبحانه عن استحلال الهَدْى جملة، ثم ذكر المقلَّد منه تأكيدا ومبالغة فى التنبيه على الحرمة فى التقليد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ ﴾ الهدىُ ما أهدى إلى بيت الله تعالى من ناقة أو بقرة أو شاة؛ الواحدة هَدْيَةٌ وهَدِيَّة وهَدْىٌ . فمن قال أراد بالشّعائر المناسك قال : ذكر الهَدْى تنبيها على تخصيصها . ومن قال الشّعائر الهدى قال : إن الشعائر ما كان مُشْعَرا أى مُعْلَما بإسالة الدّم من سَنامه، والهدىُ ما لم يُشْعَر، اكتفى فيه بالتقليد . وقيل : الفرق أن الشعائر هى البُدن من الأنعام . والهَدْى البقر والغنم والثّياب وكل ما يُهدى . وقال الجمهور : الهَدىُ عامّ فى جميع ما يتقرّب به من الذّبائح والصّدقات ؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام "المُبَكِّر إلى الجمعة كالمُهْدِى بَدَنة" إلى أن قال : "كالمُهدِى بَيْضة" فسمّاها هَدْيا ؛ وتسمية البيضة هديا لا محمل له إلا أنه أراد به الصّدقة ؛ وكذلك قال العلماء : إذا قال جعلت ثوبى هَدْيا فعليه أن يتصدّق به ؛ إلا أن الإطلاق إنما ينصرف إلى أحد الأصناف الثلاثة من الإبل والبقر والغنم، وسَوْقها إلى الحرم وذبحها فيه، وهذا إنما تُلُقّى من عُرف الشّرع فى قوله تعالى : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ » وأراد به الشّاة؛ وقال تعالى : « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ » وقال تعالى : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ

(١) سرد : متتابعة . (٢) فى المسئلة الأولى آية ٥ .

فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ » وأقله شاة عند الفقهاء . وقال مالك : إذا قال ثوبي هَدْيٌ يجعل ثمنه في هَدْي . « وَٱلْقَلَائِد » ما كان الناس يتقلّدونه أَمَنَةً لهم ؛ فهو على حذف مضاف ، أي ولا أصحاب القلائد ثم نُسخ . قال ٱبن عبّاس : آيتان نسختا من « المائدة » آية القلائد وقوله : « فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » فأمّا القلائد فنسخها الأمر بقتل المشركين حيث كانوا وفي أي شهر كانوا . وأمّا الأخرى فنسخها قوله تعالى : « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ » على ما يأتي . وقيل : أراد بالقلائد نفس القلائد ؛ فهو نهي عن أخذ لِحاء[1] شجر الحرم حتى يُتَقلَّد به طلبا للأمن ؛ قاله مجاهد وعطاء ومُطَرِّف بن الشِّخِّير . وٱلله أعلم . وحقيقة الهدي كلّ مُعطًى لم يذكر معه عِوَض . وٱتفق الفقهاء على أن من قال : لله عليّ هدى أنه يبعث بثمنه إلى مكة . وأما القلائد فهي كل ما عُلّق على أسنمة الهدايا وأعناقها علامة أنه لله سبحانه ؛ من نعل أو غيره ، وهي سُنّة إبراهيميّة بقيت في الجاهلية وأقرّها الإسلام ، وهي سنّة البقر والغنم . قالت عائشة رضي الله عنها : أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّة إلى البيت غنما فقلّدها ؛ أخرجه البخاري ومسلم ؛ وإلى هذا صار جماعة من العلماء ؛ الشافعيّ وأحمد وإسحٰق وأبو ثور وٱبن حبيب ؛ وأنكره مالك وأصحاب الرّأي وكأنهم لم يبلغهم هذا الحديث في تقليد الغنم ، أو بَلَغَ لكنّهم ردّوه لانفراد الأسود به عن عائشة رضي الله عنها ؛ فالقول به أولى . وٱلله أعلم . وأما البقر فإن كانت لها أسنمة أُشعرت كالبُدْن ؛ قاله ٱبن عمر ؛ وبه قال مالك . وقال الشّافعيّ : تُقلَّد وتُشعَر مطلقا ولم يفرقوا . وقال سعيد بن جُبَير : تُقلّد ولا تُشعَر ؛ وهذا القول أصحّ إذ ليس لها سَنام ، وهي أشبه بالغنم منها بالإبل . وٱلله أعلم .

الخامسة — وٱتّفقوا فيمن قلّد بدَنة على نيّة الإحرام وساقها أنه يصير محرما ؛ قال الله تعالى : « لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ ٱللَّهِ » إلى أن قال : « فَٱصْطَادُوا » ولم يذكر الإحرام لكن لما ذكر التّقليد عُرِف أنه بمنزلة الإحرام .

---

(١) لِحَاء الشجر : قشره .

السادسة — فإن بعث بالهدى ولم يَسُق بنفسه لم يكن محرما؛ لحديث عائشة قالت: أنا فتلتُ قلائد هَدْيِ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي؛ ثم قلّدها بيديه، ثم بعث بها مع أبي فلم يحرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء أحلّه له الله حتى نُحِر الهدىُ؛ أخرجه البخاري، وهذا مذهب مالك والشافعيّ وأحمد وإسحٰق وجمهور العلماء. ورُوى عن ابن عباس أنه قال: يصير مُحرِما؛ قال ابن عباس: من أهدى هديا حَرُم عليه ما يَحْرُم على الحاجّ حتى يُنحر الهدىُ؛ رواه البخاريّ؛ وهذا مذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جُبير، وحكاه الخطّابي عن أصحاب الرأي؛ واحتجّوا بحديث جابر بن عبد الله قال: كنت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا فقدّ قميصَه من جيبه ثم أخرجه من رجليه، فنظر القوم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: "إني أمرتُ ببُدْني التي بعثت بها أن تُقلَّد وتُشعَر على مكان كذا وكذا فلبستُ قميصي ونسيتُ فلم أكن لأخرج قميصي من رأسي" وكان بعث ببُدْنه وأقام بالمدينة؛ في إسناده عبد الرحمن بن عطاء بن أبي لبيبة[1] وهو ضعيف. فإن قلّد شاة وتوجه معها فقال الكوفيون: لا يصير محرما؛ لأن تقليد الشاة ليس بمسنون ولا من الشّعائر؛ لأنه يُخاف عليها الذئب فلا تصل إلى الحرم بخلاف البُدن؛ فإنها تُترك حتى ترد الماء وترعى الشّجر وتصل إلى الحرم. وفي صحيح البخاريّ عن عائشة أم المؤمنين قالت: فَتلتُ قلائدها من عِهْنٍ كان عندي. العِهْن الصّوف المصبوغ؛ ومنه قوله تعالى: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ»

السابعة — لا يجوز بيع الهدى ولا هبته إذا قُلِّد وأشعر؛ لأنه قد وجب. وإن مات مُوجِبه لم يُورَثْ عنه ونَفذ لوجهه؛ بخلاف الأضحيّة فإنها لا تجب إلا بالذّبح خاصّة عند مالك إلّا أن يوجبها بالقول؛ فإن أوجبها بالقول قبل الذّبح فقال: جعلتُ هذه الشاة أُضْحيّة تعيّنت؛ وعليه إن تلفت ثم وجدها أيام الذّبح أو بعدها ذَبَحْها ولم يَجُز له بيعُها؛ فإن كان اشترى أُضْحيّة غيرها ذبحهما جميعا في قول أحمد وإسحٰق. وقال الشافعي: لا بَدَل عليه إذا ضلّت أو سُرقت، إنما الإبدال في الواجب. ورُوى عن ابن عبّاس أنه قال: إذا ضلّت فقد أجزأت. ومن

(١) في التهذيب: (ابن بنت أبي لبيبة).

مات يوم النّحر قبل أن يُضحّي كانت ضحيّته موروثة عنه كسائر ماله بخلاف الهدى . وقال أحمد وأبو ثور : تذبح بكل حال . وقال الأوزاعيّ : تذبح إلا أن يكون عليه دين لا وفاء له إلا من تلك الأضحيّة فتُباع فى دَينه . ولو مات بعد ذبحها لم يرثها عنه ورثته، وصنعوا بها من الأكل والصدقة ما كان له أن يصنع بها ؛ ولا يقتسمون لحمها على سبيل الميراث . وما أصاب الأضحيّة قبل الذّبح من العيوب كان على صاحبها بدلها بخلاف الهَدْى ؛ هذا تحصيل مذهب مالك . وقد قيل فى الهدى على صاحبه البدل؛ والأوّل أصوب . والله أعلم .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ﴾ يعنى القاصدين له ؛ من قولهم أَمَمْت كذا أى قصدته . وقرأ الأعمش « ولاآمّى البيتِ الحرامِ » بالإضافة كقوله : « غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيدِ » والمعنى: لاتمنعوا الكفار القاصدين البيت الحرام على جهة التعبّد والقربة ؛ وعليه فقيل : ما فى هذه الآيات من نهي عن مشرك ، أو مراعاة حرمة له بقلادة، أو أمّ البيت فهو كله منسوخ بآية السيف فى قوله : « فاقتلوا ٱلْمُشْرِكين حيث وَجَدْتُمُوهم » وقوله : « فلا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِم» فلا يُمكّن المشرك من الحج ، ولا يؤمّن فى الأشهر الحرم وإن أهدى وقلّد وحجّ ؛ روى عن ابن عباس وقاله ابن زيد على ما يأتى ذكره . وقال قوم : الآية محكمة لم تنسخ وهى فى المسلمين ، وقد نهى الله عن إخافة من يقصد بيته من المسلمين . والنهى عامّ فى الشهر الحرام وغيره، ولكنه خصّ الشهر الحرام بالذكر تعظيما وتفضيلا ؛ وهذا يتمشّى على قول عطاء ؛ فإن المعنى لا تُحِلوا معالم الله ، وهى أمره ونهيه وما أعلمه الناس فلا تحلّوه ؛ ولذلك قال أبو ميسرة : هى محكمة . وقال مجاهد : لم ينسخ منها إلا « القلائد » وكان الرجل يتقلد بشيء من لِحاء الحرم(1) فلا يقرب فنسخ ذلك . وقال ابن جُريج : هذه الآية نهى عن الحُجّاج أن تقطع سبلهم . وقال ابن زيد : نزلت الآية عام الفتح ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة؛ جاء أناس من المشركين يحجّون ويعتمرون فقال المسلمون : يارسول الله إنما هؤلاء مشركون فلن ندعهم إلا أن نغير عليهم ؛ فنزل القرآن «وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ» . وقيل :

(1) أى لِحَاء شجر الحرم .

كان هذا لأمّ شُرَيح بن ضُبَيْعة البَكْرىّ — ويلقّب بالحُطَم — أخذته جند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى عُمْرته فنزلت هذه الآية، ثم نسخ هذا الحكم كما ذكرنا . وأدرك الحُطَم هذا رِدّة اليمامة فقتِل مرتدّا . وقد رُوى من خبره أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وخلّف خيله خارج المدينة فقال : إلامَ تدعو الناس ؟ فقال : " إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة " فقال : حسن ؛ إلا أنّ لى أمراء لا أقطع أمرا دونهم ولعلى أسلم وآتى بهم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " يدخل عليكم رجل يتكلم بلسان شيطان " ثم خرج من عنده فقال عليه السلام : " لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر وما الرجل بمسلم " . فمرّ بسَرْح(١) المدينة فآستاقه؛ فطلبوه فعجزوا عنه، فانطلق وهو يقول :

قد لفّها الليل بسوّاقٍ حُطَم(٢) * ليس براعى إبلٍ ولا غَنَمْ
ولا بجزّارٍ على ظهرِ وَضَم(٣) * باتوا نياما وآبن هندٍ لم يَنَمْ
بات يقاسيها غلام كالزُّلَم(٤) * خَدَلَّج الساقين(٥) خَفّاق القدَم(٦)

فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم عام القضيّة(٧) سمع تلبية حُجّاج اليمامة فقال : " هذا الحُطَم وأصحابه " . وكان قد قلّد مانهب من سَرْح المدينة وأهداه إلى مكة، فتوجهوا فى طلبه؛ فنزلت الآية، أى لا تُحِلّوا ما أُشعر لله وإن كانوا مشركين؛ ذكره ابن عباس .

التاسعة — وعلى أن الآية محكمة قوله تعالى : « لا تُحِلّوا شعائرَ اللهِ » يوجب إتمام أمور المناسك؛ ولهذا قال العلماء : إن الرجل إذا دخل فى الحج ثم أفسده فعليه أن يأتى بجميع أفعال الحج، ولا يجوز أن يترك شيئا منها وإن فسد حجه؛ ثم عليه القضاء فى السنة الثانية . قال أبو الليث السّمرقندىّ : وقوله تعالى : « وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ » منسوخ بقوله : « وقاتِلوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » وقوله : « وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ » محكم لم ينسخ؛ فكل من قلّد الهدى

(١) السّرح : المال السائم . (٢) رجل حُطَم وحُطَمة : إذا كان قليل الرحمة للماشية يهشم بعضها ببعض .
(٣) الوَضَم : كل شىء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية يُوقَى به من الأرض .
(٤) الزلم : (بفتح الزاى وضمها) القدح؛ والجمع الأزلام، وهى السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها .
(٥) خَدَلَّج الساقين : عظيمهما . (٦) خفّاق القدم : عريض صدر القدمين .
(٧) القضية : قضاء العمرة التى أُحصِر عنها .

ونوى الإحرام صار مُحرِما لا يجوز له أن يحلّ بدليل هذه الآية؛ فهذه الأحكام معطوف بعضها على بعض؛ بعضها منسوخ و بعضها غير منسوخ .

العاشرة — قوله تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ قال فيه جمهور المفسرين: معناه يبتغون الفضل والأرباح فى التجارة ، ويبتغون مع ذلك رضوانه فى ظنهم وطمعهم . وقيل : كان منهم من يبتغى التجارة، ومنهم من يطلب بالحج رضوان الله وإن كان لا يناله؛ وكان من العرب من يعتقد جزاء بعد الموت، وأنه يبعث، ولا يبعد أن يحصل له نوع تخفيف فى النار . قال ابن عطية : هذه الآية استئلاف من الله تعالى للعرب ولطف بهم ؛ لتنبسط النفوس، وتتداخل الناس، ويردون الموسم فيستمعون القرآن، ويدخل الإيمان فى قلوبهم، وتقوم عندهم الحجة كالذى كان . وهذه الآية نزلت عام الفتح فنسخ الله ذلك كله بعد عام سنة تسع، إذ حج أبو بكر ونودى الناس بسورة « براءة » .

الحادية عشرة — قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ أمر إباحة — بإجماع الناس — رفع ما كان محظورا بالإحرام؛ حكاه كثير من العلماء وليس بصحيح، بل صيغة « افعل » الواردة بعد الحظر على أصلها من الوجوب ؛ وهو مذهب القاضى ابن الطّيب وغيره ؛ لأن المقتضى للوجوب قائم وتقدّم الحظر لا يصلح مانعا؛ دليله قوله تعالى : « فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ » فهذه « افعل » على الوجوب؛ لأن المراد بها الجهاد، وإنما فهمت الإباحة هناك وما كان مثله من قوله : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا » « فإذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ » من النظر إلى المعنى والإجماع لا من صيغة الأمر . والله أعلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى لا يحملنّكم ؛ عن ابن عباس وقتادة ، وهو قول الكسائى وأبى العباس . وهو يتعدّى إلى مفعولين ؛ يقال : جَرَمنى كذا على بُغْضك أى حَمَلنى عليه ؛ قال الشاعر[1] :

ولقد طَعَنْتَ أبا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً * جَرَمَتْ فَزَارَةَ بعدها أن يَغْضَبوا

(١) هو أبو أسماء بن الضّريبة ، ويقال : هو عطية بن عفيف . وطعنت (بفتح التاء) لأنه يخاطب كُرْزا العُقيلى ويرثيه ، وقبل البيت : يا كُرْز إنك قد قتلت بفارس * بطل إذا هاب الكُماة وجببوا
وكان كرز قد طعن أبا عُيَيْنَةَ ، وهو حصن بن حُذَيفة بن بدر الفَزَارى . (اللسان) .

وقال الأخفش : أى ولا يُحِقَّنَّكم . وقال أبو عبيدة والفراء : معنى « لَا يَجْرِمَنَّكُمْ » أى لا يَكسِبنّكم بغض قوم أن تعتدوا الحقّ إلى الباطل، والعدل إلى الظلم؛ قال عليه السلام : "أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تَخُن من خانك" وقد مضى القول فى هذا . ونظير هذه الآية « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » وقد تقدّم مستوفى(١) . ويقال فلان جَرِيمة أهله أى كاسبهم؛ فالجريمة والجارم بمعنى الكاسب . وأجرم فلان أى اكتسب الإثم؛ ومنه قول الشاعر(٢) :

جَرِيمة ناهِضٍ فى رَأْسِ نِيقٍ(٣) * تَرى لِعظامِ ما جَمَعَتْ صَلِيبَا

معناه كاسب قوتٍ ، والصليب الوَدَك ، وهذا هو الأصل فى بناء(٤) دم . قال ابن فارس : يقال جَرَم وأَجْرَم ، ولا جَرَم بمنزلة قولك : لا بدّ ولا محالة؛ وأصلها من جَرَم أى اكتسب ، قال :

* جَرَمت فَزَارة بعدها أن يَغْضَبُوا *

وقال آخر :

يأيها المشتكي عُكْلًا(٥) وما جَرَمت * إلى القبائل من قَتْلٍ وإبآسِ

ويقال : جَرَم يَجْرِم جَرْما إذا قَطَع؛ قال الرّمانى علىّ بن عيسى : وهو الأصل؛ فجَرَم بمعنى حَمَل على الشيء لقطعه من غيره ، وجَرَم بمعنى كَسَب لانقطاعه إلى الكسب ، وجَرَم بمعنى حق لأن الحقّ يقطع عليه . وقال الخليل : « لا جَرَم أنّ لَهُمُ النَّار » لقد حقّ أن لهم العذاب . وقال الكسائى : جَرَم وأجرم لغتان بمعنى واحد ، أى اكتسب . وقرأ ابن مسعود « يُجْرِمَنَّكُمْ » بضم الياء ، والمعنى أيضا لا يكسبنّكم؛ ولا يعرف البصريون الضّم ، وإنما يقولون : جرم لا غير . والشَّنَآن البغض . وقرئ بفتح النون وإسكانها؛ يقال : شَنِئت الرجل أَشْنَؤه شَنْأً وشَنْأة وشَنَآنًا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٦ وما بعدها طبعة ثانية .
(٢) هو أبو خِرَاش الهُذلىّ يذكر عُقابا شبّه فرسه بها؛ والناهض فَرْخ العُقاب ، والنِّيق أرفع موضع فى الجبل .
(٣) الوَدَك : دَسَم اللحم . (٤) كذا فى الأصل . (٥) عكل (بالضم) : أبو قبيلة فيهم غباوة ، اسمه عَوْف بن عبد مَنَاة حضنته أَمَة تدعى عُكْل فلقّب به . « القاموس » .

وشَنْآنًا بجزم النون، كل ذلك إذا أبغضته؛ أى لا يكسبنّكم بغض قوم بصدّهم إياكم أن تعتدوا؛ والمراد بغضكم قوما، فأضاف المصدر إلى المفعول . قال ٱبن زيد : لما صُدّ المسلمون عن البيت عام الحديبية مرّ بهم ناس من المشركين يريدون العُمْرة؛ فقال المسلمون : نصدّهم كما صدّنا أصحابهم، فنزلت هذه الآية؛ أى لا تعتدوا على هؤلاء، ولا تَصُدّوهم ﴿ أَنْ صَدُّوكُمْ ﴾ أصحابهم؛ بفتح الهمزة مفعول من أجله؛ أى لأن صَدّوكم . وقرأ أبو عمرو وٱبن كثير بكسر الهمزة « إِن صَدّوكم » وهو ٱختيار أبي عبيد . ورُوِى عن الأخفش « إن يَصُدّوكم » . قال ٱبن عطية : فإنْ للجزاء؛ أى إن وقع مثل هذا الفعل فى المستقبل . والقراءة الأولى أمكن فى المعنى . وقال النحاس : وأما « إِن صَدُّوكُم » بكسر « إن » فالعلماء الجلة بالنحو والحديث والنظر يمنعون القراءة بها لأشياء : منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمانٍ، وكان المشركون صدّوا المسلمين عام الحديبية سنة ستّ، فالصدّ كان قبل الآية؛ وإذا قرئ بالكسر لم يجز أن يكون إلا بعده؛ كما تقول : لاتعط فلانا شيئا إن قاتلك؛ فهذا لا يكون إلا للستقبل، وإن فتحت كان للماضى؛ فوجب على هذا ألا يجوز إلا « أَنْ صَدُّوكُمْ » . وأيضا فلو لم يصح هذا الحديث لكان الفتح واجبا؛ لأن قوله : « لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ ٱللهِ » إلى آخر الآية يدلّ على أن مكة كانت فى أيديهم، وأنهم لا يُنْهَوْن عن هذا إلا وهم قادرون على الصّدّ عن البيت الحرام، فوجب من هذا فتح « أَنْ » لأنه لما مضى . ﴿ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾ فى موضع نصب، لأنه مفعول به؛ أى لا يَجْرِمَنَّكُم شنآن قوم ٱلاعتداءَ . وأنكر أبو حاتم وأبو عبيد «شَنْآن» بإسكان النون؛ لأن المصادر إنما تأتى فى مثل هذا متحركة؛ وخالفهما غيرهما وقال : ليس هذا مصدرا ولكنه ٱسم الفاعل على وزن كَسْلان وغَضْبان .

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَى ﴾ قال الأخفش : هو مقطوع من أول الكلام، وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى؛ أى لِيُعِن بعضكم بعضا، وتَحاثُّوا على أمر الله تعالى وٱعملوا به، وٱنتهوا عما نهى الله عنه وٱمتنعوا منه؛ وهذا موافق لما رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الدّالّ على الخير كفاعله" . وقد قيل :

الدّالّ على الشّر كصانعه . ثم قيل : البِرّ والتقوى لفظان بمعنى واحد، وكرّر باختلاف اللفظ تأكيدا ومبالغة ؛ إذ كل بِرّ تقوى وكل تقوى برّ . قال ابن عطية : وفي هذا تسامح مّا ، والعرف في دلالة هذين اللفظين أن البِرّ يتناول الواجب والمندوب إليه ، والتقوى رعاية الواجب ، فإن جعل أحدهما بدل الآخر فبتجوّز . وقال المَاوَرْدِيّ : ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبِرّ وقَرَنه بالتقوى له ؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى ، وفي البِرّ رضا الناس ، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمّت نعمته . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد في أحكامه : والتعاون على البِرّ والتقوى يكون بوجوه ؛ فواجب على العالِم أن يُعين الناس بعِلْمه فيعلّمهم ، ويعينهم الغَنِيّ بماله ، والشجاع بشجاعته في سبيل الله ، وأن يكون المسلمون متظاهرين باليد الواحدة "المؤمنون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يَدٌ على من سواهم" . ويجب الإعراض عن المتعدّي وترك النصرة له وردّه عمّا هو عليه .

ثم نَهى فقال : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ ﴾ (١) وهو الحكم اللاحق عن الجرائم ، وعن «العُدْوَان» وهو ظلم الناس . ثم أمر بالتقوى وتوعّد توعّدا مُجْمَلا فقال : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

قوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

(١) تفسير « للإثم » كما في « ابن عطية » .

فيه ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ تقدم القول فيه فى البقرة(١) .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ ﴾ هى التى تموت خَنْقا ، وهو حبس النَّفَس سواء فعل بهـا ذلك آدمىّ أو ٱتفق لهـا ذلك فى حَبْلٍ أو بين عُودَين أو نحـوه . وذكر قتادة : أن أهل الجاهلية كانوا يخنُقون الشّاة وغيرها فإذا ماتت أكلوها ؛ وذكر نحوه ٱبن عباس .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾ الموقوذة هى التى ترمى أو تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية ؛ عن ٱبن عباس وٱلحسن وقتادة وٱلضحاك وٱلسدّى ؛ يقال منه : وَقَذَه يَقِذُه وَقْذًا وهو وَقِيذ . والوَقْذُ شِدّة الضرب ، وفلان وَقِيذ أى مُثْخَن ضربا . قال قتادة : كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك ويأكلونه . وقال الضّحّاك : كانوا يضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى يقتلوها فيأكلوها ؛ ومنه المقتولة بقوس البندق . وقال الفرزدق :

شَغّارةٌ(٢) تَقِـذُ الفَصِيلَ برِجلها * فَطّـارةٌ لِقَــوادِمِ الأَبْـكارِ

وفى صحيح مسلم عن عدىّ بن حاتم قال : قلت يارسول الله فإنى أرمى بالمِعراض(٣) الصيد فأصيب ؛ فقال : " إذا رميت بالمِعْراض فخَـزَق(٤) فكُلْه وإن أصابه بِعَرضه فلا تأكله" وفى رواية " فإنه وَقِيذ " . قال أبو عمر : ٱختلف العلماء قديما وحديثـا فى الصيد بالبندق والحجر والمِعْراض ؛ فمن ذهب إلى أنه وقيذ لم يُجزه إلا ماأدرك ذكاته ؛ على مارُوى عن ٱبن عمر ، وهو قول مالك وأبى حنيفـة وأصحابه والثّـورىّ والشافعى . وخالفهم الشّـاميّون فى ذلك ؛ قال الأوزاعىّ فى المعراض : كُلْه خَزَق أو لم يَخْزِق ؛ فقد كان أبو الدّرداء وفَضَالة بن عبيد وعبد ٱلله بن عمر

(١) راجع ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية .

(٢) الشَّغّارة : هى الناقة ترفع قوائمهـا لتضرب . ٱلفَطْر : الحلب بالسبابة والوسطى ويستعين بطرف ٱلإبهـام . وخِلْفا الضّرع المقدّمان : همـا القادمان وجمعه القوادم . والأبكار تُحلب فَطْرا ؛ لأنه لايستمكن أن يحلبها ضَبًّا لقِصَر الخِلْف لأنهـا صغار .

(٣) المِعْراض : سهم يرمى به بلا ريش ، وأكثر ما يصيب بعَرْض عوده دون حدّه .

(٤) خَزَق السهم : نفذ فى الرميّة ؛ والمعنى : نفذ وأسال الدّم ، لأنه ربمـا قتل بعرضه ولا يجوز .

ومكحول لا يرون به بأسا ؛ قال أبو عمر : هكذا ذكر الأوزاعيّ عن عبد الله بن عمر ، والمعروف عن ٱبن عمر ماذكره مالك عن نافع عنه . والأصل فى هذا الباب والذى عليه العمل وفيه الحجّة لمن لجأ إليه حديث عدىّ بن حاتم وفيه "وما أصاب بعَرْضه فلا تأكله فإنما هو وَقِيذ" .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ المتردية هى التى تتردّى من العُلْو إلى السُّفْل فتموت ، كان ذلك من جبل أو فى بئر ونحوه ؛ وهى متفعّلة من الرّدى وهو الهلاك ؛ وسواء تردّت بنفسها أو ردّاها غيرها . وإذا أصاب السهم الصيد فتردّى من جبل إلى الأرض حرم أيضا ؛ لأنه ربما مات بالصّدمة والتردّى لا بالسهم ؛ ومنه الحديث "وإن وجدته غريقا فى الماء فلا تأكله فإنك لاتدرى الماء قتله أو سهمك" أخرجه مسلم . وكانت الجاهلية تأكل المتردّى ولم تكن تعتقد ميتة إلا مامات بالوجع ونحوه دون سبب يعرف ؛ فأما هذه الأسباب فكانت عندها كالذكاة ؛ فحصر الشرع الذكاة فى صفة مخصوصة على ما يأتى بيانها ، وبقيت هذه كلها ميتة ، وهذا كله من ٱلمحكم ٱلمتّفق عليه . وكذلك النطيحة وأكيلة السبع التى فات نَفَسها بالنّطْح والأكل .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ النطيحة فعيلة بمعنى مفعولة ، وهى الشاة تنطحها أخرى أو غير ذلك فتموت قبل أن تُذَكَّى . وتأول قوم النطيحة بمعنى الناطحة ؛ لأن الشاتين قد تتناطحان فتموتان . وقيل : نطيحة ولم يقل نطيح ، وحق فعيل لا يذكر فيه الهاء كما يقال : كَفّ خَضيب ولحية دَهين ؛ لكن ذكر الهاء هٰهنا لأن الهاء إنما تحذف من الفَعيلة إذا كانت صفة لموصوف منطوق به ؛ يقال شاة نطيح وٱمرأة قتيل ، فإن لم تذكر الموصوف أثبتّ الهاء فتقول : رأيت قتيلة بنى فلان وهذه نطيحة الغنم ؛ لأنك لو لم تذكر الهاء فقلت : رأيت قتيل بنى فلان لم يعرف أرجل هو أم ٱمرأة . وقرأ أبو ميسرة « وٱلمنطوحة » .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ يريد ما ٱفترسه ذو ناب وأظفار من الحيوان ، كالأسد والنّمر والثّعلب والذّئب والضّبع ونحوها ، هذه كلها سباع . يقال : سَبَع فلان فلانا أى عضّه بسنّه ، وسَبَعه أى عابه ووقع فيه . وفى الكلام إضمار ، أى وما أكل منه

السّبع ؛ لأن ما أكله السّبع فقد فَنِي . ومن العرب من يوقف ٱسم السّبع على الأسد ، وكانت العرب إذا أخذ السبع شاة ثم خلصت منه أكلوها ، وكذلك إن أكل بعضها ؛ قاله قتادة وغيره . وقرأ ٱلحسن وأبو حَيْوة « السَّبْع » بسكون الباء ، وهى لغة لأهل نجد . وقال حسان فى عُتْبة ٱبن أبى لَهَب :

مَن يَرجِع العامَ إلى أهـله * فما أكِيلُ السَّبْع بالرّاجع

وقرأ ٱبن مسعود : « وأَكِيلَةَ السَّبُع » وقرأ عبد الله بن عباس : « وأَكِيل السَّبُع » .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ نصب على الاستثناء المتّصل عند الجمهور من العلماء والفقهاء ، وهو راجع على كلّ ما أدرك ذكاته من المذكورات وفيه حياة ؛ فإن الذكاة عاملة فيه ؛ لأن حق الآستثناء أن يكون مصروفا إلى ما تقدّم من الكلام ، ولا يجعل منقطعا إلا بدليل يجب التسليم به . رَوى ٱبن عيينة وشُرَيك وجَرير عن الرُّكَيْن بن الرّبيع عن أبى طلحة الأسدىّ قال : سألت ٱبن عباس عن ذئب عدا على شاة فشقّ بطنها ثم ٱنتثر قُصْبها[1] فأدركت ذكاتها فذكّيتها فقال : كُل وما ٱنتثر من قُصْبها فلا تأكل . قال إسحٰق بن رَاهَوَيْه : السنّة فى الشاة على ما وصف ٱبن عباس ؛ فإنها وإن خرجت مصارينها فإنها حيّة بعد ، وموضع الذكاة منها سالم ؛ وإنما ينظر عند الذبح أحيّة هى أم ميتة ، ولا ينظر إلى فعل هل يعيش مثلها ؟ فكذلك المريضة ؛ قال ٱبن إسحٰق : ومن خالف هذا فقد خالف السنّة من جمهور الصحابة وعامّة العلماء .

قلت : وإليه ذهب ٱبن حبيب وذكر عن أصحاب مالك ؛ وهو قول ٱبن وَهْب والأشهر من مذهب الشافعىّ . قال المُزَنىّ : وأحفظ للشافعى قولا آخر أنها لا تؤكل إذا بلغ منها السّبع أو التردّى إلى ما لا حياة معه ؛ وهو قول المدنيّين ، والمشهور من قول مالك ، وهو الذى ذكره عبد الوهاب فى تلقينه ، ورُوى عن زيد بن ثابت ؛ ذكره مالك فى موطّئه ، وإليه ذهب إسمعيل القاضى وجماعة المالكيين البغداديّين . والآستثناء على هذا القول منقطع ؛ أى حرمت عليكم هذه الأشياء لكن ما ذكّيتم فهو الذى لم يحرم . قال ٱبن العربى : ٱختلف قول مالك

(١) القصب : المعى ، وٱلجمع أقصاب .

فى هذه الأشياء ؛ فروى عنه أنه لا يؤكل إلا ما ذُكّى بذكاة صحيحة ؛ والذى فى الموطأ أنه إن كان ذَبَحها ونَفَسُها يجرى وهى تضطرب فليأكل ؛ وهو الصحيح من قوله الذى كتبه بيده وقرأه على الناس من كل بلد طول عمره ؛ فهو أولى من الروايات النادرة . وقد أطلق علماؤنا على المريضة أن المذهب جواز تذكيتها ولو أشرفت على الموت إذا كانت فيها بقية حياة ؛ وليت شِعرى أىّ فرق بين بقية حياة من مرض، وبقية حياة من سبع لو اتّسق النَّظَر، وسلمت من الشّبهة الفِكَر! . وقال أبو عمر: قد أجمعوا فى المريضة التى لا ترجى حياتها أن ذبحها ذكاة لها إذا كانت فيها الحياة فى حين ذكاتها ، وعلم ذلك منها بما ذكروا من حركة يدها أو رجلها أو ذَنَبها أو نحو ذلك ؛ وأجمعوا أنها إذا صارت فى حال النّزْع ولم تحرّك يدا ولا رِجْلا أنه لا ذكاة فيها ؛ وكذلك ينبغى فى القياس أن يكون حكم المتردّية وما ذكر معها فى الآية .

الثـامنـة — قوله تعالى : «ذَكَّيْتُمْ» الذكاة فى كلام العرب الذبح؛ قاله قُطْرُب. وقال ابن سِيده فى « المحكم » : والعرب تقول "ذكاة الجنين ذكاة أمّه"؛ قال ابن عطية : وهذا إنما هو حديث . وذكّى الحيوان ذَبَحه؛ ومنه قول الشاعر :

* يذكّيها الأسَل (1) *

قلت : الحديث الذى أشار إليه أخرجه الدّارقطنىّ من حديث أبى سعيد وأبى هريرة وعلىّ وعبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "ذكاة الجنين ذكاة أمّه". وبه يقول جماعة أهل العلم، إلا ما رُوِى عن أبى حنيفة أنه قال: إذا خرج الجنين من بطن أمّه ميتا لم يحلّ أكله؛ لأن ذكاة نَفْس لا تكون ذكاة نَفْسين . قال ابن المُنْذر : وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم: "ذكاة الجنين ذكاة أمّه" دليل على أن الجنين غير الأمّ، وهو يقول : لو أعتقت أَمَة حامل أن عتقه عتق أمّه؛ وهذا يلزم أن ذكاته ذكاة أمّه ؛ لأنه إذا أجاز أن يكون عتق واحد عتق اثنين جاز أن يكون ذكاة واحد ذكاة اثنين ؛ على أن الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وما جاء عن أصحابه، وما عليه جُلّ الناس مستغنى به عن كل قول . وأجمع أهل العلم على أن

---

(1) الأسل هنا : الرماح والنبل .

الجنين إذا خرج حيّا أن ذكاة أمّه ليست ذكاة له ، وآختلفوا إذا ذكّيت الأمّ وفى بطنها جنين ؛ فقال مالك وجميع أصحابه : ذكاته ذكاة أمّه إذا كان قد تمّ خَلْقه ونبَت شعره ، وذلك إذا خرج ميتا أو خرج به رمق من الحياة، غير أنه يستحب أن يذبح إن خرج يتحرك ، فإن سبقهم بنفسه أكل . وقال آبن القاسم : ضحّيت بنعجة فلما ذبحتها جعل يرْكُض ولدها فى بطنها فأمرتهم أن يتركوها حتى يموت فى بطنها، ثم أمرتهم فشقّوا جوفها فأخرج منها فذبحته فسال منه دم ؛ فأمرت أهلى أن يشووه . وقال عبد الله بن كعب بن مالك : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إذا أشعر الجنين فذكاته ذكاة أمّه . قال آبن المنذر : وممن قال ذكاته ذكاة أمّه ولم يذكر أشعر أو لم يشعر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وسعيد آبن المُسَيّب والشافعى وأحمد وإسحٰق . قال القاضى أبو الوليد الباجى : وقد رُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ذكاة الجنين ذكاة أمّه أشعر أو لم يشعر" إلا أنه حديث ضعيف ؛ فمذهب مالك هو الصحيح من الأقوال الذى عليه عامّة فقهاء الأمصار . وبالله التوفيق .

التاسعة — قوله تعالى : «ذَكَّيْتُمْ» الذكاة فى اللغة أصلها التمام، ومنه تمام السّنّ . والفرس المذكّى الذى يأتى بعد تمام القُرُوح[(١)] بسنة، وذلك تمام آستكمال القوة . ويقال : ذكَّى يذكّى، والعرب تقول : جَرْىُ[(٢)] المُذَكِّيات غِلَاب . والذّكاء حِدّة القلب؛ قال الشاعر[(٣)] :

يُفَضِّله إذا آجتهدوا عليه * تمَامُ السِّنّ منه والذَّكاءُ

والذّكاء سرعة الفِطْنة، والفعل منه ذَكِيَ يَذْكَى ذَكًا، والذُّكْوة ما تذكو به النار، وأذكيت الحرب والنار أوقدتهما . وذُكَاء آسم الشمس؛ وذلك أنها تذكو كالنار، والصّبح آبن ذُكَاء لأنه من ضوئها . فمعنى «ذَكَّيْتُمْ» أدركتم ذكاته على التّمام . ذكّيت الذبيحة أذكّيها مشتقّة من التّطيّب؛ يقال : رائحة ذَكِيّة؛ فالحيوان إذا أُسيل دمه فقد طُيّب، لأنه يتسارع إليه التجفيف؛ وفى حديث محمد بن علىّ رضى الله عنهما «ذكاة الأرض يُبْسُها» يريد

(١) قرح الفرس قروحا : إذا آنتهت أسنانه، وإنما تنتهى فى خمس سنين .

(٢) المعنى : جرى المسانّ القرح من الخيل أن تغالب الجرى غلابا .

(٣) هو زهير .

طهارتها من النجاسة؛ فالذكاة فى الذبيحة تطهير لها ، وإباحة الصلاة فيها (١) بمنزلة الذكاة للذبيحة؛ وهو قول أهل العراق . وإذا تقرّر هذا فاعلم أنها فى الشّرع عبارة عن إنهار الدّم وفَرْى الأوْدَاج فى المذبوح ، والنّحر فى المنحور والعَقْر فى المعقور غير المقدور مقرونا بنيّة القَصْد لله وذِكره عليه؛ على ما يأتى بيانه .

العاشرة — وٱختلف العلماء فيما يقع به الذّكاة؛ فالذى عليه الجمهور من العلماء أن ما أفْرى الأوداج وأنهر الدّم فهو من آلات الذّكاة ما خلا السّن والعَظْم؛ على هذا تواترت الآثار، وقال به فقهاء الأمصار . والسّن والظُّفر المنهىّ عنهما فى التّذكية هما غير المنزوعين؛ لأن ذلك يصير خَنْقا؛ وكذلك قال ٱبن عباس : ذلك ٱلخنق؛ فأما المنزوعان فإذا فَرَيا الأوداج فجائز الذّكاة بهما عندهم . وقد كره قوم السّن والظُّفر والعظم على كل حال؛ منزوعة أو غير منزوعة؛ منهم إبراهيم والحسن والليث بن سعد ، ورُوى عن الشّافعى؛ وحجتهم ظاهر حديث رافع بن خَديج قال : قلت يا رسول الله إنا لاقو العدوّ غدا وليست معنا مُدى — فى رواية — فنذكى باللِّيط ؟ . وفى موطأ مالك عن نافع عن رجل من الأنصار عن معاذ ٱبن سعد أو سعد بن معاذ : أن جارية لكعب بن مالك كانت ترعى غنما له بسَلْع (٢) فأصيبت شاة منها فأدركتها فذكّتها بحجر ، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : "لا بأس بها" . وفى مصنّف أبى داود أنذبح بالمَرْوَة (٣) وشِقّة ٱلعصا؟ قال : "أَعْجِلْ وأَرِنْ (٤) ما أنهر الدّم وذكر اسم الله عليه فكُلْ ليس السّن والظُّفر وسأحدّثك أما السّن فعظم وأما الظُّفر فمُدَى الحبشة" الحديث أخرجه مسلم . وروى عن سعيد بن المسيّب أنه قال : ما ذُبح باللِّيطة والشّطِير والظُّرَر فحِلٌّ ذَكِىٌّ . ٱللِّيطة فلقة القصبة ويمكن بها الذّبح والنّحر . والشّطِير

(١) أى فى الأرض . (٢) السلع : الشق فى الجبل .

(٣) ٱلمروة : حجر أبيض براق يجعل منه كالسكين .

(٤) أرن : أعجل؛ قال النووى : أرن (بفتح الهمزة وكسر الراء وإسكان النون) وروى (بإسكان الراء وكسر النون) وروى أرنى (بإسكان الراء وزيادة ياء) . وقال الخطابى : أرن على وزن أعجل وهو بمعناه؛ وهو من النشاط والخفة ، أى أعجل ذبحها لئلا تموت خنقا .

فلقة العود ، وقد يمكن بها الذبح لأنّ لها جانبا دقيقا . والظُّرر فلقة الحجر يمكن الذكاة بها ولا يمكن النحر، وعكسه الشِّظاظ(١) ينحر به؛ لأنه كطرف السّنان ولا يمكن به الذّبح .

الحادية عشرة — قال مالك وجماعة : لا تصح الذّكاة إلا بقطع الحُلقوم والودجين . وقال الشّافعي : يصح بقطع الحُلقوم والمَرِىء ولا يحتاج إلى الوَدجين؛ لأنهما مجرى الطّعام والشّراب الذى لا يكون معهما حياة، وهو الغرض من الموت . ومالك وغيره اعتبروا الموت على وجه يطيب معه اللّحم، ويفترق فيه الحلال — وهو اللّحم — من الحرام الذى يخرج بقطع الأوداج وهو مذهب أبي حنيفة؛ وعليه يدلّ حديث رافع بن خَدِيج فى قوله : "ما أنهر الدّم". وحكى البغداديّون عن مالك أنه يشترط قطع أربع : الحلقوم والودَجين والمَرِىء؛ وهو قول ابن ثور، والمشهور ما تقدم وهو قول اللّيث . ثم اختلف أصحابنا فى قطع أحد الوَدجين والحُلقوم هل هو ذكاة أم لا ؟ على قولين .

الثانية عشرة — وأجمع العلماء على أن الذّبح مهما كان فى الحَلْق تحت الغَلْصَمة فقد تمّت الذّكاة ؛ واختلف فيما إذا ذبح فوقها وجازها إلى البدن هل ذلك ذكاة أم لا ، على قولين : وقد رُوى عن مالك أنها لا تؤكل؛ وكذلك لو ذبحها من القفا واستوفى القطع وأنهر الدم وقَطَع الحُلقوم والوَدجين لم تؤكل . وقال الشّافعي : تؤكل؛ لأن المقصود قد حصل . وهذا ينبني على أصل، وهو أن الذّكاة وإن كان المقصود منها إنهار الدّم ففيها ضرب من التعبّد ؛ وقد ذَبَح صلى الله عليه وسلم فى الحَلْق ونَحَر فى اللّبّة(٢) وقال : " إنما الذّكاة فى الحلق واللّبة " فبيّن محلّها وعيّن موضعها، وقال مبينا لفائدتها : "ما أنهر الدّم وذُكِر اسم الله فكُلْ". فإذا أهمل ذلك ولم تقع بنية ولا بشرط ولا بصفة مخصوصة زال منها حظّ التعبّد، فلم تؤكل لذلك .

الثالثة عشرة — واختلفوا فيمن رفع يده قبل تمام الذّكاة ثم رجع فى الفور وأكمل الذّكاة ؛ فقيل : يُجزئه . وقيل : لا يُجزئه ؛ والأوّل أصحّ لأنه جرحها ثم ذكّاها بعدُ وحياتها مستجمعة فيها .

(١) الشظاظ : خشبية محدّدة الطرف تدخل فى عروتى الجوالقين لتجمع بينهما عند حملهما على البعير .
(٢) اللبة : اللهزمة التى فوق الصدر وفيها تنحر الإبل .

الرابعــة عشرة — ويستحبّ ألّا يَذبح إلا مَن تُرضى حاله، وكل من أطاقه وجاء به على سنّتــه من ذكر أو أنثى بالغ أو غير بالغ جاز ذبحــه إذا كان مسلما أو كتابيا، وذبْح المسلم أفضل من ذبْح الكتابيّ، ولا يذبح نُسكا إلا مسلم؛ فإن ذَبَح النُّسك كتابيّ فقد ٱختلف فيه؛ ولا يجوز في تحصيل المذهب، وقد أجازه أشهب .

الخامسة عشرة — وما ٱستوحش من الإنسيّ لم يجز في ذكاته إلا ما يجوز في ذكاة ٱلإنسيّ، في قول مالك وأصحابه وربيعة وٱلليث بن سعد؛ وكذلك المتردّى في البئر لا تكون الذكاة فيه إلا فيما بين الحَلْق وٱللَّبة على سـنّة الذكاة . وقد خالف في هاتين المسئلتين بعض أهل المدينة وغيرهم؛ وفي الباب حديث رافع بن خَدِيج وقد تقدّم، وتمامه بعد قوله : "فَمُدَى الحبشة" قال : وأصبنا نَهْب إبِل وغَنَم فنَدّ منها بعير فرماه رجل بسهم فحبسه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "إن لهذه ٱلإبل أَوَابِدَ(١) كأَوَابِد الوحش فإذا غلبكم منها شيء فٱفعلوا به هكذا — وفي رواية — وكلوه" . وبه قال أبو حنيفة والشّافعيّ؛ قال الشّافعي : تسليط النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الفعل دليل على أنه ذكاة؛ وٱحتج بمــا رواه أبو داود والترمذيّ عن أبي ٱلعُشَرَاء عن أبيه قال : قلت يارسول الله أما تكون الذكاة إلا في الحَلْق واللَّبَّة ؟ قال : "لو طعنتَ في فَخِذها لأجزأ عنك" . قال يزيد بن هارون : وهو حديث صحيح أعجب ٱبن حنبل ورواه عن أبي داود، وأشار على من دخل عليــه من ٱلحفّاظ أن يكتبــه . قال أبو داود : لا يصلح هذا إلا في المتردّية والمستوحش . وقد حمل ابن حبيب هذا الحديث على ما سقط في مَهْواة فلا يُوصَل إلى ذكاته إلا بالطّعن في غير موضع ٱلذّكاة؛ وهو قول ٱنفرد به عن مالك وأصحابه . قال أبو عمر : قول الشافعيّ أظهر في أهل العلم، وأنه يؤكل بما يؤكل به الوحشيّ؛ لحديث رافع بن خَديج؛ وهو قول ابن عبـاس وٱبن مسعود؛ ومن جهــة القياس لمـّا كان الوحشيّ إذا قُدِر عليه لم يَحِلّ إلا بمــا يَحِلّ به الإنسيّ، لأنه صار مقدورا عليه؛ فكذلك ينبغي في القياس إذا توحّش أو صار في معنى الوحشيّ من ٱلامتناع أن يَحِلّ بما يَحِلّ به الوحشيّ .

(١) الأوابد (جمع آبدة) : وهي التي قد توحشت ونفرت من الإنسيّ .

قلت : اجاب علماؤنا عن حديث رافع بن خَدِيج بأن قالوا : تسليط النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما هو على حبسه لا على ذكاته ، وهو مقتضى الحديث وظاهره ؛ لقوله : "فحبسه" ولم يقل إن السّهم قتله ؛ وأيضا فإنه مقدور عليه في غالب الأحوال فلا يراعى النّادر منه ، وإنما يكون ذلك في الصّيد . وقد صرّح الحديث بأن السّهم حبسه وبعد أن صار محبوسا صار مقدورا عليه ؛ فلا يؤكل إلا بالذّبح والنّحر . وآلله أعلم . وأما حديث أبي العُشَراء فقد قال فيه التِّرمذيّ : «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمّاد بن سَلَمة ، ولا نعرف لأبي العُشَرَاء عن أبيه غير هذا الحديث . وآختلفوا في آسم أبي العشراء ؛ فقال بعضهم : آسمه أسامة ابن قِهْطِم ، ويقال : آسمه يَسار بن بَرْزٍ — ويقال بَلْز — ويقال : آسمه عُطَارِد نُسِب إلى جدّه » . فهذا سند مجهول لا حجّة فيه ؛ ولو سُلّمت صحته كما قال يزيد بن هارون لما كان فيه حُجّة ؛ إذ مقتضاه جواز الذّكاة في أي عضو كان مطلقا في المقدور وغيره ، ولا قائل به في المقدور ؛ فظاهره ليس بمراد قطعا . وتأويل أبي داود وآبن حبيب له غير متفق عليه ؛ فلا يكون فيه حُجّة ، والله أعلم . قال أبو عمر : وحُجّة مالك أنهم قد أجمعوا أنه لو لم يندّ الإنسيّ أنه لا يُذَكّى إلا بما يُذَكّى به المقدور عليه ، ثم آختلفوا فهو على أصله حتى يتفقوا . وهذا لا حُجّة فيه ؛ لأن إجماعهم إنما آنعقد على مقدور عليه ، وهذا غير مقدور عليه .

السادسة عشرة — ومن تمام هذا الباب قوله عليه السلام : " إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قَتلتم فأحسِنوا القِتْلة وإذا ذَبحتم فأحسِنوا آلذّبح ولْيُحِدّ أحدُكم شَفْرته ولْيُرِح ذبيحتَه " رواه مسلم عن شدّاد آبن أوس قال : ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله كَتَبَ " فذكره . قال علماؤنا : إحسان الذّبح في البهائم الرّفق بها ؛ فلا يَصْرَعها بعُنْف ولا يَجرّها من موضع إلى آخر ، وإحداد الآلة ، وإحضار نيّة الإباحة والقُرْبة ، وتوجيهها إلى القبلة ، والإجْهاز[(١)] ، وقَطْع الوَدَجين وآلحُلْقوم ، وإراحتها وتركها إلى أن تبرد ، والآعتراف لله بالمنّة ، والشكر له بالنّعمة ؛ بأن سخّر لنا ما لو شاء لسلّطه علينا ، وأباح لنا ما لو شاء

(١) أجهزت على الجريح : إذا أسرعت قتله وقد تممت عليه .

لحرّمه علينا . وقال ربيعة : من إحسان الذّبح ألا يَذبح بهيمة وأخرى تنظر إليها؛ وحُكي جوازه عن مالك؛ والأول أحسن . وأما حُسْن القِتْلة فعامّ في كل شيء من التّذكية والقِصاص والحدود وغيرها . وقد رَوى أبو داود عن ٱبن عباس وأبي هُرَيرة قالا : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شَرِيطة الشّيطان، زاد ٱبن عيسى في حديثه "وهي التي تُذبح فتُقطع ولا تُفْرى الأوداج ثم تترك فتموت" .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ قال ٱبن فارس : «ٱلنُّصُب» حَجَر كان يُنْصَب فيُعبد وتُصبُّ عليه دماء الذّبائح ، وهو النُّصْب أيضا . والنَّصائب حِجارة تُنْصَب حَوالى شَفِير البئر فتُجعل عَضائد . وغُبار مُنتَصِب مرتفع . وقيل : «النُّصُب» جمع ، واحده نِصاب كحِمار وحُمُر . وقيل : هو ٱسم مفرد والجمع أنصاب ؛ وكانت ثلاثمائة وستّين حَجرا . وقرأ طلحة «النُّصْبِ» بجزم الصّاد . ورُوِي عن ٱبن عمر «النَّصْبِ» بفتح النون وجزم الصّاد . الجَحْدَرِيّ : بفتح النون والصاد جعله ٱسما موحّدا كالجبل والجمل ، والجمع أنصاب ؛ كالأجمال والأجبال . قال مجاهد : هي حجارة كانت حوالى مكة يذبحون عليها . قال ٱبن جُرَيج : كانت العرب تَذبح بمكة وتَنضح بالدّم ما أقبل من البيت ، ويشرحون اللّحم ويضعونه على الحجارة ؛ فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي صلى الله عليه وسلم : نحن أحقّ أن نعظّم هذا البيت بهذه الأفعال ، فكأنه عليه الصلاة والسلام لم يكره ذلك ؛ فأنزل الله تعالى « لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا » ونزلت « وما ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ » المعنى : والنّية فيها تعظيم النُّصب لا أنّ الذّبح عليها غير جائز ، وقال الأعشى :

وَذَا النُّصُبَ(1) ٱلمنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه * لِعافيةٍ(2) وٱللهَ ربَّكَ فٱعْبُدَا

وقيل : « على » بمعنى اللام ؛ أي لأجلها ؛ قال قُطْرُب قال ٱبن زيد : ماذُبح على النُّصُب وما أُهِلّ به لغير الله شيء واحد . قال ٱبن عطية : ماذُبح على النُّصُب جزء مما أُهِلّ به لغير الله ، ولكن خصّ بالذّكر بعد جنسه لشُهْرة الأمر وشَرَف الموضع وتعظيم النفوس له .

---

(1) وذا النصب بمعنى إياك وذا النصب . (اللسان) . (2) في بعض النسخ لعاقبة .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ معطوف على ماقبله ، و «أنْ» في محل رفع ، أي وحُرّم عليكم الآستقسام . والأزلام قِداح المَيْسِر ، واحدها زَلَم و زُلَم ؛ قال :

* باتَ يُقَاسِيها غلامٌ كالزَّلَمْ [(1)] *

وقال آخر فجمع : فَلَئِنْ جَذِيمة قَتّلت سَرَواتها * فنساؤها يَضْرِبن بالأزلامِ

وذكر محمد بن جرير: أن آبن وَكِيع حدّثهم عن أبيه شَرِيك عن أبي حُصَين عن سعيد بن جُبير أن الأزلام حَصًى بيض كانوا يضربون بها . قال محمد بن جرير قال لنا سفيان بن وكيع : هي الشِّطْرَنْج .

فأما قول لبيد : * ... تَزِلُّ عن الثَّرى أزلامُها [(2)] *

فقالوا : أراد أظلاف البقرة الوحشية . والأزلام للعرب ثلاثة أنواع :

منها الثلاثة التي كان يتخذها كل إنسان لنفسه ، على أحدها آفْعَلْ ، وعلى الثاني لا تفعل ، والثالث مُهْمَل لا شيء عليه ، فيجعلها في خَرِيطة معه ، فإذا أراد فِعْل شيء أدخل يده — وهي متشابهة — فإذا خَرَج أحدها آئتمر وآنتهى بحسب ما يخرج له ، و إن خرج القِدْح الذي لا شيء عليه أعاد الضّرب ؛ وهذه هي التي ضَرَب بها سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم حين آتّبع النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وقت الهجرة ؛ وإنما قيل لهذا الفعل آستقسام لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق وما يريدون ؛ كما يقال: الآستسقاء في الآستدعاء للسّقي . ونظير هذا الذي حرّمه الله تعالى قول المُنَجّم : لا تخرج من أجل نَجْم كذا ، وآخرج من أجل نَجْم كذا . وقال جلّ وعزّ : «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا» الآية . وسيأتي بيان هذا مستوفى إن شاء الله .

والنوع الثاني — سبعة قِداح كانت عند هُبَل في جوف الكعبة مكتوب عليها مايدور بين الناس من النّوازل ، كل قِدْح منها فيه كتاب ؛ قِدح فيه العَقْل من أمر الدّيات ، وفي آخر «منكم» ، وفي آخر «من غيركم» ، وفي آخر «مُلْصَق» [(3)] ، وفي سائرها أحكام المياه وغير ذلك ؛

---

(١) تقدم الكلام عليه في غير موضع .

(٢) البيت بتمامه : حتى إذا حسر الظلام وأسفرت * بكرت تزل عن الثرى أزلامها

(٣) كان العرب إذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل و بمائة درهم وجزور ، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ، ثم قرّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا هذا فلان آبن فلان قد أردنا كذا وكذا فأخرج الحق فيه ؛ ثم يقولون لصاحب القداح : آضرب ؛ فان خرج عليه « منكم » كان منهم وسيطا ، و إن خرج «من غيركم» كان حليفا ، و إن خرج «ملصق» كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف . (سيرة آبن هشام) .

وهي التي ضَرَب بها عبد المطّلب على بَنِيه إذ كان نَذَر نَحْر أحدهم إذا كملوا عشرة؛ الخبر المشهور ذكره ٱبن إسحٰق . وهـذه السبعة أيضا كانت عنـد كل كاهنٍ من كهان العرب وحكامهم؛ على نحو ما كانت في الكعبة عند هُبَل .

والنوع الثالث — هو قِداح المَيْسِر وهي عشرة؛ سبعة منها فيها حُظُوظ، وثلاثة أغفال، وكانوا يضربون بها مقامرة لَهْوا ولَعِبا، وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمُعْدِم في زمن الشّتاء وكَلَب البَرْد وتعذّر التّحرّف . وقال مجاهد : الأزلام هي كِعاب(١) فارس والروم التي يتقامرون بها . وقال سفيان ووَكِيع : هي الشِّطْرَنْج؛ فالاستقسام بهـذا كله هو طلب ٱلقَسْم والنّصيب كما بيّنا؛ وهو من أكل المـال بالباطل، وهو حرام، وكل مُقَامَرة بحَمَام أو بنَرْد أو شِطْرَنج أو غير ذلك من هـذه الألعاب فهو ٱستقسام بما هو في معنى الأزلام حرام كلّه؛ وهو ضَرْب من التّكَهُّن والتعرّض لدعوى عِلْم الغَيْب . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْـدَاد : ولهذا نهى أصحـابنا عن الأمور التي يفعلها المُنَجِّمون على الطرقات من السّهام التي معهم، ورِقاع الفأل في أشباه ذلك . وقال الكِيَا الطبريّ : وإنما نَهى الله عنها فيما يتعلّق بأمور الغيب؛ فإنه لا تدري نفس ماذا يُصيبها غَدًا، فليس للأزلام في تعريف المغيّبات أثر؛ فٱستنبط بعض الجاهلين من هذا الرّدّ على الشافعي في الإقراع بين المماليك في العِتْق، ولم يعلم هذا الجاهل أن الذي قاله الشافعي بُني على الأخبار الصحيحة، وليس ممـا يُعْتَرض عليه بالنّهي عن الاستقسام بالأزلام؛ فإن العِتق حكم شرعيّ، يجوز أن يجعل الشّرع خروج القُرْعَة عَلَما على إثبـات حكم العِتق قَطْعا للخصومة، أو لمصلحة يراها، ولا يساوي ذلك قول القائل : إذا فَعَلت كذا أو قُلْت كذا فذلك يَدلّك في المستقبل على أمر من الأمور؛ فلا يجوز أن يُجْعَل خروج القِدَاح عَلَما على شيء يتجدّد في المستقبل، ويجوز أن يُجْعَل خروج القُرْعَة عَلَما على العِتْق قَطْعا؛ فظهر ٱفتراق البابين .

التاسعة عشرة — وليس من هذا الباب طلب الفأل، وكان عليه السلام يُعجبه أن يسمع يا راشد يا نَجِيح؛ أخرجه الترمذيّ وقال : حديث صحيح غريب؛ وإنما كان يعجبه الفأل لأنه

---

(١) كعاب (جمع كعب) : وهو فص كفص النرد .

تنشرح له النّفس وتستبشر بقضاء الحاجة و بلوغ الأمل ؛ فيحسن الظنّ بالله عزّ وجلّ ، وقد قال : " أنا عند ظنّ عبدى بى ". وكان عليه السلام يكره الطِّيرة ؛ لأنها من أعمال أهل الشِّرْك ، ولأنها تجلب ظنّ السّوء بالله عزّ وجلّ . قال الخطّابى : الفرق بين الفَأْل والطِّيرة أن الفال إنما هو من طريق حسن الظّنّ بالله ، والطِّيرة إنما هى من طريق الآتكال على شىء سواه . وقال ٱلأصمعىّ : سألت ٱبن عَوْن عن الفأل فقال : هو أن يكون مريضا فيسمع ياسالم ، أو يكون بَاغيا[1] فيسمع يا واجد ؛ وهذا معنى حديث الترمذىّ . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "لاطِيرة وخَيْرُها الفَأْل" قيل يارسول الله وما الفأل؟ قال : " الكلمة الصّالحة يسمعها أحد كم ". وسيأتى لمعنى الطِّيرة مزيد بيان إن شاء الله تعالى . رُوى عن أبى الدّرداء رضى الله عنه أنه قال : إنما العِلْم بالتّعلُّم والحِلْم بالتّحلُّم ، ومن يَتَحر الخير يُعْطَه ، ومن يَتوَقَّ الشّرّ يُوقَه ، وثلاثة لا ينالون الدرجات العلا ؛ من تَكَهّن أو آستقسم أو رجع من سَفَر من طِيرة .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إشارة إلى الآستقسام بالأزلام . والفِسْق الخروج ، وقد تقدّم[2] . وقيل يرجع إلى جميع ما ذكر من الآستحلال لجميع هذه المحرّمات ، وكل شىء منها فِسق وخروج من الحلال إلى الحرام ، والآنكفاف عن هذه المحرّمات من الوفاء بالعقود ؛ إذ قال : « أوفوا بالعقود » .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ يعنى أن ترجعوا إلى دينهم كفّارا . قال الضّحّاك : نزلت هذه الآية حين فتح مكة ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فَتَح مكة لثمان بَقين من رمضان سنة تِسع ، و يقال سنة ثمان ، ودخلها ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا من قال لا إله إلا الله فهو آمِن ، ومن وَضَع السِّلاح فهو آمِن ، ومن أغلق بابه فهو آمِن » . وفى « يَئِس » لغتان ؛ يَئِس يَيْئَس يَأْسا ، وأَيِس يَأْيَس

(١) الباغى : الذى يطلب الشىء الضال . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

إياسًا وإياسة؛ قاله النضر ابن شميل. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي لا تخافوهم وخافوني؛ فإني أنا القادر على نصركم.

الثانية والعشرون — قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين كان بمكة لم تكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام إلى أن حجّ؛ فلما حجّ وكمل الدين نزلت هذه الآية «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» الآية؛ على ما نبيّنه. رَوى الأئمة عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها لو علينا أُنزلت معشر اليهود لاتّخذنا ذلك اليوم عيدا؛ قال: وأيّ آية؟ قال: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا» فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي أُنزلت فيه؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعَرَفة في يوم جُمعة؛ لفظ مسلم. وعند النسائي ليلة جمعة. ورُوي أنها لما نزلت في يوم ٱلحج ٱلأكبر وقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى عمر؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يُبْكِيك"؟ فقال: أبكاني أنّا كنّا في زيادة من ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نَقَص. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "صدقت". ورَوى مجاهد أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة.

قلت: القول الأوّل أصحّ؛ أنها نزلت في يوم جُمعة وكان يوم عَرَفة بعد العصر في حجّة الوَداع سنة عشر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة على ناقته العَضْباء[1]، فكاد عضُد الناقة يَنْقَدّ من ثقلها فبركت. و«ٱليومُ» قد يُعبَّر بجزء منه عن جميعه، وكذلك عن الشهر ببعضه؛ تقول: فعلنا في شهر كذا كذا وفي سنة كذا كذا، ومعلوم أنك لم تستوعب الشهر ولا السّنة؛ وذلك مستعمل في لسان العرب والعَجم. والدين عبارة عن الشرائع التي شرع وفتح لنا؛ فإنها نزلت نُجُوما وآخر ما نَزل منها هذه الآية، ولم ينزل بعدها حُكم؛ قاله ٱبن عباس والسُّدّي. وقال الجمهور: المراد معظم الفرائض والتحليل والتحريم؛ قالوا: وقد نزل

(١) العضباء: ٱسم ناقة النبي صلى الله عليه وسلم.

بعد ذلك قرآن كثير، ونزلت آية الربا، ونزلت آية الكلالة إلى غير ذلك؛ وإنما كمل معظم الدين وأمر الحج؛ إذ لم يَطُف معهم فى هذه السَّنة مُشرك، ولا طاف بالبيت عُرْيان؛ ووقف الناس كلّهم بعرفة . وقيـل : «أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» بأن أهلكت عدوّكم وأظهرت دينكم على الدين كله؛ كما تقول : قد تمّ لنـا ما نريد إذا كُفيت عدوّك .

الثـالثة والعشرون ـــ قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أى بإكمال الشرائع والأحكام وإظهار دين الإسـلام كما وَعَدتكم؛ إذ قلت : «وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ» وهى دخول مكة آمنين مطمئنين وغير ذلك مما انتظمته هذه الملّة الحنيفيّة إلى دخول الجنة فى رحمة الله تعالى .

الرابعـــة والعشرون ـــ لعل قائلا يقول: قوله تعالى: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» يدلّ على أن الدين كان غير كامل فى وقت من الأوقات، وذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار والذين شهدوا بَدْرا والحُدَيبية وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسـلم البيعتين جميعا، وبَذَلوا أنفسهم لله مع عظيم ما حَلّ بهم من أنواع المِحَن ماتوا على دين ناقص، وأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى ذلك كان يدعو النـاس إلى دين ناقص، ومعلوم أن النّقص عَيْب، ودين الله تعالى قِيَم، كما قال تعالى : «دِينًا قِيَمًا» فالجواب أن يقال له : لم قلت إن كلّ نقص فهو عيب وما دليلك عليه ؟ ثم يقال له : أرأيت نقصان الشهر هل يكون عَيْبا، ونقصان صـلاة المسافر أهو عَيْب لهـا، ونقصان العمر الذى أراده الله بقوله : «وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ» أهو عَيْب له، ونُقْصان أيام الحيض عن المعهود، ونُقْصان أيام الحمـل، ونقصان المـال بسَرِقة أو حَرِيق أو غَرَق إذا لم يَفتقر صاحبه؛ فمـا أنكرت أن نقصان أجزاء الدّين فى الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء البـاقية فى علم الله تعالى هذه ليست بشَيْن ولا عَيْب، وما أنكرت أن معنى قول الله تعالى : «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» يخرج على وجهين :

أحدهمـا ـــ أن يكون المراد بلّغته أقصى الحدّ الذى كان له عندى فيما قضيته وقدّرته؛ وذلك لا يوجب أن يكون ما قبـل ذلك ناقصا نُقْصان عيب، لكنه يُوصَف بنقصان مُقيّد

فيقال : إنه كان ناقصا عما كان عند الله تعالى أنه مُلْحقه به وضَامُّه إليه ؛ كالرجل يُبلغه الله مائة سنة فيقال : أكمل الله عُمره ؛ ولا يجب عن ذلك أن يكون عُمره حين كان ٱبن ستّين كان ناقصا نقص قصور وخلل ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "من عمّره الله ستّين سنة فقد أعذر إليه في العُمر" . ولكنه يجوز أن يوصف بنقصان مقيّد فيقال : كان ناقصا عما كان عند الله تعالى أنه مُبلغه إياه ومُعمّره إليه . وقد بلغ الله بالظهر والعصر والعشاء أربع ركعات ؛ فلو قيل عند ذلك أكملها لكان الكلام صحيحا ، ولا يجب عن ذلك أنها كانت حين كانت ركعتين ناقصة نقص قصور وخلل ؛ ولو قيل كانت ناقصة عما عند الله أنه ضَامُّه إليها وزائده عليها لكان ذلك صحيحا ؛ فهكذا هذا في شرائع الإسلام وما كان شرع منها شيئا فشيئا إلى أن أنهى الله الدِّين منتهاه الذى كان له عنده . والله أعلم .

والوجه الآخر — أنه أراد بقوله : « اليومَ أكملت لكم دينكم » أنه وفّقهم للحجّ الذى لم يكن بقي عليهم من أركان الدِّين غيره ، فحجّوا ؛ فٱستجمع لهم الدِّين أداء لأركانه وقياما بفرائضه ؛ فإنه يقول عليه السلام : "بُنيَ الإسلام على خمس" الحديث . وقد كانوا تشهّدوا وصلّوا وزكّوا وصاموا وجاهدوا وٱعتمروا ولم يكونوا حجّوا ؛ فلما حجّوا ذلك اليوم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم أنزل الله تعالى وهم بالموقف عَشيّة عرفة « اليومَ أكملتُ لكم دِينَكم وأتْمَمْت عليكم نِعْمَتِي » فإنما أراد أكمل وَضْعَه لهم ؛ وفي ذلك دلالة على أن الطاعات كلها دين وإيمان وإسلام .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أي أعلمتكم برضاى به لكم دينا ؛ فإنه تعالى لم يزل راضيا بالإسلام لنا دينا ؛ فلا يكون لٱختصاص الرّضا بذلك اليوم فائدة إن حملناه على ظاهره . و« دِيناً » نُصب على التمييز ، وإن شئت على مفعول ثان . وقيل : المعنى ورضيت عنكم إذا ٱنقدتم لي بالدين الذى شَرعته لكم . ويحتمل أن يريد « رَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا » أي رضيت إسلامكم الذى أنتم عليه اليوم دينا باقيا بكماله إلى آخر الآية لا أنسخ منه شيئا . والله أعلم . و« الإسلام » في هذه الآية هو الذى في قوله تعالى : « إنّ

الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » وهو الذى يفسر فى سؤال جبريل للنبى عليهما السلام ، وهو الإيمان والأعمال والشُّعَب .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾ يعنى من دعته ضرورة إلى أكل الميتة وسائر المحرمات فى هذه الآية . والمَخْمَصَة الجوع وخلاء البطن من الطعام . والخَمْص ضمور البطن . ورجل خَمِيص وخُمْصان وآمرأة خَمِيصة وخُمْصانة ؛ ومنه أَخْمَص القدم، ويستعمل كثيرا فى الجُوع والغَرَث؛ قال الأعشى :

تَبِيتون فى المَشْتَى مِلاءً بُطُونكم * وجاراتُكم غَرْثَى[(١)] يَبِتْنَ خَمائِصا

أى منطويات على الجوع قد أضمر بطونهن . وقال النابغة فى خَمْص البطن من جهة ضُمُره :

والبطن ذو عُكَنٍ[(٢)] خَمِيصٌ لَيِّنٌ * والنَّحْـر تَنْفُجه[(٣)] بِثَـدْيٍ مُقْعَـدِ

وفى الحديث : " خِمَاص البُطون خِفافُ الظّهور " . الخِمَاص جمع الخميص البطن، وهو الضامر . أخبر أنهم أعفّاء عن أموال الناس ؛ ومنـه الحديث : " إن الطيرَ تَغْدو خِمَاصا وتَرُوح بِطانًا " . والخَمِيصة أيضا ثوب؛ قال الأصمعى: الخَمَائِص ثياب خَزٍّ أو صوف مُعْلَمَة، وهى سوداء، كانت من لباس الناس . وقد تقدّم معنى الاضطرار وحكمه فى البقرة[(٤)] .

السابعة والعشرون — قوله تعـالى : « فى مَخْمَصَةٍ » يعنى من دعتـه ضرورة إلى أكل الميتة. «غيرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» أى غير مائل لحرام، وهو بمعنى «غير باغٍ ولا عادٍ» وقد تقدّم[(٥)] . والجَنَف الميل، والإثم الحرام؛ ومنه قول عمر رضى الله عنه[(٦)] : ما تَجَانَفْنا فيه لإثم؛ أى ما مِلْنا ولا تعمّدنا ونحن نعلمه ، وكل مائل فهو مُتَجانِف وجَنِف . وقرأ النَّخَعى ويحيى بن وثّاب والسُّلَمى « مُتَجَنِّف » دون ألف، وهو أبلغ فى المعنى ؛ لأن شدّ العين يقتضى مبالغة وتوغّلا فى المعنى وثبوتا لحُكْمه؛ وتفاعل إنما هو محاكاة الشىء والتقرّب منه ؛ ألا ترى أنك إذا قلت:

---

(١) غرثى : جوعى . (٢) العكن والإعكان : الأطـواء فى البطن من السمن .

(٣) نفج ثدى المرأة قميصها إذا رفعه . (٤) راجع ج ٢ ص ٢٢٤ وما بعدها طبعة ثانية .

(٥) راجع ج ٢ ص ٢٣١ وما بعدها طبعة ثانية .

(٦) كان قد أفطر الناس فى رمضان ثم ظهرت الشمس فقال : نقضيه ما تجانفنا ... الخ .

تمايل الغُصْن فإن ذلك يقتضى تأوّدا ومقاربة ميل، وإذا قلت: تميّل فقد ثبت حكم الميل، وكذلك تصاون الرجل وتصوّن، وتعاقل وتعقّل؛ فالمعنى غير متعمّد لمعصية فى مقصده؛ قاله قتادة والشافعى. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى فإن الله له غفور رحيم فحذف، وأنشد سيبويه[1]:

قد أصبحتْ أمُّ الخيارِ تدّعِى * علىّ ذَنْبًا كلّهُ لم أصنعِ

أراد لم أصنعه فحذف . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

فيه ثمانى عشرة مسئلة[2] :

الأولى ـــ قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ الآية نزلت بسبب عدىّ بن حاتم وزيد بن مهلهل وهو زيد الخيل الذى سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير؛ قالا : يارسول الله إنّا قوم نصيد بالكلاب والبُزاة ، وإنّ الكلاب تأخذ البقر والحُمُر والظّباء فمنه ما ندرك ذكاته ، ومنه ما تقتله فلا نُدرك ذكاته، وقد حرّم الله الميتة فماذا يَحِلّ لنا ؟ فنزلت الآية .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ «ما» فى موضع رفع بالابتداء، والخبر «أُحِلَّ لَهُمْ» و«إذا» زائدة، وإن شئت كانت بمعنى الذى، ويكون الخبر «قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ» وهو الحلال، وكل حرام فليس بطيّب . وقيل : ما التذه آكله وشاربه ولم يكن عليه فيه ضرر فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقيل: الطّيّبات الذبائح؛ لأنها طابت بالتذكية .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم ﴾ أى وصيد ما علّمتم؛ ففى الكلام إضمار لابد منه، ولولاه لكان المعنى يقتضى أن يكون الحِلّ المسئول عنه متناولا للعلّم من الجوارح المكلّبين،

(١) الرجز لأبى النجم العجلى، وأم الخيار امرأته .　　(٢) هكذا فى الأصول، والمذكور تسع عشرة مسئلة .

وذلك ليس مذهبا لأحد؛ فان الذى يبيح لحم الكلب فلا يخصّص الإباحة بالمعلَّم ؛ وسيأتى ما للعلماء فى أكل الكلب فى «الأنعام» (1) إن شاء الله تعالى. وقد ذكر بعض من صنّف فى أحكام القرآن أن الآية تدلّ على أن الإباحة تتناول ما علّمنا من الجوارح ، وهو ينتظم الكلب وسائر جوارح الطير ، وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الآنتفاع ؛ فدلّ على جواز بيع الكلب والجوارح والآنتفاع بها بسائر وجوه المنافع إلا ما خصّه الدليل ، وهو الأكل من الجوارح أى الكَواسِب من الكلاب وسباع الطير ؛ وكان لعدِىّ كلاب خمسة قد سمّاها بأسماء أعلام ، وكان أسماء أكلُبه سلهب وغلاب والمختلس والمتناعس ؛ قال السُّهَيْلى : وخامس أشك ، قال فيه أخْطَب ، أو قال فيه وثّاب .

الرابعة — أجمعت الأمّة على أن الكلب إذا لم يكن أسود وعلّمه مسلم فينْشَلِى إذا شُلِى (2) ويجيب إذا دُعى ، وينزجر بعد ظَفَره بالصيد إذا زُجر ، وأن يكون لا يأكل من صيده الذى صاده ، وأثّر فيه بجرح أو تَنْيِيب ، وصاد به مسلم وذكر آسم الله عند إرساله أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف ؛ فإن آنخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف . فإن كان الذى يصاد به غير كلب كالفَهْد وما أشبهه وكالبازى والصقر ونحوهما من الطير فجمهور الأمّة على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جارح كاسب . يقال : جَرَح فلان وآجترح إذا آكتسب ؛ ومنه الجارحة لأنه يكتسب بها ؛ ومنه آجتراح السّيّئات . وقال الأعشى :

ذا جُبَارٍ (3) مُنْضِجا مِيسَمُه * يُذْكِر الجارح ما كان آجترحْ

وفى التنزيل «وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ» وقال : «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ» .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ معنى «مكلبين» أصحاب الكلاب وهو كالمؤدّب صاحب التأديب . وقيل : معناه مُضَرِّين على الصيد كما تُضَرَّى الكلاب ؛ قال الرّمّانى : وكلا

(1) آية ١٤٥ . (2) أشليت الكلب على الصيد دعوته فأرسلته ، وقيل : أغريته .

(3) الجبار : الهدر . الميسم : آسم لأثر الوسم وهو الكى ، والمعنى : أن من أهجوه يبق هجوى له ظاهرا ولا يستطيع رفعه . والشطر الأول فى الأصول (ذات جد منضج ميسمها) وهو تحريف ، والتصويب عن (الصبح المنير فى شعر أبى بصير) .

القولين محتمل . وليس فى « مكلّبين » دليل على أنه إنما أبيح صيد الكلاب خاصة ؛ لأنه بمنزلة قوله : « مؤمنين » وإن كان قد تمسّك به من قَصَر الإباحة على الكلاب خاصّة . رَوى ٱبن عمر فيما حكى ٱبن المنذر عنه قال : وأما مايصاد به من البزاة وغيرها من الطير فما أدركتَ ذكاته فذكِّه فهو لك حلال ، وإلا فلا تَطْعَمْه . قال ٱبن المُنْذر : وسئل أبو جعفر عن البازى يحل صيده قال : لا ؛ إلا أن تدرك ذكاته . وقال الضحّاك والسّدى : « وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ ٱلجوارِحِ مُكَلِّبِين » هى الكلاب خاصّة ؛ فإن كان الكلب أسود بهيما فكره صيده الحسن وقتادة والنخعى . وقال أحمد : ما أعرف أحدا يرخّص فيه إذا كان بهيما ؛ وبه قال إسحق بن رَاهْوَيه ؛ فأما عوامّ أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب مُعلَّم . أما من مَنَعَ صيد الكلب الأسود فلقوله صلى الله عليه وسلم : " الكلب الأسود شيطان " أخرجه مسلم . ٱحتجّ الجمهور بعموم الآية ، وٱحتجّوا أيضا فى جواز صيد البازى بما ذكر من سبب النزول ، وبما خرّجه الترمذى عن عدىّ بن حاتم قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيد البازى فقال : " ما أمسك عليك فكُلْ " . فى إسناده مُجَالِد ولا يُعرف إلا من جهته وهو ضعيف . وبالمعنى هو أن كل ما يتأتّى من الكلب يتأتّى من الفَهْد مثلا فلا فارق إلا فيما لا مدخل له فى التأثير ؛ وهذا هو القياس فى معنى الأصل ، كقياس السّيف على المدية والأَمَة على العبد ، وقد تقدّم .

السادسة — وإذا تقرّر هذا فٱعلم أنه لابدّ للصّائد أن يقصد عند الإرسال التّذكية والإباحة ، وهذا لايُختلف فيه ؛ لقوله عليه السّلام : " إذا أرسلتَ كلبك وذكرت ٱسم الله عليه فَكُلْ " وهذا يقتضى النيّة والتّسمية ؛ فلو قصد مع ذلك اللّهو فكرهه مالك وأجازه ٱبن عبد الحكم ؛ وهو ظاهر قول اللّيث : مارأيتُ حقّا أشبه بباطل منه ، يعنى الصّيد ؛ فأما لو فعله بغير نيّة التذكية فهو حرام ؛ لأنه من باب الفساد وإتلاف حيوان لغير منفعة ، وقد نَهَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الحيوان إلا لمأكلة . وقد ذهب الجمهور من العلماء إلى أن التّسمية لا بد منها بالقول عند الإرسال ؛ لقوله : " وذكرتَ ٱسم الله " فلو لم توجد على أى وجه كان لم يؤكل الصيد ؛ وهو مذهب أهل الظاهر وجماعة أهل الحديث . وذهبت جماعة

من أصحابنا وغيرهم إلى أنه يجوز أكل ماصاده المسلم وذبحه وإن ترك التسمية عمدا ؛ وحملوا الأمر بالتسمية على النَّدْب . وذهب مالك في المشهـور إلى الفرق بين ترك التسمية عَمْـدا أو سَهْوا فقال : لا تؤكل مع العمد وتؤكل مع السهو؛ وهو قول فقهاء الأمصار، وأحد قولي الشافعي، وسيأتي هـذه المسئلة في « الأنعام »(١) إن شاء الله تعالى . ثم لا بد أن يكون آنبعاث الكلب بإرسالٍ من يد الصائد بحيث يكون زمامه بيـده، فيخلِّي عنه ويُغريه عليه فينبعث ؛ أو يكون الجارح ساكنا مع رؤيته الصيد فلا يتحرك له إلا بالإغراء من الصائد، فهـذا بمنزلة ما زمامه بيده فأطلقه مغريا له على أحد القولين؛ فأما لو آنبعث الجارح من تِلقاء نفسه من غير إرسال ولا إغراء فلا يجوز صيـده ولا يحِلّ أكله عنـد الجمهور ومالك والشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي؛ لأنه إنما صاد لنفسه من غير إرسال وأمسك عليها، ولا صنع للصائد فيـه، فلا ينسب إرساله إليه؛ لأنه لا يصدُق عليه قوله عليه السلام : " إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم " . وقال عَطاء بن أبي رَباح والأوزاعيّ : يؤكل صيده إذا كان أخرجه للصيد .

السابعـــة — قرأ الجمهور « عَلَّمْتُمْ » بفتح العين واللام . وآبن عباس ومحمد بن الحنفية بضمّ العين وكسر اللام، أي من أمر الجوارح والصيد بها . والجوارح الكواسب ؛ وسميت أعضاء الانسان جَوارِح لأنها تكسب وتتصرّف . وقيل : سمّيت جَوارِح لأنها تَجرح وتُسيل الدم، فهو مأخوذ من الجِراح؛ وهذا ضعيف، وأهل اللغة على خلافه، وحكاه آبن المنذر عن قوم . و« مُكَلِّبِين » قراءة الجمهور بفتح الكاف وشدّ اللام، والمكلِّب معلّم الكِلاب ومُضرِيها . ويقال لمن يعلّم غير الكلب مُكلِّب لأنه يردّ ذلك الحيوان كالكلب ؛ حكاه بعضهم . ويقال للصائد مُكَلِّب فعلى هذا معناه صائدين . وقيل : المكلِّب صاحب الكِلاب ؛ يقال : كَلَّبَ فهو مُكَلِّب وكَلَّاب . وقرأ الحسن « مُكْلِبِين » بسكون الكاف وتخفيف اللام، ومعناه أصحاب كِلاب؛ يقال : أمشى الرجل كثرت ماشيته، وأكلب كثرت كِلابه ؛ وأنشد الأصمعي(٢) :

وكلّ فتًى وإن أمشى فأثْرى * ستخلِجه عن الدنيـا المَنُونُ

(١) آية ١٢١ . (٢) البيت للنابغة . تخلج تجتذب .

الثامنـة — قوله تعالى : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أنّث الضمير مراعاة للفظ الجوارح ؛ إذ هو جمع جارحة . ولا خلاف بين العلماء في شرطين في التعليم وهما : أن يأتمر إذا أُمِر و ينزجر إذا زُجِر ؛ لا خلاف في هذين الشرطين في الكِلاب وما في معناها من سِباع الوُحُوش . وٱختُلف فيما يصاد به من الطير ؛ فالمشهور أن ذلك مشترط فيها عند الجمهور . وذكر ٱبن حبيب أنه لا يشترط فيها أن تنزجر إذا زجرت ؛ فانه لا يتأتى ذلك فيها غالبا ، فيكفي أنها إذا أمرت أطاعت . وقال ربيعة : ما أجاب منها إذا دُعي فهو المعلّم الضّاري ؛ لأن أكثر الحيوان بطبعه يَنْشَلِي . وقد شرط الشافعيّ وجمهور من العلماء في التعليم أن يُمسِك على صاحبه ، ولم يشترطه مالك في المشهور عنه . وقال الشافعيّ : المعلَّم هو الذي إذا أشلاه صاحبه ٱنْشَلَى ؛ و إذا دعاه إلى الرجوع رجع إليه ، و يُمسِك الصّيد على صاحبه ولا يأكل منه ؛ فاذا فعل هذا مرارا وقال أهل العرف صار مُعَلَّما فهو المُعَلَّم . وعن الشافعي أيضا والكوفيّين إذا أشلي فانشلى و إذا أَخَذَ حَبَس وفَعَل ذلك مَرّة بعد مَرّة أكل صَيْده في الثالثة . ومن العلماء من قال : يفعل ذلك ثلاث مَرّات ويؤكل صيده في الرابعة . ومنهم من قال : إذا فعل مَرّة فهو معلَّم و يؤكل صيده في الثانية .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي حَبَسن لكم . وٱختلف العلماء في تأويله ؛ فقال ٱبن عباس وأبو هريرة والنخعيّ وقَتادة وٱبن جُبير وعَطاء بن أبي رَبَاح وعِكرمة والشافعيّ وأحمد و إسحق وأبو ثور والنعمان وأصحابه : المعنى ولم يأكل ؛ فإن أَكل لم يؤكل ما بَقِي ، لأنه أمسك على نفسه ولم يُمْسِك على رَبّه . والفَهْد عند أبي حنيفة وأصحابه كالكلب ، ولم يشترطوا ذلك في الطّيور بل يؤكل ما أَكلت منه . وقال سعد بن أبي وقّاص وعبد الله ابن عمر وسلمان الفارسيّ وأبو هريرة أيضا : المعنى و إن أَكل ؛ فاذا أَكل الجارح كلبا كان أو فَهْدا أو طيرا أكل ما بقي من الصيد و إن لم يبق إلا بَضْعة ؛ وهذا قول مالك و جميع أصحابه ، وهو القول الثاني للشافعي ، وهو القياس . وفي الباب حديثان بمعنى ما ذكرنا ؛ أحدهما — حديث عَدِيّ في الكلب المعلَّم "و إذا أَكل فلا تأكل و إنما أمسكَ على نفسه" أخرجه مسلم . الثاني —

حديث أبي ثَعْلَبة الخُشَنِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في صيد الكلب: "إذا أرسلت كَلْبك وذَكرتَ اسم الله فكُلْ وإن أكل منه وكُلْ ما رَدّت عليك يدُك" أخرجه أبو داود ورُوِي عن عدِيّ ولا يصح؛ والصحيح عنه حديث مسلم؛ ولما تعارضت الروايتان رَامَ بعض أصحابنا وغيرهم الجَمْع بينهما فحمَلوا حديث النّهى على التنزيه والوَرَع، وحديث الإباحة على الجواز؛ وقالوا: إن عَدِيّاً كان موسَّعا عليه فأفتاه النبي صلى الله عليه وسلم بالكفّ وَرَعًا؛ وأبا ثَعْلَبة كان محتاجا فأفتاه بالجواز؛ والله أعلم. وقد دَلّ على صحة هذا التأويل قوله عليه السلام في حديث عَدِيّ: "فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه" هذا تأويل علمائنا. وقال أبو عمر في كتاب «الاستذكار»: وقد عارض حديثَ عَدِيّ هذا حديثُ أبي ثَعْلَبة، والظاهر أن حديث أبي ثَعلبة ناسخ له؛ فقوله: وإن أَكَل يارسول الله؟ قال: "وإن أَكَل".

قلت: هذا فيه نظر؛ لأن التاريخ مجهول؛ والجمع بين الحديثين أولى ما لم يُعلم التاريخ؛ والله أعلم. وأما أصحاب الشافعيّ فقالوا: إن كان الأكل عن فَرْط جُوع من الكلب أُكِل وإلا لم يؤكل؛ فإن ذلك من سوء تعليمه. وقد رُوِي عن قوم من السّلَف التفرقة بين ما أَكَل منه الكلب والفَهْد فمنعوه، وبين ما أَكَل منه البازي فأجازوه؛ قاله النَّخَعِيّ والثوريّ وأصحاب الرأي وحماد بن أبي سليمان، وحكى عن ابن عباس وقالوا: الكلب والفَهْد يمكن ضربه وزَجْره، والطير لا يمكن ذلك فيه، وحدّ تعليمه أن يُدعى فيجيب، وأن يُشْلى فيَنْشَلي؛ لا يمكن فيه أكثر من ذلك، والضّرب يؤذيه.

العاشرة — والجمهور من العلماء على أن الجارح إذا شَرِب من دم الصيد أن الصيد يؤكل؛ قال عطاء: ليس شرب الدّم بأكل؛ وكره أكل ذلك الصيد الشعبيّ وسفيان الثّوريّ، ولا خلاف بينهم أن سبب إباحة الصيد الذي هو عَقر الجارح له لا بد أن يكون متحقّقا غير مشكوك فيه؛ ومع الشّك لا يجوز الأكل، وهي:

الحادية عشرة — فإن وَجد الصائد مع كلبه كلبا آخر فهو محمول على أنه غير مُرسَل من صائد آخر، وأنه إنما انبعث في طلب الصيد بطبعه ونفسه، ولا يُختلف في هذا؛ لقوله عليه السلام:

"وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل — في رواية — فإنما سمّيتَ على كلبك ولم تسم على غيره" . فأمّا لو أرسله صائد آخر فاشترك الكلبان فيه فإنه للصائدَين يكونان شريكين فيه . فلو أنفذ أحد الكلبين مقاتله ثم جاء الآخر فهو للذي أنفذ مقاتله؛ وكذلك لا يؤكل ما رُمي بسهم فتردّى من جبل أو غَرِق في ماء؛ لقوله عليه السلام لعَدِيّ : "وإن رَميتَ بسهْمك فاذكر اسم الله فإن غاب عنك يوما فلم تجِد فيه إلا أثر سَهْمك فكُلْ وإن وجدته غَرِيقا في الماء فلا تأكل فإنك لا تدري الماءُ قتله أو سهمك" . وهذا نصّ .

الثانية عشرة — لو مات الصيد في أفواه الكلاب من غير بَضْع لم يؤكل ؛ لأنه مات خَنْقا فأشبه أن يُذبح بسكّين كالّة فيموت في الذّبح قبل أن يفري حَلْقُه . ولو أمكنه أخْذُه من الجوارح وذَبْحُه فلم يفعل حتى مات لم يؤكل ، وكان مقصّرا في الذّكاة ؛ لأنه قد صار مقدورا على ذَبْحه ، وذكاة المقدور عليه تخالف ذكاة غير المقدور عليه . ولو أخذه ثم مات قبل أن يُخرج السّكّين ، أو تناولها وهي معه جاز أكله ؛ ولو لم تكن السّكّين معه فتشاغل بطلبها لم تؤكل . وقال الشافعي فيما نالته الجوارح ولم تُدْمِه قولان : أحدهما — ألّا يؤكل حتى يَجرح ؛ لقوله تعالى : « مِنَ ٱلْجَوَارِحِ » وهو قول ابن القاسم ؛ والآخر — أنه حلّ وهو قول أشهب ؛ قال أَشْهَب : إن مات من صَدْمة الكلب أُكل .

الثالثة عشرة — قوله : "فإن غاب عنك يوما فلم تجد فيه إلا أثر سَهْمك فكُلْ" ونحوه في حديث أبي ثَعْلَبَة الذي خرّجه أبو داود ، غير أنه زاد "فكُلْه بعد ثلاث ما لم يُنْتِن" يعارضه قوله عليه السلام : "كُلْ ما أَصْمَيْتَ ودَعْ ما أَنْمَيْتَ" . فالإصْماء ما قَتَل مسرعا وأنت تراه ، والإنْماء أن ترمي الصيد فيغيب عنك فيموت وأنت لا تراه ؛ يقال : قد أنْمَيْتُ الرَّمِيَّة فنَمَت تَنْمِي إذا غابت ثم ماتت ؛ قال امرؤ القيس :

فَهْوَ لا تَنْمِي رَمِيَّتُه * ماله لا عُدّ مِن نَفَرِه

وقد اختلف العلماء في أكل الصّيد الغائب على ثلاثة أقوال : يؤكل ، وسواء قتَله السَّهْم أو الكلب . الثاني — لا يؤكل شيء من ذلك إذا غاب ؛ لقوله : "كُلْ ما أصميت ودَعْ ما أَنْمَيْتَ" .

وإنما لم يؤكل مخافة أن يكون قد أعان على قتله غير السهم من الهوام . الثالث — الفرق بين السَّهْم فيؤكل وبين الكلب فلا يؤكل؛ ووجهه أن السَّهْم يقتل على جهة واحدة فلا يُشكل، والجارح على جهات متعدّدة فيُشكل؛ والثلاثة الأقوال لعلمائنا . وقال مالك في غير الموطّأ : إذا بات الصيد ثم أصابه مَيْتا لم يُنفذ البازي أو الكلب أو السهم مَقاتِله لم يأكله؛ قال أبو عمر : فهذا يَدُلّك على أنه إذا بَلغ مَقاتِله كان حلالا عنده أكله وإن بات، إلا أنه يكرهه إذا بات؛ لما جاء عن ٱبن عباس : «وإن غاب عنك ليلة فلا تأكل» ونحوه عن الثوري قال : إذا غاب عنك يوما كَرِهت أَكله . وقال الشافعي : القياس ألّا يأكله إذا غاب عنه مَصْرعه . وقال الأوزاعيّ : إن وجده من ٱلغد ميتا ووجد فيه سهمه أو أثرا من كلبه فليأكله؛ ونحوه قال أشْهَب وعبد الملك وأَصْبَغ؛ قالوا : جائز أكل الصّيد وإن بات إذا نَفَذَت مقاتله ، وقوله في الحديث : "ما لم يُنْتِن" تعليل؛ لأنه إذا أنتن لحِق بالمستقذرات التي تَمُجُّها الطّباع فيكره أكلها؛ فلو أكلها لجاز، كما أكل النبي صلى الله عليه وسلم ٱلإِهَالَة[(1)] السَّنِخَة وهي ٱلمُنْتِنة . وقيل : هو معلَّل بما يخاف منه الضّرر على آكله؛ وعلى هذا التعليل يكون أكله محرّما إن كان الخوف مُحقّقا، وٱلله أعلم .

الرابعة عشرة — وٱختلف العلماء من هذا الباب في الصيد بكلب اليهوديّ والنصرانيّ إذا كان معلَّما؛ فكرهه الحسن البصريّ؛ وأما كلب المجوسيّ وبازُه وصَقْره فكره الصيد بها جابر ٱبن عبد الله والحسن وعطاء ومجاهد والنخعيّ والثوريّ وإسحٰق؛ وأجاز الصيد بكلابهم مالك والشافعي وأبو حنيفة إذا كان الصّائد مسلما؛ قالوا : وذلك مثل شَفْرته . وأما إن كان الصّائد من أهل الكتاب فجمهور ٱلأمّة على جواز صيده غير مالك ، وفرق بين ذلك وبين ذبيحته؛ وتلا « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ » قال : فلم يذكر الله في هذا اليهود ولا النصارى . وقال ٱبن وَهْب وأَشْهَب : صيد اليهوديّ والنصرانيّ حلال كذبيحته؛ وفي كتاب محمد لا يجوز صيد الصّابئ ولا ذبحه؛ وهم قوم بين اليهود والنصارى

(1) روى أن خياطا دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى طعام فقدّم إليه إهالة سنخة وخبز شعير . الإهالة : الدّسم ما كان؛ والسنخة المتغيرة ، ويقال بالزاي .

ولا دين لهم . وأما إن كان الصّائد مَجُوسيّا فمنع من أكله مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وجمهور الناس . وقال أبو ثور فيها قولان : أحدهما — كقول هؤلاء، والآخر — أن المجوس من أهل الكتاب وأن صيدهم جائز . ولو اصطاد السكران أو ذَبَح لم يؤكل صيده ولا ذبيحته؛ لأن الذكاة تحتاج إلى قَصْد، والسّكران لاقَصْد له .

الخامسة عشرة — واختلف النحاة في « مِنْ » في قوله تعالى : « مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ » فقال الأخفش : هي زائدة كقوله : « كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ » . وخطأه البصريون وقالوا : « مِنْ » لاتُزاد في الإثبات وإنما تُزاد في النفي والاستفهام، وقوله : « مِنْ ثَمَرِهِ »، « يُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » للتبعيض؛ أجاب فقال قد قال : « يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » بإسقاط « مِنْ » فدلّ على زيادتها في الإيجاب؛ أجيب بأن « مِنْ » ههنا للتبعيض؛ لأنه إنما يحلّ من الصيد اللحم دون الفَرْث والدّم .

قلت : هذا ليس بمراد ولا معهود في الأكل فيعكّر على ماقال . ويحتمل أن يريد « مِمَّا أَمْسَكْنَ » أي ممّا أبقته الجوارح لكم، وهذا على قول من قال : لو أكل الكلب الفريسة لم يَضرّ؛ وبسبب هذا الاحتمال اختلف العلماء في جواز أكل الصيد إذا أكل الجارح منه على ماتقدّم .

السادسة عشرة — ودلّت الآية على جواز اتخاذ الكلاب واقتنائها للصيد، وثبت ذلك في صحيح السّنّة وزادت الحَرْث والماشية؛ وقد كان أوّلَ الإسلام أمر بقتل الكلاب حتى كان يقتل كلب المُرَيَّة[(1)] من البادية يتبعها؛ رَوى مسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتنى كلبا إلّا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان " . ورُوى أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اتخذ كلبا إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط ". قال الزهري : وذُكر لابن عمر قول أبي هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة، كان صاحب زرع؛ فقد دلّت السّنّة على ماذكرنا، وجعل النقص من أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة؛ إما لترويع الكلب المسلمين

(١) المُرَيّة : هي مصغّر المرأة؛ والأصل المُرَيْئة .

وتشويشه عليهم بنُبَاحه — كما قال بعض شعراء البصرة، وقد نزل بعمّار فسمع لكلابه نُباحا فأنشأ يقول :

نَزَلنا بعمّار(١) فأشْلَى كِلَابه * علينا فكِدْنا بين بيتيه نُؤكَلُ
فقلت لأصحابى أسرّ إليهم * أَذا اليومُ أم يومُ القيامةِ أطولُ

— أو لمنع دخول الملائكة البيت، أو لنجاسته على مايراه الشافعىّ(٢)، أو لاقتحام النهى عن اتخاذ ما لا منفعة فيه؛ والله أعلم . وقال فى إحدى الروايتين : "قيراطان" وفى الأخرى " قيراط " وذلك يحتمل أن يكون فى نوعين من الكلاب أحدهما أشدّ أذًى من الآخر ؛ كالأسود الذى أَمَر عليه السلام بقتله ، ولم يُدخله فى الاستثناء حين نَهى عن قتلها فقال : "عليكم بالأسود البَهيم ذِى النقطتين فإنه شيطان" أخرجه مسلم . ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون مُمْسكه بالمدينة مثلا أو بمكة ينقص قيراطان ، و بغيرهما قيراط ؛ والله أعلم . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص أجر متّخذه كالفرس والهِرّ ، ويجوز بيعه وشراؤه ، حتى قال سحنون : ويحجّ بثمنه . وكلب الماشية المباح اتخاذه عن مالك هو الذى يَسْرَح معها لا الذى يحفظها فى الدار من السُّرّاق . وكلب الزرع هو الذى يحفظه من الوحوش بالليل والنهار لا من السُّرّاق . وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسرّاق الماشية والزرع والدار فى البادية .

السابعة عشرة — وفى هذه الآية دليل على أن العالم له من الفضيلة ماليس للجاهل؛ لأن الكلب إذا عُلِّم يكون له فضيلة على سائر الكلاب ، فالإنسان إذا كان له عِلْم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس، لا سِيّما إذا عَمِل بما عَلِم؛ وهذا كما رُوى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال : لكل شىء قيمة وقيمة المرء ما يُحسِنه .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أمر بالتسمية ؛ قيل : عند الإرسال على الصيد ، وفقه الصيد والذبح فى التسمية واحد ، يأتى بيانه فى «الأنعام»(٣) . وقيل : المراد بالتسمية هنا التسمية على الأكل ، وهو الأظهر . وفى صحيح مسلم أن النبىّ صلى الله عليه

(١) البيت لزياد الأعجم . وعمار اسم شخص ، وروى فى (اللسان) : أتينا أبا عمرو ... الخ .
(٢) كذا فى بعض النسخ و فى بعض الأصول : « عن » . (٣) آية ١٢١ .

وسلم قال لعمر بن أبي سَلَمة : "يا غلام سَمّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك". وروى من حديث حُذَيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الشيطان ليستحِلّ الطعام ألّا يذكر آسم الله عليه" الحديث. فإن نَسِي التسمية أوّل الأكل فليسمّ آخره؛ رَوى النسائيّ عن أميّة بن مَخْشِيّ — وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يأكل ولم يُسَمّ الله، فلما كان في آخر لُقْمَة قال: بسم الله أوّله وآخره؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما زال الشيطان يأكل معه فلما سَمّى قاءَ ما أكل".

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بالتقوى على الجملة، والإشارة القريبة هي ما تضمنته هذه الآيات من الأوامر. وسُرْعة الحِسَاب هي من حيث كونه تعالى قد أحاط بكلّ شيء عِلْما وأحصى كلّ شيء عَدَدا؛ فلا يحتاج إلى محاولة عَدّ ولا عقد كما يفعله الحُسّاب؛ ولهذا قال : « وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين » فهو سبحانه يحاسب الخلائق دفعة واحدة. ويحتمل أن يكون وعيدا بيوم القيامة كأنه قال : إن حساب الله لكم سريع إتيانه؛ إذ يوم القيامة قريب. ويحتمل أن يريد بالحساب المجازاة؛ فكأنه توعّد في الدنيا بمجازاة سريعة قريبة إن لم يتّقُوا الله.

قوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (٥)

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » و « اليوم أحِلّ لكم الطّيّبات » فأعاد تأكيدا أي أحِلّ لكم الطيبات التي سألتم عنها؛ وكانت

الطّيّبات أبيحت للسلمين قبل نزول هذه الآية؛ فهذا جواب سؤالهم إذ قالوا : ماذا أُحلّ لنا ؟ . وقيل : أشار بذكر اليوم إلى وقت محمد صلى الله عليه وسلم كما يقال : هذه أيام فلان ؛ أى هذا أوان ظهوركم وشيوع الإسلام ؛ فقد أكملت بهذا دينكم ، وأحللت لكم الطّيّبات. وقد تقدّم ذكر الطّيّبات فى الآية قبل هذا .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ ٱبتداء وخبر. والطعام ٱسم لما يؤكل والذبائح منه ، وهو هنا خاصّ بالذبائح عند كثير من أهل العلم بالتأويل. وأما ما حرم علينا من طعامهم فليس بداخل تحت عموم الخطاب ؛ قال ابن عباس قال الله تعالى : «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ » ثم ٱستثنى فقال : « وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ » يعنى ذبيحة اليهودىّ والنصرانىّ ؛ وإن كان النصرانىّ يقول عند الذبح باسم المَسيح ، واليهودىّ يقول باسم عُزَيْر ؛ وذلك أنهم يذبحون على المِلّة . وقال عطاء : كُلْ من ذبيحة النصرانىّ و إن قال باسم المَسيح ؛ لأن الله جَلَّ وعَزَّ قد أباح ذبائحهم ، وقد عَلِم ما يقولون . وقال القاسم بن مُخَيْمَرَة : كُلْ من ذبيحته وإن قال باسم سَرْجِس — ٱسم كنيسة لهم — وهو قول الزهرىّ وربيعة والشعبىّ ومكحول ؛ ورُوِى عن صحابيّين ؛ عن أبى الدرداء وعُبادة بن الصّامت . وقالت طائفة : إذا سمعت الكتابىّ يسمى غير ٱسم الله عزّ وجلّ فلا تأكل ؛ وقال بهذا من الصحابة علىّ وعائشة وٱبن عمر؛ وهو قول طاوس والحسن متمسّكين بقوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » . وقال مالك : أكره ذلك ، ولم يحرّمه .

قلت : العجب من الكِيَا الطبرىّ الذى حَكَى الٱتفاق على جواز ذبيحة أهل الكتاب ، ثم أخذ يستدلّ بذلك على أن التسمية على الذبيحة ليست بشرط فقال : ولا شك أنهم لا يُسمّون على الذبيحة إلا الإله الذى ليس معبودا حقيقة مثل المَسيح وعُزَيْر ، ولو سمّوا الإله حقيقة لم تكن تسميتهم على طريق العبادة ، وإنما كان على طريق آخر ، وٱشتراط التسمية لا على وجه العبادة لا يعقل ، ووجود التسمية من الكافر وعدمها بمثابة واحدة ؛ إذ لم تُتصوّر منه العبادة ، ولأن النصرانىّ إنما يذبح على ٱسم المسيح ، وقد حكم الله بحلّ ذبائحهم مطلقا ؛ وفى ذلك دليل على أن

التسمية لا تشترط أصلا كما يقول الشافعي، وسيأتي ما في هذا للعلماء في «الأنعام»(١) إن شاء الله تعالى.

الثالثة — ولا خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج إلى ذكاة كالطعام الذي لا محاولة فيه كالفاكهة والبُرّ جائز أكله؛ إذ لا يضر فيه تملُّك أحد. والطعام الذي تقع فيه محاولة على ضربين: أحدهما — ما فيه محاولة صَنْعة لا تعلق للدِّين بها؛ كخَبْز الدقيق، وعَصْره الزيت ونحوه؛ فهذا إن تُجنِّب من الذمي فعلى وجه التَّقَزُّز. والضرب الثاني — هي التذكية التي ذكرنا أنها هي التي تحتاج إلى الدِّين والنيّة؛ فلما كان القياس ألا تجوز ذبائحهم — كما نقول إنه لا صلاة لهم ولا عبادة مقبولة — رخّص الله تعالى في ذبائحهم على هذه الأمّة، وأخرجها النص عن القياس على ما ذكرناه من قول ابن عباس؛ والله أعلم.

الرابعة — واختلف العلماء أيضا فيما ذكّوه هل تعمل الذكاة فيما حرم عليهم أولا؟ على قولين؛ فالجمهور على أنها عاملة في كُلّ الذبيحة ما حلّ له منها وما حرم عليه؛ لأنه مُذكّى. وقالت جماعة من أهل العلم: إنما أحلّ لنا من ذبيحتهم ما أُحِلّ لهم؛ لأن ما لا يحلّ لهم لا تعمل فيه تذكيتهم؛ فمنعت هذه الطائفة الطّريف(٢) والشُّحوم المحضة من ذبائح أهل الكتاب، وقَصَرت لفظ الطعام على البعض؛ وحَمَلته الأولى على العموم في جميع ما يؤكل. وهذا الخلاف موجود في مذهب مالك. قال أبو عمر: وكره مالك شُحُوم اليهود وأكل ما نَحَروا من الإبل، وأكثر أهل العلم لا يرون بذلك بأسا؛ وسيأتي هذا في «الأنعام»(٣) إن شاء الله تعالى؛ وكان مالك رحمه الله يكره ما ذبحوه إذا وجد ما ذبحه المسلم، وكره أن يكون لهم أسواق يبيعون فيها ما يذبحون؛ وهذا منه رحمه الله تَنَزُّه.

الخامسة — وأما المجوس فالعلماء مجمعون — إلا من شَذّ منهم — على أنّ ذبائحهم لا تؤكل ولا يتزوّج منهم؛ لأنهم ليسوا أهل كتاب على المشهور عند العلماء. ولا بأس بأكل

(١) آية ١٢١. (٢) كذا في الأصول، وجاء في شرح (الخرشي) على (المختصر الخليل) في فقه المالكية: «الطريفة»: هي أن توجد الذبيحة فاسدة الرّئة أي ملتصقة بظهر الحيوان؛ وإنما كانت الطريفة عندهم محرّمة لأن ذلك علامة على أنها لا تعيش من ذلك فلا تعمل فيها الذكاة عندهم، بمنزلة منفوذة المقاتل عندنا. (٣) آية ١٤٦.

طعام من لا كتاب له كالمشركين وعَبَدة الأوثان ما لم يكن من ذبائحهم ولم يحتج إلى ذكاة؛ إلا الجُبن؛ لما فيه من إنْفَحة(1) الميتة . فإن كان أبو الصبيّ مجوسياً وأمّه كتابية فحكمه حكم أبيه عند مالك، وعند غيره لا تؤكل ذبيحة الصبيّ إذا كان أحد أبويه ممن لا تؤكل ذبيحته .

السادســة — وأما ذبيحة نصارى بني تَغْلِب وذبائح كلّ دَخيل في اليهودية والنصرانية فكان عليّ رضي الله عنه ينهى عن ذبائح بني تَغْلِب؛ لأنهم عرب، ويقول: إنهم لم يتمسّكوا بشيء من النصرانيّة إلا بشرب الخمر؛ وهو قول الشافعي؛ وعلى هذا فليس ينهى عن ذبائح النصارى المحقّقين منهم. وقال جمهور الأئمة : إنّ ذبيحة كل نصرانيّ حلال؛ سواء كان من بني تَغْلِب أو غيرهم، وكذلك اليهوديّ. وٱحتجّ ٱبن عباس بقوله تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» فلو لم تكن بنو تَغْلِب من النصارى إلا بتولّيهم إيّاهم لأكلت ذبائحهم .

السابعــة — ولا بأس بالأكل والشُّرب والطَّبخ في آنية الكفار كلّهم، ما لم تكن ذهبا أو فضّة أو جلد خنزير بعد أن تُغسل وتُغلى؛ لأنهم لا يتوقّون النجاسات ويأكلون الميتات؛ فإذا طَبَخوا في تلك القُدور تنجّست، وربما سَرت النجاسات في أجزاء قُدور الفخّار؛ فإذا طُبخ فيها بعد ذلك تُوقّع مخالطة تلك الأجزاء النّجسة للمطبوخ في القدر ثانية؛ فاقتضى الورَع الكفّ عنها . ورُوي عن ٱبن عباس أنه قال : إن كان الإناء من نُحاس أو حديد غُسل، وإن كان من فخّار أُغلي فيه الماء ثم غُسل — هذا إذا ٱحتيج إليه — وقاله مالك؛ فأما ما يستعملونه لغير الطبخ فلا بأس باستعماله من غير غسل؛ لما روى الدارقطنيّ عن عمر أنه توضأ من بيت نصرانيّ في حُقّ(2) نصرانيّة؛ وهو صحيح وسيأتي في «الفرقان»(3) بكماله . وفي صحيح مسلم من حديث أبي ثَعْلَبة ٱلخُشَنيّ قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنا بأرض قوم من أهل كتاب نأكل في آنيتهم، وأرض صيد، أَصيد بقوسي وأَصيد بكلبي المعلَّم، وأَصيد بكلبي الذي ليس بمعلَّم؛ فأَخبِرْني ما الذي يحلّ لنا من ذلك ؟ قال : "أمّا ما ذكرت

(1) الإنفحة (بكسر الهمزة وفتح الفاء) : كرش ٱلحمل أو ٱلجدي ما لم يأكل، فإذا أكل فهو كرش، يستخرج منه شيء لونه أصفر يوضع على اللبن فيغلظ .

(2) ٱلحق وٱلحقة (بالضم) : وعاء من خشب أو عاج .

(3) راجع المسئلة الخامسة آية ٤٨ .

أنكم بأرض قوم من أهل كتاب تأكلون في آنيتهم فإن وجدتم غير آنيتهم فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها " ثم ذكر الحديث .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ دليل على أنهم مخاطبون بتفاصيل شرعنا ؛ أي إذا اشتروا منا اللحم يحل لهم اللحم ويحل لنا الثمن المأخوذ منهم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ الآية . قد تقدّم معناها في « البقرة »(١) و « النساء »(٢) والحمد لله . ورُوي عن ابن عباس في قوله تعالى : « وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ » . هو على العهد دون دار الحرب فيكون خاصا . وقال غيره : يجوز نكاح الذمّية والحربيّة لعموم الآية . ورُوي عن ابن عباس أنه قال : « المحصَناتُ » العفيفات العاقلات . وقال الشّعبيّ : هو أن تُحصن فَرْجها فلا تزني ، وتغتسل من الجنابة . وقرأ الشّعبيّ « والمحصِنات » بكسر الصّاد ، وبه قرأ الكسائيّ . وقال مجاهد : « المحصَنات » الحرائر ؛ قال أبو عبيد : يذهب إلى أنه لا يحلّ نكاح إماء أهل الكتاب ؛ لقوله تعالى : « فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ » وهذا القول الذي عليه جِلّة العلماء .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَانِ ﴾ قيل : لمّا قال تعالى « والمُحْصَنَاتُ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ » قال نساء أهل الكتاب : لولا أن الله رَضِي ديننا لم يُبح لكم نكاحنا ؛ فنزلت « وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ » أي بما أنزل على محمد . وقال أبو الهيثم : الباء صِلة ؛ أي ومن يكفر الإيمان أي يجحده ﴿ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ . وقرأ ابن السَّمَيْقَع « فَقَدْ حَبَطَ » بفتح الباء . وقيل : لما ذكرت فرائض وأحكام يلزم القيام بها ذكر الوعيد على مخالفتها ؛ لما في ذلك من تأكيد الزجر عن تضييعها . ورُوي عن ابن عباس ومجاهد أن المعنى : ومن يكفر بالله ؛ قال الحسن بن الفضل : إن صحّت هذه الرواية فمعناها بربّ الإيمان . وقال

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ : ولا يجوز أن يسمّى الله إيمانا خلافا للحشوية والسالمية ؛ لأن الإيمان مصدر آمن يُؤمن إيمانا، وآسم الفاعل منه مُؤمن ؛ والإيمان التصديق، والتصديق لا يكون إلا كلاما ، ولا يجوز أن يكون البارى تعالى كلاما .

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾

فيه ثلاثون مسئلة :

الأولى — ذكر القشيرىّ وآبن عطية أن هذه الآية نزلت فى قصّة عائشة حين فقدت العقد فى غَزْوة المُرَيْسِيع، وهى آية الوضوء. قال آبن عطية : لكن من حيث كان الوضوء متقرّرا عندهم مستعملا، فكأن الآية لم تزدهم فيه إلا تلاوته، وإنما أعطتهم الفائدة والرّخصة فى التّيمّم. وقد ذكرنا فى آية «النساء»(١) خلاف هذا، والله أعلم . ومضمون هذه الآية داخل فيما أَمَر به من الوَفَاء بالعقود وأحكام الشرع، وفيما ذَكَر من إتمام النّعمة ؛ فإن هذه الرّخصة من إتمام النّعم .

الثانيــة — وآختلف العلماء فى المعنى المراد بقوله : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ على أقوال ؛ فقالت طائفة : هذا لفظ عامّ فى كلّ قيام إلى الصلاة، سواء كان القائم متطهّرا أو مُحْدِثا ؛ فإنه ينبغى له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضّأ، وكان علىّ يفعله ويتلو هذه الآية ؛ ذكره أبو محمد الدّارِمىّ(٢) فى مسنده، وروى مثله عن عِكْرِمة . وقال آبن سيرين : كان الخلفاء يتوضّئون لكل صلاة .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢١٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الدّارمى (بكسر الراء) : نسبة إلى دارم، بطن من تميم .

قلت : فالآية على هذا محكمة لا نسخ فيها . وقالت طائفة : الخطاب خاصّ بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال عبد الله بن حَنْظَلة بن أبي عامر الغَسِيل (١) : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمِر بالوضوء عند كل صلاة فشقّ ذلك عليه ؛ فأمِر بالسّواك ورُفع عنه الوضوء إلا من حَدث . وقال عَلْقَمَة بن الفَغْواء عن أبيه — وهو من الصحابة ، وكان دليل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تَبُوك — : نزلت هذه الآية رخصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان لا يعمل عَملا إلا وهو على وضوء ، ولا يكلّم أحدا ولا يردّ سلاما إلى غير ذلك ؛ فأعلم الله بهذه الآية أن الوضوء إنما هو للقيام إلى الصلاة فقط دون سائر الأعمال. وقالت طائفة : المراد بالآية الوضوء لكل صلاة طلبا للفضل ؛ وحَمَلوا الأمر على النّدْب ، وكان كثير من الصحابة منهم ٱبن عمر يتوضئون لكل صلاة طلبا للفضل ، وكان عليه السلام يفعل ذلك إلى أن جَمَع يوم الفتح بين الصلوات الخمس بوضوء واحد ، إرادة البيان لأمّته صلى الله عليه وسلم .

قلت : وظاهر هذا القول أن الوضوء لكل صلاة قبل ورود الناسخ كان مستحبًّا لا إيجابا وليس كذلك ؛ فإن الأمر إذا ورد ، مقتضاه الوجوب ؛ لا سيّما عند الصحابة رضوان الله عليهم ، على ما هو معروف من سيرتهم . وقال آخرون : إن الفرض في كل وضوء كان لكل صلاة ثم نُسخ في فتح مكة ؛ وهذا غَلَط لحديث أنس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة ، وإن أمّته كانت على خلاف ذلك ، وسيأتي ؛ ولحديث سُوَيد بن النعمان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى وهو بالصَّهباء (٢) العصر والمغرب بوضوء واحد ؛ وذلك في غزوة خيبر ، وهي في سنة ستّ ، وقيل : سنة سبع ، وفتح مكة كان في سنة ثمان ؛ وهو حديث صحيح رواه مالك في موطّئه ، وأخرجه البخاري ومسلم ؛ فبان بهذين الحديثين أن الفرض لم يكن قبل الفتح لكل صلاة . فإن قيل : فقد رَوى مسلم عن بُرَيْدَة بن ٱلحُصَيْب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ لكل صلاة ، فلما كان يوم الفتح صلّى الصلوات بوضوء واحد ، ومسح

(١) حنظلة بن أبي عامر الأنصاري : يقال له غسيل الملائكة — رضي الله عنه — ٱستشهد يوم أحد وغسلته الملائكة .

(٢) الصهباء : موضع قرب خيبر .

على خفّية ، فقال عمر رضى الله عنه : لقد صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ؛ فقال : عمدا صنعته ياعمر" . فلمَ سأله عمر وٱستفهمه ؟ قيل له : إنما سأله لمخالفته عادته منذ صلاته بخيبر ؛ وٱلله أعلم . وروى الترمذيّ عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ لكل صلاة طاهرا وغير طاهر ؛ قال حُميد قلت لأنس : وكيف كنتم تصنعون أنتم ؟ قال : كنّا نتوضأ وضوءا واحدا ؛ قال : حديث حسن صحيح . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الوضوء على الوضوء نور" . فكان عليه السلام يتوضأ مجدّدا لكل صلاة ، وقد سلم عليه رجل وهو يبول فلم يَرُدّ عليه حتى تيمّم ثم ردّ السلام وقال : "إنى كرهت أن أذكر الله إلّا على طُهْر" رواه الدّارقُطْني . قال السدّى وزيد بن أسلم : معنى الآية « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » يريد من المَضَاجِع يعنى النّوم ، والقصد بهذا التأويل أن يعمّ الأحداث بالذّكر ، ولا سيّما النوم الذى هو مختلف فيه هل هو حدث فى نفسه أم لا ؟ وفى الآية على هذا التأويل تقديم وتأخير؛ التقدير: يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة من النّوْم ، أو جاء أَحَدٌ منكم من الغائط أو لَامَسْتُم النساء — يعنى الملامسة الصغرى — فٱغسلوا ؛ فتمّت أحكام المُحدث حدثا أصغر . ثم قال : «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَٱطَّهَّرُوا » فهذا حكم نوع آخر؛ ثم قال للنوعين جميعا : « وَإِنْ كُنْتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً » وقال بهذا التأويل محمد بن مَسْلَمة من أصحاب مالك — رحمه الله — وغيره . وقال جمهور أهل العلم : معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة مُحْدِثين ؛ وليس فى الآية على هذا تقديم وتأخير؛ بل ترتّب فى الآية حكم واجد الماء إلى قوله : «فَٱطَّهَّرُوا» ودخلت الملامسة الصغرى فى قوله : «مُحدِثين» . ثم ذكر بعد قوله : «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَٱطَّهَّرُوا» حكم عادم الماء من النوعين جميعا ، وكانت الملامسة هى الجماع ، ولابدّ أن يذكر الجُنُب ٱلعادِم الماء كما ذكر ٱلواجد ؛ وهذا تأويل الشافعىّ وغيره ؛ وعليه تجىء أقوال الصحابة كسعد بن أبى وقّاص وٱبن عباس وأبى موسى الأشعرىّ .

قلت : وهذان التأويلان أحسن ما قيل فى الآية ؛ وٱلله أعلم . ومعنى « إِذَا قُمْتُمْ » إذا أردتم ، كما قال تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ » أى إذا أردت ؛ لأن الوضوء حالة القيام إلى الصلاة لا يمكن .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ ولابدّ فى غَسْل الوجه من نَقْل الماء إليه ، و إمرار اليد عليه ؛ وهذه حقيقة الغسل عندنا ، وقد بيّنّاه فى « النساء »(١) . وقال غيرنا : إنما عليه إجراء الماء وليس عليه دَلْكٌ بيده ؛ ولا شك أنه إذا ٱنغمس الرجل فى الماء وغَمَر وجهه أو يديه ولم يُدَلِّك يقال : غَسَل وجهه و يده ، ومعلوم أنه لا يعتبر فى ذلك غير حصول الاسم ، فإذا حَصَل كَفَى . والوجه فى اللغة مأخوذ من المواجهة ، وهو عضو مشتمل على أعضاء وله طول وعرض ؛ فحدّه فى الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى ٱللّحيين ، ومن الأذن إلى الأذن فى العرض ، وهذا فى الأمرد ، وأما ٱلْمُلْتَحِى فإذا ٱكتسى الذّقن بالشعر فلا يخلو أن يكون خفيفا أو كثيفا ، فإن كان الأوّل بحيث تبين منه ٱلبشَرة فلابدّ من إيصال الماء إليها ، و إن كان كثيفا فقد ٱنتقل الفرض إليه كشعر الرأس ؛ ثم ما زاد على الذّقن من الشعر وٱسترسل من ٱللّحية فقال سُحنون عن ٱبن القاسم : سمعت مالكا سئل : هل سمعت بعض أهل العلم يقول إن ٱللحية من الوجه فليمرّ عليها الماء ؟ قال : نعم ، وتخليلها فى الوضوء ليس من أمر الناس ، وعاب ذلك على من فَعَله . وذكر ٱبن القاسم أيضا عن مالك قال : يحرّك المتوضّئ ظاهر لحيته من غير أن يدخل يده فيها ؛ قال : وهى مثل أصابع الرجلين . قال ٱبن عبد الحكم : تخليل ٱللّحية واجب فى الوضوء والغُسْل . قال أبو عمر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خَلَّل لحيته فى الوضوء من وجوه كلها ضعيفة . وذكر ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد أن الفقهاء ٱتفقوا على أن تخليل ٱللّحية ليس بواجب فى الوضوء ، إلا شيء روى عن سعيد بن جبير ؛ قوله : مابال الرجل يغسل لحيته قبل أن تنبت فإذا نبتت لم يغسلها ، وما بال الأمْرَد يَغسل ذقنه ولم يغسل ذو ٱللّحية . قال الطحاوىّ : التيمّم واجب فيه مَسْح ٱلبَشَرة قبل نبات الشعر فى الوجه ثم سقط بعده عند جميعهم ، فكذلك الوضوء . قال أبو عمر : من جَعَل غسل ٱللّحية كلها واجبا جَعَلَهَا وَجْها ؛ لأن الوجه مأخوذ من المواجهة ، وٱلله قد أَمَر بغسل الوجه أَمْرا مطلقا لم يخصّ صاحب لحية من أمرد ؛ فوجب غَسْلها بظاهر القرآن لأنها بدل من ٱلبَشَرة .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وآختار هـذا القول آبن العربي وقال : به أقول؛ لمـا رُوى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَغسل لحيته ، خرّجه الترمذى وغيره؛ فعيّن المحتمل بالفعل . وحكى آبن المُنْذِر عن إسحٰق أن من تَرَكَ تخليل لحيته عَامِدا أعاد . ورَوى الترمذيّ عن عثمان بن عَفّان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخلّل لحيته ؛ قال : هـذا حديث حسن صحيح ؛ قال أبو عمر : ومن لم يوجب غسل ما آنسدل من آللّحية ذهب إلى أن الأصل المأمور بغسله البَشَرة ، فوجب غسل ماظهر فوق البَشَرة ، وما آنسدل من آللّحية ليس تحته ما يلزم غَسْله ، فيكون غَسْل آللّحية بدلا منه . وآختلفوا أيضا فى غَسْل ما وراء العِـذار إلى الأذن ؛ فروى آبن وَهْب عن مالك قال : ليس ما خَلْف الصُّدْغ الذى من وراء شعر آللحيـة إلى الذقن من الوجه . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار قال بمـا رواه آبن وَهْب عن مالك . وقال أبو حنيفـة وأصحابه : البياض بين العِذار وآلأذن من الوجه ، وغَسْله واجب ؛ ونحوه قال الشافعى وأحمد . وقيل : يغسل البياض آستحبابا ؛ قال آبن العربى : والصحيح عنـدى أنه لا يلزم غَسْله إلا للأمرد لا للمُعَـذَّر(١) .

قلت : وهو آختيار القاضى عبد الوهاب ؛ وسبب الخلاف هل تقع عليه المواجهة أم لا ؟ وآلله أعلم . وبسبب هذا الآحتمال آختلفوا هل يتناول الأمر بغسل الوجه باطن الأنف والفم أم لا ؟ فذهب أحمد بن حنبل وإسحق وغيرهما إلى وجوب ذلك فى الوضوء والغُسل ، إلا أن أحمد قال : يُعيـد من تَرَكَ الآستنشاق فى وضوئه ولا يعيد من ترك المضمضة . وقال عامّة الفقهاء: هما سُنَّتان فى الوضوء والغُسل ؛ لأن آلأمر إنما يتناول الظاهر دون الباطن ، والعرب لا تُسَمّى وَجْها إلا ما وقعت به المواجهة ، ثم إن الله تعالى لم يذكرهما فى كتابه ، ولا أوجبهما المسلمون ، ولا آتّفق الجميع عليه ؛ والفرائض لا تثبت إلا من هذه الوجوه . وقد مضى هذا المعنى فى «النساء»(٢) . وأما العينان فالنـاس كلّهم مجمعون على أن داخل العينين لا يلزم غَسْله ، إلا مارُوى عن عبد الله بن عمر أنه كان يَنضَح المـاء فى عينيه ؛ وإنمـا سَقَط غَسْلهما للتأذّى

---

(١) عذر الغلام : نبت شعر عذاره . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢١٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بذلك وٱلحـرج به؛ قال ٱبن العـربى : ولذلك كان عبد الله بن عمـر لمّـا عَمِى يغسل عينيه إذْ كان لا يتأذّى بذلك؛ و إذا تقرّر هذا من حكم الوجه فلابد من غَسْل جُزْء من الرأس مع الوجه من غير تحـديد، كما لا بد على القول بوجوب عموم الرأس من مسح جزء معـه من الوجه لا يتقدّر؛ وهذا ينبنى على أصل من أصول الفقه وهو : « أنّ ما لا يتم الواجب إلا به واجب مثله» والله أعلم .

الرابعـــة ــ وجمهور العلماء على أنّ الوضوء لابدّ فيـه من نيّة ؛ لقوله عليه السلام : " إنمـا الأعمال بالنيات". قال البخارىّ : فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة والحجّ والصوم والأحكام ؛ وقال الله تعالى : « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ » يعنى على نيّته . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "ولكن جِهاد ونيّة" . وقال كثير من الشافعية : لاحاجة إلى نيّة؛ وهو قول الحنفية؛ قالوا : لاتجب النيّـة إلا فى الفروض التى هى مقصودة لأعيانها ولم تجعل سببا لغـيرها ، فأمّا ما كان شرطا لصحّة فعـل آخر فليس يجب ذلك فيه بنفس ورود الأمر إلا بدلالة تقارنه ، والطهارة شرط؛ فإنّ من لاصلاة عليه لايجب عليه فرض الطهارة ، كالحائض والنُّفَساء . احتج علماؤنا و بعض الشافعية بقوله تعالى: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» فلمـا وَجَب فعل الغسل كانت النيّة شرطا فى صحّة الفعل؛ لأن الفرض من قبل الله تعالى فينبغى أن يجب فعل ما ٱلله أمر به؛ فإذا قلنا إن النيّة لاتجب عليه لم يجب عليه القصد إلى فعل ما أمره الله تعالى ، ومعلوم أن الذى ٱغتسل تبرُّدًا أو لغرض ما قَصَـد أداء الواجب؛ وصحّ فى الحديث أن الوضوء يكفّر ؛ فلو صح بغير نية لمـا كفّر . وقال ٱلله تعـالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » .

الخامســــة ــ قال ٱبن العربى قال بعض علمائنا : إن من خَرَج إلى النهر بنيّـة الغُسْل أجزأه ، وإن عَزَبت نيّته فى الطريق بَطَلت النيّة . قال القاضى أبو بكر بن العربى رضى الله الله عنه : فركّبَ على هذا سفاسِفة ٱلمُفْتِين أن نيّة الصلاة تخرج على القولين ، وأوردوا فيها نصًّا عمّن لا يفرق بين الظَّنّ واليقين بأنه قال : يجوز أن تتقدّم فيهـا النية على التكبير ؛ ويالله

و يا للعالمين من أمّة أرادت أن تكون مُفْتية مجتهدة فما وفّقها الله ولا سدّدها ! ؛ أعلموا رحمكم الله أن النيّة في الوضوء مختلف في وجوبها بين العلماء ، وقد آختلف فيها قول مالك ؛ فلمّا نزلت عن مرتبة الآتفاق سُومح في تقديمها في بعض المواضع ، فأما الصلاة فلم يختلف أحد من الأئمـة فيها ، وهي أصل مقصود ، فكيف يُحمل الأصل المقصود المتّفق عليه على الفرع التابع المختلف فيه ! هل هـذا إلا غاية الغباوة ؟ وأما الصوم فإن الشرع رَفَع الحَرَج فيه لمّـا كان آبتـداؤه في وقت الغَفْلة بتقديم النيّة عليه .

السادسـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ وآختلف الناس في دخول المَرافق في التحديد ؛ فقال قوم : نعم ؛ لأن ما بعد « إلى » إذا كان من نوع ما قبلها دخل فيه ؛ قاله سيبويه وغيره ، وقـد مضى هـذا في « البقرة »(١) مبيّنا . وقيل : لا يدخل المرفقان في الغسل ؛ والروايتان مرويّتان عن مالك ؛ الثانية لأشهب ، والأولى عليها أكثر العلماء وهو الصحيح ؛ لمـا رواه الدارقُطْنيّ عن جابر أن النبي صـلى الله عليـه وسلم كان إذا توضأ أدار المـاء على مرفقيه . وقد قال بعضهم : إنّ « إلى » بمعنى مع ، كقولهم : الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل(٢) ، أي مع الذود ، وهو لا يحتاج إليه كما بيناه في « النساء »(٣) ؛ ولأن اليد عند العرب تقع على أطراف الأصابع إلى الكَتِف ، وكذلك الرِّجْل تقع على الأصابع إلى أصـل الفَخِذ ؛ فالمرفق داخل تحت آسم اليد ، فلو كان المعنى مع المَرافق لم يُفِد ، فلما قال : « إلى » آقتطع من حَدّ المرافق عن الغسل ، وبقيت المرافق مغسولة إلى الظُّفر ، وهذا كلام صحيح يجرى على الأصول لغة ومعنى ؛ قال آبن العربي : وما فهم أحد بقطع المسئلة إلا القاضي أبو محمد فإنه قال : إن قوله إلى المرافق حدّ للتروك من اليدين لا للغسول فيهما ؛ ولذلك تدخل المرافق في الغسل .

قلت : ولمـا كان اليد والرِّجل تنطلق في اللغة على ما ذكرنا كان أبو هريرة يبلغ بالوضوء إبطه وساقه ويقول : سمعت خَليلي صلى الله عليـه وسلم يقول : "تبلغ الحِلْيـة من المؤمن

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٢٧ طبعة ثانية . (٢) هذا مثل معناه : القليل يضم الى القليل فيصير كثيرا . والذود القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع ، وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر ، وقيل من ثلاث إلى خمس عشرة ، وقيل غير ذلك . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية .

حيث يبلغ الوضوء" . قال القاضي عياض : والناس مجمعون على خلاف هذا ، وألا يتعدّى بالوضوء حدوده ؛ لقوله عليه السلام : "فمن زاد فقد تعدّى وظَلَم". وقال غيره : كان هذا الفعل مذهبا له ومما ٱنفرد به ، ولم يَحْكِه عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ٱستنبطه من قوله عليه السلام : "أنتم الغُرّ(١) المُحَجَّلُون" ومن قوله : "تبلغ ٱلحلية" كما ذكر .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ تقدّم في « النساء »(٢) أن المسح لفظ مشترك . وأما الرأس فهو عبارة عن الجملة التي يعلمها الناس ضرورة ومنها الوجه ؛ فلما ذَكَره الله عزّ وجلّ في الوضوء وعيّن الوجه للغسل بقي باقيه للمسح ، ولو لم يذكر الغسل للزم مسح جميعه ، ما عليه شعر من الرأس وما فيه العينان وٱلأنف والفم ؛ وقد أشار مالك في وجوب مسح الرأس إلى ما ذكرناه ؛ فإنه سُئِل عن الذي يترك بعض رأسه في الوضوء فقال : أرأيت إن ترك غَسْل بعض وجهه أكان يجزئه ؟ ووَضَح بهذا الذي ذكرناه أن الأذنين من الرأس ، وأن حكمهما حكم الرأس خلافا للزهريّ حيث قال : هما من الوجه يغسلان معه ، وخلافا للشعبيّ حيث قال : ما أقبل منهما من الوجه وظاهرهما من الرأس ؛ وهو قول الحسن وإسحق ، وحكاه ٱبن أبي هريرة عن الشافعيّ ، وسيأتي بيان حجتهما ؛ وإنما سمّى الرأس رأسا لعلوه ونبات الشعر فيه ، ومنه رأس ٱلجبل ؛ وإنما قلنا إن الرأس ٱسم لجملة أعضاء لقول الشاعر :

إذا ٱحتملوا رأسي وفي الرأس أَكْثَرِي * وغُودِر عند المُلْتَقَى ثَمَّ سَائِرِي

الثامنة — وٱختلف العلماء في تقدير مسحه على أحد عشر قولا ؛ ثلاثة لأبي حنيفة ، وقولان للشافعي ، وستة أقوال لعلمائنا ؛ والصحيح منها واحد وهو وجوب التعميم لما ذكرناه . وأجمع العلماء على أن من مَسَح رأسه كله فقد أحسن وفعل ما يلزمه ؛ والباء مؤكّدة زائدة ليست للتبعيض ، والمعنى وٱمسحوا رءوسكم . وقيل : دخولها هنا كدخولها في التيمّم

(١) الغرّ (جمع الأغر) من الغرّة ، بياض الوجه ؛ يريد بياض وجوههم بنور الوضوء يوم القيامة .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٣٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فى قوله : « فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ » فلو كان معناها التبعيض لأفادته فى ذلك الموضع ، وهذا قاطع . وقيل : إنما دخلت لتفيد معنى بديعا وهو أن الغسل لغة يقتضى مغسولا به ، والمسح لغة لا يقتضى ممسوحا به؛ فلو قال : وامسحوا رءوسكم لأجزأ المسح باليد إمرارا من غير شيء على الرأس؛ فدخلت الباء لتفيد ممسوحا به وهو الماء، فكأنه قال: وٱمسحوا برءوسكم الماء؛ وذلك فصيح فى ٱللغة على وجهين؛ إما على القلب كما أنشد سيبويه (١) :

كنَوَاحِ رِيشِ حَمَامةٍ نَجْدِيَّةٍ * ومسحتِ باللِّثتين عَصْفَ ٱلإِثْمِدِ

وٱللِّثة هى الممسوحة بعَصْف ٱلإِثْمِد فقلب ، و إما على الاشـتراك فى الفعل والتساوى فى نسبته كقول الشاعر (٢) :

مِثْل القَنَافِذ هَدّاجُون قد بَلَغت * نَجرانَ أو بلغت سَوْءاتِهـم هَجَرُ

فهذا ما لعلمائنا فى معنى الباء . وقال الشافعى : ٱحتمل قول الله تعالى : « وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ » بعض الرأس ومسح جميعه فدلّت السُّنّة ان مسح بعضه يُجزئ ، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم مَسحَ بناصيته ؛ وقال فى موضع آخر : فإن قيل قد قال الله عزّ وجلّ : « فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ » فى التيمّم أيُجزئ بعض الوجه فيه ؟ قيل له : مسح الوجه فى التيمم بدل من غسله ؛ فلا بد أن يأتى بالمسح على جميع موضع الغسل منه، ومسح الرأس أصل؛ فهذا فرق ما بينهما . أجاب علماؤنا عن الحديث بأن قالوا : لعلّ النبى صلى الله عليه وسلم فعل ذلك لعذر لا سيّما وكان هذا الفعل منه صلى الله عليه وسلم فى السفر وهو مَظِنّة الأعذار، وموضع الاستعجال والاختصار ، وحذف كثير من الفرائض لأجل المشقّات والأخطار ؛ ثم هو لم يكتف بالناصية حتى مسح على العِمامة؛ أخرجه مسلم من حديث المُغيرة بن شُعْبة؛ فلو لم يكن مسح جميع الرأس واجبا لما مسَحَ على العِمامة ؛ والله أعلم .

(١) البيت لخفاف بن ندبه السلمى ، وصف فيه شـفتى المرأة ؛ فشبههما بنواحى ريش الحمامة فى الرقة واللطافة والاستدارة ، وأراد لثاتها تضرب إلى السمرة كأنها مسحت بالإثمد ؛ وعصف الإثمد ما سحق منه .

(٢) البيت للأخطل يهجو جريرا ؛ والقنافذ جمع قنفذ ، وهوحيوان معروف يضرب به المثل فى سرى الليل . والهدّاج المرتعش فى مشيه والمعنى : أن رهط جرير كالقنافذ لمشيهم فى الليل للسرقة والفجور .

التاســعة — وجمهور العلماء على أن مَسْحة واحدة موعبة كاملة تجزئ. وقال الشافعيّ: يمسح رأسه ثلاثا؛ ورُوى عن أنس وسعيد بن جُبير وعطاء. وكان ٱبن سيرين يمسح مرتين قال ابو داود: أحاديث عثمان الصّحاح كلّها تدلّ على أن مسح الرأس مرّة فإنهم ذكروا الوضوء ثلاثا، قالوا فيها: ومَسَحَ برأسه ولم يذكروا عَدَدًا.

العاشــرة — وٱختلفوا من أين يبدأ بمسحه؛ فقال مالك: يبدأ بمقدّم رأسه، ثم يذهب بيديه إلى مؤخّره، ثم يردّهما إلى مقدّمه؛ على حديث عبد ٱلله بن زيد أخرجه مسلم؛ وبه يقول الشافعيّ وٱبن حنبل. وكان الحسن بن حَيّ يقول: يبدأ بمؤخر الرأس؛ على حديث الرُّبَيّع بنت مُعَوِّذ بن عَفْرَاء؛ وهو حديث يختلف في ألفاظه، وهو يدور على عبد الله بن محمد ٱبن عَقِيل وليس بالحافظ عندهم؛ أخرجه أبو داود من رواية بِشر بن المُفَضَّل عن عبد الله عن الرُّبَيّع، وروى ٱبن عِجْلان عنه عن الرُّبَيّع: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضّأ عندنا فمسح الرأس كله من قَرْن الشعر كل ناحية بمنصبّ الشعر، لا يحرّك الشعر عن هيئته؛ ورُويت هذه القصّة عن ٱبن عمر أنه كان يبدأ من وسط رأسه. وأصحّ ما في هذا الباب حديث عبد الله ٱبن زيد؛ وكل من أجاز بعض الرأس فإنما يرى ذلك البعض في مقدّم الرأس. ورُوى عن إبراهيم والشعبيّ قالا: أيّ نواحي رأسك مسحت أجزأ عنك. ومسح ٱبن عمر اليافوخ فقط. والإجماع منعقد على ٱستحسان المسح باليدين معا، وعلى الإجزاء إن مسح بيد واحدة. وٱختلف فيمن مسح بإصبع واحدة حتى عمّ ما يرى أنه يجزئه من الرأس؛ فالمشهور أن ذلك يُجزئ، وهو قول سفيان الثوريّ؛ قال سفيان: إن مَسَحَ رأسه بإصبع واحدة أجزأه. وقيل: إن ذلك لا يُجزئ؛ لأنه خروج عن سنّة المسح وكأنه لَعِب، إلّا أن يكون ذلك عن ضرورة مرض فينبغي ألا يُختلف في الإجزاء. قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: لا يُجزئ مسح الرأس بأقل من ثلاث أصابع؛ وٱختلفوا في ردّ اليدين على شعر الرأس هل هو فرض أو سنة — بعد الإجماع على أن المسحة الأولى فرض بالقرآن — فالجمهور على أنه سنة. وقيل: هو فرض.

الحادية عشرة — فلو غَسَلَ متوضّئ رأسه بَدَلَ المَسْح فقال آبن العربي : لا نعلم خلافا أن ذلك يُجزئه ، إلّا ما أخبرنا الإمام فخر الإسلام الشّاشي في الدرس عن أبي العباس آبن القاصّ من أصحابهم قال : لا يجزئه ، وهذا تَوَلُّجٌ في مذهب الداودية الفاسد من آتّباع الظاهر المبطل للشريعة الذي ذمّه الله في قوله : « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا » وقال تعالى : « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ » وإلا فقد جاء هذا الغاسل بما أُمِر وزيادة . فإن قيل : هذه زيادة خرجت عن اللفظ المتعبّد به ؛ قلنا : ولم يخرج عن معناه في إيصال الفعل إلى المحل ؛ وكذلك لو مَسَحَ رأسه ثم حَلَقَه لم يكن عليه إعادة المسح .

الثانية عشرة — وأما الأذنان فهما من الرأس عند مالك وأحمد والثوريّ وأبي حنيفة وغيرهم ، ثم آختلفوا في تجديد الماء ؛ فقال مالك وأحمد : يستأنف لهما ماء جديدا سوى الماء الذي مَسَحَ به الرأس ، على ما فَعَلَ آبن عمر ؛ وهكذا قال الشافعيّ في تجديد الماء ، وقال : هما سنة على حالها لا من الوجه ولا من الرأس ؛ لآتفاق العلماء على أنه لا يحلق ما عليهما من الشعر في الحجّ ؛ وقول أبي ثور في هذا كقول الشافعيّ . وقال الثوريّ وأبو حنيفة : يُمسَحان مع الرأس بماء واحد ؛ ورُوِي عن جماعة من السّلَف مثل هذا القول من الصحابة والتابعين . وقال داود : إن مَسَحَ أذنيه فحسن ، وإلا فلا شيء عليه ؛ إذ ليستا مذكورتين في القرآن . قيل له : اسم الرأس تضمّنهما كما بيّنّاه . وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في كتاب النسائيّ وأبي داود وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مسح ظاهرهما وباطنهما ، وأدخل أصابعه في صِمَاخَيه ، وإنما يدلّ عدم ذكرهما من الكتاب على أنهما ليستا بفرض كغَسْل الوجه واليدين ، وثبتت سُنّة مسحهما بالسّنّة . وأهل العلم يكرهون للمتوضّئ ترك مسح أذنيه ويجعلونه تارك سُنّة من سُنَن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يوجبون عليه إعادة إلا إسحٰق فإنه قال : إن تَرَكَ مسح أذنيه لم يُجْزِه . وقال أحمد : إن تركهما عمدا أَحبَبْتُ أن يُعيد . ورُوِي عن عليّ ابن زياد من أصحاب مالك أنه قال : من ترك سنّة من سُنَن الوضوء أو الصلاة عامدا أعاد ؛ وهذا عند الفقهاء ضعيف ، وليس لقائله سلف ولا له حظّ من النّظر ، ولو كان كذلك لم يُعرف

الفرض الواجب من غيره ؛ والله أعلم . آحتجّ من قال هما من الوجه بما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في سجوده : "سَجَد وجْهِي للذي خَلَقه وصَوّره وشقّ سَمْعَه وبَصَره" فأضاف السَّمْع إلى الوجه فثبت أن يكون لهما حكم الوجه . وفي مصنف أبي داود من حديث عثمان فغسل بُطُونهما وظهورهما مرة واحدة ، ثم غسل رجليه ثم قال : أين السائلون عن الوضوء ؟ هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ . آحتج من قال يُغسل ظاهرهما مع الوجه ، وباطنهما يُمسح مع الرأس بأن الله عز وجل قد أمر بغسل الوجه ومسح الرأس ؛ فما واجهك من الأذنين وجب غسله ؛ لأنه من الوجه وما لم يواجهك وجب مسحه لأنه من الرأس ، وهذا يردّ الآثار بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمسح ظاهر أذنيه وباطنهما من حديث عليّ وعثمان وابن عباس والرُّبيع وغيرهم ، آحتج من قال هما من الرأس بقوله صلى الله عليه وسلم من حديث الصّنابحي : "فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه" الحديث أخرجه مالك .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي « وَأَرْجُلَكُمْ » بالنّصب ؛ وروى الوليد بن مسلم عن نافع أنه قرأ « وَأَرْجُلُكُمْ » بالرفع وهي قراءة الحسن والأعمش سليمان ؛ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة « وَأَرْجُلِكُمْ » بالخفض وبحسب هذه القراءات اختلف الصحابة والتّابعون ؛ فمن قرأ بالنّصب جعل العامل اغسلوا ، وبنى على أن الفرض في الرِّجلين الغَسل دون المسح ، وهذا مذهب الجمهور والكافّة من العلماء ، وهو الثّابت من فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، واللّازم من قوله في غير ما حديث ، وقد رأى قوما يتوضئون وأعقابهم تَلُوح فنادى بأعلى صوته "وَيْلٌ للأعقاب من النّار أسبغوا الوضوء". ثم إن الله حدّهما فقال : « إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ » كما قال في اليدين « إِلَى ٱلْمَرَافِقِ » فدلّ على وجوب غسلهما ؛ والله أعلم . ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء ، قال ابن العربي : آتفقت العلماء على وجوب غسلهما ، وما علمت من رد ذلك سوى الطّبريّ من فقهاء المسلمين ، والرّافضة من غيرهم ، وتعلق الطّبريّ بقراءة الخفض .

قلت : قد رُوى عن ابن عبّاس أنه قال : الوضوء غَسلتان ومَسحتان . وروى أن الحجّاج خطب بالأهواز فذكر الوضوء فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم وأرجلكم، فإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما؛ فسمع ذلك أنس بن مالك فقال : صدَق الله وكذب الحجّاج؛ قال الله تعالى «وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ» . قال : وكان إذا مسح رجليه بلّهما، وروى عن أنس أيضا أنه قال : نزل القرآن بالمسح والسّنة بالغَسل . وكان عِكرمة يمسح رجليه وقال : ليس فى الرِّجلين غَسل إنما نزل فيهما المسح . وقال عامر الشّعبي : نزل جبريل بالمسح، ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غَسلا، ويُلغى ما كان مَسحا . وقال قَتادة : افترض الله غَسلتين ومَسحتين . وذهب ابن جرير الطّبرى إلى أن فرضهما التّخيير بين الغَسل والمسح، وجعل القراءتين كالروايتين (١)؛ قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه؛ أن المسح والغَسل واجبان جميعا، فالمسح واجب على قراءة من قرأ بالخفض، والغَسل واجب على قراءة من قرأ بالنّصب، والقراءتان بمنزلة آيتين . قال ابن عطية : وذهب قوم ممن يقرأ بالكسر إلى أن المسح فى الرّجلين هو الغَسل .

قلت : وهو الصّحيح؛ فإن لفظ المسح مشترك، يطلق بمعنى المسح و يطلق بمعنى الغَسل؛ قال الهروىّ : أخبرنا الأزهرىّ أخبرنا أبو بكر محمد بن عثمان بن سعيد الدّارِىّ عن أبى حاتم عن أبى زيد الأنصارىّ قال : المسح فى كلام العرب يكون غَسلا و يكون مَسحا، ومنه يقال إذا توضأ فغسل أعضاءه قد تَمَسَّح؛ و يقال : مسح الله ما بك إذا غسلك وطهّرك من الذنوب؛ فإذا ثبت بالنّقل عن العرب أن المسح يكون بمعنى الغَسل فترجّح قول من قال : إن المراد بقراءة الخفض الغَسل؛ بقراءة النّصب التى لا احتمال فيها، و بكثرة الأحاديث الثابتة بالغَسل، والتوعّد على ترك غَسلها فى أخبار صحاح لا تُحصى كثرة أخرجها الأئمة؛ ثم إن المسح فى الرأس إنما دخل بين ما يُغسل لبيان الترتيب على مفعول قبل الرّجلين، التقدير؛ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برءوسكم؛ فلما كان الرأس مفعولا قبل

(١) كالروايتين فى الخبر، يعمل بهما إذا لم يتناقضا . ابن العربى .

الرِّجلين قُدِّم عليهما في التلاوة — والله أعلم — لا أنهما مشتركان مع الرأس لتقدّمه عليهما في صفة التّطهير . وقد روى عاصم بن كليب عن أبي عبد الرحمن السّلمي قال : قرأ الحسن والحسين — رحمة الله عليهما — عليّ "وَأَرْجُلِكُمْ" فسمع عليٌّ ذلك وكان يقضي بين الناس فقال : "وَأَرْجُلَكُمْ" هذا من المقدّم والمؤخّر من الكلام . وروى أبو إسحٰق عن الحارث عن عليّ رضي الله عنه قال : اغسلوا الأقدام إلى الكعبين . وكذا روى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ "وَأَرْجُلَكُمْ" بالنصب . وقد قيل : إن الخفض في الرِّجلين إنما جاء مقيِّدا لمسحهما لكن إذا كان عليهما خُفّان ، وتلقينا هذا القيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ لم يصح عنه أنه مسح رجليه إلا وعليهما خُفّان ، فبيّن صلى الله عليه وسلم بفعله الحال التي تُغسل فيه الرجل والحال التي تُمسح فيه ؛ وهذا أحسن . فإن قيل : إنّ المسح على الخُفّين منسوخ بسورة "المائدة" — وقد قاله ابن عباس ، وردّ المسح أبو هريرة وعائشة ، وأنكره مالك — فالجواب أن من نفى شيئا وأثبته غيره فلا حجة للنافي ، وقد أثبت المسح على الخُفّين عدد كثير من الصحابة وغيرهم ، وقد قال الحسن : حدثني سبعون رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنهم مسحوا على الخُفين ، وقد ثبت بالنّقل الصّحيح عن همّام قال : بَالَ جَرِيرٌ ثم توضّأ ومسح على خُفّيه ، قال إبراهيم النَّخَعِي . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بَالَ ثم توضّأ ومسح على خُفّيه قال إبراهيم النخعي . كان يعجبهم هذا الحديث ؛ لأن إسلام جَرير كان بعد نزول "المائدة" وهذا نصٌّ يردّ ما ذكروه وما احتجوا به من رواية الواقديّ عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه أن جريرا أسلم في سنة عشر من شهر رمضان ، وأن "المائدة" نزلت في ذي الحجة يوم عرفات ، وهذا حديث لا يَثبت لوَهاه ؛ وإنما نزل منها يوم عَرفة "ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" على ماتقدّم ؛ قال أحمد بن حنبل : أنا أستحسن حديث جَرير في المسح على الخُفين ؛ لأن إسلامه كان بعد نزول "المائدة" وأما ما رُوى عن أبي هريرة رضي الله عنه وعائشة فلا يصح ، أمّا عائشة فلم يكن عندها بذلك عِلْم ؛ ولذلك رَدّت السائل إلى عليّ رضي الله عنه وأحالته عليه فقالت : سَلْه فإنه كان يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ الحديث .

وأمّا مالك فما روى عنه من الإنكار فهو منكر لا يصح، والصحيح ما قاله عند موته لابن نافع قال : إنى كنت آخذ فى خاصـة نفسى بالطّهور ولا أرى من مَسح مُقصّرا فيما يجب عليه . وعلى هذا حمل أحمد بن حنبل ما رواه ابن وهب عنه أنه قال : لا أمسح فى حضَر ولا سفَر. قال أحمـد : كما روى عن ٱبن عمر أنه أمرهم أن يَمسحوا خِفافهم وخلع هو وتوضأ وقال : حُبّب إلىّ الوضوء؛ ونحوه عن أبى أيوب . وقال أحمد رضى الله عنه : فمن ترك ذلك على نحو ما تركه ابن عمر وأبو أيوب ومالك لم أنكره عليـه ، وصلينا خلفه ولم نعبه، إلّا أن يترك ذلك ولا يراه كما صنع أهل البِدع، فلا يُصلَّى خلفه . وقد قيل : إن قوله « وَأَرْجُلِكُمْ » معطوف على اللّفظ دون المعنى، وهذا أيضا يدلّ على الغَسل فإنّ المراعى المعنى لا اللّفظ ، وإنّما خُفض للجوار كما تفعل العرب؛ وقد جاء هـذا فى القرآن وغيره قال الله تعالى: « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ » بالجرّ لأن النُّحاس الدّخان . وقال : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » بالجر . قال ٱمرؤ القيس :

* كبيرُ أناسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ (١) *

فخفض مزمّل بالجوار، وأن المزمّل الرجل وإعرابه الرّفع؛ قال زُهير :

لعِب الزمان بهـا وغيّرها * بعـدى سوافى (٢) المُـورِ والقَطْـرِ

قال أبو حامد : كان الوجه القَطْرُ بالرّفع ولكنّه جره على جوار المور؛ قالت العرب : هذا جحر ضَبٍّ خربٍ؛ بجرّوه وإنما هو رفع . وهذا مذهب الأخفش وأبى عبيدة ورده النحاّس وقال : هذا القول غلط عظيم؛ لأنّ الجوار لا يكون فى الكلام أن يقاس عليه، وإنما هو غلط ونظيره الإقواء.

قلت : والقاطع فى الباب من أن فرض الرِّجلين الغَسل ما قدّمنـاه، وما ثبت من قوله عليه السّلام : "ويلٌ للأعقاب من النّار" نخوّفنا بذكر النار من مخالفة مراد الله عزّ وجلّ،

---

(١) صدر البيت : * كأن أبانًا فى أفانين وَدْقه * والبجاد الكساء المخطط، والمزمل المدثر فى الثياب . والمعنى أن ما ألبسه الجبل من المطر، وأحاط به إلا رأسه كشيخ فى كساء مخطط .

(٢) السوافى جمع سافية وهى الريح الشديدة التى تسفى التراب أى تطيره؛ والمور التراب .

ومعلوم أن النار لا يُعذَّب بها إلّا من ترك الواجب، ومعلوم أن المسح ليس شأنه الاستيعاب، ولا خلاف بين القائلين بالمسح على الرِّجلين أنّ ذلك على ظهورهما لا على بطونهما، فتبين بهذا الحديث بطلان قول من قال بالمسح، إذ لا مدخل لمسح بطونهما عندهم، وإنما ذلك يُدرَك بالغَسل لا بالمسح . ودليل آخر من جهة الإجماع؛ وذلك أنهم اتفقوا على أن من غَسل قدميه فقد أدّى الواجب عليه، واختلفوا فيمن مسح قدميه؛ فاليقين ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه . ونقل الجمهور كافّة عن نبيّهم صلى الله عليه وسلم أنه كان يَغسل رجليه في وُضوئه مرة واثنتين وثلاثا يُنقيهما، وحسبك بهذا حجّة في الغَسل مع ما بيّناه، فقد وضح وظهر أن قراءة الخفض المعنىُّ فيها الغَسل لا المسح كما ذكرنا، وأن العامل في قوله "وَأَرْجُلَكُمْ" قوله : "فَاغْسِلُوا" والعرب تعطف الشّيء على الشّيء بفعل ينفرد به أحدهما؛ تقول : أكلت الخبز واللّبن أي وشربت اللّبن؛ ومنه قول الشّاعر :

* عَلفتُها تِبْنًا وماءً باردا * (١)

وقال آخر :

رأيتُ زوجكِ في الوغى (٢) * مُتَقَلِّدًا سَيفًا ورُمْحًا

وقال آخر (٣) :

* وأَطْفَلَتْ بِالجَلْهَتَيْن ظِباؤُها ونَعامُها *

وقال آخر :

* شَرّابُ ألبانٍ وتمرٍ وإقِط *

التقدير؛ علفتُها تِبْنًا وسقيتُها ماء . ومتقلّدا سيفا وحامِلًا رُمْحا . وأطفلتْ بالجلهتين ظباؤها وفرخت نعامها؛ والنّعام لا يُطفِل إنما يُفرِخ . وأَطفلتْ كان لها أطفال، والجَلْهتان

---

(١) رجز مشهور لم يعرف قائله وعجز البيت (حتى شتت همالة عيناها) وبعضهم أورد له صدرا وجعل المذكور عجزا هكذا :

لما حططت الرحل عنها واردا * علفتها تبنا وماء باردا

(٢) كذا بالأصل؛ وروى في « خزانة الأدب » و « كتاب سيبويه » : * ياليت زوجك قد غدا ... الخ .

(٣) البيت للبيد ورواه « اللسان » في مادة (جله) و (طفل) هكذا :

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت * بالجلهتين ظباؤها ونعامها

جنبتا الوادي . وشرّابُ ألبانٍ وآكلُ تمر؛ فيكون قوله : "وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ" عطف بالغسل على المسح حَمْلا على المعنى والمراد الغَسل؛ والله أعلم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ روى البخاريّ حدّثني موسى قال أنبأنا وُهيب عن عَمرو — هو ابن يحيى — عن أبيه قال شهدتُ عَمرو بنَ أبي حَسَن سأل عبد الله بن زيد عن وُضوء النبي صلى الله عليه وسلم فدعا بتَوْر(١) من ماء، فتوضأ لهم وُضوء النبي صلى الله عليه وسلم، فأكفأ على يده من التَّوْر فغسل يديه ثلاثا، ثم أدخل يده في التَّوْر فمضمض واستنشق واستنثر ثلاث غَرَفاتٍ(٢)، ثم أدخل يده فغسل وجهه ثلاثا، ثم أدخل يديه فغَسل يديه إلى المرفقين ثلاثا، ثم أدخل يده فمسح رأسه فأقبل بهما وأدبر مرة واحدة، ثم غسل رجليه إلى الكعبين؛ فهذا الحديث دليل على أن الباء في قوله "وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ" زائدة لقوله : فمسح رأسه ولم يقل برأسه، وأنّ مسح الرأس مرّة، وقد جاء مبيّنا في كتاب مسلم من حديث عبد الله بن زيد في تفسير قوله : فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدّم رأسه ثم ذهب بهما إلى قَفاه، ثم ردّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه . واختلف العلماء في الكعبين فالجمهور على أنّهما العظمان الناتئان في جَنْبي الرِّجل . وأنكر الأصمعي قول الناس إنّ الكَعْب في ظهر القدم؛ قاله في "الصّحاح". وروى عن ابن القاسم وبه قال محمد بن الحسن؛ قال ابن عطية : ولا أعلم أحدا جعل حدّ الوضوء إلى هذا، ولكن عبد الوهاب في التّلقين جاء في ذلك بلفظ فيه تخليط وإيهام؛ وقال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفا في أنّ الكعبين هما العظمان في مجمع مَفْصل الساق؛ وروى الطَّبَريّ عن يونس عن أشهب عن مالك قال : الكعبان اللذان يجب الوضوء إليهما هما العظمان الملتصقان بالساق المحاذيان للعقب، وليس [الكعبُ](٣) بالظاهر في وجه القدم .

قلت : هذا هو الصحيح لغة وسنّة فإن الكَعْب في كلام العرب مأخوذ من العُلُوّ ومنه سميت الكعبة؛ وكَعَبتِ المرأة إذا فلك ثديُها، وكَعْبُ القناة أُنْبُوبها، وأُنبوب ما بين كلّ عُقْدتين

(١) التور إناء يشرب فيه؛ أو طست أو قدح أو مثل القدر من صفر أو حجارة .

(٢) الذي في صحيح البخاري ثم غسل يديه إلى المرفقين مرتين .

(٣) الزيادة عن ابن عطية .

كَعْبٌ ، وقد يُستعمل فى الشرف والمجد تشبيها؛ ومنه الحديث . «والله لا يزالُ كَعْبك عاليا»[(1)] .
وأما السّنة فقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود عن النعمان بن بشير "والله لتقيمُنّ صفوفكم أو ليخالِفَنّ الله بين قلوبكم" قال : فرأيتُ الرّجل يُلصق مَنْكِبه بِمَنْكِب صاحبه ، وركبته بركبة صاحبه وكعبه بكعبه . والعقب هو مؤخر الرِّجل تحت العُرقوب ، والعُرقوب هو مجمع مَفصِل الساق والقدم ، ومنه الحديث "وَيْلٌ للعراقيب من النّار" يعنى إذا لم تُغسل ؛ كما قال : "وَيْلٌ للأعقاب وبطونِ الأقدام من النّار" .

الخامسة عشرة — قال ٱبن وهب عن مالك : ليس على أحد تخليل أصابع رجليه فى الوُضوء ولا فى الغُسل ، ولا خير فى الجفاء والغُلوّ ؛ قال ٱبن وهب : تخليل أصابع الرِّجلين مُرَغّب فيه ولابد من ذلك فى أصابع اليدين ؛ وقال ٱبن القاسم عن مالك : من لم يُخَلّل أصابع رجليه فلا شيء عليه . وقال محمد بن خالد عن ٱبن القاسم عن مالك فيمن توضأ على نهر فحرّك رجليه : إنه لا يُجزئه حتى يَغسلهما بيديه ؛ قال ٱبن القاسم : وإن قدر على غَسل إحداهما بالأخرى أجزأه .

قلت : الصحيح أنه لا يجزئه فيهما إلا غَسل ما بينهما كسائر الرِّجل إذ ذلك من الرِّجل ، كما أن ما بين أصابع اليد من اليد ، ولا اعتبار بانفراج أصابع اليدين وانضمام أصابع الرجلين ؛ فإنّ الإنسان مأمور بغَسل الرِّجل جميعها كما هو مأمور بغسل اليد جميعها . وقد رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا توضأ يَدْلُك أصابع رجليه بخِنصره ، مع ما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يغسل رجليه ؛ وهذا يقتضى العموم . وقد كان مالك رحمه الله فى آخر عمره يَدْلُك أصابع رجليه بخنصره أو ببعض أصابعه لحديث حدّثه به ٱبن وهب عن ٱبن لَهِيعَة واللّيث بن سعد عن يزيد بن عمرو الغِفَارِيّ عن أبى عبد الرحمن الحُبُلِيّ[(2)] عن المُسْتَوْرِد بن شدّاد القُرشيّ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ فيُخَلّل بخنصره ما بين أصابع رجليه ؛ قال ابن وهب فقال لى مالك : إنّ هذا لحسن ، وما سمعتُه قطّ إلا السّاعة ؛ قال ابن وهب : وسمعتُه سُئل

(1) هو حديث « قيلة » بنت مخرمة العنبرية ، هاجرت إلى النبى صلى الله عليه وسلم مع حُرَيث بن حسان تريد الصحبة . راجع « الإصابة فى تمييز الصحابة » .
(2) بضم المهملة والموحدة .

بعد ذلك عن تخليل الأصابع فى الوضوء فأمر به . وقد روى حُذيفة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "خَلِّلوا بين الأصابع لا تُخَلِّلها النّار" وهـذا نصّ فى الوعيد على ترك التّخليل؛ فثبت ما قلناه . والله الموفق .

السادسة عشرة — ألفاظ الآية تقتضي الموالاة بين الأعضاء، وهى إتباع المتوضئ الفِعْلَ الفِعْلَ إلى آخره من غير تراخ بين أبعاضه ، ولا فصل بفعل ليس منه ؛ واختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال ابن أبى سَلَمة وابن وهب : ذلك من فروض الوُضوء فى الذّكر والنّسيان، فمن فرّق بين أعضاء وضوئه متعمدا أو ناسيا لم يجزه . وقال ابن عبد الحكم : يجزئه ناسيا ومتعمّدا . وقال مالك فى « المدوّنة » وكتاب محمد : إن الموالاة ساقطة؛ وبه قال الشافعى . وقال مالك وابن القاسم : إن فرّقه متعمّدا لم يُجزه ويُجزئه ناسيا ؛ وقال مالك فى رواية ابن حبيب: يُجزئه فى المغسول ولا يُجزئه فى الممسوح؛ فهذه خمسة أقوال ٱبتنيت على أصلين : الأوّل — أن الله سبحانه وتعالى أَمَرَ أَمْرا مطلقا فوالِ أو فرِّق، وإنما المقصود وجود الغَسل فى جميع الأعضاء عند القيام إلى الصّلاة . والثانى — أنها عبادات ذات أركان مختلفة فوجب فيها التوالى كالصّلاة؛ وهذا أصح . والله أعلم .

السابعة عشرة — وتتضمن ألفاظ الآية أيضا الترتيب وقد اختلف فيه؛ فقال الأَبْهَرِىّ : الترتيب سُنّة، وظاهر المذهب أن التّنكيس للناسى يُجزئ، وٱختلف فى العامد فقيل : يُجزئ ويُرتّب فى المستقبل . وقال أبو بكر القاضى وغيره : لا يجزئ لأنه عابث، وإليه ذهب الشافعى وسائر أصحابه، وبه يقول أحمد بن حنبل وأبو عُبيد القاسم بن سلام وإسحق وأبو ثور، وإليه ذهب أبو مُصْعَب صاحب مالك وذكره فى مختصره، وحكاه عن أهل المدينة ومالك معهم فى أن من قدّم فى الوضوء يديه على وجهه، ولم يتوضأ على ترتيب الآية فعليه الإعادة لما صلّى بذلك الوُضوء. وذهب مالك فى أكثر الروايات عنه وأشهرها أن «الواو» لا توجب التّعقيب ولا تُعطى رتبة، وبذلك قال أصحابه وهو قول أبى حنيفة وأصحابه والثّورى والأوزاعىّ والليث بن سعد والمُزَنىّ وداود بن علىّ ؛ قال الكِيا الطَّبَرِىّ ظاهر قوله تعالى : « فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ » يقتضى الإجزاء فرّق أو جمع أو والَى على ما هو الصحيح من مذهب الشافعىّ،

وهو مذهب الأكثرين من العلماء . قال أبو عمر: إلّا أنّ مالكا يَستحبّ له استئناف الوُضوء على النّسق لِمَا يُستقبل من الصّلاة، ولا يَرى ذلك واجبا عليه ؛ هذا تحصيل مذهبه . وقد رَوى عليّ بن زياد عن مالك قال : من غَسل ذراعيه ثم وجهه ثم ذكر مكانه أعاد غَسل ذراعيه، وإن لم يَذكر حتى صلّى أعاد الوضوء والصلاة ؛ قال عليّ ثم قال بعد ذلك : لا يعيد الصلاة ويعيد الوضوء لما يُستأنف . وسبب الخلاف ما قال بعضهم : إنّ « الفاء » توجب التعقيب في قوله : « فَٱغْسِلُوا » فإنها لما كانت جوابا للشرط ربطت المشروط به، فاقتضت الترتيب في الجميع ؛ وأجيب بأنه إنما ٱقتضت البداءة في الوجه إذ هو جزاء الشرط وجوابه، وإنما كانت تقتضي الترتيب في الجميع لو كان جواب الشرط معنى واحدا، فإذا كانت جملا كلّها جوابا لم تبال بأيها بدأت ، إذ المطلوب تحصيلها . قيل : إنّ الترتيب إنما جاء من قِبَل الواو ؛ وليس كذلك لأنك تقول : تقاتل زيد وعمرو ، وتخاصم بكر وخالد ، فدخولها في باب المفاعلة يخرجها عن الترتيب . والصحيح أن يقال : إنّ الترتيب متلقى من وجوه أربعة : الأوّل — أن يبدأ بما بدأ الله به كما قال عليه السلام حين حجّ : "نبدأ بما بدأ الله به". الثاني — من إجماع السّلف فإنهم كانوا يرتبون . الثالث — من تشبيه الوضوء بالصلاة . الرابع — من مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك . ٱحتج من أجاز ذلك بالإجماع على أن لا ترتيب في غَسل أعضاء الجنابة ، فكذلك غَسل أعضاء الوضوء ؛ لأنّ المعنيّ في ذلك الغَسل لا التّبدية . وروى عن عليّ أنه قال : ما أبالي إذا أتممت وضوئي بأيّ أعضائي بدأتُ . وعن عبد الله بن مسعود قال : لا بأس أن تبدأ برجليك قبل يديك ؛ قال الدّارَقُطْنيّ : هذا مُرسَل ولا يثبت . والأولى وجوب الترتيب . والله أعلم .

الثامنة عشرة — إذا كان في الٱشتغال بالوضوء فوات الوقت لم يتيمم عند أكثر العلماء ، ومالك يجوّز التّيمم في مثل ذلك ؛ لأنّ التّيمم إنما جاء في الأصل لحفظ وقت الصلاة ، ولولا ذلك لوجب تأخير الصلاة إلى حين وجود الماء . ٱحتج الجمهور بقوله تعالى : « فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا » وهذا واجد، فقد عدم شرط صحة التيمم فلا يتيمم .

التاسعة عشرة — وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن إزالة النجاسة ليست بواجبة؛ لأنه قال: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» ولم يذكر الاستنجاء وذكر الوضوء، فلو كانت إزالتها واجبة لكانت أول مبدوء به؛ وهو قول أصحاب أبي حنيفة، وهي رواية أشهب عن مالك. وقال ابن وهب عن مالك: إزالتها واجبة في الذكر والنسيان؛ وهو قول الشافعي. وقال ابن القاسم: تجب إزالتها مع الذكر، وتسقط مع النسيان. وقال أبو حنيفة: تجب إزالة النجاسة إذا زادت على قدر الدرهم البَغْلِيّ (١) — يريد الكبير الذي هو على هيئة المثقال — قياسا على فم المخرج المعتاد الذي عُفي عنه. والصحيح رواية ابن وهب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في صاحبي القبرين: "إنهما لَيُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير أمّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله" ولا يعذب إلا على ترك الواجب، ولا حجة في ظاهر القرآن؛ لأن الله سبحانه وتعالى إنما بين من آية الوضوء صفة الوضوء خاصة، ولم يتعرّض لإزالة النجاسة ولا غيرها.

الموفية عشرين — ودلت الآية أيضا على المسح على الخفين كما بينا؛ ولمالك في ذلك ثلاث روايات؛ الإنكار مطلقا كما يقوله الخوارج، وهذه الرواية منكرة وليست بصحيحة. وقد تقدّم. الثانية — يمسح في السفر دون الحضر؛ لأن أكثر الأحاديث بالمسح إنما هي في السفر؛ وحديث السُّبَاطة يدل على جواز المسح في الحضر، أخرجه مسلم من حديث حُذَيفة قال: فلقد رأيتُني أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نتماشى، فأتى سُبَاطة قوم (٢) خلف حائط، فقام كما يقوم أحدكم فبال فانتبذت منه، فأشار إليّ فجئت فقمت عند عقبه حتى فرغ — زاد في رواية — فتوضأ ومسح على خفيه. ومثله حديث شُرَيح بن هانئ قال: أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين فقالت: عليك بابن أبي طالب فسَلْه؛ فإنه كان يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فسألناه فقال: جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسافر ثلاثة أيام ولياليهنّ وللمقيم يوما وليلة؛ — وهي الرواية الثالثة — يمسح حضرا وسفرا؛ وقد تقدم ذكرها.

---

(١) ذكر الدّميري ضربا من النقود يقال لها البغلية؛ قال: إن رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية.

(٢) السباطة الموضع الذي يرمى فيه التراب وما يكنس من المنازل، وإضافتها إلى القوم إضافة تخصيص لا ملك؛ لأنها كانت مواتا مباحة.

الحادية والعشرون — ويمسح المسافر عنـد مالك على الخفين بغـير توقيت ، وهو قول الليث بن سعد؛ قال ٱبن وهب سمعت مالكا يقول : ليس عند أهل بلدنا فى ذلك وقت . وروى أبو داود من حديث أبىّ بن عمارة أنه قال : يا رسول الله أمسح على الخفين؟ قال : "نعم" قال : يوما ؟ قال : "يوما" قال : ويومين ؟ قال : "ويومين" قال : وثلاثة [أيام](١) ؟ قال : "نعم وما شئت" فى رواية "نعم وما بدا لك" . قال أبو داود : وقد اختلف فى إسناده وليس بالقوىّ . وقال الشافعى وأحمد بن حنبل والنعمان والطبرىّ : يمسح المقيم يوما وليلة ، والمسافر ثلاثة أيام على حديث شُرَيْح وما كان مثله ؛ وروى عن مالك فى رسالته إلى هرون أو بعض الخلفاء ، وأنكرها أصحابه .

الثانية والعشرون — والمسح عند جميعهم لمن لبس خفيه على وضوء؛ لحديث المغيرة بن شُعْبة أنه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فى مسير — الحديث — وفيه؛ فأهويتُ لأَنْزِع خفيه فقال : "دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين" ومسـح عليهما . ورأى أَصْبَغ أن هـذه طهارة التيمم ، وهذا بناء منه على أن التيمم يرفع الحدث . وشذ داود فقال : المراد بالطهارة ها هنا هى الطهارة من النجس فقـط ؛ فإذا كانت رجلاه طاهرتين من النجاسة جاز المسح على الخفين . وسبب الخلاف الاشتراك فى ٱسم الطهارة .

الثالثة والعشرون — ويجوز عند مالك المسح على الخف وإن كان فيه تَخْرق يسير : قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : معناه أن يكون الخَـرْق لا يمنع من الانتفاع به ومن لبسه ، ويكون مثله يُمشى فيـه . وبمثل قول مالك هـذا قال الليث والثورىّ والشـافعىّ والطـبرىّ ؛ وقد روى عن الثورىّ والطبرىّ إجازة المسح على الخف المخرَّق جمـلة . وقال الأوزاعىّ : يمسـح على الخف وعلى ما ظهر من القدم ؛ وهو قول الطـبرىّ . وقال أبو حنيفة : إذا كان ما ظهر من الرجل أقل من ثلاث أصابع مسح ، ولا يمسح إذا ظهر ثلاث؛ وهـذا تحـديد يحتاج إلى توقيف . ومعلوم أن أخفاف الصحابة رضى الله عنهم وغيرهم من التابعين

(١) الزيادة عن أبى داود .

كانت لا تسلم من الخَرْق اليسير، وذلك متجاوز عند الجمهور منهم . ورُوى عن الشافعى إذا كان الخَرْق فى مقدّم الرجل أنه لا يجوز المسح عليه . وقال الحسن بن حَىّ : يمسح على الخف إذا كان ما ظهر منه يغطيه الجَوْرب ، فإن ظهر شىء من القدم لم يمسح ؛ قال أبو عمر : هذا على مذهبه فى المسح على الجَوْربين إذا كانا ثخينين ؛ وهو قول الثورى وأبى يوسف ومحمد وهى :

الرابعة والعشرون — ولا يجوز المسح على الجَوْربين عند أبى حنيفة والشافعىّ إلا أن يكونا مجلدين ؛ وهو أحد قولى مالك . وله قول آخر أنه لا يجوز المسح على الجَوْربين وإن كانا مجلدين . وفى كتاب أبى داود عن المغيرة بن شُعْبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على الجَوْربين والنعلين ؛ قال أبو داود : وكان عبد الرحمن بن مهدىّ لا يحدّث بهذا الحديث ؛ لأنّ المعروف عن المغيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح على الخفين ؛ وروى هذا الحديث عن أبى موسى الأشعرىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم وليس بالقوىّ ولا بالمتصل . قال أبو داود : ومسح على الجَوْربين علىّ بن أبى طالب [وأبو](1) مسعود والبَرَاء بن عازِب وأَنَس بن مالك وأبو أُمامة وسهل بن سعد وعمرو آبن حُرَيث ؛ وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وآبن عباس ؛ رضى الله عنهم أجمعين .

قلت : وأما المسح على النعلين فروى أبو محمد الدّارِمىّ فى مسنده حدّثنا أبو نعيم أخبرنا يونس عن أبى إسحق عن عبد خير(2) قال : رأيت عليا توضأ ومسح على النعلين فوسّع ثم قال : لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كما رأيتمونى فعلت لرأيت أنّ باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما ؛ قال أبو محمد الدّارِمىّ رحمه الله : هذا الحديث منسوخ بقوله تعالى : «فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ» .

قلت : وقول علىّ — رضى الله عنه — لرأيت أن باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما مثله قال فى المسح على الخفين ، أخرجه أبو داود عنه قال : لو كان الدِّين بالرأى لكان باطن الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر خفيه . قال

(١) التصويب عن « كتاب » أبى داود . وفى الأصل « آبن مسعود » .
(٢) كان آسمه « عبد شر » فغيره النبى صلى الله عليه وسلم (الإصابة) .

مالك والشافعي فيمن مسح ظهور خفيه دون بطونهما : إن ذلك يجزئه ؛ إلا أن مالكا قال : من فعل ذلك أعاد في الوقت ؛ ومن مسح على باطن الخفين دون ظاهرهما لم يجزه ، وكان عليه الإعادة في الوقت وبعده ؛ وكذلك قال جميع أصحاب مالك إلا شيء روى عن أشهب أنه قال : باطن الخفين وظاهرهما سواء ، ومن مسح باطنهما دون ظاهرهما لم يُعد إلا في الوقت . ورُوى عن الشافعي أنه قال يجزئه مسح بطونهما دون ظهورهما ؛ والمشهور من مذهبه أنه من مسح بطونهما وآقتصر عليهما لم يجزه وليس بماسح . وقال أبو حنيفة والثوري : يمسح ظاهري الخفين دون باطنهما ؛ وبه قال أحمد بن حنبل وإسحق وجماعة ، والمختار عند مالك والشافعي وأصحابهما مسح الأعلى والأسفل ، وهو قول آبن عمر وآبن شهاب ؛ لما رواه أبو داود والدّارقطنيّ عن المُغيرة بن شُعْبة قال : وضأت رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تَبُوك فمسح أعلى الخف وأسفله ؛ قال أبو داود : روى أن ثورا لم يسمع هذا الحديث من رجاء بن حَيْوة .

الخامسة والعشرون — وآختلفوا فيمن نزع خفيه وقد مسح عليهما على أقوال ثلاثة : الأوّل — يغسل رجليه مكانه وإن أخر آستأنف الوضوء ؛ قاله مالك والليث ، وكذلك قال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما ؛ وروى عن الأوزاعيّ والنَّخَعيّ ولم يذكروا مكانه . الثاني — يستأنف الوضوء ؛ قاله الحسن بن حيّ ، وروى عن الأوزاعيّ والنَّخَعيّ . الثالث — ليس عليه شيء ويصلي كما هو ؛ قاله آبن أبي ليلى والحسن البصري ، وهي رواية عن إبراهيم النَّخَعيّ رضي الله عنهم .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ وقد مضى في «النساء»[1] معنى الجنب . و«اطَّهَّرُوا» أمر بالاغتسال بالماء ؛ ولذلك رأى عمر وابن مسعود — رضي الله عنهما — أن الجنب لا يتيمم البتة بل يدع الصلاة حتى يجد الماء . وقال الجمهور من الناس : بل هذه العبارة هي لواجد الماء ، وقد ذكر الجنب بعد في أحكام عادم الماء بقوله : «أَوْلَامَسْتُم

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ طبعة أولى أو ثانية .

النِّسَاءَ» والملامسة هنا الجماع؛ وقد صح عن عمر وابن مسعود أنهما رجعا إلى ما عليه الناس وأن الجنب يتيمم. وحديث عِمران بن حُصَين نص فى ذلك، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا معتزلا لم يصل فى القوم فقال: "يافلان ما منعك أن تصلى فى القوم" فقال: يارسول الله أصابتنى جنابة ولا ماء. قال: "عليك بالصعيد فإنه يكفيك" أخرجه البخارىّ.

السابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ تقدّم فى «النساء»(١) مستوفى، ونزيد هنا مسئلة أصولية أغفلناها هنالك، وهى تخصيص العموم بالعادة الغالبة؛ فإن الغائط كناية عن الأحداث الخارجة من المخرجين كما بيناه فى «النساء» فهو عامّ، غير أن جل علمائنا خصصوا ذلك بالأحداث المعتادة الخارجة على الوجه المعتاد، فلو خرج غير المعتاد كالحصى والدّود، أو خرج المعتاد على وجه السَّلَس والمرض لم يكن شىء من ذلك ناقضا. وإنما صاروا إلى اللفظ؛ لأن اللفظ مهما تقرّر لمدلوله عرف غالب فى الاستعمال، سبق ذلك الغالب لفهم السامع حالة الإطلاق، وصار غيره مما وضع له اللفظ بعيدا عن الذهن، فصار غير مدلول له، وصار الحال فيه كالحال فى الدابة؛ فإنها إذا أُطلقت سبق منها الذهن إلى ذوات الأربع، ولم تخطر النملة ببال السامع فصارت غير مرادة ولا مدلولة لذلك اللفظ ظاهرا. والمخالف يقول: لايلزم من سبقية الغالب أن يكون النادر غير مراد؛ فإن تناول اللفظ لهما واحد وضعا، وذلك يدل على شعور المتكلم بهما قصدا؛ والأول أصح، وتتمته فى كتب الأصول.

الثامنة والعشرون — قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ روى عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال: القُبلة من اللمس، وكل مادون الجماع لمس؛ وكذلك قال ابن عمر واختاره محمد بن يزيد قال: لأنه قد ذكر فى أوّل الآية ما يجب على من جامع فى قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا». وقال عبد الله بن عباس: اللمس والمس والغشيان الجماع، ولكنه عز وجل يَكْنِى. وقال

(١) راجع جـ ٥ ص ٢١٤ طبعة أولى أو ثانية.

مجاهد فى قول الله عز وجل: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا» إذا ذكروا النكاح كَنَوْا عنه؛ وقد مضى فى «النساء»[1] القول فى هذا الباب مستوفى والحمد لله.

التاسعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾[2] قد تقدّم فى «النساء» أن عدمه يترتب للصحيح الحاضر بأن يُسجن أو يُربط، وهو الذى يقال فيه إنه إن لم يجد ماء ولا ترابا وخشى خروج الوقت، ٱختلف الفقهاء فى حكمه على أربعة أقوال: الأوّل — قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد: الصحيح من مذهب مالك أنه لا يصلى ولا شيء عليه؛ قال: ورواه المدنيون عن مالك؛ قال: وهو الصحيح من المذهب. وقال ٱبن القاسم: يصلى ويعيد؛ وهو قول الشافعى. وقال أشهب: يصلى ولا يعيد. وقال أَصْبَغ: لا يصلى ولا يقضى؛ وبه قال أبو حنيفة[3]. قال أبو عمر بن عبد البر: ما أعرف كيف أقدم ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد على أن جعل الصحيح من المذهب ما ذكر، وعلى خلافه جمهور السلف وعامّة الفقهاء وجماعة المالكيين، وأظنه ذهب إلى ظاهر حديث مالك فى قوله: وليسوا على ماء — الحديث — ولم يذكر أنهم صلوا؛ وهذا لا حجة فيه. وقد ذكر هاشم بن عُروة عن أبيه عن عائشة فى هذا الحديث أنهم صلوا بغير وضوء ولم يذكر إعادة؛ وقد ذهب إلى هذا طائفة من الفقهاء. قال أبو ثور: وهو القياس.

قلت: وقد ٱحتج المُزَنِىّ فيما ذكر الكِيَا الطَّبَرِىّ بما ذكر فى قصة القِلادة عن عائشة رضى الله عنها حين ضلت، وأن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الذين بعثهم لطلب القِلادة صلوا بغير تيمم ولا وضوء وأخبروه بذلك، ثم نزلت آية التيمم ولم ينكر عليهم فعلها بلا وضوء ولا تيمم، والتيمم متى لم يكن مشروعا فقد صلوا بلا طهارة أصلا. ومنه قال المُزَنِىّ: ولا إعادة؛ وهو نص فى جواز الصلاة مع عدم الطهارة مطلقا عند تعذر الوصول إليها؛ قال أبو عمر: ولا ينبغى حمله على المغمى عليه؛ لأن المغمى عليه مغلوب على عقله وهذا معه عقله. وقال ٱبن القاسم وسائر العلماء: الصلاة عليه واجبة إذا كان معه عقله، فإذا زال المانع له توضأ

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٢٨ طبعة أولى أو ثانية.

(٣) كذا بالأصل، ولعله قول مهجور لأبى حنيفة؛ وإلا فإنه لا يقول بعدم القضاء، بل قال يؤخر الصلاة فقط؛ والراجح من مذهبه قول صاحبيه من أن فاقد الطهورين يصلى صلاة صورية، ويعيد متى قدر.

أو تيمم وصلى . وعن الشافعى روايتان؛ المشهور عنه يصلى كما هو و يعيد؛ قال المُزَنىّ : إذا كان محبوسا لا يقدر على تراب نظيف صلى وأعاد؛ وهو قول أبى يوسف ومحمد والثورىّ والطَّبرىّ . وقال زُفر بن الهُذَيل : المحبوس فى الحضر لا يصلى و إن وجد ترابا نظيفا؛ وهذا على أصله فأنه لا يتيمم عنده فى الحضر كما تقدّم . قال أبو عمر : من قال يصلى كما هو و يعيد إذا قدر على الطهارة فإنهم ٱحتاطوا للصلاة بغير طَهور؛ قالوا : وقوله عليه السلام "لا يقبل الله صلاة بغير طَهور" لمن قدر على طَهور؛ فأمّا من لم يقدر فليس كذلك؛ لأن الوقت فرض وهو قادر عليه فيصلى كما قدر فى الوقت ثم يعيد، فيكون قد أخذ بالاحتياط فى الوقت والطهارة جميعا . وذهب الذين قالوا لا يصلى لظاهر هذا الحديث؛ وهو قول مالك وٱبن نافع وأَصْبَغ قالوا : من عدم الماء والصعيد لم يصلّ ولم يقض إن خرج وقت الصلاة؛ لأن عدم قبولها لعدم شروطها يدل على أنه غير مخاطب بها حالة عدم شروطها فلا يترتب شىء فى الذمة فلا يقضى؛ قاله غير أبى عمر، وعلى هذا تكون الطهارة من شروط الوجوب .

الموفية ثلاثين — قوله تعالى : ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ قد مضى فى «النساء»(١) ٱختلافهم فى الصعيد، وحديث عمران بن حُصَين نص على مايقوله مالك، إذ لو كان الصعيد التراب لقال عليه السلام للرجل عليك بالتراب فإنه يكفيك؛ فلما قال : "عليك بالصعيد" أحاله على وجه الأرض . والله أعلم . ﴿فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ تقدّم فى «النساء»(٢) الكلام فيه فتأمله هناك .

الحادية والثلاثون — وإذا انتهى القول بنا فى الآى إلى هنا فاعلم أن العلماء تكلموا فى فضل الوضوء والطهارة وهى خاتمة الباب : قال صلى الله عليه وسلم : "الطُّهور(٣) شَطْر الإيمان" أخرجه مسلم من حديث أبى مالك الأشعرىّ، وقد تقدّم فى « البقرة » الكلام فيه؛ قال ٱبن العربى : والوضوء أصل فى الدّين، وطهارة المسلمين، وخصوصا لهذه الأمة فى العالمين . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ وقال : "هذا وُضوئى و وُضوء الأنبياء من قبلى

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٣٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٣٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) الطهور (بالضم) التطهر «بالفتح» الماء كالوُضوء والوَضوء . وقال سيبويه : الطهور « بالفتح » يطلق على الماء والمصدر معا؛ وعلى هذا يجوز أن يكون الحديث بفتح الطاء وضمها . « النهاية » لابن الأثير .

ووُضوء أبى إبراهيم " وذلك لا يصح؛ قال غيره : ليس هـذا بمعارض لقوله عليه السلام : "لكم سِيما ليست لغيركم" فإنهم كانوا يتوضئون، وإنما الذى خص به هذه الأمة الغُرّة والتحجيل(١) لا بالوضوء، وهما تفضل من الله تعالى اختص بهما هذه الأمة شرفا لها ولنبيها صلى الله عليه وسلم كسائر فضائلها على سائر الأمم، كما فضل نبيها صلى الله عليه وسلم بالمقام المحمود وغيره على سائر الأنبياء؛ والله أعلم . قال ابن عمر : وقد يجوز أن يكون الأنبياء يتوضئون فيكتسبون بذلك الغُرّة والتحجيل ولا يتوضأ أتباعهم، كما جاء عن موسى عليه السلام قال : « يا رب أجد أمّة كلهم كالأنبياء فاجعلها أمّتى » فقال : « تلك أمّة محمد » فى حديث فيه طول . وقد رَوى سالم بن عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار أنه سمع رجلا يحدّث أنه رأى رؤيا فى المنام أن الناس قد جُمعوا للحساب؛ ثم دعى الأنبياء مع كل نبيّ أمته، وأنه رأى لكل نبيّ نُورين يمشى بينهما، ولمن اتبعه من أمّته نورا واحدا يمشى به، حتى دُعى بمحمد صلى الله عليه وسلم فإذا شعر رأسه ووجهه نُور كله يراه كل من نظر إليه، وإذا لمن اتبعه من أمته نُوران كنُور الأنبياء؛ فقال له كعب وهو لا يشعر أنها رؤيا : من حدّثك بهذا الحديث وما علمك به ؟ فأخبره أنها رؤيا؛ فأنشده كعب، اللهَ الذى لا إله إلا هو لقد رأيتَ ما تقول فى منامك؟ فقال : نعم والله لقد رأيت ذلك؛ فقال كعب : والذى نفسى بيده — أو قال والذى بعث محمدا بالحق — إنّ هذه لصفة أحمد وأمّته، وصفة الأنبياء فى كتاب الله، لكأنّ ما تقوله من التوراة؛ أسنده فى كتاب «التمهيد» . قال أبو عمر: وقد قيل: إن سائر الأمم كانوا يتوضئون والله أعلم؛ وهذا لا أعرفه من وجه صحيح . وخرّج مسلم عن أبى هُرَيرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن(٢) فغسل وجهه خرج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو آخر قَطْر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كلُّ خطيئةٍ كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قَطْر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كلُّ خطيئةٍ كان مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قَطْر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب" . وحديث مالك عن عبد الله الصُّنَابِحى

---

(١) علامة .		(٢) هو شك من الراوى، وكذا قوله : "مع الماء أو مع آخر قطر الماء" . النووى .

أكمل[1]، والصواب أبو عبد الله لا عبد الله، وهو مما وهم فيه مالك، واسمه عبد الرحمن بن عُسَيْلة تابعيّ شامي كبير لإدراكه أول خلافة أبي بكر؛ قال أبو عبد الله الصُّنَابِحِي: قدمت مهاجرا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من اليمن فلما وصلنا الجُحْفَة إذا براكب قلنا له ما الخبر؟ قال: دفنَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ ثلاثة أيام. وهذه الأحاديث وما كان في معناها من حديث عمرو بن عَبَسَة وغيره تفيدك أن المراد بها كون الوضوء مشروعا عبادة لدحض الآثام؛ وذلك يقتضى افتقاره إلى نية شرعية؛ لأنه شرع لمحو الإثم ورفع الدّرجات عند الله تعالى.

الثانية والثلاثون — قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى من ضيق في الدّين؛ دليله قوله تعالى: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». و «مِن» صلة أى ليجعل عليكم حرجا. ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أى من الذنوب كما ذكرنا من حديث أبي هُريرة والصُّنَابِحِي. وقيل: من الحدث والجنابة. وقيل: لتستحقوا الوصف بالطهارة التي يوصف بها أهل الطاعة. وقرأ سعيد بن المسيّب «لِيُطْهِرَكُم» والمعنى واحد، كما يقال نجّاه وأنجاه. ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى بالترخيص في التيمم عند المرض والسفر. وقيل: بتبيان الشرائع. وقيل: بغفران الذنوب؛ وفي الخبر «تمام النعمة دخول الجنة والنجاة من النار». ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى لتشكروا نعمته فتقبلوا على طاعته.

قوله تعالى: وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾. قيل هو الميثاق الذي في قوله عز وجل: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ»؛ قاله مجاهد وغيره. ونحن وإن لم نذكره فقد أخبرنا الصادق به، فيجوز أن نؤمر بالوفاء به. وقيل: هو خطاب لليهود بحفظ ما أخذ عليهم في التوراة؛ والذى عليه الجمهور من المفسرين كابن عباس والسُّدّى

(١) الحديث أخرجه مالك في «الموطأ».

هو العهد والميثاق الذى جرى لهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى المَنْشَط والمَكْرَه إذ قالوا سمعنا وأطعنا ، كما جرى ليلة العَقَبة وتحت الشجرة ، وأضافه تعالى إلى نفسه كما قال : « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العَقَبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم ، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه ، وكان أول من بايعه البَرَاء ابن مَعْرُور ، وكان له فى تلك الليلة المقام المحمود فى التوثق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشدّ لعقد أمره ، وهو القائل : والذى بعثك بالحق لَنَمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا (١) ، فبايِعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة وَرِثْناها كابرا عن كابر ، الخبر المشهور فى سيرة ابن إسحق . ويأتى ذكر بيعة الرّضوان فى موضعها (٢) . وقد ٱتصل هذا بقوله تعالى : «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» فوفوا بما قالوا ، جزاهم الله تعالى عن نبيهم وعن الإسلام خيرا ، ورضى الله عنهم وأرضاهم . ﴿ وَٱتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى مخالفته إنه عالم بكل شىء .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ ﴾ الآية تقدّم معناها فى « النساء » (٣) . والمعنى : أتممت عليكم نعمتى فكونوا قوامين لله ، أى لأجل ثواب الله ؛ فقوموا بحقه ، وٱشهدوا بالحق من غير ميل إلى أقاربكم ، وحَيْف على أعدائكم ، « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ » على ترك العدل وإيثار العدوان على الحق . وفى هذا دليل على نفوذ حكم العدوّ على عدوّه فى الله تعالى

---

(١) أزرنا أى نساءنا وأهلنا كنى عنهن بالأزر . وقيل : أراد أنفسنا . راجع « سيرة ابن هشام » فى الخبر جـ١ ص٢٩٣ طبع أوربا .   (٢) سورة «الفتح» آية ١٨ .   (٣) راجع جـ٥ ص٤١٠ طبعة أولى أو ثانية .

ونفوذ شهادته عليه ؛ لأنه أُمر بالعدل وإن أبغضه، ولو كان حكمه عليه وشهادته لا تجوز فيه مع البغض له لما كان لأمره بالعدل فيه وجه . ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المُثْلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمّونا بذلك ؛ فليس لنا أن نقتلهم بمُثْلةٍ قصدا لإيصال الغم والحزن إليهم ؛ وإليه أشار عبدالله بن رواحة بقوله في القصة المشهورة : هذا معنى الآية . وتقدّم في صدر هذه السورة معنى قوله : ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ (١) . وقرئ «وَلَا يُجْرِمَنَّكُمْ» قال الكسائيّ : هما لغتان . وقال الزّجاج : معنى «لا يجرمنّكم» لا يُدخلنكم في الجُرْم ؛ كما تقول : آثمني أي أدخلني في الإثم . ومعنى ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي لأن تتقوا الله . وقيل : لأن تتقوا النار . ومعنى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي قال الله في حق المؤمنين : «لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» أي لا تعرف كنهه أفهام الخلق ؛ كما قال : «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ» . وإذا قال الله تعالى : «أجر عظيم» و«أجر كريم» و«أجر كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره؟ . ولما كان الوعد من قبيل القول حسن إدخال اللام في قوله : «لَهُم مَّغْفِرَةٌ» وهو في موضع نصب ؛ لأنه وقع موقع الموعود به، على معنى وعدهم أنّ لهم مغفرة، أو وعدهم مغفرة إلا أن الجملة وقعت موقع المفرد ؛ كما قال الشاعر (٢) :

وجدنا الصّالحين لهم جزاءٌ * وجنّاتٍ وعينًا سلسبيلا

وموضع الجملة نصب ؛ ولذلك عطف عليها بالنصب . وقيل : هو في موضع رفع على أن يكون الموعود به محذوفا ؛ على تقدير لهم مغفرة وأجر عظيم فيما وعدهم به . وهذا المعنى عن الحسن . ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في بني النَّضير . وقيل : في جميع الكفار .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾

---

(١) راجع ص ٤٤ من هذا الجزء . (٢) هو عبد العزيز الكلابي .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ .
قال جماعة : نزلت بسبب فعل الأعرابيّ فى غزوة ذات الرِّقاع حين آخترط[1] سيف النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من يعصمك مني يا محمد؟ ؛ كما تقدّم فى « النساء[2] » .
وفى البخاريّ أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الناس فاجتمعوا وهو جالس عند النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعاقبه[3] . وذكر الواقديّ وآبن أبى حاتم أنه أسلم . وذكر قوم أنه ضرب برأسه فى ساق الشجرة حتى مات . وفى البخاريّ فى غزوة ذات الرقاع أن آسم الرجل غَوْرَث بن الحارث (بالغين منقوطة مفتوحة وسكون الواو بعدها [راء و] ثاء مثلثة) ، وقد ضم بعضهم الغين ، والأول أصح . وذكر أبو حاتم محمد بن إدريس الرازى ، وأبو عبد الله محمد بن عمر الواقديّ أن آسمه دُعْثُور بن الحارث ، وذكرا أنه أسلم كما تقدّم . وذكر محمد بن إسحق أن آسمه عمرو بن جِحاش وهو أخو بني النَّضِير . وذكر بعضهم أن قصة عمرو بن جِحاش فى غير هذه القصة . والله أعلم . وقال قَتَادة ومجاهد وغيرهما : نزلت فى قوم من اليهود جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم يستعينهم فى دية فهمّوا بقتله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله منهم . قال القُشَيْرى : وقد تنزل الآية فى قصة ثم ينزل ذكرها مرة أخرى لآدّكار ما سبق . ﴿ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أى بالسوء . ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ أى منعهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

(١) اخترط السيف سله من غمده .   (٢) راجع ج ٥ ص ٣٧٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) أى لم يعاقب الأعرابى استئلافا للكفار .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قال ابن عطية : هذه الآيات المتضمنة الخبر عن نقضهم مواثيق الله تعالى تقوّى أن الآية المتقدّمة فى كف الأيدى إنما كانت فى بنى النّضير ؛ واختلف أهل التأويل فى كيفية بعث هؤلاء النقباء بعد الإجماع على أن النّقيب كبير القوم، القائم بأمورهم الذى ينقّب عنها وعن مصالحهم فيها . والنّقّاب : الرجل العظيم الذى هو فى الناس على هذه الطريقة ؛ ومنه قيل فى عمر رضى الله عنه : إنه كان لنقّابا . فالنّقباء الضّمان، واحدهم نقيب، وهو شاهد القوم وضمينهم ؛ يقال : نَقَب عليهم ، وهو حسن النّقيبة أى حسن الخليقة . والنّقْب والنُّقْب الطريق فى الجبل . وإنما قيل نقيب لأنه يعلم دخيلة أمر القوم ، ويعرف مناقبهم وهو الطريق إلى معرفة أمورهم . وقال قوم : النُّقباء الأمناء على قومهم ؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض . والنّقيب أكبر مكانة من العَريف . قال عطاء بن يَسار : حملة القرآن عرفاء أهل الجنة ؛ ذكره الدّارمىّ فى مسنده . قال قَتادة ــ رحمه الله ــ وغيره : هؤلاء النقباء قوم كبار من كل سِبْط ، تكفل كل واحد سِبْطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله ؛ ونحو هذا كان النّقباء ليلة العَقَبة ؛ بايع فيها سبعون رجلا وامرأتان ، فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم من السبعين اثنى عشر رجلا ، وسماهم النُّقباء اقتداء بموسى صلى الله عليه وسلم . وقال الرّبيع والسُّدى وغيرهما : إنما بعث النّقباء من بنى إسرائيل أمناء على الاطلاع على الجبّارين والسَّبْر لقوّتهم ومنعتهم ؛ فساروا ليختبروا حال من بها ، ويُعلموه بما اطلعوا عليه فيها حتى ينظر فى الغزو إليهم ؛ فاطلعوا من الجبّارين على قوّة عظيمة ــ على ما يأتى ــ وظنوا أنهم لا قِبل لهم بها ؛ فتعاقدوا بينهم على أن يُخفوا ذلك عن بنى إسرائيل ، وأن يُعلموا به موسى عليه السلام ، فلما انصرفوا إلى بنى إسرائيل خان منهم عشرة فعرّفوا قراباتهم ، ومن وثقوه على سرهم ؛ ففشا الخبر حتى اعوج أمر بنى إسرائيل وقالوا : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ » .

الثانيــة ــ ففى الآية دليل على قبول خبر الواحد فيما يفتقر إليه المرء ، ويحتاج إلى اطلاعه من حاجاته الدّينية والدّنيوية ؛ فتُركّب عليه الأحكام ، ويرتبط به الحلال والحرام ؛ وقد جاء

مثله فى الإسلام؛ قال صلى الله عليه وسلم لهوازن : "ارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم". أخرجه البخارى .

الثالثة — وفيها أيضا دليل على اتخاذ الجاسوس . والتجسس التبحث . وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بَسْبَسَة عينا (١)؛ أخرجه مسلم . وسيأتى حكم الجاسوس فى «الممتحنة» (٢) إن شاء الله تعالى . وأما أسماء نقباء بنى إسرائيل فقد ذكر أسماءهم محمد بن حبيب فى «المحبر» (٣) فقال : من سبط روبيل شموع بن ركوب ، ومن سبط شمعون شوقوط بن حورى ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ، ومن سبط الساحر يوغول بن يوسف ، ومن سبط أفرائيم ابن يوسف يوشع بن النون ، ومن سبط بنيامين يلطى بن روقو ، ومن سبط ربالون كرابيل ابن سودا ومن سبط منشا بن يوسف كدى بن سوشا ، ومن سبط دان عمائيل بن كسل ، ومن سبط شير ستور ابن ميخائيل ، ومن سبط نفتال يوحنا بن وقوشا ، ومن سبط كاذ كوال ابن موخى ؛ فالمؤمنان منهم يوشع وكالب ، ودعا موسى عليه السلام على الآخرين فهلكوا مسخوطا عليهم ؛ قاله الماوردى (٤) . وأما نقباء ليلة العقبة فمذكورون فى سيرة ابن إسحٰق فلينظروا هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ الآية . قال الربيع بن أنس : قال ذلك للنقباء . وقال غيره : قال ذلك لجميع بنى إسرائيل . وكسرت «إنّ» لأنها مبتدأة . «مَعَكُمْ» منصوب لأنه ظرف ، أى بالنصر والعون . ثم ابتدأ فقال : ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أى إن فعلتم ذلك ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ . واللام فى «لَئِنْ» لام توكيد ومعناها القسم ؛ وكذا «لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ» ، «وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ» . وقيل : المعنى

---

(١) كان ذلك فى غزوة بدر ؛ وقد أرسله النبى صلى الله عليه وسلم لينظر ماذا فعلت عير أبى سفيان . (٢) راجع المسئلة الخامسة والسادسة فى تفسير آية ١ . (٣) قال أبو حيان فى تفسيره «البحر المحيط» : ذكر محمد بن حبيب فى «المحبر» أسماء هؤلاء النقباء الذين اختارهم موسى فى هذه القصة ، بألفاظ لا تنضبط حروفها ولا شكلها ، وذكرها غيره مخالفة فى أكثرها لما ذكره ابن حبيب لا تنضبط أيضا . وفى هامش الطبرى : وقع تحريف واختلاف بين كتب التاريخ فى أسماء الأسباط والنقباء منهم فلتحرر . (٤) راجع سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٧ طبع أوربا .

لئن أقمتم الصلاة لأكفرن عنكم سيئاتكم ؛ وتضمن شرطا آخر لقوله : «لَأُكَفِّرَنَّ» أى إن فعلتم ذلك لأكفرنّ . وقيل : قوله «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ» جزاء لقوله : «إِنِّي مَعَكُمْ» وشرط لقوله : «لَأُكَفِّرَنَّ» . والتّعزير : التّعظيم والتوقير ؛ وأنشد أبو عُبيدة :

وكم من ماجد لهم كريم * ومن ليث يعزَّر فى النّدىّ

أى يُعظَّم ويُوقَّر . والتّعزير : الضرب دون الحدّ والرد ؛ تقول : عَزّرتُ فلانا إذا أدّبته ورددته عن القبيح . فقوله : «عَزَّرْتُمُوهُمْ» أى رددتم عنهم أعداءهم . ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعنى الصدقات ؛ ولم يقل إقراضا، وهذا مما جاء من المصدر بخلاف المصدر كقوله : «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا» ، «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ» وقد تقدّم(١) . ثم قيل : «حَسَنًا» أى طيّبة بها نفوسكم . وقيل يبتغون بها وجه الله . وقيل حلالا . وقيل «قرضا» اسم لا مصدر . ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أى بعد الميثاق . ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى أخطأ قصد الطريق . والله أعلم .

قوله تعالى : فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أى فبنقضهم ميثاقهم ، «ما» زائدة للتوكيد ؛ عن قتادة وسائر أهل العلم ؛ وذلك أنها تؤكد الكلام بمعنى تمكنه فى النفس من جهة حسن النظم ، ومن جهة تكثيره للتوكيد ؛ كما قال :

* لِشَيْءٍ ما يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ *

(١) راجع ج ٤ ص ٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

فالتأكيد بعلامة موضوعة كالتأكيد بالتكرير. ﴿ لَعَنَّاهُمْ ﴾ قال آبن عباس : عذّبناهم بالجزية .
وقال الحسن ومقاتل : بالمسخ . عطاء : أبعدناهم ؛ واللعن الإبعاد والطرد من الرحمة .
﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أي صُلبة لا تعي خيرا ولا تفعله ؛ والقاسية والعاتية بمعنى واحد .
وقرأ الكسائيّ وحمزة « قَسِية » بتشديد الياء من غير ألف ؛ وهي قراءة آبن مسعود والنَّخَعيّ
ويحيى بن وثّاب . والعام القَسِيّ الشديد الذي لا مطر فيه . وقيل : هو من الدّراهم القَسِيّات
أي الفاسدة الرديئة ؛ فمعنى « قَسِيَّة » على هذا ليست بخالصة الإيمان ، أي فيها نفاق .
قال النّحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنه يقال : درهم قَسِيّ إذا كان مغشوشا بنُحاس أو غيره .
يقال : درهم قَسِيّ (مخفف السين مشدّد الياء) مثال شقِيّ أي زائف ؛ ذكر ذلك أبو عبيد وأنشد :

لها صواهِلُ في صُمِّ السِّلامِ كما * صاح القَسِيَّاتُ في أيدي الصَّياريف (١)

يصف وقع المساحي (٢) في الحجارة . وقال الأصمعيّ وأبو عُبيد : درهم قَسِيّ كأنه معرّب قاشيّ .
قال القُشَيري : وهذا بعيد ؛ لأنه ليس في القرآن ما ليس من لغة العرب ، بل الدّرهم القَسِيّ
من القسوة والشدّة أيضا ؛ لأن ما قلت نَقْرته يقسو ويصلب . وقرأ الأعمش : « قَسِيَة » بتخفيف
الياء على وزن فَعِلة نحو عَمِية وشَجِية ؛ من قَسِيَ يَقْسَى لا من قسا يقسو . وقرأ الباقون على
وزن فاعِلة ؛ وهو آختيار أبي عُبيد ؛ وهما لغتان مثل العَلِيّة والعالية ، والزّكية والزاكية . قال
أبو جعفر النّحاس : أولى ما فيه أن تكون قَسِيّة بمعنى قاسية ، إلا أن فَعِيلة أبلغ من فاعلة .
فالمعنى : جعلنا قلوبهم غليظة نابية عن الإيمان والتوفيق لطاعتي ؛ لأن القوم لم يوصفوا بشيء
من الإيمان فتكون قلوبهم موصوفة بأن إيمانها خالطه كفر ، كالدّراهم القَسِيّة التي خالطها غش .
قال الراجز :

* قد قسوت وقست لِداتي *

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أي يتأوّلونه على غير تأويله ، ويلقون ذلك إلى العوامّ . وقيل :
معناه يبدّلون حروفه . و « يُحَرِّفُونَ » في موضع نصب ، أي جعلنا قلوبهم قاسية محرّفين .

(١) البيت لأبي زبيد الطائي . والصواهل (جمع الصاهلة) مصدر على فاعلة بمعنى الصهيل وهو الصوت .
(٢) المساحي (جمع مِسحاة) : وهي المجرفة من الحديد .

وقرأ السُّلَمِيّ والنَّخَعِيّ « الكلام » بالألف؛ وذلك أنهم غيّروا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم . ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى نسوا عهد الله الذى أخذه الأنبياء عليهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبيان نعته. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾ أى وأنت يا محمد لا تزال الآن تقف ﴿ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ والخائنة الخيانة؛ قاله قتادة . وهـذا جائز فى اللغة، ويكون مثل قولهم : قائلة بمعنى قيلولة . وقيل : هو نعت لمحذوف والتقدير فرقة خائنة. وقد تقع «خائنة» للواحد كما يقال : رجل نسّابة وعلّامة؛ فخائنة على هذا للمبالغة؛ يقال : رجل خائنة إذا بالغت فى وصفه بالخيانة . قال الشاعر (١) :

حدّثت نفسك بالوفاء ولم تكن * للغَدْرِ خائنةً مُغِلَّ الإصْبَعِ

قال ابن عباس : « عَلَىٰ خَائِنَةٍ » أى معصية . وقيل : كذب وفجور. وكانت خيانتهم نقضهم العهـد بينهم وبين رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، ومظاهرتهم المشركين على حربه؛ كيوم الأحزاب وغير ذلك من همهم بقتله وسبه . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ لم يخونوا؛ فهو استثناء متصل من الهاء والميم اللتين فى « خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ». ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ فى معناه قولان: فاعف عنهم واصفح مادام بينك و بينهم عهد وهم أهل ذمة. والقول الآخر أنه منسوخ بآية السيف. وقيل بقوله عز وجل : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً » .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا

(١) هو الكلابى يخاطب قرينا أخا عمير الحنفى وكان له عنده دم .
وقبـله :

أقرين إنك لو رأيت فوارسى * نَعَماً يبتن إلى جوانب صَلْقَعِ

(اللسان) .

عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ أى فى التوحيد والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو مكتوب فى الإنجيل . ﴿ فَنَسُوا حَظًّا ﴾ وهو الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام؛ أى لم يعملوا بما أمروا به، وجعلوا ذلك الهوى والتحريف سببا للكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى «أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ» هو كقولك : أخذت من زيد ثوبه ودرهمه؛ قاله الأخفش . ورتبة «الَّذِينَ» أن تكون بعد «أَخَذْنَا» وقبل الميثاق؛ فيكون التقدير : أخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، لأنه فى موضع المفعول الثانى لأخذنا. وتقديره عند الكوفيين : ومن الذين قالوا إنا نصارى مَن أخذنا ميثاقهم؛ فالهاء والميم تعودان على «مَن» المحذوفة، وعلى القول الأوّل تعودان على «الذين» . ولا يجيز النحويون أخذنا ميثاقهم من الذين قالوا إنا نصارى، ولا ألينها لبستُ من الثياب؛ لئلا يتقدّم مضمر على ظاهر . وفى قولهم : « إِنَّا نَصَارَى » ولم يقل من النصارى دليل على أنهم ابتدعوا النصرانية وتسمّوا بها؛ رُوى معناه عن الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ أى هيّجنا . وقيل : ألصقنا بهم؛ مأخوذ من الغِراء وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصّمغ وشبهه . يقال : غَرِىَ بالشيء يَغْرَى غَرًا «بفتح الغين» مقصورا وغِرَاء «بكسر الغين» ممدودا إذا أولع به كأنه التصق به . وحكى الرمانى الإغراء تسليط بعضهم على بعض . وقيل : الإغراء التحريش، وأصله اللصوق؛ يقال : غَرِيتُ بالرّجل غَرًا — مقصور وممدود مفتوح الأول — إذا لصقتَ به . وقال كُثَيِّر:

إذا قيل مهلا قالت العين بالبكا (١) * غِرَاء ومدّتها حوافلُ نُهّل

(١) كذا بالأصل؛ والذى فى «اللسان» .
إذا قلت أسلو غارت العين بالبكا * غِراء ومدّتها مدامع حفّل

وأَغْرَيْتُ زيدا بكذا حتى غَرِيَ به ؛ ومنه الغِراء الذى يُغرى به للصوقه ؛ فالإغراء بالشيء الإلصاق به من جهة التّسليط عليه . وأَغْرَيْتُ الكلب أى أولعتُه بالصيد . « بَيْنَهُمْ » ظرف للعداوة . «وَٱلْبَغْضَاءَ» البغض . أشار بهذا إلى اليهود والنصارى لتقدم ذكرهما . عن السُّدى وقَتادة : بعضهم لبعض عدوّ . وقيل : أشار إلى ٱفتراق النصارى خاصة ؛ قاله الربيع بن أنس ، لأنهم أقرب مذكور؛ وذلك أنهم ٱفترقوا إلى اليعاقبة والنُّسطورية والمَلْكانية ؛ أى كفّر بعضهم بعضا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معنى « أَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ » أن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار و إبغاضهم ، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبتها و إبغاضها لأنهم كفار . وقوله . ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ تهديد لهم؛ أى سيلقون جزاء نقض الميثاق .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ الكتاب ٱسم جنس بمعنى الكُتب؛ فجميعهم مخاطبون . ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أى من كتبكم ؛ من الإيمان به ، ومن آية الرجم ، ومن قصة أصحاب السبت الذين مُسخوا قِردة ؛ فإنهم كانوا يخفونها . ﴿ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ أى يتركه ولا يبينه ، و إنما يبين ما فيه حجة على نبوته ، ودلالة على صدقه وشهادة برسالته ، و يترك مالم يكن به حاجة إلى تبيينه . وقيل : « وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ » يعنى يتجاوز عن كثير فلا يخبركم به . وذكر أن رجلا من أحبارهم جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : ياهذا عفوت عنا ؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين؛ و إنما أراد اليهوديّ أن يظهر مناقضة كلامه ، فلما لم يبين له رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من عنده فذهب وقال لأصحابه : أرى أنه صادق فيما يقول؛ لأنه كان وجد فى كتابه أنه لايبين له ما سأله عنه . ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ أى ضياء؛ قيل : الإسلام . وقيل : محمد عليه السلام؛ عن الزجاج . ﴿ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ أى القرآن؛ فإنه يبين الأحكام ، وقد تقدّم . ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ أى مارضيه الله . ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزّهة عن كل آفة ، والمؤمِّنة من كل مخافة؛ وهى الجنة . وقال الحسن والسُّدى : «السلام» الله عزّ وجل؛ فالمعنى دين الله ـــ وهو الإسلام ـــ كما قال : «إِنَّ ٱلدِّينَ

عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ» . ﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى من ظلمات الكفر والجهالات إلى نور الإسلام والهدايات . ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أى بتوفيقه وإرادته .

قوله تعالى : لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ج قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا قلى وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ج يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ج وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ﴾ تقدّم في آخر «النساء»(١) بيانه والقول فيه . وكفر النصارى في دلالة هذا الكلام إنما كان بقولهم : إن الله هو المسيح ابن مريم على جهة الدينونة به ؛ لأنهم لو قالوه على جهة الحكاية منكرين له لم يكفروا . ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى من أمر الله . و « يملك » بمعنى يقدر ؛ من قولهم ملكت على فلان أمره أى اقتدرت عليه . أى فمن يقدر أن يمنع من ذلك شيئا ؛ فأعلم الله تعالى أن المسيح لو كان إلها لقدر على دفع ماينزل به أو بغيره ، وقد أمات أمه ولم يتمكن من دفع الموت عنها ؛ فلو أهلكه هو أيضا فمن يدفعه عن ذلك أو يرده . ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ والمسيح وأمه بينهما مخلوقان محدودان محصوران ، وما أحاط به الحدّ والنهاية لا يصلح للإلهيّة . وقال : «وما بينهما» ولم يقل وما بينهن ؛ لأنه أراد النوعين والصنفين كما قال الراعي :

طَرَقَا فتلك هَمَاهِمِي(٢) أَقْرِيهما * قُلُصًا(٣) لَوَاقِحَ كالقِسِيّ وحُولا(٤)

فقال : «طرقا» ثم قال : « فتلك هماهِمِي » . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ عيسى من أم بلا أب آية لعباده .

(١) راجع ص ٢١ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) الهماهم : بمعنى الهموم . (٣) قلص (جمع قلوص) : وهى الفتية من الإبل . (٤) حول (جمع حائل) : وهى التى حمل عليها فلم تلقح ، وقيل هى الناقة التى لم تحمل سنة أو سنتين أو سنوات .

قوله تعالى : وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ قال ابن عباس : خوّف رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما من اليهود العقاب فقالوا : لا نخاف فإنا أبناء الله وأحبّاؤه؛ فنزلت الآية . قال ابن إسحٰق : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن أَضَا وبَحْرِيُّ بن عَمـرو وشَأْس بن عَدِيّ فكلموه وكلمهم ، ودعاهم إلى الله عز وجل وحذّرهم نقمته فقالوا : ما تُخوفنا يا محمد؟ ؛ نحن أبناء الله وأحباؤه ، كقول النصارى ؛ فأنزل الله عز وجل فيهم « وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ » إلى آخر الآية ؛ قال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عُبادة وعقبة بن وهب : يا معشر يهود اتقوا الله ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مَبعثه ، وتصفونه لنا بصفته ؛ فقال رافع ابن حُرَيْملة ووهب بن يهوذا : ماقلنا هـذا لكم ، ولا أنزل الله من كتاب بعـد موسى ، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا من بعده ؛ فأنزل الله عز وجل : « يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ » إلى قوله « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . السُّـدى : زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى إلى إسرائيل عليه السلام أن ولدك بِكرى من الولد . قال غيره : والنصارى قالت نحن أبناء الله ؛ لأن فى الإنجيل حكاية عن عيسى « أذهبُ إلى أبى وأبيكم » . وقيل المعنى : نحن أبناء رسل الله ، فهو على حذف مضاف . وبالجملة فإنهم رأوا لأنفسهم فضلا ؛ فردّ عليهم قولهم فقال : ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين ؛ إما أن يقولوا هو يعذبنا ، فيقال لهم : فلستم إذًا أبناءه وأحباءه ؛ فإن الحبيب لا يعـذب حبيبه ، وأنتم تقرّون بعـذابه ؛ فذلك دليل على كذبكم — وهـذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف — أو يقولوا :

لا يعذّبنا فيكذبوا ما في كتبهم، وما جاءت به رسلهم، ويبيحوا المعاصي وهم معترفون بعذاب العصاة منهم؛ فيلتزمون أحكام كتبهم . وقيل معنى « يُعَذِّبُكُمْ » عذّبكم ، فهو بمعنى المُضِيّ ؛ أي فلم مسخكم قردة وخنازير؟ ولم عذب من قبلكم من اليهود والنصارى بأنواع العذاب وهم أمثالكم ؟ لأن الله سبحانه لا يحتج عليهم بشيء لم يكن بعد ، لأنهم ربما يقولون لا نُعذَّب غدا ، بل يحتج عليهم بما عرفوه . ثم قال : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي كسائر خلقه يحاسبكم على الطاعة والمعصية ، ويجازي كلا بما عمل . « يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » أي لمن تاب من اليهود . « وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » من مات عليها . « وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوٰتِ وَالْأَرْضِ » فلا شريك له يعارضه . « وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » أي يئول أمر العباد إليه في الآخرة .

قوله تعالى : يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ . يعني محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ انقطاع حجتهم حتى لا يقولوا غدا ما جاءنا رسول . ﴿ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي سكون ؛ يقال فَتَر الشيءُ سكن . وقيل : « عَلَى فَتْرَةٍ » على انقطاع ما بين النّبيين ؛ عن أبي عليّ وجماعة أهل العلم ، حكاه الرماني ؛ قال : والأصل فيها انقطاع العمل عما كان عليه من الجدّ فيه ، من قولهم : فَتَر عن عمله وفَتَّرته عنه . ومنه فَتَر الماءُ إذا انقطع عما كان من السُّخونة إلى البرد . وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن حدة النظر . وفتور البدن كفتور الماء . والفِتْر ما بين السّبابة والإبهام إذا فتحتهما . والمعنى ؛ أي مضت للرسل مدّة قبله . واختلف في قدر مدّة تلك الفترة ؛ فذكر محمد بن سعد في كتاب «الطبقات» عن ابن عباس قال : كان بين موسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهما السلام ألف سنة وسبعمائة سنة ، ولم يكن بينهما فترة ، وأنه أرسل بينهما ألف نبيّ من بني إسرائيل

سوى من أرسل من غيرهم . وكان بين ميلاد عيسى والنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث فى أولها ثلاثة أنبياء؛ وهو قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » والذى عزز به « شمعون » وكان من الحواريين . وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربعا وثلاثين سنة . وذكر الكلبيّ أن بين عيسى ومحمد عليهما السلام خمسمائة سنة وتسعا وستين ، و بينهما أربعة أنبياء ؛ واحد من العرب من بنى عَبْس وهو خالد بن سِنان. قال القُشَيرى : ومثل هذا مما لا يعلم إلا بخبر صِدق . وقال قَتَادة : كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستمائة سنة؛ وقاله مقاتل والضحاك و وهب ابن منبه، إلّا أن وهبا زاد عشرين سنة. وعن الضّحاك أيضا أربعمائة و بضع وثلاثون سنة . وذكر آبن سعد عن عِكرمة قال : بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام . قال آبن سعد : أخبرنا محمد بن عمرو بن واقد الأسلمىّ عن غير واحد قالوا : كان بين آدم ونوح عشرة قرون والقرن مائة سنة ، و بين نوح و إبراهيم عشرة قرون، والقرن مائة سنة ، و بين إبراهيم وموسى بن عِمران عشرة قرون، والقرن مائة سنة؛ فهذا ما بين آدم ومحمد عليهما السلام من القرون والسنين . والله أعلم. ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ أى لئلا أو كراهية أن تقولوا؛ فهو فى موضع نصب . ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ ﴾ أى مُبَشّر . ﴿ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ أى مُنذِر . و يجوز « مِنْ بَشِيرٌ وَلَا نَذِيرٌ » على الموضع (1) . قال آبن عباس : قال معاذ بن جبل وسعد بن عُبادة وعقبة بن وهب لليهود؛ يامعشر يهود آتقوا الله، فوالله إنكم تعلمون أن محمدا رسول الله، وقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه بصفته؛ فقالوا : ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعده من بشير ولا نذير؛ فنزلت الآية. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ على إرسال من شاء من خلقه . وقيل : قدير على إنجاز ما بَشّر به وأَنذر منه .

---

(1) وزيادة «من» فى الفاعل للبالغة فى نفى المجىء . «روح المعانى» .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ج وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا صلے فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى صلے فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ج يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ .

تبيين من الله تعالى أن أسلافهم تمردوا على موسى وعصوه ؛ فكذلك هؤلاء على محمد عليه السلام، وهو تسلية له ؛ أى يأيها الذين آمنوا آذكروا نعمة الله عليكم، وآذكروا قصة موسى . ورُوى عن عبد الله بن كَثير أنه قرأ «يَا قَوْمُ ٱذْكُرُوا» بضم الميم، وكذلك ما أشبهه ؛ وتقديره يأيها القوم . ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ لم ينصرف ؛ لأن فيه ألف التأنيث . ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ أى تملكون أمركم لا يغلبكم عليه غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين، فأنقذكم منه بالغرق ؛ فهم ملوك بهذا الوجه، وبنحوه فسر السُّدىّ والحسن وغيرهما . قال السُّدىّ . ملك

كل واحد منهم نفســه وأهله وماله . وقال قَتادة : إنمــا قال : « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا » لأنا كنا نتحدّث أنهم أوّل من خُدِم من بنى آدم . قال آبن عطية : وهذا ضعيف ؛ لأن القبط قد كانوا يستخدمون بنى إسرائيل ، وظاهر أمر بنى آدم أن بعضهم كان يُســخِّر بعضا مذ تناسلوا وكثروا ، وإنما آختلفت الأمم فى معنى التمليك فقط . وقيل : جعلكم ذوى منازل لا يُدخل عليكم إلا بإذن ؛ رُوى معناه عن جماعة من أهل العلم . قال آبن عباس : إنّ الرجل إذا لم يدخل أحد بيته إلا بإذنه فهو ملِك . وعن الحسن أيضا وزيد بن أسلم أن من كانت له دار وزوجة وخادم فهو ملِك ؛ وهو قول عبـد الله بن عَمرو كما فى صحيح مسلم عن أبى عبد الرحمن الحُبُلِيّ قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله : ألك آمرأة تأوى إليها؟ قال : نعم . قال : ألك منزل تسكنه؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإنّ لى خادما . قال : فأنت من الملوك . قال آبن العربى : وفائدة هذا أن الرجل إذا وجبت عليه كفّارة وملَك دارا وخادما باعهما فى الكفّارة ولم يجزله الصيام ؛ لأنه قادر على الرقبة والملوك لا يُكفّرون بالصيام ، ولا يوصفون بالعجز عن الإعتاق . وقال ابن عباس ومجاهد : جعلهم ملوكا بالمَنّ والسَّلْوى والحَجَر (١) والغَمام ؛ أى هم مخدومون كالملوك . وعن آبن عباس أيضا يعنى الخادم والمنزل ؛ وقاله مجاهد وعكرمة والحكم بن عُيَيْنة ، وزادوا الزوجة ؛ وكذا قال زيد بن أسلم — إلا أنه قال فيما يعلم — عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من كان له بيت — أو قال منزل — يأوى إليه وزوجة وخادم يخدمه فهو ملِك" ؛ ذكره النحاس . ويقال من استغنى عن غيره فهو ملِك ؛ وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : "من أصبح آمنا فى سِرْبه معافى فى بدنه وله قُوت يومه فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها" .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ ﴾ أى أعطاكم ﴿ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . والخطاب من موسى لقومه فى قول جمهور المفسرين ؛ وهو وجه الكلام . مجاهد : والمراد بالإيتاء المنّ

(١) هو إخراج المياه العذبة من الحجر .

والسّلوى والحجر والغمام . وقيل : كثرة الأنبياء فيهم ، والآيات التي جاءتهم . وقيل : قلوبا سليمة من الغِلّ والغِشّ . وقيل : إحلال الغنائم والانتفاع بها .

قلت : وهذا القول مردود ؛ فإن الغنائم لم تحل لأحد إلا لهذه الأمة على ماثبت في الصحيح ؛ وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وهذه المقالة من موسى توطئة لنفوسهم حتى تُعَزِّز وتأخذ الأمر بدخول أرض الجبارين بقوة ، وتنفُذ في ذلك نفوذ من أعزه الله ورفع من شأنه . ومعنى «عَلَى الْعَالَمِينَ» على عالَمي زمانكم ؛ عن الحسن . وقال ابن جُبير وأبومالك : الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا عدول عن ظاهر الكلام بما لا يحسن مثله . وتظاهرت الأخبار أن دِمشق قاعدة الجبارين . و ﴿ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ معناه المطهرة . مجاهد : المباركة ؛ والبركة التطهير من القحوط والجوع ونحوه . قَتَادة : هي الشام . مجاهد : الطُّور وما حوله . ابن عباس والسُّدّيّ وابن زيد : هي أَريحاء . قال الزّجاج : دِمشق وفلسطين وبعض الأُرْدُنّ . وقول قَتَادة يجمع هذا كله . ﴿ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي فَرَض دخولها عليكم ووعدكم دخولها وسكناها لكم . ولما خرجت بنو إسرائيل من مصر أمرهم بجهاد أهل أَريحاء من بلاد فلسطين فقالوا : لاعلم لنا بتلك الديار ؛ فبعث بأمر الله آثنى عشر نقيبا من كل سِبط رجل يتجسسون الأخبار على ما تقدم ، فرأوا سكانها الجبارين من العمالقة ، وهم ذوو أجسام هائلة ؛ حتى قيل إن بعضهم رأى هؤلاء النقباء فأخذهم في كُمّه مع فاكهة كان قد حملها من بستانه وجاء بهم إلى الملِك فنثرهم بين يده وقال : إن هؤلاء يريدون قِتالنا ؛ فقال لهم الملِك : ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه خبرنا ؛ على ما تقدم . وقيل : إنهم لما رجعوا أخذوا من عِنب تلك الأرض عنقودا فقيل : حمله رجل واحد ، وقيل : حمله النقباء الاثنا عشر .

قلت : وهذا أشبه ؛ فإنه يقال إنهم لما وصلوا إلى الجبارين وجدوهم يدخل في كُمّ أحدهم رجلان منهم ، ولا يحمل عنقود أحدهم إلا خمسة منهم في خشبة ، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبه خمسة أنفس أو أربعة (١) .

(١) قال الألوسي : هذه الأخبار عندي كأخبار « عوج بن عوق » وهي حديث خرافة .

قلت : ولا تعارض بين هذا والأول ؛ فإن ذلك الجبار الذى أخذهم فى كُمّه — ويقال فى حجره — هو عُوج بن عناق(١) وكان أطولهم قامة وأعظمهم خَلْقا ؛ على ما يأتى من ذكره إن شاء الله تعالى . وكان طول سائرهم ستة أذرع ونصف فى قول مقاتل . وقال الكَلْبىّ : كان طول كل رجل منهم ثمانين ذراعا ، والله أعلم . فلما أذاعوا الخبر ماعدا يوشع وكالب آبن يوقنا ، وامتنعت بنو إسرائيل من الجهاد عوقبوا بالتيه أربعين سنة إلى أن مات أولئك العصاة ونشأ أولادهم ، فقاتلوا الجبارين وغلبوهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ ﴾ أى لا ترجعوا عن طاعتى وما أمرتكم به من قتال الجبارين . وقيل : لا ترجعوا عن طاعة الله إلى معصيته ، والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أى عظام الأجسام طوالا ، وقد تقدّم ؛ يقال نخلة جبّارة أى طويلة . والجبّار المتعظم الممتنع من الذلّ والفقر . وقال الزّجاج : الجبّار من الآدميين العاتى ، وهو الذى يُجبِر الناس على ما يريد ؛ فأصله على هذا من الإجبار وهو الإكراه ؛ فإنه يُجبِر غيره على ما يريده ؛ وأجبره أى أكرهه . وقيل : هو مأخوذ من جَبْر العظم ؛ فأصل الجبار على هذا المصلح أمر نفسه ، ثم استعمل فى كل من جرّ لنفسه نفعا بحق أو باطل . وقيل : إنّ جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه . قال الفرّاء : لم أسمع فعّالا من أفعل إلا فى حرفين ؛ جبّار من أجبر ودرّاك من أدرك . ثم قيل : كان هؤلاء من بقايا عاد . وقيل : هم من ولد عيصو بن إسحٰق ، وكانوا من الروم ، وكان معهم عوج الأعنق ، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا ؛ قاله آبن عمر ، وكان يَحْتجِن السّحابَ أى يجذبه بمِحجنه ويشرب منه ، ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله . وحضر طوفان نوح عليه السلام ولم يجاوز ركبتيه . وكان عمره ثلاثة آلاف

(١) عوج بن عناق : هكذا فى الأصول . والذى ذكر فى القاموس مادة (عوق) «وعوق كنوح والدعوج الطويل ومن قال عوج بن عنق فقد أخطأ » وقال فى شرحه : «هذا الذى خطأه هو المشهور على الألسنة ؛ قال شيخنا : وزعم قوم من حفاظ التواريخ أن عنق هى أم عوج وعوق أبوه فلا خطأ ولا غلط ، وفى شعر عرقلة الدمشقى المذكور فى بدائع البدائه المتوفى سنة ٥٦٧ (أعور الرجال يمشى : خلف عوج بن عناق) وهو ثقة عارف . (عن القاموس وشرحه) .

وستمائة سنة . وأنه قلع صخرة على قدر عسكر موسى ليرضخهم بها ، فبعث الله طائرا فنقرها ووقعت في عنقه فصرعته . وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع وترقى في السماء عشرة أذرع فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع فقتله . وقيل : بل ضربه في العرق الذي تحت كعبه فصرعه فمات ووقع على نيل مصر فجسرهم[(1)] سنة . ذكر هذا المعنى باختلاف ألفاظ محمد بن إسحٰق والطبري ومكي وغيرهم . وقال الكلبي : عوج من ولد هاروت وماروت حيث وقعا بالمرأة فحملت . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا ﴾ يعني البلدة إيلياء ، ويقال أريحاء ﴿ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أي حتى يسلموها لنا من غير قتال . وقيل : قالوا ذلك خوفا من الجبارين ولم يقصدوا العصيان ؛ فإنهم قالوا : ﴿ فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هما يوشع وكالب ابن يوقنا ويقال ابن قانيا ، وكانا من الاثنى عشر نقيبا . و « يَخَافُونَ » أي من الجبارين . قتادة : يخافون الله تعالى . وقال الضحاك : هما رجلان كانا في مدينة الجبارين على دين موسى ؛ فمعنى « يَخَافُون » على هذا أي من العمالقة من حيث الطبع لئلا يطلعوا على إيمانهم فيفتنوهم ولكن وثقا بالله . وقيل : يخافون ضعف بني إسرائيل وجبنهم . وقرأ مجاهد وابن جبير « يُخَافُونَ » بضم الياء ، وهذا يقوي أنهما من غير قوم موسى . « أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » أي بالإسلام أو باليقين والصلاح . ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ قالا لبني إسرائيل لا يهولنكم عظم أجسامهم فقلوبهم ملئت رعبا منكم ؛ فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة ، وكانوا قد علموا أنهم إذا دخلوا من ذلك الباب كان لهم الغلب . ويحتمل أن يكونا قالا ذلك ثقة بوعد الله . ثم قالا : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ مصدقين به ؛ فإنه ينصركم . ثم قيل على القول الأول : لما قالا هذا أراد بنو إسرائيل رجمهما بالحجارة ، وقالوا : نصدقكما وندع قول عشرة ! ثم قالوا لموسى : ﴿ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ﴾ وهذا عناد وحيد عن

---

(1) أي صار لهم جسرا يعبرون عليه . كل ما ذكره المؤلف في هذا المقام من الإسرائيليات التي لا يعول عليها .

القتال، و إياس من النصر . ثم جهلوا صفة الرّب تبارك تعالى فقالوا : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ وصفوه بالذهاب والانتقال ، والله متعال عن ذلك . وهـذا يدل على أنهـم كانوا مُشَبِّهة ؛ وهو معنى قول الحسن؛ لأنه قال : هو كفر منهم بالله ، وهو الأظهر في معنى هـذا الكلام . وقيل : أي إن نصرة ربك أحق من نصرتنا ، وقتاله معك — إن كنت رسوله — أولى من قتالنا؛ فعلى هذا يكون ذلك منهم كفر ؛ لأنهم شكّوا في رسالته . وقيل المعنى : اذهب أنت فقاتل وليُعِنك ربّك . وقيل : أرادوا بالرب هٰرون ؛ وكان أكبر من موسى وكان موسى يطيعه . و بالجملة فقد فسقوا بقولهم ؛ لقوله تعالى : « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » أي لا تحزن عليهم . ﴿إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾ أي لا نبرح ولا نقاتل . ويجوز «قاعدين» على الحال؛ لأن الكلام قد تمّ قبله .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ لأنه كان يطيعه . وقيل المعنى : إني لا أملك إلا نفسي ، ثم ٱبتدأ فقال : «وَأَخِي» أي وأخي أيضا لا يملك إلا نفسه ؛ فأخي على القول الأوّل في موضع نصب عطفا على نفسي ، وعلى الثاني في موضع رفع ، وإن شئت عطفت على ٱسم إنّ وهي الياء ؛ أي إني وأخي لا نملك إلا أنفسنا . وإن شئت عطفت على المضمر في أملك كأنه قال : لا أملك أنا وأخي إلا أنفسنا . ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يقال : بأي وجه سأله الفرق بينه و بين هؤلاء القوم ؟ فيه أجوبة ؛ الأول — بما يدل على بعدهم عن الحق ، وذهابهم عن الصواب فيما ارتكبوا من العصيان ؛ ولذلك ألقوا في التّيه . الثاني — بطلب التمييز أي ميزنا عن جماعتهم و جملتهم ولا تلحقنا بهم في العقاب . وقيل المعنى : فاقض بيننا و بينهم بعصمتك إيانا من العصيان الذي ابتليتهم به ؛ ومنه قوله تعالى : «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» أي يقضى . وقد فعل لما أماتهم في التّيه . وقيل : إنما أراد في الآخرة ، أي اجعلنا في الجنة ولا تجعلنا معهم في النار؛ والشاهد على الفرق الذي يدل على المباعدة في الأحوال قول الشاعر :

يا ربِّ فافرق بينه و بيني * أشدّ ما فرّقتَ بين ٱثنين

وروى ابن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير أنه قرأ : « فَافْرِقْ » بكسر الراء .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ آستجاب الله دعاءه وعاقبهم في التّيه أربعين سنة . وأصل التّيه في اللغة الحَيْرة ؛ يقال منه : تَاهَ يَتِيه تَيْهًا وَتَوْهًا إذا تَحيّر . وتَيّهته وتَوّهته بالياء والواو ، والياء أكثر . والأرض التّيْهاء التي لا يهتدى فيها ؛ وأرض تِيهٌ وتَيْهاء ومنها قال (١) :

* تِيهٍ أَتَاوِيهٍ على السُّقّاطِ *

وقال آخر :

بِتَيْهَاءَ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأنّها * قَطَا الحَزْنِ قد كانت فِراخًا بُيُوضُها

فكانوا يسيرون في فراسخ قليلة — قيل في قدر ستة فراسخ — يومهم وليلتهم فيُصبحون حيث أمسوا ويُمسون حيث أصبحوا ؛ فكانوا سيارة لا قرار لهم . واختلف هل كان معهم موسى وهرون ؟ فقيل لا ؛ لأن التّيه عقوبة ، وكانت سنو التّيه بعدد أيام العجل ، فقوبلوا على كل يوم سنة ؛ وقد قال : « فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » . وقيل : كانا معهم لكن سهل الله الأمر عليهما كما جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم . ومعنى « مُحَرَّمَةٌ » أي أنهم ممنوعون من دخولها ؛ كما يقال : حرّم الله وجهك على النار ، وحرمت عليك دخول النار ؛ فهو تحريم منع لا تحريم شرع ، عن أكثر أهل التفسير ؛ كما قال الشاعر :

جَالَتْ لتصرعني فقلتُ لها اقصِري * إنّي آمرؤٌ صَرْعِي عليكِ حرامُ

أي أنا فارس فلا يمكنك صرعي . وقال أبو عليّ : يجوز أن يكون تحريم تعبد . ويقال : كيف يجوز على جماعة كثيرة من العقلاء أن يسيروا في فراسخ يسيرة فلا يهتدوا للخروج منها ؟ فالجواب — قال أبو عليّ : قد يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التي هم عليها إذا ناموا فيردّهم

(١) هو العجاج . يصف أرضا مجهولة ليس بها علامات يهتدى بها ، وأتاويه أفاعيل من تيه . والسقاط كل من سقط عليه ، وهم الذين لا يصبرون ولا يجدون ، الواحد ساقط . وصدر البيت :

* وبسطه بسعة البساط *　　　　والبساط المكان الواسع من الأرض .

وقبل هذا البيت :　　وبلدةٍ بعيدة النّياط * مجهولةٍ تغتالُ خطو الخاطى

إلى المكان الذى ابتـدءوا منه . وقـد يكون بغير ذلك من الاشتباه والأسباب المـانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارجة عن العادة . «أَرْبَعِينَ» ظرف زمان للتّيه ؛ فى قول الحسن وقَتَادة؛ قالا : ولم يدخلها أحد منهم؛ فالوقف على هذا على «عَلَيْهِم» . وقال الرّبيع ابن أنس وغيره : إن «أَرْبَعِينَ سَنَةً» ظرف للتحريم ؛ فالوقف على هذا على «أَرْبَعِينَ سَنَةً» ؛ فعلى الأوّل إنمـا دخلها أولادهم ؛ قاله ٱبن عباس. ولم يبق منهـم إلا يوشع وكالب ؛ فخرج منهم يوشع بذرياتهم إلى تلك المدينة وفتحوها . وعلى الثـانى — فمن بقى منهم بعد أربعين سـنة دخلها . وروى عن ابن عباس أن موسى وهرون ماتا فى التّيه . قال غيره : ونبأ الله يوشع وأمره بقتال الجبارين ، وفيها حبست عليه الشمس حتى دخل المدينـة ، وفيها أحرق الذى وجد الغُلُول عنـده، وكانت تنزل من السماء إذا غنِموا نار بيضاء فتأكل الغنائم؛ وكان ذلك دليلا على قبولها ، فإن كان فيهـا غلول لم تأكله، وجاءت السـباع والوحوش فأكلته؛ فنزلت النار فلم تأكل ما غنِموا فقال : إن فيكم الغُلُول فلتبايعنى كلّ قبيـلة فبايعته ، فلصقت يد رجل منهم بيـده فقال : فيكم الغُلُول فليبايعنى كل رجل منكم فبايعـوه رجلا رجلا حتى لصقت يد رجل منهم بيده فقال : عندك الغُلُول فأخرج مثل رأس البقرة من ذهب[1]، فنزلت النار فأكلت الغنائم . وكانت نارا بيضاء مثل الفضة لها حفيف أى صوت مثل صوت الشجر وجناح الطائر فيما يذكرون ؛ فذكروا أنه أحرق الغَالّ ومتاعه بغَوْر يقـال له الآن غَوْر عاجز، عُرِف باسم الغالّ؛ وكان ٱسمه عاجزا .

قلت : ويستفاد من هذا عقوبة الغال قبلنا ، وقد تقدّم[2] حكمه فى ملتنا . وبيان ما انبهم من ٱسم النبي والغالّ فى الحـديث الصحيح عن أبى هُرَيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "غزا نبيّ من الأنبياء" الحديث أخرجه مسلم وفيـه قال : "فغزا فأدنى للقرية[3] حين صلاة العصر أو قريبا من ذلك فقال للشمس أنتِ مأمورة وأنا مأمور اللهم ٱحبِسها[4] علىّ شيئا

(١) كقدره أو كصورته من ذهب كان غله وأخفاه . (٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) لفظ البخارى « فدنا من القرية » ولعل ما هنا على حذف المفعول أى قرّب جيوشه وجموعه لها . النووى . (٤) أى امنعها من السير زمانا حتى يتيسر لى الفتح نهارا .

فحبست عليه حتى فتح الله عليه — قال : فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار لتأكله فأبت أن تطعمه فقال : فيكم غُلُول فليبايعني من كل قبيلة رجل فبايعوه — قال — فلصقت [يده] بيد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغُلُول " وذكر نحو ما تقدّم . قال علماؤنا : والحكمة في حبس الشمس على يوشع عند قتاله أهل اريحاء وإشرافه على فتحها عَشِيّ يوم الجمعة، وإشفاقه من أن تغرب الشمس قبل الفتح أنه لو لم تُحبس عليه حرم عليه القتال لأجل السبت، ويعلم به عدوّهم فيعمل فيهم السيف ويجتاحهم؛ فكان ذلك آية له خُصّ بها بعد أن كانت نبوّته ثابتة بخبر موسى عليه الصلاة والسلام، على ما يقال . والله أعلم . وفي هذا الحديث يقول عليه السلام : "فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأنّ الله عز وجل رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا" . وهذا يردّ قول من قال في تأويل قوله تعالى : « وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » إنه تحليل الغنائم والانتفاع بها . وممن قال إن موسى عليه السلام مات بالتيه عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ، وزاد وهٰرون؛ وكانا خرجا في التّيه إلى بعض الكهوف فمات هٰرون فدفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل؛ فقالوا : ما فعل هٰرون؟ فقال : مات؛ قالوا : كذبت ولكنك قتلته لحبنا له، وكان مُحَبًّا في بني إسرائيل؛ فأوحى الله تعالى إليه أن انطلق بهم إلى قبره فإني باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتا ولم تقتله؛ فانطلق بهم إلى قبره فنادى يا هٰرون فخرج من قبره ينفض رأسه فقال : أنا قاتلك ؟ قال : لا؛ ولكني متّ؛ قال : فعد إلى مَضْجَعك؛ وانصرف . وقال الحسن : إن موسى لم يمت بالتّيه . وقال غيره : إن موسى فتح أريحاء، وكان يوشع على مقدّمته فقاتل الجبابرة الذين كانوا بها، ثم دخلها موسى ببني إسرائيل فأقام فيها ماشاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله تعالى إليه لا يعلم بقبره أحد من الخلائق . قال الثعلبيّ : وهو أصح الأقاويل .

قلت : قد روى مسلم عن أبي هُرَيرة قال : أُرْسِل مَلَك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صَكّه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال : «أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت» قال : فرد الله إليه عينه وقال : «ارجع إليه فقل له يضع يده على مَتْن ثور فله بما غطّت يده بكل شعرة سنة» قال : «أي رب ثم مَهْ» ، قال : «ثم الموت» قال : «فالآن» ؛ فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدّسة رمية بحجر؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فلو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبره إلى

جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر " فهذا نبينا صلى الله عليه وسلم قد علم قبره ووصف موضعه ، ورآه فيه قائما يصلى كما فى حديث الإسراء ، إلا أنه يحتمل أن يكون أخفاه الله عن الخلق سواه ولم يجعله مشهورا عندهم ؛ ولعل ذلك لئلا يُعبد ، والله أعلم . ويعنى بالطريق طريق بيت المقدس . ووقع فى بعض الروايات إلى جانب الطُّور مكان الطريق . وآختلف العلماء فى تأويل لَطْم موسى عين ملَك الموت وفَقْئها على أقوال ؛ منها : أنها كانت عينا متخيلة لا حقيقية ، وهذا باطل ؛ لأنه يؤدى إلى أن ما يراه الأنبياء من صور الملائكة لا حقيقة له .

ومنها : أنها كانت عينا معنوية وإنما فقأها بالحجة ، وهذا مجاز لا حقيقة . ومنها : أنه عليه السلام لم يعرِف ملَك الموت ، وأنه رأى رجلا دخل منزله بغير إذنه يريد نفسه فدافع عن نفسه فلطم عينه ففقأها ؛ وتجب المدافعة فى هذا بكل ممكن . وهذا وجه حسن ؛ لأنه حقيقة فى العين والصّك ؛ قاله الإمام أبو بكر بن خزيمة ، غير أنه آعترض عليه بما فى الحديث ؛ وهو أن ملَك الموت، لما رجع إلى الله تعالى قال : «يا رب أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت» فلو لم يعرفه موسى لما صَدَق هذا القول من مَلَك الموت ؛ وأيضا قوله فى الرواية الأخرى : «أجب ربك» يدلّ على تعريفه بنفسه . والله أعلم . ومنها : أن موسى عليه الصلاة والسلام كان سريع الغضب ، إذا غضب طلع الدّخان من قَلَنْسُوَته(١) ورفع شعرُ بدنه جبّته ، وسرعة غضبه كانت سببا لصَكّه ملك الموت . قال آبن العربى : وهذا كما ترى ؛ فإن الأنبياء معصومون أن يقع منهم آبتداء مثل هذا فى الرضا والغضب . ومنها وهو الصحيح من هذه الأقوال : أن موسى عليه السلام عرف ملك الموت ، وأنه جاء ليقبض روحه لكنه جاء مجىء الجازم بأنه قد أمر بقبض روحه من غير تخيير ، وعند موسى ما قد نص عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أن الله لا يقبض روح نبىّ حتى يخيره ، فلما جاءه على غير الوجه الذى أعلم بادر بشهامته وقوة نفسه إلى أدبه ، فلطمه ففقأ عينه آمتحانا لملَك الموت ؛ إذ لم يصرح له بالتخيير . ومما يدل على صحة هذا ، أنه لما رجع إليه ملَك الموت نخيّره بين الحياة والموت فاختار الموت

(١) القلنسوة : ما يلبس على الرأس .

وآستسلم . والله بغيبه أحكم وأعلم . هذا أصح ما قيل فى وفاة موسى عليه السلام . وقد ذكر المفسرون فى ذلك قصصا وأخبارا الله أعلم بصحتها ؛ وفى الصحيح غُنْيَة عنها . وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة؛ فيروى أن يوشع رآه بعد موته فى المنام فقال: له كيف وجدت الموت؟ فقال : « كشاة تسلخ وهى حية » . وهذا صحيح معنى؛ قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : "إن للموت سكرات" على ما بيناه فى كتاب « التذكرة » . وقوله : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى لا تحزن . والأسى الحزن ؛ أَسِىَ يأسى أَسًى أى حزِن؛ . قال :(١)

* يقولون لا تهلك أَسًى وتجمَّلِ *

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ آدمَ بِالْحَقِّ ﴾ الآية . وجه آتصال هذه الآية بما قبلها التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود، ونقضهم المواثيق والعهود كظلم آبن آدم لأخيه . المعنى : إن هَمَّ هؤلاء اليهود بالفَتْك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء ، وقتل قابيل هابيل، والشّر قديم . أى ذكّرهم هذه القصّة فهى قصّة صدق، لا كالأحاديث الموضوعة؛ وفى ذلك تبكيت لمن خالف الإسلام، وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم . وآختلف فى آبنى آدم؛ فقال الحسن البصرىّ : ليسا لصُلْبه ، كانا رجلين من بنى إسرائيل ــ ضرب الله بهما المثل فى إبانة حسد اليهود ــ وكان بينهما خصومة ، فتقربا بقربانين ، ولم تكن القرابين إلا فى بنى إسرائيل . قال آبن عطية : وهذا وَهَمٌ ، وكيف يجهل صورة الدّفن أحد من بنى إسرائيل حتى يقتدى بالغراب ؟ والصحيح أنهما آبناه لصلبه ؛ هذا قول الجمهور من المفسرين وقاله آبن عباس وآبن عمر وغيرهما ؛ وهما قابيل وهابيل ، وكان قربان قابيل حُزمة من سُنبل ــ لأنه كان

(١) هو آمرؤ القيس ، وصدر البيت : « وقوفا بها صحبي على مطيهم » .

صاحب زرع — واختارها من أردأ زرعه، ثم إنه وجد فيها سُنْبلة طيبة ففركها وأكلها . وكان قربان هابيل كبشا — لأنه كان صاحب غنم — أخذه من أجود غنمه . ﴿ فَتُقُبِّلَ ﴾ فرُفـع إلى الجنّة ، فلم يزل يرعى فيها إلى أن فُدِى به الذّبيح عليه السلام ؛ قاله سعيد بن جُبَير وغيره . فلما تُقبل قُرْبان هابيل لأنه كان مؤمنا — قال له قابيل حسدا : — لأنه كان كافرا — أتمشى على الأرض يراك الناس أفضل مني! ؟ ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ . وقيل : سبب هذا القُرْبان أن حوّاء عليها السلام كانت تلد في كل بطن ذكرا وأنثى — إلّا شِيثا عليه السلام فإنها ولدته منفردا عوضا من هابيل على ما يأتى ، واسمه هبة الله ؛ لأن جبريل عليه السلام قال لحوّاء لما ولدته : هذا هبة الله لكِ بدل هابيل . وكان آدم يوم ولد شِيث ابن ثلاثين ومائة سنة — وكان يزوّج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته تَوْءمته؛ فولدت مع قابيل أختا جميلة واسمها إقليمياء ، ومع هابيل أختا ليست كذلك واسمها ليوذا؛ فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل : أنا أحق بأختى، فأمره آدم فلم يأتمر ، وزجره فلم ينزجر؛ فاتفقوا على التقريب ؛ قاله جماعة من المفسرين منهم ابن مسعود . وروى أن آدم حَضَر ذلك . والله أعلم . وقد رُوى فى هذا الباب عن جعفر الصادق : أن آدم لم يكن يزوّج ابنته من ابنه ؛ ولو فعل ذلك آدم لما رغب عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا كان دين آدم إلّا دين النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الله تعالى لما أهبط آدم وحوّاء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حوّاء بنتا فسماها عناقا فبغت ، وهى أوّل من بَغَى على وجه الأرض ؛ فسَلّط الله عليها من قتلها ، ثم ولدت لآدم قابيل ، ثم ولدت له هابيل؛ فلما أدرك قابيل أظهر الله له جِنّية من ولد الجن، يقال لها جمالة فى صورة إنسية؛ وأوحى الله إلى آدم أن زَوِّجها من قابيل فزوّجها منه . فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حُورِيّة فى صفة إنسية وخلق لها رحما ، وكان اسمها بزلة ، فلما نظر إليها هابيل أحبها؛ فأوحى الله إلى آدم أن زوّج بزلة من هابيل ففعل . فقال قابيل : يا أبتِ ألستُ أكبر من أخى؟ قال : نعم . قال : فكنت أحق بما فعلت به منه ! فقال له آدم : يا بنيّ إن الله قد أمرنى بذلك، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء؛ فقال : لا والله، ولكنك آثرته علىّ . فقال آدم : «فقرّبا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بالفضل» .

قلت : هذه القصة عن جعفر ما أظنها تصح ، وأن القول ما ذكرناه من أنه كان يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن . والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً » وهذا كالنص ثم نسخ ذلك ، حسبما تقدّم بيانه فى سورة «البقرة» . وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى فى عشرين بطنا ؛ أولهم قابيل وتوءمته إقليمياء ، وآخرهم عبد المغيث . ثم بارك الله فى نسل آدم . قال ٱبن عباس : لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا . وما روى عن جعفر — قوله : فولدت بنتا وأنها بغت — فيقال : مع من بغت؟ أمع جنى تسوّل لها ! ومثل هذا يحتاج إلى نقل صحيح يقطع العذر ، وذلك معدوم . والله أعلم .

الثانيـة — وفى قول هابيل : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ كلام قبله محذوف ؛ لأنه لما قال له قابيل : « لَأَقْتُلَنَّكَ » قال له : ولم تقتلنى وأنا لم أجن شيئا ؟ ، ولا ذنب لى فى قبول الله قربانى ، أمّا إنى ٱتقيته وكنت على لاحب (١) الحق فإنما يتقبل الله من المتقين . قال ٱبن عطية : المراد بالتقوى هنا ٱتقاء الشرك بإجماع أهل السنة ؛ فمن ٱتقاه وهو موحد فأعماله التى تصدق فيها نيته مقبولة ؛ وأمّا المتقى الشرك والمعاصى فله الدرجة من القبول والختم بالرحمة ؛ علم ذلك بإخبار الله تعالى لا أن ذلك يجب على الله تعالى عقلا . وقال عدىّ بن ثابت وغيره : قربان متقى هذه الأمة الصلاة .

قلت : وهذا خاص فى نوع من العبادات . وقد روى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تبارك وتعالى قال من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما ٱفترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينّه ولئن ٱستعاذنى لأعيذنّه وما تردّدت عن شىء أنا فاعله تردّدى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته" .

(١) لاحب : واضح .

قوله تعالى : لَئِنْ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

فيـه مسئلتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ ﴾ الآية . أى لئن قصدت قتلى فأنا لا أقصد قتلك ؛ فهذا آستسلام منه . وفى الخبر : إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم . وروى أبو داود عن سعد بن أبي وقّاص قال قلت يا رسول : إن دخل علىّ بيتى و بسط يده ليقتلنى ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كن كابنى آدم" وتلا هذه الآية « لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي » . قال مجاهد : كان الفرض عليهم حينئذ ألا يستلّ أحد سيفا ، وألا يمتنع ممن يريد قتله . قال علماؤنا : وذلك مما يجوز ورود التعبد به ، إلّا أن فى شرعنا يجوز دفعه إجماعا . وفى وجوب ذلك عليه خلاف ، والأصح وجوب ذلك ؛ لما فيه من النهى عن المنكر . وفى الحشوية قوم لا يجوّزون للمَصُول عليه الدفع ؛ وآحتجوا بحديث أبى ذرّ (١) ، وحمله العلماء على ترك القتال فى الفتنة ، وكفّ اليد عند الشبهة ؛ على ما بيناه فى كتاب «التذكرة» . وقال عبد الله بن عمرو و جمهور الناس : كان هابيل أشدّ قوة من قابيل ولكنه تحرّج . قال آبن عطية : وهذا هو الأظهر ، ومن هنا يقوى أن قابيل إنما هو عاصٍ لا كافر ؛ لأنه لو كان كافرا لم يكن للتحرّج هنا وجه ، وإنما وجه التحرّج فى هذا أن المتحرج يأبى أن يقاتل موحدا ، ويرضى بأن يُظلم ليجازى فى الآخرة ؛ ونحو هذا فعل عثمان رضى الله عنه . وقيل : المعنى لا أقصد قتلك بل أقصد الدفع عن نفسى ، وعلى هذا قيل : كان نائما فجاء قابيل ورضخ رأسه بحجر على ما يأتى . ومدافعة الإنسان عمن يريد ظلمه جائزة و إن أتى على نفس العادى . وقيل : لئن بدأت بقتلى فلا أبدأ بالقتل . وقيل : أراد لئن بسطت إلىّ يدك ظلما فما أنا بظالم ؛ إنى أخاف الله رب العالمين .

(١) حديث أبى ذر : لعله هو المذكور فى سنن أبى داود فى باب النهى عن السعى فى الفتنة جزء ثان ، فليراجع .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ قيل معناه معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا ٱلتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" قيل يا رسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : "إنه كان حريصا على قتل صاحبه" وكأن هابيل أراد أنى لست بحريص على قتلك ؛ فالإثم الذى كان يلحقنى لو كنت حريصا على قتلك أريد أن تحمله أنت مع إثمك فى قتلى . وقيــل : المعنى « بإثمى » الذى يختص بى فيما فرطت ؛ أى يؤخذ من سـيئاتى فتطرح عليك بسبب ظلمك لى ، وتبوء بإثمك فى قتلك ؛ وهــذا يعضده قوله عليه الصلاة والسلام : "يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد فى حسنات المظلوم حتى ينتصف فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه" . أخرجه مسلم بمعناه ، وقد تقدّم ؛ ويعضده قوله تعالى : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » وهذا بيّن لا إشكال فيه . وقيل : المعنى إنى أريد ألا تبوء بإثمى و إثمك كما قال تعالى : « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » أى لئلا تميــد بكم . وقوله تعــالى : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لئلا تضلوا فحذف « لا » .

قلت : وهذا ضعيف ؛ لقوله عليه السلام : "لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ٱبن آدم الأوّل كِفل من دمها لأنه أوّل من سَنّ القتل" ، فثبت بهــذا أن إثم القتل حاصل ؛ ولهذا قال أكثر العلماء : إنّ المعنى ؛ ترجع بإثم قتلى و إثمك الذى عملته قبــل قتلى . قال الثعلبيّ : هــذا قول عامة أكثر المفسرين . وقيــل : هو ٱستفهام ، أى أو إنى أريد ؟ على جهة الإنكار ؛ كقوله تعالى : « وتلك نِعمة » أى أو تلك نعمة؟ وهذا لأن إرادة القتل معصية . وسئل أبو الحسن بن كَيْسان : كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وأن يدخل النار ؟ فقال : إنمـا وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليــه بالقتل ؛ والمعنى : لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى لأمتنعنّ من ذلك مريدا للثواب ؛ فقيــل له : فكيف قال : بإثمى و إثمك ؛ وأىّ إثم له إذا قتِل ؟ فقال : فيه ثلاثة أجوبة : أحدها — أن تبوء بإثم قتــلى و إثم ذنبك الذى من أجله لم يتقبل قربانك ؛ و يروى هــذا القول عن مجاهد . والوجه الآخر — أن تبوء بإثم قتلى و إثم

آعتدائك عليّ ؛ لأنه قد يأثم بالآعتـداء وإن لم يقتل . والوجه الثالث — أنه لو بسط يده إليه أَثِم؛ فرأى أنه إذا أمسك عن ذلك فإثمه يرجع على صاحبه . فصار هـذا مثل قولك : المـال بينه وبين زيد؛ أى المـال بينهما ؛ فالمعنى أن تبوء بإثمنا . وأصل باء رجع إلى المَبَاءة، وهى المنزل . « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » أى رجعوا . وقـد مضى فى « البقرة » (١) مستوفى . وقال الشاعر (٢) :

أَلَا تَنْتَهِى عَنَّـا مُلُوكٌ وتَتَّقِى * مَحَارِمَنـا لا يَبُـؤِ (٣) الدَّمُ بالدَّمِ

أى لا يرجع الدّم بالدّم فى القود . « فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » دليـل على أنهم كانوا فى ذلك الوقت مكلّفين قد لحقهم الوعد والوعيد . وقد آستدل بقول هابيل لأخيه قابيل : « فتكون من أصحابِ النارِ » على أنه كان كافرا؛ لأن لفظ أصحاب النار إنمـا ورد فى الكفار حيث وقع فى القرآن . وهذا مردود هنا بمـا ذكرناه عن أهل العلم فى تأويل الآية . ومعنى « مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » مدّة كونك فيها . والله أعلم .

قوله تعـالى : فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُـهُۥ قَتْـلَ أَخِيـهِ فَقَتَـلَهُۥ فَأَصْـبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ » . أى سوّلت وسهلت نفسه عليه الأمر وشجعته وصوّرت له أن قتل أخيه طوع سهل . يقال : طَاعَ الشيءُ يَطُوع أى سهل وآنقاد . وطوّعه فلان له أى سهله . قال الهَرَوىّ : طوّعت وأَطاعت واحد؛ يقال : طاع له كذا إذا أتاه طوعا . وقيل : طاوعته نفسه فى قتل أخيه؛ فنزع الخافض فآنتصب . وروى أنه

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ طبعه ثانية أو ثالثة . (٢) هو جابر بن جبير التغلبى .

(٣) هكذا روى فى كتاب سيبويه، وساقه شاهدا على جزم « يبؤ » فى جواب الاستفهام؛ وقال فى شواهده : التقدير انته عنا لا يبؤ الدم بالدم — أى — إن انتهيت عنا ولم تقتل منا لم يقتل واحد بآخر . وروى فى « اللسان » بغير هذا .

جهل كيف يقتله فجاء إبليس بطائر — أو حيوان غيره — فجعل يَشْدَخ رأسه بين حجرين ليقتدى به قابيل ففعل؛ قاله ابن جُرَيْج ومجاهد وغيرهما . وقال ابن عباس وابن مسعود : وجده نائما فشدخ رأسه بحجر وكان ذلك في ثَوْر — جبل بمكة — قاله ابن عباس . وقيل عند عَقَبة حِرَاء؛ حكاه محمد بن جرير الطَّبَرِيّ . وقال جعفر الصادق : بالبصرة في موضع المسجد الأعظم . وكان لهابيل يوم قتله قابيل عشرون سنة . ويقال : إن قابيل كان يعرف القتل بطبعه؛ لأن الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها ؛ فأخذ حجرا فقتله بأرض الهند . والله أعلم . ولما قتله ندم فقعد يبكي عند رأسه إذ أقبل غرابان فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ثم حفر له حفرة فدفنه؛ ففعل القاتل بأخيه كذلك . والسوءة يراد بها العورة، وقيل : يراد بها جيفة المقتول؛ ثم إنه هرب إلى أرض عَدَن من اليَمَن، فأتاه إبليس وقال : إنما أكلت النار قُرْبان أخيك لأنه كان يعبد النار، فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار؛ فهو أول من عَبَد النار فيما قيل . والله أعلم . ورُوي عن ابن عباس أنه لما قتله وآدم بمكة اشتاك الشجر ، وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وملحت المياه، واغبرّت الأرض؛ فقال آدم عليه السلام : قد حدث في الأرض حَدَث، فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل . وقيل : إن قابيل هو الذي انصرف إلى آدم، فلما وصل إليه قال له : أين هابيل ؟ فقال : لا أدري كأنك وكلتني بحفظه . فقال له آدم : أفعلتها ؟! والله إن دمه لينادي ؛ اللهم العن أرضا شربت دم هابيل . فرُوي أنه من حينئذ ما شربت أرض دما . ثم إن آدم بقي مائة سنة لم يضحك ، حتى جاءه ملَك فقال له : حَيَّاك الله يا آدم وبَيَّاك . فقال : ما بَيَّاك ؟ قال : أضحكك؛ قاله مجاهد وسالم بن أبي الجَعْد . ولما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة — وذلك بعد قتل هابيل بخمس سنين — ولدت له شيثا، وتفسيره هبة الله، أي خلفا من هابيل . وقال مقاتل : كان قبل قتل قابيل هابيل السباع والطيور تستأنس بآدم، فلما قتل قابيل هابيل هربوا ؛ فلحقت الطيور بالهواء، والوحوش بالبرية، والسباع بالغياض . وروى أن آدم لما تغيرت الحال قال :

تغيّرت البلادُ ومَنْ عليها * فوجهُ الأرض مُغبرٌّ قبيحُ
تغيّر كلُّ ذى طعمٍ ولونٍ * وقلّ بشاشةَ الوجهُ المليحُ

فى ابيات كثيرة ذكرها الثعلبىّ وغيره . قال ابن عطية : هكذا هو الشعر بنصب « بشاشة » وكفّ التنوين . قال القُشيرىّ وغيره قال ابن عباس : ما قال آدم الشّعر، وإن محمدا والأنبياء كلهم فى النهىّ عن الشّعر سواء؛ لكن لما قُتل هابيل رثاه آدم وهو سُريانىّ، فهى مرثية بلسان السّريانية أوصى بها إلى ابنه شيث وقال : إنك وصيى فاحفظ منى هذا الكلام ليُتوارث؛ فحفظت منه إلى زمان يَعْرُب بن قَحْطان، فترجم عنه يعرُب بالعربية وجعله شعرا (١) .

الثانيــة ــ رُوى من حديث أنس قال : سُئل النبى صلى الله عليه وسلم عن يوم الثلاثاء فقال : "يومُ الدّمِ فيه حاضت حوّاء وفيه قتَل ابن آدم أخاه". وثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفل من دمها لأنه كان أوّل من سن القتل" . وهذا نص على التعليل؛ وبهذا الاعتبار يكون على إبليس كِفل من معصية كلّ من عصى بالسجود؛ لأنه أوّل من عصى به، وكذلك كل من أحدث فى دين الله مالا يجوز من البِدع والأهواء؛ قال صلى الله عليه وسلم : "من سَنّ فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمِل بها إلى يوم القيامة ومن سَنّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وِزرها ووِزر من عمل بها إلى يوم القيامة" . وهذا نص فى الخير والشرّ. وقال صلى الله عليه وسلم : "إنّ أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون" . وهذا كله صريح، ونص صحيح فى معنى الاية، وهذا ما لم يتب الفاعل من تلك المعصية؛ لأن آدم عليه السلام كان أوّل من خالف فى أكل ما نُهى عنه، ولا يكون عليه شيء من أوزار من عصى بأكل ما نُهى عنه ولا شربه ممّن بعده بالإجماع؛ لأن آدم تاب من ذلك وتاب الله عليه،

(١) قال الألوسى : ذكر بعض علماء العربية أن فى ذلك الشعر لحنا، أو إقواء، أو ارتكاب ضرورة، والأولى عدم نسبته إلى يعرب أيضا لما فيه من الركاكة الظاهرة . وقال صاحب « البحر المحيط » : ويروى بنصب « بشاشة » من غير تنوين على التمييز ورفع « الوجه المليح » وليس بلحن .

فصار كمن لم يجن . ووجه آخر — فإنه أكل ناسيا على الصحيح من الأقوال ، كما بيناه في « البقرة »[1] والناسي غير آثم ولا مؤاخذ .

الثالثة — تضمنت هذه الآية البيان عن حال الحاسد ، حتى أنه قد يحمله حسده على إهلاك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة ، وأمسه به رحما ، وأولاهم بالحنو عليه ودفع الأذية عنه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى ممن خسر حسناته . وقال مجاهد : علقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة ، ووجهه إلى الشمس حيثما دارت ، عليه فى الصيف حظيرة من نار ، وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج . قال ابن عطية : فإن صح هذا فهو من خسرانه الذى تضمنه قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » وإلا فالخسران يعم خسران الدنيا والآخرة .

قلت ، ولعل هذا يكون عقوبته على القول بأنه عاص لا كافر ؛ فيكون المعنى « فأصبح من الخاسرين » أى فى الدنيا . والله أعلم .

قوله تعالى : فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر فدفنه . وكان ابن آدم هذا أول من قُتِل . وقيل : إن الغراب بحث الأرض على طُعْمه[2] ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه ، لأنه من عادة الغراب فعل ذلك ؛ فتنبه قابيل بذلك على مواراة أخيه . ورُوى أن قابيل لما قتل هابيل جعله فى جراب ، ومشى به يحمله فى عنقه مائة سنة ؛ قاله مجاهد . وروى ابن القاسم عن مالك

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) طعمه : أكله .

أنه حمله سنة واحدة ؛ وقاله ٱبن عباس . وقيل : حتى أَرْوَحَ(١) ولا يدرى ما يصنع به إلى أن ٱقتدى بالغراب كما تقدّم . وفى الخبر عن أنس قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "ٱمتن الله على ٱبن آدم بثلاث بعد ثلاث بالريح بعد الرُّوح ، فلولا أن الرّيح يقع بعد الروح ما دفن حميم حميا و بالدود فى الجثة فلولا أن الدود يقع فى الجثة لا كتنزها الملوك وكان خيرا لهم من الدراهم والدنانير و بالموت بعد الكبر و إن الرجل ليكبر حتى يملّ نفسه و يملّه أهله و ولده وأقرباؤه فكان الموت أستر له" . وقال قوم : كان قابيل يعلم الدفن، ولكن ترك أخاه بالعراء استخفافا به، فبعث الله غرابا يبحث التراب على هابيل ليدفنه ، فقال عند ذلك : ﴿ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيض له الغراب حتى واراه ، ولم يكن ذلك ندم توبة . وقيل : إنما ندمه كان على فقده لا على قتله ، و إن كان فلم يكن موفيا شروطه . أو ندم ولم يستمر ندمه ؛ فقال ٱبن عباس : ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه . و يقال : إن آدم وحوّاء أتيا قبره و بكيا أياما عليه . ثم إن قابيل كان على ذروة جبل فنطحه ثور فوقع إلى السفح وقد تفرّقت عروقه . و يقال : دعا عليه آدم فانخسفت به الأرض . و يقال : إن قابيل ٱستوحش بعد قتل هابيل ولزم البرّيّة ، وكان لا يقدر على ما يأكله إلا من الوحش، فكان إذا ظفر به وقذه حتى يموت ثم يأكله . قال ٱبن عباس : فكانت الموقوذة حراما من لدن قابيل بن آدم، وهو أوّل من يساق من الآدميين إلى النار؛ وذلك قوله تعالى : « رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » فإبليس رأس الكافرين من الجنّ، وقابيل رأس الخطيئة من الإنس ؛ على ما يأتى بيانه فى « حم فصلت »(٢) إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إن الندم فى ذلك الوقت لم يكن توبة ،والله بكل ذلك أعلم وأحكم . وظاهر الآية أن هابيل أوّل ميت من بنى آدم ؛ ولذلك جُهِلت سُنّة المواراة ؛ وكذلك حكى الطّبرىّ عن إسحق عن بعض أهل العلم بما فى كتب الأوائل . و «يبحث» معناه يفتش التراب

(١) أروح : أنتن . (٢) آية ٢٩ .

بمنقاره وينثره . ومن هذا سميت سورة «براءة» البحوث[(١)]؛ لأنها فتشت عن المنافقين؛ ومن ذلك قول الشاعر :

إذا الناس غطّوني تغطّيتُ عنهم * وإن بحثوني كان فيهم مباحثُ

وفي المثل : لا تكن كالباحث على الشَّفْرة؛ قال الشاعر :

فكانت كعَنْزِ السُّوء قامت برجلها * إلى مُدْية مدفونة تَسْتَثِيرُها

الثانية — بعث الله الغراب حكمة؛ ليرى ابن آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله تعالى : «ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ» فصار فعل الغراب في المواراة سنة باقية في الخلق، فرضا على جميع الناس على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين . وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه، ثم الجيرة، ثم سائر المسلمين . وأما الكفار فقد روى أبو داود عن عليّ قال : قلت للنبيّ صلى الله عليه وسلم إن عمك الشيخ الضال قد مات؛ قال : "اذهب فوارِ أباك التراب ثم لا تُحدِثَنّ شيئا حتى تأتيني"، فذهبت فواريته وجئته فأمرني فاغتسلت ودعا لي .

الثالثة — ويستحب في القبر سعته وإحسانه؛ لما رواه ابن ماجة عن هشام بن عامر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احفروا وأوسعوا وأحسنوا". وروى عن الأَدْرَع السُّلَميّ قال : جئت ليلة أحرس النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فإذا رجل قراءته عالية، فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : هذا مُراءٍ[(٢)]؛ قال : فمات بالمدينة ففرغوا من جهازه فحملوا نعشه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ارفقوا به رفق الله به إنه كان يحب الله ورسوله" قال: وحضر حفرته فقال : "أوسعوا له وسع الله عليه" فقال بعض أصحابه : [يا رسول الله][(٣)] لقد حزنت عليه؟ فقال : "أَجَلْ إنه كان يحب الله ورسوله"؛ أخرجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن زيد الحُبَاب عن موسى بن عبيدة عن سعيد بن أبي

(١) البحوث (بضم الباء) جمع بحث، وقال بن الأثير : رأيت في «الفائق» سورة «البحوث» بفتح «الباء» فإن صحت فهي فعول من أبنية المبالغة، ويكون من باب إضافة الموصوف إلى الصفة .

(٢) من الرياء، وكأنه عليه الصلاة والسلام أعرض عن كلامه تنبيها على أنه خطأ، ثم بين في وقت آخر أن الأمر على خلاف ما زعم . «هامش ابن ماجة» . (٣) الزيادة عن (ابن ماجة) .

سعيد . قال أبو عمر بن عبد البر : أَدْرَع السُّلَمِيّ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا واحدا، وروى عنه سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ؛ وأما هشام بن عامر بن أمية بن الحَسْحَاس ابن عامر ٱبن غَنْم بن عدىّ بن النّجار الأنصاري ، كان يُسمَّى في الجاهلية شهابا فغَيّر النبي صلى الله عليه وسلم ٱسمه فسماه هشاما ، واستشهد أبو عامر يوم احد . سكن هشام البصرة ومات بها؛ ذكر هذا في كتاب الصحابة .

الرابعــة — ثم قيل : اللّحد أفضل من الشّق؛ فإنه الذى اختاره الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن النبي عليه السلام لما تُوفّى كان بالمدينة رجلان أحدهما يلحد(١) والآخر لا يلحد؛ فقالوا أيهما جاء أوّل عمل عمله ، فجاء الذى يلحد فلحد لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذكره مالك في الموطأ عن هشام بن عُروة عن أبيه ، وأخرجه ٱبن ماجة عن أنس بن مالك وعائشة رضى الله عنهما . والرجلان هما أبو طلحة وأبو عبيدة؛ وكان أبو طلحة يلحد وأبو عبيدة يشقّ . واللحد هو أن يحفر في جانب القبر إن كانت تربة صلبة ، يوضع فيه الميت ثم يوضع عليه اللَّبِن ثم يُهال التراب؛ قال سعد بن أبي وَقّاص في مرضه الذى هلك فيه : ألحِدوا لى لَحْدًا وٱنصِبوا علىّ اللَّبِن نصبا كما صنِع برسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه مسلم . وروى ٱبن ماجة وغيره عن ٱبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللحد لنا والشق لغيرنا".

الخامســة — روى ٱبن ماجة عن سعيد بن المسيّب قال: حضرت ٱبن عمر في جنازة فلما وضعها في اللحد قال : بسم الله وفى سبيل الله وعلى مِلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أخذ في تسوية [اللبن على(٢)] اللحد قال : اللهم أجِرها من الشيطان ومن عذاب القبر، اللهم جافِ الأرض عن جنبيها، وصعِّد روحها ولَقِّها منك رضوانا . قلت يا ٱبن عمر أشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم قلته برأيك ؟ قال : إنى إذا لقادر على القول ! بل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى عن أبي هُرَيرة أن رسول الله

(١) يلحد كيمنع، أو من ألحد . (٢) الزيادة عن (ٱبن ماجة) .

صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة ثم أَتَى قبر الميت فحثا عليه من قِبل رأسه ثلاثا . فهذا ما تعلق فى معنى الآية من الأحكام . والأصل فى « يَا وَيْلَتَى » ياويلتى ثم أُبدل من الياء ألف . وقرأ الحسن على الأصل بالياء ، والأول أفصح ؛ لأن حذف الياء فى النداء أكثر . وهى كلمة تدعو بها العرب عند الهلاك ؛ قاله سيبويه . وقال الأصمعى : « وَيْلٌ » بُعْدٌ . وقرأ الحسن : « أَعَجِزْتُ » بكسر الجيم . قال النحاس : وهى لغة شاذة ؛ إنما يقال عَجِزت المرأة إذا عظمت عجيزتها ، وعَجَزتُ عن الشيء عَجْزا ومَعْجِزة ومَعْجَزَة . والله أعلم .

قوله تعالى : مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ أى من جَرَّاء ذلك القاتل وجَرِيرته . وقال الزجاج : أى من جنايته ؛ يقال : أَجَلَ الرجلُ على أهله شرا يأجل أَجْلاً إذا جنى ؛ مثل أخذ يأخذ أخذا . قال الخنوت[1] .

وأهلِ خباءٍ صالحٍ كنتُ بينهمْ * قد احتربُوا فى عاجلٍ أنا آجِلُه

أى جانيه ؛ وقيل : أنا جارُّه عليهم . وقال عدىّ بن زيد :

أَجْلِ أَنَّ اللهَ قد فَضَّلكمْ * فوق مَنْ أَحْكَأَ[2] صُلبا بإزارِ

وأصله الجَرّ ؛ ومنه الأَجَل لأنه وقت يجرّ إليه العقد الأوّل . ومنه الآجل نقيض العاجل ؛ وهو بمعنى يُجرّ إليه أمر متقدّم . ومنه أَجَلْ بمعنى نعم . لأنه انقياد إلى ما جُرّ إليه . ومنه الآجال للقطيع من بقر الوحش ؛ لأن بعضه ينجر إلى بعض ؛ قاله الرمّانىّ . وقرأ يزيد بن

(١) قال فى البحر : نسبه ابن عطية لخوات بن جبير والبيت فى ديوان زهير .

(٢) أحكأ العقدة : شدّها وأحكمها . والمعنى : فضلكم الله على من ائتزر فشدّ صلبه بإزار ؛ أى فوق الناس أجمعين .

القَعْقاع أبو جعفر : « مِنِ ٱجْلِ ذَلِكَ » بكسر النون وحذف الهمزة وهى لغة، والأصل « مِنْ إِجلِ ذَلِكَ » فألقيت كسرة الهمزة على النون وحذفت الهمزة . ثم قيل : يجوز أن يكون قوله : « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ » متعلقا بقوله : «مِنَ النَّادِمِينَ » فالوقف على قوله : « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ » . ويجوز أن يكون متعلقا بما بعده وهو « كَتَبْنَا » . فـ « مِنْ أَجْلِ » ٱبتداء كلام والتمام « مِنَ النَّادِمِينَ » ؛ وعلى هذا أكثر الناس ؛ أى من سبب هذه النازلة كتبنا . وخَصَّ بنى إسرائيل بالذكر — وقد تقدمتهم أمم قبلهم كان قتل النفس فيهم محظورا — لأنهم أوّل أمّة نزل الوعيد عليهم فى قتل الأنفس مكتوبا ، وكان قبل ذلك قولا مطلقا ؛ فغلظ الأمر على بنى إسرائيل بالكتاب بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء . ومعنى ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى بغير أن يقتل نفسا فيستحق القتل . وقد حرم الله القتل فى جميع الشرائع إلا بثلاث خصال؛ كفر بعد إيمان، أو زنًى بعد إحصان، أو قتل نفس ظلما وتعدّيا . ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى شرك، وقيل : قطع طريق .

وقرأ الحسن — « أَوْ فَسَادًا » بالنصب على تقدير حذف فعل يدل عليه أوّل الكلام تقديره ؛ أو أحدث فسادا ؛ والدليل عليه قوله : « مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ » لأنه من أعظم الفساد .

وقرأ العامة — «فَسَادٍ» بالجر على معنى أو بغير فساد . ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ٱضطرب لفظ المفسرين فى ترتيب هذا التشبيه لأجل أن عقاب من قتل جميعا أكثر من عقاب من قتل واحدا؛ فروى عن ابن عباس أنه قال : المعنى من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياه بأن شدّ عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعا . وعنه أيضا أنه قال : المعنى من قتل نفسا واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعا ، ومن ترك قتل نفس واحدة وصان حرمتها واستحياها خوفا من الله فهو كمن أحيا الناس جميعا . وعنه أيضا ، المعنى فكأنما قتل الناس جميعا عند المقتول ، ومن أحياها وٱستنقذها من هَلَكَة فكأنما أحيا الناس جميعا عند المستنقذ . وقال : مجاهد : المعنى أن الذى يقتل النفس المؤمنة متعمدا جعل الله جزاءه

جهنم وغضب عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما؛ يقول: لو قتل الناس جميعا لم يُزَد على ذلك[1]، ومن لم يقتل فقد حَيِيَ الناس منه. وقال ابن زيد: المعنى أن من قتل نفسا فيلزمه من القَوَد والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعا، قال: ومن أحياها أي من عفا عمن وجب له قتله؛ وقاله الحسن أيضا؛ أي هو العفو بعد المقدرة. وقيل: المعنى أن من قتل نفسا فالمؤمنون كلهم خُصَماؤه لأنه قد وتَرَ الجميع؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، أي يجب على الكل شكره. وقيل: جَعَل إثم قاتل الواحد إثم قاتل الجميع؛ وله أن يحكم بما يريد. وقيل: كان هذا مختصا بني إسرائيل تغليظا عليهم. قال ابن عطية: وعلى الجملة فالتشبيه على ما قيل واقع كلّه، والمنتهك في واحد ملحوظ بعين منتهك الجميع؛ ومثاله رجلان حلفا على شجرتين ألّا يَطْعَما من ثمرهما شيئا، فطَعِم أحدهما واحدة من ثمر شجرته، وطَعِم الآخر ثمر شجرته كلّها، فقد استويا في الحِنْث. وقيل: المعنى أن من استحل واحدا فقد استحل الجميع؛ لأنه أنكر الشرع. وفي قوله تعالى: « وَمَنْ أَحْيَاهَا » تجوّز؛ فإنه عبارة عن الترك والإنقاذ من هَلَكَة، وإلا فالإحياء حقيقة — الذي هو الاختراع — إنما هو لله تعالى. وإنما هذا الإحياء بمنزلة قول نمرود اللعين: « أنا أُحيي وأُميتُ » فسمّى الترك إحياء. ثم أخبر الله عن بني إسرائيل أنهم جاءتهم الرسل بالبينات، وأن أكثرهم مجاوزون الحدّ، وتاركون أمر الله.

قوله تعالى: إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

---

(١) أي لم يُزَد على ذلك من العذاب؛ كما في الطّبري.

فيه خمس عشرة مسئلة :

الأولى ــ اختلف الناس فى سبب هذه الآية ؛ فالذى عليه الجمهور أنها نزلت فى العُرَنيين ؛ روى الأئمة واللفظ لأبى داود عن أنس بن مالك : أن قوما من عُكْل (١) ــ أو قال من عُرَيْنة ــ قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجْتَوَوُا (٢) المدينة ؛ فأمر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا ، فلما صَحُّوا قتلوا راعى النبي صلى الله عليه وسلم واستاقوا النَّعَم ؛ فبلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم خبرهم من أوّل النهار فأرسل فى آثارهم ؛ فما ارتفع النهار حتى جِيء بهم ؛ فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسَمَر (٣) أعينهم وألقوا فى الحرة (٤) يَستسقُون فلا يُسقَون . قال أبو قِلابة : فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله . فى رواية : فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حَسَمهم (٥) ؛ فى رواية ؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبهم قافة (٦) فأُتى بهم ؛ قال : فأنزل الله تبارك وتعالى فى ذلك ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فى رواية قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يَكْدِم (٧) الأرض بفيه عطشا حتى ماتوا . وفى البخاريّ قال جَرير بن عبد الله فى حديثه : فبعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من المسلمين حتى أدركناهم وقد أشرفوا على بلادهم ، فجئنا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال جَرير : فكانوا يقولون الماء ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم النار . وقد حكى أهل التواريخ والسِّير : أنهم قطعوا يدى الرّاعى ورجليه ، وغرزوا الشّوك فى عينيه حتى مات ، وأُدخل المدينة ميتا ، وكان اسمه يَسار وكان نُوبيا . وكان هذا الفعل من المرتدّين سنة ست من الهجرة . وفى بعض الروايات عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرقهم بالنار

---

(١) عكل (بضم العين المهملة وسكون الكاف) : قبيلة مشهورة . (٢) أى أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول ؛ وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها . (النهاية) لابن الأثير . (٣) سمر عين فلان : سملها (فقأها) . (٤) الحرة (بفتح الحاء وتشديد الراء) : أرض خارج المدينة ذات حجارة سود .
(٥) حسم العرق : قطعه ثم كواه لئلا يسيل دمه . (٦) القافة جمع (قائف) وهو الذى يتبع الأثر .
(٧) كدمه : عضه بأدنى فه .

بعد ما قتلهم . وروى عن ابن عباس والضحاك : أنها نزلت بسبب قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض . وفي مصنف أبي داود عن ابن عباس قال : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » إلى قوله : « غَفُورٌ رَحِيمٌ » نزلت هذه الآية في المشركين فمن أُخِذ[(1)] منهم قبل أن يُقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحدّ الذي أصابه . وممن قال إن الآية نزلت في المشركين عِكرمة والحسن، وهذا ضعيف يردّه قوله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » وقوله عليه السلام : "الإسلام يَهدِم ما قبله" أخرجه مسلم ؛ والصحيح الأول لنصوص الأحاديث الثابتة في ذلك . وقال مالك والشافعيّ وأبو ثور وأصحاب الرأي : الآية نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع السبيل ويسعى في الأرض بالفساد . قال ابن المنذر : قول مالك صحيح . قال أبو ثور محتجا لهذا القول : وفي الآية دليل على أنها نزلت في غير أهل الشرك ؛ وهو قوله جل ثناؤه : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ » وقد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا فأسلموا أن دِماءهم تحرم ؛ فدل ذلك على أن الآية نزلت في أهل الإسلام . وحكى الطبريّ عن بعض أهل العلم أن هذه الآية نَسخت فعل النبي صلى الله عليه وسلم في العُرَنيين، ووقف الأمر على هذه الحدود . وروى محمد بن سِيرين قال : كان هذا قبل أن تنزل الحدود ؛ يعني حديث أنس ؛ ذكره أبو داود . وقال قوم منهم الليث بن سعد : ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بوفد عُرَيْنة لم يجز ؛ إذ لا يجوز التمثيل بالمرتد . قال أبو الزِّنَاد : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قَطَع الذين سَرقوا لِقاحه وسَمَل أعينهم بالنار عاتبه الله عز وجل في ذلك ؛ فأنزل الله تعالى في ذلك « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا » الآية . أخرجه أبو داود . قال أبو الزِّنَاد : فلما وُعِظ ونُهِى عن المُثْلَة لم يعُد . وحكى عن جماعة أن هذه الآية ليست بناسخة لذلك الفعل ؛ لأن ذلك وقع في مرتدّين ،

(1) في مصنف أبي داود تاب بدل أخذ .

لاسيما وقـد ثبت فى صحيح مسلم وكتاب النسائى وغيرهما قال : إنمـا سَمَل عليه السلام أعين أولئك لأنهم سَمَلوا أعين الرعاة ؛ فكان هذا قِصاصا ، وهذه الآية فى المحارب المؤمن .

قلت : وهـذا قول حسن ، وهو معنى ما ذهب إليـه مالك والشافعىّ ؛ ولذلك قال الله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ » ومعلوم أن الكفار لا تختلف أحكامهم فى زوال العقوبة عنهم بالتوبة بعد القدرة كما تسقط قبل القدرة . والمرتدّ يستحق القتل بنفس الردة — دون المحاربة — ولا يُنفى ولا تُقطع يده ولا رجله ولا يُخَلَّى سـبيله بل يقتل إن لم يُسلِم ، ولا يُصلب أيضا ؛ فدل أنّ ما اشتملت عليه الآية ما عنى به المرتدّ . وقال تعالى فى حق الكفار : «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ» وقال فى المحاربين : «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » الآية ؛ وهذا بيّن . وعلى ما قرّرناه فى أوّل الباب لا إشكال ولا لوم ولا عتاب إذ هو مقتضى الكتاب ؛ قال الله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » فَمَثَّلُوا فمُثِّل بهم ، إلّا أنه يحتمل أن يكون العتاب إن صح على الزيادة فى القتل ؛ وذلك تكحيلهم بمسامير مُحْماة وتركهم عَطَاشى حتى ماتوا ، والله أعلم . وحكى الطَّبَرىّ عن السُّدىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يَسْمُل أعين العُرَنيين وإنمـا أراد ذلك ؛ فنزلت الآية ناهية عن ذلك ، وهذا ضعيف جدا ؛ فإن الأخبار الثابتة وردت بالسَّمْل ؛ فى صحيح البخارىّ : فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم . ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم هذه الآية مترتب فى المحاربين من أهل الإسلام وإن كانت نزلت فى المرتدين أو اليهـود . وفى قوله تعالى : « إِنَّمَـا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » اسـتعارة ومجاز ؛ إذ الله سبحانه وتعـالى لا يُحارَب ولا يُغالَب لِمـا هو عليه من صفات الكمال ، ولِمـا وجب له من التنزيه عن الأضداد والأنداد . والمعنى : يحاربون أولياء الله ؛ فعبر بنفسه العزيزة عن أوليائه إكبارا لأذيتهم ، كما عبر بنفسه عن الفقراء الضعفاء فى قوله : «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » حَثًّا على الاستعطاف عليهـم ؛ ومثله فى صحيح السنة "استطعمتُك فلم تُطْعِمنى" . الحديث أخرجه مسلم[(١)] ، وقد تقدّم فى «البقرة» .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

الثانية — واختلف العلماء فيمن يستحق آسم المحاربة؛ فقال مالك : المحارب عندنا من حمل على الناس في مصر أو في برية وكابرهم عن أنفسهم وأموالهم دون نائرة[1] ولا ذحل[2] ولا عداوة؛ قال آبن المنذر : آختلف عن مالك في هذه المسئلة، فأثبت المحاربة في المصر مرة ونفى ذلك مرة؛ وقالت طائفة : حكم ذلك في المصر أو في المنازل والطرق وديار أهل البادية والقرى سواء وحدودهم واحدة؛ هذا قول الشافعي وأبي ثور؛ قال آبن المنذر : كذلك هو لأن كلا يقع عليه آسم المحاربة، والكتاب على العموم، وليس لأحد أن يخرج من جملة الآية قوما بغير حجة . وقالت طائفة: لا تكون المحاربة في المصر إنما تكون خارجا عن المصر؛ هذا قول سفيان الثوري وإسحق والنعمان . والمغتال كالمحارب وهو أن يحتال في قتل إنسان على أخذ ماله ، وإن لم يشهر السلاح لكن دخل عليه بيته أو صحبه في سفر فأطعمه سما فقتله فيقتل حدا لا قودا .

الثالثة — واختلفوا في حكم المحارب؛ فقالت طائفة : يقام عليه بقدر فعله؛ فمن أخاف السبيل وأخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف ، وإن أخذ المال وقتل قطعت يده ورجله ثم صلب ، فإذا قتل ولم يأخذ المال قتل ، وإن هو لم يأخذ المال ولم يقتل نفي؛ قاله آبن عباس ، وروى عن أبي مجلز والنخعي وعطاء الخراساني وغيرهم . وقال أبو يوسف : إذا أخذ المال وقتل صلب وقتل على الخشبة؛ قال الليث : بالحربة مصلوبا . وقال أبو حنيفة : إذا قتل قتل، وإذا أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإذا أخذ المال وقتل فالسلطان مخير فيه ، إن شاء قطع يده ورجله وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه؛ قال أبو يوسف : القتل يأتي على كل شيء ، ونحوه قول الأوزاعي . قال الشافعي : إذا أخذ المال قطعت يده اليمنى وحسمت ، ثم قطعت رجله اليسرى وحسمت وخلي؛ لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة ، وإذا قتل قتل ، وإذا أخذ المال وقتل قتل وصلب؛ وروى عنه أنه قال : يصلب ثلاثة أيام؛ قال : وإن حضر وكثر وهيب وكان ردءا للعدو

---

(١) نأرت نائرة في الناس : هاجت هائجة . (٢) الذحل : الثأر .

حُبِس . وقال أحمد : إن قتل قُتل ، وإن أخذ المال قطعت يده ورجله كقول الشافعيّ .
وقال قوم : لا ينبغي أن يُصلب قبل القتل فيحال بينه وبين الصلاة والأكل والشرب ؛
وحُكي عن الشافعي : أكْرَهُ أن يقتل مصلوبا لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المُثْلة .
وقال أبو ثور : الإمام مخير على ظاهر الآية ، وكذلك قال مالك ، وهو مَرْوِيّ عن ابن عباس ،
وهو قول سعيد بن المسيّب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد والضحّاك والنَّخَعيّ كلهم قال : الإمام
مخير في الحكم على المحاربين ، يحكم عليهم بأي الأحكام التي أوجبها الله تعالى من القتل والصلب
أو القطع أو النفي بظاهر الآية ؛ قال ابن عباس : ما كان في القرآن « أو » فصاحبه بالخيار ؛
وهذا القول أسعد بظاهر الآية ؛ فإن أهل القول الأول الذين قالوا إنّ « أو » للترتيب — وإن
اختلفوا — فإنك تجد أقوالهم أنهم يجمعون عليه حدّين فيقولون : يُقتل ويُصلب ؛ ويقول
بعضهم : يُصلب ويُقتل ؛ ويقول بعضهم : تُقطع يده ورجله ويُنفى ؛ وليس كذلك الآية
ولا معنى « أو » في اللغة ؛ قاله النحاس . واحتج الأولون بما ذكره الطبريّ عن
أنس بن مالك أنه قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن الحكم
في المحارب فقال : « من أخاف السبيل وأخذ المال فاقطع يدَه للأخذ ورجله للإخافة ومن
قَتَل فاقتله ومن جمع ذلك فاصلبه » . قال ابن عطية : وبقي النّفي للمخيف فقط والمخيف
في حكم القاتل ، ومع ذلك فمالك يرى فيه الأخذ بأيسر العقاب استحسانا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ اختلف في معناه ؛ فقال السديّ :
هو أن يُطلب أبدا بالخيل والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه حدّ الله ، أو يَخرج من دار الإسلام
هربا ممن يطلبه ؛ عن ابن عباس وأنس بن مالك ومالك بن أنس والحسن والسُّديّ والضحّاك
وقَتادة وسعيد بن جُبَير والربيع بن أنس والزُّهريّ . حكاه الرُّماني في كتابه ؛ وحكي عن
الشافعي أنهم يُخرجون من بلد إلى بلد ، ويُطلبون لتقام عليهم الحدود ؛ وقاله الليث بن سعد
والزُّهْريّ أيضا . وقال مالك أيضا : يُنفى من البلد الذي أحدث فيه هذا إلى غيره ويُحبس
فيه كالزاني . وقال الكوفيون : نفيهم سجنهم فينفي من سَعَة الدنيا إلى ضيقها ، فصار كأنه

إذا سُجِن فقد نُفِى من الأرض إلا من موضع آستقراره ؛ واحتجوا بقول بعض أهل السجون فى ذلك :

خرجنا من الدّنيا ونحن مِن آهْلِها * فلسنا من الأمواتِ فيها ولا الأَحْيَا
إذا جاءنا السَّجّانُ يوما لحاجةٍ * عَجِبنا وقلنا جاء هـذا من الدنيَا

حَكى مَكْحول أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أوّل من حَبَس فى السّجون وقال : أحبسه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه من بلد إلى بلد فيؤذيهم؛ والظاهر أن الأرض فى الآية هى أرض النّازلة وقد تَجَنَّب الناس قديما الأرض التى أصابوا فيها الذنوب؛ ومنه الحديث[(١)] "الذى نَاءَ بصَدْره نحو الأرض المقدّسة". و ينبغى للإمام إذا كان هذا المحارب مَخُوف الجانب يظنّ أنه يعود إلى حرابة أو إفساد أن يسجنه فى البلد الذى يُغَرب إليه ، وإن كان غير مَخُوف الجانب سُرّح؛ قال آبن عطية : وهذا صريح مذهب مالك أن يُغَرّب ويُسجن حيث يُغرب، وهذا على الأغلب فى أنه مخوف، ورجحه الطَّبَرِىّ وهو الراجح؛ لأن نفيه من أرض النازلة هو نصّ الآية ، وسجنه بعدُ بحسب الخوف منه، فإن تاب وفُهِمت حاله سُرّح .

الخامســة — قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ النفى أصله الإهلاك؛ ومنه الإثبات والنفى، فالنفى الإهلاك والإعدام؛ ومنه النّفاية لردىء المتاع؛ ومنه النَّفِىُّ لما تطاير من الماء عن الدَّلْو؛ .

قال الرّاجــز[(٢)] :

كَأَنّ مَتْنَيْهِ[(٣)] مِنَ النَّفِىِّ * مَوَاقِـعُ الطَّيْرِ على الصُّفِىِّ

السادســة — قال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد: ولا يُرَاعَى فى المال الذى يأخذه المحارب نِصابا كما يُرَاعَى فى السارق . وقد قيل: يُرَاعَى فى ذلك النصاب ربع دينار؛ قال ابن العربى قال الشافعى

---

(١) هو حديث الذى قتل تسعا وتسعين نفسا . وناء بمعنى نهض ، ويحتمل أنه بمعنى بعد (النهاية لأبن الأثير) .
(٢) هو الأخيل . (٣) جاء فى (اللسان) مادة نفى أن الصحيح (كأن متنىّ) لأن بعده (من طول إشراف على الطوىّ) . ومتنا الظهر مكتنفا الصلب عن يمين وشمال من عصب ولحم . والصفى (بضم الصاد وكسرها) جمع صفا مقصور، وصفا جمع صفاة وهى الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئا . وفسر بأنه شبه الماء وقد وقع على ظهر المستقى بذرق الطائر على الصفى .

وأصحاب الرأى : لا يُقطَع من قطاع الطريق إلا من أَخَذ قدر ما تقطع فيه يد السارق؛ وقال مالك : يحكم عليه بحكم المحارب وهو الصحيح؛ فإن الله تعالى وَقَّتَ على لسان نبيه عليه السلام القطع فى السرقة فى ربع دينـار، ولم يُوقِّت فى الحرابة شيئا بل ذكر جزاء المحارب، فاقتضى ذلك توفية الجزاء لهم على المحاربة عن حبة؛ ثم إن هذا قياس أصل على أصل وهو مختلف فيه، وقياس الأعلى بالأدنى والأدنى بالأسفل وذلك عكس القياس. وكيف يصح أن يقاس المحارب على السارق وهو يطلب خطف المـال فإن شعر به فرّ؛ حتى إن السارق إذا دخل بالسلاح يطلب المـال فإن مُنع منه أو صِيح عليه وحارب عليه فهو محارب يُحكم عليه بحكم المحارب. قال القاضى ٱبن العربى : كنت فى أيام حكمى بين الناس إذا جاءنى أحد بسارق، وقد دخل الدار بسكين يَحْبسه على قلب صاحب الدار وهو نائم، وأصحابه يأخذون مال الرجل، حكمت فيهم بحكم المحاربين، فٱفهموا هذا من أصل الدين، وٱرتفعوا إلى يَفَاع العلم عن حضيض الجاهلين.

قلت : اليَفَع(1) أعلى الجبل ومنـه غلام يَفَعَةٌ إذا ٱرتفع إلى البلوغ؛ والحضيض الحفـرة فى أسفل الوادى؛ كذا قال أهل اللغة.

السابعـــة — ولا خلاف فى أن الحرابة يُقتل فيها من قَتل وإن لم يكن المقتول مكافئا للقاتل؛ وللشافعى قولان : أحدهما — أنها تعتبر المكافأة لأنه قَتل فاعتبر فيه المكافأة كالقصاص؛ وهذا ضعيف لأن القتل هنا ليس على مجرد القتل وإنمـا هو على الفساد العام من التخويف وسلب المـال؛ قال الله تعالى : «إِنَّمَـا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا» فأمر تعالى بإقامة الحـدود على المحارب إذا جمع شيئين محاربة وسعيا فى الأرض بالفساد، ولم يخص شريفا من وضيع، ولا رفيعا من دنىء.

الثامنـــة — وإذا خرج المحاربون فاقتتلوا مع القـافلة فقَتَل بعض المحاربين ولم يَقتـل بعض قُتل الجميع. وقال الشافعى : لا يُقتل إلا من قَتل؛ وهذا أيضا ضعيف؛ فإن من حضر

---

(1) اليفع بمعنى اليفاع.

الوقعة شركاء في الغنيمة وإن لم يَقتل جميعهم؛ وقد ٱتفق معنا على قتل الرِّدْء وهو الطليعة فالمحارب أولى .

التاســـعة — وإذا أخاف المحاربون السّبيل وقَطَعوا الطريق وجب على الإمام قتالهم من غير أن يدعوهم، ووجب على المسلمين التعاون على قتالهم وكَفّهم عن أذى المسلمين، فإن ٱنهزموا لَم يَتبع منهم مدبِرا إلّا أن يكون قد قتل وأَخَذ مالا، فإن كان كذلك ٱتبع ليؤخذ ويقام عليه ماوجب لجنايته؛ ولا يُدَفَّفُ(١) منهم على جريح إلا أن يكون قد قتلَ ؛ فإن أخذوا ووُجِد في أيديهم مال لأحد بعينه رُدّ إليــه أو إلى ورثته ، وإن لم يوجد له صاحب جُعل في بيت المـال؛ وما أتلفوه من مال لأحد غرموه ؛ ولا دية لمن قتلوا إذا قُدِر عليهم قبـل التوبة ، فإن تابوا وجاءوا تائبين وهي :

العاشــرة — لم يكن للإمام عليهم سبيل، وسقط عنهم ما كان حدًّا لله وأخذوا بحقوق الآدميين، فاقتص منهم من النفس والجراح، وكان عليهم ما أتلفوه من مال ودم لأولياء ذلك، ويجوز لهم العفو والهبة كسائر الجُناة من غير المحاربين؛ هذا مذهب مالك والشافعيّ وأبي ثَوْر وأصحاب الرأي . وإنمـا أُخذ ما بأيديهم من الأموال وضَمنوا قيمة ما استهلكوا ؛ لأن ذلك غَصب فلا يجوز مِلكه لهم ، ويُصرف إلى أربابه أو يوقفه الإمام عنده حتى يعلم صاحبه . وقال قوم من الصحابة والتابعين : لا يُطلَب من المـال إلا بمـا وُجد عنده، وأما ما استهلكه فلا يُطلَب به ؛ وذكر الطَّبَريّ ذلك عن مالك من رواية الوليد بن مسلم عنه، وهو الظاهر من فعل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بحارثة بن بدر الغُدَانيّ فإنه كان محاربا ثم تاب قبل القدرة عليــه، فكتب له بسقوط الأموال والدم عنه كتابا منشورا؛ قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : وٱختلفت الرواية عن مالك في المحارب إذا أقيم عليــه الحدّ ولم يوجد له مال ؛ هل يُتبَع دَيْنا بما أَخذ، أو يسقط عنه كما يسقط عن السارق ؟ والمسلم والذمي في ذلك سواء .

---

(١) دفف على الجريح أجهز عليه .

الحادية عشرة — وأجمع أهل العلم على أن السلطان ولىّ من حارب ؛ فإن قتل محارب أخا امرئ أو أباه فى حال المحاربة ، فليس إلى طالب الدّم من أمر المحارب شىء، ولا يجوز عفو ولىّ الدّم، والقائم بذلك الإمام؛ جعلوا ذلك بمنزلة حدّ من حدود الله تعالى .

قلت : فهذه جملة من أحكام المحاربين جمعنا غررها ، واجتلبنا دررها ؛ ومن أغرب ما قيل فى تفسيرها وهى :

الثانية عشرة — تفسير مجاهد لها؛قال مجاهد: المراد بالمحاربة فى هذه الآية الزنى والسرقة؛ وليس بصحيح ؛ فإن الله سبحانه بيّن فى كتابه وعلى لسان نبيه أن السارق تُقطع يده ، وأن الزانى يُجلد ويُغرّب إن كان بكرا، ويُرجم إن كان ثيّبا مُحْصنا . وأحكام المحارب فى هذه الآية مخالف لذلك ، اللهم إلا أن يريد إخافة الطريق بإظهار السلاح قصدا للغَلَبة على الفروج ، فهذا أفحش المحاربة ، وأقبح من أخذ الأموال وقد دخل هذا فى معنى قوله تعالى : « وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا » .

الثالثة عشرة — قال علماؤنا : ويُناشَد اللص بالله تعالى، فإن كَفَّ تُرِك وإن أَبَى قوتل، فإن أنت قتلته فشرّ قتيل ودمه هَدَر . روى النَّسائىّ عن أبى هُرَيرة أن رجلا جاء النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن عُدِى على مالى؟ قال : "فأنشد بالله" قال : فإن أَبَوْا علىّ . قال : "فانشد بالله" قال فإن أَبَوْا علىّ . قال : "فانشد بالله" قال : فإن أبوْا علىّ قال: "فقاتل فإن قُتِلت ففى الجنة وإن قَتلت ففى النار" وأخرجه البخارىّ ومسلم — وليس فيه ذكر المناشدة — عن أبى هريرة قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال : "فلا تُعطه مالك" قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ قال : "فقاتله" قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قال : "فأنت شهيد" قال : فإن قتلته ؟ قال : "هو فى النار" . قال ابن المنذر : وروينا عن جماعة من أهل العلم أنهم رأوا قتال اللصوص ودفعهم عن أنفسهم وأموالهم؛ هذا مذهب ابن عمر والحسن البصرى وإبراهيم النَّخَعىّ وقتادة ومالك والشافعىّ وأحمد وإسحق والنعمان، وبهذا يقول عوام أهل العلم؛ إن

للرجل أن يقاتل عن نفسه وأهله وماله إذا أريد ظلما؛ للأخبار التي جاءت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخصّ وقتا دون وقت، ولا حالا دون حال إلا السلطان؛ فإن جماعة أهل الحديث كالمجمعين على أن من لم يمكنه أن يمنع عن نفسه وماله إلا بالخروج على السلطان ومحاربته أنه لا يحاربه ولا يخرج عليه؛ للأخبار الدالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي فيها الأمر بالصبر على ما يكون منهم، من الجور والظلم، وترك قتالهم والخروج عليهم ما أقاموا الصلاة.

قلت: وقد اختلف مذهبنا إذا طُلب الشيء الخفيف كالثوب والطعام هل يُعطَونه أو يُقاتَلون؟ وهذا الخلاف مبنى على أصل، وهو هل الأمر بقتالهم لأنه تغيير منكر أو هو من باب دفع الضرر؟ وعلى هذا ينبنى أيضا الخلاف فى دعوتهم قبل القتال. والله أعلم.

الرابعة عشرة — قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ لشناعة المحاربة وعظم ضررها، وإنما كانت المحاربة عظيمة الضرر؛ لأن فيها سدّ سبيل الكسب على الناس؛ لأن أكثر المكاسب وأعظمها التجارات، وركنها وعمادها الضرب فى الأرض؛ كما قال عز وجل: «وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» فإذا خيف الطريق انقطع الناس عن السفر، واحتاجوا إلى لزوم البيوت، فانسدّ باب التجارة عليهم، وانقطعت أكسابهم؛ فشرع الله على قطاع الطريق الحدود المغلّظة، وذلك الخزى فى الدنيا ردعا لهم عن سوء فعلهم، وفتحا لباب التجارة التى أباحها لعباده لمن أرادها منهم، ووعد فيها بالعذاب العظيم فى الآخرة. وتكون هذه المعصية خارجة عن المعاصى، ومستثناة من حديث عُبادة فى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فمن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدّنيا فهو [له][1] كفارة" والله أعلم. ويحتمل أن يكون الخزى لمن عوقب، وعذاب الآخرة لمن سلم فى الدّنيا، ويجرى هذا الذنب مجرى غيره. ولا خلود لمؤمن فى النار على ما تقدّم، ولكن يعظم عقابه لعظم الذنب، ثم يخرج إما بالشفاعة وإما بالقبضة، ثم إن هذا الوعيد مشروط الإنفاذ بالمشيئة كقوله تعالى:

(١) الزيادة عن ابن عطية.

« وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » أما إن الخوف يغلب عليهم بحسب الوعيد وكبر المعصـــية (١) .

الخامسة عشرة — قوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ استثنى جل وعزّ التائبين قبل أن يُقدَر عليهم، وأخبر بسقوط حقه عنهم بقوله ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. أمّا القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط. ومن تاب بعد القدرة فظاهر الآية أن التوبة لا تنفع، وتقام الحدود عليه كما تقدّم. وللشافعي قول أنه يسقط كل حدّ بالتوبة؛ والصحيح من مذهبه أن ما تعلق به حق الآدمي قصاصا كان أو غيره فإنه لا يسقط بالتوبة قبل القدرة عليه. وقيل: أراد بالاستثناء المشرك إذا تاب وآمن قبل القدرة عليه فإنه تسقط عنه الحدود؛ وهذا ضعيف؛ لأنه إن آمن بعد القدرة عليه لم يقتل أيضا بالإجماع. وقيل: إنما لا يسقط الحد عن المحاربين بعد القدرة عليهم — والله أعلم — لأنهم متهمون بالكذب في توبتهم والتصنع فيها إذا نالتهم يد الإمام، أو لأنه لما قدر عليهم صاروا بمعرض أن ينكل بهم فلم تقبل توبتهم، كالمتلبس بالعذاب من الأمم قبلنا، أو من صار إلى حال الغَرْغَرة فتاب؛ فأما إذا تقدّمت توبتهم القدرة عليهم، فلا تهمة وهي نافعة على ما يأتي بيانه في سورة « يونس » (٢)؛ فأما الشرّاب والزّناة والسرّاق إذا تابوا وأصلحوا وعُرف ذلك منهم، ثم رفعوا إلى الإمام فلا ينبغي أن يحدّوا، وإن رفعوا إليه فقالوا تبنا لم يتركوا، وهم في هذه الحالة كالمحاربين إذا غُلبوا. والله أعلم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)

(١) كذا في الأصل وفي تفسير ابن عطية، والذي في البحر: «وهذا الوعيد كغيره مقيد بالمشيئة، وله تعالى أن يغفر هذا الذنب ولكن في الوعيد خوف على المتوعد عليه نفاذ الوعيد» وهو أوضح.

(٢) راجع تفسير آية ٩٨

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ . الوسيلة هي القربة؛ عن أبي وائل والحسن ومجاهد وقتادة وعطاء والسُّدي وابن زيد وعبد الله بن كثير، وهي فَعيلة من توسلت إليه أي تقربت؛ قال عنترة :

إنّ الرجال لهم إليكِ وسيلة * أنْ يأخذوكِ تكحَّلِي وتخضَّبِي

والجمع الوسائل؛ قال :

إذا غفل الواشون عُدْنا لوصلنا * وعاد التَّصافي بيننا والوسائلُ

ويقال : منه سِلْتُ أسأل أي طلبت، وهما يتساولان أي يطلب كلّ واحد من صاحبه؛ فالأصل الطلب؛ والوسيلة القربة التي ينبغي أن يُطلَب بها، والوسيلة درجة في الجنة، وهي التي جاء الحديث الصحيح بها في قوله عليه السلام "فمن سأل لِيَ الوسيلة حلت له الشفاعة" .

قوله تعالى : يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

قال يزيد الفقير : قيل لجابر بن عبد الله إنكم يا أصحاب محمد تقولون إن قوما يخرجون من النار والله تعالى يقول : «وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا» فقال جابر : إنكم تجعلون العامّ خاصا والخاص عاما، إنما هذا في الكفار خاصة؛ فقرأت الآية كلها من أولها إلى آخرها فإذا هي في الكفار خاصة . و « مُقِيمٌ » معناه دائم ثابت لا يزول ولا يحول؛ قال الشاعر :

فإنّ لكمْ بيومِ الشِّعْبِ منّي * عذابًا دائمًا لكمُ مقيما

قوله تعالى : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

فيه سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ الآية . لما ذكر تعالى أخذ الأموال بطريق السعي في الأرض والفساد، ذكر حكم السارق من غير حِراب على ما يأتي

بيانه أثناء الباب ؛ وبدأ سبحانه بالسارق قبل السارقة عكس الزنى على ما نبينه آخر الباب . وقد قُطِع السارق فى الجاهلية، وأوّل من حكم بقطعه فى الجاهلية الوليد بن المُغيرة، فأمر الله بقطعه فى الإسلام ، فكان أوّل سارق قطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام من الرجال الخِيَار بن عَدِىّ بن نوفل بن عبد مناف، ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بنى مخزوم، وقطع أبو بكر يد اليمنىّ(١) الذى سرق العِقْد؛ وقطع عمر يد آبن سَمُرة أخى عبدالرحمن آبن سَمُرة ولا خلاف فيه . وظاهر الآية العموم فى كل سارق وليس كذلك؛ لقوله عليه السلام " لا تُقطَع يد السارق إلا فى ربع دينـار فصاعدا " فبيّن أنه إنمـا أراد بقوله : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ» بعض السّراق دون بعض ؛ فلا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار ، أو فيما قيمته ربع دينار ؛ وهذا قول عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلىّ رضى الله عنهم، وبه قال عمر آبن عبد العزيز والليث والشافعىّ وأبو ثَوْر؛ وقال مالك : تُقطَع اليد فى ربع دينار أو فى ثلاثة دراهم، فإن سرق درهمين وهو ربع دينـار لآنحطاط الصرف لم تقطع يده فيهما . والعُرُوض لا تقطع فيها إلا أن تبلغ ثلاثة دراهم قَلَّ الصّرف أو كَثُر ؛ فجعـل مالك الذهب والوَرِق كل واحد منهما أصلا بنفسه، وجعل تقويم العروض بالدراهم فى المشهور . وقال أحمد وإسحق : إن سَرَق ذهبا فربع دينار، وإن سرق غير الذهب والفضة فكانت قيمته ربع دينار أو ثلاثة دراهم من الوَرِق . وهـذا نحو ما صار إليـه مالك فى القول الآخر؛ والحجـة للأوّل حديث ابن عمر أن رجلا سَرَق حَجَفَـةً(٢) ، فأتى به النبى صلى الله عليـه وسلم فأمر بهـا فقوّمت بثلاثة دراهم . وجعل الشافعى حديث عائشة رضى الله عنها فى الربع دينـار أصلا ردّ إليه تقـويم العُروض لا بالثلاثة دراهم على غلاء الذهب ورُخْصه، وترك حديث آبن عمر لمـا رآه ـــ والله أعلم ـــ من آختلاف الصحابة فى المجنّ الذى قَطَع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فابن عمر يقول : ثلاثة دراهم؛ وآبن عباس يقـول : عشرة دراهم ؛ وأنس يقول : خمسـة دراهم ؛

(١) هو رجل من أهل اليمن أقطع اليد والرجل سرق عقدا لأسماء بنت عميس زوج أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه فقطع يده اليسرى .

(٢) الحجفة بالتحريك : الترس؛ وقيل : هى من الجلود خاصة كالدرقة .

وحديث عائشة فى الربع دينار حديث صحيح ثابت لم يختلف فيه عن عائشة إلا أن بعضهم وقفه، ورفعه من يجب العملُ بقوله لحفظه وعدالته؛ قاله أبو عمر وغيره . وعلى هذا فإن بلغ العَرَض المسروق ربع دينار بالتقويم قُطع سارقه؛ وهو قول إسحق؛ فقف على هذين الأصلين فهما عمدة الباب، وهما أصح ما قيل فيه . وقال أبو حنيفة وصاحباه والثّورىّ : لا تُقطَع يد السارق إلا فى عشرة دراهم كيلا، أو دينار ذهبا عينا أو وزنا؛ ولا يُقطَع حتى يَخرج بالمتاع من ملك الرجل؛ وحجتهم حديث ابن عباس؛ قال : قُوِم المِجَنّ الذى قَطَع فيه النبي صلى الله عليه وسلم بعشرة دراهم . ورواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كان ثمن المجنّ يومئذ عشرة دراهم؛ أخرجهما الدّارقطنىّ وغيره . وفى المسئلة قول رابع، وهو ما رواه الدارقطنىّ عن عمر قال : لا تُقطَع الخَمْس إلا فى خَمْس؛ وبه قال سليمان بن يَسار وابن أبى ليلى وابن شُبْرُمة؛ وقال أنس بن مالك: قطع أبو بكر — رحمه الله — فى مِجَنّ قيمته خمسة دراهم . وقول خامس : وهو أن اليد تُقطَع فى أربعة دراهم فصاعدا؛ رُوِى عن أبى هُريرة وأبى سعيد الخُدْرىّ . وقول سادس : وهو أن اليد تُقطَع فى درهم فما فوقه؛ قاله عثمان البَتّىّ . وذكر الطَّبَرىّ أن عبد الله بن الزُّبَير قَطَع فى درهم . وقول سابع : وهو أن اليد تُقطَع فى كل ماله قيمة على ظاهر الآية؛ هذا قول الخوارج، ورُوِى عن الحسن البصرىّ، وهى إحدى الروايات الثلاث عنه، والثانية كما رُوِى عن عمر، والثالثة حكاها قَتَادة عنه أنه قال : تَذَا كَرْنا القطع فى كَمْ يكون على عهد زياد؟ فاتفق رأينا على درهمين . وهذه أقوال متكافئة والصحيح منها ما قدّمناه لك؛ فإن قيل : قد رَوى البخارىّ ومسلم وغيرهما عن أبى هُرَيرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَعَن الله السارق يسرق البَيْضة فتُقطَع يده ويسرق الحَبْل فتُقطَع يده" وهو موافق لظاهر الآية فى القطع فى القليل؛ فالجواب أن هذا خرج مخرج التحذير بالقليل عن الكثير، كما جاء فى مَعْرِض التّرغيب بالقليل مجرى الكثير فى قوله عليه السلام: "مَن بَنَى لله مسجدا ولو مِثْل مَفْحَص[1] قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة". وقيل:

(١) مفحص القطاة حيث تفرخ فيه من الأرض .

إن ذلك مجاز من وجه آخر؛ وذلك أنه إذا ضَرِى بسرقة القليل سَرَق الكثير فقطعت يده .
وأحسن من هذا ما قاله الأعمش وذكره البخاريّ في آخر الحديث كالتفسير قال: كانوا يرون أنه بَيْض الحديد، والحَبْلُ كانوا يرون أنه منها ما يساوي دراهم .

قلت : كحبال السفينة وشبه ذلك . والله أعلم .

الثانيـة – اتفق جمهور النـاس على أن القطع لا يكون إلا على من أخرج من حِرْز ما يجب فيه القطع . وقال الحسن بن أبي الحسن : إذا جمع الثياب في البيت قُطِع . وقال الحسن بن أبي الحسن أيضا في قول آخر مثل قول سائر أهل العلم فصار اتفاقا صحيحا، والحمد لله .

الثالثـة – الحِرْز هو ما نُصِب عادة لحفظ أموال النـاس ، وهو يختلف في كل شيء بحسب حاله على ما يأتي بيانه . قال ابن المنـذر : ليس في هذا الباب خبر ثابت لا مقال فيه لأهل العلم ، وإنما ذلك كالإجماع من أهل العلم . وحُكي عن الحسن وأهل الظاهر أنهم لم يشترطوا الحِرْز . وفي الموطأ لمالك عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكيّ ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا قطع في ثَمَرٍ مُعلَّق[(1)] ولا في حَرِيسَة جَبَل فإذا أواه المُرَاح أو الجَرِين فالقطع فيما بَلَغ ثمن المِجَنّ" قال أبو عمر : هـذا حديث يتصل معناه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وغيره، وعبدالله هذا ثقة عند الجميع، وكان أحمد يُثْني عليه . وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سُئل عن الثَّمَر المُعَلَّق فقال : "مَن أصاب منه من ذي حاجة غيرَ متخذ خُبْنَة[(2)] فلا شيء عليه ومن خَرَج بشيء منه فعليه القطع ومن سَرَق دون ذلك فعليه غَرامةُ مِثليه والعقوبة" وفي رواية "وجلَدات نَكَال" بدل "والعقوبة". قال العلماء : ثم نُسِخ الجَلْد وجُعِل مكانه القطع . قال أبو عمر : قوله "غرامة مثليه" منسوخ لا أعلم أحدا من الفقهاء قال به إلا ما جاء عن عمر في دقيق حاطب بن أبي بَلْتَعة؛ خرّجه مالك؛ ورواية عن أحمد بن حَنْبَل . والذي عليه الناس في الغُرم بالمثل؛ لقوله

(1) الثمر المعلق : الثمر في الأشجار . وحريسة الجبل : ما يحرس بالجبل . والجرين : موضع البر وقد يكون للتمر والعنب .

(2) الخبنة : الحجزة في السراويل؛ والوعاء يحمل فيه الشيء أيضا .

تعالى : « فَمَنِ ٱعْتَـدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . وروى أبو داود عن صَفْوان بن أُمَيّة قال : كنت نائمـا فى المسجد على خَمِيصة[(١)] لِي ثمن ثلاثين درهما ، فجاء رجل فاختلسها منى ، فأخذ الرجل فأتى به النبيّ صلى الله عليـه وسلم فأمر به ليقطع ؛ قال : فأتيته فقلت أتقطعه من أجل ثلاثين درهما ؟ أنا أبيعه وأُنْسِئُهُ ثمنها ؛ قال : "فَهَلَّا كان هـذا قبل أن تأتيني به" . ومن جهـة النظر أن الأموال خلقت مُهيَّأة للانتفاع بهـا للخلق أجمعين ، ثم الحكمة الأوّلية حكمت فيها بالاختصاص الذى هو الملك شرعا ، وبقيت الأطماع متعلقة بها ، والآمال مُحَوِّمة عليها ؛ فتَكُفُّها المروءة والدّيانة فى أقل الخلق ، ويَكُفُّها الصـون والحِرْز عن أكثرهم ، فإذا أحرزها مالكها فقد ٱجتمع فيهـا الصَّوْن والحِرْز الذى هو غاية الإمكان للإنسان ؛ فإذا هُتِكا فَحُشت الجريمة فعظمت العقوبة ، وإذا هُتِك أحد الصَّوْنين وهو الملك وجب الضمان والأدب .

الرابعـــة ــ فإذا اجتمع جماعة فاشتركوا فى إخراج نِصاب من حِرْزه ، فلا يخلو ، إمّا أن يكون بعضهم ممن يقدر على إخراجه ، أو لا إلا بتعاونهم ، فإن كان الاوّل فاختلف فيه علماؤنا على قولين : أحدهما يُقطَع فيه . والثانى لايُقطَع فيه ؛ وبه قال أبو حنيفة والشافعيّ ؛ قالا : لا يُقطَع فى السرقة المشتركون إلا بشرط أن يجب لكل واحد من حِصّته نِصاب ؛ لقوله عليه السـلام : "لا تُقطع يد السارق إلا فى ربع دينـار فصاعدا" وكل واحد من هؤلاء لم يسرق نِصابا فلا قطع عليهم . ووجه القطع فى إحدى الروايتين أنّ الاشـتراك فى الجناية لا يُسقط عقوبتهـا كالاشتراك فى القتل ؛ قال ابن العربيّ : وما أقرب ما بينهما فإنا إنما قتلنا الجمـاعة بالواحد صيانة للدماء ؛ لئلا يتعاون على سفكها الأعداء ، فكذلك فى الأموال مثله ؛ لا سِيمـا وقـد ساعدنا الشافعيّ على أن الجمـاعة إذا اشتركوا فى قطع يد رجل قُطِعوا ولا فرق بينهما . وإن كان الثانى وهو مما لا يمكن إخراجه إلا بالتعاون فإنه يُقطَع جميعهم بالاتفاق من العلماء ؛ ذكره ابن العربيّ .

---

(١) الخميصة : ثوب خز أو صوف معلم ؛ وقيل لاتسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة .

الخامسـة ــ فإن اشتركوا فى السرقة بأن نَقَب واحد الحِرْز وأخرج آخر، فإن كانا متعاونين قُطِعا . وإن انفرد كل منهما بفعله دون اتفاق بينهما ، بأن يجيء آخر فيُخْرِج فلا قطع على واحد منهما . وإن تعاونا فى النقب وانفرد أحدهما بالإخراج فالقطع عليه خاصة ؛ وقال الشافعىّ : لاقطع لأن هـذا نَقَب ولم يَسرق، والآخر سَرَق من حِرْز مهتوك الحُرْمة . وقال أبو حنيفة : إن شارك فى النّقب ودخل وأخذ قُطع . ولا يشترط فى الاشتراك فى النقب التحامل على آلة واحدة، بل التعاقب فى الضرب تحصل به الشركة .

السادسـة ــ ولو دخل أحدهما فأخرج المتاع إلى باب الحِرْز فأدخل الآخر يده فأخذه فعليه القطع، ويعاقب الأول؛ وقال أشهب : يُقْطَعان . وإن وضعه خارج الحِرْز فعليه القطع لا على الآخذ، وإن وضعه فى وسط النّقب فأخذه الآخر والتقت أيديهما فى النّقب قُطِعا جميعا .

السابعـة ــ والقبر والمسجد حِرْز، فيُقْطَع النّبّاش عند الأكثر ؛ وقال أبو حنيفة : لاقطع عليه ؛ لأنه سرق من غير حِرْز مالا معرّضا للتلف لامالك له ؛ لأن الميت لا يملك . ومنهم من ينكر السرقة؛ لأنه ليس فيه ساكن، وإنما تكون السرقة بحيث تُتّقى الأعين، ويُتحفظ من الناس ؛ وعلى نفى السرقة عوّل أهل ما وراء النهر . وقال الجمهور : هو سارق لأنه تدرّع الليل لباسا واتقى الأعين ، وقصد وقتا لا ناظر فيه ولا مارّ عليه ، فكان بمنزلة مالو سرق فى وقت بروز الناس للعيد، وخلوّ البلد من جميعهم . وأما قولهم : إن القبر غير حِرْز فباطل؛ لأن حِرْز كل شيء بحسب حاله الممكنة فيه . وأما قولهم : إن الميت لا يملك فباطل أيضا ؛ لأنه لا يجوز ترك الميت عاريا فصارت هذه الحاجة قاضية بأن القبر حِرْز . وقد نبه الله تعالى عليه بقوله : « أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا » ليسكن فيها حيا، ويدفن فيها ميتا . وأما قولهم : عُرْضة للتلف ، فكل ما يلبسه الحىّ أيضا معرّض للتلف والإخلاق بلباسه، إلا أن أحد الأمرين أعجل من الثانى؛ وقد روى أبو داود عن أبى ذرّ قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "كيف أنت إذا أصاب الناسَ موتٌ يكون البيت (١) فيه بالوصيف"، يعنى

(١) البيت هنا القبر . والوصيف الخادم غلاما كان أو جارية . والمعنى : أن الموت يكثر حتى يشترى موضع قبر بعبد .

القبر؛ قلت: الله ورسوله أعلم قال: "عليك بالصبر" قال حماد: فبهذا قال من قال تقطع يد السارق؛ لأنه دخل على الميت بيته. وأما المسجد، فمن سرق حُصُره قُطِع؛ رواه عيسى عن ابن القاسم، وإن لم يكن للمسجد باب؛ ورآها مُحْرَزة. وإن سرق الأبواب قطع أيضا؛ ورُوى عن ابن القاسم أيضا إن كانت سرقته للحُصُر نهارا لم يُقطَع، وإن كان تَسوّر عليها ليلا قُطِع؛ وذكر عن سُحْنُون إن كانت حُصُره خِيط بعضها إلى بعض قُطِع، وإلّا لم يُقطَع. قال أَصْبَغ: يُقطع سارق حُصُر المسجد وقناديله وبلاطه، كما لو سَرق بابه مُسْتَسِرّا أو خشبة من سقفه أو من جَوائِزه(١). وقال أشهب في كتاب محمد: لا قطع في شيء من حُصُر المسجد وقناديله وبلاطه.

الثامنــة — وآختلف العلماء هـل يكون غُرْمٌ مع القطع أم لا؟ فقـال أبو حنيفة: لا يجتمع الغُرم مع القطع بحال؛ لأن الله سبحانه قال: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ» ولم يذكر غُرْما. وقال الشافعي: يَغرَم قيمة السرقة موسرا كان أو معسرا، وتكون دَيْنا عليـه إذا أيسر أدّاه؛ وهو قول أحمـد وإسحق. وأما علماؤنا مالك وأصحابه فقالوا: إن كانت العين قائمة ردّها، وإن تَلِفت فإن كان موسرا غَرِم، وإن كان معسرا لم يُتْبع به دَيْنـا ولم يكن عليه شيء؛ وروى مالك مثل ذلك عن الزُّهْرى؛ قال الشيخ أبو إسحق: وقد قيل إنه يُتْبَع بها دَيْنا مع القطع موسرا كان أو معسرا؛ قال: وهو قول غير واحد من أهل المدينة، وآستدل على صحته بأنهما حقان لمستحقين فلا يُسْقِط أحدهما الآخر كالدّية والكفّارة، ثم قال: وبهذا أقول. واستدل القاضي أبو الحسن للمشهور بقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أُقيم على السارق الحدّ فلا ضمان عليه" وأسنده في كتابه. وقال بعضهم: إن الإتباع بالغُـرم عقوبة، والقطع عقوبة، ولا تجتمع عقوبتان؛ وعليـه عوّل القاضي عبد الوهاب. والصحيح قول الشافعي ومن وافقـه؛ قال الشافعي: يَغرَم السارق ماسَرق موسرا كان أو معسرا؛ قُطِع أو لم يُقطَع، وكذلك إذا قَطَع الطريق؛ قال: ولا يُسقِط

(١) الجائز من البيت الخشبة التي تحمل خشب البيت؛ والجمع أجوزة وجوزان وجوائز.

الحمدُ لله ما أتلف للعباد، وأما ما احتج به علماؤنا من الحديث "إذا كان معسرا" فبه احتج الكوفيون وهو قول الطَّبَرى"، ولا حجة فيه؛ رواه النَّسائى والدَّارَقُطْنِى" عن عبد الرحمن بن عوف . قال أبو عمر : هذا حديث ليس بالقوى" ولا تقوم به حجة؛ وقال ابن العربى : وهذا حديث باطل . وقال الطَّبَرى" : القياس أن عليه غُرْم ما استهلك ، ولكن تركنا ذلك آتباعا للأَثَر فى ذلك . قال أبو عمر : ترك القياس لضعيف الأثَر غير جائز ؛ لأن الضعيف لا يوجب حُكْما .

التاسعة — واختلف فى قطع يد من سَرق المال من الذى سرقه ؛ فقال علماؤنا : يُقطَع . وقال الشافعى : لا يقطع؛ لأنه سَرق من غير مالك ومن غير حِرْز . وقال علماؤنا : حرمة المالك عليه باقية لم تنقطع عنه ، ويد السارق كَلَا يد ، كالغاصب لو سُرِق منه المال المغصوب قُطِع؛ فإن قيل : اجعلوا حِرْزه كَلَا حِرز؛ قلنا : الحِرْز قائم والملك قائم ولم يبطل الملك فيه فيقولوا لنا أبطلوا الحرز .

العاشرة — واختلفوا إذا كرر السرقة بعد القطع فى العين المسروقة؛ فقال الأكثر : يُقطَع . وقال أبو حنيفة : لا قطع عليه . وعموم القرآن يوجب عليه القطع، وهو يرد قوله . وقال أبو حنيفة أيضا فى السارق يملك الشيء المسروق بشراء أو هبة قبل القطع : فإنه لا يُقطَع، والله تعالى يقول : « وَالسَّارِق والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » فإذا وجب القطع حقا لله تعالى لم يسقطه شيء .

الحادية عشرة — قرأ الجمهور « وَالسَّارِقُ » بالرفع . قال سيبويه : المعنى وفيما فُرِض عليكم السارق والسارقة . وقيل : الرفع فيهما على الابتداء والخبر « فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » . وليس القصد إلى معين إذ لو قصد معينا لوجب النصب ؛ تقول : زيدا اضربه ؛ بل هو كقولك : من سرق فاقطع يده . قال الزجاج : وهذا القول هو المختار . وقرئ « وَالسَّارِقَ » بالنصب فيهما على تقدير اقطعوا السارق والسارقة؛ وهو اختيار سيبويه ؛ لأن الفعل بالأمر أولى؛ قال سيبويه رحمه الله تعالى : الوجه فى كلام العرب النصب؛ كما تقول : زيدا اضربه ؛ ولكن

العامة أبت إلا الرفع ؛ يعنى عامة القراء وجُلّهم ، فأنزل سيبويه النوع السارق منزلة الشخص المعين . وقرأ ابن مسعود «وَالسَّارِقُونَ وَالسَّارِقَاتُ فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمْ» وهو يقوى قراءة الجماعة . والسَّرِقُ والسَّرِقَةُ بكسر الراء فيهما هو آسم الشيء المسروق ، والمصدر من سَرَق يَسرِق سَرَقاً بفتح الراء . قاله الجوهرى . وأصل هذا اللفظ إنما هو أخذ الشيء فى خفية من الأعين ، ومنه آسترق السمع ، وسارقه النظر . قال ابن عَرَفة : السارق عند العرب هو من جاء مستترا إلى حِرْز فأخذ منه ما ليس له ، فإن أخذ من ظاهر فهو مُختلِس ومُستلِب ومُنتهِب ومُحترِس[(١)] ، فإن مَنَع مما فى يده فهو غاصب .

قلت : وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "وأسوأ السرقة الذى يَسرِق صلاته" قالوا : وكيف يسرق صلاته ؟ قال : "لا يتم ركوعها ولا سجودها" خرّجه الموطأ وغيره ، فسماه سارقا و إن كان ليس سارقا من حيث موضع الاشتقاق ، فإنه ليس فيه مسارقة الأعين غالبا .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَاقْطَعُوا ﴾ القطع معناه الإبانة والإزالة ، ولا يجب إلا بجمع أوصاف تعتبر فى السارق وفى الشيء المسروق ، وفى الموضع المسروق منه ، وفى صفته . فأما ما يعتبر فى السارق فخمسة أوصاف ؛ وهى البلوغ والعقل ، وأن يكون غير مالك للمسروق منه ، وألا يكون له عليه وِلاية ، فلا يقطع العبد إن سرق من مال سيده ، وكذلك السيد إن أخذ مال عبده لا قطع بحال ؛ لأن العبد وماله لسيده . ولم يُقطَع أحد بأخذ مال عبده لأنه آخذ لماله ، وسقط قطع العبد بإجماع الصحابة و بقول الخليفة[(٢)] : غلامكم سرق متاعكم . وذكر الدّارَقُطْنىّ عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس على العبد الآبق إذا سرق قطع ولا على الذمىّ" قال : لم يرفعه غير فهد بن سليمان ، والصواب موقوف . وذكر ابن ماجة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا سرق

(١) المحترس الذى يسرق من الجبل .	(٢) الخليفة هو عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — والسارق كان غلاما لعبد الله بن عمرو الحضرمىّ سرق مرآة لامرأته ثمنها ستون درهما .

العبد فبيعوه ولو بنَشّ[(١)]" أخرجه عن أبي بكر بن أبي شيبة حدّثنا أبو أسامة عن أبي عَوَانة عن عمر بن أبي سَلَمة عن أبيه عن أبي هُرَيرة ؛ قال آبن ماجة : وحدّثنا جُبارَة بن المُغَلِّس حدّثنا حجّاج بن تميم عن ميمون بن مِهران عن ابن عباس ؛ أن عبدا من رقيق الخُمس سَرَق من الخُمس، فرفع إلى النبي صلى الله عليه سلم فلم يقطعه . وقال : "مالُ الله سَرَق بعضه بعضا" وجُبَارة بن المُغَلِّس متروك ؛ قاله أبو زُرْعَة الرّازِيّ . ولا قطع على صبيّ ولا مجنون. ويجب على الذمي والمعاهد ، والحربيّ إذا دخل بأمان . وأما ما يعتبر في الشيء المسروق فأربعة أوصاف ؛ وهي النّصاب وقد مضى القول فيه، وأن يكون مما يُتموّل ويُتملك ويحل بيعه ، وإن كان مما لا يتموّل ولا يحل بيعه كالخمر والخنزير فلا يقطع فيه باتفاق حاشا الحرّ الصغير عند مالك وابن القاسم ؛ وقيل : لا قطع عليه ؛ وبه قال الشافعي وأبو حنيفة ؛ لأنه ليس بمال . وقال علماؤنا : هو من أعظم المال؛ ولم يقطع السارق في المال لعينه ، وإنما قطع لتعلق النفوس به، وتعلقها بالحرّ أكثر من تعلقها بالعبد . وإن كان مما يجوز تملكه ولا يجوز بيعه كالكلب المأذون في اتخاذه ولحوم الضحايا ، ففي ذلك اختلاف بين آبن القاسم وأشهب قال ابن القاسم : ولا يقطع سارق الكلب؛ وقال أشهب : ذلك في المنهيّ عن اتخاذه ، وأما المأذون في اتخاذه فيقطع سارقه . قال: ومن سرق لحم أُضْحِيّة أو جلدها قطع إن كان قيمة ذلك ثلاثة دراهم . وقال ابن حبيب قال أَصْبَغ : إن سرق الأُضْحِيّة قبل الذبح قُطع، وأما إن سرقها بعد الذبح فلا يقطع . وإن كان مما يجوز اتخاذ أصله وبيعه، فصنع منه ما لا يجوز استعماله كالطُّنْبُور والملاهي من المزمار والعود وشبهه من آلات اللهو فينظر ؛ فإن كان يبقى منها بعد فساد صورها وإذهاب المنفعة المقصودة بها ربع دينار فأكثر قطع . وكذلك الحكم في أواني الذهب والفضة التي لا يجوز استعمالها ويؤمر بكسرها فإنما يقوّم ما فيها من ذهب أو فضة دون صنعة . وكذلك الصليب من ذهب أو فضة ، والزيت النجس إن كانت قيمته على نجاسته نصابا قطع فيه . الوصف الثالث ؛ وألا يكون للسارق فيه مِلك ، كمن سرق ما رهنه

(١) النش (بفتح النون وتشديد الشين) عشرون درهما ؛ ويطلق على النصف من كل شيء ؛ فالمراد البيع ولو بنصف القيمة .

أو ما استأجره ولا شُبْهة مِلك، على اختلاف بين علمائنا وغيرهم من مراعاة شُبْهة ملك كالذى، يسرق من المغنم أو من بيت المال؛ لأن له فيه نصيبا. وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه أُتى برجل سَرَق مِغْفَرا(١) من الخُمْس فلم ير عليه قطعا وقال: له فيه نصيب. وعلى هذا مذهب الجماعة فى بيت المال. وقيل: يجب عليه القطع تعلقا بعموم لفظ السرقة. وأن يكون مما تصح سرقته كالعبد الصغير والأعجمى الكبير؛ لأن ما لا تصح سرقته كالعبد الفصيح فإنه لا يقطع فيه. وأما ما يعتبر فى الموضع المسروق منه فوصف واحد وهو الحرز لمثل ذلك الشيء المسروق. وجملة القول فيه أن كل شيء له مكان معروف فمكانه حِرزه، وكل شيء معه حافظ فحافظه حِرزه؛ فالدور والمنازل والحوانيت حِرز لما فيها، غاب عنها أهلها أو حضروا، وكذلك بيت المال حِرز لجماعة المسلمين والسارق لا يستحق فيه شيئا، وإن كان قبل السرقة ممن يجوز أن يعطيه الإمام، وإنما يتعين حق كل مسلم بالعطية؛ ألا ترى أن الإمام قد يجوز أن يصرف جميع المال إلى وجه من وجوه المصالح ولا يفرقه فى الناس، أو يفرقه فى بلد دون بلد آخر ويمنع منه قوما دون قوم؛ ففى التقدير أن هذا السارق ممن لا حق له فيه. وكذلك المغانم لا تخلو: أن تتعين بالقسمة؛ فهو ما ذكرناه فى بيت المال؛ أو تتعين بنفس التناول لمن شهد الوقعة؛ فيجب أن يراعى قدر ما سرق، فإن كان فوق حقه قطع وإلا لم يقطع.

الرابعة عشرة — وظهور الدواب حِرز لما حملت، وأفنية الحوانيت حِرز لما وضع فيها فى موقف البيع وإن لم يكن هناك حانوت، كان معه أهله أم لا؛ سرقت بليل أو نهار. وكذلك موقف الشاة فى السوق مربوطة أو غير مربوطة، والدواب على مرابطها محرزة، كان معها أهلها أم لا؛ فإن كانت الدابة بباب المسجد أو فى السوق لم تكن محرزة إلا أن يكون معها حافظ؛ ومن ربطها بفِنائه أو اتخذ موضعا مَرْبِطا لدوابه فإنه حِرز لها. والسفينة حِرز لما فيها وسواء كانت سائبة أو مربوطة؛ فإن سرقت السفينة نفسها فهى كالدابة إن كانت سائبة فليست بمحرزة، وإن كان صاحبها ربطها فى موضع وأرساها فيه فربْطُها حِرز؛

(١) المغفر (بكسر الميم): زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

وهكذا إن كان معها أحد حيثما كانت فهى محرزة، كالدابة بباب المسجد معها حافظ؛ إلا أن يَنزلوا بالسفينة فى سفرهم منزلا فيربطوها فهو حرز لهـا كان صاحبها معها أم لا .

الخامســـة عشرة — ولا خلاف أن الساكنين فى دار واحدة كالفنادق التى يسكن كل رجل بيته على حدة ، يقطع من سرق منهم من بيت صاحبه إذا أخذ وقد خرج بسرقته إلى قاعة الدار ، وإن لم يدخل بها بيته ولا خرج بها من الدار . ولا خلاف فى أنه لا يقطع من سرق منهم من قاعة الدار شيئا وإن أدخله بيته أو أخرجه من الدار؛ لأن قاعتها مباحة للجميع للبيع والشراء، إلا أن تكون دابة فى مَرْبطها أو ما يشبهها من المتاع .

السادســـة عشرة — ولا يقطع الأبوان بسرقة مال ابنهما؛ لقوله عليه السلام : "أنت ومالك لأبيـك" . ويقطع فى سرقة مالهما؛ لأنه لا شبهـة له فيه . وقيل : لا يقطع؛ وهو قول ابن وهب وأشهب؛ لأن الابن ينبسط فى مال أبيه فى العادة، ألا ترى أن العبد لا يقطع فى مال سـيده فلئلا يقطع ابنه فى ماله أولى . واختلفوا فى الجدّ؛ فقال مالك وابن القاسم : لا يقطـع . وقال أشهب : يقطع . وقـول مالك أصح لأنه أب؛ قال مالك : أحب إلىّ ألا يقطع الأجداد من قبل الأب والأم وإن لم تجب لهم نفقة . قال ابن القاسم وأشهب : ويقطع من سواهما من القرابات . قال ابن القاسم : ولا يقطع من سرق من جوع أصابه . وقال أبو حنيفة : لا قطع على أحد من ذوى المحارم مثل العمة والخـالة والأخت وغيرهم؛ وهو قول الثورىّ . وقال مالك والشافعىّ وأحمد وإسحق : يقطع من سرق من هؤلاء . وقال أبو ثور : يقطع كل سارق سرق ما تقطع فيه اليد؛ إلا أن يجمعوا على شى فيسلم للإجماع .

السابعـــة عشرة — واختلفوا فى سـارق المصحف؛ فقال الشـافعى وأبو يوسف وأبو ثور : يقطع إذا كانت قيمته ما تقطع فيـه اليد؛ وبه قال ابن القاسم . وقال النعمان : لا يقطع من سرق مصحفا . قال ابن المنذر : يقطع سارق المصحف . واختلفوا فى الطَّرّار[1] يَطُرّ النفقة من الكُمّ؛ فقالت طائفة : يقطع من داخل الكُم طَرّ أو من خارج؛ وهو قول مالك

---

(١) الطرار : هو الذى يشق كم الرجل ويسل ما فيه؛ من الطر وهو القطع والشق .

والأوزاعي وأبي ثور ويعقوب . وقال أبو حنيفة ومحمد بن الحسن وإسحق: إن كانت الدراهم مصرورة في ظاهر كُمّه فطَرَّها فسرقها لم يقطع، وإن كانت مصرورة إلى داخل الكُمّ فأدخل يده فسرقها قطع . وقال الحسن : يقطع . قال ابن المنذر : يقطع على أي جهة طَرّ .

الثامنة عشرة — واختلفوا في قطع اليد في السفر، وإقامة الحدود في أرض الحرب؛ فقال مالك والليث بن سعد : تقام الحدود في أرض الحرب ولا فرق بين دار الحرب والإسلام . وقال الأوزاعي : يقيم من غزا على جيش — وإن لم يكن أمير مصر من الأمصار — الحدود في عسكره غير القطع . وقال أبو حنيفة : إذا غزا الجند أرض الحرب وعليهم أمير فإنه لا يقيم الحدود في عسكره، إلا أن يكون إمام مصر أو الشام أو العراق أو ما أشبهه فيقيم الحدود في عسكره . استدل الأوزاعي ومن قال بقوله بحديث جُنَادة بن أبي أمية قال: كنا مع بُسْر بن أَرْطاة في البحر، فأُتِي بسارق يقال له مصدر قد سرق بُخْتِيَّة[(1)] ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تقطع الأيدي في الغزو" ولولا ذلك لقطعته . بُسْر هذا وُلِد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت له أخبار سوء في جانب عليّ وأصحابه ، وهو الذي ذبح طفلين لعبد الله بن العباس ففقدت أمهما عقلها فهامت على وجهها ، فدعا عليه عليّ رضي الله عنه أن يطيل الله عمره ويذهب عقله ، فكان كذلك . قال يحيى بن مَعِين : كان بُسْر بن أَرْطاة رجل سوء . استدل من قال بالقطع بعموم القرآن؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . وأولى ما يحتج به لمن منع القطع في أرض الحرب والحدود مخافة أن يلحق ذلك بالشرك . والله أعلم .

التاسعة عشرة — فإذا قطعت اليد أو الرجل فإلى أين تقطع ؟ فقال الكافة : تقطع من الرسغ والرجل من المَفْصِل، ويحسم الساق إذا قطع . وقال بعضهم : يقطع إلى المرفق . وقيل : إلى المَنْكِب ، لأن اسم اليد يتناول ذلك . وقال عليّ رضي الله عنه : تقطع الرجل من شَطْر القدم ويترك له العقِب[(2)]؛ وبه قال أحمد وأبو ثور . قال ابن المنذر : وقد روينا

(1) البختية : الأنثى من الجمال البخت، وهي جمال طوال الأعناق، واللفظة معربة .
(2) العقب : مؤخر القدم .

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقطع يد رجل فقال: "آحسموها" وفى إسناده مقال؛ وآستحب ذلك جماعة منهم الشافعىّ وأبو ثور وغيرهما ، وهذا أحسن وهـو أقرب إلى البرء وأبعد من التلف .

الموفية عشرين — لا خلاف أن اليمين هى التى تقطع أولا ، ثم آختلفوا إن سرق ثانية؛ فقال مالك وأهل المدينة والشافعىّ وأبو ثور وغيرهم : تقطع رجله اليسرى ، ثم فى الثـالثة يده اليسرى ، ثم فى الرابعة رجله اليمنى، ثم إن سرق خامسة يُعَزَّر ويُحْبَس . وقال أبو مُصْعَب من علمائنا : يقتل بعـد الرابعة واحتج بحديث خرّجه النسائىّ عن الحـارث بن حاطب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتِى بلص فقال: "آقتلوه" فقالوا: يارسول الله إنما سرق قال : "آقطعوا يده" ثم سرق فقطعت رجله ، ثم سرق فقطعت رجله ، ثم سرق على عهـد أبى بكر حتى قطعت قوائمه كلها، ثم سرق أيضا فقال أبو بكر : كان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أعلم بهذا منا حين قال: "آقتلوه" ثم دفُع إلى فِتية من قريش ليقتلوه؛ منهم عبد الله بن الزبير وكان يحب الإمارة فقال: أَمِّرونى عليكم فأَمَّروه عليهم، فكان إذا ضرب ضربوه حتى قتلوه . وبحديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بسارق فى الخامسة فقال : "آقتلوه" قال جابر: فانطلقنا به فقتلنـاه، ثم آجتررناه فرميناه فى بئر ورمينا عليه الحجـارة . رواه أبو داود وخرجه النسائىّ وقال : هـذا حديث منكر وأحد رواته[1] ليس بالقوىّ . ولا أعلم فى هذا الباب حديثا صحيحا . قال آبن المنذر: ثبت عن أبى بكر وعمر أنهما قطعا اليد بعد اليد والرجل بعد الرجل . وقيل: تقطع فى الثانية رجله اليسرى ثم لا قطع فى غيرها، ثم إذا عاد عزر وحبس . وروى عن علىّ بن أبى طالب، وبه قال الزُّهْرِىّ وحماد بن أبى سليمان وأحمد بن حنبل . قال الزُّهْرِىّ: لم يبلغنا فى السنة إلا قطع اليد والرجل . وقال عطاء : تقطع يده اليمنى خاصـة ولا يعود عليه القطع؛ ذكره ابن العربى وقال : أما قول عطاء فإن الصحابة قالوا قبله خلافه .

(١) هو مصعب بن ثابت . « النسائى » .

الحـادية والعشرون — وٱختلفـوا فى الحاكم يأمر بقطع يد السارق اليمنى فتقطع يساره فقال قَتَادة : قد أقيم عليه الحدّ ولا يزاد عليه ؛ وبه قال مالك إذا أخطأ القاطع فقطع شماله ، و به قال أصحاب الرأى ٱستحسانا . وقال أبو ثور : على الحزاز الدّية لأنه أخطأ وتقطع يمينه إلا أن يمنع بإجماع . قال ٱبن المنـذر : ليس يخلو قطع يسار السارق من أحد معنيين ؛ إما أن يكون القاطع عَمَد ذلك فعليه القَـوَد ، أو يكون أخطأ فديته على عاقلة القاطع ؛ وقطع يمين السارق يجب ، ولا يجوز إزالة ما أوجب الله سـبحانه بتعدّى متعـد أو خطأ مخطئ . وقال الثورىّ فى الذى يقتص منه فى يمينه فيقدّم شمـاله فتقطع ؛ قال : تقطع يمينه أيضا . قال ٱبن المنذر : وهذا صحيح . وقالت طائفة : تقطع يمينه إذا برئ ؛ وذلك أنه هو أتلف يساره ، ولا شيء على القاطع فى قول أصحاب الرأى ، وقياس قول الشافعى : وتقطع يمينـه إذا برئت . وقال قَتَادة والشَّعْبىّ : لا شيء على القاطع وحسبه ما قُطِع منه .

الثانية والعشرون — وتعلق يد السارق فى عنقه ، قال عبد الله بن مُحَيْرِيز سألت فَضَالة عن تعليق يد السارق فى عنقه أمن السنة هو ؟ فقال : أُتِى رسـول الله صلى الله عليه وسلم بسارق فقطعت يده ، ثم أَمَر بهـا فعلقت فى عنقه ؛ أخرجه الترمذىّ — وقال : حديث حسن غريب — وأبو داود والنسائى .

الثالثة والعشرون — إذا وجب حد السرقة فقتـل السارق رجلا ؛ فقال مالك : يقتل و يدخل القطع فيه . وقال الشافعى : يقطع ؛ لأنهما حقان لمستحقين فوجب أن يوفى لكل واحد منهما حقه ، وهذا هو الصحيح إن شاء الله تعالى ، وهو اختيار ابن العربى .

الرابعة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ أَيْدِيَهُمَا ﴾ لمـّا قال « أيديهما » ولم يقل يديهما تكلم علمـاء اللسان فى ذلك — قال ٱبن العـربى : وتابعهم الفقهـاء على ما ذكروه حسن ظن بهم[1] — فقال الخليل ابن أحمـد والفراء : كل شيء يوجد من خلق الإنسان إذا أضيف إلى ٱثنين جمع تقـول : هشمت رءوسهما وأشبعت بطونهما ، و « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَـدْ

(١) زاد ابن العربي « من غير تحقيق لكلامهم » .

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » ولهذا قال : « فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » ولم يقــل يديهما . والمراد فاقطعوا يمينا من هذا ويمينا من هذا . ويجوز فى اللغة ؛ فاقطعوا يديهما وهو الأصل ؛ وقد قال الشاعر (١) يجمع بين اللغتين :

وَمَهْمَهَيْنِ قَـــذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ * ظَهْراهما مِثْلُ ظُهورِ التُّرْسَيْنِ

وقيل : فُعِل هــذا لأنه لا يشكل . وقال سيبويه : إذا كان مفردا قــد يجمع إذا أردت به التثنية، وحكى عن العرب ؛ وضعا رِحالها و يريد رحلى راحلتيهما ؛ قال ابن العربى : وهــذا بنـاء على أن اليمين وحدها هى التى تقطع وليس كذلك، بل تقطع الأيدى والأرجل، فيعود قول مالك إلى أربعة وهى جمع فى الآيتين، وهما تثنية فيأتى الكلام على فصاحته، ولو قال : فاقطعوا أيديهــم لكان وجها ؛ لأن السارق والسارقة لم يرد بهما شخصين خاصة، و إنمـا هما ٱسمـا جنس يعمان ما لا يحصى .

الخامسة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ﴾ مفعول من أجله ، وإن شئت كان مصدرا وكذا ﴿ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾ يقال : نَكلتُ به إذا فعلتَ به ما يوجب أن يَنْكُل به عن ذلك الفعل . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ لا يغالب ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يفعله ؛ وقد تقدّم .

السادسة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ شرط، وجوابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ . ومعنى « مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ » من بعد السرقة؛ فإن الله يتجاوز عنه . والقطع لا يسقط بالتوبة . وقال عطاء وجماعة : يسقط بالتوبة قبل القــدرة على السارق . وقاله بعض الشافعية وعزاه إلى الشافعى قولا . وتعلقوا بقول الله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ » وذلك ٱستثناء من الوجوب، فوجب حمل جميع الحدود عليه . وقال علماؤنا : هذا بعينه دليلنا ؛ لأن الله تعالى لمـا ذكر حدّ المحارب قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ وعَطَف عليه حدّ السارق وقال فيه : « فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ » فلو كان مثــله فى الحكم ما غاير الحكم بينهما . ابن العربى : ويا معشر

(١) راجع جـ ٥ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

الشافعية سبحان الله ! أين الدقائق الفقهية ، والحكم الشرعيـة ، التي تستنبطونها في غوامض المسائل ؟! ألم تروا إلى المحارب المستبد بنفسه ، المعتدي بسلاحه ، الذي يفتقـر الإمام معه إلى الإيجاف بالخيـل والركاب كيف أسقط جزاءه بالتوبة آستنزالا عن تلك الحالة ، كما فعـل بالكافر في مغفرة جميع ما سلف آستئلافا على الإسـلام ؛ فأما السارق والزاني وهما في قبضة المسلمين وتحت حكم الإمام ، فما الذي يسقط عنهم حكم ما وجب عليهم ؟! أو كيف يجـوز أن يقال يقاس على المحارب وقد فرّقت بينهما الحكمة والحالة ! هذا ما لا يليق بمثلكم يا معشر المحققين . وإذا ثبت أن الحدّ لا يسقط بالتوبة فالتوبة مقبولة والقطع كفارة له . « وَأَصْلَحَ » أي كما تاب عن السرقة تاب عن كل ذنب . وقيـل : « وَأَصْلَحَ » ترك المعصية بالكليـة ، فأما من ترك السرقة بالزنى أو التهوّد بالتنصر فهذا ليس توبة ، وتوبة الله على العبد أن يوفقه للتوبة . وقيل : أن تقبل منه التوبة .

السابعة والعشرون — يقال : بدأ الله بالسارق في هـذه الآية قبل السارقة ، وفي الزنى بالزانية قبل الزاني ما الحكمة في ذلك ؟ فالجواب أن يقال : لمـا كان حب المـال على الرجال أغلب ، وشهوة الآستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين ؛ هذا أحد الوجوه في المرأة على ما يأتي بيانه في سورة « النـور »(1) من البداية بهـا على الزاني إن شاء الله . ثم جعل الله حدّ السرقة قطع اليـد لتناول المـال ، ولم يجعل حدّ الزنى قطع الذكر مع مواقعة الفاحشة به لثلاثة معان ؛ أحدها — أن للسارق مثل يده التي قطعت فإن آنزجر بها آعتاض بالثانيـة ، وليس للزاني مثل ذكره إذا قطع فلم يعتض بغيره لو آنزجر بقطعه . الثـاني — أن الحد زجر للمحدود وغـيره ، وقطع اليـد في السرقة ظاهر ، وقطع الذكر في الزنى باطن . الثالث — أن قطع الذكر فيه إبطال للنسل وليس في قطع اليد إبطاله . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤٠)

(1) راجع المسئلة الخامسة في تفسير آية ٢ .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية . خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وغيره ؛ أى لا قرابة بين الله تعالى وبين أحد توجب المحاباة حتى يقول قائل : نحن أبناء الله وأحباؤه ؛ والحدود تقام على كل من يقارف موجب الحد . وقيل : أى له أن يحكم بما يريد ؛ فلهذا فرّق بين المحارب وبين السارق غير المحارب . وقد تقدّم نظائر هذه الآية والكلام فيها فلا معنى لإعادتها والله الموفق . هذا ما يتعلق بآية السرقة من بعض أحكام السرقة . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ ﴾ الآية في سبب نزولها ثلاثة أقوال : قيل : نزلت فى بنى قُرَيْظة والنَّضير ؛ قَتَل قُرَظِى نَضِيريا وكان بنو النَّضير إذا قتلوا من بنى قُرَيظة لم يُقِيدوهم ، وإنما يعطونهم الدّية على ما يأتى بيانه ، فتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحكم بالتّسوية بين القُرَظى والنَّضيرى ، فساءهم ذلك ولم يقبلوا . وقيل ؛ إنها نزلت فى شأن أبى لُبَابة حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى بنى قُرَيظة فخانه حين أشار إليهم أنه الذبح (١) . وقيل : إنها نزلت فى زنى اليهوديين وقصة الرجم ؛ وهذا أصح الأقوال ؛ رواه

(١) كان ذلك يوم حصارهم ، فسألوه ما الأمر ؟ وعلام نزل من الحكم ؟ فأشار إلى حلقه بمعنى أنه الذبح .

الأئمة مالك والبخارىّ ومسلم والترمذىّ وأبو داود . قال أبو داود عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : "ائتونى بأعلم رجلين منكم" فجاءوا بابنى صُوريَا فنشدهما الله كيف تجدان أمر هذين فى التوراة؟ قالا : نجد فى التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره فى فرجها كالمِرود فى المُكْحُلة رُجما . قال : "فما يمنعكما أن ترجموهما" قالا : ذهب سلطاننا فكرهنا القتل . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بالشهود ، فجاءوا أربعة فشهدوا أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل المِيل فى المُكْحُلة ، فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم برجمهما . فى غير الصحيحين عن الشعبىّ عن جابر بن عبد الله قال : زنى رجل من أهل فَدَك ، فكتب أهل فَدَك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سَلُوا محمدا عن ذلك ، فإن أمركم بالجلد فخذوه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه ؛ فسألوه فدعا بآبن صُوريَا وكان عالمهم وكان أعور ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَنْشُدك بالله كيف تجدون حدّ الزانى فى كتابكم" فقال آبن صُوريَا : فأما إذ ناشدتنى الله فإنا نجد فى التوراة أن النظر زَنْية ، والاعتناق زَنْية ، والقُبلة زَنْية ، فإن شهد أربعة بأنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل المِيل فى المُكْحُلة فقد وجب الرجم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هو ذاك" . وفى صحيح مسلم عن البَرَاء بن عازِب قال : مُرّ على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودىّ مُحَمَّما[1] مجلودا ، فدعاهم فقال : "هكذا تجدون حدّ الزانى فى كتابكم" قالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال : "أَنْشُدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدّ الزانى فى كتابكم" قال : لا — ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك — نجده الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ ، قلنا : تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم إنى أوّل من أحيا أمرك إذ أماتوه" فأمر به فرجم ؛ فأنزل الله تعالى « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ » إلى قوله : « إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ » يقول : آئتوا محمدا ، فإن أمركم بالتحميم

(١) حممه تحميا : طلى وجهه بالفحم .

والجلد نخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله عز وجل « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » ، «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» ، «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » فى الكفار كلها . هكذا فى الرواية "مُرَّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم " وفى حديث ابن عمر "أُتِى بيهودىّ ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود ، قال : " ما تجدون فى التوراة على من زنى " الحديث . وفى رواية ، أن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل وآمرأة قد زنيا . وفى كتاب أبى داود من حديث ابن عمر قال : أَتَى نفرٌ من اليهود ، فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القُفّ (١) فأتاهم فى بيت المِدْرَاس (٢) فقالوا : يا أبا القاسم ، إن رجلا مِنا زنى بامرأة فآحكم بيننا . ولا تعارض فى شيء من هذا كله ، وهى كلها قصة واحدة ، وقد ساقها أبو داود من حديث أبى هريرة سياقة حسنة فقال : زنى رجل من اليهود وآمرأة ، فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبي ، فإنه نبى بعث بالتخفيفات ، فإن أفتى بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، وقلنا فتيا نبى من أنبيائك ؛ قال : فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد فى أصحابه ؛ فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة منهم زنيا ؟ فلم يكلمهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتى بيت مِدْرَاسهم ، فقام على الباب ، فقال : "أَنْشُدُكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن " فقالوا : يُحَمَّم وجهه ويُجَبَّه ويُجْلَد ، والتَّجْبِية أن يُحمل الزانيان على حمار وتُقابَل أقفيتُهما ويطاف بهما ؛ قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم سكت أَلَظَّ (٣) به النِّشْدَة ؛ فقال : اللهم إذ نَشَدْتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم . وساق الحديث إلى أن قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : "فإنى أحكم بما فى التوراة " فأَمَر بهما فرُجِما .

---

(١) القف علم لواد من أودية المدينة عليه مال لأهلها . (٢) المدراس هو البيت الذى يدرسون فيه ، ومفعال غريب فى المكان . (اللسان) . ومدراس أيضا صاحب دراسة كتبهم .

(٣) ألظ به النشدة : ألح فى سؤاله وألزمه إياها .

الثانية — والحاصل من هذه الروايات أن اليهود حَكَّمت النبي صلى الله عليه وسلم، فحَكَم عليهم بمقتضى ما في التوراة . واستند في ذلك إلى قول ابني صُوريا، وأنه سمع شهادة اليهود وعمل بها، وأن الإسلام ليس شرطا في الإحصان . فهذه مسائل أربع . فإذا ترافع أهل الذمة إلى الإمام ؛ فإن كان ما رفعوه ظلما كالقتل والعدوان والغصب حَكَم بينهم ، ومَنعهم منه بلا خلاف . وأما إذا لم يكن كذلك فالإمام مخير في الحكم بينهم وتركه عند مالك والشافعي، غير أن مالكا رأى الإعراض أولى ، فإن حَكَم حَكَم بحكم الإسلام . وقال الشافعي : لا يَحكم بينهم في الحدود . وقال أبو حنيفة : يَحكم بينهم على كل حال، وهو قول الزُّهْري وعمر بن عبد العزيز والحكم ، وروى عن ابن عباس وهو أحد قولى الشافعي لقوله تعالى : « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على ما يأتي بيانه . احتج مالك بقوله تعالى : « فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » وهي نص في التخيير . قال ابن القاسم : إذا جاء الأساقفة والزانيان فالحاكم مخير؛ لأن إنفاذ الحكم حق للأساقفة . والمخالف يقول : لا يلتفت إلى الأساقفة . قال ابن العربي : وهو الأصح لأن مسلمين لو حَكَّما بينهما رجلا لنفذ ، ولم يعتبر رضا الحاكم فالكتابيون بذلك أولى . وقال عيسى عن ابن القاسم : لم يكونوا أهل ذمة إنما كانوا أهل حرب . قال ابن العربي : وهذا الذى قاله عيسى عنه إنما نَزَع به لما رواه الطَّبَري وغيره ؛ أن الزانيين كانا من أهل خَيْبَر أو فَدَك ، وكانوا حربا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسم المرأة الزانية بُسْرة ، وكانوا بعثوا إلى يهود المدينة يقولون لهم اسألوا محمدا عن هذا، فإن أفتاكم بغير الرجم فخذوه واقبلوا ، وإن أفتاكم به فاحذروا ؛ الحديث . قال ابن العربي : وهذا لو كان صحيحا لكان مجيئهم بالزانيين وسؤالهم عهدا وأمانا وإن لم يكن عهد وذمة ودار لكان له حُكم الكَفّ عنهم والعدل فيهم؛ فلا حجة لرواية عيسى في هذا؛ وعنهم أخبر الله تعالى بقوله : « سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ » ولما حكّموا النبي صلى الله عليه وسلم نفذ الحكم عليهم ولم يكن لهم الرجوع؛ فكل من حكّم رجلا في الدين وهي :

الثالثة — فأصله هذه الآية . قال مالك : إذا حكّم رجل رجلا فحكمه ماضٍ وإن رُفع إلى قاض أمضاه، إلا أن يكون جَوْرا بَيّنا . وقال سُحْنون : يُمضيه إن رآه . قال

ابن العربي : وذلك في الأموال والحقوق التي تختص بالطالب ، فأما الحدود فلا يحكم فيها إلا السلطان ؛ والضابط أن كل حق اختص به الخصمان جاز التحكيم فيه ونفذ تحكيم المحكَّم فيه ؛ وتحقيقه أن التحكيم بين الناس إنما هو حقهم لا حق الحاكم بَيْد أن الاسترسال على التحكيم خَرْمٌ لقاعدة الولاية ، ومُؤدٍّ إلى تهارج الناس تهارج الحُمُر ، فلا بد من فاصِلٍ ؛ فأَمَر الشرع بنصب الوالي ليحسم قاعدة الهَرْج ؛ وأَذِنَ في التحكيم تخفيفا عنه وعنهم في مشقة الترافع لتتم المصلحتان وتحصل الفائدة . وقال الشافعي وغيره : التحكيم جائز وإنما هو فتوى . وقال بعض العلماء : إنما كان حكم النبي صلى الله عليه وسلم على اليهود بالرجم إقامة لحكم كتابهم ، لما حرفوه وأخفوه وتركوا العمل به ؛ ألا ترى أنه قال : "اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه" وأن ذلك كان حين قدم المدينة ، ولذلك استثبت ابني صُورِيَا عن حكم التوراة واستحلفهما على ذلك . وأقوال الكفار في الحدود وفي شهادتهم عليها غير مقبولة بالإجماع ، لكن فعل ذلك على طريق إلزامهم ما التزموه وعملوا به . وقد يحتمل أن يكون حصول طريق العلم بذلك الوحي ، أو ما ألقى الله في روعه من تصديق ابني صُورِيَا فيما قالاه من ذلك لا قولهما مجردا ؛ فبيّن له صلى الله عليه وسلم ، وأخبر بمشروعية الرجم ، ومبدؤه ذلك الوقت ، فيكون أفاد بما فعله إقامة حكم التوراة ، وبين أن ذلك حكم شريعته ، وأن التوراة حكم الله ؛ لقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا » وهو من الأنبياء . وقد قال عنه أبو هُرَيرة : "فإني أحكم بما في التوراة" والله أعلم .

الرابعة — والجمهور على ردّ شهادة الذمي ؛ لأنه ليس من أهلها فلا تقبل على مسلم ولا على كافر ، وقد قبل شهادتهم جماعة من التابعين وغيرهم إذا لم يوجد مسلم على ما يأتي بيانه آخر السورة[(1)] . فإن قيل : فقد حَكَم بشهادتهم ورَجَم الزانيين : فالجواب ؛ أنه إنما نَفَّذ عليهم ما علم أنه حكم التوراة وألزمهم العمل به ، على نحو ما عملت به بنو إسرائيل إلزاما للحجة عليهم ، وإظهارا لتحريفهم وتغييرهم ، فكان مُنَفِّذا لا حاكما . وهذا على التأويل الأول ، وعلى

(1) راجع تفسير آية ١٠٦ .

ما ذكر من الاحتمال فيكون ذلك خاصا بتلك الواقعة ، إذ لم يسمع فى الصدر الأول من من قَبِل شهادتهم فى مثل ذلك . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَحْزُنْكَ ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى ، والباقون بفتح الياء وضم الزاى . والحُزْن والحَزَن خلاف السرور ، وحَزِن الرجل بالكسر فهو حَزِنٌ وحَزِين ، وأَحْزَنه غيره وحَزَنه أيضا مثل أَسْلَكه وسَلَكه ، ومحزون بنى عليه . قال اليزيدىّ : حَزَنه لغة قريش ، وأَحْزَنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . وٱحْتَزَن وتَحَزَّن بمعنى . والمعنى فى الآية تأنيس النبى صلى الله عليه وسلم : أى لا يحزنك مسارعتهم إلى الكفر ، فإن الله قد وعدك النصر عليهم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهم المنافقون ﴿ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى لم يضمروا فى قلوبهم الإيمان كما نطقت به ألسنتهم ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا ﴾ يعنى يهود المدينة و يكون هذا تمام الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أى هم سماعون ، ومثله « طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ » . وقيل الابتداء من قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا ﴾ أى ومن الذين هادوا قوم سماعون للكذب ، أى قابلون لكذب رؤسائهم من تحريف التوراة . وقيل : أى يسمعون كلامك يا محمد ليكذبوا عليك ، فكان فيهم من يحضر النبى صلى الله عليه وسلم ثم يكذب عليه عند عامتهم ، و يقبح صورته فى أعينهم ؛ وهو معنى قوله : ﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ وكان فى المنافقين من يفعل هذا . قال الفرّاء : و يجوز سماعين وطوافين ، كما قال : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا » وكما قال : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ » ثم قال : « فَاكِهِينَ » آخذين . وقال سفيان بن عُيَيْنَة : إن الله سبحانه ذكر الجاسوس فى القرآن بقوله : « سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ » ولم يعرض النبى صلى الله عليه وسلم لهم مع علمه بهم ؛ لأنه لم يكن حينئذ تقررت الأحكام ولا تمكن الإسلام . وسيأتى حكم الجاسوس فى « الممتحنة »[(1)] إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ أى يتأولونه على غير تأويله بعد أن فهموه عنك وعرفوا مواضعه التى أرادها الله عز وجل ؛ وبيّن أحكامه ؛ فقالوا :

(١) راجع تفسير الآية الأولى من السورة .

شرعه ترك الرجم ؛ وجعلهم بدل الرجم للمحصن جلد أربعين تغييرا لحكم الله عز وجل .
و « يُحَرِّفُونَ » فى موضع الصفة لقوله « سَمَّاعُونَ » وليس بحال من الضمير الذى فى « يَأْتُوكَ » لأنهم إذا لم يأتوا لم يسمعوا، والتحريف إنما هو ممن يشهد ويسمع فيحرف . والمحرفون من اليهود بعضهم لا كلهم ، ولذلك كان حمل المعنى على « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا » فريق سماعون أشبه . ﴿ يَقُولُونَ ﴾ فى موضع الحال من المضمر فى « يُحَرِّفُونَ » . ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ﴾ أى إن أتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بالجلد فاقبلوا وإلا فلا .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ أى ضلالته فى الدنيا وعقوبته فى الآخرة . ﴿ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى فلن تنفعه . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ بيان منه عز وجل أنه قضى عليهم بالكفر . ودلت الآية على أن الضلال بمشيئة الله تعالى ردا على من قال خلاف ذلك على ما تقدم؛ أى لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الطبع عليها والختم كما طهّر قلوب المؤمنين ثوابا لهم . ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ قيل : هو فضيحتهم حين أنكروا الرجم ، ثم أحضرت التوراة فوجد فيها الرجم . وقيل : خزيهم فى الدنيا أخذ الجزية والذل . والله أعلم .

قوله تعالى : سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ كرره تأكيدا وتفخيما، وقد تقدم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ على التكثير . والسُّحْت فى اللغة أصله الهلاك والشدّة ؛ قال الله تعالى « فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » . وقال الفرزدق :

وعَضّ زمان يابنَ مَروانَ لم يَدعْ (١) * من المال إلّا مُسْحَتاً أو مُجلَّفُ (٢)

كذا الرواية . أو مُجلَّفُ بالرفع عطفا على المعنى ؛ لأن معنى لم يدع لم يبق . و يقال للحالق أَسْحَتَ أى آستأصلَ . وسُمى المال الحرام سُحْتا لأنه يَسْحَت الطاعات أى يذهبها و يستأصلها . وقال الفراء : أصله كَلَب الجوع ؛ يقال رجل مسحوت المعدة أى أكول ؛ فكأن بالمسترشى وآكل الحرام من الشَّرَه إلى ما يُعطَى مثل الذى بالمسحوت المعدة من النَّهَم . وقيل : سُمى الحرام سُحْتا لأنه يَسحَت مروءة الإنسان .

قلت : والقول الأوّل أولى؛ لأن بذهاب الدّين تذهب المروءة ، ولا مروءة لمن لا دين له . قال ابن مسعود وغيره : السُّحْت الرِّشا . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رشوة الحاكم من السّحت . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كُل لحم نبت بالسّحت فالنار أولى به" قالوا يا رسول الله وما السحت ؟ قال : "الرشوة فى الحكم" . وعن ابن مسعود أيضا أنه قال : السّحت أن يقضى الرجل لأخيه حاجة فيهدى إليه هدية فيقبلها . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : من السّحت أن يأكل الرجل بجاهه ، وذلك أن يكون له جاه عند السلطان فيسأله إنسان حاجة فلا يقضيها إلا برشوة يأخذها . ولا خلاف بين السّلف أنّ أَخْذ الرشوة على إبطال حق أو ما لا يجوز سُحْت حرام . وقال أبو حنيفة : إذا آرتشى الحاكم انعزل فى الوقت وإن لم يعزل، و بطل كل حكم حكم به بعد ذلك .

قلت : وهذا لا يجوز أن يختلف فيه إن شاء الله؛ لأن أخذ الرشوة منه فسق، والفاسق لا يجوز حكمه . والله أعلم . وقال عليه السلام : "لعن الله الراشى والمرتشى" . وعن علىّ رضى عنه أنه قال : السّحت الرشوة وحُلْوان (٣) الكاهن والاستجعال فى القَضيّة . وروى عن وهب بن مُنبّه أنه قيل له : الرشوة حرام فى كل شىء؟ فقال : لا؛ إنما يكره من الرشوة أن تَرشى لتُعطَى ما ليس لك، أو تدفع حقا قد لزمك؛ فأما أن تَرشى لتدفع عن دِينك ودمك ومالك

(١) ويروى : (إلا مسحت) ومن رواه كذلك جعل (معنى لم يدع) لم يتقار . (اللسان) مادة سحت .

(٢) المجلف : الذى بقيت منه بقية .   (٣) هو ما يعطى على الكهانة .

فليس بحرام . قال أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ الفقيه : وبهذا نأخذ؛ لا بأس بأن يدفع الرجل عن نفسه وماله بالرشوة . وهذا كما روى عن عبد الله بن مسعود أنه كان بالحبشة فرشا دينارين وقال : إنما الإثم على القابض دون الدافع ؛ قال المهدوىّ : ومن جعل كسب الحجام ومن ذكر معه سحتا فمعناه أنه يَسحَت مروءة آخذه .

قلت : الصحيح فى كسب الحجام أنه طيّب ، ومن أخذ طيبا لا تسقط مروءته ولا تنحط مرتبته . وقد روى مالك عن حُمَيد الطّويل عن أنس أنه قال : احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حجمه أبو طيبة فأمر له بصاع من تمر وأمر أهله أن يخففوا عنه من خراجه ؛ قال ابن عبد البر : هذا يدل على أن كسب الحجام طيّب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجعل ثمنا ولا جُعْلا عوضا لشيء من الباطل . وحديث أنس هذا ناسخ لما حَرَّمه النبي صلى الله عليه وسلم من ثمن الدم ، وناسخ لما كرهه من إجارة الحجام . وروى البخارىّ وأبو داود عن ابن عباس قال : احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطى الحجام أجره ، ولو كان سُحْتا لم يعطه . والسُّحُت والسُّحْت لغتان قرئ بهما ؛ قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائىّ بضمتين ، والباقون بضم السين وحدها . وروى العباس بن الفضل عن خارجة بن مُصْعَب عن نافع «أَكَّالُونَ لِلسَّحْتِ» بفتح السين وإسكان الحاء وهذا مصدر من سَحَته ؛ يقال : أَسْحت وسَحَت بمعنى واحد . وقال الزجاج : سَحَته ذهب به قليلا قليلا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ هذا تخيير من الله تعالى ؛ ذكره القُشَيرىّ ؛ وتقدم معناه أنهم كانوا أهل موادعة لا أهل ذمة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وادع اليهود ، ولا يجب علينا الحكم بين الكفار إذا لم يكونوا أهل ذمة ، بل يجوز الحكم إن أردنا . فأما أهل الذّمة فهل يجب علينا الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا ؟ قولان للشافعى ؛ وإن ارتبطت الخصومة بمسلم يجب الحكم . قال المهدوىّ : أجمع العلماء على أن على الحاكم أن يحكم بين المسلم والذمىّ . واختلفوا فى الذّميين ؛ فذهب بعضهم إلى أن الآية محكَمَة وأن الحاكم مخيّر ؛ روى ذلك عن النَّخَعىّ والشَّعْبىّ وغيرهما ، وهو مذهب مالك

والشافعي وغيرهما؛ سوى ما روى عن مالك في ترك إقامة الحد على أهل الكتاب في الزنى؛ فإنه إن زنى المسلم بالكتابية حد ولا حد عليها، فإن كان الزانيان ذميين فلا حد عليهما؛ وهو مذهب أبي حنيفة ومحمد بن الحسن وغيرهما . وقد روى عن أبي حنيفة أيضا أنه قال : يجلدان ولا يرجمان . وقال الشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وغيرهم : عليهما الحد إذا أتيا راضيين بحكمنا . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولا يرسل الإمام إليهم إذا استعدى بعضهم على بعض، ولا يُحضر الخصمَ مجلسه إلا أن يكون فيما يتعلق بالمظالم التي ينتشر منها الفساد كالقتل ونهب المنازل وأشباه ذلك ، فأما الديون والطلاق وسائر المعاملات فلا يحكم بينهم إلا بعد التراضي ، والاختيار له ألا يحكم ويردهم إلى حكامهم . فإن حكم بينهم حكم بحكم الإسلام . وأما إجبارهم على حكم المسلمين فيما ينتشر منه الفساد فليس على الفساد عاهدناهم ، وواجب قطع الفساد عنهم، منهم ومن غيرهم لأن في ذلك حفظ أموالهم ودمائهم ؛ ولعل في دينهم استباحة ذلك فينتشر منه الفساد بيننا ؛ ولذلك منعناهم أن يبيعوا الخمر جهارا وأن يظهروا الزنى وغير ذلك من القاذورات ؛ لئلا يفسد بهم سفهاء المسلمين . وأما الحكم فيما يختص به دينهم من الطلاق والزنى وغيره فليس يلزمهم أن يتدينوا بديننا ، وفي الحكم بينهم إضرار بحكامهم وتغيير ملتهم ، وليس كذلك الديون والمعاملات ؛ لأن فيها وجها من المظالم وقطع الفساد . والله أعلم . وفي الآية قول ثان : وهو ما روى عن عمر بن عبد العزيز والنَّخَعِيّ أيضا أن التخيير المذكور في الآية منسوخ بقوله تعالى : « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ » وأن على الحاكم أن يحكم بينهم ؛ وهو مذهب عطاء الخراساني وأبي حنيفة وأصحابه وغيرهم . وروى عن عكرمة أنه قال : « فَإِنْ جَاءُوكَ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » نسختها آية أخرى « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ » . وقال مجاهد : لم يُنسخ من « المـائدة » إلا آيتان ؛ قوله : « فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » نسختها « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ » ؛ وقوله : « لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ ٱللَّهِ » نسختها « فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . وقال الزُّهْرِيّ : مضت السنة أن يُرد أهل الكتاب في حقوقهم ومواريثهم إلى أهل دينهم ، إلا أن يأتوا راغبين في حكم الله فيحكم بينهم بكتاب الله . قال

السَّمَرْقَنْدِيّ : وهــذا القول يوافق قول أبي حنيفة أنه لا يحكم بينهم ما لم يتراضوا بحكمنا . وقال النحاس في « الناسخ والمنسوخ » له قوله تعالى : « فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » منسوخ ؛ لأنه إنما نزل أول ما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود فيها يومئذ كثير، وكان الأدعى لهم والأصلح أن يُرَدّوا إلى أحكامهم ، فلمـا قوي الإسـلام أنزل الله عز وجل « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » . وقاله ابن عباس ومجاهد وعِكرمة والزُّهريّ وعمر ابن عبد العزيز والسُّديّ؛ وهو الصحيح من قول الشافعيّ؛ قال في كتاب الجزية : ولا خيار له إذا تحاكموا إليــه لقوله عز وجل « حَتَّى يُعْطُوا الْجِــزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَــاغِرُونَ » . قال النحاس : وهذا من أصح الاحتجاجات ؛ لأنه إذا كان معنى قوله : « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أن تجري عليهم أحكام المسلمين وجب ألا يُرَدّوا إلى أحكامهم؛ فإذا وجب هذا فالآية منسوخة . وهو أيضا قول الكوفيين أبي حنيفة وزُفَر وأبي يوسف ومحمد، لا اختلاف بينهم إذا تحاكم أهــل الكتاب إلى الإمام أنه ليس له أن يعرض عنهم ، غير أن أبا حنيفة قال : إذا جاءت المرأة والزوج فعليه أن يحكم بينهما بالعدل، وإن جاءت المرأة وحدها ولم يرض الزوج لم يحكم. وقال الباقون : يحكم ؛ فثبت أن قول أكثر العلماء أن الآية منسوخة مع ما ثبت فيهـا من توقيف ابن عباس؛ ولو لم يأت الحديث عن ابن عباس لكان النظر يوجب أنها منسوخة ؛ لأنهم قــد أجمعوا أن أهل الكتاب إذا تحاكموا إلى الإمام فله أن ينظر بينهم، وأنه إذا نظر بينهم مصيب عند الجماعة ، وألا يعرض عنهم فيكون عند بعض العلمــاء تاركا فرضا ، فاعلا ما لا يحل له ولا يسعه . قال النحاس : ولمن قال بإنها منسوخة من الكوفيين قول آخر؛ منهم من يقول : على الإمام إذا علم من أهل الكتاب حدا من حدود الله عز وجل أن يقيمه وإن لم يتحاكموا إليه ويحتج بأن قول الله عز وجل : « وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ » يحتمل أمرين : أحدهما — وأن احكم بينهم إذا تحاكموا إليك . والآخر — وأن احكم بينهم وإن لم يتحاكموا إليك — إذا علمت ذلك منهم — قالوا : فوجدنا في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما يوجب إقامة الحق عليهم وإن لم يتحاكموا إلينا ؛ فأما ما في كتاب الله فقوله تعالى : « يَأَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ » . وأما ما فى السنة فحديث البَرَاء بن عازب قال : مُرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودىّ قد جُلِد وحُمِّم فقال : " أهكذا حدّ الزانى عندكم " فقالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال : " سألتك بالله أهكذا حدّ الزانى فيكم " فقال : لا . الحديث ، وقد تقدم . قال النحاس : فاحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بينهم ولم يتحاكموا إليه فى هذا الحديث . وإن قال قائل ففى حديث مالك عن نافع عن ابن عمر أن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم؛ قيل له : ليس فى حديث مالك أيضا أن اللذين زنيا رضيا بالحكم وقد رجمهما النبي صلى الله عليه وسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : لو تدبر من احتج بحديث البَرَاء لم يحتج؛ لأن فى دَرْج الحديث تفسير قوله عز وجل : « إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا » يقول : إن أفتاكم بالجلد والتحميم فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، ودليل على أنهم حكّموه . وذلك بين فى حديث ابن عمر وغيره . فإن قال قائل : ليس فى حديث ابن عمر أن الزانيين حكّما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا رضيا بحكمه . قيل له : حدّ الزانى حق من حقوق الله تعالى على الحاكم إقامته . ومعلوم أن اليهود كان لهم حاكم يحكم بينهم ، ويقيم حدودهم عليهم ، وهو الذى حكّم رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ روى النَّسائىّ عن ابن عباس قال : كان قُرَيْظة والنَّضِير، وكان النَّضِير أشرف من قُرَيظة ، وكان إذا قتل رجل من قُرَيظة رجلا من النَّضِير قُتِل به ، وإذا قَتل رجل من النَّضِير رجلا من قُرَيظة ودى مائة وسْق[1] من تمر ؛ فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قَتَل رجل من النَّضِير رجلا من قُرَيظة فقالوا : ادفعوه إلينا لنقتله؛ فقالوا : بيننا وبينكم النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » النفس بالنفس، ونزلت : « أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ » .

قوله تعالى : وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

(١) الوسق : ستون صاعا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ قال الحسن : هو الرجم . وقال قتادة : هو القَوَد . ويقال هل يدل قوله تعالى : ﴿ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ على أنه لم ينسخ ؟ الجواب — قال أبو عليّ : نعم ؛ لأنه لو نسخ لم يطلق عليه بعد النسخ أنه حكم الله ، كما لا يطلق أن حكم اللهِ تحليل الخمر أو تحريم السبت . وقوله : ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى بحكمك أنه من عند الله . وقال أبو عليّ : إن من طلب غير حكم الله من حيث لم يرض به فهو كافر ؛ وهذه حالة اليهود .

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ . أى بيان وضياء وتعريف أن محمدا صلى الله عليه وسلم حق . « هُدًى » فى موضع رفع بالابتداء « وَنُورٌ » عطف عليه . ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ قيل : المراد بالنبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وعبر عنه بلفظ الجمع . وقيل : كل من بُعث بعد موسى بإقامة التوراة ، وأن اليهود قالت : إن الأنبياء كانوا يهودا . وقالت النصارى : كانوا نصارى ؛ فبين الله عز وجل كذبهم . ومعنى ﴿ أَسْلَمُوا ﴾ صدّقوا بالتوراة من لدن موسى إلى عيسى عليهما السلام و بينهما ألف نبى ؛ ويقال : أربعة آلاف . ويقال : أكثر من ذلك ، كانوا يحكمون بما فى التوراة . وقيل : معنى « أَسْلَمُوا » خضعوا وانقادوا لأمر الله فيما بُعثوا به . وقيل : أى يحكم بها النبيون الذين هم على دين إبراهيم عليه السلام والمعنى واحد . ومعنى ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ على الذين هادوا فاللام بمعنى « على » . وقيل : المعنى يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا وعليهم ، فحذف «عليهم» . « وَالَّذِينَ أَسْلَمُوا » ههنا نعت فيه معنى المدح مثل

« بسم الله الرحمن الرحيم » . ﴿هَادُوا﴾ أى تابوا من الكفر . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون والربانيون والأحبار ؛ أى ويحكم بها الربانيون وهم الذين يَسُوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره ؛ عن ابن عباس وغيره . وقد تقدّم فى آل عمران (١) . وقال أبو رَزين : الربانيون العلماء الحكماء والأحبار . قال ابن عباس : هم الفقهاء . والحِبْر والحَبْر الرجل العالم وهو مأخوذ من التَّحبير وهو التحسين ؛ فهم يُحبّرون العلم أى يبينونه ويزينونه ؛ وهو مُحبَّر فى صدورهم . قال مجاهد : الربانيون فوق العلماء . والألف والنون للمبالغة . قال الجوهرىّ : والحِبر والحَبر واحد أحبار اليهود ؛ وبالكسر أفصح ؛ لأنه يجمع على أفعال دون الفعول ؛ قال الفراء : هو حِبر بالكسر ويقال ذلك للعالم . وقال الثورىّ : سألت الفراء لم سمى الحبر حبرا ؟ فقال : يقال للعالم حبر فالمعنى مداد حِبر ثم حذف كما قال : ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أى أهل القرية . قال : فسألت الأصمعىّ فقال ليس هذا بشىء ؛ إنما سمى حبرا لتأثيره ؛ يقال : على أسنانه حِبر أى صفرة أو سواد . وقال أبو العباس : سمى الحِبر الذى يكتب به حِبرا لأنه يحبر به أى يحقق به . وقال أبو عبيد : والذى عندى فى واحد الأحبار الحبر بالفتح ومعناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه . قال : وهكذا يرويه المحدثون كلهم بالفتح ؛ والحِبر الذى يكتب به وموضعه المِحبرة بالكسر . والحبر أيضا الأثر والجمع حُبور ؛ عن يعقوب . ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ أى ٱستودعوا من علمه . والباء متعلقة بالربانيين والأحبار ؛ كأنه قال : والعلماء بما استحفظوا . أو تكون متعلقة بيحكم ؛ أى يحكمون بما ٱستحفظوا . ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أى على الكتاب بأنه من عند الله . ٱبن عباس : شهداء على حكم النبي صلى الله عليه وسلم أنه فى التوراة . ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾ أى فى إظهار صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإظهار الرجم . ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ أى فى كتمان ذلك ؛ فالخطاب لعلماء اليهود . وقد يدخل بالمعنى كل من كتم حقا وجب عليه ولم يُظهره . وتقدّم معنى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (٢) مستوفى .

(١) ج ٤ ص ١٢٢ طبعة أولى وثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٣٣٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ و « ٱلظَّالِمُونَ » و « ٱلْفَاسِقُونَ » نزلت كلها فى الكفار ؛ ثبت ذلك فى صحيح مسلم من حديث البراء وقد تقدّم ، وعلى هذا المعظم . فأما المسلم فلا يكفر وإن ٱرتكب كبيرة . وقيل : فيه إضمار ؛ أى ومن لم يحكم بما أنزل الله ردّا للقرآن ، وجحدا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر ؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد ، فالآية عامة على هذا . قال ٱبن مسعود والحسن : هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أى معتقدا ذلك ومستحِلا له ؛ فأمّا من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكبُ محرّمٍ فهو من فسّاق المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له . وقال ٱبن عباس فى رواية : ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلا يضاهى أفعال الكفار . وقيل : أى ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ؛ فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل فى هذه الآية ، والصحيح الأوّل ، إلا أن الشّعبيّ قال : هى فى اليهود خاصة ، وٱختاره النحاس ؛ قال : ويدل على ذلك ثلاثة أشياء ؛ منها أن اليهود قد ذُكروا قبل هذا فى قوله : « لِلَّذِينَ هَادُوا » ؛ فعاد الضمير عليهم . ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك ؛ ألا ترى أن بعده « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ » فهذا الضمير لليهود بإجماع ؛ وأيضا فإن اليهود هم الذين أنكروا الرّجم والقصاص . فإن قال قائل : « من » إذا كانت للمجازاة فهى عامة إلا أن يقع دليل على تخصيصها ؟ قيل له : « مَن » هنا بمعنى الذى مع ما ذكرناه من الأدلة ؛ والتقدير : واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ؛ فهذا من أحسن ما قيل فى هذا ؛ ويروى أن حُذَيفة سئل عن هذه الآيات أهى فى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم هى فيهم ، ولتسلكن سبيلهم حذو النعل بالنعل . وقيل : « الكافرون » للمسلمين ، و « الظالمون » لليهود ، و « الفاسقون » للنصارى ؛ وهذا ٱختيار أبى بكر بن العربى ، قال : لأنه ظاهر الآيات ، وهو ٱختيار ٱبن عباس وجابر بن زيد وٱبن أبى زائدة وٱبن شُبْرُمة والشعبيّ أيضا . قال طاوس وغيره : ليس بكفر ينقل عن الملة ، ولكنه كفر دون كفر[1] ،

(١) قال فى البحر : يعنى أن كفر المسلم ليس مثل كفر الكافر .

وهذا يختلف إن حكم بما عنده على أنه من عند الله، فهو تبديل له يوجب الكفر؛ وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين . قال القُشَيري : ومذهب الخوارج أن من ٱرتشى وحكم بغير حكم الله فهو كافر، وعُزِي هذا إلى الحسن والسُّدي . وقال الحسن أيضا : أخذ الله عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء : ألّا يتبعوا الهوى، وألّا يخشوا الناس ويخشوه، وألّا يشتروا بآياته ثمنا قليلا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فيه ثلاثون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ بيّن تعالى أنه سوّى بين النفس والنفس في التوراة فخالفوا ذلك، فضلوا؛ فكانت دية النَّضِيري أكثر، وكان النَّضِيري لا يُقتل بالقُرَظي، ويُقتل به القُرَظيّ . فلما جاء الإسلام راجع بنو قُرَيظة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فحكم بالاستواء؛ فقالت بنو النَّضِير : قد حططتَ منا؛ فنزلت هذه الآية . و « كتبنا » بمعنى فرضنا، وقد تقدم . وكان شرعهم القصاص أو العفو، وما كان فيهم الدّية؛ كما تقدّم في « البقرة »(١) بيانه . وتعلق أبو حنيفة وغيره بهذه الآية فقال : يقتل المسلم بالذمي لأنه نفس بنفس؛ وقد تقدّم في « البقرة »(٢) بيان هذا . وقد روى أبو داود والترمذي والنسائي عن عليّ رضي الله عنه أنه سئل هل خصك رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؟ فقال : لا، إلا ما في هذا ، وأخرج كتابا من قِراب سيفه وإذا فيه " المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم وألا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده " وأيضا فإن الآية إنما جاءت

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٤٤ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٤٦ طبعة ثانية .

للرد على اليهود فى المفاضلة بين القبائل ، وأخذهم من قبيلة رجلا برجل، ومن قبيلة أخرى رجلا برجلين . وقالت الشافعية : هذا خبرعن شرع من قبلنا، وشرع من قبلنا ليس شرعا لنا؛ وقد مضى فى « البقرة » فى الردّ عليهم ما يكفى فتأمله هناك (١) . ووجه رابع — وهو أنه تعالى قال : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » وكان ذلك مكتوبا على أهل التوراة وهم ملة واحدة ، ولم يكن لهم أهل ذمة كما للسلمين أهل ذمة ؛ لأن الجزية فىء وغنيمة أفاءها الله على المؤمنين ، ولم يجعل الفىء لأحد قبل هذه الأمة، ولم يكن نبيّ فيما مضى مبعوثا إلا إلى قومه ؛ فأوجبت الآية الحكم على بنى إسرائيل إذ كانت دماؤهم تتكافأ ؛ فهو مثل قول الواحد منا فى دماء سوى المسلمين النفس بالنفس ، إذ يشير إلى قوم معينين ، ويقول : إن الحكم فى هؤلاء أن النفس منهم بالنفس ؛ فالذى يجب بحكم هذه الآية على أهل القرآن أن يقال لهم فيما بينهم — على هذا الوجه — : النفس بالنفس ، وليس فى كتاب الله ما يدل على أن النفس بالنفس مع ٱختلاف الملة .

الثانيــة — قال أصحاب الشافعيّ وأبو حنيفة : إذا جرح أو قطع الأذن أو اليد ثم قتل فُعِل ذلك به ؛ لأن الله تعالى قال : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ » فيؤخذ منه ما أخذ، ويفعل به كما فعل . وقال علماؤنا : إن قصد به المُثْلة فُعِل به مثله ، وإن كان ذلك فى أثناء مضاربته ومدافعته قُتِل بالسيف ؛ وإنما قالوا ذلك فى المُثْلة يجب ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سَمَل أعين العُرنيين ؛ حسبما تقدّم بيانه فى هذه السورة (٢) .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾ قرأ نافع وعاصم والأعمش وحمزة بالنصب فى جميعها على العطف ، ويجوز تخفيف « أَنَّ » ورفع الكل بالابتداء والعطف . وقرأ ٱبن كثير وٱبن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بنصب الكل إلا الجروح . وكان الكسائيّ وأبو عبيد يقرءان «وَٱلْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفُ بِالأَنْفِ وَالأُذُنُ بِالأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ» بالرفع فيها كلها . قال أبو عبيد : حدثنا حجاج عن هرون عن عباد بن كثير عن عقيل عن الزهريّ عن

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٤٤ طبعة ثانية . (٢) راجع ص ١٤٨ من هذا الجزء .

أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ » . والرفع من ثلاث جهات ؛ بالابتداء والخبر ، وعلى المعنى على موضع « أَنَّ النَّفْسَ » ؛ لأن المعنى قلنا لهم : النفس بالنفس . والوجه الثالث — قاله الزجاج — يكون عطفا على المضمر فى النفس ؛ لأن الضمير فى النفس فى موضع رفع ؛ لأن التقدير أنّ النفس هى مأخوذة بالنفس ؛ فالأسماء معطوفة على هى . قال ابن المنذر : ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام ، وحُكْم فى المسلمين[(١)] ؛ وهذا أصح القولين ، وذلك أنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ » وكذا ما بعده . والخطاب للسلمين أُمِروا بهذا . ومن خص الجروح بالرفع فعلى القطع مما قبلها والاستئناف بها ؛ كأن المسلمين أُمِروا بهذا خاصة وما قبله لم يواجهوا به .

الرابعة — هذه الآية تدل على جريان القصاص فيما ذكر وقد تعلق ابن شُبْرُمَة بعموم قوله : « وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ » على أن اليمنى تفقأ باليسرى وكذلك على العكس ، وأجرى ذلك فى اليد اليمنى واليسرى ، وقال : تؤخذ الثَّنِيّة بالضِّرس والضِّرس بالثَّنِيّة ؛ لعموم قوله تعالى : « وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ » . والذين خالفوه وهم علماء الأمة قالوا : العين اليمنى هى المأخوذة باليمنى عند وجودها ، ولا يتجاوز ذلك إلى اليسرى مع الرضا ؛ وذلك يبين لنا أن المراد بقوله : « وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ » استيفاء ما يماثله من الجانى ؛ فلا يجوز له أن يتعدّى إلى غيره كما لا يتعدى من الرجل إلى اليد فى الأحوال كلها ، وهذا لا ريب فيه .

الخامسة — وأجمع العلماء على أن العينين إذا أصيبتا خطأ ففيهما الدّية ، وفى العين الواحدة نصف الدّية ، وفى عين الأعور إذا فُقِئت الدّية كاملة ؛ رُوِى ذلك عن عمر وعثمان ، وبه قال عبد الملك ابن مروان والزُّهْرِىّ وقَتَادة ومالك والليث بن سعد وأحمد وإسحق . وقيل : نصف الدّية ؛ روى عن عبد الله بن المُغَفَّل ومسروق والنَّخَعِىّ ؛ وبه قال الثّورىّ والشافعىّ والنعمان . قال ابن المنذر : وبه نقول ؛ لأن فى الحديث " فى العينين الدّية " ومعقول

(١) أى وبيان حكم جديد فى المسلمين . كما فى « روح المعانى » .

إذا كان كذلك أن فى إحداهما نصف الدية. قال ابن العربى : وهو القياس الظاهر ، ولكن علماؤنا قالوا : إن منفعة الأعور ببصره كمنفعة السالم أو قريب من ذلك ، فوجب عليه مثل ديته .

السادسة — واختلفوا فى الأعور يفقأ عين صحيح ؛ فروى عن عمر وعثمان وعلىّ أنه لا قود عليه ، وعليه الدية كاملة ؛ وبه قال عطاء وسعيد بن المسيب وأحمد بن حنبل . وقال مالك : إن شاء اقتص فتركه أعمى ، وإن شاء أخذ الدية كاملة (دية عين الأعور) . وقال النخعىّ : إن شاء اقتص وإن شاء أخذ نصف الدية . وقال الشافعىّ وأبو حنيفة والثورىّ : عليه القصاص ، وروى ذلك عن علىّ أيضا ؛ وهو قول مسروق وابن سيرين وابن مَعْقِل ، واختاره ابن المنذر وابن العربىّ ؛ لأن الله تعالى قال : «وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ» وجعل النبي صلى الله عليه وسلم فى العينين الدية ؛ ففى العين نصف الدية ، والقصاص بين صحيح العين والأعور كهيئته بين سائر الناس . ومتعلق أحمد بن حنبل أن فى القصاص منه أخذ جميع البصر ببعضه وذلك ليس بمساواة ؛ وبما روى عن عمر وعثمان وعلىّ فى ذلك . ومتمسك مالك أن الأدلة لما تعارضت خُيِّر المجنى عليه . قال ابن العربىّ : والأخذ بعموم القرآن أولى ؛ فإنه أسلم عند الله تعالى .

السابعة — واختلفوا فى عين الأعور التى لا يُبصر بها ؛ فروى عن زيد بن ثابت أنه قال : فيها مائة دينار . وعن عمر بن الخطاب أنه قال : فيها ثلث ديتها ؛ وبه قال إسحق . وقال مجاهد : فيها نصف ديتها . وقال مسروق والزهرىّ ومالك والشافعىّ وأبو ثور والنعمان : فيها حكومة ؛ قال ابن المنذر : وبه نقول لأنه الأقل مما قيل .

الثامنة — وفى إبطال البصر من العينين مع بقاء الحدقتين كمال الدية ، ويستوى فيه الأعمش [1] والأخفش [2] . وفى إبطاله من إحداهما مع بقائها النصف . قال ابن المنذر وأحسن

(١) العمش (محركة) : ضعف البصر مع سيلان الدمع فى أكثر الأوقات . (٢) الخفش (محركة) : ضعف فى البصر خلقة وضيق فى العين ، أو فساد فى الجفون بلا وجع ، أو أن يبصر بالليل دون النهار ، وفى يوم غيم دون صحو .

ما قيل فى ذلك ما قاله علىّ بن أبى طالب : أنه أَمَر بعينه الصحيحة فغطّيت وأعطى رجل بيضة فانطلق بها وهو ينظر حتى آنتهى نظره ، ثم أَمَر بخطٍّ عند ذلك ، ثم أَمَر بعينه الأخرى فغطّيت وفتحت الصحيحة ، وأعطى رجل بيضة فانطلق بها وهو ينظر حتى آنتهى نظره ثم خَطَّ عند ذلك ، ثم أمر به فحوّل إلى مكان آخر ففعل به مثل ذلك فوجده سواء ، فأعطى ما نقص من بصره من مال الآخر ، وهذا على مذهب الشافعى ؛ وهو قول علمائنا ، وهى :

التاسعة — ولا خلاف بين أهل العلم على أن لا قَوَد فى بعض البصر ، إذ غير ممكن الوصول إليه . وكيفية ٱلقَوَد فى العين أن تُحمى مرآة ثم توضع على العين الأخرى قُطْنة ، ثم تقُرب المرآة من عينه حتى يَسيل إنسانها ؛ روى عن علىّ رضى الله عنه ؛ ذكره المهدوىّ وآبن العربى . واختلف فى جَفْن العين ؛ فقال زيد بن ثابت : فيه ربع الدية ، وهو قول الشعبىّ والحسن وقَتَادة وأبى هاشم والثّورىّ والشافعىّ وأصحاب الرأى . وروى عن الشَّعْبىّ أنه قال فى الجفن الأعلى ثلث الدية وفى الجَفْن الأسفل ثلثا الدية ، وبه قال مالك .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْفَ بِٱلْأَنْفِ ﴾ جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وفى الأنف إذا أُوعِبَ (١) جَدْعاً الدّية " . قال آبن المنذر : وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على القول به ، والقصاص من الأنف إذا كانت الجناية عمدا كالقصاص من سائر الأعضاء على كتاب الله تعالى . وآختلفوا فى كسر الأنف ؛ فكان مالك يرى فى العمد منه القَوَد ، وفى الخطأ الآجتهاد . ورَوَى آبن نافع أنه لا دِية للأنف حتى يستأصله من أصله . قال آبن إسحق التونسىّ : وهذا شاذ ، والمعروف الأوّل . وإذا فرّعنا على المعروف ففى بعض المارِن من الدّية بحسابه من المارِن . قال آبن المنذر : وما قطع من الأنف فبحسابه ؛ روى ذلك عن عمر بن عبد العزيز والشَّعْبىّ ، وبه قال الشافعىّ . قال أبو عمر : واختلفوا فى المارِن إذا قُطِع ولم يستأصل الأنف ؛ فذهب مالك والشافعىّ وأبو حنيفة وأصحابهم إلى أن فى ذلك الدّية كاملة ، ثم إن قُطِع منه شىء بعد ذلك ففيه

(١) أى آستؤصل قطعه .

حكومة . قال مالك : الذى فيه الدّية من الأنف أن يقطع المـارِن؛ وهو دون العظم . قال ٱبن القاسم : وسواء قُطِـع المـارِن من العظم أو ٱستؤصل الأنف من العظم من تحت العينين إنما فيه الدّية؛ كالحَشَفة فيها الدّية ، وفى ٱستئصال الذكر الدّية .

الحادية عشرة ــ قال ٱبن القـاسم : وإذا خَرِم الأنفُ أو كُسِر فبَرِئَ على عَـثْم[1] ففيه الاجتهاد، وليس فيه دِية معلومة . وإن برئ على غير عَثْم فلا شىء فيه . قال : وليس الأنف إذا خَرِم فبرِئ على غير عَثْم كالمُوضِحة[2] تبرأ على غير عَثْم فيكون فيها دِيتها ؛ لأن تلك جاءت بهـا السنة ، وليس فى خرم الأنف أثر . قال : والأنف عظم منفرد ليس فيه مُوضِحة . وٱتفق مالك والشافعىّ وأصحابهم على أن لا جائفة فيه، ولا جائفة عندهم إلا فيما كان فى الجوف . والمـارِن ما لان من الأنف ؛ كذلك قال الخليل وغيره . قال أبو عمر : وأظنّ رَوْثته مارِنه ، وأرنبته طَرَفه . وقد قيل: الأرنبة والرَّوْثة وٱلعَرْتَمة طَرَف الأنف . والذى عليه الفقهاء مالك والشافعىّ والكوفيون ومن تبعهم فى الشم إذا نقص أو فُقِد حكومة .

الثانية عشرة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ ﴾ قال علماؤنا رحمة الله عليهم فى الذى يقطع أذنى رجل : عليه حكومة ، وإنما تكون عليـه الدّية فى السمع ؛ ويقاس فى نقصانه كما يقاس فى البصر . وفى إبطاله من إحداهما نصف الدّية ولو لم يكن يسمع إلا بهـا ، بخلاف العين العوراء فيها الدّية كاملة؛ على ما تقدّم . وقال أشهب : إن كان السمع إذا سئِل عنـه قيـل إن أحد السمعين يسمع ما يسمع السمعان فهو عنـدى كالبصر ، وإذا شك فى السمع جرب بأن يصاح به من مواضع عدّة ؛ يقـاس ذلك ؛ فإن تساوت أو تفاوتت أعطى بقـدر ما ذهب من سمعـه ويحلّف على ذلك . قال أشهب : ويحسب له ذلك على سمع وسط من الرجال مثله ؛ فإن ٱختبر فاختلف قوله لم يكن له شىء . وقال عيسى بن دينار : إذا ٱختلف قوله عُقِل له الأقل مع يمينه .

---

(١) العثم : الجبر على غير ٱستواء . (٢) الموضحة : هى التى بلغت العظم فأوضحت عنه . وقيل : هى التى تقشر الجلدة التى بين اللحم والعظم أو تشقها حتى يبدو وضح العظم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ﴾ قال ٱبن المنذر : وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أقاد من سِنّ وقال : "كتاب الله القصاص" . وجاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "في السِّنّ خمس من الإبل" . قال ٱبن المنذر : بظاهر هذا الحديث نقول؛ لا فضل للثنايا منها على الأنياب والأضراس والرَّباعِيات(١)؛ لدخولها كلها في ظاهر الحديث؛ وبه يقول الأكثر من أهل العلم . وممن قال بظاهر الحديث ولم يفضل شيئا منها على شيء عُروة بن الزّبير وطاوس والزّهري وقَتَادة ومالك والثوري والشافعي وأحمد وإسحق والنعمان وٱبن الحسن ، ورُوِي ذلك عن علي بن أبي طالب وٱبن عباس ومعاوية . وفيه قول ثان — رويناه عن عمر بن الخطاب أنه قضى فيما أقبل من الفم بخمس فرائض خمس فرائض ، وذلك خمسون دينارا ، قيمة كل فريضة عشرة دنانير ، وفي الأضراس ببعير بعيرٍ . وكان عطاء يقول : في السن والرَّباعيَتين والنّابين خمس خمس ، وفيما بقِي بعيران بعيران ، أعلى الفم وأسفله سواء ، والأضراس سواء؛ قال أبو عمر: أما ما رواه مالك في موطئه عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أن عمر قضى في الأضراس ببعير بعيرٍ فإن المعنى في ذلك أن الأضراس عشرون ضِرسا ، والأسنان ٱثنا عشر سِنّا ؛ أربع ثنايا وأربع رَبَاعِيات وأربع أنياب ؛ فعلى قول عمر تصير الدّية ثمانين بعيرا ؛ في الأسنان خمسة خمسة ، وفي الأضراس بعير بعير . وعلى قول معاوية في الأضراس والأسنان خمسة أبعرة خمسة أبعرة؛ تصير الدّية ستين ومائة بعير . وعلى قول سعيد بن المسيب بعيرين بعيرين في الأضراس وهي عشرون ضرسا ؛ يجب لها أربعون . وفي الأسنان خمسة أبعرة خمسة أبعرة فذلك ستون، وهي تتمة المائة بعير ، وهي الدّية كاملة من الإبل . والاختلاف بينهم إنما هو في الأضراس لا في الأسنان . قال أبو عمر : واختلاف العلماء من الصحابة والتابعين في دِيات الأسنان وتفضيل بعضها على بعض كثير جدا ، والحجة قائمة لما ذهب إليه الفقهاء مالك وأبو حنيفة والثوري؛ بظاهر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "وفي السِّنّ خمس من الإبل"

(١) الرباعية (كثمانية) : السن التي بين الثنية والناب .

والضّرس سِنّ من الأسنان . روى ابن عباس أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قال : " الأصابع سواء والأسنان سواء الثّنية والضّرس سواء هـذه وهذه سواء " وهذا نص أخرجه أبو داود . وروى أبو داود أيضا عن آبن عباس قال : جَعَل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابع اليدين والرجلين سواء . قال أبو عمر : على هذه الآثار جماعة فقهاء الأمصار وجمهور أهل العلم أن الأصابع في الدّية كلها سواء، وأن الأسنان في الدّية كلها سواء، الثنايا والأضراس والأنياب لا يفضّل شيءٌ منها على شيء؛ على ما في كتاب عمرو آبن حزم . ذكر الثوريّ عن أزهر بن محارب قال : آختصم إلى شُرَيح رجلان ضرب أحدهما ثنيّة الآخر وأصاب الآخر ضِرسه فقال شريح : الثّنية وجمالها والضرس ومنفعته سِنّ بسنّ قوما . قال أبو عمر: على هذا العمل اليوم في جميع الأمصار . والله أعلم .

الرابعة عشرة — فإن ضرب سِنّه فاسودّت ففيها دِيتها كاملة عند مالك والليث آبن سعد، وبه قال أبو حنيفـة ، ورُوى عن زيد بن ثابت ؛ وهو قول سـعيد بن المسيب والزهريّ والحسن وابن سِيرين وشُرَيْح . وروى عن عمر بن الخطـاب رضي الله تعـالى عنه أن فيها ثلث ديتها؛ وبه قال أحمد وإسحق . وقال الشافعي وأبو ثور: فيها حكومة . قال آبن العربيّ: وهـذا عندي خلاف يؤول إلى وفاق؛ فإنه إن كان سوادها أذهب منفعتها وإنما بقيت صورتها كاليـد الشّلاء والعين العمياء، فلا خلاف في وجوب الدّية؛ ثم إن كان بقِي من منفعتها شيء أو جميعها لم يجب إلا بمقدار ما نقص من المنفعة حكومة ؛ وما رِوى عن عمر فيها ثلث ديتها لم يصح عنه سندا ولا فِقها .

الخامسة عشرة — وآختلفوا في سنّ الصبي يقلع قبـل أن يُثْغِر(١) ؛ فكان مالك والشـافعي وأصحـاب الرأى يقولون : إذا قُلِعت سِنّ الصبي فنبتت فلا شيء على القـالع، إلا أن مالكا والشافعيّ قالا : إذا نبتت ناقصة الطول عن التي تقاربها أخذ له من أَرْشها بقـدر نقصها . وقالت طائفة : فيها حكومة، وروى ذلك عن الشعبيّ؛ وبه قال النعمان . قال آبن المنذر:

(١) أثغر الغلام : سقطت أسنانه الرواضع .

يُسْتأنى بها إلى الوقت الذى يقول أهل المعرفة إنها لا تنبت ؛ فإذا كان ذلك كان فيها قدرها تاما ؛ على ظاهر الحديث ؛ وإن نبتت ردّ الأَرْش . وأكثر من يُحفَظ عنه من أهل العلم يقولون : يُسْتأنى بها سنة؛ روى ذلك عن علىّ وزيد وعمر بن عبد العزيز وشُرَيح والنَّخَعىّ وقَتَادة ومالك وأصحاب الرأى . ولم يجعل الشافعىّ لهذا مدة معلومة .

السادسة عشرة — إذا قُلِع سنّ الكبير فأخذ ديتها ثم نبتت؛ فقال مالك لا يردّ ما أخذ . وقال الكوفيون : يردّ إذا نبتت . وللشافعى قولان : يردّ ولا يردّ ؛ لأن هذا نبات لم تجر به عادة ، ولا يثبت الحكم بالنادر؛ هذا قول علمائنا . تمسك الكوفيون بأن عوضها قد نبت فيردّ؛ أصله سِنّ الصغير . قال الشافعى : ولو جنى عليها جانٍ آخر وقد نبتت صحيحة كان فيها أرشها تاما . قال ٱبن المنذر : هذا أصح القولين؛ لأن كل واحد منهما قالع سِنّ ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم فى السِنّ خمسا من الإبل .

السابعة عشرة — فلو قلع رجل سِنّ رجل فردّها صاحبها فالتحمت فلا شىء فيها عندنا . وقال الشافعى : ليس له أن يردّها من قِبل أنها نجسة ؛ وقاله ٱبن المسيّب وعطاء . ولو ردّها أعاد كل صلاة صلاها لأنها مَيْتة ؛ وكذلك لو قطعت أذنه فردّها بحرارة الدم فالتزقت مثله . وقال عطاء : يجبره السلطان على قلعها لأنها مَيْتة ألصقها . قال ٱبن العربىّ : وهذا غلط ، وقد جَهِل من خَفِي عليه أنّ ردّها وعودها بصورتها لا يوجب عودها بحكمها ؛ لأن النجاسة كانت فيها للانفصال ، وقد عادت متصلة ، وأحكام الشريعة ليست صفات للأعيان ، وإنما هى أحكام تعود إلى قول الله سبحانه فيها وإخباره عنها .

قلت : ما حكاه ابن العربىّ عن عطاء خلاف ما حكاه ٱبن المنذر عنه ؛ قال ٱبن المنذر : وٱختلفوا فى السنّ تقلع قَوَدا ثم تردّ مكانها فتنبت ؛ فقال عطاء الخراسانىّ وعطاء بن أبى رَبَاح : لا بأس بذلك . وقال الثورىّ وأحمد وإسحق : تقلع؛ لأن القصاص للشَّيْن . وقال الشافعى : ليس له أن يردها من قِبل أنها نجسة، ويجبره السلطان على القلع .

الثامنة عشرة — فلو كانت له سنّ زائدة فقلعت ففيها حكومة؛ وبه قال فقهاء الأمصار. وقال زيد بن ثابت : فيها ثلث الدية . قال ٱبن العربيّ : وليس فى التقدير دليل، فالحكومة أعدل . قال ٱبن المنذر : ولا يصح ماروى عن زيد؛ وقد روى عن علىّ أنه قال : فى السنّ إذا كسر بعضها أعطى صاحبها بحساب مانقص منه؛ وهذا قول مالك والشافعى وغيرهما .

قلت : وهنــا ٱنتهى ما نص الله عز وجل عليــه من الأعضــاء، ولم يذكر الشّــفتين واللسّان وهى :

التاسعة عشرة — فقال الجمهور : وفى الشفتين الدية، وفى كل واحدة منهما نصف الدية لا فضل للعليا منهما على السفلى . وروى عن زيد بن ثابت وســعيد بن المسيّب والزُّهرىّ : فى الشّفة العليا ثلث الدّية، وفى الشفة السفلى ثلثا الدية . وقال ٱبن المنذر : وبالقول الأول أقول؛ للحديث المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وســلم أنه قال : "وفى الشّفتين الدية" ولأن فى اليدين الدية ومنافعهما مختلفة . وما قطع من الشّفتين فبحساب ذلك . وأما اللّسان فجاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "فى اللّسان الدية" . وأجمع أهل العلم من أهل المدينة وأهل الكوفة وأصحاب الحديث وأهل الرأى على القول به؛ قاله ٱبن المنذر .

الموفية عشرين — وٱختلفوا فى الرجل يجنى على لســان الرجل فيقطع من اللسان شيئا، ويذهب من الكلام بعضه؛ فقال أكثر أهل العلم : ينظر إلى مقدار ماذهب من الكلام من ثمانية وعشرين حرفا فيكون عليه من الدية بقدر ما ذهب من كلامه، وإن ذهب الكلام كله ففيه الدية؛ هــذا قول مالك والشافعى وأحمد وإسحق وأصحاب الرأى . وقال مالك : ليس فى اللسان قَوَد لعدم الإحاطة باستيفاء القَوَد . فإن أمكن فالقَوَد هو الأصل .

الحادية والعشرون — وٱختلفوا فى لسان الأخرس يقطع؛ فقــال الشعبىّ ومالك وأهل المــدينة والثورىّ وأهل العراق والشافعىّ وأبو ثور والنعمان وصاحباه : فيــه حكومة . قال ٱبن المنــذر : وفيه قولان شاذان : أحدهما — قول النَّخَعىّ أن فيه الدية . والآخر — قول قَتَادة أن فيه ثلث الدية . قال ٱبن المنــذر : والقول الأوّل أصح؛ لأنه الأقل مما قيل . قال

ابن العربي : نص الله سبحانه على أمهات الأعضاء وترك باقيها للقياس عليها؛ فكل عضو فيه القصاص إذا أمكن ولم يخش عليه الموت ، وكذلك كل عضو بطلت منفعته وبقيت صورته فلا قَوَد فيه، وفيه الدية لعدم إمكان القود فيه .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ أى مقاصّة ، وقد تقدّم فى « البقرة » (1) . ولا قصاص فى كل مَخُوف ولا فيما لا يُوصَل إلى القصاص فيه إلّا بأن يخطئ الضارب أو يزيد أو ينقص . ويقاد من جراح العمد إذا كان مما يمكن القَوَد منه . وهذا كله فى العمد؛ فأما الخطأ فالدية ، وإذا كانت الدية فى قتل الخطأ فكذلك فى الجراح . وفى صحيح مسلم عن أنس أن أخت الرُّبَيِّع — أمّ حارثة — جرحت إنسانا فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القصاص القصاص " فقالت أمّ الرُّبَيِّع : يا رسول الله أيقتص من فلانة ؟! والله لا يقتص منها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله يا أمّ الرُّبَيِّع القصاص كتاب الله " قالت : [لا] (2) والله لا يقتص منها أبدا؛ فما زالت حتى قبلوا الدية ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأَبَرَّه " .

قلت : المجروح فى هذا الحديث جارية ، والجرح كسر ثَنِيَّتها؛ أخرجه النسائىّ عن أنس أيضا أن عمته كسرت ثَنِيّة جارية فقَضَى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص؛ فقال أخوها أنس بن النّضر : أتُكسَر ثَنِيّة فلانة ؟ لا والذى بعثك بالحق لا تُكسَر ثَنِيّتها . قال : وكانوا قبل ذلك سألوا أهلها العفو والأرش ، فلما حلف أخوها وهو عمّ أنس — وهو الشهيد يوم أحد — رضى القوم بالعفو؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأَبَرَّه " . خرجه أبو داود أيضا . وقال سمعت أحمد بن حَنْبل قيل له : كيف يُقتص من السنّ؟ قال : تُبْرَد .

---

(1) راجع ج ٢ ص ٢٤٤ وما بعدها طبعة ثانية .   (2) الزيادة عن صحيح مسلم .

قلت : ولا تعــارض بين الحــديثين ؛ فإنه يحتمل أن يكون كل واحد منهما حالف فبرّ الله قسمهما . وفي هـذا ما يدل على كرامات الأوليـاء على ما يأتي بيانه في قصة الخضر(١) إن شاء الله تعالى .

الثالثة والعشرون — أجمع العلماء على أن قوله تعالى : « والسِّنَّ بِالسِّنِّ » أنه في العمد ؛ فمن أصاب سِنّ أحد عمدا ففيه القصاص على حديث أنس . واختلفوا في سائر عظام الجسد إذا كسرت عمدا ؛ فقال مالك : عظام الجسد كلها فيهـا ٱلقَوَد إلا ما كان مَخُوفا مثل الفخذ والصّلب والمأمومة والمُنَقِّلة والهاشمة؛ ففي ذلك الدّية . وقال الكوفيون : لا قصاص في عظم يُكسَر ما خلا السنّ ؛ لقوله تعـالى : « وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ » وهو قول الليث والشـافعيّ . قال الشافعيّ : لا يكون كَسْرٌ ككسر أبدا ؛ فهو ممنوع . قال الطّحاويّ : ٱتفقوا على أنه لا قصاص في عظم الرأس ؛ فكذلك في سـائر العظام . والحجة لمـالك حديث أنس في السنّ وهي عظم ؛ فكذلك سائر العظام إلا عظما أجمعوا على أنه لا قصاص فيـه ؛ لخوف ذهاب النفس منه . قال ٱبن المنذر : ومن قال لا قصاص في عظم فهو مخالف للحديث ؛ والخروج إلى النظر غير جائز مع وجود الخبر .

قلت : ويدل على هذا أيضا قوله تعالى : «فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ» وقوله : «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» وما أجمعوا عليه فغير داخل في الآي . وبالله التوفيق .

الرابعـــة والعشرون — قال أبو عبيد في حديث النبي صلى الله عليه وسـلم في المُوضِحَة ، وما جاء عن غيره في الشِّجَاج . قال الأصمعيّ وغيره : دخل كلام بعضهـم في بعض ؛ أوّل الشجَاج — الحَارِصة وهي : التي تَحرِص الجـلد — يعني التي تَشقّه قليلا — ومنـه قيل : حَرَص القصّارُ الثوب إذا شقّه ؛ وقد يقال لها الحَرْصَة أيضا . ثم الباضعة — وهي : التي تشق اللحم تَبْضَعه بعـد الجلد . ثم المتلاحِمة — وهي : التي أخذت في الجلد ولم تبلغ السِّمْحاق .

(١) هي قصته المشهورة مع سيدنا موسى عليهما السلام وستأتي في سورة « الكهف » إن شاء الله .

والسِّمْحاق : جلدة أو قشرة رقيقة بين اللحم والعظم . وقال الواقدىّ : هى عندنا المِلْطَى . وقال غيره : هى المِلْطَاة ، قال : وهى التى جاء فيها الحديث "يُقضَى فى المِلْطَاة بدمها" . ثم المُوضِحة — وهى : التى تكشط عنها ذلك القِشر أو تشقّ حتى يبدو وَضَح(١) العظم ، فتلك الموضحة . قال أبو عبيد : وليس فى شىء من الشِّجَاج قصاص إلا فى المُوضِحة خاصة ؛ لأنه ليس منها شىء له حدّ ينتهى إليه سواها ، واما غيرها من الشِّجَاج ففيها ديتها . ثم الهاشمة — وهى التى تهشِم العظم . ثم المُنَقِّلة — بكسر القاف حكاه الجوهرى — وهى التى تنقل العظم — أى تكسره — حتى يخرج منها فراش العظام مع الدواء . ثم الآمّة — ويقال لها المأمومة — وهى التى تبلغ أمّ الرأس ، يعنى الدّماغ . قال أبو عبيد ويقال فى قوله : "ويُقضَى فى المِلْطَاة بدمها" أنه إذا شَجَّ الشّاجُ حُكِم عليه للشجوج بمبلغ الشَّجّة ساعة شُجّ ولا يُستَأنى بها . قال : وسائر الشِّجَاج يُستَأنى بها حتى ينظر إلى ما يصير أمرها ثم يحكم فيها حينئذ . قال أبو عبيد : والأمر عندنا فى الشّجاج كلها والجِراحات كلها أنه يُستَأنى بها . حدثنا هُشَيْم عن حُصَيْن قال قال عمر بن عبد العزيز : ما دون المُوضِحة خُدُوش وفيها صلح . وقال الحسن البصرىّ : ليس فيما دون المُوضِحة قصاص . وقال مالك : القصاص فيما دون المُوضِحة المِلْطَى والدامية والباضعة وما أشبه ذلك ؛ وكذلك قال الكوفيون وزادوا السِّمْحاق ، حكاه ٱبن المنذر . وقال أبو عبيد : الدّامية التى تَدْمَى من غير أن يسيل منها دم . والدّامعة : أن يَسيل منها دم . وليس فيما دون المُوضِحة قصاص . وقال الجوهرىّ : الدّامية الشَّجّة التى تَدْمَى ولا تَسيل . وقال علماؤنا : الدّامية هى التى تُسيل الدم . ولا قصاص فيما بعد الموضِحة ، من الهاشِمة للعظم ، والمُنَقِّلة — على خلاف فيها خاصة — والآمّة هى البالغة إلى أمّ الرأس ، والدّامغة الخارقة لخريطة الدماغ . وفى هاشِمة الجسد القصاص ، إلا ما هو مَخُوف كالفخذ وشبهه . وأما هاشمة الرأس فقال ٱبن القاسم : لا قَوَد فيها ؛ لأنها لابد تعود مُنَقِّلة . وقال أشهب : فيها القصاص ، إلا أن تنقل فتصير مُنَقِّلة لا قَوَد فيها . وأما الأطراف فيجب

---

(١) وضح العظم بياضه .

القصاص فى جميع المفاصل إلا المخوف منها . وفى معنى المفاصل أبعاض المارن والأذنين والذكر والأجفان والشفتين؛ لأنها تقبل التقدير . وفى اللسان روايتان . والقصاص فى كسر العظام، إلا ما كان مُتْلِفًا كعظام الصدر والعنق والصلب والفخذ وشبهه . وفى كسر عظام العضد القصاص . وقضى أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم فى رجل كسر فخذ رجل أن يُكسر فخذه؛ وفعل ذلك عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد بمكة . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه فعله؛ وهذا مذهب مالك على ما ذكرنا وقال: إنه الأمر المجمع عليه عندهم، والمعمول به فى بلادنا فى الرجل يضرب الرجل فيتقيه بيده فيكسرها يقاد منه .

الخامسة والعشرون — قال العلماء : الشِّجَاج فى الرأس، والجِراح فى البدن . وأجمع أهل العلم على أن فيما دون المُوضِحة أَرْشٌ فيما ذكر آبن المنذر؛ وآختلفوا فى ذلك الأَرْش . وما دون المُوضِحة شِجاج خمس : الدّامية والدّامعة والباضعة والمتلاحمة والسِّمْحاق؛ فقال مالك والشافعى وأحمد وأصحاب الرأى فى الدّامية حكومة، وفى الباضعة حكومة، وفى المتلاحمة حكومة . وذكر عبد الرزاق عن زيد بن ثابت قال : فى الدّامية بعير، وفى الباضعة بعيران، وفى المتلاحمة ثلاثة أبعرة من الإبل، وفى السِّمْحَاق أربع، وفى المُوضِحة خمس، وفى الهاشمة عشر، وفى المُنَقِّلة خمس عشرة، وفى المأمومة ثلث الدية، وفى الرجل يضرب حتى يذهب عقله الدّية كاملة، أو يضرب حتى يغنّ[1] ولا يُفْهِم الدّية كاملة، أو حتى يبحّ ولا يُفْهِم الدّية كاملة، وفى جَفْن العين ربع الدّية . وفى حَلَمة الثّدى ربع الدّية . قال آبن المنذر : وروى عن علىّ فى السِّمْحاق مثل قول زيد . وروى عن عمر وعثمان أنهما قالا : فيها نصف المُوضِحة . وقال الحسن البصرىّ وعمر بن عبد العزيز والنَّخَعىّ فيها حكومة؛ وكذلك قال مالك والشافعىّ وأحمد . ولا يختلف العلماء أن المُوضِحة فيها خمس من الإبل؛ على ما فى حديث عمرو بن حزم، وفيه وفى المُوضِحة خمس . وأجمع أهل العلم على أن المُوضِحة تكون فى الرأس والوجه . واختلفوا فى تفضيل مُوضِحة الوجه على مُوضِحة الرأس؛ فروى عن أبى بكر وعمر أنهما سواء . وقال بقولهما

(١) يغن أى يخرج صوته من خياشيمه .

جماعة من التابعين ؛ وبه يقول الشافعي وإسحق . وروى عن سعيد بن المسيّب تضعيف مُوضِحة الوجه على مُوضِحة الرأس . وقال أحمد : مُوضِحة الوجه أحْرَى أن يزاد فيها . وقال مالك المأمومة والمنقِّلة والمُوضِحة لا تكون إلا في الرأس والوجه ، ولا تكون المأمومة إلا في الرأس خاصة إذا وصل إلى الدّماغ ، قال : والمُوضِحة ما تكون في جُمْجُمة الرأس ، وما دونها فهو من العنق ليس فيه مُوضِحة . قال مالك : والأنف ليس من الرأس وليس فيه مُوضِحة ، وكذلك اللَّحْيُ الأسفل ليس فيه مُوضِحة . وقد ٱختلفوا في المُوضِحة في غير الرأس والوجه؛ فقال أشهب وٱبن القاسم : ليس في مُوضِحة الجسد ومنقّلته ومأمومته إلا الاجتهاد ، وليس فيها أَرْشٌ معلوم . قال ٱبن المنذر : هذا قول مالك والثوريّ والشافعيّ وأحمد وإسحق ، وبه نقول . وروى عن عطاء الخراسانيّ أن المُوضِحة إذا كانت في جسد الإنسان فيها خمس وعشرون دينارا . قال أبو عمر : وٱتفق مالك والشافعيّ وأصحابهما أن من شَجّ رجلا مأمومتين أو مُوضِحتين أو ثلاث مأمومات أو مُوضِحات أو أكثر في ضربة واحدة أن فيهن كلهن — وإن ٱنخرقت فصارت واحدة — دِية كاملة . وأما الهاشمة فلا دِية فيها عندنا بل حكومة . قال ٱبن المنذر: ولم أجد في كتب المدنيين ذِكر الهاشمة ، بل قد قال مالك فيمن كسر أنف رجل إن كان خطأ ففيه الاجتهاد . وكان الحسن البصريّ لا يوقّت في الهاشمة شيئا . وقال أبو ثور : إن ٱختلفوا فيه ففيها حكومة . قال ٱبن المنذر : النظر يدل على هذا ؛ إذ لا سنة فيها ولا إجماع . وقال القاضي أبو الوليد الباجي : فيها ما في المُوضِحة ؛ فإن صارت مُنَقِّلة فخمسة عشر ، وإن صارت مأمومة فثلث الدّية . قال ٱبن المنذر : ووجدنا أكثر من لقيناه وبلغنا عنه من أهل العلم يجعلون في الهاشمة عشرا من الإبل . روينا هذا القول عن زيد بن ثابت ؛ وبه قال قَتَادة وعبيد الله بن الحسن والشافعيّ . وقال الثوريّ وأصحاب الرأي : فيها ألف دِرهم ، ومرادهم عشر الدّية . وأما المنقّلة فقال ٱبن المنذر : جاء الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " في المنقلة خمس عشرة من الإبل " وأجمع أهل العلم على القول به . قال ٱبن المنذر: وقال كل من يحفظ عنه من أهل العلم أن المنقلة هي التي تنقل

منها العظام . وقال مالك والشافعيّ وأحمد وأصحاب الرأى — وهو قول قَتَادة وٱبن شُبْرُمة — أنّ المنقّلة لا قَوَد فيها ؛ وروينا عن ٱبن الزّبير — وليس بثابت عنه — أنه أقاد من المنقلة . قال ابن المنذر : والأوّل أولى ؛ لأنى لا اعلم أحدا خالف ذلك . وأما المأمومة فقال ٱبن المنذر : جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " فى المأمومة ثلث الدّية " . وأجمع أهل العلم على القول به ، ولا نعلم أحدا خالف ذلك إلا مكحولا فإنه قال : إذا كانت المأمومة عمدا ففيها ثلثا الدّية ، وإذا كانت خطأ ففيها ثلث الدّية ؛ وهذا قول شاذ ، وبالقول الأول أقول . وٱختلفوا فى القَوَد من المأمومة ؛ فقال كثير من أهل العلم لا قَوَد فيها ؛ وروى عن ٱبن الزبير أنه أَقَصّ من المأمومة ، فأنكر ذلك الناسُ . وقال عطاء : ما علمنا أحدا أقاد منها قبل ٱبن الزبير . وأما الجائفة ففيها ثلث الدّية على حديث عمرو بن حزم ؛ ولا خلاف فى ذلك إلا ما روى عن مكحول أنه قال : إذا كانت عمدا ففيها ثلثا الدّية ، وإن كانت خطأ ففيها ثلث الدّية . والجائفة كل ما خرق إلى الجوف ولو مدخل إبرة ؛ فإن نفذت من جهتين فهى عندهم جائفتان ، وفيها من الدّية الثلثان . قال أشهب : وقد قضى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى جائفة نافذة من الجنب الآخر بدية جائفتين . وقال عطاء ومالك والشافعيّ وأصحاب الرأى كلهم يقولون : لا قِصاص فى الجائفة . قال ٱبن المنذر : وبه نقول .

السادسة والعشرون — وٱختلفوا فى القَوَد من اللَّطْمَة وشبهها ؛ فذكر البخاريّ عن أبى بكر وعليّ وٱبن الزبير وسُوَيْد بن مُقَرِّن أنهم أقادوا من اللَّطْمة وشبهها . وروى عن عثمان وخالد بن الوليد مثل ذلك ؛ وهو قول الشَّعْبيّ وجماعة من أهل الحديث . وقال الليث : إن كانت اللطمة فى العين فلا قَوَد فيها ؛ للخوف على العين ويعاقبه السلطان . وإن كانت على الخدّ ففيها القَوَد . وقالت طائفة : لا قِصاص فى اللطمة ؛ روى هذا عن الحسن وقَتَادة ، وهو قول مالك والكوفيين والشافعيّ ؛ وٱحتج مالك فى ذلك فقال : ليس لَطْمَةُ المريض الضعيف مثلَ لطمة القويّ ، وليس العبد الأسود يُلطَم مثل الرجل ذى الحالة والهيئة ؛ وإنما فى ذلك كله الاجتهاد لجهلنا بمقدار اللطمة .

السابعــة والعشرون — وٱختلفوا فى القَوَد من ضرب السوط؛ فقال الليث: يقاد منه، ويزاد عليـه للتعدّى. وقال ٱبن القاسم: يقاد منه. ولا يقاد منه عنـد الكوفيين والشافعىّ إلا أن يجرح؛ قال الشافعىّ: إن جرح السوط ففيه حكومة. وقال ٱبن المنذر: وما أصيب به من سوط أو عصا أو حجر فكان دون النفس فهو عمد، وفيه القَوَد؛ وهـذا قول جماعة من أصحـاب الحديث. وفى البخارىّ وأقاد عمـر من ضربة بالدِّرّة[1]، وأقاد علىّ بن أبى طالب من ثلاثة أسواط. وٱقتص شُرَيح من سوط وخُمُوش. قال ٱبن بَطّال: وحديث لَدّ[2] النبىّ صلى الله عليه وسلم لأهل البيت حجة لمن جعل القَوَد فى كل ألم وإن لم يكن جرح.

الثامنة والعشرون — وٱختلفوا فى عَقْل جراحات النساء؛ ففى «الموطأ» عن مالك عن يحيى بن سـعيد عن سعيد بن المسيّب أنه كان يقول: تُعاقِل المرأةُ الرجلَ إلى ثلث الدّية[3]، إصبعها كاصبعه وسِنها كسنه، ومُوضِحتها كَمُوضحتـه، ومُنَقِّلتها كمنقّلته. قال ٱبن بُكَير قال مالك: فإذا بلغت ثلث دية الرجل كانت إلى النصف من دِية الرجل. قال ٱبن المنـذر: روينا هـذا القول عن عمر وزيد بن ثابت، وبه قال سعيد بن المسيّب وعمر بن عبد العزيز وعُرْوة ٱبن الزّبير وقَتَادة وٱبن هُرْمُز ومالك وأحمد بن حَنْبل وعبد الملك بن المـاجشُون. وقالت طائفة: دِية المرأة على النّصف من دِية الرجل فيما قلّ أو كثر؛ روينا هذا القول عن علىّ بن أبى طالب، وبه قال الثّورىّ والشافعىّ وأبو ثور والنعمان وصاحباه؛ وٱحتجوا بأنهم لمـا أجمعوا على الكثير وهو الدّية كان القليل مثله، وبه نقول.

التاسعة والعشرون — قال القاضى عبد الوهاب: وكل ما فيـه جمال منفرد عن منفعة أصلا ففيه حكومة؛ كالحاجبين وذهاب شعر اللحية وشعر الرأس وثديى الرجل وأليته. وصفة

---

(١) الدرة (بالكسر): التى يضرب بها.   (٢) اللد: أن يؤخذ بلسان الصبى فيمد إلى أحد شقيه ويوجر فى الآخر الدواء فى الصدف بين اللسان وبين الشـدق. وحديث اللد أنه لد — صلى الله عليه وسـلم — فى مرضـه فلما أفاق قال: "لا يبق فى البيت أحد إلا لد" فعل ذلك عقوبة لهم؛ لأنهم لدوه بغير إذنه.

(٣) يريد أن ما دون ثلث الدية عقلها فيـه كعقل الرجل، حتى إذا بلغت فى عقل ما جنى عليها ثلث الدية كان عقلها نصف عقل الرجل. وقوله: «إصبعه كاصبعه ... الخ» يريد أن عقل هذه كلها دون الثلث فلذلك ساوت فيه الرجل. (الموطأ).

الحكومة أن يُقوَّم المجنى عليه لو كان عبدا سليما، ثم يُقوَّم مع الجناية فما نقص من ثمنه جعل جزءا من ديته بالغا ما بلغ؛ وحكاه ٱبن المنذر عن كل من يحفظ عنه من أهل العلم؛ قال ويقبل فيه قول رجلين ثقتين من أهل المعرفة. وقيل: بل يقبل قول عدل واحد. والله أعلم. فهذه جمل من أحكام الجراحات والأعضاء تضمنها معنى هذه الآية، فيها لمن ٱقتصر عليها كفاية، والله الموفق للهداية.

الموفية ثلاثين — قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ شرط وجوابه؛ أى تصدق بالقصاص فعفا فهو كفارة له، أى لذلك المتصدّق. وقيل: هو كفارة للجارح فلا يؤاخذ بجنايته فى الآخرة؛ لأنه يقوم مقام أخذ الحق منه، وأجر المتصدّق عليه. وقد ذكر ابن عباس القولين؛ وعلى الأول أكثر الصحابة ومن بعدهم، وروى الثانى عن ٱبن عباس ومجاهد، وعن إبراهيم النَّخَعىّ والشَّعْبىّ بخلاف عنهما؛ والأول أظهر لأن العائد فيه يرجع إلى مذكور، وهو «مَنْ». وعن أبى الدَّرْداء عن النبى صلى الله عليه وسلم "ما من مسلم يصاب بشىء من جسده فيهبه إلّا رفعه الله به درجة وحطّ عنه به خطيئة". قال ٱبن العربى: والذى يقول إنه إذا عفا عنه المجروح عفا الله عنه لم يقم عليه دليل؛ فلا معنى له.

قوله تعالى: وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ﴾ أى جعلنا عيسى يقفو آثارهم، أى آثار النبيين الذين أسلموا. ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى التوراة؛ فإنه رأى التوراة حقا، ورأى وجوب العمل بها إلى أن يأتى ناسخ. «مُصَدِّقًا» نصب على الحال من عيسى. ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ فى موضع رفع بالابتداء. ﴿ وَنُورٌ ﴾ عطف عليه. ﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ فيه وجهان؛ يجوز أن يكون

لعيسى وتعطفه على مصدقا الأول، ويجوز أن يكون حالا من الإنجيل ، ويكون التقدير : وآتيناه الإنجيل مستقرا فيه هدى ونور ومصدقا . ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً ﴾ عطف على «مُصَدِّقًا» أى هاديا وواعظا . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وخصهم لأنهم المنتفعون بهما . ويجوز رفعهما على العطف على قوله : « فِيهِ هُدًى وَنُورٌ » .

قوله تعالى : ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ قرأ الأعمش وحمزة بنصب الفعل على أن تكون اللام لام كى . والباقون بالجزم على الأمر ؛ فعلى الأول تكون اللام متعلقة بقوله : « وَآتَيْنَاهُ » فلا يجوز الوقف ؛ أى وآتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه . ومن قرأه على الأمر فهو كقوله : «وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ» فهو إلزام مستأنف يبتدأ به ؛ أى ليحكم أهل الإنجيل أى فى ذلك الوقت، فأما الآن فهو منسوخ . وقيل : هذا أمر للنصارى الآن بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن فى الإنجيل وجوب الإيمان به، والنسخ إنما يتصور فى الفروع لا فى الأصول . قال مكى : والاختيار الجزم ؛ لأن الجماعة عليه؛ ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله تعالى لأهل الإنجيل . قال النحاس : والصواب عندى أنهما قراءتان حسنتان؛ لأن الله عز وجل لم ينزل كتابا إلا ليعمل بما فيه، وأمر بالعمل بما فيه؛ فصحتا جميعا .

قوله تعالى : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . و «الكتاب» القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالأمر الحق ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى من

جنس الكتب . ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أى عاليا عليها ومرتفعا . وهذا يدل على تأويل من يقول بالتفضيل أى فى كثرة الثواب، على ما تقدّمت إليه الإشارة فى «الفاتحة» (١) وهو ٱختيار ٱبن الحصّار فى كتاب شرح السنة له . وقد ذكرنا ما ذكره فى كتابنا فى شرح الأسماء والحمد لله . وقال قَتَادة : المهيمن معناه الشاهد . وقيل: الحافظ . وقال الحسن : المصدّق؛ ومنه قول الشاعر:

إنّ الكتاب مُهيمن لنبيّنا * والحقّ يعرفه ذوو الألباب

وقال ٱبن عباس : « وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ » أى مؤتمنا عليه . قال سعيد بن جُبَير : القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب . وعن ٱبن عباس والحسن أيضا : المهيمن الأمين . المبرّد : أصله مُؤَيْمِن أبدل من الهمزة هاء؛ كما قيل فى أَرَقْت الماء هَرَقت، وقاله الزجاج أيضا وأبو عليّ . وقد صرّف فقيل : هَيْمَنَ يُهَيْمِن هَيْمَنَةً، وهو مُهَيْمِن بمعنى كان أمينا . الجوهريّ : هو من آمن غيره من الخوف؛ وأصله أَأْمَنَ فهو مُؤَأْمِن بهمزتين، قلبت الهمزة الثانية ياء كراهة لٱجتماعهما فصار مُؤَيْمِن، ثم صيرت الأولى هاء كما قالوا : هَرَاق الماء وأَرَاقه؛ يقال منه : هَيْمن على الشيء يُهيمن إذا كان له حافظا ، فهو مُهيمن ؛ عن أبى عُبيد . وقرأ مجاهد وٱبن مُحَيْصن : « وَمُهَيْمَنًا عَلَيْهِ » بفتح الميم . قال مجاهد : أى محمد صلى الله عليه وسلم مؤتمن على القرآن .

قوله تعالى : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ يوجب الحكم؛ فقيل : هذا نسخ للتخيير فى قوله : « فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » وقيل : ليس هذا وجوبا ، والمعنى : فاحكم بينهم إن شئت؛ إذ لا يجب علينا الحكم بينهم إذا لم يكونوا من أهل الذّمة . وفى أهل الذّمة تردّد قد مضى الكلام فيه . وقيل : أراد فٱحكم بين الخلق؛ فهذا كان واجبا عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ » يعنى لا تعمل بأهوائهم ومرادهم على ما جاءك من الحق؛ يعنى لا تترك الحكم بما بيّن الله تعالى من القرآن من بيان الحق وبيان

(١) راجع ج ١ ص ١٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

الأحكام . والأهواء جمع هوًى؛ ولا يجمع أَهْوِية؛ وقد تقدّم في « البقرة »[1] . فنهاه عن أن يتّبعهم فيما يريدونه؛ وهو يدل على بطلان قول من قَوَّم الخمر على من أتلفها عليهم، لأنها ليست مالا لهم فتكون مضمونة على مُتلفها؛ لأن إيجاب ضمانها على مُتلفها حكم بموجب أهواء اليهود، وقد أمرنا بخلاف ذلك . ومعنى ﴿ عَمَّا جَاءَكَ ﴾ على ما جاءك . ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ يدل على عدم التعلق بشرائع الأولين . والشِّرْعة والشَّريعة الطريقة الظاهرة التي يُتوصل بها إلى النجاة. والشَّريعة في اللغة: الطريق الذي يُتوصل منه إلى الماء . والشّريعة ما شرع الله لعباده من الدِّين؛ وقد شَرَع لهم يَشْرَع شَرْعا أي سنّ. والشّارع الطريق الأعظم. والشِّرْعة أيضا ٱلوَتَر. والجمع شِرَعٌ وشِرْعٌ وشِرَاعٌ جمع الجمع؛ عن أبي عُبيد؛ فهو مشترك . والمِنهاج الطريق المستمر، وهو النَّهْج وٱلمَنْهَج، أي البيّن؛ قال الرّاجز :

مَن يكُ ذا شَكٍّ فهذا فَلْجُ * ماءٌ رَوَاءٌ[2] وطريقٌ نَهْجُ

وقال أبو العباس محمد بن يزيد: الشّريعة ٱبتداء الطريق، والمِنهاج الطريق المستمر . وروى عن ٱبن عباس والحسن وغيرهما « شِرْعَةً ومِنْهَاجًا » سنّة وسبيلا . ومعنى الآية أنه جعل ٱلتوراة لأهلها، وٱلإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا في الشّرائع والعبادات، والأصل التوحيد لا ٱختلاف فيه؛ روى معنى ذلك عن قَتَادة . وقال مجاهد : الشِّرْعة والمِنهاج دين محمد عليه السلام؛ وقد نسخ به كل ما سواه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي لجعل شريعتكم واحدة فكنتم على الحق ؛ فبيّن أنه أراد بالٱختلاف إيمان قوم وكفر قوم . ﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ في الكلام حذف تتعلق به لام كي ؛ أي ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم ؛ والٱبتلاء الٱختبار .

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أي سارعوا إلى الطاعات ؛ وهذا يدل على أن تقديم الواجبات أفضل من تأخيرها ، وذلك لا خلاف فيه في العبادات كلها إلا في الصلاة في أوّل

---

(١) راجع ج ٢ ص ٢٤ طبعة ثانية .	(٢) «ماء رواء» ممدود مفتوح الراء أي عذب .

الوقت ؛ فإن أبا حنيفة يرى أن الأولى تأخيرها ، وعموم الآية دليل عليه ؛ قاله الكيا . وفيه دليل على أن الصوم فى السفر أولى من الفطر ، وقد تقدّم جميع هذا فى « البقرة »[1] . ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أى بما آختلفتم فيه ، وتزول الشكوك .

قوله تعالى : وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ تقدّم الكلام فيها ، وأنها ناسخة للتخيير . قال آبن العربى : وهذه دعوى عريضة ؛ فإن شروط النسخ أربعة : منها معرفة التاريخ بتحصيل المتقدّم والمتأخر ، وهذا مجهول من هاتين الآيتين ؛ فامتنع أن يدعى أن واحدة منهما ناسخة للأخرى ، وبقى الأمر على حاله .

قلت : قد ذكرنا عن أبى جعفر النحاس أن هذه الآية متأخرة فى النزول ؛ فتكون ناسخة إلا أن يقدّر فى الكلام « وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ » إن شئت ؛ لأنه قد تقدّم ذكر التخيير له ، فآخر الكلام حُذف التخيير منه لدلالة الأوّل عليه ؛ لأنه معطوف عليه ، فحكم التخيير كحكم المعطوف عليه ، فهما شريكان وليس الآخر بمنقطع مما قبله ؛ إذ لا معنى لذلك ولا يصح ، فلا بد من أن يكون قوله : « وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ » معطوفا على ما قبله من قوله : « وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ » ومن قوله : « فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ » فمعنى « وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ » أى : آحكم بذلك إن حكمت وآخترت الحكم ؛ فهو كله محكم غير منسوخ لأن الناسخ لا يكون مرتبطا بالمنسوخ معطوفا عليه ؛ فالتخيير للنبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك محكم غير منسوخ ؛ قاله مكىّ رحمه الله . « وَأَنِ ٱحْكُم » فى موضع نصب عطفا على الكتاب ؛ أى وأنزلنا إليك أن آحكم بينهم بما أنزل الله ، أى بحكم الله الذى أنزله

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٨٠ طبعة ثانية .

إليك فى كتابه . ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ ﴾ « أَنْ » بدل من الهاء والميم فى « وٱحذرهم » وهو بدل اشتمال ، أو مفعول من أجله ؛ أى من أجل أن يفتنوك . وعن ٱبن إسحق قال ٱبن عباس : ٱجتمع قوم من الأحبار منهم ٱبن صُوريَا وكعب بن أسد وٱبن صَلُوبَا وشَأْس ٱبن عَدِىّ وقالوا : ٱذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر ؛ فأتوه فقالوا : قد عرفت يا محمد أنا أحبار اليهود ، وإن ٱتبعناك لم يخالفنا أحد من اليهود ، وإن بيننا وبين قوم خصومة فنحا كمهم إليك ، فٱقض لنا عليهم حتى نؤمن بك ؛ فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية . وأصل الفتنة الآختبار حسبما تقدّم ، ثم يختلف معناها ؛ فقوله تعالى هنا « يَفْتِنُوكَ » معناه يصدّوك ويردّوك ؛ وتكون الفتنة بمعنى الشِّرْك ؛ ومنه قوله : « وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » وقوله : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ » . وتكون الفتنة بمعنى العبرة ؛ كقوله : « لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » ، و « لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » . وتكون الفتنة الصدّ عن السبيل كما فى هذه الآية . وتكرير « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ » للتأكيد ، أو هى أحوال وأحكام أمره أن يحكم فى كل واحد بما أنزل الله . وفى الآية دليل على جواز النسيان على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قال : « أَنْ يَفْتِنُوكَ » وإنما يكون ذلك عن نسيان لا عن تعمد . وقيل : الخطاب له والمراد غيره . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام »[1] إن شاء الله تعالى . ومعنى ﴿ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ عن كل ما أنزل الله إليك . والبعض يستعمل بمعنى الكل ؛ قال الشاعر[2] :

* أو يَعْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها *

ويروى «أو يَرتبِطْ» . أراد كل النفوس ؛ وعليه حملوا قوله تعالى : « وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ » . قال ٱبن العربىّ : والصحيح أن « بعض » على حالها فى هذه الآية ، وأن المراد به الرجم أو الحكم الذى كانوا أرادوه ولم يقصدوا أن يفتنوه عن الكل . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣ طبعة أولى . (٢) هو لبيد ، وهذا عجز بيت له وصدره : (تَرّاك أمكنة إذا لم أرضها) . ورواه صاحب اللسان « أو يَعْلق » ثم قال قال ابن سيده : « وليس هذا عندى على ما ذهب إليه أهل اللغة من أن البعض فى معنى الكل ؛ هذا نقض ، ولا دليل فى هذا البيت ؛ لأنه إنما عنى ببعض النفوس نفسه » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى فإن أبوا حكمك وأعرضوا عنه ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أى يعذبهم بالجلاء والجزية والقتل ؛ وكذلك كان . وإنما قال : « ببعض » لأن المجازاة بالبعض كانت كافية فى التدمير عليهم . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ يعنى اليهود .

قوله تعالى : أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ « أَفَحُكْمَ » نصب بـ « يبغون » والمعنى : أن الجاهلية كانوا يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضيع ؛ كما تقدّم فى غير موضع ؛ وكانت اليهود تقيم الحدود على الضعفاء الفقراء ، ولا يقيمونها على الأقوياء الأغنياء ؛ فضارعوا الجاهلية فى هذا الفعل .

الثانيـة — روى سفيان ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن طاوس قال : كان إذا سألوه عن الرجل يفضّل بعض ولده على بعض يقرأ هذه الآية « أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ » فكان طاوس يقول : ما لأحد أن يفضّل بعض ولده على بعض ، فإن فعل لم ينفذ وفُسِخ ؛ وبه قال أهل الظاهر . وروى عن أحمد بن حنبل مثله ، وكرهه الثورىّ وابن المبارك وإسحق ؛ فإن فعل ذلك أحد نفذ ولم يردّ ، وأجاز ذلك مالك والثورىّ والليث والشافعى وأصحاب الرأى ؛ واستدلوا بفعل الصدّيق فى نحله عائشة دون سائر ولده ، وبقوله عليه السلام : " فارجعه "(١) وقوله : " فاشهد على هذا غيرى " . واحتج الأولون بقوله عليه السلام لبشير : " ألك ولد سوى هذا " قال نعم ، فقال : " أكلّهم وهبتَ له مثل هذا " فقال لا ،

(١) ذكر النسائى من حديث النعمان بن بشير : أن أباه بشير بن سعد جاء بابنه النعمان فقال : يارسول الله إنى نحلت ابنى هذا غلاما كان لى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكل بنيك نحلت " قال : لا . قال : " فارجعه " .

قال: "فلا تُشهدنى إذًا فإنى لا أشهد على جَوْر" فى رواية "وإنى لا أشهد إلا على حق". قالوا: وما كان جَوْرا وغير حق فهو باطل لا يجوز. وقوله: "أشهِد على هذا غيرى" ليس إذنا فى الشهادة وإنما هو زجر عنها؛ لأنه عليه السلام قد سماه جَوْرا وامتنع من الشهادة فيه؛ فلا يمكن أن يشهد أحد من المسلمين فى ذلك بوجه. وأما فعل أبى بكر فلا يعارض به قول النبى صلى الله عليه وسلم، ولعله قد كان نَحَل أولاده نُحْلا يعادل ذلك.

فإن قيل: الأصل تصرف الإنسان فى ماله مطلقا، قيل له: الأصل الكلى والواقعة المعينة المخالفة لذلك الأصل لا تَعارض بينهما كالعموم والخصوص. وفى الأصول أن الصحيح بناء العام على الخاص؛ ثم إنه ينشأ عن ذلك العقوق الذى هو أكبر الكبائر، وذلك محرّم، وما يؤدّى إلى المحرّم فهو ممنوع؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "ٱتقوا الله وٱعدلوا بين أولادكم". قال النعمان: فرجع أبى فرد تلك الصدقة، والصدقة لا يعتصرها[1] الأب بالإنفاق. وقوله: "فارجعه" محمول على معنى فاردده، والرد ظاهر فى الفسخ؛ كما قال عليه السلام: "من عمِل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ" أى مردود مفسوخ. وهذا كله ظاهر قوىّ، وترجيح جلىّ فى المنع.

الثالثة — قرأ ٱبن وثّاب والنَّخَعىّ «أَفَحُكْمُ» بالرفع على معنى يبغونه؛ فحذف الهاء كما حذفها أبو النجم فى قوله:

قد أصبحت أمُّ الخِيارِ تَدَّعِى * علىّ ذنبًا كلّه لم أَصْنَعِ

فيمن روى «كلّه» بالرفع. ويجوز أن يكون التقدير: أَفَحُكْمُ الجاهلية حكمٌ يبغونه، فحذف الموصوف.

وقرأ الحسن وقَتادة والأعرج والأعمش «أَفَحَكَمَ» بنصب الحاء والكاف وفتح الميم؛ وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة إذ ليس المراد نفس الحَكَم، وإنما المراد الحُكْم؛ فكأنه قال: أفحُكْمَ حَكَم الجاهلية يبغون. وقد يكون الحَكَم والحاكم فى اللغة واحد، وكأنهم يريدون الكاهن

(١) يعتصر: يرتجع.

وما أشبهه من حكام الجاهليـة ؛ فيكون المـراد بالحكم الشيوع والجنس ، إذ لا يراد به حا كم بعينه ؛ وجاز وقوع المضاف جنسا كما جاز فى قولهم : منعت مصر إردبها(١) ، وشبهه .

وقرأ ابن عامر « تَبْغُونَ » بالتاء ، الباقون بالياء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ هذا استفهام على جهة الإنكار بمعنى : لا أحد أحسن ؛ فهذا ابتداء وخبر . و « حكما » نصب على البيان . « لِقَوْمٍ يوقنون » أى عند قوم يوقنون .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — ﴿ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ مفعولان ؛ وهذا يدل على قطع الموالاة شرعا ، وقد مضى فى « آل عمران »(٢) بيان ذلك . ثم قيل : المراد به المنافقون ؛ المعنى يأيها الذين آمنوا بظاهرهم ، وكانوا يوالون المشركين ويخبرونهم بأسرار المؤمنين . وقيـل : نزلت فى أبى لُبَابة عن عِكْرِمة . قال السُّدِّى : نزلت فى قصة يوم أُحد حين خاف المسلمون حتى همّ قومٌ منهـم أن يوالوا اليهود والنصارى . وقيل : نزلت فى عُبَادة بن الصّامت وعبـد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ؛ فتبرأ عبادة من موالاة اليهود ، وتمسك بها ابن أبىّ وقال : إنى أخاف أن تدور الدوائر . ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ مبتدأ وخبره ؛ وهو يدل على إثبات الشرع الموالاة فيما بينهم حتى يتوارث اليهود والنصارى بعضهم من بعض .

---

(١) الإردب مكيال معروف لأهل مصر ، وفى الحديث "منعت العراق درهمها وقفيزها ومنعت مصر إردبها وعدتم من حيث بدأتم" . (اللسان) . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٧٨ طبعة أولى أو ثانية .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ ﴾ يعضدهم على المسلمين ﴿ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ بين أن حكمه حكمهم؛ وهو يمنع إثبات الميراث للسلم من المرتد، وكان الذى تولاهم ابن أبيّ . ثم هذا الحكم باق إلى يوم القيامة فى قطع الموالاة ؛ وقد قال تعالى : « وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » وقال تعالى فى « آل عمران » : « لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » وقال تعالى : « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » وقد مضى القول فيه . وقيل : إن معنى « بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى فى النصرة . « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » شرط وجوابه ؛ أى لأنه قد خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا ، ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ، ووجبت له النار كما وجبت لهم ؛ فصار منهم أى من أصحابهم .

قوله تعالى : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شك ونفاق ، وقد تقدّم فى « البقرة »[1] والمراد ابن أبيّ وأصحابه . ﴿ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أى فى موالاتهم ومعاونتهم . ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ أى يدور الدهر علينا إمّا بقحط فلا يميرونا ولا يُفضلوا علينا ، وإمّا أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يدوم الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم . وهذا القول أشبه بالمعنى ؛ كأنه من دارت تدور ، أى نخشى أن يدور الأمر ؛ ويدل عليه قوله عز وجل : ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ ؛ وقال الشاعر :

يردّ عنك القدر المقدورا * ودائرات الدهر أن تدورا

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

يعني دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم . وآختلف في معنى الفتح ؛ فقيل : الفتح الفصل والحكم ؛ عن قَتَادة وغيره . قال آبن عباس : أتى الله بالفتح فقُتِلت مُقاتِلة بني قُرَيظة وسُبيت ذراريهم وأُجْلِى بنو النَّضير . وقال أبو عليّ : هو فتح بلاد المشركين على المسلمين . وقال السُّدّيّ : يعني بالفتح فتحَ مكة . ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ قال السُّدّيّ : هو الجزية . الحسن : إظهار أمر المنافقين وآلإخبار بأسمائهم وآلأمر بقتلهم . وقيل : آلخصب والسّعة للسلمين . ﴿ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ أي فيصبحوا نادمين على توليهم الكفار إذا رأوا نصر الله للؤمنين ، وإذا عاينوا عند الموت فبُشّروا بالعذاب .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . وقرأ أهل المدينة وأهل الشام : « يَقُولُ » بغير واو . وقرأ أبو عمرو وآبن أبي إسحق : « وَيَقُولَ » بالواو والنصب عطفا على « أَنْ يَأْتِيَ » عند أكثر النحويين ، التقدير : فعسى الله أن يأتي بالفتح وأن يقول . وقيل : هو عطف على المعنى ؛ لأن معنى « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ » وعسى أن يأتي الله بالفتح ؛ إذ لا يجوز عسى زيد أن يأتي ويقومَ عمرو ؛ لأنه لا يصح المعنى إذا قلت : وعسى زيد أن يقومَ عمرو ، ولكن لو قلت : عسى أن يقوم زيد ويأتي عمرو كان جيدا . فإذا قدّرت التقديم في أن يأتِيَ إلى جنب عسى حَسُن ؛ لأنه يصير التقدير : عسى أن يأتِيَ وعسى أن يقوم ، ويكون من باب قوله :

ورأيت زوجك في الوغى * مُتقلِّدا سيفًا ورُمحا (١)

وفيه قول ثالث — وهو أن تعطفه على الفتح ؛ كما قال الشاعر :

* لَلُبْس عَباءةٍ وتَقَرّ عيني * (٢)

ويجوز أن يجعل « أَنْ يَأْتِيَ » بدلا من آسم الله جل ذكره ؛ فيصير التقدير : عسى أن يأتي الله ويقول الذين آمنوا . وقرأ الكوفيون : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا » بالرفع على القطع من الأول . ﴿ أَهَؤُلَاءِ ﴾ إشارة إلى المنافقين . ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ حلفوا وآجتهدوا في الأيمان . ﴿ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾

(١) يروى هكذا في الأصول . وفي اللسان وشرح الشواهد لسيبويه : (ياليت زوجك قد غدا) .

(٢) تمام البيت : (أحب إلى من لبس الشفوف) .

أى قالوا إنّهم، ويجوز «أنّهم» بأقسموا؛ أى قال المؤمنون لليهود على جهة التوبيخ : أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم يعينونكم على محمد. ويحتمل أن يكون من المؤمنين بعضهم لبعض؛ أى هؤلاء الذين كانوا يحلفون أنهم مؤمنون فقد هتك الله اليوم سترهم . ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ بطلت بنفاقهم . ﴿ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى خاسرين الثواب . وقيل : خسروا فى موالاة اليهود فلم تحصل لهم ثمرة بعد قتل اليهود وإجلائهم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ شرط وجوابه « فسوف » . وقراءة أهل المدينة والشام «مَنْ يَرْتَدِدْ» بدالين . الباقون «مَنْ يَرْتَدَّ» . وهذا من إعجاز القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم؛ إذ أخبر عن ارتدادهم ولم يكن ذلك فى عهده وكان ذلك غيبا. فكان على ما أخبر بعد مدة، وأهل الردة كانوا بعد موته صلى الله عليه وسلم. قال ابن إسحق : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب إلا ثلاثة مساجد؛ مسجد المدينة، ومسجد مكة، ومسجد جُوَاثَى[(١)] ، وكانوا فى ردتهم على قسمين : قسم نبذ الشريعة كلها وخرج عنها، وقسم نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها؛ قالوا نصوم ونصلى ولا نزكى؛ فقاتل الصدّيق جميعهم ، وبعث خالد بن الوليد إليهم بالجيوش فقاتلهم وسَبَاهم؛ على ما هو مشهور من أخبارهم .

(١) جواثى : اسم حصن ؛ وفى الحديث " أول جمعة جمعت بعد المدينة بجواثى " . « النهاية » لابن الأثير .

الثانيـــة ــ قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ فى موضع النعت . قال الحسن وقتادة وغيرهمـا : نزلت فى أبى بكر الصدّيق وأصحـابه . وقال السّدىّ : نزلت فى الأنصـار . وقيل : هو إشارة إلى قوم لم يكونوا موجودين فى ذلك الوقت، وأن أبا بكر قاتل أهـل الردّة بقوم لم يكونوا وقت نزول الآية ؛ وهم أحياء من اليمن من كندة وبَجِيلة، ومن أشجع . وقيل : إنها نزلت فى الأشعريين؛ ففى الخبر أنها لمـا نزلت قدم بعد ذلك بيسير سفائن الأشعريين، وقبائل اليمن من طريق البحر، وكان لهم بلاء فى الإسلام فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت عامة فتوح العراق فى زمن عمر على يدى قبائل اليمن ؛ هــذا أصح ما قيل فى نزولها . والله أعلم . وروى الحاكم أبو عبد الله فى «المستدرك» بإسناده : أن النبى صـلى الله عليه وسلم أشار إلى أبى موسى الأشعرى لمـا نزلت هذه الآية فقال : "هم قوم هذا" قال القُشَيرىّ : فأتباع أبى الحسن من قومه؛ لأن كل موضع أضيف فيه قوم إلى نبىّ أريد به الأتباع .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ «أَذِلَّةٍ» نعت لقوم، وكذلك ﴿ أَعِزَّةٍ ﴾ أى يرأفون بالمؤمنين ويرحمونهم ويلينون لهم؛ من قولهم : دابة ذَلول أى تنقاد سهلة، وليس من الذّل فى شىء . ويغلظون على الكافرين ويعادونهم . قال ابن عباس : هم للمؤمنين كالوالد للولد والسيد للعبد، وهم فى الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته؛ قال الله تعالى : «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» . ويجوز «أَذِلَّةً» بالنصب على الحال؛ أى يحبهم ويحبونه فى هذا الحال، وقد تقدّمت معنى محبة الله تعالى لعباده ومحبتهم له (١) .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فى موضع الصـفة أيضا . ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ بخـلاف المنافقين يخافون الدوائر؛ فدلّ بهـذا على تثبيت إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم؛ لأنهم جاهدوا فى الله عز وجل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقاتلوا المرتدين بعده، ومعلوم أن من كانت فيه هذه الصفات فهو ولىّ

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الله تعالى . وقيل : الآية عامة فى كل من يجاهد الكفار إلى قيام الساعة . والله أعلم .
﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى واسع الفضل، عليم بمصالح خلقه .

قوله تعالى : إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ قال جابر بن عبد الله قال عبد الله ابن سَلَام للنبي صلى الله عليه وسلم : إن قومنا من قُرَيظة والنَّضِير قد هجرونا وأقسموا ألا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل، فنزلت هذه الآية ؛ فقال : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء . « وَالَّذِين » عام فى جميع المؤمنين . وقد سئل أبو جعفر محمد بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن معنى « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا » هل هو علىّ بن أبى طالب ؟ فقال : علىّ من المؤمنين ؛ يذهب إلى أن هذا لجميع المؤمنين . قال النحاس : وهذا قول بيّن ؛ لأن « الذين » لجماعة . وقال ٱبن عباس : نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه . وقال فى رواية أخرى : نزلت فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ وقاله مجاهد والسدىّ ، وحملهم على ذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ وهى :

المسئلة الثانيــة — وذلك أن سائلا سأل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يعطه أحد شيئا، وكان علىّ فى الصلاة فى الركوع وفى يمينه خاتم، فأشار إلى السائل به حتى أخذه . قال الكيا الطبرىّ : وهذا يدل على أن العمل القليل لا يبطل الصلاة؛ فإن التصدّق بالخاتم فى الركوع عمل جاء به فى الصلاة ولم تبطل به الصلاة . وقوله : ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ يدل على أن صدقة التطوع تسمى زكاة؛ فإن عليًّا تصدّق بخاتمه فى الركوع، وهو نظير قوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » وقد

ٱنتظم الفرض والنفل، فصار ٱسم الزكاة شاملا للفرض والنفل، كاسم الصدقة وكاسم الصلاة ينتظم الأمرين .

قلت : فالمراد على هذا بالزكاة التصدّق بالخاتم ، وحمل لفظ الزكاة على التصدّق بالخاتم فيه بُعد ؛ لأن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة المفروضة على ما تقدّم بيانه فى أول سورة « البقرة »(١) . وأيضا فإن قبله « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » ومعنى يقيمون الصلاة يأتون بها فى أوقاتها بجميع حقوقها، والمراد صلاة الفرض . ثم قال : « وَهُمْ رَاكِعُونَ » أى النفل . وقيل : أفرد الركوع بالذكر تشريفا . وقيل : المؤمنون وقت نزول الآية كانوا بين مُتمّ للصلاة و بين راكع . وقال ٱبن خُوَيْزِ مَنداد قوله تعالى : « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ » تضمنت جواز العمل اليسير فى الصلاة؛ وذلك أن هذا خرج مخرج المدح، وأقل ما فى باب المدح أن يكون مباحا ؛ وقد رُوِى أن عليًا رضى الله عنه أعطى السائل شيئا وهو فى الصلاة، وقد يجوز أن تكون هذه صلاة تطوع، وذلك أنه مكروه فى الفرض. ويحتمل أن يكون المدح متوجها على ٱجتماع حالتين؛ كأنه وصف من يعتقد وجوب الصلاة والزكاة؛ فعبر عن الصلاة بالركوع ،وعن الاعتقاد للوجوب بالفعل؛ كما تقول: المسلمون هم المُصَلّون، ولا تريد أنهم فى تلك الحال مُصَلُّون ولا يوجه المدح حال الصلاة؛ فإنما يريد من يفعل هذا الفعل و يعتقده .

قوله تعالى : وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى من فوض أمره إلى الله ، وٱمتثل أمر رسوله ، ووالى المسلمين ، فهو من حزب الله . وقيل : أى ومن يتول القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين . ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ قال الحسن : حزب الله جند الله . وقال غيره : أنصار الله ؛ قال الشاعر :

* وكيف أَضْوَى(٢) و بِلال حِزْبى *

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) أضوى : أى أستضعف وأضام ؛ من الشىء الضاوى . (الطبرى) .

أى ناصرى . والمؤمنون حِزْب الله؛ فلا جَرَم غلبوا اليهود بالسبي والقتل والإجلاء وضرب الجزية . والحِزْب الصنف من الناس؛ وأصله من النائبة من قولهم : حَزَبه كذا أى نابه؛ فكأن المحتزبين مجتمعون كاجتماع أهل النائبة عليها . وحِزْب الرجل أصحابه . والحِزب الوِرْد؛ ومنه الحديث "فمن فاته حِزْبه من الليل" . وقد حَزَّبْتُ القرآن . والحِزْب الطائفة . وتحزَّبوا اجتمعوا . والأحزاب : الطوائف التى تجتمع على محاربة الأنبياء . وحَزَبه أمرٌ أى أصابه .

قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن قوما من اليهود والمشركين ضحكوا من المسلمين وقت سجودهم فأنزل الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ إلى آخر الآيات . وتقدّم معنى الهزؤ فى «البقرة»(١) . ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ قرأه أبو عمرو والكسائىّ بالخفض بمعنى ومن الكفار . قال الكسائىّ : وفى حرف أبىّ رحمه الله « وَمِنَ ٱلْكُفَّارِ » ؛ و « مِن » ههنا لبيان الجنس؛ والنصب أوضح وأبين قاله النحاس . وقيل : هو معطوف على أقرب العاملين منه وهو قوله : « مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ » فنهاهم الله أن يتخذوا اليهود والمشركين أولياء، وأعلمهم أن الفريقين اتخذوا دين المؤمنين هزوا ولعبا . ومن نَصَب عطف على « الذين » الأول فى قوله : « لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ » أى لا تتخذوا هؤلاء وهؤلاء أولياء؛ فالموصوف بالهزؤ واللعب فى هذه القراءة اليهود لا غير . والمنهى عن اتخاذه أولياء اليهود والمشركون ؛ وكلاهما فى القراءة بالخفض موصوف بالهزؤ واللعب . قال مكىّ : ولولا اتفاق الجماعة

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

على النصب لاخترت الخفض ؛ لقوته في الإعراب وفي المعنى والتفسير والقرب من المعطوف عليه . وقيل : المعنى لا تتخذوا المشركين والمنافقين أولياء ؛ بدليل قولهم : « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » والمشركون كلهم كفار ، لكن يطلق في الغالب لفظ الكفار على المشركين ؛ فلهذا فصل ذكر أهل الكتاب من الكافرين .

الثانيــة — قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : هذه الآية مثل قوله تعالى : « لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » « وَلَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » تضمنت المنع من التأييد والآنتصار بالمشركين ونحو ذلك . وروى جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج إلى أُحد جاءه قوم من اليهود فقالوا : نَسير معك ؛ فقال : " إنا لا نستعين على أمرنا بالمشركين " وهذا هو الصحيح من مذهب الشافعي . وأبو حنيفة جوّز الآنتصار بهم على المشركين للمسلمين ؛ وكتاب الله تعالى يدل على خلاف ما قالوه مع ما جاء من السنة في ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

فيه ٱثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — قال الكلبي : كان إذا أذّن المؤذّن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود : قد قاموا لا قاموا ؛ وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا وقالوا في حق الأذان : لقد ٱبتدعتَ شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم ، فمن أين لك صِياح مثل صِياح العِير ؟ فما أقبحه من صوت ، وما أسمجه من أمر . وقيل : إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السُّخف والمجون ؛ تجهيلا لأهلها ، وتنفيرا للناس عنها وعن الداعي إليها . وقيل : إنهم كانوا يرون المنادى إليها بمنزلة اللاعب الهازئ بفعلها ، جهلا منهم بمنزلتها ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ » والنداء الدعاء برفع الصوت ، وقد يضم مثل الدعاء والرغاء . وناداه مناداة ونداء أي صاح به . وتنادوا أي نادى

بعضهم بعضا . وتَنَادوا أى جلسوا فى النادى ، وناداه جالسه فى النادى . وليس فى كتاب الله ذكر الأذان إلا فى هذه الآية ، أمّا أنه ذُكر فى الجمعة على الآختصاص .

الثانيـــة — قال العلمـاء : ولم يكن الأذان بمكة قبـل الهجرة ، و إنمـا كانوا ينادون « الصلاة جامعة » فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وصُرِفت القبلة إلى الكعبة أمر بالأذان ، وبقِى « الصلاة جامعة » للأمر يَعْرِض . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أهمه أمر الأذان حتى أُرِيه عبد الله بن زيد ، وعمر بن الخطاب ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنهم . وقد كان النبي صـلى الله عليه وسـلم سمع الأذان ليلة الإسراء فى السماء ، وأما رؤيا عبـد الله بن زيد الخزرجىّ الأنصارىّ وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فمشهورة ؛ وأن عبد الله بن زيد أخبر النبي صـلى الله عليه وسـلم بذلك ليلا طرقه به ، وأن عمر قال : إذا أصبحت أخبرت النبي صلى الله عليه وسـلم ؛ فأمر النبي صلى الله عليه وسـلم بلالا فأذّن بالصلاة أذان الناس اليوم . وزاد بلال فى الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها رسـول الله صلى الله عليه وسلم وليست فيما أُرِى الأنصارىّ ؛ ذكره آبن سعد عن آبن عمر . وذكر الدَّارَقُطْنِىّ رحمه الله أن الصدّيق أُرِى الأذان ، وأنه أخبر النبي صلى الله عليه وسـلم بذلك ، وأنه صلى الله عليه وسـلم أمر بلالا بالأذان قبل أن يخبره الأنصارىّ ؛ ذكره فى كتاب « المدبّج » له فى حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن أبى بكر الصدّيق وحديث أبى بكر عنه .

الثالثـــة — وآختلف العلماء فى وجوب الأذان والإقامة ؛ فأما مالك وأصحابه فإن الأذان عندهم إنمـا يجب فى المسـاجد للجماعات حيث يجتمع الناس ؛ وقـد نص على ذلك مالك فى موطئه . وآختلف المتأخرون من أصحابه على قولين : أحدهما — سنة مؤكدة واجبة على الكفاية فى المصر وما جرى مجرى مصر من القرى . وقال بعضهم : هو فرض على الكفاية . وكذلك آختلف أصحاب الشافعىّ ، وحكى الطَّبَرىّ عن مالك قال : إن تَرَك أهل مصر الأذان عامدين أعادوا الصلاة ؛ قال أبو عمر : ولا أعلم آختلافا فى وجوب الأذان جمـلة على أهل المصر ؛ لأن الأذان هو العلامة الدالة المفرقة بين دار الإسلام ودار الكفر ؛ وكان رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذا بعث سَرِيّة قال لهم : "إذا سمعتم الأذان فأمسكوا وكُفّوا وإن لم تسمعوا الأذان فأغيروا ـ أو قال ـ فشنّوا الغارة" . وفي صحيح مسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغير إذا طلع الفجر، فإن سمع أذانا أمسك وإلا أغار؛ الحديث . وقال عطاء ومجاهد والأوزاعيّ وداود : الأذان فرض، ولم يقولوا على الكفاية . وقال الطَّبَرِيّ : الأذان سنة وليس بواجب . وذكر عن أشهب عن مالك : إن تَرَكَ الأذان مسافر عمدا فعليه إعادة الصلاة . وكره الكوفيون أن يصلي المسافر بغير أذان ولا إقامة؛ قالوا : وأما في المِصر فيستحب له أن يؤذّن ويقيم؛ فإن آستجزأ بأذان الناس وإقامتهم أجزأه . وقال الثوريّ : تجزئه الإقامة عن الأذان في السفر، وإن شئت أذّنت وأقمت . وقال أحمد بن حنبل : يؤذّن المسافر على حديث مالك بن الحُوَيرِث . وقال داود : الأذان واجب على كل مسافر في خاصته والإقامة؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمالك بن الحُوَيرِث ولصاحبه : "إذا كنتما في سفر فأذّنا وأقيما وليؤمكما أكبركما" خرجه البخاريّ وهو قول أهل الظاهر . قال آبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمالك بن الحويرث ولآبن عم له : "إذا سافرتما فأذنا وأقيما وليؤمكما أكبركما" . قال آبن المنذر : فالأذان والإقامة واجبان على كل جماعة في الحضر والسفر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالأذان وأمره على الوجوب . قال أبو عمر : وآتفق الشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابهما والثوريّ وأحمد وإسحق وأبو ثور والطّبريّ على أن المسافر إذا ترك الأذان عامدا أو ناسيا أجزأته صلاته؛ وكذلك لو ترك الإقامة عندهم، وهم أشدّ كراهة لترك الإقامة . وآحتج الشافعيّ في أن الأذان غير واجب فرضا من فروض الصلاة بسقوط الأذان للواحد عند الجمع بعرَفة والمزدلفة، وتحصيل مذهب مالك في الأذان في السفر كالشافعيّ سواء .

الرابعة ـ وآتفق مالك والشافعيّ وأصحابهما على أن الأذان مَثْنَى والإقامة مرة مرة، إلا أن الشافعي يربع التكبير الأول؛ وذلك محفوظ من روايات الثقات في حديث أبي مَحْذُورة[(1)]، وفي حديث عبد الله بن زيد؛ قال : وهي زيادة يجب قبولها . وزعم الشافعي أن أذان أهل

---

(١) هو : أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر، مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أحسن الناس أذانا وأنداهم صوتا .

مكة لم يزل فى آل أبى مَحْذُورة كذلك إلى وقته وعصره . قال أصحابه : وكذلك هو الآن عندهم ؛ وما ذهب إليه مالك موجود أيضا فى أحاديث صحاح فى أذان أبى مَحْذُورة، وفى أذان عبد الله بن زيد، والعمل عندهم بالمدينة على ذلك فى آل سعد القُرَظِىّ إلى زمانهم . وٱتفق مالك والشافعى على التّرجيع فى الأذان ؛ وذلك رجوع المؤذّن إذا قال : « أشهد أن لا إله إلا الله مرتين أشهد أن محمدا رسول الله مرتين » رَجّع فمدّ من صوته جهده . ولا خلاف بين مالك والشافعى فى الإقامة إلا قوله : « قد قامت الصلاة » فإن مالكا يقولها مرة، والشافعى مرتين ؛ وأكثر العلماء على ما قال الشافعى، وبه جاءت الآثار . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن حىّ : الأذان والإقامة جميعا مَثْنَى مَثْنَى، والتكبير عندهم فى أول الأذان وأوّل الإقامة الله أكبر أربع مرات، ولا ترجيع عندهم فى الأذان ؛ وحجتهم فى ذلك حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : حدثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن عبد الله ابن زيد جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله رأيت فى المنام كأن رجلا قام وعليه بُرْدان أخضران على جِذْمِ[1] حائط فأذّن مَثْنَى وأقام مَثْنَى وقعد بينهما قعدة قعدة، فسمع بلال بذلك فقام وأذّن مَثْنَى وقعد قعدة وأقام مَثْنَى ؛ رواه الأعمش وغيره عن عمرو بن مرة عن ٱبن أبى ليلى، وهو قول جماعة التابعين والفقهاء بالعراق . قال أبو إسحق السَّبِيعىّ : كان أصحاب علىّ وعبد الله يَشفعون الأذان والإقامة ؛ فهذا أذان الكوفيين، متوارث عندهم به العمل قرنا بعد قرن أيضا، كما يتوارث الحجازيون ؛ فأذانهم تربيع التكبير مثل المكيين، ثم الشهادة بأن لا إله إلا الله مرة واحدة، وأشهد أن محمدا رسول الله مرة واحدة، ثم حىّ على الصلاة مرة، ثم حىّ على الفلاح مرة، ثم يرجّع المؤذّن فيمدّ صوته ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله — الأذان كله — مرتين مرتين إلى آخره . قال أبو عمر : ذهب أحمد بن حَنْبل وإسحق بن رَاهَوَيْه وداود بن علىّ ومحمد بن جرير الطَّبَرِىّ إلى إجازة القول بكل ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحملوه على الإباحة والتخيير، قالوا : كل ذلك جائز ؛ لأنه قد ثبت عن رسول الله

---

(١) الجذم (بكسر الجيم وسكون الذال) : الأصل ؛ أراد بقية حائط أو قطعة من حائط .

صلى الله عليه وسلم جميع ذلك، وعَمِل به أصحابه؛ فمن شاء قال : الله أكبر مرتين فى أول الأذان، ومن شاء قال ذلك أربعا؛ ومن شاء رجّع فى أذانه، ومن شاء لم يرجّع، ومن شاء ثنَّى الإقامة، ومن شاء أفردها، إلا قوله : « قد قامت الصلاة » فإن ذلك مرتان مرتان على كل حال .

الخامســـة — وآختلفوا فى التَّثْويب لصــلاة الصبح — وهو قول المؤذّن : الصــلاة خير من النوم — فقال مالك والثورى والليث : يقول المؤذّن فى صلاة الصبح — بعد قوله : حىّ على الفلاح مرتين — الصلاة خير من النوم مرتين ؛ وهو قول الشافعىّ بالعراق، وقال بمصر : لا يقول ذلك . وقال أبو حنيفة وأصحــابه : يقوله بعد الفراغ من الأذان إن شاء، وقد روى عنهــم أن ذلك فى نفس الأذان ؛ وعليه الناس فى صلاة الفجر . قال أبو عمر : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أبى مَحْذُورة أنه أمره أن يقول فى أذان الصبح " الصلاة خير من النوم " . وروى عنه أيضا ذلك من حديث عبد الله بن زيد . وروى عن أنس أنه قال : من السنة أن يقال فى الفجر « الصلاة خير من النوم » . وروى عن آبن عمر أنه كان يقوله ؛ وأما قول مالك فى « الموطأ » أنه بلغه أن المؤذّن جاء إلى عمر بن الخطاب يُؤْذِنه بصلاة الصبح فوجده نائمــا فقال : الصلاة خير من النوم ؛ فأمره [عمر](1) أن يجعلها فى نداء الصبح فلا أعلم أن هذا روى عن عمر من جهة يُحتج بها وتُعلم صحتها ؛ وإنما فيه حديث هشام ابن عروة عن رجل يقال له « إسمعيل » فآعرفه ؛ ذكر آبن أبى شيبة حدّثنا عَبْدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن رجل يقال له « إسمعيل » قال : جاء المؤذّن يُؤْذِن عمر بصــلاة الصبح فقال « الصلاة خير من النوم » فأُعجِب به عمر وقال للؤذّن : « أقرّها فى أذانك » .
قال أبو عمر : والمعنى فيه عندى أنه قال له : نداء الصبح موضع القول بها لا ههنا، كأنه كرِه أن يكون منه نداء آخر عند باب الأمير كما أحدثه الأمراء بعــد . قال أبو عمر : وإنما حملنى على هذا التأويل وإن كان الظاهر من الخبر خلافه ؛ لأن التّثويب فى صلاة الصبح أشهر عند العلماء والعامة من أن يظنّ بعمر رضى الله عنه أنه جَهِل ما سنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) الزيادة عن موطأ مالك .

وأمر به مؤذّنيه ، بالمدينة بلالا ، وبمكة أبا محذُورة ، فهو محفوظ معروف في تأذين بلال ، وأذان أبي محذورة في أذان الصّبح للنبي صلى الله عليه وسلم ، مشهور عند العلماء . روى وَكِيع عن سفيان عن عِمران بن مسلم عن سُوَيد بن غَفَلَة أنه أرسل إلى مؤذّنه إذا بلغت « حيّ على الفلاح » فقل : الصلاة خير من النوم ، فإنه أذان بلال ؛ ومعلوم أن بلالا لم يؤذّن قط لعمر ، ولا سمِعه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة بالشام إذ دخلها .

السادسة — وأجمع أهل العلم على أنّ من السنة ألا يؤذّن للصلاة إلا بعد دخول وقتها إلا الفجر ، فإنه يؤذّن لها قبل طلوع الفجر في قول مالك والشافعي وأحمد وإسحق وأبي ثور ؛ وحجتهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ بلالا يؤذّن بليل فكلُوا وآشربوا حتى ينادي آبن أمّ مكتوم " . وقال أبو حنيفة والثوريّ ومحمد بن الحسن : لا يؤذّن لصلاة الصبح حتى يدخل وقتها ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمالك بن الحُوَيرث وصاحبه : " إذا حضرت الصلاة فأذّنا ثم أقيما وليؤمكما أكبركما " وقياسا على سائر الصلوات . وقالت طائفة من أهل الحديث : إذا كان للمسجد مؤذّنان أذن أحدهما قبل طلوع الفجر ، والآخر بعد طلوع الفجر .

السابعة — وآختلفوا في المؤذّن يؤذّن ويقيم غيره ؛ فذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابهما إلى أنه لا بأس بذلك ؛ لحديث محمد بن عبد الله بن زيد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره إذ رأى النداء في النوم أن يلقيه على بلال ؛ فأذّن بلال ، ثم أمر عبد الله ابن زيد فأقام . وقال الثوريّ والليث والشافعي : من أذّن فهو يقيم ؛ لحديث عبد الرحمن ابن زياد بن أَنْعُم عن زياد بن نُعَيم عن [زياد] (١) بن الحرث الصُّدَائيّ قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان أوّل الصبح أمرني فأذّنت ، ثم قام إلى الصلاة فجاء بلال ليقيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أخا صُدَاءَ أذّن ومن أذّن فهو يُقيم " . قال أبو عمر :

(١) بالأصل : « عبد الله بن الحرث الصدائي » . وهو خطأ والتصويب عن كتب المصطلح والترمذي في سند هذا الحديث .

عبد الرحمن بن زياد هو الإفريقيّ ، وأكثرهم يضعفونه ، وليس يروى هذا الحديث غيره ؛ والأول أحسن إسنادا إن شاء الله تعالى . وإن صح حديث الإفريقي فإن من أهل العلم من يوثقه ويثني عليه ؛ فالقول به أولى لأنه نص في موضع الخلاف، وهو متأخر عن قصة عبد الله ٱبن زيد مع بلال، والآخر فالآخر من أمرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى أن يتبع ؛ ومع هذا فإني أستحب إذا كان المؤذّن واحدا راتبا أن يتولى الإقامة ؛ فإن أقامها غيره فالصلاة ماضية بإجماع، والحمد لله .

الثامنــة — وحكم المؤذّن أن يَترسّل في أذانه ، ولا يُطَرِّب[1] به كما يفعله اليوم كثير من الجهال ، بل وقد أخرجه كثير من الطَّغَام والعوامّ عن حدّ الاطراب ؛ فيرجّعون فيه الترّجيعات ، ويكثرون فيه التقطيعات حتى لا يفهم ما يقول، ولا بما به يصول . روى الدّارَقُطْنيّ من حديث ٱبن جُرَيج عن عطاء عن ٱبن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذّن يُطَرِّب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الأذان سهل سمح فإن كان أذانك سهلا سمحا وإلا فلا تؤذّن" . ويستقبل في أذانه القبلة عند جماعة من العلماء ، ويلوى رأسه يمينا وشمالا في « حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح » عند كثير من أهل العلم . قال أحمد : لا يدور إلا أن يكون في منارة يريد أن يُسمِع الناس؛ وبه قال إسحق ، والأفضل أن يكون متطهرا .

التاسعة — ويستحب لسامع الأذان أن يحكيه إلى آخر التشهدين وإن أتمه جاز ؛ لحديث أبي سعيد ؛ وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا قال المؤذن ٱلله أكبر ٱلله أكبر فقال أحدكم ٱلله أكبر ٱلله أكبر ثم قال أشهد أن لا إله إلا ٱلله قال أشهد أن لا إله إلا ٱلله ثم قال أشهد أن محمدا رسول الله قال أشهد أن محمدا رسول الله ثم قال حيّ على الصلاة قال لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال حيّ على الفلاح قال لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال ٱلله أكبر ٱلله أكبر قال الله أكبر ٱلله أكبر ثم قال لا إله إلا ٱلله قال لا إله إلا الله مِن قلبه دخل الجنة" . وفيه عن سعد بن أبي وقّاص عن

(١) التطريب مد الصوت وتحسينه .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا غُفِر له ما تقدّم من ذنبه " .

العاشرة — وأما فضل الأذان والمؤذّن فقد جاءت فيه أيضا آثار صحاح ؛ منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضُراط حتى لا يَسمع التّأذين " الحديث . وحسبك أنه شِعار الإسلام ، وعَلَمٌ على الإيمان كما تقدّم . وأما المؤذّن فروى مسلم عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " المؤذّنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة " . وهذه إشارة إلى الأمن من هول ذلك اليوم . والله أعلم . والعرب تكْني بطول العنق عن أشراف القوم وساداتهم ؛ كما قال قائلهم (١) :

* وطُولِ أَنْضِيَةِ الأَعْناق والِلّمَمِ *

وفي الموطأ عن أبي سعيد الخُدْريّ سَمِع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يَسمع مَدَى صوت المؤذّن جِنّ ولا إنس ولا شيء إلا شَهِد له يوم القيامة " . وفي سنن ٱبن ماجة عن ٱبن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أذّن مُحتسبا سبع سنين كُتبت له براءة من النار " وفيه عن ٱبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أذّن ثِنْتي عشرة سنة وجبت له الجنة وكُتب له بتأذينه في كل يوم سِتون حسنة ولكل إقامة ثلاثون حسنة ". قال أبو حاتم : هذا الإسناد منكر والحديث صحيح . وعن عثمان بن أبي العاصي قال : كان آخر ما عَهِد إليّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ألّا أَتّخِذ مؤذّنا يأخذ على أذانه أجرا ؛ حديث ثابت .

الحادية عشرة — وٱختلفوا في أخذ الأجرة على الأذان ؛ فكره ذلك القاسم بن عبد الرحمن وأصحاب الرأي ورخص فيه مالك ، وقال : لا بأس به . وقال الأوزاعيّ : ذلك مكروه ،

---

(١) قيل : هو لليلى الأخيلية ، ويروى للشمردل بن شريك اليربوعي ، وهو عجز بيت وصدره : (يشبهون ملوكا في تجلتهم ، — ويروى — يشبهون سيوفا في صرامتهم) . والنضى ما بين الرأس والكاهل من العنق . واللمة (بالكسر) : الشعر المجاوز شحمة الأذن ، فاذا بلغت المنكبين فهي جمة . قال في « اللسان » : والصحيح (والأمم) جمع أمة وهي القامة ، لأن الكهول لا تمدح بطول اللمم إنما تمدح به النساء والأحداث .

ولا بأس بأخذ الرزق على ذلك من بيت المـال . وقال الشـافعي : لا يرزق المؤذّن إلا من خُمْس الخُمْس سهم النبي صلى الله عليه وسلم. قال آبن المنذر: لا يجوز أخذ الأجرة على الأذان . وقد آستدل علماؤنا بأخذ الأجرة بحديث أبي محذورة، وفيه نظر؛ أخرجه النسائيّ وآبن ماجة وغيرهما قال : خرجت في نفر فكنا ببعض الطريق فأذّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن عنه متنكبون(١) فصرخنا نحكيه نهزأ به؛ فسمع رسول الله صـلى الله عليه وسلم فأرسل إلينا قوما فأقعدونا بين يديه فقال : " أيكم الذي سمعت صوته قد آرتفع " فأشار إليّ القوم كلهم وصدقوا؛ فأرسل كلهم وحبسني وقال لي : " قم فأذن " فقمت ولا شيء أ كره إليّ من رسول الله صـلى الله عليه وسلم ولا مما يأمرني به ، فقمت بين يدي رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فألقى عليّ رسول الله صـلى الله عليه وسلم التأذين هو بنفسه فقال : " قل آلله أكبر آلله أكبر آلله أكبر آلله أكبر أشهد أن لا إله إلا آلله أشهد أن لا إله إلا آلله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسـول آلله " ثم قال لي : " آرفع من صـوتك أشهد أن لا إله إلا آلله أشهد أن لا إله إلا آلله أشهد أن محمدا رسول آلله أشهد أن محمدا رسـول آلله حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة حي على الفـلاح حيّ على الفـلاح آلله أكبر آلله أكبر لا إله إلا آلله " ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صُرّة فيهـا شيء من فضّـة، ثم وضع يده على ناصية أبي مَحْـذُورة ثم أَمَرّها على وجهه ، ثم على ثدييه ، ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله صـلى الله عليه وسـلم سُرّة أبي مَحْذُورة؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك و بارك عليك " فقلت : يارسول الله مُرني بالتّأذين بمكة، قال : " قد أمرتك " . فذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهية، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ فقدمت على عَتّاب بن أَسِيد عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فأذّنت معـه بالصلاة عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لفظ آبن ماجة .

---

(١) متنكبون : اسم فاعل من تنكب عنه أي عدل عنه ؛ أي معرضون متجنبون .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى أنهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح . رُوى أن رجلا من النّصارى وكان بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول : « أشهد أن محمدا رسول الله » قال : حُرِق الكاذب ؛ فسقطت فى بيته شرارة من نار وهو نائم فتعلقت بالبيت فأحرقته وأحرقت ذلك الكافر معه ؛ فكانت عِبرة للخلق « والبلاءُ مُوَكَّلٌ بالمَنطِق » وقد كانوا يُمْهَلون مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى يَستفتحوا ، فلا يُؤَخَّروا بعد ذلك ؛ ذكره ابن العربيّ .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنه : جاء نَفَر من اليهود — فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبى رافع — إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام ؛ فقال : " نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل إلى قوله : « ونحن له مسلمون » " فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوّته وقالوا : والله ما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم ؛ فنزلت هذه الآية ومابعدها ، وهى متصلة بما سبقها من إنكارهم الأذان ؛ فهو جامع للشهادة لله بالتوحيد ، ولمحمد بالنبوّة ، والمتناقض دين من فرق بين أنبياء الله لا دين من يؤمن بالكل . ويجوز إدغام اللام فى التاء لقربها منها . و « تَنْقِمُونَ » معناه تسخطون ، وقيل : تكرهون

وقيــل : تنكرون ، والمعنى متقارب ؛ يقال نَقَم من كذا يَنْقِم ونَقِم يَنْقَم ، والأول أكثر ؛ قال عبد الله بن قيس الرُّقَيَّات :

ما نَقَمُوا من بني أمَيّــة إلّا * أنّهم يحلُمون إن غضبوا

وفى التنزيل « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ » ويقال : نَقِمتُ على الرجل بالكسر فأنا ناقِم إذا عتبتَ عليه ؛ يقال ما نَقِمْتُ عَلَيْــه ٱلإحسان . قال الكسائي : نَقِمت بالكسر لغة ، ونَقَمتُ الأمر أيضا ونَقِمته إذا كرهته ، وانتقم الله منه أى عاقبه ، والآسم منه النَّقمة ، والجمع نَقِمات ونَقِم مثل كلمة وكَلِمات وكَلِم ، وإن شئت سكّنت القاف ونقلت حركتها إلى النون فقلت : نِقْمة والجمع نِقَم ؛ مثل نِعْمة ونِعَم ، « إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ » فى موضع نصب بتنقمون ، و « تَنْقِمُونَ » بمعنى تعيبون ، أى هل تنقمون منا إلا إيماننا بالله وقد علمتم أنا على الحق . ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى فى ترككم الإيمان ، وخروجكم عن آمتثال أمر الله ؛ فقيل هو مثل قول القائل :

هــل تنقــم مــنّى إلا * أنّى عفيفٌ وأنّك فاجر

وقيل : أى لأن أكثركم فاسقون تنقمون منا ذلك .

قوله تعــالى : ﴿قُلْ هَــلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ أى بشرٍّ من نقمكم علينا . وقيــل : من شرّ ما تريدون لنــا من المكروه ؛ وهــذا جواب قولهم : ما نعرف دينا شرّا من دينكم . « مَثُوبَةً » نصب على البيان ؛ وأصــلها مفعولة فألقيت حركة الواو على الثــاء فسكنت الواو وبعدها واو ساكنة فحذفت إحداهما لذلك ؛ ومثله مَقُولة ومَجُوزة ومَضُوفة على معنى المصدر ؛ كما قال الشاعر (١) :

وكنتُ إذا جارِى دَعَا لِمَضُوفــةٍ * أُشَمِّــرُ حتى يَنْصُفَ السّاقَ مِئْزَرِى

وقيل : مَفْعُلة كقولك مَكْرُمة ومَعْقُلة . ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ « مَنْ » فى موضع رفع ؛ كما قال : « بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ » والتقدير : هو لعن من لعنه الله ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى : قل هــل أنبئكم بشر من ذلك من لعنه الله ، ويجوز أن يكون فى موضع خفض على

(١) هو : أبو جندب الهذلى . والمضوفة : الأمر يشق منه ويخاف .

البدل من شر والتقدير: هل أنبئكم بمن لعنه الله؛ والمراد اليهود. وقد تقدم القول في الطاغوت[1]، أي وجعل منهم من عَبَد الطاغوتَ؛ والموصول محذوف عند الفراء. وقال البصريون: لا يجوز حذف الموصول؛ والمعنى من لعنه الله وعَبَد الطاغوتَ.

وقرأ ابن وثاب والنخعي «وأُنْبِئُكُمْ» بالتخفيف. وقرأ حمزة: «وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ» بضم الباء وكسر التاء؛ جعله اسما على فَعُل كعَضُد فهو بناء للمبالغة والكثرة؛ كيَقُظ ونَدُس[2] وحَذُر، وأصله الصفة؛ ومنه قول النابغة[3]:

مِن وَحْشِ وَجْرة مَوْشيّ أكَارِعُه ❊ طَاوِي المَصِيرِ كسَيفِ الصَّيْقَلِ الفَرُدِ

بضم الراء. ونصبه بجعل؛ أي جعل منهم عَبُدًا للطاغوت؛ وأضاف عَبُد إلى الطاغوت فخفضه. وجَعَل بمعنى خلق؛ والمعنى: وجَعَل منهم من يبالغ في عبادة الطاغوت. وقرأ الباقون بفتح الباء والتاء؛ وجعلوه فعلا ماضيا، وعطفه على فعل ماض وهو غَضِب ولَعَن؛ والمعنى عندهم من لَعَنه الله ومن عَبَد الطاغوتَ، أو منصوبا بجَعَل؛ أي جَعَل منهم القردة والخنازير وعَبَد الطاغوتَ. ووحد الضمير في عَبَد حملا على لفظ «مَنْ» دون معناها. وقرأ أُبيّ وابن مسعود «وعَبَدُوا الطاغوتَ» على المعنى. ابن عباس: «وعُبُدَ الطَّاغُوتِ»، فيجوز أن يكون جمع عَبْد كما يقال: رَهْن ورُهُن، وسَقْف وسُقُف، ويجوز أن يكون جمع عِباد كما يقال: مِثَال ومُثُل، ويجوز أن يكون جمع عَبِيد كرَغِيف ورُغُف، ويجوز أن يكون جمع عَابِد كبَازِل وبُزُل؛ والمعنى: وخدم الطاغوت. وعن ابن عباس أيضا «وعُبَّدَ الطَّاغُوتِ»[4] جعله جمع عابد كما يقال: شَاهِد وشُهَّد وغَايب وغُيَّب. وعن أبي واقد: وعُبَّادَ الطاغوتِ

(١) راجع ج ٣ ص ٢٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) الندس (بفتح فضم أو فتح فكسر): الفهم الكيس.

(٣) هو الذبياني ووجرة: موضع بين مكة والبصرة؛ قال الأصمعي: هي أربعون ميلا ليس فيها منزل، فهي مرت للوحش. والوشي في ألوان البهائم بياض في سواد أو سواد في بياض — طاوي: ضامر. المصير: المصران. والصيقل: شحاذ السيوف وجلاؤها. والفرد والفرد (بفتح الراء وضمها): أي هو منقطع القرين لا مثيل له في جودته.

(٤) قال ابن عطية: وهذه القراءة تخرج على أنه أراد و «عبدا» منونا ثم حذف للالتقاء، كما قال: «ولا ذاكر الله».

للبالغة ، جمع عابد أيضا ؛ كعامل وعُمّال ، وضارب وضُرّاب . وذكر محبوب أن البصريين قرءوا : «وعِبَادَ الطاغوتِ» جمع عابد أيضا ، كقائم وقيام ، ويجوز أن يكون جمع عَبْد . وقرأ أبو جعفر الرؤاسي (١) « وعُبِـدَ الطَّاغُوتُ » على المفعول ، والتقدير : وعُبِدَ الطاغوتُ فيهـم . وقرأ عون العُقَيْلي وآبن بُرَيدة (٢) : « وعَابِدُ الطَّاغُوتِ » على التّوحيد ، وهو يؤدّى عن جماعة . وقرأ آبن مسعود أيضـا « وعَبُدَ الطَّاغُوتِ (٣) » وعنه أيضـا « وعُبِدَتِ الطَّاغُوتُ » على تأنيث الجماعة ؛ كما قال تعالى : « قَالَتِ الأَعْرَابُ » . وقرأ عبيد بن عمير : «وَأَعْبُدَ الطَّاغُوتِ» مثل كاب وأكلب . فهذه اثنا عشر وجها .

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ لأن مكانهم النار ؛ وأما المؤمنون فلا شرّ في مكانهم . وقال الزجاج : أولئك شر مكانا على قولكم . النحاس : ومن أحسن ما قيل فيه : أولئك الذين لعنهم الله شر مكانا في الآخرة من مكانكم في الدنيا لمـا لحقكم من الشرّ . وقيل : أولئك الذين لعنهم الله شر مكانا من الذين نقموا عليكم . وقيل : أولئـك الذين نقموا عليكم شر مكانا من الذين لعنهم الله . ولمـا نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم : يا إخوة القردة والخنازير فنكّسوا رءوسهم آفتضاحا ؛ وفيهم يقول الشاعر :

فلعنـة الله على اليهـود * إن اليهود إخوة القـرود

قوله تعـالى : وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

(١) راجع هامش جـ ٤ ص ١ في ضبط « الرؤاسي » طبعة أولى أو ثانية . (٢) في ابن عطية قراءة ابن بريدة (بفتح الدال) و (ضم الدال) قراءة العُقَيلي ولعله يقرأ كالعُقَيلي في رواية أخرى عنه .

(٣) قال ابن عطية : (بضم العين وفتح الباء والدال وكسر التاء) اسم مفرد يراد به الجمع كحَطَم ولُبَد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ﴾ . هذه صفة المنافقين ، والمعنى أنهم لم ينتفعوا بشيء مما سمعوه ، بل دخلوا كافرين وخرجوا كافرين . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ أي من نفاقهم . وقيل المراد اليهود الذين قالوا : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار إذا دخلتم المدينة ، وآكفروا آخره إذا رجعتم إلى بيوتكم ؛ يدل عليه ما قبله من ذكرهم وما يأتي .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ ﴾ يعني اليهود . ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أي يسابقون في المعاصي والظلم ﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ «لولا» بمعنى أفلا . «ينهاهم» يزجرهم . «الرَّبَّانِيُّون» علماء النصارى . « والأحبار » علماء اليهود ؛ قاله الحسن . وقيل : الكل في اليهود ؛ لأن هذه الآيات فيهم . ثم وبخ علماءهم في تركهم نهيهم فقال : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ كما وبخ من يسارع في الإثم بقوله : « لَبِئْسَ ما كانوا يَعْمَلُون » ودلت الآية على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر؛ فالآية توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد مضى القول في هذا المعنى في « البقرة » و «آل عمران» (١) . وروى سفيان آبن عيينة قال حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر قال بلغني أن ملكا أمر أن يخسف بقرية فقال : يارب فيها فلان العابد فأوحى الله تعالى إليه : «أن به فابدأ فإنه لم يتمعر (٢) وجهه في ساعة قط » . وفي صحيح الترمذي أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده وسيأتي . والصنع بمعنى العمل إلا أنه يقتضي الجودة ؛ يقال : سيف صنيع إذا جُوِّد عمله .

قوله تعالى : وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ

(١) راجع جـ ١ ص ٣٦٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) تمعر وجهه : تغير .

يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ج كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ج وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ج وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٦٤)

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. قال عِكْرِمة: إنما قال هذا فِنْحَاص بن عَازُوراء وأصحابه، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم قَلَّ مالُهم؛ فقالوا: إن الله بخيل، ويد الله مقبوضة عنا في العطاء؛ فالآية خاصة في بعضهم. وقيل: لما قال قوم هذا ولم ينكر الباقون صار كأنهم بأجمعهم قالوا هذا. وقال الحسن: المعنى يد الله مقبوضة عن عذابنا. وقيل: إنهم لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في فقر وقلة مال وسمعوا «مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا» ورأوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان يستعين بهم في الدِّيات قالوا: إن إله محمد فقير، وربما قالوا: بخيل؛ وهذا معنى قولهم: «يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ» فهو على التمثيل كقوله: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ». ويقال للبخيل جَعْدُ الأنامل، ومقبوض الكفّ، وكَزُّ الأصابع، ومغلول اليد؛ قال الشاعر:

كانت خُراسان أرضًا إذ يَزِيدُ بها * وكلُّ باب من الخيرات مفتوح
فاستبدلت بعده جَعْدًا أنامله * كأنما وجهه بالخلّ منضوح

واليد في كلام العرب تكون للجارحة كقوله تعالى: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا» وهذا محال على الله تعالى. وتكون للنعمة؛ تقول العرب: كم يد لى عند فلان، أى كم من نعمة لى قد أسديتها له؛ وتكون للقوّة؛ قال الله عز وجل «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ» أى ذا القوة وتكون للملك والقدرة؛ قال الله تعالى «قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ». وتكون بمعنى الصلة قال الله تعالى: «مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا» أى مما عملنا نحن. وقال: «أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ» أى الذى له عقدة النكاح. وتكون بمعنى التأييد والنّصرة، ومنه قوله عليه السلام: "يد الله مع القاضى حتى يَقضِى والقاسم حتى يَقسِم". وتكون لإضافة الفعل إلى المخبَر عنه تشريفا له وتكريما؛ قال الله تعالى: «يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» فلا يجوز أن يحمل على الجارحة؛ لأن البارى جلّ وتعالى واحد لا يجوز عليه التبعيض، ولا على القوّة والملك

والنعمة والصلة ؛ لأن الاشتراك يقع حينئذ بين وليه آدم وعدوّه إبليس ، ويبطل ما ذكر من تفضيله عليه ؛ لبطلان معنى التخصيص ، فلم يبق إلا أن يُحملا على صفتين تعلّقتا بخلق آدم تشريفا له دون خلق إبليس تعلُّق القدرة بالمقدور ، لا من طريق المباشرة ولا من حيث المماسّة ؛ ومثله ما روى أنه كتب التّوراة بيده ، وغرس دار الكرامة لأهل الجنة ، وغير ذلك تعلق الصفة بمقتضاها .

قوله تعالى : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ حُذفت الضّمة من الياء لثقلها ؛ أى غُلّت فى الآخرة ، ويجوز أن يكون دعاء عليهم ، وكذا «وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا» والمقصود تعليمنا كما قال : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ؛ علمنا الاستثناء كما علّمنا الدعاء على أبى لهب بقوله : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » وقيل : المراد أنهم أبخل الخلق ؛ فلا ترى يهوديا غير لئيم . وفى الكلام على هذا القول إضمار الواو ؛ أى قالوا : يد الله مغلولة وغلت أيديهم . واللعن الإبعاد ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى بل نعمته مبسوطة ؛ فاليد بمعنى النعمة . قال بعضهم : هذا غلط ؛ لقوله : «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» فنِعَم الله تعالى أكثر من أن تُحصى فكيف تكون بل نعمتاه مبسوطتان ؟ وأجيب بأنه يجوز أن يكون هذا تثنية جنس لا تثنية واحد مفرد ؛ فيكون مثل قوله عليه السلام : "مَثَلُ المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين"(١) . فأحد الجنسين نعمة الدنيا ، والثانى نعمة الآخرة . وقيل : نعمتا الدنيا النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة ؛ كما قال : « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً » . وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيه : النعمة الظاهرة ما حسن من خلقك ، والباطنة ما ستر عليك من سيء عملك . وقيل : نعمتا المطر والنبات اللتان النعمة بهما ومنهما . وقيل : إنّ النعمة للمبالغة ؛ كقول العرب : "لبيك وسعديك" وليس يريد الاقتصار على مرتين ؛ وقد يقول القائل : مالى بهذا الأمر يد أى قوة . قال السدىّ : معنى قوله «يداه» قوتاه بالثواب

---

(١) العائرة بين الغنمين : أى المترددة بين قطيعين ، لاتدرى أيهما تتبع .

والعقاب، بخلاف ما قالت اليهود : إن يده مقبوضة عن عذابهم . وفى صحيح مسلم عن أبى هُريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله تعالى قال لى أَنفِق أُنفِق عليك" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يمينُ الله مَلأَى لا يَغِيضُها سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ(١) أرأيتم ما أنفق مذ خَلَق السّموات والأرض فإنه لم يَنقص ما فى يَمينه — قال — وعرشُه على الماء وبيده الأخرى القَبْض(٢) يَرفع ويَخفض" . السّح الصّب الكثير . يَغيض ينقص؛ ونظير هذا الحديث قوله جل ذِكره : « وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ » . وأما هذه الآية ففى قراءة آبن مسعود « بَلْ يَدَاهُ بُسْطَانِ » حكاه الأخفش، وقال يقال : يد بُسْطَةٌ، أى منطلقة منبسطة . ﴿ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى يرزق كما يريد . ويجوز أن تكون آليد فى هذه الآية بمعنى القدرة؛ أى قدرته شاملة، فإن شاء وسع وإن شاء قتر . ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ ﴾ لام قسم . ﴿ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى بالذى أنزل إليك . ﴿ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أى إذا نزل شيء من القرآن فكفروا آزداد كفرهم . ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ﴾ قال مجاهد : أى بين اليهود والنصارى؛ لأنه قال قبل هذا «لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ» . وقيل : أى ألقينا بين طوائف اليهود، كما قال : « تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » فهم متباغضون غير متفقين؛ فهم أبغض خلق الله إلى الناس . ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ ﴾ يريد اليهود . و « كلما » ظرف؛ أى كلما جمعوا وأعدّوا شتت الله جمعهم . وقيل : إن اليهود لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله — التوراة — أرسل الله عليهم بُخْتَنَصَّر، ثم أفسدوا فأرسل عليهم بطرس الرومىّ، ثم أفسدوا فأرسل عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين؛ فكان كلما آستقام أمرهم شتتهم الله؛ فكلما أوقدوا نارا أى أهاجوا شرّا، وأجمعوا أمرهم على حرب النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ وقهرهم ووهنّ أمرهم فذكر النار مستعار . قال قَتَادة : أذلّهم الله جل وعز؛ فلقد بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم وهم تحت أيدى

(١) "الليل والنهار" قال النووى : هو بنصب الليل والنهار ورفعهما؛ النصب على الظرف، والرفع على الفاعل . قال فى هامش مسلم : لكن على تقدير النصب ماذا يكون الفاعل فى « لا يغيضها » لم يذكره، ولو كانت الرواية « لا يغيضها سح الليل والنهار » بالإضافة لبان الفاعل كما فى رواية زهير بن حرب " لا يغيضها شيء " .

(٢) الفيض : ضبطوه (بالفاء والياء) ومعناه الإحسان؛ و(بالقاف والباء) ومعناه الموت .

المجوس، ثم قال جلّ وعزّ : « وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا » أي يسعون في إبطال الإسلام، وذلك من أعظم الفساد، والله أعلم . وقيل : المراد بالنار هنا نار الغضب؛ أي كلما أوقدوا نار الغضب في أنفسهم وتجمعوا بأبدانهم وقوة النفوس منهم باحتدام نار الغضب اطفأها الله حتى يضعفوا؛ وذلك بما جعله من الرّعب نصرة بين يدي نبيه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ « أَنَّ » في موضع رفع، وكذا « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ » . « آمَنُوا » صدّقوا . ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ أي الشّرك والمعاصي . ﴿ لَكَفَّرْنَا ﴾ اللام جواب « لو » . وكفّرنا غطّينا ، وقد تقدّم . وإقامة التوراة والإنجيل العمل بمقتضاهما وعدم تحريفهما ؛ وقد تقدّم هذا المعنى في « البقرة »(1) مستوفى . ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي القرآن . وقيل : كتب أنبيائهم . ﴿ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني المطر والنبات ؛ وهذا يدل على أنهم كانوا في جَدْب . وقيل : المعنى لوسعنا عليهم في أرزاقهم وأكلوا أكلا متواصلا؛ وذكر فوق وتحت للمبالغة فيما يفتح عليهم من الدنيا ؛ ونظير هذه الآية « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » « وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا » « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » فجعل تعالى التُّقى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات ، ووعد بالمزيد لمن شكر فقال : « وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » ثم أخبر تعالى أن منهم مقتصدا — وهم المؤمنون منهم كالنجاشيّ وسلمان وعبد الله ابن سلام — اقتصدوا فلم

(1) راجع جـ ١ ص ٤٣٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

يقولوا فى عيسى ومحمد عليهما السلام مالا يليق بهما . وقيل : أراد بالاقتصاد قوما لم يؤمنوا ، ولكنهم لم يكونوا من المؤذين المستهزئين ، والله أعلم . والاقتصاد الاعتدال فى العمل؛ وهو من القصد، والقصـد إتيان الشيء ؛ تقول : قصدته وقصدت له وقصدت إليه بمعنى . ﴿ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بئس شيء عملوه ؛ كذّبوا الرسل ، وحرّفوا الكتب وأكلوا السّحت .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

فيـــه مسئلتانـــ :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ . قيل : معناه أَظهِر التبليغ ؛ لأنه كان فى أوّل الإسلام يخفيه خوفا من المشركين ، ثم أُمر بإظهاره فى هذه الآية ، وأعلمه الله أنه يَعصِمه من الناس . وكان عمر رضى الله عنه أوّل من أظهر إسلامه وقال : لا يُعبد الله سِرًّا ؛ وفى ذلك نزلت : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » فدلّت الآية على ردّ قول من قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من أمر الدين تَقِيَّة ، وعلى بطلانه ، وهم الرّافضة ، ودلّت على أنه صـلى الله عليه وسلم لم يُسِرَّ إلى أحد شيئا من أمر الدِّين ؛ لأن المعنى بَلِّغ جميع ما أُنزل إليك ظاهرا ، ولولا هذا ما كان فى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ فائدة . وقيل : بلغ ما أنزل إليك من ربك فى أمر زينب بنت جحش الأسـدية . وقيل غير هـذا ، والصحيح القول بالعموم؛ قال ابن عبـاس : المعنى بَلِّغ جميع ما أنزل إليك من ربك ، فإن كتمتَ شيئا منه فما بلَّغتَ رِسالته ؛ وهذا تأديب للنبي صـلى الله عليه وسلم ، وتأديب لحملة العِلم من أمته ألّا يكتموا شيئا من أمر شريعته ، وقد علِم الله تعالى من أمرِ نبيه أنه لا يكتم شيئا من وَحْيه ؛ وفى صحيح مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت : من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحى فقد كذب ؛ والله تعالى يقول : « يَأَيُّهَا

الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » ، وقبّح الله الروافض حيث قالوا : إنه عليه السلام كتم شيئا مما أوحى الله إليه كان بالناس حاجة إليه .

الثانيــــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّـاسِ ﴾ دليل على نبوّته ؛ لأن الله عزّ وجلّ أخبر أنه معصوم ، ومن ضُمِنت له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئا مما أمَره الله به . وسبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان نازلا تحت شجرة بجاء أعرابيّ فاخْتَرَطَ[1] سيفه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : من يمنعك مِنّي ؟ فقال : "الله" ؛ فذُعِرت يدُ الأعرابيّ وسقط السيف من يده ، وضَرب برأسه الشجرة حتى آنتثر دماغه ؛ ذكره المهدويّ . وذكره القاضي عياض في كتاب الشّفاء قال : وقد رُويت هذه القصة في الصحيح ، وأن غَوْرَث ابن الحٰرث صاحب القصة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عنه ؛ فرجع إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس . وقد تقدّم الكلام في هـذا المعنى في هـذه السورة عند قوله : « إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ » مستوفى ، وفي « النّساء »[2] أيضا في ذكر صلاة الخوف . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : غزونا مع رسول الله صـلى الله عليه وسلم غزوة قِبل نَجْدٍ فأدركنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في وادٍ كثير العِضاهِ[3] فنزل رسـول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلّق سيفه بغصن من أغصانها ، قال : وتفرق الناس في الوادي يَستظِلّون بالشجر ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فآستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صَلْتاً[4] في يده فقـال لي من يمنعك مِنّي — قال — قلت الله ثم قال في الثانية من يمنعك مِني — قال — قلت الله قال فشَامَ[5] السيفَ فها هو ذا جالس" ثم لَمْ يعرِض له رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال آبن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لمـا بعثني الله برسالته ضِقتُ بها ذَرْعا وعرفتُ أن من الناس من يكذّبني

---

(١) آخترط سيفه : آستله . (٢) راجع ص ١١١ من هذا الجزء . وجـ ٥ ص٣٧٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) العضاه : شجر عظيم له شوك ، وقيل : أعظم الشجر . (٤) صلتا : أي مجردا من غمده .

(٥) شام السيف : أي غمده وردّه في غمده ؛ يقال : شام السيف إذا سله وإذا أغمده ؛ فهو من الأضداد ، والمراد هنا أغمده .

فأنزل الله هذه الآية" وكان يرسل أبو طالب كل يوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزل : « واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله قد عَصَمني من الجن والإنس فلا أحتاج إلى من يحرسني" . قلت : وهذا يقتضي أن ذلك كان بمكة، وأن الآية مكية وليس كذلك؛ وقد تقدّم أن هذه السورة مدنية بإجماع؛ ومما يدل على أن هذه الآية مدنية ما رواه مسلم في الصحيح عن عائشة قالت : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مَقْدَمه المدينةَ ليلةً فقال : "ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة" قالت : فبينا نحن كذلك سمعنا خَشْخَشة سلاح(١)؛ فقال : "من هذا" قال : سعد بن أبي وقاص فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما جاء بك" فقال : وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه؛ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام . وفي غير الصحيح قالت : فبينما نحن كذلك سمعت صوت السلاح؛ فقال : "من هذا" فقالوا : سعد وحُذَيفة جئنا نحرسك؛ فنام عليه السلام حتى سمعتُ غَطِيطَه(٢) ونزلت هذه الآية؛ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قُبَّة أَدَم وقال : "انصرفوا أيها الناس فقد عَصَمني الله" .

وقرأ أهل المدينة : « رِسَالَاته » على الجمع . وأبو عمرو وأهل الكوفة : « رِسَالَتَهُ » على التوحيد؛ قال النّحاس : والقراءتان حسنتان والجمع أبين؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه الوحي شيئا فشيئا ثم يبينه؛ والإفراد يدل على الكثرة؛ فهي كالمصدر والمصدر في أكثر الكلام لا يجمع ولا يثنى لدلالته على نوعه بلفظه كقوله : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا يرشدهم وقد تقدم . وقيل : أَبْلِغ أنت فأما الهداية فإلينا . نظيره « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » والله أعلم .

---

(١) خشخشة سلاح : أي صوت سلاح صدم بعضه بعضا .

(٢) الغطيط : هو صوت النائم المرتفع .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : جاء جماعة من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ألست تُقرّأنّ التوراة حقّ من عند الله؟ قال : "بلى" . فقالوا : فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عَدَاها ؛ فنزلت الآية ؛ أي لستم على شيء من الدِّين حتى تعملوا بما في الكتابين من الإيمان بمحمد عليه السلام، والعمل بما يوجبه ذلك منهما؛ وقال أبو عليّ : ويجوز أن يكون ذلك قبل النّسخ لهما .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أي يكفرون به فيزدادون كفرا على كفرهم . والطغيان تجاوز الحدّ في الظلم والغُلُوّ فيه . وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى . ومنه قوله تعالى « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى » أي يتجاوز الحدّ في الخروج عن الحق .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا تحزن عليهم . أَسِيَ يَأْسَى أَسًى إذا حزِن . قال :

* وَانْحَلَبَتْ عيناه من فَرْطِ الأَسَى *

وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وليس بنهي عن الحزن ؛ لأنه لا يقدر عليه ولكنه تسلية ونهي عن التعرض للحزن . وقد مضى هذا المعنى في آخر « آل عمران »(1) مستوفى .

(1) راجع ج ٤ ص ٢٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

تقدم الكلام فى هذا كله فلا معنى لإعادته . ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا ﴾ معطوف . وكذا ﴿ وَالصَّابِئُونَ ﴾ معطوف على المضمر فى « هادوا » فى قول الكسائى والأخفش . قال النحاس : سمعت الزجاج يقول وقد ذكر له قول الأخفش والكسائى : هذا خطأ من جهتين ؛ إحداهما أن المضمر المرفوع يقبح العطف عليه حتى يؤكد . والجهة الأخرى أن المعطوف شريك المعطوف عليه فيصير المعنى أن الصابئين قد دخلوا فى اليهودية وهذا محال . وقال الفراء : إنما جاز رفع « وَالصَّابِئُونَ » لأن « إنّ » ضعيفة فلا تؤثر إلا فى الآسم دون الخبر؛ و « الَّذِينَ » هنا لا يتبين فيه الإعراب فجرى على جهة واحدة الأمران، فجاز رفع الصابئين رجوعا إلى أصل الكلام . قال الزجاج : وسبيل ما يتبين فيه الإعراب وما لا يتبين فيه الإعراب واحد . وقال الخليل وسيبويه : الرفع محمول على التقديم والتأخير ؛ والتقدير : إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك . وأنشد سيبويه وهو نظيره :(١)

وإلّا فاعلموا أنّا وأنتم * بُغَاةٌ ما بَقِينَا فى شِقَاقِ

وقال ضَابِئٌ البُرْجُمِىّ :

فمن يكُ امسى بالمدينة رَحْلُه * فإنّى وَقَيَّارٌ(٢) بها لَغَرِيبُ

وقيل : «إنّ» بمعنى «نَعَم» فالصابئون مرتفع بالابتداء ، وحذف الخبر لدلالة الثانى عليه، فالعطف يكون على هذا التقدير بعد تمام الكلام وانقضاء الاسم والخبر . وقال قيس الرُّقَيَّات :

(١) البيت لبشر بن أبى حازم . والبغاة : جمع باغ وهو الساعى بالفساد . والشقاق : الخلاف .

(٢) قيار : قيل اسم جمل ضابئ ، وقيل : اسم فرسه . يقول : من كان بالمدينة بيته ومنزله ، فلست منها ولا لى بها منزل .

بَكَرَ العَواذِلُ فى الصَّبا * حِ يَلُمْنَنِى وأَلُومُهُنَّهْ
ويَقُلْنَ شَيْبٌ قد عَلَا * كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إِنَّهْ

قال الأخفش : « إِنَّه » بمعنى « نَعَم » ، وهذه « الهاء » أدخلت للسكوت .

قوله تعالى : لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ﴾ . قد تقدّم في « البقرة »(١) معنى الميثاق وهو ألا يعبدوا إلا الله وما يتصل به . والمعنى في هذه لا تأس على القوم الفاسقين فإنا قد أعذرنا إليهم ، وأرسلنا الرسل فنقضوا العهود . وكل هذا يرجع إلى ما افتتحت به السورة وهو قوله : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » . ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ ﴾ أى اليهود ﴿ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ﴾ لا يوافق هواهم ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ أى كذبوا فريقا وقتلوا فريقا ؛ فمن كذبوه عيسى ومن مثله من الأنبياء ، وقتلوا زكريا ويحيى وغيرهما من الأنبياء . وإنما قال : « يقتلون » لمراعاة رأس الآية . وقيل : أراد فريقا كذبوا ، وفريقا قتلوا ، وفريقا يكذبون وفريقا يقتلون ، فهذا دأبهم وعادتهم فاختصر . وقيل : فريقا كذبوا لم يقتلوهم ، وفريقا قتلوهم فكذبوا . و « يقتلون » نعت لفريق . والله أعلم .

قوله تعالى : وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ . المعنى ، ظن هؤلاء الذين أخذ عليهم الميثاق أنه لا يقع من الله عز وجل ابتلاء واختبار بالشدائد ، اغترارا بقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وإنما اغتروا بطول الإمهال . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى « تكون » بالرفع ؛ ونصب

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

الباقون؛ فالرفع على أن حَسِب بمعنى عَلِم وتيقّن . و « أَنْ » مخفّفة من الثقيلة ودخول « لا » عوض من التخفيف، وحذف الضمير لأنهم كرهوا أن يليها الفعل وليس من حكمها أن تدخل عليـه؛ ففصلوا بينها بـ « لا » . ومن نصب جعل « أَنْ » ناصبة للفعل، وبقي حَسِب على بابه من الشك وغيره . قال سيبويه : حسبت ألّا يقولُ ذلك ؛ أي حسبت أنه قال ذلك . وإن شئت نصبت؛ قال النحاس : والرفع عند النحويين في حَسِب وأخواتها أجود كما قال :(١)

أَلَا زعمتْ بَسْبَاسَـــةُ اليومَ أنّني * كَبِرتُ وألّا يَشْهدُ اللّهوَ أمثالي(٢)

وإنما صار الرفع أجود؛ لأن حسب وأخواتها بمنزلة العلم لأنه شيء ثابت .

قوله تعالى : ﴿ فَعَمُوا ﴾ أي عن الهدى . ﴿ وَصَمُّوا ﴾ أي عن سمــاع الحق ؛ لأنهم لم ينتفعوا بمـا رأوه ولا سمعوه . ﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ في الكلام إضمار، أي أوقعت بهم الفتنة فتابوا فتاب الله عليهم بكشف القحط، أو بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم يخبرهم بأن الله يتوب عليهم إن آمنوا ؛ فهذا بيان «تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» أي يتوب عليهم إن آمنوا وصدّقوا لا أنهم تابوا على الحقيقة . ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ أي عمِي كثير منهم وصَمّ بعد تبيّن الحق لهم بمحمد عليه السلام ؛ فارتفع « كثير » على البدل من الواو . وقال الأخفش سعيد : كما تقول رأيت قومك ثلثيهم . وإن شئت كان على إضمار مبتدإ أي العُمْيُ والصُّمّ كثيرٌ منهم . وإن شئت كان التقدير العُمْيُ والصُّمّ منهم كثيرٌ . وجواب رابع أن يكون على لغة من قال : « أكلوني البراغيثُ » وعليـه قول الشـاعر :(٣)

ولكن ديَافِيٌّ أبوه وأُمّـــه * بِحَوْرَانَ يَعْصِرْنَ السَّـلِيطَ أقاربُه

ومن هـذا المعنى قوله : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ . ويجوز في غير القرآن « كثيرا » بالنصب يكون نعتا لمصدر محذوف .

---

(١) البيت لامرىء القيس ويروى في ديوانه (ألا يحسن اللهو) . وبسباسة امرأة من بني أسد .

(٣) البيت للفرزدق يهجو عمرو بن عفراء . ودياف موضع بالشام ؛ وقيـل : بالجزيرة ؛ وهم نبط الشام . والسليط : الزيت .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٧٢)

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ﴾ . هذا قول اليعقوبيّة فردّ الله عليهم ذلك بحجة قاطعة مما يقرّون به؛ فقال : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أى إذا كان المسيح يقول: يارب ويالله فكيف يدعو نفسه أم كيف يسألها ؟ هذا محال . ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ قيل : هو من قول عيسى . وقيل : ابتداء كلام من الله تعالى. والإشراك أن يعتقد معه موجدا. وقد مضى فى ﴿ آل عمران ﴾ (١) القول فى اشتقاق المسيح فلا معنى لإعادته . ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٣) ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٧٤)

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ . أى أحد ثلاثة . ولا يجوز فيه التنوين؛ عن الزجاج وغيره . وفيه للعرب مذهب آخر؛ يقولون : رابع ثلاثة؛ فعلى هذا يجوز الجر والنصب لأن معناه الذى صير الثلاثة اربعة بكونه منهم . وكذلك إذا قلت : ثالث اثنين؛ جاز التنوين . وهذا قول فرق النصارى من المَلْكية والنَّسْطُوريّة واليعقوبية؛ لأنهم يقولون أب وابن ورُوح قدس إله واحد؛ ولا يقولون ثلاثة آلهة وهو معنى مذهبهم ، وإنما يمتنعون من العبارة وهى لازمة لهم . وما كان هكذا صح أن

(١) راجع ج ٤ ص ٨٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يحكى بالعبارة اللازمة؛ وذلك أنهم يقولون : إن الآبن إله والأب إله وروح القدس إله . وقد تقدّم القول فى هذا فى «النساء»(١) فأكفرهم الله بقولهم هذا . ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أى أنّ الإله لا يتعـدد وهم يلزمهم القول بثلاثة آلهة كما تقدم ، وإن لم يصرحوا بذلك لفظا ؛ وقد مضى فى « البقرة »(٢) معنى الواحد . « ومِن » زائدة . ويجوز فى غير القرآن « إلها واحدا » على الاستثناء . وأجاز الكسائىّ الخفض على البدل .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا﴾ أى يكفّوا عن القول بالتثليث ليمسنهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة . ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ تقرير وتوبيخ ، أى فليتوبوا إليه وليسألوه ستر ذنوبهم ؛ والمراد الكفرة منهم . وإنما خص الكفرة بالذكر لأنهم القائلون بذلك دون المؤمنين .

قوله تعـالى : مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ابتداء وخبر؛ أى ما المسيح وإن ظهرت الآيات على يديه فإنما جاء بها كما جاءت بها الرسل؛ فإن كان إلها فليكن كل رسول إلها ؛ فهذا رد لقولهم واحتجاج عليهم ، ثم بالغ فى الحجة فقال : ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ ابتداء وخبر ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أى انه مولود مربوب ، ومن ولدته النّسـاء وكان يأكل الطعام مخلوق محدَث كسائر المخلوقين ؛ ولم يدفع هـذا أحد منهم ، فمتى يصلح المربوب لأن يكون ربا؟ ! وقولهم : كان يأكل بناسُوته لا بلاهُوته فهذا منهم مصير إلى الاختلاط ، ولا يتصور اختلاط إله بغير إله ، ولو جاز اختلاط القديم بالمحدث لجاز أن يصير القديم مُحدَثا ، ولو صح هذا فى حق عيسى لصح فى حق غيره حتى يقال اللاهوت مخالط لكل مُحدَث . وقال بعض المفسّرين فى قوله : « كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » إنه كناية عن الغائط والبول . وفى هـذا دلالة

(١) راجع ص ٢٣ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٠ وما بعدها طبعة ثانية .

على أنهما بشران . وقد استدل من قال : إن مريم عليها السلام لم تكن نبية بقوله تعالى : « وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ » .

قلت : وفيه نظر، فإنه يجوز أن تكون صِدّيقة مع كونها نبية كإدريس عليه السلام؛ وقد مضى في «آل عمران»[1] ما يدل على هذا . والله أعلم . وإنما قيل لها صدّيقة لكثرة تصديقها بآيات ربها وتصديقها ولدها فيما أخبرها به؛ عن الحسن وغيره . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ﴾ أي الدلالات . ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان؛ يقال : أَفَكَه يأفِكُه إذا صرفه . وفي هذا رد على القَدَرية والمعتزلة .

قوله تعالى : قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٧٦)

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ زيادة في البيان وإقامة حجة؛ أي أنتم مقرون أن عيسى كان جَنينا في بطن أمه، لا يملك لأحد ضرّا ولا نفعا، وإذ أقررتم أن عيسى كان في حال من الأحوال لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا ينفع ولا يضر، فكيف اتخذتموه إلها؟ . ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ أي لم يزل سميعا عليما يملك الضرّ والنّفع، ومن كانت هذه صفته فهو الإله على الحقيقة . والله أعلم .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٧٧)

(١) راجع ج ٤ ص ٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أى لا تُفْرِطوا كما أفرطت اليهود والنصارى فى عيسى؛ غُلُوّ اليهود قولهم فى عيسى ، ليس ولد رِشْدة (١) ، وغلو النصارى قولهم : إنه إله . والغلوّ مجاوزة الحدّ؛ وقد تقدّم فى « النساء » (٢) بيانه .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ الأهواء جمع هوًى وقد تقدّم فى «البقرة» (٣) . وسمى الهوى هوًى لأنه يَهْوِى بصاحبه فى النار . ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ قال مجاهد والحسن : يعنى اليهود . ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أى أضلوا كثيرا من الناس . ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أى عن قصد طريق محمد صلى الله عليه وسلم . وتكرير ضلوا على معنى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد؛ والمراد الأسلاف الذين سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى .

قوله تعالى : لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ فيه مسئلة واحدة : وهى جواز لعن الكافرين وإن كانوا من أولاد الأنبياء، وأن شرف النسب لا يمنع إطلاق اللعنة فى حقهم . ومعنى ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ أى لعنوا فى الزبور والإنجيل؛ فإن الزبور لسان داود، والإنجيل لسان عيسى أى لعنهم الله فى الكتابين . وقد تقدّم اشتقاقهما . قال مجاهد وقتادة وغيرهما : لعنهم مسخهم قردة وخنازير . قال أبو مالك : الذين لعنوا على لسان داود مُسخوا قردة، والذين لعنوا على لسان عيسى مُسخوا خنازير . وقال ابن عباس : الذين لعنوا على لسان داود أصحاب السبت، والذين لعنوا على لسان عيسى الذين كفروا بالمائدة بعد نزولها . وروى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : لُعِن الأسلافُ والأخلافُ ممن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم على لسان داود وعيسى ؛ لأنهما أَعلما أنّ محمدا نبي مبعوث فلَعنا من يكفر به .

(١) ولد رشـدة (بكسر الراء وقد تفتح) : أى ولد نكاح . (٢) راجع ص ٢١ من هـذا الجزء .
(٣) راجع ج٢ ص ٢٤ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا ﴾ . ذلك فى موضع رفع بالابتداء أى ذلك اللعن بما عصوا ؛ أى بعصيانهم . ويجوز أن يكون على إضمار مبتدإ ؛ أى الأمر ذلك . ويجوز أن يكون فى موضع نصب أى فعلنا ذلك بهم لعصيانهم واعتدائهم .

قوله تعالى : كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)

قوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ . فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ ﴾ أى لا ينهى بعضهم بعضا : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ذمّ لتركهم النهى ، وكذا من بعدهم يذمّ من فعل فعلهم . خرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل أول ما يلقى الرجل فيقول يا هذا اتّق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وكانوا يعتدون » إلى قوله « فاسقون » ثم قال : " كلّا والله لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ولتأخذُنّ على يدى الظالم ولتأطِرنّه على الحق [أَطْرًا](١) ولتقصرُنّه على الحق قصرا أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننّكم كما لعنهم " خرّجه الترمذىّ أيضا . ومعنى لتأطُرنه لتردنه .

الثانيــة : قال ابن عطية : والإجماع منعقد على أن النهى عن المنكر فرض لمن أطاقه وأَمِن الضرر على نفسه وعلى المسلمين ؛ فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه . وقال حذّاق أهل العلم : وليس من شرط الناهى أن يكون سليما عن معصية بل ينهى العصاة بعضهم بعضا . وقال بعض الأصوليين : فرض على الذين يتعاطون الكئوس أن ينهى بعضهم بعضا

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٦ .		(٢) الزيادة عن أبى داود .

واستدلوا بهذه الآية ؛ قالوا : لأن قوله : « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » يقتضى اشتراكهم فى الفعل وذمهم على ترك التناهى . وفى الآية دليل على النهى عن مجالسة المجرمين وأمر بتركهم وهجرانهم . وأكّد ذلك بقوله فى الإنكار على اليهود : « تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » « وما » من قوله : « ما كانوا » يجوز أن تكون فى موضع نصب وما بعدها نعت لها؛ التقدير لبئس شيئا كانوا يفعلونه . أو تكون فى موضع رفع وهى بمعنى الذى .

قوله تعالى : تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ ﴾ أى من اليهود ؛ قيل : كعب بن الأشرف وأصحابه . وقال مجاهد : يعنى المنافقين ﴿ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى المشركين ؛ وليسوا على دينهم . ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أى سولت وزينت . وقيل : المعنى لبئس ما قدموا لأنفسهم ومعادهم . ﴿ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ « أَنْ » فى موضع رفع على إضمار مبتدأ كقولك : بئس رجلا زيدٌ . وقيل : بدل من «ما» فى «لبئس» على أن تكون «ما» نكرة فتكون رفعا أيضا . ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى لأن سخط الله عليهم : ﴿ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ ابتداء وخبر .

قوله تعالى : وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِىِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يدل بهذا على أن من اتخذ كافرا وليا فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضى أفعاله . ﴿ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى خارجون عن الإيمان بنبيهم لتحريفهم ، أو عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لنفاقهم .

قوله تعالى : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ اللام لام قسم ودخلت النون على قول الخليل وسيبويه فرقا بين الحال والمستقبل . ﴿ عَدَاوَةً ﴾ نصب على البيان وكذا ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ وهذه الآية نزلت في النجاشيّ وأصحابه لما قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى — حسب ما هو مشهور في سيرة ابن إسحٰق وغيره — خوفا من المشركين وفتنتهم ؛ وكانوا ذوى عدد . ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول إليه ؛ حالت بينهم وبين رسول صلى الله عليه وسلم الحرب . فلما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار ؛ قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فاهدوا إلى النجاشيّ وابعثوا إليه رجلين من ذوى رأيكم لعله يعطيكم مَن عنده فتقتلونهم بمن قُتِل منكم ببدر ؛ فبعث كفارُ قريش عمرو بن العاصي وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا ، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أُميّة الضَّمْرِيّ ، وكتب معه إلى النجاشيّ ؛ فقدم على النجاشيّ فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقِسّيسين فجمعهم . ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة «مريم» وقاموا تفيض أعينهم من الدمع ؛ فهم الذين أنزل الله فيهم « وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى » وقرأ « إلى الشاهِدين » رواه أبو داود . قال : حدّثنا محمد بن سلمة المراديّ قال حدّثنا ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث ابن هشام ، وعن سعيد بن المسيِّب وعن عروة بن الزبير ؛ أن الهجرة الأولى هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة ؛ وساق الحديث بطوله . وذكر البيهقي عن ابن إسحٰق قال : قدم على النبي

صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا وهو بمكة أو قريب من ذلك، من النصارى حين ظهر خبره من الحبشة، فوجدوه فى المسجد فكلموه وساءلوه، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسئلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا: خَيَّبَكُمُ اللهُ من رَكْب! بعثكم مَنْ وَراءَكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تظهر مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه بما قال لكم؛ ما نعلم ركبا أحمق منكم — أو كما قال لهم — فقالوا: سلام عليكم لا نُجاهلكم فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا أنفسنا خيرا. فيقال: إن النفر النصارى من أهل نَجْران؛ ويقال: إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات «ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» إلى قوله: «لَا نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ» وقيل: إن جعفرا وأصحابه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف، فيهم اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام [وهم](١) بَحِيراء(٢) الراهب وإدريس وأشرف وأبرهة وثُمَامة وقُثَم ودُرَيد وأيمن،(٣) فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة «يس» إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى فنزلت فيهم «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» يعنى وفد النجاشىّ وكانوا أصحاب الصوامع. وقال سعيد ابن جبير: وأنزل الله فيهم أيضا «ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» إلى قوله «أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» إلى آخر الآية. وقال مقاتل والكلبىّ: كانوا أربعين رجلا من أهل نَجْران من بنى الحرث بن كعب، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية وستون من

(١) الزيادة عن (البحر) و(روح المعانى).

(٢) بحيراء الراهب: كأمير ممدودا وفى رواية بالألف المقصورة.

(٣) الأصول محرفة فى ذكر الأسماء وصوبت عن (البحر) و(روح المعانى).

أهل الشام . وقال قتادة : نزلت فى ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا به فأثنى الله عليهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ واحد «القِسّيسين» قَسّ وقِسّيس ؛ قاله قُطْرُب . والقِسّيس العالم؛ وأصله من قَسَّ إذا تتبع الشيء فطلبه؛ قال الراجز :(١)

* يُصْبِحْنَ من قَسّ الأذى غَوَافِلَا *

وتَقَسَّسْتُ أصواتَهم بالليل تَسَمَّعتها . والقَسّ النَّميمة . والقَسّ أيضا رئيس من رؤساء النصارى فى الدين والعلم، وجمعه قُسُوس ، وكذلك القِسّيس مثل الشّر والشّرير فالقِسّيسون هم الذين يتبعون العلماء والعبّاد . ويقال فى جمع قِسّيس مُكَسَّرا قَسَاوِسَة(٢) أُبدل من إحدى السينين واو وقَسَاوسة أيضا كمَهَالبة. والأصل قَسَاسِسَة فأبدلوا إحدى السينات واوا لكثرتها . ولفظ القِسّيس إما أن يكون عربيا، وإما أن يكون بلغة الروم ولكن خلطته العرب بكلامهم فصار من لغتهم إذ ليس فى الكتاب ما ليس من لغة العرب كما تقدّم . وقال أبو بكر الأنبارى : حدّثنا أبى حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد، قال : حدثت عن معاوية بن هشام عن نصير الطائى عن الصَّلْت عن حامية بن رباب قال : قلت لسلمان « بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا » فقال : دع القِسّيس فى الصَّوامع والمحراب أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانًا » . وقال عُروة بن الزّبير : ضَيّعت النصارى الإنجيل، وأدخلوا فيه ما ليس منه ؛ وكانوا أربعة نَفَر الذين غيّروه ؛ لوقاس ومرقوس ويُحَنّس ومقبوس ، وبقى قِسّيس على الحق وعلى الاستقامة ، فمن كان على دينه وهديه فهو قِسّيس .

قوله تعالى : ﴿ وَرُهْبَانًا ﴾ الرُّهبان جمع راهب كرُكْبان ورَاكب . قال النابغة :

---

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتتبعن النمائم .

(٢) كذا فى الأصول وهو موافق لما فى (القاموس) وبها يظهر قوله بعد : «أبدل من إحدى السينين واو» ، وفى (اللسان) : قساقسة على مثال مهالبة . ويؤخذ من شرح (القاموس) أن فيه الجمعين .

لو أنها عرضت لأشمط راهبٍ * عبـد الإله صرورةٍ(١) متعبـد
لرَنَا لرؤيتها وحسن حديثها * ولخاله رشدًا و إن لم يُرشَد

والفعل منه رَهِبَ الله يَرْهبه أى خافه رَهْبا ورَهَبا ورَهْبة . والرّهبانية والتّرهب التّعبد في صومعة؛ قال أبو عبيد: وقد يكون «رُهْبان» للواحد والجمع؛ قال الفرّاء : ويجمع «رُهْبان» إذا كان للمفرد رَهَابِنة وَرَهَابِين كقُرْبان وقَرَابين؛ قال جرير في الجمع :

رُهْبَانَ مَدْيَنَ لو رأوك تنزّلوا * والعُصْمُ من شَعَفِ العُقُولِ الفَادِرُ

الفَادِرُ المسنّ من الوُعُول . ويقال : العظيم، وكذلك الفَدُور والجمع فَدْر وفُدُور وموضعها المَفْدَرة؛ قاله الجوهري . وقال آخر في التوحيد :

لو أبْصَرَتْ رُهْبانَ دَيْرٍ في الجَبَلْ * لانحدرَ الرُّهبانُ يَسعى ويُصَلْ

من الصلاة . والرَّهَابة على وزن السّحابة عَظْم في الصدر مُشْرِف على البطن مثل اللسان . وهذا المدح لمن آمن منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم دون من أصرّ على كفره ولهذا قال : ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى عن الانقياد إلى الحق .

قوله تعالى : وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أى بالدمع وهو في موضع الحال؛ وكذا ﴿يقولون﴾ . وقال امرؤ القيس :

ففاضت دموع العين مِنّى صبابةً * على النَّحْرِ حتى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي(٢)

وخبر مستفيض إذا كثر وانتشر كفيض الماء عن الكثرة . وهذه أحوال العلماء يبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون ، ويتحازنون ولا يتموّتون ؛ كما قال تعالى : «اللهُ نَزَّلَ

(١) الصرورة : الذى لم يأت النساء كأنه أصر على تركهن ؛ وفي الحديث "لا صرورة في الإسلام" وهو التبتل .
(٢) المحمل (كمرجل) علاقة السيف .

أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » وفى « الأنفال » (١) يأتى بيان هذا المعنى إن شاء الله تعالى . وبيّن الله سبحانه فى هذه الآيات أن أشد الكفار تمردا وعتوّا وعداوة للسلمين اليهود ، ويضاهيهم المشركون ، وبيّن أن أقربهم مودّة النّصارى . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون بالحق من قوله عز وجل : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » عن ابن عباس وابن جُرَيج . وقال الحسن : الذين يشهدون بالإيمان . وقال أبو عليّ : الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك . ومعنى «فَاكْتُبْنَا» اجعلنا فيكون بمنزلة ما قد كُتب ودُوّن .

قوله تعالى : وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ﴾ بيّن استبصارهم فى الدين ؛ أى يقولون وما لنا لا نؤمن ؛ أى وما لنا تاركين الإيمان . فنؤمن فى موضع نصب على الحال . ﴿ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ أى مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله : « أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وفى الكلام إضمار أى نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة . وقيل : « مع » بمعنى « فى » كما تذكر « فى » بمعنى « مع » تقول : كنت فيمن لقى الأمير ؛ أى مع من لقى الأمير . والطمع يكون مخففا وغير مخفف ؛ يقال : طَمِع فيه طَمَعا وطَمَاعَةً وطَمَاعِيَة مخفف فهو طَمِع .

قوله تعالى : فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

(١) راجع المسئلة الثانية من تفسير آية ٢ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ ﴾ دليـل على إخلاص إيمانهم وصدق مقالهم؛ فأجاب الله سؤالهم وحقق طمعهم — وهكذا من خلص إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة. ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من اليهود والنصارى ومن المشركين ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ والجحيم النار الشديدة الاتقاد . يقال جحم فلان النار إذا شدد إيقادها ، ويقال أيضا لعين الأسد جحمة؛ لشدة اتقادها . ويقال ذلك للحرب قال الشاعر :

والحـربُ لا يَبقى لجـا * حِمِهـا التَّخيل والمِـراح
إلّا الفـــتى الصَّبّـار فى * النَّجدات والفَرس الوَقاح (١)

قوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ . فيه خمس مسائل :

الأولى — أسند الطبري إلى ابن عباس أن الآية نزلت بسبب رجل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله إنى إذا أصبت من اللحم انتشرت وأخذتنى شهوتى فحرمت اللحم؛ فأنزل الله هـذه الآية . وقيل : إنها نزلت بسبب جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم منهم أبو بكر وعلىّ وابن مسعود وعبد الله بن عمر وأبو ذرّ الغفارىّ وسالم مولى أبى حُذَيفة والمِقْداد بن الأسود وسَلْمان الفارسىّ ومَعْقِل بن مُقَرِّن رضى الله عنهم، اجتمعوا فى دار عثمان ابن مَظْعُون ، واتفقوا على أن يصوموا النهـار ويقوموا الليل ولا ينـاموا على الفرش ، ولا يأكلوا اللحم ولا الوَدَك (٢) ولا يقـربوا النسـاء والطيب، ويلبسوا المُسـوح ويرفضوا الدنيـا ويسيحوا فى الأرض، ويترهبوا ويجبُّوا المـذاكير؛ فأنزل الله تعالى هـذه الآية . والأخبار بهذا المعنى كثيرة وإن لم يكن فيها ذكر النزول وهى :

---

(١) وَقُحَ الحافر صَلُب .
(٢) الودك : الدسم .

الثانيــة — خرّج مسلم عن أنس أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السِّر؛ فقال بعضهم : لا أتزوج النساء؛ وقال بعضهم : لا آكل اللحم؛ وقال بعضهم : لا أنام على الفِراش ؛ فحمد الله وأثنى عليـه فقال : "ما بَالُ أقوام قالوا كذا وكذا لكنّي أُصلّي وأنام وأصوم وأفطِر وأتزوج النّساء فمن رَغِب عن سُنّتي فليس منى" وخرّجه البخاري عن أنس أيضا ولفظه قال : جاء ثلاثة رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ؛ فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوها — فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله من ذنبه ما تقدم وما تأخر . قال أحدهم : أمّا أنا فإني أصلّي الليـل أبدا . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أُفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنّي أصوم وأُفطر وأُصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سُنّتي فليس مني". وخَرّجا عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان بن مظعون أن يَتَبتّل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ولو أجاز له ذلك لاختصينا . وخرّج الإمام أحمد بن حَنْبل رضى الله عنه في مسنده قال حدّثنا أبو المغيرة قال حدّثنا مُعَان بن رِفاعة ، قال حدّثني عليّ بن يزيد عن القاسم عن أبي أُمامة الباهليّ رضى الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَرِيّة من سراياه ؛ قال : فمر رجل بغار فيه شيء من المـاء فحدّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء ، ويصيب ما حوله من البَقْل ، ويتخلى من الدنيا ؛ قال : لو أني أتيت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل ؛ فأتاه فقال : يا نبي الله إني مررت بغارٍ فيه ما يقوتني من المـاء والبَقْل ، فحدّثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا ؛ قال : فقال له النبي صلى الله عليـه وسلم "إني لم أُبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السَّمْحَة والذى نفس محمد بيـده لَغَـدْوة[1] أو رَوْحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاة ستين سنة" .

---

(١) الغدوة المرة من الغدو، وهو سير أول النهار، نقيض الرواح .

الثالثـــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم فى هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة فى معناها رَدٌّ على غُلاة المتزهدين، وعلى أهــل البَطَالة من المتصوّفين؛ إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه، وحاد عن تحقيقه؛ قال الطَّبرىّ : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح إذا خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنت والمشقة؛ ولذلك ردّ النبي صلى الله عليه وسلم التبتل على ابن مَظْعون فثبت أنه لافضل فى ترك شىء مما أحله الله لعباده، وأن الفضل والبرّ إنما هو فى فعل ماندب عباده إليه، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسَنّه لأمته، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون، إذ كان خير الهَدْيِ هَدْىُ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشّعر والصّوف على لباس القطن والكتّان إذا قَدَر على لباس ذلك من حلّه، وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حَذَرا من عارض الحاجة إلى النّساء . قال الطَّبَرىّ : فإن ظنّ ظانّ أن الخير فى غير الذى قلنا لمــا فى لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ؛ وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربهــا، ولا شىء أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التى جعلها الله سببا إلى طاعته . وقد جاء رجل إلى الحسن البصرى؛ فقال : إن لى جارا لا يأكل الفالوذج فقال : ولِمَ ؟ قال : يقول لا يؤدّى شكره؛ فقــال الحسن : أفيشرب المــاء البارد؟ فقال : نعم . فقــال : إن جارك جاهل، فإن نعمة الله عليه فى المــاء البارد أكثر من نعمته عليــه فى الفالوذج . قال ابن العربى قال علماؤنا : هذا إذا كان الدّين قَوَاما، ولم يكن المــال حراما؛ فأما إذا فسد الدّين عند الناس وعَمّ الحرام فالتبتل أفضل، وترك اللذات أولى، وإذا وجد الحلال فحال النبي صلى الله عليه وسلم أفضل وأعلى . قال المهلب : إنمــا نهى عليه السلام عن التبتل والترهب من أجل أنه مُكَاثر بأمتــه الأمم يوم القيامة، وأنه فى الدنيا مقاتل بهم طوائف الكفّار، وفى آخر الزمان يقاتلون الدّجال؛ فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكثر النّسل .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ قيل : المعنى لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله فالنهيان على هذا تضمنا الطَّرَفين ؛ أى لا تشدّدوا فتحرموا حلالا ، ولا ترخصوا فتحلوا حراما ؛ قاله الحسن البصرىّ . وقيل : معناه التأكيد لقوله : «تحرموا» ؛ قاله السُّدىّ وعِكرمة وغيرهما ؛ أى لا تحرموا ما أحل الله وشرع . والأول أولى . والله أعلم .

الخامسة — من حرم على نفسه طعاما أو شرابا أو أَمَة له ، أو شيئا مما أحل الله فلا شىء عليه ، ولا كَفّارة فى شىء من ذلك عند مالك ؛ إلا أنه إن نوى بتحريم الأمة عتقها صارت حرة وحرم عليه وطؤها إلا بنكاح جديد . وكذلك إذا قال لامرأته أنت علىّ حرام فإنه تطلق عليه ثلاثا ؛ وذلك أن الله تعالى قد أباح له أن يحرم امرأته عليه بالطلاق صريحا وكناية ، وحرام من كنايات الطلاق . وسيأتى ما للعلماء فيه فى سورة « التحريم »(١) إن شاء الله تعالى . وقال أبو حنيفة : إنّ من حرّم شيئا صار محرّما عليه ، وإذا تناوله لزمته الكفارة ؛ وهذا بعيد والآية ترد عليه . وقال سعيد بن جبير : لغو اليمين تحريم الحلال . وهو معنى قول الشافعى على ما يأتى .

قوله تعالى : وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فيه مسئلة واحدة : الأكل فى هذه الآية عبارة عن التمتع بالأكل والشرب واللباس والركوب ونحو ذلك . وخصّ الأكل بالذكر ؛ لأنه أعظم المقصود وأخص الانتفاعات بالإنسان . وسيأتى بيان حكم الأكل والشرب واللباس فى « الأعراف »(٢) . وأما شهوة الأشياء الملذة ، ومنازعة النفس إلى طلب الأنواع الشهية ، فمذاهب الناس فى تمكين النفس منها مختلفة ؛ فمنهم من يرى صرف النفس عنها وقهرها عن اتباع شهواتها أَحْرى ليذل له قيادها ، ويهون عليه عنادها ؛ فإنه إذا أعطاها المراد

(١) راجع تفسير الآية الأولى من السورة .　(٢) راجع تفسير آية ٣١ من السورة .

يصير أسير شهواتها، ومنقادا بانقيادها. حكى أن أبا حازم كان يمر على الفاكهة فيشتهيها فيقول: موعدك الجنة. وقال آخرون: تمكين النفس من لذاتها أولى لما فيه من ارتياحها ونشاطها بإدراك إرادتها. وقال آخرون: بل التوسط في ذلك أولى؛ لأن في إعطائها ذلك مرة ومنعها أخرى جمع بين الأمرين؛ وذلك النَّصف من غير شَيْن. وتقدم معنى الاعتداء والرزق في «البقرة»(1) والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

فيه سبع وأربعون مسئلة:

الأولى — قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ تقدّم معنى اللغو في «البقرة»(2) ومعنى «فِي أَيْمَانِكُمْ» أي من أيمانكم، والأيمان جمع يمين. وقيل: ويمين فَعِيل من اليُمن وهو البركة؛ سماها الله تعالى بذلك؛ لأنها تحفظ الحقوق. ويمين تذكر وتؤنث وتجمع أَيمانٌ وأَيْمُنٌ. قال زهير:

* فتُجمَعُ أيمُنٌ منّا ومنكم *(3)

الثانيــــة — واختلف في سبب نزول هذه الآية؛ فقال ابن عباس: سبب نزولها القوم الذين حرموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم، حلفوا على ذلك فلما نزلت «لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ» قالوا: كيف نصنع بأيماننا؟ فنزلت هــذه الآية.

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٧٧ في «الرزق» وص ٤٣٢ «في الاعتداء» من الجزء نفسه طبعة ثانية أو ثالثة.

(2) راجع جـ ٣ ص ٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (3) عجز البيت: بمُقسَمةٍ تَمُورُ بها الدِّماءُ.

والمعنى على هذا القول، إذا أتيتم باليمين ثم ألغيتموها — أى أسقطتم حكمها بالتكفير وكفّرتم — فلا يؤاخذكم الله بذلك ؛ وإنما يؤاخذكم بما أقمتم عليه فلم تُلْغوه ؛ أى فلم تُكفِّروا ؛ فبان بهذا أن الحالف لا يحرّم شيئا . وهو دليل الشافعى على أن اليمين لا يتعلق بها تحريم الحلال، وأن تحريم الحلال لَغْو ، كما أن تحليل الحرام لَغْو مثل قول القائل : استحللت شرب الخمر ، فتقتضى الآية على هذا القول أن الله تعالى جعل تحريم الحلال لَغْوا فى أنه لا يُحرِّم ؛ فقال : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » أى بتحريم الحلال . ورُوى أن عبد الله بن رَوَاحة كان له أيتام وضيف ، فانقلب من شغله بعد ساعة من الليل فقال : أعشيتم ضيفى ؟ فقالوا : انتظرناك ؛ فقال : لا والله لا آكله الليلة ؛ فقال ضيفه : وما أنا بالذى يأكل ؛ وقال أيتامه : ونحن لا نأكل ؛ فلما رأى ذلك أَكَل وأَكلوا . ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال له : " أطعتَ الرحمن وعصيتَ الشيطان " فنزلت الآية .

الثالثة — الأيمان فى الشريعة على أربعة أقسام : قسمان فيهما الكفّارة ، وقسمان لا كفّارة فيهما . خرّج الدّارَقُطْنِىّ فى سننه ، حدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز حدّثنا خلف بن هشام حدّثنا عَبْثَر عن ليث عن حماد عن إبراهيم عن عَلْقمة عن عبد الله . قال : الأيمان أربعة ، يمينان يُكفَّران ويمينان لا يُكفَّران ؛ فاليمينان اللذان يُكفَّران فالرجل الذى يحلف والله لا أفعل كذا وكذا فيفعل ، والرجل يقول والله لأفعلنّ كذا وكذا فلا يفعل ، واليمينان اللذان لا يُكفَّران فالرجل يحلف والله ما فعلت كذا وكذا وقد فعل ، والرجل يحلف لقد فعلت كذا وكذا ولم يفعله .
قال ابن عبد البر : وذكر سفيان الثورىّ فى «جامعه» ، وذكره المَرْوَزِىّ عنه أيضا ، قال سفيان : الأيمان أربعة ؛ يمينان يُكفَّران وهو أن يقول الرجل والله لا أفعل فيفعل ، أو يقول والله لأفعلنّ ثم لا يفعل ، ويمينان لا يُكفَّران وهو أن يقول الرجل والله ما فعلت وقد فعل ، أو يقول والله لقد فعلت وما فعل ؛ قال المَرْوَزِىّ : أما اليمينان الأوليان فلا اختلاف فيهما بين العلماء على ما قال سفيان ؛ وأما اليمينان الأخريان فقد اختلف أهل العلم فيهما ؛ فإن كان الحالف حلف على أنه لم يفعل كذا وكذا ، أو أنه قد فعل كذا وكذا عند نفسه صادقا يَرَى أنه على ما حلف عليه

فلا إثم عليه ولا كفّارة عليه فى قول مالك وسفيان الثورىّ وأصحاب الرأى، وكذلك قال أحمد وأبو عبيد؛ وقال الشافعى لا إثم عليــه وعليه كفّارة. قال المَرْوَزىّ : وليس قول الشافعى فى هذا بالقوىّ. قال : وإن كان الحالف على أنه لم يفعل كذا وكذا وقد فعل متعمدا للكذب فهو آثم ولا كفّارة عليــه فى قول عامة العلماء؛ مالك وسـفيان الثورىّ وأصحاب الرأى وأحمد ابن حنبل وأبى ثور وأبى عبيد. وكان الشافعى يقول يُكفِّر؛ قال : وقد رُوى عن بعض التابعين مثــل الشافعى. قال المَرْوَزىّ : أميل إلى قول مالك وأحمد. قال : فأما يمين اللغو الذى اتفق عامة العلماء على أنها لَغْو فهو قول الرجل : لا والله، وبلى والله، فى حديثه وكلامه غير مُعقد اليمين ولا مُريدها. قال الشافعى : وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة.

الرابعــــة — قوله تعـالى : ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ مخفف القاف من العقد، والعقد على ضربين حِسّىّ كعَقْد الحبل، وحُكْمِىّ كعَقْد البيع؛ قال الشاعر(١) :

قوم إذا عَقَدوا عَقْدًا لجـارهم * شَدُّوا العِنَاجَ وشَدُّوا فوقه الكَرَبَا

فاليمين المنعقدة منفعلة من العقد، وهى عقد القلب فى المستقبل ألّا يفعلَ ففعل؛ أو ليفعلنّ فلا يفعل كما تقدّم. فهذه التى يُحلّها الاستثناء والكفّارة على ما يأتى. وقُرِئَ «عَاقَدْتُمْ» بألف بعد العين على وزن فاعل وذلك لا يكون إلا من اثنين فى الأكثر، وقد يكون الثانى من حُلِف لأجله فى كلام وَقَع معه، ويكون المعنى بما عاقدتم عليه الأيمــان؛ لأن عاقد قريب من معنى عاهد فعدى بحرف الجر، لمـا كان فى معنى عاهد، وعاهد يتعدى إلى مفعولين الثـانى منهما بحرف جر؛ قال الله تعالى : «وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ» وهذا كما عديت «نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» بإلى، وبابها أن تقول ناديت زيدا و «نَادَيْنَـاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» لكن لمـا كانت بمعنى دعوت عدىّ بإلى؛ قال الله تعالى «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ» ثم اتسع فى قوله تعالى : «عَاقَدْتُمْ عَلَيْهِ الْأَيْمَانَ» فحذف حرف الجر؛ فوصل الفعل إلى المفعول فصار عاقدتموه،

---

(١) البيت للحطيئة يمدح قوما عقدوا لجارهم عهــدا فوفوا به ولم يخفروه. وقــد تقــدّم شرحه بهامش ص ٣٢ من هذا الجزء.

ثم حذفت الهاء كما حذفت من قوله تعالى: « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » . أو يكون فاعَل بمعنى فَعَل كما قال تعالى: « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ » أى قتلهم . وقد تأتى المفاعلة فى كلام العرب من واحد بغير معنى «فاعلت» كقولهم : سافرت وظاهرت . وقرئ « عَقَّدْتُمْ » بتشديد القاف . قال مجاهد: معناه تعمّدتم أى قصدتم . ورُوى عن ابن عمر أن التشديد يقتضى التكرار فلا تجب عليه الكفّارة إلا إذا كرر . وهذا يَرُدُّه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إنّى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأَرَى غيرها خيرا منها إلا أتيتُ الذى هو خير وكَفَّرتُ عن يمينى" فذكر وجوب الكفّارة فى اليمين التى لم تتكرر . قال أبو عبيد : التشديد يقتضى التكرير مرة بعد مرة، ولست آمن أن يلزم من قرأ بتلك القراءة ألا توجب عليه كفّارة فى اليمين الواحدة حتى يرددها مرارا . وهذا قول خلاف الإجماع . روى نافع أن ابن عمر كان إذا حَنِث من غير أن يؤكد اليمين أطعم عشرة مساكين ، فاذا وكد اليمين أعتق رقبة . قيل : لنافع ما معنى وكد اليمين؟ قال : أن يحلف على الشيء مرارا .

الخامسة — اختلف فى اليمين الغَمُوس هل هى يمين منعقدة أم لا ؟ فالذى عليه الجمهور أنها يمين مَكْرٍ وخَدِيعةٍ وكَذِبٍ فلا تنعقد ولا كفّارة فيها . وقال الشافعى : هى يمين منعقدة؛ لأنها مكتَسَبة بالقلب، معقودة بخبر، مقرونة باسم الله تعالى ، وفيها الكفّارة . والصحيح الأوّل . قال ابن المنذر : وهذا قول مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة ، وبه قال الأوزاعىّ ومن وافقه من أهل الشام، وهو قول الثورىّ وأهل العراق، وبه قال أحمد وإسحق وأبو ثور وأبو عبيد ، وأصحاب الحديث وأصحاب الرأى من أهل الكوفة؛ قال أبو بكر : وقول النبي صلى الله عليه وسلم : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتِ الذى هو خير وليكفِّر عن يمينه" وقوله : "فليكفّر عن يمينه ويأتى الذى هو خير" يدل على أن الكفّارة إنما تجب فيمن حلف على فعل يفعله مما يستقبل فلا يفعله ، أو على فعل ألا يفعله فيما يستقبل فيفعله . وفى المسئلة قول ثان وهو أن يكفّر وإن أَثِم وعَمَد الحلف بالله كاذبا؛ هذا قول الشافعى . قال أبو بكر : ولا نعلم خبرا يدل على هذا القول،

والكتاب والسنة دالان على القول الأول؛ قال الله تعالى: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ» قال ابن عباس: هو الرجل يحلف ألّا يصل قرابته فجعل الله له مخرجا في التكفير، وأمره ألا يعتلّ بالله وليكفّر عن يمينه. والأخبار دالة على أن اليمين التي يحلف بها الرجل يقتطع بها مالا حراما هي أعظم من أن يكفّرها ما يكفّر اليمين. قال ابن العربي: الآية وردت بقسمين: لغو ومنعقدة، وخرجت على الغالب في أيمان الناس، فدع ما بعدها يكون مائة قسم فإنه لم تعلق عليه كفّارة.

قلت: خرّج البخاريّ عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابيّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: "الإشراك بالله" قال: ثم ماذا؟ قال: "عقوق الوالدين" قال: ثم ماذا؟ قال: "اليمين الغَمُوس" قلت وما اليمين الغَمُوس؟ قال: "التي يقتطع بها مال ٱمرئ مسلم هو فيها كاذب". وخرّج مسلم عن أبي أُمامة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ٱقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة" فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: "وإنْ قضيباً من أراكٍ" ومن حديث عبد الله بن مسعود؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من حلف على يمينِ صبرٍ (١) يَقتطعُ بها مالَ ٱمرئ مسلم هو فيها فاجر لقِيَ الله وهو عليه غضبان" فنزلت «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً» إلى آخر الآية ولم يذكر كفّارة، فلو أوجبنا عليه كفّارة لسقط جرمه، ولقي الله وهو عنه راض، ولم يستحق الوعيد المتوعد عليه؛ وكيف لا يكون ذلك وقد جمع هذا الحالف الكذب، واستحلال مال الغير، والاستخفاف باليمين بالله تعالى، والتهاون بها وتعظيم الدنيا؟ فأهان ما عَظّمه الله، وعَظّم ما حقّره الله وحسبك. ولهذا قيل: إنما سميت اليمين الغَمُوس غَمُوسا لأنها تغمس صاحبها في النار.

السادسة — الحالف بألّا يفعل على بِرٍّ ما لم يفعل، فإن فعل حَنِث ولزمته الكفّارة لوجود المخالفة منه؛ وكذلك إذا قال إن فعلت. وإذا حلف بأن ليفعلنّ فإنه في الحال على حِنْثٍ لوجود المخالفة، فإن فعل برّ، وكذلك إن قال إن لم أفعل.

(١) اليمين الصبر التي ألزم بها وأكره عليها. والصبر الإكراه؛ يقال: صبر الحاكم فلانا على يمين صبرا أي أكرهه.

السابعة — قول الحالف : لأفعلنّ، وإن لم أفعل، بمنزلة الأمر . وقوله : لا أفعل، وإن فعلت، بمنزلة النهى . ففى الأوّل لا يبرّ حتى يفعل جميع المحلوف عليه : مثاله لآكلنّ هذا الرغيف فأكل بعضه لا يبرّ حتى يأكل جميعه؛ لأن كل جزء منه محلوف عليه . فإن قال : والله لآكلنّ — مطلقا — فإنه يبرّ بأقل جزء مما يقع عليه الاسم؛ لإدخال ماهية الأكل فى الوجود . وأما فى النهى فإنه يحنث بأقل ما ينطلق عليه الاسم ؛ لأن مقتضاه ألّا يدخل فرد من أفراد المنهىّ عنه فى الوجود؛ فإن حلف ألّا يدخل دارا فأدخل إحدى رجليه حنث؛ والدليل عليه أنا وجدنا الشارع غلّظ جهة التحريم بأوّل الاسم فى قوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ » ؛ فمن عقد على امرأة ولم يدخل بها حرمت على أبيه وابنه ، ولم يكتف فى جهة التحليل بأوّل الاسم فقال : "لا حتّى تذوقى عُسَيْلَته" .

الثامنة — المحلوف به هو الله سبحانه وأسماؤه الحسنى، كالرحمن والرحيم والسميع والعليم والحليم، ونحو ذلك من أسمائه وصفاته العليا، كعزته وقدرته وعلمه وإرادته وكبريائه وعظمته وعهده وميثاقه وسائر صفات ذاته ؛ لأنها يمين بقديم غير مخلوق ، فكان الحالف بها كالحالف بالذات . روى الترمذىّ والنّسائى وغيرهما أن جبريل عليه السلام لما نظر إلى الجنة ورجع إلى الله تعالى قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، وكذلك قال فى النار : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها . وخرجا أيضا وغيرهما عن ابن عمر قال : كانت يمين النبى صلى الله عليه وسلم لا ومقلّب القلوب، وفى رواية لا ومصرّف القلوب . وأجمع أهل العلم على أن من حلف فقال : واللهِ أو باللهِ أو تاللهِ فحنث أنّ عليه الكفّارة . قال ابن المنذر : وكان مالك والشافعى وأبو عبيد وأبو ثور وإسحق وأصحاب الرأى يقولون من حلف باسم من أسماء الله وحنث فعليه الكفّارة؛ وبه نقول ولا أعلم فى ذلك خلافا .

قلت : قد نَقَل فى « باب ذكر الحالف بالقرآن » ؛ وقال يعقوب : من حلف بالرحمن فحنث فلا كفارة عليه .

قلت : والرحمن من أسمائه سبحانه مجمع عليه ولا خلاف فيه .

التاســـعة — واختلفوا في وحق الله وعظمةِ الله وقدرةِ الله وعلم الله ولَعَمْرُ الله وآيم الله؛ فقال مالك: كلها أيمان تجب فيها الكفّارة. وقال الشافعي في حق الله وجلال الله وعظمةِ الله وقدرة الله: يمين إن نوى بها اليمين، وإن لم يُرِد اليمين فليست بيمين؛ لأنه يحتمل وحق الله واجب وقدرته ماضية. وقال في أمانة الله: ليست بيمين، ولَعَمْر اللهِ وآيمُ اللهِ إن لم يرد بها اليمين فليست بيمين. وقال أصحاب الرأي إذا قال: وعظمةِ الله وعزة اللهِ وجلال اللهِ وكبرياء الله وأمانة الله فحنِث فعليه الكفّارة. وقال الحسن في وحق الله: ليست بيمين ولا كفّارة فيها؛ وهو قول أبي حنيفة حكاه عنه الرازيّ. وكذلك عهد الله وميثاقه وأمانته ليست بيمين. وقال بعض أصحابه: هي يمين. وقال الطحاويّ: ليست بيمين، وكذا إذا قال: وعِلم الله لم يكن يمينا في قول أبي حنيفة، وخالفه صاحبه أبو يوسف فقال: يكون يمينا. قال ابن العربي: والذي أوقعه في ذلك أن العِلم قد ينطلق على المعلوم وهو المحدَث فلا يكون يمينا. وذهل عن أن القدرة تنطلق على المقدور، فكل كلام له في المقدور فهو حجتنا في المعلوم. قال ابن المنذر: وثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وآيم اللهِ أَنْ كان لخليقا للإمارة" في قصة زيد وابنه أسامة. وكان ابن عباس يقول: وآيم اللهِ؛ وكذلك قال ابن عمر. وقال ابن إسحق: إذا أراد بآيم الله يمينا كانت يمينا بالإرادة وعَقْد القلب.

العاشــرة — واختلفوا في الحلِف بالقرآن؛ فقال ابن مسعود: عليه بكل آية يمين؛ وبه قال الحسن البصريّ وابن المبارك. وقال أحمد: ما أعلم شيئا يدفعه. وقال أبو عبيد: يكون يمينا واحدة. وقال أبو حنيفة: لا كفّارة عليه. وكان قَتَادة: يحلف بالمصحف. وقال أحمد وإسحق لا نكره ذلك.

الحادية عشرة — لاتنعقد اليمين بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته. وقال أحمد بن حنبل: إذا حلف بالنبي صلى الله عليه وسلم انعقدت يمينه؛ لأنه حلف بما لا يتم الإيمان إلّا به فتلزمه الكفّارة كما لو حلف بالله. وهذا يرده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أدرك عمر بن الخطاب في رَكْب وعُمر يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم "ألَا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت" وهذا حَصْر فى عدم الحلف بكل شيء سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته كما ذكرنا . ومما يحقق ذلك ما رواه أبو داود والنَّسائى وغيرهما عن أبى هُرَيرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تحلفوا بأمهاتكم ولا بآبائكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون" ثم ينتقض عليه بمن قال: وآدم و إبراهيم فإنه لا كفّارة عليه، وقد حلف بما لا يتم الإيمان إلا به.

الثانية عشرة — روى الأئمة واللفظ لمسلم عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حلف منكم فقال فى حَلِفه باللّات فليقل لا إله إلا الله ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدّق " . وخرّج النَّسائىّ عن مُصْعَب بن سعد عن أبيه قال : كنا نذكر بعض الأمر وأنا حديث عهد بالجاهلية فحلفت باللات والعُزّى، فقال لى بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس ما قلت؛ وفى رواية قلت هُجْرا؛ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وانفث عن يسارك ثلاثا وتعوذ بالله من الشيطان ثم لا تعد" . قال العلماء : فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من نطق بذلك أن يقول بعده لا إله إلا الله تكفيرا لتلك اللفظة ، وتذكيرا من الغَفْلة ، و إتماما للنعمة . وخص اللات بالذكر لأنها أكثر ما كانت تجرى على ألسنتهم، وحكم غيرها من أسماء آلهتهم حكمها إذ لا فرق بينها ، وكذا من قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق فالقول فيه كالقول فى اللات ؛ لأنهم كانوا اعتادوا المقامرة وهى من أكل المال بالباطل .

الثالثة عشرة — قال أبو حنيفة فى الرجل يقول هو يهودى أو نصرانى أو برىء من الإسلام أو من النبي أو من القرآن أو أشرك بالله أو أكفر بالله : إنها يمين تلزم فيها الكفّارة ، ولا تلزم فيما إذا قال واليهودية والنصرانية والنبي والكعبة و إن كانت على صيغة الأيمان . ومتمسكه ما رواه الدَّارَقُطْنىّ عن رافع أن مولاته أرادت أن تُفرّق بينه و بين امرأته فقالت : هى يوما يهودية، و يوما نصرانية، وكل مملوك لها حُرّ، وكل مال لها فى سبيل الله ، وعليها المشى إلى بيت الله

إن لم تُفرق بينهما ، فسألت عائشة وحفصة وابن عمر وابن عباس وأم سلمة فكلهم قال لها : أتريدين أن تكوني مثـل هاروت وماروت ؟ وأمروها أن تُكفّر عن يمينهـا وتخلى بينهما . وخرج أيضـا عنه قال : قالت مولاتي لأ فرقنّ بينك و بين آمرأتك ، وكلّ مال لها في رِتاج الكعْبة وهي يوما يهودية و يوما نصرانية و يوما مجوسية إن لم أُفرق بينك و بين آمرأتك ؛ قال : فانطلقت إلى أم المؤمنين أم ســلمة فقلت : إن مولاتي تريد أن تفرق بيني و بين آمرأتي ؛ فقالت انطلق إلى مولاتك فقل لها : إن هذا لا يحل لكِ ؛ قال : فرجعت إليها ؛ ثم أتيت ابن عمر فأخبرته فجـاء حتى انتهى إلى الباب فقال : هاهنا هاروت وماروت ؛ فقالت : إني جعلت كل مال لي في رِتاج الكعبة . قال : فمِمّ تأكلين ؟ قالت : وقلت أنا يوما يهودية و يوما نصرانية ويوما مجوسية ؛ فقال : إن تهودتِ قُتلتِ وإن تنصرتِ قُتلتِ وإن تمجستِ قُتلتِ ؛ قالت : فما تأمرني ؟ قال : تُكفّرى عن يمينك ، وتجمعين بين فتاك وفتاتك . وأجمع العلماء على أن الحالف إذا قال : أقسم بالله أنها يمين . واختلفوا إذا قال أقسم أو أشهد ليكوننّ كذا وكذا ولم يقل بالله فإنها تكون أيمانا عند مالك إذا أراد بالله ، وإن لم يرد بالله لم تكن أيمانا تُكفَّر . وقال أبو حنيفة والأوزاعيّ والحسن والنَّخَعيّ : هي أيمان في الموضعين . وقال الشافعيّ : لا تكون أيمانا حتى يذكر اسم الله تعالى ؛ هذه رواية المُزَنيّ عنه . وروى عنه الرّبيع مثل قول مالك .

الرابعــة عشرة — إذا قال : أقسمت عليك لتفعلنّ ؛ فإن أراد سؤاله فلا كفّارة فيه وليست بيمين ؛ وإن أراد اليمين كان ما ذكرناه آنفا .

الخامسة عشرة — من حلف بما يضاف إلى الله تعالى ممـا ليس بصفة كقوله : وخلقِ الله ورزقه وبيته لا شيء عليه ؛ لأنها أيمان غير جائزة ، وحَلف بغير الله تعالى .

السادسة عشرة — إذا انعقدت اليمين حَلّتها الكفارة أو الاستثناء . وقال ابن الماجِشُون : الاستثناء بدل عن الكفارة وليست حَلًّا لليمين . قال ابن القاسم : هي حَلٌّ لليمين ؛ وقال ابن العربي : وهو مذهب فقهاء الأمصار وهو الصحيح ؛ وشرطـه أن يكون متصلا منطوقا

به لفظا ؛ لما رواه النّسائيّ وأبو داود عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من حلف واستثنى فإن شاء مَضَى وإن شاء ترك عن غير حِنْث " فإن نواه من غير نطق أو قطعه من غير عذر لم ينفعه . وقال محمد بن المواز : يكون الاستثناء مقترنا باليمين اعتقادا ولو بآخر حرف ؛ قال : فإن فرغ منها واستثنى لم ينفعه ذلك ؛ لأن اليمين فرغت عارية من الاستثناء ، فورودها بعده لا يؤثر كالتراخي ؛ وهذا يرده الحديث " من حلف فاستثنى " والفاء ، للتعقيب وعليه جمهور أهل العلم . وأيضا فإن ذلك يؤدى إلى ألّا تحلّ يمين ابتدئ عقدُها وذلك باطل . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : واختلف أصحابنا متى استثنى فى نفسه تخصيص ما حلف عليه ؛ فقال بعض أصحابنا : يصح استثناؤه وقد ظلم المحلوف له . وقال بعضهم : لا يصح حتى يسمع المحلوف له . وقال بعضهم : يصح إذا حرك به لسانه وشفتيه وإن لم يسمع المحلوف له . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : وإنما قلنا يصح استثناؤه فى نفسه ، فلأن الأيمان تعتبر بالنيات ؛ وإنما قلنا لا يصح ذلك حتى يحرك به لسانه وشفتيه ، فإن من لم يحرك به لسانه وشفتيه لم يكن متكلما ، والاستثناء من الكلام يقع بالكلام دون غيره ؛ وإنما قلنا لا يصح بحال فلأن ذلك حق للمحلوف له ، وإنما يقع على حسب ما يستوفيه له الحاكم ، فلما لم تكن اليمين على اختيار الحالف بل كانت مستوفاة منه ، وجب ألّا يكون له فيها حكم . وقال ٱبن عباس : يُدرِك الاستثناءُ اليمين بعد سنة ؛ وتابعه على ذلك أبو العالية والحسن وتعلق بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » الآية ؛ فلما كان بعد عام نزل « إِلَّا مَنْ تَابَ » . وقال مجاهد : من قال بعد سنتين إن شاء الله أجزأه . وقال سعيد بن جُبير : إن ٱستثنى بعد أربعة أشهر أجزأه . وقال طاوس : له أن يستثنى ما دام فى مجلسه . وقال قَتَادة : إن ٱستثنى قبل أن يقوم أو يتكلم فله ثُنْياه . وقال أحمد بن حنبل وإسحق : يستثنى ما دام فى ذلك الأمر . وقال عطاء : له ذلك قدر حَلْب الناقة الغزيرة .

السابعة عشرة — قال ٱبن العربي : أمّا ما تعلق به ٱبن عباس من الاية فلا متعلق له فيها ؛ لأن الآيتين كانتا متصلتين فى عِلم الله تعالى وفى لوحه ، وإنما تأخر نزولها لحكمة علم الله ذلك

فيها، أمّا أنه يتركب عليها فرع حسن ؛ وهو أن الحالف إذا قال والله لا دخلت الدار ، وأنت طالق إن دخلت الدار ، وآستثنى فى يمينه الأوّل إن شاء الله فى قلبه ، وآستثنى فى اليمين الثانية فى قلبه أيضا ما يصلح للاستثناء الذى يرفع اليمين لمدّة أو سبب أو مشيئة أحد، ولم يظهر شيئا من الاستثناء إرهابا على المحلوف [له] (١) ، فإن ذلك ينفعه ولا ينعقد اليمينان عليه ؛ وهذا فى الطلاق مالم تحضره البينة ؛ فإن حضرته بينة لم تقبل منه دعواه الاستثناء ، و إنما يكون ذلك نافعا له إذا جاء مستفتيا .

قلت : وجه الآستثناء أن الله تعالى أظهر الآية الأولى وأخفى الثانية ، فكذلك الحالف إذا حلف إرهابا وأخفى الآستثناء. والله أعلم . قال ابن العربى : وكان أبو الفضل المراغى (٢) يقرأ بمدينة السلام (٣) ، وكانت الكتب تأتى إليه من بلده، فيضعها فى صندوق ولا يقرأ منها واحدا مخافة أن يطلع فيها على ما يزعجه و يقطع به عن طلبه ؛ فلما كان بعد خمسة أعوام وقضى غرضا من الطلب وعزم على الرحيل، شدّ رحله وأبرز كتبه وأخرج تلك الرسائل، فقرأ فيها ما لو أنّ واحدا منها يقرؤه بعد وصوله ماتمكن بعده من تحصيل حرف من العلم، فحمد الله ورحّل على دابة قُماشه (٤) وخرج إلى باب الحَلْبَة طريق خُرَاسان، وتقدّمه الكَرِيُّ (٥) بالدّابة وأقام هو على فَامِيّ (٦) يبتاع منه سُفرته (٧) ، فبينما هو يحاول ذلك معه إذ سمعه يقول لفَامِيّ آخر : أما سمعت العالم يقول — يعنى الواعظ — أن آبن عباس يجوّز الاستثناء ولو بعد سنة ، لقد آشتغل بذلك بالى منذ سمعته فظَلِلْت فيه متفكرا ، ولو كان ذلك صحيحا لما قال الله تعالى لأيوب : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ » وما الذى يمنعه من أن يقول : قل إن شاء الله ! فلما سمعه يقول ذلك قال : بلد يكون فيه الفاميُّون بهذا الحظ من العلم وهذه المرتبة أخرج عنه إلى المراغة ؟ لا أفعله أبدا، واقتفى أثر الكَرِيّ وحلّله من الكِراء وأقام بها حتى مات .

---

(١) الزيادة عن ابن العربى . (٢) نسبة الى المراغة ؛ وهى بلدة مشهورة من بلاد أذربيجان .

(٣) مدينة السلام بغداد ؛ وقيل : سميت بذلك لأن دجلة يقال لها وادى السلام ؛ وقيل : سماها المنصور بذلك تفاؤلا بالسلامة . وتسمى أيضا دار السلام على التشبيه بالجنة . (معجم البلدان) . (٤) القماش : متاع البيت .

(٥) الكرى : المستأجر . (٦) الفامىّ ها هنا الخباز . (٧) السفرة : طعام يتخذه المسافر .

الثامنة عشرة — الاستثناء إنما يرفع اليمين بالله تعالى إذ هى رُخْصة من الله تعالى، ولا خلاف فى هذا . واختلفوا فى الاستثناء فى اليمين بغير الله؛ فقال الشافعى وأبو حنيفة : الاستثناء يقع فى كل يمين كالطلاق والعتاق وغير ذلك كاليمين بالله تعالى — قال أبو عمر : ما أجمعوا عليه فهو الحق، وإنما ورد التوقيف بالاستثناء فى اليمين بالله عز وجل لا فى غير ذلك .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ ﴾ اختلف العلماء فى تقديم الكفّارة على الحِنْث هل تجزئ أم لا ؟ — بعد إجماعهم على أن الحِنْث قبل الكفّارة مباح حسن وهو عندهم أولى — على ثلاثة أقوال : أحدها — يجزئ مطلقا وهو مذهب أربعة عشر من الصحابة وجمهور الفقهاء وهو مشهور مذهب مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجزئ بوجه، وهى رواية أشهب عن مالك؛ وجه الجواز ما رواه أبو موسى الأشعرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأَرَى غيرها خيرا منها إلّا كفّرتُ عن يمينى وأتيتُ الذى هو خير" خرجه أبو داود؛ ومن جهة المعنى أن اليمين سبب الكفارة، لقوله تعالى : «ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» فأضاف الكفّارة إلى اليمين والمعانى تضاف إلى أسبابها؛ وأيضا فإن الكفّارة بدل عن البِرّ فيجوز تقديمها على الحِنث . ووجه المنع ما رواه مسلم عن عدىّ بن حاتم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير" زاد النسائى "وليكفر عن يمينه" ومن جهة المعنى أن الكفّارة إنما هى لرفع الإثم، وما لم يَحْنَث لم يكن هناك ما يُرفع فلا معنى لفعلها؛ وكان معنى قوله تعالى : «إِذَا حَلَفْتُمْ» أى إذا حلفتم وحَنِثتم . وأيضا فإن كل عبادة فُعلت قبل وجوبها لم تصح اعتبارا بالصلوات وسائر العبادات . وقال الشافعى : تجزئ بالإطعام والعتق والكسوة، ولا تجزئ بالصوم؛ لأن عمل البدن لا يقدّم قبل وقته . ويجزئ فى غير ذلك تقديم الكفّارة؛ وهو القول الثالث .

الموفية عشرين — ذكر الله سبحانه فى الكفّارة الخلال الثلاث فخيَّر فيها، وعَقّب عند عدمها بالصيام، وبدأ بالطعام لأنه كان الأفضل فى بلاد الحجاز لغلبة الحاجة إليه وعدم شبعهم،

ولا خلاف فى أن كفّارة اليمين على التخيير؛ قال ٱبن العربىّ : والذى عندى أنها تكون بحسب الحـال؛ فإن علمت محتاجا فالطعام أفضل؛ لأنك إذا أعتقت لم تدفع حاجتهم وزدت محتاجا حادى عشر إليهم، وكذلك الكسوة تليه، ولما علم الله الحاجة بدأ بالمقدّم المهم .

الحادية والعشرون ـــ قوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ لا بد عندنا وعند الشافعى من تمليك المساكين ما يخرج لهم، ودفعه إليهم حتى يتملكوه ويتصرفوا فيه؛ لقوله تعالى : « وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ » وفى الحديث « أَطْعَمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الجَدَّ السُّدس »؛ ولأنه أحد نوعى الكفارة فلم يجز فيها إلا التمليك؛ أصله الكسوة . وقال أبو حنيفة : لو غدّاهم وعشاهم جاز؛ وهو ٱختيار ابن الماجشون من علمائنا؛ قال ابن الماجِشُون : إنّ التمكين من الطعام إطعام، قال الله تعالى : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » فبأى وجه أطعمه دخل فى الآية .

الثانية والعشرون ـــ قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (1) قد تقدم فى «البقرة» أن الوسط بمعنى الأعلى والخيار، وهو هنا منزلة بين منزلتين ونصفا بين طرفين . ومنه الحديث "خير الأمور أوسطها" . وخرج ابن ماجة؛ حدّثنا محمد بن يحيى، حدّثنا عبد الرحمن ابن مهدىّ، حدّثنا سفيان بن عُيَينة، عن سليمان بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَير عن ٱبن عباس قال : كان الرجل يَقُوت أهله قُوتا فيه سَعة وكان الرجل يَقُوت أهله قُوتا فيه شدّة؛ فنزلت « مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ » . وهذا يدل على أن الوسط ما ذكرناه وهو ما كان بين شيئين .

الثالثة والعشرون ـــ الإطعام عند مالك مُدٌّ لكل واحد من المساكين العشرة، إن كان بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم؛ وبه قال الشافعى وأهل المدينة . قال سليمان بن يَسَار : أدركتُ الناس وهم إذا أَعطوا فى كفّارة اليمين أعطوا مُدًّا من حِنْطة بالمدّ الأصغر، ورأوا ذلك مجزئا عنهم؛ وهو قول عُمر وٱبن عباس وزيد بن ثابت وبه قال عطاء بن أبى رَبَاح . وٱختلف

(1) راجع جـ ٢ ص ١٥٣ وما بعدها طبعة ثانية .

إذا كان بغيرها؛ فقال ٱبن القاسم : يجزئه المدّ بكل مكان . وقال ٱبن المواز: أفتى ٱبن وهب بمصر بمدّ ونصف ، وأشهب بمدّ وثلث ؛ قال : وإنّ مدّا وثلثا لوسطٌ من عيش الأمصار في الغداء والعشاء . وقال أبو حنيفة : يُخرج من البُرّ نصف صاع ، ومن التمر والشعير صاعا ؛ على حديث عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر عن أبيه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فأمر بصدقة الفطر صاع تمرٍ، أو صاع شعيرٍ عن كل رأس ، أو صاع بُر بين ٱثنين . وبه أخذ سفيان وٱبن المبارك ، وروى عن عليّ وعُمر وٱبن عمر وعائشة ، وبه قال سعيد بن المسيّب ، وهو قول عامة فقهاء العراق؛ لما رواه ٱبن عباس قال : كَفَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصاع من تمر وأمر الناس بذلك ، فمن لم يجد فنصف صاع من بُرٍّ [من أوسط ما تطعمون أهليكم][1] ؛ خرجه ٱبن ماجه في سننه .

الرابعة والعشرون — لا يجوز أن يُطعم غنيا ولا ذا رحم تلزمه نفقته ، وإن كان ممن لا تلزمه نفقته فقد قال مالك : لا يعجبني أن يُطعمه ، ولكن إن فعل وكان فقيرا أجزأه ؛ فان أطعم غنيا جاهلا بغناه ففي « المدوّنة » وغير كتابٍ لا يجزئ ، وفي « الأسدية » أنه يجزئ .

الخامسة والعشرون — ويخرج الرجل مما يأكل؛ قال ٱبن العربي : وقد زَلّت هنا جماعة من العلماء فقالوا : إنه إذا كان يأكل الشعير ويأكل الناس البُرّ فليخرج مما يأكل الناس ؛ وهذا سهو بيّن؛ فإن المكفر إذا لم يستطع في خاصة نفسه إلا الشعير لم يكلّف أن يعطى لغيره سواه ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "صاعًا من طعامٍ صاعًا من شعير" ففصل ذكرهما ليخرج كلُّ أحدٍ فرضه مما يأكل؛ وهذا مما لا خفاء فيه .

السادسة والعشرون — قال مالك : إن غَدَّى عشرة مساكين وعشاهم أجزأه . وقال الشافعي : لا يجوز أن يطعمهم جملة واحدة ؛ لأنهم يختلفون في الأكل ، ولكن يعطى كل مسكين مدّا . وروى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : لا يجزئ إطعام العشرة وجبة واحدة؛ يعني غداء دون عشاء ، أو عشاء دون غداء، حتى يغديهم ويعشيهم ؛ قال أبو عمر : وهو قول أئمة الفتوى بالأمصار .

(١) هذه الزيادة ذكرها ابن ماجه في الحديث المتقدم عن ابن عباس ، ولم يذكرها في هذا الحديث .

السابعة والعشرون — قال ابن حبيب : ولا يُجزئ الخبز قَفارا[1] بل يعطى معه إدامه زيتا أو كَشْكًا أو كامخًا[2] أو ما تيسر؛ قال ابن العربي : هذه زيادة ما أراها واجبة أما أنه يستحب له أن يطعم مع الخبز السكر — نعم — واللحم ، وأما تعيين الإدام للطعام فلا سبيل إليه؛ لأن اللفظ لا يتضمنه .

قلت : نزول الآية في الوسط يقتضي الخبز والزيت أو الخَلّ ، وما كان في معناه من الجبن والكَشْك كما قال ابن حبيب . والله أعلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نِعم الإدام الخل" وقال الحسن البصري : إن أطعمهم خبزا ولحما ، أو خبزا وزيتا مرّة واحدة في اليوم حتى يشبعوا أجزأه؛ وهو قول ابن سيرين وجابر بن زيد ومكحول ، وروى ذلك عن أنس ابن مالك .

الثامنة والعشرون — لا يجوز عندنا دفع الكفّارة إلى مسكين واحد ، وبه قال الشافعي . وأصحاب أبي حنيفة يمنعون صرف الجميع إلى واحد دفعة واحدة ، ويختلفون فيما إذا صرف الجميع في يوم واحد بدفعات مختلفة؛ فمنهم من أجاز ذلك ، وأنه إذا تعدد الفعل حسن أن يقال في الفعل الثاني لا يُمنع من الذي دُفعت إليه أوّلا؛ فإنّ اسم المسكين يتناوله . وقال آخرون : يجوز دفع ذلك إليه في أيام ، وإنّ تعدد الأيام يقوم مقام أعداد المساكين . وقال أبو حنيفة : يجزئه ذلك؛ لأن المقصود من الآية التعريف بقدر ما يطعم ، فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه . ودليلنا نص الله تعالى على العشرة فلا يجوز العدول عنهم ، وأيضا فإن فيه إحياء جماعة من المسلمين وكفايتهم يوما واحدا ، فيتفرغون فيه لعبادة الله تبارك وتعالى ولدعائه ، فيغفر للمكفر بسبب ذلك . والله أعلم .

التاسعة والعشرون — قوله تعالى : «فَكَفَّارَتُهُ» الضمير على الصناعة النحوية عائد على «ما» ويحتمل في هذا الموضع أن تكون بمعنى الذي ، ويحتمل أن تكون مصدرية . أو يعود على إثم الحِنث وإن لم يجر له ذكر صريح لكن المعنى يقتضيه .

---

(١) خبز قفار : غير مأدوم . (٢) الكامخ : نوع من الأدم؛ معرب .

الموفية ثلاثين — قوله تعـالى : «أَهْلِيكُمْ» هو جمع أهل على السلامة . وقرأ جعفر بن محمد بن الصادق « أَهَالِيكُمْ» وهذا جمـع مُكَسَّر ؛ قال أبو الفتح : أَهَالٍ بمنزلة لَيـالٍ واحدها أَهْلات ولَيْلات ؛ والعرب تقول : أَهْلٌ وأَهْلَةٌ . قال الشاعر (١) :

وأَهْـلَةِ وُدٍّ قـد تَبَرَّيْتُ وُدَّهُمْ * وأَبْلَيْتُهُمْ في الجَهْد حَمْـدِى ونائِلى

يقول : تعرّضت لودهم ؛ قاله آبن السكيت .

الحادية والثلاثون — قوله تعالى : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قرئ بكسر الكاف وضمها وهما لغتان مثل إِسْوة وأُسوة . وقرأ سعيد بن جُبير ومحمد بن السَّمَيْقع اليمانىّ «أَوْ كَإِسْوَتِهِمْ» يعنى كاسوة أهلك . والكسوة فى حق الرجال الثوب الواحد الساتر لجميع الجسد ؛ فأما فى حق النساء فأقل مايجزئهنّ فيه الصلاة ، وهو الدّرع والخمار ، وهكذا حكم الصغار . قال آبن القاسم فى «العتبية» : تُكسى الصغيرة كسوة كبيرة ، والصغير كسوة كبير ؛ قياسا على الطعام . وقال الشافعى وأبو حنيفة والثورىّ والأوزاعىّ : أقل ما يقع عليه الاسم وذلك ثوب واحد ؛ وفى رواية أبى الفرج عن مالك ، وبه قال إبراهيم النَّخَعىّ ومُغيرة : ما يستر جميـع البدن ؛ بناء على أن الصلاة لا تجزئ فى أقل من ذلك . وروى عن سلمان رضى الله عنه أنه قال : نعم الثوب التُّبَّـان (٢) ؛ أسنده الطبرىّ . وقال الحكم بن عُتيبة تجزئ عمامة يلف بهـا رأسه ؛ وهو قول الثورىّ . قال آبن العربىّ : وما كان أحرصنى على أن يقال إنه لا يجزئ إلا كسوة تستر عن أَذَى الحر والبرد كما أن عليه طعاما يشبعه من الجوع فأقول به ، وأما القول بمئزر واحد فلا أدريه ؛ والله يفتح لى ولكم فى المعرفة بعونه .

قلت : قد راعى قوم معهود الزى والكسوة المتعارفة ؛ فقال بعضهم : لا يجزئ الثوب الواحد إلا إذا كان جامعا ممـا قد يُتَزَيَّا به كالكساء والمِلْحفة . وقال أبو حنيفة وأصحابه : الكسوة فى كفـارة اليمين لكل مسكين ثوب وإزار ، أو رداء أو قميص أو قَبَـاء أو كساء .

(١) هو أبو الطمحان القينى ؛ يقول : رب مَن هو أهل للود قد تعرضت له ، وبذلت له فى ذلك طاقتى من نائل . (تاج العروس) .　(٢) التبان (بالضم والتشديد) : سراويل صغير مقدار شبر ، يستر العورة المغلظة .

وروى عن أبي موسى الأشعرىّ أنه أمر أن يكسى عنه ثوبين ثوبين(١)؛ وبه قال الحسن وآبن سيرين وهذا معنى ما آختاره آبن العربي . والله أعلم .

الثانيـة والثلاثون — لا تجزئ القيمة عن الطعام والكسوة ؛ وبه قال الشافعىّ . وقال أبو حنيفة تجزئ ؛ وهو يقول : تجزئ القيمة فى الزكاة فكيف فى الكفّارة ! قال آبن العربي : وعُمدته أن الغرض سدّ الخَلّة ، ورفع الحاجة ؛ فالقيمة تجزئ فيه . قلنا : إن نظرتم إلى سدّ الخَلّة فأين العبادة ؟ [وأين(٢)] نص القرآن على الأعيان الثلاثة ، والآنتقال بالبيان من نوع إلى نوع ؟ !

الثالثة والثلاثون — إذا دفع الكسوة إلى ذِمىّ أو عبد لم يجزه . وقال أبو حنيفة : يجزئه ؛ لأنه مسكين يتناوله لفظ المسكنة ، ويشتمل عليه عموم الآية . قلنا : هذا يخصه بأن يقول جزء من المال يجب إخراجه للمساكين فلا يجوز دفعه للكافر؛ أصله الزكاة؛ وقد آتفقنا على أنه لا يجوز دفعه للرتد؛ فكل دليل خصّ به المرتد فهو دليلنا فى الذمىّ . والعبد ليس بمسكين لاستغنائه بنفقة سيده فلا تدفع إليه كالغنىّ .

الرابعة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ التحرير الإخراج من الرق؛ ويستعمل فى الأَسْر والمشقات وتعب الدنيا ونحوها . ومنه قول أمّ مريم : « إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا » أى من شُغُوب الدنيا ونحوها . ومن ذلك قول الفَرَزْدَق بن غالب :

أبنى غُـدانة إننى حَرَّرتكم * فوهبتُكم لعطية بن جِعَالِ

أى حررتكم من الهجاء . وخصّ الرقبة من الإنسان ، إذ هو العضو الذى يكون فيه الغُلّ والتوثق غالبا من الحيوان ، فهو موضع الملك فأضيف التحرير إليها .

الخامسة والثلاثون — لا يجوز عندنا إلا إعتاق رقبة مؤمنة كاملة ليس فيها شرك لغيره ، ولا عَتاقة بعضها ، ولا عِتق إلى أجل ، ولا كِتابة ولا تدبير ، ولا تكون أمّ ولد ولا من يَعتق عليه إذا ملكه ، ولا يكون بها من الهَرَم والزَّمانة ما يضربها من الآكتساب ، سليمة غير معيبة ؛

---

(١) أي ثوبان لكل مسكين . (٢) الزيادة عن آبن العربي .

خلافا لداود فى تجويزه إعتاق المعيبة . وقال أبو حنيفة : يجوز عتق الكافرة؛ لأن مطلق اللفظ يقتضيها . ودليلنا أنهـا قُربة واجبة فلا يكون الكافر محلا لهـا كالزكاة ؛ وأيضا فكل مطلق فى القرآن من هذا فهو راجع إلى المقيد فى عتق الرقبة فى القتل الخطأ . وإنما قلنا : لا يكون فيها شِرك ، لقوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وبعض الرقبة ليس برقبة . وإنمـا قلنا لا يكون فيها عقد عتق؛ لأن التحرير يقتضى ٱبتداء عِتق دون تنجيز عِتق مقدّم . وإنما قلنا : سليمة ؛ لقوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَـةٍ » والإطلاق يقتضى تحرير رقبة كاملة والعمياء ناقصة . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم " ما من مسلم يعتق آمرءا مسلما إلا كان فكاكه من النار كل عضو منه بعضو منها حتى الفرج بالفرج " وهذا نص . وقد روى فى الأعور قولان فى المذهب، وكذلك فى الأصم والخَصِىّ .

السادسة والثلاثون — من أخرج مالا ليعتق رقبـة فى كفّارة فتلِف كانت الكفّارة باقية عليه ، بخلاف مخرِج المـال من الزكاة ليدفعه إلى الفقراء ، أو ليشترى به رقبة فتلِف، لم يكن عليه غيره لامتثال الأمر .

السابعة والثلاثون — آختلفوا فى الكفّارة إذا مات الحالف ؛ فقال الشافعى وأبو ثور : كفّارات الأيمان تخرج من رأس مال الميت . وقال أبو حنيفة : تكون فى الثلث ؛ وكذلك قال مالك إن أوصى بها .

الثامنة والثلاثون — من حلف وهو موسر فلم يُكفِّر حتى أعسر ، أو حَنِث وهو مُعسر فلم يُكفِّر حتى أيسر ، أو حَنِث وهو عبد فـلم يُكفِّر حتى عتق ، فالمراعاة فى ذلك كله بوقت التكفير لا وقت الحِنْث .

التاسعة والثلاثون — روى مسلم عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لأَنْ يَلَجَّ أحدُكم بيمينه فى أهلِه[1] آثمُ له عند الله من أن يعطِى كفارته التى فرض الله" اللجاج فى اليمين هو المضى على مقتضاه ، وإن لزم من ذلك حرج ومشقة ، وترك ما فيه منفعة عاجلة

(١) " فى أهله " : أى فى قطيعتهم كالحلف على ألا يكلمهم ؛ وذكر الأهل فى هذا المقام للمبالغة .

أو آجلة ؛ فإن كان شيء من ذلك فالأولى به تحنيث نفسه وفعل الكفارة ، ولا يعتل باليمين كما ذكرناه في قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ » وقال عليه السلام : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفّر عن يمينه وليفعل الذي هو خير" أي الذي هو أكثر خيرا .

الموفيـة أربعين — روى مسلم عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اليمين على نيّة المستحلِف" قال العلماء : معناه أنّ من وجبت عليه يمين في حقّ وجب عليه فحلف وهو ينـوى غيره لم تنفعه نيته ، ولا يخرج بهـا عن إثم تلك اليميـن ، وهو معنى قوله في الحديث الآخر : "يَمِينُكَ على ما يُصدِّقك عليه صاحبُك" . ورُوى "يُصدِّقك به صاحبك" خرّجه مسلم أيضا . قال مالك : من حلف لطالبه في حقّ له عليه ، وآستثنى في يمينه ، أو حرّك لسانه أو شفتيه ، أو تكلم به ، لم ينفعه آستثناؤه ذلك ؛ لأن النية نيّـة المحلوف له ؛ لأن اليمين حق له ، وإنما تقع على حسب ما يستوفيـه له الحاكم لا على آختيار الحالف ؛ لأنها مستوفاة منه . هذا تحصيل مذهبه وقوله .

الحادية والأربعون — قوله تعـالى : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ معناه لم يجـد في ملكه أحد هذه الثلاثة ؛ من الإطعام أو الكسوة أو عتق الرقبة بإجماع ؛ فإذا عدم هذه الثلاثة الأشياء صام . والعدم يكون بوجهين إمّا بمغيب المـال أو عدمه ؛ فالأول أن يكون في بلد غير بلده فإن وجد من يسلفه لم يجزه الصوم ، وإن لم يجد من يسلفه فقد اختلف فيه ؛ فقيل : ينتظر إلى بلده ؛ قال آبن العربي : وذلك لا يلزمه بل يكفّر بالصيام ؛ لأن الوجوب قد تقرر في الذمة [والشرط من][(1)] العدم قـد تحقق فلا وجه لتأخير الأمر ، فليكفّر مكانه لعجزه عن الأنواع الثـلاثة ؛ لقوله تعالى : "فَمَنْ لَمْ يَجِدْ" . وقيل : من لم يكن له فضل عن رأس ماله الذي يعيش به فهو الذي لم يجد . وقيـل : هو من لم يكن له إلا قُوت يومه وليلته ، وليس عنده فضل يطعمه ؛ وبه قال الشـافعي وآختاره الطَّبَرى ، وهو مذهب مالك وأصحابه . ورُوى عن آبن القاسم أنّ من تفضل عنه نفقة يومه فإنه لا يصوم ؛ قال آبن القاسم في كتاب آبن مزين : إنه إن كان للحانث

(1) الزيادة عن آبن العربي .

فضل عن قُوت يومه أطعم إلّا أن يخاف الجوع، أو يكون فى بلد لا يُعطَف عليه فيه . وقال أبو حنيفة : إذا لم يكن عنده نِصاب فهو غير واجد . وقال أحمد وإسحق : إذا كان عنده قُوت يوم وليلة أطعم ما فضل عنه . وقال أبو عبيد : إذا كان عنده قُوت يومه وليلته وعياله وكسوة تكون لكفايتهم ، ثم يكون بعد ذلك مالكا لقدر الكفارة فهو عندنا واجد . قال ٱبن المنذر : قول أبى عُبيد حَسَنٌ .

الثانية والأربعون — قوله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ قرأها ابن مسعود "متتابعات" فيقيد بها المطلق؛ وبه قال أبو حنيفة والثورى؛ وهو أحد قولى الشافعى واختاره المُزَنى قياسا على الصوم فى كفّارة الظّهار، واعتبارا بقراءة عبد الله . وقال مالك والشافعى فى قوله الآخر : يجزئه التفريق؛ لأن التتابع صفة لا تجب إلا بنصّ أو قياس على منصوص وقد عُدِما .

الثالثة والأربعون — من أفطر فى يوم من أيام الصيام ناسيا فقال مالك : عليه القضاء؛ وقال الشافعى : لاقضاء عليه؛ على ما تقدم بيانه فى الصيام فى "البقرة" (1) .

الرابعة والأربعون — هذه الكفّارة التى نص الله عليها لازمة للحر المسلم باتفاق . واختلفوا فيما يجب منها على العبد إذا حَنِث؛ فكان سفيان الثورى والشافعى وأصحاب الرأى يقولون : ليس عليه إلا الصوم، لايجزئه غير ذلك؛ واختلف فيه قول مالك ، فحكى عنه ابن نافع أنه قال : لا يُكفِّر العبد بالعتق؛ لأنه لا يكون له الولاء ، ولكن يُكفِّر بالصدقة إن أَذِن له سيده؛ وأصوب ذلك أن يصوم .

وحَكَى ابن القاسم عنه أن قال : إن أطعم أو كسا بإذن السيد فما هو بالبيّن ، وفى قلبى منه شىء .

الخامسة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ ﴾ أى تغطية أيمانكم، وكَفَّرت الشىء غطيته وسترته وقد تقدم . ولا خلاف أن هذه الكفّارة فى اليمين بالله تعالى ، وقد ذهب بعض التابعين إلى أن كفّارة اليمين فعل الخير الذى حلف على تركه . وتَرْجَم ابن ماجه فى سننه

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٢٢ ، وما بعدها طبعة ثانية .

« من قال كفّارتُها تركُها » حدثنا عليّ بن محمد حدثنا عبد الله بن نُمَير عن حارثة بن أبي الرجال عن عَمْرة عن عائشة قالت قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "من حلف في قطيعة رحم أو بما لا يصلح فبِرّه ألّا يتمّ على ذلك (١)" وأسـنَد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليتركها فإنّ تركها كفارتُها" .

قلت : ويُعضد هذا بقصة الصدّيق رضى الله عنه حين حلف ألا يَطْعَمَ الطعامَ ، وحلفت امرأته ألّا تَطعمه حتى يَطعمه ، وحلف الضيف — أو الأضياف — ألا يَطعمه أو لا يَطعموه حتى يَطعمه ، فقال أبو بكر: كان هذا من الشيطان ؛ فدعا بالطعام فأكل وأكلوا خرجه البخاريّ ، وزاد مسلم قال : فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله بَرُّوا وحَنِثت ؛ قال : فأَخبرَه ؛ قال : "بل أنت أَبَرُّهم وأَخيرُهم" قال : ولم تبلغني كفّارة .

السادسة والأربعون — واختلفوا في كفّارة غير اليمين بالله ؛ فقال مالك : من حلف بصدقة ماله أخرج ثلثه . وقال الشافعي : عليه كفّارة يمين ؛ وبه قال إسحق وأبو ثور ، وروى عن عمر وعائشة رضى الله عنهما . وقال الشعبيّ وعطاء وطاوس : لا شيء عليه . وأما اليمين بالمشي إلى مكة فعليه أن يَفِيَ به عند مالك وأبي حنيفة . وتجزئه كفّارة يمين عند الشافعيّ وأحمد بن حنبل وأبي ثور . وقال ابن المسيب والقاسم بن محمد : لا شيء عليه ؛ قال ابن عبد البر : أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها يوجبون في اليمين بالمشي إلى مكة كفّارة مثل كفّارة اليمين بالله عز وجل ؛ وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين وجمهور فقهاء المسلمين . وقد أفتى به ابنُ القاسم ابنَه عبد الصمد ، وذكر له أنه قول الليث بن سعد . والمشهور عن ابن القاسم أنه لا كفّارة عنده في المشي إلى مكة إلا بالمشي لمن قدر عليه ؛ وهو قول مالك . وأما الحالف بالعتق فعليه عتق من حلف عليه بعتقه في قول مالك والشافعي وغيرهما . وروى

(١) ظاهره أنه البر شرعا فلا حاجة معه إلى كفارة أخرى ؛ لكن الأحاديث المشهورة تدل على وجوب الكفارة ؛ فالحديث إن صح يحمل على أنه بمنزلة البر في كونه مطلوبا شرعا . (هامش ابن ماجة) .

عن ابن عمر وابن عباس وعائشة أنه يكفّر كفّارة يمين ولا يلزمه العتق — وقال عطاء : يتصدق بشيء . قال المهدوى : وأجمع من يعتمد على قوله من العلماء على أن الطلاق لازم لمن حلف به وحنث .

السابعة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾ أى بالبدار إلى ما لزمكم من الكفّارة إذا حنثتم . وقيل : أى بترك الحلف ؛ فإنكم إذا لم تحلفوا لم تتوجه عليكم هذه التكليفات . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) تقدّم معنى « الشكر » و « لعل » فى « البقرة » والحمد لله .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

فيه سبع عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب لجميع المؤمنين بترك هذه الأشياء ؛ إذ كانت شهوات وعادات تلبسوا بها فى الجاهلية وغلبت على النفوس ، فكان نَفِىٌّ (٢) منها فى نفوس كثير من المؤمنين . قال ابن عطية : ومن هذا القبيل هَوَى الزّجر بالطير ، وأخذ الفأل فى الكتب ونحوه مما يصنعه الناس اليوم . وأما الخمر فكانت لم تُحرّم بعد ، وإنما نزل تحريمها فى سنة ثلاث بعد وقعة أُحد ، وكانت وقعة أُحد فى شوّال سنة ثلاث من الهجرة .

---

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٦ وما بعدها فى « لعل » وص ٣٩٧ وما بعدها فى « الشكر » طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) نفى : بقية .

وتقدّم ٱشتقاقها(١) . وأما « الميسر » فقد مضى فى « البقرة »(٢) القول فيه . وأما ٱلأنصاب فقيل : هى الأصنام . وقيل : هى النَّرْد والشِّطْرَنْج ؛ ويأتى بيانهما فى سورة « يونس » عند قوله تعالى : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ »(٣) . وأما الأزلام فهى القِداح ؛ وقد مضى فى أوّل السورة القول فيها . ويقال : كانت فى البيت عند سَدَنة البيت وخُدّام الأصنام ؛ يأتى الرجل إذا أراد حاجة فيقبض منها شيئا ؛ فإن كان عليه أمرنى ربى خرج إلى حاجته على ما أحب ، أو كره .

الثانيـة ــ تحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة ؛ فإنهم كانوا مولعين بشربها ، وأول ما نزل فى شأنها « يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » أى فى تجاراتهم ؛ فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير ، ولم يتركها بعض الناس وقالوا : نأخذ منفعتها ونترك إثمها فنزلت هذه الآية « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فتركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة ، وشربها بعض الناس فى غير أوقات الصلاة حتى نزلت « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ » ــ الآية ــ فصارت حراما عليهم حتى صار يقول بعضهم : ما حرم الله شيئا أشدّ من الخمر . وقال أبو مَيْسرة : نزلت بسبب عمر بن الخطاب ؛ فإنه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم عيوب الخمر ، وما ينزل بالناس من أجلها ، ودعا الله فى تحريمها وقال : ٱللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت هذه الآيات ، فقال عمر : ٱنتهينا ٱنتهينا . وقد مضى فى « البقرة »(٤) و « النساء »(٥) . وروى أبو داود عن ٱبن عباس قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » و « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » نسختها التى فى المائدة « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ » . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : نزلت فىّ آيات من القرآن ؛ وفيه قال : وأتيت على نَفَر من الأنصار ؛ فقالوا : تَعالَ نُطعمك ونُسقيك خمرا ،

(١) راجع جـ ٣ ص ٥١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٥٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) المسئلة السادسة فى آية ٣٢ (٤) راجع جـ ٣ ص ٥٢ طبعة أولى أو ثانية . (٥) راجع جـ ٥ ص ٢٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

وذلك قبل أن تُحرَّم الخمر؛ قال: فأتيتهم فى حَشٍّ — والحَشُّ البستان — فإذا رأس جَزُور مشوىّ [عندهم](١) وزِقٌّ من خمر؛ قال: فأكلتُ وشربتُ معهم؛ قال: فذكرتُ الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت: المهاجرون خير من الأنصار؛ قال: فأخذ رجل لَحْيَى جمل فضربنى به فجرح بأنفى — وفى رواية فَفَزَره(٢) وكان أنف سعد مَفْزُورا — فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته؛ فأنزل الله تعالى فىّ — يعنى نفسَه شأنَ الخمر — «إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ».

الثالثة — هذه الأحاديث تدل على أن شرب الخمر كان إذ ذاك مباحا معمولا به معروفا عندهم بحيث لا يُنكَر ولا يُغيَّر، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أقر عليه، وهذا ما لا خلاف فيه؛ يدل عليه آية النساء «لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى» على ما تقدّم. وهل كان يباح لهم شرب القَدْر الذى يُسكر؟ حديثُ حمزة ظاهر فيه حين بَقَر خواصر ناقتى علىّ رضى الله عنهما وجَبَّ أسنمتَهما، فأخبر علىٌّ بذلك النبى صلى الله عليه وسلم، فجاء إلى حمزة فصدر عن حمزة للنبى صلى الله عليه وسلم من القول الجافى المخالف لما يجب عليه من احترام النبى صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعزيره، ما يدل على أن حمزة كان قد ذهب عقله بما يُسكر؛ ولذلك قال الراوىّ: فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ثَمِلٌ؛ ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يُنكر على حمزة ولا عَنَّفه، لا فى حال سكره ولا بعد ذلك، بل رجع لَمَّا قال حمزة وهل أنتم إلا عبيد لأبى على عقبيه القَهْقَرى وخرج عنه. وهذا خلاف ما قاله الأصوليون وحكوه فإنهم قالوا: إن السكر حرام فى كل شريعة؛ لأن الشرائع مصالح العباد لا مفاسدهم، وأصل المصالح العقل، كما أن أصل المفاسد ذهابه، فيجب المنع من كل ما يذهبه أو يشوشه، إلا أنه يحتمل حديث حمزة أنه لم يقصد بشربه السكر لكنه أسرع فيه فغلبه. والله أعلم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿رِجْسٌ﴾ قال ابن عباس فى هذه الآية: «رِجْسٌ» سخط وقد يقال للنَّتْن والعَذِرة والأقذار رِجْسٌ. والرِّجز بالزاى العذاب لا غير، والرِّكْس العَذِرة

---

(١) الزيادة عن «صحيح مسلم». (٢) فزر: شق.

لا غير . والرِّجْس يقال للأمرين . ومعنى ((مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)) أى بحمله عليه وتزيينه . وقيل : هو الذى كان عَمِل مبادئ هذه الأمور بنفسه حتى ٱقتدى به فيها .

الخامسة — قوله تعالى : ((فَٱجْتَنِبُوهُ)) يريد أبعدوه وٱجعلوه ناحية؛ فأمر الله تعالى باجتناب هذه الأمور، وٱقترنت بصيغة الأمر مع نصوص الأحاديث وإجماع الأمة، فحصل الاجتناب فى جهة التحريم؛ فبهذا حرّمت الخمر . ولا خلاف بين علماء المسلمين أن سورة "المائدة" نزلت بتحريم الخمر، وهى مدنية من آخر ما نزل، وورد التحريم فى الميتة والدم ولحم الخنزير فى قوله تعالى: « قُلْ لَا أَجِدُ » وغيرها من الآى خبرا، وفى الخمر نَهْيا وزَجْرا، وهو أقوى التحريم وأوكده . روى ٱبن عباس قال : لما نزل تحريم الخمر، مشى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم إلى بعض، وقالوا حُرِّمت الخمر، وجعلت عدلا[(١)] للشِّرك؛ يعنى أنه قرنها بالذبح للأنصاب وذلك شِرْكٌ . ثم علق ((لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) فعلّق الفلاح بالأمر، وذلك يدل على تأكيد الوجوب . والله أعلم .

السادسة — فَهِمَ الجمهورُ من تحريم الخمر، واستخباث الشرع لها، وإطلاق الرِّجس عليها، والأمر باجتنابها، الحكم بنجاستها . وخالفهم فى ذلك ربيعة والليث بن سعد والمُزَنِىّ صاحب الشافعى، وبعض المتأخرين من البغداديين والقرويين فرأوا أنها طاهرة، وأن المحرم إنما هو شربها . وقد ٱستدل سعيد بن الحداد القروىّ على طهارتها بسفكها فى طرق المدينة؛ قال : ولو كانت نجسة لما فعل ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، ولنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه كما نهى عن التخلى فى الطرق . والجواب؛ أن الصحابة فعلت ذلك؛ لأنه لم يكن لهم سُرُوب[(٢)] ولا آبار يريقونها فيها، إذ الغالب من أحوالهم أنهم لم يكن لهم كُنُف فى بيوتهم . وقالت عائشة رضى الله عنها إنهم كانوا يتقذرون من اتخاذ الكُنُف فى البيوت، ونقلها إلى خارج المدينة فيه كلفة ومشقة، ويلزم منه تأخير ما وجب على الفور . وأيضا فإنه يمكن التحرز منها؛ فإن طرق المدينة كانت واسعة، ولم تكن الخمر من الكثرة بحيث تصير نهرا

---

(١) عدل : مثل ونظير . (٢) السرب : حفيرة تحت الأرض .

يتم الطريق كلها، بل إنما جرت في مواضع يسيرة يمكن التحرز عنها — هذا — مع ما يحصل في ذلك من فائدة شهرة إراقتها في طريق المدينة، ليشيع العمل على مقتضى تحريمها من إتلافها، وأنه لا ينتفع بها، ويتتابع الناس ويتوافقوا على ذلك. والله أعلم. فإن قيل: التنجيس حكم شرعي ولا نص فيه، ولا يلزم من كون الشيء محرما أن يكون نجسا؛ فكم من محرم في الشرع ليس بنجس؛ قلنا: قوله تعالى: «رِجْسٌ» يدل على نجاستها؛ فإن الرجس في اللسان النجاسة، ثم لو التزمنا ألا نحكم بحكم إلا حتى نجد فيه نصا لتعطلت الشريعة؛ فإن النصوص فيها قليلة؛ فأى نص يوجد على تنجيس البول والعَذِرة والدم والميتة وغير ذلك؟!، وإنما هي الظواهر والعمومات والأقيسة. وسيأتي في سورة «الحج»(1) ما يوضح هذا المعنى إن شاء الله.

السابعة — قوله: «فَاجْتَنِبُوهُ» يقتضي الاجتناب المطلق الذي لا ينتفع معه بشيء بوجه من الوجوه؛ لا بشرب ولا بيع ولا تخليل ولا مداواة ولا غير ذلك. وعلى هذا تدل الأحاديث الواردة في الباب. روى مسلم عن ابن عباس أن رجلا أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم رَاوِيَة(1) خمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل علمت أن الله حرمها" قال لا؛ قال: فسارّ رجلا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بِمَ سَارَرْتَه" قال: أمرته ببيعها؛ فقال: "إن الذى حرّم شربها حرّم بيعها" قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها؛ فهذا حديث يدل على ما ذكرناه؛ إذ لو كان فيها منفعة من المنافع الجائزة لبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال في الشاة الميتة: "هلّا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به" الحديث.

الثامنة — أجمع المسلمون على تحريم بيع الخمر والدم، وفي ذلك دليل على تحريم بيع العَذِرات وسائر النجاسات وما لا يحل أكله؛ ولذلك — والله أعلم — كره مالك بيع زِبل الدواب، ورخص فيه ابن القاسم لما فيه من المنفعة؛ والقياس ما قاله مالك، وهو مذهب الشافعي، وهذا الحديث شاهد بصحة ذلك.

---

(1) المسئلة الثالثة من تفسير آية ٣٠.

(1) الراوية: القربة التي فيها الخمر، سماها مرة براوية ومرة بمزادة وهما بمعنى. وربما قالوا مزاد بغير (هاء) كما وقع في بعض النسخ.

التاسـعة — ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخمر لا يجوز تخليلها لأحد، ولو جاز تخليلها ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع الرجل أن يفتح المزادة حتى يذهب ما فيها؛ لأن الخلّ مال وقد نهى عن إضاعة المـال، ولا يقول أحد فيمن أراق خمرا على مسلم أنه أتلف له مالا . وقد أراق عثمان بن أبي العاصي خمرا ليتيم ، وآستؤذن صلى الله عليه وسلم في تخليلها فقال : "لا" ونهى عن ذلك؛ ذهب إلى هـذا طائفة من العلمـاء من أهل الحديث والرأى و إليه مال سُحْنُون بن سعيد . وقال آخرون : لا بأس بتخليل الخمر ولا بأس بأكل ما تخلل منها بمعالجة آدمي(١) أو غيرها؛ وهو قول الثوريّ والأوزاعيّ والليث بن سعد والكوفيين . وقال أبو حنيفة : إن طرح فيها المِسك والملح فصارت مُرَبًّى وتحولت عن حال الخمر جاز . وخالفه محمد بن الحسن في المربَّى وقال : لا تُعالَج الخمر بغير تحويلها إلى الخلّ وحده . قال أبو عمر: آحتج العراقيون في تخليـل الخمر بأبي الدرداء؛ وهو يروى عن أبي إدريس الخولانيّ عن أبي الدرداء من وجه ليس بالقويّ أنه كان يأكل المربَّى منه، ويقول : دبغته الشمس والملح . وخالفه عمر بن الخطاب وعثمان بن أبي العاصي في تخليـل الخمر؛ وليس في رأى أحد حجة مع السنة . وبالله التوفيق . وقد يحتمل أن يكون المنع من تخليلها كان في بدء الإسلام عند نزول تحريمها؛ لئلا يستدام حبسها لقرب العهد بشربها، إرادة لقطع العادة في ذلك . وإذا كان كذلك لم يكن في النهي عن تخليلها حينئذٍ ، والأمر بإراقتها ما يمنع من أكلها إذا خُلِّلت . وروى أشهب عن مالك قال : إذا خَلَّل النصرانيّ خمرا فلا بأس بأكله، وكذلك إن خَلَّلها مسلم وآستغفر الله؛ وهذه الرواية ذكرها آبن عبد الحكم في كتابه . والصحيح ما قاله مالك في رواية آبن القـاسم وآبن وهب أنه لا يحل لمسـلم أن يعالج الخمـر حتى يجعلها خَلًّا ولا يبيعها، ولكن لِيُهرِيقها .

العاشـرة — لم يختلف قول مالك وأصحابه أن الخمر إذا تخللت بذاتها أن أكل ذلك الخلّ حلال . وهو قول عمر بن الخطاب وقَبِيصة وآبن شهاب وربيعة وأحد قولي الشافعي، وهو تحصيل مذهبه عند أكثر أصحابه .

(١) أي بممارسة آدمي وعمله .

الحادية عشرة — ذكر ابن خُوَيْزِمَنْداد أنها تُملك، ونزع إلى ذلك بأنه يمكن أن يزال بها الغَصَص، ويطفأ بها حريق؛ وهذا نقل لا يعرف لمالك بل يُخرّج هذا على قول من يرى أنها طاهرة . ولو جاز ملكها لما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بإراقتها . وأيضا فإن الملك نوع نفع وقد بطل بإراقتها . والحمد لله .

الثانية عشرة — هذه الآية تدل على تحريم اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنج قمارا أو غير قمار؛ لأن الله تعالى لما حرم الخمر أخبر بالمعنى الذى فيها فقال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ » الآية . ثم قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ » الآية . فكل لهو دعا قليله إلى كثير، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه، وصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة فهو كشرب الخمر؛ وأوجب أن يكون حراما مثله . فإن قيل : إنّ شرب الخمر يورث السكر فلا يقدر معه على الصلاة وليس فى اللعب بالنّرد والشِّطْرَنج هذا المعنى ؛ قيل له : قد جمع الله تعالى بين الخمر والميسر فى التحريم، ووصفهما جميعا بأنهما يوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويصدّان عن ذكر الله وعن الصلاة؛ ومعلوم أن الخمر إن أسكرت فالميسر لا يسكر، ثم لم يكن عند الله افتراقهما فى ذلك يمنع من التسوية بينهما فى التحريم لأجل ما اشتركا فيه من المعانى . وأيضا فإن قليل الخمر لا يسكر كما أن اللعب بالنّرد والشِّطْرَنج لا يسكر ثم كان حراما مثل الكثير، فلا ينكر أن يكون اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنج حراما مثل الخمر وإن كان لا يسكر . وأيضا فإن ابتداء اللعب يورث الغَفْلة، فتقوم تلك الغَفْلة المستولية على القلب مكان السكر؛ فإن كانت الخمر إنما حرّمت لأنها تسكر فتصدّ بالإسكار عن الصلاة، فليحرم اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنج لأنه يُغفل ويُلهى فيصدّ بذلك عن الصلاة . والله أعلم .

الثالثة عشرة — مُهدى الراوية[1] يدل على أنه كان لم يبلغه الناسخ، وكان متمسكا بالإباحة المتقدمة، فكان ذلك دليلا على أن الحكم لا يرتفع بوجود الناسخ — كما يقوله بعض الأصوليين — بل ببلوغه كما دل عليه هذا الحديث، وهو الصحيح ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يوبّخه،

(١) كذا بالأصل ، ولعله حديث مهدى الراوية ... الخ .

بل بيّن له الحكم ؛ ولأنه مخاطب بالعمل بالأوّل بحيث لو تركه عصى بلا خلاف ، و إن كان الناسخ قد حصل فى الوجود ، وذلك كما وقع لأهل قُباء(١) ؛ إذ كانوا يُصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتى فأخبرهم بالناسخ ، فمالوا نحو الكعبة . وقد تقدّم فى سورة «البقرة»(٢) والحمد لله ؛ وتقدّم فيها ذكر الخمر واشتقاقها والميسر(٣) . وقد مضى فى صدر هذه السورة القول فى الأنصاب(٤) والأزلام . والحمد لله .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الآية . أعلم الله تعالى عباده أن الشيطان إنما يريد أن يوقع العداوة بيننا بسبب الخمر وغيره ، فحذّرنا منها ، ونهانا عنها . روى أن قبيلتين من الأنصار شربوا الخمر وانتشوا ، فعبث بعضهم ببعض ، فلما صَحَوا رأى بعضهم فى وجه بعض آثار ما فعلوا ، وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن ، فجعل بعضهم يقول : لو كان أخى بى رحيما ما فعل بى هذا ، فحدثت بينهم الضغائن ؛ فأنزل الله «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ» الآية .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ يقول : إذا سكرتم لم تذكروا الله ولم تُصلّوا ، و إن صليتم خلط عليكم كما فعل بعليّ ، وروى بعبد الرحمن كما تقدّم فى «النساء»(٥) . وقال عبيد الله بن عمر : سئل القاسم بن محمد عن الشِّطْرَنْج أهى ميسر وعن النَّرد أهو ميسر فقال : كل ما صدّ عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر . قال أبو عبيد : تأوّل قول الله تعالى : «وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ» .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ لما علم عمر رضى الله عنه أن هذا وعيد شديد زائد على معنى انتهوا قال : انتهينا . وأمر النبى صلى الله عليه وسلم مناديه أن ينادى فى سِكَك المدينة ، ألا إنّ الخمر قد حُرّمت ؛ فكسرت الدِّنان ، وأُريقت الخمر حتى جرت فى سِكَك المدينة .

(١) قباء قرية على ميلين من المدينة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٨ وما بعدها طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٣ ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٤) راجع ص ٥٧ وما بعدها من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ٥ ص ٢٠٠ طبعة أولى أو ثانية .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ تأكيد للتحريم ، وتشديد في الوعيد ، وامتثال للأمر ، وكفّ عن المنهى عنه ، وحَسُن عطف ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ لما كان في الكلام المتقدم معنى انتهوا . وكرر « وَأَطِيعُوا » في ذكر الرسول تأكيدا ؛ ثم حذّر في مخالفة الأمر ، وتوعد من تولى بعذاب الآخرة ؛ فقال : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي خالفتم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ في تحريم ما أمر بتحريمه وعلى المرسل أن يعاقب أو يثيب بحسب ما يُعصَى أو يطاع .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس والبَرَاء بن عازب وأنس بن مالك إنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة : كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر؟ — ونحو هذا — فنزلت الآية . روى البخاريّ عن أنس قال : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة فنزل تحريم الخمر، فأمر[(1)] مناديا ينادى، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت ! قال : فخرجت فقلت : هذا منادٍ ينادى ألَا إنّ الخمر قد حُرّمت ؛ فقال : اذهب فأهرقها — وكان الخمر من الفَضِيخ[(2)] — قال : فجرت فى سكك المدينة ؛ فقال بعض القوم : قُتِل قوم وهى فى بطونهم فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ الآية .

الثانية — هذه الآية وهذا الحديث نظير سؤالهم عمن مات إلى القبلة الأولى فنزلت « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » . ومن فعل ما أبيح له حتى مات على فعله لم يكن له ولا عليه

---

(١) أى النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) الفضيخ : شراب يتخذ من البسر المفضوخ وحده من غير أن تمسه النار ؛ والمفضوخ هو المشدوخ .

شيء، لا إثم ولا مؤاخذة ولا ذم ولا أجر ولا مدح ؛ لأن المباح مستوى الطرفين بالنسبة إلى الشرع؛ وعلى هذا فما كان ينبغي أن يُتخوّف ولا يُسأل عن حال من مات والخمر في بطنه وقت إباحتها فإما أن يكون ذلك القائل غَفَل عن دليل الإباحة فلم يخطر له ، أو يكون لغلبة خوفه من الله تعالى ، وشفقته على إخوته المؤمنين توهّم مؤاخذةً ومعاقبةً لأجل شرب الخمر المتقدم ؛ فرفع الله ذلك التوهم بقوله : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » الآية .

الثالثة — هذا الحديث في نزول الآية فيه دليل واضح على أن نبيذ التمر إذا أسكر خمر، وهو نص لا يجوز الاعتراض عليه؛ لأن الصحابة هم أهل اللسان، وقد عقلوا أن شرابهم ذلك خمر إذ لم يكن لهم شراب ذلك الوقت بالمدينة غيره؛ وقد قال الحَكَمي :

لنا خمرٌ وليست خمر كَرْمٍ * ولكن من نِتاج الباسقاتِ
كِرامٌ في السماء ذهبن طُولا * وفات ثمارها أيدي الجناةِ

ومن الدليل الواضح على ذلك ما رواه النَّسائي؛ أخبرنا القاسم بن زكريا، أخبرنا عبيد الله عن شيبان عن الأعمش عن محارب بن دِثار عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الزبيب والتمر هو الخمر" . وثبت بالنقل الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه — وحسبك به عالما باللسان والشرع — خطب على منبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يأيها الناس، ألَا إنه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل، وهي من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير؛ والخمر ما خامر العقل . وهذا أبين ما يكون في معنى الخمر؛ يخطب به عمر بالمدينة على المنبر بمحضر جماعة الصحابة ، وهم أهل اللسان ولم يفهموا من الخمر إلا ما ذكرناه . وإذا ثبت هذا بطل مذهب أبي حنيفة والكوفيين القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمرا ولا يتناوله اسم الخمر، وإنما يسمى نبيذا؛ وقال الشاعر :

تركتُ النَّبيذ لأهل النَّبيذ * وصرتُ حليفًا لمن عابَه
شرابٌ يُدنِّس عِرْضَ الفتى * ويَفتح للشرّ أبوابَه

الرابعة — قال الإمام أبو عبد الله المازَرِيّ: ذهب جمهور العلماء من السلف وغيرهم إلى أنّ كل ما يسكر نوعه حرم شربه، قليلا كان أو كثيرا نِيئا، كان أو مطبوخا، ولا فرق بين المستخرج من العنب أو غيره، وأنّ من شرب شيئا من ذلك حُدَّ؛ فأما المستخرج من العنب المسكر النِّيء فهو الذى انعقد الإجماع على تحريم قليله وكثيره ولو نقطة منه . وأما ما عدا ذلك فالجمهور على تحريمه . وخالف الكوفيون فى القليل مما عدا ما ذكر، وهو الذى لا يبلغ الإسكار، وفى المطبوخ المستخرج من العنب؛ فذهب قوم من أهل البصرة إلى قصر التحريم على عصير العنب، ونقيع الزّبيب النِّيء؛ فأما المطبوخ منهما والنِّيء، والمطبوخ مما سواهما فحلال مالم يقع الإسكار . وذهب أبو حنيفة إلى قصر التحريم على المعتصَر من ثمرات النخيل والأعناب على تفصيل؛ فيرى أن سُلَافة العنب يحرم قليلها وكثيرها إلا أن تطبخ حتى ينقص ثلثاها، وأما نقيع الزّبيب والتمر فيحل مطبوخهما وإن مسّته النار مسًّا قليلا من غير ٱعتبار بحدّ؛ وأما النِّيء منه فحرام، ولكنه مع تحريمه إياه لا يوجب الحدّ فيه؛ وهذا كله مالم يقع الإسكار، فإن وقع الإسكار ٱستوى الجميع . قال شيخنا الفقيه الإمام أبو العباس رضى الله عنه : العجب من المخالفين فى هذه المسئلة؛ فإنهم قالوا : إن القليل من الخمر المعتصَر من العنب حرام ككثيره، وهو مجمع عليه؛ فإذا قيل لهم : فلم حرم القليل من الخمر وليس مذهبا للعقل فلا بدّ أن يقال : لأنه داعية إلى الكثير، أو للتعبد؛ فحينئذ يقال لهم : كلّ ما قدّرتموه فى قليل الخمر هو بعينه موجود فى قليل النبيذ فيحرم أيضا، إذ لا فارق بينهما إلا مجرد الآسم إذا سلم ذلك . وهذا القياس هو أرفع أنواع القياس؛ لأن الفرع فيه مساوٍ للأصل فى جميع أوصافه؛ وهذا كما يقوله فى قياس الأمة على العبد فى سراية العتق . ثم العجب من أبى حنيفة وأصحابه رحمهم الله ! فإنهم يتوغلون فى القياس ويرجحونه على اخبار الآحاد، ومع ذلك فقد تركوا هذا القياس الجلىّ المعضود بالكتاب والسنة وإجماع صدور الأمة، لأحاديث لا يصح شىء منها على ما قد بيّن عِلَلها المحدّثون فى كتبهم، وليس فى الصحاح شىء منها . وسيأتى فى سورة «النحل»(١) تمام هذه المسئلة إن شاء الله تعالى .

(١) آية ٦٧ .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ طَعِمُوا ﴾ أصل هـذه اللفظة فى الأكل ؛ يقال : طَعِمَ الطّعامَ وشَرِبَ الشَّرَاب ، لكن قد تجوّز فى ذلك فيقال : لم أَطعم خُبزا ولا ماء ولا نوما ؛ قال قال الشاعر :

نَعَـامًا بِوَجْرَةَ(١) صُـعْرَ الخُـدو ✽ دِ لا تَطْعَمُ النـومَ إلّا صِـيَامَا

وقد تقدّم القول فى «البقرة» فى قوله تعالى : «وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ»(٢) بما فيه الكفاية .

السادســـة — قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : تضمنت هذه الآية تناول المباح والشهوات، والآنتفاع بكل لذيذ من مَطْعَم ومَشْرَب ومَنْكَح و إن بولغ فيه وتنوهى فى ثمنه . وهذه الآية نظير قوله تعالى : « لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ » ونظير قوله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . فيه أربعة أقوال : الأول — أنه ليس فى ذكر التقوى تكرار؛ والمعنى ٱتقوا شربها، وآمنوا بتحريمها؛ ومعنى الثانى دام ٱتقاؤهم وإيمانهم؛ والثالث على معنى الإحسان إلى الآتقاء . والثانى — ٱتقوا قبل التحريم فى غيرها من المحرّمات ، ثم ٱتقوا بعد تحريمها شربها، ثم ٱتقوا فيما بقى من أعمالهم ، وأحسنوا العمل . الثـالث — ٱتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله ، ومعنى الثـانى ثم ٱتقوا الكبائر ، وٱزدادوا إيمانا، ومعنى الثالث ثم ٱتقوا الصغائر وأحسنوا أى تَنَفَّلُوا . وقال محمد بن جَرِير : الآتقاء الأوّل هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول، والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثـانى الاتقاء بالثبات على التصديق، والثالث الآتقاء بالإحسان، والتقرّب بالنوافل .

(١) وجرة : موضع بين مكة والبصرة؛ يقول الشاعر : هى صائمة منه لا تطعمه؛ وروى فى اللسان (لا تطعم الماء) وقال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء، ولا تطعمه . وقبله :

فأما بنو عامر بالنِّسار ✽ غَدَاةَ لَقُونا فكانوا نَعَامَا

(٢) راجع ج ٣ ص ٢٥٢ طبعة أولى أو ثانية .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ دليل على أن المتقي المحسن أفضل من المتقي المؤمن الذي عمل الصالحات؛ فضله بأجر الإحسان .

التاسعة — قد تأول هذه الآية قُدَامة بن مَظْعون الجُمَحِيّ من الصحابة رضي الله عنهم، وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبد الله، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وعُمِّر (١) . وكان خَتَن (٢) عمر بن الخطاب، خال عبد الله وحفصة، وولاه عمر بن الخطاب على البَحْرَين، ثم عزله بشهادة الجَارُود — سيّد عبد القيس — عليه بشرب الخمر. روى الدَّارَقُطْنِيّ قال حدّثنا أبو الحسن عليّ بن محمد المصري حدّثنا يحيى بن أيوب العلّاف حدّثني سعيد بن عُفَير حدّثني يحيى بن فُلَيْح بن سليمان قال حدّثني ثور بن زيد عن عِكْرِمة عن ابن عباس : أن الشُّرّاب كانوا يُضربون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأيدي والنِّعال والعِصِيّ حتى تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا في خلافة أبي بكر أكثر منهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى تُوفِّي، ثم كان عمر من بعده يجلدهم كذلك أربعين حتى أُتي برجل من المهاجرين الأولين وقد شرب فأمر به أن يجلد؛ فقال لِمَ تجلدني ؟ بيني وبينك كتاب الله ! فقال عمر: وأيّ كتاب الله تجد ألا أجلدك ؟ فقال له : إن الله تعالى يقول في كتابه « لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » الآية . فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا؛ شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بَدْرا وأُحُدا والخَنْدق والمشاهد؛ فقال عمر : أَلَا تردون عليه ما يقول؛ فقال ابن عباس : إنّ هؤلاء الآيات أنزلن عذرا لمن غَبَر وحُجّة على الناس؛ لأن الله تعالى يقول : « يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ » الآية؛ ثم قرأ حتى أنفذ الآية الأخرى؛ فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الآية؛ فإن الله قد نهاه أن يشرب الخمر؛ فقال عمر : صدقت ما ذا ترون ؟ فقال عليّ رضي الله عنه : إنه إذا شرب سكر وإذا سكر هَذَى، وإذا

(١) عمر : عاش زمانا طويلا .

(٢) الختن (بالتحريك) : الصهر؛ أو كل ما كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

هــذى افترى ، وعلى المفترى ثمانون جلدة ؛ فأمر به عمر بجلد ثمانين جلدة . وذكر الحُميدىّ عن أبى بكر البَرْقانى(١) عن ابن عباس قال : لمـا قدم الجارُود من البَحْرين قال : يا أمير المؤمنين إنّ قُدَامة بن مَظْعون قد شرب مُسْكِرا ، و إنى إذا رأيت حقا من حقوق الله حق على أن ارفعه إليك ؛ فقال عمر : من يشهد على ما تقول ؟ فقال : أبو هريرة ؛ فدعا عمر أبا هريرة فقال : عَلامَ تشهد يا أبا هريرة ؟ فقال : لم أره حين شرب ، و رأيتــه سكران يَقِىء ، فقال عمر : لقد تَنَطَّعتَ(٢) فى الشهادة ؛ ثم كتب عمر إلى قُدَامة وهو بالبَحْرَين يأمره بالقدوم عليه ، فلما قدم قدامة والجارُود بالمدينة كلّم الجارود عمر ؛ فقال أقم على هذا كتاب الله ؛ فقال عمر للجارود : أشهيد أنت أم خَصْم ؟ فقال الجارود : أنا شهيد ؛ قال : قــد كنتَ أديتَ الشهادة ؛ ثم قال لعمر : إنى أَنْشُدك الله ! فقال عمر : أَمَا والله لَتملكنّ لسانك أو لأسوءنّك ؛ فقال الجارود : أما والله ما ذلك بالحق ، أن يشرب ٱبن عمك وتسوءنى ! فأوعده عمر ؛ فقال أبو هريرة وهو جالس : يا أمير المؤمنين إن كنت تشك فى شهادتنا فسل بنت الوليد امرأة ٱبن مَظْعون ، فأرسل عمر إلى هند يَنْشدها بالله ، فأقامت هند على زوجها الشهادة ؛ فقال عمر : يا قُدامة إنى جالدك ؛ فقال قُدامة : والله لو شربتُ ــ كما يقولون ــ ما كان لك أن تجلدنى يا عمر . قال : ولم يا قُدامة ؟ قال : لأن الله سبحانه يقول : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » الآية إلى « الْمُحْسِنِينَ » . فقال عمر : أخطأت التأويل يا قُــدامة ؛ إذا ٱتقيت الله ٱجتنبت ما حرم الله ، ثم أقبل عمر على القوم فقال : ما ترون فى جلد قُدَامة ؟ فقال القوم : لانرى أن تجلده مادام وَجِعا(٣) ؛ فسكت عمر عن جلده ثم أصبح يوما فقال لأصحابه : ماترون فى جلد قُدَامة؟ فقال القوم : لا نرى أن تجلده ما دام وَجِعا ؛ فقال عمر : إنه واللهِ لأن يلقى الله تحت السوط ، أحب إلىّ من أن ألقى الله وهو فى عنقى ! واللهِ لأجلدنه ؛ ٱئتونى بسوط ؛ فجاءه مولاه أسلم بسوط رقيق صغير ، فأخذه عمر فمسحه بيده ثم قال لأسلم : أخذتك دِقْرارة(٤) أهلك ؛ ٱئتونى

(١) البرقانى (بفتح الموحدة وسكون الراء) : هذه النسبة إلى قرية كانت بنواحى خوارزم وخربت ؛ وصارت مزرعة . (الأنساب) للسمعانى . (٢) تنطع فى الكلام : تعمق وغالى . (٣) وجع : مريض .

(٤) الدقرارة (واحدة الدقارير) : وهى الأباطيل وعادات السوء ؛ أراد أن عادة السوء التى هى عادة قومك ، وهى العدول عن الحق والعمل بالباطل قد نزعتك ، وعرضت لك فعملت بها ؛ وكان أسلم عبدا بُجَاويا .

بسوط غير هذا، قال : فجاءه أسلم بسوط تام ؛ فأمر عمر بقدامة فجلد؛ فغاضب قُدامة عمر وهجره؛ فحجّا وقُدامة مهاجر لعمر حتى قفلوا عن حجهم ، ونزل عمر بالسُّقيا[(1)] ونام بها ، فلما استيقظ عمر قال : عجلوا على بقدامة ، انطلقوا فأتونى به ، فوالله لأرى فى النوم أنه جاءنى آت فقال : سالم قُدامة فإنه أخوك ؛ فلما جاءوا قُدامة أبى أن يأتيه ، فأمر عمر بقدامة أن يجر إليه جرًّا حتى كلمه عمر واستغفر له ، فكان أوّل صلحهما . قال أيوب بن أبى تميمة : لم يحدّ أحد من أهل بدر فى الخمر غيره . قال ابن العربى : فهذا يدلك على تأويل الآية ، وما ذكر فيه عن ابن عباس من حديث الدارقطنى ، وعمر فى حديث البَرْقانى وهو صحيح ؛ وبسطه أنه لو كان من شرب الخمر واتقى الله فى غيره ما حُدّ على الخمر أحد، فكان هذا من أفسد تأويل ؛ وقد خفى على قُدامة، وعرفه من وفقه الله كعمر وابن عباس رضى الله عنهما؛ قال الشاعر :

وإنّ حراما لا أرى الدهر باكيا ＊ على شَجْوه[(2)] إلا بكيتُ على عُمَر

وروى عن على أن قوما شربوا بالشام وقالوا : هى لنا حلال وتأوّلوا هذه الآية ، فأجمع على وعمر على أن يستتابوا ، فإن تابوا وإلا قتلوا؛ ذكره الكيا الطَّبَرى .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

فيه ثمان مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ أى ليختبرنكم ، والابتلاء الاختبار . وكان الصيد أحد معايش العرب العاربة ، وشائعا عند الجميع منهم ، مستعملا جدا ، فابتلاهم الله فيه مع الإحرام والحرم ، كما ابتلى بنى إسرائيل فى ألا يعتدوا فى السبت . وقيل : إنها نزلت عام الحديبية ؛ أحرم بعض الناس مع النبى صلى الله عليه وسلم ولم يحرم بعضهم ؛ فكان إذا عرض

---

(١) السقيا (بالضم) : موضع بين المدينة ووادى الصفراء .　　(٢) الشجو : الهم والحزن .

صيد اختلفت فيه أحوالهم وأفعالهم ، وآشتبهت أحكامه عليهم ، فأنزل الله هذه الآية بيانا لأحكام أحوالهم وأفعالهم ، ومحظورات حجّهم وعُمرتهم .

الثانيــة ـــ اختلف العلماء من المخاطب بهذه الآية على قولين : أحدهما ـــ أنهم المحِلّون ؛ قاله مالك . الثانى ـــ أنهم المحرمون قاله ابن عباس ؛ وتعلق بقوله تعالى : « لَيَبْلُوَنَّكُمُ » فإن تكليف الامتناع الذى يتحقق به الابتلاء هو مع الإحرام . قال ابن العربى : وهذا لا يلزم ؛ فإن التكليف يتحقق فى المُحِلّ بما شُرط له من أمور الصيد ، وما شُرع له من وصفه فى كيفية الاصطياد . والصحيح أن الخطاب فى الآية لجميع الناس مُحِلّهم ومُحْرِمهم ؛ لقوله تعالى : « لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ » أى ليكلفنكم ، والتكليف كله ابتلاء وإن تفاضل فى الكثرة والقلة ، وتباين فى الضّعف والشدّة .

الثالثــة ـــ قوله تعالى : ﴿ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ﴾ يريد ببعض الصيد ، فمِن للتبعيض ، وهو صيد البر خاصّة ؛ ولم يعمّ الصيد كله لأن للبحر صيدا ، قاله الطّبَرى وغيره . وأراد بالصيد المصيد؛ لقوله : « تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ » .

الرابعــة ـــ قوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ بيان لحكم صغار الصيد وكباره .
وقرأ آبن وثّاب والنَّخَعىّ : « يناله » بالياء منقوطة من تحت . قال مجاهد : الأيدى تنال الفِراخ والبيض وما لا يستطيع أن يفرّ ، والرماح تنال كبار الصيد . وقال آبن وهب قال مالك قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ » وكل شىء يناله آلإنسان بيده أو برمحه أو بشىء من سلاحه فقتله فهو صيد كما قال الله تعالى .

الخامســة ـــ خص الله تعالى الأيدى بالذكر لأنها عُظْم (١) التصرف فى الاصطياد ؛ وفيها تدخل الجوارح والحِبالات ، وما عمل باليد من فِخاخ وشِباك ؛ وخص الرماح بالذكر لأنها عُظْم ما يجرح به الصيد ، وفيها يدخل السهم ونحوه ؛ وقد مضى القول فيما يصاد به من الجوارح والسهام فى أوّل السورة بما فيه الكفاية . والحمد لله .

---

(١) أى معظمه .

السادسة — ما وقع فى الفخ والحبالة فلربها ؛ فإن ألجأ الصيد إليها أحد ولولاها لم يتهيأ له أخذه فربها فيه شريكه . وما وقع فى الجَبْح(١) المنصوب فى الجبل من ذباب النحل فهو كالحبالة والفخ ، وحمام الأبرجة تُرَدّ على أربابها إن استطيع ذلك ، وكذلك نحل الجباح ؛ وقد روى عن مالك . وقال بعض أصحابه : إنه ليس على من حصل الحمام أو النحل عنده أن يردّه . ولو ألجأت الكلاب صيدا فدخل فى بيت أحد أو داره فهو للصائد مرسل الكلاب دون صاحب البيت ، ولو دخل فى البيت من غير اضطرار الكلاب له فهو لرب البيت .

السابعة — احتج بعض الناس على أن الصيد للآخذ لا للمثير بهذه الآية ؛ لأن المثير لم تنل يده ولا رمحه بعدُ شيئا ، وهو قول أبى حنيفة .

الثامنة — كره مالك صيد أهل الكتاب ولم يحرمه ؛ لقوله تعالى : « تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ » يعنى أهل الإيمان ؛ لقوله تعالى فى صدر الآية : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فخرج عنهم أهل الكتاب . وخالفه جمهور أهل العلم ؛ لقوله تعالى : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ » وهو عندهم مثل ذبائحهم . وأجاب علماؤنا بأن الآية إنما تضمنت أكل طعامهم ، والصيد باب آخر فلا يدخل فى عموم الطعام ، ولا يتناوله مطلق لفظه .

قلت : هذا بناء على أن الصيد ليس مشروعا عندهم فلا يكون من طعامهم ، فيسقط عنا هذا الإلزام ؛ فأما إن كان مشروعا عندهم فى دينهم فيلزمنا أكله لتناول اللفظ له ، فإنه من طعامهم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ

(١) الجبح (بجيم مثلثة وموحدة ساكنة) : خلية العسل ؛ ويجمع على (أجبح وجبوح وجباح) .

صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

فيـــه ثلاثون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ هذا خطاب عام لكل مسلم ذكر وأنثى، وهـذا النهى هو الآبتلاء المذكور فى قوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ » الآية . وروى أن أبا اليَسَر — واسمه عمرو بن مالك الأنصارى (١) — كان مُحْرِما عام الحُدَيبية بعُمْرة فقتل حمار وحش فنزلت فيه « لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ » .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ ﴾ القتل هو كل فعـل يُفيت الرُّوح ، وهو أنواع : منها النحر والذبح والخنق والرضخ وشبهه ؛ فحرم الله تعـالى على المحرم فى الصيد كل فعل يكون مُفيتا للرُّوح .

الثالثـــة — من قتـل صيدا أو ذبحه فأ كل منـه فعليه جزاء واحد لقتله دون أكله ؛ وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : عليه جزاء ما أكل؛ يعنى قيمته، وخالفه صاحباه فقالا : لا شىء عليـه سوى الآستغفار؛ لأنه تناول الميتة كما لو تناول ميتة أخرى؛ ولهذا لو أكلها محرِم آخر لا يلزمه إلا الآستغفار . وحجة أبى حنيفة أنه تناول محظور إحرامه ؛ لأن قتله كان من محظورات الإحرام ، ومعلوم أن المقصود من القتل هو التناول ، فإذا كان ما يتوصل به إلى المقصود — محظور إحرامه — موجبا عليه الجزاء فما هو المقصود كان أولى .

الرابعـــة — لا يجـوز عندنا ذبح المحرم للصيد ؛ لنهى الله سـبحانه المحرم عن قتـله ؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعى : ذبح المحرم للصيد ذكاة؛ وتعلق بأنه ذبح صدر من أهله وهو المسـلم، مضاف إلى محـله وهو الأنعام؛ فأفاد مقصوده من حِلّ الأكل ؛ أصـله ذبح الحلال . قلنا : قولكم ذبح صدر من أهله فالمحرم ليس بأهلٍ لذبح الصيد؛ إذ الأهلية لا تستفاد

(١) كذا بالأصل ، واسمه فى « التهذيب » وغيره : كعب بن عمرو ... الخ .

عقلا، وإنما يفيدها الشرع؛ وذلك بإذنه فى الذبح، أو بنفيها وذلك بنهيه عن الذبح، والمحرم منهىّ عن ذبح الصيد؛ لقوله: «لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ» فقد انتفت الأهلية بالنهى. وقولكم أفاد مقصوده فقد اتفقنا على أن المحرم إذا ذبح الصيد لا يحل له أكله، وإنما يأكل منه غيره عندكم؛ فإذا كان الذبح لا يفيد الحِلّ للذابح فأولى وأحْرى ألا يفيده لغيره، لأن الفرع تبع للأصل فى أحكامه؛ فلا يصح أن يثبت له ما لا يثبت لأصله.

الخامسة — قوله تعالى: «الصيد» مصدر عومل معاملة الأسماء، فأوقع على الحيوان المَصيد؛ ولفظ الصيد هنا عام فى كل صيد برىّ وبحرىّ حتى جاء قوله تعالى: «وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً» فأباح صيد البحر إباحة مطلقة؛ على ما يأتى بيانه فى الآية بعد هذا إن شاء الله تعالى.

السادسة — اختلف العلماء فى خروج السباع من صيد البر وتخصيصها منه؛ فقال مالك: كل شىء لا يعدو من السباع مثل الهِرّ والثعلب والضّبع وما أشبهها فلا يقتله المحرم، وإن قتله فَدَاه. قال: وصغار الذئاب لا أرى أن يقتلها المحرم، فإن قتلها فَدَاها؛ وهى مثل فراخ الغربان. ولا بأس بقتل كل ما عدا على الناس فى الأغلب؛ مثل الأسد والذئب والنمر والفَهْد؛ وكذلك لا بأس عليه بقتل الحيات والعقارب والفأرة والغراب والحِدأة. قال إسمعيل: إنما ذلك لقوله عليه السلام: "خَمْسٌ فَواسقُ يُقتلْن فى الحِلّ والحَرَم" الحديث؛ فسماهنّ فسّاقا؛ ووصفهن بأفعالهن؛ لأن الفاسق فاعل، والصغار لا فِعل لهن، ووصف الكلب بالعقور وأولاده لا تعقر؛ فلا تدخل فى هذا النعت. قال إسمعيل: الكلب العَقُور مما يعظم ضرره على الناس. قال: ومن ذلك الحية والعقرب؛ لأنه يخاف منهما، وكذلك الحَدأة والغراب؛ لأنهما يخطفان اللحم من أيدى الناس. قال ابن بُكَير: إنما أُذن فى قتل العقرب لأنها ذات حُمَة (١)؛ وفى الفأرة لقرضها السِّقاء (٢) والحذاء اللذين بهما قوام المسافر. وفى الغراب

---

(١) الحمة: السم أو الإبرة تضرب بها العقرب والزنبور ونحو ذلك.
(٢) السقاء: القربة.

لوقوعه على الظّهر[1] ونَقْبه عن لحومها ؛ وقد روى عن مالك أنه قال : لا يقتل الغراب ولا الحِدَأة إلا أن يضرا . قال إسميعل : وٱختلف فى الزُّنْبُور ؛ فشبهه بعضهم بالحية والعقرب، قال : ولولا أن الزُّنْبور لا يبتدئ لكان أغلظ على الناس من الحية والعقرب، ولكنه ليس فى طبعه من العَداء ما فى الحيّة والعقرب ، وإنما يَحْمى الزُّنبور إذا أُوذِى . قال : فإذا عرض الزُّنْبُور لأحد فدفعه عن نفسه لم يكن عليه شيء فى قتله ؛ وثبت عن عمر بن الخطاب إباحة قتل الزُّنْبور . وقال مالك : يُطعِم قاتله شيئا ؛ وكذلك قال مالك فيمن قتل البُرْغُوث والذّباب والنّمل ونحوه . وقال أصحاب الرأى : لا شيء على قاتل هذه كلها . وقال أبو حنيفة : لا يَقتل المحرمُ من السباع إلا الكلب العَقُور والذئب خاصة، سواء ٱبتدأه أو ٱبتدأهما ؛ وإن قتل غيرهما من السباع فَدَاه . قال : فإن ٱبتدأه غيرهما من السباع فقتله فلا شيء عليه؛ قال : ولا شيء عليه فى قتل الحية والعقرب والغراب والحِدَأة، هذه جملة قول أبى حنيفة وأصحابه إلا زُفَر؛ وبه قال الأوزاعىّ والثّورىّ والحسن ؛ وٱحتجوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم خص دوابّ بأعيانها وأرخص للمحرِم فى قتلها من أجل ضررها؛ فلا وجه أن يزاد عليها إلا أن يجمعوا على شيء فيدخل فى معناها .

قلت : العجب من أبى حنيفة رحمه الله يَحمِل التراب على البُرّ بعلة الكيل، ولا يحمل السباع العادية على الكلب بعلة الفِسْق والعَقْر، كما فعل مالك والشافعى رحمهما الله! وقال زُفَر ٱبن ٱلهُذَيل : لا يقتل إلا الذئب وحده، ومن قتل غيره وهو مُحرِم فعليه الفِدية، سواء ٱبتدأه أو لم يبتدئه؛ لأنه عجماء فكان فعله هَدَرا ؛ وهذا ردّ للحديث ومخالفة له . وقال الشافعى : كل ما لا يؤكل لحمه فللمحرم أن يقتله ؛ وصغار ذلك وكباره سواء، إلا السِّمْع وهو المتولد بين الذئب والضّبع، قال: وليس فى الرَّخَمة والخنافس والقِرْدان وٱلحَلَم[2] وما لا يؤكل لحمه شيء؛ لأن هذا ليس من الصيد، لقوله تعالى : « وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا » فدل أن الصيد

(١) الظهر : الإبل التى يحمل عليها و يركب .

(٢) الحلم — بالتحريك — جمع (الحلمة) وهى الصغيرة من القردان . وقيل : الضخم منها .

الذى حُرّم عليهم ما كان لهم قبل الإحرام حلالا ؛ حكى عنه هذه الجملة المُزَنىّ والرّبيع؛ فإن قيل : فلم تُفدَى القملة وهى تؤذى ولا تؤكل ؟ قيل له : ليس تُفدَى إلا على ما يُفدَى به الشّعر والظُّفر ولُبس ما ليس له لُبْسه؛ لأن فى طرح القملة إماطة الأذى عن نفسه إذا كانت فى رأسه ولحيته ، فكأنه أماط بعض شعره؛ فأما إذا ظهرت فقتلت فإنها لا تؤذى . وقول أبى ثور فى هذا الباب كقول الشافعى؛ قاله أبو عمر .

السابعة — روى ٱلأئمة عن ٱبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خَمسٌ من الدواب ليس على المحرِم فى قتلهنّ جناح الغراب والحِدَأة والعقرب والفأرة والكلب العَقُور" . اللفظ للبخارىّ ؛ وبه قال أحمد وإسحق . وفى كتاب مسلم عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خمسٌ فواسقُ يُقتلْن فى الحِلّ والحَرَم الحية والغراب ٱلأَبقع وٱلفأرة وٱلكلب العَقُور وٱلحُدَيّا" . وبه قالت طائفة من أهل العلم قالوا : لا يقتل من الغربان إلا الأبقع خاصة؛ لأنه تقييد مطلق . وفى كتاب أبى داود عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم: "ويَرمى الغراب ولا يَقتله" . وبه قال مجاهد . وجمهور العلماء على القول بحديث ٱبن عمر ، والله أعلم . وعند أبى داود والترمذىّ : والسّبع العادى ؛ وهذا تنبيه على العلة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ عامّ فى النوعين من الرجال والنساء ، الأحرار والعبيد؛ يقال : رجل حرام وامرأة حرام، وجمع ذلك حُرُم؛ كقولهم : قَذَال وقُذُل . وأَحرَمَ الرجلُ دخل فى الحَرَم؛ كما يقال : أَسهلَ دخل فى السهل . وهذا اللفظ يتناول الزمان والمكان وحالة الإحرام بالاشتراك لا بالعموم . يقال : رجل حرام إذا دخل فى الأشهر الحُرُم أو فى الحَرَم ، أو تلبّس بالإحرام؛ إلا أن تحريم الزمان خرج بالإجماع عن أن يكون معتبرًا ، وبقى تحريم المكان وحالة الإحرام على أصل التكليف؛ قاله ابن العربى .

التاسعة — حَرَم المكان حَرَمان ، حَرَمُ المدينة وحَرَمُ مكة — وزاد الشافعى الطائف ، فلا يجوز عنده قطع شجره ، ولا صيد صيده ، ومن فعل ذلك فلا جزاء عليه — فأما حَرَم

المدينة فلا يجوز فيه الاصطياد لأحد ولا قطع الشجر كحرم مكة، فإن فعل أثم ولا جزاء عليه عند مالك والشافعي وأصحابهما . وقال ٱبن أبي ذئب : عليه الجزاء . وقال سعد : جزاؤه أخذ سَلَبه، وروى عن الشافعيّ . وقال أبو حنيفة : صيد المدينة غير محرّم، وكذلك قطع شجرها . وٱحتج له بعض من ذهب مذهبه بحديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من وجدتموه يصيد في حدود المدينة أو يقطع شجرها فخذوا سَلَبه" . وأخذ سعد سَلَب من فعل ذلك . قال : وقد ٱتفق الفقهاء على أنه لا يؤخذ سَلَب من صاد في المدينة، فدل ذلك على أنه منسوخ . وٱحتج لهم الطحاوىّ أيضا بحديث أنس — ما فعل النُّغَير، فلم ينكر صيده وإمساكه — وهذا كله لا حجة فيـه . أما الحديث الأوّل فليس بالقوىّ ، ولو صح لم يكن في نسخ أخذ السَّلَب ما يسـقط ما صح من تحريم المدينـة، فكم من محرّم ليس عليـه عقوبة في الدنيا . وأما الحديث الثـانى فيجوز أن يكون صيد في غير الحرم . وكذلك حديث عائشة؛ أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وَحْش فإذا خرج لَعِب وٱشتد وأَقبل وأَدبر، فإذا أَحسّ برسول الله صلى الله عليه وسـلم رَبَض، فلم يَتَرَمْرَم(١) كراهية أن يؤذيه . ودليلنـا عليهم ما رواه مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب أن أبا هُريرة قال : لو رأيت الظِّباء تَرتع بالمدينة ما ذَعَرتُها، قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "ما بين لابتَيْها(٢) حرام" فقول أبى هريرة ما ذَعَرتُها دليل على أنه لا يجوز ترويع الصيد في حرم المدينـة، كما لا يجوز ترويعه في حرم مكة . وكذلك نزع زيد بن ثابت النُّهَس — وهـو طائر — من يد شُرَحْبِيل بن سـعد كان صاده بالمدينة؛ دليل على أن الصحابة فهموا مراد رسـول الله صلى الله عليه وسلم في تحريم صـيد المدينة، فلم يجيزوا فيها الاصـطياد ولا تملك ما يصطاد . ومتعلق ٱبن أبي ذئب قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : "اللهم إن ابراهيم حرّم مكة وإني أُحرّم المدينة مثل ما حرّم به مكة" ومثله معه "لا يُختَلى خَلاها(٣) ولا يُعضَد شجرُها ولا يُنفَّر صيدُها" ولأنه حَرَمٌ منع الاصطياد فيـه فتعلق الجزاء به كحرم مكة . قال القـاضي عبد الوهاب : وهذا القول أقيس عنـدى

(١) أى سكن ولم يتحرك . (٢) لابتا المدينة هما حَرّتان يكتنفانها .

(٣) الخَلَى : النبات الرقيق ما دام رطبا؛ ويختلى : يقطع .

على أصولنا ، لا سيما أن المدينة عند أصحابنا أفضل من مكة ، وأن الصلاة فيها أفضل من الصلاة فى المسجد الحرام . ومن حجة مالك والشافعى فى ألا يُحكم عليه بجزاء ولا أخذ سَلَب — فى المشهور من قول الشافعىّ — عموم قوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : "المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْر إلى ثَوْر(١) فمن أحدث فيها حَدَثا أو آوى مُحدِثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفا ولا عَدْلا(٢)" فأرسل صلى الله عليه وسلم الوعيد الشديد ولم يذكر كفّارة . وأما ما ذكر عن سعد فذلك مذهب له مخصوص به ؛ لما روى عنه فى الصحيح أنه ركب إلى قصره بالعَقيق ، فوجد عبدا يقطع شجرا — أو يخبطه — فسلبه ، فلما رجع سعد جاءه أهل العبد فكلموه أن يرد على غلامهم أو عليهم ما أخذ من غلامهم ؛ فقال : معاذ الله أن أرد شيئا نَفَّلنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى أن يرد عليهم ؛ فقوله : «نَفَّلنيه» ظاهره الخصوص . والله أعلم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ ذكر الله سبحانه المتعمد ولم يذكر المخطئ والناسى ؛ والمتعمد هنا هو القاصد للشىء مع العلم بالإحرام . والمخطئ هو الذى يقصد شيئا فيصيب صيدا ، والناسى هو الذى يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه . وٱختلف العلماء فى ذلك على خمسة أقوال : الأول — ما أسنده الدَّارَقُطْنىّ عن ابن عباس قال : إنما التكفير فى العمد ، وإنما غلّظوا فى الخطأ لئلا يعودوا . الثانى — أن قوله : ﴿ مُتَعَمِّدًا ﴾ خرج على الغالب ، فألحق به النادر كأصول الشريعة . الثالث — أنه لا شىء على المخطئ والناسى ؛ وبه قال الطَّبَرىّ وأحمد بن حَنْبل فى إحدى روايتيه ، وروى عن ابن عباس وسعيد ٱبن جُبَير ، وبه قال طاوس وأبو ثور ، وهو قول داود . وتعلق أحمد بأن قال : لما خص الله سبحانه المتعمد بالذكر ، دل على أن غيره بخلافه . وزاد بأن قال : الأصل براءة الذمة فمن

(١) عير جبل بناحية المدينة ، أما ثور فيرى بعض أهل الحديث أن ذكره هنا وَهَم من الراوى ، وإنما هو جبل بمكة ، والصحيح « من عير الى أحد » . وفى « النووى » قال القاضى : أكثر الرواة فى كتاب البخارى ذكروا عيرا وأما ثور فنهم من كنى عنه بكذا ، ومنهم من ترك مكانه بياضا لأنهم اعتقدوا ذكر ثور هنا خطأ .

(٢) لا يقبل منه صرف ولا عدل : الصرف التوبة ، والعدل الفدية . وقيل : الصرف النافلة ، والعدل الفريضة . وقيل : غير ذلك .

آدعى شغلها فعليه الدليل . الرابع — أنه يحكم عليه فى العمد والخطأ والنسيان؛ قاله آبن عباس، وروى عن عمر وطاوس والحسن وابراهيم والزهرىّ، وبه قال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم . قال الزهرىّ : وجب الجزاء فى العمد بالقرآن، وفى الخطأ والنسيان بالسنة؛ قال ابن العربى : إن كان يريد بالسنة الآثار التى وردت عن ابن عباس وعمر فنعما هى ، وما أحسنها أسوة . الخامس — أن يقتله متعمدا لقتله ناسيا لإحرامه — وهو قول مجاهد — لقوله تعالى بعد ذلك : « وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ » . قال : ولو كان ذاكرا لإحرامه لوجبت عليه العقوبة لأوّل مرة ، قال : فدل على أنه أراد متعمدا لقتله ناسيا لإحرامه؛ قال مجاهد: فإن كان ذاكرا لإحرامه فقد حل ولا حج له لارتكابه محظور إحرامه ، فبطل عليه كما لو تكلم فى الصلاة، أو أحدث فيها؛ قال : ومن أخطأ فذلك الذى يجزئه . ودليلنا على مجاهد أن الله سبحانه أوجب الجزاء ولم يذكر الفساد، ولا فرق بين أن يكون ذاكرا للإحرام أو ناسيا له ، ولا يصح آعتبار الحج بالصلاة فإنهما مختلفان؛ وقد روى عنه أنه لا حكم عليه فى قتله متعمدا، ويستغفر الله ، وحجه تام ؛ وبه قال ابن زيد . ودليلنا على داود أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الضَّبع فقال : "هى صيد" وجعل فيها إذا أصابها المحرم كبشا، ولم يقل عمدا ولا خطأ . وقال آبن بكير من علمائنا قوله سبحانه : «مُتَعَمِّدًا» لم يرد به التجاوز عن الخطأ، وإنما أراد « متعمدا » ليبين أنه ليس كابن آدم الذى لم يجعل فى قتله متعمدا كفارة ، وأن الصيد فيه كفّارة، ولم يرد به إسقاط الجزاء فى قتل الخطأ . والله أعلم .

الحادية عشرة — فإن قتله فى إحرامه مرة بعد مرة حُكم عليه كلما قتله فى قول مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وغيرهم ؛ لقول الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » فالنهى دائم مستمر عليه مادام محرما فمتى قتله فالجزاء لأجل ذلك لازم له . وروى عن آبن عباس قال : لا يُحكم عليه مرتان فى الإسلام، ولا يُحكم عليه إلا مرة واحدة ، فإن عاد ثانية فلا يُحكم عليه ، ويقال له : ينتقم الله منك، لقوله تعالى : « وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ » . وبه قال الحسن وإبراهيم ومجاهد

وشُرَيْح . ودليلنا عليهم ما ذكرناه من تَمَادى التحريم فى الإحرام ، وتوجه الخطاب عليه فى دين الإسلام .

الثانية عشرة — قوله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ فيه أربع قراءات؛ «فَجَزَاءٌ مِثْلُ» برفع جزاء وتنوينه، و «مِثْلُ» على الصفة، والخبر مضمر، التقدير فعليه جزاء مماثل واجب أو لازم من النَّعم . وهذه القراءة تقتضى أن يكون المثل هو الجزاء بعينه . و «جَزَاءُ» بالرفع غير منون و «مِثْلِ» بالإضافة أى فعليه جزاءُ مثلِ ما قتل، و «مثل» مقحمة كقولك أنا أكرم مثلك، وأنت تقصد أنا أكرمك . ونظير هذا قوله تعالى: «أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ» التقدير كمن هو فى الظلمات؛ وقوله «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» أى ليس هو كشىء . وهذه القراءة تقتضى أن يكون الجزاء غير المثل؛ إذ الشىء لا يضاف إلى نفسه . وقال أبو على : إنما يجب عليه جزاء المقتول ، لا جزاء مثل المقتول، والإضافة توجب جزاء المثل لا جزاء المقتول . وهو قول الشافعى على ما يأتى . وقوله : ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ صفة لجزاء على القراءتين جميعا . وقرأ الحسن "مِنَ النَّعْمِ" بإسكان العين وهى لغة . وقرأ عبد الرحمن «فَجَزَاءٌ» بالرفع والتنوين «مِثْلَ» بالنصب؛ قال أبو الفتح : «مِثْلَ» منصوبة بنفس الجزاء؛ والمعنى فعليه أن يجزى مثل ما قتل . وقرأ ابن مسعود والأعمش «فجزاؤه مِثل» بإظهار «هاء»؛ ويحتمل أن يعود على الصيد أو على الصائد القاتل .

الثالثة عشرة — الجزاء إنما يجب بقتل الصيد لا بنفس أخذه كما قال تعالى . وفى «المدونة» من اصطاد طائرا فنتف ريشه ثم حبسه حتى نَسَل ريشه فطار، قال : لا جزاء عليه . وكذلك لو قطع يد صيد أو رجله أوشيئا من أعضائه وسلمت نفسه وصح ولحق بالصيد فلا شىء عليه . وقيل : عليه من الجزاء بقدر ما نقصه . ولو ذهب ولم يدر ما فعل فعليه جزاؤه . ولو زَمِن الصيد ولم يلحق بالصيد ، أو تركه مَخُوفا عليه فعليه جزاؤه كاملا .

الرابعة عشرة — ما يُجزَى من الصيد شيئان : دوابٌّ وطيرٌ؛ فيُجزَى ما كان من الدواب بنظيره فى الخلقة والصورة ، ففى النّعامة بَدَنة ، وفى حمار الوحش وبقرة الوحش بقرة، وفى الظبى شاة؛ وبه قال الشافعى . وأقل ما يُجزَى عند مالك ما استيسر من الهدى وكان ضحية؛ وذلك الجَذَع من الضأن والثَّنِيّ مما سواه ، وما لم يبلغ جزاؤه ذلك ففيه إطعام أو صيام . وفى الحمام كله قيمته إلا حمام مكة؛ فإن فى الحمامة منه شاة آتباعا للسّلف فى ذلك . والدُّبْسِىّ والفَوَاخِت والقُمْرِىّ وذوات الأطواق كلّه حمام . وحكى آبن عبد الحكم عن مالك أن فى حمام مكة وفراخها شاة؛ قال : وكذلك حمام الحرم؛ قال : وفى حمام الحِلّ حكومة . وقال أبو حنيفة : إنما يعتبر المثل فى القيمة دون الخِلْقة ، فيقوّم الصيد دراهم فى المكان الذى قتله ، أو فى أقرب موضع إليه إن كان لا يباع الصيد فى موضع قتله؛ فيشترى بتلك القيمة هديا إن شاء ، أو يشترى بها طعاما ويطعم المساكين كل مسكين نصف صاع من برّ ، أو صاعا من شعير ، أو صاعا من تمر . وأما الشافعى فإنه يرى المثل من النَّعم ثم يقوّم المِثل كما فى المتلَفات يقوّم المِثل ، وتؤخذ قيمة المثل كقيمة الشيء؛ فإن المثل هو الأصل فى الوجوب؛ وهذا بيّن وعليه تخرج قراءة الإضافة « فَجَزَاءُ مِثْلِ » . آحتج أبو حنيفة فقال : لو كان الشبه من طريق الخِلقة معتبرا ، فى النّعامة بَدَنة ، وفى الحمار بقرة ، وفى الظبى شاة ، لما أوقفه على عَدلين يحكمان به؛ لأن ذلك قد علم فلا يحتاج إلى الارتياء والنظر؛ وإنما يفتقر إلى العدول والنظر ما تشكل الحال فيه ، ويضطرب وجه النظر عليه . ودليلنا عليه قوله تعالى : « فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » الآية . فالمثل يقتضى بظاهره المثل الخِلْقى الصّورى دون المعنى؛ ثم قال : « مِنَ النَّعَمِ » فبين جنس المثل؛ ثم قال : « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ » وهذا ضمير راجع إلى مثل من النعم؛ لأنه لم يتقدم ذكر لسواه يرجع الضمير عليه؛ ثم قال : « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ » والذى يتصور فيه الهدى مثل المقتول من النَّعم ، فأما القيمة فلا يتصوّر أن تكون هديا ، ولا جرى لها ذكر فى نفس الآية؛ فصح ما ذكرناه . والحمد لله . وقولهم : لو كان الشبه معتبرا لما أوقفه على عَدلين ؛ فالجواب أن آعتبار العدلين إنما وجب للنظر فى حال الصيد من صغر وكبر ، وما لا جنس له مما له جنس ، وإلحاق ما لم يقع عليه نص بما وقع عليه النص .

الخامسة عشرة — من أحرم من مكة فأغلق باب بيته على فراخ حمام فماتت فعليه فى كل فرخ شاة . قال مالك : وفى صغار الصيد مثل ما فى كباره؛ وهو قول عطاء . ولا يُفْدَى عند مالك شيء بعَنَاقٍ ولا جَفْرة؛ قال مالك : وذلك مثل الدّية الصغير والكبير فيهما سواء . وفى الضّب عنده واليَرْبوع(١) قيمتهما طعاما . ومن أهل المدينة من يخالفه فى صغار الصيد، وفى ٱعتبار الجَذَع والثَّنِيّ، ويقول بقول عمر فى الأرنب عَنَاق وفى اليَرْبوع جَفْرة؛ رواه مالك موقوفا . وروى أبو الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "فى الضبع إذا أصابه المحرم كبش وفى الظبي شاة وفى الأرنب عَنَاق وفى اليَرْبوع جَفْرة" قال: والجَفرة التى قد ٱرْتَعت . وفى طريق آخر قلت لأبى الزبير وما الجَفْرة ؟ قال : التى قد فُطِمَتْ ورَعَت . خرجه الدّارَقُطْنِيّ . وقال الشافعي : فى النعامة بَدَنة، وفى فرخها فَصِيل، وفى حمار الوحش بقرة، وفى سَخْلِه عجل؛ لأن الله تعالى حكم بالمثلية فى الخلقة، والصغر والكبر متفاوتان فيجب ٱعتبار الصغير فيه والكبير كسائر المتلفات . قال ٱبن العربي : وهذا صحيح وهو ٱختيار علمائنا؛ قالوا : ولو كان الصيد أعور أو أعرج أو كسيرا لكان المثل على صفته لتتحقق المثلية، فلا يلزم المتلف فوق ما أتلف . ودليلنا قوله تعالى : « فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » ولم يفصل بين صغير وكبير . وقوله : « هَدْيًا » يقتضى ما يتناوله ٱسم الهدى لحق الإطلاق . وذلك يقتضى الهدى التام . والله أعلم .

السادسة عشرة — فى بيض النعامة عُشْر ثمن البَدَنة عند مالك . وفى بيض الحمامة المكية عنده عُشْر ثمن الشاة . قال ٱبن القاسم : وسواء كان فيها فرخ أو لم يكن ما لم يستهل الفرخ بعد الكسر؛ فإن ٱستهل فعليه الجزاء كاملا كجزاء الكبير من ذلك الطير. قال ٱبن المواز: بحكومة عَدلين . وأكثر العلماء يرون فى بيض كل طائر القيمة. روى عكرمة عن ٱبن عباس عن كعب بن عُجْرَة أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى فى بيض نعام أصابه محرم بقدر ثمنه؛ خرجه الدّارَقُطْنِيّ . وروى أبو هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فى بيضة نعام صيام يوم أو إطعام مسكين" .

(١) اليربوع : دويبة فوق الفأر .

السابعة عشرة — وأما ما لا مثل له كالعصافير والفيلة فقيمة لحمه أو عدله من الطعام، دون ما يُراد له من الأعراض لأن المراعَى فيما له مثلٌ وجوبُ مثله ؛ فإن عُدم المثل فالقيمة قائمة مقامه كالغصب وغيره . ولأن الناس قائلان — أى على مذهبين — معتبر للقيمة فى جميع الصيد ؛ ومقتصر بها على ما لا مثل له من النَّعم ؛ فقد تضمن ذلك الإجماع على اعتبار القيمة فيما لا مثل له . وأما الفيل فقيل : فيه بَدَنة من الهجان العظام التى لها سَنامان ؛ وهى بيض خراسانية ؛ فإذا لم يوجد شىء من هذه الإبل فينظر إلى قيمته طعاما ، فيكون عليه ذلك ؛ والعمل فيه أن يجعل الفيل فى مَرْكَب ، وينظر إلى منتهى ما ينزل المركَب فى الماء ، ثم يخرج الفيل ويجعل فى المركب طعام حتى ينزل إلى الحد الذى نزل والفيل فيه ؛ وهذا عَدْله من الطعام . وأما أن ينظر إلى قيمته فهو يكون له ثمن عظيم لأجل عظامه وأنيابه فيكثر الطعام وذلك ضرر .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ روى مالك عن عبد الملك ابن قُرَيْب عن محمد بن سيرين أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى أجريت أنا وصاحب لى فرسين نستبق إلى ثَغْرة ثَنِيَّة[1] ، فأصبنا ظبيا ونحن محرمان فماذا ترى؟ فقال عمر لرجل إلى جنبه : تعال حتى أحكم أنا وأنت ؛ فحكما عليه بعنز ؛ فولى الرجل وهو يقول : هذا أمير المؤمنين لا يستطيع أن يحكم فى ظبى حتى دعا رجلا يحكم معه ، فسمع عمر بن الخطاب قول الرجل فدعاه فسأله ؛ هل تقرأ سورة « المائدة » ؟ فقال : لا ؛ قال : هل تعرف الرجل الذى حكم معى؟ فقال : لا ؛ فقال عمر رضى الله عنه : لو أخبرتنى أنك تقرأ سورة « المائدة » لأوجعتك ضربا ، ثم قال : إن الله سبحانه يقول فى كتابه « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ » وهذا عبد الرحمن بن عوف .

التاسعة عشرة — إذا اتفق الحكمان لزم الحكم ؛ وبه قال الحسن والشافعى . وإن اختلفا نُظر فى غيرهما . وقال محمد بن المواز : لا يأخذ بأرفع قولها ؛ لأنه عمل بغير تحكيم . وكذلك

---

(١) الثنية : كل عقبة مسلوكة فى الجبل .

لا ينتقل عن المِثْل الخِلْقى إذا حكما به إلى الطعام ؛ لأنه أمر قد لزم؛ قاله ٱبن شعبان . وقال ٱبن القاسم : إن أمرَهما أن يحكما بالجزاء من المِثل ففعلا، فأراد أن ينتقل إلى الطعام جاز . وقال ٱبن وهب رحمه الله فى « العتبية » : من السنة أن يُخيِّر الحَكَمَان من أصاب الصيد ، كما خيّره الله فى أن يخرج « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا » فإن ٱختار الهدى حَكَمَا عليه بما يريانه نظيرا لما أصاب ؛ ما بينهما و بين أن يكون عَدْل ذلك شاة لأنها أدنى الهدى؛ وما لم يبلغ شاة حَكَمَا فيه بالطعام ثم خُيِّر فى أن يطعمه، أو يصوم مكان كل مُدّ يوما؛ وكذلك قال مالك فى « المدونة » .

الموفية عشرين — ويستأنف الحكم فى كل ما مضت فيه حكومة أو لم تمض، ولو ٱجتزأ بحكومة الصحابة رضى الله عنهم فيما حكموا به من جزاء الصيد كان حسنا . وقد روى عن مالك أنه ماعدا حمام مكة وحمار الوحش والظّبى والنّعامة لا بد فيه من الحكومة، ويُجتزأ فى هذه الأربعة بحكومة من مضى من السلف رضى الله عنهم .

الحادية والعشرون — لايجوز أن يكون الجانى أحد الحكمين؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعى فى أحد قوليه : يكون الجانى أحد الحكمين؛ وهذا تسامح منه؛ فإن ظاهر الآية يقتضى جانيا وحكمين فحذف بعض العدد إسقاط للظاهر ، وإفساد للمعنى ؛ لأن حكم المرء لنفسه لا يجوز، ولو كان ذلك جائزا لٱستغنى بنفسه عن غيره ؛ لأنه حكم بينه و بين الله تعالى فزيادة ثان إليه دليل على ٱستئناف الحكم برجلين .

الثانية والعشرون — إذا ٱشترك جماعة محرمون فى قتل صيد فقال مالك وأبو حنيفة : على كل واحد جزاء كامل . وقال الشافعى : عليهم كلهم كفارة واحدة لقضاء عمر وعبد الرحمن . وروى الدّارَقُطْنىّ أن موالى لٱبن الزبير أحرموا إذ مرت بهم ضبع فحذفوها[1] بعصيهم فأصابوها، فوقع فى أنفسهم، فأتوا ٱبن عمر فذكروا له فقال : عليكم كلكم كبش؛ قالوا : أو على كل واحد منا كبش؛ قال : إنكم لمُعَزَّزٌ بكم[2]، عليكم كلكم كبش . قال اللغويون : لمُعَزَّز بكم أى لمشدّد

(١) الحذف : الرمى . (٢) كان الموالى قد سألوا قبل ابن عمر — رضى الله عنه — صحابيا فأمر لكل واحد منهم بكفارة، ثم سألوا ٱبن عمر، وأخبروه بفتيا الذى أفتاهم؛ فقال : إنكم لمعزز بكم ... الخ .

عليكم . وروى عن ابن عباس فى قوم أصابوا ضبعا قال : عليهم كبش يتخارجونه[(١)] بينهم . ودليلنا قول الله سبحانه : « وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » وهذا خطاب لكل قاتل . وكل واحد من القاتلين للصيد قاتل نفسا على التمام والكمال، بدليل قتل الجماعة بالواحد، ولولا ذلك ما وجب عليهم القصاص ، وقد قلنا بوجوبه إجماعا منا ومنهم ؛ فثبت ما قلناه .

الثالثة والعشرون — قال أبو حنيفة : إذا قتل جماعة صيدا فى الحرم وهم محلّون عليهم جزاء واحد، بخلاف ما لو قتله المحرمون فى الحلّ والحرم؛ فإن ذلك لا يختلف . وقال مالك : على كل واحد منهم جزاء كامل ؛ بناء على أن الرجل يكون محرما بدخوله الحرم، كما يكون محرما بتلبيته بالإحرام، وكل واحد من الفعلين قد أكسبه صفة تعلق بها نهى، فهو هاتك لها فى الحالتين . وحجة أبى حنيفة ما ذكره القاضى أبو زيد الدّبُوسىّ قال : السر فيه أن الجناية فى الإحرام على العبادة ، وقد ارتكب كل واحد منهم محظور إحرامه . وإذا قتل المحلّون [صيدا][(٢)] فى الحرم فإنما أتلفوا دابة محرّمة بمنزلة ما لو أتلف جماعة دابة؛ فإن كل واحد منهم قاتل دابة، ويشتركون فى القيمة . قال ابن العربى : وأبو حنيفة أقوى منا، وهذا الدليل يستهين به علماؤنا وهو عسير الانفصال علينا .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ المعنى أنهما إذا حكما بالهدى فإنه يُفعل به ما يُفعل بالهدى من الإشعار والتقليد ، ويُرسل من الحِلّ إلى مكة ، ويُنحر ويُتصدق به فيها ؛ لقوله : « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ » ولم يرد الكعبة بعينها فإن الهدى لا يبلغها، إذ هى فى المسجد، وإنما أراد الحرم ولا خلاف فى هذا . وقال الشافعى : لا يحتاج الهدى إلى الحِلّ بناء على أن الصغير من الهدى يجب فى الصغير من الصيد، فإنه يُبتاع فى الحرم ويُهدى فيه .

---

(١) يتخارج بمعنى يخرج كل واحد منهم نصيبه من ثمنه . (٢) الزيادة عن ابن العربى .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ الكفارة إنما هي عن الصيد لا عن الهدى . قال ابن وهب قال مالك : أحسن ما سمعت في الذي يقتل الصيد فيحكم عليه فيه، أنه يقوّم الصيد الذي أصاب، فينظر كم ثمنه من الطعام، فيطعم لكل مسكين مُدّا، أو يصوم مكان كل مُدّ يوما . وقال ابن القاسم عنه : إن قوّم الصيد دراهم ثم قومها طعاما أجزأه؛ والصواب الأوّل . وقال عبد الله بن عبد الحكم مثله؛ قال عنه : وهو في هذه الثلاثة بالخيار؛ أيّ ذلك فعل أجزأه موسرا كان أو معسرا . وبه قال عطاء وجمهور الفقهاء؛ لأن « أو » للتخيير . قال مالك : كل شيء في كتاب الله في الكفارات كذا أو كذا فصاحبه مخير في ذلك، أيّ ذلك أحب أن يفعل فعل . وروى عن ابن عباس أنه قال : إذا قتل المحرم ظبيا أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة؛ فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فعليه صيام ثلاثة أيام؛ وإن قتل إيَّلا(١) أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينا، فإن لم يجد صام عشرين يوما؛ وإن قتل نعامة أو حمارا فعليه بدَنة، فإن لم يجد فإطعام ثلاثين مسكينا، فإن لم يجد فصيام ثلاثين يوما . والطعام مُدّ مُدّ لشبعهم؛ وقاله إبراهيم النَّخَعيّ وحماد بن سلمة، قالوا : والمعنى «أو كفارة طعام» إن لم يجد الهدى . وحكى الطبريّ عن ابن عباس أنه قال : إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه بجزائه ، فإن وجد جزاءه ذبحه وتصدق به، وإن لم يكن عنده جزاؤه قُوِّم جزاؤه بدراهم، ثم قوّمت الدراهم حِنطة، ثم صام مكان كل نصف صاع يوما؛ وقال : إنما أريد بالطعام تبيين أمر الصيام، فمن يجد طعاما، فإنه يجد جزاءً . وأسنده أيضا عن السديّ . ويُعترض هذا القول بظاهر الآية فإنه ينافره .

السادسة والعشرون — اختلف العلماء في الوقت الذي يعتبر فيه المتلَف؛ فقال قوم : يوم الإتلاف . وقال آخرون : يوم القضاء . وقال آخرون : يلزم المتلف أكثر القيمتين ، من يوم الإتلاف إلى يوم الحكم . قال ابن العربي : واختلف علماؤنا كاختلافهم، والصحيح أنه تلزمه القيمة يوم الإتلاف؛ والدليل على ذلك أن الوجوب كان حقا للمتلَف عليه ، فإذا أعدمه المتلِف لزمه إيجاده بمثله، وذلك في وقت العدم .

(١) الإيل قيل : هو (مثلث الهمزة) والوجه الكسر، وهو الذكر من الأوعال .

السابعة والعشرون — أما الهـدى فلا خلاف أنه لا بد له من مكة ؛ لقوله تعالى : « هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ » . وأما الإطعام فٱختلف فيـه قول مالك هل يكون بمكة أو بموضع الإصابة ؛ وإلى كونه بمكة ذهب الشـافعي . وقال عطاء : ما كان من دم أو طعـام فبمكة ويصوم حيث شاء ؛ وهو قول مالك في الصوم ، ولا خلاف فيـه . قال القـاضي أبو محمـد عبـد الوهاب : ولا يجوز إخراج شيء من جزاء الصيـد بغير الحرم إلا الصيام . وقال حمّاد وأبو حنيفة : يُكفِّر بموضع الإصـابة مطلقا . وقال الطّبَريّ : يُكَفِّر حيث شاء مطلقـا ؛ فأما قول أبي حنيفة فلا وجه له في النظر ، ولا أثر فيه . وأما من قال يصوم حيث شاء ؛ فلأن الصوم عبادة تختص بالصائم فتكون في كل موضع كصيام سائر الكفّارات وغيرها . وأما وجه القول بأن الطعام يكون بمكة ؛ فلأنه بدل عن الهدى أو نظير له ، والهدى حق لمساكين مكة ، فلذلك يكون بمكة بدله أو نظيره . وأما من قال إنه يكون بكل موضع ؛ فاعتبار بكل طعام وفدية ، فإنها تجوز بكل موضع . والله أعلم .

الثامنة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً ﴾ العَدْل والعِدْل بفتح العين وكسرها لغتان وهمـا المِثل ؛ قاله الكسائيّ . وقال الفرّاء : عِدْل الشيء بكسر العين مثـله من جنسه ، وبفتح العين مثله من غير جنسه ، ويؤثر هـذا القول عن الكسائيّ ؛ تقول : عندي عِدْل دراهمك من الدراهم ، وعندي عَدْل دراهمك من الثياب ؛ والصحيح عن الكسائيّ أنهما لغتان ، وهو قول البصريين . ولا يصح أن يماثل الصيام الطعام في وجه أقرب من العـدد . قال مالك : يصوم عن كل مُدّ يوما ، وإن زاد على شهرين أو ثلاثة ؛ وبه قال الشـافعيّ . وقال يحيى بن عمر من أصحابنا إنمـا يقال كم من رجل يشبع من هـذا الصيد فيعرف العدد ، ثم يقال كم من الطعام يشبع هـذا العـدد ؛ فإن شاء أخرج ذلك الطعام ، وإن شاء صام عدد أمداده . وهذا قول حسن ٱحتاط فيه ؛ لأنه قد تكون قيمة الصيد من الطعام قليلة ، فبهذا النظر يكثر الإطعام . ومن أهل العلم من لا يرى أن يتجاوز في صيام الجزاء شهران ؛ قالوا : لأنها أعلى الكفارات . وٱختاره ٱبن العربيّ . وقال أبو حنيفة : يصوم عن كل مدّين يوما اعتبارا بفدية الأذى .

التاسعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ الذوق هنا مستعار كقوله تعالى: «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ». وقال: «فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ». وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة اللسان، وهي في هذا كله مستعارة. ومنه الحديث "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا" الحديث. والوبال سوء العاقبة. والمرعى الوبيل هو الذي يُتأذى به بعد أكله. وطعام وبيل إذا كان ثقيلا؛ ومنه قوله (١):

* عقيلةُ شيخٍ كالوبيلِ يَلَنْدَدِ (٢) *

وعبر بأمره عن جميع حاله.

الموفية ثلاثين — قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ يعني في جاهليتكم من قتلكم الصيد؛ قاله عطاء بن أبي رباح وجماعة معه. وقيل: قبل نزول الكفارة. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ يعني للنهي ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي بالكفارة. وقيل: المعنى «فينتقم الله منه» يعني في الآخرة إن كان مستحلا؛ ويكفر في ظاهر الحكم. وقال شُرَيح وسعيد بن جبير: يحكم عليه في أول مرة؛ فإذا عاد لم يحكم عليه، وقيل له: اذهب ينتقم الله منك؛ أي ذنبك أعظم من أن يُكفَّر، كما أن اليمين الفاجرة لا كفّارة لها عند أكثر أهل العلم لعظم إثمها. والمتورعون يتقون النقمة بالتكفير. وقد روى عن ابن عباس يملأ ظهره سوطا حتى يموت. وروى عن زيد بن أبي المُعَلَّى أن رجلا أصاب صيدا وهو محرم فتجوز عنه، ثم عاد فأنزل الله عز وجل نارا من السماء فأحرقته؛ وهذه عبرة للأمة وكفٌّ للمعتدين عن المعصية.

قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ «عزيز» أي منيع في ملكه، ولا يمتنع عليه ما يريده. «ذو انتقام» ممن عصاه إن شاء.

قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

فيه ثلاث عشرة مسئلة:

---

(١) الشعر لطرفة، وصدر البيت:

* فمرّت كهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالةٌ *

(٢) اليلندد: الشديد الخصومة.

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ هذا حكم بتحليل صيد البحر، وهو كل ما صيد من حيتانه . والصيد هنا يراد به المَصِيد، وأضيف إلى البحر لما كان منه بسبب . وقد مضى القول فى البحر فى « البقرة »(١) والحمد لله . و﴿ مَتَاعًا ﴾ نصب على المصدر أى متعتم به متاعا .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ الطعام لفظ مشترك يطلق على كل ما يُطعَم، ويطلق على مطعوم خاص كالماء وحده، والبُرّ وحده، والتمر وحده، واللبن وحده ، وقد يطلق على النوم كما تقدّم؛ وهو هنا عبارة عما قذف به البحر وطَفَا عليه؛ أسند الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس فى قول الله عز وجل: « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ » ــ الآية ــ صيده ما صِيد وطعامه ما لفظ [البحر](٢) . وروى عن أبى هُريرة مثله؛ وهو قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين . وروى عن ابن عباس طعامه ميْتته؛ وهو فى ذلك المعنى . وروى عنه أنه قال : طعامه ما مُلّح منه وبقى؛ وقاله معه جماعة. وقال قوم : طعامه مِلحه الذى ينعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات وغيره .

الثالثــة ــ قال أبو حنيفة : لا يؤكل السمك الطافى ، ويؤكل ما سواه من السمك ، ولا يؤكل شىء من حيوان البحر إلا السمك؛ وهو قول الثورى فى رواية أبى إسحق الفَزَارى عنه . وكره الحسن أكل الطافى من السمك . وروى عن علىّ بن أبى طالب أنه كرهه ، وروى عنه أيضا أنه كره أكل الجِرِّىّ(٣)، وروى عنه أكل ذلك كله وهو أصح؛ ذكره عبد الرزاق عن الثورى عن جعفر بن محمد عن على قال : الجراد والحيتان ذَكِيٌّ؛ فعلىّ مختلف عنه فى أكل الطافى من السمك، ولم يختلف عن جابر أنه كرهه، وهو قول طاوس ومحمد ابن سيرين وجابر بن زيد، واحتجوا بعموم قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » . وبما رواه

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الزيادة عن « الدارقطنى » فى رواية ابن عباس . (٣) الجرى : ضرب من السمك فى ظهره طول، وفى فمه سعة، وليس له عظم إلا عظم اللحيين والسلسلة .

أبو داود والدّارقطنيّ عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كلوا ما حسر[1] عنه البحر وما ألقاه وما وجدتموه ميتا أو طافيا فوق الماء فلا تأكلوه". قال الدّارقطنيّ : تفرد به عبد العزيز بن عُبيد الله، عن وهب بن كَيْسان عن جابر، وعبد العزيز ضعيف لا يحتج به . وروى سفيان الثوريّ عن أبي الزّبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه؛ قال الدّارقطنيّ : لم يسنده عن الثوريّ غير أبي أحمد الزّبيريّ وخالفه وكيع والعدينان وعبد الرزاق ومُؤَمّل وأبو عاصم وغيرهم؛ رووه عن الثوريّ موقوفا وهو الصواب. وكذلك رواه أبو أيوب السَّخْتِياني، وعُبيد الله بن عمر وابن جُرَيْج، وزُهير وحمّاد بن سَلَمة وغيرهم عن أبي الزّبير موقوفا؛ قال أبو داود : وقد أسند هذا الحديث من وجه ضعيف عن ابن أبي ذئب عن أبي الزّبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال الدّارقطنيّ : وروى عن إسمعيل بن أُمية وابن أبي ذئب عن أبي الزّبير مرفوعا، ولا يصح رفعه، رفعه يحيي بن سليم عن إسمعيل ابن أُمية ووقفه غيره . وقال مالك والشافعي وابن أبي ليلى والأوزاعيّ والثوريّ في رواية الأشجعيّ : يؤكل كل ما في البحر من السمك والدّواب، وسائر ما في البحر من الحيوان، وسواء اصطيد أو وجد ميتا؛ واحتج مالك ومن تابعه بقوله عليه الصلاة والسلام في البحر : "هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ مَيتته" . وأصح ما في هذا الباب من جهة الإسناد حديث جابر في الحُوت الذي يقال له «العنْبر» وهو من أثبت الأحاديث خرّجه الصحيحان . وفيه : فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له فقال : "هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا" فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله؛ لفظ مسلم . وأسند الدارقطنيّ عن ابن عباس أنه قال أشهد على أبي بكر أنه قال : السمكة الطافية حلال لمن أراد أكلها . وأسند عنه أيضا أنه قال : أشهد على أبي بكر أنه أكل السمك الطافي على الماء . وأسند عن أبي أيوب أنه ركب البحر في رهط من أصحابه، فوجدوا سمكة طافية على الماء فسألوه عنها فقال : أطيبة هي لم تغير ؟

(١) حسر ونضب وجزر بمعنى .

قالوا : نعم؛ قال : فكُلُوها وآرفعوا نصيبي منها ؛ وكان صائما . وأَسند عن جَبَـلة آبن عطية أن أصحـاب أبي طلحة أصـابوا سمكة طافية فسألوا عنها أبا طلحة فقال : آهـدوها إلىّ . وقال عمر بن الخطاب : الحُوت ذَكِيّ والجراد ذكِيّ كله ؛ رواه عنـه الدّارقطنيّ . فهـذه الآثار ترد قول من كره ذلك، وتخصص عموم الآية، وهو حجة للجمهور؛ إلا أن مالكا كان يكره خنزير المـاء من جهة آسمه ولم يحرمه وقال : أنتم تقولون خنزيرا! وقال الشافعي : لا بأس بخنزير المـاء. وقال الليث : ليس بميتة البحر بأس، قال : وكذلك كلب المـاء وفرس المـاء. قال : ولا يؤكل إنسان المـاء ولا خنزير المـاء .

الرابعـــة ـــ آختلف العلمـاء في الحيوان الذي يكون في البر والبحر هـل يحل صيده للمحرم أم لا ؟ فقـال مالك وأبو مِجلَز وعطاء وسـعيد بن جُبَير وغيرهم : كلّ ما يعيش في البر وله فيه حياة فهو صيد البر، إن قتله المحرم وَدَاه؛ وزاد أبو مِجْلَز في ذلك الضّفادع والسّلاحف والسَّرَطان . الضفادع وأجناسها حرام عنـد أبي حنيفة ، ولا خلاف عنـد الشافعي في أنه لا يجوز أكل الضّـفدع، وآختلف قوله فيما له شـبه في البر ممـا لا يؤكل كالخنزير والكلب وغير ذلك . والصحيح أكل ذلك كله ؛ لأنه نص على الخنزير في جواز أكله ، وهو له شبه في البر مما لا يؤكل . ولا يؤكل عنده التمساح ولا القِرْش[1] ولا الدّرفيل، وكلّ ما له ناب لنهيه عليه السلام عن أكل كل ذي ناب. قال آبن عطية : ومن هذه أنواع لا زوال لها من المـاء فهي لا محالة من صيد البحر، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في « المدوّنة » فإنه قال : الضفادع من صـيد البحر . وروى عن عطـاء بن أبي رَبَاح خلاف ما ذكرناه ، وهو أنه يراعى أكثر عيش الحيوان ؛ سئل عن ابن المـاء أصيد بر هو أم صيد بحر فقـال : حيث يكون أكثر فهو منـه ، وحيث يفرخ فهو منـه ؛ وهو قول أبي حنيفـة . والصواب في ابن المـاء أنه صيد بَرٍّ يرعى ويأكل الحب . قال ابن العربي : الصحيح في الحيوان الذي يكون في البر والبحر منعه ؛ لأنه تعارض فيه دليلان ، دليل تحليل ودليل تحريم ، فيغلب دليل التحريم احتياطا . والله أعلم .

---

(١) القرش : دابة مفترسة من دواب البحر الملح .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ فيه قولان : أحدهما للقيم والمسافر كما جاء في حديث أبي عُبيدة أنهم أكلوه وهم مسافرون ، وأكل النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم ، فبيّن الله تعالى أنه حلال لمن أقام كما أحله لمن سافر . الثاني — أن السَّيارة هم الذين يَركبونه ، كما جاء في حديث مالك والنَّسائيّ ، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هو الطَّهورُ ماؤُه الحِلُّ مَيتته " قال ابن العربيّ قال علماؤنا : فلو قال له النبي صلى الله عليه وسلم « نَعَم » لما جاز الوضوء به إلا عند خوف العطش ؛ لأن الجواب مرتبط بالسؤال ، فكان يكون محالا عليه ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ابتدأ تأسيس القاعدة ، وبيان الشرع فقال : " هو الطَّهور ماؤُه " .

قلت : وكان يكون الجواب مقصورا عليهم لا يَتعدى لغيرهم ، لولا ما تقرر من حُكم الشريعة أن حكمه على الواحد حكمه على الجميع إلا ما نصّ بالتخصيص عليه ، كقوله لأبي بُردة في العَنَاق : " ضَحِّ بها ولن تُجزِئَ عن أحد غيرك " .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ التحريم ليس صفة للأعيان ، وإنما يتعلق بالأفعال ؛ فمعنى قوله : « وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ » أي فعل الصيد ، وهو المنع من الاصطياد ، أو يكون الصيد بمعنى المَصيد ، على معنى تسمية المفعول بالفعل كما تقدّم ، وهو الأظهر لإجماع العلماء على أنه لا يجوز للمحرم قبول صيد وُهِب له ، ولا يجوز له شراؤه ولا اصطياده ولا استحداث ملكه بوجه من الوجوه ، ولا خلاف بين علماء المسلمين في ذلك ؛ لعموم قوله تعالى : « وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا » . ولحديث الصَّعْب بن جَثَّامة على ما يأتي .

السابعة — اختلف العلماء فيما يأكله المحرم من الصَّيد ، فقال مالك والشافعيّ وأصحابهما وأحمد ، وروى عن إسحق ، وهو الصحيح عن عثمان بن عفان : إنه لا بأس بأكل المحرم الصّيد إذا لم يُصَد له ، ولا من أجله ؛ لما رواه التِّرمذيّ والنَّسائيّ والدَّارَقُطْنيّ

عن جابر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " صيد البرّ لكم حلال ما لم تَصيدوه أو يُصَد لكم " قال أبو عيسى : هذا أحسن حديث فى الباب؛ وقال النّسائىّ : عَمرو بن أبى عَمرو ليس بالقوىّ فى الحديث، وإن كان قد رَوى عنه مالك . فإن أكل من صيد صِيد من أجله فَدَاه؛ وبه قال الحسن بن صالح والأوزاعىّ، واختلف قول مالك فيما صِيد لمحرم بعينه . والمشهور من مذهبه عند أصحابه أن المحرم لا يأكل مما صيد لمحرم معيّن أو غير معيّن، ولم يأخذ بقول عثمان لأصحابه حين أُتى بلحم صيد وهو مُحرِم : كُلُوا فلستم مثلى لأنه صِيد من أجلى؛ وبه قالت طائفة من أهل المدينة، وروى عن مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه : أكْل الصيد للمحرم جائز على كل حال إذا اصطاده الحلال، سواء صِيد من أجله أو لم يُصَد لظاهر قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ » فحرّم صيده وقتله على المحرمين، دون ما صاده غيرهم . واحتجوا بحديث البَهْزِىّ — واسمه زيد بن كعب — عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حمار الوحش العَقِير أنه أمر أبا بكر فقسمه فى الرّفاق؛ من حديث مالك وغيره . وبحديث أبى قَتَادة عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه " إنما هى طُعْمة أطعمكموها الله " . وهو قول عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فى رواية عنه، وأبى هُريرة والزُّبير بن العوّام ومجاهد وعطاء وسعيد بن جُبير . وروى عن علىّ بن أبى طالب وابن عباس وابن عمر أنه لا يجوز للمحرم أكل صيد على حال من الأحوال، سواء صِيد من أجله أو لم يُصَد؛ لعموم قوله تعالى : «وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا» . قال ابن عباس : هى مبهمة، وبه قال طاوس وجابر ابن زيد وأبو الشَّعثاء، وروى ذلك عن الثّورىّ، وبه قال إسحق . واحتجوا بحديث الصَّعْب ابن جَثَّامة الليثىّ، أنه أَهْدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حمارا وحشيا، وهو بالأَبْوَاء أو بوَدّان فردّه عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال فلما : أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فى وجهى قال: " إنا لا نردّه عليك إلا أنا حُرُم " خرّجه الأئمة واللفظ لمالك . قال أبو عمر : روى ابن عباس من حديث سعيد بن جُبير ومِقْسَم وعطاء وطاوس عنه، أن الصَّعْب بن جَثَّامة أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لحم حمار وحشٍ؛ وقال سعيد بن جُبير

فى حديثه : عجز حمار وحش فردّه يقطر دما كأنه صِيد فى ذلك الوقت ؛ وقال مِقْسَم فى حديثه : رِجل حمار وحش . وقال عطاء فى حديثه : أهدى له عَضُد صيد فلم يقبله وقال : " إنّا حُرُم " . وقال طاوس فى حديثه : عَضُدا من لحم صيد ؛ حدّث به إسمعيل عن علىّ بن المَدِينىّ (١) ، عن يحي بن سعيد ، عن ٱبن جُرَيْج ، عن الحسن بن مسلم ، عن طاوس ، عن ٱبن عباس ، إلا أن منهم من يجعله عن ابن عباس عن زيد بن أرقم . قال إسمعيل : سمعت سليمان بن حرب يتأول هذا الحديث على أنه صِيد من أجل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك لكان أكله جائزا ؛ قال سليمان : ومما يدل على أنه صِيد من أجل النبي صلى الله عليه وسلم قولهم فى الحديث : فردّه يقطر دما كأنه صِيد فى ذلك الوقت . قال إسمعيل : إنما تأول سليمان هذا الحديث ؛ لأنه يحتاج إلى تأويل ؛ فأما رواية مالك فلا تحتاج إلى التأويل ؛ لأن المحرم لا يجوز له أن يُمسك صيدا حيا ولا يُذَكّيه ؛ قال إسمعيل : وعلى تأويل سليمان بن حرب تكون الأحاديث المرفوعة كلها غير مختلفة إن شاء الله تعالى .

الثامنة — إذا أحرم وبيده صيد أو فى بيته عند أهله فقال مالك : إن كان فى يده فعليه إرساله ، وإن كان فى أهله فليس عليه إرساله ؛ وهو قول أبى حنيفة وأحمد بن حَنْبل . وقال الشافعي فى أحد قوليه : سواء كان فى يده أو فى بيته ليس عليه أن يرسله ؛ وبه قال أبو ثور ، وعن مجاهد وعبد الله بن الحرث مثله ، وروى عن مالك . وقال بن أبى ليلى والثورىّ والشافعىّ فى القول الآخر : عليه أن يرسله ، سواء كان فى بيته أو فى يده ؛ فإن لم يرسله ضَمِن . وجه القول بإرساله قوله تعالى : « وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً » وهذا عام فى الملك والتصرف كله . ووجه القول بإمساكه : أنه معنى لا يمنع من ابتداء الإحرام فلا يمنع من استدامة ملكه . أصله النكاح .

التاسعة — فإن صاده الحلال فى الحل فأدخله الحرم جاز له التصرف فيه بكل نوع من ذبحه ، وأكل لحمه . وقال أبو حنيفة : لا يجوز . ودليلنا أنه معنى يُفعَل فى الصيد فجاز فى الحرم للحلال ، كالإمساك والشراء ولا خلاف فيها .

(١) هذه النسبة إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كان أصله منها ونزل على البصرة . « الأنساب » .

العاشرة — إذا دل الحرام حلالا على صيد فقتله الحلال اختلف فيه؛ فقال مالك والشافعى وأبو ثور : لا شى عليه؛ وهو قول ابن الماجشون . وقال الكوفيون وأحمد وإسحق وجماعة من الصحابة والتابعين : عليه الجزاء؛ لأن المحرم التزم بإحرامه ترك التعرض، فيضمن بالدلالة كالمودَع إذا دل سارقا على سرقة .

الحادية عشرة — واختلفوا فى المحرم إذا دل محرما آخر؛ فذهب الكوفيون وأشهب من أصحابنا إلى أن على كل واحد منهما جزاء . وقال مالك والشافعى وأبو ثور : الجزاء على المحرم القاتل؛ لقوله تعالى : « وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا » فعلّق وجوب الجزاء بالقتل، فدل على انتفائه بغيره؛ ولأنه دالّ فلم يلزمه بدلالته غُرْم، كما لو دل الحلال فى الحرم على صيد فى الحرم . وتعلق الكوفيون وأشهب بقوله عليه السلام فى حديث أبى قَتَادة : " هل أشَرتم أو أعَنتم " وهذا يدل على وجوب الجزاء . والأول أصح . والله أعلم .

الثانية عشرة — إذا كانت شجرة نابتة فى الحل وفرعها فى الحرم فأصيب ما عليه من الصيد ففيه الجزاء؛ لأنه أخذ فى الحرم . وإن كان أصلها فى الحرم وفرعها فى الحل فاختلف علماؤنا فيما أُخذ عليه على قولين : الجزاء نظرا إلى الأصل، ونفيه نظرا إلى الفرع .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم، ثم ذكّر بأمر الحشر والقيامة مبالغة فى التحذير . والله أعلم .

قوله تعالى : جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ ﴾ جعل هنا بمعنى خلق وقد تقدّم . وقد سُمّيت الكعبة كعبة؛ لأنها مربّعة وأكثر بيوت العرب مُدوّرة . وقيل إنما سُمّيت كَعْبَة لنتوئها

وبروزها، فكلّ ناتئ بارز كَعْب، مستديرا كان أو غير مستدير. ومنه كَعْب القَدَم وكُعُوب القناة. وكَعَبَ ثدي المرأة إذا ظهر في صدرها. والبيت سُمّي بذلك لأنها ذات سقف وجدار، وهي حقيقة البيتية وإن لم يكن بها ساكن. وسمّاه سبحانه حراما بتحريمه إياه؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إن مكة حَرَّمها الله ولم يُحَرِّمها الناس" وقد تقدم أكثر هذا مستوفى والحمد لله.

الثانية — قوله تعالى: ﴿ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ أي صلاحا ومعاشا، لأمن الناس بها؛ وعلى هذا يكون «قِيَامًا» بمعنى يقومون بها. وقيل: «قِيَامًا» أي يقومون بشرائعها.

وقرأ ٱبن عامر وعاصم «قِيَمًا» وهما من ذوات الواو فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وقد قيل: «قِوَام». قال العلماء: والحكمة في جَعْلِ الله تعالى هذه الأشياء قياما للناس، أن الله سبحانه خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتنافس والتقاطع والتدابر، والسَّلْب والغارة والقتل والثَّأْر، فلم يكن بدّ في الحكمة الآلهية، والمشيئة الأولية من كافٍّ يدوم معه الحال، ووازِعٍ يُحْمَد معه المآل. قال الله تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فأمرهم الله سبحانه بالخلافة، وجعل أمورهم إلى واحد يَزَعهم عن التّنازع، ويحملهم على التآلف من التقاطع، ويردّ الظالم عن المظلوم، ويقرر كلّ يد على ما تستولى عليه. روى ٱبن القاسم قال حدّثنا مالك أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقول: ما يَزَع الإمامُ أكثر مما يزع القرآن؛ ذكره أبو عمر رحمه الله. وجَوْر السلطان عاما واحدا أقل أذاية من كون الناس فوضى لحظة واحدة؛ فأنشأ الله سبحانه الخليفة لهذه الفائدة، لتجري على رأيه الأمور، ويَكُفّ الله به عادية الجمهور؛ فعظّم الله سبحانه في قلوبهم البيت الحرام، وأوقع في نفوسهم هيبته، وعظّم بينهم حرمته، فكان من لجأ إليه معصوما به، وكان من ٱضطهد محميّا بالكون فيه. قال الله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ». قال العلماء: فلما كان موضعا مخصوصا لا يدركه كل مظلوم، ولا يناله كل خائف جعل الله الشهر الحرام ملجأ آخر وهي:

الثالثـة — وهو آسم جنس ، والمراد الأشهر الثلاثة بإجماع من العرب ، فقرر الله في قلوبهم حرمتها ، فكانوا لا يُروّعون فيها سِرْبا — أى نفسا — ولا يطلبون فيها دما ، ولا يتوقعون فيها ثأرا ، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وآبنه وأخيه فلا يؤذيه . وآقتطعوا فيها ثلث الزمان ، ووصلوا منها ثلاثة متوالية ، فسحة وراحة ومجالا للسياحة فى الأمن والآستراحة ، وجعلوا منها واحدا منفردا فى نصف العام دركا للاحترام ، وهو شهر رجب الأَصَمّ ويسمى مُضَر ، وإنما قيل له الأَصَمّ ؛ لأنه كان لا يُسمع فيه صوت الحديد ، ويسمى مُنْصِل الأَسِنَّة ؛ لأنهم كانوا ينزعون فيه الأسنّة من الرماح ، وهو شهر قريش ، وله يقول عوف بن الأَحْوَص :

وشهر بنى أميّـة والهَدَايا * إذا سقيت مُضرَّجها الدّماءُ

وسماه النبي صلى الله عليه وسلم شهر الله ؛ أى شهر آلِ الله . وكان يقال لأهل الحرم : آلُ الله . ويحتمل أن يريد شهر الله ؛ لأن الله مَتَّنه وشـدّده إذ كان كثير من العرب لا يراه . وسيأتى فى « براءة »(١) أسماء الشهور إن شاء الله . ثم يَسّر لهم الإلهـام ، وشَرع على ألسنة الرسل الكرام الهدى والقلائد ، وهى :

الرابعـة — فكانوا إذا أخذوا بعيرا أشعروه دما ، أو علّقوا عليه نعلا ، أو فعل ذلك الرجل بنفسـه من التقليد — على ما تقدّم بيانه أوّل السـورة — لم يُروّعه أحد حيث لقيه ، وكان الفَيْصل بينه وبين من طلبه أو ظلمه ؛ حتى جاء الله بالإسلام وبيّن الحق بمحمد عليه السلام ، فانتظم الدين فى سِلكه ، وعاد الحق إلى نصابه ، فأسندت الأمامةُ إليه ، وانبنى وجوبهـا على الخلق عليه وهو قوله سبحانه : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ » الآية . وقد مضى فى « البقرة »(٢) أحكام الأمامة فلا معنى لاعادتها .

الخامسة — قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا ﴾ « ذلك » إشارة إلى جعل الله هذه الأمور قياما ؛ والمعنى فعـل الله ذلك لتعلموا أن الله يعـلم تفاصيل أمور السموات والأرض ، ويعلم مصالحكم أيها الناس قبل وبعد ، فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم .

(١) آية ٣٦ (٢) راجع جـ ١ ص ٢٦٣ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ تخويف ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ترجية . وقد تقدّم هذا المعنى .

قوله تعالى : مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ أي ليس له الهداية والتوفيق ولا الثواب ، وإنما عليه البلاغ . وفي هذا ردّ على القَدَرية كما تقدّم . وأصل البلاغ البلوغ ، وهو الوصول . بَلَغ يَبْلُغ بُلوغا ، وأَبلغه إبلاغا ، وتبلَّغ تبلُّغا ، وبالَغه مبالغةً ، وبلَّغه تبليغا ، ومنه البلاغة لأنها إيصال المعنى إلى النفس في حسن صورة من اللفظ . وتبالَغ الرجلُ إذا تعاطى البلاغة وليس ببليغ ، وفي هذا بلاغٌ أي كفاية ؛ لأنه يبلغ مقدار الحاجة . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أي تظهرونه يقال : بدا السرُّ وأبداه صاحبه يُبديه . ﴿ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي ما تسرونه وتخفونه في قلوبكم من الكفر والنفاق .

قوله تعالى : قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال الحسن : « الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » الحلال والحرام . وقال السُّدّي : المؤمن والكافر . وقيل : المطيع والعاصي . وقيل : الرديء والجيد ؛ وهذا على ضرب المثال . والصحيح أن اللفظ عام في جميع الأمور ، يُتصوّر في المكاسب والأعمال ، والناس ، والمعارف من العلوم وغيرها ؛ فالخبيث من هذا كله لا يُفلح ولا يُنجِب ، ولا تحسن له عاقبة وإن كثر ، والطيّب وإن قلّ نافع جميل العاقبة . قال الله تعالى : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا » . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » وقوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ؛ فالخبيث لا يساوى الطيّب مقدارا ولا إنفاقا ، ولا مكانًا ولا ذَهَابا ، فالطيّب يأخذ جهة اليمين ، والخبيث يأخذ جهة الشمال ، والطيّب فى الجنّة ، والخبيث فى النار . وهذا بيّن . وحقيقة الاستواء الاستمرار فى جهة واحدة ، ومثله الاستقامة وضدها الاعوجاج . ولما كان هذا وهى :

الثانيــة — قال بعض علمائنا : إنّ البيع الفاسد يُفسَخ ولا يُمضَى بحوالة سُوق ، ولا بتغير بدن ، فيستوى فى إمضائه مع البيع الصحيح ، بل يفْسخ أبدا ، ويُرَدّ الثمن على المبتاع إن كان قبضه ، وإن تلف فى يده ضمنه ؛ لأنه لم يقبضه على الأمانة ، وإنما قبضه بشبهة عقد . وقيل : لا يُفسَخ نظرا إلى أن البيع إذا فُسخ ورُدّ بعد الفوت يكون فيه ضرر وغَبْن على البائع ، فتكون السلعة تساوى مائة وترد عليه وهى تساوى عشرين ، ولا عقوبة فى الأموال . والأول أصح لعموم الآية ، ولقوله عليه السلام : " من عَمِل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ " .

قلت : وإذا تُتبع هـذا المعنى فى عدم الاستواء فى مسائل الفقه تعددت وكثرت ، فمن ذلك الغاصب وهى :

الثالثــة — إذا بنى فى البقعة المغصوبة أو غَرَس فإنه يلزمه قلع ذلك البناء والغرس لأنه خبيث ، وردّها ؛ خلافا لأبى حنيفة فى قوله : لا يَقلع ويأخذ صاحبها القيمة . وهـذا يَرُدّه قوله عليه السلام : " ليس لِعرْقٍ ظالم[(١)] حقّ " . قال هشام : العرق الظالم أن يَغْرِس الرجل فى أرض غيره ليستحقّها بذلك . قال مالك : العِرْق الظالم كل ما أخذ واحتفر وغُرِس فى غير حقّ . قال مالك : من غَصَب أرضا فزرعها ، أو أكراها ، أو دارا فسكنها

---

(١) الرواية «لعرق» بالتنوين ، وهو على حذف مضاف أى لذى عرق ظالم ، بجعل العرق ظالما والحق لصاحبه ، أو يكون الظالم من صفة صاحب العرق . وإن روى « عِرق » بالإضافة فيكون الظالم صاحب العرق والحق للعرق وهو أحد عروق الشجرة . (غاية النهاية) .

أو أكراها ، ثم استحقها ربها أن على الغاصب كِراء ما سكن وردّ ما أخذ فى الكِراء . واختلف قوله إذا لم يسكنها أو لم يزرع الأرض وعطّلها ؛ فالمشهور من مذهبه أنه ليس عليه فيه شيء ؛ وقد روى عنه أنه عليه كِراء ذلك كله . واختاره الوَقَّار ، وهو مذهب الشافعي؛ لقوله عليه السلام : "ليس لعِرقٍ ظالِمٍ حقٌّ" وروى أبو داود عن أبي الزُّبير أن رجلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : غَرَس أحدهما نخلا فى أرض الآخر ، فقضى لصاحب الأرض بأرضه ، وأمر صاحب النّخل أن يخرج نخله منها ، قال : فلقد رأيتها ، وإنها لتضرب أصولها بالفُؤس حتى أخرجت منها وإنّها لنخل عُمٌّ[(1)]. وهذا نص . قال ابن حبيب : والحكم فيه أن يكون صاحب الأرض مخيّرا على الظالم ، إن شاء حبس ذلك فى أرضه بقيمته مقلوعا ، وإن شاء نزعه من أرضه ؛ وأجر النزع على الغاصب . وروى الدَّارَقُطْنيّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بنى فى رِباعِ[(2)] قوم بإذنهم فله القيمة ومن بنى بغير إذنهم فله النقض" . قال علماؤنا : إنما تكون له القيمة ؛ لأنه بنى فى موضع يملك منفعته . وذلك كمن بنى أو غرس بشبهة فله حقّ ؛ إن شاء رب المال أن يدفع إليه قيمته قائما ، وإن أبى قيل للذى بنى أو غرس : ادفع إليه قيمة أرضه بَرَاحا[(3)] ؛ فإن أبى كانا شريكين . قال ابن الماجِشُون : وتفسير اشتراكهما أن تُقوّم الأرض بَرَاحا ، ثم تُقوّم بعمارتها فما زادت قيمتها بالعمارة على قيمتها بَرَاحا كان العامل شريكا لربّ الأرض فيها ، إن أحبّا قَسَما أو حَبَسا . قال ابن الجَهْم : فإذا دفع رب الأرض قيمة العمارة وأخذ أرضه كان له كِراؤها فيما مضى من السنين . وقد روى عن ابن القاسم وغيره أنه إذا بنى رجل فى أرض رجل بإذنه ثم وجب له إخراجه ، فإنه يعطيه قيمة بنائه مقلوعا . والأول أصح لقوله عليه السلام : "فله القيمة" وعليه أكثر الفقهاء .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ قيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم لا يعجبه الخبيث . وقيل : المراد به النبي

(1) عم : أى تامة . فى طولها والتفافها ؛ واحدتها عميمة وأصلها عُمُمٌ فسكن وأدغم . (2) رباع (جمع ربع) : وهو المنزل . (3) البراح : (بالفتح) : المتسع من الأرض لا زرع فيه ولا شجر .

صلى الله عليه وسلم نفسه، وإعجابه له أن صار عنده عجبا مما يشاهده من كثرة الكفار والمال الحرام، وقلة المؤمنين والمال الحلال . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

فيه عشر مسائل :

الأولى — روى البخاريّ ومسلم وغيرهما — واللفظ للبخاريّ — عن أَنَس قال قال رجل يانبيّ الله من أَبِي ؟ قال : "أبوك فلان" فنزلت الآية . وخرّج أيضا عن أَنَس عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه "فوالله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا" فقام إليه رجل قال : أين مَدْخلى يا رسول الله؟ قال : "النار" . فقام عبد الله بن حُذَافة فقال : من أبي يارسول الله؟ فقال : "أبوك حُذَافة" وذكر الحديث . قال ابن عبد البر : عبد الله بن حُذَافة أسلم قديما، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانيـة، وشهد بَدْرا وكانت فيه دُعَابة[(١)]، وكان رسولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم؛ أرسله إلى كسرى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولما قال من أبي يارسول الله؛ قال : "أبوك حُذافة" قالت له أمه : ما سمعتُ بابن أعقّ منك آمنتَ أن تكون أمك قارفتْ ما يُقـارِف نساء الجاهليـة فتفضحها على أعين الناس! . فقال : والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقت به . وروى التِّرمذيّ والدَّارَقُطْنِيّ عن عليّ رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » قالوا : يا رسـول الله أفى كلّ عام ؟ فسكت، فقـالوا : أفى كلّ عام ؟ قال :

(١) الدعابة : المزاح .

" لا ولو قلتُ نعم لوَجَبتْ " فأنزل الله تعالى « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » الآية . واللفظ للدارَقُطْنِيّ . سئل البخاريّ عن هذا الحديث فقال : حديث حسن إلا أنه مرسَل؛ أبو البَخْتَرِيّ لم يُدرك عليا ، واسمه سعيد . وأخرجه الدارَقُطْنِيّ أيضا عن أبي عِياض عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأيها الناس كتب عليكم الحج " فقام رجل فقال : في كل عام يارسول الله(١) ؟ فأعرض عنه ، ثم عاد فقال : في كل عام يارسول الله ؟ قال : " ومن القائل " قالوا : فلان ؛ قال : " والذى نفسى بيده لو قلت نَعَم لوَجَبتْ ولو وَجَبت ما أطقتموها ولو لم تُطيقوها لكفرتم " فأنزل الله تعالى « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » الآية . وقال الحسن البصريّ في هذه الآية : سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور الجاهلية التي عفا الله عنها ، ولا وجه للسؤال عما عفا الله عنه . ورَوى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البَحِيرة والسّائبة والوَصِيلة والحامِ ؛ وهو قول سعيد بن جُبَير ؛ وقال : ألا ترى أن بعده « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ » .

قلت : وفى الصحيح والمسند كفاية . ويحتمل أن تكون الآية نزلت جوابا للجميع ، فيكون السؤال قريبا بعضه من بعض . والله أعلم . و « أشياء » وزنه أفعال ؛ ولم يصرف لأنه مشبه بحمراء ؛ قاله الكسائيّ . وقيل : وزنه أَفْعِلاء ؛ كقولك : هَيْن وأَهْوِناء ؛ عن الفرّاء والأخفش . ويُصغَّر فيقال : أُشَيَّاء ؛ قال المازِنيّ : يجب أن يُصغَّر شُيَيْآت كما يصغر أصدقاء ؛ في المؤنث صُدَيْقات وفي المذكر صُدَيْقون .

الثانيــة — قال ابن عون : سألت نافعا عن قوله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ فقال : لم تزل المسائل منذ قطّ تُكره . روى مسلم عن المغيرة بن شُعْبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ الله حرّم عُقوقَ الأمهات ووَأْدَ البنات ومَنْعًا وهاتِ وكره لكم ثلاثا قِيلَ وقالَ وكثرةَ السّؤالِ وإضاعةَ المالِ " . قال كثير من العلماء : المراد

(١) بحذف همزة الاستفهام فى هذه الرواية كما فى الدارقطنى .

بقوله " وكثرة السؤال " التكثير من السؤال فى المسائل الفقهية تَنَطُّعا ، وتكلُّفا فيما لم ينزل ، والأغلوطات وتشقيق المولدات ، وقد كان السَّلف يكرهون ذلك ويرونه من التكليف (١) ، ويقولون إذا نزلت النازلة : وُفِّق المسئولُ لها . قال مالك : أدركت أهل هذه البلد وما عندهم علم غير الكتاب والسنة ، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه ، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل . المراد بكثرة المسائل كثرة سؤال الناس الأموال والحوائج إلحاحا واستكثارا ؛ وقاله أيضا مالك . وقيل : المراد بكثرة المسائل السؤال عما لا يَعنى من أحوال الناس بحيث يؤدى ذلك إلى كشف عوراتهم ، والاطلاع على مساوئهم . وهذا مثل قوله تعالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » . قال ابن خُوَيْزِمَنداد : لذلك قال أصحابنا متى قُدِّم إليه طعام لم يسأل عنه من أين هذا ، أو عُرِض عليه شىء يشتريه لم يسأل من أين هو ، وحَمَل أمور المسلمين على السلامة والصحة .

قلت : والوجه حمل الحديث على عمومه فيتناول جميع تلك الأمور كلها . والله أعلم .

الثالثة — قال ابن العربى : اعتقد قوم من الغافلين تحريم أسئلة النَّوازل حتى تقع تعلقا بهذه الآية وليس كذلك ؛ لأن هذه الآية مصرّحة بأن السؤال المنهىّ عنه إنما كان فيما تقع المَساءةُ فى جوابه ، ولا مَسَاءة فى جواب نوازل الوقت فافترقا .

قلت قوله : اعتقد قوم من الغافلين فيه قبح ، وإنما كان الأولى به أن يقول : ذهب قوم إلى تحريم أسئلة النوازل ، لكنه جرى على عادته ، وإنما قلنا كان أولى به ؛ لأنه كان قوم من السلف يكرهها . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يلعن من سأل عما لم يكن ؛ ذكره الدَّارِمىّ فى مسنده ؛ وذكر عن الزهرى قال : بلغنا أن زيد بن ثابت الأنصارىّ كان يقول إذا سئل عن الأمر : أ كان هذا ؟ فإن قالوا نعم قد كان حدّث فيه بالذى يَعلم ، وإن قالوا لم يكن قال فذروه حتى يكون . وأسند عن عَمّار بن يَاسر وقد سئل عن مسئلة فقال :

---

(١) أى لا يجب إلا ببيان ؛ قال ابن العربى قوله تعالى : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » يشبه لكونها من باب التكليف الذى لا يبينه إلا نزول القرآن ، وجعل نزول القرآن سببا لوجوب الجواب .

هـل كان هـذا بعد؟ قالوا : لا ؛ قال : دعونا حتى يكون ، فإذا كان تجشّمناها لكم . قال الدارمِيّ ، حدّثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ، قال حدّثنا ابن فُضيل عن عطاء عن ابن عباس قال : ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسئلة حتى قُبض ، كلهنّ في القـرآن ؛ منهن « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَـرَامِ » ، « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ » ما كانوا يسألون إلا عمّا ينفعهم .

الرابعـــة — قال ابن عبد البر : السؤال اليوم لا يُخاف منه أن ينزل تحريم ولا تحليل من أجله ، فمن سأل مستفهما راغبا في العـلم ونَفْي الجهل عن نفسه ، باحثا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليـه ، فلا بأس به ، فشفاء العِيّ[1] السـؤال ؛ ومن سأل تعنّتا غير متفقـه ولا متعلم فهو الذي لا يحـل قليل سؤاله ولا كثيره ؛ قال ابن العربي : الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة ، وإيضاح سُبُل النظر ، وتحصيل مقدّمات الاجتهاد ، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد ؛ فإذا عرضت نازلة أُتيت من بابهـا ، ونُشدت في مظانّها ، والله يفتح في صوابها .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ فيه غموض ، وذلك أن في أوّل الآية النهي عن السؤال ، ثم قال : « وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ » فأباحه لهم ؛ فقيل : المعنى وإن تسألوا عن غيرها فيما مست الحاجة إليه ، فحذف المضاف ، ولا يصح حمله على غير الحذف . قال الجُرْجانيّ : الكناية في « عنها » ترجع إلى أشياء أخر ؛ كقوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » يعني آدم ، ثم قال : « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً » أي ابن آدم ؛ لأن آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين ، لكن لمـا ذكر الإنسان وهو آدم دلّ على إنسان مثله ، وعُرف ذلك بقرينـة الحال ؛ فالمعنى وإن تسألوا عن أشياء حين يُنزّل القرآن من تحليل أو تحريم أو حُكم ، أو مسّت حاجتكم إلى التفسير ، فإذا سألتم فحينئذ تُبد لكم ؛ فقد أباح هذا النوع من السؤال . ومثاله أنه بيّن عِدّة المطلقة والمتوفّى عنها زوجها والحامل ،

(1) العي : الجهل .

ولم يجر ذكر عِدّة التى ليست بذات قُرْء ولا حامل ، فسألوا عنهـا فنزل « وَٱللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ » . فالنهى إذًا فى شىء لم يكن بهم حاجة إلى السؤال فيـه ؛ فأمّا ما مسّت الحاجة إليه فلا .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أى عن المسئلة التى سلفت منهـم . وقيل : عن الأشياء التى سألوا عنها من أمور الجاهلية وما جرى مجراها . وقيل : العفو بمعنى الترك ؛ أى تركها ولم يُعرِّف بهـا فى حلال ولا حرام فهو معفو عنها فلا تبحثوا عنـه فلعله إن ظهر لكم حكمه ساءكم . وكان عُبيد بن عُمير يقول : إن الله أحلّ وحرّم ، فما أحلّ فآستحلوه ، وما حرّم فاجتنبوه ، وترك بين ذلك أشـياء لم يحلّلها ولم يحرّمها ، فذلك عفو من الله ، ثم يتلو هذه الآية . وخرّج الدّارَقُطْنِىّ عن أبى ثَعْلَبة الخُشَنِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعـالى فرض فرائض فلا تُضيعوها وحرّم حُرُمات فلا تَنتهكوها وحدّ حدودا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها" والكلام على هـذا التقدير فيه تقديم وتأخير ؛ أى لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها إن تبد لكم تسؤكم ، أى أمسك عن ذكرها فلم يوجب فيهـا حُكما . وقيل : ليس فيه تقديم ولا تأخير ؛ بل المعنى قد عفا الله عن مسئلتكم التى سلفت ، وإن كرهها النبى صـلى الله عليه وسلم ، فلا تعودوا لأمثالها . فقوله : « عنها » أى عن المسئلة أو عن السؤالات كما ذكرناه .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَـا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ أخبر تعالى أن قوما من قبلنا قد سألوا آياتٍ مثلها ، فلما أُعطوا وفرضت عليهم كفروا بها ، وقالوا : ليست من عند الله ؛ وذلك كسؤال قوم صالح الناقة ، وأصحاب عيسى المـائدة ؛ وهذا تحذير مما وقع فيه من سبق من الأمم . والله أعلم .

الثامنـــة ــ إن قال قائل : ما ذكرتم من كراهية السّؤال والنّهى عنه ، يعارضه قوله تعالى : « فَٱسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » فالجواب ؛ أن هــذا الذى أمر الله به عباده

هو ماتقرر وثبت وجوبه مما يجب عليهم العمل به ، والذى جاء فيه النهى هو مالم يتعبد الله عباده به ، ولم يذكره فى كتابه . والله أعلم .

التاسعة — روى مسلم عن عامر بن سعد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أعظم المسلمين فى المسلمين جُرْما من سأل عن شيء لم يُحرَّم على المسلمين فحُرّم عليهم من أجل مسئلته " . قال القُشَيْرِىّ أبو نصر : ولو لم يسأل العَجْلانىّ عن الزِّنى لم يثبت اللِّعان . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : هذا محمول على من سأل عن الشيء عَنَتا وعَبثا فعوقب بسوء قصده بتحريم ما سأل عنه؛ والتحريم يعمّ .

العاشرة — قال علماؤنا : لا تعلق للقَدَرية بهذا الحديث فى أن الله تعالى يفعل شيئا من أجل شيء وبسببه ، تعالى عن ذلك؛ فإنّ الله على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم؛ بل السبب والداعى فعل من أفعاله ، لكن سبق القضاء والقدر أن يحرم الشيء المسئول عنه إذا وقع السؤال فيه ؛ لا أن السؤال موجب للتحريم ، وعلة له . ومثله كثير « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » .

قوله تعالى : مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ ﴾ . جعل هنا بمعنى سمّى ، كما قال تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » أى سمّيناه . والمعنى فى هذه الآية ما سمّى الله، ولاسنّ ذلك حُكما، ولا تعبّد به شرعا، بيْد أنه قضى به علما، وأوجده بقدرته وإرادته خلقا؛ فإن الله خالق كل شيء من خير وشر، ونفع وضر، وطاعة ومعصية .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ ﴾ « مِن » زائدة . والبحيرة فعيلة بمعنى مفعولة ، وهى على وزن النَّطيحة والذَّبيحة . وفى الصحيح عن سعيد بن المسيّب : البَحيرة

هى التى يُمنَع دَرُّها للطّواغيت ، فلا يحتلبها أحدٌ من النـاس . وأما السّائبة فهى التى كانوا يُسيّبونهـا لآلهتهم . وقيل : البَحيرة لغة هى الناقة المشقوقة الأذن ؛ يقال : بَحَرتُ أذن الناقة أى شققتها شقّا واسعا ، والناقة بَحيرة أو مبحورة ، وكان البحر علامة التّخلية . قال ابن سِيده يقال : البحيرة هى التى خُلّيت بلا راع ، و يقال للناقة الغَزيرة بَحيرة[(١)] . قال ابن اسحق : البحيرة هى ابنة السائبة ، والسائبة هى الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهنّ ذكر ، لم يُركَب ظهرها ولم يُجزّ و برها ، ولم يَشرب لبنها إلا ضيفٌ ، فما نُتِجت بعد ذلك من أنثى شُقّت أذنها ، وخُلّى سبيلها مع أمها ، فلم يُركَب ظهرُها ولم يُجزّ و برها ، ولم يَشرب لبنها إلا ضيفٌ كما فُعِـل بأمها ؛ فهى البحيرة ابنــة السّائبــة . وقال الشافعى : إذا نُتِجت النـاقة خمسـة أبطن إناثا بُحِرت أذنها فحرمت ؛ قال : محرمة لا يَطعم الناس لحمها ، ولا تُجزئ فى شىء ؛ كذلك البحائر . وقال ابن عَزيز : البَحيرة الناقة إذا نُتِجَت خمسة أبطن فإذا كان الخامس ذكرا نحروه فأكله الرجال والنساء ، و إن كان الخامس أنثى بحروا أذنها — أى شقوه — وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها — وقاله عِكْرِمة — فإذا ماتت حلّت للنساء . والسّائبة البعير يُسـيّب بنذر يكون على الرجل إن سـلّمه الله من مرض ، أو بلّغه منزلة أن يفعل ذلك ، فلا تُحبَس عن رعى ولا ماء ، ولا يركبها أحد ؛ وقال به أبو عبيد ؛ قال الشاعر :

وسائبـــة لله تَنْمِى[(٢)] تَشكُّرا * إن اللهُ عافى عامرا أو مُجاشِعا

وقد يُسيّبون غير الناقة ، وكانوا إذا سيّبوا العبد لم يكن عليه وَلاء . وقيل : السّائبة هى المخلّاة لاقيد عليها ، ولا راعى لها ؛ فاعل بمعنى مفعول ، نحو « عيشة راضية » أى مرضية . من سابت الحيةُ وانسابت ؛ قال الشاعر :

عقرتم ناقة كانت لربّى * وسائبةً فقوموا للعِقابِ

وأما الوصيلة والحام ؛ فقال ابن وهب قال مالك : كان أهل الجاهليـة يعتقون الإبل والغنم يُسيّبونها ؛ فأمّا الحام فمن الإبل ؛ كان الفحل إذا انقضى ضِرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس

(١) قال ابن عطية بعد أن أورد كلام ابن سـيده : أرى أن البحيرة تصلح وتسمن و يغزر لبنها فتشبه الغزيرات بالبحر . (٢) نمت الناقة سمنت .

وسيّبوه ؛ وأما الوصيلة فمن الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثى سيّبوها . وقال ابن عَزيز : الوصيلة في الغنم ؛ قال : كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا ، فإن كان السابع ذكرا ذُبح وأَكل منه الرجال والنّساء ، وإن كان أنثى تُركت في الغنم ، وإن كان ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم تُذبح لمكانها ، وكان لحمها حراما على النّساء ، ولبن الأنثى حراما على النّساء إلا أن يموت منهما شيء فيأكله الرجال والنّساء . والحامي الفحل إذا رُكب ولد ولده . قال :

حَمَاها أبو قابُوسَ في عزِّ مُلْكه * كما قد حَمَى أولادَ أولادِه الفحلُ

ويقال إذا نُتِج من صُلْبه عشرة أبطن قالوا : قد حَمَى ظهرَه فلا يُركب ولا يُمنع من كَلَأ ولا ماء . وقال ابن إسحق : الوَصيلة الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر قالوا : وصلت ؛ فكان ماولدت بعد ذلك للذكور منهم دون الإناث ، إلا أن يموت شيء منها فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم .

الثالثة — روى مسلم عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رأيت عمرو بن عامر الخُزاعيّ يَجرّ قُصْبه(١) في النّار وكان أول من سَيَّب السَّوائب" وفي رواية "عَمرو بن لُحَيّ بن قَمَعة بن خِنْدِف أخا بني كعب هؤلاء يَجرّ قُصْبه في النار" . وروى أبو هُريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجَوْن : رأيت عَمرو بن لُحَيّ بن قَمَعة بن خِنْدِف يَجرّ قُصْبه في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك" فقال أكثم : أخشى أن يضرّني شبهه يارسول الله ؛ قال : "لا إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غيّر دين إسمعيل وبَحّر البحيرة وسَيّب السّائبة وحَمَى الحامي" وفي رواية "رأيته رجلا قصيرا أشعر له وفْرة(٢) يَجرّ قُصْبه في النار" . وفي رواية ابن القاسم وغيره عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يَسار عن النبي صلى الله عليه وسلم "يؤذي أهل النار بريحه" . مرسل ذكره ابن العربي . وقيل : إن أوّل من ابتدع ذلك جُنَادة بن عوف . والله أعلم . وفي الصحيح كفاية . وروى ابن إسحق أن سبب نصب الأوثان ، وتغيير دين إبراهيم — عليه السلام — عمرو

(١) القصب : المعى . (٢) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل شحمة الأذن .

ابن لُحَىّ(١) خرج من مكة إلى الشام، فلما قدم مآب من أرض البَلْقاء، وبهـا يومئذ العماليق أولاد عِمليق — ويقال عِملاق — بن لاوَذ بن سام بن نوح، رآهم يعبـدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نستمطر بها فنمطر، ونستنصر بها فننصر؛ فقال لهم: أفلا تعطونى منها صنما أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنما يقال له «هُبَـل» فقدم به مكة فنصَبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه؛ فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أنزل الله عليه «مَا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ».

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى من قريش وخُزاعة ومشركى العرب ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ﴾ بقولهم: إن الله أمر بتحريمها، ويزعمون أنهم يفعلون ذلك لرضا ربهم فى طاعة الله، وطاعة الله إنما تعلم من قوله، ولم يكن عندهم من الله بذلك قول، فكان ذلك مما يفترونه على الله.

وقالوا: «مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا» يعنى من الولد والألبان «وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً» يعنى إن وضعته ميتا اشترك فيه الرجال والنساء؛ فذلك قوله عز وجل «فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ» أى بكذبهم العذاب فى الآخرة «إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» أى بالتحريم والتحليل. وأنزل عليه «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللّٰهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّٰهِ تَفْتَرُونَ» وأنزل عليه «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» الآية. وأنزل عليه «وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّٰهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ»، «قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

الرابعـــة — تعلّق أبو حنيفة رضى الله عنه فى منعه الأحباس وردّه الأوقاف؛ بأن الله تعالى عاب على العرب ما كانت تفعل من تَسْييب البهائم وحمايتها وحبس أنفسها عنها، وقاس على البحيرة والسائبة؛ والفرق بيّن. ولو عَمَد رجل إلى ضَيْعة له فقال هذه تكون حبسا، لا يُجتَنى ثمرُها، ولا تُزرَع أرضها، ولا يُنتفع منهـا بنفع، لجاز أن يشبّه هـذا بالبحيرة والسائبـة. وقد قال عَلْقمة لمن سأله عن هذه الأشياء: ما تريد إلى شىء كان من عمل أهل الجاهلية وقد ذَهَب؛ وقال نحوه ابن زيد. وجمهور العلماء على القول بجواز الأحباس والأوقاف ما عدا أبا حنيفة

(١) مآب (بهمزة مفتوحة بعدها ألف): مدينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء. (معجم ياقوت).

وأبا يوسف وزُفَر؛ وهو قول شُرَيْح إلا أن أبا يوسـف رجع عن قول أبي حنيفة في ذلك لمـا حدّثه ابن عُلَيَّة عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر أنه اسـتأذن رسول الله صلى الله عليه وسـلم في أن يتصدق بسهمه بخَيْبر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احبس الأصل وسَبِّل الثمرة" (١) . وبه يحتج كل من أجاز الأحباس؛ وهو حديث صحيح قاله أبو عمر . وأيضا فإن المسئلة إجمـاع من الصحابة وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وعائشة وفاطمة وعمرو ابن العاصي وابن الزّبير وجابرا كلّهم وقفوا الأوقاف ، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة مشهورة. وروى أن أبا يوسـف قال لمـالك بحضرة الرشيد : إن الحبس لا يجوز ؛ فقال له مالك : هـذه الأحباس أحباس رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بخَيْبر وفَـدَك وأحباس أصحابه . وأما ما آحتج به أبو حنيفة من الآية فلا حجة فيه؛ لأن الله سبحانه إنما عاب عليهم أَن تصرّفوا بعقولهم بغير شرع توجّه إليهـم ، أو تكليف فُرِض عليهم في قطع طريق الآنتفاع ، وإذهاب نعمة الله ، وإزالة المصلحة التي للعباد في تلك الإبل . وبهـذا فارقت هذه الأمور الأحباس والأوقاف . ومما احتج به أبو حنيفة وزُفَر ما رواه عطاء عن ابن المسيّب قال : سألت شُرَيْحًا عن رجل جعل داره حبسا على الآخر من ولده فقال : لا حبس عن فرائض الله؛ قالوا : فهذا شُرَيْح قاضي عمر وعثمان وعليّ الخلفاءِ الراشدين حَكَم بذلك . واحتج أيضا بما رواه بن لِهيعة عن أخيه عيسى ، عن عِكرمة عن ابن عباس ، قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول بعد ما أنزلت سورة « النّساء » وأنزل الله فيهـا الفرائض نهى عن الحبس . قال الطَّبَرىّ : الصدقة التي يمضيها المتصدّق في حياته على ما أَذِن الله به على لسان نبيه وعَمِل به الأئمة الراشدون ليس من الحبس عن فرائض الله؛ ولا حجة في قول شُرَيْح ولا في قول أحد يخالف السنّة ، وعملَ الصحابة الذين هم الحجة على جميع الخلق ؛ وأما حديث آبن عباس فرواه ابن لِهَيعة ، وهو رجل اختلط عقله في آخر عمره ، وأخوه غير معروف فلا حجة فيه؛ قاله ابن القَصّار .

فإن قيل : كيف يجوز أن تخرج الأرض بالوقف عن ملك أربابها لا إلى ملك مالك؟ قال الطحاوىّ يقال لهم : وما يُنكَر من هـذا وقد اتفقت أنت وخصمك على الأرض يجعلها

---

(١) أى آجعلها وقفا ، وأبح ثمرتها لمن وقفتها عليه .

صاحبها مسجدا للسلمين، ويُخلّى بينهم وبينها، وقد خرجت بذلك من مِلك إلى غير مالك، ولكن إلى الله تعالى؛ وكذلك السِّقايات والجسور والقناطر، فما ألزمت مخالفك في حجتك عليه يلزمك في هذا كله . والله أعلم .

الخامســة — اختلف المجيزون للحبس فيما للمحبِس من التصرف؛ فقال الشافعي : يحرم على الموقِف ملكه كما يحرم عليه ملك رقبة العبد، إلا أنه جائز له أن يتولى صدقته، وتكون بيده ليفرقها ويُسبِّلها فيما أخرجها فيه؛ لأن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — لم يزل يلي صدقته — فيما بلغنا — حتى قبضه الله عز وجل . قال : وكذلك عليّ وفاطمة كانا يليان صدقتهما، وبه قال أبو يوسف . وقال مالك : من حَبَس أرضا أو نخلا أو دارا على المساكين وكانت بيده يقوم بها ويكريها ويقسمها في المساكين حتى مات والحبس في يديه، أنه ليس بحبس ما لم يُجزه غيره وهو ميراث؛ والرَّبع عنده والحوائط والأرض لا ينفذ حبسها، ولا يتم حَوْزها، حتى يتولاه غير من حبسه، بخلاف الخيل والسلاح؛ هذا تحصيل مذهبه عند جماعة أصحابه؛ وبه قال ٱبن أبي ليلى .

السادســة — لا يجوز للواقف أن ينتفع بوقفه؛ لأنه أخرجه لله وقطعه عن ملكه، فانتفاعه بشيء منه رجوع في صدقته؛ وإنما يجوز له الانتفاع إن شرط ذلك في الوقف، أو أن يفتقر إلى المحبَس، أو ورثته فيجوز لهم الأكل منه . ذكر ٱبن حبيب عن مالك قال: من حبس أصلا تجرى غلته على المساكين فإن ولده يعطون منه إذا ٱفتقروا — كانوا يوم حبس أغنياء أو فقراء — غير أنهم لا يُعطون جميع الغلة مخافة أن يندرس الحبس، ولكن يبقى منه سهم للساكين ليبقى عليه ٱسم الحبس؛ ويُكتَب على الولد كتاب أنهم إنما يُعطون منه ما أعطوا على سبيل المسكنة، وليس على حق لهم دون المساكين .

السابعــة — عِتْقُ السّائبة جائز، وهو أن يقول السيِّد لعبده أنت حر وينوى العتق، أو يقول : أعتقتك سائبة؛ فالمشهور من مذهب مالك عند جماعة أصحابه أن وَلاءه لجماعة المسلمين، وعتقه نافذ؛ هكذا روى عنه ابن القاسم وابن عبد الحكم وأشهب وغيرهم، وبه

قال ابن وهب ؛ وروى ابن وهب عن مالك قال : لا يعتق أحد سائبة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الوَلاء وعن هبته ؛ قال ابن عبد البر وهكذا عند كل من ذهب مذهبه : إنما هو محمول على كراهة عتق السائبة لا غير ؛ فإن وقع نَفَذ وكان الحكم فيه ما ذكرناه . وروى ابن وهب أيضا وابن القاسم عن مالك أنه قال : أنا أكره عتق السائبة وأنهى عنه ؛ فإن وقع نفذ وكان ميراثا لجماعة المسلمين، وعقله عليهم . وقال أَصْبَغ : لا بأس بعتق السائبة ابتداء ؛ ذهب إلى المشهور من مذهب مالك؛ وله احتج إسمعيل بن إسحق و إياه تقلّد . ومن حجته في ذلك أن عتق السائبة مستفيض بالمدينة لا ينكره عالم ، وأن عبد الله ابن عمر وغيره من السلف أعتقوا سائبة . وروى عن ابن شهاب وربيعة وأبي الزِّناد، وهو قول عمر بن عبد العزيز وأبي العالية وعطاء وعمرو بن دينار وغيرهم .

قلت : أبو العالية الرِّياحي البصريّ التميميّ — رضي الله عنه — ممن أُعتق سائبة ؛ أعتقته مولاة له من بني رِياح سائبة لوجه الله تعالى، وطافت به على حِلَق المسجد ، واسمه رُفَيْع بن مِهْران ، وقال ابن نافع : لا سائبة اليوم في الإسلام، ومن أعتق سائبة كان ولاؤه له ؛ وبه قال الشافعي وأبو حنيفة وابن الماجِشُون ، ومال إليه ابن العربيّ؛ واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : "من أعتق سائبة فولاؤه له" وبقوله : "إنما الولاء لمن أَعتق" . فنفى أن يكون الولاء لغير معتِق ؛ واحتجوا بقوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ » وبالحديث "لا سائبة في الإسلام" وبما رواه أبو قيس عن هُزَيْل بن شَرَحْبِيل قال قال رجل لعبد الله : إني أعتقت غلاما لي سائبة فماذا ترى فيه ؟ فقال عبد الله : إن أهل الإسلام لا يسيِّبون ، إنما كانت تسيِّب الجاهلية ؛ أنت وارثه ووليّ نعمته " .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ الآية تقدّم معناها والكلام عليها فى « البقرة »(١) فلا معنى لإعادتها .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال علماؤنا : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التحذير مما يجب أن يُحذَّر منه، وهو حال من تقدّمت صفته ممن ركَن فى دينه إلى تقليد آبائه وأسلافه . وظاهر هذه الآية يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس القيام به بواجب إذا استقام الإنسان ، وأنه لا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، لولا ما ورد من تفسيرها فى السنة وأقاويل الصحابة والتابعين على ما نذكره بحول الله تعالى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ معناه احفظوا أنفسكم من المعاصى؛ تقول عليك زيدا بمعنى الزم زيدا ؛ ولا يجوز عليه زيدا ، بل إنما يجرى هذا فى المخاطبة فى ثلاثة ألفاظ ؛ عليك زيدا أى خذْه زيدا ، وعندك عمرا أى حضرك ، ودونك زيدا أى قرُب منك ؛ وأنشد :

* يأيها المائح(٢) دَلْوِى دُونَكا *

وأما قوله : عليه رجلا لَيْسَنِي ؛ فشاذّ .

الثالثـة — روى أبو داود والترمذىّ وغيرهما عن قيس قال : خطبنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : إنكم تقرءون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) راجع ج ٢ ص ٢١٠ وما بعدها طبعة ثانية .

(٢) المائح : هو الذى ينزل إلى قرار البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلو . وتمامه :

* إنى رأيت الناس يحمـدونكا *

" إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح؛ قال إسحق بن إبراهيم سمعت عمرو بن على يقول سمعت وكيعا يقول : لا يصحّ عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا حديثا واحدا ، قلت : ولا إسمعيل عن قيس ، قال : إن إسمعيل روى عن قيس موقوفا . قال النقّاش : وهذا إفراط من وكيع؛ رواه شُعْبة عن سفيان و إسحق عن إسمعيل مرفوعا؛ وروى أبو داود والترمذى وغيرهما عن أبي أميّة الشّعْبانى قال : أتيت أبا ثَعْلبة الخُشَنى فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية ؟ فقال : أية آية ؟ قلت قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » قال أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " [بل][(1)] ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتَ شُحّا مُطاعًا وهَوًى مُتَّبعا ودنيا مُؤْثَرَة و إعجابَ كلّ ذى رأى برأيه فعليكَ بخاصّة نفسك ودع عنك أمر العامّة فإنّ من ورائكم أياما الصبرُ فيهنّ مثلُ القبض على الجمر للعامل فيهنّ مثلُ أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم " وفى رواية قيل يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : " بل أجر خمسين منكم " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . قال ابن عبد البر قوله : " بل منكم " هذه اللفظة قد سكت عنها بعض الرواة فلم يذكرها وقد تقدم . وروى الترمذىّ عن أبي هُريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنكم فى زمان من ترَك منكم عُشْر ما أمر به هلك ثم يأتى زمان من عمل منهم بعُشر ما أُمر به نجا " قال : هذا حديث غريب . وروى عن ابن مسعود أنه قال : ليس هذا بزمان هذه الآية ؛ قولوا الحق ما قُبِل منكم ، فإذا رُدّ عليكم فعليكم أنفسكم . وقيل لابن عمر فى بعض أوقات الفتن : لو تركتَ القول فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : " ليبلّغ الشاهدُ الغائبَ " ونحن شهدنا فيلزمنا أن نبلغكم ، وسيأتى زمان إذا قيل فيه الحق لم يُقبل . فى رواية عن ابن عمر بعد قوله : " ليبلّغ الشاهدُ الغائبَ " فكنا نحن الشهود وأنتم الغُيَّب ، ولكن هذه الآية

---

(1) الزيادة عن الترمذى .

لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم . وقال ابن المبارك قوله تعالى : « عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ » خطاب لجميع المؤمنين، أى عليكم أهل دينكم ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » فكأنه قال : ليأمر بعضكم بعضا، ولينه بعضكم بعضا؛ فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يضركم ضلال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ؛ وهذا لأن الأمر بالمعروف يجرى مع المسلمين من أهل العصيان كما تقدّم ؛ وروى معنى هـذا عن سعيد بن جُبَير. وقال سعيد بن المسيّب : معنى الآية لايضركم من ضل إذا اهتديتم بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : تضمّنت الآية اشتغال الإنسان بخاصة نفسه، وتركه التعرض لمعايب الناس، والبحث عن أحوالهم؛ فإنهم لايسألون عن حاله فلا يسأل عن حالهم، وهـذا كقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » ، « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وقول النبي صلى الله عليه وسـلم : "كن جليس بيتك وعليك بخاصّـة نفسك" . ويجوز أن يكون أريد به الزمان الذى يتعذر فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فينكر بقلبه، ويشتغل بإصلاح نفسه .

قلت : قـد جاء حديث غريب رواه ابن لَهِيعة : قال حدثنا بكر بن سَوَادة الجُذَامىّ عن عُقْبة بن عامر قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف ولا تَنْـه عن منكر وعليك بخاصّة نفسك" قال علمـاؤنا : إنما قال عليه السلام ذلك لتغير الزمان، وفساد الأحوال، وقلة المعينين . وقال جابر بن زيد : معنى الآية ؛ يأيها الذين آمنوا من أبنـاء أولئك الذين بحّروا البحيرة وسيّبوا السّوائب ؛ عليكم أنفسكم فى الاستقامة على الدّين، لا يضركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم ؛ قال : وكان الرجل إذا أسلم قال له الكفار سفّهتَ آباءك وضلّلتَهم وفعلتَ وفعلتَ ؛ فأنزل الله الآية بسبب ذلك . وقيل : الآية فى أهل الأهواء الذين لا ينفعهم الوعظ؛ فإذا علمت من قوم أنهم لا يقبلون، بل يستخفون ويظهرون فاسكت عنهم . وقيل : نزلت فى الأسارى الذين عذّبهم المشركون حتى ارتدّ بعضهم، فقيل لمن بقى على الإسـلام : عليكم أنفسكم لا يضركم ارتداد أصحابكم . وقال سعيد بن جُبَير : هى

فى أهل الكتاب — وقال مجاهـد : فى اليهود والنصارى ومن كان مثلهم ؛ يذهبان إلى أن المعنى لا يضركم كفر أهل الكتاب إذا أدوا الجزية . وقيل : هى منسوخة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ قاله المهدوى . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ولا يعلم قائله .

قلت : قد جاء عن أبى عبيد القاسم بن سلّام أنه قال : ليس فى كتاب الله تعالى آية جمعت الناسخ والمنسوخ غير هذه الآية . قال غيره : الناسخ منها قوله : « إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ » والهدى هنا هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والله أعلم .

الرابعـة — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر متعين متى رُجى القبول ، أو رُجى ردّ الظالم ولو بعُنف ، مالم يخف الآمر ضررا يلحقه فى خاصته ، أو فتنة يُدخلها على المسلمين ؛ إما بشقّ عصا ، وإما بضرر يلحق طائفة من النـاس ؛ فإذا خيف هذا فـ«عليكم أنفسكم» مُحْكَمٌ واجب أن يوقف عنده . ولا يشترط فى النّـاهى أن يكون عدلا كما تقدم؛ وعلى هـذا جماعة أهل العلم فاعلمه .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

فيه سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال مكيّ — رحمه الله — : هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعرابا ومعنى وحُكْما؛ قال ابن عطية : هذا كلام من لم يقع له الثَّلَج(١) في تفسيرها؛ وذلك بين من كتابه رحمه الله .

قلت : ماذكره مكي — رحمه الله — ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضا،ولا أعلم خلافا أن هذه الآيات نزلت بسبب تميم الدّارِيّ وعَدِيّ بن بَدَّاء . روى البخاريّ والدّارَقُطْنِيّ وغيرهما عن ابن عباس قال كان تميم الدّارِيّ وعَدِيّ يختلفان إلى مكة ، فخرج معهما فتًى من بني سهم فتوفي بأرض ليس بها مسلم ، فأوصى إليهما ؛ فدفعا تركته الى أهله وحَبَسا جاماً(٢) من فضة مُخَوَّصًا بالذهب ، فاستحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كتمتُما ولا اطلعتُما ؛ ثم وجد الجامُ بمكة فقالوا : اشتريناه من عَدِيّ وتميم ؛ فجاء رجلان من ورثة السَّهْمِيّ فحلفا أن هذا الجام للسَّهْمِيّ . ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا ؛ قال : فأخذوا الجام؛ وفيهم نزلت هذه الآية . لفظ الدّارَقُطْنِيّ . وروى التِّرمذيّ عن تميم الدّارِيّ في هذه الآية « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ » بَرِئَ منها الناس غيري وغير عديّ بن بَدَّاء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام بتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبني سَهْم يقال له بُدَيْل ابن أبي مريم بتجارة ، ومعه جام من فضة يريد به المَلِك ، وهو عُظْم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما ، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله ؛ قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف

(١) ثلجت النفس بالشيّ ثلجا اشتفت به واطمأنت إليه ؛ وقيل : عرفته وسرت به .

(٢) الجام إناء من فضة ؛ وجام مخوص أي عليه صفائح الذهب مثل خوص النخل .

درهم ثم اقتسمناها أنا وعدىّ بن بَدّاء، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا : ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره؛ قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تأثّمتُ من ذلك، فأتيت أهله وأخبرتهم الخبر، وأديت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البيّنة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يُقطع به على أهل دينه(١)، فحلف فأنزل الله عز وجل «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلى قوله «بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ» فقام عمرو بن العاصي ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من يد عدى بن بَدّاء. قال أبو عيسى : هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح. وذكر الواقدىّ أن الآيات الثلاث نزلت فى تميم وأخيه عدىّ، وكانا نصرانيين، وكان متجرهما إلى مكة، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قدم ابن أبى مريم مولى عمرو بن العاصى المدينة وهو يريد الشام تاجرا، فخرج مع تميم وأخيه عدىّ؛ وذكر الحديث. وذكر النقّاش قال : نزلت فى بُدَيْل بن أبى مريم مولى العاصى بن وائل السَّهْمِىّ؛ كان خرج مسافرا فى البحر إلى أرض النّجاشى، ومعه رجلان نصرانيان أحدهما يسمّى تميما وكان من لَخْم وعَدِى بن بَدّاء، فمات بُدَيْل وهم فى السفينة فرُمى به فى البحر، وكان كتب وصيته ثم جعلها فى المتاع فقال : أبلغا هذا المتاع أهلى، فلما مات بُدَيْل قبضا المال، وأخذا منه ما أعجبهما فكان فيما أخذا إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال، منقوشا مموّها بالذهب؛ وذكر الحديث. وذكره سُنَيد وقال : فلما قدموا الشام مرض بُدَيْل وكان مسلما؛ الحديث.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ ورد «شهد» فى كتاب الله تعالى بأنواع مختلفة؛ منها قوله تعالى : «وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ» قيل : معناه أحضروا. ومنها «شَهِد» بمعنى قَضَى أى علِم؛ قاله أبو عُبيدة، كقوله تعالى «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ». ومنها «شَهِد» بمعنى أقر، كقوله تعالى : «وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ». ومنها «شَهِد» بمعنى حَكَم؛ قال الله تعالى «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا». ومنها «شَهِد» بمعنى حَلَف؛ كما فى اللعان. «وشَهِد»

(١) يقطع : يعظم.

بمعنى وَصَّى كقوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ » . وقيل : معناها هنا الحضور للوصية؛ يقال : شهدت وصية فلان أى حضرت . وذهب الطّبرىّ إلى أن الشهادة بمعنى اليمين؛ فيكون المعنى يمين ما بينكم أن يحلف اثنان؛ واستدل على أن ذلك غير الشهادة التى تؤدّى للمشهود له بأنه لا يُعلَم لله حكم يجب فيه على الشاهد يمين . واختار هذا القول القفّال، وسمّيت اليمين شهادة؛ لأنه يثبت بها الحكم كما يثبت بالشهادة . واختار ابن عطية أن الشهادة هنا هى الشهادة التى تُحفَظ فتُؤدّى، وضعّف كونها بمعنى الحضور واليمين .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ قيل : معناه ما بينكم فحذفت « ما » وأضيفت الشهادة إلى الظرف، وآستعمل آسما على الحقيقة، وهو المسمى عند النحو بين بالمفعول على السعة؛ كما قال :

* ويوما شهدناه سُلَيما وعامرا (١) *

أراد شهدنا فيه . وقال تعالى : « بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ » أى مكركم فيهما . وأنشد :

تُصافِحُ من لاقيتَ لى ذا عداوة * صِفاحًا وعنّى بين عَيْنَيك مُنْزَوِى

أراد ما بين عينيك فحذف؛ ومنه قوله تعالى : « هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ » أى ما بينى وبينك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِذَا حَضَرَ ﴾ معناه إذا قارب الحضور، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميت . وهذا كقوله : « فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ » . وكقوله : « إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ » ومثله كثير . والعامل فى « إذا » المصدر الذى هو « شهادة » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ﴾ « حين » ظرف زمان والعامل فيه « حضر » . وقوله : « ٱثنانِ » يقتضى بمطلقه شخصين، ويحتمل رجلين، إلا أنه لما قال بعد ذلك : « ذَوَا عَدْلٍ » بيّن أنه أراد رجلين؛ لأنه لفظ لا يصلح إلا للمذكر، كما أن « ذواتا » لا تصلح إلا للمؤنث . وارتفع « اثنان » على أنه خبر المبتدإ الذى هو « شهادة »؛

---

(١) هذا صدر بيت لرجل من بنى عامر؛ وتمامه : * قليل سوى الطعن النهال نوافله . * وسليم وعامر قبيلتان من قيس عيلان .

قال أبو علىّ : « شهادة » رفع بالابتداء والخبر فى قوله : « اثنان » ؛ التقدير شهادة بينكم فى وصاياكم شهادة آثنين ؛ فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ؛ كما قال تعالى : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » أى مثل أمهاتهم . ويجوز أن يرتفع « اثنان » بشهادة ؛ التقدير وفيما أنزل عليكم أو ليكن منكم أن يشهد اثنان . أو ليقم الشهادة اثنان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ « ذوا عدل » صفة لقوله : « اثنان » و « منكم » صفة بعد صفة . وقوله : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أى أو شهادة آخرين من غيركم ؛ فمن غيركم صفة لآخرين . وهذا الفصل هو المشكل فى هذه الآية ، والتحقيق فيه أن يقال : اختلف العلماء فيه على ثلاثة أقوال :

الأول — أن الكاف والميم فى قوله : « منكم » ضمير للسلمين « وَآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » للكافرين؛ فعلى هذا تكون شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة فى السفر إذا كانت وصية، وهو الأشبه بسياق الآية ، مع ما تقرر من الأحاديث . وهو قول ثلاثة من الصحابة الذين شاهدوا التنزيل ؛ أبو موسى الأشعرىّ، وعبدالله بن قيس، وعبدالله بن عباس ؛ فمعنى الآية من أولها إلى آخرها على هذا القول ؛ أن الله تعالى أخبر أن حكمه فى الشهادة على الموصى إذا حضر الموت أن يكون شهادة عدلين ؛ فإن كان فى سفر وهو الضرب فى الأرض، ولم يكن معه أحد من المؤمنين ، فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر، فإذا قدما وأدّيا الشهادة على وصيته حلفا بعد الشهادة أنهما ما كَذَبا وما بدّلا ، وأن ما شهدا به حق ، ما كتما فيه شهادة، وحُكِم بشهادتهما ؛ فإن عُثِر بعد ذلك على أنهما كَذَبا أو خانا ، ونحو هذا مما هو إثم حلف رجلان من أولياء الموصى فى السفر، وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما . هذا معنى الآية على مذهب أبى موسى الأشعرىّ، وسعيد بن المسيّب ، ويحيى بن يَعْمَر ، وسعيد بن جُبير وأبى مِجْلَز وإبراهيم وشُرَيح وعَبِيدة السَّلمانى ، وابن سيرين ومجاهد وقَتادة والسُّدّى وابن عباس وغيرهم . وقال به من الفقهاء سفيان الثورىّ، ومال إليه أبو عُبيد القاسم بن سلّام لكثرة من قال به . واختاره أحمد بن حَنْبل وقال : شهادة أهل الذمة جائزة على المسلمين فى السفر

عند عدم المسلمين؛ كلهم يقولون « منكم » من المؤمنين ومعنى « من غيركم » يعنى الكفار . قال بعضهـم : وذلك أن الآية نزلت ولا مؤمن إلا بالمدينـة ، وكانوا يسافرون بالتجارة صحبة أهـل الكتاب وعبدة الأوثان وأنواع الكفرة . والآية محكمـة على مذهب أبى موسى وشُرَيْح وغيرهما .

القول الثانى — أن قوله سبحانه : « أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » منسوخ؛ هذا قول زيد بن أسلم والنَّخَعىّ ومالك، والشافعىّ وأبى حنيفة وغيرهم من الفقهاء، إلا أن أبا حنيفة خالفهم فقال : تجوز شهادة الكفار بعضهـم على بعض ، ولا تجوز على المسلمين؛ واحتجوا بقوله تعـالى : « مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ » وقوله : « وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ »؛ فهؤلاء لأنهم زعموا أن آية الدَّين من آخر ما نزل ، وأن فيها « مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ » فهو ناسخ لذلك؛ ولم يكن الإسلام يومئذ إلا بالمدينـة، فجازت شهادة أهل الكتاب ، وهو اليوم طبق الأرض فسقطت شهادة الكفار، وقد أجمع المسلمون أن شهادة الفُسّاق لا تجوز ، والكفار فُسّاق فلا تجوز شهادتهم .

قلت : ما ذكرتموه صحيح إلا أنا نقول بموجبه ، وأن ذلك جائز فى شهادة أهل الذمة على المسلمين فى الوصية فى السفر خاصة للضرورة بحيث لا يوجد مسلم، وأما مع وجود مسلم فلا، ولم يأت ما آدعيتموه من النّسخ عن أحد ممن شهد التنزيل ؛ وقـد قال بالأول ثلاثة من الصحابة وليس ذلك فى غيره ، ومخالفة الصحابة إلى غيرهم ينفر عنـه أهل العـلم . ويقوّى هـذا أن سورة « المـائدة » من آخر القرآن نزولا حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما : إنه لا منسوخ فيهـا . وما آدعوه من النّسـخ لا يصح؛ فإن النّسخ لا بد فيـه من إثبات الناسخ على وجه يتنافى الجمع بينهما مع تراخى الناسخ، فما ذكروه لا يصح أن يكون ناسخا؛ فإنه فى قصة غير قصة الوصية لمكان الحاجة والضرورة، ولا يمتنع اختلاف الحكم عند الضرورات، ولأنه ربمـا كان الكافر ثقة عند المسلم ويرتضيه عند الضرورة ، فليس فيما قالوه ناسخ .

القول الثالث — أن الآية لا نسخ فيهـا ؛ قاله الزُّهرىّ والحسن وعِكْرِمـة ؛ ويكون معنى قوله : « منكم » أى من عشيرتكم وقرابتكم ؛ لأنهم أحفظ وأضبط وأبعد عن النّسيان .

ومعنى قوله : « أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » أى من غير القرابة والعشيرة ؛ قال النحاس : وهذا ينبنى على معنى غامض فى العربية ، وذلك أن معنى « آخر » فى العربية من جنس الأول ؛ تقول : مررت بكريم وكريم آخر ؛ فقوله « آخر » يدل على أنه من جنس الأول ، ولا يجوز عند أهل العربية مررت بكريم وخسيس آخر ؛ ولا مررت برجل وحمار آخر ، فوجب من هذا أن يكون معنى قوله : « أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » أى عدلان ، والكفار لا يكونون عدولا فيصح على هذا قول من قال « من غيركم » من غير عشيرتكم من المسلمين . وهذا معنى حسن من جهة اللسان ، وقد يحتج به لمالك ومن قال بقوله ؛ لأن المعنى عندهم من غيركم من غير قبيلتكم على أنه قد عورض هذا القول بأن فى أول الآية « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فخوطب الجماعة من المؤمنين .

السابعة — استدل أبو حنيفة بهذه الآية على جواز شهادة الكفار من أهل الذمة فيما بينهم ؛ قال : ومعنى « أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ » أى من غير أهل دينكم ، فدل على جواز شهادة بعضهم على بعض ؛ فيقال له : أنت لا تقول بمقتضى هذه الآية ، لأنها نزلت فى قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين وأنت لا تقول بها ، فلا يصح احتجاجك بها . فإن قيل : هذه الآية دلت على جواز قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين من طريق النطق ، ودلت على قبول شهادتهم على أهل الذمة من طريق التنبيه ، وذلك أنه إذا قبلت شهادتهم على المسلمين فلأن تقبل على أهل الذمة أولى ، ثم دل الدليل على بطلان شهادتهم على المسلمين ، فبقى شهادتهم على أهل الذمة على ما كان عليه ، وهذا ليس بشىء ؛ لأن قبول شهادة أهل الذمة على أهل الذمة فرع لقبول شهادتهم على المسلمين ؛ فإذا بطلت شهادتهم على المسلمين وهى الأصل فلأن تبطل شهادتهم على أهل الذمة وهى فرعها أحرى وأولى . والله أعلم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى سافرتم ؛ وفى الكلام حذف تقديره إن أنتم ضربتم فى الأرض . ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ فأوصيتم إلى اثنين عدلين فى ظنكم ، ودفعتم إليهما ما معكم من المال ، ثم متم وذهبا إلى ورثتكم بالتركة فارتابوا فى أمرهما ،

وادعوا عليهما خيانة ، فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة ، أى تستوثقوا منهما ؛ وسمى الله تعالى الموت فى هذه الآية مصيبة ؛ قال علماؤنا : والموت وإن كان مصيبة عظمى ، ورزية كبرى ، فأعظم منه الغَفْلة عنه ، والإعراض عن ذكره ، وترك التفكر فيه ، وترك العمل له ، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر ، وفكرة لمن فكّر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم "لو أن البهائم تعلم من الموت ماتعلمون ما أكلتم منها سمينا" . ويروى أن أعرابيا كان يسير على جمل له ، فخر الجمل ميتا فنزل الأعرابىّ عنه ، وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول : مالك لا تقوم ؟! مالك لا تنبعث ؟! هذه أعضاؤك كاملة ، وجوارحك سالمة ، ما شأنك ؟! ما الذى كان يحملك ؟! ما الذى كان يبعثك ؟! ما الذى صرّعك ؟! ما الذى عن الحركة منعك ؟! ثم تركه وانصرف متفكرا فى شأنه ، متعجبا من أمره .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ قال أبو على : «تحبسونهما» صفة لـ«آخران» واعترض بين الصفة والموصوف بقوله : « إن أنتم » . وهذه الآية أصل فى حبس من وجب عليه حق ، والحقوق على قسمين ؛ منها ما يصلح استيفاؤه معجلا ، ومنها ما لا يمكن استيفاؤه إلا مؤجلا ؛ فإن خُلِّى من عليه غاب واختفى وبطل الحق وتَوِى (1) فلم يكن بدّ من التوثق منه ؛ إما بعوض عن الحق وهو المسمى رَهْنا ، وإما بشخص ينوب منابه فى المطالبة والذمة وهو الحميل (2) ، وهو دون الأوّل ؛ لأنه يجوز أن يغيب كمغيبه ويتعذر وجوده كتعذره ولكن لا يمكن أكثر من هذا ؛ فإن تعذرا جميعا لم يبق إلا التوثق بحبسه حتى تقع منه التوفية لما كان عليه من حق ، أو تبين عسرته .

العاشرة — فإن كان الحق بدنيا لا يقبل البدل كالحدود والقصاص ولم يتفق استيفاؤه معجّلا لم يكن فيه إلا التوثق بسجنه ، ولأجل هذه الحكمة شُرِع السجن ؛ روى أبو داود والترمذىّ وغيرهما عن بَهْز بن حَكيم عن أبيه عن جده أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حبس رجلا فى تهمة . وروى أبو داود عن عمرو بن الشَّرِيد عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) توى المال : ذهب فلم يرج . (2) الحميل : الكفيل .

قال : " لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَه وعُقوبتَه " . قال ابن المبـارك : يحل عِرضـه يُغلَّظ له ، وعقوبته يُحبَس له ، قال الخَطَّابيّ : الحبس على ضربين؛ حبس عقوبة ، وحبس آستظهار ، فالعقوبة لا تكون إلا فى واجب ، وأما ما كان فى تهمة فإنمـا يستظهر بذلك ليستكشف به ما وراءه؛ وقد رُوى أنه حَبَس رجلا فى تهمة ساعة من نهار ثم خَلَّى عنه . وروى مَعْمَر عن أيوب عن آبن سِـيرين قال : كان شُرَيْح إذا قضى على رجل بحق أَمَر بحبسـه فى المسجد إلى أن يقوم فإن أعطاه حقه وإلا أَمَر به إلى السجن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ يريد صـلاة العصر؛ قاله الأكثر من العلماء؛ لأن أهل الأديان يعظّمون ذلك الوقت ويتجنبون فيه الكذب واليمين الكاذبة . وقال الحسن : صـلاة الظهر . وقيل : أيّ صلاة كانت . وقيل : من بعـد صلاتهما على أنهما كافران؛ قاله السُّدىّ . وقيل : إن فائدة اشتراطه بعد الصلاة تعظيما للوقت ، وإرهابا به؛ لشهود الملائكة ذلك الوقت؛ وفى الصحيح " من حَلَف على يمين كاذبة بعـد العصر لقى الله وهو عليه غضبان " .

الثانية عشرة — هذه الآية أصل فى التّغليظ فى الأيمان ؛ والتّغليظ يكون بأربعة أشياء؛ أحدها — الزمان كما ذكرنا . الثـانى — المكان كالمسجد والمنبر ، خلافا لأبى حنيفة وأصحابه حيث يقولون : لا يجب استحلاف أحد على منبر النبى صلى الله عليه وسـلم ، ولا بين الرُّكْن والمقام لا فى قليل الأشـياء ولا كثيرها؛ وإلى هـذا القول ذهب البخاريّ — رحمه الله — حيث ترجم «باب يَحْلِف المدَّعَى عليه حيثما وَجَبت عليه اليمينُ ولا يُصرَف من موضع إلى غيره» . وقال مالك والشافعى : ويُجلَب فى أيمان القسامة إلى مكة من كان من أعمالهـا ، فيحلف بين الرّكن والمقام ، ويُجلب إلى المدينة من كان من أعمالها ، فيحلف عند المنبر . الثالث — الحال؛ روى مُطرِّف وابن المـاجِشُون وبعض أصحاب الشافعى أنه يحلف قائمـا مستقبل القبـلة ؛ لأن ذلك أبلغ فى الردع والزجر . وقال ابن كنانة : يحلف جالسـا ؛ قال ابن العربىّ :

والذى عندى أنه يحلف كما يحكم عليه بها إن قائما فقائما و إن جالسا فجالسا إذ لم يثبت فى أثر ولا نظر اعتبار ذلك من قيام أو جلوس .

قلت : قد استنبط بعض العلماء من قوله فى حديث عَلْقَمة بن وائل عن أبيه « فانطلق ليحلف » القيامَ — والله أعلم — أخرجه مسلم . الرابع — التغليظ باللفظ ؛ فذهبت طائفة إلى الحلف بالله لايزيد عليه ؛ لقوله تعالى : « فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ » وقوله : « قُلْ إِي وَرَبِّي » وقال : « وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » وقوله عليه السلام : " من كان حالفا فليحلف بالله أو لِيَصْمُتْ " . وقول الرجل : والله لا أزيدُ عليهن . وقال مالك : يحلف بالله الذى لا إله إلا هو ماله عندى حق ، وما ادعاه علىّ باطل ؛ والحجة له ما رواه أبو داود حدّثنا مسدّد قال حدّثنا أبو الأحوص قال حدثنا عطاء بن السّائب عن أبى يحيى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : — يعنى لرجل حلّفه — "احلف بالله الذى لا إله إلا هو ماله عندك شىء " يعنى للمدّعى ؛ قال أبو داود : أبو يحيى اسمه زكريا كوفىّ ثقة ثَبْتٌ . وقال الكوفيون : يحلف بالله لا غير، فإن اتهمه القاضى غلّظ عليه اليمين؛ فيحلّفه بالله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الذى يعلم من السر ما يعلم من العلانية، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. وزاد أصحاب الشافعىّ التغليظ بالمصحف . قال ابن العربى : وهو بدعة ما ذكرها أحد قطّ من الصحابة . وزعم الشافعىّ أنه رأى ابن مازن قاضى صَنْعاء يحلّف بالمصحف و يأثر أصحابه ذلك عن ابن عباس ولم يصح .

قلت : وفى كتاب « المهذّب » وإن حلف بالمصحف و بما فيه من القرآن لقد حكى الشافعى عن مُطَرِّف أن ابن الزّبير كان يحلّف على المصحف ، قال : ورأيت مُطَرِّفا بصنعاء يُحَلِّف على المصحف؛ قال الشافعىّ : وهو حسن . قال ابن المنذر : وأجمعوا على أنه لاينبغى للحاكم أن يستحلف بالطلاق والعَتاق والمصحف .

قلت : قد تقدم فى الأيمان ، وكان قَتادة يحلّف بالمصحف . وقال أحمد وإسحق : لا يكره ذلك ؛ حكاه عنهم ابن المنذر .

الثالثة عشرة — اختلف مالك والشافعي من هذا الباب في قدر المال الذي يحلف به في مقطع الحق؛ فقال مالك : لا تكون اليمين في مقطع الحق في أقل من ثلاثة دراهم قياسا على القطع ، وكل مال تقطع فيه اليد وتسقط به حرمة العضو فهو عظيم . وقال الشافعيّ : لا تكون اليمين في ذلك في أقل من عشرين دينارا قياسا على الزكاة ، وكذلك عند منبر كل مسجد .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ الفاء في « فيقسمان » عاطفة جملة على جملة ، أو جواب جزاء؛ لأن «تَحْبِسُونَهُمَا» معناه احبسوهما ، أي لليمين؛ فهو جواب الأمر الذي دل عليه الكلام كأنه قال : إذا حبستموهما أقسما؛ قال ذو الرُّمة :

وإنسانُ عيني يَحْسِرُ الماءَ مرَّة * فيبدو وتاراتٍ يَجُمُّ (1) فيَغْرَقُ

تقديره عندهم : إذا حسر بدا .

الخامسة عشرة — واختلف من المراد بقوله : « فَيُقْسِمَانِ » ؟ فقيل : الوصيان إذا ٱرتيب بقولهما . وقيل : الشاهدان إذا لم يكونا عدلين وارتاب بقولهما الحاكم حلّفهما . قال ابن العربيّ مبطلا لهذا القول : والذي سمعت — وهو بدعة — عن ابن أبي ليلى أنه يحلف الطالب مع شاهديه أن الذي شهدا به حق؛ وحينئذٍ يُقضَى له بالحق؛ وتأويل هذا عندي إذا ارتاب الحاكم بالقبض فيحلف إنه لباق ، وأما غير ذلك فلا يلتفت إليه؛ هذا في المدعي فكيف يُحبَس الشاهد أو يُحلَّف ؟! هذا مالا يلتفت إليه .

قلت : وقد تقدم من قول الطَّبَرِيّ في أنه لا يُعلَم لله حُكم يجب فيه على الشاهد يمين . وقد قيل : إنما استحلف الشاهدان لأنهما صارا مُدَّعًى عليهما حيث آدعى الورثة أنهما خانا في المال .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شرط لا يتوجه تحليف الشاهدين إلا به ، ومتى لم يقع رَيْب ولا اختلاف فلا يمين . قال ابن عطية : أما أنه يظهر من حكم أبي موسى

(1) يجم : يكثر فيه الماء .

فى تحليف الذميين أنه باليمين تكمل شهادتهما وتنفذ الوصية لأهلها ؛ روى أبو داود عن الشَّعْبيّ أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدَقُوقاء (١) هـذه، ولم يجد أحدا من المسلمين يُشهِده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة فأتيا الأشعرىّ فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته؛ فقال الأشعرىّ : هذا أمر لم يكن بعد الذى كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأحلفهما بعـد العصر : « بالله ماخانا ولا كَذَبا ولا بدّلا ولا كَتَما ولا غَيّرا وإنها لوصية الرجل وتركته » فأمضى شهادتهما . قال ابن عطية : وهذه الريبة عند من لا يرى الآية منسوخة تترتب فى الخيانة ، وفى الاتهام بالميل إلى بعض الموصَى لهم دون بعض ، وتقع مع ذلك اليمين عنده ؛ وأما من يرى الآية منسوخة فلا يقع تحليف إلا أن يكون الارتياب فى خيانة أو تعد بوجه من وجوه التعدّى ؛ فيكون التحليف عنده بحسب الدعوى على منكر لا على أنه تكميل للشهادة . قال ابن العربىّ : يمين الريبة والتهمة على قسمين : أحدهما — ما تقع الريبة فيه بعد ثبوت الحق وتوجه الدعوى فلا خلاف فى وجوب اليمين . الثانى — التهمة المطلقة فى الحقوق والحدود ، وله تفصيل بيانه فى كتب الفروع ؛ وقد تحققت ها هنا الدّعوى وقويت حسبما ذكر فى الروايات .

السابعة عشرة — الشرط فى قوله : ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ يتعلق بقوله : « تَحْبِسُونَهُمَا » لا بقوله « فَيُقْسِمَانِ » لأن هذا الحبس سبب القَسَم .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى يقولان فى يمينهما لا نشترى بقسمنا عوضا نأخذه بدلا مما أوصى به، ولا ندفعه إلى أحد ولو كان الذى نقسم له ذا قربى منا . وإضمار القول كثير، كقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أى يقولون سلام . والاشتراء هنا ليس بمعنى البيع، بل هو التحصيل .

(١) دقوقاء (بفتح أوله وضم ثانيه وبعـد الواو قاف أخرى وألف ممدودة وتقصر) : مدينة بين إربل وبغداد معروفة ، لها ذكر فى الأخبار والفتوح، كان بها وقعة للخوارج . (معجم البلدان) .

التاسعة عشرة — اللام فى قوله : « لا نَشْتَرِى » جواب لقوله : « فَيُقْسِمَانِ » لأن أقسم يلتقى بما يلتقى به القسم؛ وهو «لا» و « ما » فى النفى ، « و إنّ » واللام فى الإيجاب . والهاء فى « به » عائد على آسم الله تعالى، وهو أقرب مذكور؛ المعنى : لا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العَرَض . ويحتمل أن يعود على الشهادة وذُكِّرت على معنى القول؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " وآتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب " فأعاد على معنى الدعوة الذى هو الدعاء، وقد تقدم فى سورة « النساء » (١) .

الموفية عشرين — قوله تعالى : « ثَمَناً » قال الكوفيون : المعنى ذا ثمن أى سلعة ذا ثمن، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وعندنا وكثير من العلماء أن الثمن قد يكون هو و يكون السِّلْعة ؛ فإن الثمن عندنا مشترًى كما أن المثمون مشترًى ؛ فكل واحد من المبيعين ثمنا ومثمونا كان البيع دائرا على عَرْض ونَقْد ، أو على عَرْضين ، أو على نَقْدين ؛ وعلى هذا الأصل تنبنى مسئلة : إذا أفلس المبتاع ووجد البائع متاعه هل يكون أولى به ؟ قال أبو حنيفة : لا يكون أولى به ؛ و بناه على هذا الأصل ، وقال : يكون صاحبها أسوة الغرماء . وقال مالك : هو أحق بها فى الفَلَس دون الموت . وقال الشافعى : صاحبها أحق بها فى الفَلَس والموت . تمسك أبو حنيفة بما ذكرنا ، وبأن الأصل الكلىّ أن الدَّين فى ذمة المفلس والميت ، وما بأيديهما محل للوفاء ؛ فيشترك جميع الغرماء فيه بقدر رءوس أموالهم ، ولا فرق فى ذلك بين أن تكون أعيان السِّلَع موجودة أولا ؛ إذ قد خرجت عن ملك بائعها ووجبت أثمانُها لهم فى الذمة بالإجماع ، فلا يكون لهم إلا أثمانها أو ما وُجد منها . وخَصَّص مالك والشافعىّ هذه القاعدة بأخبار رُويت فى هذا الباب رواها الأئمة أبو داود وغيره .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ أى ما أعلمنا الله من الشهادة . وفيها سبع قراءات ، من أرادها وجدها فى التحصيل وغيره .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٥ طبعة أولى أو ثانية .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ قال عمر: هذه الآية أعضل ما فى هذه السّورة من الأحكام . وقال الزّجاج : أصعب ما فى القرآن من الأعراب قوله : « مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ » . عُثِرَ على كذا أى ٱطلع عليه ؛ يقال : عَثَرتُ منه على خيانة أى ٱطلعتُ ، وأَعْثرتُ غيرى عليــه ، ومنه قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ » لأنهم كانوا يطلبونهم وقد خفى عليهم موضعهم ؛ وأصل العُثور الوقوع والسقوط على الشيء ؛ ومنه قولهم : عَثَر الرَّجلُ يَعثر عُثورا إذا وقعت إصبعه بشيء صدمته ، وعَثَرت إصبع فلان بكذا إذا صدمته فأصابته ووقعت عليه . وعَثَر الفرسُ عِثارا ؛ قال الأعشى :

بذاتِ لَوْثٍ(١) عَفَــرْنَاةٍ إذا عَــثَرتْ * فالتَّعْسُ أدْنَى لهــا من أن أقولَ لَعَا

والعِثْيَر الغبار السّاطع ؛ لأنه يقــع على الوجه ، والعَثْيَر الأثر الخفىّ لأنه يوقــع عليه من خفاء . والضمير فى « أنهما » يعود على الوصيين اللذين ذُكرا فى قوله عز وجل : « ٱثنان » ؛ عن سعيد ابن جُبَير . وقيل : على الشاهدين ؛ عن ٱبن عباس . و « ٱستحقا » أى ٱستوجبا إثما ، يعنى بالخيانة ، وأخذهما ما ليس لهما ، أو باليمين الكاذبة ، أو بالشهادة الباطلة . وقال أبو على : الإثم هنا ٱسم الشيء المأخوذ لأن آخذه بأخذه أَثِم ؛ فسمى إثما كما سمى ما يؤخذ بغير حق مَظْلَمة . وقال سيبويه : المظلمة ٱسم ما أُخذ منك ؛ فكذلك سمى هذا المأخوذ بٱسم المصدر وهو الجام .

الثالثة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ فَآخَرَانِ يَقُــومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ يعــنى فى الأيمان أو فى الشهادة ؛ وقال : «آخران» بحسب أن الورثة كانا ٱثنين . وٱرتفع « آخران » بفعل مضمر . « يَقُومانِ » فى موضع نعت . « مَقَامَهُمَا » مصدر ، وتقديره : مقاما مثل مقامهما ، ثم أقيم النعت مقام المنعوت ، والمضاف مقام المضاف إليه .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ ﴾ قال ابن السَّرِىّ : المعــنى استحق عليهم الإيصاء ؛ قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فيه ؛ لأنه لا يُجعل

(١) ناقة ذات لوث أى قوة ؛ وكذا عفرناة ؛ والمعنى أنهــا لا تعثر لقوتها ، فلو عثرت لقات تعست . وقوله : (بذات لوث) متعلق بـ (كلفت) فى بيت قبله وهو :

كلّفتُ مجهولهَا نفسي وشايَعني * همِّي عليهـا إذا مـا آلُهـا لَمَعَـا (اللسان)

حرف بدلا من حرف؛ وآختاره ابن العربي"؛ وأيضا فإن التفسير عليه؛ لأن المعنى عنـد أهل التفسـير : من الذين آستحقت عليهم الوصية . و « الأوليانِ » بدل من قوله : « فآخرانِ » قاله آبن السَّرى"، وآختاره النحاس، وهـو بدل المعـرفه من النكرة و إبدال المعرفة من النكرة جائز . وقيل : النكرة إذا تقدم ذكرها ثم أعيد ذكرها صارت معرفة؛ كقوله تعالى « كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ » ثم قال : « المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ » ثم قال : « الزجاجة » . وقيـل : هو بدل من الضمير في « يقـومانِ » كأنه قال : فيقوم الأوليان، أو خبر آبتداء محذوف؛ التقـدير : فآخران يقومان مقامهما هما الأوليان . وقال آبن عيسى : « الأوليان » مفعول « آستحق » على حذف المضاف؛ أي آستحق فيهم و بسببهم إثم الأوليين، فعليهم بمعنى فيهم، مثل « على مُلْكِ سُلَيْمَانَ » أي في ملك سليان . وقال الشاعر :

متى ما تُنكروها تَعرفوها ⁕ على أَقطارها عَلَقٌ نَفِيثُ (١)

أي في أقطارها . وقرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش وحمزة « الأَوَّلِينَ » جمع أوّل على أنه بدل من « الذين » أو من الهـاء والميم في « عليهم » . وقرأ حفص : « آسْتَحَقَّ » بفتح التاء والحاء، و رُوى عن أبيّ بن كعب ، وفاعله « الأَوْلَيَانِ » والمفعول محذوف ، والتقـدير : من الذين آستحق عليهم الأوليان بالميت وصيتَـه التي أوصى بهـا . وقيل : آسـتحق عليهم الأوليان ردّ الأيمان . وروى عن الحسن « الأَوَّلَانِ » . وعن ابن سيرين « الأَوَّلَيْنِ »(٢) ؛ قال النحاس : والقراءتان لحن ؛ لا يقال في مُثّنى مثنّان، غير أنه قد روى عن الحسن « الأَوَّلَانِ » .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أي يحلفان الآخران اللذان يقومان مقام الشاهـدين « أن الذى قال صاحبنا في وصيّتـه حق ، وأن المـال الذى وصّى به إليكما كان أكثر مما أتيتمانا به ، وأن هذا الإناء لمن متاع صاحبنا الذى خرج به معه وكتبه في وصيّته ، وأنكما خُنتما » فذلك قوله : ﴿ لَشَهَـادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ أي يميننا أحق من يمينهمـا ؛

(١) نفث الجرح الدم إذا أظهره ، والبيت لصخر الغى . « اللسان » .

(٢) قال ابن عطية : على تثنية أوّل ، والنصب على تقدير الأوّلين فالأوّلين في الرتبة .

فصح أن الشهادة قد تكون بمعنى اليمين ، ومنه قوله تعالى : « فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ » . وقد روى مَعْمَر عن أيوب عن ابن سيرين عن عَبِيدة قال قام رجلان من أولياء الميت فحلفا . « لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ » ابتداء وخبر . وقوله : ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَا ﴾ أي تجاوزنا الحق في قسمنا . ﴿ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن كنا حلفنا على باطل ، وأخذنا ما ليس لنا .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ أَنْ ﴾ في موضع نصب . ﴿ يَأْتُوا ﴾ نصب « بأن » . ﴿ أَوْ يَخَافُوا ﴾ عطف عليه . ﴿ أَنْ تُرَدَّ ﴾ في موضع نصب بيخافوا . ﴿ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ قيل : الضمير في « يأتوا » و « يخافوا » راجع إلى الموصَى إليهما ؛ وهو الأليق بمساق الآية . وقيل : المراد به الناس ؛ أي أحرى أن يحذر الناسُ الخيانة فيشهدوا بالحق خوف الفضيحة في رد اليمين على المدّعي ، والله أعلم .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا اللَّهَ وَٱسْمَعُوا ﴾ أمر ؛ ولذلك حذفت منه النون ، أي اسمعوا ما يقال لكم ، قابلين له ، متبعين أمر الله فيه . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ فَسَق يَفْسِق و يَفْسُق إذا خرج من الطاعة إلى المعصية ، وقد تقدّم[1] ، والله أعلم .

قوله تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١٠٩)

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ يقال : ما وجه اتصال هذه الآية بما قبلها؟ فالجواب — أنه اتصال الزجر عن الإظهار خلاف الإبطان في وصية أو غيرها مما ينبىء أن المجازى عليه عالم به . و « يوم » ظرف زمان والعامل فيه « وٱسمعوا » أي واسمعوا خبر يوم . وقيل : التقدير واتقوا يوم يجمع الله الرسل ؛ عن الزجاج . وقيل : التقدير اذكروا أو احذروا يوم القيامة حين يجمع الله الرسل ، والمعنى متقارب ؛ والمراد التخويف والتهديد . ﴿ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم ؟ وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٥ طبعة ثانية .

توحيدى ؟ . ﴿ قَالُوا ﴾ أى فيقولون : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ . واختلف أهل التأويل فى المعنى المراد بقولهم : « لَا عِلْمَ لَنَا » فقيل : معناه لا علم لنا بباطن ما أجاب به أممنا ، لأن ذلك هو الذى يقع عليه الجزاء ؛ وهذا مروىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى لا علم لنا إلا ما علّمتنا ، فحذف ؛ عن ٱبن عباس ومجاهد بخلاف . وقال ٱبن عباس أيضا : معناه لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا . وقيل : إنهم يذهلون من هول ذلك و يفزعون من الجواب ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم فيقولون : « لَا عِلْمَ لَنَا » ؛ قاله الحسن ومجاهد والسُّدىّ . قال النحاس : وهذا لا يصح ؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قلت : هذا فى أكثر مواطن القيامة ؛ ففى الخبر أن جهنم إذا جيء بها زَفرت زَفرةً فلا يبق نبىّ ولا صِدّيق إلا جَثا لركبتيه ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خوّفنى جبريل يوم القيامة حتى أبكانى فقلت يا جبريل ألم يُغفر لى ما تَقدّم من ذنبى وما تأخر فقال لى يا محمد لتشهدنّ من هَوْل ذلك اليوم ما يُنسيك المغفرة » .

قلت : فإن كان السؤال عند زَفْرة جهنم — كما قاله بعضهم — فقول مجاهد والحسن صحيح ؛ والله أعلم . قال النحاس : والصحيح فى هذا أن المعنى : ماذا أُجبتم فى السّر والعلانية ليكون هذا توبيخا للكفار ؛ فيقولون : لا علم لنا ؛ فيكون هذا تكذيبا لمن ٱتخذ المسيح إلها . وقال ٱبن جُرَيْج : معنى قوله : «مَاذَا أُجِبْتُمْ» ماذا عملوا بعدكم؟ قالوا : «لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» . قال أبو عُبيد : ويُشبه هذا حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَرِدُ علىّ أقوامٌ الحوضَ فيُخْتَلَجُون(١) فأقول أمتى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك " . وكسر العين حمزة وأبو بكر ، وضم الباقون . قال الماوردىّ فإن قيل : فلم سألهم عما هو أعلم به منهم؟ فعنه جوابان : أحدهما — أنه سألهم ليعلمهم مالم يَعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم . الثانى — أنه أراد أن يفضحهم بذلك على رءوس الأشهاد ليكون ذلك نوعا من العقوبة لهم .

---

(١) أى يُجتَذبون و يُقتطَعون .

قوله تعـالى : إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠)

قوله تعـالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال : اذكر يوم يجمـع الله الرسل وإذ يقـول الله لعيسى كذا ؛ قاله المهـدوىّ . و « عيسى » يجوز أن يكون فى موضع رفـع على أن يكون « ٱبن مريم » نداء ثانيا ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب ؛ لأنه نداء منصوب كما قال :(١)

* ياحَكَمَ بْنَ المنذرِ بنِ الجارُود *

ولا يجوز الرفع فى الثانى إذا كان مضافا إلا عند الطُّوال(٢) .

قوله تعالى : ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ إنما ذَكَّر الله تعالى عيسى نِعمه عليه وعلى والدته وإن كان لها ذاكرا لأمرين : أحدهما — ليتلو على الأمم ما خصهما به من الكرامة ، ومَيَّزهما به من علو المنزلة . الثانى — ليؤكد به حجته ، ويردّ به جاحده . ثم أخذ فى تعديد نعمه فقال : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ يعنى قوّيتك ؛ مأخوذ من الأَيْد وهو القوّة ، وقد تقدّم(٣) . وفى « روح القـدس »

(١) الرجز لرجل من بنى الحرماز ؛ يمدح به أحد بنى المنذر بن الجارود العبدىّ و « حكم » هذا أحد ولاة البصرة لهشام بن عبد الملك . وسمى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم فشبه بالسيل الذى يجرد ما مر به . وتمامه : سرادق المجد عليك ممدود . (شواهد سيبويه) . (٢) الطوال : هو محمد بن أحمد بن عبد الله الطوال النحوى من أهل الكوفة أحد أصحاب الكسائى ؛ قال ثعلب : وكان حاذقا بإلقاء العربية . توفى سنة ٢٤٣ . « بغية الوعاة » .

(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٤ طبعة ثانية .

وجهان : أحدهما — أنها الرّوح الطاهرة التى خصه الله بها كما تقدّم فى قوله : « وروحٌ منه » (١) . الثانى — أنه جبريل عليه السلام وهو الأصح، كما تقدّم فى «البقرة» (٢) . ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ ﴾ يعنى وتكلم الناس فى المهد صبيّا، وفى الكهولة نبيّا، وقد تقدّم ما فى هذا فى «آل عمران» (٣) فلا معنى لإعادته . ﴿ كَفَفْتُ ﴾ معناه دفعت وصرفت ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ ﴾ حين هَمُّوا بقتلك . ﴿ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى الدلالات والمعجزات، وهى المذكورة فى الآية . ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى الذين لم يؤمنوا بك وجحدوا نبوّتك . ﴿ إِنْ هَـٰذَا ﴾ أى المعجزات . ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ . وقرأ حمزة والكسائىّ « ساحر » أى إن هذا الرجل إلا ساحر قوىّ على السِّحر .

قوله تعالى : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى ﴾ قد تقدّم القول فى معانى هذه الآية (٤) . والوَحى فى كلام العرب معناه الإلهام ويكون على أقسام : وَحْى بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام . ووَحْى بمعنى الإلهام كما فى هذه الآية ؛ أى ألهمتهم وقذفت فى قلوبهم؛ ومنه قوله تعالى : «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى» ووَحْى بمعنى الإعلام فى اليقظة والمنام . قال أبو عُبيدة : أوحيت بمعنى أمرت، « وإلى » صلة ؛ يقال : وَحَى وأَوْحَى بمعنى ؛ قال الله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) » وقال العجاج :

* أَوْحَى لها القرارَ فاستقرّتِ *

أى أمرها بالقرار فاستقرّت . وقيل : « أَوْحَيْتُ » هنا بمعنى أمرتهم . وقيل : بينت لهم . ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ على الأصل ؛ ومن العرب من يحذف إحدى النونين ؛ أى واشهد يارب . وقيل : ياعيسى بأننا مسلمون لله .

(١) راجع ص ٢٢ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٤ . (٣) راجع ج ٤ ص ٩٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٤ ص ٩٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٥) أى الأرض؛ وصدر البيت :

* بإذنه الأرضُ وما تعنّتِ *

قوله تعالى : إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ﴾ على ما تقدم من الإعراب . ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ . قراءةُ الكسائيّ وعليّ وابن عباس وسعيد بن جُبَير ومجاهد « هَل تَسْتَطِيعُ » بالتاء « رَبَّكَ » بالنصب . وأدغم الكسائيّ اللام من « هل » في التاء . وقرأ الباقون بالياء، « رَبُّكَ » بالرفع، وهذه القراءة أشكل من الأولى ؛ فقال السُّدّيّ : المعنى هل يطيعك ربك إن سألته ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ ﴾ فيستطيع بمعنى يطيع؛ كما قالوا : ٱستجاب بمعنى أجاب، وكذلك ٱستطاع بمعنى أطاع . وقيل المعنى : هل يقدر ربك، وكان هـذا السؤال في ٱبتداء أمرهم قبل ٱستحكام معرفتهم بالله عز وجل؛ ولهذا قال عيسى في الجواب عند غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز : « ٱتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أي لا تَشكُّوا في قدرة الله تعالى .

قلت : وهذا فيه نظر؛ لأن الحوار يين خُلْصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال : « مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ » . وقال عليه السلام : "لكل نبيّ حَوَاريٌّ وحَوَارِيَّ الزُّبير" . ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله عليهم جاءوا بمعرفة الله وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم؛ فكيف يخفى ذلك على من باطنهم وٱختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى ؟ إلا أنه يجوز أن يقال : إنّ ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعـراب للنبي صلى الله عليه وسلم : ٱجعل لنـا ذاتَ أَنْوَاطٍ كما لهم ذات أَنْوَاط(١)، وكما قال من قال من قوم موسى : « ٱجْعَلْ لَنَـا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » على ما يأتي بيانه في « الأعراف »(٢) إن شاء الله تعالى . وقيل : إن القوم لم يَشكُّوا في استطاعة البارى سبحانه

(١) ذات أنواط : شجرة بعينها كانت تعبد في الجاهلية ؛ قال ابن الأثير : كان المشركون ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه بها، ويعكفون حولها .

(٢) آية ١٣٨ من سورة الأعراف .

لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، و إنما هو كقولك للرجل : هل يستطيع فلان أن يأتى وقد علمت أنه يستطيع ؛ فالمعنى : هل يفعل ذلك ؟ وهل يجيبنى إلى ذلك أم لا ؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره عِلم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك ؛ كما قال إبرهيم : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » على ما تقدم، وقد كان إبراهيم عَلِم ذلك عِلْمَ خبر ونظر ولكن أراد المعاينة التى لا يدخلها رَيْب ولا شبهة ؛ لأن عِلْم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات ، وعِلْم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك ؛ ولذلك قال الحواريون : « وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا » كما قال إبراهيم : « وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » .

قلت : وهذا تأويل حسن ؛ وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين ؛ على ما يأتى بيانه . وقد أدخل ابن العربي المستطيع فى أسماء الله تعالى، وقال : لم يرد به كتاب ولا سنة اسما وقد ورد فعلا، وذكر قول الحواريين : «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» . ورده عليه ابن الحَصَّار فى كتاب شرح السنة له وغيره ؛ قال ابن الحَصَّار : وقوله سبحانه مخبرا عن الحواريين لعيسى : «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» ليس بشكٍّ فى الاستطاعة، و إنما هو تلطُّف فى السؤال، وأدب مع الله تعالى ؛ إذ ليس كل ممكن سبق فى علمه وقوعه ولا لكل أحد، والحواريون هم كانوا خيرة من آمن بعيسى ، فكيف يظن بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كل شيء ممكن ؟ ! وأما قراءة « التاء » فقيل : المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك ؛ هذا قول عائشة ومجاهد — رضى الله عنهما ؛ قالت عائشة رضى عنها : كان القوم أعلم بالله عز وجل من أن يقولوا «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» ولكن «هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ» . و روى عنها أيضا أنها قالت : كان الحواريون لا يَشكُّون أن الله يقدر على إنزال مائدة ولكن قالوا : « هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّك » . وعن معاذ بن جبل قال : أقرأنا النبي صلى الله عليه وسلم « هَلْ تَسْتَطِيعَ رَبَّكَ » قال معاذ : وسمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم مرارا يقرأ بالتاء «هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ» . وقال الزجاج : المعنى هل تستدعى طاعة ربك فيما تسأله . وقيل : هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله ؛ والمعنى متقارب، ولابد من

محذوف؛ كما قال : «وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ» وعلى قراءة الياء لايحتاج إلى حذف. قال: ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أى ٱتقوا معاصيه وكثرة السؤال ؛ فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عنـد ٱقتراح الآيات ؛ إذ كان الله عز وجل إنما يفعل الأصلح لعباده . «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أى إن كنتم مؤمنين به و بما جئت به ، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى .

قوله تعـالى : قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ نصب بأن . ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عطف كله ، بينوا به سبب سـؤالهم حين نُهوا عنـه . وفى قولهم «نَأْكُلَ مِنْهَا » وجهان : أحدهما — أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها؛ وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه ، وبعضهـم كانوا يطلبون منـه أن يدعو لهم لمرض كان بهـم أو علّة إذ كانوا زَمْنَى أو عُمْيانا ، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون ، فخرج يوما إلى موضع فوقعوا فى مَفَازة ولم يكن معهـم نفقـة فجاعوا وقالوا للحواريين : قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء؛ فجاءه شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء ، فقال عيسى لشمعون : «قُلْ لَهُمُ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له : قل له «نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا» الآية. الثانى — «نَأْكُلَ مِنْهَا » لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها . قال المـاوَرْدىّ : وهذا أشبه ؛ لأنهم لو احتاجوا لم يُنهَوا عن السؤال . « وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا » يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها — تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبيا . الثانى — تطمئن إلى أن الله تعـالى قد ٱختارنا أعوانا لك . الثالث — تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا؛ ذكرها المـاوَرْدىّ . وقال المهدَوىّ : أى تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا . قال الثعلبىّ : نستيقن قدرته فتسكن قلوبنا . « وَنَعْـلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا » بأنك رسـول الله .

« وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ » لله بالوحدانية، ولك بالرسالة والنبوّة. وقيل : « وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ » لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنْكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (١١٤)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ﴾ الأصل عند سيبويه يا الله، والميمان بدل من « يا » . « رَبَّنَا » نداء ثان لا يجيز سيبويه غيره؛ ولا يجوز عنده أن يكون نعتا، لأنه قد أشبه الأصوات من أجل ما لحقه . ﴿ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾ المائدة الخُوان الذى عليه الطعام؛ قال قُطْرُب : لا تكون المائدة مائدة حتى يكون عليها طعام، فإن لم يكن قيل خُوان، وهى فاعلة من مَادَ عبده إذا أطعمه وأعطاه؛ فالمائدة تَميد ما عليها أى تُعطى؛ ومنه قول رُؤْبة — أنشده الأخفش :

تُهدى رءوس المترفين الأنداد * إلى أمير المؤمنين المُمتَاد

أى المستعطَى المسئول؛ فالمائدة هى المطعِمة والمعطِية الآكلين الطعام . ويسمى الطعام أيضا مائدة تجوزا؛ لأنه يؤكل على المائدة، كقولهم للطر سماء . وقال أهل الكوفة : سميت مائدة لحركتها بما عليها؛ من قولهم : ماد الشىءُ إذا مال وتحرك؛ قال الشاعر :

لعلك باكٍ إنْ تغنّتْ حمامةٌ * يَميد بها غُصن من الأَيْك مائلُ

وقال آخر :

وأقلقنى قتلُ الكنانى بعده * فكادت بى الأرضُ الفضاء تَميدُ

ومنه قوله تعالى : « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » . وقال أبو عبيدة : مائدة فاعلة بمعنى مفعولة، مثل « عيشة راضية » بمعنى مرضية و « ماء دافق » أى مدفوق .

قوله تعالى : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ « تكون » نعت لمائدة وليس بجواب .

وقرأ الأعمش « تَكُنْ » على الجواب؛ والمعنى : يكون يوم نزولها عيدا ﴿ لِأَوَّلِنَا ﴾ أى لأوّل أمتنا وآخرها ؛ فقيـل : إن المائدة نزلت عليهم يوم الأحد غُدْوة وعَشيّة ؛ فلذلك جعلوا الأحد عيدا . والعيد واحد الأعياد؛ وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها فى الواحد، ويقال : للفرق بينه وبين أعواد الخشب، وقد عَيَّدوا أى شهدوا العيد ؛ قاله الجوهرى . وقيل : أصله من عاد يعود أى رجع فهو عِوْد بالواو ، فقلبت ياء لانكسار ما قبلها ، مثل الميزان والميقات والميعاد ؛ فقيل ليوم الفطر والأضحى عيد لأنهما يعودان كل سنة . وقال الخليل : العيد كل يوم يَجمع كأنهم عادوا إليه . وقال ابن الأنبارى : سمى عيدا للعود فى المَرَح والفَرَح ، فهو يوم سرور الخلق كلهم ؛ ألا ترى أن المسجونين فى ذلك اليوم لا يطالَبُون ولا يعاقَبون ، ولا يصاد الوحش ولا الطيور ، ولا تنفذ الصبيان إلى المكاتب . وقيل : سمى عيدا لأن كل إنسان يعود الى قدر منزلته ؛ ألا ترى إلى آختلاف ملابسهم وهيئاتهم ومآكلهم فمنهم من يَضيف ومنهم من يُضاف، ومنهم من يَرحم ومنهم من يُرحم . وقيل : سمى بذلك لأنه يوم شريف تشبيها بالعِيد : وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه ؛ فيقال : إبل عِيدِيَّة ؛ قال : (١)

* عِيدِيَّةٌ أُرْهِنَتْ فيها الدَّنانيرُ *

وقد تقدّم . وقرأ زيد بن ثابت « لِأُولَانَا وَأُخْرَانَا » (٢) على الجمع . قال ابن عباس : يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم . ﴿ وَآيَةً مِنْكَ ﴾ يعنى دلالة وحجة . ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ أى أعطنا . ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى خير من أعطى ورزق؛ لأنك الغنيّ الحميد .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

---

(١) هو رذاذ الكلبى — كما فى اللسان — وصدر البيت : * ظلت تجوب بها البلدان ناجية *

(٢) صوبت هذه القراءة عن البحر وغيره من كتب التفسير؛ قال صاحب البحر: وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدرى « لأولانا وأخرانا » أنثوا على معنى الأمة والجماعة . والذى بالأصل « لأولنا وأخرنا » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين؛ وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمُسخوا قِرَدة وخنازير. قال ابن عمر: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون؛ قال الله تعالى: « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » . واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا ؟ فالذي عليه الجمهور — وهو الحق — نزولها؛ لقوله تعالى : « إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ » . وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضَرْبُ مَثَلٍ ضَرَبه الله تعالى لخلقه فنهاهم عن مسئلة الآيات لأنبيائه . وقيل : وعدهم بالإجابة فلما قال لهم : «فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ» — الآية — استعفَوا منها، واستغفروا الله وقالوا : لا نريد هذا؛ قاله الحسن . وهذا القول والذي قبله خطأ، والصواب أنها نزلت. قال ابن عباس : إن عيسى بن مريم قال لبني إسرائيل: « صُوموا ثلاثين يوما ثم سَلُوا الله ما شئتم يُعْطِكم » فصاموا ثلاثين يوما وقالوا : يا عيسى لو عَمِلنا لأحد فقضينا عملنا [لأطعمنا][(1)] ، وإنا صمنا وجُعنا فادع الله أن ينزّل علينا مائدة من السماء، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أَحْوات[(2)]، فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم . وذكر أبو عبد الله محمد بن عليّ التِّرمذيّ في « نوادر الأصول » له ؛ حدثنا عمر بن أبي عمر قال حدثنا عمّار بن هرون الثّقفيّ عن زكريا بن حكيم الحنظليّ عن عليّ بن زيد بن جُدْعان عن أبي عثمان النَّهْديّ عن سلمان الفارسيّ قال : لما سألت الحواريون عيسى بن مريم — صلوات الله عليه — المائدةَ قام فوضع ثياب الصّوف، ولبس ثياب المُسُوح — وهو سِرْبال من مُسُوح أسود ولِحَاف أسود — فقام فألزق القَدَم بالقَدَم، وألصق العَقِب بالعَقِب، والإبهام بالإبهام، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى، ثم طأطأ رأسه، خاشعا لله؛ ثم أرسل عينيه يبكي حتى جرى الدمع على لحيته، وجعل

(1) الزيادة عن «روح المعاني» وغيره من كتب التفسير .

(2) أحوات (جمع حوت) : وهو نوع من السمك معروف .

يقطر على صدره ثم قال : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » قال الله : « إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ » الآية ؛ فنزلت سُفْرة حمراء مُدَوَّرة بين غَمامتين غَمامة من فوقها وغَمامة من تحتها ، والناس ينظرون إليها ؛ فقال عيسى : « اللهم ٱجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة إلهى أسألك من العجائب فتُعطى » فهبطت بين يدى عيسى عليه السلام وعليها منديل مُغطًّى ، فخر عيسى ساجدا والحواريون معه ، وهم يجدون لهـا رائحة طيبة لم يكونوا يجدون [مثلها] (١) قبل ذلك ؛ فقال عيسى : « أيكم أَعْبَدُ لله وأجرأ على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه السُّفْرة حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها » فقال الحواريون : يا رُوح الله أنت أحقُّ بذلك ، فقام عيسى — صلوات الله عليه — فتوضأ وضوءا حسنا ، وصلَّى صلاة جديدة ، ودعا دعاء كثيرا ، ثم جلس إلى السُّفرة ، فكشف عنها ؛ فإذا عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك تسيل سيلان الدَّسم ، وقد نُضِّد حولها من كل البقول ما عدا الكراث ، وعند رأسها ملح وخَلٌّ ، وعنـد ذنبها خمســة أرغفة على واحد منها خمس رُمّانات ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الآخر زيتون . قال الثَّعلبيّ : على واحد منها زيتون وعلى الثـانى عسل ، وعلى الثـالث بيض ، وعلى الرابع جُبن ، وعلى الخامس قَديد ؛ فبلغ ذلك اليهود فجاءوا غَمًّا وكَمَدا ينظرون إليه فرأوا عجبا ؛ فقال شمعون — وهو رأس الحواريين — يا رُوح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الجنـة ؟ فقال عيسى صلوات الله عليـه : « أما ٱفترقتم بعدُ (٢) عن هذه المسائل ما أخوفنى أن تُعذَّبوا » . قال شمعون : وإلهِ بنى إسرائيل ما أردت بذلك سوءا . فقالوا : يا رُوح الله لو كان مع هذه الاية آية أخرى ؛ قال عيسى عليه السلام : « يا سمكة ٱحْيَىْ بإذن الله » فاضطربت السمكة طريّة تَبِصُّ (٣) عيناها ، ففزع الحواريون فقال عيسى : « مالى أراكم تسألون عن الشيء فإذا أعطيتموه كرهتموه ما أخوفنى أن تعذبوا » وقال : « لقد نزلت من السماء وما عليها طعام من الدنيا ولا من طعام الجنة ولكنه شيء ٱبتدعه الله بالقدرة البالغة فقال لهـا كونى فكانت » فقال عيسى : « يا سمكة عودى كما كنت » فعادت

(١) الزيادة عن الدر المنثور . (٢) فى الدر المنثور فى رواية : « أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون وتنتهوا عن تنقير المسائل » ... الخ . وفى تفسير ابن عطية « ينهكم الله عن هذه السؤالات » . (٣) تبصُّ : تلمع .

مشوية كما كانت؛ فقال الحواريون : يا رُوح الله كن أول من يأكل منها ؛ فقال عيسى : « معاذ الله إنما يأكل منها من طلبها وسألها » فأبت الحواريون أن يأكلوا منها خشية أن تكون مَثُلة (١) وفتنة ، فلما رأى عيسى ذلك دعا عليها الفقراء والمساكين والمرضى والزَّمْنَى والمُجَذَّمين والمقعَدين والعُميان وأهل الماء الأصفر ، وقال : « كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله عليه » وقال : « يكون المَهْنأ لكم والعذابُ على غيركم » فأكلوا حتى صَدَروا عن سبعة آلاف وثلثمائة يَتَجَشَّئون (٢) فبرئ كل سقيم أكل منه ، واستغنى كل فقير أكل منه حتى الممات ؛ فلما رأى ذلك الناس ازدحموا عليه فما بقي صغير ولا كبير ولا شيخ ولا شاب ولا غني ولا فقير إلا جاءوا يأكلون منه ، فضغط بعضهم بعضا فلما رأى ذلك عيسى جعلها نُوَبا بينهم ، فكانت تنزل يوما ولا تنزل يوما ، كناقة ثمود ترعى يوما وتشرب يوما ، فنزلت أربعين يوما تنزل ضُحًا فلا تزال هكذا حتى يفيء الفيء موضعه . وقال الثعلبي : فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صُعُدا فيأكل منها الناس ، ثم ترجع إلى السماء والناس ينظرون إلى ظلها حتى تتوارى عنهم ، فلما تم أربعون يوما أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ياعيسى اجعل مائدتي هذه للفقراء دون الأغنياء ؛ فتَمَارَى (٣) الأغنياءُ في ذلك وعادُوا الفقراء ، وشَكَّكُوا الناس ؛ فقال الله ياعيسى : « إني آخذ بشرطي » ؛ فأصبح منهم ثلاثة وثلاثون خنزيرا يأكلون العَذِرة يطلبونها بالأَكْبَاء والأَكْبَاء — هي الكُنَاسة واحدها كِبًا (٤) — بعد ما كانوا يأكلون الطعام الطيِّب وينامون على الفُرُش اللينة ، فلما رأى الناس ذلك اجتمعوا على عيسى يبكون ، وجاءت الخنازير فجثَوا على رُكَبهم قدّام عيسى ، فجعلوا يبكون وتقطر دموعهم فعرفهم عيسى فجعل يقول : « ألست بفلان » فيومئ برأسه ولا يستطيع الكلام ، فلبثوا بذلك سبعة أيام — ومنهم من يقول أربعة

---

(١) مثله : عقوبة .

(٢) جشأ وتجشأ : أخرج صوتا من فيه عند الشبع .

(٣) تمارى : شك .

(٤) كبا (بالكسر والقصر) كالى .

أيام — ثم دعا الله عيسى أن يقبض أرواحهم ؛ فأصبحوا لا يدرى أين ذهبوا ؟ الأرض ابتلعتهم أو ما صنعوا ؟ !

قلت : فى هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده . وعن ابن عباس وأبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ كان طعام المائدة خبزا وسمكا . وقال ابن عطية : كانوا يجدون فى السمك طيب كل طعام ؛ وذكره الثعلبىّ . وقال عمّار بن ياسر وقَتَادة : كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمار من ثمار الجنة . وقال وهب بن مُنَبِّه : أنزل الله تعالى أقرصة من شعير وحيتانا . وخرّج التِّرمذىّ فى أبواب التفسير عن عمّار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنزلت المائدةُ من السماء خبزا ولحما وأُمِروا ألا يخونوا ولا يَدّخِروا لغدٍ فخانوا وادّخروا ورَفعوا لغدٍ فمُسِخوا قِرَدة وخنازير" قال أبو عيسى : هذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبى عَرُوبة عن قَتَادة عن خِلاس عن عمّار بن ياسر موقوفا ولا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قَزَعة ؛ حدّثنا حُمَيد بن مَسْعدة قال حدّثنا سفيان بن حبيب عن سعيد بن أبى عروبة نحوه ولم يرفعه ؛ وهذا أصح من حديث الحسن بن قزعة ؛ ولا نعلم للحديث المرفوع أصلا . وقال سعيد بن جُبَير : أُنزل على المائدة كل شىء إلا الخبز واللحم . وقال عطاء : نزل عليها كل شىء إلا السمك واللحم . وقال كعب : نزلت المائدة منكوسة[1] من السماء تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم .

قلت : هذه الثلاثة الأقوال مخالفة لحديث التِّرمذىّ وهو أولى منها ؛ لأنه إن لم يصح مرفوعا فصح موقوفا عن صحابىّ كبير . والله أعلم . والمقطوع به أنها نزلت وكان عليها طعام يؤكل والله أعلم بتعيينه . وذكر أبو نعيم عن كعب أنها نزلت ثانية لبعض عباد بنى إسرائيل ؛ قال كعب : اجتمع ثلاثة نفر من عباد بنى إسرائيل فاجتمعوا فى أرض فَلَاةٍ مع كل رجل منهم آسم من أسماء الله تعالى ؛ فقال أحدهم : سَلُونى فأدعوَ اللهَ لكم بما شئتم ؛ قالوا : نسألك أن تدعو الله أن يظهر لنا عينا ساحّة بهذا المكان ؛ ورياضا خُضْرا وعَبْقريًّا ؛ قال : فدعا الله فإذا

---

(١) نكسه : قلبه وجعل أسفله أعلاه .

عين سائحة ورياض خضر وعبقرى . ثم قال أحدهم : سلونى فأدعو الله لكم بما شئتم ؛ فقالوا نسألك أن تدعو الله أن يطعمنا شيئا من ثمار الجنة فدعا الله فنزلت عليهم بسُرة فأكلوا منها لاتقلب إلا أكلوا منها لونا ثم رفعت ؛ ثم قال أحدهم : سلونى فأدعو الله لكم بما شئتم ؛ فقالوا : نسألك أن تدعو الله أن ينزل علينا المائدة التى أنزلها على عيسى ؛ قال : فدعا فنزلت فقضوا منها حاجتهم ثم رفعت ؛ وذكر تمام الخبر .

مسئلة — جاء فى حديث سلمان المذكور بيان المائدة وأنها كانت سُفْرة لا مائدة ذات قوائم ، والسُّفْرة مائدة النبى صلى الله عليه وسلم وموائد العرب ؛ خرّج أبو عبد الله التِّرمذىّ ؛ حدّثنا محمد بن [بشّار] (١) ، قال حدّثنا مُعاذ بن هِشام قال حدّثنى أبى عن يونس عن قَتَادة عن أنَس قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خُوان قَطُّ ولا فى سُكُرُّجة ولا خُبِز له مُرَقَّق . قال قلت لأنس : فعلام كانوا يأكلون ؟ قال : على السُّفَر ؛ قال محمد بن بشار : يونس هذا هو أبو الفرات الإسْكَاف .

قلت : هذا حديث صحيح ثابت اتفق عليه رجاله ؛ البخارىّ ومسلم ، وخرجه التِّرمذىّ قال : حدّثنا محمد بن بشّار قال حدّثنا معاذ بن هِشام فذكره وقال فيه : حسن غريب . قال الترمذىّ أبو عبد الله : الخُوان هو شىء محدث فعلته الأعاجم ، وما كانت العرب لتمتهنها (٢) ، وكانوا يأكلون على السُّفَر واحدها سُفْرة وهى التى تتخذ من الجلود ولها معاليق تنضم وتنفرج ، فبالانفراج سُميت سُفْرة ؛ لأنها إذا حُلَّت معاليقها انفرجت فأسفرت عما فيها فقيل لها السُّفْرة ، وإنما سمى السَّفَر سَفَرا لإسفار الرجل بنفسه عن البيوت . وقوله : ولا فى سُكُرُّجة ؛ لأنها أوعية الأَصْباغ (٣) ، وإنما الأصباغ للألوان ولم تكن من سِمَاتهم الألوان ، وإنما كان طعامهم الثَّريد عليه مقطّعات اللحم . وكان يقول : "انْهَسُوا (٤) اللحمَ نَهْسًا فإنه أشهى وأمرأ" . فإن قيل : فقد جاء ذكر المائده فى الأحاديث ؛ من ذلك حديث ابن عباس قال : لو كان الضَّبّ حراما

(١) الذى فى الأصل : (محمد بن المثنى أبو موسى الزمن) وهو « محمد بن بشار » كما فى صحيح الترمذى وكما سيذكره المفسر بعد .
(٢) امتهن الشىء : استعمله للمهنة .
(٣) الأصباغ (جمع صبغ) وهو ما يؤتدم به .
(٤) النهس أخذ اللحم بأطراف الأسنان ونتفه .

ما أكل على مائدة النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ خرّجه مسلم وغيره . وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تُصلّى الملائكة على الرجل ما دامت مائدته موضوعة" خرجه الثقات؛ قيل له : المائدة كل شيء يُمَدّ ويُبسَط مثل المِنْديل والثّوب، وكان من حقه أن تكون مادة الدال مضعّفة فجعلوا إحدى الدالين ياء فقيل مائدة، والفعل واقع به فكان ينبغى أن تكون ممدودة؛ ولكن خرجت فى اللغة مخرج فاعل كما قالوا : سِرٌّ كاتم وهو مكتوم، وعيشة راضية وهى مرضية، وكذلك خرج فى اللغة ما هو فاعل على مخرج مفعول فقالوا : رجل مشئوم، وإنما هو شائم، وحجاب مستور وإنما هو ساتر؛ فالخُوان هو المرتفع عن الأرض بقوائمه؛ والمائدة ما مُدّ وبُسط، والسُّفرة ما أسفر عما فى جوفه، وذلك أنها مضمومة بمعاليقها . وعن الحسن قال : الأكل على الخُوان فعل الملوك، وعلى المِنْديل فعل العجم، وعلى السُّفْرة فعل العرب وهو السنة .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ . اختلف فى وقت هذه المقالة ؛ فقال قتادة وابن جُرَيْج وأكثر المفسرين : إنما يقول له هذا يوم القيامة . وقال السُّدىّ وقُطْرُب . قال له ذلك حين رفعه إلى السماء وقالت النصارى فيه ماقالت ؛ واحتجوا بقوله : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ » فإنّ « إذ » فى كلام العرب لما مضى . والأول أصح ؛ يدل عليه ماقبله من قوله : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ » — الآية —

وما بعده « هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ » . وعلى هذا تكون « إذ » بمعنى «إذا » كقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا » أى إذا فَزِعوا . وقال أبو النجم :

ثم جـزاه الله عـنّى إذ جَزَى * جنّاتِ عَدْنٍ فى السّموات العُلَا

يعنى إذا جزى . وقال الأسود بن جعفر الأزدىّ :

فالآن إذْ هازَلْتُهنّ فإنّما * يَقُلْنَ أَلَا لَمْ يذهب الشّيخ مَذهبا

يعنى إذا هازلتهنّ ، فعبر عن المستقبل بلفظ الماضى؛ لأنه لتحقيق أمره ، وظهور برهانه ، كأنه قد وقع . وفى التنزيل « وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » ومثله كثير وقد تقدم . وآختلف أهل التأويل فى معنى هـذا السؤال — وليس هو باستفهام و إن خرج مخرج الآستفهام — على قولين : أحدهما — أنه سأله عن ذلك توبيخا لمن آدعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ فى التكذيب ، وأشد فى التوبيخ والتقريع . الثانى — قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيّروا بعده ، وآدّعوا عليه مالم يقله . فإن قيل : فالنصارى لم يتخذوا مريم إلها فكيف قال ذلك فيهم ؟ فقيل : لما كان من قولهم أنها لم تلد بشرا و إنما ولدت إلها لزمهم أن يقولوا إنها لأجل البعضية بمثابة من ولدته ، فصاروا حين لزمهم ذلك بمثابة القائلين له .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ خرّج الترمذىّ عن أبى هريرة قال تَلَقَّى عيسى حجّته ولَقّاهُ اللهُ فى قوله : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : "فلقّاه الله" « سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ » الآية كلها . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين؛ أحدهما — تنزيها له عما أضيف إليه . الثانى — خضوعا لعزته ، وخوفا من سطوته . ويقال : إن الله تعالى لما قال لعيسى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أخذته الرِّعدة من ذلك القول حتى سمع صوت عظامه فى نفسه فقال : « سبحانك» ثم قال : « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ » أى أن أدعى لنفسى ما ليس من حقها ، يعنى أننى

مربوب واست بربّ، وعابد ولست بمعبود . ثم قال : « إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَــدْ عَلِمْتَهُ » فردّ ذلك إلى علمه ، وقد كان الله عالمـا به أنه لم يقله ، ولكنه سأله عنه تقريعا لمن ٱتخذ عيسى إلها . ثم قال : ﴿ تَعْـلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ أى تعـلم ما فى غَيْبى ولا أعلم ما فى غَيْبك . وقيل : المعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم . وقيل : تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تُخفيه . وقيل : تعلم ما أُريد ولا أعلم ما تُريد . وقيل : تعلم سِرّى ولا أعلم سِرّك؛ لأن السرّ موضعه النفس . وقيل : تعلم ما كان منى فى دار الدنيا، ولا أعلم ما يكون منك فى دار الآخرة .

قلت : والمعنى فى هذه الأقوال متقارب؛ أى تعلم سرّى وما ٱنطوى عليه ضميرى الذى خلقته، ولا أعلم شيئا مما ٱستأثرت به من غَيْبك وعلمك . ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ما كان وما يكون، وما لم يكن وما هو كائن .

قوله تعـالى : مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ يعنى فى الدنيا بالتوحيد . ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ « أَنْ » لا موضع لهـا من الإعراب وهى مفسرة مثـل « وَٱنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا » . ويجوز أن تكون فى موضـع نصب؛ أى ما ذكرت لهم إلا عبادة الله . ويجـوز أن تكون فى موضع خفض؛ أى بأن ٱعبدوا الله؛ وضم النون أولى؛ لأنهم يستثقلون كسرة بعدها ضمة، والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيـدًا ﴾ أى حفيظا بمـا أمرتهم . ﴿ مَا دُمْتُ فِيهِـمْ ﴾ « ما » فى موضع نصب أى وقت دوامى فيهـم . ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه؛ وليس بشىء ؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه، وأنه فى السماء حىّ، وأنه ينزل ويقتـل الدّجّال — على ما يأتى بيانه — وإنما المعنى

فلما رفعتني إلى السماء . قال الحسن : الوفاة في كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه ؛ وفاة الموت ، وذلك قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » يعني وقت انقضاء أجلها . ووفاة النوم ؛ قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ » يعني الذي يُنيمكم . ووفاة الرفع ، قال الله تعالى : « يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ » . «أنت» توكيد «الرَّقِيبَ» خبر «كنت» ومعناه الحافظ عليهم ، والعالم بهم ؛ والشاهد على أفعالهم ؛ وأصله المراقبة أي المراعاة ، ومنه المَرْقَبة لأنها في موضع الرقيب من علو المكان . ﴿ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي من مقالتي ومقالتهم . وقيل : على من عصى وأطاع ؛ خرّج مسلم عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا بموعظة فقال : " يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله [حُفاةً](1) عُرَاةً غُرْلًا(2) كما بدأنا أوّل خَلْق نُعيده وعدًا علينا إنّا كنا فاعلين ألَا و إن أوّل الخلائق يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ — عليه السلام — ألَا و إنه سيُجاءُ برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذاتَ الشمال فأقول يارب أصحابي فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح : « وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » قال : " فيقال لي إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم " .

قوله تعالى : إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ شرط ، وجوابه ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ مثله . روى النَّسائي عن أبي ذرّ قال : قام النبيّ صلى الله عليه وسلم بآية ليلةً حتى أَصبح(3) ، والآية «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .

---

(1) الزيادة عن صحيح مسلم . (2) غرل (جمع أغرل) أي غير مختونين ؛ والمراد — والله أعلم — أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم ولا ينقص منهم شيء ، بل يتم لهم كل ما نقص منهم . «هامش مسلم» .

(3) أي يقرأ بآية يرددها في صلاته حتى أصبح .

واختلف فى تأويله فقيل : قاله على وجه الاستعطاف لهم، والرأفة بهم ، كما يستعطف السيد لعبده، ولهذا لم يقل : فإنهم عصوك . وقيل : قاله على وجه التسليم لأمره، والاستجارة من عذابه، وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر . وقيل : الهاء والميم فى «إنْ تعذّبهم» لمن مات منهم على الكفر، والهاء والميم فى « إنْ تَغْفِرْ لهُمْ » لمن تاب منهم قبل الموت؛ وهذا حسن . وأما قول من قال : إن عيسى عليه السلام لم يعلم أن الكافر لا يغفر له فقول مجترئ على كتاب الله عز وجل؛ لأن الأخبار من الله عز وجل لا تُنسَخ . وقيل : كان عند عيسى أنهم أحدثوا معاصى، وعملوا بعده بما لم يأمرهم به ، إلا أنهم على عَمود دينه ، فقال : وإن تغفر لهم ما أحدثوا بعدى من المعاصى . وقال: ﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره، والتفويض لحكمه . ولو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شِرْكه وذلك مستحيل؛ فالتقدير إن تبقهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذّبهم فإنهم عبادك ، وإن تَهدهم إلى توحيدك وطاعتك وتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذى لا يمتنع عليك ما تريده؛ والحكيم فيما تفعله ، تضل من تشاء وتهدى من تشاء . وقد قرأ جماعة «فإنك انت الغفور الرّحيم» وليست من المصحف؛ ذكره القاضى عِياض فى كتاب « الشّفاء » . وقال أبو بكر الأنْبارىّ وقد طعن على القرآن من قال إن قوله : « إِنَّكَ أَنت الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ليس بمُشاكِلٍ لقوله : « وَإِنْ تَغْفِرْ لهُمْ » ؛ لأن الذى يُشاكل المغفرة فإنك أنت الغفور الرحيم — والجواب — أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله، ومتى نقل إلى الذى نقله إليه ضَعُف معناه؛ فإنه ينفرد الغفور الرحيم بالشرط الثانى فلا يكون له بالشرط الأول تعلّق، وهو على ما أنزله الله عز وجل، واجتمع على قراءته المسلمون مَقْرُونٌ بالشرطين كليهما أولها وآخرها ؛ إذ تلخيصه إن تعذبهم فإنك أنت عزيز حكيم ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم فى الأمرين كليهما من التّعذيب والغفران ، فكان العزيز الحكيم أليق بهذا المكان لعمومه؛ فإنه يجمع الشرطين، ولم يصلح الغفور الرحيم إذ لم يحتمل من العموم ما احتمله العزيز الحكيم ، وما شهد بتعظيم الله تعالى وعدله والثناء عليه فى الآية كلها والشرطين

المذكورين أولى وأثبت معنى فى الآية مما يصلح لبعض الكلام دون بعض . خرّج مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تلا قوله عز وجل فى إبرهيم «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال عيسى عليه السلام : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فرفع يديه وقال : "اللهم أمتى" وبكى فقال الله عز وجل : « يا جبريل آذهب إلى محمد — وربك أعلم — فسَلْه ما يُبكيك » فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال — وهو أعلم — فقال الله : « يا جبريل آذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نَسوءك » . وقال بعضهم : فى الآية تقديم وتأخير ؛ ومعناه إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم وإن تغفرلهم فإنهم عبادك ؛ ووجه الكلام على نَسَقه أولى لما بيّنا . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ أى صدقهم فى الدنيا فأما فى الآخرة فلا ينفع فيها الصدق ؛ وصدقهم فى الدنيا يحتمل أن يكون صدقهم فى العمل لله ، ويحتمل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله ؛ وإنما ينفعهم الصدق فى ذلك اليوم وإن كان نافعا فى كل الأيام لوقوع الجزاء فيه . وقيل : المراد صدقهم فى الآخرة وذلك فى الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ ، وفيما شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ، ويكون وجه النفع فيه أن يُكفَوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة ، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم على أنفسهم . والله أعلم . وقرأ نافع وآبن مُحَيْصِن «يَوْمَ» بالنصب . ورفع الباقون وهى القراءة البيّنة على الابتداء والخبر ،

فيوم ينفع خبر «لهذا» والجملة فى موضع نصب بالقول . وأما قراءة نافع وآبن مُحَيْصِن فحكى إبراهيم بن حميـد عن محمد آبن يزيد أن هـذه القراءة لا تجوز ، لأنه نصب خبر الابتـداء ، ولا يجوز فيه البناء . وقال إبراهيم بن السَّرِىّ : هى جائزة بمعنى قال الله هذا لعيسى بن مريم يوم ينفع الصادقين صدقهم ؛ فـ « يوم » ظرف للقول ، « وهذا » مفعول القول والتقدير ؛ قال الله هذا القول فى يوم ينفع الصادقين . وقيل : التقدير قال الله عز وجل هـذه الأشياء تنفع يوم القيامة . وقال الكسائىّ والفَرَّاء : بنى يوم هاهنا على النصب ؛ لأنه مضاف إلى غير آسم كما تقول مضى يومئذ وأنشد الكسائىّ (١) :

عَلَى حِينَ عاتبتُ المَشِيبَ على الصِّبَا * وقلتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

الزّجاج : ولا يجيز البصريون ما قالاه إذا أضفت الظرف إلى فعل مضارع ، فإن كان إلى ماض كان جيدا كما مرّ فى البيت ، وإنما جاز أن يضاف الفعل إلى ظروف الزمان ؛ لأن الفعل بمعنى المصدر . وقيل : يجوز أن يكون منصوبا ظرفا ويكون خبر الآبتداء الذى هو «هذا» ؛ لأنه مشار به إلى حَدَث ، وظروف الزمان تكون أخبارا عن الأحداث ، تقول : القتالُ اليوم ، والخروج الساعة ، والجملة فى موضع نصب بالقول . وقيل : يجوز أن يكون «هذا» فى موضع رفع بالابتداء «ويوم» خبر الابتداء والعامل فيه محذوف ، والتقدير : قال الله هذا الذى قصصناه يقع يوم ينفع الصادقين صدقهم . وفيه قراءة ثالثة «يَوْمٌ يَنْفَعُ» بالتنوين «الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ» فى الكلام حذف تقديره « فيــه » مثل « وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً » وهى قراءة الأعمش .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ آبتداء وخبر . ﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضع الصفة . ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت غُرَفها وأشجارها وقد تقدّم . ثم بين تعالى ثوابهم ، وأنه راض عنهم رضًا لا يغضب

(١) البيت للنابغة ، والشاهد فى إضافة « حين » إلى الفعل وبنائها معه على الفتح .

بعده أبدا . ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى عن الجزاء الذى أثابهم به . ﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ ﴾ أى الظفر ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ أى الذى عظم خيره، وكثر ، وارتفعت منزلة صاحبه وشرف .

قوله تعالى : لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ جاء هذا عقب ما جرى من دعوى النصارى فى عيسى أنه إله ، فأخبر تعالى أن ملك السموات والأرض له دون عيسى ودون سائر المخلوقين . ويجوز أن يكون المعنى أن الذى له ملك السموات والأرض يعطى الجنات المتقدّم ذكرها للطيعين من عباده ؛ جعلنا الله منهم بمنه وكرمه . تمت سورة « المائدة » بحمد الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ســـورة الأنعــام

وهى مكية فى قول الأكثرين ؛ قال ابن عباس وقَتَادة : هى مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة ، قوله تعالى : «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» نزلت فى مالك بن الصَّيْف وكعب ابن الأشرف اليهوديين ، والأخرى قوله : «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ» نزلت فى ثابت بن قيس بن شَمَّاس الأنصارى . وقال ابن جُرَيْج : نزلت فى معاذ بن جبل ؛ وقاله المـاوَرْدى . وقال الثعلبى : سورة « الأنعام » مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » إلى آخر ثلاث آيات « وَقُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » إلى آخر ثلاث آيات ؛ قال ابن عطية : وهى الآيات المحكمات . وذكر ابن العربى أن قوله تعالى : « قُلْ لَا أَجِدُ » نزل بمكة يوم عرفة . وسيأتى القول فى جميع ذلك إن شاء الله . وفى الخبر أنهـا نزلت جملة واحدة غير الست الآيات ، وشيعها سبعون ألف مَلك ، مع آية واحدة منها اثنا عشر ألف مَلك وهى « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » نزلوا بها ليلا لهم زَجَل (١) بالتسبيح والتحميد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكُتّاب فكتبوها من ليلتهم . وأسند أبو جعفر النحاس قال : حدثنـا محمد بن يحيى حدثنا ابن حاتم رَوْح بن الفرج مولى الحَضَارمة قال حدّثنا أحمد بن محمد أبو بكر العمرىّ حدّثنا ابن أبى فُدَيْك حدثنى عمر بن طلحة ابن عَلْقمة بن وقاص عن نافع بن سُهَيل بن مالك عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سـدّ ما بين الخافقين لهم زَجَل بالتسبيح" والأرض لهم ترتج ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "سبحان ربى العظيم ثلاث مرات" . وذكر الدّارِمىّ أبو محمد فى مسنده عن عمر بن الخطاب قال : الأنعام من نجائب (٢) القرآن . وفيه عن كعب قال : فاتحة «التوراة» فاتحة الأنعام وخاتمتها خاتمة «هود» . وقاله

---

(١) زجل : صوت رفيع عال . (٢) نجائب القرآن ونواجيه : أفاضل سوره . (النهاية) .

وهب بن مُنبِّه أيضا ؛ وذكر المهدوىّ قال المفسرون : إن « التوراة » ٱفتتحت بقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » الآية وخُتمت بقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ » إلى آخر الآية . وذكر الثعلبىّ عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ ثلاث آيات من أوّل سورة « الأنعام » إلى قوله : « وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ » وكّل الله به أربعين ألف مَلَك يكتبون له مثل عبادتهم إلى يوم القيامة ، وينزل مَلَك من السماء السابعة ومعه مِرْزَبة[1] من حديد ، فإذا أراد الشيطان أن يوسوس له أو يوحى فى قلبه شيئا ضربه ضربة فيكون بينه وبينه سبعون حجابا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : « ٱمش فى ظِلّى يوم لا ظِلّ إلا ظِلى وكُلْ من ثمار جنتى وٱشرب من ماء الكَوْثر وٱغتسل من ماء السَّلْسبيل فأنت عبدى وأنا ربُّك » . وفى البخارىّ عن ٱبن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة «الأنعام» « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» إلى قوله : « وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » .

تنبيه ــ قال العلماء : هذه السورة أصل فى محاجة المشركين ، وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذّب بالبعث والنُّشور ؛ وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة ؛ لأنها فى معنى واحد من الحجة ، وأن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين ؛ لأن فيها آيات بيّنات تَردّ على القَدَرية دون السّور التى تُذكر والمذكورات ، وسنزيد ذلك بيانا إن شاء الله بحول الله تعالى .

قوله تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

فيه خمس مسائل :

(١) المرزبة (بالتخفيف) ويقال لها الإرزبة (بالهمز والتشديد) : المطرقة الكبيرة التى تكون للحداد . (النهاية) .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ بدأ سبحانه فاتحتها بالحمد على نفسـه ، وإثبات الألوهية ؛ أي أن الحمـد كلّه له فلا شريك له . فإن قيل : فقد ٱفتتح غيرها بالحمـد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره ؛ فيقال : لأن لكل واحد منه معنى في موضعه لا يؤدي عنه غيره من أجل عقده بالنِّعم المختلفة ، وأيضا فلمـا فيه من الحجة في هـذا الموضع على الذين هم بربهم يَعدِلون . وقد تقدّم معنى « الحمد » في الفاتحة (١) .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: الذي خلق أي اخترع وأوجد وأنشأ وٱبتدع . والخلق يكون بمعنى الاختراع ، ويكون بمعنى التقدير ، وقد تقدّم ، وكلاهما مراد هنا ؛ وذلك دليل على حدوثهما ؛ فرفع السماء بغير عمد ، وجعلها مستوية من غير أَوَدٍ (٢) ، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين ، وزيّنها بالنجوم ، وأودعها السحاب والغيوم علامتين ؛ وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات ، وبثّ فيها من كل دابة آيات ، وجعل فيها الجبال أوتادا ، وسُبلا فجاجا ، وأجرى فيها الأنهار والبحار ، وفجّر فيهـا العيون من الأحجار دلالات على وحدانيتـه ، وعظيم قدرته ، وأنه هو الله الواحد القهار ، وبيّن بخلقه السموات والأرض أنه خالق كل شيء .

الثالثـة — خرّج مسلم قال : حدثني سُرَيْج بن يونس وهرون بن عبد الله قالا حدّثنا حجّاج بن محمد قال قال ٱبن جُرَيْج أخبرني إسمعيل بن أُميّـة عن أيوب بن خالد عن عبـد الله ٱبن رافع مولى أمّ سَلَمة عن أبي هُريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: "خلق الله عز وجل التُّرْبة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدّواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعـد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل" .

(١) راجع جـ ١ ص ١٣١ وما بعدها طبعة ثانية .

(٢) الأود : العوج .

قلت : أدخل العلماء هذا الحديث تفسيرا لفاتحة هذه السورة . قال البيهقي : وزعم أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ لمخالفة ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ . وزعم بعضهم أن إسمعيل بن أُميّة إنما أخذه عن إبراهيم بن يحيي عن أيوب بن خالد، وإبراهيم غير محتج به . وذكر محمد بن يحيي قال : سألت عليّ بن المديني عن حديث أبي هُريرة "خلق الله التُّربة يوم السبت" فقال عليّ : هذا حديث مدني ، رواه هشام بن يوسف عن ابن جُرَيْج عن إسمعيل بن أُميّة عن أيوب بن خالد عن أبي رافع مولى أمّ سَلَمة عن أبي هُريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ؛ قال عليّ : وشَبَّك بيدى إبراهيم بن يحيي، فقال لى : شَبّك بيدى أيوب بن خالد، قال لى : شَبّك بيدى عبد الله بن رافع، وقال لى : شَبّك بيدى أبو هُريرة، وقال لى : شَبّك بيدى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فقال : "خلق الله الأرض يوم السبت" فذكر الحديث بنحوه . قال عليّ بن المَديني : وما أرى إسمعيل بن أمية أخذ هذا الأمر إلا من إبراهيم بن أبي يحيي ؛ قال البيهقيّ : وقد تابعه على ذلك موسى بن عُبيدة الرَّبَذيّ عن أيوب بن خالد، إلا أن موسى بن عُبيدة ضعيف . وروى عن بكر بن الشَّرُود، عن إبراهيم بن أبي يحيي عن صفوان بن سُلَيْم ، عن أيوب بن خالد — وإسناده ضعيف — عن أبي هُريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن في الجمعة ساعة لا يوافقها أحد يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه إياه" قال فقال عبد الله بن سَلَام : "إنّ الله عز وجل ابتدأ الخلق فخلق الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق السّموات يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق الأقوات وما في الأرض يوم الخميس ويوم الجمعة إلى صلاة العصر وما بين صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس خلق آدم" خرّجه البيهقي :

قلت : وفيه أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد لا يوم السبت وكذلك تقدّم في « البقرة »[1] عن ابن مسعود وغيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . وتقدّم فيها الاختلاف أيما خلق أوّل الخلق الأرض أو السماء[2] مستوفى . والحمد لله .

---

(١) راجع ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها طبعة ثانية .		(٢) راجع ج ١ ص ٢٥٥ وما بعدها طبعة ثانية .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ذكر بعـد خلق الجواهر خلق الأعراض لكون الجوهر لا يستغنى عنه، وما لا يستغنى عن الحوادث فهو حادث. والجوهر فى إصلاح المتكلمين هو الجزء الذى لا يتجزأ الحـامل للعَرَض؛ وقد أتينا على ذكره فى الكتاب الأسْنَى فى شرح أسماء الله الحسنى فى آسمه « الواحد » . وسمى العَـرَض عَرَضا؛ لأنه يعرض فى الجسم والجوهر فيتغير به من حال إلى حال، والجسم هو المجتمع، وأقل ما يقع عليه آسم الجسم جوهران مجتمعان؛ وهـذه الاصطلاحات وإن لم تكن موجودة فى الصـدر الأوّل فقـد دل عليها معنى الكتاب والسنة فلا معنى لإنكارها . وقد آستعملها العلمـاء واصطلحوا عليها، وبَنَوا عليها كلامهم، وقتلوا بها خصومهم، كما تقدم فى «البقرة» . واختلف العلمـاء فى المعنى المراد بالظلمات والنور؛ فقال السُّدّىّ وقَتَادة وجمهور المفسرين : المراد سواد الليل وضياء النهار . وقال الحسن : الكفر والإيمان . قال آبن عطية : وهذا خروج عن الظاهر.

قلت : اللفظ يعمه؛ وفى التنزيل : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًـا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ » . والأرض هنا آسم للجنس فإفرادها فى اللفظ بمنزلة جمعها؛ وكذلك « والنور » ومثله « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » وقال الشاعر :

* كُلُوا فى بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفُّوا *

وقد تقدم(١) . و « جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره؛ قاله آبن عطية .

قلت : وعليـه يتفق اللفظ والمعنى فى النَّسق؛ فيكون الجمع معطوفا على الجمع والمفـرد معطوفا على المفرد، فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة، والله أعلم . وقيل : جمع « الظُّلُمَاتِ » ووحد « النور » لأن الظلمـات لا تتعدّى والنور يتعـدّى . وحكى الثعلبىّ أن بعض أهل المعانى قال : « جعل » هنا زائدة؛ والعرب تزيد « جعل » فى الكلام كقول الشاعر :

وقد جَعلتُ أَرَى الآثنين أربعةً * والواحدَ آثنينِ لَمَّـا هَدَّنى الكِبَرُ(٢)

(١) تمام البيت : * فإنّ زمانكم زمنٌ خَمِيـصُ *

يقول الشاعر : كلوا فى بعض بطنكم حتى تعتادوا ذلك فإن الزمان ذو مخمصة وجدب .

(٢) ورد البيت فى جـ ١ ص ٢٢٨ « والأربع اثنين » والصواب ما هنا .

قال النحاس : جعل بمعنى خلق ، وإذا كانت بمعنى خلق لم تتعد إلا إلى مفعول واحد ، وقد تقدّم هذا المعنى ، ومحامل جعل في « البقرة »(١) مستوفى .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ابتداء وخبر ، والمعنى : ثم الذين كفروا يجعلون لله عدلا وشريكا ، وهو الذي خلق هـذه الأشياء وحده . قال ابن عطية : « ثم » دالة على قبح فعل الكافرين ، ولأن المعنى : أن خالقه السموات والأرض قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبيّن ، ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم ؛ فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني . ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم ، والله أعلم .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خلقكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ الآية خبر ، وفي معناه قولان : أحدهما — وهو الأشهر ، وعليه من الخلق الأكثر ، أن المراد آدم عليه السلام والخلق نَسْله ، والفرع يضاف إلى أصله ؛ فلذلك قال : « خلقكم » بالجمع ؛ فأخرجه مخرج الخطاب لهم إذ كانوا ولده ؛ هذا قول الحسن وقَتَادة وابن أبي نَجيح والسُّدي والضّحاك وابن زيد وغيرهم . الثاني — أن تكون النطفة خلقها الله من طين على الحقيقة ثم قلبها حتى كان الإنسان منها ؛ ذكره النحاس .

قلت : وبالجملة فلما ذكر جل وعز خلق العالم الكبير ذكر بعده خلق العالم الصغير — وهو الإنسان — وجعل فيه ما في العالم الكبير ، على ما بيّناه في « البقرة »(٢) في آية التوحيد والحمد لله . وقد روى أبو نعيم الحافظ في كتابه عن مُرّة عن ابن مسعود أن الملك الموكّل بالرّحم يأخذ النطفة فيضعها على كفّه ثم يقول : يا رب مُخلّقة أو غير مُخلّقة ؛ فإن قال مُخلّقة قال : يارب ما الرزق ما الأثر ما الأجل ؟ فيقول : انظر في أمّ الكتاب ، فينظر في اللوح المحفوظ فيجد

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٨ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٠٢ وما بعدها طبعة ثانية .

فيه رزقه وأثره وأجله وعمله، ويأخذ التراب الذى يدفن فى بقعته ويعجن به نطفته؛ فذلك قوله تعالى: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ». وخرّج عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا وقد ذُرَّ عليه من تُراب حُفْرته".

قلت: وعلى هـذا يكون كل إنسان مخلوق من طين وماء مهين، كما أخبر جل وعز فى سورة «المؤمنين»؛ فتنتظم الآيات والأحاديث، ويرتفع الإشكال والتعارض، والله أعلم. وأما الإخبار عن خلق آدم عليه السلام فقد تقدّم فى «البقرة»(١) ذكره واشتقاقه، ونزيد هنا طرفا من ذلك ونعته وسِنّه ووفاته؛ ذكر ابن سعد فى «الطّبقات» عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الناس ولد آدم وآدم من التراب". وعن سعيد بن جُبير قال: خلق الله آدم من أرض يقال لها دَجْناء(٢)؛ قال الحسن: وخلق جُؤْجُؤه(٣) من ضَرِيَّة؛ قال الجوهرى: ضَرِيَّة قرية لبنى كلاب على طريق البصرة وهى إلى مكة أقرب، وعن ابن مسعود قال: إن الله بعث إبليس فأخذ من أَدِيم الأرض من عَذْبها ومالحها فخلق منه آدم عليه السلام؛ فكل شىء خلقه من عَذْبها فهو صائر إلى الجنة وإن كان ابن كافر، وكل شى خلقه من مالحها فهو صائر إلى النار وإن كان ابن تقىّ؛ فمن ثَمَّ قال إبليس: «أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً» لأنه جاء بالطينة؛ فسمى آدم لأنه خلق من أَدِيم الأرض. وعن عبد الله بن سَلَام قال: خلق الله آدم فى آخر يوم الجمعة. وعن ابن عباس قال: لما خلق الله آدم كان رأسه يَمَسُّ السماء — قال — فوَطَده إلى الأرض حتى صار ستين ذراعا فى سبعة أذرع عرضا. وعن أُبىّ بن كعب قال: كان آدم عليه السلام طُوالا(٤) جَعْدا كأنه نخلة سَحُوق(٥). وعن ابن عباس — فى حديث فيه طول — وحج آدم عليه السلام من الهند إلى مكة أربعين حجة على رجليه، وكان آدم حين أُهبط تمسح رأسه السماء؛ فمن ثم صَلِع وأورث ولده الصَّلَع، ونَفَرت من طوله دواب البرّ فصارت وحشا من يومئذ، ولم يمت حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا، وتُوفى على ذِرْوة

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية. (٢) دجناء (بالمد والقصر). ويروى بالحاء المهملة؛ وهى مضبوطة فى «اللسان» و«غاية النهاية» بفتح الدال. وقال صاحب القاموس: «هى بالضم والكسر».

(٣) الجؤجؤ: الصدر. (٤) الطوال (بالضم): المفرط الطول. (٥) النخلة السحوق الطويلة.

الجبل الذى أنزل عليه ، فقال شيث لجبريل عليهما السلام : «صَلِّ على آدم» فقال له جبريل عليه السلام : تقدّم أنت فَصَلِّ على أبيك وَكَبِّر عليه ثلاثين تكبيرة ، فأما خمس فهى الصلاة ، وخمس وعشرون تفضيلا لآدم . وقيل : كبّر عليه أربعا ؛ فجعل بنو شيث آدم فى مغارة وجعلوا عليها حافظا لا يقربه أحد من بنى قابيل ؛ وكان الذين يأتونه ويستغفرون له بنو شيث ، وكان عمر آدم تسعمائة سنة وستا وثلاثين سنة . ويقال : هل فى الآية دليل على أن الجواهر من جنس واحد؟ الجواب نعم ؛ لأنه إذا جاز أن ينقلب الطين إنسانا حيا قادرا عليا جاز أن ينقلب إلى كل حال من أحوال الجواهر لتسوية العقل بين ذلك فى الحكم ، وقد صح انقلاب الجماد إلى الحيوان بدلالة هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ﴾ مفعول . ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ ابتداء وخبر . قال الضحاك : « أَجَلًا » فى الموت « وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ » أجل القيامة ؛ فالمعنى على هذا : حكم أجلا ، وأعلمكم أنكم تقيمون إلى الموت ولم يعلمكم بأجل القيامة . وقال الحسن ومجاهد وعِكْرِمة وخصيف(١) وقَتَادة — وهذا لفظ الحسن — : قضى أجل الدنيا من يوم خلقك إلى أن تموت « وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ » يعنى الآخرة . وقيل : « قَضَى أَجَلًا » ما أعلمناه من أنه لا نبيّ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، « وَأَجَلٌ مُسَمًّى » من الآخرة . وقيل : « قَضَى أَجَلًا » مما نعرفه من أوقات الأهلّة والزرع وما أشبههما ، « وَأَجَلٌ مُسَمًّى » أجل الموت ؛ لا يعلم الإنسان متى يموت . وقال ابن عباس ومجاهد : معنى الآية « وَقَضَى أَجَلًا » بقضاء الدنيا ، « وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ » لابتداء الآخرة . وقيل : الأول قبض الأرواح فى النوم ، والثانى قبض الروح عند الموت ؛ عن ابن عباس أيضا .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أى تَشُكُّون فى أنه إله واحد . وقيل : تُمارون فى ذلك أى تجادلون جدال الشّاكّين ؛ والتَّمارى المجادلة على مذهب الشّك ؛ ومنه قوله تعالى : « أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى » .

(١) « فى التهذيب » : هو مصغر ؛ وفى القاموس : هو كأمير .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ يقال : ما عامل الإعراب فى الظرف من « فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » ؟ ففيه أجوبة : أحدها — أى وهو الله المعظَّم أو المعبود فى السموات وفى الأرض؛ كما تقول : زيد الخليفة فى الشرق والغرب أى حُكْمُه . ويجوز أن يكون المعنى وهو الله المنفرد بالتدبير فى السموات وفى الأرض؛ كما تقول: هو فى حاجات الناس وفى الصلاات ، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ويكون المعنى : وهو الله فى السموات وهو الله فى الأرض . وقيل : المعنى وهو الله يعلم سِرّكم وجهركم فى السموات وفى الأرض فلا يخفى عليه شيء؛ قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فيه . وقال محمد بن جَرير : وهو الله فى السموات ويَعلم سِركم وجهركم فى الأرض؛ فيعلم مقدّم فى الوجهين، والأول أسلم وأبعد من الإشكال. وقيل غير هذا . والقاعدة تنزيهه — جل وعز — عن الحركة والآنتقال وشَغْل الأمكنة . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أى من خير وشر . والكسب الفعل لآجتلاب نفع أو دفع ضرر؛ ولهذا لا يقال لفعل الله كَسْبٌ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أى علامة كانشقاق القمر ونحوها . و « من » لآستغراق الجنس؛ تقول : ما فى الدار من أحد . ﴿ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ « مِن » الثانية للتبعيض . و ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ خبر « كَانُوا » . والإعراض ترك النظر فى الآيات التى يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله جل وعز من خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنه يرجع إلى قديم غنىّ عن جميع الأشياء، قادر لا يعجزه شيء، عالم لا يخفى عليه شيء من المعجزات التى أقامها لنبيه عليه السلام ليستدل بها على صدقه فى جميع ما أتى به .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ يعنى مشركى مكة . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى القرآن، وقيل : محمدا عليه السلام . ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ ﴾ أى يحلّ بهم العقاب ؛ وأراد بالأنباء — وهى الأخبار — العذاب ؛ كقولك : اصبر وسوف يأتيك الخبر أى العذاب ؛ والمراد ما نالهم يوم بَدْر ونحوه . وقيل : يوم القيامة .

قوله تعالى : أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ « كم » فى موضع نصب بأهلكنا لا بقوله : « أَلَمْ يَرَوْا » لأن لفظ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، وإنما يعمل فيه ما بعده ؛ من أجل أن له صدر الكلام . والمعنى : أَلَا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم أنبياءهم ؛ أى ألم يَعْرفوا ذلك . والقَرْن الأمة من الناس ، والجمع القرون ؛ قال الشاعر :

إذا ذَهبَ القرنُ الذى كنتَ فيهم * وخُلِّفتَ فى قَرْنٍ فأنتَ غريبُ

فالقَرْن كل عالَم فى عصره ؛ مأخوذ من الاقتران ، أى عالَم مقترن بعضهم إلى بعض ؛ وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خير الناس قَرْنى — يعنى أصحابى — ثم الذين يَلُونهم ثم الذين يَلُونهم " هذا أصح ما قيل فيه . وقيل : المعنى من أهل قَرْن فحذف ، كقوله : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . فالقَرْن على هذا مدة من الزمان ؛ قيل : ستون عاما ، وقيل : سبعون ، وقيل : ثمانون ، وقيل : مائة ؛ وعليه أكثر أصحاب الحديث أن القَرْن مائة سنة ؛ واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بُسْر : " تَعيشُ قَرْناً " فعاش مائة سنة ؛ ذكره النحاس . وأصل القرن الشيء الطالع كقَرْن ماله قَرْن من الحيوان . ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب ؛ عكسه « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ

بِهِمْ » . وقال أهل البصرة أخبر عنهم بقوله : « أَلَمْ يَرَوْا » وفيهم محمد عليه السلام وأصحابه ، ثم خاطبهم معهم ؛ والعرب تقول : قلت لعبد الله ما أكرمه ، وقلت لعبد الله ما أكرمك ؛ ولو جاء على ما تقدّم من الغيبة لقال : ما لم نمكن لهم . ويجوز مكّنه ومكّن له ، فجاء باللغتين جميعا ؛ أى أعطيناهم ما لم نعطكم من الدنيا . ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ﴾ يريد المطر الكثير ؛ عبر عنه بالسماء لأنه من السماء ينزل ؛ ومنه قول الشاعر (١) :

* إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ *

و « مِدْرَارًا » بناء دالّ على التكثير ؛ كمذكار للمرأة التى كثرت ولادتها للذكور ، ومئناث للمرأة التى تلد الإناث ؛ يقال : دَرّ اللبن يدرّ إذا أقبل على الحالب بكثرة . وانتصب « مِدْرَارًا » على الحال . ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ أى من تحت أشجارهم ومنازلهم ، ومنه قول فرعون : « وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي » والمعنى : وسعنا عليهم النعم فكفروها . ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى بكفرهم فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم . ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ أى أوجدنا ؛ فليحذر هؤلاء من الإهلاك أيضا .

قوله تعالى : وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ المعنى : لو نزلنا يا محمد بمرأى منهم كما زعموا وطلبوا كلاما مكتوبا « فى قرطاس » . وعن ابن عباس : كتابا معلّقا بين السماء والأرض ؛ وهذا يبين لك أن التنزيل على وجهين ؛ أحدهما — على معنى نزل عليك الكتاب بمعنى نزول الملك به . والآخر — ولو نزلنا كتابا فى قرطاس يمسكه الله بين السماء والأرض ؛

(١) هو معود الحكماء — معاوية بن مالك — وهذا صدر بيت له ، وتمامه :

* رعيناه وإن كانوا غضابا *

وسمى مُعوِّد الحكماء لقوله فى هذه القصيدة :

أُعوِّد مثلها الحكماءُ بعدى * إذا ما الحقّ فى الحدثان نابا

(اللسان)

وقال: «نَزَّلْنَا» على المبالغة بطول مكث الكتاب بين السماء والأرض. والكتاب مصدر بمعنى الكتابة؛ فبيّن أن الكتابة في قرطاس؛ لأنه غير معقول كتابة إلا في قرطاس أي في صحيفة؛ والقرطاس الصحيفة؛ ويقال: قُرْطاس بالضم؛ وقَرطَس فلان إذا رمى فأصاب الصحيفة الملزقة بالهدف. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي فعاينوا ذلك ومسّوه باليد كما آقترحوا و بالغوا في ميْزه وتقليبه جَسًّا بأيديهم، ليرتفع كل آرتياب ويزول عنهم كل إشكال، لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم، وقالوا: سحر مبين إنما سُكِّرت أبصارُنا وسُحِرنا؛ وهذه الآية جواب لقولهم: «حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ» فأعلم الله بما سبق في علمه من أنه لو نزل لكذّبوا به. قال الكلبيّ: نزلت في النَّضْر بن الحرث وعبد الله بن أبي أُميّة ونوفل بن خُويلد قالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا» الآية.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ اقترحوا هذا أيضا. و«لولا» بمعنى هَلَّا. ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال آبن عباس: لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته. مجاهد وعِكْرِمة: لقامت الساعة. الحسن وقَتادة: لأُهلكوا بعذاب الآستئصال؛ لأن الله أجرى سنّته بأن من طلب آية فأظهرت له فلم يؤمن أهلكه الله في الحال. ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يُمهَلون ولا يؤخرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه؛ فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربته، ولما أنسوا به، ولداخلهم

من الرُّعب من كلامه والاتقاء له ما يكفُّهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعمّ المصلحة؛ ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم. وكانت الملائكة تأتى الأنبياء فى صورة البشر فأتوا إبراهيم ولوطا فى صورة الآدميين، وأتى جبريل النبيّ عليهما الصلاة والسلام فى صورة دِحْيــة الكَلْبيّ. أى لو نزل ملَك لرأوه فى صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه؛ فإذا جعلناه رجلا ٱلتبس عليهم فكانوا يقولون: هذا ساحر مثلك. وقال الزّجاج: المعنى ﴿ لَلَبَسْنَا عَلَيْهِم ﴾ أى على رؤسائهم كما يَلْبِسون على ضَعَفتهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهـذا ويُشكِّكونهم؛ فأعلمهم الله عز وجل أنه لو أنزل ملَكا فى صورة رجل لوجدوا سبيلا إلى اللَّبْس كما يفعلون. واللَّبْس الخلْط؛ يقال: لَبَست عليه الأمر أَلْبِسه لَبْسا أى خَلَطته؛ وأصله التّستر بالثوب ونحوه. وقال: « لَبَسْنَا » بالإضافة إلى نفسه على جهة الخلق، وقال: ﴿ يَلْبِسُونَ ﴾ فأضاف إليهم على جهة الاكتساب.

ثم قال مؤنسا لنبيه عليه الصلاة والسلام ومُعزِّيا: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ ﴾ أى نزل بأممهم من العــذاب ما أُهلكوا به جزاء ٱستهزائهم بأنبيائهم. حاق بالشيء يَحِيق حَيْقًا وحُيُوقا وحَيَقانًا نزل؛ قال الله تعالى « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » و « ما » فى قوله: ﴿ مَا كَانُوا ﴾ بمعنى الذى، وقيل: بمعنى المصدر؛ أى حاق بهم عاقبة ٱستهزائهم.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين: سافروا فى الأرض فانظروا وٱستخبروا لتعرفوا ما حلّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب؛

وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار ، والعاقبة آخر الأمر . والمكذّبون هنا من كذّب الحق وأهله لا من كذّب بالباطل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا ٱحتجاج عليهم ؛ المعنى قل لهم يا محمد : « لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فإن قالوا لمن هو ؟ فقل « لله » ؛ المعنى : إذا ثبت أن له ما فى السموات والأرض ، وأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم ، فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ، ويبعثهم بعد الموت ، ولكنه ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أى وعد بها فضلا منه وكرما ؛ فلذلك أمهل . وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده ، وتأكيد وعده ، وٱرتفاع الوسائط دونه ؛ ومعنى الكلام الاستعطاف منه تعالى للمتولّين عنه إلى الإقبال إليه ، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم الإنابة والتوبة . وفى صحيح مسلم عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتى تَغلب غضبى" أى لما أظهر قضاءه ، وأبرزه لمن شاء، أظهر كتابا فى اللوح المحفوظ — أو فيما شاءه — مقتضاه خبر حق ووعد صدق « إنّ رحمتى تغلب غضبى » أى تسبقه وتزيد عليه .

قوله تعالى : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ اللام لام القسم ، والنون نون التأكيد . قال الفرّاء وغيره : يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله : « الرحمة » ويكون مابعده مستأنفا على جهة التبيين ؛ فيكون معنى « لَيَجْمَعَنَّكُمْ » ليُمهلنكم وليؤخرنّ جمعكم . وقيل : المعنى ليجمعنكم أى فى القبور إلى اليوم الذى أنكرتموه . وقيل : « إلى » بمعنى فى ، أى ليجمعنكم فى يوم القيامة . وقيل : يجوز أن يكون موضع « ليجمعنكم » نصبا على البدل من الرحمة ؛ فتكون اللام بمعنى « أن » المعنى : كتب ربكم على نفسه ليجمعنكم ، أى أن يجمعكم ؛ وكذلك قال كثير من النحويين فى قوله تعالى : « ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ » أى أن يسجنوه . وقيل : موضعه نصب بكتب ، كما تكون « أن » فى قوله عز وجل « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ » وذلك أنه مفسر للرحمة بالإمهال إلى يوم القيامة ؛ عن الزجاج .

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه . ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ابتداء وخبر، قاله الزجاج وهو أجود ماقيل فيـه؛ تقول : الذى يكرمنى فله درهم، فالفاء تتضمن معنى الشرط والجزاء . وقال الأخفش : إن شئت كان « الذين » فى موضع نصب على البدل من الكاف والميم فى « ليجمعنكم » أى ليجمعن المشركين الذين خسروا أنفسهم؛ وأنكره المبرّد وزعم أنه خطأ؛ لأنه لا يبـدل من المخاطَب ولا من المخاطِب لا يقال : مررت بك زيدٍ ولا مررت بى زيدٍ لأن هذا لايشكل فيبيّن . قال القُتَبِيّ : يجوز أن يكون « الذين » جزاء على البدل من « المكذّبين » الذين تقدّم ذكرهم . أو على النعت لهم . وقيل : « الذين » نداء مفرد .

قوله تعـالى : وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ج وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قلى قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ صلى وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ج وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَاسَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى ثبت، وهـذا احتجاج عليهم أيضا . وقيل : نزلت الآية لأنهم قالوا : علمنا أنه ما يحملك على ماتفعل إلا الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنـا حتى تصير أغنانا ؛ فقال الله تعالى : أخبرهم أن جميع الأشياء لله ، فهو قادر على أن يغنينى . و « سكن » معناه هدأ واستقر؛ والمراد ما سكن وما تحرك، فحذف لعلم السامع . وقيل : خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر ممـا تعمه الحركة . وقيل : المعنى ما خلق ، فهو عام فى جميع المخلوقات متحركها وساكنها، فإنه يجرى عليـه الليل والنهار؛ وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق، وهذا أحسن ماقيل؛ لأنه يجمع شتات الأقوال . ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأصواتهم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأسرارهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ مفعولان؛ لما دعوه إلى عبادة الأصنام دين آبائه أنزل الله تعالى « قل » يا محمد : « أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا » أي ربا ومعبودا وناصرا دون الله . ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالخفض على النعت لاسم الله؛ وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدإ . وقال الزجاج : ويجوز النصب على المدح . أبو عليّ الفارسيّ : ويجوز نصبه على فعل مضمر كأنه قال : أترك فاطر السموات والأرض ؟ لأن قوله : « أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا » يدل على ترك الولاية له ، وحسن إضماره لقوّة هذه الدلالة . ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ كذا قراءة العامة ، أي يَرزُق ولا يُرزَق؛ دليله قوله تعالى : « مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ » . وقرأ سعيد بن جُبَير ومجاهد والأعمش : وهو يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ ، وهي قراءة حسنة ؛ أي أنه يرزق عباده ، وهو سبحانه غير محتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق من الغذاء . وقُرِئ بضم الياء وكسر العين في الفعلين ، أي أن الله يُطعِم عباده و يرزقهم والوليّ[1] لا يُطعِم نفسه ولا من يتخذه . وقُرِئ بفتح الياء والعين في الأول أي الوليّ « ولا يُطْعِم » بضم الياء وكسر العين . وخص الإطعام بالذكر دون غيره من ضروب الإنعام لأن الحاجة إليه أمسّ لجميع الأنام . ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أي استسلم لأمر الله تعالى . وقيل : أوّل من أخلص أي من قومي وأمّتي؛ عن الحسن وغيره . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي وقيل لي : « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » . ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أي بعبادة غيره أن يعذبني ، والخوف توقع المكروه . قال ابن عباس : « أخاف » هنا بمعنى أعلم . ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ أي العذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ أي فاز ونجا ورُحِم .

وقرأ الكوفيون « مَنْ يَصْرِفْ » بفتح الياء وكسر الراء، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عُبيد؛ لقوله : « قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ » ولقوله : « فَقَدْ رَحِمَهُ » ولم يقل رُحِم على المجهول ، ولقراءة أُبيّ « مَنْ يَصْرِفْهُ اللَّهُ عَنْهُ » ؛ واختار سيبويه القراءة الأولى — قراءة أهل المدينة وأبي عمرو — قال سيبويه : وكلما قلّ الإضمار في الكلام كان أولى ؛ فأما قراءة

(١) الولي : الوثن .

«مَنْ يَصْرِفْ» بفتح الياء فتقديره: من يصرف الله عنه العذاب، وإذا قُرِئَ «مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ» فتقديره: من يُصرَف عنه العذابُ. ﴿ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أى النجاة البيّنة.

قوله تعالى: وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ المسّ والكشف من صفات الأجسام، وهو هنا مجاز وتوسع؛ والمعنى: إن تنزل بك يامحمد شدّة من فقر أو مرض فلا رافع وصارف له إلا هو، وإن يصبك بعافية ورخاءٍ ونعمة ﴿ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الخير والضر؛ روى آبن عباس قال: كنتُ رَدِيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى: "ياغلام — أو يابنىّ — أَلَا أعلّمك كلماتٍ ينفعك الله بهنّ" فقلت: بلى؛ فقال: "آحفظ الله يحفظْك آحفظ الله تجِدْه أمامك تعرَّف إلى الله فى الرَّخاء يعْرِفْك فى الشدّة إذا سألتَ فآسأل الله وإذا آستعنتَ فاستعِنْ بالله فقد جَفّ القلمُ بما هو كائنٌ فلو أنّ الخلق كلهم جميعا أرادوا أن يضروك بشىء لم يَقضِه الله لك لم يقدروا عليه وآعمل لله بالشكر واليقين وآعلم أنّ فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وأنّ النّصر مع الصّبر وأن الفَرَج مع الكَرْب وأنّ مع العسر يسرا" أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب فى كتاب «الفصل والوصل» وهو حديث صحيح؛ وقد خرجه الترمذىّ، وهذا أتم.

قوله تعالى: وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ القهرُ الغلبة، والقاهر الغالب، وأقهر الرجلُ إذا صير بحال المقهور الذليل؛ قال الشاعر[(١)] :

تمنَّى حُصينٌ أن يَسودَ جِذاعُه ... فأمسى حُصَينٌ قد أَذلَّ وأَقْهرا

وقُهر غُلب . ومعنى « فَوْقَ عِبَادِهِ » فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم؛ أي هم تحت تسخيره لا فوقية مكان؛ كما تقول : السلطان فوق رعيته أي بالمنزلة والرفعة . وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في أمره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بأعمال عباده؛ أي من اتصف بهذه الصفات يجب ألّا يُشرَك به .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ وذلك أن المشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت الآية؛ عن الحسن وغيره . ولفظ « شيء » هنا واقع موقع اسم الله تعالى؛ المعنى الله أكبر شهادة أي انفراده بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم؛ فهو شهيد بيني وبينكم على أني قد بلّغتكم وصَدَقت فيما قلته وادعيته من الرسالة .

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾ أي والقرآن شاهد بنبوتي . ﴿ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ ﴾ يا أهل مكة . ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أي من بلغه القرآنُ . فحذف « الهاء » لطول الكلام . وقيل : ومن بلغ الحُلُم . ودلّ بهذا على أن من لم يبلغ الحُلُم ليس بمخاطَب ولا مُتعبَّد . وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتبليغهما؛ فقال : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . وفي صحيح البخاريّ عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "بَلِّغُوا عني ولو آية وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج ومن كَذَب عليّ متعمدا فليتبوأ مَقْعده من النار" . وفي الخبر: من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمرُ الله أَخَذه أو تركه . وقال مُقاتل : من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له . وقال القُرَظيّ : من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمدا صلى الله عليه وسلم وسمع منه . وقرأ أبو نَهِيك « وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا القرآنَ » مسمى الفاعل؛ وهو معنى قراءة الجماعة . ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ﴾ استفهام توبيخ

(١) هو المخبل السعدي، يهجو الزبرقان وقومه، وجذاع الرجل قومه .

وتقريع . وقرئ « أَئِنَّكُم » بهمزتين على الأصل . وإن خففت الثانية قلت : « أَيِنَّكُمْ » .
وروى الأصمعيّ عن أبي عمرو ونافع « آئِنَّكُمْ » ؛ وهذه لغة معروفة ، تُجعل بين الهمزتين
ألفٌ كراهة لالتقائهما ؛ قال الشاعر (١) :

أَيَا ظبيةَ الوَعْساء بين جَلَاجِلٍ * وبينَ النَّقا آأَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

ومن قرأ « إِنَّكُمْ » على الخبر فعلى أنه حقّق عليهم شركهم . وقال : « آلِهَةً أُخْرَى » ولم يقل :
« أُخَر » ؛ قال الفراء : لأن الآلهة جمعٌ والجمع يقع عليه التأنيث ، ومنه قوله : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى » وقوله « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى » ولو قال : الأول والأُخر صَحّ أيضا . ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾
أي فأنا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه ، ونظيره « فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ . يريد اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا
وقد تقدم معناه في « البقرة » (٢) . و «الذين» في موضع رفع بالابتداء . ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ في موضع
الخبر ؛ أي يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم ؛ عن الحسن وقتادة ، وهو قول الزجاج . وقيل :
يعود على الكتاب ، أي يعرفونه على ما يدلّ عليه ، أي على الصفة التي هو بها من دلالته على
صحة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وآله . ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ في موضع النعت ؛
ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(١) هو ذو الرمة ؛ والوعساء رملة لينة ، وجلاجل « بفتح الجيم » وفي كتاب سيبويه « بضمها » موضع بعينه .
والنقا الكثيب من الرمل . (٢) راجع ج ٢ ص ١٦٢ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ابتداء وخبر أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أي ٱختلق ﴿ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ يريد القرآن والمعجزات . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ قيل : معناه في الدنيا؛ ثم ٱستأنف فقال : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ على معنى واذكر يوم نحشرهم . وقيل : معناه أنه لا يفلح الظالمون في الدنيا ولا يوم نحشرهم؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله « ٱلظَّالِمُونَ » لأنه متصل . وقيل : هو متعلق بما بعده وهو « ٱنظر » أي انظر كيف كذبوا يوم نحشرهم؛ أي كيف يكذبون يوم نحشرهم . ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾ سؤال إفضاح لا إفصاح . ﴿ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي في أنهم شفعاء لكم عند الله بزعمكم، وأنها تقربكم منه زُلْفى؛ وهذا توبيخ لهم . قال ابن عباس : كل زعم في القرآن فهو كذِب .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٢٣)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ الفتنة الاختبار أي لم يكن جوابهم حين ٱختبروا بهذا السؤال، ورأوا الحقائق، وٱرتفعت الدواعي ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ تبرءوا من الشِّرك وٱنتفَوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للؤمنين . قال ابن عباس : يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك؛ قالوا : إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشِّرك فتعالَوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين؛ فقال الله تعالى : أما إذ كتَموا الشِّرك فاختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يُكتَم حديثا؛ فذلك قوله : « يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا » . وقال أبو إسحق الزجاج : تأويل هذه الآية لطيف جدا، أخبر الله عز وجل بقصص المشركين وٱفتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن ٱنتفوا من الشِّرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنسانا يُحبّ غاويًا فإذا وقع

فى هَلَكة تبرأ منه ، [فيقال](١) : ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه . وقال الحسن : هذا خاص بالمنافقين جروا على عادتهم فى الدنيا ، ومعنى « فِتْنَتُهُمْ » عاقبة فتنتهم أى كفرهم . وقال قَتَادة : معناه معذرتهم . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هُريرة قال : "فيلقى العبد فيقول أى فُلْ(٢) ألم أُكرِمْك وأُسوِّدْك [وأزوِّجْك](٣) وأُسخرْ لك الخيلَ والإبلَ وأَذَرْك تَرْأَس وتَرْبَع فيقول بلى [أى رب](٣) فيقول أفظننت أنك مُلاقِىّ فيقول لا فيقول إنى أنساك كما نَسِيتنى ثم يلقى الثانى فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصلّيتُ وصُمتُ وتصدقتُ ويُثنى بخير ما آستطاع قال فيقال ها هنا إذًا ثم يقال له الآن نَبعث شاهدنا ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ فيُختَم على فِيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه آنطق فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه" .

قوله تعالى : ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ كذب المشركين قولهم : إن عبادة الأصنام تُقرِّبنا إلى الله زُلْفَى ، بل ظنّوا ذلك وظنُّهم الخطأ لا يُعذرهم ولا يزيل آسم الكذب عنهم ، وكذب المنافقين بآعتذارهم بالباطل ، وجحدهم نفاقهم . ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى فآنظر كيف ضلّ عنهم افتراؤهم أى تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم . وقيل : « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئا ؛ عن الحسن . وقيل : المعنى عَزَب عنهم آفتراؤهم لدَهَشهم ، وذهول عقولهم .

---

(١) فى الأصل « فيقول » والتصويب عن تفسير الفخر والألوسى . (٢) « أى فل » قال النووى : (بضم الفاء وسكون اللام) ومعناه يافلان وهو ترخيم على خلاف القياس ؛ وقيل : ليس ترخيما بل هى لغة بمعنى فلان لأنه لا يقال إلا بسكون اللام ، ولو كان ترخيما لفتحوها أو ضموها . و « تربع » أى تأخذ ربع الغنيمة ؛ يريد ألم أجعلك رئيسا مطاعا ؛ لأن الملك كان يأخذ ربع الغنيمة فى الجاهلية دون أصحابه . وقيل : إن معناه تركتك مستريحا لا تحتاج إلى كلفة وطلب . (٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

والنظر فى قوله : « ٱنظر » يراد به نظر الاعتبار؛ ثم قيل: « كَذَبُوا » بمعنى يكذبون، فعبّر عن المستقبل بالماضى؛ وجاز أن يكذبوا فى الآخرة لأنه موضع دَهَش وحَيْرة وذهول عقل. وقيل : لا يجوز أن يقع منهم كذب فى الآخرة ؛ لأنها دار جزاء على ما كان فى الدنيا — وعلى ذلك أكثر أهل النظر — وإنما ذلك فى الدنيا؛ فمعنى ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ على هذا : ما كنا مشركين عند أنفسنا؛ وعلى جواز أن يكذبوا فى الآخرة يعارضه قوله : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » ؛ ولا معارضة ولا تناقض؛ لا يكتمون الله حديثا فى بعض المواطن إذا شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بعملهم ، ويكذبون على أنفسهم فى بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدّم . والله أعلم . وقال سعيد بن جُبَير فى قوله تعالى : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » قال : ٱعتذروا وحَلَفوا ؛ وكذلك قال ابن أبى نَجِيح وقَتَادة . وروى عن مجاهد أنه قال : لما رأوا أن الذنوب تغفر إلا الشرك بالله والناس يخرجون من النار قالوا : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » . وقيل : « وَاللَّهِ رَبِّنَا ما كنا مشركين » أى علمنا أن الأحجار لا تضر ولا تنفع ، وهذا وإن كان صحيحا من القول فقد صَدَقوا ولم يكتموا، ولكن لا يُعذَرون بهذا ؛ فإن المعاند كافر غير معذور . ثم قيل فى قوله : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ » خمس قراءات؛ قرأ حمزة والكسائى « يكن » بالياء « فِتْنَتَهُمْ » بالنصب خبر « يكن » « إِلَّا أَنْ قَالُوا » ٱسمها أى إلا قولُهم؛ فهذه قراءة بينة . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو « تكن » بالتاء « فِتْنَتَهُمْ » بالنصب « إِلَّا أَنْ قَالُوا » أى إلا مقالتهم . وقرأ أُبَىّ وابن مسعود « وما كان — بدل «ثم لم تكن» — فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا » . وقرأ ٱبن عامر وعاصم من رواية حفص، والأعمش من رواية المفضّل ،والحسن وقَتَادة وغيرهم « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ » بالتاء « فِتْنَتُهُمْ » بالرفع ٱسم « تكن » والخبر « إِلَّا أَنْ قَالُوا » فهذه أربع قراءات . الخامسة — « ثُمَّ لَمْ يَكُنْ » بالياء « فِتْنَتُهُمْ »؛ ويذكر الفتنة لأنها بمعنى الفتون، ومثله « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى » . « واللَّهِ » واو القسم « رَبِّنَا » نعت لله عز وجل، أو بدل . ومن نصب فعلى النداء أى يا ربَّنا وهى قراءة حسنة؛ لأن فيها معنى الٱستكانة والتضرع، إلا أنه فَصَل بين القسم وجوابه بالمنادى .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ . [أفرد](١) على اللفظ يعنى المشركين كفار مكة . ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أى فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم . وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم . والأكِنّة الأغْطية جمع كِنَان مثل الأسِنَّة والسِّنان، والأعِنَّة والعِنان . كَنَنْت الشيء فى كِنه إذا صنته فيه . وأكننت الشيء أخفيته . والكِنانة معروفة . والكَنَّة (بفتح الكاف والنون) امرأة أبيك، ويقال امرأة الابن أو الأخ؛ لأنها فى كِنه . ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أى يفهموه وهو فى موضع نصب؛ المعنى كراهية أن يفهموه، أو لئلا يفهموه . ﴿ وَفِي آذانِهِمْ وَقْرًا ﴾ عطف عليه أى ثِقَلا . يقال منه : وَقِرت أذُنه (بفتح الواو) تَوْقَر وَقْرا أى صَمّت ، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين . وقد وَقَر الله أذنَه يَقِرها وَقْرا؛ يقال : اللهم قِرْ أذنَه . وحكى أبو زيد عن العرب أذُنٌ موقورة على ما لم يُسمّ فاعله؛ فعلى هذا وُقِرَت (بضم الواو) . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وِقْرًا » بكسر الواو؛ أى جعل فى آذانهم ما سدّها عن استماع القول على التشبيه بِوقْر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمل، والوِقْر الحِمل؛ يقال منه نخلة مُوقِر ومُوقِرة إذا كانت ذات ثمر كثير . ورجل ذُو قِرة إذا كان وَقورا بفتح الواو؛ ويقال منه : وَقُر الرجلُ (بضم القاف) وقارا، ووَقَر (بفتح القاف) أيضا .

---

(١) الزيادة عن ابن عطية؛ قال ابن عطية : أفرد لفظ « يستمع » وهو فعل جماعة حملا على لفظ « من » . وقال أبو حيان : وحد الضمير فى « يستمع » حملا على لفظ « من » وجمعه فى « على قلوبهم » حملا على معناها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أخبر الله تعالى بعنادهم لأنهم لما رأوا القمر منشقا قالوا : سحر؛ فأخبر الله عز وجل بردّهم الآيات بغير حجة .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ مجادلتهم قولهم : تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله؛ عن ٱبن عباس : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني قريشا؛ قال ٱبن عباس قالوا للنّضْر بن الحرث : ما يقول محمد؟ قال : أرى تحريك شفتيه وما يقول إلا أساطير الأولين ، مثل ما أحدّثكم عن القرون الماضية؛ وكان النّضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم واسفنديار فكان يحدّثهم . وواحد الأساطير أَسْطار كأبيات وأبابيت؛ عن الزّجاج . قال الأخفش : واحدها أُسْطورة كأُحدوثة وأحاديث . أبو عُبيدة : واحدها إِسْطَارة . النحاس : واحدها أُسْطُور مثل عُثْكُول[(1)] . ويقال : هو جمع أَسْطار وأَسْطار جمع سَطْر؛ يقال سَطْر وسَطَرٌ . والسَّطر الشيء الممتد المؤلف كسطر الكتاب . القُشيريّ : واحدها أُسْطِير . وقيل : هو جمع لا واحد له كمذاكير وعَباديد[(2)] وأبابيل أي ما سطره الأولون في الكتب . قال الجوهريّ وغيره : الأساطير الأباطيل والتُّرهات .

قلت : أنشدني بعض أشياخي :

تطاولَ ليلي وٱعترتني وَساوِسي * لِآتٍ أَتَى بالتُّرهَاتِ الأَباطيلِ

قوله تعالى : وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ النّهي الزجر، والنأى البعد، وهو عام في جميع الكفار أي ينهون عن ٱتباع محمد عليه السلام، وينأون عنه؛ عن ابن عباس والحسن . وقيل : هو خاص بأبي طالب ينهى الكفار عن أذاية محمد عليه السلام، ويتباعد من الإيمان به؛

(1) العثكول : العذق، وقيل : الشمراخ وهو ما عليه البسر من عيدان الكباسة .

(2) العباديد والعبابيد بلا واحد من لفظهما الفرق من الناس ، والخيل الذاهبون في كل وجه ، والآكام ، والطرق البعيدة .

عن ابن عباس أيضا . روى أهـلُ السِّيرقال : كان النبي صلى الله عليه وسلم قـد خرج إلى الكعبة يوما وأراد أن يصلى، فلما دخل فى الصـلاة قال أبو جهل — لعنه الله — : من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليـه صلاته . فقام ابن الزِّبَعْرَى فأخذ فَرْثا ودما فَلَطَّخ به وجه النبي صلى الله عليه وسلم، فٱنفتل النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته، ثم أتى أبا طالب عَمَّه فقال : "ياعمّ ألا ترى إلى ما فُعِل بي" فقال أبو طالب : من فَعل هذا بك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عبـد الله بن الزِّبَعْرَى ؛ فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم، فلمـا رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون ؛ فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لجلَّلْته بسيفي فقعدوا حتى دنا إليهم، فقال : يابنيّ من الفاعل بك هذا؟ فقال : "عبد الله ابن الزِّبَعْرَى"؛ فأخذ أبو طالب فَرْثا ودما فلطَّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول؛ فنزلت هـذه الآية « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْـهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْـهُ » فقـال النبي صـلى الله عليـه وسلم : "ياعمّ نزلت فيك آية" قال : وما هي؟ قال : "تمنع قريشا أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي" فقال أبو طالب :

والله لن يَصِـلُوا إليك بجمعهـم * حتى أُوَسَّـدَ فى الـتُّراب دَفِينَـا
فٱصدَعْ بأمرك ماعليكَ غضاضةٌ * أَبْشِـرْ بذاك وَقَـرَّ منك عُيـونَا
ودَعـوتَني وزَعمتَ أنك ناصحي * فلقد صَدَقتَ وكنتَ قبلُ أَمينَا
وَعَرضتَ دِينًا قد عرفتُ بأنّهُ * مِنْ خَيرِ أديانِ البرِيَّة دِينَـا
لولا المـلامةُ أو حِذارُ مَسَـبَّةٍ * لوجـدتَني سَمْحًا بذاك يَقِينـا

فقالوا : يارسول الله هـل تنفع نصرة أبي طالب؟ قال : "نعم دفع عنه بذاك الغُلّ ولم يُقْرَن مع الشياطين ولم يَدخل فى جُبّ الحيّات والعقارب إنما عذابه فى نعلين من نار يَغلى منهما دماغه فى رأسه وذلك أهون أهـل النار عذابا" . وأنزل الله على رسوله « فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » . وفى صحيح مسلم عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : "قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة" قال : لولا تُعيِّرني قريش تقول : إنمـا حمله

على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك ؛ فأنزل الله « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » كذا الرواية المشهورة « الجَـزَع » بالجيم والزاى ومعناه الخوف . وقال أبو عُبيـد « الخَرَع » بالخـاء المنقوطة والراء المهملة يعنى الضّعف والخَوَر ، وفى صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "أهون أهـل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه" . وأما عبد الله بن الزِّبَعْرى فإنه أسلم عام الفتح وحَسُن إسلامه، وآعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل عذره؛ وكان شاعرا مجيدا؛ فقال يمدح النبي صلى الله عليه وسلم،وله فى مدحه أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى فى كفره؛ منها قوله :

مَنـع الرُّقادَ بَـلابلٌ وهُمـومُ * واللَّيـلُ مُعْتَلِجُ الرِّواقِ بَهِـيمُ
مِمَّـا أتانى أنّ أحمـدَ لامَنِى * فيـه فبِتُّ كأنَّنى مَحْمُـومُ
يا خيرَ من حَمَلتْ على أوْصالِهـا * عَيْرانَةٌ سُرُحُ اليـدينِ غَشُـومُ
إنِّى لمعتـذرٌ إليـكَ مِنَ الّذى * أسْدَيتَ إذْ أنا فى الضَّلال أهِيمُ
أيامَ تأمُرنى بأغْـوَى خُطَّـةٍ * سَهْـمٌ وتأمُرنى بها مَخْـزُومُ
وأمُدُّ أسـبابَ الرَّدى ويَقودُنى * أمرُ الغُـواةِ وأمرُهم مَشْـئُومُ
فاليـومَ آمن بالنَّبِى مُحمَّـدٍ * قَلْـبِى ومُخطِئُ هـذه مَحْـرُومُ
مَضَتِ العداوةُ فانقضتْ أسبابُها * وأتت أواصِـرُ بيننـا وحُـلُومُ
فاغفرْ فِـدًى لكَ والداى كلاهُمَا * زَلَلِى فإنّكَ راحـمٌ مَرْحـومُ
وعليـكَ من سِمَـة المليكِ عَلامةٌ * نُـورٌ أغرُّ وخاتم مَخْتـومُ
أعطاكَ بعـدَ محبّـةٍ بُرْهـانَهُ * شَـرَفًا وبُرْهـانُ الإلهِ عَظِـيمُ
ولقـد شَهِدتُ بأنّ دِينكَ صادقٌ * حَقًّـا وأنّكَ فى العبـاد جَسِـيمُ
واللهُ يشهـدُ أنّ أحمـدَ مُصْطفًى * مُستقبَلٌ فى الصّالحين كَـرِيمُ
قَـرْمٌ عَلا بنيـانُه من هاشمٍ * فَـرْعٌ تمكّنَ فى الذُّرَى وأُرُومُ

وقيل : المعنى « يَنْهَوْنَ عَنْهُ » أى هؤلاء الذين يستمعون ينهون عن القرآن « وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » ، عن قتادة؛ فالهـاء على القولين الأولين فى « عنه » للنبي صلى الله عليه وسلم، وعلى قول قتادة للقرآن . ﴿ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ « إن » نافيـة أى وما يهلكون إلا أنفسهم بإصرارهم على الكفر، وحملهم أوزار الذين يصدّونهم .

قوله تعـالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ وُقِفوا غدًا ، و « إذ » قـد تستعمل فى موضع « إذا » و « إذا » فى موضـع « إذ » . وما سيكون كأنه كان؛ لأن خبر الله حقّ وصـدق ، ولهذا عَبّر بالمـاضى . ومعنى « إِذْ وُقِفُوا » حبسوا يقال : وَقَفتـه وَقْفا فوَقَف وُقوفا . وقرأ ابن السَّمَيْقَع « إِذْ وَقَفُوا » بفتح الواو والقاف من الوقوف . « عَلَى النَّارِ أى هم فوقها على الصراط وهى تحتهم . وقيل : على « بمعنى » الباء؛ أى وَقَفوا بقربها وهم يُعاينونها وقال الضَّحاك : جُمعوا؛ يعنى على أبوابهـا . ويقال : وُقفوا على مَتْن جهنم والنار تحتهـم . وفى الخبر أن الناس كلهم يُوقفون على مَتْن جهنم كأنها مَتْن إِهَالَة[(١)]، ثم يُنادِى منادٍ خُذى أصحابك ودَعِى أصحابى . وقيـل : « وقفوا » دخلوها — أعاذنا الله منهـا — فعلى بمعنى « فى » أى وقفوا فى النار . وجواب « لو » محذوف ليذهب الوهم إلى كل شيء فيكون أبلغ فى التخويف؛ والمعنى : لو تراهم فى تلك الحال لرأيت أسوأ حال، ولرأيت منظرا هائلا، أو لرأيت أمرا عجبا وما كان مثل هذا التقدير .

قوله تعـالى : ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالرفع فى الأفعال الثلاثة عطفا قراءة أهل المدنية والكِسائىّ[(٢)]؛ وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالضم . ابن عامر على رفع « نكذّب » ونصب « ونكون » وكله داخل فى معـنى التمنى؛ أى تمنّوا الرّد

(١) الإهالة الشحم المذاب، ومتن الإهالة ظهرها إذا سكنت فى الإناء ؛ فشبه سكون جهنم قبـل أن يصير فيها الكفار بذلك . « اللسان » . (٢) أى بالرفع فى كلها كما فى ابن عطية .

وألّا يكذّبوا وأن يكونوا من المؤمنين . واختار سيبويه القطع فى « ولا نكذّبُ » فيكون غير داخل فى التمنى؛ المعنى : ونحن لا نُكذّبُ على معنى الثبات على ترك التكذيب ؛ أى لا نكذبُ رُدِدنا أو لم نُرَدّ ؛ قال سيبويه : وهو مثـل قوله دعنى ولا أعود أى لا أعـود على كل حال تركتنى أو لم تتركنى . واستدل أبو عمرو على خروجه من التمنى بقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لا يكون فى التمنى إنما يكون فى الخبر. وقال من جعله داخلا فى التمنى : المعنى وإنهم لكاذبون لأن الكذب فى الدنيـا فى إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسـل . وقرأ حمـزة وحفص بنصب « نكذب » و « نكون » جوابا للتمنى لأنه غير واجب، وهما داخلان فى التّمنى على معنى أنهم تمنَّوا الرد وترك التكذيب والكون من المؤمنين . قال أبو إسحق: معنى «ولا نكذّب» أى إن رددنا لم نكذب . والنصب فى « نكذب » و « نكون » بإضمـار « أنْ » كما ينصب فى جـواب الاستفهام والأمر والنهى والعَرْض ؛ لأنه جميعه غير واجب ولا واقع بعد، فينصب الجواب مع الواو كأنه عطف على مصـدر الأول ؛ كأنهم قالوا : يا ليتنا يكون لنـا رَدٌّ، وانتفاءٌ من الكذب ، وكَونٌ من المؤمنين؛ فحملا على مصدر « نُرَدّ » لانقلاب المعنى إلى الرفع ، ولم يكن بدّ من إضمـار « أَنْ » فبه يتم النصب فى الفعلين . وقرأ ابن عامر « وَنَكُونَ » بالنصب على جواب التمنى كقولك : ليتك تصير إلينا ونكرمك ، أولِيت مصيرك يقع وإكرامنا يقع ، وأدخل الفعلين الأولين فى التمنى ، أو أراد ونحن لا نكذب على القطع على ما تقـدّم ؛ يحتمل . وقرأ أبيّ « ولَا[1] نكذب بِآياتِ ربنا أبدا » . وعنـه وابن مسعود « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَلَا نُكَذِّبَ » بالفـاء والنصب ، والفـاء ينصب بها فى الجـواب كما ينصب بالواو؛ عن الزجاج . وأكثر البصريين لا يجيزون الجواب إلا بالفاء .

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢٨)

---

(١) كذا بالأصل؛ والذى فى البحر : وقرأ أبى « فلا نكذب بآيات ربنا أبدا » .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ بل إضراب عن تمنّيهم وادعائهم الإيمان لو رُدّوا . واختلفوا فى معنى « بَدَا لَهُمْ » على أقوال بعد تعيين من المراد؛ فقيل : المراد المنافقون لأن آسم الكفر مشتمل عليهم ، فعاد الضمير على بعض المذكورين؛ قال النحاس : وهذا من الكلام العَذْب الفصيح . وقيل : المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبي صلى الله عليه وسلم خافوا وأخفوا ذلك الخوف لئلا يَفْطُن بهم ضعفاؤهم ، فيظهر يوم القيامة؛ ولهذا قال الحسن : « بَدَا لَهُمْ » أى بدا لبعضهم ما كان يُخْفيه عن بعض . وقيل : بل ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشّرك فيقولوا : «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين «بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ» . قاله أبو رَوْق[(١)] . وقيل : « بَدَا لَهُمْ » ما كانوا يكتمونه من الكفر؛ أى بدت أعمالهم السيئة كما قال : « وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » . قال المبرّد : بدا لهم جزاء كفرهم الذى كانوا يخفونه . وقيل : المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغُواة ما كان الغُواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة؛ لأن بعده « وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا ﴾ قيل : بعد معاينة العذاب . وقيل : قبل معاينته . ﴿ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أى لصاروا ورجعوا إلى ما نُهوا عنه من الشّرك لعلم الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون ، وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند . قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ إخبار عنهم ، وحكاية عن الحال التى كانوا عليها فى الدنيا من تكذيبهم الرسل ، وإنكارهم البعث؛ كما قال : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ » فجعله حكاية عن الحال الآتية . وقيل : المعنى وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من أنهم لا يكذبون ويكونون من المؤمنين . وقرأ يحيى ابن وَثّاب « وَلَوْ رِدُّوا » بكسر الراء؛ لأن الأصل رُدِدُوا فنقلت كسرة الدال على الراء .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) أبو روق : (بفتح الراء وسكون الواو بعدها قاف) هو عطية بن الحرث الهمدانى الكوفى ؛ ذكره بن سعد فى الطبقة الخامسة وقال : هو صاحب التفسير . (التهذيب) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ ابتداء وخبر « إن » نافية « وَمَا نَحْنُ » نحن اسم « ما » ﴿ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ خبرها ؛ وهذا ابتداء إخبار عنهم عما قالوه في الدنيا . قال ابن زيد : هو داخل في قوله : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » « وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أي لعادوا إلى الكفر ، واشتغلوا بلذة الحال . وهذا يحمل على المعاند كما بيّناه في حال إبليس ، أو على أن الله يَلْبِس عليهم بعد ما عَرَفوا ، وهذا شائع في العقل .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ « وُقِفُوا » أي حُبِسوا « عَلَى رَبِّهِمْ » أي على ما يكون من أمر الله فيهم . وقيل : «على» بمعنى « عند » أي عند ملائكته وجزائه ، وحيث لا سلطان فيه لغير الله عز وجل ؛ تقول : وقفت على فلان أي عنده ؛ وجواب « لو » محذوف لعظم شأن الوقوف . ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ تقرير وتوبيخ أي أليس هذا البعث كائنا موجودا ؟ ! ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ ويؤكدون اعترافهم بالقسم بقولهم : ﴿ وَرَبِّنَا ﴾ . وقيل : إن الملائكة تقول لهم بأمر الله أليس هذا البعث وهذا العذاب حق ؟ فيقولون : « بَلَى وَرَبِّنَا » إنه حق . ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ قيل : بالبعث بعد الموت وبالجزاء ؛ دليله قوله عليه السلام : "من حَلَف على يمين كاذبة ليقتطعَ بها مالَ امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان" أي لقي جزاءه ؛ لأن من غضب عليه لا يرى الله عند مثبتي الرؤية ، ذهب

إلى هذا القَفَّال وغيره ؛ قال القُشَيْرِيّ : وهــذا ليس بشيء ؛ لأن حمل اللقاء فى موضع على الجزاء لدليلٍ قام لا يوجب هذا التأويل فى كل موضع ، فليحمل اللقاء على ظاهره فى هــذه الآية ؛ والكفار كانوا ينكرون الصانع ، ومنكر الرؤية منكر للوجود .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً ﴾ سميت القيامة ساعة لسرعة الحساب فيها . ومعنى « بغتة » فجأة؛ يقال بَغَتهم الأمرُ يبغَتهم بَغْتًا وبَغْتَةً . وهى نصب على الحال؛ وعند سيبويه مصدر فى موضع الحـال؛ كما تقول : قتلته صَبْرًا . وأنشد :(١)

فَلَأْيًا بِلَأْيٍ ما حَمَلْنا وَلِيـدَنا * على ظَهْرِ مَحْبوكٍ ظِمَاءٍ مَفَاصِلُه

ولا يجيز سيبويه أن يقاس عليه؛ لا يقال جاء فلان سُرْعةً .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا ﴾ وقع النــداء على الحسرة وليست بمنادى فى الحقيقــة ولكنه يدل على كثرة التّحسر، ومثله ياللعجب و ياللرخاء وليسا بمناديين فى الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التعجب والرخاء؛ قال ســيبويه : كأنه قال يا عَجَبُ تَعالَ فهذا زمن إتيانك؛ وكذلك قولك يا حسرتى تعالَى فهذا وقتك؛ وكذلك مالا يصح نداؤه يجرى هذا المجرى، فهذا أبلغ من قولك تعجبت . ومنه قول الشاعر :

* فيــا عجبًا من رَحْلِهــا المتحمَّلِ *(٢)

وقيل : هو تنبيه للنــاس على عظيم ما يحــلّ بهم من الحسرة؛ أى يأيها النــاس تنبَّهوا على عظيم ما بى من الحسرة، فوقع النداء على غير المنــادى حقيقة؛ كقولك لا أَرينَّك ها هنا فيقع النهى على غير المنهى فى الحقيقة .

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى، والشاهد فيه قوله : (لأيا بلأى) ونصبه على المصدر الموضوع فى موضع الحـال، والتقدير حملنا وليدنا مبطئين ملتئين . وصف فرسا بالنشاط وشــدّة الخلق فيقول : إذا حملنا الغــلام عليه ليصيد امتنع لنشاطه فلم نحمله إلا بعــد إبطاء وجهد؛ واللأى الإبطاء، والمحبوك الشديد الخلق، والظماء هنا القليلة اللحم — وهــو المحمود منها — وأصل الظمأ العطش . (شواهد سيبويه) .

(٢) شطر بيت من معلقة امرئ القيس وصدره : * ويوم عقرت للعذارى مطيتى *

قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الساعة، أى فى التقدمة لها؛ عن الحسن . و «فَرَّطْنَا» معناه ضيعنا وأصله التقدّم؛ يقال : فَرَط فلان أى تقدّم وسبق إلى الماء، ومنه "أنا فَرَطكم على الحوض" . ومنه الفَارِط المتقدّم للماء، ومنه — فى الدعاء للصبي" — اللهم اجعله فَرَطا لأبويه؛ فقوله : « فَرَّطْنَا » أى قدمنا العجز . وقيل : « فَرَّطْنَا » أى جعلنا غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلّفنا . « فيها » أى فى الدنيا بترك العمل للساعة . وقال الطّبرى" : (الهاء) راجعة إلى الصَّفْقة، وذلك أنه لما تبيّن لهم خسران صَفْقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، [والآخرة بالدنيا] (١)، « قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا » أى فى الصَّفْقة، وترك ذكرها لدلالة الكلام عليها؛ لأن الخسران لا يكون إلا فى صَفْقة بيع؛ دليله قوله : « فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » . وقال السُّدى" : على ما ضيّعنا أى من عمل الجنة . وفى الخبر عن أبى سعيد الخُدْرى" عن النبي" صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية قال : يرى أهل النار منازلهم فى الجنة فيقولون : « يَا حَسْرَتَنَا » .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أى ذنوبهم جمع وِزر . ﴿ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ مجاز وتوسّع وتشبيه بمن يحمل ثِقْلا؛ يقال منه : وَزَر يَزِر، ووُزِر يُوزَر فهو وازِر ومَوْزور؛ وأصله من الوَزَر وهو الجبل . ومنه الحديث فى النساء اللواتى خرجن فى جنازة "ارجعن مَوْزوراتٍ غيرَ مأجوراتٍ" قال أبو عُبيد : والعامة تقول « مأزورات » كأنه لا وجه له عنده؛ لأنه من الوِزر . قال أبو عبيد : ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع آحمل وِزْرك أى ثِقْلك . ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يُسنَد إليه من تدبير الولاية : والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها . ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أى ما أسوأ الشيء الذى يحملونه .

قوله تعالى : وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

(١) فى الأصل : والدنيا بالآخرة .

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أى لقصر مدّتها كما قال :

أَلَا إنما الدُّنيا كأحــلامِ نائمٍ * وما خيرُ عيشٍ لايكونُ بدائمِ

تأمَّــلْ إذا مانلتَ بالأمسِ لَذَّةً * فأفنيتَها هــل أنتَ إلّا كحالمِ

وقال آخر :

فٱعمــلْ على مَهَــلٍ فإنك ميِّتٌ * وٱكدحْ لنفسك أيّها الإنسانُ

فكأنّ ما قد كان لم يكُ إذ مَضى * وكأنّ ما هو كائنٌ قد كانا (١)

وقيل : المعنى متاع الحياة الدنيا لعب ولهو؛ أى الذى يشتهونه فى الدنيا لا عاقبة له ، فهو بمنزلة اللعب واللهو . ونظر سليمان بن عبد الملك فى المرآة فقال : أنا الملك الشاب؛ فقالت له جارية له :

أنتَ نِعْمَ المتــاعُ لو كنتَ تَبْــقَى * غيرَ أَنْ لا بقــاءَ للإنسانِ

ليس فيما بَدَا لنــا منــكَ عيبٌ * كان فى النّــاس غيرَ أنّكَ فانى

وقيل : معنى « لَعِبٌ وَلَهْوٌ » باطل وغرور، كما قال : « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » فالمقصد بالآية تكذيب الكفّار فى قولهم : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » . وٱللعب معروف، والتِّلْعابة الكثير اللّعب، والمَلْعَب مكان اللَّعِب؛ يقال: لَعِب يَلْعَب . واللّهو أيضا معروف، وكل ماشَغَلك فقد ألهاك، ولَهَوت من اللهو، وقيل : أصله الصّرف عن الشيء؛ من قولهم: لَهَيتُ عنه؛ قال المهدوىّ: وفيه بُعدٌ؛ لأن الذى معناه الصّرف لامه ياء بدليل قولهم: لِهْيَانٌ، ولام الأول واو .

الثانيـــة — ليس من اللّهو واللّعب ما كان من أمور الآخرة فإن حقيقة اللّعب مالا ينتفع به واللّهو ما يلتهى به ، وما كان مرادا للآخرة خارج عنهما ؛ وذمّ رجل الدنيــا عند علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال علىّ : الدنيا دار صدق لمن صَدَقها، ودار نجاة لمن فَهِم عنها ، ودار غِنًى لمن تزوّد منها . وقال محمود الورّاق :

---

(١) فيه إقواء .

لا تُتْبِع الدُّنيا وأيامَها * ذَمًّا وإنْ دارتْ بك الدائرهْ
من شرفِ الدُّنيا ومن فضلِها * أن بها تُستدركُ الآخرهْ

وروى أبو عمر بن عبد البر عن أبي سعيد الخُدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان فيها من ذكر الله أو أدَّى إلى ذكر الله والعالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناس هَمَجٌ لا خير فيه" وأخرجه الترمذى عن أبي هُريرة وقال : حديث حسن غريب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من هوَان الدنيا على الله أنه لا يُعصَى إلا فيها ولا يُنالُ ما عنده إلا بتركها" . وروى الترمذى عن سَهْل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تَعدِل عند الله جناحَ بعوضة ما سَقَى كافرا منها شَرْبةَ ماءٍ" . وقال الشاعر :

تمتّعْ من الأيام إن كنتَ حازمًا * فإنّك منها بين ناهٍ وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دِينه * فما فات من شيء فليس بضائر
فلن تَعدِل الدنيا جناح بَعوضةٍ * ولا وَزْن زِفٍّ(١) من جناحٍ لطائر
فما رَضِي الدنيا ثوابا لمؤمنٍ * ولا رَضِي الدنيا جزاءً لكافر

وقال ابن عباس : هذه حياة الكافر لأنه يُزجِيها(٢) في غرور وباطل، فأما حياة المؤمن فتنطوى على أعمال صالحة، فلا تكون لهوا ولعبا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ أى الجنة لبقائها، وسميت آخرة لتأخرها عنا، والدنيا لدنوها منا .

وقرأ ابن عامر «وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ» بلام واحدة، والإضافة على تقدير حذف المضاف وإقامة الصفة مقامه، التقدير : ولدار الحياة الآخرة . وعلى قراءة الجمهور « وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ » اللام لام الابتداء، ورفع الدار بالابتداء، وجعل الآخرة نعتا لها والخبر « خَيْرٌ لِلَّذِينَ » يقويه

(١) الزف (بالكسر) : صغير الريش ، وخص بعضهم به ريش النعام ؛ وورد في أدب الدنيا والدين (وزن ذر) .	(٢) يزجى الأيام يدافعها .

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ » « وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ » فأتت الآخرة صـفة للدار فيهما . ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أى الشرك . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قرئ بالياء والتاء؛ أى أفلا يعقلون أن الأمر هكذا فيزهدوا فى الدنيا . والله أعلم .

قوله تعـالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ كسرت « إِنَّ » لدخول اللام . قال أبو ميسرة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بأبى جهل وأصحابه فقالوا : يامحمد والله ما نُكذِّبك و إنك عنـدنا لصادق، ولكن نُكذِّب ما جئتَ به؛ فنزلت هـذه الآية ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ثم آنسه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية . وقرئ « يُكَذِّبُونَكَ » ؛ مخفَّفا ومشدّدا؛ قيل : هما بمعنى واحد كحزنته وأحزنته؛ وآختار أبو عُبيـد قراءة التخفيف ، وهى قراءة علىّ رضى الله عنه؛ وروى عنه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسـلم : إنا لانكذّبك ولكن نكذّب ما جئت به؛ فأنزل الله عز وجل « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ » . قال النحاس : وقد خولف أبو عُبيد فى هذا . وروى : لا نكذّبك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ . ويقوّى هذا أن رجلا قرأ على ابن عباس « فَإِنَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ » مخففا فقال له آبن عباس : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ »؛ لأنهم كانوا يسمون النبي صلى الله عليـه وسلم الأمين . ومعنى « يُكَذِّبُونَكَ » عنـد أهل اللغة فى اللغـة ينسبونك إلى الكذب، ويردّون عليـك ما قلت . ومعنى « لا يُكْذِبُونَكَ » أى لا يجدونك تأتى بالكذب؛ كما تقول : أكذبته وجدته كذّابا ، وأبخلتـه وجدته بخيلا، أى لا يجدونك كذّابا إن تدبّروا ما جئت به . ويجوز أن يكون المعنى : لا يثبتون عليك أنك كاذب ؛ لأنه يقال : أكذبته

إذا آحتججت عليه وبينت أنه كاذب . وعلى التشديد : لا يكذّبونك بحجة ولا برهان ؛ ودل على هذا «وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» . قال النحاس : والقول في هذا مذهب أبي عبيد ، وآحتجاجه لازم ؛ لأن عليا كرم الله وجهه هو الذي روى الحديث ، وقد صح عنه أنه قرأ بالتخفيف ؛ وحكى الكسائيّ عن العرب أكذبت الرجل إذا أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه ، وكذّبته إذا أخبرت أنه كاذب ؛ وكذلك قال الزجاج ؛ كذّبته إذا قلت له كذبت ، وأكذبته إذا أردت أن ما أتى به كذب .

قوله تعالى : «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا» أي فآصبر كما صبروا . «وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا» أي عوننا ، أي فسيأتيك ما وُعِدت به . «وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ» مبين لذلك النصر ؛ أي ما وعد الله عز وجل به فلا يقدر أحد أن يدفعه ؛ لا ناقض لحكمه ، ولا خلف لوعده ؛ و « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ» « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » . «وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ» فاعل «جاءك» مضمر؛ المعنى : جاءك من نبأ المرسلين نبأٌ .

قوله تعالى : وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : «وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ» أي عظم عليك إعراضهم وتوليهم عن الإيمان . «فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ» قدرت «أَنْ تَبْتَغِيَ» تطلب «نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ» أي سربا تخلص منه إلى مكان آخر ، ومنه النّافقاء لجحر اليربوع ، وقد تقدّم في « البقرة » (١) بيانه ، ومنه المنافق وقد تقدم . «أَوْ سُلَّمًا» معطوف عليه ، أي سببا إلى السماء ؛ وهذا تمثيل لأن السّلم الذي يُرتقى عليه سبب إلى الموضع ، وهو مذكّر ، ولا يُعرف ما حكاه الفراء من تأنيث السّلم ؛ قال قتادة : السلم الدّرج . الزّجاج : هو مشتق من السلامة كأنه يُسلمك إلى الموضع الذي

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

تريد . ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ عطف عليه أى ليؤمنوا فافعل؛ فأضمر الجواب لعلم السامع . أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يشتد حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون؛ كما أنه لا يستطيع هداهم . ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أى لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه؛ بيّن تعالى أن كفرهم بمشيئة الله ردا على القدرية . وقيل المعنى : أى لأراهم آية تضطرهم إلى الإيمان ، ولكنه أراد عز وجل أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن . ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ أى من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد ، و إلى ما لا يحل؛ أى لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين . وقيل : الخطاب له والمراد الأمة؛ فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وأذاياتهم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أى سماع إصغاء وتفهم و إرادة الحق ، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به و يعملون؛ قال معناه الحسن ومجاهد ، وتمّ الكلام . ثم قال : ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهم الكفار؛ عن الحسن ومجاهد؛ أى هم بمنزلة الموتى فى أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة . وقيل : الموتى كل من مات . «يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ» أى للحساب؛ وعلى الأول بعثهم هدايتهم إلى الإيمان بالله و برسوله . وعن الحسن هو بعثهم من شركهم حتى يؤمنوا بك يا محمد — يعنى عند حضور الموت — فى حال الإلجاء فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال الحسن : « لولا » هنا بمعنى هلّا؛ وقال الشاعر[(١)] :

تَعدُّون عَقْر النِّيب أَفضل مجْدِكم ❋ بَنِي ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المقنَّعَا

(١) هو الفرزدق يفتخر فى شعره بكرم أبيه غالب ، وعقره مائة ناقة فى معاقرة سحيم بن وثيل الرياحى فى موضع يقال له «صَوْأَر» على مسيرة يوم من الكوفة ولذلك يقول جرير أيضا :

وقــد سرنى ألا تُعدَّ مجاشعٌ ❋ من المجد إلا عقر نيب بصَوْأَر

و بنو ضوطرى تقال للقوم إذا كانوا لا يغنون غناء .

وكان هذا منهم تعنتا بعد ظهور البراهين، وإقامة الحجة بالقرآن الذى عجزوا أن يأتوا بسورة مثله، لما فيه من الوصف وعلم الغيوب . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده؛ وكان فى علم الله أنه يخرج من أصلابهم أقواما يؤمنون به ولم يرد آستئصالهم . وقيل : « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله قادر على إنزالها . الزجاج : طلبوا أن يجمعهم على الهدى أى جمع إلجاء .

قوله تعالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ تقدم معنى الدابة والقول فيه فى « البقرة »(١) وأصله الصفة؛ من دَبَّ يَدِبّ فهو دابّ إذا مشى مشيا فيه تقارُب خطو . ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ بخفض « طائرٍ » عطفا على اللفظ .

وقرأ الحسن وعبد الله بن أبى إسحق « وَلَا طَائِرٌ » بالرفع عطفا على الموضع ، و « مِن » زائدة، التقدير : وما دابةٌ . « بِجَنَاحَيْهِ » تأكيد وإزالة للإبهام ؛ فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر ؛ تقول للرجل : طِرْ فى حاجتى، أى أَسرعْ ؛ فذَكَر « بجناحيه » ليتمحض القول فى الطير، وهو فى غيره مجاز . وقيل : إن آعتدال جسد الطائر بين الجناحين يُعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل؛ فأعلمنا أن الطيران بالجناحين و « مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ » . والجناح أحد ناحيتى الطير الذى يتمكن به من الطيران فى الهواء ، وأصله الميل إلى ناحية من النواحى ؛ ومنه جَنَحت السفينةُ إذا مالت إلى ناحية الأرض لاصقة بها فوقفت . وطائر الإنسان عمله ؛ وفى التنزيل « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » . ﴿ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أى هم جماعات مثلكم فى أن الله عز وجل خلقهم، وتكفّل بأرزاقهم، وعَدَل عليهم، فلا ينبغى

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٦ طبعة ثانية .

أن تظلموهم ، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به . و « دابة » تقع على جميع ما دبّ ؛ وخص بالذكر ما في الأرض دون السماء لأنه الذي يعرفونه ويعاينونه . وقيل : هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة ؛ المعنى : وما من دابة ولا طائر إلا وهو يسبح الله تعالى ، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار . وقال أبو هُريرة : هي أمثال لنا على معنى أنه يحشر البهائم غدا ويقتص للجَمّاء من القَرْناء ثم يقول الله لها كوني ترابا . وهذا ٱختيار الزجاج فإنه قال : « إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص ، وقد دخل فيه معنى القول الأول أيضا . وقال سُفيان بن عُيَيْنة : أي ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه ؛ فمنهم من يعدو كالأسد ، ومنهم من يَشْرَه كالخنزير ، ومنهم من يعوى كالكلب ، ومنهم من يزهو كالطاوس ؛ فهذا معنى المماثلة . وٱستحسن الخَطّابيّ هذا وقال : فإنك تعاشر البهائم والسباع فخذ حِذْرك . وقال مجاهد في قوله عز وجل : « إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » قال : أصناف لهن أسماء تُعرَف بها كما تُعرَفون . وقيل غير هذا مما لا يصح من أنها مثلنا في المعرفة ، وأنها تُحشر وتنعم في الجنة ، وتعوّض من الآلام التي حلت بها في الدنيا وأن أهل الجنة يستأنسون بصورهم ؛ والصحيح « إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » في كونها مخلوقة دالة على الصانع محتاجة إليه مرزوقة من جهته ، كما أن رزقكم على الله . وقول سفيان أيضا حسن ؛ فإنه تشبيه واقع في الوجود .

قوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث . وقيل : أي في القرآن أي ما تركنا شيئا من أمر الدِّين إلا وقد دَلَلْنا عليه في القرآن ؛ إما دلالة مبينة مشروحة ، وإما مجملة يُتَلَقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو من الإجماع ، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب ؛ قال الله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » وقال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » وقال : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فأجمل في هذه الآية وآية «النحل» ما لم ينص عليه مما لم يذكره ، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره ، إما تفصيلا وإما تأصيلا ؛ وقال : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أى للجزاء، كما سبق فى خبر أبى هريرة، وفى صحيح مسلم عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لتؤدَّن(١) الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلْحاء(٢) من الشاة القَرْناء " . ودلّ بهذا على أن البهائم تُحشر يوم القيامة؛ وهذا قول أبى ذر وأبى هريرة والحسن وغيرهم، وروى عن ابن عباس؛ قال ابن عباس فى رواية : حشْرُ الدوابّ والطير موتُها؛ وقاله الضحاك ؛ والأوّل أصح لظاهر الآية والخبر الصحيح ؛ وفى التنزيل « وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ » وقول أبى هريرة فيما روى جعفر بن بِرقان(٣) عن يزيد ابن الأصم عنه : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء؛ فيبلغ من عدل الله تعالى يومئذ أن يأخذ للجماء من القرْنا ثم يقول : « كُونِى تُرَابا » ؛ فذلك قوله تعالى : «وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا» . وقال عطاء : فإذا رأوا بنى آدم وما هم عليه من الجزَع قلن : الحمد لله الذى لم يجعلنا مثلكم ، فلا جنة نرجو ولا نار نخاف ؛ فيقول الله تعالى لهن : « كُنَّ تُرابا » فحينئذ يتمنى الكافر أن يكون تُرابا . وقالت جماعة : هذا الحشر الذى فى الآية يرجع إلى الكفار وما تخلّل كلامٌ معترِضٌ وإقامة حُجج ؛ وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه؛ وعضدوا هذا بما فى هذا الحديث فى غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فقال : حتى يقاد للشاة الجَلْحاء من القرْناء، وفى الحجر لما ركب على الحجر، وللعود لما خدش العود؛ قالوا : فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يُعقل خطابُها ولا ثوابُها ولا عقابُها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيله من جملة المعتوهين الأغبياء؛ قالوا : ولأن القلم لا يجرى عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا .

قلت : الصحيح القول الأول لما ذكرناه من حديث أبى هريرة، وإن كان القلم لا يجرى عليهم فى الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به؛ وروى عن أبى ذر قال : انتطحت شاتان عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أبا ذر هل تدرى فيم انتطحتا " قلت : لا . قال :

(١) لتؤدّن : (بفتح الدال المشددة) وفى بعض النسخ بضمها ؛ فالحقوق بالرفع على الأول والنصب على الثانى .
(٢) الجلحاء : التي لا قرن لها . (٣) برقان (بالكسر والضم) . (القاموس) .

" لكن الله تعالى يدرى وسيقضى بينهما " وهذا نص ، وقد زدناه بيانا فى كتاب « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ ﴾ ابتداء وخبر، أى عدموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم؛ فكل أمة من الدواب وغيرها تهتدى لمصالحها والكفار لا يهتدون ؛ وقد تقدم فى « البقرة » (١) . ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أى ظلمات الكفر. وقال أبو على : يجوز أن يكون المعنى « صُمٌّ وَبُكْمٌ » فى الآخرة؛ فيكون حقيقة دون مجاز اللغة . ﴿ مَنْ يَشَأِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ﴾ دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله ؛ ألا ترى أنه قال : ﴿ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى على دين الإسلام لينفذ فيه فضله . وفيه إبطال لمذهب القدرية . والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ ﴾ وقرأ نافع بتخفيف الهمزتين، يلقى حركة الأولى على ما قبلها ويأتى بالثانية بين بين . وحكى أبو عُبيد عنه أنه يسقط الهمزة ويعوض منها ألفا . قال النحاس : وهذا عند أهل العربية غلط عليه؛ لأن الياء ساكنة والألف ساكنة ولا يجتمع ساكنان؛ قال مكى : وقد روى عن وَرْش أنه أبدل من الهمزة ألفا، لأن الرواية عنه أنه يمد الثانية، والمد لا يتمكن إلا مع البدل، والبدل فرع عن الأصول والأصل أن تجعل الهمزة بين الهمزة

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

المفتوحة والألف؛ وعليه كل من خفف الثانية غير وَرْش؛ وحسن جواز البدل في الهمزة وبعدها ساكن لأن الأول حرف مدّ ولين، فالمدّ الذى يحدث مع الساكن يقوم مقام حركة يوصل بها إلى النطق بالساكن الثانى .

وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة « أَرَأَيْتَكُمْ » بتخفيف الهمزتين وأتوا بالكلمة على أصلها ، والأصل الهمز؛ لأن همزة الاستفهام دخلت على «رأيت» فالهمزة عين الفعل، والياء ساكنة لاتصال المضمر المرفوع بها .

وقرأ عيسى بن عمر والكسائى «أَرَيْتَكُمْ» بحذف الهمزة الثانية . قال النحاس : وهذا بعيد فى العربية، وإنما يجوز فى الشعر؛ والعرب تقول : أرأيتك زيدا ما شأنه . ومذهب البصريين أن الكاف والميم للخطاب، لا حظ لهما فى الإعراب؛ وهو اختيار الزجاج . ومذهب الكسائى والفراء وغيرهما أن الكاف والميم نصبا بوقوع الرؤية عليهما، والمعنى أرأيتم أنفسكم؛ فإذا كانت للخطاب — زائدة للتأكيد — كان «إن» من قوله ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ ﴾ فى موضع نصب على المفعول لرأيت، وإذا كان اسما فى موضع نصب فـ«إن» فى موضع المفعول الثانى؛ فالأول من رؤية العين لتعدّيها لمفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين . وقوله : ﴿ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ المعنى : أو أتتكم الساعة التى تبعثون فيها . ثم قال : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ والآية فى محاجة المشركين ممن اعترف أن له صانعا ؛ أى أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله، وسترجعون إليه يوم القيامة أيضا فلم تصرّون على الشرك فى حال الرفاهية ؟! وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله فى صرف العذاب .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ « بل » إضراب عن الأوّل وإيجاب للثانى . « إياه » نصب بـ«تدعون» ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ أى يكشف الضرّ الذى تدعون إلى كشفه إن شاء كشفه . ﴿ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ قيل : عند نزول العذاب . وقال الحسن : أى تعرضون عنه إعراض الناسى، وذلك لليأس من النجاة من قِبله إذ لا ضرر فيه ولا نفع . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى وتتركون . النحاس : مثل قوله : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ » .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه إضمار؛ أى أرسلنا إلى أممٍ من قبلك رسلا ، وفيه إضمار آخر يدل عليه الظاهر ، تقديره : فكذبوا فأخذناهم . وهــذه الآية متصلة بمـا قبل آتصال الحال بحال قريبة منهـا ؛ وذلك ان هؤلاء سلكوا فى مخالفة نبيهم مســلك من كان قبلهم فى مخالفة أنبيائهــم ، فكانوا بعرض أن ينزل بهم من البلاء ما نزل بمن كان قبلهــم . ومعنى ﴿ بِالْبَأْسَاءِ ﴾ بالمصــائب فى الأموال ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ فى الأبدان ؛ هــذا قول الأكثر ، وقد يوضع كل واحد منهما موضع الآخر ؛ و يؤدّب الله عباده بالبأساء والضراء و بمـا شاء « لَا يُسْأَلُ عَمَّـا يَفْعَلُ » . قال آبن عطية : آستدل العُبَّادُ فى تأديب أنفســم بالبأساء فى تفريق الأموال ، والضراء فى الحمل على الأبدان بالجوع والعُرى بهذه الآية .

قلت : هــذه جهالة ممن فعلها وجعل هــذه الآية أصلا لهـا ؛ هذه عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهــم بها ، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياسا عليها ؛ فإنهـا المطية التى نبلغ عليها دار الكرامة ، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة ؛ و فى التنزيل « يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا » وقال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » . « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » فأمر المؤمنين بمـا خاطب به المرسلين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسـون أحسن الثياب ويتجملون بها ؛ وكذلك التابعون بعــدهم إلى هلم جرا ، على ما تقــدّم بيانه فى « المـائدة » وسـيأتى فى « الأعراف »[1] من حكم اللباس وغيره ؛ ولو كان كما زعموا وآســتدلوا لمـا كان فى آمتنان الله تعـالى بالزروع والجنات وجميع الثمـار والنبات والأنعام التى سخرها وأباح لنـا

(١) راجع ص ٢٦٣ وما بعدها من هذا الجزء . والمسـئلة الأولى ، والثانية من تفسـير آية ٣٢ من سورة « الأعراف » . وقد ورد بهامش ص ٢٦٣ من هذا الجزء أنها آية ٣١ وهو تحريف .

أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها — إلى غير ذلك مما آمتن به — كبير فائدة، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء، وقد تقدّم في آخر «البقرة» (1) بيان فضل المال ومنفعته والردّ على من أبى من جمعه؛ وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال مخافة الضّعف على الأبدان، ونهى عن إضاعة المال ردّا على الأغبياء الجهال .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي يدعون ويذلّون، من الضّراعة وهي الذّلّة ؛ يقال : ضَرَع فهو ضارع .

قوله تعالى : فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ «لولا» تحضيض، وهي التي تلي الفعل بمعنى هَلّا ؛ وهذا عِتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرّعوا إلا حين نزول العذاب . ويجوز أن يكون تضرّعوا تضرّع من لم يُخلص، أو تضرّعوا حين لا يمسهم العذابُ، والتضرع على هذه الوجوه غير نافع . والدعاء مأمور به حال الرّخاء والشّدّة ؛ قال الله تعالى : «ٱدعوني أستجبْ لكم» وقال : « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي» أي دعائي «سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» وهذا وعيد شديد . ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي صَلُبت وغَلُظت ؛ وهي عبارة عن الكفر والإصرار على المعصية ، نسأل الله العافية . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أغواهم بالمعاصي وحملهم عليها .

(1) راجع ج ٣ ص ٤١٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ يقال : لِمَ ذمّوا على النسيان وليس من فعلهم؟ فالجواب — أنّ « نَسُوا » بمعنى تركوا ما ذكّروا به ؛ عن آبن عباس وآبن جُرَيْج ، وهو قول أبي عليّ ؛ وذلك لأن التارك للشيء إعراضا عنه قد صيره بمنزلة ماقد نسي ، كما يقال: تركه . في النسي جواب آخر — وهو أنهم تعرّضوا للنّسيان بجاز الذمّ لذلك ؛ كما جاز الذمّ على التعرّض لسخط الله وعقابه . ومعنى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي من النعم والخيرات ، أي كثرنا لهم ذلك . والتقدير عند أهل العربية : فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقا عنهم . ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ معناه بَطِروا وأشِروا وأعجبوا وظنّوا أن ذلك العطاء لا يَبِيد ، وأنه دال على رضاء الله عنهم ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي آستأصلناهم وسطونا بهم . و « بَغْتَةً » معناه فجأة ، وهي آلأخذ على غِرّة ومن غير تقدّم أمارة ؛ فإذا أخذ الإنسان وهو غارّ غافل فقد أُخِذ بغتةً ، وأنْكَى شيء ما يَفْجأُ من البَغْت . وقد قيل : إن التذكير الذي سلف — فأعرضوا عنه — قام مقام آلأمارة . وآلله أعلم . و « بَغْتَةً » مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه عند سيبويه كما تقدم ؛ فكان ذلك آستدراجا من الله تعالى كما قال: « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » نعوذ بالله من سخطه ومكره . قال بعض العلماء : رحم الله عبدا تدبر هذه الآية « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً » . وقال محمد بن النَّضْر الحارثي : أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة . وروى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك آستدراج منه لهم " ثم تلا « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » الآية كلها . وقال الحسن : والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله ، وعجز رأيه ، وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله ، وعجز رأيه . وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : « إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا إليك فقل ذنب عُجّلت عقوبته » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ المبلس الباهت الحزين آلآيس من الخير الذي لا يُحِير جوابا لشدّة ما نزل به من سوء الحال ؛ قال العَجّاج :

ياصاح هل تعرف رسمًا مكرسا[1] * قال نعم أعرفه وأبلسا

أى تحيّر لهول ما رأى ، ومن ذلك آشتق آسم إبليس؛ أبلس الرجل سكت ، وأبلست الناقة وهى مِبلاس إذا لم ترغ من شدّة الضَّبعة ؛ ضَبِعت الناقة تَضْبَع ضَبَعةً وضَبعًا إذا أرادت الفحل .

قوله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ الدابر الآخر ؛ يقال : دَبَر القومَ يَدْبُرهم دَبْرا إذا كان آخرهم فى المجيء . وفى الحديث عن عبد الله بن مسعود "من الناس من لا يأتى الصلاة إلا دَبْرِيًّا[2]" أى فى آخر الوقت ؛ والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية . قال قُطْرُب : يعنى أنهم آستؤصلوا وأهلكوا . قال أميّة بن أبى الصَّلْت :

فأهلِكوا بعذابٍ حَصَّ دابرَهم * فما آستطاعوا له صَرْفًا ولا آنتصروا

ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور . ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ قيل : على هلاكهم ، وقيل : تعليم للؤمنين كيف يحمدونه . وتضمنت هذه الآية الحجة على وجوب ترك الظلم ؛ لما يعقب من قطع الدابر ، إلى العذاب الدائم ، مع آستحقاق القاطع الحمد من كل حامد .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ . أى أذهب وآنتزع . ووحد « سمعكم » لأنه مصدر يدل على الجمع . ﴿ وَخَتَمَ ﴾ أى طبع ، وقد تقدّم فى « البقرة »[3] .

(١) المكرس : الذى صار فيه الكرس ، والكرس (بالكسر) : أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض فى الدار والدمن . وأبلس : سكت غما . (٢) دبريا : يروى (بفتح الباء وسكونها) وهو منسوب إلى الدبر آخر الشيء ؛ وفتح الباء من تغيرات النسب . (ابن الأثير) . (٣) راجع جـ ١ ص ١٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

وجواب « إن » محذوف تقديره ؛ فمن يأتيكم به ، وموضعه نصب؛ لأنها فى موضع الحال، كقولك : آضربه إن خرج أى خارجا . ثم قيل : المراد المعانى القائمة بهذه الجوارح ، وقد يذهب الله الجوارح والأعراض جميعا فلا يبقى شيئا ؛ قال الله تعالى : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا » . والآية احتجاج على الكفار. ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ « من » رفع بالابتداء وخبرها « إله » و « غيره » صفة له ، وكذلك « يأتيكم » موضعه رفع بأنه صفة « إله » ومخرجها مخرج الاستفهام، والجملة التى هى منها فى موضع مفعولى رأيتم . ومعنى « أَرَأَيْتُمْ » . علمتم ؛ ووحد الضمير فى « به » — وقد تقدّم الذكر بالجمع — لأن المعنى أى بالمأخوذ ، فالهاء راجعة إلى المذكور . وقيل : على السمع بالتصريح؛ مثل قوله : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ » ودخلت الأبصار والقلوب بدلالة التضمين. وقيل: « مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ » . بأحد هذه المذكورات . وقيل : على الهدى الذى تضمنه المعنى .

وقرأ عبد الرحمن الأعرج « بِهُ آنْظُرْ » بضم الهاء على الأصل ؛ لأن الأصل أن تكون الهاء مضمومة كما تقول : جئت معه . قال النقاش : فى هذه الاية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمته هنا وفى غير آية ، وقد مضى هذا فى أوّل « البقرة »(١) مستوفى . وتصريف الآيات الإتيان بها من جهات ؛ من إعذار وإنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك . ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أى يعرضون عن آبن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسُّدّى ؛ يقال : صَدَفَ عن الشىء إذا أعرض عنه صَدْفا وصُدُوفا فهو صادِفٌ . وصادفته مصادفة أى لقيته عن إعراض عن جهته ؛ قال آبن الرِّقاع :

إذا ذَكَرْنَ حديثًا قُلْنَ أحسنَه * وهُنّ عن كلّ سوءٍ يُتّقَى صُدُفُ

والصَّدَف فى البعير أن يميل خُفُّه من اليد أو الرجل إلى الجانب الوَحْشىّ؛ فهم مائلون معرضون عن الحجج والدلالات .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ الحسن : « بغتة » ليلا « أو جهرة » نهارا . وقيل : بغتة فجأة . وقال الكسائي : يقال بغتهم الأمر يبغتهم بغتاً وبغتة إذا أتاهم فجأة ، وقد تقدّم . ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ نظيره « فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ » أي هل يهلك إلا أنتم لشرككم ؛ والظلم هنا بمعنى الشرك ، كما قال لقمان لابنه : « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

قوله تعالى : وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي بالترغيب والترهيب . قال الحسن : مبشرين بسعة الرزق في الدنيا والثواب في الآخرة ؛ يدل عليه قوله تعالى : «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَى آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ» . ومعنى «منذرين» مخوفين عقاب الله ؛ فالمعنى : إنما أرسلنا المرسلين لهذا لا لما يقترح عليهم من الآيات ، وإنما يأتون من الآيات بما تظهر معه براهينهم وصدقهم . وقوله : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . تقدّم القول فيه .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي بالقرآن والمعجزات . وقيل : بمحمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي يصيبهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي يكفرون .

قوله تعالى : قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ هـذا جواب لقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » فالمعنى ليس عندى خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به . والخزانة ما يُخزَن فيه الشيء ؛ ومنه الحديث "فإنما تَخزُن لهم ضروعُ مواشيهم أطعماتهم أيحب أحدكم أن تؤتى مَشْرَبته فتكسرَ خزانتُه" . وخزائن الله مقدوراته ؛ أى لا أملك أن أفعل كما أريد مما تقترحون ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أيضا ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل ، أى لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر . واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء . وقد مضى فى « البقرة (١) » القول فيه فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ظاهره أنه لا يقطع أمرا إلا إذا كان فيه وحى . والصحيح أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد، والقياس على المنصوص ، والقياس أحد أدلة الشرع . وسيأتى بيان هذا فى « الأعراف (٢) » وجواز اجتهاد الأنبياء فى « الأنبياء (٣) » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ أى الكافر والمؤمن ؛ عن مجاهد . وقيل : الجاهل والعالم . ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أنهما لا يستويان .

قوله تعالى : وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن . والإنذار الإعلام وقد تقدم فى « البقرة (٤) » . وقيل : « بِهِ » أى بالله . وقيل : باليوم الآخر . وخص ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا ﴾ لأن الحجة عليهم أوجب ، فهم خائفون من عذابه ، لا أنهم يترددون فى الحشر ؛ فالمعنى

---

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية . (٢) راجع المسئلة الرابعة من تفسير آية ١٢
(٣) راجع المسئلة السادسة من تفسير آية ٧٩ (٤) راجع ج ١ ص ١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

« يخافون » يتوقعون عذاب الحشر . وقيل : « يخافون » يعلمون ، فإن كان مسلما أُنذر ليترك المعاصي ، وإن كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق . وقال الحسن : المراد المؤمنون . قال الزجاج : كل من أقر بالبعث من مؤمن وكافر . وقيل : الآية في المشركين أي أنذرهم بيوم القيامة . والأول أظهر . ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ ﴾ أي من غير الله ﴿ شَفِيعٌ ﴾ هذا ردّ على اليهود والنصارى في زعمهما أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله ، فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار . ومن قال الآية في المؤمنين قال : شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله فهو الشفيع حقيقة إذنْ ؛ وفي التنزيل « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » . « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » . « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي في المستقبل ، وهو الثبات على الإيمان .

قوله تعالى : وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ قال المشركون : ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء — يعنون سلمان وصُهيبا وبلالا وخبّاب — فاطردهم عنك ؛ وطلبوا أن يكتب لهم بذلك ، فهمّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، ودعا عليا ليكتب ؛ فقام الفقراء وجلسوا ناحية ؛ فأنزل الله الآية . ولهذا أشار سعد بقوله في الحديث الصحيح : فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ؛ وسيأتي ذكره . وكان النبي صلى الله عليه وسلم إنما مال إلى ذلك طمعا في إسلامهم ، وإسلام قومهم ، ورأى أن ذلك لا يفوّت أصحابه شيئا ، ولا ينقص لهم قدرا ، فمال إليه فأنزل الله الآية ، فنهاه عما همّ به من الطّرد لا أنه أوقع الطرد . روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع

النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ؛ قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هُـذَيل وبلال ورجلان لست أسميهما ؛ فوقع في نفس رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُـمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَـهُ » .

قيل : المراد بالدعاء المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن . وقيل : الذكر وقراءة القرآن . ويحتمل أن يريد الدعاء في أول النهار وآخره ؛ ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق ، ويختموه بالدعاء طلبا للمغفرة . ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي طاعته ، والإخلاص فيها ، أي يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله ، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره . وقيل : يريدون الله الموصوف بأن له الوجه كما قال : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وهو كقوله : « وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ » . وخص الغداة والعشيّ بالذكر؛ لأن الشغل غالب فيهما على الناس ، ومن كان في وقت الشغل مقبل على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره في قوله : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْـدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ » فكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتـدئون القيام ؛ وقد أخرج هـذا المعنى مبينا مكملا ابن ماجه في سننه عن خَبّاب في قول الله عز وجل : «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» إلى قوله : « فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » قال : جاء الأقرع بن حابس التميميّ وعُيَيْنة بن حصن الفَزَارِيّ فوجدوا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم مع صُهَيب وبِلال وعَمّار وخَبّاب ، قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين ؛ فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حَقَروهم ، فأتوه فخلوا به وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تَعرِفُ لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ؛ قال : "نعم" قالوا : فاكتب لنا عليك كتابا ؛ قال : فدعا بصحيفة ودعا عليا — رضي الله عنه — ليكتب ونحن قعود في ناحية ؛ فنزل جبريل عليه السلام فقال :

« وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » ثم ذكر الأقرع بن حابس وعُيَينة بن حِصْن، فقال: « وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » ثم قال: « وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » قال: فدنونا منه حتى وضعنا رُكَبنا على رُكْبته؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا؛ فأنزل الله عز وجل « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ولا تجالس الأشراف « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » يعني عُيَينة والأقرع « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » أي هلاكا قال: أَمْر عُيَينة والأقرع؛ ثم ضرب لهم مَثَل الرجلين ومَثَل الحياة الدنيا. قال خَبّاب: فكنا نقعد مع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم؛ رواه عن أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطّان حدّثنا عمرو بن محمد العَنْقَزيّ(1) حدّثنا أسباط عن السُّدّيّ عن أبي سعد الأزدي(2) وكان قارئ الأزد عن أبي الكنود عن خَبّاب؛ وأخرجه أيضا عن سعد قال: نزلت هذه الآية فينا ستة فيّ وفي ابن مسعود وصُهَيب وعمّار والمِقْداد وبلال؛ قال: قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهم فاطردهم؛ قال: فدخل قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ماشاء الله أن يدخل؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » الآية(3). وقرىء « بِالْغُدْوَةِ » وسيأتي بيانه في « الكهف » إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي من جزائهم ولا كفاية أرزاقهم، أي جزاؤهم ورزقهم على الله، وجزاؤك ورزقك على الله لا على غيره. « مِن » الأولى للتبعيض، والثانية زائدة للتوكيد. وكذا ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ المعنى وإذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين

(1) العنقزى: ضبط (في القاموس) و(لب اللباب) بفتح القاف. وقال في التهذيب: هو بكسرها.
(2) ويقال أبو سعيد. (التهذيب). (3) آية ٢٨.

والفضل ، فإن فعلت كنت ظالمـا وحاشا من وقوع ذلك منه ، وإنما هـذا بيان للأحكام ، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل الإسلام ، وهذا مثل قوله : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » وقـد علم الله منـه أنه لا يُشرك ولا يَحبط عمـله . « فَتَطْرُدَهُمْ » جواب النفى . ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ نصب بالفاء فى جواب النهى ، المعنى : ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين ، وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم ، على التقديم والتأخير . والظلم أصله وضع الشىء فى غير موضعه ، وقد تقدّم فى «البقرة»(١) مستوفى . وقد حصل من قوة الآية والحديث النهى عن أن يعظم أحد لجاهه ولثوبه ، وعن أن يحتقر أحد لخموله ولرثاثة ثوبه .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ (٥٣)

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أى كما فتنا من قبلك كذلك فتنا هؤلاء . والفتنة الاختبار ، أى عاملناهم معاملة المختبرين . ﴿ لِيَقُولُوا ﴾ نصب بلام كى ، يعنى الأشراف والأغنياء . ﴿ أَهَؤُلَاءِ ﴾ يعنى الضعفاء والفقراء . ﴿ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ قال النحاس : وهذا من المشكل ، لأنه يقال كيف فُتِنوا ليقولوا هذه الآية ؟ لأنه إن كان إنكارا فهو كفر منهم . وفى هـذا جوابان : أحدهما — أن المعنى اختبر الأغنياء بالفقراء أن تكون مرتبتهم واحدة عند النبى صلى الله عليه وسـلم ، ليقولوا على سبيل الاسـتفهام لا على سبيل الإنكار : « أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا » . والجواب الآخر — أنهم لمـا اختبروا بهذا فآل عاقبته إلى أن قالوا هـذا على سبيل الإنكار ، وصار مثل قوله : « فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ فيمنّ عليهـم بالإيمـان دون الرؤساء الذين علم الله منهم الكفر ، وهذا استفهام تقرير ، وهو جواب لقولهم : « أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا » وقيل : المعنى أليس الله بأعلم من يشكر الإسلام إذا هديته إليه :

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُون بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ السلام والسلامة بمعنى واحد . ومعنى « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » سلمكم الله فى دينكم وأنفسكم ؛ نزلت فى الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم ؛ فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال : " الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أبدأهم بالسلام " فعلى هـذا كان السلام من جهة النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنه كان من جهة الله تعالى ؛ أى أبلغهم منا السلام ؛ وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سـفيان أتى على سلمان وصُهيب وبلال فى نَفَر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها ؛ قال فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟! فأتى النبي صلى الله عليه وسـلم فأخبره فقال : " يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقـد أغضبت ربك " فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا ؛ يغفر الله لك يا أخى ؛ فهذا دليل على رفعة منـازلهم وحرمتهم كما بيّنـاه فى الآية . ويستفاد من هـذا آحترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم ؛ فإن فى ذلك غضب الله ؛ أى حلول عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه . وقال ابن عباس : نزلت الآية فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ . وقال الفُضَيـل بن عِياض : جاء قوم من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا قد أصبنا من الذنوب فآستغفر لنا فأعرض عنهم ؛ فنزلت الآية . وروى عن أنس بن مالك مثله سواء .

قوله تعـالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ أى أوجب ذلك بخبره الصـدق ، ووعده الحق ؛ فخوطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئا فقـد أوجبه على نفسه . وقيل : كتب ذلك فى اللوح المحفوظ . ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أى خطيئة من

غير قصـد؛ قال مجاهد : لا يعلم حلالا من حرام ومن جهالته رَكِبَ ٱلأمرَ ، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل؛ وقد مضى هذا المعنى فى « النساء »(١) . وقيل من آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل . ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قرأ بفتح « أَنَّ » من « فَأَنَّهُ » ٱبن عامر وعاصم ، وكذلك « أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ » ووافقهما نافع فى « أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ » . وقرأ الباقون بالكسر فيهما؛ فمن كسر فعلى الآستئناف ، والجملة مفسرة للرحمة؛ و « إنّ » إذا دخلت على الجمل كُسِرت وحكم ما بعد الفاء الآبتداء والاستئناف فكُسِرت لذلك . ومن فتحهما فالأولى فى موضع نصب على البدل من الرحمة، بدل الشيء من الشيء وهو هو فأعمل فيهـا « كتب » كأنه قال : كتب ربكم على نفســه أنه من عمل؛ وأما « فَأَنَّهُ غَفُورٌ » بالفتح ففيـه وجهان ؛ أحدهما — أن يكون فى موضع رفع بالآبتـداء والخبر مضمر، كأنه قال : فله أنه غفور رحيم ؛ لأن ما بعـد الفاء مبتدأ ، أى فله غفران الله . الوجه الثانى — أن يضمر مبتدأ تكون « أنّ » وما عملت فيه خبره ؛ تقـديره : فأمره غفران الله له ، وهـذا ٱختيار سيبويه ، ولم يُجِز الأول ، وأجازه أبو حاتم . وقيل : إنّ « كَتَبَ » عمل فيها ؛ أى كتب ربكم أنه غفور رحيم . وروى عن على بن صالح وٱبن هُرْمز كسر ٱلأولى على الآستئناف، وفتح الثانية على أن تكون مبتدأة وخبر مبتدأ أو معمولة لكتب على ما تقـدم . ومن فتح ٱلأولى — وهو نافع — جعلها بدلا من الرحمة، وٱستأنف الثانية لأنها بعد الفاء، وهى قراءة بينة .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ ﴾ التفصيل التبيين الذى تظهر به المعانى؛ والمعنى : وكما فصّلنا لك فى هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نُفَصّل لكم الآيات فى كل ما تحتاجون إليه من أمر الدّين، ونبين لكم أدلتنا وحجتنا فى كل حق ينكره أهل الباطل .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٢ طبعة أولى أو ثانية .

وقال القتبي : « نُفَصِّلُ الآيَاتِ » نأتي بها شيئا بعد شيء ، ولا ننزلها جملة متصلة .
﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ يقال : هذه اللام تتعلق بالفعل فأين الفعل الذي تتعلق به ؟ فقال الكوفيون : هو مقدّر؛ أي وكذلك نُفصّل الآيات لنبيّن لكم ولتستبين؛ قال النحاس : وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه ، والتقدير : وكذلك نفصّل الآيات فصّلناها . وقيل : إن دخول الواو للعطف على المعنى؛ أي ليظهر الحق وليستبين؛ قرئ بالياء والتاء . « سبيل » برفع اللام ونصبها ، وقراءة التاء خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين . فإن قيل : فقد كان النبي عليه السلام يستبينها ؟ فالجواب عند الزجاج — أن الخطاب للنبي عليه السلام خطاب لأمته؛ فالمعنى : ولتستبينوا سبيل المجرمين . فإن قيل : فلم لم يذكر سبيل المؤمنين ؟ ففي هذا جوابان؛ أحدهما — أن يكون مثل قوله : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ » فالمعنى؛ وتقيكم البرد ثم حُذف؛ وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف . والجواب الآخر — أن يقال : استبان الشيءُ واستبنته؛ وإذا بان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين . والسبيل يذكر ويؤنث؛ فتميم تذكره ، وأهل الحجاز تؤنثه؛ وفي التنزيل « وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ » مذكر « لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ » مؤنث؛ وكذلك قرئ « ولتستبين » بالياء والتاء؛ فالتاء خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قيل : « تدعون » بمعنى تعبدون . وقيل : تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة؛ أراد بذلك الأصنام . ﴿ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء ، وفي طرد ما أردتم طرده . ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾ أي قد ضللت إن اتبعت أهواءكم . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أي على طريق رشد وهدى .

وقرئ « ضَلِلْتُ » بفتح اللام وكسرها وهما لغتان . قال أبو عمرو : ضَلِلْتُ بكسر اللام لغـة تميم ، وهى قـراءة آبن وَثّاب وطلحة آبن مُصَرِّف ، والأولى هى الأصح والأفصح ؛ لأنها لغة أهل الحجاز ، وهى قراءة الجمهور . قال الجوهرىّ : والضلال والضلالة ضـد الرشاد ، وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ ، قال الله تعالى : «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي» فهذه لغة نجد ، وهى الفصيحة ، وأهل العالية يقولون : ضَلِلْتُ بالكسر أَضَلُّ .

قوله تعـالى : قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ج مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ج إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ صلے يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أى دلالة ويقين وحجة وبرهان ، لا على هوى ؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره . ﴿ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ أى بالبينة لأنها فى معنى البيان ؛ كما قال : «وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ » على ما بيناه هنالك(١) . وقيـل : يعود على الرب ، أى كذبتم بربى لأنه جرى ذكره . وقيل : بالعـذاب . وقيل : بالقرآن . وفى معنى هـذه الآية والتى قبلها ما أنشده مُصْعَب بن عبـد الله بن الزُّبير لنفسه ، وكان شاعرا محسنا رضى الله عنه :

أأقعدُ بعـد ما رجعتْ عظامى * وكان الموتُ أقـربَ ما يَليني
أجادلُ كلَّ مُعترِض خَصيـمٍ * وأجعل دينَـه غَرَضًا لِديني
فأتركُ ما علمتُ لرأى غيرى * وليس الرأىُ كالعـلم اليقينِ
وما أنا والخصـومةُ وهى شيءٌ * يُصرَّفُ فى الشِّمالِ وفى اليمين
وقـد سُنَّت لنـا سُنَنٌ قِوام * يَلُحْنَ بكلِّ فجٍّ أو وَجِينِ(٢)
وكان الحـقُّ ليس به خفاءٌ * أغرُّ كغُرَّة الفَـلَقِ المبينِ

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الوجين : شط الوادى .

وما عِوضٌ لنا مِنهاجُ جَهْمٍ * بمنهاجِ ابنِ آمنةَ الأمينِ
فأمّا ما علمتُ فقد كفاني * وأمّا ما جهلتُ فجنّبوني

قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أى العذاب ؛ فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله آستهزاء نحو قولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » . وقيل : ما عندى من الآيات التى تقترحونها . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أى ما الحكم إلا لله فى تأخير العذاب وتعجيله . وقيل : الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله . ﴿ يَقُصُّ الْحَقَّ ﴾ أى يقص القَصَص الحق ؛ وبه آستدل من منع المجاز فى القرآن ، وهى قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس ؛ قال ابن عباس قال الله عز وجل : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » . والباقون « يَقْضِ الْحَقَّ » بالضاد المعجمة ؛ وكذلك قرأ علىّ — رضى الله عنه — وأبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وسعيد بن المسيّب ، وهو مكتوب فى المصحف بغير ياء[(١)] ، ولا ينبغى الوقف عليه ، وهو من القضاء ؛ ودل على ذلك أن بعده ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ والفصل لا يكون إلا قضاء دون قَصَص ؛ ويُقوّى ذلك قوله قبله : « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » ويقوّى ذلك أيضا قراءة آبن مسعود « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ » فدخول الباء يؤكد معنى القضاء . قال النحاس : هذا لا يلزم ؛ لأن معنى « يقضى » يأتى ويصنع فالمعنى : يأتى الحق ، ويجوز أن يكون المعنى : يقضى القضاء الحق . قال مكّىّ : وقراءة الصاد أحب إلىّ ؛ لاتفاق الحرميَّيْن وعاصم على ذلك ، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت فى قراءة آبن مسعود . قال النحاس : وهذا الآحتجاج لا يلزم ؛ لأن مثل هذه الباء تحذف كثيرا .

---

(١) قال الفخر الرازى : « يقض » بغير ياء ، لأنها سقطت لالتقاء الساكنين ، كما كتبوا « سندع الزبانية » « فما تغن النذر » .

قوله تعالى : قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أى من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضى الأمر إلى آخره . والاستعجال : تعجيل طلب الشيء قبل وقته . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى بالمشركين و بوقت عقو بتهم .

تم الجزء السادس من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع، وأوله قوله تعالى :

« وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ »

كَمُلَ طبع الجزء السادس من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبي "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٧
(١٧ نوفبر سنة ١٩٣٨) م ا محمد نديم

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السابع

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السابع

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

فهرس الجزء السابع

تفسير سورة الأنعام

صفحة

صفحة

صفحة

سورة الأعراف

*

صفحة

صفحة

سورة الأنفال

اســــتدراك

تقدّم فى الجزء الرابع ص ٥٣ عند الكلام على قوله تعالى : « قل اللّهُمّ » بيت الأعشى :

كدعوة من أبى رَباح * يسمعها لاهُمَ الكُبارُ

وصوابه كما أورده صاحب الخزانة :

كَحَلْفَة من أبى رِياح * يسمعها اللّهُمَ الكُبارُ

قال : « وإنشاد العامة : * يسمعها لاهه الكبار *

وأورده جماعة من النحويين منهم المرادى : * يسمعها لاهم الكبار *

وأبو رياح (بيـاء تحتها نقطتان) : رجل من ضبيعة ، وهو حصن بن عمرو بن بدر ، وكان قتل رجلا من بنى سعد بن ثعلبة ؛ فسألوه أن يحلف أو يعطى الدّية فحلف ، ثم قُتل بعد حَلْفته ، فضربته العرب مثلا لما لا يُغنى من الحَلِف » . (راجع خزانة الأدب للبغدادى فى الشاهد الخامس والعشرين بعد المائة) .

وورد فى الصفحة المذكورة : * فإننا من خيره أنَ نعدما *

وصوابه : * فإننا من خيره لن نُعدما * (راجع الشاهد الحادى والثلاثين بعد المائة).

وتقدّم فيه عند الكلام على قوله تعالى : «قال رب اجعل لى آية ...» ص ٨٠ فى المسألة الرابعة : « لا صُمْتُ يوما الى الليل » بضم الصاد والتاء . وصوابه كما فى اللسان مادة صمت : « لارَضاع بعد فِصال، ولا يُتْمَ بعد الحُلُم، ولا صَمْتَ يوما الى الليل . والصمت السكوت» .

أحمد عبد العليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتى

د / نصر أحمد محمد بدوى . أتريس . مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — جاء فى الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف مَلَك . وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تَغِيض الأرحام إلا اللهُ ولا يعلم ما فى غدٍ إلا اللهُ ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا اللهُ ولا تدرى نفس بأيّ أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله" . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون فى غدٍ فقد أعظم على الله الفِرْية ؛ والله تعالى يقول : «قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ»(1) . ومفاتح جمع مِفْتَح، هذه اللغة الفصيحة . ويقال : مفتاح ويجمع مفاتيح . وهذه قراءة ابن السَّمَيْقَع «مفاتيح» . والمِفتح عبارة عن كل ما يَحُلّ غَلَقا، محسوسا كان كالقُفْل على البيت أو معقولا كالنظر . وروى ابن ماجه فى سننه وأبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ من الناس مفاتيحَ للخير مَغالِيقَ للشرّ وإن من الناس مفاتيحَ للشرّ مغالِيقَ للخير فطُوبَى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ووَيْلٌ لمن جعل الله مفاتيح الشرّ على يديه" . وهو فى الآية استعارة عن التوصُّل إلى الغيوب كما يتوصّل فى الشاهد بالمفتاح إلى الغيب عن الإنسان ؛

(1) آية ٦٥ سورة النمل .

ولذلك قال بعضهـم : هو مأخوذ من قول الناس افتـح علىّ كذا ؛ أى أعطنى أو علمنى ما أتوصل إليه به . فالله تعالى عنـده علم الغيب، و بيـده الطرق الموصّلة إليه ، لا يملكها إلا هو، فمن شاء أطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه. ولا يكون ذلك من إفاضة إلا على رسـله ؛ بدليل قوله تعالى : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ»(١) وقال : «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ»(٢) . وقيل : المراد بالمفاتح خزائن الرزق ؛ عن السُّـدّى والحسن . مُقاتِل والضحّاك : خزائن الأرض. وهذا مجاز، عبّر عنها بما يتوصّل إليها به . وقيل غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث، أى عنده الآجال و وقت انقضائها . وقيل : عواقب الأعمار وخواتم الأعمال ؛ إلى غير هذا من الأقوال . والأوّل المختار . والله أعلم .

الثانيـــة ــ قال علماؤنا : أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه فى غير ما آية من كتابه إلا من ٱصطفى من عباده . فمن قال : إنه ينزّل الغَيْث غدًا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ٱدّعاها أم لا . وكذلك من قال : إنه يعلم ما فى الرّحِم فهو كافر؛ فإن لم يجزم وقال : إن النّوْء(٣) ينزل الله به المـاء عادة، وأنه سبب المـاءِ عادةً، وأنه سبب المـاء على ما قدّره وسبق فى علمه لم يكفر؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرّة بنَوْء كذا ، ومرّة دون النّوْء ؛ قال الله تعالى(٤) : ”أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر[بالكواكب]“ على ما يأتى بيانه فى « الواقعـة(٥) » إن شاء الله . قال ابن العربىّ : وكذلك قول الطبيب : إذا كان الثّدْى الأيمن مسودّ الحَلَمة فهو ذكر، وإن كان فى الثـدى الأيسر فهو أنثى ، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى؛ وٱدّعى ذلك عادة لا واجبا فى الخلقة لم يكفر ولم يفسق . وأما من ٱدعى الكسب فى مستقبل العمر فهو كافر . أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة فى أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة

---

(١) آية ١٧٩ سورة آل عمران . (٢) آية ٢٦ سورة الجن . (٣) النوء : سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجـر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته ؛ وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها . (٤) أى فى الحديث القدسى . (٥) فى قوله تعالى : « وتجعلون رزقكم ...» آية ٨٢ .

فى كفره أيضا . فأمّا من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا : يؤدّب ولا يسجن . أمّا عدم كفره فلأن جماعة قالوا : إنه أمر يُدرَك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله : «وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ»(١) . وأما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامّة، إذ لا يدرون الفرق بين هذا وغيره ؛ فيشوّشون عقائدهم و يتركون قواعدهم فى اليقين فأدِّبوا حتى يستروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به .

قلت : ومن هذا الباب ما جاء فى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من أتى عَرّافا [فسأله عن شيء](٢) لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". والعرّاف هو الحازِى والمنجم الذى يدّعى علم الغيب. وهى العِرافة وصاحبها عَرّاف، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدّمات يدّعى معرفتها . وقد يعتضِد بعض أهل هذا الفن فى ذلك بالزَّجْر والطَّرْق والنجوم، وأسباب معتادة فى ذلك . وهذا الفنّ هو العِيَافة (بالياء) . وكلّها ينطلق عليها ٱسم الكهانة ؛ قاله القاضى عِيَاض . والكهانة : ٱدعاء علم الغيب . قال أبو عمر بن عبد البر فى (الكافى) : من المكاسب المجتمَع على تحريمها الربا ومهور البغايا والسُّحْت والرّشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وٱدعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزَّمْر واللّعِب والباطل كله . قال علماؤنا : وقد ٱنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجّمين والكُهّان، لا سيّما بالديار المصرية؛ فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجّمين، بل ولقد ٱنخدع كثير من المنتسبين للفقه والدِّين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فبهْرَجوا عليهم بالمحال ، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل(٣)، ومن أديانهم على الفساد والضلال . وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله عليه السلام : "لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". فكيف بمن ٱتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم . روى مسلم عن عائشة قالت : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس عن الكُهّان فقال :

(١) آية ٣٩ سورة يس .   (٢) زيادة عن صحيح مسلم .   (٣) السراب : الذى يكون نصف النهار لاطئا بالأرض لاصقا بها كأنه ماء جار . والآل : الذى يكون بالضحى يرفع الشخوص و يزهاها كالملا بين السماء والأرض .

" ليس بشيء " فقالوا : يا رسول الله، إنهم يحدّثون أحيانا الشيء فيكون حقًّا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " تلك الكلمـة من الحق يخطفها الجنيّ فيقُرُّها(١) فى أذن وليّـه [قَرّ الدجاجة](٢) فيخلطون معها مائة كذبة " . قال الحُميديّ(٣) : ليس ليحيى بن عروة عن أبيه عن عائشة فى الصحيح غير هذا . وأخرجه البخاريّ من حديث أبى الأسـود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الملائكة تنزل فى العَنَان وهو السحاب فتذكر الأمر قُضِى فى السماء فتَسْتَرِق الشياطينُ السمع فتسمعه فتوحيه الى الكُهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم " . وسيأتى هذا المعنى فى « سبأ » إن شاء الله تعالى(٤) .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَيَعْـلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ خصّهما بالذّكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أى يعلم ما يهلك فى البر والبحر . ويقال : يعلم ما فى البر من النبات والحبّ والنّوَى، وما فى البحر من الدواب ورزق ما فيها، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . روى يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن آبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " ما مِن زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة فى ظلمات الأرض إلا عليهـا مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رِزق فلان بن فلان وذلك قوله فى مُحكم كتابه « وَمَا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » » . وحكى النقّاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها السّقط من أولاد بنى آدم، والحبة يراد بها الذى ليس بسقط، والرطب يراد به الحىّ، واليابس يراد به الميت . قال ابن عطية : وهـذا قول جارٍ على طريقة الرّموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغى أن يلتفت إليه . وقيل : المعنى «وما تسقط من ورقة» أى من ورق الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور فى الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها . ﴿فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ﴾ بطونها . وهذا أصح؛ فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية . والله أعلم . وقيل : «فى ظلمات الأرض»

(١) القر : ترديدك الكلام فى أذن المخاطب حتى يفهمه . (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .
(٣) هو أحد رواة سند هذا الحديث . (٤) فى قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده ... » آية ٢٣

يعنى الصخرة التى هى أسفل الأرضين السابعة . « ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ » بالخفض عطفا على اللفظ . وقرأ ابن السَّمَيْقَع والحسن وغيرهما بالرفع فيهما عطفا على موضع « من ورقة »؛ فـ«مِن» على هذا للتوكيد. ﴿ إلا فِي كِتَابٍ مبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيانٍ يلحقه، تعالى عن ذلك. وقيل: كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر، أى اعلموا أن هذا الذى ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب.

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ أى ينيمكم فيقبض نفوسكم التى بها تميزون، وليس ذلك موتا حقيقة بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت . والتَّوَفِّى استيفاء الشيء . وتُوُفِّىَ الميت استوفى عدد أيام عمره ، والذى ينام كأنه استوفى حركاته فى اليقظة . والوفاة الموت . وأوفيتك المال ، وتوفّيته ، واستوفيته إذا أخذته أجمع . وقال الشاعر :

إنّ بَنِى الأَدْرَدِ ليسوا مِن أحدْ * ولا توفّاهم قريشٌ فى العَدَدْ

ويقال : إن الروح إذا خرج من البدن فى المنام تبقى فيه الحياة؛ ولهذا تكون فيه الحركة والنفس ، فإذا انقضى عمره خرج روحه وتنقطع حياته ، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس . وقال بعضهم . لا تخرج منه الروح ، ولكن يخرج منه الذهن . ويقال : هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى . وهذا أصح الأقاويل، والله أعلم . ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أى فى النهار؛ ويعنى اليقظة . ﴿ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أى ليستوفى كل إنسان أجلا ضرب له . وقرأ أبو رجاء وطلحة بن مُصَرِّف « ثم يبعثكم فيه ليقضى أجلا مسمى » أى عنده . و « جرحتم » كسبتم . وقد تقدّم فى « المائدة » . وفى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير وهو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه؛ فقدّم الأهم الذى من أجله وقع البعث فى النهار .

وقال ابن جُريج : « ثم يبعثكم فِيهِ » أى فى المنـام . ومعنى الآية : ان إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شيء عددا وعلِمه وأثبته ، ولكن ليقضى أجلا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهـم . وقد دلّ على الحشر والنشر بالبعث لأن النشأة الثانية منزلتهـا بعـد الأولى كمنزلة اليقظة بعـد النوم فى أنّ من قدر على أحدهمـا فهو قادر على الآخر .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يعنى فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة، على ما تقدّم بيانه أوّل السورة . ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أى من الملائكة . والإرسال حقيقته إطلاق الشيء بمـا حمل من الرسالة؛ فإرسال الملائكة بمـا حملوا من الحفظ الذى أمروا به ، كما قال : « وإنّ عليكم لحافِظِين » (١) أى ملائكة تحفظ أعمال العباد وتحفظهم من الآفات . والحَفَظة جمع حافظ، مثل الكَتَبة والكاتب . ويقال : إنهما مَلَكان بالليل ومَلَكان بالنهار ، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر، وإذا مشى الإنسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه ، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ؛ لقوله تعالى: « عَنِ الْيَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » (٢) . ويقال : لكل إنسان خمسة من الملائكة : اثنان بالليل، واثنان بالنهار، والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارا . والله أعلم . وقال عمر بن الخطاب :

ومن النـاس مَن يعيش شقيًّا * جاهلَ القلب غافلَ اليقظَـهْ
فإذا كان ذا وفاء ورأيٍ * حذِر الموتَ واتّقى الحفظـه
إنمـا الناس راحل ومقـيم * فالذى بَانَ للمقـيم عِظـه

(١) آية ١٠ سورة الانفطار . (٢) آية ١٧ سورة ق .

قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ يريد أسبابه ؛ كما تقدّم فى « البقرة »(١) .
﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ على تأنيث الجمـاعة ؛ كما قال : « وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ » و « كَذَّبَتْ رُسُلٌ » . وقرأ حمزة « تَوَفَّاه رسُلنا » على تذكير الجمع . وقرأ الأعمش « تتوفاه رسلنا » بزيادة تاء والتذكير . والمراد أعوان مَلَك الموت ؛ قاله ابن عباس وغيره . ويروى أنهم يَسُلُّون الروح من الجسد حتى إذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت . وقال الكلبيّ : يقبِض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها الى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا أو إلى ملائكة العذاب إن كان كافرا . ويقال : معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب ؛ فإذا قبض نفسا مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء ، وإذا قبض نفسا كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها ، ثم يصعدون بها الى السماء ثم تردّ إلى سِجِّين ، وروح المؤمن إلى عِلِّيين . والتَّوفِّى تارة يضاف الى ملك الموت ؛ كما قال : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ »(٢) . وتارة إلى الملائكة لأنهم يتولّون ذلك ؛ كما فى هذه الآية وغيرها . وتارة إلى الله وهو المُتَوفِّى على الحقيقة ؛ كما قال : « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »(٣) « قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ »(٤) « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ »(٥) . فكل مأمورٍ من الملائكة فإنما يفعل ما أُمِر به .
﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أى لا يضيّعون ولا يقصّرون ، أى يطيعون أمر الله . وأصله من التقدّم ؛ كما تقـدّم . فمعنى فرّط قـدّم العَجز . وقال أبو عبيدة : لا يتوانون . وقرأ عبيد بن عمـير « لا يُفْـرِطون » بالتخفيف ، أى لا يجاوزون الحـدّ فيما أمروا به من الإكرام والإهانة .
﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ ﴾ أى ردّهم الله بالبعث للحساب . ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أى خالقهم ورازقهم وباعثهـم ومالكهم . « الحقِّ » بالخفض قراءة الجمهـور ، على النعت والصـفة لاسم الله تعـالى . وقرأ الحسن « الحقَّ » بالنصب على إضمـار أعنى ، أو على المصـدر ، أى حقًّا .
﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى اعلموا وقولوا له الحكم وحده يوم القيـامة ، أى القضاء والفصـل .
﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾(٦) أى لا يحتاج إلى فِكرة ورويّة ولا عَقْد يَد . وقد تقدّم .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٧ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة السجدة . (٣) آية ٤٢ سورة الزمر .
(٤) آية ٢٦ سورة الجاثية . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى شدائدهما ؛ يقال : يوم مظلم أى شديد . قال النحاس : والعرب تقول : يومٌ مظلِم إذا كان شديدا ، فإن عظّمت ذلك قالت : يوم ذو كواكب ؛ وأنشد سيبويه :

بَنِى أسـدٍ هل تعلمـون بلاءنا ✽ إذا كان يومٌ ذو كواكب أشْنَعَا

وجمع « الظلمات » على أنه يعنى ظلمة البرّ وظلمة البحر وظلمة الليـل وظلمة الغَيْم ، أى إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك دعوتموه ﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ ﴾ أى من هـذه الشدائد ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى من الطائعين . فوبّخهم الله فى دعائهم إياه عند الشدائد ، وهم يدعون معـه فى حالة الرخاء غيره بقوله ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ . وقرأ الأعمش « وخِيفَة » من الخـوف ، وأبو بكر عن عاصم « خِفْيـة » بكسر الخاء ، والباقون بضـمها ، لغتـان . وزاد الفرّاء خُفْوة وخِفْوة . قال : ونظيره حُبْية وحِبْية وحُبْوة وحِبْوة . وقراءة الأعمش بعيدة ؛ لأن معنى « تضرّعاً » أن تظهروا التذلل و « خفية » أن تُبطنوا مثل ذلك . وقرأ الكوفيون لئن « أنجانا » وٱتساق المعنى بالتاء ؛ كما قرأ أهل المدينة وأهل الشأم .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴾ وقرأ الكوفيون « ينجّيكم » بالتشديد ، الباقون بالتخفيف . قيل : معناهما واحد مثل نجا وأنجيته ونجّيته . وقيل : التشـديد للتكثير . والكرب : الغمّ يأخذ بالنفس ؛ يقال منه : رجل مكروب . قال عنترة :

ومكروب كشفت الكرب عنه ✽ بطعنـةِ فَيْصَـلٍ لمـا دعانِى

والكُرْبة مشتقة من ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ تقـريع وتوبيـخ ؛ مثـل قوله فى أوّل السـورة « ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » . لأن الحجة إذا قامت بعـد المعرفة وجب الإخلاص ، وهم قد جعـلوا

بدلا منه وهو الإشراك ؛ فحسن أن يُقرَّعوا و يوبَّخوا على هذه الجهة و إن كانوا مشركين قبل النجاة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أى القادر على إنجائكم من الكرب، قادر على تعذيبكم . ومعنى ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح ؛ كما فعل بعادٍ وثمودَ وقومِ شعيبٍ وقومِ لوطٍ وقومِ نوحٍ ؛ عن مجاهد وابن جُبير وغيرهما . ﴿ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ الخسف والرجفة؛ كما فعل بقارون وأصحابِ مَدْين . وقيل : « من فوقكم » يعنى الأمراء الظلمة ، « ومن تحت أرجلكم » يعنى السّفلة وعَبيد السّوء ؛ عن ابن عباس ومجاهد أيضا . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ وروى عن أبى عبيد الله المدنىّ « أو يُلبسكم » بضم الياء ، أى يجلّلكم العذاب و يعمّكم به ، وهذا من اللُّبس بضم الأوّل ، وقراءة الفتح من اللَّبْس . وهو مُوضع مشكل والأعراب يبيّنه . أى يَلبس عليكم أمركم ، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر؛ كما قال : « وإذا كالُوهم أَوْ وَزَنُوهم »[(١)] وهذا اللَّبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلفى الأهواء ؛ عن ابن عباس . وقيل : معنى « يلبسكم شيعا » يقوّى عدوّكم حتى يخالطكم و إذا خالطكم فقد لبسكم . ﴿شِيَعاً﴾ معناه فِرقاً . وقيل : يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا ؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا . وهو معنى «ويُذيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بعضٍ» أى بالحرب والقتل فى الفتنة؛ عن مجاهد . والآية عامّة فى المسلمين والكفار . وقيل : هى فى الكفار خاصّةً . وقال الحسن : هى فى أهل الصلاة .

قلت : وهو الصحيح؛ فإنه المشاهد فى الوجود، فقد لبِسنا العدوّ فى ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا اموال بعض .

(١) آية ٣ سورة المطففين .

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . وعن الحسن أيضا أنه تأوّل ذلك فيما جرى بين الصحابة رضى الله عنهـم . روى مسـلم عن ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله زَوَى لِىَ الأرض (١) فرأيت مشارقها ومغاربهـا وإنّ أمتى سـيبلغ مُلْكها ما زُوِىَ لِى منهـا وأعطيت الكنزين الأحمـر والأبيض وإنى سألت ربى لأمّتى ألا يهلكها بسـنة عامّة وألا يسـلّط عليهم عدوًّا مِن سِوَى أنفسِهم فيستبيح بَيْضَتهم (٢) وإنّ ربّى قال يا محمد : إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ وإنى أعطيتك لأمتك ألّا أهلكهم بسنة عامّة وألا أسلط عليهم عدوّا من سِوَى أنفسهـم يستبيح بيضـتهم ولو اجتمع عليهـم مَن بإقطارها — أو قال من بين أقطارها — حتى يكون بعضهـم يهلك بعضاً ويَسْبِى بعضهم بعضا " . وروى النسائىّ عن خَبّاب بن الأَرَتّ، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه راقب رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلةَ كلّها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صـلاته جاءه خَبّاب فقال : يارسول الله ، بأبى أنت وأمّى ! لقـد صليتَ الليـلة صـلاة ما رأيتــك صلّيتَ نحوها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أجَلْ إنهـا صلاة رَغَب ورَهَب سألتُ الله عز وجل فيهـا ثلاث خصال فأعطانى ثنتــين ومنعنى واحدة سألت ربى عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها وسألت ربى عز وجل ألا يُظهر علينا عدوًّا مِن غيرنا فأعطانيها وسألت ربى عز وجل ألا يُلبسنا شِيَعًا فمنعنيها " . وقـد أتينا على هـذه الأخبار فى كتاب (التذكرة) والحمد لله . وروى أنه لمـا نزلت هذه الآية قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ياجبريل ما بقاء أمتى على ذلك " ؟ فقال له جبريل : " إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسَلْه لأمتك " فقام رسـول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ وأسـبغ الوضوء وصلى وأحسن الصـلاة ، ثم دعا فنزل جبريل وقال : " يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم " . فقال : " يا جبريل ما بقاء أمتى إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض " ؟ فنزل جبريل بهـذه الآية :

---

(١) زوى : جمع . (٢) أى مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم .

« الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا »(١) الآية . وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الاية « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بوجه الله " فلما نزلت « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » قال : " هاتان أهون " . وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح : اللّهُمّ إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة . اللّهُمّ إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللّهم آستر عوراتى وآمن رَوْعاتى وآحفظنى من بين يدىّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن أغتال من تحتى " . قال وكيع : يعنى الخسف .

قوله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أى نبين لهم الحجج والدلالات . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يريد بطلان ما هم عليه من الشِّرْك والمعاصى .

قوله تعالى : وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أى بالقرآن . وقرأ آبن أبى عَبْلَة « وكذبت » بالتاء . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أى القصص الحق . ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ قال الحسن : لست بحافظ أعمالكم حتى أجازيكم عليها ؛ إنما أنا مُنْذِر وقد بلّغت ؛ نظيره « وما أنا عليكم بِحفيظ » أى أحفظ عليكم أعمالكم . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس بمنسوخ ، إذ لم يكن فى وُسعه إيمانهم . ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ لكل خبرٍ حقيقة ، أى لكلّ شىء وقتٌ يقع فيه من غير تقدّم وتأخر . وقيل : أى لكل عمل جزاء . قال الحسن : هذا وعيد من الله تعالى للكفار ؛ لأنهم كانوا لايُقِرّون بالبعث . الزجّاج : يجوز أن يكون وعيدا بما ينزل بهم فى الدنيا . السُّدّى : استقر يوم بدر ما كان يَعِدُهم به من العذاب . وذكر الثّعْلَبِىّ أنه رأى فى بعض التفاسير أن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع على السِّنّ .

(١) أوّل سورة العنكبوت .

قوله تعـالى : وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والردّ والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ والخطاب مجرّد للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه . وهو صحيح ؛ فإن العلة سماع الخوض في آيات الله ، وذلك يشملهم وإياه . وقيل : المراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ؛ لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم ، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك ؛ فأمر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءوا وخاضوا ليتأدّبوا بذلك ويدعُوا الخوض والاستهزاء . والخَوْض أصله في المـاء ، ثم استعمل بعـدُ في غَمَرات الأشـياء التي هي مجاهل ، تشبيها بغَمَرات المـاء فاستعير من المحسوس للمعقول . وقيـل : هو مأخوذ من الخلط . وكل شيء خُضْتَه فقد خلطته ؛ ومنه خاض المـاءَ بالعسل خلطه . فأدّب الله عز وجل نبيّه بهذه الآية . كان يقعد إلى قوم من المشركين يَعِظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن ؛ فأمره الله أن يُعرض عنهم إعراضَ مُنْكِر . ودلّ بهـذا على ان الرجل إذا علم من الآخر منكراً وعلم أنه لا يقبل منـه فعليه أن يُعرض عنـه إعراض منكر ولا يُقبل عليـه . وروى شِـبْل عن ابن أبي نَجيح عن مجاهـد في قوله « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا » قال : هم الذين يستهزءون بكتاب الله ، نهـاه الله عن أن يجلس معهـم إلا أن ينسى فإذا ذَكَر قام . وروى وَرْقاء عن ابن أبي نَجيح عن مجاهـد قال : هم الذين يقولون في القرآن غير الحق .

الثانيـــة — في هـذه الاية ردٌّ من كتاب الله عز وجل على من زعم ان الأئمة الذين هم حُجَجٌ وأتباعَهم لهم ان يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تَقِيّةً (١) . وذكر الطبريّ عن أبي جعفر

(١) التقية والتقاة بمعنى واحد . يريد أنهم يتقون بعضهم بعضا ويظهرون الصلح والاتفاق ، وباطنهم بخلاف ذلك .

محمد بن علىّ أنه قال : لا تجالسوا أهل الخصومات ، فإنهم الذين يخوضون فى آيات الله . قال ابن العربىّ : وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحلّ . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : مَن خاض فى آيات الله تُركت مجالسته وهُجِر ، مؤمنا كان أو كافرا . قال : وكذلك منع أصحابُنا الدخولَ إلى أرض العدوّ ودخولَ كنائسهم والبِيَع ، ومجالسةَ الكفار وأهلِ البِدَع ، وألاّ تُعتقد مودّتهم ولا يُسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البِدع لأبى عِمران النَّخَعِىّ : اسمع منى كلمة ؛ فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة . ومثله عن أيّوب السِّختيانىّ . وقال الفُضيل بن عِيَاض : من أحبّ صاحبَ بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه ، ومن زوّج كريمته من مُبْتَدِع فقد قطع رَحِمَها ، ومن جلس مع صاحب بِدْعة لم يُعط الحكمة ، وإذا علم الله من رجل أنه مُبغِض لصاحب بِدْعة رَجَوْتُ أن يغفِر الله له . وروى أبوعبد الله الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن وَقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام". فبطل بهذا كلّه قولُ مَن زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ ﴾ «إما» شرط ، فيلزمها النون الثقيلة فى الأغلب وقد لا تلزم ؛ كما قال :

إمّا يصبْك عدوّ فى مناوأة * يوما فقد كنت تَسْتَعْلِى وتنتصر

وقرأ ابن عباس وابن عامر « يُنَسِّينك » بتشديد السين على التكثير ؛ يقال : نَسَّى وأَنْسَى بمعنى واحد ؛ قال الشاعر :

قالت سُليمى أتَسْرِى اليوم أم تقل (١) * وقد يُنَسِّيك بعضَ الحاجةِ الكسلُ

وقال امرؤ القيس :

* ... تُنَسِّينِى إذا قمت سِرْبالِى (٢) *

(١) كذا فى الأصول ، ولم نهتد لوجه الصواب فيه . (٢) والبيت بتمامه كما فى اللسان :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة * لعوب تنسينى إذا قمت سربالى

ورواية اللسان «تناسانى» بدل «تنسينى» .

المعنى : يا محمد إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم بجالستهم بعد النّهى . ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى إذا ذكرت فلا تقعد مع القوم الظالمين ، يعنى المشركين . والذّكرى اسم للتذكير .

الثانيـة — قيل : هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان . وقيل : هو خاص به ، والنسيان جائز عليه . قال ابن العربيّ : وإن عذرْنا أصحابَنا فى [قولهم إن](١) قولَه تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »(٢) خطابٌ للأمة بٱسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لٱستحالة الشِّرْك عليه ، فلا عُذْر لهم فى هذا لجواز النسيان عليه . قال عليه السلام : " نَسِيَ آدمُ فنَسِيت ذرِّيَّتُه " خرّجه الترمذيّ وصحّحه . وقال مخبرا عن نفسه : " إنما أنا بشر مثلكم أَنْسَى كما تَنسَوْن فاذا نسيت فذكّرونى " . خرّجه فى الصحيح ، وأضاف النسيان إليه . وقال وقد سمع قراءة رجل : " لقد أذكرنى آيةَ كذا وكذا كنتُ أُنسيتها " .

واختلفوا بعد جواز النسيان عليه ؛ هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أم لا . فذهب إلى الأوّل — فيما ذكره القاضى عياض — عامّةُ العلماء والأئمةُ النُّظّار ، كما هو ظاهر القرآن والأحاديث ، لكن شرط الأئمة أن الله تعالى ينبّهه على ذلك ولا يُقرّه عليه . ثم اختلفوا هل مِن شرط التنبيه ٱتصالُه بالحادثة على الفَوْر ، وهو مذهب القاضى أبى بكر والأكثرِ من العلماء ، أو يجوز فى ذلك التّراخى ما لم يَنخرِم عمره و ينقطع تبليغه ، و إليه نحا أبو المَعَالِي . ومنعت طائفة من العلماء السَّهوَ عليه فى الأفعال البلاغية والعبادات الشرعيّة ؛ كما منعوه ٱتفاقا فى الأقوال البلاغية ، واعتذروا عن الظواهر الواردة فى ذلك ؛ و إليه مال الأستاذ أبو إسحاق . وشذّت الباطِنيّة وطائفةٌ من أرباب علم القلوب فقالوا : لا يجوز النسيان عليه ، و إنما يَنْسَى قصدًا ويتعمّد صورةَ النسيان لِيَسُنّ . ونَحَا إلى هذا عظيم من أئمة التحقيق وهو أبو المظفر الإسفَرَايِنِي فى كتابه (الأوسط) وهو منحًى غيرُ سديد ، وجمعُ الضدّ مع الضدّ مستحيل بعيد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٦٩)

(١) الزيادة عن ابن العربى . (٢) آية ٦٥ سورة الزمر .

قال ابن عباس : لما نزل لا تقعدوا مع المشركين وهو المراد بقوله : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » قال المسلمون : لا يمكننا دخول المسجد والطّواف ؛ فنزلت هذه الآية . ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾ أى فإن قعدوا يعنى المؤمنين فليذكّروهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ اللهَ فى ترك ما هم فيه . ثم قيل : نُسخ هذا بقوله : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »(١) . وإنما كانت الرُّخْصة قبل الفتح وكان الوقت وقت تَقِيّة . وأشار بقوله : « وقد نزّل عليكم فى الكتاب » الى قوله : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا » . قال القُشَيْرِىّ : والأظهر أن الآية ليست منسوخة . والمعنى : ما عليكم شىء من حساب المشركين، فعليكم بتذكيرهم وزجرهم فإن أبوْا فحسابهم على الله . و « ذِكْرَى » فى موضع نصب على المصدر ، ويجوز أن تكون فى موضع رفع ؛ أى ولكن الذى يفعلونه ذكرى، أى ولكن عليهم ذكرى . قال الكِسائىّ : المعنى ولكن هذه ذكرى .

قوله تعالى : وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

أى لا تعلّق قلبك بهم فإنهم أهل تعنّت وإن كنت مأمورا بوعظهم . قال قَتادة : هذا منسوخ، نسخه « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(٢) . ومعنى ﴿ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ أى استهزاءً بالدّين الذى دعوتهم إليه . وقيل : استهزءوا بالدين الذى هم عليه فلم يعملوا به . والاستهزاء ليس مُسَوَّغًا فى دين . وقيل : « لعبا ولهوا » باطلا وفرحا، وقد تقدّم هذا(٣) . وجاء اللّعب مقدّما فى أربعة مواضع، وقد نُظِمت :

(١) آية ١٤٠ سورة النساء . (٢) آية ٥ سورة التوبة .

(٣) فى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا ... » آية ٣٢ من هذه السورة .

إذا أتى لعب ولهـــو * وكم من موضع هو فى القُرآن
لحرف فى الحديد وفى القتال * وفى الأنعام منهـا موضـعان

وقيـل : المراد بالدِّين هنـا العيد . قال الكَلْبِىّ : إن الله تعـالى جعل لكل قوم عيدا يعظمونه و يصلّون فيه لله تعالى ، وكلّ قوم اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا إلا امة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم اتخذوه صلاة وذكرا وحضورا بالصدقة، مثل الجمعة والفطر والنحر .

قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى لم يعلموا إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالحساب . ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى تُرْتَهن وتُسـلم للهَلَكة ؛ عن مجاهد وقتادة والحسن وعِكْرمة والسُّـدِّى . والإبسال : تسليم المرء للهلاك ؛ هــذا المعروف فى اللغة . أَبْسـلتُ ولدى أرهنته ؛ قال عَوْف بن الأحوص ابن جعفر :

وإبسالِى بَنِىَّ بغــير جُرْمٍ * بَعَوْناه ولا بِـدَمٍ مُرَاقِ

« بَعَوْناه » بالعين المهملة معناه جنيناه . والبَعْوُ الجناية . وكان حَمَل عن غَنِىّ لبنى قُشَـيرٍ دَمَ ابنى السَّجِفِيَّة(١) فقالوا : لا نرضى بك ؛ فرهنهم بنيه طلبا للصلح . وأنشد النابغة :

ونحن رَهنَّا بالأُفَاقَـــة(٢) عامرًا * بما كان فى الدَّرْدَاء رَهْنًا فأُبْسِلَا

الدرداء : كتيبة كانت لهم . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ(٣) وَلَا شَفِيعٌ(٤) ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ الاية . العدل الفِدْية، وقدتقدّم فى« البقرة(٥)» . والحَمِيم المـاء الحارّ؛ وفى التنزيل «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(٦)» . «يَطُوفُونَ

(١) كذا فى اللسان وشرح القاموس . والذى فى صحاح الجوهرى ونسخ الأصل : « السحفية » بالحاء المهملة بدل الجيم . (٢) الأفاقة (ككناسة) : موضع بالبحرين قرب الكوفة . أو هو ماء لبنى يربوع .
(٣) راجع ج ٣ ص ٢٨٢ ، ج ٤ ص ١٠٩ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة . وج ٣ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية . (٥) راجع ج ١ ص ٣٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٦) آية ١٩ سورة الحج .

بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »[1] . والآية منسوخة بآية القتال . وقيل : ليست بمنسوخة ، لأن قوله : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ » تهديد ؛ كقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا »[2] . ومعناه لا تحزن عليهم ؛ فإنما عليك التبليغ والتذكير بإبسال النفوس . فمن أبسل فقد أسلم وارتهن . وقيل : أصله التحريم ، من قولهم : هذا بَسْلٌ عليك أى حرام ؛ فكأنهم حُرِموا الجنة وحُرِّمت عليهم الجنة . قال الشاعر[3] :

أجارتكم بَسْلٌ علينا مُحَرَّمٌ * وجارتنا حِلٌّ لكم وحَلِيلُها

والإبسال : التحريم .

قوله تعالى : قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا ﴾ أى ما لا ينفعنا إن دعوناه . ﴿ وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ إن تركناه ؛ يريد الأصنام . ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾ أى نرجع إلى الضلالة بعد الهدى . وواحد الأعقاب عَقِب وهي مؤنثة ، تصغر عُقَيْبة . يقال : رجع فلان على عَقِبيه إذا أدبر . قال أبو عبيدة : يقال لمن رُدّ عن حاجته ولم يظفر بها قد ردّ على عَقبيه . وقال المبرد : معناه تُعُقِّب بالشر بعد الخير . وأصله من العاقبة والعُقْبَى وهما ما كان تاليا

(١) آية ٤٤ سورة الرحمن . (٢) آية ٣ سورة الحجر . (٣) هو الأعشى كما فى اللسان .

للشيء واجبا أن يتبعه ؛ ومنه « والعاقبة للمتقين » . ومنه عَقِب الرِّجل . ومنه العقوبة لأنها تالية للذنب، وعنه تكون .

قوله تعالى : ﴿ كَٱلَّذِى ﴾ الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف . ﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ أى استغوته وزيّنت له هواه ودعته إليه . يقال : هَوَى يَهْوِى إلى الشيء أسرع إليه . وقال الزجاج : هو من هَوِىَ يَهْوَى، من هَوَى النفس ؛ أى زيّن له الشيطان هواه . وقراءة الجماعة « استهوته » أى هوت به، على تأنيث الجماعة . وقرأ حمزة « استهواه الشياطين » على تذكير الجمع . وروى عن ابن مسعود « استهواه الشيطان » ، وروى عن الحسن، وهو كذلك فى حرف أُبَىّ . ومعنى « آئتنا » تابعنا . وفى قراءة عبد الله أيضا « يَدعُونه إلى الهُدَى بَيِّنا » . وعن الحسن أيضا « استهوته الشياطون » . ﴿ حَيْرَانَ ﴾ نصب على الحال ، ولم ينصرف لأن أنثاه حَيْرَى كسكران وسكرى وغضبان وغضبى . والحَيْرانُ هو الذى لا يَهتدى لجهة أمره . وقد حار يَحار حَيْرًا وحَيْرَة وحَيْرورة[(١)]، أى تردّد . وبه سُمِّى الماء المستنقَع الذى لا منفذ له حائرا ، والجمع حُوران . والحائر الموضع يتحيّر فيه الماء . قال الشاعر :

تَخْطو على بَرْدِيَّتَيْن غذاهما * غَدِقٌ بساحة حائرٍ يَعْبوبُ[(٢)]

قال ابن عباس : أى مَثَل عابد الصنم مَثَل من دعاه الغُول فيتبعه فيُصبح وقد ألقته فى مَضَلّة ومَهْلَكة؛ فهو حائر فى تلك المَهامه . وقال فى رواية أبى صالح : نزلتْ فى عبدالرحمن آبن أبى بكر الصدّيق ، كان يدعو أباه الى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام والمسلمون ؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾ فيأبَى . قال أبو عمر : أمّه أمّ رُومان بنت الحارث بن غَنْم الكنانيّة؛ فهو شقيق عائشة . وشَهِد عبدُ الرحمن بن أبى بكر بَدْرًا وأُحُدًا مع قومه كافرا ، ودَعَا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) لم نجد هذا المصدر فى كتب اللغة . وفى تفسير الفخر الرازى : « ... وزاد الفراء حيرانا وحيرورة » .
(٢) اليعبوب : الطويل .

قال : "مَتِّعْنِى بنفسك" . ثم أسلم وحسُن إسلامه ، وصحب النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى هُدْنَة الحُدَيْبِيَة . هذا قول أهل السِّيَر . قالوا : كان ٱسْمُه عبدَ الكعبة فغيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمَه عبد الرحمن ، وكان أسنَّ ولد أبى بكر . ويقال : إنه لم يدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم اربعةٌ وِلاءً : أبٌ وبنوه إلا أبا قُحافة وابنَه أبا بكر وٱبنَه عبد الرحمن بن أبى بكر وابنَه أبا عتيق محمد بن عبد الرحمن . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ اللام لام كى ، أى أمرنا كى نسلم وبأن أقيموا الصلاة ؛ لأن حروف الإضافة يعطف بعضها على بعض . قال الفَرّاء : المعنى أمرنا بأن نسلم ؛ لأن العرب تقول : أمرتك لتذهب، وبأن تذهب بمعنًى . قال النحاس : سمعت أبا الحسن بن كَيْسان يقول هى لام الخفض ، واللامات كلها ثلاث : لامُ خفضٍ ولامُ أمرٍ ولامُ توكيد ، لا يخرج شىء عنها . والإسلام الإخلاص . و إقامة الصلاة الإتيان بها والدوام عليها . ويجوز أن يكون « وأن أقيموا الصلاة » عطفًا على المعنى ، أى يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة ؛ لأن معنى ٱئتنا أنِ ٱئتنا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ابتداء وخبر وكذا ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أى فهو الذى يجب أن يُعبد لا الأصنام . ومعنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بكلمة الحق . يعنى قوله « كُنْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى وٱذكر يوم يقول كن . أو ٱتقوا يوم يقول كن . أو قَدر يوم يقول كن . وقيل: هو عطف على الهاء فى قوله « وٱتقوه » . قال الفراء : « كن فيكون » يقال : إنه للصُّور خاصَّـة ؛ أى ويوم يقول للصُّور كن فيكون . وقيـل : المعنى فيكون جميع ما أراد من موت الناس وحياتهم . وعلى هذين التأويلين يكون ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر . وقيل : إن قوله تعالى : « قَوْلُه » رفعا بيكون ؛ أى فيكون ما يأمر به . و « الحَقُّ » من نعتـه . ويكون التمـام على هـذا « فيكون قوله الحق » . وقرأ ٱبن عامر

« فنكون » بالنون ، وهو إشارة إلى سرعة الحساب والبعث . وقد تقدّم فى « البقرة » القول فيه مستوفى[١] .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أى وله المُلْك يومَ ينفخ فى الصُّور . أو وله الحق يوم ينفخ فى الصور . وقيل : هو بدل من « يوم يقول » . والصُّور قَرْن من نُور يُنفخ فيه، النفخة الأولى للفَناء والثانية للإنشاء . وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم ؛ أى ينفخ فى صُوَر الموتى على ما نبيِّنه . روى مُسْلم من حديث عبد الله بن عمرو " يوم يُنفخ فى الصُّور فلا يسمعه أحد إلا أصغى[٢] لِيتًا ورَفع لِيتًا[٣] — قال — وأول من يسمعه رجل يَلُوط[٤] حَوْض إبِله — قال — فيَصْعَق و يَصْعَق الناسُ ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلّ فتَنْبُت منه أجسادُ الناس ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " وذكر الحديث . وكذا فى التنزيل « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى »[٥] ولم يقل فيها ؛ فعُلم أنه ليس جمع الصُّورة . والأمم مُجْمعة على أن الذى يَنفخ فى الصُّور إسرافيلُ عليــه السلام . قال أبو الهَيْثَم : من أنكر أن يكون الصُّور قَرْنا فهو كمن يُنكر العرش والميزان والصراط ، وطلب لها تأويلات . قال ابن فارس : الصُّور الذى فى الحديث كالقَرْن يُنفَخ فيــه . والصُّور جمع صُــورة . وقال الجوهرى : الصُّور القَرْن . قال الراجز :

لقــــد نَطحناهم غَداةَ الجَمْعَيْنِ * نَطْحًا شديدًا لا كنطح الصُّورَيْنِ

ومنه قوله : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ »[٦] . قال الكَلْبِيّ : لا أدرى ما هو الصُّور . ويقال : هو جمع صُورة مثلُ بُسْرَة وبُسْر ؛ أى يُنفخ فى صُوَر الموتى الأرواح . وقرأ الحسن « يومَ يُنفخُ

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٩ طبعة ثانية .
(٢) أصغى : أمال .
(٣) الليت (بكسر اللام) : صفحة العنق .
(٤) أى يطينه و يصلحه .
(٥) آية ٦٨ سورة الزمر .
(٦) آية ٨٧ سورة النمل .

فى الصُّوَر» . والصِّور (بكسر الصاد) لغة فى الصُّوَر جمع صُورة والجمع صِوار، وصِيّار (بالياء) لغةٌ فيه . وقال عمرو بن عبيد : قرأ عِياض «يَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّوَر» فهذا يعنى به الخلق . والله أعلم .[1]

قلت : وممن قال إن المراد بالصُّور فى هذه الآية جمع صُورة أبو عبيدة . وهذا و إن كان محتملا فهو مردود بما ذكرناه من الكتاب والسُّنّة . وأيضا لا ينفخ فى الصور للبعث مرتين؛ بل ينفخ فيه مرة واحدة؛ فإسرافيل عليه السلام يَنفخ فى الصُّور الذى هو القَرْن والله عز وجل يُحيي الصُّوَر .

قوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ برفع «عالم» صفة للذى؛ أى وهو الذى خلق السموات والأرض عالم الغيب . ويجوز أن يرتفع على إضمار المبتدأ . وقد رُوى عن بعضهم أنه قرأ «يَنْفُخ» فيجوز أن يكون الفاعل «عالِمُ الغَيْبِ»؛ لأنه إذا كان النفخ فيه بأمر الله عز وجل كان منسوبا إلى الله تعالى . ويجوز أن يكون ارتفع ﴿عَالِمُ﴾ حملا على المعنى؛ كما أنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارِعٌ لخُصُومةٍ *[2]

وقرأ الحسن والأعمش «عالِمِ» بالخفض على البدل من الهاء فى «له» .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) نقل المؤلف هنا ما فى الصحاح، وقد حذف منه ما جعل المراد غير واضح . وعبارة الصحاح : «... وقرأ الحسن (يوم ينفخ فى الصور) والصور بكسر الصاد لغة فى الصور جمع صورة . و ينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى :

أشبهن من بقر الخلصاء أعينها * وهن أحسن من صيرانها صِوَرا

والصيران جمع صوار وهو القطيع من البقر . والصوار أيضا وعاء المسك؛ وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاح الصوار ذكرت ليلى * وأذكرها إذا نفخ الصوار

والصيار لغة فيه» .

(٢) هذا صدر بيت للحارث بن نهيك، وتمامه كما فى كتاب سيبويه :

* ومختبط مما تطيح الطوائح *

وصف أنه كان مقيما لحجة المظلوم ناصرا له . والمختبط : الطالب المعروف . وتطيح : تذهب وتهلك .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ تكلّم العلماء فى هـذا ؛ فقال أبو بكر محمد ابن محمد بن الحسن الجُوَيْنِي الشافعيّ الأشعريّ فى النكت من التفسير له : وليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم تارَح . والذى فى القرآن يدلّ على أن ٱسمه آزر . وقيـل : آزر عندهم ذَمٌّ فى لغتهم؛ كأنه قال : وإذ قال لأبيه يامخطئ ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ وإذا كان كذلك فالاختيار الرفع . وقيل : آزر ٱسم صنم . وإذا كان كذلك فموضعه نصب على إضمار الفعل؛ كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها، أتتخذ أصناما آلهة .

قلت : ما ٱدعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق؛ فقد قال محمد بن إسحاق والكَلْبيّ والضحاك : إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو تارَحْ، مثل إسرائيل ويعقوب؛ فيكون له اسمان كما تقدّم. وقال مقاتل : آزر لقب، وتارَحْ اسم، وحكاه الثعلبيّ عن ابن اسحاق القُشَيْرِيّ. ويجوز أن يكون على العكس . قال الحسن : كان اسم أبيه آزر . وقال سليمان التَّيْميّ : هو سَبٌّ وعَيْب، ومعناه فى كلامهم : المُعْوَجّ . وروى المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه قال : بلغنى أنهـا أعوج، وهى أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه . وقال الضحّاك : معنى آزر الشيخ الهِمّ (١) بالفارسية . وقال الفرّاء : هى صفة ذَمٍّ بلغتهم؛ كأنه قال يامخطئ؛ فيمن رفعه . أوكأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطئِ ؛ فيمن خفض . ولا ينصرف لأنه على أفعل؛ قاله النحاس. وقال الجوهرى : آزر ٱسم أعجمى، وهو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاونه؛ فهو مُؤازِرٌ قومه على عبادة الأصنام. وقيل : هو مشتق من القوّة، والأزر القوّة؛ عن ابن فارس . وقال مجاهد ويمان : آزر ٱسم صنم . وهو فى هـذا التأويل فى موضع نصب، التقدير : أتتخذ آزر إلهـا، أتتخذ أصناما . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير، التقدير : أتتخذ آزر أصناما .

قلت : فعلى هذا آزر ٱسم جنس . والله أعلم . وقال الثعلبيّ فى كتاب العرائس : إن اسم أبى إبراهيم الذى سمّاه به أبوه تارَح ، فلما صار مع النُّمْرود قَيِّمًا على خزانة آلهته سمّاه آزر . وقال مجاهد : إن آزر ليس بٱسم أبيه وإنما هو اسم صنم . وهو إبراهيم بن تارَحْ بن ناخور بن ساروع

(١) الهم (بكسر الهاء) : الشيخ الفانى .

ابن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرنخشد بن سام بن نوح عليه السلام . و « آزر » فيه قراءات : « أَإِزْرًا » بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ؛ عن ابن عباس . وعنه « أأزرا » بهمزتين مفتوحتين . وقرئ بالرفع، وروى ذلك عن ابن عباس . وعلى القراءتين الأولتين عنه «تتخذ» بغير همزة . قال المهدوي : أإزرا . فقيل : إنه اسم صنم؛ فهو منصوب على تقدير أتتخذ إزرا ، وكذلك أأزرا . ويجوز أن يجعل أإزرًا على أنه مشتق من الأزر وهو الظهر فيكون مفعولا من أجله؛ كأنه قال : أللقوّة تتخذ أصناما . ويجوز أن يكون إزر بمعنى وِزر، أبدلت الواو همزة . قال القشيري : ذكر في الاحتجاج على المشركين قصة إبراهيم وردّه على أبيه في عبادة الأصنام . وأولى الناس باتباع إبراهيم العرب؛ فإنهم ذريته . أي واذكر إذ قال إبراهيم . أو ذكّر به أن تبسل نفس بما كسبت ، وذكّر إذ قال إبراهيم . وقرئ « آزرُ » أي يا آزرُ، على النداء المفرد، وهي قراءة أُبَيّ ويعقوب وغيرهما . وهو يقوّي قول من يقول : إن آزر اسم أب إبراهيم . ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ مفعولان ، وفيه معنى الإنكار .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مُلك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة في الصفة . ومثله الرَّغَبوت والرَّهَبوت والجبَروت . وقرأ أبو السَّمّال العَدَوي « مَلْكوت » بإسكان اللام . ولا يجوز عند سيبويه حذف الفتحة لخفتها ، ولعلها لغة . و ﴿ نُرِي ﴾ بمعنى أرينا ؛ بمعنى المُضيّ . فقيل : أراد به ما في السموات من عبادة الملائكة والعجائب وما في الأرض من عصيان بني آدم ؛ فكان يدعو على مَن يراه يَعصي فيُهلكه الله ، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أمسك عن عبادي، أما علمت أن من أسمائي الصَّبور . روى معناه عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين . وروى ابن جُريج عن القاسم عن إبراهيم النَّخَعي قال : فُرجت له

السموات السبع فنظر إليهنّ حتى انتهى إلى العرش ، وفُرجت له الأرَضون فنظر إليهنّ ، ورأى مكانه فى الجنة ؛ فذلك قوله : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا »(١) ؛ عن السُّدّى . وقال الضحّاك : أراه من مَلكوت السماء ما قصّه من الكواكب ، ومن ملكوت الأرض البحارَ والجبالَ والأشجارَ، ونحو ذلك مما استدلّ به . وقال بنحوه ابن عباس . وقال : جُعل حين وُلد فى سَرَب(٢) وجُعل رزقه فى أطراف أصابعه فكان يَمَصّها، وكان نُمْرود اللّعين رأى رؤيا فعُبِّرت له أنه يذهب ملكه على يدَىْ مولود يُولد ؛ فأمر بعزل الرجال عن النساء . وقيل : أمر بقتل كل مولود ذَكَر . وكان آزر من المقرَّبين عند نُمْرود فأرسله يوما فى بعض حوائجه فواقع امرأته فحملت بإبراهيم . وقيل : بل واقعها فى بيت الأصنام فحملت وخرّت الأصنام على وجوهها حينئذ ؛ فحملها إلى بعض الشِّعاب حتى وَلدت إبراهيم ، وحفر لإبراهيم سَرَباً فى الأرض ووَضع على بابه صخرة لئلا تفترسه السباع ؛ وكانت أمّه تختلف إليه فتُرضعه ، وكانت تجده يَمَصّ أصابعه ، من أحدها عسل ومن الآخر ماء ومن الآخر لبن ، وشَبّ وكان على سَنة مثلَ ابن ثلاث سنين . فلما أخرجه من السَّرَب توهّمه الناس أنه وُلد منذ سنين ؛ فقال لأمّه : مَن ربّى ؟ فقالت أنا . فقال : ومَن ربّك ؟ قالت أبوك . قال : ومَن ربّه ؟ قالت نُمرود . قال : ومَن ربه ؟ فلطَمَته، وعلمت أنه الذى يَذهب مُلْكُهم على يديه . والقَصص فى هذا تامٌّ فى قِصص الأنبياء للكسائى ، وهو كتاب مما يُقْتدى به . قال بعضهم : كان مولده بحرّان ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل . وقال عامّة السّلَف من أهل العلم : وُلد إبراهيم فى زمن النّمرود بن كنعان بن سنجاريب بن كوش بن سام بن نوح . وقد مضى ذكره فى « البقرة »(٣) . وكان بين الطوفان و بين مولد إبراهيم ألف ومائتا سنة وثلاث وستون سنة؛ وذلك بعد خلق آدم بثلاث آلاف سنة وثلاثمائة سنة وثلاثين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أى وليكون من الموقنين أريناه ذلك ؛ أى الملكوت .

---

(١) آية ٢٧ سورة العنكبوت . (٢) السرب (بالتحريك) : حفير أو بيت تحت الأرض .
(٣) راجع ج ٣ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ (٧٦)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أى ستره بظلمته ، ومنه الجَنّة والجِنّة والجُنّة والجَنين والمِجَنّ والجِنّ كلّه بمعنى السّتر . وجَنان الليل ٱدلهامُه وستره . قال الشاعر (١) :

ولولا جَنانُ الليل أدركَ رَكْضُنا * بذى الرِّمْث والأَرْطَى (٢) عِياضَ بنَ ناشِبِ

ويقال : جُنون الليل أيضا . ويقال : جَنّ الليل وأَجَنّه الليلُ، لغتان . ﴿ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ هذه قصّة أخرى غيرُ قصّة عرض المَلَكوت عليه . فقيل : رأى ذلك من شَقّ الصخرة الموضوعة على رأس السَّرَب . وقيل : لما أخرجه أبوه من السَّرَب وكان وقت غيبوبة الشمس فرأى الإبِلَ والخيلَ والغَنَم فقال : لابدّ لها من رَبّ. ورأى المُشْتَرِى أو الزُّهَرة ثم القمرَ ثم الشمس، وكان هذا فى آخر الشهر . قال محمد بن إسحاق : وكان ٱبنَ خمسَ عشرة سنة . وقيل : ٱبن سبع سنين . وقيل : لما حاجّ نمرودا كان ٱبن سبع عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّى ﴾ اختُلف فى معناه على أقوال؛ فقيل : كان هذا منه فى مُهْلة النظر وحال الطفُولِيّة وقبل قيام الحجة؛ وفى تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان . استدلّ قائلو هذه المقالة بما روى علىّ بن أبى طلحة عن ٱبن عباس قال : « فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى» فعبده حتى غاب عنه، وكذلك الشمس والقمر؛ فلما تَمّ نظره قال : « إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » . واستدلّ بالأفول؛ لأنه أظهرُ الآيات على الحدوث . وقال قوم : هذا لا يصحّ؛ وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسولٌ يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله مُوَحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه برىء . قالوا : وكيف يصحّ أن يتوهّم هذا على مَن عصمه الله وآتاه رُشده من قبل، وأراه مَلكوته ليكون من المُوقنِين ، ولا يجوز

(١) هو دريد بن الصمة ، وقيل : هو لخفاف بن ندبة (عن اللسان) . (٢) الرمث (بالكسر) : مرعى من مراعى الإبل ، واسم وادٍ لبنى أسد . والارطى (جمع أرطاة) : شجر ينبت بالرمل .

أن يُوصف بالخُلُوّ عن المعرفة ، بل عرف الربّ أوّل النظر . قال الزجاج : هذا الجواب عندى خطأ وغلط ممن قاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : «وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»(١) وقال جل وعز : « بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »(٢) أى لم يُشرك قَطّ . قال : والجواب عندى أنه قال « هَٰذَا رَبِّي » على قولكم ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ؛ ونظير هذا قوله تعالى : «أَيْنَ شُرَكَائِي»(٣) وهو جل وعلا واحدٌ لا شريك له . والمعنى : أين شركائى على قولكم . وقيل : لما خرج إبراهيم من السَّرَب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربّه ؛ فظن أنه ضوءه قال «هذا ربّى» أى بأنه يتراءى لى نوره . ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ علم أنه ليس بربّه . « فلما رأى القمر بازغا » ونظر إلى ضوئه « قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي » وليس هذا شركا . إنما نَسب ذلك الضوءَ إلى ربّه فلما رآه زائلا دلّه العلم على أنه غير مستحقّ لذلك ؛ فنفاه بقلبه وعلم أنه مَرْبُوب وليس بربّ . وقيل : إنما قال « هذا ربّى » لتقرير الحجّة على قومه فأظهر موافقتهم ؛ فلما أفَلَ النَّجم قرّر الحجة وقال : ما تغيّر لا يجوز أن يكون رَبًّا . وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا ما صحّ عن ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل : « نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ »(٤) قال : كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدلّ عليه بقلبه ، فإذا عرفه آزداد نورا على نور ؛ وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدلّ عليه بدلائله ، فعلم أن له رَبًّا وخالقا . فلما عرّفه الله عز وجل بنفسه آزداد معرفة فقال : « أَتُحَاجُّونِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ » . وقيل : هو على معنى الاستفهام والتوبيخ ، مُنْكِرا لفعلهم . والمعنى : أهذا ربّى ، ومثل هذا يكون رَبًّا ! فحذف الهمزة . وفى التنزيل «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»(٥) أى أفهم . وقال الهُذَلِيّ(٦) :

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيْلِدُ لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

(١) آية ٣٥ سورة ابراهيم . (٢) آية ٨٤ سورة الصافات . (٣) آية ٢٧ سورة النحل .
(٤) آية ٣٥ سورة النور . (٥) آية ٣٤ سورة الأنبياء . (٦) هو أبو خراش .

آخر :[1]

لَعَمْرُكَ ما أدري وإنْ كنتُ دارِيًا * بسبع رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثمانِ

وقيل: المعنى هذا ربي على زعمكم؛ كما قال تعالى: «أَيْنَ شُرَكَايِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ»[2]. وقال: «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ»[3] أي عند نفسك. وقيل: المعنى أي وأنتم تقولون هذا ربي؛ فأضمر القول، وإضماره في القرآن كثير. وقيل: المعنى هذا ربي؛ أي أهذا دليل على ربي.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَآى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي طالعا. يقال: بَزَغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع، والبَزْغ الشق؛ كأنه يشق بنوره الظلمة؛ ومنه بَزَغ البَيْطار الدابة إذا أسال دمها. ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ أي لئن لم يُثَبِّتني على الهداية. وقد كان مهتديا؛ فيكون جرى هذا في مُهلة النظر، أو سأل التثبيت لمكان الجواز العقلي؛ كما قال شعيب: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ»[4]. وفي التنزيل «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» أي ثبّتنا على الهداية. وقد تقدّم.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَآى الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ نصب على الحال؛ لأن هذا من رؤية العين. بَزَغ يَبْزُغ بزوغا إذا طلع. وأَفَل يأفِل أفولا إذا غاب. وقال: «هذا» والشمس مؤنثة؛ لقوله: ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾. فقيل: إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعِظَمها؛ فهو كقولهم: رَجل نَسّابة وعلّامة. وإنما قال: «هَذَا رَبِّي» على معنى: هذا الطالِعُ رَبِّي؛ قاله الكسائي

(١) هو عمر بن أبي ربيعة. (٢) آية ٦٢ سورة القصص. (٣) آية ٤٩ سورة الدخان.
(٤) آية ٨٩ سورة الأعراف.

والأخفش . وقال غيرهما : أى هـذا الضوء . قال أبو الحسن علىّ بن سليمان : أى هـذا الشخص؛ كما قال الأعشى :

قامت تبكيـه على قـبره * مَن لِىَ مِن بعدك يا عامرُ
تَركتَنِى فى الدار ذا غُرْبةٍ * قد ذَلّ من ليس له ناصرُ (١)

قوله تعالى : إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ أى قصدت بعبادتى وتوحيدى لله عز وجل وحده . وذَكَر الوجه لأنه أظهر ما يُعرف به صاحبه . ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا إلى الحق . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ اسم «ما» وخبرها . وإذا وقفت قلت : «أنا» زدت الألف لبيان الحركة، وهى اللغة الفصيحة . وقال الأخفش : ومن العرب من يقول : « أَنْ » . وقال الكسائى : ومن العرب من يقول : «أنه» . ثلاث لغات . وفى الوصل أيضا ثلاث لغات: أن تحذف الألف فى الإدراج ؛ لأنها زائدة لبيان الحركة فى الوقف . ومن العرب من يثبت الألف فى الوصل؛ كما قال الشاعر :

* أنَا سَيْف العشيرة فاعرفونى * (٢)

وهى لغة بعض بنى قيس وربيعة؛ عن الفرّاء . ومن العرب من يقول فى الوصل : آن فعلت، مثل عان فعلت؛ حكاه الكسائى عن بعض قُضاعة .

قوله تعالى : وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

(١) الشاهد فيه قوله : « ذا غربة » أى ذات غربة .
(٢) هذا صدر بيت ، وعجزه كما فى اللسان مادة أنن : * حميما قد تذريت السناما *

قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ دليلٌ على الحِجَاج والجدال ؛ حاجُّوه في توحيد الله . ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ ﴾ قرأ نافع بتخفيف النون، وشدّد النونَ الباقون . وفيه عن ابن عامر من رواية هشام عنه خلاف؛ فمن شدّد قال : الأصل فيه نونان، الأولى علامة الرفع والثانية فاصلة بين الفعل والياء ؛ فلما اجتمع مِثلان في فعل وذلك ثقيل أدغم النون في الأخرى فوقع التشديد، ولابدّ من مدّ الواو لئلا يلتقِيَ الساكنان، الواو وأوّلُ المشدّد؛ فصارت المدّةُ فاصلةً بين الساكنين . ومن خفّف حذف النون الثانية استخفافا لاجتماع المِثْلين، ولم تُحذف الأولى لأنها علامةُ الرفع ؛ فلو حُذفت لاشتبه المرفوع بالمجزوم والمنصوب . وحُكي عن أبي عمرو ابن العَلاء أن هذه القراءة لَحْنٌ . وأجاز سيبويه ذلك فقال : استثقلوا التضعيف؛ وأنشد :

تراه كالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكًا * يَسوء الفالياتِ إذا فَلَيْنِي (١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أي لأنه لا ينفع ولا يضر — وكانوا خوّفوه بكثرة آلهتهم — إلا أن يُحيِيَه ويقدّره فيخاف ضرره حينئذ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ أي إلا أن يشاء أن يلحقني شيء من المكروه بذنب عمِلتُه فتتمّ مشيئته . وهذا استثناء ليس من الأوّل . والهاء في « بِهِ » يجوز أن تكون لله عز وجل ، ويجوز أن تكون للمعبود . وقال : « إلّا أن يشاء ربّي » يعني أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم . ثم قال : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي وسع علمه كل شيء . وقد تقدّم (٢) .

قوله تعالى : وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب ، وصف شعره وأن الشيب قد شمله . والثغام : نبت له نور أبيض يشبه به الشيب . ويعل : يطيب شيئا بعد شيء؛ والعلل : الشرب بعد الشرب . (٢) راجع ج ٢ ص ٨٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ ففى « كيف » معنى الإنكار؛ أنكر عليهم تخويفهم إيّاه بالأصنام وهم لايخافون الله عزوجل؛ أى كيف أخاف مواتا وأنتم لاتخافون الله القادر على كل شيء. ﴿مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ أى حُجّة،(١) وقد تقدم. ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ أى من عذاب الله : الموحِّد أم المشرك ؛ فقال الله قاضيًا بينهم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أى بشرك؛ قاله أبو بكر الصدّيق وعليّ وسَلْمان وحُذيفة، رضى الله عنهم. وقال ابن عباس : هو من قول إبراهيم؛ كما يسأل العالِمُ ويجيب نفسه . وقيل : هو من قول إبراهيم؛ أى أجابوا بما هو حجة عليهم؛ قاله ابن جُريج . وفى الصحيح عن ابن مسعود لما نزلت « الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ» شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه « يَابُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى فى الدنيا .

قوله تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة . وقال مجاهد : هى قوله «الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْمٍ» . وقيل: حجته عليهم أنهم لما قالوا له : أما تخاف أن تَخْبِلك آلهتُنا لسبِّك إياها؛ قال لهم: أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير فى العبادة والتعظيم ؛ فيغضب الكبير فيخْبِلكم . ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بالعلم والفهم والإمامة والملك . وقرأ الكوفيون « درجاتٍ » بالتنوين . ومثله فى «يوسف» أوقعوا الفعل على «مَن» لأنه المرفوع فى الحقيقة، التقدير: ونرفع من نشاء إلى درجات . ثم حذفت إلى . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو بغير تنوين على الإضافة، والفعل واقع على الدرجات ، وإذا رُفعت فقد رُفع صاحبها . يقوّى هذه القراءة قوله تعالى :

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

«رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» وقوله عليه السلام "اللَّهُمَّ ارفع درجته" . فأضاف الرفع إلى الدرجات . وهو لا إله إلا هو الرفيع المتعال فى شرفه وفضله . فالقراءتان متقاربتان؛ لأن من رُفعت درجاته فقد رُفع، ومن رُفع فقد رُفعت درجاته ، فاعلم . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ يضع كل شئ موضعه .

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى جزاءً له على الاحتجاج فى الدِّين وبذل النفس فيه . ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أى كل واحد منهم مهتد . ﴿وَكُلًّا﴾ نصب بهدينا ﴿وَنُوحًا﴾ نصب بهدينا الثانى . ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أى من ذرّية إبراهيم . وقيل : من ذرية نوح؛ قاله الفرّاء واختاره الطّبَرِيّ وغيرُ واحد من المفسرين كالقُشيرِيّ وابن عطية وغيرهما . والأوّل قاله الزجاج ، واعترض بأنه عدّ من الذرّيّة يونس ولوطا وما كان من ذرّية إبراهيم . وكان لوط ابن أخيه . وقيل : ابن أخته . وقال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء جميعا مضافون إلى ذرّية إبراهيم ، وإن كان فيهم مَن لم يلحقه وِلادة من جهته من جهة أب ولا أمّ؛ لأن لوطا ابن أخى إبراهيم . والعرب تجعل العَمَّ أبًا كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا : « نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» . وإسماعيل عمّ يعقوب . وعدّ عيسى من ذرّية إبراهيم وإنما هو ابن البنت . فأولاد فاطمة رضى الله عنها ذرّية النبيّ صلى الله عليه وسلم . وبهذا تمسّك من رأى أن ولد البنات يدخلون فى اسم الولد وهى : ـــ

الثانيـــة ــ قال أبو حنيفة والشافعيّ : من وَقف وقفًا على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده وولد بنـاته ما تناسلوا . وكذلك إذا أوصى لقرابتـه يدخل فيـه ولد البنت . والقرابة عنـد أبى حنيفة كُلّ ذى رَحِم مَحْرَم . ويسقط عنـده ٱبن العَمّ والعَمّـة وٱبنُ الخال والخالة؛ لأنهم ليسوا بمَحْرمين . وقال الشافعيّ : القرابة كلّ ذى رَحم مَحَرَم وغيره . فلم يسقط عنـده ابن العمّ ولا غيره . وقال مالك : لا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقوله : لقرابتى وعقبى كقوله لولدى وولد ولدى . يدخل فى ذلك ولد البنين ومن يرجع إلى عَصَبـة الأب وصُلْبه، ولا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقد تقدّم نحو هذا عن الشافعيّ فى «آل عمران»[1] . والحجة لهما قوله سبحانه : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ »[2] فلم يَعقِل المسلمون من ظاهر الآية إلا ولدَ الصُّلْب و ولد الآبن خاصّـةً . وقال تعالى : « وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى »[3] فأعطى عليه السلام القرابة منهم من أعمامه دون بنى أخواله . فكذلك ولد البنات لا ينتمون إليه بالنسب، ولا يلتقون معـه فى أب . قال ابن القصّار : وحجة من أدخل البنات فى الأقارب قولُه عليـه السلام للحسن بن علىّ " إن ٱبنى هذا سيّد " . ولا نعلم أحدا يمتنع أن يقول فى ولد البنات إنهم ولد لأبى أمّهم . والمعنى يقتضى ذلك؛ لأن الولد مشتق من التولد وهم متولدون عن أبى أمّهم لا محالة ؛ والتولّد من جهة الأمّ كالتولّد من جهة الأب . وقد دلّ القرآن على ذلك ، قال الله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فجعل عيسى من ذرّيته وهو ٱبن ٱبنته .

الثالثـــة ــ قد تقدّم فى « النساء »[4] بيان ما لا ينصرف من هذه الأسماء . ولم ينصرف داود لأنه ٱسم أعجمىّ، ولمّـا كان على فاعول لايحسُن فيه الألف واللام لم ينصرف . و إلياس أعجمىّ . قال الضحاك : كان إلياس من ولد إسماعيل . وذكر القُتَبِىّ قال : كان من سِـبط يُوشـع بن نون . وقرأ الأعرج والحسن وقتـادة « وٱلياس » بوصـل الألف . وقرأ أهل

(١) راجع جـ ٤ ص ١٠٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١١ سورة النساء .
(٣) آية ٤١ سورة الأنفال . (٤) فى قوله تعالى : « إنا أوحينا اليك ... » آية ١٦٣ .

الحَرَمين وأبو عمرو وعاصم «والْيَسع» بلام مخففة . وقرأ الكوفيون إلا عاصما « واللَّيْسع » . وكذا قرأ الكسائيّ، وردّ قراءة من قرأ «والْيَسع» . قال : لأنه لا يقال اليَفْعَل مثل اليَحْيَى . قال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم، والعرب تقول : اليَعْمَل واليَحْمَد، ولو نكّرت يحيى لقلت اليحيى . وردّ أبو حاتم على من قرأ « اللَّيْسع » وقال : لا يوجد لَيْسع . وقال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم، فقد جاء في كلام العرب حَيْدَر وزَيْنب، والحقّ في هذا أنه اسم أعجميّ، والعجمة لا تؤخذ بالقياس إنما تؤخذ سماعا والعرب تغيّرها كثيرا ، فلا ينكر أن يأتي الاسم بلغتين . قال مَكّيّ : من قرأ بلامين فأصل الاسم لَيْسَع، ثم دخلت الألف واللام للتعريف . ولو كان أصله يسع ما دخلته الألف واللام؛ إذ لا يدخلان على يزيد ويشكر، اسمين لرجلين؛ لأنهما معرفتان علمان . فأما « ليسع » نكرة فتدخله الألف واللام للتعريف، والقراءة بلام واحدة أحبّ إليّ ؛ لأن أكثر القراء عليه . وقال المَهْدَوِيّ : من قرأ « ليسع » بلام واحدة فالاسم يسع، ودخلت الألف واللام زائدتين، كزيادتهما في نحو الخمسة عشر، وفي نحو قوله :

وجدنا اليَزِيدَ بنَ الوليد مباركًا * شديدا بأعباء الخلافة كاهِلُه (1)

وقد زادوها في الفعل المضارع نحو قوله :

فيستخرجَ اليَرْبُوع من نافقائه * ومن بيته ذو الشِّيخة اليَتَقَصَّعُ (2)

يريد الذى يتقصّع . قال القُشيرِيّ : قرئ بتخفيف اللام والتشديد . والمعنى واحد في أنه اسم لنبيّ معروف؛ مثل إسماعيل وإبراهيم، ولكن خرج عما عليه الأسماء الأعجمية بإدخال الألف واللام . وتوهّم قوم أن اليسع إلياس، وليس كذلك؛ لأن الله أفرد كل واحد بالذّكر . وقال وهب : اليسع صاحب إلياس، وكانا قبل زكريا ويحيى وعيسى . وقيل : إلياس هو إدريس جدّ نوح وإلياس من ذرّيته . وقيل : إلياس هو الخضر . وقيل : لا، بل الْيَسع هو الخضر . « ولوطا » أعجميّ انصرف لخفّته . وسيأتى اشتقاقه في « الأعراف » (3) .

(1) البيت لابن ميادة . (2) البيت لذى الخرق الطهوى؛ كما فى شرح القاموس . النفقة والنافقاء : جحر الضب واليربوع . وقيل موضع يرققه اليربوع من جحره ؛ فاذا أتى من قبل القاصعاء (وهو جحره) ضرب النافقاء برأسه فخرج .
(3) آية ٨٠ .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ «من» للتبعيض؛ أى هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ قال مجاهد: خلّصناهم، وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم؛ مشتق من جبيت الماء فى الحوض جمعته. فالاجتباء ضم الذى تجتبيه إلى خاصتك. قال الكسائى: جبيت الماء فى الحوض جبا، مقصور. والجابية الحوض. قال:

* بجَابِيَةِ الشَّيخِ العِرَاقِىِّ تَفْهَقُ (1) *

وقد تقدّم معنى الاصطفاء والهداية (2).

قوله تعالى : ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أى لو عبدوا غيرى لحبطت أعمالهم، ولكنى عصمتهم. والحبوط البطلان. وقد تقدّم فى « البقرة » (3).

قوله تعالى : أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ابتداء وخبر. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ العلم والفقه. ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أى بآياتنا. ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أى كفار عصرك يا محمد. ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ جواب الشرط؛ أى وكّلنا بالإيمان بها ﴿قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يريد

(1) هذا عجز بيت للأعشى، وصدره كما فى اللسان : * تروح على آل المحلق جفنة * الجفنة : القصعة. والفهق : الامتلاء.

(2) راجع جـ ١ ص ١٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة. وجـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية. ولم يتقدّم للاصطفاء ذكر فى هذه الآية، غير أنه ورد فى آية ١٣٠ سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٢

(3) راجع جـ ٣ ص ٤٦ طبعة أولى أو ثانية.

الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة . وقال قتادة : يعنى النبيّين الذين قصّ الله عزّ وجل. قال النحاس : وهذا القول أشبه بالمعنى؛لأنه قال بعدُ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ» . وقال أبو رجاء: هم الملائكة .وقيل: هو عام فى كل مؤمن من الجن والإنس والملائكة . والباء فى « بكافرين » زائدة للتأكيد .

قوله تعالى : أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَـٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ الاقتداء طلب موافقة الغير فى فعله . فقيل : المعنى اصبر كما صبروا . وقيل : معنى ﴿ فبهداهم ٱقْتَدِهْ ﴾ التوحيد والشرائع مختلفة . وقد احتجّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص ؛ كما فى صحيح مُسْلم وغيره : أن أخت الرُّبَيِّع (١) أم حارثة جرحت إنسانا فاختصموا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القصاصَ القصاصَ" فقالت أمّ الرَّبيع : يارسول الله، أيقتصّ من فلانة ! والله لا يقتص منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبحان الله يا أمّ الرَّبيع القصاصُ كتاب الله" . قالت : والله لا يقتص منها أبدا . قال : فما زالت حتى قَبلوا الدِّية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبَرّه". فأحال رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوله : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» الآية . وليس فى كتاب الله تعالى نصّ على القصاص فى السنّ إلا فى هذه الآية؛ وهى خبر عن شرع التوراة ومع ذلك فحكم بها وأحال عليها . وإلى هذا ذهب مُعْظَم أصحاب مالك وأصحاب الشافعىّ، وأنه يجب العمل بما وجد منها . قال ابن بكير : وهو الذى تقتضيه أصول مالك.

(١) الربيع : بضم الراء وفتح الموحدة وتشديد التحتية المكسورة بعدها عين مهملة . أما أم الربيع فهى بفتح الراء وكسر الموحدة وتخفيف الياء . راجع شرح النووى على صحيح مسلم باب « اثبات القصاص فى الأسنان وما فى معناها » ففيه كلام طويل عن هذه القصة . (٢) آية ٤٥ سورة المائدة .

وخالف فى ذلك كثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعى والمعتزلة ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1] . وهـذا لا حجّة فيه؛ لأنه يحتمل التقييد إلا فيما قصّ عليكم من الأخبار عنهم مما لم يأت فى كتابكم . وفى صحيح البخارى عن العوّام قال : سألت مجاهدا عن سجدة « ص » فقال : سألت ابن عباس عن سجدة « ص » فقال : أوَ تقرأ « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ » إلى قوله « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » وكان داود عليه السلام ممن أمر نبيّكم عليه السلام بالاقتداء به .

الثانيـــة ـــ قرأ حمزة والكسائى «اقتد قل» بغير هاء فى الوصل . وقرأ ابن عامر « اقْتَدِهِي قُلْ » . قال النحاس : وهـذا لَحْنٌ؛ لأن الهاء لبيان الحركة فى الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء، وكذلك أيضا لا يجوز «فبهداهم اقتد قل» . ومن اجتنب اللحن واتبع السواد قرأ « فبهداهم اقتدهْ » فوقف ولم يصل ؛ لأنه إن وصل بالهاء لحن و إن حذفها خالف السّواد . وقرأ الجمهور بالهاء فى الوصل على نية الوقف وعلى نية الإدراج اتباعا لثباتهـا فى الخطّ . وقرأ ابن عيّاش وهشام « اقتـدِهِ قُلْ » بكسر الهـاء، وهو غلط لا يجوز فى العربيـــة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى جُعْلًا على القرآن . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى القرآن . ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى هو موعظة للخلق . وأضاف الهداية اليهم فقال : «فبهداهم اقتده» لوقع الهداية بهم . وقال : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾ لأنه الخالق للهداية .

قوله تعـالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)

(١) آية ٤٨ سورة المائدة .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى فيا وجب له وآستحال عليه وجاز . قال آبن عبـاس : ماآمنوا أنه على كل شيء قدير . وقال الحسن: ما عظّموه حقّ عظمته. وهذا يكون من قولهم : لفلان قَدر . وشرحُ هذا أنهم لمـا قالوا : « مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » نسبُوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح؛ فلم يعظّموه حقَّ عظمته ولا عرفوه حقَّ معرفته . وقال أبو عبيـدة : أى ما عرفوا الله حقّ معرفته . قال النحاس : وهذا معنى حسن؛لأن معنى قدَرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره. ويدلّ عليه قوله تعالى: « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » اى لم يعرفوه حق معرفته؛ إذا أنكروا أن يرسـل رسولا . والمعنيـان متقاربان . وقـد قيل : وما قدروا نِعَمَ الله حق تقديرها . وقرأ أبو حَيْوَة « وما قدروا الله حق قدَره » بفتح الدال، وهى لغة .

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى مشركى قريش . وقال الحسن وسعيد بن جبـير : الذى قاله أحد اليهود ، قال : لم يُنزل الله كتابا من السماء . قال السُّدّى : اسمه فنحاص . وعن سـعيد بن جُبير أيضا قال : هو مالك بن الصَّيف، جاء يخاصم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أَنْشُدُك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجـد فى التوراة أن الله يبغض الحَبْر السّمين" ؟ وكان حبرا سمينا . فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء . فقال له أصحابه الذين معه : ويحك ! ولا على موسى؟ فقال : والله ما أنزل الله على بَشَر من شيء؛ فنزلت الاية . ثم قال نقضا لقولهم وردًّا عليهم : ﴿ قُـلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُـدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ — أى فى قراطيس — يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ هذا لليهود الذين أخفَوْا صفة النبيّ صلى الله عليـه وسلم وغيرها من الأحكام . وقال مجاهد : قوله « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » خطاب للشركين، وقوله « يجعلونه قراطيس » لليهود « وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ » للسلمين . وهـذا يصحّ على قراءة من قرأ « يجعلونه قراطيس يبدونها و يخفون » باليـاء . والوجه على قراءة التـاء أن يكون كله لليهود، ويكون معنى « وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا »

أى وعلّمتم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة . وجعلت التوراة صُحُفًا فلذلك قال « قراطيس يبدونها » أى القراطيس . وهـذا ذمّ لهم ، ولذلك كره العلمـاء كَتْب القرآن أجزاء . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أى قـل يا محمد الله أنزل ذلك الكتاب على موسى وهذا الكتاب علىّ . أو قل الله علمكم الكتاب . ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى لاعبين ، ولو كان جوابا للأمر لقال يلعبوا . ومعنى الكلام التهديد . وقيل : هو من المنسوخ بالقتال؛ ثم قيل : « يجعلونه » فى موضع الصفة لقوله « نُورًا وَهُـدًى » فيكون فى الصلة . ويحتمل أن يكون مستأنفا ، والتقدير : يجعلونه ذا قراطيس . وقوله « يُبْدُونَهَا ويُخْفُون كثيرا » يحتمل أن يكون صـفة لقراطيس ؛ لأن النكرة توصف بالجمل . ويحتمل أن يكون مستأنفا حسب ما تقـــدّم .

قوله تعـالى : وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ صفة . ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أى بُورك فيه ، والبركة الزيادة . ويجوز نصبه فى غير القرآن على الحال . وكذا ﴿ مُصَـدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب المنزلة قبله ، فإنه يوافقها فى نفى الشرك و إثبات التوحيد . ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يريد مكة — وقد تقدّم معنى تسميتها بذلك (١) — والمراد أهلها ، لحذف المضاف ؛ أى أنزلناه للبركة والإنذار . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى جميع الآفاق . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يريد أتباع محمد عليه السلام ؛ بدليل قوله : ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وإيمـان من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالنبىّ عليه السلام ولا بكتابه غير معتدّ به .

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ابتداء وخبر؛ أى لا أحد أظلم . ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أى اختلق . ﴿ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾ فزعم أنه نبيّ ﴿ولم يُوحَ إليه شيء﴾ . نزلت فى رحمان اليمامة والأسود العَنْسيّ وسَجَاح زوج مسيْلِمَة ؛ كلّهم تنبأ وزعم أن الله قد أَوحى إليه . قال قتادة : بلغنا أن الله أنزل هذا فى مسيْلِمة؛ وقاله ابن عباس .

قلت : ومن هـذا النَّمَط من أعرض عن الفقه والسّنَن وما كان عليه السلف من السنن فيقول : وقع فى خاطرى كذا، أو أخبرنى قلبي بكذا ؛ فيحكمون بمـا يقع فى قلوبهم و يغلب عليهم من خواطرهم، و يزعمون أن ذلك لصفائهـا من الأكدار وخلوّها عن الأغيار ، فتتجلّى لهم العلوم الإلٰهية والحقائق الرّبانية، فيقفون على أسرار الكليّات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، و يقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة، إنمـا يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتُون؛ و يستدلّون على هذا بالخَضِر، وأنه استغنى بمـا تجلّى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ؛ فإنه يلزم منه هـدّ الأحكام و إثبات أنبياء بعـد نبيّنا عليه السلام . وسيأتى لهذا المعنى فى « الكهف » مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ﴾ « مَن » فى موضع خفض؛ أى ومن أظلم ممن قال سأنزل ، والمراد عبد الله بن أبى سَرْح الذى كان يكتب الوَحْىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ٱرتدّ ولَحِق بالمشركين . وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون أنه لما نزلت الآية التى فى « المؤمنين » : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »(١) دعاه النبىّ صلى الله عليه وسلم فأملاها عليه ؛ فلما انتهى إلى قوله « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » عَجِب عبد الله فى تفصيل خلق الإنسان فقال : « تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هكذا أنزلت علىّ" فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أُوحِىَ إلىّ كما أوحِىَ إليه ، ولئن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال . فٱرتدّ عن الإسلام ولحِق بالمشركين ؛ فذلك قوله « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ » رواه الكلبى عن ابن عباس . وذكره محمد بن إسحاق قال حدثنى شَرَحْبِيل قال : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ » ٱرتدّ عن الاسلام ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتلِ عبد الله بن خَطَل ومِقْيَس بن صُبابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة ؛ ففرّ عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان رضى الله عنه ، وكان أخاه من الرضاعة ، أرضعت أُمّه عثمانَ ، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما ٱطمأن أهل مكة وٱستأمنه له ؛ فصمَت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" . فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه" . فقال رجل من الأنصار : فهلّا أوْمَأتَ إلىّ يارسول الله ؟ فقال : "إن النبىّ لا ينبغى أن تكون له خائنةُ الأعين"(٢) . قال أبو عمر: وأسلم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح أيامَ الفتح فحَسُن إسلامه ، ولم يظهر منه ما يُنكر عليه بعد ذلك . وهو أحد النُّجَباء العقلاء الكرماء من قريش ، وفارسُ بنى عامر بن لُؤَىّ المعدودُ فيهم ، ثم ولّاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين . وفُتح على يديه إفريقيّة سنة سبع وعشرين ، وغزا منها الأساود من أرض النُّوبَة سنة إحدى وثلاثين ، وهو هادنهم الهُدْنة الباقية إلى اليوم .

(١) آية ١٢ (٢) أى يضمر فى نفسه غير ما يظهره ؛ فاذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان .

وغزا الصّوارِى (١) من أرض الرُّوم سنة أربع وثلاثين؛ فلما رجع من وِفاداته منعه ابن أبى حُذيفة من دخول الفُسْطاط، فمضى إلى عَسْقلان، فأقام فيها حتى قُتل عثمان رضى الله عنه . وقيل : بل أقام بالرَّمْلة حتى مات فارًّا من الفتنة . ودعا ربّه فقال : اللّهُمّ ٱجعل خاتمـة عملى صلاة الصبح؛ فتوضأ ثم صلّى فقرأ فى الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات، وفى الثانيــة بأم القرآن وسورة، ثم سلّم عن يمينه، ثم ذهب يسلّم عن يساره فقبض الله رُوحه . ذكر ذلك كلّه يزيدُ بن أبى حبيب وغيرُه. ولم يُبايع لعلىّ ولا لمعاوية. وكانت وفاته قبل ٱجتماع الناس على معاوية. وقيل: إنه تُوُفِّى بإفرِيقِيّة . والصحيح أنه تُوُفِّى بعَسْقلان سنة ست أو سبع وثلاثين . وقيل : سنة ست وثلاثين . وروى حفص بن عمــر عن الحكَم بن أَبَان عن عكرمة أن هــذه الاية نزلت فى النّضر بن الحـارث؛ لأنه عارض القرآن فقال : والطاحنات طحنا . والعاجنات عجنا . فالخابزات خبزا . فاللاقمات لقما .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أى شدائده وسكراته. والغَمْرة الشدّة؛ وأصلها الشيء الذى يغمُر الأشــياء فيُغطّيها . ومنه غَمَره المـاء . ثم وُضعت فى معنى الشدائد والمكاره . ومنه غَمَرات الحرب . قال الجوهرى : والغَمْرة الشدة، والجمع غُمَر مثل نَوْبة ونُوَب . قال القُطَامِىّ يصف سفينة نوح عليه السلام :

* وَحانَ لِتالِكَ الغُمَرِ انْحِسارُ *

وغَمَرات الموت شدائده . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ ابتداء وخبر . والأصل باسطون . قيــل : بالعذاب ومَطارق الحديد ؛ عن الحسن والضحاك . وقيــل : لقبض أرواحهم ؛ وفى التنزيل : «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ» (٢) فجمعت

---

(١) قال ابن الأثير فى كتابه (الكامل) : « ... وأما سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لمـا أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإســلام ، فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون ... » الخ . وانما سميت غزوة الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها . راجع تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ٩٠ طبع أوربا . والطبرى قسم أول ص ٢٨٦٥ طبع أوربا .

(٢) آية ٥٠ سورة الأنفال .

هذه الاية القولين . يقال : بسط إليه يده بالمكروه . ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى خلّصوها من العذاب إن أمكنكم، وهو توبيخ . وقيل : أخرجوها كرها؛ لأن روح المؤمن تَنْشَط للخروج للقاء ربّه، وروح الكافر تُنْتَزَع انتزاعا شديدا، ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وهَوانه؛ كذا جاء فى حديث أبى هريرة وغيره . وقد أتينا عليه فى كتاب «التذكرة» والحمد لله . وقيل : هو بمنزلة قول القائل لمن يعذّبه : لأذيقنّك العذاب ولأُخرجنّ نفسك؛ وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها مَلَك الموت وأعوانه . وقيل : يقال هـذا للكفار وهم فى النـار . والجواب محذوف لعظم الأمر ؛ أى ولو رأيت الظالمين فى هذا الحال لرأيت عذابا عظيما . والهُون والهَوان سواء . و ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى تتعظّمون وتأنفون عن قبول آياته .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى ﴾ هذا عبارة عن الحشر . و « فُرَادَى » فى موضع نصب على الحال، ولم ينصرف لأن فيـه ألفَ تأنيث . وقرأ أبو حَيْوة « فرادًى » بالتنوين وهى لغة تميم، ولا يقولون فى موضع الرفع فُرادٌ . وحكى أحمد بن يحيى « فراد » بلا تنوين، قال: مثل ثلاث ورباع . و «فُرادى» جمع فَرْدان كسُكارى جمع سكران، وكُسالى جمع كسلان . وقيل : واحده «فَرْد» بجزم الراء، و«فرِد» بكسرها، و«فرَد» بفتحها، و«فريد» . والمعنى : جئتمونا واحدا واحدا ، كل واحد منكم منفردا بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر ممن كان يصاحبكم فى الغَىّ، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله . وقرأ الأعرج « فَرْدَى » مثل سكرى وكسلى بغير ألف . ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى منفردين كما خُلقتم . وقيل: عُراة كما خرجتم

من بطون أمهاتكم حُفاة غُرْلًا بُهْمًا(١) ليس معهم شيء . وقال العلماء : يُحشر العبدُ غدًا وله من الأعضاء ما كان له في يوم وُلد؛ فمن قُطع منـه عضو يردّ في القيامة عليه . وهـذا معنى قوله « غُرْلا » اى غير مختونين، أي يردّ عليهم ما قُطع عنه عند الختان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أي أعطيناكم وملّكناكم . والخَوَل : ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنَّعم . ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي خلفكم . ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ ﴾ أي الذين عبدتموهم وجعلتموهم شركاء — يريد الأصنـام — أي شركائي . وكان المشركون يقولون : الأصنام شركاء الله وشفعاؤنا عنده . ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ نافع والكسائي وحفص بالنصب على الظرف، على معنى لقد تقطع وصلُكم بينكم . ودلّ على حذف الوصل قوله « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » . فدلّ هذا على التقاطع والتهاجر بينهم وبين شركائهم ؛ إذ تبرءوا منهم ولم يكونوا معهم . وتقاطعهم لهم هو تركهم وصلهم لهم؛ فحسُن إضمار الوصل بعد « تقطّع » لدلالة الكلام عليـه . وفي حرف ابن مسعود ما يدلّ على النصب فيه « لقد تقطّع ما بينكم » وهذا لا يجوز فيه إلا النصب ، لأنك ذكرت المتقطّع وهو « ما » . كأنه قال : لقد تقطّع الوصل بينكم . وقيل : المعنى لقـد تقطّع الأمر بينكم . والمعنى متقارب . وقرأ الباقون « بَيْنُكُمْ » بالرفع على أنه اسم غير ظرف ، فأسنِد الفعل إليه فرُفع . ويقوّى جعل « بين » اسمًا من جهة دخول حرف الجر عليـه في قوله تعالى : « وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ »(٢) و « هَـذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ »(٣) . ويجوز أن تكون قراءة النصب على معنى الرفع، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفا منصوبا وهو في موضع رفع، وهو مذهب الأخفش ؛ فالقراءتان على هذا بمعنى واحد، فاقرأ بأيهما شئت . ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ ﴾ أي ذهب . ﴿ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تكذّبون به في الدنيا . رُوى أن الآية نزلت في النضر بن الحارث . ورُوى أن عائشة رضى الله عنهـا قرأت قول الله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » فقالت : يارسول الله ، وَاسَوْءتاه ! إن

(١) الغرل (جمع الأغرل) وهو الأقلف الذى لم يختن . والبهم (جمع بهيم) وهو في الأصل الذى لا يخالط لونه لون سواه . يعنى ليس فيهم شيء من العاهات والأعراض التى تكون في الدنيا كالعمى والعور والعرج، وغير ذلك .

(٢) آية ٥ سورة فصلت .		(٣) آية ٧٨ سورة الكهف

الرجال والنساء يحشرون جميعا، ينظر بعضهم إلى سَوْءة بعض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل آمرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض". وهذا حديث ثابت في الصحيح أخرجه مسلم بمعناه.

قوله تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوى﴾ عدّ من عجائب صنعه ما يعجز عن أدنى شيء منه آلهتهم. والفَلْق: الشق؛ أي يَشُق النواة الميتة فيُخرج منها ورقا أخضر، وكذلك الحبة. ويُخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحبّة؛ وهذا معنى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؛ عن الحسن وقتادة. وقال ابن عباس والضحاك: معنى فالق خالق. وقال مجاهد: عُنى بالفلق الشقّ الذي في الحبّ وفي النّوى. والنّوى جمع نواة، ويجرى في كل ماله عجم كالمشمش(١) والخوخ. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ يُخرج البشر الحيَّ من النُّطفة الميتة، والنطفةَ الميتةَ من البشر الحيّ؛ عن ابن عباس. وقد تقدّم قول قتادة والحسن. وقد مضى ذلك في «آل عمران»(٢). وفي صحيح مسلم عن عليّ: والذي فلق الحبة وبرأ النَّسَمة إنه لَعَهد النبيّ الأميّ صلى الله عليه وسلم إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ ابتداء وخبر. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين تصرفون عن الحق مع ما ترون من قدرة الله جل وعز.

قوله تعالى: فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ نعتٌ لاسم الله تعالى، أي ذلكم الله ربكم فالق الإصباح. وقيل: المعنى أن الله فالق الإصباح. والصُّبح والصباح أوّلُ النهار، وكذلك الإصباح؛ أي فالق

(١) كزبرج وجعفر. (٢) راجع جـ ٤ ص ٥٦ طبعة أولى وثانية.

الصبح كلّ يوم، يريد الفجر . والإصباح مصدر أصبح . والمعنى : شاقّ الضياء عن الظلام وكاشفُه . وقال الضحاك : فالق الإصباح خالقُ النهار . وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند احد من النحويين . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر « فالق الأَصباح » بفتح الهمزة، وهو جمع صبح . وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِيّ أنه قرأ « فلق الإصباحَ » على فَعَل، والهمزة مكسورة والحاء منصوبة . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائيّ « وجعل الليل سكنا » بغير ألف . ونصب «الليل» حملا على معنى فالق في الموضعين؛ لأنه بمعنى فلق، لأنه أمْرٌ قد كان فحُمِل على المعنى . وأيضا فإن بعده أفعالا ماضية وهو قوله «جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ» . « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » . فحمِل أوّل الكلام على آخره . يقوّى ذلك إجماعُهم على نصب الشمس والقمر على إضمار فعل، ولم يحملوه على فاعل فيخفضوه؛ قاله مكيّ رحمه الله . وقال النحاس : وقد قرأ يزيد بن قطيب السَّكونى « وجاعِلُ الليلِ سكنا والشمسِ والقمرِ حُسبانا » بالخفض عطفا على اللفظ .

قلت : فيريد مكيّ والمَهْدَوِيّ وغيرهما إجماع القراء السبع . والله أعلم . وقرأ يعقوب في رواية رُويس عنه « وجاعِلُ الليلِ ساكِنا » . وأهل المدينة «وجاعِلُ الليلِ سَكَنا» أي محلا للسكون . وفي الموطأ عن يحيي بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : " اللّهُمّ فالقَ الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حُسبانا اقضِ عنى الدَّين واغْنِنِي من الفقر وأمْتعني بسمعي وبصري وقوّتي في سبيلك " . فإن قيل : كيف قال " وأمتعني بسمعي وبصري " وفي كتاب النَّسائيّ والترمذيّ وغيرهما " واجعله الوارث منّي " وذلك يفنى مع البدن ؟ قيل له : في الكلام تجوّز، والمعنى : اللّهم لا تعدمه قبلي . وقد قيل : إن المراد بالسمع والبصر هنا أبو بكر وعمر؛ لقوله عليه السلام فيهما : " هما السمع والبصر " . وهذا تأويل بعيد، إنما المراد بهما الجارحتان . ومعنى ﴿حُسْبَانًا﴾ أي بحساب يتعلّق به مصالح العباد . وقال ابن عباس في قوله جل وعز : « وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا » أي بحساب . الأخفش : حُسْبان جمع حساب؛ مثل شِهاب وشُهبان . وقال يعقوب : حُسبان مصدر

حَسَبْتُ الشيء أحْسُبه حُسبانا وحِسابا وحِسْبة، والحساب الاسم . وقال غيره : جعل الله تعالى سير الشمس والقمر بحساب لا يزيد ولا ينقص ؛ فدلّهم الله عز وجل بذلك على قدرته ووحدانيته . وقيل : حُسْبانا أي ضياء . والحسبان : النار في لغة ؛ وقد قال الله تعالى : « وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ »(١) . قال ابن عباس : نارا . والحُسْبانة : الوسادة الصغيرة .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ بيّن كمال قدرته ، وفي النجوم منافع جمّة . ذكر في هذه الآية بعض منافعها ، وهي التي ندب الشرعُ إلى معرفتها ؛ وفي التنزيل : « وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ »(٢) . « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ »(٣) . و « جعل » هنا بمعنى خلق . ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي بيّناها مفصّلة لتكون أبلغ في الاعتبار . ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بها .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يريد آدم عليه السلام . وقد تقدّم أوّل السورة . ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج وشَيْبة والنَّخَعِيّ بكسر القاف ، والباقون بفتحها . وهي في موضع رفع بالابتداء ، إلا أن التقدير فيمن كسر القاف « فمنها مستقِر » والفتح بمعنى لها «مستقَر» . قال عبد الله بن مسعود: فلها مستقر في الرَّحِم ومستودَع في الأرض التي تموت فيها ؛ وهذا التفسير يدلّ على الفتح . وقال الحسن : فمستقِر في القبر . وأكثر أهل التفسير يقولون: المستقَر ما كان في الرحم، والمستودَع

(١) آية ٤٠ « سورة الكهف » .
(٢) آية ٧ « سورة الصافات » .
(٣) آية ٥ « سورة الملك » .

ما كان فى الصُلْب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس ، وقاله النخعىّ . وعن ابن عباس أيضا : مستقِرّ فى الأرض ، ومستودع فى الأصلاب . قال سعيد بن جُبير : قال لى ابن عباس هل تزوّجت ؟ قلت لا ؛ فقال : إن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه . وروى عن ابن عباس أيضا أن المستقر مَن خُلق ، والمستودَع من لم يُخلق ؛ ذكره المَاوَرْدى . وعن ابن عباس أيضا : ومستودع عند الله .

قلت : وفى التنزيل « وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » والاستيداع إشارة إلى كونهم فى القبر إلى أن يُبعثوا للحساب؛ وقد تقدم فى البقرة(١) . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ قال قتادة : فصّلنا بيّنا .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى المطر. ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أى كل صنف من النبات . وقيل : رزق كل حيوان . ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ قال الأخفش : أى أخضر ؛ كما تقول العرب : أرِينِها نَمِرة أُرِكْها مَطِرة(٢) . والخضِر رطب

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) الهاء فى «أرنيها» للسحابة . والنمر من السحاب الذى فيه آثار كآثار النمر . وقيل : هى قطع صغار متدان بعضها من بعض . وواحدتها نمرة . ومطرة : بمعنى ماطرة . أى إذا رأيت دليل الشىء علمت ما يتبعه . يضرب لأمر يتيقن وقوعه إذا لاحت مخايله وتباشيره . (عن فرائد اللآل جـ ١ ص ٢٥٢ طبع بيروت) .

البقول . وقال ابن عباس : يريد القمح والشعير والسُّلت[1] والذّرة والأرز وسائر الحبوب .
﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أى يُركّب بعضه على بعض كالسنبلة .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . أجاز الفرّاء فى غير القرآن «قِنوانًا دانيةً» على العطف على ما قبله . قال سيبويه : ومن العرب من يقول : قُنوان . قال الفرّاء : هذه لغة قيس، وأهل الحجاز يقولون : قِنوان، وتميم يقولون : قُنيان، ثم يجتمعون فى الواحد فيقولون : قِنْوٌ وقُنْوٌ . والطّلع الكُفُرَّى قبل أن ينشق عن الإغريض. والإغريض يسمى طلعا أيضا . والطلع : مايُرى من عِذْق النخلة . والقِنوان : جمع قِنو، وتثنيته قِنْوان كصِنو وصِنوانِ (بكسر النون) . وجاء الجمع على لفظ الاثنين . قال الجوهرى وغيره : الاثنان صِنوانِ والجمع صِنوانُ (برفع النون) . والقِنْو : العِذْق والجمع القِنوان والأقناء؛ قال :

* طويلة الأَقْناء والأثاكِلِ[2] *

غيره « أقناء » جمع القلة . قال المهدوىّ : قرأ ابن هُرْمز « قَنوان » بفتح القاف، وروى عنه ضمها . فعلى الفتح هو اسم للجمع غيرُ مُكَسَّر، بمنزلة ركب عند سيبويه، وبمنزلة الباقر والجامل؛ لأن فعلان ليس من أمثلة الجمع ، وضمّ القاف على أنه جمع قِنو وهو العِذق (بكسر العين) وهى الكِباسة، وهى عنقود النخلة . والعَذْق (بفتح العين) النخلة نفسُها . وقيل: القِنوان الجُمّار . ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة، ينالها القائم والقاعد. عن ابن عباس والبَرَاء بن عازب وغيرهما. قال الزجاج : منها دانية ومنها بعيدة؛ فحذف . ومثله «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»[3] . وخصّ الدانية بالذكر، لأن من الغرض فى الآية ذكر القدرة والامتنان بالنعمة، والامتنانُ فيما يقربُ متناولَهُ أكثر .

(١) السلت (بوزن القفل) : ضرب من الشعير أبيض لا قشر له .

(٢) الأثاكل : جمع الإثكال والأثكول (لغة فى العثكال والعثكول) وهو العذق الذى تكون فيه الشماريخ . وهذا عجز بيت . وصدره كما فى اللسان : * قد أبصرت سعدى بها كَائلى * والكائل جمع كثيلة وهى النخلة الطويلة .

(٣) آية ٨١ سورة النحل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى وأخرجنا جنّات . وقرأ محمد ابن عبد الرحمن بن أبى لَيْلى والأعمش، وهو الصحيح من قراءة عاصم «وجناتٌ» بالرفع. وأنكر هذه القراءةَ أبو عبيد وأبو حاتم ، حتى قال أبو حاتم : هى محال؛ لأن الجنات لاتكون من النخل . قال النحاس : والقراءة جائزة، وليس التأويل على هذا، ولكنه رفع بالابتداء والخبرُ محذوف؛ أى ولهم جنات . كما قرأ جماعة من القرّاء «وَحُورٌ عِينٌ»[1] . وأجاز مثل هذا سيبويه والكِسائىّ والفرّاء؛ ومثله كثير . وعلى هذا أيضا «وحُورًا عِينًا» حكاه سيبويه، وأنشد :

جِئْنِى بمثلِ بنِى بَدْرٍ لقومهم * أَوْ مثلَ أُسْرةِ مَنْظُورِ بن سيَّارِ[2]

وقيل : التقدير « وجنات من أعناب » أخرجناها؛ كقولك : أكرمت عبد الله وأخاه، أى وأخاه أكرمتُ أيضا . فأمّا الزيتون والرمّان فليس فيه إلا النصب للإجماع على ذلك . وقيل : «وجناتٌ» بالرفع عطف على «قِنوان» لفظا، وإن لم تكن فى المعنى من جنسها . ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ أى متشابها فى الأوراق؛ أى ورق الزيتون يُشبه ورق الرمان فى اشتماله على جميع الغُصن وفى حجم الورق ، وغير متشابه فى الذَّواق؛ عن قَتادة وغيره . قال ابن جُريج : « متشابها » فى النظر « وغير متشابه » فى الطعم؛ مثل الرمّانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف . وخصّ الرمان والزيتون بالذِّكرِ لقربهما منهم ومكانهما عندهم . وهو كقوله : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »[3] . ردّهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ٱنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أى نَظَرَ ٱعتبار لا نظر الإبصار المجرَّد عن التفكُّر . وٱلثَّمر فى اللغة جَنَى الشجر . وقرأ حمزة والكسائىّ «ثُمُره» بضم الثاء والميم . والباقون بالفتح فيهما جمع ثَمرة ، مثل بقرة وبقر وشجرة وشجر . قال مجاهد : الثُّمر أصناف المال، والثَّمر ثمر النخل . وكأن المعنى على قول مجاهد : ٱنظروا إلى الأموال التى يتحصل منه

(١) آية ٢٢ سورة الواقعة . (٢) البيت لجرير، يخاطب الفرزدق فيفخر عليه بسادات قيس؛ لأنهم أخواله، وبنو بدر من فزارة وفيهم شرف قيس عيلان، وبنو سيار من فزارة أيضا، وفزارة من ذبيان من قيس . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٣) آية ١٧ سورة الغاشية .

الثمر؛ فالثُّمُر بضمتين جمع ثمار وهو المـال المُثَمَّر. وروى عن الأعمش «ثُمْره» بضم الثاء وسكون الميم؛ حذف الضمة لثقلها طلبا للخفة. ويجوز أن يكون ثُمْر جمع ثَمَرة مثل بدنة وبُدْن. ويجوز أن يكون ثُمُر جمع جمع، فتقول: ثمرة وثمار وثمر مثل حمار وحمر. ويجوز أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب لاجمع جمع.

الخامســـة — قوله تعالى: ﴿وَيَنْعِهِ﴾ قـرأ محمـد بن السَّمَيْقَع «ويانعه». وابن مُحَيْصن وابن أبي إسحاق «ويُنْعِه» بضم الياء. قال الفرّاء: هى لغة بعض أهل نجد؛ يقال: يَنَع الثمر يَيْنِـع، والثمر يانع. وأينع يونع. والمعنى: ونُضْجِه. يَنَع وأينع إذا نَضِج وأدرك. وقال الحجاج فى خطبته: أرى رءوسا قد أينعتْ وحان قِطافها. قال ابن الأنبارىّ: اليَنْع جمع يانع، كراكب ورَكْب، وتاجر وتَجْر، وهو المدرك البالغ. وقال الفرّاء: أينع أكثرُ من يَنَع، ومعناه أحمر؛ ومنه ما روى فى حديث المُلاَعَنة "إن ولدته أحمر مثل اليَنَعة" وهى خرزة حمراء، يقال: إنه العقيق أو نوع منه. فدلّت الآية لمن تدبّر ونظر ببصره وقلبه، نَظَرَ مَن تفكّر، أن المتغيّرات لابدّلها من مغيّر؛ وذلك أنه تعالى قال: «اُنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ». فتراه أوّلا طَلْعًا ثم إغْرِيضا إذا انشق عنـه الطَّلْع. والإغريض يُسَمَّى ضَحِكًا أيضا، ثم بلحا، ثم سَـيَابًا، ثم جَدَالًا إذ اخضرّ واستدار قبـل أن يشتدّ، ثم بُسْرًا إذا عظم، ثم زَهْوًا إذا احمرّ؛ يقال: أزْهَى يُزْهِى، ثم مُوَكِّتًا إذا بدت فيه نقط من الإرطاب. فإن كان ذلك من قِبَل الذَّنَب فهى مُذَنِّبة، وهو التَّذْنُوب، فإذا لانت فهى ثَعْدة، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهى مُجَزَّعَة، فإذا بلغ ثلثيها فهى حُلْقانة، فإذا عمّها الإرطاب فهى مُنْسبِتة؛ يقال: رطب مُنْسَبِت، ثم ييبس فيصير تمرا. فنبّه تعالى بانتقالها من حال إلى حال وتغيّرها ووجودها بعد أن لم تكن على وحدانيته وكمال قدرته، وأن لها صانعا قادرا عالمـا. ودلّ على جواز البعث؛ لإيجاد النبات بعد الجفاف. قال الجَوْهرىّ: يَنَع الثمر يَيْنَع ويَيْنِـع يَنْعًا ويُنْعًا ويُنوعًا، أى نَضِج.

السادســـة — قال ابن العربىّ قال مالك: الإيناع الطِّيب بغير فساد ولا نقش. قال مالك: والنَّقش أن يَنْقُش أهلُ البصرة الثمرَ حتى يُرْطِب؛ يريد يُثقب فيه بحيث يُسرع دخولُ

الهواء إليه فيرطب معجّلا . فليس ذلك اليَنْع المراد فى القرآن ، ولا هو الذى ربط به رسول الله صلى الله عليه وسلم اليَنْع ، وإنمـا ما يكون من ذاته بغير محاولة . وفى بعض بلاد التِّين، وهى البلاد الباردة، لا يَنْضُج حتى يُدخَل فى فمـه عُود قد دُهن زيتا ، فإذا طاب حلّ بيعه؛ لأن ذلك ضرورة الهواء وعادةُ البلاد، ولولا ذلك ما طاب فى وقت الطِّيب .

قلت : وهذا اليَنْع الذى يقف عليه جواز بيع الثمرة وبه يطيب أكلها وتأمن من العاهة هو عند طلوع الثُّرَيّا بمـا أجرى الله سبحانه من العادة وأحكمه من العلم والقدرة . ذكر المُعَلَّى آبن أسد عن وهيب عن عِسْل بن سـفيان عن عطاء عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا طلعت الثُّرَيّا صباحا رُفعت العاهة عن أهل البلد " . والثريا النجم، لاخلاف فى ذلك . وطلوعها صباحا لاثنتى عشرة ليلة تمضى من شهر أيّار، وهو شهر مايه . وفى البخارىّ : وأخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت أن زيد بن ثابت لم يكن يبيع ثمار أرضه حتى تطلع الثُّرَيّا فيتبيّن الأصفرُ من الأحمر .

السابعــة — وقد استدلّ من أسقط الجوائح فى الثمـار بهذه الآثار، وما كان مثلها من نهيه عليه السلام عن بيع الثمرة حتى يبدو صلاحها، وعن بيع الثمار حتى تذهب العاهة . قال عثمان بن سُراقة : فسألت آبن عمر متى هـذا ؟ فقال طلوع الثريا . قال الشافعىّ : لم يثبت عندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح، ولو ثبت عندى لم أعْدُه . والأصـل المجتمع عليه أن كل من ابتاع ما يجـوز بيعه وقبضه كانت المصيبة منـه . قال : ولو كنت قائلا بوضع الجوائح لوضعتها فى القليل والكثير ؛ وهو قول الثَّوْرِىّ والكوفيين . وذهب مالك وأكثر أهل المدينة إلى وضعها ؛ لحديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح . أخرجه مسلم. وبه كان يقضى عمـر بن عبد العزيز، وهو قول أحمد بن حنبل وسائر أصحاب الحـديث . وأهل الظاهر وضعوها عن المبتاع فى القليـل والكثير على عموم الحديث؛ إلا أن مالكًا وأصحابه آعتبروا أن تبلغ الجائحة ثلث الثمرة فصاعدًا، وما كان دون الثلث ألغوه وجعلوه تَبَعًا، إذ لاتخلو ثمرة من أن يتعذّر القليل من طِيبها وأن يلحقها فى اليسير منها

فساد . وكان أَصْبَغ وأشهب لا ينظران إلى الثمرة ولكن إلى القيمة، فإذا كانت القيمة الثلث فصاعدًا وضع عنه . والجائحة ما لا يمكن دفعه عند ابن القاسم . وعليه فلا تكون السرقة جائحة، وكذا في كتاب محمد . وفي الكتاب أنه جائحة، وروى عن ابن القاسم، وخالفه أصحابه والناس . وقال مُطَرِّف وابن الماجشون : ما أصاب الثمرة من السماء من عَفَن أو برد، أو عطش أو حَرّ أو كسر الشجر بما ليس بصنع آدمي فهو جائحة . واختُلف في العسكر؛ ففي رواية ابن القاسم هو جائحة . والصحيح في البقول أنها الثمرة . ومن باع ثمرا قبل بَدْو صلاحه بشرط التبقية فُسخ بيعه ورُدّ للنهي عنه، ولأنه من أكل المال بالباطل؛ لقوله عليه السلام: "أرأيت إن منع الله الثمرة فبم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق". هذا قول الجمهور، وصححه أبو حنيفة وأصحابه وحملوا النهي على الكراهة . وذهب الجمهور إلى جواز بيعها قبل بَدْو الصلاح بشرط القطع . ومنعه الثوري وابن أبي لَيْلَى تمسكا بالنهي الوارد في ذلك . وخصّصه الجمهور بالقياس الجلي؛ لأنه مبيع معلوم يصحّ قبضه حالة العقد فصحّ بيعه كسائر المبيعات .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ هذا ذِكر نوع آخر من جهالاتهم ، أي فيهم مَن اعتقد لله شركاء من الجن . قال النحاس : « الجن » مفعول أول، و « شركاء » مفعول ثان؛ مثل « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا »(١) . « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا »(٢) . وهو في القرآن كثير . والتقدير : وجعلوا لله الجن شركاء . ويجوز أن يكون « الجن » بدل من شركاء، والمفعول الثاني «لله» . وأجاز الكسائي رفع « الجن » بمعنى هم الجن . ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ كذا قراءة الجماعة ، أي خلق الجاعلين له شركاء . وقيل : خلق الجن الشركاء . وقرأ ابن مسعود « وهو خلقهم » بزيادة هو . وقرأ يحيى بن يَعْمَر « وخلْقهم » بسكون اللام، وقال : أي وجعلوا خلقهم لله شركاء؛ لأنهم كانوا يخلقون الشيء ثم يعبدونه . والآية نزلت في مشركي العرب . ومعنى إشراكهم

(١) آية ٢٠ سورة المائدة . (٢) آية ١٢ سورة المدثر .

بالجن أنهم أطاعوهم كطاعة الله عزوجل؛روى ذلك عن الحسن وغيره. قال قتادة والسُّدّيّ: هم الذين قالوا الملائكةُ بناتُ الله . وقال الكلبيّ : نزلت في الزنادقة ، قالوا : إن الله وإبليس أخوان ؛ فالله خالق النـاس والدواب ، وإبليس خالق الجان والسباع والعقارب . ويقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا : للعـالَم صانعان : إله قديم، والثاني شيطان حادث من فكرة الإله القديم؛ وزعموا أن صانع الشر حادث . وكذا الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد ابن حائط ، زعموا أن للعالَم صانعين : الإله القديم، والآخر محدث، خلقه الله عزوجل أوّلا ثم فوّض إليه تدبير العالم ؛ وهو الذي يحاسب الخلق في الآخرة . تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا . ﴿ وخَرَّقُوا ﴾ قراءة نافع بالتشديد على التكثير؛ لأن المشركين ادعوا أن لله بناتٍ وهم الملائكة ، وسَمَّوهم جِنًّا لاجتنانهم . والنصارى ادّعت المسيح ابنَ الله . واليهود قالت : عزير ابن الله ، فكثُر ذلك من كفرهم ؛ فشُدّد الفعل لمطابقة المعنى . تعالى الله عما يقولون . وقرأ الباقون بالتخفيف على التقليل . وسئل الحسن البصريّ عن معنى «وخرّقوا له» بالتشـديد فقال : إنمـا هو « وخَرَقوا » بالتخفيف ، كلمة عربيـة ، كان الرجل إذا كذَب في النادي قيل : خَرَّقها وربِّ الكعبة . وقال أهل اللغة : معنى « خرقوا » اختلقوا وافتعلوا . « وخرّقوا » على التكثير . قال مجاهد وقَتادة وابن زيد وابن جُريج : « خرقوا » كذبوا . ويقال : إن معنى خرق واخترق واختلق سواء؛ أي أحدث .

قوله تعـالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما؛ فكيف يجوز أن يكون له ولد . « وبديع » خبر ابتداء مضمر أي هو بديع . وأجاز الكسائيّ خفضه على النعت لله عز وجل، ونصـبه بمعنى بديعا للسموات والأرض . وذا خطأ عنـد البصريين (١) لأنه لمـا مضى .

(١) اسم الفاعل يعمل عمل فعله إن كان صلة لأل مطلقا ؛ فان لم يكن صلة لأل عمل بشرطين عند البصريين : أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال . وأجاز الكسائي عمله إذا كان للماضي .

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى من أين يكون له ولد . وولد كل شيء شبيهه ، ولا شبيــه له . ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ أى زوجة . ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عموم معناه الخصوص ؛ أى خلق العالم . ولا يدخل فى ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته . ومثله « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »(١) ولم تسع إبليس ولا من مات كافرا . ومثله «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ»(٢) ولم تدمر السموات والأرض .

قوله تعـالى : ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ « ذلكم » فى موضع رفع بالابتـداء . ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ على البـدل . ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « ربكم » الخبر ، و « خالق » خبرا ثانيا ، أو على إضمار مبتدأ ، أى هو خالق . وأجاز الكسائىّ والفراء فيه النصب .

قوله تعـالى : لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

قوله تعـالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بيّن سبحانه أنه منزّه عن سمات الحدوث ، ومنها الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد ، كما تدرك سائر المخلوقات ، والرؤية ثابتة . وقال الزجاج : اى لا يبلغ كُنْه حقيقته ؛ كما تقول : أدركت كذا وكذا ؛ لأنه قد صحّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم الأحاديث فى الرؤية يوم القيامة . وقال ابن عباس : « لا تدركه الأبصار » فى الدنيا ، ويراه المؤمنون فى الآخرة ؛ لإخبار الله بها فى قوله : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»(٣) . وقاله السُّدّى . وهو أحسن ما قيـل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله فى الجنـة . وسيأتى بيانه فى « يونس »(٤) . وقيل : « لا تدركه الأبصار » لا تحيط به وهو يحيط بهـا ؛

---

(١) آية ١٥٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٥ سورة الأحقاف . (٣) آية ٢٢ سورة القيامة .
(٤) فى قوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » آية ٢٦ .

عن ابن عباس ايضا . وقيل : المعنى لا تدركه أبصار القلوب ، أى لا تدركه العقول فتتوهمه ؛ إذ ليس كمثله شيء . وقيل : المعنى لا تدركه الأبصار المخلوقة فى الدنيا ، لكنه يخلق لمن يريد كرامتـه بصرا و إدراكا يراه به كمحمد عليـه السلام ؛ إذ رؤيته تعالى فى الدنيا جائزةٌ عقلا ، إذ لولم تكن جائزةً لكان سؤال موسى عليه السلام مستحيلا ، ومحالٌ أن يجهل نبيّ ما يجوز على الله وما لا يجوز ، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل . واختلف السلف فى رؤية نبيّنا عليه السلام ربَّه ، ففى صحيح مسلم عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة[(١)] ؛ ثلاثٌ مَن تكلّم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفِرْية . قلت : ما هن ؟ قالت : مَن زعم أن محمدا رأى ربَّه فقـد اعظم على الله الفِرْية . قال : وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أمّ المؤمنين ، أنْظِرِينى ولا تُعْجِلِينى ، ألم يَقُلِ الله عز وجل « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ[(٢)] » . «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى[(٣)]» ؟ فقالت : أنا أوّل هذه الأمة سأل عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيتُه منهبطا من السماء سَادًّا عِظَم خلقِه ما بين السماء والأرض“ . فقالت : أوَ لم تسمع أن الله عز وجل يقول : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» ! أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًـا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِـلَ رَسُـولًا — إلى قوله — عَلِيٌّ حَكِيمٌ[(٤)] » ! قالت : ومن زعم أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفِرْية ، والله تعالى يقول : « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَـا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » قالت : ومَن زعَم أنه يُخبر بمـا يكون فى غدٍ فقد أعظم على الله الفِرية ، والله تعالى يقول : «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ[(٥)]» .

و إلى ما ذهبت إليـه عائشة رضى الله عنها من عدم الرؤية ، وأنه إنمـا راى جبريل : ابن مسعود ، ومثله عن أبى هريرة رضى الله عنـه ، وأنه إنمـا رأى جبريلَ ، واختلف

(١) أبو عائشة : كنية الإمام مسروق . (٢) آية ٢٣ سورة التكوير . (٣) آية ١٣ سورة النجم .
(٤) آية ٥١ سورة الشورى . (٥) آية ٦٥ سورة النمل .

عنهما . وقال بإنكار هذا وآمتناع رؤيتـه جماعةٌ من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين . وعن ابن عباس أنه رآه بعينيه؛ هذا هو المشهور عنه . وحجته قوله تعالى: «مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَى»(١) .
وقال عبـد الله بن الحارث : اجتمع ابن عباس وأُبَيّ بن كعب، فقال ابن عباس : أمّا نحن بنو هاشم فنقول إن محمدا رأى ربّه مرتين. ثم قال ابن عباس: أتعجبون أن الخلّة تكون لإبراهيم والكلامَ لموسى، والرؤيةَ لمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . قال : فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال، ثم قال : إن الله قسّم رؤيتـه وكلامَه بين محمد وموسى عليهما السلام ، فكلّم موسى ورآه محمد صلى الله عليه وسلم. وحكى عبد الرزّاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربّه . وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكيّ عن عِكرمة، وحكاه بعض المتكلمين عن ابن مسعود، والأوّل عنـه أشهر . وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة : هل رأى محمد ربّه ؟ فقال نعم . وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس : بعينـه رآه رآه ! حتى آنقطع نفسه ، يعني نفس أحمد . وإلى هذا ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعريّ وجماعة من أصحابه أنه رأى الله ببصره وعيني رأسه. وقاله أنس وابن عباس وعكرمة والربيع والحسن . وكان الحسن يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأى محمد ربَّه . وقال جماعة منهم أبو العالية والقُرَظيّ والربيع بن أنس : إنه إنمـا رأى ربّه بقلبـه وفؤاده؛ وحكي عن ابن عباس أيضا وعكرمة . وقال أبو عمر : قال أحمـد بن حنبل رآه بقلبه ، وجَبُن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار . وعن مالك بن أنس قال : لم يُرَ في الدنيا؛ لأنه باقٍ ولا يُرَى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورُزقوا أبصارا باقيـة رأوا البـاقي بالباقي . قال القاضي عِيـاض : وهذا كلام حسن مليح، وليس فيـه دليل على الآستحالة إلا من حيث ضعف القدرة؛ فإذا قوّى الله تعـالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقّـه . وسيأتي شيء من هذا في حق موسى عليه السلام في «الأعراف»(٢) إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه. وإنما خصّ « الأبصار » لتجنيس الكلام . قال الزجاج : وفي هذا الكلام دليل على أن الخلق لا يُدركون

(١) آية ١١ سورة النجم . (٢) في قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا » آية ١٤٣ .

الأبصار، أى لا يعرفون كيفية حقيقة البصر، وما الشيء الذى صار به الإنسان يُبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه . ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ أى الرفيق بعباده ؛ يقال : لَطَف فلان بفلان يَلْطُف، أى رَفَق به . واللطف فى الفعل الرِّفقُ فيه . واللُّطف من الله التوفيق والعِصمة . وألطفه بكذا ، أى بَرّه به . والاسم اللَّطَف بالتحريك . يقال : جاءتنا من فلان لَطَفة ؛ أى هَدِيّة . والملاطفة المبارّة ؛ عن الجوهرى وابنِ فارس . قال أبو العالية : المعنى لطيف باستخراج الأشياء خبيرٌ بمكانها . وقال الجُنَيد : اللّطيف من نوّر قلبك بالهدى ، ورَبَّى جسمك بالغِذَى ، وجعل لك الولاية فى البَلْوَى ، ويحرُسك وأنت فى لظى، ويدخلك جنة المَأْوَى . وقيل غير هذا ، مما معناه راجع إلى معنى الرفق وغيره . وسيأتى ما للعلماء من الأقوال فى ذلك فى « الشُّورَى »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى آيات وبراهين يُبْصَر بها ويُستدَلّ ؛ جمع بصيرة وهى الدّلالة . قال الشاعر :

جاءوا بصائرُهم على أكتافهم * وبصيرتى يَعْدُو بها عَتَدٌ وَأَى(٢)

يعنى بالبصيرة الحجة البيّنة الظاهرة . ووصف الدلالة بالمجىء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقّع حضوره للنفس؛ كما يقال : جاءت العافية وقد آنصرف المرض، وأقبل السعود وأدبر النحوس . ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ الإبصار : هو الإدراك بحاسّة البصر؛ أى فمن استدلّ وتعرّف فنفسَه نفع . ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ لم يستدل ، وصار بمنزلة الأعمى ؛ فعلى نفسه يعود ضرر

---

(١) فى قوله تعالى : «الله لطيف بعباده ...» آية ١٩ .

(٢) الذى فى كتب اللغة : «راحوا ... الخ» وأن هذا البيت للأسعر الجعفى . يقول : إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم ؛ أى لم يثأروا به وأنا طلبت ثأرى . والعتد (بفتح التاء وكسرها) : الفرس التام الخلق السريع الوثبة معدّ للجرى ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . والوأى (بفتح الواو والمد) : الفرس السريع المقتدر الخلق .

عماه . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم . وقيـل : أى لا أحفظكم من عذاب الله . وقيل : « بِحَفِيظٍ » برقيب؛ أحصى عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلّغكم رسالات ربّى،وهو الحفيظ عليكم لايخفى عليه شيء من أفعالكم . قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال، ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى نصرف الآيات مثل ما تلونا عليك . أى كما صرفنا الآيات فى الوعد والوعيد والوعظ والتّنبيه فى هذه السورة نصرف فى غيرها . ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ الواو للعطف على مضمر؛ أى نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست . وقيـل : أى « وليقولوا درست » صرفناها؛ فهى لام الصيرورة . وقال الزجاج : هـذا كما تقول كتب فلان هـذا الكتاب لحتفـه ؛ أى آل أمره إلى ذا . وكذا لمـا صرفت الآيات آل أمرهم إلى أن قالوا : درست وتعلمت من جبر ويسار ، وكانا غلامين نصرانيين بمكة ، فقال أهل مكة : إنما يتعلم منهما . قال النحاس : وفى المعنى قول آخر حسن، وهو أن يكون معنى « نصرف الآيات » نأتى بها آية بعد آية ليقولوا درست علينا ؛ فيذكرون الأوّل بالآخر . فهذا حقيقة، والذى قاله أبو إسحاق مجاز .

وفى «درست» سبع قراءاتٍ . قرأ أبو عمرو وابن كثير «دارست» بالألف بين الدال والراء، كفاعلت . وهى قراءة علىّ وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهدٍ وعكرمة وأهلِ مكة . قال ابن عباس : معنى «دارست» تاليت . وقرأ بن عامر «دَرَسْتْ» بفتح السين وإسكان التـاء من غير ألف؛ كخَرَجتْ . وهى قراءة الحسن . وقرأ البـاقون « دَرَسْتَ » كخَرَجْتَ . فعلى الأولى : دارست أهلَ الكتاب ودارسوك؛ أى ذاكرتهم وذاكروك؛ قاله سعيد بن جبير. ودلّ على هذا المعنى قولُه تعالى إخبارا عنهم : «وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ»(1) أى أعان اليهودُ النبيّ

(1) آية ٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليــه وسلم على القرآن وذاكروه فيــه . وهــذا كله قولُ المشركين . ومثله قولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » (١) . « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » (٢) . وقيل : المعنى دارستنا؛ فيكون معناه كمعنى درست؛ ذكره النحاس واختاره ، والأوّل ذكره مكيّ . وزعم النحاس أنه مجاز؛ كما قال :

* فلِلموتِ ما تَلِد الوالده * (٣)

ومن قرأ «دَرستْ» فأحسن ما قيــل في قراءته أن المعنى : ولئلا يقولوا انقطعت وٱمَّحتْ، وليس يأتي محمد صلى الله عليه وسلم بغيرها . وقرأ قتادة «دُرِست» أى قرئت . وروى سفيان ابن عُيينة عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه قرأ «دارستْ» . وكان أبو حاتم يذهب إلى أن هذه القراءة لا تجوز؛ قال : لأن الآيات لا تدارِس . وقال غيره : القراءة بهذا تجوز، وليس المعنى على ما ذهب إليه أبو حاتم، ولكن معناه دارستْ أمّتُك؛ أى دارستك أمّتك، وإن كان لم يتقدّم لها ذكر؛ مثل قوله : «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» (٤) . وحكى الأخفش «ولِيقولوا دَرُسَتْ» وهو بمعنى «دَرستْ» إلا أنه أبلغ . وحكى أبو العباس أنه قرئ «ولْيقولوا درست» بإسكان اللام على الأمر . وفيه معنى التهدّد؛ أى فليقولوا بما شاءوا فإن الحق بيّن؛ كما قال عز وجل : «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا» . فأمّا مَن كسر اللام فإنها عنده لام كَيْ . وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شيء واحد ، إلى التليين والتذليل . و «دَرَسْتَ» مِن دَرَس يدرُس دِراسة، وهى القراءة على الغير . وقيل : درسته أى ذللته بكثرة القراءة؛ وأصله درَس الطعامَ أى داسه . والدِّياس الدّراس بلغة أهــل الشام . وقيل : أصله من درسْتُ الثوبَ أدْرُسه درسا أى أخلقته . وقــد دَرَس الثوبُ دَرْسا أى أخلق . ويرجع هــذا إلى التذلل أيضا . ويقال : سُمِّيَ إدريس لكثرة دراسته لكتاب الله . ودارست الكتب وتدارستها وٱدّارستها أى درستها . ودَرستُ الكتاب دَرْسا ودِراسة . ودَرستِ المرأة درسا أى حاضت . ويقال :

(١) آية ٥ سورة الفرقان . (٢) آية ٢٤ سورة النحل .

(٣) هذا عجز بيت، وصدره كما في المغني (حرف اللام) : * فإن يكن الموت أفناهم *

(٤) آية ٣٢ سورة ص .

إن فرج المرأة يُكْنَى أبا أَدْراس، وهو من الحيض . والدَّرْسُ أيضا : الطريق الخَفِيّ . وحكى الأصمعيّ : بَعير لم يُدَرَّس أى لم يركب، ودَرست من درس المنزلُ إذا عفَا . وقرأ ابن مسعود وأصحابه وأُبَيّ وطلحة والأعمش «وليقولوا درس» أى درس محمد الآيات . ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ يعنى القول والتصريف، أو القرآن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

قوله تعالى : ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى ﴿ٱتَّبِعْ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعنى القرآن؛ أى لا تَشغل قلبك وخاطرك بهم، بل اشتغل بعبادة الله . ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ منسوخ .

قوله تعالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ نصّ على أن الشرك بمشيئته، وهو إبطال لمذهب القدرية كما تقدّم . ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى لا يمكنك حفظهم من عذاب الله . ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى قَيِّم بأمورهم فى مصالحهم لدينهم أو دنياهم، حتى تلطف لهم فى تناول ما يجب لهم؛ فلست بحفيظ فى ذلك ولا وكيل فى هذا ، إنما أنت مُبَلِّغ . وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

قوله تعالى : وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ نَهْىٌ . ﴿ فَيَسُبُّوا ﴾ جواب النهى . نهى سبحانه المؤمنين أن يَسُبُّوا أوثانهم ؛ لأنه علم إذا سبّوها نفر الكفار وازدادوا كُفرا . قال ابن عباس : قالت كفار قريش لأبى طالب إمّا أن تنهى محمدا وأصحابَه عن سَبّ آلهتنا والغض منها وإما أن نَسُبّ إلٰهه ونهجوه ؛ فنزلت الآيةُ .

الثانيـــة — قال العلماء : حكمها باقٍ فى هذه الأمة على كل حال ؛ فمتى كان الكافر فى مَنَعة وخِيف أن يَسُبَّ الإسـلامَ أو النّبيّ عليه السلام أو الله عز وجل ، فلا يحلّ لمسلم أن يَسُبّ صلبانهم ولا دينهـم ولا كنائسهم ، ولا يتعرّض إلى ما يؤدّى إلى ذلك ؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية . وعبّر عن الأصنام وهى لا تعقل بـ«الذين» على معتقد الكفرة فيها .

الثالثـــة — فى هـذه الآية أيضا ضَرْبٌ من الموادعة ، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدّ الذرائع ؛ حسب ما تقدّم . فى «البقرة» وفيها دليل على أن المحقّ قد يكفّ عن حق له إذا أدّى إلى ضرر يكون فى الدِّين . ومن هـذا المعنى ما رُوى عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه أنه قال : لا تبتّوا الحكم بين ذوى القرابات مخافة القطيعة . قال ابن العربيّ : إن كان الحق واجبا فيأخذه بكل حال ، وإن كان جائزا ففيه يكون هذا القول .

الرابعـــة — قوله تعالى : «عَدْوًا» أى جهلا واعتداء . ورُوى عن أهل مكة أنهم قرءوا «عُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو ، وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وقتادة ، وهى راجعة إلى القراءة الأولى ، وهما جميعا بمعنى الظلم . وقرأ أهـل مكة أيضا «عَدُوًّا» بفتح العين وضم الدال بمعنى عدوّ . وهو واحد يؤدّى عن جمع ؛ كما قال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ »(١) . وقال : «هُمُ الْعَدُوُّ»(٢) . وهو منصوب على المصدر أو المفعول من أجله .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أى كما زيّنا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم . قال ابن عباس . زيّنا لأهل الطاعةِ الطاعةَ ، ولأهل الكفرِ

(١) آية ٧٧ سورة الشعراء . (٢) آية ٤ سورة المنافقون .

الكفرَ ؛ وهو كقوله : « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ »(١) . وفى هـذا ردٌّ على القـــدرية .

قوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى حلفوا . وجَهْدُ اليمين أشدّها ، وهو بالله . فقوله « جهد أيمانهم » أى غاية أيمانهم التى بلغها علمهم، وانتهت إليها قدرتهم . وذلك انهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظنًّا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى؛ كما أخبر عنهم بقوله تعالى: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى»(٢). وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك . وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يُسمّونه جَهْد اليمين إذا كانت اليمين بالله . «جَهْدَ» منصوب على المصدر والعامل فيه «اقسموا» على مذهب سيبويه؛ لأنه فى معناه. والجَهْد (بفتح الجيم) : المشقّة؛ يقال : فعلت ذلك بجَهْد. والجُهْد (بضمها): الطاقة يقال : هذا جُهْدى، أى طاقتى. ومنهم من يجعلهما واحدا، ويحتج بقوله «وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ»(٣) . وقرئ «جَهْدهم» بالفتح؛ عن آبن قتيبة . وسبب الآية فيما ذكر المفسرون : القُرَظِىّ والكَلْبى وغيرهما، أن قريشا قالت : يا محمد، تُخبرنا بأن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْنًا، وأن عيسى كان يُحيِي الموتى، وأن ثمود كانت لهم ناقة؛ فأتنا ببعض هذه الآيات حتى نصدّقك . فقال : " أىّ شىء تحبّون " ؟ قالوا : اِجعل لنا الصَّفَا ذهبا؛ فوالله إن فعلتَه لنتبعنّك أجمعون. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو؛ فجاءه جبريل فقال : " إن شئت أصبح ذهبا ، ولئن أرسل الله آية ولم يصدّقوا عندها ليعذبنّهم فاتركهم حتى يتوب تائبهم " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل يتوب تائبهم " فنزلت هذه

---

(١) آية ٩٣ سورة النحل . (٢) آية ٣ سورة الزمر . (٣) آية ٧٩ سورة التوبة .

الآية . وبين الربّ بأن من سبق العلم الأزليّ بأنه لا يؤمن فإنه لا يؤمن وإن أقسم ليؤمننّ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ قيل : معناه بأغلظ الأيمان عندهم . وتعرض هنا مسألةٌ من الأحكام عُظْمَى ، وهي قول الرجل : الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا . قال ابن العربيّ : وقد كانت هذه اليمين في صدر الإسلام معروفةً بغير هذه الصورة ، كانوا يقولون : عليّ أشدّ ما أخذه أحد على أحد ؛ فقال مالك : تَطْلُق نساؤه . ثم تكاثرت الصُّوَر حتى آلت بين الناس إلى صورةٍ هذه أُمُّها . وكان شيخنا الفِهْرِيّ الطَّرَسُوسِيّ يقول : يلزمه إطعام ثلاثين مسكينا إذا حنِث فيها ؛ لأن قوله « الأيمان » جمع يمين ، وهو لو قال عليّ يمين وحنِث ألزمناه كفارةً . ولو قال : عليّ يمينان للزمته كفارتان إذا حنِث . والأيمان جمع يمين فيلزمه فيها ثلاث كفارات .

قلت : وذكر أحمد بن محمد بن مغيث في وثائقه : اختلف شيوخ القَيْرَوان فيها ؛ فقال أبو محمد بن أبي يزيد : يلزمه في زوجته ثلاث تطليقات ، والمَشْيُ إلى مكة ، وتفريقُ ثلث ماله ، وكفارةُ يمين ، وعِتق رقبة . قال ابن مغيث : وبه قال ابن أرفع رأسه وابن بدر من فقهاء طُلَيْطُلة . وقال الشيخ أبو عمران الفاسي وأبو الحسن القابِسيّ وأبو بكر بن عبد الرحمن القَرَوِيّ : تلزمه طلقة واحدة إذا لم تكن له نيّة . ومن حجتهم في ذلك رواية ابن الحسن في سماعه من ابن وهب في قوله «وأشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه في ذلك كفارةَ يمين» . قال ابن مغيث : فجعل مَن سمّيناه على القائل : « الأيمان تلزمه » طلقةً واحدة ؛ لأنه لا يكون أسوأ حالا من قوله : أشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه كفارةَ يمين ، وبه نقول . قال : واحتجّ الأوّلون بقول ابن القاسم فيمن قال : عليّ عهد الله وغليظُ ميثاقه وكفالته وأشدّ ما أخذ أحد على أحد على أمرٍ ألّا يفعله ثم فعله ؛ فقال : إن لم يُرِد الطلاق ولا العتاق وعزلهما عن ذلك فلتكن ثلاث كفارات . فإن لم تكن له نيّة حين حلف فليكفّر كفارتين في قوله : عليّ عهد الله وغليظ ميثاقه . ويعتق رقبة وتَطْلُق نساؤه ، ويمشي إلى مكة ويتصدّق بثلث ماله

فى قوله : واشـدّ ما أخذه أحد على أحد . قال ابن العربى : أمّا طريق الأدلّة فإن الألف واللام فى الأيمان لا تخلو أن يراد بها الجنس أو العهد؛ فإن دخلت للعهد فالمعهود قولك «بالله» فيكون ما قاله الفِهْرِىّ . فإن دخلت للجنس فالطلاق جنس فيدخل فيهـا ولا يُستوفَى عدده ، فإن الذى يكفى أن يدخل فى كل جنس معنى واحد؛ فإنه لو دخل فى الجنس المعنى كلُّه للزمه أن يتصدّق بجميع ماله ، إذ قد تكون الصدقة بالمـال يمينًا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أى قل يامحمد : الله القادر على الإتيان بها ، و إنما يأتى بها إذا شاء . ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أى وما يُدريكم أيمانهم؛ فحذف المفعول . ثم آستأنف فقال : ﴿ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بكسر إن ، وهى قراءة مجاهد وأبى عمرو وابن كثير . ويشهد لهذا قراءة آبن مسعود « وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون » . وقال مجاهد وابن زيد : المخاطَب بهذا المشركون ، وتمّ الكلام . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقد أعلمنا فى الآية بعد هذه أنهـم لا يؤمنون . وهـذا التأويل يشبه قراءة من قرأ « تؤمنون » بالتاء . وقال الفَرّاء وغيره : الخطاب للؤمنين؛ لأن المؤمنين قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لو نزلت الاية لعلهم يؤمنون؛ فقال الله تعالى : « وما يشعركم » أى يعلمكم ويدريكم أيهـا المؤمنون . «أنها» بالفتح ، وهى قراءة أهل المدينة والأعمش وحمزة ، أى لعلّها إذا جاءت لا يؤمنون . قال الخليل : « أنها » بمعنى لعلّها؛ حكاه عنه سيبويه . وفى التنزيل : « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ »(١) أى أنه يزّكّى . وحُكى عن العرب : إيت السوق أنّك تشترى لنا شيئا ، أى لعلّك . وقال أبو النّجْم :

قلت لشَيْبَان آدْنُ من لقائِهْ * أنّ تُغَدِّى القومَ من شِوائِهْ

وقال عَدِىّ بن زيد :

أعاذِل ما يُدريك أنّ منيّتِى * إلى ساعةٍ فى اليوم أو فى ضُحَى الغَدِ

أى لعلّ . وقال دُرَيد بن الصِّمَّة(٢) :

أَرِينى جوادًا مات هَزْلًا لأنّنِى * أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلا مُخَلَّدَا

---

(١) آية ٣ سورة عبس . (٢) الصحيح أنه حاتم طى . كما فى الصحاح للجوهرى ، وديوانه .

أى لعلّى . وهو فى كلام العرب كثير « أنّ » بمعنى لعل . وحكى الكسائى أنه كذلك فى مصحف أُبَىّ بن كعب « وما أدراكم لعلها » . وقال الكسائى والفرّاء : أن « لا » زائدة ، والمعنى : وما يشعركم أنها — أى الآيات — إذا جاءت المشركين يؤمنون ، فزيدت « لا » ؛ كما زيدت « لا » فى قوله تعالى : « وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ »(١) . لأن المعنى : وحرام على قرية مُهلَكة رجُوعُهم . وفى قوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » . والمعنى : ما منعك أن تسجد . وضعّف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة « لا » وقالوا : هو غلط وخطأ ؛ لأنها إنما تزاد فيما لا يُشْكِل . وقيل : فى الكلام حذف ، والمعنى : وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا لعلم السامع ؛ ذكره النحاس وغيره .

قوله تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

هذه آية مُشْكِلة ، ولا سيّما وفيها « وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » . قيل : المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحرّ الجمر ؛ كما لم يؤمنوا فى الدنيا . ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ فى الدنيا ، أى نمهلهم ولا نعاقبهم ؛ فبعض الآية فى الآخرة ، وبعضها فى الدنيا . ونظيرها « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ »(٢) فهذا فى الآخرة . « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » فى الدنيا . وقيل : ونقلب فى الدنيا ؛ أى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حُلْنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ؛ لمّا دعوتَهم وأظهرتَ المعجزة . وفى التنزيل : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ »(٣) . والمعنى : كان ينبغى أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم ؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبهم وأبصارهم . ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ودخلت الكاف على محذوف ، أى فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة ؛ أى أول مرة أتتهم الآيات التى عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره . وقيل : ونقلّب أفئدة هؤلاء كيلا يؤمنوا ؛ كما لم تؤمن كفار

---

(١) آية ٩٥ سورة الأنبياء . (٢) آية ٢ سورة الغاشية . (٣) آية ٢٤ سورة الأنفال .

الأمم السالفة لما رأوا ما اقترحوا من الآيات . وقيل : فى الكلام تقـديم وتأخير ؛ أى أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أوّل مرة ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم . ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون . وقد مضى فى «البقرة»(١) .

قوله تعـالى : وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ فرأوهم عِياناً . ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ﴾ بإحيائنا إيّاهم . ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ سألوه من الآيات . ﴿ قِبَلًا ﴾ مُقابلة ؛ عن ٱبن عباس وقَتادة وابن زيد . وهى قراءة نافع وٱبن عامر . وقيل : معاينة ، لما آمنوا . وقال محمد بن يزيد : يكون « قِبلا » بمعنى ناحية ؛ كما تقول : لى قِبَل فلان مالٌ ؛ فقِبَلا نصب على الظرف . وقرأ الباقون «قُبُلًا» بضم القاف والباء ، ومعناه ضُمَناء ؛ فيكون جمع قبيل بمعنى كفيل ، نحو رغيف ورُغُف ؛ كما قال : «أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»(٢) ؛ أى يضمنون ؛ ذلك عن الفَرّاء . وقال الأخفش : هو بمعنى قَبِيل قَبِيل ؛ أى جماعة جماعة ، وقاله مجاهد ، وهو نصب على الحال على القولين . وقال محمد بن يزيد « قُبُلا » أى مقابلة ؛ ومنه « وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ » . ومنه قُبُل الرَّجل ودُبُره لما كان من بين يديه ومن ورائه . ومنه قُبُل الحيض . حكى أبو زيد : لقِيت فلانا قُبُلا ومقابلة وقَبَلا وقِبَلا ، كله بمعنى المواجهة ؛ فيكون الضم كالكسر فى المعنى وتستوى القراءتان ؛ قاله مكّيّ . وقرأ الحسن « قُبْلًا » حذف الضمة من الباء لثقلها . وعلى قول الفَرّاء يكون فيـه نطق ما لا ينطق ، وفى كفالة ما لا يعقل آية عظيمـة لهم . وعلى قول الأخفش يكون فيه اجتماع الأجناس الذى ليس بمعهود . والحشر الجمـع . ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ « أن » فى موضع استثناء ليس من الأوّل ؛ أى لكن إن شاء ذلك لهم . وقيل :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٩٢ سورة الإسراء .

الاستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم فى علم الله الإيمان . وفى هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أى يجهلون الحق . وقيل : يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الايات بعد أن رأوا آية واحدة .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ يعزّى نبيّه ويُسلّيه، أى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبى قَبْلك « عَدُوًّا » أى أعداء. ثم نعتهم فقال ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ حكى سيبويه جعل بمعنى وصف . « عَدُوًّا » مفعول أوّل . « لِكُلِّ نَبِيٍّ » فى موضع المفعول الثانى . «شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» بدل من عدو . ويجوز أن يكون «شياطين» مفعولا أوّل ، « عدوّا » مفعولا ثانيا ؛ كأنه قال : جعلنا شياطين الإنس والجن عدوّا . وقرأ الأعمش « شياطين الجن والإنس » بتقديم الجن . والمعنى واحد . ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ عبارة عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس . وسُمّى وَحْيًا لأنه إنما يكون خُفية، وجعل تمويههم زُخرفا لتزيينهم إياه؛ ومنه سُمّىَ الذهب زخرفا . وكل شىء حسَن مُمَوَّه فهو زُخْرُف . والمزخرَف المزيّن . وزخارف الماء طرائقه . «غرورا» نصب على الحال، لأن معنى « يُوحِى بعضهُم إلى بعض » يغرونهم بذلك غرورا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال . والغرور الباطل . قال النحاس : وروى عن ابن عباس بإسناد ضعيف أنه قال فى قول الله عز وجل «يُوحِى بعضهُم إلى بعض» قال: مع كل جنىّ شيطان، ومع كل إنسىّ شيطان ، فيلقَى أحدهما الآخر فيقول : إنى قد أضللتُ صاحبى بكذا فأضلّ صاحبك بمثله . ويقول الآخر مثلَ ذلك ؛ فهذا وَحْىُ بعضهم إلى بعض. وقاله عكرمة والضحاك

والسُّــدّى والكَلْبى . قال النحاس : والقول الأول يدل عليــه « وإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ »(١)، فهذا يبيّن معنى ذلك .

قلت : ويدلّ عليه من صحيح السُّنّة قولُه عليه السلام : "ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قَرِينُــه من الجن" قيل : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : "ولا أنا إلا أنّ الله أعاننى عليه فأَسْلَمُ فلا يأمرنى إلا بخير". روى "فأسلم" برفع الميم ونصبها . فالرفع على معنى فأسلم من شره . والنصب على معنى فأســلم هو . فقال : "ما منكم من أحد" ولم يقل ولا من الشياطين؛ إلا أنه يحتمل أن يكون نبّه على أحد الجنسين بالآخر؛ فيكون من باب «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»(٢) وفيه بُعْــدٌ، والله أعلم . وروى عَوف بن مالك عن أبى ذَرٍّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "يا أبا ذَرّ هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجن"؟ قال قلت : يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال : "نعم هم شرٌّ من شياطين الجن". وقال مالك بن دِينار : إن شيطان الإنس أشدّ علىّ من شيطان الجن، وذلك أنى إذا تعوّذت بالله ذهب عنى شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرّنى إلى المعاصى عِيانا . وسَمِع عمر بن الخطاب آمرأة تُنشد :

إن النساء رَياحينٌ خلقن لكم * وكلُّكم يشتهى شمّ الرياحين

فأجابها عمر رضى الله عنه :

إن النساء شياطينٌ خُلقن لنا * نعــوذ بالله من شرّ الشياطين

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى ما فعلوا إيحاء القول بالغرور . ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أمْرٌ فيه معنى التهديد . قال سيبويه : ولا يقال وذر ولا ودع، استغنَوْا عنه بترك .

قلت : هذا إنما خرّج على الأكثر . وفى التنزيل «وذَرِ الذين»(٣) و «ذَرْهم» و «ما ودَعك» . وفى السنة "لينتهِينّ أقوام عن وَدْعِهم الجُمُعات" . وقوله : "إذا فعلوا — يريد المعاصى —

---

(١) آية ١٢١ من هذه السورة . (٢) آية ٨١ سورة النحل . (٣) يلاحظ أن الفعل فى « وذر الذين » و « ذرهم » أمر، ولا يتجه بهما ما ذكره قول المؤلف . فلعل فى الكلام سهوا ؛ والعصمة لله .

فقد تُودِّع منهم". قال الزجاج : الواو ثقيلة؛ فلما كان «ترك» ليس فيه واو بمعنى ما فيه الواو تُرِك ما فيه الواو . وهذا معنى قوله وليس بنصّه .

قوله تعالى : ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ﴾ تصغى تميل؛ يقال: صغوت أَصْغُو صَغْوًا وصُغُوًّا، وصَغَيت أصغى، وصَغِيت بالكسر أيضا . يقال منه : صغِي يَصْغَى صغًى وصُغِيًّا، وأصغيت إليه أصغِي بمعنًى . قال الشاعر :

تَرَى السّفيه به عن كلّ مَكْرُمة * زَيْغٌ وفيه إلى التشبيه إصغاء

و يقال : أصغيت الإناء إذا أملته ليجتمع ما فيـه . وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض . ومنه صَغَت النجوم : مالت للغروب . وفى التنزيل « فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا »(١) . قال أبو زيد : صَغْوُه معك وصِغْوُه، وصَغاه معك، أى مَيْله . وفى الحـديث "فأصْغَى لهـا الإناء" يعنى للهرة . وأكرموا فلانا فى صاغِيَته ، أى فى قرابته الذين يميلون إليه و يطلبون ما عنده . وأصغت الناقـة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئا حين يَشُدّ عليهـا الرَّحْل . قال ذو الرُّمَّة :

تُصْغِي إذا شَـدّها بالكُورِ(٢) جانِحةً * حتى إذا ما آستوَى فى غَرْزِها تَثِبُ

واللام فى « ولِتَصْغَى » لام كَيْ، والعامل فيهـا « يوحِى » تقـديره : يُوحِى بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصغى . وزعم بعضهم أنها لام الأمر، وهو غلط؛ لأنه كان يجب « ولْتصغ إليه » بحذف الألف، وإنما هى لام كَيْ . وكذلك «ولِيَرْضوه وليقترفوا» إلا أن الحسن قرأ «ولْيرضوه

(١) آية ٤ سورة التحريم . (٢) الكور (بالضم) : رحل الناقة بأداته؛ وهو كالسرج وآلته للفرس . قال ابن سيده : وكثير من الناس يفتح الكاف وهو خطأ . وجانحة : مائلة لاصقة . والغرز : سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب . وصف ناقته بالفطانة وسرعة الحركة .

وليقترفوا» بإسكان اللام، جعلها لام أمر فيه معنى التهديد؛ كما يقال : ما شئت فافعل . ومعنى «وليقترفوا ماهم مقترفون» أى وليكتسبوا؛ عن ابن عباس والسُّدّى وابن زيد . يقال : خرج يقترف أهله أى يكتسب لهم . وقارف فلان هذا الأمر إذا واقعه وعمله . وقَرَفَنى بما آدّعيت علىّ، أى رمينى بالرِّيبة . وقَرف القُرحة إذا قشر منها . وآقترف كَذِبًا . قال رُؤْبة :

أعيا آقتراف الكذب المقروف * تقوى التقىّ وعفّة الضعيف

وأصله اقتطاع قطعة من الشيء .

قوله تعـالى : أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ «غير» نصب بـ«أبتغى» . «حَكَمًا» نصب على البيان، وإن شئت على الحال . والمعنى : أفغير الله أطلب لكم حاكما وهو الذى كفاكم مئونة المسألة فى الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصّل، أى المبين . ثم قيل : الحَكَم أبلغ من الحاكم؛ إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق، لأنها صفة تعظيم فى مدح . والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يُسَمَّى بها من يحكم بغير الحق . ﴿ وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . وقيل: من أسلم منهم كسَلْمَان وصُهيب وعبدِ الله بن سَلام . ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أى القرآن. ﴿ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى أنّ كلّ ما فيه من الوعد والوعيد لَحَقّ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكّين فى أنهم يعلمون أنه منزّل من عند الله . وقال عطاء: الذين آتيناهم الكتاب هم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام: أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم .

قوله تعـالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ ﴾ قرأه أهل الكوفة بالتوحيـد، والباقون بالجمع . قال ابن عباس : مواعيد ربك، فلا مغيّر لها . والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعدوالوعيد وغيرهما . قال قتادة : الكلمات هى القرآن لامبدل له، لايزيد فيه المفترون ولاينقصون . ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أى فيما وعد وحكم، لا رادّ لقضائه ولا خُلْف فى وعده . وحكى الرّمّانى عن قتادة : لامبدّل لها فيما حكم به؛ أى أنه وإن أمكنه التغيير والتبديل فى الألفاظ كما غيّر أهل الكتاب التوراةَ والإنجيل فإنه لايعتدّ بذلك . ودلّت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لايمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لايخفى عليه شيء من الأمور .

قوله تعـالى : وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى الكفار . ﴿ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ﴾ أى عن الطريق التى تؤدّى إلى ثواب الله . ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ « إِنْ » بمعنى ما، وكذلك ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يَحْدُسون ويقدرون؛ ومنه الخَرْص، وأصله القطع . قال الشاعر :

تَرَى قِصَـدَ المُرّان فينا كأنه * تَذَرُّعُ خرصانٍ بأيدى الشّواطِبِ (١)

يعنى جريدا يُقطع طولا ويُتّخذ منه الحصر . وهو جمع الخرص ؛ ومنـه خَرَص يَخْرُص النخل خَرْصا إذا حزره ليأخذ الخَراج منه . فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به؛ إذ لايقين معه .

(١) البيت لقيس بن الخطيم . والقصد (بكسر القاف وفتح الصاد جمع قصدة) : القطعة مما يكسر . والمرّان : نبات الرماح . أو الرماح الصلبة اللدنة . والتذرع : تقدير الشيء بذراع اليـد . والخرصان : القضبان من الجريد . والشواطب (جمع الشاطبة) وهى المرأة التى تقشر العسيب ثم تلقيه إلى المنقية فتأخذ كل ما عليـه بسكينها حتى تتركه رقيقا ثم تلقيه المنقية إلى الشاطبة ثانية فتشطبه على ذراعها وتتذرعه . وقوله « فينا كأنه » عبارة الأصول . والذى فى اللسان « تلق كأنه » وفى ديوانه « تهوى كأنها » .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في «الذاريات»(١) إن شاء الله تعالى. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ قال بعض الناس : إن « أعلم » هنا بمعنى يعلم؛ وأنشد قول حاتم الطائي :

تحالفتْ طيِّئٌ من دوننا حِلِفًا * والله أعلم ما كنا لهم خُذُلًا(٢)

وقول الخنساء :

الله أعلم أنّ جَفْنته * تغدو غداةَ الريح أو تَسْرِى

وهذا لا حجة فيه؛ لأنه لا يطابق «وهو أعلم بالمهتدين» . ولأنه يحتمل أن يكون على أصله . ﴿ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ «من» بمعنى أيّ؛ فهو في محل رفع والرافع له «يضل» . وقيل : في محل نصب بأعلم، أي إن ربّك أعلم أيّ الناس يضل عن سبيله . وقيل : في محل نصب بنزع الخافض؛ أي بمن يضل . قال بعض البصريين : وهو حَسَن؛ لقوله : «وهو أعلم بالمهتدين» وقوله في آخر النّحل « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » . وقرئ « يُضِلّ » وهذا على حذف المفعول، والأوّل أحسن؛ لأنه قال « وهو أعلم بالمهتدين » . فلو كان من الإضلال لقال وهو أعلم بالهادين .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ نزلت بسبب أناس أَتَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله؟ فنزلت «فكلوا — إلى قوله — وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» خرجه الترمذيّ وغيره . قال عطاء : هذه الآية أمرٌ بذكر ٱسم الله على الشّراب والذبح وكلّ مطعوم . وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِه مُؤْمِنِين ﴾ أي بأحكامه وأوامره آخذين؛ فإن الإيمان بها يتضمّن ويقتضي الأخذ بها والآنقياد لها .

(١) في قوله تعالى : « قتل الخراصون » آية ١٠ .

(٢) في الأصول : «خولا» بالواو بدل الذال . والتصويب عن تفسير الطبري . والخذل : جمع خذول .

قوله تعالى : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ المعنى : ما المانع لكم من أكل ما سمّيتم عليه ربّكم وإن قتلتموه بأيديكم . ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ ﴾ أى بيّن لكم الحلال من الحرام، وأزيل عنكم اللبس والشك . فـ«ما» استفهام يتضمن التقرير. وتقدير الكلام : وأى شئ لكم فى ألا تأكلوا. فـ«أنْ» فى موضع خفض بتقدير حرف الجر . ويصحّ أن تكون فى موضع نصب على ألا يقدّر حرف جر، ويكون الناصب معنى الفعل الذى فى قوله «مَالَكُمْ» تقديره أى ما يمنعكم. ثم استثنى فقال ﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ يريد من جميع ما حرّم كالميتة وغيرها كما تقدّم فى «البقرة»(١). وهو استثناء منقطع . وقرأ نافع ويعقوب «وقد فَصّل لكم ما حَرّم» بفتح الفعلين . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما ، والكوفيون «فَصّل» بالفتح «حُرّم» بالضم . وقرأ عطية العَوْفى «فَصَل» بالتخفيف . ومعناه أبان وظهر؛ كما قرئ «الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ»(٢) أى آستبانت . واختار أبو عبيدة قراءة أهل المدينة . وقيل : «فصل» أى بيّن، وهو ما ذكره فى سورة «المائدة» من قوله : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ»(٣) الآية .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإن «الأنعام» مكية والمائدة مدنية فكيف يحيل بالبيان على مالم ينزل بعد، إلا أن يكون فصّل بمعنى يفصّل . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيَضِلُّونَ ﴾ وقرأ الكوفيون «يُضلون» من أضل . ﴿ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعنى المشركين حيث قالوا : ما ذبح الله بسكّينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى بغير علم يعلمونه فى أمر الذبح؛ إذ الحكمة فيه إخراج ما حرّم الله علينا من الدم بخلاف ما مات حَتْف أنفه؛ ولذلك شرع الذكاة فى محل مخصوص ليكون الذبح فيه سببا لجذب كل دم فى الحيوان بخلاف غيره من الأعضاء . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٢٤ طبعة ثانية . (٢) أول سورة هود . (٣) آية ٣

قوله تعالى : وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ للعلماء فيه أقوال كثيرة . وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملا بالبدن مما نهى الله عنــه ، وباطنه ما عُقد بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر ونهى؛ وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من آتقى وأحسن؛ كما قال : «ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا» . وهي المرتبة الثالثة حسب ما تقدّم بيانه في « المائدة »[1] . وقيل : هو ما كان عليه الجاهلية من الزنا الظاهر وآتخاذ الحلائل في الباطن . وما قدّمنا جامع لكل إثم .

قوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — روى أبو داود قال: جاءت اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله عز وجل «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» إلى آخر الآية . وروى النّسائي عن ابن عباس في قوله تعــالى : « ولا تأكلوا ممــا لم يذكر اسم الله عليه» قال . خاصمهم المشركون[2] فقالوا : ماذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم أكلتموه؛ فقال الله سبحانه لهم: لا تأكلوا؛فإنكم لم تذكروا آسم الله عليها . وتنشأ هنا مسألة أصولية ،وهي:

الثانيـــة — وذلك أن اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليــه أم لا ؛ فقال علماؤنا : لا إشكال في صحة دعوى العموم فيما يذكره الشارع ابتداء من صِيَغ ألفاظ العموم . أما ماذكره

(١) في قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٩٣ .
(٢) أي خاصم المؤمنين المشركون .

جوابا لسؤال ففيه تفصيل، على ما هو معروف فى أصول الفقه؛ إلا أنه إن أتى بلفظ مستقل دون السؤال لَحِق بالأوّل فى صحة القصد إلى التعميم . فقوله : « لاتأكلوا » ظاهر فى تناول الميتة، ويدخل فيه ما ذُكر عليه غيرآسم الله بعمومِ أنه لم يذكر عليه آسم الله، وبزيادة ذكر غير اسم الله سبحانه عليه الذى يقتضى تحريمه نصًّا بقوله : «وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ»[1] . وهل يدخل فيه ما ترك المسلم التسمية عمدا عليه من الذبح، وعنـد إرسال الصـيد . اختلف العلماء فى ذلك على أقوال خمسة ، وهى : —

الثالثـــة — الأول — إن تركها سهوًا أُكِلا جميعا؛ وهو قول إسحاق ورواية عن أحمد ابن حنبل . فإن تركها عمدا لم يؤكلا ؛ وقاله فى الكتاب مالكٌ وابن القاسم ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابِه والثّورِىّ والحسن بن حىّ وعيسى وأَصْبَغ، وقاله سعيد بن جُبير وعطاء، وآختاره النحاس وقال : هذا حَسَن؛ لأنه لا يُسَمَّى فاسقا إذا كان ناسيا .

الثـانى — إن تركها عامدا أو ناسيا يأكلهما . وهو قول الشافعى والحسن، وروى ذلك عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء وسعيد بن المسيِّب والحسن وجابر بن زيد وعِكرمة وأبى عِياض وأبى رافع وطاوس وإبراهيم النَّخَعِىّ وعبد الرحمن بن أبى لَيْلَى وقَتادة . وحكى الزَّهْرَاوِىّ عن مالك بن أنس أنه قال : تؤكل الذبيحة التى تركت التسمية عليها عمدا ونسيانا . وعن ربيعة أيضا . قال عبد الوهاب : التسمية سنة؛ فإذا تركها الذابح ناسيا أكلت الذبيحة فى قول مالك وأصحـابه .

الثـالث — إن تركها عامدا أو ساهيا حَرُم أكلها ؛ قاله محمد بن سيرين وعبد الله بن عياش ابن أبى ربيعة وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن يزيد الخَطْمِىّ والشعبىّ؛ وبه قال أبو ثور وداود بن علىّ وأحمد فى رواية .

الرابــع — إن تركها عامدًا كُره أكلها ؛ قاله القاضى أبو الحسن والشيخ أبو بكر من علمائنا .

(١) آية ١٧٣ سورة البقرة .

الخامس — قال أشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدًا إلا ان يكون مستخفًّا ، وقال نحوه الطبرى، قال الله تعالى : «فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» . وقال « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » فبيّن الحالين وأوضح الحكمين . فقوله « لا تأكلوا » نهيٌ على التحريم لا يجوز حمله على الكراهة ؛ لتناوله فى بعض مقتضياته الحرام المحض ، ولا يجوز أن يتبعّض ، أى يراد به التحريم والكراهة معًا ؛ وهذا من نفيس الأصول . وأما النّاسى فلا خطاب توجّه إليه إذ يستحيل خطابه؛ فالشرط ليس بواجب عليه . واما التارك للتسمية عمدا فلا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يتركها إذا أضجع الذبيحة ويقول : قلبى مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده فلا أفتقر إلى ذكرٍ بلسان ؛ فذلك يجزئه لأنه ذكر الله جَلّ جلاله وعظّمه . أو يقول : إن هذا ليس بموضع تسْمية صريحة، إذ ليست بقُرْبة ؛ فهذا أيضا يجزئه . أو يقول : لا أسمى ، وأىّ قدر للتسمية؛ فهذا متهاون فاسق لا تؤكل ذبيحته . قال ابن العربىّ . وأعجب لرأس المحققين إمامِ الحرمين حيث قال : ذِكر الله تعالى إنما شُرع فى القُرَب، والذّبح ليس بقُرْبة . وهذا يعارض القرآن والسنة؛ قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : " ما أنهر الدّمَ وذُكِر ٱسم الله عليه فَكُلْ " . فان قيل : المراد بذكر ٱسم الله بالقلب؛ لأن الذكر يضادّ النسيان ومحل النسيان القلب فمحل الذكر القلب ، وقد روى البَرَاء ابن عازب : اسم الله على قلب كل مؤمن سَمَّى أو لم يسمّ . قلنا : الذكر باللسان و بالقلب ، والذى كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنُّصُب باللسان ، فنسخ الله ذلك بذكره فى الالسنة ، وٱشتهر ذلك فى الشريعة حتى قيل لمالك : هل يُسَمّى الله تعالى إذا توضأ فقال : أيريد أن يذبح . وأما الحديث الذى تعلّقوا به من قوله : « ٱسم الله على قلب كل مؤمن » فحديث ضعيف . وقد استدلّ جماعة من أهل العلم على أن التسمية على الذبيحة ليست بواجبة؛ لقوله عليه السلام لأناس سألوه، قالوا : يارسول الله، إنّ قومًا يأتوننا باللّحم لاندرى أذَكروا ٱسم الله عليه أم لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَمّوا الله عليه وكُلُوا" . أخرجه الدّارَقُطْنىّ عن عائشة ومالك مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيه ، لم يُختلف عليه فى إرساله .

وتأوّله بأن قال فى آخره : وذلك فى أوّل الإسـلام . يريد قبل أن ينزل عليـه « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّـا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » . قال أبو عمر : وهـذا ضعيف ؛ وفى الحديث نفسه ما يردّه ؛ وذلك أنه أمرهم فيـه بتسمية الله على الأكل ؛ فدلّ على أن الآية قد كانت نزلت عليـه . ومما يدلّ على صحة ما قلناه أن هذا الحديث كان بالمدينة، ولا يختلف العلماء أن قوله تعالى : «ولا تأكلوا مما لم يُذْكَرِ آسم الله عليه» نزل فى سورة «الأنعام» بمكة . ومعنى ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ أى لمعصية؛ عن ابن عباس . والفِسْق : الخروج؛ وقد تقدّم (1) .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِـمْ ﴾ أى يُوَسْوِسون فيُلقون فى قلوبهم الجدال بالباطل . روى أبو داود عن ابن عباس فى قوله « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهـم » يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم فكُلُوه ، فأنزل الله « ولا تأكلوا مِمّـا لم يُذْكَرِ آسمُ اللهِ عليـه » قال عِكرمة : عنى بالشياطين فى هذه الآية مَرَدة الإنس من مَجُوس فارس . وقال ابن عباس وعبد الله بن كثير : بل الشياطين الجنّ، وكفرة الجن أولياء قريش . ورُوى عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له : إن المختار يقول : يُوحَى إلىّ؛ فقال : صدق ، إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . يريد ما قتـل الله لم تأكلوه وما قتلتموه أكلتموه . والمجادلة : دفع القول على طريق الحجة بالقوّة ؛ مأخوذ من الأجدل ، طائر قوىّ . وقيل : هو مأخوذ من الجَدالة ، وهى الأرض؛ فكأنه يغلبه بالحجة ويقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض . وقيل : هو مأخوذ من الجَدْل، وهو شدة الفَتْل؛ فكأن كلّ واحد منهما يفتِل حجـة صاحبه حتى يقطعها ، وتكون حقا فى نصرة الحـق وباطلا فى نصرة البـاطل .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ أى فى تحليل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ . فدلّت الآية على أن من آستحلّ شيئا مما حرّم الله تعالى صار به مُشركًا . وقد حرّم الله سبحانه الميتة نَصًّا؛ فإذا قَبِل تحليلها من غيره فقد أشرك . قال ابن العربىّ : إنما يكون المؤمن بطاعة

---

(1) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

المشرك مشركا إذا أطاعه فى الاعتقاد ؛ فإن أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاصٍ؛ فافهموه . وقد مضى فى « المـائدة »(١) .

قوله تعالى : أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو ، دخلت عليها همزة الاستفهام . وروى المُسَيَّبى عن نافع بن أبى نعيم « أَوْ مَنْ كَانَ » بإسكان الواو . قال النحاس : يجوز أن يكون محمولا على المعنى ، أى انظروا وتدبروا أغير الله أبتغى حكما . ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قيل : معناه كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه؛ حكاه ابن بحر . وقال ابن عباس : أو من كان كافرا فهديناه . نزلت فى حمزة بن عبد المطلب وأبى جهل . وقال زيد بن أسلم والسُّدّى : « فأحييناه » عمر . « كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ » أبو جهل . والصحيح أنها عامة فى كل مؤمن وكافر . وقيل : كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم . وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء العرب :

وفى الجهل قبل الموت موتٌ لأهله * فأجسامهم قبل القبور قبور
وإنّ امرأ لم يَحْىَ بالعلم ميّت * فليس له حتى النشور نشور

والنُّور عبارة عن الهُدَى والإيمان . وقال الحسن : القرآن . وقيل : الحكمة . وقيل : هو النور المذكور فى قوله : « يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ »(٢)، وقوله : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »(٣) . ﴿يَمْشِى بِهِ﴾ أى بالنور . ﴿فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ﴾ أى كمن هو ؛ فمثل زائدة . تقول: أنا أكرم مثلك؛ أى أكرم منك . ومثله « فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ »(٤)،

(١) راجع آية ٨١ . (٢) آية ١٢ سورة الحديد . (٣) آية ١٣ سورة الحديد .
(٤) آية ٩٥ سورة المـائدة .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[1] . وقيل : المعنى كمن مثله مثل من هو فى الظلمات . والمثَل والمثْل واحد . ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى زين لهم الشيطان عبادةَ الأصنام، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ المعنى : وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا فى كل قرية . ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أول لجعل ﴿ أَكَابِرَ ﴾ الثانى على التقديم والتأخير . وجعل بمعنى صير . والأكابر جمع الأكبر . قال مجاهد : يريد العلماء . وقيل : الرؤساء والعظماء . وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والمكر والحيلة فى مخالفة الاستقامة . وأصله الفتل؛ فالماكر يفتِل عن الاستقامة أى يصرف عنها . قال مجاهد : كانوا أجلسوا على كل عقبة أربعةً ينفّرون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم . ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أى وبالُ مكرهم راجعٌ إليهم . وهو من الله عز وجل الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ فى الحال؛ لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم .

قوله تعالى : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ ﴾ بيّن شيئا آخر من جهلهم، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنؤتَى مثل ما أوتى موسى وعيسى من الآيات؛ ونظيره «بَلْ يُرِيدُ

(١) آية ١١ سورة الشورى .

كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً(١) » . والكناية فى « جاءتهم » ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم . قال الوليد بن المغيرة : لوكانت النبوّة حقًّا لكنت أَوْلَى بها منك؛ لأنى أكبر منك سِنًّا، وأكثر منك مالا . وقال ابو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا ، إلا أن يأتينا وَحْيٌ كما يأتيه ؛ فنزلت الآية . وقيل : لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك . والأوّل أصح؛ لأن الله تعالى قال : «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ » أى بمن هو مأمون عليها وموضع لها . و «حيث » ليس ظرفا هنا ، بل هو اسم نُصب نَصب المفعول به على الاتساع ؛ أى الله أعلم أهل الرسالة . وكان الأصل الله أعلم بمواضع رسالته ، ثم حذف الحرف ، ولا يجوز أن يعمل «أعلم» فى «حيث» و يكون ظرفا ،لأن المعنى يكون على ذلك الله أعلم فى هذا الموضع ، وذلك لا يجوز أن يوصف به البارى تعالى ، وإنما موضعها نصب بفعل مضمر دَلّ عليه «أعلم» . وهى اسم كما ذكرنا . والصَّغار : الضَّيْم والذل والهوان ، وكذا الصُّغر (بالضم) . والمصدر الصَّغَر (بالتحريك) . وأصله من الصِّغَر دون الكبر ؛ فكأن الذلّ يصغر إلى المرء نفسه ، وقيل : أصله من الصَّغَر وهو الرضا بالذل ؛ يقال منه : صَغَر يَصْغُر بفتح العين فى الماضى وضمها فى المستقبل . وصَغِر بالكسر يَصْغَر بالفتح لغتان ، صَغَرًا وصَغارا ، واسم الفاعل صاغِر وصغِير . والصاغر : الراضى بالضيم . والمَصْغُوراء الصَّغار . وأرض مُصْغِرَة : نبتها لم يَطُل ؛ عن ابن السِّكِّيت . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى من عند الله ، فحذف . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى سيصيب الذين أجرموا عند الله صغار . الفراء : سيصيب الذين أجرموا صغار من الله . وقيل : المعنى سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت عند الله . قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال ؛ لأن « عند » فى موضعها .

قوله تعالى : فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

(١) آية ٥٢ سورة المدثر .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أى يوسعه له ، و يوفقه و يزين عنده ثوابه . و يقال : شرح شق ، وأصله التوسعة . وشرح الله صدره وسّعه بالبيان لذلك . وشرحتُ الأمر: بيّنته وأوضحته . وكانت قريش تَشْرَح النساء شَرْحا ، وهو مما تقدّم من التّوسعة والبَسْط ، وهـو وطء المرأة مستلقِيَةً على قَفاها . فالشّرح : الكشف ؛ تقول : شرحت الغامض ؛ ومنه تشريح اللحم . قال الراجز :

كم قد أكلتُ كَبِدًا و إنْفَحهْ * ثم ٱدّخرت إلْيَــةً مُشَرَّحَهْ

والقطعة منه شريحة . وكل سمين من اللحم ممتد فهو شريحة . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ ﴾ يُغوِيه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ وهــذا ردّ على القدرية . ونظير هذه الآية من السُّـنّة قوله عليه السلام : "من يُرِدِ الله به خيرا يفقّهه فى الدِّين" أخرجه الصحيحان . ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنو يره . والدِّينُ العبادات ؛ كما قال : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» . ودليل خطابه أن مَن لم يُرد الله به خيرا ضيّق صدره ، وأبعد فهمه فلم يفقهه . والله أعلم . وروى أن عبد الله بن مسعود قال : يا رسول الله، وهل ينشرح الصــدر؟ فقال : " نعم يدخل القلبَ نور " فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صــلى الله عليه وسـلم : "التَّجافِى عن دار الغرور والإنابةُ إلى دار الخلود والاسـتعدادُ للموت قبــل نزول الموت " . وقرأ ابن كثير « ضَيْقًا » بالتخفيف؛ مثل هَيْن ولَيْن لغتان . ونافـع وأبو بكر « حَرِجًا » بالكسر ، ومعناه الضّيق . كرر المعنى ، وحَسُن ذلك لاختلاف اللفظ . والباقون بالفتح . جمـع حرجة ؛ وهو شــدّة الضِّيق أيضا . والحَــرَجة الغَيْضَة؛ والجمع حَرَج وحَرَجات . ومنه فلان يتحرّج أى يضيّق على نفسه فى تركه هواه للعاصى؛ قاله الهَرَوِى . وقال ٱبن عباس : الحَرَج موضع الشجر الملتفّ؛ فكأنّ قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضـع الذى ٱلتفّ شجره . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا المعنى؛ ذكره مَكِّيّ والثّعلبي وغيرهما . وكل ضيّق حَرِجٌ وحَرَج . قال الجوهرى : مكان حَرِج وحَرَج أى ضـيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية . وقرئ «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» و «حَرِجًا» . وهو بمنزلة الوَحَد والوَحِد والفَرَد والفَرِد

والدَّنَف والدَّنِف، فى معنًى واحد، وحكاه غيره عن الفراء . وقد حَرِج صدره يَحْرَج حَرَجًا . والحَرَج الإثم . والحرج أيضا : الناقـة الضامرة . ويقال : الطويلة على وجه الأرض؛ عن أبى زيد، فهو لفظ مشترك . والحَرَج : خشب يُشَدّ بعضه إلى بعض يُحمل فيه الموتى؛ عن الأصمعيّ . وهو قول آمرئ القيس :

فإمّا تَرَيْـــنِى فى رِحالة جابرٍ * على حَرَج كالقَرّ تَخْفق أكفانى (١)

وربمـا وضع فوق نعش النساء؛ قال عنترة يصف ظليما :

يَتْبعْن قُــلّةَ رأسِـــه وكأنه * حَرَج على نَعْش لَهُنّ مُخَـــيِّم (٢)

وقال الزجاج : الحَرَج : أضْيق الضِّيق . فإذا قيل . فلان حَرَج الصدر ، فالمعنى ذو حَرَج فى صدره . فإذا قيل : حرِج فهو فاعل . قال النحاس : حرِج آسم الفاعل، وحرج مصدر وُصف به ؛ كما يقال : رجل عَدْلٌ ورضًا .

قوله تعـالى : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّـعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ قرأه آبن كثير بإسـكان الصاد مخفّفًا، من الصعود وهو الطلوع . شـبه الله الكافر فى نفوره من الإيمـان وثِقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يُطيقه ؛ كما أن صعود السماء لا يُطاق . وكذلك يصّاعد وأصله يتصاعد، أدغمت التاء فى الصاد، وهى قراءة أبى بكر والنَّخَعِى؛ إلا أن فيه معنى فعلِ شيء بعد شيء، وذلك أثقل على فاعله . وقرأ الباقون بالتشديد من غير ألف ، وهو كالذى قبله . معناه يتكلف ما لا يطيق شيئا بعد شيء؛ كقولك : يتجرّع ويتفوّق (٣) . ورُوى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « كأنما يتصعّد » . قال النحاس : ومعنى هذه القراءة وقراءةِ من قرأ يَصْعَد ويصّاعد واحد . والمعنى فيهما أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدِر على ذلك ؛ فكأنه

---

(١) أراد بالرحالة الخشب الذى يحمل عليه فى مرضه . وأراد بالأكفان ثيابه التى عليه ؛ لأنه قدر أنها ثيابه التى يدفن فيها . وخفقها ضرب الريح لهـا . وأراد بجابر جابر بن حنى التغلبى ، وكان معه فى بلاد الروم ، فلما آشـتدت علته صنع له من الخشب شيئا كالقرّ يحمل فيـه ، والقر : مركب من مراكب الرجال بين الرحل والسرج . (عن اللسان مادة حرج) .

(٢) وصف نعامة يتبعها رئالها وهو يبسط جناحيه ويجعلها تحته .

(٣) تفوّق شرابه : شربه شيئا بعد شيء .

يستدعى ذلك . وقيل : المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نَبْوًا عن الإسلام . ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ ﴾ عليهم ؛ بجعله ضيق الصدر فى أجسادهم . وأصل الرِّجس فى اللغة النّتن . قال ابن زيد : هو العذاب . وقال ابن عباس : الشيطان ؛ أى يسلّطه عليهم . وقال مجاهد : الرّجس ما لا خير فيه . وكذلك الرجس عند أهل اللغة هو النتن . فمعنى الآية والله أعلم : ويجعل اللّعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿ على الذين لا يؤمنون ﴾ .

قوله تعالى : وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ أى هذا الذى أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربّك لا ٱعوجاج فيه . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ ﴾ أى بيّناها ﴿ لقوم يذكرون ﴾ .

قوله تعالى : لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ أى للتذكرين . ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾ أى الجنة ، فالجنة دار الله ؛ كما يقال : الكعبة بيت الله . ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة ، أى التى يسلم فيها من الآفات . ومعنى ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله . ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ أى ناصرهم ومُعينهم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ نصب على الفعل المحذوف، أى ويوم يحشرهم يقول . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . والمراد حشر جميع الخلق فى موقف القيامة . ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ نداء مضاف . ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أى من الاستمتاع بالإنس ؛ فحذف المصدر المضاف إلى المفعول، وحرف الجر؛ يدلّ على ذلك قوله : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ وهذا يردّ قول من قال : إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس؛ لأن الإنس قَبِلوا منهم . والصحيح أن كل واحد مستمتع بصاحبه . والتقدير فى العربية : استمتع بعضنا بعضا ؛ فاستمتاع الجن من الإنس انهم تلذّذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذّذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زَنَوْا وشربوا الخمور بإغواء الجن إيّاهم . وقيل : كان الرجل إذا مرّ بوادٍ فى سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ بربّ هذا الوادى من جميع ما أحذر . وفى التنزيل « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »(١) . فهذا استمتاع الإنس بالجنّ . وأما استمتاع الجنّ بالإنس فما كانوا يُلقون إليهم من الأراجيف والكَهانة والسِّحر . وقيل : استمتاع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجنّ يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون . ومعنى الآية تقريع الضّالين والمضِلين وتوبيخهم فى الآخرة على أعين العالمين. ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ يعنى الموت والقبر، ووافينا نادمين . ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ أى موضع مُقامكم . والمَثْوَى المُقام . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء ليس من الأوّل . قال الزجاج : يرجع إلى يوم القيامة، أى خالدين فى النار إلا ماشاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم فى الحساب ؛ فالاستثناء منقطع . وقيل : يرجع الاستثناء إلى النار، أى إلا ما شاء الله من تعذيبكم بغير النار فى بعض الأوقات . وقال ابن عباس : الاستثناء لأهل الإيمان . فـ«ـما» على هذا بمعنى مَن . وعنه أيضا أنه قال : هذه الآية توجب الوقف فى جميع الكفار . ومعنى ذلك أنها توجب الوقف فيمن لم يمت ، إذ قد يُسلم . وقيل : «إلّا ما شاء الله» من كونهم فى الدنيا بغير عذاب . ومعنى هذه الاية معنى الآية التى فى «هود»(٢). قوله : «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ» وهناك يأتى مستوفًى إنّ شاء الله . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ أى فى عقوبتهم وفى جميع أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمقدار مجازاتهم .

(١) آية ٦ سورة الجن . (٢) الآية ١٠٦

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ المعنى وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفته لكم من آستمتاع بعضهم ببعض أجعل بعض الظالمين أولياء بعض، ثم يتبرأ بعضهم من بعض غدًا . ومعنى «نُوَلِّى» على هذا نجعل وليًّا . قال ابن زيد : نسلّط ظلمة الجنّ على ظلمة الإنس . وعنه أيضا : نسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه و يذلّه . وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالمـا آخر . و يدخل فى الآية جميعُ مَن يظلم أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس فى تجارته أو السارق وغيرهم . وقال فُضيل بن عِياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف، وآنظر فيه متعجّبًا . وقال آبن عباس : إذا رضى الله عن قوم وَلّى أمرَهم خيارَهم، و إذا سخط الله على قوم وَلّى أمرهم شرارهم . وفى الخبر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من أعان ظالمـا سلّطه الله عليه " . وقيل : المعنى نَكِل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، كما نَكِلهم غدًا إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب . أى كما نفعل بهم ذلك فى الآخرة كذلك نفعل بهم فى الدنيا . وقد قيل فى قوله تعالى « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى » : نَكِله إلى ما وَكَل إليه نفسه . قال ابن عباس : تفسيرها هو أن الله إذا أراد بقوم شرًّا وَلّى أمرَهم شرارَهم . يدلّ عليه قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »[(١)] .

قوله تعالى : يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أى يوم نحشرهم نقول ألم يأتكم رسل، فحذف ؛ فيعترفون بما فيه افتضاحهم . ومعنى « منكم » فى الخلق والتكليف والمخاطبة . ولما

(١) آية ٣٠ سورة الشورى .

كانت الجن ممن يُخاطب و يعقل قال « منكم » و إن كانت الرســل من الإنس وغلّب الإنس في الخطاب كما يُغلّب المذكر على المؤنث . وقال ابن عباس : رسل الجن هم الذين بلّغوا قومَهم ماسمعوه من الوحى ؛ كما قال : « وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ »(١) . وقال مُقاتِل والضحّاك : أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس . وقال مجاهد : الرسل من الإنس ، والنُّذُر من الجن ؛ ثم قرأ « إلى قومِهم منذِرين » . وهو معنى قولِ ابن عباس ، وهو الصحيح على ما يأتى بيانه فى « الأحقاف »(٢) . وقال الكلبيّ : كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يُبعثون إلى الإنس والجن جميعا .

قلت : وهذا لا يصحّ ، بل فى صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال قال رسول الله صــلى الله عليــه وســلم : " أعطيتُ خمسا لم يُعطهُنّ نبيّ قبلى كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّــةً وبُعثتُ إلى كلّ أحمــرَ وأسـودَ " الحــديث . على ما يأتى بيــانه فى «الأحقاف» . وقال ابن عباس : كانت الرسل تُبعث إلى الإنس وإن محمدا صلى الله عليه وســلم بُعث إلى الجن والإنس ؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ . وقيل : كان قوم من الجن آستمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم ؛ كالحال مع نبينا عليه السلام . فيقال لهم رسل الله ، وإن لم يُنصّ على إرسالهم . وفى التنزيل « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »(٣) أى من أحدهما ، وإنمــا يخرج من المِلح دون العَذْب ، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن ؛ فمعنى «منكم» أى من أحدكم . وكان هذا جائزا ؛ لأن ذكرهما سبق . وقيل : إنما صيّر الرسل فى مخرج اللفظ من الجميع لأن الثَّقَلين قد ضمّتهما عَرْصة القيامة ، والحساب عليهم دون الخلق ؛ فلما صاروا فى تلك العَرْصــة فى حساب واحد فى شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئــذ بمخاطَبة واحدة كأنهم جماعة واحدة ؛ لأن بدء خلقهم للعبودية ، والثوابُ والعِقاب على العبودية ، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار ، وأصلنا من تراب ، وخلقهم غير خلقنا ؛ فمنهم مؤمن وكافر .

(١) فى قوله تعالى : « وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن ... » الخ آية ٢٩ سورة الأحقاف

(٢) فى قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنا سمعنا ... » آية ٣٠ . (٣) آية ٢٢ سورة الرحمن .

وعدوّنا إبليس عدوّ لهم، يعادى مؤمنهم ويُوالِى كافرهم. وفيهم أهواء : شِيعَةٌ وقدريّة ومُرْجِئة يتلون كتابنا . وقد وصف الله عنهم فى سورة « الجن » من قوله : « وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ » . « وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً »(١) على ما يأتى بيانه هناك . «يَقُصُّونَ» فى موضع رفع نعت لرسل . ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أى شهدنا أنهم بلّغوا . ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قيل : هذا خطاب من الله للمؤمنين؛ أى أن هؤلاء قد غرّتهم الحياة الدنيا، أى خدعتهم وظنّوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا . ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى اعترفوا بكفرهم . قال مُقاتل : هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ فى موضع رفع عند سيبويه؛ أى الأمر ذلك . و « أنْ » مخفّفة من الثقيلة ؛ أى إنما فعلنا هذا بهم لأنى لم أكن أهلك القرى بظلمهم ؛ أى بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . وقيل : لم أكن أهلك القرى بشرك من أشرك منهم ؛ فهو مثل «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» . ولو أهلكهم قبل بعثه الرسل فله أن يفعل ما يريد . وقد قال عيسى : «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ»(٢) وقد تقدم. وأجاز الفراء أن يكون « ذلك » فى موضع نصب، المعنى : فعل ذلك بهم ؛ لأنه لم يكن يهلك القرى بظلم .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أى من الجن والإنس ؛ كما قال فى آية أخرى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » ثم قال : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(٣) . وفى هذا ما يدل عن أن المطيع من الجن فى الجنة ، والعاصى منهم فى النار ؛ كالإنس سواء . وهو أصح

(١) آية ١١ ، ١٤ (٢) آية ١١٨ سورة المائدة . (٣) آية ١٨ ، ١٩ سورة الأحقاف .

ما قيـل فى ذلك فاعلمـه . ومعـنى « ولِكُلٍّ درجاتٌ » أى ولكل عامل بطـاعةٍ درجاتٌ فى الثـواب . ولكلّ عاملٍ بمعصية دركاتٌ فى العقاب . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ أى ليس بلاهٍ ولا سَاهٍ . والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره . ﴿ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قرأه ابن عامر بالتاء ، الباقون بالياء .

قوله تعـالى : وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ أى عن خلقه وعن أعمالهم . ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أى بأوليائه وأهل طاعته . ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ بالإماتة والاستئصال بالعذاب . ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ أى خلقا آخر أَمْثَل منكم وأطوع . ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَـومٍ آخَرِينَ ﴾ والكاف فى موضـع نصب ، أى يستخلف من بعـدكم ما يشاء استخلافا مثل ما أنشـأكم ، ونظيره « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ »(١) . « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ »(٢) . فالمعنى يبدّل غيركم مكانكم ، كما تقول : أعطيتك من دينارك ثوبا .

قوله تعـالى : إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يحتمل أن يكون من « أوعدت » فى الشرّ ، والمصدر الإيعاد . والمراد عذاب الآخرة . ويحتمل أن يكون من « وعدت » على أن يكون المـراد الساعة التى فى مجيئها الخير والشر فغلّب الخير . روى معناه عن الحسن . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين ؛ يقال : أعجزنى فلان ، أى فاتنى وغلبنى .

قوله تعـالى : قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

---

(١) آية ١٣٣ سورة النساء . (٢) آية ٣٨ سورة محمد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ وقرأ أبو بكر بالجمع «مكاناتكم» . والمكانة الطريقة . والمعنى : أثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه . فإن قيل : كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار . فالجواب أن هذا تهديد ؛ كما قال عز وجل : « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا »(١) . ودلّ عليه « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أي العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها ، أي من له النصر في دار الإسلام ، ومن له وراثة الأرض ، ومن له الدار الآخرة ، أي الجنة . قال الزجاج : «مكانتكم» تمكّنكم في الدنيا . ٱبن عباس والحسن والنخَعِيّ : على ناحيتكم . القُتَبِيّ : على موضعكم . ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على مكانتي ، لحذف لدلالة الحال عليه . «ومن» من قوله «مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» في موضع نصب بمعنى الذي ؛ لوقوع العلم عليه . ويجوز أن تكون في موضع رفع ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله فيكون الفعل معلقا . أي تعلمون أيّنا تكون له عاقبة الدار ؛ كقوله : « لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى »(٢) وقرأ حمزة والكسائي «من يكون» بالياء .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ فيه مسئلة واحدة :

ويقال : ذرأ يذرأ ذرءا ، أي خلق . وفي الكلام حذف واختصار ، وهو وجعلوا لأصنامهم نصيبا ؛ دلّ عليه ما بعده . وكان هذا مما زيّنه الشيطان وسوّله لهم ، صرفوا من مالهم طائفة إلى الله بزعمهم وطائفة إلى أصنامهم ؛ قاله ٱبن عباس والحسن ومجاهد وقتادة . والمعنى متقارب . جعلوا لله جزءا ولشركائهم جزءا ، فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوّضوا منه ما لله ، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضِّيفان والمساكين لم يعوّضوا منه شيئا ، وقالوا :

(١) آية ٨٢ سورة التوبة .	(٢) آية ١٢ سورة الكهف .

اللهُ مستغنٍ عنه وشركاؤنا فقراء . وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم . والزعم الكذب . قال شُريح القاضى : إن لكل شيء كُنية وكُنيةُ الكذب زعموا . وكانوا يكذبون فى هذه الأشياء لأنه لم يتزل بذلك شرع . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله : « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » . قال ابن العربى : وهذا الذى قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة فى تنويع الحلال والحرام سفاهةً بغير معرفة ولا عدل، والذى تصرّفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظمُ جهلا وأكبرُ جُرْما؛ فإن الاعتداء على الله تعالى أعظمُ من الاعتداء على المخلوقات . والدليــل فى أن الله واحد فى ذاته واحد فى صفاته واحد فى مخلوقاته أبْيَن وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام . وقد رُوى أن رجلا قال لعمرو بن العاصى : إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ! فقال عمرو : تلك عقول كادها باريها . فهذا الذى أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام، وأبطله الله ببعثه الرسول عليــه السلام . فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يَظهر، وننساه حتى لا يُذكر؛ إلا أن ربّنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه، كما ذكر كفر الكافرين به . وكانت الحكمة فى ذلك — والله أعلم — أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة . وقرأ يحيى بن وثّاب والسُّلَمِىّ والأعمش والكسائىّ « بزُعمهم » بضمه الزاى . والباقون بفتحها، وهما لغتان . ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى إلى المساكين . ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى ساء الحُكْم حكمهم . قال ابن زيد : كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ » . فكان تركهم لذكر الله مذموما منهم وكان داخلا فى ترك أكل ما لم يذكر اسمُ الله عليه .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ المعنى : فكما زيّن لهؤلاء أن جعلوا لله نصيبا ولأصنامهم نصيبا كذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم . قال مجاهد وغيره : زيّنت لهم قتل البنات مخافة العَيْلَة . قال الفرّاء والزجاج : شركاؤهم ها هنا هم الذين كانوا يخدُمون الأوثان . وقيل : هم الغُوَاة من الناس . وقيل : هم الشياطين . وأشار بهذا إلى الوَأد الخفيّ وهو دفن البنت حية مخافة السبَاء والحاجة، وعدمِ ما حُرِمْن من النصرة . وسمّى الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فى معصية الله فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم . وقيل : كان الرجل فى الجاهلية يحلف بالله لئن وُلد له كذا وكذا غلاما لينحرَنّ أحدَهم؛ كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبد الله . ثم قيل : فى الآية أربع قراءات ، أصحها قراءة الجمهور : «وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أولادِهِم شُرَكَاؤُهُمْ» وهذه قراءة أهل الحرمين وأهلِ الكوفة وأهل البصرة . «شركاؤهم» رفع بزين؛ لأنهم زَيّنوا ولم يقتلوا . «قَتْلَ» نصب بزين . «وأولادِهم» مضاف إلى المفعول، والأصل فى المصدر أن يضاف إلى الفاعل لأنه أحدثه ولأنه لا يستغنى عنه ويستغنى عن المفعول؛ فهو هنا مضاف إلى المفعول لفظا مضافٌ إلى الفاعل معنًى؛ لأن التقدير زَيّن لكثير من المشركين قتلهم أولادهم شركاؤهم، ثم حذف المضاف وهو الفاعل كما حذفُ من قوله تعالى : « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ »(١) أى من دعائه الخير. فالهاء فاعلة الدعاء، أى لا يسأم الإنسان من أن يدعو بالخير . وكذا قوله : زيّن لكثير من المشركين فى أن يقتلوا أولادهم شركاؤهم. قال مكيّ : وهذه القراءة هى الاختيار لصحة الإعراب فيها ولأن عليها الجماعة . القراءة الثانية «زُيِّن» (بضم الزاى) . «لكثير من المشركين قتلُ» (بالرفع) . «أولادِهم» بالخفض . «شركاؤهم» (بالرفع) قراءة الحسن . ابنُ عامر وأهل الشام « زُيِّنَ » بضم الزاى « لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم » برفع «قتل» ونصب «أولادهم» . «شركائِهم» بالخفض فيما حكى أبو عبيد؛ وحكى غيره عن أهل الشام أنهم قرءوا « وكذلك زُيِّنَ » بضم الزاى « لكثير من المشركين قتلُ »

(١) آية ٤٩ سورة فصلت.

بالرفع « أولادِهم » بالخفض « شركائهـم » بالخفض ايضا . فالقراءة الثانيـة قراءة الحسن جائزة، يكون «قتل» آسم ما لم يُسم فاعله، «شركاؤهم» ؛ رفع بإضمار فعل يدلّ عليه « زُيّنَ » ، أى زيّنه شركاؤهم . ويجوز على هذا ضُرِب زيدٌ عمرٌو، بمعنى ضربه عمرو، وأنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يزيدُ ضارِعٌ لخصومةٍ *

أى يبكيه ضارع . وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية أبى بكر «يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ»(١) التقدير يسبحه رجال . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلة « قُتِل أصحابُ الأُخْدُودِ النَّارُ ذَاتُ الوَقُودِ »(٢) بمعنى قتلهم النار . قال النحاس : وأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز فى كلام ولا فى شعر ، وإنّما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يَفصِل ، فأما بالأسماء غير الظروف فلحن . قال مَكِّىٌّ : وهـذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه ؛ لأنه إنما يجوز مثل هذا التفريق فى الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها وهو فى المفعول به فى الشعر بعيد ، فإجازته فى القراءة أبعد . وقال المهدوىّ : قراءة ابن عامر هـذه على التفرقة بين المضاف والمضاف اليه ، ومثله قول الشاعر :

فـزَجَجْتُهـا بمِزَجّـة * زَجَّ القَلوصَ أبِى مَزادهْ(٣)

يريد : زجّ أبى مزادة القَلوصَ . وأنشد :

تَمُرّ على ما تستمرّ وقـد شفت * غلائلَ عبدُ القيس منها صُدُورِها

يريد شفت عبدُ القيس غلائلَ صـدورها . وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى : قراءة آبن عامر لا تجوز فى العربيـة ؛ وهى زلّة عالم، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه، ورُدّ قوله إلى الإجماع ، وكذلك يجب أن يُرَدّ من زلّ منهـم أو سها إلى الإجماع ؛ فهو أولى من الإصرار

(١) آية ٣٦ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة البروج .

(٣) ذكر الأخفش هذا البيت ولم يعزه إلى أحد . والزج هاهنا الطعن ، والمزجة بكسر الميم : رمح قصير كالمزارق ، والقلوص بفتح القاف : الفتية من النوق . يخبر أنه زج امرأته بالمزجة كما زج أبو مزادة القلوص . وأبو مزادة كنية رجل . راجع شرح الشـواهد الكبرى للعينى فى باب الإضافة .

على غير الصواب . وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ؛ لأنه لا يفصل . كما قال :

كما خُطّ الكتاب بكفّ يومًا * يهـودىٍّ يُقارِبُ أو يُزيلُ (١)

وقال آخر :

كأنّ أصواتَ مِن إيغالهن بنا * أواخرِ المَيْسِ أصواتُ الفَراريج (٢)

وقال آخر :

لمّا رأت ساتيدَما استعبرَتْ * للهِ درُّ اليـومَ مَن لامَها (٣)

وقال القشيرى : وقال قوم هـذا قبيح ، وهذا محال، لأنه إذا ثبت بالتواتر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو الفصيح لا القبيح . وقـد ورد ذلك فى كلام العرب وفى مصحف عثمان « شركائهـم » بالياء وهـذا يدلّ على قراءة ابن عامر . وأضيف القتل فى هـذه القراءة إلى الشركاء؛ لأن الشركاء هم الذين زيّنوا ذلك ودَعَوْا إليه؛ فالفعل مضاف إلى فاعله على ما يجب فى الأصل، لكنه فرق بين المضاف والمضاف إليه، وقدّم المفعول وتركه منصوبا على حاله ؛ إذا كان متأخرا فى المعنى، وأخر المضاف وتركه مخفوضا على حاله ؛ إذا كان متقدّما بعد القتل . والتقدير : وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قَتْلُ شركائهم أولادَهم . أى أَنْ قتـلَ شركاؤهم أولادَهم . قال النحاس : فأما ما حكاه غير أبى عبيد (وهى القراءة الرابعة) فهو جائز . على أن تبدل شركاءهم من أولادهم؛ لأنهم شركاؤهم فى النسب والميراث . ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ اللام لام كىْ .

(١) البيت لأبى حية النميرى . والشاهد فيه إضافة الكف إلى اليهودى مع الفصـل بالظرف . وصف رسوم الدار فشبهها بالكتاب فى دقتها والاستدلال بهـا ، وخص اليهود لأنهم أهل كتاب . وجعل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتضاء آثار الديار تلك الصفة والحال . (عن شرح الشواهد) .

(٢) البيت لذى الرمة . والشاهد فيه إضافة الأصوات إلى أواخر الميس مع فصله بالمجرور ضرورة . والميس : شجر تعمل منه الرحال . والإيغال : سرعة السير . يقول : كأن أصوات أواخر الميس من شدّة سير الإبل بنا واضطراب رحالها عليها أصوات الفراريج (عن شرح الشواهد) .

(٣) البيت لعمرو بن قيئة . والشاهد فيه إضافة الدر إلى من مع جواز الفصل بالظرف ضرورة إذ لم يمكنه إضافة الدر إليه . وصف امرأة نظرت إلى «ساتيدما» وهو جبل بعينه بعيد من ديارها ؛ فذكرت به بلادها فاستعبرت شوقا إليها (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

والإرداء : الإهلاك . ﴿ وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ الذى ارتضى لهم . أى يأمرونهم بالباطل ويشككونهم فى دينهم . وكانوا على دين إسماعيل، وما كان فيه قتل الولد ؛ فيصير الحق مغطًّى عليه ؛ فبهذا يلبسون . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ بيّن أن كفرهم بمشيئة الله . وهو ردّ على القدرية . ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ يريد قولهم إن لله شركاء .

قوله تعالى : وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

ذكر نوعا آخر من جهالتهم . وقرأ أبان بن عثمان «حُجُر» بضم الحاء والجيم . وقرأ الحسن وقتادة « حَجْر » بفتح الحاء وإسكان الجيم ، لغات بمعنًى . وعن الحسن أيضا « حُجر » بضم الحاء . قال أبو عبيد عن هارون قال : كان الحسن يضم الحاء فى « حِجر » من جميع القرآن إلا فى قوله : «بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا»(١) فإنه كان يكسرها هاهنا . ورُوى عن ابن عباس وابن الزبير « وَحَرْثٌ حِرْجٌ » الراء قبل الجيم ؛ وكذا فى مصحف أُبَىّ ؛ وفيه قولان : أحدهما أنه مثل جبذ وجذب . والقول الآخر — وهو أصح — أنه من الحِرج ؛ فإن الحِرْج (بكسر الحاء) لغة فى الحَرَج (بفتح الحاء) وهو الضيق والإثم ؛ فيكون معناه الحرام . ومنه فلان يتحرّج أى يضيق على نفسه الدخولَ فيما يشتبه عليه من الحرام . والحِجر : لفظ مشترك . وهو هنا بمعنى الحرام ، وأصله المنع . وسُمّى العقل حجرا لمنعه عن القبائح . وفلان فى حَجْر القاضى أى منعه . حجرت على الصبىّ حَجْرًا . والحِجر العقل ؛ قال الله تعالى : « هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ » والحِجر الفرس الأنثى . والحِجر القرابة . قال :

يريدون أن يُقصُوه عنّى وإنه * لَذُو حَسَبٍ دانٍ إلىّ وذو حِجْرِ

وحِجر الإنسان وحَجره لغتان ، والفتح أكثر . أى حرّموا أنعاما وحَرْثًا وجعلوها لأصنامهم وقالوا : ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ ﴾ وهم خدّام الأصنام . ثم بيّن أن هذا تحكّم لم يرِد به

(١) آية ٥٣ سورة الفرقان .

شرع ؛ ولهـذا قال : « بِزَعْمِهِمْ » . ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يريد ما يسيبونه لآلهتهم على ما تقدّم من النصيب . وقال مجاهد : المراد البَحِيرة والوصيلة والحام (١) . ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يعنى ما ذبحوه لآلهتهـم . قال أبو وائل : لا يحجّون عليهـا . ﴿ افْتِرَاءً ﴾ أى للافتراء ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ ؛ لأنهم كانوا يقولون : الله أمرنا بهـذا . فهو نصبٌ على المفعول به . وقيل : أى يفترون افتراء، وانتصابه لكونه مصدرا .

قوله تعـالى : وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا ﴾ هـذا نوع آخر من جهلهم . قال ابن عباس : هو اللبن ، جعلوه حلالا للذكور وحراما على الإناث . وقيل : الأجِنّة؛ قالوا : إنها لذكورنا . ثم إن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . والهاء فى «خالِصة» للمبالغة فى الخلوص؛ ومثـله رجل علامة ونسابة؛ عن الكسائى والأخفش . و «خالِصـةٌ» بالرفع خبر المبتدأ الذى هو «ما» . وقال الفراء : تأنيثها لتأنيث الأنعام . وهـذا القول عند قوم خطأ؛ لأن ما فى بطونها ليس منها؛ فلا يشبه «يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ» لأن بعض السيارة سيّارة، وذا لايلزم الفراء؛ فإن ما فى بطون الأنعام أنعام مثلها؛ فأنّث لتأنيثها، أى الأنعام التى فى بطون الأنعام خالصـة لذكورنا . وقيـل : أى جماعة ما فى البطون . وقيـل : إن

---

(١) البحيرة : الناقة التى نُتجت خمسة أبطن ، وكان آخرها ذكرا بحروا أذنها (أى شقوها) وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تحلأ (تطرد) عن ماء ترده ، ولا تمنع من مرعى ، واذا لقيها المعيى المنقطع به لم يركبها .

والوصيلة : الناقة التى وصلت بين عشرة أبطن . ومن الشاء التى وصلت سبعة أبطن ، عَناقين عَناقين ؛ فان ولدت فى السابعة عناقا وجديا قيل : وصلت أخاها ؛ فلا يشرب لبن الأم الا الرجال دون النساء .

والحامى : الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود ، قيل عشرة أبطن ؛ فإذا بلغ ذلك قالوا : هذا حامٍ . أى حمى ظهره فيترك ، فلا ينتفع منه بشىء ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

راجع تفسير قوله تعالى : «ما جعل الله من بحيرة ...» آية ١٠٣ سورة المائدة .

«ما» يرجع إلى الألبان أو الأجنّة؛ فجاء التأنيث على المعنى والتذكير على اللفظ . ولهذا قال: «وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا» على اللفظ . ولو راعى المعنى لقال ومحرّمة. ويَعْضُد هذا قراءةُ الأعمش «خالص» بغير هاء . قال الكسائيّ : معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة ؛ كما يقال : رجل داهية وعلامة؛ كما تقدّم . وقرأ قَتادة «خالصةً» بالنصب على الحال من الضمير في الظرف الذي هو صلة لـ«ما» . وخبر المبتدأ محذوف؛ كقولك : الذي في الدار قائما زيد. هذا مذهب البصريين . وانتصب عنــد الفرّاء على القطع . وكذا القول في قراءة ســعيد بن جبير«خالصًا» . وقرأ ابن عباس «خالِصهُ» على الإضافة يكون ابتداء ثانيا؛ والخبر «لذكورنا» والجملة خبر « ما » . ويجوز أن يكون « خالِصه » بدلا من « ما » . فهذه خمس قراءات . ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ اى بناتنا؛ عن ابن زيد. وغيره : نساؤهم. ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ قرئ بالياء والتاء؛ أي إن يكن ما في البطون ميتة ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ أي الرجال والنساء . وقال «فيه» لأن المراد بالميتة الحيوان، وهي تقوّى قراءة اليــاء، ولم يقل فيها . « مَيْتَةٌ » بالرفع بمعنى تقع أوتحدث. « ميتةً » بالنصب؛ أي وإن تكن النّسمة ميتة. ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي كذبهم وافتراءهم؛ أي يعــذبهم على ذلك . وانتصب «وَصْفَهُمْ» بنزع الخافض ؛ أي بوصــفهم . وفي الآية دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعــلّم قول من خالفه وإن لم يأخذ به، حتى يعرف فساد قوله، ويعلم كيف يردّ عليه ؛ لأن الله تعالى أعلم النبيّ صلى الله عليه وســلم وأصحابه قول من خالفهم من زمانهم؛ ليعرفوا فساد قولهم .

قوله تعــالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

أخبر بخسرانهم لِوَأْدِهم البنات وتحريمهم البَحِيرة وغيرها بعقولهم؛ فقتلوا أولادهم سَفَهًا خوف الإملاق، وحجروا على أنفسهم في أموالهم ولم يخشَوْا الإملاق؛ فأبان ذلك عن تناقض رأيهم .

قلت : إنه كان من العرب من يقتل ولده خَشْية الإملاق؛ كما ذكر الله في غير هذا الموضع. وكان منهم من يقتله سَفَهًا بغــير حجة منهم في قتلهم؛ وهم ربيعة ومُضَر، كانوا يقتلون بناتهم

لأجل الحَمِيّة . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات بالبنـات . رُوِى أن رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لايزال مُغْتَمًّا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالك تكون محزونا" ؟ فقال : يارسول الله، إنى أذنبت ذنبا فى الجاهليـة فأخاف ألا يغفره الله و إن أسلمتُ ! فقال له : "أخبرنى عن ذنبك" . فقال : يارسول الله، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فوُلدت لى بِنت فتشفّعت إلىّ آمرأتى أن أتركها فتركتهـا حتى كبِرت وأدركتْ، وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتنى الحَمِيّة ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغـير زوج، فقلت للمرأة : إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيهـا معى، فسُرّت بذلك وزينتها بالثياب والحُلِىّ، وأخذتْ علىّ المواثيق بألا أخونها، فذهبتُ بها إلى رأس بئر فنظرتُ فى البئر ففطِنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البـئر، فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول : ياأبت ! أيْشٍ تريد أن تفعل بى ! فرحمتها، ثم نظرتُ فى البئر فدخلتْ علىّ الحَمِيّة، ثم التزمتنى وجعلت تقول : ياأبت ! لا تُضيّع أمانة أمّى، فجعلتُ مرّةً أنظر فى البئر ومَرّة إليها وأرحمها، حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسةً، وهى تنادى فى البئر : ياأبت، قتلتنى . فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعت . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال : "لو أُمِرتُ أن أعاقب أحدا بمـا فعل فى الجاهلية لعاقبتك" .

قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْـرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْـرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَـرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَـرَ وَءَاتُوا حَقَّـهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

فيه ثلاث وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ أَنْشَأَ ﴾ أى خلق. ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أى بساتين ممسوكات مرفوعات. ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ غير مرفوعات. قال ابن عباس: «معروشات» ما انبسط على الأرض مما يُعَرَّش مثل الكروم والزروع والبطيخ. ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار. وقيل: المعروشات ما ارتفعت أشجارها. وأصل التعريش الرفع. وعن ابن عباس أيضا: المعروشات ما أنبته ورفعه الناس. وغير المعروشات ما خرج في البرارى والجبال من الثمار. يدلّ عليه قراءة علىّ رضى الله عنه «مَغْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَغْرُوسَاتٍ» بالغين المعجمة والسين المهملة.

الثانية — قوله تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ ﴾ أفردهما بالذكر وهما داخلان فى الجنات لما فيهما من الفضيلة؛ على ما تقدم بيانه فى «البقرة» عند قوله «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ»[1] الآية. ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ يعنى طعمه من الجيّد والدُّون. وسمّاه أكلا لأنه يؤكل. و«أُكُلُهُ» مرفوع بالابتداء. و«مختلِفا» نعته؛ ولكنه لما تقدم عليه وولِى منصوبا نُصب. كما تقول: عندى طباخا غلام. قال:

الشرُّ مُنْتَشِر يلقاكَ عن عُرُض * والصالحات عليها مُغلقًا بابُ

وقيل: «مختلِفا» نصب على الحال. قال أبو إسحاق الزجاج: وهذه مسألة مُشْكِلة من النحو؛ لأنه يقال: قد أنشأها ولم يختلف أكلها وهو ثمرها؛ فالجواب أن الله سبحانه أنشأها بقوله: «خالق كلّ شىء» فأعلم أنه أنشأها مختلفا أكلها؛ أى أنه أنشأها مقدّرا فيه الاختلاف. وقد بيّن هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صَقْرٌ صائدا به غدا؛ على الحال؛ كما تقول: لتدخلن الدار آكلين شاربين؛ أى مقدّرين ذلك. جواب ثالث — أى لما أنشأه كان مختلفا أكله؛ على معنى أنه لو كان له أُكُل لكان مختلفا أكله. ولم يقل أكلهما؛ لأنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما؛ كقوله: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا»[2] أى إليهما. وقد تقدم هذا المعنى.

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦ طبعة ثانية.
(٢) آخر سورة الجمعة.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ عطف ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ نصب على الحال، وقد تقدم القول فيه. وفى هذه أدلة ثلاثة؛ أحدها ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لابدّ لها من مغيّر. الثانى على المِنّة منه سبحانه علينا؛ فلو شاء إذ خلقنا لا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المَنْظَر طيب الطعم، وإذ خلقه كذلك ألّا يكون سهل الجَنَى؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لا يجب عليه شيء. الثالث على القدرة فى أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعَد بقدرة الواحدِ علّامِ الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمرٌ خارج من صفته الجِرْم الوافر، واللون الزاهر، والجَنَى الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأناسها، هل فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتّب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك فى العقول إلا لحَىّ عالم قديرٍ مُريدٍ. فسبحان من له فى كل شىء آية ونهاية!

ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افترَوْا على الله الكذب وأشركوا معه وحلّلوا وحرّموا دلّهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فهذان بناءان جاءا بصيغة افعل؛ أحدهما مباح كقوله: «فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ» والثانى واجب. وليس يمتنع فى الشريعة اقتران المباح والواجب، وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق ليبيّن أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ اختلف الناس فى تفسير هذا الحق ما هو؛ فقال أنس بن مالك وابن عباس وطاوس والحسن وابن زيد وابن الحنفية والضحاك وسعيد بن المسيِّب: هى الزكاة المفروضة، العُشْر ونصف العُشْر. ورواه ابن وهب وابن القاسم عن مالك فى تفسير الآية، وبه قال بعض أصحاب الشافعىّ. وحكى الزجاج أن هذه الآيةَ قيل فيها أنها نزلت بالمدينة. وقال علىّ بن الحسين وعطاء والحكم وحماد وسعيد بن جُبير ومجاهد: هو حقٌّ فى المال سوى الزكاة، أمر الله به نَدْبًا. وروى عن

ابن عمر ومحمد بن الحنفية أيضا، و رواه أبو سعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم. قال مجاهد : إذا حَصَدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السُّنْبُل، وإذا جَذَذت فألق لهم من الشماريخ، و إذا درسته وذَرّيته فاطرح لهم منه، و إذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته. وقول ثالث وهو منسوخ بالزكاة، لأن هـذه السورة مكية وآية الزكاة لم تنزل إلا بالمدينة «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً»(١)، «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»(٢). روى عن ابن عباس وابن الحنفية والحسن وعطية العَوْفِى والنَّخَعِىّ وسعيد بن جُبير. وقال سفيان : سألت السُّدِّى عن هذه الآية فقال. نسخها العُشْر ونصف العُشر. فقلت : عن من ؟ فقال عن العلماء.

السادسـة — وقد تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية وبعموم ما فى قوله عليه السلام : "فيما سقت السماء العُشْر وفيما سُقِى بِنَضْح(٣) أو دَالِية نصفُ العُشْر" فى إيجاب الزكاة فى كل ما تنبت الأرض طعاما كان أو غيره. وقال أبو يوسف عنه : إلا الحطب والحشيش والقصب والتِّين والسعف وقصب الذرِيرة(٤) وقصب السكر. وأباه الجمهور، معولين على أن المقصود من الحديث بيان ما يؤخذ منه العشر ومايؤخذ منه نصف العشر. قال أبو عمر : لا ٱختلاف بين العلماء فيما علمتُ أن الزكاة واجبة فى الحنطة والشعير والتمر والزبيب. وقالت طائفة : لازكاة فى غيرها. روى ذلك عن الحسن وٱبن سيرين والشَّعْبِىّ. وقال به من الكوفيين ٱبن أبى لَيْلَى والثورِىّ والحسن ٱبن صالح وٱبن المبارك ويحيى بن آدم، وإليه ذهب أبو عبيد. و رُوِى ذلك عن أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهـو مذهب أبى موسى، فإنه كان لا يأخذ الزكاة إلا من الحنطة والشعير والتمر والزبيب؛ ذكره وَكيع عن طلحة بن يحيى عن أبى بُرْدة عن أبيـه. وقال مالك وأصحابه : الزكاة واجبة فى كل مُقتات مُدّخَر، وبه قال الشافعىّ. وقال الشافعىّ. إنما تجب الزكاة فيما ييبس ويُدَّخر ويقتات مأكولا. ولا شىء فى الزيتـون لأنه إدام. وقال أبو ثور مثله. وقال أحمـد أقوالا أظهرها أن الزكاة إنمـا تجب فى كل ما قاله أبو حنيفة إذا كان

---

(١) آية ١٠٣ سورة التوبة. (٢) آية ٤٣ سورة البقرة. (٣) النضح : سقى الزرع وغيره بالسانية، وهى الناقة يستق عليها. (٤) الذريرة : قصب يجاء به من الهند، كقصب النشاب أحمر يتداوى به.

يُوسق؛ فأوجبها فى اللّوز لأنه مكيل دون الجَوْز لأنه معـدود . وآحتج بقوله عليـه السلام : " ليس فيما دون خمسة أَوْسُق من تمر أوحب صـدقة " قال : فبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن محل الواجب هو الوَسْق، وبيّن المقـدار الذى يجب إخراج الحق منه . وذهب النَّخَعِيّ إلى أن الزكاة واجبة فى كل ما أخرجته الأرض، حتى فى عشر دساتج[1] من بقل دستجةُ بقل . وقد آختلف عنه فى ذلك، وهو قول عمر بن عبد العزيز فإنه كتب أن يؤخذ مما تنبت الأرض من قليـل أو كثير العُشْر ؛ ذكره عبد الرزاق عن مَعْمر عن سِمَـاك بن الفضـل ، قال : كتب ... ؛ فذكره . وهو قول حماد بن أبى سليمان وتلميذه أبى حنيفة . وإلى هذا مال آبن العربيّ فى أحكامه فقال : وأما أبو حنيفة فجعـل الآية مرآته فأبصر الحق ، وأخذ يَعْضُـد مذهب الحنفيّ ويقوّيه . وقال فى كتاب (القبس بمـا عليـه الإمام مالك بن أنس) فقال : قال الله تعـالى : « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًـا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » . وآختلف الناس فى وجوب الزكاة فى جميع ماتضمنته أو بعضه، وقد بيّنا ذلك، فى (الأحكام) لُبَابُه، أن الزكاة إنما تتعلق بالمُقْتات كما بيّنا دون الخضراوات ؛ وقد كان بالطائف الرمان والفِرْسِك[2] والأُتْرُجّ فما آعترضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ذكره ولا أحد من خلفائه .

قلت : هذا وإن لم يذكره فى الأحكام هو الصحيح فى المسألة، وأن الخضراوات ليس فيها شيء . وأما الآية فقد آختلف فيها، هل هى مُحْكَمة أو منسوخة أو محمولة على النّدب . ولا قاطعَ يبيّن أحد محامِلها ، بل القاطع المعلوم ماذكره ابن بكير فى أحكامه : أن الكوفة آفتتحت بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسـلم وبعد آستقرار الأحكام فى المدينة ، أفيجوز أن يتوهّم متوهّم أو مَن له أدنى بصيرة أن يكوّن شريعة مثل هذه عُطّلت فلم يُعمل بها فى دار الهجرة ومستقَر الوَحْى ولا خلافة أبى بكر، حتى عَمِل بذلك الكوفيون . إن هذه لمصيبة فيمن ظنّ هذا وقال به ! .

قلت : ومما يدلّ على هذا من معنى التنزيل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ »[3] أتراه يكتم شيئا أُمِر بتبليغه أو ببيانه، حاشاه عن ذلك!

(١) الدستجة : الحزمة.	(٢) الفرسك (كزبرج): الخوخ أو ضرب منه أجرد أحمر، أو ما ينفلق عن نواه.
(٣) آية ٦٧ سورة المـائدة .

وقال تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(١) ومن كمال الدين كونه لم يأخذ من الخضراوات شيئا . وقال جابر بن عبدالله فيما رواه الدّارَقُطْنِيّ : إن المقاثئ(٢) كانت تكون عندنا تُخرج عشرة آلاف فلا يكون فيها شئ . وقال الزُّهرِيّ والحسن : تُزَكّى أثمان الخضر إذا أينعت وبلغ الثمن مائتى درهم ؛ وقاله الأوزاعِيّ فى ثمن الفواكه . ولا حجة فى قولهما لما ذكرنا . وقد روى الترمذيّ عن معاذ أنه كتب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يسأله عن الخضراوات وهى البقول فقال : "ليس فيها شيء" . وقد رُوى هذا المعنى عن جابر وأنس وعلىّ ومحمد بن عبد الله بن جَحْش وأبى موسى وعائشة . ذكر أحاديثهم الدّارَقُطْنِيّ رحمه الله . قال الترمذيّ : ليس يصح فى هذا الباب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم شيء . وٱحتج بعض أصحاب أبى حنيفة بحديث صالح بن موسى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة" . قال أبو عمر : وهذا حديث لم يروه فى ثقات أصحاب منصور أحد هكذا ، وإنما هو من قول إبراهيم .

قلت : وإذا سقط الاستدلال من جهة السُّنّة لضعف أسانيدها فلم يبق إلا ما ذكرناه من تخصيص عموم الآية ، وعمومِ قوله عليه السلام : "فيما سقت السماء العُشْر" بما ذكرنا . وقال أبو يوسف ومحمد : ليس فى شيء من الخضر زكاة إلا ما كانت له ثمرة باقية سوى الزعفران ونحوه مما يوزن ففيه الزكاة . وكان محمد يعتبر فى العُصْفر والكَتّان البزر ، فإذا بلغ بزرهما من القرطم والكتان خمسة أوسق كان العُصْفر والكَتّان تبعاً للبزر ، وأخذ منه العشر أو نصف العشر . وأما القطن فليس عنده دون خمسة أحمال شيء ؛ والحمل ثلثمائة مَنّ بالعراقيّ . والوَرْس والزعفران ليس فيما دون خمسة أمنان منها شيء . فإذا بلغ أحدهما خمسة أمنان كانت فيه الصدقة ، عُشْرا أو نصف العشر . قال أبو يوسف : وكذلك قصب السكر الذى يكون منه السكر ، ويكون فى أرض العشر دون أرض الخراج ، فيه ما فى الزعفران . وأوجب عبد الملك بن الماجِشُون الزكاة فى أصول الثمار دون البقول . وهذا خلاف

(١) آية ٣ سورة المائدة .

(٢) المقاثئ (جمع مقثأة بفتح الثاء وضمها) : موضع القثاء .

ما عليـه مالك وأصحابه ، لا زكاة عنـدهم لا فى اللّوز ولا فى الجَوْز ولا فى الجِلَّوْز[(١)] وما كان مثلها ، و إن كان ذلك يدّخر . كما أنه لا زكاة عندهم فى الإجّاص[(٢)] ولا فى التفاح ولا فى الكُمَّثْرَى ، ولا ما كان مثـل ذلك كله مما لا ييبس ولا يُدّخَر . وآختلفوا فى التين ؛ والأشهر عند أهـل المغرب ممن يذهب مذهب مالك أنه لا زكاة عندهم فى التّين . إلا عبد الملك بن حبيب فإنه كان يرى فيه الزكاة على مذهب مالك ، قياسًا على التمر والزبيب . وإلى هـذا ذهب جماعة من أهل العلم البغداديين المـالكيين ، إسماعيل بن إسحاق ومن آتبعه . قال مالك فى الموطّأ : السنة التى لا آختلاف فيها عندنا ، والذى سمعته من أهل العلم ، أنه ليس فى شىء من الفواكه كلها صدَقة : الرمان والفِرْسَك والتّين وما أشبه ذلك . وما لم يشبهه إذا كان من الفواكه . قال أبو عمر : فأدخل التين فى هـذا الباب ، وأظنـه (والله أعلم) لم يعـلم بأنه يَيْبس ويُدّخَر ويُقتات ، ولو علم ذلك ما أدخله فى هذا البـاب ؛ لأنه أشبه بالتمر والزبيب منـه بالرمان . وقد بلغنى عن الأَبْهَرِىّ وجماعة من أصحابه أنهم كانوا يُفتون بالزكاة فيه ، ويرونه مذهب مالك على أصوله عندهم . والتين مكيل يراعى فيه الخمسة الأَوْسُـق وما كان مثلها وَزْنًا ، ويُحكم فى التين عندهم بحكم التمر والزبيب المجتمع عليهما . وقال الشافعىّ : لا زكاة فى شىء من الثمار غير التمـر والعنب ؛ لأن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أخذ الصدقة منهما وكانا قوتا بالحجاز يُدَّخَر . قال : وقد يدخر الجوز واللوز ولا زكاة فيهما ؛ لأنهما لم يكونا بالحجاز قوتا فيما علمت ، و إنما كانا فاكهة . ولا زكاة فى الزيتون لقوله تعالى : «والزيتون والرمّان» . فقرنه مع الرمّان ، ولا زكاة فيه . وأيضا فإن التين أنفع منه فى القوت ولا زكاة فيه . وللشافعىّ قول بزكاة الزيتون قاله بالعراق ، والأوّل قاله بمصر ؛ فآضطرب قوله فى الزيتون ، ولم يختلف فيه قول مالك . فدلّ على أن الاية مُحْكَمة عندهما غيرُ منسوخة . وآتفقا جميعا على أن لا زكاة فى الرمّان ، وكان يلزمهما إيجاب الزكاة فيه . قال أبو عمر : فإن كان الرمّان خرج بآتفاق فقد بان بذلك المراد بأن الآية ليست على عمومها ، وكان الضمير عائدا على بعض المذكور دون بعض . والله أعلم .

---

(١) الجلوز : البندق .	(٢) الإجاص : شجر معروف ، واحدته إجاصة . ثمره حلو لذيذ .

قلت : بهذا ٱستدل من أوجب العشر فى الخضراوات فإنه تعالى قال : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » والمذكور قبله الزيتون والرمان ، والمذكور عقيب جملة ينصرف إلى الأخير بلا خلاف؛ قاله الكِيَا الطبرى . ورُوى عن ابن عباس أنه قال ما لَقِحت رمانة قط إلا بقطرة من ماء الجنة . وروى عن علىّ كرّم الله وجهه أنه قال : إذا أكلتم الرمانة فكلوها بشحمها فإنه دباغ المعدة . وذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن ابن عباس قال: لا تكسروا الرمانة من رأسها فإن فيها دُودةً يعترى منها الجُذام . وسيأتى منافع زيت الزيتون فى سورة «المؤمنين»(١) إن شاء الله تعالى . وممن قال بوجوب زكاة زيت الزيتون الزُّهْرِىُّ والأوزاعىّ والليث والثورىّ وأبو حنيفة وأصحابُه وأبو ثور . قال الزهرىّ والأوزاعىّ والليث : يُخْرَص(٢) زيتونا و يؤخذ زيتا صافيا . وقال مالك لا يخرص ، ولكن يؤخذ العُشر بعد ان يُعصر و يبلُغ كيله خمسة أوْسق . وقال أبو حنيفة والثورىّ : يؤخذ من حبه .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم «حصاده» بفتح الحاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان مشهورتان ؛ ومثله الصَّرام والصِّرام والجَذاذ والجِذاذ والقَطَاف والقِطاف . واختلف العلماء فى وقت الوجوب على ثلاثة أقوال :

الأوّل — أنه وقت الجذاذ ؛ قاله محمد بن مَسْلمة ؛ لقوله تعالى : « يوم حصاده » .

الثـانى — يوم الطِّيب ؛ لأن ما قبل الطيب يكون عَلَفا لا قُوتا ولا طعاما ؛ فإذا طاب وحان الأكل الذى أنعم الله به وجب الحقّ الذى أمر الله به ، إذ بتمـام النعمة يجب شكر النعمة ، ويكون الإيتاء وقت الحصاد لمـا قد وجب يوم الطِّيب .

الثـالث — أنه يكون بعد تمـام الخَرْص ؛ لأنه حينئذ يتحقق الواجب فيـه من الزكاة فيكون شرطا لوجوبها . أصله مجىء الساعى فى الغنم ؛ وبه قال المُغيرة . والصحيح الأوّل لنص التنزيل . والمشهور من المذهب الثانى ، و به قال الشافعى . وفائدة الخلاف إذا مات بعد الطِّيب

---

(١) فى قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء ... » آية ٢٠

(٢) سيأتى معانى الخرص فى المسئلة التاسعة .

زكيت على ملكه ، وقبل الخرص على ورثته . وقال محمد بن مسلمة : إنما قدم الخرص توسعةً على أرباب الثمار ، ولو قدّم رجل زكاته بعد الخرص وقبل الجذاذ لم يجزه ؛ لأنه أخرجها قبل وجوبها . وقد آختلف العلماء في القول بالخرص وهي : —

الثامنة — فكرهه الثوري ولم يجزه بحال، وقال : الخرص غير مستعمل . قال : وإنما على ربّ الحائط أن يؤدّى عشر ما يصير في يده للمساكين إذا بلغ خمسة أوسق . وروى الشيباني عن الشعبي أنه قال : الخرص اليومَ بدعةٌ . والجمهور على خلاف هذا ، ثم آختلفوا فالمعظم على جوازه في النخل والعنب ؛ لحديث عتّاب بن أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأمره أن يخرص العنب كما يخرص النخل وتؤخذ زكاته زبيبا كما تؤخذ زكاة النخل تمرا . رواه أبو داود . وقال داود بن علي : الخرص للزكاة جائز في النخل، وغير جائز في العنب ؛ ودفع حديث عتّاب بن أسيد لأنه منقطع ولا يتّصل من طريق صحيح ؛ قاله أبو محمد عبد الحق .

التاسعة — وصفة الخرص أن يقدّر ما على نخله رطبا ويقدّر ما ينقص لو يتمر، ثم يعتدّ بما بقي بعد النقص ويضيف بعض ذلك إلى بعض حتى تكمل الحائط[1] وكذلك في العنب.

العاشرة — ويكفى في الخرص الواحدُ كالحاكم. فإذا كان في التمر زيادة على ما خرص لم يلزم ربَّ الحائط الإخراجُ عنه ، لأنه حكم قد نفذ؛ قاله عبد الوهاب . وكذلك إذا نقص لم تنقص الزكاة . قال الحسن : كان المسلمون يخرص عليهم ثم يؤخذ منهم على ذلك الخرص .

الحادية عشرة — فإن استكثر ربّ الحائط الخرص خيّره الخارص في أن يعطيَه ما خرص وأخذ خرصه؛ ذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: خرص آبن رواحة أربعين ألف وسق، وزعم أن اليهود لما خيّرهم أخذوا التمر وأعطوا عشرين ألف وسق . قال ابن جريج فقلت لعطاء : فحقّ على الخارص إذا استكثر سيّدُ المال

(١) الحائط . البستان .

الخَرْص أن يخيّره كما خيّر ابنُ رواحة اليهودَ ؟ قال : أىْ لعمرى ! وأىّ سُــنّة خيرٌ من سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — ولا يكون الخرص إلا بعد الطِّيب؛ لحديث عائشة قالت : كان رسول صلى الله عليه وسلم يبعث ٱبن رواحة إلى اليهود فيَخْرُص عليهم النخلَ حين تطيب أوّل الثمرة قبل أن يؤكل منها، ثم يخيّر يهودًا يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه . و إنما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخرص لكى تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتُفرّق . أخرجه الدّارَ قُطْنىّ من حديث ابن جريج عن الزهرىّ عن عروة عن عائشة . قال: ورواه صالح بن أبى الأخضر عن الزهرىّ عن ابن المسيِّب عن أبى هريرة ، وأرسـله مالك ومَعْمر وعقيل عن الزهرىّ عن سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة — فإذا خَرص الخارص فحكمه أن يُسقط من خرصه مقدارًا ما ؛ لمـا رواه أبو داود والترمذىّ والبُسْتىّ فى صحيحه عن سهل بن أبى حَثْمة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : ” إذا خرصتم فخذوا ودَعُوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الرّبع “ . لفظ الترمذى . قال أبو داود : الخارص يدع الثلث للخُرْفة . وكذا قال يحيى القطّان . وقال أبو حاتم البُسْتىّ: لهـذا الخبر صفتان : أحدهمـا أن يترك الثلث أو الربع من العشر ، والثـانى أن يترك ذلك من نفس التمر قبل أن يُعشر، إذا كان ذلك حائطا كبيرا يحتمله . الخُرْفة بضم الخاء: ما يُخْتَرَف من النخل حين يُدرك ثمره ، أى يُجْتَنَى . يقال: التمر خرفةُ الصائم؛ عن الجوهرىّ والهروىّ . والمشهور من مذهب مالك أنه لا يَترك الخارِص شيئا فى حين خَرصه من تمر النخل والعنب إلا خَرصه . وقد روى بعض المدنيين أنه يخفف فى الخرص ويترك للعَرايا(١) والصّلة ونحوها .

الرابعة عشرة — فإن لحِقت الثمرة جائحةٌ بعــد الخرص وقبل الجذاذ سقطت الزكاة عنه بإجماع من أهل العلم، إلا أن يكون فيما بقى منه خمسة أوْسق فصاعدًا .

(١) العرايا (واحدتها عرية) وهى النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا . والإعراء : أن يجعل له ثمرة عامها .

الخامسة عشرة — ولا زكاة فى اقل من خمسة أوْسُق ، كذا جاء مبيّناً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو فى الكتاب مُجْمَل، قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ »(١) . وقال تعالى : « وَآتُوا حَقَّهُ » . ثم وقع البيان بالعُشر ونصف العُشر . ثم لما كان المقدار الذى إذا بلغه المال أخذ منه الحق مُجملا بيّنه أيضا فقال : "ليس فيما دون خمسة أوْسق من تمر أو حب صدقة" وهو ينفى الصدقة فى الخضراوات، إذ ليست مما يُوسق؛ فمن حصل له خمسة أوْسق فى نصيبه من تمر أو حب وجبت عليه الزكاة، وكذلك من زبيب؛ وهو المسمّى بالنصاب عند العلماء. يقال: وِسْق ووَسْق (بكسر الواو وفتحها) وهو ستون صاعا، والصاع أربعة أمداد، والمد رطل وثلث بالبغداديّ. ومبلغ الخمسة أوْسق من الأمداد ألف مدّ ومائتا مدّ، وهى بالوزن ألف رِطل وستمائة رِطل.

السادسة عشرة — ومن حصل له من تمر وزبيب معًا خمسةُ أوْسُق لم تلزمه الزكاة؛ لأنهما صنفان مختلفان . وكذلك أجمعوا على أنه لا يضاف التمر إلى البُر ولا البر الى الزبيب؛ ولا الإبل إلى البقر، ولا البقر إلى الغنم . ويضاف الضأن إلى المَعْز بإجماع . واختلفوا فى ضم البُرّ إلى الشعير والسُّلْت وهى : —

السابعة عشرة — فأجازه مالك فى هذه الثلاثة خاصّةً فقط؛ لأنها فى معنى الصِّنف الواحد لتقاربها فى المنفعة واجتماعها فى المنبت والمحصد، وافتراقها فى الاسم لا يوجب افتراقها فى الحكم كالجواميس والبقر والمعز والغنم . وقال الشافعيّ وغيره : لا يجمع بينها؛ لأنها أصناف مختلفة، وصفاتها متباينة، وأسماؤها متغايرة، وطعمها مختلف؛ وذلك يوجب افتراقها . والله أعلم . قال مالك : والقَطَانيّ كلها صِنف واحد ، يُضَمّ بعضها إلى بعض . وقال الشافعيّ : لا تُضم حبة عُرفت باسم منفرد دون صاحبتها ، وهى خلافها مباينة فى الخلقة والطعم إلى غيرها . ويُضَمّ كل صنف بعضه إلى بعض، رَديئُه إلى جَيّده؛ كالتمر وأنواعه، والزبيب أسودِه وأحمره، والحنطةِ وأنواعها من السمراء وغيرها . وهو قول الثّوريّ

(١) آية ٢٦٧ سورة البقرة .

وأبي حنيفـة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد وأبي ثور . وقال اللّيث : تُضم الحبـوب كلها : القُطنية[1] وغيرها بعضها إلى بعض في الزكاة . وكان أحمد بن حنبل يَجْبُن عن ضم الذهب إلى الوَرِق، وضم الحبوب بعضها إلى بعض . ثم كان في آخر أمره يقول فيها بقول الشافعيّ .

الثامنة عشرة — قال مالك: وما استهلكه منه ربُّه بعد بَدْوِ صلاحه أو بعد ما أَفْرك حُسِب عليه، وما أعطاه ربُّه منه في حصاده وجذاذه، ومن الزيتون في التقاطه، تَحَرَّى ذلك وحُسِب عليه . وأكثر الفقهاء يخالفونه في ذلك، ولا يوجبون الزكاة إلا فيما حصل في يده بعد الدَّرْس. قال الليث في زكاة الحبوب : يُبدأ بها قبل النفقة، وما أكل من فرِيك هو وأهله فلا يحسب عليـه، بمنزلة الرطب الذي يترك لأهل الحائط يأكلونه فلا يُخْرَص عليهم . وقال الشافعيّ : يترك الخارِص لربّ الحائط ما يأكله هو وأهله رطبا، لا يَخْرُصه عليهم . وما أكله وهو رطب لم يُحسب عليـه . قال أبو عمر : آحتج الشافعيّ ومن وافقه بقـول الله تعالى : « كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » . وآستدلّوا على أنه لا يُحتسب بالمأكول قبل الحصاد بهذه الآية . وآحتجّوا بقوله عليـه السلام : "إذا خرصتم فدعوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع" . وما أكلت الدواب والبقر منه عند الدّرس لم يُحسب منه شيء على صاحبه عند مالك وغيره .

التاسعة عشرة — وما بيع من الفول والحِمّص والجُلبان أخضر، تَحَرّى مقدار ذلك يابسا وأخرجت زكاته حَبًّا. وكذا ما بيع من الثمر أخضر آعتبر وتُوُخّى وخُرِص يابسا وأخرجت زكاته على ذلك الخرص زبيبا وتمرا . وقيل : يخرج من ثمنه .

الموفية عشرين — وأما ما لا يتتمّر من ثمر النخل ولا يتزبّب من العنب كعنب مصر ونخيلها، وكذلك زيتونها الذي لا يُعصر، فقـال مالك : تخرج زكاته من ثمنه، لا يكلَّف غير ذلك صاحبـه، ولا يراعَى فيه بلوغ ثمنه عشرين مثقالا أو مائتي درهم، وإنمـا ينظر إلى ما يرى أنه يبلغه خمسـة أوسق فأكثر . وقال الشافعيّ : عشره أو نصف عشره من وسطه تمرا إذا أكله أهله رطبا أو أطعموه .

(١) القطنية (بضم القاف وكسرها) : ما كان سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر .

الحادية والعشرون — روى أبو داود عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بَعْلًا العُشْر[1] . وفيما سُقِىَ بالسّوانى[2] أو النَّضْح نصف العشر . وكذلك إن كان يشرب سَيْحًا فيه العشر" وهو الماء الجارى على وجه الأرض؛ قاله ابن السِّكِّيت . ولفظ السَّيْح مذكور فى الحديث ، خرّجه النَّسائىّ . فإن كان يشرب بالسّيح لكن ربّ الأرض لا يملك ماء وإنما يكتريه له فهو كالسماء؛ على المشهور من المذهب . ورأى أبو الحسن اللخمىّ أنه كالنضح ؛ فلو سُقِىَ مَرّة بماء السماء ومَرّة بدالية ؛ فقال مالك : يُنظر إلى ما تمّ به الزرع وحيي وكان أكثر؛ فيتعلّق الحكم عليه . هذه رواية ابن القاسم عنه . وروى عنه ابن وهب : إذا سُقِىَ نصف سنة بالعيون ثم انقطع فسُقِىَ بقيّة السنة بالناضح فإنّ عليه نصف زكاته عشرا ، والنصف الآخر نصف العشر . وقال مَرّة : زكاته بالذى تمت به حياته . وقال الشافعىّ : يُزَكَّى كلُّ واحد منهما بحسابه . مثاله أن يشرب شهرين بالنضح وأربعة بالسماء؛ فيكون فيه ثلثا العشر لماء السماء وسدس العشر للنضح؛ وهكذا ما زاد ونقص بحسابه . وبهذا كان يُفْتِى بكّار بن قتيبة . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : يُنظر إلى الأغلب فيزكّى ، ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك . وروى عن الشافعىّ . قال الطحاوىّ : قد اتفق الجميع على أنه لو سقاه بماء المطر يوما أو يومين أنه لا اعتبار به ، ولا يجعل لذلك حصّة ؛ فدلّ على أن الاعتبار بالأغلب ، والله أعلم .

قلت : فهذه جملة من أحكام هذه الآية ، ولعلّ غيرنا يأتى بأكثر منها على ما يفتح الله له . وقد مضى فى «البقرة»[3] جملة من معنى هذه الآية ، والحمد لله .

الثانية والعشرون — وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس فى حب ولا تمر صدقة" خرّجه النَّسائىّ . قال حمزة الكِنانِىّ : لم يذكر فى هذا الحديث "فى حب" غير إسماعيل بن أُمَيّة ، وهو ثقة قرشىّ من ولد سعيد بن العاصى . قال : وهذه السنة لم يروها أحد عن

(١) البعل : هو ما ينبت من النخيل فى أرض يقرب ماؤها ، فرسخت عروقها فى الماء واستغنت عن ماء السماء والأنهار . (٢) السوانى : جمع سانية ، وهى الناقة التى يستقى عليها . (٣) راجع المسئلة الرابعة جـ ٣ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية .

النبيّ صلى الله عليه وسلم من أصحابه غير أبى سعيد الخُدْرِىّ . قال أبو عمر : هو كما قال حمزة، وهــذه سنة جليلة تلقاها الجميع بالقبول ، ولم يروها أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت محفوظ غيرُ أبى ســعيد . وقد روى جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، ولكنه غريب، وقد وجدناه من حديث أبى هريرة بإسناد حسن .

الثالثة والعشرون ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الإسراف فى اللغة الخطأ . وقال أعرابى أراد قوما : طلبتكم فسَرِفتكم، أى أخطأت موضعكم . وقال الشاعر :

وقال قائلهم والخيل تَخبِطهم * أسرفتم فأجبنا أننــا سرف

والإسراف فى النفقة : التبذير . ومُسرِف لقب مسلم بن عقبة المُرِّى صاحب وقعة الحرَّة؛ لأنه قد أسرف فيها . قال علىّ بن عبد الله بن العباس :

هُمُ منعوا ذِمارِى يوم جاءت * كتائب مُسْرِف وبنى اللَّكِيعهْ

والمعنى المقصود من الآية : لا تأخذوا الشيء بغــير حقه وتضعوه فى غير حقه ؛ قاله أَصْــبَغ ابن الفرج . ونحوه قول إياس بن معــاوية : ما جاوزتَ به أمرَ الله فهو سَرَف و إسراف . وقال ٱبن زيد : هو خطاب للولاة، يقول : لا تأخذوا فوق حقكم وما لا يجب على الناس . والمعنيان يحتملان قوله عليه السلام : "المُعْتَدِى فى الصدقة كمانِعها" . وقال مجاهد : لو كان أبو قُبيس ذهبا لرجل فأنفقه فى طاعة الله لم يكن مُسْرِفا، ولو أنفق درهما أو مُدًّا فى معصية الله كان مسرفا . وفى هذا المعنى قيل لحاتم : لا خير فى السَّرف؛ فقال : لا سَرَف فى الخير .

قلت : وهــذا ضعيف؛ يردّه ما رَوى ٱبن عباس أن ثابت بن قَيس بن شَمّاس عَمَد إلى خمسمائة نخلة فجذّها ثم قسّمها فى يوم واحد ولم يترك لأهله شيئا؛ فنزلت « وَلَا تسرِفوا » أى لا تعطوا كلّه . وروى عبد الرزاق عن ٱبن جريج قال : جَذّ معاذ بن جبل نخلة فلم يزل يتصدّق حتى لم يبق منه شيء؛ فنزل « ولا تسرفوا » . قال السدّى : « ولا تسرفوا » أى لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . ورُوِى عن معاوية بن أبى سفيان أنه سئل عن قوله تعالى «ولا تسرفوا» قال : الإسراف ما قصّرتَ عن حقّ الله تعالى .

قلت : فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المال ومنع إخراج حق المساكين داخلين فى حكم السّرف . والعدل خلاف هذا ؛ فيتصدق ويُبقِى كما قال عليه السلام : "خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى"(١) إلا أن يكون قوِىّ النفس غنيًّا بالله متوكّلا عليه منفردا لا عيال له ، فله أن يتصدّق بجميع ماله ، وكذلك يخرج الحق الواجب عليه من زكاة وما يَعِنّ فى بعض الأحوال من الحقوق المتعيّنة فى المال . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الإسراف ما لم يقدر على ردّه إلى الصلاح . والسَّرَف ما يقدر على ردّه إلى الصلاح . وقال النَّضْر بن شُمَيل : الإسراف التبذير والإفراط ، والسرف الغفلة والجهل . قال جرير :

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوها ثمانيةٌ * ما فى عطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

أى إغفال . ويقال خطأ . ورجلٌ سَرِف الفؤاد ، أى مخطئ الفؤاد غافله . قال طَرَفة :

إنّ امرأً سَرِفَ الفؤاد يرى * عَسَلاً بماء سحابة شَتْمِى

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٤٢)

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطف . أى وأنشأ حمولة وفرشا من الأنعام . وللعلماء فى الأنعام ثلاثة أقوال : أحدها — أن الأنعام الإبل خاصّة ؛ وسيأتى فى « النّحل » بيانه . الثانى — أن الأنعام الإبل وحدها ، وإذا كان معها بقر وغنم فهى أنعام أيضا . الثالث — وهو أصحها قاله أحمد بن يحيى : الأنعام كل ما أحله الله عز وجل من الحيوان . ويدلّ على صحة هذا قوله تعالى : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ »(٢) وقد تقدّم . والحَمُولة ما أطاق الحَمْل والعمل ؛ عن ابن مسعود وغيره . ثم قيل : يختص اللفظ بالإبل . وقيل : كل ما احتمل عليه الحىّ من حمار أو بغل أو بعير ؛ عن أبى زيد ، سواء كانت عليه الأحمال أو لم تكن .

---

(١) أى ما كان عفوا قد فضل عن غنى . وقيل : أراد ما فضل عن العيال . والظهر قد يزاد فى مثل هذا إشباعا للكلام وتمكينا ؛ كأن صدقته مستندة إلى ظهر قوى من المال (عن ابن الأثير) . (٢) أول سورة المائدة .

قال عنـــترة :

ما رَاعـنِي إلا حَمـــولةُ أهلِهـا * وسْـط الدّيار تَسَفُّ حَبَّ الْخِمْخِم (١)

وفعولة بفتح الفاء إذا كانت بمعنى الفاعل آستوى فيها المؤنّث والمذكر ؛ نحو قولك : رجل فَروقة وآمرأة فَروقة للجبان والخائف . ورجل صرورة وآمرأة صرورة إذا لم يحُجّا ؛ ولا جمع له . فإذا كانت بمعنى المفعول فرق بين المذكر والمؤنث بالهاء كالحَلوبة والرَّكوبة . والحُمولة (بضم الحاء) : الأحمال . وأما الحُمول (بالضم بلا هاء) فهى الإبل التى عليها الهوادج ، كان فيها نساء أو لم يكن ؛ عن أبى زيد . و « فَرْشًا » قال الضحاك : الحمولة من الإبل والبقر . والفرش : الغنم . النحاس : وآستشهد لصاحب هذا القول بقوله « ثمانيــةَ أزواج » قال : فثمانية بدل من قوله « حمولة وفرشا » . وقال الحسن : الحمولة الإبل . والفــرش : الغنم . وقال آبن عباس : الحمولة كل ما حَمَـل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير . والفَرْش : الغنم . وقال آبن زيد : الحمـولة ما يركب ، والفـرش ما يؤكل لحمه ويحلب ؛ مثـل الغنم والفِصلان والعجاجيل ؛ سُمِّيت فَرْشا للطافة أجسامها وقربهـا من الفرش ، وهى الأرض المستوية التى يتوطأها الناس . قال الراجز :

أورثنى حمـولة وفـرشا * أَمُشُّها فى كلّ يـومٍ مَشَّا (٢)

وقال آخر :

وحَوَيْنَا الفَرْش من أنعامكم * والحُمـولات ورَبّاتِ الحَجَل

قال الأصمعى : لم أسمع له بجمع . قال : ويحتمل أن يكون مصـدرا سُمِّىَ به ؛ من قولهم : فرشها الله فرشا ، أى بَثّها بَثًّا . والفَرْش : المفروش من متاع البيت . والفَرْش : الزرع إذا فرش . والفرش : الفضاء الواسع . والفَرْش فى رجل البعير : اتّساع قليـل ، وهو محمود . وآفترش الشيءُ آنبسط ؛ فهو لفظ مشترك . وقد يرجع قوله تعالى : « وَفَرْشًا » إلى هـذا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذلّلة للحمل . والفَرْش ما خلقه الله عز وجل من الجلود والصّوف مما يُجلس عليه ويُتَمَهّد . وباقى الآية قد تقدّم .

(١) الخمخم (بكسر الخاء المعجمة و يقال بالحاء) : نبات تعلف حبه الإبل. (٢) مش الناقة يمشها مشا : حلبها .

قوله تعالى : ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ « ثمانيةَ » منصوب بفعل مضمر، أى وأنشأ ثمانيــة أزواج ؛ عن الكسائيّ . وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من حمولة وفرش . وقال الأخفش عليّ بن سليمان : يكون منصوبا بـ«كلوا» ؛ أى كلوا لحمَ ثمانية أزواج . ويجوز أن يكون منصوبا على البدل من « ما » على الموضع . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى كلوا المباح ثمانية أزواج من الضأن ٱثنين . ونزلت الآية فى مالك بن عَوْف وأصحابه حيث قالوا : « مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنعامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا » فنبّه الله عز وجل نبيّه والمؤمنين بهذه الآية على ما أحلّه لهم ؛ لئلا يكونوا بمنزلة من حرّم ما أحله الله تعالى . والزوج خلاف الفَرْد ؛ يقال : زَوْج أو فَرْد . كما يقال : خَسًا أو زَكًا ، شَفْع أو وِتر . فقوله « ثمانية ازواج » يعنى ثمانية أفراد، وكل فَرْد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسمَّى زوجا ، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج . ويقع لفظ الزّوج للواحد وللاثنين ؛ يقال : هما زوجان ، وهما زوج ؛ كما يقال . هما سِيّان وهما سواء . وتقول : ٱشتريت زَوْجى حمام . وأنت تعنى ذكرا وأنثى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿مِنَ الضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أى الذكر والأنثى . والضأن : ذوات الصّوف من الغنم ، وهى جمع ضائن . والأنثى ضائنــة ، والجمع ضوائن . وقيل : هو جمعٌ لا واحد له . وقيل فى جمعه : ضَئين ؛ كعبد وعبيد . ويقال فيه : ضِئين ؛ كما يقال فى شَعير شِعير ،

كسرت الضاد ٱتباعا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « من الضأَن ٱثنين » بفتح الهمزة ، وهى لغة مَسموعة عنـد البصريين ، وهو مطّرد عند الكوفيين فى كل ما ثانيـه حرفُ حلق . وكذلك الفتح والإسكان فى المعـز . وقرأ أبَان بن عثمان « مِنَ الضَّأن ٱثْنَانِ ومن المعز ٱثنـان » رفعا بالٱبتـداء . وفى حرف أُبَىٍّ . « وَمِنَ المَعْزِ ٱثنـان » وهى قراءة الأكثر . وقرأ ٱبن عامر وأبو عمرو بالفتح . قال النحاس : الأكثر فى كلام العرب المَعْز والضّأن بالإسكان . ويدل على هذا قولهم فى الجمع : مَعِيز ؛ فهذا جمع مَعْز . كما يقال عبد وعبيد . قال ٱمرؤ القيس :

وَيَمْنَحُهَا بنو شَمَجَى بن جَرْم * مَعِـيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنان

ومثـله ضَأن وضَئِين . والمَعْـز من الغـنم خلاف الضأن ، وهى ذوات الأشـعار والأذناب القِصار ، وهو ٱسم جنس ، وكذلك المَعَز والمِعِيز والأُمْعُوز والمِعزى . وواحد المَعْز ماعز ؛ مثل صاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر . والأنثى ماعزة وهى العنز ، والجمع مواعز . وأمعز القومُ كثرت معزاهم . والمَعّاز صاحب المِعزى . قال أبو محمـد الفَقْعَسِىّ يصف إبلا بكثرة اللّبن و يفضّلها على الغنم فى شـدة الزمان :

يَكِلْنَ كَيْلًا ليس بالمَمْحُـوقِ * إذ رَضِىَ المَعَّـاز باللعُـوقِ

والمَعَز الصـلابة من الأرض . والأمْعـز : المكان الصُّلب الكثير الحصى ؛ والمَعْزَاء أيضا . وٱستمعز الرجل فى أمره : جَدّ . ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ ﴾ منصوب بـ « حَرَّم » . ﴿ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ عطف عليه . وكذا ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ ﴾ . وردت مع ألف الوصـل مدّة للفرق بين الٱسـتفهام والخبر . ويجوز حذف الهمزة لأن « أم » تدل على الٱستفهام . كما قال :

* تَرُوحُ مِن الحَىِّ أم تَبْتَكِرْ *

الثالثـــة ــ قال العلمـاء : الآية ٱحتجاج على المشركين فى أمر البَحيرة وما ذُكِر معها. وقولِهم : « مافِى بطونِ هذِهِ الأنعامِ خالصة لِذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا » . فدلّت على إثبات المناظرة فى العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام بأن يناظرهم ، و يبيّن لهم فساد قولهم . وفيها إثبات القول بالنظر والقياس . وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به .

ويروى « إذا ورد عليه النقض » ؛ لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة ، وأمرهم بطرد علتهم . والمعنى : قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام . وإن كان حرّم الإناث فكل أنثى حرام . وإن كان حرّم ما آشتملت عليه أرحام الأنثيين ، يعنى من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكرا كان أو أنثى . وكلها مولود فكلها إذًا حرام لوجود العلة فيها ، فبيّن آنتقاض علّتهم وفساد قولهم ؛ فأعلم الله سبحانه أن ما فعلوه من ذلك آفتراء عليه . ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ أى بعلم إن كان عندكم ، من أين هـذا التحريمُ الذى آفتعلتموه ؟ ولا علم عندهم ؛ لأنهم لا يقرءون الكتب . والقول فى : ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ﴾ وما بعده كما سبق . ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أى شاهدتم الله قد حرّم هذا . ولمّا لزمتهم الحجة أخذوا فى الآفتراء فقالوا : كذا أمر الله . فقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بيّن أنهم كذبوا ؛ إذ قالوا بما لم يدل عليه دليل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٥)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ أعلم الله عز وجل فى هذه الآية بما حرّم . والمعنى : قل يامحمد لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما إلا هذه الأشياء ، لا ماتحرّمونه بشهوتكم . والآية مكية . ولم يكن فى الشريعة فى ذلك الوقت محرّم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة « المـائدة » بالمدينة . وزيد فى المحرّمات كالمُنْخَنِقة والمَوْقُوذة[(١)] والمُتَرَدِّيَة والنَّطِيحة والخمر وغير ذلك . وحرّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكلَ كلِّ ذى ناب من السباع وكلِّ ذى مِخْلب من الطير .

(١) الموقوذة : الشاة المضروبة حتى تموت ولم تُذَكَّ . والمتردية : التى تقع من جبل ، أو تطيح فى بئر ، أو تسقط من موضع مشرف فتموت .

وقد آختلف العلماء فى حكم هذه الاية وتأويلها على أقوال : الأوّل — ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية ، وكلّ محرم حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجاء فى الكتاب مضموم إليها ؛ فهو زيادة حكم من الله عز وجل على لسان نبيّه عليه السلام . على هذا أكثر أهل العلم من النظر، وأهل الفقه والأثر . ونظيره نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله : «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ»(١) وكحكمه باليمين مع الشاهد مع قوله : «فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان»(٢) وقد تقدّم . وقد قيل : إنها منسوخة بقوله عليه السلام : "أكْلُ كُلِّ ذى ناب من السباع حرام" أخرجه مالك ، وهو حديث صحيح . وقيل: الآية مُحْكَمَة ولا يحرم إلا مافيها. وهو قول يُرْوَى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة، ورُوِى عنهم خلافه . قال مالك : لا حرام بيِّنٌ إلا ما ذُكر فى هذه الآية . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : تضمّنت هذه الآية تحليلَ كلِّ شىء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى فى الآية من الميتة والدّم المسفوح ولحم الخنزير . ولهذا قلنا : إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح . وقال الكِيَا الطبرى : وعليها بنى الشافعىّ تحليلَ كلّ مسكوت عنه؛ أخذًا من هذه الآية ، إلا مادلّ عليه الدليل . وقيل : إن الآية جواب لمن سأل عن شىء بعينه فوقع الجواب مخصوصا . وهذا مذهب الشافعىّ . وقد روى الشافعىّ عن سعيد بن جُبير أنه قال : فى هذه الآية أشياء سألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم عن المحرمات من تلك الأشياء . وقيل : أى لا أجد فيا أوحى إلىّ أى فى هذه الحال حال الوحى و وقت نزوله ، ثم لا يمتنع حدوث وَحْيٍ بعدذلك بتحريم أشياء أخر . وزعم ابن العربى أن هذه الآية مدنية، مكّية فى قول الأكثر، نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم نزل عليه « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(٣) ولم ينزل بعدها ناسخ فهى مُحْكَمَة، فلا مُحَرَّم إلا ما فيها، وإليه أميل .

قلت : وهذا ما رأيته قاله غيره . وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر الإجماعَ فى أن سورة « الأنعام » مكية إلا قوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »(٤) الثلاث الآيات، وقد

(١) آية ٢٤ سورة النساء . (٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة . (٣) آية ٣ سورة المائدة .
(٤) آية ١٥١ وما بعدها .

نزل بعدها قرآن كثير وسُنن جَمّة . فنزل تحريم الخمر بالمدينة فى « المـائدة » . وأجمعوا على أن نهيه عليه السلام عن أكل كل ذى ناب من السباع إنما كان منـه بالمدينة . قال إسماعيل ابن إسحاق : وهذا كله يدل على أنه أمرٌ كان بالمدينة بعد نزول قوله : «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ » لأن ذلك مكيّ .

قلت : وهـذا هو مَثار الخلاف بين العلماء . فعدل جماعة عن ظاهر الأحاديث الواردة بالنهى عن أكل كل ذى ناب من السباع؛ لأنها متأخرة عنها والحصر فيها ظاهر فالأخذ بهـا أولى؛ لأنها إما ناسخة لمـا تقدمها أو راجحة على تلك الأحاديث . وأما القائلون بالتحريم فظهر لهم وثبت عندهم أن سورة « الأنعام » مكية؛ نزلت قبـل الهجرة ، وأن هذه الآية قصد بها الرّد على الجـاهلية فى تحريم البحيرة والسائبة والوَصيلة والحامى، ثم بعد ذلك حرّم أمورا كثيرة كالحُمُر الإنسية ولحوم البغال وغيرهما ، وكل ذى ناب من السباع وكلّ ذى مِخلب من الطير . قال أبو عمر : ويلزم على قول من قال « لا محرم إلا ما فيها » ألا يحرّم ما لم يذكر اسم الله عليه عمدا ، وتُستحلّ الخمر المحرّمة عند جماعة المسلمين . وفى إجماع المسلمين على تحريم خمر العنب دليل واضح على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد فيما أُوحيَ إليه محرما غير ما فى سورة « الأنعام » ممـا قد نزل بعدها من القرآن . وقد اختلفت الرواية عن مالك فى لحوم السـباع والحمر والبغال فقال : هى محرّمة؛ لمـا ورد من نهيه عليه السـلام عن ذلك ، وهو الصحيح من قوله على ما فى الموطأ . وقال مَرّة : هى مكروهة ، وهـو ظاهر المدَوَّنة ، لظاهر الآية؛ ولمـا روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة من إباحة أكلها ، وهو قول الأوزاعيّ . روى البخاريّ من رواية عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية ؟ فقال : قد كان يقول ذلك الحكَم بن عمرو الغفاريّ عندنا بالبصرة؛ ولكن أَبَى ذلك البحرُ ابن عباس ، وقرأ «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا» . وروى عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال : لا بأس بها . فقيل له : حديث أبى ثعلبة الخُشَنيّ[1] .

(١) حديث أبى ثعلبـة : أنه روى أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : « أكل كل ذى ناب من السباع حـــرام » .

فقال : لاتَدَع كتابَ الله ربَّنا لحديث أعرابىّ يبول على ساقيه . وسئل الشَّعبىّ عن لحم الفيل والأسد فتلا هــذه الآية . وقال القاسم : كانت عائشة تقول لمـا سمعت الناس يقولون حَرُم كل ذى ناب من السباع : ذلك حلال، وتتلو هذه الآية «قل لا أجد فيما أُوحِىَ إلىّ محرّما» ثم قالت : أنْ كانت البُرْمة ليكون ماؤها أصفر من الدم ثم يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يحرّمها . والصحيح فى هــذا الباب ما بدأنا بذكره ، وأن ما ورد من المحرّمات بعد الآية مضموم إليها معطوف عليها . وقد أشار القاضى أبو بكر بن العربىّ إلى هذا فى قبسه خلاف ما ذكر فى أحكامه قال : روى عن ابن عباس أن هذه الآية من آخر ما نزل ؛ فقال البغداديون من أصحابنا : إنّ كل ما عداها حلال ، لكنه يكره أكل السباع . وعند فقهاء الأمصار منهم مالك والشافعىّ وأبو حنيفة وعبد الملك أن أكل كل ذى ناب من السباع حرام ، وليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله «قل لا أجد فيما أوحِىَ إلىّ محرما » بما يَرِد من الدليل فيها ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليــه وسلم : ”لا يحلّ دم آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث“ فذكر الكفر والزنا والقتل . ثم قال علمــاؤنا : إن أســباب القتل عشرة بمـا ورد من الأدلة ، إذ النبىّ صلى الله عليه وسلم إنمـا يخبر بما وصل إليه من العلم عن البارى تعالى ؛ وهو يَمْحُو ما يشاء ويُثْبِت ويَنْسَخ ويقدّر . وقد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”أكل كل ذى ناب من السباع حرام“ وقد رُوى أنه نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطير. وروى مسلم عن مَعْن عن مالك «نُهِىَ عن أكل كل ذى مخلب من الطير» . والأوّل أصح . وتحريم كل ذى ناب من السباع هو صريح المذهب . وبه ترجم مالك فى الموطأ حين قال : تحــريم أكل كل ذى ناب مــن الســباع . ثم ذكر الحديث وعقبه بعــد ذلك بأن قال : وهو الأمر عندنا . فأخبر أن العمل آطرد مع الأثر . قال القشيرىّ : فقول مالك « هــذه الآية من أواخر ما نزل» لا يمنعنا من أن نقول : ثبت تحريم بعض هذه الأشياء بعد هذه الآية ، وقد أحل الله الطيبات وحرم الخبائث ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ،وعن أكل كل ذى مِخْلب من الطير ، ونهى عن لحوم الحمر الأهلية

عامَ خَيْبر . والذى يدّل على صحة هــذا التأويل الإجماعُ على تحريم العَذِرة والبَوْل والحشرات المستقْذرة والحُمر ممـا ليس مذكورا فى هذه الاية .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿مُحَرَّماً﴾ قال ابن عطية : لفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله صلى الله عليــه وسلم فإنها صالحــة أن تنتهى بالشىء المذكور غايةَ الحَظْر والمنع ، وصالحةً بحسب اللغة أن تقف دون الغاية فى حيّز الكراهة ونحوها ؛ فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع ، ولحِق بالخنزير والميتة والدّم ، وهذه صفة تحريم الخمر . وما اقترنت به قرينة اضطراب ألفـاظ الأحاديث واختلفت الأئمـة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه السلام : "أَكْلُ كلِّ ذى ناب من السباع حرام". وقد ورد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم فى تحريم ذلك . فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذى هو الكراهة ونحوها . وما اقترنت به قرينة التأويل كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسيّة فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنها نَجَسٌ . وتأول بعضهم ذلك لئـلا تفنى حَمولة الناس . وتأول بعضهم التحريم المحض . وثبت فى الأمة الاختلاف فى تحريم لحمها ؛ فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهته أو نحوها .

قلت : وهــذا عقد حسَن فى الباب وفى سبب الخلاف على ما تقدم . وقد قيل : إن الحمار لا يؤكل ، لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نَزَا على ذكر وتلوّط ؛ فسـمّى رجسا . قال محمد بن سِـيرين : ليس شىء من الدواب يعمل عمـل قوم لوط إلا الخـنزير والحمار ؛ ذكره الترمذى فى نوادر الأصول .

الثالثـــة — روى عمرو بن دِينار عن أبى الشَّعثاء عن ابن عباس قال : كان اهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء ، فبعث الله نبيّه عليه السلام وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرّم حرامه ؛ فما أحلّ فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ ، وتلا هذه الاية «قُلْ لَا أَجِدُ»

الآية . يعني ما لم يبيّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية . وروى الزُّهريّ عن عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس أنه قرأ «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما» قال : إنما حرّم من الميتة أكلها، ما يؤكل منها وهو اللحم؛ فأما الجلد والعظم والصوف والشعر فحلال . وروى أبو داود عن مِلْقام بن تَلِب عن أبيه قال : صحبت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم أسمع لحشرة الأرض تحريما . الحشرة : صغار دوابّ الأرض؛ كاليرابيع والضِّباب والقنافذ ونحوها؛ قال الشاعر :

اكلنا الرُّبَى يا أمَّ عمرو ومن يكن * غريبا لديكم يأكل الحشرات

أي ما دبّ ودَرج . والرُّبَى جمع رُبْية وهي الفأرة . قال الخطّابيّ : وليس في قوله « لم أسمع لها تحريما» دليلٌ على أنها مباحة؛ لجواز أن يكون غيره قد سمعه . وقد اختلف الناس في اليَرْبوع والوَبْر(١) والجمع وِبار ونحوهما من الحشرات؛ فرخّص في اليربوع عروةُ وعطاء والشافعيّ وأبو ثور . قال الشافعيّ : لا بأس بالوَبْر . وكرهه ابن سيرين والحَكَم وحمّاد وأصحابُ الرأى . وكره أصحاب الرأى القنفذ . وسئل عنه مالك بن أنس فقال : لا أدرى . وحكى أبوعمر : وقال مالك لا بأس بأكل القنفذ . وكان أبو ثَوْر لا يرى به بأسا؛ وحكاه عن الشافعيّ . وسئل عنه ابن عمر فتلا « قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إلىّ محرّمًا » الآية؛ فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "خبيثةٌ من الخبائث" . فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا فهو كما قال . ذكره أبو داود . وقال مالك : لا بأس بأكل الضّب واليربوع والوَرَل(٢) . وجائز عنده أكل الحيات إذا ذُكّيت؛ وهو قول ابن أبي لَيْلى والأوزاعيّ . وكذلك الأفاعى والعقارب والفأر والعظاية(٣) والقنفذ والضفدع . وقال ابن القاسم : ولا بأس بأكل خشاش الأرض وعقاربها ودودها في قول مالك؛ لأنه قال : موته في الماء لا يفسده . وقال مالك : لا بأس بأكل فراخ النحل ودود الجبن والتمر ونحوه .

(١) الوبر (بالتسكين) : دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء من دواب الصحراء حسنة العينين شديدة الحياء تكون بالغور .
(٢) الورل : دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه، يكون في الرمال والصحارى .
(٣) العظاية : دويبة كسام أبرص .

والحجـة له حديث مِلْقام بن تَلِب، وقول ٱبن عبـاس وأبى الدرداء : ما أحلّ الله فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ . وقالت عائشة فى الفأرة : ما هى بحرام، وقرأت « قل لا أجد فيما أوحِىَ إلىّ محرما ». ومن علماء أهل المدينة جماعةٌ لايجيزون أكل شيء من خِشاش الأرض وهَوَامِّها ؛ مثل الحيات والأوزاغ والفأر وما أشبهه . وكل ما يجوز قتله فلا يجوز عند هؤلاء أكله، ولا تعمل الذكاة عندهم فيه. وهو قول ابن شِهاب وعُروة والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابه وغيرهم. ولا يؤكل عند مالك وأصحابه شيء من سباع الوحش كلّها، ولا الهِرّ الأهلى ولا الوحشى لأنه سَبُع . وقال : ولا يؤكل الضبع ولا الثعلب، ولا بأس بأكل سباع الطير كلها : الرَّخم والنُّسور والعِقبان وغيرها، ما أكل الجِيَف منها وما لم يأكل. وقال الأوزاعىّ الطير كله حلال، إلا أنهم يكرهون الرَّخَم. وحجة مالك أنه لم يجد أحدا من أهل العلم يكره أكل سباع الطير، وأنكر الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "أنه نهى عن أكل كل ذى مِخْلَب من الطير". وروى عن أشهب أنه قال : لابأس بأكل الفيل إذا ذُكِّى، وهو قول الشَّعْبىّ، ومنع منه الشافعىّ . وكره النعمان وأصحابه أكل الضَّبُع والثعلب . ورخّص فى ذلك الشافعىّ، وروى عن سعد بن أبى وَقّاص أنه كان يأكل الضِّباع . وحجة مالكٍ عُموم النّهى عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ولم يخص سَبُعا من سَبُع . وليس حديث الضّبع الذى خَرّجه النّسائىّ فى إباحة أكلها مما يعارض به حديث النهى ؛ لأنه حديث ٱنفرد به عبـد الرحمن بن أبى عمّار، وليس مشهورا بنقل العلم، ولا ممن يحتج به إذا خالفه من هو أثبت منه. قال أبو عمر: وقد رُوى النهى عن أكل كل ذى ناب من السباع من طرق متواترة . روى ذلك جماعةٌ من الأئمة الثقات الأثبات ، ومُحالٌ أن يعارَضوا بمثل حديث ابن أبى عمار . قال أبو عمر : أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القرد لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله، ولا يجوز بيعه لأنه لامنفعة فيه . قال : وما علمت أحدا رخّص فى أكله إلا ما ذكره عبد الرزاق عن مَعمر عن أيوب . سئل مجاهد عن أكل القرد فقال : ليس من بهيمة الأنعام .

قلت : ذكر ٱبن المنذر أنه قال : رَوينا عن عطاء أنه سئل عن القرد يُقتـل فى الحَرَم فقال : يحكم به ذوا عَدْل. قال : فعلى مذهب عطاء يجوز أكل لحمه؛ لأن الجزاء لا يجب على

من قتل غير الصّيد . وفى (بحر المذهب) للرُّويانِىّ على مذهب الإمام الشافعىّ : وقال الشافعىّ يجوز بيع القرد لأنه يُعلَّم وينتفع به لحفظ المتاع . وحكى الكَشْفَلِىّ عن ابن شريح يجوز بيعه لأنه ينتفع به . فقيل : وما وجه الانتفاع به ؟ قال : تفرح به الصِّبيـان . قال أبو عمر : والكلب والفيل وذو الناب كلُّه عندى مثلُ القِرْد . والحجة فى قول رسول الله صلى الله عليـه وسلم لا فى قول غيره . وقـد زعم ناس أنه لم يكن فى العرب من يأكل لحم الكلب إلا قوم من فَقْعَس . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن أكل الجَلّالة وألبانها . فى رواية عن الجَلّالة فى الإبل أن يُركب عليها أو يُشرب من ألبانها . قال الحَلِيمىّ أبو عبد الله : فأما الجَلّالة فهى التى تأكل العَذِرة من الدواب والدَّجاج المُخَلّاة . ونهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن لحومها . وقال العلماء : كلّ ما ظهر منها ريح العَذِرة فى لحمه أو طعمه فهو حرام، وما لم يظهر فهو حلال . وقال الخَطّابِىّ : هذا نَهْىُ تَنَزُّه وتَنَظُّف، وذلك أنها إذا اغتذت الجِلّة وهى العذرة وُجد نتن رائحتها فى لحومها، وهذا إذا كان غالب علفها منها؛ فأما إذا رعت الكلأ واعتلفت الحَب وكانت تنال مع ذلك شيئا من الجلة فليست بجلّالة، وإنما هى كالدّجاج المُخَلّاة، ونحوها من الحيوان الذى ربما نال الشىء منها وغالب غذائه وعلفه من غيره فلا يكره أكلها . وقال أصحاب الرأى والشافعىّ وأحمد : لا تؤكل حتى تُحبس أياما وتعلف عَلَفًا غيرها ؛ فإذا طاب لحمها أكلت . وقد روى فى حديث أن البقر تُعلف أربعين يوما ثم يؤكل لحمها . وكان ابن عمـر يحبس الدّجاج ثلاثا ثم يذبح . وقال إسحاق : لا بأس بأكلها بعد أن يغسل لحمها غسلا جيـدا . وكان الحسن لا يرى بأسا بأكل لحم الجَلّالة؛ وكذلك مالك بن أنس . ومن هذا الباب نُهى أن تلقى فى الأرض العذرة . روى عن بعضهم قال : كنا نَكْرى أرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشترط على من يكريها ألا يُلقى فيها العذرة . وعن ابن عمر أنه كان يكرى أرضـه ويشترط ألا تُدْمَن[1] بالعذرة . وروى أن رجلا كان يزرع أرضه بالعذرة فقال له عمر : أنت الذى تطعم الناس ما يخرج منهم . واختلفوا فى أكل

(١) دمن الأرض (من باب نصر) : أصلحها بالسرجين .

الخيل ؛ فأباحها الشافعيّ ، وهو الصحيح ، وكرهها مالك . وأما البغـل فهو متولّد من بين الحمار والفرس ، وأحدهما مأكول أو مكروه وهو الفرس ، والآخر محرّم وهو الحمار ؛ فغلّب حكم التحريم ؛ لأن التحليل والتحريم إذا اجتمعا فى عين واحدة غُلِّب حكم التحريم . وسيأتى بيان هذه المسألة فى «النحل»(١) إن شاء الله بأوْعَبَ من هذا . وسيأتى حكم الجراد فى «الأعراف»(٢) . والجمهور من الخَلَف والسّلَف على جواز أكل الأرنب . وقد حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص تحريمه . وعن ابن أبى ليلى كراهته . قال عبد الله بن عمرو : جئ بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس فلم يأكلها ولم ينْه عن أكلها ، وزعم أنها تحيض . ذكره أبو داود . وروى النسائى مُرْسلا عن موسى بن طلحة قال : أتى النبيّ صلى الله عليه وسـلم بأرنب قد شواها رجل وقال : يا رسول الله ، إنى رأيت بها دما ؛ فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأكلها ، وقال لمن عنـده : "كُلُوا فإنى لو اشتهيتها أكلتها" .

قلت : وليس فى هذا ما يدل على تحريمـه ، وإنما هو نحوٌ من قوله عليه السلام : "إنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه" . وقد روى مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : مررنا فاسْتَنْفَجْنَا(٣) أرْنباً بمرّ الظهران فَسَعَوْا عليه فلَغَبُوا(٤) . قال : فسعيت حتى أدركتها ، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها ، فبعث بوركها وفَخِذَيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبِله .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أى آكلٍ يأكله . وروى عن ابن عامر أنه قـرأ «أوْحى» بفتح الهمزة . وقرأ علىّ بن أبى طالب «يطّعمه» مثقل الطاء ، أراد يتطعمه فأدغم . وقرأت عائشة ومحمد بن الحنفية «على طاعم طعمه» بفعل ماض . ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ قرئ باليـاء والتاء ؛ أى إلا أن تكون العين أو الجثـة أو النفس ميتةً . وقرئ «يكون» باليـاء «ميتة» بالرفع بمعنى تقع وتحدث ميتةٌ . والمسفوح : الجارى الذى يسيل

(١) فى قوله تعالى : «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... » آية ٨		(٢) آية ١٣٣

(٣) قال النووى : معنى استنفجنا : أثرنا ونفرنا . ومر الظهران (بفتح الميم والظاء) : موضع قريب من مكة .

(٤) فلغبوا : أى أعيوا وعجزوا عن أخذها .

وهو المحرّم . وغيره مَعْفُوٌّ عنه . وحكى المـاوردى أن الدم غير المسفوح أنه إن كان ذا عروق يجمد عليها كالكبد والطحال فهو حلال ؛ لقوله عليه السلام : "أحلّت لنـا ميتتان ودمان" الحديث . وإن كان غير ذى عروق يجمد عليها، وإنما هو مع اللحم ففى تحريمه قولان : أحدهما أنه حرام؛ لأنه من جملة المسفوح أو بعضه . وإنمـا ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه . والثانى أنه لا يحرم؛ لتخصيص التحريم بالمسفوح .

قلت : وهو الصحيح . قال عمران بن حُدير : سألت أبا مِجْلز عما يتلطخ من اللحم بالدم، وعن القِدر تعلوها الحمرة من الدّم فقال : لا بأس به ، إنما حرّم الله المسفوح . وقالت نحوه عائشة وغيرُها، وعليه إجماع العلماء . وقال عكرمة : لولا هذه الآية لأتبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود . وقال إبراهيم النَّخَعِىّ : لا بأس بالدم فى عرق أو مخ . وقد تقدّم هذا وحكم المضطر فى «البقرة»(١) .

قوله تعـالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ لمـا ذكر الله عز وجل ما حرّم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقّب ذلك بذكر ما حرّم على اليهود؛ لمـا فى ذلك من تكذيبهم فى قولهم : إن الله لم يحرّم علينا شيئا، وإنما نحن حرّمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه . وقد تقدّم فى « البقرة » معنى « هادوا »(٢) . وهذا التحريم على الذين هادوا إنمـا هو تكليف بَلْوَى وعقوبة . فأوّل ما ذكر من المحرّمات عليهـم كلّ ذى ظُفر . وقرأ الحسن «ظُفْر» بإسكان الفاء . وقرأ أبو السّمّال «ظِفْر» بكسر الظاء وإسكان الفاء . وأنكر أبو حاتم كسر

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها . طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

الظاء وإسكان الفاء، ولم يذكر هذه القراءة وهي لغة . « وظِفِر » بكسرهما . والجمع اظفار وأظفور وأظافير؛ قاله الجوهري . وزاد النحاس عن الفرّاء أظافر وأظافرة[(1)]؛ قال ابن السكّيت : يقال رجل أظفر بين الظَّفَر إذا كان طويل الأظفار؛ كما يقال : رجل أشعر للطويل الشّعر . قال مجاهد وقتادة : « ذى ظفر » ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير، مثل الإبل والنعام والإوَزّ والبطّ . وقال ابن زيد: الإبل فقط . وقال ابن عباس : «ذى ظفر» البعير والنعامة؛ لأن النعامة ذات ظفر كالإبل . وقيل : يعنى كل ذى مِخْلَب من الطير وذى حافر من الدواب . ويُسَمَّى الحافر ظفرا استعارة . وقال الترمذيّ الحكيم : الحافر ظفر، والمِخْلب ظفر؛ إلا أن هذا على قدره وذاك على قدره، وليس ههنا استعارة؛ ألا ترى أن كليهما يُقَص ويؤخذ منهما وكلاهما جنس واحد، عَظْمٌ لَيّن رِخْوٌ. أصله من غذاء ينبت فيُقَصّ مثل ظفر الإنسان ، وإنما سُمّىَ حافرا لأنه يحفر الأرض بوقعه عليها . وسُمّىَ مِخْلبا لأنه يخلب الطير برءوس تلك الإبر منها . وسُمّى ظفرا لأنه يأخذ الأشياء بظفره، أى يظفر به الآدمى والطير .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ قال قتادة : يعنى الثُّرُوب وشحم الكُلْيتين؛ قاله السُّدّى . والثُّرُوب جمع الثَّرْب، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكَرِش . قال ابن جُرَيج : حرّم عليهم كلّ شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأحلّ لهم شحم الجنب والألْية؛ لأنه على العُصْعُص .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ «ما» فى موضع نصب على الاستثناء . «ظُهُورُهُمَا» رفع بـ«حملت» . ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ فى موضع رفع عطفٌ على الظهور؛ أى أو حملت حواياهما ، والألف واللام بدل من الإضافة . وعلى هذا تكون الحوايا من جملة ما أحلّ . ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ «ما» فى موضع نصب عطف على «ما حملت» أيضا . هذا أصح ما قيل فيه . وهو قول الكسائيّ والفرّاء وأحمد بن يحيى . والنظر يوجب أن يعطف الشىء على

(١) فى نسخ الأصل : « ... أظافير وأظافرة ؛ مثل ضاربة وضوارب ... » . فقوله : مثل ضاربة وضوارب زيادة من النساخ .

ما يليه، إلا ألّا يصح معنـاه أو يدل دليل على غير ذلك . وقيل : إن الاستثنـاء فى التحليل إنما هو ما حملت الظهور خاصّة، وقوله «أو الحوايا أو ما اختلط بعظم» معطوف على المحرم . والمعنى : حرمت عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم؛ إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرّم . وقد آحتج الشافعىّ بهـذه الآية فى أن من حلف ألا يأكل الشحم حنِث بأكل شحم الظهور؛ لآستثناء الله عز وجل ما على ظهورهما من جملة الشحم .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا ﴾ الحوايا : المباعر؛ عن آبن عباس وغيره . وهو جمع مَبْعَر؛ سمى بذلك لاجتماع البَعْر فيه . وهو الزبل . وواحد الحوايا حاوياء؛ مثل قاصعاء وقواصـع . وقيل : حاوية مثـل ضاربة وضوارب . وقيل : حَوِيّة مثلُ سـفينة وسفائن . قال أبو عبيدة : الحوايا ما تَحوّى من البطن أى اسـتدار . وهى مُنْحَوِية أى مستديرة . وقيل : الحوايا خزائن اللبن ، وتصل بالمباعر وهى المصارين . وقيـل : الحوايا الأمعاء التى عليها الشحوم . والحوايا فى غير هـذا الموضع : كساء يُحَوَّى حول سَنام البعير . قال آمرؤ القيس :

جعلْنَ حَوَايَا واقْتَعَدْنَ قعائدًا * وخفّفن من حَوْك العِراق المُنَمَّقِ

فأخبر الله سبحانه أنه كتب عليهم تحريم هذا فى التوراة ردًّا لكذبهم . ونصُّه فيها «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكلّ دابة ليست مشقوقة الحافر وكلّ حوت ليس فيه سفاسق» أى بياض . ثم نسخ الله ذلك كلّه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وأباح لهم ما كان محرما عليهم من الحيوان، وأزال الحرج بمحمد عليه السلام، وألزم الخليقة دين الإسلام بحلّه وحِرْمه وأمره ونَهْيه .

الخامســـة — لو ذَبحوا أنعامهم فأكلوا ما أحلّ الله لهم فى التوراة وتركوا ما حَرّم فهل يحلّ لنا؛ قال مالك فى كتاب محمد : هى محرّمة . وقال فى سماع المبسوط : هى محللة، وبه قال آبن نافع . وقال آبن القاسم : أكرهه . وجه الأوّل أنهم يدينون بتحريمها ولا يقصدونها عند الذكاة؛ فكانت محرّمة كالدّم . ووجه الثانى وهو الصحيح أن الله عز وجل رفع ذلك التحريم بالإسلام، وآعتقادُهم فيه لا يؤثّر؛ لأنه آعتقاد فاسد؛ قاله آبن العربى .

قلت : ويدلّ على صحته ما رواه الصحيحان عن عبد الله بن مُغَفَّل قال : كنا محاصرين قصرَ خَيْبَر، فرمى إنسان بجِراب فيه شحم فنَزَوْتُ (١) لآخذه فالتفتُّ فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم فآستحيَيْتُ منه . لفظ البخاريّ . ولفظ مسلم : قال عبد الله بن مُغَفَّل : أصبت جِرابا من شحم يومَ خَيْبر، قال : فالتزمته وقلت : لا أعطى اليوم أحدا من هذا شيئا، قال : فالتفتُّ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متبسما . قال علماؤنا : تبسّمه عليه السلام إنما كان لما رأى من شدّة حرص آبن مُغَفَّل على أخذ الجراب ومن ضنته به، ولم يأمره بطرحه ولا نهاه . وعلى جواز الأكل مذهب أبى حنيفة والشافعيّ وعامّة العلماء؛ غير أن مالكا كرهه للخلاف فيه . وحكى آبن المنذر عن مالك تحريمها؛ وإليه ذهب كبراء أصحاب مالك . ومُتَمَسَّكُهم ما تقدم، والحديثُ حجةٌ عليهم؛ فلو ذبحوا كلّ ذى ظفر قال أَصْبَغ : ماكان محرّما فى كتاب الله من ذبائحهم فلا يحلّ أكله؛لأنهم يدينون بتحريمها . وقاله أشهب وآبن القاسم، وأجازه آبن وهب . وقال ابن حبيب : ماكان محرّما عليهم،وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحلّ لنا من ذبائحهم، ومالم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم واجتهادهم فهو غير محرّم علينا من ذبائحهم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك التحريم . فذلك فى موضع رفع، أى الأمر ذلك . ﴿ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أى بظلمهم، عقوبةً لهم لقتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله، وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل . وفى هذا دليل على أن التحريم إنما يكون بذنب لأنه ضيق فلا يُعْدَل عن السَّعة إليه إلا عند المؤاخذة . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى أخبارنا عن هؤلاء اليهود عما حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم .

قوله تعالى : فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

(١) النزو : الوثب .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ شرط ، والجواب « فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » أى من سعة رحمته حلم عنكم فلم يعاقبكم فى الدنيا . ثم أخبر بما أعده لهم فى الآخرة من العذاب فقال : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقيل : المعنى ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد حلوله فى الدنيا .

قوله تعالى : سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قال مجاهد : يعنى كفار قريش . ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ يريد البحيرة والسائبة والوصيلة . أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولون ؛ وظنوا أن هذا متمسَّك لهم لما لزمتهم الحجة و تيقنوا باطل ما كانوا عليه . والمعنى : لو شاء الله لأرسل إلى آبائنا رسولا فنهاهم عن الشرك وعن تحريم ما أحل فينتهوا فاتبعناهم على ذلك . فرد الله عليهم ذلك فقال : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أى أعندكم دليل على أن هذا كذا . ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى هـذا القول . ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ لتوهموا ضعفتكم أن لكم حجة . « ولا آباؤنا » عطف على النون فى «أشركنا» . ولم يقل نحن ولا آباؤنا ؛ لأن قوله «ولا » قام مقام توكيد المضمر ؛ ولهذا حسن أن يقال : ماقمت ولا زيد .

قوله تعالى : قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أى التى تقطع عذر المحجوج ، وتزيل الشك عن من نظر فيها . فحجته البالغة على هـذا تبيينه أنه الواحد ، و إرساله الرسل والأنبياء ؛ فبين التوحيد بالنظر فى المخلوقات ، وأيد الرسل بالمعجزات ، ولزم أمره كل مكلف . فأما علمه و إرادته

وكلامه فغيب لا يطّلع عليه العبد، إلا من ارتضى من رسول . و يكفى فى التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمر به لأمكنه . وقد لَبّست المعتزلة بقوله «لو شاء الله ما أشركنا» فقالوا : قد ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته . وتعلّقهم بذلك باطل؛ لأن الله تعالى إنما ذمّهم على ترك اجتهادهم فى طلب الحق . و إنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللّعب . نظيره « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ [(١)] » . ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم ؛ لأن الله تعالى يقول : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » . و « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [(٢)] » . « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [(٣)] » . ومثله كثير . والمؤمنون يقولونه لعلم منهم بالله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ أى قل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أن الله حرّم ما حرمتم . و « هلم » كلمة دعوة إلى شئ، و يستوى فيه الواحد والجماعة والذكر والأنثى عند أهل الحجاز، إلا فى لغة نجد فإنهم يقولون : هَلُمَّا هَلُمُّوا هَلُمِّى، يأتون بالعلامة كما تكون فى سائر الأفعال . وعلى لغة الحجاز جاء القرآن ، قال الله تعالى : « وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا [(٤)] » يقول : هلُمّ أى أحضر وآدن . وهَلُمّ الطعام، أى هاتِ الطعام . والمعنى ها هنا : هاتوا شهداءكم، وفتحت الميم لالتقاء الساكنين ؛ كما تقول : رُدّ يا هذا، ولا يجوز ضمها ولا كسرها . والأصل عند الخليل « ها » ضُمّت إليها « لُمّ » ثم حذفت الألف لكثرة الاستعمال . وقال غيره : الأصل « هل » زيدت عليها « لُمّ » . وقيل : هى على لفظها تدل على معنى هات . وفى كتاب العَيْن للخليل : أصلها هلْ أؤمّ ، أى هل أقصدك، ثم كثُر استعمالهم

---

(١) آية ٢٠ سورة الزخرف . (٢) آية ١٠٧، ١١١ من هذه السورة . (٣) آية ٩ سورة النحل .
(٤) آية ١٨ سورة الأحزاب .

إياها حتى صار المقصـود يقولها ؛ كما أن يقال : أصـلها أن يقولها المتعالى للتسافل ؛ فكثر استعمالهم إياها حتى صار المتسافل يقول للتعالى تعال .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا ﴾ أى شهد بعضهم لبعض ﴿فلا تَشْهَدْ معهم﴾ أى فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبيّ، وليس معهم شئ من ذلك .

قوله تعـالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ أى تقدّموا وآقرءوا حقًّا يقينا كما أوحى إلىّ ربّى، لا ظنًّا ولا كذبا كما زعمتم . ثم بيّن ذلك فقال : « أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » يقال للرجل : تعالَ ، أى تقدّم، وللمرأة تعالَىْ ، وللاثنـين والاثنتين تعاليا ، ولجماعة الرجال تعالَوْا ، ولجماعة النسـاء تعالَيْن ؛ قال الله تعـالى : « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ »(١) . وجعلوا التقـدّم ضربا من التعالى

(١) آية ٢٨ سورة الأحزاب .

والأرتفاع ، لأن المأمور بالتقدّم في أصل وضع هـذا الفعل كأنه كان قاعدا فقيل له تعال ، أي ارفع شخصك بالقيام وتقدّم ، وآتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي ؛ قاله ابن الشَّجَري .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ مَا حَرَّمَ ﴾ الوجه في « ما » أن تكون خبرية في موضع نصب بأتل . والمعنى : تعالوا أتل الذي حرّمه ربكم عليكم ؛ فإن علّقت « عليكم » بـ « حرّم » فهو الوجه ؛ لأنه الأقرب وهو اختيار البصريين . وإن علقته بـ « أتل » فجيّد لأنه الأسبق ، وهو اختيار الكوفيين ؛ فالتقدير في هـذا القول أتل عليكم الذي حرم ربكم . ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ في موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأوّل ، أي أتل عليكم ألا تشركوا ؛ أي أتل عليكم تحريم الإشراك . ويحتمل أن يكون منصوبا بما في « عليكم » من الإغراء ، وتكون « عليكم » منقطعة مما قبلها ؛ أي عليكم ترك الإشراك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألّا تقتلوا أولادكم وألّا تَقْرَبوا الفواحش . كما تقول : عليك شأنَك ؛ أي آلزم شأنك . وكما قال « عليكم أَنْفُسَكم » قال جميعَه آبنُ الشَّجَري . وقال النحاس : يجوز أن تكون « أن » في موضع نصب بدلا من « ما » ؛ أي أتل عليكم تحريم الإشراك . وآختار الفَـرّاء أن تكون « لا » للنهي ؛ لأن بعده « ولا » .

الثالثــة ــ هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يَدْعُوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله . وهكذا يجب على مَن بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهم ما حرّم عليهم مما حلّ . قال الله تعالى : « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »(١) . وذكر آبن المبارك أخبرنا عيسى ابن عمر عن عمرو بن مرّة أنه حدّثهم قال : قال ربيع بن خُثَيْم(٢) لجليس له : أيسرّك أن تؤتى بصحيفة من النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُفَكّ خاتمها ؟ قال نعم . قال فآقرأ « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » فقرأ إلى آخر الثلاث الآيات . وقال كعب الأحبار : هذه الآية مفتتح التوراة : " بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " الآية . وقال ابن عباس : هذه

(١) آية ١٨٧ سورة آل عمران . ج ٤ ص ٣٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : « في التقريب (الربيع بن خثيم) بضم المعجمة وفتح المثلثة ، ولكن في الخلاصة : بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة » .

الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة «آل عمران» أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملّة . وقد قيل : إنها العشر كلمات المنزّلة على موسى .

الرابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإحسان إلى الوالدين برّهما وحفظهما وصيانتهما وآمتثال أمرهما وإزالة الرِّق عنهما وترك السّلطنة عليهما . و « إحسانا » نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه؛ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحسانا .

الخامســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ الإملاق الفقر؛ أي لا تئـدوا ـــ من الموءودة ـــ بناتكم خشية العَيْلة ، فإني رازقكم وإياهم . وقد كان منهـم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر ، كما هو ظاهر الآية . أملق أي افتقر . وأملقه أي أفقره؛ فهو لازم ومتعد . وحكى النقاش عن مُؤَرِّج أنه قال : الإملاق الجوع بلغة لَخْم . وذكر منـذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق ؛ يقال : أملق ماله بمعنى أنفقه . وذُكر أن عليًّا قال لآمرأته : أمْلِقي من مالك ماشئت . ورجل مَلِق يُعطي بلسانه ما ليس في قلبه . فالمَلَق لفظ مشترك بيانه في موضعه .

السادســـة ـــ وقد يستدلّ بهذا من يمنع العَزْل؛لأن الوَأْد يرفع الموجود والنَّسْل،والعزل منع أصل النسل فتشابها؛ إلا أن قتل النفس أعظم وِزْرا وأقبح فعلا؛ولذلك قال بعض علمائنا : إنه يفهم من قوله عليه السلام في العزل : "ذلك الوأد الخفي" الكراهة لا التحريم . وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم . وقال بإباحته أيضا جماعةٌ من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله عليه السلام : "لا عليكم ألّا تفعلوا فإنما هو القَدَر" أي ليس عليكم جناح في ألّا تفعلوا . وقد فَهِم منه الحسن ومحمـد بن مُثَنّى النّهْيَ والزّجْرَ عن العزل . والتأويل الأول أوْلى ؛ لقوله عليه السـلام : "وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء". قال مالك والشـافعي : لا يجوز العزل عن الحرّة إلا بإذنها . وكأنهم رأوا الإنزال من تمـام لذتها،ومن حقها في الولد، ولم يروا ذلك في الموطوءة بملك اليمين، إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها؛ إذ لا حق لها في شيء مما ذُكر.

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نظيره « وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ »(١). فقوله : « ما ظهر » نهى عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي . « وما بطن » ما عقد عليه القلب من المخالفة. وظَهر وبَطن حالتان تستوفيان أقسام ماجعلت له من الأشياء. و « ما ظهر » نصب على البدل من «الفواحش» . «وما بطن» عطف عليه.

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الألف واللام في « النفس » لتعريف الجنس ؛ كقولهم : أهلك الناس حُبّ الدرهم والدينار . ومثله «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا»(٢) ألا ترى قوله سبحانه «إِلَّا الْمُصَلِّينَ» وكذلك قوله : «وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ» لأنه قال : «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا». وهذه الآية نهيٌ عن قتل النفس المحرّمة، مؤمنةً كانت أو معاهدة إلا بالحق الذي يوجب قتلها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه إلا بحقه وحسابُهم على الله" . وهذا الحق أمور : منها منع الزكاة وترك الصلاة ؛ وقد قاتل الصدّيق ما نعي الزكاة . وفي التنزيل «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ»(٣) وهذا بيّن. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة". وقال عليه السلام: "إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"(٤). أخرجه مسلم. وروى أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به" . وسيأتي بيان هذا في «الأعراف»(٥) . وفي التنزيل : «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا»(٦) . وقال : «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا»(٧) الآية. وكذلك من شقّ عصا المسلمين وخالف إمامَ جماعتهم وفرّق كلمتهم وسعى في الأرض فسادا بانتهاب الأهل والمال والبَغْي على السلطان والامتناع من حكمه يُقْتَل . فهذا معنى قوله «إلا بالحق» .

---

(١) آية ١٢٠ من هذه السورة . (٢) آية ١٩ سورة المعارج . (٣) آية ٥ سورة التوبة .
(٤) أي فادفعوا الآخر بالقتل اذا لم يمكن دفعه بدونه . (٥) راجع المسألة الثانية في قوله تعالى : « ولوطا اذ قال لقومه ...» آية ٨٠ . (٦) آية ٣٣ سورة المائدة . (٧) آية ٩ سورة الحجرات .

وقال عليه السلام : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده ولا يتوارث أهل ملّتين". وروى أبو داود والنَّسائى عن أبى بَكْرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من قتل مُعاهَدا فى غير كُنْهِه(١) حرّم الله عليه الجنة" . وفى رواية أخرى لأبى داود قال : " مَن قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما" . فى البخارى فى هذا الحديث "وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما" . خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى .

التاســعة ـــ قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرّمات. والكاف والميم للخطاب، ولا حظّ لها من الإعراب . ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ الوصيّة الأمر المؤكد المقدور . والكاف والميم محله النصب؛ لأنه ضمير موضوع للمخاطبة . وفى وصّى ضمير فاعل يعود على الله . روى مطر الوراق عن نافع عن ٱبن عمر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشرف على أصحابه فقال : عَلَام تقتلونى! فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يحلّ دَمُ رجل مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل زنى بعد حصانة فعليه الرجم أو قتل عمدا فعليه القَوَد أو ٱرتدّ بعد إسلامه فعليه القتل" فوالله ما زنيتُ فى جاهلية ولا إسلام ، ولا قتلتُ أحدا فأقيد نفسى به ، ولا ٱرتددت منذ أسلمت ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ذلكم الذى ذكرت لكم وصاكم به لعلكم تعقلون !

العاشـــرة ـــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال فى هذا؛ فإنه جامع. قال مجاهد : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إِلَّا بالتى هى أَحْسَنُ » بالتجارة فيه، ولا تشترى منه ولا تستقرض .

الحادية عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعنى قوّته ، وقد تكون فى البدن ، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة ، ولا بُدّ من حصول الوجهين؛ فإن الأَشُدّ وقعت هنا مطلقة.

(١) كنه الأمر : حقيقته . وقيل : وقته وقدره . وقيل : غايته ، يعنى من قتله فى غير وقته أو غاية أمره الذى يجوز فيه قتله . (عن ابن الأثير) .

وقد جاء بيان حال اليتيم فى سورة « النساء » مقيدة، فقال : « وَٱبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا[1] » بجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد ؛ فلو مُكِّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه فى شهواته وبقى صُعْلوكا لا مال له . وخصّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وٱفتقاد الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال[2] بفقيد الأب أولى . وليس بلوغ الأَشُدّ مما يبيح قُرْب ماله بغير الأحسن ؛ لأن الحرمة فى حق البالغ ثابتة . وخصّ اليتيم بالذكر لأن خصمه الله . والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده . وفى الكلام حذف؛ فإذا بلغ أشدّه واونس منه الرشد فٱدفعوا إليه ماله . وٱختلف العلماء فى أشُدّ اليتيم ؛ فقال ابن زيد : بلوغه . وقال أهل المدينة . بلوغه وإيناس رشده . وعند أبى حنيفة : خمس وعشرون سنة . قال ابن العربىّ : وعجبا من أبى حنيفة، فإنه يرى المقدّرات لا تثبت قياسا ولا نظرا وإنما تثبت نقلا، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضَّرْب فكثر عنده المُدَلَّس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدِّين[3] . وقد قيل : إن ٱنتهاء الكهولة فيها مُجْتَمع الأَشُدّ، كما قال سُحيم بن وَثيل :

أخُو خمسين مُجْتَمِع أَشُدِّى * ونَجّذَنِى مداورة الشئون[4]

يروى « نجدنى » بالدال والذال . والأشُدّ واحد لا جمع له ؛ بمنزلة الآنُك وهو الرَّصاص . وقد قيل : واحده شدّ، كفَلْس وأفْلَس . وأصله من شدّ النهار أى ٱرتفع ؛ يقال : أتيته شدّ النهار ومدّ النهار . وكان محمد بن محمد الضَّبىّ يُنشد بيت عنترة :

عَهْدِى به شَدّ النهار كأنما * خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِم[5]

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) كذا فى الأصول . ولعلها : « الاهتمام » .
(٣) يريد بدار الضرب : بغداد . والمعدن : معدن الشريعة ومنجمها وهى المدينة المنورة . (٤) رجل منجد (بالدال والذال) : جرب الأمور وعرفها وأحكمها . ومداورة الشئون : مداولة الأمور ومعالجتها .
(٥) اللبان (بفتح اللام) : الصدر . ويروى : « البنان » . والعظلم (بكسر العين واللام وسكون الظاء) : صبغ أحمر، وقيل هو الوسمة ، شجر له ورق يختضب به .

آخــر :

تُطيف به شَــدّ النهـار ظَعينةٌ * طويلةُ أنقـاءِ اليدَيْن سَحُوقُ[1]

وكان سيبويه يقول : واحده شِــدّة . قال الجوهرى : وهو حَسَن فى المعنى ؛ لأنه يقال : بلغ الغلام شِدّته ، ولكن لا تجمع فِعْلة على أفعُل ، وأما أنعُم فإنما هو جمع نُعْم ؛ من قولهم : يوم بُؤْس ويوم نُعْم . وأما قول من قال : واحده شَدّ ، مثلُ كَلْب وأكلب ، وشِدّ مثل ذِئْب وأذؤب فإنمـا هو قياس . كما يقولون فى واحد الأبابيل : إبّوْل ، قياسا على عِجَّوْل ، وليس هو شـيئا سُمع من العرب . قال أبو زيد : أصابتنى شُــدّى على فُعْلى ؛ أى شِدّة . وأشــدّ الرجل إذا كانت معه دابة شديدة .

الثانية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء . والقِسط : العدل . ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى طاقتها فى إيفاء الكيل والوزن . وهذا يقتضى أن هذه الأوامر إنمـا هى فيما يقع تحت قُدرة البشر من التحفظ والتحرّز . وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكَيْلين ، ولا يدخل تحت قُدرة البشر فمعفوٌّ عنه . وقيــل : الكيل بمعنى المِكْيَال . يقال : هــذا كذا وكذا كَيْلا ؛ ولهــذا عطف عليه بالميزان . وقال بعض العلماء : لمـّا علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تَضيق نفسُه عن أن تَطيب للغير بمـا لا يجب عليهـا له أمر المعطى بإيفاء ربّ الحق حقّه الذى هو له ، ولم يكلفه الزيادةَ ؛ لمـا فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها . وأمر صاحبَ الحقّ بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقلّ منه ؛ لمـَا فى النقصان من ضيق نفسه . وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال : ما ظهر الغلول فى قوم قطّ إلا ألقى الله فى قلوبهم الرّعب ، ولا فشا الزنى فى قوم إلا كَثُر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المِكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حَكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدّم ، ولا خَتَر قوم بالعهد إلا سلّط عليهــم الله العــدو . وقال ابن عباس أيضا : إنكم معشرَ الأعاجم قــد وُليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم .

(١) السحوق : المرأة الطويلة .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ يتضمن الأحكام والشهادات . ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى ولو كان الحق على مثل قرابتكم ؛ كما تقدّم فى «النساء»[1] . ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ عامّ فى جميع ما عَهِد الله إلى عباده . ويحتمل أن يراد به جميع ما عقد بين إنسانين . وأضيف ذلك العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتّعظون .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدّم ؛ فإنه لما نهى وأمر حذّر هنا عن اتباع غيرِ سبيله ، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف . « وأَنّ » فى موضع نصب ، أى وأتل أن هذا صراطى ؛ عن الفرّاء والكسائىّ . قال الفرّاء : ويجوز أن يكون خفضا ، أى وصّاكم به وبأن هذا صراطى . وتقديرها عند الخليل وسيبويه : ولأن هذا صراطى ؛ كما قال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ »[2] وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « وإِنَّ هذا » بكسر الهمزة على الاستئناف ؛ أى الذى ذكر فى هذه الآية صراطى مستقيما . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب «وأنْ هذا» بالتخفيف . والمخفّفة مثلُ المشدّدة ، إلا أن فيه ضمير القصة والشان ؛ أى وأنه هذا . فهى فى موضع رفع . ويجوز النصب . ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد ؛ كما قال عزّ وجل : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ »[3] . والصراط : الطريق الذى هو دين الإسلام . ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ نصب على الحال ، ومعناه مستوِيًا قوِيا لا اعوجاج فيه . فأمر باتباع طريقه الذى طرقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهايتُه الجنة . وتشعّبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى تميل . روى الدّارمىّ أبو محمد فى مسنده بإسناد صحيح : أخبرنا عفان حدّثنا حماد بن زيد حدّثنا عاصم بن بَهْدَلة عن أبى وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ، ثم قال : " هذا سبيل

---

(١) راجع ج ٥ ص ٤١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٨ سورة الجن .
(٣) آية ٩٦ سورة يوسف .

الله" ثم خطّ خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره ثم قال " هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها" ثم قرأ هذه الآية . وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن جابر عن عبد الله قال: كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فخطّ خطًّا، وخطّ خطّين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال : "وهذا سبيل الله — ثم تلا هذه الاية — وأن هـذا صِراطِى مستقيما فاتبعوه ولا تَتّبعوا السُّبُلَ فتفرّق بكم عن سبيله " . وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملـل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع، وغير ذلك من أهـل التعمّق فى الجدل والخوض فى الكلام . هذه كلّها عرضة للزلل، ومظِنة لسوء المعتقد؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهو صحيح . ذكر الطبرى فى كتاب أدب النفوس : حدّثنا محمد بن عبد الأعلى الصّنعانى قال حدّثنا محمد بن ثور عن معمر عن أبَان أن رجلا قال لآبن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تَركَنا محمد صـلى الله عليه وسـلم فى أدناه وطرفُه فى الجنة، وعن يمينه جَوادّ(١) وعن يساره جوادّ، وثَمّ رجال يدعون من مرّ بهم فمن أخذ فى تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط آنتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود : «وأن هذا صراطى مستقيما» الآية . وقال عبد الله بن مسعود : تعلّموا العـلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله . ألا وإياكم والتّنطّع والتعمّق والبدع، وعليكم بالعتيق(٢) . أخرجه الدّارِمىّ . وقال مجاهد فى قوله «ولا تَتّبِعوا السُّبُلَ» قال: البدع . قال ابن شهاب: وهذا كقوله تعالى: «إنّ الّذِين فرّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعًا(٣)» الآية . فالهَرَبَ الهربَ، والنّجاءَ النجاءَ ! والتمسُّك بالطريق المستقيم والسّنن القويم، الذى سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح . روى الأئمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا " . وروى ابن ماجه وغيره عن العِرْباض بن سَارِية قال : وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظةً ذَرَفت

---

(١) الجوادّ (بتشديد الدال) : الطرق، واحدها جادّة، وهى سواء الطريق . وقيل معظمه . وقيل وسطه .
(٢) العتيق : القديم . (٣) آية ١٥٩ من هذه السورة .

منها العيون، ووَجِلَت منها القلوب؛ فقلنا : يا رسول الله، إن هذه لموعظةُ مودّع، فما تَعْهَد إلينـا ؟ فقال : " قد تركتم على البيضاء[(١)] ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بمـا عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى عَضّوا عليهـا بالنواجذ وإياكم والأمورَ المحدَثات فإن كلّ بدعة ضـلالة وعليكم بالطاعة وإنْ عبـدًا حبشيًّا فإنمـا المؤمن كالجَمَل الأَنِف[(٢)] حيثما قِيد انقاد " أخرجه الترمذى بمعناه وصححه . وروى أبو داود قال حدثنا ابن كَثير قال أخبرنا سفيان قال : كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر؛ فكتب : أما بعـد ، فإنى أوصيك بتقوى الله والاقتصاد فى أمره واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك ما أحدث المحدِثون بعد ما جرت به سنّتُه ، وكُفُوا مؤونتـه . فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة . ثم اعلم أنه لم يبتدع الناسُ بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها ؛ فإن السنة إنما سنّها من قد عَلِم ما فى خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق؛ فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى. فإن كان الهُدَى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه. ولئن قلتم إنما حدث بعدَهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورَغِب بنفسه عنهم ؛ فإنهم هم السابقون، قد تكلّموا فيه بما يكْفِى ووصفوا ما يَشْفِى؛ فما دونَهم من مقصر، وما فوقهم من محسر . وقد قصر قوم دونهم فجَفَوْا، وطمَح عنهم أقوام فغَلَوْا وإنهم مع ذلك لَعَلَى هُدًى مستقيم . وذكر الحديث . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرى : عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة ، فإنى أخاف أنه سيأتى عن قليل زمانٌ إذا ذكر إنسانٌ النبيّ صلى الله عليه وسلم والاقتداءَ به فى جميع أحواله ذمّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلّوه وأهانوه . قال سهل : إنما ظهرت البدعة على يدى أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم ؛ فظهرت أقاويلهم وفَشَت فى العـامّة فَسمِعه من لم يكن يسـمعه ؛ فلو تركوهم ولم يكلموهم

---

(١) البيضاء : يريد صلى الله عليه وسلم الملة والحجة الواضحة التى لا تقبل الشبه أصلا .

(٢) الأنف (ككتف) : المأنوف ، وهو الذى عقر الخشاش أنفه ؛ فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذى به . وقيل : الأنف الذلول .

لمات كل واحد منهم على ما فى صدره ولم يظهر منه شيء وحمله معه إلى قبره . وقال سهل : لا يُحدث أحدكم بدعةً حتى يحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يُحدث له بدعة ، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخدمة . قال سهل : لا أعلم حديثا جاء فى المبتدعة أشد من هذا الحديث: "حجب الله الجنة عن صاحب البدعة". قال : فاليهودىّ والنّصرانىّ أرجى منهم . قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخلُوَنّ بالنسوان، ولا يخاصِمنّ أهل الأهواء . وقال أيضا : آتبعوا ولا تبتدعوا ، فقد كُفيتم . وفى مسند الدّارِمىّ: إن أبا موسى الأشعرى جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى رأيت فى المسجد آنفا شيئا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا ! قال : فما هو ؟ قال: إن عشتَ فستراه، قال : رأيتُ فى المسجد قوما حِلَقًا حِلَقًا جلوسا ينتظرون الصلاة ؛ فى كل حَلْقة رجل وفى أيديهم حَصًى فيقول لهم: كَبِّروا مائة؛ فيكبرون مائة . فيقول: هَلِّلُوا مائة فيهللون مائة . ويقول : سبّحوا مائة فيسبحون مائة . قال : فماذا قلتَ لهم ؟ قال : ما قلتُ لهم شيئا ؛ انتظارَ رأيك وانتظار أمرك . قال : أفلا أمرتَهم أن يَعُدّوا سيئاتهم وضَمِنت لهم ألّا يضيع من حسناتهم . ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حَلْقة من تلك الحِلَق ؛ فوقف عليهم فقال : ما هذا الذى تصنعون ؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن، حَصًى نَعُدّ به التكبير والتهليل . قال : فعُدّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألّا يضيع من حسناتكم شيء . ويحكم يا أمّة محمد ! ما أسرعَ هَلَكتكم . أوَ مُفْتَتِحِى[(1)] باب ضلالة ! قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ، ما أردنا إلا الخير . فقال : وكم من مريد للخير لن يصيبه . وعن عمر بن عبد العزيز وسأله رجل عن شيء من أهل الأهواء والبدع ؛ فقال : عليك بدين الأعراب والغلام فى الكُتّاب ، وآلهُ عمّا سِوَى ذلك . وقال الأوزاعى قال إبليس لأوليائه : مِن أىّ شيء تأتون بنى آدم؟ فقالوا : من كل شيء . قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار ؟ قالوا : هيهات! ذلك شيء قُرِن بالتوحيد .

---

(١) كذا فى الأصول . والذى فى سنن الدرامى المطبوعة والمخطوطة : « ... ما أسرع هلكتكم . هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر . والذى نفسى بيده إنكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد . أو مفتتحى باب ... » الخ . وقد كتب على هامش المطبوع : « أو مفتتح » بغير ياء .

قال : لأبثّن فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه . قال : فبثّ فيهم الأهواء . وقال مجاهد : ولا أدرى أىّ النعمتين علىّ أعظم إن هدانى للإسلام ، أو عافانى من هذه الأهواء . وقال الشعبي : إنما سُمّوا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون فى النار . كله عن الدارمىّ . وسئل سهل بن عبد الله عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح منهم وتزويجهم . فقال : لا ، ولا كرامة ! هم كفار ، كيف يؤمن من يقول : القرآن مخلوق ، ولا جنة مخلوقة ولا نار مخلوقة ، ولا لله صراط ولا شفاعة ، ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من النار من مذنبى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا عذاب القبر ولا منكر ولا نكير ، ولا رؤية لربنا فى الآخرة ولا زيادة ، وأنّ علم الله مخلوق ، ولا يرون السلطان ولا جمعة ، ويكفّرون من يؤمن بهذا . وقال الفُضيل بن عِياض : من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه . وقد تقدّم هذا من كلامه وزيادة . وقال سفيان الثّورىّ : البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية ؛ المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وقال ابن عباس : النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السُّنّة وينهى عن البدعة ، عبادةٌ . وقال أبو العالية : عليكم بالأمر الأوّل الذى كانوا عليه قبل أن يفترقوا . قال عاصم الأحْوَل : فحدّثت به الحسن فقال : قد نصحك والله وصدَقك . وقد مضى فى «آل عمران» معنى قوله عليه السلام : "تفرقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملّة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين" . الحديث(١) . وقد قال بعض العلماء العارفين : هذه الفرقة التى زادت فى فرق أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم قوم يعادون العلماء ويبغضون الفقهاء ، ولم يكن ذلك قَطُّ فى الأمم السالفة . وقد روى رافع بن خَديج أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يكون فى أمتى قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى" . قال فقلت : جُعلت فداك يا رسول الله ! كيف ذاك ؟ قال : "يُقرّون ببعض ويكفرون ببعض" . قال قلت : جُعلت فداك يارسول الله ! وكيف يقولون ؟ قال : "يجعلون إبليس عدلًا لله فى خلقه

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر لإبليس ". قال : فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة ؟ قال : " فما تلقى أمتى منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة ". وذكر الحديث . ومضى فى «النساء» وهذه السورة النَّهْىُ عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية (١) . ثم بين فى سورة «النساء» وهى مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به فقال : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ » الآية (٢) . فألحق من جالسهم بهم . وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات فى مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعى وابن المبارك فإنهم قالوا فى رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا : يُنْهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم، يعنون فى الحكم . وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مجالسة شَرَبة الخمر، وتلا « إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ » . قيل لهم : فإنه يقول إنى أجالسهم لأباينهم وأردّ عليهم . قالوا : يُنْهَى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم .

قوله تعالى : ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ مفعولان . ﴿تَمَامًا﴾ مفعول من أجله أو مصدر . ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قرئ بالنصب والرفع . فمن رفع — وهى قراءة يحيى بن يَعْمَر وابن أبى إسحاق — فعلى تقدير : تماما على الذى هو أحسنُ . قال المَهْدَوِىّ : وفيه بعدٌ من أجل حذف المبتدأ العائد على الذى . وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع « ما أنا بالذى قائل لك شيئا » . ومن نصب فعلى أنه فعل ماض داخل فى الصِّلة ؛ هذا قول البصريين . وأجازا الكسائى والفرّاء

(١) آية ٦٨ من هذه السورة . (٢) آية ١٤٠ راجع جـ ٥ ص ٤١٧ طبعة أولى أو ثانية .

أن يكون اسما نعتا للذى . وأجازا « مررت بالذى أخيك » ينعتان الذى بالمعرفة وما قاربها. قال النحاس : وهذا محال عند البصريين؛ لأنه نعت للاسم قبل أن يتم؛ والمعنى عندهم : على المحسنين. قال مجاهد : تماما على المحسن المؤمن . وقال الحسن فى معنى قوله « تماما على الذى أحسن » كان فيهم محسن وغير محسن؛ فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين. والدليل على صحة هذا القول أن ابن مسعود قرأ « تماما على الذين أحسنوا » . وقيل : المعنى أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يُحسنه موسى مما كان علّمه الله قبل نزول التوراة عليه . قال محمد بن يزيد : فالمعنى « تماما على الذى أحسن » أى تماما على الذى أحسنه الله عز وجل إلى موسى عليه السلام من الرسالة وغيرها . وقال عبد الله بن زيد : معناه على إحسان الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام . وقال الربيع بن أنس: تماما على إحسان موسى من طاعته لله عز وجل؛ وقاله الفراء . ثم قيل: « ثُمّ » يدلّ على أن الثانى بعد الأوّل، وقصة موسى صلى الله عليه وسلم وإتيانه الكتاب قبل هذا؛ فقيل : « ثم » بمعنى الواو ؛ أى وآتينا موسى الكتاب، لأنهما حرفا عطف . وقيل : تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم، ثم أتل ما آتينا موسى تماما . ﴿ وَتَفْصِيلًا ﴾ عطف عليه. وكذا «وَهُدًى وَرَحْمَةً» . ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ إبتداء وخبر . ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ نعت؛ أى كثير الخيرات . ويجوز فى غير القرآن «مباركًا» على الحال . ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أى اعملوا بما فيه. ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ أى اتقوا تحريفه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى لتكونوا راجين للرحمة فلا تُعذّبون .

قوله تعالى : أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب . قال الكوفيون : لئلا تقولوا . وقال البصريون : أنزلناه كراهية أن تقولوا . وقال الفراء والكسائى : المعنى فاتقوا أن تقولوا يأهل مكة . ﴿ إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ ﴾ أى التوراة والإنجيل . ﴿ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ أى على اليهود والنصارى ، ولم ينزل علينا كتاب . ﴿ وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ أى عن تلاوة كتبهم وعن لغاتهم . ولم يقل عن دراستهما ؛ لأن كل طائفة جماعة . ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على « أَنْ تَقُولُوا » . ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ ﴾ أى قد زال العذر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة والبيان واحد ؛ والمراد محمد صلى الله عليه وسلم ، سماه سبحانه بينة . ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أى لمن اتبعه . ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى فإن كذبتم فلا أحد أظلم منكم . ﴿ صَدَفَ ﴾ أعرض ، و ﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ يعرضون . وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ معناه أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا ، فماذا ينتظرون . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى عند الموت لقبض أرواحهم . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره ، وقد يذكر المضاف إليه والمراد به المضاف ؛ كقوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » (٢) يعنى أهل القرية . وقوله « وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ » (٣) أى حُبّ العجل . كذلك هنا : يأتى أمر ربك ، أى عقوبة ربك وعذاب ربك . ويقال : هذا من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله . وقد تقدّم القول

(١) راجع آية ٤٦ من هذه السورة فى الجزء السابق . (٢) آية ٨٢ سورة يوسف .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣١ طبعة ثانية .

فى مثله فى « البقرة » وغيرها . ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قيل : هو طلوع الشمس من مغربها . بيّن بهذا أنهم يُمْهَلون فى الدنيا فإذا ظهرت الساعة فلا إمهال . وقيل : إتيانُ الله تعالى مجيئُه لفصل القضاء بين خلقه فى موقف القيامة ؛ كما قال تعالى : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »(١) . وليس مجيئه تعالى حركة ولا انتقالا ولا زوالا ؛ لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائى جسما أو جوهرا . والذى عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون : يجىء و ينزل و يأتى . ولا يُكَيِّفون ؛ لأنه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »(٢) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث إذا خرجْنَ لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا : طلوعُ الشمس من مغربها والدّجالُ ودابّةُ الأرض " . وعن صَفْوان بن عَسّال المُرَادِىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن بالمغرب بابا مفتوحًا للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يُغْلَق حتى تطلع الشمس من نحوه " . أخرجه الدّارَقُطْنِىّ والتّرمذىّ وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقال سفيانُ(٣) : قِبل الشام ، خلقه الله يوم خلق السموات والأرض . " مفتوحا " يعنى للتوبة لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه . قال : حديث حسن صحيح .

قلت : وكذّب بهذا كله الخوارجُ والمعتزلة كما تقدّم . وروى ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب فقال(٤) : أيها الناس ، إن الرَّجْم حق فلا تُخْدَعُنّ عنه ، و إن آية ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رَجَم ، وأن أبا بكر قد رَجَم ، وأنّا قد رجمنا بعدهما ، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذّبون بالرَّجْم ، و يكذّبون بالدّجال ، و يكذّبون بطلوع الشمس من مغربها ، و يكذبون بعذاب القبر ، و يكذبون بالشفاعة ، و يكذبون بقوم يخرجون من النار بعد ما آمْتَحَشُوا(٥) . ذكره أبو عمر . وذكر الثعلبىّ فى حديث فيه طول عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله

(١) آية ٢٢ سورة الفجر . (٢) آية ١١ سورة الشورى .

(٣) سفيان : أحد رجال سند هذا الحديث . (٤) كذا فى الأصول . والذى فى الدر المنثور : « ... خطبنا عمر فقال ... » . (٥) امتحشوا : احترقوا . والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم . ويروى : « آمتُحشوا » على ما لم يسم فاعله .

عليه وسلم ما معناه : أن الشمس تُحبس عن الناس — حين تكثر المعاصى فى الأرض ، و يذهب المعروف فلا يأمر به أحد ، و يفشو المنكر فلا يُنْهَى عنه — مقدار ليـلة تحت العرش ، كلما سجدتْ وآستأذنت ربّها تعالى من أين تطلع لم يجئ لها جواب حتى يوافيها القمرُ فيسجد معها ، و يستأذن من أين يطلع فلا يُجاء إليهما جواب حتى يُحبسا مقدارَ ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر ، فلا يعرف طول تلك الليـلة إلا المتهجِّدون فى الأرض ، وهم يومئـذ عصابة قليلة فى كل بلدة من بلاد المسلمين . فإذا تمّ لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى إليهما جبريلَ عليه السلام فيقول : " إن الربّ سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه ، وأنه لاضوء لكما عندنا ولا نور " فيطلعان من مغاربهما أسودين ، لا ضوء للشمس ولا نور للقمر ، مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك . فذلك قوله « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ »(١) وقوله «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»(٢) فيرتفعان كذلك مثل البعيرين المقرونين ؛ فإذا ما بلغ الشمس والقمر سُرّة السماء وهى منصفها جاءهما جبريل فأخذ بقرونهما وردّهما إلى المغرب ، فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة ثم يردّ المصراعين ، ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صَـدْع . فإذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبْد بعد ذلك توبة ، ولم تنفعه بعد ذلك حسنة يعملها ؛ إلا من كان قبل ذلك محسنا فإنه يجرى عليـه ما كان عليه قبل ذلك اليوم ؛ فذلك قوله تعـالى : « يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا » . ثم إن الشمس والقمر يُكسيان بعد ذلك الضوء والنور ، ثم يطلعان على الناس و يغربان كما كانا قبل ذلك يطلعان و يغربان . قال العلماء : و إنما لاينفع نفسا إيمانُها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس ، وتَفْتُرُ كلّ قوّة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُوّ القيامة فى حال من حضره الموت فى آنقطاع الدّواعى إلى أنواع المعاصى عنهم ، و بطلانها من أبدانهم ؛ فمن تاب فى مثل هذه الحال لم تُقبل توبته ، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت . قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله

(١) آية ٩ سورة القيامة . (٢) أول سورة التكوير .

يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر " أى تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذى يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله . وعلى هذا ينبغى أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالى و بنبيه صلى الله عليه وسلم و بوعده قد صار ضرورة . فإن آمتدّت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان ، ولا يتحدّثوا عنه إلا قليلا، فيصير الخبر عنه خاصًّا وينقطع التواتر عنه ؛ فمن أسلم فى ذلك الوقت أو تاب قُبِل منه . والله أعلم . وفى صحيح مسلم عن عبد الله قال : حفِظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنْسَه بعدُ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول الايات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها وخروجُ الدابة على الناس ضُحًا وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا " . وفيه عن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غرفة ونحن أسفلَ منه ، فآطلع إلينا فقال : "ما تذكرون"؟ قلنا : الساعة . قال : " إن الساعةَ لا تكون حتى تكون عشر آيات . خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ فى جزيرة العرب والدخان والدّجّال ودابّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوج وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قعر عَدَنٍ تُرَحِّل الناسَ " . قال شعبة : وحدّثنى عبد العزيز بن رُفَيع عن أبى الطُّفيل عن أبى سريحة مثلَ ذلك، لا يذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أحدهما فى العاشرة : ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . وقال الآخر : وريحٌ تُلْقِى الناسَ فى البحر .

قلت : وهذا حديث متقن[(١)] فى ترتيب العلامات . وقد وقع بعضها وهى الخسوفات على ماذكر أبو الفرج الجَوْزى من وقوعها بعراق العجم والمغرب، وهلك بسببها خلق كثير؛ ذكره فى كتاب فهوم الآثار وغيره . ويأتى ذكر الدابة فى « النمل »[(٢)] . و يأجوج ومأجوج فى « الكهف »[(٣)] . ويقال : إن الآيات تتابع كالنظم فى الخيط عامًا فعامًا . وقيل : إن الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم عليه السلام قال لنمرود : « فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « متفق » . (٢) آية ٨٢ (٣) آية ٩٤

من الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ »(١) وأن المُلْحدة والمُنَجِّمة عن آخرهم ينكرون ذلك و يقولون : هو غير كائن؛ فَيُطْلِعها الله تعالى يوما من المغرب ليُرِىَ المنكرين قدرته أن الشمس فى مُلْكه، إن شاء أطلعها من المشرق و إن شاء أطلعها من المغرب. وعلى هذا يحتمل أن يكون ردّ التوبة والإيمانِ على من آمن وتاب من المنكرين لذلك، المكذبين لخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بطلوعها؛ فأما المصدِّقون لذلك فإنه تُقبَل توبتهم و ينفعهم إيمانهم قبل ذلك . رُوِى عن عبد الله ابن عباس أنه قال : لا يُقبل من كافر عملٌ ولا توبةٌ إذا أسلم حين يراها، إلا من كان صغيرا يومئذ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبِل ذلك منه. ومن كان مؤمنا مذنبا فتاب من الذنب قُبِل منه. ورُوِى عن عِمران بن حُصين أنه قال : إنما لم يقبل وقت الطلوع حين(٢) يكون صيحة فيهلك فيها كثير من الناس؛ فمن أسلم أو تاب فى ذلك الوقت وهلك لم تقبل توبته، ومن تاب بعد ذلك قبلت توبته؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ فى تفسيره . وقال عبد الله بن عمر : يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة حتى يغرِسوا النخل . والله بغيبه أعلم . وقرأ ابن عمر وٱبن الزبير « يوم تأتى » بالتاء؛ مثل « تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » . وذهبت بعض أصابعه . وقال جرير :

لمّا أتى خبر الزّبير تواضعتْ * سُورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ(٣)

قال المبرد : التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل . وقرأ ابن سِيرين « لا تنفع » بالتاء. قال أبو حاتم : يذكرون أن هذا غلط من ٱبن سِيرين . قال النحاس : فى هذا شىء دقيق من النحو ذكره سيبويه، وذلك أن الإيمان والنفس كلّ واحد منهما مشتمل على الآخر فأنّث الإيمان إذ هو من النفس و بها؛ وأنشد سيبويه :

مَشَيْنَ كما ٱهتزّتْ رماحٌ تَسفّهتْ * أعاليَها مَرُّ الرياح النّواسِمِ(٤)

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى الأصول : «حتى» والتصويب عن تفسير السمرقندى . (٣) وصف مقتل الزبير بن العوام صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . (٤) البيت لذى الرمة . وصف نساء؛ فيقول : إذا مشين اهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت .

قال المَهْدَوِىّ : وكثيرا ما يؤنّثون فعل المضاف المذكر إذا كانت إضافته إلى مؤنّث ، وكان المضاف بعض المضاف إليه أو منه أو به ؛ وعليه قول ذِى الرُّمّة :

* مشين ... * البيت

فأنّث المرّ لإضافته إلى الرياح وهى مؤنثة ، إذ كان المرّ من الرياح . قال النحاس : وفيه قول آخر وهو أن يؤنّث الإيمان لأنه مصدر كما يذكّر المصدر المؤنث ؛ مثل « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ »(١) وكما قال :

* فقد عذرتنا فى صحابته العذر *

ففى أحد الأقوال أنّث العذر لأنه بمعنى المعذرة . ﴿ قُلِ ٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ بكم العذاب .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ قرأه حمزة والكسائى بالألف ، وهى قراءة علىّ ابن أبى طالب كرّم الله وجهه ؛ من المفارقة والفراق . على معنى أنهم تركوا دينهم وخرجوا عنه . وكان علىّ يقول : والله ما فرّقوه ولكن فارقوه . وقرأ الباقون بالتشديد ؛ إلا النَّخَعىّ فإنه قرأ « فَرَقُوا » مُخَفَّفًا ؛ أى آمنوا ببعض وكفروا ببعض . والمراد اليهود والنصارى فى قول مجاهد وقتادة والسُّدّى والضحاك . وقد وُصفوا بالتفرق ؛ قال الله تعالى : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »(٢) . وقال : « وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ »(٣) . وقيل : عنى المشركين ، عَبَد بعضهم الصنم وبعضهم الملائكة . وقيل : الآية عامّة فى جميع الكفار . وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر الله عز وجل به فقد فرّق دينه . وروى أبو هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية « إن الذين فرقوا دينهم » هم أهل البدع والشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة . وروى بَقيّة بن الوليد

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) آية ٤ سورة البينة . (٣) راجع جـ ٦ ص ٥ طبعة أولى أو ثانية .

حدّثنا شعبة بن الحجاج حدّثنا مُجالد عن الشَّعْبِيّ عن شُرَيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : " إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعا إنمـا هم أصحابُ البِدَع وأصحابُ الأهواء وأصحـاب الضلالة من هـذه الأمة . يا عائشة : إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البـدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا برىء منهم وهم منا برآء " . وروى ليث بن أبى سليم عن طاوس عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ » . ومعنى ﴿ شِيَعاً ﴾ فِرَقاً وأحزابا . وكل قوم أمرُهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شِيع . ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ فأوجب براءته منهم ؛ وهـو كقوله عليه السلام : " مَن غَشّنا فليس منا " أى نحن برآء منه . وقال الشاعر :

إذا حاولتَ فى أَسَـد فُجُورًا * فإنى لستُ منك ولستَ منّى (1)

أى أنا أبرأ منك . وموضع « فى شىء » نصب على الحال من المضمر الذى فى الخبر ؛ قاله أبو علىّ . وقال الفراء : هو على حذف مضاف، المعنى لست من عقابهم فى شىء، وإنما عليك الإنذار . ﴿ إِنَّمَـا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ﴾ تعزية للنبىّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَـا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ ابتداء، وهو شرط، والجواب ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَـا ﴾ أى فله عشر حسنات أمثالهـا ؛ فحذفت الحسنات وأقيمت الأمثال التى هى صفته مقامها ؛ جمع مِثْل . وحكى سيبويه : عنـدى عشرة نسابات، أى عنـدى عشرة رجال نسّابات . وقال أبو علىّ : حَسُن التأنيث فى « عشر أمثالهـا » لمـا كان الأمثال مضافا إلى مؤنّث ، والإضافة إلى المؤنث إذا كان إياه فى المعنى يحسن فيه ذلك ؛ نحو « تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » .

(1) البيت للنابغة الذبيانى . يقول هـذا لعيينة بن حصن الفزارى . وكان قد دعاه وقومه الى مقاطعة بنى أسد ونقض حلفهم فأبى عليه وتوعده بهم . وأراد بالفجور نقض الحلف (عن شرح الشواهد) .

وذهبت بعض أصابعه . وقرأ الحسن وسعيد بن جُبير والأعمش « فله عَشْرٌ أمثالها » . والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها ؛ أى له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له . ويجوز أن يكون له مثل ، ويضاعف المثل فيصير عشرة . والحسنة هنا : الإيمان . أى من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عملٍ عمله فى الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب . ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ يعنى الشرك . ﴿ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وهو الخلود فى النار ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة ؛ فذلك قوله تعالى : « جَزَاءً وِفَاقًا »(١) يعنى جزاء وافق العمل . وأما الحسنة فبخلاف ذلك ؛ لنص الله تعالى على ذلك . وفى الخبر " الحسنة بعشر أمثالها وأَزيد والسيئة واحدة وأغفر ". فالويل لمن غلبت آحادُه أعشارَه . وروى الأعمش عن أبى صالح قال: الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا ينقص ثواب أعمالهم . وقد مضى فى « البقرة »(٢) بيان هذه الآية ، وأنها مخالفة للإنفاق فى سبيل الله ؛ ولهذا قال بعض العلماء : العشر لسائر الحسنات ، والسبعمائة للنفقة فى سبيل الله ، والخاصّ والعام فيه سواء . وقال بعضهم : يكون للعوام عشرة وللخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى ؛ وهذا يحتاج إلى توقيف . والأوّل أصح ؛ لحديث خُريم بن فاتك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " وأما حسنة بعشر فمن عَمِل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة فى سبيل الله " .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

(١) آية ٢٦ سورة النبأ .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٤٠ ، ٣٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لما بيّن أن الكفار تفرقوا بيّن أن الله هداه إلى الدِّين المستقيم وهو دين إبراهيم . ﴿ دِينًا ﴾ نصب على الحال ؛ عن قُطْرُب . وقيل : نصب بهداني؛ عن الأخفش . غيره : انتصب حملا على المعنى؛ لأن معنى هداني عرّفني دينا . ويجوز أن يكون بدلا عن الصراط ، أى هداني صراطا مستقيما دينا . وقيل : منصوب بإضمار فعل؛ فكأنه قال : ٱتبعوا دينا ، وٱعرفوا دينا . ﴿ قِيَمًا ﴾ قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف والتخفيف وفتح الياء ، مصدر كالشبع فوصف به . والباقون بفتح القاف وكسر الياء وشدّها ، وهما لغتان . وأصل الياء الواو « قَيْوِم » ثم أدغمت الواو فى الياء كميت . ومعناه : دينا مستقيما لا عِوج فيه . ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بدل ﴿ حَنِيفًا ﴾ قال الزجاج : هو حال من إبراهيم . وقال علىّ بن سليمان : هو نصب بإضمار أعنى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ قد تقدّم اشتقاق لفظ الصلاة.(1) وقيل : المراد بها هنا صلاة الليل . وقيل : صلاة العيد . والنّسك جمع نَسِيكة ، وهى الذّبيحة ، وكذلك قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم . المعنى : ذَبْحِى فى الحج والعمرة . وقال الحسن : نسكى دِينى . وقال الزجاج : عبادتى؛ ومنه الناسك الذى يتقرب إلى الله بالعبادة . وقال قوم : النسك فى هذه الآية جميع أعمال الطاعات؛ من قولك : نسك فلان فهو ناسك ، إذا تعبّد . ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ أى ما أعمله فى حياتى ﴿ وَمَمَاتِي ﴾ أى ما أوصى به بعد وفاتى . ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى أفرده بالتقرُّب بها إليه . وقيل : « مَحْيَاى ومماتى لله » أى حياتى وموتى له . وقرأ الحسن « نُسْكِى » بإسكان السين . وأهل المدينة « ومحياى » بسكون الياء فى الإدراج . والعامة بفتحها؛ لأنه يجتمع ساكنان . قال النحاس : لم يُجزه أحد من النحويين إلا يونس ، وإنما أجازه لأن قبله ألفا ، والألف المَدّة التى فيها تقوم مقام الحركة . وأجاز يونس اضربانْ زيدا ، وإنما منع النحويون هذا لأنه جمع بين ساكنين وليس فى الثانى

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٦٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

إدغام، ومن قرأ بقراءة أهل المدينة وأراد أن يَسْلَم من اللحن وقف على « محياى » فيكون غير لاحنٍ عند جميع النحويين . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وعاصم الجَحْدرِيّ « ومَحْيّ » بتشديد الياء الثانية من غير ألف، وهي لغة عُلْيَا . مُضَر يقولون : قَفَيّ وعَصَيّ . وأنشد أهل اللغة :

* سَبَقُوا هَوَيّ وأَعْنَقُوا لهواهُمُ(١) *

وقد تقدّم .

الثالثة — قال الكِيَا الطبرِيّ: قوله تعالى « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إلى قوله « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » استدل به الشافعيّ على افتتاح الصلاة بهذا الذكر ؛ فإن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزله في كتابه ، ثم ذكر حديث عليّ رضي الله عنه : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة قال : " وَجّهتُ وَجْهِيَ للذي فَطَر السمواتِ والأرض حَنِيفًا وما أنا من المشركين . إنّ صلاتي ونُسُكِي ومَحْيايَ ومماتي لله ربّ العالمين — إلى قوله — وأنا من المسلمين " .

قلت : روى مسلم في صحيحه عن عليّ بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : " وجّهت وجهِيَ للذي فطر السمواتِ والأرضَ حَنِيفاً وما أنا من المشركين . إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين . اللّهُمّ أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربّي وأنا عبدُك ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفرلي ذنوبي جميعا إنه لايغفر الذّنوب إلا أنت واهدني لأحسنِ الأخلاق لا يَهْدِي لأحسنها إلا أنت واصرف عنّي سيّئها لايصرف عني سيّئها إلا أنت لبّيْكَ وسَعْدَيْكَ والخيرُ كلّه في يديك والشر ليس إليك . تباركت وتعاليت . أستغفرك وأتوب إليك" . الحديث . وأخرجه الدّارَقُطْنِيّ وقال في آخره : بَلَغَنا عن النَّضْر بن شُمَيل وكان من العلماء باللغة وغيرها قال : معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " والشر ليس إليك " الشر ليس مما

(١) هذا صدر بيت لأبي ذؤيب . وعجزه كما في ج ١ ص ٣٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

* فتخرموا ولكل جنب مصرع *

يُتقرب به إليك . قال مالك : ليس التوجيه فى الصلاة بواجب على الناس ، والواجب عليهم التكبير ثم القراءة . قال ابن القاسم : لم ير مالك هذا الذى يقوله الناس قبل القراءة : سبحانك اللّهم و بحمدك . وفى مختصر ماليس فى المختصر : أن مالكا كان يقوله فى خاصّة نفسه؛ لصحة الحديث به ، وكان لايراه للناس مخافة أن يعتقدوا وجوبه . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وكنت أصلى وراء شيخنا أبى بكر الدّينَوَرِىّ الفقيه فى زمان الصّبا ، فرآنى مرّة أفعل هـذا فقال : يا بنىّ ، إن الفقهاء قد اختلفوا فى وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام، ولم يختلفوا أن الافتتاح سُنّة ، فاشتغل بالواجب ودَع السُّنَن . والحجة لمـالكٍ قولُه صلى الله عليه وسلم للأعرابىّ الذى علّمه الصلاة : " إذا قمت إلى الصلاة فكَبِّر ثم ٱقرأ " ولم يقل له سبح كما يقول أبو حنيفة ، ولا قل وجهت وجهى ؛ كما يقول الشافعىّ . وقال لأبَىّ : " كيف تقرأ إذا ٱفتتحت الصلاة " ؟ قال : قلت الله أكبر ، الحمد لله ربّ العالمين . فلم يذكر تَوْجيهًا ولا تسبيحا . فإن قيل : فإن عليا قد أخبر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقوله . قلنا : يحتمل أن يكون قاله قبــل التكبير ثم كبّر ، وذلك حَسَن عنـدنا . فإن قيل : فقد روى النَّسائِىّ والدّارقُطنِىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا ٱفتتح الصلاة كبر ثم يقول : "إن صلاتى ونُسُكى" الحديث . قلنا : هـذا نحمله على النافلة فى صلاة الليل ؛ كما جاء فى كتاب النَّسائىّ عن أبى سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتح الصلاة بالليل قال : " سبحانك اللّهُمّ و بحمدك . تبارك ٱسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك " . أو فى النافلة مطلقا ؛ فإن النافلة أخفّ من الفرض ، لأنه يجوز أن يُصلّيها قائما وقاعدا و راكبا ، و إلى القبلة وغيرها فى السفر ؛ فأمْرُها أيسر . وقد روى النَّسائِىّ عن محمد بن مَسْلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلّى تطوّعًا قال : " الله أكبر . وجَّهتُ وَجْهِىَ للذى فطر الســموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونُسُكى ومَحْيَاىَ ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له و بذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين . اللّهُمّ أنت الملِك لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك " . ثم يقرأ . وهذا نَصٌّ فى التطوّع لا فى الواجب . وإن صح أن ذلك كان فى الفريضة بعـد التكبير ، فيحمل

على الجواز والاستحباب ، وأما المسنون فالقراءة بعد التكبير ، والله بحقائق الأمور عليم . ثم إذا قاله فلا يقل « وأنا أول المسلمين » . وهي :

الرابعة — إذ ليس أحدهم بأولهم إلا محمد صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : أو ليس إبراهيم والنبيون قبله ؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة : الأول — أنه أول الخلق أجمع معنًى ؛ كما في حديث أبي هريرة من قوله عليه السلام : "نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة" . وفي حديث حُذيفة "نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المَقْضِيّ لهم قبل الخلائق" . الثاني — أنه أولهم لكونه مقدما في الخلق عليهم ؛ قال الله تعالى : «وإذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ»(١) . قال قتادة : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كنت أوّلَ الأنبياء في الخلق وآخرَهم في البعث" . فلذلك وقع ذكره هنا مقدما قبل نوح وغيره . الثالث — أول المسلمين من أهل مِلّته ؛ قاله ابن العربيّ ، وهو قول قَتادة وغيره . وقد اختلفت الروايات في « أوّل » ففي بعضها ثبوتُها وفي بعضها لا ، على ما ذكرنا . وروى عِمران بن حُصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا فاطمة قومي فاشهدي أُضحيتَكِ فإنه يغفرلك في أول قَطْرة من دمها كلَّ ذنب عملتيه ثم قولي « إنّ صلاتي ونُسُكي ومَحْيَايَ ومماتي لله ربِّ العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين »" . قال عمران : يا رسول الله ، هذا لك ولأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامّةً ؟ قال : "بل للمسلمين عامّة" .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مالكه . روى أن الكفار قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت

(١) آية ٧ سورة الأحزاب .

عليه، ونحن نتكفّل لك بكل تِباعة نتوقعها فى دنياك وآخرتك؛ فنزلت الآية. وهى استفهام يقتضى التقرير والتوبيخ. و«غير» نصب بـ«أبْغِى» و«رَبًّا» تمييز.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أى لا ينفعنى فى ابتغاء ربّ غير الله كونكم على ذلك؛ إذ لا تكسب كل نفس إلا عليها؛ أى لا تؤخذ بما أتت من المعصية، وركبت من الخطيئة سواها.

الثانيــة — وقد استدل بعض العلماء من المخالفين بهذه الآية على أن بيع الفُضُولىّ لا يصح؛ وهو قول الشافعىّ. وقال علماؤنا: المراد من الآية تحمل الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا؛ بدليل قوله تعالى: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» على ما يأتى. وبيع الفُضُولىّ عندنا موقوف على إجازة المالك، فإن أجازه جاز. هذا عُرْوة البارِقِىّ قد باع للنبىّ صلى الله عليه وسلم واشترى وتصرّف بغير أمره، وأجازه النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ وبه قال أبو حنيفة. روى البُخارِىّ والدَّارَقُطْنِىّ عن عُروة بن أبى الجَعْد قال: عرض للنبىّ صلى الله عليه وسلم جَلَب[1] فأعطانى دينارا وقال: "أى عُرْوة إيتِ الجَلَب فآشترِ لنا شاة بهذا الدينار" فأتيتُ الجَلَب فساومتُ فآشتريت شاتين بدينار، فجئت أسوقهما — أو قال أقودهما — فلقينى رجل فى الطريق فساومنى فبعته إحدى الشاتين بدينار، وجئت بالشاة الأخرى وبدينار، فقلت: يا رسول الله، هذه الشاة وهذا ديناركم. قال: "كيف صنعت"؟ فحدثته الحديث. قال: "اللّهمّ بارك له فى صفقة يمينه". قال: فلقد رأيتُنى أقف فى كُناسة الكوفة فأربح أربعين ألفا قبل أن أصل إلى أهلى. لفظ الدّارَقُطْنِىّ. قال أبو عمر: وهو حديث جيّد، وفيه صحة ثبوت النبىّ صلى الله عليه وسلم للشاتين، ولولا ذلك ما أخذ منه الدينار ولا أمضى له البيع.

وفيه دليل على جواز الوكالة، ولا خلاف فيها بين العلماء. فإذا قال الموكل لوكيله: اشتر كذا؛ فاشترى زيادةً على ما وُكّل به فهل يلزم ذلك الأمر أم لا. كرجل قال لرجل: اشتر بهذا

(١) الجلب (بالتحريك): ما جلب القوم من غنم وغيره.

الدرهم رطل لحم، صفته كذا، فاشترى له أربعة أرطال من تلك الصفة بذلك الدرهم. فالذى عليه مالك وأصحابه أن الجميع يلزمه إذا وافق الصفة ومن جنسها؛ لأنه مُحْسِن. وهو قول أبى يوسف ومحمد بن الحسن. وقال أبو حنيفة: الزيادة للمشترى. وهذا الحديث حُجّة عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى لا تحمل حاملةٌ ثِقْل أخرى، أى لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجُرْمها ومعاقبة بإثمها. وأصل الوِزْر الثِّقْل؛ ومنه قوله تعالى: «وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ»(١). وهو هنا الذنب؛ كما قال تعالى: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ»(٢). وقد تقدّم. قال الأخفش: يقال وَزِر يوزَر، ووَزَر يزِر، ووُزِرَ يُوزَر وِزْرا. ويجوز إِزْرًا، كما يقال: إسادة(٣). والآية نزلت فى الوليد بن المغيرة، كان يقول: آتبعوا سبيلى أحمل أوزاركم؛ ذكره ابن عباس. وقيل: إنها نزلت رَدًّا على العرب فى الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وبآبنه وبجَرِيرة حَلِيفه.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية فى الآخرة، وكذلك التى قبلها؛ فأما فى الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجُرْم بعض، لا سِيَّمَا إذا لم يَنْه الطائعون العاصين، كما تقدّم فى حديث أبى بكر فى قوله: «عليكم أنفسكم»(٤). وقال تعالى «وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»(٥). «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»(٦). وقالت زينب بنت جَحْش: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كَثُر الخَبَث". قال العلماء: معناه أولاد الزنى. والخَبَث (بفتح الباء) اسم للزنى. فأوجب الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ على العاقلة حتى لا يُطَلّ(٧) دَمُ الحُرّ المسلم تعظيما للدّماء. وأجمع أهل العلم على ذلك من غير خلاف بينهم فى ذلك؛ فدلّ على ما قلناه. وقد يحتمل أن يكون هذا فى الدنيا، فى ألا يؤاخذ زيد بفعل عمرو، وأن كل مباشر لجريمة فعليه مَغَبَّتُها. وروى أبو داود عن أبى رِمْثة قال: انطلقت مع أبى نحو النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم إن النبىّ

(١) آية ٢ سورة الانشراح. (٢) آية ٣١ من هذه السورة. (٣) فى قولهم: وسادة.
(٤) آية ١٠٥ سورة المائدة. (٥) آية ٢٥ سورة الأنفال. (٦) آية ١١ سورة الرعد.
(٧) طل دمه: ذهب هدرا.

صلى الله عليه وسلم قال لأبى: "ابنك هذا"؟ قال: إى وربِّ الكعبة. قال: "حقا". قال: أَشْهَدُ به. قال: فتبسّم النبىّ صلى الله عليه وسلم ضاحكا من ثَبْتِ[1] شَبَهِى فى أبى، ومن حَلِف أبى علىّ. ثم قال: "أما إنه لا يَجْنِى عليك ولا تَجْنِى عليه". وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى». ولا يُعارض ما قلناه أوّلا بقوله: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ»[2]؛ فإن هذا مبيَّن فى الآية الأخرى قوله: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ»[3]. فمن كان إماما فى الضلالة ودعا إليها وٱتُّبِع عليها فإنه يحمل وِزْر من أضلّه من غير أن ينقص من وزر المُضَل شىء، على ما يأتى بيانه إن شاء الله.

قوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ «خلائف» جمع خليفة، ككرائم جمع كريمة. وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة. أى جعلكم خَلَفا للأمم الماضية والقرون السالفة. قال الشّماخ:

تصيبهُمُ وتخطئنى المنايا * وأخلُف فى رُبوع عن رُبوع

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فى الخلق والرزق والقوة والبَسْطة والفضل والعلم. ﴿دَرَجَاتٍ﴾ نصب بإسقاط الخافض، أى إلى درجات. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ نصب بلام كَىْ. والابتلاء: الاختبار؛ أى ليظهر منكم ما يكون غايته الثواب والعقاب. ولم يزل بعلمه غنيًّا؛ فٱبتلى الموسر بالغنى وطلب منه الشكر، وٱبتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر. ويقال: «ليبلوكم» أى بعضكم ببعض. كما قال: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»[4] على ما يأتى بيانه. ثم خوّفهم

(١) فى نسخ الأصل: «ثبت» والتصويب عن سنن أبى داود. (٢) آية ١٣ سورة العنكبوت.
(٣) آية ٢٥ سورة النحل. (٤) آية ٢٠ سورة الفرقان.

فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه . ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لمن أطاعه . وقال : « سَرِيعُ الْعِقَابِ » مع وصفه سبحانه بالإمهال ، ومع أنّ عقاب النـار فى الآخرة ؛ لأن كل آت قريب ؛ فهو سريع على هـذا . كما قال تعالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »[1] . وقال : « يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا »[2] . ويكون أيضا سريع العقاب لمن استحقه فى دار الدنيا ؛ فيكون تحذيرا لمواقع الخطيئة على هذه الجهة . والله أعلم .

---

(١) آية ٧٧ سورة النحل . (٢) آية ٦ ، ٧ سورة المعارج .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير ســورة الأعراف

وهي مكية ، إلا ثمـانَ آيات ، وهي قوله تعالى : « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ » إلى قوله : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ »(١) . وروى النَّسائِيّ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف ، فرّقها في ركعتين . صححه أبو محمد عبد الحق .

قوله تعـالى : الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿الٓمٓصٓ﴾ تقدّم في أوّل « البقرة »(٢) وموضعه رفع بالابتداء . و﴿كِتَابٌ﴾ خـبره . كأنه قال : « المص » حروف كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ . وقال الكسائي : أي هذا كتاب .

قوله تعالى : ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿حَرَجٌ﴾ أي ضيق ؛ أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ ؛ لأنه رُوِي عنه عليه السـلام أنه قال: " إني أخاف أن يَثْلَغُوا(٣) رأسي فيـدعوه خبزة " الحديث . خرّجه مسـلم . قال الكِيا : « فظاهره النهي ، ومعنـاه نفي الحرج عنـه ؛ أي لا يضـيق صدرك ألا يؤمنوا به ، فإنما عليك البلاغ ، وليس عليك سوى الإنذار به من شيء من إيمانهم

(١) من آية ١٦٣ — ١٧٠ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٥٤ طبعه ثانية أو ثالثة .

(٣) كذا في الأصول . والذي في صحيح مسلم : « اذا يثلغوا رأسي » . راجع صحيح مسلم . كتاب الجنة ، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنـة وأهل النار . والثلغ : الشدخ . وقيـل : هو ضربك الشيء الرطب بالشيء اليابس حتى ينشدخ .

أو كفرهم ، ومثـله قوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ »[1] الآية . وقال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »[2] . ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرج هنا الشك، وليس هذا شك الكفر، إنما هو شك الضيق . وكذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ »[3] . وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته . وفيه بُعْـدٌ . والهـاء فى « منـه » للقرآن . وقيل للإنذار ؛ أى أنزل إليك الكتاب لتنذر به فلا يكن فى صدرك حرج منـه . فالكلام فيه تقديم وتأخير . وقيل للتكذيب الذى يعطيه قوة الكلام . أى فلا يكن فى صدرك ضيق من تكذيب المكذبين له .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَذِكْرَى ﴾ يجوز أن يكون فى موضع رفع ونصب وخفض . فالرفع من وجهين ؛ قال البصريون : هى رفع على إضمار مبتدأ . وقال الكسائىّ : عطف على « كتاب » . والنصب من وجهين ؛ على المصدر ، أى وذكّر به ذكرى ؛ قاله البصريون . وقال الكسائى : عطف على الهاء فى « أنزلناه » . والخفض حملا على موضع « لتنذر به » . والإنذار للكافرين ، والذكرى للمؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به .

قوله تعـالى : ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

فيــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعنى الكتاب والسُّنّة . قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[4] . وقالت فرقة : هـذا أمر يَعُمّ النبيّ صلى الله عليـه وسلم وأمّته . والظاهر أنه أمرٌ لجميع النـاس دونه . أى آتبعوا ملة الإسـلام والقرآن ، وأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه ، وآمتثلوا أمره ، وآجتنبوا نهيـه . ودلّت الآية على ترك آتباع الآراء مع وجود النص .

(١) آية ٦ سورة الكهف . (٢) آية ٣ سورة الشعراء . (٣) آية ٩٧ سورة الحجر .
(٤) آية ٧ سورة الحشر .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ «من دونه» من غيره . والهاء تعود على الربّ سبحانه ، والمعنى : لاتعبدوا معه غيره ، ولا تتخذوا مَن عدل عن دين الله وليًّا . وكلّ من رضى مذهباً فأهل ذلك المذهب أولياؤه . ورُوى عن مالك بن دينار أنه قرأ « ولا تبتغوا من دونه أولياء » أى ولا تطلبوا . ولم ينصرف « أولياء » لأن فيه ألف التأنيث . وقيل : تعود على « ما » من قوله « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » . ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ « ما » زائدة . وقيل : تكون مع الفعل مصدرا .

قوله تعالى : وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ « كم » للتكثير، كما أن « رُبَّ » للتقليل . وهى فى موضع رفع بالابتداء ، و « أهلكنا » الخبر . أى وكثير من القرى — وهى مواضع اجتماع الناس — أهلكناها . ويجوز النصب بإضمار فعل بعدها ، ولا يقدّر قبلها ؛ لأن الاستفهام لايعمل فيه ماقبله . ويقوى الأول قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ »(١) . ولولا اشتغال « أهلكنا » بالضمير لانتصب به موضع « كم » . ويجوز أن يكون « أهلكنا » صفةً للقرية ، و « كم » فى المعنى هى القرية ؛ فإذا وصفت القرية فكأنك قد وصفت كم . يدلّ على ذلك قوله تعالى : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا »(٢) فعاد الضمير على « كم » على المعنى ؛ إذ كانت الملائكةَ فى المعنى . فلا يصح على هـذا التقدير أن يكون « كم » فى موضع نصب بإضمار فعل بعدها . ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ فيه إشكال للعطف بالفاء . فقال الفرّاء : الفاء بمعنى الواو ، فلا يلزم الترتيب . وقيل : أى وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا ؛ كقوله : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »(٣) . وقيل : إن

---

(١) آية ١٧ سورة الإسراء . (٢) آية ٢٦ سورة النجم . (٣) آية ٩٨ سورة النحل .

الهلاك واقع ببعض القوم؛ فيكون التقدير : وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع. وقيل : المعنى وكم من قرية أهلكناها فى حكمنا فجاءها بأسنا. وقيل : أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها، فجاءها بأسنا وهو الآستئصال . والبأس : العذاب الآتى على النفس. وقيل: المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم فى وقت كذا؛ فمجىء البأس على هذا هو الإهلاك . وقيل : البأس غير الإهلاك؛ كما ذكرنا . وحكى الفرّاء أيضا أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدّمت أيّهما شئت ؛ فيكون المعنى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ؛ مثل دنا فقرُب، وقرُب فدنا ، وشتمنى فأساء، وأساء فشتمنى؛ لأن الإساءة والشتم شىء واحد . وكذلك قوله : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ »(1) . المعنى — والله أعلم — آنشق القمر فاقتربت الساعة . والمعنى واحد . ﴿ بَيَاتًا ﴾ أى ليلا؛ ومنه البيت، لأنه يُبات فيه. يقال: بات يَبيت بَيْتًا وبَيَاتا . ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ أى أو وهم قائلون، فآستثقلوا فحذفوا الواو ؛ قاله الفرّاء . قال الزجاج : وهذا خطأ ، إذا عاد الذكر آستغنى عن الواو ؛ تقول : جاءنى زيد راكبا أو هو ماش، ولا يحتاج إلى الواو . قال المَهْدوى: ولم يقل بياتا أو وهم قائلون لأن فى الجملة ضميرا يرجع إلى الأول فآستغنى عن الواو . وهو معنى قول الزجاج سواء ، وليس أو للشك بل للتفصيل؛ كقولك : لأُكرِمنّك منصفا لى أو ظالما . وهذه الواو تسمى عند النحويين واو الوقت. و﴿ قائلون ﴾ من القائلة وهى القيلولة؛ وهى نوم نصف النهار. وقيل: الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحرّ وإن لم يكن معها نوم. والمعنى : جاءهم عذابنا وهم غافلون إمّا ليلا وإمّا نهارا . والدعوى الدعاء؛ ومنه قوله : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ »(2) . وحكى النحويون اللّهمّ أشركنا فى صالح دعوى من دعاك . وقد تكون الدّعوى بمعنى الآدّعاء . والمعنى : أنهم لم يخلصوا عند الإهلاك إلا على الإقرار بأنهم كانوا ظالمين . و﴿ دعواهم ﴾ فى موضع نصب خبر كان ، وآسمها « إِلَّا أَنْ قَالُوا » . نظيره « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا »(3) ويجوز

---

(1) أول سورة القمر . (2) آية ١٠ سورة يونس . (3) آية ٥٦ سورة النمل .

أن تكون الدعوى رفعا، و « أن قالوا » نصبا؛ كقوله تعـالى : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا »(١) برفع « البر » . وقوله : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا »(٢) برفع « عاقبة » .

قوله تعـالى : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على أن الكفار يحاسبون . وفى التنزيل « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »(٣) . وفى سورة القصص « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(٤) يعنى إذا استقروا فى العذاب . والآخرة مواطن : موطن يسألون فيه للحساب . وموطن لا يسألون فيه . وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ و إفضاح . وسؤالُ الرسل سؤالُ آستشهادٍ بهم و إفصاح؛ أى عن جواب القوم لهم . وهو معنى قوله : « لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ »(٥) على ما يأتى . وقيل : المعنى « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أى الأنبياء « وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين » أى الملائكة الذين أرسلوا إليهـم . واللام فى « فلنسألَنّ » لام قسم وحقيقتها التوكيد . وكذا ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ﴾ . قال ابن عباس : ينطق عليهم(٦) . ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أى كنا شاهدين لأعمـالهم . ودلّت الآية على أن الله عالِم بعلم .

قوله تعـالى : وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « الحق » نعته، والخبر « يومئذ » . ويجوز نصب « الحق » على المصدر . والمراد بالوزن وزنُ أعمال العباد

(١) آية ١٧٧ سورة البقرة . راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ طبعة ثانية . (٢) آية ١٠ سورة الروم .
(٣) آية ٢٦ سورة الغاشية . (٤) آية ٧٨ (٥) آية ٨ سورة الأحزاب .
(٦) عبارة الطبرى : « ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمـالهم » .

بالميزان. قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد. وهذا هو الصحيح، وهو الذى ورد به الخبر على ما يأتى . وقيل : الميزان الكتاب الذى فيه أعمال الخلق . وقال مجاهد : الميزان الحسنات والسيئات بأعيانها . وعنه أيضا والضحّاك والأعمش : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء . وذِكر الوزن ضَرْبُ مثلٍ ؛ كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه ، أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن . قال الزجاج : هذا سائغ من جهة اللسان ، والأوْلى أن يُتَّبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان . قال القُشَيْرِىّ : وقد أحسن فيما قال، إذ لو حمل الميزان على هذا فلْيُحْمل الصراطُ على الدِّين الحق، والجنةُ والنارُ على ما يرد على الأرواح دون الأجساد ، والشياطينُ والجنُّ على الأخلاق المذمومة، والملائكةُ على القُوَى المحمودة . وقد أجمعت الأمة فى الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل . وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصا . قال ابن فُورَك : وقد أنكرت المعتزلة الميزان بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بأنفسها . ومن المتكلمين من يقول : إن الله تعالى يقلب الأعراض أجساما فيزنها يوم القيامة. وهذا ليس بصحيح عندنا، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التى فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف . وقد رُوِى فى الخبر ما يحقّق ذلك، وهو أنه رُوِى أن ميزان بعض بنى آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيه رِقّ مكتوبٌ فيه « لا إله إلا الله » فيثقل. فقد عُلم أن ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيه الأعمال لا نفس الأعمال، وأن الله سبحانه يخفف الميزان إذا أراد، ويثقله إذا أراد بما يوضع فى كِفتيه من الصحف التى فيها الأعمال. وفى صحيح مسلم عن صفْوان بن مُحْرِز قال قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النَّجْوَى[1] ؟ قال سمعته يقول : "يُدْنَى المؤمنُ من ربّه يوم القيامة حتى يضع عليه كَنَفَه فيُقَرِّره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول أىْ ربّ أعرف قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم فيُعْطَى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادَى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله" . فقوله "فيُعْطَى صحيفة حسناته"

(١) يريد مناجاة الله تعالى للعبد يوم القيامة .

دليل على أن الأعمال تُكتب فى الصحف وتُوزن . وروى ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُصاح برجل من أمتى يوم القيامة على رءوس الخلائق فيُنْشر عليه تسعة وتسعون سِجِلًّا كلّ سِجِلٍّ مَدّ البصر ثم يقول الله تبارك وتعالى هل تنكر من هـذا شيئا فيقول لا يارب فيقول أظلمتْك كَتَبتى الحافظون فيقول لا ثم يقـول ألك عذر ألك حسنة فيهاب الرجل فيقول لا فيقول بلى إن لك عندنا حسنات وإنه لا ظُلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبـده ورسوله فيقول يا رب ما هـذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تُظلم فتوضع السجلات فى كِفّة والبطاقة فى كِفّـة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة" . زاد الترمذى "فلا يثقل مع اسم الله شىء" وقال : حديث حسن غريب . وسيأتى لهـذا الباب مزيد بيـان فى « الكهف(١) والأنبياء(٢) » إن شاء الله تعـالى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَـا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ « موازينه » جمع ميزان ، وأصله مِوْزان ، قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد يُوزن بكل ميزان منها صِنف من أعماله . ويمكن أن يكون ذلك ميزانا واحدا عُبِّر عنه بلفظ الجمع ؛ كما تقـول : خرج فلان الى مكة على البغال ، وخرج إلى البصرة فى السفن . وفى التنزيل : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ » . « كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ(٣) » . وإنمـا هو رسول واحد فى أحد التأويلين . وقيل : الموازين جمع موزون ، لا جمع ميزان . أراد بالموازين الأعمال الموزونة . ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ مثـله . وقال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له لسان وكِفّتان ؛ فأما المؤمن فيؤتى بعمله فى أحسن صورة فيوضع فى كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته ؛ فذلك قوله « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ويؤتى بعمـل الكافر فى أقبح صورة فيُوضـع فى كِفّة الميزان فيخفّ وزنه حتى يقـع فى النار . وما أشار إليه ابن

---

(١) آية ١٠٥ . (٢) آية ٤٧ . (٣) آية ١٠٥ ، ١٢٣ سورة الشعراء .

عباس قريبٌ مما قيل : يخلق الله تعالى كلّ جزء من أعمال العباد جوهرا فيقع الوزن على تلك الجواهر . وردّه ابن فُورَك وغيره . وفي الخبر "إذا خفّت حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاقة كالأنملة فيُلقيها في كفّة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبيّ عليه السلام بأبي أنت وأمّي! ما أحسنَ وجهك وما أحسن خُلُقك فمن أنت فيقول أنا محمد نبيّك وهذه صلواتك التي كنت تصلّي عليّ قد وفّيتك أحوج ما تكون إليها" . ذكره القشيريّ في تفسيره . وذكر أن البطاقة (بكسر الباء) رقعة فيها رقم المتاع بلغة أهل مصر . وقال ابن ماجه : قال محمد بن يحيى : البطاقة الرقعة ، وأهل مصر يقولون للرقعة بطاقة . وقال حذيفة : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، يقول الله تعالى : "يا جبريل زِنْ بينهم فَرُدّ من بعض على بعض" . قال : وليس ثمّ ذهب ولا فضة؛ فإن كان للظالم حسناتٌ أخذ من حسناته فرُدّ على المظلوم، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتحمل على الظالم ؛ فيرجع الرجل وعليه مثل الجبال . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يوم القيامة : "يا آدم ابرز إلى جانب الكرسي عند الميزان وانظر ما يُرفع إليك من أعمال بَنِيك فمن رجح خيرُه على شره مثقالَ حبّة فله الجنة ومن رَجح شرّه على خيره مثقالَ حبّة فله النار حتى تعلم أني لا أعذّب إلا ظالما" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

أى جعلناها لكم قرارا ومهادا، وهيّأنا لكم فيها أسباب المعيشة . والمعايش جمع معيشة، أى ما يتعيّش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة . يقال : عاش يَعيش عَيْشًا ومَعاشًا ومَعِيشا ومَعيشة وعِيشَة . وقال الزجاج : المَعيشة ما يُتوصّل به إلى العيش . ومعيشة في قول الأخفش وكثيرٍ من النحويين مَفْعِلة . وقرأ الأعرج « معائش » بالهمز . وكذا روى خارجة ابن مُصْعَب عن نافع . قال النحاس : والهمز لحن لا يجوز ؛ لأن الواحدة معيشة ، أصلها مَعْيِشة، فزيدت ألف الوصل وهي ساكنة والياء ساكنة، فلا بُدّ من تحريك إذ لا سبيل

إلى الحذف، والألف لا تحرك فحركت الياء بما كان يجب لهـا فى الواحد . ونظيره من الواو منارة ومناوِر، ومَقام ومَقاوِم؛ كما قال الشاعر :

وإنى لقَــوّامٌ مَقاوِمَ لم يكن * جريرٌ ولا مَوْلَى جريرٍ يقومها

وكذا مصيبه ومَصاوِب . هذا الجيّد، ولغة شاذة مصائب . قال الأخفش : إنما جاز مصائب لأن الواحدة معتلة . قال الزجاج : هذا خطأ يلزمه عليه أن يقول مقائم . ولكن القول أنه مثل وِسادة و إسادة . وقيل : لم يجز الهمز فى معايش لأن المعيشة مَفْعِـلة؛ فالياء أصليـة، و إنمـا يهمز إذا كانت الياء زائدة مثل مدينة ومدائن ، وصحيفة وصحائف ، وكريمة وكرائم ، ووظيفة ووظائف، وشبهه .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ لمـا ذَكر نِعمه ذكر ابتداء خلقه . وقد تقدّم معنى الخلق[1] فى غير موضع . ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أى خلقناكم نطفا ثم صوّرناكم ، ثم إنا نخـبركم أنا قلنا للملائكة ٱسجدوا لآدم . وعن ابن عباس والضحّاك وغيرهما : المعنى خلقنا آدم ثم صوّرناكم فى ظهره . وقال الأخفش : « ثم » بمعنى الواو . وقيل : المعنى « ولقد خلقناكم » يعنى آدم عليـه السلام، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، ثم صورناكم ؛ على التقـديم والتأخير . وقيل : « ولقد خلقناكم » يعنى آدم ؛ ذُكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر . « ثم صوّرناكم » راجع إليه أيضا . كما يقال : نحن قتلناكم ؛ أى قتلنا سيِّدكم . ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُـدُوا لِآدَمَ ﴾ وعلى هـذا لا تقديم ولا تأخير ؛ عن ابن عبـاس أيضا . وقيل : المعنى ولقـد خلقناكم ، يريد آدم وحوّاء ؛ فآدم من التراب وحوّاء من ضلع من أضلاعه، ثم وقع التصوير بعد ذلك . فالمعنى : ولقد خلقنا أبَوَيْكم ثم صوّرناهما ؛ قاله الحسن . وقيل : المعنى خلقناكم فى ظهر آدم

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ ، ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة .

ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق . هذا قول مجاهد، رواه عنه ابن جُريج وابن أبي نَجيح . قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال . يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صوّرهم حين أخذ عليهم الميثاق، ثم كان السجود بعدُ . ويقوّي هذا « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »[1] . والحديثُ " أنه أخرجهم أمثال الذّرّ فأخذ عليهم الميثاق " . وقيل : « ثم » للإخبار ، أى ولقد خلقناكم يعنى فى ظهر آدم صلى الله عليه وسلم ، ثم صورناكم أى فى الأرحام . قال النحاس : هذا صحيح عن ابن عباس .

قلت : كل هذه الأقوال محتمل ، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل ؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »[2] يعنى آدم . وقال : « وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا »[3] . ثم قال : « جَعَلْنَاهُ » أى جعلنا نسله وذريته « نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ »[2] الآية . فآدم خُلِق من طين ثم صُوّر وأُكرم بالسجود، وذريته صُوِّروا فى أرحام الأمهات بعد أن خُلقوا فيها وفى أصلاب الآباء . وقد تقدّم فى أوّل سورة « الأنعام » أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتُرْبة ؛ فتأمله . وقال هنا : « خلقناكم ثم صوّرناكم » وقال فى آخر الحشر : « هو الله الخالق البارئ المُصَوِّر » فذكر التصوير بعد البرء . وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى . وقيل : معنى « ولقد خلقناكم » أى خلقنا الأرواح أوّلا ثم صوّرنا الأشباح آخرا .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ استثناء من غير الجنس . وقيل من الجنس . وقد اختلف العلماء : هل كان من الملائكة أم لا ؛ كما سبق بيانه فى « البقرة »[4] .

قوله تعالى : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

---

(١) آية ١٧٢ من هذه السورة . (٢) آية ١٢ وما بعدها سورة المؤمنون .

(٣) راجع جـ ٥ ص ١ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ « ما » فى موضع رفع بالابتداء ؛ أى أىّ شىء منعك . وهـذا سؤال توبيخ . ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ فى موضع نصب ، أى من أن تسجد . و « لا » زائدة . وفى ص « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ »(١) وقال الشاعر :

أَبَى جُودُه لا البخلَ فاستعجلت به * نَعَمْ من فَتًى لا يمنع الجودَ نائلُه

أراد أبى جودُه البخلَ ، فزاد « لا » . وقيـل : ليست بزائدة ؛ فإن المنع فيـه طرف من القول والدعاء ، فكأنه قال : من قال لك ألّا تسجد ، أومن دعاك إلى ألّا تسجد . كما تقول : قـد قلت لك ألّا تفعل كذا . وقيل : فى الكلام حذف ، والتقـدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألّا تسجد . قال العلماء : الذى أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد ؛ وكان أضمر ذلك فى نفسه إذا أُمر بذلك . وكان أمره من قبل خلق آدم ؛ يقول الله تعالى : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُـوا لَهُ سَاجِدِينَ »(٢) . فكأنه دخله أمر عظيم من قوله « فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » . فإن فى الوقوع توضـيع الواقع وتشريفًا لمن وُقع له ؛ فأضمر فى نفسه ألا يسجد إذا أمره فى ذلك الوقت . فلمـا نفخ فيـه الروح وقعت الملائكة سُجَّـدًا ، وبَقِىَ هو قائمـا بين أظهرهم ؛ فأظهر بقيامه وترك السجود ما فى الضمير . فقال الله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » أى ما منعك من الانقياد لأمرى ؛ فأخرج سِرّ ضميره فقال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ يدلّ على ما يقوله الفقهـاء من أن الأمر يقتضى الوجوب بمطلقه من غير قَرِينة ؛ لأن الذم عُلّق على ترك الأمر المطلق الذى هو قوله عز وجل للملائكة : « اسْجُدُوا لِآدَمَ » وهذا بيّن .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْـهُ ﴾ أى منعنى من السجود فَضْلِى عليـه ؛ فهذا من إبليس جواب على المعنى . كما تقول : لمن هـذه الدار ؛ فيقول المخاطب : مالكها

(١) آية ٧٥ (٢) آية ٧١ سورة ص .

زيد . فليس هـذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجـواب . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء . قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أوّل من قاس إبليسُ فأخطأ القياس . فمن قاس الدِّين برأيه قرنه الله مع إبليس. قال ابن سيرين: وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. وقالت الحكماء : أخطأ عدوّ الله من حيث فضّل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق . فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة :

أحدها — أن من جوهر الطين الرزانة والسكون ، والوقار والأناة ، والحلم، والحياء، والصبر . وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية . ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدّة، والارتفاع، والاضطراب . وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار ؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللّعنة والشقاء ؛ قاله القفّال .

الثاني — أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مِسك أَذْفَر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارا وأن في النار ترابا .

الثالث — أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه ؛ وليس التراب سببا للعذاب .

الرابع — أن الطين مستغنٍ عن النار ، والنار محتاجة إلى المكان ومكانُها التراب .

قلت — ويحتمل قولا خامسا وهو أن التراب مسجد وطهور ؛ كما جاء في صحيح الحديث. والنار تخويف وعذاب ؛ كما قال تعالى : « ذَلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ »[1] . وقال ابن عباس : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربّه ، وهو أوّل من قاس برأيه . والقياس في مخالفة النصّ مردود .

الرابعة — واختلف الناس في القياس إلى قائل به ، ورادٍّ له ؛ فأمّا القائلون به فهم الصحابة والتابعون ، وجمهور من بعدهم . وأن التّعبّد به جائز عقلا واقع شرعا ، وهو الصحيح.

(١) آية ١٦ سورة الزمر .

وذهب القفّال من الشافعيّة وأبو الحسين البصريّ إلى وجوب التعبّد به عقلا. وذهب النظّام إلى أنه يستحيل التعبّد به عقلا وشرعا؛ وردّه بعض أهل الظاهر. والأوّل الصحيح. قال البخاري فى (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة): المعنى لا عصمة لأحد إلا فى كتاب الله أو سنة نبيّه أو فى إجماع العلماء إذا وُجد فيها الحكمُ فإن لم يوجد فالقياس. وقد ترجم على هذا (باب مَن شبّه أصلا معلوما بأصل مبيّن قد بيّن الله حكمها ليفهَم السائلُ). وترجم بعد هذا (باب الأحكام التى تُعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها). وقال الطبريّ: الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وإجماعُ الأمة هو الحق الواجب، والفرضُ اللازم لأهل العلم. وبذلك جاءت الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة الصحابة والتابعين. وقال أبو تمام المالكيّ: أجمعت الأمة على القياس؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والوَرِق فى الزكاة. وقال أبو بكر: أَقيلونى بيعتى. فقال عليّ: والله لا نُقيلك ولا نستقيلك، رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لِديننا أفلا نرضاك لدنيانا. فقاس الإمامة على الصلاة. وقاس الصدّيق الزكاة على الصلاة وقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله. وصرح عليّ بالقياس فى شارب الخمر بمحضر الصحابة وقال: إنه إذا سكر هذَى، وإذا هذَى افترى؛ فحدّه حدّ القاذف. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعرى كتابا فيه: الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يختلج فى صدرك مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة، اِعرف الأمثال والأشباه، ثم قِسِ الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبّها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق فيما ترى. الحديث بطوله ذكره الدارقطنيّ. وقد قال أبو عبيدة لعمر فى حديث الوباء، حين رجع عمر من سَرْغ: نَفِرّ من قَدَر الله! فقال عمر: نَعَمْ! نفِرّ من قَدَر الله إلى قدر الله. ثم قال له عمر: أرأيت ... (١) فقايسه وناظره بما يشبه من مسألته بمحضر المهاجرين والأنصار، وحَسْبُك. وأما الآثار وآى القرآن فى هذا المعنى فكثير. وهو يدلّ على أن القياس أصل من أصول الدّين، وعِصمة من عِصَم المسلمين، يرجع إليه المجتهدون، ويفزع إليه العلماء العاملون؛ فيستنبطون

---

(١) راجع الحديث فى الموطأ « باب ما جاء فى الطاعون ».

به الأحكام . وهو قول الجماعة الذين هم الحجة ، ولا يلتفت إلى من شذّ عنها . وأما الرأى المذموم والقياس المتكلَّف المنهيّ عنه فهو ما لم يكن على هذه الأصول المذكورة ؛ لأن ذلك ظن ونزغ من الشيطان ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ »(١) . وكلُّ ما يورده المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية فى ذمّ القياس فهى محمولة على هذا النوع من القياس المذموم، والذى ليس له فى الشرع أصل معلوم. وتتميم هذا الباب فى كتب الأصول.

قوله تعالى : قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى من السماء. ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأن أهلها الملائكة المتواضعون. ﴿ فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ ﴾ أى من الأذلّين. ودلّ هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل . وقال أبو رَوْق والبَجَلِيّ : « فاهبط منها » أى من صورتك التى أنت فيها ؛ لأنه افتخر بأنه من النار فشُوِّهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه . وقيل : « فاهبط منها » أى انتقل من الأرض إلى جزائر البحار ؛ كما يقال : هبطنا أرض كذا أى انتقلنا إليها من مكان آخر ، فكأنه أخرج من الأرض الى جزائر البحار فسلطانه فيها، فلا يدخل الأرض إلا كهيئة السارق(٢) يخاف فيها حتى يخرج منها . والقول الأول أظهر . وقد تقدم فى « البقرة »(٣) .

قوله تعالى : قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب . طلب ألّا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده؛ فقال الله تعالى: « إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ». قال ابن عباس والسُّدِّى وغيرهما :

(١) آية ٣٦ سورة الإسراء . (٢) فى بعض الأصول : « السارى » بالياء .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم . وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانيـة حيث يقوم الناس لرب العالمين؛ فأبى الله ذلك عليه . وقال : « إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » ولم يتقدّم ذكْرُ مَن يبعث ؛ لأن القصة فى آدم وذريّته، فدلّت القرينة على أنهم هم المبعوثون .

قوله تعـالى : قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧)

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ الإغواء إيقاع الغىّ فى القلب؛ أى فبما أوقعت فى قلبى من الغَىّ والعِناد والاستكبار . وهــذا لأن كفر إبليس ليس كفرَ جهل، بل هو كفر عناد واستكبار . وقد تقدّم فى « البقرة »(١) . قيل : معنى الكلام القَسم، أى فبإغوائك إياى لأقعدَنّ لهم على صراطك ، أو فى صراطك ؛ فحذف . دليل هــذا القول قولُه فى (ص) : « فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »(٢) فكأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لمـا فيــه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده . وقيل : الباء بمعنى اللام، كأنه قال : فلإغوائك إياى . وقيل : هى بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياى . وقيل : هو استفهام، كأنه سأل بأىّ شىء أغواه . وكان ينبغى على هذا أن يكون : فبم أغويتنى. وقيل : المعنى فبما أهلكتنى بلعنك إيّاى . والإغواء الإهلاك، قال الله تعالى : « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا »(٣) أى هلاكا. وقيل: فبما أضللتنى . والإغواء : الإضلال والإبعاد؛ قاله ابن عباس . وقيل : خيّبتنى من رحمتك؛ ومنه قول الشاعر :

* ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَم على الغَىّ لائمـا *(٤)

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٢ (٣) آية ٥٩ سورة مريم .

(٤) هذا عجز بيت لمرقش، وصدره كما فى اللسان مادة غوى :

* فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره *

أى من يخب . وقال ابن الأعرابى : يقال غَوَى الرجل غَيًّا إذا فسد عليه أمره ، أو فسد هو فى نفسه . وهو أحد معانى قوله تعالى : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » أى فسد عيشه فى الجنة . ويقال : غَوِىَ الفصيلُ إذا لم يُدِرّ لبنَ أمِّه .

الثانية — مذهب أهل السنة أن الله تعالى أضلّه وخلق فيه الكفر؛ ولذلك نسب الإغواء فى هذا إلى الله تعالى . وهو الحقيقة، فلا شىء فى الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى . وخالف الإماميّة والقدريّة وغيرهما شيخهم إبليس الذى طاوعوه فى كل ما زَيَّنه لهم، ولم يطاوعوه فى هذه المسألة ويقولون : أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغَوَاية إلى ربّه ، تعالى الله عن ذلك . فيقال لهم : وإبليس وإن كان أهلا للخطأ فما تصنعون فى نبىّ مُكَرَّم معصوم، وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه : « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(١) وقد روى أن طاوسا جاءه رجل فى المسجد الحرام، وكان متَّهما بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار؛ فجلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تقام؟ فقيل لطاوس : تقول هذا لرجل فقيه ! فقال : إبليس أفقه منه، يقول إبليس : رب بما أغويتنى . ويقول هذا : أنا أغوى نفسى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى بالصَّدّ عنه، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلّوا كما ضلّ، أو يخيبوا كما خُيِّب؛ حسب ما تقدّم من المعانى الثلاثة فى «أغويتنى» . والصراط المستقيم هو الطريق الموصّل إلى الجنة . و «صِراطَك» منصوب على حذف « على » أو « فى » من قوله « صراطك المستقيم » ؛ كما حكى سيبويه « ضرب زيد الظهر والبطن » . وأنشد :

لَدْنٌ بهَزّ الكَفّ يَعْسِل مَتْنُه * فيه كما عَسَل الطريقَ الثَّعْلَبُ(٢)

---

(١) آية ٣٤ سورة هود . (٢) البيت لساعدة بن جؤية . يريد فى الطريق . وصف فى البيت رمحا لين الهز؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره . والعسل العسلان (بالتحريك) : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . (عن شرح الشواهد) .

ومن أحسن ما قيل فى تأويل ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى لأصدّنّهم عن الحق، وأرغّبهم فى الدنيا، وأشككهم فى الآخرة . وهذا غاية فى الضلالة . كما قال : « وَلَأُضِلَّنَّهُم »(١) حسب ما تقدّم . وروى سفيان عن منصور عن الحكم بن عُيينة قال : « مِن بينِ أيديهم » من دنياهم . « ومِن خلفِهم » من آخرتهم . « وعن أيمانِهم » يعنى حسناتهم . « وعن شمـائلِهم » يعنى سيئاتهم . قال النحاس : وهذا قول حَسَن . وشرحه : أن معنى « ثم لآتِيَنهم من بينِ أيديهم » من دنياهم، حتى يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة « ومِن خلفِهم » من آخرتهم حتى يكذّبوا بها . « وعن أيمانِهم » من حسناتهم وأمور دينهم . ويدلّ على هذا قوله : « إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ »(٢) . « وعَن شَمَائِلِهم » يعنى سيئاتهم؛ أى يتبعون الشهوات؛ لأنه يزيّنها لهم . ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أى موحّدين طائعين مظهرين الشكر .

قوله تعـالى : قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أى من الجنّة . ﴿ مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ « مَذْءُومًا » أى مذموما . والذَّأْمُ : العيب ، بتخفيف الميم(٣) . قال ٱبن زيد : مذءوما ومذموما سواء؛ يقال : ذَأَمْته وذَممته وذِمْته بمعنًى واحد . وقرأ الأعمش « مَذوما » . والمعنى واحد، إلا أنه خفّف الهمزة . وقال مجاهـد : المذءوم المنفيّ . والمعنيان متقاربان . والمدحور : المبعـد المطرود؛ عن مجاهد وغيره . وأصله الدفع . ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ اللام لام القَسَم ، والجواب « لأملأن جهنم » . وقيـل : « لَمَنْ تَبِعك » لام توكيـد . « لأملأن » لام قَسَم . والدليل على هذا أنه يجوز فى غير القراءة حذفُ اللام الأولى، ولا يجوز

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٣٨ سورة الصافات .

(٣) لا حاجة لهذا القيد؛ فان الهمز كاف للفرق بينه وبين الذم .

حذف الثانية . وفي الكلام معنى الشرط والمجازاة ؛ أي من تبعك عذّبته . ولو قلت : من تبعك أعذبه لم يجز؛ إلا أن تريد لأعذبه . وقرأ عاصم من رواية أبي بكر بن عيّاش « لِمَنْ تَبِعكَ منهُم » بكسر اللام . وأنكره بعض النحويين . قال النحاس : وتقديره — والله أعلم — من أجل من تبعك . كما يقال : أكرمت فلانا لك . وقد يكون المعنى : الدّحر لمن تبعك . ومعنى ﴿ منكم أجمعين ﴾ أي منكم ومن بني آدم ؛ لأن ذكرهم قد جرى إذ قال : « ولقد خلقناكم » خاطب ولد آدم .

قوله تعالى : وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

قال لآدم بعد إخراج إبليس من موضعه من السماء : اسكن أنت وحواء الجنة . وقد تقدّم في البقرة[1] معنى الإسكان، فأغنى عن إعادته. وقد تقدم معنى « ولا تقربا هذه الشجرة »[2] هناك . والحمد لله .

قوله تعالى : فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أي إليهما . قيل : داخل الجنة بإدخال الحية إياه . وقيل : من خارج، بالسّلطنة التي جعلت له . وقد مضى هذا في « البقرة » . والوسوسة : الصوت الخفيّ . والوسوسة : حديث النفس ؛ يقال : وَسْوَست إليه نفسُه وَسوسة ووِسواسا (بكسر الواو) . والوَسواس (بالفتح) : اسم، مثل الزّلزال . ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلي وَسْواس . قال الأعشى :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) جـ ١ ص ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة

تَسْمع للحَلْىِ وَسْواسًا إذا ٱنْصرفت * كما ٱستعان بريحٍ عِشْرِقٌ[(1)] زَجِل

والوَسواس : اسم الشيطان ؛ قال الله تعالى : « مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ » . ﴿ لِيُبْدِىَ لَهُمَا ﴾ أى ليظهر لهما . واللام لام العاقبة ؛ كما قال : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[(2)] » . وقيل : لام كَىْ . و ﴿ وُورِىَ ﴾ أى سُتر وغطّى عنهما . ويجـوز فى غير القرآن أُورِى ، مثـل أُقِّتَتْ . ﴿ مِنْ سَوْءاتِهِمَا ﴾ وسُمِّى الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه . ودلّ هذا على قبح كشفها فقيل : إنمـا بدت سوءاتهما لهما لا لغيرهما ؛ كان عليهما نور[(3)] لا ترى عوراتهما فزال النور . وقيـل : ثوب ؛ فتهافت[(4)] ، والله أعلم . ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ « أن » فى موضـع نصب ، بمعنى إلا كراهية أن ؛ فحذف المضاف . هذا قول البصريين . والكوفيون يقولون : لئلا تكونا . وقيل : أى إلّا ألّا تكونا ملكين تعلمان الخـير والشر . وقيل : طمِع آدم فى الخلود ؛ لأنه علم أنّ الملائكة لا يموتون إلى يوم القيـامة . قال النحاس : وبيّن الله عز وجل فضل الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع من القرآن ؛ فمنها هذا ، وهو « إلّا أن تكونا ملكين » . ومنه « وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ[(5)] » . ومنه « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ[(6)] » . وقال الحسن : فضل الله الملائكة بالصور والأجنحة والكرامة . وقال غيره : فضلهم جل وعز بالطاعة وترك المعصية ؛ فلهذا يقـع التفضيل فى كل شىء . وقال ٱبن فُورَك . لا حجة فى هـذه الآية ؛ لأنه يحتمل أن يريد ملكين فى ألا يكون لهما شهـوة فى طعام . وٱختيار ابن عبـاس والزجاج وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين على الملائكة ؛ وقد مضى فى « البقـرة[(7)] » . وقال الكَلْبِىّ : فُضِّلوا على الخلائق كلهم ، غير طائفة من الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت ؛ لأنهم مِن جملة رسل الله . وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة ، والفضل بيد الله . وقرأ ابن عبـاس « ملِكين » بكسر اللام ، وهى قراءة يحي بن كثير والضحاك . وأنكر أبو عمرو

(١) العشرق (كزبرج) : شجر قدر ذراع له حب صغار إذا جف صوّت بمر الريح .
(٢) آية ٨ سورة القصص . (٣) النور (بفتح النون) : الزهر . (٤) تهافت : تساقط .
(٥) آية ٣١ سورة هود . (٦) آية ١٧٢ سورة النساء . (٧) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

ابن العلاء كسر اللام وقال : لم يكن قبل آدم صلى الله عليه وسلم مَلِك فيصيرا مَلِكين . قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة إسكان اللام، ولا يجوز على القراءة الأولى لخفة الفتحة. قال ابن عباس : أتاهما الملعون من جهة المُلْك ؛ ولهذا قال « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى »(١) . وزعم أبو عبيد أن احتجاج يحيى بن كثير بقوله « وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى » حجة بينة، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها . قال النحاس : « إلّا أن تكونا مَلِكين » قراءة شاذة . وقد أنكر على أبي عبيد هذا الكلام، وجعل من الخطأ الفاحش . وهل يجوز أن يتوهم آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة ؛ وهي غاية الطالبين . وإنما معنى « وملك لا يبلى » المقام في ملك الجنة، والخلود فيه .

قوله تعالى : وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي حلف لهما . يقال : أقسم إقساما ؛ أي حلف . قال الشاعر :

وقاسمها بالله جَهْدًا لأنتم * ألذُّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُها(٢)

وجاء « فاعلت » من واحد . وهو يردّ على من قال : إن المفاعلة لا تكون إلا من اثنين . وقد تقدّم في « المائدة » . ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ليس « لكما » داخلا في الصلة . والتقدير : إني ناصح لكما لمن الناصحين ؛ قاله هشام النحوي . وقد تقدّم مثله في « البقرة » . ومعنى الكلام : اتبعاني أرشدكما ؛ ذكره قتادة .

قوله تعالى : فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا

(١) آية ١٢٠ سورة طه .　　(٢) السلوى : العسل . وشار العسل : اجتناه وأخذه من موضعه .

ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾
قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ أوقعهما فى الهلاك . قال ابن عباس : غرهما باليمين . وكان يظن آدمُ أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا، فغرّهمـا بوسوسته وقَسَمه لهما . وقال قَتادة : حلف بالله لهما حتى خدعهما . وقد يُخْدَع المؤمن بالله . كان بعض العلماء يقول : من خادعنا بالله خَدَعنا . وفى الحديث عنـه عليه السـلام : " المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خَبٌّ لئيم "(١) . وأنشد نَفْطَويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعتَه * وترى اللئيم مُجَرّبا لا يُخْـدَعُ

﴿ فَدَلَّاهُمَا ﴾ يقال : أَدْلَى دَلْوَه أرسلها . ودَلّاها: أخرجها . وقيل « دَلّاهما » أى دَلّلهما ؛ من الدّالة وهى الجُرأة . أى جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ أى أكلا منها . وقد مضى فى « البقرة » الخلاف فى هذه الشجرة(٢)، وكيف أكل آدم منها . ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أكلت حوّاء أوّلا فلم يصبها شيء، فلما أكل آدم حلّت العقوبة؛ لأن النّهيَ ورد عليهما كما تقدم فى «البقرة»(٢) . قال ابن عباس : تقلّص النُّور الذى كان لباسهما فصار أظفارا فى الأيدى والأرجل .

الثانيـــة — ﴿ وَطَفِقَا ﴾ ويجوز إسكان الفاء . وحكى الأخفش طَفَق يطفِق ؛ مثل ضرب يضرب . يقال : طفق، أى أخذ فى الفعل . ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ قرأ الحسن بكسر الخاء

(١) الغر : الذى لا يفطن للشر . والخب (بكسر الخاء وفتحها) : ضد الغر، وهو الخداع المفسد .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

وشدّ الصاد . والأصل « يختصفان » فأدغم، وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء ، ألقيا حركة التاء عليها . ويجوز « يُخَصِّفانِ » بضم الياء، من خصّف يخصف . وقرأ الزُّهرِيّ « يُخْصِفانِ » من أخصف. وكلاهما منقول بالهمزة أو التضعيف . والمعنى : يقطعان الورق ويُلزقانه ليستترا به ، ومنه خَصَف النعل . والخَصّاف الذي يرقعها . والمِخْصف المِثْقب . قال ابن عباس : هو ورق التين . ويروى أن آدم عليه السلام لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف على أشجار الجنة يَسُلّ منها ورقة يغطّى بها عورته ؛ فزجرته أشجار الجنة حتى رَحِمته شجرة التّين فأعطته ورقة . فـ«طفقا» يعنى آدم وحواء « يخصفان عليهما من ورق الجنة » فكافأ الله التين بأن سوّى ظاهره وباطنه فى الحلاوة والمنفعة ، وأعطاه ثمرتين فى عام واحد مرتين .

الثالثة — وفى الآية دليل على قبح كشف العورة ، وأنّ الله أوجب عليهما الستر ؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها ، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك فى الجنة ؛ كما قيل لهما : « وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ » . وقد حكى صاحب البيان عن الشافعىّ أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك ؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه الستر بها ؛ كما فعل آدم فى الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى قال لهما ألم أنهكما . ﴿ قَالَا رَبَّنَا ﴾ نداء مضاف . والأصل يا ربنا . وقيل إن فى حذف « يا » معنى التعظيم . فاعترفا بالخطيئة وتابا . وقد مضى فى « البقرة »(١) . ومعنى قوله : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ تقدّم أيضا(٢) إلى آخر الآية .

قوله تعالى : قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)

الضمائر كلها للأرض . ولم يذكر الواو فى « قال » ، ولو ذكرها لجاز أيضا . وهو كقولك : قال زيد لعمرو ، وكذا قال له كذا .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ٣١٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوارِى سَوْءَاتِكُمْ ﴾ قال كثير من العلمـاء : هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة ؛ لأنه قال : « يُوارِى سوءاتِكم » . وقال قوم : إنه ليس فيها دليل على ما ذكروه ، بل فيها دلالة على الإنعام فقط .

قلت : القول الأوّل أصح . ومن جملة الإنعام سَتْرُ العورة ؛ فبيّن أنه جعـل لذريّته ما يسترون به عوراتهـم ، ودلّ على الأمر بالتستر . ولا خلاف بين العلمـاء فى وجوب ستر العـورة عن أعين الناس . واختلفوا فى العورة ما هى ؟ فقال ابن أبى ذِئب : هى من الرجل الفرج نفسه ، القُبُـلُ والدُّبُر دون غيرهمـا . وهو قول داود وأهل الظـاهر وابن أبى عبـلة (١) والطبرى ؛ لقوله تعالى : « لِبَاسًا يُوارِى سوءاتكم » ، « بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا » ، « لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِما » . وفى البخارىّ عن أنس : « فأجرى (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زِقاق خَيْبَر ــ وفيه ــ ثم حَسَر الإزار عن فَخِذه (٣) حتى إنى أنظر إلى بياض فَخِذ نَبِىّ الله صلى الله عليـه وسلم » . وقال مالك : السُّرة ليست بعورة ، وأكره للرجل أن يكشف فَخِذه بحضرة زوجته . وقال أبو حنيفة : الركبة عورة . وهو قول عطاء . وقال الشافعىّ : ليست السُّرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح . وحكى أبو حامد الترمذى أن للشافعىّ فى السّرة قولين . وحجة مالكٍ قولُه عليه السلام لجَرْهَدٍ : " غَطِّ فخذك فإن الفَخِذ عورة " . خرّجه البخارىّ تعليقا وقال : حديث أنس أَسْنَدُ (٤) ، وحديث جَرْهَدٍ أحوَطُ حتى يُخْرَجَ من اختلافهـم . وحديث جَرْهَد هذا

(١) فى بعض نسخ الأصل : « وابن علية » . (٢) أى أجرى دابته .

(٣) أى عند سوق مركوبه ليتمكن من ذلك . راجع شرح القسطلانى (كتاب الصلاة ــ باب ما يذكر فى الفخذ) .

(٤) أى أقوى وأحسن سندا من الحديث السابق .

يدل على خلاف ما قال أبو حنيفة . وروى أن أبا هريرة قبّل سُرّة الحسن بن عليّ وقال : أُقبّل منك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبّل منك . فلو كانت السّرّةُ عورة ما قبّلها أبو هريرة، ولا مكّنه الحسن منها . وأما المرأة الحرة فعورة كلّها إلا الوجه والكفين . على هذا أكثر أهل العلم . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن يتزوّج امرأة فلينظر إلى وجهها وكفّيها " . ولأن ذلك واجب كشفُه في الإحرام . وقال أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام : كلّ شيء من المرأة عورة حتى ظُفرها . وروى عن أحمد بن حنبل نحوُه . وأما أمّ الولد فقال الأثرم : سمعته — يعنى أحمد بن حنبل — يُسأل عن أم الولد كيف تصلّى ؟ فقال : تُغطّى رأسها وقدميها ؛ لأنها لا تُباع ، وتُصلّى كما تصلى الحرة . وأما الأَمَة فالعورة منها ما تحت ثديها ، ولها أن تُبدى رأسها ومِعْصَمَيها . وقيل : حكمها حكم الرجل . وقيل : يُكره لها كشف رأسها وصدرها . وكان عمر رضى الله عنه يضرب الإماء على تغطيتهن رءوسهن ويقول : لا تتشبهن بالحرائر . وقال أَصْبَغ : إن انكشف فخذها أعادت الصلاة في الوقت . وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام . كل شيء من الأمة عورة حتى ظفرها . وهذا خارج عن أقوال الفقهاء؛ لإجماعهم على أن المرأة الحرة لها أن تصلى المكتوبة ويداها ووجهها مكشوف ذلك كله ، تباشر الأرض به . فالأَمَة أَوْلَى ، وأُمّ الولد أغلظ حالا من الأمة . والصبيُّ الصغير لا حُرمة لعورته . فإذا بلغت الجارية إلى حدّ تأخذها العين وتُشتهى سترت عورتها . وحجة أبى بكر بن عبد الرحمن قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ »(1) . وحديثُ أم سلمة أنها سئلت : ما ذا تصلى فيه المرأة من الثياب؟ فقالت : تصلى في الدّرع والخمار السابغ الذى يُغيّب ظهور قدميها . وقد روى مرفوعا . والذين أوقفوه على أم سلمة أكثر وأحفظ ؛ منهم مالك وابن إسحاق وغيرهما . قال أبو داود : ورفعه عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن محمد بن زيد عن أمه عن أم سلمة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(1) آية ٥٩ سورة الأحزاب .

قال أبو عمر : عبد الرحمن هـذا ضعيف عندهم ؛ إلا أنه قد خرّج البخارى بعض حديثه . والإجماع فى هذا الباب أقوى من الخبر .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ يعنى المطر الذى ينبت القطن والكتّان ، ويقيم البهائم الذى منها الأصواف والأوبار والأشعار ؛ فهو مجاز مثل « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »(١) على ما يأتى . وقيل : هذا الإنزال إنزالُ شىء من اللباس مع آدم وحواء ، ليكون مثالا لغـيره . وقال سعيد بن جُبير . « أنزلنا عليكم » خلقنا لكم ؛ كقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانيةَ أزواج » أى خلق . على ما يأتى . وقيل : ألهمناكم كيفية صنعته .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَرِيشًا ﴾ قرأ أبو عبـد الرحمن والحسن وعاصم من رواية المفضّل الضّبى ، وأبو عمرو من رواية الحسـين بن على الجُعْفِىّ « ورياشا » . ولم يحـكه أبو عبيد إلا عن الحسن ، ولم يفسر معناه . وهو جمع ريش . وهو ما كان من المـال واللباس . وقال الفَرّاء : ريش ورياش ، كما يقال : لِبْس ولِباس . وريش الطائر ما ستره الله به . وقيل : هو الخِصب ورَفاهيةُ العيش . والذى عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة . وأنشد سيبويه :

فَرِيشِى منكمُ وهَوَاىَ معكم * وإن كانت زيارتكم لِمـاما

وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة : وهبْت له دابة بريشها ؛ أى بكسوتها وما عليها من اللباس .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلِبَـاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ بيّن أن التقوى خير لباس ؛ كما قال :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التُّقَى * تقلب عُريانًا وإن كان كاسيا
وخيرُ لبـاس المرء طاعةُ ربِّه * ولا خيرَ فيمن كان لله عاصيا

وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبـد الجُهَنِىّ قال : « لباس التقـوى » الحيـاء . وقال ابن عباس : « لبـاس التقوى » هـو العمل الصالح . وعنـه أيضا السَّمْت الحَسَن

(١) آية ٦ سورة الزمر .

فى الوجه . وقيل ما علمه عز وجل وهدى به . وقيل : « لباس التقوى » لبس الصوف والخشن من الثياب، مما يتواضع به لله تعالى و يتعبّد له خيرٌ من غيره. وقال زيد بن عليّ : « لباس التقوى » الدّرع والمغفر، والساعدان، والساقان، يُتّقى بهما فى الحرب . وقال عروة بن الزبير : هو الخشية لله . وقيل : هو ٱستشعار تقوى الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه .

قلت : وهو الصحيح، و إليه يرجع قول ابن عباس وعروة . وقول زيد بن عليّ حَسَنٌ، فإنه حضٌّ على الجهاد . وقال ابن زيد : هو ستر العورة . وهذا فيه تكرار؛ إذ قال أوّلا : « قد أنزلنا عليكم لباسا يُوارِى سوءاتكم » . ومن قال إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدَعْوَى ؛ فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى، على ما يأتى مبيّنا إن شاء الله تعالى . وقرأ أهل المدينة والكسائيّ « ولباسَ » بالنصب عطفا على « لباسا » الأول . وقيل : انتصب بفعل مضمر ؛ أى وأنزلنا لباس التقوى . والباقون بالرفع على الابتداء . و «ذلك» نعته و «خير» خبر الابتداء . والمعنى : ولباس التقوى المشار إليه، الذى علمتموه، خيرٌ لكم من لبس الثياب التى تُوارِى سوءاتكم، ومن الرِّياش الذى أنزلنا إليكم؛ فٱلبَسوه . وقيل : ٱرتفع بإضمار هو؛ أى وهو لباس التقوى ؛ أى وهو ستر العورة . وعليه يُخرَّج قول ابن زيد . وقيل : المعنى ولباس التقوى هو خير ؛ فـ « ذلك » بمعنى هو . والإعراب الأوّل أحسنُ ما قيل فيه . وقرأ الأعمش « ولباس التقوى خير » ولم يقرأ « ذلك » . وهو خلاف المصحف . ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أى مما يدلّ على أن له خالقا . و « ذلك » رفع على الصفة، أو على البدل، أو عطف بيان .

قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٧)

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ ﴾ أى لا يصرفنّكم الشيطان عن الدِّين ؛ كما فتن أبويكم بالإخراج من الجنة . « أب » للمذكر، و « أبة » للمؤنث . فعلى هذا قيل : أبوان . ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ فى موضع نصب على الحال . ويكون مستأنفا فيوقف على « من الجنة » . ﴿ لِيُرِيَهُمَا ﴾ نصب بلام كيْ . ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ الأصل « يرءاكم » ثم خففت الهمزة . « وقبيله » عطف على المضمر وهو توكيد ليحسُن العطف ؛ كقوله : « اُسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » . وهذا يدلّ على أنه يقبُح رأيتك وعمرو ، وأن المضمر كالمظهر . وفى هذا أيضا دليل على وجوب ستر العورة؛ لقوله : « يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » . قال الاخرون: إنما فيه التحذير من زوال النعمة؛ كما نزل بآدم عليه السلام . هذا أن لو ثبت أن شرع آدم يلزمنا، والأمر بخلاف ذلك .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ « قبيله » جنوده . قال مجاهد : يعنى الجن والشياطين . ابن زيد : «قبيله» نسله . وقيل : جيله . ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ قال بعض العلماء : فى هذا دليل على أن الجن لا يُرَون؛ لقوله : « من حيث لاترونهم » . وقيل : جائز أن يُرَوْا ؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى . قال النحاس : « من حيث لا ترونهم » يدلّ على أن الجن لا يُرَون إلا فى وقت نبيّ ؛ ليكون ذلك دلالة على نبوّته ؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقا لا يُرَون فيه ، وإنما يرون إذا نُقلوا عن صورهم . وذلك من المعجزات التى لا تكون إلا فى وقت الأنبياء صلوات الله عليهم . قال القُشَيرِيّ : أجرى الله العادة بأن بنى آدم لا يَرون الشياطين اليوم . وفى الخبر " إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم " . وقال تعالى : « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » . وقال عليه السلام : " إن للمَلَك لَمّة وللشيطان لَمّة — أى بالقلب — فأما لَمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق وأما لَمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق " . وقد تقدم

فى « البقرة »(١) . وقد جاء فى رؤيتهم أخبار صحيحة . وقد خرّج البخارىّ عن أبى هريرة قال: وكّلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، وذكر قصة طويلة ، ذكر فيها أنه أخذ الجنّىّ الذى كان يأخذ التمر ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له : " ما فعل أسيرك البارحةَ " . وقد تقدّم فى « البقرة »(٢) . وفى صحيح مسلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح موثَقا يلعب به وِلدانُ أهلِ المدينة " — فى العِفْريت الذى تفلّت(٣) عليه . وسيأتى فى « ص »(٤) إن شاء الله تعالى . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى زيادة فى عقوبتهم وسوّينا بينهم فى الذهاب عن الحق .

قوله تعالى : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

الفاحشة هنا فى قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عُراة . وقال الحسن : هى الشرك والكفر . واحتجّوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم ، وبأن الله أمرهم بها . قال الحسن : « واللهُ أمَرَنا بها » قالوا : لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ بيّن أنهم متحكّمون ، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادّعَوْا . وقد مضى ذمّ التقليد وذمّ كثير من جهالاتهم . وهذا منها .

قوله تعالى : قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

---

(١) راجع ج ٣ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) أى تعرض بغتة . (٤) فى قوله تعالى : « قال رب اغفرلى وهب لى ... » آية ٣٥

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ قال ابن عبـاس : لا إله إلّا الله . وقيل : القسط العـدل ؛ أى أمر بالعـدل فأطيعوه . ففى الكلام حذف . ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى توجّهوا إليه فى كل صـلاة إلى القِبْلة . ﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أى فى أى مسجد كنتم . ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى وحدّوه ولا تشركوا به . ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ نظيره « ولقد جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »(١) وقد تقدم . والكاف فى موضع نصب؛ أى تعودون كما بدأكم؛ أى كما خلقكم أوّل مرّة يعيدكم . وقال الزجاج : هو متعلّق بما قبله . أى ومنها تخرجون كما بدأكم تعودون . ﴿ فَرِيقًا هَـدَى ﴾ « فريقاً » نصب على الحال من المضمر فى « تعودون » أى تعودون فريقين : سعداء، وأشقياء . يقوّى هذا قراءةُ أُبَيّ « تعودون فريقَين فريقًـا هدى وفريقًا حقّ عليهمُ الضـلالة » ؛ عن الكسائى . وقال كعب القُرَظىّ فى قوله تعالى : « فَرِيقًا هَدَى وفرِيقًا حقَّ عليهِمُ الضلالةُ » قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صَيّره إلى الضلالة، و إن عمِل عمل أهـل السعادة . ومن ابتدأ الله خلقه على الهـدى صيّره إلى الهدى ، و إن عمِل بأعمال الضلالة . ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة ، وعمِل بعمل السعادة مع الملائكة، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه . قال : « و كان مِن الكافِرين » .

وفى هذا ردٌّ واضح على القدرية ومَن تابعهم . وقيل : « فريقًا » نصب بـ « هَدَى » ، « وفريقا » الثانى نصب بإضمار فعل؛ أى وأضلّ فريقا . وأنشد سيبويه :

أصبحتُ لا أحمل السلاحَ ولا * أملك رأسَ البعـير إنْ نَفَـرا
والذئبُ أخشاه إن مررتُ به * وَحْدِى وأخشى الرياحَ والمطرا(٢)

قال الفَرّاء : ولو كان مرفوعا لجاز . ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وقرأ عيسى ابن عمر « أنهم » بفتح الهمزة، بمعنى لأنهم .

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣١)

(١) آية ٩٤ سورة الأنعام ص ٤٢ من هذا الجزء .

(٢) البيتان للربيع بن ضبع الفزارى . وصف فيهما انتهاء شبيبته وذهاب قوته .

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي آدَمَ ﴾ هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عُريانا ؛ فإنه عامٌّ فى كل مسجد للصلاة . لأن العبرة للعموم لا للسّبب . ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف ؛ لأن الطواف لا يكون إلا فى مسجد واحد . والذى يعم كلّ مسجد هو الصلاة . وهذا قول مَن خفى عليه مقاصد الشريعة . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عُريانة وتقول : من يُعِيرُنى تِطْوَافًا؟ تجعله على فرجها . وتقول :

اليوم يَبْدُو بعضُه أو كلّه * وما بدا منـــه فلا أُحِلُّه

فنزلت هذه الآية « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » . التِّطواف (بكسر التاء) . وهذه المرأة هى ضُباعة بنت عامر بن قُرْط ؛ قاله القاضى عياض . وفى صحيح مسلم أيضا عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت العرب تطوف بالبيت عُراةً إلا الحُمْس ، والحُمْس قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عُراةً إلا أن تُعطيهم الحُمْس ثيابا فيُعْطى الرجالُ الرجال والنساءُ النساءَ . وكانت الحمس لا يخرجون من المُزْدلِفة ، وكان الناس كلّهم يقفون بعرفات (١) . فى غير مسلم ويقولون : نحن أهــل الحَرَم ، فلا ينبغى لأحد من العــرب أن يطوف إلا فى ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضَنا إلا من طعامنا . فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يُعيره ثوبا ولا يَسارٌ يستأجره به كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عُريانا ، وإما أن يطوف فى ثيابه ؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يُسَمَّى اللَّقَى ؛ قال قائل من العرب :

كَفَى حَزَنًا كَرِّى عليــه كأنه * لَقًى بين أيدى الطائفين حَرِيمُ

فكانوا على تلك الجهالة والبــدعة والضلالة حتى بعث الله نبيــه محمدا عليه السلام ؛ فأنزل الله تعــالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ » . وأذّن مؤذّن رسول الله صلى الله عليــه وسلم : ألَا لا يطوف بالبيت عُريانٌ .

(١) فى صحيح مسلم : « يبلغون عرفات » .

قلت : ومن قال بأن المراد الصلاة فزينتها النعال؛ لما رواه كُرْز بن وَبْرَة عن عطاء عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم : "خذوا زينة الصلاة" قيل : وما زينة الصلاة ؟ قال : "البسوا نعالكم فصلّوا فيها" .

الثانيـــة ــ دلّت الآية على وجوب ستر العورة كما تقــدّم . وذهب جمهور أهل العلم إلى أنهـا فرض من فروض الصلاة . وقال الأَبْهَرِيّ هي فرض في الجملة ، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام للمِسْــوَر بن مَخْرَمة : "ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة" . أخرجه مسلم . وذهب إسماعيل القاضي إلى أن ســتر العورة من سنن الصلاة ، واحتج بأنه لو كان فرضا في الصــلاة لكان العريان لا يجوز له أن يصلي ؛ لأن كل شيء من فروض الصــلاة يجب الإتيان به مع القدرة عليه ، أو بدله مع عدمه ، أو تسقط الصلاة جملةً ، وليس كذلك . قال ابن العربيّ : وإذا قلنا أن ستر العورة فرض في الصلاة فسقط ثوبُ إمامٍ فانكشف دُبُرُه وهو راكع فرفع رأســه فغطّاه اجزأه ؛ قاله ابن القــاسم . وقال سُحْنون : وكلّ من نظر إليه من المأمومين أعاد . ورُوِي عن سُحنون أيضا أنه يعيد ويعيدون؛ لأن ستر العورة شرط من شروط الصلاة ، فإذا ظهرت بطلت الصلاة . أصله الطهارة . قال القاضي ابن العربيّ : أما من قال إن صلاتهم لا تبطل فإنهم لم يفقدوا شرطا . وأما من قال إن أخذه مكانه صحت صلاته وتبطل صــلاة من نظر إليه فصحيفة يجب محْوها ولا يجوز الاشتغال بها . وفي البخاريّ والنّسائيّ عن عمرو بن سَلِمة قال : لمـا رجع قومي من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا قال : "ليؤمّكم أكثركم قراءة للقرآن" . قال : فدعوني فعلّموني الركوع والسجود ؛ فكنت أصــلّي بهم وكانت عليّ بردة مفتوقة، وكانوا يقولون لأبي : ألَا تُغَطّي عنا آسْتَ آبنك . لفظ النّسائيّ . وثبت عن سهل ابن سعد قال : لقد كانت الرجال عاقدي أُزُرِهم في أعناقهم من ضيق الأُزُر خلف رسول الله صــلى الله عليه وسلم في الصــلاة كأمثال الصبيان ؛ فقال قائل : يا معشر النساء ، لا ترفعن رءوسكن حتى ترفع الرجال . أخرجه البُخاريّ والنّسائيّ وأبو داود .

الثالثة — واختلفوا إذا رأى عورة نفسه؛ فقال الشافعي: إذا كان الثوب ضيقا يزره أو يخلّله بشيء لئلا يتجافى القميص فتُرى من الجيب العورة، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه أعاد الصلاة . وهو قول أحمد . ورخّص مالك في الصلاة في القميص محلول الأزرار ليس عليه سراويل . وهو قول أبي حنيفة وأبي ثَوْر . وكان سالم يُصلّي محلولَ الأزرار . وقال داود الطائي : إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به . وحكى معناه الأَثْرم عن أحمد . فإن كان إماما فلا يصلّي إلا بردائه؛ لأنه من الزينة . وقيل : من الزينة الصلاة في النعلين؛ رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يصحّ . وقيل : زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه . قال أبو عمر : لكل شيء زينة وزينةُ الصلاة التكبير ورفع الأيدي . وقال عمر رضي الله عنه : إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم، جمع رجل عليه ثيابه، صلّى في إزار[1] ورداء، في إزار وقميص، في إزار وقَباء، في سراويل ورداء، في سراويل وقميص، في سراويل وقَباء[2] — وأحسبه قال : في تُبّان[3] وقميص — في تُبّان ورداء، في تُبّان وقَباء . رواه البُخاريّ والدّارَقُطْنِيّ .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ قال ابن عباس : أحل الله في هذه الآية الأكلَ والشربَ ما لم يكن سَرَفًا أو مَخِيلة[4] . فأمّا ما تدعو الحاجة إليه، وهو ما سدّ الجَوْعة وسكّن الظمأ، فمندوب إليه عقلا وشرعا، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس؛ ولذلك ورد الشرع بالنّهي عن الوصال، لأنه يُضعف الجسد ويُميت النفس، ويضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرعُ ويدفعه العقل . وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد؛ لأن ما حَرَمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثرُ ثوابا وأعظمُ أجرا . وقد اختُلف في الزائد على قدر الحاجة على قولين : فقيل حرام، وقيل مكروه . قال ابن العربيّ : وهو الصحيح؛ فإن قَدْر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان

---

(١) الإزار : ما يؤتزر به في النصف الأسفل . والرداء للنصف الأعلى . (٢) القباء (بالفتح) : ثوب يلبس فوق الثياب . وقيل : يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه . (٣) التبان (بضم المثناة وتشديد الموحدة) سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط . (٤) المخيلة : الكبر .

والأسنان والطّحال . ثم قيـل : فى قلة الأكل منافع كثيرة؛ منها أن يكون الرجل أصحّ جسما وأجود حِفظا وأزكى فهما وأقـل نوما وأخفّ نفسا . وفى كثرة الأكل كَظّ المعـدة ونتن التّخمة، ويتولد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر ممـا يحتاج إليه القليل الأكل . وقال بعض الحكماء : أكبر الدواء تقدير الغذاء . وقد بيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بيانا شافيا يُغنِي عن كلام الأطباء فقال: " ما ملأ آدميٌّ وعاء شرا من بطن بحسْب ابن آدم لُقيمات يقِمن صُلْبه فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه " . خرّجه الترمذيّ من حديث المِقْدام بن مَعْدِى كرِب . قال علماؤنا : لو سمع بُقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة . ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نَصْرانِيّ حاذق فقال لعليّ بن الحسين: ليس فى كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له عليّ: قد جمع الله الطب كلّه فى نصف آية من كتابنا . فقال له : ما هى؟ قال قوله عز وجل « وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » . فقال النّصرانِيّ : ولا يُؤثر عن رسولكم شيء من الطب . فقال عليّ : جمع رسول الله صـلى الله عليه وسلم الطبّ فى ألفاظ يسيرة . قال: ما هى؟ قال: " المَعدة بيت الأدواء والحِمْيَةُ رأسُ كلّ دواء وأعط كلّ جسد ما عوّدته " . فقال النّصرانِيّ : ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طِباًّ .

قلت : ويقال إن معالجة المريض نصفان : نصفٌ دواء، ونصفٌ حِمْية . فإن اجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصحّ، وإلّا فالحِمية به أوْلى؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحِمية . ولقد تنفع الحِميةُ مع ترك الدواء . ولقد قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : " أصل كلّ دواء الحِمية " . والمعنِيّ بهـا — والله اعلم — أنهـا تغنى عن كلّ دواء، ولذلك يقال : إن الهند جُلّ معالجتهم الحِمية، يمتنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدّةَ أيام فيبرأ ويصحّ .

الخامسـة — روى مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول : " الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى مِعًى واحد " . وهذا منه صلى الله

عليه وسلم حضّ على التقلّل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبُلْغة . وقد كانت العرب تُمتدح بقلة الأكل وتُذَم بكثرته . كما قال قائلهم :

تكفيه فِلْذة كِبْد إن أَلَمّ بها * من الشِّواء ويُرْوِى شُرْبَه الغُمَر [(١)]

وقالت أم زرع فى ابن أبى زرع : ويُشبعه ذراعُ الجَفْرَة [(٢)]. وقال حاتم الطائى يذم بكثرة الأكل :

فإنك إن أعطيتَ بطنك سؤْلَه * وفرجَك نالاَ منتهى الذّم أجمعَا [(٣)]

وقال الخَطّابىّ : معنى قوله : " المؤمنُ يأكل فى مِعًى واحد " أنه يتناول دون شبعه ، ويؤثر على نفسه ويُبقى من زاده لغيره ؛ فيقنعه ما أكل . والتأويل الأوّل أولى والله أعلم . وقيل فى قوله عليه السلام : " الكافر يأكل فى سبعة أمعاء " ليس على عمومه ؛ لأن المشاهدة تدفعه ، فإنه قد يوجد كافر أقلّ أكلًا من مؤمن ، ويُسلم الكافرُ فلا يَقِلّ أكله ولا يزيد . وقيل : هو إشارة إلى معيّن . ضاف النبىّ صلى الله عليه وسلم ضيفٌ كافر يقال : إنه الجَهْجَاه الغِفارىّ . وقيل : ثُمَامة بن أُثَال . وقيل : نَضْلة بن عمرو الغِفارىّ . وقيل بَصْرة بن أبى بصرة الغِفارىّ . فشرب حِلابَ سبع شياهٍ ، ثم إنه أصبح فأسلم فشرب حِلاب شاةٍ فلم يَستتمه ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ذلك ". فكأنه قال : هذا الكافر . والله أعلم. وقيل : إن القلب لما تنوّر بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوى على الطاعة ، فأخذ منه قدر الحاجة ، وحين كان مُظلما بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تَثْلِط [(٤)] .

واختلف فى هذه الأمعاء ، هل هى حقيقة أم لا ؛ فقيل : حقيقة ، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح . وقيل : هى كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النَّهِم : يأكل للحاجة والخبر [(٥)] والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغناما [(٦)] . قيل : المعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء . والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا مِعًى واحد ؛

(١) البيت لأعشى باهلة ، يرثى أخاه المنتشر بن وهب الباهلى . ورواية اللسان : يكفيه حزة فلذ ... والمعنى واحد . والغمر (بضم الأول وفتح الثانى) : القدح الصغير . (٢) الجفرة : الصغيرة من ولد المعزى إذا بلغ أربعة أشهر . (٣) الذى فى ديوانه : * وإنك مهما تعط ... * الخ .
(٤) الثلط : الرقيق من الروث . (٥) يريد شهوة الأذن . (٦) كذا فى الأصول . ولعلها : «استمتاعا» .

فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله. والمِعَى في هذا الحديث هو المعدة.

السادسـة — وإذا تقرّر هـذا فآعلم أنه يُستحب للإنسان غسلُ اليـد قبل الطعام وبعده؛ لقوله عليه السلام: "الوضوء قبل الطعام وبعده بركة". وكذا في التوراة. رواه زاذان عن سلمان. وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة. والآقتداء بالحديث أَوْلى. ولا يأكل طعاما حتى يعرف أحارا هو أم باردا؛ فإنه إن كان حارًّا فقد يتأذى. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أَبْرِدُوا بالطعام فإن الحارّ غيرُ ذي بركة" حديث صحيح. وقد تقدم في «البقرة». ولا يشمّه فإن ذلك من عمل البهائم، بل إن آشتهاه أكله، وإن كرهه تركه، ويصغّر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يُعَـدّ شَرِهًا. ويُسمّي الله تعـالى في أوّله ويحمَـده في آخره. ولا ينبغي أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل؛ لأن في رفع الصـوت مَنْعاً لهم من الأكل. وآداب الأكل كثيرة، هـذه جملة منهـا. وسيأتي بعضها في سورة «هود»(١) إن شاء الله تعـالى. وللشراب أيضا آداب معروفة، تركنا ذكرها لشهرتها. وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله".

السابعـة — قوله تعـالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي في كثرة الأكل. وعنه يكون كثرة الشُّرب. وذلك يثقل المعدة، ويثبّط الإنسان عن خدمة ربّه، والأخذ بحظه من نوافل الخير. فإن تعدّى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حُرِم عليه، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه. روى أسـد بن موسى من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيـه قال: أكلت ثريدا بلحم سمين، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أتجشّى(٢)؛ فقال: "آكفف عليك من جُشائك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شِبَعًا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة". فمـا أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدّى لا يتعشّى، وإذا تعشّى لا يتغدّى.

(١) في قوله تعالى: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ...» آية ٦٩
(٢) التجشؤ: تنفس المعدة عند الامتلاء.

قلت : وقد يكون هذا معنى قوله عليه السلام : " المؤمن يأكل في مِعًى واحد " أي التام الإيمان؛ لأن من حَسُن إسلامُه وكَمُل إيمانه كأبي جُحيفة تفكّر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده؛ فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته . والله أعلم . وقال ابن زيد : معنى « ولا تسرفوا » لا تأكلوا حراما . وقيل : " من السَّرَف أن تأكل كل ما آشتهيت " . رواه أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، خرّجه ابن ماجه في سننه . وقيل : من الإسراف الأكل بعد الشبع . وكل ذلك محظور . وقال لقمان لابنه : يا بُنَيّ لا تأكل شبعا فوق شبع ، فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله . وسأل سَمُرةُ بن جُنْدب عن ابنه ما فعل؟ قالوا : بَشِم البارحة . قال : بَشِم! فقالوا نعم . قال : أَمَا إنه لو مات ما صليتُ عليه . وقيل : إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دَسَمًا في أيام حَجّهم ، ويكتفون باليسير من الطعام ، ويطوفون عُراة . فقيل لهم : « خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » أي لا تسرفوا في تحريم ما لم يحرّم عليكم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ بيّن أنهم حرّموا من تلقاء أنفسهم ما لم يُحرّمه الله عليهم . والزينة هنا الملبس الحسن ، إذا قدر عليه صاحبه . وقيل : جمع الثياب؛ كما روى عن عمر : إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا . وقد تقدّم . وروى عن عليّ بن الحسين ابن عليّ بن أبي طالب شيخ مالك رضى الله عنهم أنه كان يلبس كساء خَزّ بخمسين دينارا ، يلبَسه في الشتاء ، فإذا كان الصيف تصدّق به ، أو باعه فتصدّق بثمنه ، وكان يلبَس في الصيف

ثوبين من مَتاع مِصرَ مُمَشَّقَيْن[١] ويقول : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

الثانيـــة — وإذا كان هذا فقد دلّت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمّل بها فى الجُمَع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان . قال أبو العاليـة : كان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا . وفى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلّة سِيَرَاء[٢] تباع عند باب المسجد ، فقال : يارسول الله، لو اشتريتَها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما يلبس هذا من لا خلاق له فى الآخرة " . فما أنكر عليه ذِكْرَ التجمّل ، وإنما أنكر عليه كونها سِيَرَاء . وقـد اشترى تميم الدّارى حلّة بألف درهم كان يصلّى فيهـا . وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنيةَ الجياد . وكان ثوب أحمد بن حنبل يُشتَرَى بنحو الدينار . أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتّان والصوف من الثياب . ويقول : ولباس التقوى ذلك خير، هيهات ! أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى، لا والله ! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنُّهَى، وغيرهم أهل دعوى، وقلوبُهم خالية من التقوى . قال خالد بن شَوْذَب : شهدت الحسن وأتاه فرقد، فأخذ الحسن بكسائه فمدّه إليه وقال : يافريقد، يابن أمّ فريقد، إن البِرّ ليس فى هـذا الكساء، إنمـا البِرّ ما وَقَر فى الصدر وصدّقه العمل . ودخل أبو محمد ابن أخى معروف الكَرْخى على أبى الحسن بن يَسار[٣] وعليه جُبّة صوف ، فقال له أبو الحسن : ياأبا محمد ، صوّفت قلبك أو جسمك ؟ صَوّف قلبك والْبَس القُوهِى على القُوهِى[٤] . وقال رجل للشّبلى : قد ورد جماعة من أصحابك وهم فى الجامع ، فمضى فرأى عليهم المرقّعات والفُوَط ، فأنشأ يقول :

أمّا الخيـام فإنهـا كخيامهـم * وأرى نساء الحىّ غير نسائه

(١) ثوب ممشق وممشوق : مصبوغ بالمشق، وهو صبغ أحمر . (٢) سيراء (بسين مهملة مكسورة ثم ياء مثناة مفتوحة ثم ألف ممدودة) : نوع من البرود فيه خطوط صفر، أو يخالطه حرير . وضبطوا « الحلة » هنا بالتنوين، على أن سيراء صفة . وبغير تنوين على الاضافة . وهما وجهان مشهوران .

(٣) فى بعض نسخ الأصل : « بشار » . (٤) القوهى : ضرب من الثياب بيض فارسى .

قال أبو الفرج الجَوْزِيّ رحمه الله : وأنا أكره لُبس الفُوَط والمرقّعات لأربعة أوجه : أحدها — أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقّعون ضرورةً. والثانى — أنه يتضمن آدّعاء الفقر، وقد أُمِر الإنسان أن يُظهر أثر نعم الله عليه . والثالث — إظهار التزهد، وقد أُمِرنا بستره . والرابع — أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبّه بقوم فهو منهم. وقال الطبريّ : ولقد أخطأ من آثر لباس الشَّعر والصُّوف على لباس القطن والكَتّان مع وجود السبيل إليه من حلّه . ومَن أكل البقول والعدس وآختاره على خبز البر . ومَن ترك أكل اللحم خوفًا من عارض شهوة النساء . وسئل بشر بن الحارث عن لبس الصوف، فشقّ عليه وتبيّنت الكراهة فى وجهه ثم قال : لبس الخَزّ والمُعَصْفَر أحبّ إليّ من لبس الصوف فى الأمصار . وقال أبو الفرج : وقد كان السلف يلبَسون الثياب المتوسطة، لا المترفّعة ولا الدُّون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيّر الأجود عندهم قبيحا . وأما اللباس الذى يُزْرِى بصاحبه فإنه يتضمنّ إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس؛ وكل ذلك مكروه مَنْهِيّ عنه . فإن قال قائل : تجويد اللباس هوى النفس وقد أُمِرنا بمجاهدتها، وتزيّن للخَلْق وقد أُمِرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخَلْق . فالجواب أنه ليس كل ماتهواه النفس يذَم، ولا كلّ ما يُتزيّن به للناس يُكره، وإنما يُنْهَى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء فى باب الدِّين . فإن الإنسان يحب أن يُرَى جميلا، وذلك حظٌّ للنفس لا يلام فيه . ولهذا يسرّح شعره وينظر فى المرآة ويسوّى عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج . وليس فى شيء من هذا ما يكره ولا يُذَم . وقد روى مَكْحول عن عائشة قالت : كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفى الدار رَكْوة فيها ماء، فجعل ينظر فى الماء ويسوّى لحيته وشعره . فقلت : يارسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال : " نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فلْيُهَيِّئْ من نفسه فإن الله جميل يحبّ الجمال " . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذرّة من كِبر " .

فقـال رجل : إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسَنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْط الناس " . والأحاديث فى هـذا المعنى كثيرة، تدلّ كلها على النظافة وحسن الهيئة . وقد روى محمد بن سعد أخبرنا الفضل بن دُكين قال حدّثنا مَنْدَل عن ثور عن خالد بن مَعْدان قال : كان رســول الله صلى الله عليه وســلم يسافر بالمشط والمرآة والدّهن والسّواك والكحل . وعن ابن جُريج : مشط عاج يمتشط به . قال ابن سعد : وأخبرنا قَبيصة بن عقبــة قال حدّثنا سفيان عن ربيع بن صَبيح عن يزيد الرَّقاشيّ عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ويسرّح لحيته بالمـاء . أخبرنا يزيد ابن هارون حدّثنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْحُلَة يكتحل بها عند النوم ثلاثا فى كل عين .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ الطيبات ٱسم عامٌّ لمـا طاب كَسْباً وطَعْمًا . قال ابن عباس وقتادة : يعنى بالطيبات من الرزق ما حَرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامى . وقيل : هى كل مستلَذّ من الطعام . وقــد ٱختلف فى ترك الطيبات والإعراض عن اللذات؛ فقال قوم: ليس ذلك من القُربات، والفعل والترك يستوى فى المباحات . وقال آخرون : ليس قُرْبة فى ذاته ، وإنما هو سبيل إلى الزهد فى الدنيا، وقصر الأمل فيها ، وترك التكلّف لأجلها؛ وذلك مندوب إليه، والمندوب قُرْبة . وقال آخرون : ونقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنــه قوله : لو شئنا لٱتخذنا صِــلاءً وصَلائقَ وصِنَاباً، ولكنى سمعت الله تعـالى يذمّ أقواما فقــال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا (١) ». ويروى « صرائق » بالراء، وهما جميعا الجرادق (٢) . والصلائق (باللام) : ما يصلق من اللحوم والبقول. والصِّلاء (بكسر الصاد والمد) : الشواء . والصِّناب : الخردل بالزبيب . وفرق آخرون بين حضور ذلك كلّه بكُلْفة و بغير كلفة . قال أبو الحسن على بن المفضل المقدسى شيخ أشياخنا : وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل ؛ فإنه لم ينقل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ٱمتنع من

---

(١) آية ٢٠ سورة الأحقاف . (٢) الجرادق : جمع جردقة، وهى الرغيف .

طعام لأجل طيبه قطُّ، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبِطّيخ والرّطب، وإنما يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة. والله تعالى أعلم.

قلت: وقد كره بعض الصوفية أكلَ الطيبات، واحتج بقول عمر رضي الله عنه: إياكم واللحمَ فإن له ضراوة كضَراوة الخمر (١). والجواب أن هذا من عمر قولٌ خرج على من خشي منه إيثار التنعم في الدنيا، والمداومة على الشهوات، وشفاء النفس من اللذات، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا؛ ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله: إياكم والتَّنَعُّمَ وزِيَّ أهل العجم، واخْشَوْشِنُوا. ولم يُرد رضي الله عنه تحريمَ شيء أحلّه الله، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه. وقولُ الله عز وجل أَوْلى ما امْتُثِل واعتُمد عليه. قال الله تعالى: « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ». وقال عليه السلام: " سيِّد إدام الدنيا والآخرة اللحمُ ". وقد روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الطِّبِّيخ بالرطب ويقول: " يكسر حَرُّ هذا بَرْدَ هذا وبردُ هذا حَرَّ هذا ". والطِّبِّيخ لغة في البِطِّيخ، وهو من المقلوب. وقد مضى في « المائدة » (٢) الردُّ على من آثر أكل الخشن من الطعام. وهذه الآية تردّ عليه وغيرها. والحمد لله.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني بحقها من توحيد الله تعالى والتصديق له؛ فإن الله يُنعم ويرزق، فإن وحّده المنعَم عليه وصدّقه فقد قام بحق النعمة، وإن كفر فقد أمكن الشيطان من نفسه. وفي صحيح الحديث " لا أحدَ أصبرُ على أذًى من الله يعافيهم ويرزقهم وهم يدعون له الصاحبة والولد ". وتمّ الكلام على «الحياة الدنيا». ثم قال « خالصةٌ » بالرفع، وهي قراءة ابن عباس ونافع. ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي يُخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للشركين فيها شيء كما كان لهم في الدنيا من الاشتراك فيها. ومجاز الآية: قل هي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا مع غيرهم، وهي للمؤمنين

---

(١) أي أن له عادة ينزع إليها كعادة الخمر.

(٢) في قوله تعالى: « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا ... » آية ٨٧

خالصة يوم القيامة. لخالصة مستأنف على خبر مبتدأ مضمر. وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقَتادة والسُّدِّى وابن جُريج وابن زيد . وقيل : المعنى أن هذه الطيبات الموجودات فى الدنيا هى خالصة يوم القيامة للؤمنين فى الدنيا؛ وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون. فقوله « فى الحياة الدنيا » متعلق « بآمنوا » . وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جُبير . وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع؛ لأن الكلام قد تمّ دونه . ولا يجوز الوقف على هذه القراءة على « الدنيا » ؛ لأن ما بعده متعلق بقوله « للذين آمنوا » حالا منه؛ بتقدير قل هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها لهم يوم القيامة؛ قاله أبو علىّ . وخبر الابتداء « للذين آمنوا » . والعامل فى الحال ما فى اللام من معنى الفعل فى قوله « للذين » . واختار سيبويه النّصب لتقدم الظرف . ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى كالذى فصّلت لكم الحلال والحرام أفصل لكم ما تحتاجون إليه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

فيه مسألة واحدة :

قال الكلبى : لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون؛ فنزلت هذه الآية . والفواحش : الأعمال المُفْرِطة فى القبح ، ما ظهر منها وما بطن . روى رَوح بن عُبادة عن زكريا بن إسحاق عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد قال : « ما ظهر منها » نكاح الأمهات فى الجاهلية . « وما بطن » الزنى . وقال قَتادة : سرّها وعلانيتها . وهذا فيه نظر؛ فإنه ذكر الإثم والبغى فدلّ أن المراد بالفواحش بعضها ، وإذا كان كذلك فالظاهر من الفواحش الزنى . والله أعلم . ﴿ والإثم ﴾ قال الحسن : الخمر . قال الشاعر :

شربتُ الإثمَ حتى ضلّ عقلى * كذاك الإثم تذهب بالعقول

وقال آخر :

نشرب الإثم بالصُّواع جِهارًا * وترى المسك بيننا مُستعارا[1]

﴿ وَٱلْبَغْىَ ﴾ الظلم وتجاوز الحدّ فيه . وقد تقدّم . وقال ثعلب : البغى أن يقع الرجل فى الرجل فيتكلّم فيه، ويبغى عليه بغير الحق؛ إلا أن ينتصر منه بحقّ . وأخرج الإثم والبغى من الفواحش وهما منه لعظمهما وفحشهما؛ فنصّ على ذكرهما تأكيدا لأمرهما وقصدًا للزجر عنهما . وكذا « وأن تشركوا » « وأن تقولوا » وهما فى موضع نصب عطفا على ما قبلُ . وقد أنكر جماعة أن يكون الإثم بمعنى الخمر . قال الفَـرّاء : الإثم ما دون الحدّ والاستطالة على النـاس . قال النحاس : فأما أن يكون الإثم الخمـر فلا يعـرف ذلك ، وحقيقة الإثم أنه جميع المعـاصى؛ كما قال الشاعر :

إنى وجدتُ الأمرَ أرشَدُه * تقـوَى الإلٰه وشرُّه الإثمُ

قلت : وأنكره ٱبن العربى أيضا وقال : « ولا حجة فى البيت[2]؛ لأنه لو قال : شربت الذنب أو شربت الوزر لكان كذلك ، ولم يوجب قوله أن يكون الذنب والوزر ٱسمـا من أسماء الخمر كذلك الإثم . والذى أوجب التكلم بمثل هذا الجهلُ باللغة و بطريق الأدلة فى المعانى » .

قلت : وقـد ذكرناه عن الحسن . وقال الجوهرى فى الصّحاح : وقـد يسمى الخمر إثمـا، وأنشد :

* شربت الإثم ... ... * البيت

وأنشده الهَرَوِى فى غريبيه، على أن الخمر الإثم . فلا يبعد أن يكون الإثم يقع على جميع المعاصى وعلى الخمر أيضا لغة، فلا تناقض . والبغى : التجاوز فى الظلم، وقيل الفساد .

قوله تعـالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

فيـــه مسألة واحدة :

---

(١) الصواع : إناء يشرب فيه . ومستعار : متداول . أى نتعاوره بأيدينا نشمه .

(٢) يريد به البيت الأول .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أى وقت مؤقت . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى الوقت المعلوم عند الله عز وجل . وقرأ ابن سيرين « جاء آجالهم » بالجمع . ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ساعة ولا أقلّ من ساعة؛ إلا أن الساعة خُصّت بالذكر لأنها أقلّ أسماء الأوقات، وهى ظرف زمان . ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فدلّ بهذا على أن المقتول إنما يُقتل بأجله . وأجل الموت هو وقت الموت ؛ كما أن أجل الدّين هو وقت حلوله . وكلُّ شيء وُقّت به شيء فهو أجل له . وأجل الإنسان هو الوقت الذى يعلم الله أنه يموت الحيّ فيــه لا محالة . وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه، لا من حيث إنه ليس مقدوراً تأخيرُه . وقال كثير من المعتزلة إلا من شذّ منهم : إن المقتول مات بغير أجله الذى ضُرب له ، وأنه لو لم يقتل لحيَ . وهذا غلط، لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له ، بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عنــد الضرب له . فإن قيل : فإن مات بأجله فلِمَ تقتلون ضاربه وتقتصّون منه . قيل له : نقتله لتعدّيه وتصرّفه فيما ليس له أن يتصرف فيه ، لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله . ولو تُرك الناس والتعدّى من غير قصاص لأدّى ذلك إلى الفساد ودمار العباد . وهذا واضح .

قوله تعـالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ شرط . ودخلت النـون توكيدا لدخول « ما » . وقيل : ما صلة، أى إن يأتكم . أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب . والقصص إتباع الحديث بعضه بعضا . ﴿ آيَاتِي ﴾ أى فرائضى وأحكامى .

﴿ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ ﴾ شرط ، وما بعده جوابه ، وهو جواب الأول . أى وأصلح منكم ما بينى وبينه . ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ، ولا يلحقهم رُعْب ولا فزع . وقيل : قد يلحقهم أهوال يوم القيامة، ولكن

ما لهم الأمن . وقيل : جواب « إمّا يأتينكم » ما دلّ عليـه الكلام ، أى فأطيعوهم فمن اتقى وأصلح . والقولُ الأوّل قول الزجاج .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ المعنى أىّ ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته . ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى ما كُتب لهم من رزق وعمـر وعمل ؛ عن آبن زيد . ابن جُبير : من شقاء وسـعادة . ابن عباس : من خير وشر . الحسن وأبو صالح : من العذاب بقدر كفرهم . واختيار الطبرى أن يكون المعنى : ما كُتب لهم ، أى ما قُدّر لهم من خير وشر ورزق وعمل وأجل ؛ على ما تقدّم عن ابن زيد وابن عباس وآبن جبـير . قال : ألا ترى أنه أتبـع ذلك بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يعنى رسل ملك الموت . وقيل : «الكتاب» هنا القرآن ؛ لأن عذاب الكفار مذكور فيه . وقيل : «الكتاب» اللوح المحفوظ . ذكر الحسن بن علىّ الحُلْوانِىّ قال : أملى علىّ علِىُّ بن المَدِينِى قال : سألت عبد الرحمن بن مَهْدِىّ عن القَـدَر فقال لى : كل شىء بقدر ، والطاعة والمعصية بقَدر ، وقد أعظم الفِرية من قال : إن المعـاصى ليست بقَـدَر . قال علىّ وقال لى عبد الرحمن بن مَهْدِى : العـلم والقدر والكتاب سواء . ثم عَرضت كلام عبد الرحمن بن مَهدِىّ على يحيى بن سعيد فقال : لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير . وروى يحيي ابن مَعين حدّثنا مَرْوان الفَزارِىّ حدّثنا إسماعيل بن سميع عن بُكير الطّويل عن مجاهد عن ابن عباس «أولئك ينالُهم نَصيبُهم من الكتاب» قال : قوم يعملون أعمالا لا بدّ لهم من أن يعملوها . و « حتى » ليست غاية ، بل هى ابتـداء خبر عنهم . قال الخليل وسيبويه : حتى و إمّا وألّا

لا يُمَلْنَ لأنهن حروف ففرق بينها وبين الأسماء نحو حُبْلَى وسَكْرَى. قال الزجاج: تكتب حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى، ولو كتبت ألّا بالياء لأشبهت إلى. ولم تكتب إمّا باليـاء لأنها «إن» ضُمت إليها ما. ﴿قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سؤالُ توبيخ. ومعنى «تدعون» تعبدون. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي بطلوا وذهبوا. قيل: يكون هذا في الآخرة. ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي أقروا بالكفر على أنفسهم.

قوله تعالى: قَالَ ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ أي مع أمم؛ فـ«في» بمعنى مع. وهذا لا يمتنع؛ لأن قولك: زيد في القوم، أي مع القوم. وقيل: هي على بابها، أي ادخلوا في جملتهم. والقائل قيل: هو الله عز وجل، أي قال الله ٱدخلوا. وقيل: هو مالك خازنُ النـار. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي التي سبقتها إلى النار، وهي أختها في الدِّين والمِلّة. ﴿حَتَّى إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي اجتمعوا. وقـرأ الأعمش «تداركوا» وهو الأصـل، ثم وقع الإدغام فاحْتِيج إلى ألف الوصل. وحكاها المَهْدوي عن ابن مسـعود. النحاس: وقرأ ابن مسـعود «حتى إذا ٱدْركوا» أي أدرك بعضهم بعضا. وعِصْمةُ عن أبي عمرو «حتى إذا ادّاركوا» بإثبات الألف على الجمع بين الساكنين. وحُكي: هذان عبدا الله. وله ثلثا المـال. وعن أبي عمـرو أيضا: «إذا إدّاركوا» بقطع ألف

الوصل؛ فكأنه سكت على «إذا» للتذكر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها .
وقد جاء في الشعر قطع ألف الوصل نحو قوله :

يا نفسُ صبرًا كلُّ حيّ لاقِ * وكل إثنين إلى افتراق

وعن مجاهد وحُميد بن قيس «حتى إذ ادّركوا» بحذف ألف «إذا» لالتقاء الساكنين، وحذف الألف التي بعد الدال . «جميعا» نصب على الحال . ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ ﴾ أى آخرهم دخولا وهم الأتباع لأُولاهم وهم القادة . ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ﴾ فاللام في «لأُولَاهم» لام أجل؛ لأنهم لم يخاطبوا أولاهم ولكن قالوا في حق أُولاهم ربّنا هؤلاء أضلونا . والضِّعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات . وعن ابن مسعود أن الضعف هاهنا الأفاعى والحيات . ونظير هذه الآية «رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا»[1] . وهناك يأتي ذكر الضّعف بأشبعَ من هذا وما يترتب عليه من الأحكام، إن شاء الله تعالى . ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ أى للتابع والمتبوع . ﴿ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ على قراءة من قرأ بالياء؛ أى لا يعلم كلّ فريق ما بالفريق الآخر، إذ لو علم بعض من في النار أن عذاب أحد فوق عذابه لكان نوعَ سلوة له . وقيل : المعنى «ولكن لا تعلمون» بالتاء، أى ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما يجدون من العذاب . ويجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يأهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب . ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أى قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

(١) آية ٦٨ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ أى لأرواحهـم . جاءت بذلك أخبار صحاح ذكرناها فى كتاب (التـذكرة) . منهـا حديث البراء بن عازب ، وفيـه فى قبض روح الكافر قال : ويخرج منها ريح كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيَصْعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة . فيقولون فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يُسَمَّى بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتِحون فلا يفتح لهم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ » الآية . وقيل : لا تفتح لهم أبواب السماء إذا دعوا ؛ قاله مجاهد والنَّخَعِيّ . وقيل : المعنى لا تفتح لهم أبواب الجنة ؛ لأن الجنة فى السماء . ودلّ على ذلك قولُه « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ » والجمل لا يَلِج فلا يدخلونها ألْبَتَّةَ . وهذا دليل قطعيّ لا يجوز العفو عنهم . وعلى هـذا أجمع المسلمون الذين لا يجوز عليهم الخطأ أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لهم ولا لأحد منهـم . قال القاضى أبو بكر بن الطيّب : فإن قال قائل كيف يكون هذا إجماعا من الأمة ، وقد زعم قوم من المتكلمين بأن مُقلّدة اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ليسوا فى النار . قيل له : هؤلاء قوم أنكروا أن يكون المقلِّد كافرا لشبهة دخلت عليهم ، ولم يزعموا أن المقلّد كافر وأنه مع ذلك ليس فى النار ، والعلم بأن المقلّد كافر أو غير كافر طريقـه النظر دون التوقيف والخبر . وقرأ حمزة والكسائيّ « لا يُفَتَّح » باليـاء مضمومة على تذكير الجمع . وقرأ الباقون بالتاء على تأنيث الجماعة ؛ كما قال : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »[1] فأنّث . ولـما كان التأنيث فى الأبواب غير حقيقى جاز تذكير الجمع . وهى قراءة ابن عبـاس باليـاء . وخفّف أبو عمرو وحمزة والكسائيّ ، على معنى أن التخفيف يكون للقليل والكثير ، والتشديد للتكثير والتكرير مرة بعـد مرة لا غير . والتشديد هنا أولى لأنه على الكثير أدلّ . والجَمَلُ من الإبل . قال الفَرّاء : الجمل زوج الناقة . وكذا قال عبد الله بن مسعود لـما سئل عن الجمل فقال : هو زوج الناقة ؛ كأنه استجهل من سأله عمـا يعرفه الناس جميعا . والجمع

(١) آية ٥٠ سورة ص .

جمال وأجمال وجمالات وجمائل . وإنما يُسَمَّى جملا إذا أربع . وفى قراءة عبد الله « حتى يلج الجمل الأصفر فى سم الخياط » . ذكره أبو بكر الأنبارى حدّثنا أبى حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا حجاج عن ابن جُريج عن ابن كثير عن مجاهد قال فى قراءة عبد الله ... ؛ فذكره . وقرأ ابن عباس « الجُمَّل » بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو حبل السفينة الذى يقال له القَلْس ، وهو حبال مجموعة ، جمع جُملة ؛ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقيل : الحبل الغليظ من القِنَّب . وقيل : الحبل الذى يصعد به فى النخل . وروى عنه أيضا وعن سعيد بن جُبير : « الجُمَل » بضم الجيم وتخفيف الميم هو القلس أيضا والحبل ، على ما ذكر آنفا . وروى عنه أيضا « الجُمُل » بضمتين جمع جَمَل ؛ كأسَد وأُسُد ، والجُمْل مثل أَسَد وأُسْد . وعن أبى السَّمال « الجَمْل » بفتح الجيم وسكون الميم ، تخفيف « جَمَل » . وسَمّ الخياط : ثقب الإبرة ؛ عن ابن عباس وغيره . وكلّ ثقب لطيف فى البدن يُسمَّى سَمًّا وسُمًّا وجمعه سُمُوم . وجمع السّم القاتل سِمَام . وقرأ ابن سِيرين « فى سُمّ » بضم السين . والخياط : ما يخاط به ؛ يقال : خِياط ومِخْيَط ؛ مثل إزار ومئزر وقناع ومِقنعْ . والمِهاد : الفراش . وغَواش جمع غاشية ، أى نيران تغشاهم . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ يعنى الكفار . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾

كلام معترض ، أى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ومعنى ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أى أنه لم يكلف أحدا من نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه ، دون ما لا تناله يده ، ولم يرد إثبات الأستطاعة قبل الفعل ؛ قاله ابن الطيب . نظيره « لا يُكلِّف الله نفسًا إلا ما آتاها »(1) .

(1) آية ٧ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

ذكر الله عز وجل فيما يُنعم به على أهل الجنة نَزْعَ الغِلّ من صدورهم . والنَّزْع : الاستخراج . والغِلّ : الحقد الكامن فى الصدر . والجمع غِلال . أى أذهبنا فى الجنة ما كان فى قلوبهم من الغِل فى الدنيا . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين " . ورُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : « وَنَزَعْنَا مَا فى صُدُورِهم من غِلّ » . وقيل : نزع الغل فى الجنة ألا يحسُد بعضهم بعضا فى تفاضل منازلهم . وقد قيل : إن ذلك يكون عن شراب الجنة ، ولهذا قال : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا »(١) أى يطهر الأوضار من الصدور ؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « الإنسان » و « الزمر »(٢) إن شاء الله تعالى . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾ الثواب ؛ بأن أرشدنا وخلق لنا الهداية . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ قراءة ابن عامر بإسقاط الواو . والباقون بإثباتها . ﴿ لِنَهْتَدِيَ ﴾ لام كَىْ . ﴿ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فى موضع رفع . ﴿ وَنُودُوا ﴾ أصله . نودِيوا « أن » فى موضع نصب مخففة من الثقيلة ؛ أى بأنه تِلْكُمُ الْجَنَّةُ . وقد تكون تفسيرا لما نودوا به ؛ لأن النداء قول ؛ فلا يكون لها موضع . أى قيل لهم : « تلكم الجنة » لأنهم وُعدوا بها فى الدنيا ؛ أى قيل لهم : هذه تلكم الجنة التى وعدتم بها ، أو يقال لهم ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بُعْد . وقيل : « تلكم » بمعنى هذه . ومعنى ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله . كما قال : « ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ »(٣) .

(١) آية ٢١ سورة الإنسان . (٢) فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم ... » آية ٧٣
(٣) آية ٧٠ سورة النساء .

وقال : « فسيدخلهم فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ »[1] . وفى صحيح مسلم : "لن يدخل أحدا منكم عمَلُه الجنة" قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : "ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمة منه وفضل" .
وفى غير الصحيح : ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله فى الجنة والنار منزل ؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ رُفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها ، فقيل لهم : هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله . ثم يقال : يأهل الجنة رِثُوهم بما كنتم تعملون ؛ فتقتسم بين أهل الجنة منازلهم .

قلت : وفى صحيح مسلم : "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه فى النار يهوديًّا أو نصرانيا" . فهذا أيضا ميراث؛ نَعَّم بفضله من شاء وعذّب بعدله من شاء . وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تُنال إلا برحمته ؛ فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته ، ودخلوها برحمته ؛ إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضّل عليهم . وقرئ «أورثتموها » من غير إدغام . وقرئ بإدغام التاء فى الثاء .

قوله تعالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ هذا سؤال تقريع وتعيير . ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا ﴾ مثل «أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ» أى أنه قد وجدنا . وقيل : هو نفس النداء . ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أى نادى وصوّت ؛ يعنى من الملائكة . «بينهم» ظرف ؛ كما تقول : أعلَم وسطهم . وقرأ الأعمش والكسائى « نَعِم» بكسر العين . وتجوز على هذه اللغة بإسكان العين . قال مكّىّ : من قال « نَعِم » بكسر العين أراد أن يفرق بين « نَعَم » التى هى جواب وبين « نعم » التى هى اسم للإبل والبقر والغنم . وقد روى عن عمر إنكار «نَعم» بفتح العين فى الجواب ، وقال : قل

(١) آية ١٧٥ سورة النساء .

نَعِم . وَنَعَم ونَعِم، لغتان بمعنى العِدَة والتصديق . فالعِدة إذا آستفهمت عن موجب نحو قولك أيقوم زيد، فيقول نعم . والتصديق إذا أخبرت عما وقع، تقول : قد كان كذا وكذا، فيقول نعم . فإذا آستفهمت عن منفيّ فالجواب على نحو قولك ألم أكرمك، فتقول بلى . فنعم، لجواب الاستفهام الداخل على الإيجاب كما فى هذه الآية . وبلى، لجواب الآستفهام الداخل على النفى؛ كما قال تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» . وقرأ البَزّى وابن عامر وحمزة والكسائىّ «انّ لعنة الله » وهو الأصل . وقرأ البـاقون بتخفيف « أن » ورفع اللعنة على الابتـداء . فـ « أن » فى موضع نصب على القراءتين على إسقاط الخافض . ويجوز فى المخففة ألا يكون لهـا موضع من الإعراب، وتكون مفسّرة كما تقـدّم . وحكى عن الأعمش أنه قرأ « إنّ لعنة الله » بكسر الهمزة؛ فهذا على إضمار القول كما قرأ الكوفيون « فناداه الملائكة وهو قائمٌ يُصَلِّى فِى المِحْرَابِ إن الله »[(1)] ويُروى أن طاوسا دخل على هشام بن عبـد الملك فقال له : آتق الله وآحذر يوم الأذان . فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعـالى « فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» فصعق هشام . فقال طاوس : هذا ذُلّ الصِّفة فكيف ذُلّ المعاينة .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَصُـدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُـم بِٱلْآخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فى موضع خفض لـ«ـلظالمين» على النعت . ويجوز الرفع والنصب على إضمار هم أو أعنى . أى الذين كانوا يصدون فى الدنيا الناس عن الإسلام . فهو من الصدّ الذى هو المنع . أو يصدون بأنفسهم عن سبيل الله أى يعرضون . وهـذا من الصدود . ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يطلبون اعوجاجها ويذمّونها فلا يؤمنون بها . وقد مضى هذا المعنى[(2)] . ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ أى وكانوا بها كافرين ، فحذف وهـو كثير فى الكلام .

---

(١) آية ٣٩ سورة آل عمران . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أى بين النار والجنة — لأنه جرى ذكرهما — حاجز؛ أى سور . وهو السور الذى ذكره الله فى قوله : «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ»(١) . ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ أى على أعراف السور ؛ وهى شُرَفُه . ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك . روى عبد الله بن أبى يزيد عن ٱبن عباس أنه قال : الأعراف الشىء المُشْرِف . وروى مجاهد عن ٱبن عباس أنه قال : الأعراف سور له عُرْف كعُرْف الدِّيك . والأعراف فى اللغة : المكان المُشْرف ؛ جمع عُرْف . قال يحيى بن آدم : سألت الكسائىّ عن واحد الأعراف فسكت ، فقلت : حدثنا إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ٱبن عباس قال : الأعراف سور له عُرف كعرف الديك . فقال : نعم والله ، واحده يعنى ، وجماعته أعراف ، ياغلام ، هاتِ القرطاس ؛ فكتبه . وهذا الكلام خرج مخرج المدح ؛ كما قال فيه : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ »(٢) . وقد تكلّم العلماء فى أصحاب الأعراف على عشرة أقوال : فقال عبد الله ٱبن مسعود وحُذيفة بن اليمان وٱبن عباس والشعبىّ والضحاك وٱبن جُبير : هم قوم ٱستوت حسناتهم وسيئاتهم . قال ٱبن عطية : وفى مسند خيثمة بن سليمان (فى آخر الجزء الخامس عشر) حديثٌ عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "توضع الموازين يوم القيامة فتُوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقالَ صُؤابة(٣) دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقالَ صُؤابة دخل النار" . قيل : يارسول الله ، فمن ٱستوت حسناته وسيئاته؟ قال : "أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون" . وقال مجاهد هم قوم صالحون فقهاء علماء . وقيل : هم الشهداء ؛ ذكره المَهْدوىّ . وقال القشيرىّ : وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء ، فَرَغوا من شغل أنفسهم ، وتفرّغوا لمطالعة حال الناس ؛ فإذا

---

(١) آية ١٣ سورة الحديد . (٢) آية ٣٧ سورة النور . (٣) الصؤابة : بيضة القملة .

رأوا أصحاب النـار تعوّذوا بالله أن يُردّوا إلى النـار ، فإنّ فى قـدرة الله كلّ شىء ، وخلاف المعلوم مقدور . فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ يرجون لهم دخولهـا . وقال شَرَحْبيل ابن سعد : هم المستشهِدون فى سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم . وذكر الطَّبرِىّ فى ذلك حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه تعادل عقوقهم وآستشهادهم . وذكر الثّعلبىّ بإسناده عن ابن عباس فى قوله عز وجل « وعلى الأعراف رِجَالٌ » قال : الأعراف موضع عالٍ على الصراط ، عليه العباس وحمزة وعلىّ بن أبى طالب وجعفر ذو الجناحين ، رضى الله عنهـم ، يعرفون محبّيهم ببياض الوجوه ومُبْغضيهم بسواد الوجوه . وحكى الزَّهْرَاوِىّ أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم فى كل أمة . وآختار هذا القول النحاس ، وقال : وهو من أحسن ما قيل فيه ؛ فهم على السور بين الجنة والنـار . وقال الزجاج : هم قوم أنبياء . وقيـل : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهـم بالآلام والمصائب فى الدنيا وليست لهم كبائر فيُحبسون عن الجنـة لينالهم بذلك غمّ فيقع فى مقابلة صغائرهم . وتمنّى سالم مولى أبى حُذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف ؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون . وقيل : هم أولاد الزنى ؛ ذكره القُشَيرِىّ عن ابن عباس . وقيـل : هم ملائكة موكَّلون بهذا السور ، يميّزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنـار ؛ ذكره أبو مِجْلَز . فقيل له : لا يقال للملائكة رجال ؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا بإناث ، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم ؛ كما أوقـع على الجنّ فى قوله : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِن الْجِنِّ »(١) . فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفارَ بعلاماتهم ؛ فيبشّرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعـدُ فيطمعون فيهـا . وإذا رأوا أهل النـار دَعَوْا لأنفسهم بالسلامة من العـذاب . قال ابن عطيّة : واللازم من الآية أن على الأعراف رجالا من أهل الجنة يتأخّر دخولُهم ويقع لهم ما وُصف من الآعتبار فى الفريقين . و ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيَاهُمْ ﴾ أى بعلاماتهم ، وهى بياض الوجوه وحسنُها فى أهـل الجنة ، وسوادُها وقبحُها فى أهل النـار ، إلى غير ذلك من معـرفة حَيّز هؤلاء وحَيّز هؤلاء .

(١) آية ٦ سورة الجن .

قلت : فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل ، والله بحقائق الأمور عليم .

ثم قيل : الأعراف جمع عُرْف وهو كل عالٍ مرتفـع ؛ لأنه بظهوره أعرف من المنخفض . قال ٱبن عباس : الأعراف شُرَف الصراط . وقيل : هو جبـل أُحُد يوضـع هناك . قال ابن عطية : وذكر الزَّهْرَاوِيّ حدّثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أُحُدًا جبل يحبنّا ونُحبـه وإنه يوم القيامة يمثّل بين الجنة والنـار يُحبَس عليـه أقوام يعرفون كلًّا بسيماهم هم إن شاء الله من أهل الجنـة" . وذكر حديثا آخر عن صَفْوان بن سليم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن أُحُدًا على ركن من أركان الجنة" .

قلت : وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أُحُد جبل يحبّنا ونحبّه وإنه لعلى تُرْعة من تُرَع الجنة" .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أي نادى أصحابُ الأعراف أصحاب الجنـة . ﴿ أَنْ سَـلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي قالوا لهم سـلام عليكم . وقيل : المعنى سَـلِمتم من العقوبة . ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أي لم يدخل الجنـة أصحابُ الأعراف ، أي لم يدخلوها بعدُ . «وَهُمْ يَطْمَعُونَ» على هذا التأويل بمعنى وهم يعلمون أنهم يدخلونها . وذلك معروف في اللغة أن يكون طَمِـعَ بمعنى عَلِم ؛ ذكره النحاس . وهـذا قول ٱبن مسعود وٱبن عباس وغيرهما ، أن المراد أصحاب الأعراف . وقال أبو مِجْلَز : هم أهل الجنة ، أي قال لهم أصحاب الأعراف سلامٌ عليكم وأهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها للمؤمنين المـارّين على أصحاب الأعراف . والوقف على قوله « سلام عليكم » . وعلى قوله «لم يدخلوها» . ثم يبتدئ « وَهُمْ يَطْمَعُون » على معنى وهم يطمعون في دخولهـا . ويجـوز أن يكون «وهم يطمعون» حالًا ، ويكون المعنى : لم يدخلها المؤمنون المـارّون على أصحاب الأعراف طامعين ، وإنما دخلوها غير طامعين في دخولها ؛ فلا يوقف على «لم يدخلوها» .

قوله تعـالى : وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّـارِ ﴾ أى جهة اللقاء وهى جهة المقابلة . ولم يأت مصدر على تِفعال غير حرفين : تِلقاء وتِبيان . والباقى بالفتح ؛ مثل تَسيار وتَهمام وتَذكار . وأما الاسم بالكسر فيــه فكثير ؛ مثل تِقصار وتِمثال . ﴿ قَالُوا ﴾ أى قال أصحاب الأعراف . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَـا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ سألوا الله ألّا يجعلهم معهم ، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم . فهذا على سبيل التذلّل ؛ كما يقول أهل الجنة : «رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا» [(١)] ويقولون : الحمد لله . على سبيل الشكر لله عز وجل . ولهم فى ذلك لذّة .

قوله تعـالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُـم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُـكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَـكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُـمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَـةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْـكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى من أهل النار . ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى للدنيـا واستكباركم عن الإيمان . ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ﴾ إشارة إلى قــوم من المؤمنين الفقراء ؛ كبلال وسَــلْمان وخَبّاب وغيرهم . ﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ فى الدنيا . ﴿ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ ﴾ فى الآخرة . ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ يوبّخونهم بذلك . وزِيدوا غمًّا وحسرة بأن قالوا لهم ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ . وقرأ عكرمة «دخلوا الجنة» بغير ألف والدال مفتوحة . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «أُدْخِلوا الجنة» بكسر الخاء على أنه فعل ماض .

ودلّت الآية على أن أصحاب الأعراف ملائكة أو أنبياء ؛ فإن قولهم ذلك إخبار عن الله تعالى . ومن جعل أصحاب الأعراف المذنبين كان آخر قولهم لأصحاب النار « وما كنتم تستكبرون » ، ويكون «أهــؤلاء الذين» إلى آخر الآية من قــوله تعالى لأهل النــار توبيخا لهم على ما كان من قولهم فى الدنيا . ورُوِى عن ابن عباس ، والأوّل عن الحسن . وقيل : هو من الملائكة

(١) آية ٨ سورة التحريم .

الموكَّلين بأصحاب الأعراف ؛ فإن أهل النار يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار فتقول الملائكة لأصحاب الأعراف : «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» .

قوله تعالى : وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى ﴾ قيل : إذا صار أهل الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار فقالوا : يا ربَّنا إن لنا قرابات في الجنة فأْذن لنا حتى نراهم ونكلّمهم . وأهل الجنة لا يعرفونهم لسواد وجوههم ، فيقولون : «أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» . فبيّن أن ٱبن آدم لا يستغنى عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب . ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعني طعام الجنة وشرابها . والإفاضة التوسعة ؛ يقال : أفاض عليه نِعَمه .

الثانية — في هذه الآية دليل على أن سقى الماء من أفضل الأعمال . وقد سئل ابن عباس : أيُّ الصدقة أفضل ؟ فقال : الماء، ألم تروْا إلى أهل النار حين ٱستغاثوا بأهل الجنة « أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » . وروى أبو داود أن سعدًا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أيّ الصدقة أعجب إليك ؟ قال : "الماء" . وفي رواية : فحفر بئرا وقال " هذه لأمّ سعد " . وعن أنس قال قال سعد : يارسول الله ، إن أمّ سعد كانت تحبّ الصدقة، أفينفعها أن أتصدّق عنها؟ قال : "نعم وعليك بالماء" . وفي رواية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن عُبادة أن يسقى عنها الماء . فدلّ على أن سَقْىَ الماء من أعظم القُرُبات عند الله تعالى . وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه فعليه بسقى الماء . وقد غفر الله ذنوب الذى سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلا مؤمنا مُوَحّدا وأحياه . روى

البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينا رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا كلب يأكل الثَّرَى من العطش فقال لقد بلغ هـذا الكلبَ مثـلُ الذى بلغ بى فملأ خُفّه ثم أمسكه بفيه ثم رَقِيَ فسقى الكلبَ فشكر اللهُ له فغفر له"(١). قالوا: يارسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجرا؟ قال: "فى كل ذات كبد رَطْبة أجرٌ". وعكس هـذا ما روى مسلم عن عبـد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عُذّبت امرأة فى هِرّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش(٢) الأرض". وفى حديث عائشـة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "ومَن سَقَى مسلما شَرْبة من ماء حيث يوجد المـاء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلما شربة من ماء حيث لايوجد المـاءفكأنما أحياها". خرّجه ابن ماجه فى السُّنَن.

الثالثـة — وقد استدلّ بهذه الاية من قال: إن صاحب الحوض والقِرْبة أحقّ بمائه، وأن له منعه ممن أراده؛ لأن معنى قول أهل الجنة « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » لا حقّ لكم فيها. وقد بوّب البخاريّ رحمه الله على هذا المعنى (باب من رأى أن صاحب الحوض والقِرْبة أحق بمـائه) وأدخل فى الباب عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال: "والذى نفسى بيـده لأذودنّ رجالا عن حوضى كما تُذاد الغريبة من الإبل عن الحوض". قال المُهَلّب: لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمـائه، لقوله عليه السلام: "لأذودَنّ رجالا عن حوضى".

قوله تعـالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

« الذين » فى موضع خفض نعت للكافرين. وقـد يكون رفعا ونصبا بإضمار. قيل: هو من قول أهل الجـنة. ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ أى نتركهم فى النار. ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ

(١) أى أثنى عليه، أو قبل عمله ذلك، أو أظهر ما جازاه به عند ملائكته. (عن شرح القسطلانى).
(٢) خشاش الأرض (مثلثة الخاء): هوامها وحشراتها.

هَذَا ﴾ أي تركوا العمل به وكذّبوا به . و « ما » مصدرية ، أي كنسيهم . ﴿ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ عطف عليه ، أي وجحدهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ ﴾ يعني القرآن . ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ أي بيّناه حتى يعرفه من تدبره . وقيل : «فَصَّلْنَاهُ» أنزلناه متفرقا . ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ منّا به ، لم يقع فيه سهو ولا غلط . ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ قال الزجاج : أي هاديا وذا رحمة ، فجعله حالا من الهاء التي في «فصلناه» . قال الزجاج : ويجوز هدًى ورحمةٌ ، بمعنى هو هدى ورحمة . وقيل : يجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على البدل من كتاب . وقال الكسائي والفراء : ويجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على النعت لكتاب . قال الفراء : مثل « وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاه مُبَارَكٌ »[1] . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خُصّ المؤمنون لأنهم المنتفعون به .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ بالهمز ، من آل . وأهل المدينة يخفّفون الهمزة . والنظر : الانتظار ، أي هل ينتظرون إلا ما وُعدوا به في القرآن من العقاب والحساب . وقيل : «ينظرون» من النظر إلى يوم القيامة . فالكناية في « تأويله » ترجع إلى الكتاب . وعاقبة الكتاب ما وعد الله فيه من البعث والحساب . وقال مجاهد : «تأويله»

(١) آية ٩٢ سورة الأنعام .

جزاؤه ، أى جزاء تكذيبهم بالكتاب . قال قتَـادة : « تأويله » عاقبته . والمعنى متقارب . ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أى تبدو عواقبـه يوم القيامة . و « يوم » منصوب بيقول، أى يقول الذين نَسُوه من قبل يوم يأتى تأويله . ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَـا مِنْ شُفَعَاءَ ﴾ استفهام فيـه معنى التمنى . ﴿ فَيَشْفَعُوا ﴾ نصب لأنه جواب الاستفهام . ﴿ لَنَـا أَوْ نُرَدُّ ﴾ قال الفرّاء : المعنى أو هـل نردّ . ﴿ فَنَعْمَـلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَـلُ ﴾ قال الزجاج : نردّ عطف على المعنى، أى هل يشفع لنا أحد أو نرد . وقرأ ابن إسحاق « أو نردَّ فنعملَ » بالنصب فيهما . والمعنى إلا أن نردّ، كما قال :

فقلتُ له لاتَبْكِ عينُك إنما * نحاول مُلْكًا أو نموت فنُعْذَرَا

وقرأ الحسن « أو نردُّ فنعملُ » برفعهما جميعا . ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى فلم ينتفعوا بهـا ، وكل من لم ينتفع بنفسه فقد خسرها . وقيل : خسروا النِّعَم وحظّ أنفسهم منها . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى بطل ما كانوا يقولون من أنّ مع الله إلهاً آخر .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ بيّن أنه المنفرد بقدرة الإيجاد ، فهو الذى يجب أن يُعبد . وأصل « سـتّة » سدسة ، فأرادوا إدغام الدال فى السين فالتقيا عنـد مخرج التـاء فغلبت عليها . وإن شئت قلت : أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم فى الدال ؛ لأنك تقول فى تصغيرها : سديسة ، وفى الجمع أسداس ، والجمع والتصغير يردّان الأسماء إلى أصولها . ويقولون : جاء فلان سادسا وسادتا وساتّا ؛ فمن قال : سادتا أبدل من السين تاء . واليوم : من طلوع الشمس إلى غروبهـا . فإن لم يكن شمس

فلا يوم؛ قاله القُشَيرِيّ . وقال : ومعنى « فى ستة أيام » أى من أيام الآخرة، كلّ يوم ألف سنة ؛ لتفخيم خلق السموات والأرض . وقيل : من أيام الدنيا . قال مجاهد وغيره : أولها الأحد وآخرها الجمعة . وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها فى لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كونى فتكون . ولكنه أراد أن يعلّم العباد الرفق والتثبّت فى الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئا بعد شيء . وهذا عند من يقول : خلق الملائكة قبل خلق السموات والأرض. وحكمة أخرى — خلقها فى ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا . وبيّن بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب لأن لكل شيء عنده أجلا . وهذا كقوله : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ. فَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ »[1] . بعد أن قال: « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا » .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ هذه مسألة الاستواء؛ وللعلماء فيها كلام وإجراء. وقد بيّنا أقوال العلماء فيها فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى) وذكرنا فيها هنالك أربعة عشر قولا . والأكثر من المتقدمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه البارى سبحانه عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهُه تبارك وتعالى عن الجهة ، فليس بجهة فوق عندهم ؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون فى مكان أو حيّز، ويلزم على المكان والحيّز الحركةُ والسكونُ للتحيّز، والتغيّرُ والحدوث . هذا قول المتكلمين . وقد كان السلف الأوّل رضى الله عنهم لا يقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله . ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة . وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته . قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم — يعنى فى اللغة — والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة . وكذا قالت أم سلمة رضى الله عنها . وهذا القدر كافٍ، ومن أراد

---

(١) آية ٣٨ سورة ق .

زيادة عليه فليقف عليه فى موضعه من كتب العلمــاء . والاستواء فى كلام العــرب هو العُلُوّ والاستقرار . قال الجوهرىّ : واستوى من اعوجاج ، واستوى على ظهر دابته؛ أى استقر. واستوى إلى السماء أى قصد . واستوى أى استولى وظهر . قال :

قد آستَوَى بِشْرٌ على العِراق * من غير سَـيْف ودَمٍ مُهْرَاق

واستوى الرجل أى آنتهى شبابه . واســتوى الشيء إذا اعتــدل . وحكى أبو عمــر بن عبــد البر عن أبى عبيدة فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش اســتوى » قال : علا . وقال الشــاعر :

فأوردتهــم ماء بَفْيفَاء قَفْـــرَةٍ * وقد حلّق النجم اليمانِىّ فاستَوَى

أى علا وارتفع .

قلت : فعُلُوّ الله تعالى وآرتفاعه عبارةٌ عن عُلُوّ مجــده وصفاته وملكوته . أى ليس فوقه فيما يجب له من معانى الجــلال أحد ، ولا معــه من يكون العُــلُوّ مشتركا بينه و بينه؛ لكنه العلىّ بالإطلاق سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ لفظ مشترك يُطلق على أكثر من واحد . قال الجوهرى وغيره : العرش سرير الملك . وفى التنزيل «نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا»[1] ، «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ»[2] . والعرش : سقف البيت . وعَرْش القَــدَم : ما نتأ فى ظهرها وفيــه الأصابع . وعرش السِّماك : أربعة كواكب صغار أسفل من العَوّاء[3] ، يقال : إنها عَجُز الأسد . وعَرْش البئر : طَيّها بالخشب ، بعد أن يُطْوَى أسفلها بالحجارة قدر قامة؛ فذلك الخشب هو العرش ، والجمع عروش . والعَرْش اسم لمَـكّة . والعَــرْش المُلْك والسُّــلْطان . يقال : ثُلّ عرش فــلان إذا ذهب ملكه وسلطانه وعِزّه . قال زُهير :

تدارَكتما عَبْسًا وقــد ثُلّ عَرْشُها * وذُبْيانَ إذ ذَلّت بأقدامها النّعلُ

(١) آية ٤٠ سورة النمل . (٢) آية ١٠٠ سورة يوسف . (٣) العواء : خمسة كواكب على خط معقف الطرف . وقال ابن ســيده : العواء منزل من منازل القمر ، يمــد ويقصر ، والألف فى آخره للتأنيث .

وقد يُؤَوّل العرش فى الآية بمعنى المُلْك ، أى ما آستوى المُلْك إلّا له جلّ وعز . وهو قول حَسَن وفيه نظر، وقد بيّناه فى جملة الأقوال فى كتابنا، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ أى يجعله كالغِشاء ، أى يُذهب نور النهار ليتمّ قوام الحياة فى الدنيا بمجىء الليل . فالليل للسكون ، والنهار للعاش . وقرئ « يغشى » بالتشديد؛ ومثله فى « الرعد »(١) . وهى قراءة أبى بكر عن عاصم وحمزة والكسائىّ . وخفّف الباقون . وهما لغتان أغشى وغَشّى . وقد أجمعوا على « فغَشّاها ماغَشّى »(٢) مشددا . وأجمعوا على «فأغْشَيْناهم»(٣) فالقراءتان متساويتان . وفى التشديد معنى التكرير والتكثير . والتغشِية والإغشاء : إلباسُ الشيء الشيء . ولم يذكر فى هذه الآية دخول النهار على الليل، فآكتفى بأحدهما عن الآخر؛ مثل « سَرَابِيلَ تَقِيكُم الحَرّ »(٤) . «بِيَدِكَ الخَيْرُ»(٥) . وقرأ حُميد بن قيس «يَغْشَى الليلَ النهارُ » ومعناه أن النهار يغشى الليل . ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أى يطلبه دائما من غير فتور . و « يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ » فى موضع نصب على الحال . والتقدير : آستوى على العرش مُغشيا الليل النهار . وكذا « يطلبه حثيثا » حال من الليل؛ أى يُغشى الليل النهار طالبا له . ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ليست بحال . « حَثِيثا » بدل من طالب المقدّر أو نعت له ، أو نعت لمصدر محذوف ؛ أى يطلبه طلبا سريعا . والحثّ : الإعجال والسرعة . ووَلّى حَثِيثا أى مسرعا . ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ قال الأخفش : هى معطوفة على السموات؛ أى وخلق الشمس . ورُوى عن عبد الله بن عامر بالرفع فيها كلها على الابتداء والخبر .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — صدق الله فى خبره، فله الخلق وله الأمر، خلقهم وأمرهم بما أحبّ . وهذا الأمر يقتضى النّهى . قال ابن عُيينة : فَرّق بين الخلق والأمر ؛ فمن جمع بينهما فقد كفر .

---

(١) فى قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » آية ٣ .
(٢) آية ٥٤ سورة النجم .
(٣) آية ٩ سورة يس .
(٤) آية ٨١ سورة النحل .
(٥) آية ٢٦ سورة آل عمران .

فالخلق المخلوق . والأمر كلامُـه الذى هو غير مخلوق وهـو قوله : « كن » . « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »(١) . وفى تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القرآن ؛ إذ لو كان كلامه الذى هـو أمر مخلوقا لكان قـد قال : ألاَلهُ الخلق والخلق . وذلك عِيّ من الكلام ومستهجَن ومُسْتَغَث. والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه . ويدلّ عليـه قوله سبحانه : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُـومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ »(٢) . « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ »(٣) . فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره ؛ فلو كان الأمر مخلوقا لافتقر إلى أمر آخر يقوم به ، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى مالا نهاية له . وذلك محال . فثبت أن أمره الذى هو كلامه قديم أزلىّ غير مخلوق ؛ ليصح قيام المخلوقات به . ويدل عليه أيضا قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »(٤) . وأخبر تعالى أنه خلقهما بالحق ، يعنى القول وهو قوله للمكونات « كن » . فلو كان الحق مخلوقا لمـا صح أن يخلق به المخلوقات ؛ لأن الخلق لايخلق بالمخلوق . يدلّ عليه «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ»(٥) . « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ»(٦) . «وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى»(٧) . وهذا كله إشارة إلى السبق فى القول فى القِدم ، وذلك يوجب الأزل فى الوجود . وهذه النكتة كافية فى الرّد عليهم . ولهم آيات احتجوا بها على مذهبهم مثل قوله تعالى : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ»(٨) الآية . ومثل قوله تعالى : «وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا»(٩) . و «مفعولا»(١٠) وما كان مثله . قال القاضى أبو بكر : معنى « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ » أى من وعظ النبىّ صلى الله عليه وسـلم ووعِدٍ وتخويف «إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ» ؛ لأن وعظ الرسل عليهم السلام وتحذيرهم ذِكر . قال الله تعالى : «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ»(١١) . ويقال . فلان فى مجلس الذِّكر . ومعنى « وكان أمر الله قَدَرًا مَقْدُورا » و «مفعولا » : أراد سبحانه عقابه وانتقامه من الكافرين،

(١) آية ٨٢ سـورة يس . (٢) آية ٢٥ سورة الروم . (٣) آية ١٢ سورة النحل .
(٤) آية ٨٥ سورة الحجر . (٥) آية ١٧١ سورة الصافات . (٦) آية ١٠١ سـورة الأنبياء
(٧) آية ١٣ سورة السجدة . (٨) آية ٢ سـورة الأنبياء . (٩) آية ٣٨ سورة الأحزاب .
(١٠) آية ٤٧ سورة النساء . (١١) آية ٢١ سورة الغاشية .

ونصره للؤمنين وما حكم به وقدره من أفعاله . ومن ذلك قوله تعالى : «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا»(١) وقال عز وجل : «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ»(٢) يعنى به شأنه وأفعاله وطرائقه . قال الشاعر :

لها أَمْرُها حتى إذا ما تبوأت * بأخفافها مَرْعًى تبوّأ مضجعا

الثانيــة — و إذا تقرر هذا فاعلم أن الأمر ليس من الإرادة فى شيء . والمعتزلة تقول : الأمر نفس الإرادة . وليس بصحيح، بل يأمر بما لا يريد و ينهى عما يريد . ألا ترى أنه أمر إبراهيمَ بذبح ولده ولم يرده منه، وأمر نبيه أن يصلّىَ مع أُمته خمسين صلاة ، ولم يرد منه إلا خمسَ صلوات . وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول : «وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ»(٣) . وقد نهى الكفار عن قتله ولم يأمرهم به . وهذا صحيح نفيس فى بابه؛ فتأمله .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ «تبارك» تفاعل، من البركة وهى الكثرة والاتساع . يقال : بُورك الشيءُ وبُورك فيه؛ قاله ابن عرفة . وقال الأزهرىّ : «تبارك» تعالى وتعاظم وارتفع . وقيل : إن باسمه يُتَبَرَّك و يُتَيَمَّن . وقد مضى فى الفاتحة معنى «رب العالمين»(٤) .

قوله تعالى : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ ﴾ هذا أمر بالدعاء وتعبُّد به . ثم قَرَن جل وعز بالأمر صفاتٍ تحسُن معه . وهى الخشوع والاستكانة والتضرع . ومعنى «خفية» أى سِرًّا فى النَّفْس ليبعد عن الرياء؛ وبذلك أثنى على نبيّه زكريّا عليه السلام إذ قال مخبرا عنه : «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا»(٥) . ونحوه قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم : "خيرُ الذكر الخفىُّ وخيرُ الرزق ما يكفِي". والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرا من الجهر.

(١) آية ٤٠ سورة هود . (٢) آية ٩٧ سورة هود .
(٣) آية ١٤٠ سورة آل عمران . (٤) راجع ج ١ ص ١٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٥) آية ٣ سورة مريم .

وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة»(١) . قال الحسن بن أبى الحسن : لقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرًّا فيكون جهرًا أبدا . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . وذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» . وقد ٱستدل أصحاب أبى حنيفة بهذا على أن إخفاء «آمين» أَوْلَى من الجهر بها ؛ لأنه دعاء . وقد مضى القول فيه فى «الفاتحة»(٢) . وروى مسلم عن أبى موسى قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى سفر — وفى رواية فى غَزاة — فجعل الناس يجهرون بالتكبير — وفى رواية فجعل رجل كلّما علا ثَنِيّة قال: لا إله إلا الله — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيها الناس ٱرْبَعُوا(٣) على أنفسكم إنكم لستم تَدْعُون أصمّ ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم" . الحديث .

الثانيــة — وٱختلف العلماء فى رفع اليدين فى الدعاء؛ فكرهه طائفة منهم جُبير بن مُطْعِم وسعيد بن المسيِّب وسعيد بن جُبير . ورأى شُرَيح رجلا رافعا يديه فقال: من تُتناول بهما، لا أمّ لك ! وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم : قطعها الله . واختاروا إذا دعا الله فى حاجة أن يشير بأصبعه السبابة . ويقولون : ذلك الإخلاص . وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه . وكره رفع الأيدى عطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم . ورُوى جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين، ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره البُخارِىّ . قال أبو موسى الأشعرىّ . دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه. ومثلُه عن أنس. وقال ابن عمر: رفع النبيّ صلى الله عليه وسلم يديه وقال: "اللَّهُمّ إنى أبرأ إليك مما صنع خالد(٤)" . وفى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ١٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) أى ارفقوا بها ولا تبالغوا فى الجهد . (٤) هو خالد بن الوليد ، بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى جذيمة داعيا الى الاسلام؛ فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعل خالد يقتل منهم و يأسر . فنقم النبى صلى الله عليه وسلم على خالد استعجاله فى شأنهم وترك التثبت فى أمرهم . راجع كتاب المغازى فى صحيح البخارى .

عليه وسلم إلى المشركين . وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر رجلا ، فاستقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة مادًّا يديه ، فجعل يهتف بربه ؛ وذكر الحديث . وروى الترمذيّ عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه . قال : هذا حديث صحيح غريب . وروى ابن ماجه عن سَلمان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن ربكم حيّ كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردّهما صَفْرًا [أو قال][1] خائبتين " .
احتج الأوّلون بما رواه مسلم عن عمارة بن رُوَيبة ورأى بشر بن مروان على المنبر رافعا يديه فقال : قبّح الله هاتين اليدين ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على أن يقول بيده هكذا ؛ وأشار بأصبعه المسبِّحة . وبما روى سعيد بن أبي عَروبة عن قَتادة أن أنس ابن مالك حدّثه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء فإنه كان يرفعهما حتى يُرَى بياضُ إبطيه . والأوّل أصح طُرُقا وأثبت من حديث سعيد بن أبي عَروبة ؛ فإن سعيدا كان قد تغيّر عقله في آخر عمره . وقد خالفه شعبة في روايته عن قَتادة عن أنس فقال فيه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه . وقد قيل : إنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عندذلك جميل حسَن ؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء ويوم بدر .

قلت : والدعاء حَسَن كيفما تيسّر ، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل ، والتذلل له والخضوع . فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن ، وإن شاء فلا ؛ فقد فعل ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم حسبما ورد في الأحاديث . وقد قال تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . ولم يرد صفةٌ من رفع يدين وغيرها . وقال « ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا »[2] فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذُكر . وقد دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة .

---

(١) الزيادة عن سنن ابن ماجه .		(٢) آية ١٩١ سورة آل عمران .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّه لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يريد فى الدعاء و إن كان اللفظ عاما [إلى هـذا هى الإشارة](١) . والمعتدى هو المجاوز للحدّ والمرتكب الحَظْر . وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه . ورُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون قوم يعتدون فى الدعاء " . أخرجه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة . حدّثنا عفّان حدّثنا حماد بن سلمة أخبرنا سعيد الجُرَيْرِىّ عن أبى نعامة أن عبد الله بن مُغَفَّل سمع ابنه يقول : اللَّهُمَّ إنى أسألك القَصْرَ الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها . فقال : أىْ بُنَىّ ، سَلِ الله الجنة وعُذْ به من النار؛ فإنى سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : " سيكون قوم يعتدون فى الدعاء " . والاعتداء فى الدعاء على وجوه : منهـا الجهر الكثير والصياح ؛ كما تقدم . ومنهـا أن يَدْعُوَ الإنسان فى أن تكون له منزلة نبىّ ، أو يدعُوَ فى محال ؛ ونحو هـذا من الشَّطَط . ومنها أن يدعُوَ طالبا معصيةً وغير ذلك . ومنها أن يدعُوَ بمـا ليس فى الكتاب والسنّة ؛ فيتخيّر ألفاظا مفقرة وكلمات مسجّعة قد وجدها فى كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها ، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله . وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء ؛ كما تقدم فى « البقرة »(٢) بيانه .

قوله تعـالى : وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ فيه مسألة واحدة — وهو أنه سبحانه نَهَى عن كل فساد قلّ أو كثُر بعد صلاحٍ قلّ أو كثُر . فهو على العموم على الصحيح من الأقوال . وقال الضحّاك : معنـاه لا تعوّروا(٣) المـاء المَعِين ، ولا تقطعوا الشجر المُثْمِر ضِرارًا . وقد ورَد : قطعُ الدنانير من الفساد فى الأرض . وقد قيل : تجارة الحُكّام من الفساد فى الأرض . وقال القُشيرِىّ : المراد ولا تشركوا ؛ فهو نهى عن الشرك وسفك الدماء والهَرْج فى الأرض . وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها ، بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسل ، وتقدير

(١) ما بين المربعات هكذا ورد فى نسخ الأصل ، ولعله زيادة من الناسخ .

(٢) راجع ج ٢ ص ٣٠٨ طبعة ثانية .

(٣) عوّرت عيون المياه : اذا دفنتها وسددتها .

الشرائع ووضوح ملة محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك فليس على عمومه ، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن ، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد عوّر ماء قَلِيب(١) بَدْر وقطع شجر الكافرين . وسيأتي الكلام في قطع الدنانير في « هود »(٢) إن شاء الله تعالى .

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقّب وتخوّف وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته ، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، قال الله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ »(٣) . فرجّى وخوّف. فيدعو الإنسان خوفا من عقابه وطمعا في ثوابه؛ قال الله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا »(٤) . وسيأتي القول فيه . والخوف : الانزعاج لما لا يؤمَن من المضار . والطمع : توقّع المحبوب؛ قاله القشيري . وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طولَ الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يموتنّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله " . صحيح أخرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ولم يقل قريبة . فيه سبعة أوجه : أولها أن الرّحمة والرُّحْم واحد ، وهي بمعنى العفو والغفران ؛ قاله الزجاج واختاره النحاس . وقال النَّضر بن شُمَيل : الرحمة مصدر، وحقّ المصدر التذكير؛ كقوله : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ »(٥) . وهذا قريب من قول الزجاج ؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ . وقيل : أراد بالرحمة الإحسان ،

(١) القليب (بفتح القاف) : البئر العاديّة القديمة التي لا يعلم لها رب ولا حافر ، تكون في البراري .

(٢) في قوله تعالى : « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ... » آية ٨٨

(٣) آية ٤٩ سورة الحجر . (٤) آية ٩٠ سورة الأنبياء . (٥) آية ٢٧٥ سورة البقرة .

ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقيًّا جاز تذكيره؛ ذكره الجوهريّ . وقيـل : أراد بالرحمة هنا المطر؛ قاله الأخفش . قال : ويجوز أن يذكّر كما يذكّر بعض المؤنث . وأنشد :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقتْ وَدْقها * ولا أرْضَ أَبْقَل إبقالهـا (١)

وقال أبو عبيدة : ذكّر « قريب » على تذكير المكان، أى مكانا قريبا . قال عليّ بن سليمان : وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان « قريب » منصوبا فى القرآن؛ كما تقول : إن زيدا قريبا منك . وقيل : ذكّر على النسب؛ كأنه قال : إن رحمـة الله ذات قُرْب؛ كما تقول : امرأة طالق وحائض . وقال الفـرّاء : إذا كان القريب فى معنى المسافة يذكّر ويؤنّث، وإن كان فى معنى النسب يؤنّث بلا ٱختلاف بينهـم . تقول : هـذه المرأة قريبتى ، أى ذات قرابتى؛ ذكره الجوهرى . وذكر غيره عن الفرّاء: يقال فى النسب قريبة فلان، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث؛ يقال : دارُك منا قريب، وفلانة منا قريب؛ قال الله تعالى: « وما يُدرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٢) » . وقال من ٱحتج له : كذا كلام العرب؛ كما قال امرؤ القيس :

له الوَيْلُ إنْ أمسى ولا أمُّ هاشم * قريبٌ ولا البَسْبَاسَةُ ٱبنةُ يَشْكُرَا

قال الزجاج : هذا خطأ؛ لأن سبيل المذكّر والمؤنث أن يجريا على أفعالها .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ عطف على قوله «يغشى اللَّيْلَ النَّهَار» . ذكر شيئا آخر من نعمه، ودلّ على وحدانيته وثبوت إلٰهيّته . وقد مضى الكلام

(١) البيت لعامر بن جوين الطائى . وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بها من الغيث . والودق : المطر . والمزنة : السحابة . (عن شرح الشواهد) . (٢) آية ٦٣ سورة الأحزاب .

فى الريح فى « البقرة » (١) . ورياح جمع كثرة ، وأرواح جمع قِلّة . وأصل ريح رِوْح . وقد خُطِّئ من قال فى جمع القلة أرياح . ﴿ بُشْرًا ﴾ فيه سبع قراءات : قرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو « نُشُرًا » بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب ، أى ذات نشر؛ فهو مثل شاهد وشُهُد . ويجوز أن يكون جمع نَشُور كرسول ورُسُل . يقال : ريح النشور إذا أتت من هاهنا وهاهنا . والنَّشُور بمعنى المنشور ؛ كالركوب بمعنى المركوب . أى وهو الذى يرسل الرياح منشرة . وقرأ الحسن وقَتادة « نُشْرا » بضم النون وإسكان الشين مخفّفًا من نُشُر ؛ كما يقال : كُتْب ورُسْل . وقرأ الأعمش وحمزة « نَشْرًا » بفتح النون وإسكان الشين على المصدر ، أعمل فيه معنى ما قبله ؛ كأنه قال : وهو الذى ينشر الرياح نشْرا . نشرت الشىء فآنتشر ، فكأنها كانت مطوِيّة فتُنشر عند الهبوب . ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال من الرياح ؛ كأنه قال يرسل الرياح مُنْشِرة ، أى مُحيية؛ من أنشر الله الميت فنشَر، كما تقول : أتانا ركضا ، أى راكضا . وقد قيل : إن نَشرا (بالفتح) من النَّشْر الذى هو خلاف الطّىّ على ما ذكرنا . كأن الريح فى سكونها كالمطوية ثم تُرسل من طَيّها ذلك فتصير كالمنفتحة . وقد فسّره أبو عبيد بمعنى متفرقة فى وجوهها ، على معنى ينشرها هاهنا وهاهنا . وقرأ عاصم « بشْرا » بالباء وإسكان الشين والتنوين جمع بشير ، أى الرياح تبشّر بالمطر . وشاهده قوله : « ومِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ » (٢) . وأصل الشين الضم ، لكن سكنت تخفيفا كرُسُل ورُسْل . وروى عنه « بَشرا » بفتح الباء . قال النحاس : ويقرأ « بُشُرًا » و « بَشْرًا » مصدر بشَره يبشره بمعنى بشّره . فهذه خمس قراءات . وقرأ محمد اليَمانِىّ « بُشْرَى » على وزن حُبْلَى . وقراءة سابعة « بُشُرَى » بضم الباء والشين .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ السحاب يذكّر ويؤنّث . وكذا كل جمع بينه وبين واحدته هاء . ويجوز نعته بواحد فتقول : سحاب ثقيل وثقيلة . والمعنى : حملت الريح سحابا ثقالا بالماء ، أى أثقلت بحمله . يقال : أقلّ فلان الشىء أى حمله . ﴿ سُقْنَاهُ ﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ طبعة ثانية .	(٢) آية ٤٦ سورة الروم .

أى السحاب . ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ أى ليس فيه نبات . يقال : سُقْته لبـلد كذا وإلى بلد كذا . وقيـل : لأجل بلد ميت؛ فاللام لام أَجْل . والبـلد كل موضـع من الأرض عامر أو غير عامر خالٍ أو مسكون . والبلدة والبـلد واحد البلاد والبُـلدان . والبَلَد الأثر وجمعه أبلاد . قال الشاعر :

* من بعـد ما شَمِل البِـلَى أبلادَها[1] *

والبـلد : أُدْحِيّ[2] النَّعام . يقال : هو أذلّ من بَيْضة البلد ، أى من بيضة النعام التى يتركها . والبلدة الأرض؛ يقال : هذه بلدتنا كما يقال بَحْرَتنا . والبلدة من منازل القمر ، وهى ستة أنجم من القوس تنزلها الشمس فى أقصر يوم فى السنة . والبلدة الصَّدر؛ يقال : فلان واسع البلدة أى واسع الصدر . قال الشاعر :

أُنيخت فألقتْ بلدةً فَـوقَ[3] بلدة * قليلٍ بها الأصـوات إلا بُغامُها

يقول : بركت الناقة فألقت صدرها على الأرض . والبـلدة (بفتح الباء وضمها) : نقاوة ما بين الحاجبين ؛ فهما من الألفاظ المشـتركة . ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَـاءَ ﴾ أى بالبـلد . وقيل : أنزلنا بالسحاب المـاء ؛ لأن السحاب آلة لإنزال المـاء . ويحتمل أن يكون المعنى فأنزلنا منه المـاء ؛ كقوله : « يَشْرَبُ بِها عِبَادُ اللهِ[4] » أى منهـا . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الكاف فى موضع نصب . أى مثل ذلك الإخراج يحيي الموتى. وخرّج البَيْهَقِيّ وغيره عن أبى رَزِين العقيلى قال : قلت يارسول الله ، كيف يعيد الله الخلق ، وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : " أمَا مَررتَ بوَادِى قومك جَدْبًا ثم مررتَ به يهتز خَضِرا " قال نعم ، قال : " فتلك آية الله فى خلقه " . وقيـل : وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم ، فتنشقّ عنهم القبور ، ثم تعود إليهم الأرواح . وفى صحيح

---

(١) هذا عجز بيت لابن الرقاع . وصدره : * عرف الديار توهما فاعتادها * (٢) الأدحى (بضم الهمزة وكسرها) : مبيض النعام فى الرمل ؛ لأن النعام تبيض فيه وليس للنعام عش . (٣) فى الأصول : «بعد» . والتصويب عن اللسان وديوان ذى الرمة . أراد بالبـلدة الأولى ما يقع على الأرض من صـدرها . وبالثانية الفلاة التى أناخ ناقته فيها . والبغام : صوت الناقة . وأصله للظبي فاستعاره للناقة . (٤) آية ٦ سورة الإنسان .

مسلم من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم "ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلُّ فتنبت منه أجساد الناس ثم يقال يأيها الناس هلُمُّوا إلى ربّكم وقِفوهم إنهم مسئولون". وذكر الحديث. وقد ذكرناه بكماله فى كتاب (التّذكرة) والحمد لله. فدلّ على البعث والنشور؛ وإلى الله ترجع الأمور.

قوله تعالى : وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُه بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذى خَبُثَ لَا يَخْرج إِلَّا نَكِدًا ﴾ أى التُّربة الطيبة. والخبيث الذى فى تربته حجارة أو شَوْك؛ عن الحسن. وقيل: معناه التشبيه، شبّه تعالى السريعَ الفهم بالبلد الطيب، والبليدَ بالذى خَبُث؛ عن النحاس. وقيل: هذا مثلٌ للقلوب؛ فقَلْب يقبل الوعظ والذّكرى، وقلب فاسق ينْبُو عن ذلك؛ قاله الحسن أيضا. وقال قتادة: مثلُ المؤمن يعمل محتسبا متطوّعا والمنافق غير محتسب؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مِرْمَاتَيْن(1) حَسَنَتين لشهد العشاء". ﴿ نَكِدًا ﴾ نصب على الحال. وهو العَسِر الممتنع من إعطاء الخير. وهذا تمثيل. قال مجاهد: يعنى أن فى بنى آدم الطيّب والخبيث. وقرأ طلحة «إلّا نَكْدا» حذف الكسرة لثقلها. وقرأ ابن القَعْقَاع «نَكَدا» بفتح الكاف، فهو مصدر بمعنى ذا نكد. كما قال:

* فإنما هى إقبال وإدبار *

وقيل: «نَكَدا» بنصب الكاف وخفضها بمعنًى؛ كالدّنَف والدّنِف، لغتان. ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أى كما صرّفنا من الآيات، وهى الحجج والدّلالات، فى إبطال الشرك؛ كذلك نصرف الايات فى كل ما يحتاج إليه الناس. ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ وخصّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك.

(1) المرماة (بكسر الميم وفتحها): ظلف الشاة. وقيل ما بين ظلفيها.

قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا اللهَ ﴾ لما بيّن أنه الخالق القادر على الكمال ذكر أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار . واللام في « لقد » للتأكيد المنبّه على القسم . والفاء دالّة على أن الثاني بعد الأوّل . ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ نداء مضاف . ويجوز « يا قومي » على الأصل . ونوحٌ أوّل الرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات . قال النحاس : وانصرف لأنه على ثلاثة أحرف . وقد يجوز أن يُشتقّ من ناح ينوح ؛ وقد تقدّم في « آل عمران »(١) هذا المعنى وغيره فأغنى عن إعادته . قال ابن العربيّ : ومن قال إن إدريس كان قبله من المؤرّخين فقد وَهِم . والدليل على صحة وهمه الحديث الصحيح في الإسراء حين لقي النبيّ صلى الله عليه وسلم آدم وإدريس فقال له آدم : "مَرْحَبًا بالنبيّ الصالح" . وقال له إدريس : "مَرْحَبًا بالنبيّ الصالح والأخ الصالح" . فلو كان إدريس أبًا لنوح لقال مرحبا بالنبيّ الصالح والابن الصالح . فلما قال له والأخ الصالح دلّ على أنه يجتمع معه في نوح، صلواتُ الله عليهم أجمعين . ولا كلام لمنصف بعد هذا . قال القاضي عِياض : وجاء جواب الآباء هاهنا كنوح وإبراهيم وآدم "مرحبا بالابن الصالح" . وقال عن إدريس "بالأخ الصالح" كما ذُكر عن موسى وعيسى ويوسف وهارون ويحيى ممن ليس بأب باتفاق للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال المازَرِيّ : قد ذكر المؤرّخون أن إدريس جدّ نوح عليهما السلام . فإن قام الدليل على أن إدريس بُعث أيضا لم يصح قول النسّابين أنه قبل نوح ؛ لما أخبر عليه السلام من قول آدم أن نوحا أوّل رسول بُعث، وإن لم يقم دليل جازما قالوا، وصح أن يحمل أن إدريس كان نبيّا غير مرسل . قال القاضي عِياض : قد يجمع بين هذا بأن يقال : اختصّ بعث نوح لأهل الأرض — كما قال في الحديث — كافّةً كنبيّنا عليه السلام . ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم . وقد استدل

(١) راجع ج ٤ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

بعضهم على هذا بقوله تعالى: « و إنَّ إِلْيَاسَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ »[1]. وقد قيل : إن إلياس هو إدريس . وقد قرئ « سَلَامٌ على إِدْرَاسِينَ »[2] . قال القاضي عياض : وقد رأيت أبا الحسن بن بَطّال ذهب إلى أن آدم ليس برسول ؛ ليسلم من هذا الاعتراض . وحديثُ أبي ذَرّ الطويل يدل على أن آدم و إدريس رسولان . قال ابن عطيّة : ويجتمع ذلك بأن تكون بِعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان ؛ فالمراد أنه أوّل نبيّ بُعث على هذه الصفة . والله أعلم . ورُوِي عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام بُعث وهو ابن أربعين سنة . قال الكَلْبيّ : بعد آدم بثمانمائة سنة . وقال ابن عباس : وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما ؛ كما أخبر التنزيل . ثم عاش بعد الطوفان ستّين سنة حتى كَثُر الناس وفَشَوْا . وقال وهب : بُعث نوح وهو ابن خمسين سنة . وقال عَوْن ابن شداد : بُعث نوح وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة . وفي كثير من كتب الحديث : الترمذيّ وغيره أن جميع الخلق الآن من ذُرّية نوح عليه السلام . وذكر النقّاش عن سليمان بن أَرْقَم عن الزُّهريّ أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح . والسِّنْد والهند والزّنج والحبشة والزُّط والنُّوبة ، وكُلّ جلد أسود من ولد حام بن نوح . والتّرك وبَرْبَر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصّقالبة كلُّهم من ولد يافث بن نوح . والخلق كلهم ذرّية نوح .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ برفع « غيرُه » قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم وحمزة . أي ما لكم إله غيره . نعت على الموضع . وقيل : « غير » بمعنى إلا ؛ أي ما لكم من إله إلا الله . قال أبو عمرو: ما أعرف الجرّ ولا النصب . وقرأ الكِسائيّ بالخفض على الموضع . ويجوز النصب على الاستثناء . وليس بكثير ؛ غير أن الكسائيّ والفرّاء أجازا نصب « غير » في كل موضع يحسُن فيه « إلّا » تمّ الكلام أو لم يتم . فأجازا : ما جاءني غيرك . قال الفرّاء : هي لغة بعض بني أسد وقضاعة . وأنشد :

(١) آية ١٢٣ سورة الصافات .

(٢) في قوله تعالى : « سلام على ال ياسين » آية ١٣٠ سورة الصافات .

لم يَمْنع الشُّرْبَ منها غيرَ أن هتَفَتْ * حمامــةٌ فى سُحُوق ذاتِ أوْ قالِ (١)

قال الكسائىّ : ولا يجوز جاءنى غيرك ، فى الإيجاب ؛ لأن إلّا لا تقع ها هنا . قال النحاس : لايجوز عند البصريين نصب «غير» إذا لم يتمّ الكلام . وذلك عندهم من أقبح اللّحن .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) ﴾

« الملأ » أشراف القوم ورؤساؤهم . وقد تقدّم بيانه فى «البقرة» (٢) . والضّلال والضّلالة : العدول عن طريق الحق ، والذهاب عنه . أى إنا لنراك فى دعائنا إلى إلٰه واحد فى ضلال عن الحق . ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾ بالتشديد من التبليغ ، وبالتخفيف من الإبلاغ . وقيل : هما بمعنًى واحد لغتان ؛ مثل كرّمه وأكرمه . ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ النُّصح : إخلاص النية من شوائب الفساد فى المعاملة ؛ بخلاف الغِشّ . يقال : نصحته ونصحت له نصيحةً ونَصاحة ونُصْحا . وهو باللام أفصح . قال الله تعالى : « وَأَنْصَحُ لَكُمْ » . والاسم النصيحة . والنصيحُ النـاصحُ ، وقوم نصحاء . ورجل ناصح الجَيْب أى نقىّ القلب . قال الأصمعىّ : الناصح الخالص من العسل وغيره . مثلُ الناصع . وكلُّ شىء خَلَص فقد نَصَح . وآنتصح فلان أقبل على النّصيحة . يقال : انتصحْنى إننى لك ناصح . والناصح الخياط . والنِّصاح السِّلك يُخاط به . والنِّصاحات أيضا الجلود . قال الأعشى :

فتَرَى الشَّرْب نَشاوَى كلّهـمْ * مثلَ ما مُدّتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ

الرُّبَح لغةٌ فى الرُّبَع ، وهو الفصيل . والرُّبَح أيضا طائر . وسيأتى لهذا زيادة معنًى فى « براءة » (٣) إن شاء الله تعالى .

---

(١) السحوق : ما طال من الدوم . وأرقاله ثماره . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) فى قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ... » آية ٩١

قوله تعالى : أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ فُتحت الواو لأنها واو عطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير. وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها. ﴿ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ ﴾ أى وَعْظ من ربكم . ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ أى على لسان رجل . وقيل : «على» بمعنى «مع» ، أى مع رجل . وقيل : المعنى أن جاءكم ذكر من ربّكم منزَّل على رجل منكم ، أى تعرفون نسبه . أى على رجل من جنسكم ولو كان مَلَكا . فربما كان فى ٱختلاف الجنس تنافر الطبع. « والفُلْك » يكون واحدا ويكون جمعا . وقد تقدّم فى « البقرة »(١) . و«عَمِين» أى عن الحق؛ قاله قَتادة . وقيل : عن معرفة الله تعالى وقدرته، يقال : رجلٌ عَمٍ بكذا، أى جاهل .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم هُودًا . قال ابن عباس : أى آبن أبيهم . وقيل : أخاهم فى القبيلة . وقيل : أى بشرا من بنى أبيهم آدم .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

وفى مصنّف أبى داود أن أخاهم هودا أى صاحبهم . وعادٌ من ولد سام بن نوح . قال ابن إسحاق: وعاد هو ٱبن عَوْص بن إرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وهود هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . بعثه الله إلى عاد نبيًّا . وكان من أوسطهم نَسَبا وأفضلهم حَسَبا . و «عاد» من لم يصرفه جعله ٱسما للقبيلة، ومن صرفه جعله ٱسما للحَىّ . قال أبو حاتم : وفى حرف أُبَىّ وٱبن مسعود «عادَ ٱلْأُولى»(١) بغير ألف . و «هود» أعجمى، وٱنصرف لخفّته؛ لأنه على ثلاثة أحرف . وقد يجوز أن يكون عربيا مشتقّا من هاد يهود . والنصب على البدل . وكان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء . وكانت عاد فيما رُوِى ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون الرمال، رمل عالج . وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت بلادهم أخصب البلاد، فسخط الله عليهم فجعلها مفاوز، وكانت فيما رُوِى بنواحى حضرموت إلى اليمن ، وكانوا يعبدون الأصنام . ولحق هود حين أهلك قومه بمن آمن معه بمكة ، فلم يزالوا بها حتى ماتوا . ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ أى فى حُمْق وخفّة عقل . قال :

مَشَيْنَ كما اهتزّت رِياحٌ تسفّهتْ * أعاليَها مَرُّ الرياح النَّواسِم

وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة»(٢) . والرؤية هنا وفى قصة نوح قيل : هى من رؤية البصر . وقيل : يجوز أن يراد بها الرأى الذى هو أغلب الظن .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ «خلفاء» جمع خليفة على التذكير والمعنى، وخلائف على اللفظ . مَنّ عليهم بأن جعلهم سُكّان الأرض بعد قوم نوح . ﴿ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ ويجوز «بصطة» بالصاد لأن بعدها طاء؛ أى طولا فى الخلق وعظم الجسم . قال ٱبن عباس : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعا . وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم . وقيل : على خلق قوم نوح . قال وهب : كان رأس أحدهم

(١) فى قوله تعالى : «وأنه أهلك عادًا الأولى» آية ٥٠ سورة النجم .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

مثلَ قُبّة عظيمة ، وكان عين الرجل يُفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم . وروى شَهْر ابن حَوْشَب عن أبي هريرة قال : أن كان الرجل من قوم عاد يتخذ المِصراعَيْن من حجارة لو آجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمة لم يطيقوه ، وأن كان أحدهم ليغمز برجله الأرض فتدخل فيها . ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ أي نعم الله ، واحدها إِلًى وإِلْيٌ وإِلْوٌ وأَلًى . كالآناء واحدها إِنًى وإِنْيٌ وإِنْوٌ وأَنًى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تقدّم[(١)] .

قوله تعالى : قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

طلبوا العذاب الذي خوّفهم به وحذّرهم منه فقال لهم ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ . ومعنى وقع أي وجب . يقال : وقع القول والحُكم أي وجب ، ومثله : « وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ[(٢)] » . أي نزل بهم . « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ[(٣)] » . والرِّجس العذابُ وقيل : عُني بالرجس الرَّيْن على القلب بزيادة الكفر . ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ ﴾ يعني الأصنام التي عبدوها ، وكان لها أسماء مختلفة . ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من حُجّة لكم في عبادتها . فالآسم هنا بمعنى المسمّى . نظيره « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا[(٤)] » . وهذه الأسماء مثل العُزّى من العِزّ والأعز واللاّت، وليس لها من العزّ والإلٰهية شيء . ﴿ دَابِرَ ﴾ آخِر . وقد تقدّم[(٥)] . أي لم يبق لهم بقيّة .

(١) راجع جـ ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .   (٢) آية ١٣٤ من هذه السورة .
(٣) آية ٨٢ سورة النمل .   (٤) آية ٤٠ سورة يوسف .   (٥) آية ٤٥ سورة الأنعام .

قوله تعـالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وهو ثمود بن عاد بن إرَم بن سام بن نوح . وهو أخو جَدِيس ، وكانوا فى سَعة من معايشهم ؛ فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره ، وأفسدوا فى الأرض . فبعث الله إليهم صالحا نبيًّا، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود . وكانوا قوما عُرْبًا . وكان صالح من أوسطهم نَسَبًا وأفضلهم حَسَبًا فدعاهم إلى الله تعـالى حتى شَمِط (١) ولا يتبعه منهـم إلا قليل مستضعَفون . ولم ينصرف «ثمود» لأنه جُعل آسما للقبيلة . وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه آسم أعجمىّ . قال النحاس : وهـذا غلط ؛ لأنه مشـتق من الثَّمَد وهو المـال القليل . وقـد قرأ القراء « أَلَآ إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهم (٢) » على أنه آسم للحىّ . وكانت مساكن ثمود الحِجر بين الحجاز والشام إلى وادى القُرَى . وهم من ولد سام بن نوح . وسُمّيت ثمود لقلة مائهـا . وسيأتى بيانه فى « الحِجر (٣) » إن شاء الله تعالى .

﴿ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صَلْد ؛ فكان لهـا يوم تشرب فيه ماء الوادى كلّه ، وتسقيهم مثله لبنا لم يُشرب قَطّ ألذّ وأحْلى منه . وكان بقـدر حاجتهم على كثرتهم ؛ قال الله تعـالى : « لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٤) » . وأضيفت الناقة إلى الله عز وجل على جهة إضافة الخلق إلى الخالق . وفيه معنى التشريف والتخصيص .

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فى أَرْضِ اللهِ ﴾ أى ليس عليكم رزقها ومؤونتها .

---

(١) الشمط ، (بفتح الميم) : شيب اللحية . وقيل : بياض شعر الرأس يخالط سواده .

(٢) آية ٦٨ سورة هود .

(٣) فى قوله تعالى : « ولقد كذب أصحاب الحِجر المرسلين » آية ٨٠

(٤) آية ١٥٥ سورة الشعراء .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فيه محذوف ، أى وبوأكم فى الأرض منازل . ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أى تبنون القصور بكل موضع . ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ اتخذوا البيوت فى الجبال لطول أعمارهم ؛ فإن السقوف والأبنية كانت تُبْلَى قبـل فناء أعمارهم . وقرأ الحسن بفتح الحاء ، وهى لغة . وفيه حرف من حروف الحلق ؛ فلذلك جاء على فَعَل يَفْعَل .

الثانيـــة — استدل بهذه الآية من أجاز جواز البناء الرفيع كالقصور ونحوها ، وبقوله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ »(١) . ذُكر أن ٱبنًا لمحمــد بن سيرين بَنَى دارا وأنفق فيها مالا كثيرا ؛ فذُكر ذلك لمحمد بن سـيرين فقال : ما أرى بأسا أن يبنى الرجل بنـاء ينفعه . ورُوى أنه عليــه السلام قال : " إذا أنعم الله على عبد أحبّ أن يُرى أثر النعمة عليه " . ومن آثار النعمة البناء الحسن ، والثياب الحسنة . ألا ترى أنه لو اشـترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك ؛ فكذلك البناء . وكره ذلك آخرون ، منهم الحسن البصرى وغيره . واحتجّوا بقوله عليه السـلام : " إذا أراد الله بعبد شَرًّا أهلك ماله فى الطِّين واللَّبِن" . وفى خبر آخر عنه أنه عليه السلام قال : " من بَنَى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه " .

قلت : بهذا أقول؛ لقوله عليه السلام : " وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان فى بنيان أو معصية " . رواه جابر بن عبد الله وخرّجه الدَّارَقُطْنِيّ . وقوله

(١) آية ٣٢ من هذه السورة .

عليـه السلام : " ليس لابن آدم حق فى سـوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والمـاء(١) " أخرجه الترمذى .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ أى نعمه . وهذا يدل على أن الكفار منعم عليهم . وقـد مضى فى « آل عمران(٢) » القول فيه . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تقـدّم فى « البقرة(٣) » . والعِثِىّ والعُثُوّ لغتان . وقرأ الأعمش « تِعثوا » بكسر التاء أخذه من عَثِىَ يَعْثَى لا من عثا يعثو .

قوله تعـالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ الثـانى بدل من الأوّل ، لأن المستضعفين هم المؤمنون . وهو بدل البعض من الكل .

قوله تعـالى : فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّـاقَةَ ﴾ العَقْر الجرح . وقيل : قطع عضـو يؤثر فى النفس . وعقرت الفرس : إذا ضربت قوائمه بالسيف . وخيل عَقْرَى . وعقرت ظهر الدابة : إذا أدبرته .

(١) الجلف (بالكسر) : الخبز وحده لا أدم معه . وقيل : الخبز الغليظ اليابس .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قال آمرؤ القيس :

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا * عقرتَ بعيرى يا آمرأ القيس فآنزلِ

أى جرحته وأدبرته . قال القشيرى : العقر كشف عُرقوب البعير ؛ ثم قيل للنّحر عَقر ؛ لأن العقْر سبب النحر فى الغالب . وقد آختُلف فى عاقر الناقة على أقوال . أصحّها ما فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن زَمعة قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : " إذ آنبعث أشقاها آنبعث لها رجل عزيز عارم (١) منيع فى رهطه مثل أبى زَمْعة " وذكر الحديث . وقيل فى آسمه : قدار بن سالف . وقيل : إن ملكهم كان إلى آمرأة يقال لها ملكى ، فحسدت صالحا لمّا مال إليه الناس ، وقالت لآمرأتين كان لهما خليلان يعشقانهما : لا تطيعاهما وآسألاهما عقر الناقة ؛ ففعلتا . وخرج الرجلان وألجآ الناقة إلى مَضيق ورماها أحدهما بسهم وقتلاها . وجاء السَّقْب وهو ولدها إلى الصخرة التى خرجت الناقة منها فرغا ثلاثا وآنفجرت الصخرة فدخل فيها . ويقال : إنه الدّابة التى تخرج فى آخر الزمان على الناس ؛ على ما يأتى بيانه فى «النمل» (٢) . وقال آبن إسحاق : أتبع السّقْبَ أربعة نفر ممن كان عقر الناقة ، مصدع وأخوه ذؤاب . فرماه مصدع بسهم فآنتظم قلبه (٣) ، ثم جرّ برجله فألحقه بأمّه ، وأكلوه معها . والأول أصح ؛ فإنّ صالحا قال لهم : إنه بَقِيَ من عمركم ثلاثة أيام ، ولهذا رَغَا ثلاثا . وقيل : عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال ، وهم الذين قال الله فيهم : « وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ » على ما يأتى بيانه فى « النمل » (٤) . وهو معنى قوله « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ » (٥) . وكانوا يشربون فأعوزهم الماء ليمزجوا شرابهم ، وكان يوم لبن الناقة ، فقام أحدهم وترصّد الناس وقال : لأرِيحَنّ الناس منها ؛ فعقرها .

قوله تعالى : ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى آستكبروا . عتا يعتو عُتُوًّا آستكبر . وتعتّى فلان إذا لم يُطع . والليل العاتى : الشديد الظلمة ؛ عن الخليل .

---

(١) عارم : أى خبيث شرير .	(٢) فى قوله تعالى : «وإذا وقع القول عليهم» آية ٨٢

(٣) انتظم الصيد : اذا طعنه أو رماه حتى ينفذه .	(٤) آية ٤٨	(٥) آية ٢٩ سورة القمر .

﴿ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الزَّلزلة الشديدة . وقيل : كانت صيحة شديدة خَلَعت قلوبهم ؛ كما فى سورة « هود » فى قصة ثمود فأخذتهم الصيحة (١) . يقال : رَجَف الشيء يَرْجُف رَجْفًا ورَجَفانًا . وأرجفت الريحُ الشجرَ حرّكته . وأصله حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٢) » قال الشاعر:

ولما رأيت الحج قد آن وَقْتُه * وظلّت مَطايَا القوم بالقوم تَرْجُفُ

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِم ﴾ أى بلدهم. وقيل : وحّد على طريق الجنس ، والمعنى : فى دُورهم . وقال فى موضع آخر : « فى ديارهم (٣) » أى فى منازلهم . ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أى لاصقين بالأرض على رُكَبهم ووجوههم ؛ كما يجثُم الطائر. أى صاروا خامدين من شدّة العذاب . وأصل الجُثُوم للأرنب وشبهها ، والموضع مَجْثَم . قال زهير :

بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلْفَةً * وأطلاؤها يَنْهَضْن من كلّ مَجْثَمِ (٤)

وقيل : احترقوا بالصاعقة فأصبحوا مَيّتين، إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أى عند اليأس منهم . ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم . ويحتمل أنه قاله بعد موتهم؛ كقوله عليه السلام لقَتْلَى بَدْر : "هل وجدتم ما وعد ربكم حقا" ؟ فقيل : أتُكَلِّم هؤلاء الجِيَف ؟ فقال : "ما أنتم بأسمعَ منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب" . والأوّل أظهر. يدلّ عليه ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ أى لم تقبلوا نُصْحِى .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيها أربع مسائل :

(١) فى قوله تعالى : «وأخذ الذين ظلموا الصيحة ...» آيه ٦٧ (٢) آية ٦ سورة النازعات .
(٣) آية ٦٧ و ٩٤ سورة هود . (٤) العين (بكسر أوله) : البقر واحدها أعين وعيناء . والآرام : الظباء . والأطلاء : الأولاد؛ الواحد طَلًا . وخلفة : فوج بعد فوج . وقيل مختلفة ، هذه مقبلة وهذه مدبرة ، وهذه صاعدة وهذه نازلة . (عن شرح المعلقات) .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الفرّاء : لوط مشتق من قولهم : هـذا أَلْيَطُ بقلبي، أي ألصق . وقال النحاس : قال الزجاج زعم بعض النحويين — يعنى الفرّاء — أن لوطا يجوز أن يكون مشتقا من لُطْتُ الحوض إذا ملسته بالطين . قال : وهذا غلط؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تشتقّ كإسحاق، فلا يقال : إنه من السُّحق وهو البُعد . وإنما صُرف لوط لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسـط . قال النقاش : لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية . فأما لُطْت الحوض ، وهذا أَلْيَط بقلبي من هـذا ؛ فصحيح . ولكن الاسم أعجميّ كإبراهيم وإسحاق . قال سـيبويه : نوح ولوط أسمـاء أعجمية، إلا أنها خفيفة فلذلك صَرفت . بعثه الله تعالى إلى أمّة تسمى سدوم، وكان آبن أخى إبراهيم . وَنَصْبه إما بـ«أَرْسَلْنا» المتقدّمة فيكون معطوفا . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى وآذكر .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَة ﴾ يعنى إتيان الذُّكور . ذكرها الله باسم الفاحشة ليبين أنها زِنًى؛ كما قال تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً »(١) .

وآختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعـد إجماعهم على تحريمه ؛ فقال مالك : يُرْجَم ؛ أُحصِن أو لم يحصن . وكذلك يُرجم المفعول به إن كان محتلما . وروى عنه أيضا : يُرجم إن كان مُحْصنا ، ويُحبس ويؤدّب إن كان غير محصن . وهـو مذهب عطاء والنَّخَعيّ وآبن المسيِّب وغيرهم . وقال أبو حنيفـة : يُعزّر المحصن وغيره ؛ وروى عن مالك . وقال الشافعيّ : يُحَدّ حَدّ الزنى قياسا عليه . احتج مالك بقوله تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِـمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ »(٢) . فكان ذلك عقوبةً لهم وجزاءً على فعلهم . فإن قيل : لا حجة فيها لوجهين ؛ أحدهما — أن قوم لوط إنما عُوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم . الثـانى — أن صـغيرهم وكبيرهم دخل فيها ؛ فدلّ على خروجها من باب الحـدود . قيل : أمّا الأوّل فغلط ؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصى فأخذهم بها ؛ منها هـذه . وأمّا الثـانى فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ ، فعُوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه . وهى حكمة الله وسنّته فى عباده .

---

(١) آية ٣٢ سورة الإسراء .   (٢) آية ٧٤ سورة الحجر .

وبَقِىَ أمر العقوبة على الفاعلين مستمرًّا . والله أعلم . وقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذىّ والنَّسائِىّ والدَّارَقُطْنِىّ أن رســول الله صلى الله عليه وســلم قال : "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فآقتلوا الفاعل والمفعول به" . لفظ أبى داود وابن ماجه . وعند التِّرمذِىّ "أُحْصنا أو لم يحصنا" . وروى أبو داود والدَّارَقُطْنِىّ عن آبن عباس فى البِكْر يوجد على اللّوطِيّــة قال يرجم . وقد رُوى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه حرق رجلا يُسمَّى الفُجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار . وهو رأى علىّ بن أبى طالب ؛ فإنه لمـا كتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر فى ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وآستشارهم فيه ؛ فقال علىّ : إن هــذا الذنب لم تَعْصِ به أمّة من الأمم إلا أمّة واحدة صنع الله بها ما علمتم ، أرى أن يُحرق بالنار . فآجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنـار . فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه . ثم أحرقهم ابن الزبير فى زمانه . ثم أحرقهم هشام بن الوليد . ثم أحرقهــم خالد القَسْرى بالعراق . ورُوى أن ســبعة أُخِذوا فى زمن ابن الزُّبير فى لِواط ؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أحْصِنوا فأمر بهم فخرجوا من الحَرَم فرُجِموا بالحجارة حتى ماتوا ، وحدّ الثلاثة ؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم يُنكرا عليه . وإلى هــذا ذهب الشافعىّ . قال ابن العربِىّ : والذى صار إليه مالك أحقّ ، فهو أصحّ سندًا وأقوى معتمَدًا . وتعلّق الحنفيّون بأن قالوا : عقوبة الزِّنَى معلومة ؛ فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألّا يشاركها فى حدّها . ويأثرون فى هذا حديثا : "مَن وضع حدّا فى غير حَدٍّ فقد تعدّى وظَلَم" . وأيضا فإنه وطء فى فرج لا يتعلّق به إحلالٌ ولا إحصان ، ولا وجوبُ مهر ولا ثبوتُ نسب ؛ فلم يتعلق به حدّ .

الثالثــة — فإن أتى بهيمة فقد قيل : لا يقتل هو ولا البهيمة . وقيل : يقتلان ؛ حكاه ابن المنــذر عن أبى سلمة بن عبد الرحمن . وفى البـاب حديث رواه أبو داود والدّارَقُطْنِىّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "من وقع على بهيمة فآقتلوه وآقتلوا البهيمة معه" . فقلنـا لآبن عباس : ما شأن البهيمة ؟ قال : ما أراه قال ذلك ، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عُمل بها ذلك العمل . قال آبن المنـذر : إن يَكُ الحديث ثابتا فالقول به

يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيرا، وإن عزّره الحاكم كان حسناً . والله أعلم . وقد قيل : إن قتل البهيمة لئلّا تُلْقِي خَلْقا مشوَّهًا ؛ فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن ٱبن عباس قال : ليس على الذى زَنَى بالبهيمة حَدٌّ . قال أبو داود : وكذا قال عطاء . وقال الحَكَم : أرى أن يُجلد ولا يبلغ به الحدّ . وقال الحسن : هو بمنزلة الزانى . وقال الزُّهْرِىّ : يُجلد مائةً أحصن أو لم يحصن . وقال مالك والثَّوْرِىّ وأحد أصحاب الرأى يُعَزَّر . ورُوى عن عطاء والنَّخَعِىّ والحكم . وٱختلفت الرواية عن الشافعىّ ، وهذا أشبه على مذهبه فى هذا الباب. وقال جابر بن زيد : يقام عليه الحدّ، إلا أن تكون البهيمة له .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ «مِن» لٱستغراق الجنس، أى لم يكن اللّواط فى أمّة قبل قوم لوط . والملحدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم . والصِّدْق ما ورد به القرآن . وحكى النقاش أن إبليس كان أصْل عملهم بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله، فكان ينكح بعضهم بعضا . قال الحسن : كانوا يفعلون ذلك بالغُرباء ، ولم يكن يفعله بعضهم ببعض . وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ أخْوَفَ ما أخاف على أمّتى عمل قوم لوط" . وقال محمد بن سيرين : ليس شىء من الدواب يعملُ عملَ قوم لوط إلا الخنزير والحمار .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ إنكم ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة، تفسيرا للفاحشة المذكورة، فلم يحسن إدخال الاستفهام عليه لأنه يقطع ما بعده مما قبله . وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام الذى معناه التوبيخ، وحَسُن ذلك لأن ما بعده وقبله كلام مستقل . وٱختار الأوّل أبو عبيد والكسائىّ وغيرهما، واحتجّوا بقوله عز وجل : «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»(١) ولم يقل أفهم .

(١) آية ٣٤ سورة الأنبياء .

وقال : «أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ»(١) ولم يقل أنقلبتم . وهذا من أقبح الغلط لأنهما شبّها شيئين بمالا يشتبهان ؛ لأن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد كالمبتدأ والخبر؛ فـلا يجوز أن يكون فيهما استفهامان . فلا يجوز : أفإن مِتّ أفهُم ، كما لايجوز أزيد أمنطلق . وقصة لوط عليـه السلام فيها جملتـان ، فلك أن تستفهم عن كل واحدة منهما . هـذا قول الخليل وسـيبويه ، واختاره النحاس ومكّيّ وغيرهما . ﴿ شَهْوَةً ﴾ نصب على المصـدر، أى تشتهونهم شهوة . ويجوز أن يكون مصـدرا فى موضع الحال . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ نظـيره « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » فى جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ ﴾ أى لوطا وأتباعه . ومعنى ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عن الإتيان فى هـذا المـأتى . يقال : تطهّر الرجل أى تنزّه عن الإثم . قال قتادة : عابوهم واللهِ بغـير عَيْب . ﴿ مِن الغـابِرِين ﴾ أى من الباقين فى عذاب الله ؛ قاله ابن عبـاس وقتـادة . غَبر الشيء إذا مضى . وغَبر إذا بَـقِيَ ، وهـو من الأضـداد . وقال قوم : المـاضى عابر بالعين غير معجمة . والبـاقى غابر بالغين معجمـة ، حكاه ابن فارس . وقال الزجاج : « من الغابرين » أى من الغائبين عن النجاة . وقيـل : لطول عمرها . قال النحاس : وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من المعمّرين ؛ أى أنها قد هرِمت . والأكثر فى اللغة أن يكون الغابر البـاقى؛ قال الراجز :

فمـا وَنَى محمدٌ مُذْ أن غَفَرْ * له الإلٰهُ ما مضى وما غَبَرْ

قوله تعـالى : وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

(١) آية ١٤٤ سورة آل عمران .

سَرَى لُوطٌ بأهله كما وصف الله « بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْـلِ »[1] ثم أمر جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهـل السماء صياح الدِّيَكة ونُباح الكلاب ؛ ثم جعل عالِيَها سافلَها ، وأمطرت عليهم حجارة من سِجّيل، قيـل على من غاب منهم، وأدرك آمرأة لوط ، وكانت معه حجر فقتلها. وكانت فيما ذُكر أربع قُرًى . وقيل : خمس فيها أربعمائة ألف . وسيأتى فى سورة «هود» قصة لوط بأبينَ من هذا ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ قيل فى مَدْين: آسم بلد وقُطر. وقيل اسم قَبِيلة؛ كما يقال : بَكْر وتَمِيم . وقيل : هم من ولد مَدْين بن إبراهيم الخليل عليه السلام. فمن رأى أن مَدْين آسم رجل لم يَصرفه لأنه معرفة أعجمىّ . ومن رآه آسمـا للقبيلة أو الأرض فهو أحْرَى بألّا يصرفه . قال المهدَوىّ : ويُروى أنه كان ابن بنت لوط . وقال مَكّىّ : كان زوج بنت لوط. وآختُلف فى نسبه ؛ فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما : وشعيب هو آبن ميكيل بن يشجر بن

(١) آية ٨١ سورة هود .

مدين بن إبراهيم عليه السلام . وكان اسمه بالسُّريانية بيروت . وأمه ميكائيل بنت لوط . وزعم الشَّرقيّ بن القُطاميّ أن شعيبا بن عيفاء بن يَوْبَب بن مدين بن إبراهيم . وزعم ابن سمعان أن شعيبا بن جزى بن يشجر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وشعيب تصغير شَعْب أو شِعْب (١) . وقال قتادة : هو شعيب بن يَوبب . وقيل : شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم (٢) . والله أعلم . وكان أعمى؛ فلذلك قال قومه : « وإنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا (٣) » . وكان يقال له : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه . وكان قومه أهل كفر بالله وبخس للكيال والميزان .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى بيان ، وهو مجىء شعيب بالرسالة . ولم يذكر له معجزة فى القرآن . وقيل : معجزته فيما ذكر الكسائى فى قصص الأنبياء .

الثانيـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس : النقص . وهو يكون فى السِّلعة بالتعييب والتزهيد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيال فى التزيّد فى الكيل والنقصان منه . وكلّ ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك مَنْهِىٌّ عنه فى الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الثالثـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ عطف على « ولا تبخسوا » . وهو لفظ يعمّ دقيق الفساد وجليله . قال ابن عباس : كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيبا رسولا يُعمل فيها بالمعاصى وتُستَحلّ فيها المحارم وتُسفك فيها الدماء . قال : فذلك فسادها . فلما بعث الله شعيبا ودعاهم إلى الله صَلَحت الأرض . وكل نبىّ بُعث إلى قومه فهو صلاحهم .

الرابعـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ نهاهم عن القعود بالطرق والصَّدّ عن الطريق الذى يؤدّى إلى طاعة الله ، وكانوا يُوعِدون العذاب من آمن . واختلف العلماء فى معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان ؛ فقال ابن عباس وقَتادة ومُجاهد والسُّدّى : كانوا

(١) فى شرح القاموس : « تصغير شعب أو أشعب ؛ كما قالوا فى تصغير أسود سويد » . (٢) وردت هذه الأسماء مضطربة فى نسخ الأصل وفى المصادر التى بين أيدينا . ولم نوفق لضبطها . (٣) آية ٩١ سورة هود .

يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه؛ كما كانت قريش تفعله مع النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا ظاهر الآية. وقال أبو هريرة: هذا نَهْيٌ عن قطع الطريق، وأخذ السَّلَب؛ وكان ذلك من فعلهم. ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رأيت ليلة أُسْرِيَ بِي خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلا شقّته ولا شيء إلا خرقته فقلت ما هذا ياجبريل قال هذا مَثَلٌ لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه — ثم تلا — ولا تقعدوا بكل صراط توعدون" الآية. وقد مضى القول في اللُّصوص والمحاربين، والحمد لله [1]. وقال السُّدِّى أيضا: كانوا عشّارين متقبّلين. ومثلهم اليوم هؤلاء المكّاسون الذين يأخذون من الناس مالا يلزمهم شرعا من الوظائف المالية بالقهر والجبر؛ فضمنوا مالا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهى. والمترتبون في الطرق إلى غير ذلك ممـا قد كثر في الوجود وعُمل به في سائر البلاد. وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غَصْب وظُلْم وعَسْف على النـاس وإذاعةٌ للنكر وعمل به ودوام له وإقرار له، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لم يبق من الإسلام إلا رسمه، ولا من الدِّين إلا آسمه. يَعْضُد هذا التأويل ماتقدّم من النّهى في شأن المـال في الموازين والأكيال والبخس.

قوله تعـالى: ﴿ من آمن بِهِ ﴾ الضمـير في «به» يحتمل أن يعود إلى آسم الله، وأن يعود إلى شعيب في قول من رأى القعود على الطريق للصَّـدّ، وأن يعود على السبيل. ﴿ عِوَجًا ﴾ قال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين في المعاني. وفتحها في الأجرام.

قوله تعـالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أى كثّر عددكم. أو كثّركم بالغنى بعد الفقر. أى كنتم فقراء فأغناكم. ﴿ فاصْبِرُوا ﴾ ليس هذا أمرا بالمقام على الكفر، ولكنه وعيد وتهـديد. وقال: ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَـةٌ مِنْكُمْ ﴾ فـذكّر على المعنى، ولو راعى اللفـظ قال: كانت.

---

(١) في قوله تعـالى: «انما جزاء الذين يحاربون الله ورسـوله ...» آية ٣٣ سورة المـائدة. راجع جـ ٦ ص ١٤٧ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعـالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ تقـدّم معناه . ومعنى ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أى لتصيرنّ إلى ملتنا . وقيل : كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر ، أى لتعودنّ إلينا كما كنتم من قبل . قال الزجاج : يجوز أن يكون العَوْد بمعنى الابتـداء ؛ يقـال : عاد إلىّ من فلان مكروه ، أى صار ، و إن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، أى لحقنى ذلك منه . فقال لهم شعيب : ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أى ولو كنا كارهين تجبروننا عليه ، أى على الخروج من الوطن أو العَوْد فى ملتكم . أى إن فعلتم هذا أتيتم عظيما .

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ إياس من العَوْد إلى مِلّتهم . ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ قال أبو إسحاق الزجاج : أى إلا بمشيئة الله عز وجل ، قال : وهذا قول أهل السُّنة ؛ أى وما يقع منا العَوْد إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك . فالاستثناء منقطع . وقيل : الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل ؛ كما قال : « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ » . والدليل على هذا أن بعده « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » . وقيـل : هو كقولك لا أكلمك حتى يبيضّ الغُراب ، وحتى يلج الجمـل فى سَمّ الخياط . والغراب لا يبيضّ أبدا ، والجمل لا يلج .

قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أى علم ما كان وما يكون . «عِلْماً» نصب على التمييز. وقيل : المعنى «وما يكون لنا أن نعود فيها» أى فى القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا، بل نخرج من قريتكم مهاجرين إلى غيرها . « إلا أن يشاء الله» ردّنا إليها . وفيه بُعْد ، لأنه يقال : عاد للقرية ولا يقال عاد فى القرية .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى اعتمدنا . وقد تقدّم فى غير موضع.(١) ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ قال قتادة : بعثه الله إلى أُمّتين : أهل مَدْين ، وأصحاب الأَيْكة(٢). قال ابن عباس : وكان شعيب كثير الصلاة ، فلما تمادى قومُه فى كفرهم وغيّهم ، و يئس من صلاحهم، دعا عليهم فقال : « رَبَّنَا افتح بيننا و بين قومنا بِالحَقِّ وأنت خير الفاتحين » . فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أى وقالوا لمن دونهم . ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ أى هالكون . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الزلزلة . وقيل : الصيحة . وأصحاب الأيكة أُهلكوا بالظُّلّة(٣) ، على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ قال الجُرْجانىّ : قيل هذا كلام مستأنف ؛ أى الذين كذبوا شعيبا صاروا كأنهم لم يزالوا موتى . و «يَغْنَوْا» يُقيموا ؛ يقال :

(١) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الأيكة : الشجر الكثير الملتف .
(٣) غيم تحته سموم .

غَنِيت بالمكان إذا أقمت به . وغنِي القوم فى دارهم أى طال مُقامهم فيها . والمَغْنَى : المنزل، والجمع المغانى . قال لَبِيد :

وغَنِيت سِتًّا قبل مجْرَى داحِسٍ * لوكان للنفس اللَّجُوج خُلود

وقال حاتم طىّ :

غنِينا زمانا بالتَّصعْلُكِ والغِـنَى * [كما الدّهرُ فى أيّامه العُسْرُ واليسرُ][1]

[كسبنا صروف الدهر لِينًا وغلظةً][1] * وكُلًّا سـقاناه بكاسهما الدهر

فما زادنا بَغْيًا على ذى قـرابة * غِنَانَا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ابتـداء خطاب، وهو مبالغة فى الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه . ولما قالوا : من اتبع شـعيبا خاسر قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول. ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أى أحزن. أَسِيت على الشىء أَسًى، وأنا آسٍ .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِىٍّ ﴾ فيـه إضمار، وهو فكذّب أهلها إلا أخذناهم . ﴿ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ تقدّم القول فيـه[2] . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ أى أبدلناهم بالجَدْب خِصْبًا . ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أى كَثُروا؛ عن ابن عباس . وقال ابن زيد : كَثُرت أموالُهم وأولادهم . وعَفَا : من الأضداد . عَفَا : كثر . وعَفَا : درس . أعلم اللهُ تعالى أنه أخذهم بالشدّة والرخاء فلم يَزْدَجِروا ولم يشكروا . ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ فنحن مثلهم. ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة ليكون أكثر حسرة .

(١) التكلة عن ديوان حاتم . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ﴾ يقال للمدينة قَرْية لاجتماع الناس فيها . من قريت الماء إذا جمعته . وقد مضى في «البقرة» مُستوفًى[1] . ﴿ آمَنُوا ﴾ أي صدقوا . ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ أي الشّرك . ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعني المطر والنبات . وهذا في أقوام على الخصوص جَرَى ذكرهم . إذ قد يُمتَحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرا لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا[2]» . وعن هود «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا[3]» . فوعدهم المطرَ والخصب على التخصيص . يدلّ عليه ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي كذبوا الرسل . والمؤمنون صدّقوا ولم يكذبوا .

قوله تعالى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف . نظيره : «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ[4]» . والمراد بالقرى مكّة وما حولها ؛ لأنهم كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو عام في جميع القُرَى . ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا . ﴿ بَيَاتًا ﴾ أي ليلا «وهم نائمون» . ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ قرأه الحَرَميّان وابن عامر بإسكان الواو للعطف ، على معنى الإباحة ؛ مثل «وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا[5]» . جالس الحسن أو ابن سيرين . والمعنى : أو أمنوا هذه الضروب من العقوبات . أي إن أمنتم ضَرْبًا منها لم تأمنوا الآخر .

(١) راجع ج ١ ص ٤٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ١٠ و ١١ سورة نوح .
(٣) آية ٥٢ سورة هود . (٤) آية ٥٠ سورة المائدة . (٥) آية ٢٤ سورة الإنسان .

ويجوز أن يكون « أو » لأحد الشيئين، كقولك : ضربت زيدا أو عمـرا . وقرأ البـاقون بفتحها بهمزة بعـدها . جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاسـتفهام ؛ نظيره «أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا»(١) . ومعنى ﴿ ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي وهم فيما لا يُجْدِي عليهم ؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدى عليه لاعب ، ذكره النحاس . وفى الصحاح . اللَّعِب معروف ، واللَّعْب مثله . وقد لَعِب يَلْعب . وتَلَعَّب : [لَعِب](٢) مرّة بعد أخرى . ورجل تِلْعَابة : كثير اللَّعِب ، والتَّلعاب (بالفتح) المصدر . وجارية لَعوب .

قوله تعـالى : أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أي عذابه وجزاءه على مكرهم . وقيل : مَكْرُه استدراجه بالنعمة والصحة .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْـدِ ﴾ أي يُبَيِّن . ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ ﴾ يريد كفار مكة ومَن حولهم . ﴿ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ أي أخذناهم ﴿ بِذُنُوبِهِم ﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم . ﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ أي نحن نطبع ؛ فهو مستأنف . وقيـل : هو معطوف على أصبنا ، أي نصيبهـم ونطبع ؛ فوقع المـاضي موقع المستقبل .

قوله تعـالى : تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

(١) آية ١٠٠ سورة البقرة . (٢) زيادة عن كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى ﴾ أى هذه القرى التى أهلكناها؛ وهى قُرَى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب المتقدّمة الذكر . ﴿ نَقُصُّ ﴾ أى نتلو . ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ أى من أخبارها . وهى تسلية للنبيّ عليه السلام والمسلمين . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أى فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم؛ قاله مجاهد . نظيره « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا »[1] . وقال ابن عباس والربيع : كان فى علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل . ﴿ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرها لا طَوْعا . قال السُّدّى : آمنوا يوم أخذ عليهم الميثاق كرها فلم يكونوا ليؤمنوا الآن حقيقة. وقيل : سألوا المعجزات ، فلما رأوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤية المعجزة . نظيره « كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[2] . ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد عليه السلام .

قوله تعالى : وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

« مِنْ » زائدة، وهى تدلّ على معنى الجنس؛ ولولا « مِن » لجاز أن يتوهّم أنه واحد فى المعنى. قال ابن عباس : يريد العهد المأخوذ عليهم وقت الذّر، ومَن نقض العهد قيل له إنه لا عهد له ، أى كأنه لم يعهد . وقال الحسن : العهد الذى عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وقيل : أراد أن الكفار منقسمون؛ فالأكثرون منهم من لا أمانة له ولا وفاء ، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلّوا؛ رُوى عن أبى عبيدة .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

---

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام . (٢) آية ١١٠ سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْـدِهِم ﴾ أى من بعـد نوح وثمود وصالح ولوط وشعيب . ﴿ مُوسَى ﴾ أى موسى بن عمران . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى بمعجزاتنا . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى كفروا ولم يصدّقوا بالآيات . والظلم : وَضْع الشيء فى غير موضعه .

قوله تعالى : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى آخر أمرهم .

قوله تعـالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيـــمٍ ﴿١١٢﴾

﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ ﴾ أى واجب . ومن قرأ « عَلَى أَلَّا » فالمعنى حريص على ألا أقول . وفى قراءة عبد الله « حَقِيقٌ ألّا أقول » بإسقاط « على » . وقيل : « على » بمعنى البـاء ، أى حقيق بألّا أقول . وكذا فى قـراءة أُبَىّ والأعمش « بألّا أقول » . كما تقـول : رَمَيت بالقوس وعلى القوس . فـ« حقيق » على هذا بمعنى محقوق . ومعنى «فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَائِيلَ» أى خلّهم . وكان يسـتعملهم فى الأعمـال الشاقة . ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ ﴾ يُسـتعمل فى الأجسام والمعـانى . وقد تقدّم[1] . والثُّعبان : الحَيَّـة الضخم الذَّكَر، وهو أعظم الحيات . ﴿ مُبِينٌ ﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

أى حيّة لا لبْس فيها . ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى أخرجها وأظهرها . قيل : من جيبه أو من جناحه؛ كما فى التنزيل « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ »(١) أى من غير بَرَص . وكان موسى أسمر شديد السُّمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول . قال ابن عباس : كان لِيَده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض . وقيل : كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تَلُوح ، فإذا ردّها عادت إلى مثل سائر بدنه . ومعنى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أى بالسحر . ﴿ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أى من مُلْكِكم معاشِرَ القبط ، بتقديمه بنى إسرائيل عليكم . ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى قال فرعون: فماذا تأمرون . وقيل : هو من قول الملأ ؛ أى قالوا لفرعون وحده : فماذا تأمرون . كما يخاطَب الجبّارون والرؤساء : ما تَرَوْن فى كذا . ويجوز أن يكون قالوا له ولأصحابه . و« ما » فى موضع رفع ، على أن «ذا» بمعنى الذى . وفى موضع نصب، على أن «ما» و«ذا» شيء واحد . ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم والكسائيّ بغير همز ؛ إلّا أن وَرْشًا والكسائيّ أشبعا كسرة الهاء . وقرأ أبو عمرو بهمزة ساكنة والهاء مضمومة . وهما لغتان ؛ يقال : أرجأته وأرجيته، أى أخّرته . وكذلك قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصِن وهشام ؛ إلا أنهم أشبعوا ضمّة الهاء . وقرأ سائر أهلِ الكوفة «أَرْجِهْ» بإسكان الهاء . قال الفرّاء : هى لغة للعرب، يقفون على الهاء المكنيّ عنها فى الوصل إذا تحرّك ما قبلها، وكذا هَـذِهْ طلحةُ قد أقبلت . وأنكر البصريون هذا . قال قتادة : معنى « أرجه » احبسه . وقال ابن عباس : أخّره . وقيل : « أرجه » مأخوذ من رجا يرجو؛ أى أطْمِعه ودَعْه يرجو؛ حكاه النحاس عن محمد ابن يزيد(٢) . وكسرُ الهاء على الإتباع . ويجوز ضَمّها على الأصل . وإسكانها لحن لا يجوز إلا فى شذوذ من الشعر . ﴿ وأخاهُ ﴾ عطف على الهاء . ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جزم ؛ لأنه جواب الأمر، ولذلك حذفت منه النون . قرأ أهل الكوفة إلا عاصما «بِكل سَحّارٍ» وقرأ سائر الناس « ساحِرٍ » وهما متقاربان ؛ إلا أنّ فَعّالا أشدّ مبالغة .

---

(١) آية ١٢ سورة النمل .

(٢) كذا فى الأصول و إعراب القرآن للنحاس . و يلاحظ أنها قراءة أهل الكوفة .

قوله تعالى : وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ وحُذف ذِكر الإرسال لعلم السامع . قال ابن عبد الحكم : كانوا اثنى عشر نَقِيبا ، مع كل نَقِيب عشرون عَرِيفا، تحت يدى كلّ عريف ألفُ ساحرٍ . وكان رئيسهم شمعون فى قول مقاتل بن سليمان . وقال ابن جُرَيج : كانوا تسعمائة من العَرِيش والفيّوم والإسكندرية أثلاثا . وقال ابن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألف ساحر؛ وروى عن ابن وهب . وقيل : كانوا اثنى عشر ألفا . وقال آبن المنكدر: ثمانين ألفا . وقيل : أربعة عشر ألفا . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الرِّيف ، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد ، وثلثمائة ألف ساحر من الفيُّوم وما والاها . وقيل : كانوا سبعين رجلا . وقيل : ثلاثة وسبعين ؛ فآلله أعلم . وكان معهم فيما رُوى حِبالٌ وعِصِىٌ يحملها ثلثمائة بعير ، فآلتقمت الحَيّة ذلك كلّه . قال آبن عباس والسُّدِّى : كانت إذا فتحت فاها صار شِدْقُها ثمانين ذراعا ، واضعة فكَّها الأسفل على الأرض، وفكّها الأعلى على سُور القصْر . وقيل : كان سعة فمها ثمانين ذراعا ، فآلله أعلم . فقصدت فرعونَ لتبتلعه ، فوثب من سريره فهرب منها واستغاث بموسى ؛ فأخذها فإذا هى عَصًا كما كانت . قال وهب : مات من خوف العَصَا خمسة وعشرون ألفا . ﴿ قَالُوا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أى جائزةً ومالا . ولم يقل فقالوا بالفاء؛ لأنه أراد لما جاءوا قالوا . وقرئ «إن لنا» على الخبر . وهى قراءة نافع وابن كثير. ألزموا فرعونَ أن يجعل لهم مالا إن غَلَبُوا؛ فقال لهم فرعون : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أى لَمِن أهل المنزلة الرفيعة لدينا؛ فزادهم على ما طلبوا. وقيل : إنهم إنما قطعوا ذلك لأنفسهم فى حكمهم إن غَلَبُوا . أى قالوا : يجب لنا الأجر إن غَلَبنا . وقرأ الباقون بالآستفهام على جهة الإخبار . استخبروا فرعون : هل يجعل لهم أجرا إن غَلبوا أولا ؛ فلم يقطعوا على فرعون بذلك ، إنما استخبروه هل يفعل ذلك؛ فقال لهم « نعم » لكم الأجر والقُرْب إن غَلَبتم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾

تأدّبوا مع موسى عليه السلام فكان ذلك سببَ إيمانهم . و « أنْ » في موضع نصب عند الكسائيّ والفرّاء ، على معنى إما أن تفعل الإلقاء . ومثلُه قول الشاعر :

* قالوا الرُّكوبَ فقالوا تلك عادتنا (١) *

﴿ قَالَ أَلْقُوا ﴾ قال الفرّاء : في الكلام حذف . والمعنى : قال لهم موسى إنكم لن تَغلِبوا ربّكم ولن تُبطلوا آياته . وهذا من معجز القرآن الذي لا يأتي مثله في كلام الناس ، ولا يقدرون عليه . يأتي اللفظ اليسير بجمع المعاني الكثيرة . وقيل : هو تهديد . أي ابتدئوا بالإلقاء ، فسترون ما يحلّ بكم من الافتضاح ؛ إذ لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر . وقيل : أمرهم بذلك ليبيّن كذبهم وتمويههم . ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ أي الحبال والعِصِيّ . ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أي خَيّلوا لهم وقَلبوها عن صحة إدراكها ، بما يُتخيّل من التّمويه الذي جرى مجرى الشّعوذة وخفة اليد ؛ كما تقدّم في « البقرة (٢) » بيانه . ومعنى ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي عندهم ؛ لأنه كان كثيرا وليس بعظيم على الحقيقة . قال ابن زيد : كان الاجتماع بالإسكندرية فبلغ ذَنَب الحيّة وراء البحيرة . وقال غيره : وفتحت فَاهَا فجعلت تلقف — أي تلتقم — ما ألقَوْا من حبالهم وعِصيّهم . وقيل : كان ما ألقوا حبالا من أَدَم فيها زئبق فتحرّكت وقالوا هذه حَيّات . وقرأ حَفْص « تَلْقف » بإسكان اللام والتخفيف . جعله مستقبل لَقِف يَلْقَف . قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة «تِلْقَف» لأنه من لَقِف . وقرأ الباقون بالتشديد وفتح اللام ، وجعلوه مستقبل تَلقّف ؛ فهي تَتَلَقّف . يقال لَقِفت الشيء وتلقّفته إذا أخذته أو بَلعته . تَلْقَف وتَلْقَم

(١) هذا صدر بيت وتمامه : * أو النزول فانا معشر نزل *

(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

وتَلْهَم بمعنًى واحد . قال أبو حاتم : وبلغنى فى بعض القراءات « تَلَقَّم » بالميم والتشديد .
قال الشاعر :

أنت عَصَا موسى التى لم تزل * تَلَقَّـم ما يأفكه الساحر

ويروى : تلقف . ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى ما يكذبون، لأنهم جاءوا بحبال وجعلوا فيها زِئبقا حتى تحرّكت .

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ قال مجاهد : فظهر الحق . ﴿ وَٱنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ نصب على الحال . والفعل منه صَغِر يَصْغَر صَغَرًا وصِغَرًا وصَغارا(١) . أى ٱنقلب قوم فرعونَ وفرعونُ معهم أذِلّاء مَقْهورين مغلوبين . فأمّا السحرة فقد آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ إنكار منه عليهم . ﴿ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أى جرت بينكم وبينه مُواطأة فى هذا لتستولوا على مصر، أى كان هـذا منكم فى مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء .

---

(١) هو من باب فرح وكَرُم .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد لهم . قال ابن عباس : كان فرعون أوّلَ من صَلَب، وقَطَع الأيدى والأرْجُل من خلاف، الرِّجل اليُمْنَى واليد اليسرى؛ واليد اليمنى والرجل اليسرى؛ عن الحسن .
﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف . قال الأخفش : هى لغة ؛ يقال : نَقِمت الأمر ونَقَمته أنكرته ؛ أى لست تكره منا سوى أن آمنا بالله وهو الحق .
﴿ لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ آياته و بيناته . ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ الإفراغ الصَّبّ ؛ أى آصببه علينا عنـد القطع والصلب . ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ فقيل : إن فرعون أخذ السحرة وقطعهم على شاطئ النهر، و إنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بإيقاع الفرقة وتشتيت الشَّمل . ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ بنصب الراء جواب الاستفهام، والواو نائبة عن الفاء . ﴿ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال الحسن : كان فرعون يعبد الأصنام؛ فكان يَعبُد و يُعبَد . قال سليمان التيمىّ : بلغنى أن فرعون كان يعبد البقر . قال التيمىّ : قلت للحسن هل كان فرعون يعبد شيئا ؟ قال نعم ، إنه كان يعبد شيئا كان قد جعله فى عنقه . وقيل : معنى « وآلهتك » أى وطاعتك ؛ كما قيل فى قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »(١) إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم ؛ فصار تمثيلا . وقرأ نُعيم بن ميسرة «وَيَذَرُكَ» بالرفع على تقدير وهو يَذَرُكَ . وقرأ الأَشْهَب العقيلىّ « وَيَذَرْكَ » مجزوما مخفف يذرُك لثقل الضمة . وقرأ أنس

(١) آية ٣١ سورة التوبة .

آبن مالك « ونذرُك » بالرفع والنون . أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حيًّا . وقرأ عليّ بن أبي طالب وابن عباس والضحّاك « و إلاهتك » ومعناه وعبادتك . وعلى هذه القراءة كان يُعبَد ولا يَعبُد ، أى و يترك عبادته لك . قال أبو بكر الأنباريّ : فمن مذهب أصحاب هذه القراءة أن فرعون لمـا قال « أنا ربُّكم الأعْلَى» . و« ما علمتُ لكم من إلٰهٍ غَيْرِى » نفى أن يكون له رب وآلهة . فقيل له : و يذرك و إلاهتك ؛ بمعنى و يتركك وعبادة الناس لك . وقراءة العامة « وآلهتك » كما تقدّم ، وهى مبنية على أن فرعون آدّعَى الرُّبُو بيّة فى ظاهر أمره وكان يعلم أنه مَرْبُوب . ودليل هذا قولُه عند حضور الحِمام « آمَنْتُ أنَّهُ لَا إلٰهَ إلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرَائِيلَ »[١] فلم يُقبَل هذا القول منه بعد إغلاق التو بة . وكان قبل هذه الحال له إله يعبده سِرًّا دون رب العالمين جل وعز؛ قاله الحسن وغيره . وفى حرف أُبَىّ « أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فى الأرض وقد تَرَكُوكَ أن يَعْبُدُوك » . وقيل : « وآلهتك » قيل كان يعبد بقرة، وكان إذا آستحسن بقرة أمر بعبادتها ، وقال : أنا ربُّكم وربّ هذه . ولهـذا قال «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا »[٢] . ذكره ابن عباس والسُّدّى . قال الزّجاج : كان له أصنام صغار يعبدها قومُه تقرُّبًا إليه فنُسبت إليه ؛ ولهـذا قال « أنا رَبُّكم الأَعْلَى » . قال إسمـاعيل بن إسحاق : قول فرعون « أنا ربُّكم الأَعْلَى » . يدلّ على أنهم كانوا يعبدون شيئا غيره . وقـد قيل : إن المراد بالإلاهة على قراءة ابن عباس البقرة التى كان يعبـدها . وقيل : أرادوا بهـا الشمس وكانوا يعبدونها . قال الشاعر :

* وأَعْجَلْنـا الإلاهةَ أن تَؤُبَا *

ثم آنس قومه فقال ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ بالتخفيف، قراءة نافع وابن كثير . والباقون بالتشـديد على التكثير . ﴿ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أى لانخافوا جانبهم . ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ آنسهم بهذا الكلام . ولم يقل سَنقتل موسى لعلمه أنه لا يقـدر عليه . وعن سـعيد بن جُبير قال : كان فرعون قد مُلِئَ من موسى رُعْبًا ؛ فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار . ولما بلغ قوم

---

(١) آية ٩٠ سورة يونس . (٢) آية ٨٨ سورة طه .

موسى من فرعون هـذا قال لهم موسى ﴿ ٱسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أطمعهم فى أن يورثهم الله أرض مصر. ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى الجنة لمن آتقى. وعاقبة كل شيء: آخره؛ ولكنها إذا أُطْلِقت فقيل العاقبة لفلان فهم منه فى العُرْف الخير.

قوله تعالى: قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ أى فى ابتداء ولادتك بقتل الأبناء وآسترقاق النساء. ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى والآن أعيد علينا ذلك؛ يعنون الوعيد الذى كان من فرعون. وقيل الأذى من قبل: تسخيرهم لبنى إسرائيل فى أعمالهم إلى نصف النهار، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم. والأذى من بعد: تسخيرُهم جميع النهار كله بلا طعام ولا شراب؛ قاله جُوَيْبر. وقال الحسن: الأذى من قبلُ ومن بعدُ واحد، وهو أخذ الجزية. ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ «عسى» من الله واجب؛ جدّد لهم الوعد وحقّقه. وقد استُخلِفوا فى مصر فى زمان داود وسليمان عليهما السلام، وفتحُوا بيت المقدس مع يُوشَع بن نون؛ كما تقدم. ورُوى أنهم قالوا ذلك حين خرج بهم موسى وتبعهم فرعون فكان وراءهم والبحر أمامهم؛ فحقّق الله الوعد بأن غرّق فرعون وقومه وأنجاهم. ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم نظائره. أى يرى ذلك العمل الذى يجب به الجزاء؛ لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، إنما يجازيهم على ما يقع منهم.

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ يعنى الجُدُوب. وهذا معروف فى اللغة؛ يقال: أصابتهم سَنَة؛ أى جَدْب. وتقديره جَدْب سنة. وفى الحديث: "اللّهمّ

آجعلها عليهــم سِنين كسِنِي يوسفَ " . ومن العرب من يُعرب النون فى الســنين ؛ وأنشد الفَرّاء :

أرَى مرّ السنينِ أخذن منّى * كما أخذ السِّرار(١) من الهــلال

قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون ؛ ولكن أنشد فى هذا مالا يجوز غيره ، وهو قوله :

* وقد جاوزت رأس الأربعينِ *

وحكى الفَرّاء عن بنى عامر أنهم يقولون : أقمتُ عنده سِنيناً ياهذا ؛ مصروفا . قال : وبنو تميم لا يصرفون ويقولون : مضت له سنينُ يا هذا . وسنين جمع ســنة ، والسنة هنــا بمعنى الجَدْب لا بمعنى الحَوْل . ومنه أسنَت القوم أى أجْدَبُوا . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

عَمْرُو العُلَا هَشَمَ الثَّرِيد لقومه * ورجالُ مكةَ مُسنِتُون عِجافُ(٢)

﴿ لعلهم يذَّكَّرُونَ ﴾ اى ليتعظوا وترق قلوبهم .

قوله تعالى : فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَـٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

فيــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ أى الخصْب والسَّعة . ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أى أُعطيناها باستحقاق . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى قَحْط ومرض، وهى المسألة : —

الثانيــة — ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى ﴾ أى يتشاءموا به . نظيره « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـذِهِ مِنْ عِنْدِكَ(٣) » . والأصل « يتطيروا » أدغمت التاء فى الطاء . وقرأ طلحة « تطيّروا » على أنه فعل ماض . والأصل فى هذا من الطِّيَرَة وزَجْر الطَّير، ثم كثُر استعمالهم حتى قيل لكل

(١) السرار والسرر (بفتح السين وكسرها فيهما) : الليلة التى يستسر فيها القمر . (٢) يريد به هاشم ابن عبد مناف أبا عبد المطلب جدّ النبى صلى الله عليه وسلم، وكان يسمى عمرا . (٣) آية ٧٨ سورة النساء.

من تشاءم : تَطيَّر . وكانت العرب تتيمّن بالسّانح، وهو الذى يأتى من ناحية اليمين . وتتشاءم بالبارح، وهو الذى يأتى من ناحية الشّمال . وكانوا يتطيّرون أيضا بصوت الغراب، ويتأوّلونه البَيْن . وكانوا يستدِلون بمجاوبات الطيور بعضِها بعضًا على أمور، وبأصواتها فى غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك . وهكذا الظِّباء إذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون إذا بَرَحت : « مَن لِى بالسّانح بعد البارح »[1] . إلّا أنّ أقوى ما عنـدهم كان يقع فى جميع الطير؛ فسمّوا الجميع تَطيُّرًا من هـذا الوجه . وتطيّر الأعاجمُ إذا رأوا صبيًّا يُذهب به إلى المُعَلِّم بالغـداة، ويتيمّنون برؤية صبىّ يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السّقاء على ظهره قربةٌ مملوءةٌ مشدودة، ويتيمّنون برؤية فارغ السّقاء مفتوحه، ويتشاءمون بالحَمّال المثقَل بالحِمْـل، والدابة المُوقَرة[2]، ويتيمّنون بالحَمّال الذى وضع حِمله، وبالدابة يُحطّ عنها ثِقلُها . فجاء الإسلام بالنّهى عن التّطيُّر والتشاؤم بمـا يُسمع من صوتِ طائرٍ ما كان، وعلى أىّ حال كان؛ فقـال عليه السلام : " أقِرُّوا الطير على مَكِناتها "[3] . وذلك ان كثيرا من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير فى وَكْرها فنفّرها؛ فإن أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم . وإن اخذت ذات الشّمال رجع، وهـذا هو البارح عندهم . فنَهى النبىّ صـلى الله عليه وسـلم عن هذا بقوله : " أقِرُّوا الطير على مَكِناتها " هكذا فى الحديث . وأهل العربية يقولون " وُكُناتها " قال آمرؤ القيس :

* وقد أغْتَدِى والطّيرُ فى وُكُناتها *

والوُكْنة : آسم لكلّ وَكْر وعُشّ . والوَكْن : موضع الطائر الذى يبيض فيه ويُفْرِخ، وهو الخرق فى الحيطان والشجر . ويقال : وَكَن الطائر يَكِن وُكونا إذا حضن بيضه . وكان أيضـا من العرب من لا يرى التطيّر شيئا، ويمدحون من كذّب به . قال المُرَقِّش :

(١) هذا مثل يضرب للرجل يسىء الرجل؛ فيقال له : إنه سوف يحسن إليك . وأصل ذلك أن رجلا مرت به ظباء بارحة فقيل له سوف تسنح لك، فقال : من لى ... الخ .
(٢) الدابة الموقرة : التى عليها حمل ثقيل، والموقرة أيضا : التى أصابتها الوقرة، وهى صدع فى الساق .
(٣) مكناتها (بكسر الكاف وقد تفتح) : أى بيضها . وهى فى الأصل بيض الضباب . وقيل : على أمكنتها ومساكنها . قال شمر : والصحيح فى قوله « على مَكِناتها » أنها جمع المَكِنة، والمَكِنة التمكّن . وقال الزمخشرى : ويروى « مُكُناتها » جمع مُكُن، ومُكُن جمع مكان .

ولقــد غَدَوْتُ وكنتُ لا * أغـــدُو على وَاقٍ وحاتِمِ (١)

فإذا الأشــائِمُ كالأيا * مِنِ والأيامِنُ كالأشــائمِ

وقال عكرمة : كنت عند ابن عباس فمرّ طائر يصيح ؛ فقــال رجل من القوم : خير ، خير . فقــال ابن عباس : ما عند هــذا لا خير ولا شر . قال علمــاؤنا : وأما أقوال الطير فلا تعلّق لها بمــا يجعل دلالة عليــه . ولا لهــا علم بكائن فضــلًا عن مســتقبل فتُخبِر به . ولا في الناس من يعلم منطق الطير ؛ إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان عليــه السلام من ذلك . فالتحق التطيّر بجملة الباطل . والله أعلم . وقال عليــه السلام : " ليس مِنّا من تحلّم (٢) أو تكهّن أو ردّه عن ســفره تطيّر " . وروى أبو داود عن عبــد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الطِّيَرة شرك — ثلاثا — وما مِنا إلّا (٣) ولكنّ الله يذهبه بالتوكّل " . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَن رجّعته الطِّيرة عن حاجته فقــد أشرك " . قيل : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟ قال : " أن يقول أحدهم اللّهُمَّ لَا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ولا خَيْرَ إلّا خَيْرُكَ ولا إله غيرُك ثم يمضى لحاجته " . وفى خبر آخر : " إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللّهُمّ لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قُوّةَ إلا بك " . ثم يذهب متوكّلا على الله ؛ فإن الله يكفيه ما وجد فى نفسه من ذلك ، وكفاه الله تعالى ما يُهِمّه . وقد تقدّم فى « المــائدة » الفرق بين الفأل والطيرة . ﴿ أَلَا إِنَّمَــا طَائِرُهُمْ عِنْدَ ٱللهِ ﴾ (٤) وقرأ الحسن « طَيْرُهُم » جمع طائر . أى ما قُدِّر لهم

(١) الواق (بكسر القاف) : الصُّرَد ، وهو طائر أبقع ضخم الرأس يكون فى الشجر ، نصفه أبيض ونصفه أسود . والحاتم : الغراب الأسود . (٢) تحلّم : إذا ادعى الرؤيا كاذبا . (٣) كذا فى مسند أبى داود وبعض نسخ الأصل . قال ابن الأثير : « هكذا جاء فى الحــديث مقطوعا ، ولم يذكر المستثنى . أى إلا وقــد يعتريه التطير ، وتسبق إلى قلبه الكراهة ؛ فحذف اختصارا واعتمادا على فهم السامع ... وقوله : "ولكن الله يذهبه بالتوكل" معناه أنه إذا خطر له عارض التطير فتوكل على الله وســلم إليه ولم يعمل بذلك الخاطر غفره الله له ولم يؤاخذه به » . وفى بعض نسخ الأصــل : « ... وما منا إلا من تطير ... » الخ . (٤) راجع المسألة التاســعة عشرة فى قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة ... » ج ٦ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

وعليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بذنوبهم لا من عند موسى وقومه .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ ﴾ أى قال قوم فرعون لموسى « مهما » . قال الخليل : الأصل ما ، ما ؛ الأولى للشرط ، والثانية زائدة توكيدا للجزاء ؛ كما تزاد في سائر الحروف ، مثلُ إمّا وحيثما وأينما وكيفما . فكرهوا حرفين لفظهما واحد ؛ فأبدلوا من الألف الأولى هاء فقالوا مهما . وقال الكسائي : أصله مَهْ ؛ أى اكفف ، ما تأتنا به من آية . وقيل : هى كلمة مفردة ، يجازى بها ليُجزم ما بعدها على تقدير إنْ . والجواب « فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » ﴿ لِتَسْحَرَنَا ﴾ لتصرفنا عما نحن عليه . وقد مضى في « البقرة »(١) بيان هذه اللفظة . قيل : بقِيَ موسى في القبط بعد إلقاء السحرة سُجَّدًا عشرين سنة يُريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون . فكان هذا قولهم .

قوله تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — روى إسرائيل عن سِمَاك عن نَوْف الشامىّ قال : مكث موسى عليه السلام فى آل فرعون بعد ما غلب السحرةَ أربعين عاما . وقال محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن مِنجاب : عشرين سنة ، يريهم الآيات : الجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ الطُّوفَانَ ﴾ أى المطر الشديد حتى عامُوا فيه . وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت . قال الأخفش : واحدته طوفانة . وقيل : هو مصدر كالرُّجْحَان

(١) راجع ج ٢ ص ٢٠٠ طبعة ثانية .

والنُّقصان ؛ فلا يطلب له واحد . قال النحاس : الطوفان فى اللغة ما كان مُهلِكًا من موت أو سَيْل ؛ أى ما يُطيف بهم فيهلكهم . وقال السُّدِّى : ولم يُصب بنى إسرائيل قطرةٌ من ماء، بل دخل بيوتَ القبط حتى قاموا فى المـاء إلى تَراقيهم(١)، ودام عليهم سبعةَ أيام . وقيل : أربعين يوما . فقالوا : ادع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك؛ فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا . فأنبت الله لهم فى تلك السنة مالم يُنبته قبل ذلك من الكلا والزرع . فقالوا : كان ذلك المـاء نعمة؛ فبعث الله عليهم الجراد وهو الحيوان المعروف ، جمع جرادة فى المذكر والمؤنث . فإن أردت الفصل نعتَّ فقلت رأيت جرادة ذَكَرًا . فأكل زرعهم وثمارهم حتى أنها كانت تأكل السقوف والأبواب حتى تَهدِم ديارهم . ولم يدخل دُورَ بنى إسرائيل منها شىء .

الثالثة — وٱختلف العلماء فى قتل الجراد إذا حَلّ بأرض فأفسد؛ فقيل : لا يقتل . وقال أهل الفقه كلهم : يُقتل . ٱحتج الأولون بأنه خَلْق عظيم من خلق الله يأكل من رزق الله، ولا يَجْرِى عليه القلم . وبما روى "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظمُ" . وٱحتج الجمهور بأن فى تركها فساد الأموال ؛ وقد رخّص النبىّ صلى الله عليه وسلم بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله ؛ فالجراد إذا أرادت فساد الأموال كانت أَوْلى أن يجوز قتلها . الا ترى أنهم اتفقوا على أنه يجوز قتل الحية والعقرب لأنهما يؤذيان الناس فكذلك الجراد . روى ٱبن ماجه عن جابر وأنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دَعا على الجراد قال : "اللّهمّ أهلك كِباره واقتل صغاره وأفسد بيضه وٱقطع دابره وخُذْ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء" . قال رجل : يارسول الله، كيف يدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ قال : "إن الجراد نَثْرَة(٢) الحوت فى البحر" .

الرابعة — ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : غَزَوْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه . ولم يختلف العلماء فى أكله على الجملة،

(١) التراق : جمع الترقوة ، وهى عظم وصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين . (٢) النثرة : شبه العطسة .

وأنه إذا أخذ حَيًّا وقطعت رأسه أنه حلال باتفاق . وأنّ ذلك يتنزّل منه منزلة الذكاة فيه . وإنما آختلفوا هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صِيد أم لا ؛ فعامّتهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك، ويؤكل كيفما مات . وحكمه عندهم حكم الحِيتان، وإليه ذهب آبن نافع ومُطَرِّف . وذهب مالك إلى أنه لا بُدّ له من سبب يموت به ؛ كقطع رءوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك، أو يُصْلق أو يطرح فى النار؛ لأنه عنده من حيوان البر فَمَيْتَتُه محرّمة . وكان اللّيث يكره أكل ميّت الجراد، إلا ما أخذ حَيًّا ثم مات فإن أخذه ذكاة . وإليه ذهب سعيد بن المُسَيِّب . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أحِلّ لنا ميتتان الحُوت والجراد ودمان الكَبِد والطُّحال " . وقال ابن ماجه : حدّثنا أحمد ابن مَنِيع حدّثنا سفيان بن عُيينة عن أبى سعيد سمع أنس بن مالك يقول : كُنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يتهادَيْن الجراد على الأطباق . ذكره ابن المنذر أيضا .

الخامسة — روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله تعالى خلق ألف أُمّة ستمائة منها فى البحر وأربعمائة فى البر وإن أوّل هلاك هذه الأمم الجراد فإذا هلكت الجراد تتابعت الأمم مثل نظام السِّلك إذا انقطع". وذكره التِّرمِذيّ الحكيم فى (نوادر الأصول) قال : وإنما صار الجراد أوّل هذه الأمم هلاكا لأنه خُلق من الطينة التى فَضَلت من طينة آدم . وإنما تهلك الأمم لهلاك الآدميّين لأنها مسخرة لهم .

رجعنا إلى قصة القبط — فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كُشف عنهم الجراد، فدعا فكُشف، وكان قد بَقِيَ من زروعهم شيء فقالوا : يكفينا ما بَقِيَ ؛ ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم القُمّل ، وهو صغار الدَّبَى؛ قاله قَتادة . والدَّبَى : الجراد قبل أن يطير، الواحدة دَباة . وأرض مَدْبِيّة إذا أكل الدَّبَى نباتها . وقال ابن عباس : القُمّل السُّوس الذى فى الحِنطة . وقال ابن زيد : البراغيث . وقال الحسن : دوابّ سود صغار . وقال ابو عبيدة : الحَمْنَان، وهو ضرب من القُرَاد ، واحدها حَمْنانة . فأكلت دوابّهم وزروعهم ، ولزمت جلودهم كأنها الجُدَرِيّ عليهم ،

ومنعهم النومَ والقَرار . وقال حبيب بن ثابت : القُمّل الجِعلان (١) . والقُمّل عند أهـل اللغة ضرب من القِردان . قال أبو الحسن الأعرابِيّ العـدوىّ : القُمّل دوابّ صغار من جنس القردان؛ إلا أنها أصغر منها، واحدتها قُمّلة . قال النحاس : وليس هذا بناقض لمـا قاله أهل التفسير؛ لأنه يجوز أن تكون هـذه الأشياء كلّها أُرْسلت عليهم، وهى أنها كلها تجتمع فى أنها تؤذيهم . وذكر بعض المفسرين أنه كان بعَيْن شَمْس كَثيب من رمل فضربه موسى بعصـاه فصار قُمّـلا . واحد القَمْل قَمْلة . وقيل : القُمَّل القَمْل؛ قاله عطاء الخُراسانِىّ . وفى قراءة الحسن « والقَمْل » بفتح القاف وإسكان الميم . فتضرّعوا فلما كُشف عنهم لم يؤمنوا؛ فأرسل الله عليهم الضفادع؛ جمع ضِفْدِع (٢) وهى المعروفة التى تكون فى الماء، وقد ورد النهى عن قتلها؛ أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح . أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق . وابن ماجه عن محمد بن يحيى النيسابورِىّ الذُّهْلِىّ عن أبى هريرة قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الصُّرَد والضِّفْـدع والنّملة والهُـدهد . وخرّج النَّسائِىّ عن عبد الرحمن آبن عثمان أن طبيبا ذكر ضِفْدعا فى دواء عند النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فنهاه النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتله . صححه أبو محمد عبد الحق . وعن أبى هريرة قال : الصُّرَد أوّل طير صام . ولمّـا خرج إبراهيم عليه السلام من الشأم إلى الحَرَم فى بناء البيت كانت السَّكِينة (٣) معه والصرد؛ فكان الصُّرد دليلَه على الموضع ، والسَّكِينة مقداره . فلما صار إلى البقعة وقعت السَّكِينة على موضع البيت ونادت : اِبْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلّى؛ فنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتل الصّرد لأنه كان دليل إبراهيم على البيت، وعن الضفدع لأنها كانت تصبّ الماء على نار إبراهيم . ولمّـا تسلّطت على فرعون جاءت فأخذت الأمكنة كلها ، فلما صارت إلى التَّنُّور وثَبَتْ فيهـا وهى نار تسعر ، طاعةً لله . فجُعل نَقيقها تسبيحا . يقال : إنهـا أكثر الدواب تسبيحا . وقال عبد الله بن عمرو : لا تقتلوا الضّفدع فإن نقيقه الذى تســمعون تسبيح . فرُوى أنها ملأت

---

(١) الجعلان (بكسر الجيم جمع جُعَل كصرد) وهو دابة سوداء من دواب الأرض .

(٢) الضفدع : بفتح الضاد والدال وبكسرهما وسكون الفاء . (٣) السكينة : ريح خجوج ، أى سريعة المر .

فرشهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم؛ فكان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ، وإذا تكلّم وثب الضّفدع فى فيه . فشكوْا إلى موسى وقالوا : نتوب ؛ فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم؛ فأرسل الله عليهم الدم فسال النيل دماً . وكان الإسرائيلىّ يغترف منه الماء، والقبطىُّ الدمَ . وكان الإسرائيلى يَصُبّ الماء فى فم القبطى فيصير دماً ، والقبطىُّ يصب الدم فى فم الإسرائيلى فيصير ماء زلالا . ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ أى مبيّنات ظاهرات؛ عن مجاهد . قال الزجاج : « آيات مفصّلات » نصب على الحال . ويروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام . وقيل : أربعون يوما . وقيل : شهر؛ فلهذا قال « مفصلات » . ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أى ترفّعوا عن الإيمان بالله تعالى .

قوله تعالى : وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ أى العذاب . وقرئ بضم الراء، لغتان . قال ابن جبير : كان طاعونا مات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفا . وقيل : المراد بالرجز ما تقدم ذكره من الآيات . ﴿ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ « ما » بمعنى الذى، أى بما استودعك من العلم، أو بما اختصّك به فنبأك(1) . وقيل : هذا قسَم، أى بعهده عندك إلّا ما دعوت لنا ؛ فـ « ما » صلة . ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ﴾ أى بدعائك لإلهك حتى يكشف عنا . ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ أى نصدّقك بما جئت به . ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ وكانوا يستخدمونهم، على ما تقدم . ﴿ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ ﴾ يعنى أجلهم الذى ضُرب لهم فى التفريق . ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أى ينقضون ما عقدوه

(1) كذا فى جميع نسخ الأصل؛ وظاهر أنها مصدرية .

على أنفسهم . ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ واليمّ البحر . ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا ﴾ أى النقمة . دلّ عليها «فانتقمنا» . وقيل : عن الآيات إن لم يعتبروا بها حتى صاروا كالغافلين عنها .

قوله تعالى : وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ ﴾ يريد بنى إسرائيل . ﴿ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ أى يُسْتَذَلّون بالخدمة . ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ زعم الكسائى والفرّاء أن الأصل « فى مشارق الأرض ومغاربها » ثم حذف « فى » فنصب . والظاهر أنهم وَرِثوا أرض القبط . فهما نصب على المفعول الصريح؛ يقال : ورِثت المال وأورثته المال؛ فلما تعدّى الفعل بالهمزة نصب مفعولين . والأرض هى أرض الشام ومصر . ومشارقها ومغاربها جهاتُ الشرق والغرب بها ، فالأرض مخصوصة؛ عن الحسن وقَتادة وغيرهما . وقيل : أراد جميع الأرض؛ لأن من بنى إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الأرض . ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى بإخراج الزروع والثمار والأنهار . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ هى قوله « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ »[1] . ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى بصبرهم على أذى فرعون، وعلى أمر الله بعد أن آمنوا بموسى . ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ يقال : عَرَش يَعْرِش إذا بَنَى . قال ابن عباس ومجاهد : أى ما كانوا يبنون من القصور وغيرها . وقال الحسن : هو تعريش الكَرْم . وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم « يَعْرُشون » بضم الراء . قال الكسائىّ : هى لغة تميم . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلَة « يُعرِّشون » بتشديد الراء وضم الياء .

(١) آية ٥ سورة القصص .

قوله تعالى : وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ قرأ حمزة والكسائيّ بكسر الكاف ، والباقون بضمها . يقال : عَكَف يَعْكِف ويَعْكُف بمعنى أقام على الشيء ولزمه . والمصدر منهما على فُعول . قال قَتادة : كان أولئك القوم من لَخْم ، وكانوا نزولا بالرَّقة . وقيل : كانت أصنامهم تماثيلَ بقر ؛ ولهذا أخرج لهم السامِرِيّ عجلا . ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ نظيره قول جُهَّال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تُسَمَّى ذاتَ أنواط[1] يعظّمونها في كل سنة يوما : يا رسول الله ، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط . فقال عليه الصلاة والسلام : " الله أكبر . قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون لتركَبُنّ سَنن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة[2] حتى إنهم لو دخلوا جحر ضَبّ لدخلتموه " . وكان هذا فى مَخْرجه إلى حُنَين ، على ما يأتى بيانه فى « براءة »[3] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ أى مُهْلَك . والتّبار : الهلاك . وكل إناء منكسر مُتَبَّر . وأمر مُتَبَّر . أى أن العابد والمعبود مهلكان . وقوله : ﴿ وَبَاطِلٌ ﴾ أى ذاهب

(١) ينوطون بها سلاحهم ، أى يعلقونه .

(٢) القذة : ريش السهم . قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٣) فى قوله تعالى : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ..... » آية ٢٥

ومُضمَحِل . ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « كانوا » صـلة زائدة . ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ أى أطلب لكم إلهاً غيرَ الله تعـالى . يقال : بغيته و بغيت له .﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ أى على عالمِي زمانكم . وقيـل : فضلّهم بإهـلاك عدوّهم ، و بمـا خصّهم به من الآيات .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

ذكّرهم منّته . وقيل : هو خطاب ليهود عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم . أى وآذكروا إذا أنجينا أسلافكم، حسب ما تقدّم بيانه فى سورة « البقرة » (١) .

قوله تعـالى : وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذكر أن مما كرّم به موسى عليـه السلام هـذا . فكان وعده المناجاة إكراماً له . ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ قال آبن عباس ومجاهد ومسروق رضى الله عنهم : هى ذو القَعدة وعشر من ذى الحجة . أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيـه بالعبادة؛ فلمـا صامه أنكر خُلوف فَمِـه فآستاك . قيل : بعود خَرْنُوب؛ فقالت الملائكة : إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسّواك . فزيد عليـه عشرُ ليالٍ من ذى الحجة . وقيل : إن الله تعالى أوحى إليه لمـا آستاك : ” ياموسى لا أكلّمك حتى يعود

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

فُوك إلى ما كان عليه قبلُ . أمَا علمتَ أن رائحة الصائم أحبُّ إلىّ من ريح المسك " .
وأمره بصيام عشرة أيام . وكان كلام الله تعالى لموسى غداةَ النحر حين فَدَى إسماعيل من الذبح ، وأكمل لمحمد صلى الله عليه وسلم الحج . وحذفت الهاء من عشر لأن المعدود مؤنّث .
والفائدة فى قوله « فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبعين ليلةً » وقد عُلم أن ثلاثين وعشرة أربعون ، لئلا يُتوهّم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ؛ فبيّن أن العشر سوى الثلاثين . فإن قيل : فقد قال فى البقرة أربعين وقال هنا ثلاثين ؛ فيكون ذلك من البُداء . قيل : ليس كذلك ؛ فقد قال : « وأتممناها بعشر » والأربعون والثلاثون والعشرة قول واحد ليس بمختلف . وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف ، قال أربعين فى قولٍ مؤلّف ، وقال ثلاثين ، يعنى شهرا متتابعا وعشرا . وكل ذلك أربعون ؛ كما قال الشاعر :

* عشر وأربع ... *

يعنى أربع عشرة ، ليلة البدر . وهذا جائز فى كلام العرب .

الثانيــة — قال علماؤنا : دلّت هذه الآية على أن ضَرْب الأجل للواعدة سُنّةٌ ماضية ، ومعنًى قديمٌ أسّسه الله تعالى فى القضايا ، وحَكَم به للأمم ، وعرّفهم به مقادير التأنّى فى الأعمال .
وأوّل أجل ضربه الله تعالى الأيام السّتة التى خلق فيها جميع المخلوقات ، « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ »(١) . وقد بيّنا معناه فيما تقدم فى هذه السورة من قوله : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ »(٢) . قال ابن العربىّ : فإذا ضُرب الأجل لمعنًى يحاوَل فيه تحصيلُ المؤجَّل فجاء الأجل ولم يتيسّر زِيد فيه تبصرةً ومعذرة . وقد بيّن الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام فضرب له أجلا ثلاثين ثم زاده عشرا تتمة أربعين . وأبطأ موسى عليه السلام فى هذه العشر على قومه ؛ فما عَقَلوا جواز التأنّى والتأخر حتى قالوا : إن موسى ضلّ أو نَسِىَ ، ونكثوا عهده وبدّلوا بعده ، وعبدوا إلٰهًا غيرَ الله . وقال ابن عباس : إن موسى قال لقومه : إنّ رَبّى وعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأُخْلُف فيكم

(١) آية ٣٨ سورة ق .	(٢) آية ٥٤

هارون، فلما فَصَل[(١)] موسى إلى ربّه زاده الله عشرا؛ فكانت فتنتهم في العشر الذي زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل؛ على ما يأتي بيانه . ثم الزيادة التي تكون على الأجل تكون مقدّرة؛ كما أن الأجل مقدّر . ولا يكون إلا بآجتهاد من الحاكم بعد النّظر إلى المعاني المتعلّقة بالأمر: من وقت وحال وعمل، فتكون مثل ثلث المدة السالفة؛ كما أجّل الله لموسى . فإن رأى الحاكم أن يجمع له الأصل في الأجل والزيادة في مدة واحدة جاز، ولكن لا بُدّ من التربّص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر؛ قاله ابن العربيّ . روى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أعْذَر الله إلى آمرئ أخّر أجله حتى بلّغه[(٢)] ستين سنة" .

قلت : وهذا أيضا أصلٌ لأعذار الحُكّام إلى المحكوم عليه مرّة بعد أخرى . وكان هذا لُطْفًا بالخلق، ولينفّذ القُيّام عليهم بالحق . يقال . أعْذَر في الأمر أي بالغ فيه؛ أي أعذر غاية الإعذار الذي لا إعذار بعده . وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم لتتمّ حُجّته عليهم؛ «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»[(٣)] . وقال : «وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ»[(٤)] قيل : هم الرسل . ابن عباس : هو الشّيب . فإنه يأتي في سِنّ الاكتمال، فهو علامة لمفارقة سِنّ الصِّبا . وجعل الستين غاية الإعذار لأن الستّين قريب من معترَك العباد . وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام له، وترقّب المنيّة ولقاء الله؛ ففيه إعذار بعد إعذار . الأوّل بالنبيّ عليه السلام، والثاني بالشّيب؛ وذلك عند كمال الأربعين؛ قال الله تعالى : «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ»[(٥)] . فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نِعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها . قال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتي لاحدهم أربعون سنة؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس .

الثالثة — ودلّت الآية أيضا على أن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام؛ لقوله : «ثَلَاثِينَ لَيْلَةً» لأن الليالي أوائل الشهور . وبها كانت الصحابة رضي الله عنهم تخبر عن

---

(١) فصل : خرج . (٢) أي لم يبق فيه موضعا للاعتذار حيث أمهله طول هذه المدة ولم يعتذر .
(٣) آية ١٥ سورة الإسراء . (٤) آية ٣٧ سورة فاطر . (٥) آية ١٥ سورة الأحقاف .

الأيام؛ حتى رُوى عنها أنها كانت تقول : صمنا خمسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . والعجم تخالف فى ذلك، فتحسُب بالأيام لأن معوّلها على الشمس . ابن العربى : وحسابُ الشمس للمنافع، وحسابُ القمر للناسك؛ ولهذا قال: « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » . فيقال: أرّخت تاريخا، وورّخت توريخا؛ لغتان .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ المعنى : وقال موسى حين أراد المُضِىّ للمناجاة والمَغيب فيها لأخيه هارون : كُنْ خليفتى؛ فدلّ على النيابة . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وَقّاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلىّ حين خلّفه فى بعض مغازيه : "أَمَا تَرْضَى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى" . فاستدلّ بهذا الروافضُ الإماميّة وسائرُ فرقِ الشِّيعَة على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم استخلف عَلِيًّا على جميع الأمّة ؛ حتى كفّر الصحابةَ الإماميةُ — قبحهم الله — لأنهم عندهم تركوا العمل الذى هو النّص على استخلاف علىّ وآستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم . ومنهم من كَفّر عَلِيًّا إذ لم يقم بطلب حقه . وهؤلاء لا شك فى كفرهم وكُفْر مَن تبعهم على مقالتهم، ولم يعلموا أن هذا آستخلافٌ فى حياةٍ، كالوَكالة التى تنقضى بعزل الموكِّل أو بموته، لا يقتضى أنه متمادٍ بعد وفاة ؛ فينحلّ على هذا ما تعلّق به الإمامية وغيرُهم . وقد آستخلف النبىّ صلى الله عليه وسلم على المدينة آبنَ أمّ مَكْتُوم وغيرَه . ولم يلزم من ذلك استخلافه دائما بالاتفاق . على أنه قد كان هارون شُرِّك مع موسى فى أصل الرسالة ، فلا يكون لهم فيه على ما راموه دِلالة . والله الموفق للهداية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ أمرٌ بالإصلاح . قال ابن جُرَيج : كان من الإصلاح أن يزجر السامرىّ ويغيّر عليه . وقيل : أى آرفق بهم، وأصلح أمرهم، وأصلح نفسك؛ أى كن مصلحا . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عونا للظالمين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ أى فى الوقت الموعود . ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أى أسمعه كلامه من غير واسطة . ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ سأل النّظر إليــه ، وٱشتاق إلى رؤيته لمّا أسمعه كلامه . ف﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِى ﴾ أى فى الدنيا . ولا يجوز الحَمْل على أنه أراد : أرنى آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ؛ لأنه قال « إليك » و « قال لن ترانى » . ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل ، كما أعطاه سائر الآيات . وقــد كان لموسى عليــه السلام فيها مَقْنَع عن طلب آية أخرى ؛ فبطل هــذا التأويل . ﴿ وَلَكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ ضَرب له مثالا مما هو أقوى من بنيته وأثبت . أى فإن ثبت الجبل وسكن فسوف ترانى، وإن لم يسكن فإنك لاتطيق رؤيتى، كما أن الجبــل لايطيق رؤيتى . وذكر القاضى عِياض عن القــاضى أبى بكر بن الطّيب ما معناه : أن موسى عليــه السلام رأى الله فلذلك خَرَّ صَعِقا ، وأن الجبــل رأى ربّه فصار دَكًّا بإدراكٍ خلقه الله له . وٱستَنْبط ذلك من قوله : « ولكن ٱنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى » . ثم قال ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ وتجلّى معناه ظهر ؛ من قولك : جَلَوْت العروس أى أبرزتها . وجَلَوْت السيف أبرزته من الصّدأ ؛ جِلاءً فيهما . وتجلّى الشىء ٱنكشف . وقيل : تجلّى أمره وقدرته ؛ قاله قُطْرُب وغيره . وقراءة أهل المدينــة وأهل البصرة « دَكًّا » . يدلّ على صحتها « دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا »(١) وأن الجبل مذكر . وقرأ أهل الكوفة « دَكَّاء » أى جعله مثل أرض دكاء، وهى الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلا . والمذكّر أدكّ . وجمع دكاء دكّاوات ودُكّ ؛ مثل

(١) آية ٢١ سورة الفجر .

حَمْراوات وحُمْر . قال الكسائى : الدَّكّ من الجبال : العِراض ، واحدها أدَكّ . غيره : والدَّكَّاوات جمع دَكّاء : روابٍ من طين ليست بالغِلاظ . والدَّكَادِك كذلك من الرمل : ما التبد بالأرض فلم يرتفع . وناقة دَكّاء لا سَنام لها . وفى التفسير : فساخ الجبل فى الأرض ، فهو يذهب فيها حتى الآن . وقال ابن عباس : جعله ترابا . عَطِيّة العَوْفى : رملا هائلا . ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ أى مغشيًّا عليه ؛ عن آبن عباس والحسن وقتادة . وقيل : ميتا ؛ يقال : صَعِق الرجل فهو صَعِق . وصُعِق فهو مصعوق . وقال قتادة والكَلْبِىّ : خَرّ موسى صَعِقا يومَ الخميس يوم عَرَفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النّحر . ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : من مسألة الرؤية فى الدنيا . وقيل : سأل من غير آستئذان ؛ فلذلك تاب . وقيل : قاله على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات . وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية ؛ فإن الأنبياء معصومون . وأيضا عند أهل السنة والجماعة الرؤيةُ جائزةٌ . وعند المبتدِعة سأل لأجل القوم ليبيّن لهم أنها غير جائزة ، وهذا لا يقتضى التوبة . فقيل : أى تبت إليك من قتل القبطى ؛ ذكره القُشَيْرِىّ . وقد مضى فى « الأنعام »(١) بيان أن الرؤية جائزة . قال علىّ بن مهدِىّ الطبرىّ : لو كان سؤال موسى مستحيلا ما أقدم عليه مع معرفته بالله ؛ كما لم يجز أن يقول له يا ربّ ألك صاحبة وولد . وسيأتى فى « القيامة » مذهب المعتزلة والردّ عليهم ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : مِن قومى . وقيل : من بنى إسرائيل فى هذا العصر . وقيل : بأنك لا تُرى فى الدنيا لوعدك السابق فى ذلك . وفى الحديث الصحيح من حديث أبى هريرة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تُخَيِّروا بين الأنبياء فإن الناس يَصعَقون يوم القيامة فأرفع رأسى فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أصعق فيمن صعق فأفاق قبلى أو حوسب بصعقته الأولى " . أو قال " كفته صعقته الأولى " . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن كعب قال : إن الله تبارك وتعالى قسّم كلامه

(١) آية ١٠٣ ص ٥٤ من هذا الجزء .

ورؤيته بين محمد وموسى صلى الله عليهما ؛ فكلّمه موسى مرّتين ، ورآه محمد صلى الله عليه وسلم مرّتين .

قوله تعالى : قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ الاصطفاء : الاجتباء ؛ أي فضّلتك . ولم يقل على الخلق لأن من هذا الاصطفاء أنه كلّمه وقد كلّم الملائكة ، وأرسله وأرسل غيره . فالمراد « على الناس » المرسل إليهم . وقرأ « برسالتي » على الإفراد نافعٌ وابنُ كثير . والباقون بالجمع . والرسالة مصدر، فيجوز إفرادها . ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها ، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه ؛ كما قال : « إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ »(١) . فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوتين . ووحّد في قوله « لَصَوْتُ » لما أراد به جنسا واحدا من الأصوات . ودلّ هذا على أن قومه لم يشاركه في التكليم ولا واحد من السبعين ؛ كما بيناه في « البقرة »(٢) .

قوله تعالى : ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ إشارة إلى القناعة ؛ أي اقنع بما أعطيتك . ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي من المظهرين لإحساني إليك وفضلي عليك ؛ يقال : دابة شكُور إذا ظهر عليها من السِّمن فوق ما تُعْطَى من العَلَف . والشاكر معترض للمزيد كما قال : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ »(٣) . ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلّمه الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل .

قوله تعالى : وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

(١) آية ١٩ سورة لقمان . (٢) راجع ج ٢ ص ١ طبعة ثانية . (٣) آية ٧ سورة إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد التوراة . ورُوى فى الخبر أنه قبض عليه جبريلُ عليه السلام بجناحه فمرّ به فى العُلَا حتى أدناه حتى سَمِع صَرِيف القلم حين كتب الله له الألواح ؛ ذكره الترمذيّ الحكيم . وقال مجاهد : كانت الألواح من زُمُرُّدة خضراء . ابن جُبير : من ياقوتة حمراء . أبو العالية : من زَبَرْجَد . الحسن : من خشب؛ نزلت من السماء . وقيل : من صخرة صمّاء ، لَيّنها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقّها بأصابعه ؛ فأطاعته كالحديد لداود . قال مُقاتل : أى كتبنا فى الألواح كنقش الخاتم . ربيع بن أنس : نزلت التوراة وهى سبعون وِقْر(١) بعير. وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف ؛ إذ هى مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذى كتب به الذّكر . وآستُمِدّ من نهر النور . وقيل : هى كتابة أظهرها الله وخلقها فى الألواح . وأصل اللّوح : اللّمع (بفتح اللام) ؛ قال الله تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »(٢) . فكأن اللّوح تلوح فيه المعانى . ويروى أنها لوحان ، وجاء بالجمع لأن الآثنين جمع . ويقال : رجل عظيم الألواح إذا كان كبيرَ عظم اليدين والرجلين . ابن عباس : وتكسّرت الألواح حين ألقاها فرفعت إلا سُدْسها . وقيل : بقى سُبُعها ورفعت ستّة أسباعها . فكان فى الذى رفع تفصيل كل شىء ، وفى الذى بقِى الهدى والرحمة . وأسند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دِينار قال : بلغنى ان موسى بن عِمران نبىّ الله صلى الله عليه وسلم صام أربعين ليلة ؛ فلما ألقى الألواح تكسّرت فصام مثلَها فردّت إليه . ومعنى ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ممـا يحتاج إليه فى دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام ؛ عن الثَّوْرِيّ وغيره . وقيل : هو لفظ يُذكر تفخيما ولا يراد به التعميم ؛ تقول : دخلت السّوق فاشتريت كل شىء . وعند فلان كلّ شىء . وتُدمِّر كلّ شىء . وأوتيت كل شىء . وقد تقدم . ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى لكل شىء أُمِروا به من الأحكام ؛ فإنه لم يكن عندهم اجتهاد ، وإنما خصّ بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فقلنا له خذها

(١) الوقر (بكسر الواو) : الحمل الثقيل . وعم بعضهم به الثقيل والخفيف وما بينهما .

(٢) آخر سورة البروج .

بقوة؛ أى بجِدّ ونشاط . نظيره « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ » (١) وقد تقدّم . ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ أى يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهى ، ويتدبّروا الأمثال والمواعظ . نظيره « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » (٢) . وقال : « فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » (٣) . والعفو أحسنُ من الاقتصاص . والصبر أحسن من الانتصار . وقيل : أحسنها الفرائض والنوافل . وأدونها المباح . ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال الكلبى : « دار الفاسقين » ما مرّوا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود ، والقرون التى أهلكوا . وقيل : هى جهنم؛ عن الحسن ومجاهد . أى فلتكن منكم على ذُكْر ، فاحْذَرُوا أن تكونوا منها . وقيل : أراد به مصر؛ أى سأريكم ديار القبط ومساكن فرعون خاليةً عنهم؛ عن ابن جُبير . قَتادة : المعنى سأريكم منازل الكفار التى سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها؛ يعنى الشأم . وهذان القولان يدل عليهما « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ » (٤) الآية . « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ » (٥) الآية ، وقد تقدّم . وقرأ ابن عباس وقَسَامة بن زهير « سأورثكم » من ورث . وهذا ظاهر . وقيل : الدار الهلاك ، وجمعه أدوار . وذلك أن الله تعالى لما أغرق فرعون أوحى إلى البحر أن اقذف بأجسادهم إلى الساحل ، قال ففعل؛ فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين .

قوله تعالى : سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

(١) راجع ج ١ ص ٤٣٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٥٥ سورة الزمر .
(٣) آية ١٨ سورة الزمر . (٤) آية ١٣٧ من هذه السورة . (٥) آية ٥ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قال قتادة : سأمنعهم فَهْمَ كتابي . وقاله سُفيان بن عُيينة . وقيل : سأصرفهم عن الإيمان بها . وقيل : سأصرفهم عن نفعها ؛ وذلك مجازاة على تكبّرهم . نظيره : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »(١) . والآيات على هذا المعجزاتُ أو الكتبُ المنزّلة . وقيل : خَلْق السموات والأرض . أي أصرفهم عن الاعتبار بها . ﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ يَرَوْن أنهم أفضل الخلق . وهذا ظنّ باطل ؛ فلهذا قال : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فلا يتبعون نبيًّا ولا يُصْغون إليه لتكبّرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ يعني هؤلاء المتكبرون . أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتّبعون سبيل الغَيّ والضلال ؛ أي الكفر يتخذوه دينا . ثم علّل فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي ذلك الفعل الذي فعلته بهم بتكذيبهم . ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي كانوا في تركهم تدبّر الحق كالغافلين . ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يُجازون به ؛ كما يقال : ما أغفل فلان عما يراد به . وقرأ مالك بن دينار « وإن يُروا » بضم الياء في الحرفين ؛ أي يفعل ذلك بهم . وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة « سَبِيلَ الرُّشْد » بضم الراء وإسكان الشين . وأهل الكوفة إلا عاصما « الرَّشَد » بفتح الراء والشين . قال أبو عبيد : فرّق أبو عمرو بين الرُّشْد والرَّشَد فقال : الرُّشْد في الصلاح . والرَّشَد في الدِّين . قال النحاس : « سيبويه يذهب إلى أن الرُّشْد والرَّشَد مثل السُّخْط والسَّخَط ، وكذا قال الكسائي . والصحيح عن أبي عمرو غيرُ ما قال أبو عبيد . قال إسماعيل بن إسحاق : حدّثنا نصر بن عليّ عن أبيه عن أبي عمرو بن العلاء قال : إذا كان الرُّشْد وسطَ الآية فهو مسكّن ، وإذا كان رأس الآية فهو محرّك . قال النحاس : يعني برأس الآية نحو « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا »(٢) فهما عنده لغتان بمعنًى واحد ؛ إلا أنه فتح هذا لتتفق الآيات . ويقال : رَشَد يَرْشُد ، ورَشُد يَرْشُد . وحكى سيبويه رَشِد يَرْشَد . وحقيقة الرُّشْد والرَّشَد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضدّ الخيبة » .

---

(١) آية ٥ سورة الصف . (٢) آية ١٠ سورة الكهف .

قوله تعالى : وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد خروجه إلى الطُّور . ﴿ من حُلِيِّهِمْ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « من حِلِيِّهِمْ » بكسر الحاء . وقرأ يعقوب « من حَلْيِهِمْ » بفتح الحاء والتخفيف . قال النحاس : جمع حَلْيٍ حُلِيٌّ وحِلِيٌّ ؛ مثل ثَدْى وثُدِيّ وثِدِيّ . والأصل « حلُوى » ثم أدغمت الواو فى الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء ، وتكسر الحاء لكسرة اللام . وضمها على الأصل . ﴿ عِجْلًا ﴾ مفعول . ﴿ جَسَدًا ﴾ نعت أو بدل . ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ رفع بالابتداء . يقال : خار يَخُور خُوارًا إذا صاح . وكذلك جَأر يَجْأَر جُؤارا . ويقال : خَوِر يَخْوَر خَوَرا إذا جَبُن وضَعُف . ورُوى فى قصص العجل : أن السّامِرِيّ ، واسمه موسى بن ظفر ، ينسب إلى قرية تدعى سَامِرة . وُلد عام قَتْل الأبناء ، وأخفته أمه فى كهف جبل فغذّاه جبريل فعرفه لذلك ؛ فأخذ حين عبر البحر على فرس وَدِيق[1] ليتقدّم فرعونَ فى البحر قبضةً من أثر حافر الفرس . وهو معنى قوله « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ[2] » . وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوما ، فلما أبطأ فى العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبنى إسرائيل وكان مطاعا فيهم : إن معكم حُلِيًّا من حُلِيّ آل فرعون ، وكان لهم عيد يتزيّنون فيه ويستعيرون من القبط الحُلِيّ فاستعاروا لذلك اليوم ؛ فلما أخرجهم الله من مصر وغرّق القبط بَقِىَ ذلك الحُلِيّ فى أيديهم ، فقال لهم السّامِرِيّ : إنه حرام عليكم ، فهاتوا ما عندكم فنحرقه . وقيل : هذا الحلىّ ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق ، وأن هارون قال لهم : إن الحُلِيّ غنيمة ، وهى لا تحِلّ لكم ؛ فجمعها فى حُفْرة حَفَرها فأخذها السّامِرِيّ . وقيل : استعاروا الحلىّ ليلةَ أرادوا الخروج من مصر ، وأوهموا القبط أن لهم عرسا أو مجتمعًا ،

---

(١) أى تشتهى الفحل . (٢) آية ٩٦ سورة طه .

وكان السّامِرِيّ سمع قولهم «اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» . وكانت تلك الآلهة على مثال البقر؛ فصاغ لهم عجلا جسدا . أى مُصْمَتًا؛ غير أنهم كانوا يسمعون منه خُوارا . وقيل : قلبه الله لحما ودما. وقيل : إنه لما ألقى تلك القبضة من التراب فى النار على الحُلِيّ صار عجلا له خُوار؛ فخار خَوْرة واحدة ولم يُثَنّ . ثم قال للقوم : « هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ »[1] . يقول : نَسيه ها هنا وذهب يطلبه فضلّ عنه؛ فتعالَوْا نعبد هذا العجل . فقال الله لموسى وهو يناجيه : « فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ »[2] . فقال موسى : يا ربّ، هذا السامرىّ أخرج لهم عجلا من حليهم، فمن جعل له جسدا ! يريد اللحم والدّم ، ومن جعل له خوارا ! فقال الله : أنا . فقال : وعِزّتك وجلالك ما أضلّهم غيرُك . قال : صدقت يا حكيم الحكماء . وهو معنى قوله : « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ »[3] . وقال القفّال : كان السّامِرِيّ احتال بأن جوّف العجل ، وكان قابل به الريح، حتى جاء من ذلك ما يُحاكى الخُوار، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح فى الجسد من التراب الذى كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل . وهذا كلام متهافت؛ قاله القُشَيْرِيّ .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ بيّن أن المعبود يجب أن يتّصف بالكلام . ﴿ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ أى طريقا إلى حجة . ﴿ اتَّخَذُوهُ ﴾ أى إلها . ﴿ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أى لأنفسهم فيما فعلوا من اتخاذه . وقيل : وصاروا ظالمين أى مشركين لجعلهم العجل إلهًا .

قوله تعالى : وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أى بعد عَوْد موسى من الميقات . يقال للنادم المتحيّر : قد سُقط فى يده . قال الأخفش : يقال سُقط فى يده، وأُسقط . ومن قال: سَقط فى أيديهم على بناء الفاعل ؛ فالمعنى عنده : سَقط الندم ؛ قاله الأزهرِيّ والنحاس وغيرهما .

(١) آية ٨٨ سورة طه .　(٢) آية ٨٥ سورة طه .　(٣) آية ١٥٥ من هذه السورة .

والندم يكون فى القلب، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصّل على شىء : قد حَصل فى يده أمر كذا ؛ لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ »[1] . وأيضا : الندم و إن حَلّ فى القلب فأثره يظهر فى البدن ؛ لأن النادم يعضّ يده، و يضرب إحدى يديه على الأخرى؛ قال الله تعالى : «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا»[2] أى ندم . «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ»[3] أى من الندم . والنادم يضع ذقنه فى يده . وقيل : أصله من الاستئسار، وهو أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرَعه فيرمىَ به من يديه إلى الأرض ليأسره أو يكتّفه ؛ فالمرمىُّ به مسقوط فى يد الساقط . ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ أى ٱبتلوا بمعصية الله . ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أخذوا فى الإقرار بالعبودية والاستغفار . وقرأ حمزة والكسائىّ « لئن لَمْ ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا » بالتاء على الخطاب . وفيه معنى الاستغاثة والتضرُّع والابتهال فى السؤال والدعاء . «ربَّنا» بالنصب على حذف النداء . وهو أيضا أبلغ فى الدعاء والخضوع . فقراءتهما أبلغ فى الاستكانة والتضرّع، فهى أوْلى .

قوله تعالى : وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٥١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ لم ينصرف « غَضْبَانَ » لأن مؤنّثه غَضْبَى ، ولأن الألف والنون فيه بمنزلة ألفى التأنيث فى قولك حمراء . وهو نصب على الحال . و « أَسِفًا » شديد الغضب . قال أبو الدَّرداء : الأسف منزلةٌ وراء الغضب أشد من ذلك . وهو أَسِف وأسِيف وأَسْفان وأَسُوف . والأسيف أيضا الحزين . ابن عباس

(١) آية ١٠ سورة الحج . (٢) آية ٤٢ سورة الكهف . (٣) آية ٢٧ سورة الفرقان .

والسُّدِّى : رجع حزينا من صنيع قومه . وقال الطبرىّ : أخبره الله عز وجل قبل رجوعه أنهم قد فُتِنوا بالعجل؛ فلذلك رجع وهو غضبان . ابن العربىّ : وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضبا، لكنه كان سريعَ الفَيئة (١)؛ فتلك بتلك . قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : كان موسى عليه السلام إذا غَضِب طلع الدُّخَان من قَلَنْسُوَته، ورفع شعرُ بدنه جُبَّته . وذلك أن الغضب جَمْرة تتوقّد فى القلب . ولأجله أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم مَن غَضب أن يضطجع ، فإن لم يذهب غضبُه آغتسل؛ فيُخْمِدها اضطجاعُه و يطفئها اغتساله . وسُرْعةُ غضبه كان سببا لصكّه مَلَكَ الموت ففقأ عينه . وقد تقدّم فى « المائدة » (٢) ما للعلماء فى هذا . وقال الترمذىّ الحكيم : و إنما آستجاز موسى عليه السلام ذلك لأنه كليم الله؛ كأنه رأى أن من آجترأ عليه أو مدّ إليه يدا بأذًى فقد عَظُم الخطب فيه . ألا ترى أنه آحتجّ عليه فقال : من أين تنزع روحى ؟ أمن فِى وقد ناجيت به ربى! أم مِن سمعى وقد سمعتُ به كلام ربِّى ! أم مِن يدى وقد قبضتُ منه الألواح ! أم مِن قدمى وقد قمتُ بين يديه أكلمه بالطُّور ! أم مِن عينى وقد أشرق وجهى لنوره . فرجع إلى ربّه مُفْحَمًا . وفى مُصَنَّف أبى داود عن أبى ذَرٍّ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : " إذا غَضِب أحدكم وهو قائم فلْيجلس فإن ذهب عنه الغضب و إلا فلْيضطجع " . وروى أيضا عن أبى وائل القاص قال : دخلنا على عروة بن محمد السّعدىّ فكلمه رجل فأغضبه ؛ فقام ثم رجع وقد توضأ ، فقال : حدّثنى أبى عن جدّى عطيّة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الغضب من الشيطان و إنّ الشيطان خُلق من النار و إنما تُطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فلْيتوضأ " .

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى ﴾ ذَمٌّ منه لهم؛ أى بئس العملُ عمِلتم بعدى . يقال : خَلَفه ، بما يكره . و يقال فى الخير أيضا . يقال منه : خَلَفه بخير أو بشر فى أهله وقومه

(١) الفيئة (بفتح الفاء وكسرها) : الحالة من الرجوع عن الشىء الذى يكون قد لابسه الإنسان و باشره .

(٢) فى قوله تعالى : « قال فإنها محرمة عليهم ... » آية ٢٦ جـ ٦ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

بعـد شخوصه . ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أى سبقتموه . والعَجَلة : التقدّم بالشيء قبـل وقته، وهى مذمومة . والسرعة : عَمَل الشيء فى أوّل أوقاته ، وهى محمودة . قال يعقوب : يقال عجلت الشيء سبقته . وأعجلت الرجل آستعجلته ، أى حملته على العجلة . ومعنى « أَمْرَ رَبِّكُمْ » أى ميعاد ربكم ، أى وعد أربعين ليلة . وقيل : أى تعجّلتم سخط ربكم . وقيل : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمرٌ من ربكم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ أى مما آعتراه من الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وعلى أخيه فى إهمال أمرهم؛ قاله سعيد بن جُبير . ولهذا قيل : ليس الخبر كالمعاينة . ولا التفات لمـا رُوى عن قَتادة إن صح عنه . ولا يصحّ أن إلقاءه الألواح إنما كان لِمـا رأى فيها من فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن ذلك لأُمّته . وهذا قول رديء لا ينبغي أن يضاف إلى موسى عليه السلام . وقد تقدّم عن آبن عباس رضى الله عنه أن الألواح تكسّرت، وأنه رُفع منها التفصيل وبَقِيَ الهدى والرحمة .

الثانيـــة — وقـد آستدلّ بعض جُهّال المتصوّفة بهذا على جواز رَمْى الثياب إذا آشتد طربُهم على المَغْنَى . ثم منهم من يرمى بها صِحاحا، ومنهم من يُخرّقها ثم يرمى بها . قال : هؤلاء فى غيبة فلا يُلامون ؛ فإن موسى عليه الســلام لمـا غلب عليــه الغم بعبادة قومه العجلَ، رمى الألواح فكسرها، ولم يدر ما صنع . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : من يصحّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْىَ كاسر ، والذى ذُكر فى القرآن ألقاها فمن أين لنا أنها تكسرت . ثم لو قيل تكسرت فمن أين لنا أنه قصـد كسرها . ثم لو صححنا ذلك عنه قلنا كان فى غيبة ، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخـاضه . ومَن يصحّح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغنى من غيره ، ويحذرون من بئر لو كانت عندهم . ثم كيف تقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلا السفهاء . وقد سئل ابن عقيل عن تواجدهم وتخريق ثيابهم فقال : خطأ وحرام ؛ وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المـال . فقال له قائل : فإنهم لا يعقلون ما يفعلون . فقال :

إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أن الطَّرب يغلب عليهم فيزيل عقولهم أثموا بما أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما أفسدوا، ولا يسقط عنهم خطاب الشرع؛ لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنّب هذا الموضع الذى يُفضى إلى ذلك . كما هم منهيُّون عن شرب المسكر، كذلك هذا الطَّرَب الذى يسمّيه أهل التصوف وَجْدًا إن صدقوا أن فيه سُكْرَ طبع ، وإن كذبوا أفسدوا مع الصَّحْو، فلا سلامة فيه مع الحالين، وتجنّب مواضع الرِّيَب واجب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أى بلحيته وذؤابته . وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وأحبّ إلى بنى إسرائيل من موسى ؛ لأنه كان ليّن الغضب .

وللعلماء فى أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات :

الأوّل — أن ذلك كان متعارَفًا عندهم ؛ كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراما وتعظيما ، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال .

الثانى — أن ذلك إنما كان ليُسِرّ إليه نزول الألواح عليه ؛ لأنها نزلت عليه فى هذه المناجاة وأراد أن يخفيها عن بنى إسرائيل قبل التوراة . فقال له هارون : لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ؛ لئلا يشتبه سِرارُه على بنى إسرائيل بإذلاله .

الثالث — إنما فعل ذلك به لأنه وقع فى نفسه أن هارون مائلٌ مع بنى إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل . ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء .

الرابع — ضمّ إليه أخاه ليعلم ما لديه؛ فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو إسرائيل أنه أهانه؛ فبيّن له أخوه أنهم استضعفوه، يعنى عبدة العجل، وكادوا يقتلونه أى قاربوا. فلما سمع عذره قال : رب ٱغفرلى ولأخى؛أى ٱغفر لى ما كان من الغضب الذى ألقيت من أجله الألواح، ولأخى لأنه ظنّه مقصّرا فى الإنكار عليهم وإن لم يقع منه تقصير ؛ أى ٱغفر لأخى أن قصّر. قال الحسن : عبد كلّهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثَمَّ مؤمن غير موسى وهارون لَمَا ٱقتصر على قوله ٱغفرلى ولأخى ، ولدَعَا لذلك المؤمن أيضا . وقيل : استغفر لنفسه من فعله بأخيه،

فعل ذلك لمَوْجِدته عليه ، إذ لم يلحق به فيعرّفه ماجرى ليرجع فيتلافاهم ؛ ولهذا قال : «يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَّا تَتَّبِعَنِ[1] » الآية . فبيّن هارون أنه إنما أقام خوفا على نفسه من القتل . فدلّت الآية على أن لمن خشى القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يَسْكُت . وقد تقدّم بيان هذا فى «آل عمران[2] » . ابنُ العربىّ : وفيها دليل على أن الغضب لا يغيّر الأحكام كما زعم بعض الناس ؛ فإن موسى عليه السلام لم يغيّر غضبُه شيئا من أفعاله ، بل اطّردت على مجراها من إلقاء لوح وعتابِ أخ وصكّ مَلَك . المَهْدَوِىّ : لأن غضبه كان لله عزّ وجلّ ، وسكوته عن بنى إسرائيل خوفا أن يتحاربوا ويتفرّقوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ وكان ٱبنَ أمّه وأبيه . ولكنها كلمةُ لِين وعطف . قال الزّجاج : قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه . وقُرِئ بفتح الميم وكسرها ؛ فمن فتح جعل «ٱبن أم » ٱسما واحدا كخمسةَ عشر ؛ فصار كقولك : ياخمسة عشر أقبلوا . ومن كسر الميم جعله مضافا إلى ضمير المتكلم ثم حذف ياء الإضافة ؛ لأن مبنى النداء على الحذف ، وأبقى الكسرة فى الميم لتدُلّ على الإضافة ؛ كقوله : «يا عبادِ» . يدلّ عليه قراءة ابن السَّمَيْقَع « يابنَ أمّى » بإثبات الياء على الأصل . وقال الكسائى والفَرّاء وأبو عبيد : « يابن أمَّ » بالفتح ، تقديره يابن أمّاه . وقال البصريون : هذ القول خطأ ؛ لأن الألف خفيفة لا تحذف ، ولكن جعل الاسمين ٱسما واحدا . وقال الأخفش وأبو حاتم : « يابن أمِّ » بالكسر كما تقول : ياغلام غلامِ أقبل ، وهى لغة شاذّة والقراءة بها بعيدة . وإنما هذا فيما يكون مضافا إليك ؛ فأما المضاف إلى مضاف إليك فالوجه أن تقول : ياغلام غلامى ، ويابن أخى . وجوّزوا يابن أمَّ ، يابن عمَّ ؛ لكثرتها فى الكلام . قال الزجاج والنحاس : ولكن لها وجه حسن جيد ، يجعل الآبن مع الأم ومع العم ٱسما واحدا ؛ بمنزلة قولك : ياخمسة عشر أقبلوا ، فحذفت الياء كما حذفت من ياغلام . ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾ استذلّونى وعدّونى ضعيفا . ﴿ وَكَادُوا ﴾ أى قاربوا . ﴿ يَقْتُلُونَنِى ﴾ بنونين ؛ لأنه فعل مستقبل . ويجوز الإدغام فى غير القرآن . ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ ﴾

(١) آية ٩٢ سورة طه . (٢) راجع جـ ٤ ص ٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

أى لا تسرّهم. والشماتة : السرور بما يصيب أخاك من المصائب فى الدّين والدنيا. وهى محرّمة مَنْهِيٌّ عنها. وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تُظهر الشماتةَ بأخيك فيعافيه الله ويبتليك". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ منها ويقول : "اللّهُمّ إنى أعوذ بك من سوء القضاء ودَرْك الشقاء وشماتة الأعداء". أخرجه البخاريّ وغيره. وقال الشاعر :

إذا ما الدّهر جَرّ على أناس * كَلاكِلَه أناخ بآخرينا
فقل للشّامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لَقِينا

وقرأ مجاهد ومالك بن دينار « تَشْمَت » بالنصب فى التاء وفتح الميم ، « الأعداءُ » بالرفع. والمعنى : لاتفعل بى ما تشمت من أجله الأعداء ، أى لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بى. وعن مجاهد أيضا « تشمت » بالفتح فيهما « الأعداءَ » بالنصب. قال ابن جنّى : المعنى فلا تشمت بى أنت يارب. وجاز هذا كما قال : « الله يستهزئ بهم » ونحوه. ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء ؛ كأنه قال. ولا تشمت بى الأعداء. قال أبو عبيد : وحكيت عن حُميد « فلا تَشمِت » بكسر الميم. قال النحاس : ولا وجه لهذه القراءة ؛ لأنه إن كان من شَمِت وجب أن يقول تَشْمَت. وإن كان من أشمت وجب أن يقول تُشمت. وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال مجاهد : يعنى الذين عبدوا العجل. ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] تقدّم.

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الغضب من الله العقوبة. ﴿ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لأنهم أمروا بقتل بعضهم بعضا. وقيل : الذّلة الجزية.

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٣١ طبعة أولى أو ثانية.

وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الجزية لم تؤخذ منهم و إنما أخذت من ذرياتهم . ثم قيل : هذا من تمام كلام موسى ، أخبر الله عز وجل به عنه ، وتم الكلام . ثم قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ » . وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم ، فإنهم لما تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم — كما تقدم بيانه فى « البقرة »[1] — أخبرهم أن من مات منهم قتيلا فهو شهيد ، ومن بَقِىَ حيًّا فهو مغفور له . وقيل : كان ثَمَّ طائفة أُشْرِبوا فى قلوبهم العجل ، أى حُبّه ، فلم يتوبوا ؛ فهم المعنيّون بقوله « إنّ الذينَ ٱتَّخَذُوا الْعِجْلَ » . وقيل : أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات . وقيل : أراد أولادهم . وهو ما جرى على قُرَيظة والنَّضير ، أى سينال أولادهم . والله أعلم . ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ ﴾ أى مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ما من مُبْتَدِع إلا وتجد فوق رأسه ذِلّة ، ثم قرأ « إنّ الذين ٱتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ — حتى قال — وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ » أى المبتدعين . وقيل : إن موسى أمر بذبح العجل ، فجرى منه دَمٌ و بَرَده بالمِبْرَد وألقاه مع الدم فى اليَمّ وأمرهم بالشرب من ذلك الماء ؛ فمن عَبَد ذلك العجلَ وأُشْرِبَه ظهر ذلك على أطراف فَمِه ؛ فبذلك عرف عبدة العجل . وقد مضى هذا فى « البقرة »[2] . ثم أخبر الله تعالى أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره . وقد مضى هذا فى غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى الكفر والمعاصى . ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أى من بعد فعلها . ﴿ وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أى من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ أى سكن . وكذلك قرأها معاوية ابن قُرّة « سكن » بالنون . وأصل السكوت السكون والإمساك ؛ يقال : جرى الوادى ثلاثا

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣١ طبعة ثانية .

ثم سكن، أي أمسك عن الجرْي. وقال عكرمة: سكت موسى عن الغضب؛ فهو من المقلوب. كقولك: أدخلت الأصبع في الخاتم، وأدخلت الخاتم في الأصبع. وأدخلت القَلَنْسُوَة في رأسي، وأدخلت رأسي في القَلَنْسُوة. ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها. ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي « هـدى » من الضلالة، « ورحمـة » أي من العـذاب. والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر. ويقـال للأصل الذي كتبتَ منـه: نسخة، وللفرع نسخة. فقيـل: لمـا تكسّرت الألواح صام موسى أربعين يوما، فرُدّت عليه وأعيدت له تلك الألواح في لوحين، ولم يفقد منها شيئا؛ ذكره ابن عباس. قال القُشَيْرِيّ: فعلى هذا « وفي نسختها » أي وفيما نُسخ من الألواح المتكسّرة ونُقل إلى الألواح الجديدة هـدى ورحمة. وقال عطاء: فيما بقي منهـا. وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها، وذهب ستّة أسباعها. ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء. وقيل: المعنى «وفي نسختها» أي وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هدى. وقيل: المعنى وفيما كتب له فيها هدى ورحمـة، فلا يحتاج إلى أصـل ينقل عنه. وهذا كما يقال: انسخ ما يقول فلان، أي أثبته في كتابك.

قوله تعـالى: ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي يخافون. وفي اللام ثلاثة أقوال: قول الكوفيين هي زائدة. قال الكِسائيّ: حدّثني من سمـع الفرزدق يقول: نقدت لهـا مائة درهم، بمعنى نقدتها. وقيـل: هي لام أجْل؛ المعنى: والذين هم من أجل ربّهـم يرهبون لا رياء ولا سمعة؛ عن الأخفش. وقال محمد بن يزيد: هي متعلقة بمصدر؛ المعنى: للذين هم رهبتهم لربهم. وقيل: لمـا تقدّم المفعول حَسُن دخول اللام؛ كقوله: « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ »[1]. فلما تقدّم المعمول وهو المفعول ضَعُف عمـلُ الفعل فصار بمنزلة ما لا يتعدّى.

قوله تعـالى: وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا

(١) آية ٤٣ سورة يوسف.

بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ مفعولان ، أحدهما حذفت منه من ؛ وأنشد سيبويه :

مِنَّا الذى ٱختِيرَ الرجالَ سَماحةً * وبِرًّا إذا هَبَّ الرِّياحُ الزَّعازِعُ [1]

وقال الراعى يمدح رجلا :

اخترتك الناسَ إذ رَثَّت خلائقهُم * وٱختلَّ[2] مَن كان يُرْجَى عنده السُّولُ

يريد : اخترتك من الناس . وأصل اختار ٱختير ؛ فلما تحركت الياء وقبلها فتحة قلبت ألفا ، نحو قال وباع .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أى ماتوا . والرجفة فى اللغة الزّلزلة الشديدة . ويروى أنهم زُلزلوا حتى ماتوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ أى أمتّهم ؛ كما قال عز وجل : « إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ[3] » . « وإِيَّايَ » عطف . والمعنى : لو شئت أمتّنا من قبل أن نخرج إلى الميقات بمحضر بنى إسرائيل حتى لا يتهمونى . أبو بكر بن أبى شيبة : حدّثنا يحيى ابن سعيد القطّان عن سفيان عن أبى إسحاق عن عمارة بن عبد عن علىّ رضى الله عنه قال : ٱنطلق موسى وهارون صلى الله عليهما وٱنطلق شَبّر وشَبير — هما ابنا هارون — فانتهَوْا إلى جبل فيه سرير، فقام عليه هارون فقُبض روحه . فرجع موسى إلى قومه ، قالوا : أنت قتلته ، حسدتنا على لِينه وعلى خُلُقه ، أو كلمة نحوها ، الشك من سفيان ، فقال : كيف أقتله ومعى ٱبناه ! قال : فاختاروا من شئتم ؛ فٱختاروا من كل سِبْط عشرة . قال : فذلك قوله « وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا » فانتهوا إليه ؛ فقالوا : مَن قتلك يا هارون ؟ قال : ما قتلنى

(١) البيت للفرزدق ؛ كما فى شواهد سيبويه . (٢) اختل : افتقر . (٣) آية ١٧٦ سورة النساء .

أحد ولكن الله توفّانى . قالوا : يا موسى، ما تُعْصَى . فأخذتهم الرجفة ، فجعلوا يتردّدون يمينا وشمالا ، ويقول : « لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » . قال : فدعا الله فأحياهم وجعلهم أنبياء كلّهم . وقيل : أخذتهم الرجفة لقولهم أرنا الله جهرة؛ كما قال الله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ » . على ما تقدّم بيانه فى « البقرة »(١) . وقال ابن عباس : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهَوْا من عبد العجل ، ولم يرضَوْا عبادته . وقيل : هؤلاء السبعون غيرُ من قالوا أرنا الله جهرة . وقال وهب : ما ماتوا ، ولكن أخذتهم الرجفة من الهَيْبة حتى كادت أن تَبِين مفاصلُهم ، وخاف موسى عليهم الموت . وقد تقدّم فى «البقرة» عن وهب أنهم ماتوا يوما وليلة . وقيل غير هذا فى معنى سبب أخذهم بالرجفة . والله أعلم بصحة ذلك . ومقصود الاستفهام فى قوله «أَتُهْلِكُنَا» الجَحْد؛ أى لست تفعل ذلك . وهو كثير فى كلام العرب . وإذا كان نَفْياً كان بمعنى الإيجاب؛ كما قال :

ألستمْ خير من ركب المطايا * وأنْدَى العالمين بطُونَ راحِ(٢)

وقيل : معناه الدعاء والطلب ، أى لا تهلكنا ؛ وأضاف إلى نفسه . والمراد القوم الذين ماتوا من الرجفة . وقال المبرّد : المراد بالاستفهام استفهامُ استعظام ؛ كأنه يقول : لا تهلكنا ، وقد علم موسى أن الله لا يهلك أحدا بذنب غيره ؛ ولكنه كقول عيسى «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ»(٣) . وقيل : المراد بالسفهاء السبعون . والمعنى : أتهلك بنى إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء فى قولهم «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» . ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أى ما هذا إلا اختبارك وامتحانك . وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل ولم يضفها إلى نفسه ؛ كما قال إبراهيم : «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»(٤) فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى . وقال يُوشع : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ »(٥) . وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له : « فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠٣ طبعة ثانية أو ثالثة .   (٢) الراح : جمع راحة ، وهى الكف .
(٣) آية ١١٨ سورة المائدة .   (٤) آية ٨٠ سورة الشعراء .   (٥) آية ٦٣ سورة الكهف .

قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ » (١) . فلما رجع إلى قومه ورأى العجل منصوبا للعبادة وله خُوار قال : « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا » أى بالفتنة . ﴿ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ وهذا ردٌّ على القـــدرية .

قوله تعالى : وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أى وفّقنا للأعمال الصالحة التى تكتب لنا بها الحسنات . ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى جزاء عليها . ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تُبْنا؛ قاله مجاهد وأبو العاليةَ وقَتادة . والهَوْد : التوبة ؛ وقد تقدّم فى « البقرة » (٢) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ أى المستحقّين له ، أى هذه الرّجفة والصاعقة عذاب مِنّى أصيب به من أشاء . وقيل : المعنى « من أشاء » أى من أشاء أن أضلّه .

قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم، أى لا نهاية لها ، أى من دخل فيها لم تعجز عنه . وقيل : وسِعت كل شىء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها . قال بعض المفسرين : طمِع فى هذه الآية كلُّ شىء حتى إبليس ، فقال : أنا شىء؛ فقال الله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون؛ فقال الله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ » الآية . فخرجت الآية عن العموم ، والحمد لله . روى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة .

---

(١) آية ٨٥ سورة طه . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — روى يحيى بن أبي كثير عن نَوْف البِكَالِيّ الحِمْيَرِيّ : لما ٱختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربّه قال الله تعالى لموسى : أن أجعل لكم الأرض مسجدا وطهورا تُصلّون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مِرْحاض أو حَمّام أو قبر ، وأجعل السَّكينة في قلوبكم ، وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم ، يقرأها الرجل منكم والمرأةُ والحُرُّ والعبد والصغير والكبير . فقال ذلك موسى لقومه ، فقالوا : لا نريد أن نُصلّي إلا في الكنائس ، ولا نستطيع حمل السَّكينة في قلوبنا ، ونريد أن تكون كما كانت في التابوت ، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ، ولا نريد أن نقرأها إلا نَظَرًا . فقال الله تعالى : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ — إلى قوله — المُفْلِحُونَ » . فجعلها لهذه الأمة . فقال موسى : يارَبِّ ، اجعلني نبيّهم . فقال : نبيّهم منهم . قال : رَبِّ اجعلني منهم . قال : إنك لن تدركهم . فقال موسى : يارب ، أتيتك بوفد بني إسرائيل ، فجعلت وفادتنا لغيرنا . فأنزل الله عز وجل : « وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وبِهِ يَعْدِلُونَ »(١) . فرضِيَ موسى . قال نَوْف : فٱحمَدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم . وذكر أبو نعيم أيضا هذه القصة من حديث الأوزاعيّ قال : حدّثنا يحيى بن أبي عمرو الشَّيْبانِيّ قال حدّثني نَوْف البِكَالِيّ إذا افتتح موعظة قال : ألا تحمَدون ربّكم الذي حفظ غيبتكم وأخذ لكم بعد سهمكم وجعل وفادة القوم لكم . وذلك أن موسى عليه السلام

---

(١) آية ١٥٩ من هذه السورة .

وقد بنى إسرائيـل فقال الله لهم : إنى قـد جعلت لكم الأرض مسـجدا حيثما صلّيتم فيهـا تقبّلتُ صلاتكم إلا فى ثلاثة مواطن من صلّى فيهن لم أقبل صلاته المقبُرة والحمام والمرحاض . قالوا: لا، إلا فى الكنيسة . قال : وجعلت لكم التراب طهورا إذا لم تجدوا المـاء . قالوا : لا ، إلا بالمـاء . قال : وجعلت لكم حيثما صلى الرجل فكان وحده تقبّلت صـلاته . قالوا : لا، إلا فى جماعة .

الثانيـــة ــ قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ هذه الألفاظ كما ذكرنا أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذى يظهر فى قوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » وحصلت هـذه العِدة لأمة محمد صـلى الله عليه وسـلم ؛ قاله ابن عباس وابن جُبير وغيرهما . و ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ يعنى فى شرْعه ودِينه وما جاء به . والرسول والنبيّ آسمان لمعنيين؛ فإن الرسول أخصّ من النبيّ . وقدّم الرسول اهتماما لمعنى الرسالة ، وإلا فمعنى النبوّة هو المتقدّم ؛ ولذلك ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على البَرَاء حين قال : وبرسولك الذى أرسلت . فقال له : "قل بنبيّك الذى أرسلت" خرّجه فى الصحيح . وأيضـا فإن فى قوله « وبرسـولك الذى أرسلت » تكرير الرسالة ؛ وهو معنًى واحد فيكون كالحَشْو الذى لا فائدة فيه . بخلاف قوله « ونبيّك الذى أرسلت » فإنهما لا تكرار فيهما . وعلى هـذا فكل رسول نبيّ، وليس كل نبيّ رسـولا ؛ لأن الرسـول والنبيّ قـد آشتركا فى أمر عام وهى النبأ ، وآفترقا فى أمر وهى الرسالة . فإذا قلت : محمد رسول من عند الله تضمّن ذلك أنه نبيّ ورسول . وكذلك غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ الْأُمِّيَّ ﴾ هو منسوب إلى الأمّة الأمّية، التى هى على أصل ولادتها ، لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها؛ قاله ابن العربى . وقال ابن عبـاس رضى الله عنـه : كان نبيّكم صلى الله عليه وسلم أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسُب؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ »[1] . ورُوى فى الصحيح عن آبن عمـر عن النبيّ

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت .

صلى الله عليه وسلم قال : "إنّا أُمّةٌ أُمّيّة لا نكتب ولا نحسُب" . الحديث . وقيل : نسب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى مَكّة أمّ القرى ؛ ذكره النحاس .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ روى البخاريّ قال : حدّثنا محمد بن سِنان قال حدّثنا فُلَيح قال حدّثنا هلال عن عطاء بن يَسار لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . فقال : أجَلْ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا[1] » وحِرْزًا للأُمّيين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ ولا صَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به المِلّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعْيُنًا عُمْيًا ، وآذانا صُمًّا، وقلوبا غُلْفًا . قال عطاء : ثم لَقيت كعبًا فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفا ؛ إلا أن كعبا قال بلُغَتِه : قلوبا غُلُوفيا وآذانا صموميا وأعينا عموميا . قال ابن عطية : وأظن هذا وَهْمًا أو عُجْمة . وقد روى عن كعب أنه قال : قلوبا غلوفا وآذانا صموما وأعينا عموما . قال الطبري : هي لغة حِمْيَريّة . وزاد كعب في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : مولده بمكة، وهجرته بطابة، وملكه بالشام، وأمّته الحامدون ، يحمدون الله على كل حال في كل منزل ، يُوضّئون أطرافهم ويأتزرون إلى أنصاف ساقهم ، رعاة الشمس ، يُصلّون الصلوات حيثما أدركتهم ولو على ظهر الكناسة، صَفُّهم في القتال مثلُ صفّهم في الصلاة. ثم قرأ « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ[2] » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ قال عطاء : « يأمرهم بالمعروف » بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق ، وصلة الأرحام . « وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ » عبادة الأصنام ، وقطع الأرحام .

---

(١) آية ٤٥ سورة الأحزاب .		(٢) آية ٤ سورة الصف .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مذهب مالك أن الطيبات هى المحلّلات ؛ فكأنه وصفها بالطِّيب ؛ إذ هى لفظة تتضمّن مَدْحًا وتشريفا . وبحسب هذا نقول فى الخبائث : إنها المحرمات ؛ ولذلك قال ابن عباس : الخبائث هى لحم الخنزير والرِّبَا وغيره . وعلى هـذا حلّل مالك المتقذّرات كالحيّات والعقارب والخنافس ونحوها . ومذهب الشافعيّ رحمـه الله أن الطيبات هى من جهـة الطعم ؛ إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها ؛ لأن عمومَها بهذا الوجه من الطعم يقتضى تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصّة فيما حلّله الشرع . ويرى الخبـائث لفظا عاما فى المحرمات بالشرع وفى المتقذرات ؛ فيحرّم العقارب والخنافس والوَزَغ وما جرى هـذا المجرى . والنـاس على هـذين القولين ، وقـد تقدّم فى « البقرة »(1) هذا المعنى .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإصْر : الثِّقْل؛ قاله مجاهد وقَتادة وابن جُبير . والإصْر أيضا : العهد ؛ قاله ابن عباس والضحّاك والحسن . وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بنى إسرائيل قد كان أُخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثِقال ؛ فوُضع عنهم بمحمد صـلى الله عليه وسـلم ذلك العهـدُ وثقلُ تلك الأعمال ؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها ؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوبَ أحدِهم بولٌ قَرَضه . وروى : جِلْدَ أحدهم . وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك مما ثبت فى الصحيح وغيره .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال . ومن الأثقال تركُ الاشتغال يومَ السبت ؛ فإنه يُروى أن موسى عليـه السلام رأى يوم السبت رجلا يحمـل قصبا فضرب عنقه . هـذا قول جمهور المفسرين . ولم يكن فيهم الدِّيَة، وإنمـا كان القصاص . وأُمِروا بقتل أنفسهم علامةً لتوبتهم ، إلى غير ذلك . فشُبّه ذلك بالأغلال؛ كما قال الشاعر :

---

(1) راجع ج ٢ ص ٢٠٧ طبعة ثانية .

فليس كعهــد الدّار يا أمّ مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ
وعاد الفتى كالكَهْل ليس بقائل * سوى العدل شيئا فآستراح العواذل

فشبّه حدود الإســلام وموانعه عن التخطّى إلى المحظورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب . ومن هذا المعنى قول أبى أحمد بن جحش لأبى سفيان :

اِذهبْ بها اِذهبْ بها * طُوِّقتها طوقَ الحمامهْ

أى لزمك عارُها . يقال : طُوِّق فلان كذا إذا لزمه .

التاســعة — إن قيل : كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصْر وهو مفرد ؛ فالجواب أن الإصر مصدر يقع على الكثرة . وقرأ ابن عامر « آصارهم » بالجمع ؛ مثل أعمالهم . فجمعه لآختلاف ضروب المآثم . والباقون بالتوحيد ؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه . وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله : « وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا »(١) . وهكذا كلما يَرِد عليك من هــذا المعنى ؛ مثل « وعلى سمعِهم »(٢) . « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُــمْ »(٣) . و « مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ »(٤) . كلّه بمعنى الجمع .

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أى وقّروه ونصروه . قال الأخفش : وقرأ الجَحْدرِىّ وعيسى « وعَزَرُوه » بالتخفيف . وكذا « وعَزَرْتموهم »(٥) . يقال : عزره يعزره ويعزره . و « النور » القرآن « والفلاح » الظّفَر بالمطلوب . وقــد تقدّم(٦) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٨)

(١) آية ٢٨٦ سورة البقرة . (٢) آية ٧ سورة البقرة . (٣) آية ٤٣ سورة إبراهيم .
(٤) آية ٤٥ سورة الشورى . (٥) آية ١٢ سورة المائدة جـ ٦ ص ١١٤ .
(٦) راجع جـ ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

ذكر أن موسى بشّر به، وأن عيسى بشّر به . ثم أمره أن يقول بنفسه إنى رســول الله إليكم جميعا . و « كلماته » كلماتُ الله تعالى كتُبُهُ من التوراة والإنجيل والقرآن .

قوله تعـالى : وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

أى يدعون الناس إلى الهداية . و ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ معناه فى الحكم . وفى التفسير إن هؤلاء قوم من وراء الصين، من وراء نهر الرمل، يعبدون الله بالحق والعدل، آمنوا بمحمد وتركوا السبت، يستقبلون قبلتنا، لا يَصل إلينا منهم أحد، ولا منّا إليهم أحد . فرُوى أنه لمـا وقع الاختلاف بعـد موسى كانت منهم أمة يهدون بالحق ، ولم يقدِروا أن يكونوا بين ظَهْرَانى بنى إسرائيل حتى أخرجهـم الله إلى ناحيـة من أرضه فى عُزلة من الخلق ، فصار لهم سَرَب فى الأرض ، فمَشَوْا فيه سنةً ونصفَ سنة حتى خرجوا وراء الصين ؛ فهم على الحق إلى الآن . و بين الناس و بينهم بحر لا يوصَل إليهم بسببه . ذهب جبريل بالنبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم ليلة المعراج فآمنوا به وعلّمهم سُوَرًا من القرآن وقال لهم : هـل لكم مكيال وميزان ؟ قالوا : لا، قال : فمن أين معاشكم ؟ قالوا : نخرج إلى البريّة فنزرع، فإذا حصدنا وضعناه هناك ، فإذا احتاج أحدنا إليـه يأخذ حاجته . قال : فأين نساؤكم ؟ قالوا : فى ناحيـة منّا ، فإذا احتاج أحدنا لزوجته صار إليها فى وقت الحاجة . قال : فيكْذِب أحدكم فى حديثه ؟ قالوا : لو فعل ذلك أحدُنا أخذته لَظًى، إن النار تنزل فتحرقه . قال : فما بال بيوتكم مستوية؟ قالوا : لئلا يعلُوَ بعضنا على بعض . قال : فما بال قبوركم على أبوابكم ؟ قالوا : لئلا نَغْفُل عن ذكر الموت . ثم لمـا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا ليلة الإسراء أنزل عليه : « وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ »(١) يعنى أمة محمد عليه السلام . يُعْلمه أن الذى أعطيتُ موسى فى قومه أعطيتك فى أمّتك . وقيل : هم الذين آمنوا بنبيّنا محمد عليه السلام من أهل الكتاب . وقيل: هم قوم من بنى إسرائيل تمسّكوا بشرع موسى قبل نسخه، ولم يبدّلوا ولم يقتلوا الأنبياء.

(١) آية ١٨١ من هذه السورة .

قوله تعالى : وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ عدّد نعمه على بنى إسرائيل، وجعلهم أسباطًا ليكون أمرُ كلّ سبط معروفا من جهة رئيسهم؛ فيخفّ الأمر على موسى. وفى التنزيل « وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » وقد تقدّم[(١)]. وقوله : « اثْنَتَيْ عَشْرَةَ » والسِّبط مذكّر لأن بعده « أممًا » فذهب التأنيث إلى الأمم. ولو قال : آثنى عشر لتذكير السبط جاز؛ عن الفرّاء. وقيل : أراد بالأسباط القبائل والفِرَق؛ فلذلك أنّث العدد. قال الشاعر :

وإن قريشا كلها عشر أبطن * وأنت برىء من قبائلها العَشْر

فذهب بالبَطْن إلى القَبيلة والفَصيلة؛ فلذلك أنّثها. والبَطْن مذكّر؛ كما أن الأسباط جمع مذكّر. الزجاج : المعنى قطعناهم آثنتى عشرة فرقة. ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ بدل من آثنتى عشرة ﴿ أُمَمًا ﴾ نعتٌ للأسباط. وروى المفضّل عن عاصم « وقطعناهم » مخففا. ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ الأسباط فى ولد إسحاق بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل عليهما السلام. والأسباط مأخوذ من السَّبَط وهو شجر تُعلفه الإبل. وقد مضى فى « البقرة »[(٢)] مستوفًى. وروى مَعْمَر عن همّام بن مُنَبّه

---

(١) آية ١٢ سورة المائدة جـ ٦ ص ١١٢ . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٠ طبعة ثانية .

عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ قالوا : حبّة في شعرة. وقيل لهم : « ٱدْخُلُوا البابَ سُجَّدًا » فدخلوا متورّكين على أستاههم . ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ مرفوع؛ لأنه فعل مستقبل وموضعه نصب. و « ما » بمعنى المصدر، أي بظلمهم . وقد مضى في « البقرة » ما في هذه الآية من المعاني والأحكام (١) . والحمد لله .

قوله تعالى : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْأَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ أي عن أهل القرية؛ فعبّر عنهم بها لما كانت مستقرًّا لهم وسبب اجتماعهم . نظيره « وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا (٢) » . وقوله عليه السلام : " اهتز العرش لموت سعد بن معاذ " يعني أهل العرش من الملائكة ، فرحا وٱستبشارا بقدومه، رضي الله عنه . أي وٱسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم قردة وخنازير . وهذا سؤال تقرير وتوبيخ . وكان ذلك علامة لصدق النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلّم . وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحبّاؤه، لإنّا من سبط خليله إبراهيم، ومن سِبْط إسرائيل وهو بكر الله (٣)، ومن سبط موسى كليم الله، ومن سبط ولده عُزير، فنحن من أولادهم. فقال الله عز وجل لنبيّه : سَلْهم يا محمد عن القرية، أمَا عذّبتهم بذنوبهم ؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٢ سورة يوسف .

(٣) زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى الى إسرائيل أن ولدك بكرى من الولد . راجع جـ ٦ ص ١٢٠

واختُلف فى تعيين هذه القرية ؛ فقال ابن عباس وعِكرمة والسُّدِّى : هى أيْلة . وعن ابن عباس أيضا أنها مَدْين بين أيلة والطور . الزُّهْرِىّ : طَبَرِيّة . قَتادة و زيد بن أسلم : هى ساحل من سواحل الشأم ، بين مَدْين وعَيْنون ، يقال لها : مقناة . وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السُّبَّة عليهم . ﴿ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ أى كانت بقرب البحر ؛ تقول : كنت بحضرة الدار أى بقربها . ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أى يصيدون الحيتان ، وقد نهوا عنه ؛ يقال : سَبَت اليهودُ ؛ تركوا العمل فى سبتهم . وسُبِت الرجل للفعول سُباتا أخذه ذلك ؛ مثل الخرس . وأسبت سكن فلم يتحرك . والقوم صاروا فى السّبت . واليهود دخلوا فى السبت ، وهو اليوم المعروف . وهو من الراحة والقَطْع . ويجمع أَسْبُت وسُبُوت وأسبات . وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ومن آحتجم يوم السبت فأصابه بَرَص فلا يلومنّ إلا نفسه " . قال علماؤنا : وذلك لأن الدّم يجمد يوم السبت ، فإذا مددته لتستخرجه لم يجر وعاد بَرَصًا . وقراءة الجماعة « يَعْدُون » . وقرأ أبو نهيك « يُعِدّون » بضم الياء وكسر العين وشد الدال . الأولى من الاعتداء والثانية من الإعداد ؛ أى يهيئون الآلة لأخذها . وقرأ ابن السَّمَيْقَع « فى الأسبات » على جمع السبت . ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ وقرئ أسباتهم . ﴿ شُرَّعًا ﴾ أى شوارع ظاهرة على الماء كثيرة . وقال اللّيث : حيتان شُرَّع رافعة رءوسها . وقيل : معناه أن حيتان البحر كانت ترِد يوم السبت عُنُقًا(1) من البحر فتزاحم أيْلة . ألهمها الله تعالى أنها لا تُصاد يوم السبت ؛ لنهْيِه تعالى اليهودَ عن صيدها . وقيل : إنها كانت تشرع على أبوابهم ؛ كالكِباش البيض رافعةً رءوسها . حكاه بعض المتأخرين ؛ فتعدّوا فأخذوها فى السبت ؛ قاله الحسن . وقيل : يوم الأحد ، وهو الأصح على ما يأتى بيانه . ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ﴾ أى لا يفعلون السبت ؛ يقال : سبت يسبِت إذا عظّم السبت . وقرأ الحسن « يُسْبِتون » بضم الياء ، أى يدخلون فى السبت ؛ كما يقال : أجمعنا وأظهرنا وأشهرنا ، أى دخلنا فى الجمعة والظهر والشهر . ﴿ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أى حيتانهم . ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾ أى نشدد

---

(1) أى طوائف ؛ يقال : جاء القوم عنقا عنقا ، أى قطيعا قطيعا .

عليهم فى العبادة ونختبرهم . والكاف فى موضع نصب . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا ، والحرام يأتيك جَزْفًا جَزْفًا ؟ قال : نعم ، فى قصة داود وأيلة « إِذْ تَأْتِيهِم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتون لا تأتيهم » . ورُوى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود عليه السلام ، وأن إبليس أوْحَى إليهم فقال : إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت ، فآتخذوا الحياض ؛ فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد . وروى أشهب عن مالك قال . زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطا ويضع فيه وَهَقة (١) ، وألقاها فى ذنب الحوت ، وفى الطرف الآخر من الخيط وتِد وتركه كذلك إلى الأحد ، ثم تطرّق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يُبْتَلَى حتى كثُر صيد الحوت ، ومُشى به فى الاسواق ، وأعلن الفسقة بصيده ؛ فقامت فرقة من بنى إسرائيل ونهت ، وجاهرت بالنهى واعتزلت . وقيل : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِرَدة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القِردة أنسابَها من الإنس ، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القِردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكى ؛ فيقول : ألم ننهكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قردةً والشيوخُ خنازير ؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . فعلى هذا القول إن بنى إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين . ويكون المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم : إذا علمتم أن الله مهلكنا فلم تعظوننا ؛ فمسخهم الله قردة . ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى قال الواعظون : موعظتنا إياكم معذرة ؛ أى إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون . أسند

(١) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفيه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، اذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت كعقدة التكة .

وقد وردت هذه الكلمة محرفة فى الجزء الأوّل ص ٤٤٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

هذا القول الطبري عن ابن الكلبي . وقال جمهور المفسرين : إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق ، وهو الظاهر من الضمائر في الآية . فرقة عصت وصادت ، وكانوا نحوًا من سبعين ألفا . وفرقة نهت واعتزلت ، وكانوا اثني عشر ألفا . وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الطائفة قالت للناهية : لم تعظون قوما — تريد العاصية — الله مهلكهم أو معذبهم على غلبة الظن ، وما عهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية . فقالت الناهية : موعظتنا معذرة إلى الله لعلهم يتقون . ولو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية : ولعلكم تتقون، بالكاف . ثم اختلف بعد هذا؛ فقالت فرقة : إن الطائفة التي لم تنه ولم تعص هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النهي ؛ قاله ابن عباس . وقال أيضا : ما أدري ما فعل بهم ؛ وهو الظاهر من الآية . وقال عكرمة : قلت لابن عباس لما قال ما أدري ما فعل بهم : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم؛ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا ؛ فكساني حلة . وهذا مذهب الحسن . ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غير قوله «وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا»[(١)] . وقوله : «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ»[(٢)] الآية . وقرأ عيسى وطلحة «معذرة» بالنصب . ونصبه عند الكسائي من وجهين : أحدهما على المصدر . والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة . وهي قراءة حفص عن عاصم . والباقون بالرفع، وهو الاختيار ؛ لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارًا مستأنفًا من أمر ليموا عليه، ولكنهم قيل لهم : لم تعظون ؟ فقالوا : موعظتنا معذرة . ولو قال رجل لرجل : معذرةً إلى الله وإليك من كذا، يريد اعتذارا ؛ لنصب . هذا قول سيبويه . ودلت الآية على القول بسد الذرائع . وقد مضى في «البقرة»[(٣)] . ومضى فيها الكلام في الممسوخ هل ينسل أم لا، مبينا . والحمد لله . ومضى في «آل عمران» و «المائدة»[(٤)] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومضى في «النساء»[(٥)] اعتزال أهل الفساد ومجانبتهم ، وأن من جالسهم كان مثلهم؛ فلا معنى للإعادة .

---

(١) آية ١٦٥ من هذه السورة . (٢) آية ٦٥ سورة البقرة .

(٣) راجع جـ ١ ص ٤٤٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) في قوله تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ... » آية ٢١ سورة آل عمران . وفي قوله تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » آية ٧٩ سورة المائدة .

(٥) في قوله تعالى : « وقد نزل عليكم في الكتاب ... » آية ١٤٠

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

والنسيان يطلق على الساهى . والعامد: التارك؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى تركوه عن قصد؛ ومنه « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »(١) . ومعنى ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أى شديد . وفيه إحدى عشرة قراءة : الأولى — قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائىّ « بَئِيس » على وزن فَعيل . الثانية — قراءة أهل مكة « بِئِيس » بكسر الباء والوزن واحد . الثالثة — قراءة أهل المدينة « بِيسٍ » الباء مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها سين مكسورة منونة ، وفيها قولان . قال الكسائى : الأصل فيه « بِيِيس » خفيفة الهمزة، فالتقت ياءان فحذفت إحداهما وكُسر أوّله ؛ كما يقال : رِغيف وشِهيد . وقيل : أراد « بَئِس » على وزن فَعِل ؛ فكسر أوله وخفف الهمزة وحذف الكسرة ؛ كما يقال : رَحِم ورِحْم . الرابعة — قراءة الحسن ، الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها سين مفتوحة . الخامسة — قرأ أبو عبد الرحمن المقرئ « بَئِسٍ » الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منونة . السادسة — قال يعقوب القارئ : وجاء عن بعض القراء « بعذاب بَئِسَ » الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مفتوحة . السابعة — قراءة الأعمش « بَيْئِسٍ » على وزن فَيْعِل . وروى عنه « بَيْأَسٍ » على وزن فيعل . وروى عنه « بَئِّسٍ » بباء مفتوحة وهمزة مشددة مكسورة، والسين فى كله مكسورة منونة، أعنى قراءة الأعمش . العاشرة — قراءة نصر بن عاصم « بعذاب بَيَّسٍ » الباء مفتوحة والياء مشدّدة بغير همز . قال يعقوب القارئ : وجاء عن بعض القراء « بِئْيَسٍ » الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها ياء مفتوحة . فهذه إحدى عشرة قراءة ذكرها النحاس . قال علىّ بن سليمان : العرب تقول جاء ببنات بِيسٍ؛ أى بشىء ردىء . فمعنى « بعذاب بيس » بعذاب ردئ . وأما قراءة الحسن فزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها، قال : لأنه لا يقال مررت برجل بِئْس، حتى يقال : بئس الرجل، أو بئس رجلا . قال النحاس : وهذا مردود من

(١) آية ٦٧ سورة التوبة .

كلام أبي حاتم . حكى النحويون : إن فعلت كذا وكذا فبِهَا ونِعْمَتْ . يريدون فبها ونعمت الخصلة . والتقدير على قراءة الحسن : بعذاب بئس العذاب .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أي فلما تجاوزوا في معصية الله . ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ يقال : خسأته خسأ ، أي باعدته وطردته . وقد تقدّم في « البقرة »(١) . ودلّ على أن المعاصي سبب النقمة . وهذا لا خفاء به . فقيل : قال لهم ذلك بكلام يُسمع ، فكانوا كذلك . وقيل : المعنى كوّناهم قِردة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

أي أعلم أسلافهم أنهم إن غيّروا ولم يؤمنوا بالنبيّ الأميّ بعث الله عليهم من يعذّبهم . وقال أبو عليّ : « آذن » بالمد ، أعلم . و « أذّن » بالتشديد ، نادى . وقال قوم : آذن وأذّن بمعنى أعلم ؛ كما يقال أيقن وتيقّن . قال زُهير :

فقلتُ تَعَلّمْ إن للصيد غِرّةً * فإلا تُضَيّعها فإنك قاتِلُهْ

وقال آخر :

تعلّم إن شر الناس حيّ * يُنَادَى في شعارهمُ يَسار

أي أعلم . ومعنى ﴿ يَسُومُهُمْ ﴾ يذيقهم ؛ وقد تقدّم في « البقرة »(٢) . قيل : المراد بُخْتَنَصّر . وقيل : العرب . وقيل : أمّة محمد صلى الله عليه وسلم . وهو أظهر ؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة . والله أعلم . قال ابن عباس : « سوء العذاب » هنا أخذ الجِزْية . فإن قيل : فقد

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة .		(٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

مسخوا ، فكيف تؤخذ منهم الجزية ؟ فالجواب أنهـا تؤخذ من أبنائهم وأولادهم، وهم أذل قوم ، وهم اليهود . وعن سعيد بن جُبير « سوء العذاب » قال : الخَراج، ولم يَجْب نبيّ قطّ الخَراج ، إلا موسى عليه السلام هو أوّل من وضع الخراج؛ فجباه ثلاث عشرة سنة،ثم أمسك، ونبيّنا عليه السلام .

قوله تعـالى : وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ أى فرّقناهم فى البـلاد . أراد به تشتيت أمرهم ، فلم تُجمع لهم كلمة . ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ رفع على الابتداء . والمراد من آمن بمحمد عليه السلام، ومن لم يبدّل منهـم ومات قبل نسـخ شرع موسى . وهم الذين وراء الصين؛ كما سبق . ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ منصوب على الظرف . قال النحاس : ولا نعلم أحدا رفعه. والمراد الكفار منهم . ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى آختبرناهم . ﴿ بِالْحَسَنَاتِ ﴾ أى بالخِصْب والعافية . ﴿ وَٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ أى الجدب والشدائد . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليرجعوا عن كفرهم .

قوله تعـالى : فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ يعنى أولاد الذين فرّقهـم فى الأرض . قال أبو حاتم : «الخَلْف» بسكون اللام : الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء . و «الخلَف» بفتح اللام البَدَل ، وَلَدًا كان أو غريبًا . وقال آبن الأعرابيّ : «الخلف» بالفتح الصالح، وبالجزم الطالح . قال لَبِيد :

ذهبَ الذين يُعاش فى أكنافهـم * وبقيت فى خلف كجلد الأجْرَبِ

ومنه قيل للرديء من الكلام : خَلْف . ومنه المثل السائر « سَكَت أَلْفًا ونطق خَلْفًا » . فخَلْف في الذم بالإسكان ، وخَلَف بالفتح في المدح . هذا هو المستعمل المشهور . قال صلى الله عليه وسلم : "يَحْمِل هذا العلمَ مِن كل خَلَف عدوله" . وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر . قال حسان بن ثابت :

لنا القدم الأولى إليك وخَلْفنا ＊ لأوّلنا في طاعة الله تابع

وقال آخر :

إنا وجدنا خَلَفًا بئس الخَلَفْ ＊ أغلق عنا بابه ثم حَلَف (١)

لا يُدخل البوابُ إلا مَن عرفْ ＊ عبدا إذا ما ناء بالحِمل وقف

ويروى : خَضَف ؛ أي رَدَم (٢) . والمقصود من الآية الذم . ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ قال المفسرون : هم اليهود ، ورِثوا كتاب الله فقرءوه وعلموه ، وخالفوا حكمه وأتَوْا محارمه مع دراستهم له . فكان هذا توبيخا لهم وتقريعا . ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم ونَهَمهم . ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهم لا يتوبون . ودلّ على أنهم لا يتوبون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ والعَرَض : متاع الدنيا ؛ بفتح الراء . وبإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير . والإشارة في هذه الآية إلى الرُّشا والمكاسب الخبيثة . ثم ذمّهم باغترارهم في قولهم « سيغفر لنا » وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها ، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصِرون ، وإنما يقول سيغفر لنا من أقلع وندم .

قلت : وهذا الوصف الذي ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا . أسند الدارميّ أبو محمد : حدّثنا محمد بن المبارك حدّثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يُكْنَى أبا عمرو عن معاذ

(١) كذا وردت هذه الأبيات في الأصول . والذي في اللسان « مادة خضف » :

انا وجدنا خلفا بئس الخلف ＊ عبدا اذا ما ناء بالحمل خضف

أغلق عنا بابه ثم حلف ＊ لا يدخل البوّاب إلا من عرف

(٢) الردم : الضراط .

ابن جبل رضى الله عنه قال : سَيَبْلَى القرآنُ فى صدور أقوام كما يَبْلَى الثوب فيتهافَت ، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالُهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصّروا قالوا سنبلغ ، وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا ، إنا لا نشرك بالله شيئا . وقيل : إن الضمير فى «يأتهم» ليهود المدينة ؛ أى وإن يأت يهودَ يَثْرِبَ الذين كانوا على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم عَرَض مثلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ يريد التوراة . وهذا تشديد فى لزوم قول الحق فى الشرع والأحكام، وألّا يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذى لزم هؤلاء وأُخذ عليهم به الميثاق فى قول الحق، لازم لنا على لسان نبيّنا صلى الله عليه وسلم وكتابِ ربّنا ؛ على ما تقدّم بيانه فى «النساء»(1) . ولا خلاف فيه فى جميع الشرائع . والحمـــد لله .

والثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ أى قرءوه، وهم قريبو عهد به . وقرأ أبو عبد الرحمن « وآدّارسوا ما فيه » فأدغم التاء فى الدال . قال ٱبن زيد : كان يأتيهم المُحِق برِشوة فيُخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم وحكموا له . وقال ٱبن عباس : «ألّا يقولوا على الله إلا الحقَّ» وقد قالوا ٱلباطل فى غُفران ذنوبهم الذى يوجبونه ويقطعون به . وقال ابن زيد : يعنى فى الأحكام التى يحكمون بها ؛ كما ذكرنا . وقال بعض العلماء : إن معنى «ودرسوا ما فيه» أى مَحَوْه بترك العمل به والْفَهْم له ؛ من قولك : درستِ الريح الآثار، إذا محتْها . وخط دارس ورَبْع دارس، إذا ٱمحى وعفا أثره . وهذا المعنى مواطئ — أى موافق — لقوله تعالى : «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ

---

(1) راجع آية ١٥٤ وما بعدها جـ ٦ ص ٧

الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » (1) الآية . وقوله : « فنبذوه وراء ظهورهم » (2) حسب ما تقدّم بيانه في «البقرة» (3) .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ أى بالتوراة ، أى بالعمل بها ؛ يقال : مسك به وتمسك به أى استمسك به . وقرأ أبو العالية وعاصم في رواية أبي بكر « يمسكون » بالتخفيف من أمسك يمسك . والقراءة الأولى أولى ؛ لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى و بدينه فبذلك يُمدحون . فالتمسك بكتاب الله والدّين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك . وقال كعب بن زهير :

فما تَمَسّكُ بالعهد الذى زعمت * إلا كما تُمسك الماءَ الغرابيلُ

فجاء به على طبعه يذمّ بكثرة نقض العهد .

قوله تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ ﴾ «نتقنا» معناه رفعنا. وقد تقدّم بيانه في « البقرة » (4) . ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أى كأنه لارتفاعه سحابة تُظلّ . ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجدّ . وقد مضى في « البقرة » (4) إلى آخر الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ

(1) آية ١٠١ سورة البقرة . (2) آية ١٨٧ سورة آل عمران .
(3) راجع جـ ٢ ص ٤١ طبعة ثانية . (4) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ أي وآذكرلهم مع ما سبق من تذكّر المواثيق في كتابهم ما أخذتُ من المواثيق من العباد يوم الذّر . وهـذه آية مشكلة، وقد تكلم العلمـاء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليـه . فقال قوم : معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض . قالوا : ومعنى « أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » دلّهم بخلقه على توحيده؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورةً أن له ربًّا واحدا . ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي قال. فقـام ذلك مقام الإشهاد عليهم، والإقرار منهـم ؛ كما قال تعالى في السموات والأرض : «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»[(1)] . ذهب إلى هذا القَفّال وأطنب. وقيل : إنه سبحانه أخرج الأرواح قبـل خلق الأجساد ، وأنه جعل فيها من المَعْرفة ما علمت به ما خاطبهـا .

قلت : وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم غيرُ هذين القولين ، وأنه تعالى اخرج الأشباح فيهـا الأرواح من ظهر آدم عليه السلام . روى مالك في موطّئه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» فقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرِّية فقال خلقتُ

(١) آية ١١ سورة فصلت .

هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذُرِّية فقال خلقتُ هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون " . فقال رجل : ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا خلق العبد للجنة آستعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيُدخلَه الجنة و إذا خلق العبد للنار آستعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخلَه الله النار " . قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد؛ لأن مسلم بن يسار لم يَلْق عُمر . وقال فيه يحيى بن مَعين : مسلم بن يسار لا يُعرف ، بينه و بين عمر نعيمُ بن ربيعة ، ذكره النسائيّ ، ونعيم غير معروف بحمل العلم . لكن معنى هذا الحديث قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعبدِ الله بن مسعود وعليّ بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم . روى الترمذيّ وصححه عن أبى هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لمّا خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كلُّ نَسَمة هو خالقها [من ذُرِّيته](1) إلى يوم القيامة وجعل بين عَيْنَيْ كلِّ رجل منهم وَبيصًا من نُور ثم عرضهم على آدم فقال يارب مَن هؤلاء قال هؤلاء ذُرِّيتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وَبِيصُ ما بين عينيه فقال أىْ ربِّ مَن هذا فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود فقال ربِّ كم جعلت عُمْرَه قال ستّين سنة قال أىْ رَبِّ زِدْه من عُمْرِى أربعين سنةً فلما آنقضى عمر آدم عليه السلام جاءه مَلَك الموت فقال أولم يبق من عمرى أربعون سنةً قال أوَلم تُعْطِها آبنَك داود قال فجَحَدَ آدمُ فجحدت ذرّيته ونسى آدم فنسيت ذرّيته " . فى غير الترمذيّ : فحينئذ أمر بالكُتّاب والشهود . فى رواية : فرأى فيهم الضعيف والغنيّ والفقير والمبتلى والصحيح . فقال آدم : يارب، ما هذا؟ ألا سوّيت بينهم ! قال : أردت أن أشكر . وروى عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس " . وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربّهم وأن لا إله غيره . فأقرّوا بذلك وآلتزموه ، وأعلمهم

---

(1) الزيادة عن صحيح الترمذى .

بأنه سيبعث إليهم الرســل ؛ فشهد بعضهــم على بعض . قال أُبَيّ بن كعب : وأشهد عليهــم السـموات السّبع ، فليس من أحد يُولد إلى يوم القيامة إلا وقــد أُخِذ عليــه العهد .

وآختُلف فى الموضع الذى أخذ فيه الميثاق حين أخرِجوا على أربعة أقوال؛ فقال ابن عباس : ببطن نَعْمان ، وادٍ إلى جنب عَرفة . وعنه أن ذلك بِرَهْبَا ـ أرض بالهند ـ الذى هبط فيه آدم عليه الســلام . وقال يحيى بن ســلام قال ابن عباس فى هــذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كلّ نَسَمة هو خالقــها إلى يوم القيامة ، ثم قال : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلَى شَهِدْنَا » قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم فى صُلب آدم عليه السلام . وقال الكَلْبِيّ : بين مكة والطائف . وقال السُّدِّيّ : فى السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرّية بيضاء مثل اللّؤلؤ ، فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتى . وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرّية ســوداء وقال لهم ادخلوا النــار ولا أبَالِى . قال ابن جُريج : خرجت كلّ نفس مخلوقة للجنة بيضاء ، وكلّ نفس مخلوقة للنار سوداء .

الثانيـــة ــ قال ابن العربِيّ : « فإن قيل فكيف يجوز أن يُعذّب الخلق وهم لم يُذنبوا ، أو يُعاقبهم على ما أراده منهــم وكتبه عليهم وساقهم إليــه . قلنا : ومن أين يمتنع ذلك ، أعقلا أم شرعا . فإن قيل : لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعل ذلك . قلنا : لأن فوقه آمرا يأمره وناهِيًا ينهاه ، ورَبُّنا تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسئلون ، ولا يجوز أن يقاس الخلق بالخالق ، ولا تُحمل أفعــال العباد على أفعــال الإله ، وبالحقيقة الأفعال كلّها لله جل جلاله ، والخلقُ بأجمعهم له ، صَرّفهم كيف شاء ، وحَكَم بينهم بما أراد ، وهذا الذى يجده الآدمىّ إنما تبعث عليه رِقّة الجِبِلّة وشفقة الجنسيّة وحبُّ الثناء والمــدح ؛ لمــا يتوقّع فى ذلك من الانتفاع ، والبارى تعالى متقدّس عن ذلك كله ، فلا يجوز أن يعتبر به » .

الثالثـــة ــ واختُلف فى هذه الآية ، هل هى خاصّة أو عامّة . فقيل : الآية خاصة ؛ لأنه تعالى قال : « من بنى آدم من ظهورهم » فخرج من هذا من كان من ولد آدم لصُلْبه . وقال جل وعز : « أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ » فخرج منها كلُّ مَن لم يكن له آباء مشركون .

وقيل : هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء . وقيل : بل هي عامّة لجميع الناس ؛ لأن كلّ أحد يعلم أنه كان طفلا فغُذّى ورُبّى ، وأن له مُدَبِّرا وخالقا . فهذا معنى «وأشهدهم على أنفسهم» . ومعنى ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى إن ذلك واجب عليهم . فلما آعترف الخلق لله سبحانه بأنه الربّ ثم ذَهلوا عنه ذكّرهم بأنبيائه وختم الذّكر بأفضل أصفيائه لتقوم حجته عليهم فقال له : «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ»(١) .ثم مكّنه من الصيطرة، وآتاه السلطنة ، ومكّن له دينه فى الأرض . قال الطّرطوشى(٢) : إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه فى هذه الحياة، كما يلزم الطلاق مَن شُهد عليه به وقد نَسِيَه .

الرابعـــة ــ وقد استدلّ بهـذه الآية من قال : إن من مات صغيرا دخل الجنة لإقراره فى الميثاق الأوّل . ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأوّل . وهذا القائل يقول : أطفال المشركين فى الجنة ، وهو الصحيح فى الباب . وهذه مسألة آختُلف فيها لاختلاف الآثار ، والصحيح ما ذكرناه . وسيأتى الكلام فى هذا فى «الرّوم»(٣) إن شاء الله. وقد أتينا عليها فى كتاب «التذكرة» والحمـــد لله .

الخامســـة ــ قوله تعالى :﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ بدل آشتمال من قوله « مِن بنى آدم » . وألفاظ الآية تقتضى أن الأخذ إنما كان من بنى آدم، وليس لآدم فى الآية ذِكْر بحسب اللفظ . ووجه النظم على هـذا : وإذ أخذ ربُّك من ظهور بنى آدم ذرّيتهم . وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعلوم أنهـم كلّهم بَنُوه ، وأنهـم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره . فآستغنى عن ذكره لقوله «من بنى آدم» . ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير بالتوحيد وفتح التـاء، وهى تقع للواحد والجمع ؛ قال الله تعـالى : « هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » فهذا للواحد ؛ لإنه إنمـا سأل هبة ولد فبُشّر بيحيى . وأجمع القراء على التوحيد فى قوله : « مِن ذرية آدم »(٤) ولا شيء أكثر من ذرية آدم . وقال : «وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْـدِهِمْ» فهذا للجمع . وقرأ الباقون

---

(١) آية ٢١ سورة الغاشية .   (٢) فى بعض الأصول : «الطرطوسى» بالسين المعجمة .

(٣) فى قوله تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفا ...» آية ٣٠   (٤) آية ٥٨ سورة مريم .

«ذرياتهم» بالجمع؛ لأن الذرية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد بجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يَشْركها فيه شيء وهو الجمع؛ لأن ظهور بنى آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله؛ بجمع لهذا المعنى .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ بَلَى ﴾ تقدّم القول فيها فى « البقرة » عند قوله : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » مستوفًى(١) ، فتأمله هنالك . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ ﴿ أَوْ يَقُولُوا ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء فيهما . ردّهما على لفظ الغَيْبة المتكرر قبله ، وهو قوله « من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم» . وقوله « قالوا بلى» أيضا لفظ غيبة . وكذا « وكُنّا ذرية من بعدهم » « ولعلهم » لحمله على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة . وقرأ الباقون بالتاء فيهما ؛ ردّوه على لفظ الخطاب المتقدّم فى قوله « أَلَسْتُ بربكم قالوا بلى » . ويكون «شهدنا» من قول الملائكة. لما قالوا «بلى» قالت الملائكة «شهدنا أن تقولوا» «أو تقولوا» أى لئلا تقولوا . وقيل : معنى ذلك أنهم لما قالوا بلى، فأقرّوا له بالرّبوبيّة، قال الله تعالى للملائكة : اشهدوا قالوا شهدنا بإقراركم لئلا تقولوا أو تقولوا . وهذا قول مجاهد والضحاك والسُّدِّى . وقال ابن عباس وأُبَىّ بن كعب : قوله «شهدنا » هو من قول بنى آدم . والمعنى : شهدنا أنك ربُّنا وإلٰهُنا . وقال ابن عباس : أشهد بعضهم على بعض ؛ فالمعنى على هذا قالوا بلى شهد بعضنا على بعض؛ فإذا كان ذلك من قول الملائكة فيوقف على «بلى» ولا يحسن الوقف عليه إذا كان من قول بنى آدم؛ لأن « أن » متعلقة بما قبل بلى، من قوله «وأشهدهم على أنفسهم» لئلا يقولوا . وقد روى مجاهد عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا ". أى شهدنا عليكم بالإقرار بالرُّبوبية لئلا تقولوا . فهذا يدلّ على التاء . قال مَكِّىّ : وهو الاختيار لصحة معناه، ولأن الجماعة عليه . وقد قيل : إن قوله « شهدنا » من قول الله تعالى والملائكة . والمعنى : فشهدنا على إقراركم ؛ قاله أبو مالك ، وروى عن السُّدِّى أيضا .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١ طبعة ثانية .

﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى اقتدينا بهم . ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ بمعنى : لست تفعل هذا ، ولا عذر للمقلِّد فى التوحيد .

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها فى التوارة . واختُلف فى تعيين الذى أوتى الآيات . فقال ابن مسعود وابن عباس : هو بلعام بن باعوراء، ويقال ناعم(١)، من بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش . وهو المعنِيّ بقوله « وَٱتْلُ عليهم نَبَأَ الذى آتيناه آياتنا » ولم يقل آية، وكان فى مجلسه اثنتا عشرة ألف مِحْبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه . ثم صار بحيث كان أوّل من صنّف كتابا « أن ليس للعالم صانع » . قال مالك بن دينار : بُعث بلعام بن باعوراء إلى مَلِك مَدْيَن ليدعوه إلى الإيمان ؛ فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى ؛ ففيه نزلت هذه الآيات . المُعْتَمِر بنُ سليمان عن أبيه قال : كان بلعام قد أوتى النُّبوّة، وكان مجابَ الدّعوة ، فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل يريد قتال الجبّارين، سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعُوَ على موسى فقام ليدعُوَ فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه . فقيل له فى ذلك؛ فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون؛ واندلع لسانه على صدره . فقال : قد ذهبَتْ منى الآن الدنيا والآخرة ؛ فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة ، وسأمكر لكم ، فإنى أرى أن تُخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزِّنَى، فإن وقعوا فيه هلكوا ؛ ففعلوا فوقع بنو إسرائيل فى الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . وقد ذكر هذا الخبر بكماله الثّعْلَبِيّ وغيره . ورُوِى أن بلعام بن باعوراء دعا ألّا يدخل موسى مدينة الجبارين، فاستُجيب له وبقى فى التِّيه(٢) . فقال موسى : يارَبّ ، بأىّ ذنب بقينا فى التِّيه . فقال : بدعاء بلعام . قال : فكما سمعت دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليه . فدعا موسى أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم؛ فسلخه

---

(١) فى بعض الأصول : « باعر » .
(٢) التيه : موضع بين مصر والعقبة .

الله ما كان عليــه . وقال أبو حامد فى كتاب منهاج العـارفين له : وسمعت بعض العـارفين يقول إن بعض الأنبياء سأل الله تعـالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات ، فقال الله تعالى : لم يشكرنى يوما من الأيام على ما أعطيته ، ولو شكرنى على ذلك مَرّة لمـا سلبته. وقال عِكرمة : كان بلعام نبيًّا وأوتى كتابا . وقال مجاهــد : إنه أوتى النبوّة ؛ فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه . قال المـاوَرْدِىّ : وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى لا يصطفى لنبوّته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته . وقال عبــد الله آبن عمرو بن العاص وزيد بن أسـلم : نزلت فى أُمَيّة بن أبى الصَّلْت الثَّقفِىّ ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسِل رسولا فى ذلك الوقت ، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول ؛ فلما أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسـلم حسده وكفر به . وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " آمن شِعْره وكَفَر قلبه " . وقال سـعيد بن المُسَيِّب : نزلت فى أبى عامر بن صَيْفى ، وكان يلبَس المُسُوح فى الجاهلية ؛ فكفَر بالنبىّ صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه دخل على النبىّ صلى الله عليــه وسلم المدينــة فقال : يامحمد ، ما هــذا الذى جئتَ به ؟ قال : " جئتُ بالحنِيفيّة دينِ إبراهيم " . قال : فإنى عليها . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لستَ عليهـا لأنك أدخلت فيها ما ليس منها " . فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " نعم أمات الله الكاذب منا كذلك " . وإنما قال هــذا يُعَرِّض برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث خرج من مكة . فخرج أبو عامر إلى الشأم ومَرّ إلى قَيْصر وكتب إلى المنافقين : استعدُّوا فإنى آتيكم من عند قَيْصر بجند لنُخرج محمدا من المدينة ؛ فمات بالشأم وحيدا . وفيــه نزل : « وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ مِنْ قَبْلُ »(1) وسيأتى فى براءة . وقال ابن عباس فى رواية : نزلت فى رجل كان له ثلاث دعوات يُسـتجاب له فيها ، وكانت له آمرأة يقال لها « البَسُوس » فكان له منها ولد ؛ فقالت : اجعل لى منها دعوة واحدة . فقال : لكِ واحدة ، فما تأمرين ؟ قالت : آدع الله أن يجعلنى أجمـل آمرأة

(1) آية ١٠٧ سورة التوبة .

فى بنى إسرائيل . فلما علمت أنه ليس فيهم مثلُها رغِبتْ عنه؛ فدعا اللهَ عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة . فذهب فيها دعوتان؛ فجاء بَنُوها وقالوا : لا صبر لنا عن هذا، وقد صارت أمُّنا كلبة يُعيِّرنا الناس بها، فادعُ الله أن يردّها كما كانت ؛ فدعا فعادت إلى ما كانت، وذهبت الدعوات فيهـا . والقول الأوّل أشهر وعليـه الأكثر . قال عُبادة بن الصّامت : نزلت فى قريش ، آتاهم الله آياته التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فانسلخوا منها ولم يقبلوها . قال ابن عبـاس : كان بلعام من مدينة الجبّارين . وقيل : كان من اليمن . ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أى من معرفة الله تعالى، أى نزع منه العلم الذى كان يعلمه . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " العلم علمان علمٌ فى القلب فذلك العلم النافع وعلمٌ على اللسان فذلك حُجّة الله تعـالى على ابن آدم " . فهذا مثل علم بلعـام وأشباهه ، نعوذ بالله منــه ؛ ونسأله التوفيق والممـات على التحقيق . والانسلاخ : الخروج ؛ يقال : انسلخت الحيّة من جلدها أى خرجت منه . وقيل : هــذا من المقلوب، أى انسلخت الآيات منه . ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ أى لحق به ؛ يقال : أتبعت القوم أى لحقتهم . وقيل : نزلت فى اليهود والنصارى، انتظروا خروج محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به .

قوله تعـالى : وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَـا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ يريد بلعام . أى لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى فرفعناه إلى الجنة . ﴿ بِهَا ﴾ أى بالعمل بهـا . ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أى ركن إليهـا ؛ عن

ٱبن جُبير والسُّدّى . مُجاهد : سكن إليها ؛ أى سكن إلى لذّاتها . وأصل الإخلاد اللزوم . يقال : أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه . قال زهير :

لمن الدّيارُ غَشيتَها بالغَرْقَد * كالوَحْى فى حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلِد (١)

يعنى المقيم ؛ فكأن المعنى لزم لذّات الأرض فعبّر عنها بالأرض، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض . ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أى ما زيّن له الشيطان . وقيل : كان هواه مع الكفار . وقيل: اتّبع رضا زوجته، وكانت رغبت فى أموالٍ حتى حملته على الدعاء على موسى . ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ شرط وجوابه . وهو فى موضع الحال ؛ أى فمثله كمثل الكلب لاهثًا . والمعنى : أنه على شىء واحد لا يَرْعوِى عن المعصية ؛ كَمَثل الكلب الذى هذه حالته . فالمعنى : أنه لاهثٌ على كل حال، طردته أو لم تطرده . قال ابن جُريج: الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ؛ كذلك الذى يترك الهُدَى لا فؤاد له ، و إنما فؤاده منقطع . قال القُتيبى : كلّ شىء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكَلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الرِّىّ وحال العطش . فضربه الله مثلا لمن كذّب بآياته فقال : إن وعظتَه ضَلّ و إن تركته ضَلّ؛ فهو كالكلب إن تركته لَهَث و إن طردته لَهَث؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (٢) » . قال الجوهرى : لَهَث الكلب (بالفتح) يَلْهَث لَهْثًا ولُهَاثًا (بالضم) إذا أخرج لسانه من التعب أوالعطش ؛ وكذلك الرجل إذا أعيى . وقوله : « إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ » لأنك إذا حملت على الكلب نَبَح وولّى هاربا، و إذا تركته شدّ عليك ونَبَح ؛ فيُتعِب نفسه مُقْبِلًا عليك ومُدْبِرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان . قال الترمذىّ الحكيم : إنما شبهه

(١) الغرقد : هو بقيع الغرقد، مقابر بالمدينة . والذى فى ديوانه « بالفدفد » وهو الموضع الذى فيه غلظ وارتفاع . الوحى : الكتاب؛ و إنما جعله فى حجر المسيل لأنه أصلب . عن شرح الديوان .

(٢) آية ١٩٣ من هذه السورة .

بالكلب من بين السباع لأن الكلب ميّتُ الفؤاد ، وإنما لهثه لموت فؤاده . وسائر السباع ليست كذلك فلذلك لا يلهثن . وإنما صار الكلب كذلك لأنه لما نزل آدم عليه السلام إلى الأرض شَمِت به العدو ، فذهب إلى السباع فأشلاهم(١) على آدم ، فكان الكلب من أشدّهم طلبا . فنزل جبريل بالعصا التى صُرفت إلى موسى بمَدْيَن وجعلها آية له إلى فرعون ومَلَئه ، وجعل فيها سلطانا عظيما وكانت من آس الجنة ؛ فأعطاها آدم عليه السلام ليطرد بها السباع عن نفسه ، وأمره فيما رُوِىَ أن يدْنُوَ من الكلب ويضع يده على رأسه ، فمن ذلك أَلِفه الكلب ومات الفؤاد منه لسلطان العصا ، وأَلِف به وبولده إلى يومنا هذا ، لوضع يده على رأسه ، وصار حارسا من حُرّاس ولده . وإذا أُدِّب وعُلِّم الاصطياد تأدّب وقبل التعليم ؛ وذلك قوله : « تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ(٢) » . السُّدّى : كان بلعام بعد ذلك يلهث كما يلهث الكلب . وهذا المَثَل فى قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ فى كل من أوتى القرآن فلم يعمل به . وقيل : هو فى كل منافق . والأوّل أصح . قال مجاهد فى قوله تعالى « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » : أى إن تحمل عليه بدابتك أو برجلك يَلْهث أو تتركه يَلهث . وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه . وقال غيره : هذا شَرُّ تمثيل ؛ لأنه مثّله فى أنه قد غَلَب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضَرًّا ولا نفعا بكلب لاهثٍ أبدا ، حُمِل عليه أو لم يُحمل عليه ؛ فهو لا يملك لنفسه ترك اللَّهَثان . وقيل : من أخلاق الكلب الوقوعُ بمن لم يخفه على جهة الابتداء بالجفاء ، ثم تهدأ طائشته بنيل كل عِوض خسيس . ضربه الله مثلا للذى قَبِل الرِّشوة فى الدِّين حتى انسلخ من آيات ربّه . فدلت الآية لمن تدبّرها على ألّا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه ؛ إذ لا يدرى بما يُختم له . ودلّت على منع أخذ الرِّشوة لإبطال حَقٍّ أو تغييره . وقد مضى بيانه فى « المائدة(٣) » . ودلت أيضا على منع التقليد لعالم إلا بحجة يبيّنها ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألّا يقبل منه إلا بحجة .

---

(١) الإشلاء : الإغراء . (٢) آية ٤ سورة المائدة .

(٣) فى قوله تعالى : «سماعون للكذب أكالون للسحت» آية ٤٢

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أى هو مثـل جميع الكفار . وقوله ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ يقال: ساء الشيءُ قَبُح، فهو لازم، وساءه يسوءه مَساءة، فهو متعدٍّ؛ أى قَبُح مَثَلُهم. وتقديره: ساء مَثَلًا مَثَلُ القوم؛ فحذف المضاف، ونصب «مثلا» على التمييز. قال الأخفش: فجُعِل المثلُ القومَ مجازا . والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ . التقدير: ساء المثل مثلا هو مثل القوم . وقدّره أبو عليّ : ساء مَثَلًا مَثَلُ القوم . وقرأ عاصم الجَحْدَرِيّ والأعمش « ساء مثَلُ القوم » رفع مَثَلًا بساء .

قوله تعـالى : مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

تقدّم معناه فى غير موضع . وهذه الآية تردّ على القدرية كما سبق ، وتردّ على مَن قال إن الله تعالى هدى جميع المكلّفين ولا يجوز أن يُضلّ أحدا .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

أخبر تعالى أنه خلق للنار أهلا بعدله ، ثم وصفهم فقال : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ أى بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا . و﴿ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الهُدَى . و﴿ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ المواعظ . وليس الغرض نَفْىَ الإدراكات عن حواسهم جملةً كما بيناه فى «البقرة»(١) . ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأنهم لا يهتدون إلى ثواب، فهم كالأنعام؛ أى هِمّتهـم الأكل والشرب، وهم أضـلّ لأن الأنعام تُبصر منافعها

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

ومضارها وتتْبع مالكها، وهم بخلاف ذلك . وقال عطاء : الأنعام تعرف الله، والكافر لا يعرفه . وقيل : الأنعام مطيعة لله تعالى، والكافر غير مطيع . ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ أي تركوا التدبر وأعرضوا عن الجنة والنار .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة المشركين والمُلْحِدين . قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت الآية في رجل من المسلمين، كان يقول في صلاته : يا رحمن يا رحيم . فقال رجل من مشركي مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رَبًّا واحدا، فما بالُ هذا يدعُو ربَّين اثنين ! فأنزل الله سبحانه وتعالى « وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » .

الثانية — جاء في كتاب الترمذيّ وسنن ابن ماجه وغيرهما حديثٌ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نصّ فيه [أن لله] تسعة وتسعين اسما؛ في أحدهما ما ليس في الآخر . وقد بينا ذلك في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) . قال ابن عطية — وذكر حديث الترمذيّ — : وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث . وإنما المتواتر منه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن لله تسعة وتسعين آسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة " . ومعنى « أحصاها » عدّها وحَفِظها . وقيل غير هذا مما قد بيناه في كتابنا . وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذيّ ، وذكرنا من الأسماء ما اجتُمع عليه وما اختلف فيه مما وقفنا عليه في كتب أئمتنا ما يُنَيِّف على مائتي اسم . وذكرنا قبل تعيينها في مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلا فيما يتعلق بأحكامها ، فمن أراده وقف عليه هناك وفي غيره من الكتب الموضوعة في هذا الباب . والله الموفق، لا رَبَّ سِواه .

الثالثـــة — واختلف العلماء من هذا الباب فى الآسم والمُسَمَّى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك فى (الكتاب الأسنى) . قال ابن الحَصّار : وفى هـذه الآية وقوعُ الآسم على المُسَمَّى ووقوعه على التسمية . فقوله « ولله » وقع على المُسَمَّى، وقوله « الأسماء » وهو جمع آسم واقعٌ على التسميات . يدلّ على صحة ما قلناه قوله «فادعوه بها » ، والهاء فى قوله « فادعوه» تعود على المسمَّى سبحانه وتعالى، فهو المدعُوّ . والهاء فى قوله «بها» تعود على الأسماء، وهى التّسمِيات التى يُدْعَى بها لا بغيرها . هـذا الذى يقتضيه لسـان العرب . ومثل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد" الحديث . وقد تقدّم فى «البقرة» شىء من هذا[1] . والذى يذهب إليه أهلُ الحق أن الاسم هو المُسَمّى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية . قال ابن العربىّ عند كلامه على قوله تعـالى « ولله الأسماء الحسنى » : فيـه ثلاثة أقوال . قال بعض علمائنا : فى ذلك دليل على أن الآسم المسمى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى . الثـانى — قال آخرون : المـراد به التسميات؛ لأنه سـبحانه واحد والأسمـاء جمع .

قلت — ذكر ابن عطية فى تفسيره أن الأسمـاء فى الآية بمعنى التّسميات إجماعا من المتأولين لا يجوز غيره . وقال القاضى أبو بكر فى كتاب التمهيد : وتأويل قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لله تسعة وتسعون آسمـا من أحصاها دخل الجنة " أى أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهى عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتّى ، منها مايستحقه لنفسه ومنها ما يسـتحقه لصفة تتعلّق به ، وأسمـاؤه العائدة إلى نفسه هى هو ، وما تعلّق بصفة له فهى أسماء له . ومنها صفات لذاته . ومنها صفات أفعال . وهذا هو تأويل قوله تعالى : «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » أى التسميات الحسنى . الثالث — قال آخرون منهم : ولله الصفات .

الرابعـــة — سَمّى الله سبحانه أسماءه بالحُسْنَى لأنها حسنة فى الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله . والحُسْنَى مصدرٌ وُصف به . ويجوز أن يقدّر

(١) راجع المسألة الثانية جـ ١ ص ٢٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

«الحسنى» فُعْلَى، مؤنّث الأحسن؛ كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكُبَر والحُسَن. وعلى الأوّل أفرد كما أفرد وصف ما لا يعقل؛ كما قال تعالى: «مآرِبُ أُخرى»(١) و «يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ»(٢).

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ أى ٱطلبوا منه بأسمائه؛ فيُطْلَب بكل ٱسم ما يليق به، تقول: يارحيم ارحمنى، ياحكيم ٱحكم لى، يارازق ٱرزقنى، ياهادى ٱهدنى، يافتاح ٱفتح لى، ياتواب تُبْ علىّ؛ هكذا. فإن دعوت بٱسم عامّ قلت: يا مالك ٱرحمنى، ياعزيز ٱحكم لى، يالطيف ٱرزقنى. وإن دعوت بالأعمّ الأعظم فقلت: يا ألله؛ فهو متضمن لكل ٱسم. ولا تقول: يارزاق ٱهدنى؛ إلا أن تريد يارزاق ٱرزقنى الخير. قال ابن العربىّ: وهكذا، رَتِّب دعاءك تكن من المخلصين. وقد تقدّم فى «البقرة»(٣) شرائطُ الدعاء، وفى هذه السورة أيضاً(٤). والحمد لله.

السادسة — أدخل القاضى أبو بكر بن العربىّ عدّةً من الأسماء فى أسمائه سبحانه، مثل مُتِمّ نوره، وخير الوارثين، وخير الماكرين، ورابع ثلاثة، وسادس خمسة، والطيّب، والمعلم؛ وأمثال ذلك. قال ابن الحصار: واقتدى فى ذلك بابن بَرّجان(٥)، إذ ذكر فى الأسماء «النظيف» وغير ذلك مما لم يرد فى كتاب ولا سنة.

قلت: أمّا ما ذكر من قوله «مما لم يرد فى كتاب ولا سُنّة» فقد جاء فى صحيح مسلم «الطيّب». وخرج الترمذىّ «النظيف». وخرج عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه: "ربِّ أَعِنِّى ولا تُعِن علىّ وٱنصرنى ولا تنصر علىّ وٱمكُرْ لى ولا تَمْكُرْ علىّ" الحديث. وقال فيه: حديث حسن صحيح. فعلى هذا جائز أن يقال: ياخير الماكرين ٱمْكُرْ لى ولا تمكر علىّ. والله أعلم. وقد ذكرنا «الطيب، والنظيف» فى كتابنا وغيره مما جاء

(١) آية ١٨ سورة طه. (٢) آية ١٠ سورة سبأ. (٣) راجع ج ٢ ص ٣٠٨ طبعة ثانية.
(٤) فى قوله تعالى: «ادعو ربكم ...» آية ٥٥ ص ٢٢٣ من هذا الجزء. (٥) برجان (بفتح الباء وتشديد الراء): هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمى الأفريقى ثم الأشبيلى الصوفى المفسر. مات بمراكش سنة ٥٣٦ (عن طبقات المفسرين).

ذكره فى الأخبار ، وعن السلف الأخيار ، وما يجوز أن يُسَمَّى به ويُدْعَى ، وما يجوز أن يُسَمَّى به ولا يُدْعَى ، وما لا يجوز أن يسمى به ولا يُدْعَى . حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ . وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ الإلحاد : الميل وترك القصد ؛ يقال : ألحد الرجل فى الدِّين . وألحد إذا مال . ومنه اللَّحْد فى القبر ؛ لأنه فى ناحيته . وقرئ « يَلْحَدُونَ » لغتان . والإلحاد يكون بثلاثة أوجه : أحدها بالتغيير فيها كما فعله المشركون ، وذلك أنهم عدلوا بها عما هى عليه فسَمَّوْا بها أوثانهم ؛ فاشتقوا اللّات من الله ، والعُزَّى من العزيز ، ومَنَاة من المَنّان ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الثانى — بالزيادة فيها . الثالث — بالنقصان منها ؛ كما يفعله الجُهّال الذين يخترعون أدعيةً يسمّون فيها الله تعالى بغير أسمائه ، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله ؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به . قال ابن العربِىّ : « فحذارِ منها ، ولا يدعُوَنّ أحدكم إلا بما فى كتاب الله والكتب الخمسة ؛ وهى البخارىّ ومسلم والترمذىّ وأبو داود والنَّسائىّ . فهذه الكتب التى يدور الإسلام عليها ، وقد دخل فيها ما فى المُوَطَّأ الذى هو أصل التصانيف ، وذروا ما سواها ، ولا يقولَنّ أحدكم أختار دعاء كذا وكذا ؛ فإن الله قد آختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله صلى الله عليه وسلم » .

الثانيـــة — معنى الزيادة فى الأسماء التشبيه ، والنقصان التعطيلُ . فإن المشبِّهة وصفوه بما لم يأذن فيه ، والمعطِّلة سلبوه ما آتصف به ؛ ولذلك قال أهل الحق : إن ديننا طريق بين طريقين ، لا بتشبيه ولا بتعطيل . وسئل الشيخ أبو الحسن البُوشَنْجِىّ عن التوحيد فقال : إثبات ذات غيرِ مشبَّهة بالذوات ، ولا معطَّلة من الصفات . وقد قيل فى قوله تعالى « وذَرُوا الذين يُلحِدون » : معناه اتركوهم ولا تحاجّوهم ولا تَعَرَّضوا لهم . فالآية على هذا منسوخةٌ بالقتال ؛ قاله ابن زيد . وقيل : معناه الوعيد ؛ كقوله تعالى : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ

وَحِيدًا »[1] وقوله « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا »[2]. وهو الظاهر من الآية ؛ لقوله تعالى : « سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . والله أعلم .

قوله تعالى : وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

فى الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " هم هذه الأمة ". ورُوى أنه قال : " هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها " . وقرأ هذه الآية وقال : " إنّ من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم " . فدلّت الآية على أن الله عز وجل لا يُخلِى الدنيا فى وقت من الأوقات من داعٍ يدعُو إلى الحق .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

أخبر تعالى عمن كذّب بآياته أنه سيستدرجهم . قال ابن عباس : هم أهل مكة . والاستدراج هو الأخذ بالتدريج ، منزلةً بعد منزلة . والدّرْج : لَفّ الشيء؛ يقال : أدرجته ودرجته . ومنه أُدْرِجَ الميّتَ فى أكفانه . وقيل : هو من الدّرجة ؛ فالاستدراج أن يحطّ درجة بعد درجة إلى المقصود . قال الضحاك : كلما جدّدوا لنا معصية جدّدنا لهم نعمة . وقيل لذى النُّون : ما أقصى ما يُخْدَعُ به العبد ؟ قال : بالألطاف والكرامات ؛ لذلك قال سبحانه : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » نُسبغ عليهم النعم ونُنسيهم الشكر؛ وأنشدوا :

أحسنت ظنّك بالأيام إذ حَسُنَتْ * ولم تخف سوءَ ما يأتى به القَدَرُ
وسالمتْكَ الليالى فآغتررتَ بها * وعند صَفْوِ الليالى يحدث الكَدَرُ

قوله تعالى : وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أى أُطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عقوبتهم . ﴿ إِنَّ كَيْدِي ﴾ أى مكرى . ﴿ مَتِينٌ ﴾ أى شديد قوِىّ . وأصله من المَتْن ، وهو اللّحم الغليظ الذى عن جانب

(١) آية ١١ سورة المدثر .	(٢) آية ٣ سورة الحجر .

الصّلب . قيل : نزلت فى المستهزئين من قريش، قتلهم الله فى ليـلة واحدة بعد أن أمهلهم مدّة . نظيره « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً »(١) . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤)

قوله تعـالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أى فيما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم . والوقف على « يتفكروا » حسن . ثم قال : ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ ردّ لقولهم « يأيهـا الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون »(٢) . وقيل : نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة على الصفا يدعو قريشا، فخذا فخـذا ؛ فيقول : "يا بنى فلان" . يحذّرهـم بأس الله وعقابه . فقال قائلهم : إن صاحبهم هذا لمجنون ، بات يصوّت حتى الصباح .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ عجب من إعراضهـم عن النظر فى آياته ؛ ليعرفوا كمال قدرته ، حسب ما بيناه فى سـورة « البقرة »(٣) . والملكوت من أبنيـة المبالغة ، ومعناه الملك العظيم . وقد تقدّم(٤) .

الثانيــة — استدلّ بهذه الآية — وما كان مثلها من قوله تعالى : « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٥) وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا »(٦) وقوله

---

(١) آية ٤٤ سورة الأنعام . (٢) آية ٦ سورة الحجر . (٣) راجع جـ ١ ص١٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) راجع ص ٢٣ من هذا الجزء . (٥) آية ١٠١ سورة يونس . (٦) آية ٦ سورة ق .

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »[١] الآية . وقوله : « وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[٢] — مَن قال بوجوب النظر فى آياته والاعتبار بمخلوقاته . قالوا : وقد ذم الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا » الآية .

وقد اختلف العلماء فى أوّل الواجبات ، هل هو النظر والاستدلال أو الإيمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب الذى ليس من شرط صحته المعرفة . فذهب القاضى وغيره إلى أن أوّل الواجبات النظر والاستدلال ؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يُعلم ضرورة ، وإنما يُعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التى نصبها لمعرفته . وإلى هذا ذهب البُخارىّ رحمه الله حيث بوّب فى كتابه (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل « فاْعلم أنه لا إله إلا الله ») . قال القاضى : من لم يكن عالما بالله فهو جاهل ، والجاهل به كافر . قال ابن رشد فى مقدماته : وليس هذا بالبيّن ؛ لأن الإيمان يصحّ باليقين الذى قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد ، وبأوّل وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به فى غير ما آية . قال : وقد استدلّ الباجىّ على مَن قال إن النظر والاستدلال أوّلُ الواجبات بإجماع المسلمين فى جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلّد مؤمنين . قال : فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحا لما صح أن يسمّى مؤمنا إلا مَن عنده علم بالنظر والاستدلال . قال : وأيضا فلو كان الإيمان لا يصحّ إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم : لا يحل لكم قتالنا ؛ لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخّرونا حتى ننظر ونستدل . قال : وهذا يؤدّى إلى تركهم على كفرهم ، وألّا يُقتلوا حتى ينظروا ويستدلّوا .

قلت : هذا هو الصحيح فى الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئتُ به فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " . وترجم ابن المنذر فى كتاب الاشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن

---

(١) آية ١٧ سورة الغاشية . (٢) آية ٢١ سورة الذاريات .

لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن كلّ ما جاء به محمد حق ، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام — وهو بالغ صحيح العقل — أنه مسلم . وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مُرْتَدًّا يجب عليه ما يجب على المرتدّ . وقال أبو حفص الزَّنْجانِيّ وكان شيخنا القاضى أبو جعفر أحمد بن محمد السِّمنانىّ يقول : أوّل الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به ، ثم النظر والاستدلال المؤدّيان إلى معرفة الله تعالى؛ فيتقدّم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله . قال : وهذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق ؛ لأن أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال . فلو قلنا : إن أوّل الواجبات المعرفة بالله لأدّى إلى تكفير الجَمّ الغفير والعدد الكثير، وألاّ يدخل الجنة إلا آحاد الناس، وذلك بعيد ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قطع بأن أكثر أهل الجنة أُمّتُه ، وأن أمم الأنبياء كلّهم صف واحد وأمته ثمانون صفا . وهذا بيّن لا إشكال فيه ، والحمد لله .

الثالثــة — ذهب بعض المتأخرين والمتقـدّمين من المتكلمين إلى أن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التى طرقوها والأبحاث التى حرّروها لم يصح إيمانه وهو كافر ؛ فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأوّل من يُبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه . وقد أورد على بعضهم هذا فقال : لا تشنّع علىّ بكثرة أهل النار . وكما قال —

قلت : وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنّة نبيّه ؛ لأنه ضيّق رحمة الله الواسعة على شِرذِمة يسيرة من المتكلّمين، واقتحموا فى تكفير عامّة المسلمين . أين هـذا من قول الأعرابى الذى كشف عن فرجه ليبول ، وانتهره أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم : اللّهُمّ ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لقد حَجّرت واسعا" . خرّجه البخارىّ والترمذىّ وغيرهما من الأئمة . أترى هذا الأعرابىّ عَرَف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان، وأن رحمته وسعت كل شىء، وكم من مثله محكوم له بالإيمان . بل اكتفى صلى الله عليه وسلم من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين، وحتى إنه اكتفى بالإشارة فى ذلك . ألا تراه لما قال للسّوداء : "أين الله" ؟ قالت : فى السماء . قال : "من أنا" ؟ قالت :

أنت رســول الله . قال : "أعتقها فإنها مؤمنة" . ولم يكن هناك نظر واستدلال، بل حكم بإيمانهم من أوّل وهلة، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة . والله أعلم .

الرابعـــة — ولا يكون النظر أيضا والاعتبار في الوجوه الحسان من المُرْد والنّسوان . قال أبو الفرج الجَوْزِيّ : قال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطَّبَرِيّ بلغني عن هذه الطائفة التي تسمع السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأمرد، وربّما زيّنته بالحلي والمصبغات من الثياب، وتزعم أنها تقصد به الازدياد في الإيمـان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع . وهــذه النهاية في متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم . قال أبو الفرج : وقال الإمام أبو الوفاء بن عقيل لم يُحِلّ الله النظر إلا على صورةٍ لا ميل للنفس إليها، ولا حظّ للهوى فيها؛ بل عبرةٌ لا يُمازجها شهوة، ولا يقارنها لذّة . ولذلك ما بعث الله سـبحانه امرأة بالرسالة، ولا جعلها قاضيا ولا إماما ولا مؤذّنا؛ كل ذلك لأنها محل شهوة وفتنة . فمن قال : أنا أجد من الصُّــوَر المستحسنة عِبَرًا كذّبناه . وكل من ميّز نفســه بطبيعة تخرجه عن طباعنا كذّبناه، وإنما هذه خُدَع الشيطان للمدّعين . وقال بعض الحكماء : كلّ شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير؛ ولذلك قال تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»[1] وقال : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»[2] . وقد بينا وجه التمثيل في أوّل «الأنعام» . فعلى العاقل أن ينظر إلى نفسه ويتفكّر في خلقه من حين كونه ماءً دافقا إلى كونه خَلْقًا سَوِيًّا، يُعان بالأغذية ويُرَبّى بالرفق، ويُحفظ باللّين حتى يكتسب القُوَى ويبلغ الأشُدّ . وإذا هو قــد قال : أنا، وأنا، ونسي حين أتى عليه حِينٌ من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، وسيعود مقبورا؛ فياوَيْحَه إن كان محسورا . قال الله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ — إلى قوله — تُبْعَثُونَ»[3] فينظر أنه عبد مَرْبُوب مكلّف، مُخَوَّف بالعذاب إن قصّر، مُرَجًّى بالثواب إن ٱئْتَمر، فيقبِل على عبادة مولاه [فإنه][4] وإن كان لا يراه يراه و[لا][4] يخشى الناس

(١) آية ٤ سورة التين . (٢) آية ٢١ سورة الذاريات . (٣) آية ١٢ وما بعدها سورة المؤمنون .
(٤) الزيادة عن ابن العربي .

والله أحقّ أن يخشاه، ولا يتكبّر على أحد من عباد الله ؛ فإنه مؤلّف من أقــذار، [مشحون من أوْضار](١). صائر إلى جنة إن أطاع أو إلى نار . قال ابن العربيّ : وكان شيوخنا يستحبّون أن ينظر المرء فى الآيات الحكمية التى جمعت هذه الأوصاف العلمية :

كيف يَزْهُو مَن رَجيعه (٢) * أبــدَ الدّهر ضَجيعُــه
فهـــو منـــه وإليـــه * وأخـــوه ورضـــيعه
وهو يدعـــوه إلى الحشـ * ـش بصُـــغرْ فيُطيعـــه (٣)

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ معطوف على ما قبله ؛ أى وفيما خلق الله من الأشـياء . ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَـدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى وفى آجالهم التى عسى أن تكون قد قَرُبت ؛ فهو فى موضع خفض معطوف على ما قبله . وقال ابن عباس : أراد باقتراب الأجل يومَ بدر ويوم أُحُد . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى بأىّ قرآن غير ما جاء به محمد يصدّقون . وقيل : الهاء للأجل ، على معنى بأىّ حديث بعـد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمـان؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف .

قوله تعـالى : مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُـمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

بيّن أن إعراضهم لأن الله أضلهم . وهـذا ردّ على القدريّة . ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ ﴾ بالرفع على الاستئناف . وقُرئ بالجزم حملا على موضع الفـاء وما بعدها . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يتحيّرون . وقيل : يترددون . وقد مضى فى أوّل « البقرة » (٤) مستوفًى .

(١) الزيادة عن ابن العربى . والأوضار : الأوساخ . (٢) الرجيع : العذرة والروث .
(٣) الحش : (بالتثليث) : النخل المجتمع ، ويكنى به عن بيت الخلاء ؛ لما كان من عادتهم التغوط فى البساتين .
(٤) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ « أيّان » سؤال عن الزمان؛ مثل مَتَى . قال الرّاجز :

أيّانَ تقضى حاجتى أيان * أما ترى لنجحها أَوَانَـا

وكانت اليهود تقول للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيّا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم . ورُوى أن المشركين قالوا ذلك لفَـرْط الإنكار . و ﴿ مُرْسَاهَا ﴾ فى موضع رفع بالابتداء عند سيبويه ، والخبر « أيان » . وهو ظرف مَبْنِيٌّ على الفتح؛ بُنِي لأن فيه معنى الاستفهام . و « مُرْساها » بضم الميم ، من أرساها الله ، أى أثبتها ، أى متى مُثْبَتُها ، أى متى وقوعها . وبفتح الميم من رست ، أى ثبتت ووقفت؛ ومنه «وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ» (١) . قال قَتادة : أى ثابتات . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ﴾ ابتداء وخبر ، أى لم يبيّنها لأحد ؛ حتى يكون العبد أبدا على حذر . ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أى لا يظهرها . ﴿ لِوَقْتِهَا ﴾ أى فى وقتها ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ . والتَّجْلِية : إظهار الشيء؛ يقال جَلَا لِي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه . ومعنى ﴿ ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَفِي علمها على أهل السموات والأرض . وكل ما خَفِى علمه فهو ثقيل على الفؤاد . وقيل : كبر مجيئها على أهل السموات والأرض؛ عن الحسن وغيره . ابن جُريج والسُّدّى : عَظُم وصفها على أهل السموات والأرض . وقال قَتادة وغيره : المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها؛ لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تَنْضُب . وقيل : المعنى ثقلت المسألة عنها . ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أى فجأة ، مصدرٌ فى موضع الحال . ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

أى عالم بها كثيرُ السؤال عنها . قال ابن فارس : الحَفِيّ العالِم بالشيء . والحَفِيّ : المستقصِى فى السؤال . قال الأعشى :

فإن تسألى عنّى فيـارُبَّ سائلٍ * حَفِيٍّ عن الأعشى به حيث أصْعَدَا

يقـال : أحْفَى فى المسألة و فى الطلب ، فهـو مُحْفٍ وحَفِيّ على التكثـير ، مثـلُ مُخْصِب وخصيب . قال محمد بن يزيد : المعنى يسئلونك كأنك حَفِيّ بالمسألة عنها ، أى مُلِحّ . يذهب إلى أنه ليس فى الكلام تقديم وتأخير . وقال ابن عباس وغيره : هو على التقـديم والتأخير ، والمعنى : يسئلونك عنها كأنك حَفِيّ بهم أى حفِيّ ببرّهم وفَرِحٌ بسؤالهم . وذلك لأنهم قالوا : بيننا و بينـك قرابةٌ فأَسِرّ إلينا بوقت الساعة . ﴿ قُلْ إِنَّمَـا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ليس هذا تكريرا ، ولكن أحَدُ العِلْمين لوقوعها والآخر لكُنْهها .

قوله تعـالى : قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًـا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى لا أملك أن أجلب إلى نفسى خيرا ولا أدفع عنها شرا ؛ فكيف أملك عِلم الساعة . وقيل : لا أملك لنفسى الهُدَى والضلال . ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ ﴾ فى موضع نصب بالاستثناء . والمعنى : إلا ما شاء الله أن يملكنى و يمكننى منه . وأنشد سيبو يه :

* مهما شاء بالناس يفعل *

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل منى من قبل أن يعرفنيه لفعلته . وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب لقاتلتُ فلم أُغْلَب . وقال ابـن عباس : لو كنت أعلم سَنة الجَدْب لهيّأتُ لهـا فى زمن الخِصْب ما يكفينى . وقيل : المعنى لو كنت أعلم التجارة التى تنفق لاشتريتها وقت كسادها . وقيل :

المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ؛ عن الحسن وابن جريج .
وقيل : المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجبتُ عن كل ما أُسأل عنه . وكله مراد، والله أعلم .
﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هذا استئناف كلام، أى ليس بى جنون؛ لأنهم نسبوه إلى الجنون . وقيل : هو متّصل، والمعنى لو علمتُ الغيب لما مسّنى سوءٌ ولحذرت .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم . ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى حوّاء . ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله فى الجنة . ثم ابتدأ بحالة أخرى هى فى الدنيا بعد هبوطهما فقال : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ كناية عن الوقاع . ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ كل ما كان فى بطن أو على رأس شجرة فهو حَمْل بالفتح . وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حِمل بالكسر . وقد حكى يعقوب فى حِمل النخلة الكَسْر . وقال أبو سعيد السِّيرافيّ : يقال فى حمل المرأة حَمْل وحِمْل، يُشبّه مرّة لاستبطانه بحَمْل المرأة ، ومرّة ابروزه وظهوره بحِمْل الدابة . والحَمْل أيضا مصدر حَمَل عليه يحمِل حَملا إذا مال . ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ يعنى المنيّ؛ أى استمرّت بذلك الحَمْل الخفيف . يقول : تقوم وتقعد وتَقلّب، ولا تكترث بحمله إلى أن ثقُل ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقيل : المعنى فاستمرّ بها الحمل ، فهو من المقلوب ؛ كما تقول : أدخلت القَلَنْسوة فى رأسى . وقرأ

عبد الله بن عمر « فمَارَتْ بِهِ » بألف والتخفيف؛ من مار يَمُور إذا ذهب وجاء وتصرّف . وقرأ ٱبن عباس ويحيي بن يَعْمر « فَمَرَت بِهِ » خفيفة من المِرْيَة ، أى شكّت فيما أصابها ؛ هل هو حمل أو مرض، أو نحو ذلك .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ صارت ذاتَ ثِقَل ؛ كما تقول : أثمر النخل . وقيل : دخلت فى الثّقل ؛ كما تقول : أصبح وأمسى . ﴿ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ الضمير فى « دَعَوا » عائد على آدم وحوّاء . وعلى هذا القول ما رُوِى فى قصص هذه الآية أن حواء لما حملت أوّل حمل لم تَدْرِ ما هو . وهذا يقوِّى قراءة من قرأ « فَمَرَت به » بالتخفيف . فجزِعت بذلك ؛ فوجد إبليسُ السبيلَ إليها . قال الكَلْبِيّ : إن إبليس أتى حواء فى صورة رجل لما أثقلت فى أوّل ما حملت فقال : ما هذا الذى فى بطنك ؟ قالت : ما أدرى ! قال : إنى أخاف أن يكون بهيمة . فقالت ذلك لآدم عليه السلام . فلم يزالا فى همّ من ذلك . ثم عاد إليها فقال : هو من الله بمنزلةٍ، فإن دعوتُ اللهَ فولدتِ إنسانا أفتسمِّينه[1] بى ؟ قالت نعم . قال : فإنى أدعو الله . فأتاها وقد وَلَدت فقال : سَمِّيه باسمى . فقالت : وما ٱسمك ؟ قال : الحارث — ولو سَمّى لها نفسَه لعرفته — فسمّته عبد الحارث . ونحو هذا مذكور فى ضعيف الحديث ، فى الترمذِىّ وغيره . وفى الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات ؛ فلا يعوِّل عليها مَن له قلب ، فإن آدم وحواء عليهما السلام وإن غرّهما بالله الغَرُورُ فلا يُلدغ المؤمن من جُحر مرّتين، على أنه قد سُطِّر وكُتب . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خدعهما مرّتين [خدعهما] فى الجنة وخدعهما فى الأرض" . وعُضِد هذا بقراءة السُّلَمِىّ « أتشركون » بالتاء . ومعنى ﴿ صَالِحًا ﴾ يريد ولدا سَوِيًّا . ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ وٱختلف العلماء فى تأويل الشِّرْك المضاف إلى آدم وحواء، وهى : —

الثالثـة — قال المفسرون : كان شِركًا فى التسمية والصفة، لا فى العبودية والربوبية . وقال أهل المعانى : إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث ،

(١) فى نسخ الأصل : « فتسميه » .

لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد فسمياه به كما يسمّى الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له ، لا على أن الضيف ربّه ؛ كما قال حاتم :

وإنّى لعبــد الضيف ما دام ثاوياً * وما فىّ إلّا تيـك من شيمة العبـد

وقال قوم : إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرية آدم عليه السلام، وهو الذى يُعَوَّل عليــه . فقوله « جعلا له » يعنى الذكر والأنثى الكافرَيْن ، ويعنى به الجنسان . ودلّ على هذا « فَتَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يقل يُشركان . وهذا قول حَسَن . وقيل : المعنى « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » من هيئة واحدة وشكل واحد « وجعل منها زوجها » أى من جنسها « فلما تغشاها » يعنى الجنسين . وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحواء ذكر فى الآية ؛ فإذا آتاهما الولد صالحـا سليما سوِيًّا كما أراداه صرفاه عن الفِطرة إلى الشرك ، فهذا فعل المشركين . قال صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة — فى رواية الملة — أبواه يُهوّدانه ويُنصّرانه ويُمجّسانه " . قال عكرمة : لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعـد آدم . وقال الحسين بن الفضل : وهذا أعجب إلى أهل النظر، لمـا فى القول الأول من المضاف من العظائم بنبىّ الله آدم . وقرأ أهل المدينة وعاصم «شِرْكًا» على التوحيد . وأبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع، على مثل فُعَلاء، جمع شريك . وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى، وهى صحيحة على حذف المضاف، أى جعلا له ذا شرك؛ مثلُ « واسأل القرية » فيرجع المعنى على أنهم جعلوا له شركاء .

الرابعــة — ودلّت الآية على أن الحمل مرض من الأمراض . روى ابن القاسم ويحيى عن مالك قال: أوّل الحمل بشر وسرور، وآخره مرض من الأمراض . وهذا الذى قاله مالك « إنه مرض من الأمراض » يعطيه ظاهر قوله « دَعَوَا الله ربّهما » وهذه الحالة مشاهدة فى الحُمّال، ولأجل عظم الأمر وشدّة الخطب جعل موتها شهادة ؛ كما ورد فى الحديث [1] . وإذا

(١) فى قوله صلى الله عليه وسـلم : " الشهداء سبعة سـوى القتل فى سبيل الله : المطعون شهيد والغَـرِق شهيد وصاحب ذات الجَنب شهيد والمبطون شهيد والحَرِق شهيد والذى يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجُمْع شهيد" . أى تموت وفى بطنها ولد .

ثبت هذا من ظاهر الآية لحال الحامل حال المريض فى أفعاله . ولا خلاف بين علماء الأمصار أن فعل المريض فيما يَهَب ويُحابِى فى ثلثه . وقال أبوحنيفة والشافعىّ : إنمايكون ذلك فى الحامل بحال الطّلْق ، فأما قبل ذلك فلا . وآحتجّوا بأن الحمل عادةٌ والغالب فيه الســلامة . قلنا : كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة ، وقد يموت من لم يمرَض .

الخامســـة — قال مالك : إذا مضت للحامل ستة أشهر من يوم حملت لم يجز لها قضاءٌ فى مالها إلا فى الثلث . ومن طلّق زوجته وهى حامل طلاقا بائنا فلمـا أتى عليها ستة أشهر أراد ارتجاعها لم يكن له ذلك ؛ لأنها مريضة ونكاح المريض لا يصح .

السادســـة — قال يحيى : وسمعت مالكا يقول فى الرجل يحضر القتال : إنه إذا زحف فى الصف للقتال لم يجزله أن يقضى فى ماله شيئا إلا فى الثلث ، وإنه بمنزلة الحامل والمريض المَخُوف عليه ما كان بتلك الحال . ويلتحق بهذا المحبوسُ للقتل فى قصاص . وخالف فى هذا أبو حنيفة والشافعىّ وغيرهما . قال ابن العربىّ : وإذا استوعبت النظر لم تَرْتَب فى أن المحبوس على القتل أشــدّ حالا من المريض ، وإنكار ذلك غفلةٌ فى النظر ؛ فإن سبب الموت موجود عندهما ، كما أن المرض سبب الموت ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[(1)] » . وقال رُوَيشد الطائىّ :

يأيهـا الراكب المُــزْجِى مَطِيَّتَــه * سائِلْ بنى أَسَد ماهذه الصَّوْتُ[(2)]

وقل لهم بادروا بالعذر وآلتمســوا * قــولًا يُبرِّئُــكم إنى أنا المَــوْتُ

وممـا يدلّ على هذا قوله تعالى : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ[(3)] » . فكيف يقول الشافعىّ وأبو حنيفة : الحـال الشديدة إنمـا هى المبارزة ؛ وقد أخبر الله عز وجل عن مقاومة العــدوّ وتدانى الفريقين بهذه الحالة العظمى من بلوغ القلوب الحناجر، ومن ســوء الظنون بالله ، ومن زلزلة القلوب واضطرابها ؛

---

(١) آية ١٤٣ ســورة آل عمران .

(٢) الصوت : الجَرْس ؛ مذكر . وإنمـا أنثه هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة ؛ على معنى الصيحة أو الاستغاثة .

(٣) آية ١٠ سورة الأحزاب .

هل هذه حالة ترى على المريض أم لا . هذا ما لا يشك فيه منصف ، وهذا لمن ثبت فى اعتقاده ، وجاهد فى الله حقّ جهاده ، وشاهد الرسول وآياته ؛ فكيف بنا .

السابعة — وقد اختلف علماؤنا فى راكب البحر وقت الهَوْل ؛ هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل . فقال ابن القاسم : حكمه حكم الصحيح . وقال ابن وهب وأشهب : حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر . قال القاضى أبو محمد : وقولهما أقيس ؛ لأنها حالة خوف على النفس كاثقال الحمل . قال ابن العربىّ : وابن القاسم لم يركب البحر ، ولا رأى دودا على عود . ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه ، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلّق لموقن بها ، ويتحقّق التوكل والتفويض فليركب البحر .

قوله تعالى : أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ أى أيعبدون ما لا يقدر على خلق شىء . ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أى الأصنام مخلوقة . وقال « يخلقون » بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع ، فأجريت مجرى الناس ؛ كقوله : « فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »(١) . وقوله : « يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ »(٢) . ﴿ ولا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ أى الأصنام ، لا تنصر ولا تنتصر .

قوله تعالى : وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ قال الأخفش : أى وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم . ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ قال أحمد بن يحيى :

---

(١) آية ٣٣ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٨ سورة النمل .

لأنه رأس آية . يريد أنه قال : « أم أنتم صامتون » ولم يقــل أم صَمَتم . وصامتون وصَمَتم عند سيبويه واحد . وقيل : المراد مَن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن . وقرئ « لا يتّبعوكم » مشدّدا ومخفّفا، لغتان بمعنًى . وقال بعض أهل اللغة : « أتبعه » — مخففا — إذا مضى خلفه ولم يدركه . و « اتّبعه » — مشددا — إذا مضى خلفه فأدركه .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ حاجّهم فى عبادة الأصنام. ﴿ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون . وقيل : تدعونها آلهــة . ﴿ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى من غير الله . وسُمّيت الأوثان عِبادا لأنها مملوكة لله مسخّرة. الحسن : المعنى أن الأصنام مخلوقة أمثالكم . ولمّا اعتقد المشركون أن الأصنام تضر وتنفع أجراها مجرى الناس فقال : ﴿ فَٱدْعُوهُمْ ﴾ ولم يقل فادعوهن . وقال « عِباد » ، وقال « إن الذين » ولم يقل إن التى . ومعنى « فادعوهم » فاطلبوا منهــم النفع والضر . ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن عبادة الأصــنام تنفع . وقال ابن عباس : معنى فادعوهم فاعبدوهم . ثم وبّخهم الله تعالى وســفّه عقولهم فقال : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الاية . أى أنتم أفضل منهم فكيف تعبدونهم . والغرض بيان جهلهم ؛ لأن المعبود يتّصف بالجوارح . وقرأ سعيد بن جُبير « إِنِ الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالَكُمْ » بتخفيف « إن » وكسرها لالتقاء الساكنين ، ونصب « عبادًا » بالتنوين ، « أمثالكم » بالنصب . والمعنى : ما الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالَكم ، أى هى حجارة وخشب ؛ فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه .

قال النحاس : وهـذه قراءة لا ينبغي أن يُقرأ بها من ثلاث جهات : أحدها — أنها مخالفة للسّواد . والثانية — أن سيبويه يختار الرفع فى خبر إنْ إذا كانت بمعنى ما ، فيقول : إنْ زيد منطلق ؛ لأن عمل « ما » ضعيف ، و « إنْ » بمعناها فهى أضعف منها . والثالثة — أن الكسائىّ زعم أن « إنْ » لا تكاد تأتى فى كلام العرب بمعنى « ما » ، إلا أن يكون بعدها إيجاب ؛ كما قال عز وجل : « إِنِ الكافِرون إلا فِى غُرُورٍ »[1] . ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ الأصـل أن تكون اللام مكسورة ، فحذفت الكسرة لثقلها . ثم قيـل : فى الكلام حذف ، المعنى : فادعوهم إلى أن يتّبعوكم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين أنهم آلهة . وقرأ أبو جعفر وشَيْبة « أم لهم أيدٍ يَبْطُشون بها » بضم الطاء ، وهى لغة . واليد والرجل والأذن مؤنّثات يُصَغَّرن بالهـاء . وتزاد فى اليد ياء فى التصغير ، تُرَدّ إلى أصلها فيقال يُدَيّة بالتشديد لاجتماع الياءين .

قوله تعـالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى الأصنام . ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ أنتم وهى . ﴿ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى فلا تؤخّرون . والأصل « كيدونى » حذفت اليـاء لأن الكسرة تدلّ عليها . وكـذا « فلا تنظرونِ » . والكيد المكر . والكيد الحرب ؛ يقـال : غزا فلم يَلْقَ كَيْدًا . ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ ﴾ أى الذى يتولّى نصرى وحفظى الله . ووَلِيُّ الشىء : الذى يحفظه ويمنع عنـه الضرر . والكتاب : القرآن . ﴿ وَهُوَ يَتَـوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ ﴾ أى يحفظهم . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سِرّ يقول : "ألَا إنّ آل أبِي — يعنى فلانا[2] — ليسوا لى بأولياء إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين" . وقال الأخفش : وقُرِئَ « إنّ وَلِيَّ اللهِ الذى نَزّل الكتابَ » يعـنى جبريل . النحاس : هى قراءة عاصم الجَحْدرِىّ . والقراءة الأولى أبْيَن ؛ لقوله : « وهو يتولى الصّالحين » .

---

(١) آية ٢٠ سورة الملك .

(٢) فى شرح النووى على صحيح مسلم : « هذه الكناية بقوله : يعنى فلانا ، هى من بعض الرواة خشى أن يسميه فيترتب عليـه مفسدة وفتنة ؛ إما فى حق نفسه ، وإما فى حقه وحق غيره فكنى عنه ... قال القاضى عياض رضى الله عنه : قيل إن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص والله أعلم » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ كرّره ليبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر . ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ شرط ، والجواب ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ . ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ مستأنف . ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فى موضع الحال . يعنى الأصنام . ومعنى النظر فتح العينين إلى المنظور إليه ؛ أى وتراهم كالناظر إليك . وخبّر عنهم بالواو وهى جماد لا تُبصر؛ لأن الخبر جرى على فعل مَن يعقل . وقيل : كانت لهم أعْيُن من جواهر مصنوعة فلذلك قال «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ» . وقيل : المراد بذلك المشركون ؛ أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم .

قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — هذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمّنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيّات . فقوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين ، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل فى قوله ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلةُ الأرحام ، وتقوى الله فى الحلال والحرام ، وغَضّ الأبصار ، والاستعدادُ لدار القرار . وفى قوله : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحضّ على التخلّق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزّه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة .

قلت : هذه الخصال تحتاج إلى بسط ، وقد جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر بن سليم . قال جابر بن سليم أبو جُرَىّ : ركبت قَعودى ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله صلى

الله عليه وسلم، فأنخت قعودى بباب المسجد، فدلُّونى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو جالس عليه بُرْد من صوف فيه طرائقُ حُمر؛ فقلت : السلام عليك يارسول الله . فقال : "وعليك السلام". فقلت : إنّا معشر أهل البادية ، قوم فينا الجفاء؛ فعلّمنى كلماتٍ ينفعنى الله بها . قال : "آدْنُ" ثلاثا ، فدنَوْت فقال : "أعِد علىّ" فأعدتُ عليه فقال : "آتق الله ولا تحقرنّ من المعروف شيئا وأن تلقَ أخاك بوجه منبسط وأن تُفرِغ من دَلْوك فى إناء المستسقى وإن امرؤ سبّك بما لا يعلم منك فلا تَسُبّه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وِزْرًا ولا تسبّن شيئا مما خوّلك الله تعالى" . قال أبو جُرَىّ : فوالذى نفسى بيده ، ما سبَبْت بعده شاة ولا بعيرا . أخرجه أبو بكر البزّار فى مسنده بمعناه . وروى أبو سعيد المَقْبُرِىّ عن أبيه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق" . وقال ابن الزبير : ما أنزل الله هذه الاية إلا فى أخلاق الناس . وروى البخارىّ من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله آبن الزبير فى قوله « خُذِ العفو وأْمُر بِالعُرْف » قال : ما أنزل الله هذه الآية إلا فى أخلاق الناس . وروى سفيان بن عُيَيْنة عن الشّعْبىّ أنه قال : إن جبريل نزل على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما هذا ياجبريل" ؟ فقال : "لا أدرى حتى أسأل العالِم" فى رواية "لا أدرى حتى أسأل ربى" فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال : "إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك" . فنظمه بعض الشعراء فقال :

مكارم الأخلاق فى ثلاثة * من كمُلت فيه فذلك الفَتَى
إعطاء من تحرِمه ووصل من * تقطعه والعفو عمن آعتدَى

وقال جعفر الصادق : أمر الله نبيّه بمكارم الأخلاق فى هذه الآية، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الاية . وقال صلى الله عليه وسلم : "بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" . وقال الشاعر :

كل الأمور تزول عنك وتنقضى * إلا الثنـاء فإنـــه لك باق
ولو أننى خُــيِّرت كلّ فضـــيلة * ما ٱخترت غير مكارم الأخـلاق

وقال سهل بن عبـد الله : كلّم الله موسى بطُورسَيْناء . قيـل له : بأىّ شيء أوصاك ؟ قال : بتسعة أشياء، الخشية فى السر والعلانية، وكلمة الحق فى الرضا والغضب، والقصد فى الفقر والغِنى، وأمرنى أن أصل مَن قطعنى، وأعطى من حرمنى، وأعفو عمن ظلمنى، وأن يكون نطقى ذكرا، وصَمتِى فكْرا، ونظرى عبرة .

قلت : وقد روى عن نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أمرنى ربى بتسع الإخلاص فى السر والعلانية والعدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمنى وأصل من قطعنى وأعطى من حرمنى وأن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة" . وقيل : المراد بقوله «خذ العفو» أى الزكاة؛ لأنها يسير من كثير . وفيه بُعْد؛ لأنه من عَفَا إذا دَرَس . وقد يقال : خذ العفو منه، أى لا تنقص عليه وسامحه . وسبب النزول يردّه، والله أعلم . فإنه لما أمره بمحاجّة المشركين دلّه على مكارم الأخلاق، فإنها سبب جرّ المشركين إلى الإيمان . أى ٱقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر؛ تقول : أخذت حقى عَفْوًا صَفْوًا، أى سهلا .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أى بالمعروف . وقرأ عيسى بن عمــر «العُرُف» بضمتين؛ مثل الحُلُم؛ وهما لغتان . والعرف والمعروف والعارفة : كل خصـلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس .

قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يَعْدَم جَوازِيَه * لا يذهب العُرْف بين الله والناس

وقال عطاء : «وأمر بالعُرُف» يعنى بلا إله إلا الله .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أى إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم؛ صيانة له عليهم ورفعًا لقدره عن مجاوبتهم . وهذا وإن

كان خطابا لنبيّه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه. وقال ابن زيد وعطاء: هي منسوخة بآية السيف. وقال مجاهد وقتادة: هي مُحْكَمة؛ وهو الصحيح لما رواه البُخارِيّ عن عبد الله ابن عباس قال: قدم عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس ابن حِصن، وكان من النفر الذين يُدنيهم عُمَر، وكان القراءُ أصحابَ مجالِس عُمَر ومشاورته، كُهولًا كانوا أو شُبّانا. فقال عيينة لابن أخيه: يابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه؛ فاستأذن لعُيَينة. فلما دخل قال: يا بن الخطاب، والله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال: فغضب عمر حتى هَمّ بأن يقع به. فقال الحُرّ: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيّه عليه السلام «خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْف وأعرض عن الجاهلين» وإن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عُمَر حين تلاها عليه، وكان وقّافا(1) عند كتاب الله عز وجل.

قلت: فاستعمال عمر رضي الله عنه لهذه الآية واستدلالُ الحُرّ بها يدل على أنها مُحْكَمة لا منسوخة. وكذلك استعملها الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ على ما يأتي بيانه. وإذا كان الجفاء على السلطان تعمُّدًا واستخفافا بحقه فله تعزيره. وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصفح والعفو؛ كما فعل الخليفة العدل.

قوله تعالى: وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)

فيه مسألتان:

الأولى — لما نزل قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال عليه السلام: "كيف يارَبّ والغضب"؟ فنزلت: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ ونَزْغُ الشيطان: وساوسه. وفيه لغتان: نزغ ونغز؛ يقال: إيّاك والنّزاغَ والنّغاز، وهم المُوَرِّشون(2). الزجاج: النّزغ أدنى حركة تكون، ومن الشيطان

(1) أي لا يجاوز حكمه.
(2) التوريش: التحريش؛ يقال: ورش بين القوم وأرّش.

أدنى وسوسة . قال سعيد بن المُسيِّب : شهدت عثمان وعليًّا وكان بينهما نَزْغ من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئا، ثم لم يبرحا حتى استغفر كلّ واحد منهما لصاحبه . ومعنى ﴿ يَنْزَغَنَّكَ ﴾ : يصيبنّك و يعرض لك عنـد الغضب وسوسة بما لا يحلّ . ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي اطلب النجاة من ذلك بالله . فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالألتجاء إليه والاستعاذة به ؛ ولله المَثَل الأعلى . فلا يستعاذ من الكلاب إلا بربّ الكلاب . وقد حُكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : هذا يطول ، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع ؟ قال : أكابده وأردّه جهدى . قال : هذا يطول عليك ، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك .

الثانيـــة — النَّغْز والنَّزْغ والهَمْز والوَسْوَسة سواء ؛ قال الله تعالى : «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَـزَاتِ الشَّيَاطِينِ»[1] وقال : «مِنْ شَرِّ الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ»[2] . وأصل النَّزْغ الفساد؛ يقال : نزغ بيننا؛ أي أفسد . ومنه قوله : «نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي»[3] أي أفسد . وقيل : النَّزْغ الإغواء والإغراء؛ والمعنى متقارب .

قلت : ونظير هذه الآية ما في صحيح مسـلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربَّك فإذا بلغ ذلك فَلْيَستعذ بالله ولْيَنْتَه" . وفيه عن عبدالله قال : سُئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال : " تلك مَحْضُ الإيمـان " . وفي حديث أبي هريرة : " ذلك صَرِيح الإيمان " والصريح الخالص . وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان ، لأن الإيمـان اليقين ، و إنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعـالى أن يعاقَبوا على ما وقع في أنفسهم . فكأنه قال جَزَعكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه ؛ لصحة إيمانكم ، وعلمكم بفسادها . فسمّى الوسوسة إيمانا لمـا كان دفعها والإعراض عنها والردّ لهـا وعَدم قبولهـا

(١) آية ٩٧ سورة المؤمنون . (٢) سورة النـاس . (٣) آية ١٠٠ سورة يوسف .

والجزع منها صادرا عن الإيمان . وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها والالتفات نحوها . فمن كان صحيح الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به . وأما من خالجته الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بد من مشافهته بالدليل العقلي؛ كما قال صلى الله عليه وسلم للذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا عدوى" . وقال أعرابي : فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "فمن أعدى الأول" فاستأصل الشبهة من أصلها . فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالإغراء والإضلال أخذ يشوش عليهم أوقاتهم بتلك الألقيات . والوساوس : الترهات؛ فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعها عندهم فجاءوا — كما في الصحيح — فقالوا : يارسول الله ، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : " أو قد وجدتموه " ؟ قالوا نعم . قال : " ذلك صريح الإيمان رغما للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » " . فالخواطر التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها الشبهة فهي التي تدفع بالإعراض عنها؛ وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة . والله أعلم . وقد مضى في آخر « البقرة » هذا المعنى، والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ يريد الشرك والمعاصي . ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة . وقراءة أهل المدينة وأهل الكوفة « طائف » . وروى عن سعيد بن جبير « طيّف » بتشديد الياء . قال النحاس : كلام العرب في مثل هذا « طَيْف » بالتخفيف؛ على أنه مصدر من طاف يَطيف . قال الكسائي :

هو مخفّف من « طَيِّف » مثل مَيْت ومَيِّت . قال النحاس : ومعنى « طَيْف » فى اللغة ما يُتخيّل فى القلب أو يُرَى فى النوم؛ وكذا معنى طائف . وقال أبو حاتم : سألت الأَصْمَعِيّ عن طَيِّف؛ فقال : ليس فى المصادر فيعل . قال النحاس : ليس هو بمصدر ، ولكن يكون بمعنى طائف . والمعنى : إن الذين آتّقوا المعاصى إذا لحقهم شيء تفكّروا فى قدرة الله عز وجل وفى إنعامه عليهم فتركوا المعصية . وقيل : الطّيف والطائف معنيان مختلفان . فالأوّل — التخيُّل . والثانى — الشيطان نفسُه . فالأوّل مصدر طاف الخيال يَطوف طَيْفا ؛ ولم يقولوا من هذا طائف فى اسم الفاعل. قال السُّهَيْلِيّ : لأنه تخيُّلٌ لا حقيقةَ له . فأما قوله : «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ » فلا يقال فيه : طيف؛ لأنه اسم فاعل حقيقة، ويقال إنه جبريل . قال الزجاج : طفت عليهم أطوف، وطاف الخيال يَطيف . وقال حسّان :

فدَعْ هذا ولكن مَنْ لِطَيفٍ * يؤرّقنى إذا ذهب العِشاء

مجاهد : الطيف الغضب . ويُسمَّى الجنون والغضب والوسوسة طَيْفا ؛ لأنه لَمّة من الشيطان تُشبَّه بلَمّة الخيال . ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أى منتهون . وقيل : فإذا هم على بصيرة . وقرأ سعيد بن جُبير : « تذَكّروا » بتشديد الذال . ولا وجه له فى العربية ؛ ذكره النحاس .

الثانيـة — قال عصام بن المُصْطلِق : دخلت المدينة فرأيت الحسن بن علىّ عليهما السلام، فأعجبنى سَمْته وحُسْن رُوائه؛ فأثار منّى الحسد ما كان يُجِنّه صدرى لأبيه من البُغْض، فقلت : أنت آبن أبى طالب ! قال نعم . فبالغت فى شتمه وشتم أبيه ؛ فنظر إلىّ نظرة عاطف رءوف، ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » فقرأ إلى قوله : « فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» ثم قال لى : خفّض عليك ، أستغفر الله لى ولك ، إنك لو استعنتنا أعنّاك، ولو استرفدتنا أرفدناك ،

ولو استرشدتنا أرشدناك . فتوسّم فىّ الندمَ على ما فرط منّى فقال : «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»(١) أمن أهل الشأم أنت؟ قلت نعم . فقال :

* شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزمِ(٢) *

حيّاك الله وبيّاك، وعافاك، وآداك(٣)، انبسط(٤) إلينا فى حوائجك وما يعرض لك، تجدنا عند أفضل ظنك، إن شاء الله . قال عصام : فضاقت علىّ الأرض بما رَحُبَت، ووددت أنها ساخت بى، ثم تسلّلت منه لِواذًا(٥)، وما على وجه الأرض أحبّ إلىّ منه ومن أبيه .

قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضُلّال الإنس تمدّهم الشياطين فى الغىّ . وقيل للفُجّار إخوانُ الشياطين لأنهم يقبلون منهم . وقد سبق فى هذه الآية ذكر الشيطان . هذا أحسن ما قيل فيه ؛ وهو قول قتادة والحسن والضّحاك . ومعنى ﴿ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ أى لا يتوبون ولا يرجعون . وقال الزجاج : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى : والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا ولا أنفسهم ينصرون، وإخوانهم يمدونهم فى الغىّ؛ لأن الكفار إخوان الشياطين . ومعنى الآية : إن المؤمن إذا مسّه طَيْف من الشيطان تنبّه عن قُرب، فأما المشركون فيمدّهم الشيطان. و﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل : يرجع إلى الكفار على القولين جميعا . وقيل : يجوز أن يرجع إلى الشيطان . قال قَتادة : المعنى ثم لا يُقصِرون عنهم ولا يرحمونهم . والإقصار : الانتهاء عن الشىء ، أى لا تقصر الشياطين فى مدهم الكفارَ بالغىّ . وقوله ﴿ فِي الْغَيِّ ﴾ يجوز أن يكون متّصلا بقوله

---

(١) آية ٩٢ سورة يوسف .	(٢) الشنشنة (بكسر الشين) : العادة والطبيعة . قال الأصمعى : وهذا بيت رجز تمثل به لأبى أخزم الطائى وهو :

* إن بَنِىّ زَمَّلُونى بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم * من يلق آساد الرجال يكلم *

قال ابن برى : وكان أخزم عاقا لأبيه ، فات وترك بنين عقوا جدّهم وضربوه وأدموه، فقال ذلك . أى إنهم أشبهوا أباهم فى العقوق .	(٣) قوله : حياك الله وبياك ، أى ملكك واعتمدك بالتحية . وبياك : معناه وبوّأك منزلا ؛ إلا أنها لما جاءت مع حياك تركت همزتها وقلبت واوها ياء . وآداك : قوّاك وأعانك .

(٤) الانبساط : ترك الاحتشام .	(٥) اللواذ : الاستتار .

« يَمُدُّونَهم » ويجوز أن يكون متصلا بالإخوان . والغَىّ : الجهل . وقرأ نافع « يُمِدونهم » بضم اليـاء وكسر الميم . والباقون بفتح اليـاء وضم الميم . وهما لغتان مدّ وأمدّ . ومدّ أكثر، بغير الألف؛ قاله مَكِّىّ . النحاس: وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة؛ منهم أبو حاتم وأبو عبيد، قال أبو حاتم: لا أعرف لها وجها، إلا أن يكون المعنى يزيدونهم فى الغَىّ . وحكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كَثَّر شيء شيئا بنفسه مدّه، وإذا كثّره (١) بغيره قيل أمدّه؛ نحو « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » (٢) . وحُكى عن محمد ابن يزيد أنه احتج لقراءة أهل المدينة قال : يقال مددت له فى كذا أى زيّنته له واستدعيته أن يفعله . وأمددته فى كذا أى أعنته برأى أو غير ذلك . قال مكّىّ : والاختيار الفتح ؛ لأنه يقال: مددت فى الشر، وأمددت فى الخير؛ قال الله تعالى: « وَيَمُدُّهُم فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » (٣) . فهذا يدلّ على قوة الفتح فى هذا الحرف ؛ لأنه فى الشر، والغىّ هو الشر، ولأن الجماعة عليه . وقرأ عاصم الجَحْدَرِىّ « يُمادُّونهم فى الغىّ » . وقرأ عيسى بن عمر « يَقْصُرون » بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف . الباقون « يُقْصِرون » بضده، وهما لغتان . قال امرؤ القيس :

* سَمالك شوقٌ بعد ما كان أقْصَرَا *

قوله تعـالى : وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ أى تقرؤها عليهم . ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ لولا بمعنى هلّا، ولا يليها على هذا المعنى إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا، وقد تقدّم القول فيها فى « البقرة » مستوفى (٤) . ومعنى ﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾ اختلقتها من نفسـك . فأعلمهم أن الآيات من قبل الله

(١) فى الأصول : « مدّه » . (٢) آية ١٢٥ سورة آل عمران . (٣) آية ١٥ سورة البقرة .

(٤) راجع جـ ٢ ص ٩١ طبعة ثانية .

عز وجل، وأنه لا يقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه . يقال: اجتبيت الكلام أى ٱرتجلته وٱختلقته وٱخترعته إذا جئت به من عند نفسك . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ أى من عند الله لا من عند نفسى . ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعنى القرآن، جمع بصيرة، وهى الدلالة والعبرة . أى هذا الذى دللتكم به على أن الله عز وجل واحد بصائر، أى يُستبصر بها . وقال الزجاج : «بصائر» أى طرق . والبصائر طرق الدِّين . قال الجُعْفِيّ :

راحوا بصائرُهم على أكتافهم * وبَصيرتى يَعْدُو بها عَتِدٌ وأَى (١)

﴿ وَهُدًى ﴾ رشد وبيان . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أى ونعمة .

قوله تعالى : وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قيل : إن هذا نزل فى الصلاة ، رُوى عن ٱبن مسعود وأبى هريرة وجابر والزُّهْرِيّ وعبيد الله بن عمير وعطاء بن أبى رَبَاح وسعيد بن المسيِّب . قال سعيد : كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى، فيقول بعضهم لبعض بمكة : « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » (٢) . فأنزل الله جل وعز جوابا لهم « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » . وقيل : إنها نزلت فى الخطبة ؛ قاله سعيد بن جُبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وزيد بن أسلم والقاسم بن مُخَيْمِرة ومسلم بن يسار وشَهْر بن حَوْشَب وعبد الله بن المبارك . وهذا ضعيف؛ لأن القرآن فيها قليل، والإنصات يجب فى جميعها؛ قاله ابن العربيّ . النقّاش : والآية مكية ، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة . وذكر الطبريّ عن سعيد بن جُبير أيضا أن هذا فى الإنصات يوم الأَضْحَى ويومَ الفطر ويوم الجمعة، وفيما يَجْهَر به الإمام فهو عام . وهو الصحيح ؛ لأنه

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء .　　(٢) آية ٢٦ سورة فصلت .

يجمع جميع ما أوجبته هـذه الآية وغيرها من السُّـنّة فى الإنصات . قال النقاش : أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع فى الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة . النحاس : وفى اللغة يجب أن يكون فى كل شيء ، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء . وقال الزجاج : يجوز أن يكون « فآستمعوا له وأنصتوا » اعملوا بمـا فيـه ولا تُجاوِزُوه . والإنصات : السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة . أنصت ينصت إنصاتا ونصت أيضا ؛ قال الشاعر :

قال الإمام عليكم أمرَ سيّدكم * فـلم نُخالف وأنصتنا كما قالا

ويقال : أنصتوه وأنصتوا له ؛ قال الشاعر :

إذا قالت حَذامِ فأنصتوها * فإن القول ما قالت حَذامِ

وقال بعضهم فى قوله « فآستمعوا له وأنصتوا » : كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصا ليَعيَه عنه أصحابه .

قلت : هذا فيه بُعدٌ، والصحيح القول بالعموم ؛ لقوله : « لعلكم ترحمون » والتخصيص يحتاج إلى دليل . وقال عبد الجبار بن أحمد فى فوائد القرآن له : إن المشركين كانوا يكثرون اللغط والشغب تَعَنُّتًا وعنادا ، على ما حكاه الله عنهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » . فأمر الله المسلمين حالة أداء الوَحْى أن يكونوا على خلاف هـذه الحالة وأن يستمعوا ، ومدح الجن على ذلك فقال : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ »[(1)] الآية . وقال محمد بن كعب القُرَظِىّ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ فى الصلاة أجابه مَن وراءه ؛ إذا قال بسم الله الرحمن الرحيم ، قالوا مثلَ قوله ، حتى يقضىَ فاتحة الكتاب والسُّورة . فلَبِث بذلك ما شاء الله أن يلبث ؛ فنزل « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » فأنصَتوا . وهذا يدلّ على أن المعنى بالإنصات تركُ الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة فى هذه الاية : كان الرجل يأتى وهُمْ فى الصـلاة فيسألهم كم صليتم ، كم بقِىَ ؛ فأنزل الله تعـالى : « وَإِذَا قُرِئَ القرآن فآستمعوا له

---

(1) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

وأنصِتُوا » . وعن مجاهد أيضا : كانوا يتكلمون فى الصلاة بحاجتهم ؛ فنزل قوله تعالى : « لعلكم ترحمون » . وقد مضى فى الفاتحة الآختلاف فى قراءة المأموم خلف الإمام . ويأتى فى « الجُمُعة » حكم الخطبة، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ نظيره « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » (١) وقد تقدّم . قال أبو جعفر النحاس : ولم يُختلف فى معنى « وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ » أنه فى الدعاء .

قلت : قد رُوى عن ابن عباس أنه يعنى بالذكر القراءةَ فى الصلاة . وقيل : المعنى اقرأ القرآن بتأمّل وتدبّر . « تَضَرُّعًا » مصدر، وقد يكون فى موضع الحال . « وَخِيفَةً » معطوف عليه . وجمع خيفة خِوَف؛ لأنه بمعنى الخَوْف؛ ذكره النحاس . وأصل خِيفة خِوْفة، قلبت الواو ياء لآنكسار ما قبلها . خاف الرجل يَخاف خَوْفا وخِيفة ومَخافة، فهو خائف، وقوم خُوَّف على الأصل، وخُيَّف على اللفظ . وحكى الفراء أنه يقال أيضا فى جمع خِيفة خِيف . قال الجوهرى : والخِيفة الخوف، والجمع خِيف، وأصله الواو . ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ ﴾ أى دون الرفع من القول . أى أسمِع نفسك ؛ كما قال : « وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا » (٢) أى بين الجهر والمخافتة . ودلّ هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع . على ما تقدّم فى غير موضع . ﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ قال قتادة وابن زيد : الآصال العَشِيّات . والغُدُوّ جمع غُدْوة . وقرأ أبو مِجْلَز « بالغُدُوّ والإيصال » وهو مصدر آصلنا، أى دخلنا فى العَشِىّ . والآصال جمع أُصُل؛ مثل طُنُب وأطناب؛ فهو جمع الجمع، والواحد أصيل، جُمِع على أُصُل؛ عن الزجاج .

(١) آية ٥٥ من هذه السورة ص ٢٢٣ من هذا الجزء . (٢) آية ١١٠ سورة الإسراء .

الأخفش : الآصال جمع أصيل؛ مثل يمين وأيمان . الفَراء: أُصُل جمع أصيل، وقد يكون أُصُل واحدا؛ كما قال الشاعر :

* ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصُلُ *

الجوهرِىّ : الأصِيل الوقت بعد العصر إلى المغرب ، و جمعه أُصُل وآصال وأصائل؛ كأنه جمع أصِيلة؛ قال الشاعر :

لعمرِى لأنت البيتُ أكرِمُ أهلَه * وأقعد فى أفيائه بالأصائل

ويجمع أيضا على أُصلان؛ مثل بعير و بُعران؛ ثم صغّروا الجمع فقالوا أُصَيْلان ، ثم أبدلوا من النون لاما فقالوا أُصيلال؛ ومنه قول النابغة :

وقفت فيها أُصَيْلالًا أسائلها * عَيّتْ جوابا وما بالرَّبْع من أحدِ

وحكى اللِّحْيانِىّ لقيته أُصَيْلالا . ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى عن الذكر .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعنى الملائكة بإجماع . وقال « عند ربك » والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته ، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده ؛ عن الزجاج . وقال غيره : لأنهم فى موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله . وقيل : لأنهم رسل الله؛ كما يقال : عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم؛ فهو عبارة عن قربهم فى الكرامة لا فى المسافة . ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾أى و يعظمونه و ينزهونه عن كل سوء . ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ قيل يصلّون . وقيل يَذِلون، خلاف أهل المعاصى .

الثانيـــة — والجمهور من العلماء فى أن هذا موضعُ سجود للقارئ. وقد اختلفوا فى عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل : خمس عشرة . أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العَلَق . وهو قول ابن حبيب وابن وهب — فى رواية — و إسحاق . ومن العلماء من زاد سجدة الحِجر، قوله تعـالى : « وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . فعلى هذا تكون ست عشرة . وقيــل : أربع عشرة ؛ قاله ابن وهب فى الرواية الأخرى عنــه . فأســقط ثانية الحج . وهو قول أصحاب الرأى، والصحيح سقوطها؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها. ورواه ابن ماجه وأبو داود فى سننهما عن عبد الله بن مُنين من بنى عبد كُلال عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن؛ منها ثلاث فى المفصّل، وفى الحج سجدتان . وعبد الله بن مُنين لا يُحتج به؛ قاله أبو محمـد عبد الحق . وذكر أبو داود أيضا من حديث عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله ، أفى سورة الحج سجدتان؟ . قال : "نعم ومن لم يسـجدهما فلا يقرأهما" . فى إسناده عبد الله بن لَهِيعة، وهـو ضعيف جدا . وأثبتهما الشافعيّ وأسقط سجدة ص . وقيل : احدى عشرة سجدة ، وأسقط آخرة الحج وثلاث المفصّل . وهو مشهور مذهب مالك . وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم . وفى سنن ابن ماجه عن أبى الدرداء قال : سجدت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيهـا من المفصّل شيء، الأعراف والرعد والنحل و بنى إسرائيل ومريم والحج سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة وص وسجدة الحواميم . وقيل : عشر، وأسقط آخرة الحج وص وثلاث المفصل؛ ذُكر عن ابن عباس . وقيل : إنها أربع ، سجدة الم تنزيل وحم تنزيل والنجم والعلق . وسبب الخلاف اختـلاف النقـل فى الأحاديث والعمل . واختلافهـم فى الأمر المجرّد بالسجود فى القرآن هل المراد به سجود التلاوة أو سجود الفرض فى الصلاة .

الثالثـــة — واختلفوا فى وجوب سجود التلاوة؛ فقال مالك والشافعيّ : ليس بواجب . وقال أبو حنيفــة : هو واجب . وتعلّق بأن مطلق الأمر بالســجود على الوجوب ، و بقوله عليه السلام : "إذا قرأ ابن آدم سجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول ياوَيْلَه" . وفى رواية

أبى كُريب "ياوَيْلِي"، وبقوله عليه السلام إخبارا عن إبليس لعنه الله : "أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النـار" . أخرجه مسلم . ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحافظ عليه . وعوّل علماؤنا على حديث عمر الثابت ـ خرّجه البخاريّ ـ أنه قرأ آية سجدة على المِنْبر [فنزل] فسجد وسجد الناس معه، ثم قرأها فى الجمعة الأخرى فتهيّأ الناس للسجود، فقال : أيها الناس على رِسْلكم ! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء". وذلك بمحضر الصحابة أجمعين من الأنصار والمهاجرين . فلم ينكر عليــه أحد فثبت الإجماع به فى ذلك . وأما قوله : " أُمِر ابن آدم بالسجود " فإخبار عن السجود الواجب . ومواظبة النبيّ صــلى الله عليه وسلم تدلّ على الآستحباب، والله أعلم .

الرابعــة ــ ولا خلاف فى أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حدث ونجس ونيةٍ واستقبالِ قبلةٍ ووقت . إلا ما ذكر البخاريّ عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة . وذكره ابن المنذر عن الشعبيّ . وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم . اختلفوا فى ذلك ؛ فذهب الشافعيّ وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع للتكبير لهـا . وقد روى فى الأثر عن ابن عمــر أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كان إذا سجد كبر، وكذلك إذا رفع كبر . ومشهور مــذهب مالك أنه يكبر لهـا فى الخفض والرفــع فى الصلاة . وآختُلف عنه فى التكبير لهـا فى غير الصلاة؛ وبالتكبير لذلك قاله عامة الفقهاء، ولا ســلام لهـا عند الجمهور . وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم منها . وعلى هــذا المذهب يتحقق أن التكبير فى أوّلهـا للإحرام . وعلى قول من لا يسـلم يكون للســجود فحسب . والأوّل أولى؛ لقوله عليه السلام: "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" . وهــذه عبادة لهـا تكبير، فكان لهـا تحليل كصلاة الجنازة بل أولى ؛ لأنها فعــل وصلاة الجنازة قول . وهذا آختيار ابن العربيّ .

الخامســـة ــ وأما وقته فقيل : يسجد فى سائر الأوقات مطلقا؛ لأنها صلاة لسبب . وهو قول الشافعيّ وجماعة . وقيل: ما لم يُسفِر الصبح (١) ، أو ما لم تصفر الشمس بعد العصر .

(١) فى الأصول : «بعد الصبح» والتصويب من كتب المـالكية .

وقيل : لا يسجد بعد الصبح ولا بعد العصر . وقيل : يسجد بعد الصبح ولا يسجد بعد العصر . وهذه الثلاثة الأقوال فى مذهبنا . وسبب الخلاف معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتّب عليها لعموم النّهى عن الصلاة بعد العصر و بعد الصبح . وٱختلافهم فى المعنى الذى لأجله نُهى عن الصلاة فى هذين الوقتين، والله أعلم .

السادسة — فإذا سجد يقول فى سجوده : اللّهُمّ ٱحطط عنى بها وِزْراً، واكتب لى بها أجرا، واجعلها لى عندك ذُخْرا . ورواه ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره ابن ماجه .

السابعة — فإن قرأها فى صلاة، فإن كان فى نافلة سجد إن كان منفردا أو فى جماعة وأمن التخليط فيها . وإن كان فى جماعة لا يأمن ذلك فيها فالمنصوص جوازه . وقيل : لا يسجد فيها . وأما فى الفريضة فالمشهور عن مالك النّهىُ عنه فيها ، سواء كانت صلاة سر أو جهر ، جماعة أو فرادى . وهو معلّل بكونها زيادة فى أعداد سجود الفريضة . وقيل : معلل بخوف التخليط على الجماعة؛ وهذا أشبه . وعلى هذا لا يمنع منه الفرادى ولا الجماعة التى يأمن فيها التخليط .

الثامنة — روى البخاريّ عن أبى رافع قال : صلّيت مع أبى هريرة العَتَمة ، فقرأ « إذا السماء ٱنشقّت » فسجد؛ فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبى القاسم صلى الله عليه وسلم ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . انفرد بإخراجه . وفيه « وقيل لعمران بن حُصين: الرجل يسمع السجدة ولم يجلس لها؟ قال : أرأيت لو قعد لها! كأنه لا يوجبه عليه . وقال سلمان : ما لهذا غدونا . وقال عثمان : إنما السجدة على من ٱستمعها . وقال الزُّهرى : لا يسجد إلا أن يكون طاهرا، فإذا سجدت وأنت فى حَضَر فاستقبل القبلة، فإن كنت راكبا فلا عليك حيث كان وجهك . وكان السائب لا يسجد لسجود القاصّ (١) » والله أعلم .

---

(١) القاص (بتشديد الصاد المهملة) : الذى يقرأ القصص والأخبار والمواعظ ؛ لكونه ليس قاصدا لتلاوة القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

مدنيّة بدريّة في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس : هي مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا »(١) إلى آخر السبع آيات .

قوله تعالى : يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — روى عُبادة بن الصّامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلَقُوا العدو ؛ فلما هزمهم الله آتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم، واستولت طائفة على العسكر والنهب؛ فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا : لنا النَّفَل، نحن الذين طلبنا العدوّ وبنا نفاهم الله وهزمهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنتم بأحقّ به منا ، بل هو لنا ، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا ينال العدوُّ منه غِرّة . وقال الذين اسْتَلْوَوا [على] العسكر والنهب : ما أنتم بأحقّ منا، هو لنا، نحن حَوَيْناه واستولَينا عليه؛ فأنزل الله عز وجل : « يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فُوَاق بينهم . قال أبو عمر : قال أهل العلم بلسان العرب : استلْوَوا أطافوا وأحاطوا ؛ يقال : الموت مُسْتَلْوٍ على العباد . وقوله « فقسمه عن فُواق » يعني عن سرعة . قالوا : والفُواق ما بين حَلْبَتَي الناقة . يقال : انتظره فُواقَ ناقة ، أي هذا

(١) آية ٣٠

المقدار . ويقولونها بالضم والفتح : فُواق وفَواق . وكانَ هذا قبل أن ينزل : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » الآية . وكأن المعنى عند العلماء : أى إلى الله و إلى الرسول الحكم فيها والعملُ بها بما يقترب من الله تعالى . وذكر محمد ابن إسحاق قال : حدّثنى عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأَشْدق عن مكحول عن أبى أُمامة الباهِلِيّ قال : سألت عُبادة بن الصّامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النّفَل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بَواء . يقول : على السّوَاء . فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البَيْن . وروى الصحيح عن سعد بن أبى وَقّاص قال : أغتنم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة ، فإذا فيها سيف ، فأخذتُه فأتيت به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : نفِّلْنى هذا السيف ، فأنا من قد علمتَ حاله . قال : " ردّه من حيث أخذته " فانطلقت حتى أردت أن ألقيَه فى القَبَض (1) لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه . قال : فشدّ لى صوته " ردّه من حيث أخذته " فانطلقت حتى أردت أن ألقيَه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه ، قال : فشدّ لى صوته " ردّه من حيث أخذته " فأنزل الله « يسئلونك عن الأنفال » . لفظ مسلم . والروايات كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية ، والله الموفق للهداية .

الثانيــة — الأنفال واحدها " نَفَل " (2) بتحريك الفاء ، قال :

إنّ تَقْـوَى رَبِّنا خـيرُ نَفَـلْ * وبإذنِ الله رَيْثِى والعَجَـلْ

أى خير غنيمة . والنَّفْل : اليمين ، ومنه الحديث " فتبرئكم يهود بنَفْل خمسين منهم " . والنّفْل الانتفاء ، ومنه الحديث " فانتفل من ولدها " . والنَّفَل : نبت معروف . والنّفْل : الزيادة على الواجب ، وهو التطوع . وولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . والغنيمة نافلة ، لأنها

(1) القبض (بالتحريك) بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(2) القائل هو لبيد ، كما فى اللسان (مادة نفل) .

زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرّما على غيرها . قال صلى الله عليه وسلم : "فُضِّلت على الأنبياء بست — وفيها — وأحلّت لِيَ الغنائم". والأنفال : الغنائم نفسها . قال عنترة :

إنّا إذا آحمـر الوَغَى نُروِى القنا * ونَعِفّ عنـــد مقاسم الأنفال

أى الغنائم .

الثالثـــة — وآختلف العلماء فى محـل الأنفال على أربعة أقوال: الأوّل — محلها فيما شـذ عن الكافرين إلى المسلمين وأخذ بغير حرب . الثـانى — محلها الخمس . الثـالث — خمس الخمس . الرابع — رأس الغنيمة ؛ حسب ما يراه الإمام . ومذهب مالك رحمـه الله أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس فى الأربعة الأخماس نفل، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها معيَّنون وهم المُوجِفون، والخمس مردود قسمه إلى آجتهاد الإمام. وأهلُه غير معيَّنين . قال صلى الله عليه وسلم: "مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم" . فلم يمكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أحد، وإنما يكون من حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخمس. هذا هو المعروف من مذهبه. وقد روى عنه أن ذلك من خمس الخمس . وهو قول ابن المسيِّب والشافعىّ وأبى حنيفة . وسبب الخلاف حديثُ ابن عمر، رواه مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيّة قِبَل نَجْد فغَنِموا إبلا كثيرة ، وكانت سُهْمانهم آثْنَىْ عشر بعيرا أو أحد عشر بعيرا ؛ ونُفِّلُوا بَعيرًا بعيرًا . هكذا رواه مالك على الشك فى رواية يحيى عنه، وتابعـه على ذلك جماعةُ رواةِ الموطأ إلا الوليد بن مسـلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر، فقال فيه : فكانت سُهْمانهم اثنى عشر بعيرا، ونُفِّلُوا بعيرا بعيرا . ولم يشُـك . وذكر الوليد بن مسـلم والحكم بن نافع عن شعيب بن أبى حمزة عن نافع عن آبن عمر قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جيش قبل نجد — فى رواية الوليـد : أربعة آلاف — وآنبعثت سرية من الجيش — فى رواية الوليد : فكنت ممن خرج فيها — فكان سهمان الجيش آثنى عشر بعيرا، اثنى عشر بعيرا؛ ونفل أهل السرية بعيرا بعيرا؛ فكان سهمانهم ثلاثة عشر بعيرا؛ ذكره أبو داود . فآحتج بهـذا من

يقول : إن النَّفل إنما يكون من جملة الخمس . وبيانه أن هذه السرية لو نُزِّلت على أن أهلها كانوا عشرةً مثلا أصابوا فى غنيمتهم مائة وخمسين ، أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون ، قُسِّمت على عشرة وجب لكل واحد آثنا عشر بعيرا ، اثنا عشر بعيرا ، ثم أعطى القوم من الخمس بعيرا بعيرا ؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة . فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزْيد . واحتج من قال : إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال : جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل ، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العُرُوض . ومما يَعضُد هذا ما روى مسلم فى بعض طرق هذا الحديث : فأصبنا إبلا وغنما ؛ الحديث . وذكر محمد بن إسحاق فى هذا الحديث أن الأمير نفّلهم قبل القَسْم ، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة ، وهو خلاف قول مالك . وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفاظ ؛ قاله أبو عمر رحمه الله . وقال مكحول والأوزاعيّ : لا ينفّل بأكثر من الثلث ؛ وهو قول الجمهور من العلماء . قال الأوزاعيّ : فإن زادهم فَلْيَفِ لهم ويجعل ذلك من الخمس . وقال الشافعيّ : ليس فى النَّفَل حدّ لا يتجاوزه الإمام .

الرابعة — ودلّ حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد والحكم عن شعيب عن نافع أن السريّة إذا خرجت من العسكر فغَنِمت أن العسكر شركاؤهم . وهذه مسألة وحُكْمٌ لم يذكره فى الحديث غير شعيب عن نافع ، ولم يختلف العلماء فيه ، والحمد لله .

الخامسة — واختلف العلماء فى الإمام يقول قبل القتال : من هدم كذا من الحِصْن فله كذا ، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا ، ومن جاء برأس فله كذا ، ومن جاء بأسير فله كذا ؛ يُضَرِّيهم[(١)] . فرُوِى عن مالك أنه كرهه . وقال : هو قتال على الدنيا . وكان لا يجيزه . وقال الثَّوْرِيّ : ذلك جائز ولا بأس به .

قلت : وقد جاء هذا المعنى مرفوعا من حديث ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا" . الحديثَ بطوله .

(١) التضرية : الاغراء .

وفى رواية عكرمة عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا" . فتسارع الشُّبان وثبت الشيوخ مع الرايات ؛ فلمـا فُتح لهم جاء الشبـان يطلبون ما جُعل لهم فقال لهم الأشـياخ : لا تذهبون به دوننا ، فقد كنا رِدْءاً لكم ؛ فأنزل الله تعالى : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضـا . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لجرير بن عبـد الله البَجَلي لمـا قدم عليه فى قومه وهو يريد الشأم : هل لك أن تأتى الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسَبْى . وقال بهذا جماعة فقهاء الشأم : الأوزاعى ومكحول وابن حَيْوَة وغيرهم . ورأوا الخمس من جملة الغنيمة ، والنَّفَل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل العسكر ؛ وبه قال إسحاق وأحمـد وأبو عبيد . قال أبو عبيد : والناس اليوم على أن لا نفل من جهـة الغنيمة حتى تخمس . وقال مالك : لا يجوز أن يقول الإمام لسَرِيّة : ما أخذتم فلكم ثلثه . قال سُحْنُون : يريد ابتداء . فإن نزل مضى ، ولهم أنصباؤهم فى الباقى . وقال سحنون : إذا قال الإمام لسَرِيّة ما أخذتم فلا خمس عليكم فيـه ؛ فهذا لا يجوز ، فإن نزل رددته ؛ لأن هذا حكم شاذّ لا يجوز ولا يمضى .

السادســة — واستحب مالك رحمه الله ألا ينفّل الإمام إلا ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف . ومنع بعض العلماء أن ينفّل الإمام ذهبا أو فضة أو لؤلؤا ونحوه . وقال بعضهم : النفل جائز من كل شيء . وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية ، والله أعلم .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أمر بالتقوى والإصلاح ، أى كونوا مجتمعين على أمر الله فى الدعاء : اللّهمّ أصلح ذات البَيْن ، أى الحال التى يقع بهـا الاجتماع . فدلّ هـذا على التصريح بأنه شَجَر بينهم اختلاف ، أو مالت النفوس إلى التّشاحّ ؛ كما هو منصوص فى الحـديث (١) . وتقدّم معنى التقوى ، أى اتقوا الله فى أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ذات بينكم . ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الغنـائم ونحوها . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إن سبيل المؤمن أن يمتثل ما ذكرنا . وقيل : «إنْ» بمعنى « إذ » .

(١) راجع ج ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : هذه الآية تحريض على إلزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة . والوجل : الخوف . وفى مستقبله أربع لغات : وَجِل يَوْجَل ويَاجَل ويَيْجَل ويِيجَل ؛ حكاها سيبويه . والمصدر وَجِل وَجَلا ومَوْجِلا ؛ بالفتح . وهذا مَوْجِله (بالكسر) للوضع والاسم . فمن قال : ياجَل فى المستقبَل جعل الواو ألفا لفتحة ما قبلها . ولغة القرآن الواو « قَالُوا لَا تَوْجَلْ »(1) . ومن قال : « يِيجل » بكسر الياء فهى على لغة بنى أسد ، فإنهم يقولون : أنا إيجل ، ونحن نِيجل، وأنت تِيجل ؛ كلها بالكسر . ومن قال : «يَيْجل » بناه على هذه اللغة، ولكنه فتح الياء كما فتحوها فى يَعلم، ولم تكسر الياء فى يعلم لاستثقالهم الكسر على الياء . وكسرت فى « يِيجل » لتقوّى إحدى الياءين بالأخرى . والأمر منه «إيجَلْ» صارت الواو ياء لكسرة ماقبلها . وتقول: إنّى منه لأَوْجَل . ولا يقال فى المؤنث: وَجْلاء، ولكن وَجِلة . وروى سفيان عن السّدّى فى قوله جل وعز: « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » قال : إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له : اتق الله، كَف ووَجِل قلبه .

الثانيــة — وصف الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية بالخوف والوَجَل عند ذكره . وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربّهم، وكأنهم بين يديه . ونظير هذه الآية « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »(2) . وقال : « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ »(3) . فهذا يرجع الى كمال

(1) آية ٥٣ سورة الحجر . (2) آية ٣٤ سورة الحج . (3) آية ٢٨ سورة الرعد .

المعرفة وثقة القلب . والوَجَل: الفزع من عذاب الله؛ فلا تناقض . وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ»(١). أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله . فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته؛ لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطَّغَام(٢) من الزَّعيق والزَّئير ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْد وخشوع : لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منـه، والتعظيم لجلاله؛ ومع ذلك فكانت حالهم عنـد المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفا من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عنـد سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»(٣). فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهـم ولا على طريقتهـم؛ فمن كان مُسْتَنًّا فليستَنّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجُنون فهو من أخسّهـم حالا ؛ والجنون فنون . روى مسـلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أَحْفَوْه(٤) في المسألة، فخرج ذات يوم فصعِد المِنْبر فقال : "سَلُونِي لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمتُ في مقامي هذا". فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا(٥) ورَهِبوا أن يكون بين [يَدَيْ](٦) أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي . وذكر الحديث . وروى الترمذيّ وصححه عن العِرْباض بن سارِيَة قال : وعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذَرَفت منها العيون ، ووَجِلت منها القلوب . الحديث . ولم يقل : زَعَقْنا ولا رَقَصْنا ولا زَفَنَّا(٧) ولا قُمْنا .

---

(١) آية ٢٣ سورة الزمر . (٢) الطغام والطغامة : أرذال الناس وأوغادهم .
(٣) آية ٨٣ سورة المائدة . (٤) أي أكثروا عليـه . وأحفى في السؤال وألحف بمعنى ألح .
(٥) أرم الرجل إرماما : إذا سكت فهو مرمّ . (٦) زيادة عن صحيح مسلم .
(٧) زفن (من باب ضرب) : رقص ؛ وأصله الدفع الشديد والضرب بالرجل ، كما يفعل الراقص .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أى تصديقا . فإن إيمان هذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس ؛ فمن صدّق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم . وقيل : هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة ؛ وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران »(١) . ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ تقدّم معنى التوكل فى « آل عمران »(٢) أيضا . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تقدّم فى أوّل سورة « البقرة »(٣) . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أى الذى ٱستوى فى الإيمان ظاهرُهم وباطنهم . ودلّ هذا على أن لكل حق حقيقة ؛ وقد قال عليه السلام لحارثة : "إنّ لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك"؟ الحديث . وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا . وقال أبو بكر الواسطىّ : من قال أنا مؤمن بالله حقا ، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف وٱطلاع وإحاطة ؛ فمن فقده بطل دعواه فيها . يريد بذلك ما قاله أهل السنة : إنّ المؤمن الحقيق من كان محكوما له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سرّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

قوله تعالى : كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ؛ أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . أى مثل إخراجك ربّك من بيتك بالحق . والمعنى : ٱمض لأمرك فى الغنائم ونَفِّل من شئت وإن كرهوا ؛ لأن بعض

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال : يبقى أكثر الناس بغير شيء . فموضع الكاف فى « كما » نَصْبٌ كما ذكرنا . وقاله الفَرّاء أيضا . قال أبو عبيدة : هو قَسَم ، أى والذى أخرجك؛ فالكاف بمعنى الواو ، وما بمعنى الذى . وقال سعيد بن مَسْعَدة : المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . قال : وقال بعض العلماء « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » فاتقوا الله وأصلحوا ذات بَيْنِكم . وقال عكرمة : المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك . وقيل : « كما أخرجك » متعلّق بقوله « لهم درجات » المعنى : لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . أى هذا الوعد للمؤمنين حقٌّ فى الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له ؛ فأنجزك وَعْدَك وأظفرك بعدوّك وأوْفَى لك؛ لأنه قال عز وجل: « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . فكما أنجز هذا الوعد فى الدنيا كذا يُنْجِز ما وعدكم به فى الآخرة . وهذا قول حَسن ذكره النحاس واختاره . وقيل : الكاف فى « كما » كافُ التشبيه ، ومخرجه على سبيل المجازاة ؛ كقول القائل لعبده : كما وجّهتك إلى أعدائى فٱستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقوّيتك وأزحت علّتك ، فخذهم الآن فعاقبهم بكذا . وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكذا . وكما أحسنت إليك فٱشكرنى عليه . فقال : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغَشّاكم النُّعاس أَمَنَةً منه — يعنى به إياه ومن معه — وأنزل من السماء ماء ليطهركم به ، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مُرْدِفين ؛ فٱضربوا فوق الأعناق وٱضربوا منهم كل بنان . كأنه يقول : قد أزحت عِلَلكم ، وأمددتكم بالملائكة فٱضربوا منهم هذه المواضع ، وهو المَقْتَل ؛ لتبلغوا مراد الله فى إحقاق الحق وإبطال الباطل . والله أعلم . ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ أى لكارهون ترك مكة وترك أموالهم وديارهم .

قوله تعالى : يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ مجادلتهم : قولهم لما ندبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أهبة شق ذلك عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدّة . ومعنى ﴿ فِي الْحَقِّ ﴾ أى فى القتال . ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ لهم أنك لا تأمر بشىء إلا بإذن الله . وقيل : بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم إمّا الظّفر بالعير أو بأهل مكة ، وإذ فات العير فلا بدّ من أهل مكة والظّفر بهم . فمعنى الكلام الإنكارُ لمجادلتهم . ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ كراهة للقاء القوم . ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى يعلمون أن ذلك واقع بهم ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ »(١) أى يعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ «إحدى» فى موضع نصب مفعول ثان . «أنها لكم» فى موضع نصب أيضا بدل من «إحدى» . ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أى تحبون . ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ قال أبو عبيدة : أى غير ذات الحدّ . والشوكة : السلاح . والشوْك : النبت الذى له حَدٌّ ؛ ومنه رجل شائك السلاح ، أى حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكى السلاح . أى تودّون أن تظفَروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ولا فيها حرب ؛ عن الزجاج . ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى أن يظهر الإسلام . والحقّ حَقٌّ أبدا ، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل . ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بوعده ؛ فإنه وعد نبيّه ذلك فى سورة «الدخان» فقال : « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ »(٢) أى من أبى جَهْل وأصحابه . وقال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »(٣) . وقيل : « بكلماته » أى

(١) آخر سورة النبأ . (٢) آية ١٦ (٣) آية ٣٣ سورة التوبة .

بأمره ؛ إياكم أن تجاهدوهم . ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك . ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أى يظهر دين الإسلام ويعزه . ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ أى الكفر . وإبطاله إعدامه ؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »(١) . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الاستغاثة : طلب الغَوْث والنَّصر . غوّث الرجل قال : واغوثاه . والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث . واستغاثنى فلان فأغثته ؛ والاسم الغياث ؛ عن الجوهرى . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر(٢) رجلا ؛ فاستقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم القِبلة ، ثم مدّ يديه ، فجعل يهتِف بربه : "اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم ائتنى ما وعدتنى . اللهم إن تهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض" . فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبىّ الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردِفين » فأمدّه الله بالملائكة . وذكر الحديث . ﴿ مردَفين ﴾ بفتح الدال قراءة نافع . والباقون بالكسر اسم فاعل ، أى متتابعين ، تأتى فرقة بعد فرقة ، وذلك أهْيب فى العيون . و«مردَفين» بفتح الدال على مالم يسم فاعله ؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أردفوا بألف من الملائكة ، أى أنزلوا إليهم لمعونتهم على

---

(١) آية ١٨ سورة الأنبياء . (٢) الذى فى صحيح مسلم : «... تسعة عشر...» .

الكفار . فمردَفين بفتح الدال نعت لألف . وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في « مُمِدُّكم » . أي ممدّكم في حال إردافكم بألف من الملائكة ؛ وهذا مذهب مجاهد . وحكى أبو عبيدة أنّ رَدِفني وأردفني واحد . وأنكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ردف ؛ قال لقول الله عز وجل : « تَتْبَعُهَا الرَّادِفة »(١) ولم يقل المُرْدِفة . قال النحاس ومكّيّ وغيرهما : وقراءة كسر الدال أوْلى ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون . أي أردف بعضهم بعضا، ولأن فيها معنى الفتح على ماحكى أبو عبيدة، ولأن عليه أكثر القراء . قال سيبويه : وقرأ بعضهم « مُرَدِّفين » بفتح الراء وشدّ الدال. وبعضهم « مُرِدِّفين » بكسر الراء . وبعضهم « مُرُدِّفين » بضم الراء . والدال مكسورة مشدّدة في القراءات الثلاث . فالقراءة الأولى تقديرها عند سيبويه مرتدفين ، ثم أدغم التاء في الدال ، وألقى حركتها على الراء لئلا يلتقي ساكنان . والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين. وضُمت الراء في الثالثة إتباعا لضمة الميم؛ كما تقول : رُدُّ يا هذا . وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحْدَرِيّ « بآلُف » جمع ألف ؛ مثل فَلْس وأفلس . وعنهما أيضا « بأَلْف » . وقد مضى في « آل عمران » ذكر نزول الملائكة وسيماهم وقتالهم(٢) . وتقدّم فيها القول في معنى قوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى »(٣) . والمراد الإمداد . ويجوز أن يكون الإرداف . ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ نبّه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة؛ أي لولا نصره لما آنتفع بكثرة العدد بالملائكة. والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة .

قوله تعالى : إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ﴾ مفعولان . وهي قراءة أهل المدينة، وهي حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله : « وما النصر إلا من عند الله » .

(١) آية ٧ سورة النازعات . (٢) راجع ج ٤ ص ١٩٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) ج ٤ ص ١٩٨

ولأن بعــده « ويُنَزِّلُ عليكم » فأضاف الفعل إلى الله عز وجل . فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَغشاكم النعاسُ » بإضافة الفعل إلى النعاس . دليله « أَمَنَةً نُعاساً يَغْشَى »(١) فى قراءة من قرأ باليـاء أو بالتاء ؛ فأضاف الفعل الى النعاس أو إلى الأَمَنة . والأمنة هى النعاس ؛ فأخبر أن النعاس هــو الذى يغشى القوم . وقرأ الباقون « يُغَشِّيكم » بفتح الغين وشــد الشين . « النعاسَ » بالنصب على معنى قراءة نافع ، لغتان بمعنى غَشَّى وأغشى؛ قال الله تعالى : « فأغشيناهم »(٢) . وقال : « فغَشّاها ما غَشّى »(٣) . وقال : « كأنما أُغْشِيَتْ وُجوهُهم »(٤) . قال مَكّى : والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب النعاس؛ لأن بعده « أَمَنَةً منه » والهـاء فى « منه » لله، فهو الذى يغشيهم النعاس، ولأن الأكثر عليه . وقيل : أمنة من العــدوّ . و ﴿ أَمَنَةً ﴾ مفعول من أجله أو مصــدر ؛ يقال : أَمِن أَمَنة وأَمْنا وأمانا ؛ كلها سواء . والنعاس حالة الأمن الذى لا يخاف . وكان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدِها؛ فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم . وعن علىّ رضى الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المِقْداد على فرس أبلق ، ولقــد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليــه وسلم تحت شجرة يصــلى ويبكى حتى أصــبح ؛ ذكره البَيْهَقى . المــاوردِىّ : وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هــذه الليلة وجهان : أحدهمــا — أن قوّاهم بالاســتراحة على القتال من الغــد . الثــانى — أن أمّنهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمن مُنِيم ، والخوف مُسْهِر . وقيل : غشاهم فى حال التقاء الصفين . وقد مضى مثل هذا فى يوم أُحُد فى « آل عمران »(٥) .

قوله تعــالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر . وقال ابن أبى نَجيح : كان المطر قبل النعاس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليــه وبقى المؤمنون لا ماء لهم فوجَسَت نفوسهم وعَطِشوا وأجنبوا وصلّوا

(١) آية ١٥٤ سورة آل عمران . (٢) آية ٩ سورة يس . (٣) آية ٥٤ سورة النجم .
(٤) آية ٢٧ سورة يونس . (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

بذلك؛ فقال بعضهم فى نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هـذه والمشركون على المـاء . فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية ؛ فشربوا وتطهروا وسقوا الظَّهْر (١) وتلبّدت السَّبَخَة (٢) التى كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . وقد قيـل : إن هذه الأحوال كانت قبـل وصولهم إلى بدر ؛ وهـو أصح ، وهو الذى ذكره ابن إسحـاق فى سيرته وغيره . وهـذا اختصاره : قال ابن عباس لمـا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان أنه مقبل من الشأم ندب المسلمين إليهم وقال : " هـذه عِير قريش فيها الأموال فاخرجوا إليهم لعـل الله يُنَفِّلكموها " قال : فانبعث معه من خفّ؛ وثقل قوم وكرهوا الخروج، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلوِى (٣) على من تعذّر، ولا ينتظر من غاب ظَهْره، فسار فى ثلثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجرِىّ وأنصارىّ . فى البخارىّ عن البراء بن عازب قال : كان المهـاجرون يوم بدر نَيِّفا وثمـانين، وكان الأنصار نيفا وأربعين ومائتين . وخرّج أيضا عنـه قال : كنا نتحـدّث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، على عدد أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جاز معـه إلا مؤمن . وذكر البَيْهَقِىّ عن أبى أيوب الأنصارى قال : فخرجنا — يعنى إلى بدر — فلمـا سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا، فأخبرنا النبىّ صلى الله عليه وسلم بعدّتنا، فسُرّ بذلك وحمد الله وقال : " عِدّة أصحاب طالوت " . قال ابن اسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَلْقَى حَرْبًا فلم يكثر استعدادهم . وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقِى من الركبان تخوّفا على أموال الناس، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا رسول الله صلى الله عليـه وسلم قد استنفر لكم الناس ؛ فحذِر عنـد ذلك واستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفارىّ وبعثـه إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشا

---

(١) الظهر : الابل التى يحمل عليها ويركب . (٢) السبخة (محرّكة) : أرض ذات ملح ونزّ .

(٣) لوى عليه : عطف أو انتظر .

يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عَرَض لها فى أصحابه ؛ ففعل ضمضم . فخرج أهـل مكة فى ألف رجل أو نحو ذلك ، وخرج النبيّ صلى الله عليـه وسلم فى أصحابه ، وأتاه الخبر عن قريش بخروجهم ليمنعوا عِيرهم ؛ فٱستشار النبيّ صلى الله عليه وسلم الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، وقام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله، اِمض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنـو إسرائيل « اِذهب أنت وربك فقاتِلا إِنا هاهنا قاعِدون » ولكن ٱذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذى بعثك بالحق لو سِرْت إلى بَرْك الغِماد — يعنى مدينـة الحبشة — لجالدنا معك من دونه ؛ فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير . ثم قال : " أشيروا علىّ أيها الناس " يريد الأنصار . وذلك أنهم عدد الناس ، وكان حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رســول ، إنا بُرآء من ذِمامك حتى تصِـل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذِممنا ، نمنعك مما نمنع منـه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينـة ، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ بغـير بلادهم . فلمـا قال ذلك رسول الله صلى الله عليـه وسلم كلّمه سعد بن معاذ — وقيل سعد بن عُبادة ، ويمكن أنهما تكلما جميعا فى ذلك اليوم — فقال : يارسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " أجل " فقال : إنا قد آمنا بك وٱتبعناك، فٱمض لما أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك . فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " اِمضـوا على بركة الله فكأنى أنظر إلى مصارع القوم " . فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبق قريشا إلى ماء بدر . ومنع قريشا من السبق إليـه مطر عظيم انزله الله عليهم، ولم يصب منـه المسلمين إلا ما شـدّ لهم دَهْس الوادى وأعانهم على السير . والدّهْس : الرمل اللين الذى تسوخ فيه الأرجل . فنزل رسـول الله صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من ميـاه بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحُبَاب

ابن المنذر بن عمرو بن الجَمُوح بغير ذلك وقال له : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه السلام : "بل هو الرأى والحرب والمكيدة". فقال : يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونُعَوِّر[1] ما وراءه من القُلُب[2]، ثم نبنىَ عليه حوضا فنملأه فنشربَ ولا يشربوا . فآستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من رأيه ، وفعَله . ثم التقوْا فنصر الله نبيّه والمسلمين ، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين ، وانتقم منهم للؤمنين ، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من غيظهم . وفى ذلك يقول حسان :

عَرفتُ ديار زينب بالكثِيب * كخطّ الوَحْيِ فى الوَرق القَشِيبِ[3]
تَداولُها الرياح وكلُّ جَوْنٍ * من الوَسْمِيّ منهمرٍ سَكُوبِ[4]
فأمسى رَبْعُها خَلَقا وأمستْ * يَبَابًا[5] بعد ساكنها الحبيب
فدَعْ عنك التذكُّر كلّ يوم * ورُدّ حرارة الصّدر الكئيب
وخَبِّرْ بالذى لا عَيْب فيه * بصدق غيرِ إخبارِ الكذوبِ
بما صنع الإله غداةَ بدرٍ * لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأنّ جَمْعَهم حِرَاءٌ * بدت أركانه جُنْحَ الغروب
فلاقيناهُمُ منا بجَمْع * كأُسْد الغاب مُرْدانٍ وشِيبِ
أمام محمد قد وازَرُوه * على الأعداء فى لَفْح الحروب
بأيديهم صوارِمُ مُرْهفاتٌ * وكلّ مجرِّبٍ خاظِى الكُعوب[6]

---

(١) عوّر عيون المياه : إذا دفنها وسدها . (٢) القلب : جمع قليب ، وهى البئر العادية القديمة التى لا يُعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى . (٣) الوحى : الكتابة . والقشيب : الجديد . (٤) الجون : السحاب . والوسمى : المطر الذى يأتى فى الربيع . (٥) اليباب : الخراب . (٧) الخاظى : الكثير اللحم .

بنـــو الأوْس الغطارِفُ وازَرَتْها * بنو النجار فى الدِّيـــن الصليب (١)

فغـادَرْنا أبا جهـــل صــــرِيعا * وعتبـةَ قـــد تركنا بالجَبُـــوب (٢)

وشـــيبةَ قـــد تركنا فى رجال * ذوِى نَسَب إذا نُسِبوا حَسيبِ

ينـاديهـــم رســـول الله لمـا * قذفنـاهم كَبَاكِب فى القليب (٣)

ألم تجِـدوا كلامِىَ كان حقا * وأمرُ الله يأخـــذ بالقـــلوب

فمـا نطقوا ، ولو نطقوا لقـالوا * أصبتَ وكنتَ ذا رأى مصيب

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — قال مالك : بلغنى أن جبريل عليه السـلام قال للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : "كيف أهل بدر فيكم" ؟ قال : "خيارنا" فقال : "إنهم كذلك فينا" . فدلّ هذا على أن شرف المخلوقات ليس بالذوات ، وإنما هو بالأفعال . فللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم . ولنـا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة . وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لهـا ، وأفضلها الجهاد، وأفضل الجهاد يوم بدر؛ لأن بناء الإسلام كان عليه .

الثانيـــة — ودلّ خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلقى العِير على جواز النَّفِير للغنيمة لأنها كسب حلال . وهو يردّ ما كرِه مالك من ذلك؛ إذ قال : ذلك قتـال على الدنيا ، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمـة الله هى العليا فهو فى سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة ، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدِّين فيـه حظّ . وروى عِكرمة عن ابن عباس قال : قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسـلم حين فرغ من بدر : عليك بالعِير، ليس دونها شىء . فناداه العباس وهو فى الأسرى : لا يصلح هـذا . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولِم" ؟ قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتيـن ، وقد أعطاك الله ما وعدك . فقال النبىّ صلى الله عليـه وسلم :

---

(١) الغطارف : جمع الغطريف ، وهو السيد الشريف السخى . (٢) الجبوب : وجه الأرض .

(٣) كباكب : جمع كبكبة وهى الجماعة الكثيرة .

" صدقت " . وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم و بما كان من شأن بدر، فسمع ذلك فى أثناء الحديث .

الثالثة — روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم قام عليهم فناداهم فقال : "يا أبا جهل بنَ هشام يا أميةَ بنَ خلف يا عتبةَ بنَ ربيعة يا شيبةَ بنَ ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا " . فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنّى يجيبون وقد جيّفوا ؟ قال : "والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يُجيبوا " . ثم أمر بهم فسُحبوا فألقوا فى القليب ، قليبِ بدر . « جَيَّفوا » بفتح الجيم والياء ، ومعناه أنتنوا فصاروا جِيَفًا . وقول عمر : « يسمعون » استبعاد على ما جرت به العادة . فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يسمعون كسمع الأحياء . وفى هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدّل حالٍ وانتقال من دار إلى دار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الميت إذا وضع فى قبره وتولّى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم " الحديث . أخرجه الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ الضمير فى « به » عائد على الماء الذى شدّ دهس الوادى، كما تقدّم. وقيل : هو عائد على ربط القلوب؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى موطن الحرب .

قوله تعالى : إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ العـامل فى « إذ » يثبت » أى يثبت به الأقدام ذلك الوقت . وقيل : العامل « لِيَرْبِطَ » أى وليربط إذ يوحى . وقد يكون التقدير : اذكر إذ يوحى ربك إلى الملائكة . « أنى معكم » فى موضع نصب ، والمعنى : بأنى معكم ، أى بالنصر والمعونة . « معكم » بفتح العين ظرف، ومن أسكنهـا فهى عنـده حرف . ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال ؛ فكان الملك يسير أمام الصف فى صـورة الرجل و يقول : سـيروا فإن الله ناصركم . و يظن المسلمون أنه منهم ؛ وقـد تقدّم فى « آل عمران »(1) أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم . فكانوا يرون رءوسا تَنْدُرُ(2) عن الأعناق من غير ضارب يرونه . وسمِـع بعضهم قائلا يُسمع قولُه ولا يُرَى شخصُه : أَقْدِم حَيْزُومُ(3) . وقيل : كان هذا التثبيت ذِكْرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين نزول الملائكة مددا .

قوله تعـالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ تقدّم فى « آل عمران »(4) بيانه . ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ هـذا أمر للملائكة . وقيـل : للؤمنين ، أى آضربوا الأعناق ، و « فوق » زائدة؛ قاله الأخفش والضحاك وعطية. وقد روى المسعودي قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : ” إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله و إنما بعثت بضرب الرقاب وشدّ الوَثاق “ . وقال محمـد بن يزيد : هذا خطأ؛ لأن « فوق » تفيد معنًى فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنهم أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منهـا . وقال ابن عبـاس : كل هامٍ وجُمْجُمة . وقيل : أى ما فوق الأعناق، وهو الرءوس ؛ قاله عِكرمة . والضرب على الرأس أبلغ ؛ لأن أدنى شيء يؤثر فى الدماغ . وقـد مضى شيء من هـذا المعنى فى « النساء » وأن « فوق » ليست بزائدة، عند قوله : « فوق آثنتين »(5) . ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال الزجاج : واحد البنان بنانة ، وهى هنـا الأصابع وغيرها من الأعضـاء . والبنان مشتق من

---

(1) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة أولى أو ثانية . (2) ندر : سقط .

(3) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة . (4) راجع جـ ٤ ص ٢٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

(5) راجع جـ ٥ ص ٦٣ طبعة أولى أو ثانية .

قولهم : أبّن الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُعْتَمل به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل: المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين . وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب ؛ فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وكان فَتَى الهيجاء يحمِى ذِمارها * ويضرب عند الكَرْب كلّ بنانِ

ومما جاء أن البنان الأصابع قول عنترة أيضا :

وأن المـوت طوْع يدى إذا ما * وصَـلْتُ بنانها بالهُنْدُوانى

وهو كثير فى أشعار العرب، البنان : الأصابع . قال ابن فارس : البنان الأصابع ، ويقال الأطراف . وذكر بعضهم أنها سُمّيت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقر الإنسان ويبِنّ[(١)] . وقال الضحاك : البنان كل مَفْصِل .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ﴾ « ذلك » فى موضع رفع على الابتداء، والتقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك . ﴿شَاقُّوا اللَّهَ﴾ أى أولياءه . والشِّقاق : أن يصير كل واحد فى شِق . وقد تقدّم[(٢)] . ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ قال الزجاج : « ذلكم » رفع بإضمار الأمر أو القصة ، أى الأمر ذلكم فذوقوه . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بذوقوا ، كقولك : زيدا فاضربه . ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين . « وأنّ » فى موضع رفع عطف على ذلكم . قال الفرّاء : ويجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى وبأن للكافرين . قال : ويجوز أن يضمر واعلموا أن . الزجاج : لو جاز إضمار واعلموا لجاز زيد منطلق وعمرا

(١) بنّ بالمكان : أقام . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

جالسا ، بل كان يجوز فى الابتداء زيدا منطلقا ؛ لأن الخبر معلم ، وهـذا لا يقوله أحد من النحويين .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ زَحْفًا ﴾ الزّحف الدنو قليلا قليلا . وأصله الاندفاع على الأَلْيَة ؛ ثم سُمّىَ كل ماشٍ فى الحرب إلى آخر زاحفا . والتزاحف : التدانى والتقارب ؛ يقال : زحف إلى العدو زحفا . وازدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض . ومنه زِحاف الشّعر ، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيَزْحَف أحدهما إلى الآخر . يقول : إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفِرّوا عنهم ولا تعطوهم أدباركم . حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار . قال ابن عطية : والأدبار جمع دُبُر . والعبارة بالدّبر فى هذه الآية متمكنة الفصاحة ؛ لأنها بشيعة على الفارّ ، ذامّة له .

الثانيــة — أمر الله عز وجل فى هذه الآية ألا يُوَلّىَ المؤمنون أمام الكفار . وهـذا الأمر مقيّد بالشريطة المنصوصة فى مِثْلَى المؤمنين ؛ فإذا لَقِيتْ فئةٌ من المؤمنين فئةً هى ضِعف المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يفِرّوا أمامهم . فمن فرّ من اثنين فهو فارّ من الزحف . ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف ، ولا يتوجّه عليه الوعيد . والفرار كبيرة مُوبِقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة منهم ابن الماجشون فى الواضحة : إنه يراعى الضّعف والقوّة والعُدّة ؛ فيجوز على قولهم أن يفِرّ مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النّجدة والبسالة ضعفُ ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فِرار مائة إلا

ما زاد على المائتين ؛ فمهما كان فى مقابلة مسلم أكثر من آثنين فيجوز الآنهزام ، والصبر أحسن . وقد وقف جيش مُؤْتة وهم ثلاثة آلاف فى مقابلة مائتى ألف ، منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لَخْمٍ وجُذام .

قلت : ووقع فى تاريخ فتح الأندلس ، أن طارقا مَوْلَى موسى بن نصير سار فى ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس ، وذلك فى رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ فالتقى وملك الأندلس لذريق وكان فى سبعين ألف عِنان ؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق ، وكان الفتح . قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يَلْقَوْن العدوّ ويكونون فى مَحْرس يحرسون فيأتيهم العدوّ وهم يسير ، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال : إن كانوا يَقْوَون على قتالهم قاتلوهم ، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم .

الثالثة — واختلف الناس هل الفرار يوم الزّحف مخصوص بيوم بدر أم عام فى الزُّحوف كلها إلى يوم القيامة ؛ فروى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبى حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة . وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن يتحازوا ، ولو آنحازوا لآنحازوا للمشركين ، ولم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا للمسلمين فئة إلا النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئةٌ لبعض . قال الكِيَا : وهذا فيه نظر ؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها العِير ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خفّ معه . ويُروى عن ابن عباس وسائرِ العلماء أن الآية باقية الى يوم القيامة . اِحتج الأوّلون بما ذكرنا ، وبقوله تعالى : « يومئذ » فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الاية بآية الضِّعف ، وبقى حكم الفِرار من الزحف ليس بكبيرة . وقد فرّ الناس يوم أُحُد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حُنَيْن « ثم ولّيتم مُدْبِرِين » (١) ولم يقع على ذلك تعنيف . وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة

(١) آية ٢٥ سورة التوبة .

الى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى : « إذا لقيتم » . وحكم الآية باقٍ إلى يوم القيامة بشرط الضِّعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى ، وليس فى الآية نسخ . والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه . وإلى هذا ذهب مالك والشافعىّ وأكثر العلماء . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اجتنبوا السبع الموبِقات — وفيه — والتولِّى يوم الزّحف " وهذا نصٌّ فى المسألة . وأما يوم أُحُد فإنما فرّ الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عُنِّفُوا . وأما يوم حُنين فكذلك من فرّ إنما انكشف عن الكثرة ، على ما يأتى بيانه .

الرابعة — قال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف، ولا يجوز لهم الفِرار وإن فرّ إمامهم ؛ لقوله عز وجل : « ومَن يُوَلِّهِم يومئذٍ دُبُرَهُ » الآية . قال : ويجوز الفِرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين آثنى عشر ألفا ؛ فإن بلغ اثنى عشر ألفا لم يحِل لهم الفِرار وإن زاد عدد المشركين على الضِّعف؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولن يُغلب آثنا عشر ألفا من قِلّة " فإن أكثر أهل العلم خصّصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية .

قلت — رواه أبو بشر وأبو سلمة العاملىّ ، وهو الحكم بن عبد الله بن خطاف وهو متروك . قالا : حدّثنا الزُّهرىّ عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أكثم بنَ الجَوْن اغْزُ مع غير قومك يحسن خلقك وتُكرم على رفقائك . يا أكثم ابن الجون خير الرفقاء أربعة وخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يُؤْتَى آثنا عشر ألفا من قِلة " . وروى عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبه وهو قوله للعُمَرىّ[1] العابد إذ سأله هل لك سَعة فى ترك مجاهدة مَن غيّر الأحكام وبدّلها ؟ فقال : إن كان معك آثنا عشر ألفا فلا سَعة لك فى ذلك .

---

(١) العُمَرى (بضم العين وفتح الميم) وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كان من أزهد زمانه . مات سنة ١٨٤ هـ (عن أنساب السمعانى) .

الخامسـة — فإن فرّ فليستغفر الله عز وجل . روى الترمذيّ عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدّثني أبي عن جدّي سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من قال أستغفر الله الذي لا إلٰه إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غفر الله له و إن كان قد فرّ من الزحف " . قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ التحرُّف : الزوال عن جهة الآستواء . فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم؛ وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضا . روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أنه كان في سرِيّة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فحاص الناس حَيْصة[1]، فكنت فيمن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبُؤْنا بالغضب . فقلنا : ندخل المدينة فنتثبّت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال : فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كانت لنا توبة أقمنا ، و إن كان غير ذلك ذهبنا . قال : فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرّارون؛ فأقبل إلينا فقال: " لا بل أنتم العكّارون " . قال : فدنونا فقبلنا يده . فقال : " أنا فئة المسلمين " . قال ثعلب : العكارون هم العطّافون . وقال غيره : يقال للرجل الذي يُوَلّي عند الحرب ثم يكر راجعا : عَكَر وآعتكر . وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال : انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، هلكت ! فررت من الزحف . فقال عمر : أنا فئتك . وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليّ لكنت له فئة، فأنا فئة كل مسلم . وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة ؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا . وعلى القول الآخر يكون كبيرة؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب . هذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة . قالوا : وإنما كان ذلك القول

---

(١) حاص : جال؛ أي جالوا جولة يطلبون الفرار .

من النبيّ صلى الله عليه وسلم وعمر على جهة الحيْطة على المؤمنين، إذ كانوا فى ذلك الزمان يثبتون لأضعافهم مرارا . والله أعلم . وفى قوله "والتولّى يوم الزحف" ما يكفى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى استحق الغضب . وأصل «باء» رجع . وقد تقدّم.[1] ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أى مقامه . وهذا لا يدل على الخلود؛ كما تقدّم فى غير موضع . وقد قال عليه السلام : "من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحيّ القيوم غُفر له و إن كان قد فرّ من الزحف" .

قوله تعالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أى يوم بدر . رُوى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتلت كذا، فعلت كذا؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعالى هو المميت والمقدّر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده . وهذه الآية تردّ على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم . فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم . وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ مثله، ولكن الله رمى . واختلف العلماء فى هذا الرّمى على أربعة أقوال :

الأوّل — إن هذا الرمى إنما كان فى حَصْب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين؛ رواه ابن وهب عن مالك . قال مالك : ولم يبق فى ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك . وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضا .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثـانى ــ أن هذا كان يوم أُحُد حين رمى أُبَىّ بن خلف بالحربة فى عنقه ؛ فكَرّ أُبَىّ منهزما . فقال له المشركون : والله مابك من بأس . فقال : والله لو بصق علىّ لقتلنى . أليس قد قال : بل أنا أقتله . وكان قد أوْعد أُبَىٌّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالقتل بمكة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل أنا أقتلك" فمات عدوّ الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرجعه إلى مكة، بموضع يقال له « سَرِف » . قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لمـا كان يوم أحد أقبل أُبَىّ مقنعا فى الحديد على فرسه يقول : لا نجوتُ إن نجا محمد؛ فحمل على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يريد قتله . قال موسى بن عقبة قال سعيد بن المسيب : فٱعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلّوْا طريقه؛ فٱستقبله مصعب بن عمير يَقِى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقُتِل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرْقُوة أُبَىّ بن خلف من فُرجة بين سابغة البَيْضة والدّرع؛ فطعنه بحربته فوقع أُبَىّ عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم . قال سعيد : فكسر ضِلعا من أضلاعه ؛ فقال : ففى ذلك نزل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللَّهَ رَمَى » . وهذا ضعيف؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر .

الثـالث ــ أن المراد السّهم الذى رمى به رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فى حِصن خَيْبر، فسار فى الهـواء حتى أصاب ٱبن أبى الحُقَيق وهو على فراشه . وهذا أيضا فاسـد ، وخَيْبَرُ وفتحُها أبعد من أُحُد بكثير . والصحيح فى صورة قتل ٱبن أبى الحُقَيق غير هذا .

الرابــع ــ أنها كانت يوم بدر ؛ قاله ٱبن إسحاق . وهو أصح؛ لأن السـورة بدرِية ، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : "خذ قبضة من التراب" فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ؛ وقاله ابن عباس، وسيأتى . قال ثعلب : المعنى «وما رميت» الفـزع والرعب فى قلوبهـم «إذ رميت» بالحصباء فٱنهـزموا « ولكن الله رمى » أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك، أى أعانك وأظفرك وصنع لك. حكى هذا أبو عبيدة

فى كتاب المجاز . وقال محمد بن يزيد: وما رميت بقوتك إذ رميت، ولكنك بقوة الله رميت .
﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ البـلاء ها هنا النعمة . واللام تتعلق بمحذوف؛ أى وليبلى المؤمنين فعل ذلك . ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِّنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو. وقراءة أهل الكوفة « مُوهِنُ كَيدَ الكافِرِين » . وفى التشديد معنى المبالغة . وروى عن الحسن « مُوهِنُ كَيْدِ الكافرين » بالإضافة والتخفيف . والمعنى : أن الله عز وجل يلقى فى قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا . والكيد : المكر . وقد تقدّم[1] .

قوله تعـالى : إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ شرطٌ وجوابه . وفيه ثلاثة أقوال : يكون خطابا للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا : اللّهُمّ أقطَعُنا للرّحِم وأظلَمُنا لصاحبه فانصره عليه؛ قاله الحسن ومجاهـد وغيرهما . وكان هـذا القول منهم وقت خروجهم لنُصرة العِير . وقيل : قاله أبو جهل وقت القتال . وقال النّضر بن الحارث : اللهم إن كان هـذا هو الحق من عنـدك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آئتنا بعـذاب أليم . وهو ممن قتل ببـدر . والاسـتفتاح : طلب النصر؛ أى قـد جاءكم الفتح ولكنه كان للسلمين عليكم . أى فقـد جاءكم ما بان به الأمر، وآنكشف لكم الحق . ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ عن الكفر ﴿ فهو خير لكم ﴾ . ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ أى إلى هـذا القول وقتال محمد . ﴿ نَعُدْ ﴾ إلى نصر المؤمنين . ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أى جماعتكم ﴿ شَيْئًا ﴾ . ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أى فى العدد .

الثـانى — يكون خطابا للؤمنين؛ أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . وإن «تنتهوا» أى عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن؛ فهو خير لكم . «وإن تعودوا» أى إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم . كما قال : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ »[2] الآية .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) آية ٦٨ من هذه السورة .

والقول الثالث — أن يكون « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » خطابا للمؤمنين ، وما بعده للكفار . أى وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر . القشيرى : والصحيح أنه خطاب للكفار ؛ فإنهم لما نفروا إلى نصرة العير تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم آنصر أهدى الطائفتين، وأفضل الدِّينين . المهدوىّ : وروى أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها، أى يستنصرون .

قلت : ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكسر الألف على الاستئناف ، وبفتحها عطف على قوله : « وأنّ الله مُوهِنُ كيدِ الكافِرين » . أو على قوله : « أنى معكم » . والمعنى : ولأن الله؛ والتقدير لكثرتها وأن الله . أى من كان الله فى نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدّقين . أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالا لهم . جدّد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهاهم عن التولى عنه . هذا قول الجمهور . وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين . والمعنى : ياأيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا ؛ لأن الله تعالى وصف من خاطب فى هذه الآية بالإيمان . والإيمان التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء . وأبعد من هذا من قال : إن الخطاب لبنى إسرائيل، فإنه أجنبىّ من الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولّى الإعراض . وقال « عنه » ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته ؛ وهو كقوله تعالى : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »(١) . ﴿ وَأَنْتُمْ

(١) آية ٦٢ سورة التوبة .

تَسْمَعُونَ ﴾ ابتــداء وخبر فى موضع الحــال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين فى القرآن .

قوله تعـالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أى كاليهود أو المنافقين أو المشركين . وهو من سماع الأذن . ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى لا يتدبّرون ماسمِعوا ، ولا يفكّرون فيه ؛ فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق . نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهـم . فدلّت الآية على أن قول المؤمن : سمعت وأطعت ، لا فائدة فيــه مالم يظهر أثر ذلك عليــه بامتثال فعله . فإذا قصر فى الأوامر فلم يأتها ، وآعتمد النواهى فآقتحمها فأىّ سمع عنده وأى طاعة ! و إنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذى يظهر الإيمان ، و يُسر الكفر؛ وذلك هو المراد بقوله : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمِعنا وهم لايسمعون » . يعنى بذلك المنافقين ، أو اليهود أو المشركين ؛ على ماتقدم . ثم أخبر تعـالى أن الكفار شرٌّ ما دَبّ على الأرض . وفى البخارىّ عن ابن عباس « إنّ شَرّ الدوابِّ عِنــد اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذِين لا يعقِلون » قال : هم نفر من بنى عبد الدار . والأصل أشرّ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال . وكذا خير؛ الأصل أخير .

قوله تعـالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ قيل : الحجج والبراهين؛ إسماعَ تَفَهُّم . ولكن سـبق علمه بشقاوتهم . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أى لو أفهمهم لمـا آمنوا بعد علمــه الأزلىّ بكفرهم . وقيل : المعنى لأسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم؛ لأنهم طلبوا إحياء قُصَىّ ابن كِلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . الزجاج : لأسمعهم جواب كل ماسألوا عنه . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إذ سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ هذا الخطاب للؤمنين المصدّقين بلا خلاف . والاستجابة : الإجابة . و ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ أصله يحييكمُ ، حذفت الضمة من الياء لثقلها . ولا يجوز الإدغام . قال أبو عبيدة : معنى « استجيبوا » أجيبوا ؛ ولكن عُرْف الكلام أن يتعدّى استجاب بلام ، ويتعدّى أجاب دون لام . قال الله تعالى : « يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ »(1) . وقد يتعدّى استجاب بغير لام ؛ والشاهد له قول الشاعر(2) :

وداعٍ دعا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فلم يَستجِبه عند ذاك مُجيبُ

تقول : أجابه وأجاب عن سؤاله . والمصدر الإجابة . والاسم الجابة ؛ بمنزلة الطاقة والطاعة . تقول : أساء سَمْعاً فأساء جابة(3) . هكذا يتكلم بهذا الحرف . والمجاوبة والتجاوب : التحاور . وتقول : إنه لحسَن الجِيبة (بالكسر) أي الجواب . ﴿ لِمَا يُحْيِيكُم ﴾ متعلق بقوله : « استجيبوا » . المعنى : استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم . وقيل : اللام بمعنى إلى ؛ أي إلى ما يحييكم ، أي يُحيي دينكم ويعلمكم . وقيل : أي إلى ما يحي به قلوبكم فتوحّدوه . وهذا إحياء مستعار ؛ لأنه من موت الكفر والجهل . وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ؛ ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية ، وقيل : المراد بقوله « لما يحييكم » الجهاد ؛ فإنه سبب الحياة في الظاهر ، لأن العدو إذا لم

---

(1) آية ٣١ سورة الأحقاف . (2) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار .

(3) أصل هذا المثل على ما ذكر الزبير بن بكار أنه كان لسهل بن عمرو ابن مضعوف فقال له إنسان : أين أمك (بفتح الهمزة وتشديد الميم المضمومة) أى أين قصدك ؛ فظن أنه يقول له : أين أمك ؛ (بضم الهمزة والميم) فقال : ذهبت تشترى دقيقا . فقال أبوه : أساء سمعا ... الخ . (عن اللسان) .

يُغز غَزا ، وفى غزوه الموت ، والموت فى الجهاد الحياةُ الأبدية ؛ قال الله عز وجل : «ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا فِي سبِيلِ اللهِ أمواتا بل أحياءٌ»[1] والصحيح العموم كما قال الجمهور .

الثانيـــة ــ روى البخاريّ عن أبى سـعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أُجبه ، ثم أتيته فقلت : يارسـول الله ، إنى كنت أصلى . فقال : " ألم يقل الله عز وجل « اِسْتَجِيبُوا لِلهِ وللرسول إذا دعاكم لمـا يُحييكم » " وذكر الحديث . وقد تقدّم فى الفاتحة[2] . وقال الشافعيّ رحمه الله : هذا دليل على أن الفعل الفرضَ أو القول الفرضَ إذا أُتِى به فى الصلاة لا تبطل؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة وإن كان فى الصلاة .

قلت : وفيــه حجة لقول الأوزاعى : لو أن رجلا يصلى فأبصر غلاما يريد أن يســقط فى بئر فصاح به وآنصرف إليه وانتهره لم يكن بذلك بأس . والله أعلم .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قيل : إنه يقتضى النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذى أمره به ، فلا يكتسبه إذ لم يُقدره عليــه بل أقدره على ضدّه وهو الكفر . وهكذا المؤمن يحول بينــه وبين الكفر . فبان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرّها . وهــذا معنى قوله عليه السلام : " لا ، ومُقَلِّبِ القلوب " . وكان فعل الله تعـالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ؛ إذ لم يمنعهم حقا وجب عليه فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم . قال السُّدِّى : يحول بين المرء وقلبــه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه؛ أى بمشيئته . والقلب موضع الفكر . وقد تقدّم فى « البقرة »[3] بيانه . وهو بيد الله، متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل . أى بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تمكنوا منها بزوال العقل . وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء

(١) آية ١٦٩ سورة آل عمران . (٢) راجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

وعقله حتى لا يدرى ما يصنع . وفى التنزيل : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »(١) أى عقل . وقيل : يحول بينه و بينه بالموت ، فلا يمكنه استدراك ما فات . وقيل : خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدوّ فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدّلهم بعد الخوف أمْنًا ، ويبدّل عدوّهم من الأمن خوفا . وقيل : المعنى يقلّب الأمور من حال إلى حال؛ وهذا جامع . واختيار الطبرى أن يكون ذلك إخبارا من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم و بينها إذا شاء ؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله عز وجل . ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ عطف . قال الفرّاء : ولو استأنفت فكسرت « وإنه » كان صوابا .

قوله تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)

فيه مسألتان :

الأولى — قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يُقِرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم العذاب . وكذلك تأوّل فيها الزبير بن العوّام فإنه قال يوم الجمل ، وكان سنة ست وثلاثين : ما علمت أنا أُرِدنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت . وكذلك تأوّل الحسن البصرى والسدّى وغيرهما . قال السدّى : نزلت فى أهل بدر خاصة ؛ فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتتلوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : نزلت هذه الآية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال : أمر الله المؤمنين ألا يقِرّوا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب . وعن حُذيفة بن اليَمَان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يكون بين ناس من أصحابى فتنة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياى يستنّ بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها النار" .

قلت : وهذه التأويلات هى التى تَعْضُدها الأحاديث الصحيحة ؛ ففى صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يارسول الله، أنهلك وفينا

(١) آية ٣٧ سورة ق .

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث". وفى صحيح الترمذى : "أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده" وقد تقدمت هذه الأحاديث . وفى صحيح البخارى والترمذى عن النّعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَثَل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثل قوم استَهَمُوا(١) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ مَن فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا و إن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا" . ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة . وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال علماؤنا : فالفتنة إذا عُملت هلك الكل . وذلك عند ظهور المعاصى وانتشار المنكر وعدم التغيير ، و إذا لم تُغيَّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هِجران تلك البلدة والهرب منها . وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم ؛ كما فى قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم . وبهذا قال السلف رضى الله عنهم . روى ابن وهب عن مالك أنه قال : تُهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها . واحتج بصنيع أبى الدّرداء فى خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها . خرّجه الصحيح . وروى البخارى عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم " . فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طُهرة للمؤمنين ومنه مايكون نِقمة للفاسقين . وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : عَبِث(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، فقلت : يارسول الله ، صنعتَ شيئا فى منامك لم تكن تفعله ؟ فقال : " العجبُ ، إن ناسا من أمتى يؤُمُّون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم " . فقلنا : يارسول الله ، إن الطريق

(١) استهموا : اقترعوا .

(٢) عبث : معناه اضطرب بجسمه . وقيل : حرك أطرافه كمن يأخذ شيئا أو يدفعه .

قد يجمع الناس . قال : " نعم . فيهم المستبصر والمجبور[1] وابن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله تعالى على نياتهم " . فإن قيل : فقد قال الله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[2] . « كل نفس بما كسبت رهينة »[3] . « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »[4] . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب . فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكتوا عليه فكلهم عاص . هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل ؛ فانتظم في العقوبة[5]؛ قاله ابن العربي . وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا . ومقصود الآية : واتقوا فتنة تتعدى الظالم، فتصيب الصالح والطالح .

الثانيـــة — واختلف النحاة في دخول النون في « لا تصيبن » . قال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهي؛ أي إن تنزل عنها لا تطرحنك . ومثله قوله : « ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم »[6] . أي إن تدخلوا لا يحطمنكم؛ فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء . وقيل : لأنه خرج مخرج القسم ، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القسم . وقال أبو العباس المبرد : إنه نهي بعد أمر ، والمعنى النهي للظالمين؛ أي لا تقربن الظلم . وحكى سيبويه : لا أرينك ها هنا؛ أي لا تكن ها هنا ؛ فإنه من كان ها هنا رأيته . وقال الجرجاني : المعنى اتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة . فقوله « لا تصيبن » نهي في موضع وصف النكرة؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا . وقرأ علي وزيد بن ثابت وأبي وابن مسعود « لتصيبن » بلا ألف . قال المهدوي : من قرأ «لتصيبن» جاز أن يكون مقصورا من « لا تصيبن » حذفت الألف كما حذفت من « ما » وهي أخت « لا » في نحو أم والله لأفعلن ، وشبهه . ويجوز أن تكون مخالفة لقراءة الجماعة؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة .

---

(١) المستبصر : هو المستبين للأمر، القاصد لذلك عمدا . والمجبور : المكره .

(٢) آية ١٥ سورة الإسراء .	(٣) آية ٣٨ سورة المدثر .	(٤) آخر سورة البقرة .

(٥) عبارة ابن العربي : « فانتظم الذنب بالعقوبة » .	(٦) آية ١٨ سورة النمل .

قوله تعالى : وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ قال الكلبيّ : نزلت فى المهاجرين؛ يعنى وصف حالهم قبل الهجرة وفى ابتداء الإسلام . ﴿ مُسْتَضْعَفُون ﴾ نعت . ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أرض مكة . ﴿ تَخَافُونَ ﴾ نعت . ﴿ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ﴾ فى موضع نصب. والخطف: الأخذ بسرعة. ﴿ النَّاسُ ﴾ رفع على الفاعل . قَتادة وعِكرمة : هم مشركو قريش . وهب بن منبّه : فارس والروم . ﴿ فَآوَاكُمْ ﴾ قال ابن عباس : إلى الأنصار . السُّدّى : إلى المدينة ؛ والمعنى واحد . آوى إليه (بالمد) : ضمّ إليه . وأوى إليه (بالقصر) : انضمّ إليه . ﴿ وَأَيَّدَكُمْ ﴾ قوّاكم . ﴿ بِنَصْرِه ﴾ أى بعَوْنه . وقيل : بالأنصار . وقيل : بالملائكة يوم بدر . ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الغنائم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قد تقدّم معناه (1) .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

رُوى أنها نزلت فى أبى لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بنى قُريظة بالذبح . قال أبو لُبابة : والله ما زالت قدماى حتى علمت أنى قد خنت الله و رسوله ؛ فنزلت هذه الآية . فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سوارى المسجد، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت، أو يتوب الله علىّ . الخبر مشهور . وعن عكرمة قال : لما كان شأن قريظة بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم عليًّا رضى الله عنه فيمن كان عنده من الناس ؛ فلما انتهى إليهم وقعوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبلق فقالت عائشة رضى الله عنها : فلكأنّى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه

(1) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

جبريل عليهما السلام ؛ فقلت : هذا دحية يارسول الله. فقال : "هذا جبريل عليه السلام". قال : "يارسول الله ما يمنعك من بنى قُريظة أن تأتيهم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فكيف لى بحصنهم"؟ فقال جبريل : "فإنى أدخل فرسى هذا عليهم". فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا مُعْرَوْرًى(١) ؛ فلما رآه علىّ رضى الله عنه قال : يارسول الله ، لا عليك ألّا تأتيهم ، فإنهم يشتمونك. فقال : "كلا إنها ستكون تحيّة". فأتاهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا إخوة القردة والخنازير" فقالو : يا أبا القاسم ، ما كنت فحّاشا ! فقالوا : لا ننزل على حكم محمد ، ولكنا ننزل على حكم سعد بن معاذ ؛ فنزل . فحكم فيهم أن تقتل مقاتِلتهم وتُسْبَى ذراريهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بذلك طرقنى الملَك سَحَرًا" فنزل فيهم « يأيها الذين آمنوا لا تَخُونُوا اللهَ والرسولَ وتَخُونُوا أماناتِكم وأنتم تعلمون » . نزلت فى أبى لُبابة ، أشار إلى بنى قُريظة حين قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ ، لا تفعلوا فإنه الذبح ، وأشار إلى حلقه . وقيل : نزلت الآية فى أنهم كانوا يسمعون الشيء من النبىّ صلى الله عليه وسلم فيُلقونه إلى المشركين ويُفشونه . وقيل : المعنى بغلول الغنائم ونسبتها إلى الله ؛ لأنه الذى أمر بقسمتها . و إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه المؤدّى عن الله عز وجل والقيِّم بها . والخيانة : الغدر و إخفاء الشيء ؛ ومنه : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ(٢) » وكان عليه السلام يقول : "اللهــم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البِطانة" . خرّجه النَّسائى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... ؛ فذكره .

﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُم ﴾ فى موضع جزم ، نسقا على الأول . وقد يكون على الجواب ؛ كما يقال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن . والأمانات : الأعمال التى آئتمن الله عليها العباد . وسميت أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق ؛ مأخوذة من الأمن . وقد تقدّم فى « النساء » القول فى أداء الأمانات والودائع وغير ذلك(٣) . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى ما فى الخيانة من القبح والعار . وقيل : تعلمون أنها أمانة .

---

(١) عريانا .	(٢) آية ١٩ سورة غافر .	(٣) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ كان لأبى لُبابة أموال وأولاد فى بنى قُريظة، وهو الذى حمله على ملاينتهم؛ فهذا إشارة إلى ذلك . ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أى آختبار؛ آمتحنهم بها . ﴿ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فآثِروا حقه على حقكم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قد تقدّم معنى « التقوى » . وكان الله عالمـا بأنهم يتقون أم لا يتقون . فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطِب بعضهم بعضا . فإذا آتق العبد ربّه — وذلك بآتباع أوامره واجتناب نواهيـه — وترْكَ الشبهات مخافة الوقوع فى المحرّمات، وشحن قلبـه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمـال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفيّ والظاهر بمراعاة غير الله فى الأعمال ، والركون إلى الدنيا بالعِفة عن المـال جعل له بين الحق والباطل فرقانا ، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا . قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله « إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » قال : مخرجا، ثم قرأ « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا »[(١)] . وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء، وقاله مجاهد قبله . وقال الشاعر :

مَالَكَ من طُول الأَسَى فُرقان * بعـــد قَطِـينٍ رَحلوا وبَانُوا

وقال آخر :

وكيف أُرَجِّى الخلد والموت طالبي * ومالى من كأس المنيـة فرقان

ابن إسحاق : « فرقانا » فَصْلا بين الحق والباطل؛ وقاله ابن زيد . السُّدّىّ : نجاة . الفرّاء : فتحا ونصرا . وقيل : فى الآخرة، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار .

(١) آية ٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار النَّدْوة؛ فآجتمع رأيهم على قتله فبيّتوه ، و رصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله أن يُعمى عليهم أمره؛ فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غَشِيَهم النوم، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض . فلما أصبحوا خرج عليهم علي فأخبرهم أن ليس في الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . الخبر مشهور في السيرة وغيرها . ومعنى « لِيُثْبِتُوكَ » ليحبسوك ؛ يقال : اثبّته اذا حبسته . وقال قتادة : « لِيثبِتوك » وَثاقا . وعنه أيضا وعبد الله بن كثير : ليسجنوك . وقال أبَان بن تَغْلِب وأبو حاتم : ليثخنوك بالجراحات والضرب الشديد . قال الشاعر :

فقلت ويحكما ما في صحيفتكم * قالوا الخليفة أمسى مُثبتاً وجعا

﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ عطف . ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ مستأنف . والمكر : التدبير في الأمر في خفية . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين ﴾ آبتداء وخبر. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

نزلت في النَّضر بن الحارث ، كان خرج إلى الحِيرة في التجارة فآشترى أحاديث كَلِيلة ودِمنة ، وكِسرى وقيصر؛ فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال النضر : لو شئت لقلت مثل هذا . وكان هذا وَقاحة وكذِبا . وقيل : إنهم توهموا أنهم

يأتون بمثله ، كما توهّمت سحرة موسى ، ثم راموا ذلك فعجزوا عنـه وقالوا عِنادا : إن هـذا إلا أساطير الأوّلين . وقد تقدّم (١) .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنـدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيـمٍ ﴿٣٢﴾

القراء على نصب « الحقّ » على خبر « كان » . ودخلت « هو » للفصل . ويجـوز « هو الحق » بالرفع . ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾ قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بهـا ، ولا اختلاف بين النحويين فى إجازتها ، ولكن القراءة سـنة ، لا يقرأ فيهـا إلا بقراءة مرضية . واختلف فيمن قال هـذه المقالة ؛ فقال مجاهد وابن جُبير : قائل هـذا هو النضر بن الحارث . أنس ابن مالك : قائله أبو جهل ؛ رواه البخارىّ ومسلم . ثم يجوز أن يقال : قالوه لشبهة كانت فى صدورهم ، وعلى وجه العناد والإبهام على النـاس أنهم على بصيرة، ثم حلّ بهـم يوم بدر ما سألوا . حُكى أن آبن عباس لقِيَه رجل من اليهود، فقال اليهودىّ : ممن أنت ؟ قال : من قريش. فقال : أنت من القوم الذين قالوا : «اللهم إن كان هذا هو الحقّ مِن عِندك» الآية. فهلّا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فآهدنا له ! إنّ هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عبـاس : وأنت يا إسرائيلىّ ، من القوم الذين لم تَجِف أرجلهـم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجى موسى وقومه ؛ حتى قالوا : « ٱجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلِهة » (٢) فقال لهم موسى : « إنكم قوم تجهلون » فأطرق اليهودىّ مفحما. ﴿ فَأَمْطِر ﴾ أمطر فى العذاب. ومطر فى الرحمة؛ عن أبى عبيدة . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

---

(١) آية ٢٥ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٨ سورة الأعراف .

لما قال أبو جهل : «اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك» الآية، نزلت «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ» كذا في صحيح مسلم . وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون، ويلحقوا بحيث أُمروا . ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ابن عباس : كانوا يقولون في الطواف : غفرانك . والاستغفار وإن وقع من الفجار يُدفع به ضرب من الشرور والإضرار . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم . أي وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره؛ قاله الضحاك وغيره . وقيل : إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام . أي «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» أي يسلمون؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقيل : «وهم يستغفرون» أي في أصلابهم مَن يستغفر الله . روى عن مجاهد أيضا . وقيل : معنى «يستغفرون» لو استغفروا . أي لو استغفروا لم يعذبوا . استدعاهم إلى الاستغفار؛ قاله قتادة وابن زيد . وقال المدائني عن بعض العلماء قال : كان رجل من العرب في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُسْرِفا على نفسه، لم يكن يتحرج؛ فلما أن تُوُفِّيَ النبيّ صلى الله عليه وسلم لبس الصوف ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدِّين والنُّسك . فقيل له : لو فعلت هذا والنبيّ صلى الله عليه وسلم حيّ لفرح بك . قال : كان لى أمانان ، فمضى واحد وبقى الآخر؛ قال الله تبارك وتعالى : «وما كان الله لِيعذّبهم وأنت فِيهِم» فهذا أمان . والثاني «وما كان اللهُ معذّبهم وهم يستغفِرون» .

قوله تعالى : وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ﴾ المعنى : وما يمنعهم من أن يعذّبوا . أي إنهم مستحقون العذاب لما ٱرتكبوا من القبائح والأسباب، ولكن لكل أجل كتاب؛ فعذبهم الله

بالسيف بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى ذلك نزلت : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ »[1] وقال الأخفش : إنّ « أنْ » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال لرفع « يعذبهم » . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى إن المتقين أولياؤه .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عُراة، يصفّقون ويَصفِرون ؛ فكان ذلك عبادة فى ظنهم . والمُكَاء : الصّفير . والتَصدية : التصفيق ؛ قاله مجاهد والسدّى وابن عمر رضى الله عنهم . ومنه قول عنترة :

وحَليلِ غانيـةٍ تركت مُجَـدَّلا * تَمْكُو فريصتُه كشِدْقِ الأَعْلَمِ[2]

أى تصوّت . ومنه مكَتِ آستُ الدابة إذا نَفخت بالريح . قال السُّدّى : المُكَاء الصفير ، على نحو طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء . قال الشاعر :

إذا غَرّد المُكّاء فى غير رَوْضة * فوَيْلٌ لأهل الشّاءِ والحُمُراتِ

قتادة : المُكَاء ضرب بالأيدى ، والتّصدية صياح . وعلى التفسيرين ففيه ردّ على الجهال من الصوفية الذين يَرقُصون ويُصَفّقون . وذلك كله منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت . وروى ابن جُريج وآبن أبى نَجيح عن مجاهد أنه

(١) سورة المعارج . (٢) الحليل : الزوج . ويروى : وخليل بالخاء المعجمة . الفريصة : الموضع الذى يرعد من الدابة والانسان إذا خاف . والأعلم : المشقوق الشفة العليا .

قال : المُكاء إدخالهم أصابعهم فى أفواههم . والتصدية : الصفير، يريدون أن يُشغلوا بذلك محمداً صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . قال النحاس : المعروف فى اللغة ما روى عن ابن عمر. حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال : مَكَا يَمْكُو مَكْوًا ومُكاء إذا صَفر . وصَدّى يُصدّى تصدية إذا صفق؛ ومنه قول عمرو بن الإطنابة(١) :

وظلّوا جميعا لهم ضجّة * مُكاء لدى البيت بالتّصدية

أى بالتصفيق . سعيد بن جُبير وابن زيد : معنى التّصدية صدّهم عن البيت؛ فالأصل على هذا تصددة، فأبدل من أحد الدالين ياء . ومعنى ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أى المؤمن من الكافر . وقيل : هو عام فى كل شىء، من الأعمال والنفقات وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما ذكر الكسائىّ أنه فى مصحف عبد الله بن مسعود « قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم » لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها؛ هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِن يَنتَهُوا ﴾ يريد عن الكفر . قال ابن عطية : ولا بُدّ؛ والحامل على ذلك جواب الشرط « يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَف » ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمُنْتَهٍ عن الكفر . ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيرى :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف * ثم انتهى عما أتاه واقترَفْ

لقوله سبحانه فى المعترف * إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

(١) فى القاموس وشرحه : « والإطنابة امرأة من بنى كنانة بن القيس بن جسر بن قضاعة، وعمرو ابنها شاعر مشهور، واسم أبيه زيد مناة » .

روى مسلم عن أبى شُماسة المَهْرِىّ قال : حضرْنا عمرو بنَ العاص وهو فى سِياقة الموت يبكى طويلا . الحديث . وفيه : فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أما علمت أن الإسلام يهدِم ما كان قبله وأن الهجرة تَهدِم ما كان قبلها وأن الحج يهدِم ما كان قبله " الحديث . قال ابن العربىّ : هذه لطيفة من الله سبحانه منّ بها على الخلق؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبـون المعاصى والمـآثم؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لـما استدركوا أبدا توبة، ولا نالتهم مغفرة . فيسّر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسـلام، وهدم جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقربَ لدخولهم فى الدّين، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين، ولو علموا أنهم يؤاخذون لـما تابوا ولا أسلموا . وفى صحيح مسلم : أن رجلا فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسا ثم سأل هل له من توبة فجاء عابدا فسأله هل له من توبة فقال لا توبة لك فقتله فكمّل به مائة؛ الحديث . فانظروا إلى قول العـابد : لا توبة لك؛ فلما علم أنه قد أيئسه قتله ، فِعْل الآيس من الرحمة . فالتنفير مفسدة للخليقة، والتيسير مصلحة لهم . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان إذا جاء اليه رجل لم يقتـل فسأله : هل لقـاتلٍ من توبة ؟ فيقول : لا توبة؛ تخويفا وتحذيرا . وإذا جاءه مَن قتل فسأله : هل لقاتل من توبة ؟ قال له : لك توبة؛ تيسيرا وتأليفا . وقد تقدم .

الثالثـــة — قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلّق فى الشرك ثم أسلم : فلا طلاق له . وكذلك من حلف فأسلم فلا حنث عليه . وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء؛ فذلك مغفور له . فأما من آفترى على مسلم ثم أسلم أو سَرق ثم أسلم أقيم عليه الحدّ للفِرية والسرقة . ولو زنى وأسلم ، أو آغتصب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحدّ . وروى أشهب عن مالك أنه قال : إنما يعنى الله عزوجل ما قد مضى قبل الإسلام، من مال أودم أو شىء . قال ابن العربىّ : وهذا هو الصواب؛ لـما قدّمناه من عموم قوله تعالى : « قل لِلذين كفروا إن يَنْتَهُوا يغفر لهم ما قد سلف » ، وقولِه : "الإسلام يهدِم ما قبله"، وما بيناه من المعنى من التيسير وعدم التنفير .

قلت : أما الكافر الحربِىّ فلا خلاف فى إسقاط ما فعله فى حال كفره فى دار الحرب . وأما إن دخل إلينا بأمان فقذف مسلما فإنه يحدّ، وإن سرق قطع . وكذلك الذّمىّ إذا قذف

حدّ ثمانين، وإذا سرق قطِع، وإن قتل قتل. ولا يُسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره؛ على رواية ابن القاسم وغيره. قال ابن المنذر: واختلفوا في النصراني يزني ثم يسلم، وقد شهدت عليه بينة من المسلمين؛ فحكي عن الشافعيّ رضي الله عنه إذ هو بالعراق لا حدّ عليه ولا تغريب؛ لقول الله عز وجل: «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف». قال ابن المنذر: وهذا موافق لما روى عن مالك. وقال أبو ثور: إذا أقرّ وهو مسلم أنه زنى وهو كافر أقيم عليه الحدّ. وحكى عن الكوفى أنه قال: لا يحدّ.

الرابعة — فأما المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات، وأصاب جنايات وأتلف أموالا؛ فقيل: حكمه حكم الكافر الأصلي إذا أسلم؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ارتداده. وقال الشافعيّ في أحد قوليه: يلزمه كل حق لله عز وجل وللآدمى؛ بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى. وقال أبو حنيفة: ما كان لله يسقط، وما كان للآدمى لا يسقط. قال ابن العربيّ: وهو قول علمائنا؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عن حقه، والآدميّ مفتقر إليه. ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حقوق الآدميين. قالوا: وقوله تعالى «قل للذين كفروا إن يَنْتَهُوا يُغفر لهم ما قد سلف» عام في الحقوق التي لله تعالى.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ يريد إلى القتال؛ لأن لفظة «عاد» إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل عنها. قال ابن عطية: ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال. ولا يجوز أن يتأول الى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في «عاد» إذا كانت مطلقة لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار؛ كما تقول: عاد زيد ملِكا؛ يريد صار. ومنه قول [أمية بن] أبي الصلت: —

تلك المكارم لا قَعبانِ من لبن * شِيبا بماء فعادا بعدُ أبوالَا

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل. فهي مقيّدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونها؛ فحكمها حكم صار.

قوله تعالى : ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله .

قوله تعالى : وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أى كفر. إلى آخر الآية تقدم معناها وتفسير ألفاظها فى « البقرة » (١) وغيرها والحمد لله .

(١) راجع ج ٢ ص ٣٥٣ طبعة ثانية .

تم الجزء السابع من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن، وأوّله قوله تعالى :

« واعلموا انما غنمتم من شىء »

كَمُلَ طبع الجزء السابع من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبى "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ١٤ شوال سنة ١٣٥٧
(٦ ديسمبر سنة ١٩٣٨) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٣٣ /١٩٣٧/٣٠٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثامن

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثامن

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

فهـــرس الجـزء الثـامن

تفسـير سـورة الأنفـال

صفحة

صفحة

سورة براءة

صفحة

صفحة

صفحة

تفسير سورة يونس عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير بقية سورة الأنفال

قوله تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ . فيه ست وعشرون مسألة (١) :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

وقد طوّفت في الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال آخر :

ومُطْعَم الغُنْم يومَ الغنم مُطْعَمُه * أنّى توجّه والمحروم محروم

والمغنم والغنيمة بمعنًى؛ يقال : غَنِم القوم غُنْما . وآعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى : « غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » مالُ الكفار إذا ظَفِر به المسلمون على وجه الغَلَبة والقَهْر . ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص على ما بيّناه، ولكن عُرف الشرع قيّد اللفظ بهذا النوع . وسمّى الشرعُ الواصلَ من الكفار إلينا من الأموال بآسمين : غَنيمة وفَيْئًا . فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوّهم بالسّعي وإيجاف (٢) الخيل والركاب يُسمّى غنيمة . ولزم هذا الاسم هذا

---

(١) يلاحظ أن المسائل خمس وعشرون مسألة . (٢) الإيجاف : سرعة السير؛ أي لم يعدوا في تحصيله خيلا ولا إبلا، بل حصل بلا قتال . والركاب : الإبل التي يسافر عليها؛ لا واحد لها من لفظها .

المعنى حتى صار عُرفا . والفَيْء مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف . كخَراج الأرضين وجزية الجماجم وخمس الغنائم . ونحو هـذا قال سفيان الثَّوْرِيّ وعطاء بن السائب . وقيل : إنهما واحد ، وفيهما الخمس ؛ قاله قتادة. وقيل : الفيء عبارة عن كل ما صار للسلمين من أموال بغير قهر . والمعنى متقارب .

الثانيـــة — هـذه الآية ناسخة لأول السورة ؛ عند الجمهور . وقد آدعى ابن عبد البر الإجماعَ على أن هـذه الآية نزلت بعد قوله « يسألونك عن الأنفال » وأن أربعـة أخماس الغنيمة مقسومةٌ على الغانمين ؛ على ما يأتي بيانه . وأن قوله « يسألونك عن الأنفال » نزلت في حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر؛ على ما تقدم أول السورة .

قلت : ومما يدل على صحة هـذا ما ذكره إسماعيل بن إسحاق قال : حدّثنا محمد بن كثير قال حدثنا سفيان قال حدثني محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لمـا كان يوم بدر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا فله كذا ومن أَسَر أسيرا فله كذا" وكانوا قتلوا سبعين، وأسروا سبعين، فجاء أبو اليَسَر بن عمرو بأسيرين؛ فقال : يا رسول الله، إنك وعدتنا مَن قتل قتيلا فله كذا، وقد جئتُ بأسيرين . فقام سعد فقال : يارسول الله، إنا لم يمنعنا زيادةٌ في الأجر ولا جُبن عن العدو ولكنا قمنا هذا المُقام خشية أن يعطف المشركون؛ فإنك إن تُعطي هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء . قال : وجعـل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فنزلت « يسئلونك عنِ الأنفالِ قُلِ الأنفالُ للهِ والرسول فآتقوا الله وأصْلِحُوا ذاتَ بينكم » فسَلَّموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نزلت « وأعلموا أَنَّمَا غَنِمتم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَه » الآية . وقد قيل : إنها مُحْكَمَة غيرُ منسوخة، وأن الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليست مقسومة بين الغانمين ؛ وكذلك لمن بعـده من الأئمة . كذا حكاه المـازَرِيّ عن كثير من أصحابنا، رضي الله عنهم، وأن للإمام أن يخرجها عنهم . واحتجّوا بفتح مكة وقصة حُنين . وكان أبو عبيـد يقول : افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عَنْوَةً ومَنّ على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم فَيْئًا . ورأى بعض الناس أن هذا جائز للأئمة بعده .

قلت : وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « وآعلموا أنما غنمتم من شئ فأنّ لله خمسه » والأربعة الأخماس للإمام، إن شاء حبسها و إن شاء قسمها بين الغانمين . وهذا ليس بشيء؛ لما ذكرناه، ولأن الله سبحانه أضاف الغنيمة للغانمين فقال : «واعلموا أنما غنمتم من شيء» ثم عيّن الخمس لمن سمّى فى كتابه ، وسكت عن الأربعة الأخماس؛ كما سكت عن الثلثين فى قوله : « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ »(١) فكان للأب الثلثان اتفاقا . وكذا الأربعة الأخماس للغانمين إجماعا؛ على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والدّاوُدِيّ والمازَرِيّ أيضا والقاضي عِياض وابن العربيّ . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، وسيأتى بعضها . و يكون معنى قوله : «يسئلونك عن الأنفال» الآية ، ما ينفّله الإمام لمن شاء لما يراه من المصلحة قبل القسمة . وقال عطاء والحسن : هى مخصوصة بما شذّ من المشركين إلى المسلمين، من عبد أو أَمَة أو دابة؛ يقضى فيها الإمام بما أحبّ . وقيل : المراد بها أنفال السّرايا أى غنائمها، إن شاء خمسها الإمام، و إن شاء نفّلها كلها . وقال إبراهيم النَّخَعِيّ فى الإمام يبعث السّرِية فيصيبون المغنم : إن شاء الإمام نفّله كله، و إن شاء خَمّسه . وحكاه أبو عمر عن مكحول وعطاء . قال عليّ بن ثابت : سألت مكحولا وعطاء عن الإمام ينفّل القوم ما أصابوا؛ قال : ذلك لهم . قال أبو عمر : من ذهب إلى هذا تأوّل قول الله عز وجل : « يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» أن ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم يضعها حيث شاء . ولم ير أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » . وقيل غير هذا مما قد أتينا عليه فى كتاب (القبس فى شرح مُوَطّا مالك بن أنس) . ولم يقل أحد من العلماء فيما أعلم أن قوله تعالى «يسئلونك عن الأنفال» الآية، ناسخ لقوله «وآعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه» بل قال الجمهور على ما ذكرنا : إن قوله « ما غنمتم » ناسخ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله تعالى . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها . وقد قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلدان من جهتين : إحداهما أن رسول

(١) آية ١١ سورة النساء .

الله صلى الله عليه وسـلم كان الله قد خصّه من الأنفال والغنائم ما لم يجعله لغيره ؛ وذلك لقوله «يسئلونك عن الأنفال» الآية ؛ فنرى أن هذا كان خاصًّا له . والجهة الأخرى أنه سنّ لمكّة سُنَنًا ليست لشيء من البلاد . وأما قصة حُنين فقد عوّض الأنصار لمّا قالوا : يعطي الغنائم قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهـم ! فقال لهم : " أما تَرضون أن يرجع الناس بالدنيـا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيوتكم " . خرّجه مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول، مع أن ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا . والله أعلم .

الثالثـــة ــ لم يختلف العلماء أن قوله : «وٱعلموا أنما غنمتم من شيء» ليس على عمومه، وأنه يدخله الخصوص ؛ فمما خصّصوه بإجماع أن قالوا : سَلَبُ المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام . وكذلك الرقاب ؛ أعني الأسارى، الخِيَرة فيها إلى الإمام بلا خلاف ، على ما يأتي بيانه . ومما خُصّ به أيضا الأرض . والمعنى : ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسّبْي. وأما الأرض فغير داخلة في عموم هـذه الآية ؛ لما روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال : لولا آخر الناس ما فتحتُ قريةً إلا قسَمتها كما قسَم رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر. ومما يصحح هذا المذهب ما رواه الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " مَنعتِ العراقُ قفيزها ودرهمها ومَنعت الشام مُدْها ودينارها " الحديث . قال الطحاويّ : «منعت» بمعنى ستمنع ؛ فدلّ ذلك على أنها لا تكون للغانمين ؛ لأن ما ملكه الغانمون لا يكون فيه قفيز ولا درهم ، ولو كانت الأرض تقسم ما بقي لمن جاء بعد الغانمين شيء . والله تعالى يقول: « والذين جاءوا من بعـدهم »[1] بالعطف على قوله « للفقراء المهاجرين » . قال : وانما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع . وقال الشافعيّ : كل ماحصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء قَلّ أو كثُر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك قسم ؛ إلا الرجالَ البالغين فإن الإمام فيهم مخيَّر أن يَمُنّ أو يقتل أو يَسْبِي . وسبيل ما أخذ منهم وسُبي سبيلُ الغنيمة . واحتج بعموم الآية . قال : والأرض مغنومة لا محالة ؛ فوجب أن تقسم كسائر الغنائم . وقـد قسم

(١) آية ١٠ سورة الحشر .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ٱفتتح عَنوة من خَيْبر . قالوا : ولو جاز أن يدّعى ٱلخصوص في الأرض جاز أن يدّعى فى غير الأرض فيبطل حكم الآية . وأما آية «الحشر»(١) فلا حجة فيها؛ لأن ذلك إنما هو فى الفيء لا فى الغنيمة . وقوله «والذين جاءوا من بعدهم» استئناف كلام بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان لا لغير ذلك . قالوا : وليس يخلو فعل عمر فى توقيفه الأرض من أحد وجهين : إما أن تكون غنيمة استطاب أنفس أهلها ، وطابت بذلك فوقفها . وكذا روى جرير أن عمر استطاب أنفسَ أهلها . وكذلك صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَبْي هوازن، لما أتَوْه ٱستطابَ أنفس أصحابه عما كان فى أيديهم . وإما أن يكون ما وقفه عمر فَيْئًا فلم يحتج الى مُراضاة أحد . وذهب الكوفيون إلى تخيير الإمام فى قَسْمها أو إقرارها وتوظيف الخراج عليها، وتصير ملكا لهم كأرض الصلح . قال شيخنا أبو العباس رضى الله عنه : وكأن هذا جمع بين الدليلين ووسط بين المذهبين، وهو الذى فهمه عمر رضى الله عنه قطعا؛ ولذلك قال : لولا آخر الناس؛ فلم يخبر بنسخ فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا بتخصيصه بهم؛ غير أن الكوفيين زادوا على ما فعل عمر، فإن عمر إنما وقفها على مصالح المسلمين ولم يملّكها لأهل الصلح، وهم الذين قالوا للإمام أن يملّكها لأهل الصلح .

الرابعة — ذهب مالك وأبو حنيفة والثَّوريّ إلى أن السلب ليس للقاتل، وأن حكمه حكم الغنيمة، إلا أن يقول الأمير : من قتل قتيلا فله سلبه؛ فيكون حينئذ له . وقال الليث والأوزاعيّ والشافعيّ و إسحاق وأبو ثور وأبو عبيد والطبريّ وابن المنذر : السلب للقاتل على كل حال، قاله الإمام أو لم يقله . إلا أن الشافعيّ رضى الله عنه قال : إنما يكون السلب للقاتل إذا قتل قتيلا مقبلا عليه ، وأما إذا قتله مدبرا عنه فلا . قال أبو العباس بن سُرَيج من أصحاب الشافعيّ : ليس الحديث "من قتل قتيلا فله سلبه" على عمومه؛ لإجماع العلماء على أن من قتل أسيرا أو امرأة أو شيخا أنه ليس له سلبُ واحدٍ منهم . وكذلك من ذَفَّف(٢) على جريح ، ومن قَتَل من قُطعت يداه ورجلاه . قال : وكذلك المنهزم لا يمنع فى ٱنهزامه ؛ وهو

---

(١) آية ١٠ (٢) تذفيف الجريح : الاجهاز عليه .

كالمكتوف . قال : فعُلِم بذلك أن الحديث إنما جعل السلب لمن لقتله معنًى زائد، أو لمن في قتـله فضيلةٌ، وهو القاتل في الإقبال؛ لما في ذلك من المؤنة . وأما من أُثخن[1] فلا . وقال الطبري : السلب للقاتل ، مقبلا قتله أو مدبرا، هاربا أو مبارزا إذا كان في المعركة . وهذا يردّه ما ذكره عبد الرزاق ومحمد بن بكر عن ابن جُريج قال سمعت نافعا مولى ابن عمر يقول : لم نزل نسمع إذا التقى المسلمون والكفار فقتل رجل من المسلمين رجلا من الكفار فإن سـلبه له ، إلا أن يكون في مَعْمعةِ القتال؛ لأنه حينئذ لا يُدْرَى من قتل قتيلا . فظاهر هذا يردّ قول الطبري لاشتراطه في السلب القتلَ في المعركة خاصة . وقال أبو ثَور وابن المنذر : السلب للقاتل في معركة كان أو غير معـركة ، في الإقبال والإدبار والهروب والانتهار على كل الوجوه؛ لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا فله سلبه" .

قلت : روى مسلم عن سلمة بن الأكْوَع قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن، فبينا نحن نَتَضَحّى[2] مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه، ثم انتزع طَلَقًا من حَقَبِه[3] فقيّد به الجمل، ثم تقدّم يتغدّى مع القوم وجعل ينظر، وفينا ضَعْفة ورِقّة في الظَّهر[4]، وبعضنا مُشاةٌ؛ إذ خرج يشتدّ[5]، فأتى جمله فأطلق قيده ثم أناخه وقعد عليه فأثاره فاشتدّ به الجمل؛ فاتبعه رجل على ناقة وَرْقاء[6] . قال سلمة : وخرجت أشتدّ فكنت عند وَرِك الناقة، ثم تقدّمت حتى كنت عند وِرك الجمل ، ثم تقدّمت حتى أخذت بخِطام الجمل فأنخته ، فلما وضع ركبته في الأرض اخترطتُ سيفي فضربت رأس الرجل فنَدَر[7] ، ثم جئت بالجمل أقوده ، عليه رحله وسلاحه ؛ فاستقبلني رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه فقال : "من قتل الرجل"؟ قالوا : ابن الأكوع . قال : "له سلبه أجمع" . فهذا سلمة قتله هاربا غير مقبل ، وأعطاه سلبه . وفيه حجة لمالك من أن السلب لا يستحقه القـاتل

(١) أي أثقل بالجراح . (٢) أي نتغدّى . (٣) الطلق (بالتحريك) : قيد من جلود . والحقب : الحبل المشدود على حقو البعير أو من حقيبته ، وهي الزيادة التي تجعل في مؤخر القتب ، والوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده . (عن ابن الأثير) . (٤) أي حالة ضعف وهزال في الابل . (٥) أي خرج مسرعا . (٦) الأورق من الابل : الذي في لونه بياض الى سواد . (٧) ندر : سقط .

إلا بإذن الإمام، إذ لو كان واجبا له بنفس القتل لما احتاج الى تكرير هذا القول .
ومن حجته أيضا ما ذكره أبو بكر بن أبى شيبة قال: حدّثنا أبو الأحوص عن الأسود بن قيس عن بشر بن علقمة قال : بارزت رجلا يوم القادِسية فقتلته وأخذت سلبه، فأتيت سعدا فخطب سعد أصحابه ثم قال : هذا سلب بشر بن علقمة، فهو خير من آثنى عشر ألف درهم، وإنا قد نفّلناه إياه . فلو كان السلب للقاتل قضاءً من النبيّ صلى الله عليه وسلم ما احتاج الأمر أن يضيفوا ذلك إلى أنفسهم باجتهادهم، ولأخذه القاتل دون أمرهم . والله أعلم . وفى الصحيح أن معاذ بن عمرو بن الجَموح ومعاذ بن عَفراء ضربا أبا جهل بسيفيهما حتى قتلاه ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أيّكما قتله " ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته . فنظر فى السيفين فقال : " كلاكما قتله " وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . وهذا نص على أن السلب ليس للقاتل، إذ لو كان له لقسمه النبيّ صلى الله عليه وسلم بينهما . وفى الصحيح أيضا عن عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة فى غزوة مُؤْتة، ورافقنى مَدَدِىّ[1] من اليمن . وساق الحديث، وفيه : فقال عوف : يا خالد، أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل؟ قال : بلى، ولكنى استكثرته . وأخرجه أبو بكر البَرْقانىّ بإسناده الذى أخرجه به مسلم ، وزاد فيه بيانا أن عوف بن مالك قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخمس السلب، وإنّ مَدَدِيّا كان رفيقا لهم فى غزوة مُؤْتة فى طرف من الشام، قال : فجعل رُومىّ منهم يشتدّ على المسلمين وهو على فرس أشقر وسرج مذهب ومِنطقة ملطخة وسيف محلًّى بذهب . قال : فيُغْرِى بهم، قال : فتلطف به المدِدىّ حتى مرّ به فضرب عُرقوب فرسه فوقع ، وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه . قال : فأعطاه خالد بن الوليد وحبس منه ، قال عوف : فقلت له أعطه كلّه ، أليس قد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " السلب للقاتل " ! قال : بلى ، ولكنى استكثرته . قال عوف : وكان بينى وبينه كلام ، فقلت له : لأُخبرن رسول الله صلى الله

(١) أى رجل من المدد الذين جاءوا يمدون جيش مؤتة ويساعدونهم .

عليه وسلم . قال عوف : فلما اجتمعنا عنـد رسول الله صلى الله عليه وسـلم ذكر عوف ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لخالد : "لِمَ لَمْ تعطه" ؟ قال فقال : استكثرته . قال : " فادفعه اليه " فقلت له : ألم أنجز لك ما وعـدتك ؟ قال : فغضب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وقال : " يا خالد لا تدفعه إليه هل أنتم تاركون لى أمرائى " . فهذا يدل دلالة واضحـة على أن السلب لا يستحقه القاتل بنفس القتل بل برأى الإمام ونظره . وقال أحمد ابن حنبل : لا يكون السلب للقاتل إلا فى المبارزة خاصة .

الخامســة — اختلف العلمـاء فى تخميس السلب ؛ فقال الشافعيّ : لا يخمّس . وقال إسحاق : إن كان السلب يسيرا فهو للقاتل، و إن كان كثيرا خُمِّس . وفعله عمر بن الخطاب مع البَرَاء بن مالك حين بارز المَرْزُبان فقتله، فكانت قيمة مِنطقته وسِواريه ثلاثين ألفا فخمّس ذلك . أنس عن البراء بن مالك أنه قتل من المشركين مائة رجل إلا رجلا مبارزة؛ وأنهـم لمـا غَزَوا الزارة خرج دَهقان الزارة فقال : رجل ورجل ؛ فبرز البراء فاختلفا بسيفيهمـا ثم اعتنقا، فتورّكه البراء فقعد على كبده، ثم أخذ السيف فذبحه، وأخذ سلاحه ومنطقته وأتى به عمر؛ فنفّله السلاح وقوّم المنطقة بثلاثين ألفا فخمّسها ، وقال : إنها مال . وقال الأوزاعيّ ومكحول : السلب مَغْنم وفيــه الخمس . وروى نحوه عن عمر بن الخطاب . والحجة للشافعيّ ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعيّ وخالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قضى فى السلب للقاتل ولم يخمّس السلب .

السادســة — ذهب جمهور العلماء الى أن السلب لا يعطى للقاتل إلا أن يُقيم البيّنة على قتله . قال أكثرهم : ويجزئ شاهد واحد؛ على حديث أبى قَتادة . وقيل : شاهدان أو شاهد ويمين . وقال الأوزاعيّ : يُعطاه بمجرد دعواه، وليست البينة شرطا فى الاستحقاق ، بل إن اتفق ذلك فهو الأَوْلى دفعا للمنازعة . ألا ترى أن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم أعطى أبا قتادة سلب مقتوله من غير شهادة ولا يمين . ولا تكفى شهادة واحد، ولا يُناط بها حكم بمجردها . وبه قال الليث بن سعد .

قلت : سمعت شيخنا الحافظ المنذرى الشافعى أبا محمد عبد العظيم يقول : إنما أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم السلب بشهادة الأسود بن خزاعى وعبد الله بن أُنيس . وعلى هذا يندفع النزاع ويزول الإشكال ، ويطّرد الحكم . وأما المالكية فيخرج على قولهم أنه لا يحتاج الإمام فيه إلى بينة ؛ لأنه من الإمام ابتداءً عطيةٌ ، فإنْ شرط الشهادة كان له . وإن لم يشترط جاز أن يعطيَه من غير شهادة .

السابعة — واختلفوا فى السلب ما هو ؛ فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا خلاف أنه من السلب . وفرسه إن قاتل عليه وصُرِع عنه . وقال أحمد فى الفرس : ليس من السلب . وكذلك إن كان فى هِمْيانه (١) وفى مِنطقته دنانير أو جواهر أو نحو هذا ، فلا خلاف أنه ليس من السلب . واختلفوا فيما يتزيّن به للحرب ؛ فقال الأوزاعى : ذلك كله من السلب . وقالت فرقة : ليس من السلب . وهذا مروى عن سُحنون رحمه الله ؛ الا المِنطقة فإنها عنده من السلب . وقال ابن حبيب فى الواضحة : والسّواران من السلب .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ قال أبو عبيد : هذا ناسخ لقوله عز وجل فى أول السورة « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » ولم يخمّس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر ، فنسخ حكمه فى ترك التخميس بهذا . إلا أنه يظهر من قول على رضى الله عنه فى صحيح مسلم « كان لى شارفٌ (٢) من نصيبى من المغنم يوم بدر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى شارفا من الخمس يومئذ » الحديث — أنه خمّس ؛ فإن كان هذا فقول أبى عبيد مردود . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الخمس الذى ذكر على من إحدى الغزوات التى كانت بين بدر وأُحُد ؛ فقد كانت غزوة بنى سُليم وغزوة بنى المُصْطَلِق وغزوة ذى أَمَر وغزوة بُحران ، ولم يُحفظ فيها قتال ، ولكن يمكن أن غُنمت غنائم . والله أعلم .

قلت : وهذا التأويل يرده قول على يومئذ ، وذلك إشارة إلى يوم قسم غنائم بدر ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون من الخمس إن كان لم يقع فى بدر تخميس ، من خمس سَرِيّة عبد الله بن

(١) الهميان : الذى تجعل فيه النفقة . وشداد السراويل .	(٢) الشارف : الناقة المسنة .

جَحْش، فإنها أول غنيمة غُنمت فى الإسلام، وأول خمس كان فى الإســلام؛ ثم نزل القرآن « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خُمُسه » . وهذا أولى من التأويل الأوّل . والله أعلم .

التاســعة — « ما » فى قوله « ما غنمتم » بمعنى الذى ، والهــاء محذوفة ؛ أى الذى غنمتموه . ودخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة . و « أنّ » الثانية توكيد للأولى، ويجوز كسرها ، ورُوى عن أبى عمرو . قال الحسن : هذا مفتاح كلام،[(١)] لله الدنيا والآخرة؛ ذكره النَّسائى. واستفتح جل وعز الكلام فى الفىء والخمس بذكر نفسه؛ لأنهما أشرف الكسب، ولم ينسب الصدقة إليه لأنها أوساخ الناس .

العاشــرة — واختلف العلماء فى كيفية قَسم الخمس على أقوال ستة :

الأول — قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ؛ فيُجعل السدس للكعبة ، وهو الذى لله . والثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والثالث لذوى القُرْبَى . والرابع لليتامى . والخامس للمساكين . والسادس لابن السبيل . وقال بعض أصحاب هــذا القول : يُرد السهم الذى لله على ذوى الحاجة .

الثـانى — قال أبو العالية والربيع : تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، وتقسم الأربعة على الناس ، ثم يضرب بيده فى السهم الذى عزله فما قبض عليــه من شىء جعله للكعبة ، ثم يَقسم بقيّة السهم الذى عزله على خمسة ، سهم للنبىّ صلى الله عليــه وسلم ، وسهم لذوى القُرْبَى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

الثـالث — قال المِنهال بن عمرو : سألت عبد الله بن محمد بن علىّ وعلىّ بن الحسين عن الخمس فقال : هو لنا . قلت لعلىّ : إن الله تعالى يقول : «واليتامى والمساكين وابن السبيل» فقال : أيتامنا ومساكيننا .

الرابــع — قال الشافعىّ : يقسم على خمسة . ورأى أن سهم الله ورسوله واحد، وأنه يصرف فى مصالح المؤمنين، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين فى الآية .

(١) أى قوله تعالى : «فأن لله خمسه» راجع الحديث فى كتاب قسم الفىء فى سنن النسائى .

الخامس — قال أبو حنيفة : يقسم على ثلاثة : اليتامى والمساكين وابن السبيل . وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته ، كما ارتفع حكم سهمه . قالوا : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد ، وأرزاق القضاة والجند . وروى نحو هذا عن الشافعيّ أيضا .

السادس — قال مالك : هو موكول الى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطى منه القرابة باجتهاد، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين . وبه قال الخلفاء الأربعة، وبه عملوا . وعليه يدلّ قوله صلى الله عليه وسلم : "مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم" . فإنه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا، وإنما ذكر فى الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهمّ مَن يدفع إليه . قال الزجاج محتجًّا لمالك : قال الله عز وجل « يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ »(1) وللرجل جائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك . وذكر النَّسائى عن عطاء قال : خمسُ الله وخمس رسوله واحد، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل منه ويعطى منه ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿وَلِذِى الْقُرْبَى﴾ ليست اللام لبيان الاستحقاق والملك، وإنما هى لبيان المَصْرِف والمحل . والدليل عليه ما رواه مسلم أن الفضل بن عباس وربيعة ابن عبد المطلب أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم، فتكلم أحدهما فقال : يارسول الله، أنت أبرّ الناس، وأوصل الناس، وقد بلغنا النكاحَ فجئنا لتؤمِّرنا على بعض هذه الصدقات، فنؤدّى اليك كما يؤدّى الناس ، ونصيبَ كما يصيبون . فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلّمه، قال : وجعلت زينب تُلْمِعُ(2) إلينا من وراء الحجاب ألّا تكلّماه . قال : ثم قال : " إن الصدقة لا تحل لآل محمد إنما هى أوساخ الناس ادعُوَا لِى مَحْمِيَةَ(3) — وكان على الخُمُس — ونَوْفَلَ بنَ الحارث بن

(1) آية ٢١٥ سورة البقرة . (2) يقال : ألمع ولمع، اذا أشار بثوبه أو بيده .

(3) هو محمية بن جَزْء، رجل من بنى أسد .

عبد المطلب" قال : فجاءاه فقال لمَحْمِية : "أنْكِحْ هذا الغلام آبنتَك" ــ للفضل بن عباس ــ فأنكحه . وقال لنوفل بن الحارث: "أنكِح هذا الغلامَ آبنتك" يعني ربيعة بن عبد المطلب. وقال لمَحْمِيَة : "أصْدِق عنهما من الخمس كذا وكذا" . وقال صلى الله عليه وسلم : "مالى مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم" . وقـد أعطى جميعه وبعضه، وأعطى منه المؤلّفة قلوبهم، وليس ممن ذكرهم الله فى التقسيم؛ فدلّ على ما ذكرناه، والموفق الإلٰه .

الثانية عشرة ــ واختلف العلماء فى ذوِى القربى على ثلاثة أقوال : قريش كلها ؛ قاله بعض السلف، لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لمـا صعِد الصّفا جعل يهتف : " يابنى فلان يا بنى عبد مناف يابنى عبد المطلب يابنى كعب يابنى مُرّة يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار" الحديث . وسيأتى فى « الشعراء » (١) . وقال الشافعيّ وأحمد وأبو ثَوْر ومجاهد وقتـادة وابن جُريج ومسـلم بن خالد : بنو هاشم وبنو عبد المطلب؛ لأن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم لمـا قسم سهم ذوى القُـرْبى بين بنى هاشم وبنى عبد المطلب قال : " إنهـم لم يفـارقونى فى جاهلية ولا إسلام إنمـا بنو هاشم وبنو المطّلب شىء واحد " وشبّك بين أصابعه؛ أخرجه النّسـائى والبخارىّ . قال البخارى : قال الليث حدثنى يونس ، وزاد : ولم يَقْسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نَوْفل شيئا . قال ابن اسحاق : وعبد شمس وهاشم والمطّلب إخوةٌ لأمّ، وأمّهـم عاتكة بنت مُرّة . وكان نوفل أخاهم لأبيهـم . قال النّسائىّ : وأسهم النبيّ صـلى الله عليه وسـلم لذوى القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بينهم الغنى والفقير . وقد قيل : إنه للفقير منهم دون الغنىّ ؛ كاليتامى وابن السبيل . وهو أشبه القولين بالصواب عندى . والله أعلم . والصغير والكبير والذكر والأنثى سـواء؛ لأن الله تعالى جعل ذلك لهم ، وقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . وليس فى الحديث أنه فضّل بعضهم على بعض .

الثـالث ــ بنوهاشم خاصة؛ قاله مجاهد وعلىّ بن الحسين . وهو قول مالك والثّورىّ والأوزاعىّ وغيرهم .

(١) فى قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » آية ٢١٤ .

الثالثة عشرة — لما بيّن الله عز وجل حكم الخمس وسكت عن الأربعة الأخماس، دلّ ذلك على أنها ملك للغانمين . وبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " وأيّما قرية عصت الله ورسوله فإن خمسها لله ورسوله ثم هى لكم " . وهذا مالا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة؛ على ما حكاه ابن العربى فى (أحكامه) وغيره . بَيْدَ أن الإمام إن رأى أن يَمُنّ على الأسارى بالإطلاق فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم ؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم بثُمامة بن أثال وغيره، وقال : " لو كان المُطْعِم بن عدىّ حيًّا ثم كلّمنى فى هؤلاء النَّتْنَى (١) — يعنى أسارى بدر — لتركتهم له" أخرجه البخارىّ . مكافأةً له لقيامه فى شأن [نَقْض] الصحيفة (٢). وله أن يقتل جميعَهم؛ وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عُقبة بن أبى مُعَيط من بين الأسرى صَبْرًا (٣)، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء صَبْرًا؛ وهذا ما لا خلاف فيه . وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين، حضر أو غاب . وسهم الصفِىّ، يصطفى سيفا أو سهما أو خادما أو دابة . وكانت صَفِيّة بنت حُيَىّ من الصَّفِىّ من غنائم خَيْبر . وكذلك ذو الفَقار (٤) كان من الصَّفِىّ . وقد انقطع بموته؛ إلا عند أبى ثَوْر فإنه رآه باقيا للإمام يجعله مجعل سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وكانت الحكمة فى ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يرون للرئيس ربع الغنيمة . قال شاعرهم :

لك المِرْباع منها والصَّفايا * وحُكْمُك والنَّشِيطةُ والفُضول (٥)

وقال آخر :

منا الذى رَبَع الجيوش، لصُلبه * عشرون، وهو يُعَدّ فى الأحياء

---

(١) النتنى : جمع نتن؛ كزمنى وزمن . (٢) أى الصحيفة التى كتبتها قريش فى ألا يبايعوا الهاشمية ولا المطلبية ولا يناكحوهم . وهو مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ؛ مات كافرا فى صفر قبل وقعة بدر بنحو سبعة أشهر . (عن شرح القسطلانى) . (٣) صبر الإنسان وغيره على القتل : حبسه ورماه حتى يموت .

(٤) ذو الفقار : اسم سيف النبىّ عليه السلام، وسمى به لأنه كانت فيه حفر صغار حسان؛ ويقال للحفرة فقرة .

(٥) البيت لعبد الله بن عنمة الضبي، يخاطب بسطام بن قيس . والنشيطة : ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصير الى مجتمع الحى . والفضول : ما فضل من القسمة مما لاتصح قسمته على عدد الغزاة؛ كالبعير والفرس ونحوهما (عن اللسان) .

يقال : رَبَع الجيشَ يَرْبَعه رَباعة إذا أخذ رُبع الغنيمة. قال الأصمعيّ : ربع في الجاهلية وخمس في الإسلام ، فكان يأخذ بغير شرع ولا دِين الربع من الغنيمة، ويصطفى منها، ثم يتحكّم بعد الصَّفِيّ في أي شيء أراد، وكان ماشذ منها وما فضل من خرثيّ[1] ومتاع له. فأحكم الله سبحانه الدِّين بقوله : « وٱعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمُسه » . وأبقى سهم الصَّفِيّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم وأسقط حكم الجاهلية . وقال عامر الشَّعْبيّ : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم يُدعَى الصَّفِيّ إن شاء عبدا أو أَمة أو فرسا يختاره قبل الخمس ؛ أخرجه أبو داود . وفي حديث أبي هريرة قال : فيلقى العبد فيقول : " أيْ فُلْ[2] ألم أُكْرِمْكَ وأُسَوِّدْكَ وأُزَوِّجْكَ وأُسَخِّر لك الخيل والإبل وأَذَرْكَ تَرْأَس وتَرْبَع " الحديث . أخرجه مسلم . « تربع » بالباء الموحّدة من تحتها : تأخذ المِرباع، أي الربع مما يحصل لقومك من الغنائم والكسب . وقد ذهب بعض أصحاب الشافعيّ رضي الله عنه إلى أن خمس الخمس كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم يصرفه في كفاية أولاده ونسائه ، ويدّخر من ذلك قوت سنته ، ويصرف الباقي في الكُرَاع[3] والسلاح . وهذا يردّه ما رواه عمر قال : كانت أموال بني النَّضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّة ، فكان ينفق على نفسه منها قوت سنة[4] ، وما بقي جعله في الكُرَاع والسلاح عدّة في سبيل الله . أخرجه مسلم . وقال : " والخمس مردود عليكم " .

الرابعة عشرة — ليس في كتاب الله تعالى دلالة على تفضيل الفارس على الراجل ، بل فيه أنهم سواء ؛ لأن الله تعالى جعل الأربعة أخماس لهم ولم يَخُص راجلا من فارس . ولولا الأخبار الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لكان الفارس كالراجل ، والعبد كالحر، والصبيّ كالبالغ . وقد اختلف العلماء في قسمة الأربعة الأخماس؛ فالذي عليه عامة أهل

---

(١) الخرثي (بالضم) : أثاث البيت أو أردأ المتاع والغنائم . (٢) الحديث أورده مسلم في كتاب الزهد . قال النووي : بضم الفاء وسكون اللام؛ ومعناه يا فلان ، وهو ترخيم على خلاف القياس . وقيل هي لغة بمعنى فلان وقال صاحب المرقاة بسكون اللام وتفتح وتضم . (٣) الكراع (بالضم) : الخيل .

(٤) الذي في صحيح مسلم : « ... فكان ينفق على أهله نفقة سنة .. » الخ .

العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يُسْهم للفارس سهمان، وللراجل سهم . وممن قال ذلك مالك ابن أنس ومن تبعه من أهل المدينة. وكذلك قال الأوزاعيّ ومن وافقه من أهل الشام . وكذلك قال الثّوريّ ومن وافقه من أهل العراق . وهو قول اللّيث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر . وكذلك قال الشافعيّ رضى الله عنه وأصحابه . وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : ولا نعلم أحدا خالف ذلك إلا النعمان فإنه خالف فيه السنن وما عليه جُلّ أهل العلم فى القديم والحديث . قال : لا يُسْهَم للفارس إلا سهم واحد .

قلت : ولعله شُبِّه عليه بحديث آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سهمين ، وللراجل سهما . خرّجه الدّارَقُطْنِيّ وقال : قال الرماديّ كذا يقول آبن نمير قال لنا النيسابورى : هذا عندى وَهَم من آبن أبى شيبة أو من الرمادى ؛ لأن أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن بشر وغيرهما رَوَوه عن آبن عمر(١) بخلاف هذا ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم ، سهما له وسهمين لفرسه ؛ هكذا رواه عبد الرحمن آبن بشر عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ؛ وذكر الحديث . وفى صحيح البخاريّ عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهما . وهذا نَصّ . وقد روى الدّارَقُطْنِيّ عن الزبير قال : أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أسهم يوم بدر ، سهمين لفرسى وسهما لى وسهما لأمّى من ذوى القرابة . وفى رواية : وسهما لأمّه سهمَ ذوى القربى . وخرّج عن بشير بن عمرو بن محصن قال : أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرسيّ أربعة أسهم، ولى سهما ؛ فأخذت خمسة أسهم . وقيل : إن ذلك راجع إلى آجتهاد الإمام، فينفذ ما رأى . والله أعلم .

الخامسة عشرة — لا يفاضل بين الفارس والراجل بأكثر من فرس واحد ؛ وبه قال الشافعيّ . وقال أبو حنيفة : يُسْهم لأكثر من فرس واحد ؛ لأنه أكثر غناء وأعظم منفعة ؛

---

(١) الذى فى نسخة الدارقطنى : « عن ابن نمير » .

و به قال آبن الجَهْم من أصحابنا ، و رواه سُحْنون عن آبن وهب . ودليلنا أنه لم ترد رواية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يُسهم لأكثر من فرس واحد، وكذلك الأئمة بعده ، ولأن العدوّ لا يمكن أن يقاتل إلا على فرس واحد ، وما زاد على ذلك فرفاهية وزيادة عُدّة ؛ وذلك لا يؤثّر فى زيادة السُّهمان ؛ كالذى معه زيادة سيوف أو رماح ؛ واعتبارا بالثـالث والرابع . وقد روى عن سليمان بن موسى أنه يُسهم لمن كان عنده أفراس، لكلّ فرس سهم .

السادسة عشرة — لا يسهـم إلا لِلعتاق من الخيل؛ لمـا فيها من الكرّ والفرّ، وما كان من البَراذين والهُجْن بمنابتهـا فى ذلك . وما لم يكن كذلك لم يسهم له . وقيل : إن أجازها الإمام أسهم لها؛ لأن الانتفاع بها يختلف بحسب الموضع . فالهجن والبراذين تصلح للمواضع المتوعّرة كالشعاب والجبال ، والعِتاق تصلح للمواضع التى يتأتّى فيهـا الكر والفرّ ؛ فكان ذلك متعلقا برأى الإمام . والعتاق : خيل العرب ، والهِجن والبراذين : خيل الروم .

السابعة عشرة — واختلف علمـاؤنا فى الفرس الضعيف ؛ فقال أشهب وآبن نافـع : لا يُسْهم له ؛ لأنه لا يمكن القتال عليه فأشـبه الكسير . وقيل : يسهم له لأنه يرجى برؤه . ولا يسهم للأعجف إذا كان فى حيّز مالا يُنتفع به ، كما لا يسهم للكسير . فأمّا المريض مرضا خفيفا مثل الرَّهيص(١)، وما يجرى مجراه ممـا لا يمنعه المرض عن حصول المنفعة المقصودة منه فإنه يسهم له . و يعطى الفرس المستعار والمستأجَر ، وكذلك المغصوب ، وسهمه لصاحبه . و يستحق السهم للخيل و إن كانت فى السفن ووقعت الغنيمة فى البحر ؛ لأنهـا معدّة للنزول إلى الـــبر .

الثامنة عشرة — لا حق فى الغنـائم لِلحُشْوة(٢) كالأجراء والصناع الذين يصحبون الجيش للعاش ؛ لأنهم لم يقصِدوا قتالا ولا خرجوا مجاهدين . وقيـل : يُسهم لهم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الغنيمة لمن شهد الوقعة" . أخرجه البخاريّ . وهذا لا حجة فيه لإنه جاء بيانا

(١) الرهيص : الذى أصابته الرهصة ، وهى وقرة تصيب باطن حافر الفرس .

(٢) الحشوة (بضم الحاء وكسرها) : رذالة الناس .

لمن باشر الحرب وخرج إليه، وكفى ببيان الله عز وجل المقاتلين وأهل المعاش من المسلمين حيث جعلهم فرقتين متميزتين ، لكل واحدة حالها فى حكمها، فقال : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »(١). إلا أن هؤلاء إذا قاتلوا لا يضرهم كونهم على معاشهم؛ لأن سبب الاستحقاق قد وُجد منهم. وقال أشهب : لا يستحق أحد منهم و إن قاتل، و به قال ابن القصّار فى الأجير : لا يسهم له و إن قاتل . وهذا يردّه حديث سلمة بن الأكوع قال : "كنت تَبِيعا لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه وأحُسُّه(٢) وأخدمه وآكل من طعامه، الحديث . وفيه : ثم أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين ، سهمَ الفارس وسهمَ الراجل ، فجمعهما لى . خرّجه مسلم . واحتج ابن القصار ومن قال بقوله بحديث عبد الرحمن بن عوف، ذكره عبد الرزاق ؛ وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : " هذه الثلاثة الدنانير حظه ونصيبه من غزوته فى أمر دنياه وآخرته " .

التاسعة عشرة — فأما العبيد والنساء فمذهب الكتاب أنه لا يُسْهم لهم ولا يُرْضَخ(٣) . وقيل يرضخ لهم؛ وبه قال جمهور العلماء . وقال الأوزاعىّ : إن قاتلت المرأة أُسهم لها . وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للنساء يوم خَيْبر . قال : وأخذ المسلمون بذلك عندنا . و إلى هذا القول مال ابن حبيب من أصحابنا. خرّج مسلم عن ابن عباس أنه كان فى كتابه إلى نَجْدة(٤) : تسألنى هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهن فيُداوِين الجرحى ويُحْذَيْن(٥) من الغنيمة ، وأما بسهم فلم يَضرب لهن . وأما الصبيان فإن كان مطيقا للقتال ففيه عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونَفْيه حتى يبلغ؛ لحديث ابن عمر ، وبه قال أبو حنيفة والشافعى . والتفرقة بين أن يقاتل فيُسهم له أو لا يقاتل فلا يسهم له . والصحيح

---

(١) آخر سورة المزمل .
(٢) أحسه : أزيل التراب عنه بالمحسة .
(٣) الرضخ : العطاء ليس بالكثير .
(٤) هو نجدة بن عامر الحنفى ؛ كان من رؤساء الخوارج .
(٥) يحذين : يعطين الحذوة (بكسر الحاء وضمها) وهى العطية .

الأوّل؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة أن يقتل منهم من أنبت ويُخَلّى منهم من لم ينبت . وهذه مراعاة لإطاقة القتال لا للبلوغ . وقد روى أبو عمر فى الاستيعاب عن سَمُرة بن جُنْدُب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرض عليه الغلمان من الأنصار فيلحق من أدرك منهم؛ فعُرضت عليه عامًا فألحق غلاما وردّنى؛ فقلت : يارسول الله، ألحقتَه ورددتنى، ولو صارعنى صرعته . قال : فصارعنى فصرعته فألحقنى . وأما العبيد فلا يُسْهم لهم أيضا ويُرْضَخ لهم .

الموفية عشرين — الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل ففى الإسهام له عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونفيه؛ وبه قال مالك وآبن القاسم . زاد آبن حبيب : ولا نصيب لهم . ويفرق فى الثالث — وهو لسُحْنون — بين أن يستقل المسلمون بأنفسهم فلا يُسهم له، أو لا يستقلوا ويفتقروا إلى معونته فيسهم له . فان لم يقاتل فلا يستحق شيئا . وكذلك العبيد مع الأحرار . وقال الثَّوْرِىّ والأوزاعىّ : إذا آستُعين بأهل الذمة أسهم لهم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يسهم لهم، ولكن يُرضخ لهم . وقال الشافعىّ رضى الله عنه : يستأجرهم الإمام من مال لا مالك له بعينه . فان لم يفعل أعطاهم سهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال فى موضع آخر : يُرضخ للشركين إذا قاتلوا مع المسلمين . قال أبو عمر : اتفق الجميع أن العبد، وهو ممن يجوز أمانه، إذا قاتل لم يسهم له ولكن يرضخ؛ فالكافر بذلك أولى ألّا يسهم له .

الحادية والعشرون — لو خرج العبد وأهل الذمة لصوصا وأخذوا مال أهل الحرب فهو لهم ولا يخمس؛ لأنه لم يدخل فى عموم قوله عزّ وجلّ : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمتم من شىء » أحد منهم ولا من النساء . فأما الكفار فلا مدخل لهم من غير خلاف . وقال سُحنون . لا يخمس ما ينوب العبد . وقال آبن القاسم : يخمس ؛ لأنه يجوز أن يأذن له سيّده فى القتال ويقاتل على الدّين؛ بخلاف الكافر . وقال أشهب فى كتاب محمد : إذا خرج العبد والذمىّ من الجيش وغنما فالغنيمة للجيش دونهم .

الثانية والعشرون — سبب استحقاق السهم شهود الوقعة لنصر المسلمين، على ما تقدم. فلو شهد آخر الوقعة آستحق. ولو حضر بعد آنقضاء القتال فلا. ولو غاب بانهزام فكذلك. فان كان قصد التحيز إلى فئة فلا يسقط استحقاقه. روى البخاريّ وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبان بن سعيد على سَرِيّة من المدينة قِبل نَجْد؛ فقدم أبان بن سعيد وأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر بعد أن فتحها، و إنّ حُزُم خيلهم لِيف، فقال أبان: أقسم لنا يا رسول الله. قال أبو هريرة: لا تَقسم لهم يا رسول الله. فقال أبان: أنت بها يا وَبْرُ[(1)] تَحَدّر علينا من رأس ضَالٍ[(1)]. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجلس يا أبان" ولم يقسم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الثالثة والعشرون — واختلف العلماء فيمن خرج لشهود الوقعة فمنعه العذر منه كمرض؛ ففى ثبوت الإسهام له ونفيه ثلاثة أقوال: يفرق فى الثالث، وهو المشهور، فيثبته إن كان الضلال قبل القتال و بعد الإدراب[(2)]، وهو الأصح؛ قاله آبن العربيّ. وينفيه إن كان قبله. وكمن بعثه الأمير من الجيش فى أمر من مصلحة الجيش فشغله ذلك عن شهود الوقعة فانه يسهم له؛ قاله آبن المَوّاز، ورواه آبن وهب وآبن نافع عن مالك. وروى لا يسهم له بل يُرْضَخ له لعدم السبب الذى يستحق به السّهم، والله أعلم. وقال أشهب: يُسْهم للأسير و إن كان فى الحديد. والصحيح أنه لا يُسهم له؛ لأنه ملك مستحَقّ بالقتال؛ فمن غاب أو حضر مريضا كمن لم يحضر.

الرابعة والعشرون — الغائب المطلق لا يُسْهم له، ولم يُسهِم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغائب قطّ إلا يوم خيبر؛ فانه أسهم لأهل الحُدَيْبِية من حضر منهم ومن غاب؛ لقول الله عز وجل: «وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا»[(3)]؛ قاله موسى بن عقبة. ورُوى ذلك عن جماعة من السلف. وقسم يوم بدر لعثمان ولسعيد بن زيد وطلحة، وكانوا غائبين؛ فهم كمن

---

(1) الوبر: دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء حسنة العينين شديدة الحياء. والضال: شجر السدر من شجر الشوك. (2) أدرب القوم: إذا دخلوا أرض العدو. (3) آية ٢٠ سورة الفتح.

حضرها إن شاء الله تعالى . فأما عثمان فإنه تخلّف على رُقَية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره من أجل مرضها . فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره؛ فكان كمن شهدها . وأما طلحة بن عبيد الله فكان بالشام فى تجارة فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره؛ فيعدّ كذلك فى أهل بدر . وأما سعيد بن زيد فكان غائبا بالشام أيضا فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره . فهو معدود فى البدريّين . قال آبن العربىّ : أما أهل الحديبية فكان ميعادا من الله آختص به أولئك النفر فلا يشاركهم فيه غيرهم . وأما عثمان وسعيد وطلحة فيحتمل أن يكون أسهم لهم من الخمس؛ لأن الأمة مجمعة على أن من بقى لعذر فلا يُسهم له .

قلت : الظاهر أن ذلك مخصوص بعثمان وطلحة وسعيد فلا يقاس عليهم غيرهم . وأن سهمهم كان من صلب الغنيمة كسائر من حضرها لا من الخمس . هذا الظاهر من الأحاديث والله أعلم . وقد روى البخارىّ عن آبن عمر قال : لما تغيّب عثمان عن بدر فانه كان تحته آبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه" .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ قال الزجاج عن فرقة : المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم؛ فـ « إنْ » متعلقة بهذا الوعد . وقالت فرقة : إنّ « إنْ » متعلقة بقوله « وآعلموا أنما غنمتم » . قال آبن عطية : وهذا هو الصحيح؛ لأن قوله « وآعلموا » يتضمّن الأمر بالآنقياد والتسليم لأمر الله فى الغنائم؛ فعلّق « إنْ » بقوله « وآعلموا » على هذا المعنى؛ أى إن كنتم مؤمنين بالله فآنقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ « ما » فى موضع خفض عطف على آسم الله . ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أى اليوم الذى فرقت فيه بين الحق والباطل، وهو يوم بدر . ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ حزب الله وحزب الشيطان . ﴿ واللهُ على كل شىء قدير ﴾ .

قوله تعالى : إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ أى أنزلنا إذ أنتم على هذه الصفة . أو يكون المعنى : واذكروا إذ أنتم . والعُدْوة : جانب الوادى . وقرئ بضم العين وكسرها؛ فعلى الضم يكون الجمع عُدًى، وعلى الكسر عِدًى، مثل لحية ولحى، وفرية وفرى . والدنيا : تأنيث الأدنى . والقصوى : تأنيث الأقصى . من دنا يدنو، وقَصا يقصو . ويقال : القصيا، والأصل الواو، وهى لغة أهل الحجاز قصوى . فالدّنيا كانت مما يلى المدينة، والقصوى مما يلى مكة . أى إذ أنتم نزول بشفير الوادى بالجانب الأدنى إلى المدينة، وعدوّكم بالجانب الأقصى . ﴿ والرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ يعنى ركب أبى سفيان وغيره . كانوا فى موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتعة . وقيل : هى الإبل التى كانت تحمل أمتعتهم، وكانت فى موضع يأمنون عليها توفيقا من الله عز وجل لهم، فذكّرهم نعمه عليهم . « الركب » ابتداء « أسفل منكم » ظرف فى موضع الخبر . أى مكانا أسفل منكم . وأجاز الأخفش والكسائى والفراء « والركبُ أسفلُ منكم » أى أشد تسفلا منكم . والركب جمع راكب . ولا تقول العرب : رَكْب إلا للجماعة الراكبى الإبل . وحكى ٱبن السِّكِّيت وأكثر أهل اللغة أنه لا يقال : راكب وركب إلا للذى على الإبل، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب . والرَّكْب والأَرْكُب والرُّكبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال؛ عن ٱبن فارس . ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ ﴾ أى لم يكن يقع الاتفاق لكثرتهم وقلتكم؛ فإنكم لو عرفتم كثرتهم لتأخرتم . فوفق الله عز وجل لكم . ﴿ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ من نصر المؤمنين وإظهار الدِّين . واللام فى «ليقضى» متعلقة بمحذوف . والمعنى : جمعهم ليقضى،

ثم كررها فقال : ﴿ لِيَهْلِكَ ﴾ أى جمعهم هنالك ليقضى أمرا . ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ﴾ « مَن » فى موضع رفع . « ويَحْيا » فى موضع نصب عطف على ليهلك . والبينة إقامة الحجة والبرهان . أى ليموت من يموت عن بينة رآها وعبرة عاينها، فقامت عليه الحجة . وكذلك حياة من يحيا . وقال ابن إسحاق : ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت عذره، ويؤمن من آمن على ذلك . وقرئ « من حيي » بيائين على الأصل . وبيـاء واحدة مشدّدة ، الأولى قراءة أهل المدينة والبَزّى وأبى بكر . والثانية قراءة الباقين، وهى اختيار أبى عبيد ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف .

قوله تعـالى : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

قال مجاهـد : رآهم النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى منامه قليلا، فقص ذلك على أصحابه؛ فثبّتهم الله بذلك . وقيل : عنى بالمنام محل النوم وهو العين؛ أى فى موضع منامك، فحذف؛ عن الحسن . قال الزجاج : وهذا مذهب حسن ، ولكن الأولى أسْـوَغ فى العربية ؛ لأنه قد جاء « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ » فدلّ بهـذا على أن هـذه رؤية الالتقاء ، وأن تلك رؤية النوم . ومعنى ﴿ لَفَشِلْتُمْ ﴾ لجبُنتم عن الحـرب . ﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾ اختلفتم . ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ ﴾ أى سلّمكم من المخالفة . ابن عباس : من الفشل . ويحتمل منهما . وقيل : سلم أى أتم أمر المسلمين بالظفر .

قوله تعـالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ هذا فى اليقظة . ويجوز حمل الأولى على اليقظة أيضا إذا قلت : المنام موضع النوم، وهو العين؛ فتكون الأولى على هـذا خاصّة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذه للجميع . قال ابن مسعود : قلت لإنسان كان بجانبى

يوم بدر : أتراهم سبعين؟ فقال : هم نحو المائة . فأسرنا رجلا فقلنا : كم كنتم؟ فقال : كنا ألفا . ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ كان هذا فى ابتداء القتال حتى قال أبو جهل فى ذلك اليوم : إنما هم أَكْلة جَزُور[١]، خذوهم أخذا واربطوهم بالحبال. فلما أخذوا فى القتال عظم المسلمون فى أعينهم فكثروا؛ كما قال : « يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ » حسب ما تقدم فى « آل عمران »[٢] بيانه . ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ تكرر هذا؛ لأن المعنى فى الأول من اللقاء، وفى الثانى من قتل المشركين وإعزاز الدين ، وهو إتمام النعمة على المسلمين . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى مصيرها ومردّها اليه .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ أى جماعة ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما فى الآية قبلها النهىُ عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهى على سواء . وهذا تأكيد على الوقوف للعدوّ والتجلد له .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ للعلماء فى هذا الذكر ثلاثة أقوال : الأوّل — آذكروا الله عند جزع قلوبكم؛ فإن ذكره يُعين على الثبات فى الشدائد . الثانى — اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم؛ فإن القلب لايسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان؛ فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين ، ويثبت اللسان على الذكر ، ويقول ما قاله أصحاب طالوت : «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»[٣] . وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، وآتقاد البصيرة، وهى الشجاعة المحمودة فى الناس . الثالث — اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم فى ابتياعه أنفسكم ومُثامنته لكم .

---

(١) أى هم قليل، يشبعهم لحم ناقة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ٢٥٠ سورة البقرة .

قلت : والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان . قال محمد بن كعب القُرَظِيّ : لو رُخّص لأحد فى ترك الذكر لرُخّص لزكريا؛ يقول الله عز وجل: «أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا»(١) . ولَرُخّص للرجل يكون فى الحرب؛ يقول الله عز وجل : «إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا» . وقال قتادة : افترض الله جل وعز ذكره على عباده، أشغل ما يكونون عند الضّراب بالسيوف . وحكم هذا الذكر أن يكون خفيا ؛ لأن رفع الصوت فى مواطن القتال ردىء مكروه إذا كان الذاكر(٢) واحدا . فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن؛ لأنه يَفُتّ فى أعضاد العدوّ . وروى أبو داود عن قيس بن عُباد قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند القتال . وروى أبو بُرْدة عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثلَ ذلك . وقال ابن عباس : يكره التلثّم عند القتال . قال ابن عطية : وبهذا والله أعلم تيمّن(٣) المرابطون بطَرْحه عند القتال على صيانتهم به .

قوله تعالى : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ هذا استمرار على الوصية لهم، والأخذ على أيديهم فى اختلافهم فى أمر بَدْر وتنازعهم . ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ نصب بالفاء فى جواب النهى . ولا يُجيز سيبويه حذف الفاء والجزم . وأجازه الكسائيّ . وقرئ «تَفْشِلوا» بكسر الشين . وهو غير معروف . ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى قوتكم ونصركم ؛ كما تقول : الريح لفلان ، إذا كان غالبا فى الأمر . قال الشاعر :

إذا هبّت رياحك فاغتنمها * فإن لكل خافقة سكونُ(٤)

(١) آية ٤١ سورة آل عمران . (٢) اضطربت الأصول فى هذه الجملة؛ ففى بعضها : «... اذا كان العايط واحدا ...» وفى البعض الآخر : «... اذا كان الفاظا فأما ...» . (٣) فى الأصول : «استن» . والتصويب عن تفسير ابن عطية . والظاهر أنه يريد أن المرابطين آثروا التبرك بطرح التلثم عملا بما ورد عن ابن عباس على الصيانة به .
(٤) القافية مرفوعة، واسم «إنّ» هاهنا ضمير الشان . وقوله «لكل خافقة سكون» خبرها . ومن هذه القصيدة :
ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدرى السكون متى يكون

وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن نصر قط إلا بريح تهبُّ فتضرب في وجوه الكفار . ومنه قوله عليه السلام : "نُصرتُ بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور"(١) . قال الحكم : « وتذهب ريحكم » يعني الصَّبا ؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأمّتُه . وقال مجاهد : وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحد .

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصّة موطن الحرب؛ كما قال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا » .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنُصرة العير . خرجوا بالقِيان(٢) والمغنيات والمعازف؛ فلما وردوا الجُحفة بعث خُفاف الكناني — وكان صديقا لأبي جهل — بهدايا إليه مع آبن له ، وقال : إن شئت أمددتك بالرجال ، وإن شئت أمددتك بنفسي مع من خفّ من قومي . فقال أبو جهل : إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة. وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوّة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِد بدرا فنشربَ فيها الخمور، وتعزف علينا القِيان ؛ فإن بدرا موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد . فوَرَدُوا بدرا، وجرى ما جرى من هلاكهم . والبَطَر في اللغة : التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من العافية على المعاصي . وهو مصدر في موضع الحال . أي خرجوا بَطِرين مُراءين صادّين . وصدُّهم إضلالُ الناس .

(١) الصبا (بالفتح) : الريح الشرقية . والدّبور : الريح الغربية .

(٢) القيان : جمع قينة، وهي الأَمَة مغنية كانت أو غير مغنية .

قوله تعالى : وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

روى أن الشيطان تمثّل لهم يومئذ فى صورة سُراقة بن مالك بن جُعْشم ، وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم ؛ لأنهم قتلوا رجلا منهم . فلما تمثّل لهم قال ما أخبر الله به عنه . وقال الضحاك : جاءهم إبليس يوم بدر برايتـه وجنوده ، وألقى فى قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم . وعن ابن عباس قال : أمدّ الله نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ؛ فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة[1] ، وميكائيل فى خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة . وجاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مُدْلِج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جُعْشم . فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ؛ فلمـا اصطفّ القوم قال أبو جهل : اللّهُـمّ أَوْلانا بالحق فانصره . ورفع رسـول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : " يارَبّ إنك إن تُهلك هـذه العصابةُ فلن تُعبد فى الأرض أبدا " . فقال جبريل : " خذ قبضة من التراب " فأخذ قبضة من التراب فرمى بهـا وجوههم ؛ فمـا من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه . فولّوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه كانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبرا وشيعَته ؛ فقال له الرجل : يا سُراقة ، ألم تزعم أنك لنا جارٌ ؛ قال : انى برىء منكم إنى أرى مالا ترون ذكره البيهقى وغيره . وفى مُوَطّأ مالك عن إبراهيم بن أبى عَبْلة عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز أن رسول الله صلى الله

(١) مجنبة الجيش : هى التى تكون فى الميمنة والميسرة ؛ وهما مجنبتان والنون مكسورة . وقيل : هى الكتيبة التى تأخذ إحدى ناحيتى الطريق .

عليه وسـلم قال : " ما رأى الشيطان نفسه يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منـه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لمـا رأى من تنزّل الرحمة وتجـاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر ". قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال : " أمَا إنه رأى جبريل يزع الملائكة (١) " . ومعنى نكص : رجع بلغة سليم؛ عن مؤرِّج (٢) وغيره . وقال الشاعر :

ليس النكوص على الأدبار مكرمة * إن المكارم إقـدام على الأَسَـل (٣)

وقال آخـــر :

وما ينـفع المستأخرين نكوصُهم * ولا ضرّ أهل السابقات التقدم

وليس هاهنا قهقرى بل هو فرار؛ كما قال : " اذا سَمِـع الأذانَ أدبر وله ضراط " . ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ قيل : خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذى أُنظِر اليه . وقيـل : كذب إبليس فى قوله « إنى أخاف الله » ولكن علم أنه لا قوة له . ويجمع جار على أجوار وجيران، وفى القليل جِيرة .

قوله تعـالى : إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

قيل : المنافقون : الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر . والذين فى قلوبهم مرض : الشاكّون، وهم دون المنافقين؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نية . قالوا عند الخروج إلى القتال وعنـد التقاء الصفّين : غَرّ هؤلاء دينهم . وقيل همـا واحد؛ وهو أَوْلى . ألاَ ترى إلى قوله عز وجل : « الَّذِينَ يُؤْمِنُون بِالْغَيْبِ » ثم قال « والَّذِينَ يُؤْمِنُون بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ (٤) » وهما لواحد .

---

(١) يزع الملائكة : أى يرتبهم ويسوّيهم ويصفهم للحرب .

(٢) هو مؤرج بن عمرو السدوسى يكنى أبا فيد، مات سنة ١٩٥ هـ . (٣) الأسل : الرماح والنبل .

(٤) آية ٣ سورة البقرة .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

قيـــل : أراد من بقِي ولم يُقتل يوم بدر . وقيل : هي فيمن قُتل ببدر . وجواب «لو» محـذوف ، تقديره : لرأيت أمرا عظيما . ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ في موضع الحـال . ﴿ وُجُوهَهُـمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أي أسـتاههم ، كنى عنها بالأدبار ؛ قاله مجاهد وسـعيد بن جُبير . الحسـن : ظهورهم ، وقال : إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشِّراك[1] ؟ قال : " ذلك ضرب الملائكة " . وقيل : هذا الضرب يكون عند الموت . وقد يكون يوم القيامة حين يصيرون بهـم الى النار . ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ قال الفرّاء : المعنى ويقولون ذوقوا ؛ فحذف . وقال الحسن : هذا يوم القيامة ، تقول لهم خزنة جهنم : ذوقوا عذاب الحريق . ورُوى أن في بعض التفاسير أنه كان مع الملائكة مقامـعُ من حديد ، كلما ضربوا التهبت النار في الجراحات ؛ فذلك قوله : « وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » . والذوق يكون محسوسا ومعنًى . وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ؛ تقول : اركب هـذا الفرس فذقه . وانظر فلانا فذق ما عنده . قال الشمّاخ يصف فرسا :

فذاق فأعطتْه من اللين جانبـا ❊ كفَى ولهـا أن يغرق السهم حاجزُ

وأصله من الذّوق بالفم . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في موضع رفع ؛ أي الأمر ذلك . أو « ذلك » جزاؤكم . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي اكتسبتم من الآثام . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ إذ قد أوضح السبيل وبعث الرسـل ، فلم خالفتم ؟ . « وأنّ » في موضـع خفض عطف على « ما » وإن شئت نصبت ، بمعنى وبأنّ ، وحذفت الباء . أو بمعنى : وذلك أن الله . ويجوز أن يكون في موضع رفع نسقا على ذلك .

---

(١) الشراك : سير النعل .

قوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٥٢)

الدأب العادة . وقد تقدّم فى «آل عمران» (١) . أى العادة فى تعذيبهم عند قبض الأرواح وفى القبور كعادة آل فرعون . وقيل : المعنى جُوزى هؤلاء بالقتل والسبى كما جُوزى آل فرعون بالغرق . أى دأبهم كدأب آل فرعون .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٣)

تعليل . أى هذا العقاب؛ لأنهم غيّروا و بدّلوا، ونعمة الله على قريش الخصب والسّعة، والأمن والعافية . « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » (٢) الآية . وقال السدّى : نعمة الله عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به ، فنُقل إلى المدينة وحلّ بالمشركين العقاب .

قوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾ (٥٤)

ليس هذا بتكرير؛ لأن الأوّل للعادة فى التكذيب ، والثانى للعادة فى التغيير ، و باقى الآية بيّن .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٦)

---

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) آية ٦٤ سورة العنكبوت .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى من يَدِبّ على وجه الأرض فى علم الله وحكمه . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ نظيره «الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ»[1] . ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أى لا يخافون الانتقام . « ومن » فى قوله « منهـم » للتبعيض؛ لأن العهد إنمـا كان يجرى مع أشرافهم ثم ينقضونه . والمعنيُّ بهـم قُريظة والنضير؛ فى قول مجاهد وغيره . نقضوا العهـد فأعانوا مشركى مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : نسينا؛ فعاهدهم عليه السلام ثانيـة فنقضوا يوم الخنـــدق .

قوله تعـالى : فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

شرطٌ وجوابه . ودخلت النون توكيدا لمّـا دخلت ما ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : تدخل النون الثقيلة والخفيفة مع « إمّا » فى المجازاة للفرق بين المجازاة والتخيير . ومعنى « تثقفنّهم » تأسِرهم وتجعلهـم فى ثِقاف ، أو تلقاهم بحال ضعف ، تقدر عليهم فيهـا وتغلبهم .وهذا لازم من اللفظ؛ لقوله «فى الحرب» . وقال بعض الناس : تصادفنهم وتلقاهم . يقـال : ثقِفته أثقفه ثَقْفا، أى وجدته . وفلان ثَقِف لَقِف أى سريع الوجود لمـا يحاوله ويطلبه . وثَقْف لَقْف . وٱمرأة ثَقَاف . والقول الأوّل أوْلى؛ لارتبـاطه بالآية كما بينا . والمصادف قد يغلب فيمكن التشريد به، وقد لا يغلب . والثقاف فى اللغة : ما يُشدّ به القناة ونحوها . ومنه قول النابغة :

تدعو قُعَينا وقد عَضَّ الحديد بها * عَضّ الثِّقـاف على صُمّ الأنابيب[2]

﴿ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جُبير : المعنى أنذر بهم مَن خلفهم . قال أبو عبيد : هى لغة قريش ، شرّد بهم سمِّع بهم . وقال الضحاك : نَكِّل بهم . الزجاج : ٱفعل بهم فعلا

---

(١) آية ٢٢ من هذه السورة . (٢) القعن (بالتحريك) : قصر فى الأنف فاحش . وقعين : حى مشتق منه ؛ وهما قعينان : قعين فى بنى أسد وقعين فى قيس عيلان . والأنابيب : جمع أنبوبة ، وهى كعب القصبة والرمح .

من القتل تفرق به من خلفهم . والتشريد فى اللغة : التبديد والتفريق؛ يقال : شرّدت بنى فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . وكذلك الواحد، تقول : تركته شريدا عن وطنه وأهله . قال الشاعر من هُذيل :

أُطَوِّف فى الأباطح كل يوم * مخافةَ أن يشرد بى حكيم

ومنه شرد البعير والدابة إذا فارق صاحبه . و «مَن» بمعنى الذى ،قاله الكسائىّ . وروى عن آبن مسعود «فشرذ» بالذال المعجمة، وهما لغتان . وقال قُطْرُب : التشريذ (بالذال المعجمة) التنكيل . وبالدال المهملة التفريق؛ حكاه الثعلبىّ . وقال المَهْدوىّ : الذال لا وجه لها ، إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما، ولا يعرف فى اللغة « فشرذ » . وقرئ « مِن خلفهم » بكسر الميم والفاء . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتذكرون بوعدك إياهم . وقيل : هذا يرجع إلى من خلفهم، مَن عمل بمثل عملهم .

قوله تعالى : وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أى غِشًّا ونقضا للعهد . ﴿ فَٱنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ وهذه الاية نزلت فى بنى قُريظة و بنى النَّضير . وحكاه الطبرى عن مجاهد . قال آبن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله « فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ » ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية بأمره فيما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة؛ فترتب فيهم هذه الآية . [و بنو قريظة لم يكونوا فى حدّ من تخاف خيانته]، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة [مشهورة][1] .

الثانيـة — قال آبن العربىّ : فإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظنّ لا يقين معه، فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة . فالجواب من وجهين : أحدهما — أن الخوف قد يأتى بمعنى اليقين، كما قد يأتى الرجاء بمعنى العلم؛ قال الله تعالى :

(١) التكملة عن تفسير ابن عطية .

« مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » (١) . الثانى — إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها، وجب نبذ العهد لئلا يوقع التمادى عليه فى الهلكة، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة . وأما إذا عُلم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد اليهم، وقد سار النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عام الفتح؛ لما اشتهر منهم نقض العهد من غير أن ينبِذ إليهم عهدهم . والنبذ : الرمى والرفض . وقال الأزهرى : معناه إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالعهد فلا تُوقع بهم سابقا إلى النقض حتى تلق اليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ؛ فيكونوا فى علم النقض مستويين ، ثم أوقع بهم . قال النحاس : هذا من معجز ما جاء فى القرآن مما لا يوجد فى الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه . والمعنى : وإما تخافنّ من قوم بينك وبينهم عهدٌ خيانةً فآنبذ إليهم العهد، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم ، وأنا مقاتلكم؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك؛ فيكون ذلك خيانة وغدرا . ثم بيّن هذا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

قلت : ما ذكره الأزهرىّ والنحاس من إنباذ العهد مع العلم بنقضه يردّه فعل النبىّ صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة ؛ فانهم لما نقضوا لم يوجّه اليهم بل قال : " اللّهمّ اقطع خبرنا عنهم " وغزاهم . وهو أيضا معنى الآية؛ لأن فى قطع العهد منهم ونكثه مع العلم به حصول نقض عهدهم والآستواء معهم . فأما مع غير العلم بنقض العهد منهم فلا يحل ولا يجوز . روى الترمذىّ وأبو داود عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية والروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرُب حتى إذا انقضى العهد غزاهم ؛ فجاءه رجل على فرس أو بِرذون وهو يقول : الله أكبر، الله أكبر، [وفاء لا غدر] (٢)؛ فنظروا فإذا هو عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلّها حتى ينقضى أمدُها أو ينبِذ اليهم على سواء " فرجع معاوية بالناس . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . والسواء : المساواة والاعتدال .

(١) آية ١٣ سورة نوح . (٢) زيادة عن سنن الترمذى وأبى داود .

وقال الراجز :

فاضرب وجوه الغُدَر الأعداء * حتى يجيبوك إلى السواء

وقال الكسائيّ : السواء العَدل . وقد يكون بمعنى الوسط؛ ومنه قوله تعالى : « فِي سَوَاءِ الجَحِيمِ »(١) . ومنه قول حسان :

يا وَيْحَ أصحابِ النبيّ ورهطِه * بعد المغيَّبِ في سواء المُلْحَدِ

الفَرّاء : ويقال « فَٱنبِذ إليهم على سواء » جهرًا لا سِرًّا .

الثالثة — روى مسلم عن أبي سعيد الخُدرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يُرفع له بقدر غدْره، ألَا ولا غادرَ أعظم غدرا من أمير عامّة " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره لما في ذلك من المفسدة؛ فإنهم إذا غدَروا وعُلم ذلك منهم ولم ينبِذوا بالعهد لم يأمنهم العدوّ على عهد ولا صلح ، فتشتد شوكته ويعظم ضرره ، ويكون ذلك منفِّرًا عن الدخول في الدِّين، وموجبا لذمّ أئمة المسلمين . فأما إذا لم يكن للعدوّ عهد فينبغي أن يتحيّل عليه بكل حيلة، وتدار عليه كل خديعة . وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : " الحرب خَدعة " . وقد ٱختلف العلماء هل يجاهَد مع الإمام الغادر؛ على قولين . فذهب أكثرهم أنه لا يقاتل معه، بخلاف الخائن والفاسق . وذهب بعضهم إلى الجهاد معه . والقولان في مذهبنا .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أي من أفلت من وقعة بدر سبق إلى الحياة . ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أي في الدنيا حتى يظفرك الله بهم . وقيل : يعني في الآخرة . وهو قول الحسن . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة « يحسبن » بالياء . والباقون بالتاء، على أن يكون في الفعل ضمير الفاعل . و﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مفعول أوّل . و﴿ سَبَقُوا ﴾ مفعول ثان . وأما قراءة الياء فزعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم

(١) آية ٥٥ سورة الصافات .

أن هذا لحن لا تحل القراءة به ، ولا تسع لمن عَرَف الإعراب أو عُرِّفه . قال أبو حاتم : لأنه لم يأت لـ « يحسبن » بمفعول وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهـذا تحامل شديد ، والقراءة تجوز ويكون المعنى : ولا يحسبن مَن خلفهم الذين كفروا سبقوا ؛ فيكون الضمير يعود على ما تقدّم ، إلا أن القراءة بالتـاء أبين . المَهْدِوِىّ : ومن قرأ بالياء احتمل أن يكون فى الفعل ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويكون « الذين كفروا سبقوا » المفعولين . ويجوز أن يكون « الذين كفروا » فاعلا ، والمفعول الأوّل محذوف؛ المعنى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . مَكِّىّ : ويجوز أن يضمر مع سبقوا أن ؛ فيسد مسد المفعولين والتقدير : ولا يحسـبن الذين كفروا أن سبقوا ؛ فهو مثل « أَحَسِبَ النَّـاسُ أَنْ يُتْرَكُوا »(1) فى سد أن مسـدّ المفعولين . وقرأ ابن عامر « أَنّهـم لا يُعجزون » بفتح الهمزة . واستبعد هذه القراءةَ أبو حاتم وأبو عُبيد . قال أبو عبيد : وإنما يجوز على أن يكون المعنى: ولاتحسبن الذين كفروا أنهم لا يعجزون . قال النحاس : الذى ذكره أبو عبيد لا يجوز عند النحويين البصريين ، [لا يجوز](2) حسبت زيدا أنه خارج ، إلا بكسر الألف، وإنما لم يجز لأنه فى موضع المبتدأ ؛ كما تقول : حسبت زيدا [أبوه خارج، ولو فتحت لصار المعنى حسبت زيدا](2) خروجَه . وهـذا محال ، وفيه أيضـا من البعد أنه لا وجه لـمـا قاله يصحّ به معنًى ؛ إلا أن يجعل « لا » زائدة ، ولا وجه لتوجيه حرف فى كتاب الله عز وجل الى التطوّل بغـير حجة يجب التسليم لها . والقراءة جيدة على أن يكون المعنى : لأنهم لايعجزون . مَكِّىّ : فالمعنى لا يحسبن الكفار أنفسهم فاتوا لأنهم لا يعجزون ، أى لا يفوتون . فـ « أنّ » فى موضـع نصب بحذف اللام ، أو فى موضع خفض على إعمال اللام لكثرة حذفها مع « أنّ » ، وهو يُروَى عن الخليل والكسائىّ . وقرأ الباقون بكسر « إن » على الآستئناف والقطع مما قبله ، وهو الاختيار ؛ لـمـا فيه من معنى التأكيد ، ولأن الجماعة عليه . ورُوِى عن ابن مُحَيْصن أنه قرأ « لا يعجزونِ » بالتشديد وكسر النون . النحاس : وهذا خطأ من وجهين : أحدهما —

(١) أول سورة العنكبوت .

(٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس يقتضيها السياق .

أن معنى عجّزه ضعّفه وضعّف أمره . والآخر — أنه كان يجب أن يكون بنونين . ومعنى أعجزه سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٦٠)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم ﴾ أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للاعداء بعد أن أكّد تقدمة التقوى . فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل فى وجوههم و بحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه أراد أن يبتلي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ . وكلما تعدّه لصديقك من خير أو لعدوّك من شر فهو داخل فى عدّتك . قال ابن عباس : القوّة هاهنا السلاح والقِسِيّ . وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : " وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة ألَا إن القوة الرمىُ ألَا إن القوة الرمىُ ألا إن القوة الرمى " . وهذا نصٌّ رواه عن عقبة أبو علىّ ثمامةُ بن شُفَىٍّ الهَمْدانىّ ، وليس له فى الصحيح غيره . وحديث آخر فى الرمى عن عقبة أيضا قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستفتح عليكم أرَضُون و يكفيكهم الله فلا يَعْجَزْ أحدكم أن يَلهُوَ بأسهمه " . وقال صلى الله عليه وسلم : " كلُّ شىء يَلْهُو به الرجل باطل إلا رَمْيَه بقوسه وتأديبَه فرسَه وملاعبتَه أهلَه فانه من الحق " . ومعنى هذا والله أعلم : أن كل ما يتلهى به الرجل مما لا يفيده فى العاجل ولا فى الآجل فائدةً فهو باطل ، والإعراض عنه أولى . وهذه الأمور الثلاثة فانه و إن كان يفعلها على أنه يتلهّى بها و يَنْشَط ، فإنها حق لاتصالها بما قد يفيد . فإن الرمى بالقوس وتأديب الفرس جميعا من تعاون القتال . وملاعبة

الأهل قد تؤدّى الى مايكون عنه ولد يوحّد الله و يعبده؛ فلهذا كانت هذه الثلاثة من الحق. وفى سنن أبى داود والترمذىّ والنّسائىّ عن عقبة بن عامر عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرامى ومُنْبِلَه" . وفضل الرمى عظيم ومنفعته عظيمة للسلمين، ونكايته شـديدة على الكافرين . قال صلى الله عليه وسلم : " يابنى إسماعيل آرْمُوا فإن أباكم كان راميا" . وتعلّم الفروسيّة وآستعمالُ الأسلحة فرض كفاية . وقد يتعيّن .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وقرأ الحسن وعمرو بن دِينار وأبو حَيْوَةَ « ومن رُبُط الخيل » بضم الراء والباء، جمع رباط؛ ككتاب وكتب . قال أبو حاتم عن آبن زيد : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها، وجماعته رُبُط . وهى التى ترتبط؛ يقال منه : رَبط يَرْبُط رَبْطا . وارتبط يرتبط آرتباطا . ومربط الخيل ومرابطها وهى ارتباطها بإزاء العدو . قال الشاعر :

أمر الإله بربطهـا لعـدوّه * فى الحرب إن الله خير موفِّق

وقال مكحول بن عبد الله :

تلوم على ربط الجياد وحبسها * وقد أوصى بها اللهُ النبىَّ محمدا

ورباط الخيل فضل عظيم ومنزلة شريفة . وكان لعُروة البارِقىّ سـبعون فرسا معدّة للجهاد . والمستحب منهـا الإناث؛ قاله عكرمة وجماعة . وهو صحيح؛ فان الأنثى بطنهـا كنز وظهرها عِزّ . وفرس جبريل كان أنثى . وروى الأئمـة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل ســتر ولرجل وِزر " الحديث . ولم يخص ذكرا من أنثى . وأجودها أعظمها أجرا وأكثرها نفعا . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أىّ الرقاب أفضـلُ ؟ فقال : " أغلاها ثمنـا وأنفسها عنـد أهلها " . وروى النّسائىّ عن أبى وهب الجُشَمِىّ — وكانت له صحبة — قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : " تسمّوا بأسماء الأنبياء وأحبُّ الأسماء الى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن وآرتبطوا الخيل

وآمسحوا بنواصيها وأكفالها وقلّدوها ولا تقلّدوها الأوتار(١) وعليكم بكل كُمَيت(٢) أغرّ مُحَجّل أو أشقر أغرّ محجل أو أدهم أغرّ محجّل ". وروى الترمذي عن أبي قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " خير الخيل الأدهمُ الأقرحُ(٣) الأرثم(٤) [ثم الأقرح المحجّل] طَلْق اليمين(٥) فإن لم يكن أدهم فكُمَيت على هذه الشِّيَة". ورواه الدارمي عن أبي قتادة أيضا، أن رجلا قال: يارسول الله، إني أريد أن أشترى فرسا، فأيّها أشترى؟ قال: "اشتر أدهمَ أرثم محجّلا طَلْق اليد اليمنى أو من الكُميت على هذه الشِّيَة تَغْنم وتسلم". وكان صلى الله عليه وسلم يكره الشِّكال من الخيل. والشكال: أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي يده اليسرى، أو في يده اليمنى ورجله اليسرى. خرّجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. ويذكر أن الفرس الذي قُتل عليه الحسين بن عليّ رضي الله عنهما كان أشكل.

الثالثة — فإن قيل: إن قوله « وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » كان يكفى؛ فلم خص الرّمى والخيل بالذكر؟ قيل له: إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها(٦) التي عُقِد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوّة وأشد العُدّة وحصون الفرسان، وبها يجال في الميدان، خصها بالذكر تشريفا، وأقسم بغبارها تكريما. فقال: « والعادياتِ ضَبْحًا » الآية. ولما كانت السّهام من أنجع ما يُتعاطى في الحروب والنِّكاية في العدو وأقربها تناولا للأرواح، خصّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لها والتنبيه عليها. ونظير هذا في التنزيل: « وجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ(٧) » ومثلُه كثير.

الرابعة — وقد آستدلّ بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح، واتخاذ الخزائن والخزان لها عُدّة للأعداء. وقد آختلف العلماء في جواز وقف الحيوان

---

(١) الأوتار: جمع وتر (بالكسر) وهو الدّم. والمعنى: لا تطلبوا عليها الأوتار والذحول التي وترتم بها في الجاهلية. وقيل: جمع وتَر القوس؛ فإنهم كانوا يعلقونها بأعناق الدواب لدفع العين. وهو من شعار الجاهلية؛ فكره ذلك.

(٢) كميت (بالتصغير): هو الذي لونه بين السواد والحمرة؛ يستوي فيه المذكر والمؤنث. والأغر: هو الذي في وجهه بياض. والمحجل: هو الذي في قوائمه بياض.

(٣) الأرثم: الذي أنفه أبيض وشفته العليا. (٤) الأقرح: هو ما كان في جبهته قرحة، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرّة. (٥) أي مطلقها ليس فيها تحجيل. (٦) أوزار الحرب: أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره. (٧) آية ٩٨ سورة البقرة.

كالخيــل والإبل على قولين : المنع ، وبه قال أبو حنيفة . والصحة ، وبه قال الشـافعي رضي الله عنــه . وهو أصحّ ، لهــذه الآية ، ولحديث ابن عمر في الفرس الذي حمل عليــه في سبيل الله . وقوله عليه السلام في حق خالد : "وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا فإنه قــد احتبس أدراعه وأعتاده[(١)] في سبيل الله" الحديث . وما رُوِي أن امرأة جعلت بعيرا في سبيل الله، فأراد زوجها الحج ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ادفعيه إليه ليحُجّ عليه فإن الحج من سبيل الله" . ولأنه مال يُنتفع به في وجه قُربة ؛ فجاز أن يوقف كالرِّباع . وقد ذكر السُّهيلي في هــذه الآية تسمية خيل النبي صلى الله عليه وسلم ، وآلة حربه . من أرادها وجدها في كتاب الأعلام[(٢)] .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ يعني تُخيفون به عدوّكم من اليهود وقريش وكفار العرب . ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ يعني فارس والروم ؛ قاله السُّــدّي . وقيل : الجنّ . وهو اختيار الطبري . وقيل : المراد بذلك كلُّ من لا تُعرف عداوته . قال السُّهيليّ : قيل هم قُريظة . وقيــل : هم من الجنّ . وقيــل غير ذلك . ولا ينبغي أن يقال فيهم شيء ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ » ؛ فكيف يدّعي أحد علما بهم ، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله في هذه الآية : "هم الجنّ" . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الشيطان لا يخبِّل أحدا في دار فيها فرس عتيق" وإنما سُمِّيَ عتيقا لأنه قد تخلّص من الهجانة . وهذا الحديث أسنده الحارث بن أبي أسامة عن ابن المُلَيْكي عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى : أن الجنّ لا تقرب دارا فيها فرس ، وأنها تنفر من صَهيل الخيل .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي تتصدّقوا . وقيل : تنفقوه على أنفسكم أو خيلكم . ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ في الآخرة ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ، إلى أضعاف كثيرة . ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ .

---

(١) الأعتاد : آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها . راجع الحديث وشرحه في صحيح مسلم ، كتاب الزكاة .

(٢) هو كتاب التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام . وهو كتاب مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٢ و ٤٣٩ تفسير .

قوله تعالى : وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ إنما قال « لها » لأن السلم مؤنثة . ويجوز أن يكون التأنيث للفعلة . والجنوح الميل . يقول : إن مالوا — يعني الذين نبذ إليهم عهدهم — إلى المسالمة ؛ أي الصلح ، فمِل إليها . وجنح الرجل إلى الآخر : مال إليه ؛ ومنه قيل للأضلاع جوانح ؛ لأنها مالت على الحِشوة[(١)]. وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير . وقال ذو الرُّمّة : —

إذا مات فوق الرَّحْل أحييتُ روحَه * بذكراك والعِيسُ المراسيل[(٢)] جُنَّحُ

وقال النابغة[(٣)] :

جوانحُ قد أيقنّ أن قَبِيله * إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالبِ

يعني الطير . وجنح الليل إذا أقبل وأمال أطنابه على الأرض . والسَّلم والسلام هو الصلح . وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن مُحَيْصِن والمفضّل « لِلسِّلْمِ » بكسر السين . الباقون بالفتح . وقد تقدّم معنى ذلك في « البقرة[(٤)] » مستوفًى . وقد يكون السلام من التسليم . وقرأ الجمهور «فاجنح» بفتح النون، وهي لغة تميم . وقرأ الأشهب العقيلي «فاجنُح» بضم النون، وهي لغة قيس . قال ابن جني : وهذه اللغة هي القياس .

الثانية — واختُلف في هذه الآية ، هل هي منسوخة أم لا . فقال قتادة وعكرمة : نسخها « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم[(٥)] » . « وقاتِلوا المشركين كافّةً[(٦)] » وقالا : نسخت براءة كلَّ موادعة ، حتى يقولوا لا إله إلا الله . ابن عباس : الناسخ لها «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى

(١) الحشوة (بالضم والكسر) : الأمعاء . (٢) العيس : الإبل البيض . والمراسيل : سهلة السير ، وهي التي تعطيك ما عندها عفوا . وجنح : مائلة صدورها الى الأرض . وقيل : مائلة في سيرها من النشاط .

(٣) في الأصول : « وقال عنترة » والتصويب عن كتاب البحر لأبي حيان وديوان النابغة .

(٤) راجع ج ٣ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية . (٥) آية ٥ سورة التوبة .

(٦) آية ٣٦ سورة التوبة .

السَّـلْمِ[1] » . وقيل : ليست بمنسوخة ، بل أراد قبول الجِزْية من أهل الجزية . وقـد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومَن بعده من الأئمة كثيرا من بلاد العجم ؛ على ما أخذوه منهـم ، وتركوهم على ما هم فيه ، وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالح رسول الله صـلى الله عليه وسلم كثيرا من أهل البلاد على مال يؤدونه ؛ من ذلك خَيْبر ، ردّ أهلَها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا و يؤدّوا النّصف . قال آبن إسحاق : قال مجاهد عنى بهذه الآية قريظة ؛ لأن الجزية تقبل منهم ، فأما المشركون فلا يقبل منهم شيء . وقال السدّى وابن زيد : معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم . ولا نسخ فيها . قال ابن العربى : وبهذا يختلف الجواب عنه ؛ وقد قال الله عز وجل : « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ[1] » . فإذا كان المسلمون على عِزة وقُوة ومنَعَة ، و جماعة عديدة ، وشدّة شديدة فلا صلح ؛ كما قال :

فلا صلح حتى تُطعن الخيل بالقنا * وتُضرب بالبِيض الرقاق الجماجم

و إن كان للسلمين مصلحة فى الصلح ، لنفعٍ يجتلبونه ، أو ضرر يدفعونه ، فلابأس أن يبتدئ المسلمون إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسـلم أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم . وقد صالح الضَّمْرِىَّ[2] وأُكَيْدِرَ دُومَة وأهلَ نجران ، وقد هادن قريشا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده . وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التى شرعناها سالكة ، وبالوجوه التى شرحنـاها عاملة . قال القُشـيرى : إذا كانت القوة للسلمين فينبغى ألّا تبلغ الهُدْنة سنة . وإذا كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين ، ولا تجوز الزيادة . وقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أهل مكة عشر سنين . قال آبن المنـذر : اختلف العلماء فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين أهل مكة عامَ الحُدَيْبِية ؛ فقال عروة : كانت أربع سنين . وقال آبن جُريج : كانت ثلاث سنين . وقال آبن إسحاق : كانت

---

(١) آية ٣٥ سـورة محمد . (٢) الضمرى : هو مخشى بن عمرو الضمرى ؛ من بنى ضمرة بن بكر . وكان هذا فى غزوة الأبواء . وأكيدر : هو أكيدر بن عبد الملك ، رجل من كندة . ودومة : هى دومة الجندل ، مدينـة قريبة من دمشق .

عشر سنين . وقال الشافعيّ رحمه الله : لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين ، على ما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ؛ فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهي منتقضة ، لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية . وقال آبن حبيب عن مالك رضي الله عنه : تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث ، وإلى غير مدة . قال المهلّب : إنما قاضاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه القضية التي ظاهرها الوهْن على المسلمين ؛ لسبب حبس الله ناقة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن مكة ، حين توجه إليها فبركت . وقال : "حبسها حابس الفيل" . على ما خرّجه البخاريّ من حديث المِسْوَر بن مَخْرمة . ودلّ على جواز صلح المشركين ومهادنتهم دون مال يؤخذ منهم ، إذا رأى ذلك الإمام وجهًا . ويجوز عند الحاجة للسلمين عقــد الصلح بمالٍ يبذلونه للعدوّ ، ولموادعة النبيّ صلى الله عليه وسلم عُيينة بن حِصْن الفَزَارِيّ ، والحارث بن عوف المُرّيّ(1) يوم الأحزاب ، على أن يعطيهما ثلث ثمر المدينة ، وينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشا ، ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة(2) ولم تكن عقدا . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضيا آستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ؛ فقالا : يا رسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ، أو أمر تصنعه لنا ؟ فقال : " بل أمر أصنعه لكم فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة " ؛ فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ؛ والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمِعوا قطُّ أن ينالوا منا ثمرة ، إلا شراء أو قِرًى ؛ فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهـدانا له وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السـيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فسُرّ بذلك رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وقال : " أنتم وذاك " . وقال لعُيينة والحارث : " انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف " . وتناول سعد الصحيفة ، وليس فيها شهادة فمحاها .

---

(1) في الأصول : « ... بن نوفل » والتصويب عن كتب السيرة .

(2) المراوضة : المداراة والمخاتلة .

قوله تعـالى : وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴾ أى بأن يُظهروا لك السلم ، ويُبطنوا الغدر والخيانة ، فاجنح وما عليك من نياتهم الفاسدة . ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ﴾ كافيك الله ؛ أى يتولّى كفايتك وحياطتك . قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبُكَ والضحّاكَ سيفٌ مُهَنَّدُ

أى كافيك وكافى الضحاك سيف .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ أى قوّاك بنصره . يريد يوم بدر . ﴿ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال النعمان بن بشير : نزلت فى الأنصار . ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى جمع بين قلوب الأَوْس والخَزْرج . وكان تألّف القلوب مع العَصبية الشّديدة فى العرب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ؛ لأن أحدهم كان يُلطَم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها . وكانوا أشدّ خلق الله حَمِيّة ، فألّف الله بالإيمان بينهم ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدِّين . وقيل : أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار . والمعنى متقارب .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

ليس هذا تكريرا ؛ فإنه قال فيما سبق : «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ» وهذه كفاية خاصة . وفى قوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ » أراد التعميم ؛ أى حسبك الله فى كل حال . وقال ٱبن عباس : نزلت فى إسلام عمر ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلا وستُّ نسوة ؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين . والآية مكية ، كُتبت بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سورةٍ مدنيّة ؛ ذكره القُشيريّ .

قلت : ما ذكره من إسلام عمر رضي الله عنه عن ٱبن عباس؛ فقد وقع في السيرة خلافه . عن عبد الله بن مســعود قال : ما كنا نقدر على أن نُصلّيَ عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلمـا أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه . وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحبشة . قال ٱبن إسحاق : وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا أو ولدوا بها، ثلاثة وثمـانين رجلا، إن كان عمّار بن ياسر منهم . وهو يُشكّ فيـه . وقال الكَلْبيّ : نزلت الآية بالبَيْداء في غزوة بدر قبل القتال .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : المعنى حسبك الله ، وحسبك المهاجرون والأنصار . وقيل : المعنى كافيك الله ، وكافي من تبعك ؛ قاله الشَّعْبيّ وابن زيد . والأوّل عن الحسن . وٱختاره النحاس وغيره . فـ « مَن » على القول الأوّل في موضع رفع ، عطفا على ٱسم الله تعالى . على معنى : فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين . وعلى الثاني على إضمار . ومثلُه قوله صلى الله عليه وسلم : " يَكْفِينِيه اللهُ وأبناء قَيْلَة (١) " . وقيل : يجوز أن يكون « ومَنِ ٱتبعك مِن المؤمِنِين» حسبهم الله؛ فيضمر الخبر . ويجوز أن يكون « مَن » في موضع نصب، على معنى : يكفيك الله ويكفي من ٱتبعك (٢) .

(١) يريد الأوس والخزرج ، قبيلَى الأنصار . وقيلة اسم أمّ لهم قديمة ، وهى قيلة بنت كاهل .

(٢) اضطربت عبارة الأصول هنـا . والذى فى إعراب القرآن للنحاس : « يأيهـا النبيّ حسبك الله . ابتداء وخبر؛ أى كافيك الله . ويقال : أحسبه إذا كفاه . « ومن ٱتبعك » فى موضع نصب معطوف على الكاف فى التأويل؛ أى يكفيك الله عز وجل ويكفى من ٱتبعك؛ كما قال :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبك والضحاك سـيف مهند

ويجوز أن « من ٱتبعك » فى موضع رفـع . وللنحو يين فيه ثلاثة أقوال : قال أبو جعفر : سمعت على بن سليمان يقول : يكون عطفا على اسم الله جل وعز؛ أى حسـبك الله ومن ٱتبعك . قال : ومثله قول النبي عليه السـلام : « يكفينيه الله عز وجل وأبناء قيلة » .

والقول الثانى — أن يكون التقدير: ومن ٱتبعك من المؤمنين كذلك؛ على الابتداء والخبر؛ كما قال الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع * من المـال الا مُسْحَتـا أو مُجَلَّفُ

والقول الثالث أحسنها — أنه يكون على إضمار، بمعنى وحسبك من ٱتبعك . وهكذا الحديث على إضمار . وتركنا القول الأول؛ لأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه نهى أنه يقال : ما شاء الله وشئت . والثانى — فالشاعر مضطر؛ إذ كانت القصيدة مرفوعة . وإن كان فيه غير هذا » .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ أى حُثّهم وحُضّهم. يقال : حارض على الأمر وواظب وواصب وأكبّ بمعنًى واحد . والحارض : الذى قد قارب الهلاك؛ ومنه قوله عز وجل : « حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا »[(1)] أى تذوب غماً، فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين . ﴿ إِن يَكُن مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ لفظ خبر، ضمنه وعدٌ بشرط؛ لأن معناه إن يصبر منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وعشرون وثلاثون وأربعون كلّ واحد منها آسم موضوع على صورة الجمع لهذا العدد . ويجرى هذا الآسم مجرى فلسطين . فإن قال قائل: لم كُسر أوّل عشرين وفُتح أوّل ثلاثين وما بعده إلى الثمانين إلا ستّين؟ فالجواب عند سيبويه أن عشرين من عشرة بمنزلة اثنين من واحد؛ فكسر أوّل عشرين كما كسر اثنان . والدليل على هذا قولهم : ستون وتسعون؛ كما قيل : ستة وتسعة . وروى أبو داود عن آبن عباس قال: نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يَغْلِبوا مائتين» فشقّ ذلك على المسلمين، حين فرض الله عليهم ألّا يفرّ واحد من عشرة، ثم إنه جاء التخفيف فقال : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ . قال : فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ماخفّف عنهم . وقال ابن العربى : قال قوم إن هذا كان يوم بدر ونُسخ . وهذا خطأ من قائله . ولم يُنقل قطّ أن المشركين صافّوا المسلمين عليها، ولكن البارى جل وعز

(١) آية ٨٥ سورة يوسف .

فرض ذلك عليهم أولا ، وعلّق(١) ذلك بأنكم تفقهون ماتقاتلون عليه ، وهو الثواب . وهم لايعلمون ما يقاتلون عليه .

قلت : وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض . ثم لما شقّ ذلك عليهم حطّ الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين ؛ فخفّف عنهم وكتب عليهم ألّا يفرّ مائة من مائتين ؛ فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ . وهذا حسن . وقد ذكر القاضي ابن الطيّب أن الحكم إذا نُسخ بعضُه أو بعضُ أوصافه ، أو غيّر عدده فجائز أن يقال إنه نسخ ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول ، بل هو غيره . وذكر في ذلك خلافا .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَسْرَى ﴾ جمع أسير ؛ مثل قتيل وقتلَى وجريح وجرحَى . ويقال في جمع أسير أيضا : أسارَى (بضم الهمزة) وأَسارَى (بفتحها) وليست بالعالية . وكانوا يَشُدّون الأسير بالقِدّ وهو الإسار ؛ فسُمّي كل أَخيذ و إن لم يُؤسر أسيرا . قال الأعشى :

وقَيّدنِي الشّعر في بيتِه * كما قَيّد الآسِراتُ الحِمارا

وقد مضى هذا في سورة « البقرة »(٢) . وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثَقين عند ما يؤخذون ، والأسارى هم الموثقون رَبْطًا . وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب .

الثانية — هذه الآية نزلت يوم بدر ، عتابا من الله عز وجل لأصحاب نبيّه صلى الله عليه وسلم . والمعنى : ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبيّ

(١) هكذا في نسخ الأصل ، والذي في ابن العربي : « وعلله بأنكم ... الخ » .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢١ طبعة ثانية .

صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان[1] . ولهم هذا الإخبارُ بقوله « تريدون عرض الدنيا » .
والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطّ عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب؛ فالتوبيخ والعتاب انما كان متوجها بسبب من أشار على النبيّ صلى الله عليه وسلم بأخذ الفِدية . هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذى لا يصح غيره.
وجاء ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الآية حين لم يَنْه عنه حين رآه من العَريش وإذ كره سعد ابن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة، ولكنه عليه السلام شغَله بَغْتُ الأمر ونزولُ النصر فترك النّهى عن الاستبقاء؛ ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات . والله أعلم .
روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب، وقد تقدم أوّله فى « آل عمران »[2] وهذا تمامه .
قال أبو زُمَيل : قال ابن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : " ما ترون فى هؤلاء الأسارى "؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله، هم بنو العمّ والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فِديةً، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماترى يابن الخطاب "؟ قلت : لا والله يا رسول الله، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكّنّا فنضرب أعناقهم، فتُمَكِّن عَلِيًّا من عَقِيل فيضرِبَ عنقه، وتمكّنِّى من فلان (نَسِيباً لعمر) فأضربَ عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدُها . فهَوِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلتُ؛ فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ قاعِدَيْن يبكيان؛ فقلت : يارسول الله، أخبرنى من أىّ شىء تبكى أنت وصاحبُك؛ فإن وجدتُ بكاء بكيتُ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أَبْكى للذى عَرض علىّ أصحابُك من أخذهم الفداء لقد عُرِض علىّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرةِ " (شجرةٍ قريبةٍ من نبىّ الله صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل «ما كان لِنبِيٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثْخِنَ فِى الأرض» إلى قوله تعالى : «فكُلُوا ممّا غَنِمتم حلالا طيِّباً» فأحلّ الله الغنيمة لهم . وروى يزيد بن هارون

(١) الاثخان فى الشيء : المبالغة فيه والإكثار منه ، والمراد به هنا : المبالغة فى قتل الكفار .
(٢) راجع جـ ٤ ص ١٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قال : أخبرنا يحيى قال حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مُرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ترون في هؤلاء الأسارى " فقال أبو بكر : يارسول الله قومُك وأهلُك، استبقهم لعلّ الله أن يتوب عليهم . وقال عمر: كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدّمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة: أُنظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم . فقال العباس وهو يسمع : قطعتَ رحِمك . قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يردّ عليهم شيئا . فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه . وقال أناس: يأخذ بقول عمر . وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله ليُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ويُشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة . مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال « فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فإنك غَفُورٌ رَحِيمٌ » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال « إِنْ تُعَذِّبْهُم فإنهم عِبادُكَ و إن تَغفِرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال « رَبِّ لا تَذَرْ على الأرض مِن الكافِرِين دَيَّاراً » . ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال « رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أنتم عالة فلا ينفلتنّ أحد إلا بفداء أو ضربة عنق . فقال عبد الله : إلا سُهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما رأيتني أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم . فأنزل الله عز وجل: « ما كان لنبيٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثْخِن في الأرض » إلى آخر الآيتين . في رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إن كاد ليصيبنا في خلاف ٱبن الخطاب عذاب ولو نزل عذاب ما أفلت إلا عمر" . وروى أبو داود عن عمر قال : لما كان يوم بدر وأخذ — يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — الفداء ، أنزل الله عز وجل « ما كان لِنَبِيٍّ أن يكون له أَسْرَى حتى يُثْخِن فِي الأرضِ» إلى قوله « لمسكم فِيما أخذتم — من الفداء — عَذَابٌ عظِيمٌ » . ثم أحل الغنائم . وذكر القُشيرِيّ أن سعد بن معاذ قال : يا رسول الله، إنه أول وقعة لنا مع المشركين

فكان الإثخان أحبّ إلىّ . والإثخان : كثرة القتل؛ عن مجاهد وغيره . أى يبالغ فى قتل المشركين . تقول العرب : أثخن فلان فى هـذا الأمر أى بالغ . وقال بعضهم : حتى يُقهِر ويَقْتُل . وأنشد المفضّل :

تصلّى الضحى ما دهرها بتعبّد * وقد أثخنت فرعون فى كفره كفرا

وقيل : « حتى يُثخِن » يتمكّن . وقيل : الإثخان القوة والشدّة . فأعلم الله سبحانه وتعالى أن قتل الأسرى الذين فُودُوا ببدر كان أولى من فداهم . وقال آبن عباس رضى الله عنه : كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا وآشتدّ سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هـذا فى الأسارى : « فإمّا مَنًّا بَعْدُ و إمّا فِداءً » على ما يأتى بيانه فى سورة « القتال » إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إنما عُوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف فى صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملّك . ذلك كلّه عظيم الموقع، فكان حقهم أن ينتظروا الوَحْىَ ولا يستعجلوا؛ فلما استعجلوا ولم ينتظروا توجّه عليهم ما توجّه . والله أعلم .

الثالثة — أسند الطبرىّ وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : "إن شئتم أخذتم فداء الأسارى و يُقتل منكم فى الحرب سبعون على عددهم و إن شئتم قُتلوا وسَلِمتم" . فقالوا : نأخذ الفداء و يستشهد منا سبعون . وذكر عبد بن حُميد بسنده أن جبريل عليه السلام نزل على النبىّ صلى الله عليه وسلم بتخيير الناس هكذا . وقد مضى فى « آل عمران » القول فى هـذا . وقال عَبيدة السَّلْمانِىّ : طلبوا الخيرتين كلتيهما؛ فقتل منهم يوم أُحُد سبعون . و ينشأ هنا إشكال وهى : —

الرابعة — وهو أن يقال : اذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله « لَمَسَّكُمْ » . فالجواب — أن التوبيخ وقع أوّلا لحرصهم على أخذ الفداء، ثم وقع التخيير بعد ذلك . ومما يدل على ذلك أن المِقداد قال حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عُقبة بن أبى مُعَيط : أسيرى يا رسول الله . وقال مُصعب بن عُمير للذى أسر أخاه : شُدّ عليه يدك، فإن له أمًّا

موسرة . إلى غير ذلك من قصصهم وحرصهم على أخذ الفداء . فلما تحصّل الأسارى وسِيقوا إلى المدينة وأنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم القتلَ فى النضر وعقبةَ وغيرِهما وجعل يرتئى فى سائرهم نزل التخيير من الله عز وجل ؛ فآستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه حينئذ ، فمرّ عمر على أوّل رأيه فى القتل ، ورأى أبو بكر المصلحة فى قوة المسلمين بمال الفداء . ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبى بكر . وكلا الرأيين آجتهاد بعد تخيير . فلم ينزل بعدُ على هذا شىء من تعنيته . والله أعلم .

الخامســة — قال ابن وهب : قال مالك كان ببدر أسارى مشركون فأنزل الله «ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسْرَى حتى يُثْخِن فى الأرض» . وكانوا يومئذ مشركين وفادَوْا ورجعوا ، ولو كانوا مسلمين لأقاموا ولم يرجعوا . وكان عِدّة من قُتل منهم أربعة وأربعين رجلا ، ومثلهم أُسِروا . وكان الشهداء قليلا . وقال عمرو بن العلاء : إن القتلى كانوا سبعين ، والأسرى كذلك . وكذلك قال ابن عباس وابن المسيِّب وغيرهم . وهو الصحيح كما فى صحيح مسلم ؛ فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر البَيْهَقِىّ قالوا : فجىء بالأسارى وعليهم شُقْران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم تسعة وأربعون رجلا الذين أُحصوا ، وهم سبعون فى الأصل ، مُجْتَمع عليه لاشك فيه . قال ابن العربىّ : إنما قال مالك « وكانوا مشركين» لأن المفسرين رووا أن العباس قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : إنى مسلم . وفى رواية أن الأسارى قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بك . وهذا كله ضعّفه مالك ، واحتج على إبطاله بما ذكر من رجوعهم وزيادة عليه أنهم غَزَوه فى أُحُد . قال أبو عمر بن عبد البر : اختلفوا فى وقت إسلام العباس ؛ فقيل : أسلم قبل بدر ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من لَقِىَ العباس فلا يقتله فإنما أخرج كرها " . وعن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : " إن أناسا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لقِىَ أبا البَخْتَرِىّ فلا يقتله ومن لقى العباس فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها " وذكر الحديث . وذكر أنه أسلم حين أسر يوم بدر . وذكر أنه أسلم عام خيبر ، وكان يكتب

لرسول الله صلى الله عليـه وسلم بأخبار المشركين، وكان يحب أن يهاجر فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " امكث بمكة فمقامك بها أنفع لنا " .

قوله تعـالى : لَوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ ﴾ فى أنه لا يعذّب قوما حتى يبيّن لهم مايتقون . وآختلف الناس فى كتاب الله السابق على أقوال؛ أصحها ماسبق من إحلال الغنائم، فإنها كانت محرمة على من قبلنا . فلما كان يوم بدر، أسرع الناس إلى الغنائم فأنزل الله عز وجل « لَوْلَا كِتَابٌ مِن اللّٰهِ سَبَقَ » أى بتحليل الغنائم . و روى أبو داود الطّيالِسِىّ فى مسنده حدثنا ســلام عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : لمـا كان يوم بدر تعجّل الناس إلى الغنائم فأصابوها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الغنيمة لاتحلّ لأحد سود الرءوس غيركم". فكان النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ونزلت نار من السماء فأكلتها؛ فأنزل الله تعالى : «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ» إلى آخر الآيتين . وأخرجه التِّرمِذىّ وقال : حديث حسن صحيح، وقاله مجاهد والحسن . وعنهما أيضا وسعيد بن جبير : الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر، ماتقدم أو تأخر من ذنوبهم . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو عفو الله عنهم فى هذا الذنب، معيَّنا . والعموم أصح؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر فى أهل بدر : "وما يُدْرِيك لعلّ الله ٱطّلَع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". خرّجه مسلم . وقيل : الكتاب السابق هو ألّا يعذبهم ومحمد عليه السلام فيهم . وقيــل : الكتاب السابق هو ألا يعذب أحدا بذنب أتاه جاهلا حتى يتقدّم اليه . وقالت فرقة : الكتاب السابق هو مما قضى الله من محْوِ الصغائر باجتناب الكبائر . وذهب الطبرىّ إلى أن هذه المعانى كلّها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمّها ، ونَكَّب عن تخصيص معنًى دون معنًى .

الثانية — ابن العربي: وفي الآية دليل على أن العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراما مما هو في علم الله حلال له لا عقوبة عليه؛ كالصائم إذا قال: هذا يوم نَوْبي[1] فأفطر الآن. وتقول المرأة: هذا يوم حيضتي فأفطر؛ ففعلا ذلك، وكان النوب والحيض الموجبان للفطر، ففي المشهور من المذهب فيه الكفارة، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا كفارة عليه، وهي الرواية الأخرى. وجه الرواية الأولى أن طرق الإباحة لا يثبت عذرا في عقوبة التحريم عند الهتك؛ كما لو وطئ امرأة ثم نكحها. وجه الرواية الثانية أن حرمة اليوم ساقطة عند الله عز وجل فصادف الهتك محلا لا حرمة له في علم الله؛ فكان بمنزلة ما لو قصد وطء امرأة قد زُفّت إليه وهو يعتقدها أنها ليست بزوجته فإذا هي زوجته. وهذا أصح. والتعليل الأوّل لا يلزم؛ لأن علم الله سبحانه وتعالى مع علمنا قد استوى في مسئلة التحريم، وفي مسئلتنا اختلف فيها علمنا وعلم الله فكان المعوّل على علم الله. كما قال: «لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم».

قوله تعالى: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

يقتضي ظاهره أن تكون الغنيمة كلّها للغانمين، وأن يكونوا مشتركين فيها على السواء؛ إلّا أن قوله تعالى: «واعلموا أنما غَنِمتم من شيء فأنّ لله خُمُسَه» بيّن وجوب إخراج الخمس منه وصرفه إلى الوجوه المذكورة. وقد تقدّم القول في هذا مستوفًى.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

فيه ثلاث مسائل:

(١) النوب: ما كان منك مسيرة يوم وليلة. وقيل: على ثلاثة أيام. وقيل: ما كان على فرسخين أو ثلاثة.

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ قيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه . وقيل : له وحدَه . وقال آبـن عباس رضى الله عنه : الأسرى فى هذه الآية عباس وأصحابه . قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسولُ الله، لننصحَنّ لك على قومك؛ فنزلت هذه الآية . وقد تقدّم بطلان هذا من قول مالك . وفى مصنَّف أبى داود عن آبن عباس رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل فداء أهـل الجاهلية يوم بدر أربعمائة . وعـن آبن إسحاق : بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى فداء أسراهم ؛ ففَدَى كلّ قوم أسيرهم بمـا رضوا . وقال العباس . يا رسول الله ، إنى قد كنت مسلما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يَجزيك بذلك فأمّا ظاهر أمرك فكان علينا فآفد نفسك وآبنى أخويك نوفلَ بن الحارث بن عبد المطلب وعَقيل بنَ أبى طالب وحليفَك عتبة بن عمرو أخا بنى الحارث بن فهر" . وقال : ما ذاك عندى يا رسول الله . قال : " فأين المـال الذى دفنته أنت وأم الفضل فقلتَ لها إن أصبتُ فى سفرى هذا فهذا المـال لبنى الفضل وعبد الله وقُثَم "؟ فقال : يا رسول الله، إنى لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغير أمّ الفضل ، فآحْسُب لى يا رسول الله ما أصبتم منّى عشرين أوقية من مال كان معى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا . ذاك شىء أعطانا الله منك" . ففدى نفسه وآبنى أخويه وحليفه، وأنزل الله فيه : « يأيها النّبِيُّ قل لِمَنْ فِي أيديكم مِن الأَسْرَى» الآية . قال آبن إسحاق: وكان أكثر الأسارى فداءً العبـاس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان رجلا موسرا ، فآفتدى نفسه بمائة أوقيّة من ذهب . وفى البخاريّ : وقال موسى بن عقبة قال آبن شهاب : حدّثنى أنس ابن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، ائذن لنا فلْنترك لابن أختنا عباس فداءه . فقال : "لا والله لا تذرون درهما" . وذكر النقاش وغيره أن فداء كلّ واحد من الأسارى كان أربعين أوقية، إلا العباس فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أضعفوا الفداء على العباس" وكلّف أن يَفدى آبنى أخويه عقيل بن أبى طالب

ونوفل بن الحارث فأدّى عنهما ثمانين أوقية، وعن نفسه ثمانين أوقيّة وأخذ منه عشرون وقت الحرب . وذلك أنه كان أحدَ العشرة الذين ضَمِنوا الإطعام لأهل بدر، فبلغت النَّوبة إليه يوم بدر فاقتتلوا قبل أن يُطعم، وبقيت العشرون معه فأخذت منه وقت الحرب ، فأخذ منه يومئذ مائة أوقيّة وثمانون أوقية. فقال العباس للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لقد تركتني ما حييتُ أسأل قريشا بكَفِّي . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أين الذهب الذي تركته عند امرأتك أم الفضل" ؟ فقال العباس : أيّ ذهب ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنك قلتَ لها لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك" فقال : يا ابن أخي ، من أخبرك بهذا ؟ قال : "الله أخبرني" . قال العباس : أشهد أنك صادق ، وما علمت أنك رسول الله قطّ إلا اليوم ، وقد علمت أنه لم يطلعك عليه إلا عالم السرائر، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، وكفرتُ بما سواه، وأمر ابني أخويه فأسلما؛ ففيهما نزلت « يأيّها النّبيُّ قل لمن في أيديكم من الأَسْرَى » . وكان الذي أسر العباسَ أبا اليَسَر كعبَ بن عمرو أخا بني سلمة ، وكان رجلا قصيرا ، وكان العباس ضخما طويلا ؛ فلما جاء به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : "لقد أعانك عليه مَلَك" .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ أي إسلاما . ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ أي من الفِدية . قيل في الدنيا . وقيل في الآخرة . وفي صحيح مسلم أنه لما قدِم على النبيّ صلى الله عليه وسلم مال من البحرين قال له العباس : إني فاديت نفسي وفاديتُ عقيلا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذ" فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله . مختصر . في غير الصحيح : فقال له العباس هذا خير مما أُخِذ منّي، وأنا بعدُ أرجو أن يغفر الله لي . قال العباس : وأعطاني زمزم، وما أُحبُّ أن لي بها جميعَ أموال أهل مكة . وأسند الطبريّ إلى العباس أنه قال : فيّ نزلت حين أعلمت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بإسلامي ، وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقيّة التي أُخذت منّي قبل المفاداة فأبى . وقال : "ذلك فَيْءٌ" فأبدلني الله من ذلك عشرين عبدا كلّهم تاجر بمالي . وفي مصنَّف أبي داود عن

عائشة رضي الله عنها قالت : لمـا بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثتْ زينب فى فداء أبى العاص بمال ، وبعثتْ فيه بِقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبى العاص . قالت : فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقّ لها رِقّةً شديدة وقال : "إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذى لها "؟ فقالوا نعم ، وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم أخذ عليه أوْ وعده أن يُخَلّىَ سبيل زينب اليه . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال : " كونا ببطن يأجِج[(1)] حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بهـا . قال آبن اسحاق : وذلك بعد بدر بشهر . قال عبد الله بن أبى بكر : حُدّثت عن زينب بنت رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت : لمـا قدم أبو العاص مكة قال لى : تجهّزى ، فالحقى بأبيك . قالت : فخرجت أتجهز فلقيتنى هند بنت عتبة فقالت : يابنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللّحوق بأبيك؟ فقلت لها : ما أردت ذلك . فقالت : أىْ بنت عمّ ، لا تفعلى ، إنى آمرأة مُوسرة وعندى سِلَع من حاجتك ، فان أردتِ سلْعة بعتُكَهَا ، أو قَرْضا من نفقة أقرضتك ؛ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال . قالت : فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ؛ فخفتها فكتمتها وقلت : ما أريد ذلك . فلما فرغت زينب من جهازها آرتحلت وخرج بها حَمُوها يقود بها نهارا كِنانةُ بن الربيع . وتسامع بذلك أهل مكة ، وخرج فى طلبها هَبّار بن الأسود ونافع بن عبدالقيس الفِهرى ، وكان أوّل من سبق إليها هبّار فروّعها بالرمح وهى فى هَوْدجها . وبرك كِنانةُ ونثر نَبله ، ثم أخذ قوسه وقال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما . وأقبل أبو سفيان فى أشراف قريش فقال : يا هذا ، أَمسك عنّا نَبلك حتى نكلمك ؛ فوقف عليه أبو سفيان وقال : إنك لم تصنع شـيئا ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس ، وقد عرفتَ مصيبتنا التى أصابتنا ببـدر فتظن العرب وتُحدث أن هـذا وَهْن منا وضعف خروجك إليه بابنتـه على رءوس الناس من بين أظهرنا . ارجع بالمرأة فأقم بها أياما ، ثم سُلَّها سَلّا رفيقا فى الليل فألحقها بأبيها ؛ فلعمرى ما لنا

(1) يأجِج (كيسمع و ينصر و يضرب) : موضع بمكة .

بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك الآن من ثُؤْرة[1] فيما أصاب منا ؛ ففعل . فلما مر به يومان أو ثلاثة سلها ، فانطلقت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكروا أنها قد كانت ألقت — للروعة التى أصابتها حين روعها هَبّار بن أم درهم — ما فى بطنها .

الثالثة — قال ابن العربى : «لما أُسِر مَن أسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ولا اعترفوا به اعترافا جازما . ويشبه أنهم أرادوا أن يَقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه و بلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا . و إذا وُجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا ؛ إلا ما كان من الوسوسة التى لا يقدر على دفعها فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بيّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم الحقيقة فقال : « وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ » أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك . و إن كان هذا القول منهم خيرا و يعلمه الله فيقبل منهم ذلك و يعوّضهم خيرا مما خرج عنهم و يغفر لهم ما تقدّم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم » . و جمع خيانة خيائن، وكان يجب أن يقال : خوائن لأنه من ذوات الواو، إلا أنهم فرقوا بينه وبين جمع خائنة . و يقال : خائن وخُوّان وخَوَنة وخانة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ

(١) الثؤرة (بالضم) : الثأر .

إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

فيـــه ســـبع مسـائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليّه الذى يستعين به . وقد تقدّم معنى الهجرة والجهاد لغةً ومعنًى[1] . ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ﴾ معطوف عليه . وهم الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، وآنضوى اليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرون . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ رفع بالابتداء . ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتداء ثان ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ خبره، والجميع خبر « إنّ » . قال آبن عباس : «أولياء بعض» فى الميراث؛ فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر مَن هاجر فنسخ الله ذلك بقوله : «وأولوا الأرحام» الآية . أخرجه أبو داود . وصار الميراث لذوى الأرحام من المؤمنين . ولا يتوارث أهـل ملّتين شيئا . ثم جاء قوله عليه السلام : " أَلحقوا الفرائض بأهلها " على ما تقدّم بيانه فى آية المواريث . وقيل : ليس هنا نسخ، و إنما معناه فى النصرة والمعونة؛ كما تقدّم فى «النساء»[2] . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ابتداء والخبر ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة « من وِلايتهم » بكسر الواو . وقيل هى لغة . وقيل : هى من وليت الشيء؛ يقال : ولِىٌّ بيّن الوَلاية . ووالٍ بيّن الوِلاية . والفتح فى هـذا بيّن وأحسن؛ لأنه بمعنى النصرة والنسب . وقد تطلق الوِلاية والوَلاية بمعنى الإمارة .

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — قوله تعالى . ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لآستنقاذهم فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم . إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم، ولا تنقضوا العهـد حتى تتم مدته . آبن العـربى : إلا أن يكونوا [أسراء][1] مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة ؛ حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا فى آستخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم . كذلك قال مالك وجميع العلمـاء ؛ فإنا لله وإنا اليـه راجعون ، على ما حلّ بالخلق فى تركهم إخوانَهم فى أسر العدوّ وبأيديهـم خزائن الأموال ، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجَلَد . الزجاج : ويجوز « فعليكم النصر » بالنصب على الإغراء .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين ؛ فجعل المؤمنين بعضهم أوليـاء بعض ، والكفار بعضهم أوليـاء بعض ، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم . قال علماؤنا فى الكافرة يكون لها الأخ المسلم : لا يزوّجها ؛ إذ لا ولاية بينهما ، ويزوّجها أهل ملّتها . فكما لا يزوّج المسلمةَ إلا مسلم فكذلك الكافرة لا يزوّجها إلا كافر قريب لهـا ، أو أُسْقُف ، ولو من مسلم ؛ إلا أن تكون معتقة ؛ فإن عُقد على غير المعتَقة فُسخ إن كان لمسلم ، ولا يعرض للنّصرانىّ . وقال أَصْبَغ : لا يفسخ ، عقد المسلم أولى وأفضل .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ الضمير عائد على الموارثة والتزامها . المعنى : إلا تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون ؛ قاله آبن زيد . وقيل : هى عائدة على التناصر والمؤازرة والمعاونة وآتصال الأيدى . آبن جُريج وغيره : وهذا إن لم يفعل تقع الفتنة عنه عن قريب ؛ فهو آكد من الأوّل . وذكر الترمذىّ عن عبد الله بن مسلم بن هُرْمُز عن محمد وسـعد آبنى عبيد عن أبى حاتم المزنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إذا جاءكم من ترضون

---

(١) زيادة عن آبن العربى .

دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير" . قالوا : يا رسول الله ، وإن كان فيه؟ قال : " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه" ثلاث مرات . قال : حديث غريب . وقيل : يعود على حفظ العهد والميثاق الذى تضمّنه قوله : « إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » . وهذا وإن لم يفعل فهو الفتنة نفسها . وقيل : يعود على النصر للسلمين فى الدين . وهو معنى القول الثانى . قال ٱبن إسحاق : جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولايتــه فى الدّين دون من ســواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض . ثم قال : ﴿ إلّا تفعلوه ﴾ وهو أن يتولّى المؤمنُ الكافرَ دون المؤمنين. ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ ﴾ أى محنة بالحرب، وما ٱنجرّ معها من الغارات والجلاء والأسر . والفسادُ الكبير : ظهور الشرك. قال الكسائىّ : ويجوز النصب فى قوله «تكن فتنة» على معنى تكن فعلتكم فتنة وفسادا كبيرا . ﴿ حَقًّا ﴾ مصدر، أى حقّقوا إيمانهم بالهجرة والنّصرة . وحقق الله إيمانهم بالبشارة فى قوله : « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى ثواب عظيم فى الجنة .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا ﴾ يريد من بعد الحُدَيْبِية وبيعة الرضوان. وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقلّ رتبة من الهجرة الأولى . والهجرة الثانيــة هى التى وقع فيهــا الصلح، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة . ولهــذا قال عليه السلام : " لا هجرة بعد الفتح" . فبيّن أن من آمن وهاجر من بعدُ يُلحق بهم . ومعنى « منكم » أى مثلكم فى النّصر والموالاة .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ ابتداء . والواحد ذو، والرّحم مؤنّثة، والجمع أرحام . والمراد بها ها هنا العصبات دون المولود بالرحم . وممــا يبيّن أن المراد بالرحم العصبات قول العرب : وَصَلَتْكَ رَحِم . لا يريدون قرابة الأم . قالت قُتَيــلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث — كذا قال ٱبن هشام . قال السُّهَيْلِىّ : الصحيح أنهــا بنت النضر لا أخته، كذا وقع فى كتاب الدلائل — ترثى أباها حين قتله النبىّ صلى الله عليه وسلم صَبْرًا — بالصّـــفْراء :

يا راكبًا إن الأثيل مظنةٌ * من صُبح خامسةٍ وأنت مُوفَّقُ
أبلغ بها ميتًا بأن تحية * ما إن تزال بها النجائب تخفقُ
منّى إليك وعبرةً مسفوحةً * جادت بواكفها وأخرى تخنُق
هل يسمعَنّى النضرُ إن ناديتُه * أم كيف يسمع ميّت لا ينطق
أمحمدٌ يا خير ضِنْءِ[1] كريمة * فى قومها والفحلُ فحلٌ مُعرِق
ما كان ضرّك لو مننتَ وربّما * منّ الفتى وهو المَغيظ المُحنَق
لو كنتَ قابلَ فدية لفديتُه * بأعزّ ما يفْدَى به ما ينفِق
فالنضرُ أقربُ مَن أسَرْتَ قرابةً * وأحقُّهم إن كان عِتق يُعتَق
ظلّت سيوفُ بنو أبيه تنوشُه * لله أرحام هناك تُشَقَّق
صَبرًا يُقاد إلى المنيّة مُتعَبًا * رَسْفَ المُقيَّد وهو عانٍ موثَق

السابعة — وٱختلف السلف ومَن بعدهم فى توريث ذوى الأرحام — وهو من لا سهم له فى الكتاب — من قرابة الميت وليس بعصبة؛ كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والعمة والخالة، والعمّ أخ الأب للأم، والجدّ أبى الأم، والجدّة أمّ الأم، ومن أدْلَى بهم . فقال قوم : لا يرث من لا فرض له من ذوى الأرحام . ورُوى عن أبى بكر الصديق وزيد بن ثابت وٱبن عمر، ورواية عن علىّ، وهو قول أهل المدينة، ورُوى عن مكحول والأوزاعى، وبه قال الشافعىّ رضى الله عنه . وقال بتوريثهم : عمر بن الخطاب وابن مسعود ومعاذ وأبو الدَّرْداء وعائشة وعلىّ فى رواية عنه، وهو قول الكوفيين وأحمد وإسحاق . واحتجّوا بالآية، وقالوا : وقد ٱجتمع فى ذوى الأرحام سببان القرابة والإسلام؛ فهو أَوْلَى ممن له سبب واحد وهو الإسلام . أجاب الأوّلون فقالوا : هذه آية مجملة جامعة، والظاهر بكل رحم قَرُب أو بَعُد، وآيات المواريث مفسِّرة والمفسّر قاض على المجمل ومبيّن . قالوا : وقد جعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الوَلاء سببا ثابتا، أقام المَوْلَى فيه مُقام العصبة فقال : " الولاء لمن

(١) الضنء (بالكسر) : الأصل .

أعتق ". ونهى عن بيع الولاء وعن هبته . احتجّ الآخرون بما روى أبو داود والدّارَقُطْنِيّ عن المِقدام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ترك كَلًّا فإليّ — ور بما قال فإلى الله وإلى رسوله — ومن ترك مالًا فلورثته فأنا وارث من لا وارث له أعقِل عنه وأرثه والخال وارث من لا وارث له يَعقِل عنه ويرثه " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن طاوس قال قالت عائشة رضي الله عنها : " الله مَوْلَى من لا مَوْلَى له ، والخال وارث من لا وارث له " . موقوفٌ . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الخال وارث" . ورُوِى عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ميراث العمة والخالة فقال "لا أدرى حتى يأتيني جبريل" ثم قال : " أين السائل عن ميراث العمة والخالة " ؟ قال : فأتى الرجل فقال : " سارّني جبريل أنه لا شيء لهما ". قال الدّارقطنيّ : لم يسنده غير مَسعدة عن محمد بن عمرو وهو ضعيف ، والصواب مرسل . ورُوِى عن الشعبي قال قال زياد بن أبي سفيان لجليسه : هل تدرى كيف قضى عمر في العمة والخالة؟ قال لا . قال : إنى لأعلم خلق الله كيف قضى فيهما عمر، جعل الخالة بمنزلة الأم، والعمة بمنزلة الأب .

تفســـير ســـورة براءة

مدنيـــة باتفاق

قوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

فيه خمس مسائل :

الأولى — فى أسمائها . قال سعيد بن جُبير: سألت آبن عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة، ما زال ينزل : ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألّا تدع أحدا . قال القُشيرىّ أبو نصر عبد الرحيم : هذه السورة نزلت فى غزوة تَبُوك، ونزلت بعدها . وفى أوّلها نبذُ عهودِ الكفار إليهم . وفى السورة كشف أسرار المنافقين . وتسمّى الفاضحة والبحُوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . وتسمّى المبعثرة . والبعثرة : البحث .

الثانيـــة — وآختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أوّل هذه السورة على أقوال خمسة : الأوّل — أنه قيل كان من شأن العرب فى زمانها فى الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة؛ فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذى كان بين النبىّ صلى الله عليه وسلم والمشركين بعث بها النبىّ صلى الله عليه وسلم علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه؛ فقرأها عليهـم فى الموسم، ولم يُبسمل فى ذلك على ما جرت به عادتهم فى نقض العهد من ترك البسملة . وقول ثان — روى النَّسائىّ قال حدّثنا أحمد قال حدّثنا محمد بن المثنّى عن يحيى بن سعيد قال حدّثنا عوف قال حدّثنا يزيد الرّقاشى[1] قال قال

(١) فى بعض الأصول: « الرواسى » . والذى فى صحيح الترمذى: « الفارسى » . قال الترمذى تعقيبا عليه : « ... حسن صحيح ، لا نعرفه الا من حديث عوف عن يزيد الفارسى عن آبن عباس . ويزيد الفارسى قد روى عن آبن عباس غير حديث . ويقال : هو يزيد بن هرمز، ويزيد الرقاشى هو يزيد بن أبان الرقاشى، ولم يدرك آبن عباس، إنما روى عن أنس بن مالك، وكلاهما من البصرة . ويزيد الفارسى أقدم من يزيد الرقاشى » .

لنا ابن عباس : قلت لعثمان ما حملكم إلى أن عمدتم إلى « الأنفال » وهى من المثانى، وإلى « براءة » وهى من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها فى السبع الطُّوَل[1]؛ فما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : "ضعوا هذا فى السورة التى فيها كذا وكذا". وتنزل عليه الآيات فيقول: "ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا". وكانت « الأنفال » من أوائل ما أنزل، و « براءة » من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها فظننت أنها منها ؛ فمن ثَمّ قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم . وخرّجه أبو عيسى الترمذي وقال : هذا حديث حَسَن . وقول ثالث — رُوى عن عثمان أيضا . وقال مالك فيما رواه ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : إنه لما سقط أوّلها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه . ورُوى ذلك عن ابن عجلان أنه بلغه أن سورة « براءة » كانت تعدل البقرة أو قربها، فذهب منها ؛ فلذلك لم يُكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم . وقال سعيد بن جُبير : كانت مثل سورة البقرة. وقول رابع — قاله خارجة وأبو عِصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة . وقال بعضهم : هما سورتان . فتُركت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ؛ فرضِىَ الفريقان معاً، وثبتت حجتاهما فى المصحف . وقول خامس — قال عبد الله بن عباس . سألت علىّ بن أبى طالب لِمَ لم يُكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان . وروى معناه عن المبرد قال : ولذلك لم يجمع بينهما ؛ فإن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة، وبراءة نزلت سخطة . ومثله عن سفيان . قال سفيان بن عُيينة : إنما لم

(١) السبع الطول : سبع سور، وهى سورة البقرة، وآل عمران ، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف فهذه ست سور متواليات . واختلفوا فى السابعة ؛ فنهم من قال : السابعة الأنفال وبراءة ؛ وعدهما سورة واحدة . ومنهم من جعل السابعة سورة يونس .

تكتب فى صدر هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت فى المنافقين و بالسيف ، ولا أمان للنافقين . والصحيح أن التسمية لم تكتب ؛ لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها فى هذه السورة؛ قاله القُشيري . وفى قول عثمان : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله وتبيينه ، وأن براءة وحدها ضُمّت إلى الأنفال من غير عهدٍ من النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ لمـا عاجله من الحِمام قبل تبيينه ذلك . وكانتا تُدعيان القرينتين ، فوجب أن تُجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى ؛ للوصف الذى لزمهما من الاقتران ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ .

الثالثـــة — قال ابن العربيّ : هذا دليل على أن القياس أصلٌ فى الدين، ألا ترى إلى عثمان وأعيانِ الصحابة كيف لجئوا إلى قياس الشّبه عند عدم النص، ورأوا أن قصة «براءة» شبيهة بقصة « الأنفال » فألحقوها بها؛ فإذا كان الله تعالى قد بيّن دخول القياس فى تأليف القرآن فما ظنّك بسائر الأحكام .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ تقول : برئت من الشيء أبرأ براءة فأنا منه برئ، إذا أزلته عن نفسك، وقطعت سبب ما بينك و بينه . و«براءة» رفع على خبر ابتداء مضمر، تقديره هـذه براءة . ويصح أن ترفع بالابتـداء . والخبر فى قوله : « إِلَى الَّذِينَ » . وجاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة فتعرّفت تعريفا مّا وجاز الإخبار عنهـا . وقرأ عيسى بن عمر « براءةً » بالنصب ، على تقدير التزموا براءة ، ففيها معنى الإغراء . وهى مصـدر على فَعالة ؛ كالشّناءة والدّناءة .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يعنى إلى الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان المتولّى للعقود، وأصحابُه بذلك كلهم راضون؛ فكأنهم عاقدوا وعاهدوا فنُسب العقد إليهم . وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم منسوبٌ إليهم محسوبٌ عليهم يؤاخذون به ، إذ لا يمكن غير ذلك ؛ فإن تحصيل الرضا من الجميع متعـذر . فإذا عقد الإمام لمـا يراه من المصلحة أمرًا لزم جميع الرعايا .

قوله تعـالى : فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُوا ﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب، أى قُلْ لهم سِيحُوا أى سيروا فى الأرض مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر . يقال: ساح فلان فى الأرض يَسيح سِياحة وسُيُوحا وسَيَحانا؛ ومنه السَّيْح فى المـاء الجارى المنبسط؛ ومنه قول طَرَفة بن العبد :

لو خفتُ هذا منك ما نِلْتَنِى * حتى ترى خيـلا أمامى تَسِيح

الثانيـــة — وآختلف العلمـاء فى كيفية هذا التأجيل ، وفى هؤلاء الذين بَرِئَ الله منهم ورسولُه . فقال محمد بن إسحاق وغيره : هما صِنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأُمهل تمـام أربعة أشهر، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقُصر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه . ثم هو حَرْب بعــد ذلك لله ولرسوله وللؤمنين، يُقتل حيث ما أُدرك ويُؤسر إلا أن يتوب . وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر . فأما من لم يكن له عهد فإنمـا أجله انسلاخ الأربعة الأشهر الحُرُم . وذلك خمسون يوما : عشرون من ذى الحجـة والمحرّم . وقال الكَلْبِيّ : إنمـا كانت الأربعــة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسـلم عهد دون أربعة أشهر، ومَن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهو الذى أمر الله أن يُتم له عهده بقوله «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ» وهذا آختيار الطبرى وغيره . وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما : أن هذه الآية نزلت فى أهل مكة . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشا عام الحُدَيْبِيَة، على أن يضعوا الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، فدخلت خُزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل بنو بكر فى عهد قريش، فعَدَت

بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم . وكان سبب ذلك دمًا كان لبنى بكر عند خزاعة قبل الإسلام بمدة ؛ فلما كانت الهُدْنة المنعقدة يوم الحديبية، أمِن الناس بعضهم بعضا؛ فآغتنم بنو الدِّيل من بنى بكر — وهم الذين كان الدم لهم — تلك الفرصةَ وغفلةَ خزاعة ، وأرادوا إدراكَ ثأر بنى الأسود بن رزن[1]، الذين قتلهم خزاعة ، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلى فيمن أطاعه من بنى بكر بن عبد مَناة، حتى بيّتوا[2] خزاعة واقتتلوا، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم ؛ فآنهزمت خزاعة إلى الحَرَم على ما هو مشهور مسطور[3]؛ فكان ذلك نقضا للصلح الواقع يوم الحديبية، فخرج عمرو بن سالم الخزاعى وبُديل بن وَرْقاء الخزاعىّ وقوم من خزاعة، فقدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغيثين به فيما أصابهم به بنو بكر وقريش، وأنشده عمرو بن سالم فقال :

يا ربِّ إنى ناشـدٌ محمّدا * حِلْفَ أبينا وأبيـه الأَتْلَدَا
كنتَ لنا أبًا وكنّا وَلَدَا * ثُمّتَ أسلمنا ولم ننزِع يَدَا
فآنصر هداكَ الله نصرًا عَتَدَا * وآدْعُ عبادَ الله يأتوا مَددَا
فيهم رسول الله قد تجرّدَا * أبيض مثلَ الشمس يَنْمُو صُعُدَا
إن سِيمَ خَسْفًا وجهُه تَرَبّدَا * فى فَيْلَق كالبحر يجرى مُزْبِدَا
إنّ قريشًا أخلفوك الموعِدَا * ونقضوا ميثاقـك المؤكَّدَا
وزعموا أن لستَ تدعو أحدَا * وهـم أذلّ وأقلّ عـددَا
هم بَيّتُونا بالوَتِير[4] هُجّدَا * وقَتلونا رُكّعًا وسُجّدَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا نُصرتُ إن لم أنصر بنى كعب". ثم نظر إلى سحابة فقال : " إنها لتستَهِلّ لَنصر بنى كعب " يعنى خزاعة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) فى هامش تاريخ الطبرى طبع أوربا قسم ١ ص ١٦١٩ : « رزين » .

(٢) بيت القوم والعدوّ أوقع بهم ليلا . (٣) راجع تاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام فى فتح مكة .

(٤) فى الأصول : « الحطيم » . والتصويب عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى ومعجم ياقوت وكتب الصحابة فى ترجمة «عمرو بن سالم الخزاعى» . والوتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة .

لبُديل بن ورْقاء ومن معه : " إن أبا سفيان سيأتى ليَشُدّ العقد و يزيدَ فى الصلح[1] وسينصرف بغير حاجة". فندمت قريش على ما فعلت ، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليستديم العقد و يزيد فى الصلح ، فرجع بغير حاجة كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما هو معروف من خبره . وتجهّز رسول الله صلى الله عليـــه وسلم إلى مكة ففتحها الله ، وذلك فى سنة ثمان من الهجرة . فلما بلغ هوازنَ فتحُ مكة جمعهم مالك بن عَوْف النّصْرى ، على ما هو معروف مشهور من غَزاة حُنين . وسيأتى بعضهـا . وكان الظَّفَر والنصر للسلمين على الكافرين . وكانت وقعة هوازن يوم حنين فى أوّل شوال من السنة الثامنة من الهجرة . وترك رسول الله صلى الله عليه وسـلم قَسْم الغنائم من الأموال والنساء ، فلم يقسمها حتى أتى الطائف ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وعشرين ليلة . وقيل غير ذلك . ونصب عليهم المَنْجَنيق ورماهم به ، على ما هو معروف من تلك الغَزاة . ثم آنصرف رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلى الجِعرانة ، وقسّم غنائم حُنين ، على ما هو مشهور من أمرها وخبرها . ثم آنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّقوا ، وأقام الحج للناس عَتّاب بن أَسِيد فى تلك السنة . وهو أوّل أمير أقام الحج فى الإسلام . وحج المشركون على مشاعرهم . وكان عتّاب بن أَسِيد خيّرا فاضلا ورِعا . وقدم كعب بن زُهير ابن أبى سُلْمَى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمتدحه ، وأقام على رأسه بقصيدته التى أوّلها :

* بانت سُعاد فقلبى اليوم متبول *

وأنشدها إلى آخرها ، وذكر فيها المهاجرين فأثنى عليهـم — وكان قبل ذلك قد حُفظ له هجاء فى النبىّ صلى الله عليه وسلم — فعاب عليه الأنصار إذ لم يذكرهم ؛ فغدا على النبىّ صلى الله عليه وسلم بقصيدة يمتدح فيها الأنصار فقال :

من سرّه كرم الحياة فلا يزل * فى مِقْنَب[2] من صالحى الأنصارِ
وَرِثوا المكارم كابرًا عن كابرٍ * إنّ الخيار هُمُ بَنُو الأخيارِ
المكْرِهين السّمهرىّ[3] بأذرع * كسوافل الهِنْـدِى غيرِ قِصار

(١) فى ابن هشام : « فى المدّة » . (٢) المقنب : الجماعة من الفوارس .
(٣) السمهرى : الرمح . وسافلة القناة : أعظمها وأقصرها كعوبا . والهندى : الرماح .

والناظرين بأعينٍ محْمَـرَّةٍ * كالجمْر غيرِ كَلِيلة الأبصار
والبائعين نفوسَهم لنبيِّهم * للموت يوم تَعانُقٍ وكَرَار
يتطهّرون يرونه نُسكًا لهم * بدماء مَن عَلِقوا من الكفار
دَرِبوا كما دَرِبت ببطنِ خَفِيَّةٍ * غُلْبُ الرِّقابِ من الأسود ضَوارِ (١)
وإذا حَللت ليمنعوك إليهم * أصبحتَ عند معاقل الأغفار (٢)
ضربوا عليًّا يوم بدرٍ ضربةً * دانت لوقعتها جميعُ نِزار (٣)
لو يعلم الأقوامُ عِلْمِىَ كلَّه * فيهم لصَدّقنى الذين أُمارى
قومٌ إذا خَوَت النجوم فإنهم * للطارقين النازلين مَقَارِى (٤)

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد انصرافه من الطائف ذا الحجة والمُحَرّم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة، وخرج فى رجب من سنة تسع بالمسلمين إلى غزوة الروم، غزوةِ تَبُوك . وهى آخر غزوة غزاها . قال ٱبن جريج عن مجاهد : لما ٱنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَبُوك أراد الحج ثم قال : "إنه يحضر البيتَ عُراةٌ مشركون يطوفون بالبيت فلا أُحبّ أن أحج حتى لا يكون ذلك". فأرسل أبا بكر أميرا على الحج، وبعث معه أربعين آية من صدر «براءة» ليقرأها على أهل المَوْسِم . فلما خرج دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا وقال : "اخرج بهذه القصة من صدر براءة فأذّن بذلك فى الناس إذا اجتمعوا" . فخرج علىّ على ناقة النبيّ صلى الله عليه وسلم العَضْباء حتى أدرك أبا بكر الصديق رضى الله عنهما بذى الحُلَيفة . فقال له أبو بكر لما رآه: أَميرٌ أو مأمور؟ فقال: بل مأمور ثم نهضا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية . فى كتاب النَّسائىّ عن جابر : وأن عليًّا قرأ على الناس « براءة » حتى ختمها قبل يوم التَّرْوِيَة بيوم .

---

(١) دربوا : اعتادوا . وخفية : موضع كثير الأسد . والغلب : الغلاظ الرقاب . والضوارى : اللواتى قد ضرين بأكل لحوم الناس ؛ الواحد ضار . (٢) المعاقل : الحصون . والأغفار : أولاد الأروية (الوعل) واحدها غفر .
(٣) على : هو على بن بكر بن وائل . ويقال : هو على أخوه عبد مناة بن خزيمة من أمه . وقالوا : هو على بن مسعود بن مازن . (٤) خوت : اذا لم يكن لها مطر . والمقارى : جمع مقرى ؛ الذى يقرى الضيف .

وفى يوم عرفة وفى يوم النّحر عند انقضاء خطبة أبى بكر فى الثلاثة الأيام . فلما كان يوم النَّفْر الأوّل قام أبو بكر فخطب الناس ، فحدّثهم كيف يَنفِرون وكيف يَرْمُون، يعلّمهم مناسكهم . فلما فرغ قام علىّ فقرأ على الناس «براءة» حتى ختمها . وقال سليمان بن موسى : لمـا خطب أبو بكر بعرفة قال : قُمْ يا علىّ فأدّ رسالة رسولِ الله صـلى الله عليه وسـلم، فقام علىّ ففعل . قال : ثم وقع فى نفسى أن جميع النـاس لم يشاهدوا خطبة أبى بكر، فجعلت أتتبّع الفساطيط يوم النحر . وروى التّرمـذىّ عن زيد بن يُثَيْع قال : سألت عليّـا بأىّ شىء بُعِثت فى الحج؟ قال : بعثت بأربع : ألّا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان بينه وبين النبىّ صـلى الله عليـه وسلم عهد فهو إلى مدّته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا . قال : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه النّسـائىّ وقال : فكنت أنادى حتى صَحِل[1] صوتى . قال أبو عمر : بُعث علىّ لِيَنبِذ إلى كل ذى عهد عهده ، ويَعْهَد إليهم ألّا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وأقام الحجَّ فى ذلك العام سنة تسع أبو بكر . ثم حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابلَ حَجّته التى لم يحج غيرها من المدينة، فوقعت حَجته فى ذى الحجة . فقال : " إن الزمان قد ٱستدار" الحديث ، على ما يأتى فى آية النَّسِىء[2] بيانه . وثبت الحج فى ذى الحجة إلى يوم القيامة . وذكر مجاهد : أن أبا بكر حج فى ذى القَعدة من ســنة تسع . ٱبن العرَبِىّ : وكانت الحكمة فى إعطاء «براءة» لعلىّ أن براءة تضمّنت نقض العهد الذى كان عقده النبىّ صلى الله عليه وسلم، وكانت سيرة العرب ألّا يَحُلّ العقد إلا الذى عقده، أو رجل من أهل بيته؛ فأراد النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يقطع ألسنة العرب بالحجة ، ويرسل ٱبن عمه الهـاشمىّ من بيته ينقض العهد، حتى لا يبقى لهم متكلّم . قال معناه الزجاج .

الثالثــة — قال العلمـاء : وتضمّنت الآية جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين . ولذلك حالتان : حالة تنقضى المُدّةُ بيننا وبينهــم فنؤذنهم بالحرب . والإيذان اختيار .

(١) الصحل : حدة الصوت مع بحح .

(٢) فى قوله تعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر... » آية ٣٧ من هذه السورة .

والثانية — أن نخاف منهم غدرا؛ فننبِذ إليهم عهدهم كما سبق . ٱبن عباس : والآية منسوخة؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم عاهد ثم نبذ العهد لمّا أمر بالقتال .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ ﴾ الأذان : الإعلام لغةً من غير خلاف . وهو عطف على «براءة» . ﴿ إِلَى النَّاسِ ﴾ الناسُ هنا جميع الخلق . ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ ظرف ، والعامل فيه « أذان » . وإن كان قد وصفه بقوله : « مِنَ اللهِ »؛ فإن رائحة الفعل فيه باقية ، وهى عاملة فى الظروف . وقيل : العامل فيه « مُخْزِى » . ولا يصح عمل « أذان »؛ لأنه قد وصف فخرج عن حكم الفعل .

الثانيـــة — وٱختلف العلماء فى الحج الأكبر؛ فقيل يوم عرفة . رُوى عن عمر وعثمان وابن عباس وطاوس ومجاهد . وهو مذهب أبى حنيفة ، وبه قال الشافعىّ . وعن علىّ وابن عباس أيضا وابن مسعود وٱبن أبى أَوْفَى والمُغيرة بن شعبة أنه يوم النَّحر . واختاره الطبرى . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر فى الحَجّة التى حج فيها فقال : "أىّ يوم هذا" فقالوا : يوم النحر . فقال : "هذا يوم الحج الأكبر" . أخرجه أبو داود . وخرّج البخارىّ عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر الصديقُ رضى الله عنه فيمن يؤذّن يوم النحر بِمِنًى : لا يحجُّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ويومُ الحج الأكبر يومُ النحر . وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام؛ فلم يحج عامَ حَجّة الوداع الذى حج فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم مشرك . وقال ٱبن أبى أَوْفَى : يومُ النحر يوم الحج الأكبر ، يهراق فيه الدم ، ويوضع فيه الشَّعْر ، ويُلْقَى فيه التَّفَث ،

وتَحِلّ فيه الحُرَم . وهــذا مذهب مالك ؛ لأن يوم النحر فيه الحج كله؛ لأن الوقوف إنمـا هو في ليلتـه ، والرَّمْيُ والنحرُ والحَلْق والطوافُ في صبيحته . احتجّ الأولون بحـديث مَخْرَمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يومُ الحج الأكبر يومُ عرفة " . رواه إسمـاعيل القاضي . وقال الثَّورِيّ وابن جُريج : الحج الأكبر أيامُ مِنًى كلُّها . وهــذا كما يقال : يوم صِفِّين ويوم الجَمَل ويوم بُعاث (١) ؛ فيراد به الحِين والزمان لا نفس اليوم . وروى عن مجاهد : الحج الأكبر القِران (٢) ، والأصغر الإفراد . وهــذا ليس من الآية في شيء . وعنه وعن عَطاء : الحج الأكبر الذي فيه الوقوف بعرفة ، والأصغر العُمْرة . وعن مجاهد أيضا : أيامُ الحج كلُّها . وقال الحسن وعبد الله بن الحارث بن نَوفل : إنما سُمِّيَ يومُ الحج الأكبر لأنه حج ذلك العامَ المسلمون والمشركون ، وٱتفقت فيه يومئذ أعياد المِلَل : اليهودِ والنصارى والمجوس . قال ٱبن عطية : وهذا ضعيف أن يصفه الله عز وجل في كتابه بالأكبر لهذا . وعن الحسن أيضا : إنمـا سُمِّيَ الأكبر لأنه حجّ فيه أبو بكر ونُبِذت فيه العهود . وهو الذي يشبه نظر الحسن . وقال ٱبن سيرين : يوم الحج الأكبر العامُ الذي حج فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم حَجة الوداع ، وحجّت معه فيه الأمم .

الثالثـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ « أن » بالفتح في موضع نصب . والتقدير بأن الله . ومن قرأ بالكسر قدّره بمعنى قال إن الله . « بريء » خبر أنّ . « ورسوله » عطف على الموضع ، وإن شئت على المضمر المرفوع في « بريء » . كلاهما حسن ؛ لأنه قد طال الكلام . وإن شئت على الابتداء والخبر محذوف ؛ التقدير : ورسوله بريء منهم . ومن قرأ « ورسولَه » بالنصب ـــ وهو الحسن وغيره ـــ عطف على اسم الله عز وجل

(١) صفين (بكسرتين وتشديد الفاء) : موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات . كان فيه وقعة بين علي رضي الله عنه ومعاوية في سنة ٣٧ هـ .

ويوم الجمل كان فيــه وقعة بين علي وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما ؛ قتل فيــه عدة من الصحابة وغيرهم . وكان في سنة ٣٦ هـ .

يوم بعاث (بضم أوله والعين المهملة ، وحكاه بعضهم بالغين المعجمة) : موضع من المدينــة على ليلتين . كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية .

(٢) القران (بالكسر) : الجمع بين الحج والعمرة . والإفراد : هو أن يحرم بالحج وحده .

على اللفظ . وفى الشـواذ « ورسولِهِ » بالخفض على القسم ؛ أى وحقّ رسوله ؛ ورُويت عن الحسن . وقد تقدمت قصة عمر فيها أول الكتاب . ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ أى عن الشرك . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى أنفع لكم . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى عن الإيمان . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ﴾ أى فائتيه ؛ فإنه محيط بكم ومنزل عقابه عليكم .

قوله تعالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فى موضع نصب بالاستثناء المتصل؛ المعنى : أن الله بريء من المشركين إلا من المعاهدين فى مدة عهدهم . وقيل : الاستثناء منقطع ؛ أى أن الله بريءٌ منهم ولكن الذين عاهدتم فثبتوا على العهد فأتمّوا إليهم عهدهم . وقوله : « ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ » يدلّ على أنه كان من أهل العهد من خاس[1] بعهده ومنهم من ثبت على الوفاء ؛ فأذن الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى نقض عهد من خاس ، وأمر بالوفاء لمن بقى على عهده إلى مدّته . ومعنى « لَمْ يَنْقُصُوكُمْ » أى من شروط العهد شيئا . ﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا ﴾ لم يعاونوا . وقرأ عِكرمة وعطاء بن يَسار « ثم لم ينقضوكم » بالضاد معجمة على حذف مضاف ؛ التقدير ثم لم ينقضوا عهدهم . يقال : إن هذا مخصوص يراد به بنو ضَمْرة خاصّةً . ثم قال : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ أى وإن كانت أكثر من أربعة أشهر .

قوله تعالى : فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فيه ست مسائل :

(١) خاس عهده وبعهده : نقضه .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ أى خرج . وسلختُ الشهرَ إذا صِرت فى أواخر أيامه ، تَسْلَخه سلخا وسلوخا بمعنى خرجت منه . وقال الشاعر :

إذا ما سلختُ الشهـرَ أهللتُ قبله[1] * كفى قاتلا سلخى الشهور و إهلالى

وآنسلخ الشهر وآنسلخ النهـار من الليل المقبل . وسلخت المرأة درعها نزعته . وفى التـنزيل «وآيَةٌ لَهُـمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ»[2] . ونخلة مِسلاخ، وهى التى ينتثر بُسْرها أخضر .

والأشهر الحرم فيها للعلماء قولان : قيل هى الأشهر المعروفة ، ثلاثةٌ سَرْدٌ وواحد فَرْد . قال الأصم : أريد به من لا عَقد له من المشركين؛ فأوجب أن يمسك عن قتالهم حتى ينسلخ الحُرُم ؛ وهو مدة خمسين يوما على ما ذكره آبن عبـاس ؛ لأن النداء كان بذلك يوم النحر . وقد تقدم هذا . وقيل : شهور العهد أربعة ؛ قاله مجاهد وابن إسحـاق وابن زيد وعمرو بن شعيب . وقيل لهـا حُرُم لأن الله حرّم على المؤمنين فيهـا دماءَ المشركين والتعرُّض لهم إلا على سبيل الخير .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عامٌّ فى كل مشرك، لكن السُّنّة خصّت منه ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة »[3] من آمرأة وراهب وصبيّ وغيرهم . وقال الله تعـالى فى أهل الكتاب : «حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ»[4] . إلا أنه يجوز أن يكون لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب، ويقتضى ذلك منعَ أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم ، على ما يأتى بيانه . وآعلم أن مطلق قوله : « اقتلوا المشركين » يقتضى جواز قتلهم بأىّ وجه كانـ ؛ إلا أن الأخبـار وردت بالنَّهى عن المُثْلة . ومع هذا فيجوز أن يكون الصدّيق رضى الله عنه حين قتل أهل الرِّدة بالإحراق بالنار ، و بالحجارة و بالرمى من رءوس الجبال ، والتنكيس فى الابار ، تعلّق بعموم الآية . وكذلك إحراق علىّ رضى الله عنه قوما من أهل الرِّدة يجوز أن يكون ميلا إلى هذا المذهب ، واعتمادا على عموم اللفظ . والله أعلم .

---

(١) فى اللسان والبحر المحيط : « أهللت مثله » .
(٢) آية ٣٧ سورة يس .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٤٨ طبعة ثانية .
(٤) آية ٢٩ من هذه السورة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ عامٌّ في كل موضع . وخصّ أبو حنيفة رضي الله عنه المسجد الحرام؛ كما سبق في سورة « البقرة »(١) . ثم اختلفوا ؛ فقال الحسين بن الفضل : نسخت هذه كلَّ آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء . وقال الضحاك والسدّيّ وعطاء : هي منسوخة بقوله : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »(٢) . وأنه لا يُقتل أسير صَبْرًا؛ إما أن يُمَنّ عليه وإما أن يُفادى . وقال مجاهد وقتادة : بل هي ناسخة لقوله تعالى : «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً» وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل . وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان . وهو الصحيح؛لأن المَنّ والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من أوّل حرب حاربهم؛ وهو يوم بدر كما سبق . وقوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ يدلّ عليه . والأخذ هو الأسر . والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المنّ على ما يراه الإمام . ومعنى ﴿ احْصُرُوهُمْ ﴾ يريد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكم؛ إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ المرصد : الموضع الذي يُرقب فيه العدوّ؛ يقال : رصدت فلانا أرْصُده، أي رَقَبْته . أي اقعدوا لهم في مواضع الغِرّة حيث يُرصَدون . قال عامر بن الطُّفَيل :

ولقد علمت وما إخالك ناسيا * أن المنيّة للفتى بالمَرْصَد

وقال عَدِيّ(٣) :

أعاذلَ إن الجهل من لَذّة الفتَى * وإن المنايا للنفوس بمَرْصَد

وفي هذا دليل على جواز اغتيالهم قبل الدعوة . ونصب « كلّ » على الظرف ، وهو اختيار الزجاج ؛ ويقال : ذهبت طريقا وذهبت كلَّ طريق . أو بإسقاط الخافض؛ التقدير : في كل مَرْصد وعلى كلّ مرصد ؛ فيُجعل المرصد اسما للطريق . وخطّأ أبو عليّ الزجاجَ

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥١ طبعة ثانية . (٢) آية ٤ سورة محمد .

(٣) في الأصول : « النابغة » والتصويب عن اللسان .

فى جعله الطريق ظرفا وقال : الطريق مكان مخصوص كالبيت والمسجد ؛ فلا يجوز حذف حرف الجر منه إلا فيما ورد فيه الحذف سماعا؛ كما حكى سيبويه : دخلت الشام ودخلت البيت؛ وكما قيل :

* كما عَسَل الطريقَ الثعلب (١) *

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ أى من الشرك . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم ﴾ هذه الآية فيها تأمل ؛ وذلك أن الله تعـالى علّق القتل على الشرك، ثم قال : « فإن تابوا » . والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله ؛ وذلك يقتضى زوال القتل بمجرّد التوبة، من غير اعتبـار إقامة الصلاة وإيتـاء الزكاة؛ ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة . وهـذا بيّن فى هذا المعنى؛ غير أن الله تعـالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين؛ فلا سبيل إلى إلغائهما . نظيره قوله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عَصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصـلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المـال . وقال ابن عبـاس : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه . وقال ابن العربىّ : فٱنتظم القرآن والسنة وٱطّردا . ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحِلاًّ كفر ، ومن ترك السُّـنَن متهاونا فسَق، ومن ترك النوافل لم يَحْرَج؛ إلا أن يجحد فضلها فيكفر، لأنه يصير رادّا على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنـه . وٱختلفوا فيمن ترك الصلاة من غير جَحْد لهـا ولا استحلال ؛ فروى يونس ٱبن عبد الأعلى قال : سمعت ابن وهب يقول قال مالك : من آمن بالله وصدّق المرسلين وأبى أن يصلّى قُتل؛ وبه قال أبو ثَور وجميع أصحاب الشافعىّ . وهو قول حماد بن زيد ومكحول ووَكيع . وقال أبو حنيفة : يسجن ويضرب ولا يقتل؛ وهو قول ابن شهاب وبه يقول داود ٱبن علىّ . ومن حجتهم قوله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله

(١) القائل هو ساعدة بن جُؤَيّة، وتمامه كما فى اللسان وكتاب سيبويه :

لدن بهز الكف يعسل متنه * فيه كما عسـل ... ...

إلا الله فإذا قالوا ذلك عَصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقّها" . وقالوا : حقّها الثلاث التى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يحلّ دمَ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كُفْرٌ بعد إيمان أو زِنًى بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس" . وذهبت جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن من ترك صلاة واحدة متعمّدا حتى يخرج وقتها لغير عذر، وأبى من أدائها وقضائها وقال لا أصلى فإنه كافر، ودَمُه ومالُه حلالان ، ولا يرثه ورثته من المسلمين، ويستتاب ؛ فإن تاب وإلا قُتل، وحُكْمُ ماله كحكم مال المرتدّ ؛ وهو قول إسحاق . قال إسحاق : وكذلك كان رأى أهل العلم من لَدُن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا.وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : واختلف أصحابنا متى يُقتل تارك الصلاة؛ فقال بعضهم فى آخر الوقت المختار ، وقال بعضهم آخر وقتِ الضرورة، وهو الصحيح من ذلك . وذلك أن يبقى من وقت العصر أربع ركعات إلى مغيب الشمس، ومن الليل أربع ركعات لوقت العشاء، ومن الصبح ركعتان قبل طلوع الشمس . وقال إسحاق : وذهاب الوقت أن يؤخر الظُّهر إلى غروب الشمس، والمغرب إلى طلوع الفجر .

السادسة — هذه الآية دالّة على أن من قال : قد تُبت أنه لا يجتزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحقِّقة للتوبة؛ لأن الله عز وجل شرط هنا مع التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليحقق بهما التوبة . وقال فى آية الربا : « وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ »(1) . وقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا »(2) وقد تقدّم معنى هذا فى سورة البقرة .

قوله تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى من الذين أمرتُك بقتالهم . ﴿ اسْتَجَارَكَ ﴾ أى سأل جِوارك؛ أى أمانك وذِمامك، فأعطه إيّاه ليسمع القرآن؛ أى يفهم

(1) آية ٢٧٩ سورة البقرة . (2) راجع جـ ٢ ص ١٨٧ طبعة ثانية .

أحكامه وأوامره ونواهيه . فإن قَبِل أمرا فحَسَن ، وإن أبَى فردّه إلى مَأْمنه . وهــذا ما لا خلاف فيه، والله أعلم . قال مالك : إذا وُجد الحربِيّ فى طريق بلاد المسلمين فقال : جئت أطلب الأمان . قال مالك : هذه أمور مشتبهة، وأرى أن يُرَدّ إلى مأمنه . وقال ابن القاسم : وكذلك الذى يوجد وقد نزل تاجرا بساحلنا فيقول : ظننت ألّا تَعرِضــوا لمن جاء تاجرا حتى يبيع . وظاهر الآية إنمـا هى فيمن يريد سماع القرآن والنظر فى الإسلام ؛ فأما الإجارة لغير ذلك فانما هى لمصلحة المسلمين والنّظر فيما تعود عليهم به منفعته .

الثانيـــة ــــ ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز؛ لأنه مقدَّم للنظر والمصلحة ، نائبٌ عن الجميـع فى جلب المنافع ودفع المضار . وٱختلفوا فى أمان غير الخليفة ؛ فالحـرّ يُمْضَى أمانُه عند كافة العلماء . إلا أن ٱبن حبيب قال : ينظر الإمام فيه . وأما العبد فله الأمان فى مشهور المذهب؛ وبه قال الشافعىّ وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعىّ والثّورىّ وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة : لا أمان له ؛ وهو القول الثانى لعلمائنا . والأول أصح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم" . قالوا : فلما قال "أدناهم" جاز أمان العبد، وكانت المرأة الحُرّة أحْرَى بذلك، ولا اعتبار بعلّة "لا يسهم له" . وقال عبد الملك بن المـاجِشُون : لا يجوز أمان المرأة إلا أن يجيزه الإمام، فشذّ بقوله عن الجمهور . وأما الصبيّ فإذا أطاق القتال جاز أمانه؛ لأنه من جمـلة المقاتِلة ، ودخل فى الفِئة الحامية . وقد ذهب الضّحاك والسُّــدّى إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : « فاقتــلوا المشرِكين » . وقال الحسن : هى مُحْكَمَة سُــنّة[(١)] إلى يوم القيامة ؛ وقاله مجاهد . وقيل : هذه الآية إنمـا كان حكمها باقيا مدّة الأربعة الأشهر التى ضُربت لهم أجلا ، وليس بشىء . وقال سعيد بن جُبـير : جاء رجل من المشركين إلى علىّ بن أبى طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قُتل!

---

(١) كذا فى أكثر نسخ الأصل وتفسير ابن عطية . وفى نسخة من الأصل : « منبة » وهى غير واضحة المعنى، ولم نوفق لتصويبها ؛ لأن هذه الكلمة غير موجودة فى قول الحسن بالمصادر التى بين أيدينا على كثرتها .

فقال عليّ بن أبي طالب : لا ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : « وَإِن أَحَدٌ مِن المشركين استجارك فأجره حتى يسمعَ كلامَ اللهِ » . وهذا هو الصحيح . والآية مُحْكَمَة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ ﴾ « أحد » مرفوع بإضمار فعل كالذي بعده. وهذا حَسَن في « إنْ » وقبيح في أخواتها . ومذهب سيبويه في الفرق بين « إن » وأخواتها ، أنها لما كانت أمّ حروف الشرط خُصّت بهذا ، ولأنها لا تكون في غيره . وقال محمد بن يزيد : أما قوله « لأنها لا تكون في غيره » فغلط؛ لأنها تكون بمعنى (ما) ومخففة من الثقيلة ولكنها مبهمة، وليس كذا غيرها . وأنشد سيبويه :

لا تَجْــزَعِي إن مُنْفِسًا أهلكْتُهُ　＊　وإذا هلكتُ فعند ذلك فَٱجْزَعِي(١)

الرابعة — قال العلماء : في قوله تعالى ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ دليلٌ على أن كلام الله عز وجل مسموع عند قراءة القارئ؛ قاله الشيخ أبو الحسن والقاضي أبو بكر وأبو العباس القلانسي وابن مجاهد وأبو إسحاق الإسْفراينى وغيرهم؛ لقوله تعالى : «حتّى يسمعَ كلام اللهِ». فنصّ على أن كلامه مسموع عند قراءة القارئ لكلامه . ويدلّ عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب أو سورة قالوا : سمعنا كلام الله . وفرّقوا بين أن يُقرأ كلام الله تعالى وبين أن يُقرأ شعر ٱمرئ القيس . وقد مضى في سورة «البقرة»(٢) معنى كلام الله تعالى، وأنه ليس بحرف ولا صوت، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٧)

---

(١) البيت للنمر بن تولب . وصف أن امرأته لامته على إتلاف ماله جزعا من الفقر ؛ فقال لها : لا تجزعى من اهلاكي لنفيس المال ، فاني كفيل بإخلافه بعد التلف ؛ واذا هلكت فاجزعى فلا خلف لك منى . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع جـ ٢ ص ١ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كيف هنا للتعجب ؛ كما تقول : كيف يسبقنى فلان ! أى لا ينبغى أن يسبقنى . و «عهد» اسم يكون . وفى الآية إضمار، أى كيف يكون للشركين عهد مع إضمار الغدر؛ كما قال :

وخبّرتمانى أنما الموت بالقرى * فكيف وهاتا هضبةٌ وكثيبُ[1]

التقدير : فكيف مات؛ عن الزجاج . وقيل : المعنى كيف يكون للشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه غدا، وكيف يكون لهم عند رسوله عهد يأمنون به عذاب الدنيا . ثم استثنى فقال : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . قال محمد بن إسحاق : هم بنو بكر؛ أى ليس العهد إلا لهؤلاء الذين لم ينقضوا ولم ينكثوا .

قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أى فما أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك . ابن زيد : فلم يستقيموا فضرب لهم أجلا أربعة أشهر . فأما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب .

قوله تعالى : كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم عهد مع خُبث أعمالهم؛ أى كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمّة . يقال : ظهرتُ على فلان أى غلبته، وظهرت البيت علوته؛ ومنه « فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ »[2] أى يعلو عليه .

---

(١) كذا فى الأصول والبحر . والذى فى شواهد سيبويه وجمهرة أشعار العرب : «وقليب» قال الشنتمرى : «واراد بالقليب القبر؛ وأصله البئر . كأنه حذر من وباء الأمصار وهى القرى، فخرج الى البادية فرأى قبرا فعلم أن الموت لا ينجى منه، فقال هذا منكرا على من حذره من الاقامة بالقرى .

(٢) آية ٩٧ سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ « يرقبوا » يحافظوا . والرقيب الحافظ . وقد تقدم[(١)] . « إلًّا » عهدا ؛ عن مجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا : هو آسم من أسماء الله عز وجل . ابن عباس والضحاك : قرابة . الحسن : جِوارا . قتادة : حِلْفًا ، و « ذِمّةً » عهدا . أبو عبيدة : يمينا . وعنه أيضا : إلًّا العهد ، والذمة التذمم . الأزهرى : آسم الله بالعبرانية ، وأصله من الأليل وهو البريق ؛ يقال : ألّ لونه يؤُل ألًّا ، أى صَفَا ولَمَع . وقيل : أصله من الحدّة ؛ ومنه الألّة للحربة ؛ ومنه أذُن مُؤَلَّلة أى محدّدة . ومنه قول طَرَفَة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدّة والانتصاب :

مُؤَلَّلتان تعرف العِتْق فيهما * كسامِعَتَىْ شاةٍ بحَوْمَل مُفْرَدِ[(٢)]

فإذا قيل للعهد والجِوار والقرابة « إلّ » فمعناه أن الأُذُن تُصرف إلى تلك الجهة ؛ أى تحدّد لها . والعهد يسمّى « إلًّا » لصفائه وظهوره . ويجمع فى القلة آلال ، وفى الكثرة إلال . وقال الجوهرى وغيره : الإلّ بالكسر هو الله عز وجل ، والإلّ أيضا العهد والقرابة . قال حسان :

لعمرُك إنّ إلَّكِ من قريش * كإلّ السَّقْب من رَأْل النَّعام[(٣)]

قوله تعالى : ﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ أى عهدا . وهى كلّ حُرمة يلزمك إذا ضيّعتها ذنب . قال ابن عباس والضحاك وابن زيد : الذِّمة العهد . ومن جعل الإلّ العهد فالتكرير لاختلاف اللفظين . وقال أبو عبيدة مَعْمَر : الذمة التذمّم . وقال أبو عبيد : الذمة الأمان فى قوله عليه السلام : "ويسعى بذمتهم أدناهم" . وجمع ذِمّة ذِمم . وبئر ذَمّة (بفتح الذال) قليلة الماء ؛ وجمعها ذِمام . قال ذو الرُّمّة :

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) السامعتان : الأذنان . والمراد بالشاة هنا : الثور الوحشى . وحومل : اسم رملة . شبه أذنيها بأذنى ثور وحشى لتحديدهما وصدق سمعهما ؛ وأذن الوحشى أصدق من عينيه . وجعله « مفردا » لأنه أشدّ لسمعه وارتياعه . (عن شرح الديوان) .

(٣) السقب : ولد الناقة . والرأل : ولد النعام .

على حِمْيَرِيّات كأنّ عيونها * ذِمامِ الرّكايا أنكزتْها المَوَاتِحُ (١)

أنكزتها أذهبت ماءها . وأهل الذمة أهل العقد .

قوله تعالى : ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي يقولون بألسنتهم ما يُرضي ظاهره (٢) . ﴿ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي ناقضون العهد . وكلّ كافر فاسق ، ولكنه أراد هاهنا المجاهرين بالقبائح ونقض العهد .

قوله تعالى : ٱشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

يعني المشركين في نقضهم العهود بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان؛ قاله مجاهد . وقيل : إنهم استبدلوا بالقرآن متاع الدنيا . ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي أعرضوا ؛ من الصدود . أو منعوا عن سبيل الله؛ من الصّدّ .

قوله تعالى : لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

قال النحاس : ليس هذا تكريرا، ولكن الأوّل لجميع المشركين والثاني لليهود خاصّة . والدليل على هذا «آشتروا بآيات الله ثمنا قليلا» يعني اليهود؛ باعُوا حجج الله عز وجل وبيانه بطلب الرياسة وطمعٍ في شئ . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ أي المجاوزون الحلال إلى الحرام بنقض العهد .

قوله تعالى : فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

(١) الحميريات : ابل منسوبة الى حمير، وهي قبيلة من اليمن . الركايا : جمع ركية ، وهي البئر . والمواتح : جمع ماتح ، وهو الذي يسق من البئر . وصف إبلا غارت عيونها من الكلال .

(٢) في الأصول : « ما لا يرضى » وهو تحريف .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ أى عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام . ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم فى الدِّين . قال ٱبن عباس : حرّمت هذه دماءَ أهل القبلة . وقد تقـدّم هـذا المعنى . وقال ٱبن زيد : ٱفترض الله الصـلاة والزكاة وأبى أن يفرّق بينهمـا ، وأبى أن يقبل الصـلاة إلا بالزكاة . وقال ٱبن مسعود : أُمِرتم بالصـلاة والزكاة فمن لم يزكّ فلا صلاة له . وفى حديثٍ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من فرّق بين ثلاث فرّق الله بينه وبين رحمتـه يوم القيامة من قال أطيع الله ولا أطيع الرسول والله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» ومن قال أقيم الصلاة ولا أوتى الزكاة والله تعالى يقول: « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ومن فرّق بين شكر الله وشكر والديه والله عز وجل يقـول : « أن ٱشْكُرْ لِى ولوالدَيْك » " .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أى نبيّنهـا . ﴿ لقومٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصّهم لأنهم هم المنتفعون بها . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا ﴾ النّكْث النقض؛ وأصله فى كل ما فُتِل ثم حُلّ. فهى فى الأيمان والعهود مستعارة . قال :

وإن حلَفتْ لا ينقض النّأْىُ عهدها * فليس لمخضوب البَنَان يمين

أى عهـد . وقوله : ﴿ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ ﴾ أى بالاستنقـاص والحرب وغير ذلك ممـا يفعله المشرك . يقال : طعَنه بالرمح وطعن بالقول السيئ فيـه يَطْعُن ، بضم العين فيهما . وقيل : يَطْعُن بالرمح (بالضم) ويَطْعَن بالقول (بالفتح) . وهى هنا ٱستعارة ؛ ومنه قوله صلى الله عليـه

وسلم حين أمّر أسامة : " إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبلُ وآيمُ الله إن كان لخليقا للإمارة ". خرّجه الصحيح .(١)

الثانيـــة — استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كلّ من طعن فى الدِّين ؛ إذ هو كافر . والطعن أن ينسب إليـه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ؛ لمـا ثبت من الدليل القطعى على صحة أصوله وآستقامة فروعه . وقال آبن المنـذر : أجمع عامّة أهل العلم على أن من سب النبيّ صلى الله عليـه وسلم عليه القتل . وممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق ، وهـو مذهب الشافعىّ . وقـد حُكى عن النعمان أنه قال : لا يُقتل مَن سبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل الذّمة ؛ على ما يأتى . وروى أن رجلا قال فى مجلس علىّ : ما قُتـل كعب بن الأشرف إلا غدرا ؛ فأمر علىّ بضرب عنقه . وقاله آخر فى مجلس معاوية فقام محمد بن مسـلمة فقال : أيقال هـذا فى مجلسك وتسكت ! والله لا أساكنك تحت سقف أبدا ، ولئن خلوتُ به لأقتلنّـه . قال علمـاؤنا : هـذا يقتل ولا يستتاب إن نسب الغدر للنبيّ صلى الله عليـه وسلم . وهو الذى فهمه علىّ ومحمد بن مسـلمة رضوان الله عليهما مِن قائل ذلك ؛ لأن ذلك زندقة . فأمّا إن نسبه للباشرين لقتـله بحيث يقول : إنهم أمّنوه ثم غدروه لكانت هذه النسبة كذبا محضا ؛ فإنه ليس فى كلامهم معه مايدل على أنهم أمّنوه ولا صرّحوا له بذلك ، ولو فعلوا ذلك لمـا كان أمانا ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا وجّههم لقتله لا لتأمينه ، وأذن لمحمد بن مسلمة فى أن يقـول . وعلى هذا فيكون فى قتل من نسب ذلك لهم نظر وتردّد . وسببه هل يلزم من نسبة الغدر لهم نسبتُه للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد صوّب فعلهم ورضى به فيلزم منه أنه قد رضى بالغدر ومن صرّح بذلك قتل ، أو لا يلزم من نسبة الغـدر لهم نسبته للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يُقتـل . وإذا قلنا لا يقتل ، فلا بُدّ من تنكيل ذلك القائل وعقوبتـه بالسجن ، والضرب الشـديد والإهانة العظيمـــة .

---

(١) راجع صحيح مسلم (كتاب الفضائل) .

الثالثة — فأما الذمّيّ إذا طعن فى الدين ٱنتقض عهده فى المشهور من مذهب مالك؛ لقوله : « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهم » الآية . فأمر بقتلهم وقتالهم . وهو مذهب الشافعيّ رحمه الله . وقال أبو حنيفة فى هذا : إنه يستتاب ، وإنّ مجرّد الطعن لا ينقض به العهد إلا مع وجود النّكْث؛ لأن الله عز وجل إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما نقضهم العهد، والثانى طعنهم فى الدين . قلنا : إن عَمِلوا بما يخالف العهد انتقض عهدهم، وذِكر الأمرين لايقتضى توقّف قتاله على وجودهما ؛ فإن النكث يبيح لهم ذلك بانفراده عقلا وشرعا . وتقدير الآية عندنا : فإن نكثوا عهدهم حلّ قتالهم ، وإن لم ينكثوا بل طعنوا فى الدّين مع الوفاء بالعهد حل قتالهم . وقد رُوى أن عمر رُفع إليه : ذِمّيٌّ نخس دابة عليها ٱمرأة مسلمة فرَمَحت فأسقطتها فانكشف بعض عورتها ؛ فأمر بصلبه فى الموضع .

الرابعة — إذا حارب الذمّى نُقض عهده وكان ماله وولده فَيْئاً معه . وقال محمد ابن مسلمة: لا يؤاخذ ولده به ؛ لأنه نقض وحده . وقال : أمّا مالُه فيؤخذ . وهذا تعارض لا يشبه منصِب محمد بن مسلمة ؛ لأن عهده هو الذى حمى ماله وولده ؛ فإذا ذهب عنه ماله ذهب عنه ولده . وقال أشهب: إذا نقض الذّمى العهد فهو على عهده ولا يعود فى الرق أبدا . وهذا من العجب؛ وكأنه رأى العهد معنًى محسوسا . وإنما العهد حكم اقتضاه النظر ، والتزمه المسلمون له ؛ فإذا نقضه انتقض كسائر العقود .

الخامسة — أكثر العلماء على أن مَن سبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة ، أو عَرّض أو استخفّ بقدره أو وصفه بغير الوجه الذى كفر به فإنه يقتل؛ فإنا لم نعطه الذّمة أو العهد على هذا . إلا أبا حنيفة والثّورىّ وأتباعَهما من أهل الكوفة فإنهم قالوا : لا يقتل ، ما هو عليه من الشرك أعظم ، ولكن يؤدّب ويُعزّر . والحجة عليه قوله تعالى : « وإنْ نَكَثُوا » الآية . واستدلّ عليه بعضهم بأمره صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف وكان معاهدًا . وتغيّظ أبو بكر على رجل من أصحابه فقال أبو بَرْزة : ألَا أضرب عنقه . فقال : ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس : أن رجلا أعمى كانت له

أمّ ولد، له منها ابنان مثل اللؤلؤتين، فكانت تشتُم النبيّ صلى الله عليه وسلم وتقع فيه، فينهاها فلم تنته، ويزجرها فلم تنزجر، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبيّ صلى الله عليه وسلم فما صَبَر سيّدها أن قام إلى مِعْول فوضعه فى بطنها، ثم آتكأ عليها حتى أنفذه. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ألَا آشهدوا إن دمها هدر". وفى رواية عن ابن عباس: فقتلها، فلما أصبح قيل ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فقام الأعمى فقال: يا رسول الله، أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهى، وأزجرها فلا تنزجر، ولى منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بى رفيقة، فلما كان البارحة جعلتْ تشتمك وتقع فيك فقتلتها؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ألَا اشهدوا إن دمها هدر".

السادســة — واختلفوا إذا سبّه ثم أسلم تَقيّة من القتل؛ فقيل: يُسقط إسلامُه قتلَه؛ وهو المشهور من المذهب؛ لأن الإسلام يَجُبّ ما قبله. بخلاف المسلم إذا سبّه ثم تاب؛ قال الله عز وجل: « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ »(١). وقيل: لا يُسقط الإسلامُ قتلَه؛ قاله فى العُتْبِيّة؛ لأنه حقٌّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم وجب لانتهاكه حرمته وقصدِه إلحاق النقيصة والمعرّة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذى يسقطه، ولا يكون أحسنَ حالا من المسلم.

السابعــة — قوله تعالى: ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ « أئمة » جمع إمام، والمراد صناديد قريش — فى قول بعض العلماء — كأبى جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف. وهذا بعيد؛ فإن الآية فى سورة « براءة » وحين نزلت وقُرِئت على الناس كان الله قد آستأصل شأفة قريش فلم يبق إلا مسلم أو مسالم؛ فيحتمل أن يكون المراد « فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ». أى من أقدم على نكث العهد والطعنِ فى الدين يكون أصلا ورأسا فى الكفر؛ فهو من أئمة الكفر على هذا. ويحتمل أن يعنى به المقدَّمون والرؤساء منهم، وأن قتالهم قتالٌ لأتباعهم وأنهم لا حُرْمة لهم. والأصل أأْمِمَة كمثال وأمثلة، ثم أدغمت الميم فى الميم وقُلبت الحركة على الهمزة فاجتمعت

(١) آية ٣٨ سورة الأنفال.

همزتان، فأبدلت من الثانية ياء . وزعم الأخفش أنك تقول : هـذا أَيَمّ من هذا، بالياء . وقال المـازنيّ: أَوَمّ من هذا، بالواو . وقرأ حمزة « أئمة » . وأكثر النحويين يذهب إلى أن هـذا لحن[1]؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة . ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَـانَ لَهُمْ ﴾ أي لا عهود لهم؛ أي ليست عهودهم صادقةً يُوفون بهـا . وقرأ ابن عامر « لا إيمـان لهم » بكسر الهمزة من الإيمان ؛ أي لا إسلام لهم . ويحتمل أن يكون مصدر آمنته إيمانا، من الأمن الذي ضـدّه الخوف، أي لا يؤمنون ؛ من آمنته إيمانا أي أجرته؛ فلهذا قال : « فقاتِلوا أئمة الكفر » . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أي عن الشرك . قال الكَلْبِيّ : كان النبيّ صلى الله عليـه وسلم وادع أهل مكة سنةً وهو بالحُدَيْبِيَة فحبسوه عن البيت ، ثم صالحوه على أن يرجع فمكثوا ما شاء الله، ثم قاتل حلفاءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خزاعة حلفاءَ بني أميّة من كنانة، فأمدّت بنو أمية حلفاءهم بالسلاح والطعام، فاستعانت خزاعة برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت هذه الآية، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعين حلفاءه كما سبق . وفي البخاريّ عن زيد بن وهب قال : كنا عند حُذيفة فقال ما بقي من أصحاب هـذه الآية — يعني « فقاتِلوا أئمة الكفرِ إنهم لا أيمان لهم » — إلا ثلاثة ، ولا بقي من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابيّ : إنكم أصحابَ محمد تخبرون أخبارا لا ندري ما هي! تزعمون ألّا منافق إلا أربعة، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا[2] . قال : أولئك الفسّاق . أجل ، لم يبق منهم إلا أربعة ؛ أحدهم شيخ كبير لو شرب المـاء البارد لمـا وجد برده[3] .

(١) قال الزمخشري في كشافه : « فان قلت كيف لفظ أئمة ؟ قلت : همزة بعدها همزة بين بين ؛ أي بين مخرج الهمزة والياء، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن مقبولة عند البصريين . وأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة ، ومن صرح بها فهو لاحن محرّف » .

وعقّب على هـذا أبو حيان في البحر بقوله : « وذلك دأبه في تلحين المقرئين، وكيف يكون ذلك لحنا وقد قرأ به رأس البصريين النحاة أبو عمرو بن العلاء، وقارئ مكة ابن كثير، وقارئ مدينة الرسول صلى الله عليه وسـلم نافع» . وقال الألوسي في روح المعـاني : « ... وقرأ نافع وابن كثـير وأبو عمرو (أئمة) بهمزتين ثانيتهما بين بين ؛ أي بين مخرج الهمزة والياء، والألف بينهما . والكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيقهما من غير إدخال ألف ، وهشـام كذلك إلا أنه أدخل بينهما الألف . هذا هو المشهور عن القراء السبعة ... » .

(٢) الأعلاق : نفائس الأموال .		(٣) قال القسطلاني : « لذهاب شهوته وفساد معـدته بسبب عقوبة الله له في الدنيا ، فلا يفرق بين الأشياء » .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ أى عن كفرهم و باطلهم وأذيتهم للمسلمين . وذلك يقتضى أن يكون الغرض من قتالهم دفْع ضررهم لينتهوا عن مقاتلتنا و يدخلوا فى ديننا .

قوله تعـالى : أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ توبيخ وفيه معنى التحضيض . نزلت فى كفار مكة كما ذكرنا آنفا . ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ أى كان منهم سبب الخروج، فأضيف الإخراج إليهم . وقيل : أخرجوا الرسول عليه السلام من المدينة لقتال أهل مكة للنّكث الذى كان منهم؛ عن الحسن . ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ ﴾ بالقتال . ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى نقضوا العهد وأعانوا بنو بكر على خزاعة . وقيل : بدءوكم بالقتال يوم بدر؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم خرج للعِير ولما أحرزوا عِيرهم كان يمكنهم الانصراف، فأبَوْا إلّا الوصــول إلى بدر وشُرب الخمر بهـا ؛ كما تقدّم . ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ أى تخافوا عقابه فى ترك قتالهم، من أن تخافوا أن ينالكم فى قتالهم مكروه . وقيــل : إخراجهم الرســول منعُهم إيّاه من الحج والعُمْرة والطّواف، وهــو ابتداؤهم . والله أعلم .

قوله تعـالى : قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ ﴾ أمْرٌ . ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ ﴾ جوابه . وهــو جزم بمعنى المجـازاة . والتقــدير : إن تقاتلوهم يعــذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويَشْفِ صــدور قوم مؤمنين . ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ دليل على أن غيظهم كان قد اشتدّ . وقال مجاهــد :

يعني خزاعة حلفاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكلّه عطف ، ويجوز فيه كله الرفع على القطع من الأول . ويجوز النصب على إضمار (أن) وهو الصرف عند الكوفيين ؛ كما قال :

فإن يَهْلك أبو قابوس يَهْلِكْ * ربيعُ النـاس والشهرُ الحـرامُ
ونأخـذ بعـده بِذِناب عيش * أَجَبِّ الظهـر ليس له سَنـام (١)

وإن شئت رفعت (ونأخذ) وإن شئت نصبته . والمراد بقوله : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ بنو خزاعة ؛ على ما ذكرنا عن مجاهد . فإن قريشا أعانت بني بكر عليهم ، وكانت خزاعة حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم . فأنشد رجل من بني بكر هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض خزاعة : لئن أعدته لأكسرنّ فَمَك ؛ فأعاده فكسرفاه وثار بينهم قتال ؛ فقتلوا من الخزاعيِّين أقواما ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعيّ في نفر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبره به ، فدخل منزل ميمونة وقال : "اسكبوا إليّ ماء" فجعل يغتسل وهو يقول : "لا نُصِرتُ إن لم أَنْصر بني كعب (٢) " . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتجهّز والخروج إلى مكة فكان الفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ القراءة بالرفع على الاستئناف ؛ لأنه ليس من جنس الأوّل . ولهذا لم يقل «ويَتُبْ» بالجزم ؛ لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله جل وعز . وهو موجب لهم العذاب والخزي ، وشفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم . ونظيره « فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ » تم الكلام . ثم قال : « وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ (٣) » . والذين تاب الله عليهم مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسليم بن أبي عمرو ؛ فإنهم أسلموا . وقرأ ابن أبي إسحاق «ويتوبَ» بالنصب . وكذا رُوِي عن عيسى الثقفي والأعرج ، وعليه فتكون التوبة داخلة في جواب الشرط ؛ لأن المعنى : إن تقاتلوهم يعذبهم الله .

(١) الذناب (بكسر الذال) : عقب كل شيء ومؤخره . والأجب : الجمل المقطوع السنام . والبيتان للنابغة الذبياني . وصف مرض النعمان بن المنذر ، وأنه إن هلك صار الناس بعده في أسوأ حال وأضيق عيش وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب . وفي البيت شاهد آخر . راجع خزانة الأدب للبغدادي في الشاهد السادس والخمسين بعد السبعمائة . وشواهد سيبويه ج ١ ص ١٠٠ طبع بولاق . (٢) بنو كعب في خزاعة وهم قوم عمرو . (٣) آية ٢٤ سورة الشورى .

وكذلك ما عطف عليـه . ثم قال : « و يتوب الله » أى إن تقاتلوهم . فجمع بين تعـذيبهم بأيديكم وشـفاء صدوركم و إذهاب غيظ قلوبكم والتو بة عليكم . والرفع أحسن؛ لأن التو بة لا يكون سببها القتال؛ إذ قد توجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه فى كل حال .

قوله تعـالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ خروجٌ من شىء إلى شىء . ﴿ أَن تُتْرَكُوا ﴾ فى موضـع المفعولين على قول سيبو يه . وعند المبرّد أنه قد حذف الثانى . ومعنى الكلام : أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تُبْتلوا بمـا يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذى يستحق به الثواب والعقاب . وقد تقدّم هـذا المعنى فى غير موضع . ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ﴾ جزم بلمّـا و إن كانت ما زائدة ؛ فإنها تكون عنـد سيبو يه جوابا لقولك : قد فعل؛ كما تقدّم[1] . وكسرت الميم لالتقاء الساكنين . ﴿ وَلِيجَةً ﴾ بِطانة ومداخلة ؛ من الولوج وهو الدخول، ومنه سُمِّىَ الكِناسُ الذى تلج فيــه الوحوش تَوْلَجاً . ولج يَلِج وُلُوجا إذا دخل . والمعنى : دخيلةَ مودّةٍ من دون الله ورسوله . وقال أبو عبيدة : كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وَلِيجة ، والرجل يكون فى القوم وليس منهم وَلِيجة . وقال ابن زيد : الوليجة الدخيلة ، والوُلَجاء الدُّخلاء ؛ فوَلِيجة الرجل من يختص بدُخْلَةِ أمره دون الناس . تقول : هو وليجتى وهم وليجتى؛ الواحد والجمع فيه سواء . قال أبَان بن تَغْلِب رحمه الله :

فبئس الوليجة للهاربين * والمعتدين وأهل الرِّيَب

وقيل : وليجة بطانة؛ والمعنى واحد؛ نظيره « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ »[2] . وقال الفرّاء : وليجة بطانة من المشركين يتخذونهم ويُفشون إليهم أسرارهم ويُعْلمونهم أمورهم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١١٨ سورة آل عمران .

قوله تعـالى : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ الجمـلة من « أن يعمروا » فى موضع رفع آسم كان . « شاهِدِين » على الحال . واختلف العلماء فى تأويل هـذه الاية ؛ فقيل : أراد ليس لهم الحج بعـد ما نُودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام ، وكانت أمور البيت كالسِّدانة والسِّقاية والرِّفادة إلى المشركين؛ فبيّن أنهم ليسوا أهلا لذلك ، بل أهله المؤمنون . وقيل : إن العباس لمـا أسر وعُيِّر بالكفر وقطيعة الرحم قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال علىّ : ألكم محاسن ؟ قال : نعم، إنا لنَعْمُر المسجد الحرام، ونَحْجُب الكعبة، ونَسْقِى الحاج، ونَفُكّ العانى . فنزلت هـذه الآية ردًّا عليـه . فيجب إذًا على المسلمين تولّى أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها . وقراءة العامة « يَعْمُر » بفتح الياء وضم الميم ؛ من عَمَر يَعْمُر . وقرأ ابن السَّمَيْقَع بضم الياء وكسر الميم؛ أى يجعلوه عامرا أو يعينوا على عمارته . وقرئ « مسجد الله » على التوحيد؛ أى المسجد الحرام . وهى قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن كَثير وأبى عمـرو وابن مُحَيْصِن ويعقوب . والبـاقون « مساجد » على التعميم . وهو اختيار أبى عبيد؛ لأنه أعم والخاص يدخل تحت العام . وقد يحتمل أن يراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصّة . وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا . والقراءة «مساجد» أصوب ؛ لأنه يحتمل المعنيين . وقد أجمعوا على قراءة قوله : « إنمـا يعمر مساجد اللهِ » على الجمع؛ قاله النحاس . وقال الحسن : إنمـا قال مساجد وهو المسجد الحرام؛ لأنه قِبلة المساجد كلّها وإمامُها

قوله تعـالى : ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ قيل : أراد وهم شاهدون فلما طرح (وهم) نصب . قال ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودُهم لأصنامهم، وإقرارهم أنها مخلوقة . وقال

السُّدِّى : شهادتهم بالكفر هو أن النّصرانىّ تقول له مادينك ؟ فيقول نصرانىّ ؛ واليهودىّ فيقول يهودى والصّـابئ فيقول صابئ . ويقال للمشرك ما دينـك فيقول مشرك . ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ دليل على أن الشهادة لعُمّار المساجد بالإيمان صحيحة ؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها . وقد قال بعض السلف : إذا رأيتم الرجل يعمر المسـجد فحسّنوا به الظن . وروى الترمذىّ عن أبى سـعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى : « إنمـا يَعْمُرُ مساجدَ اللهِ من آمن بالله واليوم الاخر » " . فى رواية : "يتعاهد المسجد" . قال : حديث حسن غريب . قال ابن العربىّ : وهذا فى ظاهر الصلاح ليس فى مقاطع الشهادات ؛ فإن الشهادات لهـا أحوال عند العارفين بهـا ؛ فإن منهم الذكىّ الفَطِن المحصل لمـا يعلم اعتقادا و إخبارا ، ومنهم المغفّل ، وكل واحد ينزّل على منزلته و يقدّر على صفته .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ ﴾ إن قيل : ما من مؤمن إلا وقد خشِيَ غيرَ الله ، وما زال المؤمنون والأنبيـاء يخشون الأعداء من غيرهم . قيـل له : المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبد ؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشَونها و يرجونها . جواب ثان — أى لم يخف فى باب الدين إلا الله .

الثالثـــة — فإن قيل : فقد أثبت الإيمان فى الآية لمن عمر المساجد بالصلاة فيها ، وتنظيفها و إصلاح ما وَهِى منها ، وآمن بالله . ولم يذكر الإيمـان بالرسول فيها ولا الإيمان لمن لم يؤمن

بالرسول . قيل له : دلّ على الرسول ما ذُكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به؛ فإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة إنما يصح من المؤمن بالرسول ، فلهذا لم يُفرده بالذكر . و « عسى » من الله واجبة؛ عن ابن عباس وغيره . وقيـل : عسى بمعنى خليق؛ أى نخليق ﴿ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

فيـــه مسألتـان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ التقدير في العربية : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج ، أو أهل سقاية الحاج، مثلَ من آمن بالله وجاهد في سبيله . ويصح أن يقدر الحذف في « من آمن » أي أجعلتم عمل سقي الحاج كعمل من آمن . وقيل : التقدير كإيمان من آمن . والسِّـقاية مصدر كالسِّعاية والحِماية . فجعل الاسم بموضـع المصدر إذ علم معناه؛ مثل إنما السخاء حاتم، و إنمـا الشِّعر زُهير . وعمارة المسجد الحرام مثل «وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ» . وقرأ أبو وَجْزة[1] « أجعلتم سُقاةَ الحاج وعَمَرة المسجدِ الحرامِ » . سُقاة جمع ساقٍ والأصل سُقَيَة على فُعَلَة؛ كذا يجمع المعتلّ من هذا، نحو قاض وقُضاة وناسٍ ونُسَاة . فإن لم يكن معتلًّا جمع على فَعَلَة نحو ناسئ ونَسَأة، للذين كانوا ينسئون الشهور . وكذا قرأ ابن الزبير وسعيد بن جبير « سُقاة، وعَمَرة »، إلا أن ابن جُبير نصب « المسجد » على إرادة التنوين في « عَمَرة » . وقال الضحاك : سُقاية بضم السين، وهي لغة . والحاج اسم جنس الحُجّاج . وعمارة المسجد الحرام : معاهدته والقيام بمصالحه . وظاهر هذه الآية أنها مبطلة قول من افتخر من المشركين بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام؛ كما ذكره السُّدّي . قال : افتخر عباس بالسقاية، وشيبة بالعمارة، وعليٌّ بالإسلام والجهاد؛ فصدّق الله عليًّا وكذبهما، وأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر ، و إنما

(١) في نسخ الأصل : « ابن أبي وجزة » وهو تحريف .

تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة . وهذا بيّن لا غُبار عليه . ويقال : إن المشركين سألوا اليهود وقالوا : نحن سُقاة الحاج وعمّار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود عنادا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أفضل . وقد اعترض هنا إشكال، وهو ما جاء فى صحيح مسلم عن النُّعمان بن بَشير قال : كنت عند مِنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : ما أبالى ألاّ أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالى ألّا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صُلّيت الجمعة دخلتُ واستفتيتُه فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل «أجعلتم سِقاية الحاج وعِمارة المسجِد الحرامِ كمن آمن بالله واليومِ الآخِرِ» إلى آخر الآية . وهذا المساق يقتضى أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين فى الأفضل من هذه الأعمال . وحينئذ لا يليق أن يقال لهم فى آخر الآية : « واللهُ لَا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِين» فتعين الإشكال . وإزالته بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح فى قوله؛ فأنزل الله الآية . وإنما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم الآية على عمر حين سأله فظن الراوى أنها نزلت حينئذ . واستدلّ بها النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر؛ فاستفتى لهم فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه، لا أنها نزلت فى هؤلاء . والله أعلم . فإن قيل : فعلى هذا يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل فى الكافرين، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة . قيل له : لا يُستبعد أن يُنتزع مما أنزل الله فى المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقال عمر : إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواء وتُوضع صحفة وتُرفع أخرى، ولكنا سمعنا قول الله تعالى : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا »[1] . وهذه الآية نص فى الكفار، ومع ذلك ففهم منها عمرُ الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا نفيس وبه يزول الاشكال ويرتفع الإبهام، والله أعلم .

(١) آية ٢٠ سورة الأحقاف .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فى موضع رفع بالابتداء . وخبره ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ﴾ . و « درجةً » نصب على البيان ؛ أى من الذين افتخروا بالسّقى والعمارة . وليس للكافرين درجة عند الله حتى يقال : المؤمن أعظم درجة . والمراد أنهم قدّروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسّقى ؛ فخاطبهم على ما قدّروه فى أنفسهم وإن كان التقدير خطأ ؛ كقوله تعالى : « أصحابُ الجنّة يومئذ خيرٌ مستقرًّا »(١) . وقيل . « أعظم درجة » من كل ذى درجة ؛ أى لهم المزية والمرتبة العلية . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بذلك .

قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى يعلمهم فى الدنيا ما لهم فى الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم . والنعيم : لين العيش ورغده . ﴿ خالِدِين ﴾ نصب على الحال . والخلود الإقامة . ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى أعدّ لهم فى دار كرامته ذلك الثواب .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ظاهر هـذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافّة ، وهى باقيـة الحكم إلى يوم القيامة فى قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين . وروَت فرقة أن هذه الآية إنمـا نزلت فى الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفرة . فالمخاطبة على هذا إنما هى للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها

(١) آية ٢٤ سورة الفرقان .

من بلاد العرب، خُوطِبوا بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعا فى سكنى بلاد الكفر.
﴿ إن ٱسْتَحَبُّوا ﴾ أى أحبُّوا؛ كما يقال: استجاب بمعنى أجاب. أى لا تطيعوهم ولا تخصوهم.
وخصّ الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها. فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى: « يأيُّها الذين آمنوا لا تتّخِذُوا اليهودَ والنَّصارَى أولياءَ »(١) ليبيّن أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان. وفى مثله تنشد الصوفية:

يقولون لى دار الأحبة قد دنتْ * وأنت كئيب إن ذا لعجيب
فقلت وما تغنى ديار قريبة * إذا لم يكن بين القلوب قريب
فكم من بعيد الدار نال مراده * وآخر جار الجنْب مات كئيب

ولم يذكر الأبناء فى هذه الآية؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التّبع للآباء. والإحسان والهبة مستثناة من الولاية. قالت أسماء: يارسول الله، إن أمّى قدمت علىّ راغبة وهى مشركة أفأصلها؟ قال: "صِلِى أمّك" خرّجه البخارى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم؛ لأن مَن رضى بالشرك فهو مشرك.

قوله تعالى: قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

لمـا أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة الى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأبُ لابنه والأخُ لأخيه والرجل لزوجته: إنا قد أُمِرنا بالهجرة؛ فمنهم من سارع

(١) آية ٥١ سورة المـائدة.

لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول : والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئا أبدا. ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له : أنشدك بالله ألّا تخرج فنضيع بعدك؛ فمنهم من يَرِقّ فيَدَع الهجرة ويقيم معهم؛ فنزلت « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إنِ ٱستحبّوا الكفرَ على الإيمانِ » . يقول : [إن استحبوا] الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة . « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكم » بعد نزول الآية « فأولئك هم الظالمون » . ثم نزل في الذين تخلّفوا ولم يهاجروا : ﴿ قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجُكم وعَشِيرَتُكُمْ ﴾ وهي الجماعة التي ترجع إلى عَقْد واحد كعقد العشرة فما زاد؛ ومنه المعاشرة وهي الاجتماع على الشيء . ﴿ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ يقول : اكتسبتموها بمكة . وأصـل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره . ﴿ وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ قال ابن المبارك : هي البنات والأخوات إذا كسدن في البيت لا يجدن لهن خاطبا . قال الشاعر :

كَسَدْنَ من الفقر في قومهنّ * وقـد زادهنّ مقامي كسودا

﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا ﴾ يقول : ومنازل تعجبكم الإقامة فيها . ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ ﴾ من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة . « وأحَبَّ » خبر كان . ويجوز في غير القرآن رفع «أحب» على الابتداء والخبر، واسم كان مضمر فيها . وأنشد سيبويه :

إذا متّ كان الناسِ صِنفانِ : شامتٌ * وآخَرُ مُثْنٍ بالذي كنتُ أصـنع[1]

وأنشـــد :

هي الشفاء لدائي لو ظفِرتُ بهـا * وليس منهـا شفاءُ الداءِ مبذول[2]

وفي الآية دليل على وجوب حبّ الله ورسـوله ، ولا خلاف في ذلك بين الأمة ، وأن ذلك مقدّم على كل محبوب . وقد مضى في «آل عمران»[3] معنى محبة الله تعالى ومحبة رسوله . ﴿ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ صيغته صيغة أمرٍ ومعناه التهديد . يقول : انتظروا . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ الله

---

(١) البيت للعُجير السلولي . (٢) البيت لهشام أخي ذي الرمة . (عن كتاب سيبويه) .

(٣) راجع جـ ٤ ص ٥٩ طبعه أولى أو ثانية .

بِأَمْرِهِ ﴾ يعنى بالقتال وفتح مكة ؛ عن مجاهد . الحسن : بعقوبة آجلة أو عاجلة . وفى قوله : « وجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ » دليلٌ على فضـل الجهاد ، وإيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمـال . وسيأتى فضل الجهاد فى آخر السورة . وقد مضى من أحكام الهجرة فى « النساء »[1] ما فيه كفاية ، والحمد لله . وفى الحديث الصحيح " إن الشيطان قَعَد لابن آدم ثلاثَ مقاعد قعد له فى طريق الإسلام فقال لِمَ تَذَر دينَك ودينَ آبائك نخالَفه وأسلم وقعد له فى طريق الهجرة فقال له أتذر مالَك وأهلك نخالَفه وهاجرثم قعـد له فى طريق الجهاد فقال له تجاهـد فتُقتل فينْكح أهلك ويُقسم مالك نَخالفه وجاهد لحقّ على الله أن يدخله الجنة " . وأخرجه النّسائىّ من حديث سبرة بن أبى فاكِه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " إن الشيطان..." فذكره . قال البخارىّ : «ابن الفاكِه» ولم يذكر فيه اختلافا . وقال ابن أبى عَدِىّ : يقال ابن الفاكِه وابن أبى الفاكِه . انتهى .

قوله تعـالى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ لمـا بلغ هوازنَ فتحُ مكة جمعهم مالك بن عَوف النّصرىّ من بنى نصر بن مالك ، وكانت الرياسة فى جميع العسكر إليه ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٠٨ ، ٣٥٠ طبعه أولى أو ثانية .

وساق مع الكفار أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم، وزعم أن ذلك يحمى به نفوسهم وتشتد في القتال عند ذلك شوكتهم . وكانوا ثمانية آلاف في قول الحسن ومجاهد . وقيل : أربعة آلاف من هوازن وثقيف . وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف كنانة بن عبد؛ فنزلوا بأوطاس (١) . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي عينًا ، فأتاه وأخبره بما شاهد منهم؛ فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قصدهم، واستعار من صَفْوان ابن أُمَيّة بن خَلَف الجُمَحِيّ دروعا . قيل : مائة درع . وقيل : أربعمائة درع . واستسلف من ربيعة المخزومي ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا؛ فلما قدِم قضاه إياها. ثم قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السّلف الوفاء والحمد " خرّجه ابن ماجه في السّنن . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثنى عشر ألفا من المسلمين؛ منهم عشرة آلاف صحبوه من المدينة، وألفان من مُسْلِمة الفتح وهم الطلقاء إلى من انضاف إليه من الأعراب؛ من سُلَيم وبني كِلاب وعَبْس وذُبيان . واستعمل على مكة عتّاب بن أسيد . وفي مخرجه هذا رأى جهال الأعراب شجرة خضراء، وكان لهم في الجاهلية شجرة معروفة تُسَمَّى ذات أَنْواط، يخرج إليها الكفار يوما معلوما في السنة يعظمونها؛ فقالوا : يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال عليه السلام : " الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى " اجعل لنا إلهـا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون " لتركَبُنّ سَنن مَن قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذّة حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى وادى حُنين، وهو من أودية تهامة ، وكانت هوازن قد كَمَنت في جَنْبَتَي الوادي وذلك في غَبَش الصبح فحملت على المسلمين حملة رجل واحد ، فانهزم جمهور المسلمين ولم يَلْوِ (٢) أحد على أحد، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته عليّ والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر، وأسامة بن زيد؛ وأيمن بن عبيد — وهو أيمن بن أم أيمن قُتل يومئذ بحُنين — وربيعة

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن، فيه كانت وقعة حنين . (٢) أى لم يلتفت ولم يعطف .

ابن الحارث، والفضل بن عباس ، وقيل فى موضع جعفر بن أبى سفيان : قُثَم بن العباس . فهؤلاء عشرة رجال؛ ولهذا قال العباس :

نصرْنا رســولَ الله فى الحرب تسعةً * وقـد فرّ مَن قد فرّ عنه وأقشــعوا[1]

وعاشرُنا لاقَى الحِمام بنفســه * بما مَسّــه فى الله لا يتــوجّع

وثبتت أم سُليم فى جملة من ثبت، مُحْتزِمةً ممسكة بعيرا لأبى طلحة وفى يدها خَنْجر . ولم ينهزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من هؤلاء، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته الشهباء وآسمها دُلْدُل . وفى صحيح مسلم عن أنس قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكُفُّها إرادةَ ألّا تسرِع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " أيْ عباسُ نادِ أصحابَ السَّمُرة "[2] . فقال عباس — وكان رجلا صَيّتا . ويروى من شدّة صوته أنه أُغير يوما على مكة فنادى واصباحاه ! فأسقطت كلُّ حامل سمعت صوته جَنِينَها — : فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السَّمُرة ؟ قال : فوالله لكأنّ عَطْفتهم حين سمِعوا صوتى عَطْفــةُ البقر على أولادها . فقالوا : يالَبَّيْكَ يالبيك . قال : فاقتتلوا والكفارَ ... الحديث . وفيه : « قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حَصَياتٍ فرمَى بهنّ وجـوه الكفار » . ثم قال : " انهزَمُوا ورَبِّ محمد " . قال : فذهبت أنظر فإذا القِتال على هيئته فيما أرى . قال : فوالله ما هــو إلا أن رماهم بحَصَــياته ؛ فمــا زلت أرى حَدَّهم كَلِيلا وأمْرَهم مدْبِرا . قال أبو عمر : رَوينــا من وجوه عن بعض من أسلم من المشركين ممن شهد حُنينا أنه قال — وقد سئل عن يوم حُنين — : لقينا المسلمين فمــا لبثنا أن هزمناهم وآتبعناهم حتى آنتهينا إلى رجل راكب على بغلة بيضاء، فلما رآنا زجرنا زجرة وآنتهرنا، وأخذ بكفه حَصًى وترابا فرمَى به وقال : " شاهت الوجوه " . فلم تبق عين إلا دخلها من ذلك، وما ملكنا أنفسنا أن رجعنا على أعقابنا . وقال سعيد بن جُبير : حدّثنا

(١) فى الأصول : « منهم » والتصويب عن المواهب اللدنية .

(٢) أى أصحاب الشجرة المسماة بالسمرة، وهى الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .

رجل من المشركين يوم حُنين قال : لما التقينا مع أصحاب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم لم يقفوا لنا حَلْب شاة، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة الشّهباء — يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — تلقّانا رجال بيض الوجوه حِسان؛ فقالوا لنا : شاهت الوجوه، ٱرجعوا؛ فرجعنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها . يعني الملائكة .

قلت : ولا تعارض؛ فانه يحتمل أن يكون شاهت الوجوه من قوله صلى الله عليه وسلم ومن قول الملائكة معًا، ويدلّ على أن الملائكة قاتلت يوم حنين . والله أعلم . وقَتـل عليّ رضي الله عنه يوم حنين أربعين رجلا بيده . وسَبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف رأس . وقيل : ستة آلاف واثنتي عشرة ألف ناقة سوى ما لا يعلم من الغنائم .

الثانيـــة — قال العلماء في هذه الغَزاة : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلا له عليه بيِّنة فله سَلَبه " . وقد مضى في « الأنفال » بيانه (١) . قال ابن العربيّ : ولهذه النكتة وغيرِها أدخل الأحكاميُّون هذه الآيةَ في الأحكام .

قلت : وفيه أيضا جواز استعارة السلاح وجواز الٱستمتاع بما ٱستُعير إذا كان على المعهود مما يستعار له مثله، وجواز استلاف الإمام المـالَ عند الحاجة إلى ذلك وردّه إلى صاحبه . وحديث صَفْوان أصلٌ في هـذا الباب . وفي هذه الغَزاة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تُوطأ حامل حتى تَضع، ولا حائل حتى تحيض حيضة . وهو يدلّ على أن السَّبْيَ يقطع العِصمة . وقد مضى بيانه في سورة « النساء » مستوفًى (٢) . وفي حديث مالك أن صفوان خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر، فشهد حُنينا والطائف وٱمرأتُه مسلمة . الحديث . قال مالك : ولم يكن ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أرى أن يُستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا خَدَمًا أو نَواتيّة . وقال أبو حنيفة والشافعيّ والثّوريّ والأوزاعيّ :

(١) راجع المسألة الخامسة جـ ٧ ص ٣٦٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٥ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

لا بأس بذلك إذا كان حكم الإسلام هو الغالب، وإنما تكره الاستعانة بهم إذا كان حكم الشرك هو الظاهر . وقد مضى القول فى الإسهام لهم فى « الأنفال » (١) .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ « حُنين » وادٍ بين مكة والطائف، وانصرف لأنه اسم مذكّر، وهى لغة القرآن . ومن العرب من لا يصرفه، يجعله اسما للبُقْعة . وأنشد :

نصُروا نبيّهـم وشدّوا أزره * بحُنينَ يومَ تواكُل الأبطال (٢)

« ويوم » ظرف، وانتصب هنا على معنى : ونصركم يوم حنين . وقال الفرّاء : لم تنصرف « مواطن » لأنه ليس لهـا نظير فى المفرد وليس لهـا جِماع ؛ إلا أن الشاعر ربمـا اضطر لجمع . وليس يجوز فى الكلام كلمـا يجوز فى الشعر . وأنشد :

* فهنّ يَعلُكْنَ حَدائدا تها *

وقال النحاس : رأيت أبا إسحاق يتعجب من هذا قال : أخذ قول الخليل وأخطأ فيه؛ لأن الخليل يقول فيــه : لم ينصرف لأنه جَمْعٌ لا نظير له فى الواحد، ولا يجمع جمع التكسير، وأما بالألف والتاء فلا يمتنع .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ قيـل : كانوا اثنى عشر ألفـا . وقيل : أحد عشر ألفا وخمسمائة . وقيل : ستة عشر ألفا . فقال بعضهم : لن نُغلب اليوم عن قِلّة . فوُكِلُوا إلى هذه الكلمة؛ فكان ما ذكرناه من الهزيمة فى الابتداء إلى أن تراجعوا، فكان النصر والظفر للسلمين ببركة سـيد المرسلين صـلى الله عليه وسـلم . فبيّن الله عز وجل فى هــذه الآية أن الغلبة إنمـا تكون بنصر الله لا بالكثرة . وقد قال : « وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِن بعدِهِ » (٣) .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ﴾ أى من الخوف؛ كما قال :

كأن بلاد الله وهى عريضة * على الخـائف المطلوب كِفّة حابِل (٤)

(١) راجع المسألة الموفية العشرين ص ١٨ من هذا الجزء . (٢) البيت لحسان بن ثابت .
(٣) آية ١٦٠ سورة آل عمران . (٤) الكفة (بالكسر) : حبالة الصائد . والحابل : الذى ينصب الحبالة .

والرُّحب (بضم الراء) السَّعة. تقول منه: فلان رُحْب الصدر. والرَّحْب (بالفتح): الواسع. تقول منه: بلد رَحْب، وأرض رَحْبة. وقد رَحُبت ترحُب رُحبا ورَحابة. وقيل: الباء بمعنى مع؛ أى مع رحبها. وقيل: بمعنى على، أى على رحبها. وقيل: المعنى برحبها؛ فـ «ما» مصدرية.

السادســة — قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ روى مسلم عن أبى إسحاق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم ولّيتم يوم حُنين يا أبا عُمارة. فقال: أشهد على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ما ولّى، ولكنه انطلق أَخِفاءُ[(١)] من الناس، وحُسَّرٌ إلى هذا الحىّ من هوازن. وهم قوم رُماة فرمَوْهم برِشْق من نَبل كأنها رِجْل من جراد فانكشفوا؛ فأقبل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان يقود به بغلته، فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: "أنا النبيّ لا كَذِب. أنا ابن عبد المطلب. اللّهُمَّ نزّل نصرك". قال البراء: كنا والله إذا احمرّ البأس نتَّقِى به، وإن الشجاع منا لَلذى يُحاذِى به؛ يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم.

السابعــة — قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى أنزل عليهم ما يسكنهم ويُذهب خوفهم، حتى اجترءوا على قتال المشركين بعد أن ولوا. ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة؛ يقوّون المؤمنين بما يلقون فى قلوبهم من الخواطر والتثبيت، ويُضعفون الكافرين بالتّجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال؛ لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر. وروى أن رجلا من بنى نصر قال للؤمنين بعد القتال: أين الخيل البُلْق، والرجالُ الذين كانوا عليها بيض، ما كنا فيهم إلا كهيئة الشّامَة، وما كان قتلنا إلا بأيديهم. أخبروا النبىّ صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: "تلك الملائكة". ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

---

(١) أخفاء: جمع خفيف كطبيب وأطباء. وأراد بهم المتعجلين. والحسر: جمع حاسر؛ كساجد وسجد. وهو من لادرع له ولامغفر. أى ليس عليهم سلاح. والرشق (بالكسر): اسم للسهام التى ترميها الجماعة دفعة واحدة. والرجل (بالكسر): القطعة. وقوله «احمرّ البأس» أى اشتد الحرب. (راجع شرح النووى على صحيح مسلم كتاب المغازى).

أى بأسيافكم . ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى على من آنهزم فيهديه إلى الإسلام . كمالك بن عوف النّصْرىّ رئيس حُنين ومن أسلم معه من قومه .

الثامنــة — ولمـا قسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمَ حُنين بالجِعرانة ، أتاه وفد هوازن مسلمين راغبين فى العطف عليهم والإحسان إليهـم ، وقالوا : يارسول الله ، إنك خير الناس وأبرّ الناس ، قد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا . فقال لهم : " إنى قد كنت آستأنيت بكم وقد وقعت المقاسم وعندى من ترون وإنّ خير القول أصدقُه فآختاروا إما ذَرارِيكم وإما أموالكم" . فقالوا : لا نعدل بالأنساب شيئا . فقام خطيبا وقال : "هؤلاء جاءونا مسلمين وخيرناهم فلم يعدلوا بالأنساب فرضـوا بردّ الذرّية وما كان لى ولبنى عبـد المطلب وبنى هاشم فهو لهم " . وقال المهاجرون والأنصار : أمّا ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وآمتنع الأقرع بن حابِس وعُيينة بن حِصْن فى قومهما من أن يردّوا عليهم شيئـا ممـا وقع لهم فى سهامهم . وآمتنع العباس بن مِرْدَاس السُّلَمِىّ كذلك ، وطمِـع أن يساعده قومُه كما ساعد الأقرعَ وعُيينةَ قومُهما . فأبت بنو سُليم وقالوا : بل ما كان لنـا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ضَنّ منكم بما فى يديه فإنا نعوّضه منه " . فردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم نساءهم وأولادهم ، وعوّض من لم تَطِب نفسُه بترك نصيبه أعواضا رضوا بها . وقال قتادة : ذكر لنا أن ظِئْر النبىّ صلى الله عليه وسلم التى أرضعته من بنى سعد ، أتته يوم حنين فسألته سبايا حنين . فقال صلى الله عليه وسلم : "إنى لا أملك إلا ما يصيبنى منهم ولكن إيتينى غدًا فآسألينى والناس عندى فإذا أعطيتك حِصّتى أعطاك الناس " . فجاءت الغد فبسط لها ثوبه فأقعدها عليه . ثم سألته فأعطاها نصيبه ، فلمـا رأى ذلك الناس أعطَوْها أنصباءهم . وكان عدد سَبْى هوازن فى قول سعيد بن المسيِّب ستة آلاف رأس . وقيل : أربعة آلاف . قال أبو عمر : فيهنّ الشَّيماء أخت النبىّ صـلى الله عليه وسلم من الرّضـاعة ، وهى بنت الحـارث بن عبـد العُزّى من بنى سـعد بن بكر [وبنت] حليمة السعدية ، فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاها وأحسن إليها ، ورجعت مسرورة

إلى بلادها بدينها و بما أفاء الله عليها . قال ٱبن عباس : رأى رسول الله صلى الله عليــه وسلم يوم أَوْطاس ٱمرأة تَعْدُو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل : فقدت بُنَيًّا لها . ثم رآها وقد وجدت ٱبنها وهي تقبّله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه : " أطارحة هــذه ولدها في النار" ؟ قالوا لا . قال : "لِمَ" ؟ قالوا : لشفقتها . قال : " الله أرحم بكم منها " . وخرّجه مســلم بمعناه، والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ ابتداء وخبر . واختلف العلماء في معنى وصف المشرك بالنّجس ؛ فقال قَتادة ومَعْمر بن راشد وغيرهما : لأنه جُنُب ؛ إذ غسله من الجنابة ليس بغســل . وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذي نجســه . قال الحسن البصريّ : من صافح مشركا فليتوضأ . والمــذهب كله على إيجاب الغسل على الكافر إذا أســلم ؛ الا ٱبن عبــد الحكم فإنه قال : ليس بواجب ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله . وبوجوب الغسل عليه قال أبو ثور وأحمد . وأسقطه الشافعيّ وقال : أحبّ إليّ أن يغتسل . ونحوه لٱبن القاسم . ولمــالك قول : إنه لا يعرف الغسل ؛ رواه عنه ابن وهب وابن أبي أُوَيس . وحديث ثُمــامة وقيس بن عاصم يردّ هذه الأقوال . رواهما أبو حاتم البستيّ في صحيح مسنده . وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ بثمامة يوما فأسلم، فبعث به إلى حائط(١) أبي طلحة فأمره أن يغتسل، فاغتسل وصــلّى ركعتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد حَسُن إسلامُ صاحبكم " وأخرجه مسلم بمعناه . وفيه : أن ثمامة

(١) الحائط : البستان .

لما منّ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم آنطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل. وأمر قيس ابن عاصم أن يغتسل بماء وسدر. فإن كان إسلامه قُبيل احتلامه فغسله مستحب. ومتى أسلم بعد بلوغه لزمه أن ينوى بغسله الجنابة. هذا قول علمائنا، وهو تحصيل المذهب. وقد أجاز ابن القاسم للكافر أن يغتسل قبل إظهاره للشهادة بلسانه، إذا اعتقد الإسلام بقلبه؛ وهو قول ضعيف فى النظر مخالف للأثر. وذلك أن أحدا لا يكون بالنيّة مسلما دون القول. هذا قول جماعة أهل السنة فى الإيمان: إنه قول باللسان وتصديق بالقلب، ويزكو بالعمل. قال الله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»[1].

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ «فلا يقربوا» نهى؛ ولذلك حذفت منه النون. «المسجد الحرام» هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم، وهو مذهب عطاء؛ فإذًا يحرُم تمكين المشرك من دخول الحَرَم أجمع. فإذا جاءنا رسول منهم خرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول. ولو دخل مشرك الحَرَم مستورا ومات نُبش قبره وأخرجت عظامه. فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز. وأما جزيرة العرب، وهى مكة والمدينة واليمامة واليمن ومَخاليفها[2]؛ فقال مالك: يخرج من هذه المواضع كلّ من كان على غير الإسلام، ولا يمنعون من التردد بها مسافرين. وكذلك قال الشافعيّ رحمه الله؛ غير أنه آستثنى من ذلك اليمنَ. ويُضرب لهم أجل ثلاثة أيام كما ضَربه لهم عمر رضى الله عنه حين أجلاهم. ولا يدفنون فيها ويلجئون إلى الحل.

الثالثــة — واختلف العلماء فى دخول الكفار المساجد والمسجد الحرام على خمسة أقوال؛ فقال أهل المدينة: الآية عامّة فى سائر المشركين وسائر المساجد. وبذلك كتب عمر ابن عبد العزيز الى عُمّاله ونَزَع فى كتابه بهذه الاية. ويؤيّد ذلك قوله تعالى: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ»[3]. ودخول الكفار فيها مناقض لترفيعها. وفى صحيح مسلم وغيره: أن هذه المساجد لا تصلح لشىء من البول والقذر. الحديث. والكافر لا يخلو عن

(١) آية ١٠ سورة فاطر. (٢) مخاليف جمع مخلاف، وهى قرى اليمن.
(٣) آية ٣٦ سورة النور.

ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم: " لا أحلّ المسجد لحائض ولا لجُنُب " والكافر جُنُب . وقوله تعالى : « إنّما المشركون نَجَس » فسمّاه الله تعالى نجسا . فلا يخلو أن يكون نجس العين أو مبعدا من طريق الحكم . وأىّ ذلك كان فمنعه من المسجد واجب؛ لأن العلة وهى النجاسة موجودة فيهم، والحرمة موجودة فى المسجد . يقال : رجل نَجَس، وآمرأة نَجَس، ورجلان نَجَس ، وامرأتان نَجَس ، ورجال نَجَس ، ونساء نَجَس ؛ لا يُثَنَّى ولا يُجمع لأنه مصدر . فأما النِّجْس (بكسر النون وجزم الجيم) فلا يقال إلا إذا قيل معه رِجْس . فاذا أُفرد قيل نَجِس (بفتح النون وكسر الجيم) ونَجُس (بضم الجيم) . وقال الشافعىّ رحمه الله : الآية عامةٌ فى سائر المشركين، خاصّةٌ فى المسجد الحرام، ولا يمنعون من دخول غيره؛ فأباح دخول اليهودىّ والنصرانىّ فى سائر المساجد . قال ابن العربىّ : وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله عز وجل : « إنما المشركون نَجَس» تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة . فان قيل : فقد ربط النبىّ صلى الله عليه وسلم ثُمامة فى المسجد وهو مشرك . قيل له : أجاب علماؤنا عن هذا الحديث — وإن كان صحيحا — بأجوبة : أحدها — أنه كان متقدّما على نزول الآية .

الثانى — أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان قد علم بإسلامه فلذلك ربطه .

الثالث — أن ذلك قضيّة فى عَيْن فلا ينبغى أن تُدفع بها الأدلة التى ذكرناها؛ لكونها مقيِّدة حكم القاعدة الكلية . وقد يمكن أن يقال : إنما ربطه فى المسجد لينظر حُسْن صلاة المسلمين وآجتماعهم عليها، وحسنَ آدابهم فى جلوسهم فى المسجد؛ فيستأنس بذلك ويسلم؛ وكذلك كان . ويمكن أن يقال : إنهم لم يكن لهم موضع يربطونه فيه إلا فى المسجد، والله أعلم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يُمنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام ولا غيره، ولا يُمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان . وهذا قول يردّه كل ماذكرناه من الاية وغيرها . قال الكِيَا الطبرىّ : ويجوز للذمىّ دخول سائر المساجد عند أبى حنيفة من غير حاجة . وقال الشافعىّ : تعتبر الحاجة، ومع الحاجة لا يجوز دخول المسجد الحرام . وقال عطاء بن أبى رَباح : الحَرَم كله قِبلة ومسجد، فينبغى أن يمنعوا من دخول

الحَرَم ؛ لقوله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» . وإنما رفع من بيت أم هانئ . وقال قتادة : لايقرب المسجد الحرام مشرك ؛ إلا أن يكون صاحب جزْية . أو عبدا كافرا لمسلم . وروى إسماعيل بن إسحاق حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا شُريك عن أشعث عن الحسن عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لايقرب المسجد مشرك إلا أن يكون عبدا أو أَمَة فيدخله لحاجة" . وبهذا قال جابر بن عبد الله ؛ فإنه قال : العموم يمنع المشرك عن قربان المسجد الحرام ، وهو مخصوص فى العبد والأمة .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه سنة تسع التى حج فيها أبو بكر . الثانى — سنة عشر ؛ قاله قتادة . ابن العربىّ : « وهو الصحيح الذى يعطيه مقتضى اللفظ ، وإن من العجب أن يقال : إنه سنة تسع ، وهو العامُ الذى وقع فيه الأذان . ولو دخل غلامٌ رجلٍ داره يوما فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك ، لم يكن المراد اليوم الذى دخل فيه » .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ قال عمرو بن فائد : المعنى وإذ خفتم . وهذه عُجمة ، والمعنى بارع بـ « إن » . وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم ، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش . فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذّمة بقوله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية . وقال عِكْرِمة : أغناهم الله بإدرار المطر والنبات وخِصب الأرض . فأخصبت تَبالة وجُرَش ، وحملوا إلى مكة الطعام والوَدَك[(1)] وكثر الخير . وأسلمت العرب : أهل نجد وصنعاء وغيرهم ؛ فتمادى حجهم وتَجْرهم . وأغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأمم . والعَيْلة : الفقر . يقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر[(2)] . قال الشاعر :

وما يَدرى الفقير متى غَناه * وما يدرى الغنىّ متى يَعيلُ

(١) الودك : هو دسم اللحم ودهنه الذى يستخرج منه . (٢) هو أحيحة ؛ كما فى اللسان .

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عائلة » وهو مصدر؛ كالقائلة من قال يقيل . وكالعـافية . و يحتمل أن يكون نعتا لمحـذوف تقديره : حالا عائلة، ومعناه خصلة شاقة . يقال منـه : عالني الأمر يعولني؛ أي شقّ عليّ واشـتد . وحكى الطبري أنه يقـال : عال يعول إذا افتقر .

السادســـة — في هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب في الرزق جائز وليس ذلك بمناف للتوكل؛ و إن كان الرزق مقدرا، وأمر الله وقسمه مفعولا، ولكنه علّقه بالأسباب حكمةً؛ لتعلم القلوب التي تتعلّق بالأسـباب من القلوب التي تتوكل على رب الأرباب . وقد تقدم أن السبب لا ينافي التوكل . قال صلى الله عليه وسـلم : " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغـدو خماصـا وتروح بطانا (١) " . أخرجه البخاري . فأخبر أن التوكل الحقيقيّ لا يضادّه الغدوّ والرواح في طلب الرزق . ابن العربيّ : « ولكن شـيوخ الصوفية قالوا : إنما يغدو و يروح في الطاعات؛ فهو [السبب] (٢) الذي يجلب الرزق » . قالوا : والدليل عليـه أمران : أحدهما — قوله تعـالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّـلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نحن نرزقك (٣) » . الثاني — قوله تعـالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّـالِحُ يَرْفَعُـهُ (٤) » . فليس ينزل الرزق من محله وهو السماء، إلا ما يصعد وهو الذكر الطيب والعمل الصالح، وليس بالسعي في الأرض؛ فإنه ليس فيها رزق . والصحيح ما أحكمته السنة عنـد فقهاء الظاهر ، وهو العمل بالأسباب الدنيوية؛ من الحرث والتجارة في الأسواق ، والعمارة للأموال وغرس الثمار . وقـد كانت الصحابة تفعل ذلك والنبيّ صلى الله عليه وسلم بيـن أظهرهم» . قال أبو الحسن بن بطّال : أمر الله سبحانه عباده بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، إلى غير ذلك من الآي . وقال : « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ (٥) » . فأحل للمضطر

(١) الخمص والمخمصة : الجوع . والبطنة : امتلاء البطن من الطعام . أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف . (٢) زيادة عن ابن العربي . (٣) آية ١٣٢ سورة طه .
(٤) آية ١٠ سورة فاطر . (٥) آية ١٧٣ سورة البقرة .

ما كان حَرُم عليه عند عدمه للغذاء الذى أمره باكتسابه والاغتذاء به ، ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليـه من السماء ، ولو ترك السعى فى ترك ما يتغذّى به لكان لنفسه قاتلا . وقـد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوّى من الجوع ما يجد ما يأكله ، ولم ينزل عليه طعام من السماء ، وكان يدّخر لأهله قوت سنته حتى فتح الله عليه الفتوح . وقد روى أنس بن مالك أن رجلا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ببعير فقال : يا رسول الله ، أعقله وأتوكّل أو أطلقه وأتوكّل ؟ قال : " اعقله وتوكّل " .

قلت : ولا حجـة لهم فى أهل الصُّفّـة ؛ فإنهم كانوا فقراء يقعدون فى المسجد ما يحرثون ولا يتّجرون ، ليس لهم كسب ولا مال ، إنما هم أضياف الإسلام عند ضيق البلدان ، ومع ذلك فإنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويسوقون المـاء إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرءون القرآن بالليل ويصلّون . هكذا وصفهم البخارى وغيره . فكانوا يتسبّبون . وكان صـلى الله عليـه وسلم إذا جاءته هدية أكلها معهم ، وإن كانت صدقـة خصهم بهـا ، فلما كثر الفتح وانتشر الإسلام خرجوا وتأمّروا — كأبى هريرة وغيره — وما قعدوا . ثم قيل : الأسباب التى يُطلب بها الرزق ستة أنواع :

أعلاها كسب نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قال : " جعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمرى " . خرّجه الترمذيّ وصححه . فجعل الله رزق نبيّه صلى الله عليه وسلم فى كسبه لفضله ، وخصّه بأفضل أنواع الكسب ؛ وهو أخذ الغلبة والقهر لشرفه .

الثـانى — أكل الرجل من عمل يده ؛ قال صلى الله عليـه وسلم : " إنّ أطيب ما أكل الرجل من عمل يده وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده " خرّجه البخارى . وفى التنزيل « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »(١) ، ورُوى أن عيسى عليـه السلام كان يأكل من غزل أمه .

الثـالث — التجارة ، وهى كانت عمـل جُلّ الصحابة رضوان الله عليهـم ، وخاصّـة المهاجرين ؛ وقد دلّ عليها التنزيل فى غير موضع .

(١) آية ٨٠ سورة الأنبياء .

الرابـــع — الحرث والغرس . وقد بيناه فى سورة « البقرة »[1] .

الخامس — إقراء القرآن وتعليمه والرقية، وقد مضى فى الفاتحة .

السادس — يأخذ بنيّة الأداء إذا احتاج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفــه الله " . خرجه البخاريّ . رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿إِنْ شَاءَ﴾ دليل على أن الرزق ليس بالاجتهاد، وإنمـا هو من فضل الله تولّى قسمته بين عباده؛ وذلك بيّن فى قوله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[2] الآية .

قوله تعـالى : ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لمـا حرّم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام، وجد المسلمون فى أنفسهم بما قُطع عنهـم من التجارة التى كان المشركون يوافون بها؛ قال الله عز وجل : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً » الآية . على ما تقدّم . ثم أحل فى هــذه الآية الجِزْية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك؛ فجعلها عِوضا مما منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم . فقال الله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . فأمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم[3] على هذا الوصف، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، وخصوصا

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) آية ٣٢ سورة الزخرف .
(٣) أصفق القوم على أمر واحد : أجمعوا عليه .

ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وملّته وأمّته . فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظُمت منهم الجريمة؛ فنبّه على محلهم ثم جعل للقتال غاية، وهي إعطاء الجزية بدلًا عن القتل . وهو الصحيح . قال ابن العربيّ : سمعت أبا الوفاء عليّ بن عقيل في مجلس النظر يتلوها ويحتجّ بها . فقال : « قاتِلُوا » وذلك أمر بالعقوبة . ثم قال : « الّذِينَ لَا يُؤْمِنون » وذلك بيان للذنب الذى أوجب العقوبة . وقوله : « وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ » تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد . ثم قال : ﴿ وَلَا يُحَرِّمُون مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ زيادة للذنب في مخالفة الأعمال . ثم قال : ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام . ثم قال : ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ تأكيد للحجة؛ لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل . ثم قال : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾ فبيّن الغاية التى تمتدّ إليها العقوبة، وعيّن البدل الذى ترتفع به .

الثانيــة — وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية؛ فقال الشافعيّ رحمه الله : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصّةً، عربا كانوا أو عجما لهذه الآية؛ فإنهم هم الذين خُصّوا بالذكر فتوجّه الحكم إليهم دون من سواهم؛ لقوله عز وجل : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »[(١)] . ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب . وقال : وتقبل من المَجُوس بالسُّنّة؛ وبه قال أحمد وأبو ثَوْر . وهو مذهب الثّوريّ وأبي حنيفة وأصحابه . وقال الأوْزاعيّ : تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحدٍ أو مكذّب . وكذلك مذهب مالك؛ فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيا أو عجميا، تَغْلبيًّا أو قرشيا، كائنا من كان؛ إلا المرتد . وقال ابن القاسم وأشهب وسُحنون : تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلّها . وأما عَبَدة الأوثان من العرب فلم يستنّ الله فيهم جزية، ولا يبقى على الأرض منهم أحد، وإنما لهم القتال أو الإسلام . ويوجد لابن القاسم : أن الجزية تؤخذ منهم؛ كما يقوله مالك . وذلك في التفريع لابن الجلّاب، وهو احتمال لا نصّ . وقال ابن وهب :

---

(١) آية ٥ من هذه السورة .

لا تقبــل الجزية من مجوس العرب وتقبــل من غيرهم . قال : لأنه ليس فى العرب مجوسىّ إلا وجميعهم أسلم، فمن وُجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد، يقتل بكل حال إن لم يسلم ، ولا تقبــل منهم جزية . وقال ابن الجَهْـم : تقبل الجزية من كل مَن دان بغـير الإسلام ؛ إلا ما أجمِـع عليه من كفار قريش . وذكر فى تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار؛ لمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة . والله اعلم .

الثالثـــة ـــ وأما المجوس فقال ابن المنـذر : لا أعلم خلافا أن الجزية تؤخذ منهـم . وفى الموطّأ : مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذُكر أمرُ المجوس فقال : ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم . فقال عبـد الرحمن بن عَوف : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " سُنُّوا بهم سُنّة أهل الكتاب " . قال أبو عمر : يعنى فى الجزية خاصّة . وفى قول رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " سُنّوا بهـم سنة أهل الكتاب " دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب . وعلى هـذا جمهور الفقهاء . وقـد رُوى عن الشافعى أنهم كانوا أهـل كتاب فبدّلوا . وأظنه ذهب فى ذلك إلى شىء رُوى عن علىّ بن أبى طالب مِن وجه فيه ضعف، يدور على أبى سعيد البَقّال؛ ذكره عبد الرزاق وغيره . قال ابن عطية : وروى أنه قد كان بُعث فى المجوس نبىّ اسمه زرادشت . والله أعلم .

الرابعـــة ـــ لم يذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه مقدارا للجزية المأخوذة منهـم . وقد اختلف العلماء فى مقدار الجزية المأخوذة منهم؛ فقال عطاء بن أبى رَباح : لا توقيت فيها ، وإنما هو على ما صُولحوا عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبرِىّ؛ إلا أن الطبرى قال : أقلّه دينار وأكثره لا حدّ له . واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف : أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم صالح أهل البَحرَين على الجزية . وقال الشافعىّ : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا يُنقص منـه شىء؛ واحتج بمـا رواه أبو داود وغيره عن معاذ : أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم بعثه إلى اليمن ، وأمره أن يأخذ من كل حالم

دينارا فى الجزية . قال الشافعىّ : وهو المبيّن عن الله تعالى مراده . وهو قول أبى ثَور . قال الشافعىّ : و إن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإن زادوا وطابت بذلك أنفسهم قُبل منهم . و إن صولحوا على ضيافة ثلاثة أيام جاز، إذا كانت الضيافة معلومة فى الخبز والشعير والتّبن والإدام، وذَكرا ما على الوسط من ذلك وما على المُوسر، وذكر موضع النزول والكِنّ من البرد والحر . وقال مالك فيما رواه عنه ابن القاسم وأشهب ومحمد بن الحارث ابن زَنْجويه : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهما على أهل الوِرِق، الغنى والفقير سواء ولو كان مجوسيا . لا يُزاد ولا يُنقص على ما فرض عمر، لا يؤخذ منهم غيره . وقد قيل : إن الضعيف يُخفَّف عنه بقدر ما يراه الإمام . وقال ابن القاسم : لا يُنقص من فرض عمر لعسر ولا يزاد عليه لغنًى . قال أبو عمر : ويؤخذ من فقرائهم بقدر ما يحتملون ولو درهما . وإلى هذا رجع مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر، وأربعة وعشرون، وأربعون . قال الثّورىّ : جاء عن عمر بن الخطاب فى ذلك ضرائب مختلفة، فللوالى أن يأخذ بأيها شاء ، إذا كانوا أهل ذِمّة . وأما أهل الصلح فما صُولحوا عليه لا غير .

الخامســة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : والذى دلّ عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين ؛ لأنه تعالى قال : « قَٰتِلُوا الذين » إلى قوله — « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ » فيقتضى ذلك وجوبها على من يقاتل . ويدلّ على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلا ؛ لأنه لا مال له ، ولأنه تعالى قال : « حتى يُعْطُوا » . ولا يقال لمن لا يملك حتى يُعطِى . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرّية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفانى . واختُلف فى الرهبان؛ فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تؤخذ منهم . قال مُطَرِّف وابن الماجِشُون : هذا إذا لم يترهّب بعد فرضها ، فإن فرضت ثم ترهّب لم يسقطها ترهّبه .

السادســة — إذا أعطى أهلُ الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شىء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ؛ إلا أن يتجروا فى بلاد غير بلادهم التى أقِرّوا فيها وصُولحوا عليها . فإن خرجوا

تجارا عن بلادهم التى أقِرّوا فيها إلى غيرها أخذ منهم العشر إذا باعوا ونضّ(١) ثمن ذلك بأيديهم، ولو كان ذلك فى السنة مرارا؛ إلا فى حملهم الطعام الحنطةَ والزيتَ إلى المدينة ومكة خاصة، فانه يؤخذ منهم نصف العُشْر على ما فعل عمر. ومن أهل المدينة من لا يرى أن يؤخذ من أهل الذمة العشر فى تجارتهم الآمِرّة فى الحَوْل، مثل ما يؤخذ من المسلمين. وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وجماعةٍ من أئمة الفقهاء. والأوّل قول مالك وأصحابه.

السابعـــة — إذا أدّى أهل الجزية جزيتهم التى ضُربت عليهم أو صُولحوا عليها خُلِّىَ بينهم وبين أموالهم كلها، وبين كرومهـــم وعصرها ما ستروا خمورهم ولم يُعلنوا بيعها من مسلم، ومُنعوا من إظهار الخمر والخنزير فى أسواق المسلمين؛ فان أظهروا شيئا من ذلك أريقت الخمر عليهم، وأدّب من أظهر الخنزير. وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تعدّى، ويجب عليه الضمان. وقيل: لا يجب، ولو غصبها وجب عليـــه ردّها. ولا يُعترَض لهم فى أحكامهـــم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالربا. فإن تحاكموا إلينا فالحاكم مخيّر، إن شاء حكم بينهم بمـــا أنزل الله وإن شاء أعرض. وقيل: يحكم بينهم فى المظالم على كل حال، ويؤخذ من قويّهم لضعيفهم؛ لأنه من باب الدفع عنهم. وعلى الامام أن يقاتل عنهم عدوّهم ويستعين بهم فى قتالهم. ولا حظ لهم فى الفَىْء، وما صولحوا عليه من الكنائس لم يزيدوا عليها، ولم يمنعوا من إصلاح ما وَهَى منها، ولا سبيل لهم إلى إحداث غيرها. ويأخذون من اللباس والهيئة بما يبينون به من المسلمين، ويُمنعون من التشبه بأهل الاسلام. ولا بأس باشتراء أولاد العدوّ منهم إذا لم تكن لهم ذِمّة. ومن لَدّ فى أداء جزيته أُدِّب على لَدَده(٢) وأخذت منه صاغرا.

الثامنـــة — اختلف العلماء فيما وجبت الجزية عنـــه؛ فقال علماء المـــالكية: وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر. وقال الشافعيّ: وجبت بدلا عن الدم وسكنى الدار. وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا وجبت بدلا عن القتل فأسلم سقطت عنـــه الجزية لمـــا مضى، ولو أسلم قبل تمام الحول بيوم أو بعده عند مالك. وعند الشافعيّ أنها دَين مستقرّ فى الذمة فلا يسقطه

(١) نض المـــال: صار عَيْناً بعد أن كان متاعا.   (٢) اللدد: الخصومة الشديدة.

الإسلام كأجرة الدار . وقال بعض الحنفية بقولنا . وقال بعضهم : إنما وجبت بدلا عن النصر والجهاد . واختاره القـاضى أبو زيد وزعم أنه سرّ الله فى المسألة . وقول مالك أصح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " ليس على مسلم جزية " . قال سفيان : معناه إذا أسلم الذمىّ بعد ما وجبت الجزية عليه بطلت عنـه . أخرجه الترمذىّ وأبو داود . قال علماؤنا : وعليـه يدل قوله : « حتى يُعْطُوا الجِزيَةَ عن يَدٍ وهم صاغِرون » لأن بالإسلام يزول هذا المعنى . ولا خلاف أنهم إذا أسلموا فلا يؤدّون الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون . والشافعىّ لا يأخذ بعد الإسلام على الوجه الذى قاله الله تعالى . وإنما يقول : إن الجزية دَين، وجبت عليه بسبب سابق وهو السكنى أو توقّى شر القتل، فصارت كالديون كلها .

التاسـعة — لو عاهـد الإمام أهل بلد أو حصن ثم نقضوا عهدهم وآمتنعوا من أداء ما يلزمهم من الجـزية وغيرها، وامتنعوا من حكم الإسـلام من غير أن يظلموا، وكان الإمام غير جائر عليهم؛ وجب على المسلمين غَزْوُهم وقتالهم مع إمامهم . فإن قاتلوا وغلبوا حكم فيهم بالحكم فى دار الحرب سواء . وقد قيل : هم ونساؤهم فَىْء ولا خُمْس فيهم؛ وهو مذهب .

العـاشرة — فإن خرجوا متلصّصين قاطعين الطريق فهم بمنزلة المحاربين المسـلمين إذا لم يمنعوا الجزية. ولو خرجوا متظلّمين نُظر فى أمرهم ورُدّوا إلى الذمّة وأنصفوا من ظالمهم، ولا يُسترقّ منهم أحد وهم أحرار . فإن نقض بعضهم دون بعض فمن لم ينقض على عهده، ولا يؤخذ بنقض غيره، وتُعرف إقامتهم على العهد بإنكارهم على الناقضين .

الحـادية عشرة — الجِزية وزنهـا فِعلة؛ من جزى يَجْزِى إذا كافأ عما أسـدِى إليه؛ فكأنهـم أعطَوْها جزاءَ ما مُنِحوا من الأمن ، وهى كالقِعـدة والجِلسـة . ومن هـذا المعنى قول الشاعر :

يجزيك أو يُثْنِى عليـك وإن من * أثنى عليك بمـا فعلتَ كمن جَزَى

الثـانية عشرة — روى مسلم عن هشام بن حَكيم بن حِزام ومرّ على ناس من الأنباط (١) بالشأم قد أقيموا فى الشمس — فى رواية : وصُبّ على رءوسهم الزيت — فقال : ماشأنهم؟ فقال يحبسون فى الجزية . فقال هشام: أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا " . فى رواية : وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين ، فدخل عليه فحدّثه فأمر بهم فخلُّوا . قال علماؤنا : أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائهـا مع التمكن فجائز، فأما مع تبيّن عجزهم فلا تحـلّ عقوبتهم ؛ لأن من عجز عن الجـزية سـقطت عنه . ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء . وروى أبو داود عن صـفوان بن سليم عن عدّة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن آبائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : " من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طِيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " .

الثالثة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحدا . روى أبو البختري عن سلمان قال : مذمومين . وروى معمر عن قتادة قال : عن قهر . وقيـل : « عن يد » عن إنعام منكم عليهـم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك. عكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس؛ وقاله سعيد بن جبير . ابن العربي : وهذا ليس من قوله : « عن يدٍ » وإنمـا هو من قوله : « وهم صاغرون » .

الرابعة عشرة — روى الأئمة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اليد العليا خير من اليد السـفلى واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة " وروى " واليـد العُلْيا هى المعطية " . فجعل يد المعطى فى الصدقة عليا، وجعل يد المعطى فى الجزية سفلى . ويد الآخذ عليا؛ ذلك بأنه الرافع الخافض، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، لا إله غيره .

الخـامسة عشرة — عن حبيب بن أبى ثابت قال : جاء رجل إلى ابن عبـاس فقال : إن أرض الخراج يعجز عنهـا أهلها أفأعمّرها وأزرعها وأؤدّى خراجها؟ فقال لا . وجاءه آخر

(١) الأنباط : فلاحو العجم .

فقال له ذلك ، فقال لا ، وتلا قوله تعالى : « قاتِلوا الذين لا يؤمِنون بِاللهِ ولا بِاليومِ الآخرِ » إلى قوله « وهم صاغِرون » أيعمِد أحدكم إلى الصَّغار فى عنق أحدهم فينتزعه فيجعله فى عنقه ! وقال كليب بن وائل : قلت لابن عمر اشتريت أرضا ، قال : الشراء حسن . قلت : فإنى أعطى عن كل جَرِيب[1] أرض درهما وقفِيزَ طعام . قال : لا تجعل فى عنقك صغارا . وروى مَيمون بن مِهْران عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ما يسرنى أن لى الأرض كلّها بجزية خمسة دراهم أُقِرّ فيها بالصَّغار على نفسى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قرأ عاصم والكسائى «عزيرٌ ابن الله» بتنوين عزير . والمعنى أن «ابنا» على هذا خبر ابتداء عن عزير ، و « عزير » ينصرف عجميا كان أو عربيا . وقرأ ابن كَثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر « عزير بن » بترك التنوين لاجتماع الساكنين ؛ ومنه قراءة من قرأ « قل هو الله أحدُ الله الصمد » . قال أبو علىّ : وهو كثير فى الشعر . وأنشد الطبرىّ فى ذلك :

لَتجِدَنِّى بالأمير بَرًّا * وبالقناة مِدْعَسا[2] مِكَرًّا

* إذ غُطَيْفُ السُّلمِىُّ فَرّا *

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ﴾ هـذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص ؛ لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك . وهـذا مثلُ قوله تعالى : « الّذين قال لهم

(١) الجريب من الأرض : مقدار معلوم الذراع والمساحة . والقفيز : مكيال .

(٢) رجل مدعس (بالسين والصاد) : طعّان .

النّـاس » (١) ولم يقل ذلك كل الناس . وقيل : إن قائل ما حكى عن اليهود سـلّام بن مِشْكم ونعمان بن أبى أوْفَى وشاس بن قيس ومالك بن الصّيف؛ قالوه للنبيّ صلى الله عليه وسلم . قال النقاش : لم يبق يهودىّ يقولها، بل انقرضوا؛ فإذا قالها واحد فيتوجّه أن تلزم الجماعة شُنْعةُ المقالة؛ لأجل نباهـة القائل فيهم . وأقوال النبهاء أبدا مشهورة فى الناس يُحتجّ بهـا . فمن ها هنا صح أن تقول الجماعة قول نَبِيهها . والله أعلم . ورُوى أن سبب ذلك القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعـد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عُزير يسيح فى الأرض؛ فأتاه جبريل فقال : " أين تذهب " ؟ قال : أطلب العلم؛ فعلمه التوراة كلها فجاء عزير بالتوراة إلى بنى إسرائيل فعلمهم . وقيل : بل حفّظها الله عُزيرا كرامة منه له؛ فقال لبنى إسرائيل : إن الله قـد حفّظنى التوراة، فجعلوا يدرسونها من عنـده . وكانت التوراة مدفونة، كان دفنها علماؤهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب، وقتْل بُخْتَنَصّر إياهم . ثم إن التـوراة المدفونة وُجدت فإذا هى متساوية لمـا كان عُزير يدرس؛ فضلّوا عند ذلك وقالوا : إن هـذا لم يتهيأ لعزير إلا وهو ٱبن الله؛ حكاه الطبرىّ . وظاهر قول النصـارى أن المسيح بن الله، إنمـا أرادوا بنوّة النَّسل؛ كما قالت العرب فى الملائكة . وكذلك يقتضى قول الضحاك والطبرى وغيرهما . وهذا أشنع الكفر . قال أبو المعالى : أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ٱبن إله . قال ابن عطيـة : ويقـال إن بعضهم يعتقدها بنوّة حنوّ ورحمة . وهذا المعنى أيضا لايحل أن تطلق البنوّة عليه، وهو كفر .

الثالثـــة ــ قال ٱبن العربىّ : فى هذا دليل من قول ربّنـا تبارك وتعالى على أن من أخبر عن كفر غيره الذى لا يجوز لأحد أن يبتدئ به لا حرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على معنى الاستعظام له والردّ عليه. ولو شاء ربّنا ما تكلّم به أحد، فإذا مكّن من إطلاق الألسن به فقد أذن بالإخبار عنه؛ على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة والبرهان .

(١) آية ١٧٣ سورة آل عمران .

الرابعــــة ـــ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ قيل : معناه التأكيد؛ كما قال تعالى : « يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ »(١) وقوله : « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »(٢) وقوله : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ »(٣) ومثله كثير . وقيل : المعنى أنه لما كان قولٌ ساذَج ليس فيه بيان ولا برهان ، وإنما هو قول بالفم مجرّد نَفَس دعوَى لا معنى تحته صحيح ؛ لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولدا ؛ فهو كذب وقولٌ لسانيٌّ فقط ، بخلاف الأقوال الصحيحة التي تَعْضُدها الأدلة ويقوم عليها البرهان . قال أهل المعانى : إن الله سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زورا ؛ كقوله : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »(٤) و « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »(٥) و « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »(٦) .

الخامســــة ـــ قوله تعالى : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ « يضاهئون » يشابهون ؛ ومنه قول العرب : آمرأةٌ ضَهْيأُ للتى لا تحيض أو التى لا تَدْىَ لها ؛ كأنها أشبهت الرجال . وللعلماء فى « قول الذين كفروا » ثلاثة أقوال : الأوّل ـــ قولُ عَبَدة الأوثان : اللّات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى . الثانى ـــ قول الكفرة : الملائكة بنات الله . الثالث ـــ قول أسلافهم . فقلّدوهم فى الباطل واتبعوهم على الكفر؛ كما أخبر عنهم بقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ »(٧) .

السادســـة ـــ اختلف العلماء فى «ضهيأ» هل يُمَدّ أم لا ؛ فقال ابن وَلّاد : آمرأة ضَهْيأ ؛ وهى التى لا تحيض ؛ مهموز غير ممدود . ومنهم من يمدّ وهو سيبويه فيجعلها على فعلاء بالمدّ ، والهمزة فيها زائدة؛ لأنهم يقولون نساء ضُهْى ، فيحذفون الهمزة . قال أبو الحسن قال لى

(١) آية ٧٩ سورة البقرة . (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) آية ١٣ سورة الحاقة .
(٤) آية ١٦٧ سورة آل عمران. (٥) آية ٥ سورة الكهف . (٦) آية ١١ سورة الفتح .
(٧) آية ٢٢ و ٢٣ سورة الزخرف .

التَّجيرَمِيّ : ضهياة بالمد والهاء . جمع بين علامتي تأنيث ؛ حكاه عن أبي عمرو الشّيباني في النوادر . وأنشد :

* ضهياة أو عاقر جمّاد (١) *

ابن عطية : من قال «يضاهئون» مأخوذ من قولهم : امرأة ضهياء فقوله خطأ؛ قاله أبو عليّ؛ لأن الهمزة في « ضاهأ » أصلية، وفي « ضهياء » زائدة كحمراء .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي لعنهم الله، يعني اليهود والنصارى، لأن الملعون كالمقتول . قال ابن جُريج : «قاتلهم الله» هو بمعنى التعجب . وقال ابن عباس : كل شيء في القرآن قَتْل فهو لعن؛ ومنه قول أبان بن تَغْلب :

قاتلها الله تلحاني وقد علمتْ * أنّي لنفسي إفسادي و إصلاحي

وحكى النقاش أن أصل « قاتل الله » الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر، وهم لا يريدون الدعاء . وأنشد الأصمعيّ :

يا قاتل الله ليْلَى كيف تعجبني * وأخبر الناس أني لا أباليها

قوله تعالى : ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)

قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ﴾ الأحبار جمع حبر، وهو الذي يحسن القول وينظّمه ويتقنه بحسن البيان عنه . ومنه ثوب محبّر أي جمع الزينة . وقد قيل في واحد الأحبار : حبر بكسر الحاء . والمفسرون على فتحها . وأهل اللغة على كسرها . قال يونس : لم أسمعه إلا بكسر الحاء، والدليل على ذلك أنهم قالوا : حِبر يريدون مداد عالم، ثم كثر الاستعمال حتى قالوا للمداد حِبر . قال الفرّاء : الكسر والفتح

(١) في الأصول « جناد » بالنون، وهو تحريف . والجماد : الناقة التي لا لبن بها .

لغتان . وقال ابن السِّكيت : الحِبر بالكسر المداد، والحبر بالفتح العالِم. والرّهبان جمع راهب مأخوذ من الرّهبــة، وهو الذى حمله خوف الله تعـالى على أن يخلص له النية دون الناس ، ويجعـل زمانه له وعمله معه وأنسه به .

قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قال أهل المعـانى : جعلوا أحبارهم و رُهْبانهـم كالأرباب حيث أطاعوهم فى كل شىء ؛ ومنه قوله تعالى: «قَالَ ٱنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا»(١) أى كالنار . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفســد الدّينَ إلا الملوكُ * وأحبـارُ ســـوء ورُهبـانها

روى الأعمش وسفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى البَخْتَرِىّ قال: سئل حذيفة عن قول الله عز وجل : « ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » هل عبدوهم ؟ فقال لا ، ولكن أحَلُّوا لهم الحرام فاســتحلّوه، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه. و روى الترمِذىّ عن عدِىّ بن حاتم قال : أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم و فى عنق صليب من ذهب . فقال : " ماهذا يا عدىّ اِطرح عنك هذا الوثن " وسمعته يقرأ فى سورة براءة « ٱتَّخَذُوا أحبـارَهم ورُهبانهم أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ » ثم قال : " أما إنهـم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه و إذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه". قال: هذا حديث غريب لا يُعرف إلا من حديث عبد السلام بن حرب . وغُطيف بن أَعْيَن ليس بمعروف فى الحديث .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ﴾ مضى الكلام فى اشتقاقه فى «آل عمران»(٢). والمسيح : العَرَق يسيل من الجبين . ولقد أحسن بعض المتأخرين فقال :

افرح فسوف تألف الأحزانا * إذا شهدت الحشر والميزانا

وسال من جبينك المســيح * كأنه جـداول تسـيح

ومضى فى « النساء »(٣) معنى إضافته إلى مريم أمّه .

---

(١) آية ٩٦ سورة الكهف . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ ﴾ أى دلالتـه وحججه على توحيده . جعل البراهين بمنزلة النور لمـا فيها من البيان . وقيل : المعنى نور الإسلام؛ أى أن يُخمِدوا دين الله بتكذيبهم . ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ جمع فُوه على الأصـل ؛ لأن الأصـل فى فَمٍ فَوْهٌ ، مثـل حوض وأحواض . ﴿ وَيَأْبَى ٱللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ يقال : كيف دخلت « إلا » وليس فى الكلام حرف نفى، ولا يجوز ضربت إلا زيدا . فزعم الفراء أن « إلا » إنمـا دخلت لأن فى الكلام طَرَفا من الجَحْد. قال الزجاج: الجحد والتحقيق ليسا بذوى أطراف . وأدوات الجحد : ما، ولا، وإنْ، وليست : وهذه لا أطراف لهـا يُنطق بها، ولو كان الأمر كما أراد لجاز كرهت إلا زيدا ؛ ولكن الجواب أن العرب تحذف مع أَبَى . والتقدير : ويأبى الله كل شىء إلا أن يتم نوره . وقال علىّ بن سليمان : إنمـا جاز هذا فى « أَبَى » لأنها منع أو آمتناع ، فضارعت النفى . قال النحاس : فهذا حسن؛ كما قال الشاعر :

وهل لِىَ أُمٌّ غيرُها إنـــ تركتها * أبى الله إلا أن أكون لها ٱبْنَمَـا

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليـه وسلم . ﴿ بِالْهُدَى ﴾ أى بالفرقان . ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى بالحجة والبراهين . وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليـه شىء منها ؛ عن آبن عباس وغيره . وقيـل : « ليظهره » أى ليظهر الدّين دين الإسلام على كل دين. قال أبو هريرة والضحاك : هذا عند نزول عيسى عليه السلام . وقال السُّدِّى : ذاك عند خروج المهدىّ؛ لايبقى أحد إلا دخل فى الإســلام وأدّى الجزية . وقيل : المهدىّ هو عيسى فقط، وهو غير صحيح؛ لأن الأخبار الصحاح قد

تواترت على أن المهدىّ من عِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا يجوز حمله على عيسى . والحـديث الذى ورد فى أنه لا مهـدىّ إلا عيسى غير صحيح . قال البَيْهقى فى كتاب البعث والنشور : لأن راويه محمـد بن خالد الجَنَدىّ وهو مجهول ، يروى عن أبان بن أبى عيّـاش — وهو متروك — عن الحسن عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهو منقطع . والأحاديث التى قبـله فى التنصيص على خروج المهدىّ، وفيها بيان كون المهدىّ من عِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحّ إسنادا .

قلت : قد ذكرنا هـذا وزدناه بيانا فى كتابنا (كتاب التذكرة) وذكرنا أخبـار المهدىّ مستوفاة والحمد لله . وقيل : أراد « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » فى جزيرة العرب، وقد فعل .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ دخلت اللام على يَفعل، ولا تدخل على فَعَل، لمضارعة يَفْعل الأسماء . والأحبار علماء اليهود . والرُّهبان مجتهدو النصارى فى العبادة . ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ قيل : إنهم كانوا يأخذون من اموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبِيَع وغير ذلك، ممـا يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلّف إلى الله تعالى، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال ؛ كالذى ذكره سَلْمـان الفارسىّ عن الراهب الذى استخرج كنزه؛ ذكره ابن إسحاق فى السـير . وقيل : كانوا يأخذون من غَلّاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدِّين والقيام بالشرع . وقيل : كانوا يرتشون فى الأحكام؛ كما يفعله اليوم

كثير من الولاة والحكّام . وقوله : ﴿بِالبَاطِلِ﴾ يجمع ذلك كله . ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي يمنعون أهل دينهم عن الدخول فى دين الإسلام، واتباع محمد عليه السلام .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ﴾ الكنز أصله فى اللغة الضم والجمع ، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة . ألا ترى قوله عليه السلام : " ألا أخبركم بخير ما يكنز المرءُ المرأة الصالحة " . أي يضمه لنفسه ويجمعه . قال :

ولم تزود من جميع الكنز ＊ غير خيوط ورَثِيث بَزِّ (١)

وقال آخر :

لا دَرَّ درّى إن أطعمتُ جائعَهم ＊ قِرْف الحَتِيّ وعندى البُرُّ مكنوز

قرف الحتِيّ هو سَوِيق المُقْل (٢) . يقول : إنه نزل بقوم فكان قِراه عندهم سويق المقل، وهو الحَتِيّ ، فلما نزلوا به قال هو : لا دَرّ دَرِّى ... البيت . وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لا يُطّلَع عليه، بخلاف سائر الأموال . قال الطبريّ : الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض ، فى بطن الأرض كان أو على ظهرها . وسمى الذهب ذهبا لأنه يذهب، والفضة لأنها تنفض فتتفرق ، ومنه قوله تعالى : « لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » وقد مضى هذا المعنى فى آل عمران (٣) .

الثالثـــة — واختلفت الصحابة مَن المراد بهذه الآية ؛ فذهب معاوية إلى أن المراد بها أهل الكتاب ، وإليه ذهب الأصَمّ ؛ لأن قوله : « والذين يكنزون » مذكور بعد قوله : « إنّ كثيرًا مِن الأحْبارِ والرُّهْبانِ ليأكُلون أموالَ الناسِ بِالباطِلِ » . وقال أبو ذر وغيره : المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . وهو الصحيح ؛ لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة لقال : ويكنزون، بغير والذين . فلما قال : « والذين » فقد استأنف معنًى آخر يبيّن أنه عطف جملة على جملة . فالذين يكنزون كلام مستأنف، وهو رفع على الابتداء. قال السُّدّى : عنى أهل القبلة . فهذه ثلاثة أقوال . وعلى قول الصحابة فيه دليل على أن الكفار عندهم

(١) الرثيث : البالى، والبز : نوع من الثياب .　　(٢) المقل ثمر شجر الدوم ينضج و يؤكل .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٤٩ طبعة أولى أو ثانية .

مخاطبون بفروع الشريعـة . روى البخاريّ عن زيد بن وهب قال : مررت بالرَّبَذَة(١) فاذا أنا بأبى ذَرٍّ فقلت له : ما أنزلك منزلك هـذا ؟ قال : كنت بالشأم فاختلفت أنا ومعـاوية فى «الذين يَكْنِزُون الذّهب والفضة ولا يُنفقونها فى سبيل الله » ؛ فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب . فقلت : نزلت فينا وفيهم ؛ وكان بينى و بينه فى ذلك . فكتب إلى عثمان يشكونى ، فكتب إلىّ عثمان أن أَقْدَم المدينة ، فقدمتُها فكثر علىّ الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ؛ فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تَحيَّتَ فكنتَ قريبا ؛ فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أمّروا علىّ حبشيًّا لسمعت وأطعت .

الرابعـــة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمنت هذه الآية زكاة العين ، وهى تجب بأربعة شروط : حرية ، و إسلام ، وحول ، ونصاب سليم من الدين . والنصاب مائتا درهم أوعشرون دينارا . أو يكمّل نصاب أحدهما من الاخر وأخرج ربع العشر من هذا وربع العشر من هذا . و إنما قلنا إن الحرية شرط ؛ فلأن العبد ناقص الملك . و إنما قلنا إن الاسلام شرط ؛ فلا ن الزكاة طهرة والكافر لا تلحقه طهرة ، ولأن الله تعالى قال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» فخوطب بالزكاة من خوطب بالصلاة . و إنما قلنا إن الحول شرط ؛ فلا ن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى مالٍ زكاةٌ حتى يَحُول عليــه الحول " . و إنما قلنا إن النصاب شرط ؛ فلا ن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى أقلّ من مائتى درهم زكاة وليس فى أقل من عشرين دينارا زكاة " . ولا يُراعَى كمال النصاب فى أول الحَوْل ، و إنما يراعى عنـد آخر الحول ؛ لاتفاقهم أن الربح فى حكم الأصل . يدلّ على هـذا أن من كانت معـه مائتا درهم فتَجَر فيها فصارت آخر الحول ألفا أنه يؤدّى زكاة الألف ، ولا يستأنف للربح حولا . فاذا كان كذلك لم يختلف حكم الربح ، كان صادرا عن نصاب أو دونه . وكذلك ٱتفقوا أنه لو كان له أربعون من الغنم ، فتوالدت له رأسَ الحول ثم ماتت الأمهات إلّا واحدة منها ، وكانت السّخال تتمة النصاب فإن الزكاة تُخرج عنها .

---

(١) الربذة : موضع قريب من المدينة .

الخامســـة ـــ وآختلف العلماء فى المـال الذى أُدّيت زكاته هـل يسمى كنزا أم لا؛ فقال قوم نعم . ورواه أبو الضُّحَا عن جعدة بن هُبيرة عن علىّ رضى الله عنه، قال علىّ : أربعة آلاف فما دونها نفقة، وما كثر فهو كنز وإن أُدّيت زكاته . ولا يصح . وقال قوم : ما أدّيت زكاته منه او من غيره عنه فليس بكنز . قال ابن عمر : ما أُدّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل ما لم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر، وهو الصحيح . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شُجاعا أقْرَعَ له زَبِيبتان يُطَوَّقه يوم القيامة ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه يعنى شِدْقَيْه ثم يقول أنا مالُك أنا كنزك ـــ ثم تلا ـــ « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » (١) " الآية . وفيه أيضا عن أبى ذرّ، قال : انتهيت إليه ـــ يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم ـــ قال : "والذى نفسى بيده ـــ أو والذى لا إله غيره أو كما حلف ـــ ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدّى حقها إلّا أُتِى بها يوم القيامة أعظمَ ما تكون وأسْمَنَه تَطؤُه بأخفافها وتنطَحه بقرونها كلما جازت أخراها رُدّت عليه أُولاها حتى يُقْضَى بين الناس". فدلّ دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقد بيّن ابن عمر فى صحيح البخارىّ هذا المعنى . قال له أعرابىّ : أخبرنى عن قول الله تعالى : « والذِين يكنِزون الذّهبَ والفِضة » قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فوَيْل له . إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طُهرا للأموال . وقيل : الكنز ما فضل عن الحاجة . روى عن أبى ذرّ، وهو مما نقل من مذهبه، وهو من شدائده ومما آنفرد به رضى الله عنه .

قلت : ويحتمل أن يكون مجمل ما رُوى عن أبى ذرّ فى هـذا ، ما روى أن الآية نزلت فى وقت شدّة الحاجة وضعف المهاجرين وقِصَر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم، ولم يكن فى بيت المـال ما يشبعهم، وكانت السُّنون الجوائح هاجمة عليهم ، فنُهُوا عن إمساك شىء من المـال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز آدّخار الذهب والفضة فى مثل ذلك الوقت .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

فلما فتح الله على المسلمين ووسّع عليهم أوْجب صلى الله عليه وسلم فى مائتى درهم خمسةَ دراهم، وفى عشرين دينارا نصفَ دينار؛ ولم يوجب الكل، واعتبر مدة الاستنماء؛ فكان ذلك منه بيانا صلى الله عليــه وسلم . وقيل : الكنز ما لم تؤدّ منه الحقوق العارضــة؛ كفكّ الأسـير وإطعام الجائع وغير ذلك. وقيل : الكنز لغةً المجموع من النقدين، وغيرهما من المـال محمول عليهما بالقياس . وقيل: المجموع منهما ما لم يكن حلياً؛ لأن الحلىّ مأذون فى ٱتخاذه ولا حقّ فيه . والصحيح ما بدأنا بذكره، وأن ذلك كله يسمّى كنزا لغةً وشرعا . والله أعلم .

السادســـة — واختلف العلماء فى زكاة الحلىّ؛ فذهب مالك وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن لا زكاة فيه . وهو قول الشافعىّ بالعراق، ووقف فيه بعد ذلك بمصر وقال : أستخير الله فيه . وقال الثّورىّ وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعىّ : فى ذلك كله الزكاة . احتج الأولون فقالوا : قصــدُ النّماء يوجب الزكاة فى العروض وهى ليست بمحل لإيجاب الزكاة، كذلك قطع النماء فى الذهب والفضــة بٱتخاذهما حلياً للقِنْية يسقط الزكاة . احتجّ أبو حنيفة بعموم الألفاظ فى إيجاب الزكاة فى النقدين، ولم يفرّق بين حلى وغيره . وفرّق الليث بن سعد فأوجب الزكاة فيما صُنع حلياً لِيفرّ به من الزكاة، وأسقطها فيما كان منه يلبس ويُعار . وفى المذهب فى الحلىّ تفصيل، بيانه فى كتب الفروع .

السابعـــة — روى أبو داود عن ابن عبـاس قال : لمـا نزلت هــذه الآية « والذِين يكنِزون الذهب والفِضة » قال : كَبُر ذلك على المسلمين، فقال عمر : أنا أفرّج عنكم؛ فٱنطلق فقال : يا نبىّ الله، إنه كَبُر على أصحابك هــذه الآية . فقال : " إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم وإنمـا فرض المواريث — وذَكَر كلمة —(١) لتكون لمن بعدكم" قال : فكبر عمر . ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألَا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأةُ الصالحة إذا نظر إليها سَرّته وإذا أمرها أطاعتــه وإذا غاب عنهـا حفِظته " . وروى

(١) ما بين الخطين موجود فى نسخ الأصل، غير موجود فى سنن أبى داود . والذى فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « ... وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » .

الترمذي وغيره عن ثوبان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : قد ذمّ الله سبحانه الذهب والفضة، فلو علمنا أيّ المال خير حتى نكسبه. فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فسأله فقال : "لسانٌ ذاكر وقلب شاكر وزوجة تعين المرء على دينه" . قال حديث حسن .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل ينفقونهما ؛ ففيه أجوبة ستة : الأول — قال ابن الأنباري : قصد الأغلب والأعمّ وهي الفضة ؛ ومثله قوله : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ »[1] ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ . ومثله « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا »[2] فأعاد الهاء إلى التجارة لأنها الأهم، وترك اللهو؛ قاله كثير من المفسرين . وأبى بعضهم وقال: لا يشبهها؛ لأن «أو» قد فصلت التجارة من اللهو فحسُن عوْد الضمير على أحدهما . الثاني — العكس ، وهو أن يكون « ينفقونها » للذهب والثاني معطوفا عليه . والذهب تؤنثه العرب تقول : هي الذهب الحمراء . وقد تذكّر والتأنيث أشهر . الثالث — أن يكون الضمير للكنوز . الرابع — للأموال المكنوزة . الخامس — للزكاة؛ التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكنوزة . السادس — الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فُهم المعنى، وهذا كثير في كلام العرب . أنشد سيبويه :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأي مختلِف[3]

ولم يقل راضون .

وقال آخر[4] :

رَماني بأمر كنتُ منه ووالدي * بريئا ومن أجْل الطّوِيّ رماني

ولم يقل بريئين . ونحوه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

---

(١) آية ٤٥ سورة البقرة . (٢) آخر سورة الجمعة . (٣) البيت لقيس بن الخطيم .

(٤) هو ابن أحمر، واسمه عمرو . وصف في البيت رجلا كان بينه وبينه مشاجرة في بئر — وهو الطوى — فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التي كانت بينهما . (عن شرح الشواهد) .

إن شرخ الشباب والشّعر الأسـ ☼ ـود ما لم يُعاص كان جنونَا

ولم يقل يعاصيا .

التاســعة — إن قيل : من لم يكنز ولم ينفِق فى سبيل الله وأنفق فى المعاصى، هل يكون حكمه فى الوعيد حكمَ من كنز ولم ينفق فى سبيل الله . قيل له : إن ذلك أشدّ ؛ فإن من بَذّر ماله فى المعاصى عصى من جهتين : بالإنفاق والتناول؛ كشراء الخمر وشربها . بل من جهات إذا كانت المعصية مما تتعدّى؛ كمن أعان على ظلم مسلم مِن قتله أو أخذ ماله إلى غير ذلك . والكانز عصى من جهتين، وهما منع الزكاة وحبس المـال لا غير . وقد لا يراعى حبس المـال، والله أعلم .

العاشـــرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد تقدّم معناه . وقد فسّر النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا العذاب بقوله : " بَشّر الكنّازين بكَيّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكَيّ من قِبل أقفائهم يخرج من جباههم " الحديث . أخرجه مسلم . رواه أبو ذر فى رواية : " بشر الكنّازين بِرَضْف (١) يُحْمَى عليه فى نار جهنم فيوضع على حَلَمَة ثَدْيِ أحدهم حتى يخرج من نُغْض (٢) كَتِفيه ويوضع على نُغْض كتِفيه حتى يخرج من حلمة ثَدْييه فيتزلزل " الحـديث . قال علماؤنا : فخروج الرَّضْف من حلمة ثَدْيه إلى نُغْض كتفه لتعذيب قلبــه وباطنه حين ٱمتلأ بالفرح بالكثرة فى المـال والسرور فى الدنيا؛ فعوقب فى الآخرة بالهمّ والعذاب .

الحادية عشرة — قال علماؤنا : ظاهر الآية تعليق الوعيد على من كنز ولا ينفق فى سبيل الله، ويتعرّض للواجب وغيره؛ غير أن صفة الكنز لا ينبغى أن تكون معتبرة؛ فإن من لم يكنز ومنع الإنفاق فى سبيل الله فلابدّ وأن يكون كذلك؛ إلا أن الذى يخبأ تحت الأرض هو الذى يُمنع إنفاقه فى الواجبات عُرْفًا، فلذلك خُص الوعيد به . والله أعلم .

---

(١) الرضف : الحجارة المحماة .

(٢) النغض (بالضم والفتح) : أعلى الكتف، وقيل : هو العظم الرقيق الذى على طرفه .

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ « يوم » ظرف، والتقدير يعذبون يوم يُحْمَى . ولا يصح أن يكون على تقـدير : فبشّرهم يوم يحمى عليها؛ لأن البشارة لا تكون حينئذ. يقال: أحميت الحديدة فى النار، أى أوقدت عليها . ويقال : أحميته، ولا يقال : أحميت عليه . وهاهنا قال عليها ؛ لأنه جعل « على » من صلة معنى الإحماء، ومعنى الإحماء الإيقاد . أى يوقد عليها فتكوى . الكىّ : إلصاق الحارّ من الحديد والنار بالعضو حتى يحترق الجلد . والجباه جمع الجبهة، وهو مستوى ما بين الحاجب إلى الناصية . وجبَهت فلانا بكذا، أى استقبلته به وضربت جبهته . والجُنوب جمـع الجنب . والكىّ فى الوجه أشهر وأشنع ، وفى الجنب والظهـر آلم وأوجع؛ فلذلك خصّها بالذكر من بين سائر الأعضاء . وقال علمـاء الصوفيـة : لمـا طلبوا المـال والجاه شان الله وجوههم ، ولمـا طوَوْا كشحا[(١)] عن الفقير إذا جالسهم كُوِيت جنوبهم ، ولمـا أسندوا ظهورهم إلى أموالهم ثقةً بها واعتمادا عليها كُويت ظهورهم . وقال علماء الظاهر : إنما خص هـذه الأعضاء لأن الغنىّ إذا رأى الفقير زوى[(٢)] ما بين عينيه وقبض وجهه . كما قال[(٣)] :

يَزِيد يَغُضّ الطـرف عنى كأنمـا * زوى بين عينيـه علىّ المحـاجمُ

فلا ينبسطْ من بين عينيك ما انزوَى * ولا تَلْقَـنى إلا وأنفُـك راغمُ

وإذا سأله طوَى كشحه، وإذا زاده فى السؤال وأكثر عليه ولّاه ظهره . فرتّب الله العقوبة على حال المعصية .

---

(١) طوى كشحه عنه : اذا أعرض عنـه . (٢) جمعه وقبضه .

(٣) القائل هو الأعشى؛ كما فى اللسان .

الثانيـــة — واختلفت الآثار في كيفية الكيّ بذلك؛ ففي صحيح مسلم من حديث أبي ذرّ ما ذكرنا من ذكر الرَّضْف . وفيه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما مِن صاحب ذهبٍ ولا فِضة لا يؤدّي منها حقّها إلا إذا كان يومُ القيامة صُفّحت له صفائح من نارٍ فأحمى عليها في نار جهنم فيُكْوَى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بَرَدت أعيدت له في يومٍ كان مقـداره خمسين ألف سـنة حتى يُقْضَى بين العبـاد فيرى سبيله إمّا إلى الجنـة و إمّا إلى النار" . الحـديث . وفي البخاريّ : أنه يُمَثّل له كنزه شجاعا أقرع . وقـد تقدّم في غير الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال : من كان له مال فلم يؤدّ زكاته طُوِّقه يوم القيامة شجاعا أقرع ينقُر رأسه .

قلت : ولعلّ هـذا يكون في مواطن : موطن يمثّل المـال فيـه ثعبانا، وموطن يكون صفائح ، وموطن يكون رَضْفا . فتتغيّر الصفات والجسمية واحدة؛ فالشجاع جسم والمـال جسم . وهذا التمثيل حقيقة؛ بخلاف قوله : "يؤتى بالموت كأنه كبش أملح" فإن تلك طريقة أخرى، ولله أن يفعـل ما يشاء . وخُصّ الشجاع بالذكر لأنه العدوّ الثاني للخلق . والشجاع من الحيات هو الحية الذكر الذي يواثِب الفارس والراجل، و يقوم على ذنبه وربما بلغ الفارس، و يكون في الصّحارى . وقيل : هو الثعبان . قال اللِّحْيانيّ : يقال للحية شجاع، وثلاثة أشجعة، ثم شجعـان . والأقرع من الحيـات هو الذي تمعّط رأسـه وٱبيض من السمّ . في الموطّأ : له زبيبتان؛ أي نقطتان منتفختان في شِدْقيه كالرّغوتين . ويكون ذلك في شِـدق الإنسـان إذ غضب وأكثر من الكلام . قالت [أمّ] غَيْلان بنت جرير: ربّما أنشدت أبي حتى يتزبّب شِدقاي . ضرب مثلا للشجاع الذي كثر سمّه فيُمَثَّل المـالُ بهذا الحيوان فيلقى صاحبه غضبان . وقال ابن دُريد : نقطتان سَوْداوان فوق عينيه . في رواية : مُثّـل له شجاع يتبعه فيضطره فيُعطيه يده فيقضَمها كما يقضَم الفحل . وقال ابن مسعود : والله لا يعـذّب الله أحدا بكنز فيمسّ درهم درهمـا ولا دينار دينارا ، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم ودينار على حدته . وهذا إنما يصح في الكافر — كما ورد في الحديث — لا في المؤمن . والله أعلم .

الثالثــة ــ أسند الطبري إلى أبي أمامة الباهلي قال : مات رجل من أهل الصُّـفّة فوُجد في بردته دينار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَيّة" . ثم مات آخر فوجد له ديناران . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَيّتان" . وهذا إمّا لأنهما كانا يعيشان من الصـدقة وعندهما التِّبر ، وإمّا لأن هذا كان في صـدر الإسلام ، ثم قرر الشرع ضبط المـال وأداء حقه . ولو كان ضبط المـال ممنوعا لكان حقه أن يُخرج كلّه ، وليس في الأمة من يلزم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالُهم رضوان الله عليهم . وأما ما ذكر عن أبي ذَرّ فهو مذهب له ؛ رضي الله عنـه . وقد روى موسى بن عُبيـدة عن عمران بن أبي أنس عن مالك بن أوس بن الحَدَثان عن أبي ذرّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ولا يُعدّه لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يُكوَى به يوم القيامــة " .

قلت : هذا الذي يليق بأبي ذرّ رضي الله عنه أن يقول به ، وأن ما فضـل عن الحاجة فليس بكنز إذا كان معدّا لسبيل الله . وقال أبو أمامة : من خلّف بيضا أو صُفراً كُوِي بها مغفورا له أو غير مغفور له ؛ ألَا إن حلية السـيف من ذلك . وروى ثَوْبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من رجل يموت وعنده أحمرُ أو أبيض إلا جعل الله له بكل قيراط صفيحة يكوَى بها من فرقه(1) إلى قدمه مغفوراً له بعد ذلك أو معذّبا " .

قلت : وهـذا محمول على ما لم تؤدّ زكاته بدليل ما ذكرنا في الآية قبل هـذا . فيكون التقدير : وعنـده أحمر أو أبيض لم يؤدّ زكاته . وكذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه : من ترك عشرة آلاف جُعلت صفائح يعذّب بها صاحبها يوم القيامة ، أي لم يؤد زكاتها ، لئلا تتناقض الأحاديث . والله أعلم .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي يقال لهم هـذا ما كنزتم ؛ فحذف . ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي عذاب ما كنتم تكنزون .

---

(1) الفرق : الطريق في شعر الرأس .

قوله تعالى : إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه سبع (١) مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ جمع شهر . فإذا قال الرجل لأخيه : لا أكلمك الشهور، وحلف على ذلك فلا يكلمه حولا؛ قاله بعض العلماء . وقيل : لا يكلمه أبدا . ابن العربيّ : وأرى إن لم تكن له نية أن يقتضى ذلك ثلاثة أشهر؛ لأنه أقلّ الجمع الذى يقتضيه صيغة فُعول فى جمع فَعْل . ومعنى ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أى فى حكم الله وفيما كتب فى اللوح المحفوظ . ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ أعربت « اثنا عشر شهرا » دون نظائرها ؛ لأن فيها حرف الإعراب ودليله . وقرأ العامة « عشر» بفتح العين والشين . وقرأ أبو جعفر « عشْر » بجزم الشين . ﴿ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ يريد اللوح المحفوظ . وأعاده بعد أن قال « عند الله » لأن كثيرا من الأشياء يوصف بأنه عند الله، ولا يقال إنه مكتوب فى كتاب الله؛ كقوله : « إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ (٢) » .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ إنما قال « يوم خلق السموات والأرض » ليبيّن أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض، وأنزل ذلك على أنبيائه فى كتبه المنزلة . وهو معنى قوله تعالى : « إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » . وحكمها باقٍ

(١) يلاحظ أن المسائل ثمان، لا سبع . (٢) آخر سورة لقمان .

على ما كانت عليه لم يُزِلها عن ترتيبها تغييرُ المشركين لأسمائها، وتقديمُ المقـدّم فى الاسم منها . والمقصود من ذلك اتباعُ أمر الله فيها ورفضُ ما كان عليـه أهل الجاهلية من تأخير أسمـاء الشهور وتقـديمها ، وتعلّقُ الأحكام على الأسماء التى رتّبوها عليـه ؛ ولذلك قال عليه السلام فى خطبته فى حَجّة الوداع : " أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" على ما يأتى بيانه . وأن الذى فعل أهل الجاهلية من جعل المحرّم صفرًا وصفرٍ محرّما ليس يتغيّر به ما وصفه الله تعالى . والعامل فى « يوم » المصدر الذى هو « فى كتاب الله » ، وليس يعنى به واحد الكُتُب؛ لأن الأعيان لا تعمل فى الظروف . والتقدير : فيما كتب الله يوم خلق السموات والأرض . و «عند» متعلق بالمصدر الذى هو العِدّة، وهو العامل فيه . و « فى » من قوله : « فِى كِتَابِ اللهِ » متعلقة بمحذوف، هو صفة لقوله : « اثنا عشر » . والتقدير : اثنا عشر شهرا معدودةً أو مكتوبةً فى كتاب الله . ولا يجوز أن تتعلق بعِدّة لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر إنّ .

الثالثـــة ـــ هذه الآية تدلّ على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما يكون بالشهور والسنين التى تعرفها العرب ، دون الشهور التى تعتـبرها العجم والروم والقبط و إن لم تزد على اثنىْ عشر شهرا؛ لأنها مختلفة الأعداد، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص، وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين و إن كان منهـا ما ينقص، والذى ينقص ليس يتعيّن له شهر ، و إنمـا تفاوتها فى النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر فى البروج .

الرابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ الأشهر الحُرُم المذكورة فى هذه الآية ذو القعدة وذ الحِجة والمحرّم ورجب الذى بين جمادى الآخرة وشعبان، وهو رجب مُضَر، وقيل له رجب مضر لأن ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان و يسمّونه رجبا . وكانت مضر تحرّم رجبا نفسَه ؛ فلذلك قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم فيه : " الذى بين جمادى وشعبان " ورفع ما وقع فى آسمـه من الاختلال بالبيان . وكانت العرب أيضا تسميه مُنْصِـل الأسِنّة[1] ؛

(١) منصل الأسنة : مخرجها من أماكنها . كانوا اذا دخل رجب نزعوا أسـنة الرماح ونصال السهام إبطالا للقتال فيه ، وقطعا لأسباب الفتن لحرمته .

روى البخاريّ عن أبى رجاء العُطاردىّ – واسمه عمران بن مِلْحان وقيل عمران بن تيْم – قال : كنّا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منـه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجـد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاء فحلبنا عليه ثم طُفنا به ، فإذا دخل شهر رجب قلنا مُنْصِل الأسنّة؛ فلم نَدَعْ رُمْحًا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناها فألقيناه .

الخامســـة – قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى الحساب الصحيح والعدد المستوْفَى . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس : « ذلك الدِّين » أى ذلك القضـاء . مُقاتل : الحق . ابن عطيـة : والأصوب عندى أن يكون الدِّين هاهنا على أشهر وجوهه ؛ أى ذلك الشرع والطاعة . ﴿ الْقَيِّمُ ﴾ أى القائم المستقيم؛ من قام يقوم . بمنزلة سيد؛ من ساد يسود . أصله قَيوِم .

السادســـة – قوله تعـالى : ﴿ فلا تَظْلِموا فِيهِن أَنْفُسَكُمْ ﴾ على قول ابن عباس راجع إلى جميع الشهور . وعلى قول بعضهم إلى الأشهر الحُرُم خاصّةً ؛ لأنه إليها أقرب ولها مزية فى تعظيم الظلم؛ لقوله تعالى : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ »[1] لأن الظلم فى غير هذه الأيام جائز على ما نبيّنه . ثم قيـل : فى الظلم قولان : أحدهما لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال، ثم نسخ بإباحة القتال فى جميع الشهور؛ قاله قَتادة وعطاء الخُراسانى والزُّهرىّ وسفيان الثورى . وقال ابن جُريج : حلف بالله عطاء بن أبى رَباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا فى الحَرَم ولا فى الأشهر الحُرُم إلا أن يقاتلوا فيهـا ، وما نُسخت . والصحيح الأوّل ؛ لأن النبىّ صلى الله عليـه وسلم غزا هوازن بحُنين وثقيفا بالطّائف ، وحاصرهم فى شـوّال وبعض ذى القَعدة . وقد تقدّم هـذا المعنى فى البقرة[2] . الثانى – لا تظلموا فيهنّ أنفسكم بارتكاب الذنوب؛ لأن الله سبحانه إذا عظّم شيئا من جهة واحدة صارت له حُرمة واحدة، وإذا عظّمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعدّدة ؛ فيضاعف فيـه العقاب بالعمل السيّئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح . فانّ من أطاع الله فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ليس

(١) آية ١٩٧ سورة البقرة . (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

ثوابه ثوابَ من أطاعه فى الشهر الحلال فى البلد الحرام . ومن أطاعه فى الشهر الحلال فى البلد الحرام ليس ثوابه ثوابَ من أطاعه فى شهر حلال فى بلد حلال . وقد أشار تعالى إلى هـذا بقوله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِي مَنْ يَأْتِ مِنكُن بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ »[1] .

السابعــة — وقد آختلف العلماء من هذا المعنى فيمن قتل فى الشهر الحرام خطأ ، هل تغلّظ عليــه الدِّية أم لا ؛ فقال الأوزاعيّ : القتل فى الشهر الحرام تغلّظ فيــه الدية فيما بلغنا وفى الحَرَم ، فتجعل دية وثلثا . و يزاد فى شبه العمد فى أسنان الإبل . قال الشافعيّ : تغلّظ الدية فى النفس وفى الجراح فى الشهر الحرام وفى البلد الحرام وذوى الرحم . ورُوى عن القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وابن شهاب وأبان بن عثمان : من قتــل فى الشهر الحرام أو فى الحرم زيد على دِيته مثــلُ ثلثها . وروى ذلك عن عثمان بن عفان أيضا . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وابن أبى لَيْلَى : القتل فى الحِلّ والحَرَم سواء ، وفى الشهر الحرام وغيره سواء ؛ وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم سنّ الديات ولم يذكر فيها الحرم ولا الشهر الحرام . وأجمعوا أن الكفارة على من قتــل خطأ فى الشهر الحرام وغيره سواء . فالقياس أن تكون الدية كذلك . والله أعلم .

الثامنـــة — خصّ الله تعـالى الأربعة الأشهر الحُـرُم بالذكر ، ونهى عن الظـلم فيها تشريفا لها ، وإن كان منهيًّا عنه فى كل الزمان . كما قال : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » على هذا أكثر أهل التأويل . أى لا تظلموا فى الأربعة الأشهر أنفسكم . وروى حماد بن سَلَمة عن علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهْران عن ابن عباس قال : « فلا تظلموا فِيهِن أنفسكم » فى الآثنى عشر . وروى قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية قال : فيهنّ كلهن . فإن قيــل على القول الأوّل : لِم قال فيهنّ ولم يقل فيها ؟ وذلك أن العرب يقولون لمـا بين الثلاثة إلى العشرة : هنّ وهؤلاء ، فإذا جاوزوا العشرة قالوا : هى وهذه ، إرادةَ أن تعـرف تسمية القليل من الكثير . وروى عن الكِسائى أنه قال : إنى لأتعجّب من فعــل

---

(١) آية ٣٠ سورة الأحزاب .

العرب هـذا . وكذلك يقـولون فيما دون العشرة من الليـالى : خَلَوْن . وفيما فوقها خَلَت .
لا يقال : كيف جُعِـل بعض الأزمنة أعظم حُرْمة من بعض؛ فإنا نقول : للبارئ تعالى أن يفعل ما يشاء، ويخص بالفضيلة ما يشاء، ليس لعمله عِلّة ولا عليه حجر ، بل يفعل ما يريد بحكمته، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ فيه مسألة واحدة :

قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ أمر بالقتال . و ﴿ كَافَّةً ﴾ معناه جميعا، وهو مصدر فى موضع الحال . أى محيطين بهم ومجتمعين . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر عافاه الله عافية وعاقبه عاقبة . ولا يثنّى ولا يجمع، وكذا عامّة وخاصّة . قال بعض العلماء : كان الغرض بهذه الآية قد توجّه على الأعيان ثم نسخ ذلك وجعل فرض كفاية . قال ابن عطية : وهذا الذى قاله لم يُعلم قطُّ من شرع النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأمة جميعا النَّفْر، وإنما معنى هذه الاية الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمـع الكلمة . ثم قيدها بقوله : « كما يُقَاتِلونكم كَافَّةً » فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . والله أعلم .

قوله تعـالى : إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ ﴾ هكذا يقرأ أكثر الأئمة . قال النحاس : ولم يَرو أحد عن نافع فيما علمناه «إنما النَّسِيّ» بلا همز إلا ورش وحده . وهو مشتق من نسأه وأنسأه إذا أخره ؛ حكى اللغتين الكسائى . الجوهرىّ : النَّسِيء فعيـل بمعنى مفعول ؛ من قولك : نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته . ثم يحوّل منسوء إلى نسيء كما يحوّل مقتول إلى قتيل . ورجل ناسئ وقوم نَسَأة، مثل فاسق وفسقة . قال الطبرىّ : النسيء بالهمزة معناه الزيادة؛ يقال : نسأ ينسأ إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمز إلا من النسيان؛ كما قال تعالى :

«نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ»(١)، وردّ على نافع قراءته، واحتجّ بأن قال : إنه يتعدّى بحرف الجر؛ يقال : نسأ الله فى أجلك كما تقول زاد الله فى أجلك؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "من سَرّه أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسأ له فى أَثَره(٢) فليصل رَحِمه" . قال الأزهرىّ : أنسأت الشيء إنساء ونسيئا؛ اسم وضع موضع المصدر الحقيقىّ . وكانوا يحرّمون القتال فى المحرّم، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرّموا صَفَرًا بدله وقاتلوا فى المحرّم . وسبب ذلك أن العرب كانت أصحابَ حروب وغارات، فكان يشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يُغيرون فيها؛ وقالوا : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نُصيب فيها شيئا لنهلكنّ . فكانوا إذا صدروا عن مِنًى يقوم من بنى كنانة، ثم من بنى فُقَيم منهم رجل يقال له القَلَمّس؛ فيقول أنا الذى لا يُرَدّ لى قضاء . فيقولون : أنسئنا شهرا، أى أخّرعنا حُرمة المحرّم واجعلها فى صفر؛ فيحلّ لهم المحرّم . فكانوا كذلك شهرا فشهرا حتى ٱستدار التحريم على السّنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرّم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " إن الزمان قد ٱستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض " . وقال مجاهد : كان المشركون يحجّون فى كل شهر عامين؛ فحجّوا فى ذى الحجة عامين، ثم حجوا فى المحرّم عامين، ثم حجوا فى صفر عامين، وكذلك فى الشهور كلها حتى وافقت حجّة أبى بكر التى حجها قبل حجّة الوَداع ذا القَعدة من السنة التاسعة . ثم حج النبىّ صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة؛ فذلك قوله فى خطبته : "إن الزمان قد استدار" الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها، وعاد الحج إلى ذى الحجة وبطل النسيء . وقول ثالث — قال إياس بن معاوية : كان المشركون يحسُبون السنة اثنى عشر شهرا وخمسة عشر يوما؛ فكان الحج يكون فى رمضان وفى ذى القَعدة، وفى كل شهر من السنة بحكم استدارة الشهر بزيادة الخمسة عشر يوما . فحج أبو بكر سنة تسع فى ذى القَعدة بحكم الاستدارة، ولم يحج النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فلما كان فى العام المقبل وافق الحج ذا الحجة

(١) آية ٦٧ من هـذه السورة . (٢) الأثر : الأجل؛ وسمى به لأنه يتبع العمر، وأصله من أثر مشيه فى الأرض، فإن من مات لا تبقى له حركة فلا يبقى لأقدامه فى الأرض أثر . (عن شرح القسطلانى) .

فى العشر ، ووافق ذلك الأهلة . وهـذا القول أشبه بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الزمان قد استدار " . أى زمان الحج عاد إلى وقته الأصليّ الذى عينه الله يوم خلق السموات والأرض بأصل المشروعية التى سبق بها علمه، ونفذ بها حكمه . ثم قال : السنة اثنا عشر شهرا . يَنْفى بذلك الزيادة التى زادوها فى السنة — وهى الخمسة عشر يوما — بتحكمهم؛ فتعين الوقت الأصلى وبطل التحكم الجهليّ . وحكى الإمام المازَرىّ عن الخَوارزْمىّ أنه قال : أوّل ما خلق الله الشمس أجراها فى بُرْج الحَمَل، وكان الزمان الذى أشار به النبيّ صلى الله عليه وسلم صادف حلول الشمس برج الحمل . وهذا يحتاج إلى توقيف؛ فإنه لا يُتوصّل إليه إلا بالنقل عن الأنبياء، ولا نقل صحيحا عنهم بذلك ، ومن ادّعاه فلْيُسنده . ثم إن العقل يجوّز خلاف ما قال، وهو أن يخلق الله الشمس قبل البروج، و يجوّز أن يخلق ذلك كلّه دَفعة واحدة . ثم إن علماء التعديل قد اختبروا ذلك فوجدوا الشمس فى برج الحوت وقت قوله عليه السلام : " إن الزمان قد استدار " بينها و بين الحَمَل عشرون درجة . ومنهم من قال عشر درجات . والله أعلم . واختلف أهل التأويل فى أول من نسأ؛ فقال ابن عباس وقَتادة والضحاك : بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة . وروى جُوَيْبِر(١) عن الضحاك عن ابن عباس أن أوّل من فعل ذلك عمرو بن لُحَىّ بن قَمَعة بن خِنْدِف . وقال الكلْبىّ : أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، ثم كان بعده رجل يقال له : جُنادة بن عوف، وهو الذى أدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزُّهرىّ : حىّ من بنى كنانة ثم من بنى فُقَيم منهم رجل يقال له القَلَمّس، واسمه حذيفة بن عبيد . وفى رواية : مالك بن كنانة . وكان الذى يلى النّسىء يظفر بالرياسة لترئّس العرب إياه . وفى ذلك يقول شاعرهم :

* ومنّا ناسىء الشهر القَلَمّس *

وقال الكُمَيْت :

ألسنا الناسئين على مَعَـدٍّ * شهورَ الحِلّ نجعلها حرامًا

(١) فى نسخ الأصل «جرير» وهو تحريف .

قوله تعالى : ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر؛ فإنها أنكرت وجود البارئ تعالى فقالت : « وما الرَّحْمَنُ » [1] فى أصح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » [2] . وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » [3] . وزعمت أن التحليل والتحريم إليها، فابتدعته من ذاتها مقتفيةً لشهواتها؛ فأحلّت ما حرّم الله . ولا مبدّل لكلماته ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فيه ثلاث قراءات . قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « يَضِل » وقرأ الكوفيون « يُضَل » على الفعل المجهول . وقرأ الحسن وأبو رجاء « يُضِل » . والقراءات الثلاث كل واحدة منها تؤدّى عن معنى؛ إلا أن القراءة الثالثة حذف منها المفعول . والتقـدير : ويضِـل به الذين كفروا من يقبل منهم . و﴿ الَّذِينَ ﴾ فى محل رفع . ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى الله عز وجل . التقـدير : يضِـل الله به الذين كفروا ؛ كقوله تعالى : « يُضِـلّ من يشاء »، وكقوله فى آخر الآية : « والله لا يهدى القوم الكافرين » . والقراءة الثانية « يُضَلّ بِهِ الذين كفروا » يعنى المحسوب لهم ؛ واختار هذه القراءة أبو عبيد؛ لقوله تعالى : « زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » . والقراءة الأولى اختارها أبو حاتم ؛ لأنهم كانوا ضالين به، أى بالنسىء؛ لأنهم كانوا يحسُبونه فيضِـلون به . والهاء فى « يحلّونه » ترجع إلى النسىء . وروى عن أبى رجاء « يَضَل » بفتح الياء والضاد . وهى لغة؛ يقال : ضَلِلت أضَل، وضَلَلت أضِل . ﴿ لِيُوَاطِئُوا ﴾ نصب بلام كَىْ؛ أى ليوافقوا . تواطأ القوم على كذا أى اجتمعوا عليه؛ أى لم يُحلّوا شهرا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة . وهذا هو الصحيح، لا ما يذكر أنهم جعلوا الأشهر خمسة . قال قتادة : إنهم عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحُرُم، وقرنوه بالمحرم فى التحريم ؛ وقاله عنه قُطْرُب والطبرى . وعليه يكون النسىء بمعنى الزيادة . والله أعلم .

---

(١) آية ٦٠ سورة الفرقان . (٢) آية ٧٨ سورة يس . (٣) آية ٢٤ سورة القمر .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ « ما » حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ؛ التقدير : أيّ شيء يمنعكم عن كذا؛ كما تقول : مالك عن فلان مُعْرِضًا . ولا خلاف أن هذه الاية نزلت عتابا على تخلّف من تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، وسيأتى ذكرها فى آخر السورة إن شاء الله . والنَّفْر : هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث ؛ يقال فى ابن آدم : نَفَر إلى الأمر يَنْفِر نفورا . وقوم نفور؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِم نُفُوراً »[(١)] . ويقال فى الدابة : نَفَرت تَنْفُر (بضم الفاء وكسرها) نفارا ونفورا . يقال : فى الدابة نِفار، وهو اسم مثل الحِران . ونفر الحاج من مِنًى نَفْرًا .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ قال المفسرون : معناه آثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتابٌ على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج . وهو نحو من أخلد إلى الأرض . وأصله تثاقلتم، أدغمت التاء فى الثاء لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن ؛ ومثله « ادّاركوا » و « آدّارأتم » و « آطّيرنا » و « آزّيّنت » . وأنشد الكسائىّ :

تُولِى الضَّجيعَ إذا ما آستافها خَصِرًا * عَذبَ المَذاق إذا ما آتّابع القُبَلُ[(٢)]

(١) آية ٤٦ سورة الإسراء .

(٢) ساف الشيء يسوفه و يسافه سوفا وساوفه واستافه، كله شمه . والخصر : البارد من كل شيء .

وقرأ الأعمش « تثاقلتم » على الأصل . حكاه المهدوي . وكانت تبوك — ودعا الناس إليها[1] — في حرارة القَيظ وطيب الثمار وبرد الظلال — كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي — فاستولى على الناس الكسل، فتقاعدوا وتثاقلوا ؛ فوبّخهم الله بقوله هذا، وعاب عليهم الإيثار للدنيا على الآخرة . ومعنى ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي بدلا ؛ التقدير : أرضيتم بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة . فـ « مِن » تتضمن معنى البدل؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ[2] » أي بدلا منكم .

وقال الشاعر[3] :

فليت لنا من ماء زمزم شربةً * مُبرّدة باتت على طَهَيان

ويروى : من ماء حَمْنان[4] . أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبرّدة . والطَّهَيان : عود ينصب في ناحية الدار للهواء، يعلّق عليه الماء حتى يَبْرُد . عاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة ؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصَب الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد طافت راكبة : " أجرُكِ على قدر نَصَبِك " . خرجه البخاري .

قوله تعالى : إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

فيه مسألة واحدة — وهو أن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا ﴾ شرط ؛ فلذلك حذفت منه النون . والجواب « يُعَذِّبْكُمْ »، « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير . قال ابن العربي : ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل . فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه

(١) قوله : « ودعا الناس اليها » قال ابن اسحاق : ... وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له ، الا ما كان من غزوة تبوك فانه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان ... الخ . (٢) آية ٦٠ سورة الزخرف . (٣) هو يعلى بن مسلم بن قيس الشكرى ؛ كما في اللسان . وقيل أنه الأحول الكندي . (٤) حمنان : مكة .

الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه ؛ كقوله : إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا ؛ كما ورد في هـذه الآية . فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهـم على أن تكون كلمة الله هي العليا . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما » و « ما كان لأهل المدينـة — إلى قوله — يعملون »(١) نسختها الآية التي تليهـا : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » . وهو قول الضحاك والحسن وعكرمة . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : هو حبس المطر عنهـم . قال ابن العربيّ : فإن صحّ ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله ، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدوّ وبالنار في الآخرة .

قلت : قول ابن عباس خرّجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن نُفَيع قال : سألت ابن عباس عن هـذه الآية « إلّا تَنْفِروا يعذّبْكُمْ عذابا أليمًا » قال : فأمسك عنهـم المطر فكان عذابَهم . وذكره الإمام أبو محمد بن عطية مرفوعا عن ابن عباس قال : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلة من القبائل فقعدت ، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به . و « أليم » بمعنى مؤلم ؛ أي موجع . وقد تقدم(٢) . ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ توعّدٌ بأن يبدّل لرسوله قوما لا يقعدون عند استنفاره إياهم . قيل : أبناء فارس . وقيل : أهل اليمن . ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ عطف . والهاء قيل لله تعالى ، وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم . والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد . فأما من غير كراهة فمَن عينّه النبيّ صلى الله عليه وسلم حَرُم عليه التثاقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية ؛ ذكره القشيريّ . وقد قيـل : إن المراد بهـذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهورِ الكفرة واشتداد شوكتهم . وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاســتدعاء فعلى هـذا لا يتّجه الحمل على وقت ظهور المشركين ؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء، لأنه متعيّن . وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبـل ؛ إلا أن الإمام إذا عين قوما وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين ، ويصير بتعيينه فرضا على من عينّه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام . والله أعلم .

---

(١) آية ١٢٠ و ١٢١ من هذه السورة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ يقول : تُعِينوه بالنّفر معه في غزوة تَبُوك . عاتبهم الله بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة براءة . والمعنى : إن تركتم نَصْره فالله يتكفل به ؛ إذ قـد نصره الله في مواطن القلّة وأظهره على عدوّه بالغلبـة والعزة . وقيل : فقد نصره الله بصاحبه في الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه ، وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله . قال الليث بن سعد : ماصحب الأنبياء عليهم السلام مثلُ أبي بكر الصـديق . وقال سـفيان بن عُيينة : خرج أبو بكر بهذه الآية من المعـاتبة التي في قوله : « إلّا تنصروه » .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَـرُوا ﴾ وهو خرج بنفسه فارًّا ، لكن بإلجائهم إلى ذلك حتى فعله ، فنسب الفعل إليهم ورتّب الحكم فيـه عليهم ؛ فلهذا يقتل المكرِه على القتل ويضمن المـال المتلَف بالإكراه ؛ لإلجائه القاتل والمتلِف إلى القتل والإتلاف .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي أحد آثنين . وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة . فإذا اختلف اللفـظ فقلت : رابع ثلاثة وخامس أربعة ؛ فالمعنى صير الثـلاثة أربعة بنفسه والأربعة خمسـة . وهو منصوب على الحال ؛ أي أخرجوه منفردا من جميع النـاس إلا من أبي بكر . والعامل فيها « نصره الله » أي نصره منفردا ونصره أحد اثنيــن . وقال عليّ بن سليمان : التقدير فخرج ثاني اثنين ؛ مثل « وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا »[1] . وقرأ جمهور الناس

(١) آية ١٧ سورة نوح .

« ثانِيَ » بنصب الياء . قال أبو حاتم : لايعرف غيرهذا . وقرأت فرقة « ثانِى » بسكون الياء . قال آبن جِنِّى : حكاها أبو عمرو بن العلاء ، ووجهه أنه سكن اليـاء تشبيها لهـا بالألف . قال آبن عطية : فهى كقراءة الحسن « مَا بَقِى مِن الرِّبَا » وكقول جرير :

هـو الخليفة فارْضَـوْا ما رضِى لكُمُ * ماضِى العـزيمةِ ما فى حُـكْمه جَنَفُ[(١)]

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِذْ هُمَا فِى الغَـارِ ﴾ الغـار : ثقب فى الجبل ، يعنى غار ثَوْر . ولمـا رأت قريش أن المسلمين قـد صاروا إلى المدينة قالوا : هـذا شر شاغل لا يطاق ؛ فأجمعوا أمرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيّتوه و رصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج ؛ فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب أن ينام على فراشه ، ودعا الله أن يعمّىَ عليهم أثره ، فطمس الله على أبصارهم فخرج وقد غشِيَهم النوم ، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض ، فلما أصبحوا خرج عليهم علىّ رضى الله عنه وأخبرهم أن ليس فى الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قد فات ونجا . وتواعد رسـول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق للهجرة ، فدفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أُرَيْقط . و يقال ابن أريقط ، وكان كافرا لكنهما وثقا به ، وكان دليلا بالطرق فاستأجراه ليدل بهما الى المدينة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسـلم من خَوْخة فى ظهر دار أبى بكر التى فى بنى جُمَح ونهضا نحو الغـار فى جبل ثور ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول الناس ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه و يريحها[(٢)] عليهما ليلا فيأخذ منها حاجتهما . ثم نهضا فدخلا الغار . وكانت أسماء بنت أبى بكر الصـديق تأتيهما بالطعام و يأتيهما عبـد الله بن أبى بكر بالأخبار ، ثم يتلوهما عامر بن فهيرة بالغنم فيُعَفِّى آثارهما . فلما فقدته قريش جعلت تطلبه بقائف معروف بقفاء الأثر ، حتى وقف على الغار فقال : هنا انقطع الأثر . فنظروا فاذا بالعنكبوت قـد نسج على فم الغار من ساعته ؛ ولهذا نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتله . فلما رأوا نسج العنكبوت أيقنوا أن لا أحد فيه ، فرجعوا وجعلوا فى النبىّ صلى الله عليه وسلم مائة ناقة لمن ردّه عليهم .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) يريحها : يردّها .

الخبر مشهور، وقصــة سراقة بن مالك بن جُعْشُم فى ذلك مذكورة . وقد رُوى من حديث أبى الدّرداء وثَوْبان : أن الله عز وجل أمر حمامــة فباضت على نسج العنكبوت، وجعلت ترقد على بيضها، فلما نظر الكفار إليها ردّهم ذلك عن الغــار .

الخامســـة — روى البخاريّ عن عائشة قالت : استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الدِّيل هاديا خِرِّيتاً[1]، وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليــه راحلتيهما وواعداه غارَ ثَوْر بعد ثلاث ليــال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ثلاث ، فارتحلا وارتحل معهما عامر بن فُهيرة والدليلُ الدّيلى، فأخذ بهم طريق الساحل[2] .

قال المهلب : فيه من الفقه ائتمان أهل الشرك على السر والمــال إذا عُلم منهم وفاء ومروءة كما ائتمن النبيّ صلى الله عليه وسلم هــذا المشرك على سِرّه فى الخروج من مكة وعلى الناقتين . وقال ابن المنذر: فيه استئجار المسلمين الكفار على هداية الطريق. وقال البخاريّ فى ترجمته : (باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإســلام) . قال ابن بَطّال : إنما قال البخاريّ فى ترجمتــه (أو إذا لم يوجد أهــل الإسلام) مــن أجل أن النــبيّ صلى الله عليه وسلم إنمــا عامل أهل خيبر على العمل فى أرضها إذ لم يوجد من المســلمين من ينوب منابَهم فى عمل الأرض، حتى قوِى الإسلام وآستُغْنى عنهم أجلاهم عمر . وعامة الفقهاء يجيزون استئجارهم عند الضرورة وغيرها . وفيه : استئجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد لهما . وفيه : دليل على جواز الفِرار بالدِّين خوفا من العدو، والاســتخفاء فى الغِيران وغيرها، وألّا يُلقِىَ الإنسان بيده إلى العدوّ توكّلا على الله واستسلاما له . ولو شاء ربكم لعصَمه مع كونه معهم ، ولكنها سنة الله فى الأنبياء وغيرهم، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهذا أدل دليل على فساد من منع ذلك وقال : من خاف مع الله سواه كان ذلك نقصا فى توكّله، ولم يؤمن بالقدَر. وهذا كلّه فى معنى الآية ، ولله الحمد والهداية .

(١) الخريت : الدليل الحاذق .	(٢) الساحل : موضع بعينه ؛ ولم يرد به ساحل البحر .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ هذه الآية تضمنت فضائل الصديق رضي الله عنه . روى أَصْبغ وابن زيد عن ابن القاسم عن مالك « ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » هو الصدّيق . فحقق تعالى قوله له بكلامه ووصف الصحبة في كتابه . قال بعض العلماء : من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب مبتدِع . ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر؛ لأنه أنكر نص القرآن . ومعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أي بالنّصر والرعاية والحفظ والكلاءة . روى الترمذيّ والحارث بن أبي أسامة قالا : حدّثنا عفان قال حدّثنا همام قال أخبرنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال قلت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ؛ فقال : "يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما" . قال المُحاسِبيّ : يعني معهما بالنصر والدفاع؛ لا على معنى ما عمّ به الخلائق . فقال : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »(١) . فمعناه العموم أنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين .

السابعة — قال ابن العربيّ : قالت الإمامية قبّحها الله : حزنُ أبي بكر في الغار دليل على جهله ونقصه، وضعف قلبه وخرقه(٢) . وأجاب علماؤنا عن ذلك بأن إضافة الحزن إليه ليس بنقص ؛ كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه : « نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ »(٣) . ولم ينقص موسى قوله : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ »(٤) . وفي لوط « وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ »(٥) . فهؤلاء العظماء صلوات الله عليهم قد وجدت عندهم التَّقِيّة نصًّا، ولم يكن ذلك طعنا عليهم ووصفا لهم بالنقص؛ وكذلك في أبي بكر . ثم هي عند الصدّيق احتمال ؛ فإنه قال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . جواب ثان — إن حُزن الصدّيق إنما كان خوفا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يصل إليه ضرر،

(١) آية ٧ سورة المجادلة . (٢) الخرق (بالضم) : الحمق وضعف الرأي .
(٣) آية ٧٠ سورة هود . (٤) آية ٦٧ سورة طه . (٥) آية ٣٣ سورة العنكبوت .

ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت معصوما، وإنمـا نزل عليه « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[١] .

الثامنـــة ــ قال ابن العربيّ : قال لنـا أبو الفضائل العـدل[٢] قال لنا جمال الإسـلام أبو القاسم قال موسى صلى الله عليه وسلم : « كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ »[٣] وقال في محمد صلى الله عليه وسلم : «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» لا جَرَم لمـا كان الله مع موسى وحده ارتدّ أصحابه بعده، فرجع من عند ربه ووجدهم يعبدون العجل . ولمـا قال في محمد صلى الله عليه وسلم « إن الله معنا » بقي أبو بكر مهتديا موحّدا عالمـا جازما قائمـا بالأمر ولم يتطرق إليه اختلال .

التاســـعة ــ خرّج الترمذي من حديث نُبيط بن شُريط عن سالم بن عبيد ــ له صحبة ــ قال : أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسـلم ... ؛ الحديث . وفيه : واجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا : انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ندخلهم معنا في هذا الأمر . فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عمر رضي الله عنه : من له مثل هذه الثلاث « ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » من « هما » ؟ قال : ثم بسط يده فبايعه وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة .

قلت : ولهـذا قال بعض العلمـاء : في قوله تعـالى « ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إذ همـا فِي الغارِ » ما يدل على أن الخليفة بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق؛ لأن الخليفة لا يكون أبدا إلا ثانيا . وسمعتُ شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول : إنما استحق الصديق أن يقال له ثاني اثنين لقيامه بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأمر ؛ كقيام النبيّ صلى الله عليه وسلم به أوّلا . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا مات ارتدّت العرب كلها، ولم يبق الإسـلام إلا بالمدينة ومكة وجُوَاثا[٤] ؛ فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسـلام ويقاتلهم على

---

(١) آية ٦٧ سورة المـائدة .
(٢) اضطربت نسخ الأصل في هذا الاسم . والذي في كتاب أحكام القرآن لابن العربي المطبوع : « أبو الفضل بن المعدل » وفي النسخة المخطوطة منه « أبو الفضائل المعدل » .
(٣) آية ٦٢ سورة الشعراء .
(٤) موضع بالبحرين .

الدخول في الدين كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فآستحق من هذه الجهة أن يقال في حقه ثاني اثنين .

قلت — وقد جاء في السنة أحاديث صحيحة ، يدل ظاهرها على أنه الخليفة بعده ، وقد انعقد الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف . والقادح في خلافته مقطوع بخطئه وتفسيقه . وهل يكفر أم لا؛ يُختلف فيـه، والأظهر تكفيره . وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في سورة «الفتح»(١) إن شاء الله . والذي يقطع به من الكتاب والسنة وأقوالِ علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصديق على جميع الصحابة . ولا مبالاة بأقوال أهل الشّيع ولا أهل البدع ؛ فإنهم بين مكفر تضرب رقبته، وبين مبتدع مفسّق لا تقبل كلمته . ثم بعد الصديق عمر الفاروق ، ثم بعده عثمان . روى البخاريّ عن ابن عمر قال : كنا نخيّر بين الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخيّر أبا بكر ثم عمر ثم عثمان . واختلف أئمة أهل السلف في عثمان وعليّ ؛ فالجمهور منهم على تقديم عثمان . ورُوي عن مالك أنه توقّف في ذلك . ورُوي عنه أنه رجع إلى ما عليـه الجمهور . وهو الأصح إن شاء الله .

العاشـــرة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ فيه قولان : أحدهما — على النبيّ صلى الله عليه وسلم . والثاني — على أبي بكر . آبن العربيّ : قال علماؤنا وهو الأقوى ؛ لأنه خاف على النبيّ صلى الله عليه وسلم من القوم؛ فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبيّ صلى الله عليه وسلم، فسكن جأشه وذهب رَوْعه وحصل الأمن ، وأنبت الله سبحانه ثُمامة(٢) ، وألهم الوَكْرَ هناك حمامة؛ وأرسل العنكبوت فنسجت بيتا عليه . فما أضعف هذه الجنود في ظاهر الحس وما أقواها في باطن المعنى ! ولهـذا المعنى قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعمر حين تغامر(٣) مع الصديق : "هل أنتم تاركو لي صاحبي إن الناس كلّهم قالوا كذبت وقال أبو بكر صـدقت" رواه أبو الدرداء .

(١) في المسألة الخامسة من قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه ... » آخر السورة .

(٢) الثمام : نبت معروف في البادية .

(٣) المغامرة المخاصمة . راجع الحديث بطوله في صحيح البخاري في باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ أى من الملائكة . والكناية فى قوله « وأيده » ترجع إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم . والضميران يختلفان ، وهـذا كثير فى القرآن وفى كلام العرب . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ اى كلمة الشرك . ﴿ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ قيـل : لا إله إلا الله . وقيـل : وعْد النصر . وقرأ الأعمش و يعقوب « وكلمةَ اللهِ » بالنصب حملا على « جعل » . والباقون بالرفع على الاستئناف . وزعم الفراء أن قراءة النصب بعيدة؛ قال : لأنك تقول أعتق فلان غلام أبيه ، ولا تقول غلام أبى فلان . وقال أبو حاتم : نحواً من هذا . قال : كان يجب أن يقال وكلمته هى العليا . قال النحاس : الذى ذكره الفرّاء لا يشبه الآية ، ولكن يشبهها ما أنشد سيبويه :

لا أرى الموتَ يسبِق الموتَ شيءٌ * نغّص المـوت ذا الغِنَى والفقـيرا

فهذا حسن جيّد لا إشكال فيه ، بل يقول النحو يون الحذاق : فى إعادة الذكر فى مثل هذا فائدة ، وهى أن فيه معنى التعظيم ؛ قال الله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » فهذا لا إشكال فيه . وجمع الكلمة كَلِم . وتميم تقول : هى كِلمة بكسر الكاف . وحكى الفرّاء فيها ثلاث لغات : كَلِمة وكِلْمة وكَلْمة مثل كَبِد وكِبْد وكَبْد ، و وَرِق و وِرْق و وَرْق . والكَلِمة أيضا القصيدة بطولها ؛ قاله الجوهرى .

قوله تعـالى : ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

فيـه سبع مسائل :

الأولى — روى سفيان عن حُصين بن عبد الرحمن عن أبى مالك الغفارىّ قال : أوّل ما نزل من سـورة براءة « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » . وقال أبو الضُّحا كذلك أيضـا . قال : ثم نزل أوّلها وآخرها .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ ٱنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَـالاً ﴾ نصب على الحال ، وفيـه عشرة أقوال : الأوّل — يذكر عن ابن عباس « ٱنفِرُوا ثُبَاتٍ »(١) : سَرَايَا متفرّقين. الثانى — روى عن ابن عباس أيضا وقتادة : نشاطا وغير نشاط . الثالث — الخفيفُ : الغنىّ ، والثقيلُ : الفقير؛ قاله مجاهد . الرابع — الخفيف : الشاب، والثقيل : الشيخ؛ قاله الحسن . الخامس — مشاغيل وغير مشاغيل ؛ قاله زيد بن علىّ والحكم بن عُيينة . السادس — الثقيل : الذى له عيال، والخفيف : الذى لا عيال له ؛ قاله زيد بن أسلم . السابع — الثقيل : الذى له ضَيْعة يكره أن يدعها، والخفيف : الذى لا ضيعة له ؛ قاله ابن زيد . الثامن — الخِفاف : الرجال، والثقال : الفرسان؛ قاله الأوزاعىّ . التاسع — الخفاف : الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدم الجيش ، والثقال : الجيش بأسْره . العاشر — الخفيف : الشجاع ، والثقيل : الجبان؛ حكاه النقاش . والصحيح فى معنى الآية أن الناس أمِروا جُملة ؛ أى انفروا خفّت عليكم الحـركة أو ثقلت . ورُوى أن ابن أمّ مكتوم جاء إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أعلىّ أن أنفر؟ فقال : "نعم" حتى أنزل الله تعالى « ليس على الأعمى حرج »(٢) . وهذه الأقوال إنما هى على معنى المثال فى الثقل والخفة .

الثالثـــة — وٱختلف فى هـذه الآية؛ فقيل إنها منسوخة بقوله تعـالى : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى »(٣) . وقيل : الناسخ لها قوله « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ »(٤) . والصحيح أنها ليست بمنسوخة . روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله تعالى : « انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » قال شبانا وكهولا، ماسمع الله عُذْر أحد . فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات رضى الله عنه . وروى حماد عن ثابت وعلىّ بن زيد عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة « براءة » فأتى على هـذه الآية « انفروا خِفافا وثِقالا » فقال : أى بنىّ ، جَهِّزُونى جهزونى . فقال بنوه : يرحمك الله ! قد غزوتَ مع النبىّ صـلى الله عليه وسـلم حتى مات، ومع أبى بكر حتى

(١) كذا فى جميع الأصول . ويلاحظ أن المؤلف رحمه الله عرض لآية النساء، وهى قوله تعـالى : « انفروا ثبات أو انفروا جميعا » آية ٧١ . وثبات : جمع ثبة ، وهى الجماعة من الناس .

(٢) آية ٦١ سورة النور . (٣) آية ٩١ من هذه السورة . (٤) آية ١٢٢ من هذه السورة .

مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . قال : لا ، جهّزونى . فغزا فى البحر فمات فى البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغيّر رضى الله عنه . وأسند الطبرىّ عمن رأى المقداد بن الأسود بِحمص على تابوت صَرّاف ، وقد فضل على التابوت من سِمنه وهو يتجهّز للغزو . فقيل له : لقد عذرك الله . فقال : أتت علينا سورة البعوث « اِنفِرُوا خِفافا وثِقالا » . وقال الزهرىّ : خرج سعيد بن المسيِّب إلى الغَزْو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثّرت السواد وحفظت المتاع . ورُوى أن بعض الناس رأى فى غزوات الشأم رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبر ، فقال له : ياعمّ ، إن الله قد عذرك . فقال : يابن أخى ، قد أُمرنا بالنَّفْر خِفَافا وثِقالا . ولقد قال ابن أمّ مكتوم رضى الله عنه — واسمه عمرو — يوم أُحُد : أنا رجل أعمى ، فسلّموا لى اللواء ، فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش ، وأنا ما أدرى من يقصدنى بسيفه فما أبرح . فأخذ اللّواء يومئذ مصعبُ بن عُمير على ماتقدم فى « آل عمران » بيانه . فلهذا وما كان مثله ممـا رُوى عن الصحابة والتابعين . قلنا : إن النسخ لا يصح . وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل ، وهى :

الرابعـــة — وذلك إذا تعيّن الجهاد بغَلبة العدوّ على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بالعُقْر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خِفافا وثقالا ، شبابا وشيوخا ، كلٌّ على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلّف أحد يقدر على الخروج ، من مقاتل أو مكثر . فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوّهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب مالزم أهل تلك البلدة ، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم . وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوّهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم ، فالمسلمون كلّهم يَدٌ على من سواهم ، حتى إذا قام بدفع العدوّ أهل الناحية التى نزل العدوّ عليها واحتلّ بها سقط الفرض عن الآخرين . ولو قارب العدوّ

دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه، حتى يظهر دين الله وتُحمى البَيْضة وتُحفظ الحَوْزة ويُخْزَى العــدو . ولا خلاف فى هذا .

وقسم ثان من واجب الجهــاد — فرض أيضا على الإمام إغزاء طائفة إلى العــدو كل ســنة مرة ، يخرج معهم بنفســه ، أو يُخرج مَن يثق به ليدعوَهم إلى الإســلام ويرغّبهم ، ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم، حتى يدخلوا فى الإسلام أو يُعطوا الجزية عن يَدٍ .

ومن الجهاد أيضا ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفةً بعــد طائفة ، وبَعْثُ السّرايا فى أوقات الغِرّة وعند إمكان الفرصــة، والإرصاد لهم بالرِّباط فى موضع الخوف ، وإظهــار القوّة . فإن قيل : كيف يصنع الواحد إذا قصّر الجميع، وهى : —

الخامســــة — قيل له : يعمِد إلى أسير واحد فيفديه؛ فإنه إذا فدى الواحدَ فقد أدّى فى الواحد أكثر مما كان يلزمه فى الجماعة؛ فإن الأغنياء لو آقتسموا فداء الأسارى ما أدّى كل واحد منهم إلا أقلّ من درهم . ويغزو بنفسه إن قدر وإلّا جهّز غازيا . قال صلى الله عليــه وسلم : " من جهّز غازيا فقد غزا ومن خَلَفه فى أهــله بخير فقد غزا " أخرجه الصحيح . وذلك لأن مكانه لا يغنى وماله لا يكفى .

السادســـة — روى أن بعض الملوك عاهد كفارا على ألا يحبسوا أسيرا، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فمرّ على بيت مغلق، فنادته امرأة أنى أسيرة ، فأبلغ صاحبك خبرى ، فلما اجتمع به واستطعمه عنده وتجاذبا ذيل الحديث ، انتهى الخبر إلى هذه المعذَّبة، فما أكمل حديثه حتى قام الأمير على قدميه وخرج غازيا من فوره ، ومشى إلى الثَّغْر حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع ؛ رضى الله عنه . ذكره ابن العربى وقال : « ولقد نزل بنا العدو — قصمه الله — ســنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا وأسر خيرتنا وتوسط بلادنا فى عدد هال الناسَ عددُه ، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حدّدوه . فقلت للوالى والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل فى الشَّرَك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نُصرة الدين المتعيّنة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط

به ؛ فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له . فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي ، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوي إلى وجاره وإن رأى المكيدة بجاره . فإنا لله وإنا إليه راجعون . وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ أمر بالجهاد، وهو مشتق من الجهد ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ روى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " . وهذا وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنفعه عند الله تعالى . فحضّ على كمال الأوصاف، وقدّم الأموال في الذكر إذ هي أوّل مصرف وقت التجهيز . فرتّب الأمر كما هو في نفسه .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ج وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

لما رجع النبيّ صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم . والعَرَض : ما يعرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنيمة قريبة . أخبر عنهم أنهم لو دُعُوا إلى غنيمة لاتبعوه . ﴿ عَرَضًا ﴾ خبر كان . ﴿ قَرِيبًا ﴾ نعته . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ عطف عليه . وحذف اسم كان لدلالة الكلام عليه . التقدير : لو كان المدعوّ إليه عَرَضًا قريبا وسفرا قاصدا — أي سهلا معلوم الطُّرُق — لاتبعوك . وهذه الكناية للمنافقين كما ذكرنا؛ لأنهم داخلون في جملة من خوطب بالنفير . وهذا موجود في كلام العرب، يذكرون الجملة ثم يأتون بالإضمار عائدا على بعضها ؛ كما قيل في قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أنها القيامة . ثم قال جل وعز : « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »[1] يعني جل وعز جهنم . ونظير هذه الآية من السُّنة في المعنى قولُه عليه السلام : " لو يعلم أحدهم أنه يجد عَظْمًا سمينا

---

(١) آية ٧١ و ٧٢ سورة مريم .

أو مِرْماتين حسنتين لشهد العشاء(١)". يقـول : لو علم أحدهم أنه يجـد شيئا حاضرا معجّلا يأخذه لأتى المسجد من أجله . ﴿ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ حكى أبو عبيدة وغيره أن الشـقة السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شُقّة شاقة . والمراد بذلك كلّه غزوة تبوك . وحكى الكسـائي أنه يقال شُقة وشِقة . قال الجوهري : الشّقة بالضم من الثياب، والشّقة أيضا السفر البعيد وربمـا قالوه بالكسر . والشِّـقة شِظّية تُشْظَى من لوح أو خشبة . يقال للغضبان : احتدّ فطارت منه شِقة، بالكسر . ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا ﴾ أى لو كان لنا سَعة في الظَّهْر والمـال . ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ نظيره « ولله على الناس حِجُّ البيت مَن استطاع إليه سبيلاً » فسرها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " زادٌ وراحلة(٢) " وقد تقدم . ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى بالكذب والنفاق . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في الاعتلال .

قوله تعالى : عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ قيـل : هو افتتـاح كلام ؛ كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك ! كان كذا وكذا . وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » ؛ حكاه مَكّيّ والمهـدوِيّ والنحاس . وأخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فَرَقا(٣) . وقيل : المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم؛ فلا يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » على هذا التقدير؛ حكاه المهدوِيّ واختاره النحاس . ثم قيل : في الإذن قولان : الأول — « لِمَ أذِنت لهم » في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عُدّة ونية صادقة فسادٌ . الثاني — « لِمَ أذِنت لهم » في القعود لمـا اعتلّوا بأعذار؛ ذكرهما القشـيريّ قال : وهذا عتاب تلطف ؛ إذ قال : « عفا الله عنك » . وكان عليـه السلام أذن من غير وَحْي نزل فيه . قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبيّ صلى الله عليه وسـلم لم يؤمر

(١) مرماتين (بكسر الميم) وقد تفتح . تثنية مرماة، وهي ظلف الشاة، أو ما بين ظلفها من اللحم .

(٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) الفرق بالتحريك : الخوف والجزع .

بهما : إذنُه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ولم يكن له أن يمضىَ شيئا إلا بوَحى، وأخذُه من الأسارى الفِدية؛ فعاتبه الله كما تسمعون . قال بعض العلماء : إنما بدر منه ترك الأَوْلى، فقدّم الله له العفو على الخطاب الذى هو فى صورة العتاب .

قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى ليتبيّن لك مَن صدق ممن نافق . قال ابن عباس : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف المنافقين، وإنمـا عرفهم بعد نزول سورة التوبة . وقال مجاهد : هؤلاء قوم قالوا : نستأذن فى الجلوس، فإن أذِن لنا جلسنا، وإن لم يؤذن لنا جلسنا . وقال قتادة : نسـخ هذه الآية بقوله فى سورة النور : «فإذا استأذنوكَ لبعضِ شأنِهم فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ منهم» (١) . ذكره النحاس فى معانى القرآن له .

قوله تعـالى : لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعـالى : ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى فى القعود ولا فى الخروج ، بل إذا أمرت بشىء ابتدروه ؛ فكان الاسـتئذان فى ذلك الوقت من علامات النفاق لغير عذر؛ ولذلك قال : ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ . روى أبو داود عن ابن عباس قال : «لايستأذنك الذين يؤمنون بالله» نسختها التى فى النور «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولهِ — إلى قوله — غفور رحيم» (٢) . ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ فى موضع نصب بإضمار فى؛ عن الزجاج . وقيل : التقدير

(١) آية ٦٢　　(٢) آية ٦٢

كراهية أن يجاهدوا ؛ كقوله : « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »[1] . ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ شكت في الدين . ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى في شكهم يذهبون و يرجعون .

قوله تعالى : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ أى لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أهبة السفر . فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف . ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ أى خروجهم معك . ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أى حبسهم عنك وخذلهم؛ لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين . ويدلّ على هذا أن بعده « لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا » . ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض . وقيل : هو من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويكون هذا هو الإذن الذى تقدم ذكره . قيل : قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم غضبا، فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا : قد أذن لنا . وقيل : هو عبارة عن الخذلان ؛ أى أوقع الله في قلوبهم القعود . ومعنى ﴿ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أى مع أولي الضرر والعميان والزَّمْنَى والنسوان والصبيان .

قوله تعالى : لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ هو تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم . والخبال : الفساد والنميمة و إيقاع الاختلاف والأراجيف . وهذا استثناء منقطع؛ أى ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال . وقيل : المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون من الرأى إلا خبالا؛ فلا يكون الاستثناء منقطعا .

---

(١) آخر سورة النساء .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ المعنى لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد . والإيضاع : سرعة السير . وقال الراجز (١) :

يا ليتنى فيها جَذَعْ * أَخُبُّ فيها وأَضَعْ

يقال : وَضع البعيرُ إذا عدا ، يضع وضـعا ووضوعا (٢) إذا أسرع السير . وأوضعته حملته على العَدْو . وقيل : الإيضاع سير مثلُ الخَبَب . والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال، أى الفُرَج التى تكون بين الصفوف . أى لأوضـعوا خلالكم بالنميمة و إفساد ذات البين . ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ مفعول ثان . والمعنى يطلبون لكم الفتنة، أى الإفساد والتحريض . و يقال : أبغيته كذا أعنتــه على طلبه ، وبَغَيتــه كذا طلبته له . وقيل : الفتنــة هنا الشرك . ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أى عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم . قتادة : وفيكم من يقبل منهم قولهم و يطيعهم . النحاس : والقول الأول أولى ؛ لأنه الأغلب من معنييه أن معنى سَمّـاع يسمع الكلام : ومثله « سَمّـاعون لِلكَذِب » (٣) . والقول الثانى — لا يكاد يقال فيه إلا سـامع ؛ مثل قائل .

قوله تعـالى : لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَـةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى لقد طلبوا الإفساد والخبـال من قبل أن يظهر أمرهم، و ينزل الوَحْى بما أسروه و بما سيفعلونه . وقال ٱبن جُريج : أراد اثنى عشر رجلا من المنافقين، وقفوا على ثَنِيّة الوداع (٤) ليلة العقبة ليفتِكوا بالنبىّ صـلى الله عليه وسـلم . ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أى صرفوها وأجالوا الرأى فى إبطال ما جئت به . ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَـقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أى دينه ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ .

(١) هو دريد بن الصمة ؛ كما فى اللسان . (٢) الذى فى كتب اللغة أنه يقـال : وضع البعير وضــعا وموضوعا . أما الوضوع فهو من مصادر قولهم : وضع الرجل نفسه وضعا ووضوعا وضعة (بفتح الضاد وكسرها) إذا أذلها .
(٣) آية ٤٢ سورة المـائدة . (٤) الثنية : الطريقة فى الجبل كالنقب ، وقيل الطريق العالى فيه . والوداع : واد بمكة ؛ وثنية الوداع منسوبة اليه .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾ من أذِن يأذَن . وإذا أمرت زدت همزة مكسورة و بعدها همزة هى فاء الفعل، ولا يجتمع همزتان؛ فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقلت إيذن . فإذا وصلت زالت العلة فى الجمع بين همزتين، ثم همزت فقلت : « ومنهم من يقول ائْذن لِى » . و روى ورش عن نافع « ومنهم من يقولُ اوذَنْ لِى » خفف الهمزة(١) . قال النحاس : يقال إيذن لفلان ثم إيذن له ، هجاء الأولى والثانية واحد بألف و ياء قبل الذال فى الخط . فإن قلت : إيذن لفلان وأذن لغيره كان الثانى بغير ياء؛ وكذا الفاء . والفرق بين ثُمّ والواو أن ثم يوقف عليها وتنفصل ، والواو والفاء لا يوقف عليهما ولاينفصلان. قال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس أخى بنى سلمة لما أراد الخروج إلى تبوك : "يا جدّ، هل لك فى جِلاد بنى الأصفر تتخذ منهم سرارى ووُصَفاء " فقال الجد : قد عرف قومى أنى مغرم بالنساء ، وإنى أخشى إن رأيت بنى الأصفر ألّا أصبر عنهن ، فلا تَفْتِنّى وأذن لى فى القعود وأعينك بما لى ؛ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " قد أذنت لك " فنزلت هذه الآية . أى لا تفتنّى بصباحة وجوههم ، ولم يكن به علة إلا النفاق . قال المهدوى : والأصفر رجل من الحبشة، كانت له بنات لم يكن فى وقتهن أجمل منهن، وكان ببلاد الروم . وقيل : سُمُّوا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم، وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة، فكنّ صُفرًا لُعْسًا(٢) . قال ابن عطية : فى قول ابن اسحاق فتور . وأسند الطبرى أن رسول الله

(١) أى أبدلها واوا لضمه اللام قبلها؛ فينطق باللام كأنها متصلة بواو الجماعة . (٢) اللعس : سواد اللثة والشفة . وقيل : اللعس واللعسة : سواد يعلو شفة المرأة البيضاء . وقيل : هو سواد فى حمرة .

صلى الله عليه وسلم قال : "اغزوا تغنموا بنات الأصفر" فقال له الجد : إيذن لنا ولا تفتنّا بالنساء . وهذا منزع غير الأوّل ، وهو أشبه بالنفاق والمحادّة . ولما نزلت قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لبنى سلمة — وكان الجدّ بن قيس منهم :"من سيدكم يابنى سلمة"؟ قالوا : جدّ بن قيس، غير أنه بخيل جبان . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وأىّ داء أدوى(١) من البخل بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن مَعْرُور" . فقال حسان بن ثابت الأنصاريّ فيه :

وسُوّد بشر بن البراء لجوده * وحقّ لبشر بن البرا أن يُسَوَّدَا
اذا ما أتاه الوفد أذهب ماله * وقال خذوه إننى عائد غدا

﴿ أَلا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ أى فى الإثم والمعصية وقعوا . وهى النفاق والتخلف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى مسيرهم إلى النار ، فهى تُحدق بهم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ شرط ومجازاة ؛ وكذا ﴿ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ عطف عليه . والحسنة : الغنيمة والظفر. والمصيبة الأنهزام . ومعنى قولهم : « أخذنا أمرنا من قبل » أى احتطنا لأنفسنا ، وأخذنا بالحزم فلم نخرج إلى القتال . ﴿ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ أى عن الإيمان . ﴿ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ أى معجبون بذلك .

قوله تعالى : قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللّٰهُ لَنَا ﴾ قيل : فى اللوح المحفوظ . وقيل : ما أخبرنا به فى كتابه من أنا إمّا أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا ، وإما أن نقتل

---

(١) أى أى عيب أقبح منه . قال ابن الأثير : « والصواب أدوأ بالهمز ، وموضوعه أول الباب ؛ ولكن هكذا يروى ، الا أن يجعل من باب دوى يدوى دوا فهو دو إذا هلك بمرض باطن » .

فتكون الشهادة أعظم حسنى لنا. والمعنى كل شيء بقضاء وقدر. وقد تقدم فى « الأعراف » أن العلم والقدر والكتاب سواء[1]. ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ أى ناصرنا. والتوكّل تفويض الأمر إليه. وقراءة الجمهور « يصيبَنا » نصب بلن. وحكى أبو عبيدة أن من العرب من يجزم بها. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « هل يصيبنا ». وحُكى عن أَعْيَن قاضى الرَّىّ أنه قرأ « قل لن يصيبنّا » بنون مشـددة. وهـذا لحن؛ لا يؤكد بالنون ما كان خبرا، ولو كان هـذا فى قراءة طلحة لجاز. قال الله تعالى: « هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ »[2].

قوله تعـالى: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعـالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾ والكوفيون يدغمون اللام فى التـاء. فأما لام المعرفة فلا يجوز إلا الإدغام؛ كما قال جل وعز: « التائبون » لكثرة لام المعرفة فى كلامهم. ولا يجوز الإدغام فى قوله: « قل تعالوا » لأن « قل » معتـل، فلم يجمعوا عليـه علتين. والتربص الانتظار. يقـال تربص بالطعام أى انتظر به إلى حين الغلاء. والحسنى تأنيث الأحسـن. وواحد الحسنيين حسنى، والجمـع الحُسَن. ولا يجوز أن ينطق به إلا معرّفا. لا يقال: رأيت امرأة حسنى. والمراد بالحُسْـنيين الغنيمة والشهـادة؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. واللفظ اسـتفهام والمعنى توبيخ. ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أى عقوبة تهلككم؛ كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم. ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أى يؤذن لنـا فى قتالكم. ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ تهديد ووعيـد. أى انتظروا مواعد الشـيطان إنا منتظرون مواعد الله.

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية. (٢) آية ١٥ سورة الحج.

قوله تعـالى : ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : نزلت فى الجدّ بن قيس إذ قال ائذن لى فى القعود وهـذا مالى أعينك به . ولفظ ﴿أنفقوا﴾ أمرٌ، ومعنـاه الشرط والجزاء . وهكذا تستعمل العرب فى مثل هذا، تأتى بأو ؛ كما قال الشاعر(١) :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومةٌ ＊ لدينا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ

والمعنى إن أسأتِ أو أحسنتِ فنحن على ما تعرفين . ومعنى الآية : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يقبل منكم . ثم بيّن جل وعز لم لا يقبل منهم فقال : « وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ » فكان فى هذا أدلّ دليل وهى : —

الثانيـــة — على أن أفعال الكافر إذا كانت برًّا كصـلة القرابة وجبر الكسـير وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها فى الآخرة ؛ بيْـدَ أنه يُطْعَم بها فى الدنيا . دليلُه ما رواه مسـلم عن عائشـة رضى الله عنها قالت قلت : يارسول الله ، ابن جُدعان كان فى الجاهليـة يَصِـل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه ؟ قال : " لا ينفعه، إنه لم يقل يوما رَبِّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين " . وروى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الله لا يظلم مؤمنا حسـنة يُعْطَى بها فى الدنيا ويُجْزَى بهـا فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها " . وهذا نصٌّ . ثم قيل : هل بحكم هذا الوعد الصادق لا بد أن يطعم الكافر ويعطى بحسناته فى الدنيا، أوذلك مقيّد بمشيئة الله المذكورة فى قوله : « عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »(٢) وهذا هو الصحيح من القولين ، والله أعلم . وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسب

(١) هو كثيّر عزّة، كما فى كتاب الأمالى لأبى على القالى .　　(٢) آية ١٨ سورة الإسراء .

ظن الكافر، و إلا فلا يصح منه قُرْبة؛ لعدم شرطها المصحّح لها وهو الإيمان . أو سُمّيت حسنة لأنها تشبه صورة حسنة المؤمن ظاهرا . قولان أيضا .

الثالثـــة — فإن قيل : فقد روى مسـلم عن حكيم بن حِزام أنه قال لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم : أىْ رسولَ الله ، أرأيتَ أمورا كنتُ أتحنّث بهـا فى الجاهلية (١) من صـدقة أو عَتاقة أو صـلةِ رَحِم أفيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " أسـلمتَ على ما أسلفت من خير" . قلنا قوله " أسلمت على ما أسلفت من خير" مخالف ظاهره للأصول؛ لأن الكافر لا يصـح منه التقرب لله تعالى فيكون مثابا على طاعته؛ لأن من شرط المتقرِّب أن يكون عارفا بالمتقرَّب إليه، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط . فكان المعنى فى الحديث: إنك اكتسبت طباعا جميلة فى الجاهلية أكسبتك عادة جميلة فى الإسـلام . وذلك أن حكيما رضى الله عنـه عاش مائة وعشرين سـنة؛ ستّين فى الإسـلام وستين فى الجاهليـة ، فأعتق فى الجاهلية مائة رقبـة وحمل على مائة بعير؛ وكذلك فعل فى الإسـلام . وهذا واضح . وقد قيل : لا يبعد فى كرم الله أن يثيبه على فعله ذلك بالإسلام ، كما يسقط عنه ما ارتكبه فى حال كفره من الآثام . و إنما لا يثاب من لم يسلم ولا تاب ومات كافرا . وهذا ظاهر الحديث . وهو الصحيح إن شاء الله . وليس عدم شرط الإيمـان فى عدم ثواب ما يفعـله من الخير ثم أسلم ومات مسلما بشرط عقلىّ لا يتبدّل . والله أكرم من أن يضيع عمله إذا حسن إسلامه . وقد تأول الحربى الحديث على هذا المعنى فقال: "أسلمت على ما أسلفت"؛ أى ما تقدم لك من خير عملته فذلك لك . كما تقول : أسلمت على ألف درهم؛ أى على أن أحرَزَها لنفسه . والله أعـــلم .

الرابعـــة — فإن قيل : فقد روى مسـلم عن العباس قال : قلت يارسول الله [إن] ابا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعـه ذلك ؟ قال : " نعم، وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضاح (٢)" . قيل له : لا يبعد أن يخفف عن الكافر بعض العذاب بما عمل

(١) التحنث : التعبد .

(٢) الضحضاح فى الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكعبين . فاستعاره للنار .

من الخـير، لكن مع انضمام شـفاعة، كما جاء في أبي طالب . فأما غيره فقـد أخبر التنزيل بقوله : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »(١) . وقال مخبرا عن الكافرين : « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »(٢) . وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخُدرِيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكر عنده عمه أبو طالب فقال : "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعل في ضَحْضاح من النـار يبلغ كعبيه يَغْلِي منـه دماغه" . من حديث العباس : "ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النار" .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي كافرين .

قوله تعـالى : وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

فيـــه ثلاث مسـائل :

الأولى — : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ ﴾ « أنْ » الأولى في موضـع نصب، والثانية في موضع رفع . والمعنى : وما منعهم من أن تقبل منهم نفقاتهم إلا كفرهم. وقرأ الكوفيون « أن يُقبل منهم » بالياء؛ لأن النفقات والإنفاق واحد .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّـلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ قال ابن عباس : إن كان في جماعة صلى وإن انفرد لم يصلّ ، وهو الذي لا يرجو على الصـلاة ثوابا ولا يخشى في تركها عقابا . فالنفاق يورث الكسل في العبادة لا محالة . وقد تقدم في « النساء »(٣) القول في هذا كله . وقد ذكرنا هناك حديث العلاء(٤) مُوعَبا . والحمد لله .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ لأنهم يعـدونها مَغْرما ومنعها مَغْنما . وإذا كان الأمر كذلك فهي غير متقبَّلة ولا مثاب عليها حسب ما تقدم .

---

(١) آية ٤٨ سورة المدثر .	(٢) آية ١٠٠ سورة الشعراء .
(٣) راجع جـ ٥ صفحة ٤٢٢ طبعة أولى أو ثانية .	(٤) لعل صوابه : حديث الأعرابي .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

أى لاتستحسن ما أعطيناهم ولا تَمِل إليه فإنه استدراج . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ قال الحسن : المعنى بإخراج الزكاة والإنفاق فى سبيل الله . وهـذا اختيار الطـبرى . وقال ابن عبـاس وقتادة : فى الكلام تقـديم وتأخير ؛ والمعنى فلا تعجبـك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنمـا يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . وهذا قول أكثر أهل العربية ؛ ذكره النحاس . وقيل : يعذبهم بالتعب فى الجمع . وعلى هذا التأويل وقولِ الحسن لا تقـديم فيها ولا تأخير ؛ وهو حسن . وقيـل : المعنى فلا تعجبـك أموالهم ولا أولادهم إنمـا يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين فيعذَّبون بمـا ينفقون . ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ نصٌّ فى أن الله يريد أن يموتوا كافرين ؛ سبق بذلك القضـاء . ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ بيّن أن من أخلاق المنافقين الحلف بأنهم مؤمنون . نظيره «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ»(١) الآية . والفَرَق الخوف؛ أى يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيُقتلوا .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ كذا الوقف عليـه . وفى الخط بألفين : الأولى همزة، والثانية عوض من التنوين؛ وكذا [رأيت] جزءا . والملجأ الحصن؛ عن قتادة وغيره . ابن عباس : الحرز؛ وهما سواء . يقال : لجأت إليه لجأ (بالتحريك)(٢) وملجأ والتجأت إليه

---

(١) أول سورة المنافقون .

(٢) هـذه عبارة الجوهرى فى صحاحه . والذى فى اللسان والقاموس أنه يقال لَجَأَ لَجْأً ، مثل منع منعا . ولجىء لجأ مثل فرح فرحا .

بمعنًى . والموضع أيضــا لجَأ ومَلْجأ . والتّلجئة الإكراه . وألجأته إلى الشيء اضطررته إليه . وألجأت أمرى إلى الله أسندته . وعمر بن لَجَأ التميمىّ(١) الشاعر؛ عن الجوهرىّ . ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ جمع مَغارة؛ من غار يَغير . قال الأخفش : و يجوز أن يكون من أغار يُغير ؛ كما قال الشاعر :

* الحمد لله مُسانا ومُصْــبَحنا(٢) *

قال ابن عباس : المغارات الغِيران والسراديب، وهى المواضع التى يستتر فيها؛ ومنه غار المــاء وغارت العين . ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ مفتعل من الدخول؛ أى مسلكا نختفى بالدخول فيه، وأعاده لاختلاف اللفظ . قال النحاس : الأصــل فيه مدتخل، قلبت التاء دالا؛ لأن الدال مجهورة والتاء مهموســة وهما من مخرج واحد . وقيل : الأصل فيه مُتَدَخّل على مُتَفَعّل؛ كما فى قراءة أُبَىّ « أو مُتَدَخَّلا » ومعناه دخول بعد دخول، أى قوما يدخلون معهم . المهدَوىّ : متدخّلا من تدخّل مثل تفعّل إذا تكلّف الدخول . وعن أُبَىّ أيضا مُنْــدَخلا من اندخَل ، وهو شاذ ، لأنــ ثلاثيه غير متعدّ عنــد سيبويه وأصحابه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وابن مُحَيْصِن « أو مَدْخلا » بفتح الميم و إسكان الدال . قال الزجاج : و يقرأ « أو مُدْخلا » بضم الميم و إسكان الدال . الأول من دخل يدخل . والثانى من أدخل يُدخل . كذا المصدر والمكان والزمان كما أنشد سيبويه :

* مُغَارَ آبنِ همّامٍ على حَىّ خَثْعَما(٣) *

ورُوى عن قتــادة وعيسى والأعمش « أو مدّخلا » بتشــديد الدال والخاء . والجمهور بتشديد الدال وحدها؛ أى مكانا يدخلون فيه أنفسهم . فهذه ست قراءات . ﴿ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ ﴾

---

(١) كذا فى الصحاح للجوهرى «التيمى» . والصواب أنه «التيمى» . لأنه من تيم بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة . ومات عمر بن لجأ بالأهواز، وكان يهاجى جريرا . (عن الشعر والشعراء) . (٢) هذا صدر بيت لأمية بن أبى الصلت . وعجزه : * بالخير صبحنا ربى ومسانا *

(٣) هذا عجز بيت لحميد بن ثور . وصدره : * وما هى إلا فى إزار وعلقة *

وصف امرأة كانت صغيرة السن كانت تلبس العلقة وهى من لباس الجوارى ، وهى ثوب قصــير بلا كمين تلبسه الصبية تلعب فيــه ، و يقال له الأتب والبقيرة ، وكانت تلبسه وقت اغارة ابن همام على هــذا الحىّ . وخثعم قبيلة من اليمن . (عن شرح الشواهد) .

أى لرجعوا إليه . ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أى يسرعون ، لا يردّ وجوههم شىء . من جمح الفرس إذا لم يرده اللجام . قال الشاعر :

سَبُوحًا جَمُوحا وإحضـارها * كَمَعْمَعـة السَّـعَف المُوقَـد[1]

والمعنى : لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولّوا إليه مسرعين هربا من المسلمين .

قوله تعـالى : وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ ﴾ أى يطعن عليك ؛ عن قتـادة . الحسن : يعيبك . وقال مجاهد : أى يَرُوزك[2] ويَسالك . النحاس : والقول عند أهل اللغة قول قتـادة والحسن . يقـال : لَمَزه يلمِزه إذا عابه . واللّمْز فى اللغـة العيب فى السر . قال الجوهرىّ : اللمز العيب ، وأصـله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يلمِزه ويلمُزه وقرئ بهما «ومنهم من يلمِزك فى الصدقات» . ورجل لمـاز ولُمَزة أى عيّاب . ويقال أيضا : لمزه يلمزه إذا دفعه وضربه . والهَمْز مثل اللّمز . والهامز والهماز العياب ، والهُمَزة مثله . يقال : رجل هُمَزة وٱمرأة هُمَزة أيضا . وهَمَزه أى دفعه وضربه . ثم قيل : اللمز فى الوجه ، والهمز بظَهْر الغَيْب . وصف الله قوما من المنافقين بأنهم عابوا النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى تفريق الصـدقات ، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم . قال أبو سعيد الخُدْرىّ : بينا رسول الله صلى الله عليه وسـلم يُقسم مالا إذ جاءه حُرْقُوص بن زهير أصلُ الخوارج ، ويقال له ذو الخُوَيصرة التميمىّ ؛ فقال : اعدل يارسول الله . فقال : "وَيْلَكَ ومَن يعدل إذا لم أعدل" فنزلت الآية . حديث صحيح أخرجه مسلم بمعناه . وعندها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى يارسول الله فأقتلَ هذا المنافق . فقال : "معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى إنّ هذا وأصحابَه يقرءون القرآن لا يُجاوز حناجرهم يَمْرُقون منه كما يَمْرُق السّهم من الرّميّة" .

---

(١) البيت لامرئ القيس . والإحضار : العدو .

(٢) الروز : الامتحان والتقدير .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ ﴾ جواب « لو » محذوف ، التقدير لكان خيرا لهـــم .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

فيه ثلاثون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ خصّ الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نعمــة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراجَ سهم يؤدونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمِنه بقوله : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا»[1] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ تبيين لمصارف الصدقات والمحلّ ، حتى لا تخرج عنهم . ثم الاختيار إلى مَن يقسم ؛ هذا قول مالك وأبي حنيفة وأصحابهما . كما يقال : السّرج للدابة والباب للدار . وقال الشافعيّ : اللام لام التمليك ؛ كقولك : المـال لزيد وعمرو و بكر ، فلا بدّ من التسوية بين المذكورين . قال الشافعيّ وأصحابه : وهذا كما لو أوْصَى لأصناف معينين أو لقوم معيّنين . واحتجوا بلفظة « إنمـا » وأنها تقتضى الحصر في وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف ، وعَضَدُوا هذا بحديث زياد بن الحارث الصُّدائيّ قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبعث إلى قومى جيشا فقلت : يا رسول الله ، احبس جيشك فأنا لك بإسلامهم وطاعتهم ، وكتبتُ إلى قومى فجاء إسلامهم وطاعتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) آية ٦ سورة هود .

وسلم : " يا أخا صُداء المطاعُ فى قومه ". قال : قلت بل مَنّ الله عليهم وهداهم ؛ قال : ثم جاءه رجل يسأله عن الصدقات ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لم يرض فى الصدقات بحكم نبيّ ولا غيره حتى جزّأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك " رواه أبو داود والدَّارَقُطْنِي . واللفظ للدارقطنى . وحُكى عن زين العابدين أنه قال : إنه تعالى علّم قدر ما يدفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقا لجميعهم ، فمن منعهم ذلك فهو الظالم لهم رزقَهم . وتمسّك علماؤنا بقوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »(١) . والصدقة متى أطلقت فى القرآن فهى صدقة الفرض . وقال صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها على فقرائكم " . وهذا نص فى ذكر أحد الأصناف الثمانية قرآنا وسنة ؛ وهو قول عمر بن الخطاب وعليّ وآبن عباس وحذيفة . وقال به من التابعين جماعة . قالوا : جائز أن يدفعها إلى الأصناف الثمانية ، وإلى أى صنف منها دفعتَ جاز . روى المِنْهال بن عمرو عن زِرّ بن حُبيش عن حُذيفة فى قوله : « إنما الصدقاتُ لِلفقراءِ والمساكِينِ » قال : إنما ذكر الله هذه الصدقات لتُعرف ، وأيّ صنف منها أعطيتَ أجزأك . وروى سعيد آبن جُبير عن آبن عباس « إنما الصدقات لِلفقراءِ والمساكِينِ » قال : فى أيها وضعت أجزأ عنك . وهو قول الحسن وإبراهيم وغيرهما . قال الكِيَا الطبريّ : حتى آدعى مالك الإجماع على ذلك .

قلت : يريد إجماع الصحابة ؛ فإنه لا يُعلم لهم مخالف منهم على ماقال أبو عمر ، والله أعلم . آبن العربيّ : والذى جعلناه فَيْصلا بيننا وبينهم أن الأمة آتفقت على أنه لو أُعطى كلُّ صنف حظّه لم يجب تعميمه ، فكذلك تعميم الأصناف مثله . والله أعلم .

الثالثة — واختلف علماء اللغة وأهل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين على تسعة أقوال : فذهب يعقوب بن السِّكِّيت والقُتَبي ويونس بن حبيب إلى أن الفقير أحسن حالا من

(١) آية ٢٧١ سورة البقرة .

المسكين . قالوا : الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه ويقيمه ، والمسكين الذى لا شيء له ؛ واحتجّوا بقول الراعى :

أما الفقـــير الذى كانت حَلُوبَتُــه * وَفْقَ العِيَــال فـلم يُترك له سَـــبَدُ (١)

وذهب الى هـذا قوم من أهل اللغة والحـديث منهم أبو حنيفة والقـاضى عبد الوهاب ، والوَفق من الموافقة بين الشيئين كالألتحام ؛ يقال : حلوبته وفق عياله أى لها لبن قدر كفايتهم لافضل فيه ؛ عن الجوهرى . وقال آخرون بالعكس ؛ فجعلوا المسكين أحسنَ حالا من الفقير . واحتجوا بقوله تعالى : « أَمّا السَّفِينةُ فكانَتْ لِمساكِينَ يَعْمَلُونَ فِى البحرِ » (٢) . فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملةً من المـال . وعَضَدوه بما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه تعوّذ من الفقر . وروى عنه أنه قال : " اللَّهُمّ أحْيِنى مسكينا وأمتنى مسكينا " . فلو كان المسكين أسوأَ حالا من الفقير لتناقض الخبران ؛ إذ يستحيل أن يتعوّذ من الفقر ثم يسأل ماهو أسوأ حالا منه ، وقد استجاب الله دعاءه وقبَضَه وله مال ممـا أفاء الله عليه ، ولكن لم يكن معه تمـام الكفاية ؛ ولذلك رَهَن درعه . قالوا : وأما بيت الراعى فلا حجة فيه ؛ لأنه إنمـا ذكر أن الفقـير كانت له حَلُوبة فى حال . قالوا : والفقير معناه فى كلام العرب المفقور الذى نُزِعت فِقَره (٣) من ظهره من شدة الفقر فلا حال أشدّ من هذه . وقد أخبر الله عنهم بقوله « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ » (٤) . وآستشهدوا بقول الشاعر :

لمـا رأى لُبَـدُ النُّسورَ تطايرت * رفعَ القــوادمَ كالفقــير الأعْزَلِ (٥)

أى لم يطق الطيران فصار بمنزلة من آنقطع صلبه ولصق بالأرض . ذهب الى هذا الأصمعىّ وغيره ، وحكاه الطحاوىّ عن الكوفيين . وهو أحد قولى الشافعىّ وأكثر أصحابه . وللشافعىّ

---

(١) السبد : الوبر . وقيل الشعر . والعرب تقول : ماله سبد ولا لبد ؛ أى ماله ذو وبر ولا صوف متلبد ؛ و يكنى بهما عن الإبل والغنم .	(٢) آية ٧٩ سورة الكهف .	(٣) الفقرة (بالكسر) والفقرة والفقارة (بفتحهما) : ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجب .	(٤) آية ٢٧٣ سـورة البقرة .

(٥) البيت للبيد . ولبد : اسم آخر نسور لقمان بن عاد ؛ سماه بذلك لأنه لبد فبق لا يذهب ولا يموت . والقوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدّم الجناح ؛ الواحدة قادمة .

قول آخر : أن الفقير والمسكين سواء، لافرق بينهما فى المعنى و إن افترقا فى الآسم ؛ وهو القول الثالث . والى هذا ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، و به قال أبو يوسف .

قلت : ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير، وأنهما صنفان، إلا أن أحد الصّنفين أشدّ حاجة من الآخر؛ فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفا واحدا، والله أعلم . ولا حجة فى قول من احتج بقوله تعالى : «أمّا السفينةُ فكانت لمساكين» . لأنه يحتمل تكون مستأجرة لهم ؛ كما يقال : هذه دار فلان إذا كان ساكنها و إن كانت لغيره . وقد قال تعالى فى وصف أهل النار : « وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ » (١) فأضافها اليهم . وقال تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالكم » (٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : " من باع عبدا وله مال " . وهو كثير جدا يضاف الشىء اليه وليس له . ومنه قولهم : باب الدار . وجُلّ الدابة، وسرج الفرس، وشبهه . ويجوز أن يُسمّوا مساكين على جهة الرحمة والآستعطاف؛ كما يقال لمن آمتُحن بنكبة أو دفع الى بلية مسكين . وفى الحديث " مساكين أهل النار " وقال الشاعر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم * عليها تراب الذل بين المقابر

وأما ما تأولوه من قوله عليه السلام : " اللهم أحيِنى مسكينا " الحديث . رواه أنس، فليس كذلك ؛ و إنما المعنى ها هنا : التواضع لله الذى لا جبروت فيه ولا نخوة، ولا كبر ولا بطر، ولا تكبّر ولا أشر . ولقد أحسن أبو العتاهية حيث قال :

إذا أردت شريف القوم كلّهم * فآنظر إلى ملك فى زى مسكين

ذاك الذى عظُمت فى الله رغبته * وذاك يصلح للدنيا وللدين

وليس بالسائل ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد كره السؤال ونهى عنه، وقال فى آمرأة سوداء أبت أن تزول عن الطريق : " دَعُوها فإنها جبّارة (٣) " . وأما قوله تعالى : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » فلا يمتنع أن يكون لهم شىء . والله أعلم . وما ذهب إليه أصحاب مالك والشافعىّ فى أنهما سواء حسن . ويقرب منه ماقاله

(١) آية ٢١ سورة الحج . (٢) آية ٥ سورة النساء . (٣) أى مستكبرة عاتية .

مالك فى كتاب ابن سُحْنون ، قال : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين السائل؛ وروى عن ابن عباس وقاله الزُّهْرِىّ ، واختاره ابن سفيان وهو القول الرابع . وقول خامس — قال محمد ابن مسلمة : الفقير الذى له المسكن والخادم الى من هو أسفل من ذلك . والمسكين الذى لا مال له .

قلت : وهذا القول عكس ماثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى اليها ؟ قال نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإن لى خادما ؛ قال : فأنت من الملوك . وقول سادس — روى عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين، والمساكين من الأعراب الذين لم يهاجروا ؛ وقاله الضحاك . وقول سابع — وهو أن المسكين الذى يخشع و يستكنّ و إن لم يسأل . والفقير الذى يتحمل و يقبل الشيء سرّا ولا يخشع ؛ قاله عبيد الله بن الحسن . وقول ثامن قاله مجاهد وعكرمة والزُّهْرِىّ — المساكين الطوّافون ، والفقراء فقراء المسلمين . وقول تاسع قاله عكرمة أيضا — أن الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وسيأتى .

الرابعة — وهى فائدة الخلاف فى الفقراء والمساكين ، هل هما صنف واحد أو أكثر ، تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فمن قال هما صنف واحد قال : يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصفُ الثلث الثانى . ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم أثلاثا .

الخامسة — وقد اختلف العلماء فى حدّ الفقر الذى يجوز معه الأخذ — بعد إجماع أكثر مَن يحفظ عنه من أهل العلم — أن من له دارا وخادما لايستغنى عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة ، وللمعطى أن يعطيه . وكان مالك يقول : إن لم يكن فى ثمن الدار والخادم فضلة عما يحتاج اليه منهما جاز له الأخذ وإلا لم يجز؛ ذكره ابن المنذر . و بقول مالك قال النَّخَعِىّ والثورىّ . وقال أبو حنيفة : من معه عشرون دينارا أو مائتا درهم فلا يأخذ من الزكاة .

فٱعتبر النصـاب لقوله عليه السـلام : " أمرت أن آخذ الصـدقة من أغنيـائكم وأردّها فى فقرائكم ". وهذا واضح، ورواه المغيرة عن مالك . وقال الثورىّ وأحمد وإسحاق وغيرهم: لا يأخذ من له خمسون درهما أو قدرها من الذهب، ولا يعطَى منها أكثر من خمسين درهما إلا أن يكون غارما؛ قاله أحمد وإسحاق . وحجة هذا القول ما رواه الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " لا تحل الصدقة لرجل له خمسون درهمـا " . فى إسناده عبد الرحمن بن إسحاق ضعيف، وعنه بكر بن خنيس ضعيف أيضا . ورواه حكيم ابن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيـه عن عبد الله عن النبىّ صلى الله عليه وسلم نحوه، وقال : خمسون درهما . وحكيم بن جبير ضعيف تركه شعبة وغيره؛ قاله الدّارقطنِىّ رحمه الله . وقال أبو عمر : هـذا الحديث يدور على حكيم بن جبير وهو متروك . وعن علىّ وعبدالله قالا: لاتحل الصدقة لمن له خمسون درهما أو قيمتها من الذهب؛ ذكره الدّارَقُطْنِىّ . وقال الحسن البصرىّ : لا يأخذ من له أربعون درهما . ورواه الواقدىّ عن مالك . وحجة هذا القول ما رواه الدّارقطنِىّ عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من سأل الناس وهو غَنِىّ جاء يوم القيامة وفى وجهه كدوح وخدوش ". فقيل : يا رسول الله وما غناؤه ؟ قال : " أربعون درهمـا " . وفى حديث مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يَسار عن رجل من بنى أسد فقال النبىّ صلى الله عليـه وسلم : " من سأل منكم وله أوقية فقد سأل إلحافا والأوقية أربعون درهما" . والمشهور عن مالك ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل : هل يعطَى من الزكاة من له أربعون درهما؟ قال نعم. قال أبو عمر : يحتمل أن يكون الأول قويّا على الاكتساب حَسن التصرف . والثانى ضـعيفا عن الاكتساب، أو من له عيال . والله أعلم . وقال الشافعىّ وأبو ثَوْر . من كان قوِيا على الكسب والتحرّف مع قوّة البدن وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام. وٱحتج بحديث النبىّ صلى الله عليه وسلم "لا تحلّ الصدقة لغنِىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ"[1] رواه عبد الله بن عمر،

(١) المرة (بالكسر) : القوة والشدّة . والسوىّ : الصحيح الأعضاء .

وأخرجه أبو داود والترمذيّ والدّارَقُطْنيّ . وروى جابر قال : جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة فركبه الناس، فقال : " إنها لا تصلح لغنيّ ولا لصحيح ولا لعامل " أخرجه الدارقطنيّ . وروى أبو داود عن عبيد الله بن عَدِيّ بن الخيار قال . أخبرني رجلان أنهما أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يَقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا النظر وخفضه ، فرآنا جَلْدَين فقال : " إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغنيّ ولا لقويّ مكتسب " . ولأنه قد صار غنيًّا بكسبه كغِنَى غيره بماله فصار كل واحد منهما غنيّا عن المسئلة . وقاله ابن خويزمنداد، وحكاه عن المذهب . وهذا لا ينبغي أن يعوّل عليه ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يعطيها الفقراء ووقوفها على الزَّمِن باطل . قال أبو عيسى الترمذيّ في جامعه : اذا كان الرجل قويا محتاجا ولم يكن عنده شيء فتُصدِّق عليه أجزأ عن المتصدّق عند أهل العلم . ووجه الحديث عند بعض أهل العلم على المسئلة . وقال الكِيَا الطبريّ : والظاهر يقتضي جواز ذلك ؛ لأنه فقير مع قوته وصحة بدنه . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال عبيد الله بن الحسن : من لا يكون له ما يكفيه ويقيمه سَنةً فإنه يعطى الزكاة . وحجته ما رواه ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحَدَثان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدّخر مما أفاء الله عليه قوت سنة ، ثم يجعل ما سوى ذلك في الكُراع(١) والسلاح مع قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى » . وقال بعض أهل العلم : لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بدّ له منه . وقال قوم : من عنده عشاء ليلة فهو غنيّ ؛ وروى عن عليّ . واحتجوا بحديث عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سأل مسألة عن ظَهر غِنًى آستكثر بها من رَضْف جهنم " قالوا : يارسول الله، وما ظهر الغنى؟ قال : " عشاء ليلة " . أخرجه الدّارَقُطْني وقال : في إسناده عمرو بن خالد وهو متروك . وأخرجه أبو داود عن سهل بن الحَنْظَلية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " من سأل وعنده ما يُغنيه فإنما يستكثر من النار " . وقال النفيلي في موضع آخر " من جمر جهنم " . فقالوا : يا رسول الله

---

(١) الكراع (بالضم) : اسم يجمع الخيل . وقيل : هو اسم يجمع الخيل والسلاح .

وما يغنيه ؟ وقال النُّفَيلي فى موضع آخر : وما الغنى الذى لا تنبغى معه المسئلة ؟ قال : " قدر ما يغدّيه و يعشّيه " . وقال النّفيلي فى موضع آخر : " أن يكون له شبع يوم وليلة أو ليلة و يوم " .

قلت : فهذا ما جاء فى بيان الفقر الذى يجوز معه الأخذ. ومطلق لفظ الفقراء لايقتضى الاختصاص بالمسلمين دون أهل الذمة، ولكن تظاهرت الأخبار فى أن الصدقات تؤخذ من أغنياء المسلمين فتُردّ فى فقرائهم . وقال عكرمة : الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين فقراء أهل الكتاب . وقال أبو بكر العبسى : رأى عمر بن الخطاب ذِمّيًّا مكفوفا مطروحا على باب المدينة فقال له عمر : مالَك ؟ قال : استكرونى فى هذه الجزية، حتى إذا كُفّ بصرى تركونى وليس لى أحد يعود علىّ بشيء . فقال عمر : ما أُنصِفتَ إذًا ؛ فأمر له بقُوته وما يصلحه . ثم قال : هذا من الذين قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الآية . وهم زَمْنَى أهل الكتاب. ولما قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الآية، وقابل الجملة بالجملة وهى جملة الصدقة بجملة المصرف بين النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال لمعاذ حين أرسله إلى اليمن : " أخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ فى فقرائهم ". فآختص أهل كل بلد بزكاة بلده . وروى أبو داود أن زيادا أو بعض الأمراء بعث عمران بن حُصين على الصدقة، فلما رجع قال لعمران : أين المال ؟ قال : وللمال أرسلتنى ! أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناها حيث كنا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدّارَقُطنى والترمذىّ عن عَوْن بن أبى جُحيفة [عن أبيه](١) قال : قدم علينا مصدّق النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الصدقة من أغنيائنا فجعلها فى فقرائنا فكنت غلاما يتيما فأعطانى منها قَلُوصا . قال الترمذىّ : وفى الباب عن ابن عباس حديث ٱبن أبى جحيفة حديث حسن .

---

(١) زيادة عن سنن الدارقطنى والترمذى .

السادســة — وقد اختلفت العلمــاء فى نقل الزكاة عن موضـعها على ثلاثة أقوال : لاتنقل؛ قاله سُحْنون وٱبن القاسم، وهو الصحيح لمـا ذكرناه. قال ابن القاسم أيضا: وإن نُقل بعضها لضرورة رأيته صوابا. ورُوى عن سُحْنون أنه قال: ولو بلغ الإمام أن ببعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة المستحَقة لغيره اليه؛ فان الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها على من ليس بمحتاج"والمسلم أخو المسلم لا يُسْلِمه(١) ولا يَظْلمه". والقول الثانى تنقل. وقاله مالك أيضا. وحجة هذا القول مارُوى أن معاذا قال لأهل اليمن: ايتونى بخَميس أو لَبِيس آخذه منكم مكان الذرة والشعير فى الصــدقة فإنه أيسر عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينــة . أخرجه الدّارقطنيّ وغيره . والخميس لفظ مشترك، وهو هنا الثوب طوله خمس أذرع . ويقال : سُمِّىَ بذلك لأن أول من عمِله الخِمْس مَلِك من ملوك اليمن؛ذكره ابن فارس فى المُجْمَل والجوهرىّ أيضا. وفى هذا الحديث دليلان : أحدهما — ما ذكرناه من نقل الزكاة من اليمن الى المدينــة؛ فيتولّى النبيّ صلى الله عليه وسلم قسمتها. ويَعْضُد هذا قوله تعالى: «إنما الصدقاتُ للفقراء» ولم يفصّل بين فقــير بلد وفقير آخر . والله أعلم . الثانى — أخذ القيمة فى الزكاة . وقد اختلفت الرواية عن مالك فى إخراج القِيَم فى الزكاة ؛ فأجاز ذلك مَرّة ومنع منــه أخرى ، فوُجِد الجواز . وقال أبو حنيفة بهذا الحديث . وثبت فى صحيح البخارىّ من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم " من بلغت عنده [من الإبل](٢) صدقة الجَذَعة وليست عنده [جذعة](٢) وعنده حِقّة فإنه تؤخذ(٣) منه وما ٱستيسرتا من شاتين أو عشرين درهما " . الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : " أغنوهم عن سؤال هذا اليوم " يعنى يوم الفِطْر . وإنمــا أراد أن يُغنوا بمــا يسدّ حاجتهم، فأىّ شىء سدّ حاجتهم جاز. وقد قال تعالى : «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِم صَدَقةً»(٤) ولم يخص شيئا من شىء . ولا يُدفع عند أبى حنيفة سُكْنَى دار بدل الزكاة ؛ مثل أن يجب عليــه خمسة دراهم فأسكن فيها فقيرا شهرا فانه لا يجوز . قال : لأن السكنى ليس بمــال .

(١) أى لا يتركه مع من يؤذيه بل يحميه .　　(٢) الزيادة عن صحيح البخارىّ .
(٣) فى البخارىّ : « فانها تقبل من الحقة ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له أو عشرين درهما » .
(٤) آية ١٠٣ من هذه السورة .

ووجه قوله « لا تجزى القِيَم » — وهو ظاهر المذهب — فلان النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ” فى خَمْسٍ من الإبل شاةٌ وفى أربعين شاةً شاةٌ “ فنص على الشاة ، فإذا لم يأت بها لم يأت بمأمور به، واذا لم يأت بالمأمور به فالأمر باقٍ عليه .

القول الثالث — وهو أن سهم الفقراء والمساكين يقسم فى الموضع، وسائر السهام تنقل باجتهاد الإمام . والقول الأوّل أصح . والله أعلم .

السابعـــة — وهل المعتبر مكان المـال وقت تمام الحول فتفرّق الصدقة فيه، أو مكان المـالك إذ هو المخاطب؛ قولان . واختار الثانى أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد فى أحكامه قال : لأن الإنسان هو المخاطب بإخراجها فصار المـال تبعا له ؛ فيجب أن يكون الحكم فيه بحيث المخاطبة . كابن السبيل فانه يكون غنيّا فى بلده فقيرا فى بلد آخر؛ فيكون الحكم له حيث هو .

مســئلة — وآختلفت الرواية عن مالك فيمن أعطى فقيرا مسلما فآنكشف فى ثانى حال أنه أعطى عبدا أو كافرا أو غنياًّ؛ فقال مرة : تجزيه ومرّة لا تجزيه . وجه الجواز — وهو الأصح — ما رواه مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ” قال رجل لأتصدّقنّ الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدّثون تُصدِّق الليلة على زانية قال اللّهُمّ لك الحمد على زانية لأتصدقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنيّ فأصبحوا يتحدّثون تُصَدِّق على غنيّ قال اللّهُمّ لك الحمد على غنيّ لأتصدّقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدّثون تُصدّق على سارق فقال اللّهُمّ لك الحمد على زانيــة وعلى غنيّ وعلى سارق فأُتِى فقيل له أمّا صدقتك فقد قُبلت أما الزانية فلعلّها تستعِفّ بها عن زناها ولعلّ الغنيّ يعتبر فينفق ممـا أعطاه الله ولعل السارق يستعِفّ بها عن سرقته “ . وروى أن رجلا أخرج زكاة ماله فأعطاها أباه ، فلمـا أصبح علم بذلك ؛ فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له : ” قــد كُتب لك أجر زكاتك وأجر صلة الرحم فلك أجران “ . ومن جهة المعنى أنه سوّغ له الاجتهاد فى المعطى، فإذا اجتهد وأعطى من يظنه من أهلها فقد أتى بالواجب عليه .

ووجه قوله « لا يَجزِى » أنه لم يضعها فى مستحقّها، فأشبه العمد، ولأن العمد والخطأ فى ضمان الأموال واحد فوجب أن يضمن ما أتلف على المساكين حتى يوصّله إليهم .

الثامنــة — فإن أخرج الزكاة عند محلّها فهلكت من غير تفريط لم يضمن؛ لأنه وكيل للفقراء . فإن أخرجها بعد ذلك بمدة فهلكت ضَمِن؛ لتأخيرها عن محلها فتعلّقت بذمته فلذلك ضمن . والله أعلم .

التاســعة — و إذا كان الإمام يعدل فى الأخذ والصرف لم يَسُغ للمالك أن يتولّى الصرف بنفسه فى الناضّ (١) ولا فى غيره . وقد قيل : إن زكاة الناضّ على أربابه . وقال ابن الماجشون : ذلك اذا كان الصرف للفقراء والمساكين خاصــة؛ فإن احتيج الى صرفها لغــيرهما من الأصناف فلا يفرّق عليهم إلا الإمام . وفروع هذا الباب كثيرة، هذه أمّهاتها .

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ يعنى السُّعاة والجُبَاة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكّل على ذلك . روى البخارىّ عن أبى حُميد الساعدىّ قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأَسْد على صدقات بنى سُلَيم يُدْعَى ابنَ اللّتبِيَّة (٢)، فلمـا جاء حاسـبه . وآختلف العلمــاء فى المقــدار الذى يأخذونه على ثلاثة أقوال : قال مجاهــد والشافعىّ : هو الثُّمن . ابن عمر ومالك : يُعطَوْن قــدر عملهم من الأجرة ؛ وهو قول أبى حنيفة وأصحابِه . قالوا : لأنه عطّل نفســه لمصلحة الفقراء ، فكانت كفايته وكفاية أعوانه فى مالهم ؛ كالمرأة لمـا عطّلت نفسهـا لحقّ الزوج كانت نفقتهـا ونفقة أتبـاعها من خادم أو خادمين على زوجها . ولا تقــدّر بالثّمن ، بل تعتبر الكفاية ثُمُنــا كان أو أكثر؛ كرزق القاضى . ولا تعتبر كفاية الأعوان فى زمننا لأنه إسراف محض . القول الثالث — يُعطَون من بيت المــال . قال ابن العربىّ : وهذا قول صحيح عن مالك بن أنس من رواية ابن

(١) الناض من المــال : هو الدرهم والدينار؛ و إنمـا يسمى ناضا اذا تحوّل نقدا بعد أن كان متاعا .

(٢) اختلف فى ضبطه ؛ فقيل بضم اللام وسكون التاء، وحكى فتحها . وقيل بفتح اللام المثناة . واسمه عبد الله، وكان من بنى تولب حىّ من الازد . وقيل : اللتبية أمّه .

أبى أُوَيس وداود بن سعيد بن زنبوعة، وهو ضعيف دليلا؛ فإن الله سبحانه قد أخبر بسهمهم فيها نصًّا فكيف يخلفون عنه استقراء وسَبْرا . والصحيح الاجتهاد فى قدر الأجرة ؛ لأن البيان فى تعديد الأصناف إنمـا كان للحل لا للستحقّ، على ما تقدم .

وآختلفوا فى العامل إذا كان هاشميًّا؛ فمنعه أبو حنيفة لقوله عليه السلام : " إن الصدقة لا تحل لآل محمد إنمـا هى أوساخ الناس " . وهذه صدقة من وجه ؛ لأنهـا جزء من الصدقة فتُلحق بالصدقة من كل وجه كرامةً وتنزيها لقرابة رسول الله صلى الله عليــه وسلم عن غُسالة الناس . وأجاز عمله مالك والشافعيّ، ويُعطَى أجر عُمالته ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث علىّ بن أبى طالب مصدّقا، و بعثه عاملا الى اليمن على الزكاة، ووَلّى جماعةً من بنى هاشم وولّى الخلفاء بعده كذلك . ولأنه أَجِير على عمل مباح فوجب أن يستوى فيه الهاشمىّ وغيره اعتبارا بسائر الصناعات . قالت الحنفية : حديث علىّ ليس فيــه أنه فرض له من الصــدقة ، فإن فرض له من غيرها جاز . وروى عن مالك .

الحادية عشرة — ودل قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالساعى والكاتب والقَسّام والعاشر وغيرهم فالقائم به يجو ز له أخذ الأجرة عليه . ومن ذلك الإمامة ؛ فإن الصلاة و إن كانت متوجّهــة على جميع الخلق فإنّ تقــدّم بعضهم بهم من فروض الكفاية ، فلا جَرَم يجو ز أخذ الأجرة عليها . وهــذا أصل البــاب ، و إليه أشار النبيّ صــلى الله عليه وســلم بقوله : " ماتركت بعــد نفقة نسائى (١) ومؤنة عاملى فهو صــدقة " قاله ابن العربىّ .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُــمْ ﴾ لا ذ كر للؤلفــة قلوبهم فى التنزيل فى غير قَسْم الصدقات، وهم قوم كانوا فى صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يتألّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم . قال الزهرىّ : المؤلّفة مَن أسلم مِن يهودىّ أو نصرانىّ و إن كان غنيًّا . وقال بعض المتاخرين : آختلف فى صفتهم؛ فقيل : هم صِنف من الكفار

(١) فى ابن العربى : « عيالى » .

يعطون ليتألفوا على الإســلام، وكانوا لا يُسلمون بالقهر والسـيف ، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان. وقيل : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم تَستيقن قلوبهم، فيُعطَوْن ليتمكن الإسلام فى صدورهم. وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يُعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاءُ لمن لا يتمكّن إسلامه حقيقةً إلا بالعطاء؛ فكأنه ضربٌ من الجهاد. والمشركون ثلاثة أصناف : صِنف يرجع بإقامة البرهان . وصنف بالقهر . وصنف بالإحسان . والإمام الناظر للمســلمين يستعمل مع كل صِنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر . وفى صحيح مسلم من حديث أنس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أعنى للأنصار — : " فإنى أُعطى رجالا حدِيثى عَهْدٍ بكفر أتألّفهم " الحديث . قال ابن إسحاق : أعطاهم يتألّفهم ويتألف بهم قومهم . وكانوا أشرافا؛ فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه مائة بعير، وأعطى حَكيم بن حِزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سُهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حُويطب بن عبد العُزّى مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير . وكذلك أعطى مالك بن عوف والعـلاء بن جارية . قال : فهؤلاء أصحـاب المِئين . وأعطى رجالا من قريش دون المـائة منهم مخـرمة بن نوفل الزهرى ، وعمير بن وَهْب الجُمَحِىّ ، وهشام بن عمرو العامرى . قال ابن اسحاق : فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم . وأعطى سـعيد بن يَرْبُوع خمسين بعيرا ، وأعطى عباس بن مِرداس السُّلَمِىّ أباعِرَ قليلة فسخطها . فقال فى ذلك :

كانت نِهـابًا تَـلافَيْتُهـا * بكَرِّى على المُهْـرِ فى الأَجْرَع (١)
وإيقاظِىَ القـومَ أن يرقدوا * إذا هَجَع النـاس لم أهجـع
فأصـبحَ نَهْـبِى ونَهْبُ العُبَيْـ * ـدِ بين عُيَيْنَــة والأَقْرَع (٢)
وقد كنتُ فى الحرب ذا تُدْرَإٍ (٣) * فلم أُعْـطَ شيئا ولم أُمْنـع

---

(١) الأجرع : المكان الواسـع الذى فيه حزونة وخشونة . (٢) العبيد (مصغر) : اسم فرس العباس ابن مرداس . (٣) ذو تدرأ (بضم التاء) : أى ذو هجوم لا يتوقّى ولا يهاب؛ ففيه قوة على دفع أعدائه .

إلّا أفائـلَ أُعطِيتُهـا * عـديدَ قوائمِـه الأربـع (١)
وما كان حِصْنٌ ولا حابِسٌ * يفـوقان مِرداسَ فى المَجْمع
وما كنتُ دون آمرئٍ منهما * ومن تَضِـع اليومَ لا يُرْفَـع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه " . فأعطَوْه حتى رَضِىَ؛ فكان ذلك قَطْع لسانه . قال أبو عمر : وقد ذُكِر فى المؤلفة قلوبهم النُّضير بن الحارث بن علقمة ابن كَلَدة ، أخو النضر بن الحارث المقتول ببـدر صَبْرًا . وذكر آخرون أنه فيمن هاجر إلى الحبشة ؛ فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفـة قلوبهم ؛ ومن هاجر الى أرض الحبشة فهو من المهاجرين الأوّلين ممن رسخ الإيمـان فى قلبه وقاتل دونه ، وليس ممن يؤلّف عليـه . قال أبو عمر : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسـلم مالك بن عوف بن سـعد النَّصْرى على من أسلم من قومه من قبائل قيس ، وأمره بمغاورة ثقيف ففعل وضيّق عليهم ، وحسُن إسلامه وإسلام المؤلَّفة قلوبهم ، حاشا عُيينة بن حِصن فلم يزل مَغْموزا عليه (٢) . وسائر المؤلفة متفاضلون ، منهم الخَيِّر الفاضـل المجتمَع على فضله ، كالحارث بن هشام ، وحكِيم بن حِزام ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء . وقد فضل الله النبيين وسائر عباده المؤمنين بعضهم على بعض وهو أعلم بهم . قال مالك : بلغنى أن حكيم بن حِزام أخرج ما كان أعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم فى المؤلفة قلوبهم فتصدّق به بعد ذلك .

قلت : حكيم بن حزام وحُويطب بن عبـد العُزّى عاش كل واحد منهما مائة وعشرين سنة ، ستين فى الإسلام وستين فى الجاهلية . وسمعت شيخنا الحافظ أبا محمد عبد العظيم يقول : شخصان من الصحابة عاشا فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين سنة ، وماتا بالمدينة سنة أربع وخمسين ؛ أحدهما حكيم بن حزام ، وكان مولده فى جوف الكعبة قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة . والثانى حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصارىّ . وذكر هذا أيضا أبو عمر وعثمان الشَّهْرُزُورِىّ فى كتاب معرفة أنواع علم الحديث له ، لم يذكرا غيرهما . وحويطب ذكره

(١) الأفائل : صغار الإبل . (٢) المغموز : المتهم .

أبو الفرج الجَوْزِيّ في كتاب الوفا في شرف المصطفى . وذكره أبو عمر في كتاب الصحابة أنه أدرك الإسلام وهو ابن ستين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وذكر أيضا حَمْنَن بن عوف أخو عبد الرحمن بن عوف، أنه عاش في الإسلام ستين سنة وفي الجاهلية ستين سنة . وقد عُدّ في المؤلفة قلوبهم معاوية وأبوه أبو سفيان بن حرب . أما معاوية فبعيد أن يكون منهم؛ فكيف يكون منهم وقد ائتمنه النبيّ صلى الله عليه وسلم على وَحْي الله وقراءته وخَلَطه بنفسه . وأما حاله في أيام أبي بكر فأشهر من هـذا وأظهر . وأما أبوه فلا كلام فيه أنه كان منهـم . وفي عددهم اختلاف، وبالجملة فكلهم مؤمن ولم يكن فيهم كافر على ماتقدم، والله أعلم وأحكم .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء في بقائهم؛ فقال عمر والحسن والشّعبيّ وغيرهم : انقطع هذا الصِّنف بعز الإسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي . قال بعض علماء الحنفية : لمـا أعز الله الإسـلام وأهله وقطع دابر الكافرين — لعنهم الله — اجتمعت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه على سقوط سهمهم . وقال جماعة من العلماء : هم باقون؛ لأن الإمام ربمـا آحتاج أن يستألف على الإسـلام . وإنمـا قطعهم عمر لمـا رأى من إعزاز الدِّين . قال يونس : سألت الزُّهْرِيّ عنهم فقال : لا أعلم نسخا في ذلك . قال أبو جعفر النحاس : فعلى هذا الحكمُ فيهم ثابت، فإن كان أحد يحتاج الى تألّفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة، أو يرجى أن يحسن إسلامه بعدُ دُفع إليه . قال القاضي عبد الوهاب : إن احتيج إليهـم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة . وقال ابن العربي : الذي عندي أنه إن قوِي الإسلام زالوا، وان احتيج اليهم أُعطوا سهمهم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم؛ فإن في الصحيح : "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ" .

الرابعة عشرة — فإذا فرّعنا على أنه لا يُرَدّ إليهم سهمهم فإنه يرجع الى سائر الأصناف أو ما يراه الإمام . وقال الزهرِيّ : يُعطَى نصفُ سهمهم لعُمّار المساجد . وهذا مما يدلّك على أن الأصناف الثمانية محلّ لا مستحقون تسويةً؛ ولو كانوا مستحقين لسقط سهمهم بسقوطهم ولم يرجع الى غيرهم؛ كما لو أوصى لقوم معينين فمـات أحدهم لم يرجع نصيبه إلى من بَقِي منهم . والله أعلم .

الخامسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أى فى فَكّ الرقاب ؛ قاله ابن عباس وابن عمر، وهو مذهب مالك وغيره . فيجوز الإمام أن يشترى رِقاباً من مال الصدقة يعتقها عن المسلمين؛ ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين . و إن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جاز. هذا تحصيل مذهب مالك ، و روى عن ابن عباس والحسن ،وبه قال أحمد و إسحاق وأبو عبيد. وقال أبو ثَوْر : لا يبتاع منهـا صاحب الزكاة نَسَمة يعتقها بجَـرّ ولاء . وهو قول الشافعى وأصحاب الرأى ورواية عن مالك . والصحيح الأوّل؛ لأن الله عز وجل قال : «وفِي الرقاب» فاذا كان للرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشترى رقبة فيعتقها . ولا خلاف بين أهل العلم أن للرجل أن يشترى الفرس فيحمل عليه فى سـبيل الله . فاذا كان له أن يشترى فرسا بالكمال من الزكاة جاز أن يشترى رقبة بالكمال؛ لا فرق بين ذلك . والله أعلم .

السادسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وفِي الرِّقابِ ﴾ الأصل فى الولاء ؛ قال مالك : هى الرقبة تعتق وولاؤها للسلمين ، وكذلك ان أعتقها الإمام . وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الولاء وعن هبته . وقال عليـه السلام : " الولاء لُحْمَـةٌ كلُحْمة النسب لا يباع ولا يوهب" . وقال عليه السلام: "الولاء لمن أعتق" .ولا ترث النساء من الولاء شيئا؛ لقوله عليه السلام : " لا ترث النساء من الولاء شيئا الا ما أعتقن أو أعتق من أعتقن " وقد ورّث النبى صلى الله عليه وسلم آبنة حمزة من مولًى لها النصفَ ولابنتـه النصف . فإذا ترك المعتِق أولادا ذكورا و إناثا فالولاء للذكور من ولده دون الإناث . وهو إجماع الصحابة رضى الله عنهم . والولاء إنمـا يورث بالتعصيب المحض ، والنساءُ لا تعصيب فيهن فلم يرثن من الولاء شيئا . فافهم تِصب .

السابعة عشرة — وآختلف هل يُعان منها المكاتب؛ فقيل لا . روى ذلك عن مالك ؛ لأن الله عز وجل لمـا ذكر الرّقبـة دلّ على أنه أراد العتق الكامل، وأما المكاتب فإنمـا هو داخل فى كلمة الغارمين بمـا عليه من دَين الكتابة ، فلا يدخل فى الرّقاب . والله أعلم . وقـد روى عن مالك من رواية المدنيّين و زيادٍ عنه : أنه يُعان منها المكاتَب فى آخر كتابته بما يَعتق .

وعلى هذا جمهور العلماء فى تأويل قول الله تعـالى : « وفى الرِّقاب » . وبه قال ابن وهب والشافعىّ والليث والنَّخَعِىّ وغيرهم . وحكى علىّ بن موسى القُمِّى الحنفى فى أحكامه : أنهم أجمعوا على أن المكاتب مراد . واختلفوا فى عتق الرقاب؛ قال الكِيا الطبرىّ: «وذكر[1] وجوها[2] بيّنه فى منع ذلك فقال : إن العتق إبطال مِلْك وليس بتمليك، وما يدفع إلى المكاتب تمليك، ومن حق الصدقة ألّا تجزى إلا إذا جرى فيها التمليك . وقوّى ذلك بأنه لو دفع من الزكاة عن الغارم فى دينه بغير أمره لم يَجزه من حيث لم يملك فلان لايجزى ذلك فى العتق أَوْلى . وذكر أن فى العتق جرّ الولاء إلى نفسه وذلك لا يحصل فى دفعه للكاتب . وذكر أن ثمن العبد إذا دفعه إلى العبد لم يملكه العبد، وإن دفعه إلى سيده فقد ملّكه العتق . وإن دفعه بعد الشراء والعتق فهو قاضٍ ديناً، وذلك لا يَجزِى فى الزكاة » .

قلت : قد ورد حديث ينصّ على معنى ما ذكرنا من جواز عتق الرقبة وإعانة المكاتب معًا ، أخرجه الدّارَقُطْنِىّ عن البراء قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : دُلَّنى على عمل يقرّبنى من الجنـة ويباعدنى من النار . قال : " لئن كنت أقصرتَ الخطبة لقـد أعرضتَ المسألة[3] أعْتق النسمة وفكّ الرقبة " . فقال : يارسول الله، أو ليستا واحدا؟ قال: " لا، عِتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفكّ الرقبة أن تُعين فى ثمنها " وذكر الحديث .

الثامنة عشرة — وٱختلفوا فى فكّ الأُسـارى منها؛ فقال أَصْـبَغ : لا يجوز . وهو قول ابن القاسم . وقال ابن حبيب : يجوز؛ لأنها رقبة مُلِكت بملك الرِّق فهى تخرج من رِق إلى عتق، وكان ذلك أحقّ وأَوْلى من فكاك الرقاب الذى بأيدينا؛ لأنه إذا كان فكّ المســلم عن رِق المسلم عبادةً وجائزا من الصــدقة، فأحْرَى وأَوْلَى أن يكون ذلك فى فكّ المســلم عن رِق الـكافر وذُلّه .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْغَارِمِينَ ﴾ هم الذين ركبهم الدَّين ولا وفاء عندهم به، ولا خلاف فيه. اللّهُمّ إلا من آدّان فى سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب.

(١) أى القمى .
(٢) الذى فى أحكام القرآن للكيا : « وذكر وجوها بينـة فى منع ذلك ، منهـا أنه العتق ... » الخ .
(٣) أى جئت بالخطبة قصيرة وبالمسألة واسعة كثيرة .

ويُعْطَى منها مَن له مال وعليه دَين محيط به ما يقضى به دينه، فإن لم يكن له مال وعليــه دين فهو فقير وغارم فيُعْطَى بالوصفين . روى مسلم عن أبى سعيد الخُـدْرى قال : أصيب رجل فى عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمـار ابتاعها فكثر دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تصدّقوا عليه". فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : "خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك" .

الموفية عشرين — ويجوز للتحمِّل فى صلاح و برّ أن يُعطى من الصدقة ما يؤدّى ما تحمّل به إذا وجب عليه و إن كان غنياً ، إذا كان ذلك يُجْحف بمـا له كالغريم . وهو قول الشافعى وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . واحتج مَن ذهب هذا المذهبَ بحديث قَبِيصة بن مُخارِق قال : تحمّلت حَمَالة (١) فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : "أقم حتى تأتينا الصدقةُ فنأمرَ لك بها — ثم قال — ياقَبيصةُ إن المسألة لا تحِـلّ إلا لأحدِ ثلاثةٍ رجل تحمّل حَمَـالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يُمسِك ورجل أصابته جائحـة اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواما من عيش — أو قال سِدادا من عيش — ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوِى الحِجَا من قومه لقـد أصابت فلانا فاقةٌ (٢) فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواما من عيش — أو قال سـدادا من عيش — فمـا سواهنّ من المسألة ياقَبيصةُ سُحْتاً (٣) يأكلها صاحبها سُحْتاً" . فقوله : "ثم يُمسك" دليل على أنه غنى ؛ لأن الفقير ليس عليه أن يمسك . والله أعلم . وروى عنـه عليه الســلام أنه قال : "إن المسألة لا تحلّ إلا لأحدِ ثلاثةٍ ذوى فقر مُدْقِـع (٤) أو لذى غُرْم مُفْظِـع (٥) أو لذى دم مُوجِـع (٦)" . وروى عنه عليه السلام : "لا تحلّ الصدقة لغنى إلا لخمسة" الحديث . وسيأتى .

(١) الحمالة (بالفتح) : ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة ؛ مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين . والتحمل : أن يحملها عنهم على نفسه . (عن النهاية لابن الأثير) .
(٢) أى حتى يقوموا على رءوس الأشهاد قائلين : إن فلانا أصابته فاقة الخ .
(٣) كذا رواية مسلم؛ أى اعتقده سحتا ، أو يؤكل سحتا . وفى غير مسلم بالرفع .
(٤) المدقع : الشديد، يفضى بصاحبه الى الدقعاء، وهى التراب . وقيل : هو سوء احتمال الفقر .
(٥) المفظع : الشديد الشنيع .
(٦) هو أن يتحمل دية فيسعى فيها حتى يؤديها الى أولياء المقتول ؛ فان لم يؤدها قتل المتحمل عنه فيوجعه قتله .

الحادية والعشرون — واختلفوا، هل يُقضى منها دينُ الميت أم لا ؛ فقال أبو حنيفة : لا يؤدّى من الصدقة دين ميت . وهو قول ابن المَوّاز . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى ، و إنمـا الغارم مَن عليه دين يُسجن فيه . وقال علماؤنا وغيرهم : يقضى منهـا دين الميت لأنه من الغـارمين ؛ قال صـلى الله عليـه وسلم : " أنا أولى بكل مؤمن من نفسه مَن ترك مالا فلأهله ومن ترك دَينا أو ضَياعا (1) فإلىّ وعلىّ " .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هم الغُزاة وموضع الرِّباط ، يُعطون ما ينفقون فى غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء ، وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعُمّار . ويُؤثَر عن أحمد و إسحاق رحمهما الله أنهما قالا : سبيل الله الحج . وفى البخارىّ : ويذكر عن أبى لاس : حملنا النبىّ صلى الله عليه وسلم على إبل الصـدقة للحج ، ويذكر عن ابن عباس : يُعتِق من [زكاة (2)] ماله ويُعطى فى الحج . خرّج أبو محمد عبـد الغنى الحافظ حدّثنا محمد بن محمد الخياش حدّثنا أبو غسان مالك بن يحيى حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا مهـدى بن ميمون عن محمـد بن أبى يعقوب عن عبـد الرحمن ابن أبى نُعْم ويُكْنَى أبا الحكم قال : كنت جالسا مع عبد الله بن عمر فأتته امرأة فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، إن زوجى أوصى بماله فى سبيل الله . قال ابن عمر : فهو كما قال فى سبيل الله . فقلت : أما زدتها فيما سألت عنه إلا غمًّا . قال : فمـا تأمرنى يابن أبى نُعْم ، آمرها أن تدفعه إلى هؤلاء الجيوش الذين يخرجون فيعتدون فى الأرض و يقطعون السبيل ! قال : قلت فما تأمرها . قال : آمرها أن تدفعه إلى قوم صالحين ، إلى حجاج بيت الله الحرام ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، ليسوا كوفد الشيطان ؛ ثلاثا يقولها . قلت : يا أبا عبد الرحمن ، وما وفد الشيطان؟ قال : قوم يدخلون على هؤلاء الأمراء فينمّون إليهم الحديث ، ويسـعون فى المسلمين بالكذب ؛ فيجازَوْن الجوائز و يعطَوْن عليه العطايا .

---

(1) الضياع (بالفتح) : العيال وأصله مصـدر ضاع يضيع ضياعا ، سمى العيال بالمصدر ؛ كما تقول : من مات وترك فقرا ؛ أى فقراء .
(2) الزيادة عن صحيح البخارى .

وقال محمد بن عبد الحكم : ويعطى من الصدقة فى الكُراع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب ، وكف العـدو عن الحَوْزة ؛ لأنه كلّه من سبيل الغَزْو ومنفعته . وقد أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم مائة ناقةٍ فى نازلة سهل بن أبى حَثْمة إطفاءً للثّائرة .

قلت : أخرج هذا الحديث أبو داود عن بشـير بن يسار ، أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبى حَثْمة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم وَداه مائة من إبل الصدقة ، يعنى دية الأنصارىّ الذى قُتل بخَيْبَر . وقال عيسى بن دِينار : تحِل الصدقة لغاز فى سبيل الله، قد احتاج فى غزوته وغاب عنه غَناؤه ووَفْرُه . قال : ولا تحلّ لمن كان معه ماله من الغزاة، إنما تحل لمن كان ماله غائبا عنه منهم . وهذا مذهب الشافعىّ وأحمد وإسحاق وجمهور أهل العلم . وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يُعْطَى الغـازى إلا إذا كان فقيرا منقطَعًا به . وهـذه زيادة على النص، والزيادة عنده على النص نسخ، والنسخ لا يكون إلا بقرآن أو خبر متواتر، وذلك معدوم هنا، بل فى صحيح السنة خلاف ذلك من قوله عليه السلام : "لا تحل الصدقة لغنِىّ الا لخمسة لغازٍ فى سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أولرجل له جار مسكين فتصدّق على المسكين فأهدى المسكين للغنى" . رواه مالك مرسلا عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار . ورفعه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم . فكان هـذا الحديث مفسِّرا لمعنى الآية، وأنه يجوز لبعض الأغنياء أخذها، ومفسِّرا لقوله عليه السلام : "لا تحل الصدقة لغنِىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ" لأن قوله هـذا مجمل ليس على عمومه بدليل الخمســة الأغنياء المذكورين . وكان ابن القاسم يقول : لا يجوز لغنىّ أن يأخذ من الصـدقة ما يستعين به على الجهاد وينفقه فى سبيل الله ، وإنما يجوز ذلك لفقير . قال : وكذلك الغارم لا يجوز له أن يأخذ من الصدقة ما يقى به ماله ويؤدّى منها دينه وهو عنها غنِىّ . قال: وإذا احتاج الغازى فى غزوته وهو غنىّ له مال غاب عنه لم يأخذ من الصدقة شيئا ويستقرض، فاذا بلغ بلده أدّى ذلك من ماله . هذا كله ذكره ابن حبيب عن ابن القاسم، وزعم أن ابن نافع وغيره خالفوه فى ذلك . وروى أبو زيد وغيره

عن ابن القاسم أنه قال : يُعطَى من الزكاة الغازى وان كان معه فى غَزاته ما يكفيه من ماله وهو غنىّ فى بلده . وهذا هو الصحيح؛ لظاهر الحديث : "لا تحل الصدقة لغنى الا لخمسة". وروى ابن وهب عن مالك أنه يعطى منها الغزاة ومواضع الرباط فقراء كانوا أو أغنياء .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ السبيل الطريق ؛ ونُسب المسافر اليها لملازمته اياها ومروره عليها؛ كما قال الشاعر :

إن تسألونى عن الهوى فأنا الهَوَى ∗ وٱبن الهَوَى وأخو الهَـوَى وأبوهُ

والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سـفره عن بلده ومستقَره وماله؛ فإنه يُعْطَى منهـا وان كان غنيًّا فى بلده، ولا يلزمه أن يشـغل ذمته بالسّلف . وقال مالك فى كتاب ابن سُحنون : اذا وجد من يسـلفه فلا يعطَى . والأول أصح؛ فانه لا يلزمه أن يدخل تحت مِنّـة أحد وقد وجد مِنّة الله تعالى . فان كان له ما يغنيه ففى جواز الأخذ له لكونه ابن السبيل روايتان : المشهور أنه لا يعطى؛ فان أخذ فلا يلزمه ردّه اذا صار إلى بلده ولا إخراجه .

الرابعة والعشرون — فان جاء وٱدّعى وصفًا من الأوصاف، هل يقبل قوله أم لا ويقال له أثبت ما تقول . فأما الدَّين فلا بدّ أن يثبته، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهـد له ويُكتفى به فيها . والدليل على ذلك حديثان صحيحان أخرجهما أهل الصحيح ، وهو ظاهر القرآن . روى مسلم عن جرير [عن أبيـه][1] قال : كنا عند النبىّ صلى الله عليه وسـلم فى صدر النهار، قال : فجاءه قوم حُفاةً عُراةً مُجْتَابِى النِّمار[2] أو العَبَاء متقلّدى السيوف، عامّتهم من مُضَر بل كلهم من مُضَر، فتمعّر[3] وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذّن وأقام فصلى، ثم خطب فقال : " يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم — الآية الى قوله — رقيبا» والآية التى فى الحشر «ولتنظر نفس ما قدمت لِغَدٍ» تصدّق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاعِ بره — حتى قال — ولو بشق تمرة" قال : فجاء رجل

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) اجتاب القميص : لبسه . والنمار (بكسر النون) : كل شملة مخططة من مآزر الأعراب؛ كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض . (٣) تمعر : تغير .

من الأنصار بصُرّة كادت كفُّه تَعْجز عنها بل قد عجزت ، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلّل كأنه مُذْهَبة[(١)] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سَنّ فى الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يُنقص من أجورهم شىء ومن سَنّ فى الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وِزْرها ووِزْر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء" . فاكتفى صلى الله عليه وسلم بظاهر حالهم وحَثّ على الصدقة ، ولم يطلب منهم بيّنـة ، ولا استقصى هل عندهم مال أم لا . ومثله حديث أبْرَص وأقرع وأعمى أخرجه مسلم وغيره . وهذا لفظه : عن أبى هريرة أنه سمع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " ان فى بنى إسرائيـل أبْرَص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم مَلَكًا فأتى الأبرصَ فقال أىُّ شىء أحبُّ اليك فقال لَوْن حَسَن وجِلد حَسَن ويذهب عنى الذى قد قَذِرنى الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قذره وأُعطِى لونا حسنا وجلدا حسنا قال فأىّ المـال أحبُّ اليك قال الإبل — أو قال البقر ، شك إسحاق ، إلاّ أنّ[(٢)] الأبرص أو الأقرع قال أحدهمـا الإبل وقال آخر البقر — قال فأعطى ناقة عُشَراء قال بارك الله لك فيهـا قال فأتى الأقرعَ فقال أىُّ شىء أحبُّ اليك قال شَـعر حَسَن ويذهب عنى هذا الذى قد قَذِرَنِى الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قال فأُعْطِىَ شعرا حسنا قال فأىّ المـال أحبُّ اليك قال البقر فأُعطِىَ بقرة حاملا قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأعمى فقال أىّ شىء أحبّ اليك قال أن يَرُدَّ الله إلىّ بصرى فأُبصر به الناسَ قال فمسحه فردّ الله اليه بصره قال فأىّ المـال أحبُّ اليـك قال الغنم فأعطِى شاة والدا فأُنتِج هذان[(٣)] وولّد هـذا قال فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم قال ثم إنه أتى الأبرصَ فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين قد انقطعت بى الحِبال[(٤)] فى سفرى فلا بلاغَ لِى اليومَ إلا بالله وبك أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمـال بعيرا أتبلّغ عليه فى سفرى

(١) أى فضة مموّهة بذهب فى إشراقه . (٢) كذا فى الأصول وصحيح مسلم . ورواية البخارى : « شك إسحاق فى ذلك أن الأبرص » بغير لفظ « إلا » . (٣) أى صاحبا الإبل والبقر .
(٤) الحبال : جمع حبل . والمراد الأسباب التى يقطعها فى طلب الرزق .

فقال له الحقوق كثيرة فقال له كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناسُ فقيرا فأعطاك الله فقال إنما وَرِثتُ هذا المال كابرًا عن كابر فقال إن كنتَ كاذبا فصيّرك الله الى ما كنتَ فقال وأتى الأقرع فى صورته فقال له مثلَ ما قال لهذا وردّ عليه مثلَ ما ردّ على هذا فقال إن كنتَ كاذبا فصيّرك الله الى ما كنت قال وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال رجل مسكين وابنُ سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لِىَ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى ردّ عليك بصرَك شاةً أتبلّغ بها فى سفرى فقال قد كنتُ أعمى فردّ الله الىّ بصرى فخذ ما شئتَ ودَعْ ما شئتَ فوالله لا أجْهَدُك اليومَ شيئا أخذتَه لله فقال أمسِك مالَك فإنما ٱبتُلِيتم فقد رُضِىَ عنك وسُخِط على صاحبيك " . وفى هذا أدل دليل على أن من آدعى زيادةً على فقره من عيال أو غيره لا يكشف عنه خلافا لمن قال يُكشف عنه إن قدر ؛ فإنّ فى الحديث " فقال رجل مسكين وابنُ سبيل أسألك شاة" ولم يكلفه إثبات السفر . فأما المكاتب فإنه يكلَّف إثباتَ الكتابة لأن الرّق هو الأصل حتى تثبت الحرية .

الخامسة والعشرون — ولا يجوز أن يعطَى من الزكاة مَن تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد والزوجة . وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز . وأما أن يتناول ذلك هو بنفسه فلا ؛ لأنه يسقط بها عن نفسه فرضا . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها ولد ابنه ولا ولد ابنته ، ولا يعطى منها مكاتَبه ولا مدبّره ولا أمّ ولده ولا عبدا أعتق نصفه ؛ لأنه مأمور بالإيتاء والإخراج الى الله تعالى بواسطة كَفّ الفقير ، ومنافع الأملاك مشتركة بينه وبين هؤلاء ؛ ولهذا لا تقبل شهادة بعضهم لبعض . قال : والمكاتب عبد ما بَقِى عليه درهم وربما يعجز فيصير الكسب له . ومعتَق البعض عند أبى حنيفة بمنزلة المكاتب . وعند صاحبيه أبى يوسف ومحمد بمنزلة حُرّ عليه دَين فيجوز أداؤها إليه .

السادسة والعشرون — فإن أعطاها لمن لا تلزمه نفقتهم فقد اختلف فيه ؛ فمنهم من جوّزه ومنهم من كرِهه . قال مالك : خوف المحمدة . وحكى مُطَرِّف أنه قال : رأيت مالكا يعطى زكاته لأقاربه . وقال الواقدىّ قال مالك : أفضل مَن وَضعتَ فيه زكاتك

قرابتُك الذين لا تَعُول . وقال صلى الله عليه وسلم لزوجة عبد الله بن مسعود : "لك أجران أجر القرابة وأجر الصدقة" . واختلفو فى إعطاء المرأة زكاتها لزوجها، فذُكر عن ابن حبيب أنه كان يستعين بالنفقة عليها بما تعطيه . وقال أبو حنيفة : لا يجوز، وخالفه صاحباه فقالا : يجوز . وهو الأصح لما ثبت أن زينب آمرأة عبد الله أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى أريد أن أتصدّق على زوجى أيجزينى ؟ فقال عليه السلام : "لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة" . والصدقه المطلقة هى الزكاة ، ولأنه لا نفقــة للزوج عليها ؛ فكان بمنزلة الأجنبى . اِعتلّ أبو حنيفة فقال : منافع الأملاك بينهما مشتركة ، حتى لاتقبل شهادة أحدهما لصاحبه . والحـديث محمول على التطوّع . وذهب الشافعىّ وأبو ثَوْر وأشْهَب إلى إجازة ذلك، اذا لم يصرفه اليها فيما يلزمه لها ، وإنمـا يصرف ما يأخذه منها فى نفقته وكسوته على نفسه وينفق عليها من ماله .

السابعة والعشرون — واختلفوا أيضا فى قدر المُعْطَى؛ فالغارم يُعْطَى قدر دَيْنه، والفقير والمسكين يعطيان كفايتهما وكفاية عيالها . وفى جواز إعطاء النصاب أو أقلّ منـه خلافٌ ينبنى على الخلاف المتقدم فى حدّ الفقر الذى يجوز معـه الأخذ . وروى علىّ بن زياد وابن نافع : ليس فى ذلك حدّ، وإنمـا هو على اجتهاد الوالِى . وقد تقِلّ المساكين وتكثر الصدقة فيعطَى الفقير قوت سَـنة . وروى المُغيرة : يعطَى دون النصاب ولا يبلغـه . وقال بعض المتأخرين : إن كان فى البلد زكاتان نقد وحَرْث أخذ ما يبلّغه الى الأخرى . قال ابن العربى : الذى أراه أن يعطى نصابا، وإن كان فى البلد زكاتان أو أكثر؛ فإن الغرض إغناء الفقير حتى يصير غنيا . فإذا أخذ ذلك فإن حضرت الزكاة الأخرى وعنده ما يكفيه أخذها غيره .

قلت : هــذا مذهب أصحاب الرأى فى إعطاء النصاب . وقد كره ذلك أبو حنيفــة مع الجواز ، وأجازه أبو يوسـف؛ قال : لأن بعضه لحاجته مشغول للحال، فكان الفاضـل عن حاجته للحال دون المـائتين، واذا أعطاه أكثر من مائتى درهم جملةً كان الفاضل عن حاجته للحال قدر المـائتين فلا يجوز . ومن متأخّرى الحنفية من قال : هــذا اذا لم يكن له عيـال

ولم يكن عليه دَين ، فإن كان عليــه دَين فلا بأس أن يعطيَــه مائتى درهم أو أكثر ، مقــدار مالو قضى به دَينه يبقى له دون المــائتين . وإن كان مُعِيلا لابأس بأن يعطيَه مقدار ما لو وَزّع على عياله أصاب كلّ واحد منهم دون المــائتين ؛ لأن التصدّق عليه فى المعنى تصدّق عليه وعلى عياله . وهذا قول حسَن .

الثامنة والعشرون — اِعلم أن قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاء ﴾ مطلقٌ ليس فيه شرط وتقييد ، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بنى هاشم أو غيرهم ؛ إلا أن السنة وردت باعتبار شروط : منها ألا يكونوا من بنى هاشم ، وألّا يكونوا ممن لاتلزم المتصدّق نفقته . وهذا لا خلاف فيه . وشرط ثالث ألا يكون قوياً على الاكتساب ؛ لأنه عليه السلام قال : " لا تحل الصدقة لِغنىّ ولا لذى مِرّة سَوِىّ " . وقد تقدم القول فيه . ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحلّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولا لبنى هاشم ولا لمواليهم . وقــد رُوى عن أبى يوسف جوازُ صرف صــدقة الهاشمىّ للهاشمىّ ؛ حكاه الكيا الطبرىّ . وشذ بعض أهل العلم فقال : إن موالى بنى هاشم لايحرم عليهم شىء من الصدقات . وهذا خلاف الثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فإنه قال لأبى رافع مولاه : " وإن مَوْلَى القوم منهم " .

التاسعة والعشرون — واختلفوا فى جواز صدقة التطوّع لبنى هاشم ؛ فالذى عليه جمهور أهل العلم — وهو الصحيح — أن صدقة التطوّع لابأس بها لبنى هاشم ومواليهم ؛ لأن علياً والعباس وفاطمة رضوان الله عليهم تصدّقوا وأوقفوا أوقافا على جماعة من بنى هاشم ، وصدقاتُهم الموقوفة معروفة مشهورة . وقال ابن المــاجشون ومُطَرِّف وأَصْبَغ وابن حبيب : لا يعطى بنو هاشم من الصــدقة المفروضــة ولا من التطوع . وقال ابن القاسم : يعطى بنو هاشم من صــدقة التطوع . قال ابن القاسم : والحــديث الذى جاء : " لا تحلّ الصدقة لآل محمد " إنمــا ذلك فى الزكاة لا فى التطوع . واختار هــذا القول ابن خُوَيْزِمَنْداد ، وبه قال أبو يوسف ومحمد . قال ابن القاسم : ويُعْطَى مواليهم من الصدقتين . وقال مالك فى الواضحة : لا يعطى لآل محمد من التطوع . قال ابن القاسم : — قيل له يعنى مالكا — فمواليهم؟ قال : لا أدرى ما الموالى .

فاحتججت عليه بقوله عليه السلام : " مَوْلَى القوم منهم " . فقال قــد قال : "ابن أخت القوم منهم " . قال أَصْبَغ : وذلك فى البِرّ والحُرْمة .

الموفية ثلاثين — قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ بالنصب على المصدر عند سيبويه . أى فرض الله الصدقات فريضةً . ويجوز الرفع على القطع فى قول الكسائى ؛ أى هن فريضة . قال الزجاج : ولا أعلم [أنه] قرئ به .

قلت : قرأ بها ابراهيم بن أبى عَبْلة ، جعلها خبرا ، كما تقول : إنما زيد خارج .

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

بيّن تعالى أن فى المنافقين من كان يبسط لسانه بالوقيعة فى أذِيّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقول : إن عاتبنى حلفتُ له بأنى ما قلت هذا فيقبله ؛ فإنه أُذُنٌ سامعة . قال الجوهرى : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ؛ يستوى فيــه الواحد والجمع . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعـالى « هو أذن » قال : مستمع وقابل . وهــذه الآية نزلت فى عَتّاب بن قُشير ، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نَبْتَل بن الحارث ؛ قاله ابن اسحاق . وكان نبتل رجلا جسيما ثائرَ شــعر الرأس واللحية ، آدمَ أحمر العينين أســفعَ الخدّين مشوّه الخِلْقة ، وهو الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث " . السُّفعة (بالضم) : ســواد مُشْرَب بحمرة . والرجل أسـفع ؛ عند الجوهرى . وقرئ « أذن » بضم الذال وسـكونها . ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ أى هو أذن خير لا أذن شر ؛ أى يســمع الخير ولا يسمع الشر . وقرأ « قل أذنٌ خيرٌ لكم » بالرفع والتنوين ، الحسنُ وعاصم فى رواية أبى بكر . والباقون بالإضافة . وقرأ حمزة « ورحمةٍ » بالخفض . والبــاقون بالرفع عطف على « أذن » ، والتقدير : قل هو أذن خير وهو رحمة ،

أى هو مستمع خير لا مستمع شر. أى هو مستمع ما يجب استماعه، وهو رحمة. ومن خفض فعلى العطف على «خيرٍ». قال النحاس: وهـذا عند أهل العربيـة بعيد؛ لأنه قد تباعد ما بين الاسمين، وهذا يقبح فى المخفوض. المهدوِى: ومن جر الرحمة فعلى العطف على «خير» والمعنى مستمعُ خير ومستمع رحمـة؛ لأن الرحمـة من الخير. ولا يصح عطف الرحمـة على المؤمنين؛ لأن المعنى يصدّق بالله ويصدّق المؤمنين؛ فاللام زائدة فى قول الكوفيين. ومثله «لِرَبِّهِم يَرْهَبُونَ» أى يرهبون ربهم. وقال أبو على: هو كقوله «رَدِفَ لكم»[(١)] وهى عند المبرّد متعلقة بمصدر دل عليه الفعل، التقدير: إيمانه للؤمنين؛ أى تصديقه للؤمنين لا للكفار. أو يكون محمولا على المعنى؛ فإن معنى يؤمن يصدّق، فعُدّى باللام كما عُدّى فى قوله تعالى: «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ».

قوله تعـالى: يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

فيـــه ثلاث مسائل:

الأولى — روى أن قوما من المنافقين اجتمعوا، فيهم الجُلَاس بن سُويد ووديعة بن ثابت، وفيهـم غلام من الأنصار يُدْعَى عامر بن قيس، فحقّروه فتكلموا وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقا لنحن شرّ من الحمير. فغضب الغلام وقال: والله إنما يقول حق وأنتم شر من الحمير؛ فأخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقولهم، فحلفوا أن عامرا كاذب؛ فقال عامر: هم الكَذَبة، وحلف على ذلك وقال: اللهُـمّ لا تفرق بيننا حتى يتبيّن صدقُ الصادق وكَذِب الكاذب. فأنزل الله هذه الآية وفيها «يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ».

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ابتـداء وخبر. ومذهب سيبويه أن التقدير: والله أحقّ أن يرضوه ورسولُه أحقّ أن يرضوه؛ ثم حذف؛ كما قال:

نحن بمـا عندنا وأنت بمـا * عندك راضٍ والرأىُ مختلِفُ

(١) آية ٧٢ سورة النمل.

وقال محمـد بن يزيد : ليس فى الكلام محذوف، والتقـدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله، على التقديم والتأخير . وقال الفرّاء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه ، والله آفتتاح كلام ؛ كما تقول : ما شاء الله وشئتَ . قال النحاس : قول سيبويه أَوْلاها؛ لأنه قد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم النهيُ عن أن يقال : ما شاء الله وشئت ، ولا يقدَّر فى شيء تقديم ولا تأخير ، ومعناه صحيح .

قلت : وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه فى رضاه ؛ ألا ترى أنه قال : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »(١) . وكان الرّبيع بن خُثَيْم إذا مرّ بهذه الآية وقف، ثم يقول : حَرْفٌ وأيَّما حرف، فوّض اليه فلا يأمرنا الا بخير .

الثالثــة — قال علماؤنا : تضمنت هذه الآية قبولَ يمين الحالف وإن لم يلزم المحلوف له الرضا . واليمين حقّ للمدّعى . وتضمّنت أن يكون اليمين بالله عز وجل حَسْبُ . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : ” من حلف فلْيحلِفْ بالله أو لِيَصْمُتْ ومن حُلف له فليصدّق“ . وقد مضى القول فى الأيمان والآستثناءِ فيها مستوفًى فى المائدة(٢) .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ يعنى المنافقين . وقرأ آبن هُرْمُز والحسن « تعلموا » بالتاء على الخطاب . ﴿ أَنَّهُ ﴾ فى موضع نصب بيعلموا، والهاء كناية عن الحديث . ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ ﴾ فى موضع رفع بالآبتداء . والمحادّة : وقوع هذا فى حَدّ وذاك فى حَدّ، كالمشاقّة . يقال : حادّ فلان فلانا أى صار فى حَدّ غير حدّه . ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ يقال : ما بعـد الفاء فى الشرط مبتدأ، فكان يجب أن يكون « فإنّ » بكسر الهمزة . وقد أجاز الخليل وسيبويه « فإن له نار جهنم » بالكسر . قال سيبويه : وهو جيّد وأنشد :

---

(١) آية ٨٠ سورة النساء . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

وعلمي بأسدام المياه فلم تزل * قلائص تخدى في طريق طلائح
وأني إذا ملت ركابي مناخها * فإني على حظي من الأمر جامح[1]

إلا أن قراءة العامة «فأن» بفتح الهمزة. فقال الخليل أيضا وسيبويه: إن «أن» الثانية مبدلة من الأولى. وزعم المبرد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قاله الجرمي، قال: إن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام؛ ونظيره «وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ»[2]. وكذا «فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا»[3]. وقال الأخفش: المعنى فوجوب النار له. وأنكره المبرد وقال: هذا خطأ من أجل إن «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر. وقال علي بن سليمان: المعنى فالواجب أن له نار جهنم؛ فإن الثانية خبر ابتداء محذوف. وقيل: التقدير فله أن له نار جهنم. فأن مرفوعة بالاستقرار على إضمار المجرور بين الفاء وأن.

قوله تعالى: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ خبر وليس بأمر. ويدل على أنه خبر أن ما بعده «إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ» لأنهم كفروا عنادا. وقال السدي: قال بعض المنافقين والله وددت لو أني قدمت فجلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا؛ فنزلت الآية. يحذر: أي يتحرز. وقال الزجاج: معناه ليحذر؛ فهو أمر؛ كما يقال: يفعلُ ذلك.

---

(١) البيتان لابن مقبل. والشاهد فيهما كسر «إن» الثانية. والأسدام: المياه المتغيرة لقلة الوارد، واحدها سدم. وتخدى: تسرع. والطلائح: المعيية لطول السفر. ومعنى «ملت ركابي مناخها»: توالى سفرها وإناختها فيه وارتحالها. والجامح: الماضي على وجهه. أي لا يكسرني طول السفر ولكني أمضي قدما لما أرجوه من الحظ في أمري. (عن شرح الشواهد).

(٢) آية ٥ سورة النمل.

(٣) آية ١٧ سورة الحشر.

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ « أنْ » فى موضع نصب ، أى من أن تنزّل . ويجوز على قول سيبويه أن تكون فى موضع خفض على حذف من . ويجوز أن تكون فى موضع نصب مفعولة ليحذر؛ لأن سيبويه أجاز : حذِرت زيدا؛ وأنشد :

حَذِرٌ أمورا لا تَضِيرُ وآمِنٌ * ما ليس مُنْجِيَه من الأقدار

ولم يُجِزْه المُبَرّد؛ لأن الحذر شيء فى الهيئة . ومعنى ﴿عليهم﴾ أى على المؤمنين ﴿ سورة ﴾ فى شأن المنافقين تخبرهم بمخازيهم ومساويهم ومثالبهم؛ ولهذا سُمِّيت الفاضحة والمثيرة والمبعثرة ، كما تقدم أول السورة . وقال الحسن : كان المسلمون يسمّون هذه السورة الحفّارة لأنها حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ هذا أمرُ وعيدٍ وتهديد . ﴿إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ﴾ أى مظهر ﴿ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ ظهوره . قال ابن عباس : أنزل الله أسماء المنافقين وكانوا سبعين رجلا، ثم نَسخ تلك الأسماء من القرآن رأفة منه ورحمة؛ لأن أولادهم كانوا مسلمين والناس يعيّر بعضهم بعضا . فعلى هذا قد أنجز الله وعده بإظهاره ذلك إذ قال : « إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ » . وقيل : إخراج الله أنه عرّف نبيّه عليه السلام أحوالهم وأسماءهم لا أنها نزلت فى القرآن، ولقد قال الله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ »(1) وهو نوع إلهام . وكان من المنافقين من يتردّد ولا يقطع بتكذيب محمد عليه السلام ولا بصدقه . وكان فيهم من يعرف صدقه ويعاند .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — هذه الآية نزلت فى غَزوة تَبُوك . قال الطبرى وغيره عن قَتادة : بينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا :

(1) آية ٣٠ سورة محمد .

انظروا ، هــذا يفتح قصــور الشام ويأخذ حصون بنى الأصــفر ! فأطلعه الله سبحانه على ما فى قلوبهم وما يتحدّثون به ، فقال : " احبسوا علىّ الركب — ثم أتاهم فقال — قلتم كذا وكذا " فحلفــوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب ؛ يريدون كنا غير مجدِّين . وذكر الطبرى عن عبدالله بن عمر قال : رأيت قائل هذه المقالة وديعةَ بن ثابت متعلِّقا بحَقَب ناقةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول : إنمـا كنا نخوض ونلعب . والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول « أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ » . وذكر النقاش أن هــذا المتعلِّق كان عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول . وكذا ذكر القُشيرى عن ابن عمر . قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأنه لم يشهد تَبُوك . قال القشيرى : وقيل إنما قال عليه السلام هــذا لوديعة بن ثابت وكان من المنافقين وكان فى غزوة تبوك . والخوض : الدخول فى المـاء ، ثم استعمل فى كل دخول فيه تلويث وأذًى .

الثانيـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدّا أو هزلا ، وهو كيفما كان كفر ، فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة . فإن التحقيق أخو العلم والحق ، والهزل أخو الباطل والجهل . قال علماؤنا : انظر إلى قوله « أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

الثالثـــة — واختلف العلمـاء فى الهزل فى سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال : لا يلزم مطلقا . يلزم مطلقا . التفرقة بين البيع وغيره . فيلزم فى النكاح والطلاق ؛ وهو قول الشافعىّ فى الطلاق قولا واحدا . ولا يلزم فى البيع . قال مالك فى كتاب محمــد : يلزم نكاح الهازل . وقال أبو زيد عن ابن القاسم فى العتبية : لا يلزم . وقال علىّ بن زياد : يُفسخ قبلُ وبعدُ . وللشافعىّ فى بيع الهازل قولان . وكذلك يخرّج من قول علمائنا القولان . وحكى ابن المنذر الإجماع فى أن جِدّ الطلاق وهزله سواء . وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن اتفقا على الهزل فى النكاح والبيع لم يلزم ، وإن اختلفا غلب الجد الهزل . وروى أبو داود والترمذىّ والدّارَقُطْنِىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاث جِدّهن

جِدّ وهَزْلُهُنّ جِدّ النـكاحُ والطلاق والرَّجْعـة " . قال الترمـذى : حديث حسن غريب ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

قلت : كذا فى الحديث " والرَّجعة " . وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيِّب قال : ثلاث ليس فيهن لعِب النكاح والطلاق والعتــق . وكذا روى عن علىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وأبى الدَّرْداء ، كلهــم قال : ثلاث لا لعب فيهن واللاعب فيهن جادٌّ النكاح والطلاق والعتق . وعن سعيد بن المسيّب عن عمر قال : أربع جائزات على كل أحد العتق والطلاق والنكاح والنذور . وعن الضحاك قال : ثلاث لا لعب فيهن النكاح والطلاق والنذور .

قوله تعـالى : لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَـانِكُمْ ﴾ على جهة التوبيخ ، كأنه يقول : لا تفعلوا مالا ينفع ، ثم حكم عليهم بالكفر وعدم الاعتذار من الذنب . واعتذر بمعنى أعذر ، أى صار ذا عذر . قال لَبِيد :

* ومَن يَبْكِ حولًا كاملا فقـد اعتذر [1] *

والاعتــذار : مَحْوُ أثر المَوْجِدة ، يقال : اعتذرتِ المنـازلُ دَرَست . والاعتذار الدُّروس . قال الشاعر [2] :

أم كنتَ تعرِف آياتٍ فقد جعلتْ * أطـلالُ إلْفِك بالوَدْكاءِ تَعتــذِرُ

وقال ابن الأعرابى : أصله القطع . واعتذرت إليه قطعت مافى قلبه من المَوْجِدة . ومنـه عُذرة الغلام وهو ما يُقطع منه عند الختان . ومنـه عُذرة الجارية لأنه يقطع خاتم عُذرتها .

---

(١) هذا عجز بيت ، وصدره : * الى الحول ثم اسم السلام عليكما *

(٢) هو ابن أحمر الباهلى ، كما فى اللسان مادة « عذر » .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ قيل : كانوا ثلاثة نفر، هَزِئَ اثنان وضحك واحد، فالمعفوُّ عنه هو الذى ضحك ولم يتكلم . والطائفة الجماعة، ويقال للواحد على معنى نفس طائفة . وقال ابن الأنباري : يطلق لفظ الجمع على الواحد، كقولك : خرج فلان على البغال . قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد طائفا، والهاء للمبالغة . واختُلف فى اسم هذا الرجل الذى عُفِىَ عنه على أقوال . فقيل : مَخْشِيّ بن حُمَيِّر، قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام : ويقال فيه ابن مخشى . وقال خليفة ابن خياط فى تاريخه : اسمه مخاشن بن حُمَيِّر . وذكر ابن عبد البر مخاشن الحميرى . وذكر جميعهم أنه استُشهد باليمامة، وكان تاب وسُمّى عبد الرحمن، فدعا اللهَ أن يُقتل شهيدا ولا يُعلم بقبره . واختلف هل كان منافقا أو مسلما . فقيل : كان منافقا ثم تاب توبة نَصُوحا . وقيل : كان مسلما، إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم يُنكر عليهم .

قوله تعالى : ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ والْمُنَافِقَاتُ ﴾ ابتداء . ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتداء ثان . ويجوز أن يكون بدلا ، ويكون الخبر « من بعض » . ومعنى ﴿ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أى هم كالشيء الواحد فى الخروج عن الدِّين . وقال الزجاج : هذا متصل بقوله : « يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم » أى ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض ، أى متشابهون فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف . وقَبْضُ أيديهم عبارة عن [ترك] الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق . والنسيان : الترك هنا، أى تركوا ما أمرهم الله به فتركهم فى الشك . وقيل : إنهم تركوا أمره حتى صار كالمَنْسِيّ فصيّرهم بمنزلة المنسِيّ من ثوابه . وقال قتادة : « نَسِيَهم » أى من الخير، فأما من الشر فلم يَنْسَهم[1] . والفسق : الخروج عن الطاعة والدِّين . وقد تقدم .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ يقـال : وعد الله بالخـير وَعْدًا . ووعد بالشر وَعِيـدا . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال والعـامل محذوف ؛ أى يصـلَوْنها خالدين . ﴿ هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ ابتداء وخبر ، أى هى كفاية ووفاء لجزاء أعمالهم . واللّعن : البعد ، أى من رحمة الله ، وقد تقدّم (١) . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيم ﴾ أى واصب دائم .

قوله تعـالى : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضـع نصب ، أى وعد الله الكفـار نار جهنم وعدًا كما وَعدَ الذين من قبلهم . وقيل : المعنى فعلتم كأفعـال الذين من قبلكم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ؛ فحذف المضاف . وقيـل : أى أنتم كالذين من قبلكم ؛ فالـكاف فى محل رفـع لأنه خبر ابتـداء محذوف . ولم ينصرف « أشدّ » لأنه أفعل صـفة . والأصل فيه أَشْـدَد ، أى كانوا أشـد منكم قوة فلم يتهيأ لهم ولا أمكنهم رفع عذاب الله عز وجل .

الثانيـــة ــ روى سعيد عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "تأخذون كما أخذت الأمم قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر و باعًا بباع حتى لو أن أحدا من أولئك دخل

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ثانية .

جُحر ضَبٍّ لدخلتموه " . قال أبو هريرة : وإن شئتم فاقرءوا القرآن : « كالذين من قبلكم كانوا أشدَّ منكم قُوَّةً وأكثرَ أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم — قال أبو هريرة : والخَلَاق الدِّين — فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم » حتى فرغ من الآية . قالوا : يا نبيّ الله، فما صنعت اليهود والنصارى؟ قال : " وما الناس إلّا هم " . وفى الصحيح عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم لَتَتَّبِعُنّ سَنَن مَن قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضَبّ لدخلتموه " قالوا : يارسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال : " فمن " ؟ وقال ابن عباس : ما أشبه الليلةَ بالبارحة، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم . ونحوه عن ابن مسعود.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ أى انتفعوا بنصيبهم من الدِّين كما فعل الذين من قبلهم . ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ كَالَّذِى خَاضُوا ﴾ أى كخوضهم . فالكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف؛ أى وخضتم خوضا كالذين خاضوا . و « الذى » اسم ناقص مثلُ مَن، يعبّر به عن الواحد والجمع . وقد مضى فى «البقرة»[1] . ويقال : خُضْت الماء أخوضه خَوْضا وخِياضا . والموضع مَخاضَة، وهو ما جاز الناسُ فيها مُشاةً ورُكبانا . وجمعها المَخاض والمَخاوِض أيضا، عن أبى زيد . وأخضت دابتى فى الماء . وأخاض القوم، أى خاضت خيلهم . وخضت الغَمرات : اقتحمتها . ويقال : خاضه بالسيف، أى حرّك سيفه فى المضروب . وخَوّض فى نَجيعه[2] شدّد للمبالغة . والمِخْوَض للشّراب كالمِجْدَح[3] للسّويق؛ يقال منه : خضت الشراب . وخاض القوم فى الحديث وتخاوضوا أى تفاوضوا فيه؛ فالمعنى : خضتم فى أسباب الدنيا باللّهو واللعب . وقيل : فى أمر محمد بالتكذيب . ﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت . وقد تقدّم[4] . ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ حسناتهم . ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ وقد تقدّم أيضا[5] .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) النجيع : الدم . وقيل دم الجوف خاصة .
(٣) المجدح : خشبة فى رأسها خشبتان معترضتان .
(٤) راجع جـ ٣ ص ٤٦ طبعة أولى أو ثانيــة .
(٥) راجع جـ ١ ص ٢٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِم نَبَأُ ﴾ أى خبر ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . والألف لمعنى التقرير والتحذير؛ أى ألم يسمعوا إهلاكنا الكفارَ من قبل . ﴿ قَوْمِ نُوحٍ وعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الذين . ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى نُمرود بن كنعان وقومه . ﴿ وَأَصْحَـابِ مَدْيَنَ ﴾ اسم للبلد الذى كان فيه شعيب ، أهلكوا بعذاب يوم الظُّلّة . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قيل : يراد به قوم لوط ؛ لأن أرضهم ائتفكت بهـم ، أى انقلبت ؛ قاله قتادة . وقيـل : المؤتفكات كل من أهلك ؛ كما يقال : انقلبت عليهم الدنيا . ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعنى جميع الأنبياء . وقيل : أتت أصحابَ المؤتفكات رسلُهم ؛ فعلى هذا رسولهم لوط وحده ؛ ولكنه بعث فى كل قرية رسولا ، وكانت ثلاث قَرْيات ، وقيل أربع . وقوله تعالى فى موضع آخر : «والمؤتفكةَ»(١) على طريق الجنس . وقيل : أراد بالرسل الواحد ؛ كقوله «يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ»(٢) ولم يكن فى عصره غيره .

قلت — وهـذا فيه نظر ؛ للحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " إن الله خاطب المؤمنين بما أمر به المرسلين " الحديث . وقد تقدّم فى «البقرة» . والمراد جميع الرسل ، والله أعلم . ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى ليهلكهم حتى يبعث إليهم الأنبياء . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم .

قوله تعـالى : وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

(١) فى آية ٥٣ سورة النجم . (٢) آية ٥١ سورة المؤمنون .

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أى قلوبهم متّحدة فى التوادّ والتحابّ والتعاطف . وقال فى المنافقين «بعضهم من بعض» لأن قلوبهم مختلفـة ولكن يضم بعضهم إلى بعض فى الحكم .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى بعبادة الله تعالى وتوحيده، وكل ما أتبع ذلك . ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك . وذكر الطبرى عن أبى العاليـة أنه قال : كل ما ذُكر فى القرآن من الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر فهو النهى عن عبادة الأوثان والشياطين . وقد مضى القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى سورة المـائدة(١) وآل عمران(٢)، والحمد لله .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ تقدّم فى أوّل « البقرة »(٣) القول فيه . وقال ابن عباس : هى الصلوات الخمس، وبحسب هـذا تكون الزكاة هنا المفروضـة . ابن عطيّة : والمدح عندى بالنوافل أبلغ؛ إذ من يقيم النوافل أحْرَى بإقامة الفرائض .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما سنّ لهم . والسين فى قوله « سيرحمهم الله » مُدْخِلةٌ فى الوعد مُهْلَةً لتكون النفوس تتنعم برجائه؛ وفضلُه تعالى زعيم بالإنجاز .

قوله تعـالى : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

---

(١) راجـع جـ ٦ ص ٣٤٢ وما بعـدها . (٢) راجـع جـ ٤ ص ٤٧ طبعـة أولى أو ثانيـة .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من تحت أشجارها وغرفها الأنهار . وقد تقـدّم فى « البقرة » أنها تجرى منضبطة بالقدرة فى غير أخدود (١) . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ قصور من الزبرجد والدرّ والياقوت يفوح طيبها من مسـيرة خمسمائة عام . ﴿ فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أى فى دار إقامة . يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به ؛ ومنـه المَعْدِن . وقال عطاء الخُرَاسانىّ : « جنات عدن » هى قصبة الجنة ، وسقفُها عرش الرحمن جل وعز . وقال ابن مسعود : هى بُطْنان الجنة ؛ أى وسطها . وقال الحسن : هى قصر من ذهب لا يدخلها إلا نبىّ أو صدّيق أو شهيـد أو حَكَمٌ عَدْل ؛ ونحوه عن الضحاك . وقال مُقاتل والكلْبىّ : عدن أعلى درجة فى الجنة ، وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محفوفة بهـا ، وهى مغطاة من يوم خلقها الله حتى ينزلهـا الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله . ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ﴾ أى أكبر من ذلك . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

فيـه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ الخطاب للنبىّ صلى الله عليـه وسلم وتدخل فيه أمّته من بعده . قيل : المراد جاهد بالمؤمنين الكفارَ . وقال ابن عباس : أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومـع المنافقين باللسان وشـدّة الزجر والتغليظ . وروى عن ابن مسعود أنه قال : جاهد المنافقين بيـدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فان لم تسـتطع فاكْفَهِرّ (٢) فى وجوههم . وقال الحسن : جاهد المنـافقين بإقامة الحـدود عليهم وباللسان ــ وآختاره قتادة ــ وكانوا أكثر من يصيب الحدود . آبن العربىّ : « أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها ،

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) اكفهر الرجل : اذا عبس .

وليس العاصى بمنافق، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق كامناً، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ الغِلظ : نقيض الرأفة، وهى شدّة القلب على إحلال الأمر بصاحبه . وليس ذلك فى اللسان، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "اذا زنت أَمَة أحدكم فلْيجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها"(١) . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ »(٢) . ومنه قول النِّسوة لعمر : أنت أفظّ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) . ومعنى الغِلظ خشونة الجانب . فهى ضدّ قوله تعالى : « وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »(٤) . « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ »(٥) . وهذه الآية نسخت كل شىء من العفو والصلح والصفح .

قوله تعالى : يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

(١) أى لا يوبخها ولا يقرعها بالزنى بعد الضرب . وقيل : أراد لا يقنع فى عقوبتها بالتثريب ، بل يضربها الحد ؛ فان زنى الاماء لم يكن عند العرب مكروها ولا منكرا ، فأمرهم بحد الإماء كما أمرهم بحد الحرائر . (نهاية ابن الأثير) .
(٢) آية ١٥٩ سورة آل عمران . (٣) روى البخارى ومسلم هذا الحديث فى « باب مناقب عمر رضى الله عنه » قالا : « استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يكلمنه و يستكثرنه عالية أصواتهن على صوته ؛ فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب" فقال عمر : أنت أحق أن يهبن يا رسول الله . ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن ، أتهبننى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقلن : نعم ! أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إيهاً يابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجك" . (٤) آية ٢١٥ سورة الشعراء . (٥) آية ٢٤ سورة الاسراء .

فيــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ رُوى أن هذه الآية نزلت فى الجُلَاس ابن سُويد بن الصامت ، ووديعة بن ثابت؛ وقعوا فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : والله لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير . فقال له عامر ابن قيس : أجل! والله إن محمدا لصادق مصدَّق؛ و إنك لشر من حمار . وأخبر عامر بذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم . وجاء الجُلَاس فحلف بالله عند منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم إن عامرا لكاذب . وحلف عامر لقد قال ، وقال : اللّهُـمَّ أنزل على نبيّك الصادق شيئا ، فنزلت . وقيل : إن الذى سمعه عاصم بن عَدِيّ . وقيـل حذيفة . وقيـل : بل سمعه ولد امرأته واسمه عمير بن سعد؛ فيما قال ابن اسحاق . وقال غيره : اسمه مصعب . فهمّ الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره؛ ففيه نزل : « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » . قال مجاهد : وكان الجلاس لما قال له صاحبه إنى سأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك همّ بقتله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك . قال : ذلك هى الإشارة بقوله : « وهَمُّوا بما لم ينالوا » . وقيـل : إنها نزلت فى عبـد الله بن أبَىّ ، رأى رجلا من غِفار يتقاتل مع رجل من جُهينة ، وكانت جُهينة حلفاء الأنصار ، فعلا الغِفارىُّ الجُهَنِيّ . فقال ٱبن أبىّ : يا بنى الأوْس والخزرج ، انصروا أخاكم! فوالله ما مَثَلُنا ومثلُ محمد إلا كما قال القائل : « سَمِّن كَلْبَك يأكلك » ، ولئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذَلَّ . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فجاءه عبد الله بن أُبَىّ فحلف أنه لم يقله ؛ قاله قتادة . وقول ثالث أنه قول جميع المنافقين ؛ قاله الحسن . ٱبن العربىّ : وهو الصحيح ؛ لعموم القول ووجود المعنى فيه وفيهم ، وجملة ذلك اعتقادهم فيه أنه ليس بنبىّ .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ قال النقاش : تكذيبهم بما وعد الله من الفتح . وقيل : « كلمة الكفر » قول الجُلَاس : إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن أشر من الحمير . وقول عبد الله بن أبىّ : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل . قال القشيرى : كلمة الكفر سبُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والطعنُ فى الإسلام . ﴿ وَكَفَرُوا

بَعْدَ إِسْـلَامِهِمْ ﴾ أى بعد الحكم بإسـلامهم . فدلّ هـذا على أن المنافقين كفار . وفى قوله تعـالى : « ذَلِكَ بأنّهم آمنوا ثم كفروا »[(١)] دليل قاطع .

ودلّت الآية أيضـا على أن الكفر يكون بكل ماينافض التصديق والمعرفة ؛ و إن كان الإيمـان لا يكون إلا بلا إله إلا الله دون غيره من الأقوال والأفعـال إلا فى الصلاة . قال إسحاق بن رَاهْوَيه : ولقد أجمعوا فى الصلاة على شيء لم يجمعوا عليه فى سائر الشرائع ؛ لأنهم بأجمعهم قالوا : من عُرِف بالكفر ثم رأوه يصلى الصلاة فى وقتها حتى صلى صلوات كثيرةً، ولم يعلموا منه إقرارا باللسان أنه يحكم له بالإيمان،ولم يحكموا له فى الصوم والزكاة بمثل ذلك .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ يعنى المنافقين من قتل النبيّ صـلى الله عليه وسـلم ليلة العَقَبة فى غزوة تَبُوك ، وكانوا اثنى عشر رجلا . قال حذيفـة : سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عدهم كلّهم . فقلت : ألَا تبعثُ إليهم فتقتلَهم ؟ فقال : " أكره أن تقول العرب لمـّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيهم الله بالدُّبَيْـلة " . قيل : يا رسول الله وما الدُّبيلة ؟ قال : " شهاب من جهنم يجعله على نِياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسـه " . فكان كذلك . خرّجه مسـلم بمعناه . وقيل هَمّوا بعقـد التاج على رأس آبن أُبَىّ ليجمعوا عليه . وقد تقدّم قول مجاهد فى هذا .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْـلِهِ ﴾ أى ليس ينقمون شيئا ؛ كما قال النابغة :

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم * بهـــنّ فُلول من قِراع الكتائب

ويقال نَقَم ينقِم، ونَقِم ينقَم؛ قال الشاعر :

ما نقِموا من بنى أميّة إلا * أنهـم يحلُمون إن غضبوا

وقال زهـــير :

يؤخَّرْ فيوضـع فى كتاب فيُدَّخَرْ * ليوم الحســاب أو يُعجَّل فينقَم

(١) آية ٣ سورة المنافقون .

ينشد بكسر القاف وفتحها. قال الشعبي: كانوا يطلبون دِيَةً فيقضى لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغنوا. ذكر عكرمة أنها كانت اثنى عشر ألفا. و يقال: إن القتيل كان مولى الجُلاس. وقال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم فى ضنك من العيش، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، فلما قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم آستغنَوْا بالغنائم. وهذا المثل مشهور (آتق شرّ من أحسنت اليه). قال القشيري أبو نصر: قيل للبَجَلي أتجد فى كتاب الله تعالى اتق شر من أحسنت إليه؟ قال نعم، « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ».

الخامســة — قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ روى أن الجلاس قام حين نزلت الآية فاستغفر وتاب. فدل هذا على توبة الكافر الذى يسر الكفر و يظهر الإيمان؛ وهو الذى يسميه الفقهاء الزنديق. وقد اختلف فى ذلك العلماء؛ فقال الشافعي: تقبل توبته. وقال مالك: توبة الزنديق لا تعرف؛ لأنه كان يُظهر الإيمان و يسرّ الكفر، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله. وكذلك يُفعل الآن فى كل حين، يقول: أنا مؤمن وهو يضمر خلاف ما يظهر؛ فاذا عثر عليه وقال: تبت، لم يتغيّر حاله عما كان عليه. فإذا جاءنا تائبا من قِبل نفسه قبْل أن يعثر عليه قُبلت توبته؛ وهو المراد بالآية. والله أعلم.

السادســة — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أى يُعرضوا عن الإيمان والتوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالقتل، وفى الآخرة بالنار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أى مانع يمنعهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى معين. وقد تقدّم (1).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾

(1) راجع جـ ١ ص ٣٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة.

فيـــه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ قال قتادة : هو رجل من الأنصار قال : لئن رزقني الله شـيئا لأؤدّين فيه حقّه ولأتصدقنّ ؛ فلمـا آتاه الله ذلك فعـل ما نُصّ عليكم ، فاحذروا الكذب فانه يؤدّى الى الفجور . وروى عليّ بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهِليّ أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى (فسماه) قال للنبيّ صلى الله عليــه وسلم : أُدْعُ الله أن يرزقني مالاً . فقال عليه السـلام : "وَيْحَك يا ثعلبـة قليل تؤدّى شكره خير من كثير لا تطيقـه " . ثم عاد ثانيـا فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " أمَا ترضى أن تكون مثل نبيّ الله لو شئتُ أن تسير معى الجبال ذهبا لسارت " . فقال : والذى بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالا لأعطينّ كلّ ذِى حقّ حقّه . فدعا له النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فاتخذ غنما فنَمَت كما تَنْمِى الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصـلى الظهر والعصر فى جمـاعة ، وترك ما سـواهما . ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهى تَنْمِى حتى ترك الجمعة أيضا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا وَيْحَ ثعلبة" ثلاثا . ثم نزل «خُذْ مِن أموالِهم صَدَقَةً» . فبعث صلى الله عليه وسـلم رجلين على الصدقة ، وقال لهما : " مُرّا بثعلبة وبفلان — رجل من بنى سُلَيم — فخذا صدقاتهما " . فأتيـا ثعلبة وأقرآه كتاب رسولِ الله صلى الله عليه وسـلم ، فقال : ما هـذه إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى يفرغا ثم تعودا . الحديث ، وهو مشهور . وقيـل : سبب غناء ثعلبة أنه ورِث ابن عم له . قال ابن عبد البر : قيـل إن ثعلبة بن حاطب هو الذى نزل فيه «ومنهم من عاهد الله» الآية ، إذ منـع الزكاة ، فالله أعلم . وما جاء فيمن شاهـد بدرا يعارضه قوله تعالى فى الآية « فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قلوبِهم » الآية .

قلت : وذُكِر عن ابن عباس فى سبب نزول الآية أن حاطب بن أبي بَلْتَعة أبطأ عنه ماله بالشام ، فحلف فى مجلس من مجالس الأنصار : إن سَـلِم ذلك لأتصدقن منه ولأصِلن منه . فلما سَلِم بَخِل بذلك فنزلت .

قلت : وثعلبة بَدْرِى أنصارى وممن شهد الله له و رسوله بالإيمان؛ حسب ما يأتى بيانه فى أول الممتحنة؛ فما روى عنه غير صحيح . قال أبو عمر : ولعـل قول من قال فى ثعلبة أنه مانع الزكاة الذى نزلت فيـه الآية غير صحيح ، والله أعـلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت فى رجل من المنافقين نَبْتَل بن الحارث وجَدّ بن قيس ومُعَتِّب بن قشير .

قلت : وهـذا أشبه بنزول الآية فيهم؛ إلا أن قوله «فأعقبهم نِفاقا» يدل على أن الذى عاهد لم يكن منافقا من قبـل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقا ثبتوا عليـه إلى الممـات ، وهو قوله : « إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَه » على ما يأتى .

الثانيـــة ــ قال علماؤنا : لمـا قال تعالى « ومنهـم من عاهد الله » احتمل أن يكون عاهد الله بلسانه ولم يعتقده بقلبه . واحتمل أن يكون عاهد الله بهما ثم أدركته سوء الخاتمة؛ فإن الأعمـال بخواتيمها والأيام بعواقبها . و « مَن » رفع بالابتـداء والخبر فى المجرور . ولفظ اليمين ورد فى الحـديث وليس فى ظـاهر القرآن يمين إلا بمجرد الارتباط والالتزام ، أما إنه فى صيغة القسم فى المعـنى فإن اللام تدل عليه، وقـد أتى بلامين الأولى للقسم والثانيـة لام الجواب ، وكلاهمـا للتأكيد . ومنهم من قال : إنهما لاما القسم ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

الثالثـــة ــ العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المـرء ولا يفتقر إلى غيره فيه فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصـده وإن لم يلفظ به ؛ قاله علمـاؤنا . وقال الشافعىّ وأبو حنيفة : لا يلزم أحدا حكمٌ إلا بعد أن يلفظ به ؛ وهو القول الآخر لعلمائنا . ابن العربىّ : والدليل على صحة ما ذهبنا اليه ما رواه أشهب عن مالك، وقـد سئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال : يلزمه؛ كما يكون مؤمنا بقلبه، وكافرا بقلبه . قال ابن العربىّ : وهذا أصل بديع، وتحريره أن يقال : عَقْدٌ لا يفتقر فيه المرء إلى غيره فى التزامه فانعقد عليه بنيّة . أصله الإيمان والكفر .

(١) يلاحظ أن الذى سيذكره المؤلف فى أول سورة الممتحنة إنما هو حاطب بن أبى بلتعة ، لا ثعلبة بن حاطب .

قلت : وحجة القول الثانى ما رواه مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به" . ورواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، والعمل على هــذا عند أهل العــلم أن الرجل إذا حدّث نفسه بالطلاق لم يكن شيئا حتى يتكلم به . قال أبو عمر : ومن آعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشىء . هــذا هو الأشهر عن مالك . وقد روى عنه أنه يلزمه الطلاق إذا نواه بقلبه ، كما يكفر بقلبه و إن لم ينطق به لســانه . والأول أصح فى النظر وطريق الأثر ، لقول رسول الله صلى الله عليه وســلم : " تجاوز الله لأمتى عما وســوست به نفوسها ما لم ينطق به لسان أو تعمله يد" .

الرابعــــة — إن كان نذرا فالوفاء بالنذر واجب من غير خلاف وتركه معصية . و إن كانت يمينا فليس الوفاء باليمين واجبا باتفاق . بَيْدَ أن المعنى فيه إن كان الرجل فقيرا لا يتعين عليه فرض الزكاة ؛ فسأل الله مالًا تلزمه فيه الزكاة و يؤدّى ما تعيّن عليه من فرضه ، فلما آتاه الله ما شــاء من ذلك ترك ما التزم ممــا كان يلزمه فى أصــل الدين لو لم يلتزمه ، لكن التعاطى يطلب المــال لأداء الحقوق هو الذى أورطه إذ كان طلبه من الله تعــالى بغير نية خالصة ، أو نية لكن سبقت فيه البداية المكتوب عليه فيها الشقاوة . نعوذ بالله من ذلك .

قلت : ومن هــذا المعنى قوله عليه الســلام : " إذا تمــنّى أحدكم فلينظر ما يتمنّى فإنه لا يدرى ما كُتب له فى غيب الله عز وجل من أمنيته " . أى من عاقبتها ، فرُبَّ أمنية يفتتن بها أو يطغى فتكون سببا للهلاك دنيا وأخرى ، لأن أمور الدنيا مبهمة عواقبها خطرة غائلتها . وأما تمنى أمور الدِّين والأخرى فتمنّيها محمود العاقبة محضوض عليها مندوب اليها .

الخامســــة — قوله تعالى : ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ دليل على أن من قال : إن مَلَكْتُ كذا وكذا فهو صدقة فإنه يلزمه ؛ و به قال أبو حنيفة . وقال الشــافعى : لا يلزمه . والخلاف فى الطلاق مثــله ، وكذلك فى العتق . وقال أحمد بن حنبل : يلزمه ذلك فى العتق ولا يلزمه فى الطــلاق ؛ لأن العتق قُرْبة وهى تثبت فى الذمة بالنــذر ؛ بخلاف الطــلاق فانه

تصرّف فى محل، وهو لا يثبت فى الذمة . احتجّ الشافعىّ بما رواه أبو داود والترمذىّ وغيرهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا نَذْرَ لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طـلاق له فيما لا يملك" لفظ الـترمذىّ . وقال : وفى الباب عن علىّ ومعاذ وجابر وابن عباس وعائشـة حديثُ عبد الله بن عمرو حديثٌ حسن، وهو أحسن شىء رُوى فى هذا الباب . وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسـلم وغيرهم . ابن العربىّ : وسرد أصحاب الشافعىّ فى هذا الباب أحاديث كثيرة لم يصحّ منها شىء فلا يعَوَّل عليها، ولم يبق إلا ظاهر الآية .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّـا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى أعطاهم . ﴿ بَخِـلُوا بِهِ ﴾ أى بإعطاء الصـدقة وبإنفاق المـال فى الخير، وبالوفاء بما ضَمِنوا والتزموا . وقد مضى البخل فى « آل عمران »(١) . ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أى عن طاعة الله . ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى عن الإســلام، أى مظهرون للإعراض عنه .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ مفعولان ؛ أى أعقبهـم الله تعالى نفاقا فى قلوبهم . وقيل : أى أعقبهم البخل نفاقا؛ ولهذا قال : « بخلوا به » . ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ فى موضع خفض؛ أى يلقون بخلهم، أى جزاء بخلهم؛ كما يقال: أنت تلقى غدًا عملك . وقيل: « الى يوم يلقونه » أى يلقون الله . وفى هذا دليل على أنه مات منافقا . وهو يبعد أن يكون المنزّل فيه ثعلبة أو حاطب ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لعمر : "وما يدريك لعلّ الله اطلّع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" . وثعلبة وحاطب ممن حضر بدرا وشهدها . ﴿ بِمَـا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَـا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بمـا التزموه من ذلك .

الثامنــة — قوله تعالى: ﴿ نِفَاقًا ﴾ النفاق إذا كان فى القلب فهو الكفر. فأما إذا كان فى الأعمال فهو معصية . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها : إذا آئتمن خان و إذا حدث كذب و إذا عاهد غدرو إذا خاصم فجر" . خرّجه البخاريّ . وقد مضى فى «البقرة» اشتقاق هذه الكلمة(١) ، فلا معنى لإعادتها . واختلف الناس فى تأويل هــذا الحديث ، فقالت طائفة : إنمــا ذلك لمن يحدّث بحديث يعلم أنه كذب ، و يعهد عهدا لايعتقد الوفاء به ، و ينتظر الأمانة للخيانة فيهــا . وتعلقوا بحديث ضعيف الإسناد ، وأن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقى أبا بكروعمر رضى الله عنهما خارجَيْن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان فقال عليّ : مالى أراكما ثقيلين؟ قالا : حديثا سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين "إذا حدث كذب و إذا عاهد غدر و إذا ائتمن خان و إذا وعد أخلف". فقال عليّ : أفلا سألتماه ؟ فقالا : هِبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لكنى سأسأله ؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، خرج أبو بكر وعمر وهما ثقيلان ، ثم ذكر ماقالاه ، فقال : "قد حدثتهما ولم أضَعْه على الوضع الذى وضعاه ولكن المنافق إذا حدّث وهو يحدث نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدّث نفســه أنه يُخلف وإذا ائتمن وهو يحدّث نفسه أنه يخون" . آبن العربيّ : قد قام الدليل الواضح على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافرا ، و إنما يكون كافرا باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب له . وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتعلّقوا بمــا رواه مقاتل بن حيّان عن سعيد بن جُبير عن ابن عمر وابن عباس قالا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس من أصحابه فقلنا : يارسول الله ، إنك قلت "ثلاث من كن فيه فهو منافق و إن صام وصلى وزعم أنه مؤمن إذا حدّث كذب وإذاوعد أخلف واذا آئتمن خان ومن كانت فيه خَصْلة منهن ففيه ثلث النفاق" فظننا أنا لم نَسلم منهن أو من بعضهن ولم يَسلم منهن كثير من الناس ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "مالَكم ولهن إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله فى كتابه أما قولى إذا حدث كذب فذلك قوله عز وجل «إذا جاءك المنافقون» ــ الآية ــ أفأنتم

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٨ ، ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

كذلك" ؟ قلنا لا . قال : "لا عليكم أنتم من ذلك براء وأما قولى إذا وعد أخلف فذلك فيما أنزل الله علىّ « ومنهم من عاهدَ اللهَ لئن آتانا مِن فضلِه » — الآيات الثلاث — "أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا ، والله لو عاهـدْنا الله على شيء أوفينا به . قال : "لا عليكم أنتم من ذلك برآء وأما قولى و إذا ائتمن خان فذلك فيما أنزل الله علىّ « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ على السمواتِ والأرضِ والجبـالِ » — الآية — فكلّ إنسان مؤتمن على دينـه فالمؤمن يغتسل من الجنابة فى السر والعلانية [والمنافق لا يفعل ذلك إلا فى العلانية] أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا . قال : "لا عليكم أنتم من ذلك بُرآء" . و إلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة . قالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال . و يظهر من مذهب البخارىّ وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة . قال ابن العربىّ : والذى عندى أنه لو غلبت عليه المعاصى ما كان بها كافرا مالم تؤثر فى الاعتقاد . قال علماؤنا : إن إخوة يوسف عليه السلام عاهـدوا أباهم فأخلفوه ، وحدّثوه فكذبوه ، وائتمنهم على يوسف فخانوه وما كانوا منافقين . قال عطاء بن أبى رَباح : قد فَعل هــذه الخلال إخوةُ يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء . وقال الحسن بن أبى الحسن البصرىّ : النفاق نفاقان ، نفاق الكذب ونفاق العمل ؛ فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامـة . وروى البخارىّ عن حذيفة أن النفـاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما اليوم فإنمـا هو الكفر بعد الإيمـان .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ هذا توبيخ ، و إن كان عالمـا فإنه سيجازيهم .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِـرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِـيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا أيضـا من صفات المنافقين . قال قتادة : « يلمزون » يعيبون . قال : وذلك أن عبد الرحمن بن عوف تصـدّق بنصف ماله ، وكان مالُه ثمانية آلاف فتصـدّق منها بأربعة آلاف . فقال قوم : ما أعظم رياءه ؛ فأنزل الله « الذين يَلْمِزُون المطوِّعِين مِن المؤمِنين فِي الصـدقاتِ » . وجاء رجل من الأنصار بنصف صُبرة(١) من تمره فقالوا : ما أغنى الله عن هذا ؛ فأنزل الله عزوجل ﴿ والَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ . وخرج مسـلم عن أبي مسعود قال : أُمِرنا بالصـدقة — قال : كنا نحامل(٢) ، في رواية : على ظهورنا — قال : فتصدّق أبو عَقيل بنصف صاع . قال : وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقون : إنّ الله لغنيّ عن صدقة هذا ، وما فعل هـذا الآخر إلا رياء ؛ فنزلت « الذين يلمِزون المُطَّوِّعِين مِن المؤمنِين فِي الصـدقاتِ والذِين لَا يَجِدون إلا جهدهم » . يعني أبا عقيل ، واسمه الحَبْحاب . والجُهْد : شيء قليل يعيش به المُقِلّ . والجُهْد والجَهْد بمعنًى واحد . وقد تقـدم(٣) . و « يلمزون » يعيبون . وقد تقـدم . و « المطوِّعين » أصله المتطوعين أدغمت التاء في الطاء ؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرّعا من غير أن يجب عليهم . « والذِين » في موضـع خفض عطف على « المؤمنين » . ولا يجوز أن يكون عطفا على الأسم قبل تمامه . و «فيسخرون» عطف على « يلمزون » . ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ خبر الابتداء ، وهو دعاء عليهم . وقال ابن عباس : هو خبر ؛ أي سَخِر منهم حيث صاروا إلى النار . ومعنى سخر الله مجازاتهم على سخريتهم . وقد تقدم في « البقرة »(٤) .

قوله تعـالى : ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

---

(١) الصبرة (بالضم) : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض . (٢) معناه : نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة ونتصدق من تلك الأجرة أو نتصدق بها كلها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) راجع جـ ٣ ص ٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يأتي بيانه عند قوله تعالى : « ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا » (١) .

قوله تعـالى : فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا أَن يُجَـٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ أى بقعودهم . قعد قعودا ومقعدا ؛ أى جلس. وأقعده غيره ؛ عن الجوهرى . والمخلّف المتروك ؛ أى خلّفهم الله وثبّطهم ، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لمّا علموا تثاقلهم عن الجهاد ؛ قولان . وكان هذا فى غزوة تبوك . ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﴾ مفعول من أجله ، و إن شئت كان مصدرا . والخلاف المخالفة . ومن قرأ « خَلْفَ رسولِ الله » أراد التأخر عن الجهاد . ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ ﴾ أى قال بعضهم لبعض ذلك . ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ أى قل لهم يا محمد نار جهنم . ﴿ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ ابتداء وخبر . « حرا » نصب على البيان ؛ أى من ترك أمر الله تعرّض لتلك النار .

قوله تعـالى : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

فيـه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا ﴾ أمرٌ، معناه معنى التهديد وليس أمرا بالضحك . والأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها . قال الحسن : « فليضحكوا قليلا » فى الدنيا « وليبكوا كثيرا » فى جهنم . وقيل : هو أمر بمعنى الخبر . إنهم سيضحكون قليلا و يبكون كثيرا . ﴿ جَزَاءً ﴾ مفعول من أجله ؛ أى للجزاء .

(١) آية ٨٤ من هذه السورة .

الثانيـــة — من الناس من كان لا يضحك اهتماما بنفسـه وفساد حاله في اعتقاده من شدّة الخوف، و إن كان عبدا صالحا . قال صلى الله عليه وسـلم : "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصُّعُدات(١) تجأرون الى الله تعالى لوددت(٢) أنى كنت شجرة تُعْضَد" خرجه الترمذى . وكان الحسن البصرى رضى الله عنه ممن قد غلب عليه الحزن فكان لا يضحك . وكان ابن سيرين يضحك ويحتجّ على الحسن و يقول : الله أضحك وأبكى. وكان الصحابة يضحكون ؛ إلا أن الإكثار منه وملازمتــه حتى يغلب على صاحبـه مذموم منهىّ عنه، وهو من فعل السفهاء والبَطَالة . وفى الخبر : " أن كثرته تميت القلب" . وأما البكاء من خوف الله وعقابه فمحمود ؛ قال عليه السلام : " ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسـيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سُفُنًا أجريت فيها لجرت" . خرّجه ابن المبارك من حديث أنس، وابن ماجه أيضا .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أى المنافقين . و إنمـا قال : « إلى طائفةٍ » لأن جميع من أقام بالمدينـة ما كانوا منافقين، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له، ثم عفا عنهم وتاب عليهم ؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا . وسيأتى . ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا ﴾ أى عاقبهم بألا تصحبهم أبدا . وهو كما قال فى ســورة الفتح : « قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا(٣) » . و ﴿ الْخَـالِفِينَ ﴾ جمع خالف ؛ كأنهم خلفوا الخارجين . قال ابن عباس :

---

(١) الصعدات : هى الطرق، وهى جمع صعد . وصعد جمع صعيد ؛ كطريق وطرق وطرقات . وقيل : هى جمع صعدة كظلمة، وهى فناء باب الدار وممر الناس بين يديه . (٢) قال الترمذى : ويروى من غير هـذا الوجه أن أبا ذر قال لوددت أنى كنت شجرة تعضد . (٣) آية ١٥

« الخـالِفين » من تخلف من المنـافقين . وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال، فغلّب المذكر . وقيـل : المعنى فاقعدوا مع الفاسدين؛ من قولهم فلان خالِفةُ أهـل بيته اذا كان فاسدا فيهم؛ من خُلوف فَم الصائم . ومن قولك : خلف اللبنُ؛ أى فسد بطول المكث فى السِّقاء؛ فعلى هذا يعنى فاقعدوا مع الفاسدين . وهـذا يدلّ على أن استصحاب المخذِّل فى الغزوات لا يجوز .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — روى أن هذه الآية نزلت فى شأن عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول وصلاةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم عليه . ثبت ذلك فى الصحيحين وغيرهما . وتظاهرت الروايات بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلّى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك . ورُوى عن أنس بن مالك ان النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا تقدّم ليصلّىَ عليه جاءه جبريل فجَبَذ ثوبه وتلا عليـه « ولاَ تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا » الآية ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصلّ عليه . والروايات الثابتة على خلاف هـذا ؛ ففى البخارى عن ابن عباس قال : فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة « ولا تُصلّ على أحدٍ منهم مات أبدا » . ونحوه عن ابن عمر ؛ خرّجه مسلم . قال ابن عمر : لمـا تُوُفِّىَ عبد الله بن أُبَىّ بن سَلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلّى عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلّى عليه، فقام عمر وأخذ بثوب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقال : يا رسـول الله ، أتصـلّى عليه وقـد نهاك الله أن تصلىّ عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما خيّرنى الله تعالى فقال : « استغفِر لهم أوْ لا تستغفِرْ لهم إن تستغفِر لهم سبعين مرة » وسأزيد على سبعين " قال : إنه

منافق. فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «ولا تُصَلِّ على أحدٍ مِنهم مات أبدا ولا تَقُمْ على قَبْرِه» فترك الصلاة عليهم. وقال بعض العلماء: إنما صلّى النبيّ صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أُبيّ بناء على الظاهر من لفظ إسلامه. ثم لم يكن يفعل ذلك لمّا نُهِى عنـــه.

الثانيـــة — إن قال قائل فكيف قال عمر: أتصلّى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه؛ ولم يكن تقدّم نهى عن الصلاة عليهم. قيل له: يحتمل أن يكون ذلك وقع له فى خاطره، ويكون من قبيل الإلهام والتحدّث الذى شهد له به النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقد كان القرآن ينزل على مراده، كما قال: وافقتُ رَبِّى فى ثلاث. وجاء: فى أربع. وقد تقدم فى البقرة[1]. فيكون هـذا من ذلك. ويحتمل أن يكون فَهِم ذلك من قوله تعالى: «استغفِر لهم أَوْ لَا تستغفِر لهم» الآية. لا أنه كان تقدّم نهى على ما دلّ عليه حديث البخاريّ ومسلم. والله أعلم.

قلت: ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا[2] لِلْمُشْرِكِينَ» لأنها نزلت بمكة. وسيأتى القول فيها.

الثالثـــة — قوله تعـالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية. بين تعالى أنه وإن ٱستغفر لهم لم ينفعهم ذلك وإن أكثر من الاسـتغفار. قال القُشَـيرىّ: ولم يثبت ما يروى أنه قال: "لأزيدنّ على السبعين".

قلت: وهـذا خلاف ما ثبت فى حديث ابن عمر "وسأزيد على سبعين" وفى حديث ابن عباس "لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها". قال: فصـلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. خرجه البخارى.

الرابعـــة — واختلف العلماء فى تأويل قوله: ﴿ استغفر لهم ﴾ هل هو إياس أو تخيير؛ فقالت طائفة: المقصود به اليأس بدليل قوله تعالى: «فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ». وذِكْر السبعين وفاقٌ جرى، أو هو عادتهم فى العبارة عن الكثرة والإعيـاء. فإذا قال قائلهم: لا أكلمه

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية.   (٢) آية ١١٣ من هذه السورة.

سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله : لا أكلمه أبدا. ومثله فى الإعياء قوله تعالى : «فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا»[1] ، وقوله عليه السلام : " من صام يوما فى سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا " . وقالت طائفة : هو تخيير — منهم الحسن وقتادة وعُروة — إن شئت استغفر لهم و إن شئت لا تستغفر. ولهذا لما أراد أن يصلى على ابن أبَىّ قال عمر : لا تصلّ على عدوّ الله، القائل يوم كذا كذا وكذا . فقال : " إنى خُيِّرت فاخترت " . قالوا : ثم نسخ هذا لما نزل « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ »[2] . « ذلك بأنهم كفروا » أى لا يغفر الله لهم بكفرهم .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وهـذه الآية نزلت بمكة عند موت أبى طالب ، على ما يأتى بيانه . وهذا يفهم منه النهى عن الاستغفار لمن مات كافرا . وهو متقدم على هذه الآية التى فهم منها التخيير بقوله : " إنما خيّرنى الله " وهذا مشكل . فقيل : إن استغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفارا مرجوّ الإجابة حتى تحصل له المغفرة . وفى هذا الاستغفار استأذن عليه السلام ربّه فى أن يأذن له فيـه لأمّه فلم يأذن له فيه . وأما الاستغفار للمنافقين الذى خُيِّر فيه فهو استغفار لسانىّ لا ينفع، وغايته تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفَر له . والله أعلم .

السادســة — واختلف فى إعطاء النبىّ صلى الله عليه وسلم قميصه لعبد الله ؛ فقيل : إنما أعطاه لأن عبد الله كان قد أعطى العباس عمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قميصه يوم بدر . وذلك أن العباس لما أُسر يوم بدر — على ما تقدم — وسُلب ثوبه رآه النبىّ صلى الله عليه وسلم كذلك فأشفق عليه ، فطلب له قميصا فما وُجد له قميص يقادره إلا قميص عبد الله ، لتقاربهما فى طول القامة ؛ فأراد النبىّ صلى الله عليه وسلم بإعطاء القميص أن يرفع اليد عنه فى الدنيا ، حتى لا يلقاه فى الآخرة وله عليه يد يكافئه بها . وقيل : إنما أعطاه القميص إكراما لابنه وإسعافا له فى طلبته وتطييبا لقلبه . والأول أصح ؛ خرّجه البخارىّ عن جابر

(١) آية ٣٢ سورة الحاقة . (٢) آية ٦ سورة المنافقون .

ابن عبد الله قال : لمـا كان يوم بدر أُتى بأُسارى وأُتِى بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فطلب النبيّ صلى الله عليه وسلم له قميصـا فوجدوا قميص عبد الله بن أُبَىّ يَقدِر عليه، فكساه النبيّ صلى الله عليه وسلم إياه؛ فلذلك نزع النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه الذى ألبسه . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا و إنى لأرجو أن يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومى". كذا فى بعض الروايات "من قومى" يريد من منافقى العرب. والصحيح أنه قال : " رجال من قومه " . ووقع فى مغازى ابن إسحـاق وفى بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف رجل من الخزرج .

السـابعـة — لمـا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ قال علماؤنا : هذا نص فى الامتناع من الصـلاة على الكفار، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين . واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصـلاة على المؤمنين على قولين . يؤخذ لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : « إِنَّهم كفروا بِاللهِ ورسولِهِ » ؛ فإذا زال الكفر وجبت الصلاة . و يكون هذا نحو قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ»[2] يعنى الكفار؛ فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون؛ فذلك مثله . والله أعلم . أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية، وهى الأحاديث الواردة فى البـاب ، والإجماع . ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه . روى مسـلم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أخًا لكم قد مات فقوموا فصلُّوا عليه" قال : فقمنا فصفنا صفين؛ يعنى النجاشى . وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشىّ فى اليوم الذى مات فيه ، فخرج بهم إلى المصلّى وكبر أربع تكبيرات . وأجمع المسـلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جنائز المسلمين، من أهل الكبائر كانوا أو صالحين ؛ وراثةً عن نبيّهم صلى الله عليه وسلم قولا وعملا . والحمد لله . واتفق العلماء على ذلك إلا فى الشهيد كما تقدم، و إلا فى أهل البدع والبغاة .

(١) فى نسخ الأصل : « فنظر » . (٢) آية ١٥ سورة المطففين .

الثامنـــة — والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع . قال ابن سيرين : كان التكبير ثلاثا فزادوا واحدة . وقالت طائفة : يكبر خمسا؛ وروى عن ابن مسـعود وزيد بن أرقم . وعن علي : ست تكبيرات . وعن ابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد : ثلاث تكبيرات والمعول عليه أربع . روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أُبَيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة صلت على آدم فكبّرت عليه أربعا وقالوا هذه سنتكم يا بنى آدم " .

التاســعة — ولا قراءة فى هذه الصلاة فى المشهور من مذهب مالك، وكذلك أبو حنيفة والثّورى؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا صلّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء" رواه أبو داود من حديث أبى هريرة . وذهب الشافعي وأحمد وإسحاق ومحمد بن مسلمة وأشهب من علمائنا وداود إلى أنه يقـرأ بالفاتحة؛ لقوله عليه السـلام : " لا صـلاة إلا بفاتحة الكتاب " حملا على عمومه . وبما خرجه البخاري عن ابن عباس وصلّى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب وقال : لتعلموا أنها سنة . وخرج النسائي من حديث أبى أمامة قال : السـنة فى الصلاة على الجنائز أن يقرأ فى التكبيرة الأولى بأم القرآن مخافتة، ثم يكبر ثلاثا، والتسليم عند الآخرة . وذكر محمد ابن نصر المَرْوَزِي عن أبى أمامة أيضا قال : السنة فى الصلاة على الجنائز أن تكبر، ثم تقرأ بأم القرآن، ثم تصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تخلص الدعاء للميت . ولا يقرأ إلا فى التكبيرة الأولى ثم يسـلم . قال شيخنا أبو العباس : وهـذان الحديثان صحيحان ، وهما ملحقان عند الأصوليين بالمسند . والعمل على حديث أبى أمامة أولى؛ إذ فيه جمعٌ بين قوله عليه السلام : "لا صلاة" وبين إخلاص الدعاء للميت . وقراءة الفاتحة فيها إنما هى استفتاح للدعاء . والله أعلم .

العـاشرة — وسنة الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة؛ لمـا رواه أبو داود عن أنس وصلّى على جنازة فقال له العـلاء بن زياد : يا أبا حمزة، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على الجنائز كصلاتك، يكبر أربعا ويقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة؟ قال نعم . ورواه مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب قال : صلّيت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وصلى على أم كعب ماتت وهى نُفَساء، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليها وسَطها .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبت ، على ما بيناه (فى التذكرة) والحمد لله .

قوله تعالى : وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

كرره تأكيدا . وقد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

انتدب(١) المؤمنون إلى الإجابة وتعلّل المنافقون. فالأمر للمؤمنين باستدامة الإيمان وللمنافقين بابتداء الإيمان. و﴿ أَنْ ﴾ فى موضع نصب؛ أى بأن آمنوا. و﴿ الطَّول ﴾ الغنى؛ وقد تقدّم(٢). وخصهم بالذكر لأن من لا طَوْل له لا يحتاج إلى إذن لأنه معذور . ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أى العاجزين عن الخروج .

قوله تعالى : رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَـٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ « الخوالف » جمع خالفة؛ أى مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال . وقد يقال للرجل : خالفة وخالف أيضا إذا كان غير نجيب؛ على ما تقدّم . يقال : فلان خالفةُ أهله إذا كان دونهم . قال النحاس :

---

(١) انتدب : أسرع .		(٢) راجع ج ٥ ص ١٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

وأصله من خَلَفَ اللبنُ يخلف إذا حَمُض من طول مكثه . وخَلَف فمُ الصائم إذا تغيّر ريحه ؛ ومنه فلان خَلَف سَـوء ؛ إلا أن فواعل جمع فاعلة . ولا يجمع « فاعل » صـفة على فواعل إلا في الشعر، الا في حرفين، وهما فارس وهالك. وقوله تعالى في وصف المجاهدين: ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ قيل : النساء الحسان؛ عن الحسن . دليله قوله عز وجل : « فِيهِن خَيْرَاتٌ حِسانٌ »[1] . ويقال: هي خَيْرة النّساء. والأصل خيّرة نخفّف؛ مثل هيّنة وهَيْنة. وقيل جمع خير. فالمعنى لهم منافع الدارين . وقد تقدّم معنى الفلاح[2] . والجنات : البساتين . وقد تقدّم أيضا[3] .

قوله تعـالى : وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قرأ الأعرج والضحاك « المُعْذِرون » مخففا . ورواها أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس . قال الجوهري : وكان ابن عباس يقرأ « وجاء المُعْذِرون » مخففة ، من أعذر . ويقول : والله لهكذا أنزلت . قال النحاس : إلا أن مدارها على الكلْبيّ، وهي من أعذر؛ ومنه قد أعذر من أنذر؛ أي قد بالغ في العذر من تقدّم إليك فأنذرك . وأما « المعذّرون » بالتشديد ففيه قولان : أحدهما أنه يكون المحقّ؛ فهو في المعنى المعتذر، لأن له عذرا . فيكون « المعذرون » على هذه أصله المعتذرون ، ولكن التاء قلبت ذالا فأدغمت فيها وجعلت حركتها على العين ؛ كما قرئ « يَخَصِّمون »[4] بفتح الخـاء. ويجوز « المِعذّرون » بكسر العين لاجتماع الساكنين . ويجوز ضمها اتباعا للميم . ذكره الجوهري والنحاس . إلا أن النحاس حكاه عن الأخفش والفراء وأبي حاتم وأبي عبيد. ويجوز أن يكون الأصل المعتذرون، ثم أدغمت التاء في الذال؛ ويكونون الذين لهم عذر . قال لَبِيد :

إلى الحَـوْل ثم آسم السلام عليكما * ومن يَبْك حَوْلًا كاملا فقـد اعتذر

(١) آية ٧٠ سورة الرحمن . (٢) راجع ج ١ ص ١٨٢ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع ج ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٩ سورة يس .

والقول الآخر أن المعذِّر قد يكون غير محق، وهو الذى يعتذر ولا عذر له. قال الجوهرى: فهو المعَذِّر على جهة المُفَعِّل؛ لأنه المُمَرِّض والمقصِّر يعتذر بغير عذر. قال غيره: يقال عذّر فلان فى أمر كذا تعذيرا؛ أى قصّر ولم يبالغ فيه. والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب. قال الجوهرى: وكان ابن عباس يقول: لعن الله المعذِّرين. كأن الأمر عنده أن المعذّر بالتشديد هو المظهر للعذر، اعتلالا من غير حقيقة له فى العذر. النحاس: قال أبو العباس محمد بن يزيد ولا يجوز أن يكون الأصل فيه المعتذرين، ولا يجوز الادغام فيقع اللبس. ذكر إسماعيل بن إسحاق أن الإدغام مجتنَب على قول الخليل وسيبويه، وأن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا عذر لهم، قال: لأنهم جاءوا ليؤذن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذنوا. قال النحاس: وأصل المعذرة والاعذار والتعذير من شيء واحد وهو مما يصعب ويتعذر. وقول العرب: مَن عَذِيرى من فلان، معناه قد أتى أمرا عظيما يستحقّ أن أعاقبه عليه ولم يعلم الناس به؛ [فمن يَعذِرُنى] إن عاقبته. فعلى قراءة التخفيف قال ابن عباس: هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم. وقيل: هم رهط عامر بن الطُّفَيل قالوا: يا رسول الله، لو غزونا معك أغارت أعراب طيّئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا؛ فعذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم. وعلى قراءة التشديد فى القول الثانى، هم قوم من غِفَار اعتذروا فلم يعذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ لعلمه أنهم غير محقين، والله أعلم. وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ والمراد بكذبهم قولهم: إنا مؤمنون. و﴿ لِيُؤْذَنَ ﴾ نصب بلام كَيْ.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

فيـــه ست مســـائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ على الضُّعَفَاءِ ﴾ الآية . أصل فى سقوط التكليف عن العاجز؛ فكل من عجز عن شيء سقط عنــه ، فتارة إلى بدل هــو فعل ، وتارة إلى بدل هو عزم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المـال؛ ونظير هذه الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »(١) وقوله : «لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ »(٢) . وروى أبو داود عن أنس أن رســول الله صلى الله عليه وســلم قال : "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه". قالوا : يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال : "حبسهم العذر". فبيّنت هــذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المعــذورين، وهم قــوم عرف عذرهم كأرباب الزَّمانة والهرم والعمى والعرج ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون؛ فقال : ليس على هؤلاء حرج. ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه . قال العلماء : فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعذار، وما صبرت القلوب؛ فخرج ابن أم مكتوم إلى أُحُد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التى فيهـا اللواء فقطعها ، فأمسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فأمسكه بصــدره وقرأ «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ»(٣) . هذه عزائم القوم. والحق يقول : «لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ » وهو فى الأوّل . «وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ » وعمرو بن الجَمُوح من نقباء الأنصار أعرج وهو فى أوّل الجيش . قال له الرسول عليه السلام : " إن الله قــد عذرك " فقال : والله لأحفرنّ(٤) بعرجتى هــذه فى الجنة ؛ إلى أمثالهم حسب ما تقدّم فى هــذه السورة من ذكرهم رضى الله عنهم . وقال عبد الله بن مسعود : ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادَى(٥) بين الرجلين حتى يقام فى الصف .

---

(١) آخر سورة البقرة . (٢) آية ٦١ سورة النور . (٣) آية ١٤٤ سورة آل عمران .

(٤) يقال : حفر الطريق اذا أثر فيها بمشيه عليها . (٥) أى يمشى بينهما معتمدا عليهما من ضعفه وتمايله .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِذَا نَصَحُوا ﴾ النصح إخلاص العمل من الغش . ومنه التوبة النَّصُوح . قال نَفْطَوَيْه : نصح الشيء إذا خَلَص . ونصح له القول أى أخلصه له . وفى صحيح مسلم عن تميم الـدّارىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " الدين النصيحة " ثلاثا . قلنـا لمن ؟ قال : "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم" . قال العلمـاء : النصيحة لله إخلاص الاعتقاد فى الوحدانية، ووصفُه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص، والرغبة فى محابّه والبعد من مساخطه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوّته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره ، ومحبته ومحبة آل بيته ، وتعظيمُه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها والذبّ عنها ونشرها والدعاء إليها، والتخلّق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم. وكذا النصح لكتاب الله: قراءته والتفقه فيــه ، والذب عنــه وتعليمه وإكرامه والتخلق به . والنصح لأئمة المســلمين : ترك الخروج عليهم، وإرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيـام بواجب حقهم . والنصح للعامة : ترك معاداتهم ، وإرشادهم وحب الصالحين منهــم ، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافتهم . وفى الحـديث الصحيح " مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهــم وتعاطفهم مثـل الجسد إذا اشتكى منــه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى " .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى :﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ « من سبيل » فى موضع رفع اسم « ما » أى من طريق إلى العقوبة . وهذه الآية أصل فى رفع العقاب عن كل محسن. ولهذا قال علماؤنا فى الذى يقتص مِن قاطع يده فيفضى ذلك فى السراية إلى إتلاف نفسه : إنه لا دية له؛ لأنه محسن فى اقتصاصه من المعتدى عليه . وقال أبو حنيفة : تلزمه الدّية . وكذلك إذا صال فَحْل على رجل فقتله فى دفعه عن نفسه فلا ضمان عليه؛ وبه قال الشافعىّ. وقال أبو حنيفــة : تلزمه لمـالكه القِيمة . قال ابن العــربىّ : وكذلك القــول فى مسائل الشريعة كلها .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ رُوى أن الآية نزلت فى عِرباض بن سارِيَة . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مُقَرِّن — وعلى هـذا جمهور المفسرين — وكانوا سـبعة إخوة ، كلّهم صحبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وليس فى الصحابة سـبعة إخوة غيرهم ، وهم النعمان ومَعْقِل وعَقِيـل وسُويد وسنان وسابع لم يُسَمّ[1] . بنو مقرّن المُزَنيّون سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركهم — فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة — فى هـذه المكرمة غيرهم . وقد قيل إنهم شهدوا الخندق كلُّهم . وقيل : نزلت فى سبعة نفر من بطون شَتَّى ، وهم البكّاءون أتوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ليحملهم، فلم يجد ما يحملهم عليه؛ فتولّوْا وأعينهم تَفيض من الدّمع حَزَنًا ألا يجـدوا ما ينفقون؛ فسُمُّوا البكائين . وهم سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف وعُلْبة بن زيد أخو بنى حارثة . وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بنى مازن بن النجار. وعمرو بن الحُمَام من بنى سلمة . وعبد الله بن المغَفَّل المزنى، وقيل : بل هو عبد الله بن عمرو المزنىّ . وهَرَمىّ بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعِرْباض بن سارية الفزارى، هكذا سماهم أبو عمر فى كتاب الدرر له . وفيهم اختلاف . قال القشيرىّ : مَعْقِل بن يَسار وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصارى، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غَنَمة، وعبد الله بن معقل وآخر . قالوا : يانبى الله ، قـد ندبتنا للخروج معك ، فاحملنـا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نَغْزُ معك . فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولّوا وهم يبكون . وقال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب، وكان الرجل يحتاج الى بعـيرين، بعير يركبه وبعير يحمـل ماءه وزاده لبعد الطـريق . وقال الحسن : نزلت فى أبى موسى وأصحابه أتوا النبىّ صـلى الله عليه وسلم ليستحملوه ، ووافق ذلك منه غضبا فقـال : "والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليـه" فتولوا يبكون ؛ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأعطاهم ذَوْدًا[2] . فقـال أبو موسى :

(١) لم يذكر المؤلف غير خمسة . والذى فى القاموس (مادة قرن) : « وعبد الله وعبد الرحمن وعقيـل ومعقل والنعمان وسويد وسنان؛ أولاد مقرن كمحدّث صحابيون » .

(٢) الذود من الابل : ما بين الثلاث الى العشر؛ وهى مؤنثة لا واحد لها من لفظها، والكثير أزواد .

ألستَ حلفتَ يارسول الله ؟ فقال : " إنى إن شاء الله لا أحلف على يمـين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وكفّرت عن يمينى" .

قلت : وهذا حديث صحيح أخرجه البخارىّ ومسلم بلفظه ومعناه . وفى مسلم : فدعا بنا فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى[1] ... الحديث . وفى آخره : "فانطلقوا فإنمـا حملكم الله" . وقال الحسن أيضا وبكر بن عبد الله: نزلت فى عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنِىّ، أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم يستحمله . قال الجُرْجانِىّ : التقدير أى ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد . فهو مبتـدأ معطوف على ما قبله بغـير واو ، والجواب « تولّوا » . ﴿ وَأَعْيُنُهُـمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ الجملة فى موضع نصب على الحال . ﴿ حَزَنًا ﴾ مصدر . ﴿ أَلَّا يَجِدُوا ﴾ نصب بأن . وقال النحاس : قال الفراء يجوز أن لا يجدون ؛ يجعل لا بمعنى ليس . وهو عنـد البصريين بمعنى أنهم لا يجدون .

الخامســـة — والجمهور من العلمـاء على أن من لا يجد ما ينفقه فى غَزْوه أنه لا يجب عليــه . وقال علماؤنا : اذا كانت عادته المسـألة لزمه كالحج وخرج على العادة لأن حاله إذا لم تتغير يتوجّه الفرض عليه كتوجّهه على الواجد . والله أعلم .

السادســـة — فى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ ما يستدلّ به على قرائن الأحوال . ثم منها ما يفيد العلم الضرورىّ، ومنها ما يحتمل الترديد . فالأول كمن يمر على دار قد علا فيهـا النّعى وخُمشت الخدود وحُلقت الشعور وسُلِقت[2] الأصوات وخرقت الجيوب ونادوا على صـاحب الدار بالثُّبور ؛ فيُعـلم أنه قد مات . وأما الثانى فكدموع الأيتـام على أبواب الحُكّام ؛ قال الله تعالى مخبرا عن إخوة يوسف عليهم السلام : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » . وهم الكاذبون؛ قال الله تعـالى مخبرا عنهم : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » .

---

(١) أى بيض الأسنمة ؛ فإن «الغر» جمع الأغر وهو الأبيض . والذرى : جمع ذروة ، وذروة كل شىء أعلاه .

(٢) السلق : شدة الصوت .

ومع هذا فإنها قرائن يستدل بها في الغالب فتُبْنَى عليها الشهادات بناء على ظواهر الأحوال وغالبها . وقال الشاعر :

إذا اشتبكتْ دموع في خدود * تبيّن من بكى ممن تباكَى

وسيأتي هذا المعنى في « يوسف » مستوفًى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ج رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أي العقوبة والمأثم . ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ والمراد المنافقون . كرر ذكرهم للتأكيد في التحذير من سوء أفعالهم .

قوله تعالى : يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ج قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ج وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني المنافقين . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي لن نصدقكم . ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أي أخبرنا بسرائركم . ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فيما تستأنفون . ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يجازيكم بعملكم . وقد مضى هذا كله مستوفًى .

قوله تعالى : سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ صلى فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ صلى إِنَّهُمْ رِجْسٌ صلى وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من تبوك . والمحلوف عليه محذوف؛ أي يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج . ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي لتصفحوا عن

لومهم . وقال ابن عباس : أى لا تكلموهم . وفى الخبر أنه قال عليـه السلام لمـا قدم من تبوك : " ولا تجالسوهم ولا تكلموهم " . ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أى عملهم رجس ؛ والتقدير : إنهم ذو رجس ؛ أى عملهم قبيح . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى منزلهم ومكانهم . قال الجوهرى : المـأوى كل مكان يأوى إليه شيء ليلا أو نهارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أويًّا، على فعول ، و إواء . ومنه قوله تعـالى : « سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ »(١) . وآويته أنا إيواء . وأويته إذا أنزلته بك ؛ فعلت وأفعلت ، بمعنى ؛ عن أبى زيد . ومأوِى الإبل (بكسر الواو) لغة فى مأوَى الإبل خاصّةً ، وهو شاذ .

قوله تعـالى : يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

حلف عبد الله بن أُبَىّ ألا يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم بعد ذلك وطلب أن يرضى عنه .

قوله تعـالى : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ لمـا ذكر جل وعز أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كان خارجا منها ونائيا عنها من الأعراب ؛ فقال كفرهم أشد . قال قتادة : لأنهم أبعد عن معرفة السنن . وقيل : لأنهـم أقسى قلبا وأجفى قولا وأغلظ طبعا وأبعـد عن سماع التنزيل ؛ ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أى أخلق . ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ « أن » فى موضع نصب بحذف الباء ؛ تقول : أنت جدير بأن تفعل وأن تفعل ؛ فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا بـ « أن » ، و إن أتيت بالباء صلح بـ « أن » وغيره ؛ تقول : أنت جدير أن تقوم ، وجدير بالقيـام .

---

(١) آية ٤٣ سورة هود .

ولو قلت : أنت جدير القيام كان خطأ . وإنما صلح مع « أن » لأن أن يدل على الاستقبال فكأنهـا عوض من المحذوف . ﴿ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أى فرائض الشرع . وقيل : حجج الله فى الربوبية وبعثة الرسل لقلة نظرهم .

الثانيـــة ـــ ولمـا كان ذلك ودلّ على نقصهم وحطهم عن المرتبـة الكاملة عن سواهم ترتبت على ذلك أحكام ثلاثة :

أولهـا ـ لا حق لهم فى الفَىْء والغنيمـة ؛ كما قال النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فى صحيح مسلم من حديث بُريدة ، وفيه : "ثم ٱدعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبَوْا أن يتحوّلوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين " .

وثانيهـا ـ إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة؛ لمـا فى ذلك من تحقق التُّهَمـة . وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لاتراعى كل تُهَمة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة . وأجازها الشافعىّ إذا كان عدلا مرضيًّا؛ وهو الصحيح لمـا بيناه فى « البقرة »(1) . وقد وصف الله تعالى الأعراب هنا أوصافا ثلاثة : أحدها ـ بالكفر والنفـاق . والثانى ـ بأنه يتخذ ما ينفِق مَغْرَمًا ويتربص بكم الدوائر . والثالث ـ بالإيمان بالله وباليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قُرُبات عند الله وصلوات الرسول؛ فمن كانت هـذه صفته فبعيد ألا تقبل شهادته فيلحق بالثانى والأول ، وذلك باطل . وقد مضى الكلام فى هذا فى « النساء » .

وثالثهـا ـ أن إمامتهـم بأهل الحاضرة ممنـوعة لجهلهم بالسنة وتركهم الجمعـة . وكره أبو مِجْلَز إمامـة الأعرابى . وقال مالك : لا يؤم وان كان أقرأهم . وقال سـفيان الثّورىّ والشافعىّ و إسحاق وأصحاب الرأى : الصلاة خلف الأعرابى جائزة . واختاره ابن المنذر إذا أقام حدود الصلاة .

---

(1) راجع ج ٣ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى: ﴿ أَشَدُّ ﴾ أصله أشدد، وقد تقدّم. ﴿ كُفْرًا ﴾ نصب على البيان. ﴿ وَنِفَاقًا ﴾ عطف عليه. ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ عطف على أشدّ، ومعناه أخلق؛ يقال: فلان جدير بكذا أي خليق به، وأنت جدير أن تفعل كذا، والجمع جدراء وجديرون. وأصله من جَذْر الحائط وهو رفعه بالبناء. فقوله: هو أجدر بكذا أي أقرب إليه وأحق به. ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ أي بألا يعلموا. والعرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عَرَبِيّ بيّن العُرُوبة، وهم أهل الأمصار. والأعراب منهم سكان البادية خاصّة. وجاء في الشعر الفصيح أعاريب. والنسبة إلى الأعراب أعرابيّ لأنه لا واحد له، وليس الأعراب جمعا للعرب كما كان الأنباط جمعا لنَبَط؛ وإنما العرب اسم جنس. والعرب العاربة هم الخُلّص منهم، وأخذ من لفظه وأكّده؛ كقولك: لَيْل لائل. وربما قالوا: العرب العَرْباء. وتعرّب تشبّه بالعرب. وتعرّب بعد هجرته أي صار أعرابيا. والعرب المُسْتَعْرِبة هم الذين ليسوا بخلّص، وكذلك المتعرِّبة، والعربية هي هذه اللغة. ويَعْرُب بن قَحْطان أول من تكلم بالعربية، وهو أبو اليمن كلّهم. والعُرْب والعَرَب واحد، مثل العُجْم والعَجَم. والعُرَيْب تصغير العرب؛ قال الشاعر:

ومَكْن الضِّباب طعام العُرَيْب ... ولا تشتهيه نفوسُ العَجَمْ[1]

إنما صغرهم تعظيما؛ كما قال: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ، وعُذَيْقُها المُرَجَّب[2] كلّه عن الجوهريّ. وحكى القشيريّ وجمع العَرَبِي العَرَب، وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب. والأعرابي إذا قيل له يا عَرَبِيّ فرح، والعَرَبِيّ إذا قيل له يا أعرابي غضب. والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب. وسميت العرب عَرَبًا لأن ولد إسماعيل نشئوا من عَرَبة وهي من تهامة فنسبوا إليها. وأقامت قريش بعَرَبة وهي مكة، وانتشر سائر العرب في جزيرتها.

---

(١) البيت لعبد المؤمن بن عبد القدوس. والمكن: بيض الضبة والجرادة ونحوها. (٢) الجذيل تصغير الجذل، وهو أصل الشجرة. والمحكك: الذي تحكك به الإبل الجربى، وهو عود ينصب في مبارك الابل لذلك. والعذيق: تصغير العذق، وهو النخلة. والمرجب: الذي جعل له رجبة، وهي دعامة تبنى حولها من الحجارة. وهو من قول الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري يوم السقيفة عند بيعة أبي بكر رضي الله عنه. يريد أنه قد جربته الأمور، وله رأي وعلم يشتفى بهما كما تشتفي الابل الجربى باحتكاكها بالجذل.

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ ﴾ «من» فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا ﴾ مفعولان؛ والتقـدير ينفقه، فحذفت الهـاء لطول الاسم . ﴿ مَغْرَمًا ﴾ معناه غُرْما وخسرانا؛ وأصله لزوم الشيء؛ ومنـه : « إِنَّ عَذَابَهَـا كَانَ غَرَامًا » أى لازما، أى يرون ما ينفقونه فى جهاد وصدقة غُرما ولا يرجون عليه ثوابا . ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ التربص الانتظار؛ وقد تقدّم[1] . والدوائر جمـع دائرة، وهى الحالة المنقلبة عن النعـمة الى البلية؛ أى يجمعون الى الجهـل بالإنفاق سـوء الدُّخْلة وخبث القلب . ﴿ عَلَيْهِـمْ دَائِرَةُ السَّـوْءِ ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو بضم السـين هنا وفى الفتح، وفتحها الباقون . وأجمعوا على فتح السـين فى قوله : « مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ »[2] . والفرق بينهما أن السُّـوء بالضم المكروه . قال الأخفش : أى عليهم دائرة الهزيمة والشر . وقال الفرّاء : أى عليهم دائرة العذاب والبلاء . قالا : ولا يجوز آمرأ سُوء بالضم؛ كما لا يقال : هو آمْرُؤ عذاب ولا شر . وحكى عن محمد ابن يزيد قال : السَّوء بالفتح الرداءة . قال سيبويه : مررت برجل صـدقٍ، ومعناه برجل صلاح . وليس من صـدق اللسان، ولو كان من صدق اللسان لمـا قلت : مررت بثوب صدقٍ . ومررت برجل سَوْء ليس هو من سُؤْته ، وإنمـا معناه مررت برجل فسادٍ . وقال الفراء : السَّوء بالفتح مصـدر سُؤْته سَوْءًا ومساءة وسوائيـة . قال غيره : والفعل منـه ساء يسوء . والسُّوء بالضم اسم لا مصدر؛ وهو كقولك : عليهم دائرة البلاء والمكروه .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ١٠٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٨ سورة مريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى صدق . والمراد بنو مُقَرِّن من مُزَينة ؛ ذكره المهدوي . ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ جمع قُرْبة ، وهى ما يتقرّب به الى الله تعالى ؛ والجمع قُرَب وقُرُبات وقُرَبات وقُرْبات ؛ حكاه النحاس . والقربات (بالضم) ما تُقـرّب به إلى الله تعالى ؛ تقول منه : قربت لله قُربانا . والقِرْبة بكسر القاف ما يستقى فيه الماء ؛ والجمع فى أدنى العدد قِرْبات وقِرِبات وقِرَبات ، والكثير قِرَب . وكذلك جمع كل ما كان على فِعْلة ؛ مثل سِدْرة وفقرة ، لك أن تفتح العين وتكسر وتسكّن ؛ حكاها الجوهرى . وقرأ نافع فى رواية وَرْش « قُرُبة » بضم الراء وهى الأصل . والباقون بسكونها تخفيفا ؛ مثل كُتُب ورُسْل ، ولا خلاف فى قربات . وحكى ابن سعدان أن يزيد بن القَعْقاع قرأ « ألاَ إنَّهَا قُرُبة لهم » . ومعنى ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ استغفاره ودعاؤه . والصلاة تقع على ضروب ؛ فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ؛ قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ » . والصلاة من الملائكة الدعاء ، وكذلك هى من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة . ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ أى تقربهم من رحمة الله ، يعنى نفقاتهم .

قوله تعالى : وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — لما ذكر أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبيّن أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأثنى عليهم . وقد اختلف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . ونحن نذكر من ذلك طرفا نبيّن الغرض فيه إن شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قرأ « والأنصارُ » رفعا عطفا على السابقين . قال الأخفش : الخفض فى الأنصار

الوجه؛ لأن السابقين منهما . والأنصار اسم إسلامي . قيل لأنس بن مالك : أرأيت قول الناس لكم : الأنصار، اسم سماكم الله به أم كنتم تُدْعَوْنَ به في الجاهلية ؟ قال : بل اسم سمانا الله به في القرآن؛ ذكره أبو عمر في الاستذكار .

الثانية — نص القرآن على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلّوا إلى القبلتين؛ في قول سعيد بن المسيّب وطائفة . وفي قول أصحاب الشافعيّ هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وهي بيعة الحُدَيْبِيَة؛ وقاله الشعبي . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهي :

الثالثة — فقال أبو منصور البغداديّ التميمي : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة، ثم البدريون ثم أصحاب أُحُد ثم أهل بيعة الرضوان بالحُدَيْبِيَة .

الرابعة — وأما أولهم إسلاما فروى مجالد عن الشعبي قال : سألت ابن عباس من أول الناس إسلاما ؟ قال أبو بكر، أو ما سمعت قول حسان :

إذا تذكّرتَ شَجْوًا من أخي ثقة * فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلَا
خيرَ البرية أتقاها وأعدلها * بعد النبيّ وأوفاها بما حَملَا
الثانِيَ التالِيَ المحمودَ مشهدُه * وأولَ الناس منهم صدّق الرسلَا

وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن يوسف بن يعقوب بن الماجشون قال : أدركت أبي وشيخنا محمد بن المنكدر وربيعةَ بن أبي عبد الرحمن وصالح بن كَيْسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأَخْنَسِيّ وهم لا يشكّون أن أول القوم إسلاما أبو بكر؛ وهو قول ابن عباس وحسان وأسماء بنت أبي بكر، وبه قال ابراهيم النَّخَعِيّ . وقيل : أول من أسلم عليّ ؛ رُوِي ذلك عن زيد ابن أرقم وأبي ذر والمِقْداد وغيرهم . قال الحاكم أبو عبد الله : لا أعلم خلافا بين أصحاب التواريخ أن علياً أولهم إسلاما . وقيل : أول من أسلم زيد بن حارثة . وذكر معمر نحو

ذلك عن الزُّهْرِيّ . وهو قول سليمان بن يَسار وعروة بن الزبير وعمران بن أبى أنس . وقيل . أول من أسلم خديجة أم المؤمنين ؛ روى ذلك من وجوه عن الزهرى ، وهو قول قتادة ومحمد بن إسحاق بن يَسار وجماعة ، وروى أيضا عن ابن عباس . وادّعى الثّعلبيّ المفسّر إتفاق العلماء على أن أوّل من أسلم خديجة ، وأن اختلافهم إنما هو فيمن أسلم بعدها . وكان إسحاق بن إبراهيم بن رَاهْوَيْه الحنظَلِيّ يجمع بين هذه الأخبار ، فكان يقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علىّ ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال . والله أعلم . وذكر محمد بن سعد قال : أخبرنى مصعب بن ثابت قال حدّثنى أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبى بكر وكان رابعا أو خامسا . قال الليث بن سعد وحدّثنى أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين . وروى أن عليًّا أسلم ابن سبع سنين . وقيل ابن عشر .

الخامسة — والمعروف من طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أصحابه . قال البخارى فى صحيحه : من صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سعيد بن المسيّب أنه كان لا يَعُدّ الصحابيّ إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين . وهذا القول إن صح عن سعيد بن المسيب يوجب ألا يعد من الصحابة جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ أو من شاركه فى فقد ظاهر ما اشترطه فيهم مما لا نعرف خلافا فى عدّه من الصحابة .

السادسة — لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصدّيق . قال ابن العربى : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ، والمكان . وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : "نحن الآخرون الأوّلون بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قَبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غدًا والنصارى بعد غد" . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والانقياد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا

بتكليفه والاحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه ولا نختار معه، ولا نبدّل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب، وذلك بتوفيق الله لما قضاه، وبتيسيره لما يرضاه، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

السابعـــة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت هـذه الآية تفضـيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة، فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك، فى العطاء فى المـال والرتبة فى الإكرام . وفى هذه المسألة خلاف بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . واختلف العلمـاء فى تفضـيل السابقين بالعطاء على غيرهم؛ فروى عن أبى بكر الصـديق رضى الله عنه أنه كان لا يفضـل بين الناس فى العطاء بعضَهم على بعض بحسب السابقـة . وكان عمر يقول له : أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر : إنمـا عملوا لله وأجرهم عليـه . وكان عمر يفضـل فى خلافته؛ ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقنّ أسفل الناس بأعلاهم؛ فمـات من ليلته . والخلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قرأ عمر « والأنصارُ » رفعا . « الذين » بإسقاط الواو نعتا للأنصار؛ فراجعه زيد بن ثابت، فسأل عمرُ أُبَيَّ بن كعب فصدّق زيدا؛ فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد . فقال أُبَىّ : مصداق ذلك فى كتاب الله فى أول سورة الجمعة : « وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ »(1) وفى سـورة الحشر : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْـدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَـانِ »(2) . وفى سـورة الأنفال بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْـدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ »(3) . فثبتت القراءة بالواو . وبيّن تعالى بقوله : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ ما يتبعون فيـه من أفعالهم وأقوالهم، لا فيما صـدر عنهم من الهفوات والزلات؛ إذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم .

الثانيـــة — واختلف العلمـاء فى التابعين ومراتبهم؛ فقال الخطيب الحافظ : التابعىّ من صحب الصحابى؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابعىّ . وكلام الحاكم أبى عبـد الله وغيره

(1) آية ٣ (2) آية ١٠ (3) آخر السورة .

مُشْعر بأنه يكفى فيه أن يسمع من الصحابى أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية . وقد قيل : إن آسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحُدَيْبِيَة؛ كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مُسْلمة الفتح ؛ لما ثبت أن عبد الرحمن بن عَوف شكا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لخالد : " دَعُوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصفه " . ومن العجب عَدّ الحاكم أبى عبد الله النعمانَ وسويدا ابنى مُقَرِّن المزنىّ فى التابعين عند ما ذكر الإخوة من التابعين ، وهما صحابيان معروفان مذكوران فى الصحابة ، وقد شهدا الخَنْدَق كما تقدم . والله أعلم . وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، وهم سعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الله آبن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار . وقد نظمهم بعض الأجلة فى بيت واحد فقال :

فخذهم عبيدُ الله(١) عروةُ قاسمٌ * سعيدٌ أبو بكر(٢) سليمانُ خارجة

وقال أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ؛ فقيل له : فعلقمة والأسود . فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود . وعنه أيضا أنه قال : أفضل التابعين قيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق ، هؤلاء كانوا فاضلين ومن عِلْية التابعين . وقال أيضا : كان عطاء مفتى مكة والحسن مفتى البصرة ، فهذان أكثر الناسُ عنهم ؛ وأَبْهَمَ . وروى عن أبى بكر بن أبى داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن ، وثالثتهما — وليست كهما — أم الدَّرْداء . وروى عن الحاكم أبى عبد الله قال : طبقة تعدّ فى التابعين ولم يصح سماع أحد منهم من الصحابة ؛ منهم إبراهيم بن سويد النَّخَعِىّ وليس بإبراهيم بن يزيد النخعىّ الفقيه ، وبكير بن أبى السميط(٣) ، وبكير بن عبد الله الأشج . وذكر غيرهم قال : وطبقة عدادهم عند الناس فى أتباع التابعين . وقد لقوا الصحابةَ منهم أبو الزناد عبد الله بن ذَكْوان ، لَقِىَ عبد الله بن عمر وأنسًا . وهشامُ بن عروة ، وقد أدخل على عبد الله بن عمر ،

(١) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة .   (٢) هو أبو بكر بن عبد الرحمن .
(٣) فى التقريب : « السميط بفتح المهملة ، ويقال بالضم » .

وجابرُ بن عبد الله وموسى بن عقبة، وقد أدرك أنس بن مالك . وأمُّ خالد بنتُ خالد بن سعيد .
وفى التابعين طبقة تسمَّى بالمُخَضْرَمين ، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم . واحدهم مخضرم (بفتح الراء) كأنه خُضْرِم، أى قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها . وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفسا، منهم أبو عمرو الشيبانيّ ، وسُويد بن غَفَلة الكِنديّ، وعمرو بن ميمون الأَوْديّ، وأبو عثمان النَّهْديّ، وعبد خير بن يزيد الخيرانى (بفتح الخاء) ، بطن من هَمْدان، وعبد الرحمن بن مُلّ . وأبو الحلال العَتَكى ربيعةُ بن زُرَارة . وممن لم يذكره مسلم ؛ منهم أبو مسلم الخَوْلانِيّ عبدُ الله بن ثُوَب، والأحنف بن قيس . فهذه نبـذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القرآن الكريم، رضوان الله عليهم أجمعين. وكفانا نحن قوله جل وعز: « كنتم خير أمّة أخرجت للناس»[1] على ما تقدّم . وقوله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمّة وسطا»[2] الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وددت أنا قد رأينا إخواننا ..." . الحديث . فجعلنا إخوانه؛ إن اتقينا الله واقتفينا آثاره حشرنا الله فى زمرته ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق محمد وآله .

قوله تعـالى : وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾ ابتداء وخبر . أى قوم منافقون؛ يعنى مُزَينة وجُهَينة وأَسْلم وغِفَار وأَشْجَع . ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أى قوم مردوا على النفاق . وقيل : «مردوا» من نعت المنافقين؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير، المعنى . وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة مثل ذلك . ومعنى : « مردوا » أقاموا ولم يتوبوا ؛ عن ابن زيد . وقال غيره : لَجُّوا فيه وأبَوْا غيره؛

(١) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٣ طبعة ثانية .

والمعنى متقارب . وأصل الكلمة من اللين والملامسة والتجرد؛ فكأنهم تجردوا للنفاق . ومنه رملة مرداء لا نبت فيها . وغُصن أمْرَدُ لا ورق عليه . وفرس أمْرَدُ لا شعر على ثُنّته (١) . وغلام أمرد بيّن المَرَد ؛ ولا يقال جارية مرداء . وتمريد البناء تمليسه؛ ومنه قوله : « صَرْحٌ مُمَرَّد (٢) » . وتمريد الغصن تجريده من الورق ؛ يقال مَرَدَ (٣) يمرد مرودا ومرادة .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ هو مثل قوله « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ (٤) » على ما تقدّم . وقيل : المعنى لا تعلم يا محمد عاقبةَ أمورهم و إنما نختص نحن بعلمها ؛ وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

قوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : بالأمراض فى الدنيا وعذاب الآخرة . فمرض المؤمن كفارة ، ومرض الكافر عقوبة . وقيل : العذاب الأوّل الفضيحة بٱطلاع النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ على ما يأتى بيانه فى المنافقين . والعذاب الثانى عذاب القبر . الحسن وقتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر . ٱبن زيد : الأوّل بالمصائب فى أموالهم وأولادهم، والثانى عذاب القبر . مجاهد : الجوع والقتل . الفراء : القتل وعذاب القبر . وقيل : السِّباء والقتل . وقيل : الأوّل أخذ الزكاة من أموالهم و إجراء الحدود عليهم ، والثانى عذاب القبر . وقيل : أحد العذابين ما قال تعالى : « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ — إلى قوله — إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥) » . والغرض من الآية اتباع العذاب، أو تضعيف العذاب عليهم .

قوله تعالى : وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

أى ومن أهل المدينة وممن حولكم قوم أقرّوا بذنوبهم، وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله يحكم فيهم بما يريد . فالصنف الأوّل يحتمل أنهم كانوا منافقين وما مَرَدُوا على النفاق، ويحتمل

(١) الثنة : مؤخر الرسغ، وهى شعرات مدلاة مشرفات من خلف . (٢) آية ٤٤ سورة النمل .
(٣) من باب نصر وكرم . (٤) آية ٦٠ سورة الأنفال . (٥) آية ٥٥ من هذه السورة .

أنهم كانوا مؤمنين . وقال آبن عباس : نزلت فى عشرة تخلّفوا عن غزوة تبوك؛ فأوثق سبعة منهـم أنفسَهم فى سوارى المسجد . وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً »؛ ذكره المهدوىّ . وقال زيد بن أسلم : كانوا ثمـانية . وقيل كانوا ســتة . وقيل خمسة . وقال مجاهد : نزلت الآية فى أبى لُبابة الأنصارىّ خاصّــةً فى شأنه مع بنى قُرَيظة؛ وذلك أنهم كلّموه فى النزول على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسـلم فأشار لهم إلى حَلقه . يريد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت؛ فمكث كذلك حتى عفا الله عنه، ونزلت هذه الآية، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلّه؛ ذكره الطبرى عن مجاهد، وذكره ابن اسحاق فى السيرة أَوْعَبَ من هــذا . وقال أشهب عن مالك : نزلت « وآخرون » فى شأن أبى لبابة وأصحابه، وقال حين أصاب الذنبَ : يارسول الله، أجاورك وأنخلع من مالى ؟ فقـال : ” يجزيك من ذلك الثلث وقــد قال تعـالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » “ ورواه آبن القاسم وآبن وهب عن مالك . والجمهور أن الآية نزلت فى شأن المتخلّفين عن غزوة تبوك، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لُبابة، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلقهم ويرضى عنهم، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ”وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رَغِبوا عنّى وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين “ فأنزل الله هذه الآية؛ فلما نزلت أرسل إليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم . فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله، هذه أموالنـا التى خلّفتنا عنك، فتصدّق بها عنا وطهرنا وآستغفر لنا . فقال : ” ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا “ فأنزل الله تعـالى « خذ من أموالهم صــدقة » . قال آبن عباس : كانوا عشرة أنفس منهم أبولبابة؛ فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارةَ الذنوب التى أصابوها . فكان عملهم السيئ التخلفَ بإجماع من أهل هذه المقالة . واختلفوا فى الصلاح؛ فقال الطبرى وغيره : الاعتراف والتوبة والندم . وقيل : عملهم الصالح الذى عملوه أنهم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وربطوا

أنفسهم بسوارى المسجد وقالوا : لا نقرب أهلا ولا ولدا حتى ينزل الله عذرنا . وقالت فرقة : بل العمل الصالح غزْوُهم فيما سلف من غزو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية وإن كانت نزلت فى أعرابٍ فهى عامّـة إلى يوم القيـامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة ؛ فهى ترجى . ذكر الطبرى عن حجاج بن أبى زينب قال : سمعت أبا عثمان يقول : ما فى القرآن آية أرجى عندى لهذه الأمة من قوله تعالى « وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » . وفى البخارى عن سُمُرة بن جُنْدُب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنـا : " أتانى الليلة آتيان فابتعثـانى فانتهينا إلى مدينة مبنية بلَبِنِ ذهبٍ ولَبِنِ فضّة فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشَـطْرٌ كأقبح ما أنت راءٍ قالا لهم آذهبوا فقعوا فى ذلك النهـر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قالا لى هذه جنة عَدْن وهــذاك منزلك قالا أمّا القوم الذى كانوا شَطْر منهم حَسَن وشـطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاصالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم " . وذكر البيهقىّ من حديث الرّبيع بن أنس عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حديث الإسراء وفيه قال : " ثم صعد بى إلى السماء ... " ثم ذكر الحديث إلى أن ذكر صعوده إلى السماء السابعة فقالوا : " حيّاه الله من أخ وخليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفـة ونعم المجئ جاء فإذا برجل أشمط (١) جالسٍ على كرسى عنـد باب الجنة وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه وفى ألوانهم شىء فأتوا نهرا فاغتسلوا فيه فخرجوا منـه وقد خَلَص من ألوانهم شىء ثم إنهم أتوا نهرا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا منه وقـد خلصت ألوانهم مثلَ ألوان أصحابهم فجلسوا إلى أصحابهم فقـال ياجبريل مَن هؤلاء بيض الوجوه وهؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا النهر وقد خلصت ألوانهم فقال هــذا أبوك إبراهيم هو أول رجل شَمِطَ على الأرض وهؤلاء بيض الوجوه قوم لم يلبِسوا إيمـانهم بظلم — قال — وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم . فأما النهر الأول فرحمة الله وأما النهر الثانى فنعمة الله .

(١) الشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده .

وأما النهر الثالث فسقاهم ربهم شرابا طهورا" وذكر الحديث . والواو في « وآخر سيئا » قيل هي بمعنى الباء، وقيل بمعنى مع؛ كقولك استوى الماء والخشبة. وأنكر ذلك الكوفيون وقالوا : لأن الخشبة لا يجوز تقديمها على الماء، و « آخر » في الآية يجوز تقديمه على الأول ؛ فهو بمنزلة خلطت الماء باللبن .

قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ اختلف في هذه الصدقة المأمور بها ؛ فقيل : هي صدقة الفرض؛ قاله جُوَيبر عن ابن عباس، وهو قول عكرمة فيما ذكر القشيري. وقيل : هو مخصوص بمن نزلت فيه ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ منهم ثلث أموالهم، وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء؛ ولهذا قال مالك : إذا تصدّق الرجل بجميع ماله أجزأه إخراج الثلث؛ متمسّكا بحديث أبي لُبابة . وعلى القول الأول فهو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم يقتضي بظاهره اقتصاره عليه فلا يأخذ الصدقة سواه، ويلزم على هذا سقوطها بسقوطه وزوالها بموته . وبهذا تعلق مانعو الزكاة على أبي بكر الصديق وقالوا : إنه كان يعطينا عوضا منها التطهيرُ والتزكية والصلاة علينا وقد عدمناها من غيره . ونظم في ذلك شاعرهم فقال : —

أطعنا رسول الله ما كان بيننا * فيا عجبا ما بال مُلْك أبي بكر
وإن الذي سألوكمُ فمنعتمُ * لكالتمر أو أحْلَى لديهم من التمر
سنمنعهم ما دام فينا بقيّة * كرامٌ على الضّراء في العسر واليسر

وهذا صنف من القائمين على أبي بكر أمثلهم طريقة، وفي حقهم قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة . ابن العربيّ : أما قولهم إن هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يلتحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ الشريعة متلاعبٍ بالدِّين ؛ فإن الخطاب في القرآن لم يرد بابا واحدا ولكن اختلفت موارده على وجوه؛ فمنها خطاب توجه إلى

جميع الأمة كقوله : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة » (١) وقوله « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » (٢) ونحوه . ومنها خطاب خُصّ به ولم يَشركه فيه غيره لفظا ولا معنى كقوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » (٣) وقوله : « خَالِصَةً لَكَ » . ومنها خطاب خُصّ به لفظا وشَرِكه جميع الأمة معنًى وفعلا؛ كقوله : « أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشمس » (٣) الآية . وقوله : «فاذا قرأتَ القرآن فآستعِذْ بالله» (٤) وقوله : «وإذا كنت فيهم فأقمتَ لهم الصلاة» (٥) . فكل من دَلَكَتْ عليه الشمس مخاطب بالصلاة . وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالآستعاذة . وكذلك من خاف يقيم الصلاة [بتلك الصفة] . ومن هذا القبيل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : «يأيها النبيّ آتق الله» (٦) و «يأيها النبيّ إذا طلقتم النساء» (٧) .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ذهب بعض العرب وهى دوس : إلى أن المـال الثيابُ والمتاع والعُروض . ولا تسمِّى العين مالا . وقد جاء هذا المعنى فى السنة الثابتة من رواية مالك عن ثَوْر بن زيد الدِّيلى عن أبى الغيث سالم مولى آبن مطيـع عن أبى هريرة قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ خيبر فلم نغنم ذهبا ولا وَرِقا إلا الأموال الثياب والمتاع . الحديث . وذهب غيرهم إلى أن المـال الصامتُ من الذهب والورق . وقيل : الإبل خاصّة؛ ومنه قولهم : المـال الإبل . وقيل جميع المـاشية . وذكر ابن الأنبارى عن أحمد بن يحيى النحوى قال : ما قصر عن بلوغ ما تجب فيه الزكاة من الذهب والوَرِق فليس بمـال؛ وأنشـد :

والله ما بلغتْ لى قـطُّ ماشـيةٌ * حدّ الزكـاة ولا إبل ولا مال

قال أبو عمر : والمعروف من كلام العرب أن كل ما تُمُوِّل وتُمُلِّك هو مال؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " يقول ابن آدم مالى مالى وإنمـا له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدّق

---

(١) آية ٦ سورة المـائدة .	(٢) آية ١٨٣ سورة البقرة .	(٣) آية ٧٨ سورة الاسراء .
(٤) آية ٩٨ سورة النحل .	(٥) آية ١٠٢ سورة النساء .	(٦) أول سورة الأحزاب .
(٧) أول سورة الطلاق .

فأمضى" . وقال أبو قتادة : فأعطانى الدرع فابتعت به مَخْرَفا(١) فى بنى سَلِمة؛ فإنه لأوّل مال تأثّلته(٢) فى الإسلام . فمن حلف بصدقة ماله كله فذلك على كل نوع من ماله، سواء كان مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن؛ إلا أن ينوى شيئا بعينه فيكون على مانواه . وقد قيل : إن ذلك على أموال الزكاة . والعلم محيط واللسان شاهد بأن ما تملّك يسمّى مالا . والله أعلم .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صدقة ﴾ مطلق غير مقيّد بشرط فى المأخوذ والمأخوذ منه ، ولا تبيين مقدار المأخوذ ولا المأخوذ منه ؛ وإنما بيان ذلك فى السنة والإجماع، حسب ما نذكره . فتؤخذ الزكاة من جميع الأموال . وقد أوجب النبيّ صلى الله عليه وسلم الزكاة فى المواشى والحبوب والعين، وهـذا مالا خلاف فيه . واختلفوا فيما سوى ذلك كالخيل وسائر العُروض . وسيأتى ذكر الخيل والعسل فى « النّحل » إن شاء الله . روى الأئمة عن أبى سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس فيما دون خمسة أوسُق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورِق صدقة وليس فيما دون خمس ذَوْد من الإبل صدقة" . وقد مضى الكلام فى « الأنعام »(٣) فى زكاة الحبوب وما تنبته الأرض مستوفًى . وفى المعادن فى «البقرة»(٤) وفى الحلى فى هذه السورة . وأجمع العلماء على أن الأوقيّة أربعون درهما؛ فاذا ملك الحر المسلم مائتى درهم من فضة مضروبة ــ وهى الخمس أواق المنصوصة فى الحديث ــ حولا كاملا فقد وجبت عليه صدقتها؛ وذلك ربع عشرها خمسة دراهم . وإنما اشترط الحول لقوله عليه السلام : "ليس فى مال زكاةٌ حتى يحول عليه الحول" . أخرجه الترمذى . وما زاد على المائتى درهم من الورق فبحساب ذلك فى كل شىء منه ربع عشره قلّ أو كثر ؛ هذا قول مالك والليث والشافعى وأكثر أصحاب أبى حنيفة وابن أبى لَيْلَى والثّورى والأوزاعى وأحمد بن حنبل وأبى ثور وإسحاق وأبى عبيد . وروى ذلك عن على وابن عمر . وقالت طائفة : لا شىء فيما زاد على المائتى درهم حتى تبلغ الزيادة أربعين درهما ؛ فإذا بلغتها

(١) المخرف (بالفتح) : القطعة الصغيرة من النخل ، ست أو سبع يشتريها الرجل للخرفة (للجنى) . وقيل : هى جماعة النخل ما بلغت . (٢) تأثل مالا : اكتسبه واتخذه وثمره . (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٣ ص ٣٢١ وما بعدها .

كان فيهـا درهم وذلك ربع عشرها . هـذا قول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس والشعبي والزهري ومكحول وعمرو بن دينار وأبي حنيفة .

الرابعـــة — وأما زكاة الذهب فالجمهور من العلمـاء على أن الذهب إذا كان عشرين دينارا قيمتها مائتا درهم فما زاد أن الزكاة فيها واجبة ، على حديث عليّ ، أخرجه الترمذي عن ضَمْرة والحارث عن عليّ . قال الترمذي : سألت محمـد بن اسماعيل عن هذا الحـديث فقال كلاهما عندى صحيح عن أبي اسحاق ، يحتمل أن يكون عنهما جميعا . وقال الباجي في المنتقَى : وهذا الحديث ليس إسناده هناك ، غير أن اتفاق العلماء على الأخذ به دليل على صحة حكمه ، والله أعلم . وروى عن الحسن والثوري ، وإليه مال بعض أصحاب داود بن عليّ على أن الذهب لا زكاة فيه حتى يبلغ أربعين دينارا . وهذا يردّه حديث عليّ وحديث ابن عمر وعائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يأخـذ من كل عشرين دينـارا نصف دينار ، ومن الأربعـين دينارا دينارا ، على هذا جماعة أهل العلم إلا من ذُكر .

الخامســـة — اتفقت الأمة على أن ما كان دون خمس ذَودٍ من الإبل فلا زكاة فيه . فإذا بلغت خمسا ففيها شاة . والشاة تقع على واحدة من الغنم ، والغنم الضأن والمعز جميعا . وهذا أيضا اتفاق من العلماء أنه ليس في خمس إلا شاة واحدة ، وهي فريضتها . وصدقة المواشي مبيَّنـة في الكتاب الذي كتبه الصدّيق لأنس لمـا وجّهه إلى البحرين ، أخرجه البخاري وأبو داود والدَّارَقُطْني والنَّسائي وابن ماجه وغيرهم ، وكله متّفق عليه . والخلاف فيه في موضعين ؛ أحدهما في زكاة الإبل ، وهي إذا بلغت إحدى وعشرين ومائة فقال مالك : المصدِّق بالخيار إن شاء أخذ ثلاث بنات لَبُون ، وإن شاء أخذ حقّتين (١) . وقال ابن القاسم : وقال ابن شهاب فيها ثلاث بنات لبون إلى أن تبلغ ثلاثين ومائة فيكون فيها حِقة وآبنتا لبون . قال آبن القاسم : ورأيي على قول ابن شهاب . وذكر ابن حبيب أن عبد العزيز بن أبي سلمة وعبد العزيز بن أبي

---

(١) ابن لبون : ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ، ودخل في الثالثة . والحق (بالكسر) : الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة .

حازم وابن دينار يقولون بقول مالك. وأما الموضع الثانى فهو فى صدقة الغنم، وهى إذا زادت على ثلثمائة شاة وشاة؛ فإن الحسن بن صالح بن حَىّ قال : فيها أربع شياه . وإذا كانت أربعمائة شاة وشاة ففيها خمس شياه؛ وهكذا كلما زادت. فى كل مائة شاةٌ . وروى عن إبراهيم النخعىّ مثله . وقال الجمهور: فى مائتى شاة وشاة ثلاث شياه، ثم لا شىء فيها إلى أربعمائة فيكون فيها أربع شياه ، ثم كلما زادت مائة ففيها شاة ؛ إجماعا واتفاقا . قال ابن عبد البر : وهـذه مسألة وهِم فيها ابن المنذر، وحكى فيها عن العلماء الخطأ، وخلط وأكثر الغلط .

السادســة — لم يذكر البخارى ولا مسلم فى صحيحهما تفصيل زكاة البقر . وخرّجه أبو داود والترمذىّ والنّسائى والدّارَقُطْنِىّ ومالك فى مُوَطَّئه وهى مرسلة ومقطوعة وموقوفة. قال ابن عمر : وقد رواه قوم عن طاوس عن معاذ ، إلا أن الذين أرسلوه أثبت من الذين أسندوه . وممن أسنده بَقِيّة عن المسعودى عن الحكم عن طاوس . وقد اختلفوا فيما ينفرد به بَقِيّة عن الثقات . ورواه الحسن بن عُمارة عن الحكم كما رواه بَقِيّة عن المسعودى عن الحكم، والحسن مجتمَع على ضعفه . وقد روى هذا الخبر بإسناد متصل صحيح ثابت من غير رواية طاوس؛ ذكره عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر والثورى عن الأعمش عن أبى وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن؛ فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تَبِيعا(١) أو تبيعة، ومن أربعين مُسِنّة(٢) [، ومن كل حالم دينارا] أو عِدْله مَعَافر(٣)؛ ذكره الدارقطنى وأبو عيسى الترمذى وصححه . قال أبو عمر . ولا خلاف بين العلماء أن الزكاة فى زكاة البقر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما قال معاذ بن جبل : فى ثلاثين بقرة تبيع، وفى أربعين مُسِنّةٌ؛ إلا شىء رُوى عن سعيد بن المسيِّب وأبى قِلابة والزُّهرىّ وقَتادة، فإنهم يوجبون فى كل خَمس من البقر شاةً إلى ثلاثين . فهـذه جملة من تفصيل الزكاة بأصولها وفروعها فى كتب الفقه . ويأتى ذكر الخُلْطة(٤) فى سورة « ص » إن شاء الله تعالى .

---

(١) التبيع : ولد البقرة فى أول سنة . والمسن : ما أوفى سنتين ودخل فى الثالثة . (٢) زيادة عن صحيح الدارقطنى والترمذى . (٣) المعافر : برود باليمن منسوبة الى معافر، وهى قبيلة باليمن .
(٤) فى قوله تعالى : « وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض » آية ٢٤ .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ صَـدَقَةً ﴾ مأخوذ من الصّـدق؛ إذ هي دليل على صحة إيمانه وصدق باطنه مع ظاهره، وأنه ليس من المنافقين الذين يَلْمِزون المطوِّعين من المؤمنين في الصدقات . ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ حالين للخاطب، التقدير : خذها مطهِّرًا لهم وَمُزَكِّيًا لهم بهـا . ويجوز أن يجعلهما صفتين للصدقة؛ أي صـدقة مطهرةً لهم مُزَكِّية، ويكون فاعل تزكيهم المخاطب، ويعود الضـمير الذى فى « بهـا » على الموصوف المنكّر . وحكى النحاس وَمَكِّيّ أنّ « تطهرهم » من صفة الصدقة « وتزكيهم بها » حال من الضمير فى « خُذْ » وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن تكون حالا من الصـدقة، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبـة للنبيّ صلى الله عليه وسـلم؛ أى فإنك تطهرهم وتزكيهم بهـا، على القطع والاستئناف . ويجوز الجزم على جواب الأمر، والمعنى : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم؛ ومنه قول امرئ القيس :

* قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل *

وقرأ الحسن تُطْهِرهم (بسـكون الطاء) وهو منقول بالهمزة من طَهَر وأطهرته، مثـل ظهر وأظهرته .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أصـلٌ فى فعل كلّ إمام يأخذ الصـدقة أن يدعو للتصدّق بالبركة . روى مسلم عن عبد الله بن أبى أوفَى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللّهم صلّ عليهم " فأتاه ابن أبى أوْفَى بصدقته فقال : " اللهم صلّ على آل أبى أوْفَى " . ذهب قوم إلى هذا، وذهب آخرون إلى أن هذا منسوخ بقوله تعالى : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » . قالوا : فلا يجوز أن يصلَّى على أحد إلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده خاصّة؛ لأنه خُصّ بذلك . واستدلوا بقوله تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » الآية . وبأنّ عبد الله بن عباس كان يقول : لا يصلّى على أحد إلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . والأول أصح؛ فإن الخطاب ليس مقصورا عليه كما تقدم؛ ويأتى فى الآية بعد هذا . فيجب الاقتداء برسول الله صلى الله

عليه وسلم، والتأسى به؛ لأنه كان يمتثل قوله : « وصَلِّ عليهِم إن صلاتك سَكَنٌ لهم » أى إذا دعوت لهم حين يأتون بصدقاتهم سكّن ذلك قلوبهم وفرِحوا به . وقد روى جابر ابن عبد الله قال : أتانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت لامرأتى : لا تسألى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا؛ فقالت : يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندنا ولا نسأله شيئا ! فقالت : يارسول الله، صلّ على زوجى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلى الله عليكِ وعلى زوجك" . والصلاة هنا الرحمة والترحم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه أن الصلاة فى كلام العرب الدعاء؛ ومنه الصلاة على الجنائز . وقرأ حفص وحمزة والكسائيّ « إن صلاتك » بالتوحيد . وجمع الباقون . وكذلك الاختلاف فى « أصلاتك تأمُرُكَ »[1] وقرئ « سكْن » بسكون الكاف . قال قتادة : معناه وقار لهم . والسَّكَن : ما تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤)

فيه مسألتان :

الأولى — قيل : قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس، لا يُكلَّمون ولا يجالسون، فما لهم الآن ؟ وما هذه الخاصّة التى خُصُّوا بها دوننا؛ فنزلت : « ألم يعلموا » ؛ فالضمير فى « يعلموا » عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين . قال معناه ابن زيد . ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم . وقوله تعالى « هو » تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : أن الله يقبل التوبة لاحتمل أن يكون قبولُ رسوله قبولا منه؛ فبيّنت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبيّ ولا ملك .

---

(١) آية ٨٧ سورة هود .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا نصّ صريح فى أن الله تعالى هو الآخذ لها والمثيب عليها وأن الحق له جل وعز، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واسطة، فان تُوُفّى فعاملُه هو الواسطة بعده، والله عز وجل حىّ لا يموت . وهذا يبيّن أن قوله سبحانه وتعالى « خُذْ من أموالهم صدقةً » ليس مقصورا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الله يقبل الصدقة و يأخذها بيمينه فيُرْبِيها لأحدكم كما يربِى أحدكم مُهْره حتى أن اللقمة لتصير مثلَ أُحُد وتصديق ذلك فى كتاب الله وهو الذى يقبل التوبة عن عباده و يأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويُرْبِى الصدقات ". قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم : " لا يتصدق أحد بتمرة من كسبٍ طيّب إلا أخذها الله بيمينه — فى رواية — فتربُو فى كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل " الحديث . وروى " إن الصدقة لتقع فى كف الرحمن قبل أن تقع فى كف السائل فيربيها كما يربى أحدُكم فَلُوَّه[(1)] أو فَصِـيله والله يضاعف لمن يشـاء " . قال علماؤنا رحمـة الله عليهـم فى تأويل هذه الأحاديث : إن هــذا كناية عن القبول والجزاء عليها؛ كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعطفا عليه بقوله : " يابن آدم مَرِضت فلم تَعُدْنِى " الحديث . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » . وخصّ اليمين والكف إذ كل قابل لشىء إنمـا يأخذه بكفه و بيمينه أو يوضـع له فيه؛ فخرج على ما يعرفونه، والله جل وعز منزّه عن الجارحة . وقـد جاءت اليمين فى كلام العرب بغير معنى الجارحة، كما قال الشاعر :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجْدٍ * تلقـاها عَرابة باليمينِ

أى هو مؤهّل للمجد والشرف ، ولم يُرد بهـا يمين الجارحة ؛ لأن المجد معنًى فاليمـين التى تتلقى به رايته معنى . وكذلك اليمين فى حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى "تربو فى كف الرحمن" عبارة عن كفة المـيزان التى توزن فيها الأعمال، فيكون من باب حذف المضاف؛ كأنه قال : فتربو فى كِفّة ميزان الرحمن . وروى عن مالك والثّورى وآبن المبارك أنهم قالوا فى تأويل هذه

---

(١) الفلو : ولد الفرس .

الأحاديث وما شابهها : أَمِرُّوها بلا كَيْف ؛ قاله الترمذي وغيره . وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا ﴾ خطاب للجميع . ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي بإطلاعه إياهم على أعمالكم . وفي الخبر : " لو أن رجلا عمل في صخرة لا باب لها ولا كُوّة لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان " .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

نزلت في الثلاثة الذين تِيب عليهم : كعب بن مالك وهلال بن أمية من بني واقف ومُرارة آبن الربيع ؛ وقيل آبن رِبْعِي العَمْري ؛ ذكره المهدوِيّ . كانوا قد تخلفوا عن تبوك وكانوا مياسر ؛ على ما يأتي من ذكرهم . والتقدير : ومنهم آخرون مُرْجَوْن ؛ من أرجأته أي أخرته . ومنه قيل : مُرْجِئة ؛ لأنهم أخّروا العمل . وقرأ حمزة والكسائي « مُرْجَوْن » بغير همز ؛ فقيل : هو من أرجيته أي أخرته . وقال المبرد : لا يقال أرجيته بمعنى أخرته ، ولكن يكون من الرجاء . ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ « إمّا » في العربية لأحد أمرين ، والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للعباد على ما يعرفون ؛ أي ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للعباد أكثر من هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ﴾ معطوف، أى ومنهم الذين اتخذوا مسجدا؛ عطف جملة على جملة . ويجوز أن يكون رفعا بالابتداء والخبر محذوف كأنه « يعذّبون » أو نحوه . ومن قرأ « الذين » بغير واو وهى قراءة المدنيين فهو عنده رفع بالابتداء، والخبر « لا تقم » التقدير : الذين اتخذوا مسجدا لا تقم فيه أبدا؛ أى لا تقم فى مسجدهم؛ قاله الكسائى . وقال النحاس : يكون خبر الابتداء « لا يزال بُنْيانهم الذى بَنَوْا رِيبةً فى قلوبهم » . وقيل : الخبر « يعذبون » كما تقدّم . ونزلت الآية فيما روى فى أبى عامر الراهب؛ لأنه كان خرج إلى قَيْصر وتنصّر ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم ، فبَنَوْا مسجد الضِّرار يرصدون مجيئه فيه؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، وقد تقدّمت قِصته فى الأعراف[(١)] . وقال أهل التفسير : إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قُبَاء وبعثوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلّى فيه، فحسدهم إخوانهم بنو غُنْم بن عوف وقالوا : نبنى مسجدا ونبعث الى النبيّ صلى الله عليه وسلم يأتينا فيصلى لنا كما صلى فى مسجد إخواننا، ويصلّى فيه أبو عامر إذا قدم من الشام؛ فأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يارسول الله، قد بنينا مسجدا لذى الحاجة، والعِلّة والليلة المطِيرة، ونحبّ أن تصلّى لنا فيه وتدعو بالبركة؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنى على سفر وحالِ شغل فلو قدِمنا لأتيناكم وصلّينا لكم فيه". فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلّوا فيه الجمعة والسبت والأحد، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضِّرار؛ فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم مالكَ بن الدُّخْشُم ومعن بن عَدِى وعامر بن السَّكَن ووحْشِيّاً قاتلَ حمزة، فقال : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " فخرجوا مسرعين، وأخرج مالك بن الدُّخْشُم من منزله شعلة نار، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه، وكان الذين بنوه آثنى عشر رجلا : خِذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية .

ومن داره أخرج مسجد الضرار . ومعتّب بن قُشير ، وأبو حبيبة بن الأذعر ، وعبّاد ابن حُنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف . وجارية بن عامر، وابناه مُجمِّع وزيد بن جارية ، ونبتل بن الحارث، وبَحْزَج، وبجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت؛ وثعلبة ابن حاطب مذكور فيهم . قال أبو عمر بن عبد البر : وفيه نظر؛ لأنه شهد بدرا . وقال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلا منهم بماذا أعنت في هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية . فقال : أبشر بها ! سارية في عنقك من نار جهنم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ضِرَارًا﴾ مصدر مفعول من أجله . ﴿وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ عطف كلّه. وقال أهل التأويل: ضرارا بالمسجد. وليس للمسجد ضرار، إنما هو لأهله . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ضَرَر ولا ضِرار مَن ضارّ ضرّ الله به ومن شاقّ شاقّ الله عليه". قال بعض العلماء: الضرر : الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة . والضِّرار : الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة . وقد قيل هما بمعنًى واحد، تكلّم بهما جميعا على جهة التأكيد .

الثالثـــة — قال علماؤنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه؛ والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأوّل فيبقى شاغرا ، إلا أن تكون المحلّة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجدٌ واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا ينبغي أن يبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة، ويجب منع الثاني؛ ومن صلّى فيه الجمعة لم تُجْزِه . وقد أحرق النبيّ صلى الله عليه وسلم مسجد الضّرار وهدمه . وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلّي في مسجد بني غاضرة (١) فوجد الصلاة قد فاتته؛ فقيل له : إن مسجد بني فلان لم يصلّ فيه بعدُ؛ فقال : لا أحبّ أن أصلي فيه؛ لأنه بُني على ضرار . قال علماؤنا: وكل مسجد بني على ضرار أو رياء وسُمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه . وقال النقاش : يلزم من هذا ألّا يصلى في كنيسة ونحوها؛ لأنها بنيت على شرّ .

(١) كذا في بعض الأصول، وفي البعض الآخر : « بني عامرة » . والذي في الطبري : « بني عامر » .

قلت : هذا لا يلزم؛ لأن الكنيسة لم يقصد ببنائها الضّرر بالغير، و إن كان أصل بنائها على شر، و إنما اتخذ النصارى الكنيسة واليهودُ البيعة موضعا يتعبدون فيه بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا . وقد أجمع العلمــاء على أن من صلى فى كنيسة أو بِيعة على موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة. وذكر البخارى أن ابن عباس كان يصلى فى البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل. وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغِيتهم .

الرابعـــة ــ قال العلماء : إن من كان إماما لظالم لا يصلَّى وراءه، إلا أن يظهر عذره أو يتوب؛ فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قُباء سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمِّع بن جارية أن يصلّى بهــم فى مسجدهم؛ فقال : لا ولا نُعْمَــة عين ! أليس بإمام مســجد الضرار ! فقال له مُجَمِّــع : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل علىّ، فوالله لقــد صلّيت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاما قارئا للقرآن ، وكانوا شيوخا قــد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرءون من القرآن شيئا ، فصــليت ولا أحسِب ما صنعتُ إثمــا، ولا أعلم بمــا فى أنفسهم؛ فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصلاة فى مسجد قُباء .

الخامســـة ــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وإذا كان المسجد الذى يُتّخذ للعبادة وحضّ الشرع على بنــائه فقال : " من بنى لله مســجدا ولو كَمَفْحَص[(1)] قَطاة بنى الله له بيتــا فى الجنة " يُهــدَم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره، فمــا ظنك بسواه ! بل هو أحْرَى أن يزال ويهــدم حتى لا يدخل ضرر على الأقــدم . وذلك كمن بنى فُرْنًا أو رَحًى أو حفر بئرا أو غير ذلك ممــا يُدخل به الضرر على الغير . وضابط هــذا الباب : أن من أدخل على أخيه ضررا مُنع . فإن أدخل على أخيه ضررا بفعل ما كان له فعله فى ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نُظر إلى ذلك الفعل ؛ فان كان تركُه أكبرَ ضررا من الضرر الداخل على الفاعل قُطع أكبر

(١) الموضع الذى تجثم فيه وتبيض .

الضررين وأعظمهما حرمة فى الأصول . مثال ذلك : رجل فتح كُوّة فى منزله يَطّلع منها على دار أخيه وفيها العيال والأهل، ومن شأن النساء فى بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتشار فى حوائجهن، ومعلوم أن الآطلاع على العورات محرّم وقد ورد النهى فيه؛ فلحرمة الاطلاع على العورات رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الباب والكوّة ما فتح مما له فيه منفعة وراحة وفى غلقه عليه ضرر؛ لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين، إذ لم يكن بُدٌّ من قطع أحدهما. وهكذا الحكم فى هذا الباب، خلافا للشافعىّ ومن قال بقوله. قال أصحاب الشافعىّ : لو حفر رجل فى ملكه بئرا وحفر آخر فى ملكه بئرا يسرق منها ماء البئر الأوّلة جاز؛ لأن كل واحد منهما حفر فى ملكه فلا يُمنع من ذلك . ومثله عندهم : لو حفر إلى جنب بئر جاره كنيفا يُفسده عليه لم يكن له منعه؛ لأنه تصرف فى ملكه . والقرآن والسنة يردّان هذا القول . وبالله التوفيق .

ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه، كدخان الفرن والحَمّام وغبار الأندر (١) والدودِ المتولّد من الزّبل المبسوط فى الرّحاب؛ وما كان مثل هذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشى تماديه . وأما ما كان ساعة خفيفة مثل نفض الثياب والحصر عند الأبواب؛ فإن هذا مما لا غِنًى بالناس عنه، وليس مما يستحق به شىء؛ فنفىُ الضرر فى منع مثل هذا أعظمُ وأكبر من الصبر على ذلك ساعةً خفيفة . وللجار على جاره فى أدب السُّنّة أن يصبر على أذاه على ما يقدر، كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه .

السادسة — ومما يدخل فى هذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبى أويس عن مالك أنه سئل عن آمرأة عَرَض لها، يعنى مَسًّا من الجن، فكانت إذا أصابها زوجُها وأجنبت أو دنا منها يشتدّ ذلك بها . فقال مالك : لا أرى أن يقربها، وأرى للسلطان أن يحول بينه وبينها .

---

(١) الأندر : البيدر، وهو الموضع الذى يداس فيه الطعام .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَكُفْرًا ﴾ لمـا كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قُبـاء ولا لمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد؛ قاله ٱبن العربي . وقيل : «وكفرا» أى بالنبيّ صلى الله عليه وسلم و بمـا جاء به؛ قاله القشيريّ وغيره .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى يفرّقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهذا يدلّك على أن المقصد الأكبر والغرَض الأظهر من وضع الجماعة تأليفُ القلوب والكلمة على الطاعة، وعقدُ الذّمام والحرمة بفعل الدّيانة حتى يقع الأنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد .

التاســـعة — تفطّن مالك رحمه الله من هذه الآية فقال : لا يصلّى جماعتان فى مسجد واحد بإمامين؛ خلافا لسائر العلماء . وقد رُوى عن الشافعيّ المنع؛ حيث كان تشتيتا للكلمة وإبطالا لهذه الحكمة وذريعة إلى أن نقول : من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف و يبطل النظام ، وخفى ذلك عليهم . قال ٱبن العربى : وهذا كان شأنه معهم، وهو أثبت قدما منهم فى الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى أبا عامر الراهب؛ وسُمّىَ بذلك لأنه كان يتعبّـد ويلتمس العلم فمات كافرا بقِنَّسْرِين[1] بدعوة النبيّ صـلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم؛ فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين . فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر، وأرسل إلى المنافقين وقال : استعدّوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وٱبنوا مسجدا فإنى ذاهب إلى قيصر فآت بجند من الروم لأخرج محمدا من المدينة؛ فبنوا مسجد الضرار . وأبو عامر هـذا هو والد حنظلة غَسيِل الملائكة[2] . والإرصاد : الانتظار، تقول: أرصدت كذا إذا أعددته مرتقبا له به . قال أبو زيد : يقال رصدته وأرصدته فى الخير، وأرصدت له فى الشر . وقال ٱبن الأعرابى :

(١) قنسرين (بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده و يكسر) : كورة بالشام . (٢) سمى غسيل الملائكة لأنه استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة ؛ وذلك أنه كان قد ألمّ بأهله فى حين خروجه الى أحد ، ثم هجم عليه من الخروج فى النفير ما أنساه الغسل وأعجله عنه ؛ فلما قتل شهيدا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته . (عن الاستيعاب) .

لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقبت . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل بناء مسجد الضرار . ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ أى ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى، وهى الرفق بالمسلمين كما ذكروا لذى العلة والحاجة . وهذا يدل على أن الأفعال تختلف بالمقصود والإرادات؛ ولذلك قال وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى . ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى يعلم خُبث ضمائرهم وكذِبَهم فيما يحلفون عليه .

قوله تعالى : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ يعنى مسجد الضِّرار؛ أى لا تقم فيه للصلاة . وقد يعبّر عن الصلاة بالقيام؛ يقال : فلان يقوم الليل أى يصلى؛ ومنه الحديث الصحيح : "من قام رمضان إيمانا وآحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه" . أخرجه البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : ...؛ فذكره . وقد رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كان لا يمرّ بالطريق التى فيها المسجد، وأمر بموضعه أن يُتخذ كُناسة تلقى فيها الجيف والأقذار والقُمامات .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَبَدًا ﴾ «أبدا» ظرف زمان . وظرف الزمان على قسمين : ظرف مقدّر كاليوم، وظرف مُبْهم كالحِين والوقت؛ والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر .

وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهى أن «أبدا» وإن كانت ظرفا مبهما لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم، فلو قال : لا تقم، لكفى فى الانكفاف المطلق . فاذا قال : «أبدا» فكأنه قال فى وقت من الأوقات ولا فى حين من الأحيان . فأما النكرة فى الإثبات إذا كانت خبرا عن واقع لم تعمّ، وقد فَهِم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا : لو قال رجل لامرأته أنت طالق أبدا طَلُقت طلقة واحدة .

الثالثـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ أى بُنيت جُدُره ورُفعت قواعده . والأُسّ أصل البنـاء ؛ وكذلك الأساس . والأَسَس مقصور منه . وجمع الأُسّ إساس، مثلُ عُسّ وعِساس . وجمع الأساس أُسُس ؛ مثـل قَذال وقُذُل . وجمع الأَسَس آساس ؛ مثل سبب وأسباب . وقد أسّست البناء تأسيسا . وقولهم : كان ذلك على أُسِّ الدهر، وأَسّ الدهر ، وإسّ الدهر؛ ثلاث لغات ؛ أى على قِـدم الدّهر ووجه الدهر . واللام فى قوله « لمسجِد » لام قَسَم . وقيــل لام الابتداء؛ كما تقول : لزيد أحسن الناس فعلا؛ وهى مقتضية تأكيدا . ﴿ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ نعت لمسجد . ﴿ أَحَقُّ ﴾ خبر الابتـداء الذى هو « لَمَسْجِدٌ » . ومعنى التقوى هنا الخصال التى تُتَّقَى بهـا العقوبة ، وهى فَعْلى من وَقيت ؛ وقد تقدّم[1] .

الرابعـــة ـــ واختلف العلمــاء فى المسجد الذى أسّس على التقوى ؛ فقالت طائفة : هو مسجد قباء؛ يروى عن ابن عباس والضحاك والحسن . وتعلقوا بقوله : «من أول يوم» ، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أوّل يوم؛ فإنه بُنى قبل مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ قاله ابن عمر وابن المسيب، ومالك فيما رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم . وروى الترمذيّ عن أبى سعيد الخُدْرِيّ : قال تمـارى[2] رجلان فى المسجد الذى أُسِّس على التقــوَى من أوّل يوم ؛ فقال رجل هو مسجد قُبَـاء، وقال آخر هو مسجد النبيّ صـلى الله عليه وسـلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هو مسجدى هــذا " . حديث صحيح . والقول الأوّل أَلْيَق بالقصة ؛ لقوله «فيــه» وضمير الظرف يقتضى الرجال المتطهرين؛ فهــو مسجد قُباء . والدليل على ذلك حديث أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية فى أهل قباء « فيه رجال يحبّون أن يَتَطَهَّرُوا والله يحب المُطَّهِّرِينَ » قال : كانوا يستنجون بالمـاء فنزلت فيهم هــذه الآية . قال الشّعبيّ : هم أهل مسجد قُباء، أنزل الله فيهم هذا . وقال قتادة : لمـا نزلت هــذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء: "إن الله سبحانه قد أحسن عليكم الثناء فى التطهر

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) المماراة : المجادلة .

فما تصنعون"؟ قالوا : إنا نغسل أثر الغائط والبول بالمـاء؛ رواه أبو داود . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن طلحة بن نافع قال : حدثني أبو أيوب وجابر بن عبــد الله وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول الله صــلى الله عليه وسلم في هــذه الآية « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» فقال: "يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرا في الطُّهور فما طُهوركم هذا"؟ قالوا : يا رسول الله، نتوضأ للصــلاة ونغتسل من الجنابة . فقال رسول الله صلى الله عليــه وســلم : " فهل مــع ذلك من غيره " ؟ فقــالوا : لا غير، إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحبّ أن يستنجي بالمـاء . قال : "هو ذلك فَعَلَيْكُمُوه" . وهذا الحديث يقتضي أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء، إلا أن حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ نصّ فيه النبيّ صلى الله عليه وســلم على أنه مسجده فلا نظر معه . وقد روى أبو كُرَيب قال : حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنا صالح بن حيان قال حدّثنا عبــد الله بن بريدة في قوله عز وجل « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُــهُ » قال : إنمــا هي أربعة مساجد لم يَبْنِهِنّ إلا نبيّ : الكعبة بناها إبراهيم وإسمــاعيل عليهما السلام ، وبيت أريحا بيتُ المقــدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، ومسجد المدينــة ومسجد قُباء اللّذَين أُسِّسا على التقوى ، بناهما رسول الله صلى الله عليه وســـلم .

الخامســـة — ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ « من » عند النحويين مقابلة منذ؛ فمنذ في الزمان بمنزلة من في المكان . فقيل : إن معناها هنا معنى منذ ؛ والتقدير : منــذ أول يوم ٱبتُدِئَ بنيانه . وقيل : المعنى من تأسيس أوّل الأيام، فدخلت على مصدر الفعل الذي هو أسس؛ كما قال :

لمن الديار بقُنّــة الحِجْــرِ * أَقْوَيْنَ من حِجَــجٍ ومن دَهْـــرِ (١)

(١) هذا البيت مطلع قصيدة لزهير بن أبي سلمى مدح بها هرم بن سنان . والقنة (بالضم) : أعلى الجبل ، وأراد بها هنا ما أشرف من الأرض . والحجر (بكسر الحاء) : منازل ثمود بناحية الشام عنــد وادي القرى . وأقوين : خلون وأقفرن . والحجج : السنون . (راجع هذا البيت والكلام عليه في الشاهد الرابع والسبعين بعد السبعمائة من خزانة الأدب للبغدادي) .

أى من مرّ حجج ومن مرّ دهر . وإنما دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن « مِن » لا يُجَرّ بها الأزمان ، وإنما تُجَرّ الأزمان بمنذ؛ تقول ما رأيته منذ شهر أو سنةٍ أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم . فاذا وقعت فى الكلام وهى يليها زمن فيقدّر مضمر يليق أن يُجَرّ بمن؛ كما ذكرنا فى تقدير البيت . آبن عطية . ويحسن عندى أن يستغنى فى هـذه الآية عن تقدير، وأن تكون « مِن » تجر لفظة « أوّل » لأنها بمعنى البداءة؛ كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

السادســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ أى بأن تقوم؛ فهو فى موضـع نصب . «وأحق» هو أفعل من الحق، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين، لأحدهما فى المعنى الذى اشتركا فيه مَزِيّة على الآخر؛ فمسجد الضّرار وإن كان باطلا لا حقّ فيه ، فقد اشـتركا فى الحق من جهة اعتقاد بانيه ، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للسجدية؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عنـد الله، والآخر حق باطنا وظاهرا ؛ ومثل هذا قوله تعـالى : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » ومعلوم أن الخيريّة من النار مبعودة، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير؛ إذ كل حزب بمـا لديهم فرحون . وليس هذا من قبيل : العسل أحلى من الخل؛ فان العسل وإن كان حلوا فكل شيء ملائم فهو حلو؛ ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل مفردا بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف .

السابعـــة ــ قوله تعالى : (فِيهِ) من قال : إن المسجد يراد به مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فالهاء فى « أحقّ أن تقوم فيه » عائد إليه ، و « فيه رجال » له أيضا . ومن قال : إنه مسجد قباء ، فالضمير فى « فيه » عائد إليه على الخلاف المتقدم .

الثامنـــة ــ أثنى الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية على من أحبّ الطهارة وآثر النظافة ، وهى مُروءة آدمية ووظيفة شرعية؛ وفى الترمذيّ عن عائشة أنها قالت : مُرْنَ أزواجكنّ أن يستطيبوا بالمـاء فإنى أستحييهم . قال : حديث صحيح . وثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

كان يحمل المـاء معه فى الاستنجاء، فكان يستعمل الحجارة تخفيفا والمـاء تطهيرا. ٱبن العربى: وقد كان علماء القيرَوان يتخذون فى متوضآتهم أحجارا فى تراب ينقون بها ثم يستنجون بالمـاء.

التاســـعة — اللازم من نجـاسة المخرج التخفيـف، وفى نجاسة سائر البـدن والثوب التطهير. وذلك رخصة من الله لعباده فى حالتى وجود المـاء وعدمه؛ وبه قال عامّة العلماء. وشذّ ابن حبيب فقـال: لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم المـاء. والأخبار الثابتـة فى الاستجمار بالأحجار مع وجود المـاء تردّه.

العاشـــرة — واختلف العلماء من هـذا الباب فى إزالة النجاسة من الأبدان والثياب، بعد إجماعهم على التجاوز والعفو عن دم البراغيث مالم يتفاحش على ثلاثة أقوال: الأول — أنه واجب فرض، ولا تجوز صلاة من صلّى بثوب نجس عالمـا كان بذلك أو ساهيا؛ روى عن ٱبن عباس والحسن وابن سيرين، وهو قول الشافعىّ وأحمد وأبى ثَوْر، ورواه ٱبن وهب عن مالك، وهو قول أبى الفرج المـالكى والطبرى؛ إلا أن الطبرى قال: إن كانت النجاسة قدر الدرهم أعاد الصلاة. وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف فى مراعاة قدر الدرهم قياسا على حلقة الدّبر. وقالت طائفة: إزالة النجاسة واجبة بالسنة من الثياب والأبدان، وجوبَ سنة وليس بفرض. قالوا: ومن صلى بثوب نجس أعاد الصلاة فى الوقت فإن خرج الوقت فلا شىء عليه؛ هـذا قول مالك وأصحابه إلا أبا الفرج، ورواية ٱبن وهب عنـه. وقال مالك فى يسير الدم: لا تعاد منه الصلاة فى وقت ولا بعده، وتعاد من يسير البول والغائط؛ ونحو هذا كله من مذهب مالك قولُ اللّيث. وقال ٱبن القاسم عنه: تجب إزالتها فى حالة الذكر دون النسيان؛ وهى من مفرداته. والقول الأوّل أصح إن شاء الله؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم مَرّ على قبرين فقال: "إنهما ليعذَّبان وما يعذَّبان فى كبير أمّا أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله". الحديث، خرّجه البخارىّ ومسلم، وحَسْبُك. وسيأتى فى سورة «سبحان» (1). قالوا: ولا يعـذَّب الإنسان إلا على ترك واجب؛ وهـذا ظاهر.

---

(1) فى قوله تعالى: «وإن من شىء الا يسبح بحمده ...» آية ٤٤

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أكثر عذاب القبر في البول" . احتج الآخرون بخلع النبيّ صلى الله عليه وسلم نعليه في الصلاة لما أعلمه جبريل عليه السلام أن فيهما قذرا وأذى ... الحديث . خرّجه أبو داود وغيره من حديث أبي سعيد الخُدْريّ ، وسيأتي في سورة « طه » إن شاء الله تعالى (١) . قالوا : ولمّا لم يُعِد ما صلى دل على أن إزالة النجاسة سنة وصلاته صحيحة ، ويعيد ما دام في الوقت طلبا للكمال . والله أعلم .

الحادية عشرة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : وأما الفرق بين القليل والكثير بقدر الدرهم البغليّ (٢) ؛ [يعني كبار الدراهم التي هي على قدر استدارة الدينار] (٣) قياسا على المَسْرُبة (٤) ففاسد من وجهين ؛ أحدهما — أن المقدرات لا تثبت قياسا فلا يقبل هذا التقدير . الثاني — أن هذا الذي خُفف عنه في المَسْرُبة رخصة للضرورة ، والحاجة والرخص لا يقاس عليها ؛ لأنها خارجة عن القياس فلا تُرَدّ إليه .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١٠٩)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ ﴾ أي أَصَّل ، وهو استفهام معناه التقرير . و « مَن » بمعنى الذي ، وهي في موضع رفع بالابتداء ، وخبره « خير » . وقرأ نافع وابن عامر وجماعة « أُسِّسَ بُنْيانُه » على بناء أسّس للمفعول ورفع بنيان فيهما . وقرأ ابن كَثير وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ « أَسَّس بنيانَه » على بناء الفعل للفاعل ونصب بنيانه فيهما ، وهي اختيار أبي عبيد لكثرة من قرأ به ، وأن الفاعل سُمّي فيه . وقرأ نصر بن عاصم وابن عليّ « أفمن

(١) في المسألة الثانية من قوله تعالى : « فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى » آية ١٢

(٢) دراهم ضربها رأس البغل لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (٣) زيادة عن ابن العربي .

(٤) المسربة (بفتح الراء وضمها) : مجرى الحدث من الدبر، يريد أعلى الحلقة .

أَسَسُ» بالرفع «بُنيانِه» بالخفض . وعنه أيضا « أساس بنيانه » وعنه أيضا « أُسُّ بنيانِه » بالخفض . والمراد أصول البناء كما تقدم . وحكى أبو حاتم قراءة سادسة وهى « أُسّن آساس بنيانه » . قال النحاس : وهذا جمع أُسّ، كما يقال : خف وأخفاف، والكثير « إساس » مثل خِفاف . قال الشاعر :

أصبح المُلْك ثابت الآساس * فى البَهالِيل من بنى العَبّاس (١)

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ ﴾ قراءة عيسى بن عمر — فيما حكى سيبويه — بالتنوين، والألف ألف إلحاق كألف تَتْرًى فيما نُوِّن، وقال الشاعر (٢) :

* يَسْتَنُّ فى عَلْقًى وفى مُكُورِ (٢) *

وأنكر سيبويه التنوين، وقال : لا أدرى ما وجهه . ﴿ عَلَى شَفَا ﴾ الشفا : الحرف والحدّ، وقد مضى فى «آل عمران» (٣) مستوفًى . و ﴿ جُرُف ﴾ قرئ برفع الراء، وأبو بكر وحمزة بإسكانها ؛ مثل الشُّغُل والشُّغْل، والرُّسُل والرُّسْل، يعنى جُرُفا ليس له أصل . والجُرُف : ما يُتجرّف بالسيول من الأودية، وهو جوانبه التى تحفر بالماء، وأصله من الجَرْف والاجتراف؛ وهو اقتلاع الشىء من أصله . ﴿ هَارٍ ﴾ ساقط؛ يقال : تهوّر البناء إذا سقط، وأصله هائر، فهو من المقلوب يقلب وتؤخر ياؤها، فيقال : هارٍ وهائر، قاله الزجاج . ومثله لاثَ الشىءُ به إذا دار؛ فهو لاثٍ أى لائث . وكما قالوا : شاكى السلاح وشائك . قال العجاج :

* لَاثٍ به الأشاء والعُبْرِىّ *

الأشاء النخل ، والعُبْرِىّ السِّدْر الذى على شاطىء الأنهار . ومعنى لاث به مُطِيف به . وزعم أبو حاتم أن الأصل فيه هاور، ثم يقال هائر مثل صائم، ثم يقلب فيقال هارٍ . وزعم الكسائى أنه من ذوات الواو ومن ذوات الياء، وأنه يقال : تهور وتهير .

قلت : ولهذا يمال و يفتح .

---

(١) راجع هذا البيت وشرحه فى الأغانى ج ٤ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية . (٢) هو العجاج . وصف ثورا يرتعى فى ضروب من الشجر؛ والعلق والمكور : ضربان من الشجر . ومعنى يستن : يرتعى ، وسنّ الماشية رعيها . (عن شرح الشواهد) . (٣) راجع ج ٤ ص ١٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثـــة — قوله تعـالى . ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فاعل آنهار الجُرُف؛ كأنه قال : فانهار الجرف بالبنيان فى النار؛ لأن الجرف مذكر . ويجوز أن يكون الضـمير فى به يعود على مَن وهو البانى؛ والتقدير : فانهار من أسس بنيانه على غير تقوى . وهـذه الآية ضربُ مثـلٍ لهم، أى من أسس بنيانه على الإســلام خير أمْ منّ أسس بنيانه على الشرك والنفاق . وبيّن أن بناء الكافر كبناء على جُرُف جهنم يتهوّر بأهله فيها . والشَّفا : الشفير . وأشفى على كذا أى دنا منه .

الرابعـــة — فى هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنّية تقوى الله تعالى والقصـد لوجهه الكريم فهو الذى يبقى ويَسْـعَد به صاحبه ويصـعد إلى الله ويرفع إليه، ويخبر عنه بقوله : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَـلَالِ وَالْإِكْرَامِ » على أحد الوجهين . ويخبر عنه أيضا بقوله : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — واختلف العلمـاء فى قوله تعالى : ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ هل ذلك حقيقة أو مجاز على قولين ؛ الأول — أن ذلك حقيقة وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إليه فهدم رؤى الدّخان يخرج منه ؛ من رواية سعيد بن جُبير . وقال بعضهم : كان الرجل يُدخل فيه سعفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة . وذكر أهل التفسير أنه كان يُحفر ذلك الموضع الذى انهار فيخرج منه دخان . وروى عاصم بن أبى النَّجُود عن زِرّ بن حُبيش عن آبن مسعود أنه قال : جهنم فى الأرض ، ثم تلا « فآنهار به فى نار جهنم » . وقال جابر ابن عبدالله : أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى — أن ذلك مجاز، والمعنى : صار البناء فى نار جهنم، فكأنه انهـار إليه وهَوَى فيه؛ وهـذا كقوله تعالى : « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ » . والظاهر الأول، إذ لا إحالة فى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا ﴾ يعنى مسجد الضّرار . ﴿ رِيبَةً ﴾ أى شــكا فى قلوبهم ونفاقا؛ قاله آبن عباس وقتادة والضحاك . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبــةً * وليس وراء الله للمرء مَـــذْهَبُ

وقال الكلبي : حسرة وندامة؛ لأنهـم ندموا على بنيانه . وقال السُّـدِّى وحبيب والمبّرد : « رِيبــة » أى حزازة وغيظا . ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُـمْ ﴾ قال ابن عباس : اى تنصـدع قلوبهـم فيموتوا؛ كقوله : « لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ »(١) لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين؛ وقاله قتـادة والضحاك ومجاهد . وقال سفيان : إلا أن يتوبوا . عِكرمة : إلا أن تقطع قلوبهـم فى قبورهم، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرءونها : ريبة فى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم. وقرأ الحسن و يعقوب وأبو حاتم « إلى أن نقطع » على الغاية ، أى لا يزالون فى شــك منه إلى أن يموتوا فيستيقنوا و يتبينوا. واختلف القراء فى قوله « تَقَطّع » فالجمهور« تُقَطّع » بضم التاء وفتح القاف وشــد الطاء على الفعل المجهول . وقرأ آبن عامر وحمزة وحفص و يعقوب كذلك إلا أنهـم فتحوا التاء . و روى عن يعقوب وأبى عبـد الرحمن « تُقْطَع » على الفعل المجهول مخفّف القاف . وروى عن شــِبْل وآبن كَثير « تَقْطع » خفيفة القاف « قلوبَهم » نصبا ، أى أنت تفعل ذلك بهم . وقد ذكرنا قراءة أصحاب عبـد الله . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقــدم(٢) .

قوله تعــالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(١) آية ٤٦ سورة الحاقة . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ قيل : هذا تمثيل؛ مثل قوله تعالى : « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ »(١) . ونزلت الآية فى البيعة الثانية، وهى بيعة العقبة الكبرى، وهى التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرَهم سِنًّا عُقبة بن عمرو؛ وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة، فقال عبد الله بن رَوَاحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أشترِطُ لربّى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : "الجنة" قالوا : رَبِح البيع ، لا نُقيل ولا نستقيل؛ فنزلت : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الاية . ثم هى بعد ذلك عامّة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

الثانيــة — هذه الاية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده، وان كان الكل للسيد لكن إذا ملّكه عامله فيما جعل إليه . وجائز بين السيد وعبده مالا يجوز بينه و بين غيره؛ لأن ماله له وله انتزاعه .

الثالثــة — أصل الشراء بين الخلق أن يعوّضوا عما خرج من أيديهم ما كان أنفع لهم أو مثل ما خرج عنهم فى النفع ؛ فاشترى الله سبحانه من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم فى طاعته، و إهلاكها فى مرضاته، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضا عنها إذا فعلوا ذلك . وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوّض ولا يقاس به، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيع والشراء، فمن العبد تسليم النفس والمال، ومن الله الثواب والنوال؛ فسمى هذا شراء . وروى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فوق كل بِرٍّ بِرًّا حتى يبذُل العبد دمه فاذا فعل ذلك فلا بِرّ فوق ذلك " . وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(١) آية ١٦ سورة البقرة .

وأنشد الأصمعي لجعفر الصادق رضي الله عنه :

أُثامِنُ بالنفس النفيســة ربَّهـا * وليس لهـا في الخلق كلِّهِمُ ثَمَنْ
بها تُشترى الجناتُ ، إن أنابعتها * بشيء سواها إن ذلــكُمُ غَبَنْ
لئن ذهبتْ نفسي بدنيـا أصبْتُها * لقد ذهبتْ نفسي وقد ذهب الثمن

قال الحسن : ومرّ أعرابيّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم » فقال : كلام مَن هــذا ؟ قال : "كلام الله" قال : بَيْعٌ والله مُرْبِح لا نُقيله ولا نستقيله . فخرج إلى الغَزْوِ واستُشْهِد .

الرابعـــة — قال العلماء : كما اشترى من المؤمنـين البالغين المكلّفين كذلك اشترى من الأطفال فآلمهم وأسقمهم ؛ لمـا في ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للبـالغين ، فإنهم لا يكونون عند شيء أكثر صلاحا وأقلّ فسادا منهم عنــد ألم الأطفال ، وما يحصل للوالدين الكافلين من الثواب فيما ينالهم من الهَمّ ويتعلق بهم من التربية والـكفالة . ثم هو عز وجل يعوّض هؤلاء الأطفال عِوَضا إذا صاروا إليه . ونظير هذا في الشاهد أنك تكترى الأجير لِيَبْنِيَ وينقل الـتراب وفي كل ذلك له ألم وأذًى ، ولكن ذلك جائز لمـا في عمـله من المصلحة ولمـا يصل إليه من الأجر .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بيان لمـا يقاتَل له وعليــه ؛ وقد تقدم . ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ قرأ النَّخَعِيّ والأعمش وحمزة والكِسائي وخَلَف بتقديم المفعول على الفاعل ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* فإن تَقتــلونا نُقتِّلكـم ... *

أي إن تقتلوا بعضنا يقتلكم بعضنا . وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ إخبار من الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب ، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام . و « وعْدًا » و « حَقًّا » مصدران مؤكِّدان .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾ أى لا أحدَ أوفى بعهده من الله . وهو يتضمّن الوفاء بالوعد والوعيد، ولا يتضمن وفاء البارئ بالكل ؛ فأما وعده فللجميع، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين وببعض الذنوب وفى بعض الأحوال . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أى أظهِروا السرور بذلك . والبشارةُ إظهارُ السرور فى البَشَرة . وقد تقدم(١) . وقال الحسن : واللهِ ما على الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة . ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى الظفر بالجنة والخلود فيها .

قوله تعالى : ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ التائبون هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله إلى الحالة المحمودة فى طاعة الله . والتائب هو الراجع . والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين . ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ أى الراضون بقضائه المصرفون نعمته فى طاعته، الذين يحمدون الله على كل حال . ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ الصائمون؛ عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . ومنه قوله تعالى : « عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ »(٢) . وقال سفيان بن عُيينة : إنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلّها من المطعم والمشرب والنكاح . وقال أبو طالب :

وبالسائحين لا يذوقون قطرة * لربهم والذاكرات العوامل

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٥ سورة التحريم .

وقال آخـــر :

بَرًّا يصـــلِّى ليــلَه ونهــارَه * يَظَلّ كثـيرَ الذكر لله سائحا

وروى عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيامُ؛ أسنده الطبرى . ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سياحة أمتى الصيام " . قال الزجاج : ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض . وقد قيل : إنهم الذين يديمون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وروى أبو أمامة أن رجلا آستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى السياحة فقال : " إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله " . صححه أبو محمد عبد الحق . وقيل : السائحون المهاجرون ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم؛ قاله عكرمة . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العبر والعلامات الدالة على توحيده وتعظيمه؛ حكاه النقاش . وحُكى أن بعض العُبّاد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه فى أذن القدح وقعد يتفكر حتى طلع الفجر؛ فقيل له فى ذلك فقال : أدخلت أصبعى فى أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى : « إذ الأغلالُ فى أعناقِهِمْ والسَّلاسِلُ » (١) وذكرت كيف أتلقى الغُلّ وبقيت ليلى فى ذلك أجمع .

قلت : لفظ «سَيح» يدل على صحة هذه الأقوال؛ فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ؛ فالصائم مستمر على الطاعة فى ترك ما يتركه من الطعام وغيره، فهو بمنزلة السائح . والمتفكرون تجول قلوبهم فيما ذُكر . وفى الحديث : " إن لله ملائكة سياحين مشّائين فى الآفاق يبلغوننى صلاة أمتى " ويروى " صياحين " بالصاد، من الصياح . ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ يعنى فى الصلاة المكتوبة وغيرها . ﴿ الآمِرُون بالمَعْرُوفِ ﴾ أى بالسُّنّة . وقيل بالإيمان . ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ قيل عن البِدْعة . وقيل عن الكفر . وقيل : هو عموم فى كل معروف ومنكر . ﴿ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ ﴾ أى القائمون لما أمر به والمنتهون عما نهى عنه .

(١) آية ٧١ سورة غافر .

الثانيـــة — واختلف أهل التأويل فى هذه الاية، هل هى متصلة بمـا قبلُ أومنفصلة؛ فقال جماعة : الآية الأولى مستقلة بنفسها؛ يقع تحت تلك المبايعة كلُّ موحِّد قاتل فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات فى هذه الآية الثانية أو با كثرها. وقالت فرقة : هــذه الأوصاف جاءت على جهــة الشرط، والآيتان مرتبطتان؛ فلا يدخل تحت المبايعة الا المؤمنون الذين هم على هــذه الأوصاف ويبذلون أنفسهم فى سبيل الله؛ قاله الضحاك . قال ابن عطية : وهذا القول تحريج وتضييق ، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلمــاء والشرع أنها أوصاف الكَمَلَة من المؤمنين، ذكرها الله ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا فى أعلى مرتبــة . وقال الزجاج : الذى عنــدى أن قوله « التائبون العابدون » رفع بالابتــداء وخبره مضمر؛ أى التائبون العابدون — إلى آخر الآية — لهم الجنــة أيضا وإن لم يجاهدوا ، إذا لم يكن منهم عناد وقصــد إلى ترك الجهاد ؛ لأن بعض المسلمين يُجزِى عن بعض فى الجهاد . واختار هذا القول القشيرىّ وقال : وهذا حسن؛ إذ لو كان صفة للؤمنين المذكورين فى قوله : « اشترى من المؤمنين » لكان الوعد خاصا للجاهدين . وفى مصحف عبــد الله « التائبــين العابدين » إلى آخرها ؛ ولذلك وجهان : أحدهما الصــفة للؤمنين على الإتباع . والثانى النصب على المدح .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى الواو فى قوله : ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ فقيل : دخلت فى صفة الناهين كما دخلت فى قوله تعالى : « حـــمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» فذكر بعضها بالواو والبعض بغيرها . وهذا سائغ معتاد فى الكلام ولا يُطلب لمثله حكمة ولا علّة . وقيل : دخلت لمصاحبة الناهى عن المنكر الآمر بالمعروف فلا يكاد يذكر واحد منهما مفردا . وكذلك «ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا»[1] . ودخلت فى «والحافِظُونَ» لقربه من المعطوف . وقد قيل : إنها زائدة، وهــذا ضعيف لا معنى له . وقيل : هى واو الثمانية، لأن السبعة عند العرب عدد كامل صحيح . وكذلك قالوا فى قوله : «ثَيِّباتٍ وأبكارا»

(١) آية ٥ سورة التحريم .

وقوله في أبواب الجنة : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » (١) وقوله : « ويقولون سَبْعَةٌ وثامِنُهُم كلبهم » (٢) وقد ذكرها ابن خَالَوَيْه في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله : « وفتحت أبوابها » وأنكرها أبو علي . قال ابن عطية : وحدثني أبي رضي الله عنه عن الأستاذ النحوي أبي عبد الله الكفيف المالِقِيّ، وكان ممن استوطن غَرْناطة وأقرأ فيها في مدّة ابن حَبُوس أنه قال : هي لغة فصيحة لبعض العرب؛ من شأنهم أن يقولوا إذا عَدّوا : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة؛ وهكذا هي لغتهم . ومتى جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو . قلت : هي لغة قريش . وسيأتي بيانه ونقضه في سورة « الكهف » (٣) إن شاء الله تعالى وفي الزمر (٤) .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى مسلم عن سعيد بن المسيِّب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدَ الله بن أبي أمية ابن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عَمّ ، قل لا إله إلا الله كلمةً أشهد لك بها عند الله" فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب . فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعرِضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم : هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمَا والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك " فأنزل الله عز وجل « مَا كَانَ للنَّبِيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للشركين ولو كانوا أُولِي قُرْبَى من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم » . وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّك

(١) آية ٧٣ سورة الزمر . (٢) آية ٢٢ سورة الكهف . (٣) في قوله تعالى : «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ...» آية ٢٢ (٤) في قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم ... » آية ٧٣

لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [(١)] » . فالآية على هذا ناسخة لاستغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمه؛ فإنه استغفر له بعد موته على ما رُوي في غير الصحيح . وقال الحسـين بن الفضل : وهـذا بعيد ؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن، ومات أبو طالب في عنفوان الإسلام والنبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة .

الثانيـــة ـــ هذه الآية تضمّنت قطع موالاة الكفار حيِّهم وميتهم؛ فان الله لم يجعـل للؤمنين أن يستغفروا للشركين؛ فطلبُ الغفران للشرك ممـا لايجوز . فان قيل : فقد صح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم أُحُد حين كسروا رَبَاعِيَته وشجّوا وجهه : " اللّهُمّ آغفر لقومى فانهم لا يعلمون " فكيف يجتمع هـذا مع منع الله تعالى رسولَه والمؤمنـين من طلب المغفرة للشركين . قيل له : إن ذلك القول من النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا كان على سبيل الحكاية عمّن تقدمه من الأنبيـاء؛ والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كأنى أنظر إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم يحكى نبيّا من الأنبيـاء ضربه قومُه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : " رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون " . وفى البخارىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر نبيّا قبله شجّه قومـه فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يخـبر عنه بأنه قال : " اللّهُمّ اغفـر لقومى فانهم لا يعلمون " .

قلت : وهذا صريح فى الحكاية عمن قبله ، لا أنه قاله ابتداء عن نفسه كما ظنه بعضهم . والله أعلم . والنبيّ الذى حكاه هو نوح عليه السلام؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « هود » إن شاء الله . وقيل : إن المراد بالاستغفار فى الآية الصلاةُ . قال بعضهم : ما كنت لأدَعَ الصلاة على أحد من أهل القبـلة ولو كانت حبشيّة حُبلى من الزنى ؛ لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين بقوله : « ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفِروا للشركين » الآية . قال عطاء بن أبى رَبَاح : الآية فى النهى عن الصـلاة على المشركين ، والاستغفارُ هنـا يراد به الصلاة . جواب ثالث ـــ وهو أن الاستغفار للأحيـاء جائز ؛ لأنه مرجوّ إيمانهم، ويمكن

(١) آية ٥٦ سورة القصص .

تألفهم بالقول الجميل وترغيبهم فى الدّين . وقد قال كثير من العلماء : لا بأس أن يدعُوَ الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ماداما حيين. فأما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يُدْعَى له . قال ابن عباس : كانوا يستغفرون لموتاهم فنزلت، فأمسكوا عن الاستغفار ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا .

الثالثـة — قال أهل المعانى : « ما كان » فى القرآن يأتى على وجهين : على النفى نحو قوله : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا »(١) ، « ومَا كانَ لِنَفْسٍ أنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ »(٢) . والآخر بمعنى النهى كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ »(٣) ، و « مَا كَانَ لِلنَّبِيّ والذِين آمنوا أن يستغفِروا للمشركين » .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — روى النَّسائىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبويه . فأتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فنزلت ﴿ وما كان استِغفار إبراهيم لأبِيهِ إلّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيّاهُ ﴾ . والمعنى لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه؛ فان ذلك لم يكن إلا عن عِدَة . قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعدَ إبراهيم الخليلَ أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد، فلما مات على الكفر علم أنه عدوّ الله، فترك الدعاء له؛ فالكناية فى قوله : « إياه » ترجع إلى إبراهيم، والواعد أبوه . وقيل : الواعد إبراهيم؛ أى وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له، فلما مات مشركا تبرّأ منه . ودلّ على هذا الوعد قوله : « سأَسْتَغفِرُ لك رَبى »(٤) . قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : تعلق النبىّ صلى الله عليه

(١) آية ٦٠ سورة النمل . (٢) آية ١٤٥ سورة آل عمران . (٣) آية ٥٣ سورة الأحزاب .
(٤) آية ٤٧ سورة مريم .

وسلم في الاستغفار لأبي طالب بقوله تعالى : « سأستغفر لك ربّي » فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبيّن الكفر منه، فلما تبيّن له الكفر منه تبرأ منه، فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا .

الثانيــة — ظاهر حالة المرء عند الموت يُحكم عليه بها، فان مات على الإيمان حكم له به، وإن مات على الكفر حُكم له به؛ وربّك أعلم بباطن حاله؛ بَيْدَ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له العباس : يارسول الله، هل نفعت عمّك بشيء ؟ قال : "نعم" . وهذه شفاعة في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار؛ على ما بيناه في كتاب « التذكرة » .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ اختلف العلماء في الأوّاه على خمسة عشر قولا : الأول — أنه الدّعّاء الذي يكثر الدُّعاء؛ قاله ٱبن مسعود وعبيد بن عمير . الثاني — أنه الرحيم بعباد الله؛ قاله الحسن وقتادة، وروى عن ٱبن مسعود . والأول أصح إسنادا عن ٱبن مسعود؛ قاله النحاس . الثالث — أنه الموقن؛ قاله عطاء وعكرمة، ورواه أبو ظَبيان عن ٱبن عباس . الرابع — أنه المؤمن بلغة الحبشة؛ قاله ابن عباس أيضا . الخامس — أنه المسبح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة؛ قاله الكلبيّ وسعيد ابن المسيّب . السادس — أنه الكثير الذكر لله تعالى؛ قاله عقبة بن عامر، وذكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا يكثر ذكر الله ويسبح فقال : "إنه لأوّاه" . السابع — أنه الذي يكثر تلاوة القرآن . وهذا مروى عن ابن عباس .

قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها . الثامن — أنه المتأوه؛ قاله أبو ذرّ . وكان إبراهيم عليه السلام يقول : "آه من النار قبل ألّا تنفع آه" . وقال أبو ذر : كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويقول في دعائه : أَوْهِ أَوْه؛ فشكاه أبو ذَرّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "دعه فإنه أوّاه" فخرجت ذات ليلة فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . التاسع — أنه الفقيه؛ قاله مجاهد والنَّخَعيّ . العاشر — أنه المتضرع الخاشع؛ رواه عبد الله بن شدّاد بن الهاد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أنس : تكلمت ٱمرأة عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بشيء كرهه فنهاها عمر فقال النبيّ صلى الله عليه

وسلم : " دَعُوها فإنها أوّاهة " قيل : يا رسول الله، وما الأوّاهة ؟ قال : " الخـاشعة " . الحادى عشر — أنه الذى إذا ذكر خطاياه آستغفر منها؛ قاله أبو أيوب . الثانى عشر — أنه الكثير التأوّه من الذنوب؛ قاله الفرّاء . الثـالث عشر — أنه المَعَلِّم[1] للخير؛ قاله سعيد ابن جبير . الرابع عشر — أنه الشفيق ؛ قاله عبـد العزيز بن يحيى . وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يُسمَّى الأوّاه لشفقته ورأفته . الخامس عشر — أنه الراجع عن كل ما يكره الله تعالى؛ قاله عطاء . وأصله من التأوّه ، وهو أن يُسمع للصدر صوت من تنفّس الصُّعَداء . قال كعب : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار تأوّه . قال الجوهرى : قولهم عند الشكاية أَوْهِ من كذا (ساكنة الواو) إنمـا هو توجّع . قال الشاعر :

فأَوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتهـا * ومِن بُعد أرضٍ بيننا وسمـاء

وربمـا قلبوا الواو ألفا فقالوا : آهِ من كذا . وربمـا شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهـاء فقـالوا : أَوِّهْ من كذا . وربمـا حذفوا مع التشـديد الهـاء فقالوا : أَوِّ من كذا؛ بلا مد . وبعضهم يقول : آوَّهْ؛ بالمـد والتشديد وفتح الواو ساكنة الهاء لتطويل الصوت بالشكاية . وربمـا أدخلوا فيها التاء فقالوا : أوّتاه؛ يمـدّ ولا يمدّ . وقد أوّه الرجل تأويها وتأوّه تأوّها إذا قال أَوِّهْ . والاسم منه الآهة بالمد . قال المُثَقِّب العَبْدىّ :

إذا ما قمتُ أرحَلُهَا بليلٍ * تأوَّهُ آهــةَ الرجلِ الحزينِ

والحليم : الكثير الحلم، وهو الذى يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لم يعاقِب أحدا قطُّ إلا فى الله ولم ينتصر لأحد إلا لله . وكان ابراهيم عليه السـلام كذلك، وكان إذا قام يصلى سُمِع وجِيبُ[2] قلبه على ميلين .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) ﴾

(١) معلم كل شىء : مظنته . (٢) وجيب القلب : خفقانه واضطرابه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ أى ما كان الله ليوقع الضلالة فى قلوبهم بعد الهُدَى حتى يُبيّن لهم ما يتّقون فلا يتقوه، فعند ذلك يستحقون الإضلال .

قلت : ففى هذا أدل دليل على أن المعاصى إذا ارتكبت وانتهك حجابها كانت سببا إلى الضلالة والردى، وسُلّما إلى ترك الرشاد والهدى . نسأل الله السداد والتوفيق والرشاد بمنه . وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله فى قوله « حتى يبيّن لهم » : أى حتى يحتج عليهم بأمره؛ كما قال : « وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمَرْنا مُتْرَفِيها ففسقوا فيها »(١) وقال مجاهد : « حتى يبيّن لهم » أى أمر إبراهيم؛ أى لا يستغفروا للشركين خاصّة ويبين لهم الطاعة والمعصية عامّة . وروى أنه لما نزل تحريم الخمر وشُدّد فيها سألوا النبىّ صلى الله عليه وسلم عمن مات وهو يشربها، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قوما بعد إذ هداهم حتى يُبيّنَ لهم ما يتقون » وهذه الآية رد على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق هداهم وإيمانهم؛ كما تقدّم(٢) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تقدّم(٣) معناه غير مرة .

قوله تعالى : لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

روى الترمذى حدّثنا عبد بن حميد حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لم أتخلف عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرا، ولم يعاتب النبىّ صلى الله عليه وسلم أحدا تخلّف عن بدر، إنما خرج يريد العير فخرجت قريش مُغَوّثين لعيرهم، فالتقوا عن غير موعد؛

(١) آية ١٦ سورة الاسراء . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٩ ، ١٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦١ . وجـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

كما قال الله تعالى ؛ ولعمرى إن أشرف مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس لَبَدْر، وما أحبّ أنى كنت شهدتُها مكان بيعتى ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، ثم لم أتخلف بعدُ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى كانت غزوة تبوك، وهى آخر غزوة غزاها ، وآذن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرحيل؛ فذكر الحديث بطوله قال : فآنطلقت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون ، وهو يستنير كآستنارة القمر، وكان إذا سُرّ بالأمر استنار، فجئت فجلست بين يديه فقال : " أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم أتى عليك منذ ولدتك أمك" فقلت : يا نبيّ الله، أمن عند الله أم من عندك؟ قال : "بل من عند الله — ثم تلا هذه الآية — "لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسْرة — حتى بلغ — إن الله هو التواب الرحيم" قال : وفينا أنزلت أيضا « اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وذكر الحديث . وسيأتى مكمَّلًا فى صحيح مسلم فى قصة الثلاثة إن شاء الله تعالى .

واختلف العلماء فى هذه التوبة التى تابها الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار على أقوال ؛ فقال ابن عباس : كانت التوبة على النبيّ لأجل إذنه للمنافقين فى القعود؛ دليله قوله : «عفا الله عنك لِمَ أَذِنْتَ لهم» (١) وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه . وقيل : توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة . وقيل : خلاصهم من نكاية العدو، وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى . وقال أهل المعانى : إنما ذُكر النبيّ صلى الله عليه وسلم فى التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم؛ كقوله « فأن لله خُمُسَه وللرّسولِ » .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أى فى وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرِد ساعة بعينها . وقيل : ساعة العسرة أشدّ الساعات التى مرت بهم فى تلك الغزاة . والعسرة صعوبة الأمر . قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظَّهْر وعسرة الزاد

(١) آية ٤٣ من هذه السورة .

وعسرة المـاء . قال الحسن : كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعـير يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس والشـعير المتغير والإهالة المنتِنـة (١) ، وكان النَّفَر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليهـا جُرْعة من ماء كذلك حتى تأتى على آخرهم، فلا يبقى على التمـرة إلا النواة ؛ فمضَوْا مع النبيّ صلى الله عليه وسـلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم . وقال عمر وقد سـئل عن ساعة العسرة : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنـا ستنقطع من العطش ، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرْثه (٢) فيشرب به ويجعل ما بقى على كبده . فقال أبو بكر : يا رسول الله، إن الله قد عوّدك فى الدعاء خيرا فادع لنا . قال : " أتحب ذلك " ؟ قال نعم؛ فرفع يديه فلم يُرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكبت فملئـوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر . وروى أبو هريرة وأبو سعيد قالا : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى غزوة تبوك فأصاب الناسَ مجاعةٌ وقالوا : يارسول الله، لو أذنت لنـا فنحرنا نواضحنا (٣) فأكلنـا وادّهنا . [فقال : رسول الله صـلى الله عليه وسـلم " افعلوا "] (٤) فجاء عمر وقال : يارسول الله إن فعلوا قلّ الظَّهر، ولكن ٱدْعُهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك . قال " نعم " ثم دعا بنطع (٥) فبُسط، ثم دعا بفضـل الأزواد ؛ فجعـل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر ، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير . قال أبو هريرة : فحزّرته فإذا هو قـدر رُبضة العنز (٦) ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسـلم بالبركة : ثم قال : " خذوا فى أوعيتكم " فأخذوا فى أوعيتهم حتى والذى لا إله إلا هو ما بقى فى العسكر وعاء إلا ملئـوه ، وأكل القوم حتى شبعوا، وفضلت فضلة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسولُ الله لا يَلْقَ اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما فيُحجب عن الجنة " . خرّجه مسلم فى صحيحه

---

(١) الإهالة : الشحم .   (٢) الفرث : السرجين (الزبل) ما دام فى الكرش .
(٣) الناضح : البعير يستق عليه ثم استعمل فى كل بعير وإن لم يحمل الماء .   (٤) زيادة عن صحيح مسلم .
(٥) النطع : بساط من الأديم .   (٦) ربضة العنز (بضم الراء وتكسر) : جثتها اذا بركت .

بلفظه ومعناه، والحمد لله . وقال ٱبن عرفة : سُمّي جيش تبوك جيشَ العُسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَدَب الناس إلى الغزو في حَمَارّة القيظ، فغلُظ عليهم وعَسُر، وكان إبّان ابتياع الثمرة . قال : وإنمـا ضُرب المثل بجيش العسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم لم يغز قبله في عدد مثله؛ لأن أصحابه يوم بدر كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، ويوم أُحُد سبعمائة، ويوم خيبر ألفا وخمسمائة، ويوم الفتح عشرة آلاف، ويوم حُنين اثنى عشر ألفا؛ وكان جيشه في غزوة تبوك ثلاثين ألفا وزيادة، وهي آخر مغازيه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب وأقام بتبوك شـعبان وأياما من رمضان، وبَثّ سراياه وصالح أقواما على الجزية . وفي هـذه الغزاة خلّف عليًّا على المدينـة فقال المنافقون : خلّفـه بُغضا له؛ فخرج خلف النبيّ صـلى الله عليه وسـلم وأخبره، فقال عليه السلام : "أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى"؛ وبيّن أن قعوده بأمره عليه السلام يوازي في الأجر خروجه معه؛ لأن المـدار على أمر الشـارع . وإنمـا قيل لها غزوة تبوك لأن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم رأى قوما من أصحابه يَبُوكُون حِسْيَ تبوك، أي يدخلون فيـه القدح ويحركونه ليخرج المـاء، فقال : "ما زلتم تَبُوكُونها بَوْكًا" فسمّيت تلك الغزوة غزوة تبوك . الحسى (بالكسر) ما تنشّـفه الأرض من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكتْه، فتحفر عنـه الرملَ فتستخرجه، وهو الاحتساء؛ قاله الجوهري .

قوله تعـالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ « قلوب » رفع بيزيغ، عند سيبويه . ويضمر في « كاد» الحديث تشبيها بكان؛ لأن الخبر يلزمها كما يلزم كان . وإن شئت رفعتها بكاد، ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمزة وحفص «يزيغ» بالياء، وزعم أبو حاتم أن من قرأ «يزيغ» بالياء فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد . قال النحاس : والذي لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجميع . حكى الفرّاء : رَحُب البـلاد وأرحبت، ورَحُبت لغة أهل الحجاز . واختلف في معنى تزيغ، فقيل : تَتلف بالجهد والمشقة والشدة . وقال ٱبن عباس : تعدل — أي تميل — عن الحق في الممـانعة والنصرة .

وقيـــل : من بعد ما همَ فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحقوا به . وقيل : هموا بالقفول فتاب الله عليهم وأمرهم به .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزِغ، وذلك سُنّة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطّنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم . وينشد :

منـك أرجو ولستُ أعرف ربًّا * يُرتجى منـه بعضَ ما منك أرجو

وإذا اشـتدت الشـدائد فى الأر * ض على الخلق فاستغاثوا وعجُّـوا

وابتليتَ العبـاد بالخوف والجـو * ع وصَرّوا(١) على الذنوب ولَجُّـوا

لم يكن لى سـواك ربِّى ملاذ * فتيقّنتُ أننى بـك أنجُـو

وقال فى حق الثلاثة « ثم تاب عليهم ليتوبوا » فقيل : معنى « ثم تاب عليهـم » أى وفقهم للتوبة ليتوبوا . وقيل : المعنى تاب عليهم؛ أى فسّح لهم ولم يعجل عقابهم ليتوبوا . وقيل : تاب عليهم ليثبتوا على التوبة . وقيل : المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم . وبالجملة فلولا ما سبق لهم فى علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا؛ دليله قوله عليه السلام : " اعمـلوا فكلٌّ مُيَسَّر لمـا خلق له " .

قوله تعـالى : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ قيل : عن التوبة؛ عن مجاهد وأبى مالك . وقال قتادة : عن غزوة تبوك . وحُكى عن محمد بن زيد معنى « خُلِّفوا » تركوا؛ لأن معنى خلّفت فلانا تركته وفارقته قاعدا عما نهضت فيه . وقرأ عكرمة بن خالد « خَلَفوا » أى أقاموا بعقب

(١) يريد « أصروا » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورُوِى عن جعفر بن محمد أنه قرأ «خالفوا» . وقيل. «خلفوا» أى أرجئوا وأُخّروا عن المنافقين فلم يُقض فيهم بشيء . وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام فقُبل عذرهم، وأخّر النبيّ صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن. وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاريّ وغيرهما . واللفظ لمسلم قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثةُ عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم وآستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى اللهُ فيه؛ فبذلك قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا » وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفنا تَخَلُّفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له وآعتذر إليه فقَبِل منه . وهذا الحديث فيه طول، هذا آخره[1] .

والثلاثة الذين خُلِّفوا هم : كعب بن مالك، ومُرارة بن ربيعة العامِرِيّ، وهلال آبن أميّة الوَاقِفِيّ، وكلّهم من الأنصار . وقد خرّج البخاريّ ومسلم حديثهم، فقال مسلم عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قطُّ إلا فى غزوة تبوك، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلّف عنه؛ إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عِير قريش؛ حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحِبّ أنّ لى بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدرٌ أذْكَرَ فى الناس منها، وكان من خبرى حين تخلّفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك : أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسَرَ منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة، واللهِ ما جمعتُ قبلها راحلتين قطّ حتى جمعتهما فى تلك الغزوة؛ فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، واستقبل عدوًّا كثيرا؛ فجَلَا للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهْبَةَ غَزْوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتابُ حافظٍ

(١) راجع صحيح مسلم كتاب التوبة .

— يريد بذلك الدّيوان — قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيب ، يظن أن ذلك سيخفى له مالم ينزل فيه وحى من الله تعالى ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظِّلال؛ فأنا إليها أَصْعر(١)، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهــم فأرجع ولم أقض شــيئا ، وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ! فلم يزل ذلك يتمــادى بى حتى استمر بالناس الجِدّ ، فأصــبح رســول الله صلى الله عليه وســلم غازيا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شــيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شــيئا ، فلم يزل كذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو؛ فهممت أن أرتحل فأُدركهم، فياليتنى فعلتُ ! ثم لم يقــدّر ذلك لى فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزُنُنى أنّى لا أرى لى أُسوةً إلا رجلا مغْمُوصا(٢) عليه فى النفاق، أو رجلا ممن عَذَر اللهُ من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : "ما فعل كعب بن مالك" ؟ فقال رجل من بنى سَلمة : يا رسول الله، حبســه برداه والنظر فى عطْفيــه(٣) . فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وســلم ؛ فبينما هو على ذلك رأى رجلا مُبيِّضًا يزول به السَّراب(٤) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "كن أبا خَيْثمــة" ؛ فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى، وهو الذى تصــدق بصاع التمر حتى لمَزَه المنافقون . فقال كعب بن مالك : فلمــا بلغنى أن رسول الله صــلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بَثّى، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطــه غدا ، وأستعين على ذلك كلَّ ذى رأى من أهلى؛ فلمــا قيل لى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلّ قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لن أنجو منه بشىء أبدا ، فأجمعت صِدْقه، وصبّح رسول الله صلى الله عليه وســلم قادما ، وكان إذا قدِم من ســفر بدأ بالمسجد فركع فيه

---

(١) أى أميل . (٢) أى مطعونا عليه فى دينه، متهما بالنفاق . (٣) هذا كناية عن كونه معجبا بنفسه، ذا زهو وتكبر . (٤) المبيض (بكسر الياء) : لابس البياض . والسراب : ما يظهر فى الهواجر فى البرارى كأنه الماء . و يزول أى يتحرك .

ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمـانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صـلى الله عليه وسـلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلّمت تبسم تبسّم المُغْضَب ، ثم قال : "تعال" فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : " ما خلفك ألم تكن قد ٱبتعت ظهرك " ؟ قال : قلت يارسول الله ، إنى والله لو جلست عنـد غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سَخَطه بعـذر ، ولقد أُعطِيتُ جَدَلا (١) ، ولكنى والله لقـد علمت لئن حدّثتك اليومَ حديثَ كذب تَرْضَى به عنى لَيُوشِكَنّ اللهُ أن يسخطك علىّ ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجِد (٢) علىّ فيه إنّى لأرجو فيه عُقْبَى الله ، واللهِ ما كان لى عذر ، واللهِ ما كنت قطُّ أقْوَى ولا أيسرَ منّى حين تخلّفت عنك . قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " أمّا هـذا فقد صـدق فقُمْ حتى يقضِىَ اللهُ فيك " . فقمت وثار (٣) رجال من بنى سَلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هـذا ! لقد عَجَزْت فى ألا تكون اعتـذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمـا اعتذر به إليه المتخلّفون ، فقـد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ! . قال : فوالله ما زالوا يؤنّبونى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذّب نفسى . قال : ثم قلت لهم هل لَقِىَ هذا معِى من أحد ؟ قالوا : نعم ! لقِيَه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قال قلت : من هما ؟ قالوا : مُرارة بن ربيعة العامرِىّ وهلال بن أمية الواقفىّ . قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ؛ قال : فمضيت حين ذكروهما لى . قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسـلم المسلمين عن كلامنا أيّها الثلاثةُ من بين من تخلّف عنـه . قال فٱجتنَبنا الناسُ ، وقال : تغيّروا لنا ، حتى تنكّرت لى فى نفسى الأرضُ ، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ؛ فأمّا صاحباى فاستكانا وقعـدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشَبَّ القومِ وأجْلَدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصـلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى

(١) أى فصاحة وقوة كلام بحيث اخرج من عهدة ما ينسب إلىّ بما يقبل ولا يرد . (٢) تجد : تغضب .
(٣) أى وثبوا على .

رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم فأسلّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفسى : هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا ! ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صـلاتى نظر إلىّ وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال ذلك علىّ من جَفْوة المسلمين مَشَيْتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبى قتادة، وهو ٱبن عمّى وأحبّ الناس إلىّ فسلّمت عليه، فوالله ما ردّ علىّ السلام، فقلت له : يا أبا قتادة أنْشُدُك بالله ! هل تعلَمَنّ أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت، فعُدْت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ! ففاضت عيناى، وتولّيت حتى تسوّرت الجدار، فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نَبَطِىٌّ من نَبَط أهلِ الشام ممن قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك؟ قال : فطفق الناس يُشـيرون له إلىّ حتى جاءنى فدفع إلىّ كتابا من مَلِك غَسّانَ، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه : أما بعـد ! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هَوَانٍ ولا مَضْيَعَة فٱلْحَقْ بنـا نُواسِك . قال فقلت حين قرأتها : وهـذه أيضا من البلاء! فتيامَمت بهـا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُه[(١)] بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين وٱستلبَثَ الوَحْىُ إذا رسول[(٢)] رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل ٱمرأتك . قال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا، بل اعتزلها فلا تقربَنّها . قال : فأرسل إلى صَاحِبَىّ بمثل ذلك. قال فقلت لامرأتى : ٱلْحَقِى بأهلك، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر. قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول الله، إن هلال بن أمية شـيخ ضائع ليس له خادم، فهـل تكره أن أخْدُمَه ؟ قال : "لا ولكن لا يقربَنّكِ" فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء! ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هـذا . قال : فقال بعض أهلى لو استأذنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ٱمرأتك، فقـد أذن لامرأة هلال بن أميـة أن تخْدُمَه . قال فقلت : لا أسـتأذن فيها رسول الله صـلى الله عليه وسلم، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله صـلى الله عليه وسـلم إذا

---

(١) أى أوقدته بالصحيفة .　　(٢) قال الواقدى : هذا الرسول هو خزيمة بن ثابت .

استأذنته فيها وأنا رجل شاب ! قال : فلبثت بذلك عشر ليال ، فكمُل لنا خمسون ليلة من حين نُهِيَ عن كلامنا . قال : ثم صلّيت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحُبت سمعت صوت صارخ أوفَى على سَلْع(١) يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبْشِر . قال : فخَرَرْت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج . قال : فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر ؛ فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قِبل صاحبَيّ مُبَشِّرون ، وركض رجل إلىّ فرسا ، وسعَى ساعٍ مِن أسْلَم قِبَلى وأوْفَى الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ؛ فلما جاءنى الذى سمعتُ صوته يبشّرنى نزعت له ثوبَىّ فكسوته إياهما ببشارته ، واللهِ ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ؛ فآنطلقت أتأمّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتلقانى الناس فوجا فوجا ، يهنئوننى بالتوبة ويقولون : لِتَهْنِئْكَ توبةُ الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحوله الناس ؛ فقام طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحنى وهنأنى ، واللهِ ما قام رجل من المهاجرين غيرُه . قال : فكان كعبٌ لاينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يَبْرُق وجهه من السرور ويقول : "أبشِر بخيرِ يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمك" . قال : فقلت أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك؟ قال : "لا بل من عند الله" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعةُ قمر . قال : وكنا نعرف ذلك . قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله علىّ أن أنخلع من مالى صدقةً إلى الله و إلى رسوله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمسك عليك بعضَ مالك فهو خير لك" . قال فقلت : فإنى أمسك سَهْمِيَ الذى بخَيْبرَ . قال وقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدِّث إلا صدقا ما بَقِيت . قال : فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدقِ الحديث منذ ذكرتُ

(١) أى أشرف على جبل سلع . قال الواقدى : هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا أحسنَ ممـا أبلانى الله به، والله ما تعمّدت كَذِبة منذ قلتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا، وإنى لأرجو الله أن يحفظنى فيما بَقِىَ؛ فأنزل الله عز وجل : « لقد تاب الله على النبىّ والمهاجِرِين والأنصارِ الذِين اتّبعوه فِى ساعةِ العُسْرةِ — حتى بلغ — إنه بِهِم رءوف رحِيم . وعلى الثلاثةِ الذِين خُلِّفوا حتى إِذا ضاقت عليهِم الأرض بِمـا رَحُبَت وضاقت عليهِم أنفسهم — حتى بلغ — اتقوا اللّه وكونوا مع الصادِقِين » . قال كعب : واللهِ ما أنعم الله علىّ من نعمة قطُّ بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظمَ فى نفسى من صدقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألّا أكون كذَبْتُه فأهلِك كما هلك الذين كذبوا ، إنـ الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوَحْىَ شرّ ما قال لأحد، وقال الله تعـالى : «سَيحْلِفُونَ بِاللهِ لكم إذا انقلبتم إليهِم لِتُعْرِضوا عنهم فأعْرِضوا عنهم إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهنم جزاء بِمـا كانوا يكسِبون . يحلِفون لكم لِترْضَوْا عنهم فإنْ ترْضَوْا عنهـم فإن الله لا يرضى عنِ القــومِ الفاسِقِين » . قال كعب : كنّا خُلّفنا أيهـا الثلاثةُ عن أمرِ أولئك الذين قَبِل منهــم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حَلَفُوا له فبايَعهم واستغفرَ لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسـلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة » ، وليس الذى ذكر الله ممـا خُلِّفنا تخلُّفَنا عن الغزو، وإنمـا هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقَبِل منه .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ﴾ أى بمـا اتسعت؛ يقال : منزل رَحْب ورحِيب ورُحاب . و « ما » مصدرية ؛ أى ضاقت عليهم الأرض برَحْبهـا، لأنهم كانوا مهجورين لا يعامَلون ولا يكلَّمون. وفى هذا دليل على هِجران أهل المعاصى حتى يتوبوا .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أى ضاقت صدورهم بالهمّ والوحشة ، وبمـا لقوه من الصحابة من الجفْوة . ﴿ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْـهِ ﴾ أى تيقّنوا أن لا ملجأ يلجئـون إليه فى الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه . قال أبو بكر الورّاق : التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بمـا رَحُبت ، وتضيق عليه نفســه ؛ كتوبة كعب وصاحبيه .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فبدأ بالتوبة منه . قال أبو زيد : غَلِطت فى أربعـة أشياء : فى الابتداء مع الله تعـالى، ظننت أنى أحبّه فإذا هو أحبّنى؛ قال الله تعـالى: « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وظننت أنى أرضى عنه فإذا هو قد رضِىَ عنى؛ قال الله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » . وظننت أنى أذكره فإذا هو يذكرنى؛ قال الله تعـالى : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » . وظننت أنى أتوب فإذا هو قد تاب علىّ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » . وقيل : المعنى ثم تاب عليهم ليثبتوا على التوبة؛ كما قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا آمِنوا »(١) . وقيل : أى فسح لهم ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم؛ قال جل وعز : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »(٢) .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذُهب بهم عن منازل المنافقين . قال مُطَرِّف : سمعت مالك بن أنس يقـول : قلما كان رجـل صادقا لا يكذب إلا مُتّع بعقـله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف فى المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال؛ فقيل : هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب . وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أى اتقوا مخالفة أمر الله . ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصادِقِين ﴾ أى مع الذين خرجوا مع النبىّ صـلى الله عليه وسـلم لا مع المنافقين . أى كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم الأنبياء؛ أى كونوا معهم بالأعمال الصالحة فى الجنة. وقيل : هم المراد بقوله : « ليس البِرَّ أن تُوَلُّوا وُجوهَكُمْ(٣) — الآية إلى قوله — أولئك الذين صدقوا» . وقيل : هم الموفون بمـا عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى : « رِجالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

(١) آية ١٣٦ سورة النساء . (٢) آية ١٦٠ سورة النساء. (٣) راجع ج ٢ ص ٢٣٧ طبعة ثانية.

الله عليه(١)» . وقيل : هم المهاجرون؛ لقول أبي بكر يوم السَّقيفة : إن الله سمّانا الصادقين فقال : « للفقراءِ المهاجرين » الآية(٢)، ثم سماكم بالمفلحين فقال : « والذين تبوَّءوا الدّارَ والإيمانَ » الآية . وقيل هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . قال ابن العربي : وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفةُ في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما من قال إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب . وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعمّ الأقوال كلها؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة .

الثانيــة — حقّ مَن فهم عن الله وعَقَل عنه أن يلازم الصّدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفات(٣) في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار؛ قال صلى الله عليه وسلم : "عليكم بالصّدق فإن الصّدق يَهدِي إلى البِرّ وإن البِرّ يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصْدُق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا" . والكذب على الضد من ذلك؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إياكم والكذبَ فإن الكذب يَهْدِي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا" . خرّجه مسلم . فالكذب عار وأهله مسلوبو الشهادة، وقد ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة رجل في كذبة كذبها . قال معمر : لا أدري أكذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس . وسئل شُريك بن عبد الله فقيل له : يا أبا عبد الله، رجل سمعتُه يكذب متعمّدا أؤصلّي خلفه؟ قال لا . وعن ابن مسعود قال : إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يَعد أحدكم شيئا ثم لا ينجزه ، اقرءوا إن شئتم « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » هل ترون في الكذب رخصة ؟ وقال مالك : لا يُقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : يُقبل حديثه . والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه؛ فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كَمُلت خصاله ولا خَصلة هي أشرّ من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات .

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب .	(٢) آية ٨ سورة الحشر .	(٣) لعلها « الصفاء » بالهمز .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﴾ ظاهره خبر ومعناه أمر ؛ كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ » وقد تقدم . ﴿ أَنْ يَتَخَلَّفُوا ﴾ فى موضع رفع اسم كان . وهـذه معاتبة للؤمنين من أهل يَثْرِب وقبائل العرب المجاورة لها ؛ كمُزَيْنَة وجُهينة وأَشْجَع وغِفَار وأَسْلم على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوك . والمعنى : ما كان لهؤلاء المذكورين أن يتخلفوا؛ فإن النفير كان فيهم، بخلاف غيرهم فإنهم لم يُستنفَروا ؛ فى قول بعضهم . ويحتمل أن يكون الاستنفار فى كل مسلم، وخصّ هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم، وأنهم أحقّ بذلك من غيرهم .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدَّعة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى المشقة . يقال رغِبت عن كذا أى ترفّعت عنه .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أى عطش . وقرأ عبيـد ٱبن عمير « ظَمَاء » بالمد . وهما لغتان مثل خطأ وخطاء . ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ عطف، أى تعب، ولا زائدة للتوكيد . وكذا ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أى مجاعة . وأصله ضمور البطن؛ ومنه رجل خميص

وآمرأة مُحصانة . وقد تقدم[1] . ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ﴾ أى فى طاعتــه . ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا ﴾ أى أرضا . ﴿ يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ أى بوطئهم إياها ، وهو فى موضع نصب لأنه نعت للمَوْطئ ، أى غائظا . ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ﴾ أى قتلا وهزيمة . وأصــله من نِلت الشيء أنال أى أصبت . قال الكسائى : هو من قولهم أمرٌ مَنيل منــه ؛ وليس هو من التناول ، إنمــا التناول من نُلْته العطية . قال غيره : نُلت أنول من العطية ، من الواو والنيلُ من الياء ، تقول : نِلته فأنا نائل ، أدركته . ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ العرب تقول : وادٍ وأودية ، على غير قياس . قال النحاس : ولا يُعرف فيما علمت فاعل وأفعِلة سواه ، والقياس أن يجمع ووادِى ؛ فآستثقلوا الجمع بين واوين وهم يستثقلون واحدة ، حتى قالوا : اُقِّتتْ فى وُقِّتت . وحكى الخليل وسيبويه فى تصغير واصل اسم رجل أُوَيْصل فلا يقولون غيره . وحكى الفراء فى جمع واد أوداء .

قلت : وقد جمع أوداه ؛ قال جرير :

عرفت ببُرْقَة الأوداهِ رَسْمًا[2] * مُحِيلا طال عَهْدُك مِن رُسومِ

﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ قال آبن عباس : بكل روعة تنالهم فى سبيل الله سبعون ألف حسنة . وفى الصحيح : "الخيل ثلاثة ... — وفيه — وأما التى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإســلام فى مَرْجٍ[3] أو روضة فمـا أكلت من ذلك المرج أو الروضة إلا كُتب له عدد ما أكلت حســنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حســنات" . الحديث . هــذا وهى فى مواضعها فكيف إذا أُدْرِب[4] بها .

الرابعــــة — استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أن الغنيمة تُستحق بالإدراب والكون فى بلاد العدوّ ، فإن مات بعــد ذلك فله سهمه ؛ وهو قول أشهب وعبد الملك ، وأحد قولى الشافعى . وقال مالك وآبن القاسم : لا شىء له ؛ لأن الله عز وجل إنمــا ذكر فى هذه الآية الأجر ولم يذكر السهم .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى ديوانه ومعجم البلدان لياقوت : «ببرقة الوداء» والوداء : واد أعلاه لبنى العدوية والتيم ، وأسفله لبنى كليب وضبة . (٣) المرج : مرعى الدواب .
(٤) أدرب القوم : دخلوا أرض العدوّ .

قلت ــ الأوّل أصح لأن الله تعـالى جعل وطء ديار الكفار بمثـابة النَّيل من أموالهم وإخراجهم من ديارهم، وهو الذى يغيظهم ويدخل الذلّ عليهـم، فهو بمنزلة نَيْـل الغنيمة والقتل والأسر؛ وإذا كان كذلك فالغنيمة تُستحق بالإدراب لا بالحيازة، ولذلك قال علىّ رضى الله عنه : ما وُطئ قوم فى عُقر دارهم إلا ذَلّوا . والله أعلم .

الخامســـة ــ هذه الآية منسوخة بقوله تعـالى : « وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » وأن حكمها كان حين كان المسلمون فى قلّة، فلما كثروا نُسخت وأباح الله التخلف لمن شاء؛ قاله ٱبن زيد . وقال مجاهد : بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم قوما إلى البوادى ليعلّموا الناس فلما نزلت هــذه الآية خافوا ورجعوا؛ فأنزل الله « وما كان المؤمنون لينفِرُوا كافّة » . وقال قتادة : كان هــذا خاصّا بالنبىّ صلى الله عليه وســلم، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر؛ فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خَلْفَه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . وقول ثالث ــ أنها محكمة؛ قال الوليد بن مســلم : سمعت الاوزاعىّ وٱبن المبارك والفَزَارِىّ والسَّبِيعى وسعيد بن عبد العزيز يقولون فى هــذه الآية إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها .

قلت ــ قول قتادة حسن؛ بدليل غَزاة تبوك، والله أعلم .

السادســـة ــ روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سِرْتم مَسِيرًا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادِياً من وادٍ إلا وهم معكم فيــه" قالوا : يارسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينــة . ؟ قال : "حبسهم العذر" . خرّجه مسلم من حديث جابر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غَزاة فقال : "إن بالمدينة لرجالا ما سِرتم مسيرا ولا قطعتم وادِياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض". فأعطى صلى الله عليه وســلم للمعذور من الأجر مثلَ ما أعطى للقوىّ العامل . وقد قال بعض الناس : إنمـا يكون الأجر للمعـذور غير مضاعف، ويضـاعف للعامل المبـاشر . قال ٱبن العربىّ : وهذا تحكّم على الله تعالى وتضييق لسَعة رحمته، وقد عاب بعض الناس فقال :

إنهم يُعطون الثواب مضاعفا قطعا، ونحن لا نقطع بالتضعيف فى موضع فإنه مبنىّ على مقدار النيات، وهذا أمر مُغَيّب، والذى يُقطع به أن هناك تضعيفا وربّك أعلم بمن يستحقه .

قلت : الظاهر من الأحاديث والآى المساواةُ فى الأجر؛ منها قوله عليه السلام : " من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله" وقوله : "من توضأ وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلّوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها " . وهو ظاهر قوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » . وبدليل أن النية الصادقة هى أصـل الأعمال، فإذا صحت فى فعـل طاعة فعجز عنها صاحبها لمـانع منع منها فلا بُعْـد فى مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليـه؛ لقوله عليـه السلام : " نيـة المؤمن خير من عمله " . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهى أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقـدم؛ إذ لو نفر الكل لضاع مَن وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهـم للجهاد ولْيُقِم فريق يتفقّهون فى الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلّموه من أحكام الشرع، وما تجدّد نزوله على النبىّ صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى . « إلّا تنفروا » وللآية التى قبلها؛ على قول مجاهد وآبن زيد .

الثانيـــة ــ هذه الآية أصـل فى وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافّةً والنبىُّ صلى الله عليه وسلم مقيم لا يَنْفر فيتركوه وحده . ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ بعد ما علموا أن النفير لا يسع جميعهم . ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ وتبقى بقيّتها مع النبىّ صلى الله عليه

وسلم ليتحملوا عنـه الدين ويتفقهوا، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بمـا سمعوا وعلموه . وفى هذا إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان . و يدلّ عليه أيضا قوله تعالى : « فَاسألوا أهْلَ الذِّكرِ إن كنتم لاتعلمون » (١) . فدخل فى هذا من لا يعلم الكتاب والســـنن .

الثالثــــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ قال الأخفش : أى فهلّا نفر . ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَــةٌ ﴾ الطائفة فى اللغــة الجماعة، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين، وللواحد على معنى نفس طائفة . وقد تقــدّم أن المراد بقوله تعالى : « إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائفةٍ منكم نُعَــذِّبْ طائفةً » (٢) رجل واحد . ولا شك أن المراد هنا جماعةٌ لوجهين؛ أحدهما عقلا، والآخر لغة . أما العقل فلأن العلم لا يتحصّل بواحد فى الغالب ، وأما اللغة فقوله « ليتفقّهُوا فى الدِّين ولِيُنْذِرُوا قومَهم » فجاء بضمير الجماعة . قال ابن العربيّ : والقاضى أبو بكر والشيخ أبو الحسن قبله يرَوْن أن الطائفــة ها هنا واحد، و يَعْتَضِدون (٣) فيه بالدليل على وجوب العمل بخبر الواحد، وهو صحيح لا من جهة أن الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهــة أن خبر الشخص الواحد أو الأشخاص خبرُ واحد، وأن مقابله وهو التواتر لا ينحصر .

قلت : أنصّ ما يُستدلّ به على أن الواحد يقال له طائفة قولُه تعالى : « و إن طائِفتانِ من المؤمِنين اقتتلوا » (٤) يعنى نَفْسين . دليله قوله تعالى : « فأصلِحوا بين أَخَوَيْكم » فجاء بلفظ التثنية، والضــمير فى « اقتتلوا » و إن كان ضــمير جماعة فأقلّ الجماعة اثنان فى أحد القولين للعلمــاء .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ الضمير فى « ليتفقّهُوا، وَلِيُنْذِرُوا » للقيمين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ قاله قتادة ومجاهد . وقال الحسن : هما للفرقة النافرة؛ واختاره الطبرى . ومعنى ﴿ ليتفقّهوا فى الدين ﴾ أى يتبصّرُوا و يتيقّنوا بمـا يُريهم الله من الظهور على

---

(١) آية ٤٣ سورة النحل . (٢) آية ٦٦ من هذه السورة . (٣) فى الأصول : «و يقضون به على وجوب العمل» الخ . والتصويب عن ابن العربى . (٤) آية ٩ سورة الحجرات .

المشركين ونُصرة الدين . ﴿ ولِيُنْذروا قومهم ﴾ من الكفار . ﴿ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ من الجهاد فيخبرونهم بنصرة الله تعالى نبيّه والمؤمنين ، وأنهم لا يَدانِ(١) لهم بقتالهم وقتالِ النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

قلت : قول مجاهد وقتادة أبيَن، أى لتتفقّه الطائفة المتأخّرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النفور فى السّرايا . وهذا يقتضى الحثّ على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام؛ إذ ليس ذلك فى قوة الكلام، وإنما لزم طلب العلم بأدلّته؛ قاله أبو بكر بن العربى .

الخامســـة — طلب العلم ينقسم قسمين : فرضٌ على الأعيان؛ كالصلاة والزكاة والصيام .

قلت — وفى هــذا المعنى جاء الحــديث المروِىّ ” إن طلب العــلم فريضة “ . روى عبــد القدوس بن حبيب أبو سـعيد الوُحَاظىّ عن حماد بن أبى سليمان عن ابراهيم النَّخَعِىّ قال سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” طلب العلم فريضة على كل مسلم “ . قال إبراهيم : لم أسمع من أنس بن مالك إلا هذا الحديث .

وفرضٌ على الكفاية؛ كتحصين الحصون(٢) وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه؛ إذ لا يصلح أن يتعلّمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سواهم وتنقص وتبطل معايشهم؛ فتعيّن بين الحالين أن يقــوم به البعض من غير تعيــين، وذلك بحسب ما يسّره الله لعبــاده وقسّمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته .

السادســـة — طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل؛ روى الترمذىّ من حديث أبى الدّرْداء قال : سمعت رسول الله صــلى الله عليه وســلم يقول : ” من سلك طريقا يلتمس فيــه علما ســلك الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف المــاء وإن فضــل العالم على العابد كفضل القمر ليــلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثةُ الأنبيــاء وإن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارا ولا درهما إنمــا ورَّثُوا العلم فمن أخذ به أخــذ بحظ

(١) يقال : مالى بفلان يدان، أى طاقة . (٢) فى الأصول : « كتحصيل الحقوق » .

وافر". وروى الدارمي أبو محمد في مسنده قال: حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعي عن الحسن قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما كان عالما يصلّي المكتوبة ثم يجلس فيعلّم الناس الخير . والآخر يصوم النهار ويقوم الليل، أيّهما أفضل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فضل هذا العالم الذي يصلّي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضلي على أدناكم " . أسنده أبو عمر في كتاب (بيان العلم) عن أبي سعيد الخُدْري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي " . وقال ابن عباس : أفضل الجهاد من بنَى مسجدا يعلّم فيه القرآن والفقه والسنة " . رواه شُريك عن ليث بن أبي سليم عن يحيي بن أبي كثير عن عليّ الأزدي قال : أردت الجهاد فقال لي ابن عباس : ألا أدلّك على ما هو خير لك من الجهاد، تأتي مسجدا فتقرئ فيه القرآن وتعلم فيه الفقه . وقال الربيع سمعت الشافعي يقول: طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة . وقوله عليه السلام : " إن الملائكة لتضع أجنحتها " الحديث يحتمل وجهين : أحدهما — أنها تعطف عليه وترحمه؛ كما قال الله تعالى فيما وصّى به الأولاد من الإحسان إلى الوالدين بقوله « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ من الرحمة » أي تواضع لهما . والوجه الآخر — أن يكون المراد بوضع الأجنحة فرشها ؛ لأن في بعض الروايات " وإن الملائكة تفرش أجنحتها " أي إن الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضات الله وكانت سائر أحواله مشاكلة لطلب العلم فرشت له أجنحتها في رحلته وحملته عليها؛ فمن هناك يَسْلَم فلا يَحْفَى إن كان ماشيا ولا يَعْيَا ، وتقرُب عليه الطريق البعيدة، ولا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر كالمرض وذهاب المال وضلال الطريق . وقد مضى شيء من هذا المعنى في « آل عمران » عند قوله تعالى : « شهد الله » الآية (١) . روى عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " . قال يزيد بن هارون : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم .

(١) راجع جـ ٤ ص ٤٠ طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وهذا قول عبد الرزاق فى تأويله الاية، إنهم أصحاب الحديث؛ ذكره الثعلبيّ . سمعت شيخنا الاستاذ المقرئ النحوى المحدّث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسى القرطبي المعروف بآبن أبي حجة رحمه الله يقول فى تأويل قوله عليـه السلام : "لا يزال أهل الغَرْب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة": إنهم العلماء؛ قال: وذلك أن الغرب لفظ مشترك يطلق على الدّلو الكبيرة وعلى مغرب الشمس، ويطلق على فَيْضة من الدمع . فمعنى "لا يزال أهل الغَـرب" أى لا يزال أهـل فيض الدمع من خشـية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين ؛ الحديث . قال الله تعـالى : « إنمـا يَخْشَى اللهَ مِن عبادِهِ العلماءُ »(١) .

قلت : وهـذا التأويل يَعْضُده قولُه عليه السلام فى صحيح مسلم : "من يُرِدِ الله به خيرا يفقهـه فى الدين ولا تزال عصابة من المسـلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة" . وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

فيـه مسألة واحدة — وهو أنه سـبحانه عرّفهم كيفية الجهاد وأن الابتـداء بالأقرب فالأقرب من العدوّ؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرب، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام . وقال الحسن : نزلت قبل أن يؤمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين؛ فهى من التدريج الذى كان قبل الإسلام . وقال آبن زيد : المراد بهذه الآية وقتَ نزولها العربُ، فلما فرغ منهم نزلت فى الروم وغيرهم: « قاتِلوا الذِين لا يؤمنون بالله »(٢) . وقد روى عن آبن عمر أن المراد بذلك الدّيْلم . ورُوى عنه أنه سئل بمن يُبدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال بالروم . وقال الحسن : هو قتال الديلم والترك والروم. وقال قتادة : الآية على العموم فى قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى .

(١) آية ٢٨ سورة فاطر . (٢) آية ٢٩ من هذه السورة .

قلت : قول قتادة هو ظاهر الآية ، واختار ابن العربي أن يُبدأ بالروم قبل الدّيلم؛ على ما قاله ابن عمر لثلاثة أوجه . أحدها — أنهم أهل كتاب ؛ فالحجة عليهم أكثر وآكد . الثاني — أنهم إلينا أقرب ، أعني أهل المدينة . الثالث — أن بلاد الأنبياء في بلادهم أكثر فاستنقاذها منهم أوجب . والله أعلم .

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي شدّة وقوّة وحميّة . وروى الفضل عن الأعمش وعاصم « غَلْظة » بفتح الغين وإسكان اللام . قال الفرّاء : لغة أهل الحجاز وبني أسد بكسر الغين، ولغة بني تميم « غُلْظة » بضم الغين .

قوله تعالى : وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

« ما » صلة، والمراد المنافقون . ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ﴾ قد تقدّم القول في زيادة الإيمان ونقصانه في سورة « آل عمران »[(١)] . وقد تقدّم معنى السورة في مقدّمة الكتاب[(٢)] ، فلا معنى للإعادة . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز[(٣)] « إن للإيمان سننا وفرائض من استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان » . قال عمر بن عبد العزيز : فإن أعش فسأبيّنها لكم، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص » . ذكره البخاريّ . وقال ابن المبارك : لم أجد بُدًّا من أن أقول بزيادة الإيمان، وإلّا رددت القرآن .

قوله تعالى : وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) الذي في البخاري : « وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ... » الخ ؛ فراجعه في كتاب الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شــك وريب ونفاق . وقد تقدّم[1] . ﴿ فَزَادَتْهُــمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ أى شــكّا إلى شكهم وكفرا إلى كفرهم . وقال مقاتل : إثمــا إلى إثمهم ، والمعنى متقارب .

قوله تعـالى : أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُــمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ قراءة العامة بالياء، خبرا عن المنافقين . وقرأ حمزة و يعقوب بالتــاء خبرا عنهم وخطابا للؤمنين . وقرأ الأعمش «أو لم يروا» . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «أوَ لَا ترى» وهى قراءة ٱبن مسعود، خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ قال الطبرى : يختبرون . قال مجاهد : بالقحط والشدّة . وقال عطيــة : بالأمراض والأوجاع ؛ وهى روائد الموت . وقال قتادة والحسن ومجاهد : بالغزو والجهاد مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، و يرون ما وعد الله من النصر ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾ لذلك ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُــورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُــمْ إِلَىٰ بعضٍ هَــلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ «ما» صلة، والمراد المنافقون؛ أى إذا حضروا الرسول وهو يتلو قرآنا أُنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم إلى بعض نظر الرّعب على جهة التقرير؛ يقول: هل يراكم من أحد إذا تكلمتم بهذا فينقله إلى محمد؛ وذلك جهل منهم بنبوّته، وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه . وقيل : إن « نَظَرَ » فى هذه الآية بمعنى أنبأ. وحكى الطبرى عن بعضهم أنه قال: «نظر» فى هذه الآية موضع قال.

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا ﴾ أى ٱنصرفوا عن طريق الاهتداء . وذلك أنهــم حينما بيّن لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيّبات أمورهم يقــع لهم لا محالة تعجّب وتوقّف ونظر، فلو

(١) راجع ج ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

اهتدَوْا لكان ذلك الوقت مَظِنة لإيمانهم؛ فهم إذ يصممون على الكفر و يرتبكون فيه[1] كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التى كانت مَظِنة النظر الصحيح والاهتـداء، ولم يسمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم سَماعَ من يتدبره وينظر فى آياته؛ « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذِين لا يعقلون »[2] . « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ أَمْ على قلوبٍ أَقْفَالُهَا »[3] .

قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ دعاء عليهم؛ أى قولوا لهم هذا . ويجوز أن يكون خبرا عن صرفها عن الخير مجازاةً على فعلهم . وهى كلمة يدعى بها؛ كقوله : « قاتلهم الله » . والباء فى قوله : « بِأنهم » صلة لـ « صرف » .

الثانيـــة — قال ابن عباس : يكره أن يقال انصرفنا من الصـلاة؛ لأن قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا قضينا الصلاة؛ أسـنده الطبرى عنه . قال ابن العربيّ : وهذا فيه نظر وما أظنه بصحيح؛ فإن نظام الكلام أن يقال : لايقل أحد انصرفنا من الصلاة؛ فإن قوما قيل فيهم : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » . أخبرنا محمد بن عبد الملك القَيْسيّ الواعظ حدّثنا أبو الفضل الجوهريّ سَماعا منه يقول : كنا فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله ! فقال : لا يقل أحد انصرفوا فإن الله تعـالى قال فى قوم ذمّهم : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » ولكن قولوا : انقلبوا رحمكم الله؛ فإن الله تعالى قال فى قوم مدحهم : « فانقلبُوا بِنعمةٍ مِن اللهِ وفضلٍ لم يمسسهم سوء »[4] .

الثالثـــة — أخبر الله سبحانه تعالى فى هـذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالبها ومقلّبها؛ ردّا على القدرية فى اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحَهم بحكمهم، يتصرّفون بمشيئتهم و يحكمون بإرادتهم واختيارهم؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب : ما أبين هذا فى الردّ على القدرية «لا يزالُ بُنْيانُهُمُ الذِى بَنَوْا ريبةً فِى قلوبِهِم إِلّا أن تَقَطّع قلوبُهم» . وقوله عز وجل لنُوح : «أَنَّهُ لَنْ يُؤمِنَ مِنْ قومك إِلّا مَن قد آمن »[5] فهذا لا يكون أبدا ولا يرجع ولا يزول .

(١) ارتبك فى الأمر إذا وقع فيه ونشب ولم يتخلص . (٢) آية ٢٢ سورة الأنفال .
(٣) آية ٢٤ سورة محمد . (٤) آية ١٧٤ سورة آل عمران . (٥) آية ٣٦ سورة هود .

قوله تعالى : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

هاتان الآيتان فى قول أُبَىّ أقربُ القرآن بالسماء عهدا . وفى قول سعيد بن جبير : آخر ما نزل من القرآن « وَاتقوا يوماً تُرجعون فِيه إِلى اللهِ »(١) على ما تقدم . فيحتمل أن يكون قول أُبَىّ أقرب القرآن بالسماء عهدًا بعد قوله : « واتقوا يوما ترجعون فِيه إِلى اللهِ » . والله أعلم . والخطاب للعـرب فى قول الجمهور، وهـذا على جهة تعـديد النعمة عليهم فى ذلك ؛ إذ جاء بلسانهم وبمـا يفهمونه ، وشُرِّفوا به غابرَ الأيام . وقال الزجاج : هى مخاطبـة لجميع العالم ؛ والمعنى : لقد جاءكم رسول من البشر ؛ والأول أصوب . قال ابن عباس : ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه قال : يا معشر العرب، لقد جاءكم رسول من بنى إسماعيل . والقول الثانى أوكد للحجة ؛ أى هو بشر مثلكم لتفهموا عنه وتأتمّوا به .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقتضى مدحا لنسب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وخالصها . وفى صحيح مسـلم عن واثلة بن الأَسْقع قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم " . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنى من نكاح ولست من سفاح " . معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن النّسـل فيه إلا من نكاح ، ولم يكن فيـه زِنًى . وقرأ عبـد الله بن قسيط المكى من « أَنْفَسِكم » بفتح الفاء من النفاسة ؛ ورويت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضى الله عنها ؛ أى جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم ؛ من قولك : شىء نفيس إذا كان مرغوبا فيه . وقيل : من أنفسكم ؛ أى أكثركم طاعة .

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى يَعِزّ عليه مشقتكم . والعَنَت : المشقة ؛ من قولهم : أَكَمَة عَنُوت إذا كانت شاقة مهلكة . وقال ابن الأنبارىّ : أصل التعنت التشديد؛ فإذا قالت العرب : فلان يتعنّت فلانا ويُعنِته فمرادهم يشدّد عليه ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه . وقد تقدم فى « البقرة »(١) . « وما » فى « عنتم » مصدرية، وهى ابتداء و « عزيز » خبر مقدم . ويجوز أن يكون « ما عنتم » فاعلا بعزيز، و « عزيز » صفة للرسول، وهو أصوب . وكذا « حَرِيص عليكم » وكذا « رءوف رحيم » رفع على الصفة . قال الفراء : ولو قرئ عزيزا عليه ما عنتم حريصا رءوفا رحيما، نصبا على الحال جاز . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل فى معناه مما يوافق كلام العرب ما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدىّ قال حدّثنا عبد الله بن محمد الخزاعىّ قال سمعت عمرو بن علىّ يقول : سمعت عبد الله بن داود الخُرَيْبِى يقول فى قوله عز وجل « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » قال : أن تدخلوا النار، « حريص عليكم » قال : أن تدخلوا الجنة . وقيل : حريص عليكم أن تؤمنوا . وقال الفراء : شحيح بأن تدخلوا النار . والحرص على الشىء : الشُّحّ عليه أن يضيع ويتلف . ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ الرءوف : المبالغ فى الرأفة والشفقة . وقد تقدم فى « البقرة »(٢) معنى « رءوف رحيم » مستوفًى . وقال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبىّ محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قال : « بِالمؤمنين رءوف رحيم » وقال : « إن الله بِالناس لرءوف رحيم »(٣) . وقال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رءوف رحيم، عزيز عليه ما عنتم لا يهمّه إلا شأنكم، وهو قائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بما عَنِتم ما أقمتم على سُنته؛ فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى إن أعرض الكفار يا محمد بعد هذه النِّعم التى مَنّ الله عليهم بها فقل حسبى الله؛ أى كافىّ الله تعالى . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت، وإليه فوّضت جميع أمورى . ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ خصّ العرش

(١) راجع جـ ٣ ص ٦٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٨ طبعة ثانية ، و جـ ١ ص ١٠٣ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ١٤٣ سورة البقرة .

لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيـه ما دونه إذا ذكره . وقراءة العامة بخفض « العظيم » نعتا للعرش . وقرئ بالرفع صفة للرب، رُويت عن ابن كثير، وهي قراءة ابن مُحَيْصِن . وفي كتاب أبي داود عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه صادقا كان بها أو كاذبا .

وفي نوادر الأصول عن بُريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال عشر كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عندهنّ مَكْفِيًّا مَجْزِيًّا خمسٌ للدنيا وخمس للآخرة حسبي الله لديني حسبي الله لدنياي حسبي الله لما أهمني حسبي الله لمن بغى عليّ حسبي الله لمن حسدني حسبي الله لمن كادني بسوء حسبي الله عند الموت حسبي الله عند المساءلة في القبر حسبي الله عند الميزان حسبي الله عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب" . وحكى النقاش عن أُبيّ بن كعب قال : أقرب القرآن عهدا بالله تعالى هاتان الآيتان « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة؛ وقد بيناه . وروى يوسف بن مِهران عن ابن عباس أن آخر ما نزل من القرآن « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » وهذه الآية؛ ذكره الماوردي . وقد ذكرنا عن ابن عباس خلافه؛ على ما ذكرناه في البقرة، وهو أصح . وقال مقاتل : تقدم نزولها بمكة . وهذا فيه بعد؛ لأن السورة مدنية، والله أعلم .

وقال يحيى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد عليها رجلان؛ فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فقال عمر : والله لا أسألك عليهما بينة، كذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فأثبتهما . قال علماؤنا : الرجل هو خزيمة بن ثابت، وإنما أثبتهما عمر رضي الله عنه بشهادته وحده لقيام الدليل على صحتها في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فهي قرينة تغني عن طلب شاهد آخر، بخلاف آية الأحزاب « رِجالٌ صدَقُوا ما عاهدوا الله عليه »(1) فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وخزيمة لسماعهما إياها من النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم هذا المعنى في مقدمة الكتاب . والحمد لله .

(1) آية ٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة يونس عليه السلام

سورة يونس عليه السلام مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ٱبن عباس : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : «فإن كنتَ فِى شك»(١) إلى آخرهن . وقال مقاتل : إلا آيتين وهى قوله : « فإن كنت فِى شك » نزلت(٢) بالمدينة . وقال الكلبىّ : مكية إلا قوله : « ومِنهم من يُؤمِن بِهِ ومِنهم من لا يؤمِن بِهِ »(٣) نزلت بالمدينة فى اليهود . وقالت فرقة : نزل من أوّلها نحوٌ من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة .

قوله تعالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الر ﴾ قال النحاس : قرئ على أبى جعفر أحمد بن شعيب بن على بن الحسين بن حريث قال : أخبرنا على بن الحسين عن أبيه عن يزيد أن عكرمة حدّثه عن ٱبن عباس : الر، وحم، ونون [حروف] الرحمن مفرّقة؛ فحدّثت به الأعمش فقال : عندك أشباه هذا ولا تخبرنى به . وعن ٱبن عباس أيضا قال : معنى « الر » أنا الله أرى . قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول؛ لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب وأنشد:

بالخير خيراتٍ وإن شرًّا فَا * ولا أريد الشرّ(٤) إلا أنْ تَا

وقال الحسن وعكرمة : « الر » قَسَم . وقال سعيد عن قتادة : « الر » اسم السورة؛ قال : وكذلك كل هجاء فى القرآن . وقال مجاهد: هى فواتح السُّوَر . وقال محمد بن يزيد : هى تنبيه، وكذا حروف التهجى . وقرئ « الر » من غير إمالة . وقرئ بالإمالة لئلا تُشبه ما ولا من الحروف .

---

(١) آية ٩٤ (٢) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ٱبن عطية . (٣) آية ٤٠

(٤) أجزيك بالخير خيرات وان كان منك شركان منى مثله ، ولا أريد الشر الا أن تشاء . (عن شرح الشواهد).

قوله تعـالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ابتداء وخبر؛ أى تلك التى جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم . قال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ؛ فإن « تلك » إشارة إلى غائب مؤنّث . وقيل : « تلك » بمعنى هـذه؛ أى هذه آيات الكتاب الحكيم . ومنه قول الأعشى :

تلك خَيْلِي منه وتلك رِكابى * هنّ صُفْرٌ أولادها كالزَّبيب

أى هذه خيلى . والمراد القرآن وهو أولى بالصـواب؛ لأنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر، ولأن « الحكيم » من نعت القرآن . دليله قوله تعـالى : « الر كتاب أحكمت آياته »[(١)] وقد تقدم هذا المعنى فى أول سورة «البقرة»[(٢)] . والحكيم : المُحْكَم بالحلال والحرام والحدود والأحكام؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم؛ أى أنه حاكم بالحلال والحرام، وحاكم بين الناس بالحق؛ فعيل بمعنى فاعل . دليله قوله : « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ »[(٣)] . وقيـل : الحكيم بمعنى المحكوم فيـه ؛ أى حكم الله فيـه بالعدل والإحسان و إيتاء ذى القربى، وحكم فيه بالنهى عن الفحشاء والمنكر ، و بالجنـة لمن أطاعه و بالنار لمن عصاه؛ فهو فعيل بمعنى المفعول؛ قاله الحسن وغيره . وقال مقاتل : الحكيم بمعنى المُحْكَم من الباطل لا كذب فيه ولا اختـلاف؛ فعيل بمعنى مفعَل، كقول الأعشى يذكر قصيدته التى قالها :

وغريبةٍ تأتى الملوكَ حكيمةٍ * قد قلتها ليقال من ذا قالهـا

قوله تعـالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

(١) أول سورة هود . (٢) راجع ج ١ ص ١٥٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ٢١٣ سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً ﴾ استفهام معناه التقرير والتوبيخ . و « عجبا » خبر كان، واسمها ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ وهو فى موضـع رفع ؛ أى كان إيحاؤنا عجبا للناس . وفى قراءة عبد الله «عجب» على أنه آسم كان . والخبر «أنْ أوحينا» . ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِنهم ﴾ قرئ «رَجْل» باسكان الجـيم . وسبب النزول فيما روى عن ابن عبـاس أن الكفار قالوا لمـا بُعث محمد : إن الله أعظمُ من أن يكون رسوله بشرا . وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيمَ أبى طالب ؛ فنزلت : «أكان لِلناسِ» يعنى أهل مكة «عجبا» . وقيل : إنمـا تعجبوا من ذكر البعث .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فى موضع نصب بإسقاط الخافض؛ أى بأن أنذر الناس؛ وكذا ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ . وقد تقدم معنى النّذارة والبشارة وغير ذلك[(١)] من ألفاظ الآية . واختلف فى معنى « قَدَمَ صِـدْقٍ » فقال آبن عباس : قدم صـدق منزلَ صدق؛ دليله قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ »[(٢)] . وعنه أيضا : أجرا حسنا بمـا قدّموا من أعمالهم . وعنه أيضا « قدم صـدق » سَبْقَ السعادة فى الذكر الأوّل ؛ وقاله مجاهد . الزجاج : درجة عالية . قال ذو الرُّمّة :

لكم قـدمٌ لا ينكر الناس أنهـا ۞ مع الحسب العالى طَمّت على البحر[(٣)]

قتادة : سلف صـدق . الربيع : ثواب صـدق . عطاء : مقام صدق . يَمَانٍ : إيمـان صدق . وقيل : دعوة الملائكة . وقيل : وَلَدٌ صالحٌ قدّموه . المـاوردىّ : أن يوافق صدق الطاعة صـدق الجزاء . وقال الحسن وقتادة أيضا : هو محمد صلى الله عليه وسـلم؛ فإنه شفيع مطاع يتقدّمهم؛ كما قال : ” أنا فَرَطُكم على الحوض“[(٤)] . وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقال: ” هى شفاعتى توسّـلون بى إلى ربكم “ . وقال الترمذىّ الحكيم : قدمه صلى الله عليه وسلم فى المقام المحمود . وعن الحسن أيضا : مصيبتهم فى النبىّ صـلى الله عليه وسـلم . وقال

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٤ وص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٠ سورة الإسراء .
(٣) فى ديوانه وتفسير الطبرى « العادى » . (٤) أى متقدمكم اليه .

عبد العزيز بن يحيى : « قَدَمَ صدق » قولُه تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »[(١)] . وقال مقاتل : أعمالا قدّموها؛ واختاره الطبري . قال الوضّاح :

صلِّ لذى العرش واتّخذ قَدَمًا * تُنْجِيك يومَ العِثار والزَّلَل

وقيل : هو تقديم الله هذه الأمة فى الحشر من القبر وفى إدخال الجنة . كما قال : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضىّ لهم قبل الخلائق " . وحقيقته أنه كناية عن السعى فى العمل الصالح ؛ فكنّى عنه بالقَدَم كما يُكْنَى عن الإنعام باليد وعن الثناء باللسان . وأنشد حسان :

لنا القَدم العليا إليك وخَلْفُنا * لأوّلنا فى طاعة الله تابع

يريد السابقة بإخلاص الطاعة، والله أعلم . وقال أبو عبيدة والكسائى : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قَدَم؛ يقال : لفلان قَدَم فى الإسلام، وله عندى قَدَم صدقٍ وقدم شر وقدم خير . وهو مؤنث وقد يذكر؛ يقال : قَدَم حَسَن وقدم صالحة . وقال ابن الأعرابى : القدم التقدّم فى الشرف؛ قال العجّاج :

زلّ بنو العوّام عن آل الحَكَمْ * وتركوا المُلْك لملك ذى قَدَم

وفى الصحاح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لى خمسة أسماء . أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يُحشر الناسُ على قدمى وأنا العاقب " يريد آخر الأنبياء؛ كما قال تعالى : « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش « لساحر » نعتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرأ الباقون « لسحر » نعتا للقرآن . وقد تقدّم معنى السحر فى «البقرة»[(٣)] .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

---

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء. (٢) آية ٤٠ سورة الأحزاب. (٣) راجع ج ٢ ص ٤٣ طبعة ثانية.

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم فى الأعراف (١) . ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ قال مجاهـد : يقضيه ويقدّره وحدَه . ابن عباس : لا يَشركه فى تدبير خلقه أحد . وقيل : يبعث بالأمر . وقيل : ينزل به . وقيل : يأمر به ويمضيه؛ والمعنى متقارب . فجبريل للوحى ، وميكائيل للقَطْر، وإسرافيل للصُّور، وعزرائيـل للقبض . وحقيقتـه تنزيل الأمور فى مراتبها على أحكام عواقبها ، واشـتقاقه من الدُّبُر . والأمر اسم لجنس الأمور . ﴿ مَا مِنْ شَـفِيعٍ ﴾ فى موضع رفع، والمعنى ما شفيع ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ وقد تقدم فى « البقرة » (٢) معنى الشفاعة . فلا يشـفع أحد نبيٌّ ولا غيره إلا بإذنه سبحانه . وهذا ردّ على الكفار فى قولهم فيما عبدوه من دون الله : « هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ » (٣) فأعلمهم الله أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل .

قوله تعـالى : ﴿ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أى ذلكم الذى فعـل هذه الأشياء من خلق السـموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره . ﴿ فَاعْبُـدُوهُ ﴾ أى وحّدوه وأخلصـوا له العبادة . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى بمخلوقاته فتستدلوا بها عليه .

قوله تعـالى : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْـطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَـا كَانُوا يَـكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رفع بالابتـداء . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه . ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقًّا ﴾ مصـدران؛ أى وعد الله ذلك وعدا وحققـه « حقا » صـدقا لا خلف فيه . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْـلَة « وَعْدُ اللهِ حقّ » على الاســتئناف .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ١٨ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ أى من التراب . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إليه . مجاهد : ينشئه ثم يميته ثم يحييه للبعث ؛ أو ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد ابن القَعْقَاع « أنه يبدأ الخلق » تكون « أن » فى موضع نصب؛ أى وعدكم أنه يبدأ الخلق . ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق؛ كما يقال : لَبَّيْكَ أنّ الحمد والنعمة لك؛ والكسر أجود . وأجاز الفراء أن تكون «أن» فى موضع رفع فتكون ٱسما . قال أحمد ابن يحيى : يكون التقدير حقا إبداؤه الخلق .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى ماء حار قد انتهى حرّه ، والحميمة مثله . يقال : حَمَمْت الماء أُحمّه فهو حميم ، أى محموم؛ فعيل بمعنى مفعول . وكلُّ مُسَخَّن عند العرب فهو حميم . ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى موجِع ، يخلص وجعه إلى قلوبهم . ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى بكفرهم ، وكان معظم قريش يعترفون بأن الله خالقهم؛ فٱحتج عليهم بهذا فقال : من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾ مفعولان ، أى مضيئة ، ولم يؤنّث لأنه مصدر ؛ أو ذات ضياء . ﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ عطف ، أى منيرا ، أوذا نور . فالضياء ما يضيء الأشياء ، والنور ما يبين فيخفى؛ لأنه من النار من أصل واحد . والضياء جمع ضوء؛ كالسياط والحياض جمع سَوط وحَوض . وقرأ قُنْبُل عن ٱبن كثير « ضئاء » بهمز الياء ولا وجه له ؛ لأن ياءه كانت واوا مفتوحة وهى عين الفعل ، أصلها ضواء فقلبت وجعلت ياء كما جعلت فى الصيام والقيام . قال المهدوىّ : ومن قرأ ضئاء بالهمز فهو مقلوب ، قدمت

الهمزة التى بعـد الالف فصارت قبل الألف فصار ضئايا، ثم قلبت الياء همزة لوقوعها بعد ألف زائدة . وكذلك إن قدرت أن الياء حين تأخرت رجعت إلى الواو التى انقلبت عنهـا فإنهـا تقلب همزة أيضا فوزنه فلاع مقلوب من فعال . ويقال : إن الشمس والقمر تضىء وجوههما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ أى ذا منازل، أو قدّر له منازل . ثم قيـل : المعنى وقدّرهما، فوحّد إيجازا واختصارا، كما قال : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَـا »[1] . وكما قال :

نحن بمـا عنـــدنا وأنت بمـا * عنـدك راضٍ والرأى مختلفُ

وقيل : إن الإخبار عن القمر وحده؛ إذ به تحصى الشهور التى عليهـا العمل فى المعاملات ونحوها، كما تقـدم فى « البقـرة »[2] . وفى سورة يس « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ »[3] أى على عدد الشهر، وهو ثمـانية وعشرون منزلا . ويومان للنقصان والمُحاق[4]، وهناك يأتى بيانه .

قوله تعـالى : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ قال ابن عباس : لو جعـل شمسين، شمسا بالنهار وشمسا بالليل ليس فيهما ظلمة ولا ليل ، لم يُعلم عدد السنين وحسابُ الشهور . وواحد « السِّنين » سنة، ومن العـرب من يقول : ســنوات فى الجمع . ومنهم من يقول : سنهات . والتصغير سُنَيّة وسُنَيْهة .

قوله تعـالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى ما أراد الله عز وجل بخـلق ذلك إلا الحـكمةَ والصواب، وإظهارا لصـنعته وحكمته، ودلالةً على قدرته وعلمه، ولتجزى كل نفس بمـا كسبت؛ فهذا هو الحق .

قوله تعـالى : ﴿ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تفصيل الآيات تبيينها ليُستدلّ بها على قدرته تعالى، لاختصاص الليل بظلامه والنهار بضـيائه من غير استحقاق لهما ولا إيجاب؛

(١) آخر سورة الجمعة . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة ثانية . (٣) آية ٣٩ .
(٤) المحاق (مثلثة) : آخر الشهر اذا امحق الهلال فلم ير .

فيكون هذا لهم دليلا على أن ذلك بإرادة مريد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب « يفصل » بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله من قبله : « مَا خَلَقَ اللهُ ذلك إلا بالحق » وبعده « وما خلق الله فى السموات والأرض » فيكون متبعا له . وقرأ ابن السَّمَيْقَع « تُفَصَّل » بضم التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول، و « الآيات » رفعا . الباقون « نفصل » بالنون على التعظيم .

قوله تعالى : إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

تقدم فى « البقرة » وغيرها معناه[(١)]، والحمد لله. وقد قيل : إن سبب نزولها أن أهل مكة سألوا آية فردّهم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها ؛ قاله ابن عباس . ﴿ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أى الشرك؛ فأما من أشرك ولم يستدلّ فليست الاية له آية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ « يرجون » يخافون؛ ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يَرْجُ لسْعَها * وخالفها فى بَيْت نُوب عَواسل[(٢)]

وقيل يرجون يطمعون؛ ومنه قول الآخر :

أيرجو بنو مروان سمعى وطاعتى * وقومى تميمٌ والفلاةُ ورائيَا

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ طبعة ثانية . (٢) البيت لأبى ذؤيب . وقوله : «وخالفها» بالخاء المعجمة : جاء الى عسلها وهى غائبة ترعى . ويروى « وحالفها » بالمهملة ؛ أى لازمها . والنوب : النحل : لأنها ترعى ثم تنوب الى موضعها . ويروى : «عوامل» بدل «عواسل» وهى التى تعمل العسل والشمع . (عن شرح ديوان أبى ذؤيب) .

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع؛ أى لايخافون عقابا ولا يرجون ثوابا. وجعل لقاء العذاب والثواب لقاء لله تفخيما لهما. وقيل : يجرى اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية؛ أى لا يطمعون فى رؤيتنا. وقال بعض العلماء : لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْد؛ كقوله تعـالى : « مَالَكُمْ لا تَرجُون لِلهِ وَقَاراً »[(١)]. وقال بعضهم : بل يقع بمعناه فى كل موضع دل عليه المعنى.

قوله تعـالى : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى رَضُوا بها عوضا من الآخرة فعملوا لهـا. ﴿ وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ أى فرحوا بها وسكنوا إليها. وأصل اطمأن طأمن طُمأنينة، فقدّمت ميمه وزيدت نون وألف وصـل؛ ذكره الغَزْنوىّ. ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ أى عن أدلتنا ﴿ غَافِلُونَ ﴾ لايعتبرون ولا يتفكرون. ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ ﴾ أى مثواهم ومُقامهم. ﴿ النَّارُ بِمَـا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب.

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِين آمَنُـوا ﴾ أى صـدّقوا. ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَات يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَـانِهِمْ ﴾ أى يزيدهم هـداية؛ كقوله : « وَالَّذِينَ اهْتَـدَوْا زَادَهُمْ هُدًى »[(٢)]. وقيـل : « يهديهم ربهم بإيمـانهم» إلى مكان تجرى من تحتهم الأنهار. وقال أبو رَوْق : يهديهم ربهم بإيمـانهم إلى الجنة. وقال عطية : « يهديهم » يثيبهم ويجزيهم. وقال مجاهد : « يهديهم ربهم » بالنور على الصراط إلى الجنة، يجعل لهم نورا يمشون به. ويُروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ما يقوّى هـذا أنه قال : ” يتلقّى المؤمنَ عمـلُه فى أحسن صورة فيؤنسـه ويهديه ويتلقّى الكافرَ عملُه فى أقبح صورة فيوحشه ويضله “. هذا معنى الحديث. وقال ٱبن جريج : يجعل عملهم هاديا لهم. الحسن : « يهديهم » يرحمهم.

قوله تعـالى : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ﴾ قيل : فى الكلام واو محذوفة، أى وتجرى من تحتهم، أى من تحت بساتينهم. وقيل : من تحت أَسِرّتهم؛ وهذا أحسن فى النزهة والفرجة.

(١) آية ١٣ سورة نوح. (٢) آية ١٧ سورة محمد.

قوله تعـالى : دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ دعواهم : دعاؤهم ؛ والدعوى مصـدر دعا يدعو، كالشّكْوَى مصدر شـكا يشكو ؛ أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئا أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد . وقيل : نداؤهم الخدم ليأتوهم بمـا شاءوا ثم سبّحوا . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التمنّى ؛ قال الله تعالى : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ »(١) أى ما تمنون . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَـلَامٌ ﴾ أى تحية الله لهم أو تحيّة المَلَك أو تحيّة بعضهم لبعض : سلام . وقد مضى فى « النساء » معنى التحية مستوفى(٢) . والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قيل : إن أهل الجنة إذا مرّ بهم الطير واشتهوه قالوا : سبحانك اللهم ؛ فيأتيهم المَلَك بمـا اشتهوا ، فإذا أكلوا حمِدوا الله ؛ فسؤالهم بلفظ التسبيح والختم بلفظ الحمد . ولم يحكِ أبو عبيد إلا تخفيف « أن » و رفع ما بعدها ؛ قال : و إنمـا نراهم اختاروا هذا وفرقوا بينها و بين قوله عز وجل « أنّ لعنة الله » و « أنّ غضب الله » لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال : الحمـد لله . قال النحاس : مذهب الخليل وسيبويه أن « أنْ » هـذه مخففة من الثقيـلة ، والمعنى أنه الحمد لله . قال محمد بن يزيد : ويجوز «أن الحمدَ لله» يعملها خفيفة عملها ثقيلة ؛ والرفع أقيس . قال النحاس : وحكى أبو حاتم أن بلال بن أبى بردة قرأ « وآخر دعواهم أنّ الحمدَ لله ربّ العالمين » .

قلت : وهى قراءة ابن مُحَيْصِن ، حكاها الغَزْنَوِىّ لأنه يحكى عنه .

---

(١) آية ٣١ سورة فصلت . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٩٧ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — التسبيح والحمـد والتهليل قد يُسـمَّى دعاء؛ روى مسلم والبخاريّ عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : "لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ . لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم . لا إله إلا الله ربّ السموات وربُّ الأرض وربّ العرش الكريم" . قال الطبريّ : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمُّونه دعاء الكرب . وقال ابن عُيينة وقد سئل عن هذا فقال : أمَا علمتَ ان الله تعالى يقول "إذا شَغل عبدى ثناؤه عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" . والذى يقطع النزاع وأن هذا يسمَّى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وثناءٌ عليه ما رواه النَّسائى عن سعد ابن أبى وَقّاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعوة ذى النُّون إذ دعا بها فى بطن الحـوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فانه لن يدعُوَ بهـا مسلم فى شيء إلا استجيب له" .

الثالثـــة — من السُّنّة لمن بدأ بالأكل أن يسمِّىَ الله عنـد أكله وشربه ويحمَده عند فراغه اقتداء بأهل الجنة ؛ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله ليرضى عن العبـد أن يأكل الأكلة فيحمَده عليهـا أو يشرب الشَّربة فيحمَده عليها" .

الرابعـــة — يستحبّ للداعى أن يقول فى آخر دعائه كما قال أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمـد لله رب العالمين؛ وحَسَن أن يقرأ آخر الصافات (١) فانهـا جمعت تنزيه البارئ تعـالى عما نسب إليه، والتسليم على المرسلين، والختم بالحمد لله رب العالمين .

قوله تعـالى : وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

(١) هو قوله تعالى : «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ﴾ قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا ، لأنهم خلقوا فى الدنيا خلقا ضعيفا ، وليس هم كذا يوم القيامة ؛ لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء . وقيل : المعنى لو فعل الله مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته الى الخير لأهلكهم ؛ وهو معنى «لَقُضِيَ إليهم أجلُهم» . وقيل : إنه خاص بالكافر ؛ أى ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجّل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة ؛ قاله ابن إسحاق . مقاتل : هو قول النضر بن الحارث : اللَّهُمَّ إن كان هـذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ؛ فلو عجل لهم هذا لهلكوا . وقال مجاهد : نزلت فى الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب : اللهم أهلكه ، اللهم لا تبارك له فيه والعنه ، أو نحو هـذا ؛ فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لَقُضِيَ إليهم أجلهم . فالآية نزلت ذامّة لخُلُق ذميم هو فى بعض الناس يدعون فى الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحيانا سوء الخلق على الدعاء فى الشر ؛ فلو عجّل لهم لهلكوا .

الثانية — واختُلف فى إجابة هـذا الدعاء ؛ فرُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنى سألت الله عز وجل ألّا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه " . وقال شَهْرُ ابن حَوْشَب : قرأت فى بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملائكة الموكّلين بالعبد : لا تكتبوا على عبدى فى حال ضجره شيئا ؛ لطفا من الله تعالى عليه . قال بعضهم : وقد يستجاب ذلك الدعاء ، واحتج بحديث جابر الذى رواه مسلم فى صحيحه آخر الكتاب ، قال جابر : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بَطْنِ بُواطٍ (١) وهو يطلب المَجْدِىّ بن عمرو الجُهَنِىّ

(١) بواط (بضم أوله) : جبل من جبال جهينة بناحية رضوى (جبل بالمدينة عند ينبع) ، غزاه النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول فى السنة الثانية من الهجرة يريد قريشا .

وكان النـاضح يَعتَقِبه(١) منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عُقبة رجلٍ من الأنصار على ناضحٍ له فأناخه فركب، ثم بعثـه فتلدّن(٢) عليه بعض التلدّن؛ فقال له : شأْ، لعنك الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن هذا اللاعنُ بعيرَه"؟ قال : أنا يا رسول الله؛ قال : "انزِل عنه فلا تصحبنا بملعون لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاءٌ فيستجيب لكم" .

في غير مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان في سفر فلعن رجل ناقته فقال: "أين الذى لعن ناقته"؟ فقال الرجل : أنا هذا يا رسول الله؛ فقال : "أخّرها عنك فقد أُجِبت فيها" . ذكره الحَلِيميّ في منهاج الدين . « شأ » يروى بالسين والشين، وهو زجر للبعير بمعنى سِر .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ ﴾ قال العلمـاء : التعجيل من الله ، والاستعجال من العبد . وقال أبو عليّ : همـا من الله ، وفي الكلام حذف؛ أى ولو يعجل الله للنـاس الشر تعجيلا مثـل استعجالهم بالخير ، ثم حذف تعجيلا وأقام صـفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف اليه مقامه؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه . وعلى قول الأخفش والفراء كاستعجالهم، ثم حذف الكاف ونصب . قال الفراء: كما تقول ضربت زيدا ضربك، أى كضربك . وقـرأ ابن عامر « لَقَضَى إِلَيهم أجلَهـم » . وهى قراءة حسنة ؛ لأنه متصل بقوله « ولو يعجل الله للناس الشر » .

قوله تعالى : ﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أى لا يعجل لهم الشر فربمـا يتوب منهم تائب ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن . ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى يتحيرون . والطغيان : العلوّ والارتفاع ؛ وقد تقدّم في « البقرة »(٣) . وقد قيل: إن المراد بهذه الآية أهل مكة، وإنها نزلت حين قالوا : « اللّهمّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك » الآية، على ما تقدّم(٤) والله أعلم.

---

(١) أى يتعاقبونه في الركوب واحد بعد واحد . والعقبة : النوبة . (٢) تلدّن : تلكأ وتوقف ولم ينبعث .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) جـ ٧ ص ٣٩٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢)

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر، قيل : هو أبو حذيفة بن المغيرة المشرك ، تصيبه البأساء والشدّة والجهد . ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ أى على جنبه مضطجعا . ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ و إنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة . قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضرّ أشدّ فى غالب الأمر، فهو يدعو أكثر، واجتهاده أشدّ، ثم القاعد ثم القائم . ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ أى استمرّ على كفره ولم يشكر ولم يتعظ .

قلت : وهـذه صفة كثير من المخلصين الموحدين ، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصى ؛ فالآية تعمّ الكافر وغيره . ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا﴾ قال الأخفش : هى « كأنّ » الثقيلة خُفّفت ، والمعنى كأنه ؛ وأنشد :

وَيْ كأنْ مَن يكن له نَشَبٌ يُحْـ * ـبَبْ ومن يفتقر يعش عيش ضُرّ [(١)]

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ﴾ أى كما زين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أى للشركين أعمالهم من الكفر والمعاصى . وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله ، و يجوز أن يكون من الشيطان ، و إضلاله دعاؤه إلى الكفر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٣)

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعنى الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكناهم ﴿لمّا ظلموا﴾ أى كفروا وأشركوا . ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾

(١) البيت لزيد بن عمرو بن نفيل ؛ فراجعه فى خزانة الأدب فى الشاهد الثامن والسبعين بعد الأربعمائة .

أى بالمعجزات الواضحات والبراهين النيّرات . ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى أهلكناهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون . يخوّف كفار مكة عذاب الأمم الماضية ؛ أى نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم مَن يؤمن ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن . وهذه الآية تردّ على أهل الضلال القائلين بخلق الهُدَى والإيمان . وقيل : معنى « وما كانوا ليؤمنوا » أى جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم ؛ ويدلّ على هذا أنه قال : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ ﴾ مفعولان . والخلائف جمع خليفة، وقد تقدّم آخر « الأنعام »(١) أى جعلناكم سكانا فى الأرض ﴿ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد القرون المهلكة . ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ نصب بلام كَىْ، وقد تقدّم نظائره وأمثاله ؛ أى ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب ، ولم يزل يعلمه غَيْبًا . وقيل : يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل . وقيل : النظر راجع إلى الرسل؛ أى لينظر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم . و« كيف » نصب بقوله تعملون؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ « تتلى » تقرأ، و «بينات» نصب على الحال ؛ أى واضحات لا لبس فيها ولا إشكال . ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ يعنى لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب . قال قتادة : يعنى مشركى أهل مكة . ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ والفرق بين تبـديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه؛ وفى قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها ــ أنهـم سألوه أن يحوّل الوعد وعيـدا والوعيد وعدا ، والحلال حراما والحرام حلالا؛ قاله ابن جرير الطبرى .

الثـانى ــ سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسـفيه أحلامهم ؛ قاله ابن عيسى .

الثـالث ــ أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور؛ قاله الزجاج .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي ﴾ أى قل يا محمد ما كان لى ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ ومن عندى، كما ليس لى أن ألقاه بالردّ والتكذيب . ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى لا أتبع إلا ما أتلوه عليكم من وعد ووعيـد ، وتحريم وتحليل، وأمر ونهى . وقد يستدلّ بهـذا من يمنع نسخ الكتاب بالسنة؛ لأنه تعـالى قال : « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى » وهـذا فيه بعد ؛ فإن الآية وردت فى طلب المشركين مثـل القرآن نظما ، ولم يكن الرسول صلى الله عليـه وسلم قادرا على ذلك، ولم يسألوه تبـديل الحكم دون اللفظ؛ ولأن الذى يقوله الرسول صلى الله عليـه وسلم إذا كان وحياً لم يكن من تلقاء نفسه ، بل كان من عند الله تعالى .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أى إن خالفت فى تبديله وتغييره أو فى ترك العمل به ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعنى يوم القيامة .

قوله تعـالى : ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾ أى لو شاء الله ما أرسلنى اليكم فتلوت عليكم القرآن ، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به ؛ يقال : دَرَيْتُ الشيءَ وأدرانى الله به ، ودرَيته ودرَيت به . وفى الدراية معنى الختل ؛ ومنـه دريت الرجل أى ختلته ، ولهـذا لا يطلق الدارى فى حق الله تعالى وأيضا عُدم فيه التوقيف . وقرأ ابن كثير « ولأدراكم به » بغير ألف بين اللام والهمزة ؛ والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليـكم ؛ فهى لام التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقرأ ابن عباس والحسن « ولا أدراتكم به » بتحويل الياء ألفا (١) ، على لغة بنى عقيل ؛ قال الشاعر :

لعمرك ما أخشى التَّصـعلك ما بَقَى * على الأرض قَيْسِىّ يسوق الأباعرا

وقال آخـــر :

ألا آذنتْ أهـلَ اليمـامة طيّئٌ * بحرب كناصات الأغرّ المشهّرِ

قال أبو حاتم : سمعت الأصمعىّ يقول سألت أبا عمرو بن العلاء : هل لقراءة الحسن « ولا أدراتكم به » وجه ؟ فقال لا . وقال أبو عبيـد : لا وجه لقراءة الحسن « ولا أدراتكم به » إلا الغلط . قال النحاس : معنى قول أبى عبيد «لا وجه» إن شاء الله على الغلط ؛ لأنه يقال : دريت أى علمت ، وأدريت غيرى ، ويقال : درأت أى دفعت ؛ فيقع الغلط بين دريت ودرأت . قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسب «ولا أدريتكم به» فأبدل من الياء ألفا على لغة بنى الحارث بن كعب ، يبدلون من الياء ألفا إذا انفتح ما قبلها ؛ مثل «إنّ هذان لساحران» (٢) . قال المهدوىّ : ومن قرأ « أدرأتكم » فوجهه أن أصـل الهمزة ياء ، فأصـله « أدريتكم » فقلبت الياء ألفا وإن كانت ساكنة ؛ كما قال : يايس فى يَيِّس وطايئ فى طيئ ، ثم قلبت الألف

---

(١) أى أن الأصل : « أدريتكم » . (٢) آية ٦٣ سورة طه .

همزة على لغة من قال فى العالم العألم وفى الخاتم الخأتم . قال النحاس : وهذا غلط، والرواية عن الحسن « ولا أدرأتكم » بالهمزة، وأبو حاتم وغيره تكلّم أنه بغير همز ، ويجوز أن يكون من درأت أى دفعت؛ أى ولا أمرتكم أن تدفعوا فتتركوا الكفر بالقرآن .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ ظرف، أى مقدارا من الزمان وهو أربعون سنة. ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل القرآن، تعرفوننى بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بالمعجزات . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قِبلى . وقيل : معنى « لبثت فيكم عمرا » أى لبثت فيكم مدّة شبابى لم أعص الله، أفتريدون منى الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله، وأغيّر ما ينزله علىّ . قال قتادة : لبث فيهم أربعين سنة ، وأقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء، وتُوُفّى صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنتين وستين سنة .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

هذا استفهام بمعنى الجَحْد، أى لا أحدَ أظلمُ ممن افترى على الله الكذب، وبدّل كلامه وأضاف شيئا إليه مما لم ينزله . وكذلك لا أحدَ أظلمُ منكم إذا أنكرتم القرآن وافتريتم على الله الكذب، وقلتم ليس هذا كلامه . وهذا مما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم . وقيل : هو من قول الله ابتداء . وقيل : المُفْتَرِى المشركُ ، والمكذِّب بالايات أهلُ الكتاب . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ يريد الأصــنام . ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُـفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ وهــذه غاية الجهالة منهم؛ حيث ينتظرون الشـفاعة فى المـآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر فى الحال . وقيــل : « شفعاؤنا » أى تشفع لنا عند الله فى إصلاح معاشنا فى الدنيا . ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَـا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ﴾ قراءة العامة « تنبئّون » بالتشديد . وقرأ أبو السَّمّال العَدَوِى « أتنبِئون الله » مخففا، من أنبأ ينبئ . وقراءة العامة من نبّأ ينبّئ تنبئة، وهما بمعنًى واحد، جمعهما قولُه تعالى : « من أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ »(١) أى أتخبرون الله أن له شريكا فى ملكه أو شفيعا بغير إذنه، والله لا يعلم لنفسه شريكا فى السموات ولا فى الأرض؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه . نظيره قوله : « أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ »(٢) ثم نزّه نفسه وقدسها عن الشرك فقال : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّـا يُشْرِكُونَ ﴾ أى هو أعظم من أن يكون له شريك . وقيل : المعنى أى يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميّز « ويقولون هؤلاءِ شفعاؤنا عِند الله » فيكذبون؛ وهل يتهيأ لكم أن تنبئوه بمـا لا يعلم، سبحانه وتعالى عما يشركون! . وقرأ حمزة والكسـائى « تشركون » بالتاء، وهو اختيار أبى عبيد . الباقون بالياء .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

تقدّم فى «البقرة»(٣) معناه فلا معنى للإعادة . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك . وقيل : كل مولود يولد على الفطرة، فآختلفوا عنـد البلوغ . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إشارة إلى القضاء والقدر؛ أى لولا ما سبق فى حكمه أنه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم فى الدنيـا، فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل

(١) آية ٣ سورة التحريم . (٢) آية ٣٣ سورة الرعد . (٣) راجع جـ٣ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

موعدهم القيامة؛ قاله الحسن . وقال أبو رَوْق : « لقُضى بينهم » لأقام عليهم الساعة . وقيل : لفرغ من هلاكهم . وقال الكلبي : « الكلمة » أن الله أخّر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب فى الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولا هـذا التأخير لقضى بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة . والآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى تأخير العذاب عمن كفر به . وقيل : الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرسـل؛ كما قال : « وما كنا مُعَـذِّبِين حتى نَبعثَ رسولا »(١) وقيـل : الكلمة قوله : " سبقت رحمتى غضبى " ولولا ذلك لمـا أخر العصاة إلى التوبة . وقرأ عيسى « لقَضى » بالفتح .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْـهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَـا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يريد أهل مكة؛ أى هلّا أنزل عليه آية ، أى معجزة غير هذه المعجزة ، فيجعل لنا الجبال ذهبا ويكون له بيت من زُخرف ، ويحيي لنا من مات من آبائنا . وقال الضحاك : عصا كعصا موسى . ﴿ فَقُلْ إِنَّمَـا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أى قل يا محمد إن نزول الآية غيب . ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ أى تربصوا . ﴿ إِنِّى معكم مِن المنتظِرينَ ﴾ لنزولها . وقيل : انتظروا قضاء الله بيننا بإظهار المحق على المبطل .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّـاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْـدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُـم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَـا قُـلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُـلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْـكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يريد كفار مكة . ﴿ رَحْمَةً منْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ قيل : رخاء بعد شدّة ، وخصب بعد جَدْب . ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آيَاتِنا ﴾ أى استهزاء وتكذيب . وجواب قوله « وإذا أذقنا » : « إذا لهم » على قول الخليل وسيبويه . ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَكْرًا ﴾ على البيان ، أى

(١) آية ١٥ سورة الإسراء .

أعجل عقوبة على جزاء مكرهم . أى أن ما يأتيهم من العـذاب أسرع فى إهلاكهم مما أتوه من المكر . ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ يعنى بالرسل الحفظة . وقراءة العـامة « تمكرون » بالتاء خطابا . وقرأ يعقوب فى رواية رُوَيْس وأبو عمرو فى رواية هارون العَتَكى « يمكرون » بالياء ، لقوله : « إذا لهم مكر فى آياتنا » قيل : قال أبو سفيان قُحِطنا بدعائك فإن سقيتنا صدقناك ؛ فسقُوا باستسقائه صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا ، فهذا مكرهم .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى البَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ أى يحملكم فى البر على الدواب وفى البحر على الفُلْك . وقال الكلبي : يحفظكم فى السير . والآية تتضمن تعـديد النّعم فيما هى الحـال بسبيله من ركوب النـاس الدوابَّ والبحر . وقد مضى الكلام فى ركوب البحر فى « البقرة »[(١)] . وَ ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ قراءة العامة . ابن عامر « ينشركم » بالنون والشين ، أى يبثكم و يفرّقكم . والفُلْك يقع على الواحد والجمع ، ويذكر و يؤنث ، وقد تقدّم القول فيـه[(١)] . وقوله ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ خروج من الخطاب الى الغيبـة ، وهو فى القرآن وأشعار العرب كثير ؛ قال النابغة :

يادار ميّـة بالعَلْيـاء فالسَّـنَد * أقوتْ وطال عليها سالف الأَمَد

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قال ابن الأنباري : وجائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ قال الله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا »(١) فأبدل الكاف من الهاء .

قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ تقدّم الكلام(٢) فيها في البقرة . ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ الضمير في « جاءتها » للسفينة . وقيل للريح الطيبة . والعاصف الشديدة ؛ يقال: عصفت الريح وأعصفت ، فهي عاصف ومُعْصِف ومُعْصِفة أي شديدة ، قال الشاعر :

حتى إذا أعصفت ريح مُزَعزِعة * فيها قطار ورعد صوته زَجِل

وقال « عاصف » بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر ، وهي القاصف أيضا . والطيبة غير عاصف ولا بطيئة . ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والموج ما ارتفع من الماء . ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أي أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم البلاء ؛ يقال لمن وقع في بلية : قد أحيط به ، كأن البلاء قد أحاط به ؛ وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله . ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون . وفي هذا دليل على أن الخلق جُبِلوا على الرجوع الى الله في الشدائد ، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافرا ؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب ؛ على ما يأتي بيانه في «النمل» ان شاءالله تعالى(٣). وقال بعض المفسرين . إنهم قالوا في دعائهم أهيا شراهيا ؛ أي يا حي ياقيوم ؛ وهي لغة العجم .

مسألة — هذه الآية تدل على ركوب البحر مطلقا ، ومن السنّة حديثُ أبي هريرة وفيه : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ... الحديث . وحديث أنس في قصة أمّ حرام يدل على جواز ركوبه في الغَزْو ، وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »(٤) مستوفى والحمد لله . وقد تقدم في آخر « الأعراف » حكم راكب البحر في حال ارتجاجه وغليانه ، هل حكمه حكم الصحيح أو المريض المحجور عليه ؛ فتأمله هناك(٥) .

(١) آية ٢١ سورة الإنسان . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ طبعة ثانية . (٣) في قوله تعالى : أمن يجيب المضطر اذا دعاه ...» آية ٦٢ (٤) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية . (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٤١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ ﴾ أى من هذه الشدائد والأهوال . وقال الكلبى : من هــذه الريح . ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص . ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ﴾ أى خلّصهم وأنقذهم . ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى يعملون فى الأرض بالفساد و بالمعاصى . والبغى : الفساد والشرك؛ من بَغَى الجرحُ إذا فسد؛ وأصله الطلب، أى يطلبون الاستعلاء بالفساد . ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى بالتكذيب؛ ومنه بَغَت المرأةُ طلبت غير زوجها .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى و باله عائد عليكم؛ وتمّ الكلام، ثم ابتــدأ فقال : ﴿ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى هو متاع الحياة الدنيا ؛ ولا بقاء له . قال النحاس : « بَغْيُكُمْ » رفع بالابتداء وخبره « متاع الحياة الدنيا » . و « على أنفسكم » مفعول معنى فعــل البَغْى . ويجوز أن يكون خبره « على أنفسكم » وتضمر مبتــدأ ، أى ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا ؛ و بين المعنيين فرق لطيف ، إذا رفعت متاعا على أنه خبر «بغيكم» فالمعنى إنمــا بَغْى بعضكم على بعض ؛ مثل « فسلّموا على أنفسكم » وكذا « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » . و إذا كان الخبر « على أنفسكم » فالمعنى إنمــا فسادكم راجع عليكم ؛ مثل « وإنْ أسأتم فلها » . وروى عن سفيان بن عيينة أنه قال : أراد أن البغى متاع الحياة الدنيا ، أى عقوبته تعجّل لصاحبه فى الدنيا ؛ كما يقال : البَغْيُ مَصْرعةٌ . وقرأ ٱبن أبى إسحاق « متاعَ » بالنصب على أنه مصدر ؛ أى تمتعون متاع الحياة الدنيا . أو بنزع الخافض ، أى لمتاع . أو مصدر بمعنى المفعول على الحال ، أى متمتعين . أو هو نصب على الظرف ، أى فى متاع الحياة الدنيا . ومتعلق الظرف والجار والحال معنى الفعل فى البغى . و «على أنفسكم» مفعول ذلك المعنى .

قوله تعــالى : إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ معنى الآية التشبيه والتمثيل، أى صفة الحياة الدنيا فى فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء؛ أى مثل ماء، فالكاف فى موضع رفع. وسيأتى لهذا التشبيه مزيد بيان فى «الكهف»(١) إن شاء الله تعالى. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ نعت لماء. ﴿فَاخْتَلَطَ﴾ روى عن نافع أنه وقف على «فاختلط» أى فاختلط الماء بالأرض، ثم ابتدأ « به نبات الأرض » أى بالماء نبات الأرض؛ فأخرجت ألوانا من النبات، فنبات على هذا ابتداء، وعلى مذهب من لم يقف على « فاختلط » مرفوع باختلط؛ أى اختلط النبات بالمطر، أى شرب منه فتندّى وحَسُن واخضرّ. والاختلاط تداخل الشيء بعضه فى بعض.

قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ من الحبوب والثمار والبقول. ﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ من الكلإ والتبن والشعير. ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أى حسنها وزينتها. والزخرف كمال حسن الشيء؛ ومنه قيل للذهب زُخرف. ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أى بالحبوب والثمار والأزهار؛ والأصل تزينت أدغمت التاء فى الزاى وجىء بألف الوصل؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبىّ ابن كعب « وتزينت » على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأَزْيَنَت » أى أتت بالزينة عليها، أى الغَلّة والزرع؛ وجاء بالفعل على أصله ولو أعلّه لقال وأزانت. وقال عوف ابن أبى جميلة الأعرابى : قرأ أشياخنا « وازيانّت » وزنه اسوادّت. وفى رواية المُقَدَّمى « وازّاينت » والأصل فيه تزاينت، وزنه تقاعست ثم أدغم. وقرأ الشعبىّ وقتادة « وأَزْيَنت » مثل أفعلت. وقرأ أبو عثمان النَّهدىّ « وازْيَنّت » مثل افعلّت، وعنه أيضا « وازيانت » مثل افعالت، و روى عنه « آزيأنت » بالهمزة؛ ثلاث قراءات.

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ أى أيقن. ﴿ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على حصادها والانتفاع بها؛ أخبر عن الأرض والمعنِيّ النبات إذ كان مفهوما وهو منها. وقيل : ردّ

(١) آية ٤٥

إلى الغلة، وقيل إلى الزينة . ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ أى عذابنا، أو أمرنا بهلاكها . ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفان. ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ مفعولان، أى محصودة مقطوعة لاشىء فيها. وقال «حصيدا» ولم يؤنّث لأنه فعيل بمعنى مفعول . قال أبو عبيد : الحصيد المستأصَل . ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أى لم تكن عامرة؛ من غَنِيَ إذا أقام فيه وعمره . والمغانى فى اللغة : المنازل التى يعمرها الناس . وقال قتادة : كأن لم تنعم . قال لبيد :

وغَنِيتُ سَبْتًا قبل مَجْرَى داحِسٍ * لو كان للنفس اللَّجُوجِ خُلودُ (١)

وقراءة العامة « تغن » بالتاء لتأنيث الأرض . وقرأ قتادة « يغن » بالياء ، يذهب به الى الزخرف؛ يعنى فكما يهلك هذا الزرع هكذا كذلك الدنيا . ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى نبينها . ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى آيات الله .

قوله تعالى : وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ لما ذكر وصف هذه الدار وهى دار الدنيا وصف الآخرة فقال : ان الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم الى الطاعة لتصيروا الى دار السلام، أى الى الجنة . قال قتادة والحسن : السلام هو الله، وداره الجنة؛ وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات . ومن أسمائه سبحانه السلام، وقد بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . ويأتى فى سورة « الحشر » (٢) إن شاء الله . وقيل : المعنى والله يدعو إلى دار السلامة . والسلام والسلامة بمعنًى كالرَّضاع والرَّضاعة؛ قاله الزجاج . قال الشاعر :

تُحَيِّي بالسلامة أمُّ بكرٍ * وهل لكِ بعد قومِك من سلام

(١) السبت : البرهة من الدهر . وداحس : اسم الفرس . (٢) فى قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو ... » آية ٢٣

وقيل : أراد والله يدعو إلى دار التحية ؛ لأن أهلها ينالون من الله التحية والسلام ، وكذلك من الملائكة . قال الحسن : إن السلام لا ينقطع عن أهــل الجنة ، وهو تحيتهم ، كما قال : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَــلَامٌ » . وقال يحيى بن معاذ : يابن آدم ، دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه ، فإن أجبتَه من دنياك دخلتها ، و إن أجبته من قبرك مُنعتها . وقال ابن عباس : الجنان ســبع ، دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم .

قوله تعــالى : ﴿ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ عمّ بالدعوة إظهارا لحجته ، وخصّ بالهداية استغناء عن خلقه . والصراط المستقيم ، قيل : كتاب الله ؛ رواه عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الصراط المستقيم كتاب الله تعــالى " . وقيل الإسلام ؛ رواه النوّاس بن سمعان عن رســول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل الحق ؛ قاله قتادة ومجاهد . وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . وروى جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال " رأيت فى المنام كأن جبريل عنــد رأسى وميكائيل عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال له آسمع سمعتْ أذناك وآعْقِل عَقَل قلبك إنما مثلُك ومثَلُ أمتك كمثل ملِك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدُبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملِكُ والدارُ الإسلامُ والبيتُ الجنةُ وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل فى الإسلام ومن دخل فى الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل ما فيها — ثم تلا يعنى رسول الله صلى الله عليه وســلم — « ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » " . وقال قتادة ومجاهد : « والله يدعو الى دار السلام » . وهذه الآية بيّنةُ الحجة والردّ على القدرية ؛ لأنهــم قالوا : هــدى الله الخلق كلَّهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : « ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » فردّوا على الله نصوص القرآن .

قوله تعـالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ رُوى من حديث أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «وزيادة» ، قال : "للذين أحسنوا العمل فى الدنيا لهم الحسنى وهى الجنـة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم " . وهو قول أبى بكر الصديق وعلىّ ابن أبى طالب فى رواية، وحذيفة وعُبادة بن الصامت وكعب بن عُجْرة وأبى موسى وصُهيب وابن عباس فى رواية، وهو قول جماعة من التابعين؛ وهو الصحيح فى الباب . وروى مسلم فى صحيحه عن صُهيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "اذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيّض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشِف الحجابَ فما أُعْطُوا شيئا أحبَّ اليهم من النظر الى ربهم عز وجل — وفى رواية ثم تلا — للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" . وخرّجه النَّسـائى أيضا عن صهيب قال قيـل لرسـول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الآية « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : "اذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النـار النارَ نادى منادٍ يأهل الجنة إن لكم موعدا عنـد الله يريد أن يُنجِزَكُموه قالوا ألم يبيّض الله وجوهنا ويُثْقِل موازيننا ويُجِرْنا من النار قال فيكشِف الحجابَ فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبَّ اليهم من النظر ولا أقرّ لأعينهم " . وخرجه ابن المبارك فى دقائقه عن أبى موسى الأشعرى موقوفا، وقد كتبناه فى كتاب التذكرة، وذكرنا هناك معنى كشف الحجاب، والحمد لله . وخرّج الترمذى الحكيم أبو عبد الله رحمه الله : حدثنا على بن حجر حدّثنا الوليد بن مسـلم عن زُهير عن أبى العالية عن أُبَىّ بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزيادتين فى كتاب الله؛ فى قوله «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال : "النظر إلى وجه الرحمن" . وعن قوله « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون »(١) قال :

---

(١) آية ١٤٧ سورة الصافات .

" عشرون ألفا " . وقد قيل : إن الزيادة أن تضاعف الحسنة عشر حسنات إلى أكثر من ذلك؛ روى عن آبن عباس . وروى عن علىّ رضى الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة آلاف باب . وقال مجاهد : الحسنى حسنة مثل حسـنة، والزيادة مغفرة من الله ورضوان . وقال عبـد الرحمن بن زيد بن أسـلم : الحسنى الجنـة، والزيادة ما أعطاهم الله فى الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة . وقال عبد الرحمن بن سابط : الحسنى البشرى، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم؛ قال الله تعالى : «وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ إلى ربها ناظرة»(١) . وقال يزيد بن شجـرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنـة فتُمطرهم من كل الفواكه التى لم يروها، وتقول : يأهل الجنة، ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئا إلا أمطرتهم إياه . وقيل : الزيادة انه ما يمرّ عليهم مقـدار يوم من أيام الدنيـا إلا حتى يطيف بمنزل أحدهم سبعون ألف مَلَك، مع كل ملك هدايا من عنـد الله ليست مع صاحبـه، ما رأوا مثل تلك الهدايا قَطّ ؛ فسبحان من لا تتناهى مقدوراته . وقيل : « أحسنوا » أى معاملة الناس . والحسنى : شفاعتهم . والزيادة : إذن الله تعالى فيها وقبوله .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَرْهَقُ ﴾ قيل : معناه يلحق؛ ومنـه قيل : غلام مراهق إذا لحق بالرجال . وقيل يعلو . وقيل يغشى؛ والمعنى متقارب . ﴿ قَتَرٌ ﴾ غبار . ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ أى مذلة؛ كما يلحق أهل النـار؛ أى لا يلحقهم غبار فى محشرهم إلى الله ولا تغشاهم ذِلة . وأنشـد أبو عبيدة للفرزدق :

مُتَـوَّجٌ برداء الملك يتبعـه * مَوْج ترى فوقه الرياتِ والقَـتَرا

وقرأ الحسن « قَتْر » بإسكان التاء . والقَتَر والقَتَرة والقَتْرة بمعنًى واحد؛ قاله النحاس . وواحد القـتَر قَتَرة؛ ومنه قوله : « تَرْهَقُهَا قَتَرَة »(٢) أى تعـلوها غَبرة . وقيل : قَتَرٌ كآبةٌ وكسوف . آبن عباس : القتر سواد الوجوه . آبن بحر : دخان النار؛ ومنه قُتار القِدْر . وقال آبن أبى ليلى : هو بُعْدُ نظرهم إلى ربهم عزّ وجل .

---

(١) آية ٢٢ سورة القيامة . (٢) آية ٤١ سورة عبس .

قلت : هــذا فيه نظر؛ فإن الله عزّ وجل يقول : « إنّ الذين سبقت لهم منّا الحُسْنَى أولئك عنها مبعدون . — إلى قوله — لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ (١) » وقال فى غير آية : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال : « إن الذين قالوا ربّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا (٢) » . وهذا عام فلا يتغير بفضل الله فى موطن من المواطن لا قبل النظر ولا بعده وجهُ المحسن بسواد من كآبة ولا حزن، ولا يعلوه شىء من دخان جهنم ولا غيره؛ « وأما الذين ٱبيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون (٣) » .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَات ﴾ أى عملوا المعاصى . وقيل الشرك . ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ جزاء مرفوع بالابتداء، وخبره بمثلها . قال ٱبن كَيْسان : الباء زائدة؛ والمعنى جزاء سيئة مثلها . وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر، وهى متعلقة بمحذوف قامت مقامه، والمعنى: جزاء سيئة كائن بمثلها؛ كقولك : إنما أنا بك؛ أى إنما أنا كائن بك . ويجوز أن تتعلق بجزاء، التقدير : جزاء سيئة بمثلها كائن؛ فحذف خبر المبتدأ . ويجوز أن يكون « جزاء » مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة؛ فيكون مثل قوله « فعِدّة من أيام أُخَر » أى فعليه عدة؛ وشبهه؛ والباء على هذا التقدير تتعلق بمحذوف، كأنه قال لهم جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

ومعنى هذه المِثْلِيّة أن ذلك الجزاء مما يعدّ مماثلا لذنوبهم، أى هم غير مظلومين، وفعْلُ الربّ غير معلّل بعلة . ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى يغشاهم هوان وخزى . ﴿ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ ﴾ أى من عذاب الله . ﴿ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أى مانع يمنعهم منه . ﴿ كأَنَّمَا أُغْشِيَتْ ﴾ أى ألبست .

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء. (٢) آية ٣٠ سورة فصلت. (٣) آية ١٠٧ سورة آل عمران.

﴿ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا ﴾ جمع قطعة، وعلى هذا يكون « مظلما » حال من الليل؛ أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حال ظلمته . وقرأ الكسائى وآبن كثير « قطْعا » بإسكان الطاء؛ ف « مظلِما » على هذا نعت، ويجوز أن يكون حالا من الليل . والقِطْع اسم ما قُطع فسقط . وقال آبن السِّكيت : القِطْع طائفة من الليل؛ وسيأتى فى « هود »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أى نجمعهم، والحشر الجمع . ﴿ جَمِيعًا ﴾ حال . ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أى اتخذوا مع الله شريكا . ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أى الزموا وآثبتوا مكانكم، وقفوا مواضعكم . ﴿ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ وهذا وعيد . ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أى فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا؛ يقال : زيّلته فتزيّل، أى فرقته فتفرق، وهو فعّلت ؛ لأنك تقول فى مصدره تزييلا، ولو كان فَيْعَلْت لقلت زَيْلَة . والمزايلة المفارقة؛ يقال : زايله الله مزايلة وزيالا إذا فارقه . والتزايل التباين . قال الفراء : وقرأ بعضهم « فزايلنا بينهم »؛ يقال : لا أزايل فلانا، أى لا أفارقه؛ فإن قلت : لا أزاوله فهو بمعنى آخر، معناه لا أخاتله . ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم ﴾ عنى بالشركاء الملائكة . وقيل الشياطين ، وقيل الأصنام؛ فينطقها الله تعالى فتكون بينهم هذه المحاورة . وذلك أنهم آدعوا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التى عبدوها أنهم أمروهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا . قال مجاهد : ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون، وما أمرناكم بعبادتنا . وإن حُمل الشركاء على الشياطين فالمعنى أنهم يقولون ذلك دَهَشا، أو يقولون كذبا واحتيالا للخلاص ، وقد يجرى مثل هذا غدا؛ وإن صارت المعارف ضرورية .

قوله تعالى : فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾

(١) فى قوله تعالى : « فأسر بأهلك بقطع من الليل » آية ٨١

قوله تعالى : ﴿ فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ «شهيدا» مفعول، أى كفى الله شهيدا، أو تمييز، أى اكتف به شهيدا بيننا وبينكم إن كنا أمرناكم بهذا أو رضيناه منكم . ﴿ إِنْ كُنَّا ﴾ أى ما كنا ﴿ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل؛ لأنا كنا جمادا لاروح فينا .

قوله تعالى : هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى موضع نصب على الظرف . ﴿ تَبْلُو ﴾ أى فى ذلك الوقت . «تبلو» أى تذوق. وقال الكلبى : تعلم. مجاهد : تختبر . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ أى جزاء ما عملت وقدمت . وقيل : تسلم، أى تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها . وقرأ حمزة والكسائى «تتلو» أى تقرأ كل نفس كتابها الذى كتب عليها . وقيل «تتلو» تتبع؛ أى تتبع كل نفس ما قدمت فى الدنيا؛ قاله السدى . ومنه قول الشاعر :

إن المريب يتبع المريبا * كما رأيت الذيب يتلو الذيبا

قوله تعالى : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ بالخفض على البدل أو الصفة . ويجوز نصب الحق من ثلاث جهات؛ يكون التقدير : وردوا حقا، ثم جىء بالألف واللام . ويجوز أن يكون التقدير : مولاهم حقا لا ما يعبدون من دونه . والوجه الثالث أن يكون مدحا؛ أى أعنى الحق . ويجوز أن يرفع «الحق»، ويكون المعنى مولاهم الحق — على الابتداء والخبر، والقطع مما قبل — لا ما يشركون من دونه . ووصف نفسه سبحانه بالحق لأن الحق منه كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه؛ أى كل عدل وحق فمن قبله . وقال ابن عباس : «مَوْلَاهُمُ الْحَق» أى الذى يجازيهم بالحق. ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى بطل . ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ «يفترون» فى موضع رفع وهو بمعنى المصدر، أى افتراؤهم . فإن قيل كيف قال : وردوا إلى الله مولاهم الحق وقد أخبر بأن الكافرين لامولى لهم . قيل : ليس بمولاهم فى النصرة والمعونة، وهو مولى لهم فى الرزق وإدرار النعم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣١)

المراد بمساق هـذا الكلام الردُّ على المشركين وتقريرُ الحجة عليهم؛ فمن آعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم، ومن لم يعترف فيقرّر عليه أن هـذه السموات والأرض لابدّ لهما من خالق؛ ولا يتمـارى فى هذا عاقل . وهذا قريب من مرتبـة الضرورة . ﴿ مِنَ السَّماءِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ والأَرْضِ ﴾ بالنبات . ﴿ أَمَّنْ يَمْـلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ ﴾ أى مَن جعلهما وخلقهما لكم . ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ أى النباتَ من الأرض، والإنسـانَ من النطفة، والسُّنْبُلَةَ من الحبة، والطيرَ من البيضة، والمؤمنَ من الكافر . ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أى يقدّره و يقضيه. ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لأنهم كانوا يعتقـدون أن الخالق هو الله؛ أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا فقل لهم يا محمد ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى أفلا تخافون عقابه ونِقْمَته فى الدنيا والآخرة .

قوله تعـالى : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (٣٢)

قوله تعالى: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَـاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ فيه ثمـان مسائل:

الأولى : قوله تعـالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ أى هـذا الذى يفعل هذه الأشياء هو ربكم الحق، لا ما أشركتم معه . ﴿ فَمَـاذَا بَعْدَ الْحَقِّ ﴾ « ذا » صلة، أى ما بعـد عبادة الإلٰه الحق إذا تركت عبادته إلا الضلال . وقال بعض المتقدّمين : ظاهر هـذه الآية يدل على أن ما بعـد الله هو الضـلال؛ لأن أولها « فذلكم الله ربكم الحق » وآخرها « فمـاذا بعد الحق إلا الضلال » فهذا فى الإيمـان والكفرِ، ليس فى الأعمال . وقال بعضهم : ان الكفر تغطية الحق، وكل ما كان غير الحق جرى هذا المجرى؛ فالحرام ضلال والمباح هُدًى؛ فإن الله

هو المبيح والمحرِّم. والصحيح الأول؛ لأن قبل « قُل من يرزقكم من السماء والأرض » ثم قال «فذلكم الله ربكم الحق» أى هذا الذى رزقكم، وهذا كله فعله هو . ﴿ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ أى الذى تحق له الألوهية ويستوجب العبادة، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغيرُ حق .

الثانيـــة ــ قال علماؤنا : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر فى نظائرها، وهى مسائل الأصول التى الحق فيها فى طرف واحد؛ لأن الكلام فيها إنمـا هو فى تعديد وجود ذاتٍ كيف هى، وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال الله تعالى فيها : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وِمِنْهَاجًا »(١)، وقوله عليه الســلام : " الحلال بيّن والحرام بيّن و بينهمـا أمور متشابهات " . والكلام فى الفروع إنمـا هو فى أحكام طارئة على وجود ذات مقررة لا يختلفُ فيها و إنمـا يختلف فى الأحكام المتعلقة بها .

الثالثـــة ــ ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم كان إذا قام إلى الصلاة من جَوْف الليل قال : " اللهم لك الحمد " الحديث . وفيه " أنت الحق ووَعْدُك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمـد حق " الحديث . فقـوله " أنت الحق " أى الواجب الوجود ؛ وأصـله من حَقّ الشىء أى ثبت ووجب. وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه ممـا يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، و يجوز عليه لحاق العدم، ووجوده من موجِده لا من نفسه . وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبِيد :

* ألَا كلُّ شىءٍ ما خـلا اللهَ باطلُ *

و إليه الإشارة بقوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلَّا وجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ و إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(٢) .

الرابعـــة ــ مقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعا، كما فى هذه الآية . وكذلك أيضا مقابلة الحق بالبـاطل عرف لغـة وشرعا ؛ قال الله تعـالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ

(١) آية ٤٨ سورة المـائدة . (٢) آخر سورة القصص .

ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ (١) » . والضلال حقيقته الذهاب عن الحق ؛ أخذ من ضلال الطريق، وهو العدول عن سَمْته . قال آبن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك غير سبيل القصد؛ يقال : ضل عن الطريق وأضل الشيءَ إذا أضاعه . وخُصّ في الشرع بالعبارة عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال؛ ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ولم يقترن بعدمه جهل أوشك، وعليه حمل العلماء قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » أي غافلا، في أحد التأويلات، يحققه قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ (٢) » .

الخامسة — روى عبد الله بن عبد الحكم وأشهب عن مالك في قوله تعالى . « فماذا بعد الحق إلا الضلال » قال : اللَّعِب بالشِّطْرَنْج والنَّرْد من الضلال . وروى يونس عن آبن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب في بيته مع امرأته بأربع عشرة؛ فقال مالك : ما يعجبني ! وليس من شأن المؤمنين، يقول الله تعالى : « فماذا بعد الحق الا الضلال » . وروى يونس عن أشهب قال : سئل — يعني مالكا — عن اللعب بالشطرنج فقال : لا خير فيه ، وليس بشيء وهو من الباطل ، واللعب كله من الباطل ، وإنه لينبغي لذي العقل أن تنهاه اللحية والشيب عن الباطل . وقال الزهري لما سئل عن الشطرنج : هي من الباطل ولا أحبها .

السادسة — اختلف العلماء في جواز اللَّعِب بالشِّطرنج وغيره إذا لم يكن على وجه القِمار ؛ فتحصيل مذهب مالك وجمهورِ الفقهاء في الشطرنج أن من لم يقامر بها ولعب مع أهله في بيته مستترا به مرة في الشهر أو العام ، لا يُطَّلَع عليه ولا يُعلم به أنه مَعْفُوٌّ عنه غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن تَخَلَّع (٣) به واشتهر فيه سقطت مروءته وعدالته ورُدّت شهادته . وأما الشافعي فلا تسقط في مذهب أصحابه شهادةُ اللاعب بالنّرد والشِّطرنج ، إذا

(١) آية ٦٢ سورة الحج . (٢) آية ٥٢ سورة شورى . (٣) تخلع في الشراب : انهمك فيه ولازمه ليلا ونهارا .

كان عدلا فى جميع أصحابه، ولم يظهر منه سفه ولا رِيبــة ولا كبيرة الا أن يلعب به قمـارا، فان لعب بهـا قمارا وكان بذلك معروفا سقطت عدالته وسفّه نفسه لأكله المـال بالباطل .

وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والنرد والأربعة عشر وكلّ اللهــو ؛ فإن لم تظهر من اللاعب بها كبيرة وكانت محاسنه أكثر من مساويه قبلت شهادته عندهم . قال ٱبن العربى : قالت الشافعية إن الشطرنج يخالف النرد لأن فيه إكداد الفهم واستعمال القريحة . والنرد قِمار غَرَرٍ لا يعلم ما يخرج له فيه كالاستقسام بالأزلام .

السابعــة — قال علماؤنا : النرد قطع مملوءة من خشب البقس ومن عظم الفيل، وكذا هو الشطرنج إذ هو أخوه غُذِّى بلبانه . والنرد هو الذى يعرف بالطبل ويعرف بالكِعاب ويعرف فى الجاهلية أيضا بالأرز (١) ويعرف أيضا بالنردشير . وفى صحيح مسلم عن سليمان بن بُريدة عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده فى لحم خنزير ودمِه". قال علماؤنا : ومعنى هذا أى هو كمن غمس يده فى لحم الخنزير يهيّئه لأن يأكله، وهذا الفعل فى الخنزير حرام لا يجوز ؛ يبينه قوله صلى الله عليــه وسلم : " من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله " رواه مالك وغيره من حديث أبى موسى الأشعرى وهو حديث صحيح، وهو يحرّم اللعب بالنرد جملة واحدة، وكذلك الشطرنج، لم يستثن وقتا من وقت ولا حالا من حال، وأخبر أن فاعل ذلك عاصٍ لله ورســوله ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون المراد باللعب بالنرد المنهيّ عنه أن يكون على وجه القمار ؛ لمـا رُوى من إجازة اللعب بالشطرنج عن التابعين على غير قِمــار . وحَمْلُ ذلك على العموم قمارا وغير قمار أولى وأحوط إن شاء الله . قال أبو عبد الله الحَلِيْمىّ فى كتاب منهاج الدين : ومما جاء فى الشِّطرنج حديث يروى فيه كما يروى فى النرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من لعب بالشطرنج فقد عصى الله ورسوله" . وعن علىّ رضى الله عنه أنه مَرّ على مجالس من بنى تميم وهم يلعبون بالشــطرنج فوقف عليهم فقال : " أمَا والله لغير هذا خلقتم ! أمَا والله لولا أن تكون سُنّة لضربت به وجوهكم " . وعنه رضى الله عنه أنه مَرّ بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التمــاثيل التى أنتم لها عاكفون ؛ لأن يَمَسّ أحدكم

(١) اضطربت الأصول فى كتابة هذه الأسماء؛ ولم نهتد الى وجه الصواب فيها .

جمرا حتى يطفأ خير من أن يمسها . وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هى شر من النرد . وقال أبو موسى الأشعرى : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ . وسئل أبو جعفر عن الشطرنج فقال : دعونا من هذه المجوسية . وفى حديث طويل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وأن من لعب بالنرد والشطرنج والجوز والكِعاب مقته الله ومن جلس إلى من يلعب بالنرد والشطرنج لينظر إليهم مُحيت عنه حسناته كلها وصار ممن مقته الله " . وهذه الآثار كلها تدل على تحريم اللعب بها بلا قِمار، والله أعلم . وقد ذكرنا فى «المـائدة» بيان تحريمها[1] وأنها كالخمر فى التحريم لاقترانها به، والله أعلم . قال ابن العربى فى قبسه : وقد جوّزه الشافعى، وانتهى حال بعضهم إلى أن يقول : هو مندوب إليه، حتى اتخذوه فى المدرسة؛ فإذا أعيا الطالب من القراءة لعب به فى المسجد . وأسندوا إلى قوم من الصحابة والتابعين أنهم لعبوا بها؛ وما كان ذلك قطّ ! وتالله ما مستها يَدُ تَقِيّ . ويقولون إنها تَشْحَذ الذهن، والعِيان يكذبهم، ما تبحّر فيها قطُّ رجل له ذهن . سمعت الإمام أبا الفضل عطاء المقدسى يقول بالمسجد الأقصى فى المناظرة : إنها تعلّم الحرب . فقال له الطُّرْطُوشيّ : بل تفسد تدبير الحرب؛ لأن الحرب المقصود منها الملك واغتياله، وفى الشِّطرنج تقول : شاهْ إياك : الملِك نَحِّه عن طريق؛ فاستضحك الحاضرين . وتارة شـدّد فيها مالك وحرّمها وقال فيها : « فماذا بعد الحق إلا الضـلال » . وتارة استهان بالقليـل منها والأهون؛ والقول الأول أصح والله أعلم . فإن قال قائل : روى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن الشطرنج فقال : وما الشطرنج ؟ فقيل له : إن امرأة كان لها ابن وكان ملِكا فأصيب فى حرب دون أصحابه؛ فقالت : كيف يكون هـذا أَرُونيه عِيانا؛ فعُمل لهـا الشطرنج، فلما رأته تسلت بذلك . ووصفوا الشطرنج لعمر رضى الله عنه فقال : لا بأس بمـا كان من آلة الحرب؛ قيـل له : هـذا لا حجة فيه لأنه لم يقل لا بأس بالشطرنج وإنما قال لا بأس بما كان من آلة الحرب . وإنما قال هذا لأنه شُبّه عليه أن اللعب بالشطرنج مما يستعان به على معرفة أسباب الحرب، فلما قيل له ذلك ولم يحط به علمه قال :

(١) راجع المسألة الثانية عشرة جـ ٦ ص ٢٩١ .

لا بأس بمـا كان من آلة الحرب، إن كان كما تقولون فلا بأس به، وكذلك من روى عنه من الصحابة أنه لم ينه عنه، فإن ذلك محمول منه على أنه ظنّ أن ذلك ليس يُتلَهّى به، وإنما يراد به التسبب إلى علم القتال والمضاربة فيه، أو على أن الخبر المسنَد لم يبلغهم . قال الحَلِيْميّ : وإذا صح الخبر فلا حجة لأحد معه، وإنما الحجة فيه على الكافّة .

الثامنـــة — ذكر ابن وهب بإسناده أن عبد الله بن عمر مَرّ بغلمان يلعبون بالكُجّة، وهي حفر فيها حصًى يلعبون بها، قال فسـدّها ابن عمر ونهاهم عنها . وذكر الهرويّ في باب (الكاف مع الجيم) في حديث ابن عباس : في كل شيء قِمار حتى في لعب الصبيان بالكُجّة ؛ قال ابن الأعرابي : هو أن يأخذ الصبي خرقة فيدوّرها كأنها كرة، ثم يتقامرون بها . وكَجّ اذا لعب بالكُجّة .

قوله تعالى : ﴿فأنّى تُصْرَفُونَ﴾ أي كيف تَصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يحيي ولا يميت .

قوله تعـالى : كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه وعلمه السابق . ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا . ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون . وفي هذا أَوْفَى دليل على القدرية . وقرأ نافع وابن عامر هنا وفي آخرها «كذلك حقّت كلمات ربك» وفي سورة غافر بالجمع في الثلاثة . الباقون بالإفراد . و «أنّ» في موضع نصب ؛ أي بأنهم أو لأنهم . قال الزجاج : ويجوز أن تكون في موضع رفع على البدل من كلمات . قال الفراء : يجوز «إنهم» بالكسر على الاستئناف .

قوله تعـالى : قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أى آلهتكم ومعبوداتكم . ﴿مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى قل لهم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير؛ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وليس غيره يفعل ذلك . ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أى فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل .

قوله تعالى : قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يقال : هداه الطريق و إلى الطريق بمعنًى واحد؛ وقد تقدم (١) . أى هل من شركائكم من يُرشد إلى دين الإسلام؛ فإذا قالوا لا ولا بدّ منه فقل لهم ﴿اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ ثم قل لهم موبِّخا ومقررا ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي﴾ أى يرشد ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى . ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ يريد الأصنام التى لا تهدى أحدا ، ولا تمشى إلا أن تُحمل ، ولا تنتقل عن مكانها إلا أن تنقل . قال الشاعر (٢) :

للفتى عقــل يَعيش به * حيث تَهْدِى ساقَه قَدَمُهْ

وقيل : المراد الرؤساء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هُدًى إلا أن يُرْشَدوا .

وفى « يَهِدِّى » قراءات ست :

الأولى ــ قرأ أهل المدينة إلا ورشًا «يَهْدِّى» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال؛ فجمعوا فى قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا فى قوله « لَا تَعْدُّوا (٣) » وفى قوله « يَخْصِّمون » . قال النحاس : والجمع بين الساكنين لا يقــدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد : لا بد لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفية إلى الكسر، وسيبويه يسمى هذا اختلاس الحركة .

(١) راجع جـ ١ ص ١٦٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هو طرفة؛ كما فى اللسان .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـــة — قرأ أبو عمرو وقالون فى روايةٍ بين الفتح والإسكان، على مذهبه فى الاختفاء والاختلاس .

الثالثـــة — قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن مُحَيْصن « يَهَدّى » بفتح الياء والهـاء وتشديد الدال . قال النحاس : هذه القراءة بيّنة فى العربية، والأصل فيها يهتدى أدغمت التاء فى الدال وقلبت حركتها على الهاء .

الرابعـــة — قرأ حفص و يعقوب والأعمش عن أبى بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا : لأن الجزم إذا اضْـطُرّ إلى حركته حُرّك إلى الكسر . قال أبو حاتم : هى لغة سُفْلَى مضر .

الخامسة — قرأ أبو بكر عن عاصم «يِهِدّى» بكسر الياء والهاء وتشديد الدال، كل ذلك لإتباع الكسر الكسر كما تقدم فى البقرة فى «يخطف»(١) . وقيل : هى لغة من قرأ «نستعين»(٢) و « لن تمسنا النـار » ونحوه . وسيبويه لا يجـيز «يِهِـدّى» ويجيز «تِهِدّى» و « نِهِـدّى» و «إهدى» قال : لأن الكسرة فى الياء تثقل .

السادســـة — قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى بن وَثّاب والأعمش « يَهْدِى » بفتح الياء و إسكان الهاء وتخفيف الدال؛ من هَدَى يهدى . قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان فى العربية وإن كانت بعيدة، وأحد الوجهين أن الكسائى والفراء قالا : «يهدى» بمعنى يهتدى . قال أبو العباس : لا يعرف هـذا، ولكن التقدير أمن لا يهدى غيره، تمّ الكلام، ثم قال : « إلا أن يهدى » استـأنف من الأوّل، أى لكنه يحتاج أن يهدى؛ فهو استثناء منقطع، كما تقول : فلان لا يُسمِع غيره إلا أن يُسمع، أى لكنه يحتاج أن يُسْمَع . وقال أبو إسحاق : « فما لكم » كلام تام، والمعنى : فأى شىء لكم فى عبادة الأوثان . ثم قيل لهم : ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح، تعبدون آلهة لا تغنى عن أنفسها شيئا إلا أن يُفعل بها، والله يفعل ما يشاء فتتركون عبادته؛ فموضع «كيف» نصب بـ«تحكمون» .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ يريد الرؤساء منهم؛ أى ما يتبعون إلا حدسا وتخريصا فى أنها آلهة وأنها تشفع، ولا حجة معهم . وأما أتباعهم فيتبعونهم تقليدا . ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى من عذاب الله؛ فالحق هو الله . وقيل « الحق » هنا اليقين ؛ أى ليس الظن كاليقين . وفى هذه الآية دليل على أنه لا يُكْتَفَى بالظن فى العقائد . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، خرجت مخرج التهديد .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ « أنْ » مع « يفترى » مصدر، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء؛ كما تقول : فلان يحب أن يركب، أى يحب الركوب؛ قاله الكسائى . وقال الفراء : المعنى وما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى؛ كقوله « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ »(١) « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً »(٢) . وقيل : « أنْ » بمعنى اللام، تقديره : وما كان هذا القرآن ليفترى . وقيل : بمعنى لا، أى لا يفترى . وقيل : المعنى ما كان يتهيأ لأحد أن يأتى بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبه إلى الله تعالى لإعجازه؛ لوصفه ومعانيه وتأليفه . ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الكسائى والفراء ومحمد ابن سعدان : التقدير ولكن كان تصديقَ؛ ويجوز عندهم الرفع بمعنى : ولكن هو تصديق . ﴿ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب، فإنها قد بشّرت به فجاء

(١) آية ١٦١ سورة آل عمران . (٢) آية ١٢٢ سورة التوبة .

مصدّقا لها فى تلك البشارة، وفى الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة . وقيل : المعنى ولكن تصديق النبيّ الذى بين يدى القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم شاهدوه قبل أن سمعوا منه القرآن . «وتفصيلُ» بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين فى تصديق . والتفصيل : التبيين، أى يبيّن ما فى كتب الله المتقدمة . والكتاب آسم الجنس . وقيل : أراد بتفصيل الكتاب ما بُيِّن فى القرآن من الأحكام . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الهاء عائدة للقرآن، أى لا شك فيه أى فى نزوله من قبل الله تعالى .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ أم هاهنا فى موضع ألف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها . وقيل : هى أم المنقطعة التى تقدّر بمعنى بل والهمزة؛ كقوله تعالى : « الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه » أى بل أيقولون افتراه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو، مجازه : و يقولون افتراه . وقيل : الميم صلة، والتقدير : أيقولون افتراه، أى اختلق محمد القرآن من قِبَل نفسه ، فهو استفهام معناه التقريع . ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ ومعنى الكلام الاحتجاج، فإن الآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله ؛ لأنه مصدّق الذى بين يديه من الكتب وموافق لها من غير أن يتكلم محمد عليه السلام عن أحد . وهذه الآية إلزام بأن يأتوا بسورة مثله إن كان مفترًى . وقد مضى القول فى إعجاز القرآن ، وأنه معجز فى مقدّمة الكتاب(١)، والحمد لله .

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ أى كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال؛ فهذا يدل على أنه يجب أن يُنظر فى التأويل . وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم . أو كذبوا بما فى القرآن من ذكر البعث والجنة والنار، ولم يأتهم تأويله أى حقيقة ما وعدوا فى الكتاب؛ قاله الضحاك . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد فى القرآن (من جهل شيئا عاداه) قال نعم، فى موضعين : « بل كذبوا بما لم يُحيطوا بعلمه » وقوله « وإذْ لَمْ يهتدوا به فسيقولون هذا إفْكٌ قديم »[(١)] . ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد الأمم الخالية، أى كذا كانت سبيلهم . والكاف فى موضع نصب . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى أخذهم بالهلاك والعذاب .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ قيل : المراد أهل مكة، أى ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن طال تكذيبه؛ لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من أهل السعادة . و « مَن » رفع بالابتداء والخبر فى المجرور . وكذا ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ والمعنى ومنهم من يُصر على كفره حتى يموت؛ كأبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيل : المراد أهل الكتاب . وقيل : هو عام فى جميع الكفار؛ وهو الصحيح . وقيل : إن الضمير فى «به» يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ فأعلم الله سبحانه أنه إنما أخر العقوبة لأن منهم من سيؤمن . ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أى من يُصرّ على كفره؛ وهذا تهديد لهم .

قوله تعالى : وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

(١) آية ١١ سورة الأحقاف .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي ﴾ رفع بالابتداء، والمعنى : لى ثواب عملى فى التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى . ﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أى جزاؤه من الشرك . ﴿ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مثـله ؛ أى لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر . وهذه الآية منسوخة بآية السيف؛ فى قول مجاهد والكلبى ومقاتل وآبن زيد .

قوله تعـالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ يريد بظواهرهم ، وقلوبهم لا تعى شيئا مما يقوله من الحق و يتلوه من القرآن، ولهذا قال : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى لا تُسمع؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفى، وجعلهم كالصم للختم على قلوبهم والطبع عليها، أى لا تقدر على هـداية من أصمه الله عن سماع الهدى . وكذا المعنى فى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أخبر تعـالى أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . وهـذا وما كان مثـلَه يردّ على القـدرية قولهم؛ كما تقدّم فى غير موضع . وقال : «يستمعون» على معنى « مَن » و « ينظر » على اللفظ؛ والمراد تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم، أى كما لاتقدر أن تسمع من سُلب السمع ولا تقدر أن تخلُق للأعمى بصرا يهتدى به، فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمـان وقد حكم الله عليهم ألا يؤمنوا . ومعنى : ﴿ يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أى يديم النظر إليك؛ كما قال: « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ »[1] . قيل : إنها نزلت فى المستهزئين، والله أعلم .

قوله تعـالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

(١) آية ١٩ سورة الأحزاب .

لما ذكر أهل الشقاء ذكر أنه لا يظلمهم، وأن تقدير الشقاء عليهم وسلبَه سمع القلب وبصرَه ليس ظلما منه؛ لأنه تصرّف فى ملكه بما شاء، وهو فى جميع أفعاله عادل. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم . وقرأ حمزة والكسائى « ولكِنْ » مخففا « الناس » رفعا . قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفراء أن العرب إذا قالت « ولكن » بالواو آثرت التشديد، وإذا حذفوا الواو آثرت التخفيف، واعتلّ فى ذلك فقال: لأنها اذا كانت بغير واو أشبهت بل فخففوها ليكون مابعدها كما بعد بل، وإذا جاءوا بالواو خالفت بل فشدّدوها ونصبوا بها، لأنها « إنّ » زيدت عليها لام وكاف وصُيّرت حرفا واحدا؛ وأنشد :

* ولكننى من حبّها لعَميد *

فجاء باللام لأنها « إنّ » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ بمعنى كأنهم خففت، أى كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم . ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾ أى قدر ساعة؛ يعنى أنهم استقصروا طول مقامهم فى القبور لهول ما يرون من البعث ؛ دليله قولهم : « لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »(١) . وقيل : إنما قَصُرت مدّة لَبثهم فى الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم فى القبر . ٱبن عباس : رأوا أن طول أعمارهم فى مقابلة الخلود كساعة . ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ فى موضع نصب على الحال من الهاء والميم فى « يحشرهم » . ويجوز أن يكون منقطعا، فكأنه قال فهم يتعارفون . قال الكَلْبِىّ : يعرف بعضهم بعضا كمعرفتهم فى الدنيا إذا خرجوا من قبورهم؛ وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح؛ يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتنى وأغويتنى وحملتنى على الكفر؛ وليس

---

(١) آية ١٩ سورة الكهف .

تعارف شـفقة ورأفة وعطف . ثم تنقطع المعـرفة إذا عاينوا أهـوال يوم القيامة كما قال : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا »[1] . وقيل: يبقى تعارف التوبيخ؛ وهو الصحيح لقوله تعالى: « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ — إلى قوله — وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا »[2] ، وقوله : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا »[3] الآية، وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا »[4] الآية . فأما قوله « ولا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » وقوله « فإذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بينهـم »[5] فمعناه لايسأله سؤال رحمة وشفقة، والله أعلم . وقيل : القيامة مواطن . وقيل : معنى «يتعارفون» يتساءلون، أي يتساءلون كم لبثتم؛ كما قال «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بعض يتساءلون»[6] وهذا حسن. وقال الضـحاك : ذلك تعـارُف تعاطف المؤمنين؛ والكافرون لا تعاطف عليهـم؛ كما قال « فلا أنساب بينهم » . والأول أظهر، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَـاءِ اللهِ ﴾ أي بالعرض على الله . ثم قيل : يجوز أن يكون هـذا إخبارا من الله عز وجل بعد أن دلّ على البعث والنشور، أي خسروا ثواب الجنـة . وقيل خسروا في حال لقـاء الله؛ لأن الخسران إنمـا هو في تلك الحالة التي لا يرجى فيها إقالة ولا تنفع توبة . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى يتعارفون بينهم، يقولون هذا . ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ يريد في علم الله .

قوله تعـالى : وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ شرط . ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِـدُهُمْ ﴾ أي من إظهار دينك في حياتك . وقال المفسرون : كان البعض الذي وعدهم قتلَ من قُتل وأَسْرَ من أسر ببدر . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف على «نرينك» أي أو نتوفينك قبل ذلك . ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ جواب

---

(١) آية ١٠ سورة المعارج. (٢) آية ٣١ وما بعدها سورة سبأ. (٣) آية ٣٨ سورة الأعراف.
(٤) آية ٦٧ سورة الأحزاب. (٥) آية ١٠١ سورة المؤمنون . (٦) آية ٢٧ سورة الصافات .

« إمّا » . والمقصود إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ أى شاهد لا يحتاج إلى شاهد ﴿ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ من محاربتك وتكذيبك . ولو قيل : « ثمّ الله شهيد » بمعنى هناك ، جاز .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ يكون المعنى : ولكل أمة رسول شاهد عليهم، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ؛ مثل « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أمة بشهيد » . وقال ابن عباس : تُنكر الكفار غدا مجيء الرسل اليهم ، فيؤتى بالرسول فيقول قد أبلغتكم الرسالة؛ فحينئذ يقضى عليهم بالعذاب . دليله قوله : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شهيدا »(١) . ويجوز أن يكون المعنى أنهم لا يعذبون فى الدنيا حتى يرسل اليهم؛ فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعُذّب . دليله قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »(٢) . والقسط : العدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

يريد كفار مكة لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أى متى العقاب أو متى القيامة التى يعدنا محمد . وقيل : هو عام فى كل أمة كذبت رسولها .

قوله تعالى : قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

---

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة .	(١) آية ١٥ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ لمـا استعجلوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا ؛ أى ليس ذلك لى ولا لغيرى . ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا . ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أى لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم فى علمه سبحانه . ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى وقت انقضاء أجلهم . ﴿ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين فى الدنيا ولا يتقدّمون فيؤخرون .

قوله تعـالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ ظرفان، وهو جواب لقولهم : « متى هذا الوعد » وتسفيهٌ لآرائهم فى استعجالهم العذاب ؛ أى إن أتاكم العذاب فما نفعُكم فيــه ، ولا ينفعكم الإيمـان حينئذ . ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم ؛ أى ما أعظم ما يستعجلون به ؛ كما يقال لمن يطلب أمرا يستوخم عاقبتــه : ماذا تجنى على نفسك ! والضمير فى « منه » قيــل يعود على العذاب، وقيل يعود على الله سبحانه وتعالى . قال النحاس : إن جعلت الهاء فى « منه » تعود على العذاب كان لك فى « ماذا » تقديران : أحدهما أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، و «ذا» بمعنى الذى، وهو خبر «ما»، والعائد محذوف . والتقدير الآخر أن يكون «ماذا» اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء، والخبر فى الجملة ؛ قاله الزجاج . و إن جعلت الهاء فى « منه » تعود على اسم الله تعالى جعلت «ما» ، و « ذا » شيئا واحدا، وكانت فى موضع نصب بـ « يستعجل » ؛ والمعنى : أىّ شىء يستعجل منه المجرمون من الله عز وجل .

قوله تعـالى : أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ ﴾ فى الكلام حذف، والتقدير : أتأمنون أن ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل : آلآن آمنتم به ؟ قيل : هو من قول الملائكة استهزاء بهم . وقيل : هو من قول الله تعالى ، ودخلت ألف الاستفهام على « ثم » والمعنى التقرير والتوبيخ ، وليدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى . وقيل : إن « ثم » ها هنا بمعنى « ثَمّ » بفتح الثاء ، فتكون ظرفا ، والمعنى أهنالك ؛ وهو مذهب الطبرى ، وحينئذ لا يكون فيه معنى الاستفهام . و « الآن » قيل : أصله فعل مبنىّ مثل حان ، والألف واللام لتحويله إلى الاسم . الخليل : بنيت لالتقاء الساكنين ، والألف واللام للعهد والإشارة إلى الوقت ، وهو حدّ الزمانين . ﴿ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ ﴾ أى بالعذاب ﴿ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم . ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى الذى لا ينقطع . ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى جزاء كفركم .

قوله تعالى : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ أى يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيام الساعة . ﴿ أَحَقٌّ ﴾ ابتداء . ﴿ هُوَ ﴾ سدّ مسدّ الخبر ؛ وهذا قول سيبويه . ويجوز أن يكون « هو » مبتدأ ، و « أحقٌّ » خبره . ﴿ قُلْ إِى ﴾ « إى » كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم . ﴿ وَرَبِّى ﴾ قسم . ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ جوابه ، أى كائن لا شك فيه . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين عن عذابه ومجازاته .

قوله تعـالى : وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أى أشركت وكفرت . ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ أى من عذاب الله ، يعنى ولا يقبــل منها ؛ كما قال : « إِنَّ الذِينَ كفروا وماتُوا وهم كُفّارٌ فلن يُقْبَلَ مِن أحدهم مِلءُ الأرض ذَهَبًا ولو ٱفْتَدَى بِهِ »(١) . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ أى أخفَوْها ؛ يعنى رؤساءهم، أى أخفوا ندامتهم عن أتباعهم . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَــذَابَ ﴾ وهذا قبــل الإحراق بالنار ، فاذا وقعوا فى النار ألْهتهم النار عن التصنع ؛ بدليــل قولهم « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا »(٢) . فبيّن أنهم لا يكتمون ما بهــم . وقيل : « أَسَرُّوا » أظهروا ؛ الكلمة من الأضــداد ؛ و يدل عليه أن الآخرة ليست دار تجلّد وتصبّر . وقيل : وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم؛ لأن الندامة لا يمكن إظهارها . قال كُثَيِّر :

فأسررتُ الندامة يوم نادى * بردّ جمــال غاضرة المنادى

وذكر المبرّد فيه وجها ثالثا — أنه بدت بالندامة أَسِرّة وجوههم ، وهى تكاسير الجبهة ، واحدها سِرَار . والندامة : الحسرة لوقوع شيء أو فوت شيء ، وأصلها اللزوم؛ ومنه النديم لأنه يلازم المجالس . وفلان نادم سادم . والسَّدَم اللّهَج بالشيء . ونَدِم وتندّم بالشيء أى اهتمّ به . قال الجوهرى : السَّدَم (بالتحريك) الندم والحزن ؛ وقد سَدِم بالكسر أى اهتم وحَزِن . ورجل نادمٌ سادم ، وندمانُ سَدْمانُ ؛ وقيل هو إتباع . وماله هَمٌّ ولا سَدَم إلا ذلك . وقيل : الندم مقلوب الدمن ، والدَّمْن اللزوم؛ ومنه فلان مدمن الخمر . والدّمْن : ما اجتمع فى الدار وتلبّد من الأبوال والأبعار ؛ سُمِّيَ به للزومه . والدّمنة : الحقد الملازم للصدر ، والجمع دِمَن . وقد دَمِنت قلوبهم بالكسر ؛ يقال : دَمِنت على فلان أى ضَغِنت . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُــمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بين الرؤساء والسُّفّل بالعدل ﴿ وهم لايظلمون ﴾ .

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٠٦ سورة المؤمنون .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

« أَلَآ » كلمة تنبيه للسامع تراد في أول الكلام ؛ أي انتبهوا لما أقول لكم : إن لله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ، له ملك السموات والأرض فلا مانع يمنعه من إنفاذ وعده . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

بيّن المعنى ، وقد تقدم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ يعني قريشا . ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾ أي وعظ . ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن ، فيه مواعظ وحكم . ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ أي من الشك والنفاق والخلاف والشقاق . ﴿ وَهُدًى ﴾ أي ورشدا لمن اتبعه . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي نعمة . ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بالإيمان ؛ والكل صفات القرآن ، والعطف لتأكيد المدح . قال الشاعر :

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمام * وليثِ الكتيبة في المُزْدَحَمْ

قوله تعالى : قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام . وعنهما أيضا : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله . وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن ؛ على العكس من القول الأول . وقيل غير هذا . ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ إشارة إلى الفضل والرحمة . والعرب تأتي « بذلك » للواحد والاثنين والجمع . وروى عن النبي صلى

الله عليه وسـلم أنه قرأ « فبذلك فليفرحوا » بالتاء ؛ وهى قراءة يزيد بن القعقاع ويعقـوب وغيرهما؛ وفى الحديث "لتأخذوا مصافّكم". والفرح لذة فى القلب بإدراك المحبوب. وقد ذمّ الفرح فى مواضع؛ كقوله : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ »(١) وقوله : « إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ »(٢) ولكنه مطلق. فإذا قُيّد الفرح لم يكن ذما؛ لقوله : « فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ »(٣) وهاهنا قال تبارك وتعالى : «فبذلك فليفرحوا» أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا؛ فقيد. قال هارون : وفى حرف أُبَىّ « فبذلك فافرحوا ». قال النحاس : سبيل الأمر أن يكون باللام ليكون معه حرف جازم كما أن مع النهى حرفا؛ إلا أنهم يحذفون من الأمر للمخاطَب استغناء بمخاطبته، وربما جاءوا به على الأصل؛ منه « فبذلك فلتفرحوا ». ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعنى فى الدنيا. وقراءة العامة بالياء فى الفعلين؛ وروى عن ابن عامر أنه قرأ «فليفرحوا» بالياء «تجمعون» بالتاء؛ خطابا للكافرين. وروى عن الحسن أنه قرأ بالتاء فى الأول، و «يجمعون» بالياء على العكس. وروى أبان عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه — ثم تلا — « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » ".

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يخاطب كفار مكة. ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ « ما » فى موضع نصب بأرأيتم. وقال الزجاج : فى موضع نصب بأنزل. ﴿وأنزل﴾ بمعنى خلق؛ كما قال : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »(٤). « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ

(١) آية ٧٦ سورة القصص. (٢) آية ١٠ سورة هود. (٣) آية ١٧٠ سوة آل عمران.
(٤) آية ٦ سورة الزمر.

بَأْسٌ شَـدِيدٌ[1] » . فيجوز أن يعبر عن الخلق بالإنزال ؛ لأن الذى فى الأرض من الرزق إنما هو بما ينزل من السماء من المطر . ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ قال مجاهد : هو ما حكموا به من تحريم البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحام[2] . وقال الضحاك : هو قول الله تعالى : « وجعلوا لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ نَصِيبًا[3] » . ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ أى فى التحليل والتحريم . ﴿ أَمْ عَلَى اللهِ ﴾ « أم » بمعنى بل . ﴿ تَفْتَرُونَ ﴾ هو قولهم إن الله أمرنا بها .

الثانيـــة — استدل بهذه الآية من نفى القياس ، وهذا بعيد ؛ فانّ القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحريم من الله تعالى عنــد وجود دلالة نصبها الله تعالى على الحكم ، فان خالف فى كون القياس دليلا لله تعالى فهو خروج عن هذا الغرض ورجوع إلى غيره .

قوله تعـالى : وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعـالى : ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ « يوم » منصوب على الظرف ، أو بالظن ؛ نحـو ما ظنك زيدا ؛ والمعنى : أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به . ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى فى التأخير والإمهال . وقيل : أراد أهل مكة حين جعلهــم فى حَرَم آمن . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى الكفار . ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه ولا فى تأخير العذاب عنهم . وقيل : « لا يشكرون » أى لا يوحّدون .

قوله تعـالى : وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

(١) آية ٢٥ ســورة الحديد . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ « ما » للجحد ؛ أى لست فى شأن ، يعنى من عبـادة أو غيرها إلا والربّ مطلع عليك . والشأن الخطب ، والأمر ، وجمعـه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب ما شأنتُ شأنَه ، أى ما عملت عمله . ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ قال الفراء والزجاج : الهاء فى « منه » تعود على الشأن ، أى تحدث شأنا فيتلى من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو ينزل فيه قرآن فيتلى . وقال الطبرى : « منـه » أى من كتاب الله تعـالى . ﴿ مِنْ قرآنٍ ﴾ أعاد تفخيما ؛ كقوله : « إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ » . ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يخاطب النبيّ صلى الله عليه وسلم والأمة . وقوله : « وما تكون فِي شأنٍ » خطاب له والمراد هو وأمته ؛ وقد يخاطَب الرسول والمراد هو وأتباعه . وقيل : المراد كفار قريش . ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ أى نعلمه ؛ ونظيره « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم »(١) . ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تأخذون فيه ، والهاء عائدة على العمل ؛ يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل إذا اندفع فيه . قال الراعى :

فأَفَضْن بعـــد كُظومهِـنّ بجِرّة * من ذى الأباطح إذرَعَيْن حَقِيلَا

ابن عباس : « تُفيضون فيه » تفعـلونه . الأخفش : تتكلمون . ابن زيد : تخوضون . ابن كَيسان : تنشرون القول . وقال الضحاك : الهاء عائدة على القرآن ؛ المعنى : إذ تشيعون فى القرآن الـكذب . ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يغيب . وقال أبو رَوق : يبعـد . وقال ابن كَيسان : يذهب . وقرأ الكسائىّ « يعزِب » بكسر الزاى حيث وقع ؛ وضم الباقون ، وهما لغتان فصيحتان ؛ نحو يعرِش و يعرُش . ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ﴾ « من » صلة ؛ أى وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ؛ أى وزن ذرّة ، أى نملة حمراء صـغيرة ، وقد تقدم فى « النســاء »(٢) . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْـغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ عطف على لفـظ مثقال ، و إن شئت على ذرّة . وقرأ يعقوب وحمـزة برفع الراء فيهـما عطفا على موضع مثقال لأن من زائدة للتأكيد . وقال الزجاج : و يجوز الرفع على الابتـداء ، وخبره ﴿ إِلَّا

---

(١) آية ٧ سورة المجادلة . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

فى كتاب مبين ﴾ يعنى اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به . قال الجرجانى : « إلا » بمعنى واو النسق ، أى وهو فى كتاب مبين ، كقوله تعالى : « إنى لا يخاف لدى المرسلون . إلا من ظلم (١) » أى ومن ظلم . وقوله : « لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم (٢) » أى والذين ظلموا منهم ؛ فـ « إلا » بمعنى واو النسق ، وأضمر هو بعده ، كقوله : « وقولوا حطة (٣) » أى هى حطة . وقوله : « ولا تقولوا ثلاثة (٤) » أى هم ثلاثة . ونظير ما نحن فيه : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين (٥) » وهو فى كتاب مبين .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ لفقد الدنيا . وقيل : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضى عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ؛ قال الله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها — أى عن جهنم — مبعدون — الى قوله — لا يحزنهم الفزع الأكبر (٦) » . وروى سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : من أولياء الله؟ فقال : " الذين يذكر الله برؤيتهم . وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن من عباد الله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى " . قيل : يارسول الله، خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم . قال : " هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس — ثم قرأ — ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " . وقال

---

(١) آية ١٠ سورة النمل . (٢) آية ١٥٠ سورة البقرة . (٣) آية ٥٨ سورة البقرة .
(٤) آية ١٧١ سورة النساء . (٥) آية ٥٩ سورة الأنعام . (٦) آية ١٠١ وما بعدها سورة الأنبياء .

علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السّهر، عُمْش العيون من العِبَر، خُمْص البطون من الجوع، يُبْس الشفاه من الذَّوِىّ(١). وقيل : « لا خوف عليهم » فى ذريتهم، لأن الله يتولاهم. ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على دنياهم لتعويض الله إياهم فى أولاهم وأخراهم لأنه وليّهم ومولاهم.

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

هذه صفة أولياء الله تعالى؛ فيكون « الذين » فى موضع نصب على البدل من اسم « إنّ » وهو « أولياء ». وإن شئت على أعنى. وقيل : هو ابتداء، وخبره « لهم البُشْرَى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »؛ فيكون مقطوعا مما قبله. أى يتقون الشرك والمعاصى.

قوله تعالى : لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ عن أبى الدرداء قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : " ما سألنى أحد عنها غيرك منذ أنزلت هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له " خرجه الترمذى فى جامعه. وقال الزهرىّ وعطاء وقتادة : هى البشارة التى تبشّر بها الملائكة المؤمنَ فى الدنيا عند الموت. وعن محمد بن كعب القُرَظىّ قال : إذا استنقعت(٢) نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال : " السلام عليك ولىَّ الله الله يقرئك السلام ". ثم نزع بهذه الآية « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم(٣) » ذكره ابن المبارك. وقال قتادة والضحاك : هى أن يعلم أين هو من قبل أن يموت. وقال الحسن : هى ما يبشرهم الله تعالى فى كتابه من جنته وكريم ثوابه؛ لقوله : « يُبَشِّرهم ربّهم

(١) ذوى العود والبقل يذوى ذَيًّا وذَوِيًّا، كلاهما ذبل، فهو ذاوٍ؛ وهو ألا يصيبه ريُّه أو يضربه الحرّ فيذبل و يضعف.

(٢) أى اذا اجتمعت فيه تريد الخروج كما يستنقع الماء فى قراره؛ وأراد بالنفس الروح. (ابن الأثير).

(٣) آية ٣٢ سورة النحل.

برحمـة منه ورضوانٍ [1] »، وقوله : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جناتٍ [2] » . وقوله : « وأبشروا بالجنـة التي كنتم توعدون [3] » ولهـذا قال : « لا تَبْـديلَ لِكلماتِ الله » أى لا خلف لمواعيده، وذلك لأن مواعيده بكلماته . ﴿ وفى الآخرةِ ﴾ قيل : بالجنة اذا خرجوا من قبورهم . وقيـل : اذا خرجت الروح بُشِّرت برضـوان الله . وذكر أبو اسحاق الثعلبي : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجَوْزَقيّ [4] يقول : رأيت أبا عبـد الله الحافظ فى المنـام راكبا بِرْذَوْناً عليه طَيْلسان وعمـامة، فسلّمت عليه وقلت له : أهلًا بك، إنا لانزال نذكرك ونذكر محاسنك ؛ فقال : ونحن لانزال نذكرك ونذكر محاسـنك، قال الله تعـالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » الثناء الحسن ، وأشار بيـده . ﴿ لَا تَبْـدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ أى لا خلف لوعده . وقيل : لا تبديل لأخباره، أى لا ينسخها بشيء، ولا تكون إلا كما قال . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى ما يصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم .

قوله تعـالى : وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ تمّ الكلام، أى لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتدأ فقال ﴿ إنّ العِزّةَ لله ﴾ أى القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التـامة لله وحده ؛ فهو ناصرك ومعينك ومانعك . ﴿ جَميعًا ﴾ نصب على الحال، ولا يعارض هذا قولُه : « ولله العزة ولرسولِه وللمؤمنين [5] » فإن كل عزة بالله فهى كلها لله؛ قال الله سبحانه : « سُبْحَانَ رَبِّكَ ربِّ العِزةِ عما يصفون [6] » . ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لأقوالهم وأصواتهم ، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم .

---

(١) آية ٢١ سورة التوبة . (٢) آية ٢٥ سورة البقرة . (٣) آية ٣٠ سورة فصلت .
(٤) هذه النسبة الى جوزق (كجعفر) بلدة بنيسابور . (٥) آية ٨ سورة المنافقون .
(٦) آية ١٨٠ سورة الصافات .

قوله تعـالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يحكم فيهم بما يريد، ويفعل فيهم ما يشاء، سبحانه ! .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ ﴾ « ما » للنـفى ، أى لا يتبعون شركاء على الحقيقة، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع . وقيل: « ما » استفهام، أى أىّ شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء تقبيحا لفعلهم ، ثم أجاب فقـال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يحدسون و يكذبون، وقد تقدّم[1] .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ بيّن أن الواجب عبادةُ من يقدر على خلق الليـل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شيء . ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى مع أزواجكم وأولادكم ليزول التعب والكَلال بكم . والسكون : الهدوء عن اضطراب .

قوله تعـالى : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم . والمبصر : الذى يبصر، والنهار يُبْصَر فيه . وقال : « مُبْصِرا » تجوّزا وتوسّعا على عادة العرب فى قولهم « ليل قائم، ونهار صائم » . وقال جرير :

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلان فى السُّرَى * ونمتِ وما ليـلُ المَطِيّ بنـائم

وقال قُطْرُب : يقال أظلم الليل أى صار ذا ظلمة، وأضاء النهار وأبصر أى صار ذا ضياء و بصر .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى علامات ودلالات . ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى سماع اعتبار .

قوله تعالى : قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ يعنى الكفار . وقد تقدّم[1] . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد . ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم أخبر بغناه المطلق ، وأن له ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وعبدا ؛ « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا[2] » . ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ أى ما عندكم من حجة بهذا . ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من إثبات الولد له ، والولد يقتضى المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانس شيئا ولا يشابه شيئا .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ أى يختلقون . ﴿ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أى لا يفوزون ولا يأمنون ، وتم الكلام . ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى ذلك متاع ، أو هو متاع فى الدنيا ، قاله الكسائى . وقال الأخفش : لهم متاع فى الدنيا . قال أبو إسحاق : ويجوز النصب فى غير القرآن على معنى يتمتعون متاعا . ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى رجوعهم . ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أى الغليظ ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفرهم .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية .	(٢) آية ٩٣ سورة مريم .

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أمره عليه السلام أن يذكرهم أقاصيص المتقدمين، ويخوفهم العذاب الأليم على كفرهم . وحذفت الواو من « اتل » لأنه أمر؛ أى اقرأ عليهم خبر نوح . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ « إذ » فى موضع نصب . ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى عظم وثقل عليكم . ﴿ مَقَامِى ﴾ المقام (بفتح الميم) : الموضع الذى يقوم فيه . والمُقام (بالضم) الإقامة . ولم يُقرأ به فيما علمت ؛ أى إن طال عليكم لُبْثِى فيكم، ﴿ وَتَذْكِيرِى ﴾ إياكم، وتخويفى لكم ﴿ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ وعزمتم على قتلى وطردى ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت . وهذا هو جواب الشرط، ولم يزل عليه السلام متوكلا على الله فى كل حال، ولكن بيّن أنه متوكل فى هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم ؛ أى إن لم تنصرونى فإنى أتوكّل على من ينصرنى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ قراءة العامة « فأجمعوا » بقطع الألف « شُرَكَاءَكُمْ » بالنصب . وقرأ عاصم الجَحْدَرِىّ « فَٱجْمَعُوا » بوصل الألف وفتح الميم؛ من جَمع يجمع . « شركاءكم » بالنصب . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ويعقوب « فأجمِعوا » بقطع الألف « شركاؤكم » بالرفع . فأما القراءة الأولى من أجمع على الشىء إذا عزم عليه . وقال الفراء : أجمع الشىء أعدّه . وقال المؤرّج : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه . وأنشد :

يا ليت شعرى والمُنَى لا تنفع * هل أَغْدُوَنْ يوما وأمرى مُجْمَعُ

قال النحاس : وفى نصب الشركاء على هذه القراءة ثلاثة أوجه ؛ قال الكسائى والفراء : هو بمعنى وٱدعوا شركاءكم انصرتكم ؛ وهو منصوب عندهما على إضمار هذا الفعل . وقال محمد بن يزيد : هو معطوف على المعنى؛ كما قال :

يا ليت زوجَك فى الوَغَى * متقـلّدا سَـيْفًا ورُمْحَا

والرمح لا يُتقلّد، إلا أنه محمول كالسيف . وقال أبو إسحاق الزجاج : المعنى مع شركائكم على تناصركم؛ كما يقال : التقى المـاء والخشبةَ . والقراءة الثانيـة من الجمع ، اعتبارا بقوله تعالى : « فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى »(١) . قال أبو معـاذ : ويجوز أن يكون معنى جمـع وأجمع بمعنًى واحد ، « وشركاءكم » على هـذه القراءة عطف على « أمركم » ، أو على معنى فأجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم ، وان شئت بمعنى مع . قال أبو جعفر النحاس : وسمعت أبا إسحاق يجيز قام زيد وعمرا . والقراءة الثالثة على أن يعطف الشركاء على المضمر المرفوع فى أجمعوا ، وحسن ذلك لأن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة تبعد؛ لأنه لو كان مرفوعا لوجب أن تكتب بالواو ، ولم يُرَ فى المصاحف واو فى قوله « وشركاءكم » ، وأيضـا فإن شركاءهم الأصنام، والأصنام لا تصنع شيئا ولا فعل لها حتى تُجْمِـع . قال المهدوىّ: ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف ، أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسب ذلك إلى الشركاء وهى لا تسمع ولا تبصر ولا تميز على جهة التوبيخ لمن عبدها .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّـةً ﴾ اسم يكن وخبرها . وغُمّة وغَمّ سواء، ومعناه التغطية؛ من قولهم : غُمّ الهلال إذا استتر؛ أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا تتمكنون فيه مما شئتم؛ لا كمن يخفَى أمرُه فلا يقدر على ما يريد . قال طَرَفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغُمّة * نهـارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَد

---

(١) آية ٦٠ سورة طه .

الزجاج : غُمّــة ذا غم، والغم والغُمّة كالكَرْب والكُرْبة . وقيل : إن الغمة ضيق الأمر الذى يوجب الغم فلا يتبين صاحبــه لأمره مصدرا لينفرج عنه ما يغُمّه . وفى الصحاح : والغمة الكربة . قال العجاج :

لو شهدت الناس إذ تُكُمُّوا[(١)] * بغُمّة لو لم تُفَرَّج غُمُّـــوا

يقال : أمرٌ غُمّة، أى مُبْهَم ملتبس؛ قال تعالى : « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّــةً » . قال أبو عبيدة : مجازها ظلمة وضيق . والغمة أيضا : قعر النِّحْى[(٢)] وغيره . قال غيره : وأصل هذا كله مشتق من الغمامة .

قوله تعــالى : ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَىَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ ألف «ٱقضوا» ألف وصل، من قضى يقضى . قال الأخفش والكسائى : هو مثل « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ[(٣)] » أى أنهيناه اليــه وأبلغناه إياه . وروى عن ابن عباس « ثم ٱقضوا إلى ولا تنظرونــــ » قال : آمضوا إلى ولا تؤخرون . قال النحاس : هــذا قول صحيح فى اللغــة؛ ومنه : قَضَى الميت أى مضى . وأعلمهم بهذا أنهم لا يصلون إليه، وهذا من دلائل النبوات . وحكى الفراء عن بعض القراء « ثم أفضوا إلىّ » بالفاء وقطع الألف، أى توجهوا؛ يقال : أفضت الخــلافة إلى فلان، وأفضى إلىّ الوجع . وهذا إخبار من الله تعــالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله واثقا، ومن كيدهم غير خائف؛ عِلما منه بأنهم وآلهتهم لا ينفعون ولا يضرون . وتعزيةٌ لنبيه صلى الله عليه وسلم وتقويةٌ لقلبه .

قوله تعــالى : فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

(١) تكموا : غطوا بالغم.　(٢) النحى (بالكسر) : زق للسمن.　(٣) آية ٦٦ سورة الحجر.

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي فإن أعرضتم عما جئتكم به فليس ذلك لأني سألتكم أجرا فيثقل عليكم مكافأتي . ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ في تبليغ رسالته . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي الموحّدين لله تعالى . فتح أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياء « أجريَ » حيث وقع ، وأسكن الباقون .

قوله تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني نوحا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أي من المؤمنين . ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي السفينة ، وسيأتي ذكرها . ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي سكان الأرض وخلفا ممن غرق . ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ يعني آخر أمر الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نوح . ﴿ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم . ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ التقدير : بما كذب به قوم نوح من قبل . وقيل : « بما كذبوا به من قبل » أي من قبل يوم الذرّ ، فإنه كان فيهم من كذب بقلبه وإن قال الجميع بلى . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل في هذا أنه لقوم بأعيانهم ؛ مثل « أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »[1] . ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ ﴾ أي نختم . ﴿ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي المجاوزين الحدّ في الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا . وهذا يردّ على القدرية قولهم كما تقدم .

(١) آية ٦ سورة البقرة .

قوله تعـالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْـدِهِمْ ﴾ أى من بعـد الرسل والأمم . ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أى أشراف قومه . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يريد الآيات التسع، وقد تقدم ذكرها[1] . ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا ﴾ أى عن الحق . ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين .

قوله تعـالى : فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ يريد فرعون وقومه . ﴿ قَالُوا إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ حملوا المعجزات على السحر . قال لهم موسى ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ قيل : فى الكلام حذف، المعنى: أتقولون للحق هذا سحر . فـ«أتقولون» إنكار وقولهم محذوف أى هذا سحر، ثم آستأنف انكارا آخر من قِبَله فقال أسحر هذا ! . فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثانى من قولهم، منكرا على فرعون وملئه . وقال الأخفش : هو من قولهم، ودخلت الألف حكايةً لقولهم؛ لأنهـم قالوا أسحر هـذا . فقيل لهم : أتقولون للحق لمـا جاءكم أسحر هذا؛ وروى عن الحسن . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ أى لا يفلح من أتى به .

قوله تعـالى : قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ أى تصرفنا وتلوينا ، يقال : لفته يلفته لَفْتًا إذا لواه وصرفه . قال الشاعر :

تلفّتُّ نحـــوَ الحَيِّ حتى رأيتُني * وجِعْتُ من الإصغاء لِيتًا وأخْدَعَا (١)

ومن هـذا ٱلتفتَ إنمـا هو عدل عن الجهة التى بين يديه . ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريد من عبادة الأصنام . ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والملك والسلطان . ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مصر . ويقال للمُلْك الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب فى الدنيـا . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقرأ ٱبن مسعود والحسن وغيرهما « ويكون » باليـاء لأنه تأنيث غير حقيقى وقد فصل بينهما . وحكى سيبويه : حضر القاضى اليوم آمرأتان .

قوله تعـالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾

إنمـا قاله لمـّا رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر . وقرأ حمزة والكسائى وابن وثّاب والأعمش « سحّار » (٢) . وقد تقدم فى الأعراف القول فيهما .

قوله تعـالى : فَلَمَّـا جَآءَ ٱلسَّـحَرَةُ قَالَ لَهُـم مُّوسَىٰٓ أَلْقُـوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

أى اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعِصِيّكم . وقد تقدم فى الأعراف القول فى هذا مستوفًى (٢) .

قوله تعـالى : فَلَمَّـآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّـحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

---

(١) البيت للصمة القشيرى . والاصغاء الميل . والليت (بالكسر) صفحة العنق . والأخدع : عرق فى صفحة العنق .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ﴾ تكون « ما » فى موضـع رفع بالابتداء ، والخبر « جئتم به » والتقدير : أى شىء جئتم به ، على التوبيخ والتصغير لما جاءوا به من السحر . وقراءة أبى عمرو « آلسحر » على الاستفهام على إضمار مبتدأ والتقدير أهو السحر . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف، التقدير : السحر جئتم به . ولا تكون «ما» على قراءة من استفهم بمعنى الذى، إذ لا خبر لها . وقرأ الباقون « السحر » على الخبر، ودليل هذه القراءة قراءة ابن مسعود « ما جئتم به سحر » . وقراءة أُبَىٍّ « ما أتيتم به سحر » ؛ فـ«ـما» بمعنى الذى، و « جئتم به » الصـلة ، وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والسحر خبر الابتداء . ولا تكون « ما » إذا جعلتها بمعنى الذى نصبا لأن الصلة لا تعمل فى الموصول . وأجاز الفراء نصب السحر بجئتم، وتكون ما للشرط ،وجئتم فى موضع جزم بما والفاء محذوفة؛ التقدير : فإن الله سيبطله . ويجوز أن ينصب السحر على المصـدر ، أى ما جئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام زائدتين، فلا يحتاج على هـذا التقدير إلى حذف الفاء . واختار هذا القـول النحاس ، وقال : حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر؛ كما قال :

* من يفعل الحسنات الله يشكرها *

بل ربما قال بعضهم : إنه لا يجوز ألْبَتَّةَ . وسمعت علىّ بن سـليمان يقول : حدثنى محمد ابن يزيد قال حدثنى المـازنىّ قال سمعت الأصمعىّ يقول : غيّر النحويون هذا البيت ، وإنما الرواية

* من يفعل الخير فالرحمن يشكره *

وسمعت علىّ بن سـليمان يقول : حذف الفاء فى المجازاة جائز . قال : والدليل على ذلك «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ»(١) . « وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم » قراءتان مشهورتان معروفتان . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ يعنى السحر. قال ابن عباس : من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هـذه الآية « ما جئتم به السحر إن الله سـيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين» لم يضره كيد ساحر. ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر.

(١) آية ٣٠ سورة الشورى .

قوله تعالى : وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ ﴾ أى يبينه ويوضحه . ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بكلامه وحججه وبراهينه . وقيل : بعداته بالنصر . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ من آل فرعون .

قوله تعالى : فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ الهاء عائدة على موسى . قال مجاهد : أى لم يؤمن منهم أحد، وإنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بنى اسرائيل ، لطول الزمان هلك الآباء وبقى الأبناء فآمنوا ؛ وهذا اختيار الطبرى . والذرية أعقاب الإنسان ، وقد تكثر . وقيل : أراد بالذرية مؤمنى بنى اسرائيل . قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر فى اثنين وسبعين إنسانا فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف . وقال ابن عباس أيضا : « من قومه » يعنى من قوم فرعون ؛ منهم مؤمنُ آل فرعون وخازنُ فرعون وآمرأته وماشطة آبنته وامرأة خازنه . وقيل : هم أقوامٌ آباؤهم من القبط ، وأمهاتهم من بنى إسرائيل فسُمّوا ذرية كما يسمى أولاد الفُرس الذين توالدوا باليمن وبلاد العرب الأبناء؛لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم؛قاله الفراء.وعلى هذا فالكناية فى « قومه » ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهات ، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ لأنه كان مسلَّطا عليهم عاتيا . ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ ولم يقل وملئه؛ وعنه ستة أجوبة : أحدها — أن فرعون لما كان جبارا أخبر عنه بفعل الجميع . الثانى — أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره ، فعاد الضمير عليه وعليهم؛ وهذا أحد قولى الفراء . الثالث — أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل ثمود . الرابع — أن يكون التقدير : على خوف من آل فرعون ؛ فيكون من باب حذف المضاف مثل « واسئل القرية » ،

وهو القول الثانى للفراء . وهذا الجواب على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لايجوز عندهما قامت هند، وأنت تريد غلامها . الخامس — مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية ، أى ملأ الذرية ؛ وهو اختيار الطبرى . السادس — أن يكون الضمير يعود على قومه . قال النحاس : وهذا الجواب كأنه أبلغها . ﴿ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ وحّد « يفتنهم » على الإخبار عن فرعون ، أى يصرفهم عن دينهم بالعقوبات ، وهو فى موضع خفض على أنه بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بـ « خَوْف » . ولم ينصرف فرعون لأنه اسم أعجمى وهو معرفة . ﴿ وإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرضِ ﴾ أى عاتٍ متكبر . ﴿ وَإِنَّهُ لمَنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى المجاوزين الحدّ فى الكفر؛ لأنه كان عبدا فادّعى الربوبية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَومِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُم ﴾ أى صدّقتم . ﴿ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ أى اعتمدوا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ كرر الشرط تأكيدا، وبيّن أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله . ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى أسلمنا أمورنا إليه، ورضينا بقضائه وقدره، وانتهينا إلى أمره . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا تنصرهم علينا ؛ فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، أولا تمتحنّا بأن تعذّبنا على أيديهم . وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدى أعدائنا ، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلَّط عليهم؛ فيُفتنوا. وقال أبو مِجْلَز وأبو الضحا : يعنى لا تظهرهم علينا فيرَوْا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانا.

قوله تعالى : وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أى خلّصنا ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى من فرعون وقومه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ أى آتخذا . ﴿ لِقومِكما بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ يقال : بوّأت زيدا مكانا، وبوّأت لزيد مكانا . والمبوّأ المنزل الملزوم؛ ومنه بوّأه الله منزلا ، أى ألزمه إياه وأسكنه؛ ومنه الحديث : "من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار" قال الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك * تبوّأ المجد بنا والملك

ومصر فى هذه الآية هى الإسكندرية ؛ فى قول مجاهد . وقال الضحاك : إنه البلد المسمى مصر، ومصر ما بين البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قال أكثر المفسرين : كان بنو اسرائيل لا يصلّون إلا فى مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة ،فلما أرسل موسى أمر فرعونُ بمساجد بنى إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن آتخذا وتخيّرا لبنى إسرائيل بيوتا بمصر، أى مساجد، ولم يرد المنازل المسكونة . هذا قول ابراهيم وآبن زيد والرّبيع وأبى مالك وابن عباس وغيرهم . وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا. والقول الأوّل أصح؛ أى اجعلوا مساجدكم إلى القبلة؛ قيل : بيت المقدس، وهى قبلة اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر . وقيل الكعبة . عن ابن عباس قال : وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه ، وهذا يدل على أن القبلة فى الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة؛ فإن ذلك أبلغ فى التكليف وأوفر للعبادة . وقيل : المراد صلّوا فى بيوتكم سرا لتأمنوا ؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمِروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت ، والإقدام

على الصلاة ، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده ، وهو المراد بقوله : « قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا(١) » الآية . وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا فى البِيَع والكنائس ما داموا على أمن ، فاذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا فى بيوتهم . قال ابن العربى : والأوّل أظهر القولين ؛ لأن الثـانى دعوى .

قلت : قوله « دعوى » صحيح ؛ فإن فى الصحيح قوله عليه السلام : " جعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا " وهذا مما خُصّ به دون الأنبياء ؛ فنحن بحمد الله نصلّى فى المساجد والبيوت ، وحيث أدركتنا الصلاة ؛ إلا أن النافلة فى المنازل أفضل منها فى المساجد ، حتى الركوع قبل الجمعــة و بعدها . وقبــل الصلوات المفروضات و بعدها ؛ إذ النوافل يحصل فيهـا الرياء ، والفرائض لا يحصل فيها ذلك ، وكلما خَلَص العمــل من الرياء كان أوزن وأزلف عنــد الله سبحانه وتعالى . روى مسلم عن عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوّعه قالت : كان يصلى فى بيتى قبل الظهر أربعا ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيصلى ركعتين ، وكان يصلى بالناس المغرب ، ثم يدخل فيصلى ركعتــين ، ثم يصلى بالناس العشاء ، و يدخل بيتى فيصلى ركعتين ... " الحـــديث . وعن ابن عمر قال : صليت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الظهر سجدتين و بعدها سجدتين و بعد المغرب سجدتين ؛ فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى بيته . وروى أبو داود عن كعب بن عُجْرة أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم أتى مسجد بنى الأشهل فصلى فيه المغرب ؛ فلما قضوْا صلاتهم رآهم يسبحون بعدها فقال : " هذه صلاة البيوت " .

الثالثـــة ـــ واختلف العلماء من هـــذا الباب فى قيام رمضان ، هـــل إيقاعه فى البيت أفضل أو فى المسجد؟ فذهب مالك إلى أنه فى البيت أفضل لمن قوِى عليه ، و به قال أبو يوسف و بعض أصحاب الشافعى . وذهب ابن عبــد الحكم وأحمــد و بعض أصحاب الشافعى إلى أن حضورها فى الجماعة أفضل . وقال الليث : لو قام الناس فى بيوتهــم ولم يقم أحد فى المسجد

(١) آية ١٢٨ سورة الاعراف .

لا ينبغي أن يخرجوا إليه . والحجة لمالك ومن قال بقوله قوله صلى الله عليه وسلم في حديث زيد بن ثابت : " فعليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة " خرجه البخاري . احتج المخالف بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلاها في الجماعة في المسجد، ثم أخبر بالمانع الذي منع منه على الدوام على ذلك ، وهو خشية أن تفرض عليهم فلذلك قال لهم : " فعليكم بالصلاة في بيوتكم " . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزاعا متفرقين ، إلى أن جمعهم عمر على قارئ واحد فآستقر الأمر على ذلك وثبت سُنّة .

الرابعة — وإذا تنزلنا على أنه كان أبيح لهم أن يصلوا في بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم فيستدلّ به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة . والعذر الذي يبيح له ذلك المرض الحابس، أو خوف زيادته، أو خوف جور السلطان في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق . والمطرُ الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع، ومن له وليّ حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يمرّضه ؛ وقد فعل ذلك ابن عمر .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لموسى عليه السلام ، وهو أظهر ، أي بشر بني إسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوهم .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ﴾ « آتيت » أي أعطيت . ﴿ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي مال الدنيا ، وكان لهم من فُسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزّبرجد والزّمرد والياقوت .

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ اختلف فى هـذه اللام ، وأصح ما قيل فيها — وهو قول الخليل وسيبويه — أنها لام العاقبة والصيرورة ؛ وفى الخبر "إن لله تعالى مَلَكا ينـادى كلّ يوم لِدُوا للموت وابنوا للخراب" . أى لمـا كان عاقبة أمرهم إلى الضـلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا . وقيل : هى لام كَىْ ، أى أعطيتهم لكى يضلوا ويَبْطَروا ويتكبّروا . وقيل : هى لام أَجْل ، أى أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم . وزعم قوم أن المعنى : أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا ، فحذفت لا كما قال عز وجل : «يُبَيِّنُ الله لكم أنْ تَضِلوا» (١) . والمعنى : لئلا تضلوا . قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تحذف «لا» إلا مع أن ؛ فموه صاحب هـذا الجواب بقوله عز وجل «أن تضلوا» . وقيل : اللام للدعاء ، أى ٱبتلهم بالضـلال عن سبيلك ؛ لأن بعده و «ٱطمِس على أموالهم وٱشدد» . وقيل : الفعل معنى المصدر أى إضلالهم ؛ كقوله عز وجل «لِتُعرضوا عنهم» . قرأ الكوفيون «لِيُضلوا» بضم الياء من الإضلال ، وفتحها الباقون .

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أى عاقبهم على كفرهم بإهـلاك أموالهم . قال الزجاج : طَمْسُ الشيء إذهابه عن صورته . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليـه فلم ينتفع به أحد بعدُ . وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة . وقال مجاهد وعطيـة : أهلكها حتى لا تُرَى ؛ يقال : عين مطموسـة ، وطُمس الموضع إذا عفا ودَرَس . وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة . محمد ٱبن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين ؛ قال : وسألنى عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة أصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وإنها لحجارة . وقال السدّى : وكانت إحدى الآيات التسع «وٱشـدد على قلوبهم» . قال ٱبن عباس : أى امنعهم الإيمان . وقيل : قَسِّها وٱطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ؛ والمعنى

(١) آخر سورة النساء .

واحد . ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا ﴾ قيل : هو عطف على قوله « ليضلوا » أى آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ؛ قاله الزجاج والمبرد . وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء . وقوله « ربنا اطمس ، واشدد » كلام معترض . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : هو دعاء ، فهو فى موضع جزم عندهم ؛ أى اللهم فلا يؤمنوا ، أى فلا آمنوا . ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما آنزوَى * ولا تَلْقَنِى إلا وأنفك راغم

أى لا آنبسط . ومن قال « ليضلوا » دعاء — أى ابتلهم بالضلال — قال : عطف عليه « فلا يؤمنوا » . وقيل : هو فى موضع نصب لأنه جواب الأمر ؛ أى واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا . وهذا قول الأخفش والفراء أيضا ، وأنشد الفراء :

ياناق سيرى عَنَقًا فسيحا * إلى سليمان فنستريحا

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب . ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ قال ابن عباس : هو الغرق . وقد آستشكل بعض الناس هذه الآية فقال : كيف دعا عليهم وحُكم الرسل استدعاء إيمان قومهم ؛ فالجواب أنه لا يجوز أن يدعو نبيّ على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ؛ دليله قوله لنوح عليه السلام : « أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن »(١) وعند ذلك قال : « رَبِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديارا »(٢) . والله أعلم .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ قال أبو العالية : دعا موسى وأمّن هارون ؛ وقد أمّن على الدعاء داعيا . التأمين على الدعاء أن يقول آمين ؛ فقولك آمين دعاء ، أى رب

(١) آية ٣٦ سورة هود . (٢) آية ٢٦ سورة نوح .

استجب لى . وقيل : دعا هارون مع موسى أيضا . وقال أهل المعانى : ربما خاطبت العرب الواحد بخطاب الاثنين ؛ قال الشاعر :

فقلت لصاحبي لا تُعجلانا * بنزع أصوله فآجتز شيحا

وهذا على أن آمين ليس بدعاء ، وأن هارون لم يدع . قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى عليه السلام « ربنا » ولم يقل رب . وقرأ عليّ والسُّلَمِيّ «دعواتكما» بالجمع . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «أجبت دعوتكما» خبرا عن الله تعالى، ونصب دعوة بعده . وتقدم القول فى « آمين » فى آخر الفاتحة مستوفًى . وهو مما خُصّ به نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وهارون وموسى عليهما السلام . روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد أعطى أمّتى ثلاثا لم تُعْط أحدا قبلهم السلام وهى تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " ذكره الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد تقدّم فى الفاتحة (١) .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ قال الفرّاء وغيره : أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان، إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة . قال محمد بن عليّ وابن جريج : مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا . وقيل : « استقيما » أى على الدعاء ؛ والاستقامة فى الدعاء ترك الاستعجال فى حصول المقصود، ولا يسقط الاستعجال من القلب إلا باستقامة السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بالرضا الحسن لجميع ما يبدو من الغيب . ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بتشديد النون فى موضع جزم على النهى، والنون للتوكيد وحركت لالتقاء الساكنين واختير لها الكسر لأنها أشبهت نون الآثنين . وقرأ آبن ذَكْوان بتخفيف النون على النفى . وقيل : هو حال من استقيما؛ أى استقيما غير متّبعَيْن ، والمعنى : لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدى ووعيدى .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ تقدّم القول فيه في « البقرة » في قوله « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ »(١) . وقرأ الحسن «وجوّزنا» وهما لغتان . ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ يقال : تبِع وأتبع بمعنًى واحد ، اذا لحقه وأدركه . واتّبع (بالتشديد) إذا سار خلفه . وقال الأصمعي : أتبعه (بقطع الألف) إذا لحقه وأدركه ، واتبعه (بوصل الألف) إذا اتبع أثره ، أدركه أو لم يدركه . وكذلك قال أبو زيد . وقرأ قتادة « فاتّبعهم » بوصل الألف . وقيل: « اتبعه » (بوصل الألف) في الأمر اقتدى به . وأتبعه (بقطع الألف) خيرا أو شرا ؛ هذا قول أبي عمرو . وقد قيل هما بمعنًى واحد . فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا ، وتبعه فرعون مُصْبِحًا في ألفي ألف وستمائة ألف . وقد تقدّم(٢) . ﴿ بَغْيًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَعَدْوًا ﴾ معطوف عليه ؛ أي في حال بَغْيٍ واعتداء وظلم ؛ يقال : عدا يعدو عَدْوًا ؛ مثل غزا يغزو غَزْوًا . وقرأ الحسن « وعُدُوّا » بضم العين والدال وتشديد الواو ؛ مثلُ علا يعلو عُلُوًّا . وقال المفسرون : « بغيا » طلبا للاستعلاء بغير حق في القول ، « وعدوا » في الفعل ؛ فهما نصب على المفعول له . ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ أي ناله ووصله . ﴿ قَالَ آمَنْتُ ﴾ أي صدّقت . ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي بأنه . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ فلما حذف الخافض تعدّى الفعل فنصب . وقرئ بالكسر ؛ أي صرت مؤمنا ثم استأنف . وزعم أبو حاتم أن القول محذوف ، أي آمنت فقلت إنه ، والإيمان لا ينفع حينئذ ؛ والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس ، وأما بعدها وبعد المخالطة فلا تقبل ، حسب ما تقدّم في « النساء »(٣) بيانه . ويقال : إن فرعون هاب دخول

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

البحر وكان على حصان أدهمَ ولم يكن فى خيل فرعون فرس أنثى؛ فجاء جبريل على فرس وَدِيق — أى شَهِىّ[1] — فى صورة هامان وقال له : تقدّم، ثم خاض البحر فتبعها حصان فرعون، وميكائيل يسوقهم لا يشــذّ منهم أحد، فلما صار آخرهم فى البحر وهَمّ أوّلهم أن يخرج انطبق عليهم البحر، وألجم فرعونَ الغرقُ فقال : آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل؛ فدس جبريل فى فمه حال البحر . وروى الترمذى عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لمـا أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إلٰه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه فى فيــه مخافة أن تدركه الرحمة" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . حال البحر : الطين الأسود الذى يكون فى أرضه؛ قاله أهل اللغة . وعن ابن عباس عن النبىّ صــلى الله عليــه وسلم أنه ذكر : "أن جبريل جعل يدسّ فى فى فرعون الطين خشية أن يقول لا إلٰه إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه" . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال عَون بن عبد الله : بلغنى أن جبريل قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم ما ولد إبليسُ أبغضَ إلىّ من فرعون، فإنه لمـا أدركه الغرق قال «آمنت» الآية، فخشيت أن يقولها فيرحم، فأخذت تربة أو طينة فحشوتها فى فيه . وقيل : إنما فُعل هذا به عقوبةً له على عظيم ما كان يأتى . وقال كعب الأحبار : أمسك الله نيــل مصر عن الجَرْى فى زمانه، فقالت له القبط : إن كنت ربنـا فأجْرِ لنا المـاء؛ فركب وأمر بجنوده قائدا قائدا وجعلوا يقفون على درجاتهم وقفز حيث لا يرونه ونزل عن دابته ولبس ثيابا له أخرى وسجد وتضرّع لله تعـالى فأجرى الله له المـاء، فأتاه جبريل وهو وحده فى هيئة مُسْتَفْتٍ وقال : ما يقول الأمــير فى رجل له عبد قد نشأ فى نعمته لا سند له غيره، فكفر نعَمه وجحد حقّه وادّعى السيادة دونه؛ فكتب فرعون : يقول أبو العباس الوليــد بن مصعب بن الرّيّان جزاؤه أن يغرق فى البحر؛ فأخذه جبريل ومرّ فلمـا أدركه الغرق ناوله جبريل عليه الســلام خطّه . وقد مضى هــذا فى «البقرة» عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس مسندا؛ وكان هذا فى يوم عاشوراء على ما تقدّم بيانه فى «البقرة» أيضا فلا معنى للإعادة .

(١) أى تشتهى الفحل .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى من الموحّدين المستسلمين بالانقياد والطاعة .

قوله تعالى : ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل هو من قول جبريل . وقيل ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرهما من الملائكة صلوات الله عليهم . وقيل : هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثمّ قول باللسان بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة؛ ونظيره « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ » أثنى عليهم الرب بما فى ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم ، والكلام الحقيق كلام القلب .

قوله تعالى : فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أى نلقيك على نَجْوة من الأرض . وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غَرِق، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك، فألقاه الله على نَجْوة من الأرض، أى مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه . قال أوْس بن حَجَر يصف مطرا :

فمَن بعَقْوَته كمَن بنَجْوَته * والمُسْتَكِنّ كمَنْ يَمْشى بِقِرْواحِ (١)

وقرأ اليزيدىّ وابن السَّمَيْقَع «نُنَحِّيك» بالحاء من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ؛ أى تكون على ناحية من البحر . قال ابن جريج : فرمى به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل ، وكان قصيرا أحمر كأنه ثور . وحكى علقمة عن عبدالله أنه قرأ «بندائك» من النداء . قال أبو بكر الأنبارىّ : وليس بمخالف لهجاء مصحفنا ، إذ سبيله أن يكتب بياء وكاف بعد الدال ؛ لأن الألف تسقط من ندائك فى ترتيب خط المصحف كما سقطت من الظلمات والسموات ، فإذا وقع بها الحذف استوى هجاء بدنك وندائك ، على أن هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامة المسلمين ؛ والقراءة سُنّة يأخذها آخر عن أوّل ، وفى معناها نقص عن

(١) العقوة والعقاة : الساحة وما حول الدار والمحلة ؛ وجمعها عقاء . والقرواح : الأرض البارزة للشمس .

تأويل قـراءتنا، إذ ليس فيها للـدرع ذكر، الذى تتابعت الآثار بأن بنى إسرائيـل اختلفوا فى غرق فرعون، وسألوا الله تعالى أن يريهم إياه غريقا فألقوه على نَجوة من الأرض ببـدنه وهو درعه التى يلبسها فى الحروب . قال ابن عباس ومحمـد بن كعب القُرَظى : وكانت درعه من لؤلؤ منظوم . وقيل من الذهب وكان يعرف بها . وقيل من حديد؛ قاله أبو صخر . والبدن الدرع القصيرة . وأنشد أبو عبيدة للأعشى :

وبيضـاء كالنِّهى مَوْضُونة * لها قَوْنَسٌ فوق جَيْب البَدَنْ (١)

وأنشد أيضا لعمرو بن معد يكرب :

ومضى نساؤهمُ بكل مُفاضةٍ * جَدْلَاءَ سـابغةٍ وبالأبدانِ (٢)

وقال كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيهـا مسبَغات * على الأبطال واليَلَب الحصينا

أراد بالأبدان الدروع، واليلب الدروع اليمانية، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض؛ وهو اسم جنس الواحد يلبة . قال عمرو بن كلثوم :

علينا البيضُ واليَلَبُ اليمانِى * وأسـيافٌ يَقُمن ويَنْحَنِينا

وقيل : « ببدنك » بجسـد لا روح فيه ؛ قاله مجاهـد . قال الأخفش : وأما قول من قال بدرعك فليس بشىء . قال أبو بكر : لأنهم لمـا ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقا أبرزه لهم فرأوا جسدا لا روح فيه، فلما رأته بنو إسرائيل قالوا نعم ! ياموسى هذا فرعون وقد غَرِق ؛ فخرج الشك من قلوبهم وآبتلع البحر فرعون كما كان . فعـلى هذا « ننجيك ببدنك » احتمل معنيين : أحدهما — نلقيك على نَجْوة من الأرض . والثانى — نظهر جسدك الذى لا روح فيـه . والقراءة الشاذة « بندائك » يرجع معناها الى معنى قراءة الجماعة ؛ لأن النداء يفسر تفسيرين، أحدهما — نلقيك بصياحك كلمة التوبة، وقولك بعد أن أغلق بابها ومضى

---

(١) البيضاء : الدرع . والنهى (بالفتح والكسر) : الغدير وكل موضـع يجتمع فيه المـاء . والموضونة : الدرع المنسوجة . والقونس : أعلى بيضة فى الحديد . (٢) المفاضـة (بضم أوله) : الدرع الواسعة . والجدلاء : الدرع المحكمة النسيج .

وقت قبولها «آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» على موضع رفيع . والآخر — فاليوم نَعزلك عن غامض البحر بندائك لما قلت أنا ربكم الأعلى ؛ فكانت تنجيته بالبدن معاقبةً من رب العالمين له على ما فَرَط من كفره الذى منه نداؤه الذى آفترى فيه وبُهت ، وآدّعى القدرة والأمر الذى يعلم أنه كاذب فيه وعاجز عنه وغير مستحق له . قال أبو بكر الأنبارىّ : فقراءتنا تتضمن ما فى القراءة الشاذة من المعانى وتزيد عليها .

قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أى لبنى اسرائيل ولمن بقى من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم ينته اليه هذا الخبر . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أى معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها . وقرئ « لمن خَلَفك » (بفتح اللام) ؛ أى لمن بقى بعدك يخلفك فى أرضك . وقرأ علىّ بن أبى طالب « لمن خلقك » بالقاف ؛ أى تكون آية لخالقك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ أى منزل صدق محمود مختار ، يعنى مصر . وقيل الأُرْدُنّ وفلسطين . وقال الضحاك : هى مصر والشام . ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من الثمار وغيرها . وقال ابن عباس : يعنى قُرَيظة والنَّضير وأهل عصر النبىّ صلى الله عليه وسلم من بنى اسرائيل ؛ فانهم كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وينتظرون خروجه ، ثم لما خرج حسدوه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَا آخْتَلَفُوا ﴾ أى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم . والعلم بمعنى المعلوم ؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه ؛ قاله ابن جرير الطبرى . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى يحكم بينهم ويفصل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا ، فيثيب الطائع ويعاقب العاصى .

قوله تعـالى : فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعـالى : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، أى لست فى شك ولكنّ غيرك شك . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان : معنى « فإن كنت فى شـك » أى قل يا محمـد للكافر فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . ﴿ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أى ياعابد الوثن إن كنت فى شك من القرآن فآسأل من أسلم من اليهود ، يعنى عبد الله بن سَلَام وأمثاله ؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يقرّون لليهود أنهـم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ؛ فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسـلم الى أن يسالوا من يقرّون بأنهم أعلم منهم ، هل يبعث الله برسول من بعد موسى . وقال القُتَبِيّ : هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمـد ولا بتصديقه صلى الله عليه وسلم ، بل كان فى شك . وقيل : المراد بالخطاب النبيّ صل الله عليه وسلم لا غيره ، والمعنى : لو كنت ممن يلحقك الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك . وقيل : الشك ضيق الصـدر ؛ أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، وآسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صَبْرَ الأنبيـاءِ من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبـة أمرهم . والشك فى اللغة أصـله الضيق ؛ يقال : شك الثوبَ أى ضمه بخِـلال حتى يصير كالوعاء . وكذلك السّفرة تُمـدّ(١) علائقها حتى تنقبض ؛ فالشك يقبض الصـدر و يضمه حتى يضيق . وقال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبتـه ، والدليل عليه ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال لمـا نزلت هذه الآية : " والله لا

(١) كذا فى الأصول . والظاهر أنها « تشك » .

أشـك — ثم استأنف الكلام فقال — لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين " أى الشاكين المرتابين . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ والخطاب فى هاتين الآيتين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم القول فيه فى هذه السورة[1] . قال قتادة : أى الذين حق عليهم غضبُ الله وسخطُه بمعصيتهم لا يؤمنون . ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ أنّث « كلّا » على المعنى ؛ أى ولو جاءتهم الآيات ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ فحينئذ يؤمنون ولا ينفعهم .

قوله تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ﴾ قال الأخفش والكسائى : أى فهلّا . وفى مصحف أُبَىّ وابن مسعود « فهلا » وأصل لولا فى الكلام التحضيض أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره . ومفهومٌ من معنى الآية نفى إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس ؛ فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وهو بحسب المعنى متصل ؛ لأن تقديره ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس . والنصب فى « قوم » هو الوجه ، وكذلك أدخله سيبويه فى (باب مالا يكون إلّا منصوبا) . قال النحاس : « إلا قوم يونس » نصب لأنه استثناء ليس من الأول ، أى لكن قوم يونس ؛ هذا قول الكسائى والأخفش والفراء . ويجوز « إلا قومُ يونس »

(١) آية ٣٣ ص ٣٤٠ من هذا الجزء .

بالرفـع ، ومن أحسن ما قيـل فى الرفع ما قاله أبو إسحـاق الزجاج قال : يكون المعنى غيرُ قومِ يونس، فلما جاء بإلّا أعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير؛ كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارِقه أخـوه * لَعَمْرُ أبيك إلا الفَرْقدانِ

وروى فى قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين : أن قوم يونس كانوا بنِينَوَى من أرض المَوْصل وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسـل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الإسلام وترك ماهم عليـه فأبَوْا؛ فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمـانهم؛ فقيل له : أخبرهم أن العـذاب مصبحهم إلى ثلاثٍ ففعـل، وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم و بين أظهركم فلا عليكم ، و إن ٱرتحل عنكم فهو نزول العـذاب لا شك ؛ فلما كان الليل تزوّد يونس وخرج عنهـم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المُسوح وفرّقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، و ردّوا المظالم فى تلك الحالة . وقال ابن مسعود: وكان الرجل يأتى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه ؛ والعذاب منهم فيما روى عن ابن عباس على ثلثى مِيـل . ورُوى على ميـل . وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظُلّة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرّها بين أكتافهم . وقال ابن جبير : غشيهم العـذاب كما يغشى الثوب القبر، فلما صحت تو بتهم رفع الله عنهم العذاب . وقال الطبرى : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تِيب عليهم بعد معاينة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جمـاعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب، و إنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لمـا نفعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن ؛ فإن المعاينة التى لاتنفع التو بة معها هى التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهـذا جاء بقصة قوم يونس على إثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . و يعضُد هذا قولُه عليه السلام : " إن الله يقبل تو بة العبد مالم يُغَرْغر" . والغرغرة الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا . والله أعلم . وقد روى معنى ماقلناه عن ابن مسعود، وأن يونس لمـا وعدهم العذاب إلى ثلاثة

أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأمهات والأولاد ؛ وهذا يدل على توبتهم قبل رؤية علامة العذاب . وسيأتى مسندا مبينا فى سورة «الصافات» إن شاء الله تعالى . ويكون معنى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أى العذاب الذى وعدهم به يونس أنه ينزل بهم ، لا أنهم رأوه عيانا ولا مخايلة ؛ وعلى هـذا الإشكال لا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم . وبالجملة فكان أهل نينوى فى سابق العلم من السعداء . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء ليرد القدر . وذلك أن الله تعالى يقول : «إلا قَوْمَ يُونُسَ لما آمنوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فى الحياة الدنيا» . قال على رضى الله عنه : وذلك يوم عاشوراء .

قوله تعالى : ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ قيل إلى أجلهم؛ قاله السُّدّى . وقيل : إلى أن يصيروا إلى الجنة أو النار؛ قاله ابن عباس .

قوله تعـالى : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أى لاضطرهم إليه . «كُلُّهم» تأكيد لمن . «جميعا» عند سيبويه نصب على الحال . وقال الاخفش: جاء بقوله جميعا بعد كل تأكيدا؛ كقوله : «لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ»[1] .

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمان جميع الناس ؛ فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة فى الذّكر الأوّل ، ولا يضلّ إلا من سبقت له الشقاوة فى الذكر الأوّل . وقيل: المراد بالناس هنا أبو طالب؛ وهو عن ابن عباس أيضا .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

(١) آية ٥١ سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ «ما» نفى؛ أى ما ينبغى أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته و إرادته . ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ وقرأ الحسن وأبو بكروالمفضّل «ونجعل» بالنون على التعظيم . والرِّجس : العذاب ، بضم الراء وكسرها لغتان . ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أمرَ اللهِ عز وجل ونهيه .

قوله تعـالى : قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظر فى المصنوعات الدّالة على الصانع والقادر على الكمال . وقد تقدّم القول فى هذا المعنى فى غير موضع مستوفًى (١) . ﴿ وَمَا تُغْنِى ﴾ « ما » نفى؛ أى ولن تغنى . وقيل استفهامية؛ التقدير أىّ شىء تغنى . ﴿ الْآيَاتُ ﴾ أى الدّلالات . ﴿ وَالنُّذُرُ ﴾ أى الرسل، جمـع نذير، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى عمن سبق له فى علم الله أنه لا يؤمن .

قوله تعـالى : فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْـلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ الأيام هنا بمعنى الوقائع؛ يقـال : فلان عالم بأيام العـرب أى بوقائعهم . قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والنِّعم أياما؛ كقوله تعالى: «وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ» (٢) . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهـو أيام . ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ أى تربصـوا؛ وهذا تهديد ووعيد . ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ أى المتربصين لموعد ربى .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٥ سورة ابراهيم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ اى من سنتنا إذا أنزلنا بقوم عذابا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين، و « ثُمَّ » معناه ثم اعلموا أنا نجى رسلنا . ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ أى واجبا علينا ؛ لأنه أخبر ولا خُلف فى خبره . وقرأ يعقوب « ثم نُنْجِي » مخففا . وقرأ الكسائى وحفص و يعقوب « ننجى المؤمنين » مخففا ، وشدد الباقون ، وهما لغتان فصيحتان : أنجى يُنْجِي إنجاء ، ونَجَّى يُنَجِّي تنجية بمعنًى واحد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يريد كفار مكة . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ أى فى ريب من دين الإسلام الذى أدعوكم إليه . ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ من الأوثان التى لا تعقل . ﴿ وَلٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ أى يميتكم و يقبض أرواحكم . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى المصدقين بآيات ربهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ « أن » عطف على « أن أكون » أى قيل لى كن من المؤمنين وأقم وجهك . قال ابن عباس : عملك ، وقيل نفسك ؛ أى استقم بإقبالك على ما

أمرت به من الدين . ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى قويما به مائلا عن كل دين . قال حمزة بن عبد المطلب :

حمدت الله حين هدى فؤادى * من الإشراك للدين الحنيف

وقد مضى فى « الأنعام »(١) اشتقاقه والحمد لله . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى وقيل لى لا تشرك؛ والخطاب له والمراد غيره؛ وكذلك قوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ أى لا تعبد . ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ ﴾ إن عبدته ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن عصيته ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ ﴾ أى عبدت غير الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى الواضعين العبادة فى غير موضعها .

قوله تعالى : وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ أى يصبك به ﴿ فَلَا كَاشِفَ ﴾ أى لا دافع ﴿ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ أى يصبك برخاء ونعمة ﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ ﴾ أى بكل ما أراد من الخير والشر ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ باوليائه فى الآخرة .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ ﴾ أى القرآن . وقيل الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ أى صدّق محمدا وآمن بما جاء به ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨ • وقد تكلم عنه المؤلف فى البقرة مستوفى فراجعه فى جـ ٢ ص ١٣٩ طبعة ثانية .

أى لخلاص نفسه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أى ترك الرسول والقرآن واتبع الأصنام والأوثان ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى وبال ذلك على نفسه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى بحفيظ أحفظ أعمالكم إنما أنا رسول . قال ابن عباس : نسخها آية السيف .

قوله تعالى : وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ قيل : نسخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية . وقال ابن عباس : لما نزلت جمع النبيّ صلى الله عليه وسلم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال : " إنكم ستجدون بعدى أَثَرَةً[1] فاصبروا حتى تلقونى على الحوض " . وعن أنس بمثل ذلك ، ثم قال أنس : فلم يصبروا فأمرهم بالصبر كما أمره الله تعالى ؛ وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

ألا أبلغ معاوية بن حرب * أمير المؤمنين نَثَا[2] كلامى
بأنا صابرون ومنظروكم * إلى يوم التغابن والخصام

﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ابتداء وخبر؛ لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق .

تمت سورة يونس، والحمد لله وحده

(١) أى يستأثر عليكم فيفضل غيركم فى نصيبه من الفىء . (٢) النثا فى الكلام يطلق على القبيح والحسن .

تم الجزء الثامن من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع ، وأوله :

" سورة هود "

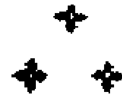

كَمُلَ طبع الجزء الثامن من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبى"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأحد ٥ رجب سنة ١٣٥٨
(٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٩) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨/٧١/٥٠٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

دار الكتب المصرية

القســـم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

فهـــرس الجـــزء التاســـع

تفســـير ســـورة هـــود

صفحة

صفحة

صفحة

*

صفحة

تفسير سورة يوسف عليه السلام

صفحة

صفحة

سورة الرعد

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهي قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ » . وأسند أبو محمد الدارمي في مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرءوا سورة هود يوم الجمعة" . وروى الترمذي عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله قد شِبْتَ ! قال : "شيبتني هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كُوِّرت" . قال : هذا حديث حسن غريب، وقد رُوي شيء من هذا مرسلا . وأخرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في « نوادر الأصول » : حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا محمد بن بشر عن علي بن صالح عن أبي إسحق عن أبي جُحَيْفة قال : قالوا يارسول الله نراك قد شِبتَ ! قال : "شيبتني هودٌ وأخواتُها" . قال أبو عبد الله : فالفزع يورث الشيب وذلك أن الفزع يُذهِل النفس فينشِّف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة مَنْبع، ومنه يَعْرَق، فإذا انشَّف الفزعُ رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر فابيضّ ؛ كما ترى الزرع الأخضر بسقائه، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيضّ؛ وإنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويُبْس جلده، فالنفس تَذهل بوعيد الله، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل، ويُنشِّف ماءها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به ؛ فمنه تَشيب . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيبًا » فإنما شابوا من الفزع . وأمّا سورة « هود » فإنما فيها ذكر الأمم، وماحلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطشَ بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لحقّ لهم، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يَلْطُف بهم في تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه . وأمّا أخواتها فما أشبهها من السور، مثل « الحاقة » و « سأل سائل » و « إذا الشمس كورت »

و « القارعة » ، ففى تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس ، وتشيب منه الرءوس . وقد قيل إن الذى شيب النبى صلى الله عليه وسلم من سورة « هود » قوله : « فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى فقرأت عليه سورة « هود » فلما ختمتها قال : " يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء " . قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هودُ فاعلم بغير تنوين على أنه اسم للسورة؛ لأنك لو سميت امرأة بزيد لم تصرف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هودٌ بالتنوين على أنه اسم للسورة؛ وكذا إن سمى امرأة بزيد؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف ، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هودٌ وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر ﴾ . تقدّم القول فيه (١) . ﴿ كِتَابٌ ﴾ بمعنى هذا كتاب . ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ فى موضع رفع نعت لكتاب . وأحسن ماقيل فى معنى « أحكمت آياته » قول قتادة؛ أى جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد ، أى نُظمت نظما محكما لا يلحقها تناقض ولا خلل . وقال ابن عباس : أى لم ينسخها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالمعنى؛ أُحكم بعض آياته بأن جعل ناسخا غير منسوخ . وقد تقدّم القول فيه (٢) .

(١) راجع تفسير الآية الأولى من سورة « يونس » . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية .

وقد يقع آسم الجنس على النوع ؛ فيقال : أكلت طعام زيد ؛ أي بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العالية : «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» بالأمر والنهي ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصّلها بالحلال والحرام . مجاهد : أحكمت جملة ، ثم بيّنت بذكر آية آية بجميع مايُحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها . وقيل : جُمعت في اللوح المحفوظ ، ثم فُصّلت في التنزيل . وقيل : «فُصِّلت» نزلت نَجْمًا نجمًا لتُتَدبَّر . وقرأ عكرمة « فَصَلَتْ » مخففا أي حَكَمت بالحق .﴿ مِنْ لَدُنْ ﴾ أي من عند . ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أي محكم للأمور . ﴿ خَبِيرٍ ﴾ بكل كائن وغير كائن .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال الكسائيّ والفرّاء : أي بألا ؛ أي أحكمت ثم فصّلت بألا تعبدوا إلا الله . قال الزجاج : لئلا ؛ أي أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أي من الله . ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أي مخوِّف من عذابه وسطوته لمن عصاه . ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه . وقيل : هو من قول الله أولا وآخرا ؛ أي لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير ؛ أي الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ عطف على الأول . ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي ٱرجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفرّاء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أي وتوبوا إليه ؛ لأن الآستغفار هو التوبة ، والتوبة هي الآستغفار . وقيل : آستغفروه من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الآستغفار بلا إقلاع توبةُ الكذابين . وقد تقدّم هذا المعنى في « آل عمران »[1] مستوفى . وفي « البقرة »[2] عند قوله : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا » . وقيل : إنما قدم ذكر الآستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب ، والتوبة هي السبب إليها ؛ فالمغفرة أوّل في المطلوب وآخر في السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر ، وتوبوا إليه من الكبائر . ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانية .	(٢) راجع جـ ٣ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ؛ أى يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم . وقيل: يمتعكم يعمركم؛ وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أمتع اللهُ بك ومتّع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق . وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود . ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل: هو الموت . وقيل: القيامة. وقيل: دخول الجنة. والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمرٍ مَخُوف ، مما يكون فى القبر وغيره من أهوال القيامة وكُرَبها ؛ والأول أظهر لقوله فى هذه السورة : « وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم. قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابتُلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرَقة والقَذَر والجيف والكلاب . ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أى يؤت كلّ ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : ويؤت كلّ من فضلت حسناته على سيئاته « فَضْلَهُ » أى الجنة ، وهى فضل الله؛ فالكناية فى قوله : « فَضْلَهُ » ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد : هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه ، أو عمل يعمله بيده أو رجله ، أو ماتطوع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ أى يوم القيامة، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بَدْر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يجوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن تولّوا فقل لهم إنى أخاف عليكم . ويجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التاءين والمعنى : قل لهم إن تتولّوا فإنى أخاف عليكم .

قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أى بعد الموت . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من ثواب وعقاب .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٥)

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « يثنون صدورهم » أى يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف ، قال آبن عباس : يخفون ما فى صدورهم من الشّحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت فى الأخنس بن شَرِيق ، وكان رجلا حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ، وينطوى له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » شكًّا وآمتراء . وقال الحسن : يثنونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثنَى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه ، لكيلا يراه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ؛ حكى معناه عن عبد الله بن شدّاد فالهاء فى « منه » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ، وآستغشينا ثيابنا ، وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية . وقيل : إن قوما من المسلمين كانوا يتنسّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبيّن الله تعالى أن التنسّك ما آشتملت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى آبن جَرِير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال سمعت آبن عباس رضى الله عنهما يقول : «ألا إنهم تَثْنُونِى صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ »(1) قال : كانوا لا يجامعون النساء ، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء ، فنزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عبّاد عن آبن عباس : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوِى صُدُورُهُمْ » بغير نون بعد الواو ، فى وزن تنطوى ؛ ومعنى « تثنوى » والقراءتين الأخريين متقارب ؛ لأنها لاتَثْنوِى حتى يَثْنُوها . وقيل : كان بعضهم ينحنى على بعض يسارّه فى الطّعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

(1) فى الأصل : « تثنوى » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخالف ما فى صحيح البخارى وتفسير الطبرى عن محمد بن عباد ، فلذا صوّبناه عنهما ؛ وأما رواية « تثنوى » المذكورة بالأصل فقد نسبها آبن عطية إلى آبن عيينة ، ويعضده ما فى (إعراب القرآن للنحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس «ألا إنهم تثنوى صدورهم » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ... ... الخ ، وهى العبارة الآتية بالأصل . وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط فى النقل لا تتجه . راجع روح المعانى والبحر وتفسير ابن عطية .

« لِيَسْتَخْفُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله . ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أى يُغطّون رءوسهم بثيابهم . قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَنى ظهره ، وآستغشى ثوبه، وأضمر فى نفسه همّه .

قوله تعالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ « ما » نفى و « مِن » زائدة و «دابة» فى موضع رفع ؛ التقدير : وما دابّةٌ. « إِلَّا عَلَى اللَّهِ » « على » بمعنى « مِن » ، أى من الله رزقها؛ يدل عليه قول مجاهد : كُلّ ماجاءها من رزق فمن الله. وقيل: «على الله» أى فضلا لا وجوبا . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدّم بيان هذا المعنى فى « النساء »(١) وأنه سبحانه لا يجب عليه شيء . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرزق . وقيل : هى عامة؛ وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزقت رُوحها؛ ووجه النظم بما قبلُ : أنه سبحانه أخبر برزق الجميع ، وأنه لا يَغفُل عن تربيته ، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟! والدّابة كل حيوان يَدِبّ . والرزق حقيقته ما يتغذّى به الحيّ، ويكون فيه بقاء رُوحه ونماء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى المِلك ؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعَلَفها ؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقال إن اللّبن الذى فى الثّدى مِلك للطفل . وقال تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » وليس لنا فى السماء مِلك ؛ ولأن الرزق لوكان مِلكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدّم فى «البقرة»(٢) هذا المعنى والحمد لله . وقيل لبعضهم : من اين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الرّحى يأتيها بالطّحين ، والذى شدق

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

الأشداق هو خالق الأرزاق . وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ما له إلا السماء ! يا هذا الأرضُ له والسماءُ له ؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخافُ الفقـرَ واللهُ رازقي ✽ ورازقُ هذا الخلقِ في العُسْرِ واليُسْرِ

تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهِـمْ ✽ وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

وذكر التِّرمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وقد أَرْمَلوا[1] من الزاد ؛ فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ، فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريّون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغَوْث ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قَصْعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ماشاءوا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا قد قضينا منه حاجتنا ، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : " ما أرسلت إليكم طعاما " فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك شيء رزقكموه الله " .

---

(١) أرملوا من الزاد : أي نفد زادهم ؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل ، كما قيل للفقير الترب .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أى من الأرض حيث تأوى إليه . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أى الموضع الذى تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مستقرها » أيام حياتها . « ومستودعها » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : « مستقرها » فى الرَّحِم . « ومستودعها » فى الصُّلْب . وقيل : « يعلم مستقرها » فى الجنة أو فى النار . « ومستودعها » فى القبر؛ يدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » . ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدّم فى « الأعراف »(1) بيانه والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا، ثم خلق الريح فجعل الماء على مَتْنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شىء كان الماء ؟ قال : على مَتْن الرِّيح . وروى البخارىّ عن عِمْران بن حُصَين . قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : "اقبلوا البشرى يابنى تميم" قالوا : بَشَّرتَنا فأعطنا [مرتين](2) فدخل ناس من أهل اليمن فقال : "اقبلوا البشرى يأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم" قالوا : قَبِلنا ، جئنا لنتفقه فى الدِّين ، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : "كان الله ولم يكن شىءٌ غيرُه وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب

(1) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) الزيادة عن صحيح البخارى .

فى الذِّكْر كلَّ شىء " ثم أتانى رجل فقال : يا عِمران أدرك ناقتك فقد ذَهبتْ ، فانطلقت أطلبها فإذا هى يقطَعُ دونها السَّرابُ ؛ وأيمُ اللهِ لوددْتُ أنها قد ذهبتْ ولم أقم .

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى خلق ذلك ليبتلى عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث . وقال قَتادة : معنى « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أتمّ عقلا . وقال الحسن وسفيان الثَّورىّ : أيكم أزهد فى الدنيا . وذكر أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم فقال : يانائم قم فتعبَّدْ ، فقال : ياروح الله قد تعبَّدتُ ، فقال : « وما تعبَّدتَ » ؟ قال : قد تركت الدنيا لأهلها ؛ قال : نَمْ فقد فقتَ العابدين . الضّحاك : أيكم أكثر شكرا . مقاتل : أيكم أتقى لله . ابن عباس : أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل . وروى عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا « أيكم أحسن عملا » قال : " أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله " فجمع الأقاويل كلها ، وسيأتى فى « الكهف »(١) هذا أيضا إن شاء الله تعالى . وقد تقدّم معنى الابتلاء . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أى دللت يا محمد على البعث ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكرت ذلك للشركين لقالوا : هذا سحر . وكسرت « إنّ » لأنها بعد القول مبتدأة . وحكى سيبويه الفتح . ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه ، وبعده « لَيَقُولُنَّ » لأن فيه ضميرا . و﴿ سِحْرٌ ﴾ أى غرور باطل ، لبطلان السحر عندهم . وقرأ حمزة والكسائى « إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ » كناية عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ اللام فى « لئن » للقسم ، والجواب « لَيَقُولُنَّ » . ومعنى « إِلَى أُمَّةٍ » إلى أجل معدود وحين معلوم ؛ فالأمة هنا

(١) راجع المسألة الثانية فى تفسير قوله تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » . آية ٧ .

المدة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين . وأصل الأمة الجماعة ؛ فعبر عن الحين والسنين بالأمة لأن الأمة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمعنى إلى مجيء أمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى انقراض أمة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد انقراضها من يؤمن . والأمة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه ؛ فالأمة تكون الجماعة ؛ كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ » . والأمة أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام . والأمة الرجل الجامع للخير الذي يُقتدى به ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » . والأمة الدِّين والمِلّة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أمةٍ » . والأمة الحين والزمان ؛ كقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وكذلك قوله تعالى : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . والأمة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ؛ يقال من ذلك : فلان حسن الأمّة أي القامة . والأمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يَشْرَكه فيه أحد ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يُبعث زيدُ بن عمرو بن نُفَيل أمّة وحده"(1). والأمة الأم ؛ يقال : هذه أمّة زيد ، يعني أمّ زيد . ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعني العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيبا للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالا واستهزاء ؛ أي ما الذي يحبسه عنا . ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قيل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتي . ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي نزل وأحاط . ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي جزاء ما كانوا به يستهزئون ، والمضاف محذوف .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسان اسم شائع للجنس في جميع الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت . وقيل : في عبد الله بن أبي

(1) (يبعث زيد أمة) لأنه كان تبرأ من أديان المشركين ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه .

أمية المخزومي . « رحمة » أى نعمة . ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أى سلبناها إياه . ﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ أى يائس من الرحمة ﴿ كَفُورٌ ﴾ للنعم جاحد لها ؛ قاله ٱبن الأعرابي . النحاس : « ليؤوس » من يَئِس ييْأَس ، وحكى سيبويه يَئِس ييأَس على فَعِل يفعَل ، ونظيره حَسِب يحسَب ونَعِم ينْعَم ، ويأَس ييْئِس ؛ وبعضهم يقول : يَئِس يَئِس ؛ لا يعرف فى الكلام إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل ؛ وفى واحد منها ٱختلاف . وهو يَئُس و « يؤوس » على التكسير كفخور للمبالغة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ ﴾ أى صحة ورخاء وسعة فى الرزق . ﴿ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ أى بعد ضُرٍّ وفقر وشدّة . ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ أى الخطايا التى تسوء صاحبها من الضّر والفقر . ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أى يفرح ويفخر بما ناله من السَّعة وينسى شكر الله عليه ؛ يقال : رجل فاخر إذا ٱفتخر — وفخور للمبالغة — قال يعقوب القارئ : وقرأ بعض أهل المدينة « لَفَرُحٌ » بضم الراء كما يقال : رجل فَطُن وحَذُر ونَدُس . ويجوز فى كلتا اللغتين الإسكان لثقل الضمة والكسرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ يعنى المؤمنين ، مدحهم بالصبر على الشدائد . وهو فى موضع نصب . قال الأخفش : هو ٱستثناء ليس من الأوّل ؛ أى لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء : هو ٱستثناء من « وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ » أى من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ؛ فهو ٱستثناء متصل وهو حسن . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ ٱبتداء وخبر . ﴿ وَأَجْرٌ ﴾ معطوف . ﴿ كَبِيرٌ ﴾ صفة .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ
أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ
سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ أى فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل : إنهم لما قالوا « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » همّ أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام ؛ أى هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك ؟ وتأكد عليه الأمر فى الإبلاغ ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . وقيـل : معنى الكلام النفى مع استبعاد ؛ أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ؛ وذلك أن مشركى مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك . فهمّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سبّ آلهتهم ؛ فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تارك » و « صدرك » مرفوع به ، والهاء فى « به » تعود على «ما» أو على بعض ، أو على التبليغ ، أو التكذيب . وقال : «ضائق» ولم يقل ضيّق ليشاكل « تارك » الذى قبله ؛ ولأن الضّائق عارض ، والضّيّق ألزم منه . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، كقوله : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لئلا تضلّوا . أو لأن يقولوا . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلّا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه ؛ قاله عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة المخزوميّ ؛ فقال الله تعالى : يا محمد ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذرهم ، لا بأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وشهيد .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ « أم » بمعنى بل ، وقد تقدّم فى « يونس »(١) أى قد أزحت علتهم وإشكالهم فى نبوّتك بهذا القـرآن ، وحججتهم به ؛ فإن قالوا : افتريته — أى اختلقته — فليأتوا بمثله مفترى بزعمهم . ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من لا ينفعهم من دون الله من الكهنة والأعوان .

قوله تعـالى : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

(١) فى تفسير قوله تعالى : « أم يقولون افتراه ... » آية ٣٨ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى فى المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ واعلموا صدق محمد، واعلموا ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام معناه الأمر . وقد تقدم القول فى معنى هذه الآية، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال : « قُلْ فَأْتُوا » وبعده « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ؛ فقيل : هو على تحويل المخاطبة من الإفراد ، إلى الجمع تعظيما وتفخيما ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للجميع ؛ أى فليعلم الجميع « أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ؛ قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للشركين، والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة، ولاتهيأت لكم المعارضة « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » . وقيل : الضمير فى « لكم » للنبي صلى الله عليه وسلم وللؤمنين، وفى « فاعلموا » للشركين .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ كان زائدة(1) ، ولهذا جزم الجواب فقال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَنْ كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه « نُوَفِّ إِلَيْهِمْ » أى من يكن يريد، والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير :

وَمَنْ هابَ أسبابَ المنية يَلْقَها * ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره النحاس ؛ بدليل الآية التى بعدها « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة نكافئه بها فى الدنيا، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق، لكن لا حسنة

---

(1) قال فى البحر : ولعله لا يصح إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط «يريد» ، وكان يكون مجزوما .

له فى الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى فى « براءة »[1] مستوفى . وقيل المراد بالآية المؤمنون ؛ أى من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجّل له الثواب ولم يُنقص شيئا فى الدنيا، وله فى الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره؛ وهذا أمر متفق عليه فى الأمم بين كل ملة. وقيل : هو لأهل الرياء؛ وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء " صُمتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك " ثم قال : " إن هؤلاء أولُ من تُسعّر بهم النارُ " . رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاء شديدا وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا » وقرأ الآيتين، خرّجه مسلم بمعناه والترمذى أيضا . وقيل : الآية عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مِهْران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مِهران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّى ثوابها ؛ فإن كان مسلما مخلصا وُفّى فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وُفّى فى الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبى صلى الله عليه وسلم وُفّيها، أى وُفّى أجر الغَزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه السلام: "إنما الأعمال بالنيات". وتدلك هذه الآية على أن من صام فى رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان، وتدل على أن من توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان فى معناه .

الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ؛ وكذلك الآية التى فى «الشورى» « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » الآية . وكذلك « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » قيدها وفسرها التى فى « سبحان » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » إلى قوله : « محظورا » فأخبر سبحانه أن العبد ينوى ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضّحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما

(١) راجع المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « قل أنفقوا طوعا أو كرها » . آية ٥٤ .

فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ » . والصحيح ما ذكرناه ؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فهذا ظاهره خبر عن إجابة كلّ داعٍ دائما على كلّ حال، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » . والنّسخ فى الأخبار لا يجوز ؛ لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية ، ولاستحالة الكذب على الله تعالى ؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور فى الأصول؛ ويأتى فى « النحل »(١) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ إشارة إلى التّخليد، والمؤمن لا يُخلَّد؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ » الآية . فهو محمول على مالو كانت موافاة هذا المرائى على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار فى أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفاعة ، وإما بالقَبْضة . والآية تقتضى الوعيد بسلْب الإيمان ؛ وفى الحديث [الماضى(٢)] يريد الكفر وخاصة الرياء، إذ هو شرك على ما تقدّم بيانه فى «النساء»(٣) ويأتى فى آخر « الكهف »(٤) . ﴿ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم : وحذف الهاء؛قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف؛لأنه بمعنى المصدر؛أى وباطل عمله . وفى حرف أُبىّ وعبد الله « وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وتكون « ما » زائدة ؛ أى وكانوا يعملون باطلا .

---

(١) فى المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ... » آية ٦٧ .

(٢) فى الأصل (المعاصى) وهو تحريف ، والمراد بالحديث الماضى حديث أبى هريرة المتقدم فى عمل المرائى "صمتم وصليتم ..." .

(٣) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) فى تفسير قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ... » آية ١١٠ .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ابتداء والخبر محذوف؛ أى أفمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الفضل ما تبيّن به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟! عن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن . وكذلك قال ابن زيد: إن الذى على بيّنة من اتبع النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ من الله ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : « أفمن كان على بيّنة من ربه » النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : « وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » ؛ أى أفمن كان معه بيان من الله ، ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد كجبريل — على ما يأتى — وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يُسلمه . والهاء فى « ربّه » تعود عليه . وقوله : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » روى عكرمة عن ابن عباس أنه جبريل ؛ وهو قول مجاهد والنخعيّ . والهاء فى « منه » لله عز وجل ؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهد من الله عز وجل . وقال مجاهد: الشاهد ملَك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده . وقال الحسن البصرى وقتادة: الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو على بن أبى طالب ؛ روى عن ابن عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب ؛ وروى عن علىّ أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال له رجل : أى شىء نزل فيك ؟ فقال علىّ : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » . وقيل : الشاهد هى صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى

النبيّ صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن فى نظمه وبلاغته، والمعانى الكثيرة منه فى اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل، فالهاء فى « منه » للقرآن . وقال الفرّاء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق ؛ والهاء فى « منه » لله عزّ وجلّ . وقيل : البيّنة معرفة الله التى أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذى يتلوه العقل الذى رُكّب فى دماغه وأشرق صدره بنوره . ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل الإنجيل . ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم موصوف فى كتاب موسى « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ » . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوىّ عن الكلبيّ ؛ يكون معطوفا على الهاء فى « يتلوه » والمعنى : ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أى تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . ﴿ إِمَامًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ معطوف . ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى بنى إسرائيل، أى يؤمنون بما فى التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار ؛ حكاه القشيرىّ . والهاء فى « به » يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام . ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى من الملل كلها ؛ عن قتادة ؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحازبون . وقيل : قريش وحلفاؤهم . ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أى هو من أهل النار ؛ وأنشد حسّان :

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً * فالنـارُ موعدُها والموتُ لاقيهـا

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ [ثم يموت](١) ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار " . ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أي في شك . ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من القرآن . ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبي : المعنى فلا تك في مرية في أن الكافر في النار . « إِنَّهُ الْحَقُّ » أي القول الحق الكائن ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا ، فأضافوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أن له شريكا وولدا ، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ﴿ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ أي يحاسبهم على أعمالهم . ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعني الملائكة الحفظة ؛ عن مجاهد وغيره ؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن « الأشهاد » فقال : الملائكة . الضحاك : هم الأنبياء والمرسلون ؛ دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن مُحرِز عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله " . ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ، أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها .

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون «الذين» في موضع خفض نعتا للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين . وقيل : هو ٱبتداء خطاب من الله تعالى؛ أي الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك . ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيدا .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فائتين من عذاب الله . وقال ٱبن عباس : لم يُعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم . ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني أنصارا، و « مِنْ » زائدة . وقيل : « ما » بمعنى الذي تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله؛ وهو قول ٱبن عباس رضي الله عنهما . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ « ما » في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع . ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيته ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه (١) :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ بهِ * فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون « ما » ظرفا، والمعنى : يضاعف لهم أبدا، أي وقت ٱستطاعتهم السمع والبصر، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبدا . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها، إذ الكلام قد تمّ قبلها، والوقف على العذاب كافٍ؛ والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب الزُّبيديّ . أراد (بالخير) فحذف ووصل الفعل ونصب . والنشب : المال الثابت كالضياع ونحوها . وقيل : النشب جميع المال؛ فيكون عطفه على الأول مبالغة وتأكيدا . (شواهد سيبويه) .

يستطيعون فى الدنيا أن يسمعوا سمعا ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد . قال الفرّاء : ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلّهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه . قال النحاس : وهـذا معروف فى كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يسـتطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلا عليه .

قوله تعـالى : أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ابتـداء وخبر . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى ضاع عنهم افتراؤهم وتلف .

قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ للعلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : « لَا جَرَمَ » بمعنى حَقّ ، « فَلا » و « جَرَم » عندهما كلمة واحدة ، و « أنّ » عندهما فى موضع رفع ؛ وهذا قول الفرّاء ومحمد بن يزيد ؛ حكاه النحاس . قال المهدوىّ : وعن الخليل أيضا أن معناها لا بدّ ولا محالة ، وهو قول الفرّاء أيضا ؛ ذكره الثعلبىّ . وقال الزّجاج : « لا » هاهنا نفى ؛ وهو ردّ لقولهم : إن الأصنام تنفعهم ؛ كأنّ المعنى لا ينفعهم ذلك ، وجَرَم بمعنى كَسَب ؛ أى كَسَب ذلك الفعلُ لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، و « أنّ » منصوبة بجرم ، كما تقول : كَسَب جفاؤُك زيدا غضبه عليك ؛ وقال الشاعر :

نَصبنا رأسَه فى جِذْع نَخْلٍ ٭ بما جَرَمتْ يداه وما ٱعتدينا

أى بمـا كَسَبت . وقال الكسائىّ : معنى « لَا جَرَمَ » لا صَـدّ ولا مَنْع عن أنهم . وقيـل : المعنى لا قَطْعَ قاطعٌ ، فحـذف الفاعل حين كثر استعماله ؛ والجَـرْم القَطْع ؛ وقد جَرَم النَّخلَ واجْتَرَمه أى صَرَمه فهو جارِمٌ ، وقومٌ جُرَّم وجُرَّام وهذا زمن الجَرَام والجِرام ، وجَرَمتُ صوف الشاة أى جززْته ، وقد جَرَمتُ منه أى أخذتُ منه ؛ مثـل جَلَمْت الشيء جَلْمًا أى قطعتُ ،

وجَلَمت الجزورَ أَجلِمها جَلْما إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم ، وأخذت الشيء بجَلْمته — ساكنة اللام — إذا أخذته أجمع ، وهذه جَلَمة الجزور — بالتحريك — أى لحمها أجمع ؛ قاله الجوهرى . قال النحاس : وزعم الكسائىّ أن فيها أربع لغات : لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ ، ولا أنْ ذا جَرَمَ ، قال : وناس من فَزارة يقولون : لا جَرَ أنّهم بغير ميم . وحكى الفراء فيه لغتين أخريين قال : بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ ، قال : وناس من العرب يقولون : لا جُرْمَ بضم الجيم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » آسم « إنّ » و « آمنوا » صلة ، أى صدّقوا . ﴿ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ عطف على الصلة . قال آبن عباس : أخبتوا أنابوا . مجاهد : أطاعوا . قتادة : خشعوا وخضعوا . مقاتل : أخلصوا . الحسن : الإخبات الخشوع للخافة الثابتة فى القلب ، وأصل الإخبات الآستواء ، من الخَبْت وهو الأرض المستوية الواسعة ؛ فالإخبات الخشوع والاطمئنان ، أو الإنابة إلى الله عزّ وجلّ المستمرة ذلك على استواء . « إِلَى رَبِّهِمْ » قال الفرّاء : إلى ربهم ولربهم واحد ، وقد يكون المعنى : وجهوا إخباتهم إلى ربهم . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ خبر « إنّ » .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ ابتداء ، والخبر ﴿ كَالْأَعْمَى ﴾ وما بعده . قال الأخفش : أى كمثل الأعمى . النحاس : التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى][1] والأصم ، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ فرد إلى الفريقين وهما آثنان ؛

(١) الزيادة عن النحاس .

روى معناه عن قتادة وغيره . قال الضحاك : الأعمى والأصم مثل للكافر . والسميع والبصير مثل للؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصم والسميع . ﴿ مَثَلًا ﴾ منصوب على التمييز . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فى الوصفين وتنظرون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم . ﴿ إِنِّى ﴾ أى فقال : إنى ؛ لأن فى الإرسال معنى القول . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى «أَنِّى» بفتح الهمزة ؛ أى أرسلناه بأنى لكم نذير مبين . ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه ؛ كما قال : «وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ» ثم قال : «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ» (١) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى آتركوا الأصنام فلا تعبدوها ، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ « إِنِّى » بالكسر جعله معترضا فى الكلام ، والمعنى أرسلناه بألا تعبدوا [إلا الله] . ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله تعالى : فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ (٢٧)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الملأ الرؤساء ؛ أى هم مليئون بما يقولون . وقد تقدم هذا فى « البقرة » (٢) وغيرها . ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا ﴾ أى

(١) قال ابن عطية : وفى هذا نظر ، وإنما هى حكاية مخاطبة لقومه ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى مخاطبة ، ولو كان الكلام أن أنذرهم أو نحوه لصح ذلك .

(٢) راجع ج ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

آدميًّا. ﴿ مِثْلَنَا ﴾ نصب على الحال. و « مثلنا » مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين؛ كما قال الشاعر (١) :

* يارُبَّ مِثْلِكِ فى النِّساءِ غَرِيرَةٍ *

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أَرَاذل جمع أَرْذُل وأَرْذُل جمع رَذْل ؛ مثل كَلْب وأَكْلُب وأَكَالب . وقيل : الأراذل جمع الأَرْذل ، كأَسَاود جمع الأَسْوَد من الحيّات . والرَّذْل النَّـذْل ؛ أرادوا اتبعك أخِسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحِياكة ؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة . قال النحاس : الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيسو الصناعات . وفى الحديث " إنهم كانوا حاكة وحجّامين " . وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم عابوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيــه ؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنمـا عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم يرسلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهـم الدنىء لم يلحقهم من ذلك نقصان ؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هِرَقْل لأبى سفيان : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال علماؤنا : إنمـا كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وصعوبة الانفكاك عنهـا ، والأَنَفة من الانقياد للغير ؛ والفقير خِلِيٌّ عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيـا .

الثالثـــة ـــ اختلف العلماء فى تعيين السِّفلة على أقوال ؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السِّـفلة هم الذين يَتَقَلَّسون (٢) ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبـون الشهادات .

---

(١) هو أبو مِحْجَن الثقفى ، وتمام البيت :

* بيضاءَ قد مَتَّعتُها بطلاق *

الغريرة : المغترة بلين العيش . ومتّعها : أعطاها ما تستمتع به عند طلاقها .

(٢) التقليس : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو .

وقال ثعلب عن ٱبن الأعرابي : السّفلة الذي يأكل الدنيا بدينه ؛ قيل له : فمن سفلة السّفلة ؟ قال : الذي يُصلح دنيا غيره بفساد دينه . وسئل علي رضي الله عنه عن السّفلة فقال : الذين إذا ٱجتمعوا غَلَبوا ، وإذا تفرقوا لم يعرفوا . وقيل لمالك بن أنس رضي الله عنه : مَن السّفلة ؟ قال : الذي يسبّ الصحابة . وروى عن ٱبن عباس رضي الله عنهما : الأرذلون الحاكة والحجّامون . يحيى بن أكْثَم : الدبّاغ والكنّاس إذا كان من غير العرب .

الرابعـــة — إذا قالت المرأة لزوجها : يا سَفِلة ، فقال : إن كنتُ منهم فأنتِ طالق ؛ فحكى النقاش أن رجلا جاء إلى الترمذي فقال : إن ٱمرأتي قالت لي يا سَفِلة ، فقلت : إن كنتُ سَفِلة فأنت طالق ؛ قال الترمذيّ : ما صناعتك ؟ قال : سمّاك ؛ قال : سَفِلة والله، سَفِلة والله .

قلت : وعلى ما ذكره ٱبن المبارك عن سفيان لا تطلق ، وكذلك على قول مالك وابن الأعرابي لا يلزمه شيء .

قوله تعالى : ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ . أي ظاهر الرأي ، وباطنهم على خلاف ذلك . يقال : بدا يبدو إذا ظهر ؛ كما قال :

* فاليوم حين بَدَوْنَ للنُّظار *

ويقال للبرّية بادية لظهورها . وبدا لي أن أفعل كذا ، أي ظهر لي رأي غير الأوّل . وقال الأزهري : معناه فيما يبدو لنا من الرأي . ويجوز أن يكون « بَادِيَ الرَّأْيِ » من بدأ يبدأ وحذف الهمزة . وحَقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ « بَادِئَ الرأي » أي أوّل الرأي ؛ أي ٱتبعوك حين ٱبتدءوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ؛ ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز . وانتصب على حذف « في » كما قال عز وجل : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » . ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أي في ٱتباعه ؛ وهذا جحد منهم لنبوّته . ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه .

قوله تعالى : قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على يقين ؛ قاله أبو عمران الجَوْنيّ . وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدّم في « الأنعام »(١) هذا المعنى . ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أي نبوّة ورسالة ؛ عن ابن عباس ؛ وهي رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل : الإيمان والإسلام . ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي عَمِيت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : عَمِيتُ عن كذا ، وعَمِي عليّ كذا أي لم أفهمه . والمعنى : فعَمِيت الرحمةُ ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت في القَلَنْسُوة رأسي ، ودخل الخفُّ في رجلي . وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي « فعُمِّيَتْ » بضم العين وتشديد الميم على مالم يُسمَّ فاعله ؛ أي فعمّاها الله عليكم ؛ وكذا في قراءة أُبيّ « فعَمَّاها » ذكرها الماورديّ . ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قيل : شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ؛ أي أنلزمكم قبولها ، وأُوجبها عليكم ؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار ؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

أن يردّ عليهم . وحكى الكسائيّ والفرّاء «أنُلزِمْكُموهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفا؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه ، وأنشد(١) :

فاليومَ أشربْ غيرَ مُستحقِبٍ * إثمًا مِنَ اللهِ ولا واغِلِ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [في غير القرآن(٢)] أنلزمكمها يجرى المضمر مجرى المظهر؛ كما تقول : أنلزمكم ذلك . ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أى لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها . قال قَتادة : والله لو آستطاع نبيّ الله نوح عليه السلام لألزمها قومه، ولكنه لم يملك ذلك .

قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أى على التبليغ ، والدعاء إلى الله ، والإيمان به ﴿مَالًا﴾ فيثقل عليكم . ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أى ثوابى فى تبليغ الرسالة . ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به ، كما سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالى والفقراء ، حسب ما تقدّم «فى الأنعام(٣)» بيانه ؛ فأجابهم بقوله : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عزّ وجلّ ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الآختصام ؛ أى لو فعلت ذلك لخاصمونى عند الله ، فيجازيهم على إيمانهم ، ويجازى من طردهم . ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ فى آسترذالكم لهم ، وسؤالكم طردهم .

قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ قال الفرّاء : أى يمنعنى من عذابه . ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أى لأجل إيمانهم . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أدغمت التاء فى الذّال . ويجوز حذفها فتقول : تذكرون .

قوله تعالى : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أخبر بتذلّله وتواضعه لله عزّ وجلّ ، وأنه لا يدّعى ما ليس له من خزائن الله ؛ وهى إنعامه على من يشاء من عباده ؛

(١) البيت لامرىء القيس ، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله (أشرب) فى حال الرفع والوصل . احتقب الإثم واستحقبه احتمله . والواغل الداخل على الشراب ولم يدع له . يقول : حلت لى الخمر فلا آثم بشربها إذ قد وفيت بنذرى فيها . وكان قد نذر ألا يشربها حتى يدرك ثأر أبيه .

(٢) الزيادة عن النحاس . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل . ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ أى لا أقول إن منزلتي عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ؛ لدوامهم على الطاعة ، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة ، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة »(١) . ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ ﴾ أى تستثقل وتحتقر أعينكم ؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم . والدال مبدلة من تاء ؛ لأن الأصل في تزدرى تَزْتَرِى ، ولكن التاء تبدل بعد الزاى دالا ؛ لأن الزاى مجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها . ويقال : أَزْرَيْتُ عليه إذا عبته . وزَرَيتُ عليه إذا حقَّرته . وأنشد الفراء :

يُباعدُه الصديقُ وتَزْدَريهِ * حَليلتُــهُ وينْهرُه الصَّــغيرُ

﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ أى ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهم . ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به . ﴿ إِنِّى إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى إن قلت هذا الذى تقدم ذكره . « وإِذًا » ملغاة ؛ لأنها متوسطة .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أى خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها . والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة ؛ مشتق من الجَدْل

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

وهو شدة الفتل؛ ويقال للصقر أيضا أجدل لشدته في الطير؛ وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»(١) بأشبع من هذا . وقرأ ابن عباس « فأكثرت جدلنا » ذكره النحاس . والجدل في الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله نجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخسر . وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم، وصاحبه في الدارين ملوم. ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي من العذاب . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في قولك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ أي إن أراد إهلاككم عذبكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائتين . وقيل : بغالبين بكثرتكم، لأنهم أعجبوا بذلك؛ كانوا ملئوا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ أي إبلاغي واجتهادي في إيمانكم . ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ أي لأنكم لا تقبلون نصحا؛ وقد تقدم في «براءة»(٢) معنى النصح لغة . ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي يضلّكم . وهذا مما يدلّ على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصى العاصي، ولا يكفر الكافر، ولا يغوى الغاوى؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردّ الله عليهم بقوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » . وقد مضى هذا المعنى في «الفاتحة»(٣) وغيرها . وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّناه في « الأعراف » في إغواء الله تعالى إياه حيث قال : « فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي » ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادى المضلّ؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علوا كبيرا . وقيل : « أَنْ يُغْوِيَكُمْ » يهلككم؛ لأن الإضلال يفضى إلى الهلاك . الطبرى : « يغويكم » يهلككم بعذابه؛ حكى عن طيء : أصبح فلان غاويا أي مريضا، وأغويته أهلكته؛ ومنه « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فإليه الإغواء، وإليه الهداية . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) في تفسير قوله تعالى : «ليس على الضعفاء ... ...» آية ٩١ (٣) راجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة، جـ ٤ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليـه وسلم . ٱفترى افتعل ؛ أى اختلق القرآن من قِبـل نفســه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ؛ قاله مقاتل . وقال ٱبن عباس : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ أى اختلقته وافتعلته ، يعنى الوحى والرسالة . ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أى عقاب إجرامى ، وإن كنت مُحِقًّا فيما أقوله فعليـكم عقاب تكذيبى . والإجرام مصـدر أجرم؛ وهو اقتراف السّيئة . وقيـل : المعنى أى جزاء جُرْمى وكَسْبى . وجَرَم وأجْرَم بمعنى ؛ عن النحاس وغيره . قال (١) :

طَرِيدُ عَشِيرةٍ ورَهِينُ جُرْمٍ * بما جَرَمتْ يَدِى وجَنَى لِسَانِي

ومن قرأ « وأَجْرَامِى » بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرْم ؛ وذكره النحاس أيضا . ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعـالى : وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَـدْ آمَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفـع على أنه ٱسم ما لم يُسمَّ فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون التقدير بأنه . و « آمن » فى موضع نصب « بيؤمن » ومعنى الكلام الإياس من إيمـانهم ، واستدامة كفرهم ، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضَّحاك : فدعا عليهم لمـا أُخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حمل ٱبنه على كتفه ، فلما رأى الصبيُّ نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا ؛ فأعطاه حجرا ، ورمى به نوحا عليه السلام فأدماه ؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ

(١) البيت للهيردان السعدى أحد لصوص بنى سعد . (اللسان) .

آمن» . ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائسا؛ أى حزينا . والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر :

وكم مِن خليلٍ أو حَميمٍ رُزِئته * فلم أبتئسْ والرُّزءُ فيه جليلُ

يقال ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والابتئاس حزن فى استكانة .

قوله تعالى : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أى اعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك . «بأعيننا» أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى : «فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ» «فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ» «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال : «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منزه عن الحواس والتشبيه والتكييف، لا رب غيره . وقيل : المعنى «بأعيننا» أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه . وقيل : «بأعيننا» أى بعلمنا؛ قاله مقاتل : وقال الضحاك وسفيان : «بأعيننا» بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعونتنا لك على صنعها . «ووحينا» أى على ما أوحينا إليك من صنعتها . ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أى لا تطلب إمهالهم فإنى مغرقهم .

قوله تعالى : وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ أي وطفق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يَغرس الشّجر ويقطعها وييبسها ، ومائة سنة يعملها . وروى ٱبن القاسم عن ٱبن أشرس عن مالك قال : بلغني أن قوم نوح مَلَئُوا الأرض ، حتى مَلَئُوا السّهل والجبل ، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يَصعدوا إلى هؤلاء ، فمكث نوح يَغرس الشّجر مائة عام لعمل السّفينة ، ثم جمعها ييبسها مائة عام ، وقومه يسخرون ؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك ؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينته ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان .
وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ : لما ٱستنقذ الله سبحانه وتعالى مَن في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن فٱصنع الفلك » قال : يارب ما أنا بنجّار ، قال : « بلى فإن ذلك بعيني » فأخذ القدوم فجعله بيده ، وجعلت يده لا تُخطئ ، فجعلوا يَمرّون به ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبيّ صار نجّارا ؛ فعملها في أربعين سنة .

وحكى الثعلبيّ وأبو نصر القشيريّ عن ٱبن عباس قال : اتخذ نوح السّفينة في سنتين . زاد الثّعلبيّ : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن ٱصنعها كجُؤْجُؤ الطائر .
وقال كعب : بناها في ثلاثين سنة ، والله أعلم . المهدويّ : وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها ، وٱختلفوا في طولها وعرضها ؛ فعن ٱبن عباس رضي الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وسمكها ثلاثون ذراعا ؛ وكانت من خشب السّاج . وكذا قال الكَلْبيّ وقَتَادة وعِكْرِمة كان طولها ثلثمائة ذراع . والذّراع إلى المَنْكِب قاله سلمان الفارسيّ .
وقال الحسن البصريّ : إن طول السّفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع .
وحكاه الثعلبيّ في كتاب العرائس . وروى عليّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها ، فٱنطلق بهم حتى ٱنتهى إلى كَثِيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التُّراب ، قال أتدرون ما هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : [هذا كعب[1] حام بن نوح] قال فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه ، وقد شاب ؛ فقال له عيسى : أهكذا هلكت؟ قال : لا بل مت وأنا شاب ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت . قال : أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدوابّ والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير . وذكر باقي الخبر على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكلبي[2] فيما حكاه النقاش : ودخل الماء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ؛ باب فيه السباع والطير ، وباب فيه الوحش ، وباب فيه الرجال والنساء . ابن عباس : جعلها ثلاث بطون ؛ البطن الأسفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، وركب هو في البطن الأعلى ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدس ؛ وكان إبليس معهم في الكَوْثَل[3] . وقيل : جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة فقال نوح : لا أحملكما ؛ لأنكما سبب الضرر والبلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضرّ أحدا ذكرك ؛ فمن قرأ حين يخاف مضرّتهما « سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » لم تضرّاه ؛ ذكره القشيري وغيره . وذكر الحافظ بن عساكر في التاريخ له مرفوعا من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال حين يمسي صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة " . قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّمَا ﴾ ظرف . ﴿ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ . قال الأخفش والكسائي يقال : سخرتُ به ومنه . وفي سخريتهم منه قولان : أحدهما — أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر ، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون : يانوح صرت بعد النبوة نجارا . الثاني — لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يانوح

---

(١) كذا في الطبري والدر المنثور والكشاف ، وفي الأصل (قبر سام بن نوح) .

(٢) جاء في البحر : واختلفوا في هيئتها من التربيع والطول ، وفي مقدار مدة عملها ، وفي المكان الذي عملت فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء .

وقال الفخر الرازي : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبني ، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا .

(٣) الكوثل : مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ومتاعهم . وقيل : هو السكان .

ما تصنع ؟ قال : أبني بيتا يمشي على الماء، فعجبوا من قوله وسخروا منه . قال ٱبن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، ومياه البحار هي بقية الطوفان . ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا ﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة . ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ غدا عند الغرق . والمراد بالسخرية هنا الاستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ تهديد، و « مَن » متصلة بـ« سوف تعلمون » و « تعلمون » هنا من باب التعدية إلى مفعول ؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب . ويجوز أن تكون « مَن » ٱستفهامية ؛ أي أيّنا يأتيه العذاب ؟ . وقيل : « مَن » في موضع رفع بالابتدا و « يأتيه » الخبر ، و « يخزيه » صفة لعذاب . حكى الكسائي أن أناسا من أهل الحجاز يقولون : سوف تعلمون؛ وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا . وحكى الكوفيون : سَفْ[(1)] تعلمون ؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي يجب عليه وينزل به . ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أي دائم، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ ٱختلف في التّنور على أقوال سبعة : الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمي وجه الأرض تنّورا ؛ قاله ٱبن عباس وعكرمة والزّهري وٱبن عُيينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فٱركب أنت ومن معك . الثاني — أنه تنّور الخبز الذي يخبز فيه؛ وكان تنّورا من حجارة؛ وكان لحوّاء حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فٱركب أنت وأصحابك . وأنبع الله الماء من التنّور ، فعلمت به ٱمرأته فقالت : يانوح فار الماء من التنّور؛ فقال : جاء وعد ربي حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله مجاهد وعطية عن ٱبن عباس . الثالث — أنه

(١) ورد في اللسان : قد قالوا سو يكون فحذفوا اللام ، وسا يكون فحذفوا اللام وأبدلوا العين طلب الخفة ، وسف يكون فحذفوا العين .

موضع آجتماع المـاء فى السـفينة ؛ عن الحسن أيضـا . الرابع — أنه طلوع الفجر ، ونور الصبح ؛ من قولهم نور الفجر تنويرا ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الخـامس — أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علىّ بن أبى طالب أيضا ، وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحيـة التّنور بالكوفة . وقال : آتخـذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة ، وكان التّنور على يمين الدّاخل مما يلى كـندة . وكان فوران المـاء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فار تنورُهم وجَاش بماءٍ * صار فوق الجبالِ حتّى عَلاهَا

السادس — أنه أعالى الأرض ، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السـابع — أنه العين التى بالجـزيرة « عين الوردة » رواه عِكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم ، وإنمـا كان بالشام بموضع يقال له « عين وَرْدَة » . وقال آبن عباس أيضا : فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن المـاء جاء من السماء والأرض ؛ قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » . فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . والفَوَران الغَلَيان . والتّنور آسم أعجمىّ عربته العرب ، وهو على بناء فَعّـل ؛ لأنّ أصل بنائه تَنَر ، وليس فى كلام العرب نون قبل راء . وقيل : معنى « فار التنور » التمثيل لحضور العـذاب ؛ كقولهم حَمِى الوَطيسُ إذا آشتد الحرب . والوطيس التّنور . ويقال : فارت قِدر القوم إذا آشتد حربهم ؛ قال شاعرهم :

تركتم قِدْرَكم لا شىء فيها * وقِدْرُ القوم حاميـةٌ تفورُ

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ يعنى ذكرا وأنثى ؛ لبقاء أصل النّسل بعد الطّوفان . وقرأ حفص «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ» بتنوين « كلّ» أى من كل شىء زوجين . والقراءتان ترجعان إلى معنًى واحدٍ معه آخر لا يستغنى عنـه . ويقال للآثنين : هما زوجان ، فى كل آثنين لا يَستغنى أحدهما عن صاحبـه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نعلٍ إذا كان له نعلان . وكذلك عنده زوجا حمامٍ ، وعليـه زوجا

قيود؛ قال الله تعالى : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ » . ويقال للمرأة هي زوج الرجل، وللرجل هو زوجها . وقد يقال للاثنين هما زوج، وقد يكون الزوجان بمعنى الضّربين والصّنفين، وكل ضرب يدعى زوجا؛ قال الله تعالى : « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » أي من كل لون وصنف . وقال الأعشى :

وكُلُّ زوجٍ من الدّيباجِ يَلبَسه * أبو قُدامةَ محبوٌّ بذاك مَعا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ » في موضع نصب بـ « ٱحمل » . « ٱثنين » تأكيد . ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أي وٱحمل أهلك . ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ ﴾ . « مَن » في موضع نصب بالٱستثناء . ﴿ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منهم أي بالهلاك؛ وهو ٱبنه كنعان وٱمرأته واعلة كانا كافرين . ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ قال الضحاك وٱبن جريج : أي ٱحمل من آمن بي، أي من صدّقك؛ فـ« مَن » في موضع نصب بـ« ٱحمل» . ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال ٱبن عباس رضي الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا، منهم ثلاثة من بنيه؛ سام وحام ويافث، وثلاث كَنائن[(١)] له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل . وورد في خبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس؛ نوح وزوجته غير التي عوقبت، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم؛ وهو قول قَتَادة والحكم بن عُيينة وابن جُريج ومحمد بن كعب؛ فأصاب حام ٱمرأته في السفينة، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش : كانوا سبعة؛ نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين؛ وأسقط امرأة نوح . وقال ٱبن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعا . و « قَلِيلٌ » رفع بآمن، ولا يجوز نصبه على الٱستثناء؛ لأن الكلام قبله لم يتم، إلا أن الفائدة في دخول « إلا » و « ما » أنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن؛ فإذا جئت بما وإلا، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

---

(١) الكَنّة (بالفتح) : ٱمرأة الابن أو الأخ .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا ﴾ أمرٌ بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب العلوّ على ظهر الشيء . ويقال : ركبه الدين . وفي الكلام حذف؛ أى آركبوا الماء في السفينة . وقيل : المعنى آركبوها . و « فى » للتأكيد كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وفائدة « فى » أنهم أمروا أن يكونوا فى جوفها لا على ظهرها . قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب ، وآستوت على الجُودىّ لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قَتَادة وزاد؛ وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطَّبَرىّ فى هذا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب فى السفينة أول يوم فى رجب ، وصام الشهر أجمع ، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، ففيه أَرست على الجُودىّ ، فصامه نوح ومن معه . وذكر الطَّبَرىّ عن آبن إسحق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة ، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعها الله عن الغرق فلم ينلها غرق ، ثم مضت إلى اليمن ، ورجعت إلى الجُودىّ فاستوت عليه .

قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها ؛ فمُجراها ومُرساها فى موضع رفع

بالابتداء؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب، ويكون التقدير: بسم الله وقت إجرائها ثم حذف وقت، وأقيم «مجراها» مقامه. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي «بسم الله مَجريها» بفتح الميم و«مُرساها» بضم الميم. وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب «بِسْمِ ٱللهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا» بفتح الميم فيهما؛ على المصدر من جَرت تجرى جريا ومَجرى، ورَست رُسوًّا ومَرسى إذا ثبتت. وقرأ مجاهد وسليمان بن جُندُب وعاصم الجَحْدَرِيّ وأبو رجاء العُطارِدِيّ «بِسمِ اللهِ مُجْرِيها ومُرْسِيها» نعت لله عز وجل في موضع جر. ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ؛ أي هو مُجريها ومُرسيها. ويجوز النصب على الحال. وقال الضّحاك: كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجراها جرت، وإذا قال بسم الله مَرساها رَست. وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن عليّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أمانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم «وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» «بِسمِ ٱللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»". وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل؛ كما بيناه في البسملة[(1)]، والحمد لله. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لأهل السفينة. وروي عن ابن عباس قال: لما كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح اغمز ذنب الفيل، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث؛ فقال نوح: لو غمزت ذنب هذا الخنزير! ففعل، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها تقرضها، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة؛ فأوحى الله إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها، فخرج منها سِنّوران فأكلا الفئرة، ولما حمل الأسد في السفينة قال: يارب من أين أطعمه؟ قال: سوف أشغله، فأخذته الحُمَّى؛ فهو الدهر محموم. قال ابن عباس: وأوّل ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الأوزّة، وآخر ما حمل حمل الحمار؛ قال: وتعلق إبليس بذنبه، ويداه قد دخلتا في السفينة، ورجلاه خارجة بعد، فجعل الحمار يضطرب

(1) راجع جـ ١ ص ٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة.

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : ادخل ويلك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : ادخل ويلك ! وإن كان معك الشيطان؛ كلمة زلّت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل ، ثم إن نوحا رآه يغنى فى السفينة، فقال له : ياللعين ما أدخلك بيتى ؟! قال : أنت أذنت لى؛ فذكر له ؛ فقال له : قم فاخرج . قال : مالك بدّ فى أن تحملنى معك ؛ فكان فيما يزعمون فى ظهر الفلك . وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان، واحدة مكان الشمس، والأخرى مكان القمر . ابن عباس : إحداهما بيضاء كبياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات .

قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ الموج جمع موجة؛ وهى ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهى فى موضع خفض نعت للموج . وجاء فى التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ ﴾ قيل : كان كافرا واسمه كنعان . وقيل : يام . ويجوز على قول سيبويه « ونادى نوح ابنه » بحذف الواو من « ابنه » فى اللفظ، وأنشد(1) :

* لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوتُ حادٍ *

فأما « وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَ وَكَانَ » فقراءة شاذة؛ وهى مروية عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد « ابنها » فحذف الألف كما تقول : «ابنه» ؛ فتحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذى قاله أبو حاتم لايجوز على مذهب سيبويه ؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ أى من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن ابنه كان كافرا ، وأنه

---

(1) البيت للشماخ، والشاهد فى (كأنه) حيث حذف الواو ضرورة . وتمامه :

* إذا طلبَ الوسيقةَ أو زَميرُ *

يصف حمار وحش هائجا يطلب وسيقته، وهى أتانه التى يضمها ويجمعها؛ من وسقت الشيء أى جمعته . (شواهد سيبويه) .

ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له : ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ وسيأتي . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق، وقبــل رؤية اليأس ، بل كان في أول ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح . وقرأ عاصم ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ﴾ بفتح اليــاء، والباقون بكسرها . وأصــل « يا بنيّ » أن تكون بثلاث ياءات ؛ ياء التصغير، وياء الفعــل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع ؛ هــذا أصل قراءة من كسر اليــاء، وهو أيضا أصل قراءة من فتح ؛ لأنه قلب ياء الاضافة ألفا لخفة الألف ، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف ، أو لسكونها وسكون الراء . قال النحاس : أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبو حاتم : يريد يا بُنَيَّاه ثم يَحذف ؛ قال النحاس : رأيت عليّ بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس : ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحق ؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين ؛ فالفتح على انه يبدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا : « يا ويلتا » وكما قال الشاعر :

* فياعجبا من رَحْلها المتحمَّلِ *

فيريد يا بنيّا ، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول جاءني عبدا الله في التثنية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ أي أرجع وأنضم . ﴿ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ أي يمنعني من المــاء فلا أغرق . ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي لا مانع ؛ فإنه يوم حقّ فيه العذاب على الكفار . وانتصب «عاصم» على التبرئة . ويجوز « لا عاصمُ اليوم » تكون لا بمعنى ليس . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أي لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن عاصما بمعنى معصوم؛ مثل «ماء دافق» أي مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر :

بطيءُ القيامِ رخيمُ الكلا * مِ أمسى فؤادِى به فاتنـا

أى مفتونا . وقال آخر[1] :

دَعِ المكارِمَ لا تَنهضْ لبغيتها * وآقعدْ فإنّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسِى

أى المطعوم المكسو . قال النحاس : ومن أحسن ماقيل فيه أن تكون «مَن» فى موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أى إلا الله . وهـذا اختيار الطَّبَرِىّ . ويُحسِّن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا «إلّا» بمعنى «لكن» . ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ يعنى بين نوح وآبنه . ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ قيل : إنه كان راكبا على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى الماء جاء قال : يا أبت فار التنور؛ فقال له أبوه : «يا بنى اركب معنا» فما آستتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق . وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصّن فيه من الماء، فلما فار التنّور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوّط فيه ويبول حتى غرق بذلك . وقيل : إن الجبل الذى آوى إليه «طورسيناء» .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ هـذا مجاز لأنها موات . وقيل : جعل فيها ما تُميِّز به . والذى قال إنه مجاز قال : لو فُتِّش كلام العرب والعجم ماوجد فيه مثل هـذه الآية على حسن نظمها، وبلاغة رصفها، واشتمال المعانى فيها . وفى الأثر : أن الله تعالى لا يخلى الأرض من مطر فى عام أو عامين، وأنه مانزل من السماء ماء قطّ إلا بحفظ مَلَك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظه الملَك . وذلك قوله تعالى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» فجرت بهم السفينة إلى أن تناهى الأمر؛ فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع . يقال : بلَع الماء يبلَعه مثل منع يمنع وبَلِع يبلَع مثل حمِد يحمَد؛ لغتان حكاهما الكسائىّ والفرّاء . والبالُوعة

(١) البيت للحطيئة يهجو الزِّبرقان .

الموضع الذى يشرب الماء . قال ابن العربى : التقى الماءان على أمر قد قدر ، ما كان فى الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع ، فلم تمتص الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ » . وقيل : ميز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته ، وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعالى : ﴿وَغِيضَ ٱلْمَاءُ﴾ أى نقص؛ يقال : غاض الشىء وغضته أنا؛ كما يقال : نَقَص بنفسه ونَقَصه غيره ، ويجوز « غيض » بضم الغين[1] . ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعقم أرحامهم أى أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان ، كما هلكت الطير والسباع ، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير ، بل ماتوا بآجالهم . وحكى أنه لما كثر الماء فى السكك خشيت أم صبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها الماء استوت على الجبل؛ فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بابنها حتى ذهب بها الماء؛ فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى .

قوله تعالى :﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أى هلاكا لهم . الجُودىّ جبل بقرب المَوْصل؛ استوت عليه فى العاشر من المحرّم يوم عاشوراء؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه ، شكرا لله تعالى ؛ وقد تقدّم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فتطاولت ، وبقى الجُودىّ لم يتطاول تواضعا لله ، فاستوت السفينة عليه ، وبقيت عليه أعوادها . وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "لقد بقى منها شىء أدركه أوائل هذه الأمة" . وقال مجاهد : شامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق ، فعلا

(١) أى باشمام الكسرة الضم .

المـاء فوقها خمسة عشر ذراعا، وتطامن الجودى، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه . وقد قيل : إن الجودى آسم لكل جبل ؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل[(١)] :

سُـبحانه ثم سُبحاناً يعودُ له * وقبلنـا سبَّحَ الجُودىُّ والجُمُـد

ويقال : إن الجُودى من جبال الجنة ؛ فلهذا آستوت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر، الجودى بنوح، وطورسيناء بموسى، وحِرَاء بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : لمـا تواضع الجودى وخضع عزّ، ولمـا آرتفع غيره وآستعلى ذَلّ، وهـذه سنة الله فى خلقه، يرفع من يخشع، ويضع من ترفّع؛ ولقد أحسن القائل :

وإذا تذلَّلتِ الرِّقابُ تخضُّعـا * منّـا إليكَ فعِـزُّها فى ذلِّهـا

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبى صلى الله عليه وسلم تُسمّى العَضْباء، وكانت لا تُسبق؛ فجاء أعرابى على قعودٍ له فسـبقها، فاشتد ذلك على المسلمين ؛ وقالوا : سُبِقت العضباءُ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقّا على الله ألا يَرفع شيئا من الدنيا إلا وَضعه " . وخرج مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبـدا بعفوٍ إلا عزًّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يَبغِى أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد " . خرجه البخارى .

مسئلة : — نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ آبن عساكر فى التـاريخ له عن الحسن أن نوحا أوّل رسول بعثـه الله إلى الأرض؛ فذلك قـوله تعـالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » . وكان قد كثرت فيهم المعاصى، وكثرت الجبابرة وعَتَوْا عُتُوّا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، سرّا وعلانية، وكان صبورا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقى نوح؛ فكانوا يدخلون عليه

(١) نسبه اللسان لأمية بن أبى الصلت؛ وفى (معجم ياقوت) : هو لزيد بن عمرو، وقيل لورقة بن نوفل . والجمد كعنق : جبل لبنى نصر بنجد .

فيخنقونه حتى يترك وقيذًا، ويضربونه فى المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِى فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرارا منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه فى أذنيه لكيلا يسمع شيئا من كلامه، فذلك قوله تعالى: «وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ». وقال مجاهد وعُبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِى فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». وقال ٱبن عباس: إن نوحا كان يضرب ثم يُلَفّ فى لِبد فيلقى فى بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ٱبنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال: يابُنَىّ ٱنظر هذا الشيخ لا يغرّنك، قال: يا أبت أمكنّى من العصا، فأخذ العصا ثم قال: ضعنى فى الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضِحة فى رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح: «ربّ قد ترى ما يفعل بى عبادك فإن يك لك فى عبادك خيرية فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبّرنى إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين» فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال، ولا فى أرحام النساء مؤمن؛ قال: «وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»؛ أى لا تحزن عليهم؛ «وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا» قال: يارب وأين الخشب؟ قال: ٱغرس الشجر. قال: فغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجففها، فقال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: ٱجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذنبه كذنب الديك؛ وٱجعلها مطبقة وٱجعل لها أبوابا فى جنبها، وشدّها بدُسُر، يعنى مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطئ. قال ٱبن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينة من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب فى الباب الأوّل، وجعل الوحش والطير فى الباب الثانى، وأطبق عليهما،

وجعل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين آمرأة فى الباب الأعلى وأطبق عليهـم، وجعل الذّر معه فى الباب الأعلى لضعفها ألا يطأها الدوابّ .

قال الزُّهرىّ : إن الله عز وجل بعث ريحـا فحمل إليـه من كل زوجين آثنين، من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمـد : بعث الله جبريل فحشرهم، فجعل يضرب بيـديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح المـاعزة أن تدخل السفينة، فدفعها بيده فى ذنبها؛ فمن ثم انكسر ذنبها فصار مَعْقوفا وبدا حَياؤها . ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبهـا فستر حياءها؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهـل السفينة، وجعل فيها من كل زوجين آثنين، وحمـل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدة فى السفينة قبـل أن تظهر الأرض، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا، فلم يجد طينا ولا ترابا، فرحمه ربه فحفر لها فى قفاه قبرا فدفنها فيه، فذلك الريش الناتئ فى قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان حمل نوح معه فى السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح فى السفينة". وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره أن نوحا عليه السلام لمـا أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدّجاج : أنا؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت مختومة بخاتمى لا تطيرى أبدا، أنت ينتفع بك أمتى؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه، ولذلك يقتل فى الحَرَم، ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت . وبعث الحمامة فلم تجـد قرارا فوقعت على شجرة بأرض سبأ فحملت ورقة زيتونة، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادى الحرم، فإذا المـاء قـد نضب من مواضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء، فاختضبت رجلاها، ثم جاءت إلى نوح عليـه السـلام فقالت : بشراى منكَ أن تهب لى الطوق فى عنقى، والخِضاب فى رجلى، وأسكنُ الحَرَم؛ فمسح يده على عنقها وطوقها، ووهب لها الحمرة فى رجليها، ودعا لهـا ولذريتها بالبركة . وذكر الثعلبىّ أنه بعث بعد الغراب

التُّــدْرُج[1] وكان من جنس الدّجاج ؛ وقال : إياك أن تعتــذر ، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع ، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة .

قوله تعـالى : وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَـالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَـقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَـلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَـكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾ أى دعاه . ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ أى من أهلى الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق ؛ ففى الكلام حذف . ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنمـا سأل نوح ربه ٱبنــه لقوله : « وأهلك » وترك قوله : « إلا من سبق عليه القول » فلما كان عنده من أهــله قال : « رب إن ٱبنى من أهلى » يدل على ذلك قوله : « ولا تكن مع الكافرين » أى لا تكن ممن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إن ٱبنى من أهلى » إلا وذلك عنــده كذلك ؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم ؛ وكان ٱبنه يُسرّ الكفر ويظهر الإيمان ؛ فأخبر الله تعالى نوحا بمـا هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال ٱبنك ما لم تعلمه أنت . وقال الحسن : كان منافقا ، ولذلك ٱستحل نوح أن ينــاديه . وعنــه أيضا : كان ٱبن ٱمرأته . دليله قراءة علىّ « ونادى نوح ابنها » . ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ابتداء وخبر. أى حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالغرق .

(١) التدرج كجهج : طائر يغرد فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس . (حياة الحيوان) .

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذين وعدتهم أن أنجيهم ؛ قاله سـعيد بن جُبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو على حذف مضاف ؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق فى الدين أقوى من النسب . ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قرأ ابن عباس وعُروة وعكرمة ويعقوب والكسائى « إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ » أى من الكفر والتكذيب ؛ واختاره أبو عُبيـد . وقرأ الباقون « عَمَلٌ » أى ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف ؛ قاله الزجاج وغيره . قال[1] :

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتّى إذا ادَّكَرتْ * فإنما هى إقبـالٌ وإدبـار

أى ذات إقبال وإدبار . وهـذا القول والذى قبـله يرجع إلى معنى واحد . ويجـوز أن تكون الهـاء للسؤال ؛ أى إن سؤالك إياى أن أنجيه عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال الحسن : معنى عمـل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه . وكان لغير رشـدة ؛ وقاله أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ابنه ؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال : « إن ابنى من أهلى » فقال : لم يقـل منى ؛ وهـذه إشارة إلى أنه كان ابن امرأته من زوج آخر؛ فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : «إن ابنى من أهلى» « ونادى نوح ابنه » ولا يختلف أهـل الكتابين أنه ابنه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينـه عن أهل الكتاب! إنهـم يكذبون . وقرأ « فخانتاهمـا » . وقال ابن جريج : ناداه وهو يحسب أنه ابنه ، وكان ولد على فراشه ، وكانت امرأته خانته فيه؛ ولهذا قال : «فخانتاهما» . وقال ابن عباس : ما بغت امرأة نبىّ قط ، وأنه كان ابنه لصُلْبه . وكذلك قال الضّحاك وعكرمة وسعيد ابن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم ، وأنه كان ابنه لصُلْبه . وقيل لسعيد بن جُبير يقول نوح : « إن ابنى من أهلى» أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبّح الله طويلا ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمدا صلى الله عليه وسـلم أنه ابنه ، وتقول إنه ليس ابنه ! نعم كان ابنه ؛ ولكن كان مخالفا فى النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إنه ليس من أهلك » ؛ وهذا

---

(١) البيت للخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها ؛ وهو من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا .

هو الصحيح فى الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به؛ وإن قوله : « إنه ليس من أهلك » ليس مما ينفى عنه أنه آبنه . وقوله : « فخانتاهما » يعنى فى الدِّين لا فى الفراش، وذلك أن هـذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لهـا : نعم . قالت : فتى ؟ قال : إذا فار التّنور ؛ فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التّنور، فهذه خيانتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سيأتى إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كَسْبا ، كما فى الخبر " أولادكم من كَسْبكم " . ذكره القشيرىّ .

الثالثــة — فى هــذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن آبن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهـات ، والخـير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الآبن من الأهل لغة وشرعا ، ومن أهل البيت؛ فمن وصّى لأهـله دخل فى ذلك آبنه، ومن تضمنه منزلُه ، وهو فى عياله . وقال تعالى فى آية أخرى . « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله .

الرابعــة — ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهـد وغيرهما أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليـه وسلم إنمـا قضى بالولد للفراش من أجل آبن نوح عليه السلام؛ ذكره أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وفى الحديث الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الولدُ للفراش وللعاهر الحَجَر " يريد الخيبة . وقيل : الرّجم بالحجارة . وقرأ عُروة بن الزّبير « ونادى نوح آبنها » يريد آبن آمرأته، وهى تفسير القراءة المتقدّمة عنه وعن علىّ رضى الله عنه ، وهى حجة للحسن ومجاهد ؛ إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لهـا . والله أعلم .

الخامسـة ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي أنهـاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كراهية أن تكون من الجاهلين؛ أي الآثمين. ومنه قوله تعالى : « يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا » أي يحذركم الله وينهاكم . وقيل : المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهـذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين؛ فقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهذه ذنوب الأنبياء عليهـم السلام، فشكر الله تذلله وتواضعه . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال. ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ أي بالتوبة . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي أعمالا . فقال : « يا نوح آهبط بسلام منا » .

قوله تعـالى : قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أي قالت الملائكة، أو قال الله تعالى له : آهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض؛ فقـد آبتلعت المـاء وجفّت . « بسلام منا » أي بسلامة وأمن . وقيل : بتحيـة . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أي نعم ثابتـة ؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته وإقامتـه . ومنه البِركة لثبوت المـاء فيها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته؛ على قول قتَادة وغيره، حسب ما تقدّم؛ وفي التنزيل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ قيل : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل في قوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيـامة؛ روى ذلك عن محمـد بن كعب . والتقدير على هـذا : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم سنمتعهم . وقيل : « مِن » للتبعيض، وتكون لبيان الجنس . « وأمم سنمتعهم » ارتفع « وأمم » على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلمت زيدا وعمـرو جالس . وأجاز الفراء في غير القراءة وأمما ، وتقـديره : ونمتّع أممـا . وأعيدت « على » مع

« أمم » لأنه معطوف على الكاف من « عليك » وهي ضمير المجرور ، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره . وقد تقدّم في « النساء » (١) بيان هذا مستوفى في قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامِ » بالخفض . والباء في قوله : « بسلام » متعلقة بمحذوف؛ لأنها في موضع الحال؛ أي اهبط مسلَّما عليك . و « منّا » في موضع جر متعلق بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات . «وعلى أمم» متعلق بما تعلق به «عليك»؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » في قوله « ممن معك » متعلق بمحذوف؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم . و « معك » متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة « لمن » أي ممن استقرّ معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أي تلك الأنباء؛ وفي موضع آخر « ذلك » أي ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أي لتقف عليها . ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ أي كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ؛ والمجوس الآن ينكرونه . وقيل : أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان على الجملة . ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ أي اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على قومه . ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ ﴾ في الدنيا بالظَّفَر ، وفي الآخرة بالفوز . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ
إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي
بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾
إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ
إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ
إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ
فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أى وأرسلنا ؛ فهو معطوف على « أرسلنا نوحا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما تقول : ياأخاتميم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم كما أنهم من بنى آدم ؛ وقد تقدّم هذا فى « الأعراف »(1) وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ؛ وأما الأخرى فهو شدّاد ولقمان المذكوران فى قوله تعالى : « إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ » . وعاد ٱسم

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

رجل ثم آستمر على قوم آنتسبوا إليه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ ﴾ بالخفض على اللفظ، و « غيرُه » بالرفع على الموضع، و « غيرَه » بالنصب على الآستثناء . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ أى ما أنتم فى اتخاذكم إلهــا غيره إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعــالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تقدّم معناه . والفِطرة آبتداء الخلق . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما جرى على قوم نوح لمــا كذّبوا الرسل .

قوله تعــالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم أوّل السورة . ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ بجزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . ﴿ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أى يرسل السماء بالمطر متتابعا يتلو بعضه بعضا؛ والعرب تحذف الهاء فى مِفعال على النسب ، وأكثر ما يأتى مِفعال من أفعل، وقد جاء هاهنــا من فَعَل؛ لأنه من درّت السماء تَدِر وتَدُر فهو مدرار . وكان قوم هود أعنى عادا أهــل بساتين وزروع وعمــارة، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقــدّم فى « الأعراف »[(١)] . ﴿ وَيَزِدْكُمْ ﴾ عطف على يرسل . ﴿ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : شدّة على شدّتكم . الضّحاك : خصبا إلى خصبكم . على بن عيسى : عزّا على عزّكم . عِكرمة : ولدا إلى ولدكم . وقيل : إنّ الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود : إن آمنتم أحيى الله بلادكم ورزقكم المــال والولد؛ فتلك القــوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النِّعم . ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى حجة واضحة . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إصرار منهم على الكفر .

قوله تعــالى : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أى أصابك . ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴾ أى أصنامنا . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ أى بجنون لسبّك إياها، عن آبن عباس وغيره . يقــال : عراه الأمر واعتراه إذا ألمّ به . ومنــه « وَأَطْعِمُوا الْقَانِــعَ وَالْمُعْــتَرَّ » . ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِــدُ اللَّهَ ﴾ أى على نفسى .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَٱشْهَدُوا ﴾ أى وأشهدكم ؛ لا أنهم كانوا أهل شهادة ، ولكنه نهاية للتقرير ؛ أى لتعرفوا ﴿ أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تعبدونها . ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أى أنتم وأوثانكم فى عداوتى وضرّى . ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أى لا تؤخرون . وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوّة ، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : « فَكِيدُونِى جَمِيعًا » . وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش ، وقال نوح صلى الله عليه وسلم : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ أى رضيت بحكمه ، ووثقت بنصره . ﴿ مَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أى نفس تدبّ على الأرض ؛ وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أى يصرفها كيف يشاء ، و يمنعها مما يشاء ؛ أى فلا تصلون إلى ضرّى . وكل ما فيه رُوح يقال له دابّ ودابّة ؛ والهاء للمبالغة . وقال الفراء : مالكها ، والقادر عليها . وقال القتبيّ : قاهرها ؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه . وقال الضحاك : يحييها ثم يميتها ؛ والمعنى متقارب . والناصية قُصاص الشّعر فى مقدم الرأس . ونَصوتُ الرجل أَنصوه نَصْوًا أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنما خص الناصية ؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذّلة والخضوع ؛ فيقولون : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ؛ أى أنه مطيع له يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزّوا ناصيته ليعرف بذلك فخرا عليه ؛ فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال الترمذيّ الحكيم فى « نوادر الأصول » قوله تعالى : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العباد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم ، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيهم ؛ فذلك النور آخذ بنواصيهم ، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة " . ولهذا

قويت الرسل وصاروا من أولى العزم لأنهم لاحظوا نور النواصى ، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال ، فأوفرهم حظا من الملاحظة أقواهم فى العزم ، ولذلك ما قوى هود النبى صلى الله عليه وسلم حتى قال : « فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سميت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة فى المقادير ، قد نفذ بصر الخالق فى جميع حركات الخلق بقدرة ، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حيا فى جبهته بين عينيه ، فسمى ذلك الموضع منه ناصية ؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدّر ؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التى نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبى جهل فقال : « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » يخبر أن النواصى فيها كاذبة خاطئة ؛ فعلى سبيل ما تأوّلوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال النحاس : الصّراط فى اللغة المنهاج الواضح ؛ والمعنى أن الله جلّ ثناؤه وإن كان يقدر على كل شى فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خلل فى تدبيره ، ولا تفاوت فى خلقه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فى موضع جزم ؛ فلذلك حذفت منه النون ، والأصل تتولوا ، فحذفت التاء لاجتماع تاءين . ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بيّنت لكم . ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أى يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه . « ويستخلفُ » مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع ؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله : « فقد أبلغتكم » . وروى عن حفص عن عاصم « ويستخلفْ » بالجزم حملا على موضع الفاء وما بعدها ؛ مثل « ويذرْهم[1] فى طغيانهم يعمهون » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ أى بتوليكم وإعراضكم . ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام ؛ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء .

(١) بالياء وسكون الراء قراءة ؛ كما فى (فتح المقفلات) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا بهلاك عاد . ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، وإن كانت له أعمال صالحة . وفي صحيح مسلم والبخاري وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم "لن يُنجي أحدًا منكم عملُه" قالوا ولا أنت يارسول الله ؟! قال : "ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته" . وقيل : معنى « برحمة منا » بأن بيّنا لهم الهدى الذي هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أي عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح العقيم كما ذكر الله في « الذاريات » وغيرها وسيأتي . قال القُشيري أبو نصر : والعذاب الذي يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجي الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم! لا يبعد أن يبتلي الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصا للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر . وحكى الكسائي أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعله اسما للقبيلة . ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي كذّبوا بالمعجزات وأنكروها . ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعني هودا وحده؛ لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات » يعني النبي صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه؛ وإنما جمع هذا لأن من كذّب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هودا والرسل قبله، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي اتبع سقاطُهم رؤساءهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والعَنود والعاند والمعاند المعارض بالخلاف . ومنه قيل للعِرْق الذي ينفجر بالدم عاند . قال الراجز :

* إنّي كبيرٌ لا أطيقُ العُنَّدَا (١) *

قوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي أُلحقوها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمام على قوله : « ويوم القيامة » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

---

(١) صدر البيت : * إذا رحلتُ فاجعلوني وَسَطًا *

ربهم ﴾ قال الفراء : أى كفروا نعمة ربهم ؛ قال : ويقال كفرته وكفرت به، مثل شكرته وشكرت له . ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أى لا زالوا مبعدين عن رحمة الله . والبعد الهلاك . والبُعد التباعد من الخير. يقال: بعُد يبعُد بعْدا إذا تأخر وتباعد . وبعِد يبعَد بعَدًا إذا هلك؛ قال (١):

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين هُمُ * سَمُّ العُداة وآفةُ الجُزُرِ

وقال النابغة :

فلا تبعَدَنْ إنّ المنيةَ مَنهَلٌ * وكلُّ امرىء يوما به الحالُ زائلُ

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أى أرسلنا إلى ثمود ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أى فى النسب. ﴿ صَالِحًا ﴾. وقرأ يحيى بن وثاب «وَإِلَى ثَمُودٍ» بالتنوين فى كل القرآن؛ وكذلك روى عن الحسن . واختلف سائر القراء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع . وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث . قال النحاس : الذى قال أبو عبيدة — رحمه الله — من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثمودا يقال له حىّ؛ ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليه القبيلة؛ بل الأمر على ضدّ ما قال عند سيبويه . والأجود عند سيبويه فيما لم يُقل فيه بنو فلان الصَّرف؛ نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة فى ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى . والتأنيث جيد بالغ حسن . وأنشد سيبويه فى التأنيث (٢):

غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سماحةً * وكفَى قريشَ المعضلاتِ وسادَها

---

(١) تقدّم شرح البيت فى هامش ج ٦ ص ١٤ .

(٢) البيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك ؛ والشاهد فيه ترك صرف قريش حملا على معنى القبيلة ؛ والصرف فيها أكثر وأعرف لأنهم قصدوا بها قصد الحى، وغلب ذلك عليها . (شواهد سيبويه) .

الثـانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقـدّم . ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم فى « البقرة »(١) و « الأنعام »(٢) وهم منه . وقيل : أنشأكم فى الأرض . ولا يجوز إدغام الهاء من « غيره » فى الهـاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو فى الإدراج . ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم عُمّارها وسكّانها . قال مجاهد : ومعنى « آستعمركم » أعمركم من قوله : أَعْمَـر فلان فلانا داره ؛ فهى له عُمْرى . وقال قَتَادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين القولين تكون آستفعل بمعنى أفعل ؛ مثـل آستجاب بمعنى أجاب . وقال الضّحاك : أطـال أعماركم، وكانت أعمـارهم من ثلثمائة إلى ألف . آبن عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم : أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بنـاء مساكن، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثـالثـــة ــ قال آبن العربيّ قال بعض علمـاء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضى أبو بكر : تأتى كلمة استفعل فى لسان العرب على معان : منها؛ آستفعل بمعنى طلب الفعل كقوله : آستحملته أى طلبت منه حملانا؛ وبمعنى آعتقـد ، كقولهم : استسهلت هـذا الأمر آعتقدته سهلا، أو وجدته سهـلا ؛ وآستعظمته أى آعتقدته عظيا و وجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت، كقولهم : آستجدته أى أصبته جيـدا ؛ ومنهـا بمعنى فَعَـل ؛ كقوله : قرّ فى المكان وآستقرّ ؛ وقالوا وقوله : « يستهزئون » « ويستسخرون » منـه؛ فقوله تعـالى : « استعمركم فيها » خلقكم لعمارتها؛ لا على معنى استجدته وآستسهلته؛ أى أصبته جيدا وسهلا، وهذا يستحيل فى الخالق، فيرجع إلى أنه خلق؛ لأنه الفائدة، وقد يعبر عن الشىء بفائدته مجازا؛ ولا يصح أن يقال إنه طلبٌ من الله تعـالى لعمارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز فى حقه ، أما أنه يصح أن يقال أنه آستدعى

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عمارتها فإنه جاء بلفظ آستفعل، وهو آستدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا، وطلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة] (١) .

قلت : لم يذكر آستفعل بمعنى أفعل، مثل قوله : استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه (٢)؛ وهي :

الرابعة — ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في « البقرة » (٣) في السُّكنى والرُّقبى . وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها — أنها تمليك لمنافع الرقبة حياة المُعْمَر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقبا فمات المعمَر رجعت إلى الذي أعطاها أو لورثته؛ هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي ، وقد تقدّم في «البقرة» حجة هذا القول . الثاني — أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة (٤)؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثّوري والحسن بن حيّ وأحمد ابن حَنْبل وآبن شُبْرمة وأبي عُبيد؛ قالوا : من أعمر رجلا شيئا حياته فهو له حياته، وبعد وفاته لورثته؛ لأنه قد ملك رقبتها، وشرط المعطى الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العمرى جائزة " و" العمرى لمن وُهبت له " . الثالث — إن قال عُمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأوّل ؛ وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني ؛ وبه قال الزهريّ وأبو ثور وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب ، وقد روى عن مالك ؛ وهو ظاهر قوله في الموطأ . والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر؛ إن كان المُعْمِر حيّا ، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته ، وأولى الناس بميراثه . ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة . وقد قال مالك في الحبس أيضا : إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه . وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك العُمْرى قياسا، وهو ظاهر الموطأ . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله

---

(١) الزيادة عن ابن العربي . (٢) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواهب .

عليه وسلم قال : "أيّما رجل أعْمر رجلاً عُمْرى له ولعقبه فقال قد أعطيتُكها وعقبَك ما بقي منكم أحد فإنها لمن أعطيها وأنها لا ترجع إلى صاحبها من أجل أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث". وعنه قال : إن العمرى التي أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : هي لك ولعقبك، فأما إذا قال : هي لك ما عِشتَ فإنها ترجع إلى صاحبها ؛ قال مَعْمَر : وبذلك كان الزّهري يفتي .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثاني ؛ لأن الله سبحانه قال : « وآستعمركم » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالدنيا ظرف لها حياة وموتا . وقد يقال : إن الثناء الحسن يجرى مجرى العقب . وفي التنزيل : « وآجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ » أي ثناء حسنا . وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال : «وجعلنا ذريته هم الباقين» وقال : «وبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَآسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أي سلوه المغفرة من عبادة الأصنام . ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي آرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ أي قريب الإجابة لمن دعاه . وقد مضى في « البقرة »[1] عند قوله : « فإني قريب أجيب » القولُ فيه .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

---

(١) راجع ج ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ
ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيّدا قبل هذا ؛ أى قبل دعوتك النبوّة . وقيل كان صالح يعيب آلهتهم ويشنؤها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك . ﴿ أَتَنْهَانَا ﴾ استفهام معناه الإنكار . ﴿ أَنْ نَعْبُدَ ﴾ أى عن أن نعبد . ﴿ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فأن فى محل نصب بإسقاط حرف الجر . ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ ﴾ وفى سورة « إبراهيم » « وإنّا » والأصل وإنّنا، فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا ﴾ الخطاب لصالح . وفى سورة « إبراهيم » « تدعوننا » لأن الخطاب للرسل . ﴿ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال الهُذَلىّ (1) :

كنتُ إذا أتوتُه من غَيْبِ * يَشَمُّ عِطْفِي ويَبُزُّ (2) ثَوْبِي
* كأنّما أربتُه بِرَيْبِ *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ تقدّم معناه فى قول نوح . ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ استفهام معناه النفى؛ أى لا ينصرنى منه إن عصيته أحد . ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أى تضليل وإبعاد من الخير؛ قاله الفرّاء .

---

(1) هو خالد بن زهير الهذلىّ كما فى اللسان؛ وصدر البيت الأوّل :

* يا قوم مالى وأبا ذؤيب *

(2) (يبز ثوبى) : يجذبه إليه .

والتخسير لهم لا له صلى الله عليه وسلم؛ كأنه قال : غير تخسير لكم لا لى . وقيل : المعنى ما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال ، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه فى « هذه » . وإنما قيل ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة فى ناحية الحِجْر يقال لها الكاثبة ، فلما خرجت الناقة — على ما طلبوا — قال لهم صالح : «هذه ناقة الله لكم آية» . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه ؛ وحذفت النون من « فذروها » لأنه أمر . ولا يقال وذِر ولا وَاذِرٌ إلا شاذّ . وللنحويين فيه قولان ؛ قال سيبويه : استغنوا عنه بترك . وقال غيره : لما كانت الواو ثقيلة وكان فى الكلام فعل بمعناه لا واو فيه ألغوه ؛ قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز رفع « تأكل » على الحال والاستئناف . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا ﴾ جزم بالنهى . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ قال الفرّاء : بعقر . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهى . ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أى قريب من عَقْرِها .

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنما عقرها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا الباقين . وقد تقدّم الكلام فى عقرها فى « الأعراف »(1) ويأتى أيضا . ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا ﴾ أى قال لهم صالح تمتعوا ؛ أى بنعم الله عز وجل قبل العذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أى فى بلدكم ، ولو أراد المنزل لقال فى دوركم . وقيل : أى يتمتع كل واحد منكم فى داره ومسكنه ؛ كقوله : « يخرجكم طفلا » أى كل واحد طفلا . وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشىء؛ فعقرت يوم الأربعاء ، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقدّم فى « الأعراف » فاصفرّت ألوانهم فى اليوم الأوّل ، ثم احمرّت فى الثانى ، ثم اسودّت فى الثالث ، وهلكوا فى الرابع؛ وقد تقدّم فى « الأعراف » .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٤٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الثانيـة — استدل علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمِع على إقامة أربع ليال قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدم في « النساء »(١) ما للعلماء في هذا .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أى غير كذب . وقيل : غير مكذوب فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ تقدم . ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ ؛ أى من فضيحته وذلّته . وقيل : الواو زائدة ؛ أى نجيناهم من خزى يومئذ . ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع « لما » و « حتى » لا غير . وقرأ نافع والكسائىّ « يَوْمَئِذٍ » بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة « يوم » إلى « إذ » . وقال أبو حاتم : حدثنا أبو زيد عن أبى عمرو أنه قرأ « ومن خِزى يومِئِذٍ » أدغم الياء فى الياء، وأضاف، وكسر الميم فى « يومئذ » . قال النحاس : الذى يرويه النحويون — مثل سيبويه ومن قاربه عن أبى عمرو فى مثل هذا — الإخفاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز ؛ لأنه يلتقى ساكنان، ولا يجوز ، كسر الزاى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ أى فى اليوم الرابع صِيح بهم فماتوا ؛ وذُكّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد . قيل : صيحة جبريل . وقيل : صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شىء فى الأرض، فتقطعت قلوبهم وماتوا . وقال هنا : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » وقال فى « الأعراف » « فأخذتهم الرجفة » وقد تقدم بيانه هناك(٢) . وفى التفسير : أنهم لما أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتة ؟ ! قالوا : فما نصنع ؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم، وكانوا فيما يقال آثنى عشر ألف قبيلة، فى كل قبيلة آثنا عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والفجاج ، زعموا يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملَك الموكل بالشمس أن يعذبهم بحرّها،

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى أو ثانية .

فأدناها من رءوسهم فاشتوت أيديهم، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل الماء يتفوّر من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء ؛ لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدّة حره ، فما زالوا كذلك ، وأوحى الله إلى ملَك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لهم إلى أن غربت الشمس ؛ فصيح بهم فأهلكوا . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي ساقطين على وجوههم، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت . ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ هذه قصة لوط عليه السلام، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام لحًّا (١) ، وكانت قرى لوط بنواحي الشام ، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قِراه ، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافا . وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ؛ قاله ابن عباس . الضّحاك : كانوا تسعة . السّدي : أحد عشر مَلكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه، ذوو وضاءة وجمال بارع . ﴿ بِالْبُشْرَى ﴾ قيل : بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . وقيل : بشروه بأنهم رسل الله عز وجل ، وأنه لا خوف عليه . ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه ؛ كما تقول : قالوا خيرا . وهذا اختيار الطّبري . وأما قوله : « سَيَقولون ثلاثةٌ » فالثلاثة اسم غير مقول . ولو رفعا جميعا

(١) أي لازق النسب منه .

أو نصبا جميعــا « قالوا سلاما قال سلام » جاز في العربية . وقيل : آنتصب على المصدر . وقيل : «قالوا سلاما» أي فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » أي صوابا؛ فسلاما معنى قولهم لا لفظه؛ قال معناه آبن العربي وآختاره . قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبرا عن الملائكة : « سلام عليكم بما صبرتم » « سلام عليكم طبتم » . وقيل : دعوا له؛ والمعنى سلمت سلاما . ﴿ قال سلام ﴾ في رفعه وجهان : أحدهمــا — على إضمــار مبتدأ أي هو سلام ، وأمري سلام . والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة استعماله ، فحــذف الألف واللام كما حذفت من لا هم في قولك اللهم . وقرئ « سِلْمٌ » قال الفراء : السِّلم والسَّلام بمعنى؛ مثل الحِلّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسئلة[1] :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حــتى ، قاله كبراء النحويين ؛ حكاه آبن العربي . التقدير : فما لبث حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير : فمــا لبث عن أن جاء ؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل ؛ فلمــا حذف حرف الجــر بقي « أن » في محل النصب . وفي « لبث » ضمير آسم إبراهيم . و « ما » نافية ؛ قاله سيبويه . وقال الفراء : فما لبث مجيئه ؛ أي ما أبطأ مجيئه ؛ فأن في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذي ، وفي « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ . و « حنيــذ » مشوي . وقيــل : هو المشوي بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النــار . يقال : حنذت الشاة أحنذها حنذا أي شويتها ، وجعلت فوقها حجارة مُحْمَاة لتنضجها فهي حنيذ . وحَنَذْت الفرس أحنذه حَنْذا ، وهــو أن تُحضره شوطا أو شوطين ثم تُظاهر عليه الجلال في الشمس ليعــرق ، فهو محنوذ وحنيذ ؛ فإن لم يعرق قيل كَبَا . وحَنَذٌ موضع قريب

(١) كذا في الأصل والمسائل المذكورة هي في آية ٧٠ و ٧١ أيضا لا في هذه الآية فحسب .

من المدينـة(١) . وقيل : الحنيذ السّميط . ابن عبـاس وغيره : حنيذ نضيج . وحنيذ بمعنى محنوذ؛ وإنمـا جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانيـــة — فى هـذه الآية من أدب الضّيف أن يُعجّل قِراه ؛ فيقدّم الموجود الميسّر فى الحـال، ثم يتبعه بغـيره إن كان له جِدَة ؛ ولا يتكلف ما يضرّ به . والضّيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيّين والصالحين . وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم فى « البقرة »(٢) وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الضّيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة فـما كان وراء ذلك فهو صدقة" . والجـائزة العطية والصلة التى أصلها على النّدب . وقال صلى الله عليه وسلم : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" . وإكرام الجار ليس بواجب إجماعا ، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكا بقوله صلى الله عليـه وسلم : "ليـلة الضّيف حقّ" إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيما أشرنا إليـه كفاية، والله الموفق للهداية . قال ابن العربىّ : وقد قال قوم : إن وجوب الضِّيافة كان فى صـدر الإسلام ثم نسخ ، وهـذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والنـاسخ لم يرد ؛ وذكر حديث أبى سعيد الخـدرىّ خرجه الأئمة، وفيه : « فاستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا فلُدِغ سيّد ذلك الحىّ» الحديث . وقال هذا ظاهر فى أن الضيافة لو كانت حقا للَامَ النبيّ صلى الله عليه وسلم القوم الذين أَبَوا، ولَبيَّن لهم ذلك .

الثالثـــة — اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعى ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سُحْنون : إنمـا الضّيافة على أهل القُرى ، وأما الحضر فالفنْـدق ينزل فيه المسافر . واحتجوا بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الضّيافة على أهل الوَبَر وليست على أهل المَدَر" . وهذا حديث لا يصح ، وإبراهيم ابن أخى عبد الرزاق متروك الحديث منسوب

---

(١) وحنذ موضع قريب من مكة أيضا . (٢) راجع جـ ٢ ص ٩٨ طبعة ثانية .

إلى الكذب ، وهذا مما انفرد به ، ونسب إلى وضعه ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . قال ابن العربي : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات ؛ ولا شك أن الضيف كريم ، والضيافة كرامة ؛ فإن كان غريبا فهي فريضة .

الرابعــة — قال ابن العربي : قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب ، وهــذا حكم بالظن في موضع القطع ، وبالقياس في موضع النقل ؛ من أين علم أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ؛ جبريل وميكائيــل و إسرافيل صلى الله عليهم وسلم ؛ وعجل الثلاثة عظيم ؛ فما هــذا التفسير لكتاب الله بالرأي ؟ ! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامســة — السنة إذا قُدِّم للضّيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل ؛ فإن كرامة الضّيف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم ؛ لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه . وروى أنهم كانوا يَنْكُتون بقِداح (١) كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ، فلما رأى ذلك منهم « نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُـمْ خِيفَةً » أي أضمر . وقيــل : أحسّ ؛ والوجوس الدخول ؛ قال الشاعر :

جاء البــريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ به * فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جَزَعَا

«خيفة» خوفا ؛ أي فزعا . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا ؛ فقالت الملائكة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

السادســة — من أدب الطعام أن لصاحب الضّيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا ؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

(١) قداح (جمع قدح بالكسر) : السهم قبل أن ينصل و يراش .

سليمان بن عبد الملك ، فرأى سليمان فى لقمة الأعرابىّ شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ؛ فقال له : أتنظر إلىّ نظر من يرى الشّعرة فى لقمتى ؟! والله لا أكلت معك .

قلت : وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان ، وأن الأعرابى خرج من عنده وهو يقول :

ولَلـموتُ خيرٌ من [زيارة](١) باخل * يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عَمْد

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول أنكرهم ؛ تقول : نَكِرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته ؛ قال الشاعر(٢) :

وأَنكرتنِي وما كان الذى نَكِرتْ * من الحوادِث إلا الشّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين . ويقال : نكِرت لمـا تراه بعينك . وأنكرت لمـا تراه بقلبك .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ ﴾ آبتداء وخبر، أى قائمة بحيث ترى الملائكة . قيـل : كانت من وراء السـتر . وقيـل : كانت تخدم الملائكة وهو جالس . وقال محمد بن إسحق : قائمة تصلى . وفى قراءة عبد الله بن مسعود « وآمرأته قائمة وهو قاعد » .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال مجاهد وعِكرمة : حاضت ، وكانت آيسة ؛ تحقيقا للبشارة ؛ وأنشد على ذلك اللغويون :

وإنى لآتى العِرسَ عند طُهورها * وأهجـرُها يومًا إذا تَكُ ضاحِكَا

وقال آخـــر :

وضِحْـــكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا * كمثلِ دمِ الجـــوفِ يوم اللِّقَا

والعرب تقـول : ضحكت الأرنب إذا حاضت ؛ وروى عن آبن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ؛ أخذ من قولهم : ضحِكت الكافورة — وهى قشرة الطلعة — إذا انشقّت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحِكت بمعنى حاضت . وقال الجمهـور : هو الضحك المعروف ، واختلفوا فيه ؛ فقيل : هو ضحك التعجّب ؛ قال أبو ذؤيب :

---

(١) كذا فى العقد الفريد ، وفى الأصول (يسارة) . (٢) البيت للأعشى .

فجـاءَ بمزيجٍ لم يَرَ الناسُ مثلَه * هو الضَّحْكُ[(١)] إلا أنه عملُ النَّحْلِ

وقال مقاتل : ضحكت من خوف إبراهيم ، ورِعدته من ثلاثة نفر ، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل . قال : وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء : لم أسمعه من ثقة ؛ وإنما هو كناية . وروى أن الملائكة مسحت العجل، فقام من موضعه فلحق بأمه ، فضحكت سارة عند ذلك فبشّروها بإسحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله : « وآمرأته قائمة » أي قائمة في خدمتهم . ويقال : « قائمة » لروع إبراهيم « فضحكت » لقولهم : « لا تخف » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير؛ المعنى : فبشرناها بإسحق فضحكت؛ أي ضحكت سرورا بالولد ، وقد هرِمت ؛ والله أعلم أيّ ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها — أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا لاتخف ، وأخبروه أنهم رُسُل، فرح بذلك، فضحكت آمرأته سرورا بفرحه . وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطا إليك ، فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت؛ قال النحاس : وهذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك آنكشاف الأسنان . ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول : رأيت فلانا ضاحكا؛ أي مشرقا ، وأتيت على رَوْضة تضحك؛ أي مشرقة . وفي الحديث "إن الله يبعث السّحاب فيضحك أحسنَ الضَّحِك" . جعل آنجلاءه عن البرق ضَحِكا؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قراء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي «فضَحَكت» بفتح الحاء؛ قال المهدوي : وفتح «الحاء» من «فضحكت» غير معروف . وضَحِك يَضحَك ضَحْكا وضِحْكا وضِحِكا [وضَحِكا][(١)] أربع لغات . والضَّحْكة المرّة الواحدة، ومنه قول كُثيِّر :

* غَلِقت لضَحْكته رقابُ المالِ[(٢)] *

قاله الجوهري :

---

(١) وفسر الضحك هنا بالعسل أو الشهد . راجع اللسان مادة (ضحك) .
(٢) صدر البيت : * غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا *

(١) الزيادة عن كتب اللغة .

العـاشرة — روى مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أُسَيد الساعدىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عُرْسه ، فكانت آمرأته يومئذ خادمهم وهى العَروس . قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أنقعت له تمراتٍ من الليل فى تَوْرٍ(١)، فلما أكل سـقته إياه . وأخرجه البخارىّ وترجم له « باب قيام المرأة على الرجال فى العُرْس وخدمتهم بالنفس » . قال علماؤنا : فيـه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه فى عُرْسها . وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه ، ويسـتخدمهنّ لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحـادية عشرة — ذكر الطبرىّ أن إبراهيم عليه السلام لمـا قدّم العجل قالوا : لا نأكل طعاما إلا بثمن؛ فقال لهم : « ثمنه أن تذكروا الله فى أوّله وتحمدوه فى آخره » فقـال جبريل لأصحابه : بحقٍّ آتخذ الله هذا خليلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأنّ الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائز كما يَسَّر الله للملائكة أن يتشكّلوا فى صفة الآدمى جسدا وهيئـة أن ييسّر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه فى قول العلماء أرسلهم فى صفة الآدمى وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى بغْأة](٢) .

الثانيـــة عشرة — ودلّ هذا على أن التسمية فى أوّل الطعام، والحمد فى آخره مشروع فى الأمم قبلنا؛ وقد جاء فى الإسرائيليات أن إبرهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقى يوما رجلا، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم : سمّ آلله، قال الرجل لا أدرى ما آلله؟ فقال له : فاخرج عن طعامى، فلمـا خرج نزل إليـه جبريل فقال له يقول الله : إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة؛ فخرج إبراهيم فزعا يجرّ رداءه ، وقال : آرجع، فقـال : لا أرجع حتى تخبرنى لم تردّنى لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر؛ فقال : هذا رب كريم، آمنت؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمنا .

---

(١) التور : إناء تشرب فيه العرب، وقد يتوضأ منه؛ ويصنع من صفر أو حجارة .

(٢) الزيادة عن ابن العربى .

الثـالثـة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسمعيل من هاجر تمنّت سارّة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبيا ويلد نبيا، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعـــة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر « يعقوبَ » بالنصب . ورفع الباقون؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالفعل الذى يعمل فى « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالابتـداء، ويكون فى موضع الحال؛ أى بشّروها بإسحق مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوبَ . وأجاز الكسائى والأخفش وأبو حاتم أن يكون «يعقوب» فى موضع جرّ على معنى : وبشرناها من وراء إسحق بيعقوب . قال الفرّاء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض؛ قال سيبويه ولو قلت : مررت بزيد أوّل من أمس وأمس عمرٍو(١) كان قبيحا؛ لأنك فرقت بين المجـرور وما يشركه وهو الواو، كما تفـرق بين الجار والمجرور؛ لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعـالى : قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

فيــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ قال الزجاج : أصلها يا ويلتى؛ فأبدل من الياء ألف، لأنها أخفّ من الياء والكسرة؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها وكون بعلها شيخا لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و﴿ أَأَلِدُ ﴾ استفهام معناه التعجب . ﴿ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أى شيخة . ولقد عَجَزت تَعجِزُ عَجْزا وعَجَّزت تعجيزا؛ أى طعنت فى السنّ .

(١) والوجه عنده (وأمس بعمرو) .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجِزت المرأة بكسر الجيم؛ عظمت عجيزتها عُجْزا وعَجَزا بضم العين وفتحها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحق : كانت بنت تسعين . وقيل غير هذا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَهَـٰذَا بَعْلِي ﴾ أى زوجى . ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال ، والعامل فيه التنبيه أو الأشارة . « وهــذا بعلى » ابتداء وخبر . وقال الأخفش : وفى قراءة ابن مسعود وأبىّ « وهذا بعلى شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا ، وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين؛ وحكى سيبويه : هذا حلوٌ حامضٌ . وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة؛ فكان يزيد عليها فى قول مجاهد سنة . وقيل: إنها عرّضت بقولها : « وهذا بعلى شيخا » أى عن ترك غِشْيانه لها . وسارّة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم . ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أى الذى بشرتمونى به لشيء عجيب .

قوله تعالى : قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ لما قالت : « وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » وتعجبت أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمر الله ، أى من قضائه وقــدره ؛ أى لا عجب من أن يرزقكما الله الولد ، وهو إسحق . وبهذه الآية استدلّ كثير من العلماء على أن الذّبيح إسمعيل ، وأنه أسنّ من إسحق ؛ لأنهـا بشّرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسيأتى الكلام فى هذا ؛ وبيانه فى « الصّافّات »(١) إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معــه السعى » آية ١٠٢ إلى قوله تعالى : « ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » آية ١١٣ .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ رَحْمَـةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ . وحكى سيبويه « عليكم » بكسر الكاف لمجاورتها الياء ، وهل هو خبر أو دعاء؟ وكونه إخبارا أشرف؛ لأن ذلك يقتضي حصول الرحمـة والبركة لهم؛ المعنى : أوصـل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت . وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يُترجّى ولم يتحصّل بعد . ونصب « أهل البيت » على الآختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه . وقيل على النداء .

الثالثـــة — هذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل البيت؛ فدل هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت؛ فعائشة رضي الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ ممن قال الله فيهم : « وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »(١) وسيأتي .

الرابعـــة — ودلّت الآية أيضا على أنّ منتهى السلام « وبركاته » كما أخبر الله عن صالحي عباده « رحمـة الله وبركاته عليكم أهل البيت » . والبركة النمو والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة . وروى مالك عن وهب بن كَيْسان عن أبي نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبـد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : السـلام عليك ورحمة الله وبركاته؛ ثم زاد شيئا مع ذلك؛ فقال آبن عباس — وهو يومئذ قد ذهب بصره — مَن هذا ؟ فقالوا اليمانيّ الذي يغشاك؛ فعرّفوه إياه ، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . وروى عن عليّ رضي الله عنه أنه قال : دخلت المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسـلم في عصبة من أصحابه ، فقلت : السـلام عليكم؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله عشرون لي وعشر لك" . قال : ودخلت الثانية؛ فقلت : السلام عليكم ورحمة الله فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وعشرون لك" . فدخلت الثالثـة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لي وثلاثون لك أنا وأنت في السـلام سواء" . ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أي محمود ماجد . وقد بيناهما في « الأسماء » .

(١) في آية ٣٣ من سورة « الأحزاب » .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف ؛ يقال : ارتاع من كذا إذا خاف ؛ قال النابغة :

فارتاعَ من صَـوْتِ كَلَّابٍ(1) فبـاتَ له * طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ أى بإسحق و يعقوب . وقال قَتادة : بشروه بأنهم إنمـا أتوا بالعذاب إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف . ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا ، وأضاف إلى نفسه ، لأنهم نزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة ، وذلك أنهم لمـا قالوا : « إنا مهلكو أهل هـذه القرية » قال لهم : أرأيتم إن كان فيهـا خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا . قال : فعشرون ؛ قالوا : لا . قال : فإن كان فيهـا عشرة — أو خمسة شك حميـد — قالوا : لا قال قتادة : نحوا منـه ؛ قال فقال يعنى إبراهيم : قوم ليس فيهـم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عنـد ذلك : « إنّ فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهـله إلا امرأته كانت من الغابرين » . وقال عبد الرحمن بن سَمُرة : كانوا أربعمائة ألف . ابن جريج : وكان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائى أنّ «يجادلنا» فى موضع « جادلنا » . قال النحاس : لمـا كان جواب «لمّـا» يجب أن يكون بالمـاضى جعل المستقبل مكانه ؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل المـاضىَ مكانه . وفيه جواب آخر — أن يكون « يجادلنا » فى موضع الحال ؛ أى أقبل يجادلنا ؛ وهذا قول الفراء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

(1) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر ثورا وحشيا بأنه بات من الخوف الذى أدركه ، والبرد الذى أصابه مبيت سوء ، ومبيته على ذلك الحال يسر أعداءه .

أوّاه منيب » تقدم في « براءة » معنى « لأواه حليم »(١) . والمنيب الراجع ؛ يقال : أناب إذا رجع . وإبراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعا إلى الله تعالى في أموره كلها . وقيل : الأواه المتأوه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أي دع عنك الجدال في قوم لوط . ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي عذابه لهم . ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ﴾ أي نازل بهم . ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط — وهما تستقيان — بالملائكة

(١) تفسير آية ١١٤ .

ورأتا هيئة حسنة؛ فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية. قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أبها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هذا الشيخ؛ وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أى ساءه مجيئهم؛ يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوءه فهو متعد أيضا، وإن شئت ضممت السين؛ لأن أصلها الضم، والأصل سُوِئَ بهم من السوء؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «سِيَ بِهِم» مخففا، ولغة شاذة بالتشديد. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أى ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يَذْرَع البعيرُ بيديه فى سيره ذَرْعا على قدر سَعة خَطْوِه؛ فإذا حُمِل على أكثر من طَوْقه ضاق عن ذلك، وضعف ومدّ عنقه؛ فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع. وقيل هو من ذَرَعه القيء أى غلبه؛ أى ضاق عن حبسه المكروه فى نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أى شديد فى الشر. وقال الشاعر:

وإنّكَ إلّا تُرْضِ بكرَ بن وائلٍ * يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصيبُ

وقال آخر:

يومٌ عصيبٌ يَعصِبُ الأبطالَا * عَصْبَ القَوِيّ السَّلَمَ الطِّوالَا

ويقال: عصيبٌ وعَصَبْصَبٌ على التكثير؛ أى مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أى عصب بالشر عصابة؛ ومنه قيل: عُصبة وعِصابة أى مجتمعو الكلمة؛ أى مجتمعون فى أنفسهم. وعَصَبة الرجل المتجمعون معه فى النسب؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته، ورجل معصوب، أى مجتمع الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ فى موضع الحال. «يُهرعون» أى يسرعون. قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعدة؛ يقال: أُهْرِعَ الرجل إهراعا أى أسرعَ فى رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمّى، وهو مُهرَع؛ وقال مُهلهِل:

فجاءوا يُهرعون وهُم أسارَى * تقودُهمْ على رَغْمِ الأنوفِ

وقال آخر :

* بمعجَلاتٍ نحوه مَهارِع *

وهذا مثل : أولِع فلان بالأمر ، وأُرعِد زيد ، وزُهِيَ فلان . وتجيء ولا تستعمل إلا على هذا الوجه . وقيل: أُهرِع أي أهرعه حرصُه ؛ وعلى هذا « يُهرعون » أي يُستحثّون عليه . ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أُهرِع الرجلُ أي أسرع ؛ على لفظ ما لم يسمّ فاعله . قال ابن القوطيّة : هُرِع الإنسان هَرَعا ، وأُهرِع : سِيق وٱستعجل . وقال الهرويّ يقال : هُرِع الرجلُ وأُهرِع أي ٱستُحِثّ . قال ٱبن عباس وقتادة والسدّيّ : « يُهرعون » يهرولون . الضحاك : يَسعون . ٱبن عُيينة : كأنهم يدفعون . وقال شِمر بن عطية : هو مشي بين الهرولة والجَمَزَى . وقال الحسن : مشيٌ بين مشيين ؛ والمعنى متقارب . وكان سبب إسراعهم ماروى أن ٱمرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فِتية ما رُؤِى مثلهم جمالا ، وكذا وكذا ، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه . ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا في حرث له . وقيل : وجدوا ٱبنته تستقي ماء في نهر سَدوم ؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ؛ فخرج إليهم ؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة ؛ فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض — وقد كان الله عز وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات ، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : ﴿ وِمنْ قَبل ﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل . وقيل : من قبل لوط . ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي كانت عادتهم إتيان الرجال . فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا أضيافه

قام إليهم لوط مدافعا ، وقال : ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ آبتداء وخبر . وقد اختلف فى قوله : « هؤلاءِ بناتِي » فقيل : كان له ثلاث بنات من صُلبه . وقيل : بنتان ؛ رثيا و زعوراء ؛ فقيل : كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما آبنتيه . وقيل : ندبهم فى هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا فى أول الإسلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بِنتا له من عُتْبَة بن أبى لهب ، والأخرى من أبى العاص بن الربيع قبل الوحى ، وكانا كافرين . وقالت فرقة — منهم مجاهد وسعيد بن جُبير — أشار بقوله : « بناتِي » إلى النساء جملة ؛ إذ نبيّ القوم أب لهم ؛ و يقوى هذا أن فى قراءة آبن مسعود « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه ؛ روى هذا القول عن أبى عبيدة ؛ كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هذا . وقال عِكرمة : لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا .

قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ آبتداء وخبر ؛ أى أزوجكموهن ؛ فهو أطهر لكم مما تريدون ؛ أى أحلّ . والتطهّر التنزّه عما لا يحل . وقال آبن عباس : كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم ، وأراد ذلك اليوم أن يفدى أضيافه ببناته . وليس آلف « أطهر » للتفضيل حتى يتوهم أن فى نكاح [الرجال[1]] طهارة ، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجل ، و إن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع فى كلام العرب ، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد : آعْلُ هُبَلُ آعْلُ[2] هُبَلَ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : " قل الله أعلى وأجلّ ". وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفع الراء . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أطهرَ » بالنصب على الحال . و « هن » عِماد . ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هن » هاهنا عمادا ، وإنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ، لتدل بها على أن الأخ ليس بنعت .

---

(١) فى الأصل (النساء) وهو تحريف . (٢) أى أظهر دينك .

قال الزجاج : ويدل بها على أن كان تحتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بها على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى لا تهينونى ولا تذلّونى . ومنه قول حسان :

فأخزاكَ ربى يا عُتَيبَ بن مالك * ولَقّاكَ قبل الموت إحدى الصَّواعق
مددتَ يمينًا للنبيّ تعمُّدًا * ودَمَّيْتَ فاهُ قُطِّعتْ بالبَوارق

ويجوز أن يكون من الخَزَاية؛ وهو الحياء . والخجل؛ قال ذو الرُّمة :

خَزَايةً(١) أَدركتْهُ بعدَ جَوْلَتِهِ * من جانبِ الحَبْلِ مخلوطًا بها الغضبُ

وقال آخر :

من البيض لا تَخزَى إذا الريحُ أَلصقتْ * بها مِرْطَها أو زايلَ الحَلْيُ جِيدَهَا

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه فى الأصل مصدر؛ قال الشاعر :

لا تعدمى الدهرَ شِفار الجازِرِ * لِلضَّيف والضيفُ أحقّ زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع؛ والأوّل أكثر كقولك : رجالٌ صَوْمٍ وفِطر وزَوْرٍ . وخَزِى الرجلُ خَزَايةً؛ أى استحيا مثل ذَلّ وهان . وخَزِى خِزْيًا إذا افتضح؛ يَخْزَى فيهما جميعا . ثم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل : « رشيد » أى ذو رَشَد . أو بمعنى راشد أو مرشِد؛ أى صالح أو مصلِح . ابن عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر. وقيل : الرشيد بمعنى الرّشد؛ والرَّشَد والرّشاد الهدى والاستقامة . ويجوز أن يكون بمعنى المرشد؛ كالحكيم بمعنى المحكِم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ روى أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم؛ وكانت سنتهم أن من رُدّ فى خِطبة امرأة لم تحل له أبدا؛ فذلك قوله تعالى :

---

(١) (خزاية) أى من الخزاية . والحبل هو حبل الرمل . والكلام فى وصف ثور وحشى تطارده الكلاب . وقبله :

حتى إذا دوّمت فى الأرض راجعه * كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب

يعنى أن الثور أنف من الهرب فرجع إلى الكلاب .

« قالوا لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حقٍّ » وبعد ألّا تكون هذه الخاصيّة فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا هنّ قصدنا، ولا لنا عادة نطلب ذلك. ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ لما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عونا على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة: «لو أن لي بكم قوة» أي أنصارا وأعوانا. وقال ابن عباس: أراد الولد. و «أنّ» في موضع رفع بفعل مضمر، تقديره: لو اتفق أو وقع. وهذا يطرد في « أن » التابعة لـ«لو». وجواب «لو» محذوف؛ أي لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون. ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أي ألجأ وأنضوي. وقرئ « أو آويَ » بالنصب عطفا على « قوة » كأنه قال: لو أن لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد؛ أي وأن آوي؛ فهو منصوب بإضمار «أن» ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة. وبلغ به قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى؛ فيروى أن الملائكة وَجَدت عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا: إن ركنك لشديد. وفي البخاريّ عن أبي هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[(1)]: "يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد" الحديث؛ وقد تقدّم في « البقرة ». وخرجه الترمذيّ وزاد "ما بعث الله بعده نبيّا إلا في ثروة من قومه". قال محمد بن عمرو: والثروة الكثرة والمنعة؛ حديث حسن. ويروى أن لوطا عليه السلام لما غلبه قومه، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت له الرسل: تنحّ عن الباب؛ فتنحّى وانفتح الباب؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء؛ قال الله تعالى: « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم »[(2)]. وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة مالقي من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا: يالوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود،

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٩٨ طبعة أولى أو ثانية. (2) آية ٣٧ من سورة القمر.

و إنا رسـل ربك ؛ فافتح البـاب ودعنا و إياهـم ؛ ففتح الباب فضربهـم جبريل بجناحه على ما تقدّم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا آهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن في بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يالوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لمـا رأت الملائكـة حزنه وآضطرابه ومدافعتـه عرّفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسل مكّن قومه من الدخول ، فأمَرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفّت . ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أي بمكروه . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ « فآسر » بوصـل الألف وقطعها ؛ لغتـان فصيحتان . قال الله تعـالى : « والليلِ إذا يسر » وقال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى » . وقال النابغة : فجمع بين اللغتين :

أَسْرَتْ عليه من الجوزاء ساريةٌ (١) * تُزجي الشمالُ عليـهِ جامدَ البَرَدِ

وقال آخـــر :

حَيّ النّضـــيرةَ ربّةَ الخِـــدْرِ * أَسْرتْ إليكَ ولم تَكنْ تَسْرِي

وقد قيل : « فَأَسْرِ » بالقطع إذا سار من أوّل الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال في النهار إلا سار . وقال لبيد :

إذا المرءُ أَسْرَى ليلةً ظَنّ أنّهُ * قَضَى عملًا والمرءُ ما عاش عامِلُ

وقال عبد الله بن رَوَاحةَ :

عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى * وتَنْجلِي عنهـم غَيَاياتُ الكَرَى

﴿ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال آبن عبّاس : بطائفـة من الليل . الضّحاك : ببقية من الليـل . قَتَادة : بعد مضى صدر من الليل . الأخفش : بعد جنح من الليل . آبن الأعرابي : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدء من الليل . وقيل : هزيع من

(١) ديروى (سرت) . يقول : إن السحابة سرت في الجوزاء ، فلذلك شبهها بالجوزاء .

الليل . وكلها متقاربة؛ وقيل : إنه نصف الليل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر[١] :

ونائحةٍ تَنوحُ بِقطعِ ليلٍ * على رجلٍ بقارعةِ الصّعيدِ

فإن قيل : السُّرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى « بقطع من الليل » ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : « بقطع من الليل» جاز أن يكون أوله . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى لا ينظر وراءه منكم أحد؛ قاله مجاهد . ابن عباس : لا يتخلف منكم أحد . علىّ بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب ؛ وهى القراءة الواضحة البينة المعنى ؛ أى فأسر بأهلك إلا امرأتك . وكذا فى قراءة ابن مسعود « فأسر بأهلك إلا امرأتك » فهو استثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كانت مِن الغابرين » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « إلا امرأتُك » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون نعتا؛ لأن المعنى يصير — إذا أبدلت وجزمت — أن المرأة أبيح لها الالتفات، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح ، والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للمخاطب؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومثله قولك : لا يقم أحد إلا زيد؛ يكون معناه : انههم عن القيام إلا زيدا؛ وكذا النهى للوط ولفظه لغيره؛ كأنه قال : انههم لا يلتفت منهم أحد إلا امرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته؛ فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه! فأدركها حجر فقتلها . ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا ﴾

---

(١) هو مالك ابن كنانة

أى من العذاب . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن والقصة . ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ لما قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه ؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى آبن عمر « أليس الصُّبُحُ » بضم الباء وهى لغة . ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم ؛ لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر ، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد ، وخطف برق ، وصواعق عظيمة ، وقد ذكرنا لهم أن لوطا سيخرج فلا تؤذوه ؛ وأمارته أنه لا يلتفت ، ولا تلتفت آبنتاه فلا يهولنّك ما ترى ؛ فخرج لوط وطوى الله له الأرض فى وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم — وهى القرية العظمى — وعامورا ، ودادوما ، وضعوه ، وقتم[(١)] ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ، لم تنكفئ لهم جرّة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رءوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة . مقاتل : أهلكت أربعة ، ونجت ضعوه . وقيل : غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »[(٢)] . وفى التفسير : أمطرنا فى العذاب ، ومطرنا فى الرحمة . وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت ؛ حكاه الهروىّ . واختلف فى « السجيل » فقال النحاس[(٣)] : السجيل الشديد الكثير ؛ وسجيل وسجين اللام والنون أختان . وقال أبو عبيدة[(٤)] : السجيل الشديد الكثير ؛ وأنشد :

* ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينَا *

(١) فى ضبط هذه القرى اختلاف ؛ لذا أهمل ذكرها بعض المفسرين . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) كذا فى بعض الأصول ، وفى البعض الآخر (البخارى) . (٤) سيأتى البيت بتمامه فى ص ٨٣ .

قال النحاس : وردّ عليه هـذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به ؟ ! قال النحاس : وهـذا الرد لا يلزم؛ لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبـدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى ؛ وهى أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا؛ لأنه لا يقال حجارة من شديد ؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل . وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء . وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن سجيلا لفظة غير عربية عُرِّبت ، أصلها سَنْج وجِيلْ . و يقال : سَنْك وكِيل ؛ بالكاف موضع الجيم ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العـرب فجعلتهـما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليـل قوله : « لِنرسِل عليهم حِجارة مِن طِينٍ » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشـدّدت . والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب . وقال الضحاك : يعنى الآجرّ . وقال ابن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر؛ وعنه أن سجيلا اسم السماء الدنيا؛ ذكره الهروىّ؛ وحكاه الثعلبيّ عن أبى العالية؛ وقال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة أنه بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هى جبال فى السماء ، وهى التى أشار الله تعالى إليها بقوله : « وينزّل مِن السماءِ مِن جِبالٍ فِيها مِن بَرَدٍ » . وقيل : هو مما سجّل لهم أى كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو فى معنى سِجين؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ » قاله الزجاج واختاره . وقيـل : هو فِعيل من أسجلته أى أرسلته ؛ فكأنها مرسَـلة عليهم . وقيل : هو من أسجلته إذا أعطيتَه؛ فكأنه عذاب أُعطوه؛ قال (١) :

مَنْ يُساجِلْني يُساجِلْ مَاجِدًا * يَمْـلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَب

---

(١) البيت للفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب . وأصل المساجلة أن يسـتقى ساقيـان فيخرج كل واحد منهما فى سجله (دلوه) مثل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب؛ فضربته العرب مثلا للفاخرة . والكرب : الحبـل الذى يشد على الدلو بعد المنين وهو الحبل الأوّل .

وقال أهل المعاني : السجّيل والسجّين الشديد من الحجَر والضَّرب؛ قال ٱبن مُقْبل :

وَرَجْلَةٍ يضربون البَيْضَ ضَاحِيةً (١) * ضَرْباً تَواصَى بِه الأبطالُ سِجِّيناَ

﴿ مَنْضُودٍ ﴾ قال ٱبن عباس : متتابع . وقال قتادة : نُضِد بعضها فوق بعض . وقال الرّبيع : نُضِد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا . وقال عكرمة : مصفوف . وقال بعضهم مرصوص؛ والمعنى متقارب . يقال : نَضَدت المتاع واللَّبِن إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونَضِيد ونَضَدٌ؛ قال :

* ورفَّعَتْه إلى السِّجْفَين فالنَّضَد *

وقال أبو بكر الهُذَليّ : مُعَدّ؛ أي هو مما أعدّه الله لأعدائه الظّلمة . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي معلّمة، من السِّيما وهي العلامة؛ أي كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر ٱسم من رُمي به، وكانت لاتشا كل حجارة الأرض . وقال الفرّاء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض، فذلك تسويمها . وقال كعب : كانت معلمة ببياض وحمرة، وقال الشاعر (٢) :

غلامٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافِعاً * له سِيمِيَاءٌ لا تَشُقُّ على البَصَرْ

و « مسومةٍ » من نعت حجارة . و « منضودٍ » من نعت « سِجيل » . وفي قوله : ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن . ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ يعني قوم لوط؛ أي لم تكن تخطئهم . وقال مجاهد : يُرهِب قريشا؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد . وقال قتادة وعكرمة : يعني ظالمي هذه الأمة؛ واللهِ ما أجار الله منها ظالما بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سيكون في آخر أمّتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قومِ لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما هِيَ من الظالِمِين

(١) وروى في اللسان : (يضربون البيض عن عرض) .

(٢) البيت لأسيد بن عنقاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله؛ وبعده :

كأن الثريا علقت فوق نحره * وفي جيده الشعرى وفي وجهه القمر

وقوله : (له سيمياء لا تشق على البصر) أي يفرح به من يراه .

بَعِيدٍ » . وفى رواية عنه عليه السلام "لا تذهب الليالى والأيام حتى تستحلّ هذه الأمة أدبار الرجال كما آستحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك". وقيل : المعنى ما هـذه القرى من الظالمين ببعيد؛ وهى بين الشام والمدينة . وجاء « ببعيد » مذكرا على معنى بمكان بعيد . وفى الحجارة التى أمطرت قولان : أحدهما — أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . الثانى — أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجا عنها .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ

وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسلنا إلى مدين ، ومدين هم قوم شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدين بن إبراهيم؛ فقيل : مدين والمراد بنو مدين . كما يقال مُضَر والمراد بنو مُضَر . الثانى — أنه آسم مدينتهم، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه آسم مدينة؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »(١) هذا المعنى وزيادة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقدّم . ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف؛ كان إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وآستوفوا بغاية ما يقدرون وظلموا؛ وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحّوا له بغاية ما يقدرون؛ فأُمروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك، وبالوفاء نهيا عن التطفيف . ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أى فى سعة من الرزق، وكثرة من النِّعم . وقال الحسن : كان سعرهم رخيصا . ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك : يوم شديد؛ أى شديد حرّه . وآختلف فى ذلك العذاب؛ فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

وقيل : عذاب الاستئصال في الدنيا . وقيل : غلاء السعر؛ روى معناه عن ابن عباس . وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا آبتلاهم الله بالقحط والغلاء" . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا . والإيفاء الإتمام . « بالقسط » أي بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذي نصيب إلى نصيبه؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال وبالميزان؛ بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصَّنَجات . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي لا تنقصوهم مما آستحقوه شيئا . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بين أن الخيانة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض؛ وقد مضى في « الأعراف »(١) زيادة لهذا، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّةُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم؛ قال معناه الطّبريّ وغيره . وقال مجاهد : « بقية الله خير لكم » يريد طاعته . وقال الرّبيع : وصية الله . وقال الفرّاء : مراقبة الله . بن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال آبن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين . وقيل: يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم؛ أي لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أي لا يتهيأ لي أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ ﴾ وقرئ « أَصَلَاتُكَ » من غير جمع . ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ « أن » في موضع تفسير؛ قال الكسائيّ : موضعها خفض على إضمار الباء .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقـول : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزءوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيـل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سـفيان عن الأعمش، أى قراءتك تأمرك؛ ودلّ هذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن : لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل فى أموالنا ما نشاء. وقرأ السُّلَمىّ والضّحاك ابن قيس «أو أن تفعل فى أموالنا ما تشاء» بالتاء فى الفعلين، والمعنى : ما تشاء أنت يا شعيب . وقال النحاس : «أو أن» على هذه القراءة معطوفة على «أن» الأولى . وروى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان مما نهاهم عنه حَذْف[1] الدراهم . وقيل : معنى « أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم تمنعنا منه ؟! . ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك ؛ ومثله فى صفة أبى جهل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » أى عنـد نفسك بزعمك . وقيـل : قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة . ومنه قولهم للحبشى : أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجَوْن[2]؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبى جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال سفيان بن عُيينة : العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل ؛ كما قيل للّديغ سَليم، وللفلاة مَفازة . وقيل : هو تعريض أرادوا به السبّ ؛ وأحسن من هـذا كله، ويدلّ ما قبله على صحته، أى إنك أنت الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ! ويدلّ عليـه « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » أنكروا لمـا رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضا ما يدلّ عليه « قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه . ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بنى قُريظة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : « يا إخوة القِردة » فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا ! .

---

(١) حذف الشيء قطعه من أطرافه .	(٢) الجون هنا الأسود .

مســئلة ــ قال أهل التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدّا، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يبخسون فى الوزن . وقال ابن وهب قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كسعيد بن المسيّب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم. وفى كتاب أبى داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سِكّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها، وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت سلعة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس، ولذلك حرم. وقد قيل فى تأويل قوله تعالى: « وكان فِى ٱلمدينة تِسعة رهطٍ يفسِدون فِى ٱلارضِ ولا يصلِحون » أنهم كانوا يكسرون الدراهم؛ قاله زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظىّ .

مســئلة : قال أَصْبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقىّ : من كسرها لم تقبل شهادته، وإن ٱعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا موضع عذر؛ قال ٱبن العربى : أما قوله : لم تقبل شهادته فلأنه أتى كبيرة، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة فى هذا فلأنه أمر بيّن لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفى وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد؛ كما قال مالك .

مســئلة : إذا كان هذا معصية وفسادا تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك . ومرّ ٱبن المسيّب برجل قد جُلد فقال : ما هذا ؟ قال : رجل يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ٱبن المسيّب : هذا من الفساد فى الأرض؛ ولم ينكر جلده؛ ونحوه عن سفيان . وقال أبو عبد الرحمن التُّجيبى : كنت قاعدا عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتى برجل وقد شُهِد عليه فضربه وحَلَقه، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول : هذا جزاء من يقطع

الدراهم ، ثم أمر أن يُرَدّ إليه ، فقال : إنه لم يمنعني أن أقطع يدك إلا أني لم أكن تقدّمت في ذلك قبل اليوم ، وقد تقدّمت في ذلك فمن شاء فليقطع . قال القاضي أبو بكر بن العربيّ : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم أضرب وأحلق ، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عونا له على المعصية ، وطريقا إلى التجمل به في الفساد ، وهذا هو الواجب في كل طريق للمعصية ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الحرز أصلا في القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيئتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما حرز لها ، وحرز كل شيء على قدر حاله ؛ وقد أنفذ ذلك ٱبن الزبير ، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدراهم . وقد قال علماؤنا المالكية : إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليها ٱسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتما لله كان أهلا لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه ٱسمه أُدّب ، وخاتم الله تُقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة . قال ٱبن العربيّ : وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتي الحكم ، إلا أني كنت محفوفا بالجهال ، فلم أجب بسبب المقال للحسدة الضّلال ، فمن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله ٱحتسابا لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ تقدّم . ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي واسعا حلالا ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ؛ قاله ٱبن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ؛ وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ؛ أي أفلا أنهاكم عن الضلال ! وقيل : المعنى «أرأيتم إن كنت على بينة من ربي» أتبع الضلال . وقيل : المعنى « أرأيتم إن كنت على بينة من ربي» أتأمرونني بالعصيان في البخس والتطفيف ، وقد أغناني الله . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ في موضع نصب بـ « أريد » . ﴿ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أى ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أى أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالعبادة؛ وقال : « ما ٱستطعت » لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « ما » مصدرية؛ أى إن أريد إلا الإصلاح جهدى واستطاعتى . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أى رشدى ، والتوفيق الرشد . ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى ٱعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى أرجع فيما ينزل بى من جميع النوائب . وقيل : إليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدعاء؛ ومعناه وله أدعو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ وقرأ يحيى بن وثّاب « يُجْرِمَنَّكُمْ » . ﴿ شِقَاقِي ﴾ فى موضع رفع . ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى لا يحملنكم معاداتى على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : لا يكسبنكم شقاقى إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم؛ قاله الزجاج . وقد تقدّم معنى « يجرمنكم » فى « المائدة »[1] و « الشقاق » فى « البقرة »[2] وهو هنا بمعنى العداوة؛ قاله السدّى؛ ومنه قول الأخطل :

أَلَا مَنْ مُبلغٌ عنّى رسولًا[3] * فكيف وجدتُم طَعْمَ الشِّقاقِ

وقال الحسن : إضرارى . وقال قتادة : فِراقى . ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط . وقيل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد؛ أى بمكان بعيد ؛ فلذلك وحد البعيد . قال الكسائىّ : أى دورهم فى دوركم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدّم . ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ٱسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيّنّاهما فى كتاب «الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى» . قال الجوهرىّ : وَدِدت الرجل أَوَدّه وُدّا إذا أحببته ، والودود المحبّ، والوُدّ والوِدّ والوَدّ والمودّة المحبة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال : " ذاك خطيب الأنبياء " .

---

(١) راجع ج ٦ ص ٤٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

(٣) الرسول هنا بمعنى الرسالة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ أى ما نفهم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقارا لكلامه ؛ يقال : فقِه يفقَه إذا فهم فِقْها ؛ وحكى الكسائى فَقُه فَقَهًا وفِقها إذا صار فقيها (١) . ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قيل : إنه كان مصابا ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثورىّ ، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيف ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير ؛ أى قد ضرّ بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أى قد كُفّ عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه علىّ بن عيسى . وقال السدى : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . « وضعيفا » نصب على الحال . ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ رفع بالابتداء ؛ ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوى بهم ؛ ومنه الراهطاء لِجُحْر اليَرْبُوع ؛ لأنه يتوثّق به ويَخبأ فيه ولده . ومعنى ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ لقتلناك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لرجمناك » لشتمناك ؛ ومنه قول الجعدىّ :

تَرَاجمنا بمُرّ القول حتّى * نَصير كأننا فَرَسا رِهانِ

والرجم أيضا اللعن ؛ ومنه الشيطان الرجيم . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أى ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي ﴾ « أرهطى » رفع بالابتداء ؛ والمعنى أرهطى فى قلوبكم ﴿ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ وأعظم وأجلّ وهو يملككم . ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أى اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهريا ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنعتم من قتلى مخافة قومى ؛

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصوبت عن كتب اللغة ؛ وعبارة الأصل : فقه يفقه إذا فهم فقها وفقها ، وحكى الكسائى فقها ، وفقه فقها إذا صار فقيها .

يقال : جعلت أمره بِظَهْرٍ إذا قصرت فيه؛ وقد مضى فى «البقرة»(١) . ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى من الكفر والمعصية . ﴿ مُحِيطٌ ﴾ أى عليم . وقيل : حفيظ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد؛ وقد تقدّم فى « الأنعام »(٢) . ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى يهلكه . و « من » فى موضع نصب؛ مثل « يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ » . ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطف عليها . وقيل : أى وسوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيل : فى محل رفع؛ تقديره : ويخزى من هو كاذب . وقيل : تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه ، ويذوق وبال أمره . وزعم الفراء أنهم إنما جاءوا بـ«هو» فى « ومن هو كاذب » لأنهم لا يقولون مَن قائم؛ إنما يقولون : مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم؛ فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فَعَل ويَفْعَل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله(٣) :

مَنْ رَسُولِي إلى الثُّرَيَّا بِأَنِّي * ضِقْتُ ذَرْعًا بِهَجْرِهَا وَالْكِتَابِ

﴿ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أى ٱنتظروا العذاب والسَّخطة، فإنى منتظر النصر والرحمة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم . ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ ﴾ أى صيحة جبريل . وأنث الفعل على لفظ الصيحة ، وقال فى قصة صالح : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » فذكّر على معنى الصياح . قال ٱبن عباس : ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ تقدم معناه . وحكى الكسائى أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ « كما بَعُدت ثمود » بضم العين . قال النحاس : المعروف فى اللغة أنه يقال بعد

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٠ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) هو عمر بن أبى ربيعة .

يَبْعَدُ بَعَدًا وبُعْدا إذا هَلَك . وقال المهدوي : من ضم العين من « بعدت » فهي لغة تستعمل في الخير والشر، ومصدرها البُعْد ؛ وبَعِدت تستعمل في الشر خاصة؛ يقال : بَعِد يَبْعَد بَعَدًا ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللعنة ؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ بين أنه أتبع النبي النبيّ لإقامة الحجة، وإزاحة كل علة « بِآيَاتِنا » أي بالتوراة . وقيل : بالمعجزات . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي حجة بيّنة ؛ يعني العصا . وقد مضى في « آل عمران »(١) معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي شأنه وحاله ، حتى اتخذوه إلهـا ، وخالفوا أمر الله تعالى . ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي بسديد يؤدي إلى صواب . وقيل : « برشيد » أي بمرشد إلى خير .

قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم . يقال : قَدَمهم يقدُمهم قَدْما وقُدوما إذا تقدّمهم . ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أي أدخلهم فيها . ذُكر بلفظ الماضي؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلهذا يعبر عن المستقبل بالماضي . ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ أي بئس المدخل المدخول؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود؛ وهو كما تقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت المنزل دارك . والمورود الماء الذي يورد ، والموضع الذي يورد؛ وهو بمعنى المفعول .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً﴾ أى فى الدنيا. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدم هذا المعنى. ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائى وأبو عبيدة: رَفَدْتُه أَرْفِدُه رَفْدًا؛ أى أعنته وأعطيته. وآسم العطية الرِّفْد؛ أى بئس العطاء والإعانة. والرفد أيضا القدح الضخم؛ قاله الجوهرى، والتقدير: بئس الرفد رِفد المرفود. وذكر الماوردى أن الرفد بفتح الراء القدح، والرفد بكسرها ما فى القدح من الشراب؛ حكى ذلك عن الأصمعى؛ فكأنه ذمّ بذلك ما يسقونه فى النار. وقيل: إن الرفد الزيادة؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار؛ قاله الكلبى.

قوله تعالى: ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ «ذلك» رفع على إضمار مبتدأ ، أى الأمر ذلك . و إن شئت بالابتداء ، والمعنى : ذلك النبأ المتقدّم من أنباء القرى نقصه عليك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويا على عروشه ، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر ، والحصيد الخراب ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد مستأصل ؛ يعنى محصودا كالزرع إذا حصد ؛ قال الشاعر :

والنـاس فى قَسْم المنيّة بينهم * كالزّرع منـه قائمٌ وحَصيدُ

وقال آخـر[1] :

إنمـا نحن مثلُ خَامَةِ زَرْعٍ * فمتى يَأْنِ يَأْتِ مُحْتَصِـدُه

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود ، وجمعه حَصْدى وحِصَاد مثل مَرْضَى ومِرَاض ؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى ، مثل قتيل وقتلى . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه ، وقد تقدم فى « البقرة »[2] مستوفى . ﴿ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه . ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفعت . ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف ؛ أى التى كانوا يدعون ؛ أى يعبدون . ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى غير تخسير ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال لبيـد :

فلقـد بَلِيتُ وكلُّ صاحبِ جِدّةٍ * لِبِـلًى يعُودُ وذَاكُمُ التَّتْبِيبُ

والتَّبابُ الهلاك والخسران ، وفيه إضمار ؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنـام ، فحذف المضاف ؛ أى كانت عبادتهم إيّاها قد خسّرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة . وقرأ عاصم الجحدرىّ وطلحة بن مصرف « وكذلك أَخَذَ ربك إذْ أَخَذَ القرى » . وعن الجحدرىّ أيضا « وكذلك أَخْذُ رَبِّك » كالجماعة «إذْ أَخَذَ

(١) البيت للطرماح ؛ كما فى اللسان . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

القرى » . قال المهدوى : من قرأ « وكذلك أخذ ربك إذ أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة فى إهلاك من تقدّم من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أَخَذَ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذ أَخَذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر ، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذ لما مضى ؛ أى حين أخذ القرى ؛ و إذا للمستقبل . ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى وأهلها ظالمون ، فحذف المضاف مثل : « واسأل القرية » . ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أى عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة . وفى صحيح مسلم والترمذى من حديث أبى موسى أن رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه " ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة وموعظة . ﴿ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَجْمُوعٌ ﴾ من نعته . ﴿ لَهُ ٱلنَّاسُ ﴾ اسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون ؛ فإن قدرت ارتفاع «الناس» بالابتداء ، والخبر «مجموع له» فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير ؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر ؛ أى يحشرون لذلك اليوم . ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أى يشهده البر والفاجر ، و يشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة فى كتاب « التذكرة » و بيّناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أى ما نؤخر ذلك اليوم . ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ أى لأجل سبق به قضاؤنا ، وهو معدود عندنا . ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ وقرئ «يوم يأتِ» لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدر ؛ ذكره القشيرى . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الإدراج ، وحذفها فى الوقف ، وروى أن أُبيًّا وابن مسعود قرأا « يوم يأتى » بالياء فى الوقف والوصل . وقرأ الأعمش وحمزة « يوم يأتِ » بغير ياء فى الوقف والوصل ؛ قال أبو جعفر النحاس : الوجه فى هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء ؛ لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تحذف الياء ، ولا يجزم الشيء بغير جازم ؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول الكسائى ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم ، فحذف الياء ، كما

تحذف الضمة . وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بحجتين ؛ إحداهما — أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمان رضي الله عنه بغير ياء . والحجة الأخرى — أنه حكى أنها لغة هُذَيل ؛ تقول : ما أدرِ ؛ قال النحاس : أما حجته بمصحف عثمان رضي الله عنه فشيء يردّه عليه أكثر العلماء ؛ قال مالك بن أنس رحمه الله : سألت عن مصحف عثمان رضي الله عنه فقيل لي ذَهَب ؛ وأما حجته بقولهم : « ما أدرِ » فلا حجة فيه ؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء ، وذكروا علته ، وأنه لا يقاس عليه . وأنشد الفراء في حذف الياء :

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهمـا * جوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا

أي تعطي . وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول : لا أدرِ ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة ، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . قال الزجاج : والأجود في النحو إثبات الياء ؛ قال : والذي أراه اتباع المصحف وإجماع القراء ؛ لأن القراءة سنّة ؛ وقد جاء مثله في كلام العرب . ﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ الأصل تتكلم ؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفا . وفيه إضمار ، أي لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام ؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح . وقيل : المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه . وقيل : إن لهم في الموقف وقتا يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه . وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدِّين ، فيقول لم قال : « لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ » و « هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » . وقال في موضع من ذِكر القيامة : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ » . وقال : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » . وقال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » . وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » . والجواب ما ذكرناه ، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ، ولوم بعضهم بعضا ، وطرح بعضهم الذنوب على بعض ؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا ؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيرا ، وخطابه فارغ عن الحجة : ما تكلمت بشيء ، وما نطقت بشيء ؛ فسمّى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم . وقال

قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف فى بعضها يمنعون من الكلام ، وفى بعضها يطاق لهم الكلام ؛ فهـذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أى من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذكرهم فى قوله : « يوم مجموع له الناس » . والشقى الذى كتبت عليه الشقاوة . والسعيد الذى كتبت عليه السعادة ؛ قال لَبِيد :

فمنهـم سـعيدٌ آخذٌ بنصـيبه * ومنهـم شَـقِيٌّ بالمعيشـةِ قانعُ

وروى الترمذىّ عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لمـا نزلت هـذه الآية « فَمِنْهُم شَقِيٌّ وسعيد » سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبىّ الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فُرِغ منه ، أو على شىء لم يُفرَغ منه ؟ ! فقال : "بل على شىء قد فُرِغ وجرت به الأقلامُ يا عُمر ولكن كلٌّ مُيسَّر لمـا خُلِق له ". هذا حديث حسن غريب من هـذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ ابتداء . ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ فى موضع الخبر ، وكذا ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أبو العالية : الزّفير من الصدر ، والشّهيق من الحلق ؛ وعنه أيضا ضدّ ذلك . وقال الزجاج : الزّفير من شدّة الأنين ، والشّهيق من الأنين المرتفع جدّا ؛ قال : وزعم أهل اللغـة من الكوفيين والبصريين أن الزّفير بمنزلة ابتـداء صوت الحمير فى النّهيق ، والشّهيق بمنزلة [آخر] صوت الحمار فى النهيق . وقال ابن عباس عكسه ؛ قال : الزّفير الصوت الشديد ، والشّهيق الصوت الضعيف . وقال الضّحاك ومقاتل : الزّفير مثل أوّل نهيق الحمار ، والشّهيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر(٢) :

حَشْرَجَ فى الجوف سَحِيلًا(٣) أو شَهَقْ * حتى يُقـالَ ناهِـقٌ وما نَهَـقْ

وقيل : الزّفير إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غمًّا فيخرج بالنفَس ، والشهيق ردّ النفَس . وقيـل : الزفير ترديد النفَس من شدّة الحزن ؛ مأخوذ من الزَّفْر وهو الحَمْل على الظهر لشدّته ؛

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو العجاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المفازة مطلعها :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق * مشتبه الأعلام لمـاع الخفـق

(٣) السحيل : الصوت الذى يدور فى صدر الحمار .

والشهيق النفس الطويل الممتدّ؛ مأخوذ من قولهم : جبل شاهق؛ أي طويل . والزفير والشهيق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « ما دامت » في موضع نصب على الظرف؛ أي دوام السموات والأرض، والتقدير : وقت ذلك . وآختلف في تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى مادامت سموات الجنة والنار وأرضهما . والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقرّ عليه قدمك؛ وفي التنزيل : « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » . وقيل : أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا ، وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ ، أو سَالَ سيلٌ، وما آختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولا من غير نهاية ؛ فأوهمهم الله تخليد الكفرة بذلك ، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن آبن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض في الآخرة تردّان إلى النور الذي أخذتا منه ؛ فهما دائمتان أبدا في نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه آستثناء ليس من الأوّل ؛ وقد آختلف فيه على أقوال عشرة : الأوّل — أنه آستثناء من قوله : « ففي النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبي سعيد الخُدْريّ أو جابر رضي الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص ؛ كقوله : « ما طاب لكم » . وعن أبي نَضْرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شَقُوا بالمعصية" . الثاني — أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدّة من النار ؛ وعلى هذا يكون قوله : « فأما الذين شقوا » عاماً في الكفرة والعصاة ، ويكون الآستثناء من « خالدين » ؛ قاله قَتادة والضّحاك وأبو سِنان وغيرهم . وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدخل

ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة[1] أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجهنميّون "
وقد تقدّم هـذا المعنى فى « النساء » وغيرها . الثالث — أن الاستثناء من الزفير والشهيق ؛
أى لهم فيهـا زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل
الجنـة من النعيم ما ذكر ، ومالم يذكر . حكاه ٱبن الأنبارىّ . الرابع — قال ٱبن مسعود :
« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ
رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدّد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر ، والٱستثناء له فى الأكل ، وتجديد الخلق . الخامس —
أن « إلّا » بمعنى « سوى » كما تقول فى الكلام : ما معى رجل إلّا زيد ، ولى عليك ألفا درهم
إلا الألف التى لى عليك . قيـل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك
من الخلود . السادس — أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما تقول
فى الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعـل ؛ فالمعنى
أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ؛ ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ؛ ذكر هذين القولين
الزجاج عن أهل اللغة ؛ قال : ولأهل المعانى قولان آخران ؛ فأحد القولين : « خالدين فيهـا
ما دامت السـموات والأرض إلا ما شاء ربك » من مقـدار موقفهم على رأس قبورهم ،
وللمحاسبة ، وقدر مكثهم فى الدنيـا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر — وقوع
الاستثناء فى الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض
إلا ما شاء ربك » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء فى الزيادة من الخلود على مدّة كون السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا ؛
واختاره الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن على ؛ أى خالدين فيها مقـدار دوام السموات
والأرض ، وذلك مدّة العالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه ؛ وهو قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم ، وٱشترى منهم أنفسهم وأموالهم

(١) الحمم : الرماد والفحم وكل ما احترق من النار ، والواحدة حممه .

بالجنة ، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفى بالعهد فله الجنة ، ومن ذهب برقبته يخلد في النار بمقدار دوام السموات والأرض ؛ فإنما دامتا للمعاملة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك ؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله؛ قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمواتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . ما خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » فيخلد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحقّ الأحدية ، فمن لقيه موحّدا لأحديته بقي في داره أبدا ، ومن لقيه مشركا بأحديته إلها بقي في السجن أبدا ؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : « إلا ما شاء ربك » من زيادة المدّة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبدا . وقد قيل : إن « إلّا » بمعنى الواو ، قاله الفرّاء وبعض أهل النظر وهو — الثامن — والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدّة دوام السموات والأرض في الدنيا . وقد قيل في قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا »(1) أي ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر :

وكُلُّ أخٍ مفارِقُه أخـوه * لَعمرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ

أي والفرقدان . وقال أبو محمد مكيّ : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا » بمعنى الواو ، وقد مضى في « البقرة »(2) بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أي كما قد سلف ، وهو — التاسع . العاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام ؛ فهو على حدّ قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » فهو استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك ؛ كأنه قال : إن شاء ربك ، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع ؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبي عُبيد قال : تقدّمت عزيمة المشيئة من الله تعالى

(1) البيت لعمرو بن معدي كرب . وقيل : هو لحضرمي بن عامر . ويجوز أن تكون « إلا » هنا بمعنى غير . قال سيبويه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ؛ فقد نعت « كلا » بها .

(2) راجع ج ٢ ص ١٦٩ طبعة ثانية .

فى خلود الفريقين فى الدارين ، فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمة قد تقدّمت فى الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتما، فلم يوجب الاستثناء فى الموضعين خيارا ؛ إذ المشيئة قد تقدّمت بالعزيمة فى الخلود فى الدارين والدخول فى المسجد الحرام؛ ونحوه عن الفراء . وقول — حادى عشر — وهو أن الأشقياء هم السعداء، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم، والآستثناء فى الموضعين راجع إليهم؛ و بيانه أن « ما » بمعنى « من »، آستثنى الله عز وجل من الداخلين فى النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ؛ وآستثنى من الداخلين فى الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة، وهم الذين وقع عليهم الآستثناء الثانى ؛ كأنه قال تعالى : فأمّا الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ألّا يخلده فيها ، وهم الخارجون منها من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، و بدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الضّحاك عن آبن عباس إذ قال : الذين سعِدوا شَقُوا بدخول النار ثم سعِدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائىّ « وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت علىّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائىّ « سُعِدوا » مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا لحنا لا يجوز؛ لأنه إنما يقال : سَعِد فلان وأسعده الله، وأُسعد مثل أُمرِض؛ و إنما آحتجّ الكسائىّ بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه، ثم يحذف فيه و يسمى به . قال المهدوىّ : ومن ضمّ السين من « سعِدوا » فهو محمول على قولهم : مسعود ، وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال سعده الله، إنما يقال : أسعده الله . وقال الثعلبىّ : « سُعِدوا » بضم السين أى رزقوا السعادة؛ يقال : سُعِد وأسعِد بمعنى واحد . وقرأ الباقون « سَعِدوا » بفتح

السين قياسا على «شَقُوا» وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهرى : والسعادة خلاف الشّقاوة؛ تقول: منه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد، مثل سَلِم فهو سليم، وسُعِد فهو مسعود؛ ولا يقال فيه مُسْعَد، كأنهم آستغنوا عنه بمسعود . وقال القُشيرى أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَعَده الله فهو مسعود، وأسعده الله فهو مسعد؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيبويه : لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقِى فلان؛ لأنه مما لا يتعدّى . ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أى غير مقطوع؛ من جَذّه يَجُذّه أى قطعه؛ قال النّابغة :

تَجُذّ السَّلُوقِىّ المضاعَف نَسْجُه * وتُوقِدُ بالصُّفّاح نارَ الحُبَاحِبِ (١)

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ ﴾ جزم بالنهى؛ وحذفت النون لكثرة الآستعمال . ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ من الآلهة أنها باطل . وأحسن من هذا : أى قل يا محمد لكل من شك « لاتك فِى مِريةٍ مما يعبد هؤلاء » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليدا لهم . ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها — نصيبهم من الرزق؛ قاله أبو العالية . الثانى — نصيبهم من العذاب؛ قاله آبن زيد . الثالث — ما وُعِدوا به من خير أو شر؛ قاله آبن عباس رضى الله عنهما .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح؛ ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر . قيل المراد بين المختلفين فى كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدّق ومكذّب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقاب ، ولكن سبق

(١) البيت للنابغة الذبيانى يصف فيه السيوف . ويروى (ويوقدن) . والسلوقى : الدرع المنسوب الى سلوق؛ قرية باليمن . والمضاعف : الذى نسج حلقتين . والصفاح : الحجارة العراض . والحباحب : ذباب له شعاع بالليل ؛ وقيل : نار الحباحب ما اقتدح من شرر النار فى الهواء بتصادم حجرين .

الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ إن حملت على قوم موسى؛ أى لفى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعالى : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى إن كلا من الأمم التى عددناهم يرون جزاء أعمالهم؛ فكذلك قومك يا محمد . وآختلف القراء فى قراءة ﴿ وإنَّ كُلًّا لَمَّا ﴾ فقراء أهل الحرمين — نافع وآبن كثير وأبو بكر معهم — « وَإِنْ كُلًّا » بالتخفيف، على أنها « إن » المخففة من الثقيلة معملة؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه، قال سيبويه : حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول : إنْ زيدا لمنطلقٌ؛ وأنشد قول الشاعر (١) :

* كأنْ ظَبيةً تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ *

أراد كأنها ظبية فخفّف ونصب ما بعدها؛ والبصريون يجوزون تخفيف « إنّ » المشدّدة مع إعمالها؛ وأنكر ذلك الكسائىّ وقال : ما أدرى على أى شىء قرئ « وَإِنْ كُلًّا » ! وزعم الفرّاء أنه نصب « كلّا » فى قراءة من خفّف بقوله : « ليوفّينّهم » أى و إن ليوفينهم كلّا؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا : هذا من كبير الغلط؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربنّه (٢) . وشدّد الباقون «إنّ» ونصبوا بها « كلّا» على أصلها. وقرأ عاصم وحمزة وآبن عامر « لَمَّا » بالتشديد، وخفّفها الباقون على معنى : و إن كلّا ليوفينهم، جعلوا «ما» صلة . وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ«ما» . وقال الزجاج : لام « لمّا » لام « إنّ » و « ما » زائدة مؤكدة؛ تقول : إن زيدا لمنطلق؛ فإنّ

(١) هو : آبن صريم اليشكرى؛ وصدر البيت :

* ويوما توافينا بوجه مقسم *

يجوز نصب الظبية بكأن تشبيها بالفعل إذا حذف وعمل، والخبر محذوف لعلم السامع . ويجوز جر الظبية على تقدير: كظبية، وأن زائدة مؤكدة . (٢) قال الطبرى : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين اسما قبلها .

تقتضى أن يدخل على خبرها أو ٱسمهـا لام كقولك : إنّ الله لغفـور رحيم، وقـوله : « إن فِى ذٰلِكَ لَذِكرى » . واللام فى « ليوفينهم » هى التى يُتلقّ بها القسم، وتدخل على الفعل و يلزمها النون المشـدّدة أو المخففة؛ ولمـا اجتمعت اللامان فصـل بينهما بـ« ما » و « ما » زائدة مؤكدة . وقال الفـراء : « ما » بمعنى « مَن » كقوله : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » أى و إنّ كلّا لمن ليوفينهم، واللام فى « ليوفينهم » للقسم؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعنـد الفراء ٱسم بمعنى « مَن » . وقيـل : ليست بزائدة، بل هى ٱسم دخل عليها لام التأكيد، وهى خبر « إنّ » و « ليوفينهم » جواب القسم، التقدير: و إنّ كلا خَلْق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيـل : « ما » بمعنى « مَن » كقوله : « فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أى مَنْ؛ وهذا كله هو قول الفرّاء بعينه . وأما من شدّد « لمـا » وقرأ « وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ومن وافقه — فقيل : إنه لحن؛ حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز؛ ولا يقـال : إنّ زيدا إلّا لضربته، ولا لمّـا لضربته . وقال الكسائى : الله أعلم بهذه القراءة، وما أعرف لها وجها . وقال أيضا هو وأبو على الفارسىّ : التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللنحويين فى ذلك أقوال : الأوّل — أن أصلها « لمن ما » فقلبت النون ميما، واجتمعت ثلاث ميمات، فحذفت الوسطى فصارت « لمـا » و« ما » على هذا القول بمعنى « من » تقديره : و إن كلا لمن الذين؛ كقولهم :

وإِنِّى لَمَّـا أُصْـدِرُ الأمرَ وجهَهُ * إذا هو أَعْيَا بالسَّبيلِ مَصَـادِرُه

و زيّف الزجاج هذا القول، وقال : « من » ٱسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثانى — أن الأصل لَمِن، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميمات، والتقدير : وإنْ كُلًّا لَمِنْ خَلْقٍ ليوفيّنهم . وقيل : « لَمَّـا » مصدر « لَمَّ » وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف؛ فهى على هـذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّـا » أى جامعا للمـال المأكول؛ فالتقـدير على هذا : و إن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لمًّـا ؛ أى جامعة لأعمالهم جمعا، فهو كقولك : قياما لأقومنّ . وقد قرأ الزهرى « لَمًّـا » بالتشديد والتنوين على هـذا المعنى . الثالث —

أن « لمّـا » بمعنى « إلّا » حكى أهل اللغة: سألتك بالله لمّـا فعلت، بمعنى إلّا فعلت؛ ومثله قوله تعـالى : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى إلا عليها؛ فمعنى الآية : ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم؛ قال القُشيرى: وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفى لقوله : « وَإِنْ كُلًّا لمـا » حتى تقـدّر « إلا » ولا يقـال : ذهب الناس لمـا زيد . الرابع – قال أبو عثمان المـازنى : الأصل وإن كلّا لَمَـا بتخفيف « لمّـا » ثم ثقلت، كقوله[1] :

لقـد خَشِيتُ أَنْ أَرَى جَدَبًّا * فى عامِنَا ذا بعـدَ مَا أَخْصَبًّا

وقال أبو إسحـق الزجاج : هذا خطأ! إنمـا يخفّف المثقّـل، ولا يثقّل المخفّف . الخـامس – قال أبو عبيد القاسم بن سـلّام . يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّـه لَمًّا إذا جمعته، ثم بنى منه فَعْلَى، كما قرئ «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُـلَنَا تَتْرَى » بغير تنوين وبتنوين؛ فالألف على هذا للتأنيث، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحق : القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى « ما » مثل : «إن كل نفسٍ لمـا عليها حافِظ » وكذا أيضا تشدّد على أصلها، وتكون بمعنى « ما » و « لمـا » بمعنى « إلا » حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين؛ وأن « لمـا » يستعمل بمعنى « إلا » .

قلت : هـذا القول الذى ارتضاه الزّجاج حكاه عنـه النحاس وغيره؛ وقد تقـدم مثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول[1] « إِنْ » فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا . وبقيت قراءتان؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أبىّ « وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ » . وروى عن الأعمش « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بتخفيف « إن » ورفع « كل » وبتشديد « لمـا » . قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها « إِنْ » بمعنى « ما » لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تهديد ووعيـد .

(١) البيت لرؤبة . (١) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويبا لعبارة القرطبي، ومذيلة بكلمة (حاشية) : (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول « إن » فيه نافية والقول المتقدم « إن » فيه مخففة من الثقيلة فافترقا) .

قوله تعالى : فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل : له والمراد أمته؛ قاله السّدىّ . وقيل : « استقم » ٱطلب الإقامة على الدّين من الله وٱسأله ذلك . فتكون السين سين السؤال، كما تقول : ٱستغفر الله ٱطلب الغفران . والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ أى فاستقم على ٱمتثال أمر الله . وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفىّ قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك! قال : " قل آمنت بالله ثم ٱستقم ". وروى الدّارمىّ أبو محمد فى مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدىّ قال : دخلت على ٱبن عباس فقلت أوصنى! فقال : نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة ، ٱتبع ولا تبتدع . ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أى ٱستقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشّرك ومن بعده ممن ٱتبعه من أمته . قال ٱبن عباس : ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى أشدّ ولا أشق من هذه الآية عليه ؛ ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب! فقال : " شيّبتنى هودٌ وأخواتها " وقد تقدم فى أوّل السورة . وروى عن أبى عبد الرحمن السُّلَمىّ قال سمعت أبا على السَّرىّ[(1)] يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت : يا رسول الله! روى عنك أنك قلت : " شيّبتنى هودٌ " فقال : " نعم " فقلت له : ما الذى شيّبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال : " لا ولكن قوله : « فاستقم كما أمرت » " . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ نهى عن الطّغيان . والطّغيان مجاوزة الحدّ؛ ومنه « إِنَّا لَمَّا طَغَى ٱلْمَآءُ » . وقيل : أى لا تتجبروا على أحد .

قوله تعالى : وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

(١) فى الأصل (الشنوى) وصوب عن (الدر المنثور) .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشئ والرضا به؛ قال قتادة : معناه لاتودّوهم ولا تطيعوهم . ابن جريج : لا تميلوا إليهم . أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب . وقال ابن زيد : « الركون هنا الإِدْهان (١) وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم » .

الثانيــة — قرأ الجمهور «تَرْكَنُوا» بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو : هى لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وقتادة وغيرهما « تَرْكُنُوا » بضم الكاف؛ قال الفرّاء : وهى لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَنَ يركَن مثل مَنَعَ يَمنَع .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : عامة فيهم وفى العصاة؛ على نحو قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية؛ وقد تقدم . وهذا هو الصحيح فى معنى الآية؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصى من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة؛ وقد قال حكيم (٢) :

عن المرء لا تَسألْ وسَلْ عن قَرِينِه * فكلُّ قرِينٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدِى

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقِيَّة فقد مضى القول فيها فى « آل عمران (٣) » و « المائدة (٤) » . وصحبة الظالم على التَّقِية مستثناة من النهى بحال الاضطرار . والله أعلم .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أى تحرقكم بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم فى أمورهم .

قوله تعالى : وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

---

(١) الإدهان : المصانعة . (٢) هو طرفة بن العبد . (٣) راجع جـ ٤ ص ٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢١٧ طبعة أولى أو ثانية .

فيــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان، وإليها يُفزع في النوائب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه[1] أمر فزع إلى الصلاة . وقال شيوخ الصّوفية : إن المراد بهذه الآية ٱستغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال ٱبن العربيّ : وهذا ضعيف، فإن الأمر لم يتناول ذلك لا واجبا [فإنها خمس صلوات[2] و] لا نفلا فإن الأوراد معلومة، وأوقات النوافل المرغب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ قال مجاهد : الطَّرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ٱبن عطية . وقيــل : الطّرَفان الصبح والمغرب ؛ قاله ٱبن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطَّرَف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قَتادة والضّحاك . وقيل : الطّرَفان الظهر والعصر . والزُّلَف المغرب والعشاء والصّبح ؛ كأن هــذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى المــاورديّ أن الطّرَف الأول صــلاة الصبح باتفــاق .

قلت : وهذا الٱتفاق ينقضه القول الذي قبله . ورجح الطّبَريّ أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر؛ قال ٱبن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ٱبن العربيّ : والعجب من الطَّبَريّ الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرَفا الليــل ! فقلَب القوس رَكْوَة[3] ، وحاد عن البُرجاس[4] غَلْوة ؛ قال الطَّبَريّ : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطّرَفين الصّبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ؛ ولم يجمع معه على ذلك أحد .

---

(١) (حزبه) : نزل به مهم، أو أصابه غم . (٢) الزيادة عن ٱبن العربي . (٣) لفظ المثل كما في الصحاح وغيره (صارت القوس ركوة) ويضرب في الأدبار وانقلاب الأمور . (٤) البرجاس (بالضم) : غرض على رأس رمح أو نحوه مولد . والغلوة : قدر رمية بسهم .

قلت : هـذا تحامل من ٱبن العربيّ في الرد ، وأنه لم يجمـع معه على ذلك أحد؛ وقـد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأوّل صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق — إلا من شذ — بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار؛ فدلّ على صحة ما قاله الطبريّ في الصبح؛ وتبقى عليه المغرب والرّد عليه فيه ما تقدّم . والله أعلم .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي في زلف من الليل ، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض؛ ومنه سميت المزدلفة؛ لأنها منزل بعد عَرَفة بقرب مكة . وقرأ ٱبن القَعْقاع وٱبن أبي إسحق وغيرهما « وزُلُفًا » بضم اللام جمع زَلِيف لأنه قد نطق بزليف ، ويجوز أن يكون واحده « زُلُفة » لغـة؛ كبُسُرة و بُسُر، في لغة من ضمّ السين . وقرأ ٱبن محيصن « وَزُلْفًا » من الليـل بإسكان اللام؛ والواحدة زُلْفة تجمـع جمع الأجناس التي هي أشخاص كدُرّة ودُرّ و بُرّة و بُرّ . وقرأ مجاهـد وٱبن مُحيصن أيضا « زُلْفَى » مثل قُربى . وقرأ الباقون « وزُلَفًا » بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف . قال ابن الأعرابي : الزّلف الساعات ، واحدها زُلْفة . وقال قوم : الزّلفة أوّل ساعة من الليل بعـد مغيب الشمس؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صـلاة العَتَمة؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيـل : المغرب والعشاء والصبح؛ وقد تقدّم . وقال الأخفش يعني صلاة الليل ولم يعيّن .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأوّلين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ قال ٱبن عطية : وهذا على جهة المثـال في الحسنات ، والذي يظهـر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات؛ لقـوله صلى الله عليه وسلم : " ما ٱجتنبتَ الكبائر " .

قلت : سبب النزول يعضـد قول الجمهور؛ نزلت في رجل من الأنصار ، قيـل : هو أبو اليَسَر بن عمرو . وقيل : ٱسمه عباد؛ خلا بٱمرأة فقبّلها وتلذّذ بها فيما دون الفرج . روى

الترمذيّ عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبيّ صـلى الله عليه وسلم فقال : " إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة و إني أصبت منها ما دون أن أَمَسّها وأنا هـذا فاقض فيّ ما شئت " فقال له عمر : لقد سترك الله! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه، فتلا عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » إلى آخر الآية؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة؟ قال : " [لا] [1] بل للناس كافة ". قال الترمذيّ : حديث حسن صحيح . وخرّج أيضا عن ٱبن مسعود أن رجلا أصاب من ٱمرأة قبـلة حرام فأتى النبي صـلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فنزلت « أَقِمِ الصلاة طرفي النهارِ وزلفا مِن الليلِ إن الحسناتِ يذهِبن السيئاتِ » فقال الرجل : أَلِي هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولمن عمل بها من أمتي " . قال الترّمذيّ : هذا حديث حسن صحيح . ورَوى عن أبي اليَسَر قال : أتتني ٱمرأة تبتاع تمرا فقلت : إن في البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : ٱستر على نفسك وتُبْ ولا تُخْبِر أحدا فلم أصبر؛ فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : ٱســتر على نفسك وتُبْ ولا تُخـبر أحدا فلم أصبر؛ فأتيت رسول الله صـلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " أَخَلَفتَ غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هـذا " حتى تمنى أنه لم يكن أسـلم إلا تلك الساعة؛ حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه « أَقِمِ الصلاة طرفي النهارِ وزلفا مِن الليـلِ إن الحسناتِ يذهبن السيئات ذلك ذِكرى لِلذاكِرين » . قال أبو اليَسَر : فأتيته فقرأها عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يارسول الله! أ لهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال : " بل للناس عامة " . قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن غريب [2]، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره؛ وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أعرض عنه، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له :

---

(١) الزيادة عن الترمذي .　　(٢) الذي في صحيح الترمذيّ (صحيح) بدل (غريب) .

" أشهدت معنا الصـلاة " قال نعم ؛ قال : " اذهب فإنها كفارة لما فعلت " . وروى أن النبيّ صـلى الله عليه وسلم لمـا تلا عليه هذه الآية قال له : " قم فصلّ أربع ركعات ". والله أعلم . وخرج الترمذيّ الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم ؛ « إن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ ذلك ذِكرى للذاكرِين » " .

الخامســـة ـــ دلت الآية مع هـذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ ؛ وقد يستدل به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا فى ثوب واحد ؛ وهو اختيار ابن المنذر ؛ لأنه لمـا ذكر اختلاف العلماء فى هذه المسئلة ذكر هـذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شىء ، وسيأتى ما للعلماء فى هـذا فى « النور »(١) إن شاء الله تعالى .

السادســة ـــ ذكر الله سبحانه فى كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أقِمِ الصلاة » الآية . وقال : « أقِمِ الصـلاة لِدلوكِ الشمسِ » الآية . وقال : « فسبحان اللهِ حِين تمسون وحِين تصبِحون . وله الحمد فِى السمواتِ والأرضِ وعشِيا وحِين تظهِرون » . وقال : « وسبح بِحمـدِ ربك قبل طلوعِ الشمسِ وقبـل غروبِها » . وقال : « واركعوا واسجدوا » . وقال : «وقوموا للهِ قانِتِين» . وقال : « وإذا قرِئَ القرآن فاستمعوا له وأنصِتوا » على ما تقدّم . وقال : « ولا تجهر بِصلاتِك ولا تخافِت بِها» أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله فى كتابه ، وأحال على نبيه فى بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وأنزلنا إليـك الذكر لِتبين لِلنـاسِ ما نزل إليهـم » فبيّن صلى الله عليه وسـلم مواقيت الصـلاة ، وعدد الركعات والسّجدات ، وصـفة جميع الصلوات فرضها وسنتها ، وما لا تصـح إلا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال فى صحيح البخارى : "صلّوا كما رأيتمونى أصلى". ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى

(١) راجع المسئلة السابعة فى تفسير آية ٢ .

بيّن جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى. والذكرى مصدر جاء بألف التأنيث.

قوله تعالى: وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي على الصلاة؛ كقوله: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا». وقيل: المعنى واصبر يا محمد على ما تلق من الأذى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المصلين.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أي هلّا كان. ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي من الأمم التي قبلكم. ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر. ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم. ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهذا توبيخ للكفار. وقيل: لولا هاهنا للنفي؛ أي ما كان من قبلكم؛ كقوله: فلولا كانت قرية آمنت أي ما كانت. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع؛ أي لكن قليلا. ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهوا عن الفساد في الأرض. قيل: هم قوم يونس؛ لقوله: «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ». وقيل: هم أتباع الأنبياء وأهل الحق. ﴿وَٱتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا وعصوا. ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أى أهل القرى . ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك وكفر . ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أى فيما بينهم فى تعاطى الحقوق؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط ؛ ودل هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشّرك ، و إن كان عذاب الشّرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح التّرمذىّ من حديث أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " وقد تقدّم (١) . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهم، أى ما أهلك قوما إلا بعد إعذار و إنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه و إن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه ؛ دليله قوله : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال سعيد بن جُبير : على ملّة الإسلام وحدها . وقال الضّحاك : أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى . ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أى على أديان شتى؛ قاله مجاهد وقتادة . ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء منقطع؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلفين فى الرزق، فهذا

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

غنىّ وهذا فقير « إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » بالقناعة؛ قاله الحسن . ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء : الإشارة للاختلاف؛ أى وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضّحاك : ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال : « ولذلك » ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيقى، فحملت على معنى الفضل . وقيل: الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة، وقد يشار بـ« ذلك » إلى شيئين متضادين؛ كقوله تعالى : « لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » وقال : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » وكذلك قوله : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أى ولما ذُكر خلقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السّعير؛ أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة . وروى عن ابن عباس أيضا قال : خلقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه . قال المهدوىّ : وفى الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » والمعنى : ولشهود ذلك اليوم خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » أى للسّعادة والشّقاوة خلقهم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ معنى « تمت » ثبت ذلك كما أخبر وقدّر فى أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل . ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ « من » لبيان الجنس؛ أى من جنس الجنة وجنس الناس . « أجمعين » تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه أنه يملأ جنته بقوله : "ولكل واحدة منكما ملؤها". خرجه البخارىّ من حديث أبى هريرة وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ «كلا» نصب بـ«نقُصّ» معناه وكلّ الذى يحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك . وقال الأخفش : «كُلًّا» حال مقدمة، كقولك : كُلًّا ضربت القوم . ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نزيدك به تثبيتا ويقينا . وقال آبن عباس : ما نشدّ به قلبك . وقال آبن جُريج : نُصبّر به قلبك حتى لا تجزع . وقال أهل المعانى : نُطيّب، والمعنى متقارب . و « ما » بدل من «كلا» المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أى فى هذه السورة ؛ عن آبن عباس وأبى موسى وغيرهما؛ وخصّ هذه السّورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصّها بالذّكر تأكيدا وإن كان الحقّ فى كلّ القرآن . وقال قَتَادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا يريد النبوّة . ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشريف لهذه السّورة؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة والذّكرى ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التّخصيص . «وذِكرى لِلمؤمنين» أى يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون ؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد ووعيد. ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ. وَٱنتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تهديد آخر، وقد تقدّم معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى غيبهما وشهادتهما، فحذف لدلالة المعنى. وقال آبن عباس: خزائن السموات والأرض. وقال الضحّاك: جميع ما غاب عن العباد فيهما. وقال الباقون: غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض. وقال أبو على الفارسيّ: «ولِلهِ غيب السمواتِ والأرضِ» أى عِلم ما غاب فيهما، أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعا، لأنه حذف حرف الجر، تقول: غبت فى الأرض وغبت ببلد كذا. ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ أى يوم القيامة، إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص «يُرجَع» بضم الياء وفتح الجيم، أى يُرَدّ. ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى آلجأ إليه وثِق به. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازى كلّا بعمله. وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة. الباقون بياء على الخبر. قال الأخفش سعيد: «يعملون» إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم، قال: وقال بعضهم «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: قل لهم «وما ربك بِغافِلٍ عما تعملون». وقال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة «هـود» من قوله: «ولِلهِ غيب السمواتِ والارض» إلى آخر السورة. تمت سورة «هود» ويتلوها سورة «يوسف» عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة ؛ وسيأتي . وقال سعد ابن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثتنا ؛ فأنزل : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الر ﴾ تقدم القول فيه (1) ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : « الر » اسم السورة ؛ أي هذه السورة المسماة « الر » . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يعني القرآن المبين ؛ أي المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهداه وبركته . وقيل : أي هذه تلك الآيات التي كنتم توعدون بها في التوراة .

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ؛ نصب « قرآنا » على الحال ؛ أي مجموعا . و « عربيا » نعت لقوله قرآنا . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد رجلا صالحا ، و « عربيا » على الحال ،

(1) راجع جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أى يقرأ بلغتكم يا معشر العرب . أعرب بيّن ، ومنه " الثيب تُعرب عن نفسها " .
﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى لكى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وبعض العرب يأتى بأن مع « لعل » تشبيها بعسى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد ؛ كما قال الشاعر[1] :

* يا أبتا علّك أو عساكا *

وقيل : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى لتكونوا على رجاء من تدبّره؛ فيعود معنى الشّك إليهم لا إلى الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى « أنزلناه » أى أنزلنا خبر يوسف؛ قال النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم — إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتابا ولا هو فى موضع كتاب — بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ بمعنى المصدر ، والتقدير : قصصنا أحسن القَصَص . وأصل القَصَص تتبع الشيء ، ومنه قوله تعالى : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى تتبعى أثره ؛ فالقاصّ يتبع الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى القَصَص لا إلى القصّة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيّد السّياقة له . وقيل : القَصَص ليس مصدرا ، بل هو فى معنى الاسم ، كما يقال : الله رجاؤنا ، أى مرجوّنا ؛ فالمعنى على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار . ﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أى بوحينا فـ « ما » مع الفعل بمنزلة المصدر . ﴿ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا ، أو بدل منه ، أو عطف بيان . وأجاز الفراء الخفض؛ قال : على التكرير؛ وهو عند البصريين على البدل من « ما » .

(١) الرجز للعجاج ؛ وصدر البيت .

* تقول بنتى قد أنى أناكا *

وأجاز أبو إسحق الرفع على إضمار مبتدأ ؛ كأن سائلا سأله عن الوحى فقيل له : هو القرآن . ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى من الغافلين عما عرّفناك .

مسئلة — واختلف العلماء لم سُمّيت هذه السورة أحسن القَصص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل : لأنه ليست قصّة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصّة ؛ وبيانه قوله فى آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . وقيل : سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم — بعد إلتقائهم — عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم ، حتى قال : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجنّ والإنس والأنعام والطّير ، وسير الملوك والممالك ، والتّجار والعلماء والجهّال ، والرجال والنّساء وحيلهنّ ومكرهنّ ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسِّيَر وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمل الفوائد التى تصلح للدين والدّنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أحسن » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنما كانت أحسن القَصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وآمرأة العزيز ؛ قيل : والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ « إذ » فى موضع نصب على الظرف ؛ أى اذكر لهم حين قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة آبن مُصَرِّف « يُؤْسِف » بالهمزة وكسر السين . وحكى أبو زيد « يؤسَف » بالهمزة وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمىّ ؛ وقيل : هو عربىّ . وسئل أبو الحسن الأقطع — وكان حكيما — عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة

الحزن، والاسيف العبد، وقد ٱجتمعا في يوسف؛ فلذلك سُمي يوسف. ﴿ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ بكسر التاء قراءة أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي، وهي عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب في النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال: رجل نُكَحة وهُزَأة؛ قال النحاس: إذا قلت «يَا أَبتِ» بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها — أن قولك: «يا أبه» يؤدّى عن معنى «يا أبي»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا في المعرفة؛ ولا يقال: جاءني أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا في النداء خاصة، ولا يقال «يا أبتي» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يا أبتِ» فكسر دل على الياء لا غير؛ لأن الياء في النية. وزعم أبو إسحق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: «يا أبتي»؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يا أبتَ» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتي» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت «يا أبتا» فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاما أقبل. وأجاز الفراء «يا أبتُ» بضم التاء. ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ ليس بين النحويين ٱختلاف أنه يقال: جاءني أحدَ عشرَ، ورأيت ومررت بأحدَ عشرَ، وكذلك ثلاثةَ عشرَ وتسعةَ عشرَ وما بينهما؛ جعلوا الٱسمين ٱسما واحدا وأعربوهما بأخفّ الحركات. قال السّهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا؛ رواه الحرث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة — وهو رجل من أهل الكتاب — فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال: الحرثان والطارق والذيال وقابس والمصبح والضروح(١) وذو الكنفات وذو القرع والفليق ووثاب والعمودان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له. قال ٱبن عباس وقَتَادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قَتَادة أيضا: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

(١) كذا في «عقد الجمان» للعيني، وفي الأصل «النطح».

أبيــه . ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ توكيد . وقال : « رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » بجاء مذكرا ؛ فالقول عنــد الخليل وسيبويه أنه لمـا أخبر عن هــذه الأشـياء بالطاعة والسّــجود وهمـا من أفعـال من يعقل أخبر عنهما كما يخــبر عمن يعقل . وقد تقدّم هــذا المعنى فى قوله : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْـكَ » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع مَن يعقل إذا أنزلوه منزلتــه ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعــالى : قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَـكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

فيه إحدى عشرة مسئلة :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أى يحتــالوا فى هلاكك؛ لأن تأويلها ظاهر؛ فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ . واللام فى « لك » تأكيد، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانيـــة ــ الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعــة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصــالح أو تُرى له ". وقال : "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا " . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة ، وروى " من ســبعين جزءا " . وروى من حديث ٱبن عبــاس رضى الله عنهما "جزء من أربعين جزءا من النبوّة". ومن حديث ٱبن عمــر "جزء من تسعة وأربعين جزءا ". ومن حديث العبــاس " جزء من خمسين جزءا مِن النبوّة ". ومن حديث أنس " من ستة وعشرين " وعن عُبادة بن الصّامت " من أربعة وأربعين من النبوّة ". والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هــذين الحديثين ، وأما سائرها فمن أحاديث الشيوخ ؛ قاله ٱبن بَطّال . قال أبو عبد الله المــازَرِىّ : والأكثر والأصح عنــد أهل الحديث " من ســتة وأربعين " . قال الطّبرىّ : والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله : "إنها جزء من سبعين جزءا من النبوّة" فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان؛ وأما قوله : "إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين" فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصدّيق — رضي الله عنه — أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السَّبَرات(١)، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة — إن شاء الله — جزء من أربعين جزءا من النبوّة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين الجزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف تضاد وتدافع — والله أعلم — لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدِّين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب؛ كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكر أبو سعيد الأَسْفاقُسِيّ عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : "جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة" فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة ثلاثة وعشرين عاما — فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما — فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا؛ وإلى هذا القول أشار المازَريّ في كتابه « المعلم »، واختاره القونويّ في تفسيره من سورة « يونس » عند قوله تعالى : « لهم البشرى » . وهو فاسد من وجهين : أحدهما — ما رواه

---

(١) السبرات (جمع سبرة) بسكون الباء : شدّة البرد .

أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة أن مدّة الوحى كانت عشرين سنة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين ؛ وهو قول عروة والشعبيّ وابن شهاب والحسن وعطاء الخراسانى وسعيد بن المسيّب على آختلاف عنه ، وهى رواية ربيعة وأبى غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل : الثانى — أن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى .

الثالثة — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوّة ؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران ، وقلب الأعيان ، والاطلاع على شىء من علم الغيب ؛ كما قال عليه السلام : "إنه لم يبق من مبشِّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة فى النوم" الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله ، وأنها من النبوّة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان" وأن التصديق بها حقّ ، ولها التأويل الحسن ، وربما أغنى بعضها عن التأويل ، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه ؛ ولا خلاف فى هذا بين أهل الدّين والحقّ من أهل الرأى والأثر ، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشِرذمة من المعتزلة .

الرابعة — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلِّط أهلا لها ؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ؛ كمنام رؤيا الملك الذى رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين فى السجن ، ورؤيا بُخْتُنَصَّر ، الذى فسّرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنام عاتكة ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره وهى كافرة ، وقد ترجم البخاريّ « باب رؤيا أهل السجن » فالجواب — أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحى ولا من النبوّة ؛ إذ ليس كل من صدق فى حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة ؛ وقد تقدّم فى « الأنعام »(١) أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك على الندور والقلة ، فكذلك رؤيا هؤلاء ؛ قال المهلّب : إنما ترجم البخاريّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣ وما بعدها طبعة أولى .

بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة ، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة ، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها ، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوّة .

الخامســة — الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام ، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلْم ، وهي المضافة إلى الشيطان ، وإنما سميت ضِغثا ؛ لأن فيها أشياء متضادة ؛ قال معناه المهلَّب . وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تغني عن قول كل قائل ؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليحزن آبن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة". قال قلت : سمعت هــذا من رسول الله صــلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ! سمعته من رسول الله صــلى الله عليه وسلم .

السادســة — قوله تعــالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ الآية . الرُؤيا مصــدر رأى في المنام رؤيا على وزن فُعــلى كالسُّقْيا والبُشْرى ؛ وألفــه للتأنيث ولذلك لم ينصرف . وقد آختلف العلماء في حقيقة الرؤيا ؛ فقيل : هي إدراك في أجزاء لم تحلّها آفة ، كالنوم المستغرق وغيره ؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم ، فيخلق الله تعالى للرائي علمــا ناشئا ، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك ، قال آبن العربي : ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة ، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال ، وإنما يرى الجائزات المعتادات . وقيل : إن لله ملَكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم ، فيمثل له صورا محسوسة ؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لمــا يقع في الوجود ، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة ، وفي الحالتين تكون مبشرة أو منذرة ؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره : "رأيتُ سوداء[(١)] ثائرةَ الرأسِ تخرج من المدينة إلى مَهْيعة[(٢)] فأوّلتُها الحُمّى".

(١) أي آمرأة سوداء ، كما في رواية النسائي . (٢) المهيعة : هي الجحفة ، ميقات أهل الشام .

و "رأيت سيفى قد ٱنقطع صدره و بقرا تُنحر فأولتهما رجلٌ من أهل بيتى يُقتل والبقر نفر من أصحابى يُقتلون". و"رأيت أنى أدخلت يدى فى درعٍ حصينة فأولتها المدينة". و"رأيت فى يدى سُوارين فأولتُهما كذّابين يَخرجان بعدى". إلى غير ذلك مما ضربتُ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلا، ومنها ما لا يظهر إلا بعد الفكر؛ وقد رأى النائم فى زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعـــة — إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ »؟ فالجواب — أن الرؤيا إدراك حقيقةٍ على ما قدّمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيق فى اليقظة، و إذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا ٱعتراض؛ روى أن يوسف عليه السلام كان ٱبن ٱثنتى عشرة سنة.

الثامنـــة — هـذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها؛ روى أبو رَزِين العُقَيلىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوّة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بها صاحبها فإذا حدّث بها وقعت فلا تحدّثوا بها إلا عاقلا أو محبا أو ناصحا" أخرجه الترمذىّ وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رَزِين ٱسمه لَقيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كلّ أحد؟ فقال: أَبِالنبوّة يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبّر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبّرها على الخير وهى عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوّة فلا يتلاعب بالنبوّة.

التاســعة — وفى هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا فى معنى الغيبة؛ لأن يعقوب — عليه السلام — قد حذّر يوسف أن

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ؛ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " استعينوا على [إنجاح][(١)] حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود ". وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا ؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم ، ولم يبال بذلك من نفسه ؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه . ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه ؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تغلّ بذلك صدورهم ، فيعملوا الحيلة فى هلاكه ؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء فى ذلك الوقت ، ووقع فى كتاب الطّبرىّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء ، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوىّ ، وعن عقوق الآباء ، وتعريض مؤمن للهلاك ، والتآمر فى قتله ، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء ، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبيّ ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعا من الكبائر ، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها ، وإنما اختلفوا فى الصغائر على ما تقدّم ويأتى .

العاشرة — روى البخاريّ عن أبى هُريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات " قالوا : وما المبشِّرات ؟ قال : " الرؤيا الصالحة " وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها ، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة ، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه ؛ فإن أدرك تأولها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعى رضى الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك ، وقد تقدّم فى « يونس » فى تفسير قوله تعالى : « لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أنها الرؤيا الصالحة . وهذا وحديث البخاريّ مخرجه على الأغلب ، والله أعلم .

---

(١) الزيادة عن « الجامع الصغير » .

الحـادية عشرة — روى البخاريّ عن أبي سَلَمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قَتَادة يقول، وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحدا فإنها لن تضره". قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبي قَتَادة : إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وإذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه" . وفي حديث أبي هُريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل" . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هـذا الأمر بالتحوّل ، والصلاة زيادة ، فعلى الرائي أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه ، وإذا تمضمض تَفَل وبَصَق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السَّحَر من الليل .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف في قوله : « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ » و « ما » كافة . وقيل : « وكذلك » أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوّة . والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبَى ، وأصله من جَبَيْتُ

الشيء أي حصّلته ، ومنه جَبيتُ المـاء في الحوض ؛ قاله النحاس . وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي أتاه الله تعالى؛ التمكين في الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ؛ وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شدّاد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له ؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك، وكان الصدّيق رضي الله عنه من أعبر الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيّب فيما ذكروا . وقد قيل في تأويل قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوّة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي بالنبوّة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه . ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخُلّة ، وإنجائه من النار ﴿ وَإِسْحَقَ ﴾ بالنبوّة . وقيل : من الذّبح ؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : ﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أنه سيعطي بني يعقوب كلهم النبوّة؛ قاله جماعة من المفسرين . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بما يعطيك . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في فعله بك .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ يعني من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة «آيةٌ» على التوحيد؛ واختار أبو عبيد «آياتٌ» على الجمع؛ قال: لأنها خبر كثير . قال النحاس : و «آية» هنا قراءة حسنة، أي لقد كان للذين سألوا عن خبر

يوسف آية فيما خبّروا به ؛ لأنهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج آبنــه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ — ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ؛ وإنمــا وَجّه اليهودُ من المدينة يسألونه عن هذا — فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ؛ فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة ؛ فكان ذلك آية للنبيّ صلى الله عليــه وسلم ، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيات » موعظة ؛ وقيــل : عبرة . وروى أنها فى بعض المصاحف « عبرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية فى العـلم والحسن أى عجب . قال الثعلبيّ فى تفسيره : لمــا بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه ؛ قال آبن زيد : كانوا أنبياء ، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه ! فبغوه بالعداوة ، وقد تقدّم ردّ هذا القول . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساخر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر ؛ دان ونفتالى وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب آثنى عشر رجلا . قال السّهيلى : وأُمّ يعقوب آسمها رفقا ، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين ، وليانـــ بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب . وقيل : فى آسم الأَمَتين ليــا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل ، والأخرى لأختها ليــا ، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب ، وكان يعقوب قد جمع بينهما ، ولم يحل لأحد بعده ؛ لقول الله تعــالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» . وقد تقدّم الردّ على ما قاله آبن زيد ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ « يُوسُفُ » رفع بالابتداء ؛ واللام للتأكيد ، وهى التى يتلقى بها القسم ؛ أى والله ليوسف . ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه . ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبره ، ولا يثنى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل ؛ وإنمــا قالوا هــذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا فى كيده . ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى جماعة ، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة ، وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة ؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

والرهط . ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لم يريدوا ضلال الدّين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا؛ بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير، فى إيثار آثنين على عشرة مع آستوائهم فى الآنتساب إليه . وقيل : لفى خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا .

قوله تعالى : ﴿ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى قال قائل منهم : « آقتلوا يوسف » ليكون أحسم لمادة الأمر . ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ أى فى أرض، فأسقط الخافض وانتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه فيما حذف منه « فى » :

لَدْنٌ بَهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ * فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ (١)

قال النحاس : إلا أنه فى الآية حسن كثير؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدّى الفعل إليه . والقائل قيل : هو شمعون؛ قاله وهب بن منبّه . وقال كعب الأحبار؛ دان . وقال مقاتل : روبيل؛ والله أعلم . والمعنى أرضا تبعد عن أبيه؛ فلا بد من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيه فى أرض . ﴿ يَخْلُ ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ معناه : يخلص ويصفو ﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيقبل عليكم بكليته . ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد الذنب ، وقيل : من بعد يوسف . ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ أى تائبين؛ أى تُحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم؛ وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أى يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ (١٠)

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية وقد وصف فيه رمحا لين الهز؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أوفى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره؛ والعسلان : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . ويروى : لذ؛ أى مستلذ عند الهز للينه . (شواهد سيبويه) .

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله ٱبن عباس. وقيل: روبيل، وهو ٱبن خالته، وهو الذى قال : « فلن أبرح الأرض » . وقيل: شمعون . ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « فى غيابة ٱلجبّ ». وقرأ أهل المدينة « فى غَيَابَاتِ الْجُبِّ » وٱختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيــه ، وأنكر الجمع لهــذا . قال النحاس : وهــذا تضييق فى اللغة؛ « وغيابات » على الجمع [يجوز من وجهين][1]: حكى سيبويه سِيرَ عليه عشيّاناتٍ وأصيلاناتٍ، يريد عشية وأصيلا، بجعل كل وقت منها عشية وأصيلا ؛ فكذا جعل كل موضع ممــا يُغيّب غَيابة .[والآخر — أن يكون فى الجبّ غيابات (جماعة) . ويقال : غاب يَغيبُ][1] غَيْبا وغَيابة وغِيَابا ؛ كما قال الشاعر :

أَلَا فالبَثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ * أَنَا ذَاكُمَا قــد غَيَّبتْنِي غِيَابِيَــا

قال الهروىّ: والغَيابة شبه بجَفٍ[2] أو طاق فى البئر فويق المــاء، يغيّب الشىء عن العين. وقال ٱبن عزيز : كل شىء غيّب عنك شيئا فهو غَيابة . قلت : ومنه قيــل للقبر غَيابة ؛ قال الشاعر :

فإن أنا يومًا غَيّبتـــنِي غَيَــابَتِى * فَسِيروا بسَيْرِى فى العَشِيرةِ والأَهلِ

والجبّ الرَّكِيّة التى لم تُطوَ، فإذا طُويت فهى بئر؛ قال الأعشى :

لئن كنتَ فى جُبٍّ ثمــانين قامةً * ورُقِّيتَ أســبابَ السَّماءِ بسُــلَّمِ[3]

وسميت جبّا لأنها قُطعت فى الأرض قَطْعا؛ وجمع الجبّ جِبَبة وجِبَاب وأَجْباب؛ وجمع بين الغَيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل :

(١) الزيادة عن النحاس . (٢) الجف : الناحية من الحوض أو البئر يأكله المــاء فيصير كالكهف .

(٣) بعــــده :

لَيستدرجنْكَ القولُ حتى تَهُزَّه * وتعــلمَ أنى عنكمُ غيرُ ملجَمِ

وتَشرَقَ بالقول الذى قد أذعتَه * كما شَرِقتْ صدرُ القناة من الدمِ

هو بئر ببيت المقدس ، وقيل : هو بالأُرْدُن ؛ قاله وهب بن منبّـه . مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثـانيــة — قوله تعالى: ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ جزم على جواب الأمر. وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تَلْتَقِطْهُ » بالتاء ، وهـذا محمول على المعنى؛ لأن بعض السيّارة سيّارة؛ وقال سيبويه : سقطت بعض أصابعه، وأنشد (١) :

وتَشْرَق بالقولِ الّذى قـد أَذعتَه ‏* كما شَرِقتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

وقال آخـــر :

أَرَى مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنِّى ‏* كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ (٢) من الهِــلَالِ

ولم يقـل شَرِق ولا أخذت . والسيّارة الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر ؛ وإنمـا قال القائل هـذا حتى لا يحتـاج إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود؛ فإن من التقطـه من السـيّارة يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هـذا وجها فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربمـا لا يأذن لهم أبوهم، وربمـا يطلع على قصدهم .

الثالثـــة — وفى هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أوّلا ولا آخرا ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبىّ ، فكانت هذه زلّة منهم؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدّمناه . وقيل : ما كانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله؛ وهذا أشبه، والله أعلم .

الرابعـــة — قال آبن وهب قال مالك: طُرِح يوسف فى الجبّ وهو غلام، وكذلك روى آبن القاسم عنه، يعنى أنه كان صغيرا؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

---

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشـيبانى ، وكانت بينهما مباينة ومهاجاة؛ فيقول له : يعود عليـك مكروه ما أذعت عنى من القول ونسبته إلى من القبيح ، فلا تجد منه مخلصا . والشرق بالماء كالغصص بالطعام .

(٢) سرار الشهر (بفتح السين المهملة وكسرها) وسرره : آخر ليلة منه .

فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » قال : ولا يلتقط إلا الصـغير ؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » وذلك يختص بالصغار ؛ وقولهم : « أَرْسِـلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

الخامســـة ــ الالتقاط تناول الشيء من الطريق ؛ ومنه اللّقيط واللّقطة ، ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الآية والسنة ، وما قال فى ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال ٱبن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يحتسبه . وقد ٱختلف العلماء فى اللّقيط ؛ فقيل : أصله الحرّية لغلبة الأحرار على العبيـد ؛ وروى عن الحسن بن على أنه قضى بأن اللّقيط حرّ ، وتلا « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وإلى هـذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهـو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن علىّ وجماعة . وقال إبراهيم النّخَعى : إن نوى رِقه فهـو مملوك ، وإن نوى الحِسبة فهو حرّ . وقال مالك فى موطّئه : الأمر عندنا فى المنبوذ أنه حرّ ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين ، هم يرثونه ويعقلون عنه ، وبه قال الشافعى ؛ واحتج بقوله عليه السلام : « وإنمـا الوَلاء لمن أعتق » قال : فنفى الوَلاء عن غير المعتِق . واتفق مالك والشـافعى وأصحابهما على أن اللقيط لا يُوالى أحدا ، ولا يرثه أحد بالوَلاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين : اللقيط يوالى من شاء ، فمن والاه فهو يرثه ويعقِل عنه ؛ وعند أبى حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقِل عنه الذى والاه ، فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن علىّ رضى الله عنه : المنبوذ حرّ ، فإن أحبّ أن يوالى الذى التقطه والاه ، وإن أحبّ أن يوالى غيره والاه ؛ ونحوه عن عطاء ، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حرّ . قال ٱبن العربىّ : إنمـا كان أصل اللّقيط الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ، فقضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب ؛ فإن كان فى قرية فيها نصارى ومسلمون قال ٱبن القاسم : يحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زِىّ اليهود فهو يهودىّ ، وإن وجد عليه زِىّ النّصارى فهو نصرانىّ ، وإلا فهو مسلم ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

على غير الإسلام . وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تغليبا لحكم الإسلام الذى يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ؛ قال أشهب : هو مسلم أبدا ؛ لأنى أجعله مسلما على كل حال ، كما أجعله حرا على كل حال . واختلف الفقهاء فى المنبوذ تدل البيّنة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها فى ذلك ، و إلى هذا ذهب أشهب لقول عمر هو حرّ ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة فى أنه عبد . وقال ابن القاسم : تقبل البيّنة فى ذلك ؛ وهو قول الشافعى والكوفى .

السادسة — قال مالك فى اللقيط إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البينة أنه ابنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمدا ، و إن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شىء على الأب ، والملتقط متطوع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقيط فهو متطوع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعى : كل من أنفق على من لا تجب له عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعى : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته فى بيت المال ، فإن لم يكن ففيه قولان : أحدهما — يستقرض له فى ذمته . والثانى — يقسط على المسلمين من غير عوض .

السابعة — وأما اللّقطة والضوالّ فقد اختلف العلماء فى حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوالّ سواء فى المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ و إلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوى ، وأنكر قول أبى عُبيد القاسم بن سلّام — أن الضالّة لا تكون إلا فى الحيوان واللّقطة فى غير الحيوان — وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الإفك للمسلمين : « إن أمّكم ضلّت قِلادتُها » فأطلق ذلك على القِلادة .

الثامنة — أجمع العلماء على أن اللّقطة مالم تكن تافها يسيرا أو شيئا لا بقاء لها فإنها تُعرَّف حولا كاملا ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له ، و إن تصدق بها فصاحبها مخير بين التضمين و بين أن ينزل على أجرها ، فأى ذلك تخير كان ذلك له بإجماع ؛

ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها أن له أكلهـا .

التـاسـعة ـ وآختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلا على إباحة التقاط اللّقطة وأخذ الضالّة مالم تكن إبلا . وقال في الشاة: "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب" يحضّه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتيـه ربه . ولو كان ترك اللّقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالّة الإبل ، والله أعلم . وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة، إن شاء أخذها وإن شاء تركها؛ هذا قول إسمعيل آبن إسحق رحمه الله . وقال المُزَنِيّ عن الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللّقطة إن وجدها إذا كان أمينا عليها؛ قال : وسواء قليل اللّقطة وكثيرها .

العـاشـرة ـ روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجُهَنِيّ قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : "آعْرِف عِفَاصها(1) ووِكَاءها ثم عَرِّفها سـنةً فإن جاء صاحبُها وإلا فشأْنَكَ بهـا" قال : فضـالّة الغنم يا رسول الله ؟ قال : "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب" قال : فضالّة الإبل ؟ قال : "ما لَكَ ولَهَـا معهـا سِقاؤُها وحِذاؤُها تَرِدُ المـاءَ وتأكل الشجر حتى يلقاها ربُّها" . وفي حديث أُبَيّ قال: "آحفظ عَدَدها ووِعاءَها ووِكَاءَها فإن جاء صاحبُها وإلّا فآستمتع بها" ففي هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عِفاص اللّقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلّها عليها؛ فإذا أتى صاحب اللّقطة بجميع أوصافها دفعت له؛ قال ابن القاسم : يُجْبَر على دفعها ؛ فإن جاء مستحق يستحقها ببيّنة أنهـا كانت له لم يضمن الملتقط شيئا ، وهـل يحلف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأول لأشهب ، والثاني لآبن القاسم ، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حَنْبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له؛ وهو بخلاف نص الحديث؛

(1) العفاص : الوعاء الذي يكون به النفقة ، جلدا كان أو غيره . والوكاء هو الخيط الذي يشد به الوعاء . والمراد بالعفاص والوكاء أن يعلم الملتقط صدق واصفها من كذبه ، وبالحذاء خفها ، فهي تقوى بأخفافها على السير وورود الماء والشجر .

ولو كانت البيّنة شرطا فى الدّفع لما كان لذكر العفاص والوكاء والعَدَد معنى ؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال؛ ولمّا جاز سكوت النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة — نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماؤنا فى البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم؟ قولان؛ وكذلك آختلف أئمتنا فى التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهر قول آبن القاسم أنها تلتقط، وقال أشهب وآبن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول آبن القاسم أصح لقوله عليه السلام : " احفظ على أخيك المؤمن ضالّته " .

الثانية عشرة — وآختلف العلماء فى النفقة على الضَّوالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه آبن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحق به كالرهن . وقال الشافعى : إذا أنفق على الضوالّ مَن أَخَذها فهو متطوع؛ حكاه عنه الربيع . وقال المُزَنىّ عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دينا، وما آدّعى قُبِل منه إذا كان مثله قَصْدا . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضى فهو متطوّع، وإن أنفق بأمر القاضى فذلك دين على صاحبها إذا جاء، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها . والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها، حتى يأمر القاضى ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة — ليس فى قوله صلى الله عليه وسلم فى اللّقطة بعد التعريف : " فآستمتع بها " أو " فشأنك بها " أو " فهى لك " أو " فآستنفقها " أو " ثم كُلْها " أو " فهو مال الله يؤتيه من يشاء " على ما فى صحيح مسلم وغيره ما يدل على التمليك، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها؛ فإن فى حديث زيد بن خالد الجُهَنىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : " فإن لم تعرف[1]

---

(١) (إن لم تعرف) : أى إن لم تعرف صاحبها .

فاستنفقها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدّها إليه" في رواية" ثم كُلْها فإن جاء صاحبها فأدّها إليه" خرجه البخاريّ ومسلم. وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللّقطة بعد التعريف؛ لتلك الظواهر، ولا التفات لقوله، لمخالفة الناس، ولقوله عليه السلام: "فأدّها إليه".

قوله تعالى: قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ (١٢)

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب! ولهذا قيل: الأب جلّاب والأخ سلّاب؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال. وقالوا ليعقوب: «يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ» وقيل: لما تفاوضوا وافترقوا على رأى المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول. وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي. قرأ يزيد بن القَعْقَاع وعمرو بن عُبيد والزّهرىّ «لَا تَأْمَنَّا» بالإدغام، وبغير إشمام وهو القياس؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكنا. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «لَا تَأْمَنُنَا» بنونين ظاهرتين على الأصل. وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رَزِين — وروى عن الأعمش — «لَا تِيمَنَّا» بكسر التاء، وهى لغة تميم؛ يقولون: أنت تِضرب؛ وقد تقدّم. وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أى في حفظه وغفلته حتى نردّه إليك. قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا» الآية؛ فحينئذ قال أبوهم: «إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» فقالوا حينئذ جوابا لقوله: «مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ» الآية. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ «غدا» ظرف، والأصل عند سيبويه غَدْوٌ، وقد نطق به على الأصل؛ قال النّضر بن شميل: ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدْوَة،

وكذا بُكرة . « نرتع ونلعب » بالنون و إسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة « نَرْتَعِ » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة « يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ » بالياء و إسكان العين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَع الإنسان والبعير إذا أَكَلا كيف شاءا ؛ والمعنى : نتسع فى الخصب ؛ وكل مخصب راتع ؛ قال :

* فارْعَىْ[1] فزارةُ لاهَنَاكِ المَرْتَعُ *

وقال آخر[2] :

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتى إذا ٱدَّكرتْ * فإنَّما هى إقبالٌ و إدبارُ

وقال آخر[3] :

أكفراً بعد رَدِّ الموتِ عنّى * وبعد عَطائِكَ المائةَ الرِّتاعا

أى الراتعة لكثرة المرعى . وروى مَعْمر عن قَتَادة «ترتع» تسعى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إنا ذهبنا نستبِق » لأن المعنى : نستبق فى العَدْو إلى غاية بعينها ؛ وكذا «يرتع» بإسكان العين ، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . « ويرتع » بكسر العين من رعى الغنم ، أى ليتدرب بذلك ويترجّل ؛ فمرّة يرتع ، ومرة يلعب لصغره . وقال القُتَبِيّ « نرتع » نتحارس ونتحافظ ، ويرعى بعضنا بعضا ؛ من قولك : رعاك الله ، أى حفظك . «ونلعب» من اللعب . وقيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذى هو ضدّ الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « ونلعب » . ومنه قوله عليه السلام : " فهلّا بِكْراً تُلاعبها وتُلاعبك "[4] .

---

(١) فى الأصل (فارعينى) وهو تحريف . (٢) البيت للخنساء من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا . ومعنى (ترتع) ترعى . تصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها ، فكلما غفلت عنه رتعت ، فاذا ادكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ؛ فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرا . (٣) هو القطامى . (٤) الخطاب لجابر بن عبد الله ؛ وذكر ملا على عن الطيبى : أن الملاعبة عبارة عن الألفة التامة ، فان الثيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبتها كاملة ، بخلاف البكر .

وقرأ مجاهد وقتادة : « يُرتِع »[1] على معنى يُرتع مطيته، فحذف المفعول؛ « ويلعبُ » بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى : وهو ممن يلعب . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة . وقد نقل أنهم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضرارا به .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ في موضع رفع؛ أي ذهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبته . ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شدّ على يوسف ، فلذلك خافه عليه؛ قاله الكلبي . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكأن يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله ، فدرأ عنه واحد ، ثم انشقّت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام؛ فكانت العشرة أخوته ، لما تمالئوا على قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه في الأرض هو مقامه في الجبّ ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم؛ قال ابن عباس : فسماهم ذئابا . وقيل : ما خافهم عليه ، ولو خافهم ما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصّحارى . والذئب مأخوذ من تذاءبت[2] الريح إذا جاءت من كل وجه؛ كذا قال أحمد بن يحيى؛ قال : والذئب مهموز

(١) (يرتع) من أرتع؛ وقد ورد في الأصول بالياء؛ والذي في تفسير ابن عطية والألوسي وأبي حيان عن مجاهد وقتادة هو (بالنون) وجزم (نلعب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقتادة « نرتع » بضم النون وكسر التاء ، و « نلعب » بالنون والجزم) .

(٢) ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق عند الزمخشري ، وقال الأصمعي : إن تذاءبت مشتق من الذئب؛ لأن الذئب يفعله في عدوه؛ وتعقب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجامدة قليل مخالف للقياس .

لأنه يجيء من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الذِّيب » بغير همز ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء . ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ أي مشتغلون بالرعي .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه . ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ في حفظنا أغنامنا ؛ أي إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « لخاسرون » لجاهلون بحقه . وقيل لعاجزون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ج وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ ﴾ « أن » في موضع نصب ؛ أي على أن يجعلوه في غيابة الجبّ . قيل في القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظُنّه ، وسلّمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنيّ شفقتي عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا[1] فاحمله ثم عجِّل بردّه إليّ . قال : فأخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يُشيِّعهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذي كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشدّ مما عند الآخر من الغيظ والعسف ؛ فاستغاث بروبيل وقال : « أنت أكبر إخوتي ، والخليفة من بعد والدي عليّ ، وأقرب الأخوة إليّ ، فارحمني وارحم ضعفي » فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بيني وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فلتنجك منا ؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه ، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا أخي ! ارحم ضعفي وعجزي وحداثة سني ، وارحم قلب أبيك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده ؛ فرقّ قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما دمتُ حيّا ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التي حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبيّ إلى أبيه ، ونعاهده

(١) أعيا الرجل في المشي : كلّ

ألا يحــدّث والده بشيء ممــا جرى أبدا ؛ فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عنــد يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنّك معه، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهاهنا هذا الجبّ الموحش القفر، الذى هو مأوى الحيات والهوام فألقُوه فيه، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد، وقد استرحتم من دمه ، و إن انفلت على أيدى سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد؛ فأجمع رأيهــم على ذلك؛ فهو قول الله تعــالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وجواب « لمــا » محذوف؛ أى فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه فى الجب عظمت فتنتهم . وقيل : جواب « لمــا » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل التقدير : فلما ذهبوا به من عنــد أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب جعلوه فيها، هــذا على مذهب البصريين؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب « أوحينا » والواو مقحمة، والواو عندهم تزاد مع لمــّا وحتى؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » أى فتحت ، وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ » أى فار . قال امرؤ القيس :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَى(١) *

أى انتحى؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى ناديناه . وفى قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوّته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقَتَادة : أعطاه الله النبوّة وهو فى الجبّ على حجر مرتفع عن المــاء . وقال الكَلْبيّ : ألقى فى الجبّ وهو ابن ثمانى عشرة سنة، فما كان صغيرا؛ ومن قال كان صغيرا فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » . وقيل : كان مناما، والأوّل أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعــالى : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَــذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا ؛ فعلى هــذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجبّ تقوية لقلبه، وتبشيرا له بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به؛ فعلى هذا الوحى قبل إلقائه

(١) تمــام البيت : * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

فى الجبّ إنذارا له . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيعرفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم . ومما ذكر من قصته إذ ألقى فى الجبّ — ما ذكره السدّى وغيره — أن إخوته لما جعلوا يدلونه فى البئر تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه؛ فقال : يا إخوتاه! ردّوا علىّ قميصى أتوارى به فى هذا الجبّ، فإن متّ كان كفنى، وإن عشت أوارى به عورتى؛ فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك؛ فقال : إنى لم أر شيئا، فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان فى البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . وقيل : إن شمعون هو الذى قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدى؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمى والوقوع فأقعدته على الصخرة سالما . وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام؛ فقام على الصّخرة وجعل يبكى، فنادوه، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام؛ فلما وقع عريانا نزل جبريل إليه؛ وكان إبراهيم حين ألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحق، ثم ورثه يعقوب، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذة وجعله فى عنقه، فكان لا يفارقه؛ فلما ألقى فى الجبّ عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه . قال وهب : فلما قام على الصّخرة قال : يا إخوتاه! إن لكل ميت وصية، فاسمعوا وصيتى، قالوا : وما هى؟ قال : إذا اجتمعتم كلّكم فأنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتى، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى، وإذا شربتم فاذكروا عطشى، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربتى، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى؛ فقال له جبريل : يا يوسف! كُفّ عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله

بمكان ؛ ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب ، و يا صاحب كلّ وحيد ، و يا ملجأ كلّ خائف ، و يا كاشف كل كربة ، و يا عالم كل نجوى ، و يا منتهى كل شكوى ، و يا حاضر كل ملإ ، يا حىّ يا قيوم ! أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبى ، حتى لا يكون لى همّ ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا ، إنك على كل شىء قـدير ؛ فقالت الملائكة : إلهنـا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبىّ ، والدعاء دعاء نبىّ . وقال الضّحاك : نزل جبريل عليه السـلام على يوسف وهو فى الجبّ فقـال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجّل الله لك خروجك من هـذا الجب ؟ فقال : نعم ! فقـال له : قل يا صانع كلّ مصنوع ، و يا جابر كل كَسِير ، و يا شاهد كل نَجْوى ، و يا حاضر كل ملإ ، و يا مفرّج كل كُربة ، و يا صاحب كل غريب ، و يا مؤنس كل وحيد ، آيتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحدا سـواك ؛ فرددها يوسف فى ليلته مرارا ؛ فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ .

قوله تعـالى : وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾

فيـــه مسئلتـــان :

الأولى — قوله تعالى : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً » أى ليلا ، وهو ظرف يكون فى موضع الحال ؛ و إنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة ؛ ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحيـاء فى العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار ؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لمـا سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى الغنم شىء ؟ قالوا : لا . قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نسـتبق فأكله الذئب ؛ فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ على ما يأتى بيانه . وقال السدىّ وابن حبّان : إنه لمـا قالوا أكله الذئب خرّ مغشيا عليه ، فأفاضوا عليه المـاء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ؛ قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نَفَس يعقوب فلم يحسّ بنَفَس ، ولم يتحرك له عِرْق ؛ فقال لهم يهوذا : و يل لنا من ديّان يوم الدّين ! ضيّعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السّحر ، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل ؛

فقال : ياروبيل ! ألم آتمنك على ولدي؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت ! كُفَّ عنّي بكاءك أخبرك ؛ فكفّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » .

الثانيـــة — قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنّعا ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إذا اشتبكتْ دمـوعٌ في خُدودٍ * تبيَّنَ مَنْ بكَى مِمَّنْ تبَاكَى

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنـدَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيـــه ســـبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « نستبق » نفتعل ، من المسابقة . وقيل : أي نَنْتَضِل ؛ وكذا في قراءة عبد الله «إنا ذهبنا نَنْتَضِل» وهو نوع من المسابقة ؛ قاله الزجاج . وقال الأزهريّ : النِّضال في السّهام ، والرِّهان في الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القُشيريّ أبو نصر : «نستبق» أي في الرمي ، أو على الفرس ، أو على الأقدام ؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو ، لأنه الآلة في قتال العدوّ ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السّدّي وآبن حبّان : «نستبق» نشتد جريا لنرى أينا أسبق . قال آبن العربي : المسابقة شِرْعة في الشَّريعة ، وخَصْلة بديعة ، وعَون على الحرب ؛ وقـد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميـه فسبقها ؛ فلمـا كبر رسول الله صـلى الله عليه وسـلم سابقها فسبقته ؛ فقال لهـا : " هذه بتلك " .

قلت : وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلا لمـا رجعوا من ذي قَرَد إلى المدينة فسبقه سَلَمة ؛ خرجه مسلم .

الثانيـــة — وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي قد أُضْمِرت[1] [من الحَفْيَاء[2]] وكان أمدها ثَنِيَّة الوَدَاع[3]، وسابق بين الخيل التي لم تُضَمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بني زُرَيق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هـذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقـة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني — أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث — ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيـل التي يجب أن تُضمَّر و يسابق عليها، وتقام هذه السنّة فيها هي الخيل المعدّة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثـــة — وأما المسابقة بالنّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول صـلى الله عليه وسـلم فنزلنا منزِلا فِمنّا من يصلِح خِباءه، ومنا من يَنْتَضِل، وذكر الحديث. وخرج النّسائيّ عن أبي هُريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا سَبَق[4] إلا في نَصْـل أو خُفّ أو حافر". وثبت ذكر النّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هُريرة، ذكره النّسائي؛ وبه يقـول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاريّ عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليـه وسلم ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبق — قال حُمَيد: أو لا تكاد تُسبَق — فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: "حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه".

الرابعـــة — أجمع المسـلمون على أن السَّبَق لا يجـوز على وجه الرِّهان إلا في الخفّ والحافر والنّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قِمار. وقد زاد أبو البَخْتَرِيّ

(١) تضمير الخيل: هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لا تعلف إلا قوتا لتخف. وقيل: تشـد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتد لحمها، و يكون ذلك لغزو أو سباق.

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك). والحفياء (بالمد و يقصر): موضع بالمدينـة بينه و بين ثنية الوداع ستة أميال أو سـبعة. (٣) الثنية في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه؛ وثنية الوداع مشرفة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بني زريق ميل.

(٤) «لا سبق»: هو بفتح البـاء ما يجعل للسابق على سبقه من المـال؛ و بالسكون مصـدر. قال الخطابي: الصحيح رواية الفتح؛ أي لا يحل أخذ المـال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة.

القاضي في حديث الخف والحافر والنّصل «أو جَناح» وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال . وقد روى عن مالك أنه قال : لا سَبَق إلا في الخيـل والرمي؛ لأنه قوة على أهـل الحرب؛ قال : وسَبَق الخيل أحبّ إلينا من سبَق الرمي . وظاهر الحديث يسوّى بين السّبق على النُّجُب والسّبق على الخيل . وقد منع بعض العلماء الرهان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليهـا . وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تُؤُوِّل قوله ؛ لأن حمله على العموم يؤدّي إلى إجازة القمار، وهو محرّم باتفاق .

الخامســـة — لا يجوز السَّبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمدٍ معلوم، كما ذكرنا؛ وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشْق معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشترط خَسْقًا[1] أو إصابة بغير شرط . والأسباق ثلاثة : سَبَق يعطيه الوالي والرجل غير الوالي من ماله متطوّعا فيجعل للسابق شيئا معلوما؛ فمن سـبق أخذه . وسَبَق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه، وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا ممـا لا خلاف فيه . والسَّبَق الثالث — اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئا مثـل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبَقه وسبَق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخلا بينهما محلِّلا لا يأمنا أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلِّل أحرز السَّبَقين جميعا وأخذهمـا وحده، وإن سـبق أحد المتسابقين أحرز سبَقه وأخذ سبَق صاحبه، ولا شيء للمحلِّل فيه، ولا شيء عليه . وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما . وقال أبو علي بن خيران — من أصحاب الشافعي — : وحكم الفرس المحلِّل أن يكون مجهولا جريه؛ وسمى محلِّلا لأنه يحلّل السَّبَق للمتسابقين أوله . واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلِّل واشـترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سـبق أخذ سبَقه وسبَق صاحبـه أنه قمار، ولا يجوز . وفي سنن أبي داود عن أبي هُريرة عن النبي صـلى الله

---

(١) خسق السهم وخزق إذا أصاب الرمية ونفذ فيها .

عليه وسلم قال : "من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس بقمار ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قمار" . وفى الموطأ عن سعيد بن المسيّب قال : ليس برهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلّل ، فإن سبق أخذ السَّبَق ، و إن سُبق لم يكن عليه شيء ؛ وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم . وآختلف فى ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحلّل فى الخيل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلّل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادسة — ولا يحمل على الخيل والإبل فى المسابقة إلا محتلم ، ولو ركبها أربابها كان أولى؛وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يركب الخيل فى السباق إلا أربابها . وقال الشافعي : وأقل السَّبَق أن يسبق بالهادي(١) أو بعضه، أو بالكَفَل أو بعضه . والسَّبَق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن فى هذا الباب نحو قول الشافعي .

السابعة — روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصَلَّى أبو بكر وثَلَّثَ عمر؛ ومعنى وصلى أبو بكر : يعني أن رأس فرسه كان عند صَلَا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصَّلَوان موضع العَجُز .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى عند ثيابنا وأقمشتنا حارسا لها . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » أخذوا ذلك من فيه فتحرموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ أى بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أى وإن كنا ؛ قاله المبرد وآبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ فى قولنا ؛ ولم يصدّقهم يعقوب لما ظهر منهم من قوة التّهمة ، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه ؛ على ما يأتي بيانه . وقيل : « ولو كنا صادقين » أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا ، ولاتهمتنا فى هذه القضية ، لشدة محبتك فى يوسف ؛ قال معناه الطبري والزجاج وغيرهما .

---

(١) الهادي : العنق لتقدمه ؛ والجمع (هواد) .

قوله تعالى : وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم سَخْلة أو جَدْى ذبحوه . وقال قَتَادة : كان دم ظبية؛ أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه؛ فوصف الدم بالمصدر، فصـار تقديره : بدم ذى كذب؛ مثل : « وٱسأل القرية » والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر؛ يقال : هذا ضَرْب الأمير، أى مضروبه ، وماء سَكْب أى مسكوب ، وماء غَوْر أى غائر ، ورجل عَدْل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشـة : « بِدَمٍ كَدِبٍ » بالدّال غير المعجمة ، أى بدم طرِىّ؛ يقـال للدّم الطرىّ ٱلكَدِب . وحكى أنه المتغير؛ قاله الشّعبى . والكَدِبُ أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث؛ فيجوز أن يكون شبه الدّم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظُّفر من جهة ٱختلاف اللونين .

الثانيـــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لمـا أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قَرَن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهى سلامة القميص من التَّنْيِيب؛ إذ لا يمكن ٱفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولمـا تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقا ولا أثرا ٱستدل بذلك على كذبهم، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ٱبن عباس وغيره؛ روى إسرائيل عن سِمَاك بن حرب عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال : كان الدم دم سَخْلة . وروى سفيان عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال : لمـا نظر إليه قال كذبتم؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص . وحكى المـاوردىّ أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليـه بدم كذب ، وحين قُدّ قميصه من دبر ، وحين أُلقى على وجه أبيه فارتدّ بصيرا .

قلت : وهذا مردود؛ فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قُدّ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقد قيل : إن القميص الذى قُدّ هو الذى أُتى به فارتدّ بصيرا، على ما يأتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم، فاتهمهم، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشقّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شقّ؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عنـد ذلك : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » عن الحسن وغيره؛ أى لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

الثالثـــة : آستدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل من الفقه كالقَسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السـلام آستدل على كذبهـم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فمـا ترجح منهـا قضى بجانب الترجيح، وهى قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قاله آبن العربى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى أن يعقوب لمـا قالوا له : « فأكله الذئب » قال لهم : لم يترك الذئب له عضوا فتأتونى به أستأنس به؟ ! ألم يترك لى ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا : بلى ! هذا قميصه ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : « وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه، فأروه فشمه وقبّله، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقّا ولا تمزيقا؛ فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبـا أحكم منـه ؛ أكل آبنى واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليـه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا وقال : يا معشر ولدى ! دلونى على ولدى؛ فإن كان حيا رددته إلىّ، وإن كان ميتا كفّنته ودفنته ؛ فقيـل قالوا حينئـذ : ألم تروا إلى أبينـا كيف يكذبنـا فى مقالتنا ! تعالوا نخرجه من الجبّ ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا

فى مقالتنا و يقطع بأسه ؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكوننّ لكم عدوا ما بقيت ، ولأخبرنّ أباكم بسوء صنيعكم ؛ قالوا : فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئبـا ، قال : فاصطادوا ذئبـا ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذئب الذى يحل بأغنامنا و يفترسها ، ولعله الذى أفجعنا بأخينا لا نشك فيه ، وهذا دمه عليه؛ فقال يعقوب : أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتبصبص له الذئب ، فأقبل يدنو و يعقوب يقول له : آدن آدن ؛ حتى ألصق خدّه بخـدّه فقال له يعقوب : أيهـا الذئب ! لم فجعتنى بولدى وأورثتنى حزنا طو يلا؟! ثم قال: اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال : والذى آصطفاك نبيا ما أكلت لحمه ، ولا مزّقت جلده، ولا نتفت شعرة من شعراته ، ووالله ! مالى بولدك عهد، و إنمـا أنا ذئب غريب أقبلت من نواحى مصر فى طلب أخ لى فُقِد ، فلا أدرى أحى هو أم ميت ، فاصطادنى أولادك وأوثقونى، و إن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، وتالله! لا أقمت فى بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذِمام أخيه، وأنتم ضيّعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب برىء مما جئتم به . ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أى زينت . ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غير ما تصفون وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهى :

الثانيـــة ـــ قال الزجاج : أى فشأنى والذى أعتقده صبر جميـل . وقال قُطْرُب : أى فصبرى صبرٌ جميل . وقيـل : أى فصبر جميل أولى بى ؛ فهو مبتـدأ وخبره محذوف . و يروى أن النبى صلى الله عليـه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقـال : " هو الذى لا شكوى معه " . وسيأتى له مزيد بيـان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسـف « فصبرا جميـلا » قال : وكذا قرأ الأشهب العُقَيلى ؛ قال وكذا فى مصحف أنس وأبى صالح . قال المبرّد « فصبر جميـل » بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى : قال رب عندى صبر جميل؛ قال : و إنمـا النصب على المصدر، أى فلأصبرنّ صبرا جميلا ؛ قال :

شكا إلىّ جملى طول السُّرى * صبرًا[1] جميلًا فكلانا مبتلَى

والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى . وقيل : المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ؛ وفى هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم . وعن حبيب بن أبى ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقة ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان ؛ فأوحى الله إليه أتشكونى يا يعقوب؟! قال : يارب! خطيئة أخطأتها فاغفر لى . ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أى على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثة — قال ابن أبى رفاعة : ينبغى لأهل الرأى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبىّ ؛ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فأصاب هنا ؛ ثم قالوا له : « إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » قال : « بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا » فلم يصب .

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أى رفقة مارّة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجبّ ، وكان الجبّ فى قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو للرّعاة والمجتاز ، وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف . ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ فذكر على المعنى ؛ ولو قال : فأرسلت واردها لكان على اللفظ ، مثل « وجاءت » . والوارد الذى يرد الماء يستقى للقوم؛ وكان اسمه — فيما ذكر المفسرون — مالك بن دُعْر[2] ،

---

(١) ويروى (صبر جميل) فى البيت ، وتحمل على إضمار مبتدأ أو خبر . ويروى (صبرا جميل) على نداء الجمل .

(٢) دعر : هو بالدال المهملة وبالذال تصحيف كما فى القاموس .

من العرب العاربة . ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أي أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها ، ودَلَاها أي أخرجها ؛ عن الأصمعي وغيره . ودَلَا — من ذوات الواو — يدلو دلوا ، أي جذب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما ثقل ردوه إلى الياء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء ؛ اتباعا للمستقبل . وجمع دَلْو في أقل العدد أَدْلٍ فإذا كثرت قلت : دُلِيّ ودِلِيّ ؛ فقلبت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التغيير ، وليفرق بين الواحد والجمع ؛ ودِلاء أيضا . فتعلق يوسف بالحبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء من صحيح مسلم : " فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شَطْر الحسن " . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جَعْد الشّعر ، ضخم العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خَميص البطن ، صغير السُّرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شُعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دُعْر قال : « يَا بُشْرَايَ هَـذَا غُلَامٌ » هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا ٱبن أبي إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَيَّ هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هـذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفي معناه قولان : أحدهما — ٱسم الغلام ، والثاني — يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قَتادة والسُّدىّ : لما أدلى المدلى داوه تعلق بها يوسف فقال : يا بشرى هذا غلام ؛ قال قَتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السُّدىّ : نادى رجلا ٱسمه بشرى . قال النحاس : قول قَتادة أولى ؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » وهو عُقْبة ٱبن أبي مُعَيط ، وبعده « يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية

ابن خلف ؛ قاله النحاس والمعنى فى نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت ، كما تقول : يا عجباه ! أى يا عجب هـذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ؛ هذا مذهب سيبويه ، وكذا قال السُّهيلى . وقيـل هو كما تقول : وا سروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار ؛ وهـذا أصحّ لأنه لو كان اسمـا علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون «بشراى» فى موضع نصب ، لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه ، أى انتبهوا لفرحتى وسرورى ؛ وعلى قول السُّدى يكون فى موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا غلام . ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك يارجلا ، وقوله : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم ينون « بشرى » لأنه لا ينصرف . ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام ؛ فأما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين آشتروه ، وقيل عن الوارد وأصحابه . « بضاعة » نصب على الحال . قال مجاهـد : أسرّه مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم فى الرفقة ، وقالوا لهم : هو بضاعة آستبضعناها بعضُ أهل الشـام أو أهل هذا المـاء إلى مصر ؛ وإنمـا قالوا هـذا خيفة الشركة . وقال آبن عبـاس أسرّه إخوة يوسف بضاعة لمـا آستخرج من الجبّ ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنـا أَبِق ، وقالوا ليوسف بالعـبرانية : إما أن تُقرّ لنـا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك ؛ فقال : أنا أقرّ لكم بالعبودية ، فأقرّ لهم فباعوه منهم . وقيـل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسـانهم أن آعترف لأخوتك بالعبـودية فإنى أخشى إن لم تفعل قتلوك ؛ فلعـل الله أن يجعـل لك مخرجا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتـله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه سمة العبيد ! ، قالوا : هـو تربّى فى حجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأدّب بآدابنا ؛ فقال : ما تقول ياغلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت فى حجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن بعتموه منى آشتريته منكم ؛ فباعوه منه ؛ فذلك :

قوله تعـالى : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيـهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى آشتريت، وشريت بمعنى بعت لغة، قال الشاعر[١] :

وَشَرِيتُ بُرْدًا لَيْتَنِي * مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ

أى بعت . وقال آخر :

فلما شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً * وفي الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ[٢]

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أى نقص، وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أى باعوه بثمن مبخوس ، أى منقوص. ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلو وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجبّ فأخبر إخوته فجاءوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرّفون الخبر، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قَتادة : « بخس » ظلم . وقال الضّحاك ومقاتل والسُّدى وابن عطاء : « بخسٍ » حرام . وقال آبن العربى : ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطَعا ؛ أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعطُوا عنه ثمنا وأنّ ما أخذوا فيه ربح كلّه .

قلت : قوله «وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة» يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدى وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عِكرمة والشّعبى : قليل . وقال آبن حبان : زَيْف . وعن آبن عباس وآبن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ قاله قَتادة والسُّدى . وقال أبو العالية

(١) هو : يزيد بن مفرغ الحميرى ؛ و (برد) اسم عبد كان له ندم على بيعه .   (٢) البيت للشماخ ، قاله فى رجل باع قوسه من رجل . وحامز : عاصر، وقيل : أى مُمِضّ محرق . (اللسان) .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين ؛ وقاله مجاهد . وقال عِكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بخسٍ » من نعت « ثمنٍ » . « دراهِم » على البـدل والتفسير له . ويقال : دراهيم على أنه جمع دِرهام ، وقد يكون اسمـا للجمع عند سيبويه ، ويكون أيضا عنده على أنه مدّ الكسرة فصارت ياء ، وليس هـذا مثل مدّ المقصور ؛ لأن مدّ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره . وأنشد النحويون :

تَنْـفِي يداها الحَصَى في كلِّ هَاجِرةٍ * نَفْيَ الدَّراهِيـمِ تَنْقَادُ الصَّـيَارِيفِ (١)

﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ نعت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجرى عندهم عدّا لاوزنا بوزن . وقيل : هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون ما دون الأوقية ، وهي أربعون درهما .

الثانيـــة — قال القاضي ابن العربي : وأصل النقدين الوزن ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "لاتبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى" . والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيـه ، ولكن جرى فيها العدّ تخفيفا عن الخلق لكثرة المعاملة ، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض عدّا إذا لم يكن فيها نقصـان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك كان كسرها أو قرضها من الفساد في الأرض حسب ما تقدّم .

الثالثـــة — وآختلف العلمـاء في الدراهم والدنانير هل تتعـين أم لا ؟ وقـد آختلفت الرواية في ذلك عن مالك ؛ فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظـاهر من قول مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب آبن القاسم إلى أنها تتعـين ، وحكى عن الكَرْخيّ ؛ وبه قال الشـافعي . وفائدة الخـلاف أنا إذا قلنا لا تتعـين فإذا قال : بعتك هـذه الدنانير بهذه

(١) البيت للفرزدق ؛ وصف ناقة سريعة السير في الهواجر ؛ فشبه خروج الحصى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم عن الأصابع إذا نقدت .

الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعــة — روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قضى فى اللقيط أنه حر، وقرأ : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامســة — قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ قيل : المراد إخوته . وقيل: السيّارة . وقيل : الواردة؛ وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطا، لا عند الإخوة؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أَبِق منا — والزهد قلة الرغبة — ولا عند الواردة لأنهم خافوا ٱشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى .

السادســة — فى هــذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير، ويكون البيع لازما؛ ولهذا قال مالك : لو باع دُرّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درّة وحسبتها مَخْشَلَبَة (١) لزم البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أى فى حسنه؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شَطْر الحسن صرف عنه دواعى نفوس القوم إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى. وحكى سيبويه والكسائى زَهِدت وزَهَدت بكسر الهاء وفتحها .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(١) المخشلبة : خرز أبيض يشا كل اللؤلؤ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال ، إذ لم يكن ذلك عقدا ، مثل : « أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَى » . وقيل : إنهم ظنوه فى ظاهر الحال آشتراء ، بجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضّحاك : هذا الذى آشتراه ملك مصر ، ولقبه العزيز . السُّهيلى : وآسمه قطفير . وقال آبن إسحق : إطفير بن رويحب آشتراه لآمرأته راعيل ؛ ذكره الماوردى . وقيل : كان اسمها زليخا . وكان الله ألقى محبة يوسف على قلب العزيز ، فأوصى به أهله ؛ ذكره القُشيرى . وقد ذكر القولين فى اسمها الثعلبى وغيره . وقال آبن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان ، وهو رجل من العمالقة . وقيل : هو فرعون موسى ؛ لقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعمائة سنة . وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، على ما يأتى فى « غافر »(١) بيانه . وكان هذا العزيز الذى آشترى يوسف على خزائن الملك ؛ واشترى يوسف من مالك بن دُعْر بعشرين دينارا ، وزاده حلة ونعلين . وقيل : اشتراه من أهل الرّفقة . وقيل : تزايدوا فى ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مِسْكا وعَنْبرا وحريرا وورِقا وذهبا ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ؛ فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال وهب أيضا وغيره : ولما آشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابا : « هذا ما آشترى مالك بن دُعْر من بنى يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكا لهم بعشرين درهما ، وقد شرطوا له أنه آبق ، وأنه لا ينقاب به إلا مقيدا مسلسلا ، وأعطاهم على ذلك عهد الله » قال : فودّعهم يوسف عند ذلك ، وجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتمونى ، نصركم الله وإن خذلتمونى ، رحمكم الله وإن لم ترحمونى ؛ قالوا : فألقت الأغنام ما فى بطونها دما عَبِيطا(٢) لشدّة هذا التوديع ، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء ، مقيدا مكبلا مسلسلا ، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه — وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود — فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه وجعل يتمرّغ

(١) راجع تفسير آية ٣٤ . (٢) الدم العبيط : الطرى .

ويعتنق القبر ويضطرب ويقول : يا أماه ! ارفعي رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا مغلولا ؛ فرقوا بيني وبين والدي، فاسألي الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين، فتفقده الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا ؛ فقال له : لاتفعل ! والله ماهربت ولا أبقت، وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودّعها ، ولن أرجع إلى ما تكرهون ؛ فقال الأسود : والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ؛ فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني ؛ فضجّت الملائكة في السماء ، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غُضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال : تثبت يا جبريل، فإن الله حليم لايعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت ، وارتفع الغبار ، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا ؛ فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا؟ — فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثل هذا — فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبرانيّ فرفع يده إلى السماء وتكلّم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا ؛ فقال له : ما أردت إلا هلا كنا ! ايتنا به، فأتاه به ، فقال له : يا غلام ! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت؛ فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظنّ بك؛ قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، وردّ عليه جماله ، ودخل به البلد نهارا فسطع نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك ؛ قاله ابن عباس على ما تقدّم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتبع يوسف على دينه ، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض؛ فملك بعده قابوس وكان كافرا، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى . « أكرمي مثواه » أي منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن ؛ وهو

مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به؛ وقد تقدّم فى «آل عمران»(١) وغيره. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ قال ٱبن عباس: كان حَصُـورا لا يولد له؛ وكذا قال ٱبن إسحق: كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له. فإن قيل: كيف قال «أو نتخذه ولدا» وهو ملكه؛ والوَلَدية مع العبدية تتناقض؟ قيل له: يعتقه ثم يتخذه ولدا بالتبنّى؛ وكان التبنّى فى الأمم معلوما عندهم؛ وكذلك كان فى أوّل الإسلام؛ على ما يأتى بيانه فى «الأحزاب»(٢) إن شاء الله تعالى. وقال عبد الله بن مسعود: أحسن الناس فراسة ثلاثة؛ العزيز حين تفرّس فى يوسف فقال: «عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا»؛ و بنت شعيب حين قالت لأبيها فى موسى «ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ»؛ وأبو بكر حين ٱستخلف عمر. قال ٱبن العـربى: عجبا للفسرين فى اتفاقهم على جلب هـذا الخبر! والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة «الحجر»(٣) وليس كذلك فيما نقـلوه؛ لأن الصدّيق إنمـا ولّى عمر بالتجربة فى الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنّة؛ وليس ذلك من طريق الفراسة؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى «القصص»(٤). وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكّنّا له؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى ٱشتراه حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب: «وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ». وقيل: المعنى مكّناه لنوحى إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أى لا يغلب الله شىء، بل هو الغالب على أمر

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع المسئلة الأولى والثانية فى تفسير آية ٥.
(٣) راجع تفسير آية ٧٥. (٤) راجع تفسير آية ٢٦.

نفسه فيما يريده أن يقول له : كن فيكون . وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أى الله غالب على أمر يوسف يدبّره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيد كائد . ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يطلعون على غيبه . وقيل: المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره،وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماء فى هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه،ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، وآفتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال : « يَا أَسَفَا عَلَىٰ يُوسُفَ » ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين ، أى تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقروا بين يدى يوسف فى آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: « إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فلم يخدع وقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا » ثم احتالوا فى أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق فى قلبه، ثم دبرت آمرأة العزيز أنها إن آبتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز : « آستغفرى لِذنبك إنك كنت من الخاطئين »، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى فغلب أمر الله فنسى الساقى، ولبث يوسف فى السجن بضع سنين .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ « أشدّه » عند سيبويه جمع، واحده شِدّة . وقال الكسائى : واحده شَدّ ؛ كما قال الشاعر[(١)] :

عَهْدِى به شَدَّ النّهارِ كأنّما * خُضِبَ اللّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

(١) هو عنترة العبسى . وشد النهار : أى أشده ، يعنى أعلاه . واللبان : الصدر، وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين، ويروى : «البنان» . والعظلم عصارة شجر أو نبت يصبغ به ، أو الوسمة، وهى شجرة ورقها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأَشُدّ ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك ابن أنس : الأَشُدّ بلوغ الحُلُم؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء»(١) و «الأنعام»(٢) مستوفى . ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا ﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحُكْم ، فكان يحكم في سلطان الملك ؛ أى وآتيناه عِلما بالحُكْم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوّة . وقيل : الحُكْم النبوّة ، والعِلم عِلم الدين؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال أوتى النبوّة صبيا قال : لما بلغ أشدّه زدناه فهما وعلما . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعنى المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك . وقال الطبرىّ : هذا وإن كان مخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكّن لك في الأرض .

قوله تعالى : وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وهى امرأة العزيز ، طلبت منه أن يواقعها . وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين . والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ ؛ وقيل : هى من رُوَيد ؛ يقال : فلان يمشى رُوَيدا ، أى برفق ؛ والمراودة الرفق فى الطلب ؛ يقال

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فى الرجل : راودها عن نفسها، وفى المرأة راودته عن نفسه . والرَّود التأنى؛ يقال : أرودنى أمهلنى . ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ ﴾ غلّق للكثير، ولا يقال : غَلَق البـابَ ؛ وأَغلق يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفَرَزْدق فى أبى عمرو بن العلاء :

ما زلتُ أُغلق أبوابًا وأفتحُهَـا * حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّـارِ

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلّقتهـا ثم دعته إلى نفسها . ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أى هَـلُمَّ وأقبل وتَعالَ ؛ ولا مصدر له ولا تصريف . قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجلّ ما فيها وأصحه إسنادا ما رواه الأعمش عن أبى وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هيت لك » فقال : إنمـا أقرأ كما عُلّمت . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله : إنمـا أقرأ كما علّمت يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هى الصحيحة من قراءة ٱبن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائىّ . قال عبد الله بن مسعود: لا تقطعوا فى القرآن؛ فإنمـا هو مثـل قول أحدكم : هَلُمّ وتَعالَ . وقرأ ٱبن أبى إسحق النحوى « قالت هَيْتِ لَكَ » بفتح الهـاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وٱبن كثير « هَيْتُ لَكَ » بفتح الهـاء وضم التاء؛ قال طَرَفة :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العَشِـيرة هَيتُ

فهذه ثلاث قراءات الهـاء فيهنّ مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ » بكسر الهـاء وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثّاب « وَقَالَتْ هِيتُ لَكَ » بكسر الهـاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وٱبن عباس ومجاهـد وعكرمة « وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ » بكسر الهـاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ٱبن عامر وأهل الشام «وَقَالَتْ هِئْتَ» بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء؛ قال أبو جعفر: « هِئْتَ لَكَ » بفتح التاء لالتقـاء الساكنين، لأنه صوت نحو مَهْ وصَـهْ يجب ألّا يعرب ،

والفتح خفيف ، لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف ؛ ومن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر ، لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر ، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية ؛ أى قالت : دعائى لك ، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم ؛ مثل حيثُ وبعدُ . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مر . والآخر — أن يكون فعلا من هَاءَ يَهِيء مثل جاء يجيء ؛ فيكون المعنى فى «هِئْتَ» أى حسنت هيئتك ، ويكون «لَكَ» من كلام آخر ، كما تقول : لكَ أعنى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك ؛ وكذلك من قرأ « هِيتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة — مَعْمَر بن المُثَنَّى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تهيأت ! اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن هل تعرف أحدا يقول هـذا ؟ ! وقال الكسائى أيضا : لم تُحْكَ « هِئْتُ » عن العرب . قال عِكرمة : «هِئْتُ لك» أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت ، وهى قراءة غير مرضية ، لأنها لم تسمع فى العربيـة . قال النحاس : وهى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجلُ يَهاء ويَهِيء هيأةً فهاء يَهِىء مثل جاء يجيء ، وهِئْتُ مثل جئت . وكسر الهـاء فى « هيت » لغـة لقوم يؤثرون كسر الهـاء على فتحها . قال الزجاج : أجود القراءات « هَيْتَ » بفتح الهـاء والتاء ؛ قال طَرَفة :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

بفتح الهـاء والتـاء .

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أَبلغْ أميرَ المـؤمنـين * أخا العراقِ إذا أَتيتا

إنّ العراقَ وأهلَهُ * سِـلْمٌ إليكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

قال ٱبن عباس والحسن : « هيت » كلمة بالسريانيـة تدعوه إلى نفسها . وقال السُّدّى : معناها بالقبطية هلمّ لك . قال أبو عبيـد كان الكسائىّ يقول : هى لغة لأهل حَوْران وقعت إلى أهـل الحجاز معناه تعال ؛ قال أبو عبيد : فسألت شـيخا عالمـا من حَوْرَان فذكر أنهـا

لغتهم؛ وبه قال عِكْرِمة . وقال مجاهــد وغيره : هي لغة عربيــة تدعوه بها إلى نفسها ، وهي كلمة حثّ وإقبال على الأشـياء؛ قال الجوهريّ : يقــال هَوَّتَ به وهَيَّتَ به إذا صاح به ودعاه؛ قال :

قــد رَابَنِي أَنَّ الْكَرِيَّ أَسْكَتَا * لو كان مَعْنِيًّا بهــا لَهَيَّتَا

أي صاح؛ وقال آخر :

* يَحْدُو بهــا كُلُّ فَتًى هَيَّاتِ *

قوله تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه؛ وهو مصدر، أي أعوذ بالله مَعاذا؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى ٱسم الله كما يضاف المصــدر إلى المفعول ، كما تقــول : مررت بزيد مرور عمرو أي كمروري بعمرو. ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني زوجها ، أي هو سيّدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وٱبن إسحق والسدّي . وقال الزَّجاج : أي إن الله ربي تولاني بلطفه ، فلا أركب ما حرّمه . ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وفي الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : في الرَّحِم صوّرني ربِّي؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شَعْرك ! قال : هو أول شيء يَبْــلى منّي في قبري؛ قالت : يا يوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظــر إلى ربّي . قالت : يا يوسف ! ٱرفع بصرك فٱنظــر في وجهي ، قال : إني أخاف العمى في آخرتي . قالت : يا يوسف ! أدنو منك وتتباعد مني ؟ ! قال : أريد بذلك القرب من ربي . قالت : يا يوسف ! القَيْطون(١) فٱدخل معي، قال: القَيْطُون لا يسترني من ربّي . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قــد فرشته لك ، قم فاقض حاجتي ، قال : إذًا يذهب من الجنة نصيبي ؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْن إلى يوسف مَيْــل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليــه هيبة النبوة ؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه . وٱختلف العلماء في همّه ؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

(١) القيطون : المخدع ، أعجميّ ، وقيل : بلغة أهل مصر وبربر .

﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فإذًا في الكلام تقديم وتأخير؛ أي لولا أن رأى برهان ربه همّ بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا » الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة، وهمّ يوسف ولم يواقع ما همّ به؛ فبين الهمّتين فرق، ذكر هذين القولين الهرويّ في كتابه. قال جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثينةَ لو بَدَا * شَفيتُ غَليلاتِ الهوَى من فُؤاديَا

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني * تَركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُه

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: همّ بها تمنى زوجيتها. وقيل: همّ بها أي بضربها ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها. وقيل: إن همّ يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من آمرأته؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القُشيريّ أبو نصر، وآبن الأنباريّ والنحاس والماورديّ وغيرهم. قال آبن عباس: حلّ الهِمْيان(١) وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: آستلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد آبن جُبَير: أطلق تِكّة سراويله. وقال مجاهد: حلّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من آمرأته. قال آبن عباس: ولما قال: « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ». قالوا: والآنكفاف في مثل هذه الحالة دالّ على الإخلاص، وأعظم للثواب.

(١) الهميان شداد السراويل.

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفل حسب ما يأتى بيانه فى «ص»[1] إن شاء الله تعالى . وجواب «لولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به ؛ ومثله «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» وجوابه لم تتنافسوا ؛ قال ابن عطية : روى هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة فى ذلك أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ، ولم يوبقه القرب من الذنب ، وهذا كله على أن همّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلى زليخا وأخذ فى حل ثيابه وتكّته ونحو ذلك ، وهى قد استلقت له ؛ حكاه الطبرى . وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام : وابن عباس ومن دونه لا يختلفون فى أنه همّ بها ، وهو أعلم بالله وبتأويل كتابه ، وأشدّ تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصى الأنبياء ليعيرهم بها ؛ ولكنه ذكرها لئلا ييئسوا من التوبة . الغزنوىّ : مع أن لزلة الأنبياء حِكَما ؛ زيادة الوجل ، وشدّة الحياء بالخجل ، والتخلّى عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل ، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل . قال القُشيرىّ أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف همّ ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس ؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ وممن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به فى هذه الآية إن كون يوسف فى هذه النازلة لم يصح كونه نبيا ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتى حُكما وعلما ، ويجوز عليه الهمّ الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندى إلا الهمّ الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شىء مما ذكر من حلّ تِكّته

(١) راجع تفسير آية ٤٨ من السورة المذكورة ، آية ٨٥ من سورة « الأنبياء » .

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوّة . وما روى من أنه قيل له : « تكون فى ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء » فإنمـا معناه العِدَة بالنبوّة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» يدل على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ و إن كان نبيًّا فلم يبق إلا أن يكون الهمّ الذى همّ به ما يخطر فى النفس ولا يثبت فى الصدر ؛ وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه؛ ويكون قوله : «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» — إن كان من قول يوسف — أى من هـذا الهمّ ، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف ، لمخـالفة النفس لمـا زكّى به قبل و برئ ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا » على ما تقدّم بيانه، وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبى فى أهله؛ فما تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة ، بل أدبر عنهـا وفرّ منها؛ حكمة خُصّ بهـا ، وعملًا بمقتضى ما علّمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقـال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها و إن تركها فاكتبوها له حسنة إنمـا تركها من جرّاى(١) “ . وقال عليه السلام مخبرا عن ربه : ”إذا همّ عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة “ فإذا كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب؛ وفى الصحيح : ”إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلّم به“ وقد تقدّم . قال ابن العربى : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية، — وأىّ إمام — يعرف بابن عطاء ! تكلّم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيدنا ! فإذًا يوسف همّ وما تمّ؟ قال : نعم ! لأن العناية من ثَمّ . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم، وانظر إلى فطنة العامى فى سؤاله ،

(١) من جراى : أى من أجلى ؛ وفى نسخة من صحيح مسلم ” من جرائى “ .

وجواب العالم فى آختصاره وآستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : و إذا تقررت عصمته و براءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَب بن عثمان : إن سليمان بن يسار كان من أحسن النـاس وجها ، فاشتاقته آمرأة فسامته نفسهـا فامتنع عليها وذكّرها ، فقالت : إن لم تفعل لأشهرنك ؛ فخرج وتركها ، فرأى فى منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذى هممتُ ، وأنت سليمان الذى لم تهمّ ؟ ! فإن هـذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو محال ؛ ولو قدّرنا يوسف غير نبى فدرجته الولاية ، فيكون محفوظا كهو ؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب ، وروجـع فى المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليـه الفتنة ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والجواب محذوف لعلم السامع ؛ أى لكان ما كان . وهـذا البرهان غير مذكور فى القرآن ؛ فروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن زليخا قامت إلى صنم مكلل بالدر واليـاقوت فى زاوية البيت فسـترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى هـذا أن يرانى فى هـذه الصورة ؛ فقـال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله ؛ وهـذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيـل : رأى مكتوبا فى سقف البيت « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » . وقال آبن عباس : بدت كفّ مكتوب عليها « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف ! أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجـدران عاضا على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله ؛ قاله قتادة ومجاهـد والحسن والضّحاك وأبو صالح وسـعيد بن جُبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حلّ سراويله فتمثل له يعقوب ، وقال له : يا يوسـف ! فولّى هاربا . وروى سفيان عن أبى حصين عن سـعيد بن جُبـير قال : مثل له يعقوب فضرب

صدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب آثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ؛ وقيل غير هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وآمتنع عن المعصية .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الكاف من « كذلك » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر آبتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر محذوف ؛ أى أريناه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء الثناء القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وآبن عامر « المخلِصين » بكسر اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلِصا فى طاعة الله تعالى ، مستخلَصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وآستبقا الباب وقدّت قميصه مِن دبرٍ ﴾ .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ قالت العلماء : وهذا من آختصار القرآن المعجز الذى يجتمع فيه المعانى ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فتعاديا ، هى لتردّه إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركته قبل أن يخرج « وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى من خَلْفه ؛ قبضت فى أعلى قميصه فتخرّق القميص عند طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السّبق إلى الشيء ؛ ومنه السّباق . والقدّ القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ؛ قال النابغة (١) :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

والقَطّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضا . وقال المفضّل بن حرب : قرأت في مصحف « فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عُطَّ مِنْ دُبُرٍ » أي شُقّ . قال يعقوب : العَطّ الشق في الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من «آستبقا» في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ؛ كما يقال : جاءني عبدا الله في التثنية ؛ ومن العرب من يقول : جاءني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز ، ويجمع بين ساكنين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأوّل حرف مدّ ولين . ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانيـــة — في الآية دليل على القياس والآعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قدّ القميص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر آنفرد به المالكية في كتبهم ؛ وذلك أن القميص إذا جُبِذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، وإذا جُبِذ من قدّام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أي وجدا العزيز عند الباب ، وعَنَى بالسيّد الزوج ؛ والقبط يسمّون الزوج سـيّدا . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد (٢) ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة وكادت فقالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أي زنى . ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تقول : يُضرب ضربا وجيعا . و « ما جزاء » ابتداء ، وخبره « أن يسجن » . « أو عذاب » عطف على موضع «أن يسجن» لأن المعنى : إلا السّجن . ويجوز أو عذابا أليما بمعنى : أو يعذّب عذابا أليما ؛ قاله الكسائي .

---

(١) يصف السيوف ، وقد تقدّم شرح البيت بهامش ص ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) كذا العبارة في الأصل وفي « البحر المحيط » ، ولم نقف على مادة (وارط و والط ولاط) بمعنى (ألفى) في معاجم اللغـة .

قوله تعالى : قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما برأت نفسها، ولم تكن صادقة فى حبه — لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب — قال « هى راودتنى عن نفسى » نطق يوسف بالحق فى مقابلة بهتها وكذبها عليه . قال نوف الشامىّ وغيره : كأن يوسف عليه السلام لم يبن عن كشف القضية، فلما بَغَت به غضب فقال الحق .

الثانية — ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ لأنهما لما تعارضا فى القول آحتاج الملك إلى شاهد يعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة . وقد آختلف فى هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأول — أنه طفل فى المهد تكلم؛ قال السهيلى : وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : " لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة " وذكر فيهم شاهد يوسف . وقال القشيرىّ أبو نصر : قيل كان صبيا فى المهد فى الدار وهو آبن خالتها؛ وروى سعيد بن جبير عن آبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تكلم أربعة وهم صغار " فذكر منهم شاهد يوسف؛ فهذا قول . الثانى — أن الشاهد قدّ القميص؛ رواه ابن أبى نجيح عن مجاهد؛ وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثير في أشعارها وكلامها؛ ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد لِمَ تَشقُّني؟ قال له: سَلْ من يَدُقُّني. إلا أن قول الله تعالى بعد « من أهلها » يبطل أن يكون القميص. الثالث — أنه خَلْق من خَلْق الله تعالى ليس بإنسيّ ولا بجنيّ؛ قاله مجاهد أيضا؛ وهذا يرده قوله: « من أهلها ». الرابع — أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعت الاستبدار والجلبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدرى أيكما كان قدّام صاحبه؛ فإن كان شقّ القميص من قدامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ هذا قول الحسن وعِكرمة وقَتَادة والضحّاك ومجاهد أيضا والسدّي. قال السدّي: كان ٱبن عمها؛ وروى عن ٱبن عباس، وهو الصحيح في الباب، والله أعلم. وروى عن ٱبن عباس — رواه إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة — قال: كان رجلا ذا لحية. وقال سفيان عن جابر عن ٱبن أبي مليكة عن ٱبن عباس أنه قال: كان من خاصة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبيّ، ولكن كان رجلا حكيما. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلا. قال أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى — والله أعلم — أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغني عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بمخالف للحديث "تكلم أربعة وهم صغار" منهم صاحب يوسف؛ يكون المعنى: صغيرا ليس بشيخ؛ وفي هذا دليل آخر وهو: أن ٱبن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبيّ.

قلت: قد روى عن ٱبن عباس وأبي هُريرة وٱبن جُبير وهلال بن يِساف[1] والضّحاك أنه كان صبيا في المهد؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى

(١) هو بالكسر وقد يفتح.

استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة؛ والله أعلم . وسيأتى من تكلم فى المهد من الصبيان فى سورة « البروج » إن شاء الله .

الثالثـــة — إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة فى اللقطة وكثير من المواضع؛ حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فآدعوها، وليست لهم بيّنة فإن السلطان يَتَلَوَّم(١) لهم فى ذلك؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم . وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل . وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات فى الحكومات؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ كان فى موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل؛ لأن حروف الشرط تردّ المـاضى إلى المستقبل، وليس هذا فى كان؛ فقال المبرد محمد بن يزيد : هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال . وقال الزجاج : المعنى إن يكن؛ أى إن يُعلَم، والعلم لم يقع، وكذا الكون لأنه يؤدى عن العلم . « قُدَّ مِنْ قُبُـلٍ » نخبرٌ عن « كان » بالفعل المـاضى؛ كما قال زهير :

وكان طَوَى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّةٍ ۞ فلا هـــو أَبداها ولم يتقـــدَّمِ(٢)

وقرأ يحيى بن يعمر وآبن أبى إسحق « مِنْ قُبُـلُ » بضم القاف والباء واللام، وكذا « دُبُرُ » قال الزجاج : يجعلهما غايتين كقبلُ وبعـدُ؛ كأنه قال : من قُبُلِه ومن دُبُرِه، فلما حذف المضاف إليه — وهو مراد — صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له . ويجوز « من قُبُلَ » « ومن دُبُرَ » بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه . وروى محبوب عن أبى عمرو « من قُبْلٍ » « ومن دُبْرٍ » مخفّفان مجروران .

---

(١) التلوم : التنظر للأمر تريده . (٢) الكشح : الجنب؛ ويقال : طوى كشحه على كذا إذا أضمره . والمستكنة : الحقد . ويروى : (ولم يتجمجم) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدم في « الأنفال »(١) . ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال « عظيم » لعظم فتنتهنّ واحتيالهنّ في التخلّص من ورطتهنّ . وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال « إن كيدكن عظيم » " .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أي يا يوسف ، فحذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أي لا تذكره لأحد واكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وأنت ﴿ ٱسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول : استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك . ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلّب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » . وقيل : إن القائل ليوسف اعرض ولها استغفري زوجُها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فلذلك كان ساكتا . وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود . الثاني — أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا عنها .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(١) راجع ج ٧ ص ٣٨٦ طبعة أولى أو ثانية .

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ ﴾ ويقال : «نُسْوَةٌ» بضم النون، وهى قراءة الأعمش والمفضّل والسُّلَمىّ، والجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب؛ وذلك أن القصة انتشرت فى أهل مصر فتحدّث النساء . قيل : امرأة ساقى العزيز، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب دوابه، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الحاجب؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ الفتى فى كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة . ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ قيل : شغفها غلبها . وقيل : دخل حبه فى شَغافها؛ عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل تحت شَغافها . وقال الحسن : الشّغف باطن القلب . السدّى وأبو عبيد : شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب؛ والمعنى فى هذه الأقوال متقارب، والمعنى : وصل حبه إلى شَغافها فغلب عليه؛ قال النابغة :

وقـد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ * دخولَ الشّغافِ تبتغيه الأصابعُ (١)

وقد قيل : إن الشّغاف داء، وأنشد الأصمعى للراجز :

* يتبعها وهى له شَغافُ *

وقرأ أبو جعفر بن محمد وابن محيصن والحسن «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة؛ قال ابن الأعرابى : معناه أحرق حبه قلبها؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهرىّ : وشَعفه الحبُّ أحرق قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف . وقرأ الحسن « قَدْ شَعَفَهَا » قال : بَطَنها حبًّا . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قـد ذهب بها كل مذهب؛

(١) يعنى أصابع المطببين؛ يقول : قد حال عن البكاء على الديار هم دخل فى الفؤاد، حتى أصابه منه داء .

لأن شِعَاف الجبال أعاليها ؛ وقد شُغِف بذلك شَغْفا بإسكان الغين إذا أُولع به ؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت آمرئ القيس :

لتقتلنى وقد شَعَفْتُ فؤادَها * كما شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرَّجلُ الطَّالِي (1)

قال : فشبهت لوعةُ الحبّ وجَواه بذلك . وروى عن الشّعبي أنه قال : الشّغف بالغين المعجمة حبّ ، والشّعف بالعين غير المعجمة جنون . قال النحاس : وحكى « قد شَغِفَها » بكسر الغين ، ولا يعرف فى كلام العرب إلا « شَغَفها » بفتح الغين ، وكذا « شَعَفها » أى تركها مشعوفة . وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن : الشّغاف حجاب القلب ، والشّعاف سو يداء القلب ، فلو وصل الحبّ إلى الشّعاف لماتت ؛ وقال الحسن : ويقال إن الشّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب التى لا ترى ، وهى الجلدة البيضاء ، فلصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى هذا الفعل . وقال قَتَادة : « فتاها » وهو فتى زوجها ، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المماليك ، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال مقاتل عن آبن عثمان النَّهْدىّ عن سلمان الفارسىّ قال : إن آمرأة العزيز آستوهبت زوجها يوسف فوهبه لها ، وقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أتخذه ولدا ؛ قال : هو لك ؛ فربّته حتى أيفع وفى نفسها منه ما فى نفسها ، فكانت تنكشف له وتتزين وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى بغيبتهنّ إياها ، وآحتيالهنّ فى ذمها . وقيل : إنها أطلعتهنّ واستأمنتهنّ فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فى الكلام حذف ؛ أى أرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وليمة لتُوقعهنّ فيما وقعت فيه ؛ فقال مجاهد عن آبن عباس إن آمرأة العزيز قالت لزوجها : إنى أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة ؛ فقال لها : افعلى ؛ فاتخذت طعاما ، ثم نَجَّدت لهن البيوت ؛ نَجَّدت أى زينت ؛ والنَّجْد ما يُنَجَّد

(1) المهنوءة : المطلية بالقطران ، وإذا هنىء البعير بالقطران يجد له لذة مع حرقة ، كحرقة الهوى مع لذته .

به البيت من المتاع أي يُزيّن، والجمع نُجُود؛ عن أبي عُبيد؛ والتنجيد التزيين؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها، ولا تتخلف منكنّ آمرأة ممن سميتُ . قال وهب بن مُنبِّه : إنهنّ كنّ أربعين آمرأة بجئن على كُرْه منهنّ، وقد قال فيهنّ أُميّة بن أبي الصَّلْت :

حتى إذا جئنها قسرا (١) * ومهدت لهن أنضادا وكبابا

ويُروى أنماطا . قال وهب : بجئن وأخذن مجالسهنّ . ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليها . قال آبن جُبَير : في كل مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجّ وسكّين حاد . وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير « مُتْكًا » مخففا غير مهموز ؛ والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد . روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : المُتَّكَأ مثقلا الطعام، والمُتْك مخفّفا الأُتْرُجّ؛ وقال الشاعر :

نَشْرَبُ الإثْمَ بالصُّواعِ جِهَارًا * وتَرَى المُتْكَ بَيْنَنَا مُسْتعارَا

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءة : الأُتْرجّة المُتْكة؛ قال الجوهريّ: المُتْك ما تُبقيه الخاتنة . وأصل المُتْك الزُّمَاوَرْد (٢) . والمَتْكاء من النساء التي لم تُخْفَض (٣) . قال الفرّاء : حدّثني شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُتك مخففا الزُّمَاوَرْد . وقال بعضهم : إنه الأُتْرجّ؛ حكاه الأخفش . ٱبن زيد : أترجًّا وعسلا يؤكل به؛ قال الشاعر (٤) :

فَظِلْنا بنعمةٍ وٱتّكأْنَا * وشَرِبْنا الحلالَ من قُلَلِه

أي أكلنا .

النحاس : قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ من العَتَاد؛ وهو كل ما جعلته عُدّة لشيء . ﴿مُتَّكَأً﴾ أصح ما قيل فيه ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن آبن عباس قال : مجلسا ، وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام متكأ، مثل « وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ »؛ ودل على

---

(١) كذا البيت في الأصل . (٢) الزماورد : الرقاق الملفوف باللحم وغيره ، أو هو شيء يشبه الأترج .
(٣) خفض الجارية : ختنها ، وكذا الصبي ، والأعرف أن الخفض للجارية والختان للصبي . (٤) هو جميل ابن معمر ، والقلل جمع قلة ، والقلة الحب العظيم . وقيل : الجرة الكبيرة . وقيل : الكوز الصغير . وقيل غير ذلك .

هذا الحذف « وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا » لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين ؛ كذا قال فى كتاب « إعراب القرآن » له . وقال فى كتاب « معانى القرآن » : وروى مَعْمَر عن قَتادة قال : « المتكأ » الطعام . وقيل : « المتكأ » كل ما اتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى القُتَبيّ أنه يقال : اتكأنا عند فلان أى أكلنا ، والأصل فى «متكأ» موتكأ ، ومثله مُتَّزِن ومُتَّعِد ؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت ، ويقال : اتَّكَأَ يَتَّكِئُ اتِّكاء . ﴿ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ مفعولان ؛ وحكى الكسائى والفراء أن السِّكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

فَعَيَّثَ فِي السَّنَامِ غَدَاةَ قُرٍّ ۞ بِسِكِّينٍ مُوَثَّقَـةِ النِّصَابِ (١)

الجوهرىّ : والغالب عليه التذكير ، وقال :

يُرَى ناصحًـا فيما بَدَا فإذا خَلَا ۞ فذلك سِكِّينٌ على الحَـلْقِ حَاذِقُ

الأصمعى : لا يعرف فى السكّين إلا التذكير .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتُ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل إنها قالت لهن : لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك ادع لى إيلا فادع يوسف ؛ و إيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل فى الطين ، وقد شدّ مئزره ، وحَسَر عن ذراعيه ؛ فقالت للخادم : ادع لى إيلا ، أى ادع لى الربّ ؛ و إيل بالعبرانية الربّ ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يجيء ؟ ! فصعدت الخادم فدعت يوسف ؛ فلما انحدر قالت لهن : اقطعن ما معكن . ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه . سعيد بن جُبير : لم يخرج عليهن حتى زينته ، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه ، وتحيّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن أنهن يقطعن الأُتْرُجّ ؛ واختلف

(١) عيث فى السنام بالسكين أثر .

فى معنى « أَكْبَرْنَهُ » فروى جُوَيْبِر عن الضحّاك عن ابن عباس : أعظمنه وهِبْنه ؛ وعنه أيضا أَمْنين وأَمْذين من الدَّهَش ؛ وقال الشاعر :

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قارةٍ[(1)] * صَهَلْنَ وأَكْبَرْنَ المنىَّ المدفقَا

وقال ابن سمعان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أمذين عشقا ؛ وهب بن مُنَبِّه : عشقنه حتى مات منهن عشرة فى ذلك المجلس دَهَشا وحيرة ووَجْدا بيوسف . وقيل : معناه حضْن من الدَّهش ؛ قاله قَتادة ومقاتل والسُّدّى ؛ قال الشاعر :

نأتى النساءَ على أطهارهنّ ولا * نأتى النّساءَ إذا أَكْبَرْنَ إِكْبَارَا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا : ليس ذلك فى كلام العرب ، ولكنه يجوز أن يكنّ حضْن من شــدّة إعظامهن له ، وقــد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقــال أكبرنه ، ولا يقال حِضْنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض ؛ وأجاب الأزهرى فقال : يجوز أَكْبرت بمعنى حاضت ؛ لأن المرأة إذا حاضت فى الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر ؛ قال : والهاء فى « أكبرنه » يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية ؛ وهذا مزيَّف ، لأن هاء الوقف تسقط فى الوصل ، وأمثل منه قول ابن الأنبارى : إن الهاء كناية عن مصدر الفعل ؛ أى أكبرن إكبارا ، بمعنى حِضْن حَيْضا . وعلى قول ابن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف ؛ أى أعظمن يوسف وأَجْلَلْنه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : قطّعنها حتى ألقينها . وقيل : خَدَشْنها . وروى ابن أبى نَجيح قال : حَزًّا بالسكّين ، قال النحاس : يريد مجاهــد أنه ليس قطعا تَبِين منه اليد ، إنما هو خَدْش وحزّ ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده . وقال عِكرمة : « أيديهنّ » أكمامهنّ ، وفيه بُعْد . وقيل : أناملهنّ ؛ أى ما وجدن ألمــا فى القطع والجرح ، أى لشغل قلوبهن بيوسف ، والتقطيع يشير إلى الكثرة ، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها فى مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى عَددهنّ .

(1) القارة : الجبيل الصغير المنقطع من الجبال ، وقيل : الصخرة العظيمة ، وقيل غير ذلك .

قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله. وروى الأصمعي عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء « وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ » بإثبات الألف وهو الأصل؛ ومن حذفها جعل اللام في « لله » عوضا منها. وفيها أربع لغات؛ يقال: حَاشَاكَ وحَاشَا لَكَ وحاشَ لَكَ وحَشَا لكَ. ويقال: حَاشَا زيدٍ وحاشا زيدًا؛ قال النحاس: وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: النصب أولى؛ لأنه قد صحّ أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه؛ وقد قال النابغة:

* وَلَا أحاشِي من الأقوامِ من أَحَدِ (١) *

وقال بعضهم: حاشَ حرف، وأُحاشِي فعل. ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها. وحكى أبو زيد عن أعرابيّ: اللهم ٱغفر لي ولمن يسمع، حاشا الشيطانَ وأبا الأصبغ (٢)؛ فنصب بها. وقرأ الحسن « وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ » بإسكان الشين، وعنه أيضا « حاش الإله ». ابن مسعود وأبيّ: « حَاشَ اللهِ » بغير لام، ومنه قول الشاعر (٣):

حاشا أبي ثَوْبانَ إنّ به * ضَنًّا عن المَلْحَاةِ والشَّتْمِ

قال الزّجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحَشَا بمعنى الناحية، تقول: كنت في حَشَا فلانٍ أي في ناحيته؛ فقولك: حاشا لزيدٍ أي تَنَحَّى زيدٌ من هذا وتباعد عنه، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين. وقال أبو علي: هو فاعل من المحاشاة؛ أي حاشا يوسف وصار في حاشية وناحية مما قُرِف به، أو من أن يكون بشرا؛ فحاشا وحاش في الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه، وعلى ما قال المبرّد وأبو عليّ فعل.

قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ قال الخليل وسيبويه: « ما » بمنزلة ليس؛ تقول: ليس زيدٌ قائما، و« مَا هَٰذَا بَشَرًا » و« ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ». وقال الكوفيون: لما حذفت الباء

---

(١) صدر البيت: * ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه *
وهو من قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه. (٢) كلام منثور. (٣) هو سبرة بن عمرو الأسدي، وقيل: هو للجميح الأسدي، واسمه منقذ بن الطماح. والملحاة: اللوم.

نصبت؛ وشرح هذا — فيما قاله أحمد بن يحيى — أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب ، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلها، قال : وهذا قول الفرّاء ، قال : ولم تعمل «ما» شيئا؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا : زيد القمرَ؛ لأن المعنى كالقمر ! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل فى حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون اسما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض ، لأن الفرّاء أجاز نصًّا ما بمنطلق زيدٌ، وأنشد :

أَمَا واللهِ أَنْ لو كنتَ حُرًّا * وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيقِ

ومنع نصًّا النصب ، ولا نعلم بين النحويين اختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم ، وأنشدوا :

أَتِيمًا تجعلون إلىّ نِدًّا * وما تَيْمٌ لِذِى حَسَبٍ نَدِيدُ

النِّد والنَّديد والنَّدِيدةُ المِثل والنَّظير . وحكى الكسائى أنها لغة تِهامة ونَجْد . وزعم الفرّاء أن الرفع أقوى الوجهين ؛ قال أبو إسحق : وهذا غلط ؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى .

قلت : وفى مصحف حَفْصة رضى الله عنها «مَاهَذَا بِبَشَرٍ» ذكره الغَزْنوىّ . قال القُشَيرىّ أبو نصر : وذكرت النّسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو فى صورة مَلَك؛ وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» والجمع بين الآيتين أن قولهنّ : «حاش لله» تبرئة ليوسف عمّا رمته به امرأة العزيز من المراودة؛ أى بعد يوسف عن هذا؛ وقولهنّ : «لله» أى لخوفه ، أى براءة لله من هذا؛ أى قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة فى شىء؛ والمعنى : أنه فى التبرئة عن المعاصى كالملائكة؛ فعلى هذا لاتناقض . وقيل : المراد تنزيهه عن مشابهة البشر فى الصورة، لفرط جماله . وقوله : «لله» تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هـذا المعنى قالت النساء ذلك ظنا منهن أن صـورة الملك أحسن ، وما بلغهنّ قوله

تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فإنه من كتابنا . وقد ظنّ بعض الضَّعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا منهنّ لوجب على الله أن يردّ عليهنّ، ويبيّن كذبهنّ، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الردّ عليه؛ وأيضا أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسَن كأنه ملَك؛ أي لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظنّ في أن صورة الملك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التهم . ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا ملَك؛ وقال الشاعر (١) :

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلْأَكٍ * تَنَزَّلَ من جَوِّ السماءِ يَصُوبُ

وروى عن الحسن «مَا هَٰذَا بِشِرًى» بكسر الباء والشين، أي ما هذا عبدا مُشترًى، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال : «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» أي مصيده، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بثمن، أي مثله لا يثمن ولا يقوم؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به، كقولك : ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل هذا بألف، فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر، كأنه قال : ما هذا مقدرا بشراء . وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده «إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيما لشأنه، ولأن مثل «بِشِرًى» يكتب في المصحف بالياء .

قوله تعالى : ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها : «لمتنني فيه» أي بحبه، و «ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطَّبريّ . وقيل : الهاء للحب، و «ذلك» على بابه، والمعنى : ذلكن الحُبّ الذي لمتنني فيه، أي حب هذا هو ذلك الحب . واللوم الوصف بالقبيح . ثم أقرت وقالت : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي امتنع؛

---

(١) هو رجل من عبد القيس جاهلي، يمدح بعض الملوك، قيل : هو النعمان، وقال ابن السيرافي : هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير . وملك — كما قال الكسائي — أصله مألك بتقديم الهمزة؛ من الألوك، وهي الرسالة، ثم قلبت وقدمت اللام فقيل : ملأك، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل : ملك، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا : ملائكة وملائك أيضا . (اللسان) .

وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل : « آستعصم » أى آستعصى؛ والمعنى واحد . ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهنّ، وهتكت جلباب الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لَوْمًا ولا مقالا خلاف أوّل أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها . ﴿ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى الأذلّاء . وخط المصحف « وليكونًا » بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقّل وتخفّف والوقف على قوله : « ليسجنن » بالنون لأنها مثقلة، وعلى « ليكونا » بالألف لأنها مخففة، وهي تشبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا، ومثله قوله : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » ونحوها الوقف عليها بالألف، كقول الأعشى :

* وَلَا تعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدا (١) *

أراد فاعبدًا، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى دخول السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزجاج والنحاس . « أحب إلىّ » أى أسهل علىّ وأهون من الوقوع فى المعصية؛ لا أنّ دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق . وحُكى أن يوسف عليه السلام لما قال : « السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوحى الله إليه « يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إلىّ، ولو قلت العافية أحبّ إلىّ لعوفيت » . وحكى أبو حاتم أن عثمان آبن عفان رضى الله عنه قرأ « السَّجْن » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة بن أبى إسحق

(١) صدر البيت : * وذا النصب المنصوب لا تنسكنه *
وهو من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعبد الرحمن الأعرج و يعقوب؛ وهو مصدر سَجَنه سَجْنا . ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ أى كيد النّسوان . وقيل : كيد النّسوة اللاتى رأينه؛ فإنهنّ أمرنه بمطاوعة آمرأة العزيز، وقلن له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيـل : طلبت كل واحدة أن تخـلو به للنصيحة فى آمرأة العزيز؛ والقصد بذلك أن تعذله فى حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! آقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد آمرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب، و إما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الآحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لجأ :

تَراءتْ كَيْ تَكيدَكَ أُمُّ بِشْرٍ * وكَيْدُ بالتَّـبَرُّجِ مَا تَكِيدُ

﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ جواب الشرط، أى أمل إليهن؛ من صبا يصبو — إذا مال وآشتاق — صبوًّا وصَبْوة؛ قال[1] :

إلَى هِنْـدٍ صَبَا قَلْبِي * وهِنْـدٌ مِثْلُها يُصْبِي

أى إن لم تَلطُف بى فى آجتناب المعصية وقعت فيهـا . ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعـالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ لِمَا قال . ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ تعرّض للدعاء، وكأنه قال : اللهم آصرف عنى كيـدهنّ؛ فاستجاب له دعاءه، ولطف به وعصـمه عن الوقوع فى الزنى . ﴿ كَيْدَهُنَّ ﴾ قيـل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفســه . وقيـل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد آمرأة العزيز، على ما ذكر فى الآية قبـل؛ والعموم أولى .

---

(١) هو زيد بن ضبة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ (٣٥) ﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد أن رأوا علامات براءة يوسف — من قدّ القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحزّ الأيدى، وقلة صبرهنّ عن لقاء يوسف — أن يسجنوه كتمانا للقصة ألا تشيع فى العامة، وللحيلولة بينه و بينها. وقيل : هى البركات التى كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الايات، وقطع الأيدى من الآيات، و إعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : ألجأها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفى إذا مُنعت من نظره ؛ قال :

وما صَبابةُ مشتاقٍ على أملٍ * مِن اللِّقاء كمشتاقٍ بلا أَمَلِ

أو كادت رجاء أن يَملَّ حبسه فيبذل نفسه .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ « يسجننه » فى موضع الفاعل ؛ أى ظهر لهم أن يسجنوه ؛ هـذا قول سيبويه . قال المبرّد : وهـذا غلط ؛ لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دل عليه « بدا » وهـو المصدر ؛ أى بدا لهم بَدَاءٌ ؛ فحذف لأن الفعل يدل عليه ؛ كما قال الشاعر :

وحقّ لمن أبو موسى أبـوهُ * يُوَفِّقه الذى نَصبَ الجبـالَا

أى وحقّ الحقُّ، فحذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأيٌ لم يكونوا يعرفونه ؛ وحذف هـذا لأن فى الكلام دليلا عليه ، وحذف أيضا القول ؛ أى قالوا : ليسجننه، واللام جواب ليمين مضمر ؛ قاله الفرّاء، وهو فعل مذكر لا فعـل مؤنث ؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكان يَسْجُنَانِّه ؛

و يدل على هذا قوله «لهم» ولم يقل لهنّ ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهن فغلب المذكر ؛ قاله أبو عليّ . وقال السّديّ : كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه شهّرها ونشر خبرها؛ فالضمير على هذا في « لهم » للملك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي إلى مدّة غير معلومة ؛ قاله كثير من المفسّرين . وقال ٱبن عباس : إلى انقطاع ما شاع في المدينة . وقال سعيد بن جُبير : ستة أشهر . وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثة عشر شهرا . عِكْرِمة : تسع سنين . الكَلْبيّ : خمس سنين . مقاتل : [ٱثنتي عشرة سنة](1) . وقد مضى في « البقرة »(2) القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام . وقال وهب : أقام في السجن اثنتي عشرة سنة . و « حتى » بمعنى إلى ؛ كقوله : « حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » . وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف من هَمّه بالمرأة . وكأن العزيز — و إن عرف براءة يوسف — أطاع المرأة في سجن يوسف . قال ٱبن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين هَمّ بها فسجن ، وحين قال للفتى : « ٱذكرني عند ربك » فلبث في السجن بضع سنين ، وحين قال لأخوته : « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » فقالوا : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » .

الرابعة — أُكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ؛ ولو أُكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعا . فإن أُكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه . وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحدّ ، وهو ضعيف ؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ؛ فإنه من أعظم الحرج في الدّين «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» . وسيأتي بيان هذا في «النحل» إن شاء الله . وصبر يوسف ، وٱستعاذ به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدّم .

---

(1) الزيادة عن (روح المعاني) وتفسير (الفخر الرازي) .
(2) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ « فتيان » تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الياء ، وقولهم : الفُتُوّ شاذ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيّدا على حمار ، وطيف به « هـذا جزاء من يعصى سيدته » وهو يقول : هـذا أيسر من مُقَطّعات النّيران (١) ، وسرابيل القَطِران ، وشرب الحميم ، وأكل الزّقوم ؛ فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد ٱنقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : ٱصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يافتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا في جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفىّ الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليل الله إبراهيم . وقال ٱبن عباس : لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحنى ، وأنا أريد أن تسجنه ، فسجنه في السجن ؛ فكان يُعزّى فيه الحزين ، ويعود فيه المريض ، ويداوى فيه الجريح ، ويصلى الليل كله ، ويبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن

(١) مقطعات النيران : هي على نحو قوله تعالى : « قطعت لهم ثياب من نار » أي خيطت وسويت وجعلت لبوسا لهم .

مع يوسف، وأحبـه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال: يا يوسف! لقد أحببتك حبّا لم أحبّ شيئا حبك؛ فقال: أعوذ بالله من حبك؛ قال: ولم ذلك؟ فقال: أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبتني سيدتي فنزل بي ما ترى؛ فكان في حبسه حتى غضب الملك على خبازه وصاحب شرابه؛ وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه، فدسّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يَسُمَّاه جميعا، فأجاب الخبّـاز وأبى صاحب الشَّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك؛ فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف؛ فذلك قوله: «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ» وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقي: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخبّاز: لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للساقي: آشربْ! فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ؛ فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سـنة، و بقيا في السجن تلك المدة مع يوسف. وآسم الساقي منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبيّ عن كعب. وقال النقاش: اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطَّـبريّ: الذي رأى أنه يعصر خمرا هو بنوه، قال السّهيليّ: وذكر آسم الآخر ولم أقيده. وقال «فتيان» لأنهما كانا عبدين، والعبـد يسمى فتى، صـغيرا كان أو كبيرا؛ ذكره المـاورديّ. وقال القُشَيريّ: ولعل الفتى كان اسما للعبد في عرفهم؛ ولهـذا قال: «تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ». ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه. «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْـرًا» أي عنبا؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هـذا العبد العبراني؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا؛ قاله آبن مسعود. وحكى الطّبريّ أنهما سألاه عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال آبن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفي الصحيح عن أبي هُريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أصدقكم رؤيا أصدقكم

حديثا " . وقيــل : إنهــا كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريبا ؛ وهــذا قول ابن مسعود والسدى . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبا ، والآخر صادقا ؛ قاله أبو مِجْلَز . وروى الترمذى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من تَحَلَّمَ كاذبا كُلِّف يوم القيامة أن يَعقِد بين شَعيرتين [ولن يَعقِد بينهما] (١) " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وعن على عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب فى حُلُمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعيرة " . قال : حديث حسن . قال ابن عباس : لمــا رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ؛ فقال لهما يوسف : ما لى أراكما مكروبين؟ قالا : يا سيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ؛ قال : فقصّا علىّ ، فقصّا عليه ؛ قالا : نبئنا بتأويل ما رأينا ؛ وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام . ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزِّى الحزانى ؛ قال الضّحاك : كان إذا مرض الرجل من أهــل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّــع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . وقيل : « من المحسنين » أى العالمين الذين أحســنوا العلم ؛ قاله الفراء . وقال ابن إسحق : « من المحسنين » لنــا إن فَسَّرته ، كما تقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فمــا رأيتمــا ؟ قال الخباز : رأيت كأنى اختبزت فى ثلاثة تنانير ، وجعلته فى ثلاث سلال ، فوضعته على رأسى ، فجاء الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كأنى أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ، فعصرتهن فى ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتى فيما مضى ، فذلك قوله : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنبا ، بلغــة عمان ، قاله الضّحاك . وقرأ ابن مســعود « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ عِنَبًا » . وقال الأصمعى : أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيا ومعه عنب فقال له : ما معك ؟ قال : خمر . وقيل : معنى « أعصر خمرا » أى عنب خمر ، فحذف المضاف . ويقال : خَمْرة وخَمْر وخُمُور ، مثل تمرة وتمر وتُمور . « قال » لهما يوسف : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

(١) الزيادة عن صحيح الترمذى ، قال شارحه : لمــا تبعته نظرى ظهر إلى أن المخبر بمــا لم ير عقد من الكلام عقدا باطلا لم يشعر به أى لم يعلمه ، فقيل له اعقد بين شعيرتين ولا ينعقد له ذلك أبدا ، عقوبة لعقده بين كلمات لم يكن منها شيء ، لتكون العقوبة من جنس المعصية .

تُرْزَقَانِهِ ﴾ يعنى لا يجيئكما غدا طعام من منزلكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : ٱفعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ؛ وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف . وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أوّلا ما يتعلق بالدين لتهتدوا ، ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليسعدا به . وقيل : إن يوسف كره أن يعبّر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ فى غيره فقال : « لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ » فى النوم « إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا » بتفسيره فى اليقظة ، قاله السُّدىّ ، فقالا له : هذا من فعل العَرّافين والكَهَنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّى ، إنى لا أخبركما به تكهّنا وتنجيما ، بل هو بوحى من الله عز وجل . وقال ٱبن جُرَيج : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ، فالمعنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة ، فعلى هذا « ترزقانه » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق . ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ما ينبغى . ﴿ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ «من» للتأكيد ، كقوله : ما جاءنى من أحد . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى . ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وعلى الناس » إذ جعلنا الرسل إليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمه بالتوحيد والإيمان .

قوله تعالى : يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ أي ياساكني السجن ؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه ، كقولك : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار . ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ أي في الصغر والكبر والتوسط ، أو متفرقون في العدد . ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وقيل : الخطاب لهما ولأهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك إلزاما للحجة ؛ أي آلهة شتّى لا تضر ولا تنفع «خير أم الله الواحد القهار» الذى قهر كل شيء . نظيره «آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ» . وقيل : أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدّد الإلٰه لتفرقوا في الإرادة ولعلا بعضهم على بعض ، وبين أنها إذا تفرّقت لم تكن آلهة .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً ﴾ بيّن عجز الأصنام وضعفها فقال : «ما تعبدون من دونه» أي من دون الله إلا ذوات أسماء لا معاني لها . ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ من تلقاء أنفسكم . وقيل : عنى بالأسماء المسميات ؛ أي ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم ؛ لأنها جمادات . وقال : «ما تعبدون» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك . ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ حذف المفعول الثاني للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهةً من عند أنفسكم . ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ذلك في كتاب . قال سعيد بن جبير : ﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الذى هو خالق الكل . ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ . ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ . أي القويم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ (٤١)

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أى قال للساقى : إنك تُرَدّ على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأمّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيتُ شيئا ؛ قال : رأيت أو لم ترَ ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ . وحكى أهل اللغة أن سَقى وأسقى لغتان بمعنى واحد، كما قال الشاعر(١) :

سَقَى قومى بَنِي مَجْدٍ وأَسْقَى * نُمَيْرًا والقبائلَ من هلال

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب ، أو صَبّ الماء فى حلقه، ومعنى أسقاه جعل له سُقْيا ؛ قال الله تعالى : « وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا » .

الثانية — قال علماؤنا : إن قيل من كذب فى رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا : لا يلزمه ؛ وإنما كان ذلك فى يوسف لأنه نبيّ ، وتعبير النبيّ حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوّته ؛ فإن قيل : فقد روى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قَتَادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إنى رأيتُ كأنى أعْشبتُ ثم أجْدبتُ ثم أعْشبتُ ثم أجْدبتُ ، فقال له عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافرا ؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئا ؛ فقال له عمر : قد قُضِى لك ما قُضِى لصاحب يوسف ؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر ؛ لأن عمر كان مُحدَّثا(٢) ، وإذا تكلم به وقع ،

(١) هو لبيد ؛ ومجد : ابنة تيم بن غالب بن فهر ، وهى أم كلاب وكليب بنى ربيعة . وفاعل سقى هو المطر .

(٢) محدث : ملهم ، أو يلقى فى روعه الشىء ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . (القسطلانى) .

على ما ورد فى أخباره ؛ وهى كثيرة؛ منها — أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنا فكان كما ظن؛ خرجه البخارى" . ومنها — أنه سأل رجلا عن آسمه فقال له أسماء فيها النار كلها، فقال له : أدرك أهلك فقد آحترقوا، فكان كما قال، خرجه الموطأ . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر»(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

فيـه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن، فى قول أكثر المفسرين . وفسره قتادة على الظن الذى هو خلاف اليقين؛ قال : إنما ظنّ يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنًّا وربك يخلق مايشاء؛ والأوّل أصحّ وأشبه بحال الأنبياء، وأن ما قاله للفتيين فى تعبير الرؤيا كان عن وحى ، وإنما يكون ظنا فى حكم الناس ، وأما فى حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ أى سيّدك، وذلك معروف فى اللغة أن يقال للسيّد ربّ؛ قال الأعشى :

رَبِّى كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَــةً * وإذا تُنُوشِدَ(٢) فى المَهَارِقِ أَنْشَدَا

أى آذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلا ذنب . وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هُريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا يَقلْ أحدُكم آسقِ ربَّك أطعمْ ربَّك وضِّئْ ربَّك ولا يَقل أحدُكم ربِّى وليقلْ سيّدى مولاى ولا يَقلْ أحدُكم عبدى أَمَتِى وليقلْ فَتاىَ فَتاتِى غلامى" . وفى القرآن : «ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ» « إلى

(١) فى تفسير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للتوسمين » آية ٧٥ .

(٢) ويروى (يناشد بالمهارق) يقول : إذا نوشد بما فى الكتب أجاب؛ أى إذا سئل أعطى . والمهرق : الصحيفة .

رَبِّكَ» «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» أى صاحبى ؛ يعنى العزيز . ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه قد رَبَّه يربُّه؛ فهو رَبٌّ له . قال العلماء قوله عليه السلام : "لا يَقُلْ أحدُكم" "وليقلْ" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم ؛ ولأنه قد جاء عنه عليه السلام "أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا" أى مالكها وسيّدها ؛ وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ ؛ فكان محل النهى فى هذا الباب ألّا تتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن . وقد قيل : إن قول الرجل عبدى وأمتى يجمع معنيين : أحدهما — أن العبودية بالحقيقة إنما هى لله تعالى ؛ ففى قول الواحد من الناس لمملوكه عبدى وأمتى تعظيم عليه ، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه ؛ وذلك غير جائز . والثانى — أن المملوك يدخله من ذلك شيء فى آستصغاره بتلك التسمية ، فيحمله ذلك على سوء الطاعة . وقال آبن شعبان فى «الزاهى» "لا يقل السيّد عبدى وأمَتى ولا يقل المملوك ربّى ولا ربّتى" وهذا محمول على ما ذكرناه . وقيل : إنما قال صلى الله عليه وسلم "لا يقل العبد رَبّى وليقل سيّدى" لأن الربّ من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق؛ وآختلف فى السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا ؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح ؛ إذ لا التباس ولا إشكال ، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس فى الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الربّ ؛ فيحصل الفرق . وقال ابن العربى : يحتمل أن يكون ذلك جائزا فى شرع يوسف عليه السلام .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الضمير فى « فأنساه » فيه قولان : أحدهما — أنه عائد إلى يوسف عليه السلام ، أى أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل ؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك — حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك — «آذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ؛ فعوقب باللبث . قال عبد العزيز بن عُمَير الكِنْدىّ : دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام فى السجن فعرفه يوسف ، فقال: يا أخا المنذرين ! مالى أراك بين الخاطئين ؟ ! فقال جبريل عليه السلام : يا طاهر الطاهرين ! يقرئك

السلام رب العالمين ويقول : أما استحييت إذ آستغثت بالآدميين ؟ ! وعزّتى ! لألبثنّك فى السجن بضع سنين ؛ فقال : يا جبريل ! أهو عنّى راضٍ ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالى الساعة . ورُوى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى فى ذلك وطول سجنه ، وقال له : يا يوسف ! من خلّصك من القتل من أيدى إخوتك ؟ ! قال : الله تعالى، قال : فمن أخرجك من الجُبّ ؟ قال : الله تعالى، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلّت منى ! أسألك بإله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمنى ؛ فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين . ورَوى أبو سَلَمة عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قال «آذكرنى عند ربك» ما لبث فى السجن بضع سنين". وقال آبن عباس : عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمّا قال للذى نجا منهما « ٱذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه . وروى إسمعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا كلمة يوسف — يعنى قوله « اذكرنى عند ربك » — ما لبث فى السجن ما لبث " قال : ثم يبكى الحسن ويقول : نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الناجى ، فهو الناسى ؛ أى أنسى الشيطانُ الساقىَ أن يذكر يوسف لربه ، أى لسيّده ؛ وفيه حذف ، أى أنساه الشيطانُ ذكره لربه ؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحقّ العقاب باللبث فى السجن ؛ إذ الناسى غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ ردّ عليهم أهل القول الثانى بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » فدلّ على أن الناسى الساقى لا يوسف ؛ مع قوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟ ! قيل : أما

النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلّغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسي آدم فنسيت ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البِضع قطعة من الدهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد: يقال بَضْع وبِضْع بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهَرَوي: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناهما القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع مادون نصف العِقْد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "اذهب فزائد في الخَطَر"(1). وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال الماوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطْرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجونا ثلاثة أقاويل: أحدها — سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقَتادة ووهب بن مُنَبِّه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني — اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث — أربع عشرة

(1) الخطر (بالتحريك): الرهن والحظ. والحديث في شأن مراهنة أبي بكر رضي الله عنه لقريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسو بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "اذهب فزائد في الخطر ومادد في الأجل" وكان ذلك قبل تحريم الرهان. راجع صحيح الترمذي في تفسير قوله تعالى: «الم غلبت الروم ...» الآية.

سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف فى السجن خمسا وبضعا . وٱشتقاقه من بضعت الشيء أى قطعته، فهو قطعة من العـدد ، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس سبع سنين أو تسع سنين بعـد الخمس التى مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب ٱبن مُنَبِّه : حبس يوسف فى السجن سبع سنين، ومكث أيوب فى البلاء سبع سنين، وعُذِّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبع سنين . وقال عبدالله بن راشد البصرى عن سعيد بن أبى عَرُوبة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتى عشرة سنة .

الخامسـة — فى هذه الاية دليل على جواز التعلّق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلا، فإن الأمور بيد مُسبِّبها ، ولكنه جعلها سلسلة ، وركَّب بعضها على بعض ، فتحريكها سنّة، والتعويل على المنتهى يقين . والذى يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى فى لقيا الخضر، وهذا بيّن فتأملوه .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فنزل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك، ومُمكّن لك فى الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدّة ، وجعلها آخرا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الريّان بن الوليد رأى فى نومه كأنما خرج من نهر يابس سبعُ بقراتٍ سِمـان ، فى أثرهنّ سبع عِجاف — أى مهازيل — وقـد أقبلت العِجاف على السِّمان فأخذن بآذانهنّ فأكلنهنّ، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل

عليهن سبع يابسات فأكلنهنّ حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات، وكذلك البقر كنّ عجافا فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر، وأشراف قومه، فقال: « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ » فقصّ عليهم، فقال القوم: « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » قال ابن جُرَيج قال لى عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعنى بها الكاذبة. وقال الهَرَوِىّ: قوله تعالى « أضغاث أحلام » أى أخلاط أحلام. والضِّغث فى اللغة الحُزْمة من الشيء كالبقل والكلا وما أشبههما، أى قالوا: ليست رؤياك ببيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقا بين المذكر والمؤنث. « سمان » من نعت البقرات، ويجوز فى غير القرآن سبعَ بقراتٍ سِمانًا، نعت للسبع، وكذا خُضرًا، قال الفرّاء: ومثله «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا». وقد مضى فى سورة « البقرة »[1] اشتقاقها ومعناها. وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: المَعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانا فهى سِنِىّ رخاء، وإن كانت عجافا كانت شدادا، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فِتَنًا مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما فى الخبر "يشبه بعضها بعضا". وفى خبر آخر فى الفتن "كأنها صياصى البقر"[2] يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْرا كلّها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسّنة، لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات. ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ من عَجُف يَعجُف، على وزن عَظُم يَعظُم، وروى عَجِف يَعجَف على وزن حَمِد يَحمَد.

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) صياصى البقر: قرونها.

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى ، أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، بمعنى عَبَرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها . واللام فى « للرؤيا » للتبيين ، أى إن كنتم تعبُرون، ثم بيَّن فقال : للرؤيا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤)

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ ﴾ قال الفراء : ويجوز «أضغاثَ أحلام» قال النحاس : النصب بعيد، لأن المعنى : لم ترشيئا له تأويل ، إنما هى أضغاث أحلام ، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغث ؛ قال الشاعر :

* كضِغث حُلْم غُرَّ منه حالمُه *

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نَفَـوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهـم نفوا عن أنفسهـم علم التأويل . وقيل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقى : « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل ، لا أنهم آدّعوا ألّا تأويل لها . وقيل : إنهم لم يقصدوا تفسيرا ، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضا فعندهم علم . و «الأحلام» جمع حُلْم ، والحُلْم بالضم ما يراه النائم ، تقول منه حَلَم بالفتح وآحتلم ، وتقول : حَلَمتُ بكذا وحَلَمته ، قال :

فَحَلَمْتُها وبنو رُفَيْدَةَ(١) دُونَها * لا يَبْعَدَنَّ خيالُها المحلومُ

وأصله الأناة ، ومنه الحِلْم ضد الطَّيش ؛ فقيل لما يُرى فى النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون ودَعَة .

---

(١) رفيدة : أبو حى من العرب ، يقال لهم الرفيدات ؛ كما يقال لآل هبيرة الهبيرات . اللسان .

الثانية — فى الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أوّل ما تعبّر ، لأن القوم قالوا : « أضغاث أحلام » ولم تقع كذلك ؛ فإن يوسف فسّرها على سِنِيّ الجدب والخصب ، فكان كما عبر ؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا عبّرت وقعت .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ يعنى ساقى الملك . « وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى بعد حين ، عن ٱبن عباس وغيره ؛ ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ٱبن دُرُسْتَوَيْه[(1)] : والأمّة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، و إقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال — والله أعلم — : وادّكر بعد حين أُمَّةٍ ، أو بعد زمن أمّة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمّة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد ، وفى المعنى جمع ؛ وكل جنس من الحيوان أمّة ؛ وفى الحديث : ” لولا أن الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها “ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ ﴾ أى تذكر حاجة يوسف ، وهو قوله : «ٱذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ» . وقرأ ٱبن عباس — فيما روى عفّان عن همّام عن قتادة عن عِكرمة عنه — «وادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ» . النحاس : والمعروف من قراءة ٱبن عباس وعِكرمة والضحاك «وَادَّكَرَ بعد أَمَهٍ» ، بفتح الهمزة وتخفيف الميم ؛ أى بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَمِهْتُ وكنتُ لا أَنسَى حديثاً * كذاكَ الدهرُ يُودِى بالعقولِ

وعن شُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعِى « بعد أَمْهٍ » بفتح الألف و إسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأَمَه ، وهما لغتان ، ومعناهما النّسيان ؛ و يقال : أَمِهَ يأمَهُ أَمَهًا إذا نَسِىَ ؛ فعلى هذا

(1) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ما كولا (بفتحهما) .

« وَٱدَّكَرَ بعــد أَمَه » ؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أَمْه ذاهب العقل . قال الجوهرى : وأما ما فى حديث الزهرى " أَمِه " بمعنى أقر واعترف فهى لغة غير مشهورة . وقرأ الأَشْهب العُقَيلى — « بَعْــدَ إِمَّةٍ » أى بعد نعمة ؛ أى بعد أن أنعم الله عليــه بالنجاة . ثم قيل : نسى الفتى يوسف لقضاء الله تعالى فى بقائه فى السجن مدة . وقيل : ما نسى ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذى بســببه حبس هو والخبّــاز ؛ فقوله : « وادّكر » أى ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل ادّكر اذْتَكَر ؛ والذال قريبة المخرج من التاء ؛ ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب الجر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار اذْدَكَرَ ، فأدغموا الذال فى الدال لرخاوة الدال ولينها ؛ ثم قال : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أى أنا أخبركم . وقرأ الحسن « أَنَا آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » وقال : كيف ينبئهم العِلْج (١) ؟ ! قال النحاس : ومعنى « أنبئكم » صحيح حسن ؛ أى أنا أخبركم إذا سَأَلتُ . ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . ﴿ يُوسُفُ ﴾ نداء مفرد ، وكذا ﴿ الصِّدِّيقُ ﴾ أى الكثير الصدق . ﴿ أَفْتِنَا ﴾ أى فأرسلوه ؛ فجاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . « لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك وأصحابه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ التعبير ، أو « لعلهم يعلمون » مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعـالى : قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾

فيـــه مسئلتـان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ ﴾ لمـا أعلمه بالرؤيا جعل يفسّرها له ، فقال : السبع من البقرات السّمان والسّنبلات الخضر سبع سـنين مخصبات ؛ وأما البقرات العجاف

(١) العلج : الكافر من العجم .

والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات ؛ فذلك قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أى متوالية متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « تزرعون » تدأبون كعادتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ؛ أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب «دَأَبا» بتحريك الهمزة ؛ وكذا روى حفص عن عاصم ، وهما لغتان(١) ، وفيه قولان قول أبى حاتم : إنه من دَئِب . قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَب . والقول الآخر — إنه حُرِّك لأن فيه حرفا من حروف الحلق ؛ قاله الفراء ، قال : وكذلك كل حرف فُتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة ، أو هاء ، أو عينا ، أو غينا ، أو حاء ، أو خاء ؛ وأصله العادة ؛ قال(٢) :

* كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا *

وقد مضى فى « آل عمران(٣) » القول فيه . ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ قيل : لئلا يسوس ، وليكون أبقى ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى آستخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر ، والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر؛ فيكون المعنى : « تزرعون » أى آزرعوا .

الثانيـة — هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يُفوّت شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا آستحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه .

---

(١) اللغتان « دأبا » بتحريك الهمزة و « دأبا » بسكونها وهى قراءة الجمهور من السبعة كما فى تفسير ابن عطية .

(٢) هو آمرؤ القيس ؛ وتمام البيت : * وجارتها أم الرباب بمأسل *

(٣) راجع ج ٤ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيــه مسئلتــان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعنى السّنين المجدبات . ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مجاز ، والمعنى يأكل أهلهنّ . ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى ما ادّخرتم لأجلهن ؛ ونحوه قول القائل :

نهارُك يا مغرورُ سَهوٌ وغَفْلَةٌ * ولَيلُكَ نَوْمٌ والرَّدَى لَكَ لازمُ

والنهـار لايَسهو ، والليل لا ينام ؛ وإنمـا يُسهى فى النهـار ، ويُنام فى الليل . وحكى زيد ابن أسـلم عن أبيـه : أن يوسـف كان يضع طعام الآثنين فيقرِّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضـه ، حتى إذا كان يومٌ قرّبه له فأكله كلّه ؛ فقال يوسـف : هـذا أوّل يوم من السّبع الشّداد . ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الآستثناء . ﴿مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أى ممـا تحبسون لتزرعوا ؛ لأن فى اسـتبقاء البذر تحصـين الأقوات . وقال أبو عبيـدة : تحرزون . وقال قَتَـادة : « تحصـنون » تدّخرون ، والمعـنى واحد ؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .

الثانيـــة ــ هـذه الآية أصل فى صحة رؤيا الكافر ، وأنها تُخرج على حسب ما رأى ، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن ؛ فكيف إذا كانت آية لنبيّ ، ومعجزة لرسول ، وتصديقا لمصطفى التبليغ ، وحجة للواسطة بين الله ــ جل جلاله ــ وعباده .

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن فى رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله . قال قَتَادة : زاده الله علم سَنَة لم يسألوه

عنهـا إظهارا لفضله ، و إعلاما لمكانه من العلم ومعرفته . ﴿ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ من الإغاثة أو الغوث ؛ غَوَّثَ الرجل قال واغوثاه ، والاسم الغَوْثُ والغُوَاث والغَوَاث ، واستغاثنى فلان فأغثته ، والاسم الغِياث ؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والغيث المطر ، وقد غاث الغيثُ الأرضَ أى أصابها ، وغاث الله البلادَ يَغيثها غَيْثا ، وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثا ، فهى أرض مَغيثة ومَغْيوثة ؛ فمعنى «يغاث الناس» يُمطَرون . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهن ؛ ذكره البخاريّ . وروى حجّاج عن ابن جُرَيج قال : يعصرون العنب خمرا والسّمسم دُهنا ، والزيتون زيتا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ؛ ويدلّ ذلك على كثرة النبات . وقيل : «يعصرون» أى يَنجُون ، وهو من العُصْرة ، وهى المَنْجاة . قال أبو عبيدة : والعَصَر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة ، وكذلك العُصْرة ؛ قال أبو زُبَيد[(١)] :

صَادِيًا يَستغيثُ غَـيْرَ مُغَاثٍ * ولقـد كَانَ عُصْرَةَ المَنْجودِ

والمَنْجود الفَزِع . واعتصرتُ بفلان وتَعصرتُ أى التجأت إليه . قال أبو الغوث : «يَعْصِرُون» يَسْتغِلّون ؛ وهـو من عصر العنب . واعتصرت ماله أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى «تُعْصَرُونَ» بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : تُمطَرون ؛ من قوله : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا » وكذلك معنى «تُعْصِرُونَ» بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

(١) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾ أى فذهب الرسول فأخبر الملك ، فقال : آئتونى به . ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أى يأمره بالخروج قال : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة . ﴿ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصحّ براءته للملك مما قُذف به ، وأنه حبس بلا جرم . روى التّرمذىّ عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم] (١) يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم — قال — ولو لَبِثتُ فى السجن ما لَبِث ثم جاءنى الرسول أجبت — ثم قرأ — « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فآسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن » — قال — ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد [إذ قال « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد »] (٢) فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذِرْوة من قومه" . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له «أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »" وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يرحم الله أخى يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت فى السجن ما لبثه أجبت الداعىَ ولم ألتمس العُذْر" . وروى نحو هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك ، فى كتاب التفسير من صحيح البخارى ، وليس لآبن القاسم فى الديوان غيره . وفى رواية الطبرىّ "يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلىّ لخرجت سريعا أنْ كان لحليما ذا أناة" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب" (٣) . قال آبن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا ، وطلبا لبراءة الساحة ؛ وذلك أنه — فيما روى — خشى أن يخرج وينال من الملك

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذى . (٢) الزيادة عن صحيح الترمذى .

(٣) الحديث فى تفسير الطبرى يختلف فى اللفظ عما هنا .

مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذى راود امرأة مولاه ؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته ، ويحقّق منزلته من العفّة والخير ؛ وحينئذ يخرج للأحظاء والمنزلة ؛ فلهذا قال للرسول : ٱرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصى عن ذنبى ، وينظر فى أمرى هل سجنت بحق أو بظلم ؛ ونَكَب عن ٱمرأة العزيز حُسن عشرة ، ورعاية لزمام الملك العزيز له .
فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه فى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأى ، له جهة أيضا من الجودة ؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك ؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هى معرّضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ؛ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ وذلك أن ترك الحزم فى مثل هذه النازلة ، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نَتَج له البقاء فى سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التى ذهب النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ ذَكَرَ النِّساء جملة ليدخل فيهنّ ٱمرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ؛ وذلك حُسن عشرة وأدب ؛ وفى الكلام محذوف ، أى فاسأله أن يتعرّف ما بال النسوة . قال ٱبن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى ٱمرأة العزيز — وكان قد مات العزيز — فدعاهنّ ف﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أى ما شأنكنّ . ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلّمت يوسف فى حقّ نفسها ، على ما تقدّم ، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت ٱمرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهنّ . ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أى معاذ الله . ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى زِنًى . ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ لما رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت أقرّت

هي أيضا، وكان ذلك لطفا من الله بيوسـف . و « حَصْحَصَ الحَــقُّ » أى تبيّن وظهر؛ وأصـله حَصَصَ، فقيـل : حصحص، كما قال : كبكبوا فى كببوا ، وكفكف فى كفف؛ قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصّ ٱستئصال الشيء؛ يقال : حَصَّ شعره إذا ٱستأصله جَزًّا؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حَصَّت البيضةُ رأسى فمَا * أَطْعَـــمُ نومًا غـــيرَ تَهْجاعِ (١)

وسَنَةٌ حصّاء أى جرداء لا خير فيها ، قال جرير :

يأوِى إليـكم بلا مَنٍّ ولا جَحَـدٍ * من ساقه السَّنَةُ الحَصَّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول : والضّبع ، وهى السنة المجدبة ؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافيــة ؛ فمعنى « حصحص الحق » أى ٱنقطع عن الباطل بظهوره وثباته ؛ قال :

أَلَا مَن مُبْلِــغٌ عنِّى خِداشًا فإنّهُ * كذوبٌ إذا ما حَصْحَصَ الحقُّ ظالمُ

وقيل : هو مشتق من الحِصّة ؛ فالمعنى : بانت حِصّة الحق من حِصّة الباطل . وقال مجاهد وقَتادة : وأصله مأخوذ من قولهم: حَصّ شَعْره إذا استأصل قطعه؛ ومنه الحِصّة من الأرض إذا قطعت منها . والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري . ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا القول منها — وإن لم يكن سأل عنه — إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته ؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه ؛ فجمع الله تعالى ليـوسف لإظهار صـدقه الشهادة والإقرار ، حتى لا يخامر نفسا ظن ، ولا يخالطها شك . وشدّدت النون فى « خَطْبُكُنَّ » و « رَاوَدْتُنَّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(١) البيضة : الخوذة ؛ والتهجاع : النومة الخفيفة .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ آختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول آمرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أي أقررتُ بالصدق ليعلم أني لم أخُنْه بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت عن الخيانة ، ثم قالت : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » بل أنا راودته ؛ وعلى هذا هي كانت مقرّة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أي قال يوسف ذلك الأمر الذي فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقَتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « ليعلم » على الغائب توقيرا للملك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو في السجن بعد ؛ قال آبن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» أي لم أَخُن سيّدي بالغيب ؛ فقال جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حَلَلْت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة؟ ! فقال يوسف : «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» الآية . وقال السُّدي : إنما قالت له آمرأة العزيز ولا حين حَلَلْت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » . وقيل : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ؛ أي ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب ، وأني لم أغفل عن مجازاته على أمانته . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ معناه : أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ قيل : هو من قول المرأة . وقال القُشَيْري : فالظاهر أن قوله « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرّئ يوسف من حَلّ الإزار والسّراويل ؛ وإذا قدّرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدّمناه من القول المختار في قوله : « وَهَمَّ بِهَا » . قال أبو بكر الأنباري : من الناس من يقول : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام آمرأة العزيز ؛

لأنه متصل بقوله : « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون الهمّ عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال : من قوله « قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل بعضه ببعض ، ولا يكون فيـه وقف تام على حقيقة؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه. وقال الحسن : لمـا قال يوسف « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كره نبيّ الله أن يكون قد زكّى نفسه فقال : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » وتزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » وقد بيناه في « النساء »(١) . وقيل : هو من قول العزيز؛ أي وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف. ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أي مشتهية له . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ في موضـع نصب بالآسـتثناء؛ و « ما » بمعنى مَنْ؛ أي إلا مَن رحم ربي فعصمه؛ و «ما» بمعنى مَن كثير؛ قال الله تعالى : «فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » وهو آستثناء منقطع ، لأنه آستثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء؛ وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية و إن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية " قالوا : يا رسـول الله ! هـذا شرّ صاحب في الأرض . قال : " فو الذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم " .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ لمـا ثبت للملك براءته مما نُسب إليه؛ وتحقّق في القصة أمانته ، وفهم أيضا صبره وجَلَده عظمت منزلته عنده، وتيقّن حسن جلاله قال : «آئتوني به أستخلصه لنفسي» فانظر إلى قول الملك أولا — حين تحقق علمه — « آئتوني به » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « آئتوني به أستخلصه لنفسي » روى عن وهب بن مُنَبِّه قال : لمـا دُعي يوسف وقف بالباب فقال : حسبي ربّي من خلقه ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عَزّ جارُه، وجلّ ثناؤه ولا إلهَ غيره؛ ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجدا، ثم أقعده الملك معه على سريره فقال . ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ . ﴿ قال ﴾ له يوسف : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ للخزائن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه تصرفاتها . وقيل : حافظ للحساب، عليم بالألسن . وفي الخبر: "يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل آجعلني على خزائن الأرض لآستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك سنة" . وقيل : إنما تأخّر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله . وقد قيل في هذه القصة : إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : هذا لسان عمّي إسمعيل ، ثم دعا بالعبرانية فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائي إبراهيم و إسحق و يعقوب ؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا ، فكلما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان ، فأعجب الملك أمره ، وكان يوسف إذ ذاك آبن ثلاثين سنة ؛ ثم أجلسه على سريره وقال : أحب أن أسمع منك رؤياي ، قال يوسف : نعم أيها الملك ! رأيتَ سبع بقرات سِمانٍ شُهْبا غُرّا حسانا ، كشف لك عنهن النّيل فطلعن عليك من شاطئه تَشخَب(1) أخلافها لبنا ؛ فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَب النّيل فغار ماؤه ، وبدا أُسُّه ، فخرج من حَمَئه وَوَحَله سبع بقرات عِجاف شُعْث غُبْر مُقَلَّصات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف ، لهن أنياب وأضراس، وأكفّ كأكفّ الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع ، فاختلطن بالسّمان فافترسنهنّ افتراس السّباع ، فأكلن لحومهنّ ، ومزّقن جلودهنّ ، وحطّمن عظامهنّ ، ومششن مخّهنّ ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل ! ثم لم يظهر منهنّ سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات، ممتلئات حَبّا وماء، و إلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهنّ في الثّرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك : أي شيء هذا ؟ ! هؤلاء خضر مثمرات ، وهؤلاء سود يابسات ، والمنبت واحد ، وأصولهن

(1) تشخب : تسيل .

فى المـاء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النـار فأحرقتهنّ ؛ فصرن سودا مغبرات ؛ فانتبهتَ مذعورا أيها الملك ؛ فقال الملك : والله ما شأن هـذه الرؤيا و إن كان عجبا بأعجب ممـا سمعتُ منك ! فـا ترى فى رؤياى أيها الصدّيق ؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت، وأظهر الله فيه النّمـاء والبركة، ثم ترفع الزرع فى قصبه وسنبله تبنى له المخازن العظام؛ فيكون القصب والسّنبل عَلَفا للدواب، وحَبُّه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهرائك الخُمْس؛ فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومَن حولها، ويأتيك الخلق من النواحى يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد قبلك ؛ فقـال الملك : ومن لى بتدبير هـذه الأمور ؟ ولو جمعت أهـل مصر جميعا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء ؛ فقال يوسف عليه السلام : «ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ» أى على خزائن أرضك؛ وهى جمع خِزانة؛ ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة، كقول النابغـــة :

لَهُمْ شِيمَـةٌ لم يُعْطِهَـا الله غـيرَهُمْ * مِنَ ٱلْجُودِ وَٱلْأَحْلَامُ غَيْرُ كَوَاذِبِ

قوله تعـالى : ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدل على أن قوله : «ذَٰلِكَ لِيَعْـلَمَ» جَرَى فى السّجن . ويحتمل أنه جرى عنـد الملك، ثم قال فى مجلس آخر : «ٱئْتُونِى بِهِ» تأكيدا . «أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى» أى أجعله خالصا لنفسى، أفوض إليـه أمر مملكتى ؛ فذهبـوا فجاءوا به ؛ ودلّ على هـذا ﴿فَلَمَّـا كَلَّمَهُ﴾ أى كلّم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف؛ فـ﴿قَالَ﴾ الملك : ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَـا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى متمكن نافذ القول، «أمين» لا تخاف غدرا .

قوله تعـالى : قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله : « ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ » أى على حفظها، فحذف المضاف . ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ لما وُلّيت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره . وفى التفسير : إنى حاسب كاتب؛ وأنه أوّل من كتب فى القراطيس . وقيل : « حفيظ » لتقدير الأقوات « عليم » بسنيّ المجاعات . قال جُويبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخى يوسف لو لم يقل آجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك عنه سنة " . قال ابن عباس : لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوّجه وردّاه(١) بسيفه، ووضع له سريرا من ذهب، مكلّلا بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حُلّة من إِسْتَبرق؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشا وستون مِرْفَقة(٢)، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجا، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوّض اليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلّم سلطانه كلّه إليه، وهلك قطفير تلك الليالى، فزوّج الملك يوسف راعيل آمرأة العزيز، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟! فقالت : أيها الصدّيق لا تلمنى؛ فإنى كنت آمرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتى النساء، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتنى نفسى، فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : إفرائيم ابن يوسف، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبّه : إنما كان تزويجه زليخا آمرأة العزيز بين دخلتى الإخوة، وذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف فى السجن، وذهب مالها وعمى بصرها بكاء على يوسف، فصارت تتكفّف الناس؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها،

---

(١) رداه بسيفه : قلده به . (٢) المرفقة (بالكسر) : المتكأ والمخدة .

وكان يوسف يركب فى كل أسبوع مرة فى موكب زُهَاء مائة ألف من عظماء قومه ، فقيـل لها : لو تعرّضت له لعله يسعفك بشئ؛ ثم قيل لها : لا تفعلى، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسـجن فيسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بخُلُق حبيبى منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه ، فنادت بأعلى صوتهـا : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم ، وجعـل العبيد ملوكا بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هـذه ؟ فأتوا بها ؛ فقالت : أنا التى كنت أخدمك على صدور قدمىّ ، وأُرَجِّل جُمّتك بيدىّ ، وتربيت فى بيتى ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهلى وعُتوّى فذقت وبال أمرى ، فذهب مالى ، وتضعضع ركنى ، وطال ذلّى ، وعَمِى بصرى ، وبعد ما كنت مغبوطة أهـل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفّف النـاس ، فمنهم من يرحمنى ، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شـديدا ، ثم قال لهـا : هل بقيت تجدين مما كان فى نفسك من حبـك لى شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلىّ من الدنيا بحذافيرها ، لكن ناولنى صدر سوطك ، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد للسوط فى يده اضطرابا وارتعاشا من خَفَقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسـل إليها رسولا : إن كنتِ أَيِّمـًا تزوّجناك ، وإن كنتِ ذات بعـل أغنيناك ، فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك ! لم يُرِدْنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزّى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقالتها ، فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرّضت له ، فقال لهـا : ألم يبلّغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها ؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيئت ، ثم زُفّت إليه ، فقام يوسف يصلّى ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالهـا وبصرها ، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، إكراما ليوسف عليه السلام لمّـا عَفّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هى عذراء ، فسألها ؛ فقالت : يا نبىّ الله إن زوجى كان عِنّينا لا يأتى النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بمـا لا يوصف ؛ قال : فعاشا فى خَفْض عيش ، كل يوم يجدّد الله لها خيرا ، وولدت له ولدين ؛ إفرائيم ومنشا . وفيما روى

أن الله ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها ، فقال لها : ما شأنك لاتحبيننى كما كنت فى أول مرة ؟ فقالت : لما ذقت محبة الله تعالى شغلنى ذلك عن كل شىء .

الثانيــة — قال بعض أهل العلم : فى هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه فى فعل لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء ؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته و فجوره فلا يجوز ذلك . وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة ، وهذا اليوم غير جائز ؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذى ذكرناه . والله أعلم . قال الماوردى : فإن كان المولى ظالما فقد اختلف الناس فى جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما — جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده ؛ لأن يوسف وُلِّى من قبل فرعون ، ولأن الاعتبار فى حقه بفعله لا بفعل غيره . الثانى — أنه لا يجوز ذلك ؛ لما فيه من تولى الظالمين بالمعونة لهم ، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم ؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين : أحدهما — أن فرعون يوسف كان صالحا ، و إنما الطاغى فرعون موسى . الثانى — أنه نظر فى أملاكه دون أعماله ، فزالت عنه التبعة فيه . قال الماوردى : والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها — ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد فى تنفيذه كالصدقات والزكوات ، فيجوز توليه من جهة الظالم ؛ لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه ، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثانى — ما لا يجوز أن يتفردوا به و يلزم الاجتهاد فى مَصْرِفه كأموال الفىء ، فلا يجوز توليه من جهة الظالم ؛ لأنه يتصرف بغير حق ، ويجتهد فيما لا يستحق . والقسم الثالث — ما يجوز أن يتولاه لأهله ، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فعقد التقليد محلول ، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين ، وتوسطا بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجز .

الثالثــة — ودلّت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا ؛ فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسئلة وُكِلْت إليهـا و إن أُعطيتها عن غير مسئلة أُعنت عليها " . وعن أبى بُرْدة قال قال أبو موسى : أقبلتُ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريّين ، أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك ، فقال : "ما تقول يا أبا موسى — أو يا عبد الله بن قيس — " قال قلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شـعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأنى أنظر إلى سِواكه تحت شفته وقد قَلَصت (١) ، فقال : " لن — أو — لا نستعمل على عملنا من أراده " وذكر الحديث ؛ خرجه مسلم أيضا وغيره ؛ فالجواب : أوّلا — أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرضا متعينا عليـه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو الحسـبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولّاها و يسأل ذلك ، و يخبر بصفاته التى يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ؛ فأما لو كان هناك من يقوم بهـا و يصلح لهـا وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ؛ لقوله عليـه السلام لعبد الرحمن : " لا تسأل الإمارة " فإن فى سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليـل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : "وُكِل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها ، ولخوفه من التقصير فى حقوقها فرّ منها ، ثم إن ٱبتلى بهـا فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : " أُعِينَ عليها " . الثانى — أنه لم يقل : إنى حسيب كريم ، و إن كان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : "الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم" ولا قال : إنى جميل مليح ، إنما قال : « إنى حفيظ عليم » فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال . الثالث — إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله

---

(١) قلصت : ٱنقبضت وٱنزوت .

تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » . الرابع — أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله أعلم . ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛ قال الماوردي : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظَّفَر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب الملك ، وإنجائه من السجن مكنا له في الأرض؛ أقدرناه على ما يريد . وقال الكِيَا الطَّبَري قوله : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » دليل على إجازة الحيلة في التوصّل إلى المباح ، وما فيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِهِ وَلَا تَحْنَثْ » وحديث أبي سعيد الخُدْري في عامل خَيْبر(١)، والذي أدّاه من التَّمْر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله .

قلت : وهذا مردود على ما يأتي . يقال : مكّنّاه ومكّنّا له ، قال الله تعالى : « مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » . قال الطَّبري : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الرّيان يوسف على عمل قطفير وعزله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملّكه بعد سنة

(١) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، وهو نوع جيد من أنواع التمر؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل تمر خيبر هكذا" فقال : لا والله يا رسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : "لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا" . (البخاري) .

ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله لملك في وقته" . ثم مات إطفير فزوّجه الوليد بزوجة إطفير راعيل ، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين : إفرائيم ومنشا، ابني يوسف، ومن زعم أنها زليخا قال : لم يتزوجها يوسف، وأنها لمـا رأته في موكبه بكت، ثم قالت : الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بالمعصية، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمّها إليه، فكانت من عياله حتى ماتت عنده، ولم يتزوّجها؛ ذكره المـاوردي؛ وهو خلاف ما تقدّم عن وهب، وذكره الثعلبي ؛ فالله أعلم . ولمـا فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل ، فأحبّه الرجال والنساء ، قال وهب والسُّدّي وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون المخصِبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة، فلمـا أدركت الغَلّة أمر بها فجمعت، ثم بنى لها الأهراء، فجمعت فيها في تلك السنة غَلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غَلّة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا؛ فإنّ الله سلّط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهـل الحكمة : للجوع والقحط علامتان : إحداهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليهـا الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعزّ إلى الغاية، فاجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع ! ! ويأكلون ولا يشبعون، وانتبـه الملك ينـادي الجوع الجوع ! ! قال : فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك ، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلهـا ؛ معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرعا فيضيع البذر ولا يطلع شيء . وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف؛ قال ابن عباس : لمـا كان ابتداء القحط بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوع في نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هـذا أوان القحط ؛ فلما دخلت أوّل سنة من سني القحط هلك فيهـا كل شيء أعدوه في السنين

المخصبة ، بجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أوّل سـنة بالنقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر ، حتى لم يبق فى أيدى الناس منهـا شىء ؛ وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب ، حتى آحتوى عليها أجمع ، وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيـد والإماء ، حتى آحتوى على الكل ؛ وباعهم فى السنة الخامسة بالعقار والضّياع ، حتى ملكها كلها ؛ وباعهـم فى السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقّهم جميعا ؛ وباعهم فى السـنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدا له ؛ فقال الناس : والله ما رأينا ملكا أجلّ ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر : كيف رأيت صُنع ربى فيما خَوّلنى ! والآن كل هذا لك ، فما ترى فيه؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذى يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، ولا أنا إلا من بعض مماليكك ، وخَوَل من خَوَلك ؛ فقال يوسف عليه السلام : إنى لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أجرهم من البلاء لأكون عليهـم بلاء ؛ وإنى أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تسـتنّ بسنتى . ويروى أن يوسف عليه السـلام كان لا يشبع من طعام فى تلك السنين ، فقيـل له : أتجـوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسـف طباخ الملك أن يجعـل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ؛ فمن ثَمّ جعل الملوك غداءهم نصف النهار .

قوله تعـالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بإحساننا ؛ والرحمة النعمة والإحسان . ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ثوابهم . وقال آبن عباس ووهب : يعنى الصابرين ؛ لصبره فى الجبّ ، وفى الرقّ ، وفى السجن ، وفى صـبره عن محارم الله عمـا دعتـه إليه المرأة . وقال المـاوردىّ : وآختلف فيما أوتيه يوسف من هـذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما آبتلاه . الثانى — أنه أنعم عليه بذلك تفضلا منه عليه ، وثوابه باق على حاله فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى ما نعطيه فى الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا ؛ لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدنيا ينقطع ؛ وظاهر الآية العموم فى كل مؤمن متّق ؛ وأنشدوا :

أَمَا فى رسول الله يوسف أُسْوةٌ * لمثلكَ محبوسًا على الظُّلم والإفْكِ
أقام جَميلَ الصّبر فى الحبس بُرهة * فآل به الصّــبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراءَ مَضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ * وأوّل مفـــروج به آخرُ الحـــزنِ
فلا تيأسنْ فالله مَلَّكَ يوســـفًا * خزائنَه بعد الخلاصِ من السّجنِ

وأنشد بعضهم :

إذا الحـــادثاتُ بَلَغْــنَ النُّهَى * وكادتْ تذوبُ لهُــنَّ المُهَجْ
وحَلَّ البـــلاءُ وقَـــلَّ العَـــزَاءُ * فعنـــد التَّنَـــاهِى يكونُ الفَـــرَجْ

والشعر فى هذا المعنى كثير .

قوله تعالى : وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعـــالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ أى جاءوا إلى مصر لَمَّـــا أصابهم القَحْط ليمتاروا ؛ وهـــذا من آختصار القـــرآن المعجز . قال آبن عبـــاس وغيره : لمـــا أصاب الناس القحط والشدّة ، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للْميرة ، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق ، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته ؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس عند البيع بنفسه ، فيعطيهم من الطعام على عدد رءوسهم ، لكل رأس وَسْقا(١) . ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ يوسف ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ لأنهم خلّفوه صبيا ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من التملكة ، مع طول المدّة ؛ وهى أربعون سنة . وقيـــل : أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر : وقيـــل : رأوه لابس حرير ، وفى عنقه طوق ذهب ، وعلى رأسه تاج ، وقد تزيّا بزىّ فرعون مصر ؛ ويوسف

(١) الوسق ستون صاعا ؛ والأصل فى الوسق الحمل .

رآهم على ما كان عهدهم فى الملبس والحلية . ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه . وقيل : أنكروه لأمر خارق آمتحانا آمتحن الله به يعقوب .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ يقال : جَهَّزْتُ القوم تجهيزا أى تكلّفت لهم بجهازهم للسفر ؛ وجَهَاز العَروس ما يُحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج ؛ وجوّز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم ؛ والجهاز فى هذه الآية الطعام الذى آمتاروه من عنده . قال السُّدّى : وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيرا ، وهم عشرة ؛ فقالوا ليوسف : إن لنا أخا تخلّف عنا ، وبعيره معنا ؛ فسألهم لِمَ تخلّف ؟ فقالوا : لحبّ أبيه إياه ؛ وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه نخرج إلى البرّية فهلَكَ ؛ فقال لهم : أردت أن أرى أخاكم هذا الذى ذكرتم ، لأعلم وجه محبة أبيكم إيّاه ، وأعلم صدقكم ؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة ، حتى يأتوا بأخيه بنيامين . وقال آبن عباس : قال للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا ، وزيّكم مخالف لزيّنا ، فلعلكم جواسيس ؛ فقالوا : والله ! ما نحن بجواسيس ، بل نحن بَنُو أبٍ واحد ، فهو شيخ صِدّيق ؛ قال : فكم عِدّتكم ؟ قالوا : كنا آثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرّية فهلك فيها ؛ قال : فأين الآخر ؟ قالوا عند أبينا ؛ قال : فمن يعلم صدقكم ؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا أحد ، وقد عرّفناك أنسابنا ، فبأى شئ تسكن نفسك إلينا ؟ فقال يوسف : ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ إن كنتم صادقين ؛ فأنا أرضى بذلك « أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ » أى أتمّه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم . « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى » توعدهم ألّا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أنه رخّص لهم فى السعر فصار زيادة فى الكيل . والثانى — أنه كال لهم بمكيال واف . ﴿ وَأَنَا خَيْرُ

الْمُنْزِلِينَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم؛ قاله مجاهد . الثاني — وهو محتمل ؛ أي خير من نزلتم عليه من المأمونين؛ وهو على التأويل الأول مأخوذ من النُّزْل وهو الطعام ، وعلى الثاني من المنزل وهو الدار .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ أي فلا أبيعكم شيئا فيما بعـد ، لأنه قد وفّاهم كيلهم في هـذه الحال . ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي لا أنزلكم عندي منزلة القريب ، ولم يرد أنهم يبعدوا منه ولا يعودوا إليه؛ لأنه على العَود حثّهم . قال السدّي : وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا ؛ فارتهن شمعون عنده؛ قال الكَلْبيّ : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجبّ أجملهم قولا، وأحسنهم رأيا . و« تقربون » في موضع جزم بالنهي ، فلذلك حذفت منه الياء ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبرا لكان « تقربون » بفتح النون .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنطلبه منـه ، ونسأله أن يرسله معنـا . ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي لضامنون المجيء به ، ومحتالون في ذلك .

مســـئلة — إن قيل : كيف آستجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيـه ؟ قيـل له : عن هـذا أربعة أجوبة : أحدها — يجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أمره بذلك آبتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فآتبع أمره فيه . الثاني — يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقـوب على حال يوسف عليهما السلام . الثالث — لتتضاعف المسرّة ليعقـوب برجوع ولديه عليه . الرابع — ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ؛ لميل كان منـه إليه ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعـالى : وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا بِضَـٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم ؛ وهو آختيار أبي حاتم والنحاس وغيرهما . وقرأ سائر الكوفيين « لِفِتْيَانِهِ » وهو آختيار أبي عبيد ؛ قال :

وهو فى مصحف عبد الله كذلك . قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان؛ مثل الصبيان والصبية .
قال النحاس : «لفتيانه» مخالف للسواد الأعظم ؛ لأنه فى السواد لا ألف فيه ولا نون ؛
ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع ؛ وأيضا فإن فتية أشبه من فتيان؛ لأن فتية
عند العرب لأقل العدد ، والقليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه . وكان هؤلاء الفتية
يسوّون جهازهم ، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم فى رحالهم . ويجوز أن يكونوا أحرارا ،
وكانوا أعوانا له ، وبضاعتهم أثمان ما آشتروه من الطعام . وقيل : كانت دراهم ودنانير .
وقال آبن عباس : النعال والأدم ومتاع المسافر ويسمى رَحْلا ؛ قال آبن الأنبارىّ :
يقال للوعاء رَحْل ، وللبيت رَحْل . وقال : ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ لجواز ألا تسلم فى الطريق .
وقيل : إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك ؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه .
وقيل: ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام. وقيل : آستقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته
ثمن الطعام . وقيل : ليروا فضله ، ويرغبوا فى الرجوع إليه .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم :
«فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي» وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه ،
وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم . ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أى قالوا عند ذلك :

« فأرسل معنا أخانا نكْتَل » والأصل نكْتال ؛ فحذفت الضمة من اللام للجزم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين . وقراءة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم «نكتل» بالنون ، وقرأ سائر الكوفيين « يكتل » بالياء ؛ والأول اختيار أبي عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين ؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكتل معنا ؛ فيكون للجميع ، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ؛ فيكون في الكلام دليل على الجميع ، لقوله : « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي » . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يناله سوء .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قد فرطتم في يوسف فكيف آمنكم على أخيه ! . ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ نصب على البيان ؛ وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال . وقال الزجاج : على البيان ؛ وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب : «فالله خير حافظا» قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لأردّن عليك ابنيك كليهما بعد ما توكلت عليّ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل . ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ « ما » استفهام في موضع نصب ؛ والمعنى : أيّ شيء نطلب وراء هذا ؟ ! وفّى لنا الكيل ، وردّ علينا الثمن ؛ أرادوا بذلك أن يُطيّبوا نفس أبيهم . وقيل : هي نافية ؛ أي لا نبغي منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هذه التي ردّت إلينا . وروى عن عَلْقمة « رِدّت إلينا » بكسر الراء ؛ لأن الأصل رُدِدت ، فلما أدغمت قلبت حركة الدال على الراء . وقوله : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أي نجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بَعَثْتُكَ مائرًا فمكثْتَ حَوْلًا * مَتَى يأتِي غِيَاثُكَ مَن تُغيثُ

وقرأ السُّلَميّ بضم النون ، أي نعينهم على الميرة . ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي حمل بعير لبنيامين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ أى تعطونى . ﴿ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى عهدا يوثق به . قال السدّى : حلفوا بالله ليردّنه إليه ولا يُسلمونه ؛ واللام فى ﴿ لَتَأْتُنَّنِي ﴾ لام القسم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد : إلا أن تَهْلِكوا أو تموتوا . وقال قتادة : إلا أن تُغلبوا عليه . قال الزجاج : وهو فى موضع نصب . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانيــة — هذه الآية أصل فى جواز الحَمَالة[1] بالعين والوثيقة بالنفس ؛ وقد اختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هى جائزة إذا كان المتحمَّل به مالا . وقد ضعّف الشافعى الحَمَالة بالوجه فى المال ؛ وله قول كقول مالك . وقال عثمان البَتّى : إذا تكفّل بنفس فى قصاص أو جراح فإنه إن لم يجئ به لزمه الدية وأَرْش الجراح ، وكانت له فى مال الجانى ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال فى الحمالة بالوجه . والصواب تفرقة مالك فى ذلك ، وأنها تكون فى المال ، ولا تكون فى حدّ أو تعزير ، على ما يأتى بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) الحمالة : الكفالة .

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — لما عزموا على الخـروج خشى عليهم العين ؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرَجُل واحد؛ وكانوا أهل جَمال وكمال وبَسْطة ؛ قاله ٱبن عباس والضّحاك وقَتَادة وغيرهم .

الثانيـــة — وإذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرّز من العين ، والعين حق ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العين لَتُدخِل الرجل القبر والجَمَل القِدْر". وفى تعوّذه عليه السلام : "أعوذ بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة" ما يدلّ على ذلك . روى مالك عن محمد بن أبى أُمامة بن سهل بن حُنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبو سهل بن حُنَيف بالخَرّار[1] فنَزَع جُبّة كانت عليـه ، وعامر بن ربيعة ينظر، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد، قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عَذْراء! ، فوُعِك سهل مكانه وٱشتدّ وَعْكه ، فأُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُخبر أن سهلا وُعِك ، وأنه غير رائح معك يا رسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "عَلَامَ يقتل أحدكم أخاه أَلَا بَرّكت[2] إنّ العين حق تَوضأْ له" فتوضأ له عامر، فراح سهل مع رســول الله صلى الله عليه وســلم ليس به بأس ؛ فى رواية "ٱغتسلْ" فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيــه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى قدح ثم صبّ عليه ؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبى وقاص يوما فنظرت إليه ٱمرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين؛ فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له ؛ ففى هذين الحديثين أن العين حق ، وأنهـا تقتل كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ وهـــذا قول علمـــاء الأمّة ، ومذهب أهل السنة ؛ وقـــد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمّة ، وبما يشاهد من ذلك فى الوجود؛ فكم من رجل

(١) الخرّار: ماء بالمدينة . (٢) برّك : قال بارك الله فيه ؛ وهذا القول يبطل تأثير العين وسيأتى معناه .

أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : « وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » . قال الأصمعي : رأيت رجلا عَيُونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شَخْبها فقال : أيتهنّ هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا ، المورّى بها والمورّى عنها . قال الأَصمعيّ . وسمعته يقول : إذا رأيتُ الشيء يعجبني وجدتُ حرارة تخرج من عينيّ .

الثالثة — واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبَرِّك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : "أَلَّا بَرَّكْتَ" فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَّك العائن ، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك . والتّبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعة — العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال ، ويُجبر على ذلك إن أباه ؛ لأن الأمر على الوجوب ، لاسيما هذا ؛ فإنه قد يخاف على المَعين الهلاك ، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولاسيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه .

الخامسة — من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ؛ وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكفّ أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه يُنفى ؛ وحديث مالك الذى ذكرناه يرد هذه الأقوال ؛ فإنه عليه السلام لم يأمر فى عامر بحبس ولا بنفى ، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به ؛ ومن قال يحبس ويؤمر بلزوم بيته فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

السادسة — روى مالك عن حميد بن قيس المكّى أنه قال : دُخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنى جعفر بن أبى طالب فقال لحاضنتهما : " مالى أراهما ضَارِعين (١) " فقالت حاضنتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ٱسْتَرْقُوا لهما فإنه

(١) الضارع : النحيف الضاوى الجسم .

لو سبق شيء القدر سبقته العين ". وهـذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عُميس الخَثْعَمية عن النبي صلى الله عليـه وسلم من وجوه ثابتـة متصلة صحاح؛ وفيه أن الرُّقَى مما يُستدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتَضْرَعه ، أي تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

السابعـــة — أمر صلى الله عليـه وسلم في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمَعين ، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا : إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة ، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من شيء أحذره عليكم ؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أي الأمر والقضاء . ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ووثقت ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ﴾ أي من أبواب شتى . ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأول . ﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي خاطر خطر بقلبـه؛ وهو وصيـته أن يتفرقوا ؛ قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدّم القول فيـه . وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوّتهم

فيبطش بهم حسدا أو حذرا؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للعين هاهنا . ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه، و يرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعنى يعقوب . ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أى بأمر دينه . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل : « لذو علم » أى عمل؛ فإن العلم أوّل أسباب العمل، فسمى ما هو بسببه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قال قَتَادة : ضمّه إليه، وأنزله معه . وقيل : أمر أن ينزل كل آثنين فى منزل ، فبقى أخوه منفردا فضمّه إليه وقال : أشفقت عليه من الوحدة ، وقال له سِرًّا من إخوته : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أى لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردّنى إليهم ، فقال : قد علمت اغتمام يعقوب بى فيزداد غمّه ، فأبى بنيامين الخروج ؛ فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك : فقال : لا أبالى ! فدسّ الصاع فى رحله ؛ إما بنفسه من حيث لم يَطّلع عليه أحد ، أو أمر بعض خواصّه بذلك . والتّجهيز التّسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جَهّز على الجريح أى قتله ، ونجّز أمره . والسقاية والصواع شىء واحد؛ إناء له رأسان فى وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن آبن عباس، وكل شىء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد :

* نَشربُ الخمـرَ بالصّواع جِهَارًا (١) *

واختلف فى جنسه؛ فروى شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جُبَير عن آبن عباس قال : كان صواع الملك شىء من فضة يشبه المَكُّوك، من فضة مرصّع بالجوهر، يجعل على الرأس؛

(١) البيت تقدّم فى ص ١٧٨ من هذا الجزء .

وكان للعباس واحد فى الجاهليــة، وسأله مالك بن الأزرق ما الصــواع؟ قال : الإناء، قال فيه الأعشى :

لَه دَرْمَكٌ فى رأســه ومَشارِبٌ * وقِــدْرٌ وطَبّاخٌ وصاعٌ ودَيْسَــقُ(١)

وقال عِكرمة : كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب؛ وبه كال طعامهم مبالغة فى إكرامهم . وقيل : إنمــا كان يكال به لعزّة الطعام . والصاع يذكّر و يؤنّث ؛ فمن أنّثه قال : أَصْوُع ؛ مثل أَدْوُر ، ومن ذكّره قال أَصْوَاع؛ مثــل أثواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطِّرْجِهَالة بلغــة حِمْير . وفيــه قراءات : « صُوَاع » قراءة العــامة ؛ و «صُوْغ» بالغين المعجمة ، وهى قراءة يحيى بن يَعْمُر؛ قال : وكان إناء أُصيغ من ذهب . « وصُوع » بالعين غير المعجمة قراءة أبى رجاء . « وصُوْع » بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أُبَىّ . « وصُيَاع » بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جُبير . « وصاع » بألف بين الصاد والعين ؛ وهى قراءة أبى هُريرة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أى نادى منادٍ وأعلم . «وَأَذَّنَ» للتكثير؛ فكأنه نادى مرارا « أيتها العير » . والعير ما ٱمتير عليه من الحمير والإبل والبغال . قال مجاهــد : كان عِيرهم حميرا . قال أبو عبيدة : العِير الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العير، كقوله : « وٱسأل القرية » و يا خيل الله اركبى : أى أصحاب خيل الله ، وسيأتى . وهنا ٱعتراضان : الأوّل — إن قيل : كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ، ووافقــه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم بُرَاء وهو — الثــانى — فالجواب عن الأوّل : أن الحزن كان قــد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثّر فيه فقد بنيامين كل التأثير ، أو لا تراه لمــا فقده قال : « يا أسفا على يوسف » ولم يعرّج على بنيامين؛ ولعلّ يوسف إنما وافقه على القعود بوَحْى؛ فلا ٱعتراض . وأما نسبة

(١) الديسق : خوان من فضة . والبيت من قصيدة يمدح بها المحلق مطلعها .

أرقت وما هـــذا السهاد المــؤرق * وما بى من ســقم وما بى معشـــق

يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب : أن القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فألقوه فى الجبّ ، ثم باعوه ؛ فاستحقّوا هذا الأسم بذلك الفعل ، فصدق إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر — وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرّاق ؛ والمعنى : إنّ شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه . جواب آخر — وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ؛ وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع فى رحله ، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام ؛ أى أو إنكم لسارقون ، كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » أى أو تلك نعمة تمنها علىّ ؟ والغرض ألّا يعزى إلى يوسف الكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ . البعير هنا الجمل فى قول أكثر المفسّرين . وقيل : إنه الحمار ، وهى لغة لبعض العرب ؛ قاله مجاهد واختاره . وقال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذى قال : « أيتها العير » . والزعيم والكفيل والحميل والضّمين والقبيل سواء . والزعيم الرئيس .

قال[1] :

وإنّى زَعيمٌ إنْ رجعتُ مُملَّكًا ﴿﴾ بِسَيْرٍ تَرَى مِنهُ الفُرانِقَ أزْوَرَا

(١) هو امرؤ القيس . والفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ؛ وهو فارسى معرب . والأزور : المائل فى شق ؛ أى إن ملكنى قيصر فانى أسير سيرا شديدا يميل منه الفرانق من شدّته بجانب .

وقالت ليلى الأخيلية ترثى أخاها[1] :

وتخرّق عنه القميص تخالُه * يومَ اللّقاءِ من الحياءِ سقيما
حتّى إذا رفع اللّواءَ رأيتَه * [تحتَ اللّواءِ[2]] على الخميسِ زعيما

الثانيـة — إن قيل : كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوَسْق؛ فصح ضمانه، غير أنه بدل مالٍ للسارق، ولا يحل للسارق ذلك، فلعله كان يصحّ فى شرعهم، أو كان هذا جعالة، و بذل مال لمن يفتّش و يطلب.

الثالثـة — قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليلان : أحدهما — جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة؛ فإنه يجوز فيـه من الجهالة ما لا يجوز فى غيره؛ فإذا قال الرجل : من فعل كذا فله كذا صحّ. وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه؛ بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدّر فيها العوض والمعوض من الجهتين؛ وهو من العقود الجائزة التى يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع و بعده، إذا رضى بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له فى العمل. ولا يشترط فى عقد الجُعْل حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ لقوله : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » و بهـذا كله قال الشافعى.

الرابعـة — متى قال الإنسان : من جاء بعبدى الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من جاء بآبق فله أربعون درهما" ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : ولهـذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر.

قلت : وخالفنا فى هذا كله الشافعى.

---

(١) كذا فى الأصل ولعله ترثى توبة. وفى صفته بخرق القميص أقوال : الأوّل — أن ذلك إشارة الى جذب العفاة له. الثانى — أنه يؤثر بجيد ثيابه فيكسوها و يكتفى بمعاوزها. الثالث — أنه غليظ المناكب؛ و إذا كان كذلك أسرع الخرق الى قيصه. الرابع — أنه كثير الغزوات متصل الأسفار؛ فقميصه منخرق لذلك.

(٢) كذا فى « أمالى القالى » « والشعر والشعراء » و « الحماسة » وفى الاصول : يوم الهياج.

الخامسة — الدليل الثانى — جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام . قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحملت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حَميل لك أو زعيم أو كَفيل أو ضامن أو قَبيل ، أو هو لك عندى أو علىّ أو إلىّ أو قِبَلى فذلك كله حَمَالة لازمة . وقد آختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه؛ هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون : من تكفّل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب إن مات؛ وهو أحد قولى الشافعىّ فى المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعىّ : إذا تكفّل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال، و يرجع به على المطلوب؛ فإن آشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المال فلا شىء عليه من المال؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، و إنما يطلب بمال؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوته عليه ، وعزه منه؛ فلذلك لزمه المال . وآحتج الطحاوىّ للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة — وآختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما؟ فقال الثورىّ والكوفيون والأوزاعىّ والشافعىّ وأحمد و إسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفى حقه؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب؛ لأن التبدية بالذى عليه الحق أولى، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الحميل، لأنه معذور فى أخذه فى هذه الحالة؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أىّ الرجلين شاء . وقال آبن أبى ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالاً تحول على الكفيل و برئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء؛ وآحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبى قَتَادة(١)؛ وبحوه قال أبو ثور .

---

(١) الحديث : روى سلمة بن الأكوع أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بجنازة فقال : "هل عليه من دين" قالوا : نعم ، قال : " هل ترك شيئا " قالوا : لا ، قال : " صلوا على صاحبكم " قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله وعلىّ دينه ؛ فصلى عليه .

السابعـة — الزعامة لا تكون إلا فى الحقوق التى تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتا مستقرا ؛ فلا تصح الحمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر ؛ لأن العبد إن عجز رَقَّ وآنفسخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحدود فلا كفالة فيه ، ويسجن المدعى عليه الحدّ ، حتى ينظر فى أمره . وشذ أبو يوسف ومحمد فأجازا الكفالة فى الحدود والقصاص، وقالا : إذا قال المقذوف أو المدعى القصاص بينتى حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ وآحتج لهم الطحاوىّ بما رواه حمزة ابن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة .

قوله تعالى : قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما، ولا يرعون زرع أحد، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأَكِمَّة لئلا تعيث فى زروع الناس . ثم قال : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يروى أنهم ردّوا البضاعة التى كانت فى رِحالهم؛ أى فمن ردّ ما وَجَد فكيف يكون سارقا ؟! .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف : ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أى يُسْتعبَد ويُسْترَقّ . «فجزاؤه» مبتدأ، و «مَن وُجِد فى رحله» خبره؛ والتقدير : جزاؤه آستعباد من وُجِد فى رحله ؛ فهو كناية عن الاستعباد؛ وفى الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى كذلك نفعل فى الظالمين إذا سرقوا أن يُستَرَقُّوا ؛ وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يَسْتَرِب بنفسه ؛

لأنهم التزموا استرقاق من وجد فى رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفى ما أخذ؛ قاله الحسن والسدى وغيرهما .

مســـئلة — قد تقدم فى سورة « المـائدة »(١) أن القطع فى السرقة ناسخ لمـا تقدم من الشرائع ، أو لمـا كان فى شرع يعقوب من آسترقاق السارق؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ إنمـا بدأ يوسف برحالهم لنفى التهمة والرّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرها ، لغتان؛ وهو مايحفظ فيه المتاع ويصونه . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ يعنى بنيامين ؛ أى آستخرج السِّقاية أو الصّواع عند من يؤنث ، وقال : « ولِمن جاء بِهِ » فذكر ؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رءوسهم ، وظنّوا الظنون كلها ، وأقبلوا عليه وقالوا : ويلك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لِصّـين ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقتـه ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى . ويروى أنهم قالوا له : يابنيامين ! أسرقت ؟ قال : لا والله؛ قالوا : فمن جعل الصُّواع فى رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة فى رحالكم . ويقال : إن المفتش كان إذا فرغ من رَحْل رجل آستغفر الله عزّ وجلّ تائبـا من فعله ذلك؛ وظاهر كلام قَتَادة وغيره أن المستغفر كان يوسف؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصّواع حتى فرغ منهم ، وآنتهى إلى رَحْل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئا ، فقال له إخوته : والله لا نبرح حتى تفتشه ؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهـذا التفتيش من يوسف يقتضى أن المؤذن سَرّقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى؛ ويقوى ذلك قوله تعـالى : « كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » .

(١) راجع ج ٦ ص ١٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ .

فيـه ثلاث مسائل :

الأولى ـ قوله تعـالى : « كِدْنَا » معناه صنعنا ؛ عن ابن عباس . القُتَبِيّ : دبّرنا . ابن الأنبارى : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادت وكِدت وتِلك خـيرُ إرادةٍ * لو عاد مِن عهد الصِّبَا ما قـد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا لأبي حنيفة فى تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، وخَرَمت التحليل .

الثانيـة ـ أجمع العلمـاء على أن للرجل قبـل حلول الحول التصرف فى ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعى أنه لا يحل له التحيل ولا النقصان ، ولا أن يفرّق بين مجتمع ، ولا أن يجمـع بين متفرّق . وقال مالك : إذا فوّت من ماله شيئا ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عنـد الحول ، أخذا منه بقـوله عليه السلام : "خَشْيَةَ الصَّدَقة" . وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبـل الحول بيوم لا يضرّه ؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحـول ، ولا يتوجه إليه معنى قوله : "خَشْيَةَ الصَّدَقة" إلا حينئذ . قال ابن العربى : سمعت أبا بكر محمـد بن الوليد الفِهْرى وغيره يقـول : كان شيخنا قاضى القضاة أبو عبد الله محمـد بن على الدّامَغَانِى صاحب عشرات آلاف من المـال ، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم : كبِرَت سِنّى ، وضعفت قوّتى ، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم ، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دورِ بنيه ؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا : يا أبانا ! إنما أملنا حياتك ، وأما المـال فأىّ رغبة لنـا فيه مادمتَ حيا ؛ أنت ومالك لنـا ، نخذه إليك ، ويسـير الرجال به حتى يضعوه بين يديه ، فيرده إلى موضعه ؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأى أبى حنيفة فى التفريق بين المجتمع ، والجمع بين المتفرّق ؛ وهذا خطب عظيم ؛ وقد صنف البخارىّ رضى الله عنه فى جامعه كتابا مقصودا فقال : « كتاب الحِيَل » .

قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وألا يفرّق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرّق خشية الصدقة» . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس، الحديث؛ وفي آخره : " أفلح إن صَدَق " أو " دخل الجنة إن صَدَق " . وقال بعض الناس : في عشرين ومائة بعير حِقّتان؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فِرارا من الزكاة فلا شيء عليه؛ ثم أردف بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون كَنْز أحدِكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ويقول أنا كَنْزك " الحديث . قال المهلّب : إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يَتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى، وفهم من قوله : " أفلح إن صدق " أن من رام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عذره عند الله؛ وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط، والله حسيبه؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم، وآستعمل سفرا لا يحتاج إليه، رغبة عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين؛ فالوعيد متوجه عليه؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأي وجه متعمدا كيف تطؤه الإبل، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ ! وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يحل، وهو مطالب بذلك في الآخرة .

الثالثة — قال آبن العربي : قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ » دليل على وجه الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق؛ وهذا وَهَم عظيم؛ وقوله تعالى : « وكذلك مكّنا ليوسف في الارض » قيل فيه : كما مكّنا ليوسف مِلْك نفسه عن آمرأة العزيز مكّنّا له مِلْك الأرض عن العزيز، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشفعوي : ومثله قوله عز وجل : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ » وهذا ليس

حيلة، إنما هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد . قال الشّفعوىّ : ومثله حديث أبى سعيد الخدرىّ فى عامل خيبر أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم بتمرٍ جَنِيب، الحديث؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا (١) ويبتاع جَنِيبا من الذى باع منه الجمع أو من غيره . وقالت المالكية : معناه من غيره؛ لئلا يكون جَنِيبا بجمع، والدراهم ربا؛ كما قال آبن عباس : جريرة (٢) بجريرة والدراهم ربا .

قوله تعالى : ﴿ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أى سلطانه، عن آبن عباس . ابن عيسى : عادته، أى بظلم بلا حجة . مجاهد : فى حكمه؛ وهو آسترقاق السُّرّاق . ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أى إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية فى رحله تَعِلَّة وعذرا له . وقال قَتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل، على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أى بالعلم والإيمان . وقرئ « نرفع درجاتِ من نشاء » بمعنى : نرفع من نشاء درجات؛ وقد مضى فى « الأنعام » (٣) . وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن سِماك عن عِكْرِمة عن آبن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا، وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جُبير قال : كنا عند آبن عباس رحمه الله فتحدّث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذى علم عليم؛ فقال آبن عباس : بئس ما قلت؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعالى : قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

(١) الجمع : تمر مختلط من أنواع متفرقة، وليس مرغوبا فيه . (٢) كذا فى الأصل وفى « إحكام القرآن لابن العربى » . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ المعنى : أى آقتدى بأخيه ، ولو آقتدى بنا ما سرق ؛ وإنما قالوا ذلك ليبرءوا من فعله ، لأنه ليس من أمّهم ؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عِرْق أخيه السّارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشا كل فى الأخلاق . وقد آختلفوا فى السرقة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها مِنْطقة إسحق لسنّها ؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسنّ ، وهذا مما نُسخ حكمه بشرعنا ، وكان من سَرَق آستُعبِد . وكانت عمة يوسف حضنته وأحبّته حبًّا شديدا ؛ فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب : سلّمى يوسف إلىّ ، فلست أقدر أن يغيب عنى ساعة ؛ فولعت به ، وأشفقت من فراقه ، فقالت له : دعه عندى أياما أنظر إليه . فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطَقة إسحق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدتُ مِنطَقة إسحق ، فانظروا مَن أخذها ومَن أصابها ؛ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ؛ فوجدت مع يوسف . فقالت : إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك فهو سلمك ؛ فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك عيّره إخوته فى قولهم : «إن يسرِق فقد سرق أخ له مِن قبل» . ومن ها هنا تعلّم يوسف وضع السقاية فى رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته . وقال سعيد بن جُبير: إنما أمرته أن يسرِق صنما كان لجدّه أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييرا للمنكر ؛ فرموه بالسرقة وعيّروه بها ؛ وقاله قَتَادة . وفى كتاب الزجاج أنه كان صنم ذهب . وقال عطية العَوْفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عَرْق(١) فخبأه فعيّروه بذلك . وقيل : إنه كان يَسرِق من طعام المائدة للمساكين ؛ حكاه آبن عيسى . وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أى أسرّ فى نفسه قولهم : « إن يسرِق فقد سرق أخ له من قبل» قاله آبن شجرة وآبن عيسى . وقيل : إنه أسرّ فى نفسه

---

(١) العرق (بالفتح) هنا القطعة من اللحم المطبوخ .

قوله : « أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا » ثم جهر فقال : « والله أعلم بما تصفون » أى الله أعلم أنّ ما قلتم كذب ، وإنْ ، فكانت لله رضًا . وقد قيل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظة بعزل الأوّل(١) أو موته . وقولهم : « إن له أبا شيخا كبيرا » أى كبير القدر ، ولم يريدوا كبر السنّ ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فخذ أحدنا مكانه » أى عبدًا بَدَلَه ؛ وقد قيل : إن هذا مجاز ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقّه ؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : اقتلنى ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ فى آستنزاله . ويحتمل أن يكون قولهم : « فخذ أحدنا مكانه » حقيقة ؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حر ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة ؛ أى خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ؛ ويعرف يعقوب جليّة الأمر ؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الحمالة فى الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى ، غير لازم إذا أبى الطالب ؛ وإنما الحمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، ولا يجوز إجماعا . وفى « الواضحة » أن الحمالة فى الوجه فقط فى الحدود جائزة ، إلا فى النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . وآختلف فيها عن الشافعىّ ؛ فمرّة ضعّفها ، ومرّة أجازها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحسانا علينا فى هذه اليد إن أسديتها إلينا ؛ وهذا تأويل آبن إسحق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ مصدر . ﴿ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى من أن نأخذ . ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا ﴾ فى موضع نصب بـ « نأخذ » . ﴿ مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ أى معاذ الله أن نأخذ البرىء ، بالمجرم ، ونخالف ما تعاقدنا عليه . ﴿ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ أى أن نأخذ غيره .

---

(١) هو قطفير .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ ﴾ أى يئسوا ؛ مثل عَجِب وآستعجب ، وسَخِر وآستسخر . ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى آنفردوا وليس هو معهم . ﴿ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال من المضمر فى « خلصوا » وهو واحد يؤدّى عن جمع ، كما فى هذه الآية ؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى : « وقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » وجمعه أَنْجِيَة ؛ قال الشاعر (١) :

إِنِّى إذا ما القومُ كانوا أَنْجِيَهْ * وآضْطَرَبَ القومُ آضطرابَ الأَرْشِيَهْ
* هُنَاكَ أَوْصِينِي وَلَا تُوصِى بِيَهْ *

وقرأ آبن كثير « آسْتَايَسُوا » « وَلَا تَايَسُوا » « إِنه لَا يَايَسُ » « أَفَلَمْ يَايَس » بألف من غير همز على القلب ؛ قدّمت الهمزة وأخّرت الياء ، ثم قلبت الهمزة ألفا لأنها ساكنة قبلها فتحة ؛ والأصل قراءة الجماعة ؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء — يأسا — والإياس ليس بمصدر أَيِسَ ، بل هو مصدر أُسْتُهُ أَوْسًا وإِيَاسًا أى أعطيته . وقال قوم : أَيِس وَيئِس لغتان ؛ أى فلما يئسوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس ، يتناجون فيما عَرَض لهم . والنَّجِىّ فعيل بمعنى المناجى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قَتَادة : هو روبيل ، كان أكبرهم فى السنّ . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم فى الرأى . وقال الكلبيّ : يهوذا ؛ وكان أعقلهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لاوَى ، وهو أبو الأنبياء . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ

(١) هو سحيم بن وثيل اليربوعى يصف قوما أتعبهم السير والسفر ، فرقدوا على ركابهم ، واضطربوا عليها ، وشدّ بعضهم على ناقته حذار سقوطه . وقيل : إنما ضربه مثلا لنزول الأمر المهم . والأرشية الحبال التى يستقى بها ، والمراد أنه ثابت الجأش . و (أوصينى ولا توصى) بالياء لأنه يخاطب مؤنثا .

مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى عهدا من الله فى حفظ ٱبنه، وردّه إليه. ﴿ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ « ما » فى محل نصب عطفا على « أنّ » والمعنى : ألم تعلموا أنّ أباكم قـد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف ؛ ذكره النحاس وغيره . و « مِن » فى قوله : « ومِن قبل» متعلقة بـ«تعلموا» . ويجوز أن تكون «ما» زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما «من قبل» و « فى يوسف » بالفعل وهو «فرّطتم» . ويجوز أن تكون «ما» والفعل مصدرا، و « من قبل » متعلقا بفعل مضمر ؛ التقـدير : تفريطكم فى يوسـف واقع من قبل ؛ فما والفعل فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به « من قبل » . ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أى ألزمها، ولا أبرح مقيما فيهـا ؛ يقال : بَرِحَ بَرَاحًا وبُرُوحا أى زال، فإذا دخل النفى صار مثبتا . ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ بالرجوع فإنى أستحى منه . ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بالممرّ مع أخى فأمضى معه إلى أبى . وقيل : المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وآخذ أخى ، أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال : «لتأتُنَّنِي بِهِ إلا أن يحاط بكم» ومن حارب وعَجَز فقد أحيط به؛ وقال ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف ؛ يقوم شـعره فى صدره مثل المَسَالّ فتنفذ من ثيابه . وجاء فى الخبر أن يهوذا قال لأخوته ــ وكان أشدّهم غضبا ــ : إما أن تكفونى الملِك ومن معـه أكفكم أهل مصر؛ و إما أن تكفونى أهل مصر أكفكم الملِك ومن معه؛ قالوا : بل ٱكفنا الملك ومن معه نكفك أهـل مصر؛ فبعث واحدا من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقا ؛ ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! لئن لم تخـلِّ معنا أخانا لأصيحنّ صيحة لا تُبقى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت ما فى بطنها ؛ وكان ذلك خاصا فيهم عند الغضب؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا وٱشتدّ غضبه ، وٱنتفجت شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب؛ كان إذا غضب ، ٱقشعرّ جلده ، وانتفخ جسده ، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب ، حتى تقطر من كل شـعرة قطرة دم؛ و إذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهـدّم البنيان ، و إن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم

والطير إلا وضعت ما فى بطنها ، تماما أو غير تمام ؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما ، أو تمسكه يد من نسل يعقوب ؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تمّ وكمل كلّم ولدا له صغيرا بالقبطية ، وأمره أن يضع يده بين كتفى يهوذا من حيث لا يراه ؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف ، فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم ير ؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال : هل حضرنى منكم أحد؟ قالوا : لا ! قال : فأين ذهب شمعون ؟ قالوا : ذهب إلى الجبل ؛ فخرج فلقيه ، وقد آحتمل صخرة عظيمة ؛ قال : ما تصنع بهذه ؟ قال : أذهب إلى السوق الذى وقع فى نصيبى أشدخ بها رءوس كل من فيه ؛ قال : فارجع فردّها أو فألقها فى البحر ، ولا تحدثنّ حدثا ؛ فوالذى آتخذ إبراهيم خليلا ! لقد مسّنى كفٌّ من نسل يعقوب ؛ ثم دخلوا على يوسف ، وكان يوسف أشدّهم بطشا ، فقال : يامعشر العبرانيين ! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة ، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركله برجله فدحا به من خلف الجدار — الرَّكْلُ الضرب بالرجل الواحدة ؛ وقد ركله يركُله ؛ قاله الجوهرى — ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه ، وقال : هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم ، ثم صعد على سريره ، وجلس على فراشه ، وأمر بصُواعه فوضع بين يديه ، ثم نقره نقرة فخرج طنينه ، فالتفت إليهم وقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا ! قال : فإنه يقول : إنه ليس على قلب أبى هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم ، ثم نقر نقرة ثانية وقال : إنه يخبرنى أن هؤلاء أخذوا أخًا لهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه ؛ فقالوا : أيها العزيز! آستر علينا ستر الله عليك ، وآمنن علينا منّ الله عليك ؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول : إن هؤلاء طرحوا صغيرهم فى الجبّ ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس ، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله ؛ ثم نقره رابعة وقال : إنه يخبرنى أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه ، ولم تتوبوا إليه ؛ ثم نقره خامسة وقال إنه يقول : إن أخاهم الذى زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا ؛ ثم نقر سادسة وقال إنه يقول : لو كنتم أنبياء أو بنى أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم ؛ لأجعلنكم نكالا للعالمين . آيتونى بالحدادين أقطع

أيديهم وأرجلهم ، فتضرّعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حيّ لنكونن طوع يده ، وترابا يطأ علينا برجله ؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : آخرجوا عني ! قد خلّيت سبيلكم إكراما لأبيكم ، ولولا هو لجعلتكم نكالا .

قوله تعالى : ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ ﴾ قاله الذى قال : « فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ » . ﴿ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ وقرأ ٱبن عباس والضحاك وأبو رَزين « إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » . النحاس : وحدثنى محمد بن أحمد بن عمر قال حدّثنا ابن شَاذَان[(1)] قال حدّثنا أحمد بن أبى سُرَيج البغداديّ قال : سمعت الكسائيّ يقرأ « يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » بضم السين وتشديد الراء مكسورة ؛ على مالم يُسمّ فاعله ؛ أى نُسب إلى السرقة ورُمى بها ؛ مثل خوّنته وفسّقته وفجّرته إذا نسبته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « سُرِّقَ » يحتمل معنيين : أحدهما — علم منه السَّرَق ، والآخر — آتهم بالسَّرَق . قال الجوهرى : والسَّرِق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو آسم الشيء المسروق ، والمصدر سَرَق يَسْرِق سَرَقًا بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا » يريدون ما شهدنا قطّ إلا بما علمنا ، وأما الآن فقد شهدنا بالظاهر وما نعلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دَسّ هذا فى رحلى مَن دَسّ بضاعتكم فى رحالكم ؛ قال معناه ابن إسحق . وقيل المعنى : ماشهدنا عند يوسف بأن السارق يُسْتَرَقّ إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله آبن زيد . ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أى لم نعلم وقت أخذنا منك أنه يَسْرِق فلا نأخذه . وقال مجاهد وقتادة : ما كنا

(١) هو العباس بن الفضل بن شاذان ، كما فى « غاية النهاية » .

نعلم أن ابنك يُسترق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق . وقال ابن عباس : يعنون أنه سَرَق ليلا وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حِمْير ؛ وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه وإيابه . وقيل : ما دام بمرأى منا لم يجر خَلَل ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته . وقيل معناه : قد أخذت السّرِقة من رَحْله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها ، ولا علم لنا بالغيب ، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرق .

الثانية — تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأى وجه حصل العلم بها ؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن عَلِم ، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل في الشهادات ؛ ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة ؛ وكذلك الشهادة على الخط — إذا تيقّن أنه خطّه أو خطّ فلان — صحيحة ؛ فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به وإن لم يُشهِده المشهود عليه ؛ قال الله تعالى : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعلَمُونَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَلَا أُخبركم بخير الشهداء خيرُ الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يُسألها" وقد مضى في "البقرة"(١) .

الثالثة — اختلف قول مالك في شهادة المرور ؛ وهو أن يقول : مررت بفلان فسمعته يقول كذا ؛ فإن استوعب القول شهد في أحد قوليه ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يُشهداه ؛ والصحيح أن الشهادة عند الاستيعاب ؛ وبه قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه حصل المطلوب ، وتعيّن عليه أداء العلم ؛ فكان خير الشهداء إذا أعلم المشهود له ، وشر الشهداء إذا كتمها .

الرابعة — إذا ادّعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ردّت ؛ لأنه ادّعى باطلا فأكذبه العيان ظاهرا .

قوله تعالى : وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٩٩ طبعة أولى أو ثانية .

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ﴾ حقّقوا بها شهادتهم عنده، ورفعـوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم بقـولهم . « وآسأل القرية » أى أهلها ؛ فحذف؛ ويريدون بالقرية مصر . وقيـل : قرية من قراها نزلوا بهـا وآمتاروا منها . وقيل المعنى : «وآسأل القرية» وإن كانت جمادا، فأنت نبيّ الله، وهو يُنطق الجماد لك؛ وعلى هذا فلاحاجة إلى إضمـار؛ قال سيبويه : ولا يجوز كلِّم هندا وأنت تريد غلام هند؛ لأن هـذا يُشكل . والقول فى العير كالقول فى القرية سواء. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا .

الثانيـــة — فى هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حقّ، وعلِم أنه قد يظُنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهَّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه ، ويصرّح بالحق الذى هو عليه، حتى لا يبقى لأحد مُتكلَّم ؛ وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يَقْلِبُها(١) من المسجد على رِسْلكما إنمـا هى صفية بنت حُيَيّ فقالا : سبحان الله ! وكَبُر عليهما ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم وإنى خَشِيت أن يَقذِف فى قلوبكما شيئا " رواه البخارى ومسلم .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زيّنت . ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أن آبنى سَرَق وما سَرَق، وإنما ذلك لأمر يريده الله . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فشأنى صبر جميل؛ أو صبر جميل أولى بى، على ماتقدّم أوّل السورة .

---

(١) يقلبها : يردّها .

الثانية — الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدي بيعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم . وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن قَتَادة عن الحسن قال : ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحبّ إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو . وقال ابن جُرَيج عن مجاهد في قوله تعالى : «فصبر جميل» أي لا أشكو ذلك إلى أحد . وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رَبَاح عن أبي هُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ بَثَّ لم يَصْبِر". وقد تقدّم في «البقرة»(١) أن الصبر عند أول الصَّدمة، وثواب من ذكر مصيبته واسترجع وإن تقادم عهدها . وقال جُوَيبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أُعطى على يوسف أجر مائة شهيد، وكذلك من احتسب من هذه الأمة في مصيبته فله أجر يعقوب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت، وإنما غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حُمِل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للناس، ثم حُبس، فلما تمكن احتال في أن يعلم أبوه خبره؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك، فلا يدعوا الرسول يَصلُ إليه . وقال : «بهم» لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلّف من أجل أخيه، وهو القائل : «فلن أبرح الأرض» . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحالي . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما يقضي .

قوله تعالى : وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تَتَامّ حزنه، وبلغ جهده، وجدّد الله مصيبته له في يوسف فقال : ﴿ يَا أَسَفَا

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧٤، ١٧٥ طبعة ثانية .

عَلَى يُوسُفَ ﴾ ونَسِيَ ٱبنه بنيامين فلم يذكره؛ عن ٱبن عباس . وقال سعيد بن جُبير : لم يكن عند يعقوب ما في كتابنا من الاسترجاع ، ولو كان عنده لما قال : « يا أسفا على يوسف» .
قال قَتَادة والحسن : والمعنى يا حزناه ! وقال مجاهد والضحاك : يا جزعاه ! ؛ قال كُثَيّر :

فيا أَسفا للقلب كيف ٱنصرافُهُ * وللنَّفْسِ لمّا سُلِّيت فتسلَّتِ

والأسف شدّة الحزن على ما فات . والنداء على معنى : تعال يا أسف فإنه من أوقاتك .
وقال الزجاج : الأصل يا أسفي ؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة . ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ ﴾ قيل : لم يبصر بهما ست سنين ، وأنه عَمِيَ؛ قاله مقاتل . وقيل : قد تبيضّ العين ويبقى شيء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب ؛ وإنما ٱبيضّت عيناه من البكاء ، ولكن سبب البكاء الحزن ، فلهذا قال : « من الحزن » . وقيل : إن يعقوب كان يصلّي ، ويوسف نائما معترضا بين يديه ، فَغطَّ في نومه ، فالتفت يعقوب إليه ، ثم غَطَّ ثانية فالتفت إليه ، ثم غَطَّ ثالثة فالتفت إليه سرورا به وبغطيطه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته « ٱنظروا إلى صَفيّي وٱبن خليلي قائما في مناجاتي يلتفت إلى غيري ، وعِزّتي وجَلَالي ! لأنزعنّ الحدقتين اللتين التفت بهما ، ولأفرقنّ بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة ؛ ليعلم العالمون أن من قام بين يديّ يجب عليه مراقبة نظري » .

الثانية — هذا يدلّ على أن الالتفات في الصلاة — وإن لم يُبطل — يدلّ على العقوبة عليها ، والنقص فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : "هو ٱختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد" .
وسيأتي ما للعلماء في هذا في أوّل سورة « المؤمنين » موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثة — قال النحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدّة حزن يعقوب — صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا — فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة : منها — أن يعقوب صلى الله عليه وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حَيٌّ خاف على دينه ، فاشتدّ حزنه لذلك . وقيل : إنما حزن لأنه سلّمه إليهم صغيرا ، فندم على ذلك . والجواب الثالث — وهو أبينها — هو أن

الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الوَلْوَلة وشقّ الثياب، والكلام بما لا ينبغي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الربّ " . وقد بيّن الله جلّ وعزّ ذلك بقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يَبثّه؛ ومنه كَظْم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى : « إذ نادى وهو مكظوم » أي مملوء كربا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم؛ وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كظيم مغموم؛ قال الشاعر :

فإنْ أَكُ كاظِمًا لِمُصَاب شَاسٍ * فإنّي اليـومَ مُنطلِقٌ لساني

وقال ابن جُريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهبت عيناه من الحزن « فهو كظيم » قال : فهو مكروب . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله : «فهو كظيم» قال : فهو كَمِد؛ يقول : يعلم أن يوسف حيّ، وأنه لا يدري أين هو؛ فهو كَمِد من ذلك . قال الجوهري : الكَمَد الحزن المكتوم؛ تقول منه كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ . النحاس : يقال فلان كَظِيم وكاظِم؛ أي حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر :

فَحَضَضْتُ قَوْمي وٱحتسبتُ قِتالَهم * والقومُ مِن خوف المَنَايا كُظَّم

قوله تعالى : قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي قال له ولده : «تالله تفتأ تذكر يوسف» قال الكسائي : فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك؛ أي مازلتُ . وزعم الفراء أن «لا» مضمر؛ أي لا تفتأ، وأنشد (١) :

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعدًا * ولو قطعوا رأسي لَدَيك وأَوصالي

(١) البيت لامرئ القيس و « يمين » بالرفع على الابتداء وإضمار الخبر؛ والتقدير: يمين الله لازمني؛ وبالنصب على إضمار فعل، وهو كثير في كلام العرب كقولهم : أمانة الله . وقد وصف أنه طرق محبوبته تخوفته الرقباء، وأمرته بالانصراف، فقال لها هذا، وأراد : لا أبرح فحذف « لا » . والأوصال (جمع وصل) وهي المفاصل .

أى لا أبرح ؛ قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضمر فى القسم ، لأنه ليس فيه إشكال ؛ ولو كان واجبا لكان باللام والنون ؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ؛ يقال : ما زال يفعل كذا ، وما فتِئ وفَتَأَ فهما لغتان ، ولا يستعملان إلا مع الجحد ؛ قال الشاعر(١) :

فما فَتِئَتْ حتّى كأنّ غُبَارَها(٢) * سُرَادِقُ يومٍ ذى رياحٍ تُرَفَّعُ

أى ما برحت فتفتأ تبرح . وقال ٱبن عباس : تزال . ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى تالفا . وقال ابن عباس ومجاهد : دَنِفا من المرض ، وهو ما دون الموت ؛ قال الشاعر :

سَرَى هَمِّى فأمرضَنِى * وقِدْمًا زادنى مَرَضَا

كذاكَ الحبُّ قبلَ اليو * مِ ممّا يُورِثُ الحَرَضَا

وقال قَتَادة : هرِما . الضحاك : باليًا داثرًا . محمد بن إسحق : فاسدا لاعقل لك . الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل ؛ وكذا الحَرَض . ابن زيد : الحَرَض الذى قد رُدّ إلى أرذل العمر . الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرِّج : ذائبا من الهمّ . وقال الأخفش : ذاهبا . ٱبن الأنبارىّ : هالكا ، وكلها متقاربة . وأصل الحَرَض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم ، عن أبى عُبيدة وغيره ؛ وقال العَرْجِىّ :

إِنّى ٱمرؤٌ لَجَّ بِى حُبٌّ فأحْرَضَنِى * حتّى بَلِيتُ وحتى شَفَّنِى السَّقَمُ

قال النحاس : يقال حَرَضَ حَرَضًا وحَرُض حُرُوضا وحُرُوضةً إذا بلِى وسقِم ، ورجل حارِض وحَرَض ، إلا أن حَرَضا لا يثنى ولا يجمع ، ومثله قَمِن وحَرِىّ لايثنيان ولا يجمعان . الثعلبىّ : ومن العرب من يقول حارِض للذكر ، والمؤنثة حارِضة ، فإذا وصف بهذا اللفظ ثنّى وجمع وأنّث . ويقال : حَرِض يَحرَض حَرَاضةً فهو حَرِيض وحَرِضٌ . ويقال : رجل مُحْرَض ، وينشد :

طَلَبَتْهُ الخيلُ يومًا كاملا * ولَوَ ٱلْفَتْهُ لأَضْحَى مُحْرَضَا

---

(١) هو أوس بن حجر التميمى الجاهلى .   (٢) الضمير للخيل .

وقال امرؤ القيس :

أَرَى المرءَ ذا الأذوادِ يُصبِحُ مُحْرَضًا (١) * كإحْرَاضِ بِكْرٍ في الدِّيارِ مَرِيضِ

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ إذا أسقمه ، ورجل حارض أى أحمق . وقرأ أنس «حُرضا» بضم الحاء وسكون الراء ، أى مثل عود الأُشْنان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهرى : الحَرَض والحُرُض الأُشْنَان . ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ أى الميّتين ، وهو قول الجميع ؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه ، وإن كانوا السبب فى ذلك .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ حقيقة البثّ فى اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها ؛ وهو من بثثته أى فرّقته ، فسميت المصيبة بَثًّا مجازا ؛ قال ذو الرُّمّة :

وَقَفْتُ على رَبعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي * فما زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وأُخَاطِبُهْ

وأُسْقِيهِ (٢) حتى كاد مما أُبِثُّهُ * تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ ومَلاعِبُهْ

وقال ابن عباس : « بَثّى » همّى . الحسن : حاجتى . وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه . ﴿وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوف عليه ، أعاده بغير لفظه . ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأسجد له . قاله ابن عباس . وقَتَادة : إنى أعلم من إحسان الله تعالى إلىّ ما يوجب حسن ظنى به . وقيل : قال يعقوب لملك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا ، فأكّد هذا رجاءه . وقال السدّى : أعلم أن يوسف حىّ ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحسّت نَفْس يعقوب أنه ولده فطمع ، وقال : لعله يوسف .

قوله تعالى : ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

---

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : الفتى من الإبل ؛ يقول : أرى المرء ذا المال يدركه الهرم والمرض ، والفناء بعد ذلك فلا تغنى كثرة ماله ، كما أن البكر يدركه ذلك .

(٢) أسقيه : أدعو له بالسقيا .

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ هذا يدل على أنه تيقن حياته ؛ إما بالرؤيا ، وإما بإنطاق الله تعالى الذئب كما فى أول القصة ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه ؛ وهو أظهر . والتحسس طلب الشىء بالحواس ؛ فهو تفعل من الحس ، أى آذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، وآحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه ؛ ويروى أن ملك الموت قال له : آطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحية مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف برد البضاعة ، وآحتباس أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فلذلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها . ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله آبن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط فى الشدة . وقال قتادة والضحاك : من رحمة الله . ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر ، وهو اليأس ، وسيأتى فى « الزمر »(١) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا العَزِيزُ ﴾ أى الممتنع . ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ؛ وفى الكلام حذف ، أى فخرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسَّنَا » أى أصابنا « وأهلنا الضُّر » أى الجوع والحاجة ؛ وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر ، أى الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره أن يبدى حالته إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ؛ ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكى على سبيل التسخط ؛ والصبر والتجلد فى النوائب أحسن ، والتعفف عن المسئلة أفضل ؛ وأحسن الكلام

(١) فى تفسير قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ... » آية ٥٣ من السورة المذكورة .

فى الشّكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إنما أشكو بثّى وحزنى إلى اللهِ وأعلم مِن اللهِ ما لا تعلمون » أى من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده؛ فأما الشّكوى على غير مُشْكٍ فهو السّفه، إلا أن يكون على وجه البثّ والتّسلّى؛ كما قال آبن دُرَيْد :

لَا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنّى ضارعٌ * لِنَكْبةٍ تَعْرِقُنِى عَرْقَ الْمُدَى
مَارَسْتَ مَنْ لَوْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ * جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
لكنّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا * جَاشَ لُغَامٌ(١) مِن نَوَاحِيهَا غَمَا

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شىء ؛ تقول : أبضعت الشىء وآستبضعته أى جعلته بضاعة ؛ وفى المثل : كمستبضع التمر إلى هَجَر(٢) .

قوله تعالى : ﴿ مُزْجَاةٍ ﴾ صفة لبضاعة ؛ والإزجاء السَّوْق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا » والمعنى أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامّة . وآختلف فى تعيينها ؛ فقيل : كانت قَدِيدًا وَحَشِيًّا ؛ ذكره الواقدىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقيل : خَلَقُ الغَرَائِرِ والحِبال ؛ روى عن آبن عباس . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة الخضراء والصَّنَوبر وهو البُطْم ، حبّ شجرٍ بالشام ، يؤكل و يعصر الزيت منه لعمل الصابون ؛ قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدراهم لا تَنفُق فى الطعام ، وتَنْفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : أخذها منا بحساب جيادٍ تَنفُق فى الطعام . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله آبن عباس أيضا . وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : النعال والأدم ؛ وعنه كانت سويقا منخلا . والله أعلم .

---

(١) اللغام : الزبد ؛ وهو ما يلقيه البعير من فمه ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البعير الزبد إذا رماه ينفض رأسه ومشفره . (٢) هجر : مدينة بالبحرين .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ .

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : « فأوفِ لنا الكيل » يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لا تنقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال ٱبن جُرَيج : « فأوف لنا الكيل » يريدون الكيل الذى كان قد كاله لأخيهم . « وتصدق علينا » أى تفضل علينا بمـا بين سعر الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جُبَير والسدّى والحسن ؛ لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تصدّق علينا » بالزيادة على حقنا ؛ قاله سفيان بن عُيَيْنة . قال مجاهد : ولم تحرم الصـدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال ٱبن جُرَيج : المعنى « تصـدّق علينا » بردّ أخينا إلينا . وقال ٱبن شجرة : « تصدّق علينا » تجوّز عنا ؛ وٱستشهد بقول الشاعر :

تَصدّقْ علينا يا ٱبن عَفّانَ وٱحْتَسِبْ * وأَمِّرْ علينـا الأشـــعرىّ لَيَـالِيَا

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يعنى فى الآخرة ؛ يقال : هذا من مَعَاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل ؛ قاله النقاش . وفى الحديث : " إن فى المَعَاريض (١) لمندوحةً عن الكذب " .

الثانيـــة ـــ ٱستدلّ مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع ؛ قال ٱبن القاسم وٱبن نافع قال مالك : قالوا ليوســف « فأوف لنا الكيل » فكان يوسف هو الذى يكيل ، وكذلك الوزّان والعدّاد وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع عِدّة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليـه أن يبرزها ويميز حق المشترى من حقه ، إلا أن يبيع منه مُعيَّنا ـــ صُبْرة أو ما لا حقّ توفيةفيه ـــ خلّى بينه و بينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، و إن تلف فهو منه قبل التوفية .

---

(١) المعاريض : جمع معراض ، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول .

الثالثة — وأما أجرة النقد فعلى البائع؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول : إنها طَيِّبة، فأنت الذي تدّعى الرداءة فآنظر لنفسك؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه، وكذلك لا يجب على الذي عليه القصاص؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكّن من ذلك طائعا؛ ألا ترى أن فرضا عليه أن يفدى يده، و يصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القطّاع على المقتص . وقال الشافعي في المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبائع .

الرابعة — يكره للرجل أن يقول في دعائه : اللهم تصدّق عليّ؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغى الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ غيره؛ وسمع الحسن رجلا يقول : اللهم تصدّق عليّ؛ فقال الحسن : يا هذا! إن الله لا يتصدّق إنما يتصدّق من يبتغى الثواب؛ أَمَا سمعتَ قول الله تعالى : « إِنَّ الله يجزِى المتصدقين » قل : اللهم أعطني وتفضّل عليّ .

قوله تعالى : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ آستفهام بمعنى التذكير والتوبيخ، وهو الذي قال الله : « لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِم »(١) . ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ دليل على أنهم

(١) أي تصديق قول الله، كما في تفسير الفخر .

كانوا صغارا فى وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدل على أنه حسنت حالهم الآن؛ أى فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم : « وإن كنا لخاطئين » على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه . وقيل : جاهلون بما تؤول إليه العاقبة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا : « مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » لخضعوا له وتواضعوا رَقَّ لهم، وعرّفهم بنفسه، فقال : «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه» فتنبهوا فقالوا : « أئنك لأنت يوسف » قاله ابن إسحق . وقيل : إن يوسف تبسّم فشبهوه بيوسف وٱستفهموا . قال ابن عباس لما قال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » الآية، ثم تبسم يوسف — وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم — فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام : «أئنك لأنت يوسف» . وعن ابن عباس أيضا أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان فى قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم : «هل علمتم ما فعلتم بيوسف » رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا : « أئنك لأنت يوسف » . وقال ابن عباس : كتب يعقوب إليه يطلب ردّ ٱبنه، وفى الكتاب : من يعقوب صفىّ الله ٱبن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر — أما بعد — فإنّا أهل بيت بلاء ومحن، ابتلى الله جدّى إبراهيم بنمرود وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم ٱبتلانى بولد كان لى أحبّ أولادى إلىّ حتى كُفّ بصرى من البكاء، وإنى لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام . فلما قرأ يوسف الكتاب ٱرتعدت مفاصله، واقشعر جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعيل صبره فباح بالسرّ . وقرأ ابن كثير « إنك » على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » . ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ﴾ أى أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة . ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى بالنجاة والملك . ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصى . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى الصابرين فى بلائه، القائمين بطاعته . وقرأ ٱبن كثير « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي » بإثبات الياء؛ والقراءة به جائزة على أن تجعل

«مَنْ» بمعنى الذى، وتدخل «يتّقِ» فى الصلة، فتثبت الياء لا غير، وترفع «ويصبر». وقد يجوز أن تجزم «ويصبر» على أن تجعل «يتّق» فى موضع جزم «ومن» للشرط، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل؛ كما قال:

ثم نادِى إذا دَخلتَ دِمشقًا * يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيد

وقال آخر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى * بما لَاقَتْ لَبُونُ بنِى زِيادِ

وقراءة الجماعة ظاهرة، والهاء فى «إنه» كناية عن الحديث، والجملة الخبر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الأصل همزتان خفّفت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، واسم الفاعل مُؤْثِر، والمصدر إيثار. ويقال أثَرْتُ التراب إثارةً فأنا مُثير؛ وهو أيضا على أفْعَل ثم أعِلّ، والأصل أَثْيَرَ(١) نقلت حركة الياء على الثاء، فانقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين. وأَثَرْتُ الحديث على فَعَلْتُ فأنا آثِرٌ؛ والمعنى: لقد فضّلك الله علينا، واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أى مذنبين من خَطِئ يَخْطَأ إذا أتى الخطيئة، وفى ضمن هذا سؤال العفو. وقيل لابن عباس: كيف قالوا «وإن كنا لخاطئين» وقد تعمدوا لذلك؟ قال: وإن تعمّدوا لذلك، وما تعمدوا حتى أخطئوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تخطّى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشبهة والمعصية.

قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أى قال يوسف — وكان حليما موفّقا —: «لا تثريب عليكم اليوم» وتمّ الكلام. ومعنى «اليوم»: الوقت. والتثريب التّعيير والتوبيخ، أى لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثورىّ وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام: "إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها" أى لا يُعيّرها؛ وقال بِشر:

فعَفَوْتُ عنهم عَفْوَ غَيرِ مُثَرِّبٍ * وتركتهم لعقابِ يومٍ سَرْمَدِ

---

(١) كذا فى الأصل و إعراب القرآن للنحاس. و يلاحظ أن عين الفعل واو لا ياء، وعليه فالأصل أثور، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلبت ألفا، ثم حذفت — عند اتصال الفعل بضمير متحرك — لالتقاء الساكنين.

وقال الأصمعى : ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنى إذا قبحتَ عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لما بيني و بينكم من الحرمة، وحقّ الإخوة، ولكم عندى العفو والصفح؛ وأصل التثريب الإفساد، وهى لغة أهل الحجاز . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعُضادَتَى الباب يوم فتح مكة، وقد لاذَ النـاسُ بالبيت فقال : "الحمد لله الذى صدق وَعْدَه ونصر عَبْدَه وهَزَم الأحزاب وحدَه" ثم قال : " ماذا تظنون يا معشر قريش" قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقـد قَدَرت؛ قال : " وأنا أقـول كما قال أخى يوسف «لا تثريب عليكم اليوم»" فقال عمر رضى الله عنه : ففِضتُ عَرَقا من الحياء من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذلك أنى كنت قـد قلت لهم حين دخلت مكة : اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال استحييت من قولى . ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مستقبل فيـه معنى الدعاء؛ سأل الله أن يستر عليهم و يرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على «عليكم» والأول هو المستعمل؛ فإن فى الوقف على «عليكم» والابتداء بـ«اليوم يغفر الله لكم» جَزْم بالمغفرة فى اليـوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحى ، وهذا بيّن . وقال عطاء الخراسانى : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم تر قول يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » وقال يعقوب : « سوف أستغفر لكم ربى » .

قوله تعالى : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴾ نعت للقميص، والقميص مذكر، فأما قول الشاعر:(١)

تَدْعو هَوازِنُ والقميصُ مُفَاضَـةٌ * فـوق النِّـطاقِ تُشَـدُّ بالأزرارِ

فتقديره : [والقميص](٢) دِرْع مُفاضةٌ . قاله النحاس . وقال ابن السدى عن أبيه عن مجاهد : قال لهم يوسف «اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجهِ أبِي يأتِ بصيرا» قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرير الجنـة، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قَصَبة من فضـة وعلّقه فى عُنق يوسف ، لِمَا كان يخاف عليـه من

(١) هو جرير . (٢) الزيادة عن النحاس .

العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مُبتلًى إلا عُوفي . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذى حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذى أحمله الآن لأسرّه، وليعود إليه بصره، فحمله؛ حكاه السدّى . ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . وقد قيل : إن القميص الذى بعثه هو القميص الذى قُدّ من دُبره، ليعلم يعقوب أنه عُصم من الزنى؛ والقول الأول أصح، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره القُشيرى والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام، يقال : فَصَل فُصُولا، وفَصَلْته فَصْلًا، فهو لازم ومتعد . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أى قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ . وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقى : « إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » . قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال . وقال الحسن : مسيرة عشر ليال؛

وعنـه أيضا مَسيرة شهر . وقال مالك رضى الله عنه : إنمـا أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : هبّت ريح فصَفَقَت(١) القميصَ فراحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : «إنى لأجد» أى أشمّ ؛ فهو وجود حاسة الشمّ . ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُسفّهون ؛ ومنه قول النابغة :

إلّا سـليمانَ إذ قال المليـكُ لَهُ * قُمْ فى البرِيّةِ فٱحْدُدْها عن الفنَدِ(٢)

أى عن السَّفَه . وقال سعيد بن جُبير والضحاك : لولا أن تكذّبون . والفَنَد الكذب . وقد أَفْنَد إِفْنَادا كَذَب ؛ ومنه قول الشاعر :

هـل فى ٱفتخار الكريم من أَوَدِ(٣) * أَمْ هل لقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ

أى من كذب . وقيل : لولا أن تُقبّحون ؛ قاله أبو عمرو ؛ والتفنيد التقبيح ؛ قال الشاعر :

ياصـاحبيّ دعا لومى وتَفْنِيدِى * فليس ما فاتَ مِن أمرِى بمردودِ

وقال ٱبن الأعرابى : « لولا أن تفنّدون » لولا أن تُضعّفوا رأيى ؛ وقاله ابن إسحق . والفند ضعف الرأى من كِبر . وقول رابع : تُضلّلون ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلومونى ؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأى . وقال الحسن وقَتَادة ومجاهد أيضا : تُهرِّمون ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأى ؛ يقال فَنَّده تفنيدا إذا أعجزه ، كما قال :

* أهلكنى باللوم والتفنيد *

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفَنَد الخطأ فى الكلام والرأى ، كما قال النابغة :

* ... فٱحددها عن الفَنَدِ *

أى ٱمنعها عن الفساد فى العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر :

يا عاذلىّ دَعَا المَـلَامَ وأَقصِرَا * طالَ الهـَوَى وأطلتما التَّفْنِيدا

(١) صفقت الريح الشيء وصفقته إذا قلبته يمينا وشمالا وردّدته . (٢) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام لعظم ملكه ؛ وقبل البيت :

ولا أرى فاعلا فى النـاس يشبهه * ولا أحاشى من الأقوام من أحد

(٣) أود : عوج .

ويقال : أَفْنَدَ فلانًا الدهرُ إذا أفسده؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ ما أرادَ فإنَّهُ * إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناسِ أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي لفي ذهاب عن طريق الصواب . وقال ابن عباس وابن زيد : لفي خطئك الماضي من حبّ يوسف لاتنساه . وقال سعيد بن جُبير : لفي جنونك القديم . قال الحسن : وهذا عقوق . وقال قَتَادة وسفيان : لفي محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذي قال له ذلك من بقي معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي على عينيه . ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ «أَنْ» زائدة، والبشير قيل هو شمعون. وقيل: يهوذا قال: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلَطَّخا بالدّم؛ قاله ابن عباس . وعن السدّي أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحة . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أيّ دِينٍ تركت يوسف؟ قال : على الإسلام؛ قال : الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يُثيبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئا ، وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال ، ولكن هوّن الله عليك سكرات الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر . وفي الباب حديث كعب بن مالك – الطويل – وفيه : « فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته » وذكر الحديث ، وقد تقدّم بكماله في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا[1] ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والترح . ومن هـذا الباب جواز حَذاقة(١) الصبيان، وإطعام الطعام فيها، وقد نحر عمر بعد سورة «البقرة» جَزُورا . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكّرهم قوله: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ في الكلام حذف، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا؛ وهذا يدل على أن الذى قال له: «تالله إنك لفى ضلالك القديم» بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لاولده؛ فإنهم كانوا غُيَّبا، وكان يكون ذلك زيادة فى العقوق . والله أعلم . وإنما سألوه المغفرة، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت: وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له؛ فإنه يجب عليه أن يتحلّل له ويخبره بالمَظْلِمة(٢) وقدرها؛ وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لاينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلِمَة لها قَدْرٌ وبَالٌ ربما لم تطب نفس المظلوم فى التحلُّل منها . والله أعلم . وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كانت له مَظْلِمَة لأخيه من عِرْضه أو شيءٍ فليحلله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مَظْلِمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه" قال المهلّب فقوله صلى الله عليه وسلم: "أُخذ منه بقدر مَظْلِمته" يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبيّنة، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال ابن عباس: أخّر دعاءه إلى السَّحَر . وقال المُثَنَّى بن الصَّبَّاح عن طاوس قال: سَحَر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفى دعاء الحفظ — من كتاب الترمذى — عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله

(١) حذق الغلام القرآن: مهر فيه . (٢) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه على بن أبي طالب — رضي الله عنه — فقال : — بأبي أنت وأمي — تَفَلَّتَ هذا القرآنُ من صدري ، فما أجدني أقدر عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفلا أعلمك كلماتٍ يَنفعُكَ اللهُ بهنّ ويَنفعُ بهنّ من عَلَّمته ويُثبِّت ما تعلمتَ في صدرك" قال : أَجَلْ يارسول الله ! فعلِّمني ؛ قال : "إذا كان ليلة الجمعة فإن آستطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخي يعقوب لبنيه « سوف أستغفر لكم ربي » يقول حتى تأتي ليلة الجمعة" وذكر الحديث . وقال أيوب بن أبي تميمة السَّخْتِيَاني عن سعيد بن جُبير قال : «سوف أستغفر لكم ربي» في الليالي البيض ، في الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب . وعن عامر الشّعبي قال : « سوف أستغفر لكم ربي» أي أسأل يوسف إن عفا عنكم آستغفرت لكم ربي ؛ وذكر سُنَيد بن داود قال : حدثنا هشام قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عمّه قال : كنت آتي المسجد في السَّحر فأمرّ بدار آبن مسعود فأسمعه يقول : اللهم إنك أمرتني فأطعت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا سَحَرٌ فآغفرلي ؛ فلقيت آبن مسعود فقلت : كلمات أسمعك تقولهن في السحر؟ فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله : «سوف أستغفر لكم ربي» .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ أي قصرًا كان له هنالك . ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ قيل : إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازا ، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعا ؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه ، أي ضمّ ؛ ويعني بأبويه أباه وخالته ، وكانت أمّه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين . وقيل : أحيا الله أمّه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له ، قاله الحسن ؛ وقد تقدّم في «البقرة» أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به .

قوله تعالى : ﴿ آدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ قال آبن جُرَيج : أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله ؛ قال : وهذا من تقديم القرآن وتأخيره ؛ قال النحاس : يذهب آبن جُرَيج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول : « آدخلوا مصر إن شاء الله » . وقيل : إنما قال « إن شاء الله » تبرّكا وجَزْمًا . « آمنين » من القَحْط ، أو من فرعون ؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه .

قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال قَتَادة : يريد السَّرير، وقد تقدمت محامله؛ وقد يُعبّر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسه؛ ومنه قول النابغة الذُّبْيانيّ :

* عُروشٌ تفانَوْا بعد عِزٍّ وأَمْنةٍ *

وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدا» الهاء فى «خَرُّوا لَه» قيل : إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى : وخرّوا شكرا لله سجدا؛ ويوسف كالقِبْلة لتحقيق رؤياه؛ وروى عن الحسن؛ قال النَّقاش : وهـذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى فى أول السورة : «رأيتهم لى ساجدين» . وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته وإخوته ليوسف عليه السلام، فاقشعرّ جلده وقال: «هذا تأويل رؤياى من قبل» وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها آثنتان وعشرون سنة. وقال سلمان الفارسيّ وعبد الله بن شَدّاد : أربعون سنة ؛ قال عبد الله بن شَدّاد : وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا . وقال قَتَادة : خمس وثلاثون سنة . وقال السدّى وسعيد بن جُبير وعِكرمة : ست وثلاثون سنة. وقال الحسن وجسْر آبن فَرْقَد وفُضَيل بن عِياض : ثمانون سنة . وقال وهب بن مُنَبِّه : أُلقى يوسف فى الجُبّ وهو آبن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثا وعشرين

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من امرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة . وقيل : إن يعقوب بقي عند يوسف عشرين سنة، ثم توفي صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثماني عشرة سنة . وقال بعض المحدّثين : بضعا وأربعين سنة؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال ابن إسحق : ثماني عشرة سنة، والله أعلم .

الثانيـة — قال سعيد بن جُبَير عن قَتَادة عن الحسن — في قوله « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » — قال : لم يكن سجودا، ولكنه سُنَّة كانت فيهم، يُومِئون برءوسهم إيماء، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثوري والضحاك وغيرهما : كان سجودا كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم . وقيل : كان انحناء كالركوع، ولم يكن خرورا على الأرض؛ وهكذا كان سلامهم بالتَّكفِّي والانحناء، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا، وجعل الكلام بدلا عن الانحناء. وأجمع المفسِّرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة؛ قال قَتَادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هذا الانحناء والتَّكفِّي الذي نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض؛ حتى أن أحدهم إذا لم يُقَم له وجَدَ في نفسه كأنه لا يُؤْبَه به، وأنه لا قَدْر له؛ وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة، لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء؛ نَكَبوا عن السِّيَر، وأعرضوا عن السنن . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : "لا"؛ قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضا؟ قال "لا" . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا؟ قال "نعم". خرجه أبو عمر في « التمهيد » . فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قوموا إلى سيِّدكم وخَيْرِكم" — يعني سعد بن معاذ — قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعيَّنة؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثِّر ذلك في نفسه، فإن أثَّر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظًّا لم يجزْ عَوْنه على ذلك؛

لقوله صلى الله عليه وسلم : " من سرّه أن يَتمثّل له الناسُ قياما فليتبوأ مقعده من النار " .
وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك .

الثالثة — فإن قيل : فما تقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بَعُد عنك ، لتعين له به وقت السّلام ، فإن كان دانياً فلا ؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ؛ لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تَشبّه بغيرنا فليس منا " . وقال : " لا تُسلّموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة " . وإذا سَلّم فإنه لا يَنحني ، ولا أن يُقبِّل مع السّلام يده ، ولأن الآنحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيما منهم لكبرائهم ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عند رءوس أكاسرتها " فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صافح النبي صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصافحوا يذهب الغلّ " وروى غالب التّمّار عن الشّعْبيّ أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانو إذا التقوا تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا ؛ فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ؛ وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا ؛ وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذي يدل عليه معنى ما في الموطأ ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السّلَف والخَلَف . قال ابن العربي : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما في الدّين ، ولا منقولا نقل السلام ؛ ولو كانت منه لاستوى معه .

قلت : قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والدّأب عليها والمحافظة ؛ وهو ما رواه البَرَاء بن عازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدى فقلت : يارسول الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للاعاجم ؟ فقال : " نحن أحق بالمصافحة منهم مامن مسلمَين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما " .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجُبّ آستعمالا للكرم؛ لئلا يُذَكِّر إخوته صنيعهم بعد عفوه بقوله : « لا تثريب عليكم » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذِكْرُ الجفا في وقت الصَّفا جَفَا؛ وهو قول صحيح دَلَّ عليه الكتاب . وقيل : لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » وكان في الجُبّ بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان في السجن مع اللصوص والعُصَاة ، وفي الجب مع الله تعالى؛ وأيضا فإن المِنّة في النّجاة من السّجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أَمْرٍ هَمَّ به ؛ وأيضا دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » فكان الكَرْب فيه أكثر؛ وقال فيه أيضا : « آذكرني عند ربك » فعوقب فيه .

﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبَرِّيّة ؛ وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسَكَنها ، وأن الله لم يبعث نبيا من أهل البادية . وقيل : إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع ؛ وإياه عنى جَميل بقوله :

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْبًا(١) إلى بَدَا * إليّ وأوطاني بلادٌ سواهُمَا

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بَدَا القومُ بَدْوًا إذا أتَوا بَدَا ، كما يقال : غَارُوا غَوْرًا أي أَتَوا الْغَوْر ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بَدَا؛ ذكره القُشَيريّ ، وحكاه المَاوَرْديّ عن الضحاك عن آبن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله آبن عباس . وقيل : أفسد ما بيني وبين إخوتي؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرمًا منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي رفيق بعباده . وقال الخَطَّابيّ : اللطيف هو البَرّ بعباده الذي يَلْطُف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يَحتسبون ؛ كقوله : « الله لطيف بِعِبادِهِ يرزق من يشاء » . وقيل : اللطيف العالِم بدقائق الأمور ؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قَتادة : لطف بيوسف بإخراجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو ، ونزع من قلبه نزغ الشيطان . ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشَارَفَ أرض مصر وبلغ ذلك يوسف آستأذن فرعون — وآسمه الريان — أن يأذن له في تَلَقِّي أبيه يعقوب ، وأخبره

(١) شغب : موضع بين المدينة والشام . و (بدا) يروى منونا وغير منون .

بقدومه فأذن له ، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه ؛ فخرج يوسف والملك معه فى أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْقٌ الله أعلم بهم ؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ، فكان يعقوب يمشى متكئا على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيــل والناس والعساكر فقال : يايهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، بل هذا ابنك يوسف ؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنع[(1)] من ذلك ، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ؛ فابتدأ يعقوبُ بالسلام فقــال : السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان ، وبكى وبكى معه يوسف ؛ فبكى يعقوب فرحا ، وبكى يوسف لمــا رأى بأبيه من الحزن ؛ قال ابن عباس : فالبكاء أربعة ؛ بكاء من الخوف ، وبكاء من الجزع ، وبكاء من الفرح ، وبكاء رياء . ثم قال يعقوب : الحمد لله الذى أقرّ عينى بعد الهموم والأحزان ، ودخل مصر فى اثنين وثمانين من أهل بيته ؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام ؛ رواه عِكْرِمة عن ابن عباس . وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا مابين رجل وامرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة وسبعون ألفا . وقال الربيع بن خَيْثَم : دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفا ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا مابين رجل وامرأة وصغير ، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون ، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، ســوى الذرية والهَرْمى والزَّمْنى ؛ وكانت الذرّية ألف ألف ومائتى ألف سوى المقاتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة فى أغبط حال ونعمة ، ومات بمصر ، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل ، ثم انصرف إلى مصر . قال سعيد ابن جُبَير : نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم فى تابوت من ساج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات عِيصو ، فدفنــا فى قبر واحد ؛ فمن ثَمَّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس ، مَنْ فَعَل ذلك منهم ؛ وولد يعقوب وعِيصُو فى بطن واحد ، ودفنا فى قبر واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة .

(1) أى منعه يعقوب عليه الســـلام لأن القادم يســـلم ؛ قاله العينى فى « عقد الجمان » . وقال الألوسى : ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه .

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال قتادة : لم يتمنّ الموت أحد ، نبيّ ولا غيره إلا يوسف عليه السلام ، حين تكاملت عليه النِّعم وجُمع له الشمل آشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ . وقيل : إن يوسف لم يتمنّ الموت ، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ؛ أي إذا جاء أَجَلي توفَّني مسلما ؛ وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : لا يتمنّى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عزّ وجلّ ؛ وثبت في الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّين أحدُكم الموت لضُرٍّ نزل به فإن كان لا بدّ متمنيا فليقل ٱللهم أَحْيِني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرا لي" رواه مسلم . وفيه عن أبي هُرَيرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّى أحدُكم الموت ولا يَدْعُ[(1)] به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم ٱنقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمنَ عُمُرُه إلا خيرا" . وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمنّى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا في شرعه ؛ أَمَا أنه يجوز تمني الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيّناه في كتاب «التذكرة» .

«ومن» من قوله : «مِن الْمُلْكِ» للتبعيض ؛ وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» لأن مُلْك مصر ما كان كل المُلْك ، وعلمِ التّعبير ما كان كلّ العلوم . وقيل : «من» للجنس ؛ كقوله : « فٱجتنبوا الرجس مِن الأوثان » . وقيل : للتأكيد . أي آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث .

(١) قيل : وجه صحة عطفه على النفي من حيث إنه بمعنى النهي . وقال ابن حجر : فيه إيماء إلى أن الأوّل نهي على بابه ، ويكون قد جمع بين لغتي حذف حرف العلة وإثباته .

قوله تعـالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنـداء، وهو ربّ ، وهو نداء مضاف ؛ والتقدير : ياربّ ! ويجوز أن يكون نداء ثانيا . والفاطر الخالق ؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق ؛ وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى ؛ عند قوله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ »(١) وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي ﴾ أى ناصرى ومتولّى أمورى فى الدنيا والآخرة . ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة ؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل فى صندوق من رخام ؛ وذلك أنه لمـا مات تَشاحَّ الناس عليه ؛ كلٌّ يحبّ أن يدفن فى مَحَلَّتهم ، لمـا يَرجون من بركته ؛ وآجتمعوا على ذلك حتى هَمُّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه فى النِّيل من حيث مَفرِق المـاء بمصر ، فيمرّ عليه المـاء ، ثم يتفرّق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شَرعا ففعلوا ؛ فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النّيـل ، ونقل تابوته بعـد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنـوه مع آبائه لدعوته : « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسـبعة أعوام . وعن الحسن قال : ألقى يوسف فى الجبّ وهو آبن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعـد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له من الولد إفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أيوب ؛ فى قول آبن لَهِيعة . قال الزهرىّ : وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشـع بن نون ، وهو فتى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده نبيا ، وهو الذى آفتتح أَرِيحاء ، وقتل من كان بها من الجبابرة ، وآستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم فى « المـائدة »(٢) . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبـل موسى بن عمران ؛ وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منـه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ؛ وكان آبن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذى قاله ابن عباس؛ وكذلك فى القرآن . ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيما بينهما شعيب، صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ آبتداء وخبر . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى، و « نوحيه إليك » خبره؛ أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب « نوحيه إليك » أى نعلمك بوحى هذا إليك . ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى مع إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ فى إلقاء يوسف فى الجبّ . ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أى بيوسف فى إلقائه فى الجبّ . وقيل : « يمكرون » بيعقوب حين جاءوه بالقميص مُلطَّخا بالدم؛ أى ماشاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ظنّ أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون، فلم يؤمنوا؛ فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول : حَرَص يحرِص، مثل : ضَرَبَ يَضرِب . وفى لغة ضعيفة حَرِص يحرَص مثل حَمِد يحمَد . والحِرْص طلب الشيء باختيار .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ «من» صلة؛ أى ما تسألهم جُعْلا . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أى ما هو؛ يعنى القرآن والوحى . ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أى عظة وتذكرة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسيبويه : هى « أىّ » دخل عليهـا كاف التشبيه وبُنيت معها ، فصار فى الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى فى «آل عمران» القول فيها مستوفى (١) . ومضى القول فى آية «السموات والأرض» فى «البقرة» (٢) . وقيـل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة ؛ أى هم غافلون معـرضون عن تأملها . وقرأ عِكْرمة وعمرو بن فائد « وَٱلْأَرْضُ » رفعا ٱبتـداء ، وخبره « يَمُـرُّونَ عَلَيْهَا » . وقرأ السدّى « وَٱلْأَرْضَ » نصبًا بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ ٱبن مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ نزلت فى قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبـدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشّعبى وأكثر المفسرين . وقال عِكْرمة هو قوله : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» ثم يصفونه بغير صـفته ويجعلون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب معهم شِرْكٌ وإيمـان ، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمـانهم؛ حكاه ابن الأنبارىّ . وقال ابن عباس : نزلت فى تلبيـة مشركى العـرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملَك . وعنـه أيضا أنهم النصارى . وعنـه أيضا أنهم المشـبّهة ، آمنوا مجملا وأشركوا

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة ثانية .

مُفَصَّلا . وقيل : نزلت فى المنافقين؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردى عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا فى الدعاء؛ وذلك أن الكفار ينسون ربهم فى الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء؛ بيانه : « وَظَنُّوا أَنَّهُم أُحِيطَ بِهِم » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ » الآية؛ وفى آية أخرى « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع فى هذا القول والذى قبله كثير من عوام المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية فى قصة الدُّخَان ؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدُّخَان فى سِنِى القَحْط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والعود لا يكون إلا بعد ابتداء؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أى إلا وهم عائدون، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجَلِّلَة[1] . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم؛ نظيره « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ يعنى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ نصب على الحال؛ وأصله المصدر . وقال المبرِّد : جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وَقَع أمرُهم بَغْتَةً وفَجْأَةً؛ قال النحاس : ومعنى « بغتة » إصابة من حيث لم يتوقّع . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وهو توكيد . وقوله « بغتة » قال ابن عباس : تَصيح الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم ومواضعهم، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى .

(١) مُجَلِّلَة : عامة التغطية .

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخبر؛ أى قل يا محمد هذه طريقى وسُنّتى ومنهاجى؛ قاله ابن زيد . وقال الرّبيع : دعوتى . مقاتل : دينى ، والمعنى واحد؛ أى الذى أنا عليه وأدعو إليه يؤدّى إلى الجنة . ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أى على يقين وحقّ؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا . ﴿أَنَا﴾ توكيد . ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ عطف على المضمر . ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى قل يا محمد : «وسبحان الله» . ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ هذا ردّ على القائلين : «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أى أرسلنا رجالا ليس فيهم آمرأة ولا جِنّىّ ولا مَلَك؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن فى النّساء أربع نبيّات حوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم" . وقد تقدم فى «آل عمران»[(1)] شيء من هذا . «مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» يريد المدائن؛ ولم يبعث الله نبيّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيّـا من أهل البادية قطّ ، ولا من النّساء، ولا من الجنّ . وقال قَتادة : «مِنْ أَهْـلِ الْقُرَىٰ» أى من أهـل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم . وقال العلماء : مِن شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ و إنما قالوا آدميا تحرزا؛ من قوله : «يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ» والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم فيعتبروا . ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره . وزعم الفراء أن الدار هى الآخرة ؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، و بارحة الأولى ؛ قال الشاعر :

ولو أَقْوَتْ عليكَ دِيارُ عَبْسٍ[(١)] * عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليقينِ

أى عِرْفَانا يقينا ؛ واحتجّ الكسائىّ بقولهم : صلاة الأولى ؛ واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرّف به ؛ والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فمعناه : عند صلاة الفريضة الأولى ؛ و إنما سميت الأولى لأنها أوّل ما صُلِّى حين فُرضت الصّلاة ، وأول ما أظهر ؛ فلذلك قيل لها أيضا الظُّهْر . والتقدير : ولدار حال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛ أى هى خير للتقين . وقرئ « وللدَّارُ الآخِرَةُ » . وقرأ نافع وعاصم و يعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ تقدّم القراءة فيه ومعناه[(٢)] . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغى الوقوف عليه لئلا يزلّ الإنسان فيكون فى سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعقاب « حتى إذا استيأس الرسل » أى يئسوا من إيمان قومهم « وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا » بالتشديد ؛ أى أيقنوا أن قومهم كذّبوهم . وقيل المعنى : حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبوهم ، لا أَنَّ القوم كذَّبوا ، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يُكذّبونهم ؛ أى خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ ؛ فيكون «وظنّوا» على بابه فى هذا التأويل . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وأبو جعفر بن القَعْقاع والحسن وقَتَادة وأبو رَجَاء العُطَارِدىّ وعاصم وحمزة والكسائى و يحيى بن وَثّاب والأعمش وخَلَف «كُذِبُوا» بالتخفيف ؛ أى ظنّ القوم أن الرسل كذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

(١) وفى رواية : «فإنك لو حللت ديار عبس» . (٢) راجع ص ٢٤١ من هذا الجزء .

ولم يَصدُقوا . وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعَدُوا به من نصرهم . وفى رواية عن ابن عباس؛ ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم . وقيــل : لم تصح هذا الرواية؛ لأنه لا يَظنّ الرسلُ هذا الظنّ ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحقّ النّصر؛ فكيف قال : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؟ ! قال القُشَيرى أبو نصر : ولا يبعــد إن صحّت الرواية أن المــراد خطر بقلوب البشر هــذا من غير أن يتحققوه فى نفوسهم؛ وفى الخبر : " إن الله تعـالى تجاوز لأمّتى عمـا حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به " . ويجوز أن يقــال : قربوا من ذلك الظنّ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبي والنحاس عن ابن عبـاس قال : كانوا بشرا فضَعُفوا من طول البـلاء، ونَسُوا وظَنّــوا أنّهم أُخلِفوا؛ ثم تــلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معــه متى نصر الله» . وقال الترمذى الحكيم : وجهه عنــدنا أن الرسل كانت تخاف بعــد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة بوعد الله ، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حَدَثا يَنقُض ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوى عن ابن عباس : ظنّت الرُّسل أنهــم قد أُخْلِفُوا على ما يلحق البشر؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحيِي الْمَوْتى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهــد وحميد — «قَدْ كَذَبوا» بفتح الكاف والذال مُخَفّفا ، على معنى : وظنّ قوم الرســل أن الرسل قد كَذَبوا، لمـا رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ فى تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و [لمـا] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا . وفى البخارى عن عُرْوة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ : « حتى إذا آستيأس الرســل » قال قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشــة : كُذِّبوا . قلت : فقد آستيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن؟ قالت : أَجَلْ ! لعمرى ! لقد آستيقنوا بذلك؛ فقلت لها : « وَظَنُّو أَنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها . قلت : فمـا هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل [الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، وآستأخر عنهم النصر حتى إذا آستيأس الرسل(1)]

(1) الزيادة من صحيح البخارى .

ممن كذّبهم من قومهم ، وظنّت الرسل أن أتباعهم كذّبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك .
وفى قوله تعالى : « جاءهم نصرنا » قولان : أحدهما — جاء الرسلَ نصرُ الله ؛ قاله مجاهد .
الثانى — جاء قومَهم عذابُ الله ؛ قاله ابن عباس . ﴿ فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ قيل : الأنبياء ومن آمن معهم . وروى عن عاصم « فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ » بنون واحدة مفتوحة الياء ، و « مَنْ » فى موضع رفع ، اسم ما لم يُسَمّ فاعله ؛ واختار أبو عُبيد هذه القراءة لأنها فى مصحف عثمان وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ابن محيصن « فَنَجَا » فعل ماض ، و « مَنْ » فى موضع رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقين نصبا على المفعول . ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أى فى قصة يوسف وأبيه وإخوته ، أو فى قصص الأمم ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أى فكرة وتذكرة وعظة . ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى العقول . وقال محمد بن إسحق عن الزهرىّ عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْمىّ : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين سنة ، وتُوفّى أخوه عِيصُو معه فى يوم واحد ، وقُبِرا فى قبر واحد ؛ فذلك قوله : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » إلى آخر السورة . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أى ما كان القرآن حديثا يفترى ، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى . ﴿ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ؛ وهذا تأويل من زعم أنه القرآن . ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سـورة الرعـد

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنيـة فى قول الكلبى ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة، وهما قوله عزّ وجلّ : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [إلى آخرهما][1] .

قوله تعالى : الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

قوله تعالى : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ تقدّم القول فيها . ﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقّ ﴾ لا كما يقول المشركون : إنك تأتى به من تلقاء نفسك، فاعتصم به، واعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذى » فى موضـع رفع عطفا على « آيات » أو على الابتـداء، و « الحق » خبره، ويجـوز أن يكون موضـعه جرا على تقدير : وآيات الذى أُنزل إليك، وارتفاع « الحقّ » على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره : ذلك الحقّ، كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ » يعنى ذلك الحقّ . قال الفرّاء : وإن شئت جعلت « الذى » خفضا نعتا للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أتانا هـذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق، ومنـه قول الشاعر :

إلى الملكِ القَـرْمِ وابنِ الهُمَامِ ⁂ ولَيْثِ الْكَتِيبَـةِ فى الْمُزْدَحَـمْ[2]

يريد : إلى الملك القَرْم بن الهمام، ليث الكتيبة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) الزيادة من تفسير البحر . (٢) القرم (بفتح القاف) : السيد، والكتيبة : الجيش، والمزدحم : محل الازدحام .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية . لمّا بيّن تعالى أن القرآن حق، بيّن أن من أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا فى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدم هذا المعنى . وفى قوله : « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها؛ قاله قَتَادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثانى — لها عمد، ولكنا لا نراه؛ قال آبن عباس : لها عمد على جبل قاف؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التى يُمسك بها آلسموات وآلأرض، وهى غير مرئية لنا؛ ذكره الزّجاج . وقال آبن عباس أيضا : هى توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر؛ ذكره الغَزْنَوِيّ . والعَمَد جمع عمود؛ قال النابغة :

وخَيِّسِ الجنَّ إنِّى قد أذِنتُ لهم ﴿ يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ (١)

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم الكلام فيه (٢) . ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أى ذَلَّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مُذلَّل للخالق . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة آلتى عندها تُكوّر الشمس، ويُخسَف القمر، وتنكدر النّجوم، وتنتثر الكواكب . وقال آبن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها لايجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فَلَكه فى شهر، والشمس فى سنة . ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أى يصرفه على ما يريد . ﴿ يُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ ﴾ أى يُبيِّنها؛ أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على آلإعادة؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

---

(١) ويروى : وخبر الجن . وخيس : ذلل؛ وتدمر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام . والصُّفّاح حجارة عراض رقاق . وعمد : جمع عمود . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لما بيّن آيات السّموات بيّن آيات الأرض ؛ أي بسط الأرض طولا وعرضا . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا ثوابت؛ واحدها راسية، لأن الأرض ترسو بها، أي تثبت؛ والإرساء الثبوت؛ قال عَنْتَرة :

فصَبَرْتُ عَارِفةً لذلك حُـرّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ (١)

وقال جَميل :

أُحِبُّها والذى أَرْسَى قواعِدَهُ * حُبًّا إذا ظَهَرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء : أوّل جبل وضع على الأرض أبو قُبَيس (٢) .

مسـألة — فى هـذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تَهوِى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الرّاوندى أن تحت الأرض جسما صَعَّادا كالرِّيح الصعَّادة ؛ وهى منحدرة فاعتـدل الهاوى والصعّادى فى الجِرْم والقوّة فتوافقا . و زعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعِّد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنما تكون فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى مياها جارية فى الأرض ، فيها منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، و يكون اثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى؛ وهـذا خلاف

---

(١) قبل البيت :

وعرفت أن منيتى إن تأتنى * لا ينجنى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

النّص . وقيل : معنى « زوجين » نوعان ، كالحُلْو والحامض ، والرطب واليابس ، والأبيض والأسود ، والصغير والكبير . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ في الكلام حذف؛ المعنى : وفي الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » والمعنى : وتقيكم البَرْد، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثانية — قوله تعالى : « متجاورات » أي قُرًى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تتفاوت في الثمار والتَّمر؛ فيكون البعض حُلْوا ، والبعض حامضا ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثّمر فيه من الصّغر والكبر واللون والمطعم ، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفي هذا أدلّ دليل على وحدانيته وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته ؛ فإنه نَبَّه سبحانه بقوله : « تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سَبِخة مع تجاورهما؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جلّ وعزّ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا .

الثالثـــة ـــ ذهبت الكفرة ـــ لعنهم الله ـــ إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع؛ وآدّعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرّوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة : بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلا؛ والدليل على أن الحادث لابدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث في وقت، ويَحدُث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يَحدُث في وقته كل ماهو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن آختصاصه به لأجل مُخصِّص خَصَّصه به، لولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وآستيفاء هذا في علم الكلام .

الرابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ قـرأ الحسن « وَجَنَّاتٍ » بكسر التاء، على تقدير : وجعل فيها جنات؛ فهو محمول على قوله : «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ» . ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير : ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون : «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير : و بينهما جنات . ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بالرفع . آبن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجنَّات؛ أى على تقدير : وفي الأرض زرع ونخيل . وخفضها الباقون نَسَقا على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجنّات؛ ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ماتقدّم في «وجنّات» . وقرأ مجاهد والسُّلَمِيّ وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لغتان؛ وهما جمع صِنْوٍ، وهي النَّخَلات والنّخلتان، يجمعهنّ أصل واحد، وتتشعب منه رءوس فتصير نخيلا؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنْو . وروى أبو إسحق عن البَرَاء قال : الصِّنْوان المجتمع، وغير الصِّنْوان المتفرق؛ النحاس : وكذلك هو في اللغة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيهـا نخلة أخرى أو أكثر صِنْوان . والصِّنو المِثل؛ ومنـه قول النبي صلى الله عليه وسـلم : "عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه" . ولا فرق فيها بين التّثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية؛ قال الشاعر :

العلمُ والحلمُ خَلّتَا كَرَمٍ * للمرء زَيْنٌ إذا هُمَا آجْتَمَعَا
صِنْوانِ لا يُسْتَتَمُّ حُسنُهُمَا * إلاّ بجمع ذا وذاكَ معَـا

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بنى آدم وخبيثهم، أبوهم واحد، قاله النحاس والبخارىّ . وقرأ عاصم وابن عامر « يُسْقَى » بالياء، أى يُسقى ذلك كله . وقرأ الباقون بالتاء ، لقوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة، قال أبو عمرو : والتأنيث أحسن، لقوله : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ ﴾ ولم يقل بعضه . وقرأ حمزة والكسائىّ وغيرهما « ويُفَضِّل » بالياء ردّا على قوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَصِّلُ » و « يُغْشِى » . الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلىّ رضى الله عنه : "الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة" ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الأكل » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسىّ والدَّقَل[(١)] . وروى مرفوعا من حديث أبى هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قوله تعالى : « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ » قال : "الفارسىّ والدَّقَل والحُلْو والحامض" ذكره الثعلبىّ . قال الحسن : المراد بهذه الآية المثل، ضربه الله تعالى لبنى آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون فى الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التى تسقى بماء واحد، ومنه قول الشاعر :

النـاسُ كالنَّبتِ والنَّبتُ ألوانُ * منها شجرُ الصَّندلِ والكافورِ والبانْ
* ومنها شجرٌ يَنضحُ طولَ الدّهرِ قطرانْ *

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَـٰلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾

---

(١) الدقل : ردىء التمر .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث ؛ والله تعالى لا يتعجّب ، ولا يجوز عليه التعجّب ؛ لأنه تغيُّر النفس بما تخفى أسبابه ؛ و إنما ذَكَر ذلك ليتعجّب منه نبيُّه والمؤمنون . وقيل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مـع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والثمـار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق ؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغيّر فهو محل التعجّب ؛ ونظم الآية يدل على الأول والثانى ؛ لقـوله : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أى أنبعث إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقرئ «إنّا» . و﴿ الْأَغْلَالُ ﴾ جمع غُلّ ؛ وهو طَوْق تُشدّ به اليد إلى العُنق ؛ أى يُغلّون يوم القيامة ؛ بدليـل قوله : « إذِ الأغلال فى أعناقِهم » إلى قوله : « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعـالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب ؛ قيـل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبـل العافية ؛ وقد حكم سـبحانه بتأخير العقوبة عن هـذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيـل : « قبـل الحسنة » أى قبل الإيمـان الذى يرجى به الأمان والحسنات . و﴿ الْمَثُلَاتُ ﴾ العقوبات ؛ الواحدة مَثُلَة . ورُوى عن الأعمش أنه قرأ « الْمُثْلَات » بضم الميم وإسكان الثـاء ؛ وهذا جمع مُثْـلَة ، ويجوز

« المَثْلَات » تبدل من الضمـة فتحة لثقلها ، وقيـل : يُؤْتى بالفتحه عِوَضا من الهـاء . ورُوى عن الأعمش أنه قرأ « المَثْلَات » بفتح الميم و إسكان الثاء؛ فهذا جمع مُثْلة ، ثم حَذَف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله . وعلى قراءة الجماعة واحده مَثُلة ، نحو صَدُقه؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعا، واحدها على لغتهم مُثْلة ، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثـل : غُرْفة وغُرُفات؛ والفعل منـه مَثَلْتُ به أَمْثُل مَثْـلا، بفتح الميم وسكون الثاء . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِـرَةٍ ﴾ أى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنـوا ، وعن المذنبـين إذا تابوا . وقال ابن عباس : أرجى آية فى كتاب الله تعالى « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهـم » . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إذا أصرّوا على الكفر . وروى حمّاد بن سَلَمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيّب قال : لمـا نزلت «و إن ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم و إن ربك لشديد العقاب » قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لولا عفو الله ورحمتـه وتجاوزه لمـا هَنَأَ أحدا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتّكل كل أحد " .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُـولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا ﴾ أى هَلّا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْـهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . لمـا اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ أى مُعْلِم . ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى نبيّ يدعوهم إلى الله . وقيـل : الهادى الله؛ أى عليك الإنذار، والله هادى كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعـالى : ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

فيـه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ أى من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم فى سـورة « الأنعام » (١) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) راجع جـ ٧ ص ١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن ٱبن عمر أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "مفاتيح الغيب خمس" الحديث . وفيـه "لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله" . وٱختلف العلمـاء فى تأويل قوله : ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فقـال قتادة : المعنى ما تُسقِط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال ٱبن عباس. وقال مجاهد : إذا حاضت ٱلمرأة فى حملها كان ذلك نقصانا فى ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لمـا نقص ؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه . وقيـل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض ٱنقطاع دم الحيض «وما تزداد» بدم النفاس بعد الوضع .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعى فى أحد قوليه . وقال عطاء والشعبى وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفه ؛ ودليله الآية. قال ابن عبـاس فى تأويلها : إنه حيض الحبالى، وكذلك رُوى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتى النساء الحوامل إذا حِضْن أن يَتْرُكْن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصّار : وذُكر أن رجلين تنازعا ولدا ، فترافعا إلى عمر رضى الله عنـه فعرضه على القَافَة، فألحقه القَافَة بهما، فعَلَاه عمر بالدِّرَّة، وسأل نسوة من قريش فقال : ٱنظُرْن ماشأن هذا الولد؟ فقُلْن : إن الأول خلا بها وخلّاها، فحاضت على الحمل، فظنت أن عِدّتها انقضت؛ فدخل بها الثانى، فانتعش الولد بماء الثانى؛ فقال عمر : الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لاتحيض، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدل أنه إجماع، والله أعلم . احتجّ المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ماتراه المرأة من الدم حيضا لمـا صح استـبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع . وروى عن مالك فى كتاب محمد مايقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على أن الحـامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبدالملك بن مروان ولد لستة أشهر .

الرابعــة — وهذه الستة الأشهر هي بالأهلّة كسائر أشهر الشريعــة؛ ولذلك قد روى في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنــه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطيه .

الخـامســة — وٱختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جُرَيج عن جَميلة بنت سعد عن عائشــة قالت : لا يكون الحمــل أكثر من سنتين قدر ما يتحوّل ظِلّ المِغْــزَل ؛ ذكره الدّارَقُطْني . وقال : جميلة بنت سعد أخت عبيد بن سعد . وعن الليث بن سعد : أن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعي أربع سنين؛ وروى عن مالك في إحدى روايتيه ، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروى عنــه لاحدّ له ، ولو زاد على العشرة الأعوام ؛ وهي الرواية الثالثة عنه . وعن الزهري ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعي : مُدَّة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر ، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسئلة لا أصل لهـا إلا الاجتهاد، والرّد إلى ماعُرِف من أمر النساء، وبالله التوفيق . روى الدّارَقُطْنيّ عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمـالك بن أنس إني حدّثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدْر ظِلّ المِغْزَل، فقال : سبحان الله ! مَن يقول هذا؟ ! هذه جارتنا ٱمرأة محمد بن عَجْلان، تحمل وتضع في أربع سنين، ٱمرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاثة أبطن في ٱثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عنــدنا كانت ٱمرأة محمد بن عَجْلان تحمــل وتضع في أربع سـنين، وكانت تسمى حاملة الفيــل . وروى أيضا قال : بينا مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقــال : يا أبا يحيى ! ٱدع لٱمرأة حبلى منــذ أربع سنين قــد أصبحت في كرب شــديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القــوم إلا أنَّا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هــذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنهـا الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبدلهـا غلاما ، فإنك تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت ، وعندك

أمّ الكتاب ، ورفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال : أدرك آمرأتك ، فذهب الرجل؛ فمـا حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسـجد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ (١) ، آبن أربع سنين، قد استوت أسـنانه ، ماقُطعت سراره (٢)؛ ورُوى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إنى غبت عن امرأتى سنتين فجئت وهى حبلى؛ فشاور عمر النـاس فى رجمها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما فى بطنها سبيل؛ فاتركها حتى تضع ، فتركها ، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه ؛ فعرف الرجل الشـبه فقال : ابنى ورب الكعبة ! ؛ فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ؛ لولا معاذ لهلك عمر . وقال الضحاك : وضعتنى أُمّى وقد حملت بى فى بطنها سنتين ، فولدتنى وقد خرجت سِنّى . ويذكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أُمه سنتان، وقيل : ثلاث سـنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أُمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حمّاد آبن سلمة : إنما سمى هَرِم بن حِيان هَرِما لأنه بقى فى بطن أُمه أربع سنين . وذكر الغَزْنَوى أن الضحّاك وُلد لسنتين ، وقد طلعت سِنّه فسُمّى ضحّاكا . عبـاد بن العوام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه، فمرّ به طير فقال : كش .

السادســـة — قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الآجتهاد؛ لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم فى شىء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنـا ، ووُجِد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا؛ ولـمّـا وجدنا آمرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك ، والنفاس والحيض لـمّـا لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهنّ .

السابعـــة — قال ابن العربى : نقل بعض المتساهلين عن المـالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكىّ ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل

(١) جعد قطط : شديد الجعودة . (٢) سرر الصبى : ماتقطعه القابلة .

فى الرَّحِم الكواكب السبعة؛ تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منهـا للشمس؛ ولذلك يتحرك ويضطرب، وإذا تكامل التداول فى السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد فى الشهر الثامن إلى زُحَل، فيُبْقِله بِبَرْده؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم ! ما بال المرجـع بعد تمـام الدّور يكون إلى زُحَل دون غيره ؟ آلله أخبركم بهـذا أم على الله تفترون ؟ ! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لايجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة ! .

الثامنـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعنى من النّقصان والزّيادة . ويقال: « بمقدار » قَدْر خروج الولد من بطن أمّه، وقَدْر مكثه فى بطنها إلى خروجه . وقال قَتَادة: فى الرزق والأجل . والمقدار القَدْر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم .

قلت : هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعـالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة؛ أى هو عالم بما غاب عن الخلق، وبمـا شهدوه . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبّـه سبحانه على آنفراده بعـلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذى يخفى على الخلق، فلايجوز أن يشاركه فى ذلك أحد؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُرِكوا وماهم عليه، ولم يَقدَح ذلك فى الممدوح؛ فإن العـادة يجوز آنكسارها، والعـلم لا يجوز تبـدّله . و﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذى كل شيء دونه . ﴿الْمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلى على كل شيء بقدرته وقَهْره؛ وقد ذكرناهما فى شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله .

قوله تعـالى : سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ إسرار القول : ما حدّث به المرءُ نفسه، والجهر ماحدّث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعـلم ما جهر به من خير وشر . و « منكم » يحتمل أن يكون وصفا لـ« سواء» التقدير : سر من أسر وجهر من جهر سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق « بسواء » على معنى : يستوى منكم، كقولك : مررت بزيد . ويجـوز أن يكون على تقدير : سر من أسر منكم وجهر من جهر منـكم . ويجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، كما تقـول عدل زيد وعمرو أى ذوا عدلٍ . وقيل : «سواء» أى مستوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف . ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ أى يستوى فى علم الله السر والجهـر، والظاهر فى الطرقات، والمستخفى فى الظلمات . وقال الأخفش وقُطْرُب المستخفى بالليل الظاهر؛ ومنـه خَفَيتُ الشيء وأَخْفَيته أى أظهرتُه؛ وأخفيت الشيء أى ٱستخرجته؛ ومنه قيل للنَّبَّاش المختفى . وقال ٱمرؤ القيس :

خَفَاهُنّ مِن أَنْفَاقِهِنّ كَأَنَّمَا (١) * خَفَاهُنّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

والسّارب المتوارى، أى الداخل سَرَبا؛ ومنه قولهم : ٱنْسَرَب الوحشيُّ إذا دخل فى كِنَاسه . وقال ابن عباس : « مستخفٍ » مستتر، « وسارب » ظاهر . مجاهد : « مستخفٍ » بالمعاصى، « وسارب » ظـاهر . وقيل : معنى « سارب » ذاهب؛ الكسائى : سَرَبَ يَسْرُب سَرَبًا وسُرُوبًا إذا ذهب؛ وقال الشاعر (٢) :

وكُلُّ أُنَاسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ * وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

أى ذاهب . وقال أبو رجاء : السّارب الذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشاعر (٣) :

* أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقال القُتَبِيّ : « سارب بالنهار » أى منصرف فى حوائجه بسرعة؛ من قولهم : ٱنْسَرَب الماء . وقال الأصمعيّ : خَلِّ سَرْبَه أى طريقه .

---

(١) أنفاق (جمع نفق) : وهو سرب فى الأرض إلى موضع آخر ، واستعاره امرؤ القيس لجحرة الفأرة والودق : المطر . وغيث مجلب : مصوت ، ويروى مخلب (بالخاء) . (٢) هو الأخنس بن شهاب التغلبى ويريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على النقلة ، وحبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفا أن يغار عليها ، ونحن أعزاء خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء . (٣) هو قيس بن الخطيم ، وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (١١)

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أى لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وقال : « مُعَقِّبَاتٌ » والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعَقِّبة ؛ يقال : مَلَك مُعَقِّب ، وملائكة مُعَقِّبة ، ثم مُعَقِّبات جمع الجمع . وقرأ بعضهم — « لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وِمِنْ خَلْفِهِ » . ومعاقيب جمع مُعْقِب[(١)] ؛ وقيل للملائكة معقّبة على لفظ الملائكة . وقيل : أنّث لكثرة ذلك منهم ؛ نحو نسّابة وعلّامة وراوية ؛ قاله الجوهرى وغيره . والتّعقب العود بعد البدء ؛ قال الله تعالى : « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع ؛ وفى الحديث[(٢)] : "مُعَقِّبَاتٌ لا يَخِيبُ قائلُهنّ — أو — فاعلُهنّ" فذكر التّسبيح والتّحميد والتّكبير . قال أبو الهيثم : سُمّين « مُعَقِّبات » لأنهن عادت مرّة بعد مرّة ، فِعْل من عَمِل عملًا ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ . والمعقّبات من الإبل اللواتى يقمن عند أعجاز الإبل المعتركات على الحوض ؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى المستخفى بالليل والسارب بالنهار . ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ اختلف فى الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوامّ والأشياء المضرّة ، لطفا منه به ، فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه وبينه ؛ قاله ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو مِجْلَز : جاء رجل من مُراد[(٣)] إلى علىّ فقال : احترس فإن ناسا من مُراد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

---

(١) قال الزمخشرى : جمع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما ، والياء عوض من حذف إحدى القافين فى التكسير . وقال ابن جنى : إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهاء من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الألوسى : ولعله الأظهر . « روح المعانى » .

(٢) الحديث فى الدعاء ، وهو بتمامه فى « صحيح مسلم » : "معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة" . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة .

(٣) مراد (بالضم وآخره دال مهملة) : قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

رجل مَلَكين يحفظانه مالم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَر خَلَّيا بينه وبين قَدَر الله، وإن الأجل حِصن حصينة؛ وعلى هـذا « يحفظونه من أمر الله » أى بأمر الله وبإذنه؛ فـ « مِن » بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : « مِنْ » بمعنى « عن » ؛ أى يحفظونه عن أمر الله ، وهذا قريب من الأوّل؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ تقول : كسوته عن عُرْى ومن عُرْى ؛ ومنـه قوله عز وجل : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحلّ به عقوبة؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر؛ فإذا أَصرّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة ، وتزول عنهم الحَفَظة المعقِّبات . وقيل : يحفظونه من الجنّ؛ قال كعب : لولا أن الله وَكَّل بكم ملائكة يَذُبُّون عنكم فى مَطْعَمكم ومَشْرَبكم وعوراتكم لتخطّفتكم الجنّ وملائكة العـذاب من أمر الله ؛ وخصّهم بأن قال : « من أمرِ الله » لأنهـم غير معايَنين ؛ كما قال : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » أى ليس ممـا تشاهدونه أنتم . وقال الفرّاء فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره : له معقِّبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفـه يحفظونه ؛ وهو مروىّ عن مجاهـد وآبن جُرَيج والنَّخَعىّ ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجنّ من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير . وقال آبن جُرَيج : إن المعنى يحفظون عليه عمله، فحذف المضاف . وقال قَتَادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء فى « له » لله عزّ وجل ، كما ذكرنا؛ ويجوز أن تكون للمستخفى، فهذا قول . وقيل : « له معقّبات من بين يديه ومن خلفه » يعنى به النبي صلى الله عليه وسلم؛ أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه؛ وقد جرى ذكر الرسول فى قوله : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به فى أنه لا يضرّ النبي صلى الله عليه وسلم، بل له معقّبات يحفظونه عليه السلام؛ ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال : « ولكل قوم هاد » أى يحفظون الهـادى من بين يديه ومن خلفه .

وقول رابع — أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعِكْرِمة ؛ وكذلك قال الضّحاك : هو السّلطان المتحرّس من أمر الله المشرك . وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا ، تقديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماوردي . قال المهدوي : ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل : سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي ، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظ ؛ قال القُشَيري : وهذا لا يمنع الربّ من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب ؛ وهو إذا غيّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة ؛ فكأنه الذي يحلّ العقوبة بنفسه ؛ فقوله : «يحفظونه من أمر الله» أي من امتثال أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقّبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عباده ؛ قال الماوردي : ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهما — يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثاني — يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية ، ما لم يأت قَدَر ؛ — قاله أبو أُمامة وكعب الأحبار — فإذا جاء المقدور خلّوا عنه ؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة ، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جُرَيج ؛ وروي عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، واحتجّ بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " الحديث ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ — «معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه [من أمر الله] (١) يحفظونه» فهذا قد بيّن المعنى . وقال كِنانة العَدَوي : دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أخبرني عن العبد كم معه من مَلَك ؟ قال : " مَلَك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عَمِلت حسنة كُتبت عشرا وإذا عَمِلت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أأكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم اكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الزيادة من تفسير الطبري .

فبئس القـــرين هو ما أقلّ مراقبتـه لله عز وجل وأقل آستحياءه منا يقـول الله تعـالى « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعتَ لله رفعـك و إذا تجبَّرتَ على الله قَصَمكَ][1] وملكان على شَفَتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك فهـؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتـداولون ملائكة الليل على ملائكة النهـار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى و إبليس مع آبن آدم بالنهار وولده بالليل ". ذكره الثعلبيّ . قال الحسن : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صـلاة الفجر . وآختار الطَّـبرىّ أن المعقّبات المواكب بين أيدى الأمراء وخَلْفهم؛ والهاء فى « له » لمَنْ؛ على ما تقدّم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين : أحدهما — قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعـه أحد ولا يغيره . والآخر — قضى مجيئـه ولم يقض حلوله ووقوعه؛ بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفـــظ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير؛ إما منهـم أو من الناظر لهم؛ أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم؛ إلى غير هـذا من أمثلة الشّريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب؛ بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال صلى الله عليه وسـلم — وقد سُئل أَنَهلِك وفينا الصّالحون ؟ قال — : " نعم إذا كَثُر الخُبْثُ[2] " . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ أى هلاكا وعذابا ﴿ فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ . وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى

(١) الزيادة من تفسير الطبرى وغيره . (٢) المراد بالخبث الفسق والفجور .

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفّه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ أى ملجأ ؛ وهو معنى قول السُّدّىّ . وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

* ما فى السماء سوى الرحمنِ من والِ *

ووَالٍ ووَلِىّ كقادر وقدير .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى بالمطر . «والسَّحاب» جمع ، والواحدة سَحَابة ، وسُحُب وسَحَائب فى الجمع أيضا . ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ قد مضى فى « البقرة »(١) القول فى الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أى يريكم البرق فى السماء خوفا للمسافر ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق ؛ قال الله تعالى : « أَذًى مِنْ مَطَرٍ » وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخِصْب ؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطمعا فى غيثه المزيل للقحط . ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ قال مجاهد : أى بالماء . « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرعد صوت السّحاب فيجوز أن يُسبّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد ملَكا لدخل فى جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله ؛ قاله الطّبرىّ وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خائفــون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال : الرّعد مَلك يَسوق السّحاب، و إن بخار المـاء لفى نُقْرة إبهامه، وأنه مُوكّل بالسّحاب يصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبّح الله؛ فإذا سبّح الرّعد لم يبق مَلَك فى السّماء إلا رفع صوته بالتّسبيح، فعندها ينزل القَطْر؛ وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الرّعد قال : سبحان الذى سَبَّحتَ له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرّعد قال : سبحان الذى يُسبِّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول : إن هــذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه مَلك جالس على كرسىّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سَبّح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسَــبّح سَــبَّح الجميع من خوف الله . ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر المـاوردىّ عن ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب ومجاهد : نزلت فى يهودىّ قال للنبىّ صلى الله عليه وســلم : أخبرنى ! من أىّ شىء ربّك، أمِن لؤلؤ أم من ياقوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقته . وقيل : نزلت فى بعض كفّار العرب؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبى صلى الله عليه وسلم نَفَرا يدعونه إلى الله و رسوله والإسلام فقال لهم : أخبرونى عن ربّ محمد ما هو، ومِمّ هو، أمِن فضة أم من حديد أم نُحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال : أُجيبُ محمــدا إلى ربّ لا يعرفه ! فبعث النبى صلى الله عليــه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هــذا ؛ فبينــا النَّفَر ينازعونه و يدعونه إذ آرتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صــلى الله عليــه وسلم ؟ فقالوا : آحترق صاحبــكم، فقالوا : من أين علمتم؟ قالوا : أوحى الله إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » ذكره الثعلبى عن الحسن، والقُشيرىّ بمعناه عن أنس، وســيأتى . وقيل : نزلت الآية فى أربد بن ربيعة أخى لَبِيد بن ربيعة، وفى عامر بن الطُّفَيْل؛ قال ابن عباس : أقبــل عامر بن الطُّفَيْل وأرْبَد بن ربيعة

العامريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجمل الناس ؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك ؛ فقال : "دَعْه فإن يُرِد الله به خيرا يَهْدِه" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا محمد مالى إن أسلمت ؟ فقال : "لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين" . قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال : "ليس ذاك إلىّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء" . قال : أفتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر ؟ قال : "لا" . قال : فما تجعل لى ؟ قال : "أجعل لك أَعِنّة الخيل تغزو عليها في سبيل الله" . قال : أو ليس لى أعنّة الخيل اليوم ؟ قم معى أكلمك ؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أومأ إلى أَرْبَد : إذا رأيتنى أكلمه فدُرْ من خلفه واضربه بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ويراجعه ؛ فاخترط أَرْبَد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سَلّه ، ويبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاحٍ فأحرقته ، وولّى عامر هاربا وقال : يا محمد ! دعوت ربك على أربد حتى قتله ، والله لأملأنها عليك خيلا جُرْدا ، وفتيانا مُرْدا ؛ فقال عليه السلام : "يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة" يعني الأَوْس والخَزْرَج ؛ فنزل عامر بيت امرأة سَلُولية ؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أَصْحَرَ[1] لى محمدٌ وصاحبه — يريد مَلَك الموت — لأنفذتهما برمحى ؛ فأرسل الله مَلَكا فلطمه بجناحه فأذراه[2] في التراب ، وخرجت على ركبته غُدّة عظيمة في الوقت ؛ فعاد إلى بيت السّلولية وهو يقول : غُدّة كغدة البعير ، وموت في بيت سَلُولية ؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره . ورَثَى لَبِيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال :

يا عينُ هلّا بَكَيتِ أَرْبَدَ إذْ قُمْـ * ـنَا وقَامَ الخُصُــومُ في كَبَـدِ[3]
أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولَا * أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسَـدِ
فَجَّعَنِي الرَّعْدُ والصَّــوَاعِقُ بالفا * رِسِ يَـوْمَ الكَرِيهَـةِ النَّجِدِ[4]

(١) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء .
(٢) أذراه : قلعه ورمى به .
(٣) كبد : شــدة وعناء .
(٤) النجد : السريع الإجابة .

وفيـــه قال :

إنّ الرَّزِيَّةَ لَا رَزِيَّةَ مِثْلُهَـا * فِقْدَانُ كُلِّ أَخٍ كَضوءِ الْكَوْكَبِ

يا أَرْبَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُهُ * أفردتَنِي أَمْشِي بِقَـرْنٍ أَعْضَبِ (١)

وأسلم لبيد بعد ذلك رضى الله عنه .

مسئلة — روى أبان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تأخذ الصاعقة ذاكرًا لله عزّ وجلّ" . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرّعد يقول : "سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته" . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن عليّ عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنا مع عمر فى سفر فأصابنا رعد وبَرْد، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثا عوفى مما يكون فى ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بَرَدَة (٢) قد أصابت أنفه فأثّرت به، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بَرَدَة أصابت أنفى فأثّرت، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى مما يكون فى ذلك الرعد؛ فقلنا فعوفينا؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة» (٣) .

قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعنى جدال اليهوديّ حين سأل عن الله تعالى : من أيّ شيء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جُرَيج : جدال أَرْبَد فيما همّ به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون «وهم يجادلون فى الله» حالا ، ويجوز أن يكون منقطعا . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل، فقال لرسول الله : أخبرنى عن إلهك هـذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحـاس ؟

---

(١) قرن أعضب : مكسور . (٢) البرد (بالتحريك) : حب الغمام .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلمه، فقال: "ارجع إليه فادعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يجادلون في الله» . ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: «المِحال» المكر، والمكر من الله عزّ وجلّ التدبير بالحق. النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد «وهو شديد المحال» أي النقمة. وقال الأزهري: «المحال» أي القوة والشدّة. والمَحْلُ: الشدّة، الميم أصلية، وماحَلْتُ فلانا مِحَالًا أي قاويته حتى يتبيّن أينا أشدّ. وقال أبو عبيد: «المحال» العقوبة والمكروه. وقال ابن عَرَفة: «المِحال» الجدال، يقال: ماحَلَ عن أمره أي جادل. وقال القُتَيبي: أي شديد الكيد، وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان، وأصله من الكون، ثم يقال: تمكّنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة، بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوّله ميم مكسورة فهي أصلية، مثل: مِهاد وملاك ومراس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل: مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر، وغيرها من الحروف، وقال(١): وقرأ الأعرج — «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ» بفتح الميم، وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول، ذكر هذا كله أبو عبيد الهَرَوي، إلا ما ذكرناه أولا عن ابن الأعرابي، وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها — شديد العداوة، قاله ابن عباس. وثانيها — شديد الحَوْل، قاله ابن عباس أيضا. وثالثها — شديد الأخذ، قاله علي بن أبي طالب. ورابعها — شديد الحقد، قاله ابن عباس. وخامسها — شديد القوة، قاله مجاهد. وسادسها — شديد الغضب، قاله وهب بن مُنَبِّه. وسابعها — شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط، قاله الحسن أيضا. وثامنها — شديد الحيلة، قاله قَتَادة. وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المِحال والمماحلة المماكرة والمغالبة، وأنشد للأعشى:

فرع نَبْعٍ يهتزّ في غُصُنِ المَجْـ * ـدِ كثير النّدى شديد المحال

(١) أي الأزهري كما في اللسان مادة «محل» .

وقال آخـــر[١] :

ولَبَّس بيْنَ أقوامٍ فـكُلٌّ * أعَدَّ له الشَّـغَازِبَ والمِحَالَا

وقال عبد المطلب :

لاهُـــمَّ إنّ الْمَـــرْءَ يَمْـ * ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَـــعْ حِلَالَكْ[٢]

لَا يَغْلِبَنّ صَلِيبُهُـــم ومِحَا * لُهُـــمْ عَـــدْوًا مِحَـــالَك

قوله تعـالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ أى لله دعوة الصدق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص فى الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ »؛ قال الْمَاوَرْدِىّ : وهو أشبه بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام والأوثان . ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾ أى لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بينى وبينها * من الودّ مثلَ القابِضِ الماءَ باليدِ

---

(١) هو ذو الرمة، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبى بردة بن أبى موسى . واللبس : الاختلاط . والشغازب قال الأصمعى : الشغزبية ضرب من الحيلة فى الصراع، وهو أن يُدخل الرِّجل بين رجلى صاحبه فيصرعه؛ والمعنى : فكل رجل من القوم أعد له حجة وكيدا . (٢) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون؛ يريد بهم سكان الحرم .

وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها — أن الذى يدعو إلهـا من دون الله كالظمآن الذى يدعو المـاء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا ؛ لأن المـاء لا يستجيب ، وما المـاء ببالغ إليه ؛ قاله مجاهد . الثانى — أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى المـاء وقد بسط كفّه فيـه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ؛ قاله ابن عباس . الثالث — أنه كباسط كفّيه إلى المـاء ليقبض عليه فلا يجد فى كفه شيء منه . وزعم الفراء أن المراد بالمـاء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن للمـاء ، وأن المثـل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن المـاءَ ماءُ أَبِي وجَـدّى　*　وبِئرى ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا المـاء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كباسط » إلا كاستجابة باسط كفيه « إلى المـاء » فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد فى المعنى وهو المـاء ؛ والمعنى : إلا كإجابة باسط كفيه إلى المـاء ؛ واللام فى قوله : «ليبلغ فاه» متعلقة بالبسط ؛ وقوله : « وما هو ببالغه » كناية عن المـاء ؛ أى وما المـاء ببالغ فاه . ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم ؛ أى ما الفم ببالغ المـاء . ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال ؛ لأنها شرك . وقيل : إلا فى ضلال أى يضلّ عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منـه سبيلا ؛ كما قال : « أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » . وقال ابن عباس : أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كرها بالسيف . وعن قتادة أيضا يسجد الكافر كارها حين لا ينفعه الإيمان . وقال الزجاج : سجود الكافر كرها مافيه من الخضوع وأثر الصنعة .

وقال ابن زيد : «طوعا» من دخل فى الإسلام رغبة، و «كَرها» من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل : «طوعا» من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و «كَرها» من يكره نفسه لله تعالى؛ فالآية فى المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «والأرض» وبعض من فى الأرض. قال القُشَيْرىّ : وفى الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعا، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء؛ ذكره الفرّاء. وقيل على هذا القول : الآية فى المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقّة، ولكنهم يتحملون المشقّة إخلاصا وإيمانا، إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه. والمسلك الثانى — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به. والثانى — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله : «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. ﴿وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أى ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدوّ والآصال؛ لأنها تبين فى هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» قاله ابن عباس وغيره؛ وقال مجاهد : ظِلّ المؤمن يسجد طوعا وهو طائع، وظلّ الكافر يسجد كَرها وهو كاره. وقال ابن الأنبارىّ : يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشَيْرى : فى هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال : سجدت النخلة أى مالت. و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلىّ :

لَعَمْرِى لَأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ ⁂ وأَقعــدُ فى أَفْيائه بالأَصَائل

و « ظِلَالُهُمْ » يجوز أن يكون معطوفا على « مَنْ » ويجوز أن يكون آرتفع بالآبتـداء والخبر محذوف؛ التقدير : وظلالهم سُجـدٌ بالغدو والاصال . « والغدو » يجوز أن يكون مصـدرا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوّى كونه جمعا مقابلة الجمع الذى هو الآصال به .

قوله تعـالى : قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للشركين : « قل من رب السموات والأرض » ثم أمره أن يقول : هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَن هو . ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا يدل على آعترافهم بأن الله هو الخالق [و إلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : «قل أفاتخذتم من دونه أولياء» معنى؛ دليله قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى فإذا آعترفتم فلم تعبدون غيره؟ ! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثـلا فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق ، والمشرك الذى لا يبصر الحق . وقيل : الأعمى مَثَلٌ لما عبدوه من دون الله ، والبصير مَثَل الله تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ أى الشرك والإيمـان . وقرأ آبن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائى «يستوى» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقى . الباقون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل . و « الظلمات والنور » مثـل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك . ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا من تمام الآحتجاج ؛ أى خَلَق غير الله مثل

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى قل لهم يا محمـد : الله خالق كل شيء ، فلزم لذلك أن يعبـده كل شيء . والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ قبل كل شيء . ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الغالب لكل شيء ، الذى يغلب فى مراده كل مريد . قال القُشَيرى أبو نصر : ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع ؛ أى سَلْهم عن خالق السموات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عَجْز الجماد وعَجْز كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم؛ وإذا تقرّر هذا وبَانَ أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتقاد الشريك له ؟ ! وبيّن فى أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لا شتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟ ! .

قوله تعـالى : أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ ضرب مثـلا للحق والباطل ؛ فشبّه الكفر بالزبد الذى يعـلو المـاء ، فإنه يضمحلّ ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ ، على ما نبيّنه . قال مجاهد :

« فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : بقدر ملئها . وقال ابن جُرَيج : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأَشْهَب العُقَيْلي والحسن « بِقَدْرِها » بسكون الدال، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدّر لهـا . والأودية جمـع الوادى ؛ وسمّى واديا لخروجه وسيلانه ؛ فالوادى على هـذا آسم للمـاء السائل . وقال أبو على : « أودية » توسع ؛ أى سال ماؤها فحذف، قال : ومعنى « بقدرها » بقدر مياهها ؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . « فَٱحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالعا عاليا مرتفعا فوق المـاء، وتمّ الكلام؛ قاله مجاهد . ثم قال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ وهو المثل الثانى . ﴿ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أى حليـة الذهب والفضة . ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبد مثـله » أى يعلو هـذه الأشياء زبد كما يعلو السيل؛ و إنما احتمل السيل الزبد لأن المـاء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا، كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبثّ فى الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ قال مجاهد : جمودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَأَتِ القِـدْرُ إذا غَلَت حتى ينصبّ زَبَدها، و إذا جَمَد فى أسفلها . والجُفَاء ماأجفأه الوادى أى رمَى به . وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ «جُفَالًا» قال أبو عبيدة : يقال أَجْفَلَتِ القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته . ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجـاهد : هو المـاء الخالص الصّافى . وقيـل : المـاء وما خلص من الذهب والفضـة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحقّ فى ثباته، والباطل فى اضمحلاله ؛ فالبـاطل و إن علا فى بعض الأحـوال فإنه يضمحلّ كاضمحلال الزّبد والخبَث . وقيـل : المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فَشبَّه القرآن بالمطر لعموم خيره و بقـاء نفعه ، وشبَّه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » قال قـرآنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَـدَرِهَا » قال : الأودية قـلوب العباد . قال صـاحب

«سوق العروس» (١) : إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثّل القرآن بالماء، ومثّل القلوب بالأودية، ومثل المُحْكَم بالصّافى، ومثل المتشابِه بالزّبد . وقيل : الزّبد مخايل النفس وغوائل الشكّ ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تِلَعها، كما أن ماء السيل يجرى صافيا فيرفع مايجد فى الوادى باقيا؛ وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السَّنية، والأخلاق الزكية، التى بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وحفص «يوقدون» بالياء؛ واختاره أبو عبيد لقوله : « ينفع الناس » فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا . الباقون بالتاء لقوله فى أول الكلام : «أَفَٱتَّخذتم من دونه أولياء» الآية . وقوله : « فى النار » متعلق بمحذوف، وهو فى موضع الحال، وذو الحال الهاء التى فى « عليه » التقدير : ومما توقدون عليه ثابتا فى النار أو كائنا . وفى قوله : «فى النار» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التى هى ٱسم ذى الحال . ولا يستقيم أن يتعلق « فى النار » بـ«يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليه فى النار؛ لأن الموقَد عليه يكون فى النار، فيصير قوله « فى النار » غير مفيد . وقوله : « ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » مفعول له . « زَبَدٌ مِثْلُهُ » ابتداء وخبر؛ أى زبد مثل زبد السّيل . وقيل : إن خبر «زبد» قوله : « فى النار » . الكسائى : « زبد » ابتداء، و « مثله » نعت له، والخبر فى الجملة التى قبله، وهو «مما يوقدون» . ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أى كما بيّن لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بيّنات . تمّ الكلام ، ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أى أجابوا؛ استجاب بمعنى أجاب؛ قال (٢) :

* فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاكَ مُجِيب *

وقد تقدّم؛ أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوّات . ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ لأنها فى نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر فى الدنيا، والنعيم المقيم غدا . ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾

(١) هو : أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى، نزيل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨ وكتابه : «سوق العروس» فى علم القراءات . (كشف الظنون) .

(٢) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار، وصدر البيت : * وداع دعا يا من يجيب إلى الندى *

أى لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى من الأموال. ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملك لهم ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره فى « آل عمران » « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » ، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » حسب ما تقدّم بيانه هناك (١). ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرْقَد السَّبَخِيّ (٢): قال إبراهيم النَّخَعيّ: يا فَرْقَد! أتدرى ما سوء الحساب؟ قلت: لا! قال: أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لا يفقد منه شيء. ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أى مسكنهم ومقامهم. ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للؤمن والكافر، ورُوى أنها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وأبى جهل لعنه الله. والمراد بالعَمَى عَمَى القلب، والجاهل بالدين عَمِيّ القلب. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.

قوله تعالى: ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ (٢٠)

فيه مسئلتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ هذا من صفة ذوى الألباب؛ أى إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد اسم للجنس؛ أى بجميع عهود الله، وهى أوامره ونواهيه التى وصّى بها عبيده؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصى. وقوله: ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أى إذا عقدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه. قال قَتادة: تقدّم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذى أخذه

(١) راجع ج ٤ ص ٢١ وما بعدها، ص ١٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) السبخى (بفتحتين) إلى السبخة موضع بالبصرة.

الله على عباده حين أخرجهم من صُلْب أبيهم آدم . وقال القَفّال : هو ما ركّب فى عقــولهم من دلائل التوحيد والنبوّات .

الثانيـــة — روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمـانية أو تسعة فقال: "ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم" وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا : قد بايعناك [حتى قالها ثلاثا ؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه ، فقال قائل : يا رسول الله! إنا قد بايعناك](١) فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : "أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتُصلّوا الصلوات الخمس وتَسمعوا وتُطيعوا — وأَسَرّ كلمةً خفيّــة — قال لا تسألوا الناس شيئا" قال : ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَــوْطه فما يسأل أحدا أن يناوله إيّاه . قال ابن العربىّ : من أعظم المواثيق فى الذّكر ألا يُسأل سواه ؛ فقــد كان أبو حمزة الخراسانى من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليــه وسلم ألا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : ربِّ ! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا ؛ قال : فخرج حاجًّا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشى فى الطريق من الليل إذ بقى عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشى إليهم إذ سقط فى بئر على حاشية الطريق ؛ فلمــا حَلَّ فى قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعنى . ثم قال : إن الذى عاهــدته يرانى ويسمعنى ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مرّ بذلك البئر نفر ، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغى سدّ هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدتَ من يراك ؟ فسَكَتَ وتَوكّل ، ثم استند فى قعر البئر مفكرا فى أمره فإذا بالتراب يقع عليه ، والخشب يرفع عنه ، وسمع فى أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطيته يدى فأقلّنى فى مرة واحدة إلى فم البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ، فسمعت هاتفا يقول : كيف رأيت ثمرة التوكل ؛ وأنشد :

---

(١) الزيادة من كتب الحديث .

نَهانِي حَيائِي منكَ أن أكشفَ الهَوَى * فأغنيتَنِي بالعِـلْمِ منكَ عنِ الْكَشْـفِ
تَلَطفْتَ فى أمرِى فأبديت شاهـِدِى * إلى غائبِى واللّطفُ يُـدرَكُ باللُّطْفِ
تَراءيتَ لى بالعـلم حـتّى كأنمـا * تُخَـبِّرُنِى بالغيبِ أنَّـكَ فى كَفِّ
أَرَانِى وبى من هَيْبَتِى لَكَ وَحْشَـةٌ * فتؤنِسُـنِي باللُّطفِ منـكَ وبالعطفِ
وتُحْيِي مُحِبًّـا أنتَ فى الحبِّ حَتْفُـهُ * وذا عَجَبٌ كيف الحياةُ مَعَ الْحَتْفِ

قال ٱبن العربى : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزىّ : سكوت هذا الرجل فى هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحل؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافى استغاثته فى تلك الحالة؛ كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، وٱستئجاره دليلا، واستكتامه ذلك الأمر، وٱستتاره فى الغار، وقوله لسُراقة : "ٱخْفِ عنّا". فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور؛ وسكوت هذا الواقع فى البئر محظور عليه؛ وبيان ذلك أن الله تعـالى قد خلق للآدمى آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطّلها مدّعيا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل، وردّا لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنمـا هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثورىّ وغيره ، لأنه قد دُلّ على طريق السـلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبى حمزة : «فجاء أسـد فأخرجنى» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله ٱتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل؛ ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذى هو كَسْبه، وهو إعانته على نفسه التى هى وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها .

قوله تعـالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظاهر فى صلة الأرحام؛ وهو قول قَتَادة وأكثر المفسرين؛ وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: فى قطع الرحم . وقيل : فى جميع المعاصى . ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ «سوء الحساب» الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نُوقِش الحساب عُذِّب . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: معنى «يصلون ما أمر الله به» الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم. ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح؛ «ويخشون ربهم» فيما أمرهم بوصله؛ «ويخافون سوء الحساب» فى تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا؛ وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل : «الذين» مستأنف؛ لأن «صبروا» ماضٍ فلا ينعطف على «يوفون» . وقيل : هو من وصف من تقدّم؛ ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضى؛ وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الذين» يتضمن الشرط [و] الماضى فى الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال : «الذين يوفون» ثم قال : «والذين صبروا» ثم عطف عليه فقال : «ويدرءون بالحسنة السيئة». قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله ؛ وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب؛ والحوادث والنوائب. وقال أبو عِمْران الجَوْنى : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدّوها بفروضها وخشوعها فى مواقيتها . ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعنى الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس؛ وقد مضى القول فى هذا فى «البقرة»(١) وغيرها. ﴿وَيَدْرَءُونَ

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أى يدفعون بالعمل الصالح السَّيء من الأعمال؛ قاله ابن عباس. ابن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضحاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَبيّ: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسفه السيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: "وأَتْبِـعِ السيّئةَ الحسَنَةَ تَمْحُها وخَالِقِ الناسَ بخُلُق حَسَن".

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للطيع، والنار للعاصى؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا؛ أى لهم جزاء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أى لهم جنات عدن؛ فـ«جنات عدن» بدل من «عقبى». ويجوز أن تكون تفسيرا لـ«عقبى الدار» أى لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عقبى الدار» حَدَث، و«جنات عدن» عين، والحدَث إنما يفسر بحدَث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جنات عدن» خبر ابتداء محذوف. و «جنات عدن» وسط الجنة وقَصَبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيرى أبو نصر عبد الرحيم. وفى صحيح البخارى: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفجّر أنهار الجنة". فيحتمل أن يكون «جنات» كذلك، إن صح فكذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن، حوله البُرُوج والمُرُوج، فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[1] لا يدخله إلا نبىّ أو صدّيق أو شهيد. و «عدن» مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتى بيانه فى سورة «الكهف»[2] إن شاء الله. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يجوز أن

---

(١) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها): ضرب من البرود اليمنية منمر.　　(٢) آية ٣١.

يكون معطوفا على « أولئك » المعنى : أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع فى « يدخلونها » وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم ، أى من كان صالحا ؛ لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال آبن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ؛ ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعيّة . قال القُشَيرى : وفى هـذا نظر ؛ لأنه لا بد من الإيمان ، فالقول فى آشتراط العمل الصالح كالقول فى اشتراط الإيمان ؛ فالأظهر أن هـذا الصلاح فى جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غدًا تتمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم فى الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم ؛ فأضمر القول ، أى قد سلمتم من الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ؛ أى سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ فـ« ما » مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء فى « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعلق بمحذوف ؛ أى هذه الكرامة بصبركم ، أى على أمر الله تعالى ونهيه ؛ قاله سعيد بن جُبَير . وقيل : على الفقر فى الدنيا ؛ قاله أبو عِمْران الجَوْنى . وقيل : على الجهاد فى سبيل الله ؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : "السلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبى الدار" وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقي عن أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء ، فإذا أتى فرضة الشعب[1] يقول : "السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله ؛ وقال الحسن البصري رحمه الله : « بما صبرتم » عن فضول الدنيا . وقيل : « بما صبرتم » على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ؛ قال معناه الفضيل بن عياض . ابن زيد : « بما صبرتم » عما تحبونه إذا فقدتموه . ويحتمل سابعا — « بما صبرتم » عن اتباع الشهوات . وعن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين رضي الله عنهم [أنهما قالا][2] : إذا كان يوم القيامة ينادي مناد ليقم أهل الصبر ؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصي الله ، وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا . قال علي بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وقال ابن سلام : فتقول لهم الملائكة : «سلام عليكم بما صبرتم» . ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها ؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ؛ فالعقبى على هذا اسم ، و «الدار» هي الدنيا . وقال أبو عمران الجوني : «فنعم عقبى الدار» الجنة عن النار . وعنه : « فنعم عقبى الدار » الجنة عن الدنيا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾

(١) فرضة الشعب : فوهته . والشعب : ما انفرج بين جبلين . والشهداء كانوا بجبل أحد .
(٢) في الأصل : « أنه قال » .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ لما ذكر الموفين بعهده، والمواصلين لأمره، وذكر مالهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال عقولهم، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ أي من الأرحام، والإيمان بجميع الأنبياء . ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بالكفر وارتكاب المعاصي . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أي الطّرد والإبعاد من الرحمة . ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أي سوء المنقلَب، وهو جهنم . وقال سعد بن أبي وقّاص : والله الذي لا إله إلا هو ! إنهم الحَرُورِيّة .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا، لأنها دار امتحان؛ فبَسْط الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته، والتّقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم . « ويقدر » أي يضيق؛ ومنه « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أي ضيّق . وقيل : « يقدر » يعطي بقدر الكفاية . ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني مشركي مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله؛ وهو معطوف على « ويفسدون في الأرض » . وفي الآية تقديم وتأخير؛ التقدير : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي في جنبها ﴿ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أي متاع من الأمتعة؛ كالقَصْعة والسُّكُرُّجَة(1) . وقال مجاهد : شيء قليل ذاهب؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع، فلا بدّ له من زوال . ابن عباس : زادٌ كزاد الراعي . وقيل : متاع الحياة الدنيا ما يُستمتع بها منها . وقيل : ما يتزوّد منها إلى الآخرة، من التقوى والعمل الصالح؛ « ولهم سوء الدار » ثم ابتدأ « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » أي يوسّع ويضيّق .

قوله تعالى : وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(1) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بيّن فى مواضع أن ٱقتراح الآيات على الرسـل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصـدق ؛ والقائل عبد الله بن أبى أمية وأصحابه حين طالبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالآيات . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ ﴾ عزّ وجلّ ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى كما أضلّكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بهـا يضلّكم عند نزول غيرها . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أى من رجع . والهـاء فى « إليـه » للحق ، أو للإسلام ، أو لله عزّ وجلّ ؛ على تقـدير : ويهدى إلى دينه وطاعته من رجـع إليه بقلبه . وقيل : هى للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » فى موضع نصب ، لأنه مفعول ؛ أى يهدى الله الذين آمنوا . وقيـل بدل من قوله : « من أناب » فهو فى محل نصب أيضا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن ؛ قال : أى وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم ؛ قاله قَتَادة . وقال مجاهد وقَتَادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان ابن عُيَيْنة : بأمره . مقاتل : بوعده . ٱبن عباس : بالحلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه ؛ كما تَوْجل بذكر عدله وٱنتقامه وقضائه . وقيل : « بذكر الله » أى يذكرون الله ويتأمّلون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ أى قلوب المؤمنين . قال ٱبن عباس : هذا فى الحلف ؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « بذكر الله » أى بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعد الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ ٱبتداء وخبر . وقيل : معناه لهم طُوبَى ؛ فـ « طُوبَى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

لهم طُوبى ، ويعطف عليه « وحسن مآب » على الوجهين المذكورين ، فترفع أو تنصب .
وذكر عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر عن يحيي بن أبي كَثير عن عَمْرو بن أبي يزيد البِكَالىّ عن عُتْبة ابن عَبْد السُّلَمىّ قال : جاء أعرابى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال : فيها فاكهة؟ قال : " نعم شجرة تدعى طوبى " . قال : يارسول الله! أىّ شجر أرضنا تشبه ؟ قال : " لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هناك شجرة تدعى الجـوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها " . قال : يارسول الله! فما عِظَم أصلها! قال : " لو ٱرتحلت جَذَعة من إبل أهلك ما أحطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَما " . وذكر الحـديث ، وقد كتبناه بكماله فى أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»، والحمد لله . وذكر ٱبن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث بن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هُرَيرة قال : فى الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعـالى لها : تفتّق لعبدى عمـا شاء؛ فتَفَتّق له عن فرس بسرجه وبلجامه وهيئته كما شاء، وتَفَتّق عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النّجائب والثّياب .
وذكر ٱبن وهب من حديث شَهْر بن حَوْشَب عن أبي أُمامة الباهلىّ قال : « طُوبَى » شجرة فى الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هى منها؛ وقد قيل : إن أصلها فى قصر النبي صلى الله عليه وسلم فى الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل أهـل الجنة، كما ٱنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا . وقال ٱبن عباس : « طوبى لهم » فرح لهم وقرّة عين؛ وعنه أيضا أن « طوبى » ٱسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جُبَير . الربيع بن أنس : هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيرىّ : إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين . وقال قَتَـادة : « طوبى لهم » حسنى لهم . عِكْرِمة : نعمى لهم . إبراهيم النَّخَعىّ : خير لهم؛ وعنه أيضا كرامة من الله لهم . الضحاك : غبطة لهم . النحاس : وهـذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب؛ أى العيش الطّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطّيب .
وقال الزّجاج : طُوبَى فُعْلى من الطِّيب، وهى الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا : موسر وموقن .

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذى ذكرناه، وهـو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلى؛ ذكره أبو عمر فى التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضا الثعلبى فى تفسيره؛ وذكر أيضا المهدوىّ والقشيرىّ عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " طوبى شجرة فى الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحلىّ والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة " . ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبىّ . وقال ابن عباس : « طوبى » شجرة فى الجنة أصلها فى دار علىّ، وفى دار كل مؤمن منها غُصْن . وقال أبو جعفر محمد بن علىّ : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : «طوبى لهم وحسن مآب» قال : " شجرة أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : " شجـرة أصلها فى دار علىّ وفروعها فى الجنة " فقيل له : يارسول الله ! سُئِلتَ عنها فقلت : " أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سُئِلتَ عنها فقلت : " أصلها فى دار علىّ وفروعها فى الجنة " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن دارى ودار علىّ غدا فى الجنة واحدة فى مكان واحد " . وعنه صلى الله عليه وسـلم : " هى شجرة أصلها فى دارى وما من دار من دوركم إلا مُدَلًّى فيها غُصن منها " . ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعـالى : كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)

قوله تعـالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شَبَّه الإنعام على من أُرسل إليه محمد عليـه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبـله . ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ قال مقاتل وابن جُرَيج : نزلت فى صُلْح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصُّلح ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "آكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرّحمن إلا صاحب اليمامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ آكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ : "آكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ؛ ولكن آكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاتلهم ؛ فقال : "لا ولكن آكتب ما يريدون" فنزلت . وقال آبن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : "آسجدوا للرحمن" قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : الذي أنكرتم ﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ولا معبود سواه ؛ هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وآعتمدت ووثقت . ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي مرجعي غدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رِضًا بقضائه ، وتسليما لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحِجْر ويقول : "يا الله يارحمن" فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل « قُلِ آدْعُوا آللَّهَ أَوِ آدْعُوا الرَّحْمَٰنَ » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ هذا متصل بقوله : « لولا أنزل عليه آية من ربه » وذلك أن نفرا من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية

المخزوميّان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسـلوا إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فأتاهم ؛ فقـال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك فسيّر لنـا جبال مكة بالقـرآن ، فأذهبها عنـا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيّقة، واجعل لنـا فيها عيونا وأنهارا، حتى نغرس ونزرع ؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسـير معه . وسخّر لنـا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليهـا ميرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنـا ؛ فقـد كان سليمان سخّـرت له الريح كما زعمتَ ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأَحْيِ لنا قَصَبّ[1] جدّك ، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطـل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعـالى : « ولو أن قرآنا سُيّرت بِهِ الجبال » الآية؛ قال معناه الزّبير بن العوّام ومجاهد وقتـادة والضّحاك ؛ والجواب محذوف تقـديره : لكان هـذا القرآن، لكن حذف إيجازا ، لمـا في ظاهر الكلام من الدلالة عليه ؛ كما قال آمرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّهَـا نَفْسٌ تموتُ جَمِيعةً * ولكنّها نفسٌ تَساقَطُ أَنْفُسَا

يعني لهان عليّ ؛ هذا معنى قول قَتادة؛ قال : لو فَعَل هـذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفرّاء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الزّجاج : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لمـا آمنوا ؛ والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ » إلى قوله : « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . ﴿ بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أي هو المـالك لجميع الأمور، الفاعل لمـا يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال الفرّاء قال الكلبيّ : «ييئس» بمعنى يعلم، لغة النَّخَع؛ وحكاه القُشَيريّ عن ابن عباس؛ أي أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهري في الصحاح .

(١) القصب : كل عظم مستدير أجوف .

وقيل : هو لغة هَوَازن ؛ أى أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة : أفلم يعلموا و يتبيّنوا ؛ وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمـالك بن عوف النَّصْرىّ (١) :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِي * أَلَمْ تَيْئَسُوا أَنِّى ٱبْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يَيْسرونني من المَيْسر، وقد تقدّم فى « البقرة » (٢) و يروى يأسرونني من الأَسْر . وقال رَبَاح ٱبن عدىّ :

أَلَمْ يَيْئَسِ الأقوامُ أَنّى [أنا] (٣) آبنُـهُ * وإنْ كنتُ عن أرضِ الْعَشِيرةِ نائيا

فى كتاب الردّ « أنى أنا ٱبنه » وكذا ذكره الغَزْنَوىّ : ألم يعلم ؛ والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس المعروف ؛ أى أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهـم لهداهم ؛ لأن المؤمنين تمنّـوا نزول الآيات طمعا فى إيمـان الكفار . وقرأ علىّ وٱبن عبـاس : « أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا » من البيان . قال القُشَيرىّ : وقيل لابن عبـاس المكتوب « أفلم ييئس » قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس ؛ أى زاد بعض الحـروف حتى صار « ييئس » . قال أبو بكر الأنبارىّ : روى عِكرمة عن ٱبن أبى نَجِيح أنه قرأ — « أفلم يتبين الذين آمنوا » و بها ٱحتجّ من زعم أنه الصواب فى التلاوة ؛ وهو باطل عن ٱبن عباس ؛ لأن مجاهدا وسعيد ٱبن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عبـاس ، على ما هو فى المصحف بقراءة أبى عمرو و روايته عن مجاهد وسـعيد بن جُبَير عن ابن عبـاس ؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التى خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتى بتأويلها ، و إن أراد الله المعنى الآخر الذى اليأس فيـه ليس من طريق العـلم فقد سقط ممـا أوردوا ؛

(١) ذكر فى « لسان العرب » أن قائل البيت هو سحيم بن وثيـل اليربوعى ؛ قال : وذكر بعض العلمـاء أنه اولده جابر بن سحيم بدليل قوله فيه : « أنى ابن فارس زهدم » وزهـدم : فرس سحيم . وقوله : ييسروننى من إيسـار الجزور ؛ أى يجتزروننى و يقتسموننى ، وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قسمة فدائه . (٢) راجع جـ ٣ ص ٥٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) لم ترد فى الأصول لفظة « أنا » والواجب إثباتها كما فى كتاب « الرد» إذ أن البيت من الطويل ، و بدونها لا يستقيم .

وأمّا سقوطه يبطل القرآن ، ولزوم أصحابه البهتان . ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ « أَنْ » مخففــة من الثقيلة ، أى أنه لو يشاء الله ﴿ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وهو يردّ على القَدَرية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أى داهيــة تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم ؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجمــع قوارع ؛ والأصــل فى القرع الضرب ؛ قال (١) :

أَفْنَى تِلَادِى وَمَا جَمّعْتُ مِن نَشَبٍ * قَــرْعُ الْقَوَاقِـيزِ أَفْوَاه الأبارِيقِ

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقــة كما أصاب أَرْبد أو من قتــل أو أسر أو جدب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ؛ كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء المشركين . وقال عِكرِمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكْرمة : القارعة الطلائع والسرايا التى كان يُنفِــذها رسول الله صــلى الله عليــه وسلم لهم . ﴿ أَوْ تَحُــلُّ ﴾ أى القارعة ﴿ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قاله قَتَادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة ؛ أى لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ فى فتح مكة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : نزلت بمكة ؛ أى تصيبهم القوارع ، وتخرج عنهم إلى المدينــة يا محمد ، فتحلّ قريبا من دارهم ، أو تحلّ بهم محاصرا لهم ؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولقلاع خَيْبَر ، ويأتى وعد الله بالإذن لك فى قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعــالى : وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟

(١) هو الأقيشر الأسدى ، واسمه المغيرة بن عبــد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما جدده بعمله . والقواقيز (جمع قاقوزة) : وهى أوان يشرب بها الخمر .

عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدّم معنى الاستهزاء فى «البقرة»(١) ومعنى الإملاء فى « آل عمران »(٢) أى سُخِر بهم ، وأُزْرِى عليهم ؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان فى علمى أنه يؤمن منهم ؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى فكيف رأيت ما صنعت بهم ، فكذلك أصنع بمشركى قومك .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هـذا القيام القيام الذى هو ضدّ القعود ، بل هو بمعنى التولّى لأمور الخلق ؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا ؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أى يقدرها على الكسب ، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها ؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل ، والجواب محذوف ؛ والمعنى : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل . وقيل : أفمن هو قائم أى عالم ؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أَعِزّة ﴿ سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ

أى عالم ؛ فالله عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببنى آدم ، عن الضحاك . ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ حال ؛ أى قد جعلوا ، أو عطف على « استهزئ » أى ٱستهزءوا وجعلوا ؛ أى سمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ يعنى أصـناما جعلوها آلهـة . ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أى قل لهم يا محمد : « سمّوهم » أى بيّنوا أسماءهم ، على جهة التهديد ؛ أى إنما يسمّون : اللّات والعزّى ومَنَاة وهُبَل . ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ « أم » استفهام توبيخ ، أى أتنبئونه ؛ وهو على التحقيق عطف على ٱستفهام متقـدّم فى المعنى ؛ لأن قوله : « سمّوهم » معنـاه : أَلَهُمْ أسماء الخالقين «أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه ، أم بظاهر من القول يعلمه؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحالوا ، وإن قالوا :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ؛ فإذا سموهم اللات والعُزى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيــل : « أم تنبئونه » عطف على قوله : « أفمن هو قائم » أى أفمن هو قائم ، أم تنبئون الله بمــا لا يعلم ؛ أى أنتم تدعون لله شريكا ، والله لا يعلم لنفسه شريكا ؛ أفتنبئونه بشريك له فى الأرض وهو لا يعلمه ! و إنمــا خص الأرض بنفى الشريك عنها و إن لم يكن له شريك فى غير الأرض لأنهم آدعوا له شركاء فى الأرض . ومعنى ﴿ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ : الذى أنزل الله على أنبيائه . وقال قَتَادة : معناه بباطل من القول ؛ ومنه قول الشاعر :

أَعَيَّرْتَنَـــا أَلْبَانَهـــا ولُحُـــومَهَا ＊ وذلِكَ عارٌ يا بن رَيْطَةَ ظاهِرُ

أى باطل . وقال الضحاك : بكذب من القول . و يحتمل خامسا — أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم ؛ و يكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محتجين . ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرهم ؛ قيل : آستدراك على هــذا الوجه ، أى ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ آبن عبــاس ومجاهد — « بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ » مسمى الفاعل ؛ وعلى قراءة الجماعة فالذى زَيَّن للكافرين مكرهم الله تعــالى ، وقيل : الشيطان . ويجــوز أن يسمى الكفر مكرا ؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرا . ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى صدّهم الله ؛ وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقون بالفتح ؛ أى صدّوا غيرهم ؛ واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » وقوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وقراءة الضم أيضا حسنة فى « زين » و « صدّوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة ؛ ففيه إثبات القَــدَر ، وهو آختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وَثّاب وعَلْقَمة — « وصِدُّوا » بكسر الصاد ؛ وكذلك « هَــذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء أيضا على مالم يسم فاعله ؛ وأصلها صُــدِدوا ورُدِدَت ، فلمــا أدغمت الدال الأولى فى الثانيــة نقلت حركتهــا على ما قبلهــا فانكسر . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ ﴾ بخذلانه ﴿ فَمَــالَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى موفّق ؛ وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم ؛ لقــوله : « ومن يضلل الله » ، فكذلك قوله : « وَصُدُّوا » . ومعظم القراء

يقفون على الدّال من غير الياء ؛ وكذلك والٍ وواقٍ ؛ لأنك تقول فى الرجل : هذا قاضٍ و والٍ وهادٍ ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين . وقرئ « فماله من هادِى » ، و « والِى » و « واقِى » بالياء ؛ وهو على لغة من يقول ؛ هذا داعى ووالى وواقى بالياء ؛ لأن حذف الياء فى حالة الوصل لالتقائها مع التنوين ، وقراءتنا هذا فى الوقف ؛ فردّت الياء فصار هادى ووالى وواقى . وقال الخليــل فى نداء قاضٍ : يا قاضى بإثبات الياء ؛ إذ لا تنوين مع النــداء ، كما لا تنوين فى نحو الداعى والمتعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى للمشركين الصادّين بالقتل والسّبى والإسار ، وغير ذلك من الأســقام والمصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أى أشــدّ ؛ من قولك : شَــقَّ علىّ كذا يَشُــقّ . ﴿ وَمَا لَهُـمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أى مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع . و « مِن » زائدة .

قوله تعــالى : مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

قوله تعــالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّـةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ آختلف النحاة فى رفع « مَثَل » فقال سيبويه : آرتفع بالابتــداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنــة . وقال الخليل : آرتفع بالابتداء وخبره « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار » أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ؛ كقولك : قولى يقوم زيد ؛ فقولى مبتدأ ، ويقوم زيد خبره ؛ والمَثَل بمعنى الصفة موجود ؛ قال الله تعالى : « ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ » وقال : « وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَى » أى الصفة العليا ، وأنكره أبو علىّ وقال : لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة ؛ إنمــا معناه الشــبه ؛ ألا تراه يجرى مجراه فى مواضــعه ومتصرّفاته ، كقولهم : مررت برجل مثلك ؛ كما تقول : مررت برجل شبهك ؛ قال : ويفســد أيضا من جهة المعنى ؛ لأن مثلا

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التى فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار فى الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مَثَّل الله عزّ وجلّ لنا ماغاب عنا بمـا نراه؛ والمعنى : مَثَلُ الجنّة جَنّـةٌ تجرى من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو علىّ فقال : لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفى كلا الوجهين لا يصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت : صفة الجنّة جنّة، فجعلت الجنة خبرا لم يسـتقم ذلك؛ لأن الجنّة لا تكون الصفة، وكذلك أيضا شبه الجنّة جنّة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التى بين المتماثلين، وهو حَدَث، والجنّـة غير حَدَث؛ فلا يكون الأوّل والثانى . وقال الفرّاء : المَثَل مقحم للتأكيد؛ والمعنى : الجنّة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل؛ كقوله : « ليس كَمِثْلِهِ شيء »؛ أى ليس هو كشيء . وقيل التقدير : صفة الجنّة التى وعد المتقون صفة جنّة « تجرى من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنّة التى وعد المتقون فى الحسن والنعمة والخلود كشبه النار فى العذاب والشـدّة والخلود؛ قاله مقاتل . ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع؛ وفى الخبر : " إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى " وقد بيناه فى «التذكرة» . ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أى وظلها كذلك، فحذف؛ أى ثمرها لا ينقطع، وظلّها لا يزول؛ وهذا ردّ على الجَهْمِيّة فى زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى . ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ أى عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى بعض من أوتى الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلَام وسلمان، والذين جاءوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص . وقال قَتَادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد

وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهـود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلمـاء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في أوّل ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سَلَام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى : « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ » فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمـامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ فنزلت : « وَهُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ » «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ» ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : «وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ » . ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ يعني مشركي مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل: هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف ؛ أي أفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، وأتبرّأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس . ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أي أرجع في أموري كلها .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربيّ ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الاية : وكما أنزلنـا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أي بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه

من الأحكام . وقيل : أراد بالحكم العربيّ القرآن كله ؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم .
﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ﴾ أى أهواء المشركين فى عبادة ما دون الله ، وفى التوجيه إلى غير الكعبة . ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر ينصرك . ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد الأمّة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قيل إن اليهود عابوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النّساء والنكاح، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النّساء ؛ فأنزل الله هذه الآية، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص فى الوحى .

الثانيـــة — هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه، وتنهى عن التَّبَتُّل ، وهو ترك النكاح، وهذه سنّة المرسلين كما نصّت عليه هذه الآية، والسنّة واردة بمعناها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم" الحديث . وقد تقدّم فى «آل عمران»[(١)] . وقال : "من تزوّج فقد ٱستكمل نِصف الدّين فَلْيَتَّقِ الله فى النصف الثانى" . ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى، والعفاف أحد الخَصْلتين اللتين ضَمِن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الجنة فقال : "من وقاه الله شرّ ٱثنتين وَلَجَ الجنّة ما بين لَحْيَيه وما بين رِجليه" خرجه الموطأ وغيره . وفى صحيح البخاريّ عن أنس قال : جاء ثلاثة رَهْط إلى بيوت أزواج النبيّ

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

صلى الله عليه وسـلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسـلم، فلما أخبروا كأنهـم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبيّ صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم : أمّا أنا فإني أصـلّي الليل أبدا ، وقال الآخر : إني أصـوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فـلا أتزوج ؛ فجاء رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأُفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني" . خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا بيّن . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولو أجاز له ذلك لَٱخْتَصَيْنَا، وقد تقـدّم في « آل عمران » الحضّ على طلب الولد والرّد على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول : إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حبّي أن يخرج الله مِنّي من يكاثر به النبيّ صلى الله عليه وسلم النبيّين يوم القيامة؛ وإني سمعته يقـول : "عليكم بالأبكار فإنهنّ أَعْذَب أفواهًا وأحسن أخلاقًا وأَنْتَـق أرحاما وإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" يعني بقوله : "أنتق أرحاما" أَقْبَل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمى بالأولاد رميا . وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَـار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : إني أصبت آمرأة ذات حسب وجمـال ، وأنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال "لا" ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال : "تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم" . صححه أبو محمد عبد الحق وحَسْبك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ عاد الكلام إلى ما آقترحوا من الآيات — ماتقدّم ذكره في هذه السورة — فأنزل ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظْر ومعناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحدٍ ما لا يقدر عليه . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير، المعنى : لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء والضحاك؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل، ووقت معلوم؛ نظيره « لكل نبأ مستقر» ؛

بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم فى نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب . وقيل : المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقـدر لا تقف عليه الملائكة . وذكر الترمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصول » عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبى هُريرة قال : لمـا آرتقى موسى صلوات الله عليه وسلم طور سيناء رأى الجبّارُ فى إصبعه خاتمـا، فقال: ياموسى ماهذا ؟ وهو أعلم به، قال : شىء من حُلِىّ الرجال، قال : فهـل عليه شىء من أسمائى مكتوب أو كلامى ؟ قال : لا، قال : فاكتب عليه « لكل أجل كتاب » .

قوله تعـالى : يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهـله و يأتى به « و يثبت » ما يشاء؛ أى يؤخره إلى وقته؛ يقال : محوت الكتاب محوا، أى أذهبت أثره . « ويثبت » أى و يثبته، كقوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أى والذاكرات الله .

وقرأ آبن كثير وأبو عمـرو وعاصم «ويُثْبِتُ» بالتخفيف، وشـدّد الباقون؛ وهى قراءة آبن عبـاس، وآختيار أبى حاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بهـا ؛ لقوله : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا» . وقال آبن عمر : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : ”يمحو الله مايشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت“. وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء؛ الخَلْق والخُلُق والأجل والرزق والسـعادة والشقاوة؛ وعنه : هما كتابان سوى أم الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت، ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الذى لايتغير منه شىء. قال القُشَيرىّ: وقيل السـعادة والشقاوة والخَلْق والخُلُق والرزق لا تتغـير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القول نوع تحكم .

قلت : مثل هـذا لايدرك بالرأى والآجتهاد، وإنمـا يؤخذ توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وآبن مسعود وأبى وائل وكعب الأحبار وغيرهم ، وهو قول ٱلْكَلْبِىّ . وعن أبى عثمان النَّهْدِىّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنــه كان يطوف بالبيت وهو يبكى و يقول : اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها ، و إن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة والذنب فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتنى فى السعداء فأثبتنى فيهم ، و إن كنت كتبتنى فى الأشــقياء فآمحنى من الأشقياء وآكتبنى فى السعداء ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ؛ وعنــدك أمّ الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشــقياء فامح وآ كتبنا سعداء ، و إن كنت كتبتنا ســعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بمــا هو كائن إلى يوم القيامة : «يمحو الله ما يشاء و يثبت وعنده أم الكتاب» . وقال مالك ابن دينار فى المرأة التى دعا لهــا : اللهم إن كان فى بطنها جارية فأبدلهــا غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب . وقد تقدّم فى الصحيحين عن أبى هُريرة قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ سَرّه أن يُبسطَ له فى رزقه و يُنْسأَ له فى أَثَرِه[(١)] فليَصِلْ رَحِمَه". ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ أَحَبَّ" فذكره بلفظه سواء ؛ وفيــه تأويلان : أحدهما — معنوى ، وهو ما يبقى بعــده من الثناء الجميل والذكر الحسن ، والأجر المتكرر ، فكأنه لم يمت . والآخر — يؤخر أجله المكتوب فى اللوح المحفوظ ، والذى فى علم الله ثابت لا تبدّل له ، كما قال : «يمحو الله ما يشاء و يثبت وعنده أمّ الكتاب» . وقيل لابن عباس لمــا روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أحبّ أن يمد الله فى عمره وأجله و يبسط له فى رزقه فليتق الله ولْيَصِلْ رَحِمَــه" كيف يزاد فى العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْــدَهُ » . فالأجل الأوّل أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

(١) الأثر : الأجل .

الثاني — يعني المسمى عنده — من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزَخ لا يعلمه إلا الله ؛ فإذا اتق العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أَجَل البَرْزَخ ما شاء ، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره في الدنيا ما شاء ، فيزيده في أجل البَرْزَخ ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فتوافق الخبر والآية ؛ وهـذه زيادة في نفس العمر وذات الأَجَل على ظاهر اللفظ ، في اختيار حبر الأمة ، والله أعلم . وقال مجاهد : يُحكم الله أمر السَّنَة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة ؛ وقد مضى القول فيه . وقال الضحاك : يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب ؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الْكَلْبِيّ : يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ؛ مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه ، وهو صادق ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قَتَادة وابن زيد وسعيد بن جُبَير : يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب ؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس ؛ قال النحاس : وحدّثنا بكر بن سهل ، قال حدّثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس « يمحو الله ما يشاء » يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، « ويثبت ما يشاء » فلا يبدله ، « وعنده أم الكتاب » يقول : جملة ذلك عنده في أم الكتاب ، الناسخ والمنسوخ . وقال سعيد بن جُبَير أيضا : يغفر ما يشاء — يعني — من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره . وقال عكرمة : يمحو ما يشاء — يعني بالتوبة — جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [قال تعـالى] (١) : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » الآية . وقال

---

(١) الزيادة من « البحر المحيط » .

الحسن : « يمحو الله ما يشاء » من جاء أجله «ويثبت» من لم يأت أجله . وقال الحسن : يمحو الآباء ، ويثبت الأبنـاء . وعنه أيضـا : يُنْسى الحَفَظة من الذنوب ولا يُنْسى . وقال السـدّى : « يمحو الله ما يشـاء » يعنى : القمر « ويثبت » يعنى : الشمس ؛ بيانه قوله : « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الرّبيع بن أَنَس : هـذا فى الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عنـد النوم ، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » الآية . وقال علىّ بن أبى طالب : يمحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قَرْنا ، ويثبت قَرْنا . وقيـل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذى يمحـو ، والذى يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات ، ويثبته فى ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبىّ والمـاوردىّ عن آبن عبـاس . وقيل : يمحو الله ما يشاء — يعنى الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عُبَـاد فى اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذى يمحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ؛ وقـد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون فى رمضان . وقال آبن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام ، من درّة بيضاء ، لهـا دَفّتان من ياقوتة حمراء ، لله فى كل يوم ثلاثمائة وسـتون نظرة ، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبى صـلى الله عليه وسـلم قال : " إن الله سبحانه يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يَبْقين من الليل فينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء " . والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله ؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء ، وقـد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثابت ؛ ومنـه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو الممحو ، والله أعلم . الغزنوىّ : وعندى أن ما فى اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛ وما فى علمه من تقدير الأشياء لا يبدّل . « وعنده أمّ الكتاب » أى أصل ما كتب من الآجال

وغيرها . وقيل : أمّ الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يبدّل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجرى فيه التبديل . وقيل : إنما يجرى فى الجرائد الأخر . وسئل ابن عباس عن أمّ الكتاب فقال : عِلْم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون؛ فقال لعلمه : كن كتابا، ولا تبديل فى علم الله، وعنه أنه الذِّكْر؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » وهـذا يرجع معناه إلى الأوّل؛ وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحبار : أمّ الكتاب عِلْم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق .

قوله تعـالى : وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ « ما » زائدة، والتقدير : وإن نرينك بعض الذى نعدهم، أى من العذاب؛ لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ، أى التبليغ ؛ ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى أهـل مكة . ﴿ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ ﴾ أى نقصدها . ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف فيـه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « ننقصها من أطرافها » موت علمـائها وصلحائها . قال القُشَـيرى : وعلى هـذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابى : الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيـد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهـم ليس عن عجـز ؛ إلا أن يحمل قول ابن عبـاس على موت أحبار اليهـود والنصارى . وقال مجاهد أيضا

وقتَـادة والحسن : هو ما يغلب عليــه المسلمون ممـا فى أيدى المشركين ؛ وروى ذلك عن ٱبن عباس، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران فى ناحية منها؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها . وذكر وكِيع بن الجَرّاح عن طلحة بن عُمَير عن عطاء بن أبى رَبَاح فى قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهاب فقهائها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البرّ : قول عطاء فى تأويل الآية حسن جدّا، تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاه المهدوىّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأوّل نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجـاهد « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلمـاء ؛ ومعروف فى اللغة أن الطَّرَف الكريم من كل شىء ؛ وهـذا خلاف ما ٱرتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبـد الكريم من قول ٱبن عباس . وقال عِكرِمة والشّعبىّ : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشّـك (١) . وقال الآخر : لضاق عليك حشٌّ تتبرز فيــه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبـل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أولم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟ ! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك؛ وروى ذلك أيضا عن ٱبن عباس ومجاهد وٱبن جُرَيج . وعن ٱبن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : نقصها بجَوْر وُلَاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وٱنجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْـكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أى ليس يتعقب حكمـه أحد بنقص ولا تغيير . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى الانتقام من الكافريـن ، سريع الثواب للؤمن . وقيل : لا يحتاج فى حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقـد بَنَان؛ حسب ما تقدّم فى « البقرة » (٢) بيـانه .

---

(١) الحش : المتوضأ . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣٤ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من قبل مشركي مكة ، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم . ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ أي هو مخلوق له مكر الماكرين ، فلا يضرّ إلا بإذنه . وقيل : فلله خير المكر ، أي يجازيهم به . ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من خير وشر ، فيجازي عليه . ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكَافِرُ ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو . الباقون : « الكفار » على الجمع . وقيل : عني أبو جهل . ﴿ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ أي عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أو لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ قال قتادة : هم مشركو العرب ؛ أي لست بنبيّ ولا رسول ، وإنما أنت متقول ؛ أي لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك . ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ أي قل لهم يا محمد : « كفى بالله » أي كفى الله ﴿ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بصدقي وكذبكم . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ ﴾ وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — في التفاسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ، وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسيّ وتميم الداريّ والنجاشيّ وأصحابه ، قاله قتادة وسعيد بن جبير . وروى الترمذيّ عن ابن أخي عبد الله بن سلام قال : لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال : جئت في نصرتك ؛ قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عني ، فإنك خارج خير لي من داخل ؛ فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان اسمي في الجاهلية فلان ، فسماني

رسول الله صلى الله عليه وسـلم عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله؛ فنزلت فيّ « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْـلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت فيّ « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكماله في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبـد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَير « ومن عِنده عِلم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سَلَام .

قلت : وكيف يكون عبدالله بن سَلَام وهذه السورة مكية وآبن سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي . وقال القُشيري : وقال آبن جُبَير السّورة مكية وآبن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على آبن سَلَام ؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول آبن عباس . وقال الحسن ومجاهـد والضحاك : هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِندِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سَلَام وسلمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وِمن عِندِه عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف؛ وروى ذلك سـليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم؛ وروى محبوب عن إسمعيل بن محمد اليمـانيّ أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْـدِهِ » بكسر الميم والعـين والدال « عُلِمَ الْكِتَابُ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلَام فقال : إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين ، والله أعلم . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : "أنا مدينة العلم وعلي بابها" وهو حديث باطل؛ النبيّ صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفسح ، ومنهـم المتوسط ، على قدر منازلهم في العـلوم . وأما من قال

إنهم جميـع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَمَ الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهـد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سَلَام فعوّل على حديث الترمذيّ ؛ وليس يمتنع أن ينزل فى عبـد الله بن سَلَام شيئا ويتناول جميع المؤمنـين لفظا ؛ ويعضده من النظام أن قوله تعـالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفـة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سَلَام وغيره يحتمل أيضا ؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قـرأ الكتب التى أنزلت قبـل القرآن كان أمرا مؤكدا؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله وهي قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

قوله تعالى : الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ تقدّم معناه . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ أي بالكتاب، وهو القرآن، أي بدعائك إليه . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ وهذا على التمثيل، لأن الكفر بمنزلة الظلمة؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السنة، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء في «بإذن ربهم» متعلقة بـ«تخرج » وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والمنذر الهادي . ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو ، لأنهما شيء واحد ؛ والله هو العزيز الذي لا مثل له ولا شبه . وقيل : « العزيز » الذي لا يغلبه غالب . وقيل : « العزيز » المنيع في ملكه وسلطانه . « الحميد » أي المحمود بكل لسان، والممجد في كل مكان على كل حال . وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم، وقوم كفروا به، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى، وكفر الذين آمنوا بعيسى؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ملكا وعبيدا وآختراعا وخلقا . وقرأ نافع وآبن عامر وغيرهما « اللهُ » بالرفع على الآبتداء « الذى » خبره . وقيل : « الذى » صفة ، والخبر مضمر ، أى الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض قادرٌ على كل شيء . الباقون بالخفض نعتا للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت ، كقولك : مررت بالظريف زيدٍ . وقيل : على البدل من « الحميد » وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالعَلَم فلا يوصف ، كما لا يوصف بزيد وعمرو ، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ، لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير ، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له مافى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف على « الحميد » رفع ، وإذا وصل خفض على النعت . قال آبن الأنبارى : من خفض وقف على « وما فى الأرض » .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدّم معنى الويل فى « البقرة »[1] وقال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة . « من عذاب شديد » أى فى جهنم . ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى يختارونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك . « فالذين » فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمر ، أى هم الذين . وقيل : « الذين يستحبون » مبتدأ وخبره « أولئك » . وكل من آثر الدنيا وزهرتها ، وآستحب

(١) راجع جـ ٢ ص ٧ وما بعدها طبعة ثانية .

البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصدّ عن سبيل الله — أي صرف الناس عنه وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره — فهو داخل في هذه الاية؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون" وهو حديث صحيح . وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان . وقيل : «يستحبون» أي يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته . ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي يطلبون لها زَيْغا وميلا لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم . والسبيل تذكر وتؤنث . والعِوج بكسر العين في الدّين والأمر والأرض، وفي كل ما لم يكن قائما؛ و بفتح العين في كل ما كان قائما، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران» (١) وغيرها . ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي ذهاب عن الحق بعيد عنه .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴾ أي قبلك يا محمد ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أي بلغتهم، ليبيّنوا لهم أمر دينهم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الحجة؛ وقد قال الله تعالى : «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» . وقال صلى الله عليه وسلم : "أرسل كلُّ نبيّ إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كلّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديّ ولا نصرانيّ ثم لم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار" . خرجه مسلم، وقد تقدّم . ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ردّ على القَدَرية في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على

(١) راجع ج ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

« ليبين » لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا الإضلال . ويجوز النصب في « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ أي بحجتنا وبراهيننا ؛ أي بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هي التسع الآيات (١) . ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أي ، كقوله تعالى : « وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا » أي امشوا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ أي قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أُبيّ بن كعب ورواه مرفوعا ؛ أي بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التّيه ، إلى سائر النّعم ؛ وقد تسمى النّعم بالأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كُلْثوم (٢) :

* وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ *

---

(١) الآيات التسع هي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات .

(٢) البيت من معلقته وتمامه :

* عصينا الملك فيها أن ندينا *

وقد يكون تسميتها غرا لعلوهم على الملك وامتناعهم منه ؛ فأيامهم غر لهم ، وطوال على أعدائهم ؛ وعليه فلا دليل في البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على (بأنا) في البيت قبله ، ويجوز أن تجعل الواو بدلا من رب .

وعن ٱبن عباس أيضـا ومقاتل : بوقائـع الله فى الأمم السـابقة ؛ يقال فلان عالم بأيام العرب، أى بوقائعها . قال ٱبن زيد : يعنى الأيام التى انتقم فيها من الأمم الخالية ؛ وكذلك روى ٱبن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطـبرى : وَعَظهـم بما سـلف فى الأيام المـاضية لهم ؛ أى بمـا كان فى أيام الله من النعمة والمحنــة ؛ وقد كانوا عبيـدا مستذلّين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سـعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : سمعت رسول الله صـلى الله عليـه وسلم يقول : "بينا موسى عليـه السلام فى قومه يُذكّرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماؤه" وذكر حديث الخضر ؛ ودل هذا على جواز الوعظ المرقِّق للقلوب، المقـوِّى لليقين، الخـالى من كلّ بدعة، والمنزَّه عن كل ضـلالة وشبهة . ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أى فى التـذكير بأيام الله ﴿لَآيَاتٍ﴾ أى دلالات . ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه . ﴿شَكُورٍ﴾ لنعـم الله . وقال قتَـادة : هو العبد ؛ إذا أُعطِى شـكر، وإذا ٱبتلِى صـبر . وروى عن النبى صلى الله عليـه وسـلم أنه قال : "الإيمـان نصفان نصف صبر ونصف شكر — ثم تلا هـذه الآية — «إن فِى ذلك لآياتٍ لِكل صبارٍ شكورٍ»" . ونحوه عن الشَّعْبىّ موقوفا . وتَوَارى الحسن البصرىّ عن الحَجّاج سـبعَ سنين، فلمـا بلغه موتُه قال : اللهم قد أمتّــه فأمِتْ سُنّتَه، وسجد شكرا، وقرأ «إن فِى ذلك لآياتٍ لِكل صـبارٍ شكورٍ» . وإنمـا خص بالآيات كل صبار شكور لأنه يعتبر بهـا ولا يغفل عنها؛ كما قال : «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا» وإن كان منذرا للجميع .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تقدم فى «البقرة»(١) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله ؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . و «تَأَذَّن» وأذّن بمعنى أَعْلَم ؛ مثل أَوْعَد وتوعَّد ؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان ، لأنه إعلام ؛ قال الشاعر :

فلم نَشْعُرْ بضوءِ الصّبح حتّى * سمِعنا فى مجالِسنا الأَذِينا

وكان ابن مسعود يقرأ « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعتى . ابن عباس : لئن وَحَّدْتم وأطعتم لأزيدنّكم من الثواب ، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال ؛ والآية نصٌّ فى أن الشكر سبب المزيد ؛ وقد تقدم فى « البقرة »(٢) ما للعلماء فى معنى الشكر . وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألا تتقوى بنعمه على معاصيه . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة مجدّدة منك علىّ . قال : ياداود الآن شكرتنى .

قلت : فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للنعم ، وألا يصرفها فى غير طاعته ؛ وأنشد الهادى وهو يأكل :

أَنالَكَ رِزقَه لتقومَ فيه * بطاعتِه وتشكرَ بعضَ حقّهْ

فلم تشكر لِنعمتِه ولكنْ * قَوِيتَ على معاصيهِ برزقه

فغُصّ باللقمة ، وخنقته العَبْرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد . ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى جحدتم حقّى . وقيل : نِعَمى ؛ وَعَد بالعذاب على الكفر ، كما وَعَد بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من «إن» للشهرة .

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٣١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٧١ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى . «الحميد» أى المحمود .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ النبأ الخبر ، والجمع الأنباء؛ قال (١) :

* أَلَمْ يأتِيكَ وَالأنباءُ تَنْمِى *

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى وآذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . وقيل : هو آبتداء خطاب من الله تعالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله فى كتابه . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنّسابون وإن نَسبوا إلى آدم فلا يدّعون إحصاء جميع الأمم ، وإنما ينسبون البعض، ويمسكون عن نسب البعض؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع النّسابين ينسبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقال : "كذب النّسابون إن الله يقول « لا يعلمهم إلا الله »" . وقد روى عن عُرْوة بن الزبير أنه قال : ماوجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسمعيل . وقال آبن عباس : بين عدنان وإسمعيل ثلاثون

(١) القائل هو : قيس بن زهير ، وتمام البيت : * بما لاقت لبون بنى زياد * . وبعده :

ومحبسها على القرشى تشرى * بأدراع وأسياف حداد

وبنو زياد : الربيع بن زياد وإخوته ، أخذ لقيس درعا فاستاق قيس إبل الربيع لمكة وباعها لعبد الله بن جدعان — وهو مراده بالقرشي — بدروع وسيوف .

أبا لا يعرفون . وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ « لا يعلمهم إلا الله » : كذب النسابون .
﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالحجج والدلالات . ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى جعل أولئك القوم أيدى أنفسهم فى أفواههم ليعضّوها غيظا مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ابن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ « عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » . وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أن اسكت، تكذيبا له ، وردًّا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى، والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسنادا؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عبد الله فى قوله تعالى « فردوا أيديهم فى أفواههم » قال عَضُّوا عليها غيظا؛ وقال الشاعر :

لو أنّ سَلْمَى أبصرتْ تَخَدُّدِى (1) * ودِقَّةً فى عظمِ ساقى ويدى
وبُعْدَ أهلِى وجَفَاءَ عُوَّدِى * عَضّتْ من الوَجْدِ بأطرافِ اليدِ

وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران » (2) مجوّدا، والحمد لله . وقال مجاهد وقَتَادة : ردّوا على الرسل قولهم وكذّبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثانى للكفار . وقال الحسن وغيره : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردًّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثانى للرسل . وقيل معناه : أومأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : ردّ الرسل أيدى القوم فى أفواههم . وقيل : إن الأيدى هنا النِّعم؛ أى ردّوا نِعم الرسل بأفواههم ، أى بالنطق والتكذيب؛ ومجىء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى : كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و « فى » بمعنى الباء؛ يقال : جلست فى البيت وبالبيت ، وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال أبو عبيدة : هو ضرب مَثَل؛ أى لم يؤمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

(1) التخدد : أن يضطرب اللحم من الهزال .　(2) راجع ج ٤ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الجواب وسكت قد ردّ يده فى فيه ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال القُتَبِىّ : لم نسمع أحدا من العرب يقول : ردّ يده فى فيــه إذا ترك ما أمر به ، وإنمـا المعنى : عضوا على الأيدى حنقا وغيظا ؛ لقول الشاعر :

تَرُدُّون فى فِيــهِ غِشَّ الحَسُو * دِ حتى يَعَضَّ علىّ الأَكُفَّـا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه . وقال آخر :

قَــدَ افْنَى أنَامِــلَهُ أَزْمُهُ[1] * فأضحَى يَعَضُّ علىَّ الْوَظِيفَـا

وقالوا : — يعنى الأمم للرسل — ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَـا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أى بالإرسـال على زعمكم ، لا أنهم أقروا أنهم أُرسلوا . ﴿ وإِنَّا لَفِى شَكٍّ ﴾ أى فى ريب ومرية . ﴿ مِمَّـا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى موجب للريبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكًّا ؛ أى نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا .

قوله تعـالى : قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ آستفهام معناه الإنكار ؛ أى لا شك فى الله ، أى فى توحيده ؛ قاله قتادة . وقيل : فى طاعته . ويحتمل وجها ثالثا : أفى قدرة الله شك ؟ ! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها ؛ يدل عليه قوله : ﴿ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقهـا ومخترعها ومنشئهـا وموجدها بعد العدم ، لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له . ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ أى إلى طاعته بالرسـل والكتب . ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال أبو عبيد : « من » زائدة . وقال سيبويه : هى للتبعيض ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

(١) أزمة : عضا ؛ والوظيف لكل ذى أربع : ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق .

وقيل : « من » للبدل وليست بزائدة ولا مُبَعِّضة ؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب . ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى الموت ، فلا يعذبكم فى الدنيا . ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أى ما أنتم . ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ فى الهيئة والصورة ؛ تأكلون مما نأكل ، وتشربون مما نشرب ، ولستم ملائكة . ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام والأوثان . ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا محالا منهم ؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أى فى الصورة والهيئة كما قلتم . ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى يتفضل عليه بالنبوة . وقيل : بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : وهذا قول حسن ؛ وقد خرج الطبرى من حديث ابن عمر قال قلت لأبى ذر : يا عم أوصنى ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : "ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده وما مَنّ الله تعالى على عباده بمثل أن يلهمهم ذكره" . ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أى بحجة وآية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أى بمشيئته ، وليس ذلك فى قدرتنا ؛ أى لا نستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ الخبر ، ومعناه النفى ، لأنه لا يُحظر على أحد ما لا يقدر عليه . ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ « ما » استفهام فى موضع رفع بالابتداء، و « لنا » الخبر، وما بعدها فى موضع الحال؛ التقدير : أىّ شىء لنا فى ترك التوكل على الله . ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته، وينجى من سخطه ونقمته . ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم؛ مجازه : والله لنصبرن ﴿ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ به؛ أى من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ اللام لام قسم؛ أى والله لنخرجنكم . ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا؛ قاله الطبرىّ وغيره . قال ابن العربى : وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير؛ فإنّ « أو » على بابها من التخيير؛ خيّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا فى ملّتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله تعالى فى رسله وعباده؛ ألا ترى إلى قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا » وقد تقدم هذا المعنى فى « الأعراف »(1) وغيرها . ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى إلى ديننا ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى مقامه بين يدىّ يوم القيامة؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمَقام مصدر كالقيام؛ يقال : قام قياما ومَقاما؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة؛ و « ذلك لمن خاف مقامى » أى قيامى عليه ، ومراقبتى له؛ قال الله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذلك لمن خاف مقامى » أى عذابى، « وخاف وعيد » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي وٱستنصروا؛ أي أُذن للرسل في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم؛ قاله ابن عباس وغيره، وقد مضى في « البقرة »[(١)]. ومنه الحديث: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفْتح بصعاليك المهاجرين، أي يَستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: «ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ» الآية؛ وروى عن ابن عباس. وقيل قال الرسول: "إنهم كذّبوني فافتح بيني و بينهم فَتْحًا" وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا، عن ابن عباس أيضا؛ نظيره «ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ» «ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ». ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبّار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقا؛ هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس. والعنيد المعاند للحق والمجانب له، عن ٱبن عباس وغيره؛ يقال: عَنَد عن قومه أي تباعد عنهم. وقيل: هو من العَنَد، وهو الناحية وعاند فلان أي أخذ في ناحية مُعْرِضا؛ قال الشاعر:

إذا نزلتُ فٱجعلُوني وَسَطَا * إنّي كبيرٌ لا أُطِيقُ الْعُنَّدَا

وقال الهَرَوِيّ قوله تعالى: « جبار عنيد » أي جائر عن القصد؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعاند؛ وفي حديث ٱبن عباس وسئِل عن المستحاضة فقال: إنه عِرْقٌ عانِدٌ. قال أبو عبيد: هو الذي عَنَد وبَغَى كالإنسان يعاند؛ فهذا العِرق في كثرة ما يخرج منه بمنزلته. وقال شَمِر: العاند الذي لا يرقأ. وقال عمر يذكر سيرته: أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث: العنود من الإبل الذي لا يخالطها إنما هو في ناحيـة أبدا؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها. وقال مقاتل: العنيد المتكبر. وقال ابن كَيْسان: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العَنُود والعَنِيد الذي

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٦ وما بعدها طبعة ثانية .

يتكبر على الرسل و يذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العـــرب : شر الإبل العنود الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصى . وقال قتادة : العنيد الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيـــد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الاية أبو جهل؛ ذكره المهدوىّ . وحكى المـــاوردىّ فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّـارٍ عَنِيدٍ » فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أَتُوعِدُ كُلَّ جبّـــارٍ عَنيـــدٍ * فها أنا ذاكَ جبّـــارٌ عَنِيدُ
إذا ماجئتَ ربَّكَ يومَ حَشْرٍ * فَقُلْ يا رَبِّ مَزَّقَنِي الوليدُ

فلم يلبث أياما حتى قُتل شرّ قِتلةٍ ، وصُلِب رأسه على قصره، ثم على سُور بلده .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ذلك الكافر جهنم ، أى من بعد هلاكه . ووراء بمعنى بعد؛ قال النابغة :

حَلَفْتُ فلم أترك لِنفسكَ رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمـــرءِ مذهبُ

أى بعد الله جلّ جلالُه ، وكذلك قوله تعـــالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده ، وقوله تعالى : « و يكفرون بِمـــا وراءه » أى بمـــا سواه؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بمـــا بعده . وقيل : « من ورائه » أى من أمامه، ومنه قول الشاعر :

ومِنْ ورائكَ يومٌ أنتَ بالغُهُ * لا حاضرٌ مُعجِزٌ عنــه ولا بادِى

وقال آخر :

أَتَرجُو بنو مروانَ سمعِي وطاعتِي * وقومى تَمِـــيمٌ والفـــلاةُ ورائيـــا

وقال لبيد :

أليس ورائِى إنْ [تَراخَتْ] (١) منيّتِي * لُزومُ العَصَا تُحنَى عليهـــا الأصابـــعُ

(١) كذا فى ديوانه، وفى الأصل : « إن بلغت منيتى » .

يريد أمامي . وفى التنزيل « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ » أى أمامهم؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطْرُب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك، أى سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أى فى طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : فى قوله «مِن ورائِهِ جهنم» أى من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارَى؛ أى ٱستتر . وقال الأزهرى : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد، وقاله أبو عبيدة أيضا، واشتقاقهما مما توارى واستتر، فجهنم توارَى ولا تظهر، فصارت من وراء لأنها لا ترى؛ حكاه ابن الأنبارى وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أى من ماء مثل الصديد، كما يقال للرجل الشجاع أسد، أى مثل الأسد؛ وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القُرَظىّ والربيع بن أَنَس : هو غُسَالة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزوانى . وقيل : هو من ماء كرهته تَصُدّ عنه، فيكون الصديد مأخوذا من الصدّ . وذكر ابن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبى أُمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ » قال : "يُقرَّب إلى فِيهِ فيكرهه فإذا أُدنى منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوة رأسه فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » ويقول « وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ »" خرجه الترمذى، وقال : حديث غريب؛ وعُبيد الله بن بُسْر الذى روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبى أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بُسْر . ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أى يَتحسَّاه جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أى يبتلعه؛ يقال : جرع الماء وٱجترعه وتجرعه بمعنى . وساغ الشَّرابُ فى الحلق يسوغ سَوْغا إذا كان سَلِسا سهلا، وأساغه اللهُ إساغةً . و « يكاد » صلة؛ أى يسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى : « وما كادوا يفعلون » أى فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ »(1) فهذا يدل على الإساغة . وقال ابن عباس : لايجيزه ولا يمر به(2) . ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ

(1) آية ٢٠ من سورة الحج . (2) كذا فى الأصل؛ ولعله « لا يجيزه ولا يمرأ به » .

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه ، كقوله : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . وقال إبراهيم التيمى : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره ؛ للآلام التى فى كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه . وقال الأخفش : يعنى البلايا التى تصيب الكافر فى النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيل : إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِّل به نوع من العذاب ؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها فى فرد لحظة ؛ إما حية تنهشه ، أو عقرب تلسبه (١) ، أو نار تسفعه ، أو قيد برجليه ، أو غُلّ فى عنقه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقوم أو حميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر فى جهنم بالشراب فرآه مات موتاتٍ ، فإذا دنا منه مات موتاتٍ ، فإذا شرب منه مات موتاتٍ ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحاك : لا يموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق روحه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ؛ ونظيره قوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » . وقيل : يخلق الله فى جسده آلاما كل واحد منها كألم الموت . وقيل : « وما هو بميت » لتطاول شدائد الموت به ، وامتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابه .

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وبذلك وردت السّنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائما ، والله أعلم . ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ ﴾ أى من أمامه . ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى شديد متواصل الآلام من غير فتور ؛ ومنه قوله : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » أى شدة وقوة . وقال فُضَيل بن عِياض فى قول الله تعالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : حبس الأنفاس .

---

(١) تلسبه : تلدغه .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النحويون فى رفع «مَثَل» فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير : وفيما يُتلى عليكم أو يُقصّ «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم ابتدأ فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أى كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ . وقال الزجاج : أى مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد، وهو عند الفرّاء على إلغاء المَثَل، التقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد . وعنه أيضا أنه على حذف مضاف؛ التقدير : مَثَل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدوىّ، والثانى القُشَيرىّ والثعلبىّ . ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان أسمر؛ «فمَثَل» بمعنى صفة . ويجوز فى الكلام جر «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الذين» واتصل هذا بقوله : «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة . والرماد ما بقى بعد احتراق الشىء؛ فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفّار فى أنه يمحقها كما تمحق الرّيحُ الشديدة الرّمادَ فى يوم عاصف . والعصف شدة الريح ؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفى وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها — أن العُصُوف وإن كان للرّيح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الرّيح تكون فيه، فجاز أن يقال : يوم عاصف، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحرّ فيها . والثانى — أن يريد «فى يوم عاصف» الريح؛ لأنها ذكرت فى أول الكلمة، كما قال الشاعر :

* إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِف *

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مرّ ذكره؛ ذكرهما الهَرَوىّ . والثالث — أنه من نعت الريح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ ؛ ذكره

الثعلبيّ والمـاوَرْدي . وقرأ ابن إسحق و إبراهيم بن أبي بكر «في يومِ عاصفٍ»[1] . ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعني الكفار . ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ يريد في الآخرة ؛ أي من ثواب ما عمِـلوا من البرّ في الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي الخسران الكبير ؛ و إنمـا جعله كبيرا بعيدا لفوات ٱستدراكه بالموت .

قوله تعـالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الرؤية هنـا رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليـه . وقرأ حمـزة والكسائي — « خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بالحق » ليستدل بهما على قدرته . ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ؛ أي هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشـياء ؛ فلا تعصُوه فإنكم إن عصيتموه يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال . ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي منيع متعذر .

قوله تعـالى : وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١) هـذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، ومن قرأ بهـا أقام الصفة مقـام الموصـوف ؛ أي في يوم ريح عاصف .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى برزوا من قبورهم ، يعني يوم القيامة . والبُرُوز الظّهور . والبَرَاز المكان الواسع لظهوره؛ ومنه آمرأة بَرْزة أى تظهر للناس؛ فمعنى « برزوا » ظهروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال ، وآتصل هذا بقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى وقاربوا لما آستفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لايسترهم عنه ساتر . « لِلَّهِ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَاءُ ﴾ يعني الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدرا؛ التقدير : ذوى تَبَع . ويجوز أن يكون جمع تابع؛ مثل حارس وحَرَس ، وخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد ، وباقر وبَقَر . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أى دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا ، و «مِن» صلة؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل : لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أجزعنا » أى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى الأسم؛ يقال : حَاصَ فلان عن كذا أى فرّ وزاغ يَحِيص حَيْصًا وحُيُوصًا وحَيَصَانًا؛ والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول أهل النار إذا آشتدّ بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمّ فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لاينفعهم قالوا « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص» ". وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : ذُكر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ، فهلمّ فلنصبر ؛ فلعلّ الصّبر ينفعنا كما صبر أهل الطّاعة على طاعة الله فنفعهم الصّبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا ، فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » أى مَنجًى ، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» يقول: لست بمغنٍ عنكم شيئا «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ» الحديث بطوله، وقد كتبناه فى كتاب «التذكرة» بكماله .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيبا فى جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا. ومعنى «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أى حُصِّل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار، على ما يأتى بيانه فى «مريم»(١) عليها السلام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ يعنى البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصى فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنّة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم . وروى ابن المبارك من حديث عُقْبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة قال : "فيقول عيسى أدلّكم على النبي الأمّى فيأتون فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى من أطيب ريح شمّها أحدٌ حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيثور مجلسه من أنتن ريح شمّها أحدٌ ثم يعظُم نحيبهم ويقول عند ذلك: «إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» الآية . «وعد الحق» هو إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم: مسجد الجامع؛ قاله الفراء قال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحقّ أو وعدكم وعد الوعد الحقّ فصدّقكم؛ فحذف المصدر لدلالة الحال . ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة وبيان؛ أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزيّنته لكم فى الدنيا ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أى أغويتكم فتابعتمونى . وقيل : لم أقهركم على ما دعوتكم إليه . « إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ » هو استثناء منقطع؛ أى لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لى باختياركم « فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » . وقيل : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » أى على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

(١) فى تفسير قوله تعالى : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر ... » آية ٣٩ من السورة المذكورة .

دعوتكم فاستجبتم لى؛ وهذا على أنه خَطَب العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد؛ وفيه نظر لقوله : « لما قضى الأمر » فإنه يدل على أنه خَطَب الكفّارَ دون العاصين الموحِّدين؛ والله أعلم . ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إذا جئتمونى من غير حجة . ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى بمغيثكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أى بمغيثيّ . والصّارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النُّصرة والمعاونة، والمُصْرِخ هو المُغيث . قال سَلَامة بن جَنْدَل :

كنّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ ... كانَ الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيبِ (١)

وقال أُميّة بن أبى الصَّلْت :

ولا تجزعوا إنّى لكم غيرُ مُصْرِخٍ ... وليس لكم عندى غَنَاءٌ ولا نَصْرُ

يقال : صَرَخ فلان أى ٱستغاث يَصرُخ صَرْخا وصُرَاخا وصَرْخةً . وٱصطرخ بمعنى صَرَخ . والتَّصرخ تَكلُّف الصُّراخ، والمُصْرِخ المُغِيث، والمستصرِخ المستغيث؛ تقول منه : ٱستصرخنى فأصرختُه . والصَّرِيخ صوت المستصرخ . والصَّرِيخ أيضا الصارخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهرى . وقراءة العامة « بِمُصرِخيَّ » بفتح الياء . وقرأ الأعمش وحمزة « بمصرِخيِّ » بكسر الياء . والأصل فيها بمصرخِيِّين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة فى ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل : هَوايَ وعَصايَ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل : غلاميَ وغلاميْ، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة . وقال الفرّاء : قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقَلَّ من سلم منهم (٢) عن خطأ . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُب : هذه لغة بنى يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء . القُشَيْرِيّ : والذى يغنى عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو ردىء، بل هو فى القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذى قرأ به حمزة أفصح . ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي

(١) الظنابيب (جمع) ظنبوب؛ وهو حرف الساق اليابس من قدم . وقرع الظنبوب أن يقرع الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه؛ والمراد هنا سرعة الإجابة .

(٢) أى من القرّاء .

مِنْ قَبْلُ﴾ أى كفرت بإشرا ككم إياى مع الله تعالى فى الطاعة؛ فـ « ما » بمعنى المصدر . وقال ابن جُرَيج[1] : إنى كفرت اليوم بما كنتم تدعونه فى الدنيا من الشّرك بالله تعالى . قتادة : إنى عصيت الله . الثورىّ : كفرت بطاعتكم إياى فى الدنيا . ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . وفى هـذه الآيات ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقتهم؛ انظر إلى قول المتبوعين : « لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ » وقول إبليس : « إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » كيف اعترفوا بالحق فى صفات الله تعالى وهم فى دَرَكات النار؛ كما قال فى موضع آخر : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا » إلى قوله : « فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ » واعترافهم فى دَرَكات لَظَى بالحق ليس بنافع ، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه فى الدنيا؛ قال الله عز وجل : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » و « عسى » من الله واجبة .

قوله تعالى : وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أى فى جنات لأن دخلت لا يتعدى ، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت ، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدوىّ . ولما أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضا . وقراءة الجماعة « أُدْخِلَ » على أنه فعل مبنى للفعول . وقرأ الحسن « وأُدْخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى بأمره . وقيل : بمشيئته وتيسيره . وقال : « بإذن ربهم » ولم يقل : بإذنى تعظيما وتفخيما . ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ تقدم فى « يونس »[2] . والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) فى بعض النسخ ابن بحر . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣١٣ طبعة أولى أو ثانية .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكر تعالى مَثَل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدّت به الريح فى يوم عاصف، ذكر مَثَل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسّر ذلك المَثَل فقال : ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثمر، فحذف لدلالة الكلام عليه . قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جُرَيْج : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العَوْفى والرّبيع بن أنَس : هى المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعِكْرمة : الشّجرة النّخلة؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة فى قلب المؤمن — وهو الإيمان — شبّهه بالنّخلة فى المَنْبِت، وشبّه ارتفاع عمله فى السماء بارتفاع فروع النّخلة، وثواب الله له بالثّمر . وروى من حديث أَنَس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتة الإيمانُ عُروقُها والصلاةُ أصلُها والزكاةُ فروعُها والصيامُ أغصانُها والتأذى فى الله نباتُها وحسنُ الخُلُق ورقُها والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها " . ويجوز أن يكون المعنى : أصل النّخلة ثابت فى الأرض؛ أى عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهى زاكية نامية . وخرّج الترمذىّ من حديث أَنَس بن مالك قال : أُتِى رسولُ الله صلى الله عليه بقِنَاعٍ (1) فيه رُطَب، فقال : " مَثَلُ كلمةٍ طيبةٍ كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها فى السماءِ تؤتى أكلها كل حِينٍ بإذنِ ربها — قال — هى النخلة ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوقِ الأرض ما لها من قرارٍ — قال — هى الحَنْظَل " . وروى عن أنس قولَه [وقال] : وهو أصح (2) . وخرّج الدّار قُطْنىّ عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون ما هى" فوقع فى نفسى أنها النّخلة . قال السُّهَيْلىّ : ولا يصح فيها ما روى عن علىّ بن أبى طالب أنها جَوْزة الهند؛ لِمَا صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر " إنّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها وهى مِثْلُ المؤمن خبّرونى ما هى — ثم قال — هى النخلة " خرّجه مالك فى « الموطأ » من رواية ابن القاسم وغيره إلا يحيى فانه أسقطه من روايته . وخرّجه أهل الصحيح وزاد

(1) القناع : الطبق الذى يؤكل عليه .　　(2) أى قال الترمذى : والحديث الموقوف أصح .

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلة(١)؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهى النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" فبيّن معنى الحديث والمماثلة .

قلت : وذكر الغزنوىّ عنه عليه السلام "مَثَلُ المؤمن كالنّخلة إن صاحبتَه نفعكَ وإن جالستَه نفعكَ وإن شاورتَه نفعكَ كالنّخلة كل شيء منها ينتفع به". وقال: "كُلُوا من عَمَّتكم" يعنى النخلة خلقت من فَضْلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، وبقلبها تحيا، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى . وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبّهت به؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان فى الالتقاح لأنها لاتحمل حتى تُلْقَح قال النبي صلى الله عليه وسلم: "خيرُ المال سِكّة مأبُورَة ومُهْرَة مأمورة(٢)". والإبار اللّقاح وسيأتى فى سورة «الحجر»(٣) بيانه . ولأنها من فَضْلة طينة آدم . ويقال: إن الله عز وجل لما صوّر آدم من الطّين فَضَلت قطعة طين فصوّرها بيده وغرسها فى جنّة عَدْن . قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عمّتكم" قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال: "النخلة". ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع: «كلّ حِينٍ» غُدوة وعَشيّة كذلك يصعد عملُ المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس . وعنه «تؤتى أكلها كل حِينٍ» قال: هو شجرة الهند لا تتعطل من ثمرة، تحمل فى كل شهر؛ شبه عمل المؤمن لله عز وجل فى كل وقت بالنخلة التى تؤتى أكلها فى أوقات مختلفة . وقال الضحاك : كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل فى جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير فى الأوقات كلها . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره؛ وأنشد الأصمعىّ بيت النابغة:

تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ مِن سُوءِ سَمّها * تُطَلِّقُه حِينًا وحِينًا تُرَاجِعُ(٤)

(١) كذا فى الأصل . (٢) السكة : الطريقة المصطفة من النخل، والمهرة المأمورة الكثيرة النسل والنتاج؛ أراد خير المال نتاج أو زرع . (٣) فى تفسير قوله تعالى : «وأرسلنا الرياح لواقح» آية ٢٢ .

(٤) البيت فى وصف حية؛ و «تناذرها الراقون» أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها . ومعنى «تطلقه حينا وحينا تراجع» أنها تخفى الأوجاع عن السليم تارة، وتارة تشتد عليه . ويروى : «من سوء سمعها» أى أنها لا تجيب الراقى لأنها صماء؛ لقولهم : أسمع من حية .

فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابت فى قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع فى السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما ينال من ثمرة النخلة فى أوقات السنة كلها، من الرطب والبسر والبلح والزهو(١) والتمر والطلع. وفى رواية عن ابن عباس: إن الشجرة الطيبة شجرة فى الجنة تثمر فى كل وقت. و «مثلا» مفعول بـ«ضرب»، «وكلمة» بدل منه، والكاف فى قوله: «كشجرة» فى موضع نصب على الحال من «كلمة» التقدير: كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة.

الثانية — قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ لما كانت الأشجار تؤتى أكلها كل سنة مرة كان فى ذلك بيان حكم الحين، ولهذا قلنا: من حلف ألا يكلم فلانا حينا ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة. وقد ورد الحين فى موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ» قيل فى «التفسير»: أربعون عاما. وحكى عكرمة أن رجلا قال: إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حر، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله، فسألنى عنها فقلت: إن من الحين حينا لا يدرك، قوله: «وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» فأرى أن تمسك ما بين صرام(٢) النخلة إلى حملها، فكأنه أعجبه، وهو قول أبى حنيفة فى الحين أنه ستة أشهر اتباعا لعكرمة وغيره. وقد مضى ما للعلماء فى الحين فى «البقرة»(٣) مستوفى والحمد لله. ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى الأشباه للناس. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويعتبرون، وقد تقدم.

قوله تعالى: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر. وقيل: الكافر نفسه. والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل كما فى حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد

---

(١) الزهو: البسر الملون. (٢) صرام النخلة: حين يقطع ثمرها. (٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا أنهـا شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هى شجرة الثّوم؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَمْأَة أو الطّحلبة . وقيل : الْكَشُوث، وهى شجرة لا ورق لها ولا عروق فى الأرض؛ قال الشاعر :

* وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ(1) *

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ آقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط(2) :

هـو الجلاءُ الذى يَجتثُّ أصـلَكُمُ * فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا

وقال المؤرّج : أُخذت جثّتها وهى نفسها ، والجثّـة شخص الإنسان قاعدا أو قائمـا . وجَثَّه قَلَعـه ، وآجتثّه اقتلعه مِن فوق الأرض ؛ أى ليس لهـا أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض . ﴿ مَا لَهَـا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أى من أصل فى الأرض . وقيل : من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قول طيب ولا عمـل صالح . وروى معاوية ابن صالح عن علىّ بن أبى طلحة فى قوله تعالى «وضرب الله مثلا كلمة طيبة» قال : لا إله إلا الله «كشجرة طيبـة» قال : المؤمن ؛ «أصلها ثابت» لا إله إلا الله ثابتـة فى قلب المؤمن؛ «ومثل كلمة خبيثة» قال : الشرك، «كشجرة خبيثة» قال : المشرك؛ «آجتثت من فوق الأرض مالها من قرار» أى ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المَثَل إلى الدعاء إلى الإيمان والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشىء .

قوله تعـالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٢٧)

قوله تعـالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّـابِتِ ﴾ قال ابن عباس : هـو لا إله إلا الله . وروى النَّسائىّ عن البَرَاء قال قال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

---

(1) تمـامه :

* ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر *

يريد أنهم لا حسب لهم ولا نسب .

(2) هو لقيط بن معمر الإيادى ، والبيت من قصيدة بعث بها إلى قومه يحذرهم كسرى وجيشه؛ فلم يلتفتوا إلى قوله ، فظفر بهم كسرى وهزمهم .

فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » نزلت فى عذاب القبر ، يقال : من ربك ؟ فيقول : ربى الله وديني دين محمد ، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفا فى بعض طرق مسلم عن البَرَاء [أنه] قوله (١) ، والصحيح فيه الرفع كما فى صحيح مسلم وكتاب النَّسائى وأبى داود وابن ماجه وغيرهم عن البَرَاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر البخارىّ ، حدّثنا حفص بن عمر ، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البَرَاء بن عازب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أقعد المؤمنُ فى قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » " . وقد بينا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » وبيّنا هناك من يُفتَن فى قبره ويُسأل ، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال سهل بن عمّار : رأيت يزيد بن هرون فى المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أتانى فى قبرى مَلَكان فظّان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيّك ؟ فأخذتُ بلحيتى البيضاء وقلتُ : ألمثلى يقال هذا وقد علّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سَنَة ؟ ! فذهبا وقالا : أكَتَبْتَ عن حَرِيز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبغض [عليا] (٢) فأبغضه الله . وقيل : معنى « يثبت الله » يديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة :

يُثَبِّتُ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ * تَثبِيتَ موسى ونَصراً كالذى نُصِرا

وقيل : يثبتهم فى الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القَفّال وجماعة : « فى الحياة الدنيا » أى فى القبر ؛ لأن الموتى فى الدنيا إلى أن يبعثوا « وفى الآخرة » أى عند الحساب ؛ وحكاه الماوردىّ عن البَرَاء قال : المراد بالحياة الدنيا المُسَاءلة فى القبر ، وبالآخرة المُسَاءلة فى القيامة : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى عن حجتهم فى قبورهم كما ضلّوا فى الدنيا

---

(١) أى قول البراء .　　(٢) فى الأصل « عثمان » ومثله فى كتاب « التذكرة » للمؤلف . والذى فى « تهذيب التهذيب » أنه كان يبغض عليا .

بكفرهم فلا يُلقّنهم كلمة الحق ، فإذا سُئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى ؛ فيقول : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ(١) ؛ وعند ذلك يُضرَب بالمقامِع(٢) على ما ثبت فى الأخبار ؛ وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » . وقيل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا فى الدنيا . ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مُسَاءلة مُنْكَر ونَكير وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسول الله أيكون معى عقلى ؟ قال : "نعم" قال : كُفيتُ إذاً ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلىّ وغيرهما . وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر . قال أبو الطُّفَيل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين نُحِروا يوم بَدْر . وقيل : نزلت فى الأفجرين من قريش بنى مخزوم وبنى أمية ، فأما بنو أمية فمُتّعوا إلى حين ؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم متنصرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يَرْضَ وأَنِفَ فآرتد مُتنصِّرا ولَحِق بالروم فى جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقَتَادة . ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

---

(١) قيل فى معنى « ولا تليت » : ولا تلوت ؛ أى لا قرأت ؛ من تلا يتلو ، وقالوا تليت بالياء ليعاقب بها الياء فى دريت . (٢) المقامع : سياط من حديد رءوسها معوجة .

تَنَصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تكنَّفني منها لَجَاجٌ ونَخْوةٌ * وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فياليتني أَرعَى المَخَاضَ ببلدةٍ * ولم أنكر القولَ الذى قاله عُمَرْ

وقال الحسن : إنها عامة فى جميع المشركين . ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾ أى أنزلوهم . قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بَدْر أحلّوا قومهم ؛ أى الذين اتبعوهم . ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب ومجاهد . والبوار الهلاك ؛ ومنه قول الشاعر :

فلم أَرَ مثلَهمْ أبطالَ حَرْبٍ * غداةَ الحرب إذْ خِيفَ البَوَارُ

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هذا لا يجوز الوقف على «دار البوار» ؛ لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دار البوار» فلو رفعها رافع بإضمار ، على معنى : هى جهنم ، أو بما عاد من الضمير فى «يصلونها» لحسن الوقف على «دار البوار» . ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى المستقر . قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم فى « البقرة » (1) . ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، وكذلك فى الحج « لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ومثله فى « لقمان » و « الزمر » وضمها الباقون على معنى ليضلوا الناس عن سبيله ؛ وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضِلّون عن سبيل الله على اللزوم ، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة . ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع . ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

(1) راجع ج ١ ص ٢٣٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى إن أهل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعنى الصلوات الخمس، أى قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدّر، تقول : أطع الله يُدخلْك الجنة؛ أى إن أطعته يدخلْك الجنة؛ هذا قول الفراء . وقال الزجاج : «يقيموا» مجزوم بمعنى اللام ، أى ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ «قل» . قال ويحتمل أن يقال : «يقيموا» جواب أمر محذوف؛ أى قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة . ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعنى الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السرّ ما خفى والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيى : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة»(1) مجوّدا عند قوله : «إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ» . ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ تقدم فى «البقرة»(2) أيضا . و «خلال» جمع خُلّة كقُلّة وقلال . قال(3) :

* فلستُ بمَقْليِّ الخِلَالِ ولا قَالِي *

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى أبدعها واخترعها على غير مثال سبق . ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى من السّحاب . ﴿مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أى من الشجر

---

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٣ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (3) قاله امرؤ القيس، وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

ثمرات ﴿ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تقدم معناه في «البقرة»(١) . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أي في إصلاح ما يصلحان من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية . وقيل : دائبين في السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفترّان ؛ روى معناه عن ابن عباس . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله في النهار ، كما قال : « ومن رحمتِهِ جعل لكم الليل والنهار لِتسكنوا فِيهِ ولِتبتغوا مِن فضلِهِ » .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ؛ فحذف ؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه ، فحذف ، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التي ٱبتدأنا بها . وهذا كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » على ما يأتي . وقيل : « مِن » زائدة ؛ أي آتاكم كلّ ما سألتموه . وقرأ ٱبن عباس والضحاك وغيرهما « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلٍّ » بالتنوين « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة ؛ هي على النفي أي من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شيء ما سألتموه أي الذي سألتموه . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أي نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسّمع والبصر وتقويم الصّور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ وهذه النِّعم من الله ، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر ؟ ! وهلا ٱستعنتم بها على الطاعة ؟ ! ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفّار .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً ﴾ يعنى مكة وقـد مضى فى « البقرة » (١) . ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ أى آجعلنى جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنىّ » بنيه من صُلْبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له . وقرأ الجَحْدَرىّ وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطـع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَبْتُ ذلك الأمر، وأجنبته وجَنَّبْته إياه فتجانبـه وآجتنبه أى تركه . وكان إبراهيم التَّيْمىّ يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : « وآجنبنى و بنى أن نعبـد الأصنام » كما عبدها أبى وقومى .

قوله تعـالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لمـا كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعـل . ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ فى التوحيـد . ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من أهـل دينى . ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أى أصرّ على الشّرك . ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قيل : قال هذا قبل أن يعرّفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيما دون الشّرك .

قوله تعـالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — روى البخارىّ عن ابن عباس : أول ما آتخذ النساء المِنْطَق (٢) من قِبل أمّ إسمعيل؛ آتخـذت مِنْطَقا لتُعفّى أَثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسمعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

(١) راجع ج ٢ ص ١١٧ وما بعدها طبعه ثانية . (٢) المنطق : النطاق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشىء، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها .

بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيمُ منطلقا فتبعته أم إسمعيل؛ فقالت : يا إبرهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء، قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت إذًا لا يُضيِّعنا، ثم رجعت، فآنطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يرونه، آستقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال : « رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ » حتى بلغ «يشكرون» وجعلت أم إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدما فى السِّقاء عطشت وعطش آبنها، وجعلت تنظر إليه يتَلَوَّى — أو قال يتَلَبَّط(١) — فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم آستقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصَّفا، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طَرَف دِرْعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المَرْوة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فذلك سعى الناس بينهما" فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! تريد نفسها، ثم تسمَّعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غَوَاث(٢)! فإذا هى بالمَلَك عند موضع زمزم فبَحَث بعَقِبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه وتقول بيدها هكذا(٣)، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله أم إسمعيل لو تركت زمزم — أو قال لو لم تغرف من الماء — لكانت زمزم عينا مَعِينا " قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها المَلَك : لا تخافى الضَّيْعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضَيِّع أهله؛ وذكر الحديث بطوله .

---

(١) يتلبط : يتمرغ .

(٢) غواث (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهى الإعانة؛ وقد روى بالضم والكسر .

(٣) « وتقول بيدها هكذا » : هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل . (قسطلانى) .

مسئلة — لا يجوز لأحد أن يتعلق بهـذا فى طرح ولده وعياله بأرض مَضيعة آتكالا على العزيز الرحيم ، وٱقتداء بفعل إبراهيم الخليل ، كما تقوله غُلَاة الصّوفية فى حقيقة التّوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله فى الحديث : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقـد روى أن سارة لمـا غارت من هاجر بعـد أن ولدت إسمعيل خرج بهـا إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فروى أنه ركب الْبُراق هو وهاجر والطّفل بجـاء فى يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك آبنه وأَمَته هنالك وركب منصرفا من يومه ، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى، فلما ولى دعا بضمن هذه الآية .

الثانيـــة — لمـا أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم ، أرسل المَلَك فبَحَث عن المـاء ، وأقامه مقام الغذاء ، وفى الصحيح أن أبا ذرّ رضى الله عنه آجتزأ به ثلاثين من يوم وليـلة ، قال أبو ذرّ : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تَكَسَّرت عُكَنِى، وما أجد على كبـدى سَخْفَة جوع (١) ؛ وذكر الحـديث . وروى الدَّارَقُطْنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : " ماء زمزم لمـا شُرِب له إن شربتَه تشتفى به شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله به وإن شربتَه لقطع ظمئك قطعه وهى هَزْمَة (٢) جبريل وسُقْيا الله إسمعيل". وروى أيضا عن عِكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء . قال ابن العربى : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته، وسلمت طويّته، ولم يكن به مكذّبا، ولا يشربه مجرّبا ، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرّبين . وقال أبو عبد الله محمد بن علىّ الترمذى وحدثنى أبى رحمه الله قال : دخلت الطّواف فى ليلة ظلماء فأخذنى من البول ما شغلنى ، فجعلت أعتصر حتى آذانى ، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج ؛ فذكرت هذا الحديث ، فدخلت زمزم فتضلّعتُ (٣) منه ، فذهب عنى إلى الصباح . وروى عن عبد الله بن عمرو : وإن فى زمزم عينا فى الجنة من قِبل الركن .

(١) سخفة الجوع : رقته وهزاله . (٢) هزمة جبريل : أى ضربها برجله فنبع المـاء .
(٣) تضلع : أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ « مِنْ » فى قوله تعالى : « من ذريتى » للتبعيض أى أسكنت بعض ذريتى ؛ يعنى إسمعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هى صلة؛ أى أسكنت ذريتى .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدل على أن البيت كان قديما على ما روى قبل الطّوفان، وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »(١) . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرّم، أى يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع وآستحلال . وقيل : محرّم على الجبابرة، وأن تُنهتك حرمته، ويستخفّ بحقّه؛ قاله قتَادة وغيره . وقد مضى القول فى هذا فى « المائدة »(٢) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خصّها من جملة الدّين لفضلها فيه ، ومكانها منه، وهى عهد الله عند العباد؛ قال صلى الله عليه وسلم : "خمسُ صلوات كتبهنّ الله على العباد" الحديث . واللام فى « ليقيموا الصلاة » لام كى؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة بـ « أسكنت » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رَغِب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة .

السادسة — تضمّنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « ربنا ليقيموا الصلاة » أى أسكنتُهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة، وآحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة" قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هذا الحديث حبيب المعلم عن عطاء بن أبى رَبَاح عن عبد الله

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ وما بعدها طبعة ثانية .	(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥ طبعة أولى أو ثانية .

ابن الزّبير وجوده ، ولم يخالط فى لفظه ولا فى معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبى خَيْثمة سمعت يحيى بن مَعِين يقول : حبيب المعلم ثقة . وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبى يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه . وسئل أبو زُرْعة الرازىّ عن حبيب المعلم فقال : بصرىّ ثقة .

قلت — وقد خَرّج حديثَ حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبى رَبَاح عن عبد الله بن الزبير عن النبىّ صلى الله عليه وسلم الحافظُ أبو حاتم **محمد بن حِبّان** التميمى البُسْتِىّ فى المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف . والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير؛ رواه موسى الجُهَنِىّ عن نافع عن ابن عمر؛ وموسى الجُهَنِىّ ثقة ، أثنى عليه القَطّان وأحمد ويحيى وجماعتهم ، وروى عنه شعبة والثَّورىّ ويحيى بن سعيد . وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه" وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرَّقة قد روى عنه أبو زُرْعة الرازىّ ، وأخذ عنه ابن وضّاح ، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حَفِظ فَهُما حديثان ، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضّاح ، حدثنا يوسف بن عدىّ عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل" قال أبو عمر : وهذا كله نصٌّ فى موضع الخلاف قاطع له عند من أُلْهِمَ رشدَه ، ولم تَمِل به عصبيّته . وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أَصْبَغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة فى المسجد الحرام على الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم على ما فى هذا الباب . وقد آتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لها فى كل بلد إلا مكة فإنها تُصلَّى فى المسجد الحرام . وكان عمر وعلىّ وآبن مسعود وأبو الدَّرْداء وجابر يفضّلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعى ، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين ، وروى مثله عن مالك ؛ ذكر ابن وهب فى جامعه عن مالك أن

آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال : ياربّ هذه أحب إليك أن تُعبَد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، وآختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهى القلوب . وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فؤاداً قادنى بصَبَابةٍ * إليك على طول المَدَى لَصَبُورُ

وقيل : جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هى، فكأنه قال : واجعل وفودا من الناس تَهْوِى إليهم، أى تنزع، يقال : هَوِىَ نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوى هُوِيّاً فهى هاوية إذا عَدَت عَدْوا شديدا كأنها فى هَوَاء بئر، وقوله : « تهوى إليهم » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال : «من الناس» فهم المسلمون، فقوله : «تهوى إليهم» أى تحنّ إليهم، وتحنّ إلى زيارة البيت . وقرأ مجاهد «تهوى إليهم» أى تهواهم وتجلّهم . ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار . وفى صحيح البخارىّ عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : "جاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسمعيل، فسأل آمرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ، نحن فى ضيق وشدة، فشكت إليه، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغيّر عَتَبة بابه، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئا (١) فقال : هل جاءكم من أحد ! قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشتنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة، قال : فهل أوصاك بشىء : قالت : أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول : غير عَتَبة بابك، قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك آلحقى بأهلك، فطلّقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، ودخل على آمرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال :

(١) أى كأنه أبصر ورأى شيئا لم يعهده .

كيف أنتم ؟ وسألهـا عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . قال : ما طعامكم؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت : المـاء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والمـاء . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه" قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، وذكر الحـديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكْنى بمكة، فيصير بيتا محرما، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جُرْهُم . ففى البخارىّ — بعد قوله : وإن الله لا يُضيِّع أهلَه — وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كدا، فنزلوا بأسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا[1] فقالوا : إن هــذا الطائر لَيدُور على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيًّا[2] أو جَرِيَّين فإذا هُم بالمـاء، فأخبروهم بالمـاء فاقبلوا . قال : وأمّ إسمعيل عند المـاء، فقالوا أتأذنين لنـا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حقّ لكم فى المـاء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسـلم : "[فألفى][3] ذلك أمّ إسمعيل وهى تحب الأنس" فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، شَبّ الغلامُ، وماتت أم إسمعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكته، الحديث .

قوله تعـالى : رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

---

(١) العائف هنا هو الذى يتردد على المـاء ولا يمضى . (٢) الجـرى : الرسـول .

(٣) ألفى أى وجد ذلك الحى الجرهمى أم إسمعيل ، أو ألفى استئذان جرهم بالنزول أم إسمعيل والحال أنها تحب الأنس ؛ ففاعل ألفى (ذلك) و (ذلك) إشارة إلى الاستئذان .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أى ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذى زرع . ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن » قال الله : «وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء» . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أى على كبر سنى وسن آمرأتى ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة وآثنتى عشرة سنة . وقال سعيد بن جبير : بُشِّر إبراهيم بإسحق بعد عشر ومائة سنة . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أى وآجعل من ذريتي من يقيمها . ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : "الدعاءُ مُخُّ العبادة" وقد تقدم فى «البقرة»[(1)] . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله قال القُشَيْرِىّ : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره فى آستغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِى » يعنى أباه . وقيل : آستغفر لهما طمعا فى إيمانهما . وقيل : آستغفر لهما بشرط أن يُسلما . وقيل : أراد آدم وحواء . وقد رُوِى أن العبد إذا قال : اللهم آغفر لى ولوالدى وكان أبواه قد ماتا كافرين آنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق . وكان إبراهيم النَّخَعى يقرأ «وَلِوَلَدَىّ» يعنى آبنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر؛ ذكره المـاوَرْدى والنحاس . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «للؤمنين» كلهم وهو أظهر . ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ؛ أى اصبر كما صبر إبراهيم ، وأعْلِم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سُنّة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مِهْران : هـذا وعيد للظالم ، وتعزية للظلوم . ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يعنى مشركى مكة يمهلهم و يؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يؤخرهم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسُّلَمِىّ ورُوِى عن أبى عمرو أيضا « نؤخّرهم » بالنون للتعظيم . ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى لا تغمض من هول ما تراه فى ذلك اليوم ؛ قاله الفراء . يقال : شَخَص الرجلُ بَصَرَه وشَخَص البصرُ نفسُه أى سَمَا وطَمَح من هـول ما يَرى . قال ابن عباس : تَشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمَضُون . ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى مسرعين ؛ قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مهطعين إلى الداع » أى مسرعين . قال الشاعر :

بدِجْلة دارُهمْ ولقد أراهُمْ ❊ بدجْلةَ مُهطِعِينَ إلى السَّماعِ

وقيل : المهطع الذى ينظر فى ذلّ وخشوع ؛ أى ناظرين من غير أن يَطْرِفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مهطعين » أى مديمى النظر . وقال النحاس : والمعروف فى اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعنى الإسراع مع أدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذى لا يرفع رأسه . ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أى رافعى رءوسهم ينظرون فى ذلّ . و إقناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن عرفة والقُتَبِىّ وغيرهما : المقنع الذى يرفع رأسه و يقبل ببصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع فى الصلاة (١)

(١) الإقناع فى الصلاة أن يرفع المصلى رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأقنع صوته إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. وقيل: ناكسي رءوسهم؛ قال المهدوي: ويقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلّة وخضوعا، والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرّد، والقول الأول أعرف في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْغَضَ[(١)] نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا ＊ كأنَّما أَبْصَرَ شيئًا أَطْمَعَا

وقال الشَّمَّاخ يصف إبلا:

يُبَاكِرْنَ العِضَاهَ[(٢)] بِمُقْنَعَاتٍ ＊ نَوَاجِذُهُنَّ كالْحَدَإِ الْوَقِيعِ

يعني: برءوس مرفوعات إليها لتتناولهن. ومنه قيل: مِقْنَعة لارتفاعها. ومنه قَنِع الرجل إذا رَضِي؛ أي رفع رأسه عن السؤال. وقَنَع إذا سأل أي أتى ما يتقنّع منه؛ عن النحاس. وفم مُقْنَع أي معطوفة أسنانه إلى داخل. ورجل مُقَنَّع بالتشديد؛ أي عليه بَيْضة؛ قاله الجوهري. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر. يقال: طَرَف الرجلُ يَطْرِف طَرْفا إذا أطبق جَفْنه على الآخر، فسمّي النظر طَرْفا لأنه به يكون. والطَّرْف العين. قال عَنْتَرة:

وأَغُضُّ طَرْفِي مابَدَتْ لِي جارتِي ＊ حتّى يُوارِي جارتِي مَأْوَاهَا

وقال جَمِيل:

وأَقْصِرُ طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامةً ＊ لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذِي أَنَا قاصِرُهْ

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي لا تغني شيئا من شدّة الخوف. ابن عباس: خالية من كل خير. السُّدّي: خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد: خاوية خربة مُتَخرِّقة ليس فيها خير ولا عقل؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هواء؛ وقاله ابن عباس. والهواء في اللغة المجوَّف الخالي؛ ومنه قول حسان:

أَلَا أَبْلِغْ أبا سُفْيانَ عَنِّي ＊ فأنتَ مُجَوَّفٌ[(٣)] نَخِبٌ هَوَاءُ

---

(١) أنغض رأسه: حركه. (٢) العضاه: كل شجر يعظم وله شوك. والحدأ (بفتح الحاء) وقيل (بكسرها) جمع حدأة، وهي الفأس ذات الرأسين؛ والوقيع: المحدّد. شبه الشاعر أسنان الإبل بالفؤس في الحدة.

(٣) المجوف والمجوّف: الجبان الذي لا قلب له. والنخب: من النخب بمعنى النزع. يقال: رجل نخب أي جبان؛ كأنه منتزع الفؤاد.

وقال زُهَير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأنّ الرّحْلَ منها فوقَ صَـــعْلٍ (١) * من الظّلْمانِ جُؤْجُؤُه هَـــوَاءُ

فارغ أى خال؛ وفى التنزيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا » أى من كل شىء إلا من هَمّ موسى . وقيل : فى الكلام إضمار؛ أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعـالى : وَأَنذِرِ ٱلنَّـاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَـذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَـآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِـعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَالَـكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ قال ابن عباس : أراد أهل مكة . ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو يوم القيامة ؛ أى خَوِّفهم ذلك اليوم . وإنمـا خصّهم بيوم العذاب وإنـ كان يوم الثّواب لأن الكلام خرج مخرج التّهديد للعاصى . ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى فى ذلك اليوم ﴿ رَبَّنَـا أَخِّرْنَا ﴾ أى أمهلنا . ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . ﴿ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أى إلى الإسلام ﴿ وَنَتَّبِـعِ الرُّسُلَ ﴾ . فيجابوا :﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْـلُ ﴾ يعنى فى دار الدنيا . ﴿ مَالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ قال مجاهـد : هو قَسَم قريش أنهـم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وأقسموا بِاللهِ جهد أيمـانِهِم لا يبعث الله من يموت» . «مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما — ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى — « ما لكم مِن زوالٍ » أى من العـذاب . وذكر البيْهقىّ عن محمـد بن كعب القُرَظِىّ قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا ، يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيجيبهم الله « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُـكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِـيرِ » .

(١) " فوق صـعل " : شبه الناقة فى سرعتها بالظليم، فكأن رحلها فوقه . والصعل : الصغير الرأس ، وبذلك يوصف الظليم .

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم الله تعالى « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم الله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » . ويقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم الله تعالى : « ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فلا يتكلمون بعدها أبدا؛ خرجه ابن المبارك في « دقائقه » بأطول من هـذا — وقد كتبناه في كتاب « التذكرة » — وزاد في الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هـذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : « ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال : فحدثني الأزهر ابن أبي الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله : « هَـذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

قوله تعالى : وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ أي في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعد ما تبين لكم مافعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي « وَنُبَيِّنْ لَكُمْ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضي، وليناسب قوله : « كيف فعلنا بهم » . وقراءة الجماعة « وَتَبَيَّنَ » وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ « إن » بمعنى «ما» أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه؛ «وإن» بمعنى «ما» فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى — «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» . الثالث — «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا» أى ما كنا . الرابع — «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ» . الخامس — «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ» . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرأ عمرو بن علىّ وابن مسعود وأبىّ «وإن كاد» بالدال، والعامة على كسر اللام فى «لتزول» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصبا . وقرأ ابن مُحَيصن وابن جُرَيج والكسائىّ «لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخفّفة من الثّقيلة، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم، أى ولقد عَظُم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه؛ قال الطّبرىّ : الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدّثناه أحمدُ بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانيل قال سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبّارا من الجبابرة قال لا أنتهى حتى أعلم من فى السموات، فعمَد إلى فراخ نُسُور، فأمر أن تطعم اللحم، حتى اشتدت وعَضَلتْ واستعلجتْ أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين، وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لحم شديد حمرته ، وأن يُستوثق من أرجل النّسور بالأوتاد، وتُشدّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأثارَ النّسورَ، فلما رأت اللحم طلبته، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب، فقال : أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعْدا، فقال: نكِّس العصا فنكّسها، فانقضّت النّسور . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن

مراتبها منها؛ قال : فسمعت عليّا رضى الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية[(1)] . وقد ذكر الثعلبيّ هذا الخبر بمعناه، وأن الجبّار هو النّمرود الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه، وقال عِكْرِمة : كان معه فى التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليـه ملطخا بالدماء وقال : كُفيتُ نَفْسَك[(2)] إلهَ السّماء . قال عِكْرِمة : تَلَطّخ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليـه من بحر فى الهواء معلّق . وقيـل : طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنَكِّس اللحم، فهبطت النّسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء، وأنّ الساعة قد قامت، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القُشَيرىّ : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة فى الجبال . وذكر المـاوردىّ عن ابن عباس : أن النّمرود بن كنعان بَنَى الصّرح فى قرية الرّسّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا، وعرضـه ثلاثة آلاف ذراع وخمسـة وعشرين ذراعا، وصعد منـه مع النّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصنا، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعا، فهـذا معنى « وَقَـدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ » وفى الجبـال التى عَنَى زوالهـا بمكرهم وجهان : أحدهما — جبال الأرض . الثانى — الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال . وقال القُشَيرىّ : « وَعِنْـدَ اللهِ مَكْرُهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أى ما كان مكرهم مكرا يكون له أثر وخطر عنـد الله تعالى، فالجبال مَثَل لأمر النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وإن كان مكرهم » فى تقديرهم « لِتزول منه الجبال » وتؤثر فى إبطال الإسـلام . وقرئ « لَتَزُولُ منه الجبالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أى كان مكرا عظيما تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

(1) تعقب هذه القصة ابن عطية فى تفسيره بعد أن حكاها عن الطبرى بقوله : «وذلك عندى لا يصح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى هذه القصة ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه فى مثل هذا» .

(2) عبارة الثعلبى فى « قصص الأنبياء » : (كفيت شغلى إله السماء) .

عليه وسلم، وهو كقوله تعالى : « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا » والجبال لا تزول ولكنّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ اسم الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب ؛ و « رُسُلَهُ » مفعول « وَعْدِهِ » وهو على الاتساع، والمعنى : مخلف وعده رسله ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ ﴿ وسائرُه بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ(١)

قال القُتَبِيّ : هو من المقدّم الذى يوضحه التأخير، والمؤخّر الذى يوضحه التقديم، وسواء فى قولك : مخلف وعده رسله، ومخلف رسله وعده . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ أى من أعدائه . ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أى آذكر يوم تبدّل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف فى كيفية تبديل

---

(١) يصف الشاعر هاجرة قد ألجأت الثيران إلى كنسها ؛ فترى الثور مدخلا لرأسه فى ظل كناسه لما يجده من الحرارة، وسائره بارز للشمس .

الأرض، فقال كثير من الناس : إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها، ورواه ابن مسعود رضي الله عنه؛ خرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حَوْشَب ، قال حدّثني ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرض مدّ الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبي هُريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "تُبدّل الأرضُ غيرَ الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكاظيّ (١) لا ترى فيها عِوجًا ولا أَمْتًا ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى [من كان في بطنها ففي بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها] (٢)" ذكره الغَزْنَويّ . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها؛ قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها، فمرة كالمُهْل ومرة كالدّهان؛ حكاه ابن الأنباريّ؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيّنا في كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء في ذلك ، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثَوْبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال اليهوديّ أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في الظُّلمة دون الجِسْر (٣)" وذكر الحديث . وخرج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : "على الصراط" خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وخرجه الترمذيّ عن عائشة وأنها هي السائلة، قال : هذا حديث حسن صحيح؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدّل وتُزال، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر . وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) أديم عكاظي : منسوب إلى عكاظ ، وهو مما حمل إليها فبيع بها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة .	(٢) عبارة الأصل هنا ناقصة ومحرفة ، والزيادة والتصويب من تفسير الطبري وكتاب « التذكرة » للؤلف .	(٣) الجسر : الصراط .

وسلم: "يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفْراءَ كقُرْصَة النَّقِيّ(١) ليس فيها عَلَمٌ لأحد".
وقال جابر: سألت أبا جعفر محمد بن علىّ عن قول الله عز وجل: «يوم تبدل الأرض غير الأرض» قال: تبدّل خُبْزَةً يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ». وقال ابن مسعود: إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَل عليها خطيئة. وقال ابن عباس: بأرض من فضة بيضاء. وقال علىّ رضى الله عنه: تبدل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل العين، وحسبك. ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى من قبورهم، وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أى يوم القيامة. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أى مشدودين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ وهى الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صَفَدته صَفْدا أى قيّدته والاسم الصَّفَد، فإذا أردت التكثير قلت: صَفَّدته تصفيدا؛ قال عمرو ابن كُلْثوم:

فآبُوا بالنِّهاب وبالسَّبايا ✽ وأُبْنا بالمُلوك مُصَفَّدِينا

أى مقيّدينا. وقال حسان:

مِنْ كلّ مَأْسُورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ ✽ صَقْرٍ إذَا لَاقَى الْكَرِيهَةَ حَامِ

أى غُلُّه. وأصفدته إصفادا أعطيته. وقيل: صَفَدته وأَصْفَدته جاريان فى القيد والإعطاء جميعا؛ قال النابغة:

✽ فلم أَعْرِضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ(٢) بالصَّفَد ✽

فالصَّفَد العطاء لأنه يُقيِّد ويُعبِّد؛ قال أبو الطيب:

وقيَّدتُ نفسى فى ذَرَاكَ(٣) محبَّةً ✽ ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

(١) النقى: الدقيق الحوارى. والحوارىّ: ما حوّر أى بيض. والعلم الأثر.
(٢) معنى أبيت اللعن: أى أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه، وصدر البيت:
✽ هــذا الثناء فإن تسمع لقائله ✽
(٣) الذرا (بالفتح): الدار ونواحيها، وكل ما استترت به؛ تقول: أنا فى ذرا فلان أى فى كنفه وستره.

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان فى غُلّ ، بيانه قوله : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » يعنى قرناءهم من الشياطين . وقيل : إنهم الكفار يجمعون فى الأصفاد كما اجتمعوا فى الدنيا على المعاصى . ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ أى قمصهم ؛ عن ابن دُرَيد وغيره ، واحدها سربال ، والفعل تَسربلتُ وسَربلتُ غيرى ؛ قال كعب بن مالك :

تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ * مِنْ نَسْجِ دَاودَ فى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

« مِن قَطِرانٍ » يعنى قطران الإبل الذى تُهْنأ به ؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم . وفى الصحيح أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودِرْع من جَرَب . وروى عن حماد أنهم قالوا هو النُّحاس . وقرأ عيسى بن عمر : « قَطْرَانٍ » بفتح القاف وتسكين الطاء . وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وجزم الطاء ؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحَا(١) * لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ وَالْمُسُوحَا

وقراءة رابعة : « مِنْ قِطْرٍ آنٍ »(٢) رويت عن ابن عباس وأبى هُريرة وعِكرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب ؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب ؛ ومنه قوله تعالى : « آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » . والآن : الذى قد ٱنتهى إلى حَرِّه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . ﴿ وَتَغْشَى ﴾ أى تضرب ﴿ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فتغشيها . ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ أى بما كسبت . ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة . ﴿ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليخوّفوا عقاب الله عز وجل . وقرئ . « وَلِيَنْذَرُوا » بفتح الياء والذال ، يقال : نَذِرت بالشىء أَنْذَر إذا علمت به فاستعددتَ له ، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليس ، وكأنهم ٱستغنوا بأن والفعل كقولك : سَرّنى أن نَذِرتُ بالشىء . ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين . ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو

(١) نتح العرق خرج من الجلد . (٢) « قطر » : ضبطه فى « روح المعانى » بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء ، ومثله فى « البحر المحيط » ، وضبط بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء ، ففيه ثلاث لغات .

الْأَلْبَـاب ﴾ أى وليتّعظ أصحاب العقول . وهــذه اللامات فى و « لينذروا » و « ليعلموا » و « ليذكر » متعلقة بمحذوف ، التقدير : ولذلك أنزلنـاه . وروى يمـان بن رئاب أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصـديق رضى الله عنـه . وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟ فقال : نعم ؛ قيـل : وأين هـو ؟ قال قوله تعالى : « هـذا بلاغ لِلناسِ ولِيُنذروا بِهِ » إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .

تم الجزء التاسع من تفسير القرطبى

يتـلوه إن شـاء الله تعـالى الجـزء العـاشر، وأوّله :

ســورة « الحجــر »

كَمُلَ طبــع الجزء التاسع من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبى "
بمطبعــة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٨ ذو القعدة ســنة ١٣٥٨
(١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩) م — محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصـــرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٧٢/١٩٣٨/٥٠٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء العاشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء العاشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

فهرس الجزء العاشر

تفسير سورة الحجر

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ســـورة الإســـراء

صفحة

ســورة الكهف

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (١)

تقدّم معناه[١] . و « الكتاب » قيل فيه : إنه اسم لجنس الكتب المتقدّمة من التوراة والإنجيل، ثم قرنهما بالكتاب المبين . وقيل : الكتاب هو القرآن، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (٢)

«رُبّ» لا تدخل على الفعل، فإذا لحقتها «ما» هيأتها للدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون «ما» نكرة بمعنى شيء، و«يودّ» صفة له ؛ أى رب شيء يودّ الكافر . وقرأ نافع وعاصم « ربما » مخفف الباء . الباقون مشدّدة، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربما ؛ قال الشاعر :

رُبَما ضربةٍ بسيف صقيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نجلاء[٢]

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها . وحكى فيها : رَبَّما ورَبما، ورُبَّتَما ورُبَتَما، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً[٣] . وأصلها أن تستعمل فى القليل وقد تستعمل فى الكثير ؛ أى يودّ الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين ؛ قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٠٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت لعدى بن الرعلاء الغسانى . وبصرى : بلدة قرب الشام، هى كرسى حوران، كان يقوم فيها سوق للجاهلية . قال صاحب خزانة الأدب : « ... وإنما صح اضافة بين إلى بصرى لاشتمالها على متعدد من الأمكنة ؛ أى بين أماكن بصرى ونواحيها . وروى الشريف الحسينى فى حماسته : «دون بصرى» ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال العينى : بمعنى عند» . راجع الخزانة فى الشاهد التاسع والتسعين بعد السبعمائة . (٣) قال ابن هشام فى المغنى : «وفى رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ، ساكنة أو محركة ، ومع التجرد منها ؛ فهذه اثنتا عشرة . والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف» .

ألا ربّمـا أهدت لك العـين نظرةً * قُصاراك منها أنهـا عنك لا تُجـدِى(١)

وقال بعضهـم : هى للتقليل فى هـذا الموضع ؛ لأنهـم قالوا ذلك فى بعض المواضـع لا فى كلها؛ لشَغْلهم بالعذاب، والله أعلم . وقال : « رُبَمَـا يَوَدُّ » وهى إنما تكون لمـا وقع؛ لانه لصدق الوعد كأنه عِيان قد كان . وخرّج الطبرانىّ أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناسا من أمتى يدخلون النار بذنوبهم فيكونون فى النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيّرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم و إيمانكم نفعكم فلا يبقى موحّد إلا أخرجه الله من النـار — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليـه وسلم — رُبَمَـا يَوَدُّ الذين كفـروا لو كانوا مسـلمين " . قال الحسن : إذا رأى المشركون المسـلمين وقد دخلوا الجنـة ومأواهم فى النـار تمنّوا أنهـم كانوا مسلمين . وقال الضحاك : هـذا التمنى إنمـا هو عند المعاينة فى الدنيا حين تبيّن لهم الهـدى من الضلالة . وقيل : فى القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

قوله تعـالى : ذَرْهُـمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَـلُ فَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ ﴿٣﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ تهديد لهم . ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ أى يشـغلهم عن الطاعة . يقال : ألهاه عن كذا أى شـغله . ولَهِىَ هو عن الشيء يَلْهَى . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ إذا رأوا القيـامة وذاقوا وبال ما صنعوا . وهـذه الآية منسوخة بالســيف .

الثانيـــة — فى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيـا " . وطولُ الأمل داء

(١) أى لا تغنى؛ يقال : ما يجدى عنك هذا؛ أى ما يغنى . وفى بعض نسخ الأصل : لا تجزى؛ بالزاى، وهى بمعنى لا تغنى . ولم نوفق لمعرفة قافية البيت .

عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه ، ولم يفارقه داء ولانجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء و يئس من برئه الحكماء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحبُّ لهـا والإعراض عن الآخرة . وروى عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نجـا أوّل هـذه الأمة باليقين والزهـد و يهلك آخرها بالبخل والأمل" . و يروى عن أبي الدرداء رضي الله عنـه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : ياأهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنّ مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرا و يبنون مشـيّدا و يأملون بعيدا ، فأصبح جمعهم بُورا و بنيـانهم قبورا وأملهم غرورا . هذه عاد قد ملأت البـلاد أهلا ومالا وخيلا ورجالا ، فمن يشترى منى اليوم تركتهـم بدرهمين ! وأنشـــد :

يا ذا المؤمل آمالا وإن بَعُـدت * منـه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أنّى تفوز بمـا ترجوه وَيْكَ وما * أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن : ما أطال عبـدٌ الأمل إلا أساء العمل . وصدق رضي الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل و يورث التراخى والتوانى، و يعقب التشاغل والتقاعس، و يخلد إلى الأرض و يميل إلى الهوى . وهـذا أمر قد شوهد بالعِيـان فلا يحتاج إلى بيـان ولا يُطْلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قِصر الأمل يبعث على العمل ، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة .

قوله تعـالى : ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾

أى أجل مؤقت كتب لهم فى اللوح المحفوظ .

قوله تعـالى : ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

« من » صلة ؛ كقولك : ما جاءنى من أحد . أى لا تتجـاوز أجلها فتزيد عليـه ، ولا تتقدّم قبله . ونظيره قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »(١) .

---

(١) آية ٣٤ سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه . و ﴿ لَوْ مَا ﴾ تحضيض على الفعل كلولا وهلا . وقال الفراء : الميم فى « لوما » بدل من اللام فى لولا . ومثله استولى على الشيء واستومى عليه ، ومثله خالمته وخاللته ، فهو خِلِّى وخِلْمى ؛ أى صديق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر ، تقول : لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائى : لولا ولوما سواء فى الخبر والاستفهام . قال ابن مُقْبِل :

لَوْمَا الحياء ولوما الدِّين عبتكما * ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَرِى

يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأنشد أهل اللغة على ذلك :

تعدّون عَقْر النِّيب أفضلَ مجدِكم * بنى ضَوْطَرَى لولا الكَمِىَّ المُقَنَّعا(١)

أى هلا تعدون الكمِىّ المقنعا .

قوله تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائى ﴿ مَا نُنَزِّل الملائكةَ إلا بِالحق ﴾ واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو بكر والمفضل « ما تُنَزَّل الملائكةُ » . الباقون « ما تَنَزَّل الملائكةُ » وتقديره : ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا ، وقد شدّد التاء البَزّى ، واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله : « تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ والرُّوحُ »(٢) . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلا بالقرآن . وقيل بالرسالة ؛ عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ أى لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

---

(١) البيت لجرير يهجو الفرزدق . والعقر : ضرب قوائم الناقة بالسيف . والنيب (بكسر النون) : جمع ناب ، وهى الناقة المسنة . وضوطرى : هو الرجل الضخم اللئيم الذى لا غناء عنده ؛ وهى كلمة ذمّ وسب . والكمى : الشجاع المتكمى فى سلاحه ؛ لأنه كمّى نفسه أى شدّها بالدرع والبيضة . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر .

(٢) آية ٤ سورة القدر .

بعد ذلك لم ينظُروا . وأصل « إذًا » إذْ أن — ومعناه حينئذ — فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة فحذفوها .

قوله تعـالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البُنَانى : حفظه الله من أن تزيد فيه الشـياطين باطلا أو تنقُص منه حقا؛ فتولّى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا، وقال فى غيره : « بما ٱسْتُحْفِظُوا »[1] ، فوَكَل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا . أنبأنا الشـيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبى الحسن على بن خلف بن معزوز الكومى التِّلِمْسـانى قال : قرئ على الشيخة العـالمة فخر النساء شُهْدة بنت أبى نصر أحمـد بن الفرج الدِّينَوَرِى وذلك بمنزلها بدار السلام فى آخر جمادى الآخرة من سـنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طرّاد بن محمد الزّينبى قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة، أخبرنا علىّ بن عبد الله بن إبراهيم حدّثنا أبو على عيسى بن محمد بن أحمد ٱبن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز ٱبن جريج المعروف بالطُّومَارِى حدّثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون — وهو أمير إذ ذاك — مجلس نظر، فدخل فى جملة الناس رجل يهودى حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلمـا تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلى ؟ قال نعم . قال له : أسلِم حتى أفعلَ بك وأصنع ، ووعده . فقال : دينى ودين آبائى ! وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مُسْلما ، قال : فتكلّم على الفقه فأحسن الكلام؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المـأمون وقال : ألستَ صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى . قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت ترانى حسن الخط ،

(١) فى قوله تعالى : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور... » آية ٤٤ سورة المائدة، وراجع جـ ٦ ص ١٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

فعمَدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُريت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البِيعة فاشتُريت مني ، وعمَدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسـخ وزدت فيهـا ونقصت ، وأدخلتها الورّاقين فتصفحوها ، فلمـا أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هـذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سببَ إسلامى . قال يحيى بن أكثم : فحججت تلك السنةَ فلقيت سفيان بن عُيينة فذكرت له الخبر فقال لى : مصداق هذا فى كتاب الله عز وجل . قال قلت : فى أى موضع ؟ قال : فى قول الله تبارك وتعالى فى التوراة والإنجيل : « بِمـا اسْتُحْفِظوا مِن كِتابِ اللهِ »(1) ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافِظون » فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع . وقيل : «وإنا له لحافظون» أى لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقوّل علينا أو نتقول عليه . أو « وإنا له لحافظون » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « واللهُ يَعْصِمُكَ من النّاس »(2) . و « نحن » يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نزلنا » الخبر . والجملة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيدا لاسم « إن » فى موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذى بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة ، والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات .

قوله تعالى : وَلَقَـدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠)

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسـلا ، فحذف . والشِّيَع جمـع شيعة وهى الأُمّة ، أى فى أممهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الحسن : فى فرقهم . والشّيعة : الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة . فكأن الشّيَع الفِرَق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا »(3) . وأصله مأخوذ من الشِّياع وهـو الحطب الصغار يوقد به الكبار — كما تقدم فى « الأنعام » . وقال الكلبى : إن الشّيَع هنا القرى .

(1) آية ٤٤ سورة المائدة . (2) آية ٦٧ سورة المائدة . (3) راجع جـ ٧ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعِل بمن قبلك من الرسل .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكناه فى قلوب من تقدم من شِيَع الأولين كذلك نسلكه فى قلوب مشركى قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن مَن قبلهم برسلهم . وروى ابن جُرَيج عن مجاهد قال : نسلك التكذيب . والسَّلْك : إدخال الشيء فى الشيء كإدخال الخيط فى المِخْيَط . يقال : سَلَكه يَسْلُكه سَلْكًا وسُلوكا ، وأسلكه إسلاكا . وسَلَك الطريق سُلوكا وسَلْكًا وأسلكه دخله ، والشيءُ فى غيره مثله ، والشيءَ كذلك والرُّمْح ، والخيط فى الجوهر ؛ كلّه فَعَل وأفعل . وقال عَدِيّ بن زيد :

* وقد سلكوك فى يوم عَصِيب (١) *

والسِّلك (بالكسر) الخيط . وفى الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة . وقيل : المعنى نسلك القرآن فى قلوبهم فيكذبون به . وقال الحسن ومجاهد وقتادة القولَ الذى عليه (٢) أكثر أهل التفسير ، وهو ألزم حجة على المعتزلة . وعن الحسن أيضا : نسلك الذكر إلزاما للحجة ؛ ذكره الغَزْنَوِيّ . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك . وقيل : « خلت سنة الأولين » بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر ، فهم يقتدون بأولئك .

---

(١) هذا عجز البيت ، وصدره كما فى اللسان وشعراء النصرانية :

* وكنتُ لِزازَ خصمك لم أُعَرِّد *

(٢) فى الأصول : «وقرأ» .

قوله تعـالى : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يقال : ظَـلّ يفعل كذا، أى يفعله بالنهـار . والمصدر الظُّـلول . أى لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعلّلوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقـرآن المعجز : إنه سحر . ﴿يَعْرُجُونَ﴾ من عَرَج يَعْرُج أى صعِد . والمعارج المصاعد . أى لو صعِدوا إلى السماء وشاهـدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر؛ عن الحسن وغيره . وقيـل : الضـمير فى «عليهـم» للشركين . وفى «فظَلّوا» للـلائكة، تذهب وتجىء . أى لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبوابا فى السماء تصعَد فيها الملائكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقتادة . ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُـدّت بالسحر؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُحِرت . الكلبى : أغشيت أبصارنا؛ وعنه أيضا عَمِيت . قتادة : أخذت . وقال المُؤَرِّج : دِيرَ بنا من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جُوَيْبِر : خُدعت . وقال أبو عمرو ابن العلاء : « سكرت » غُشّيت وغُطّيت . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر ☆ وجعلت عين الحرور تَسْكُرُ

وقال مجاهد : « سكرت » حبست . ومنه قول أوْس بن حَجر :

فصرت على لـــيلة ساهرهْ (١) ☆ فليست بطَـلْقٍ ولا سَاكِرَهْ

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : مُنِعت . قال ابن عَزيز : «سُكِّرت أبصارنا» سُدّت أبصارنا؛ هو من قولك : سَكَرت النهرَ إذا سددته . ويقال : هو من سُكْر الشراب ، كأن العين يلحقها مايلحق الشارب إذا سكِر . وقرأ ابن كثير «سَكِرت» بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابى : سُـكِرت ملئت (٢) . قال المهـدَوِى : والتخفيف والتشـديد

(١) فى اللسان مادة سكر : «جذلت» بالجيم والذال المفتوحتين؛ ومعنى «جذل» انتصب وثبت لا يبرح . وليلة طلق : مشرق لا برد فيها ولا حرّ ، ولا مطر ولا قرّ . (٢) عبارة ابن الأعرابى كما فى نسخ الأصـل : « سكرت ملئت ، وسكرت ملكت » ولم نر ما يؤيد هذا ، ولعله تكرير من النساخ مع تحريف .

فى «سكرت» ظاهران؛ التشديد للتكثير والتخفيف يؤدّى عن معناه . والمعروف أن «سكر» لايتعدى . قال أبو على : يجوز أن يكون سُمِع متعديا فى البصر . ومن قرأ «سَكِرت» فإنه شبه ماعرض لأبصارهم بحال السكران؛ كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، و بالتشديد أُخِذت؛ ذكرهما الماوردى . وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهد والحسن «سُكِرت» بالتخفيف . قال الحسن : أى سُحِرت . وحكى أبو عبيد عن أبى عبيدة أنه يقال : سُكِّرت أبصارهم إذا غَشِيها سَمَادِير(١) حتى لا يبصروا . وقال الفراء : من قرأ «سَكَرت» أخذه من سكور الريح . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة . والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى، قال : هو من السكر فى الشراب . وهذا قول حسن؛ أى غشيهم ما غطّى أبصارهم كما غشى السكرانَ ماغطى عقله . وسكور الريح سكونها وفتورها؛ فهو يرجع إلى معنى التحيير .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدلّ بها على وحدانيته . والبروج : القصور والمنازل . قال ابن عباس : أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر؛ أى منازلها. وأسماء هذه البروج : الحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسَّرطان، والأَسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْى، والدّلو، والحوت . والعرب تَعُدّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم، و يستدلّون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجَدْب . وقالوا : الفَلَك اثنا عشر برجا، كلّ برج مِيلان ونصف . وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرّج المرأة بإظهار زينتها . وقد تقدّم هذا المعنى فى النساء(٢) . وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وآرتفاعها . وقيل : الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح،

(١) السمادير : ضعف البصر . وقيل : هو الشىء الذى يترامى للانسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

يعنى السبعة السيارة (١) . وقال قوم : « بروجا » ؛ أى قصورا وبيوتا فيها الحرس، خلقها الله فى السماء . فالله أعلم . ﴿ وزيناها ﴾ يعنى السماء؛ كما قال فى سورة المُلْك : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » (٢) . ﴿ للنّاظرين ﴾ للمعتبرين والمتفكرين .

قوله تعالى : وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

أى مرجوم . والرجم الرمى بالحجارة . وقيل : الرجم اللعن والطرد . وقد تقدّم (٣) . وقال الكسائى : كل رجيم فى القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبى أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحفظ جميعها بعد بعثه وحُرست منهم بالشُّهُب . وقاله ابن عباس رضى الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لايحجبون عن السماء، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعا فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل؛ فاذا رأوا شيئا مما قالوه صدّقوهم فيما جاءوا به ، فلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها؛ فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمِىَ بشهاب (٤)؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

أى لكن من استرق السمع ، أى الخطفة اليسيرة، فهو استثناء منقطع . وقيل ، هو متصل؛ أى إلا ممن استرق السمع . أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى وغيره؛ إلا من استرق السمع فانا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئا؛ لقوله : «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» (٥) . وإذا استمع الشياطين

(١) وهى — حسب ترتيبها التصاعدى — : القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشترى، زحل .
(٢) آية ٥ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٤) فى سورة الصافات فى قوله تعالى : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ... » آية ٦ وما بعدها . وفى سورة الجن فى قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء ... » آية ٨ وما بعدها . (٥) آية ٢١٢ سورة الشعراء .

إلى شئ ليس بوحى فانهم يقـذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم(١)؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ أتبعه : أدركه ولحقه . شهاب : كوكب مضىء . وكذلك شهاب ثاقب . وقوله : «بِشِهَابٍ قَبَسٍ»(٢) بشعلة نار فى رأس عود؛ قاله ابن عزيز . وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إثْر عِفْـرِيَةٍ(٣) * مسوَّمٌ فى سـواد الليل مُنْقَضِب

وسمى الكوكب شهابا لبريقـه ، يشبه النار . وقيـل : شهاب لشعلة من نار، قبس لأهـل الأرض، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فانه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعـد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المـارد منها فيعلو، فَيُرْمَى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ماشاء الله فيلتهب ، فيأتى أصحابه وهو يلتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا ، فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل . فاذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدقوهم بكل ماجاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعا فى سورة « سبأ »(٤) إن شاء الله تعالى .

واختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويُحرق ويخبل ولا يقتـل . وقال الحسن وطائفة : يَقتل ؛ فعلى هـذا القول فى قتلهم بالشهب قبـل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما — أنهم يُقتلون قبـل إلقائهم ما اسـترقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكَهانة . والثانى — أنهم يُقتلون بعـد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لا نقطع الاستراق وانقطع الإحراق؛ ذكره المـاوردى .

(١) الخبل (بسكون الباء) : فساد الأعضاء . (٢) آية ٧ سورة النمل . (٣) أى إثر شيطان، ومسوّم : معلم . ومنقضب : منقضّ من مكانه . (٤) فى قوله تعالى : «ولا تنفع الشفاعة عنده» آية ٢٦ .

قلت : والقول الأوّل أصح على ما يأتى بيانه فى «الصافات»(١) . واختلف هـل كان رمىٌ بالشهب قبل المبعث؛ فقال الأكثرون نعم . وقيل لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وسيأتى بيان هذه المسألة فى سورة «الجن» إن شاء الله تعالى . وفى «الصافات» أيضا . قال الزجاج : والرمى بالشهب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسّيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان فى قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين، ثم صار رجوما حين ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يُرْمَوْن بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشِّهاب فى اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال : لما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل ، فأتوا عبد يا ليل بن عمرو الثقفى فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيّبوا أنعامهم لما رأوا فى النجوم . فقال لهم — وكان رجلا أعمى — : لا تعجلوا، وانظروا فإن كانت النجوم التى تُعرف فهى عند فناء الناس، وإن كانت لا تعرف فهى من حَدَث . فنظروا فاذا هى نجوم لا تُعرف، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٖ مَّوْزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ هـذا من نعمه أيضا ، ومما يدل على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء؛ كما قال : «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا»(٢) أى

(١) فى قوله تعالى : «لا يسمّعون إلى الملأ الأعلى ... .» آية ٨ . (٢) آية ٣٠ سورة النازعات .

بسطها . وقال : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ »[1] . وهو يرد على من زعم أنها كالكرة . وقد تقــدّم[2] . ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثابتة لئــلا تتحرك بأهلها . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أي مقدّر معلوم؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . و إنما قال «موزون» لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّة * عنـدى لكل مُخاصِم مِيزانُه

وقال قتادة : موزون يعني مقســوم . وقال مجاهد : موزون معـدود . و يقال : هذا كلام موزون؛ أي منظوم غير منتثر . فعلى هذا أي أنبتنا في الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن . وقد قال الله عز وجل في الحيوان : « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا »[3] . والمقصود من الإنبات الإنشاءُ والإيجاد . وقيل : ﴿ أنبتنا فيها ﴾ أي في الجبال ﴿ من كل شيء موزون ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير، حتى الزِّرنيخ والكحل، كل ذلك يوزن وزنا . رُوى معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا في الأرض الثمار ممـا يكال و يوزن . وقيــل : ما يوزن فيه الأثمـان لأنه أجلّ قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له . ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ يعني المطاعم والمشارب التي يعيشون بها؛ واحدها معيشة (بسكون الياء) . ومنه قول جرير :

تكلّفني مَعِيشـــةَ آلِ زيدٍ * ومَن لى بالمرقّق والصِّناب[4]

والأصلُ مَعْيِشة على مَفْعلة (بتحريك الياء) . وقد تقدّم في الأعـراف[5] . وقيل : إنها الملابس؛ قاله الحسن . وقيــل : إنهـا التصرف في أســباب الرزق مدة الحياة . قال المـاوردى : وهو الظاهر . ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ يريد الدواب والأنعام؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ »[6] ولفظ « من » يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل، غُلِّب من يعقل . أي

---

(١) آية ٤٨ سورة الذاريات . (٢) في قوله تعالى : «وهو الذى مدّ الأرض ...» آية ٣ سورة الرعد . راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٣٧ سورة آل عمران . (٤) الصناب : الخردل المضروب بالزبيب، يؤتدم به . (٥) راجع جـ ٧ ص ١٦٧ طبعة أولى أو ثانية . (٦) آية ٣١ سورة الإسراء .

جعلنا لكم فيها معايش وعبيـدا و إماء ودواب وأولادا نرزقهم ولا ترزقونهم . فـ«ـمن» على هـذا التأويل فى موضع نصب ؛ قال معناه مجاهـد وغيره . وقيل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور «وَمَنْ لستم له بِرازِقين» قال : الوحش . فـ«ـمن» على هذا تكون لما لا يعقل ؛ مثـل «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ»(١) الآية . وهى فى محـل خفض عطفا على الكاف والميم فى قوله : «لكم» . وفيه قبح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عنـدهم عطف الظاهر على المضـمر إلا باعادة حرف الجر؛ مثـل مررت به و بزيد . ولا يجوز مررت به وزيد إلا فى الشعر . كما قال :

فاليـوم قرّبت تهجـونا وتشـتمنا * فآذهب فما بك والأيامِ من عَجَب

وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة» وسورة «النساء» .

قوله تعـالى : وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنـدَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْـلُومٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ﴾ أى و إن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه؛ يعنى المطر المنزل من السماء،لأن به نبات كل شيء. قال الحسن: المطر خزائن كل شيء. وقيل : الخزائن المفاتيح، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق؛ قاله الكلبى. والمعنى واحد . ﴿وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه؛ كما قال : «وَلَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ»(٢) . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام، ولكن الله يقسمه كيف شاء، فيُمْطَر قوم ويحرم آخرون، وربما كان المطر فى البحار والقِفار . والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذى يستتر فيه الإنسان ما له . والخِزانة أيضا مصـدر خَزَن يَخْزُن . وما كان فى خِزانة الإنسان كان مُعَـدًّا له . فكذلك ما يقدر عليه الرب

(١) آية ٤٥ سورة النور . (٢) آية ٢٧ سورة الشورى .

فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيرى . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : فى العرش مثال كل شىء خلقه الله فى البر والبحر . وهو تأويل قوله تعالى: « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ » . والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »(١) وقوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ »(٢) . وقيل : الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء .

قوله تعالى : وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ ﴾ قراءة العامة « الرياح » بالجمع . وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد . كما يقال : جاءت الريح من كل جانب . كما يقال : أرضٌ سَبَاسِبُ(٣) وثوبٌ أخْلاق . وكذلك تفعل العرب فى كل شىء اتسع . وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ « لواقح » وهى جمع . ومعنى لواقح حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع . قال الأزهرى : وجعل الريح لاقحا لأنها تحمل السحاب؛ أى تُقِلّه وتصرّفه ثم تَمْرِيه(٤) فتستدِرّه ، أى تنزله؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا »(٥) أى حملت . وناقة لاقح ونُوق لواقح إذا حملت الأجنة فى بطونها . وقيل : لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل ، ولكنها لا تُلقح إلا وهى فى نفسها لاقح، كأن الرياح لَقِحت بخير . وقيل : ذوات لَقْح، وكل ذلك صحيح؛ أى منها ما يُلقح الشجر؛ كقولهم : عيشة راضية ؛ أى فيها رضًا ، وليل نائم؛ أى فيه نوم . ومنها ما تأتى بالسحاب . يقال : لَقِحت الناقة (بالكسر) لَقَحا ولَقَاحا (بالفتح) فهى لاقح . وألقحها الفحل أى ألقى إليها

(١) آية ٦ سورة الزمر . (٢) آية ٢٥ سورة الحديد . (٣) السبسب : الأرض المستوية البعيدة.
(٤) مرَت الريح السحاب : اذا أنزلت منه المطر . (٥) آية ٥٧ سورة الأعراف .

المـاء فحملته ؛ فالرياح كالفحل للسحاب . قال الجوهرى : ورياح لواقح ولا يقال ملاقح، وهو من النوادر . وحكى المهـدوى عن أبى عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنه جمـع مُلْقِحة ومُلْقِح، ثم حذفت زوائده . وقيـل : هو جمع لاقحة ولاقح، على معنى ذات اللّقاح على النسب . ويجـوز أن يكون معنى لاقح حاملا . والعرب تقول للجنوب : لاقح وحامل، وللشّمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عُمير : يرسـل الله المبشرة فتقم الأرض قَمّا (١) ، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر . وقيل : الريح الملاقح التى تحمـل الندى فتمجّه فى السحاب ، فإذا اجتمع فيـه صار مطرا . وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " الريح الجنوب من الجنة وهى الريح اللواقح التى ذكرها الله فى كتابه وفيها منافع للناس " . وروى عنـه عليه السـلام أنه قال : " ما هبّت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غَدِقة ". وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيهـا ؛ فالصَّبا تهيّجه ، والدَّبُور تُلقحه ، والجنوب تُدِرّه ، والشمال تفرّقه .

الثانيـــة — روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك — واللفظ لأشهب — قال مالك : قال الله تعـالى : « وأرسـلنا الرياح لواقِح » فلقاح القمح عندى أن يحبب ويُسَنْبِل ، ولا أدرى ما ييبَس فى أكمامه ، ولكن يُحبّب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساد الأخير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت ، وليس ذلك بأن تورّد . قال ابن العربى : إنمـا عوّل مالك فى هـذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل ، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله ؛ لأنه سُمى باسم تشـترك فيه كل حاملة وهو اللقاح، وعليه جاء الحديث "نهى النبىّ صـلى الله عليه وسـلم عن بيع الحَبّ حتى يشتد " . قال ابن عبد البر : الإبَار عند أهل العلم فى النخل التلقيح ، وهو أن يؤخذ شىء من طلع [ذكور] النخل فيُدْخَل بين ظهرانى طلع الإناث .

---

(١) قم البيت : كنسه .

ومعنى ذلك فى سائر الثمـار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها . والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكّر من الثمـار التذكير ، وفيما لا يذكّر أن يثبت من نواره ما يثبت ويسـقط ما يسقط . وحدّ ذلك فى الزرع ظهوره من الأرض ؛ قاله مالك . وقد روى عنه أن إباره أن يحبّب . ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخّر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ؛ لأنه قد جاء عليه وقت الإبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها فى الحبّ . فإن أبر بعض الحائط كان مالم يؤبر تبعا له . كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعا لذلك الصلاح فى جواز بيعه .

الثالثــة — روى الأئمة كلّهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ابتاع نخلا بعـد أن تؤبر فثمرتها للذى باعها إلا أن يَشـترط المبتاع . ومن ابتاع عبدا فماله للذى باعه إلا أن يشترطه المبتاع " . قال علماؤنا : إنمـا لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصـول فى البيع إلا بالشرط ؛ لأنه عين موجودة يحاط بهـا أمن سقوطها غالبا . بخلاف التى لم تؤبر ؛ إذ ليس سقوطها مأمونا فلم يتحقق لها وجود ، فلم يجز للبائع اشـتراطها ولا استثناؤها ؛ لأنها كالجنين . وهذا هو المشهور من مذهب مالك . وقيل : يجوز استثناؤها ؛ وهو قول الشافعى .

الرابعــة — لو اشتُرِى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشترى الأصل شراء الثمرة قبل طِيبها على مشهور قول مالك ، ويرى لهـا حكم التبعيـة وإن أفردت بالعقد . وعنـه فى رواية : لا يجوز . وبذلك قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وأهل الظاهر وفقهاء الحديث . وهو الأظهر من أحاديث النهى عن بيع الثمرة قبل بدوّ صلاحها .

الخامســة — ومما يتعلق بهذا الباب النهى عن بيع الملاقح؛ والملاقح الفحول من الإبل ، الواحد مُلقح . والملاقح أيضا الإناث التى فى بطونها أولادُها ، الواحدة ملقَحة (بفتح القاف) . والملاقيح مافى بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوحة ؛ من قولهم : لُقِحت ؛ كالمحموم من حُمّ ، والمجنون من جُنّ . وفى هذا جاء النهى . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم :

أنه نهى عن المَجْر وهو بيع ما فى بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال أبو عبيد : المضامين ما فى البطون، وهى الأجنة . والملاقيح ما فى أصلاب الفحول . وهو قول سعيد بن المسيّب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما فى ظهور الجمال ، والملاقيح ما فى بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأىّ الأمرين كان ، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزنى عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما فى البطون لبعض الأعراب :

مَنِيَّتِى (١) مَلاقِحًا فى الأبْطُنِ * تُنْتَجُ ما تَلْقَحُ بعد أزْمُنِ

وذكر الجوهرىّ على ذلك شاهدا قول الراجز :

إنّا وجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ * خيرا من التَّأنانِ والمسائِلِ (٢)

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابلِ * مَلقوحةً فى بطن نابٍ حامِلِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . وكل ما علاك فأظلّك يسمى سماء . وقيل : من جهة السماء . ﴿ مَاءً ﴾ أى قطرا . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . وقيل : سَقَى وأسقى بمعنًى . وقيل بالفرق ، وقد تقدّم (٣) . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه عندكم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثله « وأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ماءً طَهُورًا (٤) » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (٥) » . وقال سفيان : لستم بما نعين المطر .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾

أى الأرض ومن عليها، ولا يبقى شىء سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٦) » . فملك كلّ شىء لله تعالى . ولكن ملك عباده أملاكا فاذا ماتوا انقطعت

(١) كذا فى الأصل . (٢) الهوامل : الإبل المهملة . والتأنان : الأنين . والناب : الناقة المسنة . والحائل : التى لم تحمل . (٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٨ سورة الفرقان . (٥) آية ١٨ سورة المؤمنون . (٦) آية ٤٠ سورة مريم .

الدعاوى، فكان الله وارثا من هـذا الوجه . وقيــل : الإحياء فى هـذه الآية إحياء النطفة فى الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا فى قوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ فيه ثمان تأويلات : الأول — « المستقدمين » فى الخلق إلى اليوم، و «المستأخرين» الذين لم يخلقوا بعد؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثانى — « المستقدمين » الأموات، و « المستأخرين » الأحيـاء؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثـالث — « المستقدمين » من تقدّم أمة محمد ، و « المستأخرين » أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد . الرابع — «المستقدمين» فى الطاعة والخـير، و « المستأخرين » فى المعصية والشر؛ قاله الحسن وقتـادة أيضا . الخـامس — «المستقدمين» فى صفوف الحرب، و «المستأخرين» فيها؛ قاله سعيد بن المسيّب . السادس — « المستقدمين » من قتل فى الجهاد، و «المستأخرين» من لم يقتل؛ قاله القرظى . السابع — « المستقدمين » أوّل الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق؛ قاله الشعبى . الثـامن — « المستقدمين » فى صفوف الصلاة، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم، وعالم بمن خلق وما هو خالقـه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية؛ لمـا رواه النّسائى والترمذىّ عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون فى الصف الأوّل لئلا يراها، ويتأخّر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ» . وروى عن أبى الجوزاء ولم يُذكر ابن عباس . وهو أصح .

الثانيـــة ــ هذا يدل على فضل أوّل الوقت فى الصلاة وعلى فضل الصفّ الأوّل؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو يعلم الناس ما فى النـداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستَهِموا عليه لاستهموا"(١) . فاذا جاء الرجل عند الزوال فنزل فى الصف الأوّل مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب فى الفضل : أوّل الوقت، والصف الأوّل، ومجاورة الإمام . فان جاء عند الزوال فنزل فى الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأوّل، فقد حاز فضل أوّل الوقت وفاته فضل الصف الأوّل والمجاورة . فإن جاء وقت الزوال ونزل فى الصف الأوّل دون ما يلى الإمام فقد حاز فضل أوّل الوقت وفضل الصف الأوّل، وفاته مجاورة الإمام . فإن جاء بعد الزوال ونزل فى الصف الأوّل فقد فاته فضيلة أوّل الوقت، وحاز فضيلة الصف الأوّل ومجاورة الإمام . وهكذا . ومجاروة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هى كما قال صلى الله عليه وسلم : "لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنهى" الحديث . فما يلى الإمام ينبغى أن يكون لمن كانت هذه صفته ، فإن نزلها غيره أُخِّر وتقـدّم هو إلى الموضـع ؛ لأنه حقّه بأمر صاحب الشرع ، كالمحراب هو موضع الإمام تقدّم أو تأخر؛ قاله ابن العربى .

قلت : وعليه يحمل قول عمر رضى الله عنه : تأخر يا فلان ، تقدّم يا فلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة لَيَخِرّ ساجدا فيغفر لمن خلفه . وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك فى التوراة . ذكره الترمذىّ الحكيم فى نوادر الأصول . وسيأتى فى سورة « الصافات » زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ــ وكما تدل هـذه الآية على فضل الصف الأوّل فى الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأوّل فى القتال ؛ فإن القيام فى نحر العدوّ ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدّم إليه أفضـل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به . ولم يكن أحد يتقدّم فى الحرب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أشجع الناس . قال البَراء : كنا والله إذا احمرّ البأس نَتَّقِى به ، وإن الشجاع منا للذى يحاذِى به ، يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(١) أى إلا أن يقترعوا .

قوله تعـالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أى للحساب والجزاء . ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تقـدّم (١) .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى آدم عليه السلام . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ أى من طين يابس؛ عن آبن عباس وغيره . والصَّلْصَال : الطين الحرّ خُلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جفّ، فإذا طبخ بالنار فهو الفَخّار؛ عن أبى عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنشد أهل اللغة :

* كعَدْوِ المُصَلْصِل الجَوّال (٢) *

وقال مجاهـد : هو الطين المُنْتِن؛ واختاره الكسائى . قال : وهو من قول العرب : صـلّ اللحمُ وأصلّ إذا أنتن — مطبوخا كان أو نيئا — يَصِل صلولا . قال الحُطَيئة :

ذاك فتًى يبـذُل ذا قِـدْرِه * لا يُفسِد اللحمَ لَدَيه الصُّلول

وطين صَـلّال ومِصْلال؛ أى يصوّت إذا نقـرته كما يصوّت الحـديد . فكان أوّلَ ترابا، أى متفرّق الأجزاء ثم بُلّ فصـار طينا، ثم تُرِك حتى أنتن فصار حَمَأً مسـنونا؛ أى متغيرا، ثم يَبِس فصار صلصالا؛ على قول الجمهور . وقد مضى فى «البقرة» بيان (٣) هذا . والحَمَأ : الطين الأسود، وكذلك الحمأة بالتسكين؛ تقول منه : حمِئت البئر حَمْأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها . وحَمِئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرتْ حمأتُها . وأحماتُها إحماء ألقيتُ فيها الحَمْأة؛ عن آبن السِّكّيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (بسكون الميم) مثل الكمأة . والجمع حَمْءٌ، مثل تمرة وتمر . والحَمَأ المصدر، مثل الهلع والجزع، ثم سُمّى به . والمسنون المتغيّر . قال آبن عباس : هو التراب المبتل المنتن،

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هذا عجز البيت . وتمامه كما فى اللسان :

عنتريس تعـدو إذا مسها الصو * ت كعدو المصلصل الجـوّال

(٣) راجع المسألة الأولى جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

فجعل صلصالا كالفخار . ومثله قول مجاهـد وقتادة، قالا : المنتن المتغيّر؛ من قولهم : قـد أَسِن المـاء إذا تغيّر؛ ومنه « يَتَسَنَّه » و «ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ» . ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

سقت صـداى رُضابا غير ذى أسن * كالمسك فُتّ على ماء العناقيـــد

وقال الفراء : هو المتغير، وأصله من قولهم : سَنَنت الحجر على الحجر إذا حككته به . وما يخرج من الحجرين يقال له السنانة والسَّنين؛ ومنه المِسن . قال الشاعر :

ثم خاصرتُها إلى القبـة الحمـ * ـراء[1] تمشى فى مَرْمَرٍ مَسنون

أى محكوك مُمَلَّس . حُكى أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبـد الرحمن بن حسان يُشبِّب بآبنتك . فقال معاوية : وما قال ؟ فقال قال :

هى زَهْراءُ مثـــلُ لؤلؤة الغـوّ * اص مِيزَتْ من جَوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد : [إنه يقول[2]] :

وإذا ما نَسـبْتَها لم تجـدها * فى سَـناء من المكارم دونِ

فقال : صـدق! فقال : أين قوله : ثم خاصرتها ... البيت . فقال معاوية : كذب . وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب، وهو من قول العـرب : سننت المـاء وغيره على الوجه إذا صببته . والسَّن الصب . وروى علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : المسنون الرَّطب؛ وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لايكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن؛ لأنه يقال : سننت الشيء أى صببته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المروىّ عن عمر[3] أنه كان يَسُنّ المـاء على وجهه ولا يَشُنّه . والشنّ (بالشين) تفريق المـاء، وبالسين المهملة صبه من غير تفريق . وقال سيبويه : المسنون المصوّر . أخذ من سُنّة الوجه وهو صورته . وقال ذو الرمة :

تُرِيك سُـــنّة وجهٍ غيرَ مُقْـرِفة[4] * ملساء ليس بها خال ولا نَدَب

---

(١) فى اللسان : الخضراء. (٢) الزيادة عن اللسان. (٣) فى نهاية ابن الأثير: «ابن عمر».

(٤) السنة : الصورة . والمقرفة : التى دنت من الهجنة . والندب : الأثر من الجراح والقراح . وقوله : غير مقرفة؛ أى غير هجينة، عفيفة كريمة .

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم؛ من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيل : إن الصّلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدوىّ . ومن قال : إن الصلصال هو المنتن فأصله صلّال، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَإٍ » مفسر لجنس الصلصال؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ والجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل خلق آدم . وقال الحسن : يعنى إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . وسُمّىَ جانا لتواريه عن الأعين . وفى صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك (١)" . ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التى تقتل . وعنه : أنها نار لادخان لها، والصواعق تكون منها، وهى نار تكون بين السماء والحجاب . فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى ما أمرت . فالهَدّة (٢) التى تسمعون خرق ذلك الحجاب . وقال الحسن : نار السموم نار دونها حجاب، والذى تسمعون من انغطاط السحاب صوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة — قال — : وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر؛ إذ مثله لايقال من جهة الرأى . وقد خرّج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وُصف لكم" .

---

(١) أى لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه . (٢) الهدة : صوت وقع الحائط ونحوه .

فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهرى : مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلق منها الجان ، والسموم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سمّ يومُنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحَرُور بالليل وقد تكون بالنهار . القشيرى : وسُمِّيت الريح الحارة سموما لدخولها فى مَسامّ البدن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ تقدم فى «البقرة»(١) . ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ من طين ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أى سوّيت خلقه وصورته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ النفخ إجراء الريح فى الشيء . والرُّوح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما ؛ كقوله : " أرضى وسمائى وبيتى وناقة الله وشهر الله " . ومثله « ورُوحٌ منهُ » وقد تقدّم فى « النساء »(٢) مبيّنا . وذكرنا فى كتاب (التذكرة) الأحاديث الواردة التى تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لمسمًّى واحد . وسيأتى ذلك إن شاء الله . ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد : فإذا ركّبت فيه الحياة . ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أى خرّوا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة . ولله أن يفضل من يريد ؛ ففضل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم فى « البقرة »(٣) هذا المعنى . وقال القَفَّال : كانوا أفضل من آدم ، وآمتحنهم بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم ، وكان آدم قِبلة لهم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها . طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فيـه مسئلتان :

الأولى — لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ؛ لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »(١) وإنمـا منعه من ذلك الاستكبارُ والاستعظام ؛ كما تقدّم في « البقرة »(٢) بيانه . ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة »(٣) هـذا كلّه مستوفًى . وقال ابن عباس : الجان أبو الجن وليسوا شـياطين . والشـياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهـم الكافر . فآدم أبو الإنس . والجان أبو الجن . وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره المـاوردي . والذي تقـدّم في « البقرة » خلاف هـذا ، فتأمله هنـاك .

الثانيـة — الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : لفلان عليّ دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوى في ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات . وقال مالك وأبو حنيفـة رضي الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قُبل . فأما إذا استثنى المقوّمات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقومات ، مثـل أن يقول : عليّ عشرة دنانير إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينـارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقـر جميع المبلغ . وقال محمـد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقر جمـلة ما أقر به . والدليل

---

(١) آية ١٢ سورة الأعراف . راجع ج ٧ ص ١٦٩ طبعة أولى أو ثانية .　(٢) راجع ج ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة .　(٣) راجع ج ١ ص ٢٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا »[1] فاستثنى السلام من جملة اللغو . ومثله « فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس » وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى : « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه »[2] . وقال الشاعر :

وبلدةٍ ليس بها أنيس * إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء، والعِيس وهي الجمال البيض من الأنيس؛ ومثله قول النابغة[3] :

... ... * ... ...

قوله تعالى : قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ ﴾ أي ما المانع لك . ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي في ألا تكون . ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ بين تكبّره وحسده، وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدّم في « الأعراف »[4] بيانه . ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من السموات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة . ﴿ فإنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مرجوم بالشهب . وقيل : ملعون مشئوم . وقد تقدم هذا كله مستوفى في البقرة والأعراف . ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ أي لعنتي ؛ كما في سورة « ص »[5] .

---

(١) آية ٢٥ سورة الواقعة . (٢) آية ٥٠ سورة الكهف . (٣) لم يذكر المؤلف رحمة الله عليه قول النابغة، أو لعله سقط من الناسخ . ولعله يشير الى قوله :

حلفت يمينا غير ذي مثنوية * ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

وهذا البيت أورده سيبويه في كتابه شاهدا على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المنقطع؛ لأن حسن الظن ليس من العلم . والمثنوية : الاستثناء في اليمين . والمعنى : حلفت غير مستثن في يميني حسن ظني بصاحبي قام عندي مقام العلم الذي يوجب اليمين . (راجع كتاب سيبويه) . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية . (٥) آية ٧٨ .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ هـذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى ، وأنه أهـل أن يجاب له دعاء ؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة فى بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعـده . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ يعنى من المؤجّلين . ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى، أى حين تموت الخلائق . وقيـل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعـالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »(1) . وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما — كلمه على لسان رسوله . الثـانى — كلمه تغليظا فى الوعيـد لا على وجه التكرمة والتقـريب .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ تقدّم معنى الإغواء والزينـة فى الأعراف(2) . وتزيينه هنـا يكون بوجهين : إما بفعل المعـاصى، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لأضلنهم عن طريق الهدى . وروى ابن لَهيعة عبـدُ الله عن دُرّاج أبى السـمح عن أبى الهيـثم عن أبى سـعيد الخدرىّ قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .

---

(1) آية ٢٦ سورة الرحمن .   (2) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ و ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٠)

قـرأ أهل المدينة وأهـل الكوفة بفتح اللام؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم . وقرأ الباقون بكسر اللام؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمـامة أن الحواريين سـألوا عيسى عليه السلام عن المخلِصين لله فقـال : " الذى يعمـل ولا يحب أن يحمده الناس " .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤١)

قال عمر بن الخطاب : معناه هـذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجُم به على الجنـة . الحسن : « علىّ » بمعنى إلىّ . مجاهد والكسائىّ : هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهـدّده : طريقك علىّ ومصيرك إلىّ . وكقوله : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »(١) . فكان معنى الكلام : هذا طريقٌ مرجعه إلىّ فأجازى كُلًّا بعمله؛ يعنى طريق العبودية . وقيل : المعنى علىّ أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهـداية . وقرأ ابن سِيرين وقتادة والحسن وقيس بن عُبَاد وأبو رجاء وحُميد ويعقوب «هذا صِراط علىٌّ مستقيم» برفع « علىّ » وتنوينـه؛ ومعناه رفيع مستقيم؛ أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يُنال، مستقيم أن يمـال .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (٤٢)

فيـه مسألتـان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال العلماء : يعنى على قلوبهم . وقال ابن عُيينة : أى فى أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفـوى ويضيقه عليهم . وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(١) آية ١٤ سورة الفجر .

قلت : لعـل قائلا يقول : قد أخبر الله عن صـفة آدم وحواء عليهما السلام بقـوله : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ »(١)، وعن جملة من أصحاب نبيّه بقوله : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »(٢) فالجواب ما ذكر، وهو أنه ليس له سـلطان على قلوبهم، ولا موضع إيمـانهم، ولا يلقيهم فى ذنب يؤول إلى عدم القبول، بل تزيله التوبة وتمحوه الأوبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول، على ما تقدّم فى « البقرة »(٣) بيانه . وأما أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقـد مضى القول عنهم فى آل عمـران(٢) . ثم إن قوله سبحانه : « ليس لك عليهم سلطان » يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون فى أكثر الأوقات والأحوال، وقد يكون فى تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة؛ كما فُعل ببلال، إذ أتاه يهدّيه كما يهدّى الصبيّ حتى نام، ونام النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس فى النوم تفريط" ففرّج عنهم . ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أى الضالين المشركين . أى سلطانه على هؤلاء؛ دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »(٤) .

الثانيـــة ـــ وهذه الآية والتى قبلها دليل على جواز ٱستثناء القليـل من الكثير والكثير من القليل؛ مثـل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسـعة . وقال أحمد ٱبن حنبل : لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فمـا دونه . وأما ٱستثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « الغاوين » من العباد والعباد من الغاوين، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعـالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

---

(١) آية ٣٦ سورة البقرة . (٢) آية ١٥٥ سورة آل عمران، جـ ٤ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ١٠٠ سورة النحل .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعنى إبليس ومن اتبعـه . ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أى أطباق، طبق فوق طبق ﴿ لِكُلِّ بَابٍ ﴾ أى لكل طبقة ﴿ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أى حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغَنَوِيّ قال : سمعت حِطّان ٱبن عبد الله الرَّقاشي يقول سمعت عليًّا رضى الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قلنا : هى مثل أبوابنا . قال لا ، هى هكذا بعضها فوق بعض ، — زاد الثعلبيّ : ووضع إحدى يديه على الأخرى — وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحُطَمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظَى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكلّ باب أشدّ حرا من الذى يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التفسير . والذى عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدّركات، وهى مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهى التى تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها . ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سـعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية . قال الضحاك : فى الدّرك الأعلى المحمديّون، وفى الثانى النصارى، وفى الثالث اليهود، وفى الرابع الصابئون، وفى الخـامس المجوس ، وفى السادس مشركو العرب ، وفى السابع المنـافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المـائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » — وقد تقدم فى النساء[(١)] — ، وقال : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »[(٢)] ، وقال : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ »[(٣)] . وقسّم معاذ بن جبل رضى الله عنه العلماء السّوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب؛ ذكرناه فى كتاب (التذكرة) . وروى الترمذى من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب باب منهـا لمن سَلّ سـيفه على أمتى " قال : حديث غريب . وقال أُبَيّ بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحَرُورِيّة[(٤)] . وقال وهب بن منبّه : بين كل بابين مسيرة سبعين

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٤٦ سورة غافر . (٣) آية ١١٥ سورة المائدة .
(٤) فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « قال كعب رضى الله عنـه : للشهيد نور ، ولمن قاتل الحـرورية عشرة أنوار . وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب، باب منها للحرورية . قال : ولقد خرجوا فى زمان داود عليه السلام » .

سنة ، كلّ باب أشدّ حرًّا من الذى فوقه بسبعين ضعفا . وقد ذكرنا هذا كلّه فى كتاب التذكرة .
وروى سلام الطويل عن أبى سفيان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : « لها سبعةُ أبوابٍ لِكلّ بابٍ مِنهم جزْءٌ مقسوم » جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله ، وجزء آثروا شهواتهم على الله ، وجزء شفوْا غيظهم بغضب الله ، وجزء صيّروا رغبتهم بحظهم من الله ، وجزء عتَوْا على الله . ذكره الحَليمى أبو عبد الله الحسين بن الحسن فى كتاب (منهاج الدين) له ، وقال : فإن كان ثابتا فالمشركون بالله هم الثّنوية . والشاكّون هم الذين لايدرون أن لهم إلٰها أولا إلٰه لهم ، ويشكون فى شريعته أنها من عنده أم لا . والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ولا يثبتونه ، وهم الدهرية . والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى ؛ لتكذيبهم رسلَ الله وأمره ونهيه . والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه ، المعذّبون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم . والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب ؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه ، لهم جميع حظهم من الله تعالى . والعاتون على الله الذين لا يبالون بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا ، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون . والله أعلم بما أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث . ويروى أن سلمان الفارسيّ رضى الله عنه لما سمع هذه الآية « وإن جهنم لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ، فجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية « وإن جهنم لَمَوْعِدُهم أجمعين » ؟ فو الذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى ؛ فأنزل الله تعالى « إنّ المتقين فِى جناتٍ وعيُونٍ » . وقال بلال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلى فى مسجد المدينة وحده ، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « لها سبعة أبوابٍ لِكل بابٍ مِنهم جزء مقسوم » فخرّت الأعرابية مغشيًّا عليها ، وسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم وَجْبَتها [1] فانصرف ودعا بماء فصبّ

---

(١) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له كالهدّة .

على وجهها حتى أفاقت وجلست، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يا هـذه مالك" ؟ فقالت : أهذا شيء من كتاب الله المنزل، أو تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : "يا أعرابية، بل هو من كتاب الله تعـالى المنزل" فقالت : كل عضو من أعضائى يعذب على كل باب منها ؟ قال : "يا أعرابيـة ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذّب أهل كل منها على قدر أعمـالهم" فقالت : والله إنى امرأة مسـكينة ، مالى مال، ومالى إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهـم عن كل باب من أبواب جهنم حُرّ لوجه الله تعالى . فأتاه جبريل فقال : "يا رسول الله، بشّر الأعرابية أن الله قد حرّم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها" .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى الذين اتقوا الفواحش والشرك . ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين . ﴿ وعُيُونٍ ﴾ هى الأنهار الأربعة : ماء وخمر ولبن وعسل . وأما العيون المذكورة فى سورة «الإنسان» : الكافور والزنجبيل والسلسبيل، وفى «المطففين» : التسنيم ، فيأتى ذكرها وأهلها إن شاء الله . وضم العين من «عُيونٍ» على الأصل، والكسر مراعاة للياء ، وقرئ بهما . ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَـلَامٍ آمِنِينَ ﴾ قراءة العامة «ادخلوها» بوصـل الألف وضم الخاء ، من دخل يدخُل ، على الأمر . تقديره : قيـل ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب «ٱدخِلوها» بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخـاء على الفـعل المجهول، من أدخل . أى أدخلهم الله إياها . ومذهبهم كسر التنوين فى مثـل «بِرحمةٍ ٱدخلوا الجنة»(١) وشبهه؛ إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين؛ إذ هى ألف قطع ، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان . ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أى بسلامة من كل داء وآفة . وقيل : بتحية من الله لهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من الموت والعذاب والعزل والزوال .

(١) آية ٤٩ سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قال ابن عباس : أوّل مايدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين فيُذهب الله مافى قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم ، وتجرى عليهم نضرة النعيم ؛ ونحوه عن علىّ رضى الله عنه . وقال علىّ بن الحسين : نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ والصحابة ، يعنى ما كان بينهم فى الجاهلية من الغل . والقول الأوّل أظهر، يدلّ عليه سياق الآية . وقال علىّ رضى الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء . والغل : الحقد والعداوة ؛ يقال منه : غلّ يغِلّ . ويقال من الغلول وهو السرقة من المَغْنَم : غَلّ يَغُلّ . ويقال من الخيانة : أغَلّ يُغِلّ . كما قال :[1]

جَزَى الله عنا حَمْزَةَ بنةَ نَوفلٍ * جزاءَ مُغِلٍ بالأمانة كاذبِ

وقد مضى هذا فى آل عمران[2] . ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا ينظر بعضهم إلى قَفَا بعض تواصلًا وتحابُبًا ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسِرّة تدور كيفما شاءوا ، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالودّ . وسُرُر جمع سرير . مثل جديد وجدد . وقيل : هو من السرور ؛ فكأنه مكان رفيع ممهّد للسرور . والأوّل أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر ، السرير ما بين صنعاء[3] إلى الجابية وما بين عدن إلى أيْلة . « وإخوانا » نصب على الحال من « المتقين »

---

(١) البيت للنمر بن تولب من أبيات فى أم أولاده . وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن تولب سيد قومه أغار على بنى أسد فسبى منهم امرأة منهم يقال لها «حمزة بنت نوفل» فوهبها لأخيه النمر فتركته فحبسها حتى استقرت وولدت له أولادا ، ثم قالت له فى بعض أيامها : إنى قد اشتقت إلى أهلى ، فقال لها : إنى أخاف ان صرت إلى أهلك أن تغلبينى على نفسك فواثقته لترجعن إليه ، ثم خانت عهده . (راجع الأغانى ج ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق) .

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية . (٣) صنعاء : موضعان ، أحدهما باليمن وهى العظمى ، وأخرى قرية بالغوطة . والجابية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (عن معجم البلدان) .

أو من المضمر فى « ادخلوها » ، أو من المضمر فى « آمنين » ، أو يكون حالا مقدرة من الهاء والميم فى «صدورهم» . ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أى إعياء وتعب . ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لايزول ، وأن أهلها فيها باقون . أكلها دائم ؛ « إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ »[1] .

قوله تعالى : نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

هذه الآية وزانُ قوله عليه السلام : " لو يعلم المؤمن ما عنـد الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنِط من رحمته أحد " أخرجه مسـلم من حديث أبى هريرة . وقد تقـدّم فى الفاتحة[2] . وهكذا ينبغى للإنسان أن يذكّر نفسـه وغيره فيخوّف ويرجّى ، ويكون الخوف فى الصحة أغلب عليه منه فى المرض . وجاء فى الحديث أن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : "أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنـار" فشق ذلك عليهم فنزلت الآية . ذكره المـاوردىّ والمهدوىّ . ولفظ الثعلبىّ عن ابن عمر قال : اطّلع علينا النبىّ صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شَيْبة ونحن نضحك فقال : " مالكم تضحكون لا أراكم تضحكون " ثم أدبر حتى إذا كان عنـد الحِجْر رجع القهقرى فقال لنـا : " إنى لمـا خرجت جاءنى جبريل فقال يامحمد لِمَ تُقنّط عبادى من رحمتى « نبّئ عبادِى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابِى هو العذاب الأليم » " . فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعـالى : وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾

(١) آية ٥٤ سورة ص . (٢) راجع جـ ١ ص ١٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ضيفُ إبراهيم : الملائكة الذين بشروه (١) بالولد و بهلاك قوم لوط . وقد تقدّم ذكرهم . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان، وكان لقَصْره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفا لإضافته إليك ونزوله عليك . وقد مضى من حكم الضيف فى « هود » (٢) ما يكفى والحمد لله . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث "حين تَضيف الشمس للغروب"، وضيفوفة السهم (٣)، والإضافة النحوية . ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أى سلّموا سلاما . ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أى فزعون خائفون، وإنما قال هذا بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون ، على ما تقدّم فى هود (٤) . وقيل : أنكر السلام ولم يكن فى بلادهم رسم السلام . ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أى قالت الملائكة لا تخف . ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حليم؛ قاله مقاتل . وقال الجمهور : عالم . وهو إسحاق . ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ (٥) « أنْ » مصدرية؛ أى على مس الكبر إياى وزوجتى ، وقد تقدّم فى هود و إبراهيم؛ حيث يقول : « فَبِمَ تُبَشِّرُونَ » استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرأ الحسن « تُوجل » بضم التاء . والأعمش «بشرتمونِي» بغير ألف، ونافع وشيبة « تُبَشِّرونِ» بكسرالنون والتخفيف؛ مثل «أتحاجّونِي» وقد تقدّم تعليله (٦) . وقرأ ابن كَثير وابن محيصن «تُبَشِّرونِّ» بكسر النون مشدّدة، تقديره تبشروننى، فأدغم النون فى النون . الباقون « تُبشرون » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعـالى : قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بما لا خلف فيه، وأن الولد لابُدّ منه . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أى من الآيسين من الولد ، وكان قد أيس من الولد لفرط

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) ضاف السهم : عدل عن الهدف أو الرمية .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٥) راجع جـ ٩ ص ٦٩ و ٣٧٥
(٦) راجع جـ ٧ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

الكبر . وقراءة العـامة « مِن القانِطِين » بالألف . وقـرأ الأعمش ويحيى بن وَثاب « من القنطين » بلا ألف . وروى عن أبى عمرو . وهو مقصور من «القانطين» . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَنِط يَقْنَط؛ مثـل حذِر يحذر . وفتح النون وكسرها من « يقنط » لغتان قرئ بهما . وحكى فيه «يقنُط» بالضم . ولم يأت فيه «قنَط يقنَط» . [و] من فتح النون فى المـاضى والمسـتقبل فإنه جمع بين اللغتين، فأخذ فى المـاضى بلغة من قال : قنَط يقنِط، وفى المستقبل بلغة من قال : قنِط يقنَط؛ ذكره المهدوى .

قوله تعـالى : قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

أى المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب . يعنى أنه آستبعد الولد لكبر سـنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعـالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — لمـا علم أنهم ملائكة — إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد — قال : فمـا خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أى فمـا أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به . ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَـوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين ضالين . وفى الكلام إضمار؛ أى أرسلنا إلى قـوم مجرمين لنهلكهم . ﴿ إِلَّا آل لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهـل دينه . ﴿ إنا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « لَمُنْجُوهم » بالتخفيف من أنجى . الباقون : بالتشديد من نجّى، واختاره أبو عبيـد وأبو حاتم . والتنجيـة والإنجاء التخليص . ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ ﴾ استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين فى الهـلاك . وقـد تقدمت قصـة قوم لوط

فى « الأعراف »(١) وسورة « هود »(٢) بمـا فيه كفاية . ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين فى العذاب . والغابر : الباقى .

قال(٣) :

لا تكسع الشَّوْل بأغبارها * إنك لا تدرى مَن النّـاتج

الأغبار بقايا اللـبن . وقرأ أبو بكر والمفضـل « قَدَرنا » بالتخفيف هنا وفى النمـل(٤)، وشدد الباقون . الهَروِىّ : يقال قدّر وقَدَر، بمعنًى .

الثانيـــة — لا خلاف بيـن أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبـات نفى؛ فاذا قال رجل : له علىّ عشرة دراهم إلا أربعـة إلا درهمـا؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفى، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك لو قال : علىّ خمسـة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث . وكذلك إذا قال : لفلان علىّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثانى راجعا إلى ما قبله، والثالث إلى الثانى فيكون عليـه درهمان؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر . والتسعة نفى والسبعة نفى فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان، وهو القـدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سـبحانه : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إنا لَمُنَجُّوهُمْ أجمعين . إلا آمرأته » فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين، ثم قال : «إلا آمرأته» فاستثناها من آل لوط، فرجعت فى التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا الحكم فى الطلاق، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا آثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقى من المستثنى منه وهى الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فتفهّمه .

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) القائل هو الحارث بن حِلِّزة . والكسع : ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليجف لبنها و يتراد فى ظهرها فيكون أقوى لها على الجدب فى العام القابل . والشول : جمـع شائلة وهى من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . والأغبار: جمع الغبر، وهى بقية اللبن فى الضرع . (٤) فى قوله تعالى : «فأنجيناه وأهله...» آية ٥٧

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى لا أعرفكم. وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا فخاف عليهم من فتنة قومه ؛ فهذا هو الإنكار . ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكّون أنه نازل بهم، وهو العذاب . ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى فى هلاكهم. ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ تقــدّم فى هود[(١)] . ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أى كن من ورائهم لئلا يتخلّف منهم أحد فيناله العذاب . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ نُهوا عن الالتفات ليجدّوا فى السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح . وقيــل : المعنى لا يتخلف . ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صَــفَد، قرية من قرى لوط . وقد تقدّم . وقيــل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنمـا سمى اليقين لأن إبراهيم لمـا خرجت الرســل شيّعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهــم ؟ قال : "من ها هنا" وحدّ له حدًّا ، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب ، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم : "أيقنت بالله" فسمىّ اليقين .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٧٩ طبعه أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أى أوحينا إلى لوط . ﴿ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ نظيره «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا» . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى عند طلوع الصبح . وقد تقدّم(١) . ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أهل مدينة لوط ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ أى أضيافى . ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أى تخجلون . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يجوز أن يكون من الخزى وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخزاية وهو الحياء والخجل. وقد تقدّم فى هود(٢) . ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أن تضيف أحدا لأنا نريد منهم الفاحشة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء؛ عن الحسن . وقد تقدم فى الأعراف(٣) . وقيل : أو لم ننهك عن أن تكلمنا فى أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة . ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدّم بيان هذا فى هود(٤) .

قوله تعالى : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العربى : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سكرتهم يعمهون وفى حيرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه و بقائك يا محمد . وقيل وحياتك . وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : «ما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(١) راجع ج ٦ ص ٤٢٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٥ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٩ ص ٧٦ طبعة أولى أو ثانية .

ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعـالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرفٍ لمحمد صلى الله عليه وسـلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخُـلّة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر لغير ضرورة » .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا فى قصة لوط . قال القشيرى أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم فى تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط، أى كانوا فى سكرتهم يعمهون . وقيل : لمـا وعظ لوط قومَه وقال هؤلاء بنـاتى قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحلّ بهم صباحا . فإن قيل : فقـد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين ؛ فمـا فى هذا ؟ قيل له : ما من شىء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضـله على ما يدخل فى عداده، فكذلك نبيّنا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو فى عداده . والعَمْر والعُمْر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد؛ إلا أنه لا يستعمل فى القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عَمْرك الله، أى أسأل الله تعميرك . و « لَعَمْرُكَ » رفع بالابتداء وخبره محذوف . المعنى لعمرك مما أقسم به .

الثانيـــة — كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتى . قال إبراهيم النَّخَعِىّ : يكره للرجل أن يقـول لعمرى ؛ لأنه حلف بحيـاة نفسه، وذلك من كلام ضَعَفة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤنّثين يقسمون بحياتك وعَيْشك ، وليس من كلام أهل الذُّكْران، وإن كان الله سبحانه أقسم به فى هذه القصة، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه ، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل فى غيره . وقال ابن حبيب : ينبغى أن يُصرف « لعمرك » فى الكلام لهـذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربىّ : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه فى الاستعمال وردّ القسم إليه .

قلت : القسم بـ « لعمرك ولعمرى » ونحوه فى أشـعار العرب وفصيح كلامها كثير .

قال النابغة :

لَعَمْرِى وما عَمْـــرِى علىّ بهيّنٍ * لقد نَطقتْ بُطْــلًا علىّ الأقارع (١)

آخـــر :

لَعَمْرُك إن الموت ما أخطأ الفتى * لكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْيـاه باليَـدِ (٢)

آخـــر :

أيّهـا المنكح الـــثُّرَيّا سُهيـلًا * عَمْـــرَكَ الله كيف يلتقيـان

آخـــر :

إذا رَضِيَتْ علىّ بنو قُشَـــير * لَعَمْـــرُ اللهِ أعجبنى رضاهـا

وقال بعض أهل المعانى : لا يجوز هـذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، و إنمـا هو تعالى أزلىّ . ذكره الزهراوى .

الثالثـــة — قـد مضى الكلام فيما يُحلَف به وما لا يجوز الحلف به فى « المـائدة » (٣) ، وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبىّ صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : من جوّز الحلف بغير الله تعالى ممـا يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوما ؛ لأنه فى الباطن مستخِفّ بما وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياتك . و إذا أقسم الله تعـالى بحياة نبيّه فإنمـا أراد بيان التصريح لنـا أنه يجوز لنـا أن نحلف بحياته . وعلى مذهب مالك معنى قوله : « لعمرك » و « التِّينِ والزَّيْتُونِ » « والطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ » « والنَّجْمِ إِذَا هَوَى » « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » « لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . » كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، وبرب الكتاب المسطور ، وبرب البلد الذى حللت به ، وخالق عيشك وحياتك ، وحق محمـد ؛ فاليمين والقسم حاصل به سـبحانه لا بالمخلوق . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : ومن جَوّز اليمين بغير الله تعالى تأول قوله صلى الله عليه وسـلم : " لا تحلفوا

(١) أراد بالأقارع بنى قريع بن عوف ، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان . (٢) البيت لطرفة بن العبد . والطول : الحبل . وثنياه : ما ثُنى منه . (٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بآبائكم " وقال : إنما نَهى عن الحلف بالاباء الكفار، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم : " للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية " . ومالك حمل الحديث على ظاهره . قال ابن خُوَيْزِمنداد : واستدل أيضا من جوّز ذلك بأن أيمان المسلمين جرت منذ عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هـذا أن يحلفوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هـذا إذا حاكم أحدهم صاحبَه قال : احلف لى بحق ما حواه هـذا القبر، وبحق ساكن هـذا القبر، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالحَرَم والمَشاعر العظام ، والرُّكن والمَقام والمحراب وما يُتْلى فيه .

قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ نصب على الحال ، أى وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس أى أضاءت ، وشَرَقت إذا طلعت . وقيل : هما لغتان بمعنًى . وأشرق القوم أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . مثل أصبحوا وأمسوا ، وهو المراد فى الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أوّل العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس ، فكان تمام الهلاك عند ذلك . والله أعلم . و « الصيحة » العذاب . وتقدّم ذكر « سِجِّيل »[1] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ روى الترمذىّ الحكيم فى (نوادر الأصول) من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " للمتفرسين " وهو قول مجاهد . وروى أبو عيسى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع ج ٩ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية .

عليه وسـلم : " اتّقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله — ثم قرأ — « إِنّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِلمتوسِّمِينَ » " . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وابن زيد : للتوسمين للتفكرين . الضحاك : للناظرين . قال الشاعر[1] :

أوَ كلّما وردَتْ عكاظَ قبيلةٌ * بعثُوا إليّ عريفَهـم يتوسّم

وقال قتادة : للعتبرين . قال زهير :

وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومنظَرٌ * أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسِّـمِ

وقال أبو عبيدة : للتبصرين ، والمعنى متقارب . وروى الترمذيّ الحكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله عز وجل عبادا يعرفون الناس بالتوسُّم " . قال العلمـاء : التوسّم تفعّل من الوَسْم ، وهي العلامة التي يستدلّ بها على مطلوب غيرها . يقال : توسّمت فيـه الخير إذا رأيت مِيسَم ذلك فيـه ؛ ومنه قول عبـد الله ابن رَوَاحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم :

إني توسّمت فيك الخير أعرفه * والله يعلم أني ثابت البصر

آخـــر :

توسمتـــه لمـا رايت مهابة * عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يُعرف بها . وتوسّم الرجل طلب كلأَ الوَسْميّ . وأنشد :

وأصـبحن كالدَّوْم النّـواعِم غُـدْوةً * على وِجْهَـةٍ مِن ظاعنٍ مُتَوَسِّم

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليـك من فَرْقك إلى قدمك . وأصـل التوسّم التثبت والتفكر؛ مأخوذ من الوَسْم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصـفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهـيره من أدناس المعاصي وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا . روى نَهْشَل عن ابن عباس « للتوسمين » قال : لأهل الصلاح والخير . وزعمت الصوفية أنها كرامة . وقيل : بل هي استدلال بالعلامات،

---

(١) هو طريف بن تميم العنبري (عن شواهد سيبويه) .

ومن العلامات ما يبـدو ظاهرا لكل أحد و بأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر . قال الحسن : المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذى أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ؛ فهذا من الدلائل الظاهرة . ومثـله قول ابن عباس : ما سألنى أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه . وروى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة و رجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجارا، وقال الآخر : بل حدّادا ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجـارا وأنا اليوم حدّاد . وروى عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِيّ أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سَمّع سَمّع الله به، ومن راءى راءى الله به . فقلنا له : كأنك عرّضت بهذا الرجل، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حَرُورِيّاً ؛ فكان رأس الحَرُورِيّة ، واسمه مرداس . و روى عن الحسن البصرى أنه دخل عليـه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البَصرة إن لم يُحدِث ، فكان من أمره من القدر ما كان، حتى هجره عامة إخوانه . وقال لأيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة، ولم يستثن . و روى عن الشَّعْبِيّ أنه قال لداود الأَزْدى وهو يُماريه : إنك لا تموت حتى تُكْوَى فى رأسك، وكان كذلك . و روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر، فصعّد فيه النظر وصوّبه وقال : أيّهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث . فقال : ما له قاتله الله ! إنى لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا ؛ فكان منه فى الفتنة ما كان . و روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مَرّ بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علىّ وفى عينيه أثر الزنى ! فقال له أنس : أوَحْياً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ! ولكن برهان وفراسة وصدق . ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الثانيـــة — قال أبو بكر بن العربى : «إذا ثبت أن التوسم والتفرّس من مدارك المعانى فإن ذلك لا يترتب عليـه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرّس . وقـد كان قاضى القضـاة الشامى المـالكى ببغداد أيام كونى بالشام يحكم بالفراسة فى الأحكام، جَرْيًا على طريق إياس

ابن معاوية أيام كان قاضيا ، وكان شـيخنا فخر الإسـلام أبو بكر الشاشى صنف جزءا فى الرّد عليـه ، كتبه لى بخطه وأعطانيـه ، وذلك صحيح ؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا مدركة قطعا وليست الفراسة منها .

قوله تعـالى : وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ يعنى قرى قوم لوط . ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أى على طريق قومك يامحمد إلى الشام . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لعبرة للمصدّقين . ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ يريد قوم شعيب ، كانوا أصحاب غِياض ورياض وشجر مثمر . والأيْكة : الغَيْضـة ، وهى جماعة الشـجر ، والجمع الأَيْك . ويروى أن شجرهم كان دَوْمًا وهو المُقْل . قال النابغـــة :

تَجْـلُو بقَـادِمَتَىْ حمامــة أَيْكةٍ ＊ بَرَدًا أُسِــفَّ لِثَـاتُه بالإثْمِـــد

وقيـل : الأيكة اسم القرية . وقيل اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأيكة ولَيْكة مدينتهم ، بمنزلة بكة من مكة . وتقدّم خبر شعيب وقومه . ﴿ وَإِنهما لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى بطريق واضح فى نفسه ، يعنى مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمرّ عليهما .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

الحِجر ينطلق على معان : منها حِجر الكعبة . ومنها الحرام ؛ قال الله تعالى : «وَحِجْرًا مَحْجُورًا»(١) أى حراما محرما . والحِجر العقل ؛ قال الله تعـالى : « لِذِى حِجْـرٍ »(٢) والحِجْر حِجـر القميص ؛ والفتح أفصح . والحِجر الفرس الأنثى . والحِجر ديار ثمـود ، وهو المراد هنـا ، أى المدينة ؛

---

(١) آية ٥٣ سورة الفرقان .　　(٢) آية ٥ سورة الفجر .

قاله الأزهرىّ . قتادة : وهى ما بين مكة وتبوك ، وهو الوادى الذى فيه ثمود . الطبرىّ : هى أرض بين الحجـاز والشام ، وهم قوم صالح . وقال : ﴿الْمُـرْسَلِينَ﴾ وهو صالح وحده ، ولكن من كذب نبياً فقـد كذّب الأنبياء كلهم ؛ لأنهـم على دين واحد فى الأصول فلا يجوز التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحا ومن تبعه ومن تقدمه من النبيّين أيضا . والله أعلم . روى البخارىّ عن ابن عمر أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لمـا نزل الحجر فى غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عَجَنَّا واستقينا . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا المـاء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفى الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم على الحجر أرض ثمود ، فاسـتقوا من آبارها وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يسـتقوا من البئر التى تَرِدها الناقة . وروى أيضـا عن ابن عمر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حَذَراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم" ثم زجر[1] فأسرع .

قلت : ففى هذه الآية التى بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل ، استنبطها العلماء واختلف فى بعضها الفقهاء ، فأولها — كراهة دخول تلك المواضع ، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار ؛ فإن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التى أرشد إليها النبىّ صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تدخلوا أرض بابلَ فإنها ملعونة" .

مســـئلة : أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط ، فلم يجز الانتفاع به فرارا من سخط الله . وقال "اعلفوه الإبل" .

---

(١) أى زجر صلى الله عليه وسلم ناقته .

قلت : وهكذا حكم المـاء النجس وما يعجن به . وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلفه النحل . وثالثها — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن بهذا المـاء الإبل، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُر الإنسية يوم خَيْبَر؛ فدلّ على أن لحم الحُمُر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس . وقد أمر رســول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يُعلف الناضحَ[(١)] والرقيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس . قال الشافعيّ : ولو كان حراما لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه ؛ لأنه متعبد فيـه كما تعبّد في نفسه . ورابعها — في أمره صلى الله عليه وسلم بعلف الإبل العجين دليـل على جواز حمـل الرجل النجاسـة إلى كلابه ليأكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنـا وقال : تطلق الكلاب عليهـا ولا يحملها إليهم . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن تقـادمت أعصارهم وخفيت آثارهم؛ كما أن في الأوّل دليـلا على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . هذا ، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات ، لكن المقرون بالمحبوب محبوب ، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كُثَيِّر :

أحب لحبهـا السودان حتى　＊　أحبّ لحبها ســود الكلاب

وكما قال آخر :

أمرّ على الدّيار ديارِ ليْـــلَى　＊　أقبّل ذا الجدارَ وذا الجـــدارا
وما تلك الديارُ[(٢)] شَغفن قلبي　＊　ولكن حب من سكن الديارا

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب . قال ابن العربيّ : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وطَهورا " فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

(١) الناضح : البعير يستقى عليه .　(٢) الرواية المشهورة : «وما حب الديار» . والبيتان لمجنون ليلى . (راجع خزانة الأدب في الشاهد التسعين بعد المـائتين) .

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلّى فى سبع مواطن : فى المَزْبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق، وفى الحمام وفى معاطن الإبل وفوق بيت الله . وفى الباب عن أبى مَرْثد وجابر وأنس : حديثُ ابن عمر إسـناده ليس بذاك القوِىّ، وقد تُكُلِّم فى زيد بن جَبيرة من قِبَل حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبِيعة والبيت الذى فيه تمـاثيل ، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائمـا أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربى : ومن هـذه المواضع ما مُنع لحق الغير، ومنه ما مُنع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها؛ فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيـه ثوب طاهر كالحمـام والمقبرة فيها أو إليهـا فإن ذلك جائز فى المدونة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماؤنا بين المقـبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحِجر . وقال مالك فى المجموعة : لا يُصلِّى فى أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ؛ كأنه رأى لها علتين : الاستتار بها[1] ونفارها فتفسد على المصلى صـلاتَه ، فإن كانت واحدة[2] فلا بأس ؛ كما كان النبىّ صلى الله عليه وسـلم يفعل ؛ فى الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلّى على بساط فيه تمـاثيل إلا من ضرورة . وكره ابن القاسم الصـلاة إلى القبلة فيها تمـاثيل ، وفى الدار المغصوبة ، فإن فعـل أجزأه . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة فى الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربى : وذلك عنـدى بخلاف الأرض فإن الدار لا تُدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمـة لا يبطلها الملك .

قلت : الصحيح — إن شاء الله — الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هـذا وادٍ به شيطان " وقد رواه معمر عن الزهرىّ فقال : واخرجوا عن الموضع الذى أصابتكم فيه الغفلة . وقولِ علىّ : نهانى رسـول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . وقولِه عليه

(١) فى الموطأ : « لأنها يستتر بها للبول والغائط ؛ فلا تكاد تسلم مباركها من النجاسة » .
(٢) أى ناقة واحدة .

السلام حين مرّ بالحِجر من ثمـود : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " ونهيه عن الصلاة فى معاطن الإبل إلى غير ذلك ممـا فى هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليهـا والدلائل الصحيح مجيئها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا فى هـذا الباب أن ذلك الوادى وغيره من بقاع الأرض جائزأن يصلى فيها كلّها ما لم تكن فيها نجاسـة متيقَّنة تمنـع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من آعتل بأن موضـع النوم عن الصلاة موضـع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيـه الصلاة ، وكل ماروى فى هذا الباب من النهى عن الصلاة فى المقـبرة و بأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك ممـا فى هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسـلم : " جُعلت لى الأرض كلها مسجدا وَطهورا " ، وقولِه صلى الله عليه وسلم مخبرا : إن ذلك من فضائله وممـا خُصّ به ، وفضائلُه عند أهل العـلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صـلى الله عليه وسـلم : " أوتيت خمسـا — وقد روى سـتا ، وقد روى ثلاثا وأربعـا ، وهى تنتهى إلى أزيد من تسع ، قال فيهن — " لم يؤتهن أحد قبلى بُعثت إلى الأحمـر والأسود ونُصرت بالرُّعْب وجُعلت أمـتى خير الأمم وأحِلّت لى الغنائم وجُعلت لِىَ الأرض مسـجدا وَطهورا وأوتيت الشفاعة و بعثت بجوامع الكَلِم و بينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت فى يدى وأعطيت الكوثر وختِم بى النبيون " رواها جماعة من الصحابة . و بعضهم يذكر بعضها ، و يذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهى صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان ؛ ألا ترى أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيًّا ثم كان نبيًّا قبل أن يكون رسولا ؛ وكذلك روى عنه . وقال : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " ثم نزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[1] . وسمع رجلا يقوله : يا خير البرية ؛ فقال : " ذاك إبراهيم " وقال : " لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن مَتّا " وقال : " السـيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " . ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

(١) آية ٢ سورة الفتح .

تزداد إلى أن قبضه الله ؛ فمن هاهنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولاالاستثناء ولا النقصان، وجائز فيها الزيادة . وبقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا " أجزنا الصــلاة فى المقبرة والحمام وفى كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الأنجاس . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذرّ : " حيثما أدركتك الصلاةُ فصلّ فإن الأرض كلها مسجد " ذكره البخاريّ ولم يخص موضـعا من موضـع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرنى يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمـر حديث الترمذيّ الذى ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جَبِيرة وأنكروه عليــه، ولا يعرف هــذا الحديث مسندا إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة . وقد كتب الليث بن سـعد إلى عبــد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبــد الله بن نافع لا أعلم من حدّث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحُلْوانى عن سعيد بن أبى مريم عن الليث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد رُوِى عن علىّ بن أبى طالب قال : نهانى حبيبى صلى الله عليه وسـلم أن أصلى فى المقبرة ، ونهانى أن أصـلى فى أرض بابل فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذى رواه عن علىّ هو سـعيد ابن عبــد الرحمن الغِفارىّ ، بصرىّ ليس بمشهور ولا يصح له سمـاع عن علىّ ، ومَن دونه مجهولون لا يُعرفون . قال أبو عمـر : وفى البـاب عن علىّ من قوله غيرَ مرفوعٍ حديثٌ حسن الإسناد، رواه الفضل بن دُكين قال : حدثنا المغيرة بن أبى الحُرّ الكِنْدىّ قال حدّثنى أبو العَنْبس حُجْر بن عنبس قال : خرجنا مع علىّ إلى الحرورية ، فلمـا جاوزنا سـوريا وقع بأرض بابل ، قلنـا : يا أمـير المؤمنين أمسيتَ ، الصـلاةَ الصلاةَ ؛ فأبى أن يكلم أحدا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أمسيت . قال بلى ، ولكن لا أصلى فى أرض خسف الله بها . والمغيرة بن أبى الحُرّ كوفى ثقــة ؛ قاله يحيى بن مَعين وغيره . وحُجر بن عنبس من كبار أصحاب علىّ . وروى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُــدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " الأرض كلّها مسجد إلا المقبرةَ والحمام " . قال الترمذىّ : رواه سفيان الثورىّ عن عمرو بن

يحيى عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُرْسَلا، وكأنه أثبت وأصح . قال أبو عمر : فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا . ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين : إن المقبرة فى هذا الحديث وغيره أريد بها مقبرة المشركين خاصة؛ فإنه قال : المقبرة والحمام بالألف واللام؛ فغير جائز أن يُرَد ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له فى القياس ولا فى المعقول، ولا دلّ عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر . ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بما لا معنى له . أو يكون من أجل أنها بقعة سخط ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبنى مسجده فى مقبرة المشركين وينبشها ويسويها ويبنى عليها ، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث . وكل من كره الصلاة فى المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود ، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبيّنه صلى الله عليه وسلم ولم يهمله؛ لأنه بعث مبيِّنا . ولو ساغ لجاهل أن يقول : مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول : حمام كذا؛ لأن فى الحديث المقبرة والحمام . وكذلك قوله : المزبلة والمجزرة؛ غير جائز أن يقال : مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا؛ لأن التحكم فى دين الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبا طاهرا نظيفا جائز . وكذلك أجمعوا على أن من صلى فى كنيسة أو بيعة على موضع طاهر، أن صلاته ماضية جائزة . وقد تقدّم هذا فى سورة «براءة»(١) . ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

لأنها بقعة يعصى الله و يكفر به فيها، وليس كذلك المقبرة . وقـد وردت السنة باتخاذ البِيع والكنائس مساجد . روى النَّسائى عن طَـلْق بن علىّ قال : خرجنا وَفْـدًا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بِيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : "فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بِيعتكم واتخذوها مسجدا" . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقـد تقدّم فى « براءة » . وحسبك بمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم الذى أُسِّس على التقوى مبنيـا فى مقبرة المشركين ؛ وهو حجـة على كل من كره الصلاة فيها . وممن كره الصلاة فى المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثورىُّ وأبو حنيفـة والأوزاعىّ والشـافعىّ وأصحابهم . وعنـد الثورىّ لا يعيد . وعند الشافعىّ أجزأه إذا صلى فى المقبرة فى موضع ليس فيه نجاسة؛ للأحاديث المعلومة فى ذلك، ولحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا" ، ولحديث أبى مَرْثَد الغَنَوِىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" . وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل ، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة فى كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلا . ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خَطَل القول الذى لا يشـتغل بمثله ، ولا وجه له فى نظـر ولا فى صحيح أثر .

وثامنهـا[1] — الحائط يلقى فيه النَّتْن والعَذِرة ليكرم فلا يصلّى فيه حتى يُسقى ثلاث مرات ؛ لمـا رواه الدارقطنى عن مجاهد عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الحائط يُلقى فيه العَذِرة والنَّتْن قال : "إذا سُقِى ثلاث مرات فصلّ فيه" . وخرجه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التى تلقى فيها العَذِرات وهذا الزبل ، أيصلّى فيها ؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصلّ فيهـا . رُفع ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسـلم . اختلفا فى الإسناد ، والله أعلم .

---

(١) كذا فى الأصول . و يلاحظ أنه لم يتقدّم للسابعة ذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٨١)

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ أى بآياتنا . كقوله : « آتِنَا غَدَاءَنَا »(١) أى بغدائنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمّة : خروجها من الصخرة ، ودُنُوّ نتاجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة ، كالبئر وغيره . ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى لم يعتبروا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٤)

النحت فى كلام العرب : البَرْىُ والنَّجر . نحته ينحتــه (بالكسر) نحتا أى براه . والنُّحاتة البُراية . والمِنحت ما يُنحت به . وفى التنزيل « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »(٢) أى تنجرون وتصنعون . فكانوا يتخذون من الجبال بيــوتا لأنفسهم بشدة قوتهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أى فى وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصيحة فى هود والأعراف(٣) . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال والحصــون فى الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّـٰقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨٦)

---

(١) آية ٦٢ سورة الكهف . (٢) آية ٩٥ سورة الصافات .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٦١ و جـ ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفناء . وقيــل : أى لأجازى المحســن والمسىء ؛ كما قال : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »(١) . ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أى لكائنة فيُجزى كل بعمله . ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ مثل « وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا »(٢) أى تجاوز عنهم يا محمد ، واعف عفواً حسنا؛ ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ »(٣) . وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : "لقد جئتكم بالذبح وبُعثت بالحصاد(٤) ولم أبعث بالزراعة"؛ قاله عكرمة ومجاهد . وقيل : ليس بمنسوخ، وأنه أمِرَ بالصفح فى حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ أى المقدّر للخلق والاخلاق(٥) . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأهل الوفاق والنفاق .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

اختلف العلمـاء فى السبع المثانى ؛ فقيل: الفاتحة؛ قاله علىّ بن أبى طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة ، من حديث أُبَىّ بن كعب وأبى سعيد بن المُعَلَّى(٦) . وقد تقدّم فى تفسير الفاتحة . وخرّج الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهذا نص، وقد تقدّم فى الفاتحة . وقال الشاعر :

نشـــدتكم بمنزِل القـــرآن * أمِّ الكتاب السبعِ من مثانى

وقال ابن عبـاس : هى الســبع الطُّوَل : البقرة، وآل عمران ، والنساء ، والمـائدة ، والأنعـام، والأعراف، والأنفال والتوبة معـا؛ إذ ليس بينهما التســمية . روى النَّسائىّ

(١) آية ٣١ سورة النجم . (٢) آية ١٠ سورة المزمل . (٣) آية ٩١ سورة النساء .
(٤) كذا فى الأصول وتفسير الطبرى . وفى كتاب الجامع الصغير : «بالجهاد» . (٥) كذا فى الأصول .
(٦) راجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

حدّثنا على بن حُجْر أخبرنا شريك عن أبى إسحاق عن سـعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله عز وجل : ﴿ سَـبْعًا مِنَ الْمَثَانِى ﴾ قال : السبع الطُّوَل، وسميت مثانى لأن العبر والأحكام والحدود ثُنّيت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هـذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطُّوَل شئ إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنمـا آتاه محمدا صلى الله عليه وسلم و إن لم ينزل عليه بعد . وممن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُمْسِى * مُضيعـا للمفصّـل والمثـانى

وقيل : المثانى القرآن كله؛ قال الله تعالى : « كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ »[1] . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك، وقاله ابن عباس . وقيل له مثانى لأن الأنبـاء والقصص ثُنِّيت فيـه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقـد كان نورا ساطعا يهتدى به * يُخَصُّ بتـنزيل القُرآن المعظم

أى القرآن . وقيل : المـراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم وأنباء قرون؛ قاله زياد بن أبى مريم . والصحيح الأوّل لأنه نصّ . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك؛ إلا أنه إذا ورد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص فى شئ لايحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعـالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيـه إضمار تقـديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالهـا على ما يتعلق بأصول الإسـلام . وقد تقـدّم فى الفاتحة . وقيـل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثانى القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى المَلِك القَـرم وابن الهمام * وليثِ الكَتيبةِ فى المُـزْدَحم

وقد تقدّم عند قوله : « حافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى »[2] .

---

(١) آية ٢٣ سورة الزمر . (٢) راجع ج ٣ ص ٢١٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ المعنى : قد أغنيتك بالقرآن عما فى أيدى الناس ؛ فإنه ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ؛ أى ليس منا من رأى أنه ليس يَغْنَى بمـا عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأذْرِعات ليهود قُريظة والنّضير فى يوم واحد ، فيها البُرّ والطيب والجوهر وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله ، فأنزل الله تعالى « ولقد آتيناك سبعا مِن المثانِى » أى فهى خير لكم من القوافل السبع ؛ فلا تمدّن أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عُيينة ، وأورد قوله عليه السلام : "ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن" أى من لم يستغن به . وقد تقدّم هـذا المعنى فى أوّل الكتاب (١) . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ أى أمثالا فى النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض فى الغنى ، فهم أزواج .

الثانيـــة — هـذه الآية تقتضى الزجر عن التشوّف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال العبـد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (٢) » الآية . وليس كذلك ؛ فإنه روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "حُبِّب إلىّ من دنياكم (٣) النساء والطيب وجُعلت قُرّةُ عينى فى الصلاة" . وكان عليـه الصلاة والسـلام يتشاغل بالنساء ، جِبِلّة الآدمية وتشوّف الخلقة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ، ولا تقرّ له عين إلا فى الصلاة لدى مناجاة المولى . ويرى أن مناجاته أحْرى من ذلك وأولى . ولم يكن فى دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان فى دين عيسى ،

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ١٣١ سورة طه . (٣) كذا فى سنن النسائى ومسند الامام أحمـد . والذى فى الأصول : « حبب إلى من دينا كم ثلاث ... الخ » وبكلمة « ثلاث » لا يستقيم الكلام .

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدمى ، يأخذ من الآدمية بشهواتها و يرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضــلاء الانكفافَ عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليــوم أولى؛ لمــا غَلب على الدنيــا من الحرام ، واضطرّ العبد فى المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعةِ من تحرم مصانعته ، فكانت القراءة أفضل ، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال صلى الله عليه وسلم : "يأتى على الناس زمان يكون خير مال المسلم غَنَماً يتبع بها شَعَف(١) الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن".

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيــل : المعنى لا تحزن على ما مُتِّعوا به فى الدنيا فلك فى الآخرة أفضلُ منه . وقيــل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العــذاب . ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أَلِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضَعْ لهم . وأصله أن الطائر إذا ضَمّ فرخه إلى نفســه بسط جناحه ثم قبضه على الفــرخ ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . و يقال : فلان خافض الجناح ، أى وقور ساكن . والجناحان من ٱبن آدم جانباه ، ومنه « وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ(٢) » وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحسبك فتيــة لزعيم قوم * يمدّ على أخى ســقم جناحا

أى تواضعا ولينا .

قوله تعــالى : وَقُــلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّـذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَـا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

فى الكلام حذف؛ أى إنى أنا النذير المبين عذابا، فحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال فى موضع آخر : « أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(٣) » . وقيل : الكاف زائدة، أى أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » . وقيل : أنذرتكم

(١) أى رءوسها . (٢) آية ٢٢ سورة طه . (٣) آية ١٣ سورة فصلت .

مثل ما أنزلنـا بالمقتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغَوْا ، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

وآختلف فى « الْمُقْتَسِمِينَ » على أقوال سـبعة : الأول — قال مقاتل والفـراء : هم سـتة عشر رجلا بعثهم الوليـد بن المغيرة أيام الموسم فآقتسموا أعقاب مكة وأنقابها و فجاجها يقولون لمن سلكها : لا تغترُّوا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة، فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر، وربمـا قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن . وسُمُّوا المقتسمين لأنهـم اقتسموا هـذه الطرق ، فأماتهم الله شرّ ميتة ، وكانوا نصبوا الوليـد بن المغيرة حَكَمًا على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثانى — قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، و بعضه سحرا ، و بعضه كهانة ، و بعضه أساطير الأوّلين . الثالث — قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وسُمّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم : هـذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس — قال قتادة : قسموا كتابهم ففرّقوه وبددوه وحرّفوه . السادس — قال زيد بن أسـلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتـله فسُمّوا مقتسمين ؛ كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ » (1) . السابع — قال الأخفش : هم قوم اقتسموا أيمانا تحالفوا عليها . وقيـل : إنهم العـاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعـة وأبو جهـل بن هشام وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام والنضر بن الحـارث وأمية بن خلف ومنبّـه ابن الحجاج؛ ذكره المـاورديّ .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ (٩١)

هذه صفة المقتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لنسألنهم » . وواحد العِضين عِضَة ، من عضّيت الشيء تعضية أى فرّقته ؛ وكل فرقة عِضَـة . وقال بعضهم : كانت فى الأصـل

(١) آية ٤٩ سورة النمل .

عِضْوَة فنقصت الواو ، ولذلك جمعت عضين؛ كما قالوا : عِزِين فى جمـع عِزة ، والأصـل عِزْوة . وكذلك ثُبَـة وثبين . ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه فى المقتسمين . قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقيل : فرّقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا . عضوته أى فرقته . قال الشاعر — هو رؤبة — :

* وليس دين الله بالمُعَضَّى *

أى بالمفرّق . ويقال : نقصانه الهـاء وأصله عضهة ؛ لأن العِضَه والعِضين فى لغـة قريش السحر . وهم يقولون للساحر : عاضِه وللساحرة عاضِهة . قال الشاعر :

أعوذ بربى من النافِثـــا * تِ فى عُقَد العاضِــه المُعْضِه

وفى الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضِهة والمُسْتَعْضِهة ، وفُسّر : الساحرة والمستسحِرة . والمعنى : أكثروا البُهْت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه ، فقالوا : سحر وأساطير الأولين ، وأنه مفترًى ، إلى غير ذلك . ونظير عِضة فى النقصان شَـفه ، والأصل شَفَهة . كما قالوا : سـنة ، والأصل سنَهة ، فنقصوا الهـاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهى للتأنيث . وقيـل : هو من العَضْه وهى النميمة . والعَضِيهة البهتان ، وهو أن يعضَه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيـه . يقال عَضَهه عَضْهًا رماه بالبهتان . وقـد أعْضَهْت أى جئت بالبهتان . قال الكسائى : العِضَـة الكذب والبهتان ، وجمعها عِضون ؛ مثل عِزة وعِزون ؛ قال تعـالى : « الذين جعلوا القرآن عِضين » . ويقال : عَضّوه أى آمنوا بمـا أحبوا منه وكفروا بالباقى ، فأحبط كفرهم إيمـانهم . وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة ، وهى شجر الوادى ويخرج كالشوك .

قوله تعـالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فوربّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لنسئلن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا فى الدنيا . وفى البخارى : وقال عِدة من أهل العلم فى قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » عن لا إله إلا الله .

قلت : وهذا قد روى مرفوعا ، روى الترمذي الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نَهِيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » قال : " عن قول لا إلٰه إلا الله " قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إلٰه إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر فى تنزيله العمل فقال : « عما كانوا يعملون » ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، فإنما المعنىّ به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعملَ عملٌ . وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عن لا إلٰه إلا الله " أى عن الوفاء بها والصدق لمقالها . كما قال الحسن البصرىّ : ليس الإيمان بالتحلّى ولا الدين بالتمنى ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة " قيل : يارسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : " أن تحجُزه عن محارم الله " . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عهد إلىّ ألا يأتينى أحد من أمتى بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وَجَبت له الجنة " قالوا : يا رسول الله ، وما الذى يخلط بلاإله إلا الله ؟ قال : " حرصا على الدنيا وجَمْعا لها ومنعا لها ، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة " . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله رُدّت عليهم وقال الله كذبتم " . أسانيدها فى نوادر الأصول .

قلت : والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه فى كتاب (التذكرة) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا : فيه خلاف ، وذكرناه فى التذكرة . والذى يظهر سؤاله ، للآية وقوله : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (١) » وقوله : « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢) » . فإن قيل : فقد قال تعالى :

(١) آية ٢٤ سورة الصافات . (٢) آية ٢٥ سورة الغاشية .

« وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(١) وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »(٢)، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ »(٣)، وقال : « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »(٤) . قلنا : القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن، يسأل فى بعضها ولا يسأل فى بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لِمَ عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟ واعتمد قُطْرُب هذا القول . وقيل : « لنسألنهم أجمعين » يعنى المؤمنين المكلفين؛ بيانُه قولُه تعالى : « ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يومئذٍ عنِ النَّعِيم »(٥) . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى بالذى تؤمر به، أى بلّغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدّع القوم أى تفرقوا؛ ومنه « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ »(٦) أى يتفرقون . وصدعته فانصدع أى انشق . وأصل الصدع الفرق والشق . قال أبو ذُؤَيب يصف الحمار وأُتُنَه :

وكأنهن رِبَابة وكأنه يَسَرٌ * يُفِيض على القِداح ويَصْدَع(٧)

أى يفرق ويشق . فقوله : « ٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر، أى أظهر دينك، فـ « ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابى : معنى اصدع بما تؤمر، أى اقصد . وقيل : « فاصدع بما تؤمر » أى فرّق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

---

(١) آية ٧٨ سورة القصص . (٢) آية ٣٩ سورة الرحمن . (٣) آية ١٧٤ سورة البقرة .
(٤) آية ١٥ سورة المطففين . (٥) آخر سورة التكاثر . (٦) آية ٤٣ سورة الروم .
(٧) الربابة : الجلدة التى تجمع فيها السهام . واليسر : صاحب الميسر الذى يضرب بالقداح .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبـالات بقولهم ، فقـد برأك الله عمـا يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقـوله « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ »(١) . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعـالى : « فاصدع بِمـا تؤمر » فخرج هو وأصحـابه . وقال مجاهـد : أراد الجهـر بالقرآن فى الصلاة . « وأعرِض عنِ المشركين » لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق : لمـا تمادَوْا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى « فاصدع بِمـا تؤمر وأعرِض عنِ المشركين . إنا كفيناك المستهزِئين . الذين يجعلون مع اللهِ إلهًـا آخرَ فسوف يعلمون » . والمعنى : اصدع بمـا تؤمر ولا تخف غير الله؛ فإن الله كافيك مَن أذاك كما كفاك المستهزئين ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسـد أبو زمعة . والأسود بن عبـد يَغُوث ، والحارث بن الطُّلاطِلَة ، أهلكهم الله جميعا ، قيل يوم بدر فى يوم واحد؛ لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسـول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ به الأسـود ابن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعَمِيَ ووجِعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار . ومرّ به الأسود بن عبـد يَغُوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنُه فمـات منه حَبَنًا . (يقال : حَبِن (بالكسر) حَبَنًا وحُبِن للفعول عظم بطنه بالمـاء الأصفر ، فهو أحبن ، والمرأة حبناء ؛ قاله فى الصحاح) . ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين ، وهو يَجُرّ سَـبَلَه(٢) ، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يَرِيش نَبْلًا له فتعلق سهم من نبـله بإزاره فخَدَش فى رجله ذلك الخدش وليس بشىء ، فانتقض به فقتله . ومرّ به العاص بن وائل فأشـار إلى أَخْمَص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فرَبَض به على شِبْرِقة(٣) فدخلت فى أخمَص رجله شوكةٌ فقتلته . ومرّ به الحارث بن الطُّلاطِلة ، فأشار إلى رأسه

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) السبل (بالتحريك) : الثياب المسبلة ؛ يفعل ذلك كبرا واختيالا .
(٣) الشبرق : نبت حجازى يؤكل ، وله شوك .

فامتخط قيحا فقتــله . وقد ذُكر فى سبب موتهم اختلاف قريب من هــذا . وقيل : إنهم المراد بقوله تعالى : « فَخَـرَّ عليهمُ السّقْفُ مِن فوقِهِم »[(٢)]. شبّه ما أصابهم فى موتهم بالسقف الواقع عليهم؛ على ما يأتى .

قوله تعــالى : ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فسوف يعلمون » .

قوله تعــالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَــدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب . ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك، وتناله وينال أصحابك من أعدائك .

قوله تعــالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾

فيــــه مسألتـــان :

الأولى ـــ قوله تعــالى : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أى فافزع إلى الصلاة، فهى غاية التسبيح ونهاية التقديس؛ وذلك تفسيرٌ لقوله : ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب فى الصلاة حال السجود، كما قال عليــه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء " . ولذلك خصّ السجود بالذكر .

الثانيــــة ـــ قال ابن العربى : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه، فرأى هذا الموضع محل سجود فى القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله، يسجد فى هذا الموضع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقــاش أن ها هنا سجدةً عنــد أبى حذيفة ويَمــان بن رِئاب، ورأى أنها واجبة .

---

(١) المخط : السيلان والخروج . (٢) آية ٢٦ سورة النحل .

قوله تعـالى : وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

فيه مسألة واحدة — وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصّر عبادُه فى خدمته ، وأن ذلك يجب عليــه . فإن قيل : فمـا فائدة قوله « حتى يأتيـك اليقين » وكان قـوله : « واعبــد ربك » كافيـافى الأمر بالعبادة . قيل له : الفائدة فى هذا أنه لو قال : « واعبد ربك » مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا ؛ واذا قال « حتى يأتيك اليقين » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ولم يقـل أبدا ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبدا ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدّم هـذا المعنى(١) . والمـراد استمرار العبادة مدّة حياته ، كما قال العبـد الصالح : وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حَيًّـا . و يترتّب على هـذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبدا ، وقال : نو يت يوما أو شهرا كانت عليه الرجعة . ولو قال : طلقتها حياتَها لم يراجعها . والدليل على أن اليقين الموتُ حديثُ أمّ العـلاء الأنصارية ، وكانت من المبايِعـات ، وفيه : فقال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "أما عثمان — أعنى عثمان بن مَظْعُون — فقد جاءه اليقين و إنى لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به" وذكر الحديث(٢) . انفرد بإخراجه البخارىّ رحمه الله! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقينا أشـبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعنى كأنهم فيــه شاكون . وقد قيــل : إن اليقين هنا الحق الذى لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهــد وقتادة والحسن . والله أعلم . وقــد روى جُبير بن نُفير عن أبى مســلم الخَوْلانِىّ أنه سمعه يقول إن النبىّ صلى الله عليــه وسلم قال : "ما أوحى إلىّ أن أجمع المـال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلىّ أن سبّح بحمــد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٣ طبعة ثانية . (٢) راجع صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٥١ طبعة بولاق .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسـير سـورة النحل

وهى مكية كلّها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمّى سورة النِّعم بسبب ما عدّد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هى مكية غيرَ قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ »[1] الآية؛ نزلت بالمدينة فى شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد . وغيرَ قوله تعالى : « وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ »[2] . وغيرَ قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا »[3] الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا »[4] فمكىّ، فى شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هى مكية إلا ثلاثَ آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهى قوله : « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا — إلى قوله — بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[5] .

قوله تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ قيل : « أَتَى » بمعنى يأتى ؛ فهو كقولك : إن أكرمتنى أكرمتك . وقد تقدّم أن أخبار الله تعالى فى الماضى والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ »[6] . و « أمر الله » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جُريج والضحاك : إنه ماجاء به القرآن من فرائضه وأحكامه . وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) آية ١٢٦   (٢) آية ١٢٧   (٣) آية ١١٠   (٤) آية ٤١   (٥) آية ٩٥ وما بعدها .
(٦) آية ٤٤ سورة الأعراف .

وغيرهم ، حتى قال النّضر بن الحارث : « اللّهم إن كان هـذا هو الحقّ من عندك » الآية ، فاستعجل العذاب .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر ؛ خرّجه مسلم والبخارى . وقد تقدم فى سورة البقرة[1] . وقال الزجاج : هو ماوعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو كقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ[2] » . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها . قال ابن عباس : لما نزلت « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ[3] » قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا ، فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ[4] » الآية . فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فامتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » فوثب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم والمسلمون وخافوا ؛ فنزلت « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمأنوا ، فقال النبىّ صـلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه : السبابة والتى تليها . يقول : أن كادت لتسبقنى فسبقتها . وقال ابن عباس : كان بعث النبىّ صـلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وأن جبريل لما مرّ بأهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وسـلم قالوا الله أكبر ، قد قامت الساعة .

قوله تعـالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزيها له عمـا يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّـا يُشْرِكُونَ » أى عن إشراكهم . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية . (٢) آية ٤٠ سورة هود . (٣) أوّل سورة القمر .
(٤) أوّل سورة الأنبياء .

قوله تعـالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

قرأ المفضّل عن عاصم « تَنَزَّل الملائكةُ » والأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائى عن أبى بكر عن عاصم باختلاف عنــه والأعمش « تُنَزَّل الملائكةُ » غير مسمى الفاعل . وقرأ الجُعْفِيّ عن أبى بكر عن عاصم « نُنَزِّلُ الملائكةَ » بالنون مسمى الفاعل ، الباقون « يُنَزِّل » بالياء مسمى الفاعل، والضمير فيــه لآسم الله عز وجل . وروى عن قتادة « نُنْزِل الملائكةَ » بالنون والتخفيف . وقرأ الأعمش « تَنْزِل » بفتح التـاء وكسر الزاى، من النزول . « الملائكةُ » رفعاً مثل « تَنَزَّل الملائكة »(١) . ﴿ بِالرُّوحِ ﴾ أى بالوحى وهو النبوّة ؛ قاله ابن عباس . نظيره « يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »(٢) . الربيع بن أنس : بكلام الله وهو القرآن . وقيل : هو بيان الحق الذى يجب آتباعه . وقيــل أرواح الخلق ؛ قاله مجاهد، لا ينزل ملك إلا ومعه روح. وكذا روى عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق الله عز وجل كصور ابن آدم، لا ينزل من السماء مَلَك إلا ومعه واحد منهم . وقيل بالرحمة ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل بالهداية؛ لأنها تحيا بهــا القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ، وهو معنى قول الزجاج . قال الزجاج : الروح ما كان فيــه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره . وقال أبو عبيــدة : الروح هنا جبريل . والبــاء فى قوله : « بالروح » بمعنى مع، كقولك : خرج بثيابه ، أى مع ثيابه . ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أى بأمره . ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ من عبادِهِ ﴾ أى على الذين اختارهم الله للنبوّة . وهذا ردّ لقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِـيمٍ »(٣) . ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَٱتَّقُونِ ﴾ تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصله التحذير ممــا يخاف منه . ودلّ على ذلك قوله : « فآتقون » . و «أنْ » فى موضع نصب بنزع الخافض ، أى بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، فـ « أن » فى محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه .

(١) آية ٤ سورة القدر . (٢) آية ١٥ سورة غافر . (٣) آية ٣١ سورة الزخرف .

قوله تعـالى : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣)

قوله تعـالى : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى للزوال والفناء . وقيـل : « بالحق » أى للدلالة على قدرته ، وأن له أن يتعبّد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعد الموت . ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على خلق شيء .

قوله تعـالى : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٤)

قوله تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ لمـا ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكدته وتعدّى طوره . « والإنسان » اسم للجنس . وروى أن المراد به أُبَيّ بن خلف الجُمَحيّ ، جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بعظم رَميم فقال : أترى يحيي الله هذا بعد ماقد رَمّ . وفى هـذا أيضا نزل « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ »(١) أى خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فنقله أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم فى الأمور . فمعنى الكلام التعجيب من الإنسان « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ »(٢) وقوله : ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أى مخاصِم ، كالنسيب بمعنى المناسب . أى يخاصم اللهَ عز وجل فى قدرته . و ﴿مُبِينٌ﴾ أى ظاهر الخصومة . وقيل : يبيّن عن نفسه الخصومة بالبـاطل . والمبين : هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه .

قوله تعـالى : ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ لمـا ذكر الإنسان ذكر ما مَنّ به عليه . والأنعام : الإبل والبقر والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة . قال حسان :

---

(١) آية ٧٧ سورة يس . (٢) آية ٧٨ سورة يس .

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجِوَاءُ * إلى عَذْراءَ منزلُها خَلاءُ (١)
دِيارٌ من بَنِي الحَسْحَاس قَفْرٌ * تُعَفِّيها الروامسُ والسماء (٢)
وكانت لا يزال بها أنيس * خِلالَ مُرُوجها نَعَمٌ وشَاءُ

فالنَّعم هنا الإبل خاصّةً . وقال الجوهري : والنَّعَم واحد الأنعام وهي المال الراعية ، وأكثر ما يقع هـذا الآسم على الإبل . قال الفَرّاء : هو ذكَر لا يؤنث ، يقولون : هـذا نَعَم وارد ، ويجمع على نُعْمان مثل حَمَل وحُمْلان . والأنعام تذكّر وتؤنث ؛ قال الله تعالى : «مِمّا في بُطُونِه» (٣) . وفي موضع «مِمّا في بُطُونِها» (٤) . وانتصب الأنعام عطفا على الإنسان ، أو بفعل مقدّر ، وهو أوجه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ دِفْءٌ ﴾ الدِّفْء : السّخانة ، وهو ما اسْتُدْفِئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ملابس ولُحُف وقُطُف (٥) . وروى عن ابن عباس : دفؤها نسلها ؛ والله أعلم . قال الجوهري في الصحاح : الدفء نِتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ؛ قال الله تعالى : « لكم فِيها دفْء » . وفي الحـديث " لنا من دِفئهم ما سلّموا بالميثاق " . والدفء أيضا : السخونة ، تقول مـنه : دَفِئ الرجل دفَاءة مثـلُ كَرِه كراهة . وكذلك دَفِئ دَفًا مثـلُ ظمئ ظمأ . والاسم الدِّفْء (بالكسر) وهو الشيء الذي يدفئك ، والجمع الأدفاء . تقول : ما عليه دفء ؛ لأنه اسم . ولا تقول : ما عليك دَفاءة ؛ لأنه مصدر . وتقول : اقعد في دِفء هذا الحـائط أي كِنّه . ورجل دفِئ على فَعِلٍ إذا لبس ما يدفئـه . وكذلك رجل دفآن وامرأة دفآى . وقد أدفأه الثوب وتدفأ هو بالثوب واسـتدفأ به ، وادّفأ به وهـو افتعل ؛ أي لبس ما يدفئه . ودَفُؤت ليلتنا ، ويوم دَفِيء على فعيل وليلة دفيئة ، وكذلك الثوب والبيت . والمُدْفِئة الإبل الكثيرة ؛ لأن بعضها يدفئ بعضا بأنفاسها ، وقد يشدّد . والمُدْفَأة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم ؛ عن الأصمعي . وأنشد الشماخ :

وكيف يَضيع صاحبُ مُدْفآتٍ * عـلى أثباجهن من الصَّقيع (٦)

---

(١) ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام . وعذراء : قرية بغوطة دمشق . (٢) الحسحاس : اسم رجل . والروامس : الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار . (٣) آية ٦٦ من هذه السورة . (٤) آية ٢١ سـورة المؤمنون . (٥) القطف (جمع قطيفة) : كساء له خمل ؛ أي وبر . (٦) أثباج : جمع ثبج ، وهو وسطها . وقيل ظهرها . وقيل : ما بين كاهلها وظهرها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ قال ابن عباس : المنافع نسل كل دابة . مجاهد : الركوب والحمل والألبان واللحوم والسمن . ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع . وقيل : المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثـــة — دلت هـذه الآية على لباس الصوف ، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كموسى وغيره . وفى حديث المغيرة : فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين...الحديث ،خرجه مسلم وغيره . قال ابن العربي : وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين ، وآختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس ليِّناً وخشنا وجيدا ومُقارِباً (١) ورديئا ، و إليه نسب جماعة من الناس الصوفية ؛ لأنه لباسهم فى الغالب ، فالياء للنسب والهاء للتأنيث . وقد أنشدنى بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تشاجر الناس فى الصوفيّ واختلفوا * فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحـل هـذا الآسم غيرَ فتًى * صافَى فصوفى حتى سُمِّيَ الصوفى

قوله تعالى : وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

الجمال ما يتجمّل به و يتزين . والجمال : الحسن . وقد جَمُل الرجل (بالضم) جمالا فهو جميل ، والمرأة جميلة ، و جملاء أيضا ؛ عن الكسائى . وأنشد :

فهى جَمْـلاء كبدرٍ طالع * بذّت الخلق جميعا بالجمال

وقول أبى ذؤيب :

* جمالَكَ أيّها القلبُ القريح (٢) *

يريد : الزم تجمّلك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا . قال علماؤنا : فالجمال يكون فى الصورة وتركيب الخِلقة ، و يكون فى الأخلاق الباطنة ، و يكون فى الأفعال . فأما جمال الخِلقة فهو

---

(١) شيء مقارب (بكسر الراء) : وسط بين الجيد والردىء . (٢) هذا صدر البيت ، وعجزه كما فى اللسان :

* ستلقى من تحب فتستريح *

أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما ، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر. وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية بجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئيّ بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان؛ قاله السدّيّ . ولأنها إذا راحت توفّر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعا؛ قاله قتادة. ولهذا المعنى قدّم الرّواح على السراح لتكامل درّها وسرور النفس بها إذ ذاك . والله أعلم . وروى أشهب عن مالك قال : يقول الله عز وجل « ولكم فيها جمال حين تُرِيحُون وحين تَسْرَحون » وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والرّواح رجوعها بالعشيّ من المرعى، والسّراح بالغداة؛ تقول : سَرَحتُ الإبل أسرحها سَرْحًا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها ، وسرحت هي . المتعدّى واللازم واحد .

قوله تعالى : وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره، وهو ما يثقل الإنسانَ حمله . وقيل : المراد أبدانهم؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا »(١) . والبلد مكة، في قول عكرمة . وقيل : هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر . وشِقّ الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين . قال الجوهري : والشّق المشقة؛ ومنه قوله تعالى : « لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ »

---

(١) آية ٢ سورة الزلزلة .

وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة . قال المهدوىّ : وكسر الشين وفتحها فى « شِق » متقاربان، وهما بمعنى المشقة ، وهو من الشق فى العصا ونحوها ؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان . وقال الثعلبى : وقرأ أبو جعفر « إلا بِشَــقّ الأنفس » وهمــا لغتان ، مثل رِقّ ورَق وجِص وجَص ورِطل ورَطل . وينشد قول الشاعر(١) بكسر الشين وفتحها :

وذى إبل يَسْعَى ويحسِبُها له * أخِى نَصَب من شِقّها ودُؤوبِ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من شَقَقت عليه أشُقّ شَقًّا . والشِّق أيضا بالكسر النصف، يقال: أخذت شِقّ الشاة وشِقّة الشاة. وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى؛ أى لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوّة وذهاب شِق منها؛ أى لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر. والشِّق أيضا الناحية من الجبل. وفى حديث أم زَرْع: وجدنى فى أهل غُنَيمة بِشَق . قال أبو عبيــد : هو اسم موضع . والشق أيضا : الشقيق ، يقال : هو أخى وشِق نفسى. وشِقّ اسم كاهن من كهان العرب. والشق أيضا : الجانب؛ ومنه قول آمرئ القيس :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشِــقٍّ وتحتِى شِــقُّها لم يُحوّلِ

فهو مشترك .

الثانيــة — مَنّ الله سبحانه بالأنعام عموما ، وخَصّ الإبل هنا بالذكر فى حمل الأثقال على سائر الأنعام ؛ فان الغنم للسَّرْح والذبح ، والبقر للحرث، والإبل للحمل . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليهــا التفتت إليه البقرة فقالت إنى لم أخلق لهــذا ولكنى إنمــا خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرةٌ تَكَلّم " ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وإنى أومن به وأبو بكر وعمر ". فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تركب، وإنمــا هى للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل(٢) .

---

(١) هو النمر بن تولب، كما فى اللسان مادة شقق . (٢) الرسل (بالكسر) : اللبن .

الثالثـــة — فى هذه الاية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها ، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف فى الحمل مع الرفق فى السير . وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها . وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطُوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم فى السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها[1] " رواه مالك فى الموطأ عن أبى عبيـد عن خالد بن مَعْدان . وروى معاوية بن قُرّة قال : كان لأبى الدّرداء جمل يقال له دمون، فكان يقول : يادمون ، لا تخاصمنى عنـد ربك . فالدواب عُجم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليـه ، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها ، فمن ارتفق بمرافقها ثم ضيّعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرّض للخصومة بين يدى الله تعـالى . وروى مطر بن محمد قال : حدّثنا أبو داود قال حدّثنا ابن خالد قال حدّثنا المسيِّب بن آدم قال . رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب جمّالا وقال : تحمل على بعيرك ما لا يطيق .

قوله تعـالى : وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَـالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَـةً ج وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

فيـــه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَالْخَيْلَ ﴾ بالنصب معطوف، أى وخلق الخيـل . وقرأ آبن أبى عَبْـلة « والخيلُ والبِغالُ والحميرُ » بالرفع فيهـا كلها . وسُمِّيت الخيل خيلا لآختيالها فى المِشْية . وواحد الخيل خائل، كضائن واحد ضَيْن . وقيل لا واحد له . وقد تقدم هـذا فى « آل عمران[2] » ، وذكرنا الأحاديث هناك . ولمـا أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

---

(١) قوله « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنق (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ . ومعناه : أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها ؛ اذ ليس فى الأرض ما يقويها على السير .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام . وقيل : دخلت ولكن أفردها بالذكر لمـا يتعلق بهـا من الركوب؛ فإنه يكثر فى الخيل والبغال والحمير .

الثانيـــة — قال العلماء : ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمـة منه تعـالى لنا ، وما ملكه الإنسان وجاز له تسخيره من الحيوان فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا آختلاف بينهم فى ذلك . وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور فى كتب الفقه .

الثالثـــة — لا خلاف بين العلماء فى اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى : « وتَحْمِلُ أثقالكم » الآية . وأجازوا أن يُكرِى الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها و إن لم يُسَمّ أين ينزل منهـا ، وكم من مَنْهل[(١)] ينزل فيـه ، وكيف صفة سـيره، وكم ينزل فى طريقه، وآجتزوا بالمتعارف بين الناس فى ذلك . قال علماؤنا : والكراء يجرى مجرى البيوع فيما يحل منـه ويحرم . قال ابن القاسم فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مَرْوِىّ ولم يصف رُقعته وذرعه : لم يجز ؛ لأن مالكا لا يجيز هـذا فى البيع، ولا يجيز فى ثمن الكراء إلا ما يجوز فى ثمن البيع .

قلت : ولا يُختلف فى هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة . قال ابن المنذر : وأجمع كل مَن يُحفظ عنه من أهل العـلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليهـا عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما آشترط فتلِفت أن لا شىء عليه . وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعير . واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليهـا عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفيزا ؛ فكان الشافعىّ وأبو ثَوْر يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليـه الكراء . وقال ابن أبى لَيْلَى : عليه قيمتها ولا أجر عليـه . وفيه قول ثالث — وهو أن عليـه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل ؛ وهذا قول النعمان و يعقوب ومحمد . وقال ابن القاسم صاحب مالك : لا ضمان عليـه فى قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يَفْدح الدابة ، ويُعـلم أن مثله

(١) المنهل : المشرب، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السُّفّار على المياه مناهل .

لا تعطَب فيه الدابة ، ولَرَبّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول ؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة . وذلك بخـلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تَعَـدٍّ كله فيضمن إذا هلكت في قليـله وكثيره . والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيـه إذنٌ وتعدّ ، فإذا كانت الزيادة لا تعطَب في مثلها عُلم أن هلاكها ممـا أذن له فيه .

الرابعـــة — واختلف أهل العلم في الرجل يكترى الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمًّى ، فيتعدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه . فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدّى كراء ؛ هكذا قال الثورى . وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سمّى ، ولا أجر له فيما لم يسم ؛ لأنه خالف فهو ضامن ، وبه قال يعقوب . وقال الشافعيّ : عليـه الكراء الذى سمّى ، وكراء المثـل فيما جاوز ذلك ، ولو عطِبت لزمه قيمتها . ونحوه قال الفقهاء السبعة ، مشيخةُ أهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت وإن هلكت ضمن . وقال أحمـد وإسحاق وأبو ثور : عليه الكراء والضمان . قال ابن المنذر : وبه نقول . وقال ابن القاسم : إذا بلغ المكترى الغاية التى اكترى إليها ثم زاد ميلا ونحـوَه أو أميالا أو زيادة كثيرة فعطِبت الدابة ، فلربّهـا كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالغا ما بلغ ، أو قيمة الدابة يوم التعدّى . ابن المَوّاز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خُطوة . وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة الميل ونحوه : وأما مايعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن . وقال ابن حبيب عن ابن المـاجِشُون وأَصْبَغ : إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذى تكاراها إليه بيسير ، ثم رجع بها سالمـة إلى موضعِ تكاراها إليه فماتت ، أو ماتت في الطريق الى الموضع الذى تكاراها إليه ، فليس له إلا كراء الزيادة ، كردّه لمـا تسـلّف من الوديعـة . ولو زاد كثيرا مما فيه مقام الأيام الكثيرة التى يتغيّر في مثلها سوقها فهو ضامن ، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة ؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يُعِن على قتلها فهلاكها بعـد ردّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلّف من الوديعة بعـد ردّه لا محالة . وإن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها .

الخامســـة — قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى : «والخيلَ والبِغالَ والحمِيرَ لِتركبوها وزِينةً » فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب . ولهذا قال أصحابنا : لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لمـا نص على الركوب والزينة دل على أن ما عداه بخلافه . وقال فى الأنعام : « ومِنها تأكلون » مع ما امتن الله منها من الدفء والمنافع ، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها . وبهـذه الآية آحتج ابن عباس والحَكَم بن عُيَيْنـة ، قال الحَكَم : لحوم الخيل حرام فى كتاب الله ، وقرأ هذه الآية والتى قبلها وقال : هذه للاكل وهذه للركوب . وسـئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب ، وقرأ الآية التى قبلها « والأنعَام خلقها لكم فِيها دِفْءٌ ومنافِـعُ » ثم قال : هذه للاكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعىّ ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، وآحتجوا بما خرجه أبو داود والنّسائى والدّارَقُطْنِيّ وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المِقْدام ابن مَعْدِيكَرِب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خَيْبَرَ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكلّ ذى ناب من السباع أو مِخْلَب من الطير . لفظ الدّارَقُطْنِيّ . وعند النَّسائى أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبىّ صـلى الله عليه وسلم يقول : " لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ". وقال الجمهور من الفقهاء والمحدّثين : هى مباحة . وروى عن أبى حنيفة . وشَذّت طائفة فقالت بالتحريم؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا ، وروى عن أبى حنيفة . حكى الثلاث روايات عنه الرُّويانِىّ فى بحر المذهب على مذهب الشافعىّ .

قلت : الصحيح الذى يدلّ عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل ، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة . أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلّت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحُمُر ، والسورة مكية ، وأىّ حاجة كانت إلى تجديد تحـريم لحوم الحُمُر عَامَ خَيْبَرَ وقد ثبت فى الأخبار تحليلُ الخيـل على ما يأتى . وأيضا لمـا ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها ، وهو حمـل الأثقال والأكل ، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحا به ، وقد تُركب ويحرث بها ؛ قال الله تعالى : « الّذِى جَعل لكم الأنعامَ لِتركبوا

منهـا ومنها تأكلون»[1] . وقال فى الخيـل : «لِتركبوها وزِينـةً» فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها،ولم يذكر حمل الأثقال عليها،وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بيّنه نبيّه عليه السلام الذى جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتى، ولا يلزم من كونهـا خلقت للركوب والزينة ألّا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذى أنطق كلّ شئ فقالت : إنما خلقت للحرث . فيلزم مَن علّل أن الخيـل لا تؤكل لأنهـا خلقت للركوب ألّا تؤكل البقر لأنها خُلقت للحرث . وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسّنّة الثابتة فيها . روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبَر عن لحوم الحُمُر الأهلية وأذِن فى لحوم الخيـل . وقال النسائىّ عن جابر : أطعمنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحُمُر . وفى رواية عن جابر قال : كنّا نأكل لحوم الخيل على عهد رسـول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : الرواية عن جابر بأنهـم أكلوها فى خَيْـبَر حكايةُ حال وقضيّةٌ فى عَيْن ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورةٍ، ولا يحتج بقضايا الأحوال . قلنا : الرواية عن جابر و إخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلمناه فمعنا حديث أسماء قالت : نَحَرْنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم. وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يُلتفت إليه ولا يعرّج عليه . وقد روى الدّارقطنىّ زيادة حسنة ترفع كل تأويل فى حديث أسماء، قالت أسماء : كان لنـا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها . فذَبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال. و بالله التوفيق . فان قيل: حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالحمـار ؟ قلنا : هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول فى القول به ، ولئن سلمناه فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظِلْف وقد باين ذوات الأظلاف ، وعلى أن القياس إذا كان فى مقـابلة النص فهو فاسـد الوضع لا التفات إليه . قال الطبرىّ : وفى إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب .

(١) آية ٧٩ سورة غافر .

السادســـة — وأما البغال فإنها تلحق بالحمير ، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل ؛ فإنها تكون متولّدة من عينين لا يؤكلان . وإن قلنا إن الخيــل تؤكل، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلّب التحريم على ما يلزم فى الأصول . وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهــل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحــلّ به الذبيحــة . وقد مضى فى «الأنعام»[1] الكلام فى تحريم الحُمُر فلا معنى للإعادة . وقد علّل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط ؛ فسمّى رجسا .

السابعــــة — فى الآية دليل على أن الخيــل لا زكاة فيهــا ؛ لأن الله سـبحانه منّ علينا بما أباحنا منها وكرمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يَسَار عن عِرَاك بن مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على المسلم فى عبده ولا فرسه صدقة " . وروى أبو داود عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر فى الرقيق " . وبه قال مالك والشافعىّ والأوزاعىّ والليث وأبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفــة : إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا ، ففى كل فرس دينــار إذا كانت سائمة، وإن شاء قوّمها فأخرج عن كل مائتى درهم خمسةَ دراهم . وآحتج بأثر عن النبىّ صلى الله عليه وســلم أنه قال : " فى الخيل السائمة فى كل فرس دينــار " وبقوله صلى الله عليــه وسلم : " الخيــل ثلاثة ... " الحــديث . وفيه : " ولم ينس حق الله فى رقابهــا ولا ظهورها " . والجواب عن الأوّل أنه حديث لم يروه إلا غورك[2] السعدى عن جعفر بن محمد عن أبيــه عن جابر . قال الدّارَقُطْنِىّ : تفرّد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا، ومَن دونه ضــعفاء . وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليهــا إذا وقع النّفير وتعيّن بها لقتال العدو إذا تعيّن ذلك عليه، ويحمل المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك، كما يتعيّن عليه أن يطعمهم عند الضرورة ، فهذه حقوق الله فى رقابها . فإن قيل : هــذا هو

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ وما بعدها . (٢) هو غورك بن الخضرم أبو عبد الله . (عن الدارقطنى) .

الحق الذى فى ظهورها وبقى الحق الذى فى رقابهــا ؛ قيل : قد روى " لا ينسى حــقّ الله فيها " ولا فرق بين قوله : " حق الله فيها " أو " فى رقابها وظهورها " فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد ؛ لأن الحق يتعلّق بجملتها . وقد قال جمــاعة من العلماء : إن الحق هنا حُسْن ملكها وتعهّــد شبعها والإحسان إليها وركوبهــا غير مشقوق عليهــا ؛ كما جاء فى الحــديث " لا تتخــذوا ظهورها كراسى " . وإنمــا خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيرا فى مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة ؛ ومنه قوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه فى الرباع والأموال ؛ ألا ترى قول كُثَيِّر :

غَمْـــر الرداء إذا تبسّم ضاحكا　＊　غَلِقتْ لِضَحْكَته رِقابُ المــال (١)

وأيضا فإن الحـــيوان الذى تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه ، ولمــا خرجت الخيــل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها . وأيضا فإيجابه الزكاة فى إناثها منفردة دون الذكور تناقض منه ، وليس فى الحــديث فصل بينهما . ونقيس الإناث على الذكور فى نفى الصــدقة بأنه حيوان مُقْتَنًى لنسله لا لدرّه ، ولا تجب الزكاة فى ذكوره فلم تجب فى إناثه كالبغال والحمير . وقد روى عنــه أنه لا زكاة فى إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة ، وهــذا الذى عليه الجمهور . قال ابن عبد البر : الخبر فى صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزُّهْرِىّ وغيره . وقد روى من حديث مالك ، رواه عنه جُوَيرِيَة عن الزهرى أن السائب بن يزيد قال : لقد رأيت أبى يقوم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر . وهــذا حجة لأبى حنيفة وشيخه حمــاد بن أبى سليمان ، لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة فى الخيل غيرهما . تفرّد به جُوَيرِيَة عن مالك وهو ثقـــة .

الثامنـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَزِينَةً ﴾ منصوب بإضمار فعل ، المعنى : وجعلها زينة . وقيل : هو مفعول من أجله . والزينة : ما يُتزيّن به ، وهذا الجمــال والتزيين وإن كان من متاع الدنيــا فقد أذن الله ســبحانه لعباده فيه ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وســلم : " الإبل عزّ

(١) الغمر : المــاء الكثير . ورجل غمر الرداء ، وغمر الخلق ، أى واسع الخلق . كثير المعروف سخىّ .

لأهلها والغنم بركة والخيل فى نواصيها الخير". خرّجه البَرْقانى وابن ماجه فى السنن . وقد تقدّم فى الأنعام . وإنما جمع النبيّ صلى الله عليه وسلم العز فى الإبل؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزْو وإن نقصها الكَرّ والفَرّ . وجعل البركة فى الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد ؛ فإنها تلد فى العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة ، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب؛ بخلاف الفدّادين(١) أهل الوَبَر . وقرن النبيّ صلى الله عليه وسلم الخير بنواصى الخيل بقية الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغَلَب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الجمهور : من الخلق . وقيل : من أنواع الحشرات والهوام فى أسافل الأرض والبر والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : « ويخلق ما لا تعلمون » مما أعد الله فى الجنة لأهلها وفى النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . وقال قَتادة والسُّدّى : هو خلق السوس فى الثياب والدود فى الفواكه . ابن عباس : عين تحت العرش؛حكاه الماوَرْدِىّ . الثعلبى : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرّة، يدخله جبريل كلّ سَحَر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعِظَما إلى عظمه، ثم ينتفض فيُخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة ، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف مَلَك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، وفى الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقول خامس — وهو ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها أرض بيضاء ، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يعصى فى الأرض،قالوا : يارسول الله، من ولد آدم؟ قال : "لا يعلمون أن الله خلق آدم". قالوا : يارسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال : "لا يعلمون أن الله خلق إبليس" — ثم تلا "ويخلق ما لا تعلمون" ذكره الماوردى .

(١) الفدّادون : أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الإبل إلى الألف .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال : إن لله عبادا من وراء الأندلس كما بيننا و بين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق، رَضْراضهم الدُّرّ [1] والياقوت وجبالهم الذهب والفضة، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملا ، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هي طعامهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم ؛ ذكره في بدء الخلق من (كتاب الأسماء والصفات) . وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لي أن أحدّث عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أي على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف وهو البيان . والسبيل : الإسلام، أي على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين . وقصد السبيل : استعانة الطريق؛ يقال : طريق قاصد أي يؤدّي إلى المطلوب . ﴿ ومِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي ومن السبيل جائر؛ أي عادل عن الحق فلا يهتدى به؛ ومنه قول امرئ القيس :

ومن الطريقة جائر وهُدًى * قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقال طَرَفة :

عَدَوْلِيَّةٌ أو من سَفِين ٱبن يامِنٍ * يَجُور بها المَلّاح طَوْرًا ويَهتدي

العَدَوْلِيّة سفينة منسوبة إلى عَدَوْلَى قرية بالبحرين . والعَدَوْلِيّ : المَلّاح؛ قاله في الصحاح . وفي التنزيل « وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُل » وقد تقدّم [2] . وقيل : المعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق، أي عادل عنه فلا يهتدى إليه . وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الأهواء المختلفة ؛ قاله ابن عباس . الثاني — ملل الكفر من اليهودية والمجوسية

(١) الرضراض : ما دق من الحصى .　　(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

والنصرانية. وفى مصحف عبد الله « ومِنكم جائر » وكذا قرأ علىّ « ومنكم » بالكاف . وقيل: المعنى وعنها جائر؛ أى عن السبيل . فـ « من » بمعنى عن . وقال ابن عباس : أى من أراد الله أن يهديه سهّل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضله ثقل عليه الإيمان وفروعه . وقيل: معنى « قَصْد السبيل » مسيركم ورجوعكم . والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنث الكناية فقال : « ومنها » والسبيل مؤنثة فى لغة أهل الحجاز .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَـدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيّن أن المشيئة لله تعـالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس فى تأويل الآية ، ويردّ على القَدَرية ومن وافقها كما تقدّم .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾

الشراب ما يُشرب ، والشجر معروف . أى ينبت من الأمطار أشجارا وعروشا ونباتا . و ﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون إبلكم ؛ يقال : سامت السائمة تسوم سَوْمًا أى رعت ، فهى سائمة . والسَّـوَام والسائم بمعنًى ، وهو المـال الراعى . وجمع السائم والسائمة سـوائم . وأسمتها أنا أى أخرجتها إلى الرَّعْى، فأنا مُسِيم وهى مُسامة وسائمة . قال :

* أوْلَى لك ٱبنَ مُسِيمة الأجمال[(١)] *

وأصل السَّـوْم الإبعاد فى المرعى . وقال الزجاج : أخذ من السُّومة وهى العلامة؛ أى أنها تؤثر فى الأرض علامات برعيها ، أو لأنها تُعلَّم للإرسال فى المرعى .

قلت : والخيـل المسومة تكون المرعيّـة . وتكون المُعَلَّمة . وقوله : « مُسَوِّمين » قال الأخفش تكون مُعَلَّمين وتكون مُرْسَلين ؛ من قولك : سـوّم فيها الخيل أى أرسلها ، ومنه السائمة ، وإنمـا جاء بالياء والنون لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها .

---

(١) هذا عجز بيت ، وصدره كما فى تفسير الطبرى : * مثل ابن بزعة أو كآخر مثله *

قوله تعـالى : يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعـالى: ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم « نُنبِت » بالنون على التعظيم . العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم ؛ يقال : نبتت الأرض وأنبتت بمعنًى ، ونبت البقل وأنبت بمعنى . وأنشد الفراء :

رأيت ذوى الحاجاتِ حول بيوتهم * قَطِينا بهـا حتى إذا أنبت البقـل

أى نبت . وأنبته الله فهو منبوت ، على غير قياس . وأنبت الغلام نبتت عانته . ونَبّتَ الشجرَ غرسه ؛ يقال : نَبِّت أجلَك بين عينيك . ونَبّتُّ الصبيّ تنبيتا رَبّيته . والمَنْبِت موضع النبات ؛ يقال : ما أحسنَ نابِتةَ بنى فلان ؛ أى ما يَنْبُت عليه أموالهم وأولادهم . ونَبَتَتْ لهم نابتةٌ إذا نشأ لهم نشء صغار . و إن بنى فلان لنابتةُ شر . والنوابت من الأحداث الأغمار . والنبيت حىّ من اليمن . واليَنبوت شجـر ؛ كله عن الجوهرىّ . ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ جمع زيتونة . و يقال للشجرة نفسها : زيتونة ، وللثمرة زيتونة . وقد مضى فى سورة « الأنعام »(١) حكم زكاة هذه الثمار فلا معنى للإعادة. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الإنزال والإنبات. ﴿ لَآيَةً ﴾ أى دلالة. ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

قوله تعـالى : وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى للسكون والأعمال ؛ كما قال : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيـهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »(٢) . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ أى مُذَلَّلات لمعـرفة الأوقات ونضج الثمـار والزرع والاهتداء بالنجوم فى الظلمات . وقرأ ابن عامر وأهـل الشام « والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ » بالرفع

(١) راجع جـ ٧ ص ٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٧٣ سورة القصص .

على الابتداء والخبر . الباقون بالنصب عطفا على ما قبـله . وقرأ حفص عن عاصم برفع « والنجومُ » ، « مسخراتٌ » خـبره . وقرئ « والشمسَ والقمرَ والنجومَ » بالنصب . « مسخراتٌ » بالرفع ، وهو خبر ابتداء محذوف أى هى مسخرات ، وهى فى قراءة من نصبها حال مؤكدة ؛ كقوله : « وَهُـوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا »(١) . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى عن الله ما نبّههم عليه ووفّقهم له .

قوله تعالى : وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أى وسخّر ما ذرأ فى الأرض لكم . « ذَرَأَ » أى خلق ؛ ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذَرْءًا خلقهم ، فهو ذارئ ؛ ومنـه الذُّرِّية وهى نسـل الثقلين ، إلا أن العرب تركت همزها ، والجمع الذرارى . يقال : أنمى الله ذَرْأَك وذَرْوَك ، أى ذرّيتك . وأصل الذَّرْو والذَّرْء التفريق عن جمع . وفى الحديث : ذرء النار(٢) ؛ أى أنهم خلقوا لهـا .

الثانيـــة — ما ذرأه الله سبحانه منه مسخر مذلل كالدواب والأنعام والأشجار وغيرها ، ومنه غير ذلك . والدليل عليه ما رواه مالك فى الموطأ عن كعب الأحبار قال : لولا كلمات أقولهن لجعلتنى يهودُ حمارا . فقيل له : وما هن ؟ فقـال : أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شىء أعظم منـه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى كلِّهـا ما علمت منها وما لم أعلم ، من شرّ ما خلق وبَرَأ وذرأ . وفيـه عن يحيى بن سعيد أنه قال : أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، الحديث . وفيه : وشر ما ذَرَأ فى الأرض . وقد ذكرناه وما فى معناه فى غير هذا الموضع .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ طبعة ثانية . (٢) أى فى حديث عمر رضى الله وقد كتب إلى خالد : وإنى لأظنكم آل المغيرة ذرء النار .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ « مختلفا » نصب على الحال . و «ألوانُه» هيئاته ومناظره، يعنى الدواب والشجر وغيرها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى اختلاف ألوانها . ﴿ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة . ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتّعظون ويعلمون أن فى تسخير هذه المكوّنات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

فيـــه تسع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره، وهـذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا . وقد مضى الكلام فى البحر وفى صيده (١) . وسماه هنا لحمـا واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلحم ذوات الأربع جنس، ولحم ذوات الريش جنس ، ولحم ذوات المـاء جنس . فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضـلا، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسـمك يجوز متفاضلا . وقال أبو حنيفة : اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها؛ فلحم البقر صنف، ولحم الغنم صنف، ولحم الإبل صنف ، وكذلك الوحش مختلف ، وكذلك الطير، وكذلك السـمك، وهو أحد قولى الشافعىّ . والقول الآخر أن الكل من النَّعَم والصـيد والطير والسمك جنس واحد لا يجـوز التفاضل فيـه . والقول الأوّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . ودليلنا هو أن الله تعالى فرّق بين أسماء الأنعام فى حياتها فقال : « ثَمَـانِيَةَ أزواج من الضّأْن اثنين ومن المعز اثنين » (٢)

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة وجـ ٦ ص ٣١٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) آية ١٤٣ سورة الأنعـام .

ثم قال : « وَمِنَ الإبلِ اثنين ومن البقر اثنين »(١) فلمـا أن أم بالجميع إلى اللحم قال : « أحلت لكم بهيمـة الأنعام » بجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز . وقال فى موضع آخر : « ولَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ »(٢) وهـذا جمع طائر الذى هو الواحد، لقوله تعالى : « ولَا طائرٍ يَطيرُ بجَنَاحيْهِ »(٣) بجمع لحم الطير كله باسم واحد . وقال هنا : « لَحْماً طَرِيًّا » بجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره فى الجمع بينهما . وقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المَعْز بلحم الكباش أشىء واحد؟ فقال لا ؛ ولا مخالف له فصار كالإجماع، والله أعلم . ولا حجة للمخالف فى نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مِثْلاً بمثل ؛ فإن الطعام فى الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم ؛ ألا ترى أن القائل إذا قال : أكلت اليوم طعاما لم يسبق الفهم منـه إلى أكل اللحم ، وأيضا فإنه معارَض بقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم" وهذان جنسان ، وأيضا فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلا لا لعلة أنه بَيْـع طعام لا زكاة له بيع بلحم ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلا .

الثانيـــة — وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيـع بعضه ببعض متفاضلا . وذكر عن سُحْنون أنه يمنع من ذلك، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه ممـا يدّخر .

الثالثـــة — اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحما ؛ فقال ابن القاسم : يحنَث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة . وقال أشهب فى المجموعة . لا يحنث إلا بكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاة للعرف والعادة، وتقديما لها على إطلاق اللفظ اللغوى، وهو أحسن .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعنى به اللؤلؤ والمَرْجان ؛ لقوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ والمَرْجَانُ »(٤) . وإخراج الحِلية إنمـا هى فيما عرف من الملح فقط . ويقال : ان فى الزمرذ بحريا . وقد خُطِّئ الهُذَلىّ فى قوله فى وصف الدرّة :

(١) فى الأصول : « فلما أن أم الجميع » . يريد : فلما أن قصد بالجميع إلى اللحم .

(٢) آية ٢١ سورة الواقعة . (٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٤) آيه ٢٢ سورة الرحمن .

فجـاء بها من دُرّة لَطَمِيّة * على وجهها ماء الفرات يَدوم[1]

فجعلها من المـاء الحلو . فالحلية حق وهى نِحلة الله تعالى لآدم وولده . خلق آدم وتُوّج وكُلِّل بإكليل الجنـة ، وختم بالخاتم الذى ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم ، وكان يقال له خاتم العز فيما روى .

الخامســـة — امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بمـا يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنمـا حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير . روى الصحيح عن عمر بن الخطـاب قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لاتلبسوا الحرير فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة " . وسيأتى فى سورة « الحج »[2] الكلام فيـه إن شاء الله . وروى البخاريّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب ، وجعل فصّه ممـا يلى باطن كفه ، ونقش فيه محمد رسول الله ، فاتخذ الناس مثله ، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال : " لا ألبسه أبدا " ثم اتخـذ خاتمـا من فضة فاتخـذ الناس خواتيم الفضة . قال ابن عمر : فلبس الخاتمَ بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، حتى وقع من عثمان فى بئر أَرِيس[3] . قال أبو داود : لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده . وأجمع العلماء على جواز التختم بالوَرِق على الجملة للرجال . قال الخطابيّ : وكره للنساء التختم بالفضـة ، لأنه من زِىّ الرجال ، فإن لم يجدن ذهبا فليصفّرنه بزعفران أو بشبهه . وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب ؛ إلا ماروى عن أبى بكر بن عبـد الرحمن وخَبّاب ، وهو خلاف شاذ ، وكل منهما لم يبلغهما النهى والنسخ . والله أعلم . وأما ماروا ه أنس بن مالك أنه رأى فى يد رسول الله صـلى الله عليـه وسلم خاتمـا من وَرِق يوما واحدا ، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من وَرِق ولبسوها ، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه فطرح الناس خواتيمهم — أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاريّ — فهو عند العلماء

---

(١) اللطيمة : الجمال التى تحمل العطر . وقيل : اللطيمة العنبرة التى لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها ، وهى اللطمية . (٢) فى قوله تعالى : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٢٣ .

(٣) حديقة بالقرب من مسجد قباء .

وَهَم من ابن شهاب؛ لأن الذى نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو خاتم الذهب . رواه عبد العزيز بن صُهيب وثابت وقتادة عن أنس، وهو خلاف ماروى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها، مع مايشهد للجماعة من حديث ابن عمر .

السادســـة — إذا ثبت جواز التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلّى به، فقد كره ابن سيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله . وأجاز نقشه جماعة من العلماء . ثم إذا نقش عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعـله فى شمـاله، فهل يدخل به الخلاء ويستنجى بشماله ؟ خفّفه سعيد بن المُسيِّب ومالك . قيل لمـالك : إن كان فى الخـاتم ذكر الله ويلبسه فى الشمال أيُستنجَى به؟ قال : أرجو أن يكون خفيفا . وروى عنه الكراهة وهو الأَوْلى . وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه . وقد روى همام عن ابن جريج عن الزهرى عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه . قال أبو داود : هذا حديث منكر، وإنمـا يعرف عن ابن جريج عن زياد بن سعد عن الزهرى عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من وَرِق ثم ألقاه . قال أبو داود : لم يحدّث بهذا إلا همام .

السابعـــة — روى البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » وقال : " إنى اتخذت خاتما من ورِق ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقشنّ أحد على نقشه" . قال علماؤنا : فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه . قال مالك : ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم، ونهيه عليه السلام : لا ينقشنّ أحد على نقش خاتمه ، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه . وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغيرذى سلطان . وروى فى ذلك حديثا عن أبى رَيحانة، وهو حديث لاحجة فيه لضعفه . وقوله عليه السلام : " لاينقشنّ أحد على نقشه " يردّه، ويدل على جواز اتخـاذ الخاتم لجميع النـاس، إذا لم ينقش على نقش خاتمه . وكان نقش خاتم الزهرىّ « محمد يسأل الله العافيـة » . وكان نقش خاتم مالك « حسبى الله ونعم الوكيل » . وذكر الترمذىّ الحكيم فى (نوادر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام

« لكل أجل كتاب » وقد مضى فى الرعد[1] . وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتمـا بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغنى أنك اشتريت خاتما بألف درهم ، فبِعْه وأطعم منه ألف جائع ، واشتر خاتما من حديد بدرهم ، واكتب عليـه « رحم الله آمرأ عرف قدر نفسه » .

الثامنـــة — من حلف ألّا يلبس حليًّا فلبس لؤلؤا لم يحنث ؛ وبه قال أبو حنيفة . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : لأنّ هذا وإن كان الاسم اللغوى يتناوله فلم يقصده باليمين ، والأيمان تُخَصّ بالعرف ؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنَث ، وكذلك لا يستضىء بسراج فجلس فى الشمس لا يحنث ، وإن كان الله تعالى قد سمّى الأرض فراشـا والشمس سراجا . وقال الشافعىّ وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حليا ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث ؛ لقوله تعالى : «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا» والذى يخرج منه : اللؤلؤ والمرجان .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ قد تقدم ذكر الفُلْك وركوب البحر فى «البقرة»[2] وغيرها . وقوله : « مَوَاخِرَ » قال ابن عباس : جَوارِىَ ، من جَرَت تجرى . سعيد بن جُبير : معترضة . الحسن : مواقر . قتادة والضحاك : أى تذهب وتجىء ، مقبلةً ومدبرة بريح واحدة . وقيـل : « مواخر » ملججة فى داخل البحر ؛ وأصل المَخْر شقّ المـاء عن يمين وشمال . مَخَرت السفينة تَمْخَر وتَمْخُر مَخْرا ومخورا إذا جرت تشق المـاء مع صوت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ » يعنى جَوارِىَ . قال الجوهرى : ومَخَر السابحُ إذا شق المـاء بصدره ، ومَخَر الأرض شقها للزراعة ، ومخرها بالمـاء إذا حبس المـاء فيها حتى تصير أريضة ؛ أى خليقةً بجودة نبات الزرع . وقال الطبرى : المَخْرُ فى اللغة صوت هبوب الريح ، ولم يقيّد كونه فى ماء ، وقال : إن من ذلك قول واصل مولى أبى عُيينـة : إذا أراد أحدكم البول فليتمخّر الريح ؛ أى لينظر فى صوتها فى الأجسام من أين تَهُبّ ، فيتجنّب استقبالها لئلا تردّ عليه بوله . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْـلِهِ ﴾ أى ولتركبوه للتجارة وطلب الربح . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون ﴾ تقدم جميع هذا فى « البقرة »[3] والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة ، وجـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعدها .

قوله تعـالى : وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرضِ رَوَاسِيَ﴾ أى جبالا ثابتة . رَسَا يرسو إذا ثبت وأقام . قال :

فَصَبَرْتُ عارِفةً لذلك حُرَّةً (١) * ترسو إذا نفسُ الجبان تطلَّعُ

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أى لئلا تَميد ؛ عنـد الكوفيين . وكراهية أن تميد ؛ على قول البصريين . والمَيْـد : الاضطراب يمينا وشمالا ؛ ماد الشيء يَميد ميـدا إذا تحـرك ؛ ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تبختر . قال وهب بن مُنبِّه : خلق الله الأرض فجعلت تميـد وتمور ، فقـالت الملائكة : إن هـذه غير مقرّة أحدا على ظهـرها فأصبحت وقد أُرْسِيت بالجبال ، ولم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال . وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : لمـا خلق الله الأرض قَمَصت ومالت وقالت : أيْ رَبِّ ! أتجعل عليّ من يعمل بالمعاصي والخطايا ، ويلقي عليّ الجِيف والنَّتْن ! فأرسى الله تعالى فيهـا من الجبال ما ترون وما لا ترون . وروى الترمذيّ في آخر (كتاب التفسير) حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوّام بن حَوْشَب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لمـا خلق الله الأرض جعلت تَمِيد فخلق الجبال فعاد بهـا عليها فاستقرّت فعجبت الملائكة من شدّة الجبال قالوا يارَبِّ هل مِن خلقك شيء أشدّ من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد قال نعم النار فقالوا يارب فهـل من خلقك شي أشـدّ من النار قال نعم المـاء قالوا يارب فهـل من خلقك شيء أشـدّ من المـاء قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشـدّ من الريح قال نعم ابنُ آدم تصـدّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله" . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

---

(١) البيت لعنترة العبسي . يقول : حبست نفسا عارفة ، أى صابرة . وقبله :

وعلمت أن منيّتي إن تأتـني * لا ينجني منهـا الفـرار الأسرع

قلت : وفى هذه الآية أدلّ دليل على استعمال الأسباب ، وقد كان قادرا على سكونها دون الجبال . وقد تقدّم هــذا المعنى . ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى وجعل فيها أنهارا ، أو ألقى فيهــا أنهارا . ﴿ وَسُبُلًا ﴾ أى طُـرُقا ومسالك . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى إلى حيث تقصِدون من البــلاد فلا تضلون ولا تتحيّرون .

قوله تعــالى : وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

فيــــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار ؛ أى جعــل للطرق علامات يقع الاهتداء بها . ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعنى بالليل ، والنجمُ يراد به النجــوم . وقرأ ابن وَثّاب « و بِالنُّجْم » . الحسن : بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم ، فقصره ؛ كما قال الشاعر :

إنّ الفقــير بيننا قاضٍ حَكَمْ * أن تَرِد المــاءَ إذا غاب النُّجُمْ

وكذلك القول لمن قرأ « النُّجْم » إلا أنه سَكّن استخفافا . ويجــوز أن يكون النُّجُم جمعَ نَجْم كسُقُف وسَقْف . واختلف فى النجوم ؛ فقال الفراء : الجَدْى والفرقدان . وقيل : الثريا . قال الشاعر :

حــتى إذا ما استقلّ النجمُ فى غَلَس * وغُودر البَقْــــلُ مَلْوِىٌّ ومحصــودُ[(١)]

أى منــه ملوِىّ ومنه محصود ، وذلك عنــد طلوع الثريا يكون . وقال الكلْبِىّ : العلامات الجبال . وقال مجاهد : هى النجوم ؛ لأن من النجوم ما يهتَدَى بهــا ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ؛ وقاله قَتادة والنَّخَعِىّ . وقيل : تم الكلام عنــد قوله « وعلاماتٍ » ثم ابتدأ وقال : « و بِالنَّجْمِ هم يهتدون » . وعلى الأوّل : أى وجعل لكم علامات ونجوما تهتدون بها . ومن العلامات الرياح يهتدى بهــا . وفى المراد بالاهتداء قولان : أحدهما — فى الأسفار ،

(١) البيت لذى الرمة . ومعنى « استقل » طلع فى آخر الليــل . وفى ديوانه : « أحصد » بدل « غودر » . وأحصد : حان حصاده .

وهـذا قول الجمهور . الثانى — فى القِبْلة . وقال ابن عباس : سألت رسول الله صـلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « وبِالنَّجْمِ هم يهتدون » قال : " هو الجَدْىُ يآبنَ عباس، عليه قبلتكم و به تهتدون فى بَرِّكم و بحركم " ذكره المـاوردىّ .

الثانيـــة — قال ابن العربىّ : أما جميع النجـوم فلا يهتدى بهـا إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والفرق بين الجنوبى والشمالى منها، وذلك قليل فى الآخرين. وأما الثُّرَيّا فلا يهتدى بها إلا مَن يهتدى بجميع النجوم . و إنما الهَدْى لكل أحد بالجَدْى والفَرْقَدين ؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السَّمْت الثابتة فى المكان ، فإنهـا تدور على القطب الثابت دورانا محصّلا، فهى أبدا هَـدْىُ الخلق فى البَرّ إذا عميت الطرق ، وفى البحر عنـد مجرى السفن ، وفى القِبْلة إذا جهل السَّمْت ، وذلك على الجمـلة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فمـا استقبلت فهو سَمْت الجهة .

قلت : وسأل ابنُ عباس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : " هو الجَدْى عليــه قبلتكم و به تهتــدون فى بركم و بحركم " . وذلك أن آخر الجـدى بنات نَعْش الصغرى والقطب الذى تستوى عليه القبلة بينها .

الثالثـــة — قال علمـاؤنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما — أن يراها و يعاينها فيلزمه استقبالهـا و إصابتها وقصـد جهتها بجميع بدنه . والآخر — أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجه نحوها وتلقاءها بالدلائل، وهى الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها، ومن غابت عنه وصـلّى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلّى مجتهدا مستدِلّا ثم انكشف له بعـد الفراغ من صلاته أنه صـلى إلى غير القبـلة أعاد إن كان فى وقتها، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أُمِر به . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » (١) مستوفًى والحمد لله .

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ هو الله تعالى . ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ يريد الأصنام . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، كما يخبر عمن يعقل على ما تستعمله العرب في ذلك ؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ « من » كقوله : « أَلَهُمْ أَرْجُلٌ » . وقيل : لاقتران الضمير في الذكر بالخالق . قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه علىّ الراكب وجمله فلا أدري مَن ذا ومَن ذا ؛ وإن كان أحدهما غير إنسان . قال المَهْدَوِيّ : ويسأل بـ« مَن » عن البارئ تعالى ولا يسأل عنه بـ« ما » ؛ لأن « ما » إنما يسأل بها عن الأجناس ، والله تعالى ليس بذي جنس ، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى »(١) ولم يجب حين قال له : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » إلا بجواب « مَن » وأضرب عن جواب « ما » حين كان السؤال فاسدا . ومعنى الآية : من كان قادرا على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع ؛ « هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ »(٢) « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ »(٣) .

قوله تعـالى : وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ تقدم في إبراهيم(٤) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تبطنونه وما تظهرونه . وقد تقدم جميع هذا مستوفى .

قوله تعـالى : وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

(١) آية ٤٩ سورة طه . (٢) آية ١١ سورة لقمان . (٣) آية ٤٠ سورة فاطر .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قراءة العامة «تدعون» بالتاء لأن ماقبله خطاب . روى أبو بكر عن عاصم وهُبيرة عن حفص « يدعون » بالياء، وهى قراءة يعقوب . فأما قوله : «ما تُسِرّون وما تُعلنون» فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما روى هُبيرة عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء . ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ أى لا يقدرون على خلق شيء ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ . ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أى هم أموات، يعنى الأصنام، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر، أى هى جمادات فكيف تعبـدونها وأنتم أفضل منها بالحياة . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعـنى الأصنام . ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وقرأ السُّلَمِيّ «إِيّان» بكسر الهمزة، وهما لغتان، موضعه نصب بـ«يبعثون» وهى فى معنى الاستفهام . والمعنى : لا يدرون متى يبعثون . وعبر عنها كما عبر عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تعقـل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى، فجرى خطابهم على ذلك . وقد قيـل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتتبرأ من عبادتهم، وهى فى الدنيا جماد لا تعـلم متى تبعث . قال ابن عباس : تبعث الأصـنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرءون من عبدتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار . وقيـل : إن الأصنام تطرح فى النار مع عبدتها يوم القيامة؛ دليله « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[(١)] . وقيل : تمّ الكلام عند قوله : « لا يَخلقون شيئا وهم يُخلقون » ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات، وهـذا الموت موت كفر . « ومايشـعرون أيان يبعثون » أى وما يدرى الكفار متى يبعثون، أى وقت البعث؛ لأنهـم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدّوا للقاء الله . وقيل : أى وما يدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريبا .

قوله تعـالى : إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ج فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ قلى إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لمـا بيّن استحالة الإشراك بالله تعالى بيّن أن المعبود واحد لا ربّ غيره ولا معبود سواه . ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أى لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكر، وهذا ردّ على القدرية . ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أى متكبرون متعظمون عن قبول الحق . وقد تقدم فى « البقرة »(١) معنى الاستكبار . ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى من القول والعمل فيجازيهم . قال الخليل : «لا جرم» كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا؛ يقال : فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جرم سيندمون . أى حقا أن لهم النار . وقد مضى القول فى هذا فى «هود»(٢) مستوفًى . ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أى لا يثيبهم ولا يثنى عليهم . وعن الحسين بن علىّ أنه مرّ بمساكين قد قـدّموا كِسَرًا بينهم وهم يأكلون فقالوا : الغـذاءَ يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم وقال « إنه لا يحب المستكبرين » فلما فرغ قال: قد أجبتكم فأجيبونى؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا . قال العلماء . وكل ذنب يمكن التستر منه و إخفاؤه إلا الكبر؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. وفى الحديث الصحيح " إن المتكبرين يحشرون أمثال الذّرّ يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم" . أوكما قال صلى الله عليه وسلم :" تَصْغُرُ لهم أجسامُهم فى المحشر حتى يضرهم صِغَرُها وتَعْظُم لهم فى النار حتى يضرهم عِظَمُها " .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيـلَ لَهُـم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ يعنى و إذا قيل لمن تقـدم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث « ما ذا أنزل ربكم » . قيل : القائل النضر بن الحارث، وأن الآية نزلت فيـه، وكان خرج إلى الحيرة فاشـترى أحاديث (كَليلة ودِمْنـة) فكان يقرأ على قريش و يقول : ما يقـرأ محمد على أصحـابه إلا أساطير الأولين؛ أى ليس هو من تنزيل

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

ربّنا . وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لهم اختبارا فأجابوا بقولهم : « أساطير الأولين » فأقروا بإنكار شيء هو أساطير الأولين . والأساطير : الأباطيل والتُّرَّهات . وقد تقدّم في الأنعام.(١) والقول في « ماذا أنزل ربكم » كالقول في « ماذا ينفقون »(٢) وقوله : ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبر ابتداء محذوف، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين .

قوله تعالى : لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ قيل : هي لام كَيْ، وهي متعلقة بما قبلها . وقيل : لام العاقبة ؛ كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . أي قولهم في القرآن والنبيّ أدّاهم إلى أن حملوا أوزارهم؛ أي ذنوبهم . ﴿كَامِلَةً﴾ لم يتركوا منها شيئا لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم . وقيل : هي لام الأمر، والمعنى التهدّد . ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال مجاهد : يحملون وِزْر من أضلّوه ولا يَنْقُص من إثم المُضَلّ شئ . وفي الخبر " أيُّما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شئ وأيّما داع دعا إلى هُدًى فاتُّبِع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شئ " خرّجه مسلم بمعناه . و « مِن » للجنس لا للتبعيض ؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم . وقوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يضلون الخلق جهلا منهم بما يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لما أضلوا . ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس الوزر الذي يحملونه . ونظير هذه الآية « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »(٣) وقد تقدّم في آخر « الأنعام »(٤) بيان قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ١٣ سورة العنكبوت . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : قَـدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِـمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِـمْ وَأَتَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قد مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدّمين فكانت العاقبة الجميلة للرسل . ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما : إنه النُّمْرود بن كَنْعان وقومه ، أرادوا صعود السماء وقتال أهله ؛ فبَنَوا الصرح ليصعدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع ، فخرّ . كما تقدّم بيانه فى آخر سورة « إبراهيم »[1] . ومعنى « فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم » أى أتى أمرُه البنيان ، إمّا زلزلة أو ريحا فخرّبته . قال ابن عباس ووهب : كان طول الصَّرْح فى السماء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف . وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين ، فهبّت ريح فألقت رأسه فى البحر وخرّ عليهم الباقى . ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا ، فلذلك سُمّىَ بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السُّرْيانية . وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة »[2] . وقرأ ابن هُرْمز وابن مُحَيْصن « السُّقُف » بضم السين والقاف جميعا . وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفا ؛ كما تقدّم فى « والنجم » فى الوجهين . والأشبه أن يكون جمع سقف . والقواعد : أصول البناء ، وإذا اختلت القواعد سقط البناء . وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن الأعرابى : وكّد ليعلمك أنهم كانوا حالّين تحته . والعرب تقول : خرّ علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : « من فوقهم » ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب فقال : « من فوقهم » أى عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء ؛ أى إن العذاب أتاهم من السماء التى هى فوقهم ؛ قاله ابن عباس . وقيل : إن قوله : « فأتى اللهُ بنيانهم من

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٨١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

القواعِدِ » تمثيل ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سـقط عليه بنيانه . وقيــل : المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه . وقيل : المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه . وعلى هــذا اختُلف فى الذين خرّ عليهم السقف ؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدّم . وقيــل : إنه بُخْتَنَصَّر وأصحابه ؛ قاله بعض المفسرين . وقيل : المراد المقتسمون الذين ذكرهم الله فى سورة الحِجر ؛ قاله الكلبيّ . وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل ، والله أعلم . ﴿ وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْـعُرُونَ ﴾ أى من حيث ظنوا أنهم فى أمان . وقال ابن عباس : يعنى البعوضة التى أهلك الله بها نمرودا .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِـمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم . ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ أى بزعمكم وفى دعواكم ، أى الآلهة التى عبـدتم دونى ، وهو سؤال توبيخ . ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أى تعادون أنبيائى بسببهم ، فليدفعوا عنكم هذا العذاب. وقرأ ابن كَثِير « شُرَكَایَ » بيـاء مفتوحة من غير همز ، والباقون بالهمز . نافع « تُشَاقُّونِ » بكسر النون على الإضافة ، أى تعادوننى فيهم . وفتحها البـاقون . ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ قال ابن عبـاس : أى الملائكة . وقيل المؤمنون . ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ ﴾ أى الهوان والذل يوم القيامة . ﴿ وَالسُّوءَ ﴾ أى العذاب . ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ هـذا من صفة الكافرين . و «ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» نصب على الحال؛ أى وهم ظالمون أنفسهم إذ أو ردوها موارد الهلاك . ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أى الاستسلام . أى أقرّوا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُـوءٍ ﴾ أى من شرك . فقالت لهم الملائكة : ﴿ بَلَى ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة فى قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقُتِلوا بها ؛ فقال : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ بقبض أرواحهم . ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فى مقامهم بمكة وتركهم الهـجرة . ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ يعنى فى خروجهم معهم . وفيـه ثلاثة أوجه : أحـدها — أنه الصـلح ؛ قاله الأخفش . الثانى — الاستسلام؛ قاله قُطْرُب . الثالث — الخضوع؛ قاله مقاتل . ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ يعنى من كفر . ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى أن أعمالهم أعمال الكفار . وقيل : إن بعض المسلمين لمـا رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين؛ فنزلت فيهم . وعلى القول الأول فلا يخـرج كافر ولا منافق من الدنيـا حتى ينقاد ويسـتسلم، ويخضع ويذل، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان؛ كما قال : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »(١) وقد تقدّم هـذا المعنى . وتقدّم فى « الأنفال »(٢) إن الكفار يتوفّون بالضرب والهـوان ، وكذلك فى « الأنعام »(٣) . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة .

قوله تعـالى : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك عنـد الموت . وقيل : هو بشارة لهم بعذاب القبر؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين . وقيل : لا تصل أهل الدركة الثانية إليهـا مثلا إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة هكذا . وقيـل : لكل دركة

(١) آخر سورة غافر .	(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٨	(٣) راجع جـ ٧ ص ١٤٤ وما بعدها .

باب مفرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر . فالله أعلم . ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها . ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أي مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبّروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى ، وقد بيّنهم بقوله الحق : « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ »(١) .

قوله تعالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي قالوا : أنزل خيرا ؛ وتمّ الكلام . و «ماذا» على هذا اسم واحد . وكان يرِدُ الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون . ويسأل المؤمنين فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى ، والمراد القرآن . وقيل : إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة . قال الثعلبي : فإن قيل : لم ٱرتفع الجواب في قوله : «أساطيرُ الأولين» وٱنتصب في قوله : « خيرا » فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل ، فكأنهم قالوا : الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين . والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا : أنزل خيرا . وهذا مفهوم معناه من الإعراب ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل : هو من كلام الله عز وجل . وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقَوْا . والحسنة هنا : الجنة ؛ أي من أطاع الله فله الجنة غدا . وقيل : « للذين أحسنوا » اليومَ حسنةٌ في الدنيا من النصر والفتح والغَنِيمة : ﴿وَلَدَارُ

(١) آية ٣٥ سورة الصافات .

ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ أي ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ؛ لفنائها وبقاء الآخرة . ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيه وجهان — قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا ؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة ؛ وهذا قول الجمهور . وعلى هذا تكون ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدلا من الدار فلذلك ارتفع . وقيل : ارتفع على تقدير هي جنات ، فهي مبيِّنة لقوله : « دَارُ الْمُتَّقِين » ، أو تكون مرفوعة بالابتداء ، التقدير : جنات عدن نعم دار المتقين . ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ في موضع الصفة ، أي مدخولة . وقيل : « جنات » رفع بالابتداء ، وخبره « يدخلونها » وعليه يُخَرَّج قول الحسن . والله أعلم . ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تقدم معناه في البقرة[(١)] . ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أي مما تمنوه وأرادوه . ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي مثل هذا الجزاء يجزى الله المتقين .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ قرأ الأعمش وحمزة « يتوفاهم الملائكة » في الموضعين بالياء ، واختاره أبو عبيد ؛ لما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكّروهم أنتم . الباقون بالتاء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة . و ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ فيه ستة أقوال : الأول — « طَيِّبين » طاهرين من الشرك . الثاني — صالحين . الثالث — زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع — طيبين الأنفس ثقةً بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس — طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس — « طيبين » أن تكون وفاتهم طيّبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط . والله أعلم . ﴿ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثاني — أن يكون تبشيرا لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان . وذكر ابن المبارك قال : حدثني حَيْوَة قال أخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب القُرَظي قال : إذا استنقعت[(٢)] نفس العبد المؤمن جاءه مَلَك الموت فقال : السلام عليك وَلِيَّ الله ، الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهذه الآية « الذين

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) استنقع الماء : اجتمع وثبت . أي اذا اجتمعت نفس المؤمن في فيه تريد الخروج ، كما يستنقع الماء في قراره ؛ وأراد بالنفس الروح .

تتوفاهم الملائكة طيبين يقولونَ ســلام عليكم » . وقال ابن مسـعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربّك يقرئك السلام . وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشّر بصلاح ولده من بعده لتقرّ عينه . وقد أتينا على هـذا فى (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة فى هذا المعنى ، والحمد لله . وقوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة . الثانى — أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى فى الدنيا من الصالحات .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ هـذا راجع إلى الكفار، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائىّ وخلف «يأتيهم الملائكة» بالياء . والباقون بالتاء على ما تقدّم . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى بالعـذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والخسف فى الدنيا . وقيل : المراد يوم القيامة . والقوم لم ينتظروا هـذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فأضيف ذلك إليهم ، أى عاقبتهم العذاب . ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى أصرّوا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعالى : فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير، التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أى أحاط بهم ودار . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا، و « من » صلة . قال الزجاج : قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى هذا فى سورة « الأنعام » مبينا معنًى وإعرابا فلا معنى للإعادة .(١) ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسل فأهلكوا . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس عليهم إلا التبليغ، وأما الهداية فهى إلى الله تعالى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ أى بأن اعبدوا الله ووحّدوه . ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ﴾ أى أرشده إلى دينه وعبادته .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ أي بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره ، وهذا يردّ على القدرية ؛ لأنهم زعموا أن الله هـدى الناس كلّهم ووفقهم للهدى ، والله تعـالى يقول : « فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْـهِ الضَّلَالَةُ » وقد تقدم هذا فى غير موضع . ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى فسيروا معتبرين فى الأرض . ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك .

قوله تعـالى : إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِـلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ أى إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم . ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أى لا يرشد من أضله ، أى من سبق له من الله الضلالة لم يهده . وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة . فـ « يَهْدِى » فعل مستقبل وماضيه هَدَى . و « مَن » فى موضع نصب بـ « يهدى » ويجوز أن يكون هَـدَى يَهْدِى بمعنى اهتدى يهتدى ؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال : كما قرئ « أمَّن لا يَهِدِّى إلّا أَنْ يُهْدَى » بمعنى يهتدى . قال أبو عبيد . ولا نعلم أحدا روى هـذا غير الفراء ، وليس بمتّهم فيما يحكيه . النحاس : حكى لى عن محمـد ابن يزيد كأن معنى « لَا يَهْدِى مَن يُضِلّ » من علم ذلك منه وسـبق ذلك له عنده ، قال : ولا يكون يهـدى بمعنى يهتدى إلا أن يكون يَهْدِى أو يُهْدَى . وعلى قول الفراء « يَهِـدِّى » بمعنى يهتدى ، فيكون « من » فى موضع رفع ، والعائد إلى « من » الهاء المحذوفة من الصلة ، والعائد إلى اسم « إن » الضمير المستكنّ فى « يُضل » . وقرأ الباقون « لا يُهْدَى » بضم الياء وفتح الدال ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، على معنى من أضله الله لم يهده هادٍ ؛ دليله قوله : « مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ » و « مَن » فى موضع رفع على أنه اسم مالم يُسَمَّ فاعله ، وهى بمعنى الذى ، والعائد عليها من صلتها محذوف ، والعائد على اسم إن من « فإنّ الله » الضمير المستكنّ فى « يضل » . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعـالى : وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ هـذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله و بالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجيب أنهـم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجّزونه عن بعث الأموات . وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان فى بعض كلامـه : والذى أرجوه بعـد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله : لايبعث الله من يموت؛ فنزلت الاية . وقال قتادة : ذكر لنـا أن ابن عباس قال له رجل : يابن عباس، إن ناسا يزعمون أن عليًّا مبعوث بعد الموت قَبْل الساعة، ويتأوّلون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك ! إنما هذه الآية عامة للناس، لو كان علىّ مبعوثا قبل القيـامة مانكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه . ﴿ بَلَىٰ ﴾ هـذا ردّ عليهم؛ أى بلى ليبعثنهم . ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكّد؛ لأن قوله « يبعثهم » يدل على الوعد، أى وعد البعث وعدا حقا . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مبعوثون . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبـه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وأما شتمه إيّاى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد " . وقد تقدّم(١)، ويأتى .

قوله تعـالى : لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ كَانُوا كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أى ليظهر لهم . ﴿ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أى من أمر البعث . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالبعث وأقسموا عليـه ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ وقيـل : المعنى

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية .

ولقد بعثنا فى كل أمـة رسولا ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، والذى اختلف فيـه المشركون والمسلمون أمور : منها البعث، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن محمدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد، كأبى طالب .

قوله تعـالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

أعلمهم سهولة الخلق عليه، أى إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيـائهم، ولا فى غير ذلك ممـا نحدثه؛ لأنا إنمـا نقول له كن فيكون . قراءة ابن عامر والكسائى « فيكونَ » نصبا عطفا على أن نقول . وقال الزجاج : يجـوز أن يكون نصبـا على جواب « كن » . الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . وقد مضى القول فيه فى « البقرة » مستوفًى (١) . وقال ابن الأنبارى : أوقع لفظ الشئ على المعلوم عند الله قبـل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد . وفى الآية دليل على أن القرآن غير مخـلوق ؛ لأنه لو كان قوله : « كن » مخلوقا لاحتاج إلى قول ثان ، والثانى إلى ثالث وتسلسل وكان محالا . وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها؛ والدليـل على ذلك أن من يرى فى سلطانه مايكرهه ولا يريده فلأحد شيئين : إما لكونه جاهلا لايدرى، وإما لكونه مغلوبا لايطيق، ولا يجوز ذلك فى وصفه سبحانه، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد، ويستحيل أن يكون فاعلا لشئ وهو غير مريد له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلو لم يكن الحق سبحانه مريدا لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد؛ وهذا قول الطبيعيين، وقد أجمع الموّحدون على خلافه وفساده .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) راجع ج ٢ ص ٩٠ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْـدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قـد تقدّم فى « النّساء » معنى الهجرة[(١)]، وهى ترك الأوطان والأهـل والقرابة فى الله أو فى دين الله ، وترك السيئات . وقيل : «فى» بمعنى اللام، أى لله . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ أى عُذّبوا فى الله . نزلت فى صُهَيب وبلال وخبّاب وعمّار، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة؛ قاله الكَلْبِيّ . وقيل : نزلت فى أبى جَنْدل بن سهيل . وقال قتادة : المراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة؛ ثم بوّأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . والآية تعم الجميع . ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ فى الحسنة ستة أقوال : الأوّل — نزول المدينة؛ قاله ابن عباس والحسن والشَّعْبِيّ وقَتادة . الثانى — الرزق الحسن؛ قاله مجاهد . الثالث — النصر على عدوّهم؛ قاله الضحاك . الرابع — إنه لسان صدق؛ حكاه ابن جُرَيج . الخامس — ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات . السادس — ما بقى لهم فى الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف . وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله . ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أى ولأجر دار الآخرة أكبر، أى أكبر من أن يعلمــه أحد قبل أن يشاهــده؛ « وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا »[(٢)] . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك . وقيل : هو راجع إلى المؤمنين . أى لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله فى الدنيا وما ادّخر لكم فى الآخرة أكثر؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

قيل : ﴿الذين﴾ بدل من «الذين» الأول . وقيل : من الضمير فى «لَنُبَوِّئَنَّهُم» وقيل : هم الذين صبروا على دينهم . ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فى كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر، وإذا عجز عن أمر توكل؛ قال الله تعالى : «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» .

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤٧ وما بعدها، طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٠ سورة الانسان .

قوله تعـالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ قراءة العـامة « يُوحَى » بالياء وفتح الحاء . وقرأ حفص عن عاصم « نُوحِي اليهم » بنون العظمة وكسر الحاء . نزلت فى مشركى مكة حيث أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسـوله بشرا ، فهلّا بعث إلينا مَلَكًا ؛ فردّ الله تعالى عليهم بقوله : « وما أرسلنا مِن قبلك » إلى الأمم المـاضية يا محمد « إلا رِجالا » آدميين . ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ قال سفيان : يعنى مؤمنى أهل الكتاب . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا . وقيل : المعنى فآسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسـل كانوا من البشر . رُوِىَ معناه عن ابن عباس ومجاهد . وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن . وقيـل : أهل العلم، والمعنى متقارب . ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ قيـل : « بالبينات » متعلق بـ « أرسـلنا » . وفى الكلام تقـديم وتأخير، أى ما أرسـلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا — أى غير رجال، فـ«إلّا» بمعنى غير ؛ كقوله : لا إله إلا الله، وهذا قول الكلبىّ — نوحِى اليهم . وقيل : فى الكلام حذف دل عليه « أرسلنا » أى أرسلناهم بالبينات والزبر . ولا يتعلق « بالبيناتِ » بـ « أرسلنا » الأوّل على هذا القول ؛ لأن ما قبل «إلّا» لا يعمل فيما بعدها، وإنّما يتعلق بأرسلنا المقدّرة ، أى أرسلناهم بالبينات . وقيـل : مفعول بـ « تعلمون » والباء زائدة ، أو نصب بإضمار أعنى ؛ كما قال الأعشى :

وليس مُجِيرا إن أتى الحىَّ خائف * ولا قائـــلا إلا هـــو المتعيَّبَا

أى أعنى المتعيِّب . والبينات : الحجج والبراهين . والزُّبُر : الكتب . وقد تقدّم فى آل عمران[1] . ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعنى القرآن . ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فى هـذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبيِّن عن الله عز وجل مراده مما أجمله فى كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصّله . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى فى مقدّمة الكتاب، والحمد لله . ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتّعظون .

قوله تعـالى : أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى بالسيئات، وهذا وعيد للشركين الذين احتالوا فى إبطال الإسلام . ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس : كما خسف بقارون، يقال : خَسَفَ المكانُ يَخسِف خسوفا ذهب فى الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفا أى غاب به فيها؛ ومنه قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ »[2] . وخَسَف هو فى الأرض وخُسِف به . والاستفهام بمعنى الإنكار؛ أى يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت المكذبين . ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم . وقيل : يريد يوم بدر؛ فإنهـم أهلكوا ذلك اليوم، ولم يكن شىء منـه فى حسابهم . ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أى فى أسفارهم وتصرفهم؛ قاله قتادة . ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى مسابقين الله ولا فائتيه . وقيل : « فِي تَقَلُّبِهِم » على فراشهم أينما كانوا . وقال الضحاك : بالليل والنهار . ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ قال ابن عبـاس ومجاهد وغيرهمـا : أى على تنقّص من أموالهم

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٧١ سورة القصص .

ومواشيهم وزروعهم . وكذا قال ابن الأعرابي : أي على تنقّص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلّهم . وقال الضحاك : هو من الخوف؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع طائفة ، فتخاف الباقيــة أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها . وقال الحسن : « على تَخَوُّفٍ » أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى ، وهــذا هو معنى القول الذي قبله بعينه ، وهما راجعان إلى المعنى الأوّل ، وأن التخوف التنقص ، تخوّفــه تنقصه ، وتخوّفه الدهر وتخوّنه (بالفاء والنون) بمعنًى؛ يقال : تخوّنني فلان حَقِّي إذا تنقصك . قال ذو الرُّمَّة :

لا ، بل هو الشّوْقُ مِن دارٍ تَخوّنها * مَرًّا سحابٌ ومَرًّا بارِحٌ تَرِبُ (١)

وقال لبيـــد :

* تخوّنها نزولى وارتحالى * (٢)

أي تنقص لحمها وشحمها . وقال الهَيْثَم بن عَدِيّ : التخوّف (بالفاء) التنقص ، لغة لأزدِشَنُوءة . وأنشد :

تخـوّف غَدْرهم مالى وأهْـدَى * سلاسلَ في الحلوق لها صليل

وقال سعيد بن المسيِّب : بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال : يأيها الناس ، ما تقولون في قول الله عز وجل : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ » فسكت النـاس ، فقال شيخ من بني هُذَيل : هي لغتنا يا أمير المؤمنين ، التخوّف التنقص . فخرج رجل فقال : يا فلان ، ما فعل دَيْنُك؟ قال : تخوّفته ، أي تنقّصته ، فرجع فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك في أشعارهم ؟ قال نعم ؛ قال شاعرنا أبو كَبِير الهُذَلِيّ (٣) يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تَمْكِه واكتنازه :

تخوّف الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدًا * كما تخـوّف عُودَ النَّبْعــة السَّفَنُ (٤)

---

(١) البارح : الريح الحارة في الصيف التي فيها تراب كثير . (٢) هذا عجز البيت ، وصدره كما في اللسان :

* عُذافرة تُقَمِّص بالرُّدَافَى *

(٣) كذا في جميع الأصول ، والذي في اللسان أنه لابن مقبل وقيل لذي الرمة . (٤) القـرد : معناه هنا : المتراكم لحمه بعضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسيّ .

فقال عمر : يأيها الناس ، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فان فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم . تَمَكَ السنام يَتْمِك تَمْكًا، أى طال وارتفع، فهو تامك . والسَّفَن والمِسْفن ما يُنْجَر به الخشب . وقال اللّيث بن سعد : « على تخوّفٍ » على عجل . وقيل : على تقريع بما قدّموه من ذنوبهم، وهذا مروى عن ابن عباس أيضا . وقال قتادة : « على تخوّف » أن يعاقب أو يتجاوز . ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى لا يعاجل بل يمهل .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾

قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى والأعمش ﴿ تروا ﴾ بالتاء، على أن الخطاب لجميع الناس . الباقون بالياء خبرا عن الذين يمكرون السيئات؛ وهو الاختيار . ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعنى من جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل؛ قاله ابن عباس . وإن كانت الأشياء كلّها سميعة مطيعة لله تعالى . ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتاء لتأنيث الظلال . الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد . أى يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلّص ثم يعود فى آخر النهار على حالة أخرى؛ فدورانها ومَيَلانها من موضع إلى موضع سجودُها؛ ومنه قيل للظل بالعشى : فَىْءٌ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أى رجع . والفىء الرجوع؛ ومنه «حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ الله»[(١)] . روى معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما، وقد مضى هذا المعنى فى سورة «الرعد»[(٢)] . وقال الزجاج : يعنى سجود الجسم، وسجودُه انقياده وما يُرَى فيه من أثر الصنعة، وهذا عام فى كل جسم . ومعنى ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى خاضعون صاغرون . والدخور : الصَّغار والذّل . يقال : دَخَر الرجل (بالفتح) فهو داخر، وأدخره الله . وقال ذو الرمة :

فلم يَبْقَ إلا داخرٌ فى مُخَيَّس ✱ ومُنْجَحِرٌ[(٣)] فى غير أرضك فى جُحْرِ

---

(١) آية ٩ سورة الحجرات .　(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠٢ طبعة أولى أو ثانية .　(٣) كذا فى كتب اللغة . يقال : انجحر الضب اذا دخل الجحر . والذى فى الأصول وديوان ذى الرمة : « منحجر فى غير أرضك فى حجر » بتقديم الحاء على الجيم فى الكلمتين .

كذا نسبه المـاوَرْدِىّ لذى الرُّمّة، ونسـبه الجوهرى للفرزدق وقال : المُخَيَّس اسم سجن كان بالعراق؛ أى موضع التذلل . وقال(١) :

أَمَا تــرانى كَيِّسًا مُكَيَّسَا * بَنَيْتُ بعــدَ نافع مُخَيَّسَا

ووحّد اليمين فى قوله : «عَنِ الْيَمِينِ» و جمع الشمال؛ لأن معنى اليمين و إن كان واحدا الجمع . ولو قال : عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة . وأيضا فمن شـأن العرب إذا اجتمعت علامتان فى شىء واحد أن تجمـع إحداهمـا وتفرد الأخرى؛ كقوله تعـالى : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » وكقوله : « وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النُّورِ » ولو قال على أسماعهم و إلى الأنوار لجاز . و يجوز أن يكون ردّ اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها . ومثل هذا فى الكلام كثير . قال الشاعر :

الواردونَ وتَيم فى ذُرَا سَـبَإ(٢) * قد عَضّ أعناقَهم جِلْدُ الجواميس

ولم يقل جلود . وقيل : وحّد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم فى حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات(٣)، فسماها شمائل .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى من كل ما يدب على الأرض . ﴿ والمَلَائِكَةُ ﴾ يعنى الملائكة الذين فى الأرض، و إنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم

(١) القائل هو سيدنا على رضى الله عنه . ونافع : سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء وكان من قصب، وكان المحبوسون يهربون منه . وقيل : إنه نقب وأفلت منه المحبسون؛ فهدمه على رضى الله عنه و بنى المخيس لهم من مدر .

(٢) البيت لجرير . ورواية ديوانه : تدعوك تيم وتيم فى قرى سبأ * ... ... الخ

(٣) هكذا وردت هذه الجملة فى الأصول . ولعل صوابها : لأن الشمس اذا طلعت وانت متوجه الى القبلة انبسط الظل عن اليمين فى حال، ثم يميل الى جهة الشمال فى حالات؛ فسماها شمائل .

والذى فى البحر لأبى حيان : « وقيل : وحد اليمين و جمع الشمائل لأن الابتداء عن اليمين، ثم ينقبض شيئا فشيئا حالا بعد حال؛ فهو بمعنى الجمع، فصدق على كل حال لفظة الشمال فتعدد بتعدد الحالات » .

بشرف المنزلة ، فميّزهم من صفة الدبيب بالذكر و إن دخلوا فيها ؛ كقوله : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »[1] . وقيل : لخروجهم من جملة ما يدبّ لما جعل الله لهم من الأجنحة ، فلم يدخلوا فى الجملة فلذلك ذكروا . وقيل : أراد « وللهِ يسجد مافى السمواتِ » من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، « وما فى الأرضِ من دابةٍ » وتسجد ملائكة الأرض . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادة ربهم . وهذا ردّ على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله . ومعنى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أى عقاب ربهم وعذابه ، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء . وقيل : المعنى يخافون قدرة ربهم التى هى فوق قدرتهم؛ ففى الكلام حذف . وقيل : معنى « يخافون ربهم من فوقِهم » يعنى الملائكة، يخافون ربهم وهى من فوق ما فى الأرض من دابة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخاف من دونهم أولى؛ دليل هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يعنى الملائكة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ قيل : المعنى لا تتخذوا اثنين إلٰهين . وقيل : جاء قوله « اثنين » توكيدا . ولما كان الإلٰه الحق لا يتعدّد وأن كل من يتعدّد فليس بإلٰه ، اقتصر على ذكر الاثنين؛ لأنه قصد نفى التعديد . ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ يعنى ذاته المقدّسة . وقد قام الدليل العقلى والشرعى على وحدانيته حسبما تقدّم فى « البقرة »[2] بيانه وذكرناه فى اسمه الواحد فى شرح الأسماء ، والحمد لله . ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أى خافون . وقد تقدّم فى « البقرة »[3] .

قوله تعالى : وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٠ وما بعدها طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدِّين : الطاعة والإخلاص. و « وَاصِبًا » معناه دائما ؛ قاله الفرّاء، حكاه الجوهري . وَصَبَ الشيء يَصِب وُصوبا ، أي دام . ووَصَب الرجل على الأمر إذا واظب عليه . والمعنى : طاعة الله واجبة أبدا . وممن قال واصبا دائما : الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك . ومنه قوله تعالى : « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ »[1] أي دائم . وقال الدُّؤَلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه * بذم يكون الدهر أجمع واصبا

أنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما :

ما أبتغي الحمد القليلَ بقاؤه * يوما بذم الدهر أجمع واصبا

وقيل : الوَصب التعب والإعياء؛ أي تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها . ومنه قول الشاعر :

لا يُمسك الساقَ من أين ولا وَصَب * ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِهِ الصفر[2]

وقال ابن عباس : « واصبا » واجبا . الفراء والكلبي : خالصا . ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي لا ينبغي أن تتقوا غير الله . فـ « غير » نصب بـ « تتقون » .

قوله تعالى : وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفراء . « ما » بمعنى الجزاء . والباء في « بكم » متعلقة بفعل مضمر، تقديره : وما يكن بكم . ﴿ مِنْ نِعْمَةٍ ﴾ أي صحة جسم وسَعة رزق وولد فمن الله . وقيل : المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي . ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾

(١) آية ٩ سورة الصافات . (٢) الشعر لأعشى باهلة . والشطر الأول من بيت ، والثاني من بيت آخر . والبيتان :

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه * ولا يَعَض على شرسوفه الصفر

لا يغمز الساق من أين ولا نصب * ولا يزال أمام القوم يقتفر

تأرّى بالمكان : أقام به . والشرسوف : غضروف — كل عظم رخص يؤكل — معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف . والصفر (بالتحريك) : داء في البطن يصفر منه الوجه . وقيل : الصفر هنا الجوع . واقتفر الأثر : تتبعه .

أى السّقم والبلاء والقَحْط . ﴿ فإليه تجأرون ﴾ أى تضجون بالدعاء . يقال : جأر يجأر جؤارا . والجُؤار مثل الخُوار؛ يقال: جأر الثور يجأر، أى صاح . وقرأ بعضهم «عجلا جسدا له جؤار» ؛ حكاه الأخفش . وجأر الرجل إلى الله ، أى تضرّع بالدعاء . وقال الأعشى[1] يصف بقرة :

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تُضيف[2] وتجأرا

﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم ﴾ أى البلاء والسقم . ﴿ إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار . فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى مكرر فى القرآن ، وقد تقدم فى « الأنعام و يونس[3] » ، و يأتى فى « سبحان » وغيرها . وقال الزجاج : هذا خاص بمن كفر . ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء . أى أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كَىْ . وقيل لام العاقبة . وقيل : « ليكفروا بما آتيناهم » أى ليجعلوا النعمة سببا للكفر ، وكل هذا فعل خبيث ؛ كما قال :

* والكفر مَخْبثة لنفس المنعِم[4] *

﴿ فتمتعوا ﴾ أمر تهديد . وقرأ عبدالله « قل تمتعوا » . ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أى عاقبة أمركم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥٦)

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ﴾ ذكر نوعا آخر من جهالتهم، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر و ينفع — وهى الأصنام — شيئا من أموالهم يتقربون به اليه ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فـ « يعلمون » على هذا للمشركين . وقيل هى

(١) كذا فى الأصول . والذى فى اللسان مادة « ضيف » وكتاب سيبويه ج ٢ ص ١٧٤ أنه النابغة الجعدى .
(٢) فى الأصول : « تطيف » بالطاء . والتصويب عن اللسان وكتاب سيبويه . وتضيف : تشفق وتحذر والنكير : الإنكار . والجؤار : الصياح . والمعنى : أن هذه البقرة فقدت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأيامها ، ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدا على ولدها إلا أن تشفق وتحذر وتصيح . (٣) راجع ج ٧ ص ٨ و ج ٨ ص ٣١٧ طبعة أولى وثانية . (٤) هذا عجز بيت من معلقة عنترة ، وصدره :

* نبئت عمرا غير شاكر نعمتى *

للأوثان ، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل ، فهو رد على « ما » ومفعول يعلم محذوف ، والتقدير : ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئا نصيبا . وقد مضى فى « الأنعام » تفسير هذا المعنى فى قوله : « فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا »(١) ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : ﴿ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ ﴾ وهذا سؤال توبيخ . ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أى تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ ﴾ نزلت فى خزاعة وكنانة ؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد . ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أى يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات. وموضع « ما » رفع بالابتداء، والخبر « لهم » وتم الكلام عند قوله : « سبحانه » . وأجاز الفراء كونها نصبا ، على تقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون . وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل فى مثل هذا ويجعلون لأنفسهم .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾ أى أخبر أحدهم بولادة بنت . ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أى متغيرا ، وليس يريد السواد الذى هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت . والعرب تقول لكل من لقى مكروها : قد اسود وجهه غمًّا وحزنا ؛ قاله الزجاج . وحكى الماوردى أن المراد سوادُ اللون قال : وهو قول الجمهور . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى ممتلىء من الغم . وقال ابن عباس : حزين . وقال الأخفش : هو الذى يكظم غيظه فلا يظهره . وقيل : إنه المغموم الذى يطبق فاه فلا يتكلم من الغم ؛ مأخوذ من الكظامة وهو شد فم القربة ؛ قاله على بن عيسى . وقد تقدم هذا المعنى فى سورة « يوسف »(٢) .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٤٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي يختفي ويتغيّب . ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت . ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ ذكّر الكناية لأنه مردود على « ما » . ﴿ عَلَى هُونٍ ﴾ أي هوان . وكذا قرأ عيسى الثقفيّ « على هوان » والهُون الهوان بلغة قريش ؛ قاله اليزيدي وحكاه أبو عبيد عن الكسائيّ . وقال الفراء : هو القليل بلغة تميم . وقال الكسائيّ : هو البلاء والمشقة . وقالت الخَنْساء :

نُهين النفوسَ وهُونُ النفو * س يوم الكريهة أبقَى لهـا

وقرأ الأعمش «أيمسكه على سوءٍ» ذكره النحاس ، قال : وقرأ الجَحْدريّ «أم يدسّها في التراب» يردّه على قوله : « بالأنثى » ويلزمه أن يقرأ « أيمسكها » . وقيل : يرجع الهوان إلى البنت ؛ أي أيمسكها وهي مهانة عنده . وقيل : يرجع إلى المولود له ؛ أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه في التراب ، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حيّة . قال قتادة : كان مُضَرُ وخُزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدهم في هـذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن . وكان صَعْصَعة بن ناجية عَمُّ الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك . فقال الفرزدق يفتخر :

وعمّي الذي منع الوائداتْ * وأحيـا الوَئيـد فلم يُوأَدِ

وقيـل : دَسُّها إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف ، كالمدسوس في التراب لإخفـائه عن الأبصار ؛ وهذا محتمل .

مســـألة — ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها ، فسألتني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت وابنتاها ، فدخل عليّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فحدّثته

حديثها، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار". ففي هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن في الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقي من النار . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لهـا، فأطعمتها ثلاث تمـرات فأعطت كل واحدة منهما تمـرة ، ورفعت إلى فيهـا تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتـاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار". وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو" وضم أصابعه، خرّجهما أيضا مسلم رحمـه الله ! وخرج أبو نعيم الحـافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له بنت فأدّبها فأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار" . وخُطب إلى عَقيل بن عُلّفة ابنته الجرباء فقال :

إني وإن سِـيق إليّ المَهْـرُ * ألفٌ وعُبدان وخُـورٌ[1] عشرُ
* أَحَبّ أصهاري إليّ القبر *

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبي بنت يراعي شؤونها * ثلاثةُ أصهار إذا حُمِـد الصِّهْرُ
فبعلٌ يُراعيها وخِدْر يكنُّها * وقـبر يُواريها وخيرُهم القَـبْرُ

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي في إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهـم . نظيره «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ»[2] أي جائرة، وسيأتي .

---

(١) الخور : جمع خوارة على غير قياس، وهي الناقة الغزيرة اللبن . (٢) آية ٢١ سورة النجم .

قوله تعـالى : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى لهؤلاء الواصفين لله البنات ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى صفة السوء من الجهل والكفر . وقيل : هو وصْفُهم اللهَ تعالى بالصاحبة والولد . وقيل : أى العذاب والنار . ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ أى الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتادة . وقيل : أى الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجازٍ . وقال ٱبن عباس : «مثل السوء» النار ، و «المثل الأعلى » شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : ليس كمثله شيء . وقيل : « ولله المثل الأعلى » كقوله : « اللهُ نُورُ السموات والأرض مَثَلُ نُوره » (١) . فإن قيل : كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال : «فلا تضربوا لله الأمثال» (٢) فالجواب أن قوله : «فلا تضربوا لله الأمثال » أى الأمثال التى توجب الأشباه والنقائص ؛ أى لا تضربوا لله مثلا يقتضى نقصا وتشبيها بالخلق . والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير ، جلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا (٣) . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أى بكفرهم وافترائهم ، وعاجلهم . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أى على الأرض ، فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دل عليه قوله : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ فإن الدابة لا تدبّ إلا على الأرض . والمعنى المراد من دابة كافرة ، فهو خاص . وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء . وقيل : المراد بالآية العموم ؛ أى لو آخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على

(١) آية ٣٥ سورة النور .　　(٢) آية ٧٤ من هذه السورة .　　(٣) راجع جـ١ ص ٢٨٧ وجـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

ظهر هذه الأرض من دابة من نبيّ ولا غيره ؛ وهذا قول الحسن . وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية : لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العـذابُ جميع الخلق حتى الجِعْلان[1] في جُحْرها ، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمـات الدواب ، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل ؛ كما قال : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »[2] . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي أجل موتهم ومنتهى أعمارهم . ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] وقد تقدم . فإن قيل : فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنـا ليس بظالم ؟ قيـل : يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن معوَّضا بثواب الآخرة . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على نياتهم "[4] . وعن أم سَـلمة وسئلت عن الجيش الذي يخسف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير ، فقالت قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " يعوذ بالبيت عائذ فيُبعث إليه بَعْث فإذا كانوا ببَيْداء من الأرض خُسِف بهم " فقلت : يارسول الله ، فكيف بمن كان كارها ؟ قال : " يخسَف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته " . وقد أتينا على هـذا المعنى مُجَوَّدا في (كتاب التذكرة) وتقدم في « المـائدة » وآخر « الأنعام »[5] ما فيه كفاية ، والحمد لله . وقيل : « فإذا جاء أجلهم » أي فإذا جاء يوم القيامة . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي من البنات . ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ أي وتقول ألسنتهم الكذب . ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ قال مجاهـد : هو قولهم أن لهم البنين ولله البنات . « الكَذِبَ » مفعول « تصف » و « أنّ » في محل نصب بدل من الكذب ؛ لأنه

---

(١) الجعلان (بكسر الجيم جمع جعل ، كصرد) : دابة سـوداء من دواب الأرض . (٢) آية ٣٠ سـورة الشورى . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٠٢ طبعة أولى أو ثانية . (٤) في صحيح مسلم : « على أعمالهم » . (٥) راجع ج ٦ ص ٣٤٢ و ج ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

بيان له . وقيـل : « الحسنى » الجزاء الحسن؛ قاله الزجاج . وقرأ ابن عباس وأبو العاليـة ومجاهد وابن مُحَيْصن « الكُذُب » برفع الكاف والذال والباء نعتا للألسنة؛ وكذا « ولا تقولوا لِما تَصِف ألسنتكم الكَذِب »(١) . والكُذُب جمع كذوب؛ مثل رَسُول ورُسُل وصَبُور وصبر وشَكُور وشُكُر . ﴿ لَا ﴾ رَدٌّ لقولهم، وتَمّ الكلام، أي ليس كما تزعمون . ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي حقا أن لهم النار . وقد تقـدّم مستوفًى(٢) . ﴿ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ متركون منسيون في النـار؛ قاله ابن الأعرابيّ وأبو عبيدة والكسائيّ والفراء، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضا : مبعدون . قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . والفارط : الذي يتقدم إلى المـاء؛ ومنه قول النبيّ صـلى الله عليه وسلم : " أنا فَرَطُكم على الحوض " أي متقدّمكم . وقال القَطَاميّ :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنـا * كما تعجّـــل فُـــرّاط لوُرّاد

والفرّاط : المتقدّمون في طلب المـاء . والورّاد : المتأخرون . وقـرأ نافع في رواية وَرْش « مُفْرِطون » بكسر الراء وتخفيفها ، وهي قراءة عبـد الله بن مسعود وابن عباس ، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية ، أي أفرطوا فيهـا . يقال : أفرط فلان على فلان إذا أَرْبَى عليـه، وقال له أكثر ممـا قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارئ « مُفَرِّطون » بكسر الراء وتشديدها، أي مضيّعون أمر الله؛ فهو من التفريط في الواجب .

قوله تعـالى : تَٱللَّهِ لَقَـدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ تَاللهِ لَقَـدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخبيثة . هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسـلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومُهم . ﴿ فَهُـوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي ناصرهم في الدنيـا على زعمهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(١) آية ١١٦ من هذه السورة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

فى الآخرة . وقيل : « فهو وليّهم » أى قرينهم فى النار . ﴿ الْيَوْمَ ﴾ يعنى يوم القيامة ، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته . وقيل يقال لهم يوم القيامة : هذا وَلِيّكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب ، على جهة التوبيخ لهم .

قوله تعالى : وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أى القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك . وعطف « هُدًى ورحمةً » على موضع قوله : « لِتُبَيِّنَ » لأن محـله نصب . ومجاز الكلام : وما أنزلنـا عليك الكتاب إلا تبيانا للناس . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشدا ورحمة للؤمنين .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى السحاب . ﴿ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ عاد الكلامُ إلى تعـداد النعم وبيان كمال القدرة . ﴿ إن فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى دلالة على البعث وعلى وحدانيتـه ؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئا ، فتكون هـذه الدلالة . ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ عن الله تعـالى بالقلوب لا بالآذان ؛ « فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التى فِى الصدورِ »(١) .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

---

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

فيـــه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ قد تقدّم القول فى الأنعـام[1]، وهى هنا الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز . ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته . والعِبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه « فَٱعْتَبِرُوا »[2] . وقال أبو بكر الورّاق : العبرة فى الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمرّدك على ربّك وخلافك له فى كل شيء . ومن أعظم العِبَر برىء يحمل مذنبا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ قراءة أهل المدينة وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر (بفتح النون) من سَقَى يَسْقِى . وقرأ البـاقون وحفص عن عاصم (بضم النون) من أسقى يُسقى، وهى قراءة الكوفيين وأهل مكة . قيل : هما لغتان . وقال لَبِيد :

سَقَى قَومِى بنى مَجْـدٍ وأسقى　*　نُمَيْراً والقبائلَ من هِـــلالِ

وقيل : يقال لمـا كان من يدك إلى فيه سقيته، فإذا جعلت له شِرْبًا أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته؛ قاله ابن عَزيز، وقد تقدّم[3] . وقرأت فرقة « تَسقِيكم » بالتاء، وهى ضعيفة، يعنى الأنعام . وقرئ بالياء، أى يسقيكم الله عز وجل . والقراء على القراءتين المتقدّمتين؛ ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حِمير .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِمَّـا فِي بُطُونِهِ ﴾ اختلف الناس فى الضمير من قوله : « مِمـا فِي بطونِهِ » على ماذا يعود . فقيل : هو عائد إلى ماقبله وهو جمـع المؤنث . قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد . قال ابن العربى : وما أراه عوّل عليــه إلا من هــذه الاية، وهذا لايشبه منصبه ولا يليق بإدراكه . وقيل : لمـا كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال : هو الأنعام وهى الأنعام، جاز عود الضمير بالتذكير؛ وقاله الزجاج .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية .　　(٢) من آية ٢ سورة الحشر .

(٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

وقال الكسائيّ : معناه مما فى بطون ماذكرناه ، فهو عائد على المذكور؛ وقد قال الله تعالى : « إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه » (١) وقال الشاعر :

* مثل الفِراخ نُتِفتْ حواصلُه *

ومثله كثير . وقال الكسائيّ : «مِمّـا فِي بطونِه» أى ممـا فى بطون بعضه ؛ إذ الذكور لا ألبان لها ، وهو الذى عوّل عليـه أبو عبيدة . وقال الفَرّاء : الأنعـام والنَّعم واحد ، والنَّعَم يذكر ، ولهذا تقول العرب : هذا نَعَم وارد ، فرجع الضمير إلى لفظ النَّعم الذى هو بمعنى الأنعام . قال ابن العربيّ : إنمـا رجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة ؛ فذكّره هنا باعتبار لفظ الجمع ، وأنثه فى سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال : «نُسقِيكم مما فِي بطونِها» (٢) وبهـذا التأويل ينتظم المعنى انتظاما حسنا . والتأنيث باعتبار لفظ الجمـاعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رَمْل يَبْرِين (٣) وتَيْهَاء فِلَسْطِين .

الرابعـــة — استنبط بعض العلماء الجِلّة وهو القاضى إسماعيل من عود هذا الضمير ، أن لبن الفحل يفيد التحريم ، وقال : إنما جىء به مذكّرا لأنه راجع إلى ذكر النَّعم ؛ لأن اللبن للذكر محسوب ، ولذلك قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفحل يحرّم حين أنكرته عائشة فى حديث أفْلح أخى أبى القُعَيس « فللمرأة السّقى وللرجل اللقاح » فجرى الاشتراك فيه بينهما . وقد مضى القول فى تحريم لبن الفحل فى « النساء» (٤) والحمد لله .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ﴾ نبّـه سبحانه على عظيم قـدرته بخروج اللبن خالصا بين الفَرْث والدم . والفَرْثُ : الزِّبل الذى ينزل إلى الكَرِش ، فإذا خرج لم يُسَمَّ فَرْثًا . يقال : أَفْرَثْت الـكَرِش إذا أخرجت مافيهـا . والمعنى : أن الطعام يكون منه ما فى الكَرِش و يكون منه الدّم ، ثم يخلص اللبن من الدم ؛ فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك و بين الدّم فى العروق . وقال ابن عباس : إن الدابة تأكل العلف

(١) آية ١١ سورة عبس . (٢) آية ٢١ سورة المؤمنون . (٣) رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة . (ياقوت) . (٤) راجع جـ ٥ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية .

فإذا استقر فى كَرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما، والكبد مسلّط على هــذه الأصناف فتقسم الدم وتميّزه وتُجريه فى العروق، وتجرى اللبن فى الضرع ويبقى الفرث كما هو فى الكَرِش؛ « حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ »[1] . ﴿ خَالِصًا ﴾ يريد من حمرة الدم وقذارة الفَرْث وقد جمعهما وعاء واحد . وقال ابن بحر : خالصا بياضه . قال النابغة :

* بخَالصة الأَرْدان[2] خُضْرِ المناكب *

أى بيض الأكمام . وهذه قدرة لاتنبغى إلا للقائم على كل شئ بالمصلحة .

السادســـة ــ قال النقاش : فى هذا دليل على أن المَنِيّ ليس بنجس . وقاله أيضا غيره واحتج بأن قال : كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغا خالصا كذلك يجوز أن يخرج المنى على مخرج البول طاهرا . قال ابن العربى : إن هذا لجهل عظيم وأخذ شنيع . اللبن جاء الخبر عنه مجىء النعمة والمنـــة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة ، فاقتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة، وليس المنِيّ من هذه الحالة حتى يكون ملحقا به أو مَقيسا عليه .

قلت : قد يعارَض هذا بأن يقال : وأىّ مِنّة أعظم وأرفع من خروج المنى الذى يكون عنه الإنسان المكرم؛ وقد قال تعالى : « يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ »[3]، وقال : « واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً »[4] وهذا غاية فى الامتنان. فإن قيل : إنه يتنجس بخروجه فى مجرى البول، قلنا : هو ما أردناه، فالنّجاسة عارضة وأصله طاهر ؛ وقد قيل : إن مَخْرَجه غير مخرج البول وخاصّةً المرأة ؛ فإن مَدخل الذكر منها ومخرج الولد غيرُ مخرج البول على ما قاله العلماء . وقـد تقدّم فى البقرة . فإن قيل : أصـله دم فهو نجس، قلنا ينتقض بالمسك ، فإن أصله دم وهو طاهر . وممن قال بطهارته الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم؛ لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يابسا بظفرى . قال الشافعىّ : فإن لم يُفْرَك فلا بأس به . وكان سعد

---

(١) آية ٥ سورة القمر . (٢) الأردان : جمع ردن (بضم الراء وسكون الدال) وهو أصل الكم .
(٣) آية ٧ سورة الطارق . (٤) آية ٧٢ من هذه السورة .

ابن أبى وقّاص يفرك المنىّ من ثوبه . وقال ابن عباس : هو كالنُّخامة أمِطْه عنك بإذْخِرة وامسحه بخرقة . فإن قيل : فقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت أغسل المنىّ من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة فى ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه . قلنا : يحتمل أن تكون غسلته استقذارا كالأشياء التى تزال من الثوب كالنجاسة، ويكون هـذا جَمْعًا بين الأحاديث . والله أعلم . وقال مالك وأصحابه والأَوْزاعىّ : هو نجس . قال مالك : غسل الاحتلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليه عندنا، وهو قول الكوفيين . ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم . واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة . وعلى هذين القولين فى نجاسة المنى وطهارته التابعون .

السابعـــة — فى هـذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره، فأما لبن الميتـة فلا يجوز الانتفـاع به ؛ لأنه مائع طاهر حصل فى وعاء نجس، وذلك أن ضَرْع الميتـة نجس واللبن طـاهر فإذا حلب صار مأخوذا من وعاء نجس . فأما لبن المرأة الميتـة فآختلف أصحابنا فيـه ، فمن قال : إن الإنسان طاهر حيـا وميتا فهو طاهر . ومن قال : يَنْجُس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعـا تثبت الحرمة؛ لأن الصبى قـد يغتذى به كما يغتذى من الحيـة ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " الرضاع ما أنبت اللحم وأنشز العظم " . ولم يخصّ؛ وقد مضى فى « النساء »(1) .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لذيذا هيّنا لا يَغَصّ به من شربه . يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا أى سهل مدخله فى الحلق، وأساغه شاربه، وسغته أنا أسيغه وأسوغه ، يتعدّى ولا يتعدّى، والأجود أسـغته إساغة . يقال : أسِغ لى غُصّتى أى أمهلنى ولا تُعجلنى؛ وقال تعالى : « يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ »(2) . والسِّواغ (بكسر السين) ما أسغت به غُصّتك . يقال : المـاء سِواغ الغُصَص؛ ومنه قول الكُمَيْت :

* فكانت سِـوَاغًا أن جَئِزْت بغُصّـة *

وروى أن اللبن لم يَشْرَق به أحد قطُّ، وروى ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(1) راجع جـ ٥ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية . (2) آية ١٧ سورة إبراهيم .

التاســـعة — فى هـذه الآية دليل على اسـتعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهـد أو يباعده ، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سَرَف ولا إكثار . وقد تقدّم هـذا المعنى فى « المـائدة »(١) وغيرها . وفى الصحيح عن أنس قال : لقد سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدحى هـذا الشراب كله : العسل والنبيذ واللبن والمـاء . وقـد كره بعض القـراء أكل الفالوذَج(٢) واللبن من الطعام، وأباحه عامة العلمـاء . وروى عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار، فأتى بفالوذَج فامتنع عن أكله، فقال له الحسن : كُلْ ! فانّ عليك فى المـاء البارد أكثر من هذا .

العـاشرة — روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليـه وسـلم بلبن فشرب، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللّهُمّ بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه . وإذا سُقِىَ لبنا فليقل اللّهُمّ بارك لنا فيه وزدنا منه فانه ليس شيء يجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن" . قال علماؤنا : فكيف لا يكون ذلك وهو أوّل ما يغتـذى به الإنسان وتَنْمِى به الجثث والأبدان، فهو قوت خلىّ عن المفاسـد به قِوام الأجسام ، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التى هى خير الأمم أمة ؛ فقال فى الصحيح : "فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لى جبريل اخترت الفِطرة أما إنك لو اخترت الخمر غَوَتْ أمتك" . ثم إن فى الدعاء بالزيادة منـه علامة الخِصب وظهور الخيرات والبركات؛ فهو مبارك كله .

قوله تعـالى : وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيـلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْـهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ ﴾ قال الطبرى : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ماتتخذون ؛ فحذف « ما » ودلّ على حذفه قوله : « منه » . وقيل :

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠ وما بعدها . وجـ ٧ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والمـاء والعسل . (عن الألفاظ الفارسية المعربة) .

المحذوف شئ، والأمر قريب . وقيل : معنى «منه» أى من المذكور، فلا يكون فى الكلام حذف وهو أولى . ويجوز أن يكون قوله : «ومن ثمراتِ» عطفا على «الأنعام»؛ أى ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة . ويجوز أن يكون معطوفا على «ممـا» أى ونسقيكم أيضا مشروبات من ثمرات .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿سَكَرًا﴾ السَّكَر ما يُسْكِر؛ هـذا هو المشهور فى اللغة . قال ابن عباس : نزلت هـذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسَّكَر الخمر، وبالرزق الحسن جميعَ ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابن جُبير والنَّخعِيّ والشَّعبِيّ وأبو ثور . وقد قيل : إن السَّكَر الخَلّ بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام . وقيل : السكر العصير الحلو الحلال، وسُمِّىَ سَكَرًا لأنه قـد يصير مسكرا إذا بقى ؛ فاذا بلغ الإسكار حرم . قال ابن العربى : «أسَدّ هذه الأقوال قولُ ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرّم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم . والصحيح أن ذلك كان قبـل تحريم الخمر فتكون منسوخة؛ فان هـذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدنى» .

قلت : فعلى أن السَّكَر الخَلّ أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الاية محكمة وهو حسن . قال ابن عباس : الحبشة يسمّون الخـلّ السَّكَر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمـر ، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رزين والحسن ومجاهد وابن أبى لَيْلى والكَلْبِىّ وغيرهم ممن تقـدّم ذكرهم، كلهم قالوا : السَّكَر ما حرمه الله من ثمرتيهما . وكذا قال أهل اللغة : السكَر اسم للخمر وما يُسكر، وأنشدوا :

بئس الصُّحاة وبئس الشَّربُ شَربهمُ * اذا جرى فيهـــم المُزّاء والسَّـــكَر

والرزق الحسن : ما أحله الله من ثمرتيهما . وقيــل : إن قوله «تَتخِـذُون منه سَكَرًا» خبرٌ معناه الاستفهام بمعنى الإنكار؛ أى أتتخذون منه سكرا وتَدعون رزقا حسنا الخلَّ والزبيبَ

والتمـر؛ كقوله : « فهم الخالدون » أى أفهـم الخالدون . والله أعلم . وقال أبو عبيدة : السَّكَر الطُّعم؛ يقال : هذا سَكَرٌ لك أى طُعم . وأنشد :

* جعلتَ عَيْبَ الأكْرَمين سَكَرا *

أى جعلتَ ذمّهم طُعما . وهـذا اختيار الطبرى أن السَّكَر ما يُطعم من الطعام وحَلّ شربه من ثمـار النخيل والأعناب، وهـو الرزق الحسن؛ فاللفظ مختلف والمعنى واحد؛ مثل « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلى اللهِ »(١) وهذا حسن ولا نسخ، إلا أن الزجاج قال : قول أبي عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه، ولا حجة له فى البيت الذى أنشده؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تخمر بعيوب الناس . وقال الحنفيون : المراد بقوله : « سَكَرًا » ما لا يُسكر من الأنبذة؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بمـا خلق لهم من ذلك، ولا يقع الامتنان إلا بمحلَّل لا بمحرَّم، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز، وعَضَدوا هـذا من السنة بما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حرم الله الخمـر بعينها والسَّكر من غيرها " . وبمـا رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال : رأيت رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركْن، ودفع إليه القدح فرفعـه إلى فيه فوجده شـديدا فردّه إلى صاحبـه، فقال له حينئذ رجل من القوم : يا رسول الله، أحرام هو ؟ فقال : " علىّ بالرجل " فأُتِى به فأخذ منه القدح، ثم دعا بمـاء فصبه فيه ثم رفعـه الى فيه فقطّب، ثم دعا بمـاء أيضا فصـبّه فيه ثم قال : " إذا اغتلمت(٢) عليكم هذه الأوعية فاكسروا متُونها بالمـاء " . وروى أنه عليه السلام كان يُنْبَذ له فيشرب به ذلك اليوم، فاذا كان من اليوم الثانى أو الثالث سقاه الخادمَ إذا تغيّر، ولو كان حراما ما سقاه إياه . قال الطحاوى : وقد روى أبو عَون الثَّقَفى عن عبـد الله بن شـداد عن ابن عباس قال : حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسّكر من كل شراب ؛ خرجه الدارقطنىّ أيضا .

---

(١) آية ٨٦ سورة يوسف .

(٢) الاغتلام مجاوزة الحد ؛ أى اذا جاوزت حدها الذى لا يسكر الى حدها الذى يسكر .

ففى هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها . قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجتهم أيضا ما رواه شُريك بن عبد الله ، حدثنا أبو إسحاق الهَمْدانى عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هـذه الإبل وليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ . قال شريك : ورأيت الثّورِىّ يشرب النبيذ فى بيت حَبْر أهل زمانه مالكِ بن مِغول . والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى آمتن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بمـا أحل فصحيح ، بَيْد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخا كما قدمناه . قال ابن العربىّ : إن قيل كيف ينسخ هـذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هـذا كلام من لم يتحقق الشريعـة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقىّ أو عن إعطاء ثواب فضلا من الله فهو الذى لا يدخله النسخ ، فأما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فالأحكام تتبدّل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنمـا يرجع إلى ما تضمنه ، فإذا فهمتم هـذا خرجتم عن الصّنف الغبىّ الذى أخبر الله عن الكفار فيـه بقوله : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَـا أَنْتَ مُفْـتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١) » . المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أمّ الكتاب .

قلت : هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصولية ، وهى أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ اختلف فى ذلك ، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم مّا يتضمن طلب ذلك المشروع ، وذلك الطلب هـو الحكم الشرعىّ الذى يُسـتدلّ على نسخه . والله أعلم . وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثانى ضعيفان ؛ لأنه عليه السلام قـد روى عنه بالنقل الثابت أنه قال : ” كل شراب أسكر فهو حرام “ وقال : ” كل مسكر خمرٌ وكل مسكر حرام “ وقال : ” ما أسكر كثيره فقليله حرام “ . قال النَّسائىّ : وهؤلاء أهل الثَّبَت والعدالة مشهورون

(١) آية ١٠١ من هذه السورة .

بصحة النقل، وعبد الملك لا يقـوم مقام واحد منهم ولو عاضـده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق . وأما الثالث وإن كان صحيحا فإنه ما كان يسقيه للخادم على أنه مسكر، وإنما كان يسقيه لأنه متغير الرائحة . وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيّل عليه أزواجه فى عسل زينب بأن قيل له : إنا نجد منك ريحَ مغافير، يعنى ريحا منكرة، فلم يشربه بعدُ . وسيأتى فى التحريم . وأما حديث ابن عباس فقد روى عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال : ما أسكر كثيره فقليله حرام، ورواه عنه قيس آبن دينار . وكذلك فُتياه فى المسكر؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ . والحـديث الأول رواه عنه عبد الله ابن شدّاد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما ما روى عن عمر من قوله : ليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا . وقد روى النَّسائىّ عن عتبة بن فَرْقَد قال : كان النبيذ الذى شربه عمر بن الخطاب قد خُلِّل . قال النسائىّ : ومما يدل على صحة هذا حديثُ السائب، قال الحارث بن مِسْكين قراءة عليه وأنا أسمع عن ابن القاسم : حدثنى مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال : إنى وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطِّلاء، وأنا سائل عما شرب، فإن كان مسكرا جلدته، فجلده عمر بن الخطاب رضى الله عنـه الحدّ تامًّا . وقد قال فى خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا بعـد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة : من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل . وقد تقدم فى « المائدة »(١) . فإن قيل : فقد أحلّ شربه إبراهيمُ النَّخَعِىّ وأبو جعفر الطحاوىّ وكان إمام أهـل زمانه، وكان سـفيان الثورىّ يشربه . قلنا : ذكر النَّسائىّ فى كتابه أن أول من أحل المسكر من الأنبذة إبراهيم النخعىّ، وهذه زَلّة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم، ولا حجة فى قول أحد مع السنة . وذكر النسائىّ أيضا عن ابن المبارك قال : ما وجدت الرخصة فى المسكر عن أحد صحيحا إلا عن إبراهيم . قال أبو أسامة : ما رأيت

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٨٥ طبعة أولى أو ثانية .

رجلا أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الشامات(١) ومصر واليمن والحجاز . وأما الطحاوى وسفيان لو صح ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمة فى تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة؛ على أن الطحاوى قد ذكر فى كتابه الكبير فى الاختلاف خلافَ ذلك . قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب التمهيد له : قال أبو جعفر الطحاوى اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغَلَى وقَذَف بالزَّبَد فهو خمر ومستحله كافر . واختلفوا فى نَقِيع التمر إذا غلى وأسكر . قال : فهذا يدلك على أن حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب" غير معمول به عندهم؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحل نقيع التمر؛ فثبت أنه لم يدخل فى الخمر المحرّمة غيرُ عصير العنب الذى قد اشتد وبلغ أن يسكر . قال : ثم لا يخلو من أن يكون التحريم معلّقا بها فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعا قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غَلَى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب . قال : فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . قال : وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل مسكر حرام" واستغنى عن مسنده لقبول الجميع له ، وإنما الخلاف بينهم فى تأويله ، فقال بعضهم : أراد به جنس مايسكر . وقال بعضهم : أراد به مايقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلا إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدل على أنه محرم عند الطحاوى لقوله ، فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . وقد روى الدَّارَ قُطْنِىّ فى سننه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن الله لم يحرّم الخمر لاسمها وإنما حرّمها لعاقبتها ، فكلُّ شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر . قال ابن المنذر : وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة ، وإذا اختلف الناس فى الشئ وجب ردّ ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وما رُوى عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذى يسكر كثيره فللقوم ذنوب يستغفرون

---

(١) فى حاشية السندى على سنن النسائى : « قوله الشامات ، كأنه جمع على إرادة البلاد الشامية » .

الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين : إما مخطئ أخطأ في التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنبا لعلّه أن يكثر من الاستغفار لله تعالى ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة . وقد قيل في تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار، أي من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالا أو حراما ، فاتخاذ السَّكَر لا يدل على التحريم، وهو كما قال تعالى : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » والله أعلم .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ قد مضى القول في الوَحْي وأنه قد يكون بمعنى (١) الإلهام ، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٢) » . ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها . وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال : « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٣) » . قال إبراهيم الحَرْبي : لله عز وجل في الموات قدرة لم يُدْرَ ما هي ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرّفها ذلك ؛ أي ألهمها . ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام . وقرأ يحيى بن وثّاب « الى النَّحَل » بفتح الحاء . وسُمِّيَ نحلا لأن الله عز وجل نحله العسل الذي يخرج منه ؛ قاله الزجاج . الجوهري : والنحل والنحلة الدّبْر يقع على الذكر والأنثى ، حتى يقال : يَعْسُوب . والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه و بين واحده إلا الهاء . وروى من حديث

(١) راجع ج ٤ ص ٨٥ طبعة أولى أو ثانية .　(٢) آية ٧ سورة الشمس .
(٣) آية ٤ سورة الزلزلة .

أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الذّبان كلّها فى النار يجعلها عذابا لأهـل النـار إلا النحل " ذكره الترمذيّ الحكيم فى (نوادر الأصـول) . وروى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صـلى الله عليه وسلم عن قتل النمـلة والنحلة والهُدْهُد والصُّرَد(١) ؛ خرّجه أبو داود أيضا ، وسيأتى فى « النمل »(٢) إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالك . ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ جعل الله بيوت النحل فى هـذه الثلاثة الأنواع ، إما فى الجبال وكِوَاها ، وإما فى متجوّف الأشجار ، وإما فيما يعرِش ابن آدم من الأجباح(٣) والخلايا والحيطان وغيرها . وعَرَش معناه هنا هيّأ ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ؛ ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ؛ ومن هذا لفظة العرش . يقال : عرش يَعْرِش ويعرُش (بكسر الراء وضمها) ؛ وقرئ بهما . قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر ، واختلف فى ذلك عن عاصم .

الثالثـــة — قال ابن العربيّ : ومن عجيب ما خلق الله فى النحل أن ألهمها لاتخـاذ بيوتهـا مسدّسة ؛ فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة ، وذلك أن الأشـكال من المثلّث إلى المعشر إذا جُمع كلّ واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فرُج ، إلا الشكل المسدّس ؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله ٱتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) الصرد (كرطب) : طائر فوق العصفور يصيد العصافير . (٢) فى قوله تعالى : « حتى إذا أتوا على واد النمل ... » آية ١٨ (٣) الأجباح : مواضع النحل فى الجبل وفيها تعسل .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وذلك أنها إنمـا تأكل النوّار من الأشجار . ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ أى طرق ربك . والسّبل : الطرق، وأضافها إليه لأنه خالقها. أى ادخلى طرق ربك لطلب الرزق فى الجبال وخلال الشجر . ﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذلول وهو المنقاد؛ أى مطيعة مسخرة . فـ « ذللا » حال من النحل . أى تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛ لأنهـا تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد . وقيـل : المراد بقوله « ذُلُلاً » السبل . يقول : مذلل طرقها سهلة للسلوك عليها؛ واختاره الطبرى، و « ذللا » حال من السبل . واليَعْسُوب سيد النحل ، إذا وقف وقفت و إذا سار سارت .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة فقـال : « يخرج من بطونهـا شراب » يعنى العسـل . وجمهور النـاس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ؛ وورد عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى تحقيره الدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعابُ دودة، وأشرف شرابه رَجيعُ نحلة . فظاهر هذا أنه من غير الفم . وبالجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحَمْى أنفاسها . وقد صنع أرسطا طاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين؛ ذكره الغزنوى . وقال : « من بطونها » لأن استحالة الأطعمة لاتكون إلا فى البطن .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوّعته بحسب تنويع الغذاء، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبىّ صلى الله عليه وسلم : « جَرَسَتْ نحلُه العُرْفُطَ[1] » حين شبهت رائحته برائحة المغافير .

---

(١) الجَرْس : الأكل . والعرفط (بالضم) : شجر الطلح ، وله صمغ كريه الرائحة ، فاذا أكلته النحل حصل فى عسلها من ريحه . أى شربت عسلا أكلت نحله من شجر الطلح .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فِيــهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ الضمير للعســل ؛ قاله الجمهور . أى فى العسل شــفاء للناس . وروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والفـراء وابن كَيْسان : الضمير للقرآن؛ أى فى القرآن شفاء . النحاس : وهذا قول حسن؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . وقيل : العسل فيه شفاء، وهذا القول بيّن أيضا؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التى يتعالج بهـا أصلها من العسل . قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصحّ عنهم، ولو صح نقلا لم يصح عقلا ؛ فإن مساق الكلام كلّه للعسل، ليس للقرآن فيــه ذكر . قال ابن عطية : وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب القرآنُ والحكمة، وقد ذكر هذا بعضهم فى مجالس المنصور أبى جعفر العباسىّ ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك ممـا يخرج من بطون بنى هاشم ، فأضحك الحاضرين وبُهِت الآخر وظهرت سخافة قوله .

الرابعـــة — اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ فِيــهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومه أم لا؛ فقالت طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد، فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليــه عسلا ، حتى الدُّمَّل إذا خرج عليه طَلَى عليه عسلا . وحكى النقاش عن أبى وَجْرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل . وروى أن عوف بن مالك الأشجعى مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال : ائتونى بالمـاء ، فإن الله تعالى يقول : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا »(١) ثم قال : ائتونى بعسل، فإن الله تعالى يقول : « فيــه شفاءٌ للناس » وائتونى بزيت ، فإن الله تعالى يقول : « مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ »(٢) فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعا ثم شربه فبرئ . ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطبخ فيأتى شرابا ينتفع به فى كل حالة من كل داء . وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولا يقتضى العموم فى كل عــلة وفى كل إنسان ، بل إنه خبر عن أنه يشفى كما يشفى غيره من

(١) آية ٩ سورة ق . (٢) آية ٣٥ سورة النور .

الأدوية فى بعض وعلى حال دون حال ؛ ففائدة الآية إخبار منه فى أنه دواء لمّا كثر الشفاء به وصـار خليطا ومُعينا للأدوية فى الأشربة والمعاجين ؛ وليس هـذا بأول لفظ خُصّص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتى فيهـا العام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام . ومما يدل على أنه ليس على العموم أن « شفاء » نكرة فى سـياق الاثبات ، ولا عموم فيهـا باتفاق أهل اللسان ومحقّق أهل العلم ومختلفى أهل الأصول . لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم ، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض ، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن و بصحة التصديق والإيقان . ابن العربى : ومن ضعفت نيته وغلبته على الدِّين عادته أخذه مفهوما على قول الأطباء، والكلُّ من حِكَم الفعّال لما يشاء .

الخـامسة — إن قال قائل : قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره، فكيف يكون شفاء للناس؟ قيل له : المـاء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتله المـاء إذا أخذه على ما يضاده من علة فى البدن، وقد رأينا شفاء العسل فى أكثر هذه الأشربة ؛ قال معناه الزجاج . وقد اتفق الأطبـاء عن بَكْرة أبيهم على مدح عموم منفعة السّكنجبين(١) فى كل مرض، وأصـله العسل وكذلك سائر المعجونات ، على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد حَسَم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذى يشتكى بطنه بشرب العسل ، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقا أمره بعود الشراب له فبرئ؛ وقال : " صدق الله وكذب بطن أخيك " .

السادســة — اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال : قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال ؛ فالجواب أن ذلك القول حق فى نفسه لمن حصل له التصديق بنبيّه عليه السلام ، فيستعمله على الوجه الذى عينه وفى المحل الذى أمره بعقد نية وحسن طوية ، فإنه يرى منفعته و يدرك بركته ، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدّم . وأما ما حكى من الاجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيّد وأطلق . قال الامام أبو عبد الله المـازَرى : ينبغى أن يُعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة ، منها الاسهال

(١) السكنجبين : شراب معرّب ؛ أى خل وعسل . (عن الألفاظ الفارسية المعرّبة) .

الحادث عن التخم والهَيْضات[1]، والأطباء مجمعون فى مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها، وإن احتاجت الى مُعين على الإسهال أعينت مادامت القوة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضح هـذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهَيْضة فأمره النبيّ صلى الله عليه وسـلم بشرب العسل فزاده إلى أن فنيت المـادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل . فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذِن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة . قال : ولسنا نستظهر على قول نبيّنا بأن يصدقه الأطبـاء بل لو كذّبوه لكذبناهم ولكفّرناهم وصدّقناه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فتفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخريجه على مايصح إذ قامت الدّلالة على أنه لا يكذب .

السابعــة — فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافا لمن كره ذلك من جلّة العلماء، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة . ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لكل داء دواء فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ باذن الله " . وروى أبو داود والترمـذى عن أسامـة بن شُريك قال قالت الأعراب : ألا نَتداوَى يا رسول الله؟ قال :"نعم . يا عباد الله تداوَوْا فان الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحدا " قالوا : يا رسول الله وما هو؟ قال : "الهرم" لفظ الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . وروى عن أبى خزامة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها ودواء نتداوى به وتُقاة نتقيها، هل تَرُدّ من قَدَر الله شيئا؟ قال :"هى من قدر الله" قال : حديث حسن، ولا يعرف لأبى خزامة غير هـذا الحديث . وقال صلى الله عليه وسـلم : " ان كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شرطة محـجَم أو شربة من عســل أو لَذْعة بنــار وما أحب أن أكْتَوِىَ " أخرجه الصحيح . والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى . وعلى إباحة التداوى والاسترقاء

---

(١) الهيضات : جمع هيضة، وهى انطلاق البطن .

جمهورُ العلماء . روى أن ابن عمر اكتوى من اللَّقْوة[١] ورقى من العقرب . وعن ابن سِيرين أن ابن عمر كان يسقى ولده التِّرياق[٢] . وقال مالك : لا بأس بذلك . وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دخلت أمة بقَضِّها وقَضِيضها[٣] الجنة كانوا لا يَسترقُون ولا يكتوُون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون" . قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله وتوكلا عليه وثقة به وانقطاعا إليه ؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض وأيام الصحة فلو حَرَص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ ولا فِي أَنْفسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا[٤] » . وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر ، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهما . دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود فى مرضه الذى قبض فيه فقال له عثمان : ما تشتكى ؟ قال ذنوبى . قال : فما تشتهى؟ قال رحمة ربى . قال : ألا أدعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى ... وذكر الحديث . وسيأتى بكماله فى فضل الواقعة إن شاء الله تعالى . وذكر وكيع قال : حدّثنا أبو هلال عن معاوية بن قُرّة قال : مرض أبو الدّرداء فعادوه وقالوا : ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أضجعنى . وإلى هذا ذهب الربيع بن خُثَيْم . وكره سعيد بن جُبير الرُّقَى . وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسل . وأجاب الأولون عن الحديث بأنه لا حجة فيه ، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكى مكروه بدليل كَىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أُبَيًّا يوم الأحزاب على أكْحَله[٥] لما رُمِى . وقال : "الشفاء فى ثلاثة" كما تقدم . ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقى بما ليس فى كتاب الله ؛ وقد قال سبحانه وتعالى : « وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ[٦] » على ما يأتى بيانه . ورَقَى أصحابَه وأمرهم بالرُّقية ؛ على ما يأتى بيانه .

---

(١) اللقوة (بالفتح) : مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه . (٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، وهو معرب . (٣) أى دخلوا مجتمعين ، ينقض آخرهم على أولهم . وقال ابن الاعرابي : إن القض الحصى الكبار ، والقضيض الحصى الصغار ؛ أى دخلوا بالكبير والصغير . (٤) آية ٢٢ سورة الحديد . (٥) الأكحل : عرق فى وسط الذراع . (٦) آية ٨٢ سورة الإسراء .

الثامنـــة ـــ ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة فى العسل وإن كان مطعوما مُقتاتا . واختلف فيـه قول الشافعى، والذى قطع به فى قوله الجـديد : أنه لا زكاة فيه . وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل فى قليله وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط . وقال محمد بن الحسن : لا شيء فيه حتى يبلغ ثمـانية أفراق(١)، والفرق ستة وثلاثون رطلا من أرطال العراق . وقال أبو يوسف : فى كل عشرة أزقاق زق؛ متمسكا بما رواه الترمذى عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فى العســل فى كل عشرة أزقاق زق" قال أبو عيسى : فى إسناده مقال، ولا يصح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهـل العلم ، وبه يقول أحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم : ليس فى العسل شيء .

التاســعة ـــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى يعتبرون؛ ومن العبرة فى النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفـكر فى عجيب أمرها . فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها فى تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال : « وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » الآية . ثم أنها تأكل الحـامض والمُرّ والحلو والمـالح والحشائش الضارة، فيجعله الله تعالى عسلا حلوا وشفاء، وفى هذا دليل على قدرته .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بيّن معناه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ يعنى أرداه وأوضعه . وقيل : الذى ينقص قوته وعقله ويصيّره الى الخَرَف ونحوه . وقال ابن عباس : يعنى إلى أســفل العمر، يصــير كالصبى الذى لا عقل له؛ والمعنى متقارب . وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ يقول :

(١) فى نسخة من الأصل : « خمسة أفراق » .

"اللَّهُمّ إنى أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهـرَم وأعوذ بك من البخل" . وفى حديث سعد بن أبى وَقّاص "وأعوذ بك أن أردّ الى أرذل العمر" الحديث . خرّجه البخارى . ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أى يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبـلُ من الأمور لفرط الكبر . وقد قيـل : هذا لا يكون للؤمن ، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه . وقيل : المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا ؛ فعبّر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه ؛ لأن تأثير الكبر فى عمـله أبلغ من تأثيره فى علمه . والمعنى المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ، أى الذى رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّـلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فى الرِّزْقِ ﴾ أى جعـل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبدا . ﴿ فَمَـا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أى فى الرزق . ﴿ بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رُزق شيئا حتى يستوى المملوك والمـالك فى المـال . وهذا مثـل ضربه الله لعبدة الأصـنام ، أى إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدى معى سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم فى أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعـالى فى عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عُبد ؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه . حكى معناه الطبرى ، وقاله ابن عباس ومجاهـد وقتادة وغيرهم . وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى نصارى نَجْرَان حين قالوا عيسى ابن الله فقال الله لهم « فَمَـا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُم » أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه ممـا رزق حتى يكون المولى والعبد فى المـال شرعا سواء ، فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم فتجعلون لى ولدا

من عبيدى . ونظيرها «ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (١)» على ما يأتى . ودل هـذا على أن العبد لا يملك ، على ما يأتى آنفا (٢) .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ جعل بمعنى خلق؛ وقد تقدم . ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعنى آدم خلق منه حواء . وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم، أى من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم؛ كما قال : «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» أى من الآدميين . وفى هـذا ردّ على العرب التى كانت تعتقد أنها كانت تزوّج الجن وتباضعها، حتى روى أن عمرو بن هند تزوج منهم غُولًا (٣) وكان يخبؤها عن البرق لئلا تراه فتنفر، فلما كان فى بعض الليالى لمع البرق وعاينته السِّعلاة (٤) فقالت : عمرو ! ونفرت، فلم يرها أبدا . وهـذا من أكاذيبها، وإن كان جائزا فى حكم الله وحكمته فهو ردّ على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجن ويحيلون طعامهم . ﴿أَزْوَاجًا﴾ زوج الرجل هى ثانيته، فإنه فرد فإذا انضافت إليه كانا زوجين، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها فى الوجود كما تقدم .

---

(١) آية ٢٨ سورة الروم . (٢) يريد بعد قليل . و «آنفا» انما تستعمل فى الماضى القريب لا فى المستقبل القريب . (٣) كذا فى نسخ الأصول وأحكام القرآن لابن العربى، والصواب أنه عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن مناة؛ قال علباء بن أرقم :

يا قبح الله بنى السعلاة * عمرو بن يربوع شرار النات

راجع شرح التنوير على سقط الزند فى شرح بيت أبى العلاء المعرى :

اذا لاح إيماض سترت وجوهها * كأنى عمرو والمطىّ سعالى

(٤) السعلاة : أخبث الغيلان .

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وحَفَدَةً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ ﴾ ظاهر فى تعـديد النعمة فى الأبنـاء، ووجود الأبنـاء يكون منهما معـا ؛ ولكنه لمـا كان خلق المولود فيهـا وانفصاله عنها أضيف إليها ؛ ولذلك تبعها فى الرّق والحرية وصار مثلها فى المـالية . قال ابن العربى : سمعت إمام الحنابلة بمدينـة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول : إنمـا تبع الولد الأم فى المـالية وصار بحكمها فى الرق والحرية ؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لاقيمة له ولامالية فيه ولا منفعة ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلأجل ذلك تبعها . كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل وسقطت منـه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخـلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَحَفَـدَةً ﴾ روى ابن القاسم عن مالك قال وسألتـه عن قوله تعالى : « بَنِينَ وَحَفَـدَةً » قال : الحَفَـدة الخدم والأعوان فى رأيى . وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَحَفَدَةً » قال هم الأعوان، من أعانك فقـد حَفَدك . قيـل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم وتقوله ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَفَد الولائدُ حولهن وأسلمَتْ ＊ بأكفّهنّ أزمّـةَ الأجمـال

أى أسرعن الخدمة . والولائد : الخدم، الواحدة وليدة ؛ قال الأعشى :

كلّفت مجهولهـا نُوقًا يمانيـــة ＊ إذا الحُداة على أكسائها حَفَدوا[1]

أى أسرعوا . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمـل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد؛ قال : ومنـه قولهم « إليك نسعى ونحفِد » ، والحَفَدان السرعة . قال أبو عبيد : الحفـد العمل والخدمة . وقال الخليل بن أحمـد : الحَفَدة عند العرب الخدم، وقاله مجاهـد . وقال الأزهرى : قيل الحفدة أولاد الأولاد . وروى عن ابن عبـاس . وقيـل الأختانـ ؛ قاله ابن مسعود وعلقمـة وأبو الضحا وسـعيد بن جُبير وإبراهـيم ؛

(١) الأكساء : جمع كسى (بالضم) وهو مؤخر العجز .

ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسى طاوعتنى لأصبحتْ * لهـا حَفَــدٌ ما يُعَـدُّ كثيرُ
ولكنهـا نفس عـلىّ أبيّــة * عيوف لإصهـار اللئـام قــذور

وروى زِرّ عن عبد الله قال : الحفدة الأصهار؛ وقاله إبراهيم، والمعنى متقارب . قال الأصمعى : الخَتَن من كان من قِبَل المرأة، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما ؛ والأصهار منهما جميعا . يقال : أصهر فلان إلى بنى فلان وصاهر . وقول عبـد الله « هم الأختان » يحتمل المعنيين جميعا . يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها، ويحتمل أن يكون أراد وجعـل لكم من أزواجكم بنين و بنات تزوجونهن ، فيكون لكم بسببهن أختان . وقال عكرمة : الحفدة من نفع الرجل من ولده ؛ وأصله من حَفَد يحفِد (بفتح العين فى المـاضى وكسرها فى المستقبل) إذا أسرع فى سيره؛ كما قال كُثَيِّر :

* حفد الولائد بينهن ... * البيت .

ويقال : حفدت وأحفدت ، لغتان إذا خدمت . ويقال : حافد وحَفَد ؛ مثل خادم وخَدَم، وحافد وحفدة مثـل كافر وكفرة . قال المهدوى : ومن جعـل الحفدة الخدم جعله منقطعا ممـا قبله ينوى به التقديم؛ كأنه قال : جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين .

قلت : ما قاله الأزهرى من أن الحفـدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصــه ؛ ألاترى أنه قال : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفـدة » فجعل الحفدة والبنين منهن . وقال ابن العربىّ : الأظهر عندى فى قوله « بنـين وحفدة » أن البنين أولاد الرجل لصُلْبه والحفدة أولاد ولده، وليس فى قوة اللفظ أكثر من هـذا، ويكون تقدير الآية على هـذا : وجعل لكم من أزواجكم بنـين ومن البنين حفدة . وقال معناه الحسن .

الثالثــة — إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة فى قولهم إن الحفدة الخدم والأعوان، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان؛ قاله ابن العربىّ . روى البخارى وغيره عن سهل بن سـعد أن أبا أُسَيِّد الساعدى دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم

لعرسه فكانت امرأته خادمهم ... الحديث، وقد تقدم في سـورة « هود »(١) . وفي الصحيح عن عائشة قالت : أنا فتلت قلائد بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسـلم بيدى . الحديث . ولهذا قال علماؤنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القِدْر وتَقُمّ الدار، بحسب حالها وعادة مثلها؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا »(٢) فكأنه جمع لنـا فيها السَّكَن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جرى العادة .

الرابعـــة — ويخدُم الرجُل زوجتَه فيما خفّ من الخدمة ويُعينها ، لمـا روته عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يكون في مِهْنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وهذا قول مالك : ويعينها . وفي أخلاق النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه كان يخصِف النعل ويَقُمّ البيت ويَخيط الثوب . وقالت عائشة وقد قيل لها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : كان بشرا من البشر يَفْلِي ثوبه ويحلب شاته ويخدُم نفسه .

الخامســـة — وينفق على خادمة واحدة ، وقيل على أكثر ؛ على قدر الثروة والمنزلة . وهذا أمر دائر على العرف الذى هو أصل من أصول الشريعة ، فإن نساء الأعراب وسكان البوادى يخدمن أزواجهن في استعذاب المـاء وسياسة الدواب ، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها ، وأما أهل الثروة فَيخدِمون أزواجهن ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك ؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليـه الزوجة ذلك ، فتشهد أنه قد عرف أنها ممن لا تخدم نفسها فالتزم إخدامها ، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من الثمار والحبوب والحيوان . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ ﴾ يعنى الأصنام؛ قاله ابن عباس . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قراءة الجمهور بالياء . وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ أى بالإسلام . ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٨ (٢) آية ١٨٩ سورة الأعراف .

قوله تعـالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمٰوَاتِ ﴾ يعني المطر . ﴿ وَالْأَرِضِ ﴾ يعني النبات . ﴿ شَيْئًا ﴾ قال الأخفش : هو بدل من الرزق . وقال الفرّاء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه؛ أى يعبدون مالا يملك أن يرزقهم شيئا . ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى لا يقدرون على شيء، يعنى الأصنام . ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أى لا تشبّهوا به هذه الجمادات؛ لأنه واحد قادر لا مثل له . وقد تقدم .

قوله تعـالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا ﴾ نبّه تعالى على ضلالة المشركين، وهو منتظم بمـا قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثـل ذلك من آلهتهم . « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا » أى بيّن شبها؛ثم ذكر ذلك فقال: ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ أى كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجلٌ حُرٌّ قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام . فالذى هو مثالٌ فى هذه الآية هو عبـد بهذه الصفة مـملوك لا يقدر على شيء من المـال ولا من أمر نفسه، وإنمـا هـو مسخَّر بإرادة سـيده . ولا يلزم من الآية أنـ العبيـد كلهم بهذه الصفـة؛ فإن النكرة فى الإثبات لا تقتضى الشمول عند أهل اللسان كما تقدم، وإنما تفيد واحدا، فإذا كانت بعد أمر أو نهى أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعى؛ كقوله : أعتق رجلا ولا تهن

رجلا، والمصدر كاعتاق رقبة، فأيّ رجل أعتق فقـد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء . وقال قتادة : هـذا المثل للؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛ لأنه لاينتفع فى الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمن. والأول عليه الجمهور من أهل التأويل . قال الأَصَمّ : المراد بالعبد المملوك الذى ربما يكون أشدّ من مولاه أَسْرا(١) وأنضر وجها ، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه؛ فقال الله تعالى ضربا للثال . أى فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جَعلتم أحجارا مواتا شركاء لله تعالى فى خلقه وعبادته، وهى لا تعقل ولا تسمع .

الثانيـــة — فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر فى الملك، وأنه لايملك شيئا وإن مُلِّك . قال أهل العراق: الرِّق ينافى الملك، فلا يملك شيئا أَلْبَتَّةَ بحال، وهو قول الشافعيّ فى الجديد، وبه قال الحسن وابن سيرين . ومنهم من قال : يملك إلا أنه ناقص الملك؛ لأن لسـيده أن ينتزعه منه أيّ وقت شاء، وهو قول مالك ومن ٱتبعه ، وبه قال الشافعيّ فى القديم . وهو قول أهـل الظاهر؛ ولهذا قال أصحابنا : لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات ، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سـيده كالحج والجهاد وغير ذلك . وفائدة هذه المسألة أن سيده لو مَلّكه جارية جاز له أن يطأها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم فحال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر . والعراقيّ يقول : لايجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة فى النصاب واجبة على السيد كما كانت . ودلائل هذه المسئلة للفريقين فى كتب الخلاف . وأدلّ دليل لنا قوله تعالى: «الله الذى خلقكم ثم رزقكم» فسوّى بين العبد والحرّ فى الرزق والخلق . وقال عليه السلام : "من أعتق عبدا وله مال ..." فأضاف المـال إليه . وكان ابن عمر يرى عبده يتسرّى فى ماله فلا يعيب عليه ذلك . وروى عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه مايفعل المـالك فى ملكه ما لم ينتزعه سيده . والله أعلم .

(١) الأســـر : الخلق .

الثالثــــة — وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده، وعلى أن بيع الأمة طلاقها، معوّلا على قوله تعـالى : « لا يَقْدِر على شيء » . قال : فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه، إلا أن يدل دليل على خلافه . وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص . والله تعالى أعلم .

الرابعــــة — قال أبو منصور فى عقيدته [١] : الرزق ما وقـع الاغتذاء به . وهذه الآية ترد هذا التخصيص، وكذلك قوله تعـالى : «وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقون» [٢] . و« أنفقوا مِما رزقناكم » [٣] وغير ذلك من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " جعـل رزقى تحت ظِلّ رُمْحِى " وقوله : " أرزاق أمتى فى سنابك خيلها وأسِنّة رماحها ". فالغنيمة كلها رزق، وكل ما صحّ به الانتفاع فهو رزق، وهو مراتب : أعلاها ما يغذى . وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفـاع فى قوله : " يقول آبن آدم مالى مالى وهـل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت " . وفى معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك . وفى ألسنة المحدّثين : السماع رزق، يعنون سماع الحديث، وهو صحيح .

الخامســــة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو المؤمن، يطيع الله فى نفسه وماله . والكافر ما لم ينفق فى الطاعة صار كالعبد الذى لا يملك شيئا . ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أى لا يستوون، ولم يقل يستويان لمكان « مَن » لأنه آسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : « إنّ عبدا مملوكا » ، « ومن رزقناه » أريد بهما الشيوع فى الجنس . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه؛ إذ لا نعمة للاصنام عليهم من يدٍ ولا معروف فتُحمد عليه ، إنمـا الحمـد الكامل لله؛ لأنه المنعم الخالق . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أى أكثر المشركين ﴿ لَا يَعْـلَمُونَ ﴾ أن الحمد لى، وجميعَ النعمة منى . وذكر الأكثر وهو يريد الجميـع، فهو خاص أريد به التعميم . وقيل : أى بل أكثر الخلق لا يعلمون، وذلك أن أكثرهم المشركون .

---

(١) العقيدة : اسم كتاب لأبى منصور الماتريدى، وهو محمد بن محمد بن محمود مات بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ . راجع كشف الظنون وتاج التراجم فى طبقات الحنفية . (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٥٤ سورة البقرة .

قوله تعـالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَـلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰـهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهـهُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَـلْ يَسْـتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ هذا مَثَلٌ آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثَن ، فالأبكم الذى لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذى يأمر بالعدل هو الله تعالى ؛ قاله قَتادة وغيره . وقال ابن عباس : الأبكم عبد كان لعثمان رضى الله عنه ، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى ، ويأمر بالعدل عثمانُ . وعنه أيضا أنه مَثَلٌ لأبى بكر الصدّيق ومولًى له كافر . وقيل : الأبكم أبو جهل ، والذى يأمر بالعدل عمّار بن ياسر العَنْسِىّ . وعَنْس (بالنون) حَىّ من مَذْحِج ، وكان حليفا لبنى مخزوم رهط أبى جهل ، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمّه سُمَيّة ، وكانت مولاة لأبى جهل ، وقال لها ذات يوم : إنما آمنت بمحمد لأنك تحبّينه لجماله ، ثم طعنها بالرمح فى قُبُلها فماتت . فهى أول شهيد مات فى الإسلام ؛ رحمها الله . من كتاب النقاش وغيره . وسيأتى هـذا فى آية الإكراه (1) مبيّنا إن شاء الله تعـالى . وقال عطاء : الأبكم أُبَىّ بن خلَف ، كان لا ينطق بخير . ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ أى قومه لأنه كان يؤذيهم ويؤذى عثمان بن مَظْعُون . وقال مقاتل : نزلت فى هشام بن عمرو بن الحارث ، كان كافرا قليلَ الخير يعادى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الأبكم الكافرُ ، والذى يأمر بالعدل المؤمنُ جملةً بجملة ؛ روى عن ابن عبـاس وهو حَسَن لأنه يَعُمّ . والأبكم الذى لا نطق له . وقيـل الذى لا يعقل . وقيل الذى لا يسمع ولا يبصر . وفى التفسير إن الأبكم ها هنـا الوَثَنُ . بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر ، وأن غيره ينقـله وينْحِته فهو كَلٌّ عليـه . والله الآمر بالعدل ، الغالب على كل شيء . وقيـل : المعنى « وهو كَلٌّ على مولاه » أى ثِقْل على وَلِيّـه وقرابته ، ووبال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمّى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله ؛ ومنه قول الشاعر :

أكُولٌ لمـال الكَلّ قبل شـبابه * إذا كان عظم الكَلّ غيرَ شـديد

(1) آية ١٠٦ من هذه السورة ، ص ١٨٠ وما بعدها من هذا الجزء .

والكَلّ أيضـا الذى لا ولد له ولا والد . والكَلُّ العيال، والجمع الكُلُول ؛ يقال منـه : كَلّ السكينُ يَكِلّ كَلًّا أى غلظت شفرته فلم يقطع . ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ قرأ الجمهور «يُوَجِّهْهُ» وهو خط المصحف؛ أى أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير؛ لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يُفهم عنه . وقرأ يحيى بن وثّاب «أينما يُوَجَّهْ» على الفعل المجهول . وروى عن ابن مسعود أيضا «تَوَجّه» على الخطاب . ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى هل يستوى هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم معناه (١) . وهـذا متصل بقوله « إنّ الله يَعْلَمُ وأنتم لا تعلمون » أى شرعُ التحليل والتحريم إنمـا يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلِمَ تحكمون . ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وتجازَوْن فيها بأعمـالكم . والساعة هى الوقت الذى تقوم فيه القيامة؛ سُمّيت ساعةً لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخـلق بصيحة . واللّمْح : النظر بسرعة ؛ يقال : لَمَحه لَمْحًـا ولَمَحانا . ووجه التأويل أن الساعة لمـا كانت آتية ولا بُدّ جُعلت من القرب كلمح البصر . وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيـان بها؛ أى يقول للشىء كن فيكون . وقيل : إنمـا مثّل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هى عليه من البعد من الأرض . وقيل : هو تمثيل للقرب؛ كما يقول القائل : ما السَّنة إلا لحظة، وشبهه . وقيل : المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين؛ دليله قولُه : «إنّهم يرونه بعيدًا . ونراه قريبًا» (٢) . ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ليس « أو » للشك بل للتمثيل بأيهما أراد الممثل . وقيـل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : «أو» بمنزلة بل . ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) تقدّم .

---

(١) راجع جـ ٩ ص١١٧ (٢) آية ٦ سورة المعارج . (٣) راجع جـ ١ ص٢٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجـكم من بطون أمهاتكم أطفـالا لا علم لكم بشيء . وفيـه ثلاثة أقاويل : أحدها — لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق فى أصلاب آبائكم . الثانى — لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء . الثالث — لا تعلمون شيئا من منافعكم ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى التى تعـلمون بها وتدركون ؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم؛ أى وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهى ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها الى معرفته . والأفئدة : جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة . وقد قيل فى ضمن قوله « وجعل لَكُمُ السَّمْعَ » إثبـات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإذا وجدت حاسـة السمع وجد النطق . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمـزة « إِمِّهاتِكم » هنا وفى النور[1] والزُّمر[2] والنجم[3] بكسر الهمزة والميم . وأما الكسائى فكسر الهمزة وفتح الميم؛ وإنما كان هـذا للإتباع . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل . وأصل الأمهات : أمّات ، فزيدت الهـاء تأكيدا كما زادوا هاء فى أهرقت المـاء وأصله أرقت . وقد تقدّم هذا المعنى فى «الفاتحة»[4] . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما — تشكرون نعمه . الثانى — يعنى تبصرون آثار صنعته ؛ لأن إبصارها يؤدى إلى الشكر .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

(١) فى قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... » آية ٦١ (٢) فى قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة ... » آية ٦ (٣) فى قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الاثم ... » آية ٣٢ (٤) راجع ج ١ ص ١٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب « تروا » بالتاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون بالياء على الخبر. ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي. وقيل: « مسخرات » مذللات لمنافعكم. ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ الجوّ ما بين السماء والأرض؛ وأضاف الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض. وفي قوله « مسخرات » دليلٌ على مُسَخِّر سخّرها ومُدَبِّر مكّنها من التصرف. ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف. بيّن لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي علامات وعبرا ودلالات. ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وبما جاءت به رسلهم.

قوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)

فيه عشر مسائل[(١)] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ معناه صيّر. وكلّ ما علاك فأظلّك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلّك فهو أرض، وكلّ ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار؛ فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت. وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة. وقوله : ﴿ سَكَنًا ﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلا أن القول خرج على الغالب. وعدّ هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرّف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين، وردّده كيف وأين. والسَّكَن مصدر يوصف به الواحد والجمع. ثم ذكر تعالى بيوت النُّقلة والرِّحلة وهي :

(١) اضطربت الأصول في عدّ هذه المسائل.

الثانيــة ــ قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أى من الأنطاع والأَدَم . ﴿ بُيُوتًا ﴾ يعنى الخيام والقِباب يخفّ عليكم حملها فى الأسفار . ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ الظّعن : سير البادية فى الانتجاع(١) والتحول من موضع إلى موضع؛ ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقهــم أتوقّع * وجرى ببينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضا؛ قال :

ألا هــل هاجك الأظعان إذ بانوا * وإذ جادت بوشك البين غربان

وقرئ بإسكان العين وفتحها كالشَّعْر والشَّعَر . وقيــل : يحتمل أن يعم بيوت الأَدَم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأن هــذه من الجلود لكونها ثابتة فيها؛ نحا إلى ذلك ابن سلام . وهو احتمال حسن، ويكون قوله « وَمِنْ أَصْوَافِهَا » ابتــداء كلام، كأنه قال جعــل أثاثا؛ يريد الملابس والوطاء، وغير ذلك؛ قال الشاعر :

أهاجتــك الظعائن يوم بانوا * بذى الزّىّ الجميل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقوله « من جلود الأنعــام » بيوت الأَدَم فقــط كما قدمناه أولا . ويكون قوله « ومن أصوافها » عطفا على قوله « من جلود الأنعــام » أى جعــل بيوتا أيضا . قال ابن العربى : « وهــذا أمر انتشر فى تلك الديار، وعَزَبت عنه بلادنا، فلا تُضرب الأخبية عندنا إلا من الكتّان والصوف، وقد كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم قُبّة من أَدَم، وناهيك من أدم الطائف غلاء فى القيمة، واعتلاء فى الصنعة، وحسنا فى البشرة، ولم يعدّ ذلك صلى الله عليه وسلم ترفا ولا رآه سرفا؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه، وظهرت وجوه منفعته فى الاكتنان والاستظلال الذى لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان . ومن غريب ما جرى أنى زرت بعض المتزهدين من الغــافلين مع بعض المحدثين، فدخلنا عليــه فى خباء كتّان فعرض عليه صاحبى المحدث أن يحمــله إلى منزله ضيفا، وقال : إن هذا موضع يكثر فيه الحــرّ والبيت أرفق بك وأطيب لنفسى فيك؛ فقال : هــذا الخباء لنا كثير، وكان

---

(١) النجعة والانتجاع : طلب الكلأ ومساقط الغيث .

فى صنعنا من الحقير، فقالت : ليس كما زعمت! فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الزهاد قُبّة من أَدَم طائفيّ يسافر معها ويستظل بها، فبُهت، ورأيته على منزلة من العيّ فتركته مع صاحبى وخرجت عنه » .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبل وشعر المعز، كما أذن فى الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكّتان لأنه لم يكن فى بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا . وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل فى الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ »(١)؛ فخاطبهم بالبَرَد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن فى بلادهم، وهو مثله فى الصفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم معًا فى التطهير فقال : "اللَّهُمّ اغسلنى بماء وثلج وبَرَد » . قال ابن عباس : الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قطّ . وقيل : إن ترك ذكر القطن والكّتان إنما كان إعراضا عن التَّرَف؛ إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف . وهــذا فيه نظر؛ فإنه سبحانه يقول : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ » حسبما تقدّم بيانه فى «الأعراف»(٢) . وقال هنا : « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ » فأشار إلى القطن والكّتان فى لفظة « سرابيـل » والله أعلم . و﴿ أَثَاثًا ﴾ قال الخليل : متاعا منضما بعضه إلى بعض؛ من أثّ إذا كثر . قال :

وفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فاحمٍ * أثيثٍ كقِنْوِ النخلة المُتَعَثْكِلِ(٣)

ابن عباس : « أَثَاثًا » ثيابا . وقد تقدّم . وتضمّنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال، ولذلك قال أصحابنا : صوف الميتــة وشعرها طاهر يجوز

---

(١) آية ٤٣ سورة النور . (٢) راجع ج ٧ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانيــة . (٣) البيت من معلقة امرئ القيس . والفرع : الشعر التام . والمتن والمتنة : ما عن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم . والفاحم : الشديد السواد . والقنو (بالكسر والضم) : العـذق وهو الشمراخ . والمتعثكل : الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته .

الانتفاع به على كل حال ، و يغســل مخافة أن يكون عَلِق به وسخ؛ وكذلك روت أم سـلمة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : " لا بأس بجـلد الميتـة إذا دُبغ وصوفِها وشـعرِها إذا غُسل " لأنه ممـا لا يَحُلّه الموت ، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمـه أو لا ، كشعر ابن آدم والخنزير، فإنه طاهر كله؛ و به قال أبو حنيفة، ولكنه زاد علينا فقال : القَرْن والسِّن والعظم مثل الشعر؛ قال : لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان . وقال الحسن البَصْرِيّ والليث بن سعد والأوزاعيّ : إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل . وعن الشافعي ثلاث روايات : الأولى — طاهرة لاتنجس بالموت . الثانية — تنجس . الثالثة — الفرق بين شـعر ابن آدم وغيره ، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس . ودليلنا عمـوم قوله تعالى : « ومن أصوافها » الآية . فمَنّ علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها ، ولم يخص شعر الميتة من المُذَكّاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل. وأيضا فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل . فإن قيل قوله : « حُرِّمَتْ عليكم الميتة » وذلك عبارة عن الجمـلة . قلنا : نخصه بمـا ذكرنا؛ فإنه منصوص عليـه فى ذكر الصوف، وليس فى آيتكم ذكره صريحا، فكان دليلنا أَوْلى. والله أعلم. وقد عوّل الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغـداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خِلْقة ، فهو يَنْمِى بنمـائه و يتنجس بموته كسائر الأجزاء . وأجيب بأن النَّمـاء ليس بدليل على الحيـاة ؛ لأن النبات يَنمِى وليس بحيّ . و إذا عوّلوا على النمـاء المتصل لمـا على الحيوان عوّلنا نحن على الإبانة التى تدل على عدم الإحساس الذى يدل على عدم الحيـاة . وأما ما ذكره الحنفيُّون فى العظم والسن والقَرْن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم . وقال ابن وهب مثل قول أبى حنيفة . ولنـا قول ثالث — هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولهـا أو بالشعر ، قولان . وكذلك الشَّعرِيّ من الريش حكمه حكم الشعر، والعظميّ منه حكمه حكمه . ودليلنا قوله صلى الله عليه وسـلم : " لا تنتفعوا من الميتة بشيء " وهذا عام فيها وفى كل جزء منها . إلا ما قام دليـله؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعـالى : « قال من يُحْيِ العِظَامَ وهِيَ رَمِيم »[(1)] ،

(١) آية ٧٨ سورة يس .

وقال تعالى : «وَٱنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا»[1] ، وقال : «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا»[2] ، وقال : «أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً»[3] . فالأصـل هى العظام ، والروح والحياة فيهـا كما فى اللحم والجـلد . وفى حديث عبـد الله بن عُكَيم : " لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب " . فإن قيل : قد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى شاة ميمونة : " ألّا انتفعتم بجلدها" ؟ فقالوا : يارسول الله ، إنهـا ميّتة . فقال : " إنمـا حَرُم أكلها " والعظم لا يؤكل . قلنا : العظم يؤكل ، وخاصّةً عظم الجمل الرضيع والجَدْى والطير ، وعظم الكبير يشوى و يؤكل . وما ذكرناه قبلُ يدُلّ على وجود الحياة فيه ، وما كان طاهرا بالحياة و يستباح بالذّكاة ينجس بالموت . والله أعلم .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ عامٌّ فى جلد الحىّ والميت ، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة و إن لم تدبغ ؛ و به قال ابن شهاب الزهرىّ والليث بن سعد . قال الطحاوىّ : لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبـل الدباغ إلا عن الليث . قال أبو عمر : يعنى من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين ، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح ، وهو قول أباه جمهور أهل العلم . وقد روى عنهما خلاف هذا القول ، والأول أشهر .

قلت : قد ذكر الدَّارَقُطْنىّ فى ســننه حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهرىّ ، وحديث بقيــة عن الزُّبيدى ، وحديث محمد بن كثير العبدى وأبى ســلمة المنقرىّ عن سليمان بن كثير عن الزهرىّ ، وقال فى آخرها : هذه أسانيد صحاح .

السادســـة[4] — اختلف العلماء فى جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشــبه مذهب ابن شهاب فى ذلك . وذكره ابن خُوَيْزِمَنْداد فى كتابه عن ابن عبد الحكم أيضا . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : وهو قول الزهرىّ والليث . قال : والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبـد الحكم ، وهو أن الدباغ لا يطهّر جلد الميتة ، ولكن يبيـح الانتفاع به فى الأشــياء اليابسة ، ولا يصلى عليــه ولا يؤكل فيه . وفى المدوّنة لابن القاسم

(١) آية ٢٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٤ سورة المؤمنون . (٣) آية ١١ سورة النازعات .
(٤) اضطربت الأصول فى عدّ هذه المسائل .

« من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأتلفه كان عليــه قيمته » وحكى أن ذلك قول مالك . وذكر أبو الفرج أن مالكا قال : من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فــلا شيء عليــه . قال إسماعيل : إلا أن يكون لمجوسي . وروى ابن وهب وابن عبــد الحكم عن مالك جواز بيعه ، وهذا في جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الزكاة لا تعمل فيه ، فالدباغ أولى . قال أبو عمر : وكل جلد ذُكِّيَ فجائز استعماله للوضوء وغيره . وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومرة قال : إنه لم يكرهه إلا في خاصة نفسه ، وتكره الصلاة عليــه وبيعه ، وتابعــه على ذلك جماعة من أصحابه . وأما أكثر المــدنيين فعــلى إباحة ذلك وإجازته ؛ لقول رســول الله صلى الله عليه وسلم : " أيُّمــا إهاب دبغ فقد طهر " . وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث ، وهو اختيار ابن وهب .

السابعـــة — ذهب الإمام أحمــد بن حنبل رضي الله عنــه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإن دبغت ؛ لأنها كلحم الميتة . والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ ترد قوله . واحتج بحديث عبدالله بن عكيم — رواه أبو داود — قال : قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام شاب : " ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب " . وفي رواية : « قبل موته بشهر »[1] . رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عُكيم ، قال : حدثنا مَشيخة لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إليهم ... قال داود بن عليّ : سألت يحيى بن مَعين عن هذا الحديث فضعّفه وقال : ليس بشيء ، إنمــا يقول حدثني الأشياخ . قال أبو عمر : ولو كان ثابتــا لاحتمل أن يكون مخالفا للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن المُحَبِّق وغيرهم ؛ لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عُكيم " ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب " قبــل الدباغ ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفا فليس لنــا أن نجعله مخالفا ، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء في الخبر فيمكن أن تكون قصّة ميمونة وسماع ابن عباس منه " أيّمــا إهاب دبغ فقد طهر " قبل موته بجمعة أو دون جمعة ، والله أعلم .

(١) لفظة « بشهر » ساقطة من سنن أبي داود .

الثامنـــة — المشهور عنـدنا أن جلد الخنزير لا يدخل فى الحديث ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعي. وعند الأوزاعى وأبى ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه . وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه . قال ابن وَضّاح : وسمعت سُحْنُونا يقول لا بأس به ؛ وكذلك قال محمد بن عبـد الحكم وداود بن علىّ وأصحابه ؛ لقوله عليه السلام : "أيّما مَسْك (١) دبغ فقد طهر". قال أبو عمر : يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بها ، فأما الخنزير فلم يدخل فى المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده ، إذ لا تعمل فيه الذكاة . ودليل آخر وهو ما قاله النَّضْر بن شُمَيل : إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل، وما عداه فإنما يقال له : جلد لا إهاب .

قلت : وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال صلى الله عليـه وسلم : "أكل كلّ ذى ناب من السباع حرام" فليست الذكاة فيها ذكاة ، كما أنها ليست فى الخنزير ذكاة . وروى النَّسائىّ عن المقدام بن معد يكرب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرير والذهب ومَيَاثر (٢) النمور .

التاسعـــة — آختلف الفقهاء فى الدباغ التى تطهر به جلود الميتة ما هو ؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبـه : كل شىء دَبَغ الجلد من ملح أو قَرَظ أو شَبّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به . وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود . وللشافعىّ فى هذه المسئلة قولان : أحدهما — هـذا ، والآخر أنه لا يُطَهِّر إلا الشبّ والقَـرَظ ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهـد النبىّ صلى الله عليه وسلم، وعليـه خرّج الخطابىّ — والله أعلم — ما رواه النَّسائىّ عن ميمونة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلّم رجال من قريش يجرّون شاة لهم مثل الحصان ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أخذتم إهابها" قالوا : إنها ميتة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يطهرها المـاء والقرظ".

---

(١) المسك (بالفتح وسكون السين) : الجلد . وخص بعضهم به جلد السخلة ، ثم كثر حتى صار كل جلد مسكا ، والجمع مسك ومسوك . (٢) أى عن أن تفرش جلودها على السرج والرحال للجلوس عليها لما فيه من التكبر ، أو لأنه زى العجم ، أو لأن الشعر نجس لا يقبل الدباغ . (عن شرح سنن النسائى) .

العــاشرة — قوله تعــالى : ﴿ أَثَاثًا ﴾ الأثاث متاع البيت ، واحدها أثاثة ؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري . وقال الأموى : الأثاث متاع البيت ، وجمعـه آثة وأُثُث . وقال غيرهما : الأثاث جميع أنواع المــال ولا واحد له من لفظه . وقال الخليل : أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر ؛ ومنــه شعر أثيث أي كثير . وأَثّ شـعر فلان يَأَث أَثًا إذا كثر والتف ؛ قال امرؤ القيس :

وفَرْعٍ يَزِين المتنَ أسودَ فاحم * أثيث كقِنْوِ النّخلة المُتَعَثْكِلِ

وقيل : الأثاث ما يلبس و يفـترش . وقد تأثثت إذا اتخذت أثاثا . وعن ابن عباس رضي الله عنه « أثاثا » مالًا . وقد تقــدم القول في الحين[1] ؛ وهو هنا وقت غير معــيّن بحسب كل إنسان ، إما بموته وإمّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث . ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

أهاجتــك الظعائن يوم بانوا * بذى الزِّىّ الجميل من الأثاث

قوله تعــالى : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ ظِلَالًا ﴾ الظِّلال : كلّ مايستظَلّ به من البيوت والشجر . وقوله ﴿ مِّمَّا خَلَقَ ﴾ يعمّ جميع الأشخاص المظِلّة .

الثانيــــة — قوله تعــالى : ﴿ أَكْنَانًا ﴾ الأكنان : جمــع كِنّ ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك ؛ وهي هنا الغــيران في الجبال ، جعلها الله عدّة للخلق يأوون إليها و يتحصنون بها و يعتزلون عن الخلق فيها . وفي الصحيح أنه عليه السلام كان في أول أمره يتعبّد بغار حِراء و يمكث فيه الليالي ... الحديث . وفي صحيح البخاري قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع المسألة السادسة جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

من مكة مهاجرا هاربا من قومه فارا بدينه مع صاحبه أبى بكر حتى لحقا بغـار فى جبل ثَوْر ، فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن (١) فيُدْلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به (٢) إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، و يرعى عليهما عامر بن فُهيرة مولى أبى بكر مِنْحَةً (٣) من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رِسْل ، وهو لبن منحتهما و رَضيفهما (٤) حتى ينعق بهما عامر بن فُهيرة بغَلَس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث ... وذكر الحديث . انفرد بإخراجه البخارى .

الثالثـة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ ﴾ يعنى القُمص ، واحدها سربال . ﴿ وسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ يعنى الدروع التى تقى الناس فى الحرب ؛ ومنه قول كعب بن زهـير :

شُــمُّ العرانين أبطال لَبُوسهـمُ * من نَسْج داودَ فى الهَيْجا سَرابيلُ

الرابعـة — إن قال قائل : كيف قال «وجعل لكم من الجبال أكنانا» ولم يذكر السهل ، وقال «تقيكم الحر» ولم يذكر البرد؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل ، وكانوا أهل حَرّ ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التى تختص بهم كما خصّهم بذكر الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكَتّان ولا الثلج — كما تقدم — فإنه لم يكن ببلادهم ؛ قال معناه عطاء الخراسانى وغيره . وأيضا : فذكر أحدهما يدل على الآخر ؛ ومنه قول الشاعر :

وما أدرى إذا يممت أرضًا * أريد الخـير أيهمـا يَلِينى

أألخـير الذى أنا أبتغيـه * أم الشر الذى هـو يبتغينى

الخامسـة — قال العلماء : فى قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدّة الجهاد ليستعينوا بها على قتـال الأعداء ؛ وقد لبسها النبىّ صلى الله عليه وسلم تقاة

---

(١) أى حاذق سريع الفهم . (٢) من الكيد ؛ أى يطلب لهما ما فيه المكروه . (٣) أى شاة تحلب إناء بالغداة وإناء بالعشى . (٤) الرضيف : اللبن المرضوف ، وهو الذى طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه .

الجراحة وإن كان يطلب الشهادة، وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيوف، ولكنه يلبس لأمة حرب[1] لتكون له قوة على قتال عدوه، ويقاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ويفعل الله بعدُ مايشاء .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصن وحميد « تتم » بتاءين، « نعمتُه » رفعا على أنها الفاعل . الباقون « يتم » بضم الياء على أن الله هو يتمها . و «تسلمون» قراءة ابن عباس وعكرمة « تَسْلَمون » بفتح التاء واللام، أى تسلمون من الجراح، وإسناده ضعيف؛ رواه عَباد بن العوام عن حنظلة عن شَهْر عن ابن عبـاس . الباقون بضم التاء، ومعناه تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته شكرا على نعمــه . قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامة؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإســلام أفضل ممـا أنعم به من السلامة من الجراح .

قوله تعـالى : فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢)

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أى ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا .

قوله تعـالى : يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

قوله تعالى :﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ قال السُّدّى : يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم، أى يعرفون نبوته ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ ويكذبونه . وقال مجـاهد : يريد ماعدّد الله عليهم فى هــذه السورة من النعم؛ أى يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم . وبمثله قال قتادة . وقال عَوْن بن عبـد الله : هو قول الرجل لولا فـلان لكان كذا، ولولا فـلان ما أصبت كذا، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله . وقال الكَلْبى : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا عرّفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا : نَعم، هى كلها نِعم من الله، ولكنها

(١) لأمة الحرب : أداته؛ وقد يترك الهمز تخفيفا .

بشفاعة آلهتنا . وقيل : يعرفون نعمة الله بتقلّبهم فيها ، وينكرونها بترك الشكر عليها . ويحتمل سادسا — يعرفونها في الشدّة وينكرونها في الرخاء . ويحتمل سابعا — يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم . ويحتمل ثامنا — يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم؛ نظيرها «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ»(١) ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ يعني جميعهم؛ حسبما تقدّم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ نظيره : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » وقد تقدّم(٢) . ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي في الاعتذار والكلام؛ كقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(٣) . وذلك حين تطبق عليهم جهنم، كما تقدّم في أوّل « الحجر » ويأتي . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يعني يسترضون ، أي لا يكلفون أن يرضوا ربّهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العَتْب وهي المَوْجدة؛ يقال : عَتَب عليه يعتُب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ماعتَب عليه فيه قيل عاتبه، فإذا رجع إلى مسرّتك فقد أعتَب، والاسم العُتْبَى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتبَ؛ قاله الهرَويّ . وقال النابغة :

فإن كنتُ مظلوما فعبدا ظلمتَه * وإن كنتَ ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أشركوا . ﴿ الْعَذَابَ ﴾ أي عذاب جهنم بالدخول فيها . ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي لا يمهلون؛ إذ لا توبة لهم ثَمَّ .

(١) آية ١٤ سورة النمل . (٢) آية ٤١ سورة النساء . راجع جـ٥ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ٣٦ سورة المرسلات .

قوله تعـالى : ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها؛ وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يُوردوهم النار . وفى صحيح مسلم : " من كان يعبد شيئا فَلْيَتَّبِعْه فيتّبِـع من كان يعبد الشمس الشمسَ ويتّبع من كان يعبد القمرَ القمرَ ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت " الحديث، خرجه من حديث أنس[(١)]، والترمذى من حديث أبى هريرة، وفيه : " فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبـدون " وذكر الحديث[(٢)] . ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أى الذين جعلناهم لك شركاء . ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِـمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى ألقت إليهم الآلهة القول، أى نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فيُنطق الله الأصنامَ حتى تظهـر عند ذلك فضيحة الكفار . وقيل : المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم . ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ يعنى المشركين، أى استسلموا لعذابه وخضعوا لعزّه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى زال عنهم ما زيّن لهم الشيطان وما كانوا يؤمّلون من شفاعة آلهتهم .

قوله تعـالى : ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

---

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة . راجع كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

(٢) راجع الحديث فى سنن الترمذى فى باب صفة الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال ابن مسعود : عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثل أعناق الإبل، وأفاعى كأنها البَخَاتِيّ (١) تضربهم، فتلك الزيادة . وقيل : المعنى يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار . وقيل : المعنى زدنا القادة عذابا فوق السّفلة، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدّهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ فى الدنيا من الكفر والمعصية .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وهم الأنبياء، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعَوْهم إلى الإيمان، فى كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا ؛ وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء . الثانى — أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

قلت : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحّد الله ؛ كقُس بن ساعدة، وزيد بن عمرو ابن نُفيل الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يُبعث أمةً وحده"، وسَطِيح (٢)، ووَرَقة ابن نَوْفل الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "رأيته ينغمس فى أنهار الجنة" . فهؤلاء ومن كان مثلهم حجةٌ على أهل زمانهم وشهيد عليهم . والله أعلم . وقوله « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هٰؤُلَاءِ » تقدّم فى البقرة والنساء (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ نظيره : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (٤) » وقد تقدّم، فلينظر هناك . وقال مجاهد : تبيانا للحلال والحرام .

(١) البخاتى : جمال طوال الأعناق . (٢) هو كاهن بنى ذئب، كان يتكهن فى الجاهلية، واسمه : ربيع بن ربيعة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٩ طبع أوربا) . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية وجـ ٥ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ رُوى عن عثمان بن مَظْعُون أنه قال : لمـا نزلت هذه الآية قرأتُها على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فتعجّب فقال : يا آل غالب ، اتبعوه تفلحوا ، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق . وفى حديث — إن أبا طالب لمـا قيـل له : إن ٱبن أخيك زعم أن الله أنزل عليه « إن الله يأمر بالعدل والإحسـان » الآية ، قال : اتبعوا ٱبن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحـاسن الأخلاق . وقال عكرمة : قرأ النبىّ صـلى الله عليه وسـلم على الوليد بن المغيرة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » إلى آخرها ، فقال : يابن أخى أعد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لَطُلاوة ، وإن أصله لمُورِق ، وأعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر ! وذكر الغَزْنَوِىّ أن عثمان بن مظعون هو القارئ . قال عثمان : ما أسـلمت ابتـداءً إلّا حياءً من رسول الله صـلى الله عليه وسـلم حتى نزلت هـذه الآية وأنا عنده فٱستقر الإيمـان فى قلبى ، فقـرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يابن أخى أعد ! فأعدت فقال : والله إن له لحلاوة ، ... وذكر تمام الخبر . وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ، ولشر يجتنب . وحكى النقاش قال : يقال زكاة العـدل الإحسان ، وزكاة القـدرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف ، وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه .

الثانيـــة — اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ؛ فقال ابن عباس : العـدل لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل الفرض ، والإحسان النافلة . وقال سـفيان بن عُيينة : العـدل ها هنا استواء السريرة ، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية . علىّ بن أبى طالب : العـدل الإنصاف ، والإحسان التفضل . قال ابن عطية :

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق . والإحسان هو فعـل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنهـا ما هو فرض، إلا أن حدّ الإجزاء منـه داخل فى العـدل ، والتكميلُ الزائد على الإجزاء داخل فى الإحسان . وأما قول ابن عباس ففيه نظر ؛ لأن أداء الفرائض هى الإسلام حسبما فسره رســول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل، وذلك هو العدل ، وإنما الإحسان التكميلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل بقوله : "أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة . وقال ابن العربى : العـدل بين العبد وبين ربه إيثارُ حقـه تعالى على حظ نفسه ، وتقديمُ رضاه على هواه ، والاجتنابُ للزواجر والامتثال للاوامر . وأما العـدل بينـه وبين نفسه فمنعها ممـا فيه هلاكها؛ قال الله تعـالى : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى »[(1)] وعُزوبُ الأطماع عن الاتبـاع ، ولزومُ القناعة فى كل حالٍ ومعنًى . وأما العـدل بينه وبين الخلق فبـذلُ النصيحة ، وتركُ الخيـانة فيما قلّ وكثُر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعـل لا فى سِرٍّ ولا فى عَلَن ، والصبرُ على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقلّ ذلك الإنصافُ وترك الأذى .

قلت : هذا التفصيل فى العدل حَسَنٌ وعدل، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا : الإحسان مصدر أحسن يُحسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما متعد بنفسه؛ كقولك : أحسنت كذا، أى حسّنته وكمّلته، وهو منقول بالهمزة من حَسُن الشئ . وثانيهما متعدٍّ بحـرف جر؛ كقولك : أحسنت إلى فلان، أى أوصلت إليه ما ينتفع به .

قلت : وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معًا؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر فى سجنك والسِّنَّوْر فى دارك لا ينبغى أن تقصر تعهّده بإحسانك ؛ وهو تعالى غنيّ عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن . وهو فى حديث جبريل

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .

بالمعنى الأوّل لا بالثانى؛ فإن المعنى الأوّل راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بآدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار . وهو المراد بقوله "أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" . وأرباب القلوب فى هذه المراقبة على حالين : أحدهما غالب عليــه مشاهدة الحق فكأنه يراه . ولعــلّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله : "وجُعلت قرّة عينى فى الصلاة" . وثانيهما — لاتنتهى إلى هــذا ، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليــه ومشاهد له ، وإليه الإشارة بقوله تعــالى « ٱلَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ »(١) وقوله : « إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ »(٢) .

الثالثــــة — قوله تعــالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أى القرابة؛ يقول : يعطيهم المــال كما قال « وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ »(٣) يعنى صلته . وهذا من باب عطف المندوب على الواجب ، وبه استدلّ الشافعىّ فى إيجاب إيتاء المُكاتَب ؛ على ما يأتى بيانه . وإنمــا خص ذا القربى لأن حقوقهم أوْكد وصلتهم أوجب؛ لتأكيد حق الرَّحِم التى اشتق الله آسمها من آسمه ، وجعل صلتها من صلته ، فقال فى الصحيح : "أمَا تَرْضَيْن أن أصِل من وصلك وأقطعَ من قطعك"(٤) . ولا سيّما إذا كانوا فقراء .

الرابعــــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ الفحشاء : الفُحْش ، وهو كل قبيح من قول أو فعــل . ابن عباس : هو الزنى . والمنكر : ما أنكره الشرع بالنهى عنه ، وهو يعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها . وقيل هو الشرك . والبغى : هو الكِبر والظلم والحقد والتعدّى ؛ وحقيقته تجاوز الحدّ ، وهو داخل تحت المنكر ، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره . وفى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا ذنب أسرع عقوبةً من بَغْيٍ" . وقال عليه السلام : "الباغى مصروع" . وقد وعد الله من بُغِىَ عليه بالنصر . وفى بعض الكتب المنزّلة : لو بغَى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكًّا .

---

(١) آية ٢١٨ سورة الشعراء .　　(٢) آية ٦١ سورة يونس .　　(٣) آية ٢٦ سورة الإسراء .

(٤) راجع صحيح البخارى فى كتاب التفسير فى سورة محمد وكتاب الأدب والتوحيد . وصحيح مسلم فى كتاب الأدب .

الخامســـة — ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه فقال : (باب قول الله تعـالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والْبَغْيِ يَعِظُكم لعلكم تذكرون »، وقوله : « إنما بَغْيُكم على أنفسكم »، «ثمّ بُغِيَ عليه لينصرنَّه الله»، وترك إثارة الشر على مسلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشة فى سِحْر لبيد ابنِ الأَعْصَم النبيَّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن بطال : فتأول رضى الله عنه من هذه الآيات ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر؛ كما دلّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : "أمّا الله فقد شفانى وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرا" . ووجه ذلك — والله أعلم — أنه تأول فى قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعـدل والإحسان » الندب بالإحسان إلى المسىء وترك معاقبته على إساءته . فإن قيـل : كيف يصح هـذا التأويل فى آيات البغى . قيـل : وجه ذلك — والله أعلم — أنه لمّـا أعلم الله عباده بأن ضرر البغى ينصرف على البـاغى بقوله : « إنما بغيكم على أنفسكم » وضمِن تعالى نُصرة من بُغِيَ عليه، كان الأولى بمن بغى عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عمن بَغى عليــه ؛ وكذلك فعل النبىّ صلى الله عليه وســلم باليهودى الذى سحره ، وقد كان له الانتقام منه بقوله : « وإن عاقبتم فعاقِبوا بِمِثْـلِ ما عُوقِبْـتم بِهِ »(١) . ولكن آثر الصـفح أخذا بقوله : « وَلَمَنْ صَـبَرَ وغَفَرَ إنّ ذلِك لمن عَزْمِ الأمـــورِ »(٢) .

السادســـة — تضمنت هذه الآية الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وقد تقدّم القول فيهما(٣) . روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبى جعفر المنصور العباسى، فحاجّها العامل وغلبها، بأنهم لم يُثبِتوا عليه كبير ظلم ولا جوره فى شىء ؛ فقام فتًى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن . قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

---

(١) آية ١٢٦ من هذه السورة . (٢) آية ٤٣ سورة الشورى . (٣) راجع جـ ٤ ص ٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ ﴾ لفظ عام لجميع ما يُعقد باللسان و يلتزمه الإنسان من بيع أوصلة أو مواثقة فى أمر موافق للديانة . وهذه الآية مضمّن قوله « إن الله يأمر بالعـدل والإحسان » لأن المعنى فيها : افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعطف على ذلك التقدير . وقد قيل : إنها نزلت فى بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام . وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به؛ قاله قتادة ومجاهد وآبن زيد . والعموم يتناول كل ذلك كما بينـاه . روى الصحيح عن جُبير بن مُطْعِم قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حِلْف فى الإسلام وأيُّما حِلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة " يعنى فى نصرة الحق والقيام به والمواساة . وهذا كنحو حِلف الفُضُول الذى ذكره آبن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش فى دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونسبه(١)، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مَظْلِمته؛ فسمت قريش ذلك الحلف حِلْف الفضول، أى حلف الفضائل. والفضول هنا جمع فضل للكثرة كفلس وفلوس . روى آبن إسحـاق عن آبن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حِلفا ما أُحِبّ أن لى به حُمْر النَّعَم لو أدعى به فى الإسلام لأجبت " . وقال آبن إسحاق : تحامل الوليد بن عُتبة على حسين بن علىّ فى مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة؛ فقال له حسين بن علىّ : أحلِفُ بالله لتُنْصِفَنّى من حقى أو لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعونّ بحلف الفضول . قال عبـد الله بن الزبير : وأنا أحلف والله لئن دعانا(٢) لآخذن سيفى ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعا . و بلغت المِسْوَرَ بن مَخْرمة فقال مثل ذلك . و بلغت

(١) فى سيرة ابن هشام : « لشرفه وسنه » .　(٢) فى سيرة ابن هشام : «لئن دعا به» .

عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليدَ أنصفه . قال العلماء : فهذا الحلف الذى كان فى الجاهلية هو الذى شدّه الإسلام وخصّه النبىّ عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : " لا حِلْف فى الإسلام ". والحكمة فى ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلّفين ، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ على الذين يَظْلِمون النـاسَ ويَبْغُونَ فِى الأرضِ بِغَيْرِ الحقّ أولئك لهم عذابٌ أَلِيم » (١) . وفى الصحيح : " اُنصر أخاك ظالمـا أو مظلوما " قالوا : يا رسول الله ، هـذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالمـا؟ قال : " تأخذ على يديه — فى رواية : تمنعه من الظلم — فإن ذلك نصره " . وقد تقدّم قوله عليه السلام : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَـانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول بعد تشديدها وتغليظها ؛ يقال : توكيد وتأكيد ، ووكّد وأكّد ، وهما لغتان .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ يعنى شهيدا . ويقال حافظا ، ويقال ضامنا . وإنمـا قال « بَعْدَ تَوْكِيدِها » فَرْقًا بين اليمين المؤكّدة بالعزم وبين لَغْو اليمين . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حلف الإنسان فى الشىء الواحد مرارا ، يردّد فيه الأيمـان ثلاثا أو أكثر من ذلك ؛ كقوله : والله لا أُنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا . قال : فكفارة ذلك واحدةٌ مثل كفّارة اليمين . وقال يحيى بن سـعيد : هى العهود ، والعهد يمين ، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفّر . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " يُنْصَب لكل غادر لواء يوم القيامة عند آسته بقدر غَدْرته يقال هذه غدرة فلان" . وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة ، وحلّ ما انعقدت عليـه اليمين . وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه . وقد تقدّم فى المـائدة (٢) .

(١) آية ٤٢ سورة الشورى . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ النّقض والنّكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث . فشبّهت هذه الآية الذى يحلف و يعاهد و يُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله مُحْكَمًا ثم تَحُلّه . و يروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى رَيْطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسُّدّى ولم يسمِّيا المرأة. وقال مجاهد وقتادة: وذلك ضَرْبُ مثلٍ، لا على امرأة معيّنة . و «أنكاثا» نصب على الحال . والدَّخَل : الدَّغَل والخديعة والغش . قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَل . ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أربى مِن أمّةٍ ﴾ قال المفسرون : نزلت هذه الاية فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذ حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى — قاله مجاهد — فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة فى الدنيا لأعدائكم المشركين . والمقصود النّهى عن العَوْد إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم . وقال الفراء : المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عززتموهم بالأيمان . ﴿ أَرْبَى ﴾ أى أكثر؛ من رَبَا الشيء يربو إذا كثر . والضمير فى « به » يحتمل أن يعود على الوفاء الذى أمر الله به . ويحتمل أن يعود على الرباء ؛ أى أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهورَ على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها و يعمل بمقتضى هواها ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لكم يومَ القِيامة ما كنتم فِيه تختلِفون ﴾ من البعث وغيره .

قوله تعـالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى على ملة واحدة . ﴿ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بخذلانه إياهم، عَدْلًا منه فيهم . ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بتوفيقه إياهم ؛ فضلا منه عليهـم، ولا يُسأل عما يفعل بل تسألون أنتم . والآية ترد على أهـل القدر كما تقدم . واللام فى «وليبينن ولتسئلن» مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر، أى والله ليبينن لكم ولتسئلن .

قوله تعـالى : وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر ذلك تأكيدا . ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مبالغة فى النهى عنه لعظم موقعه فى الدِّين وتردده فى معاشرات الناس؛ أى لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزِل قدم بعد ثبوتها، أى عن الأيمان بعد المعرفة بالله . وهذه استعارة للستقيم الحال يقع فى شر عظيم ويسقط فيه ؛ لأن القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر ؛ ومن هذا المعنى قول كُثَيّر :

* فلما توافينا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ *

والعرب تقول لكل مبتلًى بعد عافية أو ساقط فى وَرْطة : زلّت قدمه ؛ كقول الشاعر :

سَيُمنَعُ منك السبقُ إن كنتَ سابقا * وتقتـل إن زلّت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ فى شىء : زلّ فيـه . ثم توعّد تعالى بعـدُ بعذاب فى الدنيا وعذاب عظيم فى الآخرة . وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ فإن من عاهده ثم نقض عهـده خرج عن الإيمـان ، ولهذا قال : ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى بصدّكم . وذَوْقُ السوء فى الدنيا هو مايحل بهم من المكروه .

قوله تعـالى : وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

قوله تعالى : ﴿ ولا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ نهى عن الرُّشَا وأخذ الأموال على نقض العهد ؛ أى لا تنقضوا عهودكم لعَرَض قليل من الدنيا . وإنمـا كان قليلا وإن كثر لأنه ممـا يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَـد وما عند اللهِ باقٍ » فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هـذه تنفَد وتحول ، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وَفّى بالعهد وثَبَت على العقد . ولقد أحسن من قال :

المـالُ ينفَدُ حِـلُّه وحرامه * يوما وتبـــقى فى غـدٍ آثامُه
ليس التَّقِيُّ بمتَّـــقٍ لإلهـــه (١) * حتى يطيب شرابه وطعـامه

آخـــر :

هَب الدنيا تساق إليك عفوًا * أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنيـاك إلا مثـــلُ فَيْءٍ * أظـلّك ثم آذن بالزوال

قوله تعـالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَـبَرُوا ﴾ أى على الإسلام والطاعات وعن المعاصى . ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَـلُونَ ﴾ أى من الطاعات، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله . وقرأ عاصم وابن كثير « ولنجزِيَنّ » بالنون على التعظيم . الباقون باليـاء . وقيل : إن هـذه الآية « ولا تشتروا » إلى هنا نزلت فى امرئ القيس بن عابس الكندى وخصمه آبن أَسْوع (٢)، اختصما فى أرض فأراد آمرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقرّ له بحقه؛ والله أعلم .

---

(١) فى نسخ الأصل : * ليس التـــق بمن يمير بأهله *
والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٢١٢ طبع بولاق . (٢) الذى فى كتب الصحابة فى ترجمة امرئ القيس ابن عابس أنه ربيعة بن عيدان . وقال صاحب كتاب الإصابة فى ترجمة عيدان بن أسوع : «ذكر مقاتل فى تفسيره أنه الذى حاصر آمرأ القيس بن عابس الكندى فى أرضه ، وفيه نزلت « إن الذين يشترون بعهد الله ... » الآية .

قوله تعـالى : مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ شرط وجوابه . وفى الحياة الطيبة خمســة أقوال : الأوّل — أنه الرزق الحلال؛ قاله ابن عبـاس وسعيد بن جُبير وعطاء والضحاك . الثانى — القناعة ؛ قاله الحسن البصرى وزيد بن وهب ووهب بن منبّه، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس، وهو قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الثالث — توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله؛ قال معناه الضحاك . وقال أيضا : من عمل صالحا وهو مؤمن فى فاقة ومَيْسرة فحياتُه طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فمعيشته ضَنْكٌ لا خير فيها . وقال مجاهد وقَتادة وابن زيد : هى الجنة، وقاله الحسن، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة . وقيل هى السعادة، روى عن ابن عباس أيضا . وقال أبو بكر الورّاق : هى حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : هى أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلى الحق . وقال جعفر الصادق : هى المعرفة بالله، وصدقُ المقام بين يدى الله . وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقارُ إلى الحق . وقيل : الرضا بالقضاء . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وقال « فلنحيينه » ثم قال « ولنجزينهم » لأن « مَن » يصلح للواحد والجمع، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى ؛ وقد تقدّم . وقال أبو صالح : جلس ناس من أهـل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان، فقال هؤلاء : نحن أفضـل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل؛ فنزلت .

قوله تعـالى : فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

فيـه مسألة واحدة — وهى أن هذه الآية متصلة بقوله : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » فإذا أخذتَ فى قراءته فآستعذ بالله من أن يعـرض لك الشيطان فيصدّك عن

تدبّره والعمل بما فيه؛ وليس يريد استعذ بعد القراءة؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل بسم الله؛ أى إذا أردت أن تأكل. وقد روى جُبير بن مُطْعِم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة قال : "اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفخه ونَفْثه(١)". وروى أبو سعيد الخُدْرِيّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة. قال الكِيَا الطبرى : ونُقل عن بعض السلف التعوّذ بعد القراءة مطلقا، احتجاجا بقوله تعالى : « فإذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضى أن تكون الاستعاذة بعد القراءة، كقوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاةَ فاذكروا اللهَ قِيَامًا وقُعُودا(٢) ». إلا أن غيره محتمل، مثلُ قوله تعالى : « وإذا قلتم فاعدِلوا(٣) » « وإذا سألتموهُنّ مَتاعًا فاسألوهن مِن وراءِ حِجَاب(٤) » وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم. ومثله قول القائل : إذا قلت فاصْدُق، وإذا أحرمت فاغتسل؛ يعنى قبل الإحرام. والمعنى فى جميع ذلك : إذا أردت ذلك؛ فكذلك الاستعاذة. وقد تقدم هذا المعنى، وتقدّم القول فى الاستعاذة مستوفًى(٥).

قوله تعالى : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالإغواء والكفر، أى ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر؛ قاله سفيان. وقال مجاهد : لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصى. وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف

---

(١) الهمز : النخس والغمز، وكل شيء دفعته فقد همزته. والنفخ : الكبر؛ لأن المتكبر يتعاظم ويجمع نفسه ونفَسه فيحتاج أن ينفخ. والنفث : قال ابن الأثير : جاء تفسيره فى الحديث أنه الشعر؛ لأنه ينفث من الفم.
(٢) آية ١٠٣ سورة النساء. (٣) آية ١٥٢ سورة الأنعام. (٤) آية ٥٣ سورة الأحزاب.
(٥) راجع ج ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة.

سلطانه عليهم حين قال عدو الله إبليس لعنه الله «ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلَصين»(١) قال الله تعالى : «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين» .

قلت : قد بينا أن هـذا عامٌّ يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام بسلطانه ، وقد شَوّش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربّك ؟ حسبما تقدّم فى آخر الأعراف بيانه(٢) . ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ أى يطيعونه . يقال : تولّيته أى أطعته ، وتوليت عنه ، أى أعرضت عنه . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أى بالله ؛ قاله مجاهد والضحاك . وقيل : يرجع « به » إلى الشيطان ؛ قاله الربيع بن أنس والقُتَبِيّ . والمعنى : والذين هم من أجله مشركون . يقال : كفرت بهذه الكلمة ، أى من أجلها . وصار فلان بك عالمـا ، أى من أجلك . أى والذى تولّى الشيطانَ مشركون بالله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ قيل : المعنى بدلنا شريعة متقدّمة بشريعة مستأنفة ؛ قاله ابن بحر . مجاهد : أى رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها . وقال الجمهور : نسخنا آية بآية أشدّ منها عليهم . والنسخ والتبديل رفعُ الشئ مع وضع غيره مكانه . وقد تقدّم الكلام فى النسخ فى البقرة مستوفًى(٣) . ﴿ قَالُوا ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ أى كاذبٌ مختلِق ، وذلك لمـا رأوا من تبديل الحكم . فقال الله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله شرع الأحكام وتبـديل البعض بالبعض . وقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

---

(١) آية ٣٩ وما بعدها سورة الحجر . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٨ (٣) راجع جـ ٢ ص ٦١ وما بعدها طبعة ثانية .

﴿ الْقُـدُسِ ﴾ يعني جبريل، نزل بالقرآن كلِّه ناسخه ومنسوخه . وروى بإسناد صحيح عن عامر الشَّعْبِيّ قال : وُكِّل إسرافيل بمحمد صلى الله عليه وسلم ثلاث سـنين، فكان يأتيـه بالكلمة والكلمة، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن . وفي صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بسورة « الحمد » مَلَك لم ينزل إلى الأرض قطُّ . كما تقدّم في الفاتحة بيانه (١) . ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى من كلام ربك . ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بما فيه من الحجج والآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى وهو هدى . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ اختلف في اسم هـذا الذى قالوا إنما يعلّمه؛ فقيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، كان نصرانيا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أُمّيٌّ لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمي؛ فقال الله تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أى كيف يعلّمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذى لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلّم محمدا، فيقول : لا والله، بل هو يعلمني ويهديني . وقال ابن إسحاق : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم — فيما بلغني — كثيرا ما يجلس عند المَرْوَة إلى غلام نصراني يقال له جبر، عبدُ بني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يعـلم محمدا ما يأتى به إلا جبر النصراني . وقال عكرمة : اسمه يعيش عبدٌ لبني الحضرمي ، كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يلقّنه القرآن ؛ ذكره المـاوردي . وذكر الثعلبيّ عن عكرمة وقتـادة أنه غلام لبني المغيرة اسمه يعيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش : إنمـا يعلّمه بشر، فنزلت . المهدويّ عن عكرمة :

(١) راجع جـ ١ ص ١١٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

هو غلام لبنى عامر بن لؤى ، واسمه يعيش . وقال عبـد الله بن مسلم الحضرمىّ : كان لنـا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر. كذا ذكر المـاوردىّ والقشيرىّ والثعلبى، إلا أن الثعلبىّ قال: يقال لأحدهما نَبْت و يكنى أبا فُكَيْهة ، والآخر جبر، وكانا صَيْقَلَين(١) يعملان السيوف، وكانا يقرأان كتابا لهم . الثعلبى : يقرأان التوراة والإنجيل . المـاوردىّ والمهدوىّ : التوراة . فكان رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يمرّ بهما ويسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون : يتعـلّم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم . وقيل : عنَوْا سلمان الفارسى رضى الله عنه؛ قاله الضحاك . وقيل : نصرانيا بمكة آسمه بلعام، وكان غلاما يقرأ التوراة؛ قاله آبن عبـاس . وكان المشركون يرون رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه ويخرج من عنـده ، فقالوا : إنمـا يعلمه بلعام . وقال القُتَبِىّ : كان بمكة رجل نصرانى يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية، فربما قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الكفار : إنما يتعلّم محمـد منه ، فنزلت . وفى رواية أنه عدّاس غلام عتبة بن ربيعة . وقيل : عابس غلام حويطب بن عبـد العُزّى ويسار أبو فكيهة مولى آبن الحضرمى ، وكانا قد أسلما . والله أعلم .

قلت : والكل محتمل؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم فى أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله، وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنه يجوز أن يكونوا أَوْمَئُوا إلى هؤلاء جميعا، وزعموا أنهم يعلمونه .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعْدٌ؛ لأن سلمان إنما أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهذه الآية مكية. ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ الإلحاد: الميل؛ يقال : لحد وألحد، أى مال عن القصد . وقد تقدّم فى الأعراف(٢) . وقرأ حمزة «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء؛ أى لسان الذى يميلون إليه ويشيرون أعجمىّ . والعُجْمة : الإخفاء وضدّ البيان . ورجل أعجم وآمرأة عجماء ، أى لا يُفصح؛ ومنه عُجْم الذنب لآستتاره . والعجماء:

(١) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٨ طبعة اولى أو ثانية .

البهيمة؛ لأنها لا توضح عن نفسها . وأعجمت الكتاب أى أزلت عجمته . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتـكلم بكلامهم أعجميا . وقال الفَرّاء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة و إن كان من العرب ،والأعجمى أو العجمى الذى أصله من العجم . وقال أبو على :الأعجمى الذى لا يفصح ، ســواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمى المنسوب إلى العجم و إن كان فصيحا . وأراد باللســان القرآن ؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت : لسان؛ قال الشاعر :

لســـانُ الشر تهـديها إلينـا ＊ وخُنت وماحسبتك أن تخونا

يعنى باللسان القصيدة . ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أى أفصح ما يكون من العربية .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أى هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن . ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ هــذا جواب وصفهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالافتراء . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هذا مبالغة فى وصفهم بالكذب؛ أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم . و يقال : كذب فلان ولايقال إنه كاذب؛ لأنّ الفعل قد يكون لازما وقد لا يكون لازما . فأما النعت فيكون لازما ولهذا يقال : عصى آدمُ ربَّه فغوَى ، ولا يقال : إنه عاصٍ غاوٍ . فإذا قيل : كذب فلان فهو كاذب ، كان مبالغة فى الوصف بالكذب؛ قاله القشيرى .

قوله تعـالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

فيه إحدى وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « ولا تنقُضُوا الأيمان بعدَ تَوْكِيدِها » فكان مبالغة فى الوصف بالكذب؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم . أى من كفر من بعد إيمانه وآرتد فعليه غضب الله . قال الكلبي : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح ومِقْيَس بن صُبابة وعبد الله بن خَطَل[1]، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم . ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ . وقال الزجاج : « من كفر بالله مِن بعد إيمانِهِ » بدل ممن يفترى الكذب؛ أى إنمـا يفترى الكذب من كفر بالله من بعـد إيمانه؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلّقه بما قبله . وقال الأخفش : « مَن » ابتداء وخبره محذوف، اكتُفِى منه بخبر « من » الثانية؛ كقولك : مَن يأتنا مَن يحسن نكرمه .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ هذه الآية نزلت فى عمّار بن ياسر، فى قول أهل التفسير؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمّه سُمَيّة وصُهيبا وبلالا وخبّابا وسالمـا فعذّبوهم، ورُبطت سُمَيـة بين بعيرين ووُجِئ قُبُلُها بحربة ، وقيل لها إنك أسلمت من أجل الرجال؛ فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين فى الإسلام . وأما عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكْرَهًا ، فشكا ذلك إلى رســول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وســلم : " كيف تجد قلبك " ؟ قال: مطمئن بالإيمان . فقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " فإن عادوا فَعُـدْ " . وروى منصور بن المُعْتَمِر عن مجاهد قال : أول شهيدة فى الإسلام أم عمار، قتلها أبو جهل، وأول

(١) فى الأصول : « عبد الله بن أنس بن خطل » وهو تحريف .

شهيد من الرجال مِهْجَع مولى عمر . وروى منصور أيضا عن مجاهـد قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم ، وأبو بكر ، وبلال ، وخَبّاب ، وصهيب ، وعَمّـار ، وسُمَيّة أمّ عمار . فأما رسول الله صلى الله عليه وسـلم فمنعه أبو طالب ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراع الحديد ، ثم صَهَروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس ، فلما كان من العشيّ أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يَسُبُّهم ويوبخهم ، وأتى سُمَيّة فجعل يسبّها ويَرْفُث(١) ، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها ؛ رضي الله عنها . قال : وقال الآخرون ما سُئلوا ؛ إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يعذبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أَحَدٌ أحد ؛ حتى ملّوه ، ثم كتّفوه وجعلوا في عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَيْ(٢) مكة حتى ملّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذي قالوا — لولا أن الله تداركنا — غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه . والصحيح أن أبابكر اشترى بلالا فأعتقه . وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أن هاجروا إلينا ، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينـة حتى أدركتهم قريش بالطريق ، ففتنوهم فكفروا مكرهين ، ففيهـم نزلت هذه الآية . ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق . وروى الترمذيّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما خُيِّر عمّار بين أمرين إلا اختار أرشـدهما " هـذا حديث حسن غريب . وروى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إن الجنـة تشتاق إلى ثلاثة عليّ وعمّـار وسلمان بن ربيعـة " . قال الترمذيّ : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثـــة — لمـا سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عنـد الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلّها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب

---

(١) الرفث : الفحش من القول .   (٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ؛ وهما أبو قبيس والأحمر .

عليه حكم؛ و به جاء الأثر المشهور عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما آستكرِهوا عليه" الحديث. والخبر و إن لم يصح سنده فإن معناه صحيح بآتفاق من العلماء؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربيّ . وذكر أبو محمـد عبد الحق أن إسناده صحيح ، قال : وقـد ذكره أبو بكر الأصيلى فى الفوائد وابن المنذر فى كتاب الإقناع .

الرابعـــة — أجمع أهل العلم على أن من أكرِه على الكفر حتى خَشِىَ على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبُه مطمئن بالإيمان، ولا تَبِين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعيّ؛ غير محمـد بن الحسن فإنه قال : إذا أظهر الشرك كان مرتدا فى الظاهر، وفيما بينه و بين الله تعالى على الإســلام، وتَبِين منه آمرأته ولا يصلَّى عليه إن مات، ولا يَرِث أباه إن مات مسلما . وهذا قول يرده الكتاب والسنة، قال الله تعالى : «إِلَّا مَن أُكرِه» الآية. وقال : «إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»(١) وقال : «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ»(٢) الآية. وقال: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ»(٢) الآية . فعـذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاريّ .

الخامســـة — ذهبت طائفـة من العلمـاء إلى أن الرخصة إنما جاءت فى القول، وأما فى الفعل فلا رخصة فيه ، مثل أن يكرهوا على السجود لغـير الله أو الصلاة لغير القبلة ، أو قتل مســلم أو ضربه أو أكل ماله ، أو الزنى وشرب الخمـر وأكل الربا ؛ يروى هذا عن الحسن البصريّ ، رضى الله عنه . وهو قول الأوزاعيّ وسُحْنون من علمائنا . وقال محمد بن الحسن : إذا قيل للأسير : اُسجد لهذا الصنم و إلا قتلتك . فقال : إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد و يكون نيتـه لله تعالى ، و إن كان لغير القبلة فلا يسجد و إن قتلوه . والصحيح أنه يسجد و إن كان لغـير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذ ؛ ففى الصحيح عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان

(١) آية ٢٨ سورة آل عمران جـ ٤ ص ٥٧ (٢) آية ٩٧ سورة النساء جـ ٥ ص ٣٤٥

وجهه، قال : وفيــه نزلت « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ »(١) في رواية : ويُوتِر عليها ، غير أنه لا يصلّي عليها المكتوبة . فإذا كان هــذا مباحا في السفر في حالة الأمن لتعب النزول عن الدابة للتنفل فكيف بهذا . واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يَدرأ عنّي سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلّما به . فقصَر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن يجعل للكلام مثالا وهو يريد أن الفعل في حكمه . وقالت طائفة : الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسرّ الإيمان . روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول؛ وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار في رمضان، أن الإثم عنه مرفوع.

السادســة — أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحلّ له أن يَفْدي نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

واختلف في الزنى ، فقال مُطَرِّف وأَصْبَغ وابن عبد الحكم وابن الماجِشُون : لا يفعل أحد ذلك، وإن قُتل لم يفعله ، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحدّ ؛ وبه قال أبو ثَوْر والحسن. قال ابن العربي : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حدّ عليه، خلافا لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنها شهوة خُلقية لا يتصوّر الإكراه عليها ، وغفل عن السبب في باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك، وهو الذي أسقط حكمه ، وإنما يجب الحدّ على شهوة بعث عليها سبب اختياري، فقاس الشيء على ضده، فلم يحل بصواب من عنده . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد في أحكامه : اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى؛ فقال بعضهم : عليه الحدّ؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره. وقال بعضهم: لا حدّ عليه. قال ابن خُوَيْزِ منداد: وهو الصحيح. وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حُدّ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحدّ، ولكن أستحسن ألا يحدّ . وخالفه صاحباه فقالا : لا حدّ عليه في الوجهين ، ولم يراعوا الانتشار،

(١) آية ١١٥ سورة البقرة، ج ٢ ص ٧٩ طبعة ثانية .

وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر . قال ابن المنذر : لا حدّ عليه، ولا فرق بين السلطان فى ذلك وغير السلطان .

السابعـــة — اختلف العلمـاء فى طلاق المكره وعتاقـه ؛ فقال الشافعىّ وأصحـابه : لا يلزمه شىء . وذكر ابن وهب عن عمر وعلىّ وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا . وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عبـاس وعطاء وطاوس والحسن وشريح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعى وأحمد و إسحاق وأبى ثور . وأجازت طائفة طلاقه ؛ روى ذلك عن الشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ وأبى قلابة والزهرى وقتادة، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة : طلاق المكره يلزم؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا، وليس وجوده بشرط فى الطلاق كالهازل . وهذا قياس باطل؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راضٍ به، والمكره غير راض ولا نية له فى الطلاق، وقـد قال عليه السلام : " إنمـا الأعمال بالنيات " . وفى البخارى : وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق : ليس بشىء؛ و به قال ابن عمر وابن الزبير والشعبى والحسن . وقال الشعبى : إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق، و إن أكرهه السلطان فهـو طلاق . وفسّره ابن عيينة فقال : إن اللّص يقْدِم على قتله والسلطان لا يقتله .

الثامنـــة — وأما بيع المكره والمضغوط فله حالتان . الأولى — أن يبيع ماله فى حق وجب عليه؛ فذلك ماضٍ سائغٌ لا رجوع فيـه عند الفقهاء؛ لأنه يلزمه أداء الحـق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فلزمه . وأما بيع المكره ظلما أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن، و يتبع المشترى بالثمن ذلك الظالم؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشترى غير عالم بظلمه . قال مُطَرِّف : ومن كان من المشترين يعـلم حال المكره فإنه ضامن لمـا ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، وكلمـا أحدث المبتاع فى ذلك من عتـق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره، وله أخذ متاعه . قال سُحْنون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجَوْر لا يجوز . وقال الأَبْهَرِىّ : إنه إجماع .

التاســـعة — وأما نكاح المكره ، فقال سُحْنون : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة، وقالوا : لا يجوز المقام عليه، لأنه لم ينعقد . قال محمـد بن سُحنون : وأجاز أهل العراق نكاح المكره، وقالوا : لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصداقُ مثلها ألف درهم ، أن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل . قال محمـد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه . وقولهم خلاف السنة الثابتـة فى حديث خَنْساء بنت خِذام الأنصارية، ولأمره صلى الله عليـه وسلم بالاستئمار فى أبضاعهن، وقـد تقدّم، فلا معنى لقولهم .

العاشـــرة — فإن وطئها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمّى من الصداق ودُرِئ عنه الحد. وإن قال : وطئتها على غير رضًا منى بالنكاح فعليه الحـد والصداق المسمّى ؛ لأنه مدّعٍ لإبطال الصداق المسمى، وتُحَدّ المرأة إن أقدمت وهى عالمـة أنه مكره على النكاح . وأما المكرهـة على النكاح وعلى الوطء فلا حدّ عليها ولهـا الصداق، ويحدّ الواطئ؛ فآعلمه . قاله سحنون .

الحادية عشرة — إذا استكرهت المرأة على الزنى فلا حدّ عليها، لقوله « إلا من أكره » وقوله عليه السلام : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . ولقول الله تعالى : « فإنّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنّ غفور رحيم »(١) يريد الفتيات . وبهذا المعنى حكم عمر فى الوليدة التى استكرهها العبد فلم يحدّها . والعلماء متفقون على أنه لا حدّ على امرأة مستكرَهة . وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملا وليس لها زوج فقالت آستكرِهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحدّ، إلا أن تكون لها بيّنة أو جاءت تَدْمى على أنها أُوتيت(٢)، أوما أشبه ذلك . واحتج بحديث عمـر بن الخطاب أنه قال : الرجم فى كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البينة ، أوكان الحَبَل أو الاعتراف . قال ابن المنـذر : وبالقول الأوّل أقـــول .

(١) آية ٣٣ سورة النور . (٢) عبارة الموطأ : « أو جاءت تدمى إن كانت بكرا أو استغاثت حتى أتيت وعلى ذلك ... » الخ .

الثانية عشرة — واختلفوا فى وجوب الصداق للستكرهة ؛ فقال عطاء والزُّهْرِىّ : لهـا صداق مثلها ؛ وهو قول مالك والشافعىّ وأحمد و إسحاق وأبى ثور . وقال الثَّوْرِىّ : إذا أقيم الحـدّ على الذى زنى بها بطل الصداق . وروى ذلك عن الشعبى ، و به قال أصحاب مالك وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : القول الأوّل صحيح .

الثالثة عشرة — إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لمـا لم يَحِلّ أسلمها ، ولم يقتل نفسه دونها ولا ٱحتمل أذية فى تخليصها . والأصل فى ذلك ما خَرّجه البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هاجر إبراهيمُ عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلىّ فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلّى فقالت اللهـم إن كنتُ آمنتُ بك و برسولك فلا تسلّط على هـذا الكافر فغُطّ حتى رَكَض برجله"(١) . ودل هذا الحديث أيضا على أن سارة لمـا لم يكن عليها ملامة، فكذلك لا يكون على المستكرهة ملامة، ولا حدّ فيما هو أكبر من الخلوة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما يمين المكره فغير لازمة عنـد مالك والشافعى وأبى ثور وأكثر العلماء . قال ابن المـاجِشون : وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصيـة إذا أكره على اليمين؛ وقاله أَصْبَغ . وقال مطرّف : إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس فى فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، و إن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالى رجلا فاسقا فيكرهه أن يحلف بالطلاق لايشرب خمرا، أولا يفسق ولا يَغُشّ فى عمله ،أو الوالد يحلّف ولده تأديبا له فإن اليمين تلزم ؛ و إن كان المكره قد أخطأ فيما يكلّف من ذلك . وقال به ابن حبيب . وقال أبو حنيفة ومن اتبعـه من الكوفيين : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنِث، قالوا : لأن المكره له أن يورِّىَ فى يمينه كلها، فلما لم يورّ ولا ذهبت نيّته إلى خلاف ما أكره عليـه فقد قصد إلى اليمين . احتج الأوّلون بأن قالوا : إذا أكره عليها فنيّته مخالفـة لقوله ؛ لأنه كاره لمـا حلف عليه .

---

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصرا، فراجعه فى شرح القسطلانى، كتاب البيوع ج ٤ ص ١٢٢ طبعة بولاق .

الخامسة عشرة — قال ابن العربى : ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا فى الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا؛ وهــذه مسئلة عراقية سرت لنا منهم، لا كانت هــذه المسئلة ولا كانوا ! وأى فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين فى أنها لا تلزم و بين الحنث فى أنه لا يقع ! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم، ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمة فى الدراية .

السادسة عشرة — إذا أكره الرجل على أن يحلف و إلا أخذ له مال كأصحاب المَكْس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء، فقال مالك : لا تَقِيّة له فى ذلك، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا ماله . وقال ابن الماجشون : لا يحنث و إن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القاسم بقول مطرِّف، و رواه عن مالك؛ وقاله ابن عبد الحكم وأَصْبَغ .

قلت : قول ابن الماجشون صحيح؛ لأن المدافعة عن المال كالمدافعة عن النفس؛ وهو قول الحسن وقتادة وسيأتى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" وقال: "كلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" . و روى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى؟ قال : " فلا تُعْطِه مالك " . قال : أرأيت إن قاتلنى؟ قال : " قاتله " قال : أرأيت إن قتلنى؟ قال : " فأنت شهيد " قال : أرأيت إن قتلته؟ قال : "هو فى النار" خرجه مسلم . وقد مضى الكلام فيه . وقال مطرف وابن الماجشون : و إن بدر الحالف بيمينه للوالى الظالم قبل أن يَسألها ليَذُبَّ بها عما خاف عليه من ماله و بدنه فحلف له فإنها تلزمه . وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ . وقال أيضا ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق ألبتّة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، و إنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع باليمين غلبة خوف و رجاء النجاة من ظلمه فقد دخل فى الإكراه ولا شىء عليه، و إن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث .

السابعة عشرة — قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض؛ فإن فى المعاريض [1] لمندوحةً عن الكذب . ومتى لم يكن

(١) المعاريض : التورية بالشىء عن الشىء . وأعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه : كلام يشبه بعضه بعضا فى المعانى .

كذلك كان كافرا، لأن المعـاريض لا سلطان للإكراه عليها . مثاله — أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللاهى ؛ فيزيد الياء . وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبيّ فيقول هو كافر بالنبيّ، مشددا وهو المكان المرتفع من الأرض(١) . ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة، فيقصد أحدهما بقلبه ويبرأ من الكفر ويبرأ من إثمه . فإن قيل له : أكفر بالنبيء (مهموزا) فيقول هو كافر بالنبيء يريد بالمخبر ، أى مخبر كان كطليحة(٢) ومُسَيْلِمة الكذاب . أو يريد به النبيء الذى قال فيه الشاعر :

فأصبح رَتْماً(٣) دُقاق الحَصَى * مكان النبيءِ من الكاثب

الثامنة عشرة — أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن آختار الرخصة . وآختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له ؛ فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدّة فى ذلك وآختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة، ذكره ابن حبيب وسُحنون . وذكر ابن سُحنون عن أهل العراق أنه إذا تهدّد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير؛ فإن لم يفعل حتى قتل خِفنا أن يكون آثما لأنه كالمضطر . وروى خَبّاب بن الأَرَتّ قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بُرْدَةً له فى ظل الكعبة فقلت : أَلَا تَسْتَنْصِرْ لنا أَلَا تدعو لنا ؟ فقال : " قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يَصُدّه ذلك عن دينه والله لَيَتِمَّنّ هذا الأمر(٤) حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حَضَرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون " . فوَصْفُه صلى الله عليه وسلم هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم والصبر على المكروه فى ذات الله ، وأنهم لم يكفروا فى الظاهر وتبطّنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم . وهذه حجة مَن آثر الضرب

(١) ومنه الحديث : « لا تصلوا على النبيّ » أى على الأرض المرتفعة المُحْدَوْدِبَة . (٢) هو طليحة آبن خويلد بن نوفل الأسدى، ارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وآدعى النبوّة ثم أسلم . (٣) الرتم (بالتاء والثاء): الدّق والكسر . ويريد بالنبيء المكان المرتفع . والكاثب : الرمل المجتمع . (٤) يريد الاسلام .

والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الأخدود»[(١)] إن شاء الله تعالى . وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البَغْدادِيّ قال : حدثنا شريح بن يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيونا لمسيلَمة أخذوا رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فذهبوا بهما إلى مسيلمة، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال نعم . فخلّى عنه . وقال للآخر : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : وتشهد أني رسول الله ؟ قال : أنا أصمّ لا أسمع ؛ فقدّمه وضرب عنقه . فجاء هـذا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ ! قال : "وما أهلكك"؟ فذكر الحديث، قال : "أمّا صاحبك فأخذ بالثقة[(٢)] وأما أنت فأخذت بالرخصة . على ما أنت عليه الساعة" ؟ قال : أشهد أنك رسول الله . قال : "أنت على ما أنت عليه" . الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدله على رجل أو مال رجل؛ فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفر يمينه؛ وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه . وقد تقدّم ما للعلماء في هـذا . وذكر موسى بن معاوية أن أبا سعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه، ولا يعلم له موضعا ؛ قال : فحلف له ابن أشرس؛ وابن أشرس يومئـذ قد علم موضعه وآواه، فحلفه بالطلاق ثلاثا، فحلف له ابن أشرس، ثم قال لامرأته : اعتزلي فاعتزلته؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان، فأخبره بالخبر؛ فقال له البهلول: قال مالك إنك حانث . فقـال ابن أشرس : وأنا سمعت مالكا يقول ذلك ، و إنمـا أردت الرخصة، أوكلام هـذا معناه؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصري إنه لا حنث عليك . قال : فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن . وذكر عبد الملك بن حبيب قال : حدّثني معبـد عن المسيب بن شريك عن أبي شيبة قال : سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلف ليَقيه بيمينه ؟ فقال نعم ؛ وَلأن أحلف سبعين يمينا

---

(١) هي سورة البروج رقم ٨٥		(٢) عبارة الدر المنثور : « أما صاحبك فمضى على إيمانه » .

وأحنث أحبّ إلىّ أن أدلّ على مســلم . وقال إدريس بن يحيي كان الوليـد بن عبـد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار، قال : فجلس رجل منهم فى حَلْقة رجاء بن حَيْوة فسمع بعضهم يقع فى الوليد ، فرفع ذلك إليه فقال : يا رجاء ! أُذْكَرُ بالسوء فى مجلسك ولم تغيّر ! فقــال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ؛ فقــال له الوليــد : قل : آلله الذى لا إلٰه إلا هو ، قال : الله الذى لا إلٰه إلا هو ؛ فأمر الوليــد بالجاسوس فضربه سبعين سوطــا ، فكان يلقى رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يســتقى المطر، وسبعون ســوطا فى ظهرى ! فيقول رجاء : سبعون سوطا فى ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

التاسعة عشرة — واختلف العلماء فى حَدّ الإكراه؛ فروى عن عمــر بن الخطاب رضى عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته . وقال ابن مسعود : ما كلام يدرأ عنى سوطين إلا كنتُ متكلمــا به . وقال الحسن : التقية جائزة للؤمن إلى يوم القيامة؛ إلا أن الله تبارك وتعــالى ليس يجعل فى القتل تقيّة . وقال النَّخَعِىّ : القيد إكراه، والسجن إكراه . وهــذا قول مالك ، إلا أنه قال : والوعيد المخوّف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى وإنفاذه لمــا يتوعّد به ، وليس عند مالك وأصحابه فى الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب ، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكره . وإكراه السلطان وغيره عنــد مالك إكراه . وتنــاقض الكوفيون فلم يجعــلوا السجن والقيد إكراها على شرب الخمــر وأكل الميتة؛ لأنه يخاف منهما التلف . وجعلوهما إكراها فى إقراره لفلان عنــدى ألف درهم . قال ابن سحنون : وفى إجماعهم على أن الألم والوجع الشــديد إكراه ما يدل على أن الإكراه يكون من غير تلف نفس . وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد أوسجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنث عليه ؛ وهو قول الشافعى وأحمد وأبى ثَوْر وأكثر العلمــاء .

الموفيــة عشرين — ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعاريض لمندوحةً عن الكذب. وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِىّ أنه قال : لا بأس إذا بلغ الرجلَ عنــك شىء أن تقول :

والله، إن الله يعلم ما قلتُ فيك من ذلك من شيء . قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذى قلت ، وهو فى ظاهره انتفاء من القول ، ولا حنث على من قال ذلك فى يمينه ولا كذب عليــه فى كلامه . وقال النخعيّ : كان لهم كلام من ألغاز الأيمـان يدرءون به عن أنفسهم ، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث . قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك المعاريض من الكلام، إذا كان ذلك فى غير مكر ولا خديعة فى حق . وقال الأعمش : كان إبراهيم النخعى إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس فى مسجد بيته وقال لجاريته : قولى له هو والله فى المسجد . وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يجيز للرجل من البَعْث إذا عُرِضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أهتدى إلا ما سدّد لى غيرى، ولا أركب إلا ما حملنى غيرى؛ ونحو هذا من الكلام . قال عبد الملك : يعنى بقوله « غيرى » اللهَ تعالى ، هو مسدّده وهو يحمله ؛ فلم يكونوا يرون على الرجل فى هذا حنثا فى يمينه، ولا كذبا فى كلامه ، وكانوا يكرهون أن يقال هــذا فى خديعة وظلم وجُحدان[(١)] حق فمن اجترأ وفعل أثم فى خديعته ولم تجب عليــه كفارة فى يمينه .

الحادية والعشرون ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أى وسّــعه لقبول الكفر، ولا يقــدر أحد على ذلك إلا الله؛ فهو يرد على القدرية . و «صدرا» نصب على المفعول . ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

---

(١) هذا المصدر لم تورده كتب اللغة فى هذه المـادة .

قوله تعالى: ﴿ ذٰلِكَ ﴾ أى ذلك الغضب. ﴿ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى اختاروها على الاخرة. ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ « أنّ » فى موضع خفض عطفا على « بأنهم ». ﴿ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى عن فهم المواعظ. ﴿ وَسَمْعِهِمْ ﴾ عن كلام الله تعالى. ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ عن النظر فى الآيات. ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ عما يراد بهم. ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدّم (١).

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ هذا كله فى عمّار. والمعنى وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحاس. وقال قتادة: نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم، وقد تقدّم ذكرهم فى هذه السورة (٢). وقيل: نزلت فى ابن أبى سَرْح، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان فأجاره النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره النسائى عن عكرمة عن ابن عباس قال: فى سورة النحل « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره — إلى قوله — ولهم عذاب عظيم » فنسخ، واستثنى من ذلك فقال « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كان على مصر، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح؛ فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

(١) راجع ج ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ص ١٨٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ أى إن الله غفور رحيم فى ذلك . أو ذَكِّرهم « يوم تأتى كلُّ نفسٍ تجادِل عن نفسها » أى تخاصم وتحاجّ عن نفسها ؛ جاء فى الخبر أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى ! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يسأل فى أمته . وفى حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خوّفنا هيّجنا حدّثنا نبّهنا . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، والذى نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تاراتٌ لا يُهمّك إلا نفسك ، وإن لجهنم زفرة لا يبقى مَلَك مقرّب ولا نبيّ منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل لَيُدْلِى بالخُلّة فيقول : يارب ، أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ! قال : يا كعب ، أين تجد ذلك فى كتاب الله؟ قال : قوله تعـالى : « يوم تأتِى كلُّ نفسٍ تجادِل عن نفسِها وتُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما عمِلت وهم لا يظلمون » . وقال ابن عباس فى هـذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد ؛ فتقول الروح : ربِّ ، الروح منك أنت خلقته ، لم تكن لى يد أَبْطُش بها ، ولا رجل أمشى بهـا ، ولا عين أبصر بها ، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به ، حتى جئت فدخلت فى هـذا الجسد ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجنى ؛ فيقول الجسد : ربّ ، أنت خلقتنى بيدك فكنتُ كالخشبة ، ليس لى يد أبطش بها ، ولا قدم أسعى به ، ولا بصر أبصر به ، ولا سمع أسمع به ، فجاء هذا كشعاع النور ، فبه نطق لسانى ، وبه أبصرت عينى ، وبه مشت رجلى ، وبه سمعت أذنى ، فضعِّف عليـه أنواع العذاب ونجنى منه . قال : فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومُقْعدًا دخلا بستانا فيـه ثمـار ، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمُقْعد لا ينالها ، فنادى المقعدُ الأعمى ايتنى فاحملنى آكل وأطعمك ، فدنا منـه فحمله ، فأصابوا من الثمرة ؛ فعلى من يكون العذاب ؟ قال : عليكما جميعا العذاب ؛ ذكره الثعلبى .

قوله تعـالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشركي قريش وقال : " اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأتك على مُضَرَ واجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسف " . فابتُلُوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجّه إليهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم طعاما ففرّق فيهم . ﴿ كَانَتْ آمِنَـةً ﴾ لا يُهاج أهلها . ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر؛ نظيره « يُجْبَى إِلَيْـهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ »(١) الآية . ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ الأنعم : جمع النِّعمة؛ كالأَشُـدّ جمع الشِّـدة . وقيل : جمع نُعْمَى؛ مثـل بؤسى وأبؤس . وهـذا الكفران تكذيب بمحمـد صلى الله عليـه وسلم . ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ ﴾ أى اذاق أهلها . ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحـال ما هو كاللباس . ﴿ بِمَـا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أى من الكفر والمعاصي . وقرأه حفص ابن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس « والخوفَ » نصبا بإيقاع أذاقها عليه، عطفا على « لباسَ الجوع » وأذاقها الخوف . وهو بعث النبيّ صلى الله عليـه وسلم سراياه التى كانت تُطيف بهـم . وأصـل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء . وضرب مكة مثلا لغـيرها من البلاد ؛ أى أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لمّـا كفر أهلها أصابهـم القَحْط فكيف بغيرها من القرى . وقـد قيل : إنها المدينة، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ثم كفرت بأنْعُم الله لقتل عثمان ابن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله صلى الله عليه وسـلم من الفتن . وهذا قول عائشة وحفصة زَوْجَيِ النبيّ صلى الله عليـه وسلم . وقيل : إنه مَثَـل مضروب بأيّ قرية كانت على هذه الصفة من سائر القُرى .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

(١) آية ٥٧ سورة القصص .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ هذا يدل على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو الجوع الذى وقـع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها .

قوله تعـالى : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم . وقيل : الخطاب للمشركين ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رِقّةً عليهم ، وذلك أنهم لما ٱبتُلوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم المِيرَة بأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرقة والجيفة والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز ، وهو الوَبَر يعالج بالدّم . ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جُهِدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان . وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرَّحِم والعفو ، و إن قومك قد هلكوا ؛ فٱدع الله لهم . فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون .

قوله تعـالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

تقدم فى « البقرة » القولُ فيها مستوفًى[1] .

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية .

فيـــه مسألتـان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ ما هنا مصدرية ، أى لوصف . وقيل : اللام لام سبب وأَجْل ، أى لا تقول لأجل وصفكم « الكذب » بنزع الخافض ، أى لما تصف ألسنتكم من الكذب . وقرئ «الكُذُبُ» بضم الكاف والذال والباء ، نعتا للألسنة ، وقد تقدّم[(١)]. وقرأ الحسن هنا خاصّةً « الكَذِبِ » بفتح الكاف وخفض الذال والباء ، نعتا «لما» ؛ التقدير : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبِ . وقيل على البدل من ما ؛ أى ولا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم هـذا حلال وهذا حرام لِتفتروا على اللهِ الكذب . الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلوا ما فى بطون الأنعام وإن كان ميتة . فقوله « هذا حلال » إشارة إلى ميتة بطون الأنعـام ، وكل ما أحلّوه . وقوله « وهـذا حرام » إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرّموه . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب . وقال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل . وقيل : لهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب أليم .

الثانيـــة — أسند الدّارِمِىّ أبو محمـد فى مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قطّ يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون . وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من فُتْيَا الناس أن يقولوا هـذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا إيّاكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هـذا . ومعنى هـذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرّح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعـالى يخـبر بذلك عنه . وما يؤدى إليـه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إنى أكره [كذا] . وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى . فإن قيـل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت علىّ حرام إنها حرام ويكون ثلاثا . فالجـواب أن مالكا لمّا سمع علىّ بن أبى طالب يقول إنها حرام اقتدى به . وقد يقوى الدليل على التحريم

---

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء .

عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة(١)، وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله؛ فذلك حرام لا يصلح في الأموال الرّبوية وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك .

قوله تعـالى : وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ بيّن أن الأنعـام والحرث حلال لهـذه الأمة، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء . ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي في سورة الأنعام(٢). ﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي بتحريم ماحرمنا عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمنا عليهم تلك الأشـياء عقوبة لهم؛ كما تقدم في النساء(٣) .

قوله تعـالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوء ﴾ أي الشرك؛ قاله ابن عباس . وقد تقدم في النساء(٤) .

قوله تعـالى : إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ دعا عليه السلام مشركي العرب إلى مِلّة إبراهيم؛ إذ كان أباهم وباني البيت الذي به عِزّهم؛ والأمّة : الرجل الجامع للخـير، وقد تقـدم محامله(٥) . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغني أن عبـد الله بن مسعود

(١) هي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٦ ص ١٢ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٥ ص ٩٢ (٥) راجع جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية .

قال : يرحم الله معاذا ! كان أُمّة قانتا . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام . فقال ابن مسعود : إن الأمّة الذى يعلّم الناس الخير ، و إن القانت هو المطيع . وقد تقدم القنوت فى البقرة[(١)] و « حنيفا » فى الأنعام[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا ﴾ أى كان شاكرا . ﴿ لِأَنْعُمِهِ ﴾ الأَنْعُم جمع نِعْمة ، وقد تقدم . ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أى اختاره . ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قيل : الولد الطيب . وقيل الثناء الحسن . وقيل : النبوّة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد عليه السلام فى التشهد . وقيل : إنه ليس أهل دين إلّا وهم يتولّونه . وقيل : بقاء ضيافته و زيارة قبره . وكل ذلك أعطاه الله و زاده صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . « مِن » بمعنى مع ، أى مع الصالحين ؛ لأنه كان فى الدنيا أيضا مع الصالحين . وقد تقدم هذا فى البقرة[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قال ابن عمر : أمِر باتباعه فى مناسك الحج كما علّم إبراهيمَ جبريل عليهما السلام . وقال الطبرى : أمِر بٱتباعه فى التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام . وقيل : أمِر باتباعه فى جميع ملته إلا ما أمر بتركه ؛ قاله بعض أصحاب الشافعى على ما حكاه الماوردى . والصحيح الاتباع فى عقائد الشرع دون الفروع ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا[(٤)] » .

---

(١) راجع المسألة الخامسة جـ ٢ ص ٨٦ و جـ ٣ ص ٢١٣ (٢) ذكر فى الأنعام فى موضعين ، (جـ ٧ ص ٢٨ ، ١٥٢) ولم يذكر المؤلف اشتقاقه فيهما ، و إنما تكلم عليه فى سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٩ فراجعه .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

مسئلة : فيهذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول — لما تقدم في الأصول — والعمل به ، ولا دَرَك (١) على الفاضل في ذلك ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام ، وقد أمر بالاقتداء بهم فقال : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ (٢) » . وقال هنا : « ثم أوحينا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ » .

قوله تعالى : إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أى لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه ، بل كان سَمْحا لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظا على اليهود في رفض الأعمال وترك التبسط في المعاش بسبب اختلافهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوما واحدا . فقالوا : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، فاختاروا الأحد . وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛ فقالت طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فناظروه أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : " دعهم وما اختاروا لأنفسهم " . وقيل : إن الله تعالى لم يعيّنه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهادهم في تعيينه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق . وعينت النصارى يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق . فألزم كلّ منهم ما أداه إليه اجتهاده . وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يَكِلَهم إلى اجتهادهم فضلا منه ونعمة ، فكانت خيرَ الأمم أمة . روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذى

(١) الدرك : التَّبِعة .　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

اختلفوا فيه فهدانا الله له — قال يوم الجمعة — فاليوم لنا وغدا لليهود و بعد غد للنصارى". فقوله : " فهذا يومهم الذى اختلفوا فيـه " يقوّى قول من قال : إنه لم يعيّن لهم ؛ فإنه لو عيّن لهم وعاندوا لمـا قيل « اختلفوا » . وإنمـا كان ينبغى أن يقال نخالفوا فيـه وعاندوا . وممـا يقوّيه أيضا قوله عليه السلام : " أضل الله عن الجمعة مَن كان قبلنا " . وهـذا نص فى المعنى . وقـد جاء فى بعض طرقه " فهذا يومهم الذى فرض الله عليهم اختلفوا فيه " . وهو حجـة للقول الأول . وقد روى : " إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تَبَعٌ " .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ يريد فى يوم الجمعة كما بيناه؛ اختلفوا على نبيّهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُمِر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود .

قوله تعـالى : ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه مسألة واحدة — هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمَره أن يدعوَ إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهى محكمـة فى جهة العصاة من الموحِّدين، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجى إيمانه بها دون قتال فهى فيه محكمة . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت فى شأن التمثيل بحمزة فى يوم أُحُد، ووقع ذلك فى صحيح البخارى وفى كتاب السِّيَر. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بمـا قبلها من المكى اتصالا حسنا ؛ لأنهـا تتدرّج الرتبُ من الذى يُدْعَى ويُوعَظ ، إلى الذى يجَادل ، إلى الذى يجازَى على فعــله . ولكن ما روى الجمهور أثبت . روى الدّارَقُطْنِيّ عن ٱبن عبـاس قال : لمـا ٱنصرف المشركون عن قتلى أُحُد ٱنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظراً ساءه، رأى حمــزة قد شُقّ بطنه ، وٱصطُلِم أنفه، وجُدِعت أذناه ، فقــال : "لولا أن يحزن النساء أو تكون ســنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلنّ مكانه بسبعين رجلا" ثم دعا ببردة وغطّى بهـا وجهه، فخرجت رجلاه فغطى رســول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجليــه من الإذْخَر، ثم قدّمه فكبر عليه عشرا، ثم جعل يجـاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه، حتى صلّى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية : « ٱدْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسَنة — إلى قوله — وٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ بالله » فصبر رسول صلى الله عليه وســلم ولم يُمَثّل بأحد . خرجه إسمـاعيل بن إسحـاق من حديث أبى هريرة، وحديثُ ٱبن عبـاس أكمل . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : إنمـا نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لايتــعدّاه الى غيره . وحكاه المـاوردى عن ٱبن سيرين ومجاهد .

الثانيـــة — وٱختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل فى أخذ مال ثم ٱئتمن الظالمُ المظلومَ على مال، هل يجوز له خيانته فى القدر الذى ظلمه؛ فقالت فرقة : له ذلك؛ منهم ٱبن سيرين وإبراهيم النخعِيّ وسفيان ومجاهد ؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها . وقال مالك وفرقة معه : لا يجوز له ذلك؛ وٱحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أدّ الأمانة إلى من ٱئتمنك ولا تخن من خانك" . رواه الدار قطنى وقد تقدّم هــذا فى « البقرة » مســتوفًى (١) .

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ طبعة ثانية .

ووقع فى مسند آبن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد فى رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الاخر من زوجة الثانى بأن تركها عنـده وسافر ؛ فاستشار ذلك الرجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى الأمر فقال له : " أدّ الأمانة إلى من آئتمنك ولا تخن من خانك " . وعلى هـذا يتقوى قول مالك فى أمر المـال؛ لأن الخيانة لاحقة فى ذلك ، وهى رذيلة لا انفكاك عنها، فينبغى أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مالٍ لم يأتمنه عليه فيُشبه أن ذلك جائز وكأن الله حكم له ؛ كما لو تمكن الاخذ بالحكم من الحـاكم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة ، نسختها « واصبر وما صبرك إلا بالله » .

الثالثــة — فى هـذه الاية دليل على جواز التماثل فى القصاص؛ فمن قتل بحديدة قُتل بها . ومن قتل بحجر قُتل به، ولا يتعدّى قدر الواجب، وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفًى(١)، والحمد لله .

الرابعــة — سمّى الله تعالى الإذايات فى هـذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هى الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوى اللفظان وتتناسب دباجة القول، وهذا بعكس قوله : «ومكروا ومكرالله» وقوله : «الله يستهزئ بهم» فإن الثانى هنا هو المجاز والأول هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية.

قوله تعـالى : وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فيه مسئلة واحدة — قال آبن زيد : هى منسوخة بالقتال . وجمهور النـاس على أنها مُحْكَمة . أى اصبر بالعفو عن المعـاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على قتلى أحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله . ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ ﴾ ضَيْق جمع ضيقة؛ قال الشاعر :

* كَشَفَ الضَّيقة عنا وفَسَحْ(٢) *

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ طبعة ثانية . (٢) هذا عجز بيت للأعشى . وصدره كما فى اللسان وديوانه :

* فلئن ربك من رحمته *

وقراءة الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلط ممن رواه . قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر . قال الأخفش : الضَّيق والضِّيق مصدر ضاق يضيق . والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم . وقال الفراء : الضَّيق ما ضاق عنه صدرك، والضِّيق ما يكون في الذي يتّسع و يضيق؛ مثلُ الدار والثوب . وقال ابن السِّكّيت : هما سواء؛ يقال : في صدره ضَيق وضِيق . القُتَبِيّ : ضَيْق مخفف ضَيّق؛ أي لا تكن في أمر ضَيّق لخفف؛ مثل هَيّن وهَيْن . وقال ابن عرفة : يقال ضاق الرجل إذا بخل، وأضاق إذا افتقر . وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد . وتقدّم معنى الإحسان . وقيل لهَرِم بن حِبّان عند موته : أوصنا؛ فقال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل : « ادْعُ إلى سبيل ربك » إلى آخرها .

تمت سورة النحل، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات : قوله عز وجل « وإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ »(1) نزلت حين جاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَفْدُ ثقيف، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ »(2) . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ »(3) الآية . وقال مقاتل : وقوله عز وجل « إن الذين أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ »(4) الآية . وقال ابن مسعود رضي الله عنه في بني إسرائيل والكهف [ومريم] : إنهن من العِتاق الأُوَل، وهنّ من تِلادي؛ يريد من قديم كسبه .

---

(1) آية ٧٦　(2) آية ٨٠　(3) آية ٦٠　(4) آية ١٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١)

فيـه ثمـان[1] مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليـه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف لأن فى آخره زائدتين، تقول : سبّحت تسبيحا وسُبحانا، مثل كفّرت اليمين تكفيرا وكفرانا . ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأما قول الشاعر :

أقـول لمّـا جاءنى فَخْـرُهُ * سـبحانَ مِن عَلْقَمـةَ الفاخِرِ[2]

فإنمـا ذكره على طريق النادر . وقـد روى طلحة بن عبيد الله الفَيّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله؟ فقال : "تنزيه الله من كل سوء" . والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذى من معناه لا من لفظه ، إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك مثل قعد القُرْفُصاء، واشتمل الصَّمّاء[3]؛ فالتقدير عنده : أنزّه الله تنزيها؛ فوقع «سبحان الله» مكان قولك تنزيهـا .

---

(١) كذا فى جميع الأصول، و يلاحظ أن المسائل ست . (٢) البيت للأعشى . يقول هذا لعلقمة بن علاثة الجعفرى فى منافرته لعامر بن الطفيل ، وكان الأعشى قد فضل عامرا وتبرأ من علقمة وفخره على عامر (عن الشنتمرى) .

(٣) الصماء ، ضرب من الاشتمال . واشتمال الصماء : أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الاعراب بأكسيتهم ، وهو أن يردّ الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يردّه ثانيـة من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعا .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ « أسرى » فيـه لغتان : سرى وأسرى ؛ كسق وأسق ، كما تقدّم[1] . قال :

أسْرتْ عليـــه من الجَوْزاء سارِيَةٌ * تُزْجِى الشَّمال عليـه جامدَ البَـرَد[2]

وقال آخـــر :

حَىِّ النَّضِـيرة ربة الخِــدْرِ * أسْرت إلىّ ولم تكن تَسْرى[3]

فجمع بين اللغتين فى البيتين . والإسراء : سير الليل؛ يقال : سَرَيت مَسْرًى وسُرًى ، وأسريت إسراء؛ قال الشاعر :

وليلة ذات نَدًى سريتُ * ولم يَلِتْنِي من سُراها لَيْتُ

وقيل : أسرى سار من أوّل الليل ، وسرى سار من آخره ؛ والأوّل أعرف .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ بِعَبْدِه ﴾ قال العلماء : لو كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم اسم أشرفُ منه لسمّاه به فى تلك الحالة العلية . وفى معناه أنشدوا :

يا قومِ قلبي عنـد زهراءِ * يعــرفه السامع والرائى
لا تَدْعُنِي إلّا بيا عبـدها * فإنه أشــرف أسمـائى

وقد تقدّم[4] . قال القُشَيْرِيّ : لمـا رفعه الله تعالى إلى حضرته السّنية ، وأرقاه فوق الكواكب العلوية ، ألزمه آسمَ العبودية تواضعا للأمّة .

الرابعـــة ــ ثبت الإسراء فى جميع مصنّفات الحديث ، ورُوى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش : ممن رواه عشرين صحابيا . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتيت بالبراق وهو دابة أبيضُ [طويل] فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرفه ــ قال ــ فركبته حتى أتيت بيت المقدس ــ قال ــ فربطته بالحلْقة التى تربط بها الأنبياء ــ قال ــ ثم دخلت المسجد

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) البيت للنابغة الذبيانى ، من قصيدته التى مطلعها : يا دار مية بالعلياء . (٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترتَ الفِطْرة — قال — ثم عَرج بنا إلى السماء ... " وذكر الحديث .

ومما ليس فى الصحيحين ماخرّجه الآجُرِّىّ والسَّمَرْقَنْدىّ، قال الآجرى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ فى قوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلةِ أسْرِىَ به ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أتيت بدابّة هى أشـبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان(١) وهو البراق الذى كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء عن يمينى يا محمـد على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه ثم سمعت نداء عن يسارى يا محمد على رِسْلِك فمضيت ولم أعَرِّج عليه ثم استقبلتنى آمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته فى الحَلْقة التى كانت الأنبياء تُوثق بها ثم دخلت المسجد وصلّيت فيه فقال لى جبريل عليه السلام ما سمعتَ يا محمد فقلتُ سمعتُ نداءً عن يمينى يا محمـد على رِسْلِك حتى أسـألك فمضيت ولم أُعَرّج فقال ذلك داعى اليهود ولو وقفتَ لتهوّدت أمتـك — قال — ثم سمعت نداء عن يسارى على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرّج عليه فقال ذلك داعى النصارى أمَا إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك — قال — ثم استقبلتنى آمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرّج عليها فقال تلك الدنيا لو وقفتَ لآخترت الدنيـا على الآخرة — قال — ثم أتيت باناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقيل لى خذ فآشرب أيَّهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقـال لى جبريل أصبت الفِطْرة ولو أنك أخذت الخمر غَوَتْ أمتـك ثم جاء بالمعراج الذى تعرج فيـه أرواح بنى آدم فإذا هو أحسن ما رأيتُ أو لم تروا إلى الميت كيف يحدّ بصره إليه فعرج بنـا حتى أتينا باب السماء الدنيـا فآستفتح جبريل فقيل من هـذا قال جبريل قالوا ومن معـك قال محمد قالوا وقد أرسـل إليه ؟

---

(١) فى الأصول : « يخطرفان » والتصويب عن الدر المنثور .

قال نعم ففتحوا لى وسلّموا علىّ و إذا مَلَك يحرس السماء يقال له إسماعيل معـه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف — قال — وما يعلم جُنُودَ رَبِّكَ إلا هو ... " وذكر الحـديث إلى أن قال : " ثم مضينا إلى السماء الخامسة و إذا أنا بهارون بن عمران المُحَبّ فى قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبيّ صـلى الله عليه وسلم وقال طويل اللحيـة تكاد لحيته تضرب فى سُرّته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم علىّ و رحب بى — فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال — رجل كثير الشعر ولو كان عليه قميصان خرج شعره منهما ... " الحديث . و روى البزّار أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أُتِى بفرس فحمل عليـه، كلُّ خُطوة منه أقصى بصره ... وذكر الحديث . وقد جاء فى صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " بينا أنا نائم فى الحِجْر إذ أتانى آتٍ فحركنى برجله فاتّبعت الشخص فإذا هو جبريل عليـه السلام قائم على باب المسجد معـه دابة دون البغل وفوق الحمـار وجهها وجه إنسان وخُفّها خُفُّ حافر وذَنَبهـا ذنب ثور وعُرْفها عرف الفرس فلما أدناها منى جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بُرْقة لا تَنْفِرى من محمد فوالله ما ركبك مَلك مقرّب ولا نبىّ مُرْسَل افضـلُ من محمد صـلى الله عليه وسـلم ولا أكرم على الله منه قالت قـد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة و إنى أحِبّ أن أكون فى شفاعته فقلت أنت فى شفاعتى إن شاء الله تعـالى ... " الحـديث . وذكر ابو سعيد عبـد الملك بن محمد النّيْسابورى عن أبى سعيد الخدرى قال : لمـا مر النبيّ صـلى الله عليه وسـلم بإدريس عليه السـلام فى السماء الرابعـة قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبىّ الصالح الذى وُعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأسِرّتها من عرق واحد فلمـا عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيحُ أهلها سبحان من جمـع بين الثلج والنار من قالهـا مرة واحدة كان له مثلُ ثوابهـم آستفتح الباب جبريلُ عليه السلام ففُتح له فإذا هو بكهل لم يُرَ قَطّ كَهْلٌ أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته

قريبا من سرته قـد كاد أن تكون شَمِطَة[1] وحوله قوم جلوس يقصّ عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المُحَبّ فى قومه ... " وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها ابو الربيع سليمان ابن سبع بكمالها فى كتاب (شفاء الصدور) له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنمـا فرضت على النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة فى حين الإسراء حين عرج به إلى السماء . واختلفوا فى تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهى ممـا ينبغى الوقوف عليها والبحث عنها، وهى أهمّ من سَرْد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيهـا من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعـون الله تعـالى .

فأما المسألة الأولى — وهى هل كان إسراء بروحه أو جسده؛ اختَلف فى ذلك السلف والخلف، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، ولم يفارق شخصُه مضجَعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الانبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكى عن الحسن وابن إسحـاق . وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقـدس، و إلى السماء بالروح؛ واحتجوا بقوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فجعـل المسجد الأقصى غاية الإسراء . قالوا : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ فى المدح . وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفى اليقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقـدس وصلّى فيه ثم أُسْرِىَ بجسده . وعلى هذا تدل الأخبار التى أشرنا إليها والآية . وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، ولو كان مناما لقال بروح عبده ولم يقل بعبده . وقوله «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» يدل على ذلك . ولو كان مناما لمـا كانت فيـه آية ولا معجزة ، ولمـا قالت له أم هانئ : لا تحـدِّث الناس

(١) الشمط فى الشعر : اختلافه بلونين من سواد و بياض .

فيكذبوك، ولا فُضّل ابو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشا التشنيعُ والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى آرتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقا فخبّرنا عن عيرنا أين لقيتَها؟ قال: "بمكان كذا وكذا مررتُ عليها ففزِع فلان فقيل له: ما رأيت يافلان، قال: ما رأيت شيئا! غير أن الإبل قد نفرت". قالوا: فأخبرنا متى تأتنا العير؟ قال: "تأتيكم يوم كذا وكذا". قالوا: أيّةَ ساعة؟ قال: "ما أدرى، طلوع الشمس من هاهنا أسرع أم طلوع العيرُ من هاهنا". فقال رجل: ذلك اليوم؟ هذه الشمس قد طلعت. وقال رجل: هذه عيركم قد طلعت، وآستخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيتُني في الحِجْر وقريش تسألني عن مَسْرَاى فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبِتْها(١) فكُرِبْتُ كَرْبًا ما كُرِبت مثله قطّ — قال — فرفعه الله لى أنظر إليه فما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به" الحديث. وقد اعتُرِض قول عائشة ومعاوية: «إنما أسرى بنَفْس رسول الله صلى الله عليه وسلم» بأنها كانت صغيرة لم تشاهِد، ولا حدّثت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وأما معاوية فكان كافرا في ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدّث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتجّ لعائشة بقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ»(٢) فسماها رؤيا. وهذا يردّه قوله تعالى: «سبحان الذِى أَسْرَى بِعبدِهِ ليلا» ولا يقال في النوم أسرى. وأيضا فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالةٌ واضحة على أن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوّز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم معارجُ، فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام في الصحيح: "بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان" الحديث. ويحتمل أن يردّ من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

(١) أي لم أعرفها حق المعرفة؛ يقال: أثبت الشيء وثابته اذا عرفه حق المعرفة. (٢) آية ٦٠ من هذه السورة.

المسألة الثانية — فى تاريخ الإسراء ، وقـد اختلف العلمـاء فى ذلك أيضا ، واختُلف فى ذلك على ابن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسرِىَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة . وروى عنـه يونس عن عروة عن عائشة قالت : تُوفِّيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة . قال ابن شهاب : وذلك بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعة أعوام . وروى عنه الوَقّاصىّ قال : أُسْرِىَ به بعـد مبعثه بخمس سنين . قال ابن شهـاب : وفُرض الصيام بالمدينة قبـل بدر ، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحُرمت الخمر بعـد أُحُد . وقال ابن إسحاق : أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، وقد فشا الإسلام بمكة فى القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صلّت خديجة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى . قال أبو عمر : وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع . وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب ، على أن ابن شهاب قـد اختلف عنه كما تقـدّم . وقال الحَرْبِىّ : أسرى به ليلة سبع وعشرين من [شهر] ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن علىّ ابن القاسم الذهبى فى تاريخه : أسرى به من مكة إلى بيت المقـدس ، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبى ، ولم يُسْنِد قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هـذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة الثالثة — وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهـل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عُرِج به إلى السماء ، وذلك منصوص فى الصحيح وغيره . وإنمـا اختلفوا فى هيئتهـا حين فرضت ؛ فروى عن عائشـة رضى الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر فأكملت أربعا ، وأُقِرّت صـلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشَّعْبِىّ وميمون بن مِهْران ومحمـد بن إسحاق . قال الشعبىّ : إلا المغـرب . قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليـه السلام أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعنى فى الإسراء فهمز له بعقبه فى ناحية

الوادي فآنفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوضّأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلى ركعتين بأربع سجدات ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة ، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء . وروى عن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين . وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قول ابن جريج ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يوافق ذلك . ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلّم النبيّ صلى الله عليه وسلم الصلاة ومواقيتها . وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول : كان أوّل الصلاة مثنى ، ثم صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعا فصارت سُنّة ، وأُقِرّت الصلاة للمسافر وهي تمام . قال أبو عمر : وهذا إسناد لايحتج بمثله ، وقوله «فصارت سُنّة» قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قولٌ لا معنى له . وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملا ونقلا مستفيضا، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها .

الخامســـة — قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»(١) والحمد لله . ومضى في «آل عمران»(٢) أن أوّل مسجد وُضع في الأرض المسجدُ الحرام، ثم المسجد الأقصى . وأن بينهما أربعين عاما من حديث أبي ذرّ، و بناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك ؛ فتأمله هناك فلا معنى للإعادة . ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تُشَدّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام و إلى مسجدى هذا و إلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس" . خرّجه مالك من حديث أبي هريرة . وفيه مايدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء : من نذر صلاة في مسجد

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٢٤ (٢) جـ ٤ ص ١٣٧

لا يصل إليـه إلا برحلة و راحلة فلا يفعـل ، و يصلّى فى مسجده، إلا فى الثـلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها . وقد قال مالك و جماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطا فى ثَغْر يسدّه : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل . وقد زاد أبو البَخْتَرِيّ فى هذا الحديث مسجد الجند ، ولا يصح وهو موضوع ، وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ سُمّى الأقصى لبعد ما بينه و بين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة فى الأرض يعظَّم بالزيارة، ثم قال : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ قيل : بالثمار و بمجارى الأنهار . وقيل : بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين؛ و بهذا جعله مقدّسا . و روى معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى ياشام أنت صفْوَتى من بلادى وأنا سائق إليك صفوتى من عبادى". ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب . والآيات التى أراه الله من العجائب التى أخبر بها الناس، و إسراؤه من مكة إلى المسـجد الأقصى فى ليلة وهو مسيرة شهر، وعروجه إلى السماء و وصفه الأنبياء واحدا واحدا، حسبما ثبت فى صحيح مسلم وغيره . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ تقدّم[(1)] .

قوله تعـالى : وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾

أى كرّمنا محمدا صلى الله عليـه وسلم بالمعـراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى ذلك الكتاب . وقيـل موسى . وقيل معنى الكلام : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز . وقيل : إن معنى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا، معناه أسرينا، يدل عليه ما بعده من قوله : « لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » فحمل « وآتينا موسى الكتاب » على المعنى . ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ قرأ أبو عمرو «يتخذوا»

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

بالياء . الباقون بالتاء . فيكون من باب تلوين الخطاب . ﴿ وَكِيلًا ﴾ أى شريكا؛ عن مجاهد. وقيل : كفيلا بأمورهم؛ حكاه الفراء . وقيل : ربًّا يتوكّلون عليه فى أمورهم؛ قاله الكلبي . وقال الفراء : كافيا ؛ والتقدير : عهدنا إليه فى الكتاب ألا تتخذوا من دونى وكيلا . وقيل : التقدير لئلا تتخذوا . والوكيل : من يُوكَل إليه الأمر .

قوله تعالى : ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

أى يا ذرية من حملنا، على النداء؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبى نَجيح . والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوِىّ . وقال المَاوَرْدِىّ : يعنى موسى وقومه من بنى إسرائيل، والمعنى ياذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا . وذكر نوحا ليذكّرهم نِعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم . وروى سفيان عن حُميد عن مجاهد أنه قرأ « ذَرِّيّة »(١) بفتح الذال وتشديد الراء والياء . وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد ابن ثابت . ورُوى عن زيد بن ثابت أيضا « ذِرِّية » بكسر الذال وشدّ الراء . ثم بين أن نوحا كان عبدا شكورا يشكر الله على نعمه ولايرى الخير إلا من عنده . قال قتادة : كان إذا لبس ثوبا قال : بسم الله، فإذا نزعه قال : الحمد لله . كذا روى عنه معمر . وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال : شُكْرُه إذا أكل قال : بسم الله ، فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله . قال سلمان الفارسي : لأنه كان يحمَد الله على طعامه . وقال عمران بن سليم : إنما سمى نوحا عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى، وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى ؛ وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ولو شاء لأعرانى، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فىّ . ومقصود الآية : إنكم من ذرية نوح وقد كان عبدا شكورا فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال . وقيل : المعنى أن موسى كان عبدا شكورا إذ جعله الله من ذرية نوح . وقيل : يجوز أن يكون

(١) كذا فى نسخ الأصل، ولم نعثر عليه فى المظان .

« ذرية » مفعولا ثانيا لـ « تتخذوا » ، ويكون قوله : « وكيلا » يراد به الجمع فيسوغ ذلك فى القراءتين جميعا أعنى الياء والتاء فى « تتخذوا » . ويجوز أيضا فى القراءتين جميعا أن يكون « ذرية » بدلا من قوله « وكيلا » لأنه بمعنى الجمع؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح . ويجوز نصبها بإضمار أعنى وأمدح ، والعرب قد تنصب على المدح والذم . ويجوز رفعها على البدل من المضمر فى « تتخـذوا » فى قراءة من قرأ بالياء؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب . ويجوز جرها على البدل من بنى إسرائيل فى الوجهين . فأما « أنْ » من قوله « ألا تتخـذوا » فهى على قراءة من قرأ بالياء فى موضع نصب بحذف الجار ، التقدير : هديناهم لئلا يتخذوا . ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدّم . ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أى ، لا موضع لها من الإعراب ، وتكون « لا » للنهى فيكون خروجا من الخبر إلى النهى .

قوله تعـالى : وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية « فِى الكتب » على لفظ الجمع . وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . ومعنى « قَضَينا » أعلمنـا وأخبرنا؛ قاله ابن عباس : وقال قتـادة : حكمنا؛ وأصـل القضاء الإحكام للشئ والفراغ منـه . وقيل : قضينا أوحينا؛ ولذلك قال : « إلى بنى إسرائيل » . وعلى قول قتادة يكون « إلى » بمعنى على؛ أى قضينا عليهم وحكمنا . وقاله ابن عباس أيضا . والمعنيّ بالكتاب اللوح المحفوظ . ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ وقرأ ابن عباس « لَتُفْسَدُنَّ » . عيسى الثقفى « لَتَفْسُدُنّ » . والمعنى فى القراءتين قريب؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا ، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة . ﴿ فِى الأَرْضِ ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها . ﴿ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ اللام فى « لتفسدن ولتعلن » لام قسم مضمر كما تقـدّم . ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أراد التكبر والبَغْىَ والطغيان والاستطالة والغَلَبَة والعدوان .

قوله تعـالى : فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أى أولى المرّتين من فسادهم . ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم أهل بابل، وكان عليهم بُخْتَنَصَّر فى المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولوا بأس شديد . وقال مجاهد : جاءهم جند من فارس يتجسّسون أخبارهم ومعهم بختنصر فوَعَى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا فى المرة الأولى ، فكان منهم جَوْسٌ خلال الديار لا قتل؛ ذكره القشيرى أبو نصر . وذكر المهدوِىّ عن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا . ورواه ابن أبى نَجِيح عن مجاهد؛ ذكره النحاس . وقال محمد بن إسحاق فى خبر فيه طول : إن المهزوم سَنْحَارِيب ملك بابل[1]، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كُتّابه، وبعث ملك بنى إسرائيل واسمه صديقة فى طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة، أحدهم بختنصر، فطرح فى رقابهم الجوامع[2] وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شَعْيَا؛ فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم . وقال ابن عباس وابن مسعود : أوّل الفساد قتل زكريا . وقال ابن إسحاق : فسادهم فى المرة الأولى قتل شعيا نبىّ الله فى الشجرة؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مَرِج[3] أمرهم

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء، المسمى بالعرائس ص ٢٥٩ طبع بلاق وتاريخ الطبرى ج ٢ قسم أوّل ص ٦٣٨ وما بعدها طبع أوربا . (٢) الجوامع : الأغلال، والواحد جامعة . (٣) مرج الأمر : فسد واختلط والتبس المخرج فيه .

وتنافسوا على المُلْك وقتل بعضهم بعضا وهم لا يسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى له قم فى قومك أوحِ على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عَدَوْا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبة من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وسطها . وذكر ابن إسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتا ولم يقتل وإنما المقتول شَعْيا . وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى : « ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار » هو سنحاريب من أهل نِينَوَى بالمَوْصل ملكُ بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم . وقيل : إنهم العمالقة وكانوا كفارا، قاله الحسن. ومعنى جاسوا : عاثوا وقتلوا؛ وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا؛ قاله ابن عَزيز، وهو قول القُتَبِيّ . وقرأ ابن عباس : « حاسوا » بالحاء المهملة. قال أبو زيد : الحَوْس والجَوْس والعَوْس والهَوْس : الطواف بالليل . وقال الجوهرى : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار، أى تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أى يطلبها؛ وكذلك الاجتياس. والجَوَسان (بالتحريك) الطوفان بالليل؛ وهو قول أبى عبيدة . وقال الطبرى : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين؛ فجمع بين قول أهل اللغة . قال ابن عباس : مشوا وتردّدوا بين الدُّور والمساكن . وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم؛ وأنشد لحسان :

ومنّا الذى لاقى بسيف محمد * فجاس به الأعداء عرضَ العساكر

وقال قطرب : نزلوا؛ قال :

فجُسْنا ديارَهمُ عَنْوةً * وأُبْنَا بساداتهم مُوثَقينا

﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أى قضاء كائنا لا خُلْف فيه .

قوله تعالى : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي الدولة والرجعة؛ وذلك لما تبتم وأطعتم . ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف في من قتلهم . ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أي أكثر عددا ورجالا من عدوكم . والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته؛ يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع نَفْر كالكليب والمعيز والعبيد؛ قال الشاعر :

فأكْرِمْ بقحطانَ من والد * وحِمْيَرَ أكرم بقوم نفيرا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضماما وأصلح أحوالا ، جزاءً من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة .

قوله تعالى : إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي نفع إحسانكم عائد عليكم . ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعليها؛ نحو سلام لك ، أي سلام عليك . قال :

* فخرّ صريعا لليدين وللفم *(١)

أي على اليدين وعلى الفم . وقال الطبري : اللام بمعنى إلى ، يعني وإن أسأتم فإليها ، أي فإليها ترجع الإساءة؛ لقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أي إليها . وقيل : فلها الجزاء والعقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها ربٌّ يغفر الإساءة . ثم يحتمل أن يكون هذا

(١) هذا عجز بيت لربيعة بن مُكَدَّم . وصدره :

* وهتكت بالرمح الطويل إهابه *

وقبل هذا البيت :

فصرفت راحلة الظعينة نحوه * عمدا ليعلم بعض ما لم يعلم

وبعده :

ومنحت آخر بعده جيّاشة * نجلاء فاغرة كشدق الأعجم

وهذه الأبيات قيلت يوم الظعينة . راجع أمالي القالي ج ٢ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية .

خطابا لبنى إسرائيــل فى أول الأمر؛ أى أسأتم فحَلّ بكم القتل والسَّبْىُ والتخريب ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُــلُوّ وآنتظام الحال . ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيــل فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فآرتقبوا مثله . أو يكون خطابا لمشركى قريش على هذا الوجه . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا فى المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما الســلام، قتله مَلِكٌ من بنى إسرائيل يقال له لاخت؛ قاله القُتَبِىّ . وقال الطبرى : اسمه هردوس، ذكره فى التاريخ؛ حمله على قتله آمرأة اسمها أزبيل. وقال السدّى : كان ملك بنى إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا و يستشيره فى الأمر، فآستشاره الملك أن يتزوج بنت آمرأة له فنهاه عنها وقال : إنها لا تحل لك؛ فحقدت أمها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا وطيّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرتها أن تتعرض له ، و إن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألتْ أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا فى طَسْت من ذهب؛ ففــعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس تتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحلّ لك؛ لاتحلّ لك؛ فلما أصبح إذ دمه يَغْلِى، فألقى عليه التراب فغَلَى فوقه، فلم يزل يلْقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يَغْلِى؛ ذكره الثعلبى وغيره . وذكر ابن عساكر الحافظ فى تاريخه عن الحسين بن علىّ قال : كان ملك من هــذه الملوك مات وترك امرأته وآبنته فورث مُلْكَه أخوه ، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه، فآستشار يحيى بن زكريا فى ذلك، وكانت الملوك فى ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء، فقال له : لا تتزوجها فإنها بَغِىّ؛ فعرفت ذلك المرأةُ أنه قــد ذكرها وصرفه عنها ، فقالت : من أين هذا! حتى بلغها أنه من قِبَــل يحيى ، فقالت : ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه ، فعَمَدت إلى ابنتها وصنّعتها، ثم قالت : اذهبى إلى عمك عنــد الملأ فإنه إذا رآك سيدعوك و يجلسك فى حجره، و يقول سلينى ما شئت، فإنك لن تسألينى شيئا إلا أعطيتك، فإذا قال لك ذلك فقولى : لا أسأل إلا رأس يحيى . قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشىء على رءوس الملأ ثم لم يُمْض له نُزِع من ملكه؛ ففعلت ذلك . قال : فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى،

وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه ، فاختار ملكه فقتله . قال : فساخت بأمها الأرضُ . قال ابن جُدْعان : فحدثت بهذا الحديث ابنَ المسيِّب فقال أفما أخبرك كيف كان قتل زكريا؟ قلت لا ؛ قال : إن زكريا حيث قُتل ابنه انطلق هاربا منهم واتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدْبة تكفّتها الرياح، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها، ونظروا بتلك الهُدْبة فدعوا بالمِنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها .

قلت : وقع في التاريخ الكبير للطبري (١) فحدثني أبو السائب قال حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المِنْهال عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : بعث عيسى بنُ مريم يحيى بنَ زكريا في اثني عشر من الحواريّين يعلّمون الناس، قال : كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ، قال : وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه ... وذكر الخبر بمعناه . وعن ابن عباس قال : بُعث يحيى ابنُ زكريا في اثني عشر من الحواريّين يعلمون الناس، وكان فيما يعلّمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت ، وكان لملكهم بنت أخت تعجبه ، وكان يريد أن يتزوجها، وكان لها كلَّ يوم حاجةٌ يقضيها، فلما بلغ ذلك أمَّها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجةٌ فقولي : حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا؛ فقال : سليني سوى هذا ! قالت : ماأسألك إلا هذا . فلما أبت عليه دعا بطَسْت ودعا به فذبحه، فندرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تَغْلِي حتى بعث الله عليهم بختنصّر فألْقِيَ في نفسه أن يقتل على ذلك الدّم منهم حتى يسكن ذلك الدم، فقتل عليه منهم سبعين ألفا، في رواية خمسة وسبعين ألفا . قال سعيد بن المسيّب : هى دِيَةُ كل نبيّ . وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إنى قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا، و إنى قاتل بآبن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا . وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التى فى بيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا . وعن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبة التى تلى المحراب

---

(١) راجع ج ٣ قسم أول ص ٧١٣ طبع أوربا .

ممـا يلى الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغيّر . وعن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن على؛ وحمرتها بكاؤها . وعن سفيان بن عُيَيْنة قال : أوحش ما يكون بن آدم فى ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دار همٍّ ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهـم ، ويوم يُبعث فيشهد مشهدا لم ير مثـله ؛ قال الله تعالى ليحيى فى هذه الثلاثة مواطن : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » . كله من التاريخ المذكور .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهـم فى المرة الآخرة؛ فقيل : بختنصر . وقاله القشيرى أبو نصر، لم يذكر غيره . قال السُّهَيْلِىّ : وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبـل عيسى بن مريم عليهما السـلام بزمان طويل، وقبل الإسكندر؛ وبين الإسكندر وعيسى نحوٌ من ثلثمائة سنة، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعيا، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا، فهو الذى قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها . وقال الثعلبي : ومن روى أن بختنصّر هو الذى غزا بنى إسرائيل عنـد قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السِّيَر والأخبار؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنمـا غزا بنى إسرائيل عند قتلهم شَعْيَا وفى عهد إرْمِيَاء . قالوا : ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصّر بيت المقدس إلى مولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سـنة ، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته فى عهد كوسك(١) سبعين سنة ، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة ، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاثا وستين(٢) سنة .

قلت : ذكر جميعه الطبرى فى التاريخ رحمه الله . قال الثعلبي : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال : لمـا رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتـلوا يحيى — وبعض

---

(١) الذى فى تاريخ الطبرى : « كيرش » ولم نوفق لتصويبه . (٢) فى الطبرى : « ثلثمائة وثلاث سنين » . راجع ص ٧١٨ من القسم الأول .

الناس يقول : لمــا قتلوا زكريا — بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل يقال له : خردوس، فسار إليهم بأهــل بابل وظهر عليهم بالشأم ، ثم قال لرئيس جنوده : كنت حلفت بإلهي لئن اظهرني الله على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري ، وأمر أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيهــا دماء تَغْــلِي ، فسألهم فقالوا : دَمُ قربان قربناه فــلم يتقبل منا منــذ ثمانين سنة (١) . قال ما صَدَقتموني ، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ ، [فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذُبحوا على الدم فلم يهــدأ] (٢) ، فأمر بسبعة آلاف من سَبْيِهِم وأزواجهم فذبحهم على الدم فــلم يَبْرُد ، فقال : يابني إسرائيل ، أُصدُقوني قبل ألا أترك منكم نافخ نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتلتُه . فلما رأوا الجَهد قالوا : إن هذا دم نبيّ منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سَخَط الله فقتلناه ، فهذا دمه ، كان اسمه يحيى بن زكريا ، ما عصى الله قطّ طرفة عين ولا همّ بمعصية . فقال : الآن صدقتموني ، وخر ساجدا ثم قال : لمثل هذا يُنتقم منكم ، وأمر بغلق الأبواب وقال : أخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوس ، وخلا في بني إسرائيل وقال : يا نبيّ الله ، يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك ، فاهدأ بإذن الله قبل ألا أبقي منهم أحدا . فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل ، ورفع عنهم القتــل وقال : رب ، إني آمنت بمــا آمن به بنو إسرائيل وصدّقت به ؛ فأوحى الله تعالى إلى رأس من رءوس الأنبياء : إن هــذا الرئيس مؤمن صدوق . ثم قال : إن عدو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره ، وإني لا أعصيه ، فأمرهم فحفروا خَنْدَقًا وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر ، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم ، ثم انصرف عنهم إلى بابل ، وقد كاد أن يفني بني إسرائيل .

---

(١) في تاريخ الطبري ص ٧٢١ : « منذ ثمانمائة سنة » .

(٢) زيادة عن تاريخ الطبري .

قلت : قد ورد فى هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حُذيفة، وقد كتبناه فى (كتاب التذكرة) مقطعا فى أبوابٍ فى أخبار المَهْـدِىّ، نذكر منهـا هنا ما يبيّن معنى الآية ويفسّرها حتى لا يحتاج معــه إلى بيان، قال حذيفة : قلت يا رسول الله، لقــد كان بيت المقدس عنــد الله عظيما جسيم الخطر عظيم القــدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "هو من أجَلّ البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودُرّ وياقوت وزمرذ" : وذلك أن سليمان بن داود لمـا بناه سَخّــر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعــادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرذ، وسخر الله تعــالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف . قال حذيفــة : فقلت يا رسول الله، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس . فقال رسول الله صــلى الله عليه وســلم : إن بنى إسرائيــل لمـا عصوا الله وقتلوا الأنبيــاء سلط الله عليهــم بختنصّر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة ســنة، وهو قوله : « فإذا جاء وَعْدُ أولاَهُمَا بعثنا عليكم عِبادا لنا أولِى بأسٍ شدِيدٍ فجاسُوا خِلالَ الديارِ وكان وَعْدًا مفعولا » فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسَبَوُا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان فى بيت المقدس من هــذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفا ومائة ألف عَجَلَة حتى أودعوها أرض بابل، فأقاموا يستخدمون بنى إسرائيــل ويستملكونهم بالخــزى والعقاب والنكال مائة عام، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس فى أرض بابل، وأن يستنقذ مَن فى أيديهم من بنى إسرائيــل؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقى من بنى إسرائيل من أيدى المجوس واستنقذ ذلك الحلى الذى كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة وقال لهم : يا بنى إسرائيل إن عدتم إلى المعاصى عدنا عليكم بالسَّبْى والقتل، وهو قوله : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » فلمــا رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصى فسلّط الله عليهم ملك الروم قَيْصر، وهو قوله : «فإذا جاء وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ولِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا » فغزاهم فى البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حلى جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عَجَلة حتى أودعه

فى كنيسة الذهب ، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهـدى فيردّه إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسـبعمائة سفينة يُرسَى بها على يافا (١) حتى تنقل إلى بيت المقـدس وبها يجمع الله الأولين والآخرين ... وذكر الحديث .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى من المرتين ؛ وجواب « إذا » محذوف ، تقديره بعثناهم؛ دلّ عليـه « بعثنا » الأول . ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى بالسّبى والقتل فيظهر أثر الحزن فى وجوهكم؛ فـ « ليسوءوا » متعلق بمحذوف ؛ أى بعثنا عبادا ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم . قيل : المراد بالوجوه السادة ؛ أى ليُذِلّوهم . وقرأ الكسائى « لنسوءَ » بنون وفتح الهمزة، فعلُ مخبر عن نفسه معظِّم، اعتبارا بقوله « وقضينا ، و بعثنا ورددنا » . ونحوه عن علىّ . وتصديقها قراءة أُبىٍّ « لنسوءنّ » بالنون وحرف التوكيد . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وَثّاب وحمـزة وابن عامر « ليسوءَ » بالياء على التوحيد وفتح الهمزة؛ ولهـا وجهان : أحدهما — ليسوء الله وجوهكم . والثانى — ليسوء الوعدُ وجوهكم . وقرأ الباقون «ليسوءوا» باليـاء وضم الهمزة على الجمـع ؛ أى ليسـوء العباد الذين هم أولوا بأس شـديد وجوهكم . ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أى ليدمّروا ويهلكوا . وقال قُطْرُب : يهدموا؛ قال الشاعر :

فمـا الناس إلا عاملان فعامل * يُتَبِّـرُ ما يَبْنِى وآخر رافـع

﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أى غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ .

قوله تعـالى : عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ وهذا ممـا أخبروا به فى كتابهم . و « عسى » وعد من الله أن يكشف عنهـم . و « عسى » من الله واجبة . ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد انتقامه منكم ، وكذلك كان؛ فكثّر عددهم وجعل منهـم الملوك . ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ قال قتـادة :

(١) فى الأصول : « يرمى بها على بابى » والتصويب عن الدر المنثور .

فعادوا فبعث الله عليهـم محمدا صـلى الله عليه وسـلم ؛ فهم يُعطون الجـزية بالصَّغار ؛ وروى عن ابن عباس . وهـذا خلاف ما تقدم فى الحديث وغيره . وقال القُشَيْرِىّ : وقـد حلّ العقاب ببنى إسرائيـل مرتين على أيدى الكفار ، ومرة على أيدى المسلمين . وهـذا حين عادوا فعاد الله عليهم . وعلى هـذا يصح قول قتـادة . ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ أى محْبِسًا وسِجْنًا ، من الحَصْر وهو الحبس . قال الجوهرى : يقال حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به . والحصير : الضيق البخيل . والحصير : البارِيّة . والحصير : الجَنْب ، قال الأصْمَعِىّ : هو ما بين العِرْق الذى يظهر فى جنب البعير والفـرس معترِضا فما فوقه إلى منقطع الجنب . والحصير : الملك ؛ لأنه محجوب . قال لبيد :

وقمـاقِمٍ غُلْبِ الرِّقاب كأنهم * جنّ لدى باب الحصير قيام

ويروى : * ومَقامةٍ غُلْبِ الرقاب ... ... *

على أن يكون « غلب » بدلا من « مقامة » كأنه قال : ورُبَّ غُلْبِ الرقاب . وروى عن أبى عبيدة : * ... لدى طرف الحصير قيام *

أى عنـد طرف البساط للنعمان بن المنـذر . والحِصير : المَحْبِس ؛ قال الله تعـالى : « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً » . قال القُشَيْرِىّ : ويقال للذى يُفترش حصير؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج . وقال الحسن : أى فراشا ومهادا؛ ذهب إلى الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصـيرا . قال الثعلبي : وهو وجه حسن .

قوله تعـالى : إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ لمـا ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بنى إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بيّن أن الكتاب الذى

أنزله الله عليه سبب اهتـداء . ومعنى ﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أى الطريقة التى هى أسـدّ وأعدل وأصوب؛ ف « التى » نعت لموصوف محذوف، أى الطريقة إلى نص أقوم . وقال الزجاج : للحال التى هى أقوم الحالات، وهى توحيد الله والإيمـان برسله . وقاله الكلبي والفرّاء .

قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ تقدّم[1] . ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم . ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أى الجنة . ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى ويبشرهم بأن لأعدائهم العقاب . والقرآن معظمه وعد ووعيـد . وقرأ حمـزة والكسائى « وَيَبْشُرُ » مخففـا بفتح الياء وضم الشين؛ وقد ذُكر[2] .

قوله تعـالى : وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بمـا لايحب أن يستجاب له : اللّهُمَّ أهلكه، ونحـوه . ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ أى كدعائه ربَّه أن يهب له العافية؛ فـلو استجاب الله دعاءه على نفسـه بالشر هلك لكن بفضله لايستجيب له فى ذلك. نظيره : « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » وقد تقدّم[3] . وقيل : نزلت فى النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول : « اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ٱئتنا بعذاب أليم»[4] . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور كما يدعو فى طلب المباح، قال الشاعر وهو ابن جامع :

أطـوف بالبيت فيمن يطوف * وأرفع من مِـئْزَرى المُسْبَلِ
وأسجـد بالليل حـتى الصبـاح * وأتْلُو من المُحْكَمِ المُـنْزَلِ
عسى فارجُ الهَمّ عن يوسفٍ * يُسَخِّـر لى ربّة المَحْمِـلِ

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣١٤ . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ وجـ ٨ ص ٣١٥ طبعة أولى أو ثانية .

قال الجوهرى : يقال ماعلى فلان مَحْمِل مثال مجلس أى معتمد . والمَحْمِل أيضا : واحد محامل الحاج . والمِحْمَل مثال المِرْجَل : عِلاقة السيف . وحذفت الواو من « ويدع الإنسان » فى اللفظ والخط ولم تحذف فى المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة ؛ كقوله تعالى : « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة »(١) « وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ »(٢) « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ »(٣) « يُنَادِ الْمُنَادِ »(٤) « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ »(٥) . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ أى طبعه العَجَلة ، فيَعْجَل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . وقيل : أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركّب فيه الروح على الكمال . قال سلمان : أوّل ماخلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده ، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال : يارَبّ عَجِّل قبل الليـل ؛ فذلك قوله : « وكان الإنسان عجولا » . وقال ابن عباس : لمـا انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقـدر ؛ فذلك قوله : « وكان الإنسان عجولا » . وقال ابن مسعود : لمـا دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة ؛ فذلك حين يقول : « خلِق الإنسان مِن عجل » ذكره البيهقى . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " لمـا صور الله تعالى آدم فى الجنة تركه ماشاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ماهو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِق خلقا لا يتمالك " وقد تقدّم(٦) . وقيل : سلّم عليه السلام أسيرا إلى سَوْدة فبات يئنّ فسألته فقال : أنيني لشدّة القِدّ والأسر ؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب ؛ فأخبرت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " قطع الله يديك " فلما أصبحت كانت تتوقّع الآفة ؛ فقال عليه السلام : " إنى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما يغضب البشر " ونزلت الآية ؛ ذكره القشيرى أبو نصر رحمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) آية ١٨ سورة العلق . (٢) آية ٢٤ سورة الشورى . (٣) آية ١٤٦ سورة النساء .
(٤) آية ٤١ سورة ق . (٥) آية ٥ سورة القمر . (٦) راجع جـ ١ ص ٢٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

" اللّهُمَّ إنما محمد بشر يغضَب كما يغضَب البشر و إني قد آتخذت عندك عهدا لن تُخْلِفَنِيه فأيّما مؤمنٍ آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارةً وقُرْبةً تقرّبه بهـا إليك يوم القيامـة " . وفي الباب عن عائشة وجابر . وقيل : معنى « وكان الإنسان عجولا » أي يؤثر العاجل و إن قلّ ، على الآجل و إن جلّ .

قوله تعـالى : وَجَعَلْنَـا ٱلَّيْـلَ وَٱلنَّهَـارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْـلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْـلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا (١٢)

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ أي علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا . والآية فيهما : إقبال كلّ واحد منهما من حيث لا يعلم ، و إدباره إلى حيث لا يعـلم . ونقصان أحدهما بزيادة الآخر و بالعكس آيةٌ أيضا . وكذلك ضـوء النهار وظلمة الليل . وقد مضى هـذا[(١)] . ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ ولم يقل : فمحونا الليل ، فلما أضاف الآية إلى الليـل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لها لاهما . و « محَـوْنَا » معناه طمسنا . وفي الخـبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السـلام فأمَرّ جناحه على وجه القمر فطمس عنـه الضوء وكان كالشمس في النور، والسوادُ الذي يُرى في القمر من أثر المحو . قال ابن عباس : جعـل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءًا ، فمحا من نور القمر تسعـة وستين جزءا فجعله مع نور الشمس ، فالشمس على مائة [وتسع] وثلاثين جزءا والقمرُ على جزء واحد . وعنه أيضا : خلق الله شمسين من نور عرشه ، فجعل ما سبق في علمه أن يكون شمسا مثـل الدنيا على قـدرها ما بين مشارقها إلى مغاربها ، وجعـل القمر دون الشمس ؛ فأرسـل جبريلَ عليـه السلام فأمَرّ جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضـوءه وبقي نوره؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثر المحو، ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار . ذكر

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ طبعة ثانية .

عنـه الأول الثعلبي والثـاني المهدوي، وسيأتى مرفوعا . وقال علي رضى الله عنه وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر، ليكون ضـوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليـل من النهار . ﴿ وجعلنا آية النهـار مبصرة ﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للابصار . قال أبو عمرو بن العلاء : أى يبصر بهـا . قال الكسائي : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يبصر بها . وقيـل : هو كقولهم خبيث مخبث إذا كان أصحابه خبثاء . ورجل مضعف إذا كانت دوابه ضعافا ؛ فكذلك النهـار مبصرا إذا كانـ أهله بصراء . ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ يريد التصرف في المعاش . ولم يذكر السكون في الليـل اكتفاء بما ذكر في النهار . وقد قال في موضع آخر : « هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا »(١) . ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لمـا عرف الليل من النهار، ولا كان يعرف الحساب والعدد . ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو كقوله : « تبيانا لكل شيء »(٢) « ما فرطنا في الكتاب من شيء »(٣) . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لمـا أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمسا من نور عرشه وقمرا فكانا جميعا شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمسا فخلقها مثـل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كانـ في علم الله أن يخلقها قمرا فخلقها دون الشمس في العظم ولكن إنمـا يرى صغرهما من شـدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تعتد ولا تدرى أوقات الصلوات والحج ولا تحل الديون ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهـم وكأن الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهـم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين " الآية .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٨٩ سورة النحل .

(٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . راجع جـ ٦ ص ٤٢٠

قوله تعالى : وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال الزجاج : ذِكر العنق عبارةٌ عن اللزوم كلزوم القِلادة للعنق . وقال ابن عباس : « طائره » عمله وما قُدِّر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسَب به . وقال مجاهد : عمله ورزقه، وعنه : ما من مولود يولد إلا وفى عنقه ورقة فيها مكتوب شَقِيّ أو سعيد . وقال الحسن : « أَلزمناه طائره » أى شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقـدير، أى صار له عنـد القسمة فى الأزل . وقيـل : أراد به التكليف، أى قدرناه إلزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعـل ما أُمِر به و ينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ يعنى كتاب طائره الذى فى عنقه . وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد : « طيره » بغير ألف ؛ ومنـه ما روى فى الخبر " اللّهُـمّ لا خيرَ إلا خيرُك ولا طَيْرَ إلا طيرك ولا ربّ غيرك " . وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصِن وأبو جعفر و يعقوب « و يَخْرُج » بفتح اليـاء وضم الراء، على معنى ويخرج له الطائر كتابا ؛ فـ«كتابا» منصوب على الحال . و يحتمل أن يكون المعنى : و يخرج الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى بن وَثّاب «و يُخْرِج» بضم الياء وكسر الراء؛ وروى عن مجاهد؛ أى يخرج الله . وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْقَع، وروى أيضا عن أبى جعفر : « و يُخْرَج » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول ، ومعناه : و يُخرج له الطائر كتابا . الباقون « ونخرج » بنون مضمومة وكسر الراء ؛ أى ونحن نخرج . احتج أبو عمرو فى هذه القراءة بقوله « ألزمناه » . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر « يُلَقّاه » بضم اليـاء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى يؤتاه . الباقون بفتح الياء خفيفة، أى يراه منشورا . وقال « منشورا » تعجيلا للبشرى بالحسنة والتو بيخ بالسيئة . وقال

أبو السوار العدوى وقرأ هذه الآية « وكلّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » قال : هما نشرتان وطيّة؛ أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمْلِ فيها ما شئت، فإذا متّ طُويت حتى إذا بُعثت نُشرت . ﴿ اقرأ كتابك ﴾ قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أُمّيًّا كان أو غير أُمّيّ . ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ أى محاسبا . وقال بعض الصلحاء : هذا كتاب، لسانك قلمه، وريقك مداده، وأعضاؤك قرطاسه، أنت كنت المُمْلِي على حفظتك، ما زيد فيه ولا نُقص منه، ومتى أنكرت منه شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك .

قوله تعـالى : مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنِ ٱهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى إنما كلّ أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له، ومن ضلّ فعقاب كفره عليه . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ تقدّم فى الأنعام (١) . وقال ابن عباس : نزلت فى الوليد ابن المغيرة، قال لأهـل مكة : اتبعونى واكفروا بمحمد وعلىّ أوزاركم، فنزلت هـذه الآية؛ أى إن الوليـد لا يحمل آثامكم وإنمـا إثم كل واحد عليـه . يقال : وَزَرَ يَزِرُ وَزْرا ووِزْرَة، أى أثم . والوِزر : الثِّقْل المثقِل والجمـع أوزار؛ ومنـه « يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِم » (٢) أى أثقال ذنوبهم . وقد وَزَر إذا حَمَل فهو وازر؛ ومنه وزير السلطان الذى يحمل ثِقْل دولته . والهـاء فى قوله كناية عن النفس، أى لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى، حتى أن الوالدة تُلقِى ولدها يوم القيامة فتقول: يا بنىّ! ألم يكن حجرى لك وِطاء، ألم يكن ثديى لك سِقاء، ألم يكن بطنى لك وعاء، ! فيقول : بلى يا أُمّهْ ! فتقول : يا بنىّ! فإن ذنوبى أثقلتنى فاحمل عنى منها ذنبا واحدا ! فيقول : إليك عنى يا أمّه ! فإنى بذنبى عنك اليوم مشغول .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٣

مسألة — نزعت عائشة رضى الله عنها بهذه الآية فى الرّد على ابن عمر حيث قال : إن الميت لَيُعَذَّب ببكاء أهله . قال علماؤنا : و إنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارض للآية . ولا وجه لإنكارها، فإن الرواة لهذا المعنى كثير، كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية؛ فلا وجه لتخطئتهم . ولا معارَضة بين الآية والحديث ؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصيّة الميت وسنته ، كما كانت الجاهلية تفعله ، حتى قال طَرَفة :

إذا مِتّ فانعيني بما أنا أهله * وشُقّى علىّ الجيب يابنت مَعْبَد

وقـــال :

إلى الحَوْل ثم آسم السلام عليكما * ومن يَبْك حولا كاملا فقد اعتذر

و إلى هـذا نحا البخارى . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذَّب بنَوْحهم؛ لأنه أهمل نهيَهم عنه قبل موته وتأديبَهم بذلك، فيعذَّب بتفـريطه فى ذلك؛ وبترك ما أمره الله به من قوله : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »(١) لا بذنب غيره، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ أى لم نترك الخلق سُدًى، بل أرسلنا الرسـل . وفى هـذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبّح ويحسّن ويبيح ويحظر . وقد تقدّم فى البقرة(٢) القول فيه . والجمهور على أن هذا فى حكم الدنيا؛ أى أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار . وقالت فرقة : هذا عام فى الدنيا والآخرة ، لقوله تعـالى : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا »(٣) . قال ابن عطية : والذى يعطيه النظر أن بعثه آدم عليـه السلام بالتوحيد وبثّ المعتقدات فى بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك فى زمن نوح عليه السلام بعد

(١) آية ٦ سورة التحريم . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) آية ٨ سورة الملك .

غرق الكفار . وهذه الآية أيضا يعطى احتمال ألفاظها نحو هذا فى الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفَتَرات الذين قد قدّر وجودَهم بعضُ أهل العلم . وأما ما روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح، ولا يقتضى ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف . قال المهدوىّ : وروى عن أبى هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه فى الدنيا، وتلا الآية؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف، وسيأتى مرفوعا فى آخر سورة طه إن شاء الله تعالى؛ ولا يصح . وقد استدلّ قوم فى أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى؛ وهذا صحيح، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل، والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى فى الآية التى قبلُ أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعد منه، ولا خلف فى وعده . فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير، يعلمك أن من هلك هلك بإرادته، فهو الذى يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿أَمَرْنَا﴾ قرأ أبو عثمان النَّهْدىّ وأبو رَجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن «أَمَّرْنا» بالتشديد، وهى قراءة علىّ رضى الله عنه؛ أى سلّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم . وقال أبو عثمان النهدىّ « أمّرنا » بتشديد الميم، جعلناهم

أمراء مسلَّطين؛ وقاله ابن عَزيز . وتأمّر عليهم تسلط عليهم . وقرأ الحسن أيضا وقتادة وأبو حَيْوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن مسلمة عن ابن كَثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما «آمرنا» بالمد والتخفيف؛ أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائيّ . وقال أبو عبيدة : آمرته بالمد وأمرته ، لغتان بمعنى كثّرته؛ ومنه الحديث "خير المال مُهْرة مأمُورة أو سِكّة مأبورة"(١) أي كثيرة النِّتاج والنَّسل . وكذلك قال ابن عزيز : آمرنا وأمرنا بمعنًى واحد؛ أي أكثرنا . وعن الحسن أيضا ويحيى بن يَعْمَر «امِرنا» بالقصر وكسر الميم على فَعِلنا، ورويت عن ابن عباس . قال قتادة والحسن : المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال : لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد؛ قال وأصلها «أأمرنا» فخفف ، حكاه المهدويّ . وفي الصحاح : وقال أبو الحسن أَمِر مالُه (بالكسر) أي كثر . وأَمِر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر :

* أَمِرون لا يرثون سَهْمَ القُعْدُدِ *(٢)

وآمر الله مالَه (بالمد) . الثعلبي : ويقال للشيء الكثير أَمِرٌ ، والفعل منه : أَمِرَ القومُ يأمَرون أمرا إذا كثروا . قال ابن مسعود : كنا نقول في الجاهلية للحيّ إذا كثروا : أَمِر أَمْرُ بني فلان؛ قال لَبِيد :

كلُّ بني حُرَّةٍ مَصيرُهُمُ * قُلٌّ وإن أكثرَتْ من العددِ

إن يُغْبَطوا يَهْبِطوا وإن أَمِروا * يومًا يصيروا للهُلْك والنَّكَدِ(٣)

---

(١) السكة : الطريقة المصطفة من النخل . والمأبورة : الملقحة؛ يقال : أبرت النخلة وأبرتها؛ فهي مأبورة ومؤبرة . وقيل : السكة سكة الحرث؛ والمأبورة المصلحة له . أراد : خير المال نتاج وزرع . (ابن الأثير) .

(٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره :

* طَرِفون ولّادون كلِّ مبارك *

الطرف والطريف : الكثير الآباء إلى الجد الأكبر . والقعدد : القليل الآباء إلى الجد الأكبر . (٣) يقول : إن غبطوا يوما فإنهم يموتون . و«يهبطوا» هاهنا يموتوا . ويروى : «إن يغبطوا يهبطوا» يموتوا عبطة؛ كأنهم يموتون من غير مرض . (راجع الديوان) .

قلت : وفى حديث هِرَقل الحديث الصحيح : "لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبى كَبْشة(١)، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر" أى كثر . وكله غير متعدّ ولذلك أنكره الكسائى ؛ والله أعلم . قال المهدوى : ومن قرأ «أَمِر» فهى لغة ، ووجه تعدية « أمِر » أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقربَ شيء إلى العمارة ، فعدّى كما عدّى عمر . الباقون «أَمَرْنا»(٢) من الأمر ؛ أى أمرناهم بالطاعة إعذارا و إنذارا وتخويفا و وعيدا . ﴿فَفَسَقُوا﴾ أى فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا . ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيـد ؛ عن ابن عباس . وقيـل : «أَمَرْنا» جعلنـاهم أمراء ؛ لأن العرب تقول : أمير غير مأمور ، أى غير مؤمر . وقيـل : معنـاه بعثنا مستكبريها . قال هارون : وهى قراءة أُبَىّ « بعثنا أكابر مجرميها ففسـقوا » ذكره المـاوَرْدى . وحكى النحاس : وقال هارون فى قراءة أُبَىّ « و إذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أ كابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول» . و يجوز أن يكون « أمرنا » بمعنى أكثرنا ؛ ومنه "خير المـال مُهْرَةٌ مأمورة" على ما تقـدّم . وقال قوم : مأمورة اتباع لمأبورة ؛ كالغدايا والعشايا . وكقوله : "ارْجِعن مأزورات غير مأجورات" . وعلى هذا لا يقال : أَمَرهم الله ، بمعنى كثرهم ، بل يقال : آمره وأمره . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العـامة . قال أبو عبيد : و إنما اخترنا « أمرنا » لأن المعانى الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة . والمُتْرَف : المنعّم ؛ وخُصّوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا ﴾ أى آستأصلناها بالهلاك . ﴿ تَدْمِيرًا ﴾ ذكر المصدر للمبالغة فى العـذاب الواقع بهم . وفى الصحيح من حديث زينب بنت جَحْش زوج النبىّ صلى الله عليه وسـلم قالت : خرج رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوما فَزِعا مُحْمَرًّا وجهه يقول : "لا إله إلا الله وَيْلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هـذه" وحلّق بأصبعه الإبهام والتى تليها . قالت : فقلت يا رسـول الله ، أنهلك وفينا

(١) يريد : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان المشركون يقولون للنبىّ صلى الله عليه وسلم «ابن أبى كبشة» شبهوه بأبى كبشة ، رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأوثان . أو هى كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ؛ لأنه كان نزع إليه فى الشبه . أو كنية زوج حليمة السعدية . (٢) كذا فى الأصول .

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث" . وقد تقدّم الكلام في هذا الباب، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تُغيّر كانت سببا لهلاك الجميع (١) ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ أي كم من قوم كفروا حلّ بهم البوار . يخوّف كفّار مكة ؛ وقد تقدّم القول في القرن في أوّل سورة الأنعام (٢) ، والحمد لله . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ « خبيرا » عليما بهم . « بَصِيرًا » يُبصر أعمالهم ؛ وقد تقدّم (٣) .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ يعني الدنيا، والمراد الدار العاجلة ؛ فعبّر بالنعت عن المنعوت . ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبتُه دخولُ النار . ﴿ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ أي مطردا مبعدا من رحمة الله . وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المداجين ، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يُعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم . وقد تقدّم في «هود» أن هذه الآية تقيّد تلك الآيات المطلقة ؛ فتأمله . ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أي الدار الآخرة . ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي عمل لها عملها من الطاعات . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن . ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ أي مقبولا غير

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٩١ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٥ طبعة ثانية .

مردود . وقيل : مضاعَفا، أى تضاعف لهم الحسنات إلى عشر، و إلى سبعين و إلى سبعمائة ضعف ، و إلى أضعاف كثيرة ؛ كما روى عن أبى هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليَجْزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة " ؟ فقال سمعته يقول : " إن الله ليَجْزى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة " .

قوله تعالى : كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هـؤُلَاءِ وهؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين . ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ أى محبوسا ممنوعا ؛ من حَظَر يَحْظُر حَظْرا وحِظارا . ثم قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فى الرزق والعمل ؛ فمن مُقِلّ ومكثر . ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أى للؤمنين؛ فالكافر و إن وُسّع عليه فى الدنيا مرة ، وقُتّر على المؤمن مرّة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ؛ فمن فاته شىء منها لم يستدركه فيها . وقوله ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلٰهًا آخَرَ ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . وقيل : الخطاب للإنسان . ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أى تبقى . ﴿ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ لا ناصر لك ولا وَلِيا .

قوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

فيـه ست عشرة مسألة :

الأولى — ﴿ قَضَى ﴾ أي أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حُكْم بل هو قضاء أمر . وفي مصحف ابن مسعود « ووصّى » وهي قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضا وعليّ وغيرهما ، وكذلك عند أُبَيّ بن كعب . قال ابن عباس : إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت « وقضى ربك » إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد . وقال الضحاك : تصحفت على قوم «وصى بقضى» حين اختلطت الواو بالصاد وقت كَتْب المصحف . وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك . وقال عن ميمون بن مِهْران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنورا؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ »(١) ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عبـاس قال ذلك . وقال : لو قلنا هـذا لطعن الزنادقة في مصحفنا ، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم : القضاء يستعمل في اللغـة على وجوه : فالقضاء بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » معناه أمر . والقضاء بمعنى الخلق؛ كقوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ »(٢) يعني خلقهن . والقضاء بمعنى الحكم؛ كقوله تعالى : « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ »(٣) يعني احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ؛ كقوله : «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ»(٤) . أي فُرغ منـه؛ ومنه قوله تعـالى « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ »(٥) . وقوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ »(٦) . والقضاء بمعنى الإرادة؛ كقوله تعـالى : « إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(٧) . والقضاء بمعنى العهـد؛ كقوله تعـالى : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَـرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ »(٨) .

فإذا كان القضاء يحتمل هـذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك ، لأن الله تعالى لم يأمر بهـا ،

(١) آية ١٣ سورة الشورى . (٢) آية ١٢ سورة فصلت . (٣) آية ١٢ سورة طـه .
(٤) آية ٤١ سورة يوسف . (٥) آية ٢٠٠ سورة البقرة . (٦) آية ١٠ سورة الجمعة .
(٧) آية ٤٧ سورة آل عمران . (٨) آية ٤٤ سورة القصص .

فإنه لا يأمر بالفحشاء . وقال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلّق امرأته ثلاثا . فقال : إنك قـد عصيت ربك و بانتْ منك . فقال الرجل : قضى الله ذلك عليّ ! فقال الحسن وكان فصيحا : ما قضى الله ذلك ! أى ما أمر الله به ؛ وقرأ هـذه الآية : « وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تعبدوا إلا إيّاه » .

الثانيـــة — أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل برّ الوالدين مقرونا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال : « وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلّا إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا » . وقال : « أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ »(١) . وفى صحيح البخارىّ عن عبد الله قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أىّ العمل أحبّ إلى الله عز وجل؟ قال : "الصلاة على وقتها" قال : ثم أىّ؟ قال : "ثم برُّ الوالدين" قال ثم أىّ ؟ قال : "الجهاد فى سبيل الله" فأخبر صلى الله عليه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام . ورتّب ذلك بـ « ثُمّ » التى تعطى الترتيب والمهلة .

الثالثـــة — من البِرّ بهما والإحسانِ إليهما ألّا يتعرض لسبّهما ولا يعقّهما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، وبذلك وردت السنة الثابتة؛ ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن من الكبائر شَتْمَ الرجلِ والديه" قالوا : يا رسول الله ، وهل يَشْتِمُ الرجل والديه ؟ قال "نعم . يسبّ الرجلُ أبا الرجل فيَسُبّ أباه ويَسُبّ أمّه فيسب أمّه " .

الرابعـــة — عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما؛ كما أن بِرّهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح فى أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أَمْرَهما بالمباح يصيّره فى حق الولد مندوبا إليه وأمرُهما بالمندوب يزيده تأكيدا فى نَدْبيّته .

(١) آية ١٤ سورة لقمان .

الخامســة — روى الترمذى عن ابن عمر قال : كانت تحتى امرأة أحبها، وكان أبى يكرهها فأمرنى أن أطلقها فأبيتُ، فذكرت ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: " يا عبدالله ابن عمر طلّق امرأتك ". قال هذا حديث حسن صحيح .

السادســة — روى الصحيح عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : مَن أحقّ الناس بحسن صحابتى؟ قال : " أمّك " قال : ثم مَن؟ قال : " ثم أمّك" قال : ثم من؟ قال : "ثم أمك" قال : ثم من؟ قال : " ثم ابوك ". فهذا الحديث يدلّ على أن محبة الأم والشفقةَ عليها ينبغى أن تكون ثلاثةَ أمثال محبة الأب؛ لذكر النبىّ صلى الله عليه وسلم الأمّ ثلاث مرات وذِكْرِ الأب فى الرابعة فقط . وإذا توصّل(1) هذا المعنى شهد له العيان. وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب . ورُوى عن مالك أن رجلا قال له : إن أبى فى بلد السودان، وقد كتب إلىّ أن أقدَم عليه، وأمّى تمنعنى من ذلك؛ فقال له : أطع أباك، ولا تَعْص أمك . فدلّ قول مالك هذا أن بِرّهما متساوٍ عنده . وقد سئل الليث عن هذه المسئلة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لها ثلثى البر . وحديث أبى هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجة على من خالف . وقد زعم المحاسِبى فى (كتاب الرعاية) له أنه لاخلاف بين العلماء أن للأم ثلاثةَ أرباع البر وللأب الربع؛ على مقتضى حديث أبى هريرة رضى الله عنه . والله أعلم .

السابعــة — لا يختص برّ الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرّهما ويحسن إليهما إذا كان لها عهد؛ قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ »(2) . وفى صحيح البخارىّ عن أسماء قالت : قَدِمتْ أمّى وهى مشركة فى عهد قريش ومدّتهم إذ عاهدوا النبىّ صلى الله عليه وسلم مع أبيها، فاستفتيتُ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمّى قَدِمت وهى راغبة(3) أفأصلها؟ قال : " نعم صِلِى أمّك ".

---

(1) كذا فى الأصول . (2) آية ٨ سورة الممتحنة . (3) قولها راغبة : أى راغبة فى برى وصلتى، أو راغبة عن الإسلام كارهة له .

وروى أيضا عن أسماء قالت : أتتني أمي راغبة في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم فسألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أأصلها ؟ قال : " نعم " . قال ٱبن عُيينة : فأنزل الله عز وجل فيها : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الأول معلّق والثاني مسند .

الثامنـــة — من الإحسان إليهما والبرّ بهما إذا لم يتعيّن الجهاد ألّا يجاهد إلا بإذنهما . روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليــه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال : " أحَيٌّ والداك " ؟ قال نعم . قال : " ففيهما فجاهد " . لفظ مسلم . في غير الصحيح قال : نعم؛ وتركتهما يبكيان . قال : " اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما " . وفي خبر آخر أنه قال : " نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معي " . ذكره ٱبن خُوَيْزمنداد . ولفظ البخاريّ في كتاب برّ الوالدين : أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السَّائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يبايعه على الهجرة، وتَرَكَ أبويه يبكيان فقال: "ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما". قال ابن المنذر : في هــذا الحديث النّهيُ عن الخروج بغير إذن الأبوين مالم يقع النَّفير؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع . وذلك بيِّن في حديث أبي قتادة أن رســول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيش الأمراء ...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رَوَاحة وأن منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بعــد ذلك : أن الصلاة جامعة ؛ فٱجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس، ٱخرجوا فأمِدّوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد " فخرج الناس مشاةً وركبانا في حَرٍّ شــديد . فدلّ قوله : " ٱخرجوا فأمدوا إخوانكم " أن العــذر في التخلف عن الجهاد إنما هو مالم يقع النفير؛ مع قوله عليه السلام: "فإذا استنفرتم فانفُروا".

قلت : وفي هذه الأحاديث دليل على أن المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدّم الأهم منها . وقد استوفى هذا المعنى المحاسبيُّ في كتاب الرعاية .

التاســعة — واختلفوا في الوالدين المشركَيْن هــل يخرج بإذنهما إذا كان الجهـاد من فروض الكفاية ؛ فكان الثَّوْريّ يقول : لا يغزو إلا بإذنهما . وقال الشافعيّ : له أن يغزو

بغير إذنهما . قال ابن المنذر : والأجداد آباء ، والجدّات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم ، ولا اعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات . وكان طاوس يرى السّــعى على الأخوات أفضل من الجهاد فى سبيل الله عز وجل .

العــاشرة — من تمام بِرِّهما صِلة أهل وُدِّهما ؛ ففى الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن من أبَرّ البر صلةَ الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يُوَلِّىَ". وروى أبو أُسَيد وكان بَدْرِيًّا قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا فجاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقى من برِّ والدَىّ من بعد موتهما شيء أبَرّهما به ؟ قال : " نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما و إنفاذ عهدهما بعدهما و إكرام صديقهما وصلة الرحم التى لارحم لك إلا من قبلهما فهذا الذى بقى عليك ". وكان صلى الله عليه وسلم يُهدى لصدائق خديجة بِرًّا بها ووفاء لها وهى زوجته ، فمــا ظنّك بالوالدين .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خصّ حالة الكبر لأنها الحالة التى يحتاجان فيها إلى برّه لتغيّر الحال عليهما بالضّعف والكبر؛ فألزم فى هذه الحالة من مراعاة أحوالها أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنهما فى هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه ، فيحتاجان أن يَلِىَ منهما فى الكبر ما كان يحتاج فى صغره أن يليَا منه؛ فلذلك خصّ هذه الحالة بالذكر . وأيضا فطول المكث للرء يوجب الاستثقال للرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لها أوداجه ، ويستطيل عليهما بدالّة البنوّة وقلّة الديانة ، وأقلّ المكروه ما يظهره بتنفسه المتردَّد من الضجر . وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة ، وهو السالم عن كل عيب فقال : « فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًــا » . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رَغِمَ أنفُه رغم أنفه رغم أنفه" قيل : مَن يارسول الله؟ قال : " مَن أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنــة " . وقال البخارى فى كتاب بر الوالدين : حدّثنا مسدّد حدّثنا بشر بن المفضل حدّثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبى سعيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال :

” رَغِم أنف رجل ذُكِرت عنــده فلم يصلّ علىّ . رَغِمَ أنفُ رجل أدرك أبويه عنـد الكبر أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنـة . ورغم أنف رجل دخل عليـه رمضان ثم ٱنسلخ قبـل أن يُغفر له “ . حدّثنا ٱبن أبى أُوَيْس حدّثنى أخى عن سليمان بن بلال عن محمـد بن هلال عن سـعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة السالمىّ عن أبيـه رضى الله عنه قال : إن كعب بن عُجْرة رضى الله عنه قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ” أحضروا المنبر “ فلما خرج رَقِىَ [إلى] المنبر، فرقى فى أوّل درجة منه قال آمين ثم رقى فى الثانية فقال آمين ثم لمـا رقى فى الثالثة قال آمين ، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا : يارسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسمعه منك ؟ قال : ” وسمعتموه “ ؟ قلنا نعم . قال : ” إن جبريل عليه السـلام اعترض قال : بَعُـد من أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلما رَقِيت فى الثانية قال بَعُـدَ من ذُكِرتَ عنـده فلم يصل عليك فقلت آمين فلما رقيت فى الثالثة قال بَعُـدَ من أدرك عنده أبواه الكبرَ أو أحدُهما فلم يُدخلاه الجنـة قلت آمين “ . حدّثنا أبو نعيم حدّثنا سـلمة بن وردان سمعت أنسا رضى الله عنه يقول : ارتقى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم على المنبر درجة فقال آمين ثم ارتقى درجة فقال آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين، ثم استوى وجلس فقال أصحابه : يا رسول الله، علام أمّنت ؟ قال : ” أتانى جبريل عليـه السلام فقال رَغِم أنف من ذُكِرتَ عنـده فلم يصلّ عليك فقلت آمين ورغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنـة فقلت آمين “ الحـديث . فالسعيد الذى يبادر اغتنام فرصة بِرّهما لئلا تفوته بموتهما فينـدم على ذلك . والشقىّ من عقّهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرّهما .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ أى لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرّم . وعن أبى رجاء العُطَارِدىّ قال : الأُفّ الكلام القَذَع الردىء الخفىّ . وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما فى حال الشـيخ الغائطَ والبول الذى رأياه منك فى الصغر فلا تَقْذَرْهما وتقول أُفّ . والآية أعمّ من هـذا . والأُفّ والتُّفّ وسخ الأظفار . ويقال لكل ما يُضجر ويستثقل : أُفّ له . قال الأزهرى : والتُّفّ أيضا الشىء الحقـير . وقرئ « أُفٍّ » منوّن

مخفوض؛ كما تُخفض الأصوات وتُنَوَّن، تقول : صَهٍ ومهٍ . وفيه عشر لغات : أَفّ، وأفٍّ، وأفٌّ، وأُفًّا وأفٍّ، وأُفٌّ، وأُفَّهْ، و إفْ لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وأُفًا (مخففة الفـاء) . وفي الحديث : " فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أف أف " . قال أبو بكر : معناه استقذار لمـا شَمّ . وقال بعضهم : معنى أف الاحتقار والاستقلال؛ أُخذ من الأَفَف وهو القليل . وقال القُتَبِيّ : أصله نفخك الشيء يَسـقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل . وقال أبو عمرو ابن العَلاء : الأفّ وسخ بين الأظفار، والتُّفّ قُلامتها . وقال الزجاج : معنى أف النَّتْن . وقال الأَصْمعِيّ : الأف وسخ الأذن، والتّف وسخ الأظفار؛ فكثر استعماله حتى ذكر في كل ما يُتأذّى به . وروى من حديث عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو علم الله من العقوق شيئا أردأ من «أف» لذكره فليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النـار . وليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة " . قال علماؤنا : و إنمـا صارت قولة « أف » للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ، وجحد التربية و ردّ الوصية التي أوصاه في التنزيل . و «أفّ» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه : « أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ »(1) أي رَفْض لكم ولهذه الأصنام معكم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النَّهْر : الزجر والغلظة . ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي لَيِّنًا لطيفا، مثل : يا أبتاه ويا أمّاه، من غير أن يسميهما و يُكَنّيهما؛ قاله عطاء . وقال ابن البَدّاح التُّجِيبيّ(2) : قلت لسعيد بن المسيّب كلّ ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله : « وقل لهما قولا كريما » ما هـذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيّب : قولُ العبـد المذنب للسيد الفَظّ الغليظ .

الرابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلّل الرعيـة للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

---

(1) آية ٦٧ سورة الأنبياء . (2) كذا في الأصول . والذي في ابن جرير والدر المنثور : «أبو الهدّاج» .

المسيّب . وضَربَ خَفْضَ الجناح ونصبه مثلا لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده . والذل : هو اللين . وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذَلّ يَذِل ذُلًّا وذِلّة ومَذلة فهو ذالّ وذليل . وقرأ سعيد بن جُبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذِّل» بكسر الذال، ورُويت عن عاصم؛ من قولهم : دابّة ذَلول بينة الذِّل . والذِّل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب . فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذِلة ، في أقواله وسكناته ونظره ، ولا يُحِدّ إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب .

الخامسة عشرة — الخطاب في هذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته؛ إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان . ولم يذكر الذلّ في قوله تعالى : « واخْفِض جَناحَك لِمنِ اتّبعكَ مِن المؤمِنين »(١) وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده . و « مِن » في قوله : « مِنَ الرَّحْمةِ » لبيان الجنس ، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنّة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالا . ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده بالترحّم على آبائهم والدعاء لهم، وأنْ ترحمهما كما رحماك وتَرْفُق بهما كما رَفَقا بك؛ إذ وَلِياك صغيرا جاهلا محتاجا فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك، وتعرّيا وكَسَواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحدَّ الذي كنت فيه من الصغر، فتَلِي منهما ما وَلِيَا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدّم . قال صلى الله عليه وسلم : "لا يَجْزِي ولد والدًا إلا أن يجده مملوكا فيشترِيَه فيُعْتِقه" . وسيأتي في سورة « مريم » الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ خصّ التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقا لهما وحنانا عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للشركين الأموات ولو كانوا أولي قُرْبَى، كما تقدم(٢) . وذُكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله : « ما كانَ لِلنّبيّ والذِينَ آمنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ — إلى قوله — أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » فإذا كان والدا المسلم ذِمّيّيْن استعمل

---

(١) آية ٢١٥ سورة الشعراء . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية .

معهما ما أمره الله به هاهنا؛ إلا الترحم لهما بعـد موتهما على الكفر؛ لأن هـذا وحده نسخ بالآية المذكورة . وقيل : ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيّين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خُصّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لاسيما وقد قيل إن قوله : « وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا » نزلت في سـعد بن أبي وقّاص، فإنه أسـلم، فألقت أمه نفسها في الرَّمْضَاء متجرِّدة، فذكر ذلك لسعد فقـال : لِتَمُتْ، فنزلت الآية . وقيـل : الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين . والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " من أمسى مُرْضِيًا لوالدَيْه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا . ومن أمسى وأصبح مُسْخطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا " فقال رجل : يارسول الله، وإن ظلماه ؟ قال : "وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه" . وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنـه قال : جاء رجل إلى النبيّ صـلى الله عليه وسلم فقال : يا رسـول الله، إن أبي أخذ مالي . فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم للرجل : " فأتني بأبيك " فنزل جبريل عليه السلام على النبيّ صـلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فآسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه " فلمـا جاء الشيخ قال له النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " ما بال آبنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ " فقال : سـله يارسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إيهِ[1]، دعنا من هـذا . أخبرني عن شيء قلتَه في نفسك ما سمِعَتْه أذناك " ؟ فقال الشيخ : والله يارسول الله، مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا، لقـد قلتُ في نفسي شيئا ما سمعته أذناي . قال : " قل وأنا أسمع " قال قلت :

---

(١) إيه (بكسر الهاء) : كلمة استزادة واستنطاق . وإذا قلت « إيهًا » بالنصب والتنوين فإنما تأمره بالسكوت . وقال ابن سيده : « وإيه (بالكسر) كلمة زجر بمعنى حسبك، وتنون فيقال إيهًا » . وحكى عن الليث : « إيه وإيهِ في الاستزادة والاستنطاق . وإيهِ وإيهًا في الزجر؛ كقولك : إيه حسبك، وإيهًا حسبك » .

غَذَوْتُكَ (١) مولودا ومُنْتُــك (٢) يافعا * تُعَــلّ بمــا أُجْنِي عليك وتُنْهَلُ
إذا ليــلةٌ ضافَتْك (٣) بالسُّقم لم أَبِتْ * لسُقْمك إلا ساهرا أتملمـــلُ
كأني أنا المطروق دونك بالذي * طُرِقتَ به دوني فَعَيْنِي تَهْمُــلُ
تخاف الرَّدَى نفسي عليك وإنهــا * لتعــلم أن الموت وقتٌ مؤجل
فلما بلغتَ السنّ والغايةَ التي * إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمّلُ
جعلتَ جزائي غِلظــةً وفظاظة * كأنك أنت المُنْعِمُ المتفضِّـــلُ
فليتَك إذ لم تَــرْعَ حقّ أبوّتي * فعلتَ كما الجار المُصاقِب يفعل
فأوليتني حــقّ الجوار ولم تكن * عليّ بمــال دون مالك تَبْخَــلُ

قال : فحينئذ أخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : " أنت ومالك لأبيك " . قال الطبراني : اللخميّ لا يروى — يعني هذا الحديث — عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرّد به عبيد الله بن خلصة . والله أعلم .

قوله تعالى : رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)

قوله تعــالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما ، أو من غير ذلك من العقوق ، أو من جعل ظاهر برّهما رياء . وقال ابن جُبير : يريد البادرة التي تبدر، كالفَلْتة والزَّلة، تكون من الرجل إلى أبويه او أحدهما ، لا يريد بذلك بأسا؛ قال الله تعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا صالِحِينَ ﴾ أي صادقين في نيــة البرّ بالوالدين فإن الله يغفر البادرة . وقوله : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأَوْبة بعد الأوبة

(١) نسبت هذه الأبيات في أشعار الحماسة لأمية بن أبي الصلت . قال التبريزي : « وتروى لابن عبد الأعلى . وقيل لأبي العباس الأعمى » . (٢) في الأصول : «وصنتك» . وفي أشعار الحماسة : «وعلتك» أي قمت بمؤونتك . و « يافعا » شابا . و « تعل » من عله يعله ، سقاه ثانية . و «أجنى» أكسب . و « تنهل » من أنهله ، سقاه أول سقية . (٣) في الحماسة :

اذا ليــلة نابتك بالشكو لم أبت * لشكواك ... ... الخ .

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . قال سعيد بن المسيِّب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب . وقال ابن عباس رضى الله عنه : الأوّاب : الحفيظ الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها . وقال عُبيد بن عُمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . وهـذه الأقوال متقاربة . وقال عَون العُقَيْلىّ : الأوّابون هم الذين يصلون صلاة الضحا . وفى الصحيح : " صـلاة الأوّابين حين تَرْمَض الفِصال (١) " . وحقيقة اللفظ من آب يؤوب إذا رجـــع .

قوله تعـالى : وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أى كما راعيت حق الوالدَيْن فصِل الرحم ، ثم تصدّق على المسكين وابن السبيل . وقال علىّ بن الحسين فى قوله تعـالى « وآتِ ذا القُرْبَى حَقّه » : هم قرابة النبىّ صلى الله عليه وسـلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم حقوقَهم من بيت المـال ، أى من سهـم ذَوِى القربى من الغَزْوِ والغنيمة ، ويكون خطابا للولاة أو من قام مقامهـم . والحق فى هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم ، وسَـدّ الخَلّة ، والمواساة عند الحاجة بالمـال ، والمعونة بكل وجه .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُبَـذِّرْ ﴾ أى لا تُسرف فى الإنفاق فى غير حق . قال الشافعىّ رضى الله عنه : والتبذير إنفاق المـال فى غير حقه ، ولا تبذير فى عمل الخير . وهذا قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المـال من حقه ووضعُه فى غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله تعـالى : « إنّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشياطـين » وقوله

(١) هى أن تحمى الرمضاء ، وهى الرمل ، فتبرك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها .

« إخوان » يعنى أنهم فى حكمهم ؛ إذ المبـذّر ساعٍ فى إفساد كالشياطين، او أنهـم يفعلون ما تسوّل لهم أنفسهـم، أو أنهم يُقرَنون بهم غدا فى النار؛ ثلاثة أقوال . والإخوان هنا جمع أخٍ من غير النسب؛ ومنه قوله تعـالى : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »(١) . وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أى آحذروا متابعته والتشبه به فى الفساد . والشيطان اسم الجنس . وقرأ الضحاك « إخوان الشيطان » على الآنفراد، وكذلك ثبت فى مصحف أنس بن مالك رضى الله عنه .

الثالثـــة — من أنفق ماله فى الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرّضه بذلك للنفاد فهو مبذّر . ومن أنفق رِبْح ماله فى شهواته وحَفِظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر . ومن أنفق درهما فى حرام فهو مبذّر، ويُحجر عليـه فى نفقته الدرهم فى الحرام، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد .

قوله تعـالى : وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُـمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَـةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع؛ أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتَحْرِمهم . وإنما يجوز أن تُعرض عنهم عند عجـزٍ يَعْرِض وعائق يعوق، وأنت عنـد ذلك ترجو من الله سـبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل؛ فإن قعد بك الحال فقُلْ لهم قولا ميسورا .

الثانيـــة — فى سبب نزولها؛ قال ابـن زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يسـئلون رسول الله صلى الله عليه وسـلم فيأبَى أن يعطيَهم ؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المـال فى فساد ،

(١) آية ١٠ سورة الحجرات .

فكان يُعرض عنهم رغبة فى الأجر فى منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . وقال عطاء الخراسانيّ فى قوله تعالى « وإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » قال : ليس هذا فى ذكر الوالدين، جاء ناس من مُزَيْنَةَ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستحملونه ؛ فقال : " لا أجد ما أحملكم عليه " فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنًا ؛ فأنزل الله تعالى : « وَإمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ٱبتغاءَ رحمةٍ من ربِّك تَرْجُوها » . والرحمة الفَيْءُ .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً ﴾ أمره بالدعاء لهم ، أى يسِّر فقرهم عليهم بدعائك لهم . وقيــل : أُدْعُ لهم دعاءً يتضمّن الفتح لهم والإصلاح . وقيــل : المعنى "وإما تعرضن" أى إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يدٍ فقل لهم قولا ميسورا ؛ أى أحسن القول وابسط العذر، وادع لهم بسَعة الرزق، وقل إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ؛ فإن ذلك يعمل فى مَسَرّة نفسه عمل المواساة . وكان عليــه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يُعطِى سكت انتظارا لرزق يأتى من الله سبحانه وتعــالى كراهة الردّ ، فنزلت هــذه الاية ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا سئل وليس عنده ما يعطى قال : " يرزقنا الله وإياكم من فضله" . فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر . وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة . والضمير فى «عنهم» عائد على من تقدّم ذكرهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل . و « قولا ميسورا » أى ليّنــا لطيفا طيبا ، مفعول بمعنى الفاعل ، من لفظ اليسر كالميمون ، أى وعدا جميلا ، على ما بيناه . ولقد أحسن من قال :

إلّا تكن وَرِقٌ يوما أجود بها * للسائلين فإنى ليّن العُــودِ

لا يَعْدَم السائلون الخيرَ من خلقى * إمّا نَوالِى وإمّا حسنُ مردودى

تقول : يَسَّرت لك كذا إذا أعددته .

قوله تعــالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَــا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً ﴿٢٩﴾

فيــــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذى لا يقدر من قلبه على إخراج شىء من ماله ؛ فضرب له مثل الغَلّ الذى يمنع من التصرف باليـد . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : ضرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم مَثَل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد قد ٱضْطَرّت أيديَهما إلى ثُدِيِّهما وتَرَاقِيهما فجعل المتصدِّق كلما تصدّق بصدقة انبسطت[(١)] عنـه حتى تَغْشَى أنامِلَه وتَعْفُوَ أثره[(٢)] وجعل البخيلُ كلمـا همّ بصدقة قَلَصت[(٣)] وأخذت كلُّ حَلْقـة بمكانها . قال أبو هريرة رضى الله عنـه : فأنا رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول[(٤)] بأصبعيه هكذا فى جيْبه فلو رأيتَه يُوَسّعها ولا تتوسّع[(٥)] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ ضرب بَسْطَ اليـد مثلا لذهاب المـال ، فإن قبض الكف يحبس ما فيها ، وبسطها يذهب ما فيها . وهـذا كله خطاب للنبىّ صـلى الله عليه وسـلم والمراد أمته ، وكثيرا ما جاء فى القرآن ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسـلم لمـا كان سيّدَهم وواسطتهم إلى ربهم عبّر به عنهم على عادة العرب فى ذلك . وأيضا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدّخر شيئا لغد ، وكان يجوع حتى يشدّ الحجـر على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة ينفقون فى سـبيل الله جميع أموالهم ، فلم يعنّفهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدّة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط فى الإنفاق ، وإخراج ما حَوَتْه يده من المـال مَن خِيف عليه الحسرة على ما خرج من يده ، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية ، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى خاصّة نفسه ، علّمه فيه كيفية الإنفاق ، وأمره بالاقتصاد . قال جابر وٱبن مسعود : جاء غلام إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمّى

(١) أى انتشرت عنه الجبة . (٢) أى أثر مشيه لسبوغها . (٣) أى انضمت وارتفعت .

(٤) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده ، أى أخذ . وقال برجله ، أى مشى . وكل ذلك على المجاز والاتساع . (٥) جواب لو محذوف ؛ أى لتعجبت .

تسألك كذا وكذا . فقال : "ما عنـدنا اليوم شيء" . قال : فتقول لك اكْسُنِي قميصَك ؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت عُريانا . وفي رواية جابر : فأذّن بلال للصلاة وانتظر رسول صلى الله عليه وسـلم يخرج ، واشتغلت القلوب . فدخل بعضهم فإذا هو عار ؛ فنزلت هذه الآية . وكل هذا في إنفاق الخير . وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام ، كما تقدّم .

الثالثــة — نهت هـذه الآية عن استفراغ الوجد[1] فيما يطرأ أوّلا من سؤال المؤمنين ؛ لئلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له ، أو لئلا يضيّع المنفِق عياله . ونحوُه من كلام الحكمة : ما رأيت قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حق مضيَّع . وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبيَّن حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ قال ابن عرفة : يقول لا تسرف ولا تُتلف مالك فتبقى محسورا منقطعا عن النفقة والتصرف ؛ كما يكون البعير الحسير ، وهو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به ؛ ومنـه قوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »[2] أي كليل منقطع . وقال قتادة : أي نادما على ما سلف منك ؛ فجعله من الحسرة ، وفيه بعد ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِر وحسران ولا يقـال محسور . والملوم : الذي يلام على إتلاف ماله ، أو يلومه من لا يعطيه .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكَ[3] يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

---

(١) الوجد (مثلثة الواو) : اليسار والسعة . (٢) آية ٤ سورة الملك . (٣) هذه الآية لم يتكلم عليها المؤلف ولم تذكر في النسخ التي بين أيدينا ولعله تكلم عليها وحصل سقط من النساخ .

وعبارة ابن جرير الطبري في كلامه على الآية كما وردت في تفسيره : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه ، ويقدر على من يشاء ، يقول : ويقتر على من يشاء منهم فيضيق عليـه . « إنه كان بعباده خبـيرا » يقول : إن ربك ذو خبرة بعباده ، ومن الذي تصلحه السعـة في الرزق وتفسده ، ومن الذي يصلحه الاقتار والضيق ويهلكه . « بصيرا » يقول : هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم . يقول : فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيـه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عمن تكفها عنه وتكفها فيه ؛ فنحن أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم » .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

فيــه مسألتان :

الأولى — قد مضى الكلام فى هذه الآية فى الأنعام، والحمد لله[1]. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملق الرجل أى لم يبق له إلا المَلَقات؛ وهى الحجارة العظام المُلْس. قال الهُذَلِى يصف صائدا:

أتِيحَ لهـا أقَيْـدِرُ ذو حَشِيف * إذا سامَتْ على المَلَقَـات ساما

الواحدة مَلَقَة . والأقَيْدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير . والحَشِيف من الثيـاب : الخَلَق . وسامت مرّت . وقال شَمِر : أملق لازمٌ ومتعـدٍّ، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده . قال أوْس :

* وأَمْلَق ما عندى خطوب تَنَبَّلُ[2] *

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ خِطْـًٔا ﴾ «خطئا» قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر . وقرأ ابن عامر «خَطَأً» بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهى قراءة أبى جعفر يزيد . وهاتان قراءتان مأخوذتان من «خطئ» إذا أتى الذنب على عمـد . قال ابن عرفة : يقال خَطِئ فى ذنبه خَطَأً إذا أثِم فيه، وأخطأ إذا سلك سبيلَ خطأ عامدا أو غير عامد . قال : ويقال خَطِئ فى معنى أخطأ . وقال الأزهرى : يقال خَطِئ يخطأ خِطْئًا إذا تعمّد الخطأ، مثلُ أثِم يَأثم إثمـا . وأخطأ إذا لم يتعمّد، إخطاء وخطأ . قال الشاعر :

دَعِينى إنمـا خَطَئِى وصَوْبِى * علىّ وإنّ ما أهلكتُ مالُ[3]

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) صدر البيت :

* لمـا رأيت العُدْم قيّد نائلى *

(٣) فى الأصول : «وان ما أهلكت مالى» . والتصويب عن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن سلام فى ترجمة أوس بن غَلْفاء، ولسان العرب فى مادة «صوب» . وقبل هذا البيت :

ألا قالت امامة يوم غَوْل * تُقَطَّع يابن غلفـاء الحبال

يقول : وان الذى أهلكت إنمـا هو مال، والمـال يستخلف ولم أتلف عرضا .

وغول : مكان كان فيه وقعة للعرب لضبّة على بنى كلاب . (راجع معجم ياقوت) .

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضدّ الصواب . وفيه لغتان : القصر وهو الجيد ، والمدّ وهو قليل . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «خَطْأً» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة . وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهًا، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطا . قال أبو عليّ : هى مصدر من خاطأ يخاطئ، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه؛ ومنه قول الشاعر :

تَخَاطَأَت النَّبْــلُ أحشاءَه * وأُخِّر يــومِى فــلم أَعْجَـلِ[1]

وقول الآخر فى وصف مَهاة :

تخاطأه القَنّاص حتى وجدتُه * وخرطومُه فى مَنْقع الماء راسبُ

الجوهرى : تخاطأه أى أخطأه؛ وقال أوْفَى بن مطر المـازنى :

ألَا أبلغـا خُلّــتى جابرًا * بأنّ خليلك لم يُقتَــل

تخـاطأت النّبــل أحشاءه * وأُخِّر[1] يومى فــلم يَعْجَــل

وقرأ الحسن «خَطَاء» بفتح الخـاء والطاء والمد فى الهمزة . قال أبو حاتم : لا يعرف هـذا فى اللغة وهى غلط غير جائز . وقال أبو الفتح : الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضا «خَطًى» بفتح الخاء والطاء منوّنة من غير همز .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

فيه مسئلة واحدة :

قال العلماء : قوله تعـالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ أبلغ من أن يقول : ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى . والزنى يمد ويقصر، لغتان . قال الشاعر :

كانت فريضة ما تقول كما * كان الزِّناء فريضةَ الرَّجْمِ

و﴿ سَبِيلًا ﴾ نصب على التمييز، التقدير : وساء سبيله سبيلا . أى لأنه يؤدّى إلى النار . والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفى قبحه لا سيما بحليلة الجـار . وينشأ عنـه استخدام ولد الغير

---

(١) أخر : بمعنى يتأخر، ويجوز « أُخِّرَ » .

واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه . وفى الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أتى بامرأة مُجِحّ (1) على باب فسطاط فقال : " لعله يريد أن يُلِمّ بها " فقالوا : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد هممتُ أن ألعنه لعنًا يدخل معه قبره كيف يُورِّثه وهو لا يحلّ له كيف يستخدمه وهو لا يحلّ له " .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (2) قد مضى الكلام فيه فى الأنعام.

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ أى بغير سبب يوجب القتل. ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ أى لمستحق دمه. . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: الولىّ يجب أن يكون ذكرا؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير . وذكر إسماعيل بن إسحاق فى قوله تعالى: « فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ » ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الولىّ، فلا جَرَم، ليس للنساء حق فى القصاص لذلك ولا أثر

(1) قوله « أتى بامرأة » أى مر عليها فى بعض أسفاره . و «المجح» (بميم مضمومة وجيم مكسورة وحاء مهملة) صفة لامرأة، وهى الحامل التى قربت ولادتها . وقوله : فقال لعله ... الخ فيه حذف تقديره : فسأل عنها فقالوا أَمَة فلان؛ أى مَسْبِيَّته . ومعنى « يلم بها » : أى يطؤها ، وكانت حاملا مسبية ، لا يحل جماعها حتى تضع . وقوله « كيف يورثه ... الخ » معناه : أنه قد تتأخر ولادتها ستة أشهر، بحيث يحتمل كون الولد من هذا السابى، ويحتمل أنه كان ممن قبله . فعلى تقدير كونه من السابى يكون ولدا له ، و يتوارثان . وعلى تقدير كونه من غير السابى لا يتوارثان هو ولا السابى لعدم القرابة، بل له استخدامه لأنه مملوكه . فتقدير الحديث : أنه قد يستلحقه و يجعله ابنا له و يورثه مع أنه لا يحل له توريثه لكونه ليس منه ، ولا يحل توريثه ومزاحمته لباقى الورثة . وقد يستخدمه استخدام العبيد و يجعله عبدا يملكه ، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه اذا وضعته لمدة محتملة كونه من كل واحد منهما ؛ فيجب عليه الامتناع من وطئها خوفا من هذا المحظور . (راجع شرح النووى على صحيح مسلم، كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية) .

(2) راجع ج ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

لعفوها، وليس لها الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد هاهنا بالولى الوارث؛ وقد قال تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» (١)، وقال: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» (٢)، وقال: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» (٣) فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأمّا ما ذكروه من أن الولى فى ظاهره على التذكير وهو واحد، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوى المذكر والمؤنث فيه، وتتمته فى كتب الخلاف. ﴿سُلْطَانًا﴾ أى تسليطا إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدّية؛ قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعى. وقال ابن وهب قال مالك: السلطانُ أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجة. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربى: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصًّا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبى حنيفة: القتل خاصّةً. وقال أشهب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفا، وبه قال الشافعىّ. وقد مضى فى سورة «البقرة» (٤) هذا المعنى.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثـانى — لا يقتل بدل وَلِيّه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث — لا يمثّل بالقاتل؛ قاله طَلْق بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهىٌّ عنه. وقد مضى فى «البقرة» (٤) القول فى هـذا مستوفًى. وقرأ الجمهور «يُسْرِفْ» بالياء، يريد الولى، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى «تسرف» بالتاء من فوق، وهى قراءة حُذيفة. وروى العـلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأوّل. والمعنى عندنا فلا تسرف أيهـا القاتل. وقال الطبرىّ: هو على معنى الخطاب للنبىّ صـلى الله عليه وسـلم والأئمـة من بعده. أى لا تقتلوا غير القاتل. وفى حرف أُبَىّ «فلا تسرفوا فِى القتلِ».

---

(١) آية ٧١ سورة التوبة.		(٢) آية ٧٢ سورة الأنفال.		(٣) آخر سورة الأنفال.

(٤) راجع ج ٢ ص ٢٤٤ وما بعدها طبعة ثانية.

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أى مُعانا، يعنى الولىّ . فإن قيل : وكم من وَلِىّ مخذول لا يصل إلى حقّه . قلنا : المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثة، فأيّها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى . وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصورا . النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه . وروى أنه فى قراءة أُبَىّ « فلا تسرفوا فِى القتلِ إن وَلِىّ المقتولِ كان منصورا » . قال النحاس : الأبْيَنُ بالياء ويكون للولىّ؛ لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل، فهذا للولىّ . وقد يجوز بالتاء ويكون للولىّ أيضا، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة . قال الضحاك : هـذا أوّل ما نزل من القرآن فى شأن القتل، وهى مكية .

قوله تعـالى : وَلَا تَقْـرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قد مضى الكلام فيه فى الأنعام(١) .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه فى غير موضع(٢) . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونَهَى عنــه فهو من العهد . ﴿إِنَّ الْعَهْــدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ عنه، فحذف؛ كقوله : «وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» به وقيل : إن العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال : نقضت، كما تسأل المَوْءُودة تبكيتا لوائدها .

قوله تعـالى : وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْـطَاسِ ٱلْمُسْـتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ تقـدم الكلام فيه أيضا فى الأنعام[1]. وتقتضى هذه الآية أن الكيل على البائع ، وقـد مضى فى سورة «يوسف»[2] فلا معنى للإعادة . والقُسطاس (بضم القاف وكسرها) : الميزان بلغـة الروم ؛ قاله ابن عُزَيز . وقال الزجاج : القسطاس : الميزان صغيرا كان أو كبيرا . وقال مجاهـد : القسطاس العـدل ، وكان يقول : هى لغة رومية ، وكأن الناس قيل لهم : زِنوا بمَعْدَلة فى وزنكم . وقرأ بن كَثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر «القُسطاس» بضم القاف . وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم (بكسر القاف) وهما لغتان .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى وفاءُ الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك وأبرك . « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة . قال الحسن : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : ” لا يقدر رجل على حرام ثم يَدَعُه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك “ .

قوله تعـالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

فيــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أى لا تتبع ما لا تعلم ولا يَعْنِيكَ . قال قتادة : لا تقل رأيتُ وأنت لم تر، وسمعتُ وأنت لم تسمع ، وعلمتُ وأنت لم تعـلم ؛ وقاله ابن عباس رضى الله عنهما . قال مجاهد : لا تذُمّ أحدا بمـا ليس لك به علم ؛ وقاله ابن عباس رضى الله عنهما أيضا . وقال محمد بن الحنفية : هى شهادة الزور . وقال القُتَبى : المعنى لا تتبع الحَدْس

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

والظنون، وكلها متقاربة . وأصـل القَفْو البُهْت والقذفُ بالباطل؛ ومنـه قوله عليه الصلاة والسـلام : "نحن بنو النضر بن كنانة لا نَقفو أُمَّنا ولا ننتفى من أبينا" أى لا نَسُبّ أمنـا . وقال الكُمَيت : —

فـلا أرمى البرىء بغـير ذنب * ولا أَقْفُو الحـواصن إن قُفينا

يقال : قَفَوْتُه أَقْفُوه، وقُفْتُـه أَقُوفُه، وقَفّيتـه إذا ٱتّبَعت أثره . ومنـه القافة لتتبعهم الآثار وقافية كلّ شيء آخره ، ومنه قافية الشِّعر؛ لأنها تقفو البيت . ومنه ٱسم النبيّ صلى الله عليـه وسـلم المُقَفِّى؛ لأنه جاء آخر الأنبيـاء . ومنـه القائف، وهو الذى يتبع أثر الشَّبَه . يقال : قاف القائف يقوف إذا فعـل ذلك . وتقول : فَقَوْت الأثر، بتقـديم الفاء على القـاف . ابنُ عطيـة : ويشبه أن يكون هـذا من تلعّب العرب فى بعض الألفاظ ، كما قالوا : رَعَمْلِى فى لَعَمْرِى . وحكى الطبرىّ عن فرقة أنهـا قالت : قفا وقاف، مثـل عتا وعات . وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثـل جَبَذ وجَذَب . وبالجمـلة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف ، وما أشـبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة . وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائى « تَقُفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الجراح « والفَآد » بفتح الفـاء، وهى لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره .

الثانيــــة — قال ابن خُوَيْزِمنداد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لمـا قال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » دلّ على جواز ما لنا به علم، فكلّ ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به ، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن، وقد يُسَمَّى علما ٱتساعا . فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفـرع بالأصل من طريق الشبه . وفى الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل علىّ مسرورا تَبْرُق أسارير وجهه فقال : "ألم تَرَىْ أن مُجَزِّزًا نظر إلى زيد ابن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غَطّيا رءوسهما وبَدَتْ أقدامهما فقال إن بعض هذه الأقدام لَمِن بعض" . وفى حديث يونس بن يزيد : "وكان مُجَزِّز قائفا" .

الثالثـــة ــ قال الإمام أبو عبـد الله المـازَرِى : كانت الجاهليـة تقـدح فى نسب أسامة لكونه أسـود شديد السـواد ، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن ، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . قال القاضى عِياض : وقال غير أحمد كان زيد أزهرَ اللون ، وكان أسامة شديد الأُدْمة؛ وزيد بن حارثة عربىّ صريح من كَلْب، أصابه سِباء، حسبما يأتى فى سورة « الأحزاب »(١) إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة ــ استدل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع فى الولد، بسرور النبىّ صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف؛ وما كان عليه السلام بالذى يُسَرّ بالباطل ولا يعجبه. ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة و إسحاق والثّوْرِىّ وأصحابهم متمسّكين بإلغاء النبىّ صلى الله عليه وسلم الشبه فى حديث اللّعان؛ على ما يأتى فى سورة « النور » إن شاء الله تعالى .

الخامســـة ــ واختلف الآخذون بأقوال القافـة ، هل يؤخذ بذلك فى أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء، على قولين؛ فالأوّل ــ قول الشافعىّ ومالك رضى الله عنهما فى رواية ابن وهب عنه، ومشهورُ مذهبه قَصْرُه على ولد الأَمَة . والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعىّ رضى الله عنه؛ لأن الحديث الذى هو الأصل فى الباب إنما وقع فى الحرائر، فإن أسامة وأباه حُرّان فكيف يُلْغَى السبب الذى خُرّج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليـه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين . وكذلك اختلف هؤلاء، هل يكتفَى بقول واحد من القافة أو لابُدّ من اثنين لأنها شهادة؛ وبالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه . وبالثانى قال مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أى يسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع . وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : ” كلّكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته “

(١) راجع المسألة الخامسة من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين ... » آية ٤

فالإنسان راع على جوارحه ؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسئولا ، فهو على حذف مضاف . والمعنى الأول أبلغ فى الحجة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزى ؛ كما قال : « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[1] ، وقوله « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[2] . وعبّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها فى هذه الآية مسئولة ، فهى حالة من يعقل ، فلذلك عبر عنها بأولئك . وقال سيبويه رحمه الله فى قوله تعالى «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» : إنما قال : « رأيتهم » فى نجوم ، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل مَن يعقل عبّر عنها بكناية مَن يعقل ؛ وقد تقدّم[3] . وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد هو والطبرى :

ذُمّ المنازل بعد منزلة اللّوَى * والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده . وأما البيت فالرواية فيه « الأقوام » والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ هذا نَهْيٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ بالتواضع . والمَرَح : شدّة الفرح . وقيل : التكبر فى المشى . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة : هو الخيلاء فى المشى . وقيل : هو البطر والأَشَر . وقيل : هو النشاط . وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمود ؛ فالتكبّر والبَطَر والخُيَلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود . وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ؛ ففى الحديث الصحيح " لَلّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل ... " الحديث . والكسل

(١) آية ٦٥ سورة يس. (٢) آية ٢٠ سورة فصلت. (٣) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية.

مذموم شرعا والنشاط ضـدّه . وقد يكون التكبر وما فى معناه محمودا ، وذلك على أعداء الله والظلمة . أسـند أبو حاتم محمد بن حِبّان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مِن الغَيْرة مايبغض الله عز وجل ومنها مايحب الله عز وجل ومن الخُيَلاء مايحب الله عز وجل ومنها مايبغض الله فأما الغيرة التى يحب الله الغَيْرةُ فى الدِّين والغيرة التى يبغض الله الغيرةُ فى غير دينه والخيلاء التى يحب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذى يبغض الله الخيلاء فى الباطل " وأخرجه أبو داود فى مصنَّفه وغيره . وأنشـــدوا :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا * فكم تحتهـا قوم همو منـك أرفع

وإن كنتَ فى عزٍّ وحِرْز ومَنْعة * فكم مات من قوم همو منك أمنع

الثانيـــة — إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفُّعاً دون حاجة إلى ذلك داخل فى هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى . وأما الرجل يستريح فى اليوم النادر(١) والساعة من يومه ، يُجِمّ فيهـا نفسه فى التطرّح والراحة ليستعين بذلك على شـغل من البر، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل فى هذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ مَرَحاً ﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء . وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بنـاء آسم الفاعل . والأوّل أبلغ، فان قولك : جاء زيد ركْضاً أبلغ من قولك : جاء زيد راكضا؛ فكذلك قولك مَرَحًا . والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحًا .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ يعنى لن تتولج باطنها فتعلم ما فيها ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ أى لن تساوى الجبال بطولك ولا تطاولك . ويقال : خرق الثوب أى شـقه، وخرق الأرض قطعها . والخَرْق : الواسع من الأرض . أى لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها . ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بعظمتك، أى بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ، بل أنت عبد ذليل، محاط بك من تحتك ومن فوقك، والمحاط محصور ضعيف؛ فلا يليق بك

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى اليوم البارد » .

التكبر. والمراد بخرق الأرض هنا نقبها لا قطعها بالمسافة؛ والله أعلم. وقال الأزهرى: معناه لن تقطعها. النحاس: وهذا أبين؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهى الصحراء الواسعة. ويقال: فلان أخرق من فلان، أى أكثر سفرا وعزة ومَنعة. ويروى أن سَبَأ دوّخ الأرض بأجناده شرقا وغربا وسَهْلا وجبلا، وقتل سادة وسبي — وبه سُمّى سبأ — ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال: إنى لما نلت مالم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هـذه النعم، فلم أر أوقع فى ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أوّل عبادة الشمس؛ فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح، نعوذ بالله من ذلك.

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ «ذلك» إشارة إلى جملة ما تقـدّم ذكره مما أمر به ونَهَى عنـه. و «ذلك» يصلح للواحد والجمـع والمؤنث والمذكر. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى ومسروق «سـيئُه» على إضافة سَيِّئ إلى الضمير، ولذلك قال: «مَكْرُوهًا» نصب على خبر كان. والسيِّئ: هو المكروه، وهو الذى لا يرضاه الله عن وجل ولا يأمر به. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآى من قوله: «وقَضَى ربُّك — إلى قوله — كان سيّئُه» مأمورات بهـا ومنهيات عنها، فلا يخـبر عن الجميع بأنه سيّئة فيدخل المأمور به فى المنهىّ عنـه. واختار هـذه القراءة أبو عبيد. ولأن فى قراءة أُبَىّ «كلُّ ذٰلِك كان سيئاته» فهـذه لا تكون إلا للإضافة. وقـرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «سيئةً» بالتنوين؛ أى كل ما نهى الله ورسوله عنـه سيئة. وعلى هـذا انقطع الكلام عنـد قوله: «وأَحْسَـنُ تَأْوِيلًا» ثم قال: «وَلَا تَقْفُ ما ليسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»، «وَلَا تَمْشِ»، ثم قال: «كُلُّ ذلك كان سيِّئةً» بالتنوين. وقيل: إن قوله «ولا تقتلوا أولادَكم» إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنة فيـه، فجعلوا «كلا» محيطا بالمنهىّ عنه دون غيره. وقوله: «مكروها» ليس نعتا لسيئة، بل هو بدل منـه؛ والتقدير: كان سيئة وكان مكروها. وقد قيل: إن «مكروها» خبر ثان لكان حمل على لفظة كلّ، و «سيئة» محمول على المعنى فى جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ. وقال بعضهم: هو نعت لسيئة؛ لأنه لما كان

تأنيثها غير حقيق جاز أن توصف بمذكر . وضعّف أبو على الفارسيّ هذا وقال : إن المؤنث إذا ذُكّر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده مذكرا، وإنما التساهل أن يتقدّم الفعل المسند إلى المؤنث وهو فى صيغة ما يسند إلى المذكّر؛ ألا ترى قولَ الشاعر :

فــلا مزنة ودَقَتْ وَدْقَها * ولا أرضَ أبقــل إبقالها

مستقبح عندهم . ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قبيحا . قال أبو عليّ : ولكن يجــوز فى قوله « مكروها » أن يكون بدلا من « سيئة » . ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذى فى « عند ربك » ويكون « عند ربك » فى موضع الصفة لسيئة .

الخامســـة ــ استدلّ العلماء بهذه الآية على ذمّ الرّقْص وتعاطيه . قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل : قــد نصّ القرآن على النّهى عن الرقص فقال : « ولا تمش فى الأرض مَرَحًا » وذم المختال . والرقصُ أشــد المرح والبطر . أو لسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمــر لاتفاقهما فى الإطراب والسكر، فمــا بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشِّعر معــه على الطُّنبور والمزمار والطّبل لاجتماعهما . فمــا أقبح من ذى لِحْية ، وكيف إذا كان شيبةً ، يرقص و يصفّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصا إن كانت أصواتٌ لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والســؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى الدّارين ، يَشْمُس(١) بالرقص شمس البهــائم ، و يصفّق تصفيق النسوان ، ولقد رأيت مشايخ فى عمرى ما بان لهم سِنّ من التبسّم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطتى لهم . وقال أبو الفرج ابن الجوزى رحمــه الله : ولقد حدّثنى بعض المشايخ عن الإمام الغزالى رضى الله عنــه أنه قال : الرقص حمــاقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب . وسيأتى لهــذا الباب مزيد بيــان(٢) فى « الكهف(٣) » وغيرها إن شاء الله تعالى .

---

(١) شمست الدابة : شردت وجمحت .
(٢) فى المسألة الثانية من قوله تعالى : « وربطنا على قلوبهم ... » آية ١٤
(٣) فى أول سورة لقمان .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

الإشارة بـ«ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التى تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التى نزل بها جبريل عليه السلام . أى هذه من الأفعال المحكمة التى تقتضيها حكمة الله عز وجل فى عباده، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعانى المحكمة والأفعال الفاضلة . ثم عطف قوله « ولا تجعل » على ما تقدّم من النواهى . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر . والمدحور : المُهان المبعد المُقْصَى . وقد تقدّم فى هذه السورة[(١)] . ويقال فى الدعاء : اللهم ٱدْحر عنا الشيطان؛ أى أبعده .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا ردّ على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضا مع البنين، ولكنه أراد : أفأخلص لكم البنين دونه وجعل البنات مشتركة بينكم و بينه . ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً ﴾ أى فى الإثم عند الله عز وجل .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أى بيّنا . وقيل كررنا . ﴿ فى هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ قيل « فى » زائدة، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن؛ مثلُ « وأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى» أى أصلح ذريتى . والتصريف : صرف الشيء من جهة إلى جهة . والمراد بهـذا التصريف البيان والتكرير . وقيل : المغايرة؛ أى غايرنا بين المواعظ ليذّكروا و يعتبروا و يتّعظوا . وقراءة العامة « صَرّفنا »

---

(١) راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء .

بالتشـديد على التكثير حيث وقع . وقرأ الحسن بالتخفيف . وقوله « فى هـذا القرآن » يعنى الأمثال والعِبَر والحِكَم والمواعظ والأحكام والإعلام . قال الثعلبى : سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبى الطيب : لقوله تعالى « صرفنا » معنيان ، أحدهما لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومُحْكَما ومتشابها ونهيا وأمرا وناسخا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا ، مثل تصريف الرياح من صَبًا ودَبُور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من الماضى والمستقبل والأمر والنّهى والفعل والفاعل والمفعول ونحوها . والثانى أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوما ، نحو قوله « وقرآنا فرقناه » ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك . ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائى « لِيَذْكُرُوا » مخففا ، وكذلك فى الفرقان « ولقد صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُروا »(١) . الباقون بالتشديد . واختاره أبو عبيد ، لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا . قال المَهْدوِى : من شدّد « لِيَذَّكَّروا » أراد التدبر . وكذلك من قرأ « لِيَذْكُروا » . ونظير الأول « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »(٢) والثانى — « وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ »(٣) . ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أى التصريف والتذكير . ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار ، وذلك لأنهم اعتقدوا فى القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر .

قوله تعالى : قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ » وهو ردّ على عُبّاد الأصنام . ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحفص « يقولون » بالياء . الباقون « تقولون » بالتاء على الخطاب . ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا ﴾ يعنى الآلهة . ﴿ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ قال ابن العباس رضى الله تعالى عنهما : لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقال سعيد بن جُبير رضى الله تعالى عنه : المعنى إذًا لطلبوا

---

(١) آية ٥٠ .	(٢) آية ٥١ سورة القصص .	(٣) آية ٦٣ سورة البقرة .

طريقا إلى الوصــول إليه ليزيلوا ملكه ، لأنهـم شركاؤه . وقال قَتادة : المعنى إذًا لَأبْتَغَتْ الآلهة القُرْبة إلى ذى العرش سبيلا ، والتمست الزُّلْفة عنده لأنهم دونه ، والقوم آعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى ، فإذا آعتقدوا فى الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ نزّه سبحانه نفسه وقدّســه ومجده عما لا يليق به . والتسبيح : التنزيه . وقد تقدّم[1] .

قوله تعـالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل ، لمـا أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عمّ بعــد ذلك الأشــياء كلّها فى قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَــبِّحُ بِحَمْدِهِ » . واختلف فى هــذا العموم ، هل هو مخصّص أم لا ؛ فقالت فرقة : ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل محــدَث يشهد على نفســه بأن الله عز وجل خالق قادر . وقالت طــائفة : هــذا التسبيح حقيقة ، وكلّ شيء على العموم يسبّح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأوّلون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : « لا تفقهون » الكفارُ الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى فى الأشياء . وقالت فرقة : قوله « مِنْ شَيْءٍ » عموم ، ومعناه الخصوص فى كل حَىّ ونامٍ ، وليس ذلك فى الجمادات . ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبّح . وقال يزيد الرَّقَاشِيّ للحسن وهما فى طعام وقد قُدِّم الِخوان : أيسبّح هــذا الخِوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرّة ؛ يريد أن الشجرة فى زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبّح ، وأما الآن فقد صار خِوانا مدهونا .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

قلت : ويستدلّ لهذا القول من السُّنّة بما ثبت عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرين فقال : " إنهما لَيُعَذَّبان وما يُعَذَّبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنَّمِيمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول " قال : فدعا بعَسِيب رَطْب فشقّه آثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : "لعلّه يخفّف عنهما ما لم يَيْبَسَا". فقوله عليه الصلاة والسلام . " ما لم ييبسا " إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبّحان، فإذا يبسا صارا جمادا . والله أعلم . وفى مسند أبى داود الطّيالسى : فوضع على أحدهما نصفا وعلى الآخر نصفا وقال : " لعـله أن يهوّن عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شىء " . قال علماؤنا : ويستفاد من هـذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفف عنهـم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بينا هـذا المعنى فى (كتاب التذكرة) بيانا شافيا، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهْدَى إليه . والحمد لله على ذلك . وعلى التأويل الثانى لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كل شىء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدلّ لهذا التأويل وهـذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعـالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ »(١)، وقـوله : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »(٢) — على قول مجاهـد — ، وقوله : « وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا »(٣) . وذكر ابن المبارك فى (دقائقه) أخبرنا مِسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن الجبـل يقول للجبل : يا فلان، هل مرّ بك اليوم ذاكرٌ لله عز وجل ؟ فإن قال نعم سُرّ به . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا » الآية . قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير . وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : يا جاراه، هل مرّ بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليـك ؟ فمن قائلة لا ، ومن قائلة نعم ، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها . وقال رسول الله صلى

---

(١) آية ١٧ سورة ص . (٢) آية ٧٤ سورة البقرة . (٣) آية ٩٠ سورة مريم .

الله عليه وسلم : "لا يَسمع صــوتَ المؤذن جِنٌّ ولا إنس ولا شجر ولا حَجَر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة" . رواه ابن ماجه فى سننه ، ومالك فى موطّئه من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنــه . وخرّج البخارىّ عن عبــد الله رضى الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . فى غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صــلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفى صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَة رضى الله عنه قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن" . قيل : إنه الحجر الأسود، والله أعلم . والأخبار فى هــذا المعنى كثيرة ؛ وقد أتينا على جمــلة منها فى اللّمع اللؤلؤية فى شرح العشرنيات النبوية للفادارى رحمه الله ، وخبر الجذع أيضا مشهور فى هذا الباب خرّجه البخارى فى مواضع من كتابه . وإذا ثبت ذلك فى جماد واحد جاز فى جميع الجمادات ، ولا آستحالة فى شيء من ذلك ؛ فكل شيء يسبح للعموم . وكذا قال النَّخَعِىّ وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب . واحتجّوا بالأخبار التى ذكرنا . وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تُلْقَى بتسبيحة من حيث ما انصرفت * وتَســتقر حَشَــا الرائى بَتْرَعادِ

أى يقول من رآها : ســبحانَ خالِقها . فالصحيح أن الكل يســبّح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأىّ تخصيص لداود ، وإنمــا ذلك تســبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصّت السنة على مادل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أَوْلى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمــرو ويعقوب وحفص وحمــزة والكسائى وخَلَف « تفقهون » بالتاء لتأنيث الفاعل . الباقون باليــاء، واختاره أبو عبيــد ، قال : للحائل بين الفعل والتأنيث . ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ عن ذنوب عباده فى الدنيا . ﴿ غَفُورًا ﴾ للؤمنين فى الآخرة .

قوله تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » أقبلت العوراءُ أمُّ جميل بنت حرب ولها وَلْوَلة وفي يدها فِهْر[1] وهي تقول :

* مُذَمَّمًا عَصَيْنَا * وأَمْرَه أَبَيْنَا * وَدِينَه قَلَيْنَا[2] *

والنبيّ صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه؛ فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله، لقد أقبلتْ وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها لن تراني" وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال . وقرأ « وإذا قَرَأْتَ القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مَسْتُورًا » . فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر، أُخبِرتُ أن صاحبك هجاني ! فقال : لا وربِّ هذا البيت ما هجاك . قال : فولّت وهي تقول : قد علمتْ قريش أني ابنة سيدها . وقال سعيد بن جُبير رضي الله عنه : لما نزلت «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» جاءت امرأة أبي لهب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر : لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمِعَك ما يؤذيك ، فإنها امرأة بذيّة . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنه سيحال بيني وبينها " فلم تره . فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك! فقال : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فقالت : وإنك لمصدّقه؛ فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله، أمَا رأتك؟ قال: "لا . ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت". وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التي في الكهف « إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْرًا»[3]، والآية التي في النحل

---

(١) الفهر (بالكسر) : الحجر ملء الكف . وقيل : هو الحجر مطلقا . (٢) هذا ما ورد في سيرة ابن هشام . والذي في نسخ الأصل : مذمما أبينا * ودينه قلينا (٣) آية ٥٧

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم »[1] ، والآية التى فى الجاثية[2] « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة »[3] الآية . فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين . قال كعب رضى الله تعالى عنه : فحدثت بهن رجلا من أهل الشام ، فأتى أرض الروم فأقام بها زمانا ، ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه . قال الثعلبى[4] : وهذا الذى يروونه عن كعب حدثت به رجلا من أهل الرىّ فأسر بالديلم ، فمكث زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهن لتلمس ثيابه فما يبصرونه .

قلت : و يزاد إلى هذه الآى أولُ سورة يس إلى قوله «فهم لايبصرون» . فإن فى السيرة فى هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ومقامِ علىّ رضى الله عنه فى فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب فى يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : « يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . — إلى قوله — وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت : ولقد اتفق لى ببلادنا الأندلس بحصن منثور[5] من أعمال قرطبة مثل هذا . وذلك أنى هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج فى طلبى فارسان وأنا فى فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنى عنهما شىء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ، فعبرا علىّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر : هذا دِيبْلُه[6] ، يعنون شيطانا . وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يرونى ، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك . وقيل : الحجاب

(١) آية ١٠٨ (٢) فى الأصول : « فى الشورى » وهو خطأ . (٣) آية ٢٣
(٤) فى بعض الأصول : « الكلبى » . (٥) كذا فى الأصول . (٦) ضبطناها بذلك لأنها ينطق بها فى الاسبانية « ديبلو » (بكسر الدال وفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم اللام) .

المستور طَبْعُ اللهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة؛ قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك و بينه حجاب فى عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية . وقيل : نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل آمرأة أبى لهب وحُوَيطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرّون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره . وهو معنى القول الأوّل بعينه، وهو الأظهر فى الآية، والله أعلم . وقوله : ﴿ مَسْتُورًا ﴾ فيه قولان : أحدهما — ان الحجاب مستور عنكم لا ترونه . والثانى — أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستورا بمعنى ساتر.

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ « اكنة » جمع كِنان، وهو ماستر الشىء . وقد تقدم فى « الأنعام »(١) . ﴿ أَنْ يَفْقَهُوه ﴾ أى لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه، أى أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهى والحكم والمعانى . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أى صمما وثقلا . وفى الكلام إضمار، أى أن يسمعوه . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القُرْآن وَحْدَهُ ﴾ أى قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن . وقال أبو الجَوْزاء أَوْس بن عبد الله : ليس شىء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا « و إذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْا على أدبارِهم نُفُورًا » . وقال على بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تقدم هذا فى البسملة . ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ قيل : يعنى بذلك المشركين . وقيل الشياطين . وَ « نُفُورًا » جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوب على الحال . ويجوز أن يكون مصدرا على غير الصدر؛ إذ كان قوله « وَلَّوْا » بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفورا .

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قيل : الباء زائدة فى قوله « به » أى يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم؛ قاله قتادة وغيره . ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أى متناجون فى أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتى بأساطير الأولين، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا عُتْبة أشرافَ قريش إلى طعام صنعه لهم، فدخل عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله؛ فتناجوا؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا أن يتخذ طعاما ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد، وقال: "قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم" فأبَوْا، وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور؛ فنزلت الآية . وقال الزجاج : النَّجْوَى اسم للمصدر؛ أى وإذ هم ذو نجوى، أى سرار . ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغيرة وأمثالها . ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ أى مَطْبُوبا قد خبله السحر فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس . وقال مجاهد : « مسحورا » أى مخدوعا؛ مثل قوله : « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »(١) أى من أين تخدعون . وقال أبو عبيدة : «مسحورا» معناه أن له سَحْرًا، أى رِئَة، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب؛ فهو مثلكم وليس بملَك . وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سَحْره . ولكل من أكل من آدمى وغيره أو شرب مسحور ومُسَحَّر . قال لبيد :

فإن تسألينا فِيم نحن فإننا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

(١) آية ٨٩ سورة المؤمنون .

وقال امرؤ القيس :

أرانا مُوضِعين لأمرِ غَيْبٍ(١) ۞ ونُسْحَر بالطعام و بالشّرابِ

أى نُغَــذَّى ونُعَلَّل . وفى الحــديث عن عائشــة رضى الله عنها أنهــا قالت : مَن هــذه التى تُساميني من أزواج النبي صلى الله عليــه وسلم، وقد تُوُفِّىَ رسول الله صلى الله عليــه وسلم بين سَحْرِى ونَحْرِى(٢) .

قوله تعـالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَـــبِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ ٱنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ عجّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر . ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أى حِيلة فى صــدّ الناس عنك . وقيل : ضَلُّوا عن الحق فلا يجدون سبيلا، أى إلى الهدى . وقيل: مخرجا؛ لتناقض كلامهم فى قولهم : مجنون، ساحر، شاعر .

قوله تعـالى : وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًـا جَـــدِيدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا ائِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى قالوا وهم يتناجَوْن لمــا سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحورا مخدوعا لمــا قال هذا . قال ابن عباس :الرُّفات الغبار. مجاهد : التراب . والرفات ما تكسّر وبَلِيَ من كل شيء؛ كالفُتات والحُطام والرُّضاض؛ عن أبى عبيــدة والكسائيّ والفرّاء والأخفش . تقول منه : رُفِتَ الشيء رَفْتًا ، أى حُطِم ؛ فهو مرفوت . ﴿ أَئِنَّـا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدا ﴾ « أئنا » اســتفهام والمراد به الجَحْد والإنكار . و « خلقا » نصب لأنه مصدر؛ أى بعثا جديدا . وكان هذا غايةَ الإنكار منهم .

---

(١) أوضع الرجل فى السير إذا أسرع . وقوله «لأمر غيب» يريد الموت ، وأنه قد غيّب عنا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب.   (٢) تريد أنه مات صلى الله عليه وسلم وهو مستند إلى صدرها وما يحاذى سحرها (وهو الرئة).

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ أى قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجـارة أو حديدا فى الشـدّة والقوة . قال الطبرى : أى إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم . وقال علىّ بن عيسى: معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر،لأنه أبلغ فى الإلزام. وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم. وقال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون. النحاس : وهذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة ، وإنمـا المعنى أنهم قـد أقرّوا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ماشئتم، فلوكنتم حجارة أو حديدا لبُعثتم كما خُلقتم أوّل مرة. ﴿ أَوْ خَلْقاً مِمَّـا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال مجاهد : يعنى السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس . وهو معنى قول قتادة . يقول : كونوا ما شئتم، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم. وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو ابن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضحاك : يعنى الموت ؛ لأنه ليس شىء أكبر فى نفس ابن آدم منه ؛ قال أُمَيّة بن أبى الصلت :

* وللمَوْتُ خَلْقٌ فى النفوس فظيع *

يقول . إنكم لو خُلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتنّكم ولأبعثنكم ؛ لأن القدرة التى بها أنشأتكم بها نعيدكم . وهو معنى قوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . وفى الحديث أنه " يؤتى بالموت يوم القيامة فى صـورة كَبْش أَملَح فيذبح بين الجنة والنار" . وقيل : أراد به البعث؛ لأنه كان أكبر فى صدورهم؛ قاله الكلبى. ﴿ فَطَرَكُمْ ﴾ خلقكم وأنشأكم . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أى يحرّكون رءوسهـم استهزاء ؛ يقال :

نَغَض رأسُه يَنْغُض ويَنْغِض نَغْضاً ونُغوضا؛ أي تحرّك . وأنغض رأسه أي حركه، كالمتعجب من الشيء؛ ومنه قوله تعالى : « فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » .

قال الراجـــز :

* أنغض نحوى رأسه وأقنعا[(1)] *

ويقال أيضا : نغض فلان رأسه أي حرّكه؛ يتعــدّى ولا يتعدّى ، حكاه الأخفش . ويقال : نَغَضت سِنّه ؛ أي تحركت وانقلعت .

قال الراجـــز :

* ونغضت من هَرَم أسنانها *

وقال آخـــر :

* لمـا رأتني أنغضتْ لِي الرأسا *

وقال آخـــر :

لا ماء في المَقْراة إن لم تنهض * بمَسَـدٍ فوق المحَـالِ النُّغَّض

المحال والمحالة : البكرة العظيمة التي يستقَى بهـا الإبل . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ أي البعث والإعادة وهـذا الوقت . ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ أي هو قريب؛ لأن عسى واجب؛ نظيره « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً[(2)] » . و « لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ[(3)] » . وكل ما هو آت فهو قريب .

قوله تعـالى : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق ، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج . وقيل : بالصيحة التي يسمعونها؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة . قال صلى الله عليه وسلم : " إنكم تُدْعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم " . ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي باستحقاقه الحمـد على الإحياء .

(1) أقنع فلان رأسه : وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما حيال رأسه من السماء . (2) آية ٦٣ سورة الأحزاب . (3) آية ١٧ سورة الشورى .

وقال أبو سهل : أى والحمد لله؛ كما قال :

فإنى بحمـد الله لا ثوب فاجر * لبِسْتُ، ولا من غَدْرة أتقنّع

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم. قال سعيد بن جُبير: تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمـدك؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم . وقال ابن عباس : « بحمـده » بأمره؛ أى تقرّون بأنه خالقكم . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقيـل : المعنى بقدرته . وقيـل : بدعائه إياكم . قال علماؤنا : وهو الصحيح؛ فإن النفخ فى الصور إنمـا هو سبب لخروج أهل القبور، وبالحقيقة إنمـا هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك . قال: فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به؛ قال الله تعالى «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده» وقال فى آخره « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[1] .﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعنى بين النفختين؛ وذلك أن العذاب يُكفّ عن المعذَّبين بين النفختين، وذلك أربعون عاما فينامون؛ فذلك قوله تعالى : «مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا[2] » فيكون خاصا للكفار . وقال مجاهد : للكافرين هَجْعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صِيح بأهـل القبور قاموا مذعورين . وقال قتادة : المعنى أن الدنيا تحاقرت فى أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة . الحسن : «وَتَظُنُّون إن لبثتم إلا قليلا» فى الدنيا لطول لبثكم فى الآخرة .

قوله تعـالى : وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[3] تقـدّم إعرابه . والآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه، وسبّه عمر وهَمّ بقتله ، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه : « وَقُلْ لِعِبَادِى يقولوا التى هى أحسن » ذكره الثعلبىّ والمـاوَرْدِىّ

(١) آية ٧٥ سورة الزمر . (٢) آية ٥٢ سورة يس . (٣) راجع ج ٩ ص ٣٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

وابن عطية والواحدى . وقيل : نزلت لما قال المسلمون : ايذن لنا يا رسول الله فى قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا ، فقال : " لم أُومَرْ بعدُ بالقتال " فأنزل الله تعالى « وقل لِعِبادِى يقولوا التّى هِى أحسن » ؛ قاله الكلبى . وقيل : المعنى قل لعبادى الذين اعترفوا بأنى خالقهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التى هى أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة . وقيل : المعنى وقل لعبادى المؤمنين إذا جادلوا الكفار فى التوحيد، أن يقولوا الكلمة التى هى أحسن . كما قال : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »(١) . وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله ! يرحمك الله! وهذا قبل أن أمروا بالجهاد . وقيل : المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه؛ وعلى هذا تكون الآية عامّةً فى المؤمن والكافر، أى قل للجميع . والله أعلم . وقالت طائفة : أمر الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصّةً ، بحسن الأدب و إلانة القول، وخفض الجناح وٱطّراح نزغات الشيطان؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " وكونوا عباد الله إخوانا " . وهذا أحسن، وتكون الآية محكمة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بالفساد و إلقاء العداوة والإغواء . وقد تقدّم فى آخر الأعراف ويوسف(٢) . يقال : نزغ بيننا أى أفسد؛ قاله اليزيدى . وقال غيره : النزغ الإغراء . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ أى شديد العداوة . وقد تقدّم فى البقرة(٣) . وفى الخبر " أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكرون الله فحرّش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوموا بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان " . فهذا من بعض عداوته .

---

(١) آية ١٠٨ سورة الأنعام .　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ و جـ ٩ ص ٢٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ هذا خطاب للشركين، والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ؛ قاله ابن جُريج . و « أعلم » بمعنى عليم ؛ نحو قولهم : الله أكبر، بمعنى كبير . وقيــل : الخطاب للؤمنين ؛ أى إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ؛ قاله الكلبي . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أى وما وكّلناك فى منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم ؛ قاله الكلبي . وقال الشاعر :

ذكرت أبا أرْوَى فبتّ كأننى * بردّ الأمور الماضيات وكِيل

أى كفيل .

قوله تعـالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فى السَّمواتِ والأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ أعاد بعد أن قال : « ربكم أعلم بكم » ليبيّن أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين فى أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم ؛ « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »(١) . وكذا النبيّون فضّل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم . وقد مضى القول فى هــذا فى « البقرة »(٢) . ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنمـا هو دعاء وتحميد وتمجيد . أى كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن . وهو فى مُحاجّة اليهود .

قوله تعـالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

(١) آية ١٤ سورة الملك . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِه ﴾ لما ابتليت قريش بالقَحْط وشَكُوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية ؛ أي ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلهة . وقال الحسن : يعني الملائكة وعيسى وعزيرا . ٱبن مسعود : يعني الجن . ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أي القحط سبع سنين، على قول مقاتل . ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السَّقَم إلى الصحة .

قوله تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أولئك الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ « أولئك » مبتدأ « الذين » صفة « أولئك » وضمير الصلة محذوف؛ أي يدعونهم . يعني أولئك المدعوون . و ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبر، أو يكون حالا ، و « الَّذِين يَدْعُون » خبر؛ أي يدعون إليه عبادا إلى عبادته . وقرأ ابن مسعود « تدعون » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر . ولا خلاف في « يبتغون » أنه بالياء . وفي صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود في قوله عز وجل : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوَسِيلة » قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يُعبدون ، فبَقِيَ الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن . في رواية قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون و [الإنس](١) الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » . وعنه أيضا أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب؛ ذكره الماوردي . وقال ابن عباس ومجاهد : عُزير وعيسى . و « يبتغون » يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة . أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم . والهاء والميم في « ربهم » تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعا . وأما « يدعون » فعلى العابدين . « ويبتغون » على المعبودين . ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « أيهم أقرب »

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

بدلا من الضـمير في « يبتغون » ، والمعنى يبتغى أيهم أقرب الوسـيلة إلى الله . ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أى مخوفا لا أمان لأحد منه ؛ فينبغى أن يُحذر منـه ويُخاف . وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسـان ، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر .

قوله تعـالى : وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾ أى مخربوها . ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت ، وأما الطالحة فبالعذاب . وقال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا فى قرية أذن الله فى هلاكهم . وقيـل : المعنى وإن من قرية ظالمة ؛ يقوّى ذلك قوله : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ »[1] . أى فليتق المشركون ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بهـا العذاب . ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أى فى اللوح . ﴿ مَسْطُورًا ﴾ أى مكتوبا . والسطر : الخط والكتابة وهو فى الأصل مصدر . والسَّطَر (بالتحريك) ، مثله . قال جرير :

من شاء بايعتـه مالِى وخُلعَتَه * ما تَكْمِل التَّيْم[2] فى ديوانهم سَطَرَا

الخلعة (بضم الخاء) : خيار المال . والسطر جمع أسطار ؛ مثل سبب وأسباب ، ثم يجمع على أساطير . وجمع السطر أسـطر وسطور ؛ مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ .

قوله تعـالى : وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

(١) ٥٩ سورة القصص . (٢) فى ديوان جرير : « ما تكمل الخُلج » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فُعِل بمن كان قبلهم . قال معناه قَتادة وابن جُريج وغيرهما . فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنا . وقد تقدّم في « الأنعام » وغيرها أنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصَّفَا ذهبا وتُنحّى الجبال عنهم؛ فنزل جبريل وقال : " إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا . وإن شئت استأنيت بهم " . فقال : " لا ، بل استأن بهم " . و « أن » الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم، و «أن» الثانية في محل رفع . والباء في « بالآيات » زائدة . ومجاز الكلام : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والله تعالى لا يكون ممنوعا عن شيء ؛ فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل ، فكأنه قد منع عنه . ثم بيّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أي آية دالة مضيئة نيّرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى . وقد تقدّم ذلك (١) . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي ظلموا بتكذيبها . وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأوّل — العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذّبين . الثاني — أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي . الثالث — أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهّل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك ؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه . الرابع — القرآن . الخامس — الموت الذّريع (٢) ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٨ و ج ٩ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) أي السريع الفاشي لا يكاد الناس يتدافنون .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّـاسِ ﴾ قال ابن عباس : الناس هنا أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم؛ أى أن الله سيهلكهم. وذكره بلفظ المـاضى لتحقق كونه . وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : معنى « أحاط بالناس » أى أحاطت قدرته بهم، فهم فى قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته؛ قاله مجاهد وابن أبى نَجيح . وقال الكلبيّ : المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه؛ أى وما أرسلناك عليهم حفيظا، بل عليك التبليغ، فبلغ بجدّك فإنا نعصمك منهـم ونحفظك، فلا تَهَبْهـم، وآمض لمـا آمرك به من تبليغ الرسالة، فقدرتنا محيطة بالكل؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ لمـّا بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضَمّ إليـه ذكر آية الإسراء، وهى المذكورة فى صـدر السورة . وفى البخاريّ والترمذيّ عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس » قال : هى رؤيا عَيْن أُرِيها النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِىَ به إلى بيت المقدس . قال : « والشَّجَرَةَ الْمَـلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ » هى شجـرة الزَّقُّوم . قال أبو عيسى الترمذيّ : هذا حديث صحيح . وبقول ابن عبـاس قالت عائشة ومعـاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسـعيد ابن جُبير والضحاك وابن أبى نَجيح وابن زيد . وكانت الفتنة ارتدادَ قوم كانوا أسـلموا حين أخبرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِىَ به . وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الاية تقضى بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيهـا، وما كان أحد لينكرها . وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحُدَيْبِيَة، فَرُدّ فآفتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآية، فلما كان العام المقبل دخلها، وأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُـولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ »(١) . وفى هذا التأويل ضعف؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينـة . وقال فى رواية ثالثة : إنه عليه السـلام رأى فى المنـام بنى مروان يَنْزُون

(١) آية ٢٧ سورة الفتح .

على منبره نَزْوَ القِرَدة، فساءه ذلك فقيل : إنما هى الدنيا أعطوها ، فسُرِّىَ عنه ، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة . وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل ابن سعد رضى الله عنه . قال سهل : إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك ، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحانا . وقرأ الحسن بن علىّ فى خطبته فى شأن بيعته لمعاوية : « وإنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ »(1) . قال ابن عطية : وفى هذا التأويل نظر، ولا يدخل فى هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية .

قوله تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ فيه تقديم وتأخير، أى ما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس . وفتنتُها أنهم لما خُوِّفوا بها قال أبو جهل استهزاء : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد ، ثم أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه : تزقّموا . وقد قيل : إن القائل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزِّبَعْرَى حيث قال : كثّر الله من الزقوم فى داركم، فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وجائز أن يقول كلاهما ذلك . فافتتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء ، فأخبر الله تعالى نبيّه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختبارا ليَكْفر من سبق عليه الكفر ويصدّق من سبق له الإيمان . كما روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قيل له صبيحة الإسراء : إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس ! فقال : إن كان قال ذلك فلقد صدق . فقيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدّقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير .

---

(1) آية ١١١ سورة الأنبياء .

قلت : ذكر هـذا الخبر ابن إسحاق ، ونصـه : « قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن مسعود وأبى سعيد الخُدْرِيّ وعائشة ومعاوية بن أبى سفيان والحسن بن أبى الحسن وابن شهاب الزُّهْرِيّ وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأم هانئ بنت أبى طالب ، ما اجتمع فى هذا الحديث ، كُلٌّ يحدّث عنه بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به صلى الله عليه وسلم ، وكان فى مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل فى قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدّق وكان من أمر الله تعالى على يقين ؛ فأسرى به صلى الله عليه وسلم كيف شاء وكما شاء ليُرِيَه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد . وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغنى عنه يقول : أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق — وهى الدابة التى كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها فى منتهى طرفها — فحُمل عليها ، ثم خرج به صاحبه يُرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أُتِيَ بثلاثة آنية : إناء فيه لبن وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فسمعت قائلا يقول حين عُرِضت علىّ إن أخذ المـاء فغَرِق وغَرِقت أمّته وإن أخذ الخمر فغَوِىَ وغَوَتْ أمتـه وإن أخذ اللبن فهُدِىَ وهُدِيَتْ أمتـه قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لى جبريل هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتُك يا محمد" .

قال ابن إسحاق : وحدّثت عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما أنا نائم فى الحِجْر جاءنى جبريل عليه السلام فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا ثم عُدت لمضجَعِى فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجَعِى فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيضُ بين البغل والحمار فى فخـذيه جناحان يَحْفِز بهما رجليه يضـع حافره فى منتهى طَرْفه فحملنى عليـه ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته " .

قال ابن إسحاق : وحُدِّثت عن قتادة أنه قال : حُدِّثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما دنوت منه لأركبه شَمَس (١) فوضع جبريل يده على مَعْرَفته ثم قال ألا تستحي يا بُراق مما تصنع فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه قال فاستحيا حتى ارفضّ عَرَقًا ثم قرّ حتى ركبته " .

قال الحسن في حديثه : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه [جبريل] حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأمّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بهم ثم أُتِيَ بإناءين : في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر . قال : فقال له جبريل : هُدِيت الفِطْرة وهُدِيت أمّتُك وحُرِّمت عليكم الخمر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غَدَا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البَيِّن ! والله إن العِير لتُطَّرد شهرا من مكة إلى الشأم ، مدبرةً شهرا ومقبلةً شهرا ، فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلّى فيه ورجع إلى مكة . قال فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذا في المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجّبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبيّ الله ، أحدّثتَ هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال " نعم " قال : يا نبيّ الله ، فصفه لي فإني قد جئته ؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رفع لي حتى نظرت إليه " فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر رضي الله عنه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . كلما

---

(١) شمست الدابة والفرس تشمس : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

وصف له منه شـيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسـول الله . قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه : "وأنت يا أبا بكر الصدّيق" فيومئذ سماه الصدّيق . قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن آرتدّ عن الإسلام لذلك : « وما جعلنا الرؤيا التى أَرَيْنَاكَ إلا فِتنةً لِلنَّاسِ والشجرةَ الْمَلْعُونَةَ فِى القرآنِ ونُخَوِّفُهم فما يَزِيدُهم إلا طُغْيَانًا كبيرا » . فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيـه من حديث قتادة . وذكر باقى الإسراء عمن تقـدّم فى السيرة . وقال ابن عباس : هـذه الشجرة بنو أميّـة ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم نفى الحَكَم . وهذا قول ضعيف محدَث والسورة مكية ، فيبعد هذا التأويل ؛ إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك . وقـد قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت فى صلبه فأنت بعض من لعنة الله (١) . ثم قال : « والشّجرةَ الملعونة فِى القرآنِ» ولم يجر فى القرآن لعن هذه الشجرة ، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها . والمعنى : والشجرة الملعونة فى القرآن آكلوها . ويمكن أن يكون هـذا على قول العرب لكل طعـام مكروه ضار : ملعون . وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هى هـذه الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتله ، يعنى الكَشُوث . ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أى بالزّقوم . ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف إلا الكفر .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ تقـدّم ذكر كون الشـيطان عدوّ الإنسان، فآنجرّ الكلام إلى ذكر آدم . والمعنى : اذكر بتمادى هؤلاء المشركين وعتوّهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبَى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى فى قوله تعالى :

(١) هذه عبارة الفخر الرازى . والذى فى الأصول : « فأنت قطط من لعنة الله » . والقطط : القصير الجعد من الشعر، وشعر الزنجى .

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ أى من طين . وهذا استفهام إنكار . وقد تقدّم القول فى خلق آدم فى « البقرة ، والأنعام »(١) مستوفًى . ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ أى قال إبليس . والكاف توكيد للخاطبة . ﴿ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أى فضّلته علىّ . ورأى جوهر النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة . وقد تقدّم هـذا فى الأعراف . و « هذا » نصب بأرأيت . « الذى » نعته . والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد . وفى الكلام حذف تقديره : أخبرنى عن هذا الذى فضلته علىّ ، لم فضلته وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع . وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ؛ أى أترى هذا الذى كرمته علىّ لأفعلن به كذا وكذا . ومعنى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ﴾ فى قول ابن عباس : لأستولِيَنّ عليهم . وقاله الفراء . مجاهد : لأحتوِيَنّهم . ابن زيد : لأضلنهم . والمعنى متقارب ؛ أى لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنّهم . وروى عن العـرب : اِحْتَنَكَ الجراد الزرع إذا ذهب به كلّه . وقيل : معناه لأسوقنّهم حيث شئت وأقودنّهم حيث أردت . من قولهم : حنكت الفـرس أحنِكه وأحنُكه حنكا إذا جعلت فى فيه الرّسن . وكذلك احتنكه . والقول الأوّل قريب من هذا ؛ لأنه إنمـا يأتى على الزرع بالحَنَك . وقال الشاعر :

أشـكو إليك سَنَةً قـد أجحفت * جهدا إلى جهـدٍ بنا وأضعفت
* واحتنكت أموالنا واجتلفت(٢) *

﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى المعصومين ، وهم الذين ذكرهم الله فى قوله : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » وإنما قال إبليس ذلك ظنا ؛ كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ »(٣) أو علم من طبع البشر تركّب الشهوة فيهم ، أو بنى على قول الملائكة : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهـا »(٤) . وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزْمًا .

قوله تعـالى : قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُـمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٧ ص ١٦٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) أى أذهبت . (٣) آية ٢٠ سورة سبأ . (٤) آية ٣٠ سورة البقرة .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ هـذا أمر إهانة ؛ أي اجهد جهدك فقـد أنظرناك . ﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم . ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ أي وافرا ؛ عن مجاهـد وغيره . وهو نصب على المصدر ، يقال : وفَرته أفِرُه وَفْرًا ، ووَفَر المـالُ بنفسه يفِر وفورا فهو وافر؛ فهو لازم ومتعدّ .

قوله تعـالى : وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُـم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُـمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِـدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ أي آستزِلّ وآستخِفّ؛ وأصله القطع، ومنه تفزّز الثوب إذا انقطع[(١)] . والمعنى استزِلّه بقطعك إياه عن الحق . وآستفزّه الخوفُ أي آستخفه . وقعـد مُسْتَوْفِزًا أي غير مطمئن . « وٱسْتَفْزِز » أمر تعجيز، أي أنت لا تقـدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فآفعل ما شئت .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ وصوتُه كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى ؛ عن ابن عبـاس . مجاهد : الغناء والمزامير واللهـو . الضحاك : صوت المزمار . وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وولد قابيل أسفله، وفيهم بنات حسان، فزَمَر اللعين فلم يتمالكوا أن آنحدروا فزَنَوْا؛ ذكره الغزنويّ . وقيل : « بصوتك» بوسوستك .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبة من السائق؛ يقال : أجلب إجلابا . والجَلَب والجَلَبَة : الأصوات؛ تقول منه : جلّبوا بالتشديد . وجَلَب الشيء يجلِبه ويجلُبه جلْبًا وجَلْبا . وجلبت الشي إلى نفسي واجتلبته بمعنًى . وأجلب على العدوّ إجلابا؛ أي جمّع عليهم . فالمعنى أجمِـع عليهم كلما تقدر عليه من مكايدك .

---

(١) لم نجد في كتب اللغة « تفزز الثوب » بزايين بهذا المعنى، وانمـا هو « تفزر » بزاي ثم راء . فليلاحظ .

وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس ، فما كان من راكب وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجّالته . وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت في معصية الله ، وكل رجل مَشَتْ في معصية الله ، وكلّ مال أصيب من حرام ، وكلّ ولد بَغِيّة فهو للشيطان . والرَّجْل جمع راجل ؛ مثل صَحْب وصاحب . وقرأ حفص « ورَجِلك » بكسر الجيم وهما لغتان ؛ يقال : رَجْل ورَجِل بمعنى راجل . وقرأ عكرمة وقتادة « ورجالك » على الجمع .

الرابعــة — ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أي اجعـل لنفسك شركة في ذلك . فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله ؛ قاله الحسن . وقيـل : هي التي أصابوها من غير حلّها ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : ما كانوا يحرّمونه من البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحام . وقاله قتادة . الضحاك : ما كانوا يذبحونه لآلهتهم . والأولاد قيـل : هم أولاد الزنى ؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس . وعنـه أيضا هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم . وعنه أيضا : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزَّى وعبد اللّات وعبـد الشمس ونحوه . وقيـل : هو صبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم ، كصنع النصـارى بأولادهم بالغمس في المـاء الذي لهم ؛ قاله قتادة . وقول خامس — روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ انطوى الجانّ على إحْليله فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ »(١) وسيأتي . وروى من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فيكم مُغَرِّبين " قلت : يارسول الله ، وما المغرّبون؟ قال : " الذين يشترك فيهم الجن " . رواه الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) . قال الهَرَوِيّ : سموا مغرّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب . قال الترمذي الحكيم : فالجن مسامَاة(٢) بابن آدم في الأمور والاختلاط ؛ فمنهم من يتزوّج فيهم ، وكانت بِلْقيس ملكة سَبأ أحد أبويها من الجن . وسيأتي بيانه إن شاء الله تعـالى .

---

(١) آية ٥٦ ، ٧٤ سورة الرحمن .   (٢) المساماة : المباراة .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أى مَنِّهـم الأمانى الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب ، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أولى بالجنة من غيركم . يقويه قوله تعالى : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا »(1) أى باطلا . وقيـل « وَعِدْهُمْ » أى عِدهم النُّصرة على من أرادهم بسوء . وهـذا الأمر للشيطان تهدّد ووعيد له . وقيل : استخفاف به وبمن ٱتبعـه .

السادســـة — فى الآية ما يدلّ على تحـريم المزامير والغناء واللّهو ؛ لقوله : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ » على قول مجاهد . وما كان من صوت الشيطان أو فعـله وما يستحسنه فواجب التنزه عنـه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زَمّارة فوضع أصبعيه فى أذنيـه ، وعدل راحلتــه عن الطريق وهو يقول : يانافع ! أتسمع؟ فأقول نعم ؛ فمضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع [صوت] زَمّارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا فعلهم فى حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «لقمان» إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال ابن عباس : هم المؤمنون . وقد تقـدّم الكلام فيه(2) . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أى عاصما من القبول من إبليس ، وحافظا من كيده وسوء مكره .

قوله تعـالى : رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

(1) آية ١٢٠ سورة النساء . (2) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ الإزجاء : السوق ؛ ومنه قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا»(١) . وقال الشاعر(٢) :

يأيها الراكب المُزْجي مطيّته * سائل بني أسَد ما هذه الصَّوْتُ

وإزجاء الفلك : سوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمع، وقد تقدّم(٣) . والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا ، وقد غلب هذا الاسم على الملح . وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ؛ أي ربكم الذي أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئا . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي في التجارات . وقد تقدّم(٤) . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ «الضر» لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجري . وأهوال حالاته اضطرابه وتموّجه . ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ «ضل» معناه تلف وفُقِد؛ وهي عبارة تحقير لمن يدعى إلها من دون الله . والمعنى في هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلا ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أي عن الإخلاص . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ الإنسان هنا الكافر . وقيل : وطبع الإنسان كفورا للنعم إلا من عصمه الله؛ فالإنسان لفظ الجنس .

قوله تعالى : أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

---

(١) آية ٤٣ سورة النور. (٢) هو رُويشد بن كثير الطائي؛ كما في اللسان. (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ٢ ص ٤١٣ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ بيّن أنه قادر على هلاكهم فى البر وإنْ سَلِموا من البحر . والخَسْف : أن تنهار الأرض بالشيء؛ يقال : بئر خسيف إذا انهدم أصلها . وعين خاسف أي غارت حدقتها فى الرأس . وعَيْنٌ من المـاء خاسفة أى غار ماؤها . وخَسَفت الشمس أى غابت عن الأرض . وقال أبو عمرو : والخَسِيف البئر التى تحفر فى الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً . والجمع خُسُف . وجانب البر : ناحية الأرض؛ وسماه جانبا لأنه يصـير بعد الخسف جانبا . وأيضا فإن البحر جانب والبرّ جانب . وقيـل : إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيـه آمنين من أهوال البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ يعنى ريحا شديدة ، وهى التى ترْمى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار؛ قاله أبو عبيـدة والقُتَبِيّ . وقال قتادة : يعنى حجارة من السماء تَحصِبهم ، كما فُعِـل بقوم لوط . ويقال للسحابة التى ترمى بالبَرَد : حاصب ، وللريح التى تحمل التراب والحصباء حاصب وحَصِبة أيضا . قال لَبِيد :

جرّت عليها أن خَوَتْ من أهلها * أذيالَهـا كلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

وقال الفَرزْدَق :

مستقبلين شَمَال الشام يضربنـا * بحاصبٍ كنَديف القطن منثور

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

قوله تعـالى : أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾ يعنى فى البحر . ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ﴾ القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدة؛ من قَصَف الشيءَ يَقصِفه؛ أى كسره بشـدة . والقصف : الكسر؛ يقال : قصفت الريحُ السفينة . وريح قاصف :

شديدة . ورعد قاصف : شديد الصوت . يقال : قَصَف الرعدُ وغيرهُ قصيفا . والقَصِيف : هشيم الشّجر . والتقصّف التكسر . والقصف أيضا : اللّهو واللعب ، يقال : إنها مُوَلَّدة . ﴿ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أي بكفركم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « نَخْسِفَ بِكُمْ » « أو نُرْسِل عليكم » « أن نُعيدكم » « فنُرْسِل عليكم » « فنُغرِقكم » بالنون في الخمسة على التعظيم ، ولقوله : « علينا » الباقون بالياء ؛ لقوله في الآية قبل : « إِيّاه » . وقرأ أبو جعفر وشيبة و رُوَيْس ومجاهد « فتغرِقكم » بالتاء نعتا للريح . وعن الحسن وقتادة « فيغرّقكم » بالياء مع التشديد في الراء . وقرأ أبو جعفر «الرياح» هنا وفي كل القرآن . وقيل : إن القاصف المهلكةُ في البر ، والعاصف المغرقةُ في البحر ؛ حكاه الماوردي . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال مجاهد : ثائرا . النحاس : وهو من الثأر . وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره : تبيع وتابع ؛ ومنه « فاتّباع بالمعروف»(١) أي مطالبة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فيـــه ثلاث مسائل(٢) :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ الآية . لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضا . « كرمنا» تضعيف كرم ؛ أي جعلنا لهم كرما أي شرفا وفضلا . وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره . وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس ، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم ؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، و يلبسون الثياب و يأكلون المركّبات من الأطعمة . وغاية كلّ حيوان يأكل لحما نيئاً أو طعاما غير

(١) آية ١٧٨ سورة البقرة .   (٢) يلاحظ أن المسائل أربع .

مركب . وحكى الطبرىّ عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيـده وسائر الحيوان بالفم . وروى عن ابن عباس ؛ ذكره المَهـدوىّ والنحاس ؛ وهو قول الكلبىّ ومقاتل ؛ ذكره المـاوردىّ . وقال الضحاك : كرّمهـم بالنطق والتمييز . عطاء : كرّمهم بتـعديل القامة وآمتدادها . يمان : بحسن الصورة . محمد بن كعب : بأن جعل محمدا صلّى الله عليه وسلم منهم . وقيل أكرم الرجال باللّحى والنساء بالذوائب . وقال محمد بن جرير الطبرىّ : بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام والخط . وقيل : بالفهم والتمييز . والصحيح الذى يعوّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لمـا لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب . فمثال الشرع الشمس ، ومثـال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سـليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء . وما تقدّم من الأقوال بعضـه أقوى من بعض . وقد جعل الله فى بعض الحيوان خصالا يفضل بهـا ابن آدم أيضا ؛ كجرى الفرس وسمعه وإبصاره، وقوّة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك . وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه . والله أعلم .

الثانيـــة — قالت فرقة : هـذه الآية تقتضى تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون فى قوله تعالى : « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ »(١) . وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بنى آدم ما خصهم به من سائر الحيوان، والجن هو الكثير المفضول، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرض الآية لذكرهم ؛ بل يحتمل أن الملائكة أفضـل ، ويحتمل العكس ، ويحتمل التساوى ، وعلى الجمـلة فالكلام لا ينتهى فى هـذه المسألة إلى القطع . وقد تحاشى قوم من الكلام فى هـذا كما تحاشوا من الكلام فى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ فى الخبر "لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تفضـلّونى على يونس بن مَتَّى" . وهـذا ليس بشىء ؛ لوجود

---

(١) آية ١٧١ سورة النساء .

النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء . وقد بيناه في « البقرة »(١) ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن(٢) .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب . قال مقاتل : السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى ، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أي على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز و إصابة الفراسة .

الرابعــة — هــذه الآية تردّ ما روى عن عائشة رضي الله عنها، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اخرِموا أنفسكم طَيِّب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجرى في العروق منها" . و به يستدلّ كثير من الصُّوفية في ترك أكل الطيبات ، ولا أصل له ؛ لأن القرآن يردّه، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرر في غير موضع . وقد حكى أبو حامد الطُّوسيّ قال : كان سهل يقتات ورق النَّبق مدة، وأكل دُقاق ورق التين ثلاث سنين . وذكر إبراهيم بن البنا قال : صحبت ذا النُّون من إخميم إلى الإسكندرية ، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصا ومِلْحًا كان معي، وقلت : هَلُمّ . فقال لي : ملحك مدقوق ؟ قلت نعم . قال : لست تُفلح ! فنظرت إلى مِزْوَده و إذا فيه قليل سَوِيق شعير يَسَفّ منه . وقال أبو يزيد : ما أكلت شيئا مما يأكله بنو آدم أربعين سنة . قال علماؤنا : وهــذا مما لا يجوز حمل النفس عليه؛ لأن الله تعالى أكرم الآدميّ بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم ، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن، وأما سَوِيق الشعير فإنه يورث القُولَنْج(٣)، و إذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجَرِيش فإنه ينحرف مزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف، والملح يابس قابض يضر الدماغ والبصر. و إذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قووِمت حكمة البارئ سبحانه بردّها ، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هــذا الفعل مخالفا للشرع والعقل . ومعلوم أن البــدن

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) القولنج : مرض معويّ مؤلم يعسر معه خروج الثُّفل والريح . معرّب .

مطيّة الآدمىّ، ومتى لم يرفُق بالمطيّة لم تُبَلِّغ. وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبزَ حُوَّارَى. فقيل له: هـذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنـا أكل الرجال، وإذا عدمنا صَبَرنا صبر الرجال. وكان الثورى يأكل اللحم والعنب والفالوذج[1] ثم يقوم إلى الصلاة. ومثل هـذا عن السلف كثير. وقـد تقدم منه ما يكفى فى المـائدة[2] والأعراف[3] وغيرهما. والأول غُلُوٌّ فى الدّين إن صح عنهم «ورَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ما كَتَبْنَاهَا عليهم[4]».

قوله تعـالى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ روى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: «يوم نَدْعُوا كل أناسٍ بِإِمَامِهِم» قال: "يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويُمَـدّ له فى جسمه ستون ذراعا، ويُبَيَّض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرَوْنه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنـا فى هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثلُ هذا — قال — وأما الكافر فيُسَوّد وجهه ويُمَدّ له فى جسمه ستون ذراعا على صـورة آدم ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هـذا! اللهم لا تأتنا بهـذا. قال: فيأتيهم فيقولون اللهُمّ أخزه. فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا". قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. ونظير هذا قـوله: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّـةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَـوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[5]». والكتاب يسمى إماما؛ لأنه يُرجع إليـه فى تعرّف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: «بإمامهم» أى بكتابهم، أى بكتاب كلّ إنسان منهم الذى فيـه عمله؛ دليـله «فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ». وقال ابن زيد: بالكتاب المنزَّل عليهم. أى يدعَى كل إنسان

(١) الفالوذج: حلواء تعمل من الدقيق والمـاء والعسل. وفيه لغات (عن الألفاظ الفارسية).
(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠. (٣) راجع جـ ٧ ص ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية.
(٤) آية ٢٧ سورة الحديد. (٥) آية ٢٨ سورة الجاثية.

بكتابه الذى كان يتلوه ؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ؛ فيقال : يأهل القرآن، ماذا عملتم ،هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه! وهكذا . وقال مجاهد: «بإمامهم» بنبيّهم ، والإمام من يؤتَمّ به . فيقال : هاتوا متّبِعِى إبراهيم عليه السلام، هاتوا متّبعى موسى عليه السلام، هاتوا متبعى الشيطان، هاتوا متبعى الأصنام . فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ،ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم. وقاله قتادة . وقال علىّ رضى الله عنه : بإمام عصرهم . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : «يوم ندعو كلَّ أناسٍ بإمامِهِم» فقال : "كلٌّ يدعى بإمام زمانهم وكتابِ ربِّهم وسنّةِ نبيّهم فيقول هاتوا متبعى إبراهيم هاتوا متبعى موسى هاتوا متبعى عيسى هاتوا متبعى محمدا — عليهم أفضل الصلوات والسلام — فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ويقول هاتوا متبعى الشيطان هاتوا متبعى رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمامَ ضلالة". وقال الحسن وأبو العالية : «بإمامِهِم» أى بأعمالهم . وقاله ابن عباس . فيقال : أين الراضون بالمقدور، أين الصابرون عن المحذور . وقيل : بمذاهبهم؛ فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمون به فى الدنيا : ياحنفىّ، ياشافعىّ، يامعتزلىّ، ياقدرىّ، ونحوه؛ فيتبعونه فى خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهـذا معنى قول أبى عبيدة . وقد تقدّم . وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ...، الحديث بطوله . أبو سهل : يقال أين فلان المصلّى والصوّام، وعكسه الدّفاف(١) والنمام . وقال محمد بن كعب : « بإمامِهم » بأمهاتهم . وإمام جمع آم . قالت الحكماء : وفى ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة؛ أحدها — لأجل عيسى . والثـانى — إظهار لشرف الحسن والحسين . والثالث — لئلا يفتضح أولاد الزنى .

قلت : وفى هذا القول نظر؛ فإن فى الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غَدْرة فلان بن فلان" خرّجه مسلم والبخارى . فقوله : "هذه غَدْرة فلان بن فلان"

---

(١) الدفاف : الضارب بالدف . وفى الأصول : « الزفاف » بالزاى المعجمة .

دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن فى الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وهذا يردّ على من قال : إنما يُدْعَوْن بأسماء أمّهاتهم لأن فى ذلك سَتْرًا على آبائهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ هذا يقوّى قول من قال : « بِإِمَامِهِم » بكتابهم . ويقوّيه أيضا قوله : « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »(١) . ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل الذى فى شقّ النواة . وقد مضى فى « النساء »(٢) .

قوله تعالى : وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هٰذِهِ أَعْمَى﴾ أى فى الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق . ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ أى فى أمر الآخرة ﴿أَعْمَى﴾ . وقال عكرمة : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال : اقرءوا ما قبلها « رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ – إلى – تفضيلا »(٣) . قال ابن عباس : من كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى فهو عن الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا . وقيل : المعنى من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : المعنى من كان فى الدنيا التى أُمْهِل فيها وفُسِّح له ووُعِد بقبول التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقال الحسن : من كان فى هذه الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيامة أعمى ؛ كما قال : « ونحشره يوم القيامة أعمى »(٤) الآيات . وقال : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ »(٥) . وقيل : المعنى فى قوله « فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى » فى جميع الأقوال : أشدّ عَمًى ؛ لأنه من عَمَى القلب ، ولا يقال مثله فى عَمَى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خِلقة بمنزلة

---

(١) آية ١٢ سورة يس . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٨ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٦٦ وما بعدها .
(٤) آية ١٢٤ سورة طه . (٥) آية ٩٧ من هذه السورة .

اليـد والرِّجْل ؛ فلم يقل ما أعمـاه كما لا يقال ما أيداه . الأخفش : لم يقل فيـه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى . وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه ؛ لأن فعـله عَمِىَ وعَشِىَ . وقال الفراء : حدثنى بالشأم شيخ بصرى أنه سمع العـرب تقول : ما أسود شعره . قال الشاعر :

ما فى المعـالى لكم ظل ولا ثمـر * وفى المخازى لكم أشباح أشياخ
أما الملوك فأنت اليوم ألأمهـم * لؤما وأبيضهم سِرْبال طبّـاخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائىّ وخلَف الحرفين « أعمى » و «أعمى» وفتح الباقون . وأمال أبو عمرو الأوّل وفتح الثانى . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ يعنى أنه لا يجد طريقا إلى الهداية .

قوله تعـالى : وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾

قال سـعيد بن جبير : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تُلِمّ بآلهتنا . فحدّث نفسه وقال : " ما علىّ أن أُلِمّ بها بعد أن يَدَعُونى أستلم الحجر والله يعلم أنى لها كاره " فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هـذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى وفد ثقيف ، أتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فسألوه شَطَطًا وقالوا : متّعنا بآلهتنا سـنة حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ،وحَرّم وادينا كما حرّمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ؛ فهَمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية . وقيل : هو قول أكابر قريش للنبىّ صلى الله عليه وسلم : اطرد عنا هؤلاء السُّقّاط والموالى حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهمّ بذلك حتى نُهِى عنه . وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشا خَلَوْا برسول الله صلى عليه وسـلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ، ويسوّدونه ويقاربونه ؛ فقالوا : إنك تأتى بشىء لا يأتى به أحد من الناس، وأنت سيّدنا يا سيّدنا؛وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون،

ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية . ومعنى ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ أى يزيلونك . يقال : فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الهَرَوِىّ . وقيل يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى حكم القرآن؛ لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن . ﴿ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أى لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك ، وهو قول ثقيف : وحَرّم وادينا كما حرّمت مكة، شجـرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصّصتهم فقل الله أمرنى بذلك حتى يكون عذرا لك . ﴿ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أى لو فعلت ما أرادوا لاتخـذوك خليلا، أى والوك وصافوك؛ مأخوذ من الخلة (بالضم) وهى الصداقة لممايلته لهم . وقيل : « لاتخذوك خليلا » أى فقيرا . مأخوذ من الخَلّة (بفتح الخاء) وهى الفقر لحاجته إليهم .

قوله تعـالى : وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَـدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِـدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ ﴾ أى على الحق وعصمناك من موافقتهم . ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى تميل . ﴿ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ أى ركونا قليلا . قال قتادة : لمـا نزلت هـذه الآية قال عليه السلام : " اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِى إلى نفسى طرفة عين " . وقيل : ظاهر الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسـلم وباطنه إخبار عن ثقيف . والمعنى : وإن كادوا ليركنونك ، أى كادوا يخبرون عنك بأنك مِلتَ إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه مجازا واتساعا ؛ كما تقول لرجل : كدت تقتل نفسك، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدوىّ . وقيل : ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك مَيل إلى موافقتهم، ولكن تمّ فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيرى . وقال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هـذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله تعـالى وشرائعه .

وقوله : ﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أى لو ركنت لأذقناك مثلى عذاب الحياة فى الدنيا ومثلى عذاب الممات فى الآخرة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد . وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم . قال الله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ »[1] وضعف الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضِّعف النصيب؛ كقوله عز وجل: «لِكُلٍّ ضِعْفٌ» أى نصيب. وقد تقدّم فى الأعراف[2] .

قوله تعالى : وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

هـذه الآية قيل إنها مدنية ؛ حسبما تقدّم فى أوّل السورة . قال ابن عباس : حسدت اليهود مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشأم ، فإن كنت نبيًّا فآلحق بها ؛ فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك؛ فوقع ذلك فى قلبه لما يحب من إسلامهم، فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هـذه الآية . وقال عبد الرحمن بن غَنْم : غزا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما نزل تبوك نزل « وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ » بعد ما ختمت السورة ، وأمر بالرجوع . وقيل : إنها مكية . قال مجاهد وقتادة : نزلت فى همّ أهـل مكة بإخراجه، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج، وهذا أصح؛ لأن السورة مكية، ولأن ما قبلها خبر عن أهـل مكة، ولم يجر لليهود ذكر . وقوله : ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مكة . كقوله : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ »[3] أى أرض مصر؛ دليله « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ »[4] يعنى مكة . معناه : همّ أهلها بإخراجه؛ فلهـذا أضاف إليها[5] وقال « أخرجتك » . وقيـل : همّ الكفار كلّهم أن يستخفّوه من أرض العـرب بتظاهرهم عليـه فمنعه الله ، ولو أخرجوه

(١) آية ٣٠ سورة الأحزاب. (٢) راجع ج ٧ ص ٢٠٥ طبعة أولى أو ثانية. (٣) آية ٨٠ سورة يوسف.
(٤) آية ١٣ سورة محمد . (٥) فى الأصول : « إليهم » وهو تحريف .

من أرض العرب لم يُمْهَلوا، وهو معنى قوله : ﴿وَإِذًا لَايَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . وقرأ عطاء ابن أبي رَباح « لايُلَبَّثون » الباء مشددة . « خلفك » نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بعـدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائيّ « خلافك » واختاره أبو حاتم، اعتبارا بقوله : « فَرِحَ المُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ »(١) ومعناه أيضا بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَت الديار خـلافهم فكأنمـا * بسط الشّـواطِبُ بينهن حَصِـيرَا

بسط البواسط؛ في المـاورديّ . يقال : شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منـه الحصر . قال أبو عبيد : ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية . وقيل : « خلفك » بمعنى بعـدك . « وخلافك » بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن الأنباريّ . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما ــ أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتالهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش. الثاني ــ ما بين ذلك وقتل بني قُريظة وجلاء بني النضير؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود .

قوله تعـالى : سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْـوِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ أي يعذَّبون كسنة من قد أرسلنا؛ فهو نصب بإضمار يعذبون؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل؛ قاله الفرّاء . وقيل : انتصب على معنى سنّنّا سنة من قد أرسلنا . وقيل : هو منصوب على تقدير حذف الكاف؛ التقـدير لايلبثون خلفك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : «إلا قليلا» و يوقف على الأول والثاني . « قبلك مِن رسلنا » وقف حسن . ﴿ وَلَاتَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أي لاخُلْف في وعدها .

قوله تعـالى : أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

---

(١) آية ٨١ سورة التوبة .

فيــه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لما ذكر مكايد المشركين أمر نبيّه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء . ومثله « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ »(1) . وتقدم القول فى معنى إقامة الصلاة فى أول سورة البقرة(2) . وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة . واختلف العلماء فى الدُّلوك على قولين : أحدهما — أنه زوال الشمس عن كَبِد السماء؛ قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم . الثانى — أن الدلوك هو الغروب؛ قاله علىّ وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب، وروى عن ابن عباس . قال الماوردىّ : من جعل الدُّلوك اسما لغروبها فلأن الإنسان يدلُك عينيه براحته لتبيّنها حالة المغيب ، ومن جعله اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها . وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها . ودلكَتْ بَراحِ يعنى الشمس؛ أى غابت . وأنشد قُطْرب :

هـذا مُقامُ قَدَمَىْ رَباحِ * ذَبّب حتى دَلَكَتْ بَراحِ

براح (بفتح الباء) على وزن حَزام وقطام ورَقَاس آسم من أسماء الشمس . ورواه الفراء (بكسر الباء)(3) وهو جمع راحة وهى الكف؛ أى غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفّه على حاجبه . ومنه قول العَجّاج :

والشمس قد كادت تكون دَنَفَا * أدفعها بالراح كى تَزَحْلَفَا

قال آبن الأعرابىّ : الزُّحلوفة مكان منحدر أملس، لأنهم يتزحلفون فيه . قال : والزَّحْلفة كالدّحرجة والدفع؛ يقال : زحلفتُه فتَزَحْلَف . ويقال : دلكت الشمس إذا غابت . قال ذو الرُّمَّة :

مصابيح ليست باللّواتى تقودها * نجومٌ ولا بالآفلات الدّوالكِ

(1) آية ٩٧ سورة الحجر . (2) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (3) أى باء الجر .

قال ابن عطية : الدلوك هو الميل — فى اللغـة — فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب . ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا، لأنها فى حالة مَيل . فذكر الله تعالى الصلوات التى تكون فى حالة الدلوك وعنده؛ فيدخل فى ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة فى غَسَق الليل . وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتهـا من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علق وجوبها على الدلوك، وهـذا دلوك كله؛ قاله الأوزاعىّ وأبو حنيفة فى تفصيل . وأشار إليه مالك والشافعىّ فى حالة الضرورة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال : دلوك الشمس ميلها ، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وقال أبو عبيدة : الغسق سواد الليل . قال ٱبن قَيْس الرُّقَيّات :

إن هـــذا الليل قد غَسَقَا * واشتكَيْتُ الهَـمّ والأَرَقَا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق . وقيل : إقبال ظلمته . قال زهير :

ظلّت تجـود يداها وهى لاهية * حتى إذا جنح الإظلام والغَسق

يقال : غسق الليـل غسوقا . والغَسَق ٱسم بفتح السين . وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال : غَسَقت العين إذا سالت ، تَغْسِق . وغَسَق الجرح غَسَقانا ، أى سال منه ماء أصفر . وأغسق المؤذّن ، أى أخر المغرب إلى غَسَق الليل . وحكى الفراء : غَسَق الليـل وأغسق ، وظَـلِم وأظلم، ودجا وأدجى ، وغَبَس وأغبس، وغَبِش وأغبش . وكان الربيع بن خُثَيم يقول لمؤذنه فى يوم غَيْم : أغسق أغسق . يقول : أخر المغرب حتى يَغسِق الليل ، وهو إظلامه .

الثالثـــة — اختلف العلماء فى آخر وقت المغرب؛ فقيل : وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بيّن فى إمامة جبريل؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشـمس ، وهو الظـاهر من مذهب مالك عند أصحابه . وهو أحد قولى الشافعىّ فى المشهور عنه أيضا ، و به قال الثورى . وقال مالك فى الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخل وقت العشاء . وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن

ابن حيّ وأحمد و إسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله . ولحديث أبي موسى ، وفيه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب في اليوم الثاني فأخّر حتى كان عند سقوط الشفق ؛ خرجه مسلم . قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينــة و إمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من فعله وأمره ؛ لأنه ناسخ لما قبــله . وزعم ٱبن العربيّ أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك ، وقوله في موطّئه الذى أقرأه طول عمره وأملاه فى حياته .

والنكتة فى هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها ؟ والأقوى فى النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغوًا فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر فى تعلقه بالكلّ إلى الآخر .

قلت : القول بالتّوسعة أرجح . وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندى عن أبى الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يُصَــلّ المغرب حتى أتى سَرِف ، وذلك تسعة أميال . وأما القول بالنسخ فليس بالبيّن و إن كان التاريخ معــلوما ؛ فإن الجمــع ممكن . قال علماؤنا : تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية فى وقت المغرب ، ولذلك ٱتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليهــا فى حين غروب الشمس . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : ولا نعلم أحدا من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب فى مسجد جمــاعة عن وقت غروب الشمس . وأحاديث التّوســعة تبين وقت الجواز ، فيرتفع التعارض و يصح الجمع ، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين ؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين ، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما . والله أعلم .

الرابعــة — قوله تعــالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين : أحدهما أن يكون معطوفا على الصلاة ؛ المعنى : وأقم قرآن الفجر أى صلاة الصبح ؛ قاله الفراء . وقال أهل البصرة . انتصب على الإغراء ؛ أى فعليك بقرآن الفجر ؛ قاله الزجاج . وعبّر عنها بالقرآن

خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضا .

قلت : وقد استقرّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة فى الصبح قـدرا لا يضر بمن خلفه — يقرأ فيها بطوال المفصَّل ، و يليها فى ذلك الظهر والجمعة — وتخفيف القراءة فى المغرب وتوسطها فى العصر والعشاء . وقـد قيل فى العصر : إنهـا تخفَّف كالمغرب . وأما ما و رد فى صحيح مسـلم وغيره من الإطالة فيما استقرّ فيه التقصير، أو من التقصير فيما اسـتقرت فيه الإطالة ؛ كقراءته فى الفجر المعوذتين — كما رواه النَّسائىّ — وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور فى المغـرب ، فمتروك بالعمل . ولإنكاره على معاذ التطو يل حين أمّ قومه فى العشاء فافتتح سورة البقرة . خرّجه الصحيح . و بأمره الأئمة بالتخفيف فقال : "أيها الناس إن منكم منفِّرين فأيكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصـغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة" . وقال : "فإذا صلى أحدكم وحده فليطوّل ماشاء" . كله مسطور فى صحيح الحديث .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سَمَّى الصلاة قرآنا . وقد اختلف العلمـاء فى القراءة فى الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفَذّ فى كل ركعة . وهو مشهور قول مالك . وعنه أيضا أنها واجبة فى جُلّ الصلاة . وهو قول إسحاق . وعنه أيضا تجب فى ركعة واحدة؛ قاله المُغيرة وسُحْنُون . وعنه أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة . وهو أشـذّ الروايات عنه . وحُكى عن مالك أيضا أنها تجب فى نصف الصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعىّ . وعن الأوزاعىّ أيضا وأيوب أنهـا تجب على الإمام والفَـذّ والمأموم على كل حال . وهو أحد قولى الشافعىّ . وقد مضى فى (الفاتحة)[(١)] مستوفًى .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ روى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وقرآنَ الفجرِ إن قرآن الفَجْرِ كان مشهودًا » قال : "تشهده

(١) راجع جـ ١ ص ١١٧ وما يليها طبعة ثانية أو ثالثة .

ملائكة الليل وملائكة النهار" هذا حديث حسن صحيح . ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهـار في صلاة الصبح " . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم « وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » . ولهذا المعنى يُبَكَّر بهذه الصلاة ، فمن لم يبكر لم تشهد صـلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة . ولهـذا المعنى أيضا قال مالك والشافعيّ : التغليس بالصبح أفضـل . وقال أبو حنيفـة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار ؛ فإن فاته ذلك فالإسفار أَوْلَى من التغليس . وهـذا مخالف لمـا كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس ،وأيضا فإن فيه تفويتَ شهود ملائكة الليل . والله أعلم .

السابعـــة ـــ استدلّ بعض العلماء بقوله صلى الله عليـه وسلم : " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهـار" على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار .

قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضا لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار ؛ فإن في الصحيح عن النبيّ الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر " الحديث . ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك ، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح .

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (٧٩)

فيه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ « من » للتبعيض . والفاء في قوله « فتهجّد » ناسـقة على مضمر، أي قم فتهجد . ﴿ به ﴾ أي بالقرآن . والتَّهَجُّد من الهجود وهو من الأضداد . يقال : هجد نام، وهجد سهر؛ على الضد . قال الشاعر :

ألا زارَتْ وأهلُ مِنًى هجود * ولَيْت خيـالها بمِنًى يعـود

آخـــر :

أَلَا طرقتنا والرفاق هجـود * فباتت بِعَلّات(١) النوال تجود

يعنى نِيـاما . وهجد وتهجد بمعنًى . وهجّدته أى أنمته ، وهجّدته أى أيقظته . والتهجّد التيقظ بعـد رَقْدة ، فصار اسما للصلاة ؛ لأنه ينتبه لها . فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم . قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم . وروى إسماعيل بن إسحاق القاضى من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كلّه أنه قد تهجد ! إنمـا التهجد الصلاة بعـد رَقْدة ثم الصلاة بعد رَقْدة ثم الصلاة بعد رقدة . كذلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : الهجود النوم . يقال : تهجد الرجل إذا سَهِر ، وألقى الهجود وهو النوم . ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا ؛ لأن المتهجد هو الذى يُلقى الهجود الذى هو النـوم عن نفسه . وهـذا الفعل جارٍ مجـرى تحوّب وتحرّج وتأثّم وتحنّث وتقذّر وتنجّس ؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه . ومثله قوله تعالى : « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ(٢) » معناه تنـدمون ؛ أى تطرحون الفكاهـة عن أنفسكم ، وهى انبساط النفـوس وسرورها . يقال رجل فكِه إذا كان كثير السرور والضحك . والمعنى فى الآية : ووقتا من الليل اسْهر به فى صلاة وقراءة .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ أى كرامة لك ؛ قاله مقاتل . واختلف العلماء فى تخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمتـه ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله : « نافلة لك » أى فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة .

قلت : وفى هذا التأويل بُعْدٌ لوجهين : أحدهما ـــ تسمية الفرض بالنفل ، وذلك مجاز لا حقيقة . الثانى ـــ قوله صلى الله عليه وسلم : "خمس صلوات فرضهن الله على العباد" ، وقوله تعالى : "هن خمس وهن خمسون لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَىَّ" وهـذا نص ، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس ، هذا ما لا يصح ؛ وإن كان قد روى عنه عليه السلام :

(١) العلّة (هنا) : ما يتعلل به ؛ مثل التّعِلّة . (٢) آية ٦٥ سورة الواقعة .

" ثلاث عليّ فريضة ولأمتي تطوع قيام الليل والوتر والسواك " . وقيل : كانت صلاة الليل تطوعا منه وكانت فى الابتداء واجبـة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعـد فريضة ؛ كما قالت عائشة ، على ما يأتى مبيّنا فى سورة « الْمُزَّمِّل » إن شاء الله تعالى . وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب و يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليـه وسلم ؛ لأنه مغفور له . فهو إذا تطوّع بمـا ليس بواجب عليه كان ذلك ز يادة فى الدرجات . وغيره من الأمة تطوّعهم كفارات وتدارك لخلل يقع فى الفرض ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : عطية ؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق فى العبادة .

الثالثــــة — قوله تعـالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُـودًا ﴾ اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأوّل — وهو أصحها — الشفاعة للناس يوم القيامة ؛ قاله حُذيفة بن اليمان . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : إن النـاس يصيرون يوم القيامة جُثًا[1] كل أمة تتبـع نبيها تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود . وفى صحيح مسلم عن أنس قال حدّثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة ماج النـاس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لهـا ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لهـا ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لهـا ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسـلم فأُوتَى فأقول أنالها " وذكر الحديث . وروى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى قوله : « عسى أن يبعثك ربُّك مقاما محمودا » سـئل عنها قال : " هى الشفاعة " قال : هذا حديث حسن صحيح .

(١) جثا (جمع جُثوة كخطوة وخطا) أى جماعات .

الرابعـــة — إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذى يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهى الأمر إلى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجّل حسابهم و يراحوا من هول موقفهم، وهى الخاصة به صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك قال: " أنا سيد ولد آدم ولا فخر ". قال النقاش : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة فى السبق إلى الجنة، وشفاعة فى أهل الكبائر. ابن عطية : والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة فى إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون و يشفع العلماء. وقال القاضى أبو الفضل عياض : شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات: العامة. والثانية فى إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة فى قوم من موحّدى أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ومَن شاء الله أن يشفع و يدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هى التى أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهى الاستحقاق العقلى المبنىّ على التحسين والتقبيح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والملائكة و إخوانهم المؤمنين. الخامسة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل.

الخامســـة — قال القاضى عياض : وعرف بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال : إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم، لأنها لا تكون إلا للذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدّ بعمله مشفق أن يكون من الهالكين، و يلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة، لأنها لأصحاب الذنوب أيضا، وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف. روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا — صلى الله عليه وسلم — الوسيلة والفضيلة وآبعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلّت له شفاعتى يوم القيامة ".

القول الثانى — أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهـذا القول لا تنافر بينه وبين الأوّل؛ فإنه يكون بيده لواء الحمـد ويشفع . روى الترمذى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا سـيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمـد ولا فخر وما من نبىّ يومئـذ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائى" الحديث .

القول الثالث — ما حكاه الطبرى عن فرقة، منها مجـاهد، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعـالى محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسـيّه؛ وروت فى ذلك حديثا . وعَضَد الطبرىّ جواز ذلك بشطط من القول، وهو لايخرج إلا على تلطّف فى المعنى، وفيـه بُعْدٌ . ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروَى، والعـلم يتأوّله . وذكر النقاش عن أبى داود السِّجِسْتَانىّ أنه قال : من أنكر هـذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا ، من أنكر جوازه على تأويله . قال أبو عمر ومجاهد : وإن كان أحد الأئمة يتأوّل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العـلم : أحدهما هذا والثانى فى تأويل قوله تعـالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِـذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [1] » قال : تنتظر الثواب؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا فى باب ٱبنُ شهاب فى حديث التنزيل . وروى عن مجاهد أيضا فى هذه الآية قال : يُجلسه على العرش . وهـذا تأويل غير مستحيل ؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلّها والعرشَ قائمـا بذاته ، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها ، بل إظهارا لقـدرته وحكمته، وليُعـرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمـة ، وخلق لنفسه عرشا استوى عليـه كما شاء من غير أن صار له مماسا ، أوكان العرش له مكانا . قيل : هو الآن على الصفة التى كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان؛ فعلى هذا القول سواء فى الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التى تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه

(١) آية ٢٢ سورة القيامة .

كما أخبر عن نفسه بلا كَيْف . وليس إقعاده محمدا على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مُخرجا له عن صـفة العبودية ، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقــه . وأما قوله فى الإخبار : " معه " فهو بمنزلة قوله : « إن الذين عِند ربك »(١) ، و «رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتاً فى الجَنَّةِ»(٢) ، « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ »(٣) ونحو ذلك . كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظْوة والدرجة الرفيعة ، لا إلى المكان .

الرابـــع — إخراجه من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله . ذكره مسلم . وقد ذكرناه فى (كتاب التذكرة) والله الموفق .

السادســـة — اختلف العلمـاء فى كون القيام بالليل سببا للمقـام المحمود على قولين : أحدهما — أن البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعــله سببا لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه ، أو بمعرفة وجه الحكمة . الثانى — أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس ، فأعطى الخلوة به ومناجاته فى قيامه وهو المقام المحمود . و يتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم ، فأجلّهم فيــه درجة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يُعْطَى ما لا يُعطى أحد و يشفع ما لا يشفع أحد . و « عسى » من الله عز وجل واجبة . و « مقاما » نصب على الظرف . أى فى مقام أو إلى مقام . وذكر الطبرى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى ". فالمقام الموضع الذى يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدى الملوك .

قوله تعـالى : وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

قيــل : المعنى أمتنى إماتة صدق ، وابعثنى يوم القيامة مبعث صــدق؛ ليتصل بقوله : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُـودا » . كأنه لمـا وعده ذلك أمره أن يدعو لِيُنجِــزَ له

(١) آخر سورة الأعراف . (٢) آية ١١ سورة التحريم . (٣) آخر سورة العنكبوت .

الوعد . وقيل : ادخلنى فى المأمور وأخرجنى من المنهىّ . وقيل : علّمه ما يدعو به فى صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين و إدخاله موضـع الأمن؛ فأخرجه من مكة وصـيره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذى عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليـه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت « وقل رب أدخلنى مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجنى مُخْرَجَ صِدقٍ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » قال : هـذا حديث حسن صحيح . وقال الضحاك : هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنا . أبو سهل : حين رجع من تبُوك وقد قال المنافقون : « لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ »(١) يعنى إدخال عز و إخراج نصر إلى مكة . وقيـل : المعنى أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى منه مخرج صدق إذا أمتّنى؛ قال معناه مجاهد . والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج؛ كقوله : « أنزلنِى مُنْزَلا مباركا »(٢) أى إنزالا لا أرى فيه ما أكره . وهى قراءة العامة . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم « مَدخل » و « مخـرج » بفتح الميمين بمعنى الدخول والخـروج ؛ فالأول رباعى وهـذا ثلاثى . وقال ابن عباس : أدخلنى القبر مدخل صدق عنـد الموت وأخرجنى مخرج صـدق عند البعث . وقيل : أدخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق وأخرجنى بالصدق ؛ أى لا تجعلنى ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيها عندك . وقيل : الآية عامة فى كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمـال ، ويُنتظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة . فهى دعاء ، ومعناه : رب أصلح لى وِرْدِى فى كل الأمور وصَدَرِى . وقوله : ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال الشعبىّ وعكرمة : أى حجة ثابتة . وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر و إظهار دينه على الدين كله . قال : فوعده الله لَيَنْزِعَنّ مُلك فارس والروم وغيرها فيجعله له .

قوله تعـالى : وَقُـلْ جَآءَ ٱلْحَـقُّ وَزَهَـقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

---

(١) آية ٨ سورة المنافقون . (٢) آية ٢٩ سورة المؤمنون .

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى — روى البخاريّ والترمذيّ عن ابن مسعود قال : دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نُصُباً ، فجعل النبيّ صـلى الله عليه وسـلم يطعنها بمخصرة في يده — وربما قال بعود — ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد " لفظ الترمذيّ . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا في حديث مسلم « نُصُباً » . وفي رواية صنما . قال علماؤنا : إنمـا كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظّمون في يوم صنما ويخصون أعظمها بيومين . وقوله : " فجعل يطعنها بعود في يده " يقال : إنها كانت مثبتة بالرّصاص وأنه كلما طعن منها صنما في وجهه خرّ لقفاه ، أو في قفاه خرّ لوجهـه . وكان يقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " حكاه أبو عمر والقاضي عِياض . وقال القشيريّ : فمـا بقي منها صنم إلا خرّ لوجهه ، ثم أَمَر بها فكسرت .

الثانيــة — في هــذه الآية دليــل على كسر نُصُب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى . قال ابن المنذر : وفي معنى الأصنام الصُّــوَرُ المتّخَذة من المَدَر والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيــه إلا اللهو المنهيّ عنــه . ولا يجوز بيع شيء منــه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص ، إذا غُيِّرت عما هي عليــه وصارت نُقَــرا[1] أو قطعا فيجوز بيعها والشِّراء بها . قال المهلّب : وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعــد كسرها منفعةٌ فصاحبها أَوْلَى بها مكسورة ؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المــال . وقد تقدّم حرق ابن عمر رضي الله عنه . وقد همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة . وهذا أصل في العقوبة في المــال مع قوله عليه السلام في الناقة التي لعنتها صاحبتها :

(١) النقرة : السبيكة .

" دعوها فإنها ملعونة " فأزال ملكها عنهـا تأديبا لصاحبتها ، وعقوبة لهـا فيما دعت عليـه بمـا دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لَبَناً شِيب بماء على صاحبه .

الثالثـــة — ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلنّ عيسى بن مريم حكما عادلا فَلَيَكْسِرَنّ الصليب وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضَعَنّ الجزية وَلَتُتْرَكَنّ القِلاص (١) فلا يُسعى عليها " الحديث . خرجه الصحيحان . ومن هذا الباب هتك النبيّ صلى الله عليه وسلم الستر الذى فيه الصور، وذلك أيضا دليل على إفساد الصور وآلات الملاهى كما ذكرنا . وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها و يوجب التغيير على صاحبها . إن أصحاب هـذه الصور يعذبون يوم القيامة و يقال لهم : أحيوا ما خلقتم ؛ وحسبك! وسيأتى هـذا المعنى فى « النمـل » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أى الإسلام . وقيل : القرآن؛ قاله مجاهد . وقيل : الجهاد . ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قيل الشرك . وقيل الشيطان ؛ قاله مجاهـد . والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيـه . « وزهق الباطل » : بطـل الباطل . ومن هـذا زهوق النفس وهو بطلانها . يقـال زَهقت نفسه تَزهَق زهوقا ، وأزهقتها . ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أى لا بقاء له، والحق الذى يثبت .

قوله تعـالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ قرأ الجمهور بالنون . وقرأ مجاهد « و يُنْزِل » بالياء خفيفة، ورواها المروزىّ عن حفص . و « مِن » لابتـداء الغاية ، و يصح أن تكون لبيان الجنس ؛ كأنه قال : وننزل ما فيـه شفاء من القرآن . وفى الخـبر " من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن

(١) القلاص (بكسر القاف جمع القلوص بفتحها) وهى الناقة الشابة .

فلا شفاه الله " . وأنكر بعض المتأولين أن تكون « من » للتبعيض ؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه ان بعضه لا شفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعَّض ؛ فكأنه قال : وننزل من القرآن شيئا شفاء؛ ما فيه كله شفاء .

الثانيـــة — اختلف العلماء فى كونه شـــفاء على قولين : أحدهما — أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها و إزالة الرِّيَب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثانى — شفاء من الأمراض الظاهرة بالرُّقَى والتعوذ ونحوه . وقد روى الأئمة — واللفظ للدارقطنىّ — عن أبى ســعيد الخُدْرىّ قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيّة ثلاثين راكبا قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأَبَوْا؛ قال : فلُدِغ ســيد الحىّ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يَرْقِى من العقرب ؟ فى رواية ابن قَتّــة : إن الملك يموت . قال : قلت أنا نعم، ولكن لا أفعــل حتى تعطونا . فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمــد لله رب العــالمين » ســبع مرات فبرأ . فى رواية سليمان بن قتة عن أبى سعيد : فأفاق و برأ . فبعث إلينا بالنُّزل و بعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابى وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : "وما يدريك أنها رقية" قلت : يا رســول الله، شىء أُلْقِىَ فى رُوعِى . قال : "كلوا وأطعمونا من الغنم" خرّجه فى كتاب السنن . وخرّج فى (كتاب المــدبج)[1] من حديث السِّرىّ بن يحيى قال : حدثنى المعتمر بن ســليمان عن ليث بن أبى ســليم عن الحسن عن أبى أُمامة عن رســول الله صلى الله عليه وســلم أنه قال : " ينفــع باذن الله تعــالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلّ والحُمّى والنّفْس أن تكتب بزعفران أو بمشق — يعنى المَغْرة — أعوذ بكلمات الله التــامة وأسمائه كلّها عامةً من شر السّامة والغــامة ومن شر العين اللامّة ومن شر حاسد إذا حســد ومن أبى فَروة وما ولد " . كذا قال، ولم يقل من شر أبى قِترة[2] . العين اللامّة : التى تصيب بسوء . تقول : أُعِيذه من كل هامّة لامّة . وأما قوله :

(١) فى بعض الأصول : « المذبح » ولم نوفق لتصويبه .

(٢) أبو قترة (بكسر القاف وسكون التاء) : كنية إبليس .

أعيـذه من حادثات اللّمة فيقـول : هو الدهر . ويقال الشـدة . والسامة : الخـاصة . يقال : كيف السامة والعامة . والسامة السم . ومن أبى فروة وما ولد . وقال : ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتوا ربّهم عز وجل فقـالوا : وَصَبٌ بأرضنا . فقال : خذوا تربة من أرضكم فامسحوا نواصيكم . أو قال : نوصيكم رقيـة محمد صلى الله عليه وسلم لا أفلح من كتمها أبدا أو أخذ عليها صَفَدا (١)". ثم تكتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة ، والآية التى فيها تصريف الرياح وآية الكرسى والآيتين اللتين بعدها ، وخواتيم سـورة البقرة من موضع « لِلّهِ ما فِى السمواتِ وما فِى الارضِ » إلى آخرها ، وعشرا من أوّل « آل عمران » وعشرا من آخرها ، وأوّل آية من النساء ، وأوّل آية من المـائدة ، وأوّل آية من الأنعـام ، وأوّل آية من الأعراف ، والآية التى فى الأعراف « إِنّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضَ (٢) » حتى تختم الآية ، والآية التى فى « يونس » من موضع « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لا يُصْلِـحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٣) » ، والآية التى فى طه « وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِـحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٤) » ، وعشرا من أوّل الصافات ، و « قل هو الله أحد » ، والمعوِّذتين . تكتب فى إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحثو منه الوجع ثلاث حثَوات ثم يتوضأ منـه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجى به ثم يصلى ركعتين ثم يستشفى الله عز وجل ؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام ، قدر ما يكتب فى كل يوم كتابا . فى رواية : ومن شر أبى قِتْرة وما ولد . وقال : " فامسحوا نواصيكم" ولم يشك . وروى البخارى عن عائشة أن النبى صـلى الله عليه وسلم كان يَنْفُث على نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوِّذات فلما ثقل كنت أنفُث عليـه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت (٥) الزهرى كيف كان ينفث ؟ قال : كان يَنفُث على يديه ثم يمسح بهما وجهـه . وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

(١) الصفد : العطاء .　(٢) آية ٥٤　(٣) آية ٨١　(٤) آية ٦٩

(٥) السائل هو عروة بن الزبير راوى الحديث .

المعوِّذتين وتَفَـل أو نَفَث . قال أبو بكر بن الأنبارى : قال اللغويون تفسير « نفث » نفخ نفخا ليس معه ريق . ومعنى « تَفَل » نفخ نفخا معه ريق . قال الشاعر :

فإن يَبْرأ فلم أَنفِث عليـه * وإن يُفْقَـد فحَـقَّ له الفُقُود

وقال ذو الرُّمّة :

ومِن جَوْف ماءٍ عَرْمَض الحَوْلِ فـوقه * متى يَحْسُ منـه مائحُ القوم يَتْفُـلِ (١)

أراد ينفخ بريق . وسيأتى ما للعلماء فى النفث فى سورة الفلق إن شاء الله تعالى .

الثالثـة — روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الرُّقَى إلا بالمعوِّذات . قال الطبرى : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله فى الدِّين؛ إذ فى نقلته من لا يُعرف . ولو كان صحيحا لكان إما غلطا وإما منسوخا؛ لقوله عليه السلام فى الفاتحة "ما أدراك أنها رُقية" . وإذا جاز الرق بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما فى الجواز إذ كله قرآن . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "شفاء أمتى فى ثلاثٍ آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من محجم" . وقال رجاء الغَنَوىّ : ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

الرابعـة — واختلف العلماء فى النُّشْرة، وهى أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب . قيل له : الرجل يؤخذ عن امرأته أيُحَلّ عنه ويُنْشر؟ قال : لا بأس به ، وما ينفع لم يُنه عنه . ولم ير مجاهد أن تُكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع . وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين فى إناء ثم تأمر أن يُصب على المريض . وقال المـازَرِىّ أبو عبد الله : النُّشرة أمر معروف عند أهل التعزيم؛ وسُمِّيت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها أى تَحُلّ . ومنعها الحسن وإبراهيم النَّخَعِىّ، قال النَّخعِىّ : أخاف أن يصيبه بلاء؛ وكأنه ذهب إلى أنه ما يجىء به القرآن فهو

---

(١) العرمض : الخضرة التى تعلو الماء، وهى الرمض والعلق والطحلب . والمائح (بالهمز) : الذى ينزل البئر فيملأ الدلو . والماتح (بالتاء) : الذى يجذب الدلو .

إلى أن يعقب بلاء أقرب منـه إلى أن يفيد شفاء . وقال الحسن : سألت أَنَسًا فقال : ذكروا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان . وقد روى أبو داود من حديث جابر آبن عبدالله قال : سئل رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم عن‌النُّشْرة فقال : "من عمل الشيطان". قال آبن عبد البر . وهذه آثار لينة ولهـا وجوه محتمله ، وقد قيل : إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما فى كتاب الله وسنة رسوله عليـه السلام ، وعن المداواة المعروفة . والنشرة من جنس الطب فهى غسالة شيء له فضل ، فهى كوضوء رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا بأس بالرُّقَى مالم يكن فيـه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل " .

قلت : قد ذكرنا النص فى النشرة مرفوعا وأن ذلك لايكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه.

الخامســة — قال مالك : لابأس بتعليق الكتب التى فيها أسمـاء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرّك بها إذا لم يُرِد معلِّقُها بتعليقها مدافعة العين . وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين . وعلى هذا القول جماعة أهل العلم ، لا يجوز عندهم أن يعلّق على الصحيح من البهائم أو بنى آدم شيء من العلائق خوف نزول العين ، وكل ما يعلّق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرْء من الله تعالى ، فهو كالرُّقَى المباح الذى وردت السنة بإباحته من العين وغيرها . وقد روى عبـد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فَزِع أحدكم فى نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يَحْضُرون " . وكان عبد الله يعلّمها ولده من أدرك منهم ، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليـه . فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من علّق شيئا وُكِل إليه" . ورأى آبن مسعود على أم ولده تميمة مربوطة فجَبَـذَها جَبْذا شديدا فقطعها وقال : إن آل آبن مسعود لأغنياءُ عن الشِّرك ، ثم قال : إن التمائم والرّقى والتِّوَلَة من الشرك . قيـل : ما التِّوَلَة ؟ قال : ما تحبّبت به لزوجها . وروى عن عقبـة بن عامر الجهنى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " من علق تميمة فلا أتم الله له

ومن علق وَدَعة فلا وَدَع الله له قلبا". قال الخليل بن أحمد : التميمة قِلادة فيها عُوذ، والوَدَعة خرز. وقال أبو عمر: التميمة فى كلام العرب القِلادة، ومعناه عند أهل العلم ما علق فى الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل . فلا أتمّ الله عليه صحته وعافيته، ومن تعلّق وَدَعة — وهى مثلها فى المعنى — فلا وَدَع الله له ؛ أى فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية . والله أعلم . وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل، وهو المعافى والمبتلى، لا شريك له . فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون من ذلك فى جاهليتهم . وعن عائشة قالت : ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من التمائم . وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده . والقول الأول أصح فى الأثر والنظر إن شاء الله تعالى . وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العراقيين والكُهّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلّقا وغير معلق لا يكون شِرْكا، وقوله عليه السلام : "من علّق شيئا وُكل إليه" فمن علّق القرآن ينبغى أن يتولاه الله ولا يَكله إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكّل عليه فى الاستشفاء بالقرآن . وسئل ابن المسيِّب عن التعويذ أيعلّق ؟ قال : إذا كان فى قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به . وهذا على أن المكتوب قرآن . وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلّق الرجل الشىءَ من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط . ورخص أبو جعفر محمد بن علىّ فى التعويذ يعلق على الصبيان . وكان ابن سِيرين لا يرى بأسا بالشىء من القرآن يعلّقه الإنسان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضّل به تعالى من الثواب فى تلاوته؛ كما روى الترمذىّ عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف بل أَلِفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ". قال هذا حديث حسن صحيح غريب . وقد تقدّم . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم . قال

قتادة : ماجالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » الآية . ونظير هذه الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى »(١) . وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

قوله تعالى : وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارا صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وقيل : نزلت في الوليد ابن المغيرة . ومعنى « نأى بجانبه » أي تكبر وتباعد . وناء مقلوب منه؛ والمعنى : بَعُد عن القيام بحقوق الله عز وجل؛ يقال : نأى الشيء أي بعد . ونأيته ونأيت عنه بمعنًى، أي بَعُدت . وأنأيته فانتأى؛ أي أبعدته فبَعُد . وتناءَوْا تباعدوا . والمُنْتَأَى : الموضع البعيد . قال النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مُدرِكي * وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان « ناء » مثل باع ، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى؛ كما يقال : راء ورأى . وقيل : هو من النَّوْء وهو النهوض والقيام . وقد يقال أيضا للوقوع والجلوس نوءٌ؛ وهو من الأضداد . وقرئ « ونِئِي » بفتح النون وكسر الهمزة . والعامة « نأى » في وزن رأى . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

---

(١) آية ٤٤ سورة فصلت .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِـهِ ﴾ قال ابن عبـاس : ناحيتـه . وقاله الضحاك . مجاهد : طبيعته . وعنه : حِدته . ابن زيد : على دينه . الحسن وقتادة : نيته . مقاتل : جِبلته . الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جُبِل عليه . وقيل : قل كلٌّ يعمل على ما هو أشـكل عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده . وقيل : هو مأخوذ من الشكل ؛ يقال : لستَ على شَكْلى ولا شاكلتى . قال الشاعر :

كل آمرئ يشبهه فعله ﴿ ما يفعل المرء فهو أهله

فالشَّكل هو المثل والنظير والضَّرب . كقوله تعـالى : « وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »(١) . والشِّكل (بكسر الشـين) : الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . وهـذه الأقوال كلّها متقاربة . والمعنى : أن كل أحد يعمل على مايشاكل أصله وأخلاقه التى ألفها ، وهذا ذمٌّ للكافر ومدح للؤمن . والآية والتى قبلها نزلتا فى الوليد بن المغيرة؛ ذكره المهدوىّ . ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أى بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وقيل : « اهدى سبيلا » أى أسرع قبولا . وقيـل : أحسن دينا . وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصـديق رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : «قلْ كلٌّ يعمل على شَاكِلتِهِ» فإنه لايشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران . وقال عمـر بن الخطاب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيـه آية أرجى وأحسن من قوله تعـالى : « بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحِيم . حمٓ . تنزيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العزيزِ العليم . غافِرِ الذنب وقابِلِ التوبِ شديدِ العِقابِ ذِى الطَّول »(٢) قدم غفران الذنوب على قبول التوبة ، وفى هذا إشارة للؤمنين . وقال عثمان آبن عفان رضى الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ »(٣) . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه :

---

(١) آية ٥٨ سورة ص . (٢) أول سورة غافر . (٣) آية ٤٩ سورة الحجر .

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »(١) .

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ »(٢) .

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حَرْث وهو متكئ على عسيب إذ مرّ اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح . فقال: ما رابكم(٣) إليه ؟ وقال بعضهم : لايستقبلكم بشيء تكرهونه . فقالوا : سلوه . فسألوه عن الروح فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يردّ عليهم شيئا ؛ فعلمتُ أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » لفظ البخاري . وفي مسلم : فأسكتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم . وفيه : وما أوتوا . وقد ٱختلف الناس في الروح المسئول عنه ، أيّ الروح هو؟ فقيل : هو جبريل ؛ قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل هو عيسى . وقيل القرآن ، على ما يأتي بيانه في آخر الشّورَى . وقال عليّ بن أبي طالب : هو مَلَك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف لسان ، في كل لسان سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات ، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة مَلَكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . ذكره الطبري . قال ابن عطية : وما أظن القول يصحّ عن عليّ رضي الله عنه .

قلت : أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفي حدّثنا عثمان بن سعيد حدّثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن

(١) آية ٥٣ سورة الزمر . (٢) آية ٨٢ سورة الأنعام . (٣) أي ما دعاكم إلى سؤال تخشون عاقبته بأن يستقبلكم بشيء تكرهونه .

عباس فى قوله : « و يسألونك عن الروح » يقول : الروح مَلَك . و بإسناده عن معاوية بن صالح حدثنى أبو هِران (بكسر الهاء) يزيد بن سَمُرة عمن حدثه عن علىّ بن أبى طالب أنه قال فى قوله تعالى : «و يسئلونك عن الروح» قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه . و روى عطاء عن ابن عباس قال : الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه ، يسبح الله إلى يوم القيامة ؛ ذكره النحاس . وعنه : جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . وقال الخطابى : وقال بعضهم ، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة . وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذى يكون به حياة الجسد . وقال أهل النظر منهم : إنما سـألوه عن كيفية الروح ومسلكه فى بدن الإنسان ، وكيف آمتزاجه بالجسم وآتصال الحياة به ، وهـذا شىء لا يعلمه إلا الله عز وجل . وقال أبو صالح : الروح خلق كخلق بنى آدم وليسوا ببنى آدم ، لهم أيد وأرجل . والصحيح الإبهام لقوله : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » ...(١) أى هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعـالى ، مُبْهِمًا له وتاركا تفصيله ؛ ليعرف الإنسان على القطع عجـزه عن عِلم حقيقةِ نفسه مع العلم بوجودها . و إذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالةً على أنه عن إدراك خالقه أعجز .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِـلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ آختلف فيمن خُوطب بذلك ؛ فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بجملتهم . وعلى هـذا هى قراءة ابن مسعود « وما أوتوا » و رواها عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم . وقالت فرقة : المراد العَالَم كله . وهو الصحيح ، وعليه قراءة الجمهور « وما أوتيتم » . وقد قالت اليهود للنبىّ صلى الله عليه وسلم : كيف لم نُؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم بعلم الله فغُلِبـوا . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فى بعض الأحاديث : "كُلًّا" يعنى أن المراد بـ « ـما أوتيتم » جميع

(١) مكان هذه الأصفار فى جميع نسخ الأصل : «دليل على خلق الروح» . ولم نر لهذه الجملة فى سياق الكلام معنى .

العالم . وذلك أن يهود قالت له : نحن عنيت أم قومك . فقال : "كُلًّا" . وفى هذا المعنى نزلت « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ »[1] . حكى ذلك الطبرى رحمه الله ! وقد قيل : إن السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن آثنين وأمسك عن واحدة فهو نبىّ ؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين على ما يأتى . وقال فى الروح : « قُلِ الروح مِن أمرِ ربّى » أى من الأمر الذى لا يعلمه إلا الله . ذكره المهدوىّ وغيره من المفسرين عن ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن . أى كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق . و يتّصل هذا بقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أى ولو شئتُ أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أى ناصرا يردّه عليك . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛ فهو استثناء ليس من الأول . وقيل : إلا أن يرحمك ربّك فلا يذهب به . ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ إذ جعلك سيّد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز . وقال عبد الله بن مسعود : أوّل ما تَفْقِدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وأن هذا القرآن كأنه قد نُزع منكم ، تُصبحون يوما وما معكم منه شىء . فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبّتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا ، نعلّمه أبناءنا و يعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ! قال : يسرى به فى ليلة فيذهب بما فى المصاحف وما فى القلوب ، فتصبح الناس كالبهائم . ثم قرأ عبد الله « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذى أوْحينا إليك » الآية . أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأحوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن

(١) آية ٢٧ سورة لقمان .

شدّاد بن مَعْقِل قال قال عبد الله — يعنى ابن مسعود — : إن هذا القرآن الذى بين أظهركم يوشك أن يُنزع منكم . قال : قلت كيف ينزع منا وقد أثبته الله فى قلوبنا وثبتناه فى مصاحفنا! قال: يسرى عليه فى ليلة واحدة فينزع ما فى القلوب و يذهب ما فى المصاحف و يصبح الناس منه فقراء . ثم قرأ « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أَوْحينا إليك » وهذا إسناد صحيح . وعن ابن عمر : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دَوِىّ كدوىّ النحل، فيقول الله ما بالك . فيقول : يارب منك خرجت و إليك أعود، أُتْلَى فلا يُعمل بى، أُتْلَى ولا يعمل بى.

قلت : قد جاء معنى هـذا مرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة . قال حذيفة قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "يدرس الإسلام كما يدرس وَشْىُ الثوب حتى لا يُدْرَى ما صيام ولا صـلاة ولا نسك ولا صـدقة فيسرى على كتاب الله تعالى فى ليلة فلا يبقى منه فى الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبيروالعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله . وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة" . قال له صِـلة (١) : ما تغنى عنهم لا إله إلا الله! وهم لا يدرون ما صـلاة ولا صـيام ولا نسك ولا صدقة ؛ فأعرض عنه حذيفة ؛ ثم ردّدها ثلاثا، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة . ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صـلة ! تنجيهم من النار ، ثلاثا . خرجه ابن ماجه فى السنن . وقال عبـد الله بن عمر : خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو معصوب الرأس من وجع فضحك ، فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس ما هذه الكتب التى تكتبون أ كتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يَدَع ورقا ولا قلبـا إلا أخذ منـه" قالوا : يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ ؟ قال : "من أراد الله به خيرا أبقى فى قلبه لا إله إلا الله" ذكره الثعلبىّ والغَزْنَوِىّ وغيرهما فى التفسير .

قوله تعـالى : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(١) هو صلة بن زفر العبسى ، أحد رجال سند الحديث .

أى عوينا ونصيرا؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا؛ فأكذبهم الله تعالى. وقد مضى القول فى إعجاز القرآن فى أول الكتاب[(١)]. والحمد لله. و ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم فى «لئن» وقد يجزم على إرادة الشرط. قال الشاعر:

لئن كان ما حُدِّثْتِــهِ اليوم صادقا * أَقِم[(٢)] فى نهـار القَيْظ للشمس باديَا

قوله تعـالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَـدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهى وأقاصيص الأوّلين، والجنــة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يريد أهــل مكة، بيّن لهم الحقَّ وفتــح لهم وأمهلهم حتى تبيّن لهم أنه الحق، فأبَوْا إلا الكفر وقت تبيّنِ الحق. قال المهدوِىّ: ولا حجة للقدرىّ فى قولهم: لا يقال أبى إلا لمن أبَى فِعْل ما هو قادر عليه؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمـان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل.

قوله تعـالى : وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٢) رواية خزانة الأدب فى الشاهد الرابع والثلاثين بعد التسعمائة: «أصم فى نهار القيظ ...» الخ.

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَـا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبى سفيان والنضر بن الحارث، وأبى جهل وعبد الله بن أبى أمية، وأميّة بن خلف وأبى البَخْتَرِىّ، والوليد بن المغيرة وغيرهم . وذلك أنهم لمـا عجزوا عن معارضـة القرآن ولم يرضَوْا به معجزة، اجتمعوا — فيما ذكر ابن إسحاق وغيره — بعـد غروب الشمس عند ظهـر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد — صـلى الله عليه وسـلم — فكلّموه وخاصموه حتى تُعْذَرُوا فيـه، فبعثوا إليـه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وهو يظن أن قد بدَا لهم فيما كلمهم فيه بَدْو، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم حريصا يحبّ رشدهم و يَعِزّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، و إنا والله ما نعـلم رجلا من العـرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقـد شتمتَ الآباء وعِبْت الدين وشتمت الآلهـة وسفّهت الأحلام وفرقت الجماعة ، فمـا بَقِيَ أمر قبيح إلا قـد جئته فيما بيننا و بينـك ، أوكما قالوا له . فإن كنت إنمـا جئت بهـذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، و إن كنت إنمـا تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، و إن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، و إن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه قد غَلَب عليك — وكانوا يسمّون التابع من الجن رَئِيًّا — فربمـا كان ذلك بذلنا أموالنـا في طلب الطب لك حتى نُبْرِئك منـه أو نُعذر فيك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مابى ماتقولون ماجئتُ بمـا جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثـنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشـيرا ونذيرا فبلّغتكم رسالات ربى ونصحتُ لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة و إن تردّوه علىّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم " أوكما قال صلى الله عليه وسلم . قالوا : يامحمد، فإن كنت غير قابل منا شيئا ممـا عرضناه عليـك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقلّ ماء ولا أشـدّ عيشا منا، فسَلْ لنا ربَّك الذى بعثك بمـا بعثك به، فليسيّر

عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليَبْسُط لنا بلادنا وليخْرِق لنا فيها أنهارا كأنهار الشأم، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصيّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صِدْق فنسألهم عما تقول، أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدّقوك وصنعت ماسألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: "ما بهذا بُعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلّغتكم ماأرسلتُ به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم". قالوا: فإذ لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك! سَلْ ربك أن يبعث معك مَلَكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، وآسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا — أو كما قال — فإن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" قالوا: فأسْقِط السماء علينا كِسَفًا كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل" قالوا: يا محمد، فما عَلِم ربّك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ماجئتنا به. إنه قد بلغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قَبِيلا. فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكةَ بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد! عرض عليك

قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك مايعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ! ثم سألوك أن تعجّل لهم بعض ماتخوّفهم به من العذاب فلم تفعل ! — أوكما قال له — فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا ، ثم ترْقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتى معك بصَكٍّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وَأَيْمُ اللهِ لو فعلت ذلك ماظننت أنى أصدقك! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا آسِفًا لِما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولِما رأى من مباعدتهم إياه؛ كلّه لفظ ابن إسحاق . وذكر الواحدى عن عكرمة عن ابن عباس : فأنزل الله تعالى « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » . ﴿ يَنْبُوعًا ﴾ يعنى العيون ؛ عن مجاهد . وهى يفعول، من نَبَع يَنْبع . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « تَفْجُرَ لنا » مخفّفة ، واختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد . ولم يختلفوا فى تفجّر الأنهار أنه مشدّد . قال أبو عبيد : والأولى مثلها . قال أبو حاتم . ليست مثلها ؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانيـة بعدها الأنهار وهى جمع ، والتّشديد يدل على التكثير . أجيب بأن « ينبوعا » وإن كان واحدا فالمراد به الجمع ؛ كما قال مجاهد . الينبوع عين المـاء، والجمع الينابيع . وقرأ قتادة « أو يكون لك جنة » . ﴿ خِلَالَهَا ﴾ أى وسطها . ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ ﴾ قراءة العامة . وقرأ مجاهـد « أو يَسْقُطَ السماءُ » على إسناد الفعل إلى السماء . ﴿ كِسَفًا ﴾ قطعا؛ عن ابن عباس وغيره . والكِسَف (بفتح السين) جمع كِسفة، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم . الباقون « كِسْفًا » بإسكان السين . قال الأخفش : من قرأ كِسْفًا من السماء جعله واحدا، ومن قرأ كِسَفًا جعـله جمعا . قال المهدوى : ومن أسكن السين جاز أن يكون جمـع كِسْفة وجاز أن يكون مصدرا ؛ من كسفت الشيء إذا غطّيته . فكأنهم قالوا : أسقطها طبقا علينا . وقال الجوهرى : الكِسْفة القطعة من الشيء؛ يقال: أعطنى كِسْفة من ثوبك ، والجمـع كِسْف وكِسَف . ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد .

﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أى معاينـة ؛ عن قتادة وابن جريج . وقال الضحاك وابن عباس : كفيلا . قال مقاتل : شهيدا . مجاهـد : هو جمع القبيلة ؛ أى بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً . وقيل : ضمناء يضمنون لنا إتيانك به . ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ أى من ذهب ؛ عن ابن عبـاس وغيره . وأصله الزينـة . والمُزَخْرَف المزيّن . وزخارف الماء طرائقه . وقال مجاهـد : كنت لا أدرى ما الزُّخْرُف حتى رأيته فى قراءة ابن مسعود « بيتٌ مِن ذَهَبٍ » أى نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذى نرى . ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أى تصعد؛ يقال : رَقِيت فى السُّلَّم أرْقَى رَقْياً و رُقِيًّا إذا صعِدت . وآرتقيت مثله . ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أى من أجل رُقِيِّك ، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضى مُضياً ، وهوى يهوى هُوِياً ، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا . ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ أى كتابا من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً »(١) . ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ وقرأ أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى قال ذلك تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يُعترض عليـه فى فعل . وقيل : هـذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم . الباقون «قل» على الأمر؛ أى قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنْتُ﴾ أى ما أنا ﴿ إِلَّا بَشَرًا رَسُـولًا ﴾ أتبع ما يوحَى إلىّ من ربّى، ويفعل الله ما يشاء من هـذه الأشياء التى ليست فى قدرة البشر، فهل سمعتم أحدا من البشر أتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملحدين : ليس هذا جوابا مقنعا، وغلِطوا؛ لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتمونى، وليس لى أن أتخـيّر على ربى ، ولم تكن الرسـل قَبْلى يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه ، وسبيلى سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوّتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول : لا أُومن حتى أُوتَى بآية خلاف ما طلب غيرى . وهذا يـؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس . وإنما التدبير إلى الله تعالى .

(١) آية ٥٢ سورة المدثر .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ يعنى الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه . ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ جهلا منهم . ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ أى الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . فبيّن الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد ، وغفلوا عن المعجزة . فـ« أَنْ » الأولى فى محل نصب بإسقاط حرف الخفض . و« أنْ » الثانية فى محل رفع بـ« منع » أى وما منع الناسَ من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا .

قوله تعالى : قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

أعلم الله تعالى أن المَلَك إنما يُرسَل إلى الملائكة ؛ لأنه لو أرسل ملكا إلى الآدميّين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التى خُلق عليها ، و إنما أقدر الأنبياء على ذلك وخَلق فيهم ما يقدرون به ؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة . وقد تقدّم فى « الأنعام » نظير هذه الآية ؛ وهو قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » (١) وقد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله « هل كنتُ إلا بشرا رسولا » : فمن يشهد لك أنك رسول الله . فنزل « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » .

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى ﴾ أى لو هداهم الله لاهتدوا . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى لايهديهم أحد . ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهـنم ؛ من قول العرب : قَدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا . الثانى — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهـنم كما يُفعل فى الدنيا بمن يبالَغ فى هَوانه وتعذيبه . وهـذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس أن رجلا قال : يا رســول الله ، الذين يحشرون على وجوههم ، أيحشر الكافر على وجهـه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يُمْشِيَه على وجهـه يوم القيامة " : قال قتادة حين بلغه : بَلَى وعِزّةِ رَبّنـا . أخرجه البخارى ومسلم . وحســبك . ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ قال ابن عباس والحسن : أى عُمْىٌ عما يسرّهم، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم؛ وعلى هـذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه . وقيل : إنهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم فى النار، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا»(١)، وتكلموا ؛ لقوله تعالى : «دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا»(٢)، وسمعوا ؛ لقوله تعالى : «سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا»(٣) . وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ»(٤) صاروا عُمْيًا لايبصرون صُمًّا لا يسمعون بُكْمًا لا يفقهون . وقيل : عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم : اخسئوا فيها ولا تكلمون . وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا . ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى مستقرّهم ومقامهم . ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ أى سكنت ؛ عن الضحاك

(١) آية ٥٣ سورة الكهف . (٢) آية ١٣ سورة الفرقان . (٣) آية ١٢ سورة الفرقان .
(٤) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

وغيره . مجاهد طفئت . يقال : خبت النار تخبو خبوا أى طَفئت، وأخبيتُها أنا . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى نارا تتلهب . وسكون التهابها من غير نقصان فى آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم . وقيل : إذا أرادت أن تَخْبُو . كقوله : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ »(١) .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك العذاب جزاء كفرهم . ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى ترابا . ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ قيل : فى الكلام تقديم وتأخير، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم . والأجل : مدّة قيامهم فى الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد . وقيل : هو جواب قولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » . وقيل : هو يوم القيامة . ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى المشركون إلا جحودا بذلك الأجل وبآيات الله . وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث، ولا ينبغى أن يُشَكّ فيه .

قوله تعالى : قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(١) آية ٤٥ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أي خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النعم؛ وهذا أعم . ﴿ إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ من البخل؛ وهو جواب قولهم : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » حتى نتوسّع في المعيشة . أي لو توسعتم لبخلتم أيضا . وقيل : المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى؛ لأمرين : أحدهما — أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته . الثاني — أنه يخاف الفقر ويخشى العدم . والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين . والإنفاق في هـذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة . وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قلّ ماله . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أي بخيلا مضيقا . يقال : قتَر على عياله يقتِر ويقتُر قترًا وقتورا إذا ضيق عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات . وآختلف في هذه الآية على قولين : أحدهما — أنها نزلت في المشركين خاصّة؛ قاله الحسن . والثاني — أنها عامة، وهو قول الجمهور؛ وذكره الماوردي .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ آختلف في هذه الآيات ؛ فقيل : هي بمعنى آيات الكتاب؛ كما روى الترمذيّ والنسائيّ عن صفوان بن عسّال المُرادي أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله ؛ فقال : لا تقل له نبيّ فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين؛ فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفرّوا من الزحف — شك شعبة — وعليكم [يا معشر] اليهود خاصّةً ألا تعدوا في السبت" فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبيّ . قال :

"فـما يمنعكما أن تُسلما" قالا : إن داود دعا الله ألا يزال فى ذريته نبى وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد مضى فى البقرة (١) . وقيل : الآيات بمعنى المعجزات والدلالات . قال ابن عباس والضحاك : الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم؛ آيات مفصّلات . وقال الحسن والشعبى : الخمس المذكورة فى «الأعراف» (٢)؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات . وروى نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقّف العصا ما يأفكون . وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات : البحر والجبل . وقال محمد بن كعب : هى الخمس التى فى « الأعراف » والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم . وقد تقدّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله . ﴿ فَٱسْأَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ أى سـلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهـذه الآيات، حسبما تقدّم بيانه فى يونس . وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة مايقول محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَى مَسْحُورًا ﴾ أى ساحرا بغرائب أفعالك؛ قاله الفراء وأبو عبيدة . فوضع المفعول موضـع الفاعل؛ كما تقول : هـذا مشئوم وميمون، أى شائم ويامن . وقيل مخدوعا . وقيل مغلوبا؛ قاله مقاتل . وقيل غير هذا؛ وقد تقدّم . وعن ابن عباس وأبى نَهِيـك أنهما قرأا « فَسأَلَ بَنِى إسرائيل » على الخبر؛ أى سأل موسى فرعونَ أن يخلى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه .

قوله تعـالى : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ ﴾ يعنى الآيات التسع . و « أنزل » بمعنى أوجد . ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٦٧

وقراءة العامة « علمتَ » بفتح التاء ، خطابا لفرعون . وقرأ الكسائى بضم التاء ، وهى قراءة علىّ رضى الله عنــه ؛ وقال : والله ما علم عدوّ الله ولكن موسى هو الذى علم ، فبلغت ابنَ عباس فقال : إنها « لقد علمتَ » ، واحتج بقوله تعالى : « وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا »(١) . ونسب فرعون إلى العناد . وقال أبو عبيد : والمأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى الذى احتج به ابن عباس ؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله : علمت أنا ، وهو الرسول الداعى ، ولو كان مع هذا كلّه تصح به القراءة عن علىّ لكانت حجة ، ولكن لا تثبت عنه ، إنما هى عن كُلثوم المرادىّ وهو مجهول لا يعرف ، ولا نعلم أحدا قرأ بها غير الكسائى. وقيل : إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات ؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله ، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر ، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض . وقال مجاهد : دخل موسى على فرعون فى يوم شاتٍ وعليه قطيفة له ، فألق موسى عصاه فإذا هى ثعبان ، فرأى فرعون جانبى البيت بين فُقْمَيْهَا ، ففــزع وأحدث فى قطيفته . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورا ﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق . والثبور : الهلاك والخسران أيضا . قال الكُمَيْت :

ورأتْ قُضاعة فى الأيا * مِن رأىَ مَثْبُورٍ وثابر

أى مخسور وخاسر ، يعنى فى انتسابها إلى اليمن . وقيل : ملعونا . رواه المِنْهال عن سعيد آبن جُبير عن ابن عباس . وقاله أبان بن تَغْلِب . وأنشد :

ياقومنا لا تَرُومُوا حَرْبَنَا سَفَهًا * إنّ السَّــفاه و إن البَغْىَ مثبورُ

أى ملعون . وقال ميمون بن مِهران عن ابن عباس : « مثبورا » ناقص العقل . ونظر المأمون رجلا فقال له : يامثبور ؛ فسئل عنه قال : قال الرشيد قال المنصور لرجل : مثبور ؛ فسألته فقال : حدثنى ميمون بن مِهران ... فذكره . وقال قتادة هالكا . وعنه أيضا والحسن ومجاهد : مهلكا . والثُّبُور : الهلاك ؛ يقال : ثَبَر الله العدوّ ثبورا أهلكه . وقيــل : ممنوعا

---

(١) آية ١٤ سورة النمل .

من الخير . حكى أهل اللغة : ما ثبرك عن كذا أى ما منعك منه . وثبره الله يثبُره ثَبْراً . قال ابن الزِّبَعْرَى :

إذ أُجارِى الشيطان فى سَنَن الغَـ * ـىّ ومن مال مَيْلَه مثبور

الضحاك : «مثبورا» مسحورا . ردّ عليه مثل ما قال له بٱختلاف اللفظ . وقال ابن زيد : «مثبورا» مخبولا لا عقل له .

قوله تعالى : فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل . ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد إغراقه ﴿ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الشأم ومصر . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا يحاز أحد منكم إلى قبيلته وحَيّه . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعا من جهات شتّى . والمعنى واحد . قال الجوهرى : واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقال : جاء القوم بلَفّهم ولفيفهم، أى وأخلاطهم . وقوله تعالى « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » أى مجتمعين مختلطين . وطعام لَفِيف إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا . وفلان لفيف فلان أى صديقه . قال الأصمعى : اللفيف جمعٌ وليس له واحد ، وهو مثل الجميع . والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، مختلطين لا يتعارفون . وقال الكلبى : «فإذا جاء وعد الآخرة» يعنى مجىء عيسى عليه السلام من السماء .

قوله تعـالى : وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

قوله تعـالى : ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن . والكناية ترجع الى القرآن . ووجه التكرير فى قوله « وبالحق نزل » يجوز أن يكون معنى الأوّل : أوجبنا إنزاله بالحق . ومعنى الثانى : ونزل وفيه الحق؛ كقوله خرج بثيابه ، أى وعليه ثيابه . وقيل الباء فى «وبالحق» الأوّل بمعنى مع ، أى مع الحق؛ كقولك ركب الأمير بسـيفه أى مع سـيفه . « وبِٱلحق نزل » أى بمحمد صـلى الله عليه وسلم ، أى نزل عليه؛ كما تقول نزلت بزيد . وقيل : يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل ، وكذلك نزل .

قوله تعـالى : وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ مذهب سيبويه أن «قرآنا» منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . وقرأ جمهور الناس « فَرَقناه » بتخفيف الراء، ومعناه بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : فصلناه . وقرأ ٱبن عباس وعليّ وابن مسعود وأُبَيّ بن كعب وقَتادة وأبو رجاء والشَّعْبِيّ « فرّقناه » بالتشديد، أى أنزلناه شيئا بعد شيء لا جملةً واحدة؛ إلا أن فى قراءة ابن مسعود وأُبَيّ «فرقناه عليك» .

واختلف فى كم نزل القرآن من المدّة؛ فقيل : فى خمس وعشرين سنة . ابن عبـاس : فى ثلاث وعشرين . أنس : فى عشريـن . وهذا بحسب الخلاف فى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة . وقد مضى هذا فى «البقرة» . ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أى تطاولُ فى المدّة شيئا بعد شيء . ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود، أى أنزلناه آية آية وسورةً سورة . وأمّا على القول الأوّل فيكون «عَلَى مُكْث» أى على ترسّل فى التلاوة وترتيـل؛ قاله مجاهد وٱبن عباس وابن جريج . فيعطى القـارئ القراءة حقّها من

ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد[1] إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب . وأجمع القراء على ضم الميم من « مُكْث » إلا ابن مُحَيْصِن فإنه قرأ « مَكْث » بفتح الميم . ويقال . مَكْث ومُكْث ومِكْث؛ ثلاث لغات . قال مالك : « على مُكْث » على تثبّت وترسّل .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أى أنزلناه نجمًا بعد نجم[2]؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا .

قوله تعالى : قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ يعنى القرآن . وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التخيير . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزول القرآن وخروج النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهم مؤمنو أهل الكتاب ؛ فى قول ابن جُرَيج وغيره . قال ابن جُرَيج : معنى « إذا يتلى عليهم » كتابهم . وقيل القرآن .﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وقيل : هم قوم من ولد إسماعيل تمسّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيّ عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نُفَيل وورقة بن نَوْفل . وعلى هـذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدِّين . وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : إنهم ناس من اليهود؛ وهو أظهر لقوله « مِنْ قَبْلِه » . ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى القرآن فى قول مجاهد . كانوا إذا سمعوا ماأنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : «سبحان ربّنا إن كان وعد ربّنا لمفعولا» . وقيل : كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا، وقالوا : هذا هو المذكور فى التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لامحالة، وجنحوا إلى الإسلام؛ فنزلت الآية فيهم . وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبله

(١) فى نسخ الأصل : « المؤدى » . (٢) أى نزل آية آية .

محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير فى « قَبْله » عائد على القرآن حسب الضمير فى قوله « قل آمنوا به » . وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم، وٱستأنف ذكر القرآن فى قوله : « إذا يتلى عليهم » .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

دليل على جواز التسبيح فى السجود . وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى سجوده وركوعه " سبحانك اللّهمّ وبحمدك اللّهمّ ٱغفر لى " .

قوله تعالى : وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ هذه مبالغة فى صفتهم ومدح لهم. وحقّ لكل من توسّم بالعلم وحصّل منه شيئا أن يجرى إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذِل . وفى مسند الدارِمىّ أبى محمد عن التَّيْمىّ قال : من أوتىَ من العلم ما لم يبكّه لخليق ألا يكون أوتى علما؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية . ذكره الطبرى أيضا . والأذقان جمع ذقن ، وهو مجتمع اللَّحْيين . وقال الحسن : الأذقان عبارة عن اللِّحَى؛ أى يضعونها على الأرض فى حال السجود، وهو غاية التواضع . واللام بمعنى على؛ تقول سقط لِفيه أى على فيه . وقال ابن عباس : «ويخرون للأذقان سُجّدًا » أى للوجوه، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شىء من وجه الإنسان . قال ابن خُوَيْزمنداد : ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه، وقد يعبّر بالشىء عما جاوره وببعضه عن جميعه؛ فيقال : خر لوجهه ساجدا وإن كان لم يسجد على خدّه ولا عينه . ألا ترى إلى قوله :

* فخــرّ صَريعا لليدين وللفَم *

فإنمـا أراد : خر صريعا على وجهه ويديه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليـل على جواز البكاء فى الصـلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته فى دين الله ، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها . ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانِيّ عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : أتيت النبيّ صـلى الله عليه وسلم وهو يصـلى ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء . وفى كتاب أبى داود : وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء .

الثالثـــة — واختلف الفقهاء فى الأنين؛ فقال مالك : الأنين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح؛ وبه قال الثورى . وروى ابن الحكم عن مالك : التنحنحُ والأنين والنفخ لا يقطع الصـلاة . وقال ابن القاسم : يقطع . وقال الشـافعىّ : إن كان له حروف تُسمع وتُفهم يقطع الصـلاة . وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع . وروى عن أبى يوسف أن صـلاته فى ذلك كلّه تامةٌ ؛ لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من أنين .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ تقـدّم القـول فى الخشـوع فى « البقرة »(١) ويأتى .

قوله تعـالى : قُـلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَـلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَـرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَـبِيلًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ سبب نزول هـذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يدعو "يا ألله يا رحمن" فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين؛ قاله ابن عباس . وقال مكحول : تهجّد رسول الله صـلى الله عليه وسلم ليلةً فقال فى دعائه : "يا رحمن يا رحيم" فسمعه رجل

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

من المشركين ، وكان باليمـامة رجل يسمى الرحمن، فقال ذلك السـامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليمـامة . فنزلت الآية مبيِّنة أنهما اسمان لمسمًّى واحد ؛ فإن دعوتموه بالله فهو ذاك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك . وقيـل : كانوا يكتبون فى صدر الكتب : باسمك اللهم ؛ فنزلت « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ »(١) فكتب رسول الله صـلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال المشركون : هـذا الرحيم نعرفه فما الرحمن؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسما هو فى التوراة كثير ، يعنون الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « أيًّا مَنْ تدعو فله الأسماء الحسنى » أى التى تقتضى أفضـل الأوصاف وأشرف المعانى . وحسنُ الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع ؛ لإطلاقها والنصّ عليها . وانضاف إلى ذلك أنها تقتضى معانى حسانا شريفة ، وهى بتوقيف لا يصح وضع اسم لله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع . حسبما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — اختلفوا فى سبب نزولها على خمسة أقوال :

الأول — ما روى ابن عباس فى قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَـلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسـلم مُتَوارٍ بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سَـبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعـالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَـلَاتِكَ » فيسمع المشركون قراءتك . « وَلَا تُخَافِتْ بِهَـا » عن أصحابك . أسمعهـم القرآن ولا تجهـر ذلك الجهر . ﴿ وَٱبْتَـغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : يقول بين الجهر والمخافتة ؛ أخرجه البخارىّ ومسلم والترمذىّ وغيرهم . واللفظ لمسلم . والمخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال للميت إذا بَرَد : خفت . قال الشاعر :

لم يبـق إلا نَفَس خافت * ومُقْـلَةٌ إنسانهـا باهت
رَثَى لهـا الشامت مما بها * ياوَيْحَ من يَرْثِى له الشّامت

(١) آية ٣٠ سورة النمل .

الثـانى — ما رواه مسـلم أيضا عن عائشة فى قوله عز وجل : « ولا تجهر بصـلاتك ولا تخافت بها » قالت : أنزل هذا فى الدعاء .

الثـالث — قال ابن سِيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهّدهم فنزلت الآية فى ذلك .

قلت : وعلى هـذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ؛ وقـد قال ابن مسعود : من السّنة أن تخفى التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .

الرابـــع — ما روى عن ابن سِيرين أيضا أن أبا بكر رضى الله عنـه كان يُسِر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، فقيل لهما فى ذلك ؛ فقال أبو بكر : إنمـا أناجى ربى ، وهو يعـلم حاجتى إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوَسْنان ؛ فلما نزلت هـذه الآية قيل لأبى بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا ؛ ذكره الطبرى وغيره .

الخامس — ما روى عن ابن عباس أيضا أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوى. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة فى النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلى مخير فى الجهر والسر فى الليل والنهار، وكذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعا . وأما الفرائض فحكمها فى القراءة معلوم ليلا ونهارا .

وقول سادس — قال الحسن : يقول الله لا ترائى بصلاتك تحسّنها فى العلانية ولا تسيئها فى السر . وقال ابن عباس : لا تصلّ مرائيا للناس ولا تدعها مخافة الناس .

الثانيـــة — عبّر تعـالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصـلاة فى قوله : « وقرآن الفجـر إن قرآن الفجـر كان مشهودا » لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهى من جملة أجزائها ؛ فعبر بالجزء عن الجملة و بالجملة عن الجزء على عادة العرب فى المجاز وهو كثير ؛ ومنه الحديث الصحيح : " قَسَمتُ الصلاة بينى و بين عبدى " أى قراءة الفاتحة على ما تقدّم .

قوله تعـالى : وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْـدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذا : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه ؛ تعالى الله عن أقوالهم ! ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحدا ولا ابتغى نصر أحد ؛ أي لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعا . وقال الكلبي : لم يكن له ولِيّ من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل النـاس ، ردا لقولهم : نحن أبنـاء الله وأحباؤه . وقال الحسن بن الفضـل : « وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ » يعني لم يُذَلّ فيحتاج إلى وَلِيّ ولا ناصر لعزته وكبريائه . ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ أي عظّمه عظمة تامة . ويقال : أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أي صفه بأنه أكبر من كل شيء . قال الشاعر :

رأيتُ الله أكبر كل شيء * محاولة وأكثرهـم جنودا

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة قال : " الله أكبر " وقد تقدّم أوّل الكتاب . وقال عمر بن الخطاب . قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها . وهذه الآية هي خاتمة التوراة . روى مُطَرِّف عن عبدالله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سـورة الأنعام وختمت بخاتمة هـذه السورة . وفي الخبر أنها آية العز ؛ رواه معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيـه عن جده قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه « وقل الحمـد لله الذي » الآية . وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرأ وقل الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولدا تكاد السـموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتَخِرّ الجبال هَـدًّا " . وجاء في الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أمر رجلا شـكا إليه بالدَّين بأن يقرأ « قل ٱدعوا الله أو ادعوا الرحمن » — إلى آخر السورة ثم يقول — توكلت على الحي الذي لا يموت ؛ ثلاث مرات .

تمت سورة الإسراء، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده .

تفســير ســورة الكهف

وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله « جُرُزًا »[1] ، والأول أصح . وروى فى فضلها من حديث أنس أنه قال : من قرأ بها أُعْطِىَ نورا بين السماء والأرض ووُقِىَ بها فتنة القبر . وقال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أدُلّكم على سورة شيّعها سبعون ألف مَلَك مَلأ عِظَمُها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك" . قالوا : بلى يا رسول الله؟ قال : "سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نورا يبلغ السماء ووُقِىَ فتنة الدجال" ذكره الثعلبي ، والمهدوى أيضا بمعناه . وفى مسند الدّارِمِىّ عن أبى سعيد الخُدْرِى قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق . وفى صحيح مسلم عن أبى الدَّرْدَاء أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من الدجال" . وفى رواية "من آخر الكهف" . وفى مسلم أيضا من حديث النواس بن سِمْعان "فمن أدركه — يعنى الدجال — فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف" . وذكره الثعلبىّ . قال : سَمُرة بن جُنْدُب قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حِفْظًا لم تضره فتنة الدجال" . ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا ﴾ ذكر ابن إسحاق أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعُقبة بن أبى مُعَيْط إلى أحبار يهودَ وقالوا لهما :

(1) آيــة ٨

سَلاهم عن محمد وصِفا لهم صِفَتَه وأخبراهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء ؛ فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووَصَفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار يهود : سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل ، فرَوْا فيه رأيكم ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم ؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عَجَب . وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نَبَؤه . وسلوه عن الروح ، ماهي ؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش! قد جئناكم بفَصْل ما بينكم وبين محمد — صلى الله عليه وسلم — قد أمَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أَمَرُونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فرَوْا فيه رأيكم . فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فِتية ذهبوا في الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوّافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخبركم بما سألتم عنه غدا" ولم يستثن[1] . فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون خمس عشرة ليلة ، لا يُحدث الله إليه في ذلك وَحْياً ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف[2] أهل مكة وقالوا : وَعَدَنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه ؛ وحتى أحزن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه ، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفِتْية ، والرجلِ الطواف والروح . قال ابن إسحاق : فذُكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : " لقد احتبست عني

---

(١) أي لم يقل — صلى الله عليه وسلم — إن شاء الله .
(٢) أرجف القوم : خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن .

يا جبريل حتى سُؤت ظنًّا " فقال له جبريل : « وما نتنزَّل إلّا بأمرِ ربِّك له ما بَيْنَ أيدينا وَمَا خَلْفَنَا وما بَيْنَ ذلك وما كانَ رَبُّك نَسِيًّا »(١) . فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده ، وذِكْر نبوّة رسوله صلى الله عليه وسلم لما أنكروا عليه من ذلك فقال : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب» يعنى محمدا ، إنك رسول منّى ، أى تحقيق لما سألوا عنه من نبوّتك . « ولَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا » أى معتدلًا لا اختلاف فيه . « لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ » أى عاجل عقوبته فى الدنيا ، وعذابا أليما فى الآخرة ، أى من عند ربك الذى بعثك رسولا . « وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » أى دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدّقوك بما جئتَ به مما كذّبك به غيرهم ، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « ويُنْذِرَ الذين قالوا اتّخذ اللهُ وَلَدًا » يعنى قريشا فى قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله . « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » الذين أعظموا فراقهم وعَيْبَ دينهم . « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى لقولهم إن الملائكة بنات الله . « إنْ يَقُولُونَ إلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إنْ لم يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم ، أى لا تفعل . قال ابن هشام : « باخع نفسك » مُهْلك نفسك ، فيما حدّثنى أبو عبيدة . قال ذو الرُّمّة :

ألا أيّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسَه * بشىء نَحَتْه عن يدَيْه المَقادِرُ

وجمعها باخعون(٢) وبَخَعة . وهذا البيت فى قصيدة له . وتقول العرب : قد بَخَعْتُ له نُصْحى ونَفْسى ، أى جَهَدت له . « إنّا جعلنا ما على الأرض زِينَةً لها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » قال ابن إسحاق : أى أيّهم أتبع لأمرى وأعمل بطاعتى . « وإنّا لجاعلون ما عليها صَعِيدًا جُرُزًا » أى الأرض ، وإن ما عليها لفانٍ وزائل ، وإن المرجع إلىّ فأجْزِى كلًّا بعمله ؛ فلا تأس ولا يَحْزُنْك ما ترى وتسمع فيها . قال ابن هشام : الصّعيد وجه الأرض ، وجمعه صُعُد . قال ذو الرُّمّة يصف ظَبْيًا صغيرا :

---

(١) آية ٦٤ سورة مريم . (٢) مطلعها :

لِمَيَّةَ أطلال بِحُزْوَى دوائر * عَفَتْها السوافى بعدنا والمواطر

كأنه بالضُّحا تَرمِى الصعيدَ به * دبّابةٌ فى عِظام الرأس خُرْطوم [1]

وهذا البيت فى قصيدة له [2]. والصعيد أيضا: الطريق، وقد جاء فى الحديث: "إياكم والقعودَ على الصُّعُدات" يريد الطرق. والجُرُز: الأرض التى لا تنبت شيئا، وجمعها أجراز. ويقال: سَنَةٌ جُرُز وسِنُون أجراز؛ وهى التى لا يكون فيها مطر. وتكون فيها جُدوبة ويبس وشدّة. قال ذو الرمّة يصف إبلا:

طَوَى النَّحْزُ والأجراز ما فى بطونها * فما بَقِيتْ إلا الضّلوع الجراشِعُ [3]

قال ابن إسحاق: ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحابَ الْكَهْفِ والرَّقِيم كانوا مِن آياتِنا عَجَبًا» أى قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حججى ما هو أعجب من ذلك. قال ابن هشام: والرقيم الكتاب الذى رُقِم بخبرهم، وجمعه رُقُم. قال العجّاج:

* ومُسْتَقَرّ المصحف المُرَقَّم *

وهذا البيت فى أُرْجوزة له [4]. قال ابن إسحاق: ثم قال «إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضَرَبْنَا على آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا». ثم قال: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ» أى بصدق الخبر «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا» أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم. قال ابن هشام: والشَّطَط الغُلُوّ ومجاوزة الحق. قال أعشى بن قيس بن ثعلبة:

أتنتهون ولا يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ * كالطعن يذهب فيه الزَّيْت والفُتُل

---

(١) يعنى بالدبابة: الخمر. والخرطوم: الخمر وصفوتها. (٢) مطلعها:

أعن ترسّمت من خرقاء منزلة * ماء الصبابة من عينيك مسجوم

(٣) النحز: الضرب والدفع. والجراشع: الغلاظ؛ الواحد جرشع. (٤) مطلعها:

يا دار سَلْمَى يا اسلمى ثم اسلمى * بسَمْسَم أو عن يمين سَمْسَم

وهذا البيت فى قصيدة له . قال ابن إسحاق (١) : « هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » . قال ابن إسحاق : أى بحجة بالغة . « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا . وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ » . قال ابن هشام : تزاور تميل؛ وهو من الزَّوَر . وقال أبو الزحف الكُلَيْبِيّ (٢) يصف بلدا :

جَذْبُ (٣) المُنَدَّى عن هَوانا أَزْوَرُ * يُنْضِي المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ

وهـذان البيتان (٤) فى أرجوزة له . و« تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » تجاوزهم وتتركهم عن شمالها . قال ذو الرُّمَّة :

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضن أقواز مُشرِف * شِمالا وعن أيمانهن الفوارِسُ (٥)

وهذا البيت فى قصيدة له (٦) . والفَجْوة : السَّعة، وجمعها الفجاء . قال الشاعر :

ألبسْتَ قومَك مَخْزاة ومنقصةً * حتى أُبِيحُوا وحَلُّوا فَجْوة الدار

« ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ » أى فى الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسئلتك عنهم فى صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم . « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ

---

(١) مطلعها : ودّع هريرة إن الركب مرتحل * وهـل تطيق وداعا أيها الرجل

(٢) فى اللسان مادة « سمهدر » أنه أبو الزحف الكليبى . واستدرك عليه مصحح اللسان بقوله : « قوله الكليبى نسـبة لكليب كأمير بلدة بالرى » . ومما يقوى أنه الكلبي (بالباء) ما ذكره ابن قتيبـة فى كتابه الشعر والشعراء أنه أبو الزحف بن عطاء بن الخطفى ابن عم جرير الشاعر . ومن البين أن جريرا من بنى كليب . (٣) قبـله :

* ودون لَيلَى بلد سَمَهْدَرُ *

و بلد سمهدر : بعيد مضلة واسع . والمندى : حيث يرتع ساعة من النهار . والأزور : الطريق المعوج . وأنضى البعير : هزله بكثرة السير . والخمس (بكسر السين) من أظماء الإبل ، أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع . والعشنزر : الشديد.

(٤) يعنى بالبيتين هنا شطرى الرجز .

(٥) القوز (بالفتح) : العالى من الرمل كأنه جبل . والفوارس : رمال بالدهناء . (٦) مطلعها :

أمِ تسأل اليوم الرسوم الدوارس * بحُزْوَى وهل تدرى القفار البسابسُ

الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » قال ابن هشام : الوصيد الباب . قال العبسي وآسمه عبد بن وهب[1] :

بأرضٍ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها * عليّ ومعروفي بها غير مُنْكَرِ

وهذا البيت في أبيات له . والوصيد أيضا الفِناء ، وجمعه وصائد ووُصُد ووُصْدان . « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا — إلى قوله — الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أهل السلطان والملك منهم . « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . سيقولون » يعني أحبار اليهود الذين أمروهم بالمسئلة عنهم . « ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ » أي لا تكابرهم . « إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » أي لا تقولنّ لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا إني مخبركم غدا ، واستثن مشيئة الله ، وآذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربّي لخبر ما سألتموني عنه رَشَدا ، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك . « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » أي سيقولون ذلك . « قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا » أي لم يخف عليه شيء مما سألوك عنه .

قلت : هذا ما وقع في السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه[2] . ويأتي خبر ذي القرنين ، ثم نعود إلى أوّل السورة فنقول :

قد تقدّم معنى الحمد لله . وزعم الأخفش والكسائيّ والفرّاء وأبو عبيد وجمهور المتأوّلين أن في أوّل هذه السورة تقديما وتأخيرا ، وأن المعنى : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجا . و « قَيِّماً » نصب على الحال . وقال قتادة : الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير ، ومعناه : ولم يجعل له عوجا ولكن جعلناه قَيِّماً . وقول الضحاك فيه حُسْن ، وأن

(١) في سيرة ابن هشام : « عبيد بن وهب » .
(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أوربا ، ج ١ ص ٣٢١ طبع مطبعة الحلبي .

المعنى : مستقيم[(١)] ، أى مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض . وقيل : « قيما » على الكتب السابقة يصدّقها . وقيل : « قَيِّماً » بالحجج أبدا . « عِوَجًا » مفعول به ؛ والعِوَج (بكسر العين) فى الدّين والرأى والأمر والطريق . و بفتحها فى الأجسام كالخشب والجدار ؛ وقد تقدّم[(٢)] . وليس فى القرآن عِوج ، أى عيب ، أى ليس متناقضا مختلفا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيراً[(٣)] » وقيل : أى لم يجعله مخلوقا ؛ كما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ[(٤)]» قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : « عِوَجا » اختلافا . قال الشاعر :

أدوم بودّى للصـديق تكرُّمًا * ولا خير فيمن كان فى الودّ أعْوَجَا

﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَـدِيدًا ﴾ أى لينذر محمد أو القرآن . وفيه إضمار ، أى لينذر الكافرين عقـاب الله . وهـذا العذاب الشديد قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة . ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أى من عنده . وقرأ أبو بكر عن عاصم « من لدْنه » باسكان الدال و إشمامها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بياء . الباقون « لدُنْهُ » بضم الدال و إسكان النون وضم الهـاء . قال الجوهرى : وفى « لدن » ثلاث لغات : لَدُن ، ولَدَى ، ولَدُ . وقال :

* مِن لَدُ لَحْيَيْه إلى مُنْحُوره[(٥)] *

المُنْحُور لغة فى المَنْحَر .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم . ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وهى الجنة . ﴿ مَاكِثِينَ ﴾ دائمين . ﴿ فِيـهِ أَبَدًا ﴾ لا إلى غاية . وإن حملتَ التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء فى « بأن » . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذى يؤدّى إلى الجنة .

---

(١) أى معنى قوله «قيما» . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٨٢ سورة النساء راجع جـ ٥ ص ٢٨٨ (٤) آية ٢٨ سورة الزمر . (٥) هذا عجز بيت لغيلان بن حريث . وصدره كما فى اللسان :

* يستوعب البوعين من جريره *

والمنحور (بالحاء المهملة وضم الميم) لغة فى النحر ، وهو الصدر . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصول وصحاح الجوهرى واللسان مادة « نخر ، ولدن » بالخاء المعجمة ، وهو الأنف . وقد اسـتدرك عليه ابن برى فقال : وصواب إنشاده كما أنشده سيبوه « الى منحوره » بالحاء . وصف الشاعر بعيرا أو فرسا بطول العنق ؛ بجمله يستوعب من حبـله الذى يوثق به مقدار باعين فيما بين لحييه ونحره . والبوع : الباع . والجرير : الحبل .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ﴾ وهم اليهود ، قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقريش قالت الملائكة بنات الله . فالإنذار في أول السورة عام ، وهذا خاص فيمن قال لله ولد . ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ « من » صلة ، أي ما لهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ أي أسلافهم . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ « كلمة » نصب على البيان ؛ أي كبرت تلك الكلمة كلمة . وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق « كلمةٌ » بالرفع ؛ أي عظمت كلمة ؛ يعني قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشيء إذا عظم . وكبر الرجل إذا أسنّ . ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ في موضع الصفة . ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ أي ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ « باخع » أي مهلك وقاتل ؛ وقد تقدّم . « آثارِهِمْ » جمع أَثَر ، ويقال إِثْر . والمعنى : على أثر تولّيهم وإعراضهم عنك . ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ أي القرآن . ﴿ أَسَفًا ﴾ أي حزنا وغضبا على كفرهم ؛ وانتصب على التفسير .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَـا ﴾ « ما » و « زينــةً » مفعولان . والزينة كل ما على وجه الأرض ؛ فهو عموم لأنه دال على بارئه . وقال ابن جُبير عن ابن عباس : أراد بالزينـــة الرجال ؛ قال مجاهد . وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء . وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لهـا » قال : العلماء زينة الأرض . وقالت فرقة : أراد النَّعم والملابس والثمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب . والقول بالعموم أَوْلى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه . والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك آمتحانا واختبارا لأهلها؛ فمنهم من يتدبّر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظُمنّ عليك كفرهم فإنا نجازيهم .

الثانيـــة — معنى هــذه الآية ينظر إلى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الدنيـا خضرة حُلوة والله مستخلفكم فيهـا فينظر كيف تعملون " . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخـرج الله لكم من زَهرة الدنيا " قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال : " بركات الأرض " خرجهما مسـلم وغيره من حديث أبي سـعيد الخُدْرِيّ . والمعنى : أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المُسْتَحْلَى المُعْجِب المرأى ؛ فآبتلى الله بهـا عباده لينظر أيّهم أحسن عملا . أي من أزهد فيها وأترك لهـا ؛ ولا سبيل للعباد إلى معصية ما زيّنــه الله إلا [أن] يعينــه على ذلك . ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري : اللّهُمَّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بمـا زيّنته لنا ، اللّهُمّ إني أسألك أن أنفقه في حقه . فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه . وهذا معنى قوله عليه السلام : " فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيــه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع " . وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بمـا يحصل له منها بل همّتــه جمعها ؛ وذلك لعــدم الفهم عن الله تعـالى ورسوله ؛ فإن الفتنة معها حاصلةٌ وعدمَ السلامة غالبة ، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه

الله بما آتاه . وقال ابن عطية : كان أبى رضى الله عنـه يقول فى قوله « أحسن عملا » : أحسن العمل أخذٌ بحقّ و إنفاقٌ فى حق مع الإيمان ، وأداء الفرائض واجتنابُ المحارم والإكثارُ من المندوب إليه .

قلت : هـذا قول حسن ، وجيز فى ألفاظه بليغ فى معناه ، وقـد جمعه النبىّ صلى الله عليه وسلم فى لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثَّقَفِىّ لما قال : يارسول الله، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — فى رواية : غيرك . قال : " قل آمنت بالله ثم استقم " خرّجه مسلم . وقال سفيان الثَّورِىّ : « أحسن عملا » أزهدهم فيها . وكذلك قال أبو عصام العسقلانى : « أحسن عملا » أترك لها . وقـد اختلفت عبارات العلماء فى الزهد؛ فقال قوم : قصرُ الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء؛ قاله سفيان الثَّورِىّ . قال علماؤنا : وصدق رضى الله عنـه ! فإن من قَصُر أملُه لم يتأنّق فى المطعومات ولا يتفنّن فى الملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسّر، واجتزأ منها بما يُبَلِّغ . وقال قوم : بُغْضُ المحمدة وحُبُّ الثناء . وهو قول الأوزاعِىّ ومن ذهب إليه . وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد؛ أَحَبَّ تَرْكَها أم كَرِه . وهو قول فُضيل . وعن بشر بن الحارث قال : حُبُّ الدنيا حبُّ لقاء الناس، والزهدُ فى الدنيا الزهد فى لقاء الناس . وعن الفضيل أيضا : علامة الزهـد فى الدنيا الزهد فى الناس . وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهدا حتى يكون ترك الدنيا أحبَّ إليـه من أخذها؛ قاله إبراهيم بن أدهم . وقال قوم : الزهد أن تزهد فى الدنيا بقلبك؛ قاله ابن المبارك . وقالت فرقة : الزهد حبّ الموت . والقول الأوّل يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

تقـدّم[1] بيانه . وقال أبو سهل : ترابا لا نبات به؛ كأنه قُطع نباته . والجَرْز : القطع؛ ومنه سنة جُرُز . قال الراجز :

* قد جَرَفَتْهنّ السِّنُونُ الأَجْرَاز *

---

(١) ص ٣٤٨ من هذا الجزء .

والأرض الجُرُز التى لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها ؛ كأنه قطع وأزيل . يعنى يوم القيامة، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتَر فيها . النحاس : والجرز فى اللغـة الأرض التى لا نبات بها . قال الكسائى : يقال جَرِزَت الأرضُ تَجْرَز، وجرزها القوم يَجْرُزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهى مجروزة وجرز[1] .

قوله تعـالى : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾

مذهب سيبويه أن « أم » إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنهـا بمعنى بل وألف الاستفهام ، وهى المنقطعة . وقيل : « أم » عطف على معنى الاستفهام فى لعلك ، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار . قال الطبرى : وهو تقرير للنبيّ صـلى الله عليه وسـلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجبا، بمعنى إنكار ذلك عليه؛ أى لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع؛ هذا قول ابن عباس ومجاهـد وقتادة وابن إسحاق . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسـلم؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فِتْية فُقدوا ، وعن ذى القرنين وعن الروح ، وأبطأ الوَحْى على ما تقدّم . فلمـا نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرَّقيم كانوا من آياتنا عجبا ؛ أى ليسوا بعجب من آياتنا، بل فى آياتنا ماهو أعجب من خبرهم . الكلبى : خَلْقُ السموات والأرض أعجبُ من خبرهم . الضحاك : ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب . الجُنيد : شأنك فى الإسراء أعجب . المـاوردىّ : معنى الكلام النفى؛ أى ما حسبت لولا إخبارنا . أبو سهل : استفهام تقرير؛ أى أحسبت ذلك فإنهم عجب . والكهف : النَّقْب المتّسع فى الجبـل؛ وما لم يتّسع فهـو غار . وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل؛ وهذا غير شهير فى اللغة .

واختلف الناس فى الرقيم؛ فقال ابن عباس : كل شيء فى القـرآن أعلمه إلا أربعـة : غِسْـلين وحَنَان والأوّاه والرقيم . وسئل مرة عن الرقيم فقـال : زعم كعب أنها قرية خرجوا

(١) فى الكلمة أربع لغات : جُرُز، جُرْز، جَرْز، جَرَز .

منهـا . وقال مجاهد : الرقيم وادٍ . وقال السّدّى : الرقيم الصخرة التى كانت على الكهف . وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غَمّ الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصــته . وقالت فرقة : الرقيم كتاب فى لوح من نُحاس . وقال ابن عباس : فى لوح من رَصاص كَتب فيــه القوم الكفارُ الذين فر الفتية منهم قصتَهم وجعلوها تاريخا لهم ، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، و بين من كانوا . وكذا قال الفــراء، قال : الرقيم لوح من رَصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا . قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوما مؤرّخين للحوادث، وذلك من نبــل المملكة ؛ وهو أمر مفيد . وهــذه الأقوال مأخوذة من الرَّقْم ؛ ومنه كتاب مرقوم . ومنــه الأرقم لتخطيطه . ومنــه رَقْمة الوادى ؛ أى مكان جَرْيِ المــاء وانعطافه . وما روى عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأوّل إنما سمعه من كَعْب . والقول الثانى يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده . وروى عنه سعيد بن جُبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال : إن الفتيــة فُقِدوا فطلبهم أهــلوهم فلم يجــدوهم فرُفع ذلك إلى الملك فقال : ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحا من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله فى خِزانته؛ فذلك اللوح هو الرقيم . وقيل : إن مؤمِنَيْن كانا فى بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم فى لوح من رصاص ثم جعلاه فى تابوت من نُحاس وجعلاه فى البنيان؛ فالله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيــه الشرع الذى تمســكوا به من دين عيسى عليــه السلام . وقال النقاش عن قَتــادة : الرقيم دراهمهم . وقال أنس بن مالك والشَّعْبِيّ : الرقيم كلبهم . وقال عكرمة : الرقيم الدواة . وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذى أقامه الخَضْر . وقيل : الرقيم أصحاب الغار الذى انطبق عليهم؛ فذكر كلٌّ واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفى هــذا خبر معروف أخرجه الصحيحان[1]، و إليــه نحا البخارى . وقال قوم : أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشىء . وقال الضحاك : الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيــه أحد وعشرون نفسا كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هــذا هم

(١) راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ٨٩ طبع الاستانة . وشرح القسطلانى على صحيح البخارى ج ٤ ص ٢١٧، ج ٥ ص ٥٠٩ و ج ٩ ص ٥ طبع بولاق .

فِتْية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف، والله أعلم . وقيل : الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف؛ مأخوذ من رَقْمة الوادي وهي موضع المـاء ؛ يقال : عليك بالرَّقْمة ودع الضِّفّة؛ ذكره الغزنوي . قال ابن عطية : وبالشام على ما سمعت به من ناس كثير [كهف] فيه موتى، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلبٌ رِمّة . وبالأندلس في جهة غَرْناطة بقرب قرية تسمى لَوْشة كهف فيه موتى ومعهم كلبٌ رِمّة ، وأكثرهم قد تجرّد لحمه وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة (١) . ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلتُ إليهم ورأيتُهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رُومي يسمى الرقيم، كأنه قصر مُخْلَق قد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاة من الأرض خَرِبة، وبأعلى غَرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دَقْيُوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها .

قلت : ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم ؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف : « لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » . وقال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتي في آخر القصة . وقال مجاهد في قوله « كانوا من آياتنا عَجَباً » قال : هم عَجَبٌ . كذا روى ابن جُريج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون عنده أنهم عَجَب . وروى ابن نجيح عنه قال : يقول ليس بأعجب آياتنا .

قوله تعالى : إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ رُوي أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، ويقال فيه دقينوس . وروي أنهم كانوا مطوَّقين مسوَّرين

(١) الأثارة : البقية .

بالذهب ذوى ذوائب، وهم من الروم واتبعوا دين عيسى . وقيل : كانوا قبل عيسى ؛ والله أعلم . وقال ابن عباس : إن ملكا من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها أُفْسُوس . وقيل هي طَرَسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرًّا، فرُفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلا، ومرُّوا براعٍ معه كلب فتبعهم فآوَوْا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا؛ فقال الملك: سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا. وروى مجاهد عن ابن عباس أيضا أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين — حسبما ذكر النقاش أو من مؤمنى الأمم قبلهم — فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله؛ فرُفع أمرهم إلى الملك وقيل له : إنهم قد فارقوا دينك واستخفُّوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضرهم الملك إلى مجلسه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهته، وتوعّدهم على فراق ذلك بالقتل؛ فقالوا له فيما روى: « رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض — إلى قوله — وإذِ ٱعتزلتموهم ». وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شبان أغمار لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بل أستأنى فآذهبوا إلى منازلكم ودبّروا رأيكم وآرجعوا إلى أمرى، وضرب لهم فى ذلك أجلا، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتية فى الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم : إنى أعرف كهفا فى جبل كذا، كان أبى يُدخل فيه غنمه فلنذهب فلنختفِ فيه حتى يفتح الله لنا؛ فخرجوا فيما روى يلعبون بالصَّوْلجان والكُرَة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم . وروى أنهم كانوا مُثقّفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا فى جملة الناس، ثم أخذوا باللعب بالصَّوْلجان حتى خلَصوا بذلك . وروى وهب بن منبّه أن أول أمرهم إنما كان حوارىّ لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فآجر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام فى أعماله بركة عظيمة ،

فألق إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجلَ فتيانٌ من المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوما إلى ذلك الحمام وَلَدُ الملك بامرأة أراد الخَلْوة بها، فنهاه ذلك الحوارِىُّ فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه فى دخول الحمام مع البَغِىّ، فدخل فماتا فيه جميعا؛ فاتُّهِم ذلك الحوارىّ وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعا حتى دخلوا الكهف . وقيل فى خروجهم غير هذا .

وأما الكلب فروى أنه كان كلبَ صيد لهم، وروى أنهم وجدوا فى طريقهم راعيا له كلب فاتبعهم الراعى على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس . واسم الكلب حمران وقيل قطمير .

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند فى معرفتها واه . والذى ذكره الطبرى هى هذه : مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلتينا ويمليخا، وهو الذى مضى بالوَرِق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم، ومرطوس وكشوطوش وديموس ويطونس وبيرونس . قال مقاتل : وكان الكلب لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم .

الثانيــة — هــذه الآية صريحــة فى الفرار بالدِّين وهجــرة الأهل والبنين والقــرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة . وقــد خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم فارًّا بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس فى الغار حسبما تقدم فى سورة «النحل» (١) . وقد نص الله تعالى على ذلك فى «براءة» وقد تقدم (٢) . وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين . فسُكْنَى الجبال ودخول الغِيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هى سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء . وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة، وفضّلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها فى كتابه فقال : «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ» .

---

(١) راجع ص ١٥٩ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٨ ص ١٤٣ وما بعدها .

قال العلماء. الاعتزال عن الناس يكون مرّة فى الجبال والشِّعاب، ومرة فى السواحل والرِّباط، ومرة فى البيوت؛ وقد جاء فى الخبر: "إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك". ولم يخصّ موضعا من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلةَ اعتزالَ الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك فى تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا فى غير ذلك فاسكت. وروى البَغَوِيّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم". وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "نعم صوامع المؤمنين بيوتهم" من مراسل الحسن وغيره. وقال عقبة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما النجاة يارسول الله؟ فقال: "ياعقبة أمسك عليك لسانك ولْيَسَعْكَ بيتُك وآبْك على خطيئتك". وقال صلى الله عليه وسلم: "يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القطر يَفِرّ بدينه من الفتن". خرّجه البخارى. وذكر علىّ بن سعد عن الحسن آبن واقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلّت لأمتى العزبة والعزلة والترهّب فى رؤوس الجبال". وذكر أيضا على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دِينُه إلا من فَرّ بدينه من شاهق إلى شاهق أو جُحر إلى جحر[1] فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلّت العُزْبة". قالوا: يارسول الله، كيف تَحِلّ العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: "إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدى أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدى زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدى ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدى القرابات والجيران". قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: "يُعيِّرونه بضيق المعيشة ويكلّفونه ما لا يُطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التى يهلك فيها".

---

(١) الجحر: الموضع. وكل ما جحرته من حائط فهو جُحر.

قلت : أحوال الناس فى هـذا الباب تختلف ، فرُبّ رجلٍ تكون له قوة على سكنى الكهوف والغيران فى الجبال ، وهى أرفع الأحوال لأنها الحالة التى اختارها الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى بداية أمره ، ونص عليها فى كتابه مخبرا عن الفتية ، فقال : « وإذِ اعتزلتموهم وما يعبدون إلّا الله فأْوُوا إلى الكهف » . ورُبّ رجل تكون العزلة له فى بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم . ورُبّ رجلٍ متوسّط بينهما فيكون له من القوّة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم فى الظاهر ومخالف لهم فى الباطن . وذكر ابن المبارك حدّثنا وُهَيب بن الوَرْد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبِّه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ! وقد حدّثت نفسى ألا أخالطهم . فقال : لا تفعل ! إنه لا بدّ لك من الناس ، ولا بدّ لهم منك ، ولك إليهم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهم أصمّ سميعا ، أعمى بصيرا ، سَكوتاً نَطُوقاً . وقد قيل : إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معنى الجبال والشِّعاب؛ مثل الاعتكاف فى المساجد، ولزوم السواحل للرّباط والذكر، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس . وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم — والله أعلم — لأن ذلك هو الأغلب فى المواضع التى يُعتزل فيها؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معناه؛ كما ذكرنا، والله الموفق وبه العصمة . وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يَعْجَب(١) ربُّك من راعى غنم فى رأس شَظِيّة(٢) الجبل يؤذّن بالصلاة ويصلى فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدى يؤذن ويقيم الصلاة يخاف منى قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة". خرجه النّسائىّ .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ لما فَرّوا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا : « رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى مغفرة ورزقا . « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » توفيقا للرشاد . وقال ابن عباس : مخرجا من الغار فى سلامة . وقيل صوابا . ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حَزَبَه(٣) أمر فَزِع إلى الصلاة .

(١) يعجب : كيسمع؛ أى يرضى منه ويثيبه . (٢) الشظية (بفتح الشين وكسر الظاء) : قطعة مرتفعة فى رأس الجبل . (٣) أى إذا نزل به مُهِمّ أو أصابه غم . وفى الأصول : « إذا أحزنه » والتصويب عن كتب الحديث .

قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (١١)

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم . وهذه من فصيحات القرآن التي أقرّت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله . قال الزجاج : أى منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أى سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها . وقيل : المعنى « فضربنا على آذانهم » أى فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شرّ قومهم، وأنمناهم . والمعنى كلّه متقارب . وقال قُطْرُب : هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعيّة إذا منعهم الفساد ، وضرب السيد على يد عبده المأذون له فى التجارة إذا منعه من التصرف . قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضريرا :

ومن الحوادث لا أَبالك أنني * ضُرِبتْ علىّ الأرضُ بالأسدادِ(1)

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التى منها عظم فساد النوم ، وقلّما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يُستحكم نوم إلا من تَعطُّل السمع . ومن ذِكْر الأذن فى النوم قوله صلى الله عليه وسلم : " ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه " خرّجه الصحيح . أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم الليل . و « عَدَدًا » نعت للسنين ؛ أى معدودة ، والقصد به العبارة عن التكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرِف . والعدّ المصدر ، والعدد اسم المعدود كالنَّفَض والخَبَط . وقال أبو عبيدة : «عددا» نصب على المصدر . ثم قال قوم : بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال : « وَلَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا » .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴾ (١٢)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى من بعد نومهم . ويقال لمن أُحْيِيَ أو أُقِيم من نومه مبعوث ؛ لأنه كان ممنوعا من الانبعاث والتصرف .

(1) واحد الأسداد : سدّ ، وهو ذهاب البصر ؛ يقول : سدّت علىّ الطريق ؛ أى عميت علىّ مذاهبي .

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ﴾ « لنعلم » عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته ؛ وهذا على نحو كلام العرب ، أى لنعلم ذلك موجودا ، وإلا فقـد كان الله تعـالى علم أىّ الحزبين أحصى الأمد . وقرأ الزُّهْرِىّ « ليعلم » باليـاء . والحزبان الفريقان . والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليـلا . والحزب الثانى أهـل المدينة الذين بُعث الفِتْية على عهدهم ، حين كان عنـدهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين ، اختلفا فى مدّة أصحاب الكهف . وقيـل : هما حزبان من المؤمنين . وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية . و « أحصى » فعل ماض . و « أمدا » نصب على المفعول به ؛ قاله أبو علىّ . وقال الفـرّاء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف ، أى أىّ الحـزبين أحصى للبثهم فى الأمد ، والأمد الغاية . وقال مجاهـد : « أمدا » معناه عددا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب . وقال الطبرى : « أمدا » منصوب بـ « لبثوا » . ابن عطية : وهذا غير متّجه ، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختـلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعى إلا فى الشاذ ، و « أحصى » فعل رباعى . وقد يحتج له بأن يقال : إن أفعل فى الرباعى قد كثر ؛ كقولك : ما أعطاه للمـال وآتاه للخير . وقال فى صفة حوضه صلى الله عليه وسـلم : " ماؤه أبيض من اللبن " . وقال عمر بن الخطاب : فهو لمـا سواها أضْيع .

قوله تعـالى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ لمـا اقتضى قوله تعـالى « لنعلم أى الحزبين أحصى » اختلافا وقع فى أمد الفِتْية ، عقّب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع . وقوله تعالى « إنّهم فِتْيَةٌ » أى شباب وأحداث حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة ؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس الفتوّة الإيمان . وقال الجُنيد : الفتوّة بذل النّدَى وكفّ الأذى وترك الشكوى . وقيل : الفُتوّة اجتناب المحارم واستعجال المكارم . وقيل غير هذا . وهذا القول حسن جدا ؛ لأنه يعمّ بالمعنى جميع ما قيل فى الفتوّة .

قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أى يسّرناهم للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس ، والزهد فى الدنيا . وهذه زيادة على الإيمان . وقال السُّدِّى : زادهم هُدًى بكلب الراعى حين طردوه ورجموه مخافةَ أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّه بهم ؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعى فأنطقه الله ، فقال : ياقوم ! لِمَ تطردوننى ، لم ترجموننى ! لم تضربوننى ! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة ؛ فزادهم الله بذلك هُدًى .

قوله تعالى : وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدّة عزمٍ وقوّة صبرٍ ، أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدى الكفار : « رَبُّنَا رَبُّ السمواتِ والأرضِ لن نَدْعُوَ مِنْ دونِه إلهًا لقد قلنا إِذًا شَطَطًا » . ولما كان الفزع وخَوَر النفس يُشْبِه بالتناسب الانحلال حَسُن فى شدة النفس وقوة التصميم أن يُشْبِه الربط ؛ ومنه يقال : فلان رابط الجأش، إذا كان لا تَفْرَق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها . ومنه الربط على قلب أمّ موسى . وقولُه تعالى : « وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدامَ » وقد تقدّم[1] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إذ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أن يكون هذا وصفَ مقامهم بين يدى الملك الكافر — كما تقدّم، وهو مَقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا فى ذات الله هيبته . والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة ، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد ؛ فقال أسنُّهم : إنى أجد فى نفسى أن ربى ربُّ السموات والأرض ؛ فقالوا ونحن كذلك نجد فى أنفسنا . فقاموا جميعا فقالوا : « رَبُّنَا ربُّ السموات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلها لقد قلنا إِذًا شَطَطًا » .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى لئن دعَوْنا إلٰها غيره فقد قلنا إذا جَوْراً ومحالا . والمعنى الثالث — أن يُعبَّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس؛ كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجدّ .

الثانيــة — قال ابن عطية : تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله « إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض » .

قلت : وهذا تعلّق غير صحيح ! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نِعَمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم؛ وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء . أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام ! وخاصّةً فى هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المُرْد والنسوان؛ هيهات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هذا حرام عند جماعة العلماء، على ما يأتى بيانه فى سورة لقمان إن شاء الله تعالى . وقد تقدّم فى « سبحان » عند قوله : « وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً »[1] ما فيه كفاية . وقال الامام أبو بكر الطَّرَسُوسِىّ وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأوّل من أحدثه أصحاب السّامِرِىّ؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خُوار قاموا يرقصون حواليه و يتواجدون؛ فهو دين الكفار وعُبّاد العجل، على ما يأتى .

قوله تعالى : هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (١٥)

قوله تعالى : ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا، أى أهل عصرنا وبلدنا، عبدوا الأصنام تقليدا من غير حجة . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلّا . ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أى بحجة على عبادتهم الصنم . وقيل : « عليهم » راجع إلى الآلهة؛ أى هلا أقاموا بيّنةً على الأصنام فى كونها آلهة؛ فقولهم «لولا» تحضيض بمعنى التعجيز، و إذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلتفت إلى دعواهم .

(١) راجع ص ٢٦٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ قيل : هو من قول الله لهم . أى و إذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف . وقيل : هو من قول رئيسهم يمليخا ؛ فيما ذكر ابن عطية . وقال الغَزْنَوِىّ : رئيسهم مكسلمينا ، قال لهم ذلك ؛ أى إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون . ثم استثنى وقال ﴿ إِلَّا اللهَ ﴾ أى إنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع . قال ابن عطية : وهـذا على تقدير إن الذين فر أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله ، ولا علم لهم به ؛ و إنما يعتقدون الأصنام فى ألوهيتهم فقط . و إن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه فى العبادة فالاستثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع فى كل ما يعبد الكفار إلا فى جهة الله . وفى مصحف عبد الله بن مسعود « وما يعبدون من دون الله » . قال قتادة هـذا تفسيرها .

قلت : و يدل على هـذا ما ذكره أبو نُعيم الحافظ عن عطاء الخُراسانِىّ فى قوله تعالى « و إذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله » قال : كان فِتية من قوم يعبدون الله و يعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادةَ الله .

ابن عطية : فعلى ما قال قتادة تكون « إلا » بمنزلة غير ، و « ما » من قوله « وما يعبدون إلا الله » فى موضع نصب ، عطفا على الضمير فى قوله « اعتزلتموهم » . ومُضَمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقْنا الكفارَ وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوًى ونتكلْ على الله ؛ فانه سيبسط لنا رحمته ، و ينشرها علينا ، و يهيئ لنا من أمرنا مِرْفَقًا . وهـذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله فى أمر آخرتهم . وقال أبو جعفر محمـد بن على ابن الحسين رضى الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقلة ، واسم الكهف حيوم . ﴿ مِرْفَقًا ﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها ، وهو ما يُرتفق به . وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفِقه ؛ ومنهـم من يجعل « المَرْفق » بفتح الميم الموضع كالمسجد ، وهما لغتان .

قوله تعـالى : وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أى ترى أيّها المخاطَب الشمس عنـد طلوعها تميل عن كهفهم . والمعنى : إنك لو رأيتهـم لرأيتهم كذا ؛ لا أنّ المخاطَب رآهم على التحقيق . و « تزاور » تتنحّى وتميل ؛ من الآزورار . والزَّوَر المَيَل . والأزور فى العين المـائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل فى غير العين ؛ كما قال آبن أبى رَبيعة :

* وجَنْبِي خِيفَـــةَ القوم أَزْوَرُ (١) *

ومن اللفظة قول عنترة :

* فآزوَرّ من وَقْع القَنَـا بلبَـانه (٢) *

وفى حديث غَزْوة مُؤْتة أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم رأى فى سرير عبـد الله بن رواحة آزورارا عن سرير جعفر وزيد بن حارثة . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو « تزّاور » بإدْغام التاء فى الزاى ، والأصل « تتزاور » . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « تزاور » مخففة الزاى .

---

(١) والبيت بتمامه كما فى ديوانه :

وخفّض عنى الصوت أقبلت مِشية الـ * حُباب وشخصى خشـية الحى أزور

والحباب (بالضم) : الحية . وقبل هذا البيت :

فلمـا فقدت الصوت منهم وأطفئت * مصابيح وشبت بالعشـاء وأنْوُر
وغاب قُمَـــير كنت أهوى غيوبه * وروّح رُعيانٌ ونـوّم سُمَّـــر

(٢) وتمامه : * وشكا إلى بعـبرة وتحمحم *

واللبان (بالفتح) : الصدر . والتحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل .

وقرأ ابن عامر « تَزْوَرّ » مثل تحمر . وحكى الفراء « تزوارّ » مثل تحمارّ ؛ كلّها بمعنًى واحد .

﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : تدعهم . النحاس : وهذا معروف فى اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : قرضه يقرضه إذا تركه ؛ والمعنى : أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة كرامةً لهم ؛ وهو قول ابن عباس . يعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمر بهم ذات الشمال ، أى شمال الكهف ، فلا تصيبهم فى ابتداء النهار ولا فى آخر النهار . وكان كهفهم مستقبل بنات نَعْش فى أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرّها ، وتغيّر ألوانهم وتُبْلِي ثيابهم . وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب ، وحاجب من جهة الدَّبور وهم فى زاويته . وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك . وقرأت فرقة « يقرضهم » بالياء من القرض وهو القطع ، أى يقطعهم الكهف بظلّه من ضوء الشمس . وقيل : «وإذا غربت تقرضهم» أى يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة ، أى تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها . وقالوا : كان فى مَسِّها لهم بالعَشِيّ إصلاح لأجسادهم . وعلى الجملة فالآية فى ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذّون فيه بانبساط الشمس عليهم فى معظم النهار . وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر . والمقصود بيان حفظهم عن تطرّق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم ، والتأذّى بحر أو برد . ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أى من الكهف . والفَجْوَة المتّسع ، وجمعها فَجَوات وفِجَاء ؛ مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات . وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كلّ واد وفجوة * رجالا وخيلا غيرَ ميل ولا عُزْل

أى كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ لطف بهم ، وهذا يقوّى قول الزجاج . وقال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ؛ فكذلك كان الرائى يحسبهم أيقاظا . وقيل : تحسبهم أيقاظا لكثرة تقلّبهم كالمستيقظ فى مضجعه . و ﴿ أيقاظا ﴾

جمع يقظ و يقظان، وهو المنتبــه . ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ كقولهم : وهم قوم ركوع وسجود وقعود ؛ فوصف الجمع بالمصدر . ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل عام تقليبتان . وقيل : فى كل سنة مرة . وقال مجاهد : فى كل سبع سـنين مرة . وقالت فـرقة : إنمـا قُلبوا فى التسع الأواخر، وأما فى الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله، و يجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله ، فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ قال عمرو بن دِينار : إن ممـا أخذ على العقـرب ألا تضر أحدا [قال][1] فى ليله أو فى نهاره : صلى[2] الله على نوح . و إن ممـا أخذ على الكلب ألا يضر من حَمَل عليه [إذا قال] : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد .

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقةً ، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه؛ على ما قال مقاتل . وٱختُلف فى لونه اختلافا كثيرا، ذكره الثعلبىّ . تحصيله : أىَّ لون ذكرتَ أصبت؛ حتى قيل لون الحجر وقيل لون السماء . واختلف أيضا فى اسمه؛ فعن علىّ : ريان . ابن عباس : قطمير . الأوزاعى : مشير . عبد الله بن سَلَام : بسيط . كعب : صهيا . وهب : نقيا . وقيل قطمير؛ ذكره الثعلبى . وكان اقتناء الكلب جائزا فى وقتهم ، كما هو عندنا اليوم جائز فى شرعنا . وقال ابن عباس : هربوا ليلا ، وكانوا سـبعة فمّروا براع معه كلب فٱتبعهم على دينهم . وقال كعب : مرّوا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مرارا، فقـام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعى، فنطق فقال : لا تخافوا منى ! أنا أُحِبّ أحبّاء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

الثانيــة — ورد فى الصحيح عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتنى كلبا إلا كلبَ صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان " . وروى الصحيح أيضا عن

(١) زيادة من كتاب حياة الحيوان . (٢) فى حياة الحيوان : « سلام على نوح » .

أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ٱتخذ كلبا إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع ٱنتُقِص من أجره كل يوم قيراط " . قال الزهري : وذُكِر لاّبن عمر قولُ أبي هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة ! كان صاحبَ زرع . فقد دلّت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية . وجعل النقص في أجر من ٱقتناها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لنجاسته ، على مايراه الشافعي ، أو لاّقتحام النهي عن اتخاذ مالا منفعة فيه ؛ والله أعلم . وقال في إحدى الروايتين "قيراطان" وفي الأخرى "قيراط" . وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشدّ أذًى من الآخر ، كالأسود الذي أمر عليه السلام بقتله ، ولم يُدخله في الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر ؛ أخرجه الصحيح . وقال : "عليكم بالأسود البَهيم ذي النقطتين فإنه شيطان". ويحتمل أن يكون ذلك لاّختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلا أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص ؛ كالفرس والهِرّة . والله أعلم .

الثالثة — وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معها ، لا الذي يحفظها في الدار من السرّاق . وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق . وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع . وقد تقدّم في «المائدة»[1] من أحكام الكلاب مافيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة — قال ابن عطية : وحدّثني أبي رضي الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن مَن أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم ؛ كلبٌ أحبّ أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله .

قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين

(١) راجع ج ٦ ص ٦٥

المحبين للأولياء والصالحين ! بل فى هذا تسلية وأُنْس للمؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال ، المحبين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وآله خيرآل . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقِينَا رجل عند سُدّة المسجد فقال : يارسول الله ، متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعددتَ لها " قال : فكأنّ الرجل آستكان، ثم قال : يارسـول الله ، ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحِبّ الله ورسوله . قال : " فأنت مع من أحببت " . فى رواية قال أنس بن مالك : فما فَرِحنا بعد الإسلام فرحا أشدّ من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فأنت مع من أحببت " . قال أنس : فأنا أحب الله ورسـوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كلّ ذى نفس ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلبٌ أحب قوما فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، « ولقد كَرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خَلَقنا تفضيلا » .

وقالت فرقة : لم يكن كلبا حقيقة، وإنما كان أحدَهم ، وكان قد قعد عند باب الغار طليعةً لهم؛ (١)... كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان؛ ويقال له : كلب الجبّار (٢). قال ابن عطية : فسُمّىَ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أمّا إنّ هـذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها فى العرف من صفة الكلب حقيقة؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " . وقد حكى أبو عمر المطرّز فى كتاب اليواقيت

(١) فى بعض نسخ الأصل بعد قوله « طليعة لهم » : « قال ابن عطية : فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع » . ونراها غير لازمة . والذى فى حياة الحيوان للدميرى فى اسم الكلب : « وقال فرقة : كان أحدهم وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم ؛ فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا لأنه منها كالكلب من الإنسان ، وهذا القول يضعفه ... » الخ .

(٢) الجبار : اسم الجوزاء .

أنه قرئ « وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد » . فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هى هيئة الريبة المستخفى بنفسه . ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب . وقرأ جعفر بن محمد الصادقُ « وكالبهم » يعنى صاحب الكلب .

قوله تعالى : ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضىّ ؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى . ثم قيل : بسط ذراعيه لطول المدّة . وقيل : نام الكلب ، وكان ذلك من الآيات . وقيل : نام مفتوح العين . والوصيد : الفِناء؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَير؛ أى فناء الكهف، والجمع وصائد ووُصُد . وقيل الباب . وقاله ابن عباس أيضا . وأنشد :

بأرض فضاءٍ لا يُسَدّ وصيدُها　＊　علىّ ومعروفى بها غير منكر

وقد تقدّم . وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق . وقد أوصدت الباب وآصدته أى أغلقته . والوصيد : النبات المتقارب الأصول ، فهو مشترك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو . والأعمش ويحيى بن وثّاب بضمها . ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ أى لو أشرفت عليهم لهربت منهم . ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أى لما حفهم الله تعالى من الرُّعب واكتنفهم من الهيبة . وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوَحْشِ(١) فى الظاهر لينفر الناس عنهم . وقيل : كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسُر أحد منهم على الدنو إليهم . وقيل : الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم؛ ذكره المهدوىّ والنحاس والزجاج والقشيرى . وهذا بعيد؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . ودلّ هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم . قال ابن عطية : والصحيح فى أمرهم أن الله عز وجل حفِظ لهم الحالة التى ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم

(١) مكان وحش : خالٍ .

آية ، فلم يُبْلَ لهم ثوب ولم تغيَّر صفة، ولم يُنكِر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت فى نفسه حالة ينكرها لكانت عليـه أهم . وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهـل مكة والمدينة « لَمُلِّئْتَ منهم » بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أى ملئت ثم مائت . وقرأ الباقون « لملئت » بالتخفيف ، والتخفيف أشهر فى اللغة . وقد جاء التثقيل فى قول المُخَبَّل السـعدىّ :

وإذ فَتَكَ النُّعمان بالناس مُحْـرِمًا ﴿ فمُلِّئَ من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور « رُعْباً » بإسكان العين . وقرأ بضمها أبو جعفر . قال أبو حاتم : هما لغتان . و « فرارا » نصب على الحال و « رعبا » مفعول ثان أو تمييز .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُـمْ ﴾ البعث : التحريك عن سـكون . والمعنى : كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلّبناهم بعثناهم أيضا؛ أى أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم فى ثيابهم وأحوالهم . قال الشاعر :

وفِتْيَانِ صِدْقٍ قد بَعَثْتُ بسُحْرَةٍ (١) ﴿ فقاموا جميعا بين عاثٍ ونَشْوانِ

أى أيقظت . واللام فى قوله «ليتساءلوا» لام الصيرورة وهى لام العاقبة؛ كقوله « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » فبعثُهم لم يكن لأجل تساؤلهم .

---

(١) البيت لامرئ القيس . والسحرة (بالضم) : السحر . وقيل أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر الى طلوع الفجر .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهـم دخلوه غُدوةً و بعثهم الله فى آخر النهار ؛ فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا : الله أعلم بالمدّة .

قوله تعالى : ﴿ فَٱبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قال ابن عبـاس : كانت ورقهم كأخفاف الرُّبَع(١) ؛ ذكره النحاس . وقرأ ابن كَثير ونافع وابن عامر والكسائيّ وحفص عن عاصم « بوَرِقكم » بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو وحمـزة وأبو بكر عن عاصم « بورْقكم » بسكون الراء، حذفوا الكسرة لثقلها ، وهمـا لغتان . وقرأ الزجاج « بوِرْقكم » بكسر الواو وسكون الراء . ويروى أنهم انتبهوا جياعا، وأن المبعوث هو تمليخا ، كان أصغرهم؛ فيما ذكر الغَزْنوِيّ . والمدينـة : أُفْسُوس ويقال هى طَرسوس، وكان اسمها فى الجاهلية أفسوس ؛ فلمـا جاء الاسلام سمّوها طرسوس . وقال ابن عباس : كان معهم دراهمُ عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ قال ابن عباس : أحلّ ذبيحةً ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على آسم الصنم ، وكان فيهم قوم يُخفون إيمانَهم . ابن عباس : كان عامّتهم مجوسا . وقيـل « أزكى طعاما » أى أكثر بركة . قيل : إنهم أمروه أن يشترى ما يُظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطّلع عليهم ، ثم إذا طُبخ كفى جماعة؛ ولهـذا قيل ذلك الطعام الأرز . وقيل : كان زبيبا . وقيـل تمرا ؛ فالله أعلم . وقيـل : « أزكى » أطيب . وقيل أرخص . ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ أى بقُوت . ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى فى دخول المدينة وشراء الطعام . ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أى لا يخبرنّ . وقيـل : إن ظُهِر عليـه فلا يوقعنّ إخوانه فيما وقع فيه . ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قال الزجاج : معناه بالحجارة ، وهو أخبث القتل. وقيل: يرموكم بالسب والشتم؛ والأوّل أصح، لأنه كان عازما على قتلهم كما تقدّم فى قَصصهم . والرجم فيما سـلف هى كانت على ما ذكر قبـلَه [عقوبة](٢) مخالفة دين النـاس إذ هى أشفى لجملة أهل ذلك الدِّين من حيث إنهم يشتركون فيها .

(١) الربع (كصرد) : الفصيل ينتج فى الربيع . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

الثالثـــة — فى هذه البِعْثة بالوَرِق دليل على الوَكالة وصحتها . وقد وكّل علىّ بن أبى طالب أخاه عَقيلا عند عثمان رضى الله عنه؛ ولا خلاف فيها فى الجملة . والوَكالة معروفة فى الجاهلية والإســلام؛ ألا ترى إلى عبـد الرحمن بن عَوف كيف وكّل أميّـة بن خلف بأهله وحاشيته بمكة؛ أى يحفظهم، وأمية مشرك، والتزم عبدالرحمن لأمية من حَفظ حاشيته بالمدينة مثـل ذلك مجازاةً لصنعه . روى البخارىّ عن عبد الرحمن بن عوف قال : كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظنى فى صاغِيَتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة؛ فلما ذكرت الرحمن؛ قال : لا أعرف الرحمن! كاتِبْنى بآسمك الذى كان فى الجاهلية، فكاتبته عبد عمرو ... وذكر الحديث. قال الأصمعى : صاغية الرجل الذين يميلون إليه و يأتونه؛ وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو و يَصْغَى إذا مال، وكلّ مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى؛ من كتاب الأفعال .

الرابعـــة — الوكالة عقدُ نيابةٍ، أَذِن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة فى ذلك، إذ ليس كل أحد يقدر على تنـاول أموره إلا بمعونة من غيره أو بترفّه فيستنيب من يريحه .

وقد استدل علمـاؤنا على صحتها بآيات من الكتاب، منها هـذه الآية، وقولُه تعالى : « والعاملين عليهـا » وقوله « آذْهَبُوا بقَمِيصِى هـذا » . وأما من السـنة فأحاديث كثيرة؛ منها حديث عروة البارِقىّ، وقد تقـدّم فى آخر الأنعام[(١)] . روى جابر بن عبـد الله قال أردت الخروج إلى خَيْبَرَ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنى أردت الخروج إلى خيبر؛ فقال : "إذا أتيتَ وكِيلى فخذ منه خمسة عشر وَسْقًا فإن آبتغى منك آيةً فضع يدك على تَرْقُوَته"[(٢)] خرجه أبو داود . والأحاديث كثيرة فى هذه المعنى، وفى إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامســـة — الوكالة جائزة فى كل حق تجوز النيـابة فيه، فلو وكل الغاصبُ لم يجـز، وكان هو الوكيل؛ لأن كل محرَّم فعله لا تجوز النيابة فيه .

السادســـة — فى هذه الآية نُكْتة بديعة، وهى أن الوكالة إنما كانت مع التَّقِيّة خوف أن يشعر بهم أحد لمـا كانوا عليه من الخوف على أنفسهم . وجواز توكيل ذوى العـذر متفق

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق .

عليــه ؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها . وقال أبو حنيفة وسُحْنون : لا تجوز . قال ابن العربي : وكأن سُحنونَ تلقّفه من أسد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت ، إنصافا منهم و إذلالا لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هــذا حسن ؛ فأما أهــل الدين والفضــل فلهم أن يوكّلوا و إن كانوا حاضرين أصحّــاء . والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهــد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان لرجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم سِنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا له سِنّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها؛ فقال : "أعطوه" فقال : أوْفَيْتَنِي أوْفَى الله لك . قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " إن خيركم أحسنُكم قضاء " . لفظ البخاري . فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السنّ التي كانت عليــه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك، ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم مريضا ولا مسافرا . وهذا يرد قول أبي حنيفة وسُحنون في قولها : انه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه؛ وهذا الحديث خلاف قولها .

السابعـــة — قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : تضمّنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم . وتضمنت جواز الوكالة لأنهــم بَعثوا من وكّلوه بالشراء . وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا ، و إن كان بعضهم أكثرَ أكْلًا من الآخر؛ ومثله قوله تعالى : « و إن تُخالطوهم فإخوانكم » حسبما تقدم بيانه في «البقرة»(١) . ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغنيّ ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد قالوا في المضارِب يَخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم وكّل من اشترى له أُضْحية . قال ابن العربي : ليس في الآية دليل على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قــد أعطاه منفردا فلا يكون فيــه آشتراك . ولا مُعَوَّل في هذه المسئلة

(١) راجع ج ٣ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

إلا على حديثين : أحدهما — أن ابن عمر مَرّ بقوم يأكلون تمرا فقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه . الثانى — حديث أبى عبيدة فى جيش الخَبَط[1] . وهـذا دون الأول فى الظهور ؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيـدة يعطيهم كفافا من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : ومما يدل على خلاف هذا من الكتاب قولُه تعالى : «وإن تخالطوهم فإخوانكُم» وقوله « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا[2] » على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى أطلعنا عليهم وأظهرناهم . و « أَعْثَر » تعدية عثر بالهمزة ، وأصل العِثار فى القدم . ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ يعنى الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم . وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون ومَلَكَ أهلَ تلك الدار رجلٌ صالح ، فاختلف أهل بلده فى الحشر وبعث الأجساد من القبور ، فشك فى ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنمـا تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض . وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعا ؛ فكبُر ذلك على الملك وبقى حيران لايدرى كيف يتبيّن أمره لهم ، حتى لبس المُسُوح وقعد على الرّماد وتضرّع إلى الله تعـالى فى حجة وبيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ؛ فيقال : إنهم لمـا بعثوا أحدهم بوَرِقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها استُنْكِر شخصه واستُنْكِرت دراهمـه لبعد العهد ، فحُمل إلى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن من معه ، فلما

---

(١) سموا جيش الخبط لانهـم خرجوا فى سرية الى أرض جهينة فأصابهم جوع فأكلوا الخبط ؛ فسموا به .
(٢) آية ٦١ سورة النور .

نظر إليه قال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يُرِيَنِيهم ، وسأل الفتى فأخبره ، فسُرّ الملك بذلك وقال : لعل الله قد بعث لكم آية ، فلنَسِرْ إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دنَوْا إلى الكهف قال تمليخا : أنا أدخل عليهم لئلا يُرْعَبُوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمّةُ إسلام ، فرُوِى أنهم سُرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم . وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدّثهم تمليخا ميتة الحق؛ على ما يأتى . ورجع من كان شكّ فى بَعْث الأجساد إلى اليقين . فهذا معنى «أعثرنا عليهم» . «لِيعلموا أن وعد الله حق» أى ليعلم الملك ورعيته أن القيامة حق والبعث حق «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» . وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنوا عليهم بنيانا ؛ فقال الذين هم على دين الفتية : اتخذوا عليهم مسجدا . وروى أن طائفة كافرة قالت : نبنى بِيعة أو مضيفا ، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذّن عليهم مسجدا . وروى أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيَّبين . وروى عن عبد الله بن عمر (١) أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثرهم وحجبهم عنهم، فذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون مَعْلَمًا لهم . وقيل : إن الملك أراد أن يدفنهم فى صندوق من ذهب فأتاه آتٍ منهم فى المنام فقال : أردتَ ان تجعلنا فى صندوق من ذهب فلا تفعل؛ فإنا من التراب خُلقنا وإليه نعود، فَدَعْنا .

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمّنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذىّ عن ابن عباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج . قال الترمذىّ : وفى الباب عن أبى هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ أولئك إذا كان فيهم

(١) فى بعض الأصول : «عن عبيد بن عمير» .

الرجل الصالح فمات بَنَوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة " . لفظ مسلم . قال علماؤنا : وهـذا يحرم على المسلمين أن يتّخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد . وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " لفظ مسلم . أى لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدى إلى عبادة من فيها كما كان السبب فى عبادة الأصنام . فحذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسَدَّ الذرائعَ المؤدّية إلى ذلك فقال : " اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد " . وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه فإذا اغتمّ (١) بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك (٢) : " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذّر (٣) ما صنعوا . وروى مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجَصَّص القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه . وخرّجه أبو داود والترمذى أيضا عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُجَصَّص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبْنَى عليها وأن توطأ . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى الصحيح عن أبى الهيّاج الأسدى قال قال لى علىّ بن أبى طالب : ألا (٤) أبعثُك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألّا تدَعَ تمثالا إلا طَمَسته ولا قبرا مُشْرِفا إلا سوّيته — فى رواية — ولا صورة إلا طمستها . وأخرجه أبو داود والترمذىّ . قال علماؤنا : ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة . وقد قال به بعض أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن هـذا الارتفاع المأمور بإزالتـه هو ما زاد على التسنيم ، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم ، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبرِ صاحبيه رضى الله عنهما — على ما ذكر مالك فى الموطأ — وقبر أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ؛ على ما رواه الدارقطنىّ

(١) قوله «إذا اغتم» أى تسخن بالخميصة وأخذ بنفسه من شدة الحر. (٢) أى فى حالة الطرح والكشف.

(٣) أى يحذر أمته أن يصنعوا بقبره مثل صنيع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم . (٤) قوله « الا » بتشديد اللام للتحضيض . وقيل بفتحها للتنبيه .

من حديث ابن عباس . وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيما وتعظيما فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا فى أوّل منازل الآخرة، وتشبّهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها . وباعتبار هذه المعانى وظاهر النهى ينبغى أن يقال : هو حرام . والتسنيم فى القبر : ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سَنام البعير . ويُرَشّ عليه بالماء لئلا ينتثر بالريح . وقال الشافعيّ لا بأس أن يطيّن القبر . وقال أبو حنيفة : لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء فيسقط . ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال : حدّثنا مُسدّد حدّثنا نوح بن دُرّاج عن أبان بن تغلِب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلّمته بصخرة؛ ذكره أبو عمر .

وأما الجائزة — فالدفن فى التابوت؛ وهو جائز لا سيما فى الأرض الرّخوة . وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان فى تابوت من حجر، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى فى رَكِيّة[(١)] مخافة أن يُعبد، وبقى كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم اجمعين؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعه فى حظيرة إسحاق عليه السلام . وفى الصحيح عن سعد ابن أبى وقّاص أنه قال فى مرضه الذى هلك فيه : اتخذوا لى لَحْدًا وانصبوا علىّ اللّبِن نَصْبًا؛ كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم . اللحد : هو أن يشق فى الأرض ثم يُحفر قبر آخر فى جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صُلْبة يُدخَل فيه الميت ويُسَدّ عليه باللّبِن . وهو أفضل عندنا من الشق ؛ لأنه الذى اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . وبه قال أبو حنيفة قال : السنة اللحد . وقال الشافعى : الشق . ويكره الآجُرّ فى اللحد . وقال الشافعى : لا بأس به لأنه نوع من الحجر . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الآجر لإحكام البناء ، والقبر وما فيه للبِلَى ، فلا يليق به الإحكام . وعلى هذا يسوّى بين الحجر والآجر . وقيل : إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلا ؛ فعلى هذا يفرق بين الحجر والآجر . قالوا : ويستحب اللّبِن والقَصَب لما روى أنه وضع على قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم حُزْمة من قصب . وحكى عن الشيخ الإمام

(١) الركية : البئر .

أبى بكر محمد بن الفضل الحنفىّ رحمه الله أنه جوّز اتخاذ التابوت فى بلادهم لرخاوة الأرض . وقال : لو اتُّخذ تابوت من حديد فلا بأس به ؛ لكن ينبغى أن يفرش فيه التراب وتطيّن الطبقة العليا مما يلى الميت، ويُجعل اللَّبِن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .

قلت : ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة فى قبر النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن المدينة سَبِخة(1)، قال شُقْران : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبر . قال أبو عيسى الترمذى : حديث شقران حديث حسن غريب .

قوله تعالى : سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير فى « سيقولون » يراد به أهل التوراة ومعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك أنهم اختلفوا فى عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص . وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوما منهم حضروا النبىّ صلى الله عليه وسلم من نَجْران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبيّة : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقالت النَّسْطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبىّ صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف . والواو فى قوله « وثامنهم كلبهم » طريق النحو بين أنها واو عطف دخلت فى آخر إخبارٍ عن عددهم ؛ لتفصّل أمرهم، وتدلّ على أن هذا غاية ماقيل، ولو سقطت لصح الكلام . وقالت فرقة منها ابن خَالَوْيه : هى واو الثمانية . وحكى الثعلبىّ عن أبى بكر بن عيّاش أن قريشا كانت تقول فى عددها ستة سبعة وثمانية ؛ فتُدخل الواو فى الثمانية . وحكى نحوه القَفّال، فقال:

(1) أرض سبخة : ذات ملح ونزّ .

إن قوما قالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله «التائبون العابدون – ثم قال – والناهون عن المنكر والحافظون». يدل عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم «حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها» بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: «وفتحت أبوابها» بالواو. وقال «خيرا منكن مسلمات» ثم قال «وأبكارا» فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكم، ومن أين السبعة نهاية عندهم! ثم هو منقوض بقوله تعالى: «هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر» ولم يذكر الاسم الثامن بالواو. وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة: إنما ذكر الواو في قوله «سبعة وثامنهم» لينبه على أن هذا العدد هو الحق، وأنه مباين للأعداد الأخر التي قال فيها أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدمتين «رَجْمًا بالغيب» ولم يذكره في الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشيء؛ فكأنه قال لنبيه هم سبعة وثامنهم كلبهم. والرجم: القول بالظن؛ يقال لكل ما يُخرص: رَجَم فيه ومرجوم ومُرْجَم؛ كما قال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذُقْتُمُ ✽ وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ(١)

قلت: قد ذكر الماوردي والغزنوي: وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى «وثامنهم كلبهم» أي صاحب كلبهم. وهذا مما يقوي طريق النحويين في الواو، وأنها كما قالوا. وقال القشيري: لم يذكر الواو في قوله: رابعهم سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزا، فطلبُ الحكمة والعلة في مثل هذه الواو تكلُّف بعيد، وهو كقوله في موضع آخر «وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتابٌ معلوم»(٢). وفي موضع آخر: «إلا لها مُنْذِرون. ذِكْرَى»(٣).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ أمر الله تعالى نبيه عليه السلام في هذه الآية أن يرد علم عدتهم إليه عز وجل. ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل. والمراد به قوم من

(١) البيت من معلقة زهير. (٢) آية ٤ سورة الحجر. (٣) آية ٢٠٨ سورة الشعراء.

أهـل الكتاب ؛ فى قول عطاء . وكان ٱبن عباس يقول : أنا من ذلك القليل ، كانوا سـبعة وثامنهم كلبهم ، ثم ذكر السبعة بأسمائهم ، والكلب ٱسمه قطمير كلب أنمر ، فوق القَلَطِى[(١)] ودون الكردىّ . وقال محمد بن سـعيد بن المُسَيَّب : هو كلب صينى . والصحيح أنه زبيرى . وقال : ما بقى بنيسابور محدّث إلا كتب عنى هذا الحديث إلا من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو الحيرىّ عنى .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تُمَـارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾ أى لا تجادل فى أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك ؛ وهو ردّ علم عدتهم إلى الله تعالى . وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون ، ونحو هـذا ، ولا تحتج على أمر مقـدّر فى ذلك . وفى هـذا دليل على أن الله تعالى لم يبيّن لأحد عدَدَهم فلهذا قال « إلا مِرَاءً ظاهرا » أى ذاهبا ؛ كما قال :

* وتلك شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارُها[(٢)] *

ولم يبح له فى هذه الآيةِ أن يمارِى ؛ ولكن قوله « إِلَّا مِرَآءً » استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب . سميت مراجعته لهم مِراء ثم قيـد بأنه ظـاهر ؛ ففارق المراء الحقيق المذموم . والضمير فى قوله « فيهم » عائد على أهل الكهف . وفى قوله « منهم » عائد على أهل الكتاب المعارضين . وقوله : «فلا تمار فيهم» يعنى فى عِدتهم ؛ وحذفت العدّة لدلالة ظاهر القول عليها .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ روى أنه عليه السلام سأل نصارى نَجْران عنهم فنُهِى عن السؤال . وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَـدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَـآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(١) القلطى (كعربى) : القصير من الناس والسنانير والكلاب . قال الدميرى : « والقلطى : كلب صينى » .
(٢) هذا عجز بيت لأبى ذؤيب . وصدره :

* وعيّرها الواشون أنى أحبها *

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم؛ ولم يستثن فى ذلك . فآحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شقّ ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة . وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا، إلّا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محقّقا لحكم الخبر؛ فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا، و إذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محقّقا للخبر عنه . واللام فى قوله « لشيء » بمنزلة فى، أو كأنه قال لأجل شيء .

الثانيـــة — قال ابن عطية : وتكلّم الناس فى هذه الآية فى الآستثناء فى اليمين ، والآية ليست فى الأيمـان و إنمـا هى فى سُـنّة الآستثناء فى غير اليمين . وقوله « إلا أن يشاء الله » فى الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسّنه الإيجاز؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله؛ فليس « إلا أن يشاء الله » من القول الذى نُهِى عنه .

قلت : ما اختـاره ابن عطيـة وآرتضاه هو قول الكسائىّ والفـرّاء والأخفش . وقال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله . فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله . قال ابن عطية : وقالت فرقة « إلا أن يشاء الله » استثناء من قوله « ولا تقولنّ » . قال : وهـذا قول حكاه الطبرى ورُدّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكَى . وقد تقدّم القول فى الآستثناء فى اليمين وحكمه فى « المـائدة »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو الأمر بالذكر بعـد النسيان — واختلف فى الذكر المأمور به ؛ فقيل : هو قوله « وقل عسى أن يَهْـدِينِ ربّى لأقربَ من هـذا رَشَدًا » . قال محمـد الكوفى المفسر : إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

من لم يَستثن ، و إنها كفارة لنسيان الاستثناء . وقال الجمهور : هو دعاء مأمور به دون هـذا التخصيص . وقيل : هو قوله «إن شاء الله» الذى كان نَسِيَه عند يمينه . حُكى عن ابن عباس أنه إن نسى الاستثناء ثم ذَكَر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفا . وهو قول مجاهد . وحكى إسماعيـل بن إسحاق ذلك عن أبى العاليـة فى قوله تعالى « وآذكر ربك إذا نسيت » قال : يستثنى إذا ذكره . الحسن : ما دام فى مجلس الذكر . ابن عباس : سنتين؛ ذكره الغزنوىّ قال : فيحمل على تدارك التـبرك بالاستثناء للتخلّص عن الإثم . فأما الاستثناء المفيـد حكما فلا يصح إلا متصلا . السُّدّى : أى كل صلاة نسيها إذا ذكرها . وقيل : استثن بآسمه لئلا تنسى . وقيل : آذكره متى ما نسيته . وقيل : إذا نسيت شيئا فآذكره يُذَكِّرْكَه . وقيل : آذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك؛ فذلك حقيقـة الذكر . وهـذه الآية مخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسـلم، وهى استفتاح كلام على الأصح، وليست من الاستثناء فى اليمين بشىء، وهى بعدُ تعمّ جميع أمته؛ لأنه حكم يتردّد فى الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق .

قوله تعـالى : وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَآزْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)

هذا خبر من الله تعـالى عن مدّة لَبْثهم . وفى قراءة ابن مسعود « وقالوا لبثوا » . قال الطبرى : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الإعثار عليهم إلى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيَّه أن هـذه المدّة فى كونهم نياما ، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر . فأمر الله تعالى أن يردّ علم ذلك إليه . قال ابن عطية : فقوله على هذا « لبثوا » الأوّل يريد فى نوم الكهف ، و « لبثوا » الثانى يريد بعـد الإعثار إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت عدمهم بالبَلاء . مجاهد : إلى وقت نزول القرآن . الضحاك : إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لمـا قال « وازدادوا تسعا » لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هـذا مبهمة . وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعـد عيسى

بيسير وقد بقيت من الحوار بين بقية . وقيل غير هذا على ما يأتى . قال القشيرى : لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين؛ كما تقول : عندى مائة درهم وخمسة؛ والمفهوم منه خمسة دراهم . وقال أبو على « وازدادوا تسعا » أى ازدادوا لبث تسع؛ فحذف . وقال الضحاك : لما نزلت « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة » قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل « سنين » . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هى ما بين الحسابين . ونحوه ذكر الغزنوى . أى باختلاف سني الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون فى ثلثمائة تسع سنين . وقرأ الجمهور « ثلثمائةٍ سنينَ » بتنوين مائة ونصب سنين ، على التقديم والتأخير؛ أى سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون « سنين » على هذا بدلا أو عطف بيان . وقيل: على التفسير والتمييز . و « سنين » فى موضع سنة . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين، وترك التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد . قال أبو على : هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع . وفى مصحف عبد الله « ثلثمائة سنة » . وقرأ الضحاك « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ أبو عمرو بخلاف « تَسْعًا » بفتح التاء . وقرأ الجمهور بكسرها . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : التقدير ولبثوا فى كهفهم سنين ثلثمائة .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد . أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك . أو إلى وقت تغيرهم بالبِلَى؛ على ما تقدم . وقيل : بما لبثوا فى الكهف، وهى المدة التى ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصانا . أى لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علّمه ذلك «له غَيْبُ السموات والأرض» .

قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أى ما أبصره وأسمعه . قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وهذه عبارات عن الإدراك . ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى بوَحْيِه وإرشاده هـداك وحججك والحقّ من الأمور ، وأسمع به العالم ؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب . وقيل : المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم . ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى لم يكن لأصحاب الكهف وَلِيّ يتولّى حفظهم دون الله . ويحتمل أن يعود الضمير فى «لهم» على معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار . والمعنى : ما لهؤلاء المختلفين فى مدة لُبثهم وَلِيّ دون الله يتولى تدبير أمرهم ؛ فكيف يكونون أعلمَ منه ، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إيّاهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ قرئ بالياء و رفع الكاف ، على معنى الخبر عن الله تعالى . وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رَجاء وقتادة والجَحْدَرِيّ « ولا تُشرِكْ » بالتاء من فوق و إسكان الكاف على جهة النهي للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، و يكون قوله «ولا تشرك» عطفا على قوله «أبصر به وأسمع» . وقرأ مجاهد «يُشْرِكْ» بالياء من تحت والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهه .

مســـئلة — اختلف فى أصحاب الكهف هل ماتوا وفَنُوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ؛ فروى عن ابن عباس أنه مرّ بالشأم فى بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما فقالوا : هذه عظام أهل الكهف . فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم فَنُـوا وعُدِموا منـذ مدّة طويلة ؛ فسمعه راهب فقال : ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا ؛ فقيل له : هذا ابن عم نبيّنا صلى الله عليه وسلم . وروت فرقة أن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم قال : " ليحجّنّ عيسى بن مريم ومعـه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجّوا بعدُ " . ذكره ابن عطية .

قلت : ومكتوب فى التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبـدُ الله ورسولُه ، وأنه يمـر بالرَّوْحاء حاجًّا أو مُعْتَمِرا أو يجمع الله له ذلك فيجعـل الله حوارِيّه أصحـاب الكهف والرقيم ، فيمرّون حجاجا فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا . وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله فى كتاب « التذكرة » . فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة ، بل يموتون قبيل الساعة .

قوله تعالى : وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أى اتبع القرآن فلا مبدّل لكلمات الله ولا خُلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف . وقال الطبرى : لا مغيّر لما أوعد بكلماته أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته . ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملجأ . وقيل موئلا . وأصله الميل ؛ ومَن لجأت إليه فقد مِلْت إليه . قال القُشَيْرِىّ أبو نصر عبد الرحيم : وهذا آخر قصة أصحاب الكهف . ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فانتهى إلى الكهف الذى فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كُشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم ؛ فقال ابن عباس : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ، فقال : « لو ٱطلعتَ عليهم لولّيْتَ منهم فِرارا » فقال : لا أنتهى حتى أعلم علمَهم ، وبعث قوما لذلك ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم ؛ ذكره الثعلبى أيضا . وذكر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريَه إياهم ، فقال إنك لن تراهم فى دار الدنيا ولكن ٱبعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع علىّ ابن أبى طالب ، ثم ٱدع الريح الرُّخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجرا ، فحمل الكلبُ عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بذَنَبه وأوْمأ إليهم برأسه أن ٱدخلوا فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فردّ الله على الفِتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ فقالوا لهم : معشرَ الفِتْية ، إن النبىّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما أبلغتم ، وقبلوا

دينـه وأسلموا، ثم قالوا : أقرئوا محمدا رسول الله منّا السلام ، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدى . فيقال : إن المهدى يسلم عليهم فيُحييهم الله ثم يرجعــون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رســولَ الله صلى الله عليه وسلم بمـا كان منهم، ثم ردّتهم الريح فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "كيف وجدتموهم"؟ فأخبروه الخبر، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهُمّ لا تفرّق بيني وبين أصحابى وأصهارى واغفر لمن أحبّنى وأحبّ أهـل بيتى وخاصّتى وأصحابى" . وقيـل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبـل المسيح ، فأخبر الله تعـالى المسيح بخـبرهم ثم بُعثوا فى الفَتْرة بين عيسى ومحمد صـلى الله عليه وسـلم . وقيل : كانوا قبـل موسى عليه السـلام وأن موسى ذكرهم فى التوراة ، ولهذا سألت اليهود رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح ؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قوله تعـالى : وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ هذا مثلُ قوله : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » فى سورة « الأنعـام »(١) وقد مضى الكلام فيه . وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : جاءت المؤلَّفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عُيينة بن حِصْن والأقْرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله ، إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحيّت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم — يعنون سلمان وأباذرّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى « وٱتلُ ما أُوحِيَ إليك من كتاب ربّك لا مبدّلَ لكلماته ولن تجِـدَ من دونه مُلْتَحَدًا . وٱصْبر

(١) راجع ج ٦ ص ٤٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

نفسَك مع الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَداةِ والعَشِيِّ يريدون وجهه — حتى بلغ — إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » . يتهدّدهم بالنار . فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله قال : "الحمد لله الذى لم يُمِتْنِى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى، معكم المَحْيَا ومعكم الممات" . ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أى طاعته . وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن « ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربَّهم بالغُدْوة والعَشِيّ » وحجتهم أنها فى السواد بالواو . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة . وروى عن الحسن « ولا تعدّ[1] عينيك عنهم » أى لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزينتها؛ حكاه اليزيدى . وقيل : لا تحتقرهم عيناك؛ كما يقال فلان تَنْبُو عنه العين؛ أى مستحقرا .

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى تتزيّن بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يُرِد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك، ولكنّ الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله « لئن أشركتَ ليَحْبَطَنّ عَمَلُكَ[2] » . و إن كان الله أعاذه من الشرك . و « تريد » فعل مضارع فى موضع الحال؛ أى لا تعد عيناك مريدا؛ كقول آمرئ القيس :

فقلتُ له لا تبْكِ عَيْنُك إنما * نحاول مُلْكا أو نموتَ فنُعْذَرَا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عينيك عنهم؛ لأن « تَعْدُ » متعدٍّ بنفسه . قيل له : والذى وردت به التلاوة من رفع العينين يئول إلى معنى النصب فيهما، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو فى الحقيقة موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى :

---

(١) فى كتاب روح المعانى : « وقرأ الحسن (ولا تعد عينيك) بضم التاء وسكون العين وكسر الدال المخففة، من أعداه، ونصب العينين . وعنه وعن عيسى والأعمش أنهم قرءوا (ولا تعد عينيك) بضم التاء وفتح العين وتشديد الدال المكسورة، من عداه يعديه، ونصب العينين أيضا .

(٢) آية ٦٥ سورة الزمر .

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَموالُهم »(١) فأسند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى : لا تعجبك يا محمد أموالهم . ويزيدك وضوحا قول الزجاج : إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ روى جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى « ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا » قال : نزلت فى أُمَيَّـة بن خلف الجُمَحِىّ ، وذلك أنه دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرّد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ؛ فأنزل الله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » يعنى من ختمنا على قلبـه عن التوحيد . ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يعنى الشرك . ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ قيل هـو من التفريط الذى هـو التقصير وتقـديم العجز بترك الإيمـان . وقيل : من الإفراط ومجاوزة الحدّ ، وكان القوم قالوا : نحن أشراف مُضَرَ إن أسـلمنا أسلم الناس ؛ وكان هـذا من التكبر والإفراط فى القول . وقيل : « فُرُطًا » أى قدما فى الشر ؛ من قولهم : فَرَط منه أمر أى سبق . وقيل : معنى « أغفلنا قلبـه » وجدناه غافلا ؛ كما تقول : لقيت فلانا فأحمدته ؛ أى وجدته محمودا . وقال عمرو بن معدِيكَرِب لبنى الحارث بن كعب : والله لقد سألناكم فمـا أبخلناكم ، وقاتلناكم فما أجبناكم ، وهاجيناكم فما أفحمناكم ؛ أى ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مُفْحَمين . وقيـل : نزلت « ولا تطع من أغفلنا قلبـه عن ذكرنا » فى عُيينة بن حِصن الفَزَارِى ؛ ذكره عبد الرزاق ، وحكاه النحاس عن سفيان الثَّوْرِى . والله أعلم .

قوله تعالى : وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ «الحقُّ» رفع على خبر الابتداء المضمر ؛ أى قل هو الحق . وقيل : هو رفع على الابتداء ، وخبره فى قوله

---

(١) آية ٥٥ سورة التوبة .

«من ربكم» . ومعنى الآية : قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس ! من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهُدَى والضلال ، يهدى من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ؛ ليس إلىّ من ذلك شيء ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفا ، ويحرمه من يشاء وإن كان قويّا غنيّا ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ؛ فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد . أى إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أى أعددنا . ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى للكافرين الجاحدين . ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال الجوهرى : السُّرادِق واحد السُّرادِقات التى تُمَدّ فوق صحن الدار . وكل بيت من كُرْسُف[(١)] فهو سرادق . قال رؤبة[(٢)] :

يا حَكَمُ بنَ المنذر بن الجارُودْ * سُرادِقُ المجد عليك مَمْدُودْ

يقال : بيت مُسَرْدَق . وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز[(٣)] وقتله النعمانَ بن المنذر تحت أرجل الفِيَلة :

هو المُدْخِل النعمانَ بيتًا سماؤه * صُدورُ الفُيولِ بعد بَيتٍ مُسَرْدَقِ

وقال ابن الأعرابى : « سرادقها » سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . الكلبى : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة . القُتَبِىّ : السرادق الحُجْزة التى تكون حول الفسطاط . وقاله ابن عَزيز . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذى ذكره الله تعالى فى سورة «والمرسلات» حيث يقول : « انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ»[(٤)] وقوله : «وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»[(٥)] قاله قتادة . وقيل : إنه البحر المحيط بالدنيا . وروى يَعْلَى بن أمية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "البحر هو جهنم — ثم تلا — نارًا أحاط بهم سُرَادقها —

---

(١) الكرسف : القطن . (٢) كذا فى الأصل واللسان ، واستدرك عليه صاحب اللسان بأنه للكذاب الحِرْمازى ، وتابعه على هذا سيبويه والأعلم الشنتمرى . مدح الراجز أحد بنى المنذر بن الجارود العبدى ، وحَكَمٌ هذا أحد ولاة البصرة لهشام بن عبد الملك . وسمى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم ؛ فشبه بالسيل الذى يجرد ما مر به .

(٣) بفتح الواو وكسرها ، ملك من ملوك الفرس . (٤) آية ٣٠ (٥) آية ٤٣ سورة الواقعة .

ثم قال ــ والله لا أدخلها أبدا مادمت حيًّا ولا يصيبنى منها قطرة" ذكره الماوردى . وخرج ابن المبارك من حديث أبى سعيد الخُدْرِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لسرادق النار أربع جُدُر كُثُف(١) كل جدار مسيرة أربعين سنة" . وخرجه أبو عيسى الترمذى، وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قلت : وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجُدُره ما وُصف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ﴾ قال ابن عباس : المُهْل ماء غليظ مثل دُرْدِىّ(٢) الزيت . مجاهد : القيح والدم . الضحاك : ماء أسود، و إن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سُود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورَصاص ونُحاس وقزدير ، فتموج بالغليان، فذلك المهل . ونحوه عن ابن مسعود . قال سعيد بن جُبير : هو الذى قد انتهى حرّه . وقال : المهل ضرب من القَطِران ؛ يقال : مَهلت البعير فهو ممهول . وقيل : هو السم . والمعنى فى هذه الأقوال متقارب . وفى الترمذى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله « كالمهل » قال : " كعَكَر الزيت فإذا قربه إلى وجهه سقطت فَرْوة وجهه" قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْدِين بن سعد ورِشْدين قد تُكُلِّم فيه من قبل حفظه . وخرج عن أبى أمامة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : "ويُسْقَى من ماءٍ صَدِيدٍ يتجرعه" قال : "يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدْنِىَ منه شوَى وجهه ووقعت فَروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره . يقول الله تعالى « وسُقُوا ماءً حَمِيًا فقطّع أمعاءهم(٣) » يقول « وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشرابُ وساءت مُرْتَفَقًا » " قال : حديث غريب .

قلت : وهذا يدل على صحة تلك الأقوال ، وأنها مرادة، والله أعلم . وكذلك نص عليها أهل اللغة . فى الصحاح « المهل » النحاس المُذاب . ابن الأعرابى : المهل المذاب من

---

(١) الكثف : جمع كثيف ، وهو الثخين الغليظ . (٢) الدردى (بالضم) : ما يبق فى الأسفل .
(٣) آية ١٥ سورة محمد .

الرصاص . وقال أبو عمرو . المهل دردىّ الزيت . والمهل أيضا القيح والصديد . وفى حديث أبى بكر : ٱدفنونى فى ثوبىّ هـذين فإنهما للمهل والتراب . و﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ قال مجاهد : معناه مجتمعا، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة . ٱبن عباس : منزلا . عطاء : مقرا . وقيل مهادا . وقال القُتَبِىّ : مجلسا . والمعنى متقارب، وأصله من المتّكأ، يقال منه : ٱرتفقت أى ٱتكأت على المرفق . قال الشاعر :

قالت له وٱرتفقتْ ألَا فـتًى　*　يسوق بالقوم غَزالاتِ الضُّحا (١)

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نوم . قال أبو ذُؤيب الهُذَلِىّ :

نام الخَلِىّ وبِتُّ الليـل مُرْتَفِقا (٢)　*　كأنّ عَيْنِىَ فيها الصّاب مَذْبوحُ

الصاب : عصارة شجر مرّ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١ ﴾

لما ذكر ما أعدّ للكافرين من الهوان ذكر أيضا ما للمؤمنين من الثواب . وفى الكلام إضمار، أى لا نضيع أجر من أحسن منهم عملا، فأما من أحسن عملا من غير المؤمنين فعمله مُحْبَط . و «عملا» نصب على التميز، وإن شئت بإيقاع «أحسن» عليه . وقيل :

(١) غزالة الضحا وغزالاته : بعد ما تنبسط الشمس وتُضحى . وقيل : هو أول الضحا الى مدّ النهار الأكبر حتى يمضى من النهار نحوٌ من خمسه .　　(٢) رواية الديوان : « مُشْتَجِرًا » والمشتجر : الذى قد شجر نفسه ووضع يده تحت شجره على حنكه أو على فمه . والشَّجْر : ما بين اللحيين . ومذبوح؛ مشقوق .

« إنا لا نضيع أجر من أحسن عمـلا » كلام معترض ، والخـبر قوله « أولئـك لهم جنات عدن» و ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ سُرَّةُ الجنة، أى وسطها وسائر الجنات مُحْدِقَة بها . وذكرت بلفظ الجمع لسَعتها ؛ لأن كل بُقعة منها تصلح أن تكون جنة . وقيــل : العَدْن الإقامة ، يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به . وعَدَنْت البـلد توطنته . وعَدَنَتِ الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه ؛ ومنــه « جناتُ عَدْن » أى جنات إقامة . ومنـه سُمِّيَ المَعْدِن (بكسر الدال) ؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء . ومركز كلّ شيء مَعدِنه . والعادن : الناقة المقيمة فى المرعى . وعَدَن بلد؛ قاله الجوهرى . ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ تقدّم فى غير موضع (١) . ﴿يُحَـلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار . قال سعيد بن جُبَير : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب ، وواحد من وَرِق، وواحد من لؤلؤ .

قلت : هــذا منصوص فى القرآن، قال هنـا « من ذهب » وقال فى الحج (٢) وفاطر (٣) « مِنْ ذَهَبٍ ولؤلؤا » وفى الإنسان (٤) «مِن فِضةٍ». وقال أبو هريرة : سمعت خليلى صلّى الله عليه وسلم يقول : ”تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء“ خرّجه مسلم . وحكى الفرّاء : «يَحْلَوْن» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال : حَلِيت المرأة تَحْلَى فهى حالية إذا لبست الحَلْى . وحَلِيَ الشيء بعينى يَحْلَى؛ ذكره النحاس . والسِّوار سِوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساورة . وقرئ « فلولا أُلْقِيَ عليه أساورة من ذهب (٥) » وقد يكون الجمع أساور . وقال الله تعالى « يُحَـلَّوْن فيها من أساور من ذهب » قاله الجوهرى . وقال ابن عَزيز : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سِوار وسُـوار، وهو الذى يلبس فى الذراع من ذهب ، فإن كان من فضــة فهو قُلْب وجمعه قِلَبـة ؛ فإن كان من قَرْن أو عاج فهى مَسَكة وجمعه مَسَك . قال النحاس : وحكى قُطْرب فى واحد الأساور إسوار، وقُطْرب صاحب شذوذ ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٢٣ (٣) آية ٣٣
(٤) آية ٢١ (٥) آية ٥٣ سورة الزخرف .

قلت : قد جاء فى الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء : واحدها إسوار . وقال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس فى الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السُّنْدُس : الرقيق النحيف ، واحده سندسة ؛ قاله الكسائى . والإستبرق : ما ثخُن منه — عن عكرمة — وهو الحرير . قال الشاعر :

تراهنّ يلبسن المشاعر مَرّة * وإستبرقُ الديباج طَوْراً لباسُها

فالإستبرق الدِيباج . ابن بحر : المنسوج بالذهب . القُتَبِىّ : فارسى معرب . الجوهرى : وتصغيره أُبَيْرِق . وقيل : هو استفعل من البريق . والصحيح أنه وفاق بين اللغتين؛ إذ ليس فى القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما تقدّم ، والله أعلم .

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ؛ لأن البياض يبدّد النظر و يؤلم ، والسواد يذَم ، والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع . والله أعلم . روى النسائىّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنة ، أَخَلْقٌ يُخلَق أم نسج ينسج؟ فضحك بعض القوم . فقال لهم : " ممّ تضحكون من جاهل يسأل عالما " فجلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين السائل عن ثياب الجنة"؟ فقال : ها هو ذا يا رسول الله ؛ قال " لا بل تشقّق عنها ثمر الجنة " قالها ثلاثا . وقال أبو هريرة : دار المؤمن درّة مجوّفة فى وسطها شجرة تنبت الحُلَل و يأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدر والمَرْجان . ذكره يحيى بن سلام فى تفسيره وابن المبارك فى رقائقه . وقد ذكرنا إسناده فى كتاب التذكرة . وذُكر فى الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه ، يقول أحد الوجهين للآخر : أنا أكرم على وَلِيّ الله منك ، أنا أَلِي جسده وأنت لا تلِي . ويقول الآخر : أنا أكرم على ولِيّ الله منك ، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر .

قوله تعـالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ « الأرائك » جمع أَرِيكة، وهى السرر فى الحِجَال(١) . وقيـل الفرش فى الحجـال ؛ قاله الزجاج . ابن عباس : هى الأسرّة من ذهب، وهى مكلّلة بالدُّر والياقوت عليها الحجـال ، الأريكة ما بين صنعاء إلى أَيْلة وما بين عدن إلى الجابية . وأصـل متكئين مُوْتَكئين، وكذلك اتكأ أصله اوتكأ، وأصـل التُّكَأة وُكَأة؛ ومنـه التوكّؤ للتحامل على الشيء ، فقلبت الواو تاء وأدغمت . ورجل وُكَأة كثير الاتّكاء . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ يعنى الجنات، عكس « وساءت مرتفقا » . وقد تقدّم . ولو كان « نِعْمَتْ » لجـاز لأنه آسم للجنة . وعلى هذا « وحسنت مرتفقا » . وروى البَرَاء ابن عازب أن أعرابيًّا قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العَضْباء فقال : إنى رجل مسلم فأخبرنى عن هـذه الآية « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » الآية ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمـر وعثمان وعليّ فأَعْلِم قومك ان هذه الآية نزلت فيهم " ذكره المـاوردىّ، وأسنده النحاس فى كتاب معانى القرآن ، قال : حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا يحيى بن الضُّرَيْس عن زهير بن معاوية عن أبى إسحـاق عن البراء بن عازب قال : قام أعرابى ... ؛ فذكره . وأسنده السُّهَيْلى فى كتاب الاعلام . وقـد روَيْنا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله .

قوله تعـالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

---

(١) الحجال : جمع الحجلة (بفتحتين) كالقبة ، وموضع يزين بالثياب والستور والأسرة للعروس .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا و يستنكف عن مجالسة المؤمنين ، وهو متصل بقوله « وآصبر نفسك » . واختلف فى اسم هذين الرجلين وتعيينهما ؛ فقال الكلبي : نزلت فى أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران فى سورة « الصافات » فى قوله «قال قائل منهم إنى كان لى قَرِين»[1]، وَرِث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدُهما مالَه فى سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال ...؛ ذكره الثعلبيّ والقُشَيرِيّ . وقيل : نزلت فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأهل مكة . وقيل : هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله و جميع مَن كفر . وقيل : هو مَثَل لعُيَيْنَة بن حِصْن وأصحابه مع سلمان وصُهيب وأصحابه ؛ شبّههم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا ؛ فى قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وهما اللذان وصفهما الله تعالى فى سورة الصافات . وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال : اسم الخَيِّر منهما تمليخا، والآخر قرطوش، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثةُ آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيدا بألف وأعتقهم، و بالألف الثانية ثيابا فكسا العُراة، و بالألف الثالثة طعاما فأطعم الجُوّع ، و بنى أيضا مساجد ، وفعل خيرا . وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار ، واشترى دواب و بقرا فاستنتجها فنمَت له نماء مُفْرِطًا ، وآتّجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى ؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ ، فأراد أن يستخدم نفسه فى جنة يخدمها فقال : لو ذهبت لشريكى وصاحبي فسألته أن يستخدمنى فى بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بى ، فجاءه فلم يكد يصل إليه من غِلَظ الحجاب ، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين ! فما صنعتَ بمالك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى . فقال : أئنك

---

(١) آية ٥١

لمن المصدّقين، ما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سفيها، وما جزاؤك عندى على سفاهتك إلا الحرمان ، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمـالى حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال ، وذلك أنى كَسَبْت وسفهت أنت ، اخرج عنى . ثم كان من قصة هـذا الغنىّ ما ذكره الله تعالى فى القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلا بمـا أرسل عليها من السماء من الحُسْبان . وقـد ذكر الثعلبىّ هـذه القصة بلفظ آخر ، والمعنى متقارب . قال عطاء : كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار . وقيل : ورِثاه من أبيهما وكانا أخوين فآقتسماها، فآشترى أحدهما أرضا بألف دينار، فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار و إنى آشتريت منك أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدقَ بها ، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال : اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار وإنى أشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار، فتصدّق بها، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال : اللهم إن فلانا تزوج آمرأة بألف دينار وإنى أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار . ثم اشترى خدما ومتاعا بألف دينار، وإنى أشترى منك خَدَمًا ومتاعا من الجنـة بألف دينار ، فتصدّق بألف دينـار . ثم أصابته حاجة شـديدة فقال : لعلّ صاحبي ينالُنِي معروفه فأتاه فقال : ما فعل مالُك ؟ فأخبره قصته فقال : وإنك لمن المصدّقين بهذا الحديث ! والله لا أعطيك شيئا ! ثم قال له : أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنما؛ فقال صاحبه : والله لأعِظَنّه ، فوعظه وذكّره وخوّفه . فقال : سِرْ بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق ؛ فقال له : يا أخى ! إن الدنيـا أحقر عند الله من أن يجعلها ثوابا لمحسن أوعقابا لكافر . قال : فأكرهه على الخروج معه، فآبتلاهما الله ، فجعـل الكافرُ يرمى شبكته ويسمِّى بآسم صنمه ، فتطلع متدفّقة سمكا . وجعل المؤمن يرمى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلُع له فيهـا شىء، فقال له : كيف ترى ! أنا أكثر منك فى الدنيـا نصيبا ومنزلة ونَفَرًا، كذلك أكون أفضلَ منك فى الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقًّا . قال : فضَجّ المَلَك المـوكّل بهما، فأمر الله تعـالى جبريلَ أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيرِيَه منازل المؤمن فيهـا، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزّتك لا يضرّه ما ناله من

الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هــذا ؛ وأراه منازل الكافر فى جهنم فقال : وعزّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا. ثم إن الله تعالى توفّى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن فى الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال : « إنى كان لى قَرِينٌ . يقول أئنّك لمِن المصَدِّقين» الآية؛ فنادى مناد : يأهل الجنة! هل أنتم مطّلِعون فاّطلع إلى جهنم فرآه فى سواء الجحيم؛ فنزلت « واضرب لهم مَثَلًا » .

بيّن الله تعالى حال الأخوين فى الدنيا فى هذه السورة ، وبين حالها فى الآخرة فى سورة « الصافات » فى قــوله « إنى كان لى قرين[1] . يقول أئنك لمن المصدقين — إلى قوله — لمثل هــذا فليعمل العاملون » . قال ابن عطيــة : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب فى كتابه فى عجائب البــلاد أن بحيرة تِنّيس كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق فى طاعة الله حتى عيّره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى فى ليلة، وإياها عنى بهذه الآية . وقد قيل : إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهــد فى الدنيا وترغب فى الآخرة، وجعله زجرا وإنذارا؛ ذكره الماوردى . وسياق الآية يدلّ على خلاف هذا، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أى أطفناهما من جوانبهما بنخل . والحِفاف الجانب، وجمعه أحِفّة؛ ويقال : حَفَّ القوم بفلان يَحُفُّون حَفًّا، أى طافوا به؛ ومنه «حافّين من حَوْلِ العرش»[2] . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أى جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع . ﴿ كِلْتَـا الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أى كلّ واحدة من الجنتين ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ تاما، ولذلك لم يقـل آتتا . واختُلف فى لفظ « كِلْتا وكِلَا » هل هو مفرد أو مثنّى؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد؛ لأن كِلا وكِلتا فى توكيد الاثنين نظير «كُلّ» فى المجموع، وهو اسم مفرد غير مثنى؛ فإذا ولِى اسما[3] ظاهرا كان فى الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة، تقول: رأيت كِلا الرجلين وجاءنى كِلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء فى موضع الجر والنصب، تقول:

(١) آية ٥١ وما بعدها . (٢) آخر سورة الزمر . (٣) كذا فى الأصول والصحاح للجوهرى وقد نقله عنه صاحب اللسان . وكان الأولى أن يقال : « فاذا وليه اسم ظاهر ... » .

رأيت كِلَيهما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما . وقال الفراء : هو مثنًّى، وهو مأخوذ من كُلٍّ فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقيل : كِلٌ وكِلْت وكِلان وكِلْتان . واحتج بقول الشاعر :

في كِلْتِ رِجْليها سُلَامَى واحدَهْ (١) * كِلتاهمـا مَقْـرونةٌ بزائـدهْ

أراد في إحدى رجليها فأفرد . وهـذا القول ضعيف عنـد أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى اوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياءً مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كِلا» مخـالف لمعنى «كل» لأن «كُلًّا» للإحاطة و «كِلَا» يدل على شئ مخصوص، وأما هذا الشاعر فإنمـا حذف الألف للضرورة وقدّر أنها زائدة ، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة ، فثبت أنه اسم مفـرد كَمِعَى ، إلا أنه وُضـع ليدل على التثنية، كما أن قولهم « نحن » اسم مفرد يدل على اثنين فمـا فوقهما، يدل على ذلك قول جرير :

كِلَا يَوْمَىْ أُمامةَ يومُ صَدٍّ (٢) * وإن لم نأتهـا إلا لِمـامَا

فأخبر عن « كلا » بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقوله «آتت» ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوما . واختلف أيضا في ألف « كلتا »؛ فقال سيبويه : ألف « كلتا » للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كِلْوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علمَ التأنيث، والألف «في كلتا» قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث ، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث . وقال أبو عمر الجَرْمِيّ : التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده : فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كِلْتَوِيّ، فلما قالوا كِلَوِيّ وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها مُجْرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أَخَوِيّ؛ ذكره الجوهري . قال أبو جعفر النحاس : وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى ، وأن تقول : كلتا الجنتين آتتا أكلهما ؛ لأن المعنى المختار كلتاهما آتتـا . وأجاز الفـراء : كلتـا الجنتين آتى أكله، قال : لأن المعنى كل

---

(١) السلامى (كحبارى) : عظام الأصابع في اليد والقدم. (٢) كذا في الأصول واللسان مادة « كلا ». وفي ديوانه المطبوع : « يوم صدق » . والبيت من قصيدة مطلعها :

ألا حي المنـازل والخيـاما * وسكنا طـال فيهـا ما أقاما

الجنتين . قال : وفى قراءة عبد الله « كلّ الجنتين آتى أكله » . والمعنى على هذا عند الفراء : كل شىء من الجنتين آتى أكله . والأُكُل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر . وكل ما يؤكل فهو أُكُل؛ ومنه قوله تعالى : «أُكُلُهَا دَائِمٌ»(١) وقد تقدم . ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أى لم تنقص .

قوله تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر . ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم ويعقوب وابن أبى إسحاق « ثَمَر » بفتح الثاء والميم، وكذلك قوله « وأحيط بِثَمَره » جمع ثمرة . قال الجوهرى : الثمرة واحدة الثمر والثمرات ، وجمع الثمر ثمار؛ مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار ثُمُر؛ مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق . والثمر أيضا المال المُثَمَّر؛ يخفف ويثقل . وقرأ أبو عمرو « وكان له ثُمْر » بضم الثاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال . الباقون بضمها فى الحرفين . قال ابن عباس : ذهب وفضة وأموال . وقد مضى فى « الأنعام »(٢) نحو هذا مبيّناً . وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرنى عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدى قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال هارون قال حدثنى أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال : لو سمعت أحدا يقرأ «وكان له ثُمُر» لقطعت لسانه؛ فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك؟ فقال: لا ! ولا نُعْمَةَ عينٍ(٣) . فكان يقرأ « ثُمُر » ويأخذه من جمع الثمر . قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن فى العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله « كلتا الجنتين آتت أكلها » يدل على أن له ثمرا .

قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أى يراجعه فى الكلام ويجاوبه . والمحاورة المجاوبة، والتحاورُ التجاوب . ويقال : كلمته فما أحار إلىّ جوابا ، وما رجع إلىّ حَويرا ولا حَويرة ولا مَحُورة ولا حِوارا؛ أى ما ردّ جوابا . ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر : الرهط وهو ما دون العشرة . وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد، حسبما تقدّم بيانه .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٩ (٣) فى هذه الكلمة اثنتا عشرة لغة : نَعَم عَيْن ونَعَمَة ونَعَام ونَعِيم (بفتحهن) ونُعْمَى ونُعَامَى ونُعَام ونُعْم ونُعْمَة (بضمهن) ونِعْمَة ونِعام (بكسرها) . وتنصب الكل بإضمار الفعل؛ أى أفعل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

قوله تعالى : وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُرِيه إيّاها . ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أى بكفره، وهو جملة فى موضع الحال . ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه . ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا ﴾ أنكر فناء الدار . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى لا أحسب البعث كائنا . ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِى ﴾ أى وإن كان بعثٌ فكما أعطانى هذه النعم فى الدنيا فسيعطينى أفضل منه لكرامتى عليه؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر . وفى مصاحف مكة والمدينة والشام « منهما » . وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » على التوحيد، والتثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين .

قوله تعالى : قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ يهوذا أو تمليخا؛ على الخلاف فى اسمه . ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ وعظه وبيّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التى لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة . و « سوّاك رجلا » أى جعلك معتدل القامة والخَلْق، صحيحَ الأعضاء ذكرا . ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمى وأبو العالية . وروى عن الكسائى « لكن هو الله » بمعنى لكن الأمر هو الله ربى ، فأضمر اسمها فيها . وقرأ الباقون « لكنا » بإثبات الألف . قال الكسائى : فيه تقديم وتأخير،

تقديره: لكن الله هو ربى أنا، فحذفت الهمزة من «أنا» طلبا للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين فى الأخرى وحذفت ألف «أنا» فى الوصل وأثبتت فى الوقف. وقال النحاس: مذهب الكسائى والفراء والمازنيّ أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون فالوقف عليها لكنا وهى ألف أنا لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائى:

لَهِنّكِ من عَبْسيَّة لَوَسيمَــةٌ * على هَنَواتٍ كاذب من يقولها

أراد: لله إنك، فأسقط إحدى اللامين من «لله» وحذف الألف من إنك. وقال آخر فجاء به على الأصل:

وترمينني بالطَّرْف أى أنت مذنب * وتَقْــلِينَنِي لـكنّ إيّاكِ لَا أَقْــلِي

أى لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورووْا عن عاصم «لكنا هو الله ربى» وزعم أن هذا لحن، يعنى إثبات الألف فى الإدراج. قال الزجاج: إثبات الألف فى «لكنا هو الله ربى» فى الإدراج جيد؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضا. قال: وفى قراءة أُبَيّ «لكن أنا هو الله ربى». وقرأ ابن عامر والمسيليّ(١) عن نافع ورُويس عن يعقوب «لكنا» فى حال الوقف والوصل معا بإثبات الألف. وقال الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفونى * حُمَيْدًا قــد تَذَرّيْتُ السّناما

وقال الأعشى:

فكيف أنا وانتحال القوافى * بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف. ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّى ﴾ «هو» ضمير القصة والشأن والأمر؛ كقوله «فإذا هِيَ شاخِصَةٌ أبْصارُ الذين كفروا»(٢) وقوله «قل هو الله أحد». ﴿ وَلَا أُشْرِكُ

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد. وهذه النسبة إلى مسيلة (كسفينة) بلدة بالمغرب.
(٢) آية ٩٧ سورة الأنبياء.

بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الاخر كان مشركا بالله تعالى يعبد غيره . ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يُسْلُب صاحب الدنيا دنياه قَدَر عليه، وهو الذى آتانى الفقر . ويحتمل أنه أراد بجحودك البعث مصيرُه إلى أن الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى، ومَن عجّزه سبحانه وتعالى شبّهه بخلقه؛ فهو إشراك .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ أى بالقلب، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر وردّ عليه، إذ قال « مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَدًا » و « ما » فى موضع رفع، تقديره : هذه الجنة هى ماشاء الله . وقال الزجاج والفراء : الأمر ما شاء الله، أو هو ما شاء الله؛ أى الأمر مشيئة الله تعالى . وقيل : الجواب مضمر، أى ماشاء الله كان ، ومالا يشاء لايكون . ﴿ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ أى ماأجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لابقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع .

الثانيـــة — قال أشهب قال مالك : ينبغى لكل من دخل منزله أن يقول هـذا . وقال ابن وهب قال لى حفص بن مَيْسرة : رأيت على باب وهب بن منبِّه مكتوبا « ما شاء الله لاقوة إلا بالله » . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى هريرة : "ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة — أو قال كنز من كنوز الجنة " قلت : بلى يارسول الله، قال "لاحول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدى واستسلم" أخرجه مسلم

فى صحيحه من حديث أبى موسى . وفيه : فقال " ياأبا موسى أو ياعبد الله بن قيس ألا أدُلُّك على كلمة من كنز الجنة — فى رواية على كنز من كنوز الجنة — " قلت : ما هى يارسول الله، قال : "لاحول ولا قوة إلا بالله". وعنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة" قلت : بلى ؛ فقال "لا حول ولا قوة إلابالله العلىّ العظيم". وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال: بٱسم الله ماشاءالله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات . وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الله قال المَلَك هُديت ، و إذا قال ما شاء الله قال المَلَك كُفيت ، و إذا قال لا قوة إلا بالله قال المَلَك وُقيت . خرجه الترمذىّ من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من قال — يعنى إذا خرج من بيته — باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كُفيت ووُقيت وتنحّى عنه الشيطان " هـذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . خرجه أبو داود أيضا وزاد فيه — فقال له : " هُديت وكُفيت ووُقيت". وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال . "إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملَكان موكَّلان به فإذا قال باسم الله قالا هُديت و إذا قال لاحول ولا قوة إلا بالله قالا وُقيت و إذا قال توكّلت على الله قالا كفيت قال فيلقاه قَريناه فيقولان ماذاتريدان من رجل قد هُدِىَ ووُقِى وكُفِى". وقال الحاكم أبو عبد الله فى علوم الحديث : سئل محمـد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " تحاجّت الجنة والنار فقالت هذه — يعنى الجنة — يدخلنى الضعفاء " مَن الضعيف ؟ قال : الذى يبرئ نفسه من الحول والقوة يعنى فى اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة . وقال أنس بن مالك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئا فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين " . وقد قال قوم : ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شىء إلا رَضِىَ به . وروى أن من قال أربعا أَمِنَ من أربع : من قال هـذه أَمِن من العين ، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمن من كيد الشيطان ، ومن قال وأفوض أمرى إلى الله أمن من مكر الناس ، ومن قال لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين أمن من الغم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَـلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ « إنْ » شرط « تَرَنِ » مجزوم به ، والجواب « فعسى رَبِّى » و « أنا » فاصـلة لا موضع لها من الإعراب . ويجوز أن تكون فى موضع نصب توكيدا للنون والياء . وقرأ عيسى بن عمر « إن ترنِ أنا أقل منك » بالرفع ؛ يجعل « أنا » مبتدأ و «أقل» خبره، والجملة فى موضع المفعول الثانى، والمفعول الأول النون والياء؛ إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها، و إثباتها جيّد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة . و﴿ فعسى ﴾ بمعنى لعل ، أى فلعلّ ربى . ﴿ أَنْ يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ أى فى الآخرة . وقيل فى الدنيا . ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أى على جنتك . ﴿ حُسْبَانًا ﴾ أى مرامى من السماء، واحدها حُسْبانة؛ قاله الأخفش والقُتَبِى وأبو عبيدة . وقال ابن الأعرابى : والحسبانة السحابة ، والحسبانة الوِسادة ، والحسبانة الصّاعقة . وقال الجوهرى : والحسبان (بالضم) : العـذاب . وقال أبو زياد الكلابى : أصاب الأرض حسبان أى جراد . والحسبان أيضا الحساب، قال الله تعالى : « الشَّمسُ والقمرُ بحُسْبانٍ »[(١)] . وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا . قال الزجاج : الحسبان من الحساب؛ أى يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما اكتسبت يداك ؛ فهو من باب حذف المضاف . والحسبان أيضا: سهام قصار يرمى بها فى طَلْق واحد، وكان من رَمْى الأكاسرة . والمرامى من السماء عذاب . ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ يعنى أرضا بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قـدم ، وهى أضَرّ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض؛ و « زلقا » تأكيد لوصف الصعيد؛ أى تزلّ عنهـا الأقدام لملاستها . يقال : مكان زَلَق (بالتحريك) أى دَحْض ، وهو فى الأصل مصدر قولك : زلِقت رجله تَزْلَق زَلَقا ، وأزلقها غيره . والزلق أيضا عجز الدابة . قال رُؤْبة :

* كأنها حَقْباءُ بَلْقاء الزَّلَق *

والمَزْلَقة والمَزْلَقة : الموضع الذى لايثبت عليه قدم. وكذلك الزَّلّاقة . والزَّلْق الحَلْق، زَلَق رأسه يَزْلِقُــه زَلْقا حلقه ؛ قاله الجوهرى . والزَّلَق المحلوق ، كالنَّقْض والنَّقَض . وليس المراد

(١) آية ٥ سورة الرحمن .

أنها تصير مزلقة ، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلق لا يبقى عليه شعر ؛ قاله القشيري . ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً ﴾ أي غائرا ذاهبا ، فتكون أعدمَ أرض للماء بعد أن كانت أوجدَ أرض للماء . والغَوْر مصدر وضع موضع الاسم ؛ كما يقال : رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ و رِضًا وفَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نَوحٌ ؛ و يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع . قال عمرو بن كُلثوم :

تَظَلّ جياده نَوْحا عليه * مقلَّدة أعنّتها صُفُونا

آخر :

هَرِيق من دموعهما سجاما * ضُباع وجاوبى نوحا قياما

أى نائحات . وقيل : أو يصبح ماؤها ذا غَوْر ؛ فحذف المضاف ؛ مثلُ « وَاسْأَلِ القَرْيَةَ » ذكره النحاس . وقال الكسائى : ماءٌ غَوْرٌ . وقد غار الماء يَغُور غَوْرا وغُؤُورا ، أى سفَل فى الأرض ، و يجوز الهمز لانضمام الواو . وغارت عينه تَغُور غَوْرا وغُؤُورا ؛ دخلت فى الرأس . وغارت تَغار لغة فيه . وقال :

* أغارتْ عينُه أم لم تَغَارَا *

وغارت الشمس تغور غِيارا ، أى غربت . قال أبو ذُؤيب :

هل الدهر إلّا ليلة ونهارُها * وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها

﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ أى لن تستطيع ردّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة . وقيل : فلن تستطيع طلب غيره بدلا منه . و إلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه و إنذاره .

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ اسم ما لم يسم فاعله مضمر، وهو المصدر . ويجوز أن يكون المخفوض فى موضع رفع . ومعنى « أُحيط بثمره » أى أهلِك مالُه كله . وهذا أوّل ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أى فأصبح الكافر يضرب إحدى

يديه على الأخرى ندما؛ لأن هذا يصدر من النادم . وقيل : يقلِّب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يعبَّر عنه باليد، من قولهم : فى يده مال ، أى فى ملكه مال . ودلّ قوله « فأصبح » على أن هـذا الإهلاك جرى بالليل ؛ كقوله « فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وهم نائمون . فأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيم »(١) ويقال : أنفقتُ فى هذه الدار كذا وأنفقت عليها . ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أى خالية قد سقط بعضها على بعض ؛ مأخوذ من خَوَت النجوم تخوى خَيًّا أمحلَتْ ، وذلك إذا سقطت ولم تُمْطر فى نَوْئها . وأخْوَت مثله . وخَوَت الدار خَواء أقْوت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : « فتلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا »(٢) ويقال ساقطة ؛ كما يقال فهى خاوية على عروشها أى ساقطة على سقوفها ؛ فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل، وهذا من أعظم الجوائح، مقابلةً على بَغْيه . ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أى يا ليتنى عرفت نعم الله علىّ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به . وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم .

قوله تعالى : وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ « فِئَةٌ » اسم «تكن» و «له» الخبر . « يَنْصُرُونه » فى موضع الصفة ، أى فئة ناصرة . ويجوز أن يكون « ينصرونه » الخبر . والوجه الأول عند سيبويه أوْلى لأنه قد تقدّم «له» . وأبو العباس يخالفه ، ويحتج بقول الله عز وجل « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . وقد أجاز سيبويه الآخَر . و « ينصرونه » على معنى فئة؛ لأن معناها أقوام، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره؛ أى فرقة وجماعة يلتجئ إليهم . ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ أى ممتنعا ؛ قاله قتادة . وقيل : مستردًّا بدل ما ذهب منه . وقد تقدم اشتقاق الفئة فى «آل عمران»(٣) . والهاء عوض من الياء التى نقصت

---

(١) آية ١٩ سورة ن . (٢) آية ٥٢ سورة النمل . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٤

من وسطه، أصله فِيءٌ مثلُ فِيعٍ؛ لأنه من فاء، ويجمع على فِئون وفِئات، مثل شِيَات ولِدَات ومئات . أى لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضلّ عنه مَن افتخر بهم من الخدم والولد .

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلّٰهِ الْحَقِّ ﴾ اختلف فى العامل فى قوله « هنالك » وهو ظرف ؛ فقيل : العامل فيه « ولم تكن له فئة » ولا كان هنالك ؛ أى ما نُصر ولا انتصر هنالك ، أى لما أصابه من العذاب . وقيل : تم الكلام عند قوله « منتصرا » . والعامل فى قوله « هنالك » : « الولاية » ، وتقديره على التقديم والتأخير : الولاية لله الحقّ هنالك ، أى فى القيامة . وقرأ أبو عمرو والكسائى « الحقُّ » بالرفع نعتا للولاية . وقرأ أهل المدينة وحمزة « الحقِّ » بالخفض نعتا لله عز وجل، والتقدير : لله ذى الحق . قال الزجاج : ويجوز « الحقَّ » بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول : هذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « الوِلاية » بكسر الواو ، الباقون بفتحها ، وهما بمعنًى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة . وقيل : الوَلاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله « اللهُ وَلِيُّ الذين آمنوا »(1) . « ذَلك بِأنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمنوا »(2) . وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله « والأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ »(3) أى له الملك والحكم يومئذ، أى لا يُرَدّ أمره إلى أحد؛ والملك فى كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتّوهّمات يوم القيامة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق . ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أى الله خير ثوابا فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وليس ثَمّ غير يُرْجَى منه، ولكنه أراد فى ظن الجهال؛ أى هو خير مَن يُرجى . ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى « عُقْبا » ساكنة القاف، الباقون بضمها، وهما بمعنًى واحد؛ أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به . يقال : هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعُقْبُه، أى آخره .

---

(1) آية ٢٥٧ سورة البقرة .		(2) آية ١١ سورة محمد .		(3) آخر سورة الانفطار .

قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مَثَلَ الحياة الدنيا، أى شبهها . ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ ﴾ أى بالماء . ﴿ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ حتى استوى . وقيل : إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط و يكثر بالمطر . وقد تقدّم هذا المعنى فى « يونس »(١) مبيَّناً . وقالت الحكماء : إنما شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لايستقر فى موضع، كذلك الدنيا لاتبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لايقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعا مُنْبِتًا ، و إذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفع وفضولها يضرّ . وفى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يارسول الله، إنى أريد أن أكون من الفائزين ؛ قال : " ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفى والكثير منها يُطغى " . وفى صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا وقنعه الله بما آتاه ".
﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ أى النبات ﴿ هَشِيماً ﴾ أى متكسّرا من اليُبس متفتّتا، يعنى بانقطاع الماء عنه، لحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه . والهَشْم : كسر الشيء اليابس . والهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلانٌ إلا هشيمةُ كَرْمٍ؛ إذا كان سَمْحا . ورجل هَشِيمٌ : ضعيف البدن . وتهشّم عليه فلان إذا تعطّف . واهتشم

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٦

ما فى ضرع الناقة إذا احتلبه . ويقال : هَشَمَ الثَّرِيدَ؛ ومنه سُمِّىَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

عَمْرُو العُلَا هَشَمَ الثريدَ لقومه * ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عِجافُ

وكان سبب ذلك أن قريشا أصابتهم سِنونَ ذهبْن بالأموال فخرج هاشم إلى الشأم فأمر بخبز كثير فخبز له ، فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة ، وهشم ذلك الخبز، يعنى كسره وثرده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطُّهاة فطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحِباء بعد السنة التى أصابتهم؛ فسمِّىَ بذلك هاشما . ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ أى تفرقه؛ قاله أبو عبيدة . ابن قتيبة : تنسفه . ابن كَيْسان : تذهب به وتجىء . ابن عباس : تديره؛ والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « تذريه الريح » . قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله «تُذريه» . يقال : ذَرَتْه الريح تَذْرُوه ذَرْوًا و [تَذرِيه] ذَرْيا وأذرته تُذْرِيه إذْراء إذا طارت به . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أى قلبته . وأنشد سيبويه والفراء :

فقلت له صَوِّبْ ولا تَجهَدَنَّهُ * فَيُذْرِكَ(1) من أُخرَى القَطاةِ فتَزْلَقِ

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء، سبحانه !

قوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ويجوز « زينتا » وهو خبر الابتداء فى التثنية والإفراد . وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن فى المال جمالا ونفعا، وفى البنين قوة ودفعا ، فصارا زينة الحياة الدنيا ، لكن معه قرينة الصفة للمال

(1) فى كتاب سيبويه : « فيدنك » وهى رواية أخرى فى البيت . وقد نسبه سيبويه إلى عمرو بن عمار الطائى . ومعنى صوب : خذ القصد فى السير وارفق بالفرس ولا تجهد . وأخرى القطاة : آخرها ؛ والقطاة : مقعد الردف . (أى مؤخر الظهر حيث يكون ردف الراكب) . يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له . (راجع الشنتمرى على كتاب سيبويه) .

والبنين ؛ لأن المعنى : المـال والبنون زينـة هذه الحياة المحتقرة فلا تُتبعوها نفوسكم . وهو رَدٌّ على عُيينـة بن حِصْن وأمثاله لمـا افتخروا بالغنى والشرف ، فأخبر تعـالى أن ما كان من زينـة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، كالهشيم حين ذرته الريح ؛ إنمـا يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة . وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المـال لأنه فَيْءٌ ذاهب ، ولا مع النساء لأنهـا اليوم معـك وغدًا مع غيرك ، ولا مع السـلطان لأنه اليوم لك وغدًا لغـيرك . ويكفى فى هذا قول الله تعالى : « إِنَّمَـا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [(١)] » . وقال تعالى : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [(٢)] » .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ أى ما يأتى به سَلْمان وصُهيب وفقراء المسـلمين من الطاعات ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أى أفضل ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أى أفضل أملا من ذى المـال والبنين دون عمل صالح ، وليس فى زينة الدنيا خير ، ولكنه خرج مخرج قوله « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا [(٣)] » . وقيل : خير فى التحقيق مما يظنّه الجهال أنه خير فى ظنّهم .

واختلف العلماء فى « الباقيات الصالحات » ؛ فقال ابن عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة وعمرو ابن شُرَحْبِيل : هى الصلوات الخمس . وعن ابن عباس أيضا : أنها كل عمل صالح من قول أوفعل يبقى للآخرة . وقاله ابن زيد ورجّحه الطبرى . وهو الصحيح إن شاء الله ؛ لأن كل ما بقى ثوابه جاز أن يقال له هذا . وقال علىّ رضى الله عنه : الحرث حرثان فحرث الدنيا المـال والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات ، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام . وقال الجمهور : هى الكلمات المأثور فضـلها : سبحانَ الله والحمـد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . خرّجه مالك فى موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيِّب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . أسنده النَّسائىّ عن أبى سعيد الخُـدْرِىّ أن رسول الله

---

(١) آية ١٥ سورة التغابن . (٢) آية ١٤ سورة التغابن . (٣) آية ٢٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليه وسلم قال : "استكثروا من الباقيات الصالحات" قيل : وما هي يارسول الله؟ قال : " التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله" . صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله. وروى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصْناً فخرطه حتى سقط ورقه وقال : " إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتّت خطاياه كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك و بينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات". ذكره الثعلبي، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها " . وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال: " إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة". قال: هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعا من أنس، إلا أنه قد رآه ونظر إليه. وخرج الترمذي أيضا عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَقِيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بي فقال يامحمد أقرئْ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التُّربة عذبة الماء وأنها قِيعان وأن غِراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" قال : حديث حسن غريب، خرّجه الماوردي بمعناه ، وفيه — فقلت : وما غراس الجنة؟ قال : "لا حول ولا قوة إلا بالله". وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يَغْرِس غَرْسا فقال : " يا أبا هريرة ما الذي تغرس" قلت غِراسا . قال "ألا أُدُلّك على غِراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة" . وقد قيل : إن الباقيات الصالحات هي النيات والهِمّات؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع؛ قاله الحسن . وقال عُبيد ابن عُمير : هن البنات؛ يدل عليه أوائل الآية؛ قال الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا» ثم قال «والباقيات الصالحات» يعني البنات الصالحات هنّ عند الله لآبائهن خير ثوابا ،

وخير أملا فى الآخرة لمن أحسن إليهن. يدل عليه ما روته عائشة رضى الله عنها قالت: دخلتْ علىّ امرأة مسكينة ... الحديث، وقد ذكرناه فى سورة النحل فى قوله «يَتَوارَى مِنَ الْقَوْمِ» الآية(١). وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لقد رأيت رجلا من أمتى أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن ربِّ إنه كان يحسن إلينا فى الدنيا فرحمه الله بهن". وقال قتادة فى قوله تعالى: « فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً » قال: أبدلها منه ابنة فتزوجها نبيّ فولدت له اثنى عشر غلاما كلهم أنبياء.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال. قال النحاس: وهذا غلط من أجل الواو. وقيل: المعنى واذكر يوم نسيّر الجبال، أى نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض، ونسيرها كما نسير السحاب؛ كما قال فى آية أخرى « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ». ثم تكسر فتعود إلى الأرض؛ كما قال « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ». وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر « ويوم تُسَيَّرُ » بتاء مضمومة وفتح الياء. و «الجبالُ» رفعا على الفعل المجهول. وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد «ويوم تَسير الجبال» بفتح التاء مخففا من سار. «الجبال» رفعا. دليل قراءة أبى عمرو « وإذا الجبال سُيِّرت ». ودليل قراءة ابن محيصن « وتَسير الجبال سَيْرا ». واختار أبو عبيد القراءة الأولى « نسيّر » بالنون لقوله «وحشرناهم». ومعنى ﴿ بَارِزَةً ﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أى قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بنيانها؛ فهى بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهل التفسير. وقيل: « وترى الأرض بارزة » أى برز ما فيها من الكنوز والأموات؛ كما قال « وألقتْ ما فيها

---

(١) راجع ص ١١٧ من هذا الجزء.

وتخلت » وقال « وأخرجت الأرض أثقالها »[2] وهذا قول عطاء . ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أى إلى الموقف . ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى لم نترك؛ يقال : غادرت كذا أى تركته . قال عنترة :

غادرته متعفرا أوصاله * والقوم بين مجرح ومجدل

أى تركته . والمغادرة الترك؛ ومنه الغَدْر؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما سمى الغدير من الماء غديرا لأن الماء ذهب وتركه . ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول : حشرنا برّهم وفاجرهم وجنّهم وإنسهم .

قوله تعالى : وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ « صفا » نصب على الحال . قال مقاتل : يعرضون صفا بعد صف كالصفوف فى الصلاة، كل أمة وزمرة صفا؛ لا أنهم صف واحد. وقيل جميعا؛ كقوله « ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا »[3] أى جميعا . وقيل قياما . وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْدَه فى كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أَحْضِروا حجتكم ويسّروا جوابا فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " .

قلت : هذا الحديث غاية فى البيان فى تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه فى كتاب التذكرة، ومنه نقلناه والحمد لله .

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى يقال لهم : لقد جئتمونا حُفاةً عُراةً، لا مالَ معكم ولا ولدا . وقيل فرادَى؛ دليله قوله « ولقد جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم أوّلَ مرةٍ »[4] . وقد تقدم . وقال الزجاج : أى بعثناكم كما خلقناكم . ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ هذا خطاب لمنكرى

(١) آية ٤ سورة الانشقاق .　(٢) آية ٢ سورة الزلزلة .　(٣) آية ٦٤ سورة طه .

(٤) آية ٩٤ سورة الأنعام . راجع ج ٧ ص ٤٢ طبعة أولى أو ثانية .

البعث، أى زعمتم فى الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث . وفى صحيح مسلم عن عائشـة رضى الله عنها قالت : سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : "يُحشر الناس يوم القيـامة حُفاةً عُراة غُرْلًا" قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال : "يا عائشة ، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض" . « غُرْلًا » أى غير مختونين . وقد تقدم فى « الأنعام »(١) بيانه .

قوله تعـالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَوُضِـعَ الْكِتَابُ ﴾ « الكتاب » اسم جنس، وفيه وجهان : أحدهما — أنها كتب الأعمال فى أيدى العباد؛ قاله مُقاتل . الثـانى — أنه وضْـع الحساب؛ قاله الكلْبِىّ ، فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأول أظهر؛ ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم — شكّ نُعيم — عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسد قال قال عمر لكَعْب : وَيْحك يا كعب ! حدِّثنا من حديث الآخرة؛ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله — قال — ثم يؤتى بالصحف التى فيهـا أعمال العباد فتنثر حول العرش، وذلك قولُه تعالى « ووُضع الكتاب فترى المجرمين مُشْفِقين ممـا فيه و يقولون يا وَيْلَتَنا ما لهـذا الكتابِ لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها — قال الأسدى : الصغيرة ما دون الشرك ، والكبيرة الشرك، إلا أحصاها — قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيـه فإذا حسناته باديات للنـاس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقـول كانت لى حسنات فلم تذكر فأحبّ الله أن يُريه عمله كلّه حتى إذا استنقص ما فى الكتاب وجد فى آخر

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٤٢

ذلك كلّه أنه مغفور وأنك من أهل الجنة ؛ فعند ذلك يُقبِـل إلى أصحـابه ثم يقول « هَاۤؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (١) » ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يُلَفّ فيجعل من وراء ظهره ويُلْوَى عنقه؛ فذلك قولُهُ « وأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (٢) » فينظر فى كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر فى حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات . وكان الفُضيل بن عِياض إذا قرأ هـذه الآية يقول : ياويلتاه ! ضجُّوا إلى الله تعـالى من الصغائر قبـل الكبائر . قال ابن عباس : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ؛ يعنى ما كان من ذلك فى معصية الله عز وجل؛ ذكره الثعلبي . وحكى المـاوَرْدِىّ عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك .

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن فى معصية، فإن الضحك من المعصية رِضًا بها والرضا بالمعصية معصية ، وعلى هذا تكون كبيرة، فيكون وجه الجمع هـذا والله أعلم . أو يُحمَل الضحك فيما ذكر المـاوردىّ على التبسم ، وقد قال تعالى : «فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا» . وقال سعيد بن جبير : إن الصغائر اللَّمَمُ كالمَسِيس والقُبَل ، والكبيرة المواقعة والزِّنى . وقـد مضى فى « النساء (٣) » بيان هذا . قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء، وما اشتكى أحد ظلما، فإياكم ومحقَّرات الذنوب فإنهـا تجتمع على صاحبها حتى تهلكه . وقد مضى . ومعنى « أحصاها » عدّها وأحاط بها؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسُّعًا . ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أى وجدوا إحصاء ما عمـلوا حاضرا . وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا . ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أى لا يأخذ أحدا بجُـرْم أحد، ولا يأخذه بمـا لم يعمله ؛ قاله الضحاك . وقيـل : لا ينقص طائعا من ثوابه ولا يزيد عاصيا فى عقابه .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَـا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

(١) آية ١٩ سورة الحاقة . (٢) آية ١٠ سورة الانشقاق . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٨

قوله تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ تقــدم فى « البقرة » هذا مستوفى(١). قال أبو جعفر النحاس : وفى هــذه الآية سؤال، يقال : ما معنى « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ففى هذا قولان : أحدهما ــ وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أُمِر فعَصَى، فكان سببَ الفســق أمْرُ ربه ؛ كما تقول : أطعمته عن جوع . والقول الآخر ــ وهو مذهب محمد بن قُطْرب أن المعنى : ففسق عن ردّ أمر ربه . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ وقّف عز وجل الكفرة على جهــة التوبيخ بقــوله أفتتخذونه يا بنى آدم وذريّتــه أولياء وهم لكم عدوّ؛ أى أعداء، فهو اسم جنس . ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ أى بئس عبادة الشــيطان بدلا عن عبــادة الله . أو بئس إبليس بدلا عن الله . واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ؛ فقال الشعبيّ : سألنى رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت : إن ذلك عُرْس لم أشهده، ثم ذكرت قوله «أفتتخذونه وذريته أولياء» فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم . وقال مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه فى فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته . وقيل : إن الله تعالى خلق له فى فخــذه اليمنى ذكرا وفى اليسرى فرجا؛ فهو ينكح هــذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة ، فهو يَخْرج وهو يطير ، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم فى بنى آدم فتنة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية، وذرّيته أعوانه من الشياطين. قال القشيرى أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعا وذرّية، وأنهــم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم ، ولا يثبت عندنا كيفية فى كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقّف الأمر فيه على نقل صحيح .

قلت : الذى ثبت فى هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبى بكر البَرْقانِى أنه خرج فى كتابه مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .

أوّلَ من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ" . وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله أعلم . قال ابن عطية : وقوله «وذريّته» ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر و يحملون على الباطل . وذكر الطبرى وغيره أن مجاهدا قال : ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدّهم : زَلَنْبُور صاحبُ الأسواق، يضع رايته فى كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أوّل من يفتح وآخر من يغلق. وثبر صاحب المصائب، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب، والدعاءِ بالويل والحرب . والأعور صاحب أبواب الزنى . ومسوط صاحب الأخبار، يأتى بها فيلقيها فى أفواه الناس فلا يجدون لها أصلا . وداسم الذى إذا دخل الرجل بيته فلم يسلّم ولم يذكر آسم الله بصّره من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسَن موضعه، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه . قال الأعمش : وإنى ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلّم، فرأيت مطهرة فقلت : ارفعوا هذه! وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول : داسم داسم! أعوذ بالله منه! زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد : والأبيض، وهو الذى يوسوس للأنبياء . وصخر وهو الذى اختلس خاتم سليمان عليه السلام. والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها . والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها . ومُرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكْنَى . والهفاف يكون بالصحارى يُضلّ الناس و يتيههم . ومنهم الغيلان . وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفى فى كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن الهفاف هو صاحب الشراب، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان . قال وقال الدّارانيّ : إن لإبليس شيطانا يقال له المتقاضى، يتقاضى آبن آدم فيخبر بعمل كان عمله فى السرّ منذ عشرين سنة، فيحدّث به فى العلانية . قال آبن عطية : وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح، وقد طوّل النقاش فى هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمر بى فى هذا صحيح إلا ما فى كتاب مسلم من أن للصلاة شيطانا يسمى خُنْزَب . وذكر الترمذى أن للوضوء شيطانا يسمى الولهان .

قلت : أما ما ذُكر من التعيين فى الأسم فصحيح؛ وأما أن له أتباعا وأعوانا وجنودا فمقطوع به، وقد ذكرنا الحديث الصحيح فى أن له أولادا من صلبه، كما قال مجاهد وغيره .

وفى صحيح مسـلم عن عبـد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى القوم فيحدّثهم بالحديث من الكذب فيتفرّقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما ٱسمه يحدّث . وفى مسند البزّار عن سلمان الفارسى قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن استطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " . وفى مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبـد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ عن أبى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلّق زوجته، قال : يوشك أن يتزوّج . ويقول آخر : لم أزل بفلان حتى عقّ؛ قال : يوشك أن يبرّ . قال ويقول القائل : لم أزل بفلان حتى شرب؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال : أنت أنت ! وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس يضع عرشه على المـاء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنـة يجىء أحدهم فيقول فعلتُ كذا وكذا فيقول ما صنعتَ شيئا قال ثم يجىء أحدهم فيقول ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه وبين أهله قال فيُدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت " . وقد تقدّم . وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطى بثغر الإسكندرية يقول : إن شـيطانا يقال له البيضاوى يتمثـل للفقراء المواصلين فى الصيـام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنّون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا .

تم الجزء العاشر من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعـالى الجزء الحادى عشر، وأوّله قوله تعـالى :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض »

إصلاح خطأ

ج	ص	س	خطأ	صواب
١	٣٦٧	٢	لا تنهى	لا تنه
٣	٥٩	١	وكانهن رِبايةٍ	وكأنهن رِبابة
٣	٩٨	١٢	أوس بن حُجْر	أوس بن حَجَر
٣	٢٨٩	١٧	دير هِرَقْل	دير هِزْقِل
٣	٣٠٧	١٠	أُكْسُ بنَاتِيَ	أُكْسُ بُنَيَّاتِي
٣	٣٠٧	١٥	يوم نكون	يوم تكون
٤	٦٠	١٣	مع الباء	مع اليـاء
٤	١٢٨	١٣	فلن يُقَبَـلُ	فلن يُقْبَـلَ
٥	١٨٩	١٦	أو ما ملكت	وما ملكت
٦	٣٦٣	٢٠	ج ٢ ص ٤٤	ج ٢ ص ٢٤
٦	٤٠١	١٥	فاذا رأوا المشركين	فإذا رأى المشركون
٧	١	١٢	جمع مَفْتَح	جمع مِفْتَح
٧	٢	١٣	وأنه سبب المـاَء	وأنه سبب المـاءِ
٧	١٧٣	١١	فلا نرضـاك	أفلا نرضـاك
٨	م	٢٥	٣٥٢	٢٥٢
٨	٢٥٥	٣	أو بَيعــة	أو بِيعــة
١٠	٢٣١	١٧	فى حكم لدنيـا	فى حكم الدنيـا
١٠	٢٢١	٧	فـلم يَبْرَد	فـلم يَبْرُد
١٠	٢٢١	٨	أصدقونى	أُصْدُقونى

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء المطبعية فى الأجزاء المـاضية أثبتناها هنا للفائدة .

أحمد عبد العليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى

بدار الكتب المصرية

نسخة تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتى

د/ نصر أحمد محمد بدوى . العريش . مصر

كَمُلَ طبع الجزء العاشر من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبي "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٩
(٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٠) م
محمد نديم

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الحادي عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الحادي عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م

فهرس الجزء الحادى عشر

تفسير سورة الكهف

صفحة

تفسير سورة مريم

تفسير سورة طه عليه السلام

صفحة

تفسير سورة الأنبياء

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل : الضمير عائد على إبليس وذريته؛ أي لم أشاورهم في خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، بل خلقتهم على ما أردت . وقيل : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض «ولا خلق أنفسهم» أي أنفس المشركين فكيف اتخذوهم أولياء من دوني؟ . وقيل : الكناية في قوله : « مَا أَشْهَدْتُهُمْ » ترجع إلى المشركين، و إلى الناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجّمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من ينخرط في هذه الأشياء . وقال ابن عطية : وسمعت أبي رضي الله عنه يقول سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهديّ بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقليّ يقول هذا القول، ويتأول هذا التأويل في هذه الآية، وأنها رادة على هذه الطوائف، وذكر هذا بعض الأصوليين . قال ابن عطية وأقول : إن الغرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته؛ وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن؛ حين يقولون : أعوذ بعزيز هذا الوادي؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بالمضلّين؛ وتندرج هذه الطوائف في معناهم . قال الثعلبي : وقال بعض أهل العلم «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ردّ على المنجّمين أن قالوا : إنّ الأفلاك تُحدث في الأرض وفي بعضها في بعض، وقوله : «والأرض» ردّ على أصحاب الهندسة حيث قالوا :

إن الأرض كرية والأفلاك تجرى تحتها، والناس ملصقون عليها وتحتها، وقوله : « ولا خلق أنفسهم » ردّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هى الفاعلة فى النفوس . وقرأ أبو جعفر « ما أشهدناهم » بالنون والألف على التعظيم . الباقون بالتاء بدليل قوله : «وما كنت متخذ» يعنى ما ٱستعنتهم على خلق السموات والأرض ولا شاورتهم . ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ ﴾ يعنى الشياطين . وقيل : الكفار . ﴿ عَضُدًا ﴾ أى أعوانا . يقال : ٱعتضدتُ بفلان إذا ٱستعنتَ به وتقويتَ . والأصل فيه عضد اليد، ثم يوضع موضع العون؛ لأن اليد قوامها العضد . يقال: عَضَده وعَاضَدَه على كذا إذا أعانه وأعزّه . ومنه قوله : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنعينك بأخيك . ولفظ العضد على جهة المثل، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد . وخصّ المضلّين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ . وقرأ أبو جعفر الجَحْدَرىّ «وَمَا كُنْتَ» بفتح التاء؛ أى وما كنت يا محمد متخذ المضلّين عضدا . وفى عضد ثمانية أوجه : «عَضُدًا» بفتح العين وضم الضاد وهى قراءة الجمهور، وهى أفصحها . و «عَضْدًا» بفتح العين وإسكان الضاد، وهى لغة بنى تميم . و « عُضُدًا » بضم العين والضاد ، وهى قراءة أبى عمرو والحسن . و «عُضْدًا» بضم العين وإسكان الضاد، وهى قراءة عكرمة . و «عِضَدًا» بكسر العين وفتح الضاد، وهى قراءة الضحاك . و «عَضَدًا» بفتح العين والضاد وهى قراءة عيسى بن عمر . وحكى هرون القارئ « عِضِدًا » . واللغة الثامنة «عِضْدا» على لغة من قال: كِتْف وفِخْذ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى ٱذكروا يوم يقول الله : أين شركائى ؟ أى ٱدعوا الذين أشركتموهم بى فليمنعوكم من عذابى . وإنما يقول ذلك لعبدة الأوثان . وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر « نقول » بنون . الباقون بالياء؛ لقوله : « شركائى » ولم يقل : شركائنا . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى فعلوا ذلك . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى لم يجيبوهم إلى نصرهم، ولم يكفّوا عنهم شيئا . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ قال أنس ابن مالك : هو وادٍ فى جهنم من قيح ودم . وقال ابن عباس : أى وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزا . وقيل : بين الأوثان وعبدتها، نحو قوله : « فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » .

قال ابن الأعرابي : كل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق . وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى : « مَوْبِقا » قال وادٍ في جهنم يقال له مَوْبِق . وكذلك قال نَوْف البِكَالِيّ إلا أنه قال : يحجز بينهم وبين المؤمنين . عكرمة : هو نهر في جهنم يسيل نارا ، على حافتيه حيات مثل البغال الدهم ، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم آستغاثوا منها بالآقتحام في النار . وروى زيد بن درهم[1] عن أنس بن مالك قال : « مَوْبقا » وادٍ من قيح ودم في جهنم . وقال عطاء والضحاك : مَهْلِكا في جهنم ؛ ومنه يقال : أوبقته ذنوبه إيباقا . وقال أبو عبيدة : موعدا للهلاك . الجوهري : وَبَق يَبِق وبوقا هَلَك ، والمَوْبِق مثل الموعد مَفعِل من وعد يعد ، ومنه قوله تعالى : « وجعلنا بينهم موبقا » . وفيه لغة أخرى : وَبِق يَوْبَق وَبَقًا . وفيه لغة ثالثة : وَبِق يَبِق بالكسر فيهما ، وأوبقه أي أهلكه . وقال زهير :

ومن يشترى حُسنَ الثَّناء بماله * يَصُنْ عِرضَه من كلّ شَنْعاءَ مُوبِقِ

قال الفرّاء : جعل تواصلهم في الدنيا مَهلِكا لهم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ « رأى » أصله رَأَيَ ؛ قلبت الياء ألفا لآنفتاحها وآنفتاح ما قبلها ؛ ولهذا زعم الكوفيون أن « رأى » يكتب بالياء ، وتابعهم على هذا القول بعض البصريين . فأما البصريون الحذّاق ، منهم محمد بن يزيد فإنهم يكتبونه بالألف . قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : لا يجوز أن يكتب مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالألف ، ولا فرق بين ذوات الياء وبين [ذوات][2] الواو في الخط ، كما أنه لا فرق بينهما في اللفظ ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب أن يكتب ذوات الواو بالواو ، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رمى بالياء ورماه بالألف ، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماه بالياء ، ثم يكتبون ضُحًا جمع ضَحْوة ، وكُسًا جمع كِسوة ، وهما من ذوات الواو بالياء ، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل .

﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا ﴾ « فظنّوا » هنا بمعنى اليقين والعلم ، كما قال[3] :

* فقلتُ لهم ظُنُّوا بألفَي مُدَجَّج *

---

(١) في الأصل يزيد وهو تحريف ؛ والتصويب عن « التهذيب » . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

(٣) هو دريد بن الصمة ؛ وتمام البيت : * سراتهم في الفارسي المسرد *

أى أيقنوا؛ وقد تقدّم[1] . قال ٱبن عباس : أيقنوا أنهم مواقعوها . وقيل : رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها ، وظنوا أنها تأخذهم فى الحال . وفى الخبر : "إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة" . والمواقعة ملابسة الشيء بشدّة . [وعن علقمة أنه قرأ][2] « فَظَنُّوا أَنَّهُم مُلَافُوهَا » أى مجتمعون فيها ، واللّفف الجمع . ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى مهربا لإحاطتها بهم من كل جانب . وقال القتبي : معدلا ينصرفون إليه . وقيل : ملجأ يلجئون إليه ؛ والمعنى واحد . وقيل : ولم تجد الأصنام مصرفا للنار عن المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الزيادة من تفسير «البحر المحيط» .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية . الثاني — ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في «سبحان»[1] ؛ فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أي جدالا ومجادلة ، والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن . وقيل : الآية في أبيّ بن خلف . وقال الزجاج : أي الكافر أكثر شيء جدلا ؛ والدليل على أنه أراد الكافر قوله : « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ » . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك فيقول رب آمنتُ بك وصدّقت برسلك وعملتُ بكتابك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك فيقول يارب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول ولا أقبلهم يارب وكيف أقبلهم ولا هم من عندي ولا من جهتي فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ أمّ الكتاب قد شهد بذلك فقال يارب ألم تُجِرني من الظلم قال بلى فقال يارب لا أقبل إلا شاهدا عليّ من نفسي فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من ذا الذي يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيدخل النار وإنّ بعضه ليلعن بعضا يقول لأعضائه لعنكنّ الله فعنكنّ كنتُ أناضل فتقول أعضاؤه لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يُكْتَم حديثا فذلك قوله تعالى « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضا . وفي صحيح مسلم عن عليّ أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة فقال : "ألا تصلّون" فقلت : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك ، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول : «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا» .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي سنتنا في إهلاكهم ؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أى ما منعهم عن الإيمان إلا حكمى عليهم بذلك ؛ ولو حكمت عليهم بالإيمان آمنوا . وسنة الأولين عادة الأولين فى عذاب الاستئصال . وقيل : المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين فحذف . وسنة الأولين معاينة العذاب ، فطلب المشركون ذلك ، وقالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلًا ﴾(١) نصب على الحال ، ومعناه عِيانا ؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبيّ : هو السيف يوم بَدْر . وقال مقاتل : فجأة . وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمزة ويحيى والكسائى « قُبُلًا » بضمتين أرادوا به أصناف العذاب كلّه ؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسُبُل . النحاس : ومذهب الفراء أن « قُبُلا » جمع قَبِيل أى متفرّقا يتلو بعضه بعضا . ويجوز عنده أن يكون المعنى عِيانا . وقال الأعرج : وكانت قراءته « قُبُلًا » معناه جميعا . وقال أبو عمرو : وكانت قراءته « قِبَلًا » ومعناه عِيانا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ أى بالجنة لمن آمن . ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أى مخوّفين بالعذاب من كفر . وقد تقدّم . ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ قيل : نزلت فى المقتسمين ، كانوا يجادلون فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما تقدّم(٢) . ومعنى « يدحضوا » يزيلوا ويبطلوا . وأصل الدَّحْض الزَّلَق . يقال : دَحَضتْ رِجلُه أى زَلِقت ، تَدْحَض دَحْضًا ، ودَحَضتِ الشمسُ عن كبد السماء زالت ، ودَحَضت حُجّتُه دُحوضا بَطَلت ، وأدحضها الله . والإدحاض الإزلاق . وفى وصف الصراط : "ويُضرَب الجسرُ على جهنم وتَحِلُّ(٣) الشفاعةُ فيقولون اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ" قيل : يا رسول الله وما الجسر؟ قال : "دَحْضٌ مَزْلَقة" أى تَزلَق فيه القدم . قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فهِبتَه * وحِدْتَ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ

---

(١) هذه قراءة « نافع » التى كان يقرأ بها المفسر رحمه الله تعالى .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) تحل : تقع و يؤذن فيها ، وهو (بكسر الحاء) وقيل : (بضمها) . النووى .

﴿ وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي ﴾ يعني القرآن ﴿ وَمَا أُنْذِرُوا ﴾ من الوعيد ﴿ هُزُوًا ﴾ . و «ما» بمعنى المصدر أى والإنذار . وقيل : بمعنى الذى ؛ أى اتخذوا القرآن والذى أنذروا به من الوعيد هزوا أى لعبا وباطلا ؛ وقد تقدّم فى « البقرة »(١) بيانه . وقيل : هو قول أبى جهل فى الزُّبد والتمّر هـذا هو الزقّوم . وقيل : هو قولهم فى القرآن هو سحر وأضغاث أحلام وأساطير الأوّلين ، وقالوا للرسول : « هَلْ هَـذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ، « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » و « مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه، فتهاون بها وأعرض عن قبولها . ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها؛ فالنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : المعنى نسى ما قدّم لنفسه وحصّل من العذاب؛ والمعنى متقارب . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ بسبب كفرهم؛ أى نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم . ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ أى إلى الإيمان ﴿ فَلَنْ يَهْتَـدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ نزل فى قوم معينين ، وهو ردّ على القدرية قولهم؛ وقد تقدّم معنى هذه الآية فى «سبحان»(٢) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَـةِ ﴾ أى للذنوب . وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة بدليل قوله : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » . « ذو الرحمة » فيه أربع تأويلات : أحدها — ذو العفو . الثانى — ذو الثواب؛ وهو على هذين الوجهين مختص بأهل الإيمان دون الكفر . الثالث — ذو النعمة . الرابع — ذو الهدى؛ وهو على هذين الوجهين يعم أهل الإيمان والكفر، لأنه ينعم فى الدنيا على الكافر كإنعامه على المؤمن . وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للؤمن وإن اهتدى به المؤمن دون الكافر . ومعنى قوله : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى من الكفر والمعاصى ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ ولكنه يمهل . ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ أى أجل مقدّر يؤخرون إليه . نظيره « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » ، « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ »

---

(١) راجع ج ٣ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى إذا حلّ لم يتأخر عنهم إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . ﴿ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ أى ملجأ؛ قاله ابن عباس وابن زيد، وحكاه الجوهرىّ فى الصحاح . وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلًا وَوُءُولًا على فُعول أى لجأ، وواءل منه على فاعل أى طلب النجاة . وقال مجاهد : مَحْرِزا . قتادة : وليًّا . وأبو عبيدة : مَنْجًى . وقيل : مَحيصا؛ والمعنى واحد . والعرب تقول : لا وَأَلَتْ نفسُه أى لا نجت؛ ومنه قول الشاعر :

لا وَأَلَتْ نفسُك خَلَّيْتَها * للعامِرِيَّيْنِ ولم تُكْلَمِ

وقال الأعشى :

وقد أُخالِسُ ربَّ البيتِ غَفْلَتَهُ * وقد يُحاذِرُ منّى ثم ما يَئِلُ

أى ما ينجو .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ « تلك » فى موضع رفع بالابتداء . «القرى» نعت أو بدل . و « أهلكناهم » فى موضع الخبر محمول على المعنى؛ لأن المعنى أهل القرى . ويجوز أن تكون « تلك » فى موضع نصب على [قول][(1)] من قال : زيدا ضربته؛ أى وتلك القرى التى قصصنا عليك نبأهم، نحو قُرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا وكفروا . ﴿ وَجَعَلْنَا لِمُهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾[(2)] أى وقتا معلوما لم تَعْدُه . و «مُهْلَك» من أُهلِكوا . وقرأ عاصم « مَهْلَكِهم » بفتح الميم واللام وهو مصدر هَلَكَ . وأجاز الكسائى والفراء «لِمَهْلِكِهم» بكسر اللام وفتح الميم . النحاس : [قال الكسائى][(3)] وهو أحبّ إلىّ لأنه من هلك . الزجاج : اسم للزمان والتقدير : لوقت مَهْلِكهم، كما يقال : أتت الناقة على مَضْرِبِها[(4)] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (٦٠)

---

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٢) هذه قراءة الجمهور كما فى البحر وغيره .

(٣) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٤) ضرب الجمل الناقة يضربها إذا نزا عليها؛ وأتت الناقة على مضربها : أى على الزمن والوقت الذى ضربها الفحل فيه؛ جعلوا الزمان كالمكان .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ﴾ الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقة منها نَوْف البِكَالىّ : إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى ابن عمران. وقد ردّ هذا القول ابن عباس في صحيح البخارى وغيره. وفتاه : هو يوشع بن نون. وقد مضى ذكره في « المائدة »(١) وآخر « يوسف »(٢) . ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى يوشع بن نون . « لَا أَبْرَحُ » أي لا أزال أسير؛ قال الشاعر(٣) :

وأَبرحُ ما أدامَ اللهُ قومي * بحمد الله مُنْتَطِقًا مُجِيدًا

وقيل : « لَا أَبْرَحُ » لا أفارقك . ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي ملتقاهما . قال قتادة : وهو بحر فارس والروم؛ وقاله مجاهد . قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أَذْرَبيجان، فالركن الذى لاجتماع البحرين مما يلى برّ الشام هو مجمع البحرين على هذا القول . وقيل : هما بحر الأُرْدُنّ وبحر القُلْزُم . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة؛ قاله محمد بن كعب . وروى عن أبيّ بن كعب أنه بأفريقية . وقال السدى : الكُرّ والرَّسّ(٤) بأرمينية . وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط؛ حكاه النقاش؛ وهذا مما يذكر كثيرا . وقالت فرقة : إنما هما موسى والخضر؛ وهذا قول ضعيف؛ وحكى عن ابن عباس، ولا يصح؛ فإن الأمر بيّن من الأحاديث أنه إنما وُسِم له بحر ماء . وسبب هذه القصة ما خرجه الصحيحان عن أبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن موسى عليه السلام قام خطيبا

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) هو خداش بن زهير، يقول : لا أزال أجنب فرسى جوادا، ويقال : إنه أراد قولا يستجاد في الثناء على قومى . وفي (اللسان) : « على الأعداء » بدل « بحمد الله » .

(٤) الكر والرس : نهران .

فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتَب الله عليه إذ لم يرّد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مِكْتَل فحيثما فَقَدتَ الحُوت فهو ثَمّ" وذكر الحديث، واللفظ للبخارى . وقال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكّرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكّرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوّهم، واستخلفهم فى الأرض، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليما، واصطفاه لنفسه، وألقى علىّ محبة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، فجعلكم أفضل أهل الأرض، ورزقكم العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والتوراة بعد أن كنتم جهالا؛ فقال له رجل من بنى إسرائيل : عَرَفنا الذى تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يانبى الله ؟ قال : لا؛ فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث الله جبريل : أن ياموسى وما يدريك أين [أضع](١) علمى ؟ بلى ! إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك؛ وذكر الحديث . قال علماؤنا : قوله فى الحديث "هو أعلم منك" أى بأحكام وقائع مفصَّلة، وحُكم نوازل معينة، لا مطلقا، بدليل قول الخضر لموسى : إنك على علم علّمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علّمنيه لا تعلمه أنت، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه : إنه أعلم منك؛ فعزم فسأل سؤال الذليل بكيف السبيل، فأمر بالارتحال على كل حال . وقيل له احمل معك حوتا مالحا فى مِكْتَل — وهو الزنبيل — فحيث يحيا وتفقده فثَمّ السبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهدا طلبا قائلا : «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين» . ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً ﴾ بضم الحاء والقاف وهو الدهر، والجمع أحقاب . وقد تسكن قافه فيقال : حُقْب . وهو ثمانون سنة . ويقال : أكثر من ذلك . والجمع حِقاب . والحِقْبة بكسر الحاء واحدة الحِقَب وهى السنون .

(١) الزيادة من كتب التفسير .

الثانيــة — فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعــدت أقطارهم، وذلك كان فى دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعى الناجح، فرسخت لهم فى العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضــل أفضل الأقسام . قال البخارى : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث .

الثالثــة — قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » للعلماء فيه ثلاثة أقوال : أحدها — أنه كان معه يخدمه، والفتى فى كلام العرب الشاب، ولمـا كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا قيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : " لا يقل أحدكم عبــدى ولا أمتى وليقل فتاىَ وفتاتى " فهذا ندبٌ إلى التواضع؛ وقد تقدم هــذا فى « يوسف »(١) . والفتى فى الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم ابن يوسف عليه السلام . ويقال : هو ابن أخت موسى عليه السلام . وقيل : إنمـا سمى فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حرا؛ وهذا معنى الأول . وقيل : إنما سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد، قال الله تعالى : « وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَـلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ » وقال : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ » قال ابن العربى : فظاهر القرآن يقتضى أنه عبــد ، وفى الحديث : أنه كان يوشع بن نون . وفى « التفسير» أنه ابن أخته، وهذا كله مما لا يُقطع به، والتوقف فيه أسلم .

الرابعــة — قوله تعــالى : « أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا » قال عبد الله بن عمر : والحُقب ثمانون سنة . مجاهد : سبعون خريفا . قتادة : زمان . النحاس : الذى يعرفه أهل اللغة أن الحُقب والحقبة زمان من الدهر مبهــم غير محدود؛ كما أن رهطا وقوما مبهم غير محــدود : وجمعه أحقــاب .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ الضمير فى قوله : « بينهما » للبحرين؛ قاله مجاهد . والسَّرب المسلك؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : جَمَد الماء فصار كالسَّرب . وجمهور المفسرين أن الحوت بقى موضع سلوكه فارغا، وأن موسى مشى عليه متبعا للحوت، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة فى البحر، وفيها وجد الخضر . وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر فى ضفة البحر . وقوله : « نسيا حوتهما » وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقيل : المعنى؛ نسى أن يُعلِم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان إليهما للصحبة، كقوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج من الملح، وقوله : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » وإنما الرسل من الإنس لا من الجن . وفى البخارى؛ فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت، قال : ما كلِّفتَ كثيرا؛ فذلك قوله عز وجل : « وإذ قال موسى لفتاه » يوشع بن نون — ليست عن سعيد[(١)] — قال فبينما هو فى ظل صخرة فى مكانٍ ثَرْيَانَ[(٢)] إذ تَضَرَّبَ[(٣)] الحوتُ وموسى نائم

(١) أى قال ابن جريج — هو أحد رواة الحديث — ليست تسمية الفتى عن سعيد بن جبير . (قسطلانى) .

(٢) ثريان : يقال مكان ثريان وأرض ثريا إذا كان فى ترابهما بلل وندى . (٣) تضرب : اضطرب وتحرك إذ حيى فى المكتل .

فقال فتاه : لا أوقظه ؛ حتى إذا آستيقظ نسي أن يخبره ، وتضرّب الحوتُ حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنه جِرْيَةَ البحرِ حتى كأنّ أثرَه في حَجَر ؛ قال لي عمرو (١) : هكذا كأنّ أثره في حَجَر وحَلَّق بين إبهاميه واللتين تَلِيانِهما . وفي رواية : وأمسك الله عن الحوت جِرْيَة الماءِ فصار مثل الطاق (٢) ، فلما آستيقظ نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : « آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً » ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذي أمر الله به ، فقال له فتاه : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » . وقيل : إن النسيان كان منهما لقوله تعالى : « نسيا » فنسب النسيان إليهما ؛ وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى لأنه الذي أمر به ، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا ؛ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ يعني الحوت هناك منسيا — أي متروكا — فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة ، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة ، فقد كان موسى شريكا في النسيان ؛ لأن النسيان التأخير ، من ذلك قولهم في الدعاء : أنسأ الله في أجلك . فلما مضيا من الصخرة أخّرا حوتهما عن حمله فلم يحمله واحد منهما ، فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت .

قوله تعالى : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ فيه مسئلة واحدة ، وهو آتخاذ الزاد في الأسفار ، وهو ردٌّ على الصوفية الجهلة الأغمار (٣) ، الذين يقتحمون المهامه والقفار ، زعما منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار ؛ هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد آتخذ الزاد مع معرفته بربه ، وتوكله على رب العباد . وفي صحيح البخاري : إن ناسا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوّدون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى « وتزودوا » . وقد مضى هذا في « البقرة » (٤) . واختلف في زاد موسى ما كان ؛ فقال ابن عباس : كان حوتا مملوحا في زنبيل ، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء ، فلما آنتهيا إلى

---

(١) أي قال ابن جريج قال لي عمرو ... الخ .　(٢) الطاق : عقد البناء .　(٣) الأغمار جمع غمر (بالضم) : وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور .　(٤) راجع جـ ٢ ص ٤١١ وما بعدها طبعة ثانية .

الصخرة على ساحل البحر، وضع فتاه المكتل، فأصاب الحوت جرى البحر فتحرك الحوت فى المكتل، فقلب المكتل وانسرب الحوت، ونسى الفتى أن يذكر قصة الحوت لموسى. وقيل: إنما كان الحوت دليلا على موضع الخضر لقوله فى الحديث: احمل معك حوتا فى مكتل فحيث فقدت الحوت فهو ثَمَّ، على هذا فيكون تزوّدا شيئا آخر غير الحوت، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس وآختاره. وقال آبن عطية: قال أبى رضى الله عنه، سمعت أبا الفضل الجوهرى يقول فى وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقى أربعين يوما لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بَشَر لحقه الجوع فى بعض يوم. وقوله: « نَصَباً » أى تعبا، والنصب التعب والمشقة. وقيل: عنى به هنا الجوع، وفى هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح فى الرضا، ولا فى التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط. وفى قوله: « وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أن مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير فى «أنسانيه» وهو بدل الظاهر من المضمر، أى وما أنسانى ذكره إلا الشيطان؛ وفى مصحف عبد الله «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وهذا إنما ذكره يوشع فى معرض الآعتذار لقول موسى: لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت؛ فقال: ما كَلَّفتَ كثيرا؛ فاعتذر بذلك القول.

قوله تعالى: ﴿ وَآتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى؛ أى آتخذ الحوت سبيله عجبا للناس. ويحتمل أن يكون قوله: « وآتخذ سبيله فى البحر » تمام الخبر، ثم آستأنف التعجيب فقال من نفسه: « عجبا » لهذا الأمر. وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقّه الأيسر ثم حَيِىَ بعد ذلك. قال أبو شجاع فى كتاب «الطبرى»: رأيته — أتيت به — فإذا هو شقّ حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شىء. قال ابن عطية: وأنا رأيته والشقّ الذى ليس فيه شىء عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة. ويحتمل أن يكون قوله: « وَآتَّخَذَ سَبِيلَهُ » إخبارا من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يخبر عن موسى أنه آتخذ سبيل الحوت من البحر عجبا، أى تعجب منه. وإمّا أن يخبر

عن الحوت أنه آتخذ سبيله عجبا للناس . ومن غريب ما روى فى البخارىّ عن ابن عباس من قصص هذه الاية : أن الحوت إنما حيي لأنه مسّه ماء عين هناك تدعى عين الحياة، ما مست قط شيئا إلا حَيِي . وفى « التفسير » : إن العلامة كانت أن يحيا الحوت؛ فقيل : لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على صخرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شيء من ذلك الماء فحيي . وقال الترمذى فى حديثه قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة، ولا يصيب ماؤها شيئا إلا عاش . قال : وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش . وذكر صاحب كتاب « العروس » أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحيي؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾(1) أى قال موسى لفتاه أمرُ الحوت وفقدُه هو الذى كنا نطلب ، فإن الرجل الذى جئنا له ثَمَّ ؛ فرجعا يقصّان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما . وفى البخارى : فوجدا خضرا على طِنْفِسة خضراء على كَبِد البحر مُسَجًّى بثوبه ، قد جعل طَرَفَه تحت رجليه ، وطَرَفه تحت رأسه ، فسلّم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام؟ ! من أنت؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال جئتُ لتعلّمنى مما علّمت رشدا ؛ الحديث . وقال الثعلبىّ فى كتاب «العرائس» : إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طِنْفِسة خضراء على وجه الماء وهو مُتَّشِح بثوب أخضر فسلّم عليه موسى ، فكشف عن وجهه فقال : وأنَّى بأرضنا السلام؟ ! ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال : وعليك السلام يا نبيّ بنى إسرائيل ، فقال له موسى : وما أدراك بى ؟ ومن أخبرك أنّى نبىّ بنى إسرائيل ؟ قال : الذى أدراك بى ودَلَّك علىّ؛(2) ثم قال : ياموسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل ، قال موسى : إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدّثان ، فجاءت خُطّافة وحملت بمنقارها من الماء ؛ وذكر الحديث على ما يأتى .

---

(1) فى الأصل : « نبغى » بالياء وهى قراءة «نافع» . (2) الذى فى كتاب « العرائس » للثعلبى : «فقال أنا موسى ، فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم ؛ قال : ياموسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل ... الخ» ولعل ما هنا زيادة فى بعض النسخ .

قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ العبد هو الخضر عليه السلام فى قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة . وخالف من لا يعتد بقوله، فقال : ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر . وحكى أيضا هذا القول القشيرى" ، قال : وقال قوم هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر؛ بذلك ورد الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى ٱخضر ما حوله . وروى الترمذى" عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سُمّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء " هذا حديث صحيح غريب . الفروة هنا وجه الأرض؛ قاله الخطّابى وغيره . والخضر نبى" عند الجمهور . وقيل : هو عبد صالح غير نبى" ، والآية تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى . وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يَتّبع إلا من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبى" من ليس بنبى" . وقيل : كان ملَكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن . والأول الصحيح؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ الرحمة فى هذه الآية النبوة . وقيل : النعمة . ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ أى علم الغيب . ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطنَ قد أوحيت إليه، لا تُعطى ظواهرُ الأحكام أفعالَه بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم .

قوله تعالى : قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ » هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخفّ عليك؟ وهذا كما فى الحديث: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ وعلى بعض التأويلات يجىء كذلك قوله تعالى : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » حسب ما تقدم بيانه فى « المائدة »(١) .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضّله الله؛ فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه، لأنه نبيّ والنبي أفضل من الوليّ، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة . والله أعلم . « ورشدا » مفعول ثان بـ«علمنى» . ﴿قال﴾ الخضر : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أى إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى؛ لأن الظواهر التى هى علمك لا تُعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب؛ وهو معنى قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ والأنبياء لا يُقِرّون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير . أى لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحُكمك . وانتصب « خُبْرًا » على التمييز المنقول عن الفاعل . وقيل : على المصدر الملاقى فى المعنى، لأن قوله : « لَمْ تُحِطْ » معناه لم تَخبُره، فكأنه قال : لم تَخبره خُبرا؛ وإليه أشار مجاهد . والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ أى سأصبر بمشيئة الله . ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أى قد ألزمت نفسى طاعتك . وقد اختلف فى الاستثناء، هل هو يشمل قوله : «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» أم لا؟ فقيل: يشمله كقوله : « والذاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ » . وقيل : استثنى فى الصّبر فصبَر، وما استثنى فى قوله : « وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » فاعترض

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٦٥ طبعة أولى أو ثانية .

وسأل . قال علماؤنا : إنما كان ذلك منه ؛ لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدرى كيف يكون حاله فيه، ونفيُ المعصية معزوم عليه حاصل فى الحال، فالاستثناء فيه ينافى العزم عليه . ويمكن أن يفرق بينهما بأن الصبر ليس مكتسبا لنا بخلاف فعل المعصية وتركه، فإن ذلك كله مكتسب لنا؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى حتى أكون أنا الذى أفسره لك ، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض، فتعين الفراق والإعراض.

قوله تعالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — فى صحيح مسلم والبخارى : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْل ، فلما ركبا فى السفينة لم يَفْجأ [موسى](١) إلا والخضر قد قلع منها لوحا من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نَوْل عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وكانت الأولى من موسى نِسيانا" قال : وجاء عصفور فوقع على حَرْف السفينة فنقر نَقْرة فى البحر ، فقال له الخضر : ما عِلمى وعِلمك من علم الله إلا مثل ما نَقص هذا العصفورُ من هذا البحر . قال علماؤنا : حَرْف السفينة طرفها وحَرْف كل شيء طرفه، [ومنه حَرْفُ(٢) الجبل] وهو أعلاه المحدّد . والعِلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال :

(١) الزيادة من البخارى . (٢) الزيادة من كتب اللغة .

« وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ » أى من معلوماته ، وهـذا من الخضر تمثيل ؛ أى معلوماتى ومعلوماتك لا أثر لها فى علم الله ، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر ، وإنمـا مثّل له ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده ممـا بين أيدينا ، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوّز قصد به التمثيل والتفهيم ، إذ لا نقص فى علم الله ، ولا نهاية لمعلوماته . وقد أوضح هـذا المعنى البخارى فقال : والله ما علمى وما علمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر . وفى « التفسير » عن أبى العالية : لم ير الخضرَ حين خرق السفينة غيرُ موسى وكان عبدا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه ، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة . وقيـل : خرج أهـل السفينة إلى جزيرة ، وتخلف الخضر فخرق السفينة . وقال ابن عباس : لمـا خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية ، وقال فى نفسه : ما كنت أصنع بمصاحبة هـذا الرجل ! كنت فى بنى إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشيّة فيطيعونى ! قال له الخضر : يا موسى أتريد أن أخبرك بمـا حدّثتَ به نفسك ؟ قال : نعم . قال : كذا وكذا . قال : صدقت ؛ ذكره الثعلبى فى كتاب « العرائس » .

الثانيـــة — فى خرق السفينة دليل على أن للولىّ أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحا ، مثل أن يخاف على رَيْعه ظالمـا فيخرّب بعضَه . وقال أبو يوسف : يجوز للولىّ أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض . وقرأ حمـزة والكسائى « لِيَغْرَقَ » باليـاء « أَهْلُهَا » بالرفع فاعل يغرَق ، فاللام على قراءة الجماعة فى « لِتغرِق » لام المآل مثل « لِيَكُونَ لَهُـمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . وعلى قراءة حمزة لام كى ، ولم يقل لتغرقنى ؛ لأن الذى غلب عليـه فى الحـال فرط الشفقة عليهم ، ومراعاة حقهم . و « إِمْرًا » معناه عجبا ؛ قاله القتبىّ . وقيـل : منكرا ؛ قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : الإمر الداهية العظيمة ؛ وأنشد :

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنِّى نُكْرَا * داهِيـــةً دَهْيَاءَ إدًّا إِمْرَا

وقال الأخفش : يقال أَمِرَ أَمْرُهُ يَأْمَر [أَمْرًا](١) إذا اشتدّ ، والاسم الإمْر .

---

(١) الزيادة من كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ فى معناه قولان : أحدهما — يروى عن ابن عباس، قال : هـذا من معاريض الكلام . والآخر — أنه نسى فاعتذر؛ ففيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضى المؤاخذة، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره؛ وقد تقدّم . ولو نسى فى الثانية لاعتذر .

قوله تعالى : فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ فى البخارى قال يعلى قال سعيد : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما كافرا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، « قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ » لم تعمل بالحنث(١) . وفى الصحيحين وصحيح الترمذى : ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، قال له موسى : «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » قال(٢) : وهذه أشد من الأولى . « قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » . لفظ البخارى . وفى « التفسير » : إن الخضر مرّ بغلمان يلعبون فأخذ بيده غلاما ليس فيهم أضوأ منه ، وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دمغه ، فقتله . قال أبو العالية : لم يره إلا موسى، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام .

(١) لأنها لم تبلغ الحلم ، وهو تفسير لقوله : « زكية » أى أقتلت نفسا زكية لم تعمل الحنث بغير نفس . ولأبى ذرّ : لم تعمل الخبث (بخاء معجمة وموحدة مفتوحتين) . قسطلانى . (٢) هو سفيان بن عيينة ، كما فى القسطلانى . وقيل : كانت هذه أشد من الأولى لما فيها من زيادة « لك » .

قلت : ولا ٱختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة، فإنه يحتمل أن يكون دَمَغه أوّلا بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم ٱقتلع رأسه؛ والله أعلم بمـا كان من ذلك؛ وحسبك بما جاء في الصحيح . وقرأ الجمهور « زَاكِيَةً » بالألف . وقرأ الكوفيون وٱبن عامر « زَكِيَّةً » بغير ألف وتشديد اليـاء؛ قيل : المعنى واحد؛ قاله الكسائي . وقال ثعلب : الزكية أبلغ . قال أبو عمرو : الزاكية التي لم تذنب قط، والزكية التي أذنبت ثم تابت .

قوله تعالى : « غلاما » ٱختلف العلماء في الغلام هل كان بالغا أم لا ؟ فقال الكلبي : كان بالغا يقطع الطريق بين قريتين، وأبوه من عظماء أهل إحدى القريتين، وأمه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضر فصرعه، ونزع رأسه عن جسده . قال الكلبي : وٱسم الغلام شمعون . وقال الضحاك : حيْسون . وقال وهب : ٱسم أبيه سلاس وٱسم أمه رُحْمَى . وحكى السهيلي أن اسم أبيه كازير وٱسم أمه سهوى . وقال الجمهور : لم يكن بالغا؛ ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب . وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام؛ فإن الغلام في الرجال يقال على من لم يبلغ، وتقابله الجارية في النساء . وكان الخضر قتله لِمـا علم من سِرّه، وأنه طُبع كافرا كما في صحيح الحديث، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفرا . وقتلُ الصغير غير مستحيل إذا أذن الله في ذلك؛ فإن الله تعالى الفعّال لمـا يريد، القادر على مايشاء . وفي كتاب « العرائس » إن موسى لمـا قال للخضر : « أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً » — الآية — غضب الخضر وٱقتلع كتف الصبي الأيسر، وقشر اللحم عنـه، وإذا في عظم كتفه مكتوب : كافر لا يؤمن بالله أبدا . وقد ٱحتج أهـل القول الأوّل بأن العرب تبقي على الشاب ٱسم الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية (١) :

شَفَاهَا من الدَّاءِ العُضَالِ الذِي بِها　*　غُـلام إذا هَزَّ القَنـاةَ سَـقَاهَا

وقال صفوان لحسان (٢) :

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّـيفِ عَـنِّي فإنَّنِي　*　غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بشاعِرِ

(١) البيت من قصيدة مدحت بها الحجاج بن يوسف؛ وقبله :

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة　*　تتبـع أقصى دائهـا فشفاها

(٢) قد كان حسان رضي الله عنه قال شعرا يعرض فيه بصفوان بن المعطل وبمن أسلم من العرب من مضر، فاعترضه ٱبن المعطل وضربه بالسيف وقال البيت . (راجع القصة في سيرة ابن هشام) .

وفى الخبر : إن هـذا الغلام كان يفسد فى الأرض، ويقسم لأبويه أنه ما فعل، فيقسمان على قسمه، ويحميانه ممن يطلبه ، قالوا وقوله : « بِغَيْرِ نَفْسٍ » يقتضى أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كبَر الغلام، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس، وإنما جاز قتله لأنه كان بالغا عاصيا . قال ابن عباس : كان شابا يقطع الطريق . وذهب ٱبن جبير إلى أنه بلغ سنّ التكليف لقراءة أبىّ وٱبن عباس « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » والكفر والإيمان من صفات المكلَّفين، ولا يطلق على غير مكلَّف إلا بحكم التبعية لأبويه ، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه ٱسم الكافر إلا بالبلوغ ، فتعين أن يصار إليه . والغلام من الاْغتلام وهو شدة الشَّبَق .

قوله تعالى : ﴿ نُكْرًا ﴾ ٱختلف الناس أيهما أبلغ « إمرا » أو قوله « نكرا » فقالت فرقة : هذا قتلٌ بيّن، وهناك مُترقَّب؛ فـ « نكرا » أبلغ . وقالت فرقة : هذا قتلُ واحدٍ وذاك قتلُ جماعة فـ « إمرا » أبلغ . قال ٱبن عطية : وعندى أنهما لمعنيين وقوله : « إِمْرًا » أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم ، و « نُكْرًا » بيّن فى الفساد لأن مكروهه قد وقع ؛ وهذا بيّن . قوله : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ شرط وهو لازم، والمسلمون عند شروطهم ، وأحقّ الشروط أن يُوفَّى به ما التزمه الأنبياء ، والتزم للأنبياء . وقوله : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ يدل على قيام الاْعتذار بالمرة الواحدة مطلقا ، وقيامِ الحجة من المرة الثانية بالقطع ؛ قاله ٱبن العربى . ٱبن عطية : ويشبه أن تكون هـذه القصة أيضا أصلا للآجال فى الأحكام التى هى ثلاثة، وأيام المتلوّم ثلاثة؛ فتأمله .

قوله تعالى : « فَلَا تُصَاحِبْنِي » كذا قرأ الجمهور؛ أى تتابعنى . وقرأ الأعرج « تَصَحَبَنِّي » بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقرئ « تَصْحَبْنِي » أى تتبعنى . وقرأ يعقوب « تُصْحِبْنِي » بضم التاء وكسر الحاء؛ ورواها سهل عن أبى عمرو؛ قال الكسائى : معناه فلا تتركنى أصحبك . « قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » أى بلغت مبلغا تُعذر به فى ترك مصاحبتى . وقرأ الجمهور : « مِنْ لَدُنِّي » بضم الدال ، إلا أن نافعا وعاصما خفّفا النون، فهى « لدن » ٱتصلت بها ياء

المتكلم التي في غلامي وفرسي ، وكُسر ما قبل اليـاء كما كُسر في هـذه . وقرأ أبو بكر عن عاصم « لَدْنِي » بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون . وروى عن عاصم « لُدْنِي » بضم اللام وسكون الدال ؛ قال ابن مجاهد : وهي غلط ؛ قال أبو علي : هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية ، فأما على قياس العربيـة فهي صحيحة . وقرأ الجمهور « عُذْرًا » . وقرأ عيسى « عُذُرا » بضم الذال . وحكى الداني (١) أن أبيًّا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « عُذْرِي » بكسر الراء وياء بعدها .

مســـئلة — أسند الطبريّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه، فقال يوما : " رحمـة الله علينا وعلى موسى لو صَبَر على صاحبه لرأى العجب ولكنه قال « فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » " . والذي في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحمـة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عَجِّل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذَمامة ولو صـَبَر لرأى العجب " قال : وكان إذا ذَكَر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه : رحمة الله علينا وعلى أخي كذا . وفي البخاري عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " يرحم الله موسى لوددْنا أنه صـَبر حتى يقص علينا من أمرهما " . الذَّمامة بالذال المعجمة المفتوحة ، وهو بمعنى المَذَمَّة بفتح الذال وكسرها ، وهي الرقة والعار من تلك الحرمة : يقال أخذتني منك مَذَمَّة ومَذِمَّة وذَمامة . وكأنه آستحيا من تكرار مخالفته ، ومما صدر عنه من تغليظ الإنكار .

قوله تعـالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

(١) في بعض النسخ : « وحكى الداراني » .

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ فى صحيح مسلم عن أبىّ بن كعب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : لئاما؛ فطافا فى المجالس فـ ﴿ ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ يقول : مائل قال : ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ الخضر بيده قال له موسى : قوم أتيناهم فلم يضيّفونا، ولم يطعمونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَٱتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله موسى لوَدِدْتُ أنه كان صَبَرَ حتى يقصّ علينا من أخبارهما" .

الثانيـــة — واختلف العلماء فى القرية؛ فقيل : هى أُبُلَّة؛ قاله قتادة، وكذلك قال محمد ابن سيرين، وهى أبخل قرية وأبعدها من السماء . وقيـل : أَنْطاكية . وقيل : بجزيرة الأندلس؛ روى ذلك عن أبى هريرة وغيره ، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء . وقالت فرقة : هى بَاجَرْوان وهى بناحية أَذْرَبيجان . وحكى السهيلىّ وقال : إنها برقة . الثعلبى : هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة، وإليها تنسب النصارى؛ وهذا كله بحسب الخلاف فى أى ناحية من الأرض كانت قصة موسى . والله أعلم بحقيقة ذلك .

الثالثـــة — كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتى شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتا بل سقى ٱبتداء ، وفى القـرية سألا القوت ؛ وفى ذلك للعلماء انفصالات كثيرة؛ منها أن موسى كان فى حديث مَدْين منفردا وفى قصة الخضر تبعا لغيره .

قلت : وعلى هـذا المعنى يتمشى قوله فى أوّل الآية لفتاه « آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » فأصابه الجوع مراعاة لصاحبه يوشع ؛ والله أعلم .

وقيـل : لمـا كان هـذا سفر تأديب وُكِل إلى تكلّف المشقة، وكان ذلك سـفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت .

الرابعـــة — فى هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يردّ جوعه خلافا لجهال المتصوفة . والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة،

بدليل قوله : « فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا » فآستحق أهل القرية لذلك أن يُذَمّوا ، وينسبوا إلى اللؤم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام . قال قتادة في هذه الآية : شرّ القُرَى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقّه . ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة ، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة ، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء . وقد تقدّم القول في الضيافة في «هود»[1] والحمد لله . ويعفو الله عن الحريري[2] حيث آستخف في هذه الآية وتَمَجَّن، وأتى بخطل من القول وزلّ ؛ فآستدل بها على الكُدْيَة[3] والإلحاح فيها ، وأن ذلك ليس بمعيب على فاعله، ولا منقصة عليه؛ فقال :

وإنْ رُدِدْتَ فما في الردِّ مَنقصةٌ * عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والخَضِرُ

قلت : وهذا لعب بالدين، وآنسلال عن آحترام النبيين، وهي شِنْشِنَة أدبية، وهفوة سخافية؛ ويرحم الله السلف الصالح، فلقد بالغوا في وصية كل ذي عقل راجح، فقالوا : مهما كنت لاعبا بشيء فإياك أن تلعب بدينك .

الخامسة — قوله تعالى : « جِدَارًا » الجدار والجَدْر بمعنًى؛ وفي الخبر : "حتى يبلغ الماء الجدر"[4] . ومكان جَدِيرٌ بُنِيَ حواليه جدار ، وأصله الرفع . وأجدرت الشجرةُ طلعت؛ ومنه الجدري .

السادسة — قوله تعالى : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ » أي قرب أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره في الحديث بقوله : " مائل " فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهب الجمهور . وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحيّ الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي آستعارة، أي لو كان مكانهما إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير؛ فمن ذلك قول الأعشى :

---

(١) راجع ج ٩ ص ٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو صاحب المقامات المشهورة، والبيت الآتي الذي لمح فيه إلى الآية من مقامته « الصعدية » .

(٣) الكدية : تكفف الناس .

(٤) الحديث في مخاصمة الزبير لرجل من الأنصار في سيول شريج الحرّة فقال صلى الله عليه وسلم : "آسق يا زبير ثم آحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر" أراد ما رفع حول المزرعة كالجدار .

أَتَنْتَهون ولَا يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ (١) * كالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ

فأضاف النهى إلى الطعن . ومن ذلك قول الآخر :

يُرِيدُ الرمحُ صدر أَبِى بَرَاءٍ * ويرغبُ عن دماء بنى عقيل

وقال آخر :

إنَّ دهرا يلُفُّ شَمْلِى بِجُمْلٍ * لَزَمَانٌ يَهُمُّ بالإِحسان

وقال آخر :

فى مهمه فُلِقت به هاماتُها * فَلْقَ الفئوس إذا أردن نُصُولَا

أى ثبوتا فى الأرض ؛ من قولهم : نَصَلَ السيفُ إذا ثبَت فى الرمية ؛ فشبهَّ وقع السيوف على رءوسهم بوقع الفئوس فى الأرض ، فإن الفأس يقع فيها ويثبت لايكاد يخرج . وقال حسان بن ثابت :

لَوَ آنَّ اللُّؤْمَ يُنسبُ كان عَبْدًا * قبيحَ الوجهِ أَعْوَرَ من ثَقِيف

وقال عَنْترَة :

فَآزْوَرَّ من وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ * وشَكَا إلىّ بعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

وقد فسّر (٢) هذا المعنى بقوله :

* لوكان يَدْرِى ما المُحَاوَرةُ آشتكَى *

وهذا فى هذا المعنى كثير جدا . ومنه قول الناس : إن دارى تنظر إلى دار فلان . وفى الحديث : "آشتكت النارُ إلى ربّها" . وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن ، منهم أبو إسحق الإسْفَرايِنى وأبو بكر محمد بن داود الأصبهانى وغيرهما ، فإن كلام الله عز وجل وكلام رسوله حمله على الحقيقة أولى بذى الفضل والدّين ؛ لأنه يقصّ الحق كما أخبر الله تعالى فى كتابه . ومما آحتجوا به أن قالوا : لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه متجوز

---

(١) الشطط : الجور والظلم ؛ يقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن الجائف الذى يغيب فيه الفتل

(٢) أى عنترة ، وتمام البيت :

* ولكانَ لوعَلِم الكلامَ مُكلِّمِى *

أيضا ، فإن العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضى العجز عن الحقيقة ، وهو على الله تعالى محال ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عليهم أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال تعالى : « وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » وقال تعالى : « إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » وقال تعالى : « تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وتَوَلَّى » و "اشتكت النار إلى ربها" "واحتجت النار والجنة" وما كان مثلها حقيقة ، وأن خالقها الذى أنطق كل شىء أنطقها . وفى صحيح مسلم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم " فيُخْتَم على فِيهِ ويقال لفخذه انطق فتنطق فخذُه ولحمه وعظامه بعمله وذلك لِيُعْذِرَ(١) من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يَسخط الله عليه". هذا فى الآخرة . وأما فى الدنيا ؛ ففى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لا تقومُ الساعةُ حتى تكلم السباع الإنسَ وحتى تُكلِّم الرجلَ عذَبَةُ سَوْطِهِ وشراكُ نعله وتُخبره فخذُه بما أَحدثَ أهلهُ من بعده " [قال أبو عيسى](٢) : وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حديث حسن غريب .

السابعة — قوله تعالى : « فَأَقَامَهُ » قيل : هدمه ثم قعد يبنيه ، فقال موسى للخضر : « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرا » لأنه فعلٌ يستحق أجرا . وذكر أبو بكر الأنبارى عن ابن عباس عن أبى بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه » قال أبو بكر : وهذا الحديث إن صح سنده فهو جارٍ من الرسول عليه الصلاة والسلام مجرى التفسير للقرآن ، وأن بعض الناقلين أدخل [تفسير](٣) قرآن فى موضع فسَرى أن ذلك قرآن نَقص من مصحف عثمان ؛ على ما قاله بعض الطاعنين . وقال سعيد بن جبير : مسحه بيده وأقامه فقام ، وهذا القول هو الصحيح ، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل والأولياء . وفى بعض الأخبار : إن سُمْك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعا بذراع ذلك القرن ، وطوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع ، وعرضه خمسون ذراعا ، فأقامه الخضر

---

(١) ليعذر : بالبناء للفاعل من الإعذار ، والمعنى : ليزيل الله عذره من قبل نفسه .

(٢) الزيادة من صحيح الترمذى . (٣) زيادة يقتضيها السياق . وفى الأصل : «أدخل قرآنا ... الخ»

عليه السلام أى سوّاه بيده فٱستقام؛ قاله الثعلبي فى كتاب « العرائس » . فقال موسى للخضر: « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى طعاما تأكله ، ففى هذا دليل على كرامات الأولياء، وكذلك ما وصف من أحوال الخضر عليه السلام فى هذا الباب كلها أمور خارقة للعادة ؛ هذا إذا تنزلنا على أنه ولىّ لا نبىّ .

وقوله تعالى: « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى » يدل على نبوّته وأنه يوحى إليه بالتكليف والأحكام، كما أوحى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير أنه ليس برسول؛ والله أعلم .

الثامنة — واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع فى المشى إذا كان مارا عليه؛ لأن فى حديث النبي عليه الصلاة والسلام " إذا مرّ أحدكم بِطِرْبالٍ مائل فليُسرِع المشى " . قال أبو عبيد القاسم بن سلام: كان أبو عبيدة يقول: الطِّرْبال شبيهٌ بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصّومعة، والبناء المرتفع؛ قال جرير:

أَلْوَى(١) بها شَذْبُ العُرُوقِ مُشَذَّبٌ(٢) * فكأنما وَكَنَتْ على طِرْبالِ

يقال منه : وَكَن يَكِن إذا جلس . وفى الصحاح : الطِّرْبال القطعة العالية من الجدار، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل، وطَرَابيل الشام صوامعها . ويقال : طَرْبل بَوْلَه إذا مدّه إلى فوق .

التاسعة — كرامات الأولياء ثابتة، على مادلت عليه الأخبار الثابتة، والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد، أو الفاسق الحائد؛ فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف، والصيفية فى الشتاء — على ما تقدم — وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهى ليست بنبيّة؛ على الخلاف . ويدل عليها ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار . قال بعض العلماء : ولا يجوز أن يقال كان نبيا؛ لأن إثبات النبوة لا يجوز بأخبار

---

(١) ألوى : ذهب بها حيث أراد .

(٢) شذب العروق : ظاهر العروق لقلة اللحم، من قولهم : رجل مشذب أى خفيف قليل اللحم .

الآحاد، لاسيما وقد روى من طريق التواتر — من غير أن يحتمل تأويلا — بإجماع الأمة قوله عليه الصلاة والسلام: "لانبيّ بعدى" وقال تعالى: «وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» والخضر و[إلياس](١) جميعا باقيان مع هذه الكرامة، فوجب أن يكونا غير نبيين، لأنهما لو كانا نبيين لوجب أن يكون بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ، إلا ما قامت الدلالة فى حديث عيسى أنه ينزل بعده .

قلت : الخضر كان نبيا — على ما تقدم — وليس بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ، أى يدعى النبوّة بعده أبدا؛ والله أعلم .

العاشـــرة — اختلف الناس هل يجوز أن يعلم الولىّ أنه ولىّ أم لا؟ على قولين: أحدهما — أنه لا يجـوز؛ وأن ما يظهـر على يديه يجب أن يلاحظه بعين خوف المكر، لأنه لا يأمن أن يكون مكرا واسـتدراجا له؛ وقد حكى عن السَّرىّ أنه كان يقول : لو أن رجلا دخل بستانا فكلمه من رأس كل شجرة طير بلسان فصيح : السلام عليك يا ولىّ الله؛ فلو لم يخف أن يكون ذلك مكرا لكان ممكورا به؛ ولأنه لو علم أنه ولىّ لزال عنه الخوف، وحصل له الأمن . ومن شرط الولىّ أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا» ولأن الولىّ من كان مختوما له بالسعادة، والعواقب مستورة ولا يدرى أحد ما يختم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " إنما الأعمال بالخواتيم ". القول الثانى — أنه يجوز للولىّ أن يعلم أنه ولىّ؛ ألا ترى أن النبى عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه ولىّ، ولاخلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه ولىّ الله تعالى، فجاز له أن يعلم ذلك. وقد أخبر النبى عليه الصلاة والسلام من حال العَشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، ثم لم يكن فى ذلك زوال خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيما لله سبحانه وتعالى، وأشد خوفا وهيبة؛ فإذا جاز للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخـوف فكذلك غيرهم . وكان الشبلىّ يقول : أنا أَمَانُ هـذا الجانب؛ فلما مات ودُفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم، واستولوا على بغداد، ويقول الناس : مصيبتان موت الشبلىّ وعبـور الديلم . ولا يقال : إنه يحتمل أن يكون ذلك استدراجا لأنه

(١) فى الأصل : «دانيال» وهو تحريف .

لو جاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبيّ وولى الله، لجواز أن يكون ذلك آستدراجا، فلما لم يجز ذلك لأن فيه إبطال المعجزات لم يجز هذا، لأن فيه إبطال الكرامات . وما روى من ظهور الكرامات على يدى بلعام وآنسلاخه عن الدين بعدها لقوله : «فانسلخ منها» فليس فى الآية أنه كان وليا ثم آنسلخت عنه الولاية . وما نقل أنه ظهر على يديه ما يجرى مجرى الكرامات هو أخبار آحاد لا توجب العلم ؛ والله أعلم . والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الآستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار . وقيل : الكرامة ما تظهر من غير دعوى ، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء، فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك . وقد تقدم فى مقدّمة الكتاب شرائط المعجزة ، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له . وأما الأحاديث الواردة فى الدلالة على ثبوت الكرامات ، فمن ذلك ما خرجه البخارى من حديث أبى هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رَهْط سَرِيَّةً عَيْنًا (1) وأَمَّر عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاريّ (2) وهو جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدْأَة وهى بين عُسفان ومكة ذُكِروا لحىٍّ من هُذَيْل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا إليهم قريبا من مائتى راجل كلهم رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا : هذا تمر يثرب ؛ فآقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فَدْفَد (3)، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم : آنزلوا فأعطونا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحدا؛ فقال عاصم بن ثابت أمير السريّة : أما فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة الكافر، اللهم أخبر عنا نبيّك، فرَموا بالنّبل فقتلوا عاصما فى سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، وهم خُبَيْب الأنصاريّ وآبن الدَّثِنة ورجل آخر (4)، فلما آستمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث : هذا أوّل الغدر ! والله لا أصحبكم ؛ إن لى فى هؤلاء لأسوة — يريد القتلى — فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه؛ فآنطلقوا بخُبيب وآبن الدَّثِنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خُبيبا بنو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبيب هو الذى قتل الحرث بن

---

(1) وقيل : أمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى . (2) قال القسطلانى : هذا وهم؛ وإنما هو خال عاصم، لأن أم عاصم جميلة بنت ثابت. (3) فدفد : رابية مشرفة. (4) الرجل الآخر هو عبدالله بن طارق.

عامر يوم بدر ، فلبث خُبيب عندهم أسيرا ؛ فأخبر عبيد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرته أنهم حين آجتمعوا آستعار منها موسى يَسْتحِدُّ بها فأعارته، فأخذ آبنٌ لى وأنا غافلة حتى أتاه، قالت : فوجدته مُجلسَه على فخذه والموسى بيده، ففزعتُ فزعة عرفها خُبيب فى وجهى ؛ فقال : أتخشَيْن أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . قالت : والله ما رأيت أسيرا قطّ خيرا من خُبيب ؛ والله لقد وجدته يوما يأكل قِطْف عنب فى يده ، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمر ؛ وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله تعالى خُبيبا ؛ فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحلّ قال لهم خُبيب : دعونى أركع ركعتين ؛ فتركوه فركع ركعتين ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع من الموت لزدت ؛ ثم قال : اللهمّ أَحْصِهم عددا ، وآقتلهم بَدَدًا ، ولا تُبْق منهم أحدا ؛ ثم قال :

ولست أبالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ✻ على أيِّ شِقٍّ كان لِله مَصْرَعِي

وذلك فى ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ ✻ يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فقتله بنو الحرث ، وكان خُبيب هو الذى سنّ الركعتين لكل آمرئ مسلم قُتل صَبْراً ؛ فآستجاب الله تعالى لعاصم يوم أصيب ؛ فأُخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه خبرهم وما أصيبوا . وبعث ناسٌ من كفار قريش إلى عاصم حين حُدّثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء منه يعرفونه ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ؛ فبعث الله على عاصم مثل الظُّلّة من الدَّبْر(١) فحمته من رُسلهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا . وقال ابن إسحق فى هذه القصة : وقد كانت هذيل حين قتِل عاصم بن ثابت أرادوا رأسه ليبيعوه من سُلَافة بنت سعد بن شُهَيْد ، وقد كانت نذرت حين أصاب آبنيها بأُحُد لئن قَدَرتْ على رأسه لتشربنّ فى قِحْفِه(٢) الخمر فمنعهم الدَّبْر ، فلما حالت بينه وبينهم قالوا : دعوه حتى يُمسى فتذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله تعالى الوادى فاحتمل عاصما فذهب ، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهدا ألّا يمسّ مشركا ولا يمسّه مشركٌ أبدا فى حياته ، فمنعه الله تعالى بعد وفاته مما آمتنع منه فى حياته . وعن عمرو بن أمية الضَّمْرى :

(١) الدبر : الزنابير أو ذكور النحل . (٢) القحف : الجمجمة .

وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعثه عينا وحده فقال : جئت إلى خشبة خُبَيب فرقيت فيها وأنا أتخوف العيون فأطلقته ، فوقع فى الأرض ، ثم آقتحمت فانتبذت قليلا ، ثم ٱلتفت فكأنما ٱبتلعته الأرض . وفى رواية أخرى زيادة : فلم نذكر لخبيب رِمّة حتى الساعة ؛ ذكره البيهقى.

الحادية عشرة — ولا ينكر أن يكون للولىّ مال وضَيْعة يصون بها ماله وعياله ، وحسبك بالصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم ، وهم الحجة على غيرهم . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا فى سحابةٍ ٱسقِ حديقةَ فلان فتنحَّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه فى حَرَّةٍ (١) فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراجِ قد ٱستوعبت ذلك الماء كلَّه فتتبع الماءَ فإذا رجلٌ قائم فى حديقته يُحوِّل الماءَ بمسحاته (٢) فقال يا عبد الله ما ٱسمك قال فلان الاسم الذى سمعه فى السّحابة فقال له يا عبد الله لم سألتنى عن ٱسمى قال إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول ٱسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها قال أمّا إذ قلتَ هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأرد فيها ثلثه " وفى رواية " وأجعل ثلثه فى المساكين والسائلين وٱبن السبيل " .

قلت : وهذا الحديث لا يناقضه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تتخذوا الضَيْعة فتركنوا إلى الدنيا " خرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال فيه حديث حسن ؛ فإنه محمول على من ٱتخذها مستكثرا أو متنعما ومتمتعا بزهرتها ، وأما من ٱتخذها معاشا يصون بها دينه وعياله فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال ، وهى من أفضل الأموال ؛ قال عليه الصلاة والسلام : " نعم المال الصالح للرجل الصالح " . وقد أكثر الناس فى كرامات الأولياء وماذكرناه فيه كفاية ؛ والله الموفق للهداية .

الثانية عشرة — قوله تعالى : « لَٱتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » فيه دليل على صحة جواز الإجارة ، وهى سنة الأنبياء والأولياء على ما يأتى بيانه فى سورة « القصص » (٣) إن شاء الله تعالى . وقرأ الجمهور « لَٱتَّخَذْتَ » وأبو عمرو « لَتَخِذْتَ » وهى قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة ، وهما

(١) حرة : أرض ذات حجارة سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (٢) المسحاة : المجرفة من الحديد.
(٣) فى تفسير قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت ٱستأجره ... الخ » آية ٢٦

لغتان بمعنى واحد من الأخذ، مثل قولك : تَبِع واتّبع، وتَقِي واتّقي. وأدغم بعض القراء الذال في التاء، ولم يدغمها بعضهم. وفي حديث أُبَيّ بن كعب : لو شئت لأوتيت أجرا. وهذه صدرت من موسى سؤالا على جهة العَرْض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر : « هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » بحكم ما شرطت على نفسك. وتكريره « بيني و بينك » وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد. قال سيبويه : كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك؛ أي منّا. وقال ابن عباس : وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا، فكان سبب الفراق. وقال وهب بن مُنَبِّه : كان ذلك الجدار جدارا طوله في السماء مائة ذراع.

الثالثة عشرة — قوله تعالى : « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » تأويل الشيء مآله؛ أي قال له : إني أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ. وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر : إنها حُجّة على موسى، وعجبا له. وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحا في اليم ! فلما أنكر أمر الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكزك القبطي وقضائك عليه ! فلما أنكر إقامة الجدار نودي : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر !

قوله تعالى : أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ج وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ج ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ استدل بهذا من قال : إن المسكين أحسن حالا من الفقير، وقد مضى هذا المعنى مستوفى فى سورة « براءة »(١) . وقد قيل : إنهم كانوا تجارا ولكن من حيث هم مسافرون عن قلّة فى لجة بحر، وبحال ضعف عن مدافعة خطب عبّر عنهم بمساكين؛ إذ هم فى حالة يُشفَق عليهم بسببها ، وهذا كما تقول لرجل غنيّ وقع فى وَهْلَة أو خَطْب : مسكين . وقال كعب وغيره : كانت لعشرة إخوة من المساكين ورثوها من أبيهم؛ خمسة زَمْنَى، وخمسة يعملون فى البحر . وقيل : كانوا سبعة لكل واحد منهم زَمَانة ليست بالآخر . وقد ذكر النقاش أسماءهم؛ فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما، والثانى أعور، والثالث أعرج ، والرابع آدَر ، والخامس محموما لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم؛ والخمسة الذين لا يطيقون العمل : أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون ، وكان البحر الذى يعملون فيه ما بين فارس والروم؛ ذكره الثعلبي . وقرأت فرقة : « لِمَسَّاكِينَ » بتشديد السين ، واختلف فى ذلك فقيل : هم مَلَّاحو السفينة، وذلك أن المسّاك هو الذى يمسك رجل السفينة ، وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمى الجميع مسّاكين . وقالت فرقة : أراد بالمسّاكين دبغة المُسُوك وهى الجلود واحدها مَسْك . والأظهر قراءة « مساكين » بالتخفيف جمع مسكين، وأن معناها : إن السفينة لقوم ضعفاء ينبغى أن يشفق عليهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أى أجعلها ذات عيب، يقال : عِبتُ الشيء فعاب إذا صار ذا عَيب، فهو معيب وعائب . وقوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير « صحيحةٍ » وقرأ أيضا ابن عباس وعثمان بن عفان «صالحةٍ» . و «وراء» أصلها بمعنى خلف؛ فقال بعض المفسرين : إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه . والأكثر على أن معنى «وراء» هنا أمام؛ يعضُده قراءة ابن عباس وابن جبير «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْبًا » . قال ابن عطية : « وراءهم » هو عندى على بابه؛ وذلك

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان ، وذلك أن الحدث المقدّم الموجود هو الأمام، والذى يأتى بعده هو الوراء وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر بادى الرأى، وتأمّل هذه الألفاظ فى مواضعها حيث وردت تجـدها تطرد ؛ فهـذه الآية معناها : إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتى بعده فى الزمان غصب هذا الملك؛ ومن قرأ «أمامهم» أراد فى المكان، أى كأنهم يسيرون إلى بلد، وقوله عليـه الصلاة والسـلام : " الصلاةُ أمامك "(١) يريد فى المكان، وإلا فكونهم فى ذلك الوقت كان أمام الصلاة فى الزمان؛ وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ؛ ووقع لقتادة فى كتاب الطبرى «وكان وراءهم ملك» قال قتادة : أمامهم ألا تراه يقول : مِن « ورائِهِم جهنم » وهى بين أيديهم؛ وهذا القول غير مستقيم، وهذه هى العجمة التى كان الحسن بن أبى الحسن يضجّ منها؛ قاله الزجاج .

قلت : وما ٱختاره هـذا الإمام قد سبقه إليه فى ذلك ٱبن عرفة؛ قال الهَرَوىّ قال ٱبن عرفة : يقول القـائل كيف قال «من ورائه» وهى أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو علىّ قُطْرُب أن هـذا من الأضداد، وأن وراء فى معنى قدام، وهـذا غير محصّل ؛ لأن أمام ضد وراء، وإنمـا يصلح هـذا فى الأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعدا فى رجب لرمضان ثم قال : ومن ورائك شعبان لجاز وإن كان أمامه، لأنه يخلفه إلى وقت وعده؛ وأشار إلى هذا القول أيضا القشيرى وقال : إنما يقال هذا فى الأوقات ، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراءك؛ قال الفراء : وجوزه غيره؛ والقوم ما كانوا عالمين بخـبر الملك ، فأخبر الله تعالى الخضر حتى عيّب السفينة ؛ وذكره الزجاج . وقال المـاوردىّ : ٱختلف أهل العربية فى ٱستعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال : أحدها — يجوز ٱستعمالها بكل حال وفى كل مكان وهو من الأضداد قال الله تعالى : «وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» أى من أمامهم : وقال الشاعر(٢) :

أَترجو بَنُو مَرْوانَ سَمْعِى وطاعَتِى * وَقَوْمِى تَمِـيمٌ والفَـلَاةُ وَرَائِيَـا

---

(١) الحديث فى الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة .

(٢) هو سوار بن المضرب .

يعنى أمامى . والثانى — أن وراء تستعمل فى موضع أمام فى المواقيت والأزمان لأن الإنسان يَجُوزها فتصير وراءه ولا يجوز فى غيرها . الثالث — أنه يجوز فى الأجسام التى لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز فى غيرها؛ وهذا قول على بن عيسى . واختلف فى اسم هذا الملك فقيل : هُدَد بن بُدَد . وقيل : الجَلَنْدى ؛ وقاله السهيلى . وذكر البخارى اسم الملك الآخذ لكل سفينة غصبا فقال : هو [هُدَد بن بُدَد والغلام المقتول] (١) اسمه جَيْسور، وهكذا قيدناه فى «الجامع» من رواية يزيد المَرْوزى". وفى غير هذه الرواية حَيْسور بالحاء وعندى فى حاشية الكتاب رواية ثالثة : وهى حَيْسون . وكان يأخذ كل سفينة جيدة غصبا فلذلك عابها الخضر وخرقها؛ ففى هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقق وجهها، وجواز إصلاح كل المال بإفساد بعضه، وقد تقدّم . وفى صحيح مسلم وجه الحكمة بخرق السفينة وذلك قوله : فإذا جاء الذى يسخرها وجدها منخرقة فتجاوزَها، فأصلحوها بخشبة؛ الحديث . وتحصل من هذا الحضّ على الصبر فى الشدائد، فكم فى ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ جاء فى صحيح الحديث : "أنه طُبع يوم طُبع كافرا" وهذا يؤيّد ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبرا عنه مع كونه بالغا؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا ﴾ قيل : هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذى يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين ؛ أى خفنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا، وكان الله قد أباح له الاجتهاد فى قتل النفوس على هذه الجهة . وقيل : هو من كلام الله تعالى وعنه عبّر الخضر؛ قال الطبرى" : معناه فعلمنا؛ وكذا قال ابن عباس أى فعلمنا، وهذا كما كنى عن العلم بالخوف فى قوله : « إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » . وحكى أن أُبَيًّا قرأ « فَعَلِمَ رَبُّكَ» . وقيل : الخشية بمعنى الكراهة؛ يقال : فرّقت بينهما خشية أن يقتتلا؛ أى كراهة

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

ذلك . قال ابن عطية : والأظهر عندى فى توجيه هذا التأويل و إن كان اللفظ يدافعه أنها آستعارة، أى على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين . وقرأ ابن مسعود «فخاف ربك» وهذا بيّن فى الآستعارة، وهذا نظير ما وقع فى القرآن فى جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما فى هذا كله من ترجٍّ وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون . و «يرهقهما» يجشّمهما ويكلّفهما؛ والمعنى أن يلقيهما حبّه فى آتباعه فيضلّا و يتدينا بدينه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال . وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال؛ أى أن يرزقهما الله ولدا . ﴿ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً ﴾ أى دينا وصلاحا؛ يقال : بدّل وأبدل مثل مهّل وأمهل ونزّل وأنزل . ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ قرأ ابن عباس «رُحُمًا» بالضم ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جاريةٍ * ومنها اللّينُ والرُّحُمُ

الباقون بسكونها؛ ومنه قول رُؤْبَة بن العجّاج :

يا مُنْزِلَ الرُّحْمِ على إدريسَا * ومُنْزِلَ اللّعْنِ على إبليسَا

وآختلف عن أبى عمرو . و «رحما» معطوف على «زكاة» أى رحمة؛ يقال : رَحِمه رحمة ورحما؛ وألفه للتأنيث، ومذكره رُحْم . وقيل : الرُّحم هنا بمعنى الرَّحِم؛ قرأها آبن عباس «وأَوْصَلَ رُحْمًا» أى رَحِما ، وقرأ أيضا «أزكى منه» . وعن آبن جبير وآبن جريج أنهما بُدّلا جارية؛ قال الكلبيّ فتزوجها نبيّ من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم . قتادة : ولدت آثنى عشر نبيا . وعن ابن جريج أيضا أنّ أمّ الغلام يوم قتل كانت حاملا بغلام مسلم وكان المقتول كافرا . وعن آبن عباس : فولدت جارية ولدت نبيا؛ وفى رواية : أبدلها الله به جارية ولدت سبعين نبيا؛ وقاله جعفر بن محمد عن أبيه؛ قال علماؤنا : وهذا بعيد ولا تُعرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم؛ ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد و إن كانوا قطعا من الأكباد، ومن سلّم للقضاء

أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء . قال قتادة : لقد فرح به أبواه حين وُلد وحزنا عليه حين قُتل ، ولو بقى كان فيه هلاكهما ؛ فالواجب على كل آمرئ الرضا بقضاء الله تعالى ، فإن قضاء الله للؤمن فيما يكره خيرله من قضائه له فيما يحب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتم ، واسمهما أصرم وصريم . وقد قال عليه الصلاة والسلام : " لا يُتْم بعد بلوغ " هذا هو الظاهر . وقد يحتمل أن يبقى عليهما آسم اليتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين ، على معنى الشفقة عليهما . وقد تقدم(١) أن اليتم فى الناس من قِبل فقد الأب ؛ وفى غيرهم من الحيوان من قبل فَقْد الأم . ودل قوله : « فى المدينة » على أن القرية تسمى مدينة ؛ ومنه الحديث " أُمِرتُ بقرية(٢) تأكل القُرَى " وفى حديث الهجرة "لمن أنت" فقال الرجل : من أهل المدينة ؛ يعنى مكة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ آختلف الناس فى الكنز ؛ فقال عِكرِمة وقتادة : كان مالا جسيما وهو الظاهر من آسم الكنز إذ هو فى اللغة المال المجموع ؛ وقد مضى القول(٣) فيه . وقال ابن عباس : كان علما فى صحف مدفونة . وعنه أيضا قال : كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وروى نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة ، ورواه عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دِنْية(٤) . وقيل : هو الأب السابع ؛ قاله جعفر بن محمد . وقيل : العاشر فحُفِظا فيه وإن لم يُذْكَر بصلاح ؛ وكان يسمى كاشحا ؛ قاله مقاتل . وآسم أمهما دنيا(٥) ؛ ذكره النقاش . ففيه ما يدل على أن الله تعالى

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٤ طبعة ثانية . (٢) القرية هى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى أكلها القرى ما يفتح على أيدى أهلها من المدن ، ويصيبون من غنائمها . (٣) راجع ج ٨ ص ١٢٣ طبعة أولى أو ثانية . (٤) دنية : لحا ، وهو الأب الأقرب . (٥) فى روح المعانى : دهنا .

يحفظ الصالح فى نفسه وفى ولده و إن بعدوا عنه . وقد روى أن الله تعالى يحفظ الصالح فى سبعة من ذريته؛ وعلى هذا يدل قوله تعالى : « إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ يقتضى أن الخضر نبى ؛ وقد تقدم الخلاف فى ذلك . ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ ﴾ أى تفسير . ﴿ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ قرأت فرقة «تَسْتَطِعْ» . وقرأ الجمهور «تَسْطِعْ» قال أبو حاتم : كذا نقرأ كما فى خط المصحف . وهنا خمس مسائل :

الأولى — إن قال قائل لم يسمع لفتى موسى ذكر فى أوّل الآية ولا فى آخرها ، قيل له : ٱختلف فى ذلك؛ فقال عكرمة لابن عباس : لم يسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال : شرب الفتى من الماء فخلّد ، وأخذه العالِم فطبّق عليه سفينة ثم أرسله فى البحر ، و إنها لتموج به فيه إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب منه . قال القشيرىّ : وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون؛ فإن يوشع بن نون قد عُمّر بعد موسى وكان خليفته؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقى الخضر . وقال شيخنا الإمام أبو العباس : يحتمل أن يكون ٱكتفى بذكر المتبوع عن التابع ؛ والله أعلم .

الثانيـــة — إن قال قائل : كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى ، وقال فى خرق السفينة : « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » فأضاف العيب إلى نفسه ؟ قيل له : إنما أسند الإرادة فى الجدار إلى الله تعالى لأنها فى أمر مستأنف فى زمن طويل غيب من الغيوب ، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى ، و إن كان الخضر قد أراد ذلك فالذى أعلمه الله تعالى أن يريده . وقيل : لما كان ذلك خيرا كله أضافه إلى الله تعالى ، وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب ، لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب إبراهيم عليه السلام فى قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فأسند الفعل قبلُ و بعدُ إلى الله تعالى ، وأسند إلى نفسه المرض ، إذ هو معنى نقص ومصيبة ، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح ، وهذا كما

قال تعالى : «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» وآقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه ، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع ، إذ هو على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء خبير . ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة : « يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْنى وآستطعمتُك فلم تُطعمنى وآستسقيتك فلم تَسقنى » فإن ذلك تَنَزُّلٌ فى الخطاب ، وتلطُّف فى العتاب ، مقتضاه التعريف بفضل ذى الجلال ، وبمقادير ثواب هذه الأعمال . وقد تقدم هذا المعنى . والله تعالى أعلم . ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء ، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة ، والأفعال الشريفة . جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا . وقال فى الغلام : « فأردنا » فكأنه أضاف القتل إلى نفسه ، والتبديل إلى الله تعالى . والأشد كمال الخَلْق والعقل . وقد مضى الكلام فيه فى « الأنعام »(1) والحمد لله .

الثالثة — قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية ، فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع فى قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم . وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوها عن الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما آتفق للخضر ؛ فإنه آستغنى بما تجلى له من العلوم ، عما كان عند موسى من تلك الفُهوم . وقد جاء فيما ينقلون : آستفت قلبك وإن أفتاك المُفْتون . قال شيخنا رضى الله عنه : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ؛ لأنه إنكار ما عُلِم من الشرائع ؛ فإن الله تعالى قد أجرى سنّته ، وأنفذ حكمته ، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه ، وهم المبلّغون عنه رسالته وكلامه ، المبيّنون شرائعه وأحكامه ؛ آختارهم لذلك ، وخصّهم بما هنالك ؛ كما قال تعالى : « اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ

(1) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» وقال تعالى : «اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رِسَالَتَهُ[1]» وقال تعالى : «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ» إلى غير ذلك من الآيات . وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال : إن هناك طريقا آخر يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يستغني عن الرسل فهو كافر، يُقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه و رسله ، فلا نبيّ بعده ولا رسول . و بيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوّة، فإن هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام : "إن روح القدس نَفَثَ في رَوْعي" الحديث .

الرابعة — ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : حيّ لأنه شرب من عين الحياة، وأنه باق في الأرض، وأنه يحج البيت . قال ابن عطية : وقد أطنب النقّاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن عليّ ابن أبي طالب وغيره، وكلها لا تقوم على ساق . ولو كان الخضر عليه السلام حيا يحج لكان له في ملة الإسلام ظهور؛ والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربّ غيره . ومما يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة السلام : "أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يَبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ" .

قلت : إلى هذا ذهب البخاري وآختاره القاضي أبو بكر بن العربي، والصحيح القول الثاني وهو أنه حيّ على ما نذكره . والحديث خرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته فلما سلّم قام فقال : "أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ"

---

(١) في الأصل : «رسالاته» وهي قراءة نافع التي كان يقرأ بها المفسر .

قال آبن عمر : فوهل(١) الناس فى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدّثون من هذه الأحاديث عن مائة سـنة ؛ و إنمـا قال عليه الصلاة والسلام : " لا يبقى ممن هو اليـوم على ظهر الأرض أحد" يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرْن . ورواه أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر : " تسألونى عن الساعة و إنمـا علمها عنـد الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منْفُوسة(٢) تأتى عليهـا مائة سنة " وفى أخرى قال سالم : تذاكرنا أنهـا " هى مخلوقة يومئـذ " . وفى أخرى : " ما من نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة وهى حية يومئذ " . وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال : نقص العمر . وعن أبى سـعيد الخدرى نحو هـذا الحديث . قال علماؤنا : وحاصل ما تضمنه هـذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أن كل من كان من بنى آدم موجودا فى ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : " ما من نفس منْفوسة " وهـذا اللفظ لا يتنـاول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح عنهم أنهـم كذلك ، ولا الحيوان غير العاقل ؛ لقوله : " ممن هو على ظهر الأرض أحد" وهذا إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل ؛ فتعين أن المراد بنو آدم . وقد بين آبن عمر هذا المعنى ؛ فقال : يريد بذلك أن ينْخرم ذلك القرْن . ولا حجة لمن آستدل به على بطلان قول من يقول : إن الخضر حى لعموم قوله : "ما من نفس منفوسة" لأن العموم وإن كان مؤكّد الاستغراق فليس نصًّا فيه ، بل هو قابل للتخصيص ؛ فكما لم يتناول عيسى عليـه السلام ، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حىّ بنص القرآن ومعناه ، ولا يتناول الدجال مع أنه حىّ بدليـل حديث الجسّاسـة(٣) ؛ فكذلك لم يتناول الخضر عليـه السلام وليس مشاهدا للنـاس ، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضا ؛ فمثل هذا العموم لا يتناوله . وقد قيل : إن أصحاب الكهف أحياء

(١) وهل إلى الشيء كضرب ؛ أى غلط وذهب وهمه إلى خلاف الصواب ؛ والمعنى أن الصحابة رضى الله عنهـم غلطوا وذهب وهمهم إلى خلاف الصواب فى تأويل مقالة النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يقول : تقوم الساعة عند آنقضاء مائة سنة ؛ فبين آبن عمر مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن . ويجوز وهل كتعب . (٢) منفوسة : مولودة . (٣) الجساسة : دابة الأرض التى تخرج آخر الزمان ؛ وسميت جساسة لتجسسها الأخبار للدجال .

ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام، كما تقدّم . وكذلك فتى موسى فى قول ابن عباس كما ذكرنا . وقد ذكر أبو إسحق الثعلبي فى كتاب «العرائس» له : والصحيح أن الخضر نبيّ مُعمَّر محجوب عن الأبصار؛ وروى محمد بن المتوكل عن [ضمرة بن ربيعة] عن عبد الله بن [شوذب][1] قال : الخضر عليه السلام من ولد فارس، و إلياس من بنى إسرائيل يلتقيان كل عام فى الموسم . وعن عمرو بن دينار قال : إن الخضر و إلياس لا يزالان حيين فى الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رفع ماتا . وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطى بن محمود بن عبد المعطى اللخمى فى شرح الرسالة له للقشيرى حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه، يفيد مجموعها غاية الظن بحياته مع ما ذكره النقاش والثعلبي وغيرهما . وقد جاء فى صحيح مسلم : " أن الدجال ينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس — أو — من خير الناس " الحديث؛ وفى آخره قال أبو إسحق : يعنى أن هذا الرجل هو الخضر . وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب « الهواتف » بسند يوقفه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه لقى الخضر وعلمه هذا الدعاء، وذكر أن فيه ثوابا عظيما ومغفرة ورحمة لمن قاله فى أثر كل صلاة، وهو : يامن لا يشغله سمع عن سمع ، ويامن لا تغلطه المسائل، ويامن لا يتبرم من إلحاح الملحين، أذقنى بَرْد عفوك، وحلاوة مغفرتك . وذكر أيضا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا الدعاء بعينه نحوا مما ذكر عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى سماعه من الخضر . وذكر أيضا ٱجتماع إلياس مع النبي عليه الصلاة والسلام . وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم جاز بقاء الخضر، وقد ذكر أنهما يجتمعان عند البيت فى كل حول، وأنهما يقولان عند افتراقهما : ما شاء الله ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله، توكلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل . وأما خبر إلياس فيأتى فى « والصافات »[2] إن شاء الله تعالى . وذكر أبو عمر

(١) الزيادة والتصويب من « عقد الجمان » للعينى نقلا عن الثعلبي . وفى الأصل : « روى عن محمد بن المتوكل عن عبد الله بن سوار » .　　(٢) فى تفسير قوله تعالى : « وإن إلياس لمن المرسلين » آية ١٢٣

ٱبن عبد البر فى كتاب « التمهيـد » عن على رضى الله تعالى عنه قال : لمـا توفى النبي صلى الله عليه وسلم وسُجِّى بثوب هتف هاتف من ناحيـة البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، السـلام عليكم أهل البيت ، « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » ـــ الآية ـــ إن فى الله خَلَفا من كل هالك، وعوضا من كل تالف، وعَزاء من كل مصيبة، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِم الثواب ؛ فكانوا يرون أنه الخضر عليـه الصلاة السلام . يعنى أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام . والألف واللام فى قوله : " على الأرض " للعهـد لا للجنس وهى أرض العرب ، بدليل تصرفهم فيها وإليها غالبا دون أرض يأجوج ومأجوج ، وأقاصى جزر الهنـد والسند ممـا لا يقرع السمع اسمه ، ولا يُعلَم علمه . ولا جواب عن الدجال .

قال السهيلى : وٱختلف فى ٱسم الخضر اختلافا متباينا ؛ فعن ٱبن منبه أنه قال : أَبْلَيا بن مَلْكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وقيـل : هو ٱبن عاميل بن سماحَين ٱبن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحق ، وأن أباه كان مَلِكا ، وأن أمه كانت بنت فارس وٱسمها ألمى ، وأنها ولدته فى مغارة ، وأنه وجد هنالك وشاة ترضعه فى كل يوم من غنم رجل من القرية ، فأخذه الرجل فربّاه ، فلمـا شَبَّ وطلب الملكُ ـــ أبوه ـــ كاتبا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التى أنزلت على إبراهيم وشيث ، كان ممن أقدم عليه من الكتّاب ٱبنه الخضر وهو لا يعرفه ، فلما استحسن خطه ومعرفته ، وبحث عن جلية أمره عرف أنه ابنه ، فضمه لنفسه وولاه أمر الناس ، ثم إن الخضر فرّ من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها ، فهو حىّ إلى أن يخرج الدجال ، وأنه الرجل الذى يقتله الدجال ويقطعه ثم يحييه الله تعالى . وقيل : لم يدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا لا يصح . وقال البخارى وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربى رحمه الله تعالى : إنه مات قبل ٱنقضاء المـائة ، من قوله عليه الصلاة والسلام : " إلى رأس مائة عام لا يبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحد " يعنى من كان حيا حين قال هذه المقالة .

قلت : قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه، وبيّنا حياة الخضر إلى الآن، والله أعلم .

الخامسة — قيل : إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني؛ قال : كن بسّاما ولا تكن ضحّاكا، ودع اللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تعب على الخطّائين خطاياهم، وآبك على خطيئتك يا ابن عمران .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ قال ابن إسحق : وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت غيره ، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضا إلا سلّط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق . قال ابن إسحق : حدّثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان من أهل مصر اسمه مرزبان ابن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح . قال ابن هشام : واسمه الإسكندر،

وهو الذى بنى الإسكندرية فنسبت إليه . قال ابن إسحق : وقد حدّثنى ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان الكَلَاعىّ — وكان خالد رجلا قد أدرك الناس — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال : "ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب" . وقال خالد : وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غَفْرا أما رضيتم أن تُسمّوا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! قال ابن إسحق : فالله أعلم أى ذلك كان؟ أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أم لا؟ والحق ما قال .

قلت : وقد روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه مثل قول عمر ؛ سمع رجلا يدعو آخر يا ذا القرنين ، فقال علىّ : أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! وعنه أنه عَبْد ملِك (بكسر اللام) صالحٌ نصح اللهَ فأيّده . وقيل : هو نبىّ مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض . وذكر الدارقطنىّ فى كتاب الأخبار أن ملكا يقال له رباقيل(١) كان ينزل على ذى القرنين ، وذلك الملك هو الذى يطوى الأرض يوم القيامة ، وينقضها فتقع أقدام الخلائق كلهم بالساهرة(٢) ؛ فيما ذكر بعض أهل العلم . وقال السهيلىّ : وهذا مشاكل بتوكيله بذى القرنين الذى قطع الأرض مشارقها ومغاربها ؛ كما أن قصة خالد ابن سنان فى تسخير النار له مشاكلة بحال الملَك الموكل بها ، وهو مالك عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين . ذكر ابن أبى خَيْثَمة فى كتاب البدء له خالد بن سِنان العبسىّ وذكر نبوّته ، وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار ، وكان من أعلام نبوّته أن نارا يقال لها نار الحدثان ، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردّها ، فردّها خالد ابن سنان فلم تخرج بعد . وٱختلف فى اسم ذى القرنين وفى السبب الذى سمى به بذلك اختلافا كثيرا ؛ فأما اسمه فقيل : هو الإسكندر الملك اليونانى المقدونى ، وقد تشدّد قافه فيقال : المقّدونى . وقيل : اسمه هرمس . ويقال : اسمه هرديس . وقال ٱبن هشام : هو الصعب

(١) كذا فى الأصل ، وفى قصص الأنبياء للثعلبى « رفائيل » وفى الدر المنثور « زرافيل » .

(٢) الساهرة : أرض يجدّدها الله يوم القيامة .

ابن ذى يزن الحميرى من ولد وائل بن حمير؛ وقد تقدّم قول ابن إسحق. وقال وهب بن منبه : هو رومى . وذكر الطبرى حديثا عن النبى عليه الصلاة والسلام أن ذا القرنين شاب من الروم. وهو حديث واهى السّند؛ قاله ابن عطية . قال السهيلى : والظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان : أحدهما — كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال : إنه الذى قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه فى بئر السبع بالشام . والآخر — أنه كان قريبا من عهد عيسى عليه السلام . وقيل : إنه أفريدون الذى قتل بيوراسب بن أرونداسب الملك الطاغى على عهد إبراهيم عليه السلام ، أو قبله بزمان . وأما الاختلاف فى السبب الذى سمّى به ، فقيل : إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمى بهما ؛ ذكره الثعلبى وغيره . والضفائر قرون الرأس؛ ومنه قول الشاعر(١) :

فَلَثِمْتُ فَاهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا * شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وقيل : إنه رأى فى أوّل ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس، فقص ذلك، ففسر أنه سيغلب ما ذرت عليه الشمس ، فسمى بذلك ذا القرنين . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرنى الدنيا . وقالت طائفة : إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرونها فسمى بذلك ذا القرنين ؛ أو قرنى الشيطان بها . وقال وهب بن منبه : كان له قرنان تحت عمامته . وسأل ابن الكوّاء عليا رضى الله تعالى عنه عن ذى القرنين أنبيا كان أم ملكا؟ فقال : لاذا ولاذا ، كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجّوه على قرنه ، ثم دعاهم فشجّوه على قرنه الآخر، فسمى ذا القرنين . واختلفوا أيضا فى وقت زمانه ، فقال قوم : كان بعد موسى . وقال قوم : كان فى الفترة بعد عيسى . وقيل : كان فى وقت إبراهيم وإسمعيل . وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم ؛ وقد ذكرناه فى « البقرة »(٢) . وبالجملة فإن الله تعالى مكّنه وملّكه ودانت له الملوك ، فروى أن جميع ملوك الدنيا كلها

---

(١) هو عمر بن أبى ربيعة ؛ والنزيف : المحموم الذى منع من الماء، والسكران . والحشرج : النقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو، والكوز الصغير اللطيف أيضا .	(٢) راجع ج ٣ ص ٢٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان سليمان بن داود وإسكندر، والكافران نمرود وبختنصر؛ وسيملكها من هـذه الأمة خامس لقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وهو المهـدى . وقد قيل : إنمـا سمى ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه آنقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حىّ . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا . وقيـل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور . وقيل : لأنه ملك فارس والروم .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال علىّ رضى الله عنـه : سخر له السحاب ، ومُدّت له الأسباب ، وبُسط له فى النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء . وفى حديث عقبة ابن عامر أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذى القرنين فقال : " إن أوّل أمره كان غلاما من الروم فأعطى ملكا فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لهـا الإسكندرية فلما فرغ أتاه مَلَك فعرج به فقال له آنظر ما تحتك قال أرى مدينتى وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذى تراه محيطا بها هو البحر وإنمـا أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطانا فيها فَسِرْ فى الأرض فعلِّم الجاهل وثبِّت العالم " الحديث .

قوله تعـالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال آبن عبـاس : من كل شىء علمـا يتسبب به إلى ما يريد . وقال الحسن : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شىء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شىء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شىء . ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ قرأ آبن عامر وعاصم وحمزة والكسائى «فَأَتْبَعَ سَبَبًا» مقطوعة الألف . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو «فَاتَّبَعَ سَبَبًا» بوصلها؛ أى آتبع سببا من الأسباب التى أوتيها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى؛ مثل ردفته وأردفته، ومنـه قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَـهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ » ومنه الإتباع فى الكلام مثل حَسَنٌ بَسَنٌ وقَبِيح شَقِيح . قال النحاس : وآختار أبو عبيد قراءة

أهل الكوفة قال : لأنها من السَّيْر، وحكى هو والأصمعيّ أنه يقال : تَبِعه وأتّبعه إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه؛ قال أبو عبيد : ومثله « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » . قال النحاس : وهذا التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاه لا يقبل إلا بعلّة أو دليل . وقوله عز وجل : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ليس في الحديث أنهم لحقوهم، وإنما الحديث : لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه انطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تَبِع واتّبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السَّيْر؛ فقد يجوز أن يكون معه لَحَاق وألّا يكون .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائي « حاميةٍ » أي حارّة . الباقون « حَمِئة » أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء، تقول : حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً (بالتسكين) إذا نزعت حَمْأَتها . وحَمِئت البئرُ حَمَأً (بالتحريك) كثرت حَمْأَتها . ويجوز أن تكون « حاميةٍ » من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء . وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حَمْأة. وقال عبد الله بن عمرو : نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غربت، فقال : " نار الله الحامية لولا ما يَزَعُها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض " . وقال ابن عباس : أقرأنيها أبيّ كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم « في عين حَمِئة »؛ وقال معاوية : هي « حامية » فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فأنا مع أمير المؤمنين؛ فجعلوا كعبا بينهم حَكَما وقالوا : يا كعب كيف تجد هذا في التوراة ؟ فقال : أجدها تغرب في عين سوداء، فوافق ابن عباس . وقال الشاعر وهو تُبَّع اليمانيّ :

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِمًا * مَلِكًا تدين له الملوك وتَسْجُدُ
بلغ المغاربَ والمشارقَ يبتغي * أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرْشِد
فرأى مغيبَ الشمسِ عند غروبها * في عين ذي خُلُبٍ وثَأْطٍ حَرْمَد(١)

الخُلُب : الطين . والثأْط : الحمأة . والحَرْمد : الأسود . وقال القفّال قال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسّها؛ لأنها تدور

(١) حرمد (بالفتح والكسر) كجعفر وزبرج .

مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض ، بل هى أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة ، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض ، ولهذا قال : « وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم . وقال القتبى : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر ، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها ، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه ، والله أعلم . ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أى عند العين ، أو عند نهاية العين ، وهم أهل جَابَرْس ، ويقال لها بالسريانية : جرجيسا ، يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح ، ذكره السُّهيلى . وقال وهب ابن منبّه : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الإسكندر ، فلما بلغ وكان عبدا صالحا قال الله تعالى : ياذا القرنين ! إنى باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم ، وهم أمم جميع الأرض ، وهم أصناف : أمتان بينهما طول الأرض كله ، وأمتان بينهما عرض الأرض كله ، وأمم فى وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج ؛ فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها منسك . وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل ، وأما الأخرى التى فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل . فقال ذو القرنين : إلهى ! قد ندبتنى لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت ، فأخبرنى عن هذه الأمم بأى قوة أكاثرهم ؟ وبأى صبر أقاسيهم ؟ وبأى لسان أناطقهم ؟ فكيف لى بأن أفقه لغتهم وليس عندى قوة ؟ فقال الله تعالى : سأظفرك بما حملتك ، أشرح لك صدرك فتسمع كل شىء ، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شىء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شىء ، وأسخر لك النور والظلمة فيكونان جندا من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحفظك الظلمة من ورائك ، فلما قيل له ذلك سار بمن اتبعه ، فانطلق إلى الأمة التى عند مغرب الشمس ، لأنها

كانت أقرب الأمم منه وهي ناسك ، فوجد جموعا لا يحصيها إلا الله تعالى وقوة و بأسا لا يطيقه إلا الله ، وألسنة مختلفة ، وأهواء مُتشتِّتة ، فكاثرهم بالظّلمة ، فضرب حولهم ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان ، حتى جمعتهم في مكان واحد ، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى و إلى عبادته ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر وصدّ عنه ، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فغشيتهم من كل مكان ، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم و بيوتهم وغشيتهم من كل مكان ، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا ، فعجّوا إلى الله تعالى بصوت واحد : إنا آمنا ، فكشفها عنهم ، وأخذهم عنوة ، ودخلوا في دعوته ، فجند من أهل المغرب أمما عظيمة فجعلهم جندا واحدا ، ثم آنطلق بهم يقودهم ، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه ، والنور أمامهم يقوده و يدله ، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاو يل ، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا ، فإذا أتوا مخاضة أو بحرا بنى سفنا من ألواح صغار مثل النعال فنظمها في ساعة ، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم ، فإذا قطع البحار والأنهار فتقها ودفع إلى كل رجل لوحا فلا يكترث بحمله ، فانتهى إلى هاو يل وفعل بهم كفعله بناسك فآمنوا ، ففرغ منهم ، وأخذ جيوشهم وآنطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى آنتهى إلى منسك عند مطلع الشمس ، فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله في الأولى ، ثم كَرَّ مقبلا حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تاو يل ، وهي الأمة التي تقابل هاو يل بينهما عرض الأرض ، ففعل فيها كفعله فيما قبلها ، ثم عطف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجن والإنس و يأجوج ومأجوج ، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : ياذا القرنين ! إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله تعالى كثيرا ليس لهم عدد ، وليس فيهم مشابهة من الإنس ، وهم أشباه البهائم ، يأكلون العشب ، و يفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع ، و يأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذى روح مما خلق الله تعالى في الأرض ، وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم في العام الواحد ، فإن طالت المدة

فسيملئون الأرض، ويجلون أهلها، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا و بينهم سدا ؟ وذكر الحديث؛ وسيأتى من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ قال القشيرى أبو نصر : إن كان نبيا فهو وحى، وإن لم يكن نبيا فهو إلهام من الله تعالى . ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ قال إبراهيم بن السرى : خيّره بين هذين كما خيّر محمدا صلى الله عليه وسلم فقال : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » ونحوه . وقال أبو إسحق الزجاج : المعنى أن الله تعالى خيره بين هذين الحكمين؛ قال النحاس : ورد على بن سليمان عليه قوله؛ لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل: «ثم يردّ إلى ربه»؟ وكيف يقول: «فسوف نعذبه» فيخاطب بالنون؟ قال : التقدير؛ قلنا يا محمد قالوا ياذا القرنين . قال أبو جعفر النحاس : هذا الذى قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيء . أما قوله : « قلنا يا ذا القرنين » فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبي فى وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيه : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »، وأما إشكال « فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه » فإن تقديره أن الله تعالى لما خيّره بين القتل فى قوله تعالى : « إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ » و بين الاستبقاء فى قوله جل وعز : «وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» قال لأولئك القوم : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾أى أقام على الكفر منكم : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أى بالقتل : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ أى يوم القيامة : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أى شديدا فى جهنم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أى تاب من الكفر : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال أحمد بن يحيى : « أن » فى موضع نصب فى « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » قال : ولو رفعت كان صوابا بمعنى فإمّا هو، كما قال :

فسيرا فإما حاجة تقضيانها * وإما مقيلٌ صالحٌ وصديقُ

﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار، و« الحسنى » فى موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة؛ أى له جزاء الحسنى عند الله تعالى فى الآخرة وهى الجنة ، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقوله :

«حقُّ اليقينِ » ، « ولدارُ الآخرةِ » ؛ قاله الفراء . ويحتمل أن يريد بـ « بالحسنى » الأعمال الصالحة . ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين ؛ أي أعطيه وأتفضل عليه . ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون « الحسنى » في موضع رفع على البدل عند البصريين ، وعلى الترجمة عند الكوفيين ، وعلى هذا قراءة ابن أبي إسحق « فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى » إلا أنك لم تحذف التنوين ، وهو أجود . وقرأ سائر الكوفيين « فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى » منصوبا منونا ؛ أي فله الحسنى جزاءً . قال الفراء : «جزاءً» منصوب على التمييز . وقيل : على المصدر ؛ وقال الزجاج : هو مصدر في موضع الحال ؛ أي مجزيا بها جزاء . وقرأ ابن عباس ومسروق « فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى » منصوبا غير منون . وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين لالتقاء الساكنين مثل « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » في أحد الوجهين . النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين ، ويكون تقديره : فله الثواب جزاءَ الحسنى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ تقدم معناه أن أتبع واتّبع بمعنى ، أي سلك طريقا ومنازل . ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن بفتح الميم واللام ؛ يقال : طَلَعت الشمسُ والكواكب طُلوعا ومطلَعا . والمطلَع والمطلِع أيضا موضع طلوعها ؛ قاله الجوهري . المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس . والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ . وقد اختلف فيهم ؛ فعن وهب بن منبه ما تقدم ، وأنها أمة يقال لها منسك وهي مقابلة ناسك ؛ وقاله مقاتل . وقال قتادة : يقال لها الزنج . وقال الكلبي : هم تارس وهاويل ومنسك ؛ حفاة عراة عماة عن الحق ، يتسافدون مثل الكلاب ، ويتهارجون تهارج الحمر . وقيل : هم أهل جَابَلْق ، وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود ، ويقال لهم بالسريانية مرقيسا . والذين عند مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس ؛ ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب ، بين كل بابين فرسخ . ووراء جَابَلْق أمم ، وهم تافيل وتارس ، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج . وأهل جَابَرْس وجَابَلْق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ، مر بهم ليلة الإسراء فدعاهم فأجابوه ،

ودعا الأمم الآخرين فلم يجيبوه؛ ذكره السهيلى وقال : ٱختصرت هذا كله من حديث طويل رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ورواه الطبرى مسندا إلى مقاتل يرفعه؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى حجابا يستترون منها عند طلوعها . قال قتادة : لم يكن بينهم وبين الشمس ستر؛ كانوا فى مكان لا يستقر عليه بناء، وهم يكونون فى أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم؛ يعنى لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها . وقال أمية : وجدت رجالا بسمرقند يحدثون الناس، فقال بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فقيل لى : إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلا يرينيهم حتى صبحتهم، فوجدت أحدهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وكان صاحبى يحسن كلامهم ، فبتنا بهم ، فقالوا : فيم جئتم ؟ قلنا : جئنا ننظر كيف تطلع الشمس؛ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشى علىّ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هى على الماء كهيئة الزيت ، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط ، فلما ٱرتفعت أدخلونى سربا لهم، فلما ٱرتفع النهار وزالت الشمس عن رءوسهم خرجوا يصطادون السمك ، فيطرحونه فى الشمس فينضج . وقال ٱبن جريج : جاءهم جيش مرة، فقال لهم أهلها : لا تطلع الشمس وأنتم بها ، فقالوا : ما نبرح حتى تطلع الشمس . ثم قالوا : ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه والله عظام جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا . قال : فولوا هاربين فى الأرض . وقال الحسن : كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى الماء، فإذا ٱرتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم .

قلت : وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك . والله أعلم . وربما يكون منهم من يدخل فى النهر، ومنهم من يدخل فى السّرب فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأَذْرَبِيجان . روى عطاء الخراساني عن ابن عباس : « بين السدين » الجبلين أرمينية وأذربيجان . ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا ﴾ أي من ورائهما : ﴿ قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي « يُفْقِهُونَ » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أي لا يفقهون غيرهم كلاما . الباقون بفتح الياء والقاف ، أي يعلمون . والقراءتان صحيحتان ، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ أي قالت له أمة من الإنس صالحة : ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . قال الأخفش : من همز « يأجوج » فجعل الألفين من الأصل يقول : يأجوج يفعول ومأجوج مفعول كأنه من أجيج النار . قال : ومن لا يهمز و يجعل الألفين زائدتين يقول : « ياجوج » من يججت وماجوج من مججت وهما غير مصروفين ؛ قال رؤبة :

لو أن ياجوجَ وماجوجَ معًا * وعادَ عادٌ واستجاشوا تُبَّعا

ذكره الجوهرى . وقيل : إنما لم ينصرفا لأنهما آسمان أعجميان، مثل طالوت وجالوت غير مشتقين؛ علتاهما فى منع الصرف العجمة والتعريف والتأنيث . وقالت فرقة : هو معرب من أجّ وأجّج علتاه فى منع الصرف التعريف والتأنيث . وقال أبو علىّ : يجوز أن يكونا عربيين؛ فمن همز «يأجوج» فهو على وزن يفعول مثل يربوع، من قولك أجّت النار أى ضويت، ومنه الأجيج، ومنه ملح أجاج، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل راس، وأما «مأجوج» فهو مفعول من أجّ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق ومن لم يهمز فيجوز أن يكون خفف الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولا من مجّ، وترك الصرف فيهما للتأنيث والتعريف كأنه آسم للقبيلة . وآختلف فى إفسادهم؛ سعيد بن عبد العزيز : إفسادهم أكل بنى آدم . وقالت فرقة : إفسادهم إنما كان متوقعا، أى سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم . وقالت فرقة : إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، والله أعلم . وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنهم ولد يافث . روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والبربر والسودان " . وقال كعب الأحبار : آحتلم آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسف فخلقوا من ذلك الماء، فهم متصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأم . وهذا فيه نظر؛ لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يحتلمون، وإنما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره . وروى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يموت رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل " . يعنى يأجوج ومأجوج . وقال أبو سعيد : هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل؛ ذكره القشيرى . وقال عبد الله بن مسعود : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام : " يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف [أمة][1] كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل

(١) الزيادة من الدر المنثور .

منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح" قيل : يارسول الله صفهم لنا . قال : " هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأَرْز (١) — شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع — وصنف عرضه وطوله سواء نحوا من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس " . وقال على رضى الله تعالى عنه : وصنف منهم فى طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعى الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئاب، وشعور تقيهم الحرّ والبرد، وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، يحفرون السدّ حتى كادوا ينقبونه فيعيده الله كما كان، فيقولون : ننقبه غدا إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون، ويتحصن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ملطخا بالدم، ثم يهلكهم الله تعالى بالنَّغَف (٢) فى رقابهم . ذكره الغزنوى . وقال علىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : " يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده " .

قلت : وقد جاء مرفوعا من حديث أبى هريرة ، خرجه ابن ماجه فى السنن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فَيَنْشِفون (٣) الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدمُ — الذى أحفظ (٤) — فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نغفا فى أقفائهم فيقتلهم بها " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَر شكرا من لحومهم " قال الجوهرى

(١) الأرز: شجر الصنوبر . (٢) النغف (بالتحريك) : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم واحدتها نغفة .
(٣) ينشفون الماء : أى ينزحونه . (٤) هذا من كلام الراوى . (هامش ابن ماجه) .

شَكِرت الناقةُ تَشكَرُ شَكَرًا فهي شكِرة ، وأشكر الضرع آمتلأ لبنا . وقال وهب بن منبه : رآهم ذو القرنين ، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا ، لهم مخاليب فى مواضع الأظفار وأضراس وأنيـاب كالسباع ، وأحناك كأحناك الإبل ، وهم هُلْبٌ عليهم من الشعر ما يواريهم ، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان ، يلتحف إحداهما و يفترش الأخرى ، وكل واحد منهم قد عرف أجله لا يموت حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكرا ، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى . وقال السدى والضحاك : الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير ، فجاء ذو القرنين فضرب السدّ فبقيت فى هذا الجانب . قال السُّدى : بُنى السدّ على إحدى وعشرين قبيلة ، و بقيت منهم قبيلة واحدة دون السدّ فهم التّرك . وقاله قتادة .

قلت : و إذا كان هـذا ، فقد نعت النبي صلى الله عليه وسلم الترك كما نعت يأجوج ومأجوج ، فقال عليه الصلاة والسلام : " لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التّرك قوماً وجوههم كالمجانّ المُطْرَقَة يلبَسون الشّعر و يمشون فى الشّعر " فى رواية "ينتعلون الشّعر" خرجه مسلم وأبو داود وغيرهما . ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم عددهم وكثرتهم وحِدَّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام : " آتركوا الترك ما تركوكم " . وقد خرج منهم فى هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى ، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم . وروى أبو داود عن أبى بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ناس من أمتى بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين — قال ابن يحيى قال أبو معمر — وتكون من أمصار المسلمين فإذا كان فى آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شاطئ النهر فيتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم و يقاتلونهم وهم الشهداء " . الغائط المطمئن من الأرض . والبصرة الحجارة الرخوة و بها سميت البصرة . و بنو قنطوراء هم الترك . يقال : إن قنطوراء آسم جارية كانت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، ولدت له أولادا جاء من نسلهم الترك .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب . « خَرْجًا » أي جعلا . وقرئ « خراجا » والخرج أخص من الخراج . يقال : أَدِّ خَرْجَ رأسك وخَرَاج مدينتك . وقال الأزهري : الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية، وعلى الغلة . والخراج اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال . والخرج : المصدر . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أي ردما؛ والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل . وثوب مردم أي مرقع؛ قاله الهروي . يقال : ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردما أي سددتها . والردم أيضا الاسم وهو السدّ . وقيل : الردم أبلغ من السدّ إذ السدّ كل ما يسدّ به، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع . ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض . ومنه قول عنترة :

* هل غادر الشعراء من متردم (١) *

أي من قول يُركَّب بعضه على بعض . وقرئ « سَدًّا » بالفتح في السين؛ فقال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم والفتح المصدر . وقال الكسائي: الفتح والضم لغتان بمعنى واحد . وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة : ما كان من خلقة الله لم يشاركك فيه أحد بعمل فهو بالضم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح . ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا «سَدًّا» بالفتح، وقبله « بين السُّدَّيْنِ » بالضم ، وهي قراءة حمزة والكسائي . وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة . وقال ابن أبي إسحق : ما رأته عيناك فهو سُدّ بالضم، وما لا ترى فهو سَدّ بالفتح .

الثانية — في هذه الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه .

(١) تمامه : * أم هل عرفت الدار بعد توهم *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ المعنى قال لهم ذو القرنين : ما بسطه الله تعالى لى من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينونى بقوة الأبدان؛ أى برجال وعمل منكم بالأبدان ، والآلة التى أبنى بها الردم وهو السدّ . وهذا تأييد من الله تعالى لذى القرنين فى هذه المحاورة ؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجا لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان ، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع فى آنقضاء هذا العمل ، وربما أربى ماذكروه له على الخرج . وقرأ آبن كثير وحده «مَا مَكَّنَنِى» بنونين . وقرأ الباقون «مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى» .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم ، وسدّ فرجتهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم التى تفىء عليهم ، وحقوقهم التى تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره ، حتى لو أكلتها الحقوق ، وأنفدتها المؤن ، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ؛ وذلك بثلاثة شروط : الأول — ألا يستأثر عليهم بشىء . الثانى — أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم . الثالث — أن يسوى فى العطاء بينهم على قدر منازلهم ، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير ، وتُصْرَف بتدبير ؛ فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال فى أن يكفّ عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج ؛ قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ » أى اخدموا بأنفسكم معى ، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ، ورأى أن الأموال لا تغنى عنهم ، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه ، فيعود بالأجر عليهم ، فكان التطوّع بخدمة الأبدان أولى . وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأى الجماعة لا بالاستبداد بالأمر . والله تعالى الموفق للصواب .

قوله تعالى : ﴿ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أى أعطونى زبر الحديد وناولونيها . أمرهم بنقل الآلة ، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التى بغير معنى الهبة ، وإنما هو استدعاء للمناولة ،

لأنه قد ارتبط من قوله : إنه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبق إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان . « وَزُبَرَ الْحَدِيدِ » قطع الحديد . وأصل الكلمة الاجتماع، ومنه زُبْرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . و زبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه . وقرأ أبو بكر والمفضل « ردما آيتونى » من الإتيان الذى هو المجىء؛ أى جيئونى بزبر الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر (١) :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ ... *

حذف الجار فنصب الفعل . وقرأ الجمهور « زُبَرَ » بفتح الباء . وقرأ الحسن بضمها؛ وكل ذلك جمع زُبْرة وهى القطعة العظيمة منه .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى ﴾ يعنى البناء فحذف لقوة الكلام عليه . ﴿ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ قال أبو عبيدة : هما جانبا الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما أى لتلاقيهما . وقاله الزهرى وابن عباس؛ كأنه يعرض عن الآخر؛ من الصدوف؛ قال الشاعر :

كِلَا الصَّدَفَيْنِ يَنْفُذُهُ سَنَاهَا * تَوَقُّدُ مثلَ مِصباحِ الظَّلَامِ

و يقال للبناء المرتفع صدف تشبيه بجانب الجبل . وفى الحديث : كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشى . قال أبو عبيد : الصدف والهدف كل بناء عظيم مرتفع . ابن عطية : الصَّدَفان الجبلان المتناوحان (٢) ولا يقال للواحد صَدف، و إنما يقال صَدَفان للاثنين؛ لأن أحدهما يصادف الآخر . وقرأ نافع وحمزة والكسائى « الصَّدَفَيْن » بفتح الصاد وشدّها وفتح الدال، وهى قراءة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز، وهى اختيار أبى عبيدة لأنها أشهر اللغات . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو « الصُّدُفين » بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر « الصُّدْفَين » بضم الصاد وسكون الدال، نحو الجُرُف والجُرْف . فهو تخفيف . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال . وقرأ قتادة « بين الصَّدْفَين » بفتح الصاد وسكون الدال، وكل ذلك بمعنى واحد وهما الجبلان المتناوحان .

(١) هو عمرو بن معدى كرب الزبيدى . والبيت بتمامه :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به * فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(٢) التناوح : التقابل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱنفُخُوا ﴾ إلى آخر الآية أى على زبر الحديد بالأكيار، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف فى القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد ولصق البعض بالبعض استأنف وضع طاقة أخرى، إلى أن ٱستوى العمل فصار جبلا صَلْدا . قال قتادة : هو كالبُرْد المحبَّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال : يارسول الله ! إنى رأيت سدّ يأجوج ومأجوج ، قال : "كيف رأيته" قال : رأيته كالبُرْد المحبَّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد رأيته" . ومعنى « حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا » أى كالنار . ومعنى ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى أعطونى قطرا أفرغ عليه ، على التقديم والتأخير . ومن قرأ « ٱئتونى » فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليه نحاسا . والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصله من القَطْر؛ لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر الماء . وقالت فرقة : القطر الحديد المذاب . وقالت فرقة منهم ٱبن الأنبارى : الرصاص المذاب ، وهو مشتق من قَطَر يَقطُر قَطْرا . ومنه « وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ أى ما ٱستطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه ؛ لأنه أملس مستوٍ مع الجبل والجبل عالٍ لا يرام . وٱرتفاع السدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعا . وروى : فى طوله ما بين طرفى الجبلين مائة فرسخ ، وفى عرضه خمسون فرسخا ؛ قاله وهب بن منبه . ﴿ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴾ لبعد عرضه وقوته . وروى فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه" وعقد وهب بن منبه بيده تسعين — وفى رواية — وحلّق بإصبعه الإبهام والتى تليها ؛ وذكر الحديث . وذكر يحيى بن سلّام عن سعد بن أبى عَرُوبة عن قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن يأجوج ومأجوج

يحرقون السدّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستخرقونه غدا فيعيده الله كأشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه إن شاء الله فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس " الحديث وقد تقدّم .

قوله تعالى : « فَمَا ٱسْطَاعُوا » بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور . وقيل : هى لغة بمعنى ٱستطاعوا . وقيل : بل ٱستطاعوا بعينه كثر فى كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا : ٱسطاعوا . وحذف بعضهم منه الطاء فقال : ٱستاع يستيع بمعنى ٱستطاع يستطيع ، وهى لغة مشهورة . وقرأ حمزة وحده « فما ٱسطّاعوا » بتشديد الطاء كأنه أراد ٱستطاعوا ، ثم أدغم التاء فى الطاء فشدّدها ، وهى قراءة ضعيفة الوجه ؛ قال أبو على : هى غير جائزة[(١)] . وقرأ الأعمش « فَمَا ٱسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً » بالتاء فى الموضعين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى ﴾ القائل ذو القرنين ، وأشار بهذا إلى الردم ، والقوّة عليه ، والانتفاع به فى دفع ضرر يأجوج ومأجوج . وقرأ ابن أبى عَبْلة « هذه رحمةٌ مِن ربى » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أى يوم القيامة . وقيل : وقت خروجهم . ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أى مستويا بالأرض ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ » قال ابن عرفة : أى جعلت مستوية لا أكمة فيها ، ومنه قوله تعالى : « جعله دكا » قال اليزيدى : أى مستويا ؛ يقال : ناقة دكاء إذا ذهب سنامها . وقال القتبى : أى جعله مدكوكا ملصقا بالأرض . وقال الكلبى : قطعا متكسرا ؛ قال :

* هل غيرُ غادٍ دَكَّ غارا فانهدم *

---

(١) وقال النحاس : لا يقدر أحد أن ينطق بها ؛ لأن السين ساكنة والطاء المدغمة ساكنة ، وقال سيبويه : هذا محال .

وقال الأزهري : يقال دككته أي دققته . ومن قرأ « دَكَّاءَ » أراد جعل الجبل أرضا دكاء، وهي الرابية التي لا تبلغ أن تكون جبلا وجمعها دكاوات . قرأ حمزة وعاصم والكسائي « دكاء » بالمدّ على التشبيه بالناقة الدكاء، وهي التي لا سنام لها، وفي الكلام حذف تقديره : جعله مثل دكاء؛ ولا بدّ من تقدير هذا الحذف . لأن السدّ مذكر فلا يوصف بدكاء . ومن قرأ « دَكًّا » فهو مصدر دَكَّ يدك إذا هدم ورضّ؛ ويحتمل أن يكون « جعل » بمعنى خلق . وينصب « دَكًّا » على الحال . وكذلك النصب أيضا في قراءة من مدّ يحتمل الوجهين .

قوله تعالى : وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ الضمير في « تركنا » لله تعالى؛ أي تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض . وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج « يومئذ » أي وقت كمال السدّ يموج بعضهم في بعض . وٱستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردّد بعضهم في بعض ، كالمولهين من همّ وخوف ؛ فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض . وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم ٱنفتاح السدّ يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم .

قلت : فهذه ثلاثة أقوال، أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول؛ لأنه تقدّم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ تقدّم في « الأنعام »(١) . ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ يعني الجن والإنس في عرصات القيامة . ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي أبرزناها لهم . ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ . ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ في موضع خفض نعت « للكافرين » . ﴿ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أي هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى . ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة من صمّ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ظن . وقرأ عليّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن « أَفَحَسْبُ » بإسكان السين وضم الباء؛ أي كفاهم . ﴿ أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ يعني عيسى والملائكة وعزيرا . ﴿ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ ولا أعاقبهم ؛ ففي الكلام حذف . وقال الزجاج : المعنى؛ أفحسبوا أن ينفعهم ذلك . ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَزْنًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا » — الآية — فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد هنا الكفر . روى البخاري عن مصعب قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

سألت أبى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » أهم الحَرُورِيّة ؟ قال : لا ؛ هم اليهود والنصارى . أما اليهود فكذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ؛ والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ؛ وكان سعد يسميهم الفاسقين . والآية معناها التوبيخ ؛ أى قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيرى : يخيب سعيهم وآمالهم غدا ؛ فهم الأخسرون أعمالا ، وهم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ فى عبادة من سواى . قال ابن عباس : يريد كفار أهل مكة . وقال علىّ : هم الخوارج أهل حروراء . وقال مَرّة : هم الرهبان أصحاب الصوامع . وروى أن ابن الكواء سأله عن الأخسرين أعمالا فقال له : أنت وأصحابك . قال ابن عطية : ويضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبعث والنشور ، وإنما هذه صفة مشركى مكة عبدة الأوثان ؛ وعلىّ وسعد رضى الله عنهما ذكرا أقواما أخذوا بحظهم من هذه الآية . و « أعمالا » نصب على التمييز . و « حبِطت » قراءة الجمهور بكسر الباء . وقرأ ابن عباس « حبَطت » بفتحها .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ قراءة الجمهور « نقيم » بنون العظمة . وقرأ مجاهد بياء الغائب ؛ يريد فلا يقيم الله عز وجل . وقرأ عبيد بن عمير « فلا يقوم » ويلزمه أن يقرأ « وزن » وكذلك قرأ مجاهد « فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ » . قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة .

قلت : هذا لا يقال مثله من جهة الرأى ، وقد ثبت معناه مرفوعا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنه ليأتى الرجلُ العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا إن شئتم « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » " . والمعنى أنهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حسنة لهم توزن فى موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو فى النار . وقال أبو سعيد الخدرى : يؤتى بأعمال

بجبال تهامة فلا تزن شيئا . وقيل : يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة؛ كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ؛ والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه ذمّ السِّمن لمن تكلّفه، لما فى ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم؛ بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسِّمن . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السَّمين " . ومن حديث عمران بن حُصَين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم قرنى ثم الذين يلونهم — قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة — ثم إن من بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون ويخونون ولا يُؤتمنون ويَنذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السِّمن " وهذا ذمّ . وسبب ذلك أن السِّمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشَّرَه، والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة فى الحرام، وكل لحم تولد عن سحت فالنار أولى به ؛ وقد ذمّ الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم بتنعمهم فى كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان، والقيام بوظائف الإسلام ؟! ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائما، وليله نائما . وقد مضى فى « الأعراف »(١) هذا المعنى؛ وتقدّم فيها ذكر الميزان(٢)، وأن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة . وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمش(٣) ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة : " تضحكون من ساق توزن بعمل أهل الأرض " فدل هذا على أن الأشخاص توزن؛ ذكره الغزنوى .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴾ « ذلك » إشارة إلى ترك الوزن، وهو فى موضع رفع بالابتداء « جزاؤهم » خبره و﴿ جَهَنَّمُ ﴾ بدل من المبتدإ الذى هو « ذلك » و « ما » فى قوله : ﴿ بِمَا كَفَرُوا ﴾ مصدرية، والهزء الاستخفاف والسخرية؛ وقد تقدّم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) حمش الساق : دقيقها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها . وقال أبو أمامة الباهلى : الفردوس سرة الجنة . وقال كعب : ليس فى الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس ؛ فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها " قالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال : "إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة — أراه قال — وفوقه عرش الرحمن ومنه تَفجّر أنهار الجنة " وقال مجاهد : والفردوس البستان بالرومية . الفراء : هو عربى . والفردوس حديقة فى الجنة . وفردوس اسم روضة دون اليمامة . والجمع فراديس، قال أمية بن أبى الصلت الثقفى :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً * فيها الفَرَاديسُ والفومانُ والبصلُ

والفراديس موضع بالشام . وكَرْمٌ مُفَرْدَس أى مُعرَّش . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى دائمين . ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أى لا يطلبون تحويلا عنها إلى غيرها . والحول بمعنى التحويل ؛ قاله أبو علىّ . وقال الزجاج : حال من مكانه حِولًا كما يقال : عَظُم عِظَمًا . قال : ويجوز أن يكون من الحيلة، أى لا يحتالون منزلا غيرها . قال الجوهرى : التحول التنقل من موضع إلى موضع، والاسم الحول، ومنه قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ نفد الشىء إذا تم وفرغ ؛ وقد تقدّم . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ أى زيادة على البحر عددا أو وزنا . وفى مصحف أبىّ « مِدَاداً » وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد . وانتصب « مددا » على التمييز أو الحال . وقال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » قالوا : وكيف وقد أوتينا التوراة ، ومن

أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فنزلت « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ » الآية . وقيل : قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح ؟ ! فقال الله تعالى قل : وإن أوتيت القرآن وأوتيتم التوراة فهى بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة . قال ابن عباس : « كَلِمَاتُ رَبِّي » أى مواعظ ربى . وقيل : عنى بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى ، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فوائد الكلمات ، ولأنه ينوب منابها ، فجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيما ؛ وقال الأعشى :

ووجهٌ نقيُّ اللون صافٍ يَزِينُهُ ۞ مع الجيدِ لَبَّاتٌ لها ومَعَاصِمُ

فعبر باللّبات عن اللبة . وفى التنزيل « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » و « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » وكذلك « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » لأنه ناب مناب أمة . وقيل : أى ما نفدت العبارات والدلالات التى تدل على مفهومات معانى كلامه سبحانه وتعالى . وقال السدىّ : أى إن كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنة التى هى دار الثواب . وقال عكرمة : لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال لا إله إلا الله . ونظير هذه الآية « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ » . وقرأ حمزة والكسائىّ « قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ » بالياء لتقدّم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى لا أعلم إلا ما يعلّمنى الله تعالى ، وعلم الله تعالى لا يحصى ، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله . ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أى يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ قال ابن عباس : نزلت فى جُنْدُب بن زهير العامرىّ ، قال : يا رسول الله إنى أعمل العمل لله تعالى ، وأريد وجه الله تعالى ، إلا أنه إذا اطّلع عليه سَرَّنِى ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الله طيّبٌ ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شُورِكَ فيه " فنزلت الآية . وقال طاوس قال رجل : يا رسول الله ! إنى أحب الجهاد فى سبيل الله تعالى وأحب أن يُرى مكانى فنزلت

هذه الآية . وقال مجاهد : جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إنى أتصدق وأصل الرَّحِم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك منّى وأُحمَد عليه فيسرّنى ذلك وأُعجَب به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا ، فأنزل الله تعالى « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : والكل مراد ، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال . وقد تقدّم فى سورة « هود »[1] حديث أبى هريرة الصحيح فى الثلاثة الذين يقضى عليهم أوّل الناس . وقد تقدّم فى سورة « النساء »[2] الكلام على الرياء ، وذكرنا من الأخبار هنالك ما فيه كفاية . وقال الماوردى وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : « وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » إنه لا يرائى بعمله أحدا . وروى الترمذى الحكيم رحمه الله تعالى فى « نوادر الأصول » قال : حدّثنا أبى رحمه الله تعالى قال : حدّثنا مكى بن إبراهيم قال : حدّثنا عبد الواحد آبن زيد عن عبادة بن نُسَىّ قال : اتيت شداد بن أوس فى مصلاه وهو يبكى ، فقلت : ما الذى أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، إذ رأيت بوجهه أمرا ساءنى فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما الذى أرى بوجهك ؟ قال : "أمرا أتخوفه على أمتى من بعدى" قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : "الشرك والشهوة الخفية" قلت : يا رسول الله ! وتشرك أمتك من بعدك؟ قال : "يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكنهم يراءون بأعمالهم" قلت : والرياء شرك هو؟ قال : "نعم" . قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : "يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر" قال عبد الواحد : فلقيت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ! أخبرنى عن الرياء أشرك هو؟ قال : نعم ، أما تقرأ « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » . وروى إسمعيل بن إسحق قال حدثنا محمد بن أبى بكر قال حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال : كان عبادة بن الصامت وشداد

(١) راجع ج ٩ ص ١٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٥ ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ابن أوس جالسين، فقالا : إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء . وقالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من صلى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صياما يرائي به فقد أشرك" ثم تلا « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه في « النساء »(١) . وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ولا تحب أن تكتم سيئاتك، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » الآية؛ يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم؛ وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا؛ قيل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء . وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم : وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به؛ كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي : منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم؛ فقال يا أبا عبد الله سألناك عن مسئلة فأجبتنا عن مسئلتين . وحكى الأصمعي أن أعرابيا صلى فأطال وإلى جانبه قوم، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟ ! فقال : وأنا مع ذلك صائم . أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف، فقيل له إنك خففت؛ فقال : إنه لم يخالطها رياء؛ فخلص من تنقصهم بنفي الرياء عن نفسه، والتصنع من صلاته؛ وقد تقدم في « النساء »(٢) دواء الرياء من قول لقمان؛ وأنه كتمان العمل . وروى الترمذي الحكيم حدثنا أبي رحمه الله تعالى قال : أنبأنا الحماني قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال أبو بكر وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك، قال : "هو فيكم أخفى من دبيب النمل

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨١ طبعة أولى أو ثانية .　　(٢) راجع جـ ٥ ص ١٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات". وقال عمرو بن قيس الكندى سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ » فقال : إنها لآخر آية نزلت من السماء . وقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أوحى إلى أنه من قرأ « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » رفع له نور ما بين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له " . وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء " وعن ابن عباس أنه قال له رجل : إنى أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبنى النوم ، فقال : إذا أردت أن تقوم أى ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي » إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل؛ ذكر هذه الفضائل الثعلبي رضى الله تعالى عنه . وفى مسند الدرامى أبى محمد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عن عبدة عن زر بن حبيش قال : من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها ؛ قال عبدة فجربناه فوجدناه كذلك . قال ابن العربى : كان شيخنا الطُّرْطُوشِيّ الأكبر يقول : لا تذهب بكم الأزمان فى مصاولة الأقران ، ومواصلة الإخوان ؛ وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهى مكية بإجماع . وهى تسعون وثمان آيات

ولما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشى ، وابعثوا إليه رجلين من ذوى رأيكم لعله يعطيكم مَنْ عنده من قريش ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر ؛ فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله

ابن أبي ربيعة، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعثهما، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْرِيّ، وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم «كٓهيعٓصٓ» وقاموا تفيض أعينهم من الدمع، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». وقرأ إلى قوله: «الشاهدين». ذكره أبو داود. وفي السيرة؛ فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: اقرأه عليّ. قال: فقرأ «كٓهيعٓصٓ» فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم؛ فقال النجاشي: هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا؛ وذكر تمام الخبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ تقدم الكلام في أوائل السور (1) . وقال ابن عباس في « كٓهيعٓصٓ » : إن الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق؛ ذكره ابن عزيز القشيري عن ابن عباس؛ معناه كافٍ لخلقه، هاد لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق في وعده؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسدي ومجاهد والضحاك . وقال الكلبي أيضا : الكاف من كريم وكبير وكافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من رحيم، والعين من عليم وعظيم، والصاد من صادق؛ والمعنى واحد . وعن ابن عباس أيضا : هو اسم من أسماء الله تعالى؛ وعن عليّ رضي الله عنه هو اسم الله عز وجل وكان يقول : يا كهيعص ٱغفر لي؛ ذكره الغزنوي . السدي : هو اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب . قتادة : هو اسم من أسماء القرآن؛ ذكره عبد الرزاق عن مَعْمَر عنه . وقيل : هو اسم للسورة؛ وهو ٱختيار القشيري في أوائل الحروف؛ وعلى هذا قيل : تمام الكلام عند قوله : « كهيعص » كأنه إعلام باسم السورة، كما تقول : كتاب كذا أو باب كذا ثم تشرع في المقصود . وقرأ ابن جعفر هذه الحروف متقطعة، ووصلها الباقون، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وٱبن عامر وحمزة بالعكس، وأمالها جميعا الكسائي وأبو بكر وخلف . وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة نافع وغيره . وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف، وحكى غيره أنه كان يضم ها، وحكى إسمعيل بن إسحق أنه كان يضم يا . قال أبو حاتم : ولا يجوز ضم الكاف والهاء والياء؛ قال النحاس : قراءة أهل المدينة

(1) راجع جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

من أحسن ما فى هذا، والإمالة جائزة فى ها ويا . وأما قراءة الحسن فأشكلت على جماعة حتى قالوا : لا تجوز؛ منهم أبو حاتم . والقول فيها ما بيّنه هرون القارئ؛ قال : كان الحسن يشم الرفع؛ فمعنى هذا أنه كان يومئ؛ كما حكى سيبويه أن من العرب من يقول : الصلاة والزكاة يومئ إلى الواو، ولهذا كتبها فى المصحف بالواو . وأظهر الدال من هجاء « ص » نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب، وهو آختيار أبي عبيد، وأدغمها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ فى رفع « ذكر » ثلاثة أقوال؛ قال الفراء : هو مرفوع بـ«كهيعص» ؛ قال الزجاج : هذا محال؛ لأن « كهيعص » ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكريا ، وقد خبّر الله تعالى عنه وعن ما بشّر به ، وليس « كهيعص » من قصته . وقال الأخفش : التقدير؛ فيما يقص عليكم ذكر رحمة ربك . والقول الثالث : أن المعنى هذا الذى يتلوه عليكم ذكر رحمة ربك . وقيل : «ذكر رحمة ربك» رفع بإضمار مبتدإ؛ أى هذا ذكر رحمة ربك ؛ وقرأ الحسن « ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » أى هذا المتلو من القرآن ذَكَّر رحمة ربك . وقرئ « ذَكِّرْ » على الأمر . « ورحمة » تكتب ويوقف عليها بالهاء، وكذلك كل ما كان مثلها ، لا اختلاف فيها بين النحويين ، واعتلوا فى ذلك أن هذه الهاء لتأنيث الأسماء فرقا بينها وبين الأفعال .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ عَبْدَهُ ﴾ قال الأخفش : هو منصوب بـ«رحمة» . «زكريا» بدل منه؛ كما تقول : هذا ذكر ضرب زيد عمرا؛ فعمرا منصوب بالضرب ، كما أن « عبده » منصوب بالرحمة . وقيل : هو على التقديم والتأخير؛ معناه : ذكر ربك عبده زكريا برحمة ؛ فـ«عبده» منصوب بالذكر؛ ذكره الزجاج والفراء . وقرأ بعضهم « عَبْدُهُ زَكَرِيَّا » بالرفع ؛ وهى قراءة أبى العالية . وقرأ يحيى بن يعمر « ذَكَرَ » بالنصب على معنى هذا القرآن ذَكَرَ رحمة عبده زكريا . وتقدمت اللغات والقراءة فى « زكريا » فى « آل عمران »(١) .

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ مثل قوله : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » وقد تقدّم (١) . والنداء الدعاء والرغبة؛ أي ناجى ربه بذلك في محرابه . دليله قوله : « فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ » فبيّن أنه استجاب له في صلاته، كما نادى في الصلاة . وآختلف في إخفائه هذا النداء؛ فقيل : أخفاه من قومه لئلا يلام على مسئلة الولد عند كبر السن؛ ولأنه أمر دنيوي، فإن أجيب فيه نال بغيته، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد . وقيل : مخلصا فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى . وقيل : لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه . وقيل : « خَفِيًّا » سرًّا من قومه في جوف الليل؛ والكل محتمل والأوّل أظهر؛ والله أعلم . وقد تقدّم أن المستحب من الدعاء الإخفاء في سورة « الأعراف » (٢) وهذه الآية نص في ذلك؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا . وروى إسمعيل قال حدّثنا مسدد قال حدّثنا يحيى بن سعيد عن أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن وهو آبن أبي كبشة عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن خير الذكر الخفيّ وخير الرزق ما يكفي" وهذا عام . قال يونس بن عبيد : كان الحسن يرى أن يدعو الإمام في القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت، وتلا يونس « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » . قال آبن العربي : وقد أسر مالك القنوت وجهر به الشافعي، والجهر به أفضل؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو به جهرا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ » قرئ « وَهَنَ » بالحركات الثلاث أي ضعف . يقال : وَهَنَ يَهِنُ وَهْنًا إذا ضعف فهو واهنٌ . وقال أبو زيد يقال : وَهَنَ يَهِنُ وَوَهِنَ يَوْهَنُ . وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشدّ ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

منه . ووحّده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام، وأشدّ ماتركّب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصد إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .

الثانيــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أدغم السين فى الشين أبو عمرو . وهـذا من أحسن الاستعارة فى كلام العرب . والاشتعال انتشار شعاع النار؛ شبه به انتشار الشيب فى الرأس ؛ يقول : شخت وضعفت؛ وأضاف الاشتعال إلى مكان الشعر ومَنْبِته وهو الرأس . ولم يُضف الرأس ٱكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام . « وشيبا » فى نصبه وجهان : أحدهما ـــ أنه مصدر لأن معنى ٱشتعل شاب ؛ وهذا قول الأخفش . وقال الزجاج : وهو منصوب على التمييز . النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل فالمصدر أولى به . والشيب مخالطة الشعر الأبيض الأسود .

الثالثــة ـــ قال العلماء : يستحب للمرء أن يذكر فى دعائه نِعَم الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع ؛ لأن قوله تعالى : « وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى » إظهار للخضوع . وقـوله : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّـا » إظهار لعادات تفضـله فى إجابته أدعيتـه؛ أى لم أكن بدعائى إياك شـقيا ؛ أى لم تكن تخيب دعائى إذا دعوتك ؛ أى إنك عودتنى الإجابة فيما مضى . يقال : شقى بكذا أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده . وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال : أنا الذى أحسنتَ إليه فى وقت كذا؛ فقال : مرحبا بمن توسل بنا إلينا؛ وقضى حاجته .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّـا ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : « وإنى خِفْتُ الموالِىَ » قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على وعلى ابن الحسين رضى الله تعالى عنهما ويحيى بن يعمر « خَفَّتِ » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وسكون الياء من «الموالى» لأنه فى موضع رفع «بخفت» ومعناه انقطعت بالموت . وقرأ الباقون « خِفْتُ » بكسر الخـاء وسكون الفاء وضم التـاء ونصب الياء من « ٱلْمَـوَٰلِىَ » لأنه

فى موضـع نصب بـ«خفت» . و «الموالى» هنا الأقارب و بنو العم والعصـبة الذين يلونه فى النسب . والعرب تسمى بنى العم الموالى؛ قال الشاعر[(١)] :

مَهْلاً بَنِي عَمِّنَا مَهْـلاً مَوَالِينَا * لا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا ما كان مَدْفُونَا

قال ابن عباس ومجاهـد وقتادة : خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فأشفق أن يرثه غير الولد . وقالت طائفـة : إنما كان مواليـه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب وليا يقوم بالدين بعـده؛ حكى هذا القول الزجاج؛ وعليه فلم يسل من يرث ماله؛ لأن الأنبياء لا تُورَث . وهذا هو الصحيح من القولين فى تأويل الآية، وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العـلم والنبوة لا وراثة المـال؛ لمـا ثبت عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "إنا معشر الأنبيـاء لا نورث ما تركنا صـدقة" وفى كتاب أبى داود : "إن العلمـاء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما ورَّثُوا العلم" . وسيأتى فى هذا مزيد بيان عند قوله : «يرثنى» .

الثانيـــة ـــ هذا الحديث يدخل فى التفسـير المسند؛ لقوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ وعبارة عن قول زكريا : «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» وتخصيص للعموم فى ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالاً خلّفه داود بعده؛ و إنما ورث منه الحكمة والعلم ، وكذلك ورث يحيي من آل يعقوب ؛ هكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، وإلا ما روى عن الحسن أنه قال: «يرثنى» مالاً «ويرث من آل يعقوب» النبوّة والحكمة؛ وكل قول يخالف قول النبي صـلى الله عليه وسـلم فهو مدفوع مهجور؛ قاله أبو عمـر . قال ابن عطيـة : والأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثة المـال؛ ويحتمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنا معشر الأنبياء لا نورث" ألا يريد به العموم ، بل على أنه غالب أمرهم؛ فتأمله . والأظهر الأليق بزكريا عليـه السلام أن يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة . ألا ترى أنه لمـا طلب وليا ولم يخصص ولدا بلّغه الله تعالى أمله على أكمل الوجوه . وقال أبو صالح وغيره : قوله «من آل يعقوب» يريد العلم والنبوة .

(١) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب؛ وهو من شعراء بنى هاشم فى عهد بنى أمية .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ وَرَائِي ﴾ قرأ ابن كثير بالمدّ والهمز وفتح الياء، وعنه أنه قرأ أيضا مقصورا مفتوح الياء مثل عصاىَ . الباقون بالهمز والمدّ وسكون الياء . والقراء على قراءة «خِفت» مثل نِمت إلا ما ذكرنا عن عثمان . وهي قراءة شاذة بعيدة جدا؛ حتى زعم بعض العلماء أنها لا تجوز . قال كيف يقول : خَفَّتِ الموالى من بعدى أى من بعد موتى وهو حىّ؟ ! . النحاس : والتأويل لها ألا يعنى بقوله : « من ورائى » أى من بعد موتى ، ولكن من ورائى فى ذلك الوقت؛ وهذا أيضا بعيد يحتاج إلى دليل أنهم خفّوا فى ذلك الوقت وقلّوا، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكثرة حين قالوا : « أيهم يكفل مريم » . ابن عطية : « من ورائى » من بعدى فى الزمن ، فهو الوراء على ما تقدّم فى « الكهف »(١) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ امرأته هى إيشاع بنت فاقوذا ابن قبيل، وهى أخت حنة بنت فاقوذا؛ قاله الطبرىّ . وحنة هى أم مريم حسب ما تقدم فى « آل عمران »(٢) بيانه . وقال القتبى : امرأة زكريا هى إيشاع بنت عمران ، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة . وعلى القول الآخر يكون ابن خالة أمه . وفى حديث الإسراء قال عليه الصلاة والسلام : " فلقيت ابنى الخالة يحيى وعيسى " شاهدا للقول الأوّل(٣) . والله أعلم . والعاقر التى لا تلد لكبر سنها ؛ وقد مضى بيانه فى « آل عمران »(٤) . والعاقر من النساء أيضا التى لا تلد من غير كبر . ومنه قوله تعالى : « وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا » . وكذلك العاقر من الرجال؛ ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إنْ كنتُ أعورَ عاقراً ❊ جبانا فما عُذْرِى لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ سؤال ودعاء . ولم يصرح بولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة . قال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة . مقاتل : خمس وتسعين سنة؛ وهو أشبه؛ فقد كان غالب على ظنه أنه لا يولد له لكبره؛ ولذلك قال : « وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا » . وقالت طائفة : بل طلب الولد،

(١) راجع ص ٣٤ وما بعدها من هذا الجزء .　(٢) راجع جـ ٤ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) المراد بالقول الأول هنا قول القتبى .　(٤) راجع جـ ٤ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ثم طلب أن تكون الإجابة فى أن يعيش حتى يرثه ، تحفظا من أن تقع الإجابة فى الولد ولكن يُخْتَرم ، ولا يتحصل منه الغرض .

السادسة — قال العلماء : دعاء زكريا عليه السلام فى الولد إنما كان لإظهار دينه ، وإحياء نبوّته ، ومضاعفة لأجره لا للدنيا ، وكان ربه قد عوّده الإجابة ، ولذلك قال : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى بدعائى إياك . وهذه وسيلة حسنة ؛ أن يتشفّع إليه بنعمه ، يستدر فضله بفضله ؛ يروى أن حاتم الجود لقيه رجل فسأله ؛ فقال له حاتم : من أنت ؟ قال : أنا الذى أحسنتَ إليه عام أول ؛ فقال : مرحبا بمن تشفّع إلينا بنا . فإن قيل : كيف أقدم زكريا على مسئلة ما يخرق العادة دون إذن ؟ فالجواب أن ذلك جائز فى زمان الأنبياء . وفى القرآن ما يكشف عن هذا المعنى ؛ فإنه تعالى قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فلما رأى خارق العادة استحكم طمعه فى إجابة دعوته ؛ فقال تعالى : « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » الآية .

السابعة — إن قال قائل : هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد ، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد ، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك ؛ فقال : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » . وقال : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » . فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ما تقدّم فى « آل عمران »[1] بيانه . ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال : « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقال : « وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » . والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه فى الدنيا والآخرة ، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدّ المسرة والنعمة . وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم لأنس خادمه فقال : " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته " فدعا له بالبركة تحرزا مما يؤدّى إليه الإكثار من الهلكة . وهكذا فليتضرع العبد إلى مولاه فى هداية ولده ، ونجاته فى أولاه وأخراه اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء ؛ وقد تقدم فى « آل عمران »[2] بيانه .

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَرِثُنِي » قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة « يَرِثُنِي وَيَرِثُ » بالرفع فيهما . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما ، وليس هما جواب « هب » على مذهب سيبويه ، إنما تقديره إن تهبه يرثني ويرث ؛ والأول أصوب فى المعنى لأنه طلب وارثا موصوفا ؛ أى هب لى من لدنك الولى الذى هذه حاله وصفته ، لأن الأولياء منهم من لا يرث ؛ فقال : هب لى الذى يكون وارثى ؛ قاله أبو عبيد ؛ ورد قراءة الجزم ؛ قال : لأن معناه إن وهبت ورث ، وكيف يخبر الله عز وجل بهذا وهو أعلم به منه ؟ ! النحاس : وهذه حجة متقصاة ؛ لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة ؛ تقول : أطع الله يدخلك الجنة ؛ أى إن تطعه يدخلك الجنة .

الثانية — قال النحاس : فأما معنى « يرثنى ويرث من آل يعقوب » فللعلماء فيه ثلاثة أجوبة ؛ قيل : هى وراثة نبوة . وقيل : هى وراثة حكمة . وقيل : هى وراثة مال . فأما قولهم وراثة نبوة فمحال ؛ لأن النبوة لا تورث ، ولو كانت تورث لقال قائل : الناس ينتسبون إلى نوح عليه السلام وهو نبى مرسل . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن ؛ وفى الحديث "العلماء ورثة الأنبياء" . وأما وراثة المال فلا يمتنع ، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبى صلى الله عليه وسلم : "لا نورث ما تركنا صدقة" فهذا لا حجة فيه ؛ لأن الواحد يخبر عن نفسه بإخبار الجمع . وقد يُؤوّل هذا بمعنى : لا نُورث الذى تركناه صدقة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخلّف شيئا يورث عنه ؛ وإنما كان الذى أباحه الله عز وجل إياه فى حياته بقوله تبارك اسمه : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » لأن معنى « لله » لسبيل الله ، ومن سبيل الله ما يكون فى مصلحة الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام حيا ؛ فإن قيل : ففى بعض الروايات "إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة" ففيه التأويلان جميعا ؛ أن يكون « ما » بمعنى الذى . والآخر لا يورث من كانت هذه حاله . وقال أبو عمر : وٱختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام : "لا نورث ما تركنا صدقة" على قولين : أحدهما — وهو

الأكثر وعليه الجمهور — أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث وما ترك صدقة . والآخر — أن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث؛ لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة فى فضيلته، كما خُصَّ فى النكاح بأشياء أباحها له وحرمها على غيره؛ وهذا القول قاله بعض أهل البصرة منهم ابن عُلَيّة، وسائر علماء المسلمين على القول الأول .

الثالثة — قوله تعالى : « مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » قيل : هو يعقوب إسرائيل، وكان زكريا متزوجا بأخت مريم بنت عمران، و يرجع نسبها إلى يعقوب؛ لأنها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هرون أخى موسى، وهرون وموسى من ولد لاوى بن يعقوب، وكانت النبوّة فى سبط يعقوب بن إسحق . وقيل : المعنىُّ بيعقوب هاهنا يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبى مريم أخوان من نسل سليمان بن داود عليهما السلام؛ لأن يعقوب وعمران ابنا ماثان، وبنو ماثان رؤساء بنى إسرائيل؛ قاله مقاتل وغيره . وقال الكلبي : وكان آل يعقوب أخواله، وهو يعقوب بن ماثان، وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولد هرون بن عمران أخى موسى . وروى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يرحم الله — تعالى — زكريا ما كان عليه من ورثته" . ولم ينصرف يعقوب لأنه أعجمى .

الرابعة — قوله تعالى : « وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيا فى أخلاقه وأفعاله . وقيل : راضيا بقضائك وقدرك . وقيل : رجلا صالحا ترضى عنه . وقال أبو صالح : نبيا كما جعلت أباه نبيا .

قوله تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا ﴾ فى الكلام حذف؛ أى فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى ﴾ فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء : أحدها — إجابة دعائه وهى كرامة . الثانى — إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث — أن يفرد بتسميته؛ وقد تقدّم معنى تسميته فى « آل عمران »(1) . وقال مقاتل : سماه يحيى لأنه حَيِيَ بين أب شيخ وأم عجوز؛ وهذا فيه نظر؛ لما تقدم من أن امرأته كانت عقيما لا تلد . والله أعلم .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٧٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى لم نسمّ أحدا قبل يحيى بهذا الاسم؛ قاله ابن عباس وقتادة وابن أسلم والسدى . ومَنَّ عليه تعالى بأن لم يَكِل تسميته إلى الأبوين . وقال مجاهد وغيره : « سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا، وهو مثل قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا كأنه من المساماة والسمو؛ وهذا فيه بعد؛ لأنه لا يفضّل على إبراهيم وموسى؛ اللهم إلا أن يفضّل فى خاص كالسؤدد والحصر حسب ما تقدّم بيانه «فى آل عمران». وقال ابن عباس أيضا : معناه لم تلد العواقر مثله ولدا . وقيل : إن الله تعالى اشترط القَبْلَ، لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وفى هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسامى السُّنُع(1) جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية لكونها أنبه وأنزه عن النبز حتى قال قائل :

سُنُعُ الأسامى مُسْبِلِى أُزُرٍ * حُمْرٍ تَمَسُّ الأرضَ بالهُدُبِ

وقال رؤبة للنسابة البكرى وقد سأله عن نسبه : أنا ابن العجّاج؛ فقال : قَصَّرتَ وعَرَّفتَ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ ﴾ ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير . وقيل : غير هذا مما تقدّم فى « آل عمران »(2) بيانه . ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ يعنى النهاية فى الكبر واليبس والجفاف؛ ومثله العُسِى؛ قال الأصمعىّ : عَسَا الشىءُ يعسو عُسُوًّا وعَسَاء ممدود أى يبِس وصَلُب ، وقد عسا الشيخُ يعسو عُسِيّا وَلَّى وكَبِر مثل عَتَا؛ يقال : عَتَا الشيخُ يَعتو عُتيا وعِتيًّا كبر وولّى ، وعتوت يا فلان تعتو عتوا وعتيا . والأصل عتو لأنه من ذوات الواو، فأبدلوا من الواو ياء؛ لأنها أختها وهى أخفّ منها، والآيات على الياءات، ومن قال : « عِتِيًّا » كره الضمة مع الكسرة والياء؛ وقال الشاعر :

إنما يُعذَرُ الوليدُ ولا يُعْ * ذَرُ من كان فى الزّمان عِتِيًّا

---

(1) الجميلة . (2) راجع جـ ٤ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

وقرأ ابن عباس «عُسِيًّا» وهو كذلك فى مصحف أبىّ . وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وحفص «عِتِيًا» بكسر العين وكذلك «جِثِيًا» و «صِلِيًا» حيث كنّ . وضم حفص «بُكِيًّا» خاصة ، وكذلك الباقون فى الجميع ، وهما لغتان . وقيل : «عِتِيًا» قَسِيًّا ؛ يقال : ملك عاتٍ إذا كان قاسى القلب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى قال له الملَك «كذلك قال ربك» والكاف فى موضع رفع ؛ أى الأمر كذلك ؛ أى كما قيل لك : «هو على هين» . قال الفراء : خَلْقه علىّ هيّن . ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل يحيى . وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ» بنون وألف بالجمع على التعظيم . والقراءة الأولى أشبه بالسواد . ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أى كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئا موجودا ، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي آيَةً ﴾ طلب آية على حملها بعد بشارة الملائكة إياه ، وبعد قوله تعالى : «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا» زيادة طمأنينة ؛ أى تمم النعمة بأن تجعل لى آية ، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة . وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى منه بيحيى لا من الشيطان ؛ لأن إبليس أوهمه ذلك . قاله الضحاك وهو معنى قول السدى ؛ وهذا فيه نظر لإخبار الله تعالى بأن الملائكة نادته حسب ما تقدّم فى «آل عمران» . ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ تقدّم فى «آل عمران»(1) بيانه فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ» أى أشرف عليهم من المصلى . والمحراب أرفع المواضع ، وأشرف المجالس ، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ٱرتفع من الأرض ؛ دليله محراب داود عليه السلام على ما يأتى . وٱختلف الناس فى اشتقاقه ؛ فقالت فرقة :

(1) راجع جـ ٤ ص ٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

هو مأخوذ من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان والشهوات . وقالت فرقة : هو مأخوذ من الحَرَب (بفتح الراء) كأن ملازمه يلقى منه حربا وتعبا ونصبا .

الثانيــة — هذه الآية تدل على أن ٱرتفاع إمامهم على المأمومين كان مشروعا عندهم في صلاتهم . وقـد ٱختلف في هذه المسئلة فقهاء الأمصار ، فأجاز ذلك الإمام أحمد وغيره متمسكا بقصـة المنبر . ومنع مالك ذلك في الأرتفاع الكثير دون اليسير ، وعَلَّل أصحـابه المنع بخوف الكِبْر على الإمام .

قلت : وهذا فيه نظر ؛ وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام أن حذيفة أَمَّ الناس بالمدائن على دكان ، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه ، فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن هـذا — أو — يُنهَى عن ذلك ! قال : بلى ؛ قد ذكرت حين مددتني . وروى أيضا عن عدى بن ثابت الأنصارى قال : حدّثني رجل أنه كان مع عمـار بن ياسر بالمدائن ، فأقيمت الصلاة فتقدّم عمار بن ياسر ، وقام على دكان يصلى والناس أسفل منه ، فتقدّم حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمـار حتى أنزله حذيفة ، فلما فرغ عمـار من صلاته ، قال له حذيفة : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا أَمَّ الرجلُ القوم فلا يقم في مكان أرفعَ من مقامهم" أو نحو ذلك ؛ فقال عمّار : لذلك اتبعتك حين أخذت على يدى .

قلت : فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهى عن ذلك ، ولم يحتج أحد منهم على صاحبه بحديث المنبر فدل على أنه منسوخ . ومما يدل على نسخه أن فيـه عملا زائدا في الصلاة ، وهو النزول والصعود ، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام . وهذا أولى مما ٱعتذر به أصحابنا من أن النبي صلى الله عليـه وسلم كان معصوما من الكِبْر ؛ لأن كثيرا من الأئمة يوجد لا كِبْرَ عندهم . ومنهم من علله بأن ارتفاع المنبر كان يسيرا ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » قال الكلبي وقتادة وابن منبه : أوحى إليهم أشار . القتبي : أومأ . مجاهد : كتب على الأرض . عكرمة : كتب في كتاب . والوحى في كلام العرب الكتابة ؛ ومنه قول ذى الرُّمَّة :

سوى الأربع الدُّهْم اللواتى كأنَّها * بَقِيَّةُ وَحْيٍ فى بُطونِ الصَّحَائف

وقال عَنْترة :

كوحيِ صحائفٍ من عهد كسرى * فأهداها لأعجمَ طِمْطِمِيِّ (١)

و « بكرة وعشيا » ظرفان . وزعم الفراء أن العشى يؤنث ويجوز تذكيره إذا أبهمتَ؛ قال : وقد يكون العشىّ جمع عشية .

الرابعــة — قد تقدّم الحكم فى الإشارة فى « آل عمران (٢) » . واختلف علماؤنا فيمن حلف ألا يكلم إنسانا فكتب إليه كتابا، أو أرسل إليه رسولا؛ فقال مالك : إنه يحنث إلا أن ينوى مشافهته، ثم رجع فقال : لا ينوى فى الكتاب ويحنث إلا أن يرتجع الكتاب قبل وصوله . قال ٱبن القاسم : إذا قرأ كتابه حنث ، وكذلك لو قرأ الحالف كتاب المحلوف عليه . وقال أشهب : لا يحنث إذا قرأه الحالف؛ وهذا بيّن؛ لأنه لم يكلمه ولا ٱبتدأه بكلام، إلا أن يريد ألا يعلم معنى كلامه فإنه يحنث وعليه يخرج قول ابن القاسم . فإن حلف ليكلمنه لم يبرّ إلا بمشافهته؛ وقال ابن الماجشون : وإن حلف لئن علم كذا ليُعلِمنّه أو ليُخبِرنّه فكتب إليه أو أرسل إليه رسولا برّ؛ ولو علماه جميعا لم يبر، حتى يُعلِمه لأن علمهما مختلف .

الخامســة — وٱتفق مالك والشافعى والكوفيون أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه؛ قال الكوفيون : إلا أن يكون رجلٍ أُصمِت أياما فكتب لم يجز من ذلك شىء . قال الطحاوى : الخرس مخالف للصمت العارض، كما أن العجز عن الجماع العارض لمرض ونحوه يوما أو نحوه مخالف للعجز المأيوس منه الجماع، نحو الجنون فى باب خيار المرأة فى الفرقة .

قوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ فى الكلام حذف؛ المعنى فولد له ولد وقال الله تعالى للولود : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . وهذا اختصار يدل الكلام عليه . و « الكتاب » التوراة بلا خلاف . « بقوة » أى بجد وٱجتهاد؛ قاله مجاهد . وقيل : العلم به ، والحفظ له والعمل به ، وهو الالتزام لأوامره ، والكفّ عن نواهيه؛ قاله زيد بن أسلم؛ وقد تقدّم

(١) الطمطمى : الأعجم الذى لا يفصح . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانيـة .

فى « البقرة »(١) . ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ قيل: الأحكام والمعرفة بها . وروى مَعْمَر أن الصبيان قالوا ليحيى : آذهب بنا نلعب؛ فقال : ما للعب خلقت . فأنزل الله تعالى « وآتيناه الحكم صبيا » . وقال قتادة : كان آبن سنتين أو ثلاث سنين . وقال مقاتل : كان آبن ثلاث سنين . و « صبيا » نصب على الحال . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتى الحكم صبيا . وروى فى تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذَنْب إلا ما كان من يحيى بن زكريا" . وقال قتادة : إن يحيى عليه السلام لم يعص الله قط بصغيرة ولا كبيرة ولا هَمَّ بآمرأة . وقال مجاهد : وكان طعام يحيى عليه السلام العشب ، وكان للدمع فى خدّيه مجار ثابتة . وقد مضى الكلام فى معنى قوله : « وَسَيِّدًا وَحَصُورًا » فى « آل عمران »(٢) .

قوله تعالى : « وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا » «حنانا» عطف على «الحكم» . وروى عن آبن عباس أنه قال : والله ما أدرى ما « الحنان » ؟ . وقال جمهور المفسرين : الحنان الشفقة والرحمة والمحبة؛ وهو فعل من أفعال النفس . النحاس : وفى معنى الحنان عن آبن عباس قولان : أحدهما — قال : تعطّف الله عز وجل عليه بالرحمة . والقول الآخر ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك . وأصله من حنين الناقة على ولدها . ويقال : حنانك وحنانيك؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : حنانيك تثنية الحنان . وقال أبو عبيدة : والعرب تقول : حنانك يا رب وحنانيك يارب بمعنى واحد؛ تريد رحمتك . وقال آمرؤ القيس :

وَيَمْنَحُها بَنُو شَمَجَى بن جَرْمٍ * مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنَانِ(٣)

وقال طرفة :

أبا مُنْذِرٍ أفنيتَ فآستبقِ بَعْضَنَا * حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ

وقال الزمخشرى : « حنانا » رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفا وشفقة؛ وأنشد سيبويه :

فقالتْ حَنَانٌ ما أَتَى بكَ هَاهُنَا * أَذُو نَسَبٍ أَمْ أنت بالحَيِّ عارِفُ

(١) راجع ج ١ ص ٤٣٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٤ ص ٨٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) (حنانك ذا الحنان) معناه : رحمتك يا رحمن .

قال ابن الأعرابى : الحنّان من صفة الله تعالى مشددا الرحيم . والحنَان مخفف : العطف والرحمة . والحنان : الرزق والبركة . ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضا ما عظم من من الأمور فى ذات الله تعالى ؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل فى حديث بلال : والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حَنَانا ؛ وذكر هذا الخبر الهروى" ؛ فقال : وفى حديث بلال ومر عليه ورقة بن نوفل وهو يعذَّب فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذنه حَنَانا ؛ أى لأتمسحن به . وقال الأزهرى : معناه لأتعطفن عليه ولأترحمن عليه لأنه من أهل الجنة .

قلت : فالحنان العطف ، وكذا قال مجاهد . و « حنانا » أى تعطفا منا عليه أو منه على الخلق ؛ قال الحطيئة :

تَحنّنْ علىَّ هَـدَاكَ المليكْ * فإنّ لكلِّ مقـامٍ مَقَالَا

عكرمة : محبة . وحَنَّة الرجل امرأته لتوادهما ؛ قال الشاعر :

فقالتْ حنـانٌ ما أتَى بكَ هاهنا * أذو نسبٍ أم أنتَ بالحيّ عارفُ

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ « الزكاة » التطهير والبركة والتنمية فى وجوه الخير والبر ؛ أى جعلناه مباركا للناس يهديهم . وقيل : المعنى زكيناه بحسن الثناء عليه كما تزكى الشهود إنسانا . وقيل : « زكاة » صدقة به على أبويه ؛ قاله ابن قتيبة . ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أى مطيعا لله تعالى ، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلِمّ بها .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ البر بمعنى البار وهو الكثير البرّ . و ﴿ جَبَّاراً ﴾ متكبرا . وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح .

قوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ قال الطبرى وغيره : معناه أمان . ابن عطية : والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة فهى أشرف وأنبه من الأمان ؛ لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه وهى أقل درجاته ، وإنما الشرف فى أن سلم الله عليه ، وحياه فى المواطن التى الإنسان فيها فى غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول .

قلت : وهذا قول حسن، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عيينة في سورة « سبحان »(١) عند قتل يحيى . وذكر الطبري عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا — وهما ابنا الخالة — فقال يحيى لعيسى : ادع الله لي فأنت خير مني؛ فقال له عيسى : بل أنت ادع الله لي فأنت خير مني؛ سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي؛ فانتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى؛ بأن قال : إدلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه . قال ابن عطية : ولكل وجه .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ القصة إلى آخرها . هذا ٱبتداء قصة ليست من الأولى . والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرِّفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا . ﴿ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ ﴾ أى تنحت وتباعدت . والنبذ الطرح والرمى؛ قال الله تعالى : « فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » . ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ أى ممن كان معها . و « إذ » بدل من « مريم » بدل اشتمال ؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها . والانتباذ الاعتزال والانفراد . وٱختلف الناس لم ٱنتبذت؛ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله؛ وهذا حسن . وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلو للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام . فقوله : ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى مكانا من جانب الشرق . والشَّرْق بسكون الراء المكان الذى تشرق فيه الشمس . والشَّرَق بفتح الراء الشمس . و إنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها ؛ حكاه الطبرى . وحكى عن ٱبن عباس أنه قال : إنى لأعلم الناس لم ٱتخذ النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله عز وجل : « إذ ٱنتبذت من أهلها مكانا شرقيا » فٱتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة ؛ وقالوا : لو كان شيء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه . وٱختلف الناس فى نبوّة مريم؛ فقيل : كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك . وقيل : لم تكن نبية و إنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما رؤى جبريل فى صفة دِحْية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام . والأول أظهر . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى مستوفى فى « آل عمران »(1) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ قيل : هو روح عيسى عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فركب الروح فى جسد عيسى عليه السلام الذى خلقه فى بطنها . وقيل : هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة . والظاهر أنه جبريل عليه

(1) راجع جـ ٤ ص ٨٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

السلام؛ لقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أي تمثل الملك لها . ﴿ بَشَرًا ﴾ تفسير أو حال . ﴿ سَوِيًّا ﴾ أي مستوى الخلقة؛ لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل في صورته . ولما رأت رجلا حسن الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء فـ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أي ممن يتق الله . البِكالي : فنكص جبريل عليه السلام فزعا من ذكر الرحمن تبارك وتعالى . الثعلبي : كان رجلا صالحا فتعوذت به تعجبا . وقيل : تقي فعيل بمعنى مفعول أي كنت ممن يُتَّقى منه . في البخاري قال أبو وائل : علمت مريم أن التقي ذو نُهْيَةٍ حين قالت : « إن كنت تقيا » . وقيل : تقي اسم فاجر معروف في ذلك الوقت؛ قاله وهب بن منبه؛ حكاه مكي وغيره . ٱبن عطية : وهو ضعيف ذاهب مع التخرص . فقال لها جبريل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله . وقرأ ورش عن نافع « لِيَهَبَ لَكِ » على معنى أرسلني الله ليهب لك . وقيل : معنى « لأهب » بالهمز محمول على المعنى؛ أي قال : أرسلته لأهب لك . ويحتمل « ليهب » بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة . فلما سمعت مريم ذلك من قوله ٱستفهمت عن طريقه فـ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ أي بنكاح . ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي زانية . وذكرت هذا تأكيدا؛ لأن قولها لم يمسسني بشر يشمل الحلال والحرام . وقيل : ما ٱستبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد؟ من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ٱبتداء؟ وروي أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكمها؛ قاله ٱبن جريج . ابن عباس : أخذ جبريل عليه السلام رُدْن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . قال الطبري : وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع ٱثنتين وثلاثين سنة وأياما، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها نيفا وخمسين سنة . وقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي ونخلقه لنجعله : ﴿ آيَةً ﴾ دلالة على قدرتنا عجيبة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به . ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ مقدرا في اللوح مسطورا .

قوله تعالى : ﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ أى تنحت بالحمل إلى مكان بعيد؛ قال ابن عباس : إلى أقصى الوادى، وهو وادى بيت لحم بينه و بين إيلياء أربعة أميال؛ و إنما بعدت فرارا من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج . قال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت فى الحال وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل . وقيل : غير ذلك على ما يأتى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ «أجاءها» اضطرها؛ وهو تعدية جاء بالهمز . يقال : جاء به وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال : ذهب به وأذهبه . وقرأ شبيل وروى عن عاصم « فاجأها » من المفاجأة . وفى مصحف أُبَىّ « فلما أجاءها المخاض » . وقال زهير :

وَجَارٍ سَارَ معتمدًا إلينا * أَجَاءَتْهُ المخافَةُ والرَّجاءُ

وقرأ الجمهور « المَخَاضُ » بفتح الميم . وابن كثير فيما روى عنه بكسرها وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها . مَخِضت المرأة تَمْخَض مَخَاضا ومِخَاضا . وناقة ماخض أى دنا ولادها . « إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ » كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق . والجذع ساق النخلة اليابسة فى الصحراء الذى لا سعف عليه ولا غصن؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة . ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ تمنت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين : أحدهما — أنها خافت أن يظن بها الشر فى دينها وتعير فيفتنها ذلك . الثانى — لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك . وعلى هذا الحد يكون تمنى الموت جائزا، وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة « يوسف »(١) عليه السلام . والحمد لله .

قلت : وقد سمعتُ أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول : اخرج يا من يُعبَد من دون الله فحزنت لذلك، و﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾ . النِّسى فى كلام العرب الشيء الحقير الذى شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه .

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

وحكى عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا : آحفظوا أنساءكم؛ الأنساء جمع نِسى وهو الشيء الحقير يغفل فينسى . ومنه قول الكميت رضى الله تعالى عنه :

أتجعلنا جِسْراً لكلبٍ قُضَاعةً * ولستُ بِنِسْيٍ فى مَعَدٍّ ولا دَخَل

وقال الفراء : النّسى ما تلقيه المرأة من خِرَق آعتلالها؛ فقول مريم : «نسيا منسيا» أى حيضة ملقاة . وقرئ « نَسْيًا » بفتح النون وهما لغتان مثل الحِجْر والحَجْر والوِتْر والوَتْر . وقرأ محمد بن كعب القرظى بالهمز « نِسْئًا » بكسر النون . وقرأ نوف البِكَالىّ « نَسْئًا » بفتح النون من نسأ الله تعالى فى أجله أى أخره . وحكاها أبو الفتح والدّانى عن محمد بن كعب . وقرأ بكر بن حبيب « نَسًّا » بتشديد السين وفتح النون دون همز . وقد حكى الطبرى فى قصصها أنها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضا أختها بيحيى ، فجاءتها أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ؛ فذلك أنه روى أنها أحست بجنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم ؛ قال السدى فذلك قوله : « مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » . وذكر أيضا من قصصها أنها خرجت فارّة مع رجل من بنى إسرائيل يقال له يوسف النجار ، كان يخدم معها فى المسجد وطوّل فى ذلك . قال الكلبى : قيل ليوسف — وكانت سميت له أنها حملت من الزنى — فالآن يقتلها الملك ، فهرب بها ، فهمّ فى الطريق بقتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : إنه من روح القدس؛ قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف . وهذه القصة تقتضى أنها حملت ، وآستمرت حاملا على عرف النساء، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر . قاله عكرمة؛ ولذلك قيل : لا يعيش آبن ثمانية أشهر حفظا لخاصة عيسى . وقيل : ولدته لتسعة . وقيل : لستة . وما ذكرناه عن آبن عباس أصح وأظهر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ قرئ بفتح الميم وكسرها . قال ابن عباس : المراد بـ « من » جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة؛ ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التى لله فيها مراد عظيم . وقوله :

﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ تفسير النداء ؛ « وأَنْ » مفسرة بمعنى أى؛ المعنى : فلا تحزنى بولادتك . ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ يعنى عيسى . والسرىّ من الرجال العظيم الخصال السيّد . قال الحسن : كان والله سريًّا من الرجال . ويقال : سَرِى فلان على فلان أى تكرم . وفلان سرىٌّ من قوم سَرَاة . وقال الجمهور : أشار لها إلى الجدول الذى كان قريب جذع النخلة . قال ابن عباس : كان ذلك نهرا قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم . والنهر يسمى سَرِيًّا لأن الماء يسرى فيه؛ قال الشاعر :

سَلْمٌ تَرَى الدَّالِيَّ منه أَزْوَرَا * إذا يَعُبُّ فى السَّرِىِّ هَرْهَرَا (١)

وقال لبيد :

فتوسَّطا عُرْضَ السَّرِىِّ وصَدَّعَا (٢) * مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَّامُها

وقيل : ناداها عيسى، وكان ذلك معجزة وآية وتسكينا لقلبها؛ والأول أظهر . وقرأ ابن عباس « فناداها ملك من تحتها » قالوا : وكان جبريل عليه السلام فى بقعة من الأرض أخفض من البقعة التى كانت هى عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَهُزِّى » أمرها بهزّ الجذع اليابس لترى آية أخرى فى إحياء موات الجذع . والباء فى قوله : « بجذع » زائدة مؤكدة كما يقال : خذ بالزمام، وأعط بيدك؛ قال الله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ » أى فليمدد سببا . وقيل : المعنى؛ وهزى إليك رطبا على جذع النخلة . « وتَسَّاقَطْ » أى تتساقط فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة « تَسَاقَطْ » مخففا فحذف التى أدغمها غيره . وقرأ عاصم فى رواية حفص « تُسَاقِطْ » بضم التاء مخففا وكسر القاف . وقرئ « تَتَسَاقَطْ » بإظهار التاءين و « يَسَّاقَطْ » بالياء وإدغام التاء « وتُسْقِط »

(١) السلم : الدلو التى لها عرقوة واحدة كدلو السقائين . والدالى : المستق بالدلو . والهرهرة : صوت الماء إذا جرى . (٢) أى شق العير والأتان النبت الذى على الماء . ومسجورة : عين مملوءة . والمتجاور المتقارب والقلام : نبت؛ وقيل : هو القصب . والبيت من معلقته .

و « يُسْقِط » و « تَسقط » و « يَسقط » بالتاء للنخلة و بالياء للجذع ؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري رحمة الله تعالى عليه . « رطبا » نصب بالهز؛ أي إذا هززت الجذع هززت بهزه « رطبا جنيا » . وعلى الجملة فـ « رطبا » يختلف نصبه بحسب معاني القراءات؛ فمرة يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى النخلة . « وجنيا » معناه قد طابت وصلحت للاجتناء، وهي من جنيت الثمرة . ويروى عن ابن مسعود — ولا يصح — أنه قرأ « تساقط عليك رطبا جنيا بَرْنِيًّا (١) » . وقال مجاهد : « رطبا جنيا » قال : كانت عجوة . وقال عباس بن الفضل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله : « رطبا جنيا » فقال : لم يذو . قال وتفسيره : لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدي مجتنيه؛ وهذا هو الصحيح . قال الفراء : الجنيّ والمجنيّ واحد؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القتيل والمقتول والجريح والمجروح . وقال غير الفراء : الجنيّ المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته؛ وأنشدوا :

وطيب ثمار في رياضٍ أريضةٍ * وأغصان أشجارٍ جَنَاها على قُرْبِ

يريد بالجَنَى ما يجنى منها أي يقطع و يؤخذ . قال ابن عباس : كان جذعا نخرا فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثم اخضر فصار بلحا ثم احمر فصار زَهْوا، ثم رطبا؛ كل ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شيء .

الثانية — استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما؛ فإن الله تعالى قد وَكَل ابن آدم إلى سعي مّا فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهز .

الثالثة — الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك لا يقدح في التوكل، خلافا لما تقوله جهال المتزهدة؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه . وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

---

(١) البرني : ضرب من التمر أصفر مدور، وهو أجود التمر؛ واحدته برنية .

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا » الآية . فلما ولدت أمرت بهز الجذع . قال علماؤنا : لما كان قلبها فارغا فرغ الله جارحتها عن النصب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب فى عباده . وحكى الطبرى عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها : لا تحزنى؛ فقالت له وكيف لا أحزن وأنت معى ؟ ! لا ذات زوج ولا مملوكة ! أى شئ عذرى عند الناس؟ ! « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا »، فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

الرابعة — قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندى خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ؛ ولذلك قالوا : التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك . وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل؛ ذكره الزمخشرى . قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى : « رطبا جنيا » الجنىّ من التمر ما طاب من غير نَقْش ولا إفساد . والنَّقْش أن يُنَقَش من أسفل البسرة حتى ترطب؛ فهذا مكروه؛ يعنى مالك أن هذا تعجيل للشىء قبل وقته، فلا ينبغى لأحد أن يفعله، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوّزا لبيعه ؛ ولا حُكْمًا بطيبه . وقد مضى هذا القول فى الأنعام (١) . والحمد لله . عن طلحة بن سليمان « جِنِيًّا » بكسر الجيم للإتباع؛ أى جعلنا لك فى السرى والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب، الثانية سلوة الصدر؛ لكونهما معجزتين؛ وهو [معنى] (٢) قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أى فكلى من الجنىّ، واشربى من السرى، وقرى عينا برؤية الولد النبىّ . وقرئ بفتح القاف وهى قراءة الجمهور . وحكى الطبرىّ قراءة « وَقِرِّى » بكسر القاف وهى لغة نجد . يقال : قَرَّ عينا يَقُر ويَقِر بضم القاف وكسرها؛ وأقر الله عينه فقرت . وهو مأخوذ من القُر والقِرة وهما البَرْد . ودمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة . وضعّف فرقة هذا وقالت : الدمع كله حار، فمعنى أقر الله عينه أى سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقر وتسكن؛ وفلان قُرة عينى؛ أى

(١) راجع جـ ٧ ص ٠ ٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من الكشاف للزمخشرى .

نفسي تسكن بقربه . وقال الشيباني : « وقرّى عينا » معناه نامى؛ حضها على الأكل والشرب والنوم . قال أبو عمرو : أقرّ الله عينه أي أنام عينه ، وأذهب سهره . و « عينا » نصب على التمييز؛ كقولك : طب نفسا . والفعل في الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذى العين؛ وينصب الذى كان فاعلا في الحقيقة على التفسير . ومثله طبت نفسا ، وتفقأت شحما ، وتصببت عرقا ، ومثله كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ » الأصل في ترين ترأيين[1] فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار « تريين » ، ثم قلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التأنيث ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار تَرَيْنَ ، ثم حذفت النون علامة للجزم لأن إن حرف شرط وما صلة فبقى تَرَيْ ، ثم دخله نون التوكيد وهي مثقلة ، فكسر ياء التأنيث لالتقاء الساكنين ؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار تَرَيِنَّ وعلى هذا النحو قول ابن دريد :

* إما تَرَيْ رأسيَ حاكَى لونُهُ[2] *

وقول الأفوه : * إما تَرَيْ رأسيَ أَزْرَى به[3] *

وإنما دخلت النون هنا بتوطئة « ما » كما يوطّئ لدخولها أيضا لام القسم . وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « تَرَيْنَ » بسكون الياء وفتح النون خفيفة؛ قال أبو الفتح : وهي شاذة .

الثانية — قوله تعالى : « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ » هذا جواب الشرط وفيه إضمار؛ أي فسألك عن ولدك « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا » أي صمتا؛ قاله ابن عباس وأنس ابن مالك . وفي قراءة أبيّ بن كعب « إِنِّي نَذَرْتُ لِلرحمن صَوْمًا صَمْتًا » . وروى عن أنس .

(١) أي قبل التوكيد ودخول الجازم ، وهي بوزن تمنعين .

(٢) تمامه : * طرة صبح تحت أذيال الدجى *

(٣) تمامه : * مأس زمان ذى انتكاس مئوس *

وعنه أيضا « وصمتا » بواو، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيرا لا قرآنا؛ فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم . والذى تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث و رواة اللغة أن الصوم هو الصمت؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام . وقيل : هو الصوم المعروف، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة . وعلى هذا تخرج قراءة أنس « وصمتا » بواو، وأن الصمت كان عندهم فى الصوم ملتزما بالنذر، كما أن من نذر منا المشى إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالحج أو العمرة . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام — أو ابنها على الخلاف المتقدم — بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها فى ذلك ليرتفع عنها خجلها، وتتبين الآيةُ فيقوم عذرها . وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التى فى الآية، وهو قول الجمهور . وقالت فرقة : معنى « قولى » بالإشارة لا بالكلام . الزمخشرى : وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها .

الثالثة — من التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين فيحتمل أن يقال إنه قُربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال : ذلك لا يجوز فى شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام فى الشمس ونحوه . وعلى هذا كان نذر الصمت فى تلك الشريعة لا فى شريعتنا؛ وقد تقدّم . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام . وهذا هو الصحيح لحديث أبى إسرائيل، خرجه البخارى عن ٱبن عباس (١) . وقال ٱبن زيد والسدى : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام .

قلت : ومن سنتنا نحن فى الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام : "إذا كان أحدكم صائما فلا يَرفُث ولا يجهل فإن ٱمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم" . وقال عليه الصلاة والسلام : "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه" .

(١) الحديث كما فى البخارى عن ابن عباس قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم و يصوم؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه" .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ روى أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصى الذى كانت انتبذت فيه. قال ابن عباس: خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله، فكان الحمل والولادة فى ثلاث ساعات من النهار. وقال الكلبي: ولدت حيث لم يشعر بها قومها، ومكثت أربعين يوما للنفاس، ثم أتت قومها تحمله، فلما رأوها ومعها الصبي حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين؛ فقالوا منكرين: ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى جئت بأمر عظيم كالآتى بالشيء يفتريه. قال مجاهد: « فريا » عظيما. وقال سعيد بن مسعدة: أى مختلقا مفتعلا؛ يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد. والولد من الزنى كالشيء المفترَى. قال الله تعالى: « وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ » أى بولد بقصد إلحاقه بالزوج وليس منه. يقال: فلان يفرى الفرِيّ أى يعمل العمل البالغ، وقال أبو عبيدة: الفريّ العجيب النادر؛ وقاله الأخفش. قال: فريا عجيبا. والفَرْى القطع كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع القول بكونه عجيبا نادرا. وقال قطرب: الفرى الجديد من الأسقية؛ أى جئت بأمر جديد بديع لم تسبقى إليه. وقرأ أبو حيوة: «شَيْئًا فَرْيًا» بسكون الراء. وقال السدى ووهب بن منبه: لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونساؤهم، فمدّت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحُملت كذلك. وقال آخر: ما أراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى؛ فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها، وجعلوا يخفضون إليها القول ويلينون؛ فقالوا: «يا مريم لقد جئت شيئا فريا» أى عظيما؛ قال الراجز(١):

(١) هو زرارة بن صعب بن دهر يخاطب العامرية، وكان قد خرج معها فى سفر يمتارون من اليمامة فلما امتاروا وصدروا جعل زرارة بن صعب يأخذه بطنه، فكان يتخلف خلف القوم فقالت العامرية:

لقد رأيت رجلا دهريا * يمشى وراء القوم سيتهيا

* كأنه مضطغن صبيا *

تريد أنه امتلأ بطنه؛ فأجابها زرارة بالأبيات. و « هجريا » منسوب إلى هجر اليمامة وهو قصبتها.

قد أطعمتني دَقَلًا حَوْلِيًّا * مُسوِّسًا مُدَوِّدًا حَجْرِيًّا

* قد كنتِ تَفْرِين بِهِ الفَرِيًّا *

أى [تعظمينه][(1)] .

قوله تعالى : ﴿ يَا أُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ آختلف الناس فى معنى هذه الأخوة، ومن هرون؟ فقيل : هو هرون أخو موسى؛ والمراد من كنا نظنها مثل هرون فى العبادة تأتى بمثل هذا . وقيل : على هذا كانت مريم من ولد هرون أخى موسى فنسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده؛ كما يقال للتميمى : يا أخا تميم، وللعربى يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها آسمه هرون؛ لأن هذا الاسم كان كثيرا فى بنى إسرائيل تبركا باسم هرون أخى موسى، وكان أمثل رجل فى بنى إسرائيل؛ قاله الكلبى . وقيل : هرون هذا رجل صالح فى ذلك الزمان تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم اسمه هرون . وقال قتادة : كان فى ذلك الزمان فى بنى إسرائيل عابد منقطع إلى الله عز وجل يسمى هرون فنسبوها إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبلُ؛ إذ كانت موقوفة على خدمة البيع؛ أى ياهذه المرأة الصالحة ما كنت أهلا لذلك . وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : إن مريم ليست بأخت هرون أخى موسى؛ فقالت له عائشة : كذبت . فقال لها : يا أم المؤمنين إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وأخبر، وإلا فإنى أجد بينهما من المدة ستمائة سنة . قال : فسكتت . وفى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمتُ نجران سألونى فقال إنكم تقرءون « يا أخت هرون » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال : " إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم " . وقد جاء فى بعض طرقه فى غير الصحيح أن النصارى قالوا له : إن صاحبك يزعم أن مريم هى أخت هرون وبينهما فى المدة ستمائة سنة؟! قال المغيرة : فلم أدر ما أقول؛ وذكر الحديث . والمعنى أنه اسم وافق اسما . ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء؛ والله أعلم .

---

(1) فى الأصل : « تعلمينه » وهو تحريف .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهرون زمان مديد . الزمخشرى : كان بينهما و بينه ألف سنة أو أكثر فلا يتخيل أن مريم كانت أخت موسى وهرون؛ و إن صح فكما قال السدى لأنها كانت من نسله؛ وهذا كما تقول للرجل من قبيلة: يا أخا فلان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " إن أخا صُداء(١) قد أذّن فمن أذّن فهو يُقيم " وهذا هو القول الأول . ابن عطية : وقالت فرقة بل كان فى ذلك الزمان رجل فاجر آسمه هرون فنسبوها إليه على جهة التعيير والتوبيخ؛ ذكره الطبرى ولم يسمّ قائله .

قلت : ذكره الغزنوى عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقا مثلا فى الفجور فنسبت إليه . والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلا لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها؟! وهذا من التعريض الذى يقوم مقام التصريح . وذلك يوجب عندنا الحدّ وسيأتى فى سورة « النور » القول فيه إن شاء الله تعالى . وهذا القول الأخير يردّه الحديث الصحيح ، وهو نص صريح فلا كلام لأحد معه ، ولا غبار عليه . والحمد لله . وقرأ عمر بن لجأ التّيمىّ «مَا كَانَ أَبَاكِ ٱمْرُؤُ(٢) سَوْءٍ » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد فى هذه الآية أنها نطقت

(١) هو زياد بن الحرث الصدائى ، كان قد أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤذن لصلاة الفجر فأذن فأراد بلال أن يقيم فقال صلى الله عليه وسلم : " إن أخا صداء قد أذن ... " الحديث . (٢) قال فى « البحر » : يجعل الخبر المعرفة والاسم النكرة ، وحسن ذلك قليلا كونها فيها مسوغ جواز الابتداء بالنكرة وهو الإضافة .

بـ « إنى نذرت للرحمن صوما » و إنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهـذا قول من قال : إن أمرها بـ « تقولى » إنما أريد به الإشارة . ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفـل قالوا : آستخفافها بنا أشدّ علينا من زناها ، ثم قالوا لهـا على جهـة التقرير : « كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » و«كان» هنا ليس يراد بها المـاضى ؛ لأن كل واحد قد كان فى المهد صبيا، وإنمـا هى فى معنى هو [الآن](١) . وقال أبو عبيدة : « كان » هنا لغو؛ كما قال(٢) :

* وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ *

وقيل : هى بمعنى الوجود والحـدوث كقوله : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » وقـد تقدّم . وقال ابن الأنبارى : لايجوز أن يقال زائدة وقد نصبت « صبيا » ، ولا أن يقال « كان» بمعنى حدث ، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيـه عن الخبر، تقول : كان الحَرُّ وتكتفى به . والصحيح أن « من » فى معنى الجزاء و « كان » بمعنى يكن؛ التقـدير : من يكن فى المهـد صبيا فكيف نكلمه؟ ! كما تقول : كيف أعطى من كان لايقبل عطية ؛ أى من يكن لايقبل . والمـاضى قد يذكر بمعنى المستقبل فى الجزاء؛ كقوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى إن يشأ يجعل . وتقول : من كان إلىّ منه إحسان كان إليـه منى مثله ، أى من يكن منه إلى إحسان يكن إليه منى مثله . « والمهد » قيل : كان سريرا كالمهد . وقيل : « المهد » هاهنا حجر الأم . وقيل : المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوّم فى المهد لصغره ، فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرقده ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ ﴾ وهى :

الثانيـــة — فقيل : كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه ، وآتكأ على يساره ، وأشار إليهم بسبابته اليمنى ، و «قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ» فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعـالى وربو بيتـه ، ردا على من غلا من بعـده فى شأنه . والكتاب الإنجيل؛ قيل : آتاه فى تلك الحالة الكتاب ، وفهمه وعلمه ، وآتاه النبوّة كما علم آدم

(١) الزيادة من كتب التفسير . (٢) هو الفرزدق ؛ وصدر البيت :

* فكيف إذا رأيت ديار قوم *

الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلى . وهذا فى غاية الضعف على مانبينه فى المسئلة بعد هذا .
وقيل : أى حكم لى بإيتاء الكتاب والنبوة فى الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلا فى الحال؛ وهذا أصح . ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ أى ذا بركات ومنافع فى الدين والدعاء إليه ومعلما له . التُّسْتَرِىّ : وجعلنى آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف . ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى لأؤدّيهما إذا أدركنى التكليف، وأمكننى أداؤهما، على القول الأخير الصحيح . ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فى موضع نصب على الظرف أى دوام حياتى . ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ قال ابن عباس : لما قال « وَبَرًّا بِوَالِدَتِي » ولم يقل بوالدىّ علم أنه شيء من جهة الله تعالى . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ أى متعظما متكبرا يقتل ويضرب على الغضب . وقيل : الجبار الذى لا يرى لأحد عليه حقا قطّ . ﴿ شَقِيًّا ﴾ أى خائبا من الخير . ابن عباس : عاقا . وقيل : عاصيا لربه . وقيل : لم يجعلنى تاركا لأمره فأشقى كما شقى إبليس لما ترك أمره .

الثالثة — قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى فى هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر! أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت . وقد روى فى قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا : إن هذا لأمر عظيم . وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم فى طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان، فكان نطقه إظهار براءة أمه لا أنه كان ممن يعقل فى تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة . ولم يُنقَل أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلى وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته فى صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا ينكتم، وهذا كله مما يدل على فساد القول الأول، ويصرح بجهالة قائله . ويدل أيضا على أنه تكلم فى المهد خلافا لليهود والنصارى . والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تُحَدّ . وإنما صحّ براءتها من الزنى بكلامه فى المهد . ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجبا على الأمم

السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه، ولم ينسخ فى شريعة أمره . وكان عيسى عليه السلام فى غاية التواضع، يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويجلس على التراب، ويأوى حيث جنّه الليل، لا مسكن له، صلى الله عليه وسلم .

الرابعة — الإشارة بمنزلة الكلام، وتفهم ما يُفهم القول . كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال : «فأشارت إليه» وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا : «كيف نكلم» وقد مضى هذا فى «آل عمران»(1) مستوفى .

الخامسة — قال الكوفيون : لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه . وروى مثله عن الشعبى، وبه قال الأوزاعىّ وأحمد وإسحق، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفا، ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة . قالوا : واللعان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع . قال ابن القصار : قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ما عدا العربية، فكذلك إشارة الأخرس . وما ذكروه من الإجماع فى شهادة الأخرس فغلط . وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ . قال ابن المنذر : والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغى أن يكون القذف مثل ذلك . قال المهلب : وقد تكون الإشارة فى كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام، مثل قوله عليه الصلاة والسلام : "بعثت أنا والساعة كهاتين" نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة . وفى إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون فى بعض المواضع أقوى من الكلام . ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ﴾ أى السلامة علىّ من الله تعالى . قال الزجاج : ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن فى الثانية ذكر الألف واللام . وقوله : ﴿ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ يعنى فى الدنيا . وقيل : من همز الشيطان كما تقدم فى «آل عمران»(2) . ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ يعنى

(1) راجع ج ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع ج ٤ ص ٦٨ طبعة أولى أو ثانية .

فى القبر . «وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» يعنى فى الآخرة؛ لأن له أحوالا ثلاثة : فى الدنيا حيا، وفى القبر ميتا، وفى الآخرة مبعوثا؛ فسلم فى أحواله كلها؛ وهو معنى قول الكلبى . ثم انقطع كلامه فى المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان . وقال قتادة : ذكر لنا أن عيسى عليه السلام رأته آمرأة يُحيي الموتى، ويُبرئ الأكمه والأبرص فى سائر آياته فقالت : طوبى للبطن الذى حملك، والثدى الذى أرضعك؛ فقال لها عيسى عليه السلام : طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى وآتبع ما فيه وعمل به .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى : «ذَٰلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ» أى ذلك الذى ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك آعتقدوه، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة، وأنه ابن يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى : إنه الإله أو ابن الإله . «قَوْلُ الْحَقِّ» قال الكسائى : « قَوْلُ الْحَقِّ » نعت لعيسى؛ أى ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق][1] . وسمى قول الحق كما سمى كلمة الله؛ والحق هو الله عز وجل . وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق . وقيل : التقدير هـذا الكلام قول الحق . قال ابن عباس : يريد هذا كلام عيسى صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال : « وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ » أى الوعد الصدق . وقال :

(١) زيادة يقتضيها المقام .

« وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى ولا الدار الآخرة . وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر « قَوْلَ الْحَقِّ » بالنصب على الحال؛ أى أقول قولا حقا . والعامل معنى الإشارة فى « ذلك » . الزجاج : هو مصدر أى أقول قول الحق؛ لأن ما قبله يدل عليه . وقيل : مدح . وقيل : إغراء . وقرأ عبد الله «قَالُ الحقِّ» . وقرأ الحسن «قُولُ الحقِّ» بضم القاف ، وكذلك فى «الأنعام» « قَوْلُهُ الْحَقُّ » . والقَوْلَ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد ، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب . ﴿ الَّذِى ﴾ من نعت عيسى . ﴿ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكون؛ أى ذلك عيسى بن مريم الذى فيه يمترون القول الحق . وقيل : « يمترون » يختلفون . ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » قال : ٱجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا فى عيسى حين رفع ؛ فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية . فقالت الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، قال : هو ٱبن الله وهم النسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، الله إله وهو إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى . قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله و رسوله و روحه وكلمته وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع — على ما قال — فاقتتلوا فظُهِر على المسلمين ، فذلك قول الله تعالى : «وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بِالْقِسطِ من الناس» . وقال قتادة : وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « فَٱختلف الأحزابُ مِنْ بيْنِهِم » اختلفوا فيه فصاروا أحزابا فهذا معنى قوله : « الذى فيه تمترون» بالتاء المعجمة من فوق وهى قراءة أبى عبد الرحمن السُّلَمى وغيره . قال ابن عباس : فمر بمريم ابن عمها ومعها ابنها إلى مصر فكانوا فيها ٱثنتى عشرة سنة حتى مات الملك الذى كانوا يخافونه؛ ذكره الماوردى .

قلت : ووقع فى تاريخ مصر فيما رأيت وجاء فى الإنجيل؛ الظاهر أن السيد المسيح لما ولد فى بيت لحم كان هيرودس فى ذلك الوقت ملكا ، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار

فى الحلم وقال له : قم فخذ الصبي وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، فإن هيرودس مزمع أن يطلب عيسى ليهلكه ، فقام من نومه : وامتثل أمر ربه ، وأخذ السيد المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر ، وفى حال مجيئه إلى مصر نزل ببئر البَلَسان التى بظاهر القاهرة ، وغسلت ثيابه على ذلك البئر ، فالبَلَسان لا يطلع ولا ينبت إلا فى تلك الأرض ، ومنه يخرج الدهن الذى يخالط الزيت الذى تعمّد به النصارى ، ولذلك كانت قارورة واحدة فى أيام المصريين لها مقدار عظيم ، وتقع فى نفوس ملوك النصارى مثل ملك القسطنطينية وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعا جليلا جدا ، وتكون أحبّ إليهم من كل هدية لها قدر . وفى تلك السَّفْرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين[١] وقسقام[٢] المعروفة الآن بالمحرقة[٣] ، فلذلك يعظمها النصارى إلى الآن ، ويحضرون إليها فى عيد الفصح من كل مكان ؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر ، ومنها عاد إلى الشام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أى ما ينبغى له ولا يجوز ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾ «من» صلة للكلام ؛ أى أن يتخذ ولدا . و « أن » فى موضع رفع اسم « كان » أى ما كان لله أن يتخذ ولدا ؛ أى ما كان من صفته اتخاذ الولد ، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالتهم فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أن يكون له ولد . ﴿ إِذَا قَضَى أَمْرًا فإنما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ تقدم فى «البقرة»[٤] مستوفى . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن » وأهل الكوفة « وإن » بكسر الهمزة على أنه مستأنف . تدل عليه قراءة أُبيّ « كُنْ فَيَكُون . إِنَّ اللَّهَ » بغير واو على العطف على « قَالَ إِنِّي عبدُ اللَّهِ » . وفى الفتح أقوال : فمذهب الخليل وسيبويه أن المعنى ؛ ولأن الله ربى وربكم ، وكذا « وأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » فـ « أن » فى موضع نصب عندهما . وأجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض على حذف اللام ، وأجاز أن يكون أيضا فى موضع

(١) الأشمونين : إحدى قرى مركز ملوى .   (٢) قسقام : هى القوصية الآن إحدى قرى مركز منفلوط .

(٣) المحرقة : وتعرف اليوم بالدير المحرق بمركز منفلوط .   (٤) راجع جـ ٢ ص ٨٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خفض بمعنى؛ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا و بأن الله ربى وربكم . وأجاز الكسائى أن يكون فى موضع رفع بمعنى؛ والأمر أن الله ربى وربكم . وفيها قول خامس: حكى أبوعبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى : وقضى أن الله ربى و ربكم؛ فهى معطوفة على قوله : «أمرا» من قوله : «إِذَا قَضَى أَمْرًا» والمعنى إذا قضى أمرا وقضى أن الله . ولا يبتدأ بـ «أن» على هذا التقدير، ولا على التقدير الثالث . و يجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية . ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى دين قويم لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ «من» زائدة؛ أى اختلف الأحزاب بينهم . وقال قتادة : أى ما بينهم . فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى عليه السلام فاليهود بالقدح والسحر . والنصارى قالت النسطورية منهم: هو ابن الله . والملكانية ثالث ثلاثة . وقالت اليعقوبية : هو الله؛ فأفرطت النصارى وغلت، وفرطت اليهود وقصرت . وقد تقدّم هذا فى «النساء»(١) . وقال ابن عباس : المراد من الأحزاب الذين تحزبوا على النبى صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى من شهود يوم القيامة، والمشهد بمعنى المصدر، والشهود الحضور . و يجوز أن يكون الحضور لهم، و يضاف إلى الظرف لوقوعه فيه، كما يقال : و يل لفلان من قتال يوم كذا ؛ أى من حضوره ذلك اليوم . وقيل : المشهد بمعنى الموضع الذى يشهده الخلائق، كالمحشر للموضع الذى يحشر إليه الخلق . وقيل : فو يل للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب؛ فتقول : أسمع بزيد وأبصر بزيد أى ما أسمعه وأبصره . قال : فمعناه أنه عجّب نبيه منهم . قال الكلبى : لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر، حين يقول الله تبارك وتعالى لعيسى : «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» . وقيل: «أسمع»

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بمعنى الطاعة ؛ أى ما أطوعهم لله فى ذلك اليوم . ﴿ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ يعنى فى الدنيا . ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وأىّ ضلال أبين من أن يعتقد المرء فى شخص مثله حملته الأرحام ، وأكل وشرب ، وأحدث واحتاج أنه إله ؟ ! ومن هذا وصفه فهو أصم أعمى ولكنه سيبصر ويسمع فى الآخرة إذا رأى العذاب ، ولكنه لا ينفعه ذلك ؛ قال معناه قتادة وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت فى الجنة فيتحسر عليه . وقيل : تقع الحسرة إذا أعطى كتابه بشماله . « إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ » أى فُرِغ من الحساب ، وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح[(1)] فيوقف بين الجنة والنار فيقال يأهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت — قال — ثم يقال يأهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت — قال — فيؤمر به فيذبح ثم يقال يأهل الجنة خلود فلا موت ويأهل النار خلود فلا موت — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » " خرجه البخارى بمعناه عن ابن عمر ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، والترمذى عن أبى سعيد يرفعه وقال فيه حديث حسن صحيح . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » وبينا هناك أن الكفار مخلدون بهذه الأحاديث والآى ردا على من قال : إن صفة الغضب تنقطع ، وإن إبليس ومن تبعه من الكفرة كفرعون وهامان وقارون وأشباههم يدخلون الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أى نميت سكانها فنرثها . ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازى كلا بعمله ، وقد تقدّم هذا فى « الحجر »[(2)] وغيرها .

---

(1) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده ؛ وقيل النقى البياض .

(2) راجع جـ ١٠ ص ١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ﴾ المعنى : واذكر فى الكتاب الذى أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره . وقد تقدّم معنى الصدّيق فى « النساء »(١) واشتقاق الصدق فى « البقرة »(٢) فلا معنى للإعادة . ومعنى الآية : ٱقرأ عليهم يا محمد فى القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده ، فإنه كان حنيفا مسلما وما كان يتخذ الأنداد ، فهؤلاء لم يتخذون الأنداد ؟ ! وهو كما قال : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ وهو آزر وقد تقدّم(٣) . ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ قد تقدّم القول فيه فى « يوسف »(٤) ﴿ لِمَ تَعْبُدُ ﴾ أى لأى شىء تعبد : ﴿ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٣ طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٤) راجع جـ ٩ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

شَيْئًا ﴾ يريد الأصنام . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ أي من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت ، وأن من عبد غير الله عذب ﴿ فَاتَّبِعْنِي ﴾ إلى ما أدعوك إليه . ﴿ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ أي أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة . ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ أي لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيئا في معصية فقد عبده . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ « كان » صلة زائدة . وقيل: بمعنى صار . وقيل: بمعنى الحال؛ أي هو للرحمن . وعصيا وعاصٍ بمعنى واحد؛ قاله الكسائي . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أي إن متّ على ما أنت عليه . ويكون « أخاف » بمعنى أعلم . ويجوز أن يكون « أخاف » على بابها فيكون المعنى : إني أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب . ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ أي قرينا في النار. ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي أترغب عنها إلى غيرها . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قال الحسن : يعني بالحجارة . الضحاك : بالقول؛ أي لأشتمنك . ابن عباس: لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك . ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ . قال ابن عباس: أي اعتزلني سالم العرض لا يصيبك مني معرة؛ واختاره الطبري، فقوله: « مليا » على هذا حال من إبراهيم . وقال الحسن ومجاهد : « مليا » دهرا طويلا؛ ومنه قول المهلهل :

فَتَصدَّعتْ صُمُّ الجبالِ لموته * وبَكَتْ عليه المُرمِلاتُ مليّاً

قال الكسائي : يقال هجرته مليًّا ومَلْوة ومُلْوة ومَلَاوة ومُلَاوة، فهو على هذا القول ظرف، وهو بمعنى الملاوة من الزمان، وهو الطويل منه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره . والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المتاركة لا التحية؛ قال الطبري : معناه أمنة مني لك . وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام . وقال النقاش : حليم خاطب سفيها؛ كما قال : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . وقال بعضهم في معنى تسليمه : هو تحية مفارق؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها . قيل لابن عيينة : هل يجوز السلام على الكافر؟ قال : نعم؛ قال الله تعالى : « لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين

ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . وقال : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم » الآية؛ وقال إبراهيم لأبيه : « سلام عليك » .

قلت : الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة؛ وفي الباب حديثان صحيحان : روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه" خرجه البخاري ومسلم . وفي الصحيحين عن أسامة ابن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد؛ وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر ، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ الحديث . فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء، لأن ذلك إكرام، والكافر ليس أهله . والحديث الثاني يجوز ذلك . قال الطبري : ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس في أحدهما خلاف للآخر؛ وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص . وقال النخعي : إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه بالسلام؛ فبان بهذا أن حديث أبي هريرة "لا تبدءوهم بالسلام" إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدءوهم بالسلام، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر . قال الطبري : وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب . وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه؛ قال علقمة : فقلت له يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أن يبدءوا بالسلام ؟ ! قال : نعم؛ ولكن حق الصحبة . وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه؛ فقيل له في ذلك فقال : أمرنا أن نفشي السلام . وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه، فقال : إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك ، و إن تركت فقد ترك الصالحون قبلك . وروى عن الحسن البصري أنه قال : إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم .

قلت : وقد احتج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذى معناه التحية إنما خص به هذه الأمة؛ لحديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى أعطى أمتى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهى تحية أهل الجنة" الحديث ؛ ذكره الترمذى الحكيم ؛ وقد مضى فى الفاتحة بسنده . وقد مضى الكلام فى معنى قوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى »(١) . وارتفع السلام بالابتداء، وجاز ذلك مع نكرته لأنه نكرة مخصصة فقربت المعرفة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ : الحفى المبالغ فى البر والإلطاف؛ يقال : حَفِى به وتحفّى إذا برّه . وقال الكسائى يقال : حَفِى بى حَفاوة وحفْوة . وقال الفراء : «إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا » أى عالما لطيفا يجيبنى إذا دعوته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ : العزلة المفارقة وقد تقدم فى « الكهف »(٢) بيانها . وقوله : ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ قيل : أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلا وولدا يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه . ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى آنسنا وحشته بولد ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : « عسى » يدل على أن العبد لا يقطع بأنه يبقى على المعرفة أم لا فى المستقبل . وقيل : دعا لأبيه بالهداية . ف« عسى » شك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ؟ والأول أظهر . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أى أثنينا عليهم ثناء حسنا؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم . واللسان يذكر ويؤنث؛ وقد تقدم(٣) .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

---

(١) راجع ج ١ ص ١٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع ج ٤ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ ﴾ أى وٱقرأ عليهم من القرآن قصة موسى . ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ﴾(١) فى عبادته غير مرائى . وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام؛ أى أخلصناه بجعلناه مختارا . ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ أى كلمناه ليلة الجمعة . ﴿ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أى يمين موسى، وكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر؛ قاله الطبرى وغيره؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال ؛ أى كلمناه من غير وحى . وقيل : أدنيناه لتقريب المنزلة حتى كلمناه . وذكر وكيع وقبيصة عن سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس فى قول الله عز وجل : « وقربناه نجيا » أى أدنى حتى سمع صرير الأقلام . ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ وذلك حين سأل فقال : « وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي » .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ اختلف فيه؛ فقيل : هو إسمعيل ابن حزقيل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضى بثوابه، وفوض أمرهم إليه فى عفوه وعقوبته . والجمهور أنه إسمعيل الذبيح أبو العرب بن إبراهيم . وقد قيل : إن الذبيح إسحق ؛ والأول أظهر على ما تقدم ويأتى فى «والصافات»(٢) إن شاء الله تعالى . وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجودا فى غيره من الأنبياء تشريفا له وإكراما ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصدّيق ؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله .

---

(١) بكسر اللام قراءة «نافع» . (٢) فى تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى ... الخ » . آية ١٠٢

الثانيــة — صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضدّه وهو الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدّم بيـانه فى « براءة »(١) . وقـد أثنى الله تعالى على نبيه إسمعيل فوصفه بصدق الوعد . وٱختلف فى ذلك ؛ فقيل : إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدى . هذا فى قول من يرى أنه الذبيح . وقيل : وعد رجلا أن يلقـاه فى موضع فجاء إسمعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان فى اليوم الآخر جاء ، فقال له : مازلت هاهنا فى انتظارك منذ أمس . وقيل : انتظره ثلاثة أيام . وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسـلم قبل بعثه ؛ ذكره النقـاش وخرجه الترمذى وغيره عن عبـد الله بن أبى الحَمْساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام، فجئت فإذا هو فى مكانه ؛ فقال : "يافتى لقد شققت علىّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك" لفظ أبى داود . وقال يزيد الرقاشى : انتظره إسمعيل اثنين وعشرين يوما ؛ ذكره المـاوردىّ . وفى كتاب ابن سـلام أنه انتظره سنة . وذكره الزمخشرى عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينتظره فى مكان فانتظره سنة . وذكره القشيرى قال : فلم يبرح من مكانه سـنة حتى أتاه جبريل عليه السلام ؛ فقال : إن التـاجر الذى سألك أن تقعـد له حتى يعود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له . وهـذا بعيد ولا يصح . وقد قيل : إن إسمعيل لم يَعِد شيئا إلا وَفَّى به ، وهـذا قول صحيح، وهو الذى يقتضيه ظاهر الآية ؛ والله أعلم .

الثالثـــة — من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "العدة دَيْن" . وفى الأثر "وأْى(٢) المؤمن واجب" أى فى أخلاق المؤمنين . وإنمـا قلنا إن ذلك ليس بواجب فرضا لإجمـاع العلماء على ما حكاه أبو عمر أن من وعد بمـال ما كان لِيَضْرِب به مع الغرماء ؛ فلذلك قلنـا إيجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضى به . والعرب تمتـدح بالوفاء، وتذم بالخلف والغدر، وكذلك سائر الأمم، ولقد أحسن القائل :

متى ما يقـلْ حُرٌّ لصاحبِ حاجـةٍ * نَعَـمْ يقضِها والحـرُّ لِلوأْيِ ضامِن

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الوأى : الوعد .

ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخلف الذم . وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفى بنذره؛ وكفى بهذا مدحا وثناء، وبما خالفه ذما .

الرابعة — قال مالك : إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم، ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى يلزمه . قال مالك : ولو كان ذلك فى قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال نعم، وثَمَّ رجال يشهدون عليه فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه آثنان . وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعيّ والشافعى وسائر الفقهاء : إن العِدة لا يلزم منها شىء لأنها منافع لم يقبضها فى العارية لأنها طارئة، وفى غير العارية هى أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها . وفى البخارى « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ »؛ وقضى ابن أَشْوَع بالوعد وذكر ذلك عن سَمُرة بن جُنْدب . قال البخارى[(١)] : ورأيت إسحق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أَشْوَع .

الخامسة — ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ قيل : أرسل إسمعيل الى جُرْهم . وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخص إسمعيل بالذكر تشريفا له . والله أعلم .

السادسة — ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ قال الحسن : يعنى أمته . وفى حرف ابن مسعود « وكان يأمر أهله جُرْهم وولده بالصلاة والزكاة » . ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ أى رضيا زاكيا صالحا . قال الكسائى والفراء : من قال مرضىّ بناه على رضيت؛ قالا . وأهل الحجاز يقولون : مرضوّ . وقال الكسائى والفراء : من العرب من يقول رِضَوان ورِضَيان[(٢)] فرضوان على مرضوّ، ورِضيان على مرضىّ ولا يجيز البصريون أن يقولوا إلا رِضوان وربوان . قال أبو جعفر النحاس : سمعت أبا إسحق الزجاج يقول : يخطئون فى الخط فيكتبون ربا بالياء ثم يخطئون فيما هو أشدّ من هذا فيقولون ربيان ولا يجوز إلا رِبَوان ورِضَوان؛ قال الله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » .

---

(١) قاله فى « التاريخ الأوسط » كما فى « تهذيب التهذيب » . (٢) أى فى تثنية الرضا .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ إدريس عليه السلام أوّل من خط بالقلم، وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط، وأوّل من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها . وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى . وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر . الزمخشري : وقيل سمي إدريسُ إدريسَ لكثرة درسه كتاب الله تعالى ؛ وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح ؛ لأنه لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا، فامتناعه من الصرف دليل على العجمة ؛ وكذلك إبليس أعجمي وليس من الإبلاس كما يزعمون؛ ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت؛ ومن لم يحقق ولم يتدرّب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات ؛ يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريبا من ذلك فحسبه الراوي مشتقا من الدرس . قال الثعلبي والغزنوي وغيرهما : وهو جدّ نوح وهو خطأ؛ وقد تقدّم في «الأعراف»[(١)] بيانه . وكذا وقع في السيرة أن نوحا عليه السلام بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس النبي فيما يزعمون ؛ والله تعالى أعلم . وكان أوّل من أعطى النبوّة من بني آدم، وخط بالقلم . ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدريّ وغيرهما : يعني السماء الرابعة . وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقاله كعب الأحبار . وقال ابن عباس والضحاك : يعني السماء السادسة؛ ذكره المهدوي .

قلت : ووقع في البخاري عن شريك بن عبد الله بن أبي نَمِر قال سمعت أنس بن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة ، الحديث، وفيه : كل سماء فيها أنبياء — قد سماهم — منهم إدريس في الثانية . وهو وَهَمٌ والصحيح أنه في السماء

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة ؛ كذلك رواه ثابت البُنَانِيّ عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره مسلم فى الصحيح . وروى مالك بن صعصعة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لما عرج بى إلى السماء أتيت على إدريس فى السماء الرابعة " . خرجه مسلم أيضا . وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما : أنه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس ، فقال : يارب أنا مشيت يوما فكيف بمن يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد! اللهم خَفِّف عنه من ثقلها . يعنى الملك الموكل بفلك الشمس ؛ يقول إدريس : اللهم خَفِّف عنه من ثقلها وآحمل عنه من حرها . فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل ما لا يعرف ، فقال : يارب خلقتنى لحمل الشمس فما الذى قضيت فيه؟ فقال الله تعالى : « أما إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته » فقال : يارب آجمع بينى و بينه ، واجعل بينى و بينه خلة . فأذن الله له حتى أتى إدريس ، وكان إدريس عليه السلام يسأله . فقال : أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت ، فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى ، فأزداد شكرا وعبادة . فقال الملك : لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ؛ فقال للملك : قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسى . قال نعم . ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ، ثم قال لملك الموت : لى صديق من بنى آدم تشفّع بى إليك لتؤخر أجله . فقال : ليس ذلك إلىّ ولكن إن أحببت علمه أعلمته متى يموت . قال : « نعم » ثم نظر فى ديوانه ، فقال : إنك تسألنى عن إنسان ما أراه يموت أبدا . قال « وكيف »؟ قال : لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس . قال : فإنى أتيتك وتركته هناك ؛ قال : آنطلق فما أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقى من أجل إدريس شىء . فرجع الملك فوجده ميتا . وقال السدّى : إنه نام ذات يوم ، وآشتدّ عليه حرّ الشمس ، فقام وهو منها فى كرب ؛ فقال : اللهم خفف عن ملك الشمس حرها ، وأعنه على ثقلها ، فإنه يمارس نارا حامية . فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسى من نور ، عنده سبعون ألف ملك عن يمينه ، ومثلها عن يساره يخدمونه ، و يتولون أمره وعمله من تحت حكمه ؛ فقال ملك الشمس : يارب من أين لى هذا ؟ . قال : «دعا لك رجل من بنى آدم يقال له إدريس» ثم ذكر نحو حديث كعب . قال فقال له ملك الشمس : أتريد حاجة ؟ قال : نعم وددت أنى لو رأيت الجنة .

قال : فرفعه على جناحه، ثم طار به، فبينما هو في السماء الرابعة التقى بملك الموت ينظر في السماء، ينظر يمينا وشمالا، فسلم عليه ملك الشمس، وقال : يا إدريس هذا ملك الموت فسلم عليه؛ فقال ملك الموت : سبحان الله ! ولأي معنى رفعته هنا ؟ قال : رفعته لأريه الجنة . قال : فإن الله تعالى أمرني أن أقبض روح إدريس في السماء الرابعة . قلت : يا رب وأين إدريس من السماء الرابعة، فنزلت فإذا هو معك؛ فقبض روحه فرفعها إلى الجنة، ودفنت الملائكة جثته في السماء الرابعة، فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » . قال وهب بن منبه : كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض في زمانه ، فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربه في زيارته فأذن له ، فأتاه في صورة آدمي، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار؛ فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل . ففعل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس؛ وقال له : من أنت ! قال : أنا ملك الموت؛ استأذنت ربي أن أصحبك فأذن لي؛ فقال : إن لي إليك حاجة . قال : وما هي ؟ قال : أن تقبض روحي . فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه؛ فقبضه ورده إليه بعد ساعة، وقال له ملك الموت : ما الفائدة في قبض روحك؟ قال : لأذوق كرب الموت فأكون له أشد استعدادا . ثم قال له إدريس بعد ساعة : إن لي إليك حاجة أخرى . قال : وما هي؟ قال : أن ترفعني إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار؛ فأذن الله تعالى له في رفعه إلى السموات، فرأى النار فصعق، فلما أفاق قال أرني الجنة؛ فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرك . فتعلق بشجرة وقال : لا أخرج منها . فبعث الله تعالى بينهما ملكا حكما، فقال : مالك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وأنا ذقته، وقال : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقد وردتها؛ وقال : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » فكيف أخرج؟ قال الله تبارك وتعالى لملك الموت : « بإذني دخل الجنة وبأمري يخرج » . فهو حي هنالك فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » قال النحاس : قول إدريس « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » يجوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس، ثم نزل القرآن به . قال وهب ابن منبه : فإدريس تارة يرتع في الجنة، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ يريد إدريس وحده . ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ يريد إبراهيم وحده . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريد إسمعيل و إسحق و يعقوب . ﴿ و ﴾ من ذرية ﴿ إِسرائيل ﴾ موسى وهرون وزكريا ويحيي وعيسى . فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسمعيل و إسحق و يعقوب شرف القرب من إبراهيم . ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ أى إلى الاسلام : ﴿ وَاجْتَبَيْنَا ﴾ بالإيمان . ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ ﴾ . وقرأ شبل بن عباد المكى «يتلى» بالتذكير لأن التأنيث غير حقيقى مع وجود الفاصل . ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ وصفهم بالخشوع لله والبكاء . وقد مضى فى « سبحان »(١) . يقال بكى يبكى بكاء وبكًى و بُكِيًّا ، إلا أن الخليل قال : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ؛ أى ليس معه صوت كما قال الشاعر(٢) :

بكت عيني وحُقّ لها بكاها * وما يغني البكاءُ ولا العَوِيلُ

«وسجدا» نصب على الحال «و بكيا» عطف عليه .

الثانيــة — فى هــذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيرا فى القلوب . قال الحسن « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجـدا و بكيا » فى الصلاة . وقال الأصم : المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ، و يبكون عند ذكرها . والمروى عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة ، وأنهم كانوا يسجدون و يبكون

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو عبد الله بن رواحة يبكى حمزة بن عبد المطلب ، رحمه الله وأنشده أبو زيد لكعب بن مالك فى أبيات .

عند تلاوته ؛ قال الكيا : وفى هذا دلالة من قوله على أن القرآن هو الذى كان يتلى على جميع الأنبياء، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصا بإنزاله إليه .

الثالثة — احتج أبو بكر الرازى بهذه الاية على وجوب سجود القرآن على المستمع والقارئ . قال الكيا : وهذا بعيد، فإن هذا الوصف شامل لكل آيات الله تعالى . وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى تعظيمهم لله تعالى وآياته، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند آية مخصوصة .

الرابعة — قال العلماء : ينبغى لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها ، فإن قرأ سورة السجدة « الم تنزيل » قال : اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . وإن قرأ سجدة « سبحان » قال : اللهم اجعلنى من الباكين إليك، الخاشعين لك . وإن قرأ هذه قال : اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك .

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أى أولاد سوء . قال أبو عبيدة : حدّثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي هذه الأمة

أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة زنًى. وقد تقدّم القول فى «خَلْفٌ» فى «الأعراف»(١) فلا معنى للإعادة.

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وقرأ عبد الله والحسن «أَضَاعُوا الصَّلَوَاتِ» على الجمع. وهو ذمّ ونص فى أن إضاعة الصلاة من الكبائر التى يو بق بها صاحبها ولا خلاف فى ذلك. وقد قال عمر : ومن ضيعها فهو لمــا سواها أضيع. واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية؛ فقال مجاهد : النصارى خلفوا بعد اليهود. وقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد أيضا وعطاء : هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان؛ أى يكون فى هذه الأمة من هذه صفته لا أنهم المراد بهــذه الآية. واختلفوا أيضا فى معنى إضاعتها؛ فقــال القرظى : هى إضاعة كفر وجحد بها. وقال القاسم بن مخيمرة، وعبد الله بن مسعود : هى إضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها وهو الصحيح، وأنها إذا صليت مخلًّى بها لا تصح ولا تجزئ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى صــلى وجاء فسلم عليــه "ارجع فصل فإنك لم تصل" ثلاث مرات خرجه مسلم، وقال حذيفة لرجل يصلى فطفّف(٢) : منذ كم تصلى هذه الصلاة؟ قال منذ أربعين عاما. قال : ما صليت، ولو مت وأنت تصلى هذه الصلاة لمت على غير فطــرة محمد صلى الله عليه وســلم. ثم قال : إن الرجل ليخفف الصــلاة و يتم ويحسن. خرجه البخارى واللفظ للنسائى، وفى الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل" يعنى صلبه فى الركوع والسجود؛ قال : حديث حسن صحيح؛ والعمل على هــذا عند أهل العلم من أصحــاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم؛ يرون أن يقيم الرجل صلبه فى الركوع والســجود؛ قال الشافعى وأحمــد و إسحق : من لم يقم صلبه فى الركوع والسجود فصلاته فاســدة؛ قال صلى الله عليه وســلم "تلك الصلاة صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشــيطان قام فنقرها أربعــا لا يذكر الله فيها إلا قليلا". وهــذا ذم لمن يفعل ذلك. وقال فروة بن خالد بن ســنان : استبطأ

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

(٢) أى نقص، والتطفيف يكون بمعنى الزيادة والنقص.

أصحاب الضحاك مرة أميرا فى صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقرأ الضحاك هذه الآية ، ثم قال : والله لأن أدعها أحبّ إلى من أن أضيّعها . وجملة القول فى هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه ، ولا دين لمن لاصلاة له . وقال الحسن : عطلوا المساجد ، واشتغلوا بالصنائع والأسباب . « وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » أى اللذات والمعاصى .

الثالثة — روى الترمذى وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبى أنه أتى المدينة فلقى أبا هريرة فقال له : يافتى ألا أحدّثك حديثا لعل الله تعالى أن ينفعك به ؛ قلت : بلى . قال : "إن أوّل مايحاسَب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته وهو أعلم انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدى من تطوّع فإن كان له تطوّع قال أكملوا لعبدى فريضته من تطوّعه ثم تؤخذ الأعمال على ذلك" . قال يونس : وأحسبه عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لفظ أبى داود . وقال : حدّثنا موسى بن إسمعيل حدّثنا حماد حدّثنا داود بن أبى هند عن زرارة بن أوفى عن تميم الدارىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى . قال : "ثم الزكاة مثل ذلك" "ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك" . وأخرجه النسائى عن همام عن الحسن عن حُرَيث بن قَبِيصة عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر — قال همام : لا أدرى هذا من كلام قتادة أو من الرواية — فإن انتقص من فريضته شىء قال انظروا هل لعبدى من تطوّع فيكمل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك" . خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن أوّل مايحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شىء قال انظروا هل تجدون له من

تطوع يكمل ماضيع من فريضته من تطوعه ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك ". قال النسائى : أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال حدثنا النضر بن شميل قال أنبأنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعمر عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أكملها و إلا قال الله عز وجل آنظروا لعبدى من تطوع فإن وجد له تطوع قال أكملوا به الفريضة " . قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « التمهيد » : أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون — والله أعلم — فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك؛ وأما من تركها، أو نسى ثم ذكرها، فلم يأت بها عامدا، وآشتغل بالتطوع عن أداء فرضها وهو ذاكر له، فلا تكمل له فريضة من تطوعه، والله أعلم . وقد روى من حديث الشاميين فى هذا الباب حديث منكر يرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السَّكُونى عن عبد الله بن قُرْط عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده زيد فيها من تسبيحاته حتى تتم ". قال أبو عمر : وهذا لا يحفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه، وليس بالقوى؛ و إن كان صح كان معناه أنه خرج من صلاة كان قد أتمها عند نفسه وليست فى الحكم بتامة .

قلت : فينبغى للإنسان أن يحسن فرضه ونفله حتى يكون له نفل يجده زائدا على فرضه يقربه من ربه، كما قال سبحانه وتعالى : « وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » الحديث . فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض فحكمه فى المعنى حكم الفرض . ومن لا يحسن أن يصلى الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفل؛ لا جرم تنفل الناس فى أشد ما يكون من النقصان والخلل لخفته عندهم، وتهاونهم به، حتى كأنه غير معتد به . ولعمر الله لقد يشاهد فى الوجود من يشار إليه، ويظن به العلم تنفله كذلك؛ بل فرضه إذ ينقره نقر الديك لعدم معرفته بالحديث؛ فكيف بالجهال الذين لا يعلمون . وقد قال العلماء : ولا يجزئ ركوع ولا سجود، ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدتين، حتى يعتدل راكعا و واقفا

وساجدا وجالسا . وهذا هو الصحيح فى الأثر، وعليــه جمهور العلماء وأهل النظر . وهــذه رواية ابن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) . وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو ؟! بل كل ذلك غير صحيح ولا مقبول؛ لأنه وقع على غير المطلوب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ وعن على رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى: « وٱتبعوا الشهواتِ » هو من بنى [المَشِيد](٢) وركب المنظور، ولبس المشهور .

قلت : الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه . وفى الصحيح : "حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النــار بالشهوات" . وما ذكر عن على رضى الله عنــه جزء من هـــذا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ قال ابن زيد : شرا أو ضلالا أو خيبة، قال(٣) :

فمن يلق خيرا يحمَــد الناس أمره　＊　ومن يَغْوَ لايعدمْ على الغَىِّ لائمــا

وقال عبــد الله بن مسعود : هو وادٍ فى جهنم . والتقدير عند أهل اللغة فسوف يلقون هــذا الغىّ؛ كما قال جل ذكره : « وَمَنْ يَفْعَــلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأظهر أن الغىّ اسم للوادى سمى به لأن الغاوين يصيرون إليــه . قال كعب : يظهر فى آخر الزمان قوم بأيديهم ســياط كأذناب البقر، ثم قرأ « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أى هلاكا وضلالا فى جهنم . وعنه : غىٌّ واد فى جهنم أبعدها قعرا، وأشدّها حرا، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبت جهنم فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بهــا جهنم . وقال ابن عباس : غىٌّ وادٍ فى جهنم ، وأن أودية جهنم لتستعيذ من حره، أعدّ الله تعالى ذلك الوادى للزانى المصر على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذى لا ينزع عنــه ، ولأهل العقوق ، ولشاهــد الزور ، ولامرأة أدخلت على زوجها ولدا ليس منه .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .　　(٢) فى الأصل : «من بنى الشديد» .
(٣) البيت للمرقش كما فى اللسان .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من تضييع الصلاة واتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة ربه . ﴿ وَآمَنَ ﴾ به ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ . قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو و يعقوب وأبو بكر « يُدْخَلُون » بفتح الخاء . وفتح الياء الباقون . ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ أى لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء، إلا أنهم يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبعمائة . ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ بدلا من الجنة فانتصبت . قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز « جَنَّاتُ عَدْنٍ » على الابتداء . قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان « جَنَّةَ عدنٍ » لأن قبله « يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . ﴿ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أى من عبده وحفظ عهده بالغيب . وقيل : آمنوا بالجنة ولم يروها . ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ « مأتيا » مفعول من الإتيان . وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه؛ تقول: أتت علىّ ستون سنة وأتيت على ستين سنة . ووصل إلىّ من فلان خير ووصلت منه إلى خير . وقال القتبي : « مأتيا » بمعنى آتٍ فهو مفعول بمعنى فاعل . و « مأتيا » مهموز لأنه من أتى يأتى . ومن خفف الهمزة جعلها ألفا . وقال الطبرى : الوعد هاهنا الموعود وهو الجنة؛ أى يأتيها أولياؤه . ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أى فى الجنة . واللغو معناه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به . ومنه الحديث : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت " و يروى " لغيت " وهى لغة أبى هريرة؛ كما قال الشاعر[1] :

وَرَبِّ أَسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ ⁕ عن اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

قال ابن عباس : اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى؛ أى كلامهم فى الجنة حمد الله وتسبيحه . ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ أى لكن يسمعون سلاما فهو من الاستثناء المنقطع ، يعنى سلام بعضهم على بعض، وسلام الملك عليهم، قاله مقاتل وغيره . والسلام اسم جامع للخير؛ والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون . قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا؛ أى فى قدر هذين الوقتين؛ إذ لا بكرة ثَمَّ ولا عشيا؛

(١) هو رؤبة ونسبه ابن برى للعجاج . « اللسان » .

كقوله تعالى : «غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ» أى قدر شهر؛ قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما . وقيل : عرّفهم اعتدال أحوال أهل الجنة؛ وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكين من المطعم والمشرب بكرة وعشيا . قال يحيي بن أبى كثير وقتادة : كانت العرب فى زمانها من وجد غداء وعشاء معا فذلك هو الناعم؛ فنزلت . وقيل : أى رزقهم فيها غير منقطع؛ كما قال : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » وهو كما تقول : أنا أصبح وأمسى فى ذكرك . أى ذكرى لك دائم . ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم ، والعشى بعد فراغهم من لذاتهم؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال . وهذا يرجع إلى القول الأوّل . وروى الزبير ابن بكار عن اسمعيل بن أبى أويس قال قال مالك بن أنس : طعام المؤمنين فى اليوم مرتان، وتلا قول الله عز وجل : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » ثم قال : وعوّض الله عز وجل المؤمنين فى الصيام السحور بدلا من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم . وقيل : إنما ذكر ذلك لأن صفة الغداء وهيئته [تختلف][1] عن صفة العشاء وهيئته؛ وهذا لا يعرفه إلا الملوك . وكذلك يكون فى الجنة رزق الغداء غير رزق العشاء تتلون عليهم النعم ليزدادوا تنعما وغبطة . وخرج الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث أبان عن الحسن وأبى قِلابة قالا قال رجل : يا رسول الله هل فى الجنة من ليل؟ قال : "وما هيّجك على هذا" قال سمعت الله تعالى يذكر فى الكتاب « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » فقلت : الليل بين البكرة والعشى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يَرُدُّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ وتأتيهم طُرَف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا وتسلم عليهم الملائكة" وهذا فى غاية البيان لمعنى الآية، وقد ذكرناه فى كتاب «التذكرة» . وقال العلماء : ليس فى الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم فى نور أبدا؛ إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب . ذكره أبو الفرج الجوزىّ والمهدوىّ وغيرهما .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوال أهلها ﴿ نُورِثُ ﴾ بالتخفيف . وقرأ يعقوب « نُوَرِّثُ » بفتح الواو وتشديد الراء . والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب » . ﴿ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ قال ابن عباس : أى من آتقانى وعمل بطاعتى . وقيل : هو على التقديم والتأخير؛ تقديره : نورث من كان تقيا من عبادنا .

قوله تعالى : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

روى الترمذى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا " قال : فنزلت هذه الآية «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» إلى آخر الآية . قال هذا حديث حسن غريب . ورواه البخارى : حدّثنا خلاد بن يحيى حدّثنا عمر بن ذرّ قال سمعت أبى يحدّث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : " ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت « وما نتنزل إلا بأمر ربك » " الآية ؛ قال : كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه، فقال : " ما الذى أبطأك " قال : كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تأخذون من شواربكم ، ولا تُنَقُّون رَوَاجِبكم(١) ، ولا تستاكون ؛ قال مجاهد : فنزلت الآية فى هذا . وقال مجاهد أيضا وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي : آحتبس جبريل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم ، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه ؛ قال عكرمة : فأبطأ عليه أربعين يوما . وقال مجاهد : آثنتى عشرة ليلة . وقيل : خمسة عشر يوما؛ وقيل : ثلاثة عشر . وقيل : ثلاثة أيام . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أبطأت علىّ حتى

(١) الرواجب : ما بين عقد الأصابع من داخل؛ واحدها راجبة .

ساء ظني واشتقت إليك " فقال جبريل عليه السلام : إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، و إذا حُبست احتبست، فنزلت الآية : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» وأنزل « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » . ذكره الثعلبي والواحدي والقشيري وغيرهم . وقيل : هو إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر ربك . وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل . وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل : تكون غير متصلة بما قبلها، والقرآن سور، ثم السور تشتمل على جمل، وقد تنفصل جملة عن جملة . «وَمَا نَتَنَزَّلُ» أي قال الله تعالى : قل يا جبريل «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» . وهذا يحتمل وجهين : أحدهما — إنا إذا أمرنا نزلنا عليك . الثاني — إذا أمرك ربك نزلنا عليك، فيكون الأمر على الأول متوجها إلى النزول، وعلى الوجه الثاني متوجها إلى التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ﴾ أي لله . ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أي علم ما بين أيدينا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ قال ابن عباس وابن جريج : ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة « وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ » من البرزخ . وقال قتادة ومقاتل : « له ما بين أيدينا » من امر الآخرة « وما خلفنا » ما مضى من الدنيا « وما بين ذلك » ما بين النفختين و بينهما أربعون سنة . الأخفش : « ما بين أيدينا » ما كان قبل أن نخلق « وما خلفنا » ما يكون بعد أن نموت « وما بين ذلك » ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت . وقيل : « ما بين أيدينا » من الثواب والعقاب وأمور الآخرة . « وما خلفنا » ما مضى من أعمالنا في الدنيا « وما بين ذلك » أي ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة . ويحتمل خامسا : « ما بين أيدينا » السماء « وما خلفنا » الأرض « وما بين ذلك » أي ما بين السماء والأرض . وقال ابن عباس في رواية : « له ما بين أيدينا » يريد الدنيا إلى الأرض « وما خلفنا » يريد السموات — وهذا على عكس ما قبله — «وما بين ذلك» يريد الهواء؛ ذكر الأول الماوردي والثاني القشيري . الزمخشري : وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها، والحال التي نحن فيها . ولم يقل : ما بين ذينك لأن المراد ما بين ما ذكرنا؛ كما قال : « لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ »

أى بين ما ذكرنا . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أى ناسيا إذا شاء أن يرسل إليك أرسل . وقيل : المعنى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحى . وقيل : المعنى أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها ، ولا ينسى شيئا منها .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى ربهما وخالقهما وخالق ما بينهما ومالكهما ومالك ما بينهما ؛ فكما إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان . ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ أى وحِّده لذلك . وفى هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى ؛ كما يقوله أهل الحق ، وهو القول الحق ؛ لأن الرب فى هذا الموضع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك ، وإذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض ، دخل فى ذلك اكتساب الخلق ، ووجبت عبادته ؛ لما ثبت أنه المالك على الإطلاق ، وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع ، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود . ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ أى لطاعته ولا تحزن لتأخير الوحى عنك ، بل اشتغل بما أمرت به . وأصل اصطبر اصتبر ، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما ، فأبدل من التاء طاء ؛ كما تقول من الصوم : اصطام . ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ قال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولدا أى نظيرا ، أو مثلا ، أو شبيها يستحق مثل اسمه الذى هو الرحمن . وقاله مجاهد . مأخوذ من المساماة . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : هل تعلم له أحدا سمى الرحمن . قال النحاس : وهذا أجلّ إسناد علمته روى فى هذا الحرف ، وهو قول صحيح ؛ لا يقال الرحمن إلا لله .

قلت : وقد مضى هذا مبينا فى البسملة[1] . والحمد لله . روى ابن أبى نجيح عن مجاهد « هل تعلم له سميا » قال : مثلا . ابن المسيب : عدلا . قتادة والكلبى : هل تعلم أحدا يسمى الله تعالى غير الله ، أو يقال له الله إلا الله . وهل بمعنى لا ؛ أى لا تعلم . والله تعالى أعلم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٠٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ الإنسان هنا أُبَيّ ابن خلف ، وجد عظاما بالية ففتتها بيده ، وقال : زعم محمد أنا نبعث بعد الموت ؛ قاله الكلبي ؛ ذكره الواحدي والثعلبي والقشيري . وقال المهدوي : نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه ، وهو قول ابن عباس . واللام في « لسوف أخرج حيا » للتأكيد . كأنه قيل له : إذا مامت لسوف تبعث حيا فقال : « أئذا مامت لسوف أخرج حيا » ! قال ذلك منكرا فجاءت اللام في الجواب كما كانت في القول الأول ، ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام ؛ لأنها للتأكيد والإيجاب وهو منكر للبعث . وقرأ ابن ذكوان « إذا مامت » على الخبر . والباقون بالاستفهام على أصولهم بالهمز . وقرأ الحسن وأبو حيوة « لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا » ؛ قاله استهزاء لأنهم لا يصدقون بالبعث . والإنسان هاهنا الكافر .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى أو لا يذكر هذا القائل ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل سؤاله وقوله هذا القول ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ فالإعادة مثل الابتداء فلم يناقض . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما ، وأهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر «أَوَلَا يَذَّكَّرُ» . وقرأ شيبة ونافع وعاصم « أَوَلَا يَذْكُرُ» بالتخفيف . والاختيار التشديد وأصله يتذكر ؛ لقوله تعالى : «إنما يتذكر أولو الألباب » وأخواتها . وفى حرف أُبَيّ «أَوَلَا يَتَذَكَّرُ» وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفة لخط المصحف . ومعنى « يَتَذَكَّرُ » يتفكر ، ومعنى « يَذْكُرُ » يتنبه و يعلم ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين . ﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أى ولنحشرن الشياطين قرناء لهم . قيل : يحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة؛ كما قال : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » . الزمخشرى : والواو فى « والشَّيَاطِين » يجوز أن تكون للعطف و بمعنى مع ؛ وهى بمعنى مع أوقع . والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم؛ يقرنون كل كافر مع شيطان فى سلسلة . فإن قلت هـذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصـة ؛ فإن أريد الأناسى على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قلت : إذا حشر جميع النـاس حشرا واحدا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين ، فقـد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة . فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشـقياء فى الحشر كما عزلوا عنهم فى الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم فى المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النـار ليشاهد السعداء الأحوال التى نجاهم الله منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة ، وسرورا إلى سرور، و يشمتوا بأعداء الله تعـالى وأعدائهم ؛ فتزداد مساءتهم وحسرتهم ، وما يغيظهم من سعادة أوليـاء الله وشماتتهم بهم . فإن قلت : ما معنى إحضارهم جثيا؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يعتلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عَتْـلا[(١)] على حالهم التى كانوا عليهـا فى الموقف ، جثـاة على ركبهم غير مشاة على أقـدامهم . وذلك أن أهـل الموقف وصفوا بالجثو؛ قال الله تعالى : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً » على الحالة المعهودة فى مواقف المقاولات والمناقلات ، من تجاثى أهلها على الركب . لمـا فى ذلك من الاستيفاز[(٢)] والقلق ، و إطـلاق الحُبَا خلاف الطمأنينة ؛ أو لمـا يدهمهم من شدة الأمر التى لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا . و إن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم . على أن «جثيا» حال مقدرة كما كانوا فى الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب ، قبل التواصل إلى الثواب والعقاب . و يقال : إن معنى ﴿ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

(١) العتل : الدفع والإرهاق بالسوق العنيف . (٢) الاستيفاز : عدم الاطمئنان ؛ قال الجوهرى : قعد مستوفزا أى غير مطمئن .

أى جثيا على ركبهم؛ عن مجاهد وقتادة؛ أى أنهم لشدّة ماهم فيه لا يقدرون على القيام . « وحول جهنم » يجوز أن يكون داخلها؛ كما تقول : جلس القوم حول البيت أى داخله مطيفين به؛ فقوله : « حول جهنم » على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول . ويجوز أن يكون قبل الدخول . و « جثيا » جمع جاثٍ . يقال : جثا على ركبتيه يَجْثو ويَجْثِي جُثُوًّا وجُثيا على فعول فيهما . وأجثاه غيره . وقوم جُثِيٌّ أيضا؛ مثل جلس جلوسا وقوم جلوس، وجِثِى أيضا بكسر الجيم لما بعدها من الكسر . وقال ابن عباس : « جثيا » جماعات . وقال مقاتل : جمعا جمعا؛ وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثْوة وجِثوة ثلاث لغات، وهى الحجارة المجموعة والتراب المجموع؛ فأهل الخمر على حدة، وأهل الزنى على حدة، وهكذا؛ قال طرفة :

تَرَى جُثْوتين من تُرابٍ عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ

وقال الحسن والضحاك : جاثية على الركب . وهو على هذا التأويل جمع جاثٍ على ما تقدّم . وذلك لضيق المكان؛ أى لا يمكنهم أن يجلسوا جلوسا تاما . وقيل : جثيا على ركبهم للتخاصم؛ كقوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ » . وقال الكميت :

هم تَرَكُوا سَرَاتَهُم جِثِيًّا * وهم دون السَّراة مقرَّنينا

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أى لنستخرجن من كل أمة وأهل دين ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ النحاس : وهذه آية مشكلة فى الإعراب؛ لأن القراء كلهم يقرءون « أيهم » بالرفع إلا هرون القارئ الأعور فإن سيبويه حكى عنه : « ثم لننزعن من كل شيعةٍ أَيَّهُمْ » بالنصب أوقع على أيهم لننزعن . قال أبو إسحق فى رفع « أيهم » ثلاثة أقوال؛ قال الخليل بن أحمد حكاه عنه سيبويه : إنه مرفوع على الحكاية؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذى يقال من أجل عتوه أيهم أشدّ على الرحمن عتيا؛ وأنشد الخليل، فقال :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزلٍ * فأبيت لا حرِجٌ ولا محروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له لا هو حَرِج ولا محروم . وقال أبو جعفر النحاس : ورأيت أبا إسحق يختار هذا القول ويستحسنه؛ قال : لأنه معنى قول أهل التفسير . وزعم أن معنى

« ثم لننزعن من كل شيعة » ثم لننزعن من كل فرقة الأعتى فالأعتى . كأنه يبتدأ بالتعذيب بأشدهم عتيا ثم الذى يليه؛ وهذا نص كلام أبى إسحق فى معنى الآية . وقال يونس : « لننزعن » بمنزلة الأفعال التى تلغى ورفع « أيهم » على الابتداء . المهدوى : والفعل الذى هو «لننزعن» عند يونس معلق؛ قال أبو على : معنى ذلك أنه يعمل فى موضع « أيهم أشد » لا أنه ملغى . ولا يعلق عند الخليل وسيبويه مثل «لننزعن» ، إنما يعلق بأفعال الشك وشبهها ما لم يتحقق وقوعه . وقال سيبويه : « أيهم » مبنى على الضم لأنها خالفت أخواتها فى الحذف ؛ لأنك لو قلت : رأيت الذى أفضل ومن أفضل كان قبيحا ، حتى تقول من هو أفضل ، والحذف فى « أيهم » جائز . قال أبو جعفر : وما علمت أحدا من النحويين إلا وقد خطأ سيبويه فى هذا ، وسمعت أبا إسحق يقول : ما يبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما؛قال: وقد علمنا أن سيبويه أعرب أيا وهى مفردة لأنها تضاف ، فكيف يبنيها وهى مضافة ؟ ! ولم يذكر أبو إسحق فيما علمت إلا هذه الثلاثة الأقوال . أبو على : إنما وجب البناء على مذهب سيبويه ؛ لأنه حذف منه ما يتعرف به وهو الضمير مع افتقار إليه ، كما حذف فى « من قبل ومن بعد » ما يتعرفان به مع افتقار المضاف إلى المضاف إليه؛ لأن الصلة تبين الموصول وتوضحه كما أن المضاف إليه يبين المضاف ويخصصه . قال أبو جعفر : وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التى ذكرها أبو إسحق؛ قال الكسائى : « لننزعن » واقعة على المعنى ، كما تقول : لبست من الثياب ، وأكلت من الطعام ، ولم يقع « لننزعن » على « أيهم » فينصبها . زاد المهدوى : وإنما الفعل عنده واقع على موضع « من كل شيعة » وقوله : « أيهم أشد » جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء؛ ولا يرى سيبويه زيادة « من » فى الواجب . وقال الفراء : المعنى ثم لننزعن بالنداء ، ومعنى « لننزعن » لننادين . المهدوى : ونادى فعل يعلق إذا كان بعده جملة ، كظننت فتعمل فى المعنى ولا تعمل فى اللفظ . قال أبو جعفر : وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول فى « أيهم » معنى الشرط والمجازاة ، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها ، والمعنى : ثم لننزعن من كل فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا ، كما تقول : ضربت القوم أيهم غضب ؛ والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا . قال أبو جعفر : فهذه ستة

أقوال، وسمعت على بن سليمان يحكى عن محمد بن يزيد قال : «أيهم» متعلق «بشيعة» فهو مرفوع بالابتداء، والمعنى : ثم لننزعن من الذين تشايعوا أيهم؛ أى من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشدّ على الرحمن عتيا؛ وهذا قول حسن . وقد حكى الكسائى أن التشايع التعاون . و «عتيا» نصب على البيان . ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صُلِيًّا﴾ [1] أى أحق بدخول النار . يقال : صَلِىَ يَصْلَى صُلِيا، نحو مضى الشيء يمضى مُضِيا إذا ذهب، وهوى يهوى هُوِيا . وقال الجوهرى : و يقال صليتُ الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يَصلاها؛ فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصَلَّيته تصلية . وقرئ «و يُصَلَّى سَعيرًا» . ومن خفف فهو من قولهم : صَلِي فلان بالنار (بالكسر) يصلى صُليا احترق؛ قال الله تعالى : «هُمْ أَوْلَى بِهَا صُلِيًّا» . قال العجاج : [2]

* واللهِ لولا النارُ أن نصلاها *

و يقال أيضا : صلِي بالأمر إذا قاسى حره وشدّته . قال الطُّهَوى :

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ و إنْ هُمْ * صَلُوا بالحرب حِينًا بعد حِينِ

واصطليت بالنار وتصلّيت بها . قال أبو زبيد :

وقد تَصَلَّيْتُ حَرَّ حَرْبِهِمُ * كَمَا تَصَلَّى المَقْرُورُ من قَرَسِ

وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره إذا كان شجاعا لا يُطاق .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَإِنْ مِنْكُمْ» هذا قسم، والواو يتضمنه . و يفسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم "لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تَحِلّة

(١) «صليا» بضم الصاد قراءة «نافع» وعليها التفسير .

(٢) ونسبه فى اللسان مادة «قيه» إلى الزفيان، وأورده فى أبيات هى :

ما بال عين شوقها آستبكاها * فى رسم دار لبست بلاها

تالله لولا النار أن نصلاها * أو يدعو الناس علينا الله

* لما سمعنا لأمير قاها *

القاه : الطاعة .

القسم(١)" قال الزهرى : كأنه يريد هذه الآية : « وإن منكم إلا واردها » ذكره أبو داود الطيالسي؛ فقوله : « إلا تحلة القسم » يخرج فى التفسير المسند؛ لأن القسم المذكور فى هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » . وقد قيل : إن المراد بالقسم قوله تعالى : « والذاريات ذروا » إلى قوله : « إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » والأوّل أشهر؛ والمعنى متقارب .

الثانيـة — واختلف الناس فى الورود؛ فقيل : الورود الدخول؛ روى عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الورود الدخول لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » " أسنده أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم . وروى عن يونس أنه كان يقرأ « وإن منكم إلا واردها » الورود الدخول ؛ على التفسير للورود، فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن . وفى مسند الدرامى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فمنهم كلمح البصر ثم كالريح ثم كحضر(٢) الفرس ثم كالراكب المجدّ فى رحله ثم كشدّ الرجل فى مشيته " . وروى عن ابن عباس أنه قال فى هذه المسئلة لنافع بن الأزرق الخارجى : أما أنا وأنت فلا بد أن نردها، أما أنا فينجينى الله منها، وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك . وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود والجهل بالصدر؛ وقد بيناه فى « التذكرة » . وقالت فرقة : الورود الممر على الصراط . وروى عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسدى، ورواه السدى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقاله الحسن أيضا؛ قال : ليس الورود الدخول، إنما تقول : وردت البصرة ولم أدخلها . قال : فالورود أن يمرّوا على الصراط . قال أبو بكر الأنبارى : وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغة، واحتجوا بقول الله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها

(١) " إلا تحلة القسم " : أى لا يدخل النار ليعاقبه بها ، ولكنه يجوز عليها فلا يكون ذلك إلا بقدر ما يبر الله به قسمه . (٢) الحضر (بالضم) : العدو؛ وشدّ الرجل : عدوه أيضا .

مُبعَدُونَ » قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها . وكان هؤلاء يقرءون « ثَمَّ » بفتح الثاء « نُنَجِّى الَّذِينَ ٱتَّقَوْا » . واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأن معنى قوله : « أولئك عنها مبعدون » عن العذاب فيها، والإحراق بها . قالوا : فمن دخلها وهو لا يشعر بها، ولا يحس منها وجعا ولا ألما، فهو مبعد عنها فى الحقيقة . ويستدلون بقوله تعالى : « ثم ننجى الذين ٱتقوا » بضم الثاء؛ فـ « ثم » تدل على نجاء بعد الدخول .

قلت : وفى صحيح مسلم "ثم يُضرَبُ الجسر على جهنم وتَحِلُّ الشفاعة فيقولون اللّهُمّ سَلِّم سَلِّم" قيل : يا رسول الله وما الجسرُ ؟ قال : "دَحْضٌ مَزِلّةٌ[1] فيه خَطَاطيفُ وكَلَاليبُ وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شُوَيْكَة يقال لها السَّعْدان فيمرُّ المؤمنون كطَرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب فناجٍ مُسلَّمٌ ومخدوشٌ مُرْسَل ومَكْدُوس فى نار جهنم" الحديث . وبه ٱحتج من قال : إن الجواز على الصراط هو الورود الذى تضمنته هذه الآية لا الدخول فيها . وقالت فرقة : بل هو ورود إشراف وٱطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب، ثم ينجى الله الذين ٱتقوا مما نظروا إليه، ويصار بهم إلى الجنة . ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أى يؤمر بهم إلى النار قال الله تعالى : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ » أى أشرف عليه لا أنه دخله . وقال زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ المـاءَ زُرْقًا[2] جِمَامُهُ * وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخيِّمِ

وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل النار أحدٌ من أهل بدر والحديبية" قالت فقلت : يا رسول الله وأين قول الله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فَمَه «ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا»". أخرجه مسلم من حديث أم مُبَشِّر، قالت : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة . الحديث . ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » . وقال مجاهد :

---

(١) دحض مزلة : هما بمعنى، وهو الموضع الذى تزل فيه الأقدام ولا تستقر. (٢) يقال : ماء أزرق إذا كان صافيا . وجمام جمع جم وجمة، وهو الماء المجتمع . والحاضر : النازل على الماء . والمتخيم : المقيم، وأصله من تخيم إذا نصب الخيمة . يصف زهير الظعائن بأنهن فى أمن ومنعة، فإذا نزلن نزلن آمنات كنزول من هو فى أهله ووطنه . والبيت من معلقته .

ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها . روى أبو هريرة أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم عاد مريضا من وعك به، فقال له النبي صلى الله عليـه وسلم : " أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول « هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظّه من النار »" أسنده أبو عمر قال : حدّثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدّثنا قاسم بن أصبغ قال حدّثنا محمد بن إسمعيل الصائغ قال حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسمعيل بن عبيد الله [عن أبى صالح][1] الأشعرى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عاد مريضا فذكره . وفى الحديث " الحُمَّى حَظُّ المؤمن من النار ". وقالت فرقة : الورود النظر إليها فى القبر، فينجّى منها الفائز، ويصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعـالى . واحتجوا بحديث ابن عمـر : " إذا مات أحدكم عرض عليـه مقعده بالغداة والعشىّ " الحـديث . وروى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال فى قول الله تعـالى : « وإن منكم إلا واردها » قال : هذا خطاب للكفار . وروى عنه أنه كان يقرأ « وإن منهم » ردا على الآيات التى قبلها فى الكفار : قوله « فوربّك لنحشرنّهم والشّياطين ثمّ لنحضرنّهم حول جهنّم جثيًّا . ثمّ لننزعنّ من كلّ شيعةٍ أيّهم أشدّ على الرّحمن عتيًّا . ثمّ لنحن أعلم بالّذين هم أولى بها صليًّا . وإن منهم » وكذلك قرأ عكرمة وجماعة؛ وعليها فلا شغب فى هـذه القراءة . وقالت فرقة : المراد بـ « منكم » الكفرة؛ والمعنى : قل لهم يا محمد . وهذا التأويل أيضا سهل التناول؛ والكاف فى « منكم » راجعة إلى الهاء فى « لنحشرنهم والشياطين . ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهـاء؛ فقد عرف ذلك فى قوله عز وجل : « وسقاهم ربّهم شرابًا طهورًا . إنّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا » معناه كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهـاء . وقال الأكثر : المخاطب العالم كله، ولا بد من ورود الجميع، وعليه نشأ الخلاف فى الورود . وقد بينا أقوال العلماء فيه . وظاهر الورود الدخول؛ لقوله عليه الصلاة

(١) الزيادة من « تهذيب التهذيب » وتفسير الطبرى .

والسلام : " فتمسّه النار " لأن المسيس حقيقته فى اللغة المماسة ، إلا أنها تكون بردًا وسلاما على المؤمنين ، وينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا ألم يقل ربنا : إنا نرد النار؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال؛ فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونُجِّي منها . نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما ، وخرج منها غانما . فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول : إن الخلق جميعا يردونها كما دل عليه حديث جابر أوّل الباب ؛ فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم فبين الدخولين بَوْنٌ . وقال ابن الأنبارى محتجا لمصحف عثمان وقراءة العامة : جائز فى اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ كما قال : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا» فأبدل الكاف من الهاء . وقد تقدّم هذا المعنى فى « يونس » (١) .

الثالثة — الاستثناء فى قوله عليه السلام : " إلا تَحِلَّةَ القَسَم " يحتمل أن يكون استثناء منقطعا : لكن تحلة القسم ، وهذا معروف فى كلام العرب ، والمعنى ألا تمسه النار أصلا ، وتم الكلام هنا ثم ابتدأ " إلا تحلة القسم " أى لكن تحلة القسم لا بد منها فى قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة ، فلا يكون فى ذلك شىء من مسيس ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّة من النار " والجُنّة الوقاية والستر، ومن وُقى النار وسُتر عنها فلن تمسّه أصلا ، ولو مسّته لما كان موقى .

الرابعة — هذا الحديث يفسر الأوّل لأن فيه ذكر الحِسْبة ، ولذلك جعله مالك بأثره مفسرا له . ويقيد هذا الحديث الثانى أيضا مارواه البخارىّ عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم " من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث كان (٢) له حجابا من النار — أو —

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ ومابعدها طبعة أولى أو ثانية .	(٢) "كان" : بالإفراد واسمها ضمير يعود على الموت المفهوم مما سبق ؛ أى كان موتهم له حجابا . ولأبى ذرعن الكشميهنى كانوا له حجابا " . « قسطلانى » .

دخل الجنة " فقوله عليه السلام : " لم يبلغوا الحِنْث " — ومعناه عنـد أهل العلم لم يبلغوا الحُلُم ولم يبلغوا أن يلزمهم حِنْث — دليل على أن أطفال المسلمين فى الجنة — والله أعلم — لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم آستحال أن يُرحَموا من أجل [من](1) ليس بمرحوم . وهذا إجماع من العلماء فى أن أطفال المسلمين فى الجنـة ، ولم يخالف فى ذلك إلا فرقة شـذت من الجبرية فجعلتهم فى المشيئة؛ وهو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم، ولا يجوز على مثلهم الغلط، إلى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الآحاد الثقات العدول؛ وأن قوله عليـه الصلاة والسلام : " الشقيّ من شقى فى بطن أمه والسعيد من سعد فى بطن أمه وأن الملك ينزل فيكتب أجله وعمـله ورزقه " الحديث مخصوص ، وأن من مات من أطفال المسلمين قبـل الاكتساب فهو ممن سـعد فى بطن أمه ولم يشقَ بدليل الأحاديث والإجماع . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها : " يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهـم " ساقط ضعيف مردود بالإجمـاع والآثار ، وطلحة بن يحيى الذى يرويه ضعيف لا يحتج به . وهذا الحديث ممـا انفرد به فلا يعرّج عليه . وقد روى شعبة عن معاوية بن قرة ابن إياس المزنى عن أبيـه عن النبي صلى الله عليـه وسلم أن رجلا من الأنصار مات له آبن صغير فوَجَد عليـه ، فقال له رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " أما يَسرك ألا تأتى بابا من أبواب الجنـة إلا وجدتَه يَستفتح لك " فقالوا : يا رسول الله أله خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : " بل للمسلمين عامة" قال أبوعمر : هذا حديث ثابت صحيح؛ يعنى ما ذكرناه مع إجماع الجمهور ؛ وهو يعارض حديث يحيى ويدفعه . قال أبو عمر : والوجه عندى فى هذا الحديث وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه ، وآجتنب الكبائر ، وصـبر وآحتسب فى مصيبته ؛ فإن الخطاب لم يتوجه فى ذلك العصر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا، وهم الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال : نسخ قوله تعـالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » قولُه : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا

(١) زيادة يقتضيها السياق .

مُبْعَدُونَ » وهذا ضعيف، وهذا ليس موضع نسخ . وقد بينا أنه إذا لم تمسه النار فقد أبعد عنها . وفي الخبر : "تقول النار للمؤمن يوم القيامة جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي" .

الخامسة — قوله تعالى : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا » الحتم إيجاب القضاء؛ أي كان ذلك حتما . « مقضيا » أي قضاه الله تعالى عليكم . وقال ابن مسعود : أي قسما واجبا .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي نخلصهم ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ وهذا مما يدل على أن الورود الدخول؛ لأنه لم يقل : وندخل الظالمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى . والمذهب أن صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو . وقالت المرجئة : لا يدخل . وقالت الوعيدية : يخلّد . وقد مضى بيان هذا في غير موضع . وقرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة « ثُمَّ نُنْجِي » مخففة من أنجى . وهي قراءة حميد ويعقوب والكسائي . وثقّل الباقون . وقرأ ابن أبي ليلى « ثَمَّهْ » بفتح الثاء أي هناك . و « ثَمَّ » ظرف إلا أنه مبني لأنه غير محصّل فبني كما بني ذا؛ والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف في الوصل، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت في الوصل تاء .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أي على الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى : « أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » . وقال فيهم : « ونذر الظالمين فيها جثيا » أي هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعزّزوا بالدنيا، وقالوا : فما بالنا — إن كنا على باطل — أكثر أموالا وأعز نفرا . وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه

المحقّ فى دينه، وكأنهم لم يروا فى الكفار فقيرا ولا فى المسلمين غنيا، ولم يعلموا أن الله تعالى نحّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا، وفرط الميل إليها . و « بيناتٍ » معناه مرتّلات الألفاظ، ملخصة المعانى، مبينات المقاصد، إما محكمات، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا . أو ظاهرات الإعجاز تُحدّى بها فلم يقدر على معارضتها . أو حججا و براهين . والوجه أن تكون حالا مؤكدة ؛ كقوله تعالى : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » لأن آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججا . ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد مشركى قريش النضر بن الحرث وأصحابه . ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى فقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، وكانت فيهم قشافة، وفى عيشهم خشونة، وفى ثيابهم رثاثة ؛ وكان المشركون يرجلون شعورهم، و يدهنون رءوسهم، و يلبسون خير ثيابهم، فقالوا للؤمنين : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ . قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « مُقَامًا » بضم الميم وهو موضع الإقامة . ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة . الباقون « مَقَامًا » بالفتح؛ أى منزلا ومسكنا . وقيل : المقام الموضع الذى يقام فيه بالأمور الجليلة ؛ أى أىّ الفريقين أكثر جاها وأنصارا . « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجلسا؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا المنظر وهو المجلس فى اللغة وهو النادى . ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم . وناداه جالسه فى النادى . قال : * أنادى به آل الوليد وجعفرا *

والندىّ على فعيل مجلس القوم ومتحدّثهم، وكذلك الندوة والنادى [والمُنْتَدَى] (١) والمُتَنَدَّى، فإن تفرق القوم فليس بندىّ ؛ قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أى من أمة وجماعة . ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أى متاعا كثيرا؛ قال (٢) :

وفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ * أثِيثٍ كقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ

(١) الزيادة من « الصحاح » للجوهرى . (٢) هو امرؤ القيس . والفرع : الشعر التام . والمتن ماعن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم . والفاحم الشديد السواد . وأثيث : كثير أصل النبات . والقنو : العذق وهو الشمراخ . والمتعثكل الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته . وقيل : المتدلى .

والأثاث متاع البيت . وقيل : هو ما جدّ من الفَرْش والخُرْثيّ ما لُبس منها ، وأنشد الحسن ابن عليّ الطوسي فقال :

تقادم العهد من أم الوليد بنا * دهرا وصار أثاث البيت خُرْثِيّا

وقال ابن عباس : هيئة . مقاتل : ثيابا . « وَرِئْيًا » أى منظرا حسنا . وفيه خمس قراءات : قرأ أهل المدينة « ورِيًّا » بغير همز . وقرأ أهل الكوفة « ورِئيا » بالهمز . وحكى يعقوب أن طلحة قرأ « وَرِيًا » بياء واحدة مخففة . وروى سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس : « هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وزِيًّا » بالزاى ؛ فهذه أربع قراءات . قال أبو إسحق : ويجوز « هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا ورِيْئًا » بياء بعدها همزة . النحاس : وقراءة أهل المدينة في هذا حسنة وفيها تقريران : أحدهما — أن تكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء ، وأدغمت الياء في الياء . وكان هذا حسنا لتتفق رءوس الآيات لأنها غير مهموزات . وعلى هذا قال ابن عباس : الرِّئي المنظر ؛ فالمعنى : هم أحسن أثاثا ولباسا . والوجه الثاني — أن جلودهم مرتوية من النعمة ؛ فلا يجوز الهمز على هذا . وفي رواية ورش عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر « ورئيا » بالهمز تكون على الوجه الأوّل . وهي قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو من رأيت على الأصل . وقراءة طلحة بن مُصَرِّف « ورِيًا » بياء واحدة مخففة أحسبها غلطا . وقد زعم بعض النحويين أنه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء ، ثم حذفت إحدى اليائين . المهدوى : ويجوز أن يكون « رِيْئًا » فقلبت ياء فصارت رييا ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت . وقد قرأ بعضهم « ورِيًا » على القلب وهي القراءة الخامسة . وحكى سيبويه رَاءَ بمعنى رأى . الجوهري : من همزه جعله من المنظر من رأيت ، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة . وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفي فقال :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا * بذى الرِّئْى الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز إما أن يكون على تخفيف الهمزة أو يكون من رَويت ألوانهم وجلودهم رِيًّا ؛ أى امتلأت وحسنت . وأما قراءة ابن عباس وأبيّ ابن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكي

ويزيد البربرى « وزيا » بالزاى فهو الهيئة والحسن . ويجوز أن يكون من زَوَيتُ أى جمعت، فيكون أصلها زِويا فقلبت الواو ياء . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "زُوِيت لى الأرض" أى جمعت ؛ أى فلم يغن ذلك عنهم شيئا من عذاب الله تعالى ؛ فليعش هؤلاء ما شاءوا فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عُمِّروا ؛ أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أى فى الكفر ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى فليدعه فى طغيان جهله وكفره؛ فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر؛ أى من كان فى الضلالة مدّه الرحمن مدا حتى يطول آغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه . نظيره : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقوله : « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » ومثله كثير؛ أى فليعش ما شاء، وليوسع لنفسه فى العمر؛ فمصيره إلى الموت والعقاب . وهذا غاية فى التهديد والوعيد . وقيل : هذا دعاء أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ تقول : من سرق مالى فليقطع الله تعالى يده ؛ فهو دعاء على السارق . وهو جواب الشرط . وعلى هذا فليس قوله : « فليمدد » خبرا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال « رأوا » لأن لفظ « من » يصلح للواحد والجمع . و «إذا» مع الماضى بمعنى المستقبل ؛ أى حتى يروا ما يوعدون . والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر ؛ وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار . ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أى تنكشف حينئذ الحقائق . وهذا رد لقولهم : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

قوله تعالى : وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ أى ويثبت الله المؤمنين على الهدى، ويزيدهم فى النّصرة، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم . وقيل : يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذى كفر به غيرهم ؛ قال معناه الكلبي ومقاتل .

ويحتمل ثالثا — أى « ويزيد الله الذين آهتدوا » إلى الطاعة « هدى » إلى الجنة؛ والمعنى متقارب . وقد تقدّم القول فى معنى زيادة الأعمال وزيادة الإيمان والهدى فى « آل عمران»(١) وغيرها . ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ تقدّم فى « الكهف »(٢) القول فيها . ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أى جزاء : ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ أى فى الآخرة مما افتخر به الكفار فى الدنيا . و «المَرَدّ» مصدر كالرد؛ أى وخير ردا على عاملها بالثواب؛ يقال : هذا أردّ عليك ، أى أنفع لك . وقيل : « خير مردا » أى مرجعا فكل أحد يردّ إلى عمله الذى عمله .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ روى الأئمة — واللفظ لمسلم — عن خباب قال كان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لى : لن أقضيك حتى تكفر بمحمد. قال : فقلت له لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث . قال : وإنى لمبعوث من بعد الموت ؟ ! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد . قال وكيع : كذا قال الأعمش؛ فنزلت هذه الآية « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا » إلى قوله : « ويأتينا فردا » . فى رواية قال : كنت قينا(٣) فى الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا ، فأتيته أتقاضاه . خرجه البخارى أيضا . وقال الكلبى ومقاتل : كان خباب قينا فصاغ للعاص حليا ثم تقاضاه أجرته؛ فقال العاص : ما عندى اليوم ما أقضيك . فقال خباب : لست بمفارقك حتى تقضينى؛ فقال العاص ياخباب مالك ؟ ! ما كنت هكذا ، وإن كنت لحسن الطلب . فقال خباب : إنى كنت على دينك فأما اليوم فأنا على دين الإسلام مفارق لدينك . قال : أو لستم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ؟ قال خباب : بلى . قال : فأخرنى حتى أقضيك

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) القين : الحداد والصائغ .

فى الجنة — استهزاء — فوالله لئن كان ما تقول حقا إنى لأقضيك فيها، فوالله لا تكون أنت ياخباب وأصحابك أولى بهـا منى، فأنزل الله تعالى « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا » يعنى العاص ابن وائل؛ الآيات . ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ قال ابن عباس : أنظر فى اللوح المحفوظ ؟ ! . وقال مجاهد : أعلم الغيب حتى يعلم أفى الجنـة هو أم لا ؟ ! ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْـدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ قال قتادة والثورى : أى عملا صالحـا . وقيل : هو التوحيد . وقيل : هو من الوعد . وقال الكلبى : عاهد الله تعـالى أن يدخله الجنة . ﴿ كَلَّا ﴾ ردٌّ عليـه ؛ أى لم يكن ذلك؛ لم يطلع الغيب، ولم يتخـذ عند الرحمن عهدا، وتم الكلام عند قوله : « كَلَّا » . وقال الحسن : إن الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة . والأول أصح لأنه مدوّن فى الصحاح . وقرأ حمزة والكسائى « وُولْدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها . واختلف فى الضم والفتح على وجهين : أحدهما — أنهما لغتان معناهما واحد، يقال وَلد ووُلْد كما يقال عَدَم وعُدْم . وقال الحرث بن حِلِّزة :

ولقـد رأيتُ معاشـرًا ✽ قد ثَمَّـرُوا مالاً ووُلْدَا

وقال آخـر :

فليتَ فلانا كان فى بطن أمّه ✽ وليت فلانا كانـ وُلْدَ حِمارِ

والثـانى — أن قيسا تجعل الوُلد بالضم جمعا والولد بالفتح واحدا . قال الماوردى : وفى قوله تعالى : « لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا » وجهان : أحدهما — أنه أراد فى الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته؛ قاله الكلبى . الثانى — أنه أراد فى الدنيا، وهو قول الجمهور؛ وفيه وجهـان محتملان : أحدهما — إن أقمت على دين آبائى وعبادة آلهتى لأوتين مالا وولدا . الثـانى — ولو كنت على باطل لمـا أوتيت مالا وولدا .

قلت : قول الكلبى أشبه بظاهر الأحاديث ، بل نصها يدل على ذلك ؛ قال مسروق : سمعت خبّاب بن الأرتّ يقول : جئت العاصى بن وائل السَّهْمِىّ أتقاضاه حقا لى عنـده . فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث . قال : وإنى لميت ثم مبعوث ؟ ! . فقلت : نعم . فقـال : إن لى هناك مالا وولدا فأقضيك ؛ فنزلت هـذه الآية؛ قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » ألفه ألف آستفهام لمجيء « أم » بعدها، ومعناه التوبيخ، وأصله أأطلع فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل . فإن قيل : فهلا أتوا بمدّة بعد الألف فقالوا : آطلع كما قالوا : « آلله خير » « آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ » قيل له : كان الأصل في هذا « أألله » « أالذكرين » فأبدلوا من الألف الثانية مدة ليفرقوا بين الآستفهام والخبر، وذلك أنهم لو قالوا : الله خير بلا مدّ لالتبس الاستفهام بالخبر، ولم يحتاجوا إلى هذه المدّة في قوله : « أطلع » لأن ألف الآستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة، وذلك أنك تقول في الاستفهام : أطلع ؟ أفترى ؟ أصطفى ؟ أستغفرت ؟ بفتح الألف، وتقول في الخبر : اِطلع، اِفترى، اِصطفى، اِستغفرت لهم بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر .

قوله تعالى : « كَلَّا » ليس في النصف الأول (١) ذكر « كلّا » وإنما جاء ذكره في النصف الثاني . وهو يكون بمعنيين : أحدهما بمعنى حقّا . والثاني بمعنى لا . فإذا كانت بمعنى حقا جاز الوقف على ما قبله، ثم تبتدئ « كلا » أي حقّا . وإذا كانت بمعنى لا، كان الوقف على « كلا » جائزا، كما في هذه الآية ؛ لأن المعنى : لا ليس الأمر كذا . ويجوز أن تقف على قوله : « عَهْدًا » وتبتدئ « كلا » أي حقا « سَنَكْتُبُ مَايَقُولُ » . وكذا قوله تعالى : « لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا » يجوز الوقف على « كلا » وعلى « تركت » . وقوله : « وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . قَالَ كَلَّا » الوقف على « كلا » لأن المعنى؛ لا — وليس الأمر كما تظن « فاذهبا » . فليس للحق في هذا المعنى موضع . وقال الفراء : « كلا » بمنزلة سوف لأنها صلة، وهي حرف ردّ فكأنها « نعم » و « لا » في الآكتفاء . قال : وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها؛ كقولك : كلّا وربِّ الكعبة؛ لاتقف على كلّا؛ لأنه بمنزلة إي ورب الكعبة . قال الله تعالى : « كَلَّا وَالْقَمَرِ » فالوقف على « كلا » قبيح لأنه صلة لليمين . وكان أبو جعفر محمد بن سعدان يقول في « كلا » مثل قول الفراء . وقال الأخفش : معنى

(١) أي من القرآن؛ قال الألوسي : « وهذا أول موضع وقع فيه من القرآن، وقد تكرر في النصف الأخير فوقع في ثلاثة وثلاثين موضعا » .

كلا الردع والزجر . وقال أبو بكر بن الأنبارى : وسمعت أبا العباس يقول : لا يوقف على « كلا » فى جميع القرآن ؛ لأنها جواب والفائدة تقع فيما بعدها . والقول الأول هو قول أهل التفسير .

قوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أى سنحفظ عليه قوله فنجازيه به فى الآخرة . ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أى سنزيده عذابا فوق عذاب . ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أى نسلبه ما أعطيناه فى الدنيا من مال وولد . وقال ابن عباس وغيره : أى نرثه المال والولد بعد إهلاكنا إياه . وقيل : نحرمه ما تمناه فى الآخرة من مال وولد ، ونجعله لغيره من المسلمين . ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره .

قوله تعالى : وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ يعنى مشركى قريش . و « عِزًّا » معناه أعوانا ومنعة ؛ يعنى أولادا . والعِزّ المطر الجُود[(١)] أيضا ؛ قاله الهروى . وظاهر الكلام أن « عزا » راجع إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله . ووحد لأنه بمعنى المصدر ؛ أى لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله ؛ فقال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم ؛ أى ينكرون أنهم عبدوا الأصنام ، أو تجحد الآلهة عبادة المشركين لها ؛ كما قال : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » . وذلك أن الأصنام جمادات لا تعلم العبادة . ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى أعوانا فى خصومتهم وتكذيبهم . عن مجاهد والضحاك : يكونون لهم أعداء . ابن زيد : يكونون عليهم بلاء فتحشر آلهتهم ، وتركب لهم عقول فتنطق ، وتقول : يارب عَذِّبْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك . و « كلا » هنا يحتمل أن تكون بمعنى لا ، ويحتمل أن تكون بمعنى حقًّا ؛ أى حقا « سيكفرون بعبادتهم » . وقرأ

(١) المطر الجود : الغزير .

أبو نهيك : « كَلًّا سيكفرون » بالتنوين . وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها . قال المهدوى : « كلا » ردع وزجر وتنبيه ورد لكلام متقدم، وقد تقع لتحقيق مابعدها والتنبيه عليه كقوله : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى » فلا يوقف عليها على هذا، ويوقف عليها فى المعنى الأول؛ فإن صلح فيها المعنيان جميعا جاز الوقف عليها والابتداء بها . فمن نون « كلا » من قوله : « كَلًّا سيكفرون بِعِبادتِهِم » مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ؛ ونصبه بفعل مضمر؛ والمعنى كَلَّ هذا الرأى والاعتقاد كَلًّا ، يعنى اتخاذهم الآلهة « لِيكونوا لهم عِزا » فيوقف على هـذا على « عِزا » وعلى « كَلًّا » . وكذلك فى قراءة الجماعة ، لأنها تصلح للرد لما قبلها ، والتحقيق لما بعدها . ومن روى ضم الكاف مع التنوين، فهو منصوب أيضا بفعل مضمر، كأنه قال : سيكفرون « كُلًّا سيكفرون بِعِبادتِهم » يعنى الآلهة .

قلت : فتحصل فى « كلا » أربعة معان : التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقا، والنفى، والتنبيه، وصلة للقسم، ولا يوقف منها إلا على الأول . وقال الكسائى : «لا» تنفى فحسب، و «كلا» تنفى شيئا وتثبت شيئا، فإذا قيل: أكلت تمرا، قلت : كلا إنى أكلت عسلا لا تمرا، ففى هذه الكلمة نفى ما قبلها، وتحقق مابعدها . والضد يكون واحدا ويكون جمعا، كالعدو والرسول . وقيل : وقع الضد موقع المصدر؛ أى ويكونون عليهم عونا؛ فلهذا لم يجمع، وهذا فى مقابلة قوله : « لِيكونوا لهم عِزا » والعز مصدر، فكذلك ماوقع فى مقابلته . ثم قيل : الآية فى عبدة الأصنام، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل؛ جريا على توهم الكفرة . وقيل : فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجن أو الشياطين؛ فالله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى سلطناهم عليهم بالإغواء ، وذلك حين قال لإبليس : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ » . وقيل : « أرسلنا » أى خلينا ؛ يقال : أرسلت البعير أى خليته ؛ أى خلينا الشياطين و إياهم ولم نعصمهم من القبول منهم . الزجاج : قيّضنا . ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عباس : تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية . وعنه : تغريهم إغراء بالشر : آمض آمض فى هذا الأمر ، حتى توقعهم فى النار . حكى الأول الثعلبي ، والثانى الماوردى ، والمعنى واحد . الضحاك : تغويهم إغواء . مجاهد : تشليهم إشلاء ، وأصله الحركة والغليان ، ومنه الخبر المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم "قام إلى الصلاة ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء" . وائتزت القِـدر ائتزازا اشتد غليانها . والأزّ التهييج والإغراء ، قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا » أى تغريهم على المعاصى . والأز الاختلاط . وقد أززت الشيء أؤزّه أزًّا أى ضممتُ بعضه إلى بعض ، قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى تطلب العذاب لهم . ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ قال الكلبي : آجالهم ، يعنى الأيام والليالى والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب . وقال الضحاك : الأنفاس . ابن عباس : أى نعدّ أنفاسهم فى الدنيا كما نعدّ سنيهم . وقيل : الخطوات . وقيل : اللذات . وقيل : اللحظات . وقيل : الساعات . وقال قطرب : نعدّ أعمالهم عدًّا . وقيل : لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثما . روى : أن المأمون قرأ هـذه السورة ، فمرّ بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء ، فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ماتنفد . وقيل فى هذا المعنى :

حياتُـك أنفـاسٌ تُعَـدُّ فكلّما * مضَى نَفَسٌ منك آنتقصت به جُزْءَا
يميتـك ما يحييـك فى كل ليـلة * ويحـدُوك حَادٍ مايُريد به الهُـزءا

و يقال : إن أنفاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس : آثنـا عشر ألف نفس فى اليوم ، وآثنا عشر ألفا فى الليلة — والله أعلم — فهى تعد وتحصى إحصاء ، ولها عدد معلوم ، وليس لها مدد ، فما أسرع ماتنفد .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ فى الكلام حذف ، أى إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته . كقوله : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ » وكما فى الخبر " من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله " . والوفد اسم للوافدين ، كما يقال : صَوْم وفَطْر وزَوْر؛ فهو جمع الوافد، مثل رَكْب وراكب وصَحْب وصاحب ، وهو من وفد يفد وَفْدا ووفودا ووِفادة ، إذا خرج إلى ملك فى فتح أو أمر خطير . الجوهرى : يقال وفد فلان على الأمير، أى ورد رسولا فهو وافد، والجمع وفد مثل صاحب وصَحْب ، وجمع الوفد وِفاد ووفود ، والاسم الوِفادة وأوفدته أنا إلى الأمير ، أى أرسلته . وفى التفسير : « وفدا » أى ركبانا على نجائب طاعتهم . وهذا لأن الوافد فى الغالب يكون راكبا، والوفد الركبان ووحد، لأنه مصدر. ابن جريج : وفدا على النجائب . وقال عمرو بن قيس المُلَائى : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فيقول : هل تعرفنى؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك . فيقول : كذلك كنتُ فى الدنيا أنا عملك الصالح ، طالما ركبتك فى الدنيا آركبنى اليوم، وتلا «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا» وإن الكافر يستقبله عمله فى أقبح صورة وأنتن ريح ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد قبح صورتك وأنتن ريحك . فيقول : كذلك كنتُ فى الدنيا أنا عملك السّيئ طالما ركبتنى فى الدنيا وأنا اليوم أركبك . وتلا « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » . ولا يصح من قِبل إسناده . قاله ابن العربى فى « سراج المريدين » . وذكر هذا الخبر فى تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى، عن ابن عباس بلفظه ومعناه . وقال أيضا عن ابن عباس : من كان يحب الخيل وفد إلى الله تعالى على خيل لا تَرُوث ولا تبول ، لجمها من الياقوت الأحمر، ومن الزبرجد الأخضر ، ومن الدر الأبيض ، وسروجها من السندس والإستبرق ، ومن كان يحب ركوب الإبل فعلى نجائب لا تَبْعَر ولا تبول ، أزمتها من الياقوت والزبرجد ، ومن كان يحب ركوب السفن فعلى سفن من ياقوت، قد أمنوا الغرق ، وأمنوا الأهوال . وقال أيضا عن على رضى الله عنه : ولما نزلت الآية قال على رضى الله عنه : يارسول الله !

إنى قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أر وفدا إلا ركبانا فما وفد الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنهم لايحشرون على أقدامهم ولايساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم ينظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب وزمامها الزبرجد فيركبونها حتى يقرعوا باب الجنة". ولفظ الثعلبي في هذا الخبر عن علىّ أبين. وقال علىّ لما نزلت هذه الآية قلت: يارسول الله! إنى رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفدا إلا ركبانا. قال: "ياعلىّ إذا كان المنصرَف من بين يدى الله تعالى تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها وأزمتها الذهب على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا فيلبس كل مؤمن حلة ثم تسير بهم مراكبهم فتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ»".

قلت: وهذا الخبر ينص على أنهم لا يركبون ولا يلبسون إلا من الموقف، وأما إذا خرجوا من القبور فمشاةً حُفاةً عُراة غُرلًا (١) إلى الموقف؛ بدليل حديث ابن عباس قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: "يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله ــ تعالى ــ حُفَاةً عُراة غُرْلًا" الحديث خرجه البخارى ومسلم، وسيأتى بكماله فى سورة «المؤمنين» إن شاء الله تعالى. وتقدم فى «آل عمران» (٢) من حديث عبد الله بن أنيس بمعناه والحمد لله تعالى. ولا يبعد أن تحصل الحالتان للسعداء، فيكون حديث ابن عباس مخصوصا؛ والله أعلم. وقال أبو هريرة: «وفدا» على الإبل. ابن عباس: ركبانا يؤتون بنوق من الجنة؛ عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها. وقال علىّ: مايحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوق رحالها من ذهب، ونجب سروجها يواقيت، إن همّوا بها سارت وإن حركوها طارت. وقيل: يفدون على مايحبون من إبل أو خيل أو سفن، على ما تقدّم عن ابن عباس. والله أعلم. وقيل: إنما قال «وفدا» لأن من شأن الوفود عند العرب أن يقدموا بالبشارات، وينتظرون الجوائز، فالمتقون ينتظرون العطاء والثواب. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ السوق الحثّ على السير. و «وِردا» عِطاشا؛ قاله ابن عباس

(١) الغرل (جمع الأغرل): وهو الأقلف. (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية.

وأبو هريرة رضى الله عنهما والحسن ، والأخفش والفراء وابن الأعرابى : حفاة مشاة ، وقيل : أفواجا ، وقال الأزهرى : أى مشاة عِطاشا ، كالإبل ترد الماء؛ فيقال : جاء وِرد بنى فلان . القشيرى : وقوله « وِردا » يدل على العطش ؛ لأن الماء إنما يورد فى الغالب للعطش . وفى « التفسير » : مشاة عِطاشا تتقطع أعناقهم من العطش ، وإذا كان سوق المجرمين إلى النار فحشر المتقين إلى الجنة . وقيل : « وِردا » أى الورود ؛ كقولك : جئتك إكراما لك أى لإكرامك ، أى نسوقهم لورود النار .

قلت : ولا تناقض بين هذه الأقوال ، فيساقون عِطاشا حفاة مشاة أفواجا . قال ابن عرفة : الوِرد القوم يردون الماء ، فسمى العطاش وردا لطلبهم ورود الماء ، كما تقول : قوم صَوْم أى صيام ، وقوم زَوْر أى زوّار ، فهو اسم على لفظ المصدر ، واحدهم وارد . والوِرد أيضا الجماعة التى ترد الماء من طير وإبل . والورد الماء الذى يورَد . وهذا من باب الإيماء بالشىء إلى الشىء . والورد الجزء [من القرآن](1) يقال : قرأت وِردى . والوِرد يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت . فظاهره لفظ مشترك . وقال الشاعر يصف قَلِيبا(2) :

* يَطْمو إذا الوِرْدُ عليه الْتَكَّا(3) *

أى الورّاد الذين يردون الماء .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ أى هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة ، فهو استثناء الشىء من غير جنسه ؛ أى لكن « من اتخذ عِند الرحمن عهدا » يشفع ؛ فـ « مَن » فى موضع نصب على هذا . وقيل : هو فى موضع رفع على البدل من الواو فى « يملكون » ؛ أى لا يملك أحد عند الله الشفاعة « إلا منِ اتخذ عِند الرحمن عهدا » فإنه يملك ؛ وعلى هذا يكون الاستثناء

---

(1) الزيادة من « اللسان » . (2) القليب : البئر . (3) صدره :

* صبحن من وشحى قليبا سكا *

وشحى : اسم بئر . والسك : الضيقة . والتك الورد : ازدحم وضرب بعضه بعضا . وطمت البئر تطمو طموا وتطمى طميا : امتلأت .

متصلا . و «المجرمين» فى قوله : «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا » يعم الكفرة والعصاة ، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون ، فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعنى فيمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول يا محمد إنها ليست لك ولكنها لى" خرجه مسلم بمعناه ، وقد تقدم . وتظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيُشفَّعون ؛ وعلى القول الأول يكون الكلام متصلا بقوله : «وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» فلا تقبل غدا شفاعة عبدة الأصنام لأحد ، ولا شفاعة الأصنام لأحد ، ولا يملكون شفاعة أحد لهم ؛ أى لا تنفعهم شفاعة ؛ كما قال : «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» . وقيل : أى نحشر المتقين والمجرمين ولا يملك أحد شفاعة «إلا من ٱتخذ عند الرحمن عهدا» أى إذا أذن له الله فى الشفاعة . كما قال : «من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه» . وهذا العهد هو الذى قال «أَمِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا» وهو لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التى يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع . وقال ابن عباس : العهد لا إله إلا الله . وقال مقاتل وابن عباس أيضا : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوة [إلا](1) لله ، ولا يرجو إلا الله تعالى . وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : "أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا" قيل : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : "يقول عند كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك فى هذه الحياة بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك [فلا تكلنى إلى نفسى](2) فإنك إن تكلنى إلى نفسى تباعدنى من الخير وتقربنى من الشر وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عندك عهدا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعا ووضعها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الله عهد فيقوم فيدخل الجنة" .

---

(1) زيادة يقتضيها المقام . (2) الزيادة من رواية الترمذى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا (٨٩)
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)
أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)
إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣)
لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ يعنى اليهود والنصارى ، ومن زعم أن الملائكة بنات الله . وقرأ يحيي والأعمش وحمزة والكسائى وعاصم وخلف : « وُلْدًا » بضم الواو وإسكان اللام، فى أربعة مواضع : من هذه السورة قوله تعالى : «لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوُلْدًا » وقد تقدّم، وقوله : « أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وُلْدًا . وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وُلْدًا » . وفى سورة نوح : « مَالُهُ وَوُلْدُهُ » . ووافقهم فى « نوح » خاصة ابن كثير ومجاهد وحميد وأبو عمرو ويعقوب . والباقون فى الكل بالفتح فى الواو واللام، وهما لغتان مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم . قال :

ولقد رأيت معاشرا * قد ثَمَّرُوا مالاً وَوُلْدا

وقال آخر :

وليتَ فلانا كان فى بطنِ أمِّه * وليت فلانا كان وُلْد حمارِ

وقال فى معنى ذلك النابغة :

مَهْلاً فداءٌ لكَ الأقوامُ كلُّهم * وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ

ففتح . وقيس يجعلون الوُلْد بالضم جمعا والوَلَد بالفتح واحدا . قال الجوهرى : الوَلَد قد يكون واحدا وجمعا، وكذلك الوُلْد بالضم . ومن أمثال بنى أسد : وُلْدُكِ من دَمَّى عَقِبَيْكِ[1] . وقد يكون الوُلْد جمع الوَلَد مثل أُسْد وأَسَد . والوِلْد بالكسر لغة فى الوُلْد . النحاس : وفرق

(١) أى من نفست به فأدمى النفاس عقبيك فهو ابنك .

أبو عبيدة بينهما ؛ فزعم أن الوَلَد يكون للأهل والوَلَد جميعا . قال أبو جعفر : وهذا قول مردود لا يعرفه أحد من أهل اللغة؛ ولا يكون الوَلَد والوُلْد إلا ولد الرجل، وولد ولده، إلا أن وَلَدا أكثر في كلام العرب؛ كما قال :

مَهْلاً فداءً لكَ الأقوامُ كلُّهم * وما أُثَمِّرُ مِنْ مالٍ ومن وَلَدِ

قال أبو جعفر وسمعت محمد بن الوليد يقول : يجوز أن يكون وُلْد جمع وَلَد، كما يقال وَثَن ووُثْن وأَسَد وأُسْد، ويجوز أن يكون وَلَد ووُلْد بمعنى واحد؛ كما يقال عَجَم وعُجْم وعَرَب وعُرْب كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أي منكرا عظيما؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . قال الجوهري : الإِدّ والإِدّة الداهية والأمر الفظيع؛ ومنه قوله تعالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » وكذلك الآدُّ مثل فاعل . وجمع الإدة إِدَدٌ . وأَدَّت فلانا داهيةٌ تَؤُدُّه أَدًّا (بالفتح) . والإِدُّ أيضا الشدّة . [والأَدُّ الغلبة والقوة] (١) قال الراجز :

نَضَوْنَ عَنِّي شِدَّةً وأَدَّا * من بَعْدِ ما كُنْتُ صُمُلاًّ جَلْدَا (٢)

انتهى كلامه . وقرأ أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن السلمي « أَدًّا » بفتح الهمزة . النحاس : يقال أد يؤد أدًّا فهو آد والآسم الإدّ؛ إذا جاء بشيء عظيم منكر . وقال الراجز :

قد لَقِيَ الأقرانُ مِنِّي نُكْرَا * داهيةً دهياء إِدًّا إِمْرَا

عن غير النحاس؛ الثعلبي : وفيه ثلاث لغات « إِدًّا » بالكسر وهي قراءة العامة ، « وأَدًّا » بالفتح وهي قراءة السُّلَمي، و « آدٌّ » مثل مادّ، وهي لغة لبعض العرب؛ رويت عن ابن عباس وأبي العالية؛ وكأنها مأخوذة من الثقل [يقال] : آدَه الحمل يَئُوده أَوْداً أثقله .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة هنا وفي « الشورى » بالتاء . وقراءة نافع ويحيى والكسائي « يكاد » بالياء لتقدم الفعل . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أي يتشققن . وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشد الطاء من التفطر هنا وفي « الشورى » .

(١) في الأصل : الأد القوة والشدة؛ وصوابه كما في اللسان : الإد بالكسر الشدة والأد بالفتح الغلبة والقوة .
(٢) الصمل الشديد الصلب . وورد في كتب اللغة : « صملا نهدا » والنهد : القوى الشديد .

ووافقهم حمزة وابن عامر فى « الشورى » . وقرأ هنا « ينفطرن » من الانفطار ؛ وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل فى السورتين . وهى اختيار أبى عبيد؛ لقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقوله : « السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » . وقوله : ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ أى تتصدع . ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ قال ابن عباس : هدما أى تسقط بصوت شديد . وفى الحديث "اللهم إنى أعوذ بك من الهدّ والهَدَّة" قال شمر قال أحمد بن غياث المروزى : الهدّ الهدم والهدّة الخسوف . وقال الليث : هو الهدم الشديد؛ كحائط يهدّ بمرة؛ يقال : هدّنى الأمر وهدّ ركنى أى كسرنى وبلغ منى؛ قاله الهروى . الجوهرى : وهدّ البناء يهدّه هدّا كسره وضعضعه، وهدّته المصيبة أى أوهنت ركنه، وانهدّ الجبل انكسر . الأصمعى : والهدّ الرجل الضعيف؛ يقول الرجل للرجل إذا أوعده : إنى لَغير هدٍّ أىْ غيرُ ضعيف . وقال ابن الأعرابى : الهدّ من الرجال الجواد الكريم، وأما الجبان الضعيف فهو الهِدّ بالكسر؛ وأنشد(1) :

لَيسُوا بِهِدِّين فى الحُرُوب إذا * تُعقَدُ فوقَ الحَرَاقِفِ النُّطُقُ

والهَدَّة صوت وقع الحائط ونحوه، تقول منه : هَدَّ يهِدُّ (بالكسر) هَديدًا . والهادُّ صوت يسمعه أهل الساحل، يأتيهم من قبل البحر له دوىٌّ فى الأرض، وربما كانت منه الزلزلة، ودويُّه هديده . النحاس : « هَدًّا » مصدر؛ لأن معنى « تَخِرُّ » تُهَدّ . وقال غيره : حال أى مهدودة : ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ « أن » فى موضع نصب عند الفراء بمعنى لأن دعوا ومن أن دعوا، فموضع « أن » نصب بسقوط الخافض . وزعم الفراء أن الكسائى قال : هى فى موضع خفض بتقدير الخافض . وذكر ابن المبارك : حدثنا مِسْعر، عن واصل، عن عون بن عبدالله قال قال عبد الله بن مسعود : إن الجبل ليقول للجبل يافلان هل مر بك اليوم ذاكر لله؟ فإن قال نعم سُرَّ به(2) . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا » الآية؛ قال : أفتراهن يسمعن الزور ولايسمعن الخير؟! . قال : وحدّثنى عوف عن غالب بن عجرد(3) قال :

(1) البيت للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . والحراقف (جمع حرقفة) : مجتمع رأس الفخذ . والنطق (جمع نطاق) : ما تشد به الأوساط .

(2) أى قال عون كما فى « الدر المنثور » وغيره .

(3) كذا فى الأصل؛ ولعله « غالب بن عجرة » وما هنا تحريف .

حدّثنى رجل من أهـل الشام فى مسجد منى ، قال : إن الله تعالى لمـا خلق الأرض وخلق مافيها من الشجر، لم تك فى الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منهـا منفعة، وكان لهم منها منفعة، فـلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة بنى آدم تلك الكلمة العظيمة ، قولهم : ٱتخذ الرحمن ولدا؛ فلما قالوها ٱقشعرت الأرض وشاك الشجر . وقال ابن عباس : اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار، والبحار وما فيها من الحيتان ، فصار من ذلك الشوك فى الحيتان، وفى الأشجار الشوك . وقال ابن عباس أيضا وكعب : فزعت السموات والأرض والجبال ، وجميـع المخلوقات إلا الثقلين، وكادت أن تزول ، وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم ، وشاك الشـجر، وٱكفهرت الأرض وجدبت حين قالوا : ٱتخـذ الله ولدا . وقال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَـدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » قال ابن العربى : وصدق فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن البارى تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمـان المؤمن، ولا يزيد هـذا فى ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لمـا جرى شىء من هـذا على الألسنة ، ولكنه القـدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بمـا يقول المبطلون .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ نفى عن نفسه سبحانه وتعالى الولد؛ لأن الولد يقتضى الجنسـية والحدوث على ما بيناه فى « البقرة »(١) أى لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز فى حقه؛ لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدس . قال(٢) :

فى رأس خَلْقَاء من عَنْقَاء مُشْرِفةٍ * ما ينبغى دونها سَهْلٌ ولا جَبَـلُ

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هو ابن أحمر الباهلى يصف جبلا . والخلقاء : الصخرة ليس فيها وصم ولا كسر أى الملساء . والعنقاء : أكمة جبل مشرف .

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ « إن » نافية بمعنى ما؛ أى ما كل من فى السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقرا له بالعبودية ، خاضعا ذليلا كما قال : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلاء؛ أى الخلق كلهم عبيده، فكيف يكون واحد منهم ولدا له عز وجل؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . و « آتى » بالياء فى الخط، والأصل التنوين فحذف استخفافا وأضيف .

الثانيـــة — فى هـذه الآية دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكا للوالد ، خلافا لمن قال : إنه يشتريه فيملكه ولا يعتق عليه إلا إذا أعتقه . وقد أبان الله تعالى المنافاة بين الأولاد والملك، فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات عتق عليه . ووجه الدليل عليه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبدية فى طرفى تقابل؛ فنفى أحدهما وأثبت الآخر، ولو اجتمعا لما كان لهذا القول فائدة يقع الاحتجاج بها . وفى الحديث الصحيح "لا يَجْزى ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه" خرجه مسلم . فإذا لم يملك الأب ابنه مع مرتبته عليه، فالابن بعدم ملك الأب أولى لقصوره عنه .

الثالثـــة — ذهب إسحق بن راهويه فى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : "من أعتق شركا له فى عبد" أن المراد به ذكور العبيد دون إناثهم فلا يكمل على من أعتق شركا فى أنثى، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم، فإنهم لم يفرقوا بين الذكر والأنثى؛ لأن لفظ العبد يراد به الجنس، كما قال تعالى : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا » فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعا . وتمسك إسحق بأنه حكى عبدة فى المؤنث .

الرابعـــة — روى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لى كفوا أحد " وقد تقدم فى « البقرة »(1) وغيرها وإعادته فى مثل هذا الموضع حسن جدا .

(1) تقدم الحديث فى جـ ٢ ص ٨٥ بلفظ آخر .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ ﴾ أى علم عددهم ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ تأكيد؛ أى فلا يخفى عليه أحد منهم .

قلت : ووقع لنا فى أسمائه سبحانه المحصى؛ أعنى فى السنة من حديث أبى هريرة؛ خرجه الترمذى ، واشتقاق هذا الفعل يدل عليه . وقال الأستاذ أبو إسحق الإسفراينى : ومنها المحصى ويختص بأنه لاتشغله الكثرة عن العلم؛ مثل ضوء النور ، واشتداد الريح ، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق ، وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . ووقع فى تفسير ابن عباس أن معنى « لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » يريد أقروا له بالعبودية ، وشهدوا له بالربوبية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ أى واحدا لا ناصر له ولا مال معه ينفعه؛ كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » فلا ينفعه إلا ماقدم من عمل ، وقال : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ » على لفظ كل وعلى المعنى آتوه . وقال القشيرى : وفيه إشارة إلى أنكم لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم والكل عبيده ، فكيف رضيتم له ما لا ترضون لأنفسكم . وقد رد عليهم فى مثل هذا ، فى أنهم لا يرضون لأنفسهم بالبنات ، ويقولون : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، وقولهم : الأصنام بنات الله . وقال : « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ » .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ أى حبا فى قلوب عباده . كما رواه الترمذى من حديث سعد وأبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إنى قد أحببت فلانا فأحبه — قال — فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله تعالى « سَيَجْعَلُ لَهُم

الرَّحْمَنُ وُدًّا » وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريلَ إنى أبغضت فلانا فينادى فى السماء ثم تنزل له البغضاء فى الأرض » " قال هذا حديث حسن صحيح . وخرجه البخارى ومسلم بمعناه ، ومالك فى الموطأ ، وفى نوادر الأصول . وحدّثنا أبو بكر بن سابق الأموى قال حدّثنا أبو مالك الجَنْبى عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى المؤمن الألفة والملاحة والمحبة فى صدور الصالحين والملائكة المقربين — ثم تلا — « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » ". واختلف فيمن نزلت ؛ فقيل فى على رضى الله تعالى عنه ؛ روى البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : " قل يا على اللهم اجعل لى عندك عهدا واجعل لى فى قلوب المؤمنين مودة " فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبى . وقال ابن عباس : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف ؛ جعل الله تعالى له فى قلوب العباد مودة ، لا يلقاه مؤمن إلا وقّره ، ولا مشرك ولا منافق إلا عظّمه . وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم . وقيل : يجعل الله تعالى لهم مودّة فى قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة .

قلت : إذا كان محبوبا فى الدنيا فهو كذلك فى الآخرة ؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنا تقيا ، ولا يرضى إلا خالصا نقيا ؛ جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريلَ عليه السلام فقال إنى أحب فلانا فأحِبّه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء — قال — ثم يوضع له القبول فى الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام وقال إنى أبغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه — قال — فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الأرض " .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أى القرآن؛ يعنى بيناه بلسانك العربى وجعلناه سهلا على من تدبره وتأمله . وقيل : أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه . ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ اللّد جمع الألد وهو الشديد الخصومة؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَدُّ الْخِصَامِ » وقال الشاعر :

أبيتُ نجِيًّا للهموم كأنّنى * أخاصم أقواما ذَوِى جَدلٍ لُدّا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق ويدّعى الباطل . الحسن : اللد الصُّمّ عن الحق . قال الربيع : صم آذان القلوب . مجاهد : فجارا . الضحاك : مجادلين فى الباطل . ابن عباس : شدادا فى الخصومة . وقيل : الظالم الذى لا يستقيم؛ والمعنى واحد . وخصوا بالإنذار؛ لأن الذى لا عناد عنده يسهل انقياده .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من أمة وجماعة من الناس؛ يخوف أهل مكة . ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ فى موضع نصب؛ أى هل ترى منهم أحدا وتجد . « أو تسمع لهم رِكزا » أى صوتا؛ عن ابن عباس وغيره؛ أى قد ماتوا وحصلوا أعمالهم . وقيل : حِسًّا؛ قاله ابن زيد . وقيل : الركز مالا يفهم من صوت أو حركة؛ قاله اليزيدى وأبو عبيدة؛ كركز الكتيبة؛ وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد :

وتوجّستْ رِكْزَ الأَنِيس فَرَاعَهَا * عن ظَهْر غيبٍ والأَنِيس سَقَامُها (١)

وقيل : الصوت الخفى . ومنه رَكَزَ الرُّمْحَ إذا غَيَّب طرفه فى الأرض . وقال طرفة :

وَصادِقَتا سَمْعِ التَّوَجُّسِ للسُّرَى * لِرِكْزٍ خَفِيٍّ أو لصَوْتٍ مُنَدَّدِ (٢)

(١) توجست : تسمعت البقرة صوت الناس فأفزعها ولم تر الناس . والأنيس سقامها معناه : والأنيس هلاكها : أى يصيدها . (٢) يصف طرفة فى هذا البيت أذنى ناقته؛ يعنى أذنيها لا تكذبها النبأة . والمندد صفة للصوت؛ والصوت المندد المبالغ فى النداء . ويروى : «لصوت مندد» بالإضافة وكسر الدال؛ والأولى هى الرواية الجيدة .

وقال ذو الرُّمة يصف ثورا تسمع إلى صوت صائد وكلاب :

إذا توجسَ رِكْزًا مقفِرٌ نَدُسٌ * بنبأةِ الصوتِ ما في سمعه كذب

أي ما في آستماعه كذب ؛ أي هو صادق الاستماع . والنَّدِس الحاذق ؛ يقال : نَدِسٌ ونَدُس، كما يقال : حَذِر وحَذُر، ويَقِظٌ ويَقُظ . والنبأة الصوت الخفيّ، وكذلك الرِّكْز، والركاز المال المدفون . والله تعالى أعلم بالصواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة طـه عليه السلام

سورة طـه عليه السلام مكية في قول الجميع . نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه . روى الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خرج عمر متقلدا بسيف؛ فقيل له : إن خَتَنك قد صبوا[1] فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خَبّاب ، وكانوا يقرءون «طـه» . فقال : أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرؤه — وكان عمر رضي الله عنه يقرأ الكتب — فقالت له أخته : إنك رِجْس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ فقام عمر رضي الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ « طـه » . وذكره ابن إسحق مطولا : فإن عمر خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتْله، فلقيه نعيم ابن عبد الله؛ فقال : أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ ! أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم ؟ ! . فقال : وأي أهل بيتي؟ . قال : خَتَنك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وخَتَنه، وعندهما خبّاب بن الأَرَتّ معه صحيفة فيها

(١) صبأ الرجل : خرج من دين إلى دين آخر .

« طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر تغيب خَبّاب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (١) التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئا . قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها فضربها فشجها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وختَنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فآرعوى ، وقال لأخته : أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءونها آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها . قال لها : لا تخافى وحلف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه ، فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك ، وأنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر وآغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : " اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب " فالله الله يا عمر . فقال له عند ذلك : فدلنى يا خبّاب على محمد حتى آتيه فأسلم ، وذكر الحديث .

مسئلة — أسند الدارمىّ أبو محمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و «يس» قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل هذا عليها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا " قال ابن فورك معنى قوله : " إن الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و «يس» " أى أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة فى ذلك الوقت ، والعرب تقول : قرأت الشىء إذا تتبعته ، وتقول : ما قرأت هذه

(١) الهينمة : الكلام الخفى لا يفهم .

الناقة فى رحمها سَلًا قط؛ أى ما ظهر فيها ولد؛ فعلى هذا يكون الكلام سائغا، وقرأته أسمعه وأفهمه بعبارات يخلقها وكتابة يحدثها . وهى معنى قولنا : قرأنا كلام الله ؛ ومعنى قوله : «فَٱقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» ، «فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» . ومن أصحابنا من قال معنى قوله : "قرأ" أى تكلم به ، وذلك مجاز كقولهم : ذقت هذا القول ذواقا بمعنى ٱختبرته . ومنه قوله : «فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ والْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» أى ٱبتلاهم الله تعالى به، فسمى ذلك ذوقا ، والخوف لا يذاق على الحقيقة؛ لأن الذوق فى الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح . قال ابن فورك : وما قلناه أولا أصح فى تأويل هذا الخبر؛ لأن كلام الله تعالى أزلى قديم سابق لجملة الحوادث ، وإنما أسمع وأفهم من أراد من خلقه على ما أراد فى الأوقات والأزمنة؛ لا أن عين كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان .

قوله تعالى : طـه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ ٱختلف العلماء فى معناه ؛ فقال الصدّيق رضى الله تعالى عنه : هو من الأسرار ؛ ذكره الغزنوى . ابن عباس : معناه يا رجل؛ ذكره البيهقى . وقيل : إنها لغة معروفة فى عُكْلٍ . وقيل : فى عَكّ؛ قال الكلبى : لو قلت فى عَكّ لرجل يا رجل لم يجب حتى تقول طه . وأنشد الطبرىّ فى ذلك فقال(١) :

دعوت بطه فى القتال فلم يُجِبْ ⁂ فخفتُ عليه أن يكون مُوَائِلا

(١) هو متمم بن نويرة ؛ وموائل : طالب النجاة .

ويروى : مُزايلا . وقال عبد الله بن عمرو : يا حبيبى بلغة عَكّ ؛ ذكره الغزنوى . وقال قطرب : هو بلغة طيِّء ؛ وأنشد ليزيد بن المهلهل :

إنّ السَّفاهة طَهَ من شمائلكم * لا بارك الله فى القوم المَلاعين

وكذلك قال الحسن : معنى « طه » يا رجل . وقاله عكرمة ، وقال : هو بالسريانية كذلك ؛ ذكره المهدوىّ ، وحكاه الماوردى عن ابن عباس أيضا ومجاهد . وحكى الطبرىّ : أنه بالنَّبَطِيّة يا رجل . وهذا قول السدى وسعيد بن جبير وابن عباس أيضا ؛ قال :

إن السفاهة طـه من خلائقكم * لا قدّس الله أرواح الملاعين

وقال عكرمة أيضا : هو كقولك يا رجل بلسان الحبشة ؛ ذكره الثعلبى . والصحيح أنها وإن وجدت فى لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا ، وأنها لغة يمنية فى عَكّ وطيِّء وعُكل أيضا . وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقَسَمٌ أقسم به . وهذا أيضا مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقيل : هو اسم للنبى صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمدا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لى عند ربى عشرة أسماء" فذكر أن فيها طه ويس ، وقيل : هو اسم للسورة ، ومفتاح لها . وقيل : إنه اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه . وقيل : إنها حروف مُقَطَّعة ، يدل كل حرف منها على معنى ؛ واختلف فى ذلك ؛ فقيل : الطاء شجرة طوبى ، والهاء النار الهاوية ، والعرب تعبر عن الشيء كله ببعضه ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقال سعيد بن جبير : الطاء ٱفتتاح اسمه طاهر وطيب ، والهاء افتتاح اسمه هادى . وقيل : «طاء» ياطامع الشفاعة للامة ، «هاء» يا هادى الخلق إلى الله . وقيل : الطاء من الطهارة ، والهاء من الهداية ؛ كأنه يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : ياطاهرا من الذنوب ، ياهادى الخلق إلى علام الغيوب . وقيل : الطاء طُبول الغُزاة ، والهاء هيبتهم فى قلوب الكافرين . بيانه قوله تعالى : « سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » وقوله : « وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » . وقيل : الطاء طرب أهل الجنة فى الجنة ، والهاء هوان أهل النار فى النار . وقول سادس : إن معنى «طه» طوبى لمن ٱهتدى ؛ قاله مجاهد ومحمد بن الحنفية .

وقول سابع : إن معنى « طه » طَإِ الأرض؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم، ويحتاج إلى الترويح بين قدميه، فقيل له : طإ الأرض؛ أى لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح؛ حكاه ابن الأنبارى . وذكر القاضى عياض فى « الشفاء » أن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى « طه » يعنى طَإِ الأرض يا محمد « مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى » . الزمخشرى : وعن الحسن « طَهْ » وفُسِّر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا، وأن الأصل طَأْ فقلبت همزته هاء كما قلبت [ألفا] (١) فى « يطا » فيمن قال :

* ... ... لا هَنَاكِ المرتَع (٢) *

ثم بنى عليه هذا الأمر، والهاء للسكت . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل من طول القيام، ثم نسخ ذلك بالفرض، فنزلت هذه الآية . وقال الكلبي : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحى بمكة اجتهد فى العبادة، وآشتدّت عبادته، فجعل يصلى الليل كله زمانا حتى نزلت هذه الآية، فأمره الله تعالى أن يُخَفِّف عن نفسه فيصلى وينام، فنسخت هذه الآيةُ قيامَ الليل؛ فكان بعد هذه الآية يصلى وينام . وقال مقاتل والضحاك : فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى؛ فأنزل الله تعالى «طه» يقول: يا رجل «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» أى لتتعب؛ على ما يأتى . وعلى هذا القول: إن «طه» [طاها أى] (٣) طإ الأرض؛ فتكون الهاء والألف ضمير الأرض، أى طَإِ الأرض برجليك فى صلواتك، وخُفِّفت الهمزة فصارت ألفا ساكنة . وقرأت طائفة «طَهْ» وأصله طَأْ بمعنى

(١) الزيادة من تفسير الزمخشرى .　　(٢) الشعر للفرزدق وتمام البيت :

راحت بمسلمة البغال عشية * فارعى فزارة لا هناك المرتع

قال هذا حين عزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق، ووليها عمر بن هبيرة الفزارى، فهجاهم الفرزدق، ودعا لقومه ألا يهنئوا النعمة بولايته . وأراد بغال البريد التى قدمت بمسلمة عند عزله . « شواهد سيبويه » .

(٣) الزيادة من كتب التفسير .

طَإ الأرض فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت . وقال زرّ بن حبيش : قرأ رجل على عبد الله بن مسعود «طَهَ . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى» فقال له عبد الله : «طِهِ» فقال : يا أبا عبد الرحمن أليس قد أمر أن يطأ الأرض برجله أو بقدميه . فقال : «طِهِ» كذلك أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمال أبو عمرو وأبو إسحق الهاء وفتحا الطاء . وأمالها جميعا أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش . وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختاره أبو عبيد . الباقون بالتفخيم . قال الثعلبي : وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : إحداهما أنه ليس ها هنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة؛ والعلة الأخرى أن الطاء من الحروف الموانع للإمالة، فهاتان علتان بينتان .

قوله تعالى : ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وقرئ «مَا نُزِّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ لِتَشْقَى» . قال النحاس : بعض النحويين يقول هذه لام النفى ، وبعضهم يقول لام الجحود . وقال أبو جعفر : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : إنها لام الخفض ، والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء . والشقاء يمدّ ويقصر . وهو من ذوات الواو . وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب . قال الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله * وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

فمعنى لتشقى «لتتعب» بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا؛ كقوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ» أى ما عليك إلا أن تبلغ وتُذكِّر، ولم يُكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرّط فى أداء الرسالة والموعظة الحسنة . وروى أن أبا جهل — لعنه الله تعالى — والنضر بن الحرث قالا للنبى صلى الله عليه وسلم : إنك شقىّ لأنك تركت دين آبائك؛ فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز، والسبب فى درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها . وعلى الأقوال المتقدّمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى تورّمت قدماه؛ فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا؛ أى ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة، وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَىٰ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : هو بدل من «تشقى» أى ما أنزلناه إلا تذكرة . النحاس : وهذا وجه بعيد؛ وأنكره أبو علىّ من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوب على المصدر، أى أنزلناه لتذكّر به تذكرة، أو على المفعول من أجله، أى ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة. وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، مجازه : ماأنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى، ولئلا تشقى . ﴿ تَنزِيلًا ﴾ مصدر؛ أى نزّلناه تنزيلا . وقيل : بدل من قوله : « تذكرة » . وقرأ أبو حيوة الشامى «تنزيل» بالرفع على معنى هذا تنزيل . ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ أى العالية الرفيعة، وهى جمع العُليا؛ كقوله : كُبْرى وكُبَر وصُغرى وصُغَر؛ أخبر عن عظمته وجبروته وجلاله ثم قال : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ ويجوز النصب على المدح . قال أبو إسحق : الخفض على البدل . وقال سعيد بن مسعدة : الرفع بمعنى هو الرحمن . النحاس : يجوز الرفع بالابتداء، والخبر «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» فلا يوقف على «استوى» وعلى البدل من المضمر فى « خلق » فيجوز الوقف على « اسْتَوَى » . وكذلك إذا كان خبر ابتداء محذوف؛ ولا يوقف على « العُلَى » . وقد تقدم القول فى معنى الاستواء « فى الأعراف »(١) . والذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستوٍ على عرشه بغير حدّ ولا كيف، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ يريد ما تحت الصخرة التى لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى . وقال محمد بن كعب : يعنى الأرض السابعة . ابن عباس(٢) : الأرض على نون، والنون على البحر، وأن طرفى النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش؛ والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها، وهى التى قال الله تعالى فيها « فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ»؛ والصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى . وقال وهب بن منبه : على وجه الأرض سبعة أبحر، والأرضون سبع،

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) هذه الرواية وما شاكلها رواها عن ابن عباس رواة غير ثقات وقد تكلم العلماء فى هذه الرواية وأمثالها .

بين كل أرضين بحر، فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم، ولولا عظمه وكثرة مائه وبرده لأحرقت جهنم كل من عليها . قال : وجهنم على متن الريح، ومتن الريح على حجاب من الظلمة لا يعلم عظمه إلا الله تعالى، وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قال ابن عباس : السر ما حدّث به الإنسان غيره فى خفاء، وأخفى منه ما أضمر فى نفسه مما لم يحدّث به غيره . وعنه أيضا : السر حديث نفسك، وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن؛ أنت تعلم ما تسر به نفسك اليوم، ولا تعلم ما تُسرّ به غدا، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسرّه غدا؛ والمعنى : الله يعلم السّر وأخفى من السّر . وقال ابن عباس أيضا : «السر» ما أسر ابن آدم فى نفسه، «وَأَخْفَى» ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه، فالله تعالى يعلم ذلك كله، وعلمه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علم واحد، وجميع الخلائق فى علمه كنفس واحدة . وقال قتادة وغيره : «السر» ما أضمره الإنسان فى نفسه، «وأخفى» منه ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقال ابن زيد : «السر» من الخلائق، «وأخفى» منه سره عز وجل؛ وأنكر ذلك الطبرى، وقال : إن الذى «أخفى» ما ليس فى سر الإنسان وسيكون فى نفسه كما قال ابن عباس . ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ «الله» رفع بالابتداء، أو على إضمار مبتدإ، أو على البدل من الضمير فى «يعلم» . وَحَّدَ نفسه سبحانه؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فكبر ذلك عليهم، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن قال للوليد بن المغيرة : محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر وهو يدعو الله والرحمن؛ فأنزل الله تعالى «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» وهو واحد وأسماؤه كثيرة؛ ثم قال : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» وقد تقدم التنبيه عليها فى سورة «الأعراف» [1] .

(١) جـ ٧ ص ٣٢٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ
هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ
إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾
إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾
فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ قال أهل المعانى : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه؛ أليس قد أتاك؟ وقيل : معناه وقد أتاك؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبي : لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره . ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى عليه السلام رجلا غيورا ، يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه ، لئلا يروا آمرأته ؛ فأخطأ الرفقة — لما سبق فى علم الله تعالى — وكانت ليلة مظلمة . وقال مقاتل : وكانت ليلة الجمعة فى الشتاء . وهب بن منبه : استأذن موسى شعيبا فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردة مثلجة، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته، فقدح موسى النار فلم تورِ المِقْدَحة شيئا، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا ﴾ أى أقيموا بمكانكم ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى أبصرت . قال ابن عباس : فلما توجه نحو النار فإذا النار فى شجرة عناب، فوقف متعجبا من حسن ذلك الضوء، وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة، ولا كثرة

ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار . وذكر المهدوى : فرأى النار — فيما روى — وهى فى شجرة من العُلّيق، فقصدها فتأخرت عنه، فرجع وأوجس فى نفسه خيفة، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة . الماوردى : كانت عند موسى نارا، وكانت عند الله تعالى نورا . وقرأ حمزة « لِأَهْلِهُ ٱمْكُثُوا » بضم الهاء، وكذا فى « القصص » . قال النحاس وهذا على لغة من قال : مررت بِهُ يارجل؛ فجاء به على الأصل ، وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة . وقال : «آمكثوا» ولم يقل أقيموا، لأن الإقامة تقتضى الدوام، والمكث ليس كذلك . « وآنست » أبصرت، قاله ابن الأعرابى . ومنه قوله : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » أى علمتم . وآنست الصوت سمعته، والقبس شعلة من نار، وكذلك المِقباس . يقال : قبَستُ منه نارا أقبِس قَبْسا فأقبسنى أى أعطانى منه قَبَسا، وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضا أى آستفدته، قال اليزيدى : أَقبستُ الرجل علما وقَبَسته نارا؛ فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته . وقال الكسائى : أقبسته نارا أو علما سواء . وقال : وقبسته أيضا فيهما . « هُدًى » أى هاديا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعنى النار ﴿ نُودِيَ ﴾ أى من الشجرة كما فى سورة «القصص» أى من جهتها وناحيتها على ما يأتى ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ روى الترمذى عن عبدالله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجُبّة صوف وكُمّة صوف وسراويلُ صوف وكانت نعلاه من جلد حمار ميت " قال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حميد الأعرج [حميد — هو ابن على الكوفى[(١)] —] منكر الحديث، وحميد ابن قيس الأعرج المكى صاحب مجاهد ثقة؛ والكمة القلنسوة الصغيرة . وقرأ العامة « إنى » بالكسر؛ أى نودى فقيل له ياموسى إنى، واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو عمرو وابن كثير

(١) الزيادة من الترمذى .

وابن محيصن وحميد «أَنِّي» بفتح الألف بإعمال النداء . واختلف العلماء في السبب الذي من أجله أمر بخلع النعلين . والخلع النزع . والنعل ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض . فقيل : أمر بطرح النعلين؛ لأنها نجسة إذ هي من جلد غير مُذَكًّى؛ قاله كعب وعكرمة وقتادة . وقيل : أمر بذلك لينال بركة الوادي المقدس، وتمس قدماه تربة الوادي؛ قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وابن جريج . وقيل : أمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى . وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت . وقيل : إعظاما لذلك الموضع كما أن الحرَم لا يُدخَل بنعلين إعظاما له . قال سعيد بن جبير : قيل له طَإِ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة حافيا . والعرف عند الملوك أن تخلع النعال ويبلغ الإنسان إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه؛ ولا تبالي كانت نعلاه من ميتة أو غيرها . وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برا بتربتها المحتوية على الأعظم الشريفة، والجثة الكريمة . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخَصاصِيّة وهو يمشي بين القبور بنعليه : "إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك" قال : فخلعتهما . وقول خامس : إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل . وكذلك هو في التعبير : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج . وقيل : لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى ، ولا ينبغي أن يطأ بساط رب العالمين بنعله . وقد يحتمل أن يكون موسى أُمر بخلع نعليه، وكان ذلك أوّل فرض عليه؛ كما كان أوّل ما قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : « قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَٱهْجُرْ » والله أعلم بالمراد من ذلك .

الثانية — في الخبر أنّ موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي . وقال أبو الأحوص : زار عبد الله أبا موسى في داره ، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى؛ فقال أبو موسى لعبد الله : تقدّم . فقال عبد الله : تقدّم ، أنت في دارك . فتقدّم وخلع نعليه؛ فقال عبدالله : أبالوادي المقدس أنت ؟ ! وفي صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال : قلت

لأنس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى نعلين؟ قال: نعم. ورواه النّسائى عن عبدالله ابن السائب: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره. وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: "ما حملكم على إلقائكم نعالكم" قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ جبريل أتانى فأخبرنى أن فيهما قَذَرا" وقال: "إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى فى نعليه قذرا أو أذًى فليمسحه وليصلّ فيهما". صححه أبو محمد عبد الحق. وهو يجمع بين الحديثين قبله، ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء فى جواز الصلاة فى النعل إذا كانت طاهرة من ذكىّ، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» على ما تقدّم. وقال إبراهيم النخعى فى الذين يخلعون نعالهم: لوددت أن محتاجا جاء فأخذها.

الثالثة — فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجليك؛ فإن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه". وقال أبو هريرة للمقبرى: اخلعهما بين رجليك ولا تُؤذِ بهما مسلما. وما رواه عبد الله بن السائب رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماما، فإن كنت إماما أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت، وإن كنت مأموما فى الصف فلا تُؤذِ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قدام قدميك. وروى عن جُبير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

الرابعة — فإن تحقق فيهما نجاسة مُجمَع على تنجيسها كالدم والعذرة من بول بنى آدم لم يطهّرها إلا الغسل بالماء، عند مالك والشافعى وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفا فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة فهل يطهّرها المسح بالتراب من النعل والخفّ أولا؟ قولان عندنا. وأطلق الإجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزاعىّ وأبو ثور. وقال

أبو حنيفة : يزيله إذا يبس الحكُّ والفركُ، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ماعدا البول، فلا يجزئ فيه عنده إلا الغسل . وقال الشافعي : لا يطهّر شيئا من ذلك كله إلا الماء . والصحيح قول من قال : إن المسح يطهّره من الخفّ والنعل؛ لحديث أبي سعيد . فأما لو كانت النعل والخفّ من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق ، ما عدا ما ذهب إليه الزُّهريّ والليث ، على ما تقدّم بيانه في سورة « النحل »(١) . ومضى في سورة « براءة »(٢) القول في إزالة النجاسة والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ المقدّس : المطهّر . والقُدْس : الطهارة، والأرض المقدّسة أي المطهرة؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين . وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض؛ كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض، ولبعض الحيوان كذلك . ولله أن يفضل ما شاء . وعلى هذا فلا آعتبار بكونه مقدسا بإخراج الكافرين و إسكان المؤمنين؛ فقد شاركه في ذلك غيره . و « طُوًى » اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطَّويّ . وقرأ عِكْرِمة « طِوًى » . الباقون « طُوًى » . قال الجوهري : « طوى » آسم موضع بالشام، تكسر طاؤه وتضم ، و يصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله آسم واد ومكان وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله بلدة و بقعة وجعله معرفة . وقال بعضهم : «طُوًى » مثل « طِوًى » وهو الشيء المَثْنيّ، وقالوا في قوله «الْمُقَدَّسِ طُوًى» : طُوِيَ مرتين أي قُدِّس . وقال الحسن : ثُنِيَتْ فيه البركة والتقديس مرّتين . وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادي؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه، فكأنه قال : « إنك بالوادِ المقدس » الذي طويته طوى؛ أي تجاوزته فطويته بسيرك . الحسن : معناه أنه قدّس مرّتين؛ فهو مصدر من طويته طوى أيضا .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٦٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ أى ٱصطفيتك للرسالة . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم والكسائى « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » . وقرأ حمزة « وَأَنَّا ٱخْتَرْنَاكَ » . والمعنى واحد؛ إلا أنّ « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » هاهنا أولى من جهتين : إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله عز وجل : « يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ » وعلى هذا النَّسق جرت المخاطبة؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ فيه مسئلة واحدة — قال ابن عطية : وحدثنى أبى — رحمه الله — قال سمعت أبا الفضل الجوهرى رحمه الله تعالى يقول : لما قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه : « ٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » وقف على حجر، واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفا .

قلت : حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال : « ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ » وذم على خلاف هذا الوصف فقال : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ » الآية . فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم، فقال : « وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » وقال هاهنا : « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى . روى عن وهب بن منبّه أنه قال : من أدب الاستماع سكون الجوارح وغضّ البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكفّ العبد جوارحه، ولا يشغلها . فيشتغل قلبه عما يسمع، و يغضّ طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، و يحصر عقله فلا يُحدِّث نفسه بشىء سوى ما يستمع إليه، و يعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم . وقال سفيان بن عُيَيْنَة : أوّل العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا ٱستمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له فى قلبه نورا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف فى تأويل قوله : « لِذِكْرِي » فقيل : يحتمل أن يريد لتذكرنى فيها ، أو يريد لأذكرك بالمدح فى عليين بها ؛ فالمصدر على هـذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل و إلى المفعول . وقيل : المعنى ؛ أى حافظ بعد التوحيد على الصلاة . وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هى تضرع إلى الله تعالى ، وقيام بين يديه ؛ وعلى هـذا فالصلاة هى الذكر . وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا فى قوله : « فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » . وقيل : المراد إذا نسيت فتذكرت فصلِّ كما فى الخبر " فليصلِّها إذا ذكرها " . أى لا تسقط الصلاة بالنسيان .

الثانيــة — روى مالك وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نام عن صلاة أو نسيـها فليصلِّها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » " . وروى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث حجاج بن حجاج — وهو حجاج الأول الذى روى عنه يزيد بن زُرَيع — قال حدثنا قتادة عن أنس بن مالك قال : سئل رســول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة و يغفل عنها قال : "كفارتها أن يصليها إذا ذكرها" تابعه إبراهيم بن طَهْمان عن حجــاج ، وكذا يروى همام بن يحيى عن قتادة . وروى الدارقطنىّ عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نسى صلاة فوقتها إذا ذكرها " فقوله : " فليصلِّها إذا ذكرها " دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل ، كثرت الصلاة أو قلّت ، وهو مذهب عامة العلماء . وقد حكى خلاف شاذ لا يعتد به ، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء .

قلت : أمر الله تعــالى بإقامة الصلاة ، ونص على أوقات معينة ، فقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » الآية وغيرها من الآى . ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار ، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقا لمــا أمر به ، ولا ثواب له على فعــله وهو عاصٍ ؛ وعلى هــذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته . ولولا قوله عليــه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلِّها إذا ذكرها " لم ينتفع أحد بصلاة وقعت فى غير وقتها ، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء ؛ لأن القضاء بأمر متجدّد وليس بالأمر الأول .

الثالثة — فأما من ترك الصلاة متعمدا ، فالجمهور أيضا على وجوب القضاء عليه ، وإن كان عاصيا إلا داود . ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعرى الشافعى ، حكاه عنه ابن القصّار. والفرق بين المتعمد والناسى والنائم ، حط المأثم ؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون . والحجة للجمهور قوله تعالى : « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ » ولم يفرق بين أن يكون فى وقتها أو بعدها . وهو أمر يقتضى الوجوب . وأيضا فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسى ، مع أنهما غير مأثومين ، فالعامد أولى . وأيضا قوله : "من نام عن صلاة أو نسيها" والنسيان الترك ؛ قال الله تعالى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » و « نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » سواء كان مع ذهول أو لم يكن ؛ لأن الله تعالى لا يَنْسى وإنما معناه تركهم و « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا » أى نتركها . وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره . قال الله تعالى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى» وهو تعالى لاينسى وإنما معناه علِمت . فكذلك يكون معنى قوله : "إذا ذكرها" أى علمها . وأيضا فإن الديون التى للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت ، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها ، وهى مما يسقطها الإبراء كان فى ديون الله تعالى ألا يصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه . وأيضا فقد اتفقنا أنه لو ترك يوما من رمضان متعمدا بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة . فإن قيل فقد روى عن مالك : من ترك الصلاة متعمدا لا يقضى أبدا . فالإشارة إلى أن مامضى لا يعود ، أو يكون كلاما خرج على التغليظ ؛ كما روى عن ابن مسعود وعلىّ : أن من أفطر فى رمضان عامدا لم يكفِّره صيام الدهر وإن صامه . ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء ، أو إتباعه بالتوبة ، ويفعل الله بعد ذلك مايشاء . وقد روى أبو المُطَوِّس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أفطر يوما من رمضان متعمدا لم يجزه صيام الدهر وإن صامه" وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ ؛ وهو حديث ضعيف خرجه أبو داود . وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح ، وفى بعضها قضاء اليوم ؛ والحمد لله تعالى .

الرابعة — قوله عليه الصلاة والسلام : "من نام عن صلاة أو نسيها" الحديث ؛ يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام : "رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ" والمراد بالرفع

هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: "وعن الصبي حتى يحتلم" وإن كان ذلك جاء في أثر واحد؛ فقف على هذا الأصل.

الخامسة — اختلف العلماء في هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو في آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاة وهو في صلاة، فجملة مذهب مالك: أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى، وإن فات وقت هذه. وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها، وعلى نحو هذا مذهب أبي حنيفة والثوري والليث؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا: الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خشي فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم. وقد روي عن الثوري وجوب الترتيب، ولم يفرق بين القليل والكثير. وهو تحصيل مذهب الشافعي. قال الشافعي: الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه. وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر. وقال: لا ينبغي لأحد أن يصلي صلاة وهو ذاكر لما قبلها لأنها تفسد عليه. وروى الدَّارَقُطْنِي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام: "إذا ذكر أحدكم صلاة في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي" وعمر بن أبي عمر مجهول[1].

قلت: وهذا لو صح كانت حجة للشافعي في البداءة بصلاة الوقت. والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله: أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول الله والله ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فوالله إنْ[2] صَلَّيتُها" فنزلنا البطحان[3] فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوضأنا فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها

(١) عمر بن أبي عمر: هو أحد رواة هذا الحديث عن مكحول عن ابن عباس. ولفظ الحديث في الدارقطني هكذا: "إذا نسي أحدكم الصلاة فذكرها وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي".
(٢) إن نافية؛ أي ما صليتها. (٣) بطحان (بالضم أو الصواب الفتح وكسر الطاء): موضع بالمدينة.

المغرب . وهذا نصٌّ فى البداءة بالفائتة قبل الحاضرة ، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيَّق غير ممتد فى الأشهر عندنا ، وعند الشافعى كما تقدم . وروى الترمذى عن أبى عبيدة بن عبد الله آبن مسعود عن أبيه : أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق ، حتى ذهب من الليل ماشاء الله تعالى ، فأَمر بالأذان بلالا فقام فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء . وبهذا آستدل العلماء على أن من فاتته صلاة ، قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها فى وقت واحد . وآختلفوا إذا ذكر فائتة فى مضيَّق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال : يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة ، وبه قال مالك والليث والزهرى وغيرهم كما قدّمناه . الثانى — يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعى وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبى وابن وهب من أصحابنا . الثالث — يتخير فيقدم أيتهما شاء ، وبه قال أشهب .

وجه الأول : كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة ؛ قاله القاضى عياض . وآختلفوا فى مقدار اليسير ؛ فعن مالك : الخمس فدون ، وقد قيل : الأربع فدون لحديث جابر ؛ ولم يختلف المذهب أن الست كثير .

السادسة — وأما من ذكر صلاة وهو فى صلاة ؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به ، يتمادى مع الإمام حتى يكمل صلاته . والأصل فى هذا ما رواه مالك والدارقطنى عن ابن عمر قال : " إذا نسى أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصلّ الصلاة التى نسى ثم ليعد صلاته التى صلّى مع الإمام " لفظ الدارقطنى ؛ وقال موسى بن هرون : وحدثناه أبو إبراهيم التَّرْجُمانىّ ، قال : حدثنا سعيد [به][1] ورفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ووهم فى رفعه ، فإن كان قد رجع عن رفعه فقد وفق للصواب . ثم اختلفوا ؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : يصلى التى ذكر ، ثم يصلى التى صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات ؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين . وهو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين . وذكر الخِرَقى[2] عن

(١) الزيادة من الدارقطنى . (٢) هذه النسبة إلى بيع الخرق والثياب .

أحمد بن حنبل أنه قال : من ذكر صلاة وهو فى أخرى فإنه يتمها و يقضى المذكورة، وأعاد التى كان فيها إذا كان الوقت واسعا ، فإن خشى خروج الوقت وهو فيها أعتقد ألّا يعيــدها ، وقد أجزأته و يقضى التى عليه . وقال مالك : من ذكر صلاة وهــو فى صلاة قد صــلى منها ركعتين سَــلَّم من ركعتيه، فإن كان إماما آنهدمت عليه وعلى من خلفه و بطلت . هــذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظــر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة فى صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى و يســلّم . ولو ذكرها فى صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلّم، وصارت نافلة غير فاسدة ولو آنهدمت عليه كما ذكر و بطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى ، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضف إليها أخرى .

السابعـــة — روى مسلم عن أبى قَتادة قال : خطبنا رسول الله صــلى الله عليه وســلم فذكر حديث الميضأة بطوله ، وقال فيه ثم قال : "أَمَا لكم فىّ أُســوة" ثم قال : "أَمَا إنه ليس فى النوم تفريط إنمــا التفريط على من لم يصلّ الصلاة حتى يجىء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لهــا فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها" وأخرجه الدارقطنى هــكذا بلفظ مسلم ســواء، فظاهره يقتضى إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتى ؛ و يعضد هــذا الظاهر ما خرجه أبو داود من حديث عِمران بن حُصَين، وذكر القصة وقال فى آخرها : "فمن أدرك منكم صلاة الغَداة من غدٍ صالحا فليقضِ معها مثلها".

قلت : وهذا ليس على ظاهره، ولا تعاد غير مرة واحدة؛ لما رواه الدارقطنى عن عِمران ابن حصين قال : سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وســلم فى غَزاة — أو قال فى سريّة — فلما كان وقت السحر عَرَّسْنا ، فما استيقظنا حتى أيقظَنا حرُّ الشمس ، فجعل الرجل منا يَثِب فَزِعا دَهِشا ، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارتحلنا ، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس ، فقضى القــوم حوائجهم ، ثم أمر بلالا فأذن فصلينا ركعتين ، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة ، فقلنا : يا نبى الله ألا نقضيها لوقتها من الغد ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "أينهاكم الله عن الربا و يقبله منكم". وقال الخطّابى : لا أعلم أحدا قال بهذا وجوبا ، ويشبه

أن يكون الأمر به استحبابا ليحرز فضيلة الوقت فى القضاء. والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام: "أينهاكم الله عن الربا و يقبله منكم" ولأن الطّرق الصحاح من حديث عِمران بن حُصَين ليس فيها من تلك الزيادة شيء، إلا ما ذكر من حديث أبى قتادة وهو محتمل كما بيناه.

قلت: ذكر الكيا الطبرى فى «أحكام القرآن» له أن من السلف من خالف قوله عليه الصلاة والسلام: "من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك" فقال: يصبر إلى مثل وقته فليصل؛ فإذا فات الصبح فليصل من الغد. وهذا قول بعيد شاذ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ آية مشكلة؛ فروى عن سعيد بن جبير أنه قرأ «أَكَادُ أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة؛ قال: أظهرها. «لِتُجْزَى» أى الإظهار للجزاء؛ رواه أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وِقَاء بن إياس عن سعيد ابن جبير. وقال النحاس: وليس لهذه الرواية طريق غير هذا.

قلت: وكذا رواه أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد؛ حدثنى أبى حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء حدثنا الكسائى؛ ح — وحدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يوسف حدثنا يحيى الحِمانىّ حدثنا محمد بن سهل. قال النحاس: وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد عن جبير: أنه قرأ «أَكَادُ أُخْفِيهَا» بضم الهمزة.

قلت: وأما قراءة ابن جبير «أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنبارى قال الفراء: معناه أظهرها من خفيت الشيء أخفيه إذا أظهرته. وأنشد الفراء لأمرئ القيس:

فإنْ تَدفِنُوا الدَّاءَ لانَخْفِه * وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُد

أراد لا نظهره؛ وقد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون «أُخْفِيهَا» بضم الهمزة معناه أظهرها لأنه يقال: خَفيتُ الشيء وأَخفيته إذا أظهرتَه؛ فأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار. وقال أبو عبيدة: خَفيت وأَخفيت بمعنى واحد. النحاس: وهذا حسن؛ وقد

حكاه عن أبي الخطّاب[1] وهو رئيس من رؤساء اللغة لا يشك في صدقه ؛ وقد روى عنه سيبويه وأنشد :

وإنْ تكتُموا الداءَ لا نُخْفِه * وإنْ تبعثُوا الحربَ لا نَقعُد

كذا رواه أبو عبيدة عن أبي الخطاب بضم النون . وقال آمرؤ القيس أيضا :

خَفَاهنّ من أنفاقِهنّ كأنما * خفاهنّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجلِّبِ[2]

أي أظهرهن . وروى : « من سحاب مركّب » بدل « من عَشِيٍّ مُجلِّب » . وقال أبو بكر الأنباري : وتفسير للآية آخر : « إن الساعة آتية أكاد » انقطع الكلام على « أكاد » وبعده مضمر أكاد آتي بها ، والابتداء « أُخْفِيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ » . قال ضابئ البُرْجُمِيّ[3] :

هَمَمْتُ ولم أَفعلْ وكِدتُ وليتَنِي * تَرَكتُ على عثمانَ تَبكِي حَلائِلُهْ

أراد وكدت أفعل ، فأضمر مع كدت فعلا كالفعل المضمر معه في القرآن .

قلت : هذا الذي اختاره النحاس ؛ وزيف القول الذي قبله فقال يقال : خَفَى الشيءَ يخفيه إذا أظهره ، وقد حكى أنه يقال : أخفاه أيضا إذا أظهره ، وليس بالمعروف ؛ قال : وقد رأيت علي بن سليمان لما أشكل عليه معنى « أُخْفِيها » عدل إلى هذا القول ، وقال : معناه كمعنى « أَخْفِيها » . قال النحاس : ليس المعنى على أظهرها ولا سيما و « أَخْفِيها » قراءة شاذة ، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة إلى الشاذة ، ومعنى المضمر أولى ؛ ويكون التقدير : إن الساعة آتية أكاد آتي بها ؛ ودل « آتية » على آتي بها ؛ ثم قال : « أُخْفِيها » على الابتداء . وهذا معنى صحيح ؛ لأن الله عز وجل قد أخفى الساعة التي هي القيامة ، والساعة التي يموت فيها الإنسان ليكون الإنسان يعمل ، والأمر عنده مبهم ، فلا يؤخر التوبة .

---

(١) هو الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد . (٢) خفاهن : أظهرهن . والأنفاق (جمع نفق) : وهو الجحر . والودق : المطر . والمجلب : الذي له جلبة . وقبله :

ترى الفأر في مستنقع القاع لاحبا * على جدد الصحراء من شد ملهب

يقول : وقع حوافر الفرس على الأرض أخرج الفأر من جحرتها لأنه ظنه مطرا .

(٣) قاله وهو محبوس ؛ حبسه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه لهجائه بعض بني جرول بن نهشل ؛ ولم يزل في حبسه إلى أن مات .

قلت : وعلى هذا القول تكون اللام فى « لِتجزى » متعلقة بـ«أُخفِيها » . وقال أبو على : هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد، ومعنى « أُخفِيها » أزيل عنها خفاءها، وهو سترها كخفاء الأخفية [وهى الأكسية] والواحد خفاء بكسر الخاء [ما تلف به[1]] القربة، وإذا زال عنها سترها ظهرت . ومن هذا قولهم : أشكيته، أى ازلت شكواه، وأعديته أى قبلت استعداءه ولم أحوجه إلى إعادته . وحكى أبو حاتم عن الأخفش : أن« كاد» زائدة مؤكدة . قال : ومثله « إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا » لأن الظلمات التى ذكرها الله تعالى بعضها يحول بين الناظر والمنظور إليه . وروى معناه عن ابن جبير، والتقدير : إن الساعة آتيـة أخفيها لتجزى كل نفس بمـا تسعى . وقال الشاعر[2] :

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سِلاحُهُ * فما إِنْ يَكَـادُ قِـرْنُهُ يَتنفَّسُ

أراد فمـا يتنفّس . وقال آخر :

وأَلَّا ألوم النفسَ فيما أصابنى * وألَّا أكاد بالذى نِلتُ أَنجحُ

معناه : وألا أنجح بالذى نلت ؛ فأكاد توكيد للكلام . وقيل : المعنى « أَكَادُ أُخْفِيهَا » أى أقارب ذلك ؛ لأنك إذا قلت : كاد زيد يقـوم ، جاز أن يكون قام ، وأن يكون لم يقم . ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب . قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب: قاربت الفعل ولم أفعل،وما كدت أفعل معناه: فعلت بعد إبطاء . وشاهده قول الله عزت عظمته «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» معناه : وفعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة عليهم . وقد يكون ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكاد . وقيل: معنى « أَكَادُ أُخْفِيهَا » أريد أخفيها . قال الأنبارى : وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر :

كادتْ وكِدتُ وتِلكَ خـيرُ إِرادةٍ * لو عَادَ من لَهْـوِ الصَّبابةِ ما مَضَى

معناه : أرادت وأردت . وقال ابن عبـاس وأكثر المفسرين فيما ذكر الثعلبى : إن المعـنى أكاد أخفيها من نفسى ؛ وكذلك هو فى مصحف أبىّ . وفى مصحف ابن مسعود : أكاد

---

(١) الزيادة من كتب اللغة . (٢) هو زيد الخيل .

أخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق . وفى بعض القراءات : فكيف أظهـرها لكم . وهو محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة العـرب فى كلامها، من أن أحدهم إذا بالغ فى كتمان الشيء قال : كدت أخفيـه من نفسى . والله تعالى لا يخفى عليـه شيء ؛ قال معناه قطرب وغيره . وقال الشاعر :

أيامَ تَصحبــنى هنـــد وأخــبرُهَا * ما أَكتم النفسَ من حَاجِى وأَسْرَارِى

فكيف يخبرها بما تكتم نفسه . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعـلم شماله ما تنفق يمينه" الزمخشرى وقيل معناه : أكاد أخفيها من نفسى ، ولا دليل فى الكلام على هـذا المحذوف؛ ومحذوف لا دليل عليـه مُطَّرح، والذى غرهم منه أن فى مصحف أبىّ : أكاد أخفيهـا من نفسى ؛ وفى بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها .

قلت : وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيها من نفسى ؛ أى إن إخفاءها كان من قِبلى ومن عندى لا من قِبل غيرى . وروى عن ابن عباس أيضا : أكاد أخفيها من نفسى؛ ورواه طلحة بن عمرو عن عطاء . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لا أظهر عليها أحدا . وروى عن سـعيد بن جبير قال : قد أخفاها . وهذا على أن كاد زائدة . أى إن الساعة آتية أخفيها، والفائدة فى إخفائها التخويف والتهويل . وقيل : تعلق «لتجزى» بقوله تعـالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ » فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ أى أقم الصلاة لتذكرنى « لِتجزى كل نفسٍ بِمـا تسعى » أى بِسعيها « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا » . والله أعلم . وقيل : هى متعلقة بقوله : « آتية » أى إن الساعة آتية لتجزى . ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أى لا يصرفنك عن الإيمان بها والتصديق لهـا ﴿ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ . ﴿ فَتَرْدَى ﴾ أى فتهلك . وهو فى موضع نصب بجواب النهى .

قوله تعـالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَـا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ قيل : كان هذا الخطاب من الله تعالى لموسى وحيا؛ لأنه قال : « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » ولابد للنبي فى نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوّة نفسه ، فأراه فى العصا وفى نفسه ما أراه لذلك . ويجوز أن يكون ما أراه فى الشجرة آية كافية له فى نفسه ، ثم تكون اليد والعصا زيادة توكيد ، وبرهانا يلق به قومه . وٱختلف فى «ما» فى قوله : « وَمَا تِلْكَ » فقال الزجاج والفراء : هى ٱسم ناقص وصلت ب « بيمينك » أى ما التى بيمينك؟ وقال أيضا : «تلك» بمعنى هذه؛ ولو قال : ما ذلك لجاز؛ أى ما ذلك الشيء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هى عصاى؛ ليثبت الحجة عليه بعد ما اعترف ، و إلا فقد علم الله ما هى فى الأزل . وقال ابن الجوهرى : وفى بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه فى ذلك الموطن؛ فقيل له : ألقها لترى منها العجب فتعلم أنه لا ملك لك عليها ولا تنضاف إليك . وقرأ ابن أبى إسحق «عَصَيَّ» على لغة هُذيل؛ ومثله «يابُشْرَيَّ» و «مَحْيَيَّ» وقد تقدّم . وقرأ الحسن «عَصَايِ» بكسر الياء لالتقاء الساكنين . ومثل هذا قراءة حمزة «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ» . وعن ابن أبى إسحق سكون الياء .

الثانيــة — فى هــذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل ؛ لأنه لما قال : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » ذكر معانى أربعة : وهى : إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ؛ والتوكؤ ، والهش ، والمآرب المطلقة . فذكر موسى من منافع عصاه عُظْمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك . وفى الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال: "هو الطَّهورُ ماؤه الحِلُّ مَيتته" . وسألته ٱمرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال "نعم ولك أجر" . ومثله فى الحديث كثير .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أى أتحامل عليها فى المشي والوقوف؛ ومنه الاتكاء . ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا ﴾ «وَأَهِشُّ» أيضا؛ ذكره النحاس . وهى قراءة النَّخَعي[1]؛ أى أخبط بها

(١) وروي عن النخعي أيضا أنه قرأ « وأهش » بضم الهمزة والشين من «أهش» رباعيا .

الورق، أى أضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنمى تناوله فتأكله . قال الراجز :

أَهُشُّ بالعَصَا على أَغْنامِي * من ناعِمِ الأَرَاكِ والبَشامِ

يقال : هَشَّ على غنمه يَهُشُّ بضم الهاء فى المستقبل . وهشَّ إلى الرجل يَهَش بالفتح . وكذلك هشّ للمعروف يَهَشّ وهشِشت أنا : وفى حديث عمر : هشِشْت يوما فقبَّلت وأنا صائم . قال شِمْر : أى فرحتِ وآشتهيت . قال : ويجوز هَاشَ بمعنى هَشَّ . قال الراعى :

فكبَّرَ للرؤْيَا وهَاشَ فؤادُهُ * وبَشَّرَ نفساً كان قبل يَلُومَها

أى طَرِب . والأصل فى الكلمة الرخاوة . يقال : رجل هَشٌّ وزوج هَشٌّ . وقرأ عكرمة «وأَهُسُّ» بالسين غير معجمة ؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : معناهما مختلف ؛ فالهشّ بالإعجام خبط الشجر ، والهس بغير إعجام زَجْر الغنم ؛ ذكره الماوردى ؛ وكذلك ذكر الزمخشرى . وعن عكرمة : « وأَهُسُّ » بالسين أى أنحى عليها زاجرا لها والهَسّ زَجْر الغنم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أى حوائج . واحدها مَأْرُبة ومَأْرَبة ومَأْرِبة . وقال : «أخرى» على صيغة الواحد ؛ لأن مآرب فى معنى الجماعة ، لكن المَهْيَع(١) فى توابع جمع ما لا يعقل الإفراد والكناية عنه بذلك ؛ فإن ذلك يجرى مجرى الواحدة المؤنثة ؛ كقوله تعالى : « وِلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَٱدْعُوهُ بِهَا » وكقوله : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » وقد تقدّم هذا فى « الأعراف »(٢) .

الخامسة — تعرض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس ، قال : إذا انتهيت إلى رأس بئر فقَصُر الرِّشا وصلته بالعَصَا ، وإذا أصابنى حر الشمس غرزتها فى الأرض وألقيت عليها ما يظلنى ، وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلته بها ، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقى وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة ، وأقاتل بها السباع عن الغنم .

---

(١) المهيع : الطريق الواضح الواسع البين .	(٢) جـ ٧ ص ٣٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وروى عنه ميمون بن مهران قال : إمساك العصا سنة للانبياء، وعلامة للؤمن . وقال الحسن البصرى : فيها ست خصال ؛ سنة للانبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغم المنافقين، وزيادة فى الطاعات . ويقال : إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان، ويخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوة إذا أعيا . ولقى الحجاجُ أعرابيا فقال: من أين أقبلت يا أعرابى ؟ قال : من البادية . قال: وما فى يدك؟ قال : عصاىَ أركزها لصلاتى، وأعدّها لعداتى، وأسوق بها دابتى، وأقوى بها على سفرى، وأعتمد بها فى مشيتى لتتسع خطوتى، وأثب بها النهر، وتؤمننى من العثر، وألقى عليها كسائى فيقينى الحر، ويدفئنى من القر، وتدنى إلىّ ما بعد منى، وهى تحمل سفرتى، وعلاقة إداوتى؛ أعصى بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقى بها عقور الكلاب؛ وتنوب عن الرمح فى الطّعان، وعن السيف عند منازلة الأقران؛ ورثتها عن أبى، وأورّثها بعدى آبنى؛ وأهشّ بها على غنمى، ولى فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى .

قلت : منافع العصا كثيرة، ولها مدخل فى مواضع من الشريعة : منها أنها تتخذ قبلة فى الصحراء؛ وقد كان للنبى عليه الصلاة والسلام عنزة(١) تركز له فيصلّى إليها، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحَرْبة فتوضع بين يديه فيصلّى إليها؛ وذلك ثابت فى الصحيح . والحَرْبة والعَنَزة والنيْزك والآلة اسم لمسمى واحد . وكان له مِحْجَن وهو عصا معوجّة الطّرَف يشير به إلى الحَجَر إذا لم يستطع أن يقبّله ؛ ثابت فى الصحيح أيضا . وفى الموطأ عن السائب بن يزيد أنه قال : أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبىّ بن كعب وتميما الدارىّ أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، وكان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصىّ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا فى بزوغ الفجر . وفى الصحيحين : أنه عليه الصلاة والسلام كان له مِخْصَرة(٢) . والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكّئا على سيف أو عصا ، فالعصا مأخوذة من أصل كريم، ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل . وقد جمع الله لموسى

(١) العنزة : مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا ، وفيها سنان مثل سنان الرمح . (٢) المخصرة بالخاء المعجمة والصاد المهملة : ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب وقد يتكئ عليه . النهاية .

فى عصاه من البراهين العظام، والآيات الجسام، ما آمن به السحرة المعاندون . وآتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته . وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وعَنَزته؛ وكان يخطب بالقضيب — وكفى بذلك فضلا على شرف حال العصا — وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفى المحافل والخطب . وأنكرت الشُّعوبية على خطباء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها إلى المعانى . والشُّعوبية تبغض العرب وتفضل العجم . قال مالك : كان عطاء بن السائب يمسك المِخصرة يستعين بها . قال مالك : والرجل إذا كبر لم يكن مثل الشباب يقوى بها عند قيامه .

قلت : وفى مشيته كما قال بعضهم :

قد كنتُ أمشي على رجلين معتمدًا * فصرتُ أمشي على أخرى من الخشَبِ

قال مالك رحمه الله ورضى عنه : وقد كان الناس إذا جاءهم المطر خرجوا بالعصى يتوكئون عليها، حتى لقد كان الشباب يحبسون عصيّهم، وربما أخذ ربيعة العصا من بعض من يجلس إليه حتى يقوم . ومن منافع العصا ضرب الرجل نساءه بها فيما يصلحهم، ويصلح حاله وحالهم معه. ومنه قوله عليه السلام : " وأما أبو جَهْم فلا يضع عصاه عن عاتقه "(١) فى إحدى الروايات . وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لرجل أوصاه : " لا ترفع عصاك عن أهلك أخفهم فى الله " رواه عبادة بن الصامت؛ خرجه النسائى . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " علِّق سوطك حيث يراه أهلك " وقد تقدم هذا فى «النساء»(٢) . ومن فوائدها التنبيه على الانتقال من هذه الدار؛ كما قيل لبعض الزهاد : مالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض ؟ قال : إنى أعلم أنى مسافر، وأنها دار قُلعة، وأن العصا من آلة السفر؛ فأخذه بعض الشعراء فقال :

حملتُ العصا لا الضَّعفُ أوجبَ حملَها * عليّ ولا أنى تحنَّيتُ من كِبَرْ

ولكنّنى ألزمتُ نفسيَ حملَها * لأُعلمها أنّ المقيمَ على سَفَرْ

(١) هذا من حديث فاطمة بنت قيس، حيث جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن أبا جهم بن حذيفة ومعاوية بن أبي سفيان خطباها فقال : " أما أبو جهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء وأما معاوية فصعلوك لا مال له " الترمذى .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٧٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١) وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ : لما أراد الله تعالى أن يُدرّبه فى تلقى النبوة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها . وكانت عصا ذات شُعبتين فصارت الشُّعبتان لها فمًا ، وصارت حية تسعى أى تنتقل ، وتمشى وتلتقم الحجارة ؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة فـ « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » فقال الله له : « خُذْهَا وَلَا تَخَفْ » وذلك أنه « أَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً » أى لحقه ما يلحق البشر . وروى أن موسى تناولها بكمى جُبَّته فنُهى عن ذلك ، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة وهى سيرتها الأولى ، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون . ويقال : إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتحادثه ويعلق عليها أحماله ، وتضىء له الشُّعبتان بالليل كالشّمع ؛ وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشّعبتان كالدلو ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فى الأرض فأثمرت تلك الثمرة . وقيل : إنها كانت من آس الجنة . وقيل : أتاه جبريل بها . وقيل : مَلَك . وقيل قال له شعيب : خذ عصا من ذلك البيت فوقعت بيده تلك العصا ، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ النحاس : ويجوز «حَيَّةً» ؛ يقال : خرجت فإذا زيد جالس وجالسا . والوقف « حَيَّه » بالهاء . والسعى المشى بسرعة وخفة . وعن ابن عباس : انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآه يبتلع كل شىء خافه ونفر منه . وعن بعضهم : إنما خاف منه لأنه عرف ما لقى آدمُ منها . وقيل لما قال له ربه : « لَا تَخَفْ » بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها . ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ سمعت على بن سليمان يقول : التقدير إلى سيرتها ، مثل « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » قال : ويجوز أن يكون مصدرا لأن معنى سنعيدها سنسيّرها .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ يجوز في غير القرآن ضُمّ بفتح الميم وكسرها لالتقاء الساكنين ، والفتح أجود لخفته ، والكسر على الأصل . ويجوز الضم على الإتباع . ويَدٌ أصلها يَدْيٌ على فَعْل ؛ يدل على ذلك أيدٍ . وتصغيرها يُدَيَّة . والجناح العضد ؛ قاله مجاهد . وقال : «إلى» بمعنى تحت . قطرب : «إِلَىٰ جَنَاحِكَ» إلى جيبك ؛ ومنه قول الراجز :

* أَضُمُّهُ للصدر والجَنَاح *

وقيل : إلى جنبك فعبر عن الجنب بالجناح لأنه مائل في محل الجناح . وقيل : إلى عندك . وقال مقاتل : « إلى » بمعنى مع أي مع جناحك . و﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ من غير برص نورا ساطعا ، يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءا . عن ابن عباس وغيره : فخرجت نورا مخالفة للونه . و « بَيْضَاءَ » نصب على الحال ، ولا ينصرف لأن فيها ألفي التأنيث لا يزايلانها فكأن لزومهما علة ثانية ، فلم ينصرف في النكرة ، وخالفتا الهاء لأن الهاء تفارق الاسم . و « مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » «من» صلة «بيضاء» كما تقول : ابيضت من غير سوء . ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ سوى العصا . فأخرج يده من مِدْرَعة له مصرية لها شعاع مثل شعاع الشمس يعشي البصر . و « آيَةً » منصوبة على البدل من بيضاء ؛ قاله الأخفش . النحاس : وهو قول حسن . وقال الزجاج : المعنى آتيناك آية أخرى أو نؤتيك ؛ لأنه لما قال : « تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » دل على أنه قد آتاه آية أخرى . ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ يريد العظمى . وكان حقه أن يقول الكبيرة ، وإنما قال «الكبرى» لوفاق رءوس الآي . وقيل : فيه إضمار ؛ معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى ؛ دليله قول ابن عباس يد موسى أكبر آياته .

قوله تعالى : ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ لما آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدل على أنه رسول، أمره بالذهاب إلى فرعون، وأن يدعوه . و « طغى » معناه عصى وتكبر وكفر وتجبر وجاوز الحد . ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي . وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي ﴾ طلب الإعانة لتبليغ الرسالة . ويقال : إن الله أعلمه بأنه ربط على قلب فرعون وأنه لا يؤمن ؛ فقال موسى : يا رب فكيف تأمرني أن آتيه وقد ربطت على قلبه ؛ فأتاه ملك من خزان الريح فقال : يا موسى انطلق إلى ما أمرك الله به . فقال موسى عند ذلك : « رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي » أي وسعه ونوره بالإيمان والنبوة . « وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي » أي سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون . « وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي » يعني العجمة التي كانت فيه من جمرة النار التي أطفأها في فيه وهو طفل . قال ابن عباس : كانت في لسانه رُتّة . وذلك أنه كان في حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمة، وأخذ بلحيته فنتفها فقال فرعون لآسية : هذا عدوي فهات الذباحين . فقالت آسية : على رِسْلك فإنه صبي لا يفرق بين الأشياء . ثم أتت بطَسْتين فجعلت في أحدهما جمرا وفي الآخر جوهرا، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها في فيه على لسانه، فكانت تلك الرتة . وروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ . ولما دعاه قال : إلى أي رب تدعوني؟ قال : إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزتَ عنها . وعن بعضهم : إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قَصْعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة . ثم اختلف هل زالت تلك الرتة؛ فقيل : زالت بدليل قوله : « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ » . وقيل : لم تزل كلها؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » . ولأنه لم يقل : أحلل كل لساني ، فدل على أنه بقي في لسانه شيء من الاستمساك . وقيل : زالت بالكلية بدليل قوله : « أُوتِيتَ سُؤْلَكَ » وإنما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » لأنه عرف منه تلك العقدة في التربية، وما ثبت عنده أن الآفة زالت .

قلت : وهذا فيه نظر؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » حين كلمه موسى بلسان ذَلِق فصيح . والله أعلم . وقيل : إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه ، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه . ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ أي يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه . والفقه في كلام العرب الفهم . قال أعرابي لعيسى بن عمر : شهدت عليك بالفقه . تقول منه : فَقِه الرجل بالكسر . وفلان لا يَفْقَه ولا يَنْقَه(١) . وأفقهتك الشيء . ثم خُصّ به علم الشريعة ، والعالم به فقيه . وقد فَقُه بالضم فَقَاهة وفقّهه الله وتفقّه إذا تعاطى ذلك . وفاقهته إذا باحثته في العلم؛ قاله الجوهري . والوزير المؤازر كالأكيل للمؤاكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره أي ثقله . في كتاب النسائي عن القاسم بن محمد : سمعت عمتي تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ولي منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه" . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: " ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله" رواه البخاري . فسأل موسى الله تعالى أن يجعل له وزيرا ، إلا أنه لم يرد أن يكون مقصورا على الوزارة حتى لا يكون شريكا له في النبوة ، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسئلة . وعيّن فقال : «هَٰرُونَ» . وانتصب على البدل من قوله : « وَزِيرًا » . ويكون منصوبا بـ « اجعل » على التقديم والتأخير، والتقدير : واجعل لي هرون أخي وزيرا . وكان هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل : بثلاث . ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ أي ظهري . والأزر الظهر من موضع الحَقْوين، ومعناه تقوى به نفسي؛ والأزر القوة ، وآزره قوّاه . ومنه قوله تعالى : « فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ » . وقال أبو طالب(٢) :

أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أَزْرَه * وأوصى بنيه بالطِّعانِ وبالضَّرْبِ

وقيل : الأزر العون . أي يكون عونا يستقيم به أمري . قال الشاعر :

شَددتُ به أَزْرِي وأيقنتُ أنَّهُ * أخو الفقرِ من ضاقت عليه مذاهبُه

(١) معناه لا يعلم ولا يفهم . ونقهت الحديث أنقهه إذا فهمته .

(٢) هذا البيت في قصيدة له قالها في أمر الشعب والصحيفة .

وكان هرون أكثر لحما من موسى، وأتم طولا ، وأبيض جسما، وأفصح لسانا . ومات قبل موسى بثلاث سنين . وكان فى جبهة هرون شامة ، وعلى أرنبة أنف موسى شامة، وعلى طرف لسانه شامة ، ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده، وقيل : إنها كانت سبب العقدة التى فى لسانه . والله أعلم . ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أى فى النبوة وتبليغ الرسالة . قال المفسرون : كان هرون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتى هو هرون، وأوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه؛ فقال له موسى : إن الله أمرنى أن آتى فرعون فسألت ربى أن يجعلك معى رسولا . وقرأ العامة « أخى ٱشْدُدْ » بوصل الألف « وَأَشْرِكْهُ » بفتح الهمزة على الدعاء، أى آشدد يارب أزرى ، وأشركه معى فى أمرى . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحرث وأبو حَيْوة والحسن وعبد الله بن أبى إسحق « أَشْدُدْ » بقطع الألف « وَأُشْرِكْهُ » أى أنا يارب « فى أمرى » . قال النحاس : جعلوا الفعلين فى موضع جزم جوابا لقوله : « ٱجْعَلْ لِي وَزِيراً » وهذه القراءة شاذة بعيدة؛ لأن جواب مثل هذا إنما يتخرج بمعنى الشرط والمجازاة ؛ فيكون المعنى : إن تجعل لى وزيرا من أهلى أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى . وأمره النبوة والرسالة، وليس هذا إليه صلى الله عليه وسلم فيخبر به ؛ إنما سأل الله عز وجل أن يشركه معه فى النبوة . وفتح الياء من « أخِىَ » ابن كثير وأبو عمرو . ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ قيل : معنى « نسبحك » نصلى لك . ويحتمل أن يكون التسبيح باللسان . أى ننزهك عما لا يليق بجلالك . « وَكَثِيراً » نعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نعتا لوقت . والإدغام حسن؛ وكذا ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ . ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ قال الخطابى : البصير المبصر ، والبصير العالم بخفيات الأمور ، فالمعنى؛ أى عالما بنا ، ومدركا لنا فى صغرنا فأحسنت إلينا ، فأحسن إلينا كذلك يارب .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى

وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى ﴾ لما سأله شرح الصدر، وتيسير الأمر إلى ما ذكر، أجاب سؤله، وأتاه طِلْبته ومرغوبه . والسؤل الطِّلْبة؛ فُعْل بمعنى مفعول، كقولك خُبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ أى قبل هذه، وهى حفظه سبحانه له من شر الأعداء فى الابتداء؛ وذلك حين الذبح . والله أعلم . والمنّ الإحسان والإفضال . وقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ قيل : « أوحينا » ألهمنا . وقيل : أوحى إليها فى النوم . وقال ابن عباس : أوحى إليها كما أوحى إلى النبيين . ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذى صنع التابوت ونجره وكان اسمه حِزْقيل . وكان التابوت من جُمَّيز . ﴿ فَٱقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ ﴾ أى اطرحيه فى البحر : نهر النيل . ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ قال الفراء : « فَٱقْذِفِيهِ فِى اليمّ » أمر وفيه معنى المجازاة . أى اقذفيه يلقه اليمّ . وكذا قوله : « ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ » . ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ يعنى فرعون ؛ فاتخذت تابوتا، وجعلت فيه نطعا، ووضعت فيه موسى، وقيّرت رأسه وخصاصه — يعنى شقوقه — ثم ألقته فى النيل، وكان يَشْرَع منه نهر كبير فى دار فرعون، فساقه الله فى ذلك النهر إلى دار فرعون . وروى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا، فوضعته فيه وقيّرته وجصّصته، ثم ألقته فى اليمّ . وكان يَشْرَع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على رأس بِركة مع آسية، إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبيّ أصبح

الناس، فأحبه عدوّ الله حبًّا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه . وظاهر القرآن يدل على أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه، فرأى فرعون التابوت بالساحل فأمر بأخذه . ويحتمل أن يكون إلقاء اليمّ بموضع من الساحل، فيه فُوّهة نهر فرعون، ثم أدّاه النهر إلى حيث البركة . والله أعلم . وقيل : وجدته ابنة فرعون وكان بها برص، فلما فتحت التابوت شفيت . وروى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا فعالجته ففتحته، فإذا صبيّ نوره بين عينيه، وهو يمصّ إبهامه لبنا فأحبّوه . وكانت لفرعون بنت برصاء، وقال له الأطباء : لا تبرأ إلا من قبل البحر، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه، فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرئت . وقيل : لما نظرت إلى وجهه برئت . والله أعلم . وقيل : وجدته جوارٍ لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون فرأى صبيا من أصبح الناس وجها، فأحبه فرعون؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ قال ابن عباس : أحبه الله وحبّبه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مَسْحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قَتَادة : كانت فى عيني موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبّه وعشقه . وقال عِكْرِمة : المعنى جعلت فيك حسنا وملاحة فلا يراك أحد إلا أحبّك . وقال الطبَرى : المعنى وألقيت عليك رحمتي . وقال ابن زيد : جعلت من رآك أحبّك حتى أحبّك فرعون فسلمت من شرّه، وأحبّتك آسية بنت مُزاحم فتبنّتك . ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ قال ابن عباس : يريد إن ذلك بعيني حيث جُعلت فى التابوت، وحيث ألقى التابوت فى البحر، وحيث التقطك جوارى آمرأة فرعون؛ فأردن أن يفتحن التابوت لينظرن ما فيه، فقالت منهن واحدة : لا تفتحْنه حتى تأتين به سيدتكنّ فهو أحظى لكنّ عندها، وأجدر بألا تتهمكنّ بأنكنّ وجدتن فيه شيئا فأخذتموه لأنفسكنّ . وكانت آمرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما آستقينه أولئك الجوارى . فذهبن بالتابوت إليها مغلَقا، فلما فتحته رأت صبيا لم يُرَ مثله قطّ؛ وألقى عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون، فقالت له : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» قال لها فرعون : أمّا لك فنعم، وأما لى فلا . فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو أن فرعون قال

نعم هو قرة عين لى ولك لا من وصدّق " فقالت : هَبْه لى ولا تقتله؛ فوهبه لهـا . وقيل : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » أى تُربَى وتُغذَّى على مرأى منى؛ قاله قتادة . قال النحاس : وذلك معروف فى اللغة؛ يقال : صنعت الفرس وأصنعته إذا أحسنتَ القيام عليه . والمعنى « ولِتصنع على عيني » فعلت ذلك . وقيل : اللام متعلقة بما بعدها من قوله : « إذ تمشي أختك » على التقديم والتأخير . « إذ » ظرف « لتصنع » . وقيل : الواو فى « ولِتصنع » زائدة . وقرأ ابن القَعْقَاع « وَلْتُصْنَعْ » بإسكان اللام على الأمر، وظاهره للمخاطب والمأمور غائب . وقرأ أبو نُهَيك « ولِتَصْنَعَ » بفتح التاء . والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتى وعلى عين منى . ذكره المهدوى . ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ العامل فى « إذ تمشي » « أَلْقَيْتُ » أو « تصنع » . ويجـوز أن يكون بدلا من « إِذْ أَوْحَيْنَا » وأخته اسمها مريم . ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ وذلك أنهـا خرجت متعرفة خبره، وكان موسى لمـا وهبه فرعون من امرأته طلبت له المراضع ، وكان لا يأخذ من أحد حتى أقبلت أختـه، فأخذته ووضعته فى حجرها وناولته ثديها فمصه وفرح به . فقالوا لهـا : تقيمين عندنا؛ فقـالت : إنه لا ابن لى ولكن أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون. قالوا : ومن هى؟ . قالت : أمى . فقالوا : لها لبنٌ؟ قالت : لبن أخى هرون . وكان هرون أكبر من موسى بسنة . وقيل : بثلاث . وقيل : بأربع؛ وذلك أن فرعون رحم بنى إسرائيل فرفع عنهم القتل أربع سنين، فولد هرون فيها؛ قاله ابن عباس . فجاءت الأم فقبل ثديها . فذلك قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ وفى مصحف أبيّ « فرددناك » . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ وروى عبد الحميد عن ابن عامر « كَىْ تَقِرَّ عَيْنُهَا » بكسر القاف . قال الجـوهرى : وقرِرتُ به عينا وقرَرْتُ به قُـرّة وقُرورا فيهما . ورجل قرير العين؛ وقـد قرّت عينه تَقِرّ وتَقَرّ نقيض سخنت . وأقرّ الله عينه أى أعطاه حتى تقرّ فلا تطمح إلى من هو فوقه، ويقـال : حتى تبرد ولا تسخن . وللسرور دمعـة باردة ، وللحزن دمعة حارة . وقد تقدم هـذا المعنى فى « مريم »(١) . « وَلَا تَحْزَنَ » أى على فقدك . ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ قال ابن عباس : قتل قبطيا كافرا . قال كعب : وكان إذ ذاك ابن اثنتى

(١) راجع تفسير آية ٢٦ من هذا الجزء .

عشرة سنة . فى صحيح مسلم : وكان قتله خطأ؛ على ما يأتى . ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى آمناك من الخوف والقتل والحبس . ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أى اختبرناك آختبارا حتى صلحت للرسالة . وقال قتادة : بلوناك بلاء . مجاهد : أخلصناك إخلاصا . وقال ابن عباس : اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أولها حملته أمه فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه فى اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدى أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدُّرّة؛ فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطى وخروجه خائفا يترقب، ثم رعايتـه الغنم ليتدرب بهـا على رعاية الخلق . فيقال : إنه نَدَّ له من الغنم جَدْى فاتبعه أكثر النهار، وأتعبه، ثم أخذه فقبله وضمـه إلى صدره، وقال له : أتعبتنى وأتعبت نفسك؛ ولم يغضب عليه . قال وهب ابن منبه : ولهذا آتخذه الله كليما؛ وقد مضى فى « النساء »(١) .

قوله تعالى : ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ يريد عشر سنين أتم الأجلين . وقال وهب : لبث عنـد شعيب ثمانى وعشرين سنة، منها عشر مهر آمرأته صفورا آبنـة شعيب، وثمانى عشرة أقامها عنده حتى ولد له عنده . وقوله : ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان : يريد موافقا للنبوة والرسالة؛ لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة . وقال مجاهد ومقاتل : « على قَدَرٍ » على وعد . وقال محمد بن كعب : ثم جئت على القدر الذى قدرت لك أنك تجىء فيه . والمعنى واحد . أى جئت فى الوقت الذى أردنا إرسالك فيه . وقال الشاعر :

نال الخلافـة أو كانت له قَدَرًا * كما أَتَى ربَّه موسى على قَـدَر

قوله تعالى : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ قال ابن عباس : أى اصطفيتك لوحيى ورسالتى . وقيل : « اصْطَنَعْتُكَ » خلقتك؛ مأخوذ من الصنعة . وقيـل : قويتك وعلمتك لتبلّغ عبادى أمرى ونهيى . ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ قال ابن عباس : يريد التسع الآيات التى أنزلت عليه . ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ قال ابن عباس : تضعفا أى فى أمر الرسالة؛ وقاله قتادة . وقيل : تفترا . قال الشاعر(٢) :

فمـا وَنَى محمـدٌ مُذ أنْ غَفَرْ * له الإلهُ ما مَضَى وما غَـبر

(١) راجع ج ٦ ص ١٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو العجاج .

والْوَنَى الضَّعف والفتور، والكَلال والإعياء . وقال امرؤ القيس :

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى * أَثَرْنَ غُبارًا بالكَدِيد المُرَكَّلِ (١)

ويقال: ونيت فى الأمر أنِى وَنًى وونْيًا أى ضَعُفت، فأنا وانٍ وناقة وانية وأونيتها أنا أضعفتها وأتعبتها . وفلان لا يَنِى كذا، أى لا يزال، وبه فَسَّر أبان معنى الآية واستشهد بقول طَرَفة :

كأنّ القُدُورَ الراسياتِ أَمامَهُم * قِبابٌ بَنَوْها لا تَنِى أبدًا تَغْلِى

وعن ابن عباس أيضا : لا تبطئا . وفى قراءة ابن مسعود « وَلَا تَهِنا فِى ذِكرِى » وتحميدى وتمجيدى وتبليغ رسالتى .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبَا ﴾ قال فى أول الآية : « ٱذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى » وقال هنا : « ٱذهبا » فقيل : أمر الله تعالى موسى وهرون فى هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب أولا موسى وحده تشريفا له؛ ثم كرر للتأكيد . وقيل : بيّن بهذا أنه لا يكفى ذهاب أحدهما . وقيل : الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس ، والثانى بالذهاب إلى فرعون .

الثانيــة — فى قوله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له العصمة، ألا تراه قال : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا » . وقال : « لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » فكيف بنا فنحن أولى بذلك . وحينئذ يحصل الآمر والناهى على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه؛ وهذا واضح .

---

(١) مسح معناه يصب الجرى صبا . والسابحات اللاتى عدوهن سباحة ؛ والسباحة فى الجرى بسط الأيدى . والكديد : الموضع الغليظ . والمركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : أن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جريا مهلا .

الثالثة — واختلف الناس فى معنى قوله « لَيِّنًا » فقالت فرقة منهم الكلبى وعكرمة : معناه كَنِّياه؛ وقاله ابن عباس ومجاهد والسدى . ثم قيل : وكنيته أبو العباس . وقيل : أبو الوليد . وقيل : أبو مرة؛ فعلى هذا القول تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف وطُمِع بإسلامه . وقد يجوز ذلك وإن لم يُطمَع بإسلامه؛ لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" ولم يقل وإن طمعتم فى إسلامه؛ ومن الإكرام دعاؤه بالكُنية . وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية : "انزل أبا وهب" فكناه . وقال لسعد : "ألم تسمع ما يقول أبو حُبَاب" يعنى عبدالله بن أبيّ . وروى فى الإسرائيليات أن موسى عليه السلام قام على باب فرعون سنة ، لا يجد رسولا يبلغ كلاما حتى خرج . فجرى له ما قصّ الله علينا من ذلك، وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين، وربك أعلم بالمهتدين . وقيل قال له موسى : تؤمن بما جئتُ به ، وتعبد ربّ العالمين؛ على أن لك شبابا لا يَهرَم إلى الموت، وملكا لا ينزع منك إلى الموت، وينسأ فى أجلك أربعمائة سنة، فإذا متّ دخلت الجنة . فهذا القول اللين . وقال ابن مسعود : القول اللين قوله تعالى : « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » . وقد قيل إن القول اللين قول موسى : يافرعون إنا رسولا ربك ربّ العالمين . فسماه بهذا الاسم لأنه أحب إليه مما سواه مما قيل له، كما يسمى عندنا الملك ونحوه .

قلت : القول اللّين هو القول الذى لا خشونة فيه؛ يقال : لان الشئ يلين لِينًا؛ وشىء لَيِّن ولَيْن مخفّف منه؛ والجمع أَلْيِناء . فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لينا، فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك فى خطابه ، وأمره بالمعروف فى كلامه . وقد قال تعالى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » . على ما تقدم فى « البقرة »(١) بيانه والحمد لله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ معناه : على رجائكما وطمعكما؛ فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر؛ قاله كبراء النحويين : سيبويه وغيره . وقد تقدم فى أول «البقرة»(٢) . قال الزجاج : «لعل» لفظة طمع وترجٍ فخاطبهم بما يعقلون . وقيل : «لعل» هاهنا بمعنى

(١) راجع ج ٢ ص ١٦ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

الاستفهام، والمعنى فانظر هل يتذكر. وقيل: هي بمعنى كي. وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن قول هرون لموسى لعله يتذكر أو يخشى؛ قاله الحسن. وقيل: إن لعل وعسى في جميع القرآن لما قد وقع. وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي فقال: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ». ولكن لم ينفعه ذلك؛ قاله أبو بكر الوراق وغيره. وقال يحيى بن معاذ في هذه الآية: هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله؟! . وقد قيل: إن فرعون ركن إلى قول موسى لما دعاه، وشاور امرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامان فقال: لا تفعل؛ بعد أن كنت مالكا تصير مملوكا، وبعد أن كنت ربا تصير مربوبا. وقال له: أنا أردك شابا؛ فخضب لحيته بالسواد فهو أول من خضب.

قوله تعالى: قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ قال الضحاك: «يَفْرُطَ» يعجل. قال: و«يَطْغَى» يعتدي. النحاس: التقدير نخاف أن يفرط علينا منه أمر؛ قال الفراء: فَرَط منه أمرٌ أي بدر؛ قال: وأفرط أسرف. قال: وفرّط ترك. وقراءة الجمهور «يَفْرُطَ» بفتح الياء وضم الراء، ومعناه يعجل ويبادر بعقوبتنا. يقال: فَرَط مني أمرٌ أي بدر؛ ومنه الفارط في الماء الذي يتقدم القوم إلى الماء. أي يعذّبنا عذاب الفارط في الذنب وهو المتقدم فيه؛ قاله المبرّد. وقرأت فرقة منهم ابن محيصن «يَفْرَطَ» بفتح الياء والراء؛ قال المهدوي: ولعلها لغة. وعنه أيضا بضم الياء وفتح الراء ومعناها أن يحمله حامل على التسرع إلينا. وقرأت طائفة «يُفْرِط» بضم الياء وكسر الراء؛ وبها قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن محيصن أيضا. ومعناه يشطط في أذيتنا؛ قال الراجز:

* قد أَفرطَ العِلْجُ علينا وعَجَل *

قوله تعالى: قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قال العلماء : لمّا لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرّفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه . وهذه الآية تردّ على من قال : إنه لا يخاف ؛ والخوف من الأعداء سنة الله فى أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم . ولقد أحسن البصرى رحمه الله حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله — أنه نزل مع أصحابه فى طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له : فقد خاطرت بنفسك . فقال : لأن تختلف الأسنّة فى جوْفى أحبّ إلىّ من أن يعلم الله أنى أخاف شيئا سواه — :قد خاف من كان خيرا من عامر؛ موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له : « إنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » وقال : « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » .

قلت : ومنه حَفْر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد ؛ ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم، مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة ؛ تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة ؛ وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم . وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال لها سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبتَ ياعمر ؛ كلّا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُطعِم جائعكم، ويَعظ جاهلكم، وكنا فى دار — أو أرض — البُعداء البُغَضاء (1) فى الحبشة ؛ وذلك فى الله ورسوله ؛ وأيمُ الله لا أَطْعَم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف . الحديث بطوله خرجه مسلم . قال العلماء : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بنى آدم

(1) البعداء : أى فى النسب . البغضاء : أى فى الدين وقول أسماء : كذبت ياعمر أى أخطأت وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ .

[عليه](١) كاذب؛ وقد طبعهم على الهرب مما يضرها و يؤلمها أو يتلفها . قالوا : ولا ضار أضرّ من سبع عادٍ فى فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه، من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون . وهـذا كما تقول : الأمير مع فـلان إذا أردت أنه يحميه . وقوله : ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ عبارة عن الإدراك الذى لا تخفى معه خافية، تبارك الله رب العالمين .

قوله تعالى : فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ فى الكلام حذف، والمعنى : فأتياه فقالا له ذلك . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى خَلِّ عنهم . ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أى بالسّخرة والتعب فى العمل، وكانت بنـو إسرائيل عنـد فرعون فى عذاب شـديد؛ يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، و يكلّفهم من العمل فى الطّين واللّبِن وبناء المـدائن ما لا يطيقونه . ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يريد العصـا واليد . وقيـل : إن فرعون قال له : وما هى ؟ فأدخل يده فى جيب قميصـه، ثم أخرجها بيضاء لهـا شعاع مثل شعاع الشمس، غلب نورها على نور الشمس فعجب منهـا . ولم يره العصـا إلا يوم الزّينـة . ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه . قال : وليس بتحيـة، والدليل على ذلك أنه ليس بابتـداء لقـاءٍ ولا خطاب .

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

الفراء : السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى سواء . ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ يعنى الهلاك والدّمار فى الدنيا والخلود فى جهنم فى الآخرة ﴿ عَلَى مَنْ كَذَّبَ ﴾ أنبياء الله ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أعرض عن الإيمان . وقال ابن عباس : هذه أرجى آية للموحّدين لأنهم لم يكذّبوا ولم يتولّوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ذكر فرعون موسى دون هرون لرءوس الآى . وقيل : خصّصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية . وقيل : إنهما جميعا بلّغا الرسالة وإن كان ساكتا؛ لأنه فى وقت الكلام إنما يتكلم واحد، فإذا ٱنقطع وازره الآخر وأيّده . فصار لنا فى هذا البناء فائدة علم؛ أن الاثنين إذا قُلِّدا أمرا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هنالك موجود مستغنى عنه فى وقت دون وقت أنهما أديا الأمر الذى قُلِّدا وقاما به وٱستوجبا الثواب؛ لأن الله تعالى قال : « ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ » وقال : « ٱذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ » وقال : «فَقُولَا لَهُ» فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا فى وقت الخطاب بقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا » أنه كان حاضرا مع موسى . ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ أى أنه يُعرَف بصفاته، وليس له ٱسم عَلَمٍ حتى يقال فلان، بل هو خالق العالم، وهو الذى خصّ كل مخلوق بهيئة وصورة ، ولو كان الخطاب معهما لقالا : قالا ربنا . « وَخَلْقَهُ » أول مفعولى أعطى ، أى أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما أى أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ؛ على قول الضحاك على ما يأتى . ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى : أعطى كل شيء زوجه من جنسه ، ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وعن ابن عباس : ثم هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورة؛ لم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدّره تقديرا . وقال الشاعر :

وله فى كلِّ شيءٍ خِلْقَةٌ * وكذاك الله ما شاء فعلْ

يعني بالخلقة الصورة؛ وهو قول عطية ومقاتل . وقال الضحاك : أعطى كل شيء خلقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له . يعني اليد للبطش ، والرجل للمشي ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع . وقيل : أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة . وقال الفراء : خلق الرجل للمرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ، ثم هدى الذكر للأنثى . فالتقدير على هذا أعطى كل شيء مثل خلقه .

قلت : وهذا معنى قول ابن عباس ، والآية بعمومها تتناول جميع الأقوال . وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » بفتح اللام؛ وهي قراءة ابن أبي إسحق . ورواها نصير عن الكسائي وغيره ؛ أي أعطى بني آدم كل شيء خلقه مما يحتاجون إليه . فالقراءتان متفقتان في المعنى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ﴾ البال الحال؛ أي ما حالها وما شأنها ، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أي إن هذا من علم الغيب الذي سألت عنه ، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد مثلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله في اللوح المحفوظ . وقيل : المعنى فما بال القرون الأولى لم يقروا بذلك . أي فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك . وقيل : إنما سأله عن أعمال القرون الأولى ، فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى ، ومحفوظة عنده في كتاب . أي هي مكتوبة فسيجازيهم غدا بها وعليها . وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ . وقيل : هو كتاب مع بعض الملائكة .

الثانية — هذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتي تدل على تدوين العلوم وكتبها لئلا تُنسى . فإن الحفظ قد تعتريه الآفات من الغلط والنسيان . وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه . وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له : أنكتب ما نسمع

منك ؟ قال : وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب؛ فقال : «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتى تغلب غضبى" . وأسند الخطيب أبو بكر عن أبى هريرة قال : كان رجل من الأنصار يجالس إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه الحديث و يعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إنى أسمع منك الحديث يعجبنى ولا أحفظه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آستعن بيمينك" وأومأ إلى الخطّ . وهـذا نصّ . وعلى جواز كَتْب العلم وتدوينه جمهور الصحابة والتابعين؛ وقد أمر صلى الله عليه وسلم بكَتْب الخطبة التى خطب بها فى الحج لأبى شاه — رجل من اليمن — لما سأله كَتْبها . أخرجه مسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قيِّدوا العلمَ بالكتابة" . وقال معاوية بن قُرّة : من لم يكتب العلم لم يعد علمه علما . وقد ذهب قوم إلى المنع من الكَتْب ؛ فروى أبو نصرة قال قيل لأبى سعيد : أنكتب حديثكم هـذا ؟ قال : لم تجعـلونه قـرآنا ؟ ولكن آحفظوا كما حفظنا . وممن كان لا يكتب الشعبي و يونس بن عبيد وخالد الحذّاء — قال خالد : ما كتبت شيئا قط إلا حديثا واحدا، فلما حفظته محـوته — وآبن عون والزهرى . وقـد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه ؛ منهم محمد بن سيرين وعاصم بن ضَمْرة . وقال هشام بن حسان : ما كتبت حديثا قطّ إلا حديث الأعماق فلما حفظته محوته .

قلت : وقد ذكرنا عن خالد الحذّاء مثل هـذا . وحديث الأعمـاق خرجه مسلم فى آخر الكتاب : "لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق(١) — أو — بدابق" الحديث ذكره فى كتاب الفتن . وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ ؛ منهم الأعمش وعبد الله بن أدريس وهشيم وغيرهم . وهذا آحتياط على الحفظ . والكَتْب أولى على الجملة، و به وردت الآى والأحاديث ؛ وهو مرويّ عن عمر وعلى وجابر وأنس رضى الله عنهم، ومن يليهم من كبراء التابعين كالحسن

(١) الأعماق : موضع من أطراف المدينة ؛ ودابق : اسم موضع سوق بها . والشك من الراوى .

وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير، ومن بعدهم من أهل العلم ؛ قال الله تعالى : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » . وقال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » . وقال تعالى : « وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » الآية . وقال تعالى : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » . وقال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ » إلى غير هذا من الآى . وأيضا فإن العلم لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة والتعهد والتحفظ والمذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا، وإنما كره الكَتْب من كره من الصدر الأوّل لقرب العهد، وتقارب الإسناد لئلا يعتمده الكاتب فيهمله، أو يرغب عن حفظه والعمل به ؛ فأما والوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنَّقَلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون ؛ فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى ؛ فإن احتج محتج بحديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليمحه" خرجه مسلم ؛ فالجواب أن ذلك كان متقدما ؛ فهو منسوخ بأمره بالكتابة، وإباحتها لأبي شاه وغيره . وأيضا كان ذلك لئلا يخلط بالقرآن ما ليس منه . وكذا ما روى عن أبي سعيد أيضا — حرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة فأبى — إن كان محفوظا فهو قبل الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن .

الثالثة — قال أبو بكر الخطيب : ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد ؛ ثم الحبر خاصة دون المِداد (١) لأن السواد أصبغ الألوان ، والحبر أبقاها على مر الدهور . وهو آلة ذوي العلم ، وعدّة أهل المعرفة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قال : رآني الشافعي وأنا في مجلسه وعلى قميصي حبر وأنا أخفيه ؛ فقال : لم تخفيه وتستره ؟ إن الحبر على الثوب من المروءة لأن صورته في الأبصار سواد، وفي البصائر بياض . وقال خالد بن يزيد : الحبر في ثوب صاحب الحديث مثل الخَلُوق (٢) في ثوب العروس . وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البَلَوي فقال :

مِـدادُ المحَابِرِ طيبُ الرجال ※ وطِيب النساءِ من الزّعفرانْ
فهـذا يَليـق بأثواب ذَا ※ وهـذا يليقُ بثوب الحَصَانْ

(١) لافرق في اللغة بين المداد والحبر؛ ولعل المراد الكتابة بالحبر الأسود خاصة ؛ فالتفرقة بحسب اللون على ما يبدو.
(٢) الخلوق : طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره .

وذكر الماوردى أن عبد الله(١) بن سليمان فيما حكى ، رأى على بعض ثيابه أثر صفرة ، فأخذ من مداد الدواة وطلاه به ، ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران ، وأنشد :

إنّما الزّعفرانُ عِطرُ العَذَارَى * ومِدادُ الدّوِىّ عِطرُ الرِّجالِ

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى ﴾ اختلف فى معناه على أقوال خمسة ، الأول : إنه ابتداء كلام ، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد كان الكلام تم فى قوله : « فى كتاب » . وكذا قال الزجاج ، وأن معنى « لا يضلّ » لا يهلك من قوله : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ » . « وَلَا يَنْسَى » شيئا ، نزّهه عن الهلاك والنّسيان . القول الثانى : « لَا يَضِلُّ » لا يخطئ ، قاله ابن عباس ، أى لا يخطئ فى التدبير ، فمن أنظره فلحكمة أنظره ، ومن عاجله فلحكمة عاجله . القول الثالث : « لا يضل » لا يغيب . قال ابن الأعرابى : أصل الضلال الغَيبوبة ، يقال : ضلّ الناسى إذا غاب عنه حفظ الشىء . قال : ومعنى « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » أى لا يغيب عنه شىء ولا يغيب عن شىء . القول الرابع : قاله الزجاج أيضا وقال النحاس وهو أشبهها بالمعنى — : أخبر الله عز وجل أنه لا يحتاج إلى كتاب ، والمعنى ، لا يضل عنه علم شىء من الأشياء ولا معرفتها ، ولا ينسى ما علمه منها .

قلت : وهذا القول راجع إلى معنى قول ابن الأعرابى . وقول خامس : إن « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » فى موضع الصفة لـ « كتاب » أى الكتاب غير ضال عن الله عز وجل ؛ أى غير ذاهب عنه . « وَلَا يَنْسَى » أى غير ناسٍ له فهما نعتان لـ « كتاب » . وعلى هذا يكون الكلام متصلا ، ولا يوقف على « كتاب » . تقول العرب : ضلّنى الشىء إذا لم أجده ، وأضللته أنا إذا تركته فى موضع فلم تجده فيه . وقرأ الحسن وقتادة وعيسى بن عمر وابن محيصن وعاصم الجَحْدرى وابن كثير فيما روى شبل عنه « لَا يُضِلُّ » بضم الياء على معنى لا يُضيعه ربّى ولا ينساه . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك سبيل غير القصد ، يقال : ضلَّ عن الطريق ، وأضل الشىء إذا أضاعه . ومنه قرأ من قرأ « لا يُضِلُّ رَبِّى » أى لا يُضيع ؛ هذا مذهب العرب .

(١) فى « أدب الدنيا والدين » : عبيد الله بن سليمان .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلنُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا[1] ﴾ « الذى » فى موضع نعت « لربى » أى لا يضل ربى الذى جعل . ويجوز أن يكون خبر ٱبتداء مضمر أى هو « الذى » . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » هنا وفى « الزخرف » بفتح الميم وإسكان الهاء . الباقون « مِهَادًا » وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم لٱتفاقهم على قراءة « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » . النحاس : والجمع أولى لأن « مهدا » مصدر وليس هذا موضع مصدر إلا على حذف؛ أى ذات مهد . المهدوىّ : ومن قرأ « مَهْدًا » جاز أن يكون مصدرا كالفَرْش أى مَهَد لكم الأرض مَهْدًا؛ وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف؛ أى ذات مهد . ومن قرأ « مِهَادًا » جاز أن يكون مفردا كالفراش . وجاز أن يكون جمع « مهد » ٱستعمل استعمال الأسماء فكسّر . ومعنى « مِهَادًا » أى فراشا وقرارا تستقرّون عليها . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى طرقا . نظيره « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » . وقال تعالى : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » . ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ تقدم معناه . وهذا آخر كلام موسى؛ ثم قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ . وقيل : كله من كلام موسى؛ والمعنى « فأخرجنا به » أى بالحرث والمعالجة؛ لأن الماء المنزل سبب خروج النبات . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ ضروبا وأشباها ، أى أصنافا من النبات المختلفة الأزواج والألوان . وقال الأخفش : التقدير أزواجا شتى من نبات . قال : وقد يكون النبات شتى؛ فـ« شتى » يجوز أن يكون نعتا لأزواج ، ويجوز أن يكون نعتا للنبات . و« شَتَّى »

(١) « مهادا » بالجمع قراءة « نافع » وعليها الأصل .

مأخوذ من شتَّ الشيءُ أى تفرق . يقال : أمر شَتٌّ أى متفرّق . وشَتَّ الأمرُ شتًّا وشَتاتًا تفرق ؛ وٱستشتّ مثله . وكذلك التّشتت . وشتّته تَشْتيتا فرّقه . وأَشتَّ بى قومى أى فرّقوا أمرى . والشّتيت المتفرّق . قال رُؤْبة يصف إبلا :

جَاءتْ مَعًا وٱطّرَقتْ شَتِيتَا * وهى تُثِيرُ السَّاطِعَ السِّخْتِيتَا (١)

وثَغْر شَتِيتٌ أى مُفَلَّج . وقوم شَتَّى ، وأشياء شتَّى ، وتقول : جاءوا أشتاتا ؛ أى متفرقين ؛ واحدهم شتٌّ؛ قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أمر إباحة . «وَٱرْعَوْا» من رعت الماشية الكلأ ، ورعاها صاحبها رعاية ؛ أى أسامها وسرحها ؛ لازم ومتعد . ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى﴾ أى العقول . الواحدة نُهْيَة . قال لهم ذلك؛ لأنهم الذين يُنْتهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح . وهذا كله من موسى ٱحتجاج على فرعون فى إثبات الصانع جوابا لقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى » . و بين أنه إنما يستدل على الصانع اليوم بأفعاله .

قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعنى آدم عليه السلام لأنه خلق من الأرض؛ قاله أبو إسحق الزجاج وغيره . وقيل : كل نطفة مخلوقة من التراب ؛ على هذا يدل ظاهر القرآن . و روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مولود إلا وقد ذُرَّ عليه من تراب حُفْرته" أخرجه أبو نعيم الحافظ فى باب ابن سيرين، وقال : هذا حديث غريب من حديث عون لم نكتبه إلا من حديث أبى عاصم النبيل، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة . وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة «الأنعام» (٢) عن ابن مسعود . وقال عطاء الخراسانى : إذا وقعت النطفة فى الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذرّه على النطفة، فيخلق الله النّسمة من النّطفة ومن التراب ؛ فذلك قوله تعالى : « مِنها خَلَقْنَاكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » . وفى حديث البراء عن النبى صلى الله عليه وسلم : "إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة

(١) السختيت : دقاق التراب : وهو الغبار الشديد الارتفاع . ويروى : « الشختيتا » بالشين المعجمة .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا فيستفتحون لها فيفتح فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل «اكتبوا لعبدي كتابا في عِلّيين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى» فتعاد روحه في جسده" وذكر الحديث . وقد ذكرناه بتمامه في كتاب «التذكرة» وروى من حديث عليّ رضي الله عنه ؛ ذكره الثعلبي . ومعنى ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي بعد الموت ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ أي للبعث والحساب . ﴿ تَارَةً أُخْرَى ﴾ يرجع هذا إلى قوله : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ » لا إلى « نُعِيدُكُمْ » . وهو كقولك : اشتريت ناقة ودارا وناقة أخرى ؛ فالمعنى : من الأرض أخرجناكم ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ أي المعجزات الدالة على نبوة موسى . وقيل : حجج الله الدالة على توحيده . ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ أي لم يؤمن . وهذا يدل على أنه كفر عنادا ، لأنه رأى الآيات عيانا لا خبرا . نظيره « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ لما رأى الآيات التي أتاه بها موسى قال : إنها سحر ؛ والمعنى : جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك ، حتى تغلب على أرضنا وعلينا . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ أي لنعارضنك

بمثل ما جئت به ليتبين للناس أن ما أتيت به ليس من عند الله. ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ هو مصدر؛ أي وعدا. وقيل: الموعد اسم لمكان الوعد؛ كما قال تعالى: « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فالموعد هاهنا مكان. وقيل: الموعد اسم لزمان الوعد؛ كقوله تعالى: « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » فالمعنى: اجعل لنا يوما معلوما، أو مكانا معروفا. قال القشيري: والأظهر أنه مصدر ولهذا قال: ﴿ لَا نُخْلِفُهُ ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد، والإخلاف أن يعد شيئا ولا ينجزه. وقال الجوهري: والميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك المَوْعِد. وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة والأعرج « لَا نُخْلِفْهُ » بالجزم جوابا لقوله « ٱجْعَلْ ». ومن رفع فهو نعت لـ «موعد» والتقدير: موعدا غير مخلف. ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة «سُوًى» بضم السين. الباقون بكسرها؛ وهما لغتان مثل عُدًى وعِدًى وطُوًى وطِوًى. واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة. وقال النحاس: والكسر أعرف وأشهر. وكلهم نونوا الواو، وقد روي عن الحسن، واختلف عنه ضم السين بغير تنوين. واختلف في معناه فقيل: سوى هذا المكان؛ قاله الكلبي. وقيل: مكانا مستويا يتبين للناس ما بيّنا فيه؛ قاله ابن زيد. ابن عباس: نصفا. مجاهد: منصفا؛ وعنه أيضا وقتادة عَدلا بيننا وبينك. قال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى « سُوًى » نَصَف وعَدْل وهو قول حسن؛ قال سيبويه يقال: سِوى وسُوًى أي عَدْل؛ يعني مكانا عَدْلا بين المكانين فيه النَّصَفة؛ وأصله من قولك: جلس في سَواء الدار بالمد أي في وسطها؛ ووسط كل شيء أعدله؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أي عدلا، وقال زهير:

أَرُونَا خُطَّــةً لا ضَيْمَ فِيهـا * يُسَــوِّي بيننا فيهـا السَّــواءُ

وقال أبو عبيدة والقتبي: وسطا بين الفريقين؛ وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وإنَّ أبانا كان حَلّ ببلدةٍ * سِوًى بين قيسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

والفِزْر: سعد بن زيد مَناة بن تميم. وقال الأخفش: «سُوًى» إذا كان بمعنى غير أو بمعنى العدل يكون فيه ثلاث لغات: إن ضممت السين أو كسرت قصرت فيهما جميعا. وإن فتحت مددت، تقول: مكان سِوًى وسُوًى وسَواء؛ أي عدل ووسط فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

* وجدنا أبانا كان حلّ ببلدة *

البيت . وقيل : « مكانا سوى » أى قصدا؛ وأنشد صاحب هذا القول :

لو تمنّتْ حَبيبتى ما عَـدَتْنى * أو تمنّيتُ ما عَدوتُ سِواها

وتقول : مررت برجل سِواك وسُوَاك وسَـوَائك أى غيرك . وهما فى هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان . وهم سواء للجمع وهم أسواء؛ وهم سواسية مثل ثمانية على غير قياس . وانتصب « مكانا » على المفعـول الثانى لـ « جعل » . ولا يحسن انتصابه بالموعد على أنه مفعـول أو ظرف له؛ لأن الموعد قد وصف، والأسماء التى تعمل عمل الأفعال إذا وصفت أو صغّرت لم يسغ أن تعمل لخروجها عن شبه الفعل، ولم يحسن حمله على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثانى؛ لأن الموعد إذا وقع بعده ظرف لم تجره العرب مجـرى المصادر مع الظروف، لكنهم يتسعون فيه كقوله تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » و« مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَـةِ » . واختلف فى يوم الزينة، فقيل هو يوم عيد كان لهم يتزيّنون ويجتمعون فيه؛ قاله قتادة والسدى وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : كان يوم عاشوراء . وقال سعيد بن المسيّب : يوم سوق كان لهم يتزيّنـون فيها؛ وقاله قتادة أيضـا . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيـل : يوم النيروز؛ ذكره الثعلبى . وقيل : يومٌ يكسر فيه الخليج؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبل النيل . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسُّلَمى وهبيرة عن حفص « يَوْمَ الزِّينَـةِ » بالنصب . ورويت عن أبى عمرو؛ أى فى يوم الزينـة إنجاز موعدنا . الباقون بالرفع على أنه خبر الابتـداء . ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ أى وجمع الناس؛ فـ « أَنْ » فى موضع رفع على قراءة من قرأ « يَوْمُ » بالرفع . وعطف « وَأَنْ يُحْشَرَ » يقوّى قراءة الرفع؛ لأن « أَنْ » لا تكون ظرفا، وإن كان المصـدر الصريح يكون ظرفا كمقدم الحاج؛ لأن من قال : آتيك مقدم الحاج لم يقل آتيك أن يقدم الحاج . النحاس : وأولى من هـذا أن يكون فى موضع خفض عطفا على الزينـة . والضحا مؤنثـة تصغرها العرب بغير هاء لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة؛ قاله النحاس . وقال الجوهرى :

ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضُّحَا وهى حين تُشرق الشمس؛ مقصورة تؤنث وتذكَّر؛ فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة؛ ومن ذكّر ذهب الى أنه اسم على فُعَل مثل صُرَد ونُغَر؛ وهو ظرف غير متمكن مثل سحر؛ تقول: لقيته ضُحًا؛ وضُحَا إذا أردت به ضُحَا يومك لم تنوّنه، ثم بعده الضَّحاء ممدود مذكر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى . وخصّ الضُّحا لأنه أول النهار، فلو امتد الأمر فيما بينهم كان فى النهار متّسع . وروى عن ابن مسعود والجحدرى وغيرهما « وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحًا » على معنى وأن يحشر الله الناس ونحوه . وعن بعض القراء « وَأَنْ تَحْشُرَ الناس » والمعنى وأن تحشر أنت يا فرعون الناس . وعن الجحدرى أيضا « وَأَنْ نَحْشُرَ » بالنون . وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد، وفى المجمع الغاصّ لتقوى رغبة من رغب فى الحقّ، ويكلّ حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدّثُ بذلك الأمر العلمَ فى كل بدو وحضر، ويشيع فى جمع أهل الوَبَر والمدَر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أى حِيَله وسحره؛ والمراد جَمْع السّحرة . قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحرا، مع كل ساحر منهم حبال وعصىّ . وقيل : كانوا أربعمائة . وقيل : كانوا اثنى عشر ألفا . وقيل : أربعة عشر ألفا . وقال ابن المنكدر : كانوا ثمانين ألفا . وقيل : كانوا مجمعين على رئيس يقال له شمعون . وقيل : كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيبا، مع كل نقيب عشرون عريفا، مع كل عريف ألف ساحر . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الفيوم، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلثمائة ألف ساحر من الريف، فصاروا تسعمائة ألف، وكان رئيسهم أعمى . ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ أى أتى الميعاد . ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ أى قال لفرعون والسحرة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء عليهم بالويل . وهو بمعنى المصدر . وقال أبو إسحق الزجاج : هو منصوب بمعنى ألزمهم الله وَيْلا . قال : ويجوز أن يكون نداء كقوله تعالى : « يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا » . ﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ أى لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات إنها سحر . ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴾ من عنده أى يستأصلكم بالإهلاك .

يقال فيه : سَحَت وأَسْحَت بمعنًى . وأصله من آستقصاء الشَّعْر . وقرأ الكوفيون «فَيُسْحِتَكُمْ» من أسْحَت، الباقون «فَيَسْحَتَكُمْ» من سَحَت وهذه لغة أهل الحجاز و [الأولى لغـة](١) بنى تميم . وانتصب على جواب النهى . وقال الفرزدق :

وَعَضّ زمانٍ يابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ * من المـالِ إِلَّا مُسْـحَتًا(٢) أو مُجَلَّفُ(٣)

الزمخشرى : وهذا بيت لا تزال الركب تصطك فى تسوية إعرابه . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أى خسر وهلك، وخاب من الرحمة والثواب من آدعى على الله مالم يأذن به .

قوله تعـالى : فَتَنَـٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُـمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَـا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُـمْ ﴾ أى تشاوروا؛ يريد السّحرة . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ قال قتادة ﴿ قَالُوا ﴾ : إن كان ما جاء به سحرا فسنغلبه، وإن كان من عنـد الله فسيكون له أمر؛ وهـذا الذى أسروه . وقيل الذى أسروا قولهم : « إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ » الآية، قاله السدى ومقاتل . وقيـل الذى أسروا قولهم : إن غلبَنا اتبعناه؛ قاله الكلبى؛ دليله ما ظهر من عاقبـة أمرهم . وقيل : كان سرهم أن قالوا حين قال لهم موسى « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا » : ما هذا بقول ساحر . و « النجوى » المناجاة يكون آسما ومصدرا؛ وقد تقدم فى « النساء »(٤) بيانه .

---

(١) الزيادة من كتب التفسير . (٢) ويروى : «إلا مسحت» ومن رواه كذلك جعل معنى «لم يدع» لم يتقار؛ ومن رواه «إلا مسحتا» جعل «لم يدع» بمعنى لم يترك . ورفع «مجلف» بإضمار؛ كأنه قال : أو هو مجلف . «اللسان» . (٣) المجلف : الذى بقيت منه بقية . (٤) راجع جـ ٥ ص ٣٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ قرأ أبو عمرو « إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ » . ورويت عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة ؛ وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النَّخَعِىّ وغيرهم من التابعين ؛ ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدرى ؛ فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للصحف . وقرأ الزهرىّ والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه « إِنْ هَذَانِ » بتخفيف «إن» «لساحران» وابن كثير يشدّد نون «هذانّ» . وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب ، ويكون معناها ما هذان إلا ساحران . وقرأ المدنيون والكوفيون « إِنَّ هَـذَانِ » بتشديد « إنّ » « لساحران » فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب . قال النحاس : فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة ، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « إِنْ هذانِ إِلّا ساحِرانِ » وقال الكسائى فى قراءة عبد الله : « إِنْ هَذَانِ سَاحِرَانِ » بغير لام ؛ وقال الفراء فى حرف أبىّ « إِنْ ذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ » فهذه ثلاث قراءات أخرى تحمل على التفسير لا أنها جائز أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف .

قلت : وللعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنبارى فى آخر كتاب الرّدّ له ، والنحاس فى إعرابه ، والمهدوى فى تفسيره ، وغيرهم أدخل كلام بعضهم فى بعض ، وقد خطأها قوم حتى قال أبو عمرو : إنى لأستحى من الله أن أقرأ « إِنَّ هَذَانِ » : وروى عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى : « لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » ثم قال : « والمقيمين » وفى « المائدة » « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ » و « إِنَّ هَـذَانِ لَسَاحِرَانِ » فقالت : يابن أختى ! هـذا خطأ من الكاتب . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : فى المصحف لحن وستقيمه العرب بألسنتهم . وقال أبان بن عثمان : قرأت هذه الآية عند أبى عثمان بن عفان ، فقال : لحن وخطأ ؛ فقال له قائل : ألا تغيّروه؟ فقال : دَعُوه فإنه لا يحرّم حلالا ولا يحلّل حراما . القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بنى الحرث بن كعب وزَبيد وخَثْعم وكنانة بن زيد يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف ؛

يقولون : جاء الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان ، ومنه قوله تعالى : «وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» على ما تقدّم . وأنشد الفراء لرجل من بنى أسد[(١)] — قال : وما رأيت أفصح منه[(٢)] :

فأطرق إطراقَ الشُّجاع ولو يرى * مَساغًا لِنَابَاهُ الشُّجاعُ لَصَمَّمَا[(٣)]

ويقولون : كسرت يداه وركبت عَلَاه[(٤)] ؛ بمعنى يديه وعليه ؛ قال شاعرهم :

تزوّدَ منّا بين أُذْناه ضَربةً * دعته إلى هابِي التُّرابِ عَقِيمِ

وقال آخر[(٥)] : * طَارُوا عَلَاهُنَّ فَطِرْ عَلَاهَا *

أى عليهنّ وعليها .

وقال آخر[(٦)] : إنّ أباها وأبَا أباهَا * قد بَلَغَا فى المجد غايتاها

أى إن أبا أبيها وغايتها . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول من أحسن ماحملت عليه الآية ؛ إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وأمانته ؛ منهم أبو زيد الأنصارى ، وهو الذى يقول : إذا قال سيبويه حدّثنى من أثق به فإنما يعنينى ؛ وأبو الخطاب الأخفش وهو رئيس من رؤساء اللغة ، والكسائى والفراء كلهم قالوا هذا على لغة بنى الحرث بن كعب . وحكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أن هذه لغة بنى كنانة . المهدوى : وحكى غيره أنها لغة لخثعم . قال النحاس ومن أبين ما فى هذا قول سيبويه : وٱعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين ، الأولى منهما حرف مدّ ولين وهو حرف الإعراب ؛ قال أبو جعفر فقول سيبويه : وهو حرف الإعراب ، يوجب أن الأصل ألا يتغير ، فيكون « إِنَّ هَذَانِ » جاء

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو المتلمس كما فى « اللسان » .
(٣) صمم الشجاع فى عضته : أى عض ونيب فلم يرسل ما عض . (٤) هو هوبر الحارثى . والهابى من التراب ما ٱرتفع ودق . (٥) قيل : هو لبعض أهل اليمن ، وأن قبله :

أىّ قَلوص راكب تراها * طاروا علاهن فطر علاها
وٱشدد بمثنى حقب حقواها * ناجية وناجيا أباها

والحقو : الخاصرة . والناجية : السريعة . (٦) نسبه الجوهرى لأبى النجم ، وأن قبله :

واها لسلمى ثم واها واها * هى المنى لو أننا نلناها
يا ليت عيناها لنا وفاها * بثمن نرضى به أباها

إن أباها ... الخ . ونسبه بعضهم لرؤبة . وقيل : لبعض أهل اليمن ؛ وأن قبله :

أى قلوص راكب تراها * طاروا علاهن ... الخ .

على أصله ليعلم ذلك ، وقد قال تعالى : « ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ » ولم يقل ٱستحاذ ؛ فجاء هذا ليدل على الأصل ، وكذلك « إِنَّ هَذَانِ » ولا يفكر فى إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رووها . القول الثانى : أن يكون « إنّ » بمعنى نعم ؛ كما حكى الكسائى عن عاصم قال : العرب تأتى بـ « إنّ » بمعنى نعم ، وحكى سيبويه أن « إنّ » تأتى بمعنى أَجَلْ ، و إلى هذا القول كان محمد بن يزيد ، و إسمعيل بن إسحق القاضى يذهبان ؛ قال النحاس : ورأيت أبا إسحق الزجاج وعلى بن سليمان يذهبان إليه . الزمخشرى : وقد أعجب به أبو إسحق . النحاس : وحدّثنا علىّ بن سليمان ، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابورىّ ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد [هذا][(1)] فحدّثنى ، قال حدّثنى عمير بن المتوكل ، قال حدثنا محمد بن موسى النوفلى من ولد حرث بن عبد المطلب ، قال حدثنا عمر بن جميع الكوفى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علىّ — وهو ابن الحسين — عن أبيه عن علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين ، قال : لا أحصى كم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على منبره : " إنَّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه " ثم يقول : " أنا أفصح قريش كلها وأفصحها بعدى أبان بن سعيد بن العاص " قال أبو محمد الخفاف قال عمير : إعرابه عند أهل العربية والنحو " إنّ الحمد لله " بالنصب إلا أن العرب تجعل « إن » فى معنى نعم ، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم نعم الحمد لله ؛ وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتتح خطبها بنعم . وقال الشاعر فى معنى نعم :

قالوا غَدَرْتَ فقلتُ إنّ وربّما * نَالَ العُلَا وشَفَى الغَليلَ الغادِرُ

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيات :

بَكَرَ العواذلُ فى الصَّبا * ح يَلُمْنَنِي وأَلُومهُنَّهْ
ويَقُلْنَ شيبٌ قد عَلَا * كَ وقد كَبِرتَ فقلتُ إنَّهْ

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عز وجل : « إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » بمعنى نعم ولا تنصب . قال النحاس : أنشدنى داود بن الهيثم ، قال أنشدنى ثعلب :

ليت شعرى هل للمحبّ شفاء * من جَوَى حبّهن إنَّ اللقاءُ

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قال النحاس : وهذا قول حسن إلا أن فيه شيئا لأنه إنما يقال : نعم زيد خارج ، ولا تكاد تقع اللام هاهنا ، و إن كان النحويون قد تكلموا فى ذلك فقالوا : اللام ينوى بها التقديم ، كما قال :

خَالِي لأنتَ ومَنْ جريرٌ خالُه * يَنَلِ العَلاء ويُكْرِمِ الأَخوالَا

آخـر :

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ * تَرْضَى من الشَّاةِ بعَظْمِ الرَّقَبَهْ

أى لخالى ولأمّ الحليس ؛ وقال الزجاج : والمعنى فى الآية إن هـذان لهما ساحران ثم حذف المبتدأ . المهدوى : وأنكره أبو علىّ وأبو الفتح بن جنىّ . قال أبو الفتح : « هما » المحذوف لم يحذف إلا بعد أن عُرِف ، و إذا كان معروفا فقد آستغنى بمعرفته عن تأكيده باللام ، و يقبح أن تحذف المؤكَّد وتترك المؤكِّد . القول الثالث قاله الفراء أيضا : وجدت الألف دعامة ليست بلام الفعل ، فزدت عليها نونا ولم أغيرها ، كما قلت : « الذى » ثم زدت عليه نونا فقلت : جاءنى الذين عندك ، ورأيت الذين عندك ، ومررت بالذين عندك . القـول الرابع قاله بعض الكوفيين ؛ قال : الألف فى «هذان» مشبهة بالألف فى يفعلان ، فلم تغير . القول الخامس : قال أبو إسحق : النحويون القدماء يقولون الهاء هاهنا مضمرة ، والمعنى : إنه هذان لساحران ؛ قال ابن الأنبارى : فأضمرت الهاء التى هى منصوب « إن » و « هـذان » خبر « إن » و « ساحران » يرفعها « هما » المضمر [والتقدير](1) إنه هذان لهما ساحران . والأشبه عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم « إن » و « هذان » رفع بالآبتداء وما بعده خبر الآبتداء . القول السادس : قال أبو جعفر النحاس وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية ، فقال : إن شئت أجبتك بجواب النحويين ، وإن شئت أجبتك بقولى ؛ فقلت : بقولك ؛ فقال : سألنى إسمعيل بن إسحق عنها فقلت : القول عندى أنه لما كان يقال «هذا» فى موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة ، وكانت التثنية يجب ألا يغير لها الواحد ، أجريت التثنية مجرى الواحدة ؛ فقال : ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول به حتى يؤنس به ؛ قال ابن كيسان : فقلت له : فيقول القاضى به حتى يؤنس به ؛ فتبسم .

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ هذا من قول فرعون للسحرة ؛ أى غرضهما إفساد دينكم الذى أنتم عليه ؛ كما قال فرعون : « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » . ويقال : فلان حسن الطريقة أى حسن المذهب . وقيل : طريقة القوم أفضل القول ؛ وهذا الذى ينبغى أن يسلكوا طريقته ويقتدوا به ؛ فالمعنى : ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم ؛ آستمالة لهم . أو يذهبا ببنى إسرائيل وهم الأماثل وإن كانوا خولا لكم لما يرجعون إليه من الآنتساب إلى الأنبياء . أو يذهبا بأهل طريقتكم فحذف المضاف . و « المثلى » تأنيث الأمثل ؛ كما يقال الأفضل والفضلى . وأنث الطريقة على اللفظ ، وإن كان يراد بها الرجال . ويجوز أن يكون التأنيث على الجماعة . وقال الكسائى : « بطريقتكم » بسنتكم وسمتكم . و « المثلى » نعت كقولك آمرأة كبرى . تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ الإجماع الإحكام والعزم على الشيء . تقول : أجمعت الخروج وعلى الخروج أى عزمت . وقراءة كل الأمصار « فَأَجْمِعُوا » إلا أبا عمرو فإنه قرأ « فَٱجْمَعُوا » بالوصل وفتح الميم . وآحتج بقوله : « فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى » . قال النحاس وفيما حُكى لى عن محمد بن يزيد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه ، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس . قال : لأنه احتج بـ « جمع » وقوله عز وجل : « فجمع كيده » قد ثبت هذا فيبعد أن يكون بعده « فَٱجْمَعُوا » ويقرب أن يكون بعده « فَأَجْمِعُوا » أى آعزموا وجدّوا ؛ ولما تقدم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه يقال : أمر مجمع ومُجْمَع عليه . قال النحاس : ويصحح قراءة أبى عمرو « فَٱجْمَعُوا » أى آجمعوا كل كيد لكم وكل حيلة فضُمّوه مع أخيه . وقاله أبو إسحق . الثعلبى : القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان : أحدهما — بمعنى الجمع ، تقول : أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد ، وفى الصحاح : وأجمعت الشيء جعلته جميعا ؛ قال أبو ذؤيب يصف حُمُرا :

فكأنّها بالجِزْعِ بينَ نُبَايِعٍ (١) * وأولاتِ ذى العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجْمَعُ

(١) نبايع : اسم مكان أو جبل أو واد فى بلاد هذيل ، ويجمع على « نبايعات » .

أي مجموع . والثاني — أنه بمعنى العزم والإحكام؛ قال الشاعر :

يا ليت شِعري والمُنَى لا تنفعُ * هل أغدُوَن يومًا وأمرِي مُجمَعُ

أي مُحكَم . ﴿ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا ﴾ قال مقاتل والكلبي : جميعا . وقيل : صفوفا ليكون أشد لهيبتكم . وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبي عبيدة؛ قال يقال : أتيت الصّف يعني المصلَّى؛ فالمعنى عنده ٱئتوا الموضع الذي تجتمعون فيه يوم العيد . وحكى عن بعض فصحاء العرب : ماقدرت أن آتي الصفّ؛ يعني المصلَّى . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم ٱئتوا والناس مصطفون؛ فيكون على هذا مصدرا في موضع الحال . ولذلك لم يجمع . وقرئ « ثُمِّ ايْتُوا » بكسر الميم وياء . ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفا . ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَى ﴾ أي من غلب . وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض . وقيل : من قول فرعون لهم .

قوله تعالى : قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَامُوسَى ﴾ يريد السحرة . ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ عصاك من يدك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ تأدبوا مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم . ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾ في الكلام حذف، أي فألقوا؛ دل عليه المعنى . وقرأ الحسن ﴿ وَعُصِيُّهُمْ ﴾ بضم العين . قال هرون القارئ : لغة بني تميم « وعُصِيُّهُمْ » وبها يأخذ الحسن . الباقون بالكسر إتباعا لكسرة الصاد . ونحوه دُلِيّ ودِلِيّ وقُسِيّ وقِسِيّ . ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ . وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان وروح عن يعقوب « تُخَيَّلُ » بالتاء؛ وردّوه إلى العصيّ والحبال إذ هي مؤنثة . وذلك أنهم لطخوا العصيّ بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتهشت واهتزت . قال الكلبي : خُيِّل إلى موسى أن الأرض حيات وأنها تسعى على بطنها . وقرئ « تَخَيَّلُ » بمعنى تتخيل وطريقه طريق « تُخَيَّلُ » ومن قرأ « يُخَيَّلُ » بالياء رده إلى الكيد . وقرئ « نُخَيِّل » بالنون على أن الله هو المخيِّل للمحنة والابتلاء . وقيل : الفاعل « أَنَّهَا تَسْعَى » فـ « أنّ » في موضع رفع؛ أي يخيّل إليه سعيها؛ قاله الزجاج . وزعم الفراء أن موضعها موضع نصب؛ أي بأنها ثم حذف الباء . والمعنى في الوجه الأول : تشبّه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظن أنها تسعى . وقال الزجاج : ومن قرأ بالتاء جعل «أنّ» في موضع نصب أي تخيّل إليه ذاتَ سعي . قال : ويجوز أن تكون في موضع رفع بدلا من الضمير في «تخيّل» وهو عائد على الحبال والعصيّ، والبدل فيه بدل اشتمال . و «تسعى» معناه تمشي .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ أي أضمر . وقيل : وجد . وقيل : أحسّ . أي من الحيات وذلك على مايعرض من طباع البشر على ماتقدم . وقيل : خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه . وقيل : خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتتنوا . وقال بعض أهل الحقائق : إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة وقال لهم : « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » التفت فإذا جبريل على يمينه فقال له ياموسى ترَفّق بأولياء الله . فقال موسى : ياجبريل هؤلاء سحرة جاءوا بسحر عظيم ليبطلوا المعجزة، وينصروا دين فرعون، ويردّوا دين الله، تقول : ترَفّق

بأولياء الله ! فقال جبريل : هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك ، و بعد صلاة العصر في الجنة . فلما قال له ذلك ، أُوجس في نفس موسى ، وخَطَر أن مايُدريني ماعِلْم الله فيّ ، فلعلّي أكون الآن في حالة ، وعِلْم الله فيّ على خلافها كما كان هؤلاء . فلمّا علم الله مافي قلبه أوحى الله إليه ﴿ لَاتَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا ، وفي الدرجات العلا في الجنة ؛ للنبوّة والاصطفاء الذي آتاك الله به . وأصل « خِيفة » خِوْفة فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَافِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ(1) مَاصَنَعُوا ﴾ ولم يقل وألق عصاك ، فجائز أن يكون تصغيرا لها ؛ أي لاتبال بكثرة حبالهم وعصيّهم ، وألق العُوَيد الفَرْد الصغير الجِرْم الذي في يمينك ، فإنه بقدرة الله يتلقّفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وجائز أن يكون تعظيما لها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئا أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عندها ؛ فألقه يتلقّفها بإذن الله ويمحقها . و « تَلَقَّفْ » بالجزم جواب الأمر ؛ كأنه قال : إن تلقه تتلقّف ؛ أي تأخذ وتبتلع . وقرأ السُّلَمِيّ وحفص « تَلْقَفْ » ساكنة اللام من لَقِف يَلْقَف لَقْفا . وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيى بن الحرث « تَلَقَّفُ » بحذف التاء ورفع الفاء ، على معنى فإنها تتلقف . والخطاب لموسى . وقيل : للعصا . واللقْف الأخذ بسرعة . يقال : لَقِفتُ الشيء (بالكسر) ألقَفه لَقْفا ، وتلقّفته أيضا أي تناولته بسرعة . عن يعقوب : يقال رجل لَقِف ثَقِف أي خفيف حاذق . واللَّقَف (بالتحريك) سقوط الحائط . ولقد لقِف الحوضُ لَقَفا أي تهوّر من أسفله واتّسع . وتَلْقف وتَلْقَم وتَلْهم بمعنى . وقد مضى في « الأعراف »(2) . لقمت اللُّقمة (بالكسر) لَقْما ، وتلقّمتها إذا ابتلعتها في مهلة . وكذلك لَهِمه (بالكسر) إذا ابتلعه . ﴿ مَاصَنَعُوا ﴾ أي الذي صنعوه وكذا ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا ﴾ أي إن الذي صنعوه . ﴿ كَيْدُ ﴾ بالرفع ﴿ سِحْرٍ ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء ؛ وهي قراءة الكوفيين إلا عاصما . وفيه وجهان : أحدهما — أن يكون الكيد مضافا إلى السحر

---

(1) « تلقف » بالتشديد قراءة « نافع » . (2) راجع جـ ٧ ص ٢٥٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

على الإتباع من غير تقدير حذف . والثانى — أن يكون فى الكلام حذف أى كيد ذى سحر. وقرأ الباقون « كَيْدَ » (١) بالنصب بوقوع الصنع عليه، و « ما » كافة ولا تضمر هاءً « ساحرٍ » بالإضافة . والكيد فى الحقيقة على هذه القراءة مضاف للساحر لا للسحر . ويجوز فتح «أنّ» على معنى لأن ماصنعوا كيد ساحر . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض . وقيل : حيث احتال ، وقد مضى فى « البقرة » (٢) حكم الساحر ومعنى السحر فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة فى العصا؛ فإنها ٱبتلعت جميع ما ٱحتالوا به من الحبال والعِصِىّ؛ وكانت حمل ثلثمائة بعير ثم عادت عصًا لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصىّ إلا الله تعالى . وقد مضى فى «الأعراف» (٣) هذا المعنى وأمر العصا مستوفى . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أى به؛ يقال : آمن له وآمن به؛ ومنه « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ » وفى الأعراف « قَالَ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » . إنكار منه عليهم؛ أى تعديتم وفعلتم مالم آمركم به . ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ . أى رئيسكم فى التعليم ، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم . وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته . ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أى على جذوع النخل . قال سويد بن أبى كاهل :

هُم صَلَبُوا العبدىّ فى جذع نخلةٍ * فلا عَطَسَتْ شيبانُ إلا بأَجْدَعَا

فقطع وصلّب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى . وقرأ ابن محيصن هنا وفى الأعراف «فَلَأَقْطَعَنّ»، « وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ » بفتح الألف والتخفيف من قَطَع وصَلَب . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ يعنى أنا أم ربُّ موسى .

---

(١) العبارة هنا على إطلاقها تفيد أن هذه قراءة الجمهور، والجمهور قرأ « كيد ساحر » برفع « كيد » كما فى «البحر» وغيره؛ قال فى البحر : وقرأ الجمهور « كيد » بالرفع . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى السّحرة ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾ أى لن نختارك ﴿ عَلَى مَاجَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد من اليقين والعلم . وقال عكرمة وغيره : لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة؛ فلهذا قالوا « لن نؤثرك » . وكانت آمرأة فرعون تسأل من غلب ، فقيل لها : غلب موسى وهرون؛ فقالت : آمنت برب موسى وهرون . فأرسل إليها فرعون فقال : آنظروا أعظم صخرة فإن مضت على قولها فألقوها عليها؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها فى الجنة، فمضت على قولها فانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسدها وليس فى جسدها روح . وقيل : قال مقدّم السّحرة لمن يثق به لما رأى من عصا موسى ما رأى : انظر إلى هذه الحية هل تخوفت[(1)] فتكون جنياً أو لم تخوف فهى من صنعة الصانع الذى لا يعزب عليه مصنوع؛ فقال : ما تخوفت؛ فقال : آمنت برب هرون وموسى . ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قيل : هو معطوف على « مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ » أى لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ولا على الذى فطرنا أى خلقنا . وقيل : هو قسم أى والله لن نؤثرك . ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ التقدير ما أنت قاضيه . وليست « ما » ها هنا التى تكون مع الفعل بمنزلة المصدر، لأن تلك توصل بالأفعال، وهذه موصولة بابتداء وخبر .

(١) فى نسخة « تجوفت — أو لم تجوف — ما تجوفت » بالجيم .

قال ابن عباس : فاصنع ما أنت صانع . وقيل : فاحكم ما أنت حاكم؛ أى من القَطْع والصَّلْب . وحذفت الياء من قاض فى الوصل لسكونها وسكون التنوين . واختار سيبويه إثباتها فى الوقف لأنه قد زالت علة الساكنين . ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى إنما ينفذ أمرك فيها . وهى منصوبة على الظرف، والمعنى : إنما تقضى فى متاع هذه الحياة الدنيا . أو وقت هذه الحياة الدنيا، فتقدر حذف المفعول . ويجوز أن يكون التقدير : إنما تقضى أمور هذه الحياة الدنيا، فتنتصب انتصاب المفعول و « ما » كافة لإنّ . وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل « ما » بمعنى الذى وتحذف الهاء من تقضى ورفعت « هـذه الحياة الدنيا » . ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ أى صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ يريدون الشِّرْك الذى كانوا عليه . ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ « ما » فى موضع نصب معطوفة على الخطايا . وقيل : لا موضع لها وهى نافية؛ أى ليغفر لنا خطايانا من السِّحر وما أكرهتنا عليه . النحاس : والأول أولى . المهدوى : وفيه بعد؛ لقولهم : « إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » وليس هذا بقول مُكْرَهين؛ ولأن الإكراه ليس بذنب، وإن كان يجوز أن يكونوا أكرهوا على تعليمه صغارا . قال الحسن : كانوا يعلّمون السحر أطفالا ثم عملوه مختارين بعد . ويجوز أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ويضمر الخبر، والتقدير : وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنّا . و « من السـحر » على هـذا القول والقول الأوّل يتعلق بـ « أكرهتنا » . وعلى أنّ « ما » نافية يتعلق بـ « خطايانا » . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى ثوابه خير وأبقى فحذف المضاف؛ قاله ابن عباس . وقيل : الله خير لنا منك وأبقى عذابا لنا من عذابك لنا . وهو جواب قوله : « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى » وقيل : الله خير لنا إن أطعناه، وأبقى عذابا منك إن عصيناه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ قيل : هو من قول السحرة لمـا آمنوا . وقيل : ابتداء كلام من الله عز وجل . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن . ويجـوز إنّ من يأت، ومنه قول الشاعر (1) :

إنّ من يَدخلِ الكنيسةَ يوماً * يـلْقَ فيهـا جآذراً وظبـاء

(1) البيت للأخطل وهو نصرانى .

أراد إنه من يدخل؛ أى إن الأمر هذا؛ وهو أن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة . والمجرم الكافر . وقيل : الذى يقترف المعاصى ويكتسبها . والأول أشبه؛ لقوله : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ وهذه صفة الكافر المكذّب الجاحد — على ما تقدم بيانه فى سورة « النّساء » وغيرها — فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته . قال الشاعر :

ألا مَنْ لنفس لا تموت فينقضى * شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ

وقيل : نفس الكافر معلقة فى حنجرته؛ كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها، ولا يحيا باستقرارها . ومعنى « مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا » من يأت موعد ربه . ومعنى ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ أى يمت عليه ويوافيه مصدقا به . ﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ أى وقد عمل ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى الطاعات وما أمر به ونهى عنه . ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا ﴾ أى الرفيعة التى قصرت دونها الصفات . ودل قوله : « وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا » على أن المراد بالمجرم المشرك .

قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيان للدرجات وبدل منها، والعَدْن الإقامة؛ وقد تقدم بيانه (1) . ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت غرفها وسررها ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ من الخمر والعسل واللبن والماء وقد تقدم . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى ماكثين دائمين . ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أى من تطهّر من الكفر والمعاصى . ومن قال هذا من قول السّحرة قال : لعل السّحرة سمعوه من موسى، أو من بنى إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون .

قلت : ويحتمل أن يكون ذلك إلهاما من الله لهم أنطقهم بذلك لما آمنوا؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ تقدم الكلام فى هذا مستوفى (2) . ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أى يابسا لا طين فيه ولا ماء؛ وقد مضى فى «البقرة»

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (٣) جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

ضرب موسى البحر وكنيته إياه ، وإغراق فرعون فلا معنى للإعادة . ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا ﴾ أى لحاقا من فرعون وجنوده . ﴿ وَلَا تَخْشَى ﴾ قال ابن جريج قال أصحاب موسى : هذا فرعون قد أدركنا، وهذا البحر قد غشينا؛ فأنزل الله تعالى « لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى » أى لا تخاف دركا من فرعون ولا تخشى غرقا من البحر أن يمسّك إن غشيك . وقرأ حمزة « لا تخف » على أنه جواب الأمر . التقدير إن تضرب لهم طريقا فى البحر لا تخف . و « لا تخشى » مستأنف على تقدير: ولا أنت تخشى . أو يكون مجزوما والألف مشبعة من فتحة؛ كقوله : « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » أو يكون على حدّ قول الشاعر (١) :

* كَأَنْ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرا يَمَانِيَا *

على تقدير حذف الحركة كما تحذف حركة الصحيح . وهذا مذهب الفراء . وقال آخر :

هَجوت زَبَّان ثم جئتَ معتذرا * من هجوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو ولَمْ تَدَعِ

وقال آخر (٢) : أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِي * بِمَا لَاقَتْ لَبُون بَنِي زِيادِ

قال النحاس : وهذا من أقبح الغلط أن يحمل كتاب الله عز وجل على الشذوذ من الشعر؛ وأيضا فإن الذى جاء به من الشعر لا يشبه من الآية شيئا؛ لأن الياء والواو مخالفتان للألف؛ لأنهما تتحركان والألف لا تتحرك، وللشاعر إذا اضطر أن يقدرهما متحركتين ثم تحذف الحركة للجزم، وهذا محال فى الألف؛ والقراءة الأولى أبين لأن بعده « وَلَا تَخْشَى » مجمع عليه بلا جزم؛ وفيها ثلاث تقديرات : الأول — أن يكون « لا تخاف » فى موضع الحال من المخاطب، التقدير فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا غير خائف ولا خاشٍ . الثانى — أن يكون فى موضع النعت للطريق؛ لأنه معطوف على يبس الذى هو صفة، ويكون التقدير لا تخاف فيه؛ فحذف الراجع من الصفة . والثالث — أن يكون منقطعا خبر ابتداء محذوف تقديره وأنت لا تخاف .

(١) هو عبد يغوث بن وقاص من شعراء الجاهلية . وصدر البيت :

* وتضحك منى شيخة عبشمية *

(٢) البيت من أبيات لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، وكان قد نشأت بينه وبين الربيع بن زياد شحناء فى شأن درع فاستاق إبل الربيع وباعها بمكة من عبد الله بن جدعان القرشى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ أي أتبعهم ومعه جنوده، وقرئ « فَاتَّبَعَهُمْ » بالتشديد فتكون الباء في « بِجُنُودِهِ » عدّت الفعل إلى المفعول الثاني؛ لأن أتبع يتعدى إلى مفعول واحد . أي تبعهم ليلحقهم بجنوده أي مع جنوده كما يقال : ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه . ومن قطع « فأتبع » يتعدى إلى مفعولين : فيجوز أن تكون الباء زائدة، ويجوز أن يكون اقتصر على مفعول واحد . يقال : تبعه وأتبعه ولحقه وألحقه بمعنى واحد . وقوله : « بِجُنُودِهِ » في موضع الحال؛ كأنه قال : فأتبعهم سائقا جنوده . ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي أصابهم من البحر ما غرّقهم، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر . ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ أي أضلّهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة؛ لأنه قدّر أن موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأن بين أيديهم البحر . فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقا، وبين الطرق الماء قائما كالجبال . وفي سورة الشعراء « فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » أي الجبل الكبير؛ فأخذ كل سِبْط طريقا . وأوحى الله إلى أطواد الماء أَنْ تشبّكي فصارت شبكات يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم كلام بعض، وكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق في البحر والماء قائما أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم . وقيل إن قوله : « وَمَا هَدَى » تأكيد لإضلاله إياهم . وقيل : هو جواب قول فرعون « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » فكذّبه الله تعالى . وقال ابن عباس : « وَمَا هَدَى » أي ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه .

قوله تعالى : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ لما أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا . ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾ « جانب » نصب على المفعول الثانى « لواعدنا » ولا يحسن أن ينتصب على الظرف ؛ لأنه ظرف مكان محض غير مبهم . وإنما تتعدى الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة . قال مكيّ : هذا أصل لا خلاف فيه؛ وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطُّور؛ ثم حذف المضاف . قال النحاس : أى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام . وقيل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم . وقرأ أبو عمرو « وَوَعَدْنَاكُمْ » بغير ألف وآختاره أبو عبيد؛ لأن الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من آثنين ؛ وقد مضى فى « البقرة »[(١)] هذا المعنى . و « الْأَيْمَنَ » نصب ؛ لأنه نعت للجانب وليس للجبل يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل فمعناه خذ على يمينك من الجبل . وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ أى فى التِّيه وقد تقدّم القول فيه[(٢)] . ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى من لذيذ الرزق . وقيل : من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمى فتدخله شبهة . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ أى لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصوا ؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى ؛ أى لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم . وقيل : أى ولا تستبدلوا بها شيئا آخر كما قال : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . وقيل : لا تدّخروا منه لأكثر من يوم وليلة ؛ قال ابن عباس : فيتدوّد عليهم ما آدخروه ؛ ولولا ذلك ما تدوّد طعام أبدا . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أى يجب وينزل ، وهو منصوب بالفاء فى جواب النهى من قوله : « وَلَا تَطْغَوْا » . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائى « فَيَحُلَّ » بضم الحاء « وَمَنْ يَحْلُلْ » بضم اللام الأولى . والباقون بالكسر وهما لغتان . وحكى

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٤٠٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أبو عبيدة وغيره : أنه يقال حَلّ يحِلّ إذا وجب وحَلّ يَحُلّ إذا نزل . وكذا قال الفراء : الضم من الحلول بمعنى الوقوع والكسر من الوجوب . والمعنيان متقاربان إلا أن الكسر أولى، لأنهم قد أجمعوا على قوله : « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » . وغضب الله عقابه ونقمته وعذابه . ﴿ فَقَدْ هَوَى ﴾ قال الزجاج : فقد هلك؛ أى صار إلى الهاوية وهى قعر النار، من هوى يهوى هويا أى سقط من علو إلى سفل ، وهوى فلان أى مات . وذكر ابن المبارك : أخبرنا إسمعيل بن عياش قال حدثنا ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير عن شُفَيّ[1] الأصبحيّ قال : إن فى جهنم جبلا يدعى صَعُودًا يطلع فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يرقاه؛ قال الله تعالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » وإن فى جهنم قصرا يقال له هَوَى يُرمى الكافر من أعلاه فيهوى أربعين خريفا قبل أن يبلغ أصله قال الله تعالى : « وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى » وذكر الحديث؛ وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ ﴾ أى من الشّرك . ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَى ﴾ أى أقام على إيمانه حتى مات عليه؛ قاله سفيان الثورى وقتادة وغيرهما . وقال ابن عباس : أى لم يشكّ فى إيمانه؛ ذكره الماوردى والمهدوى . وقال سهل بن عبد الله التُّستَرىّ وابن عباس أيضا : أقام على السنّة والجماعة؛ ذكره الثعلبي . وقال أنس : أخذ بسنّة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكر المهدوى، وحكاه الماوردى عن الربيع بن أنس . وقول خامس : أصاب العمل؛ قاله ابن زيد؛ وعنه أيضا تعلم العلم ليهتدى كيف يفعل؛ ذكر الأول المهدوى، والثانى الثعلبيّ . وقال الشعبيّ ومقاتل والكلبيّ : علم أن لذلك ثوابا وعليه عقابا؛ وقاله الفراء . وقول ثامن : « ثم ٱهتدى » فى ولاية أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ قاله ثابت البُنَانِى . والقول الأول أحسن هذه الأقوال — إن شاء الله — وإليه يرجع سائرها . قال وكيع عن سفيان : كنا نسمع فى قوله عز وجل : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » أى من الشِّرك « وآمن » أى بعد الشِّرك « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلّى وصام « ثُمَّ ٱهْتَدَى » مات على ذلك .

---

(١) بالتصغير بن ماتع (بالتاء المثناة الفوقية) الأصبحى .

قوله تعالى : وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ
عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ
مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ
أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ
أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾
قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ
فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ
خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ
أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ أى ما حملك على أن تسبقهم . قيل : عنى بالقوم جميع بنى إسرائيل؛ فعلى هذا قيل : ٱستخلف هرونَ على بنى إسرائيل، وخرج معه بسبعين رجلا للميقات . فقوله : ﴿ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى ﴾ ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب منى ينتظرون عودى إليهم . وقيل : لا بل كان أمر هرون بأن يتبع فى بنى إسرائيل أثره ويلتحقوا به . وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين ٱختارهم،وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله . وقيل : لما وفد إلى طور سينا بالوعد ٱشتاق إلى ربه، وطالت عليه المسافة من شدّة الشوق إلى الله تعالى ، فضاق به الأمر حتى شقّ قميصه، ثم لم يصبر حتى خلّفهم ومضى وحده؛ فلما وقف فى مقامه قال الله تبارك وتعالى : « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى » فبقى صلى الله عليه وسلم متحيرا عن الجواب وكنى عنه بقوله : « هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى » وإنما سأله عن السبب الذى أعجله بقوله : « ما » فأخبر عن مجيئهم بالأثر . ثم قال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ فكنى عن

ذكر الشوق وصدقه إلى ٱبتغاء الرضا . ذكر عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة فى قوله « وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رب لِتَرْضَى » قال : شوقا . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا آوت إلى فراشها تقول : هاتوا المجيد . فتؤتى بالمصحف فتأخذه فى صدرها وتنام معه تتسلى بذلك؛ رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضى الله عنها . وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خلع ثيابه وتجرد حتى يصيبه المطر ويقول : "إنه حديث عهد بربّى" فهذا من الرسول صلى الله عليه وسلم وممن بعده من قبيل الشوق؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه : « طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقائهم أشوق » . قال ٱبن عباس : كان الله عالما ولكن قال « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ » رحمة لموسى، وإكراما له بهذا القول، وتسكينا لقلبه، ورقة عليه؛ فقال مجيبا لربه : « هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى » . قال أبو حاتم قال عيسى : بنو تميم يقولون : « هُمْ أُولَى » مقصورة مرسلة، وأهل الحجاز يقولون « أولاءِ » ممدودة . وحكى الفراء « هُمْ أُولَاىَ عَلَى أَثَرِى » وزعم أبو إسحـق الزجاج : أن هذا لا وجه له . قال النحاس : وهو كما قال؛ لأن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَاىَ . ولا يخلو من إحدى جهتين : إما أن يكون اسما مبهما فإضافته محال؛ وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضا؛ لأن ما بعده من تمامه وهو معرفة . وقرأ ابن أبى إسحق ونصر ورويس عن يعقوب « على إِثْرِى » بكسر الهمزة وإسكان الثاء وهو بمعنى أثر؛ لغتان . « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » أى عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عنّى . يقال: رَجلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعَجْلَانُ بين العَجَلة؛ والعَجَلة خلاف البطء .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أى ٱختبرناهم وٱمتحنّاهم بأن يستدلوا على الله عز وجل . ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾ أى دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها . وقيل : فتناهم ألقيناهم فى الفتنة : أى زيّنا لهم عبادة العجل؛ ولهذا قال موسى : « إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان السامرىّ من قوم يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره، وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر . وقيل : كان رجلا

من القبط، وكان جارا لموسى آمن به وخرج معه . وقيل: كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان.

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ حال وقد مضى فى « الأعراف (١) » بيانه مستوفى . ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى، ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل : وعدهم النصر والظفر . وقيل : وعده قوله « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمن » الآية . ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أى أفنسيتم؛ كما قيل، والشىء قد ينسى لطول العهد. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ «يحلّ» أى يجب وينزل. والغضب العقوبة والنقمة. والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلا يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأن أحدا لا يطلب غضب الله، بل قد يرتكب ما يكون سببا للغضب . ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى ﴾ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطّور . وقيل : وعدهم على أثره للميقات فتوقفوا . ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم، وهى قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر، قال مجاهد والسدى : ومعناه بطاقتنا . ابن زيد : لم نملك أنفسنا أى كنا مضطرين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «بِمِلْكِنَا» بكسر الميم . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنها اللغة العالية . وهو مصدر ملكت الشىء أملكه ملكا . والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف؛ كأنه قال: بمِلْكنا الصواب بل أخطأنا فهو اعتراف منهم بالخطأ. وقرأ حمزة والكسائى « بِمُلْكِنَا » بضم الميم والمعنى بسلطاننا . أى لم يكن لنا مُلك فنخلف موعدك . ثم قيل قوله : « قَالُوا » عام يراد به الخاص؛ أى قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطور: « مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنَا » وكانوا اثنى عشر ألفا ، وكان جميع بنى إسرائيل ستمائة ألف . ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة؛ قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ورويس . الباقون بفتح الحرفين خفيفة . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنهم حملوا حُلى القوم

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

معهم وما حملوه كرها . ﴿ أَوْزَارًا ﴾ أى أثقالا ﴿ مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أى من حليهم ؛ وكانوا آستعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام ، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة . وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون ، لما قذفهم البحر إلى الساحل . وسميت أوزارا بسبب أنها كانت آثاما . أى لم يحلّ لهم أخذها ولم تحل لهم الغنائم ، وأيضا فالأوزار هى الأثقال فى اللغة . ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أى ثقل علينا حمل ما كان معنا من الحلىّ فقذفناه فى النار ليذوب ، أى طرحناه فيها . وقيل : طرحناه إلى السامرىّ لترجع فترى فيها رأيك . قال قتادة : إن السامرىّ قال لهم حين آستبطأ القومُ موسى : إنما آحتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلىّ ؛ فجمعوه ودفعوه إلى السامرىّ فرمى به فى النار، وصاغ لهم منه عجلا ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام . وقال معمر : الفرس الذى كان عليه جبريل هو الحياة ، فلما ألقى عليه القبضة صار عجلا جسدا له خُوار . والخُوار صوت البقر . وقال ابن عباس : لما آنسكبت الحلىّ فى النار ، جاء السامرىّ وقال لهرون : يانبىّ الله أؤلقى ما فى يدى — وهو يظن أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلىّ — فقذف التراب فيه ، وقال : كن عجلا جسدا له خُوار ، فكان كما قال ؛ للبلاء والفتنة ؛ فخار خَورة واحدة لم يُتبعها مثلها . وقيل : خُواره وصوته كان بالريح ؛ لأنه كان عمل فيه خروقا فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم تكن فيه حياة . وهذا قول مجاهد . وعلى القول الأوّل كان عجلا من لحم ودم ، وهو قول الحسن وقتادة والسدىّ . وروى حماد عن سِماك عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : مرّ هرون بالسامرىّ وهو يصنع العجل ، فقال : ما هذا ؟ فقال : ينفع ولا يضر ؛ فقال : اللهم أعطه ما سألك على ما فى نفسه ؛ فقال : اللهم إنى أسألك أن يخور . وكان إذا خار سجدوا ، وكان الخوار من أجل دعوة هرون . قال ابن عباس : خار كما يخور الحىّ من العجول . وروى أن موسى قال : يا رب هذا السامرىّ أخرج لهم عجلا جسدا له خُوار من حليّهم ، فمن جعل الجسد والخوار ؟ قال الله تبارك وتعالى : أنا . قال موسى صلى الله عليه وسلم : وعزتك وجلالك وآرتفاعك وعلوك وسلطانك ما أضلّهم غيرُك . قال : صدقت ياحكيم

الحكماء . وقد تقدّم هـذا كله فى سورة « الأعراف » (١) . ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ أى قال السامرىّ ومن تبعه وكانوا ميالين إلى التّشبيه؛ إذ قالوا : « ٱجْعَلْ لَنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَـةٌ » . ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أى فضــلّ موسى [وذهب] (٢) يطلبه فلم يعـلم مكانه ، وأخطأ الطريق إلى ربه . وقيل معناه : فتركه موسى هنا وخرج يطلبه . أى ترك موسى إلهــه هنا . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : أى فنسى موسى أن يذكر لكم أنه إلهه . وقيل : الخطاب خبر عن السامرىّ . أى ترك السامرىّ ما أمره به موسى من الإيمان فضل؛ قاله ابن الأعرابىّ . فقال الله تعـالى محتجا عليهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أى يعتبرون ويتفكرون فى ﴿ أن ﴾ه ﴿ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أى لا يكلمهم . وقيل : لا يعود إلى الخوار والصوت . ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فكيف يكون إلها؟! والذى يعبده موسى صلى الله عليه وسلم يضر وينفع ويثيب ويعطى ويمنع . « أَنْ لَا يَرْجِعُ » تقديره أنه لا يرجع فلذلك ٱرتفع الفعل فخففت « أن » وحذف الضمير . وهو الاختيار فى الرؤية والعلم والظن . قال :

فى فتيةٍ من سيوف الهند قد علموا * أَنْ هالكٌ كلُّ من يَحْفَى ويَنْتَعِلُ

وقد يحذف مع التشديد؛ قال :

فـلو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرَابتى * ولكنَّ زنجىٌّ عظيمُ المشافِرِ

أى ولكنك .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل أن يأتى موسى ويرجع إليهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَـا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ أى ٱبتليتم وأضللتم به؛ أى بالعجل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ في عبادته ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ لا أمر السامري. أو فاتبعوني في مسيري إلى موسى ودعوا العجل؛ فعصوه و﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ أي لن نزال مقيمين على عبادة العجل ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ فينظر هل يعبده كما عبدناه؛ فتوهموا أن موسى يعبد العجل، فاعتزلهم هرون في اثني عشر ألفا من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين معه: هذا صوت الفتنة؛ فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا و﴿قَالَ يَا هَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ أي أخطئوا الطريق وكفروا. ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ «لا» زائدة أي أن تتبع أمري ووصيتي. وقيل: ما منعك عن اتباعي في الإنكار عليهم. وقيل: معناه هلّا قاتلتهم إذ قد علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم. وقيل: ما منعك من اللحوق بي لما فُتنوا. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لي؛ قاله ابن عباس. وقيل: معناه هلّا فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريعا لهم وزجرا. ومعنى «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» قيل: إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه «وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ» فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم، والإنكار عليهم، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره.

مسألة — وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا حكمه كحكمهم. وقد مضى هذا المعنى في آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وسئل الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشي رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأُعلِم — حرس الله مدته — أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه، ويحضرون شيئا يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين، وهذا القول الذي يذكرونه:

ياشيخُ كُفَّ عن الذُّنوبْ * قبــلَ التَّفــرُّق والزَّلَلْ
واعْمَــلْ لنفسكَ صالحاً * مادام ينفعــك العَمَــلْ
أمّا الشبابُ فقــد مَضَى * ومَشيبُ رأسكَ قد نَزَلْ

وفى مثل هذا ونحوه . الجواب : — يرحمك الله — مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرىّ، لما ٱتخذ لهم عجلا جسدا له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل؛ وأما القضيب فأول من ٱتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى؛ وإنما كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رءوسهم الطير من الوقار؛ فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ؛ ولا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَحضُر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ؛ هذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره؛ لأن الغيرة فى الله ملكته؛ أى لا تفعل هذا فيتوهموا أنه منك ٱستخفاف

أو عقوبة . وقد قيل : إن موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه . وقد مضى هذا في « الأعراف[١] » مستوفى . والله عز وجل أعلم بما أراد نبيه عليه السلام . ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتني أن أخرج معهم ، فلو خرجت لاتبعني قوم ويتخلف مع العجل قوم ؛ وربما أدى الأمر إلى سفك الدماء ؛ وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتلوموني على ذلك . وهذا جواب هرون لموسى عليه السلام عن قوله : « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » وفي الأعراف «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ» لأنك أمرتني أن أكون معهم . وقد تقدم . ومعنى ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ لم تعمل بوصيتي في حفظه ؛ قاله مقاتل . وقال أبو عبيدة : لم تنتظر عهدي وقدومي . فتركه موسى ثم أقبل على السامري فـ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أي ، ما أمرك وشأنك ، وما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال قتادة : كان السامري عظيما في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم « قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » فاغتنمها السامري وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل . فـ ﴿ قَالَ ﴾ السامري مجيبا لموسى : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ يعني : رأيت ما لم يروا ؛ رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة ، فألقى في نفسي أن أقبض من أثره قبضة ، فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم ؛ فلما سألوك أن تجعل لهم إلها زينت لي نفسي ذلك . وقال علي رضي الله عنه : لما نزل جبريل ليصعد بموسى عليه السلام إلى السماء ، أبصره السامري من بين الناس فقبض قبضة من أثر الفرس . وقيل قال السامري : رأيت جبريل على الفرس وهي تلقي خطوها مد البصر ، فألقي في نفسي أن أقبض من أثرها فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ودم . وقيل : رأى جبريل يوم نزل على رمكة[٢] وديق ، فتقدم خيل فرعون في ورود البحر . ويقال : إن أم السامري جعلته حين وضعته في غار خوفا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الرمكة : الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل ؛ معرب . وهي هنا الفرس . والوديق : التي تشتهي الفحل .

من أن يقتله فرعون؛ فجاءه جبريل عليه السلام ، فجعل كفّ السامرىّ فى فم السامرىّ، فرضع العسل واللبن فاختلف إليه فعرفه من حينئذ . وقد تقدم هذا المعنى فى «الأعراف»(١) .
ويقال : إن السامرىّ سمع كلام موسى عليه السلام، حيث عمل تمثالين من شمع أحدهما ثور والآخر فرس فألقاهما فى النيل طلب قبر يوسف عليه السلام وكان فى تابوت من حجر فى النيل، فأتى به الثور على قرنه ، فتكلم السامرىّ بذلك الكلام الذى سمعه من موسى ، وألقى القبضة فى جوف العجل فخار . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف « بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر . وقرأ أبىّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة «فَقَبَصْتُ قَبَصَةً » بصاد غير معجمة . وروى عن الحسن ضم القاف من « قبصة » والصاد غير معجمة . الباقون : ﴿ قَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾ بالضاد المعجمة . والفرق بينهما أن القبض بجميع الكفّ، والقبص بأطراف الأصابع، ونحوهما الخَضْم والقَضْم، والقُبْضة بضم القاف القدر المقبوض؛ ذكره المهدوى . ولم يذكر الجوهرى « قُبْصة » بضم القاف والصاد غير معجمة، وإنما ذكر « القُبْضة » بضم القاف والضاد المعجمة وهو ما قبضت عليه من شيء؛ يقال : أعطاه قُبْضة من سَويق أو تمر أى كفا منه، وربما جاء بالفتح . قال : والقِبْصُ بكسر القاف والصاد غير المعجمة العدد الكثير من الناس؛ قال الكميت :

لكم مسجدا الله المَزوران والحَصَى * لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرَى وأَقْتَرَى(٢)

﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أى طرحتها فى العجل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أى زينته ؛ قاله الأخفش . وقال ابن زيد : حدثتنى نفسى . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ ﴾ أى قال له موسى فاذهب أى من بيننا ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أى لا أمسّ ولا أُمَسّ طول الحياة . فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألّا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلّموه عقوبة له . قال الشاعر :

تميمٌ كرهط السّامرىّ وقوله * ألا لا يريدُ السامرىّ مِساسَا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) أى من بين مثر ومقل .

قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماسّ الناس ولا يماسّوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكأن الله عز وجل شدّد عليه المحنة ، بأن جعله لا يماسّ أحدا ولا يمكّن من أن يمسّه أحد ، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا . ويقال : ٱبتلي بالوسواس ؛ وأصل الوسواس من ذلك الوقت . وقال قتادة : بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك ــ لا مساس ــ وإن مسّ واحد من غيرهم أحدا منهم حُمّ كلاهما في الوقت . ويقال : إن موسى همّ بقتل السامري ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه سخيّ . ويقال لما قال له موسى : ﴿ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ خاف فهرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش ، لا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كالقائل لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ؛ كما قال الشاعر :

حَمّالُ راياتٍ بها قَنَاعِسَا * حتى تقولَ الأزدُ لا مسابسا[1]

مسئلة : هذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلّفوا . ومن التجأ إلى الحرم وعليه قتلٌ لا يُقتل عند بعض الفقهاء ، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى ، وهو إرهاق إلى الخروج . ومن هذا القبيل التغريب في حدّ الزنى ، وقد تقدم جميع هذا كله في موضعه ، فلا معنى لإعادته . والحمد لله وحده . وقال هرون القارئ : ولغة العرب لا مَساسِ بكسر السين وفتح الميم ، وقد تكلم النحويون فيه ؛ فقال سيبويه : هو مبني على الكسر كما يقال اضربِ الرجل . وقال أبو إسحق : لا مساسِ نفي وكسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث ؛ تقول : فعلتِ ياٱمرأة . قال النحاس : وسمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : إذا ٱعتل الشيء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا ٱعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء ؛ فمساسِ ودراكِ ٱعتل من ثلاث جهات : منها أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، وأنه معرفة ؛ فلما وجب البناء فيه وكانت الألف قبل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين ؛ كما تقول : ٱضربِ الرجلَ . ورأيت أبا إسحق

(١) كذا في الأصل ، ولم نقف عليه .

يذهب إلى أن هـذا القول خطأ ، وألزم أبا العباس إذا سمى آمرأة بفرعون يبنيه ، وهذا لا يقوله أحد . وقال الجوهرى فى الصحاح : وأما قول العرب لا مَساسِ مثال قَطامِ فإنما بنى على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المسّ . وقرأ أبو حيوة «لا مَسَاسِ» . ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ يعنى يوم القيامة . والموعد مصدر ؛ أى إن لك وعدا لعذابك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «تُخْلِفَهُ» بكسر اللام وله معنيان : أحدهما — ستأتيه ولن تجده مخلفا ؛ كما تقول : أحمدته أى وجدته محمودا . والثانى — على التهديد أى لا بد لك من أن تصير إليه . الباقون بفتح اللام ؛ بمعنى : إن الله لن يخلفك إياه .

قوله تعالى : ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ أى دمت وأقمت عليه . ﴿عَاكِفًا﴾ أى ملازما ؛ وأصله ظللت ؛ قال[1] :

خَلَا أنّ العِتاقَ من المطايا * أَحَسْنَ به فهنّ إليه شُوسُ

أى أَحْسَسن . وكذلك قرأ الأعمش بلامين على الأصل . وفى قراءة ابن مسعود «ظِلْتَ» بكسر الظاء . يقال : ظَللت أفعل كذا إذا فعلته نهارا وظَلْت وظِلْت ؛ فمن قال : ظَلْت حذف اللام الأولى تخفيفا ؛ ومن قال : ظِلْت ألقى حركة اللام على الظاء . و﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ قراءة العامة بضم النون وشد الراء من حَرَّق يحرِّق . وقرأ الحسن وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء ، من أحرقه يُحرقه . وقرأ علىّ وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلى «لَنَحْرُقَنَّهُ» بفتح النون وضم الراء خفيفة ، من حرقت الشيء أحرقه حرقا بردته وحككت بعضه ببعض ، ومنه قولهم : حَرَق نابَه يحرِقه ويحرُقه أى سحقه حتى سُمع له صَريف ؛ فمعنى هذه القراءة لنبردنّه بالمبارد ، ويقال للبرد المِحْرَق . والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار . وقد يمكن جمع ذلك فيه ؛ قال السدى : ذبح العجل فسال منه كما يسيل من العجل إذا ذبح ، ثم بَرَد عظامه بالمبرد وحَرَقه . وفى حرف ابن مسعود «لنذبحنه ثم لنحرقنه» واللحم والدم إذا أحرقا

---

(١) هو أبو زبيدة ؛ والشوس (بالتحريك) قال ابن سيدة : أن ينظر بإحدى عينيه ، ويميل وجهه فى شق العين التى ينظر بها ؛ ويكون ذلك خلقة ، ويكون من الكبر والتيه والغضب .

صارا رمادا فيمكن تذريته فى اليم ؛ فأما الذهب فلا يصير رمادا . وقيل : عرف موسى ما صير به الذهب رمادا ، وكان ذلك من آياته . ومعنى ﴿ لَنَنْسِفَنَّهُ ﴾ لنطيّرنه . وقرأ أبو رجاء « لَنَنْسُفَنَّهُ » بضم السين لغتان ، والنَّسف نفض الشيء ليذهب به الريح وهو التذرية ، والمِنْسف ما يُنسف به الطعام ؛ وهو شيء متصوِّب الصدر أعلاه مرتفع ، والنُّسافة ما يسقط منه ؛ يقال : آعزِل النُّسافة وكُلْ من الخالص . ويقال : أتانا فلان كأنّ لحيته مِنْسف ؛ حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم . والمِنْسفة آلةٌ يقلع بها البناء ، ونسفت البناء نسفا قلعته ، ونَسفَ البعيرُ الكلأَ يَنْسِفه بالكسر اذا اقتلعه بأصله ، وآنتسفت الشيء آقتلعته ؛ عن أبى زيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ لا العجل ؛ أى وسع كل شيء عِلْمه ؛ يفعل الفعل عن العلم ؛ ونصب على التفسير . وقرأ مجاهد وقتادة « وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف . أى كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ قصصا كذلك من أخبار ما قد سبق ؛ ليكون تسلية لك ، وليدل على صدقك . ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ يعنى القرآن . وسمى القرآن ذكرا ؛ لما فيه من الذكر كما سمى الرسول ذكرا ؛ لأن الذكر كان ينزل عليه . وقيل : « آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا » أى شرفا ، كما قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ » أى شرف وتنويه بآسمك .

قوله تعالى : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى القرآن فلم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى إثما عظيما وحملا ثقيلا . ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ يريد مقيمين فيه؛ أى فى جزائه وجزاؤه جهنم . ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يريد بئس الحمل حملوه يوم القيامة . وقرأ داود ابن رفيع « فَإِنَّهُ يُحَمَّلُ » .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قراءة العامة «يُنْفَخُ» بضم الياء على الفعل المجهول. وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحق بنون مسمى الفاعل . واستدل أبو عمرو بقوله تعالى: «وَنَحْشُرُ» بنون . وعن ابن هُرْمُز «يَنْفُخُ» بفتح الياء أى ينفخ إسرافيل . أبو عياض : « فِى الصُّوَرِ » . الباقون : « فى الصُّورِ » وقد تقدم هذا فى « الأنعام »(١) مستوفى وفى كتاب « التذكرة » . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « ويُحْشَرُ » بضم الياء « الْمُجْرِمُونَ » رفعا بخلاف المصحف . والباقون ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى المشركين . ﴿زُرْقًا﴾ حال من المجرمين، والزَّرَق خلاف الكَحَل . والعرب تتشاءم بزَرَق العيون وتذمه ؛ أى تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم . وقال الكلبى والفراء : « زرقا » أى عميا . وقال الأزهرى : عطاشا قد ٱزرقت أعينهم من شدة العطش؛ وقاله الزجاج؛ قال : لأن سواد العين يتغير ويزرقّ من العطش . وقيل : إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة ؛ يقال : ٱبيضت عينى لطول انتظارى لكذا . وقول خامس : إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف؛ قال الشاعر :

لقد زَرِقت عيناك يابنَ مُكَعْبَرٍ * كما كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤم أَزْرَقُ

يقال : رجل أزرق العين، والمرأة زرقاء بينة الزَّرَق . والاسم الزُّرقة . وقد زَرِقت عينه بالكسر وٱزرقت عينه ٱزرقاقا، وازراقت عينه ٱزريقاقا . وقال سعيد بن جبير : قيل لابن عباس فى قوله « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال فى موضع آخر : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » فقال : إن ليوم القيامة حالات؛ فحالة يكونون فيه زرقا، وحالة عميا . ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أصل الخفت فى اللغة السكون، ثم قيل لمن خفض صوته خفته .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يتسارون؛ قاله مجاهد؛ أي يقول بعضهم لبعض في الموقف سرا ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم يعني في الدنيا ، وقيل : في القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ يريد عشر ليال. وقيل: أراد ما بين النفختين وهو أربعون سنة؛ يرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار — في قول ابن عباس — فيستقصرون تلك المدة . أو مدة مقامهم في الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة؛ ويخيل إلى أمثلهم أي أعدلهم قولا وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه أنهم مالبثوا إلا يوما واحدا يعني لبثهم في الدنيا؛ عن قتادة؛ فالتقدير: إلا مثل يوم. وقيل : إنهم من شدة هول المطلع نسوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأوه كيوم . وقيل : أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين، أو لبثهم في القبور على ما تقدم . «وعشرا» و «يوما» منصوبان بـ «لبثتم» .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي عن حال الجبال يوم القيامة . ﴿فَقُلْ﴾ جاء هذا بفاء وكل سؤال في القرآن «قل» بغير فاء إلا هذا ، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط . وقد علم الله أنهم يسئلونه عنها، فأجابهم قبل السؤال، وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤال لم يسئلوه عنه بعد؛ فتفهمه . ﴿يَنْسِفُهَا﴾ يطيرها . ﴿نَسْفًا﴾ قال ابن الأعرابي وغيره : يقلعها قلعا من أصولها، ثم يصيرها رملا يسيل سيلا، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا . قال : ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ ، ثم كالهباء المنثور . ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي يذر مواضعها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ القاع الأرض الملساء

بلا نبات ولا بناء؛ قاله ابن الأعرابي . وقال الجوهري : والقاع المستوى من الأرض والجمع أَقْوُعٌ وأَقْوَاعٌ وقِيعانٌ صارت الواو ياء لكسر ما قبلها . وقال الفراء : القاع مستنقع الماء والصفصف القرعاء . الكلبي : هو الذي لا نبات فيه . وقيل : المستوى من الأرض كأنه على صفّ واحد في آستوائه؛ قاله مجاهد . والمعنى واحد في القاع والصفصف؛ فالقاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوى الأملس . وأنشد سيبويه(1) :

وَكَمْ دُونَ بيتِكَ من صَفْصَفٍ * ودَكْدَاكِ رَمْـلٍ وأَعْقَادِهَا

و «قاعا» نصب على الحال والصفصف . و ﴿لَا تَرَى﴾ في موضع الصفة . ﴿فِيهَا عِوَجًا﴾ قال ابن الأعرابي : العِوج التّعوج في الفِجاج . والأَمْت النَّبَك . وقال أبو عمرو : الأَمْت النِّبَاك وهي التلال الصغار واحدها نَبَك؛ أي هي أرض مستوية لا آنخفاض فيها ولا ارتفاع . تقول : آمتلأ فما به أَمْت، وملأْتُ القربة مَلْئا لا أمت فيه؛ أي لا آسترخاء فيه . والأمت في اللغة المكان المرتفع . وقال آبن عباس : «عِوَجًا» مَيْلا . قال : والأمت الأثر مثل الشراك . وعنه أيضا «عِوَجًا» واديا «وَلَا أَمْتًا» رابية . وعنه أيضا : العوج [الآنخفاض](2) والأمت الآرتفاع . وقال قتادة : «عِوَجًا» صدعا «وَلَا أَمْتًا» أي أكمة . وقال يمان : الأمت الشقوق في الأرض . وقيل : الأمت أن يغلظ مكان في الفضاء أو الجبل ويدق في مكان؛ حكاه الصولي .

قلت : وهذه الآية تدخل في باب الرُّقَى؛ ترقى بها الثآليل وهي التي تسمى عندنا (بالبراريق) واحدها (بروقة)؛ تطلع في الجسد وخاصة في اليد : تأخذ ثلاثة أعواد من تبن الشعير، يكون في طرف كل عود عقدة، تُمِرّ كل عُقدة على الثآليل وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد في مكان ندىّ؛ تعفّن وتعفّن الثآليل؛ فلا يبقى لها أثر؛ جربت ذلك في نفسي وفي غيري فوجدته نافعا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يريد إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي لا معدل لهم عنه؛ أي عن دعائه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون

(1) البيت للأعشى؛ وقد وصف بعد المسافة بينه وبين الممدوح الذي قصده ليستوجب بذلك جائزته . والدكداك من الرمل المستوى . الاعقاد (جمع) عقدة وهو المنعقد من الرمل المتراكب . (2) زيادة يقتضيها المعنى .

عنه . وعلى هذا أكثر العلماء . وقيل : « لَا عِوَجَ لَهُ » أى لدعائه . وقيل : يتَّبعون الداعى اتباعا لا عوج له؛ فالمصدر مضمر؛ والمعنى : يتّبعون صوت الداعى للحشر؛ نظيره : « وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِى مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » الآية . وسيأتى . ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ ﴾ أى ذَلَّت وسكنت؛ عن ابن عباس قال : لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع ، فكل لسان ساكت هنالك للهيبة . ﴿ لِلرَّحْمَنِ ﴾ أى من أجله . ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الهمس الصوت الخفىّ؛ قاله مجاهد . عن ابن عباس : الحس الخفىّ . الحسن وابن جريج : هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر؛ ومنه قول الراجز :

* وهُنَّ يَمْشِينَ بِنا هَمِيسَا *

يعنى صوت أخفاف الإبل فى سيرها . ويقال للأسد الهموس؛ لأنه يَهمِس فى الظلمة؛ أى يطأ وطئا خفيّا . قال رؤبة يصف نفسه بالشدّة :

لَيثٌ يَدقُّ الأسدَ الهَمُوسَا * والأَقْهَبينِ(١) الفيلَ والجاموسَا

وهمس الطعام؛ أى مضغه وفُوه منضمٌّ؛ قال الراجز :

لقد رأيتُ عجبًا مُذْ أَمْسَا * عجائزًا مثلَ السَّعالِى خَمْسَا
* يَأْكُلْنَ ما أصنع هَمْسًا هَمْسَا *

وقيل : الهمس تحريك الشّفة واللسان . وقرأ أبىّ بن كعب « فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْسًا » . والمعنى متقارب؛ أى لا يسمع لهم نطق ولا كلام ولا صوت أقدام . وبناء (ه م س) أصله الخفاء كيفما تصرف؛ ومنه الحروف المهموسة؛ وهى عشرة يجمعها قولك : (حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ) وإنما سمى الحرف مهموسا لأنه ضَعُف الاعتمادُ من موضعه حتى جَرَى معه النفَس .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ « من » فى موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأوّل؛ أى لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن . ﴿ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أى رضى قوله فى الشفاعة . وقيل : المعنى؛ أى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله .

(١) سمى الفيل والجاموس أقهبين للونهما وهو الغبرة .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى من أمر الساعة . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من أمر الدنيا قاله قتادة . وقيل : يعلم ما يصيرون إليه من ثواب أو عقاب «وما خلفهم» ما خلفوه وراءهم فى الدنيا . ثم قيل : الآية عامة فى جميع الخلق . وقيل : المراد الذين يتبعون الداعى . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ الهاء فى « به » لله تعالى؛ أى أحد لا يحيط به علما؛ إذ الإحاطة مشعرة بالحد ويتعالى الله عن التحديد . وقيل : تعود على العلم؛ أى أحد لا يحيط علما بما يعلمه الله . وقال الطبرى : الضمير فى «أيديهم» و «خلفهم» و «يحيطون» يعود على الملائكة؛ أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها .

قوله تعالى : وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ ﴾ أى ذلّت وخضعت؛ قاله ابن الأعرابى وغيره . ومنه قيل للأسير عانٍ . قال أمية بن أبى الصَّلْت :

مليكٌ على عرش السّماءِ مُهَيْمِنٌ * لعزّته تَعنُو الوجوهُ وتَسجدُ

وقال أيضا :

وَعَنَاله وَجْهِى وخَلْقِى كلُّه * فى الساجدين لوجهه مَشْكُورَا

قال الجوهرى : عنا يعنو خضع وذلّ وأعناه غيره؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ » . ويقال أيضا : عَنَا فيهم فلان أسيرا؛ أى أقام فيهم على إساره واحتبس . وعَنّاه غيرُه تعنيةً حبسه . والعانى الأسير . وقوم عُناة ونسوة عَوَانٍ . وَعَنَتْ به أمورٌ نزلت . وقال ابن عباس : « عَنَت » ذلّت . وقال مجاهد : خشعت . الماوردى : والفرق بين الذل والخشوع — وإن تقارب معناهما — أن الذل أن يكون ذليل النفس، والخشوع أن يتذلل لذى طاعة . وقال الكلبي : « عنت » أى علمت . عطية العوفى : استسلمت . وقال طَلْق

ابن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض فى السجود . النحاس : «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ» فى معناه قولان : أحدهما — أن هذا فى الآخرة . وروى عكرمة عن ابن عباس «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ» قال : الركوع والسجود؛ ومعنى «عنت» فى اللغة القهر والغلبة، ومنه فتحت البلاد عنوة أى غلبة؛ قال الشاعر[(١)] :

فما أخذوها عَنْوةً عن مودّة * ولكنّ ضربَ المَشْرَفيّ ٱستقالَها

وقيل : هو من العناء بمعنى التعب؛ وكنى عن الناس بالوجوه؛ لأن آثار الذل إنما تتبين فى الوجه . ﴿ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ وفى القيوم ثلاث تأويلات؛ أحدها — أنه القائم بتدبير الخلق . الثانى — أنه القائم على كل نفس بما كسبت . الثالث — أنه الدائم الذى لا يزول ولا يبيد . وقد مضى فى «البقرة»[(٢)] هذا . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أى خسر من حمل شركا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان . و«من» فى قوله : «مِنَ الصَّالِحَاتِ» للتبعيض؛ أى شيئا من الصالحات . وقيل : للجنس . ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ قرأ ابن كثير ومجاهد وابن محيصن «يَخَفْ» بالجزم جوابا لقوله : «وَمَنْ يَعْمَلْ» . الباقون «يَخَافُ» رفعا على الخبر؛ أى فهو لا يخاف؛ أو فإنه لا يخاف . ﴿ ظُلْمًا ﴾ أى نقصا لثواب طاعته، ولا زيادة عليه فى سيئاته . ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ بالانتقاص من حقه . والهضم النقص والكسر؛ يقال : هضمتُ ذلك من حقّ أى حططتُه وتركته . وهذا يهضم الطعام أى ينقص ثقله . وٱمرأة هَضِيمُ الكشح ضامرة البطن . الماوردى : والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله، والهضم المنع من بعضه، والهضم ظلم وإن افترقا من وجه؛ قال المتوكل الليثى :

إنّ الأذلةَ واللئامَ لَمعشرٌ * مَوْلَاهُمُ المتهضّم المظلومُ

قال الجوهرى : ورجل هَضِيمٌ ومُهتضَم أى مظلوم . وتَهضَّمه أى ظلمه وٱهتضمه إذا ظلمه وكَسَر عليه حقه .

---

(١) أنشده الفراء لكثير كما فى «اللسان» . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى كما بيّنا لك فى هذه السّورة من البيان فكذلك جعلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى بلغة العرب . ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ أى بيّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى يخافون الله فيجتنبون معاصيه، و يحذرون عقابه . ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أى موعظة . وقال قتادة : حذرا وورعا . وقيل : شرفا؛ فالذكر ها هنا بمعنى الشرف؛ كقوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . وقيل : أى ليتذكروا العذاب الذى توعدوا به . وقرأ الحسن «أَوْ نُحْدِثُ» بالنون؛ وروى عنه رفع الثاء وجزمها .

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ لما عرف العباد عظيم نعمه، و إنزال القرآن نزّه نفسه عن الأولاد والأنداد فقال : «فَتَعَالَى اللَّهُ» أى جلّ الله الملك الحق؛ أى ذو الحق. ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ علّم نبيه كيف يتلق القرآن . قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حرصا على الحفظ ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك وأنزل « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ » . وهذا كقوله : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » على ما يأتى . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : لا تتله قبل أن نُتبيّنه . وقيل : «وَلَا تَعْجَلْ» أى لا تسل إنزاله «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى» أى يأتيك « وَحْيُهُ » . وقيل : المعنى لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله . وقال الحسن : نزلت فى رجل لطم وجه امرأته، فجاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم لها القصاص، فنزل « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » ولهذا قال : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا » أى فهما ؛ لأنه عليه السلام حكم بالقصاص وأبى الله ذلك . وقرأ ابن مسعود وغيره « مِن قَبْلِ أَنْ نَقْضِىَ » بالنون وكسر الضاد « وَحْيَهُ » بالنصب .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَـزْمًا ﴿١١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِىَ ﴾ قرأ الأعمش باختلاف عنه «فَنَسِى» بإسكان الياء وله معنيان: أحدهما ــ ترك؛ أى تَرَكَ الأمر والعهد؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ومنه «نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ» . و[وثانيهما][(١)] قال ابن عباس : «نسى» هنا من السهو والنسيان ، وإنمـا أخذ الإنسان منه لأنه عهد إليه فنسى . قال ابن زيد : نسى ما عهد الله إليه فى ذلك ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس . وعلى هـذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السـلام فى ذلك الوقت مأخوذا بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا . ومعنى «مِنْ قَبْلُ» أى من قبل أن يأكل من الشجرة ؛ لأنه نهى عنها . والمراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى طاعة بنى آدم الشيطان أمر قـديم ؛ أى إن نَقَض هؤلاء العهد فإن آدم أيضا عهدنا إليه فنسى ؛ حكاه القشيرى وكذلك الطبرى . أى وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتى ، ويخالفوا رسلى ، ويطيعوا إبليس ، فقـدمًا فعل ذلك أبوهم آدم . قال ابن عطية : وهذا التأويل ضعيف ، وذلك كون آدم مثالا للكفار الجاحدين بالله ليس بشيء ، وآدم إنما عصى بتأويل ، ففى هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ وإنمـا الظاهر فى الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله ، وإما أن يجعل تعلقه أنه لمـا عهد إلى محمد صلى الله عليه وسـلم ألا يعجل بالقرآن ، مثل له بنبيّ قبله عهد إليه فنسى فعوقب ؛ ليكون أشد فى التحذير ، وأبلغ فى العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والعهد هاهنا فى معنى الوصية ؛ « ونسى » معناه ترك ؛ ونسيان الذهول لا يمكن هنا ؛ لأنه لا يتعلق بالناسى عقاب . والعزم المضى على المعتقد فى أى شيء كان ؛ وآدم عليه السلام قد كان يعتقد ألا يأكل من الشجرة لكن لمـا وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده . والشيء الذى عهد إلى آدم هو ألا يأكل من الشجرة ، وأعلِم مع ذلك أن إبليس عدوّله . واختلف فى معنى قوله : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ فقال ابن عباس وقتادة : لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة ، ومواظبة على التزام الأمر . قال

(١) زيادة يقتضيها السياق .

النحاس : وكذلك هو فى اللغة ؛ يقال : لفلان عزم أى صبر وثبات على التحفظ من المعاصى حتى يسلم منها ، ومنه « فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ » . وعن ابن عباس أيضا وعطية العوفى : حفظا لمـا أمر به ؛ أى لم يتحفظ ممـا نهيته حتى نسى ، وذهب عن علم ذلك بترك الاستدلال ؛ وذلك أن إبليس قال له : إن أكلتها خُلِّدت فى الجنة ؛ يعنى عين تلك الشجرة ، فلم يطعه فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل فى عموم النهى وكان يجب أن يستدل عليه فلم يفعـل ، وظنّ أنهـا لم تدخل فى النهى فأكلها تأويلا ، ولا يكون ناسيا للشىء من يعـلم انه معصية . وقال ابن زيد : « عزما » محافظة على أمر الله . وقال الضحاك : عزيمة أمر . ابن كيسان : إصرارا ولا إضمارا للعود إلى الذنب . قال القشيرى : والأول أقرب إلى تأويل الكلام ؛ ولهـذا قال قوم : آدم لم يكن من أولى العزم من الرسل ؛ لأن الله تعـالى قال : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً » . وقال المُعْظَم : كل الرسل أولو العزم ، وفى الخبر : " ما من نبيّ إلا وقد أخطأ أوهمّ بخطيئة ما خلا يحيي بن زكريا " فلو خرج آدم بسبب خطيئته من جملة أولى العزم لخرج جميع الأنبياء سوى يحيي . وقد قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم جمعت منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة ، ووضعت فى كفة ميزان ، ووضـع حِلم آدم فى كفة أخرى لرجحهم ؛ وقد قال الله تبارك وتعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَـا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْـرِجَنَّـكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّـةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ تقـدم فى «البقرة» (١) مستوفى . ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ نهى ؛ ومجازه :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

لا تقبلا منه فيكون ذلك سببا لخروجكما ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ . ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾ يعنى أنت وزجك لأنهما في آستواء العلة واحد ؛ ولم يقل : فتشقيا ؛ لأن المعنى معروف ، وآدم عليه السلام هو المخاطب ، وهو المقصود . وأيضا لما كان الكادّ عليها والكاسبَ لها كان بالشقاء أخص . وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده ، وهو شقاوة البدن ؛ ألا ترى أنه عقبه بقوله : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ » أى فى الجنة « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ » فأعلمه أن له فى الجنة هذا كله : الكسوة والطعام والشراب والمسكن ؛ وأنك إن ضَيَّعت الوصية ، وأطعت العدوّ أخرجكما من الجنة فشقيت تعبا ونصبا ؛ أى جُعْتَ وعريتَ وظَمِئتَ وأصابتك الشمس ؛ لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة . وإنما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان : يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ؛ فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية . وأعلمنا فى هذه الآية أن النفقة التى تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ؛ فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ؛ فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها ؛ لأن بها إقامة المهجة . قال الحسن المراد بقوله : « فتشقى » شقاء الدنيا ؛ لا يُرى ابنُ آدم إلا ناصبا . وقال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه . وقال سعيد بن جبير : أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ، ويمسح العرق عن جبينه ، فهو شقاؤه الذى قال الله تبارك وتعالى . وقيل : لما أُهبِط من الجنة كان من أول شقائه أن جبريل أنزل عليه حبات من الجنة ؛ فقال : يا آدم ازرع هذا ، فحرث وزرع ، ثم حصد ثم درس ثم نقى ثم طحن ثم عجن ثم خبز ، ثم جلس ليأكل بعد التعب ؛ فتدحرج رغيفه من يده حتى صار أسفل الجبل ، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عرق جبينه ، قال : يا آدم فكذلك رزقك بالتعب والشقاء ، ورزق ولدك من بعدك ما كنت فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى : قوله تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا » أى فى الجنة « وَلَا تَعْرَى » . « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا » أى لا تعطش . والظمأ العطش . « وَلَا تَضْحَى » أى تبرز للشمس فتجد حرّها . إذ ليس فى الجنة شمس، إنما هو ظل ممدود، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . قال أبو العالية : نهار الجنة هكذا : وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . قال أبو زيد : ضَحَا الطريقُ يَضْحُو ضُحُوًّا إذا بدا لك وظهر . وضَحَيْتُ وضَحِيتُ (بالكسر) ضَحًا عرِقت . وضَحِيتُ أيضا للشمس ضَحاء ممدود بَرزتُ وضَحَيتُ (بالفتح) مثله، والمستقبل أَضْحَى فى اللغتين جميعا؛ قال عمر بن أبى ربيعة :

رَأَتْ رَجُلًا أَيْمَا إذا الشمسُ عارضَتْ * فَيَضْحَى وأَمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

وفى الحديث أن ابن عمر رأى رجلا محرما قد استظل، فقال : أَضْحِ لمن أحرمت له . هكذا يرويه المحدِّثون بفتح الألف وكسر الحاء من أضحيت . وقال الأصمعى : إنما هو اِضْحَ لمن أحرمتَ له؛ بكسر الألف وفتح الحاء، مَن ضَحِيت أَضْحَى؛ لأنه أمره بالبروز للشمس؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » وأنشد :

ضَحِيتُ له كَىْ أَستظلَّ بِظلِّه * إذا الظلُّ أَضْحَى فى القيامة قَالِصا

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما فى رواية أ. بكر عنه « وَأَنَّكَ » بفتح الهمزة عطفا على « أَلَّا تَجُوعَ » . ويجوز أن يكون فى موضع رفع عطفا على الموضع، والمعنى : ولك أنك لا تظمأ فيها . الباقون بالكسر على الاستئناف، أو على العطف على « إِنَّ لَكَ » .

قوله تعالى : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

قوله تعــالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّــيْطَانُ ﴾ تقــدّم فى « الأعراف »(١) . ﴿ قَالَ ﴾ يعنى الشيطان ﴿ يَا آدَمُ هَــلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ وهذا يدل على المشافهة ، وأنه دخل الجنة فى جوف الحيــة على ما تقدّم فى « البقرة »(٢) بيانه ، وتقدم هناك تعيين الشجرة ، وما للعلماء فيها فلا معنى للإعادة . ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ تقدّم فى « الأعراف »(٣) مســتوفى . وقال الفراء : « وَطَفِقَا » فى العربية أقبلا ؛ قال وقيل : جعلا يلصقان عليهما ورق التين .

قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعــالى : « وَعَصَى » تقــدّم فى « البقرة »(٤) القول فى ذنوب الأنبياء . وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذى ينبغى أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهــم ، ونسبها إليهم ، وعاتبهم عليهــا ، وأخبروا بذلك عن نفوسهــم ، وتنصّلوا منها ، وآستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد فى مواضع كثيرة لا يقبــل التأويل جملتها ، وإن قبل ذلك آحادها ، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة الندور ، وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك ، فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات ، وفى حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم ، وعلو أقدارهم ؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس ؛ فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة ، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجنيد حيث قال : حســنات الأبرار سيئات المقربين ؛ فهم ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم ، فلم يخل ذلك بمناصبهــم ، ولا قدح فى رتبتهم ، بل قــد تلافاهم ، وآجتباهم وهداهم ، ومدحهــم وزكاهم وآختارهم واصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسلامه .

الثانيــــة ــ قال القــاضى أبو بكر بن العربى : لا يجــوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه فى أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه ، فأما أن يبتدئ ذلك من قبل

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ٧ ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

نفسه فليس بجائز لنا فى آبائنا الأدنين إلينا، المماثلين لنا، فكيف فى أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبي المقدّم، الذى عَذَره الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له .

قلت : و إذا كان هذا فى المخلوق لايجوز، فالإخبار عن صفات الله عز وجل كاليد والرجل والإصـبع والجنب والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع ، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك إلا فى أثناء قراءة كتابه أو سـنة رسوله ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : من وصف شيئا من ذات الله عز وجل مثل قوله : « وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ » فأشار بيده إلى عنقه قطعت يده، وكذلك فى السمع والبصر يقطع ذلك منه؛لأنه شبه الله تعالى بنفسه .

الثالثـــة — روى الأئمة واللفظ [لمسـلم][(1)] عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أحتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم يا موسى اصطفاك الله عز وجل بكلامه وخطّ لك بيده يا موسى: أتلومنى على أمر قدّره الله علىّ قبـل أن يخلقنى بأربعين سـنة فحجّ آدم موسى ثلاثا[(2)] " قال المهلب قـوله : " فحج آدم موسى " أى غلبه بالحجة . قال الليث بن سعد إنما صحت الحجة فى هذه القصة لآدم على موسى عليهما السـلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قـد غفرها الله تعالى له؛ ولذلك قال آدم : أنت موسى الذى آتاك الله التوراة ، وفيها علم كل شيء، فوجدت فيها أن الله قد قدّر علىّ المعصية ،وقدّر على التوبة منها،وأسقط بذلك اللوم عنى أفتلومنى أنت والله لا يلومنى ؛ و بمثل هذا احتج ابن عمر على الذى قال له : إن عثمان فرّ يوم أحد؛ فقال ابن عمر : ما على عثمان ذنب؛ لأن الله تعالى قد عفا عنه بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ » . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أب وليس تعييره من برّه أن لو كان مما يعيّر به غيره ؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول فى الأبوين الكافرين : « وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ولهـذا إن إبراهيم عليه السلام لمـا قال له أبوه وهو كافر : « لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ » فكيف بأبٍ هو نبيّ قد اجتباه ربه وتاب عليه وهدى .

(١) فى الأصول : اللفظ للبخارى . والتصويب عن صحيح مسلم .
(٢) ثلاثا : أى قال النبي صلى الله عليه وسلم " فحج آدم موسى " ثلاث مرات .

الرابعـة — وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت وقد قدّر الله على ذلك؛ والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه.

الخامسـة — قوله تعالى: ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ أى ففسد عليه عيشه، حكاه النقاش واختاره القشيري. وسمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول: « فَغَوَىٰ » ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا؛ والغيّ الفساد؛ وهو تأويل حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: « فغوى » معناه ضلّ؛ من الغيّ الذى هو ضد الرشد. وقيل: معناه جهل موضع رشده؛ أى جهل أن تلك الشجرة هى التى نهى عنها؛ والغيّ الجهل. وعن بعضهم « فغوى » فبَشِم من كثرة الأكل؛ الزمخشري: وهذا وإن صحّ على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا؛ فيقول فى فَنِيَ وبَقِيَ: فَنَى وبَقَى وهم بنو طيّ تفسير خبيث.

السادسـة — قال القشيري أبو نصر قال قوم يقال: عصى آدم وغوى ولا يقال له عاصٍ ولا غاوٍ، كما أن من خاط مرة يقال له: خاط، ولا يقال له خيّاط ما لم تتكرر منه الخياطة. وقيل: يجوز للسيد أن يطلق فى عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه، وهذا تكلّف؛ وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فإما أن تكون صغائر، أو ترك الأولى، أو قبل النبوة.

قلت: هـذا حسن؛ قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدم قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى: « ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا؛ لأن قبـل النبوة لا شرع علينا فى تصـديقهم، فإذا بعثهم الله تعـالى إلى خلقـه وكانوا مأمونين فى الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. وهذا نفيس والله أعلم.

قوله تعـالى: قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ
ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ
وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ خاطب آدم وإبليس . « مِنها » أى من الجنة . وقد قال لأبليس : « ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا » فلعله أخرج من الجنة إلى موضع من السماء، ثم أُهبِط إلى الأرض . ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ تقدم فى « البقرة »(١) أى أنت عدو للحية ولأبليس وهما عدوّان لك . وهذا يدل على أن قوله : « ٱهبِطا » ليس خطابا لآدم وحوّاء؛ لأنهما ما كانا متعاديين؛ وتضمن هبوط آدم هبوط حوّاء . ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ أى رشدا وقولا حقا . وقد تقدّم فى « البقرة »(٢) . ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ يعنى الرسل والكتب . ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضلّ فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة، وتلا الآية . وعنه : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أى دينى، وتلاوة كتابى، والعمل بما فيه . وقيل : عما أنزلت من الدلائل . ويحتمل أن يحمل الذكر على الرسول؛ لأنه كان منه الذكر . ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أى عيشا ضيقا؛ يقال : منزل ضنك وعيش ضنك يستوى فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث والجمع؛ قال عنترة :

إنْ يُلحقوا أَكْرُرْ وإنْ يُستلحَمُوا * أَشْدُدْ وإنْ يُلْفَوْا بضَنْكٍ أنزِلِ

وقال أيضا :

إنّ المنيةَ لو تُمثَّل مُثِّلتْ * مثلى إذا نَزلُوا بضَنْكِ المنزِلِ

وقرئ «ضَنْكَى» على وزن فَعْلَى : ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم والقناعة والتوكل عليه وعلى قسمته ، فصاحبه ينفق مما رزقه الله — عز وجل — بسماح وسهولة

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣١٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

ويعيش عيشا رافغا(١)؛ كما قال الله تعالى : « فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً » . والمعرض عن الدين مستولٍ عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشُّح، الذى يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضَنْك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته، وتشوّش عليه رزقُه، وكان فى عيشة ضنك . وقال عكرمة : « ضَنْكًا » كسبا حراما . الحسن : طعام الضَّريع والزَّقُّوم . وقول رابع وهو الصحيح أنه عذاب القبر ؛ قاله أبو سعيد الخدرى وعبد الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة »؛ قال أبو هريرة : يضيق على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، وهو المعيشة الضنك . ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قيل : أعمى فى حال وبصيرا فى حال ؛ وقد تقدّم فى آخر « سبحان »(٢) . وقيل : أعمى عن الحجة ؛ قاله مجاهد . وقيل : أعمى عن جهات الخير، لا يهتدى لشيء منها . وقيل : عن الحيلة فى دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذى لا حيلة له فيما لا يراه . ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ﴾ أى بأى ذنب عاقبتنى بالعمى . ﴿ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ أى فى الدنيا ، وكأنه يظن أنه لا ذنب له . وقال ابن عباس ومجاهد : أى « لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى » عن حجتى « وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا » أى عالما بحجتى؛ القشيرى : وهو بعيد إذ ما كان للكافر حجة فى الدنيا . ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ أى قال الله تعالى له : « كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا » أى دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا . ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أى تركتها ولم تنظر فيها، وأعرضت عنها . ﴿ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أى تترك فى العذاب؛ يريد جهنم . ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ أى وكما جزينا من أعرض عن القرآن، وعن النظر فى المصنوعات، والتفكر فيها، وجاوز الحدّ فى المعصية . ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أى لم يصدق بها . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ﴾ أى أفظع من المعيشة الضّنك، وعذاب القبر . ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أى أدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضى .

---

(١) عيش أرفغ ورافغ ورفيغ : خصيب واسع طيب .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ يريد أهل مكة ؛ أى أفلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إذا سافروا وخرجوا فى التجارة طلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية خاوية ؛ أى أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ماحلّ بالكفار قبلهم . وقرأ ابن عباس والسُّلَمى وغيرهما « نَهْدِ لَهُمْ » بالنون وهى أبين . و « يهد » بالياء مشكل لأجل الفاعل؛ فقال الكوفيون : ﴿ كَمْ ﴾ الفاعل؛ النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن « كم » آستفهام فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكنا . وحقيقة «يهد» يدل على الهدى؛ فالفاعل هو الهدى تقديره : أفلم يهد الهدى لهم . قال الزجاج : « كم » فى موضع نصب بـ﴿ أهلكنا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أى ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما؛ قاله قتادة . واللزام الملازمة ؛ أى لكان العذاب لازما لهم . وأضمر اسم كان . قال الزجاج : ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ عطف على « كلمة » . قتادة : والمراد القيامة ؛ وقاله القتبى . وقيل : تأخيرهم إلى يوم بدر .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أمره تعالى بالصبر على أقوالهم : إنه ساحر؛ إنه كاهن؛ إنه كذاب؛ إلى غير ذلك . والمعنى : لا تحفل بهم ؛ فإن لعذابهم وقتا مضروبا لا يتقدّم ولا يتأخر . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ إذ لم يستأصل الكفار بعد آية القتال بل بقى المعظم منهم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ قال أكثر المتأولين : هذا إشارة إلى الصلوات الخمس « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ العتمة ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ المغرب والظهر ؛ لأن الظهر فى آخر طرف النهار الأول ، وأول طرف النهار الآخر ؛ فهى فى طرفين منه ؛ والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب . وقيل : النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال ، ولكل قسم طرفان ، فعند الزوال طرفان ؛ الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر ؛ فقال عن الطرفين أطرافا على نحو «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» وأشار إلى هذا النظر ابن فورك فى المشكل . وقيل : النهار للجنس فلكل يوم طرف ، وهو إلى جمع لأنه يعود فى كل نهار . «وآناء الليل» ساعاته وواحد الآناء إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى . وقالت فرقة : المراد بالآية صلاة التطوع ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ بفتح التاء ؛ أى لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به . وقرأ الكسائى وأبو بكر عن عاصم « تُرْضَى » بضم التاء ؛ أى لعلك تُعطَى ما يرضيك .

قوله تعالى : وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ وقد تقدم معناه فى « الحجر »(١) . ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ مفعول بـ « متعنا » . و ﴿ زَهْرَةَ ﴾ نصب على الحال . وقال الزجاج : « زهرة » منصوبة بمعنى « متعنا » لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة ؛ أو بفعل مضمر وهو « جعلنا » أى جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا ؛ عن الزجاج أيضا . وقيل : هى بدل من الهاء فى « به » على الموضع ، كما تقول : مررت به أخاك . وأشار الفراء إلى نصبه على الحال ؛ والعامل فيه « مَتَّعْنَا » قال : كما تقول مررت به المسكين ؛ وقدره : متعناهم به زهرةَ الحياة فى الدنيا وزينة فيها . ويجوز أن ينتصب على المصدر مثل « صُنْعَ اللَّهِ » و « وَعْدَ اللَّهِ » وفيه

(١) راجع جـ ١٠ ص ٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

نظر . والأحسن أن ينتصب على الحال ويحذف التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة ؛ كما قرئ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » بنصب النهار بسابق على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام ، وتكون « الحياة » مخفوضة على البدل من « ما » فى قوله : « إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ » فيكون التقدير : ولا تمدنّ عينيك إلى الحياة الدنيا زهرةً أى فى حال زهرتها . ولا يحسن أن يكون « زهرة » بدلا من « ما » على الموضع فى قوله : « إلى ما متعنا » لأن « لِنَفْتِنَهُمْ » متعلق بـ « متعنا » و « زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يعنى زينتها بالنبات . والزَّهَرة، بالفتح فى الزاى والهاء نَوْر النبات . والزُّهَرة بضم الزاى وفتح الهاء النجم . وبنو زُهْرة بسكون الهاء ؛ قاله ابن عزيز . وقرأ عيسى بن عمر « زَهَرَةَ » بفتح الهاء مثل نَهْر ونَهَر . ويقال : سراج زاهر أى له بريق . وزهر الأشجار ما يروق من ألوانها . وفى الحديث : كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهر اللون؛ أى نير اللون؛ يقال لكل شيء مستنير: زاهر، وهو أحسن الألوان . ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أى لنبتليهم . وقيل . لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالا . ومعنى الآية : لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وزنا ، فإنه لا بقاء لها . «وَلَا تَمُدَّنَّ» أبلغ من لا تنظرنّ، لأن الذى يمدّ بصره، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن، والذى ينظر قد لايكون ذلك معه .

مسئلة — قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية ما رواه ابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلنى عليه السلام إلى رجل من اليهود، وقال قل له يقول لك محمد : نزل بنا ضيف ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذى يصلحه ؛ فبعنى كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفنى إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن . قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : " والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ولو أسلفنى أو باعنى لأدّيت إليه اذهب بدِرْعى إليه " ونزلت الاية تعزية له عن الدنيا . قال ابن عطية : وهذا معترض أن يكون سببا ؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية فى آخر عمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى بهذه القصة التي ذكرت ؛ وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى

ويخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم ، والصبر على أقوالهم ، والإعراض عن أموالهم وما فى أيديهم من الدنيا ؛ إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خزى .

قلت : وكذلك ما روى عنه عليه السلام أنه مرّ بإبل بنى المصطلق وقد عَبِست (١) فى أبوالها [وأبعارها] (٢) من السِّمن فتقنّع بثوبه ثم مضى؛ لقوله عز وجل : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » الآية . ثم سلّاه فقال : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أى ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى ؛ لأنه يبقى والدنيا تفنى . وقيل : يعنى بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم .

قوله تعالى :﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة و يمتثلها معهم ، و يصطبر عليها و يلازمها . وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم و يدخل فى عمومه جميع أمته ، وأهل بيته على التخصيص . وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلىّ رضوان الله عليهما فيقول : "الصلاة" . و يروى أن عُرْوة بن الزبير رضى الله عنه كان إذا رأى شيئا من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله ، وهو يقرأ « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » — الآية — إلى قوله : « وَأَبْقَىٰ » ثم ينادى بالصلاة : الصلاة يرحمكم الله ؛ و يصلّى . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل و يصلى وهو يتمثل بالآية .

قوله تعالى : ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ أى لا نسئلك أن ترزق نفسك و إياهم ، وتشتغل عن الصلاة بسبب الرزق ، بل نحن نتكفل برزقك و إياهم ؛ فكان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق أمرهم بالصلاة . وقد قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أى الجنة لأهل التقوى ؛ يعنى العاقبة المحمودة . وقد تكون لغير التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهى كالمعدومة .

(١) عبست فى أبوالها : هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها وذلك إنما يكون من الشحم .
(٢) الزيادة من « النهاية » لابن الأثير .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يريد كفار مكة ؛ أى لولا يأتينا محمد بآية توجب العلم الضرورى . أو بآية ظاهرة كالناقة والعصا . أو هلا يأتينا بالآيات التى نقترحها نحن كما أتى الأنبياء من قبله .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها . وقرئ « الصُّحْفِ » بالتخفيف . وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه فى الكتب المتقدمة من البشارة . وقيل : أو لم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمّنهم إن أتتهم الآيات أن يكون حالهم حال أولئك . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو و يعقوب وابن أبى إسحق وحفص « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ » بالتاء لتأنيث البينة . الباقون بالياء لتقدم الفعل ؛ ولأن البينة هى البيان والبرهان فردّوه إلى المعنى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى الكسائى « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » قال : ويجوز على هذا « بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » . قال النحاس : إذا نونت « بينة » و رفعت جعلت « ما » بدلا منها ، و إذا نصبتها فعلى الحال ؛ والمعنى : أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبيّنا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ﴿ لَقَالُوا ﴾ أى يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أى هلّا أرسلت إلينا رسولا . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ وقرئ « نُذَلَّ وَنُخْزَى » على

ما لم يسمّ فاعله . وروى أبو سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود قال: " يقول الهالك فى الفترة لم يأتنى كتاب ولا رسول — ثم تلا — « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَـذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَـا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُـولًا » — الآية — ويقول المعتوه ربِّ لم تجعل لى عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود ربِّ لم أدرك العمل فتُرفَع لهم نار فيقـول لهم رِدُوها وٱدخلوها — قال — فيرِدُها أو يدخلهـا من كان فى علم الله سـعيدا لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان فى علم الله شقيا لو أدرك العمل فيقول الله تبارك وتعالى إياى عصيتم فكيف رسلى لو أتتكم " ويروى موقوفا عن أبى سعيد قوله؛ وفيه نظر؛ وقد بيناه فى كتاب «التذكرة» وبه ٱحتج من قال : إن الأطفال وغيرهم يمتحنون فى الآخرة . « فَنَتَّبِـعَ » نصب بجواب التخصيص . « آياتك » يريد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . « مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَذِلَّ » أى فى العـذاب « وَنَخْزَى » فى جهنم؛ قاله ابن عباس . وقيـل : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ » فى الدنيا بالعذاب « وَنَخْزَى » فى الآخرة بعذابها . ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ﴾ أى قل لهم يا محمد كل متربص ؛ أى كل المؤمنين والكافرين منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر . ﴿ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَى ﴾ يريد الدين المستقيم والهـدى ؛ والمعنى : فستعلمون بالنصر من ٱهتـدى إلى دين الحق . وقيـل : فستعلمون يوم القيامة من ٱهتـدى إلى طريق الجنة . وفى هـذا ضرب من الوعيـد والتخويف والتهديد ختم به السورة . وقرئ « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » . قال أبو رافع : حفظتـه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الزمخشرى . و« من » فى موضع رفع عند الزجاج . وقال الفراء: يجوز أن يكون فى موضع نصب مثل « وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » . قال أبو إسحق : هـذا خطأ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبـله، و« مَن » هاهنا ٱستفهام فى موضع رفع بالابتداء؛ والمعنى: فستعلمون أصحاب الصراط السوى نحن أم أنتم ؟ . قال النحاس: والفراء يذهب إلى أن معنى « مَنْ أَصْحَـابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ » من لم يضلّ، وإلى أن معنى « وَمَنِ ٱهْتَدَى » من ضلّ ثم ٱهتدى . وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدرى « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ

الصِّرَاطِ السُّوَّى » بتشديد الواو بعدها ألف التأنيث على فُعْلَى بغير همزة ؛ وتأنيث الصراط شاذ قليل، قال الله تعالى : « ٱهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فجاء مذكرا فى هذا وفى غيره، وقد ردّ هذا أبو حاتم قال : إن كان من السّوء وجب أن يقال السُّوءَى و إن كان من السَّواء وجب أن يقال : السِّيَّا بكسر السين والأصل السِّوْيَا . قال الزمخشرى : وقرئ « السَّوَاءَ » بمعنى الوسط والعدل ؛ أو المستوى . النحاس : وجواز قراءة يحيى بن يعمر والجحدرى أن يكون الأصل « السُّوءَى » والساكن ليس بحاجز حصين ؛ فكأنه قلب الهمزة ضمة فأبدل منها واوا كما يبدل منها ألف إذا انفتح ما قبلها . تمت والحمد لله وحده .

سورة الأنبياء

مكية فى قول الجميع ، وهى مائة وٱثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ قال عبد الله بن مسعود : الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول، وهنّ من تلادى؛ يريد من قديم ما كسب وحفظ من القرآن كالمال التّلاد . وروى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبنى جدارا، فمرّ به آخر فى يوم نزول هذه السورة ، فقال الذى كان يبنى الجدار : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟ فقال الآخر : نزل « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » فنفض يده من البنيان، وقال : والله لا بنيت أبدا وقد اقترب الحساب . « ٱقترب » أى قرب الوقت

الذى يحاسبون فيه على أعمالهم . « للناس » قال ابن عباس : المراد بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى : « إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » إلى قوله : « أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ » . وقيل : الناس عموم و إن كان المشار إليه فى ذلك الوقت كفار قريش؛ يدل على ذلك ما بعد من الآيات؛ ومن عَلِم اقتراب الساعة قصر أمله، وطابت نفسه بالتوبة، ولم يركن إلى الدنيا، فكأنّ ما كان لم يكن إذا ذهب، وكل آتٍ قريب، والموت لا محالة آتٍ؛ وموت كل إنسان قيام ساعته؛ والقيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقى من الدنيا أقل مما مضى . وقال الضحاك : معنى « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى عذابهم يعنى أهل مكة؛ لأنهم ٱستبطئوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيبا، وكان قتلهم يوم بَدْر . النحاس : ولا يجوز فى الكلام ٱقترب حسابهم للناس؛ لئلا يتقدّم مضمر على مظهر لا يجوز أن ينوى به التأخير. ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ ٱبتداء وخبر . ويجوز النصب فى غير القرآن على الحال . وفيه وجهان : أحدهما — « وهم فى غفلة معرضون » يعنى بالدنيا عن الآخرة . الثانى — عن التأهب للحساب وعما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه الواو عند سيبويه بمعنى « إذ » وهى التى يسميها النحويون واو الحال؛ كما قال الله تبارك وتعالى : « يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ «مُحْدَثٍ» نعت لـ«ـذكر» . وأجاز الكسائى والفراء « مُحْدَثًا » بمعنى ما يأتيهم محدثا؛ نصب على الحال . وأجاز الفراء أيضا رفع «مُحْدَث» على النعت للذِّكر؛ لأنك لو حذفت «مِن» رفعت ذكرا؛ أى ما يأتيهم ذكر من ربهم مُحدَث؛ يريد فى النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة، وآية بعد آية، كما كان ينزله الله تعالى عليه فى وقت بعد وقت؛ لا أن القرآن مخلوق . وقيل : الذكر ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم و يعظهم به . وقال : « مِنْ رَبِّهِمْ » لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحى، فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر، وهو محدث؛ قال الله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » . ويقال : فلان فى مجلس

الذكر . وقيل : الذكر الرسول نفسه؛ قاله الحسين بن الفضل بدليل ما فى سياق الآية « هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ولو أراد بالذكر القرآن لقال : هل هذا إلا أساطير الأولين؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا » . ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته . ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الواو واو الحال يدل عليه « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » ومعنى « يَلْعَبُونَ » أى يلهون . وقيل : يشتغلون؛ فإن حُمِل تأويله على اللهو ٱحتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما — بلذاتهم . الثانى — بسماع ما يتلى عليهم . وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما — بالدنيا لأنها لعب؛ كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » . الثانى — يتشاغلون بالقَدْح فيه، والاعتراض عليه . قال الحسن : كلما جدّد لهم الذكر ٱستمروا على الجهل . وقيل : يستمعون القرآن مستهزئين .

قوله تعالى : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ أى ساهيةً قلوبهم، معرضةً عن ذكر الله ، متشاغلةً عن التأمل والتفهم؛ من قول العرب : لَهَيْتُ عن ذكر الشيء إذا تركتَه وسلوتَ عنه أَلْهَى لِهِيًّا ولِهْيَانًا . و « لاهية » نعت تقدّم الاسم ، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت فى جميع الإعراب ، فإذا تقدّم النعت الاسم ٱنتصب كقوله : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » و « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا » و « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » قال الشاعر :

لِعَـزَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ * يَـلُوحُ(١) كَأَنَّهُ خِلَـلُ

أراد : طلل موحش . وأجاز الكسائى والفراء « لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ » بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية . وأجاز غيرهما الرفع على أن يكون خبرا بعد خبر وعلى إضمار مبتدأ . وقال الكسائى : ويجوز أن يكون المعنى ؛ إلا استمعوه لاهية قلوبهم . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى تناجوا فيما بينهم بالتكذيب، ثم بين من هم فقال : « الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى الذين أشركوا؛ فـ « الذين ظلموا » بدل من الواو فى « أسروا » وهو عائد على الناس المتقدّم ذكرهم؛ ولا يوقف على هذا

(١) هو كثير عزة ، أى تلوح آثاره وتتبين تبين الوشى فى خلل السيوف ، وهى أغشية الأغماد؛ واحدتها خلة .

القول على « النجوى » . قال المبرّد وهو كقولك : إن الذين فى الدار آنطلقوا بنو عبد الله فبنو بدل من الواو فى آنطلقوا . وقيل : هو رفع على الذم، أى هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول؛ التقدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول؛ مثل « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . وآختار هذا القول النحاس؛ قال : والدليل على صحة هذا الجواب أن بعده « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . وقول رابع : يكون منصوبا بمعنى أعنى الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضا بمعنى آقترب للناس الذين ظلموا حسابهم؛ ولا يوقف على هذا الوجه على « النجوى » و يوقف على الوجوه المتقدّمة الثلاثة قبله؛ فهذه خمسة أقوال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلونى البراغيث، وهو حسن؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » . وقال الشاعر :

بك نال النِّضالُ دون المساعى　＊　فآهتدين النِّبالُ للأغراض

وقال آخر:　ولكن دِيافيٌّ أبوه وأمُّه[(1)]　＊　بحَوْرانَ يَعصِرْنَ السَّليطَ أقاربُهْ

وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير؛ مجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى . أبو عبيدة : « أسروا » هنا من الأضداد؛ فيحتمل أن يكونوا أخفوا كلامهم، ويحتمل أن يكونوا أظهروه وأعلنوه .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى تناجوا بينهم وقالوا : هل هذا الذكر الذى هو الرسول، أو هل هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم، لا يتميز عنكم بشىء، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق كما تفعلون . وما علموا أن الله عز وجل بيّن أنه لا يجوز أن يرسل إليهم إلا بشرا ليتفهموا ويعلمهم . ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ﴾ أى إن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر، فكيف تجيئون إليه وتتبعونه ؟ فأطلع الله نبيه عليه السلام على ما تناجوا به . و«السحر» فى اللغة كل مموّه لا حقيقة له ولا صحة . ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنه إنسان مثلكم مثل : «وأنتم تعقلون» لأن العقل البصر بالأشياء. وقيل : المعنى؛ أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر . وقيل : المعنى؛ أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق؛ ومعنى الكلام التوبيخ .

---

(1) هو الفرزدق يهجو عمرو بن عفراء . ودياف : موضع بالجزيرة، وهم نبط الشام . والسليط : الزيت .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ(١) رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شيء مما يقال فى السماء والأرض . وفى مصاحف أهل الكوفة « قَالَ رَبِّي » أى قال محمد ربى يعلم القول؛ أى هو عالم بما تناجيتم به . وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يقول لهم هذا ؛ قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر وأنه قال كما أُمر .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال الزجاج : أى قالوا الذى يأتى به أضغاث أحلام . وقال غيره : أى قالوا هو أخلاط كالأحلام المختلطة ؛ أى أهاويل رآها فى المنام ؛ قال معناه مجاهد وقتادة ؛ ومنه قول الشاعر :

* كضِغْثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حَالِمُه *

وقال القتبي : إنها الرؤيا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفدفدٍ * تَرَقْرَقُ للسَّارِي وأضغاثُ حالمِ

وقال اليزيدىّ : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . وقد مضى هذا فى «يوسف»(٢) . فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل افتراه » ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل هو شاعر » أى هم متحيّرون لا يستقرّون على شيء : قالوا مرة سحر ، ومرة أضغاث أحلام، ومرة افتراه، ومرة شاعر . وقيل : أى قال فريق إنه ساحر، وفريق إنه أضغاث أحلام ؛ وفريق إنه افتراه ، وفريق إنه شاعر . والافتراء الاختلاق ؛ وقد تقدّم .

(١) «قل» على الأمر قراءة «نافع» . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ أى كما أرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح . وكانوا عالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغى أن يأتى بآية نقترحها ؛ ولم يكن لهم الاقتراح بعد ما رأوا آية واحدة . وأيضا إذا لم يؤمنوا بآية هى من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا مجال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أبرأ الأكمه والأبرص لقالوا : هذا من باب الطبّ ، وليس ذلك من صناعتنا ؛ وإنما كان سؤالهم تعنتا إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية . وبين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه لقوله عز وجل : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون . ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ يريد كان فى علمنا هلاكها . ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يريد يصدقون ؛ أى فما آمنوا بالآيات فاستؤصلوا ، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا ؛ لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضا ؛ وإنما تأخر عقابهم لعلمنا بأن فى أصلابهم من يؤمن . و « مِن » زائدة فى قوله : « مِنْ قَرْيَةٍ » كقوله : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ ﴾ (١) هذا رد عليهم فى قولهم : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وتأنيس لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يرسل قبلك إلا رجالا .

(١) « يوحى » بالياء قراءة نافع .

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ قاله سفيان . وسماهم أهل الذكر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب . وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن؛ أى فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن؛ قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال علىّ رضى الله عنه نحن أهل الذكر . وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر؛ فالمعنى لا تبدءوا بالإنكار وبقولكم ينبغى أن يكون الرسول من الملائكة، بل ناظروا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر . والملك لا يسمى رجلا؛ لأن الرجل يقع على ماله ضدّ من لفظه؛ تقول : رجل وآمرأة، ورجل وصبىّ؛ فقوله : « إِلَّا رِجَالًا » من بنى آدم . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نُوحِى إِلَيْهِمْ » .

مسـألة — لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المراد بقول الله عز وجل : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وأجمعوا على أن الأعمى لابدّ له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه؛ فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا؛ لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحليل والتحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ الضمير فى « جعلناهم » للأنبياء؛ أى لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب . ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون . وهذا جواب لقولهم : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وقولهم : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » . و« جسدا » آسم جنس؛ ولهذا لم يقل أجسادا . وقيل : لم يقل أجسادا؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا . والجسد البدن؛ تقول منه : تجسّد كما تقول من الجسم تجسّم . والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصّبغ، وهو الدم أيضا؛ قال النابغة :

* وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسَدِ (1) *

(1) صدر البيت : * فلا لعمر الذى مسحت كعبته *
أقسم بالله أولا ثم بالدماء التى كانت تصب فى الجاهلية على الأنصاب .

وقال الكلبي : والجسد هو المتجسد الذى فيه الروح يأكل ويشرب؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسما . وقال مجاهد : الجسد ما لا يأكل ولا يشرب؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نفسا؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ يعنى الأنبياء؛ أى بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذبيهم . ﴿ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ أى الذين صدّقوا الأنبياء . ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى المشركين .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا ﴾ يعنى القرآن . ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ رفع بالابتداء والجملة فى موضع نصب لأنها نعت لكتاب؛ والمراد بالذكر هنا الشرف؛ أى فيه شرفكم، مثل « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . ثم نبههم بالاستفهام الذى معناه التوقيف فقال عز وجل : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : فيه ذكركم أى ذكر أمر دينكم؛ وأحكام شرعكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب، أفلا تعقلون هذه الأشياء التى ذكرناها ؟! وقال مجاهد : « فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى حديثكم . وقيل: مكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم . وقال سهل بن عبدالله : العمل بما فيه حياتكم .

قلت : وهذه الأقوال بمعنًى والأول يعمُّها؛ إذ هى شرف كلها، والكتاب شرف لنبينا عليه السلام؛ لأنه معجزته، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه، دليله قوله عليه السلام : " القرآن حجة لك أو عليك " .

قوله تعالى : وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور(١) وكان بعث إليهم نبي آسمه شعيب بن ذى مَهْدَم، وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له ضنن(٢) كثير الثلج ، وليس بشعيب صاحب مدين ؛ لأن قصة حَضُور قبل مدة عيسى عليه السلام، وبعد مئين من السنين من مدة سليمان عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرّس فى ذلك التاريخ نبيا لهم آسمه حنظلة بن صفوان، وكانت حَضُور بأرض الحجاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن آيت بختنصر فأعلمه أنى قد سلطته على أرض العرب، وأنى منتقم بك منهم، وأوحى الله إلى أرميا أن آحمل مَعَدّ بن عدنان على البراق إلى أرض العراق ؛ كى لا تصيبه النقمة والبلاء معهم ، فإنى مستخرج من صلبه نبيا فى آخر الزمان آسمه محمد ، فحمل مَعَدّا وهو ابن اثنتى عشرة سنة، فكان مع بنى إسرائيل إلى أن كبر وتزوّج امرأة آسمها معانة ؛ ثم إن بختنصر نهض بالجيوش ، وكمن للعرب فى مكان — وهو أوّل من آتخذ المكامن فيما ذكروا — ثم شنّ الغارات على حَضُور فقتَل وسَبَى وخرّب العامر، ولم يترك بحَضُور أثرا ، ثم آنصرف راجعا إلى السواد . و « كَمْ » فى موضع نصب بـ « قصمنا » . والقَصْم الكسر؛ يقال : قَصمتُ ظهر فلان وانقصمت سنّه إذا آنكسرت ، والمعنىّ به ها هنا الإهلاك . وأما الفَصْم (بالفاء) فهو الصدع فى الشىء من غير بينونة ؛ قال الشاعر(٣) :

كأنّه دُمْلُجٌ من فضّةٍ نَبَهٌ * فى مَلْعَبٍ من عَذَارَى الحىّ مَفْصُومُ

ومنه الحديث "فيُفْصِم عنه وإن جبينه ليتفصّد عَرَقا". وقوله : « كَانَتْ ظَالِمَةً» أى كافرة؛ يعنى أهلها . والظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان . ﴿ وَأَنْشَأْنَا ﴾ أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ . ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا ﴾ أى رأوا عذابنا ؛ يقال : أحسست منه ضعفا . وقال الأخفش : « أحسّوا » خافوا وتوقعوا . ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أى يهربون ويفرّون . والركض العدو بشدة الوطء . والركض

(١) وتروى حضوراء (بالألف الممدودة) . (٢) كذا فى الأصل . (٣) هو ذو الرمة، يذكر غزالا شبهه وهو نائم بدملج فضة قد طرح ونسى . ونبه : أى منسىّ نسيته العذارى فى الملعب .

تحريك الرِّجل ؛ ومنه قوله تعالى : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » وركضت الفرس برجلى ٱستحثثته ليعدو ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا وليس بالأصل ، والصواب رُكِض الفرسُ على ما لم يسمّ فاعله فهو مركوض . ﴿ لَا تَرْكُضُوا ﴾ أى لا تفرّوا . وقيل : إن الملائكة نادتهم لما ٱنهزموا ٱستهزاء بهم وقالت : « لا تركضوا » . ﴿ وَٱرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم ، والمترف المتنعم ؛ يقال : أُترف على فلان أى وُسّع عليه فى معاشه . وإنما أترفهم الله عز وجل كما قال : « وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أى لعلكم تُسألون شيئا من دنياكم ؛ ٱستهزاء بهم ؛ قاله قتادة . وقيل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تَسْئَلُونَ » عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ » أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم ؛ قيل لهم ذلك ٱستهزاء وتقريعا وتوبيخا . ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ لما قالت لهم الملائكة : « لا تركضوا » ونادت يالثارات الأنبياء ! ولم يروا شخصا يكلمهم عرفوا أن الله عز وجل هو الذى سلط عليهم عدوهم بقتلهم النبى الذى بعث فيهم ، فعند ذلك قالوا . ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فاعترفوا بأنهم ظلموا حين لا ينفع الاعتراف . ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أى لم يزالوا يقولون : « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » . ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : أى بالعذاب . ﴿ خَامِدِينَ ﴾ أى ميتين . والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت فشبه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات قد طفئ تشبيها بانطفاء النار .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى عبثا و باطلا ؛ بل للتنبيه على أن لها خالقا قادرا يجب آمتثال أمره، وأنه يجازى المسيء والمحسن؛ أى ما خلقنا السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضا، و يكفر بعضهم، ويخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يجازوا، ولا يؤمروا فى الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح . وهذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ لما آعتقد قوم أن له ولدا قال : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » واللهو المرأة بلغة اليمن؛ قاله قتادة . وقال عقبة بن أبى جَسْرَة — وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » — فقال : اللهو الزوجة؛ وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد؛ وقاله الحسن أيضا . قال الجوهرى : وقد يكنى باللهو عن الجماع .

قلت : ومنه قول آمرئ القيس :

أَلَا زَعمتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أَنَّنِي * كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ اللَّهْوَ أَمثالِي

و إنما سمى الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب، كما قال(١) :

* وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرٌ *

الجوهرى : وقوله تعالى «لو أردنا أن نتخذ لهوا » قالوا آمرأة، و يقال : ولدا . ﴿ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عندنا لا من عندكم . قال آبن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض . قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله؛ أى كيف يكون منحوتكم ولدا لنا . وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى . ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا فاعلين ؛ مثل « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ما أنت إلا نذير، و«إن» بمعنى الجحد وتم الكلام عند قوله : «لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا » . وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أى إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا

(١) هو زهير بن أبى سلمى، والبيت من معلقته وتمامه :

* أنيقٌ لعين الناظر المتوسِّم *

نارا ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا . وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولدا على طريق التبني لاتخذناه من عندنا من الملائكة . ومال إلى هذا قوم ؛ لأن الإرادة قد تتعلق بالتبني فأما ٱتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمستحيل؛ ذكره القشيري .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ القذف الرمي ؛ أي نرمي بالحق على الباطل . ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي يقهره ويهلكه . وأصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة . والحق هنا القرآن ، والباطل الشيطان في قول مجاهد ؛ قال : وكل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان . وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد وغيره . وقيل : أراد بالحق الحجة ، و بالباطل شبههم . وقيل : الحق المواعظ ، والباطل المعاصي ؛ والمعنى متقارب . والقرآن يتضمن الحجة والموعظة . ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي هالك وتالف ؛ قاله قتادة . ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ أي العذاب في الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز وصفه . وقال ابن عباس : الويل واد في جهنم ؛ وقد تقدم (1) . ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي مما تكذبون ؛ عن قتادة ومجاهد ؛ نظيره « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أي بكذبهم . وقيل : مما تصفون الله به من المحال وهو ٱتخاذه سبحانه الولد .

قوله تعالى : وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ملكا وخلقا فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعني الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي لا يأنفون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والتذلل له . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي يعيون ؛ قاله قتادة . مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، [يقال] : حسر البعير يحسر حُسورا أعيا وكلّ ، وٱستحسر وتحسر مثله ، وحسرته أنا حسرا يتعدى ولا يتعدى ،

(1) راجع جـ ٢ ص ٧ وما بعدها طبعة ثانية .

وأحسرته أيضا فهو حسير . وقال ابن زيد : لا يملون . ابن عباس : لا يستنكفون . وقال أبو زيد: لا يكلّون . وقيل: لا يفشلون؛ ذكره ابن الأعرابي؛ والمعنى واحد . ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يصلون ويذكرون الله وينزهونه دائما . ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أى لا يضعفون ولا يسأمون، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النَّفَس . قال عبد الله بن الحرث سألت كعبا فقلت : أما لهم شغل عن التسبيح؟ أما يشغلهم عنه شيء؟ فقال : من هذا؟ فقلت : من بنى عبد المطلب؛ فضمني إليه وقال: يا بن أخى هل يشغلك شيء عن النفس؟! إن التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس . وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الملائكة أفضل من بنى آدم . وقد تقدّم(١) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء . وقيل : « أم » بمعنى « هل » أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى . ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل؛ لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر « أم » مع الاستفهام فتكون « أم » المنقطعة فيصح المعنى؛ قاله المبرد . وقيل : « أم » عطف على المعنى أى أفخلقنا السماء والأرض لعبا ، أم هذا الذى أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة ؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة فى الأرض يحيي الموتى فيكون موضع شبهة ؟ . وقيل : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ثم عطف عليه بالمعاتبة، وعلى هذين التأويلين تكون « أم » متصلة . وقرأ الجمهور « يُنْشِرُونَ » بضم الياء وكسر الشين من أنشر الله الميت فنَشَر أى أحياه فحيي . وقرأ الحسن بفتح الياء؛ أى يحيون ولا يموتون .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ أى لو كان فى السموات والأرضين آلهة غير الله معبودون لفسدتا . قال الكسائى وسيبويه : « إلّا » بمعنى غير فلما جعلت إلا فى موضع غير أعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير، كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخـوهُ * لَعَمْرُ أبيكَ إلّا الفَرْقَدَان

وحكى سيبويه : لو كان معنا رجل إلا زيد لهلكنا . وقال الفراء : « إلا » هنا فى موضع سوى، والمعنى : لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها . وقال غيره : أى لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخر ضده كان أحدهما عاجزا . وقيل : معنى « لَفَسَدَتَا » أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء . ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نزّه نفسه وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ قاصمة للقدرية وغيرهم . قال ابن جريج : المعنى لا يسأله الخلق عن قضائه فى خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم؛ لأنهم عبيد . بيّن بهذا أن من يسأل غدا عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح للإلهية . وقيل : لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . وروى عن على رضى عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين : أيحب ربنا أن يعصى ؟ قال : أفيعصى ربنا قهرا ؟ قال : أرأيت إن منعنى الهدى ومنحنى الردى أأحسن إلى أم أساء ؟ قال : إن منعك حقك فقد أساء، وإن منعك فضله فهو فضله يؤتيه من يشاء . ثم تلا الآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » . وعن ابن عباس قال : لما بعث الله عز وجل موسى وكلمه، وأنزل عليه التوراة، قال : اللهم إنك رب عظيم، لو شئت أن تطاع لأُطعت، ولو شئت ألا تُعصى ما عُصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تُعصى فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أعاد التعجب فى اتخاذ الآلهة من دون الله مبالغة فى التوبيخ؛ أى صفتهم كما تقدم فى الإنشاء والإحياء، فتكون « أم » بمعنى هل على ما تقدم، فليأتوا بالبرهان على ذلك . وقيل : الأول احتجاج من حيث المعقول؛ لأنه قال : « هُمْ يُنْشِرُونَ » ويحيون الموتى؛ هيهات ! والثانى احتجاج بالمنقول، أى هاتوا برهانكم من

هذه الجهة، ففى أى كتاب نزل هذا ؟! فى القرآن، أم فى الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟! ﴿ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ ﴾ بإخلاص التوحيد فى القرآن ﴿ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾ فى التوراة والإنجيل، وما أنزل الله من الكتب؛ فآنظروا هل فى كتاب من هذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهة سواه ؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، و إنما اختلفت فى الأوامر والنواهى . وقال قتادة : الإشارة إلى القرآن؛ المعنى : « هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ » بما يلزمهم من الحلال والحرام « وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي » من الأمم ممن نجا بالإيمان وهلك بالشرك . وقيل : « ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ » بمالهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر « وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي » من الأمم السالفة فيما يفعل بهم فى الدنيا ، وما يفعل بهم فى الآخرة . وقيل : معنى الكلام الوعيد والتهديد ، أى افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم : أن يحيي بن يعمر وطلحة بن مُصرِّف قرآ « هذا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي » بالتنوين وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه لهذا . وقال أبو إسحق الزجاج فى هذه القراءة : المعنى؛ هذا ذكرٌ مما أنزل إلىّ ومما هو معى وذكرٌ من قبلى . وقيل : ذكرٌ كائن من قبلى ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن « الْحَقُّ » بالرفع بمعنى هو الحقُّ وهذا هو الحقُّ . وعلى هذا يوقف على « لا يعلمون » ولا يوقف عليه على قراءة النصب . ﴿ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى عن الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَى إِلَيْهِ ﴾[1] . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نُوحِى إِلَيْهِ » بالنون؛ لقوله : « أَرْسَلْنَا » . ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أى قلنا للجميع لا إله إلا الله ؛ فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء موجود ، والدليل إما معقول و إما منقول . وقال قتادة : لم يرسل نبى إلا بالتوحيد ، والشرائع مختلفة فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

(١) « يُوحَى » بالياء قراءة « نافع » .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ نزلت فى خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم طمعا فى شفاعتهم لهم . وروى معمر عن قتادة قال قالت اليهود — قال معمر فى روايته — أو طوائف من الناس : خاتن إلى الجن والملائكة من الجن ، فقال الله عز وجل : « سبحانه » تنزيها له . ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ أى بل هم عباد ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى ليس كما زعم هؤلاء الكفار . ويجوز النصب عند الزجاج على معنى بل آتخذ عبادا مكرمين . وأجازه الفراء على أن يرده على ولد، أى بل لم نتخذهم ولدا، بل اتخذناهم عبادا مكرمين . والولد هاهنا للجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولدا . ويجوز أن يكون لفظ الولد للجنس، كما يقال لفلان مال . ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أى لايقولون حتى يقول، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم . ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ أى بطاعته وأوامره . ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى يعلم ما عملوا وماهم عاملون؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «وَمَا خَلْفَهُمْ» الدنيا ؛ ذكر الأول الثعلبى ، والثانى القشيرى . ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد : هم كل من رضى الله عنه ، والملائكة يشفعون غدا فى الآخرة كما فى صحيح مسلم وغيره، وفى الدنيا أيضا؛ فإنهم يستغفرون للؤمنين ولمن فى الأرض ، كما نص عليه التنزيل على ما يأتى . ﴿ وَهُم ﴾ يعنى الملائكة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ ﴾ يعنى من خوفه ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون لا يأمنون مكره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الآية إبليس حيث آدعى الشركة ، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إنى إله غيره . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أى فذلك القائل ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ . وهذا دليل على أنهم وإن أكرموا بالعصمة فهم متعبَّدون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال . وقد آستدل ابن عباس بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء . وقد تقدم فى «البقرة»(1) . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أى كما جزينا هذا بالنار فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة فى غير موضعهما .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قراءة العامة « أَوَلَمْ » بالواو . وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وحميد وشبل بن عباد « أَلَمْ يَرَ » بغير واو ، وكذلك هو فى مصحف مكة . « أَوَلَمْ يَرَ » بمعنى يعلم . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ قال الأخفش : « كانتا » لأنهما صنفان ، كما تقول العرب : هما لقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » قال أبو إسحق : « كانتا » لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد بسماء ؛ ولأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . وقال : «رتقا»

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ولم يقل رتقين؛ لأنه مصدر؛ والمعنى كانتا ذواتى رتق . وقرأ الحسن « رَتَقًا » بفتح التاء. قال عيسى بن عمر : هو صواب وهى لغة . والرتق السد ضد الفتق، وقد رتقت الفتق أرتقه فارتتق أى التأم، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج . قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئا واحدا ملترقتين ففصل الله بينهما بالهواء . وكذلك قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطها ففتحها بها ، وجعل السموات سبعا والأرضين سبعا . وقول ثان قاله مجاهد والسدى وأبو صالح : كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا . وحكاه القتبي فى عيون الأخبار له ، عن إسمعيل بن أبى خالد فى قول الله عز وجل : «أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» قال : كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها ، ففتق من هذه سبع سموات ، ومن هذه سبع أرضين ؛ خلق الأرض العليا فجعل سكانها الجن والإنس ، وشق فيها الأنهار وأنبت فيها الأثمار ، وجعل فيها البحار وسماها رعاء ، عرضها مسيرة خمسمائة عام ؛ ثم خلق الثانية مثلها فى العرض والغلظ وجعل فيها أقواما ، أفواههم كأفواه الكلاب وأيديهم أيدى الناس ؛ وآذانهم آذان البقر وشعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يأجوج ومأجوج ، واسم تلك الأرض الدكماء ، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة خمسمائة عام ، ومنها هواء إلى الأرض . الرابعة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود ، ولها أذناب مثل أذناب الخيل الطوال ، يأكل بعضها بعضا فتسلط على بنى آدم . ثم خلق الله الخامسة [مثلها[(١)]] فى الغلظ والطول والعرض فيها سلاسل وأغلال وقيود لأهل النار . ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد ، فيها حجارة سُود بُهْم ، ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام ، تبعث تلك الحجارة يوم القيامة وكل حجر منها كالطود العظيم ، وهى من كبريت تعلق فى أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم ، فذلك قوله عز وجل : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها عربية وفيها جهنم ، فيها بابان اسم

(١) زيادة يقتضيها السياق .

الواحد سجين والآخر الغَلَق، فأما سجين فهو مفتوح وإليه ينتهى كتاب الكفار، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون، وأما الغَلَق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة . وقد مضى فى «البقرة» (١) أنها سبع أرضين بين كل أرضَين مسيرة خمسمائة عام، وسيأتى له فى آخر «الطلاق» (٢) زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهدوى : إن السموات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات؛ نظيره قوله عز وجل : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » . واختار هذا القول الطبرى؛ لأن بعده « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة؛ ولذلك أخبر بذلك فى غير ما آية؛ ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء . وقيل :

يَهونُ عليهم إذا يَغضبو * نَ سخطُ العداة وإرغامُها

ورَتْق الفُتوق وفَتْق الرُّتو * ق ونَقْضُ الأمور وإبرامُها

وفى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ثلاث تأويلات : أحدها — أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة . الثانى — حفظ حياة كل شيء بالماء . الثالث — وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حىّ؛ قاله قطرب . «وجعلنا» بمعنى خلقنا . وروى أبو حاتم البستى فى المسند الصحيح له من حديث أبى هريرة قال : قلت يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسى، وقرّت عينى؛ أنبئنى عن كل شىء؛ قال : "كل شىء خلق من الماء" الحديث؛ قال أبو حاتم قول أبى هريرة : «أنبئنى عن كل شىء» أراد به عن كل شىء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال : "كل شىء خلق من الماء" وإن لم يكن مخلوقا . وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رتقا . وقيل : الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله : « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) فى تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ... الخ » آية ١٢ .

وقوله : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » والصحيح العموم؛ لقوله عليه السلام : "كل شيء خلق من الماء" والله أعلم . ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه، بل لمكوّن كوّنه ، ومدبر أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوّن محدثا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالا ثوابت . ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أى لئلا تميد بهم، ولا تتحرك ليتم القرار عليها؛ قاله الكوفيون . وقال البصريون : المعنى كراهية أن تميد . والميد التحرك والدوران . يقال : ماد رأسه؛ أى دار . وقد مضى فى «النحل»[(1)] مستوفى . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا ﴾ يعنى فى الرواسى ؛ عن ابن عباس . والفجاج المسالك . والفجّ الطريق الواسع بين الجبلين . وقيل : وجعلنا فى الأرض فجاجا أى مسالك ؛ وهو اختيار الطبرى؛ لقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى يهتدون إلى السير فى الأرض . « سُبُلًا » تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا وقد لا يكون . وقيل : ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ أى محفوظا من أن يقع ويسقط على الأرض ؛ دليله قوله تعالى : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : محفوظا بالنجوم من الشياطين؛ قاله الفراء . دليله قوله تعالى : « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقيل : محفوظا من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة . وقيل : محفوظا فلا يحتاج إلى عماد . وقال مجاهد : مرفوعا . وقيل : محفوظا من الشرك والمعاصى . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعنى الكفار ﴿ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ قال مجاهد يعنى الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها، وقد أضاف الآيات إلى نفسه فى مواضع ، لأنه الفاعل لها . بين أن المشركين غفلوا عن النظر فى السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ذكّرهم نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه لمعايشهم . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى وجعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل؛ لتعلم الشهور والسنون والحساب، كما تقدم فى « سبحان »(١) بيانه . ﴿ كُلٌّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا » ويقال للفرس الذى يمد يده فى الجرى سابح . وفيه من النحو أنه لم يقل : يسبحْن ولا تسبح؛ فمذهب سيبويه : أنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل وجعلهنّ فى الطاعة بمنزلة من يعقل، أخبر عنهن بالواو والنون . ونحوه قال الفراء . وقد تقدم هذا المعنى فى « يوسف »(٢) . وقال الكسائى : إنما قال : « يسبحون » لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » ولم يقل منتصرون . وقيل : الجرى للفلك فنسب إليها . والأصح أن السيارة تجرى فى الفلك، وهى سبعة أفلاك دون السموات المطبقة، التى هى مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر فى الفلك الأدنى، ثُمَّ عُطَارِد، ثم الزُّهَرة، ثم الشمس، ثم المِرِّيخ، ثم المُشْتَرِى، ثم زُحَل ، والثامن فلك البروج، والتاسع الفلك الأعظم . والفلك واحد أفلاك النجوم . قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على فُعْلٍ مثل أَسَدٍ وأُسْد وخَشَبٍ وخُشْب . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فَلْكة المِغزل؛ لاستدارتها . ومنه قيل : فَلَّكَ ثديُ المرأة تفليكا ، وتَفَلَّك استدار . وفى حديث ابن مسعود : تركت فرسى كأنه يدور فى فلك . كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذى تدور عليه النجوم . قال ابن زيد : الأفلاك مجارى النجوم والشمس والقمر . قال : وهى بين السماء والأرض . وقال قتادة : الفلك استدارة فى السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء . وقال مجاهد : الفلك كهيئة حديد الرحى وهو قطبها . وقال الضحاك : فلكها مجراها وسرعة مسيرها . وقيل : الفلك موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه؛ والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوّته و يقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان ؛ فقال الله تعالى : قد مات الأنبياء من قبلك ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ؛ فهكذا نحفظ دينك وشرعك . ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ أى أفهم ؛ مثل قول الشاعر (١) :

رَفَوْنِى وقالوا ياخُوَيْلِدُ لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

أى أهم ! فهو آستفهام إنكار . وقال الفرّاء : جاء بالفاء ليدل على الشرط ؛ لأنه جواب قولهم سيموت . ويجوز أن يكون جيء بها ؛ لأن التقدير فيها : أفهم الخالدون إن متّ ! قال الفرّاء : ويجوز حذف الفاء و إضمارها ؛ لأن « هم » لا يتبين فيها الإعراب . أى إن مت فهم يموتون أيضا ، فلا شماتة فى الإماتة . وقرئ « مِتَّ » و « مُتَّ » بكسر الميم وضمها لغتان .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ تقدم فى « آل عمران » (٢) ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ « فِتْنَةً » مصدر على غير اللفظ . أى نختبركم بالشدّة والرخاء والحلال والحرام ؛ فننظر كيف شكركم وصبركم . ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى للجزاء بالأعمال .

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

---

(١) هو أبو خراش الهذلى . و رفاه سكنه من الرعب ؛ يقول : سكنونى . آعتبر بمشاهدة الوجوه ، وجعلها دليلا على ما فى النفوس .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أى ما يتخذونك . والهزء السخرية ؛ وقد تقدم . وهم المستهزئون المتقدمو الذكر فى آخر سورة « الحجر »(١) فى قوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . كانوا يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن؛ وهذا غاية الجهل . ﴿ أَهَذَا الَّذِي ﴾ أى يقولون : أهذا الذى ؟ فأضمر القول وهو جواب « إذا » وقوله : « إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض بين «إذا» وجوابه . ﴿ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أى بالسوء والعيب . ومنه قول عَنْتَرَة :

لا تَذْكُرِى مُهْرِى وما أطعمتُه * فيكون جلدُكِ مثلَ جلدِ الأَجْرَبِ(٢)

أى لا تعيبي مهرى . ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى بالقرآن . ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ « هم » الثانية توكيد كفرهم ، أى هم الكافرون مبالغة فى وصفهم بالكفر .

قوله تعالى : خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أى رُكِّب على العَجَلة فخُلق عَجُولا ؛ كما قال الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » أى خلق الإنسان ضعيفا . و يقال : خلق الإنسان من الشر أى شريرا إذا بالغت فى وصفه به . ويقال : إنما أنت ذهاب ومجىء . أى ذاهب جائى . أى طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيرا من الأشياء و إن كانت مضرة . ثم قيل : المراد بالإنسان آدم عليه السلام . قال سعيد بن جبير والسدى : لما دخل الروح فى عينى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قاله لامرأة له من بجيلة كانت تلومه فى فرس كان يؤثره على خيله و يطعمه ألبان إبله .

آدم عليه السلام نظر فى ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة . فذلك قوله : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » . وقيل : خلق آدم يوم الجمعة فى آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل ، وطلب تتميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس؛ قاله الكلبي ومجاهد وغيرهما . وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعانى : العَجَل الطين بلغة حِمْيَر . وأنشدوا :

* والنخلُ ينبتُ بين الماءِ والعَجَلِ (١) *

وقيل : المراد بالإنسان الناس كلهم . وقيل المراد : النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار فى تفسير ابن عباس؛ أى لا ينبغى لمن خلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله . وقيل : إنه من المقلوب؛ أى خلق العجل من الإنسان . وهو مذهب أبى عبيدة . النحاس : وهذا القول لا ينبغى أن يجاب به فى كتاب الله؛ لأن القلب إنما يقع فى الشعر اضطرارا كما قال (٢) :

* كان الزِّناءُ فَرِيضَةَ الرَّجْمِ *

ونظيره هذه الآية : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا » وقد مضى فى « سبحان (٣) » . ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ هذا يقوى القول الأول، وأن طبع الإنسان العَجَلة، وأنه خلق خلقا لا يتمالك، كما قال عليه السلام، حسب ما تقدم فى « سبحان » . والمراد بالآيات ما دل على صدق محمد عليه السلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة . وقيل : ما طلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » ؟ وما علموا أن لكل شيء أجلا مضروبا . نزلت فى النضر بن الحرث . وقوله : « إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ » . وقال الأخفش سعيد : معنى « خلق الإنسان من عجل » أى قيل له كن فكان، فمعنى « فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ » على هذا القول أنه من يقول للشيء كن فيكون، لا يعجزه إظهار ما استعجلوه من الآيات . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أى الموعود، كما يقال : الله رجاؤنا أى مرجوّنا . وقيل : معنى « الوعد » هنا الوعيد، أى الذى يعدنا من العذاب . وقيل : القيامة . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يا معشر المؤمنين .

---

(١) صدر البيت : * والنبع فى الصخرة الصماء منبته *

(٢) البيت للجعدى وصدره : * كانت فريضة ما تقول كما *

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٦ طبعة أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضى مفعولا ثانيا مثل « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . وجواب « لو » محذوف ؛ أى لو علموا الوقت الذى ﴿ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ وعرفوه لما استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج : أى لعلموا صدق الوعد . وقيل : المعنى لو علموه لما أقاموا على الكفر ولآمنوا . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ؛ أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية . ودل عليه ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة يعنى القيامة . وقيل : العقوبة . وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ . قال الجوهرى : بهته بهتا أخذه بغتة ؛ قال الله تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » . وقال الفراء : « فتبهتهم » أى تحيرهم ؛ يقال : بهته يبهته إذا واجهه بشيء يحيره . وقيل : فتفجأهم . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أى صرفها عن ظهورهم . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى لا يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

قوله تعالى : وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية له . يقول : إن آستهزأ بك هؤلاء ، فقد آستهزئ برسل من قبلك ؛ فاصبر كما صبروا . ثم وعده النصر فقال : ﴿ فَحَاقَ ﴾ أى أحاط ودار ﴿ بِالَّذِينَ ﴾ كفروا و ﴿ سَخِرُوا مِنْهُمْ ﴾ وهزءوا بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى جزاء آستهزائهم .

قوله تعالى : قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم . والكلاءة الحراسة والحفظ ؛ كلاه الله كِلاء (بالكسر) أى حفظه وحرسه . يقال : آذهب فى كِلاءة الله ؛ واكتلأت منهم أى احترست؛ قال الشاعر هو ابن هَرْمة :

إنّ سليمى والله يكلؤها * ضنّت بشيء ما كان يرزؤها

وقال آخر : * أنختُ بعيرى واكتلأتُ بعينه * (١)

وحكى الكسائى والفراء «قُلْ مَنْ يَكْلَوْكُمْ» بفتح اللام و إسكان الواو. وحكيا « مَنْ يَكْلاَكُمْ» على تخفيف الهمزة فى الوجهين، والمعروف تحقيق الهمزة وهى قراءة العامة . فأما «يَكْلاَكُمْ» فخطأ من وجهين فيما ذكره النحاس : أحدهما — أن بدل الهمزة إنما يكون فى الشعر . والثانى — أنهما يقولان فى الماضى كَلَيْتُه ، فينقلب المعنى ؛ لأن كَلَيته أوجعت كليته، ومن قال لرجل: كَلاَك الله فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع فى كُلْيته .

ثم قيل : مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفى . وتقديره : قل لا حافظ لكم ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ إذا نمتم ﴿ و ﴾ ب ﴿ النَّهَارِ ﴾ إذا قمتم وتصرفتم فى أموركم . ﴿ مِنَ الرَّحْمٰنِ ﴾ أى من عذابه و بأسه؛ كقوله تعالى : « فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ » أى من عذاب الله . والخطاب لمن آعترف منهم بالصانع ؛ أى إذا أقررتم بأنه الخالق، فهو القادر على إحلال العذاب الذى تستعجلونه . ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى عن القرآن . وقيل: عن مواعظ ربهم . وقيل : عن معرفته . ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لاهون غافلون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ المعنى : ألهم والميم صلة . ﴿ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ أى من عذابنا . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لايستطيعون ﴿ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم . ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : يُمنَعون . وعنه : يُجَارون ؛ وهو اختيار الطبرى . تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان؛ أى مجير منه؛ قال الشاعر :

يُنادى بأعلى صوته متعوِّذًا * ليُصحَبَ منها والرِّماحُ دَوَانى

(١) هو كعب بن زهير؛ وعجزه . * وآمرت نفسى أى أمرى أفعل *

وروى معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : « يُنْصَرُونَ » أي يحفظون . قتادة : أي لا يصحبهم الله بخير، ولا يجعل رحمته صاحبا لهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يريد أهل مكة . أي بسطنا لهم ولآبائهم في نعيمها و﴿ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم، فاغتروا وأعرضوا عن تدبر حجج الله عز وجل . ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي بالظهور عليها لك يا محمد أرضا بعد أرض، وفتحها بلدا بعد بلد مما حول مكة؛ قال معناه الحسن وغيره . وقيل : بالقتل والسبي؛ حكاه الكلبي(١) . والمعنى واحد . وقد مضى في « الرعد »(٢) الكلام في هذا مستوفى . ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يعني كفار مكة بعد أن نقصنا من أطرافهم، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أي أخوفكم وأحذركم بالقرآن . ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ ﴾ أي من أصم الله قلبه، وختم على سمعه، وجعل على بصره غشاوة، عن فهم الآيات وسماع الحق . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن السَّمَيْقع « وَلَا يُسْمَعُ » بياء مضمومة وفتح الميم على ما لم يسم فاعله « الصُّمُّ » رفعا أي إن الله لا يُسمعهم . وقرأ ابن عامر والسلمي أيضا، وأبو حيوة ويحيى بن الحرث «وَلَا تُسْمِعُ» بتاء مضمومة وكسر الميم «الصُّمَّ» نصبا؛ أي إنك يا محمد « لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ »؛ فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . ورد هذه القراءة بعض أهل اللغة . وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ما تنذرهم . قال النحاس : وذلك جائز؛ لأنه قد عرف المعنى .

---

(١) في نسخة : « حكاه الثعلبي » . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٣٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : طرف . قال قتادة : عقوبة . ابن كيسان : قليل وأدنى شيء؛ مأخوذة من نفح المسك . قال[1] :

وعَمْرةُ من سَرَوَاتِ النِّساء * تَنَفَّحُ بالمسك أَرْدَانُها

ابن جريج : نصيب؛ كما يقال : نفح فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيبا من المال . قال الشاعر[2] :

لَمَّا أَتيتك أرجو فَضْلَ نَائِلِكُمْ * نَفَحْتَنِي نَفْحَةً طابتْ لها العَرَبُ

أى طابت لها النفس . والنفحة فى اللغة الدفعة اليسيرة؛ فالمعنى ولئن مسهم أقل شيء من العذاب . ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى متعدين فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف.

قوله تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ الموازين جمع ميزان . فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلَّف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات فى كفة ، والسيئات فى كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ؛ كما قال :

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعَدْلِه * فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع . وخرج اللَّالَكَائِىّ الحافظ أبو القاسم فى سننه عن أنس يرفعه : "إن مَلَكا موكَّلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فإن رجح نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق سَعِد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خفَّ نادى الملك شَقِى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا" . وخرج عن حذيفة رضى الله عنه قال : "صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام" وقيل : للميزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ؛ فالجمع يرجع إليها . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مَثَل وليس ثَمَّ

(١) هو قيس بن الخطيم الأنصارى . (٢) هو للرماح بن ميادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ميزان وإنما هو العدل . والذى وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم القول الأوّل . وقد مضى فى «الأعراف»(١) بيان هذا، وفى «الكهف» أيضا . وقد ذكرناه فى كتاب «التذكرة» مستوفى والحمد لله . و«القِسط» العدل أى ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون فى وزن الدنيا . و«القِسْطَ» صفة الموازين ووحد لأنه مصدر؛ يقال : ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط . مثل رجال عدل ورضًا . وقرأت فرقة «القِصْطَ» بالصاد . ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى لأهل يوم القيامة . وقيل : المعنى فى يوم القيامة . ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسىء . ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر «مِثْقَالُ حَبَّةٍ» بالرفع هنا؛ وفى «لقمان» على معنى إن وقع أو حضر؛ فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر . الباقون «مِثْقَالَ» بالنصب على معنى وإن كان العمل أو ذلك الشيء مثقالَ . ومثقال الشيء ميزانه من مثله . ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مقصورة الألف قراءة الجمهور أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ولها . يجاء بها أى بالحبة ولو قال به أى بالمثقال لجاز . وقيل : مثقال الحبة ليس شيئا غير الحبة فلهذا قال «أَتَيْنَا بِهَا» . وقرأ مجاهد وعكرمة «آتَيْنَا» بالمد على معنى جازينا بها . يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة . ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أى محاسبين على ما قدموه من خير وشر . وقيل : «حاسِبين» إذ لا أحد أسرع حسابا منا . والحساب العدّ . روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلا قعد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن لى مملوكين يكذبوننى ويخوننى ويعصوننى وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : "يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كَفَافا لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك وإن كان عقابك فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل" قال : فتنحّى الرجل فجعل يبكى ويهتف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما تقرأ كتاب الله تعالى «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا» " فقال الرجل : والله يارسول الله ما أجد لى ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم . قال حديث غريب .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾ وحكى عن ابن عباس وعكرمة « الْفُرْقَانَ ضِيَاءً » بغير واو على الحال . وزعم الفراء أن حذف الواو والمجىء بها واحد، كما قال الله عز وجل : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا » أى حفظا . ورد عليه هذا القول الزجاج . قال : لأن الواو تجىء لمعنى فلا تزاد . قال : وتفسير «الفرقان» التوراة ؛ لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال . قال : « وَضِيَاءً » مثل « فِيهِ هُدًى وَنُورٌ » وقال ابن زيد : « الفرقان » هنا هو النصر على الأعداء ؛ دليله قوله تعالى : « وما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر . قال الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ؛ لدخول الواو فى الضياء ؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التى هى الضياء والذكر . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ أى غائبين ؛ لأنهم لم يروا الله تعالى ، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربا قادرا ، يجازى على الأعمال فهم يخشونه فى سرائرهم ، وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس . ﴿ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ ﴾ أى من قيامها قبل التوبة . ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون وجلون . ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ ﴾ يامعشر العرب ﴿ مُنْكِرُونَ ﴾ وهو معجز لا تقدرون على الإتيان بمثله . وأجاز الفراء «وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكًا أَنْزَلْنَاهُ » بمعنى أنزلناه مباركا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ

وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ
وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ قال الفراء : أى أعطيناه هداه . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل النبوة؛ أى وفقناه للنظر والاستدلال، لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون . والرشد على هذا النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير؛ كما قال ليحيى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . وقال القرظى : رشده صلاحه . ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أى إنه أهل لإتياء الرشد وصالح للنبوة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ قيل : المعنى أى آذكر حين قال لأبيه؛ فيكون الكلام قد تم عند قوله : « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » . وقيل : المعنى؛ « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ » فيكون الكلام متصلا ولا يوقف على قوله : « عالمين » . « لأبيه » وهو آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ نمرود ومن آتبعه . ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ أى الأصنام . والتمثال آسم موضوع للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى . يقال : مثّلت الشيء بالشيء أى شبّهته به . واسم ذلك الممثَّل تمثال . ﴿ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أى مقيمون على عبادتها . ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أى نعبدها تقليدا لأسلافنا . ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى خسران بعبادتها؛ إذ هى جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم . ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى أجاء أنت بحقّ فيما تقول؟ ﴿ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ أى لاعب مازح . ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لست بلاعب، بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض . ﴿ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أى خلقهن وأبدعهن، ﴿ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى على أنه رب السموات والأرض . والشاهد يبين الحكم، ومنه « شَهِدَ اللَّهُ » بيّن الله؛ فالمعنى : وأنا أبيّن بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أخبر أنه لم يكتف بالمحاجّة باللسان بل كسر أصنامهم فِعل واثق بالله تعالى، موطن نفسه على مقاساة المكروه فى الذب عن الدين . والتاء فى « تَاللَّهِ » تختص فى القسم بآسم الله وحده، والواو تختص بكل مظهر، والباء بكل مضمر ومظهر . قال الشاعر (١) :

تاللهِ يَبْقَى على الأيام ذو حِيَدٍ * بمُشْمَخِرٍّ به الظَّيَّانُ والآسُ

وقال ابن عباس : أى وحرمة الله لأكيدن أصنامكم، أى لأمكرن بها . والكيد المكر . كاده يكيده كيدا ومكيدة، وكذلك المكايدة؛ وربما سمى الحرب كيدا؛ يقال : غزا فلان فلم يَلق كيدا ، وكل شيء تعالجه فأنت تكيده . ﴿ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ أى منطلقين ذاهبين . وكان لهم فى كل سنة عيد يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا — روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتى بيانه فى « والصافات » (٢) — فقال إبراهيم فى نفسه : « تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » . قال مجاهد وقتادة : إنما قال ذلك إبراهيم فى سر من قومه، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذى أفشاه عليه . والواحد يخبر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أخبر به مما يرضى به غيره . ومثله « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » . وقيل : إنما قاله بعد خروج القوم ، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه. وكان إبراهيم آحتال فى التخلف عنهم بقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ » أى ضعيف عن الحركة .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ أى فتاتا . والجذ الكسر والقطع؛ جذذت الشيء كسرته وقطعته . والجذاذ والجُذاذ ما كسر منه، والضم أفصح من كسره . قاله الجوهرى . الكسائى : ويقال لحجارة الذهب جُذاذ؛ لأنها تكسر . وقرأ الكسائى والأعمش وابن محيصن « جِذَاذًا » بكسر الجيم؛ أى كسرا وقطعا جمع جَذيذ وهو الهشيم ، مثل خَفيف وخِفاف وظَريف وظِراف . قال الشاعر :

جَذَّذ الأصنامَ فى مِحْرابِها * ذاك فى الله العلىِّ المقتدِر

(١) هو مالك بن خالد الخناعى الهذلى . وحيد هنا (كعنب) : كل نتوء فى الجبل . والمشمخر : الجبل العالى . والظيان : ياسمين البر . والمعنى : لا يبقى .
(٢) فى تفسير قوله تعالى : « فراغ إلى آلهتهم ... الخ . » الآيات : ٩١ و ٩٢ و ٩٣

الباقون بالضم؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . [مثل][1] الحُطام والرُّفات الواحدة جُذاذة . وهذا هو الكيد الذى أقسم به ليفعلنه بها . وقال : « فجعلهم » ؛ لأن القوم اعتقدوا فى أصنامهم الإلهية . وقرأ ابن عباس وأبو نهيك وأبو السمال « جَذَاذًا » بفتح الجيم ؛ والفتح والكسر لغتان كالحَصاد والحِصاد . أبو حاتم : الفتح والكسر والضم بمعنى ؛ حكاه قطرب . ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ أى عظيم الآلهة فى الخلق فإنه لم يكسره . وقال السدى ومجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلّق الفأس الذى كسر به الأصنام فى عنقه؛ ليحتج به عليهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أى إلى إبراهيم ودينه ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا قامت الحجة عليهم . وقيل : « لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ » أى إلى الصنم الأكبر « يَرْجِعُونَ » فى تكسيرها .

قوله تعالى : قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ المعنى لما رجعوا من عيدهم ورأوا ما أحدث بآلهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : « مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . وقيل : « من » ليس آستفهاما ، بل هو ابتداء وخبره « لمن الظالمين » . أى فاعل هذا ظالم . والأوّل أصح لقوله : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ وهذا هو جواب « مَنْ فَعَلَ هذا » . والضمير فى « قالوا » للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقدّم . ومعنى « يذكرهم » يعيبهم و يسبّهم فلعله الذى صنع هذا . واختلف الناس فى وجه رفع إبراهيم ؛ فقال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون [خبر مبتدإ][2] محذوف ، والجملة محكية . قال : و يجوز أن يكون رفعا على النداء وضمه بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله . وقيل : رفعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص ، بل يجعل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة . أى يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، كما تقول

(١) فى الأصل : «أى» وهو تحريف . (٢) فى الأصل : «فيكون مبتدأ وخبره محذوف» وهو تحريف .

زيد وزن فَعْل، أو زيد ثلاثة أحرف ، فلم تدل بوجه على الشخص ، بل دلت بنطقك على نفس اللفظة . وعلى هـذه الطريقة تقول : قلت إبراهيم ، و يكون مفعولا صحيحا نزلته منزلة قول وكلام؛ فلا يتعذر بعد ذلك أن يبنى الفعل فيه للفعول . هذا اختيار ابن عطية فى رفعه . وقال الأستاذ أبو الحجاج الأشبيلى الأعلم : هو رفع على الإهمال . قال ابن عطية : لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذى قصدوه ، ذهب إلى رفعه بغير شيء، كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتداء . والفتى الشاب والفتاة الشابة . وقال ابن عباس : ما أرسل الله نبيا إلا شابا . ثم قرأ « سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ فيه مسئلة واحدة، وهى :

أنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه ، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة، فقالوا : آئتوا به ظاهرا بمرأى من الناس حتى يروه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بما قال، ليكون ذلك حجة عليه . وقيل : « لعلهم يشهدون » عقابه فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه . أو لعل قوما « يشهدون » بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو « لعلهم يشهدون » طعنه على آلهتهم؛ ليعلموا أنه يستحق العقاب .

قلت : وفى هذا دليل على أنه كان لا يؤاخذ أحد بدعوى أحد فيما تقدم؛ لقوله تعالى : « فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » وهكذا الأمر فى شرعنا ولا خلاف فيه .

قوله تعالى : قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة ، استفهموه هل فعل أم لا ؟ وفى الكلام حذف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا : أأنت فعلت هذا بالآلهة ؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ أى إنه غار وغضب من أن يعبد هو

ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم . فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين ؛ تنبيها لهم على فساد اعتقادهم . كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء . وفى الكلام تقديم على هذا التأويل فى قوله : ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ . وقيل : أراد بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون . بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد . وكان قوله من المعاريض ، وفى المعاريض مندوحة عن الكذب . أى سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل . وفى ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التعريض . وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ » — الآية — فقال إبراهيم : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا » ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون ؛ فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة منهم، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه؛ فإنه أقرب فى الحجة وأقطع للشبهة، كما قال لقومه : « هَٰذَا رَبِّي » وهذه أختى و« إِنِّي سَقِيمٌ » و « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا » وقرأ ابن السميقع « بل فعلّه » بتشديد اللام بمعنى فلعل الفاعل كبيرهم . وقال الكسائى : الوقف عند قوله « بل فعله » أى فعله من فعله ؛ ثم يبتدئ « كبيرهم هذا » . وقيل : أى لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم ؟ فهذا إلزام بلفظ الخبر . أى من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلا؛ والمعنى : بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم .

الثانية — روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم يكذب إبراهيم النبي فى شيء قط إلا فى ثلاث قوله «إني سقيم» وقوله لسارة أختى وقوله «بل فعله كبيرهم» " لفظ الترمذى . وقال : حديث حسن صحيح . ووقع فى الإسراء فى صحيح مسلم، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى قصة إبراهيم قال : وذكر قوله فى الكوكب « هذا ربى » . فعلى هذا تكون الكذبات أربعا إلا أن الرسول عليه السلام قد نفى تلك بقوله : " لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا فى ثلاث كذبات ثنتين فى ذات الله قوله

« إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » وواحدة في شأن سارة " الحديث لفظ مسلم . وإنما لم يعد عليه قوله في الكوكب : « هذا ربي » كذبة وهي داخلة في الكذب ؛ لأنه — والله أعلم — كان حين قال ذلك في حال الطفولة ، وليست حالة تكليف . أو قال لقومه مستفهما لهم على جهة التوبيخ والإنكار ، وحذفت همزة الاستفهام . أو على طريق الاحتجاج على قومه : تنبيها على أن ما يتغير لا يصلح للربوبية . وقد تقدمت هذه الوجوه كلها في «الأنعام»[1] مبينة والحمد لله .

الثالثة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : في هذا الحديث نكتة عظمى تقصم الظهر ، وهي أنه عليه السلام قال : " لم يكذب إبراهيم إلا في ثلاث كذبات ثنتين ماحَلَ بهما عن دين الله وهما قوله « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » " ولم يعد [قوله][2] هذه أختي في ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها ، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يجعلها في ذات الله ؛ وذلك لأنه لا يجعل في جنب الله وذاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا ، والمعاريض التي ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه ، كما قال : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وهذا لو صدر منا لكان لله ، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا . والله أعلم .

الرابعة — قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض ، وإن كانت معاريض وحسنات وحججا في الخلق ودلالات ، لكنها أثرت في الرتبة ، وخفضت عن محمد المنزلة ، واستحيا منها قائلها ، على ما ورد في حديث الشفاعة ؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله ؛ فإن الذي كان يليق بمرتبته في النبوة والخُلَّة ، أن يصدع بالحق ويصرح بالأمر كيفما كان ، ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ما كان من القصة ؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة " إنما اتخذت خليلا من وراءَ وراءَ " بنصب وراء فيهما على البناء كخمسة عشر ، وكما قالوا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥ ما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) الزيادة من « أحكام القرآن » لابن العربي .

جارى بَيْتَ بَيْتَ . ووقع فى بعض نسخ مسلم "من وراءَ من وراءُ" بإعادة من ، وحينئذ لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبنى كل واحد منهما على الضم ؛ لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف كقبل وبعد ، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف ؛ لأن ألفه للتأنيث ؛ لأنهم قالوا فى تصغيرها وريية ؛ قال الجوهرى : وهى شاذة . فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود « مِن » فيهما . والمعنى إنى كنت خليلا متأخرا عن غيرى . ويستفاد من هذا أن الخُلَّة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له فى ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم. وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته ، المتفطن لصحة حجة خصمه . ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى بعبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفأس .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فـ﴿ قَالَ ﴾ قاطعا لما به يهذون ، ومفحما لهم فيما يتقولون ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ ﴾ أى النتن لكم ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : « نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى طأطؤا رءوسهم خجلا من إبراهيم ، وفيه نظر ؛ لأنه لم يقل نكسوا رءوسهم ، بفتح الكاف بل قال « نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى ردوا على ما كانوا عليه فى أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ ﴾ لما ٱنقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم وٱنصرفوا إلى طريق الغَشْم والغلبة وقالوا حرّقوه . روى أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس ؛ أى من باديتها ؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج . ويقال : ٱسمه هيزر[(١)] فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . وقيل : بل قاله ملكهم نمرود . ﴿ وَٱنصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ بتحريق إبراهيم لأنه يسبها ويعيبها . وجاء فى الخبر : أن نمرود بنى صرحا طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا . قال ابن إسحق : وجمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها ، وٱشتعلت وٱشتدت ، حتى أن كان الطائر يمر بجنباتها فيحترق من شدّة وهجها . ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه فى المنجنيق مغلولا . ويقال : إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ . فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق ، إلا الثقلين ضجة واحدة : ربنا ! إبراهيم ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره يُحرَق فيك فأذنْ لنا فى نُصرته . فقال الله تعالى : « إن ٱستغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه » فلما أرادوا إلقاءه فى النار ، أتاه خُزّان الماء — وهو فى الهواء — فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء . فقال : لا حاجة لى إليكم . وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النار . فقال : لا . ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : « اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض ليس أحد يعبدك غيرى حسبى الله ونعم الوكيل » . وروى أُبىّ بن كعب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه فى النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك " قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع ، فٱستقبله جبريل ؛ فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : « أمّا إليك فلا » . فقال جبريل : فاسأل ربك . فقال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » . فقال

(١) وقيل : اسمه « هيزن » كما فى تاريخ الطبرى وتفسيره . وقيل : « هيون » .

الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال بعض العلماء : جعل الله فيها بردا يرفع حرها ، وحرا يرفع بردها ، فصارت سلاما عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل « بَرْدًا وَسَلَامًا » لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل « على إبراهيم » لكان بردها باقيا على الأبد . وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زربية (١) من الجنة فبسطها فى الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة . وقال علىّ وابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت ظنت أنها تعنى . قال السدى : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره و يطرح ثمرته . وقال كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وِثاقه . فأقام فى النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب من النار ، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلى . وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : « ما كنت أياما قط أنعم منى فى الأيام التى كنت فيها فى النار » . وقال كعب وقتادة والزهرى : ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ؛ فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها فويسقة . وقال شعيب الجِمّانى : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست عشرة سنة . وقال ابن جريج : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست وعشرين سنة . ذكر الأول الثعلبى ، والثانى الماوردى ؛ فالله أعلم . وقال الكلبى : بردت نيران الأرض جميعا فما أنضجت كراعا ، فرآه نمرود من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل . فقال : نعم الربّ ربّك ! لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكفّ عنه .

قوله تعالى : وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾

(١) الزربية : الطنفسة ، وقيل : البساط ذو الخمل ، وزاياها مثلثة .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ أى أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا به ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ فى أعمالهم، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا. قال ابن عباس[1]: سلط الله عليهم أضعف خلقه البعوض، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدة فى منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه، وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمرزبة من حديد. فأقام بهذا نحوا من أربعمائة سنة.

قوله تعـالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يريد نجينا إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام وكانا بالعراق، وكان [إبراهيم][2] عليه السلام عمه؛ قاله ابن عباس. وقيل: لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها؛ ولأنها معادن الأنبياء. والبركة ثبوت الخير، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح. وقال ابن عباس: الأرض المباركة مكة. وقيل: بيت المقدس؛ لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء، وهى أيضا كثيرة الخصب والنمو، عذبة المـاء، ومنها يتفرق فى الأرض. قال أبو العالية: ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التى ببيت المقدس، ثم يتفرق فى الأرض. ونحوه عن كعب الأحبار. وقيل: الأرض المباركة مصر.

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أى زيادة؛ لأنه دعا فى إسحق وزيد فى يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة؛ أى زيادة على ما سأل؛ إذ قال: « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ». ويقال لولد الولد نافلة؛ لأنه زيادة على الولد. ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أى وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله. وجعلهم صالحين إنما يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم، وبخلق القدرة على الطاعة، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى.

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات. ومعنى « بِأَمْرِنَا » أى بما أنزلنا عليهم من الوحى والأمر والنهى؛ فكأنه قال يهدون بكتابنا. وقيل: المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق، ودعائهم إلى التوحيد. ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات. ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ أى مطيعين.

(١) سبق أن نبهنا على أن ابن عباس يكذب عليه بعض الرواة. (٢) فى الأصل: «لوط» وهو تحريف.

قوله تعالى : وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ «لوطا» منصوب بفعل مضمر دل عليه الثانى؛ أى وآتينا لوطا آتيناه . وقيل : أى وآذكر لوطا . والحكم النبوّة ، والعلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : «عِلْمًا» فهما؛ والمعنى واحد . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ يريد سَدُوم . ابن عباس : كانت سبع قرى، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زُغَر التى فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حد السراة ؛ ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز . وفى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما — اللواط على ما تقدّم . والثانى — الضراط ؛ أى كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم . وقيل : الضراط وحذف الحصى وسيأتى . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله، والفسوق الخروج وقد تقدّم . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ فى النبوّة . وقيل : فى الإسلام . وقيل : الجنة . وقيل : عنى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أى وآذكر نوحا إذ نادى ؛ أى دعا . « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » وقال لما كذبوه : « أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » . ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أى من الغرق . والكرب الغم الشديد « وَأَهْلَهُ » أى المؤمنين منهم . ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ قال أبو عبيدة : « مِنْ » بمعنى على . وقيل : المعنى فانتقمنا له « مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » . ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى الصغير منهم والكبير .

قوله تعالى : وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

فيه ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أى وآذكرهما إذ يحكمان ، ولم يرد بقوله « إذ يحكمان » الآجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ؛ فإن حكمين على حكم واحد لا يجوز . وإنما حكم كل واحد منهما على آنفراده ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه . ﴿ فِي ٱلْحَرْثِ ﴾ اختلف فيه على قولين : فقيل : كان زرعا ؛ قاله قتادة . وقيل : كرما نبتت عناقيده ؛ قاله ابن مسعود وشريح . و « الحرث » يقال فيهما ، وهو فى الزرع أبعد من الآستعارة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ أى رعت فيه ليلا ؛ والنفش الرعى بالليل . يقال : نفشت بالليل ، وهَمَلت بالنهار ، إذا رعت بلا راعٍ . وأنفشها صاحبها . وإبلٌ نُفَّاش . وفى حديث عبد الله بن عمرو : الحبة فى الجنة مثل كرش البعير يبيت نافشا ؛ أى راعيا ؛ حكاه الهروى . وقال ابن سيده : لا يقال الهَمَل فى الغنم ، وإنما هو فى الإبل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ دليل على أن أقل الجمع آثنان . وقيل : المراد الحاكمان والمحكوم عليه ؛ فلذلك قال « لحكمهم » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أى فهمناه القضية والحكومة ، فكنى عنها إذ سبق ما يدل عليها . وفضل حكم سليمان حكم أبيه فى أنه أحرز أن يبقى كل واحد منهما على متاعه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك ؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث . وقالت فرقة : بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب الغنم . قال ابن عطية : فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التى أفسدت . وعلى القول

الثانى رآها تقاوم الحرث والغلة؛ فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما نبى الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فقال لعل الحكم غير هذا انصرفا معى. فأتى أباه فقال: يا نبىّ الله إنك حكمت بكذا وكذا وإنى رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغى أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التى أصابته الغنم فى السنة المقبلة، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفقت يا بنىّ لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما. قال الكلبى: قوّم داود الغنم والكرم الذى أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريبا منه. وأما فى حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضا.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأوّل قوم أن داود عليه السلام لم يخطئ فى هذه النازلة، بل فيها أوتى الحكم والعلم. وحملوا قوله: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه. وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة فى هذه النازلة، وإنما مدحه الله بأن له حكما وعلما يرجع إليه فى غير هذه النازلة. وأما فى هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام، ولا يمتنع وجود الغلط والخطإ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يقرّون عليه، وإن أقرّ عليه غيرهم. ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت؛ فأجابه الوليد «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا». وقال قوم: كان داود وسليمان — عليهما السلام — نبيين يقضيان بما يوحى إليهما، فحكم داود بوحى،

وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود، وعلى هذا « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » أى بطريق الوحى الناسخ لما أوحى إلى داود ، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود ، ولهذا قال : « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » . هذا قول جماعة من العلماء ومنها ابن فورك . وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد وهى :

السادسة — وآختلف العلماء فى جواز الآجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم ، وجوّزه المحققون؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية ؛ لأنه دليل شرعى فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى : إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكمى فبلغه الأمة؛ فهذا غير مستحيل فى العقل . فإن قيل : إنما يكون دليلا إذا عدم النص وهم لا يعدمونه . قلنا : إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم، وصاروا فى البحث كغيرهم من المجتهدين عن معانى النصوص التى عندهم . والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ، وعن الغلط، وعن التقصير فى آجتهادهم ، وغيرهم ليس كذلك . كما ذهب الجمهور فى أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط فى آجتهادهم . وذهب أبو على ابن أبى هريرة من أصحاب الشافعى إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم فى جواز الخطأ عليهم ، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه، ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بُعث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه . وقد قيل : إنه على العموم فى جميع الأنبياء، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى تجويز الخطإ على سواء إلا أنهم لا يقرون على إمضائه ، فلم يعتبر فيه آستدراك من بعدهم من الأنبياء . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سألته آمرأة عن العِدّة فقال لها : "آعتدّى حيث شئت" ثم قال لها : "آمكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله" . وقال له رجل : أرأيت إن قُتِلت صبرا محتسبا أيحجزنى عن الجنة شىء؟ فقال : "لا" ثم دعاه فقال : "إلا الدَّين كذا أخبرنى جبريل عليه السلام" .

السابعة — قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، وعذر داود باجتهاده . وقد آختلف الناس فى المجتهدين فى الفروع إذا

آختلفوا ؛ فقالت فرقة : الحق فى طرف واحد عند الله ، وقد نصب على ذلك أدلة ، وحمل المجتهدين على البحث عنها ، والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة فى المسئلة فهو المصيب على الإطلاق ، وله أجران أجر فى الآجتهاد وأجر فى الإصابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب فى آجتهاده مخطئ فى أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور . وهذا سليمان قد صادف العين المطلوبة ، وهى التى فهم . ورأت فرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه فى خطئه وإن كان غير معذور . وقالت فرقة : الحق فى طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل [بل](١) وكل الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور، ولم يتعبد بإصابته العين بل تعبدنا بالآجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضى الله عنهم : إن الحق فى مسائل الفروع فى الطرفين ، وكل مجتهد مصيب ، والمطلوب إنما هو الأفضل فى ظنه ، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل فى ظنه ؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة فمن بعدهم قرر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الآنحمال على قوله دون قول مخالفه . ومنه ردّ مالك رحمه الله للمنصور أبى جعفر عن حمل الناس على « الموطأ » ؛ فإذا قال عالم فى أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى وبكل من أخذ بقوله ، وكذا فى العكس . قالوا : وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المثلى والتى هى أرجح فالأولى ليست بخطإ ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : "إذا آجتهد العالم فأخطأ" أى فأخطأ الأفضل .

الثامنة — روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر" هكذا لفظ الحديث فى كتاب مسلم " إذا حكم فاجتهد " فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد، والأمر بالعكس ؛ فإن الاجتهاد مقدّم على الحكم ، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع . وإنما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم ، كما قال : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ » فعند

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ذلك أراد أن يجتهد فى النازلة . ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون : إن المجتهد يجب عليه أن يجدد نظرا عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدّم لإمكان أن يظهر له ثانيا خلاف ما ظهر له أولا، اللهم إلا أن يكون ذاكرا لأركان اجتهاده، مائلا إليه، فلا يحتاج إلى استئناف نظر فى أمارة أخرى .

التاسعة — إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس، وقضاء من مضى؛ لأن ٱجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط، فأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطإ فى الحكم، بل يخاف عليه أعظم الوزر . يدل على ذلك حديثه الاخر؛ رواه أبو داود : "القضاة ثلاثة" الحديث . قال ابن المنذر : إنما يؤجر على ٱجتهاده فى طلب الصواب لا على الخطأ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » الآية . قال الحسن : أثنى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة — ذكر أبو التمام المالكى أن مذهب مالك أن الحق فى واحد من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك فى أقاويل المختلفين، وبه قال أكثر الفقهاء . قال : وحكى ٱبن القاسم أنه سأل مالكا عن ٱختلاف الصحابة، فقال : مخطئ ومصيب، وليس الحق فى جميع أقاويلهم . وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين . واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو؛ قالوا : وهو نص على أن فى المجتهدين وفى الحاكمين مخطئا ومصيبا؛ قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدّى إلى كون الشيء حلالا حراما، وواجبا ندبا . وٱحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب "ألا لا يصلينّ أحدٌ العصر إلا فى بنى قُرَيظة" فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قُرَيظة، وقال الآخرون : لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت، قال : فما عنف واحدا من الفريقين؛ قالوا : فلوكان أحد الفريقين مخطئا لعيّنه النبى صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور،

فاستغنى عن تعيينه . والله أعلم . ومسئلة الاجتهاد طويلة متشعبة، وهذه النبذة التى ذكرناها كافية فى معنى الآية، والله الموفق للهداية .

الحادية عشرة — ويتعلق بالآية فصل آخر: وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف فى ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّف فى «الواضحة» : ذلك له ما دام فى ولايته؛ فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك، وهو بمنزلة غيره من القضاة . وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله فى «المدونة» . وقال سحنون فى رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك؛ وقاله ابن عبد الحكم . قالا : ويستأنف الحكم بما قوى عنده. قال سحنون : إلا أن يكون نسى الأقوى عنده فى ذلك الوقت، أو وهم فحكم بغيره فله نقضه؛ وأما إن حكم بحكم هو الأقوى عنده فى ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل إلى نقض الأول؛ قاله سحنون فى كتاب ابنه . وقال أشهب فى كتاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب فى مال فله نقض الأول، وإن كان فى طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضى عما حكم به إذا تبين له أن الحق فى غيره ما دام فى ولايته أولى . وهكذا فى رسالة عمر إلى أبى موسى رضى الله عنهما؛ رواها الدارقطنى، وقد ذكرناها فى « الأعراف » ولم يفصل؛ وهى الحجة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضى إذا قضى تجوّزا وبخلاف أهل العلم فهو مردود، وإن كان على وجه الاجتهاد؛ فأما أن يتعقب قاضٍ حكم قاضٍ آخر فلا يجوز ذلك له؛ لأن فيه مضرة عظمى من جهة نقض الأحكام، وتبديل الحلال بالحرام، وعدم ضبط قوانين الإسلام، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانية عشرة — قال بعض الناس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكما وإنما كانت فتيا .

قلت : وهكذا تؤول فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : بينما آمرأتان معهما آبناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بآبنك أنت . وقالت الأخرى : إنما ذهب بآبنك ؛ فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ؛ فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه ؛ فقال : آئتونى بالسكين أشقه بينكما ؛ فقالت الصغرى : لا — يرحمك الله — هو آبنها ؛ فقضى به للصغرى ؛ قال أبو هريرة : إنْ سمعتُ بالسكين قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المُدْية ؛ أخرجه مسلم . فأما القول بأن ذلك من داود فتيا فهو ضعيف ؛ لأنه كان النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتياه حكم . وأما القول الآخر فيبعد ؛ لأنه تعالى قال : « إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا قوله فى الحديث : فقضى به للكبرى ؛ يدل على إنفاذ القضاء و إنجازه . ولقد أبعد من قال : إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هى كبرى ؛ لأن الكبر والصغر طرد محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والبياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع . والذى ينبغى أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب آقتضى عنده ترجيح قولها . ولم يذكر فى الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ، فيمكن أن الولد كان بيدها ، وعلم عجز الأخرى عن إقامة البينة ، فقضى به لها إبقاء لما كان على ما كان . وهذا التأويل أحسن ما قيل فى هذا الحديث . وهو الذى تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التى يبعد آختلاف الشرائع فيها . لا يقال : فإن كان داود قضى بسبب شرعى فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه ؛ فالجواب : أن سليمان عليه السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض ، و إنما آحتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق الصغرى ؛ وهى أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ؛ فظهر له من قرينة الشفقة فى الصغرى ، وعدم ذلك فى الكبرى ، مع ما عساه آنضاف إلى ذلك من القرائن ما حصل له العلم بصدقها فحكم لها . ولعله كان ممن سوغ له أن يحكم بعلمه . وقد ترجم النسائى على هذا الحديث « حكم الحاكم بعلمه » . وترجم له أيضا « السعة للحاكم أن يقول

للشيء الذى لا يفعله أَفْعُلُ ليستبين الحق» . وترجم له أيضا «نقض الحاكم لا يحكم به غيره ممن هو مثله أو أجلّ منه» . ولعل الكبرى آعترفت بأن الولد للصغرى عند ما رأت من سليمان الحزم والجد فى ذلك، فقضى بالولد للصغرى؛ و يكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف حضر من استخرج من المنكر ما أوجب إقراره، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين و بعدها، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأول، لكن من باب تبدّل الأحكام بحسب تبدّل الأسباب . والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ لهم الحكم بالآجتهاد؛ وقد ذكرناه . وفيه من الفقه آستعمال الحكام الحيل التى تستخرج بها الحقوق، وذلك يكون عن قوة الذكاء والفطنة، وممارسة أحوال الخلق؛ وقد يكون فى أهل التقوى فراسة دينية، وتوسمات نورية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفيه الحجة لمن يقول : إن الأم تُستلحَق؛ وليس مشهور مذهب مالك، وليس هذا موضع ذكره . وعلى الجملة فقضاء سليمان فى هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله : «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» .

الثالثة عشرة — قد تقدّم القول فى الحرث والحكم فى هذه الواقعة فى شرعنا : أن على أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم و زروعهم بالنهار، ثم الضمان فى المثل بالمثليات، و بالقيمة فى ذوات القيم . والأصل فى هذه المسئلة فى شرعنا ما حكم به نبينا صلى الله عليه وسلم فى ناقة البراء بن عازب . رواه مالك عن آبن شهاب عن حرام بن سعد بن مُحَيِّصة : أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالليل، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن[1] على أهلها . هكذا رواه جميع الرواة مرسلا . وكذلك رواه أصحاب آبن شهاب عن ابن شهاب، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهرى عن سعيد وحرام بن سعد بن مُحَيِّصة : أن ناقة؛ فذكر مثله بمعناه . ورواه آبن أبى ذئب عن آبن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم؛ مثل حديث مالك سواء، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن محيصة ولا غيره . قال أبو عمر : لم يصنع آبن أبى ذئب

(١) ضامن بمعنى مضمون .

شيئا ؛ إلا أنه أفسد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن حرام بن محيصة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه . ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال : حدثنى أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت فى حائط قوم فأفسدت ؛ فجعل الحديث لابن شهاب عن أبى أمامة ، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء . وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن مُحَيِّصة ، وعن سعيد بن المسيّب ، وعن أبى أمامة — والله أعلم — فحدَّث به عمن شاء منهم على ما حضره وكلهم ثقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث وإن كان مرسلا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة ، وحدَّث به الثقات ، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول ، وجرى فى المدينة العمل به ، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة — ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شىء ، وأدخل فسادها فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم : "جُرح العجماء جُبَار" فقاس جميع أعمالها على جرحها . ويقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول ، ولا حجة له ولا لمن اتبعه فى حديث العجماء ، وكونه ناسخا لحديث البراء ومعارضا له ؛ فإن النسخ شروطه معدومة ، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن استعمال أحدهما إلا بنفى الآخر ، وحديث "العجماء جرحها جبار" عموم متفق عليه ، ثم خص منه الزرع والحوائط بحديث البراء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه فى حديث واحد : العجماء جرحها جبار نهارا لا ليلا وفى الزرع والحوائط والحرث ، لم يكن هذا مستحيلا من القول ؛ فكيف يجوز أن يقال فى هذا متعارض ؟ ! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور فى الأصول .

الخامسة عشرة — إن قيل : ما الحكمة فى تفريق الشارع بين الليل والنهار ، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشى بالليل والنهار كل ما أفسدت ، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح ، وذلك أن أهل المواشى لهم ضرورة إلى إرسال

مواشيهم ترعى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عمن أراده، بجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع؛ لأنه وقت التصرف فى المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى : «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذى يرجع كل شيء إلى موضعه وسكنه؛ كما قال الله تعالى : «مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ» وقال : «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا» ويرد أهل المواشى مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرط صاحب الماشية فى ردها إلى منزله، أو فرط فى ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئا فعليه ضمان ذلك، بجرى الحكم على الأوفق الأسمح، وكان ذلك أرفق بالفريقين، وأسهل على الطائفتين، وأحفظ للمالين، وقد وضح الصبح لذى عينين، ولكن لسليم الحاستين؛ وأما قول الليث : لا يضمن أكثر من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر : لا أعلم من أين قال هذا الليث بن سعد، إلا أن يجعله قياسا على العبد الجانى لا يفتك بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيده فى جنايته أكثر من قيمته، وهذا ضعيف الوجه؛ كذا قال فى «التمهيد» وفى «الاستذكار» نخالف الحديث فى "العجماء جرحها جبار" وخالف ناقة البراء، وقد تقدّمه إلى ذلك طائفة من العلماء منهم عطاء . قال ابن جريج قلت لعطاء : الحرث تصيبه الماشية ليلا أو نهارا؟ قال : يضمن صاحبها ويغرم . قلت : كان عليه حظرا أو لم يكن ؟ قال : نعم ! يغرم . قلت : ما يغرم ؟ قال : قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته . وقال معمر عن ابن شُبْرُمة : يقوّم الزرع على حاله التى أصيب عليها دراهم . وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : يضمن رب الماشية ليلا أو نهارا، من طرق لا تصح .

السادسة عشرة — قال مالك : ويقوم الزرع الذى أفسدت المواشى بالليل على الرجاء والخوف . قال : والحوائط التى تحرس والتى لا تحرس، والمحظر عليها وغير المحظر سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغا ما بلغ، وإن كان أكثر من قيمتها . قال : وإذا انفلتت دابة بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئا، وإنما هذا فى الحائط والزرع والحرث؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم . وقال ابن القاسم : ماأفسدت الماشية بالليل فهو فى مال ربها،

وإن كان أضعاف ثمنها؛ لأن الجناية من قبله إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة — ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل فى سنّ الصغير . وقال عيسى عن ابن القاسم : قيمته لو حل بيعه . وقال أشهب وابن نافع فى المجموعة عنه : وإن لم يبد صلاحه . ابن العربى : والأول أقوى لأنها صفته فتقوّم كما يقوم كل متلف على صفته .

الثامنة عشرة — لو لم يقض للمفسد له بشىء حتى نبت وٱنجبر فإن كان فيه قبل ذلك منفعة رعى أو شىء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصبغ : يضمن؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يعتد له به .

التاسعة عشرة — وقع فى كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء فى أمثال المدينة التى هى حيطان محدقة، وأما البلاد التى هى زروع متصلة غير مُحظَّرة، وبساتين كذلك، فيضمن أرباب النَّعم ما أفسدت من ليل أو نهار؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان فى مثل هذه البلاد تعدّ؛ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

الموفية عشرين — قال أصبغ فى المدينة : ليس لأهل المواشى أن يخرجوا مواشيهم إلى قرى الزرع بغير ذوّاد؛ فركب العلماء على هذا أن البقعة لا تخلو أن تكون بقعة زرع، أو بقعة سرح، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح، وعلى أربابها حفظها، وما أفسدت فصاحبها ضامن ليلا أو نهارا؛ وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب الذى حرّثه فيها حفظه، ولا شىء على أرباب المواشى .

الحادية والعشرون — المواشى على قسمين : ضوارى وحَريسة وعليهما قسمها مالك . فالضوارى هى المعتادة للزرع والثمار، فقال مالك : تُغَرَّب وتباع فى بلد لا زرع فيه؛ رواه ابن القاسم فى الكتاب وغيره . قال ابن حبيب : وإن كره ذلك ربها، وكذلك قال مالك فى الدابة التى ضريت فى إفساد الزرع : تغرب وتباع . وأما ما يستطاع الاحتراس منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانيـة والعشرون — قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالماشية، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن [ضريت](١)، وعلى أهل القرية حفظ زروعهم . قال ابن العربي : وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها من أراد أن يجد ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مُكِّن منه، وأما انتفاعه بما يتخذه بإضراره بأحد فلا سبيل إليه . قال عليه السلام : "لا ضرر ولا ضرار" وهذه الضواري عن ابن القاسم في المدينة لا ضمان على أربابها إلا بعد التقدم . ابن العربي : وأرى الضمان عليهم قبل التقدم إذا كانت ضواري .

الثالثـة والعشرون — ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل حائك فاختصموا إلى شُرَيح ، فقال الشّعبي : انظروه فإنه سيسألهم ليلا وقعت فيه أو نهارا ؛ ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريح « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » قال : والنَّفْش بالليل والهَمَل بالنهار .

قلت : ومن هـذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "العجماء جرحها جبار" الحديث . وقال ابن شهاب : والجبار الهدر، والعجماء البهيمة ؛ قال علماؤنا : ظاهر قوله : "العجماء جرحها جبار" أن ما انفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء، وهذا مجمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فحملها أحدهم على شيء فأتلفته لزمه حكم المتلف؛ فإن كانت جناية مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمدا كان فيه القصاص ولا يختلف فيه؛ لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العاقلة . وفي الأموال الغرامة في مال الجاني .

الرابعـة والعشرون — واختلفوا فيمن أصابته برجلها أو ذنبها، فلم يضمّن مالك والليث والأوزاعي صاحبها ، وضمّنه الشافعي وابن أبي ليلى وابن شُبْرُمة . واختلفوا في الضارية فجمهورهم أنها كغيرها، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامسـة والعشرون — روى سفيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الرِّجل جبار" قال الدار قطني : لم يروه

(١) في الأصل : «أضرت» . والتصويب من «الموطأ» .

غير سفيان بن حسين ولم يتابع عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهرى منهم مالك وابن عيينة ويونس ومعمر وابن جريج والزبيدى وعقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم رووه عن الزهرى فقالوا: "العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار" ولم يذكروا الرِّجل وهو الصواب. وكذلك روى أبو صالح السمان، وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبى هريرة، ولم يذكروا فيه "والرِّجل جبار" وهو المحفوظ عن أبى هريرة.

السادسة والعشرون — قوله: "والبئر جُبار" قد روى موضعه "والنار" قال الدارقطنى: حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشمى حدّثنا حنبل بن إسحق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول فى حديث عبد الرزاق: حديث أبى هريرة "والنار جبار" ليس بشىء لم يكن فى الكتاب باطل ليس هو بصحيح. حدّثنا محمد بن مخلد حدّثنا إسحق بن إبراهيم بن هانئ قال سمعت أحمد بن حنبل يقول: أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البير؛ يعنى مثل ذلك. وإنما لقن عبد الرزاق "النار جبار". وقال الرمادى: قال عبد الرزاق قال معمر لا أراه إلا وَهَما. قال أبو عمر: روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "النار جُبار" وقال يحيى بن معين: أصله البئر ولكن معمرا صحّفه. قال أبو عمر: لم يأتِ ابن معين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا ترد أحاديث الثقات. ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيى بن يحيى الغسانى قال: أحرق رجل سافى قَرَاح[1] له فخرجت شررة من نار حتى أحرقت شيئا لجاره. قال: فكتبت فيه إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه آبن حصين فكتب إلىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العجماء جبار" وأرى أن النار جبار. وقد روى "والسائمة جبار" بدل العجماء فهذا ما ورد فى ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور فى شرح الحديث وكتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ قال وهب: كان داود يمر بالجبال مسبّحا والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير. وقيل: كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت

(١) قراح: مزرعة.

حتى يشتاق؛ ولهذا قال: «وَسَخَّرْنَا» أى جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح . وقيل: إن سيرها معه تسبيحها ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ؛ دليله قوله تعالى : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » . وقال قتادة : « يُسَبِّحْنَ » يصلين معه إذا صلى ، والتسبيح الصلاة . وكل محتمل. وذلك فعل الله تعالى بها ؛ ذلك لأن الجبال لاتعقل فتسبيحها دلالة على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمحدثين .

قوله تعالى : وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ يعنى اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له ، واللبوس عند العرب السلاح كله؛ درعا كان أو جَوْشنا أو سيفا أو رمحا . قال الهُذَلى[1] يصف رمحا :

ومَعِى لَبُوسٌ لِلبَئِيسِ كأنَّهُ * رَوْقٌ بجبهة ذِى نِعَاجٍ مُجْفِلِ

واللبوس كل مايلبس، وأنشد ابن السكيت[2] :

ٱلْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَهَا * إمَّا نَعِيمَهَا و إمَّا بُوسَهَا

وأراد الله تعالى هنا الدّرع ، وهو بمعنى الملبوس نحو الرّكوب والحلوب . قال قتادة : أوّل من صنع الدروع داود . و إنما كانت صفائح، فهو أوّل من سردها وحلقها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لِيُحْصِنَكُمْ[3] ﴾ ليحرزكم . ﴿ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ أى من حربكم. وقيـل : من السيف والسهم والرمح ، أى من آلة بأسكم فحذف المضاف . ابن عباس : « مِنْ بَأْسِكُمْ » من سلاحكم . الضحاك : من حرب أعدائكم . والمعنى واحد . وقرأ الحسن

---

(١) هو أبو كبير الهذلى، وآسمه عامر بن الحليس من قصيدة أولها :

أزهير هل عن شيبة من معدل * أم لا سبيل إلى الشباب الأول

والبئيس : الشجاع . والروق : القرن . وذو نعاج : يعنى ثورا ؛ والنعاج : البقر من الوحش .

(٢) البيت لبيهس الفزارى . (٣) « ليحصنكم » بالياء قراءة نافع .

وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح « لِتُحْصِنَكُمْ » بالتاء ردا على الصفة . وقيل: على اللبوس والمنعة التي هي الدروع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبي إسحق «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون لقوله : « وَعَلَّمْنَاهُ » . وقرأ الباقون بالياء جعلوا الفعل للبوس، أو يكون المعنى ليحصنكم الله . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أى على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل : « هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » بأن تطيعوا رسولى .

الثالثة — هذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلقه فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة ، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة . وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع ، وكان أيضا يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطا ، وطالوت دباغا . وقيل: سقاء ؛ فالصنعة يكفّ بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس . وفى الحديث : «إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفّف ويبغض السائل الملحف» . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الفرقان»(١) . وقد تقدم فى غير ما آية ، وفيه كفاية والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ، أى شديدة الهُبوب . يقال منه : عَصفت الريحُ أى اشتدت فهى ريح عاصفٌ وعَصُوف . وفى لغة بنى أسد : أَعصفت الريحُ فهى مُعْصِف ومُعْصِفة . والعَصْف التِّبن فسمى به شدة الريح ؛

(١) راجع المسئلة الثالثة من تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ... الخ » آية ٢٠ من السورة المذكورة .

لأنها تعصفه بشدة تطيرها . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسُّلَمى وأبو بكر « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ » برفع الحاء على القطع مما قبله؛ والمعنى ولسليمان تسخير الريح؛ ابتداء وخبر . ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعنى الشام . يروى أنها كانت تجرى به و بأصحابه إلى حيث أراد، ثم تردّه إلى الشام . وقال وهب : كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره . وكان آمرأ غزّاء لا يقعد عن الغزو؛ فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشُب فمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة الحرب، ثم أمر العاصف فأقلت ذلك، ثم أمر الرخاء فمرت به شهرا فى رواحه وشهرا فى غدوّه، وهو معنى قوله تعالى : « تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » . والرخاء اللينة . ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ أى بكل شيء عملنا عالمين بتدبيره .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى وسخرنا له من يغوصون؛ يريد تحت الماء . أى يستخرجون له الجواهر من البحر . والغَوْص النزول تحت الماء، وقد غاص فى الماء، والهاجم على الشيء غائص . والغوّاص الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ، وفعله الغِيَاصة . ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أى سوى ذلك من الغَوْص؛ قاله الفراء . وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخّرهم فيه . ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أى لأعمالهم . وقال الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم، أو يهيجوا أحدا من بنى آدم فى زمان سليمان . وقيل : «حافظين» من أن يهربوا أو يمتنعوا . أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . وقد قيل : إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين .

قوله تعالى : وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أى واذكر أيوب إذ نادى ربه . ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أى نالنى فى بدنى ضرّ وفى مالى وأهلى . قال ابن عباس : سمى أيوب لأنه آب إلى الله تعالى فى كل حال . وروى أن أيوب عليه السلام كان رجلا من الروم ذا مال عظيم ، وكان برّا تقيا رحيما بالمساكين ، يكفل الأيتام والأرامل ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، شاكرا لأنعم الله تعالى ، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه فى أمر ، فجعل أيوب يلين له فى القول من أجل زرع كان له فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله ، وبالضر فى جسمه حتى تناثر لحمه وتدوّد جسمه ، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية ، وكانت امرأته تخدمه . قال الحسن : مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر . فلما أراد الله أن يفرج عنه قال الله تعالى له : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » فيه شفاؤك ، وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم . وسيأتى فى « ص »(1) ما للمفسرين فى قصة أيوب من تسليط الشيطان عليه ، والرد عليهم إن شاء الله تعالى . واختلف فى قول أيوب : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » على خمسة عشر قولا : الأول — أنه وثب ليصلى فلم يقدر على النهوض فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » إخبارا عن حاله ، لا شكوى لبلائه ؛ رواه أنس مرفوعا . الثانى — أنه إقرار بالعجز فلم يكن منافيا للصبر . الثالث — أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده فى الإفصاح بما ينزل بهم . الرابع — أنه أجراه على لسانه إلزاما له فى صفة الآدمى فى الضعف عن تحمل البلاء . الخامس — أنه انقطع الوحى عنه أربعين يوما فخاف هجران ربه فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . وهذا قول جعفر بن محمد . السادس — أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أفضت حاله إلى ما آنتهت إليه محوا ما كتبوا عنه ، وقالوا : ما لهذا عند الله قدر ؛ فاشتكى الضر فى ذهاب الوحى والدين من أيدى الناس . وهذا مما لم يصح سنده . والله أعلم ؛ قاله ابن العربى . السابع — أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها فى موضعها فعقرته فصاح « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » فقيل : أعلينا تتصبر . قال ابن العربى : وهذا بعيد جدا

(1) راجع تفسير قوله تعالى : « وآذكر عبدنا أيوب ... الخ » آية ٤١

مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح ، ولا سبيل إلى وجوده . الثامن — أن الدود كان يتناول بدنه فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » لاشتغاله عن ذكر الله . قال ابن العربى : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة . التاسع — أنه أبهم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب ، أو تعذيب ، أو تخصيص ، أو تمحيص ، أو ذُخر أو طهر ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » أى ضرّ الإشكال فى جهة أخذ البلاء . قال ابن العربى : وهذا غلوّ لا يحتاج إليه . العاشر — أنه قيل له سل الله العافية فقال : أقمت فى النعيم سبعين سنة وأقيم فى البلاء سبع سنين وحينئذ أسأله فقال : « مسَّنِيَ الضُّرُّ » . قال ابن العربى : وهذا ممكن ولكنه لم يصح فى إقامته مدةً خبرٌ ولا فى هذه القصة . الحادى عشر — أن ضره قول إبليس لزوجه آسجدى لى فخاف ذهاب الإيمان عنها فتهلك ويبقى بغير كافل . الثانى عشر — لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا وقذره فليخرج عنا ، فأخرجته آمرأته إلى ظاهر البلد ؛ فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته ، فقالوا : ليبعد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعدٍ من القرية ، فكانت آمرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضره إلينا . فأرادوا قطعها عنه ؛ فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . الثالث عشر — قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من نتن ريحه ، فقال أحدهما : لو علم الله فى أيوب خيرا ما آبتلاه بهذا البلاء ؛ فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة ؛ فعند ذلك قال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » ثم قال : «اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شبعان قط وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى » فنادى مناد من السماء « أن صدق عبدى » وهما يسمعان فخرا ساجدين . الرابع عشر — أن معنى « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » من شماتة الأعداء ؛ ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك فى بلائك ؟ قال شماتة الأعداء . قال ابن العربى : وهذا ممكن فإن الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال : « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ » . الخامس عشر — أن آمرأته كانت ذات ذوائب فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه

ما تعود به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتا وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها فى تصرفه وتنقله، فلما عدمها وأراد الحركة فى تنقله لم يقدر قال: « مَسَّنِيَ الضُّرُّ ». وقيل: إنها لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس فى صفة رجل وقال له: إن أهلك بغت فأخذت وحلق شعرها. فحلف أيوب أن يجلدها؛ فكانت المحنة على قلب المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر — ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وما أصابه من البلاء، الحديث. وفيه أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه قال: يا نبي الله لقد أعجبني أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك، أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفى جسدك، منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغتَ ما ترى؛ ألا يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنبتَ ذنبا ما أظن أحدا بلغه! فقال أيوب عليه السلام: « ما أدرى ما يقولان غير أن ربى عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان وكل يحلف بالله — أو على النفر يتزاعمون — فأنقلب إلى أهلى فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد ذَكَره ولا يذكره أحد إلا بالحق » فنادى ربه ﴿ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وإنما كان دعاؤه عَرْضا عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذى بلغه، صابرا لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث. وقول سابع عشر — سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردّها إلى موضعها فلم يجدها فقال: « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » لما فقد من أجر ألم تلك الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفرا إلى وقت العافية، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند. قال العلماء: ولم يكن قوله « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » جزعا؛ لأن الله تعالى قال: « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » بل كان ذلك دعاء منه، والجزع فى الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافى الرضا. قال الثعلبى سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء فى دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا »

فقالت : ليس هذا شكاية و إنما كان دعاء ؛ بيانه «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ» والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء . فاستحسنوه وارتضوه . وسئل الجنيد عن هذه الاية فقال : عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النّوال .

قوله تعالى : «فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك فى الجنة فإن شئت تركناهم لك فى الجنة و إن شئت آتيناكهم فى الدنيا . قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له فى الجنة وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح .

قلت : وحكاه المهدوى عن ابن عباس . وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا آمرأته فأحياهم الله عز وجل فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم . وقاله قتادة وكعب الأحبار والكلبي وغيرهم . قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفى نشروا له ، وولدت آمرأته سبعة بنين وسبع بنات . الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا آبتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة »[1] فى قصة « الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ » . وفى قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أحيوا[2] ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » فى الاخرة «وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» فى الدنيا . وفى الخبر: إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار ، وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان ، وغاص فى الماء غوصة فنبت لحمه وعاد إلى منزله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، ونشأت سحابة على قدر قواعد داره فأمطرت ثلاثة أيام بلياليها جرادا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠ طبعة أولى وثانية .
(٢) راجع جـ ١ ص ٤٠٤ ثانية أو ثالثة وجـ ٧ ص ٢٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

يشبع من الله! فضل . فأوحى الله إليه : قد أثنيت عليك بالصبر قبل وقوعك فى البلاء و بعده ، ولولا أنى وضعت تحت كل شعرة منك صبرا ما صبرت . ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أى فعلنا ذلك به رحمة من عندنا . وقيل : ابتليناه ليعظم ثوابه غدا . ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ أى وتذكيرا للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب ، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة ، واحتمال الضرر . واختلف فى مدة إقامته فى البلاء ؛ فقال ابن عباس : كانت مدّة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وهب : ثلاثين سنة . الحسن سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة ؛ رواه ابن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره ابن المبارك وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدّم ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ أى واذكرهم . وخرج الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » وغيره من حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله فاتبع امرأة فأعطاها ستين دينارا [على أن يطأها](1) فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت و بكت فقال ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال أأكرهتك قالت لا ولكن حملنى عليه الحاجة قال اذهبي فهو لك والله لا أعصى الله بعدها أبدا ثم مات من ليلته فوجدوا مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر لذى الكفل" وخرجه أبو عيسى الترمذى أيضا . ولفظه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين — حتى عدّ سبع مرات — [لم أحدث به](2) ولكنى سمعته أكثر من ذلك؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كان

(1) الزيادة من « الدر المنثور » . (2) الزيادة من صحيح الترمذى .

ذو الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته آمرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من آمرأته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أأكرهتك قالت لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملنى عليه إلا الحاجة فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته آذهبي فهى لك وقال والله لا أعصى الله بعدها أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه إن الله قد غفر لذى الكفل " قال: حديث حسن . وقيل إن اليسع لما كبر قال : لو استخلفت رجلا على الناس حتى أنظر كيف يعمل . فقال : من يتكفل لى بثلاث : بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضى ؟ فقال رجل من ذرية العيص : أنا ؛ فرده ثم قال مثلها من الغد؛ فقال الرجل : أنا؛ فاستخلفه فوفّى فأثنى الله عليه فسمى ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر ؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة . وقال عمرو بن عبد الرحمن بن الحرث وقال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن ذا الكفل لم يكن نبيا، ولكنه كان عبدا صالحا فتكفل بعمل رجل صالح عند موته ،وكان يصلى لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه . وقال كعب : كان فى بنى إسرائيل ملك كافر فمر ببلاده رجل صالح فقال : والله إن خرجت من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام . فعرض عليه فقال : ما جزائى؟ قال : الجنة — ووصفها له — قال : من يتكفل لى بذلك ؟ قال : أنا ؛ فأسلم الملك وتخلى عن المملكة وأقبل على طاعة ربه حتى مات ، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض : إن الله قد غفر لى وأدخلنى الجنة ووفّى عن كفالة فلان ؛ فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، ويتكفل لهم بما تكفل به للملك ، ففعل ذلك فآمنوا كلهم فسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا عفيفا يتكفل بشأن كل إنسان وقع فى بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه . وقيل : سمى ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له فى سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا فى زمانه . والجمهور على أنه ليس بنبي . وقال الحسن : هو نبى قبل إلياس . وقيل : هو زكريا بكفالة مريم . ﴿ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى على أمر الله والقيام بطاعته واجتناب معاصيه . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ أى وآذكر « ذَا النُّون » وهو لقب ليونس بن متى لابتلاع النون إياه . والنون الحوت . وفى حديث عثمان رضى الله عنه أنه رأى صبيا مليحا فقال : دَسِّموا نُونَته كى لاتصيبه العين . روى ثعلب عن ابن الأعرابى : النُّونة النقبة التى تكون فى ذقن الصبى الصغير ، ومعنى دسِّموا سوِّدوا . ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير : مغاضبا لربه عز وجل . واختاره الطبرى والقتبى واستحسنه المهدوى ، وروى عن ابن مسعود . وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لايعرف اللغة وهو قول صحيح . والمعنى : مغاضبا من أجل ربه ، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك . والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عُصى . وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة : "آشترطى لهم الولاء" من هذا . وبالغ القتبى فى نصرة هذا القول . وفى الخبر فى وصف يونس : إنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوّة تفسّخ تحتها تفسّخ الرُّبَع(١) تحت الحمل الثقيل ، فمضى على وجهه مضى الابق النادّ . وهذه المغاضبة كانت صغيرة . ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم . وقال ابن مسعود : أبق من ربه أى من أمر ربه حتى أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم . فإنه كان يتوعد قومه بنزول العذاب فى وقت معلوم ، وخرج من عندهم فى ذلك الوقت ، فأظلهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم ؛ فلذلك ذهب مغاضبا وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدّد . وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب ، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلا ليلبسها فلم يُنظر ، وقيل له : الأمر أعجل من ذلك — وكان فى خلقه ضيق — فخرج مغاضبا لربه ؛ فهذا قول وقول

(١) الربع : ما ولد من الإبل فى الربيع .

النحاس أحسن ما قيــل فى تأويله . أى خرج مغاضبا من أجل ربه، أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه . وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فارّا بنفسه، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله. روى معناه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شابا ولم يحمل أثقال النبوّة ؛ ولهذا قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوت » . وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه؛ لأن قومه لمـا لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل. وقالت فرقة منهم الأخفش : إنمـا خرج مغاضبا للملك الذى كان على قومه . قال ابن عباس : أراد شـعيا النبي والملك الذى كان فى وقتــه اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى ، وكان غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل،وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم، والأمر والسياسة إلى ملك قــد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبي ، وكان أوحى الله لشـعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا أمينا من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل فإنى ملق فى قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخلية عنهم . فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجى ؟ قال : لا . قال : فهل سمانى لك ؟ قال : لا. قال فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء . فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبي والملك وقومه، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان؛ فابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى : « فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » والمليم من فعل ما يلام عليه . وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى . وقيل : خرج ولم يكن نبيا فى ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بنى إسرائيل أن يأتى نينوى ؛ ليــدعو اهلها بأمر شـعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فخرج مغاضبا للملك ؛ فلما نجــا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به . وقال القشيرى : والأظهر أن هــذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتي بيانه في « والصافات »(١) إن شاء الله تعالى .

وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتل فغضب ، وخرج فارًّا على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تجر . فقال أهلها : أفيكم آبق ؟ فقال : أنا هو . وكان من قصته ما كان ، وٱبتلي ببطن الحوت تمحيصا من الصغيرة كما قال في أهل أحد : « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » إلى قوله : « وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » فمعاصي الأنبياء مغفورة، ولكن قد يجرى تمحيص ويتضمن ذلك زجرا عن المعاودة . وقول رابع : إنه لم يغاضب ربه، ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم غضب إذا أنف . وفاعَل قد يكون من واحد؛ فالمعنى أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقا . وينشد هذا البيت :

* وأغضب أن تُهجى تميم بدارم *

أي آنف . وهذا فيه نظر؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك المغاضبة وإن كانت من الأنفة، فالأنفة لابد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان ؟! وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه ! .

قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قيل : معناه ٱستزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته . وهذا قول مردود مرغوب عنه؛لأنه كفر. روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوى ، والثعلبي عن الحسن . وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيّق عليه . قال الحسن : هو من قوله تعالى : «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أي يضيّق . وقوله : « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » .

قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن . وقَدَر وقُدِّر وقَتَر وقُتِّر بمعنى، أي ضُيِّق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوى . وقيل : هو من القدر الذي هو القضاء والحكم؛ أي فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة؛ قاله قتادة ومجاهد والفراء . مأخوذ من القدر وهو الحكم

(١) في تفسير قوله تعالى : «وإن يونس لمن المرسلين ...» الآيات ١٣٩ وما بعدها .

دون القدرة والاستطاعة . وروى عن أبي العباس أحمد بن يحيي ثعلب، أنه قال فى قول الله عز وجل : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه : قدّر الله لك الخير يقدره قدرا، بمعنى قدّر الله لك الخير . وأنشد ثعلب :

فليست عشيّات اللّوَى برواجع * لنا أبدًا ما أورق السَّلَم النضْرُ

ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى * تباركت ما تقدِر يقعْ ولك الشكرُ

يعنى ما تقدّره وتقضى به يقع . وعلى هذين التأويلين العلماء . وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس . وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : «أَنْ لَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ» بضم الياء مشددا على الفعل المجهول . وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي إسحق والحسن وابن عباس أيضا « يُقْدَرَ عَلَيْهِ » بياء مضمومة وفتح الدال مخفّفا على الفعل المجهول . وعن الحسن أيضا « فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ » . الباقون « نَقْدِرَ » بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير .

قلت : وهذان التأويلان تأولهما العلماء فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه "فوالله لئن قدر الله على" الحديث فعلى التأويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله على وبالغ فى محاسبتى وجزانى على ذنوبى ليكونن ذلك، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه . وعلى التأويل الثانى : أى لئن كان سبق فى قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذى جرم على جرمه ليعذبنى الله على إجرامى وذنوبى عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيرى . وحديثه خرجه الأئمة فى الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمنا موحدا . وقد جاء فى بعض طرقه "لم يعمل خيرا إلا التوحيد" وقد قال حين قال الله تعالى : لم فعلت هذا؟ قال : من خشيتك يا رب . والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . وقد قيل : إن معنى « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » الاستفهام وتقديره : أفظن ؛ فحذف ألف الاستفهام إيجازا؛ وهو قول سليمان [1] [أبو] المعتمر . وحكى القاضى منذر بن سعيد : أن بعضهم قرأ « أفظن » بالألف .

(١) فى الأصل « سليمان بن المعتمر » وهو تحريف والتصويب من « تهذيب التهذيب » .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ » اختلف العلماء فى جمع الظلمات ما المراد به ، فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الحوت . وذكر ابن أبى الدنيا حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود فى بيت المال قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى فى الظلمات ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش . وقالت فرقة منهم سالم بن أبى الجعد : ظلمة البحر ، وظلمة حوت التقم الحوت الأوّل . ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأوّل فقط ، كما قال : « فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ » وفى كل جهاته ظلمة فجمعها سائغ . وذكر الماوردى : أنه يحتمل أن يعبر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدّة ، وظلمة الوحدة . وروى : أن الله تعالى أوحى إلى الحوت : « لا تؤذ منه شعرة فإنى جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك » وروى : أن يونس عليه السلام سجد فى جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان فى قعر البحر . وذكر ابن أبى الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدى حدثنا إسحق (١) ابن إدريس حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبى الحسن قال : لما التقم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجليه فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يصلى فقال فى دعائه : « واتخذت لك مسجدا حيث لم يتخذه أحد » . وقال أبو المعالى : قوله صلى الله عليه وسلم "لا تفضلونى على يونس بن متى" المعنى فإنى لم أكن وأنا فى سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو فى قعر البحر فى بطن الحوت . وهذا يدل على أن البارى سبحانه وتعالى

(١) كذا فى الأصل ؛ ولعله « عبد الله بن إدريس » فإن عبد الله المذكور حدث عنه العبدى كما فى « تهذيب التهذيب » .

ليس فى جهة . وقد تقدّم هـذا المعنى فى « البقرة » و « الأعراف » . « أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم . وقيل : فى الخروج من غير أن يؤذن له . ولم يكن ذلك من الله عقوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، و إنما كان ذلك تمحيصا . وقد يؤدّب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره الماوردى . وقيل : من الظالمين فى دعائى على قومى بالعذاب . وقد دعا نوح على قومه فلم يؤاخذ . وقال الواسطى فى معناه : نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه آعترافا وآستحقاقا . ومثل هذا قول آدم وحواء : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » إذ كانا السبب فى وضعهما أنفسهما فى غير الموضع الذى أنزلا فيه .

الثانيـة — روى أبو داود عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "دعاء ذى النون فى بطن الحوت « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا آستجيب له " وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم . ورواه سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى الخبر : فى هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنجاه، وهو قوله : « وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » وليس هاهنا صريح دعاء و إنما هو مضمون قوله : « إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فاعترف بالظلم فكان تلويحا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم . وذلك قوله : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبده ، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة . وقال الأستاذ أبو إسحق : صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده ! لا يظن به ذلك . « مِنَ الْغَمِّ » أى من بطن الحوت .

قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » قراءة العامة بنونين من أنجى ينجى . وقرأ ابن عامر « نُجِّي » بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الفعل الماضى و إضمار المصدر أى وكذلك نُجّى النجاءُ المؤمنين؛ كما تقول : ضُرِب زيدا بمعنى ضُرِب الضربُ زيدا وأنشد:

ولو وَلَدتْ قُفَيْرةُ (١) جروَ كَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجروِ الكلابَا

أراد لَسُبّ السبُّ بذلك الجرو . وسكنت ياؤه على لغة من يقول بَقِي ورَضِي فلا يحرك الياء. وقرأ الحسن « وَذَرُوا مَا بَقِي مِنَ الرِّبَا » آستثقالا لتحريك ياء قبلها كسرة . وأنشد :

نَمَّــر الشّيبُ لِمّتِي تَنْمِــيرًا * وحَدَا بى إلى القُبور البعــيرَا

ليتَ شِعْرى إذا القيامةُ قامتْ * ودُعِى بالحساب أين المصيرَا

سكن الياء فى دعى استثقالا لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيب؛ أى وحدا المشيبُ البعير؛ ليت شعرى المصير أين هو . هــذا تأويل الفراء وأبى عبيد وثعلب فى تصويب هذه القراءة . وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا : هو لحن؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله؛ وإنما يقال : نُجِّى المؤمنون . كما يقال : كُرِّم الصالحون . ولا يجوز ضُرِب زيدا بمعنى ضُرِب الضَّربُ زيدا؛ لأنه لا فائدة [فيه] (٢) إذ كان ضُرِب يدل على الضرب . ولا يجوز أن يحتج بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى . ولأبى عبيد قول آخر — وقاله القتبى — وهو أنه أدغم النون فى الجيم . النحاس : وهــذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين؛ لبعد مخرج النون من مخــرج الجيم فلا تدغم فيها ، ولا يجوز فى « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » « مَجَّاءَ بِالْحَسَنَةِ » قال النحاس : ولم أسمع فى هذا أحسن من شيء سمعته من علىّ بن سليمان . قال : الأصل ننجى فحذف إحدى النونين؛ لاجتماعهما كما تحذف إحدى التاءين؛ لاجتماعهما نحو قوله عز وجل : « وَلَا تَفَرَّقُوا » والأصل تتفرقوا . وقرأ محمد بن السَّمَيقع وأبو العالية « وَكَذَلِكَ نَجَّى الْمُؤْمِنِينَ » أى نجى الله المؤمنين؛ وهى حســنة .

قوله تعــالى : وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

---

(١) قفيرة (كجهينة) : أم الفرزدق . والبيت لجرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق .

(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أى واذكر زكريا . وقد تقدم فى «آل عمران»(١) ذكره . ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا ولد لى وقد تقدم . ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت؛ وإنما قال «وأنت خير الْوَارِثِينَ» لما تقدم من قوله : « يَرِثُنِي » أى أعلم أنك لا تضيع دينك، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التى هى القيام بأمر الدين عن عقبى . كما تقدم فى « مريم » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أى أجبنا دعاءه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ . تقدم ذكره مستوفى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقرا فجعلت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى الأنبياء المسمين فى هذه السورة ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ . وقيل : الكناية راجعة إلى زكريا وامرأته ويحيى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أى يفزعون إلينا فيدعوننا فى حال الرخاء وحال الشدة . وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف، لأن الرغبة والرهبة متلازمان . وقيل : الرَّغَب رفع بطون الأكف إلى السماء، والرَّهَب رفع ظهورها؛ قاله خصيف؛ وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه، إذ هو موضع إعطاء أو بها يتملك، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك، والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه .

الثانيــة — روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه وقد مضى فى « الأعراف »(٢)

(١) راجع ج ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الاختلاف فى رفع الأيدى، وذكرنا هذا الحديث وغيره هنالك . وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس فى صفته وإلى أين؟ فكان بعضهم يختار أن يبسط كفيه رافعهما حذو صدره وبطونهما إلى وجهه؛ روى عن ابن عمر وابن عباس . وكان علىّ يدعو بباطن كفيه؛ وعن أنس مثله، وهو ظاهر حديث الترمذى . وقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم" . وروى عن ابن عمر وابن الزبير برفعهما إلى وجهه، واحتجوا بحديث أبى سعيد الخدرى؛ قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة فجعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلى وجهه، ورفعهما فوق ثدييه وأسفل من منكبيه . وقيل : حتى يحاذى بهما وجهه وظهورهما مما يلى وجهه . قال أبو جعفر الطبرى والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعانى، وجائز أن يكون ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلى وجهه فهو الابتهال . قال الطبرى وقد روى قتادة عن أنس قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما . و « رَغَبًا وَرَهَبًا » منصوبان على المصدر؛ أى يرغبون رغبا ويرهبون رهبا . أو على المفعول من أجله؛ أى للرغب والرهب . أو على الحال . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وَيَدْعونَا » بنون واحدة . وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء مثل السُّقْم والبُخْل، والعُدْم والضُّر لغتان . وابن وثاب والأعمش أيضا « رَغْبًا وَرَهْبًا » بالفتح فى الراء والتخفيف فى الغين والهاء، وهما لغتان مثل نَهَر ونَهْر وصَخَر وصَخْر . ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو . ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أى متواضعين خاضعين .

قوله تعالى : وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى واذكر مريم التى أحصنت فرجها . وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليتم ذكر عيسى عليه السلام ؛ ولهـذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين . وقال الزجاج : إن الآية فيهما واحدة ؛ لأنها ولدته من غير فحل ؛ وعلى مذهب سيبويه التقدير: وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنها آية للعالمين ثم حذف . وعلى مذهب الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل ثناؤه : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ » . وقيل : إن من آياتها أنها أول امرأة قبلت فى النذر فى المتعبد . ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنـده لم يجره على يد عبد من عبيده . وقيل : إنها لم تلقم ثديا قط . « وَأَحْصَنَتْ » يعنى عَفّت فامتنعت من الفاحشة . وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ؛ أى لم تعلق بثوبها ريبة ؛ أى إنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل . قال السهيلى : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكناية لأن القرآن أنزه معنًى ، وأوزن لفظا ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد مايذهب إليه وهم الجاهل ، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضف القدس إلى القدوس ، ونزّه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحـدس . ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ يعنى أمرنا جبريل حتى نفـخ فى درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها . وقد مضى هذا فى « النساء »[1] و « مريم » فلا معنى للإعادة . ﴿ آيَةً ﴾ أى علامة وأعجوبة للخلق ، وعلما لنبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء .

قوله تعـالى : إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لمـا ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذى هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهـد وغيرهما . فأما المشركون فقـد خالفوا الكل . ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ أى إلهكم وحدى . ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ أى أفردونى بالعبادة . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحق « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ » ورواها

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حسين عن أبي عمرو . الباقون «أُمَّةً وَاحِدَةً» بالنصب على القطع بمجيء النكرة بعد تمام الكلام؛ قاله الفراء . الزجاج : انتصب « أُمَّةً » على الحال ؛ أي في حال اجتماعها على الحق ؛ أي هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد؛ فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق ؛ وهو كما تقول : فلان صديقي عفيفا أي ما دام عفيفا فإذا خالف العفة لم يكن صديقي . وأما الرفع فيجوز أن يكون على البدل من «أمتكم» أو على إضمار مبتدإ ؛ أي إن هذه أمتكم ، هذه أمة واحدة . أو يكون خبرا بعد خبر . ولو نصبت « أمتكم » على البدل من « هذه » لجاز ويكون « أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ » خبر « إن » .

قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي تفرقوا في الدين؛ قاله الكلبي . الأخفش : اختلفوا فيه . والمراد المشركون؛ ذمّهم لمخالفة الحق، واتخاذهم آلهة من دون الله . قال الأزهري : أي تفرقوا في أمرهم ؛ فنصب « أَمْرَهُمْ » بحذف « في » . فالمتقطع على هذا لازم وعلى الأول متعد . والمراد جميع الخلق ؛ أي جعلوا أمرهم في أديانهم قطعا وتقسموه بينهم ، فمن موحد ، ومن يهوديّ ، ومن نصرانيّ ، ومن عابد ملك أو صنم . ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أي إلى حكمنا فنجازيهم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ « من » للتبعيض لا للجنس إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات فرضها ونفلها؛ فالمعنى : من يعمل شيئا من الطاعات فرضا أو نفلا وهو موحّد مسلم . وقال ابن عباس : مصدقا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي لا جحود لعمله ؛ أي لا يضيع جزاؤه ولا يغطى . والكفر ضدّه الإيمان . والكفر أيضا جحود النعمة، وهو ضدّ الشكر . وقد كفره كفورا وكفرانا . وفي حرف ابن مسعود « فَلَا كُفْرَ لِسَعْيِهِ » . ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ لعمله حافظون . نظيره « أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » أي كل ذلك محفوظ ليجازى به .

قوله تعالى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قراءة زيد بن ثابت وأهل المدينة « وَحَرَامٌ » وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وأهل الكوفة « وَحِرْمٌ » ورويت عن على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم . وهما لغتان مثل حِلّ وحَلَال . وقد روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير « وَحَرِمَ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء . وعن ابن عباس أيضا وعكرمة وأبى العالية « وَحَرُمَ » بضم الراء وفتح الحاء والميم . وعن ابن عباس أيضا « وَحَرَمَ » وعنه أيضا « وَحَرَّمَ » ، « وَحُرِّمَ » . وعن عكرمة أيضا « وَحَرِمٌ » . وعن قتادة ومطر الوراق « وَحَرْمٌ » تسع قراءات . وقرأ السُّلَمى «عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُها» . واختلف فى « لا » فى قوله : « لَا يَرْجِعُونَ » فقيل : هى صلة؛ روى ذلك عن ابن عباس، واختاره أبو عبيد؛ أى وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك . وقيل : ليست بصلة ، وإنما هى ثابتة، ويكون الحرام بمعنى الواجب؛ أى وجب على قرية؛ كما قالت الخنساء :

وَإِنَّ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَاكِيًا * عَلَى شَجْوِهِ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى صَخْرِ

تريد أخاها؛ فـ « لا » ثابتة على هذا القول . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجلّه ماروّاه ابن عيينة وابن عُلَيّة وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن حيان ومعلّى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون . قال أبو جعفر : واشتقاق هذا بيّن فى اللغة ، وشرحه : أن معنى حُرِّم الشيء حُظِر ومُنِع منه ، كما أن معنى أحل أبيح ولم يمنع منه ، فإذا كان « حَرَامٌ » و « حِرْمٌ » بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج

منه ومنع فقد دخل فى باب المحظور بهذا؛ فأما قول أبى عبيد : إن « لا » زائدة فقد رده عليه جماعة ؛ لأنها لا تزاد فى مثل هذا الموضع ، ولا فيما يقع فيه إشكال ، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيدا أيضا ؛ لأنه إن أراد وحرام على قرية أهلكاها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه ، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُحرّم . وقيل : فى الكلام إضمار أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ، أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون ؛ قاله الزجاج وأبو علىّ ؛ و «لا» غير زائدة . وهذا هو معنى قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ تقدّم القول فيهم . وفى الكلام حذف ؛ أى حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، مثل « وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : من كل شرف يُقبلون ؛ أى لكثرتهم ينسلون من كل ناحية . والحدب ما ارتفع من الأرض ، والجمع الحداب ، مأخوذ من حدبة الظهر ؛ قال عنترة :

فما رعشت يداى ولا ٱزدهانى * تواترُهم إلىّ من الحِدَاب

وقيل : «يَنْسِلُونَ» يخرجون ، ومنه قول ٱمرئ القيس :

* فَسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ[(١)] *

وقيل : يسرعون ، ومنه قول النابغة[(٢)] :

عَسَلَانَ الذئبِ أَمْسَى قَارِباً[(٣)] * بَرَدَ الليلُ عليه فَنَسَلْ

يقال : عَسَل الذئبُ يَعسِل عَسَلا وعَسَلانا إذا أعنق وأسرع . وفى الحديث : "عليك بالعَسَل" أى عليك بسرعة المشى . وقال الزجاج : والنَّسَلان مِشية الذئب إذا أسرع ؛ يقال : نسل فلان فى العدو يَنْسِل بالكسر والضم نَسْلا ونُسولا ونَسَلانا ؛ أى أسرع . ثم قيل فى الذين ينسلون من كل حدب : إنهم يأجوج ومأجوج ، وهو الأظهر ؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس . وقيل : جميع الخلق ؛ فإنهم يحشرون الى أرض الموقف ، وهم يسرعون من كل

(١) البيت من معلقته وصدره : * وإن تك قد ساءتك منى خليقة *

(٢) وقيل : هو للبيد ، كما فى « اللسان » مادة « عسل » . (٣) القارب : السائر ليلا .

صوب . وقرئ فى الشواذ « وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُونَ » أخذا من قوله : « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . وحكى هذه القراءة المهدوى عن ابن مسعود والثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء .

قوله تعالى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القيامة . وقال الفراء والكسائى وغيرهما : الواو زائدة مقحمة؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق «فَاقْتَرَبَ» جواب « إذا » . وأنشد الفراء (١) :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى *

أى انتحى، والواو زائدة؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى للجبين ناديناه . وأجاز الكسائى أن يكون جواب « إذا » « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ويكون قوله : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفا على الفعل الذى هو شرط . وقال البصريون : الجواب محذوف والتقدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج، وهو قول حسن . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » المعنى : قالوا ما نعبدهم، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ «هى» ضمير الأبصار، والأبصار المذكورة بعدها تفسير لها ؛ كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجيء الوعد . وقال الشاعر :

لَعَمْرُ أبيها لا تقول ظَعِينَتِي * أَلَا فَرَّعَنِّي مالكُ بن أبِي كعب

فكنى عن الظعينة فى أبيها ثم أظهرها . وقال الفراء : « هى » عماد، مثل « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ » . وقيل : إن الكلام تم عند قوله : «هى» التقدير : فإذا هى؛ بمعنى القيامة بارزة واقعة ؛ أى من قربها كأنها آتية حاضرة، ثم ابتدأ فقال : ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء؛ أى أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم؛ أى من هوله لا تكاد تطرف؛ يقولون : يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا، ووضعنا العبادة فى غير موضعها.

(١) البيت لامرئ القيس وهو من معلقته، وتمامه :

* بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

قوله تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال ابن عباس : آية لا يسألني الناس عنها ! لا أدرى أعرفوها فلم يسألوا عنها ، أو جهلوا فلا يسألون عنها ؛ فقيل : وما هي؟ قال : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » لما أنزلت شقّ على كفار قريش ، وقالوا : شتم آلهتنا ، وأتوا ابن الزّبعرى وأخبروه ، فقال : لو حضرتُه لرددتُ عليه . قالوا : وما كنت تقول ؟ قال : كنتَ أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى واليهود تعبد عزيرا أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ، ورأوا أن محمدا قد خُصم ؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » وفيه نزل « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » يعني ابن الزبعرى « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون » بكسر الصاد ؛ أي يضجون ؛ وسيأتي[(١)] .

الثانيــة — هذه الآية أصل في القول بالعموم وأن له صيغا مخصوصة ، خلافا لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه ، وهو باطل بما دلت عليه هذه الآية وغيرها ؛ فهذا عبد الله بن الزّبعرى قد فهم « ما » في جاهليته جميع من عبد ، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء ، واللسن البلغاء ، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها ، وقد وجد ذلك فهي للعموم وهذا واضح .

الثالثــة — قراءة العامة بالصاد المهملة ؛ أي إنكم يا معشر الكفار والأوثان التي تعبدونها من دون الله وقود جهنم ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة : حطبها . وقرأ علي ابن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما « حَطَبُ جَهَنَّمَ » بالطاء . وقرأ ابن عباس « حَضَبُ » بالضاد المعجمة ؛ قال الفراء : يريد الحصب . قال : وذكر لنا أن الحضب في لغة أهل

(١) في تفسير آية ٥٧ من سورة « الزخرف » .

اليمن الحطب ، وكل ما هيجت به النار وأوقدتها به فهو حَضَب ؛ ذكره الجوهرى .
والموقد مِحْضب . وقال أبو عبيدة فى قوله تعالى : « حَصَبُ جَهَنَّمَ » كل ما ألقيته فى النار
فقد حصبتها به . و يظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطب
لجهنم . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » . وقيل :
إن المراد بالحجارة حجارة الكبريت؛ على ما تقدّم فى « البقرة »(١) وأن النار لا تكون على الأصنام
عذابا ولا عقوبة ؛ لأنها لم تذنب ، ولكن تكون عذابا على من عبدها : أول شىء بالحسرة ،
ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار ، ثم يعذّبون بها . وقيل : تحمى فتلصق بهم
زيادة فى تعذيبهم . وقيل : إنما جعلت فى النار تبكيتا لعبادتهم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أى فيها داخلون . والخطاب للشركين
عبدة الأصنام ؛ أى أنتم واردوها مع الأصنام . ويجوز أن يقال : الخطاب للأصنام وعبدتها ؛
لأن الأصنام و إن كانت جمادات فقد يخبر عنها بكنايات الآدميين . وقال العلماء : لا يدخل
فى هذا عيسى ولا عزير ولا الملائكة صلوات الله عليهم ؛ لأن « ما » لغير الآدميين . فلو أراد
ذلك لقال : « ومن » . قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩)
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا ﴾ أى لو كانت الأصنام آلهة لما ورد
عابدوها النار . وقيل : ما وردها العابدون والمعبودون ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أى لهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين ؛
فأما الأصنام فعلى الخلاف فيها ؛ هل يحييها الله تعالى و يعذبها حتى يكون لها زفير أو لا ؟
قولان : والزفير صوت نفس المغموم يخرج من القلب . وقد تقدّم فى « هود »(٢) . ﴿ وَهُمْ فِيهَا

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٧٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قيل : فى الكلام حذف ، والمعنى وهم فيها لا يسمعون شيئا ؛ لأنهم يحشرون صما ، كما قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » . وفى سماع الأشياء رَوْح وأنس ، فمنع الله الكفار ذلك فى النار . وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية . وقيل : إذا قيل لهم « ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » يصيرون حينئذ صما بكما ؛ كما قال ابن مسعود : إذا بقى من يخلد فى النار فى جهنم جعلوا فى توابيت من نار ، ثم جعلت التوابيت فى توابيت أخرى فيها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئا ، ولا يرى أحد منهم أن فى النار من يعذب غيره .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾ أى الجنة ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا ﴾ أى عن النار ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء؛ ولهذا قال بعض أهل العلم : « إن » ها هنا بمعنى « إلا » وليس فى القرآن غيره . وقال محمد بن حاطب : سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقرأ هذه الآية على المنبر « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى » فقال سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن عثمان منهم " .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أى حسّ النار وحركة لهبها . والحسيس والحسّ الحركة . وروى ابن جريج عن عطاء قال قال أبو راشد الحرورىّ لابن عباس : « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » فقال ابن عباس : أمجنون أنت؟ فأين قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقوله تعالى : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » وقوله : « إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا » . ولقد كان من دعاء من مضى : اللهم أخرجنى من النار سالما، وأدخلنى الجنة فائزا. وقال أبو عثمان النهدى :

على الصراط حيات تلسع أهل النار فيقولون : حَسّ حَسّ . وقيل : إذا دخل أهل الجنة لم يسمعوا حسّ أهل النار وقبل ذلك يسمعون؛ فالله أعلم . ﴿وَهُمْ فِيمَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أى دائمون وهم فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . وقال : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » .

قوله تعالى : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن « لَا يُحْزِنُهُمْ » بضم الياء وكسر الزاى . الباقون بفتح الياء وضم الزاى . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث ؛ عن ابن عباس . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك : هو إذا أطبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار . وقال ذو النون المصرى : هو القطيعة والفراق . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة يوم القيامة فى كثيب من المسك الأذفر ولا يحزنهم الفزع الأكبر رجل أمّ قوما محتسبا وهم له راضون ورجل أذّن لقوم محتسبا ورجل ابتلى برق فى الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه" . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار إلىّ الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ؛ فلقيت أبا سعيد الخدرى فأخبرته ، فقال : يا بن أخى ! من أغاث مكروبا أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر" سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور . عن ابن عباس : « هَـٰذَا يَوْمُكُمْ » أى ويقولون لهم ؛ فحذف . « ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » فيه الكرامة .

قوله تعالى : يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ (١٠٤)

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والأعرج والزهرى « تُطْوَى » بتاء مضمومة « ٱلسَّمَآءُ » رفعا على مالم يسم فاعله . مجاهد « يَطْوِى »

على معنى يطوى الله السماء . الباقون « نَطْوِى » بنون العظمة . وانتصاب « يوم » على البدل من الهاء المحذوفة في الصلة ؛ التقدير : الذى كنتم توعدونه يوم نطوى السماء . أو يكون منصوبا بـ « نعيده » من قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . أو بقوله : « لا يحزنهم » أى لا يحزنهم الفزع الأكبر فى اليوم الذى نطوى فيه السماء . أو على إضمار واذكر ، وأراد بالسماء الجنس ؛ دليله : «وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» . ﴿ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ ﴾[(1)] قال ابن عباس ومجاهد : أى كطى الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى «على» . وعن ابن عباس أيضا اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوى ؛ لأن كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ، ولا فى أصحابه من اسمه السِّجل . وقال ابن عباس أيضا وابن عمر والسدى : « السّجل » ملَك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه . ويقال : إنه فى السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق فى كل خميس واثنين ، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت . والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السّجالة وهى الكتابة ؛ وأصلها من السّجْل وهو الدّلو ؛ تقول : ساجلت الرجل إذا نزعت دلوا ونزع دلوا ، ثم استعيرت فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة . وقد سَجّل الحاكمُ تسجيلا . وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

مَنْ يُسَاجِلْنِى يُساجِلْ ماجِدًا * يملأ الدَّلوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ[(2)]

ثم بنى هذا الاسم على فِعِلّ مثل حِبِرّ وطِمِرّ وبِلِىّ . وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير « كَطَىِّ السُّجُلِّ » بضم السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الأعمش وطلحة « كَطَىِّ السَّجْلِ » بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام . قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى . والتمام عند قوله : « لِلْكِتَابِ » . والطّى فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما — الدَّرْج الذى هو ضد النّشر ؛ قال الله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . والثانى — الإخفاء والتعمية والمحو ؛ لأن الله تعالى يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها .

(١) « الكتاب » بالإفراد قراءة نافع .　(٢) الكرب : حبل يشد على عراقى الدلو ثم يثنى ثم يثلث ليكون هو الذى يلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير .

قال الله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ ٱنْكَدَرَتْ » « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » . « لِلْكِتَابِ » وتم الكلام . وقراءة الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف : « لِلْكُتُبِ » جمعا ثم ٱستأنف الكلام فقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ أى نحشرهم حفاة عراة غرلا كما بُدئوا فى البطون . وروى النّسائى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحشر الناس يوم القيامة عُراة غُرْلا أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام — ثم قرأ — « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » " أخرجه مسلم ايضا عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه بموعظة فقال : " يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلا « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ألا و إن أوّل الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام " وذكر الحديث . وقد ذكرنا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفى . وذكر سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال: يرسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كمَنِيّ الرجال فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الْأَرْضُ بالثرى . وقرأ « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شيء ونفنيه كما كان أوّل مرة(١)؛ وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ » أى نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفناء فلا تكون شيئا . وقيل : نفنى السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها و زوالها ؛ كقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » والقول الأوّل أصح وهو نظير قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » . ﴿ وَعْدًا ﴾ نصب على المصدر؛ أى وعدنا وعدا ﴿ عَلَيْنَا ﴾ إنجازه والوفاء به أى من البعث والإعادة، ففى الكلام حذف . ثم أكد ذلك بقوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال الزجاج : معنى « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى ما وعدناكم وهو كما قال : « كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » . وقيل : « كان » للإخبار بما سبق من قضائه . وقيل : صلة .

(١) هذا القول يحتاج إلى تدبر كما قال الألوسى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ الزبور والكتاب واحد ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . زَبرت أي كتبت وجمعه زُبُر . وقال سعيد بن جبير : « الزّبور » التوراة والإنجيل والقرآن . ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ الذى فى السماء ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير . الشعبي : «الزّبور» زبور داود ، و « الذكر » توراة موسى عليه السلام . مجاهد وابن زيد : « الزّبور » كتب الأنبياء عليهم السلام ، و « الذّكر » أم الكتاب الذى عند الله فى السماء . وقال ابن عباس : « الزّبور » الكتب التى أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و « الذكر » التوراة المنزلة على موسى . وقرأ حمزة «فِي الزُّبُورِ» بضم الزاى جمع زِبْر . «أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ» أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال مجاهد وأبو العالية : ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدّسة . وعنه أيضا : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح . وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ؛ بدليل قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة «عِبَادِي الصَّالِحُونَ» بتسكين الياء . ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا ﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه . وقيل : إن فى القرآن ﴿ لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثورى : هم أهل الصلوات الخمس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : «عابدين» مطيعين . والعابد المتذلل الخاضع . قال القشيرى : ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل ؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل للخالق ، وهو بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة . وقال ابن عباس أيضا : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان . وهذا هو القول الأول بعينه .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدّق به سعد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فلا يجوز الإشراك به . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى منقادون لتوحيد الله تعالى ؛ أى فأسلموا ؛ كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » أى انتهوا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى إن أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أى أعلمتكم على بيان أنا و إياكم حرب لاصلح بيننا ؛ كقوله تعالى : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا ، أى استويت أنت وهم فليس لفريق عهد ملتزم فى حق الفريق الآخر. وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إلىّ على استواء فى العلم به ، ولم أظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي ﴾ « إن » نافية بمعنى «ما» أى وما أدرى . ﴿ أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعنى أجل يوم القيامة لا يدريه أحد لا نبى مرسل ولا ملك مقرّب ؛ قاله ابن عباس . وقيل : آذنتكم بالحرب ولكنى لا أدرى متى يؤذن لى فى محاربتكم .

قوله تعالى : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أى من الشرك وهو المجازى عليه . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ ﴾ أى لعل الإمهال ﴿ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ أى اختبار ليرى كيف صنيعكم

وهو أعلم . ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ قيل : إلى ٱنقضاء المدّة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بنى أمية فى منامه يلون الناس، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بنى أمية بذلك، فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك . فأنزل الله تعالى « وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ » « وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ(١) رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ ختم السورة بأن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ؛ أى ٱحكم بينى وبين هؤلاء المكذّبين وانصرنى عليهم . روى سعيد عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول : « رَبِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ » فكان إذا لقى العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل « رَبِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ » أى ٱقض به . وقال أبو عبيدة : الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير : رب ٱحكم بحكمك الحق . و « رب » فى موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن « قُلْ رَبُّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ » بضم الباء . قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين ؛ لا يجوز عندهم رجلُ أقبلْ ، حتى تقول يارجلُ أقبلْ أو ما أشبهه . وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب « قَالَ رَبِّى أَحْكَمُ بِالْحَقِّ » بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة . أى قال محمد ربّى أحكَمُ بالحق من كل حاكم . وقرأ الجحدرى « قُلْ رَبِّى أَحْكَمَ » على معنى أحكم الأمور بالحق . ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى تصفونه من الكفر والتكذيب . وقرأ المفضل والسلمى « عَلَى مَا يَصِفُونَ » بالياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب .

(١) « قل » على صفة الأمر قراءة نافع .

تم الجزء الحادى عشر من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى عشر وأوله : "سورة الحج"

كَمُلَ طبع الجزء الحادى عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠
(١٧ يوليه سنة ١٩٤١) م   محمد نديم

دار الكتب المصرية

القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

الجزء الثانى عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثاني عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

فهرس الجزء الثانى عشر

تفسير سورة الحج

صفحة

*

صفحة

صفحة

إصـــلاح خطـــأ

ج	ص	س	خطـــأ	صـــواب
١	١٣٨	٧	تخندقَ هامةَ	تخندُقُ هامةٌ
٣	٦١	١٩	القَرظى محمد	القُرَظى محمد
٤	٦٠	١٠	ما حبيتُـــه	ما حببتُـــه
٤	١١٦	٧	ألّادَعَه	أن لّادَعَه
٤	٢٢٨	٩	وكائِن	وكائِنْ
٤	٢٢٨	١٧	وكَأيِّن مثل وكَعَيِّن	وكَأيِّن مثل وكَعْيِن
٤	٢٢٩	١٣، ١٥، ١٦	قاتـل	قُتِـل
٧	٢٥٩	١٧	ذئبـــق	زئبـــق
٧	٢٦٢	٤	« وما علِمْتُ »	و « ما علِمْتُ »
٩	٣٠	٢٠	من كُلِّ زوجين	من كُلٍّ زوجين
٩	١٣٦	١٢	و إلا فشأْنُك	و إلا فشأنَك
١١	٣	٢٢	مُـدَجّ	مُـدَجَّج
١١	١٠٥	٦	قولُ الحقِّ	قولَ الحـقِّ
١١	١٤٥	١٨	وأن كنت	و إن كنت
١١	١٥٣	١٤	يريدون	يَرِدُون
١١	٢٦٨	٢٣	كثيرة عزة	كثيّرِ عزّة
١١	٣٢٠	١٤	و إما ما بُوسها	و إما بُوسها
١١	٣٤١	٢٢	كما اللسان	كما فى اللسان
١٢	٦٤	١٦	يُصـــلِحْه	يُصْـــلِحه

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء المطبعية أثبتناها هنا للفائدة م

أحمد عبدالعليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتي
د/ نصر أحمد محمد بدوى . العريش . مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحج

وهى مكية، سِوى ثلاثِ آيات : قوله تعالى « هذانِ خَصْمانِ »[1] إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضا أنهن أربع آيات، إلى قوله «عذابَ الحَرِيق» . وقال الضحاك وابن عباس أيضا : هى مدنية — وقاله قتادة — إلا أربع آيات : «وَمَا أَرْسَلْنَا[2] مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ — إلى — عذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » فهن مكّيات . وعدّ النقاش ما نزل بالمدينة عشرَ آيات . وقال الجمهور : السورة مختلِطة، منها مكّىّ ومنها مَدَنِىّ . وهذا هو الأصح ؛ لأن الآيات تقتضى ذلك، لأن « يأيها النـاس» مكىّ، و « يأيها الذين آمنوا » مدنِىّ . الغَزْنَوِىّ : وهى من أعاجيب السُّوَر، نزلت ليلا ونهارا، سَفَرا وحَضَرا، مكّيًّا ومدنيًّا، سِلْمِيًّا وحَرْبِيًّا، ناسخا ومنسوخا، مُحْكَمًا ومتشابها، مختلف العدد .

قلت : وجاء فى فضلها ما رواه الترمذىّ وأبو داود والدّارَقُطْنِىّ عن عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله، فُضِّلت سـورة الحج بأن فيها سجدتين؟ قال : "نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما" . لفظ الترمذىّ . وقال : هذا حديث حسن ليس إسناده بالقَوِىّ .

واختلف أهل العلم فى هذا؛ فروِى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وابن عمر أنهما قالا : فُضّلت سورة الحج بأن فيها سجدتين . وبه يقول ابن المبارك والشافعىّ وأحمد وإسحاق . ورأى بعضهم أن فيها سجدة واحدة ؛ وهو قول سفيان الثَّوْرِىّ . روى الدّارَقُطْنِىّ عن عبد الله بن ثعلبة قال : رأيت عمر بن الخطاب سجـد فى الحج سجدتين؛ قلت فى الصبح ؟ قال فى الصبح .

---

(١) آية ١٩ وما بعدها . (٢) آية ٥٢ وما بعدها .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١)

روى الترمذى عن عمران بن حصين أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزلت «يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم — إلى قوله — ولكن عذاب الله شديد» قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو فى سفر فقال : "أتدرون أى يوم ذلك" ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم؛ قال: "ذاك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار قال يا رب وما بعث النار قال تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة" . فأنشأ المسلمون يبكون؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قاربوا وسددوا فإنه لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية — قال — فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة (١) فى ذراع الدابة أو كالشامة (٢) فى جنب البعير — ثم قال — إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة — فكبروا؛ ثم قال — إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة — فكبروا؛ ثم قال — إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة" فكبروا . قال : لا أدرى قال الثلثين أم لا . قال : هذا حديث حسن صحيح، قد روى من غير وجه عن الحسن عن عمران بن حصين . وفيه : فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اعملوا وأبشروا فوالذى نفسى بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بنى آدم وبنى إبليس" قال : فسرى عن القوم بعض الذى يجدون؛ فقال : "اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله تعالى يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير فى يديك — قال — يقول أخرج بعث النار قال وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (٣) قال فذاك

(١) الرقة : الهنة الناتئة فى ذراع الدابة . (٢) الشامة : علامة تخالف البدن الذى هى فيه .

(٣) فى بعض النسخ : « تسعمائة وتسعة وتسعون » فالنصب على المفعولية، والرفع على الخبرية .

حين يَشيبُ الصغير وتَضع كلُّ ذات حمل حملها وترى الناس سُكارَى وما هم بسكارَى ولكن عذاب الله شديد". قال: فاشتدّ ذلك عليهم؛ قالوا : يا رسول الله، أيُّنَا ذلك الرجل؟ فقال: "أبشروا فإن من يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا ومنكم رجل". وذكر الحديث بنحو ما تقدّم فى حديث عِمران بن حصين . وذكر أبو جعفر النحاس قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدّثنا سلمة قال حدّثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم — إلى — ولكن عذابَ الله شديد » قال: نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو فى مَسِير له، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه فقال : "أتدرون أىَّ يوم هذا هذا يوم يقول الله عز وجل لآدم صلى الله عليه وسلم يا آدم قم فابعث بَعْثَ أهل النار من كل ألف تِسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة" . فكَبُر ذلك على المسلمين؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "سَدِّدُوا وقارِبوا وأبشروا فوالذى نفسى بيـده ما أنتم فى الناس إلا كالشّامَة فى جنب البعير أو كالرَّقْمة فى ذراع الحمار وإن معكم خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفرة الجن والإنس" .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ المراد بهذا النداء المكلَّفون ؛ أى اخشوه فى أوامره أن تتركوها، ونَواهِيه أن تُقدِموا عليها . والاتقاء : الاحتراس من المكروه ؛ وقد تقدّم فى أوّل « البقرة »(1) القولُ فيه مستوفًى ، فلا معنى لإعادته . والمعـنى : احترسوا بطاعته عن عقوبته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الزلزلة شـدّة الحركة ؛ ومنه « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ »(2) . وأصل الكلمة من زَلّ عن الموضع ؛ أى زال عنه وتحرّك . وزلزل الله قَدَمه؛ أى حرّكها . وهذه اللفظة تستعمل فى تهويل الشىء . وقيل: هى الزلزلة المعروفة التى هى إحدى شرائط الساعة، التى تكون فى الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قول الجمهور . وقد قيل : إن هذه الزلزلة تكون فى النصف من شهر رمضان، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها؛ فالله أعلم .

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) راجع جـ ٣ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ الهاء فى « ترونها » عائدة عند الجمهور على الزلزلة ؛ ويقوى هذا قولُه عز وجل « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا » . والرضاع والحمل إنما هو فى الدنيا . وقالت فرقة : الزلزلة فى يوم القيامة ، واحتجوا بحديث عِمران بن حُصين الذى ذكرناه ، وفيه : " أتدرون أىّ يوم ذلك ... " الحديث . وهو الذى يقتضيه سياق مُسْلم فى حديث أبى سعيد الخُدْرىّ .

قوله : ﴿ تَذْهَل ﴾ أى تشتغل ؛ قاله قُطْرُب . وأنشد :

ضَرْباً(1) يُزيل الهام عن مَقِيلِهِ * ويُذهِل الخليلَ عن خليلِهِ

وقيل تنسى . وقيل تلهو . وقيل تسلو ؛ والمعنى متقارب . ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ قال المبرّد : « ما » بمعنى المصدر ؛ أى تذهل عن الإرضاع . قال : وهذا يدل على أن هذه الزلزلة فى الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حَمْل وإرضاع . إلا أن يقال : من ماتت حاملا تُبعث حاملا فتضع حملها للهَوْل . ومن ماتت مُرضعة بُعثت كذلك . ويقال : هذا كما قال الله عز وجل : « يَوْمًا يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً(2) » . وقيل : تكون مع النفخة الأولى . وقيل : تكون مع قيام الساعة ، حتى يتحرك الناس من قبورهم فى النفخة الثانية . ويحتمل أن تكون الزلزلة فى الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : « مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا(3) » . وكما قال عليه السلام : " اللّهم اهزمهم وزلزلهم " . وفائدة ذكر هَوْل ذلك اليوم التحريضُ على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح . وتسمية الزلزلة بـ « شىء » إما لأنها

(1) فى الأصول : « بضرب » والتصويب عن سيرة ابن هشام . وقبله :

نحن قتلنا كم على تأويله * كما قتلنا كم على تنزيله

والرجز لعبد الله بن رواحة ، ارتجزه وهو يقود ناقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة فى عمرة القضاء . (راجع سيرة ابن هشام) . (2) آية ١٧ سورة المزمل . (3) آية ٢١٤ سورة البقرة .

حاصـلة متيقّن وقوعها ، فيستسهل لذلك أن تسمّى شيئا وهى معدومة ؛ إذ اليقين يشـبه الموجودات . وإما على المـآل ؛ أى هى إذا وقعت شيء عظـيم . وكأنه لم يطلق الاسم الآن ، بل المعنى أنهـا إذا كانت فهى إذًا شيء عظـيم ، ولذلك تذهـل المراضع وتسـكر الناس؛ كما قال : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أى من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع . ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ من الخمر . وقال أهل المعانى : وترى الناس كأنهم سكارى . يدلّ عليه قراءة أبى زُرْعة هَرِم بن عمرو بن جرير بن عبـد الله « وتُرَى النَّاسَ » بضم التاء ؛ أى تظن ويخيّل إليك . وقرأ حمزة والكسائيّ « سَكْرَى » بغير ألف . الباقون « سُكارى » وهما لغتان لجمع سكران ؛ مثـل كَسْلى وكُسَالى . والزلزلة : التحريك العنيف . والذهول : الغفـلة عن الشيء بطـروء(١) ما يشغَل عنـه من همّ أو وجع أو غيره . قال ابن زيد : المعـنى تترك ولدها للكرب الذى نزل بها .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قيل : المراد النضر بن الحارث، قال : إن الله عز وجل غيرُ قادر على إحياء من قد بَلِيَ وعاد ترابا . ﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ أى فى قوله ذلك . ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ متمرّد . ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى من تولّى الشيطان . ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

(١) فى الأصول : « بطريان » .

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ — إلى قوله — مُسَمًّى ﴾ فيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾ هذا احتجاج على العالم بالبداءة الأولى . وقوله : « إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ » متضمّنه التوقيف . وقرأ الحسن بن أبى الحسن « البَعَث » بفتح العين؛ وهى لغة فى «البَعْث» عند البصريين . وهى عند الكوفيين بتخفيف « بَعَث » . والمعنى : يأيها الناس إن كنتم فى شك من الإعادة . ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم ﴾ أى خلقنا أباكم الذى هو أصل البشر؛ يعنى آدم عليه السلام ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ . ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقنا ذريته ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهو المنِيّ؛ سُمِّيَ نطفة لقلّته، وهو القليل من الماء، وقد يقع على الكثير منه؛ ومنه الحديث "حتى يسير الراكب بين النُّطفتين لا يخشى جَوْرا" . أراد بحر المشرق وبحر المغرب . والنَّطْف : القَطْر . نَطَف يَنْطِفُ وينطُف . وليلة نَطوفة دائمة القطر . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدّم الجامد . والعَلَق الدّم العَبِيط؛ أى الطّرِيّ . وقيل : الشديد الحمرة . ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وهى لحمة قليلة قدرُ ما يمضغ؛ ومنه الحديث "ألا وإنّ فى الجسد مُضْغة" . وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفى العشر بعد الأشهر الأربعة يُنفخ فيه الروح ، فذلك عدّة المتوفَّى عنها زوجها، أربعة أشهرٍ وعشر .

الثانيـة — روى يحيى بن زكرياء بن أبى زائدة حدّثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمر أن النطفة إذا استقرت فى الرّحم أخذها مَلَك بكفه فقال: «يارب، ذكر أم أنثى، شقيّ أم سعيد، ما الأجل والأَثَر(١)، بأيّ أرض تموت ؟ فيقال له انطلق إلى أمّ

(١) الأثر : الأجل؛ وسمى به لأنه يتبع العمر .

الكتاب فإنك تجد فيها قصة هـذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتهـا فى أم الكتاب ، فتخلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قُبضت فدفنت فى المكان الذى قُدر لهـا ؛ ثم قرأ عامر « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ » . وفى الصحيح عن أنس بن مالك — ورفع الحديث — قال : " إن الله قد وكّل بالرحم مَلَكا فيقول أى ربِّ نطفةٌ . أىْ ربّ عَلَقة . أىْ ربّ مُضْغَة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقا قال قال الملك أىْ ربّ ذَكَر أو أنثى شقىّ أو سعيد . فما الرزق فما الأجل . فيكتب كذلك فى بطن أمه " . وفى الصحيح أيضا عن حُذيفـة بن أسِـيد الغفارىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " إذا مَرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليـلة بعث الله إليها مَلَكا فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمهـا وعظامها ثم يقول أىْ ربّ أذكر أم أنثى ... " وذكر الحديث . وفى الصحيح عن عبدالله بن مسعود قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو الصادق المصـدوق " إنّ أحدكم يُجمـع خلقه فى بطن أمّه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقة مثلَ ذلك ثم يكون مُضْغة مثلَ ذلك ثم يُرسَل المَلَك فينفخ فيه الروحَ ويُؤمر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعمله وشقِىٌّ أو سعيد ... " الحديث . فهذا الحديث مفسِّر للأحاديث الأول ؛ فإن فيـه : " يُجمع خلق أحدِكم فى بطن أمّه أربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما علقة ثم أربعين يوما مضغة ثم يُبعث الملك فينفخ فيه الروح " فهـذه أربعة أشهر وفى العشر ينفخ الملك الروح ، وهذه عدّة المتوفَّى [عنهـا زوجها] كما قال ابن عباس . وقوله " إن أحدَكم يُجمع خلقه فى بطن أمّه " قد فسّره ابن مسعود ، سئل الأعمش : مايجمع فى بطن أمّه ؟ فقال : حدّثنـا خَيْثمة قال قال عبدالله : إذا وقعت النطفة فى الرحم فأراد الله أن يخلق منهـا بشرا طارت فى بشرة المرأة تحت كل ظفر وشـعر ثم تمكث أربعين يوما ثم تصير دما فى الرّحم ، فذلك جمعها ، وهذا وقت كونها علقة .

الثالثـــة — نسبة الخلق والتصوير للمَلَك نسبة مجازية لا حقيقية ، وأن ما صـدر عنه فعل ما فى المضغة كان عنـد التصوير والتشكيل بقدرة الله وخلقه واختراعه ؛ ألا تراه سبحانه

قد أضاف إليــه الخلْقة الحقيقية ، وقطع عنها نسب جميع الخليقة فقال : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ »(١) . وقال : « ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلَالَةٍ من طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكِينٍ»(٢) . وقال : « يأيها النــاس إن كنتم فى رَيْبٍ من البَعْث فإنا خلقناكم من تُرابٍ ثم من نطفة » . وقال تعالى : «هو الذى خلقكم فنكم كافر ومنكم مؤمن»(٣) . ثم قال : «وَصَوَّرَكُمْ فأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ»(٤) . وقال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تَقْوِيم »(٥) . وقال : « خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ »(٦) . إلى غير ذلك من الآيات، مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشىء من المخلوقات إلا ربّ العالمين . وهكذا القول فى قوله : ” ثم يُرسَــل الملك فينفخ فيــه الروح “ أى أنّ النفخ سببُ خلق الله فيها الروح والحياة . وكذلك القول فى سائر الأسباب المعتادة؛ فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره . فتأمّل هــذا الأصل وتمسك به ، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبعيين(٧) وغيرهم .

الرابعــــة — لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوما، وذلك تمــام أربعة أشهر ودخوله فى الخامس؛ كما بيناه بالأحاديث . وعليه يعوّل فيما يحتاج إليه من الأحكام فى الاستلحاق عند التنازع، وفى وجوب النفقات على حمل المطلقات؛ وذلك لتيقّنه بحركة الجنين فى الجوف . وقد قيل : إنه الحكمة فى عِدّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر، وهذا الدخول فى الخامس يحقق براءة الرَّحِم ببلوغ هذه المدّة إذا لم يظهر حمل .

الخامســـــة — النطفة ليست بشىء يقينا، ولا يتعلّق بها حكم إذا ألقتها المرأة إذا لم تجتمع فى الرحم ، فهى كما لو كانت فى صلب الرجل ؛ فإذا طرحتــه علقة فقــد تحققنا أن النطفة قد استقرّت واجتمعت واستحالت إلى أوّل أحوال ما يُتحقق به أنه ولد . وعلى هذا فيكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمــل ، تبرأ به الرّحم، وتنقضى به العدّة، ويثبت به لها حكم أم الولد . وهذا مذهب مالك رضى الله عنه وأصحابه . وقال الشافعىّ رضى الله عنه :

---

(١) آية ١١ سورة الأعراف . (٢) آية ١٢ سورة المؤمنون . (٣) آية ٢ سورة التغابن .
(٤) آية ٦٤ ســورة غافــر . (٥) آية ٤ سورة التين . (٦) آية ٢ سورة العلق .
(٧) فى الأصل : « الطبائع » .

لا اعتبار بإسقاط العَلَقة ، وإنمــا الأعتبار بظهور الصــورة والتخطيط ؛ فإن خَفِيَ التخطيط وكان لهــا فقولان بالنقل والتخريج ، والمنصوص أنه تنقضى به العدّة ولا تكون أمّ ولد . قالوا : لأن العدّة تنقضى بالدّم الجارى ، فبغيره أوْلى .

السادســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال الفرّاء : «مخلقة» تامّة الخَلْق ، « وغيرِ مخلقة » السّقط . وقال ابن الأعرابيّ : « مخلّقة » قد بدأ خلقها ، « وغير مخلقة » لم تصوّر بعد . ٱبن زيد : المخلقة التى خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة التى لم يخلق فيها شيء . قال ابن العــربى : إذا رجعنا إلى أصــل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلّقة ؛ لأن الكلّ خلقُ الله تعالى ، وإن رجعنا إلى التصوير الذى هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» فذلك ما قال ابن زيد .

قلت : التخليق من الخلق ، وفيه معنى الكثرة ، فما تتابع عليه الأطوار فقد خُلِق خلقا بعد خلق ، وإذا كان نطفة فهو مخلوق ؛ ولهذا قال الله تعالى : « ثم أنشأناه خَلْقا آخر» والله أعلم . وقد قيل : إنّ قوله « مخلّقةٍ وغيرِ مخلقةٍ » يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط ؛ أى منهم من يتم الربّ سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خَدِيجا ناقصا غير تمام . وقيــل : المخلقة أن تلد المرأة لتمــام الوقت . ابن عباس : المخلقة ما كان حيًّا ، وغير المخلقة السقط . قال :

أفى غــير المخلقــة البكاء * فأين الحزم ويحك والحياء

السابعـــة ـــ أجمع العلماء على أن الأَمَة تكون أمّ ولد بما تسقطه من ولدٍ تامّ الخلْق . وعند مالك والأوزاعىّ وغيرهما بالمضغة كانت مخلقةً أو غير مخلقة . قال مالك : إذا علم أنها مضغة . وقال الشافعى وأبو حنيفة : إن كان قد تبيّن له شيء من خلق بنى آدم أصبع أو عين أو غير ذلك فهى له أمّ ولد . وأجمعوا على أن المولود إذا ٱستهلّ صارخا يصــلَّى عليه ؛ فإن لم يستَهِل صارخا لم يصلّ عليه عند مالك وأبى حنيفة والشافعى وغيرهم . وروى عن ابن عمر أنه يصلى عليــه ؛ وقاله ابن المسيّب وابن سِيرين وغيرهما . وروى عن المغيرة بن شعبة أنه

كان يأمر بالصـلاة على السقط ، ويقول سموهم وٱغسـلوهم وكفّنوهم وحنّطوهم ؛ فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم، ويتلو هذه الآية «فإنا خلقناكم من تراب — إلى — وغيرِ مخلقةٍ» . قال ٱبن العربى : لعـل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبيّن خلقه فهو الذى يسمّى، وما لم يتبين خلقه فلا وجود له . وقال بعض السلف : يصلى عليه متى نفخ فيه الروح وتمت له أربعـة أشهر . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم قال : "إذا ٱستهَلّ المولود ورِث" . الاستهلال : رفع الصوت ؛ فكل مولود كان ذلك منـه أو حركةٌ أو عطاس أو تنفّس فإنه يورَّث لوجود ما فيـه من دلالة الحياة . وإلى هذا ذهب سفيان الثورى والأوزاعى والشافعى . قال الخطابى : وأحسنه قول أصحاب الرأى . وقال مالك : لا ميراث له وإن تحرك أو عَطَس ما لم يستهِلّ . وروى عن محمد بن سيرين والشّعْبِي والزهرى وقتادة .

الثامنـــة — قال مالك رضى الله عنه : ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيــه الغُرّة(١) . وقال الشافعى : لا شيء فيــه حتى يتبيّن من خلقه . قال مالك : إذا سقط الجنين فلم يستهِلّ صارخا ففيه الغُرّة . وسواء تحرّك أو عطس فيه الغرة أبدا، حتى يستهِل صارخا ففيه الدية كاملة . وقال الشافعى رضى الله عنه وسائر فقهاء الأمصار: إذا عُلمت حياته بحركة أو بعطاس أو باستهلال أو بغير ذلك مما تستيقن به حياته ففيه الدية .

التاســعة — ذكر القاضى إسماعيـل أن عدّة المرأة تنقضى بالسّقط الموضوع، واحتج عليه بأنه حمل ، وقال قال الله تعالى : «وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ»(٢) . قال القاضى إسماعيل : والدليل على ذلك أنه يرث أباه، فدل على وجوده خلقا وكونه ولدا وحملا. قال ابن العربى : ولا يرتبط به شيء من هذه الأحكام إلا أن يكون مخلقا .

قلت : ما ذكرناه من الآشتقاق وقوله عليه الصلاة والســلام : "إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه" يدل على صحة ما قلناه ، ولأن مُسقطة العلقة والمضغة يصـدق على المرأة إذا

(١) الغرة عند الفقهاء : ما بلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . (٢) آية ٤ سورة الطلاق .

ألقتـه أنها كانت حاملا وضعت ما استقر فى رحمها ، فيشملها قوله تعالى « وَأُولَاتُ الأَحمالِ أَجلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنّ » . ولأنها وضعت مبـدأ الولد عن نطفة متجسّدا كالمخطط ، وهـذا بيّن .

العـاشـــرة — روى ابن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنـا خالد بن مخلد حدّثنا يزيد عن عبـد الملك النّوفلىّ عن يزيد بن رُومان عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " لسقط أقدّمه بين يدى أحبّ إلىّ من فارس أخلّفه [خلفى](1) " . وأخرجه الحاكم فى معرفة علوم الحـديث له عن سهيل بن أبى صالح عن أبيـه عن أبى هريرة فقال : " أحبّ إلى من ألف فارس أخلّفه و رائى " .

الحادية عشرة — ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ يريد : كمال قدرتنا بتصريفنا أطوارَ خَلْقكم . ﴿ وَنُقِرّ فِي الْأَرْحَامِ ﴾ قرئ بنصب « نقر » و « نخرج » ، رواه أبو حاتم عن أبى زيد عن المفضّل عن عاصم قال قال أبو حاتم : النصب على العطف . وقال الزجاج : « نقـر » بالرفع لا غير؛ لأنه ليس المعنى : فعلنا ذلك لنقرّ فى الأرحام ما نشاء ، و إنمـا خلقهم عن وجل ليدلّهم على الرشد والصلاح . وقيل : المعنى لنبيّن لهم أمر البعث؛ فهو اعتراض بين الكلامين . وقرأت هذه الفرقة بالرفع « ونقرُّ » ؛المعنى : ونحن نقر . وهى قراءة الجمهور . وقرئ : « و يقر » و « يخرجكم » بالياء ، والرفع على هـذا سائغ . وقرأ ابن وثّاب « ما نِشاء » بكسر النون . والأجل المسمى يختلف بحسب جَنِين جنين؛ فثَمّ من يسقط وثَمّ من يكمل أمره ويخرج حَيًّا . وقال « ما نشاء» ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمـل ؛ أى يقر فى الأرحام ما نشاء من الحمـل ومن المضغة وهى جماد فكنّى عنها بلفظ ما .

الثانية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أى أطفالا ؛ فهو اسم جنس . وأيضا فإن العرب قد تسمّى الجمع باسم الواحد؛ قال الشاعر :

يَلحيننى فى حبّهـا ويَلُمْنَنِي * إن العواذل ليس لى بأمير

---

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه .

ولم يقل أمراء . وقال المبرد : وهو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعَــدْل، فيقع على الواحد والجمع؛ قال الله تعالى : « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا على عَوْرَاتِ النساء » (١) . وقال الطبرى : وهو نصب على التمييز، كقوله تعالى : « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا » (٢) . وقيل : المعنى ثم نخرج كل واحد منكم طفلا . والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ . وولد كلّ وَحْشيّة أيضا طفل . ويقال : جارية طِفْلٌ، وجاريتان طِفْل وجَوارٍ طِفْلٌ، وغلامٌ طفلٌ، وغلمان طفــل . ويقال أيضا : طِفْــلٌ وطِفْلة وطِفْلان وطِفْلتان وأطفال . ولا يقال : طِفْلات . وأطفلت المرأة صارت ذات طفل . والمُطْفِلة : الظبية معها طفلها ، وهى قريبة عهد بالنّتاج . وكذلك الناقة ، [والجمع] مَطافِلُ ومطافيل . والطَّفْل (بالفتح فى الطاء) الناعم ؛ يقال : جارية طَفْلة أى ناعمة ، وبنان طَفْل . وقد طَفَّل الليل إذا أقبل ظلامه . والطَّفَل (بالتحريك) : بعد العصر إذا طَفَلَت الشمس للغروب . والطَّفَل (أيضا) : مطر؛ قال :

* لِوَهْــدٍ (٣) جاده طَفَــلُ الــثُّرَيّا *

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ قيــل : إن « ثم » زائدة كالواو فى قوله « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » (٤) ؛ لأن ثم من حروف النَّسَق كالواو . « أَشُــدَّكم » كمال عقولكم ونهــاية قُواكم . وقد مضى فى « الأنعام » (٥) بيانه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أى أخسّــه وأدْوَنه ، وهو الهَــرَم والخَرَف حتى لا يعقل؛ ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْــدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ . كما قال فى سورة يس : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » (٦) . وكان النبىّ صــلى الله عليه وســلم يدعو فيقول : "اللّهمّ إنى أعوذ بك من البُخْل وأعوذ بك من الجُبْن وأعوذ بك أن أرَدّ إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر" . أخرجه النَّسائىّ عن ســعد ، وقال : وكان يعلمهنّ بَنِيه كما يعلّم المُكْتِبُ (٧) الغلمان . وقد مضى فى النحل (٨) هذا المعنى .

---

(١) آية ٣١ ســورة النور . (٢) آية ٤ سورة النساء . (٣) الوهد والوهدة : المطمئن من الأرض، والمكان المنخفض كأنه حفرة . (٤) آية ٧٣ سورة الزمر . (٥) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ (٦) آية ٦٨ (٧) المكتب : المعلم . (٨) راجع جـ ١٠ ص ١٤٠

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأوّل : « فإنا خلقناكم مِن تراب » فخاطب جمعا . وقال في الثـاني : « وَتَرَى الْأَرْضَ » فخاطب واحدا ، فانفصل اللفظ عن اللفـظ ، ولكن المعنى متصـل من حيث الاحتجاج على منكرى البعث . ﴿ هَامِدَةً ﴾ يابسـة لا تنبت شيئا ؛ قاله ابن جُريج . وقيـل : دارسـة . والهمود الدروس . قال الأعشى :

قالت قُتيلةُ ما لجسمك شاحِباً　*　وأرى ثيابَك باليات هُمَّـدَا

الهَرَوِىّ : « هامدة » أى جافة ذات تراب . وقال شَمِر : يقال : هَمَد شجر الأرض إذا بَلِيَ وذهب . وهمــدت أصواتهم إذا سكنت . وهمود الأرض ألا يكون فيهـا حياة ولا نبت ولا عود ولم يصبها مطر . وفى الحديث : "حتى كاد يَهْمُد من الجوع" أى يهلك . يقال : هَمَد الثوب يَهْمُد إذا بَلِيَ . وهَمَدت النار تَهْمُد .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَـاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى تحركت . والاهتزاز : شدّة الحركة ؛ يقال : هَزَزْت الشيء فاهتز ؛ أى حركته فتحرك . وهَزّ الحـادِى الإبل هزيزا فاهتزت هى إذا تحركت فى سـيرها بحُدائه . واهتز الكوكب فى انقضاضه . وكوكب هازّ . فالأرض تهتز بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفية ؛ فسماه اهتزازا مجازا . وقيـل : اهتز نباتها ، فحـذف المضاف ؛ قاله المـبرّد . واهتزازه شـدّة حركته ، كما قال الشاعر :

تَثَنَّى إذا قامت وتهـتزّ إن مشت　*　كما اهتز غصن البان فى ورق خُضْر

والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الأرض . ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى ارتفعت وزادت . وقيـل : انتفخت ؛ والمعنى واحد ، وأصـله الزيادة . رَبَا الشيء يَرْبُو رُبُوًّا أى زاد ؛ ومنـه الربا والرّبوة . وقـرأ يزيد بن القَعْقاع وخالد بن اليـاس « وَرَبَأَتْ » أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة ، وهو الذى يحفظ القوم على شيء مُشْرِف ؛ فهو رابئٌ وربيئة على المبالغة . قال امرؤ القيس :

بعثنا ربيئا قبـل ذاك مُخمَّلًا * كذئب الغضا يمشى الضَّراء ويتّقى (١)

﴿ وأنبتت ﴾ أى أخرجت . ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أى لون . ﴿ بَهِيج ﴾ أى حسن؛ عن قتادة . أى يُبهج من يراه . والبَهْجة الحُسْن؛ يقال : رجل ذو بهجة . وقد بَهُج (بالضم) بَهاجة وبَهْجة فهو بهيج . وأبهجنى أعجبنى بحسنه . ولما وصف الأرض بالإنبات دلّ على أن قوله : « اهتزت وربت » يرجع إلى الأرض لا إلى النبات . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ ﴾ لما ذكر افتقار الموجودات إليه وتسخيرها على وَفْق اقتداره واختياره فى قوله : « يأيها النّاسُ إن كُنْتُم فِى رَيْبٍ مِن البعث — إلى قوله — بهيج » . قال بعد ذلك : « ذلك بِأن اللهَ هو الحقُّ وأنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وأنّ الساعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ » . فنبّه سبحانه وتعالى بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجودا حقا فإنه لا حقيقة له من نفسه؛ لأنه مسخَّر مصرَّف . والحق الحقيقيّ : هو الموجود المطلق الغنيّ المطلق ؛ وأن وجود كلّ ذى وجود عن وجوب وجوده؛ ولهذا قال فى آخر السورة : « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ (٢) » . والحق الموجود الثابت الذى لا يتغيّر ولا يزول ، وهو الله تعالى . وقيل : ذو الحق على عباده . وقيل : الحق بمعنى (٣) فى أفعاله . وقال الزجاج : « ذلك » فى موضع رفع؛ أى الأمر ما وُصف لكم وبُيّن . ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ ﴾ أى لأن الله هو الحق . قال : ويجوز أن يكون

---

(١) المخمل : الذى يخمل نفسه ، أى يسترها ويخفيها لئلا يشعر به الصيد . والغضى : الشجر، والعرب تقول : أخبث الذئاب ذئب الغضى ؛ وإنما صار كذلك لأنه لا يباشر الناس إلا اذا أراد أن يُغير . والضراء (بالفتح والمد) : الشجر الملتف فى الوادى يستر من دخل فيه . وفلان يمشى الضراء : اذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر .

(٢) آية ٦٢ (٣) فى بعض نسخ الأصل « وقيل الحق أى بمعنى كذا فى أفعاله » .

« ذلك » نصـبا ؛ أى فعـل الله ذلك بأنه هو الحـق . ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى بأنه ﴿ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى و بأنه قادر على ما أراد . ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ عطف على قوله : « ذلِك بِأن الله هو الحـق » من حيث اللفظ ، وليس عطفا فى المعـنى ؛ إذ لا يقال فعل الله ماذكر بأن الساعة آتية ، بل لا بد من إضمار فعل يتضمنه ؛ أى وليعلموا أن الساعة آتية ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى لا شك . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ يريد للثواب والعقاب .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُـدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أى نيّر بيّن الحجة . نزلت فى النضر بن الحارث . وقيل : فى أبى جهل بن هشام ؛ قاله ابن عباس . والمُعْظم على أنهـا نزلت فى النضر بن الحارث كالآية الأولى ، فهما فى فريق واحد ، والتكرير للمبالغة فى الذم ؛ كما تقول للرجل تذمّه وتوبّخه : أنت فعلت هذا ! أنت فعلت هذا ! ويجوز أن يكون التكرير لأنه وصفه فى كل آية بزيادة ؛ فكأنه قال : إن النضر بن الحارث يجادل فى الله بغير علم و يتّبع كلّ شيطان مريد ، والنضر بن الحارث يجادل فى الله من غير علم ومن غير هُدًى وكتاب منير ؛ ليُضل عن سبيل الله . وهو كقولك : زيد يشتمنى وزيد يضربنى ؛ وهو تكرار مفيـد ؛ قاله القشيرى . وقد قيـل : نزلت فيـه بضعَ عشرة آية . فالمـراد بالآية الأولى إنكاره البعث ، و بالثانيـة إنكاره النبوّة ، وأن القرآن منزل من جهة الله . وقـد قيل : كان من قول النضر بن الحارث أن الملائكة بنات الله ، وهـذا جدال فى الله تعـالى . « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء . والخبر فى قوله : «ومِنَ الناس» . ﴿ ثانِى عِطْفِهِ ﴾ نصب على الحال . و يتأوّل على معنيين : أحدهمـا — روى عن ابن عباس أنه قال : هو النضر بن الحارث ،

لَوَى عنقه مَرَحًا وتعظُّماً . والمعنى الآخر — وهو قول الفراء — أن التقدير: ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ثانى عِطْفه ، أى مُعْرِضا عن الذّكر ؛ ذكره النحاس . وقال مجاهد وقتادة : لاوِيًا عنقه كفرا . ابن عباس : مُعْرِضا عما يُدْعَى إليه كفرا . والمعنى واحد . وروى الأوزاعى عن مَخْلد بن حسين عن هشام بن حسان عن ابن عباس فى قوله عز وجل: « ثانِيَ عِطفِهِ لِيُضِل عن سبِيلِ اللهِ » قال : هو صاحب البدعة . المبرّد : العِطْف ما انثنى من العنق . وقال المفضّل : والعطف الجانب ؛ ومنه قولهم : فلان ينظر فى أعطافه ، أى فى جوانبه . وعِطْفَا الرجل من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكَيْه . وكذلك عِطْفَا كلّ شيء جانباه . ويقال : ثَنَى فلان عنى عِطفه إذا أعرض عنك . فالمعنى : أى هو معرض عن الحق فى جِدَاله ومُوَلٍّ عن النظر فى كلامه ؛ وهو كقوله تعالى : «وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا»(١) . وقوله تعالى : « لَوَّوْا رُءُوسَهُم »(٢) . وقوله : «أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ»(٣) . وقوله : «ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى»(٤) . ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى عن طاعة الله تعالى . وقرئ « لِيَضِل » بفتح الياء . واللام لام العاقبة ؛ أى يجادل فيضل ؛ كقوله تعالى : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا »(٥) أى فكان لهم كذلك . ونظيره «إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا»(٦) . ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أى هوان وذلّ بما يجرى له من الذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة ؛ كما قال : «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ»(٧) الآية . وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » . وقيل : الخزى ها هنا القتل ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن الحارث يوم بدر صَبْرًا ؛ كما تقدّم فى آخر الأنفال . ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى نار جهنم . ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أى يقال له فى الآخرة إذا دخل النار : ذلك العذاب بما قدمت يداك من المعاصى والكفر . وعبّر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التى تفعل وتبطش للجملة . و «ذلك» بمعنى هذا ، كما تقدّم فى أوّل البقرة(٨) .

---

(١) آية ٧ سورة لقمان . (٢) آية ٥ سورة المنافقون . (٣) آية ٨٣ سورة الإسراء .
(٤) آية ٣٣ سورة القيامة . (٥) آية ٨ سورة القصص . (٦) آية ٥٤ سورة النحل .
(٧) آية ١٠ سورة القلم . (٨) راجع جـ ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ «من» فى موضع رفع بالابتداء، والتمام «ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ» على قراءة الجمهور «خَسِر» . وهذه الآية خبر عن المنافقين . قال ابن عباس : يريد شيبة بن ربيعة كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما أوحى إليه ٱرتدّ شيبة بن ربيعة . وقال أبو سعيد الخُدْرِى : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله؛ فتشاءم بالإسلام فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أَقِلْنِي ! فقال : "إن الإسلام لا يُقال" فقال : إنى لم أصب فى دينى هذا خيرا! ذهب بصرى ومالى وولدى! فقال : "يا يهودىّ إن الإسلام يَسْبِك الرجال كما تَسْبِك النارُ خَبَث الحديد والفضة والذهب"؛ فأنزل الله تعالى «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» . وروى إسرائيل عن أبى حُصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» قال : كان الرجل يَقْدَم المدينة فإن ولدت ٱمرأته غلاما ونُتِجت خيله قال هذا دين صالح؛ فإن لم تلد ٱمرأته ولم تُنْتَج خيله قال هذا دِين سَوْء . وقال المفسرون : نزلت فى أعراب كانوا يَقْدَمون على النبيّ صلى الله عليه وسلم فيُسلمون؛ فإن نالوا رخاء أقاموا، وإن نالتهم شدّة ارتدّوا . وقيل نزلت فى النضر بن الحارث . وقال ابن زيد وغيره : نزلت فى المنافقين . ومعنى ﴿ على حَرْف ﴾ على شكّ؛ قاله مجاهد وغيره . وحقيقته أنه على ضعف فى عبادته، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه . وحرفُ كل شيء طَرَفه وشَفيره وحدّه؛ ومنه حرف الجبل، وهو أعلاه المحدّد . وقيل : « على حرف » أى على وجه واحد، وهو أن يعبده على السّراء دون الضّراء؛ ولو عبدوا الله على الشكر فى السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف . وقيل : « على حرف » على شرط؛ وذلك أن شيبة بن ربيعة قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر أمره : أُدع لى ربّك أن يرزقنى مالا وإبلا

وخيلا وولدا حتى أومن بك وأعدل إلى دينك؛ فدعا له فرزقه الله عز وجل ما تمنّى؛ ثم أراد الله عز وجل فتنته واختباره وهو أعلم به فأخذ منه ما كان رَزَقه بعد أن أسلم فارتد عن الإسلام فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : « ومن الناس مَن يعبد الله على حَرْفٍ » يريد شرط . وقال الحسن : هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه . وبالجملة فهذا الذى يعبد الله على حَرْف ليس داخلا بكلّيته؛ وبيّن هذا بقوله : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ صحةُ جسم ورَخاء معيشة رَضِىَ وأقام على دينه . ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أى خلاف ذلك مما يختبر به ﴿ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ أى ٱرتدّ فرجع إلى وجهه الذى كان عليه من الكفر . ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ قرأ مجاهد وحميد بن قيس والأعرج والزهرىّ وٱبن أبى إسحاق — وروى عن يعقوب — «خاسرَ الدنيا» بألف، نصبا على الحال، وعليه فلا يوقف على « وجهه » . وخسرانه الدنيا بأن لا حظّ له فى غنيمة ولا ثناء، والآخرة بأن لا ثواب له فيها .

قوله تعالى : يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى هذا الذى يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذى لا ينفع ولا يضر . ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ قال الفرّاء : الطويل .

قوله تعالى : يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ أى هذا الذى انقلب على وجهه يدعو مَن ضرّه أدنى من نفعه؛ أى فى الآخرة لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه نفعا أصلا، ولكنه قال : ضره أقرب من نفعه ترفيعا للكلام ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مبين» (١) . وقيل : يعبدونهم توهُّمَ أنهم يشفعون لهم غدًا؛ كما قال الله تعالى :

(١) آية ٢٤ سورة سبأ .

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّهِ »(١) . وقال تعالى : «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَى»(٢) . وقال الفرّاء والكسائى والزجاج : معنى الكلام القسم والتأخير؛ أى يدعو واللهِ لمن ضره أقرب من نفعه . فاللام مقدّمة فى غير موضعها . و «مَن» فى موضع نصب بـ « يدعو » واللام جواب القَسَم . و «ضَرُّه» مبتدأ . و « أقْرَبُ» خبره . وضعّف النحاس تأخير اللام وقال : وليس لِلّام من التصرّف ما يوجب أن يكون فيها تقديم ولا تأخير .

قلت : حق اللام التقديم وقد تؤخّر؛ قال الشاعر :

خالِى لأنت ومَن جَرِيرٌ خالُه * ينـلِ العَلَاء ويُكرِم الأخوالا

أى لخالى أنت ؛ وقد تقدم . النحاس : وحكى لنا علىّ بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : فى الكلام حذف ؛ والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلٰهًا . قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطا على محمد بن يزيد ؛ لأنه لا معنى له ، لأن ما بعد اللام مبتدأ فلا يجوز نصب إلٰه ، وما أحسب مذهب محمد بن يزيد إلا قول الأخفش ، وهو أحسن ما قيل فى الآية عندى، والله أعلم ، قال : «يدعو» بمعنى يقول . و « من » مبتدأ وخبره محذوف، والمعنى يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلٰهُهُ .

قلت : وذكر هذا القول القشيرىّ رحمه الله عن الزجاج والمهدوىّ عن الأخفش، وكمّل إعرابه فقال : «يدعو» بمعنى يقول، و «من» مبتدأ، و «ضره» مبتدأ ثانٍ، و « أقرب » خبره، والجملة صلة « مَن » ، وخبر « مَن » محذوف، والتقدير يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه؛ ومثله قول عنترة :

يدعون عَنْتَرُ والرِّماحُ كأنها * أشْطانُ بئر فى لَبان الأدْهَمِ(٣)

قال القشيرى : والكافر الذى يقول الصنم معبودى لا يقول ضَرُّه أقربُ من نفعه ؛ ولكن المعنى يقول الكافر لمن ضره أقرب من نفعه فى قول المسلمين معبودى و إلٰهى . وهو كقوله

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) آية ٣ سورة الزمر . (٣) الأشطان : جمع شطن ، وهو حبل البئر . واللبان (بفتح اللام) : الصدر . والأدهم : الفرس . يريد أن الرماح فى صدر هذا الفرس بمنزلة حبال البئر من الدلاء؛ لأن البئر إذا كانت كثيرة الجرَفة اضطربت الدّلو فيها فيجعل لها حبلان لئلا تضطرب . (عن شرح المعلقات) .

تعالى : « يَأَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ »[1] ؛ أى يأيها الساحر عند أولئك الذين يدعونك ساحرا . وقال الزجاج : يجوز أن يكون « يدعو » فى موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ؛ أى ذلك هو الضلال البعيد يدعوه ، أى فى حال دعائه إياه ؛ ففى « يدعو » هاء مضمرة ، و يوقف على هذا على «يدعو» . وقوله : «لَمَنْ ضَرُّه أقربُ مِن نفعِهِ» كلام مستأنف مرفوع بالابتداء ، وخبره «لَبِئْسَ الْمَوْلَى» ، وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أوّل الكلام . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى ، و يكون فى محل النصب بوقوع « يدعو » عليه ؛ أى الذى هو الضلال البعيد يدعو ؛ كما قال : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » أى ما الذى . ثم قوله «لَمَنْ ضَرُّه» كلام مبتدأ ، و «لَبِئْسَ الْمَوْلَى» خبر المبتدأ ؛ وتقدير الآية على هذا : يدعو الذى هو الضلال البعيد ؛ قدّم المفعول وهو الذى ؛ كما تقول : زيدا يضرب ؛ واستحسنه أبو علىّ . وزعم الزجاج أن النحويين أغفلوا هذا القول ؛ وأنشد :

عَدَسْ ما لعبّادٍ عليـــك إمارةٌ * نَجَــوْتِ وهـــذا تَحْمِلِين طَلِيقُ[2]

أى والذى . وقال الزجاج أيضا والفــرّاء : يجوز أن يكون « يدعو » مكرّرة على ما قبلها ، على جهة تكثير هذا الفعل الذى هو الدعاء ، ولا تُعدّيه إذ قد عدّيته أوّلا ؛ أى يدعو من دون الله ما لا ينفعــه ولا يضره يدعو ؛ مثــل ضربت زيدا ضربت ، ثم حذفت يدعــو الآخرة اكتفاء بالأولى . قال الفرّاء : و يجــوز « لِمَنْ ضَرُّه » بكسر اللام ؛ أى يدعو إلى مَن ضره أقرب من نفعه ، قال الله عز وجل : « بأنّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى إليها . وقال الفراء أيضا والقفّال : اللام صلة ؛ أى يدعو من ضره أقرب من نفعه ؛ أى يعبده . وكذلك هو فى قراءة عبد الله بن مسعود . ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ أى فى التناصر ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أى المعاشر والصاحب والخليل . مجاهد : يعنى الوثن .

---

(١) آية ٤٩ سورة الزخرف . (٢) هذا البيت أول أبيات ليزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميرى . وعدس : زجر للبغل ليسرع . وعباد هو ابن زياد أخو عبيد الله بن زياد الذى قاتل الحسين بن على رضى الله عنهما فى كربلاء . هجا ابن مفرّغ هذا عبادا لحقد عليه وجفاه ؛ فأخذه أخوه عبيد الله وحبسه وعذبه ، فلما طال حبسه دخل أهل اليمن الى معاوية فشفعوا فيه فأطلق سراحه . (راجع ترجمته فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الأدب للبغدادى فى الشاهد الثالث بعد الثلثمائة والثامن والعشرين بعد الأربعمائة) .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لمـا ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين فى الآخرة أيضا . ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أى يثيب من يشـاء و يعذب من يشـاء ؛ فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق و بفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله ؛ لا أن فعل الرب معلل بفعل العبيد .

قوله تعـالى : مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْـدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه . ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء . ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أى ثم ليقطع النصر إن تهيأ له . ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ وحيلته ما يغيظه من نصر النبيّ صلى الله عليه وسـلم . والفائدة فى الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هـذا لم يصل إلى قطع النصر . وكذا قال ابن عباس : إن الكناية فى « ينصره الله » ترجع إلى محمد صلى الله عليـه وسلم ، وهو و إن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدّين الذى أتى به محمد صـلى الله عليه وسـلم ؛ أى من كان يظن ممن يعادى محمدا صلى الله عليـه وسلم ومَن يعبد الله على حَرْف أنا لا ننصر محمدا فليفعل كذا وكذا .

وعن ابن عباس أيضا أن الهاء تعـود على « من » والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقـه فليختنق ، فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير فى حياة تخلو من عَوْن الله . والنصر على هذا القول الرزق ؛

تقول العرب : من ينصرني نصره الله؛ أي من أعطاني أعطاه الله . ومن ذلك قول العرب : أرض منصورة؛ أي ممطورة . قال الفقعسي[1] :

وإنك لا تعطى امرأ فـوق حقه * ولا تملك الشق الذى الغيث ناصره

وكذا روى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال : « من كان يظن أن لن ينصره الله » أي لن يرزقه . وهو قول أبي عبيدة . وقيل : إن الهاء تعود على الدِّين؛ والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله دينه . ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ أي بحبل . والسبب ما يتوصل به إلى الشيء . ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ إلى سقف البيت . ابن زيد : هي السماء المعروفة . وقرأ الكوفيون « ثم ليقطع » بإسكان اللام . قال النحاس : وهذا بعيد في العربية؛ لأن « ثم » ليست مثل الواو والفاء، لأنها يوقف عليها وتنفرد . وفي قراءة عبد الله « فليقطعه ثم لينظر هل يُذهبن كيدُه ما يغيظ » . قيل : « ما » بمعنى الذي؛ أي هل يذهبن كيده الذي يغيظه، فحذف الهاء ليكون أخف . وقيل : « ما » بمعنى المصدر؛ أي هل يذهبن كيدُه غيظَه .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ أي وكذلك أن الله ﴿ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾، علّق وجود الهداية بإرادته؛ فهو الهادي لا هادي سواه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ اليهود، وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام . ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ هم قوم يعبدون النجوم .

(١) في الأصول الفقيمي . والتصويب عن تفسير الطبري .

﴿ والنَّصارَى ﴾ هم المنتسبون إلى ملّة عيسى . ﴿ والَمجُوسَ ﴾ هم عَبَدة النيران القائلين أن للعالم أصلين : نور وظلمة . قال قتادة : الأديان خمسة، أربعة للشيطان وواحد للرحمن . وقيل: المجوس فى الأصل النجوس لتديّنهم باستعمال النجاسات؛ والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين، والأيم والأين . وقد مضى فى البقرة هذا كله مستوفًى[(١)] . ﴿ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ هم العرب عبدة الأوثان . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يقضى ويحكم؛ فللكافرين النار، وللؤمنين الجنة . وقيل : هذا الفصل بأن يعرّفهم المحقّ من المبطل بمعرفة ضرورية، واليوم يتميز المحق عن المبطل بالنظر والاستدلال . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم، فلا يَعْزُب عنه شيء منها ، سبحانه ! وقوله « إن الله يفصل بينهم » خبر « إن » فى قوله « إن الذين آمنوا »؛ كما تقول : إن زيدا إن الخير عنده . وقال الفراء : ولا يجوز فى الكلام إن زيدا إن أخاه منطلق؛ وزعم أنه إنما جاز فى الآية لأن فى الكلام معنى المجازاة؛ أى من آمن ومن تهوّد أو تنصّر أو صبأ يفصل بينهم ، وحسابُهم على الله عز وجل . وردّ أبو إسحاق على الفراء هذا القول، واستقبح قوله : لا يجوز إن زيدا إن أخاه منطلق؛ قال : لأنه لافرق بين زيد وبين الذين، و«إن» تدخل على كل مبتدأ فتقول إن زيدا هو منطلق، ثم تأتى بإن فتقول : إن زيدا إنه منطلق . وقال الشاعر :

إن الخليفة إن الله سَرْبَـــله　*　سِربالَ عِزّ به تُرْجَى الخواتيم[(٢)]

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٣ طبعة ثانية أو ثالثة .　(٢) ويروى : «تزجى» بالزاى والجيم؛ والازجاء السوق . والخواتيم جمع الخاتام لغة فى الخاتم . يريد أن سلاطين الآفاق يرسلون إليه خواتمهم خوفا منه فيضاف ملكهم إلى ملكه . وهذا البيت من قصيدة لجرير يمدح بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . (عن خزانة الأدب) .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ هذه رؤية القلب؛ أى ألم تر بقلبك وعقلك. وتقدّم معنى السجود فى «البقرة»[1]، وسجود الجماد فى «النحل»[2]. ﴿ وَالشَّمْسُ ﴾ معطوفة على «مَن». وكذا ﴿ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾. ثم قال: ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ ﴾ وهذا مشكل من الإعراب، كيف لم ينصب ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل؛ مثل « والظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »[3]؟ فزعم الكسائى والفـرّاء أنه لو نصب لكان حسنا، ولكن آختير الرفع لأن المعنى وكثير أبى السجود؛ فيكون ابتداء وخبرا، وتم الكلام عند قوله «وكثير من الناس». ويجوز أن يكون معطوفا، على أن يكون السجود التذلّلَ والانقيادَ لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوّة وصحة وسقم وحسن وقبح، وهذا يدخل فيـه كل شىء. ويجوز أن ينتصب على تقـدير: وأهان كثيرا حق عليه العذاب، ونحوه. وقيل: تم الكلام عند قوله « والدّوابُّ » ثم آبتدأ فقال «وكثير من الناس» فى الجنة «وكثير حق عليه العذاب». وكذا روى عن ابن عباس أنه قال: المعنى وكثير من الناس فى الجنـة وكثير حق عليه العـذاب؛ ذكره ابن الأنبـارى. وقال أبو العالية: مافى السموات نجم ولا قمر ولا شمس إلا يقع ساجدا لله حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه. قال القُشَيرى: وورد هذا فى خبر مسند فى حق الشمس؛ فهذا سجود حقيق، ومن ضرورته تركيب الحياة والعقل فى هذا الساجد.

قلت: الحديث المسند الذى أشار إليه خرجه مسلم، وسيأتى فى سورة « يسٓ » عند قوله تعالى: « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا »[4]. وقد تقدم فى البقرة معنى السجود لغـة ومعنًى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ أى من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهـوان عنه. وقال ابن عباس: إن من تهاون بعبـادة الله صار إلى النـار. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ يريد أن مصيرهم إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه. وحكى الأخفش والكسائى والفراء « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فما له من مُكْرَم » أى إكرام.

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٢
(٣) آية ٣١ سورة الإنسان. (٤) آية ٣٨.

قوله تعـالى : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ خرّج مسلم عن قيس بن عُبَاد قال: سمعت أبا ذَرّ يُقسم قَسَماً إنّ «هذان خصمان اختصموا فى ربهم» إنها نزلت فى الذين بَرَزُوا يوم بدر : حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بن الحارث رضى الله عنهم وعتبةُ وشيبةُ آبنا ربيعة والوليدُ بن عتبة . وبهذا الحديث ختم مسلم رحمـه الله كتابه . وقال ابن عباس : نزلت هـذه الآيات الثلاث على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر كافرين؛ وسمّـاهم، كما ذكر أبو ذر . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إنى لأوّل من يجثو للخصومة بين يدى الله يوم القيـامة ؛ يريد قصته فى مبارزته هو وصاحباه؛ ذكره البخارى . وإلى هـذا القول ذهب هلال بن يَساف وعطاء بن يَسار وغيرهما . وقال عكرمة : المراد بالخصمين الجنة والنار؛ اختصمتا فقالت النار : خلقنى لعقوبته . وقالت الجنة خلقنى لرحمته .

قلت : وقد ورد بتخاصم الجنة والنار حديثٌ عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "احتجت الجنـة والنار فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه أنت عذابى أعذب بك من أشاء وقال لهـذه أنت رحمتى أرحم بك من أشـاء ولكل واحدة منكما ملؤها" . خرّجه البخارى ومسلم والترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وقال ابن عبـاس أيضا : هم أهـل الكتاب قالوا للؤمنين نحن أولى بالله منكم، وأقدم منكم كتابا، ونبيُّنا قبل نبيّكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبمـا أنزل إليـه من كتاب ، وأنتم تعرفون نبينا وتركتموه وكفرتم به حسدا ؛ فكانت هـذه خصومتهم ، وأنزلت فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة ، والقول الأوّل أصح رواه البخارى عن حَجّاج بن مِنْهال عن هُشيم عن أبى هاشم عن أبى مجلز عن

قيس بن عُباد عن أبى ذر ، ومسلمٌ عن عمرو بن زُرَارة عن هُشيم ، ورواه سليمان التيمى عن أبى مِجْلَز عن قيس بن عُباد عن علىّ قال : فينا نزلت هذه الآية وفى مبارزتنا يوم بدر « هذان خصمان اختصموا فى ربهم — إلى قوله — عذاب الحريق » . وقرأ ابن كثير « هذانّ خصمان » بتشديد النون من « هذان » . وتأوّل الفرّاء الخَصْمَين على أنهما فريقان أهل دينين ، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخر اليهود والنصارى ، اختصموا فى دين ربهم ؛ قال : فقال «اختصموا» لأنهم جمع ، قال : ولو قال «اختصما» لجاز . قال النحاس : وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير ؛ لأن الحديث فى هذه الآية مشهور ، رواه سفيان الثَّوْرى وغيره عن أبى هاشم عن أبى مِجْلَز عن قيس بن عُباد قال : سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَمًا إن هذه الاية نزلت فى حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة ٱبنى ربيعة والوليد بن عتبة . وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس . وفيه قول رابع أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أى ملة كانوا ؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبى رَبَاح وعاصم بن أبى النَّجُود والكلبى . وهذا القول بالعموم يجمع المنزل فيهم وغيرهم . وقيل : نزلت فى الخصومة فى البعث والجزاء ؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم . ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى من الفِرق الذين تقدم ذكرهم . ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ أى خِيطت وسُوِّيت ؛ وشبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب . وقوله ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ أى تقطع لهم فى الآخرة ثياب من نار ؛ وذُكر بلفظ الماضى لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقّق ؛ قال الله تعالى : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلتَ للناس »(١) أى يقول الله تعالى . ويحتمل أن يقال قد أعدّت الآن تلك الثياب لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار . وقال سعيد بن جبير : « من نار » من نحاس ؛ فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهى السرابيل المذكورة فى « قِطْرٍ آنٍ »(٢) وليس فى الآنية شىء إذا حَمِى

---

(١) آية ١١٦ سورة المائدة . (٢) أى فى قوله تعالى : « سرابيلهم من قطران » آية ٥٠ سورة إبراهيم . فقد قرئ « من قطرآن » والقطر : النحاس والصفر المذاب . والآنى الذى انتهى إلى حرّه . راجع جـ ٩ ص ٣٨٥

يكون أشدّ حرًّا منه . وقيـل : المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم؛ فصارت من هـذا الوجه ثيابا لأنها بالإحاطة كالثياب؛ مثل « وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِبَاسًا »(١) . ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ أي الماء الحار المُغَلَّى بنار جهنم . وروى الترمذيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " إن الحميم لَيُصَبّ على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه فيَسْلِت ما في جوفه حتى يَمْرُق من قدميه وهو الصَّهْر ثم يعاد كما كان ". قال: حديث حسن صحيح غريب . ﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب . ﴿ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ والصَّهر إذابة الشحم . والصُّهارة ما ذاب منه؛ يقال : صَهَرْت الشيء فانصهر؛ أي أذبته فذاب، فهو صهير . قال ابن أحمر يصف فرخ قَطاة :

تَرْوِي لَقًى أُلْقِيَ في صَفْصَفٍ * تَصْهَرُه الشمسُ فما يَنْصَهِرْ(٢)

أي تذيبه الشمس فيصبر على ذلك . ﴿ وَالْجُلُودُ ﴾ أي وتُحرق الجلود، أو تُشوى الجلود؛ فإن الجلود لا تذاب، ولكن يُضَمّ في كل شيء ما يليق به؛ فهو كما تقول : أتيته فأطعمني ثريدا، إي والله ولبنا قارصا(٣)؛ أي وسقاني لبنا . وقال الشاعر :

* عَلَفْتها تبنا وماء باردا *

﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ أي يُضربون بها ويدفعون؛ الواحدة مِقْمَعة، ومِقْمَع أيضا كالمِحْجَن، يضرب به على رأس الفيل . وقد قَمَعته إذا ضربته بها . وقمعته وأقمعته بمعنًى؛ أي قهرته وأذللته فانقمع . قال ابن السِّكيت : أقمعت الرجلَ عنّي إقماعا إذا طلع عليك فرددته عنك . وقيل : المَقامع المطارق، وهي المرازب أيضا . وفي الحديث " بيد كل مَلَك من خَزَنة جهنم مِرْزَبة لها شُعبتان فيضرب الضربة فيهوي بها سبعين ألفا " . وقيل : المقامع سياط من نار، وسُمِّيت بذلك لأنها تقمع المضروب؛ أي تذلّله .

---

(١) آية ١٠ سورة النبأ . (٢) تروى : تسوق اليه الماء؛ أي تصير له كالراوية . واللقى (بالفتح) : الشيء الملقى لهوانه . والصفصف : المستوى من الأرض . (٣) القارص : الحامض من ألبان الإبل خاصة . وقيل : القارص اللبن الذي يحذي اللسان؛ ولم يخصص .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أى من النار . ﴿ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ بالضرب بالمقامع . وقال أبو ظبيان : ذُكر لنا أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتفور فتُلْقِي من فيها إلى أعلى أبوابها فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان إليها بالمقامع . وقيل : إذا اشتدّ غمهم فيها فرّوا، فمن خَلَص منهم إلى شَفيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع، ويقولون لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى المُحْرِق؛ مثلُ الأليم والوجيع . وقيل : الحريق الآسم من الاحتراق . تحرّق الشيء بالنار وآحترق، والاسم الحُرْقة والحريق . والذّوْق : مماسّةٌ يحصل معها إدراك الطعم؛ وهو هنا توسّع، والمراد به إدراكهم الألم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ لمّا ذكر أحد الخصمين وهو الكافر ذكر حال الخصم الآخر وهو المؤمن . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ « مِن » صِلة[١] . والأساور جمع أَسْوِرة، وأسورة واحدها سِوار؛ وفيه ثلاث لغات : ضم السين وكسرها و إسوار . قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبَس فى الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ . قال هنا وفى فاطر[٢]:

---

(١) هـذا على مذهب الأخفش والكوفيين الذين يجيزون زيادة « من » فى الإيجاب . أما الذين لا يجيزون زيادتها فى الإيجاب فقال بعضهم إنها للتبعيض، وبعضهم إنها للابتداء، وبعضهم إنها بيانية . (راجع البحر المحيط وروح المعانى فى الكلام عن هذه الآية) . (٢) آية ٣٣

« مِنْ أساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ولُؤْلُؤًا » وقال فى سورة الإنسان[1] : « وَحُلُّوا أَسَـاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ » . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة سمعت خليلى صلى الله عليه وسلم يقول : " تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء" . وقيل : تُحَلَّى النساء بالذهب والرجال بالفضة . وفيه نظر، والقــرآن يرده . ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ قرأ نافع وابن القَعْقاع وشـيبة وعاصم هنـا وفى سورة الملائكة « لؤلؤًا » بالنصب، على معنى ويُحَلَّون لؤلؤا؛ واستدلوا بأنها مكتوبة فى جميع المصاحف هنا بألف . وكذلك قرأ يعقوب والجَحْدَرِىّ وعيسى بن عمر بالنصب هنا والخفض فى « فاطر» اتباعا للصحف، ولأنها كتبت ها هنا بألف وهناك بغير ألف[2] . الباقون بالخفض فىالموضعين. وكان أبو بكر لا يهمز « اللؤلؤ » فى كل القــرآن ؛ وهو ما يستخرج من البحـــر من جوف الصَّدَف . قال القُشيرِىّ : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ؛ ولا يبعد أن يكون فى الجنة سوار من لؤلؤ مُصْمَت[3] .

قلت : وهو ظاهر القرآن بل نصّه . وقال ابن الأنبارى : من قرأ «ولؤلؤٍ» بالخفض وقف عليه ولم يقف على الذهب . وقال السِّجستانِىّ : من نصب « اللؤلؤ » فالوقف الكافى « من ذهب » ؛ لأن المعنى ويحلون لؤلؤا . قال ابن الأنبارى : وليس كما قال ، لأنا إذا خفضنا «اللؤلؤ» نسقناه على لفظ الأساور ، وإذا نصبناه نسقناه على تأويل الأساور ؛ وكأنا قلنا : يحلون فيها أساور ولؤلؤا، فهو فى النصب بمنزلته فىالخفض، فلا معنى لقطعه من الأوّل.

قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أى وجميع مايلبَسونه من فُرُشهم ولباسهم وستورهم حرير، وهو أعلى ممـا فى الدنيا بكثير . وروى النَّسائىّ عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من لبِس الحرير فى الدنيا لم يلبَسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربه فى الآخرة ومن شرب فى آنية الذهب والفضة لم يشرب فيها فى الآخرة — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — لباسُ أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة" . فإن قيل : قد سوّى النبىّ صلى الله عليه وسلم بين هذه الأشياء الثلاثة وأنه يُحْرَمُها فى الآخرة؛ فهل يحرمها

(١) آية ٢١ (٢) الذى فى المصحف طبعة الحكومة المصرية أنها بالألف فى الموضعين .
(٣) المصمت : الذى لا يخالطه غيره .

اذا دخل الجنـة ؟ قلنا : نعم ! إذا لم يتب منها حُرِمها فى الآخرة وإن دخل الجنة ؛ لاستعجاله ما حرم الله عليه فى الدنيا . لا يقال : إنما يُحْرَم ذلك فى الوقت الذى يعذَّب فى النار أو بطول مقامه فى الموقف ، فأما اذا دخل الجنـة فلا ؛ لأن حرمان شيء من لذّات الجنـة لمن كان فى الجنـة نوع عقوبةٍ ومؤاخذةٍ ، والجنـة ليست بدار عقوبة ، ولا مؤاخذةَ فيهـا بوجه . فإنا نقول : ما ذكرتموه محتمل ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردّه من ظاهر الحديث الذى ذكرناه . وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يتب منها حُرِمها فى الاخرة" . والأصـل التمسك بالظاهر حتى يرد نصّ يدفعه؛ بل قد ورد نصّ على صحـة ما ذكرناه ، وهو ما رواهأبو داود الطيالسيّ فى مسنده : حدّثنا هشام عن قتادة عن داود السرّاج عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "من لبس الحرير فى الدنيـا لم يلبسه فى الآخرة وإن دخل الجنة لبسه أهـل الجنة ولم يلبسه هو" . وهـذا نص صريح وإسناده صحيح . فإن كان "وإن دخل الجنـة لبسه أهلُ الجنة ولم يلبسه هو" من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو الغاية فى البيان ، وإن كان من كلام الراوى على ما ذكر فهو أعلم بالمقال وأقعـد بالحال ، ومثـله لا يقال بالرأى ، والله أعلم . وكذلك "من شرب الخمر ولم يتب" و"من استعمل آنيـة الذهب والفضة" وكما لا يشتهى منزلة من هو أرفع منـه ، وليس ذلك بعقوبة ، كذلك لا يشتهى خمر الجنـة ولا حريرها ولايكون ذلك عقوبة . وقد ذكرنا هذا كله فى كتاب التذكرة مستوفى ، والحمد لله، وذكرنا فيها أن شجر الجنة وثمـارَها يتفتق عن ثياب الجنة ، وقد ذكرناه فى سورة الكهف (١) .

قوله تعـالى : ﴿ وَهُـدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَـوْلِ وَهُـدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيـدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى أُرشدوا إلى ذلك . قال ابن عباس : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . وقيل : القرآن، ثم قيل : هذا فى الدنيا، هُدُوا إلى الشهادة،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧

وقراءة القــرآن . ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيــدِ ﴾ أى إلى صراط الله . وصراط الله : دينــه وهو الإسلام . وقيل : هُدُوا فى الآخرة إلى الطيِّب من القول، وهو الحمد لله؛ لأنهم يقولون غدا الحمد لله الذى هدانا لهذا، الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَن؛ فليس فى الجنة لَغْوٌ ولا كذب فمــا يقولونه فهو طيب القول . وقد هُدُوا فى الجنة إلى صراط الله ، إذ ليس فى الجنــة شىء من مخالفة أمر الله . وقيــل : الطيب من القول ما يأتيهم من الله من البشارات الحســنة . ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ أى إلى طريق الجنة .

قوله تعــالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ ﴾ أعاد الكلام إلى مشركى العرب حين صَدُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة، وذلك أنه لم يُعلم لهم صَدّ قبل ذلك الجمع؛ إلا أن يريد صدّهم لأفرادٍ من الناس، فقد وقع ذلك فى صدر المبعث . والصد : المنع ؛ أى وهم يصدّون . وبهذا حسن عطف المستقبل على المــاضى . وقيــل : الواو زائدة «ويصدون» خبر «إنّ» . وهذا مفسد للمعنى المقصود، وإنما الخبر محذوف مقدّر عند قوله « والباد » تقديره : خسروا إذ هلكوا . وجاء «ويصدون» مستقبلا إذ هو فعــل يُديمُونه؛ كما جاء قوله تعالى : «الذين آمنوا وتَطْمَئِنّ قُلوبُهم بذكر الله»[(١)]؛ فكأنه قال : إن الذين كفروا من شأنهم الصدّ . ولو قال إن الذين كفروا وصدوا لجاز . قال النحاس : وفى كتابى عن أبى إسحاق قال وجائز أن يكون ــ وهو الوجه ــ الخبر « نُذِقْه من عذاب أليم » . قال أبو جعفر : وهذا غلط، ولست أعرف ما الوجه فيه؛ لأنه جاء بخبر « إنّ » جزما، وأيضا

(١) آية ٢٨ سورة الرعد .

فإنه جواب الشرط، ولو كان خبر « إن » لبقى الشرط بلا جواب، ولا سيما والفعل الذى فى الشرط مستقبل فلا بُدّ له من جواب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قيل : إنه المسجد نفسه، وهو ظاهر القرآن ؛ لأنه لم يذكر غيره . وقيــل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه عنه عامَ الحديبية ، فنزل خارجا عنه ؛ قال الله تعالى : « وَصَدُّوكُمْ عن المسجِدِ الحرام » (١) وقال : « سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بعبده لَيْلًا من المسجد الحرام » . وهذا صحيح، لكنه قصد هنا بالذكر المهمّ المقصود من ذلك .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ أى للصلاة والطواف والعبادة ؛ وهو كقوله تعالى : « إنّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » (٢) . ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ العاكف : المقيم الملازم . والبادى : أهل البادية ومن يَقْدَم عليهم . يقول : سواء فى تعظيم حرمته وقضاء النّسك فيه الحاضرُ والذى يأتيه من البلاد ؛ فليس أهل مكة أحقّ من النازح إليه . وقيــل : إن المساواة إنما هى فى دُوره ومنازله ، ليس المقيم فيها أولى من الطارئ عليها . وهذا على أن المسجد الحرام الحَرَم كله ؛ وهذا قول مجاهد ومالك ؛ رواه عنه ابن القاسم . ورُوى عن عمر وابن عباس وجماعة إلى أن القادم له النزول حيث وُجِد ، وعلى رب المنزل أن يؤوِيَه شاء أو أبى . وقال ذلك سفيان الثورىّ وغيره . وكذلك كان الأمر فى الصدر الأوّل ، كانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ؛ فاتخذ رجل بابا فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق بابا فى وجه حاج بيت الله؟ فقال : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ؛ فتركه فاتخذ الناس الأبواب . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا أنه كان يأمر فى الموسم بقلع أبواب دور مكة ، حتى يدخلها الذى يقدم فينزل حيث شاء ، وكانت الفساطيط تضرب فى الدور . وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ؛ وهذا هو العمل اليوم . وقال بهذا جمهور من الأمة .

---

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) آية ٩٦ سورة آل عمران .

وهذا الخلاف يُبْنَى على أصلين : أحدهما أن دور مكة هل هي ملك لأربابها أم للناس . وللخلاف سببان : أحدهما هل فتح مكة كان عَنْوَة فتكون مغنومة ، لكن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقسمها وأقرها لأهلها ولمن جاء بعدهم ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض السَّواد وعفا لهم عن الخراج كما عفا عن سَبْيِهم واسترقاقهم إحسانا إليهم دون سائر الكفار فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكْرَى ، ومن سبق إلى موضع كان أولى به . وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعيّ . أو كان فتحها صلحا — وإليه ذهب الشافعيّ — فتبقى ديارهم بأيديهم ، وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاءوا . وروى عن عمر أنه اشترى دار صَفْوان بن أمية بأربعة آلاف وجعلها سجنا ، وهو أوّل من حبس في السجن في الإسلام ، على ما تقدّم بيانه في آية المحاربين من سورة «المائدة»(1) . وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حَبس في تُهمة . وكان طاوس يكره السجن بمكة ويقول : لا ينبغي لبيت عذابٍ أن يكون في بيت رحمة .

قلت : الصحيح ما قاله مالك ، وعليه تدل ظواهر الأخبار الثابتة بأنها فتحت عَنوة . قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلاد . وروى الدّارَقُطْنيّ عن علقمة بن نَضْلة قال : توفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تُدْعَى رِباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سَكَن ومن استغنى أسكن . وزاد في رواية : وعثمان . وروى أيضا عن علقمة بن نَضْلة الكنانيّ قال : كانت تدعَى بيوت مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوائب ، لاتباع ؛ من احتاج سَكَن ومن ٱستغنى أسكن . وروى أيضا عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تعالى حرم مكة فحرام بيع رباعها وأكل ثمنها — وقال — من أكل من أجر بيوت مكة شيئا فإنما يأكل نارا" . قال الدارقطني : كذا رواه أبو حنيفة مرفوعا ووَهِم فيه ، ووهم أيضا في قوله عبيد الله بن أبي يزيد(2) وإنما هو ابن أبي زياد القداح ، والصحيح أنه موقوف ، وأسند الدار قطنيّ أيضا عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مكة مُناخ لا تُباع رِباعها ولا تؤاجر

(1) راجع جـ ٦ ص ١٥٣ طبعة أولى أو ثانية .	(2) أحد رجال سند الحديث .

بيوتها". وروى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يارسول الله، ألا أبنى لك بمنًى بيتا أو بناء يُظلك من الشمس؟ فقال: "لا، إنما هو مُناخ من سبق إليه". وتمسك الشافعى رضى الله عنه بقوله تعالى: «الذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم» فأضافها إليهم. وقال عليه السلام يوم الفتح: "من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن".

الرابعــة — قرأ جمهور الناس «سواء» بالرفع، وهو على الابتداء، و«العاكف» خبره. وقيل: الخبر «سواء» وهو مقــدّم؛ أى العاكف فيه والبادى سواء؛ وهو قول أبى علىّ؛ والمعنى: الذى جعلناه للناس قِبلة أو متعبَّدًا العاكفُ فيه والبادِى سـواء. وقرأ حفص عن عاصم «سواءً» بالنصب، وهى قراءة الأعمش. وذلك يحتمل أيضا وجهين: أحدهما — أن يكون مفعولا ثانيا لجعل، ويرتفع «العاكف» به لأنه مصدر، فأعمِل عَمَل ٱسم الفاعل لأنه فى معنى مستوٍ. والوجه الثانى — أن يكون حالا من الضمير فى جعلناه. وقرأت فرقة «سواء» بالنصب «العاكفِ» بالخفض، و«البادى» عطفا على الناس؛ التقدير: الذى جعلناه للناس العاكفِ والبادى. وقراءة ابن كَثير فى الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياء ووصل بالياء. وقرأ نافع بغير ياء فى الوصل والوقف. وأجمع الناس على الاستواء فى نفس المسجد الحرام، واختلفوا فى مكة؛ وقد ذكرناه.

الخامســة — ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ شرط، وجوابه «نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ». والإلحاد فى اللغة: الميل؛ إلا أن الله تعالى بيّن أن الميل بالظلم هو المراد. واختلف فى الظلم؛ فـروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس «ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم» قال: الشرك. وقال عطاء: الشرك والقتل. وقيل: معناه صَيْد حمامه، وقطع شجره، ودخوله غير محرِم. وقال ابن عمر: كنا نتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله! وبلى والله! وكلّا والله! ولذلك كان له فسطاطان، أحدهمـا فى الحِل والآخر فى الحَرَم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحَرَم، وإذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحِلّ، صيانةً للحَرَم عن قولهم كلّا والله وبلى والله، حين عظّم الله الذنب فيه. وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما

فى الحِل والآخر فى الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهـله عاتبهم فى الحِلّ ، وإذا أراد أن يصلّى صلّى فى الحـرم ، فقيل له فى ذلك فقال : إن كنا لنتحدّث أن من الإلحاد فى الحرم أن نقول كلا والله وبلى والله ، والمعاصى تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات ، فتكون المعصية معصيتين ، إحداهما بنفس المخالفة والثانيـة بإسقاط حُرمة البلد الحرام ؛ وهكذا الأشهر الحُرُم سواء . وقد تقدّم . وروى أبو داود عن يَعْلَى بن أمية أن رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم قال : "احتكار الطعام فى الحَرم إلحاد فيه" . وهو قول عمر بن الخطاب . والعموم يأتى على هذا كله .

السادســـة — ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقَب على ما ينويه من المعـاصى بمكة وإن لم يعمله . وقد رُوى نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر قالوا : لو همّ رجل بقتل رجل بهذا البيت وهو (بعَدَن أَبْيَن)[(١)] لعـــذّبه الله .

قلت : هذا صحيح ، وقد جاء هـذا المعنى فى سورة «نٓ والقلم» مبيّناً ، على ما يأتى بيانه هنالك إن شاء الله تعالى .

السابعـــة — الباء فى « بِإلحادٍ » زائدة كزيادتها فى قوله تعالى : « تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ »[(٢)] ؛ وعليه حملوا قول الشاعر :

نحن بنو جَعْـدة أصحاب الفَلَج[(٣)] * نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج

أراد : نرجو الفرج . وقال الأعشى :

* ضمنت برزق عيالنا أرماحُنا *

أى رزق . وقال آخر[(٤)]:

ألم ياتيك والأنبـاءُ تَنْمِى * بما لاقت لَبُون بنى زياد

---

(١) عدن : مدينة مشهورة واقعة بالقرب من مدخل البحر الأحمر ، وتضاف الى « أبين » وهو مخلاف عدن .
(٢) آية ٢٠ سورة المؤمنون .　　(٣) الفلج (بتحريك ثانيه) : موضع لبنى جعدة بن قيس بنجد ، وهو فى أعلى بلاد قيس (راجع معجم ما استعجم وكتاب خزانة الأدب فى الشاهد التاسع والثمانين بعد السبعمائة) .
(٤) القائل هو قيس بن زهـير العبسى ، شاعر جاهلى . وهو من قصيدة دالية قالها فيما كان شجر بينه وبين الربيع ابن زياد العبسى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد السادس والثلاثين بعد الستمائة) .

أى ما لاقت؛ والباء زائدة، وهو كثير . وقال الفراء: سمعت أعرابيا وسألته عن شيء فقال: أرجو بذاك، أى أرجو ذاك . وقال الشاعر :

بوادٍ يمانٍ يُنبت الشثَّ صدرُه * وأسفله بالمَرْخ والشَّبَهانِ (١)

أى المرخ. وهو قول الأخفش، والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحادا بظلم . وقال الكوفيون : دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد، والباء مع أن تدخل وتحذف . ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس فيه بإلحاد . وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصى من الكفر إلى الصغائر؛ فلعظم حرمة المكان توعّد الله تعالى على نية السيئة فيه . ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسَب عليها إلا فى مكة . هذا قول ابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة وغيرهم ، وقد ذكرناه آنفا .

قوله تعالى : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أى واذكر إذ بوّأنا لإبراهيم؛ يقال : بوّأته منزلا وبوّأت له . كما يقال: مكّنتك ومكّنت لك؛ فاللام فى قوله : « لإبراهيمَ» صلة للتأكيد؛ كقوله : « رَدِفَ لكم (٢) »، وهذا قول الفراء . وقيل : «بوأنا لإبراهيم مكان البيت » أى أريناه أصله ليَبْنيَه ، وكان قد دَرَس بالطوفان وغيره ، فلما جاءت مدّة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثرا، فبعث الله ريحا فكشفت عن أساس آدم عليه السلام، فرتّب قواعده عليه؛ حسبما تقدم بيانه فى « البقرة (٣) » . وقيل: « بوّأنا » نازلة منزلة فعل يتعدّى باللام؛ كنحو جعلنا ، أى جعلنا لإبراهيم مكان البيت مُبَوَّأً . وقال الشاعر :

كم من أخ لى ماجد * بوّأته بيدىّ لَحْدًا (٤)

(١) الشث : شجر طيب الريح مرّ الطعم يدبغ به . والمرخ : شجر كثير النار . والشبهان : نبت شائك له ورد لطيف أحمر . (٢) آية ٧٢ سورة النمل . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٢٢ طبعة ثانية .
(٤) البيت من قصيدة لعمرو بن معديكرب الزبيدى .

الثانية — ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكْ ﴾ هى مخاطبة لإبراهيم عليه السلام فى قول الجمهور . وقرأ عكرمة « أن لا يُشْرِك » بالياء، على نقل معنى القول الذى قيل له . قال أبو حاتم : ولا بدّ من نصب الكاف على هذه القراءة ، بمعنى لئلا يشرك . وقيل : إن « أن » مخففة من الثقيلة . وقيل مفسرة . وقيل زائدة ؛ مثل « فلما أن جاء البشير »(١) . وفى الآية طعن على من أشرك من قُطّان البيت ؛ أى هذا كان الشرط على أبيكم فمَن بعده وأنتم ، فلم تَفُوا بل أشركتم . وقالت فرقة : الخطاب من قوله « أن لا تشرك » لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج . والجمهور على أن ذلك لإبراهيم؛ وهو الأصح . وتطهير البيت عام فى الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء . وقيل : عنى به التطهير عن الأوثان؛ كما قال تعالى : «فاجتنبوا الرِّجْسَ من الأوثان»(٢)؛ وذلك أن جُرْهُماً والعمالقة كانت لهم أصنام فى محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم عليه السلام . وقيل : المعنى نزّه بيتى عن أن يعبد فيه صنم . وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه . وقد مضى ماللعلماء فى تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفاية فى سورة « براءة »(٣) . والقائمون هم المصلون . وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها، وهو القيام والركوع والسجود .

قوله تعالى : وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ قرأ جمهور الناس « وأذّن » بتشديد الذال . وقرأ الحسن بن أبى الحسن وابن مُحَيْصِن « وآذن » بتخفيف الذال ومدّ الألف . ابن عطية : وتصحّف هذا عَلَى ابنِ جِنّى، فإنه حكى عنهما « وآذن » على أنه فعل ماض ، وأعرب عَلَى ذلك بأن جعله عطفا على «بوّأنا»(٤) . والأذان الإعلام، وقد تقدّم فى «براءة» .

(١) آية ٩٦ سورة يوسف . (٢) آية ٣٠ من هذه السورة . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٠٤ طبعة أولى أو ثانية . (٤) جـ ٨ ص ٦٩

الثانيـــة — لمـا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له : أذّن فى الناس بالحج، قال : يارب ! وما يبلغ صوتى؟ قال : أذّن وعلىّ الإبلاغ ؛ فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبى قُبيس وصاح : يأيها الناس ! إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار، فحُجّوا ؛ فأجابه من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء : لَبَّيْكَ اللّٰهُمّ لبّيك ! فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة، إن أجاب مرّةً فمرّة، وإن أجاب مرتين فمرتين ؛ وجرت التلبية على ذلك ؛ قاله ٱبن عباس وابن جبير . وروى عن أبى الطُّفيل قال قال لى ٱبن عباس : أتدرى ما كان أصل التلبية؟ قلت لا ! قال : لمـا أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن فى الناس بالحج خفضت الجبال رءوسها ورُفعت له القرى ؛ فنادى فى الناس بالحج فأجابه كل شىء : لَبَّيْكَ اللّٰهُمّ لَبَّيْك . وقيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تمّ عند قوله « السجود »، ثم خاطب الله عز وجل محمدا عليه الصلاة والسلام فقال «وأذّن فى الناس بالحج» ؛ أى أعلمهم أن عليهم الحج . وقول ثالث — إن الخطاب من قوله «أن لا تشرك» مخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسلم . وهذا قول أهل النظر ؛ لأن القرآن أنزل على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فكل ما فيه من المخاطبة فهى له إلا أن يدل دليل قاطع على غير ذلك . وهاهنا دليـل آخر يدل على أن المخاطبة للنبىّ صلى الله عليـه وسلم ، وهو « أن لا تشرك بى » بالتاء، وهذا مخاطبة لمشاهد، وإبراهيم عليه السـلام غائب ؛ فالمعنى على هـذا : وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت فجعلنا لك الدلائل على توحيد الله تعـالى وعلى أن إبراهيم كان يعبـد الله وحده . وقرأ جمهور الناس « بالحج » بفتح الحـاء . وقرأ ٱبن أبى إسحاق فى كل القرآن بكسرها . وقيـل : إن نداء إبراهيم من جملة ما أُمِر به من شرائع الدين . والله أعلم .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ وعده إجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وراكب ، وإنمـا قال « يأتوك » وإن كانوا يأتون الكعبة لأن المنادىَ إبراهيم، فمن أتى الكعبة حاجا فكأنما أتى إبراهيم ؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريف إبراهيم . ابن عطية : « رجالا » جمع راجل مثـل تاجر وتجار ، وصاحب وصحاب . وقيل : الرجال

جمع رَجْل، والرَّجْل جمع راجل؛ مثل تجار وتجر وتاجر، وصحاب وصحب وصاحب . وقد يقال في الجمع : رُجّال، بالتشديد؛ مثل كافر وكفار . وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة « رُجَالا » بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ، وروبت عن مجاهد . وقرأ مجاهد «رُجَالَى» على وزن فُعَالَى؛ فهو مثل كسالى . قال النحاس : في جمع راجل خمسة أوجه، رُجّال مثل رُكّاب، وهو الذي روى عن عكرمة، ورجال مثل قيام، ورَجْلة، ورَجْل، ورَجّالة . والذي روى عن مجاهد رُجَالًا غير معروف ، والأشبه به أن يكون غير منون مثل كُسالى وسُكارى ، ولو نُوِّن لكان على فُعالٍ، وفُعَالٌ في الجمع قليل . وقدّم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادة تعبهم في المشي . ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ ﴾ لأن معنى « ضامر » معنى ضوامر . قال الفراء : ويجوز « يأتى » على اللفظ . والضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر؛ يقال : ضَمَرَ يَضْمُر ضُمورا ؛ فوصفها الله تعالى بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة . وذكر سبب الضمور فقال : « يَأتين مِن كُلِّ فَجٍّ عمِيقٍ » أي أثّر فيها طول السفر . وردّ الضمير إلى الإبل تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها ؛ كما قال : « والعادياتِ ضَبْحًا » في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله .

الرابعـــة — قال بعضهم : إنما قال «رجالا» لأن الغالب خروج الرجال إلى الحج دون الإناث؛ فقوله « رجالا » من قولك : هذا رجل؛ وهذا فيه بعد؛ لقوله «وعلى كل ضامر» يعني الركبان ، فدخل فيه الرجال والنساء . ولما قال تعالى « رجالا » وبدأ بهم دل ذلك على أن حج الراجل أفضل من حج الراكب . قال ابن عباس : ما آسَى على شيء فاتني إلا أن لا أكون حججتُ ماشيا، فإني سمعت الله عز وجل يقول «يأتوك رجالا» . وقال ابن أبي نجيح : حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيَيْن . وقرأ أصحاب ابن مسعود « يأتون » وهي قراءة ابن أبي عَبْلة والضحاك، والضمير للناس .

الخامســـة — لا خلاف في جواز الركوب والمشي، واختلفوا في الأفضل منهما؛ فذهب مالك والشافعي في آخرين إلى أن الركوب أفضل، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولكثرة

النفقة ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب . وذهب غيرهم إلى أن المشى أفضل لما فيه من المشقّة على النفس ، ولحديث أبى سعيد قال : حجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة، وقال : "اربطوا أوساطكم بأُزُرِكم" ومشَى خلْطَ الهَرْوَلة[1] ؛ خرّجه ابن ماجه فى سننه . ولا خلاف فى أن الركوب عند مالك فى المناسك كلّها أفضل؛ للاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

السادسة — استدلّ بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط . قال مالك فى المَوّازِيّة : لا أسمع للبحر ذكرا، وهذا تأنس، لا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط الفرض فيه؛ وذلك أن مكة ليست فى ضِفّة بحر فيأتيها الناس فى السفن؛ ولا بد لمن ركب البحر أن يصير فى إتيان مكة إما راجلا وإما على ضامر، فإنما ذكرت حالتا الوصول؛ وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا بالقوىّ . فأما إذا اقترن به عدوٌّ وخوفٌ أو هَوْل شديد أو مرض يَلْحَق شخصا ، فمالكٌ والشافعيّ وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار، وأنه ليس بسبيل يستطاع . قال ابن عطية : وذكر صاحب الاستظهار فى هذا المعنى كلاما ، ظاهره أن الوجوب لا يسقط بشىء من هذه الأعذار؛ وهذا ضعيف .

قلت : وأضعف من ضعيف، وقد مضى فى « البقرة » بيانه . والفَجّ : الطريق الواسعة، والجمع فِجاج . وقد مضى فى « الأنبياء »[2] . والعميق معناه البعيد . وقراءة الجماعة « يأتِين » . وقرأ أصحاب عبد الله « يأتون » وهذا للركبان و « يأتِين » للجمال ؛ كأنه قال : وعلى إبل ضامرة يأتين ﴿ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أى بعيد ؛ ومنه بئر عميقة أى بعيدة القعر ؛ ومنه :

* وقاتِمِ الأعْماقِ خاوِى المخترَق[3] *

---

(١) خلط الهرولة (بالكسر) أى شيئا مخلوطا بالهرولة ، بأن يمشى حينا ويهرول حينا أو معتدلا .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥ (٣) هذا أول أرجوزة من أراجيز رؤبة بن العجاج ، وبعده :

* مشتبه الأعلام لمّاع الخفق *

السابعــة — واختلفوا في الواصل إلى البيت ، هل يرفع يديه عنـد رؤيته أم لا ؛ فروى أبو داود قال : سـئل جابر بن عبـد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقـال : ما كنت أرى أن أحدا يفعل هذا إلا اليهود ، وقد حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نكن نفعله . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ترفع الأيدى في سبع مواطن افتتاح الصـلاة واستقبال البيت والصّفَا والمَرْوَة والموقفين والجمرتين " . وإلى حديث ابن عباس هـذا ذهب الثورىّ وابن المبارك وأحمـد وإسحاق وضعفوا حديث جابر ؛ لأن مهاجرا المكىّ راوية مجهول . وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت . وعن ابن عباس مثله .

قوله تعـالى : لِيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا ﴾ أى أذّن بالحج يأتوك رجالا وركبانا ليشهدوا ؛ أى ليحضروا . والشهود الحضور . ﴿ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ أى المناسك؛ كعرفات والمَشْعَر الحرام . وقيل المغفرة . وقيـل التجارة . وقيل هو عموم ؛ أى ليحضروا منافع لهم ، أى ما يرضى الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة؛ قاله مجاهد وعطاء واختاره ابن العربى؛ فإنه يجمع ذلك كله من نسـك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى . ولا خلاف في أن المراد بقوله : « ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فَضْلاً من ربكم (١) » التجارة .

الثـانيــة — ﴿ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ قد مضى في « البقرة » الكلام في الأيام المعلومات والمعدودات (٢) . والمراد بذكر اسم الله ذكر التسمية عند الذبح والنحر؛ مثل

(١) راجع جـ ٢ ص ٤١٣ طبعة ثانية .　　(٢) راجع جـ ٣ ص ١

قولك: باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك . ومثل قولك عند الذبح « إن صلاتى ونسكى »[(١)] الآية . وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبيّن الرب أن الواجب الذبح على اسم الله؛ وقد مضى فى « الأنعام »[(٢)] .

الثالثة — وٱختلف العلماء فى وقت الذبح يوم النحر؛ فقال مالك رضى الله عنه: بعد صلاة الإمام وذبحه ؛ إلا أن يؤخر تأخيرا يتعدّى فيه فيسقط الاقتداء به . وراعى أبو حنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح . والشافعيّ دخول وقت الصلاة ومقدار ما توقع فيه مع الخطبتين؛ فاعتبر الوقت دون الصلاة . هذه رواية المُزَنِيّ عنه، وهو قول الطبريّ . وذكر الربيع عن البُوَيْطِيّ قال قال الشافعيّ : ولا يذبح أحد حتى يذبح الإمام إلا أن يكون ممن لا يذبح ، فإذا صلى وفرغ من الخطبة حلّ الذبح . وهذا كقول مالك . وقال أحمد : إذا انصرف الإمام فاذبح . وهو قول إبراهيم . وأصح هذه الأقوال قول مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بالمدينة، فتقدّم رجال فنحروا وظنّوا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد نحر، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم من كان نحر أن يعيد بنحرٍ آخر، ولا ينحروا حتى ينحر النبيّ صلى الله عليه وسلم . خرجه مسلم والترمذيّ وقال : وفى الباب عن جابر وجُنْدَب وأنس وعُوَيْمِر بن أشقر وٱبن عمر وأبى زيد الأنصاريّ، وهذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم ألا يضحّى بالمصر حتى يصلى الإمام . وقد احتج أبو حنيفة بحديث البَرَاء ، وفيه : "ومن ذبح بعد الصلاة فقد تمّ نُسُكُه وأصاب سنة المسلمين" . خرجه مسلم أيضا . فعلّق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح ، وحديث جابر يقيّده . وكذلك حديث البراء أيضا، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا" الحديث . وقال أبو عمر بن عبد البر : لا أعلم خلافا بين العلماء أن من ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحٍّ؛ لقوله عليه السلام : "من ذبح قبل الصلاة فتلك شاة لحم" .

(١) آية ١٦٢ سورة الأنعام . (٢) راجع جـ ٧ ص ٧٢

الرابعـــة – وأما أهل البوادى ومن لا إمام له فمشهور مذهب مالك يتحرّى وقت ذبح الإمام، أو أقرب الأئمة إليه . وقال ربيعة وعطاء فيمن لا إمام له : إن ذبح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويجزيه إن ذبح بعده . وقال أهل الرأى : يجزيهم من بعد الفجر . وهو قول ابن المبارك، ذكره عنه الترمذىّ . وتمسكوا بقوله تعالى : « وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأنعامِ » ، فأضاف النحر إلى اليوم . وهل اليوم من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس، قولان . ولا خلاف أنه لا يجزى ذبح الأضحيّة قبل طلوع الفجر من يوم النحـــر .

الخامســـة – واختلفوا كم أيام النحر؟ فقال مالك : ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده . وبه قال أبو حنيفة والثورىّ وأحمد بن حنبل، وروى ذلك عن أبى هريرة وأنس بن مالك من غير اختلاف عنهما . وقال الشافعىّ : أربعة، يوم النحر وثلاثة بعده . وبه قال الأوزاعىّ، وروى ذلك عن علىّ رضى الله عنـه وابن عبـاس وابن عمر رضى الله عنهـم، وروى عنهم أيضا مثل قول مالك وأحمد . وقيــل : هو يوم النحر خاصـة وهو العاشر من ذى الحجة ؛ وروى عن ابن سـيرين . وعن سعيد بن جُبير وجابر بن زيد أنهما قالا : النحر فى الأمصار يوم واحد وفى منًى ثلاثة أيام . وعن الحسن البصرىّ فى ذلك ثلاث روايات : إحداها كما قال مالك ، والثانية كما قال الشافعىّ ، والثالثة إلى آخر يوم من ذى الحجة؛ فإذا أهـل هلال المحرم فلا أضْحَى .

قلت : وهو قول سليمان بن يسار وأبى سلمة بن عبـد الرحمن ، ورويا حديثا مرسـلا مرفوعا خرجه الدّارَقُطْنىّ : الضحايا إلى هلال ذى الحجة ؛ ولم يصح ، ودليلنا قوله تعـالى : « فى أيام معلوماتٍ » الآية، وهـذا جمع قِلة ؛ لكن المتيقن منه الثلاثة، وما بعد الثلاثة غير متيقن فلا يعمل به . قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن يوم النحر يوم أضْحَى ، وأجمعوا أن لا أضحى بعـد انسلاخ ذى الحجة، ولا يصح عندى فى هذه إلا قولان : أحدهما – قول مالك والكوفيين . والآخر – قول الشافعىّ والشاميين ؛ وهذان القولان مرويان

عن الصحابة فلا معنى للاشتغال بما خالفهما ؛ لأن ما خالفهما لا أصل له فى السنة ولا فى قول الصحابة ، وما خرج عن هذين فمتروك لهما . وقد روى عن قتادة قول سادس، وهو أن الأضحى يوم النحر وستة أيام بعده ؛ وهذا أيضا خارج عن قول الصحابة فلا معنى له .

السادسة — واختلفوا فى ليالى النحر هل تدخل مع الأيام فيجوز فيها الذبح أولا ؛ فروى عن مالك فى المشهور أنها لا تدخل فلا يجوز الذبح بالليل . وعليه جمهور أصحابه وأصحاب الرأى ؛ لقوله تعالى : « ويذكروا اسم اللهِ فى أيام » فذَكَرَ الأيامَ، وذِكْرُ الأيامِ دليل على أن الذبح فى الليل لا يجوز . وقال أبو حنيفة والشافعىّ وأحمد و إسحاق وأبو ثور : الليالى داخلة فى الأيام و يجزى الذبح فيها . و روى عن مالك وأشهب نحوه، ولأشهب تفريق بين الهَدْى والضحية، فأجاز الهَدْىَ ليلا ولم يُجز الضحية ليلا .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ أى على ذبح ما رزقهم . ﴿ من بهيمةِ الأنعامِ ﴾ والأنعام هنا الإبل والبقر والغنم . وبهيمة الأنعام هى الأنعام ؛ فهو كقولك صلاة الأولى، ومسجد الجامع .

الثامنة — ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمرٌ معناه الندب عند الجمهور . ويستحب للرجل أن يأكل من هَدْيه وأضحيّته وأن يتصدق بالأكثر ، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأكل الكل . وشذّت طائفة فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية ، ولقوله عليه السلام : " فكلوا وادّخروا وتصدّقوا " . قال الكِيَا : قوله تعالى « فكلوا منها وأطعموا » يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ولا التصدق بجميعه .

التاسعة — دماء الكفارات لا يأكل منها أصحابها . ومشهور مذهب مالك رضى الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء الصيد، ونذر المساكين وفِدْية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ مَحِلّه ، واجبا كان أو تطوعا . ووافقه على ذلك جماعة من السلف وفقهاء الأمصار .

العاشرة . فإن أكل مما منع منه فهل يَغْرَم قدر ما أكل أو يغرم هَدْيًا كاملا ؛ قولان فى مذهبنا، وبالأول قال ابن الماجِشون . قال ابن العربى : وهو الحق، لا شىء عليه غيره .

وكذلك لو نذر هَـدْيًا للمساكين فيأكل منه بعـد أن بلغ مَحِلّه لا يَغْرَم إلا ما أكل — خلافا للمدوّنة — لأن النحر قد وقع، والتعدّى إنما هو على اللحم، فيغرم قدر ما تعدّى فيه .

قوله تعـالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ يدل على وجوب إخراج النـذر إن كان دَمًا أو هَدْيًا أو غيره، ويدل ذلك على أن النذر لا يجـوز أن يأكل منه وفاء بالنذر ، وكذلك جزاء الصيد وفدية الأذى ؛ لأن المطلوب أن يأتى به كاملا من غير نقص لحم ولا غيره، فإن أكل من ذلك كان عليه هَدْىٌ كامل . والله أعلم .

الحادية عشرة — هل يَغْرَم قيمة اللحم أو يغرم طعاما؛ ففى كتاب محمـد عن عبـد الملك أنه يغرم طعاما . والأول أصح؛ لأن الطعام إنمـا هو فى مقابلة الهدْى كله عند تعذره عبادة، وليس حكم التعدى حكم العبادة .

الثانيـة عشرة — فإن عَطِب من هذا الهَـدْى المضمونِ الذى هو جزاء الصيد وفدية الأَذَى ونذر المساكين شىء قبـل مَحِلّه أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنيـاء والفقراء ومن أحب، ولا يبيع من لحمـه ولا جلده ولا من قلائده شيئا . قال إسماعيل بن إسحـاق : لأن الهدى المضمون إذا عَطِب قبـل أن يبلغ مَحِلّه كان عليـه بدله، ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويطعم. فإذا عطِب الهدى التطوع قبل أن يبلغ محله لم يجز أن يأكل منه ولا يُطعِم؛ لأنه لمـا لم يكن عليه بدله خيف أن يفعل ذلك بالهَدْيِ وينحر من غير أن يعطَب، فاحتيط على الناس، وبذلك مضى العمل. وروى أبو داود عن ناجية الأسلمى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معه بهَدْى وقال : " إن عطِب منها شىء فانحره ثم اصبغ نعله فى دمه ثم خلّ بينه وبين النـاس " . وبهذا الحديث قال مالك والشافعىّ فى أحد قوليه، وأحمـد وإسحاق وأبو ثَوْر وأصحاب الرأى ومن اتبعهم فى الهدى التطوع : لا يأكل منها سائقها شيئا، ويخلّى بينها وبين النـاس يأكلونها . وفى صحيح مسلم : " ولا تأكل منهـا أنت ولا أحد من أهل رفقتك" . وبظاهر هذا النهى قال ابن عباس والشافعىّ فى قوله الآخر، واختاره ابن المنذر، فقالا : لا يأكل منها ولا أحد من أهل رفقته . قال أبو عمر : قوله عليه السلام "ولا يأكل منها أحد ولا أحد من أهل رفقتك " لا يوجد إلا فى حديث ابن عباس . وليس ذلك

فى حديث هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية. وهو عندنا أصح من حديث ابن عباس، وعليه العمل عند الفقهاء. ويدخل فى قوله عليه السلام: "خلّ بينها و بين الناس" أهلُ رفقته وغيرُهم. وقال الشافعىّ وأبو ثور: ما كان من الهَدْى أصله واجبا فلا يأكل منه، وما كان تطوعا ونسكا أكل منه وأهدى وادّخر وتصدّق. والمتعة والقِران عنده نسك. ونحوه مذهب الأوزاعىّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يأكل من هَدْى المتعة والتطوع، ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام. وحكى عن مالك: لا يأكل من دم الفساد. وعلى قياس هذا لا يأكل من دم الجبر؛ كقول الشافعىّ والأوزاعى. تمسّك مالك بأن جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى: «أوْ كفارةٌ طَعامُ مساكِينَ»[1]. وقال فى فِدْية الأذَى: «فَفِدْيَةٌ مِن صِيامٍ أو صدقةٍ أو نسكٍ»[2]. وقال صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجْرة: "أطعم ستة مساكين مُدَّيْن لكل مسكين أو صُمْ ثلاثة أيام أو انسُك شاة". ونذر المساكين مصرّح به، وأما غير ذلك من الهدايا فهو باق على أصل قوله: «والبُدْنَ جعلناها لكم مِن شعائرِ اللهِ — إلى قوله — فكلوا منها». وقد أكل النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلىّ رضى الله عنه من الهدى الذى جاء به وشَرِبا من مَرَقه، وكان عليه السلام قارِنا فى أصح الأقوال والروايات؛ فكان هديه على هذا واجبا، فما تعلق به أبو حنيفة غير صحيح. والله أعلم.

و إنما أذن الله سبحانه من الأكل من الهدايا لأجل أن العرب كانت لا ترى أن تأكل من نسكها، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم؛ فلا جَرَم كذلك شَرَع و بلّغ، وكذلك فعل حين أهدى وأحرم صلى الله عليه وسلم.

الثالثة عشرة — ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ قال بعض العلماء: قوله تعالى «فكلوا مِنها» ناسخ لفعلهم؛ لأنهم كانوا يحرّمون لحوم الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها — كما قلناه فى الهدايا — فنسخ الله ذلك بقوله: «فكلوا مِنها»، وبقول النبىّ صلى الله عليه وسلم: "من ضحّى فليأكلْ من أضحيّته" ولأنه عليه السلام أكل من أضحيّته وهديه. وقال الزهرىّ: من السنة أن تأكل أوّلا من الكبِد.

(١) آية ٩٥ سورة المائدة. (٢) آية ١٩٦ سورة البقرة.

الرابعة عشرة — ذهب أكثر العلماء إلى أنه يستحب أن يتصدّق بالثلث و يطعم الثلث و يأكل هو وأهله الثلث . وقال ابن القاسم عن مالك : ليس عندنا فى الضحايا قسم معلوم موصوف. قال مالك فى حديثه : و بلغنى عن ابن مسعود، وليس عليه العمل. روى الصحيح وأبو داود قال : ضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ثم قال : " يا ثَوْبان ، أصلح لحم هذه الشــاة " قال : فمـا زلت أطعمه منها حتى قــدم المدينة . وهــذا نص فى الفرض . واختلف قول الشافعيّ ؛ فمــرّة قال : يأكل النصف و يتصــدّق بالنصف لقــوله تعالى : « فكلوا مِنها وأطعِموا البائس الفقير » فذكر شخصين . وقال مرة : يأكل ثلثا ويهدى ثلثا و يطعم ثلثا؛ لقوله تعالى : « فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القانِـعَ والمُعْتَرَّ » فذكر ثلاثة .

الخامسة عشرة — المسافر يخاطب بالأضحيّة كما يخاطب بهــا الحاضر؛ إذ الأصل عموم الخطاب بها، وهو قول كافة العلماء . وخالف فى ذلك أبو حنيفة والنَّخَعِيّ ، وروى عن علىّ؛ والحديث حجة عليهم . واستثنى مالكٌ من المسافرين الحاج بمِنًى، فلم ير عليه أضحية ؛ و به قال النخعيّ . وروى ذلك عن الخليفتين أبى بكر وعمر و جماعة من السلف رضى الله عنهم؛ لأن الحاج إنمـا هو مخاطب فى الأصل بالهَدْى ، فإذا أراد أن يضحى جعله هديا ، والناس غير الحاج إنمـا أمروا بالأضحية ليتشبهوا بأهل منًى فيحصل لهم حظ من أجرهم .

السادسة عشرة — اختلف العلماء فى الادّخار على أربعة أقوال. روى عن علىّ وابن عمر رضى الله عنهما من وجه صحيح أنه لا يدّخر من الضحايا بعد ثلاثٍ . ورو ياه عن النبيّ صلىّ الله عليه وسلم، وسيأتى . وقالت جمــاعة : ما روى من النهى عن الادّخار منسوخ ؛ فيدّخر إلى أى وقت أحبّ . و به قال أبو سعيد الخُدْرى و بُريدة الأسلمى . وقالت فرقة : يجوز الأكل منها مطلقا. وقالت طائفة : إن كانت بالناس حاجة إليها فلا يدّخر؛ لأن النهى إنمـا كان لعلة وهى قوله عليه السلام : " إنمـا نهيتكم من أجل الدّافة التى دفّت"(١) ولمـا ارتفعت ارتفع المنع المتقدّم لارتفاع موجبه، لا لأنه منسوخ . وتنشأ هنا مسألة أصولية وهى :

---

(١) الدافة : القوم يسيرون جماعة سيرا ليس بالشديد . والدافة : قوم من الأعراب يريدون المصر؛ يريد أنهم قوم قدموا المدينة عند الأضحى ، فنهاهم عن ادخار لحوم الأضاحى ليفرقوها و يتصدّقوا بها فينتفع أولئك القادمون بها . (ابن الأثير) .

السابعة عشرة — وهى الفرق بين رفع الحكم بالنسخ ورفعه لآرتفاع علّته . اعلم أن المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبدا ، والمرفوع لآرتفاع علّته يعود الحكم لعَوْد العلة؛ فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون فى زمان الأَضْحى ؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سَعة يسدّون بها فاقتهم إلا الضحايا لتعيّن عليهم ألا يدّخروها فوق ثلاثٍ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — الأحاديث الواردة فى هذا الباب بالمنع والإباحة صحاح ثابتة . وقد جاء المنع والإباحة معا؛ كما هو منصوص فى حديث عائشة وسَلَمة بن الأَكْوَع وأبى سعيد الخُدْرىّ رواها الصحيح . وروى الصحيح عن أبى عبيد مَوْلَى آبن أزهر أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب قال : ثم صليت العيد مع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه؛ قال : فصلّى لنا قبل الخطبة ثم خطب الناس فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاكم أن تأكلوا لحوم نسككم فوق ثلاث ليالٍ فلا تأكلوها . وروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تؤكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . قال سالم : فكان ابن عمر لا يأكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث . وروى أبو داود عن نُبيشة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاث لكى تَسَعكم جاء الله بالسَّعة فكلوا وادّخروا وأْتَجِروا ألا إن هذه الأيام أيامُ أكل وشرب وذكرٍ لله عز وجل" . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول أحسن ماقيل فى هذا حتى تتفق الأحاديث ولا تتضادّ، ويكون قول أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب وعثمانُ محصور؛ لأن الناس كانوا فى شدّة محتاجين، ففعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمت الدافّة . والدليل على هذا ما حدّثنا إبراهيم بن شريك قال : حدّثنا أحمد قال حدّثنا ليث قال حدّثنى الحارث بن يعقوب عن يزيد بن أبى يزيد عن آمرأته أنها سألت عائشة رضى الله عنها عن لحوم الأضاحى فقالت : قدم علينا علىّ بن أبى طالب من سفر فقدّمنا إليه منه، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله فقال : "كُلْ من ذى الحجة إلى ذى الحجة". وقال الشافعىّ : من قال بالنهى عن الادّخار بعد ثلاث لم يسمع الرخصة ، ومن قال بالرخصة مطلقا لم يسمع النهى عن الادّخار . ومن قال بالنهى

والرخصة سمعهما جميعا فعمل بمقتضاهما . والله أعلم . وسيأتى فى سورة « الكوثر » الاختلافُ فى وجوب الأضحيّة وندبيّتها وأنها ناسخة لكل ذبح تقدّم، إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ « الفقير » من صفة البائس، وهو الذى ناله البؤس وشدّة الفقر؛ يقال : بَئِس يبأس بأسا إذا افتقر؛ فهو بائس . وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلةُ دهرٍ وإن لم يكن فقيرا؛ ومنه قوله عليه السلام : " لكن البائس سعد بن خَوْلة "[1] . ويقال : رجل بَئِيسٌ أى شديد . وقد بَؤُسَ يبؤس بأسا إذا اشتدّ؛ ومنه قوله تعالى : « وأَخَذْنَا الذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ »[2] أى شديد . وكلما كان التصدق بلحم الأضحيّة أكثر كان الأجر أوفر . وفى القدر الذى يجوز أكله خلافٌ قد ذكرناه ؛ فقيل النصف؛ لقوله : « فكُلُوا ، وأطعموا » وقيل الثلثان؛ لقوله : " ألَا فكُلُوا وادّخروا وأْتَجِروا " أى اطلبوا الأجر بالإطعام . واختلف فى الأكل والإطعام؛ فقيل واجبان . وقيل مستحبان . وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام ؛ فالأكل مستحب والإطعام واجب؛ وهو قول الشافعىّ .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أى ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقى عليهم من أمر الحج؛ كالحَلْق ورَمْى الجمار وإزالة شَعث ونحوه . قال ابن عرفة : أى ليزيلوا عنهم أدرانهم . وقال الأزهرىّ : التَّفَث الأخذ من الشارب وقص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ؛ وهذا عند الخروج من الإحرام . وقال النضر بن شُميل : التفث فى كلام العرب إذهاب الشَّعَث، وسمعت الأزهرى يقول : التفث فى كلام العرب لا يعرف إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير . وقال الحسن : هو إزالة قشف الإحرام . وقيل : التفث مناسك الحج كلّها ؛ رواه ابن عمر وابن عباس . قال ابن العربىّ : لو صح عنهما لكان حجة لشرف الصحبة والإحاطة باللغة ، قال : وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها شعرا ولا أحاطوا بها خبرا ؛ لكنى تتبعت التفث لغةً فرأيت أبا عبيدة مَعْمر بن الْمُثَنَّى قال :

(١) رثى له النبىّ صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة . يعنى فى الأرض التى هاجر منها . (راجع ترجمته فى كتاب الاستيعاب) . (٢) آية ١٦٥ سورة الأعراف .

إنه قص الأظفار وأخذ الشارب وكل ما يَحْـرُم على المحرِم إلا النكاح . قال : ولم يجئ فيه شعر يُحتج به . وقال صاحب العين : التفث هو الرمى والحلق والتقصير والذبح وقص الأظفار والشارب والإبط . وذكر الزجاج والفراء نحوه ، ولا أراه أخذوه إلا من قول العلماء . وقال قُطْرُب : تفث الرجلُ إذا كثر وسخه . قال أميّة بن أبى الصَّلْت :

حَفُّوا رءوسهمُ لم يحلِقوا تَفَثاً * ولم يَسُلُّوا لهم قَمْلاً وصِئْبانا

وما أشار إليه قُطْرب هو الذى قاله ابن وهب عن مالك، وهو الصحيح فى التفث . وهذه صورة إلقاء التفث لغة، وأما حقيقته الشرعية فإذا نحر الحاج أو المُعْتَمِر هَدْيه وحلق رأسه وأزال وسخه وتطهر وتنقّ ولبس فقد أزال تفثه ووفّى نذره ؛ والنذر ما لزم الإنسان وآلتزمه .

قلت : ما حكاه عن قُطْرب وذكر من الشعر قد ذكره فى تفسيره الماوردىّ، وذكر بيتا آخر فقال :

قَضَوْا تَفَثاً ونَحْباً(١) ثم ساروا * إلى نَجْـدٍ وما انتظروا عليّاً

وقال الثعلبىّ : وأصل التفث فى اللغة الوسخ؛ تقول العرب للرجل تستقذره : ما أتفثك؛ أى ما أوسخك وأقذرك . قال أمية بن أبى الصلت :

ساخين(٢) آباطهم لم يقذفوا تفثاً * وينزعوا عنهمُ قَمْلاً وصِئبانا

الماوردىّ : قيل لبعض الصلحاء ما المعنِىّ فى شعث المحرِم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الإعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك فى بذلها لطاعته .

الحادية والعشرون — ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أُمِروا بوفاء النذر مطلقا إلا ما كان معصية؛ لقوله عليه السلام : "لا وفاء لنذر فى معصية الله"، وقوله : "من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه" . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ الطواف المذكور فى هذه الآية هو طواف الإفاضة الذى هو من واجبات الحج . قال الطبرىّ : لا خلاف بين المتأولين فى ذلك .

---

(١) من معانى النحب : الحاجة والنذر . (٢) ساخين : تاركين .

الثانيـة والعشرون ــ للحج ثلاثة أطواف : طواف القُـدوم ، وطواف الإفاضـة ، وطواف الوَداع . قال إسماعيل بن إسحاق : طواف القـدوم سُنّة ، وهو ساقط عن المراهق وعن المكيّ وعن كل من يُحرِم بالحج من مكة . قال : والطواف الواجب الذى لا يسقط بوجه من الوجوه، وهو طواف الإفاضة الذى يكون بعد عَرَفة؛ قال الله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بِالبيتِ العتِيقِ » . قال: فهذا هو الطواف المفترض فى كتاب الله عز وجل، وهو الذى يحـل به الحاج من إحرامه كله . قال الحـافظ أبو عمر : ما ذكره إسماعيل فى طواف الإفاضة هو قول مالك عند أهل المدينة، وهى رواية ابن وهب وابن نافع وأشهب عنـه . وهو قول جمهور أهل العـلم من فقهاء أهل الحجـاز والعراق . وقد روى ابن القاسم وابن عبـد الحكم عن مالك أن طواف القدوم واجب . وقال ابن القاسم فى غير موضع من المدوّنة ورواه أيضا عن مالك : الطواف الواجب طواف القادم مكة . وقال: من نسى الطواف فى حين دخوله مكة أو نسى شوطا منه ، أو نسى السّعْى أو شوطا منه حتى رجع إلى بلده ثم ذكره، فإن لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوف بالبيت ويركع ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يُهْـدِى . وإن أصاب النساء رجع فطاف وسَعَى، ثم اعتمر وأهدى . وهذا كقوله فيمن نسى طواف الإفاضة سواء . فعلى هذه الرواية الطوافان جميعا واجبان، والسّعْىُ أيضا . وأما طواف الصَّدَر وهو المسمى بطواف الوداع فروى ابن القاسم وغيره عن مالك فيمن طاف طواف الإفاضـة على غير وضـوء : أنه يرجع من بلده فيفيض إلا أن يكون تطوّع بعد ذلك . وهذا مما أجمع عليه مالك وأصحابه ، وأنه يجزيه تطوعه عن الواجب المفترض عليـه من طوافه . وكذلك أجمعوا أن من فعل فى حجه شيئا تطوّع به من عمل الحج، وذلك الشيء واجب فى الحج قد جاز وقته، فإن تطوّعه ذلك يصير للواجب لا للتطوع؛ بخلاف الصـلاة . فإذا كان التطوع ينـوب عن الفرض فى الحج كان الطواف لدخول مكة أَحْرى أن ينوب عن طواف الإفاضة، إلا ما كان من الطواف بعد رَمْى جمرة العَقَبة يوم النحر أو بعده للوداع . ورواية ابن عبـد الحكم عن مالك بخـلاف ذلك ؛ لأن فيها أن طواف

الدخول مع السعى ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهَـدْى، كما ينوب طواف الإفاضــة مع السعى لمن لم يَطُف ولم يَسْـعَ حين دخوله مكة مع الهـدى أيضا عن طواف القدوم . ومن قال هذا قال : إنمـا قيل لطواف الدخول واجب ولطواف الإفاضة واجب لأن بعضهما ينوب عن بعض، ولأنه قد روى عن مالك أنه يرجع من نسى أحدهما من بلده على ما ذكرنا ، ولأن الله عز وجل لم يفترض على الحـاج إلا طوافا واحدا بقوله : « وأَذِّنْ فِى النَاسِ بِالحَج » ، وقال فى سياق الآية : « ولْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ » والواو عندهم فى هــذه الآية وغيرها لا توجب رتبة إلا بتوقيف . وأسند الطبرىّ عن عمرو بن أبى سلمة قال : سألت زهيرا عن قوله تعالى : «وليطوّفوا بِالبيتِ العتِيقِ» فقال : هو طواف الوداع . وهــذا يدل على أنه واجب ، وهو أحد قولى الشافعىّ ؛ لأنه عليه السـلام رخّص للحائض أن تَنْفِر دون أن تطوفه، ولا يرخّص إلا فى الواجب .

الثالثـة والعشرون ــ اختلف المتأوّلون فى وجه صـفة البيت بالعتيق ؛ فقال مجاهــد والحسن : العتيق القــديم . يقال : سيف عتيق، وقد عَتُق أى قَدُم؛ وهــذا قول يَعْضُده النظر. وفى الصحيح "أنه أوّل مسجد وُضع فى الأرض". وقيل عتيقا لأن الله أعتقه من أن يتسلّط عليــه جبار بالهوان إلى انقضاء الزمان ؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد . وفى الترمذىّ عن عبــد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "إنمـا سُمِّىَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار" قال : هــذا حديث حسن صحيح ، وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرسلا . فإن ذكر ذاكر الحجّاجَ بن يوسف ونَصبه المَنْجَنيق على الكعبة حتى كسرها قيل له : إنمـا أعتقها عن كفار الجبابرة؛ لأنهم إذا أتَوْا بأنفسهم متمردين ولحرمة البيت غير معتقدين، وقصــدوا الكعبة بالسوء فعُصِمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا . فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهــم إن كَفُّوا عنها لم يكن فى ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها فى كف الأعداء؛ فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالنهى والوعيد، ولم يتجاوزه إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار،

وجعــل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمرّ . وقالت طائفــة : سُمِّىَ عتيقا لأنه لم يُمْلَك موضــعه قطّ . وقالت فرقة : سمى عتيقا لأن الله عز وجل يعتق فيــه رقاب المذنبين من العذاب . وقيل : سمى عتيقا لأنه أعتِق من غرق الطوفان؛ قاله ابن جُبير . وقيل : العتيق الكريم . والعتق الكرم . قال طَرفَة يصف أذن الفرس :

مُؤَلَّلَتَان تَعْــرِف العِتْــقَ فيهــما * كسامِعَتَىْ مذعورة وسط رَبْرَبِ (١)

وعِتْقُ الرقيق : الخروج من ذُلّ الرق إلى كرم الحرية . ويحتمل أن يكون العتيق صفة مدح تقتضى جودة الشىء؛ كما قال عمر : حملت على فرس عتيق؛ الحديث . والقول الأول أصح للنظر والحديث الصحيح . قال مجاهد : خلق الله البيت قبل الأرض بألفى عام، وسمى عتيقا لهذا؛ والله أعلم .

قوله تعــالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

فيه ثمــانى مسائل :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يحتمل أن يكون فى موضع رفع بتقــدير : فرضُكم ذلك، أو الواجب ذلك . ويحتمل أن يكون فى موضع نصب بتقدير : امتثلوا ذلك؛ ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير :

هــذا وليس كمن يَعْيَا بخُطّتــه * وسْطَ النَّدِىّ إذا ما قائل نطقا

(١) المؤلل : المحدّد . والربرب : القطيع من بقر الوحش؛ وقيل الظباء . وهذه الرواية فى البيت مخالفــة لمــا فى ديوانه ومعلقته . والرواية فيهما :

مؤللتــان تعرف العتق فيهــما * كسامعتى شاة بحَوْمَلَ مُفْرَدِ

ويريد بالشاة هنا الثور الوحشى .

والحرمات المقصودة هنا هى أفعال الحج المشار إليها فى قوله : « ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم ولْيُوفُوا نذورهم » ، ويدخل فى ذلك تعظيم المواضع؛ قاله ابن زيد وغيره . ويجمع ذلك أن تقول : الحرمات امتثال الأمر من فرائضه وسننه . وقوله : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أى التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشىء منها . وقيل : ذلك التعظيم خير من خيراته يُنتفع به ، وليست للتفضيل وإنما هى عِدَة بخير .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ ﴾ أن تأكلوها ؛ وهى الإبل والبقر والغنم . ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فى الكتاب من المحرمات؛ وهى المَيْتة والمَوْقُوذة وأخواتها . ولهذا اتصال بأمر الحج؛ فإن فى الحج الذبح، فبيّن ما يحلّ ذبحه وأكل لحمه . وقيل: « إلا ما يتلى عليكم » غيرَ مُحِلِّى الصيد وأنتم حرم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ الرجس : الشىء القذر . والوَثَن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها . والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضا . وقال عدىّ ابن حاتم : أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال : " ألقِ هذا الوثن عنك " أى الصليب ؛ وأصله من وَثَن الشىء أى أقام فى مقامه . وسمى الصنم وَثَنًا لأنه ينصب ويركز فى مكان فلا يبرح عنه . يريد اجتنبوا عبادة الأوثان؛ روى عن ابن عباس وابن جُريج . وسماها رجسا لأنها سبب الرجز وهو العذاب . وقيل : وصفها بالرجس، والرجس النجس فهى نجسة حكما . وليست النجاسة وصفا ذاتيا للاعيان وإنما هى وصف شرعىّ من أحكام الإيمان، فلا تُزال إلا بالإيمان كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء .

الرابعة — ﴿ مِن ﴾ فى قوله : « مِنَ الأوثانِ » قيل : إنها لبيان الجنس، فيقع نهيه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نهيها فى غير هذا الموضع . ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية؛ فكأنه نهاهم عن الرجس عاما ثم عيّن لهم مبدأه الذى منه يلحقهم ؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس . ومن قال إن «مِن» للتبعيض، قلب معنى الآية وأفسده .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ والزور : الباطل والكذب . وسمى زورا لأنه أميل عن الحق؛ ومنه «تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ»، ومدينةٌ زوراء؛ أى مائلة . وكل ما عدا الحق فهو كذب و باطل وزُور . وفى الخبر أنه عليه السلام قام خطيبا فقال : " عَدَلت شهادةُ الزور الشِّركَ بالله " قالها مرتين أو ثلاثا . يعنى أنها قد جُمعت مع عبادة الوثن فى النهى عنها .

السادســة — هذه الآية تضمّنت الوعيد على الشهادة بالزور، وينبغى للحاكم إذا عَثَر على الشاهد بالزور أن يعزّره وينادى عليه ليُعرف لئلا يغترّ بشهادته أحد . ويختلف الحكم فى شهادته إذا تاب؛ فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرّز فيها لم تقبل؛ لأنه لا سبيل إلى علم حاله فى التوبة؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القربات أكثر مما هو عليه . وإن كان دون ذلك فشمّر فى العبادة وزادت حاله فى التُّقَى قبل شهادته . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن من أكبر الكبائر الإشراكَ بالله وعقوقَ الوالدين وشهادةَ الزور وقول الزور" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا لَيْتَه سكت .

السابعــة — ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ معناه مستقيمين أو مسـلمين مائلين إلى الحق . ولفظة « حنفاء » من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل . و « حنفاء » نصب على الحال . وقيل : « حنفاء » حجاجا؛ وهذا تخصيص لا حجة معه .

الثامنـة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى هو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفسـه نفعا ولا يدفع عن نفسـه ضرا ولا عذابا ؛ فهو بمنزلة من خرّ من السماء ، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسـه . ومعنى ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ أى تقطعه بمخالبها . وقيـل : هذا عند خروج روحه وصعود الملائكة بهـا إلى سماء الدنيا ، فلا يُفتح لها فيرمى بهـا إلى الأرض؛ كما فى حديث البَرَاء، وقد ذكرناه فى التـذكرة . والسحيق : البعيد؛ ومنه قوله تعالى : «فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام : "فسُحْقًا فسحقا".

(١) آية ١١ سورة الملك .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه . قيل : يكون فى موضع رفع بالابتداء ، أى ذلك أمر الله . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على خبر ابتداء محذوف . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، أى ٱتّبعوا ذلك .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ﴾ الشعائر جمع شَعيرة ، وهو كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعَر به وأعلم ؛ ومنه شِعار القوم فى الحرب ؛ أى علامتهم التى يتعارفون بها . ومنه إشعار البَدَنة وهو الطعن فى جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة ، فهى تسمى شعيرة بمعنى المشعورة . فشعائر الله أعلام دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك . وقال قوم : المراد هنا تسمين البُدْن والاهتمام بأمرها والمغالاة بها ؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد وجماعة . وفيه إشارة لطيفة ، وذلك أن أصل شراء البُدْن ربما يحمل على فعل ما لا بدّ منه ، فلا يدل على الإخلاص ، فإذا عظمها مع حصول الإجزاء بما دونه فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع ، وهو من تقوى القلوب . والله أعلم .

الثالثــة — الضمير فى « إنها » عائد على الفِعلة التى يتضمنها الكلام ، ولو قال فإنه لجاز . وقيل إنها راجعة إلى الشعائر ؛ أى فإن تعظيم الشعائر ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ، فرجعت الكناية إلى الشعائر .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ قرئ « القلوبُ » بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذى هو « تَقْوَى » وأضاف التقوى إلى القلوب (١) لأن حقيقة التقوى فى القلب ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى صحيح الحديث : " التقوى هاهنا " وأشار إلى صدره .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافعُ ﴾ يعنى البُدْن من الركوب والدَّرّ والنَّسل والصوف وغير ذلك ، إذا لم يبعثها ربُّها هَدْيًا ، فإذا بعثها فهو الأجل المسمَّى ؛ قاله ٱبن عباس .

(١) فى الأصول : « وأضاف إلى القلب » .

فإذا صارت بُدْنًا هَدْياً فالمنافع فيها أيضا ركوبها عند الحاجة، وشربُ لبنها بعد رِيّ فصيلها . وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدَنة فقال : " آركبها " فقال : إنها بدنة . فقال : " آركبها " قال : إنها بدنة . قال : " آركبها وَيْلَكَ " فى الثانية أو الثالثة . وروى عن جابر بن عبـد الله وسئل عن ركوب الهَدْى فقال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسـلم يقول : " آركبها بالمعروف إذا أُلْجِئت إليهـا حتى تجد ظَهْراً " . والأجل المسمَّى على هذا القول نحرها؛ قاله عطاء بن أبى رَباح .

السادســـة — ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة لقوله عليه الصلاة والسلام : " آركبها " . وممن أخذ بظاهره أحمد وإسحاق وأهل الظاهر . وروى آبن نافع عن مالك : لا بأس بركوب البَـدَنة ركوبا غيرَ فادح . والمشهور أنه لا يركبها إلا إن آضطر إليهـا لحديث جابر فإنه مقيّـد والمقيّد يقضى على المطلق . وبنحو ذلك قال الشافعيّ وأبو حنيفة . ثم إذا ركبها عند الحاجة نزل؛ قاله إسماعيل القاضى . وهو الذى يدل عليه مذهب مالك، وهو خلاف ما ذكره آبن القـاسم أنه لا يلزمه النزول ، وحجته إباحة النبيّ صلى الله عليه وسـلم له الركوب فجاز له استصحابه . وقوله : " إذا أُلجئت إليها حتى تجد ظهرا " يدل على صحة ماقاله الإمام الشافعيّ وأبو حنيفة رضى الله عنهما؛ وما حكاه إسماعيل عن مذهب مالك . وقد جاء صريحا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدَنة وقد جُهِـد، فقال : " آركبها " . وقال أبو حنيفة والشافعيّ : إن نَقَصها الركوب المباح فعليه قيمة ذلك ويتصدّق به .

السابعــــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يريد أنها تنتهى إلى البيت، وهو الطواف . فقوله : « مَحِلّها » مأخوذ من إحلال المحرِم . والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة وَرَمْى الجمار والسّعى ينتهى إلى طواف الإفاضـة بالبيت العتيق . فالبيت على هـذا التأويل مراد بنفســه؛ قاله مالك فى الموطأ . وقال عطاء : ينتهى إلى مكة . وقال الشافعيّ : إلى الحرم . وهـذا بناء على أن الشـعائر هى البُدْن، ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ لما ذكر تعالى الذبائح بيّن أنه لم يُخْلِ منها أمة ، والأمة القوم المجتمعون على مذهب واحد ؛ أى ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكا . والمنسك الذبح وإراقة الدم ؛ قاله مجاهد . يقال : نَسَك إذا ذبح يَنْسُك نَسْكا . والذبيحة نسيكة ، وجمعها نُسُك ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ »[1] . والنسك أيضا الطاعة . وقال الأزهرىّ فى قوله تعالى « ولِكُلِّ أمّةٍ جعلنا مَنْسَكًا » : إنه يدل على موضع النحر فى هذا الموضع ، أراد مكان نَسْك . ويقال : مَنْسَك ومَنْسِك ، لغتان ، وقرئ بهما . قرأ الكوفيون إلا عاصما بكسر السين ، الباقون بفتحها . وقال الفراء : المَنْسَك فى كلام العرب الموضع المعتاد فى خير أو شر . وقيل مناسك الحج لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى . وقال ابن عرفة فى قوله « ولكل أمةٍ جعلنا مَنْسَكًا » : أى مذهبا من طاعة الله تعالى ؛ يقال : نَسَك نُسْك[2] قومه إذا سلك مذهبهم . وقيل : منسكا عيدا ؛ قاله الفراء . وقيل حجًّا ؛ قاله قتادة . والقول الأول أظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ أى على ذبح مارزقهم . فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له ؛ لأنه رازق ذلك . ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه : فالإله واحد لجميعكم ، فكذلك الأمر فى الذبيحة إنما ينبغى أن تخلص له .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ معناه لحقّه ولوجهه ولإنعامه آمنوا وأسلموا . ويحتمل أن يريد الاستسلام ؛ أى له أطيعوا وانقادوا .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المخبِت : المتواضع الخاشع من المؤمنين . والخَبْت ما انخفض من الأرض ؛ أى بشرهم بالثواب الجزيل . قال عمرو بن أوس : المخبِتون الذين لا يظلمون ، وإذا ظُلموا لم يَنْتصروا[3] . وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبى نجيح : المخبتون المطمئنون بأمر الله عز وجل .

(١) آية ١٩٦ سورة البقرة . (٢) مثلثة النون ؛ وبضمتين . (٣) الانتصار : الانتقام .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى خافت وحذرت مخالفته . فوصفهم بالخوف والوَجَل عند ذكره ، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها . وروى أن هذه الآية قولَه : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ » نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ رضوان الله عليهم . وقرأ الجمهور «الصلاةِ» بالخفض على الإضافة ، وقرأ أبو عمرو « الصلاةَ » بالنصب على توهّم النون ، وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم . وأنشد سيبويه :

* الحافظُو عَوْرَةَ العَشِيرة ... [1] *

الثانيــة — هذه الآية نظير قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُلِيت عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكّلون » [2] ، وقوله تعالى : «اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كِتاباً مُتشابِهاً مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربّهم ثم تَلِينُ جُلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ » [3] . هذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ؛ لا كما يفعله جهال العوامّ والمبتدعة الطَّغام من الزعيق والزئير ، ومن النُّهاق الذى يشبه نُهاق الحمير ؛ فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْد وخشوع : إنك لم تبلغ أن تساوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفا من الله . وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على طريقتهم ؛ قال الله تعالى : « وإذا سَمِعُوا ما أُنزِل إلى الرسولِ تَرَى أعْيُنَهم

(١) البيت بتمامه : الحافظو عورة العشيرة لا * يأتيهم من ورائنا نَطَفُ

(٢) آية ٢ سورة الأنفال . (٣) آية ٢٣ سورة الزمر .

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»(١) . فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ؛ فمن كان مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنّ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسّهم حالا ، والجنون فنون . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أحْفَوْه(٢) فى المسألة ، فخرج ذات يوم فصعِد المِنبر فقال : "سلونى لا تسألونى عن شيء إلا بيّنته لكم ما دمت فى مقامى هذا" فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا(٣) ورهِبوا أن يكون بين [يدى](٤) أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه فى ثوبه يبكى . وذكر الحديث . وقد مضى القول فى هذه المسألة بأشبعَ من هذا فى سورة « الأنفال »(٥) والحمد لله .

قوله تعالى : وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ وقرأ ابن أبى إسحاق « والبُدُن » لغتان ، واحدتها بَدَنة . كما يقال : ثمرة وثُمُر وثُمْر ، وخشبة وخُشُب وخُشْب . وفى التنزيل « وكان له ثُمُر » وقرئ « ثُمْر » لغتان . وسميت بَدَنة لأنها تَبْدُن ، والبدانة السِّمن . وقيل : إن هذا الاسم خاص بالإبل . وقيل : البُدْن جمع « بَدَن » بفتح الباء والدال . ويقال : بَدُن الرجل (بضم الدال) إذا سَمِن . وبدّن (بتشديدها) إذا كبِر وأسنّ . وفى الحديث "إنى قد بدّنت" أى كبِرت وأسننت . وروى "بَدُنْت" وليس له معنى ؛ لأنه خلاف صفته صلى الله عليه وسلم ، ومعناه كثرة اللحم . يقال : بَدُن الرجل يبدُن بُدْنا و بَدانة فهو بادن ؛ أى ضخم .

---

(١) آية ٨٣ سورة المائدة . (٢) أى أكثروا عليه . وأحفى فى السؤال وألحف بمعنى ألخ . (٣) ارم الرجل : سكت ، فهو مرم . (٤) الزيادة عن صحيح مسلم . (٥) راجع ج ٧ ص ٣٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

الثانية — اختلف العلماء فى البُدْن هل تطلق على غير الإبل من البقر أم لا ؛ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعيّ : لا . وقال مالك وأبو حنيفة : نعم . وفائدة الخلاف فيمن نذر بَدَنة فلم يجد البدنة أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة ؛ فهل تجزيه أم لا ؛ فعلى مذهب الشافعيّ وعطاء لا تجزيه . وعلى مذهب مالك تجزيه . والصحيح ما ذهب إليه الشافعيّ وعطاء؛ لقوله عليه السلام فى الحديث الصحيح فى يوم الجمعة : " من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة " الحديث . فتفريقه عليه السلام بين البقرة والبَدَنة يدلّ على أن البقرة لا يقال عليها بدنة ؛ والله أعلم . وأيضا قوله تعالى : « فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها » يدل على ذلك؛ فإن الوصف خاص بالإبل . والبقر يضجع و يذبح كالغنم ؛ على ما يأتى . ودليلنا أن البدنة مأخوذة من البدانة وهو الضخامة، والضخامة توجد فيهما جميعا . وأيضا فإن البقرة فى التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل ؛ حتى تجوز البقرة فى الضحايا عن سبعةٍ كالإبل . وهذا حجة لأبى حنيفة حيث وافقه الشافعيّ على ذلك، وليس ذلك فى مذهبنا . وحكى ابن شجرة أنه يقال فى الغنم بدنة ، وهو قول شاذ . والبُدْن هى الإبل التى تُهْدَى إلى الكعبة . والهَدْى عامّ فى الإبل والبقر والغنم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾ نصٌّ فى أنها بعض الشعائر . وقوله : ﴿ لَكُمْ فيهَا خَيْرٌ ﴾ يريد به المنافع التى تقدم ذكرها . والصواب عمومه فى خير الدنيا والآخرة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ أى انحروها على اسم الله . و « صوافّ » أى قد صفّت قوائمها . والإبل تُنحر قياما معقولة . وأصل هذا الوصف فى الخيل؛ يقال : صَفَن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثَنَى سُنْبُك الرابعة ؛ والسّنبك طرف الحافر . والبعير إذا أرادوا نحره تُعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم . وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعريّ «صَوافِىَ» أى خوالص لله عز وجل لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحدا . وعن الحسن أيضا «صوافٍ» بكسر الفاء وتنوينها مخفّفةً ، وهى بمعنى التى قبلها ، لكن حذفت الياء تخفيفا على غير قياس

و « صوافّ » قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدها؛ من صفّ يَصُفّ . و واحد صوافّ صافة ، و واحد صوافى صافية . وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن على «صوافِن» بالنون جمع صافنة . ولا يكون واحدها صافنا؛ لأن فاعلا(١) لا يجمع على فواعل إلا فى حروف مختصة لا يقاس عليها؛ وهى فارس وفوارس ، وهالك وهوالك ، وخالف وخوالف(٢) . والصافنة هى التى قد رفعت إحدى يديها بالعَقْل لئلا تضطرب . ومنه قوله تعالى : « الصّافِناتُ الجِيادُ »(٣) . وقال عمرو بن كُلْثوم :

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه * مقلّدةً أعنّتَها صُفُونَا

ويروى :

تظل جيادُه نَوْحًا عليه * مقلّدةً أعنّتَها صفونا

وقال آخر :

ألِف الصُّفون فما يزال كأنه * ممّا يقوم على الثلاث كسيرا

وقال أبو عمرو الجَرْمِىّ : الصافن عرق فى مقدم الرجل ، فإذا ضرب على الفرس رفع رجله . وقال الأعشى :

وكلّ كُمَيْت كجذع السَّحو * ق يَرْنُو القِناء إذا ما صَفَنْ

الخامسة — قال ابن وهب : أخبرنى ابن أبى ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصوافّ فقال : تقيّدها ثم تصفها . وقال لى مالك بن أنس مثله . وكافة العلماء على استحباب ذلك؛ إلا أبا حنيفة والثّورىّ فإنهما أجازا أن تنحر باركة وقياما . وشذّ عطاء فخالف واستحب نحرها باركة . والصحيح ما عليه الجمهور؛ لقوله تعالى : « فإذاَ وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » معناه سقطت بعد نحرها؛ ومنه وَجَبت الشمس . وفى صحيح مسلم عن زياد بن جُبير أن ابن عمر أتى على رجل وهو ينحر بَدَنته باركةً فقال : ٱبعثها قائمة مقيّدة سنةَ نبيّكم صلى الله عليه وسلم . و روى أبو داود عن أبى الزبير عن جابر، وأخبرنى عبد الرحمن بن سابط أن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه كانوا ينحرون البَدَنة معقولة اليسرى قائمةً على ما بقى من قوائمها .

(١) «فاعل» الذى لا يجمع على «فواعل» اذا كان وصفا لمذكر عاقل؛ أما «صافن» فليس وصفا لعاقل .

(٢) فى شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك أنها فارس وناكس وهالك وغائب وشاهد . (٣) آية ٣١ سورة ص .

السادســة — قال مالك : فإن ضَعُف إنسان أو تخوّف أن تنفلت بَدَنته فلا أرى بأسا أن ينحـرها معقولة . والاختيار أن تُنحر الإبل قائمة غير معقولة ؛ إلا أن يتعذر ذلك فتعقل ولا تُعَرْقَب إلا أن يخاف أن يضعف عنهـا ولا يقوى عليها . ونحرها باركة أفضـل من أن تعرقب . وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده فى عنفوان أَيْده فينحرها فى صدرها ويخرجها على سنامها، فلما أسنّ كان ينحرها باركة لضعفه، ويمسك معه الحربة رجل آخرُ، وآخر بخِطامها. وتضجع البقر والغنم .

السابعــة — ولا يجوز النحر قبل الفجر من يوم النحر بإجماع . وكذلك الأضحيّة لا تجوز قبـل الفجر . فإذا طلع الفجر حل النحر بِمِنًى ، وليس عليهـم انتظار نحر إمامهم؛ بخـلاف الأضحيّة فى سائر البـلاد . والمنحر مِنًى لكل حاج، ومكة لكل معتمِر . ولو نحر الحاج بمكة والمعتمرُ بمنًى لم يَحْرَج واحد منهما، إن شاء الله تعالى .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَـا ﴾ يقال : وجبت الشـمس إذا سقطت، ووجب الحائط إذا سقط . قال قيس بن الخَطِيم :

أطاعت بنـو عوف أميرا نهاهمُ * عن السِّلْم حتى كان أوّل واجبِ

وقال أَوْس بن حَجَر :

ألم تكسف الشمسُ والبدرُ والـ * ـكواكبُ للجبـــل الواجب (١)

فقوله تعالى : «فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها» يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة . كنّى عن الموت بالسـقوط على الجنب كما كنّى عن النحر والذبح بقوله تعالى : « فاذكروا اسم اللهِ عليها » . والكنايات فى أكثر المواضع أبلغ من التصريح . قال الشاعر :

فتركته جَزَرَ السباع يَنُشْنَه * ما بين قُلّة رأسه والمِعْصَمِ (٢)

---

(١) هذه رواية البيت كما فى ديوانه . وروايته فى الأصول :

ألم تكسف الشمس ضوء النهار * والبـــدر للجبـــل الواجب

ويريد بالجبل : فضالة بن كلدة . وهو من قصيدة يرثيه بها ، وفيها :

لهلك فضـالة لا تستوى الـ * ـفقود ولا خـلّة الذاهب

(٢) البيت من معلقة عنترة . والجزر : جمع جزرة، وهى الشاة والناقة تذبح وتنحر .

وقال عنترة : * وضربت قَرْنَىْ كبشها فتجدّلا [(١)] *

أى ســقط مقتولا إلى الجَدالة، وهى الأرض ؛ ومثله كثير . والوُجوب للجَنْب بعــد النحر علامة نزف الدّم وخروج الروح منها، وهو وقت الأكل ، أى وقت قرب الأكل ؛ لأنهـا إنمـا تبتدأ بالسلخ وقطع شىء من الذبيحة ثم يطبخ . ولا تسلخ حتى تَبْرُد لأن ذلك من باب التعذيب ؛ ولهذا قال عمر رضى الله عنه : لا تعجلوا الأنفس أن تزهق .

التاســعة — قوله تعـالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر معناه الندب . وكل العلماء يستحبّ أن يأكل الإنسان من هَدْيه ، وفيه أجر وامتثال؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم كما تقدّم . وقال أبو العباس بن شُرَيح : الأكل والإطعام مستحبان، وله الاقتصار على أيهما شاء . وقال الشافعىّ : الأكل مستحب والإطعـام واجب ، فإن أطعم جميعها أجزاه وإن أكل جميعها لم يجزه ، وهذا فيما كان تطوّعا ؛ فأما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئا حسبما تقدّم بيانه .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِـعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ قال مجاهد وإبراهيم والطبرىّ : قـوله « وأطعِموا » أمر إباحةٍ . و « القانِـع » السائل . يقال : قَنَـع الرجل يَقْنَـع قنوعا إذا سأل ، بفتح النون فى المـاضى وكسرها فى المســتقبل [(٢)] ، يقنَع قناعة فهو قَنِـع ، إذا تعفف واستغنى ببلغته ولم يسأل ؛ مثل حمِد يحمَــد ، قَناعة وقَنَعا وقَنَعانا ؛ قاله الخليل . ومن الأوّل قول الشّماخ :

لَمَـالُ المرء يُصْلِحه فيُغْنِى * مَفاقِرَه أعفُّ من القُنُوع

وقال ابن السِّكيت : من العرب من ذكر القُنوع بمعنى القناعة ، وهى الرضا والتعفّف وترك المسألة . وروى عن أبى رجاء أنه قرأ « وأطعِموا القَنِــع » ومعنى هــذا مخالف للأوّل .

---

(١) هــذا صدر بيت ، وعجزه كما فى ديوانه :

* وحملت مهرى وسطها فضـاها *

(٢) هذه اللغــة لم نجدها فى المعاجم ، على أن فى العبارة هاهنا اضطرابا . والذى فى كتب اللغة أنه يقال : قنع الرجل يقنع (بفتح النون فيهما) قنوعا اذا سأل . وقنع يقنع (بكسر النون فى المـاضى وفتحها فى المستقبل) قناعة وقنعا وقنعانا — كما ذكر المؤلف — اذا رضى . راجع معاجم اللغة .

يقال : قَنِـع الرجل فهو قَنِـع إذا رضى . وأما المعترّ فهو الذى يُطيف بك يطلب ما عندك ، سائلا كان أو ساكتا . وقال محمـد بن كعب القُـرَظى ومجاهد و إبراهيم والكلبى والحسن بن أبى الحسن : المعترّ المعترض من غير سؤال . قال زهير :

على مُكْثِرِيهم رزقُ من يعتريهمُ * وعنـد المُقِلّين السماحةُ والبَـذْلُ

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع الفقـيرُ، والمعتر الزائر . و روى عن الحسن أنه قرأ « والمعترِىَ » ومعناه كمعنى المعتر . يقال : اعترّه واعتراه وعرّه وعرَاه إذا تعرّض لمـا عنده أو طلبه؛ ذكره النحاس .

قوله تعـالى : لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا ﴾ قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يضرّجون البيت بدماء البُدْن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزلت الآية . والنَّيل لا يتعلق بالبارئ تعالى ، ولكنه عبّر عنـه تعبيرا مجازيا عن القبول ، المعنى : لن يصـل إليه . وقال ابن عباس : لن يصعد إليه . ابن عيسى : لن يقبل لحومها ولا دماءها ، ولكن يصل إليـه التقوى منكم ؛ أى ما أريد به وجهه ، فذلك الذى يقبله و يُرفع إليه و يسمعه ويُثيب عليـه ؛ ومنه الحديث " إنما الأعمال بالنيات " . والقراءة « لن ينال اللهَ » و « ينالُه » بالياء فيهما . وعن يعقوب بالتاء فيهما، نظرا إلى اللحوم .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ مَنّ سبحانه علينا بتذليلها وتمكيننا من تصريفها وهى أعظم منا أبدانا وأقوى منا أعضاء، ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما تظهر إلى العبـد من التدبير، و إنمـا هى بحسب ما يريدها العزيز القـدير، فيغلِب الصغيرُ الكبيرَ ليعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ ذكر سبحانه ذِكرَ ٱسمه عليها فى الآية قبلها فقال عزّ من قائل : « فَٱذكروا ٱسم اللهِ عليها » ، وذكر هنا التكبير . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يجمع بينهما إذا نحر هَدْيَه فيقول : بٱسم الله والله أكبر ؛ وهذا من فقهه رضى الله عنه . وفى الصحيح عن أنس قال : ضَحَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكَبْشين أَمْلَحَيْن (١) أَقْرَنَيْن . قال : ورأيته يذبحهما بيده ، ورأيته واضعا قدمه على صِفاحهما (٢) ، وسَمَّى وكبّر .

وقد ٱختلف العلماء فى هذا ؛ فقال أبو ثور : التسمية متعيّنة كالتكبير فى الصلاة ؛ وكافّة العلماء على ٱستحباب ذلك . فلو قال ذكرا آخر فيه ٱسم من ٱسماء الله تعالى وأراد به التسمية جاز . وكذلك لو قال : الله أكبر فقط ، أو لا إلٰه إلا الله ؛ قاله ابن حبيب . فلو لم يرد التسمية لم يَجْزِ عن التسمية ولا تؤكل ؛ قاله الشافعى ومحمد بن الحسن . وكره كافة العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم عند التسمية فى الذبح أو ذِكره ، وقالوا : لا يذكر هنا إلا الله وحده . وأجاز الشافعيّ الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الذبح .

الرابعة — ذهب الجمهور إلى أن قول المضحِّى : اللَّهُمّ تقبل منى ؛ جائز . وكره ذلك أبو حنيفة ؛ والحجة عليه ما رواه الصحيح عن عائشة رضى الله عنها ، وفيه : ثم قال "باسم الله اللَّهُمّ تقبّل من محمد وآل محمد ومن أمّة محمد" ثم ضحّى به . وٱستحب بعضهم أن يقول ذلك بنص الآية « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنك أنت السميع العليم (٣) » . وكره مالك قولهم : اللهم منك و إليك ، وقال : هذه بدعة . وأجاز ذلك ابن حبيب من أصحابنا والحسن ؛ والحجة لهما ما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : ذبح النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الذبح كبشين أقرنين مَوْجُوءَيْن (٤) أملحين ، فلما وجّههما قال : "إِنّى وَجَّهتُ وَجْهِىَ لِلذِى فَطَرَ السمواتِ والأرضَ حَنِيفًا — وقرأ إلى قوله : وأنا أوّلُ المسلمين — اللَّهُمّ منك ولك عن محمد وأمته بٱسم الله والله أكبر" ثم ذبح . فلعلّ مالكا لم يبلغه هذا الخبر ، أو لم يصح عنده ، أو رأى العمل يخالفه . وعلى هذا يدل قوله : إنه بدعة . والله أعلم .

---

(١) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده . وقيل : النقى البياض . (٢) الصفاح (بكسر الصاد) : الجوانب ؛ المراد الجانب الواحد من وجه الأضحية ، وإنما ثنى إشارة الى أنه فعل ذلك فى كل منهما .
(٣) آية ١٢٧ سورة البقرة . (٤) أى خصيّين .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ رُوى أنها نزلت فى الخلفاء الأربعة؛ حسبما تقدّم فى الآية التى قبلها . فأما ظاهر اللفظ فيقتضى العموم فى كل محسن .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

رُوى أنهـا نزلت بسبب المؤمنين لمـا كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة؛ أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل مَن أمكنه من الكفار و يغتالَ و يغدِر و يحتال؛ فنزلت هذه الآية إلى قوله : « كفور » . فوعد فيها سبحانه بالمدافعة ونهى أفصح نهى عن الخيانة والغدر . وقد مضى فى «الأنفال»[(١)] التشديد فى الغدر؛ وأنه "يُنصب للغادر لواء عند آسته بقدر غَدْرته يقال هذه غَدْرة فلان" . وقيل : المعنى يدفع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمـان من قلوبهم، فلا تقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم ؛ و إن جرى إكراه فيعصمهم حتى لا يرتدّوا بقلوبهم . وقيل : يدفع عن المؤمنين بإعلائهم بالحجة . ثم قتل كافرٍ مؤمنا نادر، و إنْ فيدفع الله عن ذلك المؤمن بأن قبضــه إلى رحمته . وقرأ نافع «يُدافِــع» « ولولا دِفاع » . وقرأ أبو عمــرو وابن كثير « يدفع » « ولولا دفع » . وقرأ عاصم وحمــزة والكسائى « يدافِــع » « ولولا دفع الله » . و يدافع بمعنى يدفع؛ مثل عاقبت اللص، وعافاه الله؛ والمصدر دفعا . وحكى الزهراوى أن « دِفاعا » مصدر دفع؛ كحسب حِسابا .

قوله تعـالى : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَـدِيرٌ ﴿٣٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ قيل : هذا بيان قوله « إن الله يُدافِع عَنِ الذين آمنوا » أى يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال و ينصرهم؛ وفيه إضمار، أى

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

أذن للذين يَصْلُحون للقتال فى القتال؛ فحذف لدلالة الكلام على المحذوف . وقال الضحاك : استأذن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتال الكفار إذ آذوهم بمكة؛ فأنزل الله «إن الله لا يُحبُّ كُلَّ خَوّانٍ كفورٍ» فلما هاجر نزلت «أذِن لِلذِين يقاتَلون بِأنهم ظلِموا» . وهذا ناسخ لكل مافى القرآن من إعراض وترك صفح . وهى أوّل آية نزلت فى القتال[1] . قال ابن عباس وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وروى النَّسائىّ والترمذىّ عن ابن عباس قال : لما أخرج النبىّ صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيّهم ليهلِكنّ؛ فأنزل الله تعالى «أُذِن لِلذِين يقاتلون بِأنهم ظُلِموا وإن الله على نَصْرِهِم لقدِير» فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال . فقال : هذا حديث حسن . وقد روى غير واحد عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البَطِين عن سعيد بن جُبير مرسلا، ليس فيه : عن ابن عباس .

الثانيـة — فى هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع، خلافا للمعتزلة؛ لأن قوله : « أذِن » معناه أبيح؛ وهو لفظ موضوع فى اللغة لإباحة كل ممنوع . وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة» وغير موضع . وقرئ «أَذن» بفتح الهمزة؛ أى أذن الله . «يقاتِلون» بكسر التاء أى يقاتلون عدوّهم . وقرئ « يقاتَلون » بفتح التاء؛ أى يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون . ولهذا قال : « بِأنهم ظلِموا » أى أخرجوا من ديارهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(١) يلاحظ أن الذى تقدّم فى الجزء الثانى ص ٣٤٧ طبعة ثانية عند قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله ... » خلاف ما هنا .

فيه سبع مسائل[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم ﴾ هـذا أحد ما ظلموا به ؛ وإنما أخرجوا لقولهم : ربنا الله وحده . فقوله : « إلا أن يقولوا ربنا الله » استثناء منقطع ؛ أى لكن لقولهم ربنا الله؛ قاله سيبويه . وقال الفراء يجوز أن تكون فى موضع خفض ، يقدرها مردودة على الباء ؛ وهو قول أبى إسحاق الزجاج ، والمعنى عنده : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا بأن يقولوا ربنا الله؛ أى أخرجوا بتوحيدهم، أخرجهم أهل الأوثان . و «الذين أخرجوا » فى موضع خفض بدلا من قوله : « لِلذِين يقاتلون » .

الثانيـــة — قال ابن العربى : قال علماؤنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بَيْعة العَقَبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تحلّ له الدماء؛ إنمـا يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدّة عشرة أعوام؛ لإقامة حجـة الله تعـالى عليهم ، ووفاء بوعده الذى امتن به بفضله فى قوله : « وما كنا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً[2] » . فاستمرّ الناس فى الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان ، وكانت قريش قد اضطهدت مَن اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونَفَوْهم عن بلادهم ؛ فمنهم من فرّ إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم مَن صَبَر على الأذى . فلما عَتَتْ قريش على الله تعالى وردّوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام، وعذبوا من آمن به ووحّده وعبده، وصدّق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه، أذن الله لرسوله فى القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل «أُذِن لِلذِين يقاتلون بأنهم ظُلِموا — إلى قوله — الأُمُور» .

الثالثـــة — فى هـذه الآية دليل على أن نسبة الفعل الموجود من الملجأ المكره إلى الذى ألجأه وأكرهـه ؛ لأن الله تعـالى نسب الإخراج إلى الكفار ، لأن الكلام فى معنى تقدير الذنب وإلزامه . وهذه الآية مثلُ قوله تعالى : « إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » والكلام فيهما واحد ؛ وقد تقدّم فى « براءة[3] » والحمد لله .

---

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر ثمـانى مسائل . (٢) آية ١٥ سورة الاسراء .
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة — ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لآستولى أهل الشرك وعطّلوا ما بيّنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرّغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدّم فى الأمم ، وبه صَلَحت الشرائع وآجتمعت المتعبّدات ؛ فكأنه قال : أذن فى القتال، فليقاتل المؤمنون . ثم قوّى هذا الأمر فى القتال بقوله : « ولولا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ » الآية ؛ أى لولا القتال والجهاد لتُغُلِّب على الحق فى كل أمة . فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ؛ إذ لولا القتال لما بقى الدّين الذى يذبّ عنه . وأيضا هذه المواضع التى آتّخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى ؛ أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكنائس، وفى زمن عيسى الصوامع والبِيَع، وفى زمن محمد عليه السلام المساجد . ﴿ لَهُدِّمَتْ ﴾ من هدمت البناء أى نقضته فآنهدم . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفارَ عن التابعين فمن بعدهم . وهذا وإن كان فيه دفع قوم بقوم إلا أن معنى القتال أليق؛ كما تقدّم . وقال مجاهد: لولا دفع الله ظلم قوم بشهادة العدول . وقالت فرقة : ولولا دفع الله ظلم الظّلمة بعدل الولاة. وقال أبو الدَّرْداء : لولا أن الله عز وجل يدفع بمن فى المساجد عمن ليس فى المساجد، وبمن يغزو عمن لا يغزو ، لأتاهم العذاب . وقالت فرقة : ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء والأخيار إلى غير ذلك من التفصيل المفسِّر لمعنى الآية ؛ وذلك أن الآية ولا بد تقتضى مدفوعا من الناس ومدفوعا عنه، فتأمله .

الخامسة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبِيَعهم وبيوت نيرانهم ، ولا يُتركون أن يحدثوا ما لم يكن ، ولا يزيدون فى البنيان لا سَعة ولا ارتفاعا، ولا ينبغى للسلمين أن يدخلوها ولا يصلوا فيها، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها . ويُنقض ما وجد فى بلاد الحرب من البِيَع والكنائس . وإنما لم ينقض

ما فى بلاد الإسـلام لأهل الذمة ؛ لأنهـا جرت مجـرى بيوتهم وأموالهم التى عاهدوا عليهـا فى الصيانة . ولا يجوز أن يمكّنوا من الزيادة لأن فى ذلك إظهارَ أسباب الكفر . وجائز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه ؛ وقد فعل ذلك عثمان رضى الله عنه بمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

السادســة — قرئ «لهدمت» بتخفيف الدال وتشديدها . ﴿صَوَامِعُ﴾ جمع صَوْمعة، وزنها فَوْعلة، وهى بناء مرتفعٌ حديدُ الأعلى ؛ يقال : صمّع الثريدة أى رفع رأسها وحدّده . ورجل أصمع القلب أى حادّ الفِطنة . والأصمع من الرجال الحديد القول . وقيل : هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم . وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعبّاد الصابئين — قاله قتادة — ثم استعمل فى مئذنة المسلمين . والبِيَع جمع بِيعة، وهى كنيسة النصارى . وقال الطبرىّ : قيل هى كنائس اليهود ؛ ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضى ذلك . ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال الزجاج والحسن : هى كنائس اليهود ؛ وهى بالعبرانية صَلُوتا . وقال ابو عبيدة : الصلوات بيوت تبنى للنصارى فى البرارى يصلون فيها فى أسفارهم، تسمّى صلوتا فعرّبت فقيل صلوات . وفى « صلوات » تسع قراءات ذكرها ابن عطية : صُلْوات، صَلْوات، صِلْوات، صُلُولى على وزن فعولى، صُلُوب بالباء بواحدة جمع صليب، صُلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول، صُلُوات بضم الصاد واللام وألف بعد الواو، صُلُوثا بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد الثاء المثلثة، [صِلْوِيثَا بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث بعدها ألف](1) . وذكر النحاس : وروى عن عاصم الجحْـدَرىّ أنه قرأ « وصُلوب » . وروى عن الضحاك «وَصلُوث» بالثاء معجمة بثلاث؛ ولا أدرى أفتح الصاد أم ضمها .

قلت : فعلى هـذا تجىء هنا عشر قراءات . وقال ابن عبـاس : الصلوات الكنائس . أبو العاليـة : الصلوات مساجد الصابئين . ابن زيد : هى صلوات المسلمين تنقطع إذا دخل عليهم العـدوّ وتهدم المساجد ؛ فعلى هـذا استعير الهدم للصـلوات من حيث تُعَطل، أو أراد موضع صلوات فحذف المضاف . وعلى قول ابن عباس والزجاج وغيرهم يكون الهدم

---

(1) ما بين المربعات عبارة أبي حيان . والذى فى الأصل : صلوثيا بكسر الصاد والثاء المثلثة .

حقيقة . وقال الحسن : هدم الصلوات تركها . قُطْرُب : هى الصوامع الصغار ولم يسمع لها واحد . وذهب خَصِيف إلى أن القصد بهذه الأسماء تقسيم متعبدات الأمم . فالصوامع للرهبان، والبِيَع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للسلمين . قال ابن عطية : والأظهر أنها قصد بها المبالغة فى ذكر المتعبَّدات . وهذه الأسماء تشترك الأمم فى مسمياتها، إلا البِيعة فإنها مختصة بالنصارى فى لغة العرب . ومعانى هذه الأسماء هى فى الأمم التى لها كتاب على قديم الدهر . ولم يذكر فى هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع . وقال النحاس : « يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ اللهِ» الذى يجب فى كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون «يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ اللهِ» عائدا على المساجد لا على غيرها؛ لأن الضمير يليها . ويجوز أن يعود على «صوامع» وما بعدها ؛ ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق .

السابعة — فإن قيل : لِمَ قدّمت مساجد أهل الذمّة ومصلّياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل : لأنها أقدم بناء . وقيل لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر ؛ كما أخر السابق فى قوله : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ »(١) .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أى من ينصر دينه ونبيّه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ﴾ أى قادر . قال الخطابى : القوِىّ يكون بمعنى القادر، ومن قَوِى على شىء فقد قدر عليه . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أى جليل شريف ؛ قاله الزجاج . وقيل الممتنع الذى لا يرام ؛ وقد بيناهما فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قال الزجاج : ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع نصب ردًّا على « مَن » ، يعنى فى قوله : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » . وقال غيره : « الذين » فى موضع خفض ردّا على قوله : « أُذِنَ لِلَّذِينَ

(١) آية ٣٢ سورة فاطر .

يقاتلون » ، ويكون « الذين إن مكناهم في الأرض » أربعةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في الأرض غيرهم . وقال ابن عباس : المراد المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان . وقال قتادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عكرمة : هم أهل الصلوات الخمس . وقال الحسن وأبو العالية : هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة . وقال ابن أبي نجيح : يعني الولاة . وقال الضحاك : هو شرط شرطه الله عز وجل على من آتاه الملك؛ وهذا حسن . قال سهل بن عبد الله : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه . وليس على الناس أن يأمروا السلطان؛ لأن ذلك لازم له واجب عليه، ولا يأمروا العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم .

قوله تعالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزيةٌ؛ أي كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين ، فاقتد بهم واصبر . ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ أي كذبه فرعون وقومُه . فأما بنو إسرائيل فما كذبوه، فلهذا لم يعطفه على ما قبله فيكون وقومُ موسى . ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي أخّرت عنهم العقوبة . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ فعاقبتهم . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ استفهام بمعنى التغيير؛ أي فانظر كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك ، فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش . قال الجوهري : النكير والإنكار تغيير المنكر ، والمنكر واحد المناكير .

قوله تعالى : فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أى أهلكنا أهلها . وقد مضى فى «آل عمران»(١) الكلام فى كأين . ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى بالكفر . ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ تقدّم فى الكهف(٢) . ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ قال الزجاج : « وبئرٍ معطلةٍ » معطوف على « مِن قريةٍ » أى ومن أهل قرية ومن أهل بئر . والفرّاء يذهب إلى أن « وبئرٍ » معطوف على « عروشها » . وقال الأصمعىّ : سألت نافع بن أبى نعيم أيهمز البئر والذئب ؟ فقال : إن كانت العرب تهمزهما فآهمزهما . وأكثر الرواة عن نافع بهمزهما ؛ إلا وَرْشًا فإن روايته عنه بغير همز فيهما ، والأصل الهمز . ومعنى «معطلةٍ» متروكة ؛ قاله الضحاك . وقيل : خالية من أهلها لهلاكهم . وقيل : غائرة الماء . وقيل : معطلة من دِلائها وأَرْشِيَتها ؛ والمعنى متقارب . ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل : رفيع طويل . قال عدِىّ بن زيد :

شاده مَرْمَرًا وجَلَّله كِلْ ✽ سًا فللطير فى ذُراه وُكور

أى رفعه . وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : مجصّص ؛ من الشِّيد وهو الجصّ . قال الراجز(٣) :

لا تحْسَبَنِّى و إن كنت آمرأ غَمِرًا ✽ كحيّة الماء بين الطين والشِّيد

وقال امرؤ القيس :

✽ وَلَا أُطُمًا إلا مَشيدًا بجَنْدَلِ(٤) ✽

وقال ابن عباس : « مشِيدٍ » أى حصين ؛ وقاله الكلبىّ . وهو مَفْعِل بمعنى مفعول كمبيع بمعنى مبيوع . وقال الجوهرىّ : والمشيد المعمول بالشيد . والشيد (بالكسر) : كل شىء طلَيت به الحائط من جص أو بلاط ، وبالفتح المصدر . تقول : شاده يَشِيده شَيْدا جَصّصه . والمشيَّد (بالتشديد) المطوّل . وقال الكسائىّ : «المشِيد» للواحد ، من قوله تعالى : «وقصرٍ مَشِيدٍ» ، والمشيّد للجمع ، من قوله تعالى : «فِى بُروج مُشَيَّدةٍ» . وفى الكلام مضمر

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٤١٠ (٣) البيت للشماخ ، كما فى اللسان . والغمر (بفتح الغين وكسر الميم) لغة فى الغمر (بضم الغين وسكون الميم) وهو الغر الذى لم يجرب الأمور . (٤) هذا عجز البيت ، وصدره : ✽ وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ✽

محذوف تقديره : وقصر مشـيد مثلها معطل . ويقال : إن هـذه البئر والقصر بحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قُلّة جبل لا يرتقَى إليه بحال ، والبئر فى سفحه لا تُقِرّ الريح شيئا سقط فيـه إلا أخرجته . وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادى ؛ أى فأهلكنا هؤلاء وهؤلاء . وذكر الضحاك وغيره فيما ذكر الثعلبيّ وأبو بكر محمـد بن الحسن المقرئ وغيرهما أن البئر الرّس ، وكانت بعـدن باليمن بحضرَمَوْت ، فى بلد يقال له حَضُور ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ، ونجوْا من العذاب ومعهم صالح ، فـات صالح فسُمِّىَ المكان حضرموت ؛ لأن صالحا لمـا حضره مات فبنَوْا حضور وقعدوا على هذه البئر ، وأمّروا عليهم رجلا يقال له العلس بن جلاس بن سويد ، فيما ذكر الغزنوىّ . الثعلبيّ : جلهس بن جلاس . وكان حسن السـيرة فيهم عاملا عليهم ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة ، فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا ، وكانت البئر تسقى المدينة كلها وباديتها وجميعَ ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك ؛ لأنها كانت لها بكرات كثيرة منصوبة عليها ، ورجال كثيرون موكلون بها ، وأبازن (بالنون) من رخام وهى شبه الحياض كثيرة تملأ للناس ، وأُخر للدواب ، وأُخر للبقر ، وأخر للغنم . والقُوّام يسقون عليها بالليـل والنهار يتداولون ، ولم يكن لهم ماء غيرها . وطال عمر المـلك الذى أمّروه ؛ فلما جاءه الموت طُلِىَ بدهن لتبقى صورته لا تتغير ، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهـم الميت وكان ممن يكرم عليهم . فلما مات شقّ ذلك عليهـم ورأوا أن أمرهم قد فسد ، وضجوا جميعا بالبكاء ، واغتنمها الشيطان منهم فدخل فى جثة الملك بعد موته بأيام كثيرة ، فكلمهم وقال : إنى لم أمت ولكن تغيبت عنـكم حتى أرى صنيعكم ؛ ففرحوا أشدّ الفرح وأمر خاصته أن يضربوا له حجابا بينه وبينهم ويكلمهم من ورائه لئـلا يعرف المـوت فى صورته . فنصبوا صنمـا من وراء الحجـاب لا يأكل ولا يشرب . وأخبرهم أنه لا يموت أبدا وأنه إلٰههم ؛ فذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه ، فصدّق كثير منهم وارتاب بعضهم ، وكان المؤمن المكذب منهم أقلّ من المصـدّق له ، وكلما تكلم ناصح لهم زُجر وقُهر . فأصفقوا (١) على عبادته ، فبعث الله إليهم نبيًّا كان الوحى ينزل عليه فى النوم دون اليقظة ، كان آسمه

(١) أصفقوا على الأمر : آجتمعوا عليه .

حنظلة بن صفوان ، فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له ، وأن الشيطان قد أضلهم ، وأن الله لا يتمثل بالخلق ، وأن الملك لا يجوز أن يكون شريكا لله ، ووعظهم ونصحهم وحذرهم سطوة ربهم ونقمته ؛ فآذَوه وعادوه وهو يتعهّدهم بالموعظة ولا يُغِبّهم بالنصيحة ، حتى قتلوه فى السوق وطرحوه فى بئر ؛ فعند ذلك أصابتهم النقمة ، فباتوا شباعا رُواء من الماء وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها وتعطل رِشاؤها ، فصاحوا بأجمعهم وضجّ النساء والولدان ، وضجّت البهائم عطشا ؛ حتى عمّهم الموت وشَمِلهم الهلاك ، وخَلَفتهم فى أرضهم السباع ، وفى منازلهم الثعالب والضباع ، وتبدلت جناتهم وأموالهم بالسِّدر (١) وشَوْك العِضاه (٢) والقَتاد (٣) ، فلا يسمع فيها إلا عزيف الجن وزئير الأسد ، نعوذ بالله من سَطَواته ، ومن الإصرار على ما يوجب نَقِماته . قال السُّهيلى . وأما القصر المشيد فقصر بناه شدّاد بن عاد بن إرم ، لم يبن فى الأرض مثله — فيما ذكروا وزعموا — وحاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة فى إيحاشه بعد الأنيس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحدا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ؛ لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرَّغَد وبهاء المُلْك وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ؛ فذكّرهم الله تعالى فى هذه الآية موعظة وعبرة وتذكرة ، وذكرا وتحذيرا من مَغَبّة المعصية وسوء عاقبة المخالفة ؛ نعوذ بالله من ذلك ونستجير به من سوء المآل . وقيل : إن الذى أهلكهم بختنصّر على ما تقدم فى سورة « الأنبياء » فى قوله : « وكم قصمنا من قرية » (٤) . فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

(١) السدر من الشجر ، وهو سدران : أحدهما برى لا ينتفع بثمره ولا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ فى الحلق ، والعرب تسميه الضال . والسدر الثانى : ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول . (٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك ؛ واحدها عضاهة وعضهة وعضة . (٣) القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر .
(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٧٤

قوله تعـالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ يعنى كفار مكة فيشاهدوا هـذه القرى فيتّعظوا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم . ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن . وقد قيل : إن العقل محله الدماغ ؛ وروى عن أبى حنيفة ، وما أراها عنـه صحيحة . ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ ﴾ قال الفراء : الهاء عماد ، ويجوز أن يقال فإنه ، وهى قراءة عبـد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصـة ؛ أى فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة . ﴿ لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ ﴾ أى أبصار العيون ثابتـة لهم . ﴿ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ أى عن درك الحق والاعتبار . وقال قتادة : البصر الناظر جعل بُلْغة ومنفعة ، والبصر النافع فى القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربع أعين ؛ يعنى لكل إنسان أربع أعين : عينان فى رأسـه لدنياه ، وعينان فى قلبه لآخرته ؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبـه فلم يضرّه عماه شيئا ، وإن أبصرت عينا رأسـه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا . وقال قتادة وابن جُبير : نزلت هـذه الآية فى ابن أُمّ مَكْتُوم الأعمى . قال ابن عباس ومقاتل : لمـا نزل « ومن كان فِي هـذِهِ أعمى »[1] قال ابن أمّ مكتوم : يا رسول الله ، فأنا فى الدنيـا اعمى أفأكون فى الآخرة أعمى ؟ فنزلت « فإنّها لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُـلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدورِ » . أى من كان فى هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو فى الآخرة فى النار .

قوله تعـالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ نزلت فى النضر بن الحـارث ، وهو قوله : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » . وقيـل : نزلت فى أبى جهـل بن هشام ، وهو قوله : « اللَّهُـمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَـقَّ مِن عِندِكَ » . ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ أى فى إنزال العذاب . قال الزجاج : استعجلوا العذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شىء ؛ وقد نزل بهم فى الدنيا يوم بدر .

(١) آية ٧٢ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعنى من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض . عكرمة : يعنى من أيام الآخرة؛ أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب فى أيام قصيرة أنه يأتيهم به فى أيام طويلة . قال الفرّاء : هذا وعيدلهم بامتداد عذابهم فى الآخرة؛ أى يوم من أيام عذابهم فى الآخرة ألف سنة . وقيل : المعنى وإن يوما فى الخوف والشدّة فى الآخرة كألف سنة من سنىّ الدنيا فيها خوف وشدة ؛ وكذلك يوم النعيم قياسا . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « مما يعدّون » بالياء المثناة تحت ، واختاره أبو عبيد لقوله : « ويستعجلونك » . والباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ أى أمهلتها مع عتوها . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ أى بالعذاب . ﴿ وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴾ .

قوله تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يعنى أهل مكة . ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى منذر مخوّف . وقد تقدّم فى البقرة الإنذار فى أوّلها . ﴿ مُبِينٌ ﴾ أى أبيّن لكم ما تحتاجون إليه من أمر دينكم . ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة . ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا ﴾ أى فى إبطال آياتنا . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ أى مغالبين مشاقّين؛ قاله ابن عباس . الفَرّاء : معاندين . وقال عبد الله بن الزبير : مثبّطين عن الإسلام . وقال

الأخفش : معاندين مسابقين . الزجاج : أى ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أن لا بعث ، وظنوا أن الله لا يقدر عليهم ؛ وقاله قتادة . وكذلك معنى قراءة ابن كثير وأبى عمرو « مُعَجِّزِين » بلا ألف مشدّدا . ويجوز أن يكون معناه أنهم يعجزون المؤمنين فى الإيمان بالنبيّ عليه السلام و بالآيات ؛ قاله السُّدِّى . وقيل : أى يَنْسُبون من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العجز ؛ كقولهم : جهّلته وفسّقته . ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿تَمَنَّى﴾ أى قرأ وتلا . و ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى قراءته وتلاوته . وقد تقدّم فى البقرة(١) . قال ابن عطية : وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ ولا مُحَدَّث » ذكره مَسْلمة بن القاسم بن عبد الله ، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس . قال مسلمة : فوجدنا المحدَّثين(٢) معتصمين بالنبوّة — على قراءة ابن عباس — لأنهم تكلموا بأمور عالية من أنباء الغيب خَطَرات ، ونطقوا بالحكمة الباطنة فأصابوا فيما تكلموا وعُصموا فيما نطقوا ؛ كعمر بن الخطاب فى قصة سارية(٣) ، وما تكلم به من البراهين العالية .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٥ طبعة ثانية . (٢) المحدثون (بفتح الدال وتشديدها) قال ابن الأثير : انهم الملهَمون ، والملهم هو الذى يلقَى فى نفسه الشىء فيخبر به حَدْسا وفراسة ، وهو نوع يختص به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر ؛ كأنهم حدّثوا بشىء فقالوه . (٣) هو سارية بن زنيم بن عبد الله . وكان من قصته أن عمر رضى الله عنه أمّره على جيش وسيّره الى فارس سنة ثلاث وعشرين ، فوقع فى خاطر سيدنا عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدوّ وهم فى بطن وادٍ وقد هموا بالهزيمة ، و بالقرب منهم جبل ، فقال فى أثناء خطبته : يا سارية ، الجبلَ الجبلَ ! ورفع صوته ، فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس الى الجبل وقاتلوا العدوّ من جانب واحد ، ففتح الله عليهم . (راجع ترجمته فى كتب الصحابة) .

قلت : وقد ذكر هذا الخبر أبو بكر الأنبارىّ فى كتاب الردّ له ، وقد حدّثنى أبى رحمه الله حدّثنا علىّ بن حرب حدّثنا سفيان بن عُيينة عن عمرو عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نَبِىّ ولا مُحَدَّث» قال أبو بكر : فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن . والمحدَّث هو الذى يوحى إليه فى نومه؛ لأن رؤيا الأنبياء وَحْىٌ .

الثانيــة — قال العلماء : إن هـذه الاية مشكلة من جهتين : إحداهما — أن قوما يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين . وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال نبىّ حتى يكون مرسلا . والدليل على صحة هذا قوله تعالى : « وما أرسلنا مِن قبلِك مِن رسولٍ ولا نَبِىّ » فأوجب للنبىّ صلى الله عليه وسلم الرسالة . وأن معنى «نَبِىّ» أنبأ عن الله عز وجل ، ومعنى أنبأ عن الله عز وجل الإرسال بعينه . وقال الفراء : الرسول الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السـلام إليه عِيانا ، والنبىّ الذى تكون نبوّته إلهـاما أو مناما ؛ فكل رسول نبىٌّ وليس كلّ نبىّ رسولا . قال المهدوىّ : وهذا هو الصحيح ، أن كلّ رسـول نبىٌّ وليس كل نبىّ رسـولا . وكذا ذكر القاضى عِياض فى كتاب الشفا قال : والصحيح والذى عليه الجمّ الغفير أن كلّ رسول نبىّ وليس كل نبىّ رسولا ؛ واحتج بحديث أبى ذرّ ، وأن الرسل من الأنبياء ثلثمائة وثلاثة عشر ، أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم . والجهة الأخرى التى فيها الإشكال وهى :

الثالثــة — الأحاديث المروِيّة فى نزول هذه الآية ، وليس منها شىء يصح . وكان مما تموّه به الكفار على عوامّهم قولهم : حق الأنبيـاء ألا يعجِزوا عن شىء ، فلِم لا يأتينا محمد بالعذاب وقد بالغنا فى عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضا : ينبغى ألا يجرى عليهم سَهْوٌ وغلط ؛ فبين الرب سبحانه أنهم بَشَر ، والآتى بالعذاب هو الله تعـالى على ما يريد ، ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن يُحكم الله آياته ويَنْسخ حِيَل الشيطان . روى اللّيث عن يونس عن الزهرىّ عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فلمـا بلغ « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى »

سها فقال : " إن شفاعتهم تُرْتَجى " فلقيه المشركون والذين فى قلوبهم مرض فسلّموا عليه وفرحوا ؛ فقال : " إن ذلك من الشيطان " فأنزل الله تعالى « وما أرسلنا مِنْ قَبْلِك مِن رسولٍ ولا نَبِيٍّ » الآية . قال النحاس : وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم . وكذا حديث قتادة وزاد فيه "وإنهنّ لهنّ الغَرَانيق العُلَا" . وأقطعُ من هذا ما ذكره الواقدى عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال : سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة فإنه أخذ ترابا من الأرض فرفعه إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا . ويقال إنه أبو أُحَيْحة سعيد بن العاص ، حتى نزل جبريل عليه السلام فقرأ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : "ما جئتك به"! وأنزل الله «لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً» (١) . قال النحاس : وهذا حديث منكر منقطع ولا سيما من حديث الواقدىّ . وفى البخارىّ أن الذى أخذ قبضة من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بن خلف . وسيأتى تمام كلام النحاس على الحديث — إن شاء الله — آخر الباب . قال ابن عطية : وهذا الحديث الذى فيه هى الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ونحوها ، ولم يدخله البخارىّ ولا مسلم ، ولا ذكره فى علمى مصنّف مشهور ؛ بل يقتضى مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى ؛ ولا يعيّنون هذا السبب ولا غيره . ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ؛ بها وقعت الفتنة . ثم اختلف الناس فى صورة هذا الإلقاء ، فالذى فى التفاسير وهو مشهور القول أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الألفاظ على لسانه . وحدّثنى أبى رضى الله عنه أنه لَقِىَ بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم فى التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفارَ عند قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : «أفرأيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» ، وقرّب صوته من صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ، وقالوا : محمد قرأها . وقد روى نحو هذا التأويل عن الإمام أبى المعالى . وقيل : الذى ألقى شيطانُ الإنس ؛ كقوله عز وجل : « وَالْغَوْا فِيهِ » (٢) . قتادة : هو ما تلاه ناعسا .

(١) آية ٧٤ سورة الإسراء . (٢) آية ٢٦ سورة فصلت .

وقال القاضى عِياض فى كتاب الشفا بعد أن ذكر الدليل على صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا وغلطا : اِعلم أكرمك الله أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما - فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه . أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقةٌ ؛ وإنما أولِع به وبمثله المفسّرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقّفون من الصحف كل صحيح وسقيم . قال أبو بكر البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره ؛ إلا ما رواه شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ، الشك فى الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان بمكة ... وذكر القصة . ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ؛ فقد بيّن لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبّه عليه مع وقوع الشك فيه الذى ذكرناه ، الذى لا يُوثق به ولا حقيقةَ معه . وأما حديث الكلبيّ فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذِكره لقوة ضعفه وكذبه ؛ كما أشار إليه البزار رحمه الله . والذى منه فى الصحيح : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ «والنجم» بمكة فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ؛ هذا توهينه من طريق النقل .

وأما المأخذ الثانى فهو مبنيّ على تسليم الحديث لو صح . وقد أعاذنا الله من صحته ، ولكن على كل حال فقد أجاب أئمة المسلمين عنه بأجوبة ؛ منها الغَثّ والسَّمين . والذى يظهر ويترجح فى تأويله على تسليمه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربّه يرتّل القرآن ترتيلا ، ويفصّل الآى تفصيلا فى قراءته ؛ كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محاكيًا نغمة النبيّ صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار ، فظنّوها من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم وأشاعوها .

ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلهـا الله ، وتحققهم من حال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذم الأوثان وعَيْبها ما عُرِف منه ؛ فيكون ما روى من حزن النبيّ صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسببِ هذه الفتنة، وقد قال الله تعالى : «وما أرسلنا مِن قبلِك من رسولٍ ولا نبيّ » الآية (١) .

قلت : وهذا التأويل أحسن ما قيــل فى هذا . وقد قال سليمان بن حرب : إن « فى » بمعنى عند؛ أى ألقى الشيطان فى قلوب الكفار عنــد تلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ كقوله عز وجل : « وَلَبِثْتَ فِينَا (٢) » أى عنــدنا . وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيــه عن علمــاء الشرق ، و إليــه أشار القاضى أبو بكر بن العربى، وقال قبله : إن هــذه الآية نص فى غرضنا، دليل على صحة مذهبنا ، أصل فى براءة النبيّ صلى الله عليه وسلم ممـا ينسب إليه أنه قاله ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وما أرسلنا مِن قبلك من رســول ولا نبيّ إلا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشيطانُ فى أُمْنِيَّتِه» أى فى تلاوته . فأخبر الله تعالى أن من سنته فى رسله وسيرته فى أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولا زاد الشيطان فيه من قِبل نفسه كما يفعل سائر المعاصى . تقول : ألقيت فى الدار كذا وألقيت فى الكيس كذا ؛ فهــذا نص فى الشيطان أنه زاد فى الذى قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم، لا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تكلم به . ثم ذكر معنى كلام عياض إلى أن قال : وما هُدِى لهذا إلا الطبرى لجلالة قدره وصفاء فكره وسَعة باعه فى العلم ، وشِدّة ساعده فى النظر ؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض ، وصوّب على هذا المرمى، وقرطس بعدما ذكر فى ذلك روايات كثيرة كلها باطل لا أصل لها ، ولو شاء ربك لمـا رواها أحد ولا سطرها ، ولكنه فعال لمـا يريد .

وأما غيره من التأويلات فمـا حكاه قوم أن الشيطان أكرهه حتى قال كذا فهو محال ؛ إذ ليس للشيطان قدرة على سلب الإنسان الاختيار، قال الله تعالى مخبرا عنه : « وما كانَ لِيَ عليكم مِن سُلطانٍ إلا أن دَعَوْتُكم فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي (٣) » ؛ ولو كان للشيطان هذه القدرة لمـا بقى لأحد

(١) راجع كتاب الشفا للقاضى عياض جـ ٢ ص ١١٦ ، ١٢١ طبع الآستانة .
(٢) آية ١٨ سورة الشعراء . (٣) آية ٢٢ سورة إبراهيم .

من بنى آدم قوّة فى طاعة ، ومن توهّم أن للشيطان هذه القوّة فهو قول الثّنويّة والمجوس فى أن الخير من الله والشر من الشيطان . ومن قال جرى ذلك على لسانه سهوا قال : لا يبعد أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حفظه فجرى عند قراءة السورة ما كان فى حفظه سهوا ؛ وعلى هذا يجـوز السهو عليهم ولا يُقرّون عليه ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية تمهيدا لعذره وتسلية له ؛ لئلا يقال : إنه رجع عن بعض قراءته ، وبيّن أن مثل هذا جرى على الأنبياء سهوا ، والسهو إنمـا ينتفى عن الله تعالى ، وقد قال ابن عباس : إن شيطانا يقال له الأبيض كان قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورة جبريل عليه السلام وألقى فى قراءة النبىّ صلى الله عليه وسلم : تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لتُرْتَجَى . وهذا التأويل وإن كان أشبه ممـا قبله فالتأويل الأوّل عليه المعوّل ، فلا يُعدل عنه إلى غيره لاختيار العلماء المحققين إياه ، وضعفُ الحـديث مُغْنٍ عن كل تأويل ، والحمد لله . وممـا يدل على ضـعفه أيضا وتوهينه من الكتاب قولُه تعالى : « وإن كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ »(1) الآيتين ؛ فإنهما تردّان الخبر الذى رووْه ؛ لأن الله تعـالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبّته لكان يركن إليهـم . فمضمون هـذا ومفهومه أن الله تعـالى عَصَمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا ، وهم يروُون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال عليه الصلاة والسلام : آفتريت على الله وقلت مالم يقل . وهـذا ضـدّ مفهوم الآية ؛ وهى تضعّف الحديث لو صح ؛ فكيف ولا صحة له . وهذا مثل قوله تعالى : « ولولا فضلُ الله عليك ورحمتُه لَهَمّتْ طائفة منهم أن يُضلوك وما يُضلون إلا أنفُسَهم وما يَضُرُّونك من شىء »(2) . قال القُشَيْرِىّ : ولقد طالبته قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يُقبل بوجهه إليها ، ووعدوه بالإيمان به إن فعـل ذلك ، فما فعل ! ولا كان ليفعل ! قال آبن الأنبارى : ما قارب الرسول ولا رَكَن . وقال الزجاج : أى كادوا ، ودخلت إن واللام للتأكيد . وقـد قيل : إن معنى « تمنّى » حدّث ، لا « تلا » . روى عن علىّ بن أبى طلحة عن بن آعباس فى قوله عز وجل « إلا إذا تمنى » قال : إلا إذا حدّث « ألقى الشيطان فى أمنيته » قال : فى حديثه « فينْسَخُ

---

(1) آية ٧٣ سورة الاسراء . (2) آية ١١٣ سورة النساء .

اللهُ ما يُلْقِي الشيطانُ » قال : فيبطل الله ما يلق الشيطان . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأعلاه وأجله . وقد قال أحمـد بن محمد بن حنبل بمصر صحيفةً فى التفسير، رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصـدا ما كان كثيرا . والمعنى عليـه : أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كان إذا حدّث نفسه ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحِيْطة فيقول : لو سألتَ الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون؛ و يعلم الله عز وجل أن الصلاح فى غير ذلك ؛ فيبطل ما يلق الشـيطان كما قال ابن عباس رضى الله عنهما . وحكى الكسائى والفراء جميعا « تمنى » إذا حدّث نفسه؛ وهذا هو المعروف فى اللغة . وحكَيَا أيضا « تمنى » إذا تلا . وروى عن آبن عباس أيضا وقاله مجاهد والضحاك وغيرهما . وقال أبو الحسن بن مهدى : ليس هذا التمنى من القرآن والوحى فى شىء ، و إنمـا كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم إذا صفِرت يداه من المـال ، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال ، تمنّى الدنيا بقلبه ووسوسة الشيطان . وذكر المهدوِىّ عن آبن عباس أن المعنى : إذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه ؛ وهو اختيار الطبرى .

قلت : قوله تعـالى : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ الآية ، يردّ حديث النفس، وقد قال آبن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنمـا هو لألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة ؛ فالله أعلم . قال النحاس : ولو صح الحديث وآتصل إسناده لكان المعنى فيه صحيحا، و يكون معنى سها أسقط، ويكون تقديره: أفرأيتم اللّاتَ والعُزّى ؛ وتم الكلام، ثم أسقط (والغرانيق العلا) يعنى الملائكة (فإن شفاعتهم) يعود الضـمير على الملائكة . وأما من روى : فإنهن الغرانيق العلا ، ففى روايته أجوبة؛ منها أن يكون القول محذوفا كما تستعمل العرب فى أشياء كثيرة ، و يجوز أن يكون بغـير حذف، ويكون تو بيخا؛ لأن قبله « أفرأيتم » و يكون هذا احتجاجا عليهم ؛ فإن كان فى الصلاة فقـد كان الكلام مباحا فى الصلاة . وقد روى فى هذه القصة أنه كان مما يقرأ : أفرأيتم اللات والعُزّى . ومناة الثالثة الأخرى . والغرانقة العلا . وأن شفاعتهن لترتجى . روى معناه عن مجاهد . وقال الحسن : أراد بالغرانيق العلا الملائكة؛ و بهذا فسر الكلبىّ الغرانقة أنها الملائكة . وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون [أن] الأوثان والملائكة بنات

الله ، كما حكى الله تعالى عنهم ، وردّ عليهم فى هذه السورة بقوله « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى » فأنكر الله كل هذا من قولهم . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ؛ فلما تأوّله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ولبّس عليهم الشيطان بذلك ، نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللّتين وجد الشيطان بهما سبيلا للتلبيس ، كما نُسخ كثير من القرآن ، ورفعت تلاوته . قال القُشَيرى : وهـذا غير سديد ؛ لقوله « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » أى يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة . ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « عليم » بمـا أوحى إلى نبيـه صلى الله عليه وسـلم . « حكيم » فى خلقه .

قوله تعـالى : لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ أى ضلالة . ﴿ لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شرك ونفاق . ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فلا تلين لأمر الله تعـالى . قال الثعلبىّ : وفى الآية دليـل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بوسواس الشيطان أو عند شـغْل القلب حتى يغلَط ، ثم يُنَبَّهُ و يرجع إلى الصحيح ؛ وهو معنى قوله : « فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ » . ولكن إنمـا يكون الغلط على حسب ما يغلَط أحدنا ، فأما ما يضاف إليه من قولهم : تلك الغرانيق العلا ، فكذب على النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن فيه تعظيم الأصنام ، ولا يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ثم ينشد شعرا و يقول : غلطت وظننته قرآنا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أى الكافرين لفى خلاف وعصيان ومشاقّة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسـلم . وقد تقدّم فى « البقرة »(1) والحمد لله وحده .

قوله تعـالى : وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى من المؤمنين . وقيــل : أهل الكتاب . ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى أن الذى أحكم من آيات القــرآن هو ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى تخشع وتسكن . وقيل : تخلص . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرأ أبو حَيْوَة « وإن الله لهـادٍ الذين آمنوا » بالتنوين . ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى يثبتهم على الهـــداية .

قوله تعـالى : وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ يعنى فى شـك من القرآن ؛ قاله ابن جُريج . وغيره : من الدِّين ؛ وهو الصراط المستقيم . وقيــل : ممـا ألقى الشيطان على لسان محمد صلى الله عليه وسـلم ، ويقولون : ما باله ذكر الأصنام بخـير ثم ارتدّ عنها . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ « فى مُرْيَةٍ » بضم الميم . والكسر أعرف ؛ ذكره النحاس . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ أى القيامة . ﴿ بَغْتَـةً ﴾ أى فجأة . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُـمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال الضحاك : عذاب يوم لا ليـلة له وهو يوم القيامة . النحاس : سمى يوم القيامة عقيما لأنه ليس يَعْقُب بعــده يوما مثله ؛ وهو معنى قول الضحاك . والعقيم فى اللغة عبارة عمن لا يكون له ولد ؛ ولمـا كان الولد يكون بين الأبوين وكانت الأيام تتوالى قبلُ وبعدُ ، جعل الاتباع فيها بالبعدية كهيئة الولادة ، ولمـا لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم . وقال ابن عباس ومجاهــد وقتادة : المراد عذاب يوم بدر ، ومعنى عقيم لا مثـل له فى عِظمه ؛ لأن الملائكة قاتلت فيــه . ابن جُريج : لأنهم لم يُنظروا فيه إلى الليـل ، بل قتلوا قبـل المساء فصار يوما لا ليـلة له . وكذلك يكون معنى قول الضحاك أنه يوم القيامة ؛ لأنه لا ليلة له . وقيــل : لأنه لم يكن فيه رأفة ولا رحمــة ، وكان عقيما من كل خير ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ »[1] أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر ولا رحمة .

---

(١) آية ٤١ سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعنى يوم القيامة هو لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع . والملك هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور . ثم بيّن حكمه فقال : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ فِي جنّاتِ النعيم . وَالّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنَا فأولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قلت : وقد يحتمل أن تكون الإشارة بـ « يومئذٍ » ليوم بَدْر ، وقد حكم فيه بإهلاك الكافر وسعادة المؤمن ؛ وقد قال عليه السلام لعمر : " وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم " .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلا لهم وتشريفا على سائر الموتى .

وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مَظْعُون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس : من قُتل فى سبيل الله أفضلُ ممن مات حَتْف أنفه ؛ فنزلت هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم ، وأن الله يرزق جميعهم رزقا حسنا . وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل . وقد قال بعض أهل العلم : إن المقتول فى سبيل الله والميتَ فى سبيل الله شهيد ؛ ولكن للمقتول مَزِيّة ما أصابه فى ذات الله . وقال بعضهم : هما سواء ؛ واحتج بالآية ، وبقوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ

أَجْرُهُ عَلَى اللهِ » (١) ، وبحديث أم حَرام؛ فإنها صُرعت عن دابتها فماتت ولم تُقتل فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنت من الأولين"، وبقول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث عبد الله ابن عَتِيك : " من خرج من بيته مهاجرا فى سبيل الله فخرّ عن دابته فمات أو لدغته حية فمات أو مات حَتْفَ أنفه فقد وقع أجره على الله ومن مات قَعْصًا (٢) فقد استوجب المآب " . وذكر ابن المبارك عن فضالة بن عبيد فى حديث ذكر فيه رجلين أحدهما أصيب فى غَزاة بِمَنْجَنيق فمات والآخر مات هناك؛ فجلس فضالة عند الميت فقيل له : تركت الشهيد ولم تجلس عنده؟ فقال : ما أبالى من أىّ حفرتيهما بُعثت ؛ ثم تلا قوله تعالى : « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قُتِلوا أو ماتوا» الآية كلها . وقال سليمان بن عامر : كان فضالة بِرُودِس أميرا على الأرباع فخُرِج بجنازتى رجلين أحدهما قتيل والآخر متوفّى؛ فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته ؛ فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل! فوالذى نفسى بيده ما أبالى من أىّ حفرتيهما بُعثت ، اقرءوا قوله تعالى : « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا» . كذا ذكره الثعلبى فى تفسيره، وهو معنى ما ذكره ابن المبارك . واحتج من قال : إن للقتول زيادةَ فضل بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أىّ الجهاد أفضل ؟ قال : " من أُهَرِيق دمُه وعُقِر جواده " . وإذا كان من أهريق دمه وعُقر جواده أفضلَ الشهداء عُلم أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضول . قرأ ابن عامر وأهل الشام « قُتّلوا » بالتشديد على التكثير . الباقون بالتخفيف . ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴾ أى الجنان . قراءة أهل المدينة « مَدخلا » بفتح الميم ؛ أى دخولا . وضمها الباقون ، وقد مضى فى « سبحان » (٣) . ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : عليم بنياتهم ، حليم عن عقابهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (٦٠)

(١) آية ١٠٠ سورة النساء .
(٢) القعص : أن يضرب الإنسان فيموت مكانه . وأراد بوجوب المآب حسن المرجع بعد الموت .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣١٣

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع ؛ أى ذلك الأمر الذى قصصنا عليك . قال مقاتل : نزلت فى قوم من مشركى مكة لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم فقالوا : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فآحملوا عليهم ؛ فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم فى الشهر الحرام ؛ فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين؛ وحصل فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام شىء ؛ فنزلت هذه الآية . وقيل : نزلت فى قوم من المشركين ، مثّلوا بقوم من المسلمين قتلوهم يوم أُحُد فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله . فمعنى « من عاقب بمثل ما عوقب به » أى من جازى الظالم بمثل ما ظلمه؛ فسمّى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين فى الصورة ؛ فهو مثل « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »(١) . ومثل « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ »(٢) . وقد تقدم . ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ أى بالكلام والإزعاج من وطنه ؛ وذلك أن المشركين كذبوا نبيّهم وآذَوْا من آمن به وأخرجوه وأخرجوهم من مكة ، وظاهروا على إخراجهم . ﴿ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ أى لينصرنّ الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فإن الكفار بغوا عليهم . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أى عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتالهم فى الشهر الحرام وستر .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾ أى ذلك الذى قصصت عليك من نصر المظلوم هو بأنى أنا الذى أولج الليل فى النهار فلا يقدر أحد على ما أقدر عليه ؛ أى من قدر على هذا قدر على أن ينصر عبده . وقد مضى فى « آل عمران »(٣) معنى يولج الليل فى النهار . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع الأقوال ويبصر الأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا دبيب نملة إلا يعلمها ويسمعها ويبصرها .

---

(١) آية ٤٠ سورة الشورى . (٢) آية ١٩٤ سورة البقرة . (٣) راجع ج ٤ ص ٥٦

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أى ذو الحق ؛ فدينـه الحق وعبادته حق . والمؤمنون يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق . ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ أى الأصـنام التى لا استحقاق لهـا فى العبادات . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر « وأن ما تدعون » بالتـاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . الباقون باليـاء على الخـبر هنا وفى لقمان[1]، واختاره أبو عبيد . ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ ﴾ أى العالى على كل شىء بقدرته ، والعالى عن الأشباه والأنداد، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التى لا تليق بجلاله . ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ أى الموصوف بالعظمة والجلال وكبر الشأن . وقيل : الكبير ذو الكبرياء . والكبرياء عبارة عن كمال الذات ؛ أى له الوجود المطلق أبدا وأزلا ، فهو الأول القديم ، والآخر الباقى بعـد فنـاء خلقـه .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ دليل على كمال قدرته ؛ أى من قَدَر على هـذا قَدَر على إعادة الحياة بعـد الموت ؛ كما قال الله عز وجل : « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَـاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » . ومثله كثير . « فَتُصبِـحُ » ليس بجواب فيكون منصوبا، وإنمـا هو خبر عند الخليل وسيبويه . قال الخليـل : المعنى انْتَبِه ! أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا؛ كما قال :

أَلم تسأل الرَّبْع القَـوَاء فيَنْطِقُ * وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ[2]

---

(١) آية ٣٠ (٢) البيت لجميل بن عبد الله صاحب بثينة . والقواء (بفتح القاف) : القفر . والبيداء : القفر أيضا ، الذى يبيد من سلك فيـه . والسملق (بفتح السين وسكون الميم وفتح اللام) : الأرض التى لا تنبت ، وهى السهلة المستوية . (شواهد العينى) .

معناه قد سألته فنطق . وقيل آستفهام تحقيق ؛ أى قد رأيت ، فتأمل كيف تصبح ! أو عطف لأن المعنى ألم تر أن الله ينزل . وقال الفــراء : « ألم تر » خبر ؛ كما تقــول فى الكلام : اعلم أن الله عز وجل ينزل من السماء ماء . ﴿ فَتُصْبِـحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أى ذات خضرة ؛ كما تقول : مُبْقِلة ومَسْبَعة ؛ أى ذات بقل وسباع . وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول المـاء بالنبات واستمرارها كذلك عادة . قال ابن عطية : و روى عن عكرمة أنه قال : هذا لايكون إلا بمكة وتهامة . ومعنى هذا : أنه أخذ قوله « فتصبِـح » مقصودا به صباح ليلة المطر ، وذهب إلى أن ذلك الآخضرار يتأخر فى سائر البـلاد ، وقد شاهدت هـذا [فى] السوس الأقصى نزل المطر ليلا بعد قحط أصبحت تلك الأرض الرملة التى نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف رقيق . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : « خبير » بما ينطوى عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر . « لطيف » بأرزاق عباده . وقيـل : لطيف باستخراج النبات من الأرض ، خبير بحاجتهم وفاقتهم .

قوله تعـالى : لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُـوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَهُ ما فِى السَّـمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا ؛ وكلٌّ محتـاج إلى تدبيره و إتقانه . ﴿ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فلا يحتاج إلى شيء ، وهو المحمود فى كل حال .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَـكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّـمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعـمة أخرى ، فأخبر أنه سخر لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار . ﴿ وَالْفُلْكَ ﴾ أى وسخّر لكم الفلك فى حال جريها . وقرأ أبو عبد الرحمن الأعرج « والفُلْكُ » رفعا على الابتداء وما بعده خبره .

الباقون بالنصب نسقا على قوله « ما فى الأرض » . ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ ﴾ أى كراهية أن تقع . وقال الكوفيون : لئلا تقع . وإمساكه لها خلق السكون فيها حالا بعد حال . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أى إلا بإذن الله لهـا بالوقوع ، فتقع بإذنه ، أى بإرادته وبحيلته . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى فى هذه الأشياء التى سخرها لهم .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ﴾ أى بعد أن كنتم نُطَفًا . ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم . ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى للحساب والثواب والعقاب . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أى لجحود لمـا ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيتـه . قال ابن عباس : يريد الأسـود ابن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعةً من المشركين . وقيل : إنمـا قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كفر النعم؛ كما قال تعالى : «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ»(١) .

قوله تعـالى : لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ أى شرعا . ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أى عاملون به . ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ ﴾ أى لا ينازعك أحد منهم فيما يُشرع لأمتك ؛ فقد كانت الشرائع فى كل عصر . وروت فـرقة أن هـذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار فى أمر الذبائح ، وقولهم للؤمنين : تأكلون ماذبحتم ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة ، فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه ممـا قتلتم أنتم بسكاكينكم ؛ فنزلت الآية بسبب هـذه المنازعة . وقـد مضى هـذا فى « الأنعام »(٢) والحمـد لله . وقد تقدم فى هذه السورة ما للعلماء فى قوله تعالى « مَنْسَكًا »(٣) . وقوله : « هم ناسكوه » يعطى أن المَنْسك المصدر، ولو كان الموضع لقال هم ناسكون فيه .

(١) آية ١٣ سورة سبأ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٧٢ (٣) ص ٥٨ من هذا الجزء .

وقال الزجاج : « فلا يُنازِعُنَّك فى الأمر » أى فلا يجادلنّك ؛ ودلّ على هذا « وإن جَادَلُوكَ » . ويقال : قد نازعوه فكيف قال فلا ينازعنك ؛ فالجواب أن المعنى فلا تنازعهم أنت . نزلت الآية قبل الأمر بالقتال ، تقول : لا يضاربنك فلان فلا تضاربه أنت ؛ فيجرى هذا فى باب المفاعلة . ولا يقال : لا يضربنك زيد وأنت تريد لا تضرب زيدا . وقرأ أبو مِجْلَز « فلا يَنْزِعنّك فى الأمر » أى لا يستخلفنك ولا يغلبنك عن دينك . وقراءة الجماعة من المنازعة . ولفظ النهى فى القراءتين للكفار ، والمراد النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَٱدْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى توحيده ودينه والإيمان به . ﴿ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى ﴾ أى دين . ﴿ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى قويم لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى : وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ ﴾ أى خاصموك يا محمد ؛ يريد مشركى مكة . ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يريد من تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس . وقال مُقاتل : هذه الآية نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وهو فى السماء السابعة لما رأى من آيات ربّه الكبرى ؛ فأوحى الله إليه « وإنْ جادلوك » بالباطل فدافعهم بقولك « الله أعلم بما تعملون » من الكفر والتكذيب ؛ فأمره الله تعالى بالإعراض عن مماراتهم صيانةً له عن الاشتغال بتعنّتهم ؛ ولا جواب لصاحب العِناد . ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يريد بين النبىّ صلى الله عليه وسلم وقومه . ﴿ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ يريد فى خلافكم آياتى ، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل .

مسألة — فى هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علّمه الله عبادَه فى الردّ على من جادل تعنّتًا ومِراء ألا يجاب ولا يناظر ويُدفع بهذا القول الذى علمه الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بالسيف ؛ يعنى السكوت عن مخالفه والاكتفاء بقوله : « الله يحكم بينكم » .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٧٠)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى و إذ قد علمت يا محمد هذا وأيقنت فآعلم أنه يعلم أيضا ما أنتم مختلفون فيه فهو يحكم بينكم . وقد قيل : إنه استفهام تقرير للغير . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ أى كلّ ما يجرى فى العالَم فهو مكتوب عند الله فى أم الكتاب . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أى إن الفصل بين المختلفين على الله يسير . وقيل : المعنى إن كتاب القلم الذى أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة على الله يسير .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (٧١)

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ أى حجة و برهانا . وقد تقدم فى « آل عمران »[1] . ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٧٢)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ أى الغضب والعبوس . ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ ﴾ أى يبطشون . والسطوة شدّة البطش ؛ يقال : سطا به يسطو إذا بطش به ؛ كان ذلك بضرب أو بشتم ، وسطا

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٢

عليه . ﴿ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ . وقال ابن عباس : يسطون يبسطون إليهم أيديهم . محمد بن كعب : أى يقعون بهم . الضحاك : أى يأخذونهم أخذًا باليد ، والمعنى واحد . وأصل السَّطْو القهر . والله ذو سطوات ؛ أى أخذات شديدة . ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ ﴾ أى أكره من هذا القرآن الذى تسمعون هو النار ؛ فكأنهم قالوا : ما الذى هو شر ؛ فقيل هو النار . وقيل : أى هل أنبئكم بشر مما يلحق تالى القرآن منكم هو النار ؛ فيكون هذا وعيدا لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن . ويجوز فى « النار » الرفع والنصب والخفض ؛ فالرفع على هو النار، أو هى النار . والنصب بمعنى أعنى ، أو على إضمار فعل مثل الثانى ، أو يكون محمولا على المعنى ؛ أى أعرفكم بشر من ذلكم النار . والخفض على البدل . ﴿ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى القيامة . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى الموضع الذى يصيرون إليه وهو النار .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ هذا متصل بقوله : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا » . وإنما قال « ضُرِبَ مَثَلٌ » لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقربُ إلى أفهامهم . فإن قيل : فأين المثل المضروب ؛ ففيه وجهان : الأول — قال الأخفش : ليس ثَمّ مثل ، وإنما المعنى ضربوا لى مثلا فٱستمعوا قولهم ؛ يعنى أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره ؛ فكأنه قال جعلوا لى شبيها فى عبادتى فٱستمعوا خبر هذا الشبه . الثانى — قول القُتَبِىّ : وأن المعنى يأيها الناس، مَثَلُ من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا وإن سلبها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه . وقال النحاس : المعنى ضرب الله عز وجل ما يُعبد من دونه مثلا ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ؛ أى بيّن الله لكم شبها

ولمعبودكم . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قراءة العامة « تدعون » بالتاء . وقرأ السُّلَمِيّ وأبو العالية ويعقوب « يدعون » باليـاء على الخبر . والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله ، وكانت حول الكعبة ، وهي ثلثمائة وستون صنما . وقيل : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عز وجل . وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى؛ والأول أصوب . ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً ﴾ الذباب اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أذبة والكثير ذِبّان ؛ على مثل غُراب وأغْرِبة وغِرْبان؛ وسُمّيَ به لكثرة حركته . الجوهري : والذباب معروف الواحدة ذُبابة ، ولا تقل ذِبّانة . والمِذَبّة ما يُذَبّ به الذباب . وذُبَاب أسنان الإبل حدّها . وذُباب السيف طَرَفه الذي يضرب به . وذُباب العين إنسانها . والذُّبَابَة البقية من الدَّين . وذَبّب النهـار إذا لم يبق منـه إلا بقية . والتذبذب التحرك . والذَّبْذَبَة نَوْس الشيء المعلّق في الهواء . والذَّبْذَب الذكر لتردّده . وفي الحديث "مَن وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبِه". [وهذا مما لم يذكره ، أعني قوله : وفي الحـديث][(1)] . ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ التخليص . قال ابن عبـاس : كانوا يَطْلُون أصنامهم بالزّعفران فتجفّ فيأتي فيختلسه . وقال السُّـدّي : كانوا يجعلون للأصـنام طعاما فيقع عليه الذباب فيأكله . ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ قيـل : الطالب الآلهةُ والمطلوب الذباب . وقيل بالعكس . وقيل : الطالب عابدُ الصنم والمطلوبُ الصنم ؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه، والصنم المطلوب إليه . وقد قيل : «وإنْ يَسْلُبْهم الذّبابُ شيئا» راجع إلى ألمه في قرص أبدانهم حتى يسلبهم الصبر لها والوقار معها . وخصّ الذباب لأربعـة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته؛ فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيّته فكيف يجـوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين . وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

قوله تعـالى : مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

(١) ما بين المربعين غير واضح المعنى . وما نقله المؤلف رحمه الله عن الجوهري مذكور كله في الصحاح الى قوله : « ... شر ذبذبه » .

قوله تعـالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى ما عظّموه حق عظمته ؛ حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له . وقد مضى فى « الأنعام »(١) . ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ تقدّم .

قوله تعـالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ ختم الســورة بأن الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة ؛ أى ليس بعثه محمدا أمرا بِدعيًّا . وقيل : إن الوليد بن المغيرة قال : أو أنزل عليه الذكر من بيننا ؛ فنزلت الآية . وأخبر أن الاختيار إليه سبحانه وتعالى . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال عباده ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته . ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يريد ما قدموا . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يريد ما خلفوا؛ مثل قوله فى يس : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا »(٢) يريد ما بين أيديهم « وآثارهم » يريد ما خلفوا . ﴿ وإلى اللهِ ترجع الأمور ﴾ .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ تقدّم فى أوّل الســورة أنها فضلت بسجدتين، وهذه الســجدة الثانية لم يرها مالك وأبو حنيفــة من العــزائم؛ لأنه قرن الركوع بالسجود، وأن المراد بهـا الصلاةُ المفروضة ؛ وخصّ الركوع والسجود تشريفا للصلاة . وقد مضى القول فى الركوع والسجود مبيّنًا فى «البقرة»(٣) والحمد لله وحده .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى امتثلوا أمره . ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ نَدْب فيما عدا الواجبات التى صح وجوبها من غير هذا الموضع .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٦ (٢) آية ١٢ سورة يس . (٣) راجع جـ ١ ص ٣٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ قيل : عنى به جهاد الكفار . وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه ؛ أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردّوها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان في ردّ وسوسته ، والظَّلَمةَ في رد ظلمهم ، والكافرين في ردّ كفرهم . قال ابن عطية : وقال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى : «فآتقوا الله ما آستطعتم»(١) . وكذا قال هبة الله : إن قوله «حَقَّ جِهاده» وقولَه في الآية الأخرى : « حَقَّ تُقاتِه » منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هـذه الأوامر . ولا حاجة إلى تقدير النسخ ؛ فإن هذا هو المراد من أول الحكم ؛ لأن « حق جهاده » ما ارتفع عنه الحرج . وقد روى سعيد بن المسيّب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خيرُ دينكم أيْسَرُه" . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ ؛ لأنه واجب على الإنسان ، كما روى حَيْوَةُ بن شُرَيح يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل" . وكما روى أبو غالب عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم : أيّ الجهاد أفضل؟ عند الجمرة الأولى فلم يجبه ، ثم سأله عند الجمرة الثانيـة فلم يجبه ، ثم سأله عند جمرة العقبة ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أين السائل"؟ فقال : أنا ذا ؛ فقال عليه السلام : "كلمةُ عَدْل عند سلطان جائر" .

---

(١) آية ١٦ سورة التغابن .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ ﴾ أى اختاركم للذبّ عن دينه والتزام أمره؛ وهـذا تأكيد للأمر بالمجاهدة، أى وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى من ضِيق . وقد تقدّم فى « الأنعام »(١) . وهذه الآية تدخل فى كثير من الأحكام ؛ وهى مما خص الله بها هذه الأمة . روى معمر عن قتادة قال : أعطِيتْ هـذه الأمة ثلاثا لم يُعْطَها إلا نبىّ : كان يقال للنبىّ آذهب فلا حرج عليك ، وقيل لهذه الأمة : « وما جعل عليكم فى الدِّين من حرج » . والنبىّ شهيد على أمته، وقيل لهذه الأمة : « لتكونوا شُهَداءَ على الناس » . ويقال للنبىّ : سَلْ تُعْطَه، وقيل لهذه الأمة : « ادعونى أستجبْ لكم » .

الثانيـة — واختلف العلماء فى هذا الحَرَج الذى رفعه الله تعالى ؛ فقال عكرمة : هو ما أحِلّ من النساء مَثْنَى وثلاثَ ورُباع، وما ملكتْ يمينك . وقيل : المراد قصر الصلاة، والإفطارُ للمسافر ، وصلاةُ الإيماء لمن لا يقدر على غيره ، وَحطُّ الجهاد عن الأعمى والأعرج والمريض والعَدِيم الذى لا يجد ما ينفق فى غَزْوه، والغَرِيم ومن له والدان، وحَطّ الإصْر الذى كان على بنى إسرائيل . وقد مضى تفصيل أكثر هذه الأشياء(٢) . وروى عن ابن عباس والحسن البصرى أن هذا فى تقديم الأهِلّة وتأخيرها فى الفطر والأضحى والصوم ؛ فإذا أخطأت الجماعة هلال ذى الحجة فوقفوا قبل يوم عرفة بيوم أو وقفوا يوم النحر أجزأهم، على خلاف فيه بيناه فى كتاب المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه . وما ذكرناه هو الصحيح فى الباب . وكذلك الفطر والأضحى ؛ لمـا رواه حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن المُنْكَدِر عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فِطركم يوم تُفْطِرون وأضحاكم يوم تضحون " . خرجه أبو داود والدَّارَقُطْنِىّ ، ولفظه ما ذكرناه . والمعنى : باجتهادكم من غير حرج يلحقكم . وقد روى الأئمة أنه عليه السلام سئل يوم النحر عن أشياء ، فمـا يسئل عن

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٠ (٢) راجع جـ ٣ ص ٤٣٠ ، جـ ٧ ص ٣٠٠

أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم الأمور بعضها قبل بعض وأشباهها إلا قال فيها : " افعل ولا حرج " .

الثالثــة ــ قال العلماء : رفع الحَرَج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السلّابة والسُّرّاق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدّين ، وليس فى الشرع أعظم حرجا من إلزام ثبوت رجل لاثنين فى سبيل الله تعالى ؛ ومع صحة اليقين وجودة العزم ليس بحرج .

قوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ قال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم . الفرّاء : انتصب على تقدير حذف الكاف ، كأنه قال كَمِلّة . وقيل : المعنى وافعلوا الخير فعل أبيكم ؛ فأقام الفعل مقام الملة . و إبراهيم هو أبو العرب قاطبة . وقيل : الخطاب لجميع المسلمين ، و إن لم يكن الكل من ولده ؛ لأن حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد . ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال ابن زيد والحسن : « هو » راجع إلى إبراهيم ؛ والمعنى : هو سماكم المسلمين من قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ أى وفى حكمه أن من اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم فهو مسلم . قال ابن زيد : وهو معنى قوله : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ[(١)] » . قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول عظماء الأمة . روى عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : سماكم الله عز وجل المسلمين من قبلُ ، أى فى الكتب المتقدمة وفى هذا القرآن ؛ قاله مجاهد وغيره . ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أى بتبليغه إياكم . ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أن رسلهم قد بلّغتهم ؛ كما تقدّم فى « البقرة[(٢)] » . ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ[(٣)] ﴾ تقدّم مستوفًى والحمد لله .

---

(١) آية ١٢٨ سورة البقرة .　　(٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٦٤ ، ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٤ ص ١٥٦

سـورة المؤمنون

مكية كلها فى قول الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ (٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١) ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ روى البَيْهَقِيّ من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لما خلق الله جنة عَدْن وغرس أشجارها بيده قال لها تكلّمى فقالت قد أفلح المؤمنون " . وروى النّسائيّ عن عبد الله بن السائب قال : حضرتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فصلّى فى قِبَل الكعبة، فخلع نعليه فوضعهما عن يساره فٱفتتح سورة المؤمنين، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى عليهما السلام أخذته سَعْلة فركع . خرجه مسلم بمعناه . وفى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحى سُمع عند وجهه كدَوِيّ النحل؛ وأنزل عليه يوما فمكثنا ساعةً فسُرِّىَ عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال : " اللّهمّ زِدْنا ولا تنقصنا وارضنا وٱرض عنّا — ثم قال —

أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة — ثم قرأ — قد أفلح المؤمنون " حتى ختم عشر آيات ؛ صححه ابن العربي . وقال النحاس : معنى " من أقامهن " من أقام عليهن ولم يخالف ما فيهن؛ كما تقول : فلان يقوم بعمله . ثم نزل بعد هذه الآيات فرض الوضوء والحج فدخل معهن . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « قد أُفْلِحَ المؤمنون » بضم الألف على الفعل المجهول؛ أى أُبْقُوا فى الثواب والخير . وقد مضى فى أول « البقرة »[1] معنى الفلاح لغةً ومعنى ، والحمد لله وحده .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ روى المُعْتَمِر عن خالد عن محمد بن سِيرِين قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينظر إلى السماء فى الصلاة؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ينظر حيث يسجد . وفى رواية هُشيم : كان المسلمون يلتفتون فى الصلاة وينظرون حتى أنزل الله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ؛ فأقبلوا على صلاتهم وجعلوا ينظرون أمامهم . وقد تقدم ما للعلماء فى حكم المصلّى إلى حيث ينظر فى « البقرة » عند قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحرام »[2] . وتقدم أيضا معنى الخشوع لغة ومعنى فى البقرة أيضا عند قوله تعالى : « وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »[3] . والخشوع محله القلب ؛ فإذا خشع خشعت الجوارح كلّها لخشوعه ؛ إذ هو مَلِكُها ، حسبما بيّنّاه أول البقرة . وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها يهاب الرحمنَ أن يمدّ بصره إلى شىء وأن يحدّث نفسه بشىء من الدنيا . وقال عطاء : هو ألّا يعبث بشىء من جسده فى الصلاة . وأبصر النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه " . وقال أبو ذرّ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم . " إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى " . رواه الترمذى . وقال الشاعر :

(١) راجع ج ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع ج ٢ ص ١٥٨ طبعة ثانية .
(٣) راجع ج ١ ص ٣٧٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

ألَا فى الصلاة الخيرُ والفضل أجمعُ * لأن بها الآرابَ(١) لله تخضــعُ
وأوّلُ فرضٍ من شريعة ديننـا * وآخِر ما يبقى إذا الدِّين يُرفع
فمــن قام للتكبير لاقته رحمــة * وكان كعبدٍ بابَ مولاه يَقْــرَعُ
وصــار لربّ العرش حين صــلاتِه * نَجِيًّـا فيَا طُوباه لو كان يخشــع

و روى أبو عمر أن الجَوْنِيّ قال : قيل لعائشــة مَا كان خُلُق رسول الله صلّى الله عليه وسلم ؟ قالت : أتقرءون ســورة المؤمنين ؟ قيــل نعم . قالت : اقرءوا ؛ فقرئ عليها « قــد أفلح المؤمنون — حتى بلغ — يحافظون » . وروى النَّسائىّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلحظ فى صلاته يمينا وشمالا ، ولا يلوى عنقه خلف ظهره . وقال كعب بن مالك فى حديثــه الطويل : ثم أصلى قريبا منــه — يعنى من النبىّ صلى الله عليه وســلم — وأسارقه النظر ، فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىّ و إذا التفتّ نحوه أعرض عنى ... الحديث ؛ ولم يأمره بإعادة .

الثالثــة — اختلف الناس فى الخشوع ، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين . والصحيح الأول، ومحله القلب ، وهو أول علم يرفع من الناس ؛ قاله عُبادة بن الصامت ، رواه الترمذى من حديث جُبــير بن نُفير عن أبى الدرداء، وقال : هذا حديث حسن غريب . وقد خرجه النّسائى من حديث جبير بن نفير أيضا عن عوف بن مالك الأشجعِىّ من طريق صحيحة . قال أبو عيسى : ومعاويَةُ(٢) بن صالح ثقة عنــد أهل الحديث ، ولا نعلم أحدا تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القطّان .

قلت : معاوية بن صالح أبو عمــرو و يقال أبو عمر الحضرمى الحمصى قاضى الأندلس ، سئل عنه أبو حاتم الرازى فقال : صالح الحــديث ، يُكتب حديثــه ولا يحتج به . واختلف فيه قول يحيى بن معين ، ووثّقه عبد الرحمن بن مهدى وأحمد بن حنبل وأبو زُرْعة الرازى ، واحتج به مســلم فى صحيحه . وتقدم فى « البقرة » معنى اللغو والزكاة فلا معنى للإعادة(٣) . وقال

(١) الآراب : جمع الإرب (بكسر فسكون) وهو العضو. (٢) هو أحد رجال سند الحديث المتقدم .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٤٣ ، جـ ٣ ص ٩٩

الضحاك : إن اللغو هنا الشرك . وقال الحسن : إنه المعاصي كلها . فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال : هو الشرك ؛ وقولُ من قال هو الغناء ؛ كما روى مالك بن أنس عن محمد ابن المُنْكَدِر، على ما يأتي فى « لُقْمان » بيانه . ومعنى « فاعلون » أى مؤدّون ؛ وهى فصيحة ، وقد جاءت فى كلام العرب . قال أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

المطعمون الطعام فى السنة الأزْ * مـة والفاعلون للزّكواتِ

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ قال ابن العربى : « من غريب القرآن أن هـذه الآيات العشر عامّةٌ فى الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التى هى محتملة لهم فإنها عامة فيهم، إلا قوله «والذين هم لفروجهم حافظون» فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات؛ بدليل قوله : «إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم». وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخر كآيات الإحصان عموما وخصوصا وغير ذلك من الأدلّة » .

قلت : وعلى هذا التأويل فى الآية فلا يحلّ لآمرأة أن يطأها مَن تملكه إجماعا من العلماء؛ لأنها غير داخلة فى الآية ، ولكنها لو أعتقته بعد مِلْكها له جاز له أن يتزوجها كما يجوز لغيره عند الجمهور . وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ أنها لو أعتقته حين ملكته كانا على نكاحهما . قال أبو عمر : ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار؛ لأن تملّكها عندهم يبطل النكاح بينهما ، وليس ذلك بطلاق وإنما هو فسخ للنكاح ؛ وأنها لو أعتقته بعد ملكها له لم يراجعها إلا بنكاح جديد ولو كانت فى عدّة منه .

الخامســة ــ قال محمد بن عبد الحكم : سمعت حَرْمَلة بن عبد العزيز قال : سألت مالكا عن الرجل يَجْلِد عُمَيرة ، فتلا هـذه الآية « والذين هم لفروجهم حافظون ــ إلى قوله ــ العادون » . وهذا لأنهم يَكْنُون عن الذّكَر بعُمَيْرة؛ وفيه يقول الشاعر :

إذا حَلَلْتَ بوادٍ لا أنيس به * فآجلد عُمَيرة لا داءٌ ولا حَرَجُ

ويسميه أهـل العراق الاستمناء،وهو استفعال من المَنِيّ . وأحمـد بن حنبل على ورعه يجوّزه ، ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة؛ أصله القَصْد والحجامة . وعامة

العلماء على تحريمه . وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه، وهى معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قِيلة ، و ياليتها لم تُقَل ؛ ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يَعْرِض عنها لدناءتها . فإن قيل : إنها خير من نكاح الأَمَة ؛ قلنا : نكاح الأمة ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا ، وإن كان قد قال به قائل أيضا، ولكن الاستمناء ضعيف فى الدليل عارٌ بالرجل الدنىء فكيف بالرجل الكبير .

السادسة — قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ قال الفَرّاء : أى من أزواجهم اللاتى أحل الله لهم لا يجاوزون . ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ فى موضع خفض معطوفة على « أزواجهم » و « ما » مصدرية . وهذا يقتضى تحريم الزنى وما قلناه من الاستمناء ونكاح المُتْعة؛ لأن المتمتَّع بها لا تجرى مجرى الزوجات ، لا ترث ولا تورث ، ولا يلحق به ولدها، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها ، وإنما يخرج بانقضاء المدّة التى عُقِدت عليها وصارت كالمستأجَرة . ابن العربى : إن قلنا إن نكاح المتعة جائز فهى زوجة إلى أجل ينطلق عليها اسم الزوجية . وإن قلنا بالحق الذى أجمعت عليه الأمة من تحريم نكاح المتعة لما كانت زوجة فلم تدخل فى الآية .

قلت : وفائدة هذا الخلاف هل يجب الحدّ ولا يلحق الولد كالزنى الصريح أو يدفع الحدّ للشبهة و يلحق الولد ؛ قولان لأصحابنا . وقد كان للمتعة فى التحليل والتحريم أحوال؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة ثم حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زَمَنَ خَيْبَر، ثم حللها فى غزاة الفتح، ثم حرمها بعدُ؛ قاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد من أصحابنا وغيرُه، وإليه أشار ابن العربى . وقد مضى فى « النساء »[(١)] القول فيها مستوفًى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ فسمّى من نكح ما لا يحل عاديا ، وأوجب عليه الحدّ لعدوانه ، واللائط عادٍ قرآنا ولغة ، بدليل قوله تعالى : « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » وكما تقدم فى «الأعراف»[(٢)] ؛ فوجب أن يقام الحدّ عليهم، وهذا ظاهر لا غبار عليه .

---

(١) راجع ج ٥ ص ١٢٩ (٢) راجع ج ٧ ص ٢٤٢ وما بعدها .

قلت : فيـه نظر ، ما لم يكن جاهلا او متأولا ، و إن كان الإجماع منعقدا على أن قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » خصّ به الرجال دون النساء ؛ فقــد روى مَعْمَر عن قتادة قال : تسرّرت امرأة غلامها ؛ فذُكر ذلك لعمر فسألها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحـلّ لى بِملك يمينى كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ؛ فٱستشار عمر فى رَجْمها أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأوّلتْ كتاب الله عزّ وجلّ على غير تأو يله ، لا رجم عليها . فقال عمر : لا جَرَم! والله لا أُحِلّك لحرّ بعده أبدا . عاقبها بذلك ودرأ الحدّ عنها ، وأمر العبد ألّا يقربها . وعن أبى بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته ٱمرأة بغلام لها وَضِيء فقالت : إنى استسررته فمنعنى بنو عمى عن ذلك ، و إنمـا أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ؛ فٱنْهَ عنى بنى عمى ؛ فقال عمر : أتزوّجتِ قبله ؟ قالت نعم ؛ قال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتــك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها . و « وَرَاءَ » بمعنى سِوى ، وهو مفعول بـ « ٱبْتَغَى » أى من طلب سـوى الأزواج والولائد المملوكة له . وقال الزجاج : أى فمن ابتغى ما بعد ذلك ؛ فمفعول الابتغاء محذوف ، و « وَرَاءَ » ظرف . و « ذَلِكَ » يشار به إلى كل مذكور مؤنثا كان أو مذكرا . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ﴾ أى المجاوزون الحدّ ؛ من عدا أى جاوز الحدّ وجازه .

الثامنــــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْـدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قرأ الجمهور « لأماناتهم » بالجمع . وابن كثير بالإفراد . والأمانة والعهد يجمع كلّ ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا . وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيدَ وغيرَ ذلك ؛ وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهــد ، وكل عهــد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد .

التاســـعة ـــ قرأ الجمهور « صَلَوَاتِهِمْ » وحمزة والكسائى « صلاتهم » بالإفراد ؛ وهذا الإفراد اسم جنس فهـو فى معنى الجميع . والمحافظة على الصــلاة إقامتُها والمبادرةُ إليها أوائلَ

أوقاتها ، و إتمام ركوعها وسجودها . وقد تقدم فى « البقرة » مستوفىً . ثم قال : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ أى من عمل بما ذكر فى هذه الآيات فهم الوارثون؛ أى يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكنا فى الجنة ومسكنا فى النار فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم و يرثون منازل الكفار ويجعل الكفار فى منازلهم فى النار" . خرجه ابن ماجه بمعناه . عن أبى هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار ورِث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: « أولئك هم الوارثون » " . إسناده صحيح . ويحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصولها دون غيرهم ، فهو اسم مستعار على الوجهين . والفردوس رَبْوَة الجنة وأوسطها وأفضلها . خرّجه الترمذىّ من حديث الرُّبَيِّع بنت النضر أم حارثة ، وقال: حديث حسن صحيح . وفى حديث مسلم "فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة" . قال أبو حاتم محمد بن حِبّان : قوله صلى الله عليه وسلم "فإنه أوسط الجنة" يريد أن الفردوس فى وسط الجنان فى العرض وهو أعلى الجنة؛ يريد فى الارتفاع . وهذا كله يصحح قول أبى هريرة : إن الفردوس جبل الجنة التى تتفجر منه أنهار الجنة . واللفظة فيما قال مجاهد : رُومية عُرّبت . وقيل : هى فارسية عربت . وقيل حبشية ؛ و إن ثبت ذلك فهو وِفاق بين اللغات . وقال الضحاك : هو عربىّ وهو الكَرْم ؛ والعرب تقول للكروم فراديس . ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فأنّث على معنى الجنة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الإنسان هنا آدم عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة وغيره، لأنه آستُلّ من الطين . ويجيء الضمير في قوله : « ثم جعلناه » عائدا على ابن آدم، وإن كان لم يُذكر لشهرة الأمر؛ فإن المعنى لا يصلح إلا له . نظير ذلك « حتى توارت بالحجاب »[1] . وقيل : المراد بالسلالة ابن آدم؛ قاله ابن عباس وغيره . والسلالة على هذا صفوة الماء، يعني المنيّ . والسلالة فُعالة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء؛ يقال : سللت الشعر من العجين، والسيف من الغِمد فآنسل؛ ومنه قوله :

* فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[2] *

فالنطفة سُلالة، والولد سَليل وسُلالة؛ عنى به الماء يُسَلّ من الظهر سَلًّا . قال الشاعر :

فجاءت به عَضْبَ الأَدِيمِ غَضَنْفَرًا * سُلالةَ فَرْجٍ كان غيرَ حَصِينِ[3]

وقال آخر :

وما هِنْدُ إلا مُهْرَةٌ عربيّة * سليلةُ أفراسٍ تجلّلها بَغْلُ[4]

وقوله « من طين » أي أن الأصل آدم وهو من طين .

قلت : أي من طين خالص؛ فأما ولده فهو من طين ومنيّ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام[5] . وقال الكلبيّ : السلالة الطين إذا عصرته انسلّ من بين أصابعك؛ فالذي يخرج هو السُّلالة .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ نُطْفَةً ﴾ قد مضى القول في النُّطْفة والعَلَقة والمُضْغة وما في ذلك من الأحكام في أول الحج[6]، والحمد لله على ذلك .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ آختلف الناس في الخلق الآخر؛ فقال ابن عباس والشَّعْبيّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد : هو نفخ الروح فيه بعد أن كان

---

(١) آية ٣٢ سورة ص .　(٢) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس . وصدره :

* وإن تك قد ساءتك مني خليقة *

(٣) البيت لحسان بن ثابت .　(٤) نسب صاحب لسان العرب هذا البيت لهند بنت النعمان (مادة سلل) . وتجللها : علاها . وقوله «بغل» قال ابن بري : وذكر بعضهم أنها تصحيف، وأن صوابه «نغل» بالنون وهو الخسيس من الناس والدواب؛ لأن البغل لا ينسل .　(٥) راجع ج ٦ ص ٣٨٧　(٦) راجع ص ٦ من هذا الجزء .

جمادا . وعن ابن عباس : خروجه إلى الدنيا . وقال قتادة عن فرقة : نبات شعره . الضحاك : خروج الأسنان ونباتُ الشعر . مجاهد : كمال شبابه؛ وروى عن ابن عمر . والصحيح أنه عام فى هذا وفى غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب لما سمع صدر الآية إلى قوله « خلقا آخر » قال فتبارك الله أحسن الخالقين؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هكذا أنزلت". وفى مسند الطَّيَالِسِيّ : ونزلت « ولقد خلقنا الإنسان من سُـلالة من طين » الآية؛ فلما نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقـين؛ فنزلت « تبارك الله أحسن الخالقين » . ويروى أن قائل ذلك معاذ بن جَبَل . وروى أن قائل ذلك عبد الله بن أبى سَرْح، وبهـذا السبب ارتد وقال : آتى بمثل ما يأتى محمد؛ وفيـه نزل « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ولم يُوحَ إليـه شَيْءٌ ومن قال سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » على ما تقدم بيانه فى «الأنعام»(١) . وقوله تعالى «تبارك» تفاعل من البركة . ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ أتقن الصانعين . يقال لمن صنع شيئا خَلَقه؛ ومنه قول الشاعر :

ولأنت تَفْرِى ما خلقتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى(٢)

وذهب بعض الناس إلى نفى هـذه اللفظة عن الناس وإنمـا يضاف الخلق إلى الله تعالى . وقال ابن جُرَيج : إنمـا قال « أحسن الخالقين » لأنه تعـالى قد أذن لعيسى عليه السـلام أن يخلق؛ واضطرب بعضهم فى ذلك . ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر فى معنى الصنع؛ وإنمـا هى منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم .

مسئلة(٣) — من هذه الآية قال ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا : الله أعلم؛ فقال عمر : ما تقول يابن عباس؟ فقـال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى خلق السموات سبعا والأرضين سبعا، وخلق ابن آدم من سبع وجعل رزقه فى سبع، فأراها

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩ (٢) البيت لزهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . والفرى : القطع .
(٣) ذكر المؤلف أن المسائل خمس، ولم يذكر إلا أربعا؛ ولعل هذه المسألة هى الخامسة .

فى ليلة سبع وعشرين . فقال عمر رضى الله عنه : أعجزكم(١) أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذى لم تجتمع شؤون رأسه . وهذا الحديث بطوله فى مسند ابن أبى شيبة . فأراد ابن عباس « خلق ابن آدم من سبع » بهذه الآية(٢) ، وبقوله « وجعل رزقه فى سبع » قوله « فأنبتنا فيها(٣) حبًّا . وعنبًا وقضبًا . وزيتونًا ونخلًا . وحدائق غلبًا . وفاكهة وأبًّا » الآية . السبع منها لابن آدم ، والأبّ للأنعام . والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء ؛ هذا قول . وقيل : القضب البقول لأنها تُقضَب؛ فهى رزق ابن آدم . وقيل : القضب والأبّ للأنعام، والستّ الباقية لابن آدم ، والسابعةُ هى للأنعام؛ إذ هى من أعظم رزق ابن آدم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ أى بعد الخلق والحياة . النحاس : ويقال فى هذا المعنى لمائتون . ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ قال أبو عبيدة : أى سبع سموات . وحكى عنه أنه يقال : طارقتُ الشىء ، أى جعلت بعضه فوق بعض ؛ فقيل للسموات طرائق لأن بعضها فوق بعض . والعرب تسمّى كلّ شىء فوق شىء طَريقة . وقيل : لأنها طرائق الملائكة . ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ قال بعض العلماء : أى عن خلق السماء . وقال أكثر المفسرين : أى عن الخلق كلهم من أن تسقط عليهم فتهلكهم .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وما كنا عن الخلق غافلين » أى فى القيام بمصالحه وحفظه ؛ وهو معنى الحىّ القيوم ؛ على ما تقدم(٤) .

---

(١) فى الدور المنثور : «أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام» . (٢) كذا فى الأصول ، وسياق الكلام يقتضى أن تكون العبارة هكذا : فأراد ابن عباس بقوله «خلق ابن آدم من سبع هذه الآية ...» الخ .
(٣) آية ٢٧ وما بعدها سورة عبس . (٤) راجع جـ ٣ ص ٢٧١

قوله تعالى : وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما آمتنّ به عليهم ؛ ومن أعظم المنن الماءُ الذى هو حياة الأبدان ونماء الحيوان . والماءُ المنزل من السماء على قسمين : هذا الذى ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه فى الأرض، وجعله فيها مختزنا لسقْى الناس يجدونه عند الحاجة إليه؛ وهو ماء الأنهار والعيون وما يستخرج من الآبار . وروى عن ابن عباس وغيره أنه إنما أراد الأنهار الأربعة : سَيْحان وجَيْحان ونيل مصر والفُرات . وقال مجاهد : ليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء . وهذا ليس على إطلاقه، وإلا فالأُجَاج ثابت فى الأرض، فيمكن أن يقيّد قوله بالماء العذب ، ولا محالة أن الله تعالى قد جعل فى الأرض ماء وأنزل من السماء ماء . وقد قيل : إن قوله « وأنزلنا من السماءِ ماء » إشارةٌ إلى الماء العذب، وأن أصله من البحر، رفعه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر إلى السماء، حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد؛ ثم أنزله إلى الأرض لِيُنتفع به، ولو كان الأمر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أى على مقدار مصلح، لأنه لو كثر أهلك؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ »(١) . ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ يعنى الماء المختزن . وهذا تهديد ووعيد؛ أى فى قدرتنا إذهابه وتغويره ، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ؛ وهذا كقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا — أى غائرا — فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ »(٢) .

الثالثة — ذكر النحاس : قرئ على أبى يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس عن جامع بن سوادة قال : حدّثنا سعيد بن سابق قال حدّثنا مسلمة بن علىّ عن مقاتل بن حيان

(١) آية ٢١ سورة الحجر . (٢) آية ٣٠ سورة الملك .

عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزل الله عز وجل من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سَيْحون وهو نهر الهند وجَيْحون وهو نهر بَلْخ ودِجْلة والفُرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فى أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها فى الأرض وجعل فيها منافع للناس فى أصناف معايشهم وذلك قوله جل ثناؤه : « وأنزلنا مِن السماءِ ماء بِقدرٍ فأسكناه فِى الأرضِ » فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى : « وإنا على ذهاب بهلقادرون » فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا ".

الرابعـــة — كل ما نزل من السماء مختزنا كان أو غير مختزن فهو طاهر مطهر يغتسل به ويتوضأ منه ؛ على ما يأتى فى «الفرقان»(١) بيانه .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَنْشَأْنَا﴾ أى جعلنا ذلك سبب النبات، وأوجدناه به وخلقناه . وذكر تعالى النخيل والأعناب لأنهـا ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهمـا ؛ قاله الطبرى . ولأنها أيضا أشرف الثمار ؛ فذكرها تشريفا لها وتنبيها عليها . ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أى فى الجنات . ﴿ فوَاكِهُ ﴾ من غير الرطب والعنب . ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصّة إذ فيها مراتب وأنواع ؛ والأول أعم لسائر الثمرات .

الثانيـــة — من حلف ألا يأكل فاكهة ؛ ففى الرواية عندنا يحنث بالباقِلّاء الخضراء وما أشبهها . وقال أبو حنيفة : لا يحنث بأكل القِثّـاء والخيار والجزر ؛ لأنهـا من البقول لا من الفاكهة . وكذلك الجوز واللوز والفستق ؛ لأن هذه الأشياء لا تُعـدّ من الفاكهة .

(١) فى قوله تعالى : «وهو الذى أرسل الرياح بُشْرًا بين يدى رحمته ... » آية ٤٨

و إن أكل تفاحا أو خوخا أو مشمشا أو تينا أو إجّاصا يحنث . وكذلك البِطّيخ ؛ لأن هذه الأشياء كلها تؤكل على جهة التفكّه قبل الطعام و بعده؛ فكانت فاكهة . وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البِطيخ اليابس لأن ذلك لا يؤكل إلا فى بعض البلدان . ولا يحنث بأكل البطيخ الهندى لأنه لا يعدّ من الفواكه . و إن أكل عنبا أو رمّانا أو رطبا لا يحنث . وخالفه صاحباه فقالا يحنث؛ لأن هذه الأشياء من أعز الفواكه، وتؤكل على وجه التنعم. والإفراد لها بالذكر فى كتاب الله عز وجل لكمال معانيها؛ كتخصيص جبريل وميكائيل من الملائكة . واحتج أبو حنيفة بأن قال : عطف هذه الأشياء على الفاكهة مرة فقال «فِيهِما فاكِهة ونخل ورمّان»(١) ومرة عطف الفاكهة على هذه الأشياء فقال : « وفاكِهةً وأبًّا » والمعطوف غير المعطوف عليه ، ولا يليق بالحكمة ذكر الشىء الواحد بلفظين مختلفين فى موضع المنّة . والعنب والرمان يُكتفى بهما فى بعض البلدان فلا يكون فاكهة؛ ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رطبه و يابسه، و يابسُ هذه الأشياء لا يعد فاكهة فكذلك رطبها .

قوله تعالى : وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً ﴾ شجرة عطف على جنات . وأجاز الفراء الرفع لأنه لم يظهر الفعل ، بمعنى وثَمّ شجرة ؛ ويريد بها شجرة الزيتون . وأفردها بالذكر لعظيم منافعها فى أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد، وقلّة تعاهدها بالسّقى والحفر وغير ذلك من المراعاة فى سائر الأشجار . ﴿ تَخْرُجُ ﴾ فى موضع الصفة . ﴿ مِنْ طُورِسَيْنَاءَ ﴾ أى أنبتها الله فى الأصل من هـذا الجبل الذى بارك الله فيه . وطورُ سَيْناء من أرض الشأم وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد تقدّم فى البقرة والأعراف(٢) . والطور الجبل فى كلام العرب . وقيل : هو مما عُرِّب من كلام العجم . وقال ابن زيد : هو جبل

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٤ ، جـ ٧ ص ٢٧٨

بيت المقدس ممدود من مصر إلى أيلة[1] . واختُلف فى سَيْناء ؛ فقال قتادة : معناه الحسَن ؛ ويلزم على هذا التأويل أن يُنَوَّن الطور على النعت . وقال مجاهد : معناه مبارك . وقال معمر عن فرقة : معناه شجر؛ ويلزمهم أن ينوّنوا الطور . وقال الجمهور : هو اسم الجبل؛ كما تقول جبل أُحُد . وعن مجاهد أيضا : سَيْناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده . وقال مقاتل : كل جبل يحمل الثمار فهو سيناء ؛ أى حسن . وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فَعْلاء، وفعلاء فى كلام العرب كثير؛ يمنع من الصرف فى المعرفة والنكرة؛ لأن فى آخرها ألف التأنيث ، وألفُ التأنيث ملازمة لما هى فيه، وليس فى الكلام فِعلاء، ولكن من قرأ سِيناء بكسر السين جعله فِعلالا؛ فالهمزة فيه كهمزة حِرباء ، ولم يصرف فى هذه الآية لأنه جعل آسم بقعة . وزعم الأخفش أنه آسم أعجمىّ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ قرأ الجمهور « تَنبت » بفتح التاء وضم الباء، والتقدير : تنبت ومعها الدهن ؛ كما تقول : خرج زيد بسلاحه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء . واختلف فى التقدير على هذه القراءة؛ فقال أبو علىّ الفارسى: التقدير تنبت جناها ومعه الدهن؛ فالمفعول محذوف . وقيل : الباء زائدة؛ مثل « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » وهذا مذهب أبى عبيدة . وقال الشاعر :

* نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج *

وقال آخر :

هنّ الحرائر لا رَبّاتُ أَخْمِرة[2] * سود المحاجر لا يقرأن بالسُّوَرِ

ونحو هذا قاله أبو علىّ أيضا ؛ وقد تقدم . وقيل : نبت وأنبت بمعنًى ؛ فيكون المعنى كما مضى فى قراءة الجمهور، وهو مذهب الفراء وأبى إسحاق، ومنه قول زُهير :

* ... حتى إذا أنبت البَقْلُ *

---

(١) أيلة : تعرف اليوم باسم «العقبة» . (٢) كذا فى الأصول ولسان العرب مادة «سور» بالخاء المعجمة . وأورده صاحب خزانة الأدب بالحاء المهملة، قال : «والأحمرة جمع حمار (بالحاء المهملة) جمع قلة، وخص الحمير لأنها رُذال المال وشره ... وقد صحف الدماميني هذه الكلمة بالخاء المعجمة، وقال والأخمرة جمع خمار، وهو ما تغطى به المرأة رأسها» . (راجع الشاهد الخامس بعد السبعمائة من الخزانة) .

والأصمعى ينكر أنبت، ويتهم قصيدة زهير التى فيها :

رأيتُ ذوى الحاجاتِ حَوْلَ بيوتِهم * قَطِينًا بها حتى إذا أنبت البقـل

أى نبت . وقرأ الزُّهْرِى والحسن والأعرج «تُنْبَت بالدهن» برفع التاء ونصب الباء . قال ابن جِنّى والزجاج : هى باء الحال؛ أى تُنْبَت ومعها دهنها . وفى قراءة ابن مسعود : «تخرج بالدهن» وهى باء الحال . ٱبنُ دَرَسْتَوَيْه : الدهن المـاء اللين؛ تنبت من الإنبات . وقرأ زِرّ بن حُبَيْش «تُنْبِت — بضم التاء وكسر الباء — الدهنَ» بحذف الباء ونصبه . وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب «بالدهان» . والمراد من الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان، وهى من أركان النعم التى لاغنًى بالصحة عنها . ويدخل فى معنى الزيتون شجر الزيت كلّه على اختلافه بحسب الأقطار .

الثـالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾ قراءة الجمهور . وقرأت فرقة «وأصباغ» بالجمع . وقرأ عامر بن عبد قيس «ومتاعا» ؛ ويراد به الزيت الذى يصطبغ به الأكل؛ يقال : صِبغ وصِباغ ؛ مثلُ دِبْغ ودِباغ ، ولِبس ولبـاس . وكل إدام يؤتدم به فهـو صِبْغ ؛ حكاه الهَرَوِىّ وغيره . وأصل الصِّبغ ما يلوّن به الثوب، وشبّه الإدام به لأن الخبز يلوّن بالصّبغ إذا غُمس فيــه . وقال مقاتل : الأُدْم الزيتون ، والدهن الزيت . وقــد جعل الله تعالى فى هذه الشجرة أُدْمًا ودُهْنًا ؛ فالصِّبغ على هذا الزيتونُ .

الرابعـــة — لا خلاف أن كل ما يصطبغ فيه من المـائعات كالزيت والسمن والعسل والرُّبّ والخلّ وغير ذلك من الأمراق أنه إدام . وقد نصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخل فقال : "نعم الإدام الخل" رواه تسعة من الصحابة، سبعة رجال وٱمرأتان . وممن رواه فى الصحيح جابر وعائشة وخارجة وعمر وابنه عبيد الله وابن عباس وأبو هريرة وسَمُرة بن جُنْدب وأنس وأم هانئ .

الخـامســـة — واختلف فيما كان جامدا كاللحم والتمر والزيتون وغير ذلك من الجوامد؛ فالجمهور أن ذلك كله إدام ؛ فمن حلف ألا يأ كل إداما فأ كل لحما أو جبنا حنِث . وقال أبو حنيفة : لا يحنث؛ وخالفه صاحباه . وقد روى عن أبى يوسف مثل قول أبى حنيفة . والبقل ليس بإدام فى قولهم جميعا . وعن الشافعى فى التمر وجهان؛ والمشهور أنه ليس بإدام لقوله فى التنبيه .

وقيل يحنث ؛ والصحيح أن هذا كله إدام . وقد روى أبو داود عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ كسرة من خبز شعير فوضع عليها تمرة فقال : "هذه إدام هذه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "سيّد إدام الدنيا والآخرة اللحم" . ذكره أبو عمر. وترجم البخارى (باب الإدام) وساق حديث عائشة ؛ ولأن الإدام مأخوذ من المؤادمة وهى الموافقة ، وهذه الأشياء توافق الخبز فكان إداما . وفى الحديث عنه عليه السلام : " ائتدموا ولو بالماء" . ولأبى حنيفة أن حقيقة الإدام الموافقة فى الآجتماع على وجه لايقبل الفصل؛ كالخل والزيت ونحوهما ، وأمّا اللحم والبيض وغيرهما لا يوافق الخبز بل يجاوزه كالبطيخ والتمر والعنب . والحاصل : أن كل ما يحتاج فى الأكل إلى موافقة الخبز كان إداما ، وكل مالا يحتاج و يؤكل على حدة لا يكون إداما ، والله أعلم .

السادسة — روى الترمذى من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كُلُوا الزيت وآدهنوا به فإنه من شجرة مباركة" . هذا حديث لايعرف إلا من حديث عبد الرزاق ، وكان يضطرب فيه ، فربما يذكر فيه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، و ربما رواه على الشك فقال : أحسبه عن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وربما قال : عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل : خُصّ الطّور بالزيتون لأن أوّل الزيتون نبت منها . وقيل : إن الزيتون أوّل شجرة نبتت فى الدنيا بعد الطوفان . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وإنَّ لَكُمْ فِى الأنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا ولَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ تقدّم القول فيهما فى « النحل »[1] والحمد لله . وفى هود[2] قصة السفينة ونوح، وركوب البحر فى غير موضع[3] .

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أى وعلى الأنعام فى البر . ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ فى البحر . ﴿تُحْمَلُونَ﴾ و إنما يحمل فى البر على الإبل فيجوز أن ترجع الكناية إلى بعض الأنعام . وروى أن رجلا ركب بقرة فى الزمان الأول فأنطقها الله تعالى معه فقالت : إنا لم نخلق لهذا ! و إنما خلقت للحرث .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ قرئ بالخفض ردًّا على اللفظ ، و بالرفع ردا على المعنى . وقد مضى فى «الأعراف»[4] .

قوله تعالى : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أى يسودكم و يشرف عليكم بأن يكون متبوعا ونحن له تبع . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أى لو شاء الله ألّا يعبد شىء سواه لجعل رسوله ملكا . ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أى بمثل دعوته . وقيل : ما سمعنا بمثله بشرا ؛ أى برسالة ربه . ﴿فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أى فى الأمم الماضية؛ قاله ابن عباس . والباء فى «بهذا» زائدة؛ أى ما سمعنا هذا كائنا فى آبائنا الأولين، ثم عطف بعضهم على بعض فقالوا ﴿ إِنْ هُوَ ﴾

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٢٤، ٦٨، ٨٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٣

يعنون نوحا ﴿ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي جنون لا يدرى ما يقول . ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي انتظروا موته . وقيل : حتى يستبين جنونه . وقال الفراء : ليس يراد بالحين هاهنا وقت بعينه ، إنما هو كقوله : دعه إلى يوم ما . فقال حين تمادوا على كفرهم : ﴿ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أي انتقم ممن لم يطعني ولم يسمع رسالتي . ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أي أرسلنا إليه رسلا من السماء ﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ على ما تقدم بيانه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ أي أدخل فيها واجعل فيها ؛ يقال : سلكته في كذا وأسلكته فيه إذا أدخلته . قال عبد مناف بن ربع الهذلي :

حتى إذا أسلكوهم في قُتائدةٍ * شَلًّا كما تَطرد الجمّالةُ الشُّرُدا[1]

﴿ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ قرأ حفص « مِن كلٍّ » بالتنوين ، الباقون بالإضافة ؛ وقد ذكر[2] . وقال الحسن : لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والذباب والدود فلم يحمل شيئا منها ، وإنما خرج من الطين . وقد مضى القول في السفينة والكلام فيها مستوفًى ، والحمد لله .

قوله تعالى : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ ﴾ أي علوت . ﴿ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ راكبين . ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي احمدوا الله على تخليصه إياكم . ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ومن الغرق . والحمد لله : كلمة كل شاكر لله . وقد مضى في الفاتحة بيانه .

قوله تعالى : وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا ﴾ قراءة العامة « مُنْزَلا » بضم الميم وفتح الزاي ، على المصدر الذي هو الإنزال ؛ أي أنزلني إنزالا مباركا . وقرأ زِرّ بن حُبيش وأبو بكر

---

(١) قتائدة : موضع بعينه . والشل : الطرد . والشرد : جمع شرود . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٤

عن عاصم والمفضل «مَنزِلا» بفتح الميم وكسر الزاى على الموضع؛ أى أنزلنى موضعا مباركا. الجوهرى: المَنْزَل (بفتح الميم والزاى) النزول وهو الحلول؛ تقول: نزلت نزولا ومَنْزَلا. وقال:

أأنْ ذكَّرتك الدارُ مَنْزَلَها جُمْلُ * بكيتَ فدمعُ العين منْحَدرٌ سَجْلُ

نصب «المَنْزَل» لأنه مصدر[(1)]. وأنزله غيره وآستنزله بمعنى. ونزله تنزيلا؛ والتنزيل أيضا الترتيب. قال ابن عباس ومجاهد: هذا حين خرج من السفينة؛ مثل قوله تعالى: «اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ»[(2)]. وقيل: حين دخلها؛ فعلى هذا يكون قوله «مباركا» يعنى بالسلامة والنجاة.

قلت: وبالجملة فالآية تعليم من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا هذا؛ بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلّموا قالوا. وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه كان إذا دخل المسجد قال: اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أى فى أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين. ﴿لَآيَاتٍ﴾ أى دلالات على كمال قدرة الله تعالى، وأنه ينصر أنبياءه ويهلك أعداءهم. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أى ما كنا إلا مبتلين الأمم قبلكم؛ أى مختبرين لهم بإرسال الرسل إليهم ليظهر المطيع والعاصى فيتبيّن للملائكة حالهم؛ لا أن يستجد الرب علما. وقيل: أى نعاملهم معاملة المختبرين. وقد تقدم هذا المعنى فى «البقرة»[(3)] وغيرها. وقيل: «وإن كنا» أى وقد كنا.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

---

(1) يلاحظ أن «منزلها» بالنصب مفعول ثان لذكرتك. و«جمل» فاعل بالمصدر، وهو المنزل.

(2) آية ٤٨ سورة هود. (3) راجع جـ ٢ ص ١٧٣ طبعة ثانية.

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك قوم نوح . ﴿ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ قيل : هم قوم عاد . ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعنى هودا ؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت فى إثر قوم نوح إلا عاد . وقيل : هم قوم ثمود «فأرسلنا فيهم رسولا» يعنى صالحا . قالوا : والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية « فأخذتهم الصيحة » ؛ نظيرها : « وأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ »(١) .

قلت : وممن أُخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدين قومُ شعيب ، فلا يبعد أن يكونوا هم ، والله أعلم . ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أى من عشيرتهم ، يعرفون مولده ومنشأه ليكون سكونهم إلى قوله أكثر .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ أى الأشراف والقادة والرؤساء . ﴿ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ يريد بالبعث والحساب . ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى وسّعنا عليهم نعم الدنيا حتى بَطِروا وصاروا يؤتون بالتُّرْفة ، وهى مثل التُّحْفة . ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب كأنتم . وزعم الفراء أن معنى « ويشرب مما تشربون » على حذف مِن ، أى مما تشربون منه ؛ وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يحتاج إلى حذف ألبتّة ؛ لأن « ما » إذا كان مصدرا لم يحتج إلى عائد ، فإن جعلتها بمعنى الذى حذفت المفعول ولم يحتج إلى إضمار من . ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ يريد لمغبونون بترككم آلهتكم واتّباعكم إياه

---

(١) آية ٦٧ سورة هود .

من غير فضيلة له عليكم . ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ أى مبعوثون من قبوركم . و « أنّ » الأولى فى موضع نصب بوقوع « يعدكم » عليها ، والثانية بدل منها ؛ هـذا مذهب سيبويه . والمعنى : أيعـدكم أنكم مخرجون إذا متم . قال الفـرّاء : وفى قراءة عبد الله «أيعدكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون» ؛ وهو كقولك : أظن إن خرجت أنك نادم . وذهب الفرّاء والجَرْمِىّ وأبو العباس المبرد إلى أن الثانيـة مكررة للتوكيد ، لمـا طال الكلام كان تكريرها حسنا . وقال الأخفش : المعنى أيعـدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما يحدث إخراجكم؛ فـ « أنّ» الثـانية فى موضع رفع بفعل مضمر؛ كما تقول : اليوم القتـال، فالمعنى اليوم يحدث القتال . وقال أبو إسحاق : ويجوز « أيعدكم إنكم إذا مِتم وكنتم ترابا وعظاما إنكم مخرجون » ؛ لأن معنى «أيعدكم» أيقول إنكم .

قوله تعـالى : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس : هى كلمة للبعد ؛ كأنهم قالوا بعيـد ما توعدون؛ أى أن هـذا لا يكون ما يذكر من البعث . وقال أبو علىّ : هى بمنزلة الفعل ؛ أى بَعُـد ما توعدون . وقال ابن الأنبارى : وفى « هيهات » عشر لغات : هيهاتَ لك (بفتح التاء) وهى قراءة الجماعة . وهيهاتِ لك (بخفض التاء) ؛ ويروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع . وهيهاتٍ لك (بالخفض والتنوين) يروى عن عيسى بن عمر . وهيهاتُ لك (برفع التاء)؛ الثعلبى: وبها قرأ نصر بن عاصم وأبو العالية . وهيهاتٌ لك (بالرفع والتنوين) وبها قرأ أبو حَيْوَة الشامى؛ ذكره الثعلبى أيضا . وهيهاتًا لك (بالنصب والتنوين) قال الأحوص :

تذكَّرت أياماً مضَيْن من الصِّبا * وهيهات هيهاتًا إليـك رجوعها

واللغة السابعة : أيهات أيهات؛ وأنشد الفرّاء :

فأيهاتَ أيهاتَ العقِيقُ ومن به * وأيهات خِلٌّ بالعقيق نواصـله

قال المهدوِىّ : وقرأ عيسى الهَمْدانى « هيهاتْ هيهاتْ » بالإسكان . قال ابن الأنبـارى : ومن العرب من يقول « أيهان » بالنون، ومنهم من يقول « أيها » بلا نون . وأنشد الفرّاء :

ومن دُونِيَ الأعيان والقِنْع كله * وكُتْمَانُ أيْهَا ما أشتَّ وأبْعَـدَا(١)

فهذه عشر لغات . فمن قال «هيهاتَ» بفتح التاء جعله مثـل أين وكيف . وقيـل : لأنهما أداتان مركّبتان مثل خمسة عشر و بَعْلَبَكَّ و رام هُرْمُز ، وتقف على الثاني بالهاء ؛ كما تقول : خمس عشره وسبع عشره . وقال الفرّاء : نصبُها كنصب ثُمَّتَ و رُبَّتَ ، ويجوز أن يكون الفتح إتباعا للألف والفتحة التي قبلها . ومن كسره جعله مثل أمسِ وهؤلاءِ . قال :

* وهيهاتِ هيهات إليـكَ رجوعها *

قال الكسائي : ومن كسر التاء وقف عليها بالهاء ؛ فيقول هيهاه . ومن نصبها وقف بالتاء و إن شاء بالهاء . ومن ضمها فعلى مثل منذُ وقطُّ وحيثُ . ومن قرأ «هيهات» بالتنوين فهو جمـعٌ ذهب به إلى التنكير ؛ كأنه قال بُعْـدًا بُعْدًا . وقيل : خُفِض ونوّن تشبيها بالأصوات بقولهم : غاقٍ وطاقٍ . وقال الأخفش : يجوز في « هيهات » أن تكون جمـاعة فتكون التاء التي فيها تاء الجميع التي للتأنيث . ومن قرأ « هيهاتٍ » جاز أن يكون أخلصها آسما معربا فيه معنى البعد ، ولم يجعله اسما للفعل فيبنيَه . وقيل : شبه التاء بتاء الجمع ، كقوله تعالى : « فإذا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ » . قال الفرّاء : وكأني أستحب الوقف على التـاء ؛ لأن من العرب من يخفض التـاء على كل حال ؛ فكأنها مثـل عرفات وملكوت وما أشـبه ذلك . وكان مجاهد وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء والكسائي وابن كثير يقفون عليها « هيهاه » بالهـاء . وقد روى عن أبي عمرو أيضا أنه كان يقف على «هيهات» بالتاء ، وعليه بقية القرّاء لأنها حرف . قال ابن الأنبـاري : من جعلهما حرفا واحدا لا يفرد أحدهمـا من الآخر ، وقف على الثاني بالهـاء ولم يقف على الأول ؛ فيقول : هيهات هيهاه ، كما يقول خمس عشره ، على ما تقدم . ومن نوى إفراد أحدهما من الآخر وقف فيهما جميعا بالهاء والتاء ؛ لأن أصل الهاء تاء .

قوله تعالى : إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾

---

(١) الأعيان والقنع وكتمان ، كلها مواضع . وفي بعض الأصول بدل « الأعيان » الأعيار . وكذا في اللسان مادة أيه . وفي مادة هيه «الأعراض» والكل مواضع .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ « هى » كناية عن الدنيا ؛ أى ما الحياة إلا ما نحن فيه لا الحياة الآخرة التى تعدنا بعد البعث . ﴿ نموت ونحيا ﴾ يقال : كيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقرّون بالبعث؟ ففى هذا أجوبة ؛ منها أن يكون المعنى : نكون مواتا، أى نُطَفا ثم نحيا فى الدنيا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى إن هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت؛ كما قال : « واسجدى واركعى » . وقيل : « نموت » يعنى الآباء، « ونحيا » يعنى الأولاد . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ بعد الموت .

قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يعنون الرسول . ﴿ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ ﴾ أى اختلق . ﴿ عَلَى اللهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ تقدم . ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ أى عن قليل ، و « ما » زائدة مؤكدة . ﴿ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ على كفرهم، واللام لام القسم ؛ أى والله ليصبحن . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ فى التفاسير : صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله تعالى بها فماتوا عن آخرهم . ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ أى هَلْكَى هامدين كغُثَاء السيل ، وهو ما يحمله من بالى الشجر من الحشيش والقصب مما يبس وتفتّت . ﴿ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . وقيل بُعْداً لهم من رحمة الله؛ وهو منصوب على المصدر . ومثله سَقْياً له ورَعْياً .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد هلاك هؤلاء . ﴿ قُرُونًا ﴾ أى أممـا . ﴿ آخَرِينَ ﴾ قال ابن عباس : يريد بنى إسرائيل ؛ وفى الكلام حذف : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم . ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ « من » صلة ؛ أى ما تسبق أمة الوقت المؤقت لها ولا تتأخره؛ مثل قوله تعالى : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ». ومعنى ﴿ تَتْرَى ﴾ تتواتر، و يتبع بعضهم بعضا ترغيبا وترهيبا . قال الأصمعي : واترتُ كتبي عليه أتبعت بعضها بعضا ؛ إلا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة . وقال غيره : المواترة التتابع بغير مهلة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « تترًى » بالتنوين على أنه مصـدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء ؛ كقولك : حَمْـدًا وشكرا ؛ فالوقف على هـذا على الألف المعوضة من التنوين . ويجوز أن يكون ملحقا بجعفر، فيكون مثل أَرْطًى وعَلْقًى ؛ كما قال :

* يَسْتَن فى عَلْقًى وفى مُكُورِ *

فإذا وقف على هـذا الوجه جازت الإمالة ، على أن ينوى الوقف على الألف الملحقة . وقرأ ورْشٌ بين اللفظتين؛ مثـل سكرى وغضبى ، وهو اسم جمع؛ مثـل شَتّى وأسرى . وأصـله وَتْرى من المواترة والتواتر، فقلبت الواو تاء؛ مثل التقوى والتّكلان وتُجاه ونحوها . وقيل : هو الوتر وهو الفرد ؛ فالمعنى أرسلناهم فَرْدًا فردا . النحاس : وعلى هذا يجوز « تِتْرًا » بكسر التاء الأولى ، وموضعها نصب على المصـدر؛ لأن معنى « ثم أرسلنا » واترنا . ويجوز أن يكون فى موضع الحـال أى متواترين . ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ أى بالهلاك . ﴿ وجعلناهم أَحَادِيثَ ﴾ جمع أحدوثة وهى ما يتحدّث به ؛ كأعاجيب جمع أعجوبة ، وهى ما يتعجّب منه . قال الأخفش : إنمـا يقال هذا فى الشر « جعلناهم أحاديث » ولا يقال فى الخير؛ كما يقال : صار فلان حديثا أى عِبرة ومثـلا؛ كما قال فى آية أخرى : « فجعلناهم أحاديثَ ومَزَّقناهم كلَّ مُمَـزَّقٍ » (1) .

قلت : وقد يقال فلانٌ حديثٌ حَسَن ، إذا كان مقيَّدا بذكر ذلك؛ ومنه قول ابن دُريد :

وإنمـا المرء حديث بعـده * فكن حديثا حسنا لمن وَعَى

(1) آية ١٩ سورة سبأ .

قوله تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُون بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ تقدم (١) . ومعنى ﴿ عَالِينَ ﴾ متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم؛ كما قال تعالى : « إِن فِرْعَوْن عَلَا فِي الأَرْض » (٢) . ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِن لِبَشَرينِ مِثْلِنَا﴾ الآية ، تقدم أيضا . ومعنى ﴿مِنَ المُهْلَكِينَ﴾ أى بالغرق فى البحر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ؛ وخصّ موسى بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه فى الطور ، وهارون خليفة فى قومه . ولو قال « ولقد آتيناهما » جاز ؛ كما قال : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان (٣) » .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ تقدم فى « الأنبياء (٤) » القول فيه . ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ الربوة المكان المرتفع من الأرض ؛ وقد تقدم فى « البقرة (٥) » . والمراد بها هاهنا فى قول أبى هريرة فلسطين . وعنه أيضا الرملة (٦) ؛ وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس وابن المسيِّب وابن سَلَام : دمشق . وقال كعب وقتادة : بيت المقدس . قال كعب : وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا . قال :

فكنت هَمِيدا تحت رَمْس بِرَبْوَة * تَعاوَرُنى رِيحٌ جَنُوبٌ وَشَمْأَلُ

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٩٣ (٢) آية ٤ سورة القصص (٣) آية ٤٨ سورة الأنبياء .
(٤) راجع جـ ١١ ص ٣٣٧ (٥) راجع جـ ٣ ص ٣١٥
(٦) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن ، وكانت رباطا للسلمين .

وقال ابن زيد : مصر . وروى سالم الأفطس عن سعيد بن جُبير «وآويناهما إلى ربوة» قال : النَّشز من الأرض . ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أى مستوية يُستقر عليها . وقيل : ذات ثمار، ولأجل الثمار يَستقر فيها الساكنون . ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء جارٍ ظاهر للعيون . يقال : مَعِين ومُعُن ؛ كما يقال : رغيف ورُغُف ؛ قاله على بن سليمان . وقال الزجاج : هو الماء الجارى فى العيون ؛ فالميم على هذا زائدة كزيادتها فى مبيع ، وكذلك الميم زائدة فى قول من قال إنه الماء الذى يرى بالعين . وقيل : إنه فعيل بمعنى مفعول . قال على بن سليمان : يقال مَعَن الماء إذا جرى فهو معين ومَعْيُون . ابن الأعرابى : معن الماء يَمْعَن مُعونا إذا جرى وسَهُل ، وأمعن أيضا وأمعنته ، ومياه مُعُنان .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيّها الناس إن الله طيّب لا يَقْبَل إلا طيبا وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال «يأيها الرسل كُلُوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم» وقال تعالى «يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» — ثم ذكر[1] — الرجلَ[2] يُطيل السّفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يارب يارب ومَطْعَمُه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنّى يستجاب لذلك " .

الثانيــة — قال بعض العلماء : والخطاب فى هذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه أقامه مقام الرسل ؛ كما قال : «الذين قال لهم الناس»[3] يعنى نُعيم بن مسعود . وقال

(١) هذه الجملة من كلام الراوى ، والضمير فيه للنبى صلى الله عليه وسلم . (٢) الرجل ، بالرفع مبتدأ ، مذكور على وجه الحكاية من لفظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن ينصب على أنه مفعول « ذكر » .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٧٩

الزجاج : هذه مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ودلّ الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا ؛ أى كلوا من الحلال . وقال الطبريّ : الخطاب لعيسى عليه السلام ؛ روى أنه كان يأكل من غزل أمه . والمشهور عنه أنه كان يأكل من بقل البَرِّيّة . ووجه خطابه لعيسى ما ذكرناه من تقديره لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريفا له . وقيل : إن هذه المقالة خوطب بها كل نبيّ ؛ لأن هذه طريقتهم التى ينبغى لهم الكون عليها . فيكون المعنى : وقلنا يأيها الرسل كلوا من الطيبات ، كما تقول لتاجر : يا تجار ينبغى أن تجتنبوا الربا ؛ فأنت تخاطبه بالمعنى . وقد اقترن بذلك أن هذه المقالة تصلح لجميع صنفه ، فلم يخاطبوا قطّ مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما خوطب كل واحد فى عصره . قال الفرّاء : هو كما تقول للرجل الواحد : كُفُّوا عنا أذاكم .

الثالثة — سوّى الله تعالى بين النبيّين والمؤمنين فى الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام ، ثم شمل الكل فى الوعيد الذى تضمنه قوله تعالى : « إنّى بما تعملون عليم » صلى الله على رسله وأنبيائه . وإذا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم . وقد مضى القول فى الطيبات والرزق فى غير موضع (١) ، والحمد لله . وفى قوله عليه السلام "يمد يديه" دليل على مشروعية مدّ اليدين عند الدعاء إلى السماء ؛ وقد مضى الخلاف فى هذا والكلام فيه والحمد لله . وقوله عليه السلام "فأنّى يستجاب لذلك" (٢) على جهة الاستبعاد ؛ أى أنه ليس أهلا لإجابة دعائه لكن يجوز أن يستجيب الله له تفضلا ولطفا وكرما .

قوله تعالى : وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٧ طبعة ثانية أو ثالثة ، وجـ ٧ ص ١٩٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ المعنى : هذا الذى تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالتزموه . والأمة هنا الدين؛ وقد تقدم محامله(١)؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ(٢) » أى على دين . وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وهـل يأْثَمَنْ ذو أمّةٍ وهو طائع

الثانيـة — قرئ « وإن هذه » بكسر « إنّ » على القطع، وبفتحها وتشديد النون . قال الخليـل : هى فى موضع نصب لمـّا زال الخـافض؛ أى أنا عالم بأن هـذا دينكم الذى أمرتكم أن تؤمنوا به . وقال الفرّاء : « أنّ » متعلقة بفعل مضمر تقديره : واعلموا أن هذه أمتكم . وهى عنـد سيبويه متعلقة بقوله « فاتقون »؛ والتقدير فاتقون لأن أمتكم واحدة . وهـذا كقوله تعـالى : « وأنّ المساجد لله فلا تَدْعُوا مَعَ الله أحدا(٣) »؛ أى لأن المساجد لله فلاتدعوا معه غيره . وكقوله : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ »؛ أى فليعبدوا ربّ هذا البيت لإيلاف قريش .

الثالثـة — وهـذه الآية تقوّى أن قوله تعـالى : « يأيها الرسل » إنمـا هو مخاطبة لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم . وإذا قدرت « يأيها الرسل » مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فَلَق(٤) اتصالَ هذه الآية واتصالَ قوله « فتقطعوا » . أما أنّ قوله « وأنا ربّكم فاتقون » وإن كان قيل للأنبياء فأممهم داخلون فيه بالمعنى؛ فيحسن بعد ذلك اتصال . ﴿ فَتَقَطَّعُوا ﴾ أى افترقوا، يعنى الأمم، أى جعـلوا دينهم أديانا بعد ما أمروا بالاجتماع . ثم ذكر تعالى أن كلا منهم معجب برأيه وضلالته وهذا غاية الضلال .

الرابعـة — هـذه الآية تنظر إلى قوله صلى الله عليه وسـلم : "ألا إنّ مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتيـن وسبعين ملّة وإن هـذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة" الحديث . خرّجه أبو داود، ورواه

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية وجـ ٣ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٢ وما بعدها سورة الزخرف . (٣) آية ١٨ سورة الجن . (٤) كذا فى نسخ الأصل . والمعنى المراد واضح، وهو أن هذا التقدير يفلق ويقطع الاتصال بين الاثنين .

الترمذى و زاد : قالوا ومن هى يا رسـول الله؟ قال : " ما أنا عليـه وأصحابى " خرّجه من حديث عبـد الله بن عمرو . وهـذا يبيّن أن الافتراق المحذر منه فى الآية والحديث إنمـا هو فى أصول الدين وقواعده، لأنه قد أطلق عليها مِلَلًا، وأخبر أن التمسـك بشيء من تلك الملل موجب لدخول النار . ومثل هذا لا يقال فى الفروع، فإنه لا يوجب تعديد الملل ولا عذاب النار ؛ قال الله تعالى : « لِكُلٍّ جعلنا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهاجاً » (١) .

قوله تعالى : ﴿ زُبُرًا ﴾ يعنى كتبا وضعوها وضلالات ألّفوها؛ قاله ابن زيد . وقيل : إنهم فرّقوا الكتب فٱتبعت فرقةٌ الصحفَ وفرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الإنجيـل ، ثم حرف الكلّ و بدّل؛ قاله قتادة . وقيل : أخذ كل فريق منهم كتابا آمن به وكفر بما سواه . و « زُبُرًا » بضم الباء قراءة نافع، جمع زبور . والأعمش وأبو عمرو بخلافٍ عنه « زُبَرًا » بفتح الباء، أى قطعا كقطع الحديد؛ كقوله تعالى : « آتُونى زُبَرَ الحديد » (٢) . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ أى فريق ومِلّة . ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أى عندهم من الدين . ﴿ فرِحُونَ ﴾ أى معجبون به . وهذه الآية مثال لقريش خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم فى شأنهم متصلا بقوله ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْـرَتِهِمْ ﴾ أى فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم، ولا يضيق صـدرك بتأخير العـذاب عنهم؛ فلكل شيء وقت . والغَمْرة فى اللغة ما يَغْمُرك و يعلوك ؛ وأصـله الستر؛ ومنه الغِمْر الحقـد لأنه يغطّى القلب . والغَمْر المـاء الكثير لأنه يغطى الأرض . وغَمْـرُ الرداء الذى يشمل الناس بالعطاء؛ قال :

غَمْـرُ الرداء إذا تبسّم ضاحكا * غَلِقتْ لضَحْكته رِقابُ المـالِ

المراد هنا الحَيْرة والغفلة والضلالة . ودخل فلان فى غمار الناس، أى فى زحمتهم . وقوله تعالى : ﴿ حتى حِينٍ ﴾ قال مجاهد : حتى الموت، فهو تهديد لا توقيت؛ كما يقال : سيأتى لك يوم .

قوله تعـالى : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

(١) آية ٤٨ سورة المـائدة . (٢) آية ٩٦ سورة الكهف .

قوله تعـالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ « ما » بمعنى الذى ؛ أى أيحسبون يا محمد أن الذى نعطيهم فى الدنيا من المـال والأولاد هو ثواب لهم ، إنمـا هو استدراج وإملاء ، ليس إسراعا فى الخيرات . وفى خبر « أنّ » ثلاثة أقوال ، منها أنه محذوف. وقال الزجاج : المعنى نسارع لهم به فى الخـيرات ، وحذفت به . وقال هشام الضرير قولا دقيقا ، قال : « أنما » هى الخيرات ، فصار المعنى : نسارع لهم فيه ، ثم أظهر فقال « فى الخيرات » ، ولا حذف فيه على هذا التقدير . ومذهب الكسائى أن « أنمـا » حرف واحد فلا يحتاج إلى تقدير حذف ، ويجوز الوقف على قوله « وبنين » . ومن قال « أنمـا » حرفان فلابدّ من ضمير يرجع من الخبر إلى اسم « أنّ » ولم يتم الوقف على « و بنين » . وقال السِّخْتيانىّ : لا يحسن الوقف على « وبنين » ؛ لأن « يحسبون » يحتاج إلى مفعولين ، فتمام المفعولين « فى الخيرات » . قال ابن الأنبارى : وهـذا خطأ ؛ لأن « أنّ » كافية من اسم أن وخبرها ولا يجوز أن يؤتى بعد « أن » بمفعول ثان . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ وعبد الرحمن بن أبى بكرة « يسارِع » بالياء ، على أن يكون فاعله إمدادنا . وهـذا يجوز أن يكون على غير حذف ؛ أى يسارع لهم الإمداد . ويجوز أن يكون فيه حذف ، ويكون المعنى يسارع الله لهم . وقرئ « يسارَع لهم فى الخيرات » وفيه ثلاثة أوجه : أحدها على حذف به . ويجوز أن يكون يسارَع الامدادُ . ويجوز أن يكون « لهم » اسم ما لم يسم فاعله ؛ ذكره النحاس . قال المهـدوىّ : وقرأ الحرّ النحوى « نسرع لهم فى الخيرات » وهو معنى قراءة الجماعة . قال الثعلبى : والصواب قراءة العامة ؛ لقوله « نمدهم » . ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك فتنة لهم وآستدراج .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعدهم عقّب ذلك بذكر المؤمنين المسارعين فى الخيرات ووعدهم ، وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم . و ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ خائفون وجلون مما خوفهم الله تعالى . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قال الحسن : يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم . وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة» قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : "لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدّقون وهم يخافون ألا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون فى الخيرات" . وقال الحسن : لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها . وقرأت عائشة رضى الله عنها وابنُ عباس والنَّخَعِيّ « والذين يأتون ما أتوا » مقصورا من الإتيان . قال الفرّاء : ولو صحت هذه القراءة عن عائشة لم تخالف قراءة الجماعة ؛ لأن الهمز من العرب من يلزم فيه الألف فى كل الحالات إذا كتب ؛ فيكتب سُئل الرجل بألف بعد السين ، ويستهزئون بألف بين الزاى والواو ، وشيءٌ وشيءٍ بألف بعد الياء ، فغير مستنكر فى مذهب هؤلاء أن يكتب « يؤتون » بألف بعد الياء ، فيحتمل هذا اللفظ بالبناء على هذا الخط قراءتين « يؤتون ما آتوا » و «يأتون ما أتوا» . وينفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين : أحدهما — والذين يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة وقلوبهم خائفة . والآخر — والذين يؤتون الملائكة الذين يكتبون الأعمال على العباد ما آتوا وقلوبهم وجلة ؛ فحُذف مفعولٌ فى هذا الباب لوضوح معناه ؛ كما حذف فى قوله عز وجل : « فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ » (1) والمعنى يعصرون السمسم والعنب ؛ فاختزل المفعول لوضوح تأويله . ويكون الأصل فى الحرف على هجائه الموجود فى الإمام « يأتون » بألف مبدلة من الهمزة فكتبت الألف

(1) آية ٤٩ سورة يوسف .

واوًا لتآخى حروف المد واللين فى الخفاء ؛ حكاه ابن الأنبارى . قال النحاس : المعروف من قراءة ابن عباس « والذين يأتون ما أتوا » وهى القراءة المروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضى الله عنها، ومعناها يعملون ما عملوا؛ كما رُوى فى الحديث . والوَجَل نحو الإشفاق والخوف؛ فالتقيّ والتائب خوْفه أمر العاقبة وما يطلع عليه بعد الموت . وفى قوله ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ تنبيه على الخاتمة . وفى صحيح البخارى "وإنما الأعمال بالخواتيم" . وأما المخلِّط فينبغى له أن يكون تحت خوف من أن ينفَّذ عليه الوعيد بتخليطه . وقال أصحاب الخواطر : وَجَل العارف مَن طاعته أكثر وجلا من وجله من مخالفته ؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب بتصحيح الفرض . ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أى لأنهم ، أو من أجل أنهم إلى ربهم راجعون .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ ﴾ أى فى الطاعات ، كى ينالوا بذلك أعلى الدرجات والغرفات . وقرئ « يُسْرِعون » فى الخيرات، أى يكونوا سراعا إليها . ويسارعون على معنى يسابقون من سابقهم إليها؛ فالمفعول محذوف . قال الزجاج : يسارعون أبلغ من يسرعون .

﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ أحسن ما قيل فيه : أنهم يسبقون إلى أوقاتها . ودلّ بهذا أن الصلاة فى أول الوقت أفضل ؛ كما تقدم فى « البقرة »(١) . وكل من تقدم فى شىء فهو سابق إليه، وكل من تأخر عنه فقد سبقه وفاته ؛ فاللام فى « لها » على هذا القول بمعنى إلى ؛ كما قال « بأنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى أوحى إليها . وأنشد سيبويه :

(٢)
تَجانَفُ عن جَوّ اليمامة ناقتى * وما قصدَتْ من أهلها لسَوائكا

وعن ابن عباس فى معنى « وهم لها سابقون » سبقت لهم من الله السعادة ؛ فلذلك سارعوا فى الخيرات . وقيل : المعنى وهم من أجل الخيرات سابقون .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٦٥ طبعة ثانية . (٢) البيت للأعشى . والتجانف : الانحراف .

قوله تعالى : وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ قد مضى فى « البقرة »[1] وأنه ناسخ لجميع ما ورد فى الشرع من تكليف ما لا يطاق . ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ أظهر ما قيل فيه : إنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذى ترفعه الملائكة؛ وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره، فهو ينطق بالحق . وفى هذا تهديد وتأييس من الحَيْف والظلم . ولفظ النطق يجوز فى الكتاب؛ والمراد أن النبيين تنطق بما فيه . والله أعلم . وقيل : عنى اللوح المحفوظ، وقد أثبت فيه كل شىء، فهم لا يجاوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله «ولدينا كتاب» القرآن، فالله أعلم، وكل محتمل والأول أظهر .

قوله تعالى : بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ (٦٤) لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥)

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ قال مجاهد : أى فى غطاء وغفلة وعَماية عن القرآن . ويقال : غمره الماء إذا غطاه . ونهر غَمْر يغطّى من دخله . ورجل غمر يغمره آراء الناس[2] . وقيل : « غمرة » لأنها تغطّى الوجه . ومنه دخل فى غُمار الناس وخُمارهم ، أى فيما يغطيه من الجمع . وقيل : « بل قلوبهم فى غمرة » أى فى حَيْرة وعَمًى ؛ أى مما وصف من أعمال البر فى الآيات المتقدمة ؛ قاله قتادة . أو من الكتاب الذى ينطق بالحق . ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أى لهم خطايا لابد أن يعملوها من دون الحق . وقال الحسن وابن زيد : المعنى ولهم أعمال رديئة لم يعملوها من

(١) راجع ج ٣ ص ٤٢٧ (٢) كذا فى الأصول . والذى فى كتب اللغة : « ورجل غُمْرٌ وغَمِر لا تجربة له بحرب ولا أمر ، ولم تحنكه التجارب .

دون ما هم عليه، لابدّ أن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لما سبق لهم من الشِّقوة. ويحتمل ثالثا — أنه ظلم الخلق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي. والمعنى متقارب. ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ ﴾ يعني بالسيف يوم بدر؛ قاله ابن عباس. وقال الضحاك: يعني بالجوع حين قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "اللّهمّ اشدد وطأتك على مُضَر اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسنيِّ يوسف". فابتلاهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجِيف، وهلك الأموال والأولاد. ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ أي يضجّون ويستغيثون (١). وأصل الجُؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور. وقال الأعشى يصف بقرة:

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تُضِيف وتجأرا

قال الجوهري: الجُؤار مثل الخوار؛ يقال: جأر الثور يجأر أي صاح. وقرأ بعضهم «عِجْلًا جَسَدًا لَهُ جؤار» حكاه الأخفش. وجأر الرجل إلى الله عز وجل تضرع بالدعاء. قتادة: يَصْرُخون بالتوبة فلا تقبل منهم. قال:

يراوح من صلوات المَليك * فطَوْرًا سجودا وطَوْرًا جؤارا

وقال ابن جريج: «حتّى إذَا أخذنا مُتْرَفِيهِمْ بالْعَذَابِ» هم الذين قتلوا ببدر «إذا هم يَجْأَرُونَ» هم الذين بمكة؛ فجمع بين القولين المتقدمين، وهو حسن. ﴿ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا ﴾ أي من عذابنا. ﴿ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم. وقال الحسن: لا تنصرون بقبول التوبة. وقيل: معنى هذا النهي الإخبارُ؛ أي إنكم إن تضرعتم لم ينفعكم.

قوله تعالى: قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

---

(١) راجع هامش ص ١١٥ من ج ١٠

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ الآيات يريد بها القرآن . ﴿ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى تقرأ . قال الضحاك : قبل أن تعذبوا بالقتل و﴿ تَنْكِصُونَ ﴾ ترجعون وراءكم . مجاهد : تستأخرون؛ وأصله أن ترجع القَهْقَرَى . قال الشاعر :

زعموا بأنهم[1] على سبل النجا * ة وإنما نُكُص على الأعقاب

وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق . وقرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه « على أدباركم » بدل « على أعقابكم » ، « تنكصون » بضم الكاف . و﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ حال ، والضمير فى « به » قال الجمهور : هو عائد على الحرم أو المسجد أو البلد الذى هو مكة ، وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر؛ أى يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون فى نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظمَ الحقوق على الناس والمنازل؛ فيستكبرون لذلك ، وليس الاستكبار من الحق . وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات؛ والمعنى : يُحدث لكم سماع آياتى كبرا وطغيانا فلا تؤمنوا به . قال ابن عطية : وهذا قول جيد . النحاس : والقول الأوّل أولى ، والمعنى : أنهم يفتخرون بالحرم ويقولون نحن أهل حرم الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سامِرا تهجرون ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ « سامِرًا » نصب على الحال ، ومعناه سُمّارا ، وهو الجماعة يتحدثون بالليل ، مأخوذ من السَّمَر وهو ظل القمر؛ ومنه سُمرة اللون . وكانوا يتحدثون حول الكعبة فى سَمَر القمر؛ فسمّى التحدث به . قال الثورى : يقال لظل القمر السَّمَر؛ ومنه السُّمْرة فى اللون ، ويقال له : الفَخْت؛ ومنه قيل فاختة . وقرأ أبو رجاء « سُمّارا » وهو جمع سامر؛ كما قال :

* ألستَ ترى السُّمارَ والنّاسَ أحوالى[2] *

(١) فى الأصول : «أنهم» والبيت لا يتزن إلا بدخول الباء ، وهى هنا زائدة؛ كقول النابغة :

* زعم الغُدَاف بأن رحلتنا غدا *

(٢) هذا عجز بيت لامرئ القيس . وصدره :

* فقالت سباك الله إنك فاضحى *

وفى حديث قَيْـلة : إذا جاء زوجها من السامر ؛ يعنى من القوم الذين يَسْمُرون بالليل ؛ فهو اسم مفرد بمعنى الجمع ، كالحاضر وهم القوم النازلون على الماء ، والباقر جمع البقر ، والجامل جمع الإبل ، ذكورتها و إناثها ؛ ومنه قوله تعالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » أى أطفالا . يقال : قوم سَمْر وسُمَّر وسامر ، ومعناه سهر الليل ؛ مأخوذ من السَّمَر وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر . قال الجوهرى : السامر أيضا السُّمَّار ، وهم القوم الذين يَسْمُرون ؛ كما يقال للحاج حُجّاج ، وقول الشاعر :

* وسامرٍ طال فيه اللَّهْوُ والسَّمَرُ *

كأنه سمى المكان الذى يجتمع فيـه للسمر بذلك . وقيل : وحّد سامرا وهو بمعنى السُّمّار ؛ لأنه وضع موضع الوقت ، كقول الشاعر :

مِن دونهم إن جئتَهم سَمَرًا * عَزْفُ القِيَانِ ومَجْلِسٌ غَمْرُ

فقال : سَمَرًا ، لأن معناه : إن جئتهم ليلا وجدتهم وهم يسمرون . وآبنا سَمِير : الليل والنهار ؛ لأنه يُسْمَر فيهما ، يقال : لا أفعـله ما سَمَر آبنا سمير أبدا . و يقال : السَّمير الدهر ، وآبناه الليل والنهار . ولا أفعـله السَّمَرَ والقمرَ ؛ أى ما دام الناس يَسْمُرون فى ليلة قمراء . ولا أفعله سَمِيرَ الليالى . قال الشَّنْفَرى :

هنالك لا أرجو حياةً تَسُرُّنِى * سَمِيرَ الليـالى مُبْسَلًا بالجرائر

والسَّمار (بالفتح) اللبن الرقيـق . وكانت العرب تجلس للسمر تتحدّث ، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم ؛ لأنها تجلس فى الصحراء فترى الطوالع من الغوارب . وكانت قريش تَسْمُر حول الكعبة مجالس فى أباطيلها وكفرها ، فعابهم الله بذلك . و « تهجرون » قرئ بضم التاء وكسر الجيم من أهجر ، إذا نطق بالفحش . وبنصب التاء وضم الجيم من هَجَر المريضُ إذا هَذَى . ومعناه : يتكلمون بهوَس وسَيِّئ من القول فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وفى القرآن ؛ عن ابن عباس وغيره .

الثانيـــة — روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : إنما كُره السّمر حين نزلت هذه الآية « مستكبرين به سامرا تهجرون » ؛ يعنى أن الله تعالى ذمّ أقواما يَسْمُرون فى غير

طاعة الله تعالى . إما فى هَذَيان و إما فى إذاية . وكان الأعمش يقول : إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث فآصفعه فإنه من شيوخ القمر؛ يعنى يجتمعون فى ليالى القمر فيتحدّثون بأيام الخلفاء والأمراء ولا يحسن أحدهم يتوضأ للصلاة .

الثالثـــة — روى مسلم عن أبى بَرْزَة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم يؤخر العشاء إلى ثلث الليل ويكره النوم قبلها والحديثَ بعدها . قال العلماء : أما الكراهية للنوم قبلها فلئلا يعرّضها للفوات عن كل وقتها أو أفضـل وقتها ؛ ولهذا قال عمر : فمن نام فلا نامت عينه ؛ ثلاثا . وممن كره النوم قبلها عمر وآبنه عبـد الله وآبن عباس وغيرهم . وهو مذهب مالك . ورخص فيه بعضهم، منهم علىّ وأبو موسى وغيرهم ؛ وهو مذهب الكوفيين . وشرط بعضهم أن يجعل معـه من يوقظه للصـلاة . وروى عن ابن عمر مثـله ، و إليه ذهب الطحاوى . وأما كراهية الحديث بعدها فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة ، وقد ختم الكُتّاب صحيفته بالعبادة ؛ فإنْ هو سَمَر وتحدّث فيملؤها بالهَوَس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل ، وليس هذا من فعل المؤمنين . وأيضا فإن السمر فى الحـديث مظنة غلبة النوم آخر الليل فينام عن قيام آخر الليل ، وربمـا ينام عن صـلاة الصبح . وقد قيل : إنمـا يكره السمر بعدها لمـا روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إياكم والسَّمَرَ بعد هَدْأة الرجل فإن أحدكم لا يدرى ما يبث الله تعالى من خلقه أغلِقوا الأبواب وأَوْكُوا السقاء وخَمّروا الإناء وأطفِئوا المصابيح" . وروى عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء، ويقول : أسمرًا أوّلَ الليـل ونوما آخره ! أريحوا كُتّابكم . حتى أنه روى عن ابن عمـر أنه قال : من قرض بيت شعر بعد العشاء لم تقبل له صلاة حتى يُصبح . وأسنده شدّاد بن أوْس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن الحكمة فى كراهية الحديث بعدها إنمـا هو لمـا أن الله تعالى جعل الليل سَكَنا، أى يُسكن فيه ، فإذا تحدّث الإنسان فيه فقد جعله فى النهار الذى هو متصرف المعاش؛ فكأنه قصـد إلى مخالفة حكمة الله تعالى التى أجرى عليها وجوده فقال « وهو الذى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا والنَّوْمَ سُبَاتًا وجعل النَّهارَ نُشُورًا »(1) .

(1) آية ٤٧ سورة الفرقان .

الرابعـــة ــ هذه الكراهة إنمـا تختص بمـا لا يكون من قبيل القُرَب والأذكار وتعليم العلم ، ومسامرةِ الأهل بالعـلم و بتعليم المصالح وما شابه ذلك ؛ فقد ورد عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم وعن السـلف ما يدل على جواز ذلك ، بل على ندبيّتـه . وقـد قال البخاريّ : (باب السَّمَر فى الفقه والخير بعد العشاء) وذكر أن قُرّة بن خالد قال : انتظرْنا الحسن وراث[1] علينا حتى جاء قريبا من وقت قيـامه ، فجـاء فقال : دعانا جيراننا هؤلاء . ثم قال أنس : انتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل فجـاء فصلى ثم خطبنا فقال : " إن الناس قد صَلَّوْا و إنكم لم تزالوا فى صلاة ما انتظرتم الصلاة " . قال الحسن : فإن القوم لا يزالون فى خير ما انتظروا الخـير . قال : (باب السـمر مع الضيف والأهل) وذكر حديث أبى بكر بن عبـد الرحمن أن أصحاب الصُّفّة كانوا فقـراء... الحديث . أخرجه مسلم أيضا . وقد جاء فى حراسة الثغور وحفظ العساكر بالليـل من الثواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور فى الأخبار . وقد مضى من ذلك جملة فى آخر « آل عمران »[2] والحمـد لله وحـــده .

قوله تعـالى : أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ يعنى القرآن؛ وهو كقوله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ »[3] . وسُمِّىَ القرآن قولا لأنهم خوطبوا به . ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فأنكروه وأعرضوا عنه . وقيـل : « أم » بمعنى بل؛ أى بل جاءهم ما لا عهـد لآبائهم به ، فلذلك أنكروه وتركوا التدبر له . وقال ابن عباس : وقيل المعنى أم جاءهم أمان من العذاب ، وهو شيء لم يأت آباءهم الأولين فتركوا الأمر .

قوله تعـالى : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾

(١) راث : أبطأ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢٣ وما بعدها . (٣) آية ٨٢ سورة النساء .

هذا تستعمله العرب على معنى التوقيف والتقبيح ، فيقولون : الخير أحبّ إليك أم الشر ؛ أى قد أخبرت الشر فتجنّبه ، وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصدق والأمانة ؛ ففى اتباعه النجاة والخير لولا العَنَت . قال سفيان : بلى ! قد عرفوه ولكنهم حسدوه !

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أى أم يحتجون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ، فليس هو هكذا ! لزوال أمارات الجنون عنه . ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى القرآن والتوحيد الحق والدِّين الحق . ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ أى كلهم ﴿ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ حسدا وبَغْيًا وتقليدا .

قوله تعالى : وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ ﴾ « الحق » هنا هو الله سبحانه وتعالى ؛ قاله الأكثرون ، منهم مجاهد وابن جُريج وأبو صالح وغيرهم . وتقديره فى العربية : ولو اتبع صاحب الحق ؛ قاله النحاس . وقد قيل : هو مجاز ، أى لو وافق الحق أهواءهم ؛ فجعل موافقته اتباعا مجازا ؛ أى لو كانوا يكفرون بالرسل و يعصون الله عز وجل ثم لا يعاقَبون ولا يجازون على ذلك إمّا عجزا و إمّا جهلا لفسدت السموات والأرض . وقيل : المعنى ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة ، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض ، فاضطرب التدبير وفسدت السموات والأرض ، و إذا فسدتا فسد من فيهما . وقيل : « لو اتبع الحق أهواءهم » أى بما يهواه الناس و يشتهونه لبطل نظام العالَم ؛ لأن شهوات الناس تختلف وتتضادّ ، وسبيلُ الحق أن يكون متبوعا ، وسبيل الناس الانقياد للحق . وقيل : «الحق» القرآن ؛ أى لو نزل القرآن بما يحبون لفسدت السموات والأرض . ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ إشارة إلى من يعقل من ملائكة السموات و إنس الأرض وجِنّها ؛ الماوَرْدِيّ . وقال الكَلْبِيّ : يعنى وما بينهما من

خلق ؛ وهى قراءة ابن مسعود « لفسدت السموات والأرض وما بينهما » . فيكون على تأويل الكلبي وقراءة ابن مسعود محمولا على فساد من يعقل وما لا يعقل من حيوان وجماد. وظاهر التنزيل فى قراءة الجمهور يكون محمولا على فساد ما يعقل من الحيوان؛ لأن ما لا يعقل تابع لما يعقل فى الصلاح والفساد، فعلى هذا ما يكون من الفساد يعود على من فى السموات من الملائكة بأن جُعلت أربابا وهى مربوبة، وعُبدت وهى مستعبدة . وفساد الإنس يكون على وجهين : أحدهما — باتباع الهوى، وذلك مهلك . الثانى — بعبادة غير الله، وذلك كفر . وأما فساد ماعدا ذلك فيكون على وجه التبع ؛ لأنهم مدبَّرون بذوى العقول فعاد فساد المدبِّرين عليهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ أى بما فيه شرفهم وعزهم ؛ قاله السُّدّى وسفيان . وقال قتادة : أى بما لهم فيه ذكر ثوابهم وعقابهم . ابن عباس : أى ببيان الحق وذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين . ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ أى أجرا على ما جئتهم به؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى والأعمش ويحيى بن وثّاب « خراجا » بألف . الباقون بغير ألف . وكلهم قد قرءوا « فخراج » بالألف إلا ابن عامر وأبا حَيْوة فإنهما قرآ بغير الألف . والمعنى : أم تسألهم رزقا فرزق ربك خير . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى ليس يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولا يُنعم مثل إنعامه . وقيل : أى ما يؤتيك الله من الأجر على طاعتك له والدعاء إليه خيرٌ من عَرَض الدنيا ، وقد عرضوا عليك أموالهم حتى تكون كأغنى رجل من قريش فلم تجبهم إلى ذلك ؛ قال معناه الحسن . والخَرْج والخراج واحد، إلا أن اختلاف الكلام أحسن؛ قاله الأخفش . وقال أبو حاتم : الخَرْج الجُعْل، والخراج العطاء.

المبرّد : الخرج المصدر ، والخراج الاسم . وقال النضر بن شُميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج مالزمك، والخَرْج ما تبرّعت به . وعنه أن الخَرْج من الرقاب ، والخراج من الأرض . ذكر الأوّل الثعلبيّ والثانى الماوردىّ .

قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى إلى دين قويم . والصراط فى اللغة الطريق ؛ فسُمّىَ الدِّين طريقا لأنه يؤدّى إلى الجنة فهو طريق إليها . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ قيل : هو مثل الأول . وقيل : إنهم عن طريق الجنة لناكبون حتى يصيروا إلى النار . نَكَب عن الطريق يَنْكُب نُكوبا إذا عدل عنه ومال إلى غيره ؛ ومنه نكبت الريح إذا لم تستقم على مَجْرًى . وشرّ الريح النَّكْباء .

قوله تعالى : وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ﴾ أى لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم ﴿ لَلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ ﴾ قال السُّدّى : فى معصيتهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يترددون . وقال ابن جُريج : «ولو رحمناهم» يعنى فى الدنيا « وَكَشَفْنَا ما بِهِم مِنْ ضُرٍّ » أى من قَحْط وجوع « لَلَجُّوا » أى لتمادَوْا « فِى طُغْيَانِهِمْ » وضلالتهم وتجاوزهم الحد « يَعْمَهُونَ » يتذبذبون ويخبِطون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ قال الضحاك : بالجوع . وقيل : بالأمراض والحاجة والجوع . وقيل : بالقتل والجوع . ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أى ما خضعوا . ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أى ما يخشعون لله عز وجل فى الشدائد تصيبهم . قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثُمَامة بن أُثَال لما أسرته السَّرِيّة وأسلم وخَلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله ، حال بين مكة و بين المِيرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حَبّةُ حِنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخذ الله قريشا بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلْهِز ؛ قيل وما العِلهِز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوَبَر فيبلّونه بالدم ثم يشوونه و يأكلونه . فقال له أبو سفيان : أَنْشُدكَ اللهَ والرَّحِم ! أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال "بلى" . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ؛ فنزل قوله « وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قال عكرمة : هو باب من أبواب جهنم ، عليه من الخزنة أربعمائة ألف ، سودٌ وجوههم ، كالِحةٌ أنيابهم ، قد قُلعت الرحمة من قلوبهم ؛ إذا بلغوه فتحه الله عز وجل عليهم . وقال ابن عباس : هو قتلهم بالسيف يوم بدر . مجاهد : هو القحط الذى أصابهم حتى أكلوا العِلْهِز من الجوع ؛ على ما تقدم . وقيل فتح مكة . ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى يائسون متحيّرون لا يدرون ما يصنعون ، كالآيس من الفرج ومن كل خير . وقد تقدم فى « الأنعام »(١) .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ عرّفهم كثرة نعمه وكمال قدرته . ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ أى ما تشكرون إلا شكرا قليلا . وقيل : أى لا تشكرون ألبتة .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى أنشأكم وبثّكم وخلقكم . ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون للجزاء .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى جعلهما مختلفين ؛ كقولك : لك الأجر والصّلة ؛ أى إنك تؤجر وتوصل ؛ قاله الفرّاء . وقيل : اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر . وقيل : اختلافهما فى النور والظلمة . وقيل : تكررهما يوما بعد ليلة وليلة بعد يوم . ويحتمل خامسا : اختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشقاء وضلال وهدى . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ كُنْهَ قدرته وربوبيّته ووحدانيّته ، وأنه لا يجوز أن يكون له شريك من خلقه ، وأنه قادر على البعث . ثم عيّرهم بقولهم وأخبر عنهم أنهم

﴿ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ هـذا لا يكون ولا يتصوّر . ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل مجىء محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم نر له حقيقة . ﴿ إِنْ هَـذَا ﴾ أى ما هـذا ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أباطيلهم وتُرَّهاتهم ؛ وقد تقدّم هـذا كله . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد جوابا لهم عما قالوه ﴿ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾ يخبر بربوبيّته ووحدانيته وملكه الذى لا يزول، وقدرته التى لا تحول؛ فـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ ولا بُدّ لهم من ذلك . فـ ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى أفلا تتعظون وتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتـداء فهو على إحياء الموتى بعـد موتهم قادر . ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يريد أفلا تخافون حيث تجعلون لى ما تكرهون؛ زعمتم أن الملائكة بناتى، وكرهتم لأنفسكم البنات . ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد السموات وما فوقها وما بينهن، والأرضين وما تحتهن وما بينهن، وما لا يعلمه أحد إلا هو . وقال مجاهد: « ملكوت كلّ شىء » خزائن كل شىء . الضحاك : ملك كل شىء . والملكوت من صفات المبالغة كالجَبَرُوت والرَّهَبُوت ؛ وقد مضى فى « الأنعام »[(1)] . ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أى يَمنع ولا يُمنع منه . وقيل : « يُجير » يؤمّن من شاء . « ولا يُجار عليه » أى لا يؤمّن من أخافه . ثم قيل : هذا فى الدنيا ؛ أى من أراد الله إهلاكه وخوفه لم يمنعه منه مانع، ومن أراد نصره وأمنه لم يدفعه من نصره وأمنه دافع . وقيل : هـذا فى الآخرة ؛ أى لا يمنعـه من مستحق الثواب مانع ولا يدفعـه عن مستوجب العذاب دافع . ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ أى فكيف تخدعون وتصرفون عن طاعتـه وتوحيده . أو كيف يخيَّـل إليكم أن تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع ! والسحر هو التخييل . وكل هـذا احتجاج على العرب المقرين بالصانع . وقرأ أبو عمرو «سيقولون الله» فى الموضعين الأخيرين ؛ وهى قراءة أهل العراق . الباقون « لله » ، ولا خلاف فى الأوّل أنه « لله » ؛ لأنه جواب لـ« قل لمن الأرض ومن فيها » فلما تقدّمت اللام فى « لمن » رجعت فى الجواب . ولا خلاف أنه

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣

مكتوب فى جميع المصاحف بغير ألف . وأما من قرأ « سيقولون الله » فلأن السؤال بغير لام فجاء الجواب على لفظه، وجاء فى الأوّل « لله » لمّا كان السؤال باللام . وأما من قرأ « لله» باللام فى الأخيرين وليس فى السؤال لام فلأن معنى « قل مَن ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم» : قل لمن السموات السبع ورب العرش العظيم . فكان الجواب « لله » ؛ حين قدّرت اللام فى السؤال . وعلّة الثالثة كعلّة الثانية . وقال الشاعر :

إذا قيل من ربّ المزالف والقُرَى (١) * وربُّ الجياد الجُرْد قلت لخالد

أى لمن المزالف .

ودلّت هذه الآيات على جواز جدال الكفار و إقامة الحجة عليهم . وقد تقدم فى «البقرة» . ونبّهتْ على أن من ابتدأ بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع هو المستحق للألوهية والعبادة .

قوله تعالى : بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالقول الصدق ، لا ما تقوله الكفار من إثبات الشريك ونَفْى البعث . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أن الملائكة بنات الله . فقال الله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ « مِن » صلة . ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ « من »زائدة ؛ والتقدير : ما اتخذ الله ولدا كما زعمتم ، ولا كان معه إله فيما خلق . وفى الكلام حذف ؛ والمعنى : لو كانت معه آلهة لانفرد كل إله بخلقه . ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى ولغالب وطلب القوىّ الضعيف كالعادة بين الملوك ، وكان الضعيف المغلوبُ لا يستحق الإلٰهيّة . وهذا الذى يدل على نفى الشريك يدل على نفى الولد أيضا ؛ لأن الولد ينازع الأب فى الملك منازعة الشريك .

(١) المزالف : القرى التى بين البر والبحر ؛ الواحدة مزلفة . والأجرد من الخيل والدواب : القصير الشعر .

﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزيهًا له عن الولد والشريك . ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه وتقديس . وقرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائى « عالمُ » بالرفع على الاستئناف؛ أى هو عالم الغيب . الباقون بالجر على الصفة لله . وروى رُوَيس عن يعقوب « عالِم » إذا وصل خفضا . و « عالمُ » إذا ابتدأ رفعا .

قوله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

علّمه ما يدعو به ؛ أى قل رب، أى يارب إن أريتني ما يوعدون من العذاب . ﴿ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى فى نزول العذاب بهم ، بل أخرجنى منهم . وقيل : النداء معترض ؛ و « ما » فى « إمّا » زائدة . وقيل : إن أصل إمّا إن ما ؛ فـ « إن » شرط و « ما » شرط ، فجمع بين الشرطين توكيدا ، والجواب « فلا تجعلنى فى القوم الظالمين » ؛ أى إذا أردت بهم عقوبة فأخرجنى منهم . وكان عليه السلام يعلم أن الله تعالى لا يجعله فى القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب ، ومع هذا أمره الربّ بهذا الدعاء والسؤال ليعظم أجره وليكون فى كل الأوقات ذاكرا لربّه تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

نبّه على أن خلاف المعلوم مقدور ، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيف ، ونجّاه الله ومن آمن به من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ أمر بالصفح ومكارم الأخلاق ؛ فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم فهو محكم باقٍ فى الأمة أبدا . وما كان فيها من موادعة الكفار وترك التعرض لهم والصفح عن أمورهم فمنسوخ بالقتال . ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ أى من الشرك والتكذيب . وهذا يقتضى أنها آية موادعة ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ﴾ الهمزات هى جمع هَمْزة . والهَمْز فى اللغة النَّخْس والدفع؛ يقال : هَمَزه ولَمَزه ونَخَسه دفعه . قال الليث : الهمز كلامٌ من وراء القَفَا، واللَّمْزُ مواجهةً . والشيطان يوسوس فيهمس فى وسواسه فى صدر ابن آدم؛ وهو قوله : « أعوذ بك من همزات الشياطين » أى نزغات الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى . وفى الحديث : كان يتعوّذ من همز الشيطان ولمزه وهمسه . قال أبو الهَيْثَم : إذا أسرّ الكلام وأخفاه فذلك الهمس من الكلام . وسمى الأسد هَمُوسا؛ لأنه يمشى بخفة فلا يُسمع صوت وطئه . وقد تقدم فى « طه »(١) .

الثانيــة — أمر الله تعالى نبيّــه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالتعوّذ من الشيطان فى همزاته، وهى سَورات الغضب التى لا يملك الإنسان فيها نفســه، وكأنها هى التى كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المحــادّة فلذلك اتصلت بهـذه الآية . فالنزغات وسورات الغضب الواردةُ من الشيطان هى المتعوَّذ منهــا فى الآية؛ وقد تقــدم فى آخر « الأعراف »(٢) بيانه مستوفًى، وفى أوّل الكتاب أيضا(٣) . وروى عن علىّ بن حرب بن محمــد الطائى حدّثنا سفيان عن أيوب عن محمد بن حِبّان أن خالدا كان يؤرّق من الليل؛ فذكر ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم، فأمره أن يتعوّذ بكلمات الله التّامة من غضب الله وعقابه ومن شر عباده ومن همـزات الشياطين وأنْ يَحْضُرون . وفى كتاب أبى داود قال عمــر : وَهَمْزُه المُـوتَةُ؛ قال ابن ماجه : المُوتة يعنى الجنون . والتعوذ أيضــا من الجنون وَكيد . وفى قراءة أُبَىّ « رَبِّ عائذًا بك من همزات الشياطين، وعائذا بك أن يَحْضُرونِ »؛ أى يكونوا معى فى أمورى،

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧

(٣) راجع جـ ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

فإنهم إذا حضروا الإنسان كانوا معدّين للهمز ، وإذا لم يكن حضـور فلا همز . وفي صحيح مسـلم عن جابر قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : "إن الشيطان يحضر أحدكم عند كلّ شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليُمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان فإذا فرغ فليَلعَق أصابعه فإنه لا يدرى في أيّ طعامه البركة" .

قوله تعـالى : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ عاد الكلام إلى ذكر المشركين ؛ أي قالوا « أئذا متنا — إلى قوله — إنْ هذا إلا أساطير الأولين » . ثم احتج عليهم وذكّرهم قدرته على كل شيء ، ثم قال هم مصرّون على ذلك حتى إذا جاء أحدهم الموت تيقّن ضلالته وعاين الملائكة التي تقبض روحه ، كما قال تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ »(١) . ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ تمنّى الرجعة كي يعمل صالحا فيما ترك . وقد يكون القول في النفس ؛ قال الله عز وجل : « وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ »(٢) . فأما قوله « ارْجِعُونِ » وهو مخاطب ربّه عز وجل ولم يقل « ارجعني » جاء على تعظيم الذكر للمخاطب . وقيل : استغاثوا بالله عز وجل أولا ، فقال قائلهم : ربّ ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون إلى الدنيا ؛ قاله ابن جُرَيج . وقيل : إن معنى «ارجعون» على جهة التكرير ؛ أي ارجعني ارجعني ارجعني وهكذا . قال المُزَنيّ في قوله تعالى «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ» قال : معناه أَلْقِ أَلْقِ . قال الضحاك : المراد به أهل الشرك .

قلت : ليس سؤال الرجعة مختصا بالكافر فقد يسألها المؤمن كما في آخر سورة المنافقين على ما يأتي . ودلّت الآية على أن أحدا لا يموت حتى يعرف اضطرارا أهو من أولياء

(١) آية ٥٠ سورة الأنفال . (٢) آية ٨ سورة المجادلة .

الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذواقه .
﴿ لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : يريد أشهد أن لا إله إلا الله . ﴿ فِيمَا تَرَكْتُ ﴾
أى فيما ضيّعت وتركت العمل به من الطاعات . وقيل : «فيما تركت» من المال فأتصدق .
و «لعلّ» تتضمن ترددا؛ وهذا الذى يسأل الرجعة قد استيقن العذاب، وهو يوطّن نفسه على
العمل الصالح قطعا من غير تردد . فالتردد يرجع إما إلى رده إلى الدنيا، وإما إلى التوفيق؛ أى
أعمل صالحا إن وفقتنى؛ إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدّ إلى الدنيا .
﴿ كَلَّا ﴾ هذه كلمة رَدّ؛ أى ليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا.
بل هو كلام يطيح فى أدراج الريح . وقيل : لو أجيب إلى ما يطلب لما وَفَّى بما يقول؛
كما قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[1] . وقيل : « كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هو قَائِلُهَا » ترجع
إلى الله تعالى؛ أى لا خلف فى خبره، وقد أخبر أنه لن يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وأخبر بأن
هذا الكافر لا يؤمن . وقيل : « إنها كلمة هو قائلها » عند الموت، ولكن لا تنفع . ﴿ وَمِنْ
وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ أى ومن أمامهم و بين أيديهم . وقيل : من خلفهم . « بَرْزَخٌ » أى حاجز بين
الموت والبعث؛ قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أن البرزخ هو الحاجز
بين الموت والرجوع إلى الدنيا . وعن الضحاك : هو ما بين الدنيا والآخرة . ابن عباس :
حجاب . السدى : أجل . قتادة : بقية الدنيا . وقيل : الإمهال إلى يوم القيامة؛ حكاه
ابن عيسى . الكلبى : هو الأجل ما بين النفختين، و بينهما أربعون سنة . وهذه الأقوال
متقاربة . وكلُّ حاجزٍ بين شيئين فهو بَرْزَخ . قال الجوهرى : البرزخ الحاجز بين الشيئين .
والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث؛ فمن مات فقد دخل فى البرزخ .
وقال رجل بحضرة الشَّعْبِيّ : رحم الله فلانا فقد صار من أهل الآخرة ! فقال : لم يَصر من
أهل الآخرة، ولكنه صار من أهل البرزخ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة . وأضيف
« يوم » إلى « يبعثون » لأنه ظرف زمان، والمراد بالإضافة المصدر .

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ فإذا نُفِخَ في الصُّورِ ﴾ المراد بهذا النفخ النفخةُ الثانية . ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا ، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا ؛ من أيّ قبيلة أنت ولا من أيّ نسب ، ولا يتعارفون لهَوْل ما أذهلهم . وعن ابن عباس أن ذلك في النفخة الأولى حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وسأل رجل ابن عباس عن هذه الآية وقوله : « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »(١) فقال : لا يتساءلون في النفخة الأولى ؛ لأنه لا يبقى على الأرض حيّ ، فلا أنساب ولا تساؤل . وأما قوله « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » فإنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا . وقال ابن مسعود : إنما عنى في هذه الآية النفخة الثانية . وقال أبو عمر زاذان : دخلت على ابن مسعود فوجدت أصحاب الخير واليمنة قد سبقوني إليه ، فناديت بأعلى صوتي : يا عبد الله بن مسعود ! من أجل أني رجل أعجميّ أدنيت هؤلاء وأقصيتني ! فقال : آدْنُهْ ؛ فدنوت ، حتى ما كان بيني و بينه جليس فسمعته يقول : يؤخذ بيد العبد أو الأَمَة يوم القيامة فينصب على رءوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ؛ فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على أبيها أو على زوجها أو على أخيها أو على آبنها ؛ ثم قرأ ابن مسعود : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فيقول الربّ سبحانه وتعالى "آت هؤلاء حقوقهم" فيقول : ياربّ قد فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم ؛ فيقول الرب للملائكة : "خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طَلِبَتِه" فإن كان وليًّا لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل فيضاعفها الله تعالى حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود « إنّ اللهَ لَا يَظْلِمُ

(١) آية ٥٠ سورة الصافات .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً[(١)] » . وإن كان شقيا قالت الملائكة : ربّ ! فنيت حسناته وبقى طالبون ؛ فيقول الله تعالى : " خذوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيئاته وصُكّوا له صكًّا إلى جهنّم " .

قوله تعالى : فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾

تقدم الكلام فيهما[(٢)] .

قوله تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ويقال « تنفح » بمعناه ؛ ومنه « وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ[(٣)] » . إلا أن « تلفح » أبلغ بأسا ؛ يقال : لفحته النار والسَّموم بحرها أحرقته . ولفحته بالسيف لفحة إذا ضربته به [ضربة] خفيفة . ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : عابسون . وقال أهل اللغة : الكُلوح تَكَشُّر فى عُبوس . والكالح : الذى قد تشمّرت شفتاه وبدت أسنانه . قال الأعشى :

وله المُقَدَّمُ لا مِثْلَ له * ساعةَ الشِّدْقِ عن النّاب كَلَحْ

وقد كَلَح الرجل كُلوحا وكُلَاحا . وما أقبح كَلْحَتَه ؛ يراد به الفَمُ وما حواليه . ودهر كالح أى شديد . وعن ابن عباس أيضا « وهم فيها كالحون » يريد كالذى كَلَح وتقلّصت شفتاه وسال صديده . وقال ابن مسعود : ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط بالنار، وقد بدت أسنانه وقَلَصت شفتاه . وفى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُدْرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " وهم فيها كالحون — قال — تشويه النار فتقلِص شَفَتُه العليا حتى تبلغ وَسَط رأسه وتسترخى شَفَتُه السفلى حتى تضرب سُرّته " قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(١) آية ٤٠ سورة النساء . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٦ (٣) آية ٤٦ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « شِقوتنا » وقرأ الكوفيون إلا عاصما « شقاوتنا » . وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن . ويقال : شقاء وشقًا ؛ بالمد والقصر . وأحسن ما قيل فى معناه : غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا ؛ فسمى اللّذات والأهواء شِقوة ، لأنهما يؤدّيان إليها ، كما قال الله عز وجل : « إنّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظُلْمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا »[1] ؛ لأن ذلك يؤديهم إلى النار . وقيل : ما سبق فى علمك ، وكتب علينا فى أم الكتاب من الشقاوة . وقيل : حسن الظن بالنفس وسوءُ الظن بالخلق . ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أى كنا فى فعلنا ضالين عن الهدى . وليس هذا اعتذارا منهم إنما هو إقرار ، ويدلّ على ذلك قولهم ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فإنْ عُدْنا فإنّا ظَالِمُونَ ﴾ طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت . ﴿ فإنْ عُدْنا ﴾ إلى الكفر ﴿ فإنّا ظَالِمُونَ ﴾ لأنفسنا بالعَوْد إليه فيجابون بعد ألف سنة : ﴿ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أى ٱبْعُدُوا فى جهنم ؛ كما يقال للكلب : اِخْسأ ؛ أى ٱبْعُدْ . خسأت الكلب خَسْئًا طردته . وخسأ الكلبُ بنفسه خسوءا ؛ يتعدّى ولا يتعدى . وانخسأ الكلب أيضا . وذكر ابن المبارك قال : حدّثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة يذكره عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : إن أهل جهنم يَدْعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ، ثم يردّ عليهم : إنكم ماكثون . قال : هانت والله دعوتهم على مالك وربّ مالك . قال : ثم يدعون ربهم فيقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » . قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين . قال : ثم يرد عليهم اخسئوا فيها . قال : فوالله ما نَبَس القوم بعدها بكلمة ، وما هو إلا الزَّفير والشّهيق فى نار جهنم .

(١) آية ١٠ سورة النساء .

فشبّه أصواتهم بصوت الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق . خرجه الترمذى مرفوعا بمعناه من حديث أبى الدرداء . وقال قتادة : صوت الكفار فى النار كصوت الحمار، أوله زفير وآخره شهيق . وقال ابن عباس : يصير لهم نُباح كنباح الكلاب . وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى أو ذُكر لى أن أهل النار استغاثوا بالخَزَنة ... الخبر بطوله، ذكره ابن المبارك ، وقد ذكرناه بكماله فى التذكرة، وفى آخره : ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم « أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » قال: فلما سمعوا صوته قالوا الآن يرحمنا ربنا فقالوا عند ذلك « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » أى الكتاب الذى كتب علينا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » فقال عند ذلك « ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبَح بعضهم فى وجوه بعض، وأطبقت عليهم .

قوله تعالى : إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ الآية . قال مجاهد : هم بِلال وخَبّاب وصُهَيب، وفلان وفلان من ضعفاء المسلمين؛ كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم . ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا ﴾ بالضم قراءة نافع وحمزة والكسائى هاهنا وفى « صۤ »[1] . وكسر الباقون . قال النحاس : وفرّق أبو عمرو بينهما ، فجعل المكسورة من جهة التهزّؤ ، والمضمومة من جهة السُّخْرة ، ولا يعرف هذا التفريق الخليلُ ولا سيبويه ولا الكسائىّ ولا الفرّاء . قال الكسائىّ : هما لغتان بمعنًى واحد ؛ كما يقال : عُصِىّ وعِصِىّ ، ولُجِىّ ولِجِىّ . وحكى الثعلبىّ عن الكسائىّ والفرّاء الفرقَ الذى ذكره أبو عمرو ، وأن الكسر بمعنى الاستهزاء

(١) فى آية ٦٣

والسخرية بالقول ، والضّم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل . وقال المبرد : إنما يؤخذ التفريق بين المعانى عن العرب ، وأما التأويل فلا يكون . والكسر فى سخرىّ فى المعنيين جميعا ؛ لأن الضمة تستثقل فى مثل هذا . ﴿ حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أى اشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكرى . ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء بهم ، وأضاف الإنساء إلى المؤمنين لأنهم كانوا سببا لاشتغالهم عن ذكره ؛ وتعدّى شؤم استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم . ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على أذاكم ، وصبروا على طاعتى . ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائىّ بكسر الهمزة على ابتداء المدح من الله تعالى لهم ، وفتح الباقون ؛ أى لأنهم هم الفائزون . ويجوز نصبه بوقوع الجزاء عليه ، تقديره : إنى جزيتهم اليوم الفوز بالجنة .

قلت : وينظر إلى معنى هذا قوله تعالى فى آخر المطفّفين : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » إلى آخر السورة ، على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . ويستفاد من هذا : التحذيرُ من السّخرية والاستهزاء بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم ، والإزراء عليهم والاشتغال بهم فيما لا يعنى ، وأن ذلك مُبْعِد من الله عز وجل .

قوله تعالى : قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ قيل : يعنى فى القبور . وقيل : هو سؤال لهم عن مدّة حياتهم فى الدنيا . وهذا السؤال للمشركين فى عَرَصات القيامة أو فى النار . ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ بفتح النون على أنه جمع مسلّم ، ومن العرب من يخفضها وينوّنها . ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أنساهم شدّةُ العذاب مدّةَ مكثهم فى القبور . وقيل : لأن العذاب رفع عنهم بين النفختين فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم . قال ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى الثانية ؛ وذلك أنه ليس من أحد قتَلَه نبىّ أو قتل نبيًّا

أو مات بحضرة نبى إلا عُذب من ساعة يموت إلى النفخة الأولى ، ثم يُمسك عنه العذاب فيكون كالماء حتى يُنفخ الثانية . وقيل : استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا وفى القبور ورأوه يسيرا بالنسبة إلى ما هم بصدده . ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ أى سل الحُسّاب الذين يعرفون ذلك فإنا قد نسيناه ، أو فاسأل الملائكة الذين كانوا معنا فى الدنيا ؛ الأول قول قتادة ، والثانى قول مجاهد . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « قل كم لبثتم فى الأرض » على الأمر . ويحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها — قولوا كم لبثتم ؛ فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمراد الجماعة ؛ إذ كان المعنى مفهوما . الثانى — أن يكون أمرًا للمَلَك ليسألهم يوم البعث عن قدر مكثهم فى الدنيا . أو أراد قل أيها الكافر كم لبثتم ، وهو الثالث . الباقون « قال كم » على الخبر ؛ أى قال الله تعالى لهم ، أو قالت الملائكة لهم كم لبثتم . وقرأ حمزة والكسائى أيضا ﴿ قل إن لبثتم إلا قليلا ﴾ الباقون « قال » على الخبر ، على ما ذكر من التأويل فى الأول ؛ أى ما لبثتم فى الأرض إلا قليلا ؛ وذلك أن مكثهم فى القبور وإن طال كان متناهيا . وقيل : هو قليل بالنسبة إلى مكثهم فى النار ؛ لأنه لا نهاية له . ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أى مهملين كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها ؛ مثل قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى »(١) يريد كالبهائم مهملا لغير فائدة . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على : إن الله تعالى خلق الخلق عبيدا ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها . فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رق الدنيا ، ملوك فى دار الإسلام ؛ وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أُبّاق سُقّاط لئام ، وغدًا أعداء فى السجون بين أطباق النيران . و « عَبَثًا » نصب على الحال عند سيبويه وقُطْرُب . وقال أبو عبيدة : هو نصب على المصدر أو لأنه مفعول له . ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ فتجازون بأعمالكم . قرأ حمزة والكسائى « تَرْجِعون » بفتح التاء وكسر الجيم من الرجوع .

(١) آية ٣٦ سورة القيامة .

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (١١٦)

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أى تنزه وتقدس الله الملك الحق عن الأولاد والشركاء والأنداد ، وعن أن يخلق شيئا عبثا أو سفها ؛ لأنه الحكيم . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ ليس فى القرآن غيرها . وقرأ ابن مُحَيْصن و روى عن ابن كثير « الكريمُ » بالرفع نعتا لله[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (١١٨)

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ أى لا حجة له عليه ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أى هو يعاقبه و يحاسبه . ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن . ﴿ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة « لا يَفْلَح » — بالفتح — من كذب وجحد ما جئت به وكفر نعمتى . ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لتقتدى به الأمة . وقيل : أمره بالاستغفار لأمته . وأسند الثعلبيّ من حديث ابن لَهِيعة عن عبد الله بن هُبيرة عن حَنَش بن عبد الله الصنعانيّ عن عبد الله بن مسعود أنه مر بمصاب مبتلًى فقرأ فى أذنه « أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثًا » حتى ختم السورة فبرأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماذا قرأت فى أذنه "؟ فأخبره، فقال : " والذى نفسى بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال " .

---

(١) فى روح المعانى : « الكريم بالرفع على أنه صفة الرب، وجوز أن يكون صفة للعرش على القطع » .

سورة النور

مدنية بالإجماع

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

مقصود هذه السورة ذِكْرُ أحكام العفاف والسِّتر . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفة : علّموا نساءكم سورة النور . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا تُنزلوا النساء الغُرَف ولا تعلموهنّ الكتابة وعلموهنّ سورة النور والغزل . ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قرئ بتخفيف الراء ؛ أى فرضنا عليكم وعلى من بعدكم ما فيها من الأحكام . وبالتشديد : أى أنزلنا فيها فرائض مختلفة . وقرأ أبو عمرو : « وفرّضناها » بالتشديد أى قطّعناها فى الإنزال نُجُماً نُجُماً . والفرض القطع؛ ومنه فُرْضة القوس . وفرائض الميراث وفرض النفقة . وعنه أيضا « فرّضناها » فصلناها و بيناها . وقيل : هو على التكثير؛ لكثرة ما فيها من الفرائض . والسورة فى اللغة اسم للمنزلة الشريفة؛ ولذلك سُمّيت السورة من القرآن سورة . قال زهير[1] :

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كلّ مَلْكٍ دونها يتذبذب

وقد مضى فى مقدّمة الكتاب القول فيها[2] . وقرئ « سورةٌ » بالرفع على أنها مبتدأ وخبرها «أنزلناها»؛ قاله أبو عبيدة والأخفش . وقال الزجاج والفرّاء والمُبرّد : « سورةٌ » بالرفع لأنها خبر الابتداء؛ لأنها نكرة ولا يبتدأ بالنكرة فى كل موضع؛ أى هذه سورة . و يحتمل أن يكون قوله « سورة » ابتداء وما بعدها صفة لها أخرجتها عن حدّ النكرة المحضة فحسن الابتداء لذلك ، و يكون الخبر فى قوله « الزَّانِيَةُ والزَّانِى » . وقرئ «سورةً» بالنصب، على تقدير أنزلنا سورة أنزلناها . وقال الشاعر[3] :

(١) كذا فى الأصول . والمعروف أن هذا البيت للنابغة الذبيانى من قصيدة يمدح بها النعمان و يعتذر .

(٢) راجع جـ١ ص٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) هو الربيع بن ضبيع بن وهب (عن شرح الشواهد الكبرى للعينى) .

والذئبَ أخشاه إن مررتُ به * وَحْدِى وأخشى الرياح والمطرا

أو تكون منصوبة بإضمار فعل؛ أى آتل سورة . وقال الفرّاء : هى حال من الهاء والألف ، والحال من المكنى يجوز أن يتقدم عليه .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلزَّانِيَـةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

فيه إحدى وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّانِى ﴾ كان الزِّنَى فى اللغة معروفا قبل الشرع ، مثل اسم السرقة والقتــل . وهو اسمٌ لوطء الرجل آمرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح بمطاوعتها . و إن شئت قلت : هو إدخال فرج فى فرج مشتهًى طبعا محرّم شرعا ؛ فإذا كان ذلك وجب الحــدّ . وقد مضى الكلام فى حدّ الزنى وحقيقته وما للعلماء فى ذلك . وهــذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين فى سورة «النساء»(١) باتفاق .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿ مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ هــذا حدّ الزانى الحر البالــغ البكر ، وكذلك الزانية البالغة البكر الحرّة . وثبت بالسُّنّة تغريب عام ؛ على الخلاف فى ذلك . وأما المملوكات فالواجب خمسون جلدة ؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »(٢) وهذا فى الأَمَة ، ثم العبدُ فى معناها . وأما المُحْصَن من الأحرار فعليه الرَّجْم دون الجلد . ومن العلماء من يقول : يجلد مائة ثم يُرْجَم . وقد مضى هذا كله ممهَّداً فى « النساء » فأغنى عن إعادته ، والحمد لله .

الثالثــــة — قرأ الجمهور «الزَّانِيَةُ والزَّانِى» بالرفع . وقرأ عيسى بن عمر الثَّقَفِىّ «الزانيةَ» بالنصب ، وهو أوجه عند سيبويه ؛ لأنه عنده كقولك : زيدا آضرب . و وجه الرفع عنده :

(١) راجع جـ ٥ ص ٨٢ وما بعدها .　　(٢) آية ٢٥ سورة النساء .

خبر ابتداء[١]، وتقديره : فيما يتلى عليكم [حكم][٢] الزانية والزانى . وأجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب . وأما الفرّاء والمبرد والزجاج فإن الرفع عندهم هو الأوجه ، والخبر فى قوله « فآجلدوا » ؛ لأن المعنى : الزانية والزانى مجلودان بحكم الله ؛ وهو قول جيد ، وهو قول أكثر النحاة . وإن شئت قدّرت الخبر : ينبغى أن يجلدا . وقرأ ابن مسعود « والزان » بغير ياء .

الرابعة — ذكر الله سبحانه وتعالى الذَّكر والأنثى ، والزانى كان يكفى منهما ؛ فقيل : ذكرهما للتأكيد ؛ كما قال تعالى : « والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فآقطعوا أيديَهما » . ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا لئلا يظن ظانّ أن الرجل لما كان هو الواطئ والمرأة محل ليست بواطئة فلا يجب عليها حدّ ؛ فذكرها رفعا لهذا الإشكال الذى أوقع جماعة من العلماء منهم الشافعيّ . فقالوا : لا كفارة على المرأة فى الوطء فى رمضان ؛ لأنه قال جامعت أهلى فى نهار رمضان ؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كفِّر" . فأمره بالكفارة ، والمرأةُ ليست بمجامعة ولا واطئة .

الخامسة — قُدّمت « الزانية » فى هذه الآية من حيث كان فى ذلك الزمان زِنَى النساء فاش ، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات ، وكنّ مجاهراتٍ بذلك . وقيل : لأن الزنى فى النساء أعر وهو لأجل الحبل أضر . وقيل : لأن الشهوة فى المرأة أكثر وعليها أغلب ؛ فصدّرها تغليظا لتَرْدَع شهوتها ، وإن كان قد رُكّب فيها حياء لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله . وأيضا فإن العار بالنساء ألحق إذ موضوعهنّ الحجب[٣] والصيانة فقدم ذكرهنّ تغليظا واهتماما .

السادسة — الألف واللام فى قوله « الزانية والزانى » للجنس ، وذلك يعطى أنها عامة فى جميع الزناة . ومن قال بالجلد مع الرجم قال : السُّنة جاءت بزيادة حكم فيقام مع الجلد . وهو قول إسحاق بن رَاهَوَيْه والحسن بن أبى الحسن ، وفعله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بشُرَاحة ، وقد مضى فى « النساء »[٤] بيانه . وقال الجمهور : هى خاصة فى البكرين ، واستدلوا على أنها غير عامة بخروج العبيد والإماء منها .

---

(١) فى هذه العبارة تساهل ؛ فان التقدير الذى ذكره يقتضى أن يكون مبتدأ محذوف الخبر ؛ كما ذكر ذلك غير واحد من المفسرين . (٢) زيادة من كتب التفسير . (٣) فى الأصول : « الجبة » . (٤) راجع ج ٥ ص ٨٧

السابعـة — نصّ الله سبحانه وتعالى [على] ما يجب على الزانيين إذا شُهد بذلك عليهما؛ على ما يأتي، وأجمع العلماء على القول به. واختلفوا فيما يجب على الرجل يوجد مع المرأة في ثوب واحد؛ فقال إسحاق بن راهويه: يضرب كل واحد منهما مائة جلدة. وروى ذلك عن عمر وعليّ، وليس يثبت ذلك عنهما. وقال عطاء وسفيان الثوريّ: يؤدّبان. وبه قال مالك وأحمد؛ على قدر مذاهبهم في الأدب. قال ابن المنذر: والأكثر ممن رأيناه يرى على من وُجد على هذه الحال الأدبَ. وقد مضى في «هود» (١) اختيار ما في هذه المسئلة، والحمد لله وحده.

الثامنـة — قوله تعالى: ﴿ فَٱجْلِدُوا ﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر والأمرُ مضارع للشرط. وقال المبرّد: فيه معنى الجزاء، أي إن زنى زانٍ فافعلوا به كذا، ولهذا دخلت الفاء؛ وهكذا «السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما».

التاسـعة — لا خلاف أن المخاطب بهذا الأمر الإمامُ ومن ناب منابه. وزاد مالك والشافعيّ: السادة في العبيد. قال الشافعيّ: في كل جلد وقطع. وقال مالك: في الجلد دون القطع. وقيل: الخطاب للمسلمين؛ لأن إقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين، ثم الإمام ينوب عنهم؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود.

العاشـرة — أجمع العلماء على أن الجلد بالسَّوْط يجب. والسَّوْط الذي يجب أن يجلد به يكون سوطا بين سَوْطين، لا شديدا ولا ليِّنًا. وروى مالك عن زيد بن أسلم أن رجلا اعترف على نفسه بالزنى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَوْط، فأتى بسَوْط مكسور، فقال: "فوق هذا" فأتى بسوط جديد لم تقطع ثمرته (٢)، فقال: "دون هذا" فأتي بسوط قد رُكب به ولان (٣). فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلد ... الحديث. قال أبو عمر: هكذا رَوى هذا الحديثَ مرسلا جميعُ

(١) كذا في الأصول، ولعله يريد سورة النساء. راجع المسألة الثانية جـ ٥ ص ٨٦

(٢) الثمرة: الطرف. يريد أن طرفه محدد لم تنكسر حدّته ولم يُخلق بعد.

(٣) يريد قد انكسرت حدّته ولم يخلق ولا بلغ من اللين مبلغا لا يألم من ضرب به. (راجع الموطأ كتاب الحدود).

رواة الموطّأ، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ بوجه من الوجوه، وقد روى معمر عن يحيى بن أبى كثير عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مثله سواء . وقد تقدّم فى «المائدة» ضرب عمر قُدامةَ(١) فى الخمر بسوط تام . يريد وَسَطًا .

الحادية عشرة — اختلف العلماء فى تجريد المجلود فى الزنى؛ فقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما : يجرّد، ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يقيها الضرب . وقال الأوزاعىّ : الإمامُ مخيّر إن شاء جَرّد وإن شاء ترك . وقال الشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ : لا يجرّد، ولكن يترك عليه قميص. قال ابن مسعود : لا يحل فى هذه الأُمّة تجريد ولا مدّ؛ وبه قال الثورىّ .

الثانية عشرة — اختلف العلماء فى كيفية ضرب الرجال والنساء؛ فقال مالك : الرجل والمرأة فى الحدود كلّها سواء، لا يقام واحد منهما؛ ولا يجزى عنده إلا فى الظهر . وأصحاب الرأى والشافعى يرون أن يُجلد الرجل وهو واقف، وهو قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقال اللّيْث وأبو حنيفة والشافعىّ : الضرب فى الحدود كلها وفى التعزير مجرّدا قائما غير ممدود؛ إلا حدّ القذف فإنه يضرب وعليه ثيابه . وحكاه المهدوىّ فى التحصيل عن مالك . وينزع عنه الحَشْوُ والفَرْو . وقال الشافعى : إن كان مدّه صلاحا مُدّ .

الثالثة عشرة — واختلفوا فى المواضع التى تضرب من الإنسان فى الحدود؛ فقال مالك : الحدود كلها لا تضرب إلا فى الظهر، وكذلك التعزير . وقال الشافعىّ وأصحابه : يُتّقَى الوجه والفرج وتضرب سائر الأعضاء؛ وروى عن علىّ . وأشار ابن عمر بالضرب إلى رِجْلَىْ أَمَة جلدها فى الزنى . قال ابن عطية : والإجماع فى تسليم الوجه والعورة والمَقَاتل . واختلفوا فى ضرب الرأس؛ فقال الجمهور : يُتّقَى الرأس . وقال أبو يوسف : يضرب الرأس . وروى عن عمر وابنه فقالا : يضرب الرأس . وضرب عمر رضى الله عنه صَبِيغًا(٢) فى رأسه وكان تعزيرا لا حدًّا . ومن حجة مالك ما أدرك عليه الناس، وقوله عليه السلام : "البينةَ وإلا حَدٌّ فى ظهرك" وسيأتى .

---

(١) فى الأصول : «الجارود» وهو تحريف؛ لأن الذى ضربه سيدنا عمر رضى الله عنه هو قدامة بن مظعون، وقد ذكر المؤلف رحمه الله تعالى قصته فى ج ٦ ص ٢٩٧ فراجعه هناك، وراجع ترجمته فى كتب الصحابة .

(٢) هو صبيغ (كأمير) بن عِسْل ، كان يعنّت الناس بالغوامض والسؤالات؛ فنفاه سيدنا عمر إلى البصرة .

الرابعــة عشرة — الضرب الذى يجب هو أن يكون مؤلما لا يَجرح ولا يَبْضَع ، ولا يُخرج الضارب يده من تحت إبطه . وبه قال الجمهور ، وهو قول علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما . وأُتِىَ عمر رضى الله عنه برجل فى حدّ فأتى بسوط بين سوطين وقال للضارب : اضرب ولا يُرى إبطك ، وأعط كلّ عضو حقه . وأتى رضى الله عنه بشارب فقال : لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة ، فبعثه إلى مطيع بن الأسود العدوىّ فقال : إذا أصبحت الغد فاضربه الحد ، فجاء عمر رضى الله عنه وهو يضربه ضربا شديدا فقال : قتلت الرجل ! كم ضربتــه ؟ فقال ستين ، فقال : أَقِصَّ عنه بعشرين . قال أبو عبيدة : « أَقِصَّ عنه بعشرين » يقول : اجعل شدّة هذا الضرب الذى ضربته قصاصا بالعشرين التى بقيت ولا تضربه العشرين . وفى هــذا الحديث من الفقه أن ضرب الشــارب ضرب خفيف . وقد اختلف العلماء فى أشد الحدود ضربا وهى :

الخامســة عشرة — فقال مالك وأصحابه والليث بن سعد : الضرب فى الحــدود كلها ســواء ، ضربٌ غير مُبَرِّح ، ضربٌ بين ضربين . وهو قول الشافعىّ رضى الله عنــه . وقال أبو حنيفة وأصحابه : التعزير أشدّ الضرب ، وضرب الزنى أشدّ من الضرب فى الخمر ، وضرب الشارب أشدّ من ضرب القذف . وقال الثَّوْرِىّ : ضرب الزنى أشــدّ من ضرب القذف ، وضرب القذف أشــدّ من ضرب الخمر . احتج مالك بورود التوقيف على عدد الجلدات ، ولم يَرِد فى شىء منها تخفيف ولا تثقيل عمن يجب التسليم له . احتج أبو حنيفة بفعل عمر ، فإنه ضرب فى التعزير ضربا أشدّ منه فى الزنى . احتج الثورىّ بأن الزنى لمــا كان أكثر عددا فى الجلدات استحال أن يكون القذف أبلغ فى النكاية . وكذلك الخمر ، لأنه لم يثبت فيه الحد إلا بالاجتهاد ، وسبيل مسائل الاجتهاد لا يقوى قوة مسائل التوقيف .

السادســة عشرة — الحــدّ الذى أوجب الله فى الزنى والخمر والقذف وغير ذلك ينبغى أن يقام بين أيدى الحكام ، ولا يقيمه إلا فضــلاء الناس وخيارهم يختــارهم الإمام لذلك . وكذلك كانت الصحابة تفعل كلما وقع لهم شىء من ذلك ، رضى الله عنهم . وسبب ذلك أنه

قيام بقاعدة شرعيــة وقُرْبةٍ تعبُّدية ، تجب المحافظة على فعلها وقدرها ومحلها وحالهـا ، بحيث لا يُتعدّى شىء من شروطها ولا أحكامها ؛ فإن دم المسلم وحرمته عظيمة ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن . روى الصحيح عن حُضين[1] بن المنـذر أبى ساسان قال : شهدت عثمان بن عفان وأتِى بالوليد قد صـلى الصبح ركعتين ثم قال : أزيدكم ؟ فشهد عليه رجلان ، أحدهما حُمران أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ؛ فقال عثمان : إنه لم يتقيأ حتى شربها ؛ فقال : يا علىّ قم فاجلده . فقال علىّ : قم يا حسن فاجلده . فقال الحسن : وَلِّ حارّها[2] من تَوَلَّى قارّها (فكأنه وَجَد عليـه) فقال : يا عبد الله بن جعفر ، قم فاجلده ؛ فجلده وعلىّ يَعُدّ ... الحديث . وقد تقدم فى المـائدة . فانظر قول عثمان للإمام علىّ : قم فاجلده .

السابعـــة عشرة — نص الله تعالى على عدد الجلد فى الزنى والقـذف ، وثبت التوقيف فى الخمر على ثمـانين من فعل عمر فى جميع الصحابة — على ما تقدم فى المـائدة[3] — فلا يجوز أن يُتعدّى الحد فى ذلك كله . قال ابن العربىّ : « وهذا ما لم يتتابع الناس فى الشر ولا احْلَوْلت لهم المعاصى ، حتى يتخـذوها ضَراوة[4] و يعطفون عليها بالهوادة فلا يتناهوا عن منكرٍ فعـلوه ؛ فحينئذ تتعين الشدّة و يزاد الحدّ لأجل زيادة الذنب . وقد أُتىَ عمر بسكران فى رمضان فضربه مائة ؛ ثمـانين حدّ الخمر وعشرين لهتـك حرمة الشهر . فهكذا يجب أن تركّب العقوبات على تغليظ الجنايات وهتك الحرمات . وقد لعب رجل بصبىّ فضربه الوالى ثلثمائة سوط فلم يغيّر [ذلك[5]] مالك حين بلغه ، فكيف لو رأى زماننا هـذا بهتك الحرمات والاستهتار بالمعاصى ، والتظاهر بالمناكر و بيع الحدود واستيفاء العبيد لها فى منصب القُضاة ، لمـات كمدا ولم يجالس أحدا ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

---

(١) بحاء مهملة مضمومة وضاد معجمة . (٢) قال النووى فى شرح هذا الحديث « الحار : الشديد المكروه ، والقارّ : البارد الهنىء الطيب . وهذا مثل من أمثال العرب ، معناه : وَلّ شدّتها وأوساخها من تولّى هنيئها ولذاتهـا ؛ والضمير عائد الى الخلافة والولاية ؛ أى كما أن عثمان وأقاربه يتولون هنىء الخلافة ويختصون به يتولون نكدها وقاذوراتها . ومعناه : ليتولّ هـذا الجلد عثمان بنفسه أو بعض خاصــة أقاربه الأدْنَيْن » .

(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٩٧ (٤) الضراوة : العادة . (٥) زيادة عن ابن العربى .

قلت : ولهذا المعنى — والله أعلم — زيد فى حد الخمر حتى آنتهى إلى ثمانين . وروى الدارَقُطْنِيّ «حدّثنا القاضي الحسين بن إسماعيل حدّثنا يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِيّ حدّثنا صفوان بن عيسى حدّثنا أسامة بن زيد عن الزهريّ قال أخبرنى عبد الرحمن بن أزهر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين وهو يتخلّل الناس يسأل عن منزل خالد بن الوليد، فأُتِى بسكران، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن عنده فضربوه بما فى أيديهم . وقال : وحَثَا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه التراب . قال : ثم أُتِيَ أبو بكر رضي الله عنه بسكران، قال : فتوخّى الذى كان مِن ضربهم يومئذ؛ فضرب أربعين . قال الزهريّ : ثم أخبرنى حميد بن عبد الرحمن عن آبن وَبَرَة الكلبي قال : أرسلنى خالد بن الوليد إلى عمر، قال فأتيته ومعه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعليّ وطلحة والزبير وهم معه متكئون فى المسجد فقلت : إن خالد بن الوليد أرسلنى إليك وهو يقرأ عليك السلام ويقول : إن الناس قد انهمكوا فى الخمر! وتحاقروا العقوبة فيه؛ فقال عمر : هم هؤلاء عندك فَسَلْهم . فقال عليّ : نراه إذا سكر هَذَى وإذا هَذَى افترى وعلى المفترى ثمانون؛ قال فقال عمر : أبلغ صاحبك ما قال . قال : فجلد خالد ثمانين وعمرُ ثمانين . قال : وكان عمر إذا أُتِى بالرجل الضعيف الذى كانت منه الذلّة ضربه أربعين . قال : وجلد عثمان أيضا ثمانين وأربعين» . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : "لو تأخر الهلال لزدتكم" كالمُنَكِّل لهم حين أبَوْا أن ينتهوا . فى رواية "لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالا يَدَع المتعمّقون تعمّقهم"(١) . وروى حامد بن يحيى عن سفيان عن مِسْعَر عن عطاء بن أبى مَرْوان أن عليًّا ضرب النجاشيّ فى الخمر مائة جلدة؛ ذكره أبو عمر ولم يذكر سببا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقةً على المحدود، ولا تخففوا الضرب من غير إيجاع؛ هذا قول جماعة أهل التفسير . وقال الشَّعْبيّ والنَّخَعِيّ وسعيد بن جُبير : «لا تأخذكم بهما رأفةٌ» قالوا

(١) الحديث ذكر فى صحيح مسلم فى (كتاب الصوم . باب النهى عن الوصال فى الصوم) . وصحيح البخارى فى (كتاب الاعتصام . باب ما يكره من التعمق والتنازع ... الخ) .

فى الضرب والجلد . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إقامة حدّ بأرضٍ خيرٌ لأهلها من مطر أربعين ليلة؛ ثم قرأ هذه الآية . والرأفة أرقّ الرحمة . وقرئ « رأَفةٌ » بفتح الألف على وزن فَعَلة . وقرئ « رآفة » على وزن فَعالة؛ ثلاث لغات، وهى كلها مصادر ، أشهرها الأولى؛ من رَؤُف إذا رَقّ ورَحِم . ويقال : رأفة ورآفة؛ مثل كَأْبة وكآبة . وقد رَأَفْتُ به ورؤُفت به . والرءوف من صفات الله تعالى : العطوفُ الرحيم .

التاســعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فِى دِينِ اللهِ ﴾ أى فى حُكم الله؛ كما قال تعالى : « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ المَلِكِ »(١) أى فى حكمه . وقيل : « فى دِينِ الله » أى فى طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحـدود . ثم قرّرهم على معنى التثبيت والحضّ بقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ . وهذا كما تقول لرجل تحضّه : إن كنت رَجلا فآفعل كذا ! أى هذه أفعال الرجال .

الموفيــة عشرين — قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيـل : لا يشهد التعذيب إلا من لا يستحق التأديب . قال مجاهد : رَجُلٌ فما فوقه إلى ألف . وقال ابن زيد : لابدّ من حضور أربعة قياسا على الشهادة على الزنى، وأن هـذا باب منه؛ وهو قول مالك والليث والشافعىّ . وقال عكرمة وعطاء : لابدّ من اثنين؛ وهـذا مشهور قول مالك، فرآها موضـع شهادة . وقال الزهرىّ : ثلاثة؛ لأنه أقلّ الجمـع . الحسن : واحد فصاعدا، وعنه عشرة . الربيع : ما زاد على الثـلاثة . وحجة مجاهد قوله تعالى : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنهم طائِفةٌ »(٢)، وقولُه : « وإِنْ طائِفتان »(٣)، ونزلت فى تقاتل رجلين؛ فكذلك قوله تعالى : « ولْيَشْهَدْ عذابَهما طائِفةٌ من المؤمِنين » . والواحد يسمى طائفة إلى الألف؛ وقاله ابن عباس وإبراهيم . وأمر أبو بَرْزَة الأسـلمىُّ بجارية له قد زنت وولدت فألق عليها ثوبا، وأمر ابنــه أن يضربها خمسين ضربة غير مُبَرِّح ولا خفيفٍ لكن مؤلم، ودعا جماعة ثم تلا « وليشهد عذابَهما طائِفةٌ من المؤمِنين » .

(١) آية ٧٦ سورة يوسف . (٢) آية ١٢٢ سورة التوبة . (٣) آية ٩ سورة الحجرات .

الحادية والعشرون — اختلف فى المراد بحضور الجماعة ، هل المقصود بها الإغلاظ على الزُّناة والتوبيخُ بحضرة النـاس ، وأن ذلك يُرْدِع المحدود ، ومن شَهِده وحضره يتّعظ به ويزدجر لأجله ، ويَشِيع حديثُه فيَعْتبر به مَن بعده ، أو الدعاء لهما بالتوبة والرحمة ؛ قولان للعلماء .

الثانية والعشرون[1] — روى عن حُذيفة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يا معاشر الناس ٱتقوا الزنى فإن فيه ستَّ خصال ثلاثا فى الدنيا وثلاثا فى الآخرة فأما اللواتى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر ويَنْقُص العمر وأما اللواتى فى الآخرة فيوجب السخط وسوء الحساب والخلود فى النار " . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أعمال أمتى تعرض علىّ فى كل جمعة مرتين فاشتد غضب الله على الزناة" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان ليلة النصف من شعبان ٱطلع الله على أمتى فغفر لكل مؤمن لا يشرك بالله شيئا إلا خمسةً ساحرا أو كاهنا أو عاقا لوالديه أو مدمِنَ خمر أو مصرًّا على الزنى " .

قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى معنى هذه الآية على ستة أوجه من التأويل :

الأول — أن يكون مقصد الآية تشنيعَ الزنى وتبشيعَ أمره ، وأنه محرّم على المؤمنين . واتصال هذا المعنى بما قبلُ حسن بليغ . ويريد بقوله « لا يَنْكِح » أى لا يطأ ؛ فيكون النكاح بمعنى الجماع . وردّد القصة مبالغة وأخذًا من كِلَا الطرفين ، ثم زاد تقسيم المشركة والمشرك من حيث الشرك أعم فى المعاصى من الزنى ؛ فالمعنى : الزانى لا يطأ فى وقت زناه إلا زانية من المسلمين ، أو من هى أخسُّ منها من المشركات . وقد روى عن ابن عباس وأصحابه أن النكاح فى هذه الآية الوطء . وأنكر ذلك الزجاج وقال : لا يعرف النكاح فى كتاب الله تعالى إلا

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر أن المسائل إحدى وعشرون مسألة .

بمعنى التزويج . وليس كما قال؛ وفى القرآن « حتى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » وقد بيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء، وقد تقدّم فى « البقرة »(١) . وذكر الطبرىّ ما يَنْحُو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة، ولكن غير مخلص ولا مكمل . وحكاه الخطابىّ عن ابن عباس، وأن معناه الوطء؛ أى لا يكون زِنًى إلا بزانية . ويفيد أنه زِنًى فى الجهتين ؛ فهـذا قول .

الثـانى — ما رواه أبو داود والترمذىّ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن مَرْثَد آبن أبى مرثد كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة بَغِىّ يقال لها « عَناق » وكانت صديقته ، قال : فجئت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، أنكح عَناق ؟ قال : فسكت عنى ؛ فنزلت « والزَّانِيَةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مُشْرِكٌ » ؛ فدعانى فقرأها علىّ وقال : " لا تنكحها " . لفظ أبى داود، وحديث الترمذى أكمل . قال الخطابىّ : هـذا خاص بهـذه المرأة إذ كانت كافرة ، فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ .

الثـالث — أنها مخصوصة فى رجل من المسلمين أيضا استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى نكاح امرأة يقال لها « أم مهزول » وكانت من بغايا الزانيات ، وشرطت أن تنفق عليه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ قاله عمرو بن العاصى ومجاهد .

الرابـع — أنها نزلت فى أهل الصُّفّة ، وكانوا قوما من المهاجرين، ولم يكن لهم فى المدينة مساكن ولا عشائر فنزلوا صُفّة المسجد ، وكانوا أربعمائة رجل يلتمسون الرزق بالنهار ويأوون إلى الصّفة بالليل ، وكان بالمدينة بغايا متعالنات بالفجور ، مخاصيب بالكُسْوة والطعام ؛ فهمّ أهـل الصفة أن يتزوّجوهنّ فيأووا إلى مساكنهنّ ويأكلوا من طعامهنّ وكسوتهنّ ؛ فنزلت هذه الآية صيانةً لهم عن ذلك ؛ قاله آبن أبى صالح .

الخـامس — ذكره الزجاج وغيره عن الحسن ، وذلك أنه قال : المراد الزانى المحـدودُ والزانيةُ المحدودة ، قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوّج إلا محدودة .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٤٦

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ نحوه . وفي مصنَّف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينكح الزاني المحدودُ إلا مثله " . وروى أن محدودا تزوّج غير محدودة ففرّق عليّ رضي الله عنه بينهما . قال ابن العربي : وهذا معنًى لا يصح نظرا كما لم يثبت نقلا، وهل يصح أن يوقف نكاح من حُدّ من الرجال على نكاح من حُدّ من النساء! فبأيّ أثر يكون ذلك، وعلى أيّ أصل يقاس من الشريعة !

قلت — وحكى هذا القول الكِيَا عن بعض أصحاب الشافعي المتأخرين، وأن الزاني إذا تزوج غير زانية فُرّق بينهما لظاهر الآية . قال الكِيَا : وإنْ هو عمل بالظاهر فيلزمه عليه أن يجوز للزاني التزوج بالمشركة، ويجوز للزانية أن تزوج نفسها من مشرك؛ وهذا في غاية البعد، وهو خروج عن الإسلام بالكلية، وربما قال هؤلاء : إن الآية منسوخة في المشرك خاصّةً دون الزانية .

السادس — أنها منسوخة؛ روى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب قال: « الزاني لا ينكح إلا زانيةً أو مشركةً والزانيةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ » قال : نسخت هذه الآيةَ التي بعدها « وأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم »(١)؛ وقاله ابن عمرو، قال: دخلت الزانية في أيامى المسلمين . قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء . وأهل الفُتْيا يقولون : إنّ من زنى بآمرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها . وهو قول ابن عمر وسالم وجابر ابن زيد وعطاء وطاوس ومالك بن أنس، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . وقال الشافعيّ : القول فيها كما قال سعيد بن المسيّب، إن شاء الله هي منسوخة . قال ابن عطية : وذِكْرُ الإشراك في هذه الآية يضعف هذه المناحي . قال ابن العربيّ : والذي عندي أن النكاح لا يخلو أن يراد به الوطء كما قال ابن عباس أو العقد؛ فإن أريد به الوطء فإن معناه : لا يكون زنًى إلا بزانية، وذلك عبارة عن أن الوطأين من الرجل والمرأة زنًى من الجهتين؛ ويكون تقدير الآية : وطءُ الزانية لا يقع إلا من زان أو مشرك؛ وهذا يؤثر عن ابن عباس، وهو معنى صحيح .

(١) آية ٣٢ من هذه السورة .

فإن قيل : فإذا زنى بالغ بصبية، أو عاقل بمجنونة، أو مستيقظ بنائمة فإن ذلك من جهة الرجل زنى ؛ فهذا زانٍ نكح غير زانيـة ، فيخرج المراد عن بابه الذى تقدم . قلنا : هو زنًى من كل جهة، إلا أن أحدهما سقط فيه الحـد والآخر ثبت فيه . وإن أريد به العقـد كان معناه : أن متزوج الزانية التى قد زنت ودخل بها ولم يستبرئها يكون بمنزلة الزانى ، إلا أنه لا حدّ عليه لاختلاف العلماء فى ذلك . وأما إذا عقد عليها ولم يدخل بها حتى يستبرئها فذلك جائز إجماعا. وقيل : ليس المراد فى الآية أن الزانى لا ينكح قطّ إلا زانية ؛ إذ قـد يتصوّر أن يتزوج غير زانيـة ، ولكن المعنى أن من تزوج بزانية فهو زان ؛ فكأنه قال : لا ينكح الزانيةَ إلا زانٍ؛ فقلَب الكلام ، وذلك أنه لا ينكح الزانية إلا وهو راض بزناها ، وإنما يرضى بذلك إذا كان هو أيضا يزنى .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على أن التزوج بالزانية صحيح . وإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته؛ وهذا على أن الآية منسوخة . وقيل إنها محكمة . وسيأتى .

الثالثـــة — روى أن رجلا زنى بامرأة فى زمن أبى بكر رضى الله عنه فجلدهما مائة جلدة، ثم زوّج أحدَهما من الآخر مكانه، ونفاهما سنة . وروى مثل ذلك عن عمر وابن مسعود وجابر رضى الله عنهم . وقال ابن عباس : أوله سفاح وآخره نكاح . ومَثَلُ ذلك مَثَلُ رجل سَرَق من حائط ثمره ثم أتى صاحبَ البستان فآشترى منه ثمره [(1)] ؛ فما سَرَق حرام وما اشترى حلال . وبهذا أخذ الشافعىّ وأبو حنيفة، ورأوا أن المـاء لا حرمة له . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعـد ذلك فهما زانيان أبدا . وبهـذا أخذ مالك رضى الله عنه ؛ فرأى أنه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسـد ؛ لأن النكاح له حرمة ، ومن حرمته ألا يُصَبّ على ماء السِّـفاح ؛ فيختلط الحـرام بالحـلال ، ويمتزج ماء المهـانة بمـاء العـزّة .

(١) عبارة ابن العربى كما فى أحكامه : « مثل رجل سرق ثمرة ثم اشتراها » .

الرابعــة — قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : من كان معروفا بالزنى أو بغيره من الفسوق مُعْلِنًا به فتزوج إلى أهل بيت ستر وغَرّهم من نفسه فلهم الخيار في البقاء معه أو فراقه؛ وذلك كعَيْب من العيوب ، وآحتج بقوله عليه السلام : " لا ينكح الزاني المجلودُ إلا مثله " . قال ابن خُوَيْزمنداد : و إنما ذكر المجلود لاشتهاره بالفسق؛ وهو الذي يجب أن يفرّق بينه و بين غيره؛ فأما من لم يشتهر بالفسق فلا .

الخامســة — قال قوم من المتقدمين : الآية محكمة غير منسوخة . وعند هؤلاء : من زنى فسد النكاح بينه و بين زوجته ، و إذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها . وقال قوم من هؤلاء : لا ينفسخ النكاح بذلك ، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت ، ولو أمسكها أثم ، ولا يجوز التزوّج بالزانيـة ولا من الزاني ، بل لو ظهرت التوبة فحينئذ يجـوز النكاح .

السادســة — ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي نكاح أولئك البغايا؛ فيزعم بعض أهل التأويل أن نكاح أولئك البغايا حرّمه الله تعالى على أمة محمد عليه السلام، ومن أشهرهن عَناق.

السابعــة — حرم الله تعالى الزنى في كتابه؛ فحيثما زنى الرجل فعليه الحدّ . وهذا قول مالك والشافعيّ وأبي ثَوْر . وقال أصحاب الرأي في الرجل المسلم إذا كان في دار الحرب بأمان وزنى هنالك ثم خرج لم يحدّ . قال ابن المنذر : دار الحرب ودار الإسلام سواء ، ومن زنى فعليـه الحد؛ على ظاهر قوله « الزانيةُ والزاني فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائةَ جلدة » .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

فيه ست وعشرون مسئلة :

الأولى — هذه الآية نزلت فى القاذفين. قال سعيد بن جُبير: كان سببها ما قيل فى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها. وقيل: بل نزلت بسبب القَذَفة عامًّا لا فى تلك النازلة. وقال ابن المنذر: لم نجد فى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا يدل على تصريح القذف، وظاهر كتاب الله تعالى مستغنًى به، دالًّا على القذف الذى يوجب الحدّ، وأهل العلم على ذلك مجمعون.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ يريد يسبُّون، وٱستعير له اسم الرَّمْى لأنه اذاية بالقول؛ كما قال النابغة :

* وجرح اللسان كجرح اليد *

وقال آخر :

رَمَانِى بأمْرٍ كنتُ منه ووالدِى * بريئا ومن أجْلِ الطَّوِىّ رمانِى[1]

ويسمّى قذفا؛ ومنه الحديث : إن ابن أميّة قذف امرأته بشريك بن السَّحماء؛ أى رماها.

الثالثــة — ذكر الله تعالى فى الآية النساء من حيث هنّ أهم[2]، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس. وقَذْفُ الرجال داخل فى حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك. وهذا نحو نصّه على تحريم لحم الخنزير ودخل شحمه وغضاريفه، ونحو ذلك بالمعنى والإجماع. وحكى الزَّهراوِىّ أن المعنى : والأنفس المحصنات؛ فهى بلفظها تعم الرجال والنساء، ويدل على ذلك قوله : «والمُحْصَنَاتُ مِن النساءِ»[3]. وقال قوم : أراد بالمحصنات الفروج؛ كما قال تعالى : «والَّتِى أحْصَنَتْ فَرْجَهَا»[4] فيدخل فيه فروج الرجال والنساء. وقيل : إنما ذكر المرأة الأجنبية إذا قُذفت ليعطف عليها قذف الرجل زوجته؛ والله أعلم. وقرأ الجمهور «المحصَناتُ» بفتح الصاد، وكَسَرها يحيى بن وثّاب. والمحصَنات العفائف فى هذا الموضع. وقد مضى فى «النساء» ذكر الإحصان[5] ومراتبه. والحمد لله.

(١) البيت لابن أحمر. والطوى : البئر. (٢) فى الأصول : «من حيث هو أهم». وعبارة البحر المحيط لأبى حيان أبين؛ وهى : «وخص النساء بذلك وان كان الرجال يشركونهن فى الحكم لأن القـذف فيهن أشنع وأنكر للنفوس، ومن حيث هن هوى الرجال» الخ. (٣) آية ٢٤ سورة النساء. (٤) آية ٩١ سورة الأنبياء. (٥) راجع جـ ٥ ص ١٣٩ وما بعدها.

الرابعــة — للقذف شروط عند العلماء تسعة : شرطان في القاذف، وهما العقل والبلوغ ؛ لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما . وشرطان في الشيء المقذوف به ، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد ، وهو الزنى واللواط ؛ أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصي . وخمسة في المقذوف ،وهي العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رُمِيَ بها كان عفيفا من غيرها أم لا . وإنما شرطنا في المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما في القاذف وإن لم يكونا من معاني الإحصان لأجل أن الحدّ إنما وضع للزجر عن الإذاية بالمضرة الداخلة على المقذوف . ولا مضرّة على من عدم العقل والبلوغ ؛ إذ لا يوصف اللواط فيهما ولا منهما بأنه زنًى .

الخامســة — اتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان قذفا ورَمْيًا موجبا للحدّ ، فإن عرّض ولم يُصرّح فقال مالك : هو قذف . وقال الشافعيّ وأبو حنيفة : لا يكون قذفا حتى يقول أردت به القذف . والدليل لمـا قاله مالك هو أن موضوع الحدّ في القذف إنما هو لإزالة المعرّة التي أوقعها القاذف بالمقذوف ، فإذا حصلت المعرّة بالتعريض وجب أن يكون قـذفا كالتصريح والمعـوّل على الفهم ؛ وقـد قال تعـالى مخبرا عن شعيب : « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أي السـفيه الضال ؛ فعرّضوا له بالسب بكلام ظاهره المدح في أحد التأويلات، حسبما تقدم في هـود[1] . وقال تعالى في أبي جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ[2] » . وقال حكاية عن مريم : « يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا[3] » ؛ فمدحوا أباها ونفَـوْا عن أمها البغـاء ، أي الزنى ، وعرّضـوا لمريم بذلك ؛ ولذلك قال تعـالى : « وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا[4] » ، وكفرُهم معروف ، والبهتان العظيم هو التعريض لها ؛ أي ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ، أي أنت بخلافهما وقد أتيْتِ بهذا الولد . وقال تعـالى : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُـدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[5] » ؛ فهذا اللفظ قد فُهِم منه أن المراد به أن الكفار على غير هدًى ، وأن الله تعالى ورسوله على الهُدَى ؛ ففُهِم من هذا التعريض ما يفهم من صريحه . وقد حبس عمر رضي الله عنه الحُطيئة لمـا قال :

---

(١) راجـع جـ ٩ ص ٨٧ طبعة أولى أو ثانيـة . (٢) آية ٤٩ سـورة الدخان .
(٣) آية ٢٨ سورة مريم . (٤) آية ١٥٦ سورة النساء . (٥) آية ٢٤ سورة سبأ .

دَعِ المكارِمَ لا ترحــل لبُغْيتها * وآقعد فإنك أنت الطّاعِمُ الكاسِى

لأنه شبهه بالنساء فى أنهن يُطْعَمْن ويُسقين ويُكسون . ولما سمع قول النجاشىّ :

قبيلتــه لا يغدرون بذمة * ولا يظلمون الناس حَبّة خَرْدَلِ

قال : ليت الخطّاب كذلك ؛ وإنما أراد الشاعر ضعف القبيلة ؛ ومثله كثير .

السادســة — الجمهور من العلماء على أنه لا حدّ على من قذف رجلا من أهل الكتاب أو آمرأة منهم . وقال الزُّهرىّ وسعيد بن المسيِّب وآبن أبى لَيْلَى : عليه الحدّ إذا كان لها ولد من مسلم . وفيه قول ثالث — وهو أنه إذا قذف النصرانية تحت المسلم جُلِد الحدّ . قال آبن المنذر : وجُلّ العلماء مجمعون وقائلون بالقول الأوّل ، ولم أدرك أحدا ولا لقيته يخالف فى ذلك . وإذا قذف النصرانىّ المسلمَ الحرّ فعليه ما على المسلم ثمانون جلدة ؛ لا أعلم فى ذلك خلافا .

السابعــة — والجمهور من العلماء على أن العبد إذا قذف حُرًّا يجلد أربعين ؛ لأنه حدٌّ يتشطّر بالرق كحدّ الزنى . وروى عن ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقَبِيصة بن ذؤيب يجلد ثمانين . وجلد أبو بكر بن محمد عبدا قذف حرا ثمانين ؛ وبه قال الأوزاعىّ . احتج الجمهور بقول الله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ »(1) . وقال الآخرون : فهمنا هناك أن حدّ الزنى لله تعالى ، وأنه ربما كان أخفَّ فيمن قلّت نعم الله عليه ، وأفحش فيمن عظمت نعم الله عليه . وأما حدّ القذف فحق للآدمىّ وجب للجناية على عرض المقذوف ، والجناية لا تختلف بالرقّ والحرية . وربما قالوا : لو كان يختلف لذُكِر كما ذُكِر فى الزنى . قال ابن المنذر : والذى عليه علماء الأمصار القولُ الأوّل ، وبه أقول .

الثامنــة — وأجمع العلماء على أن الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه ؛ لتباين مرتبتهما ، ولقوله عليه السلام : " من قذف مملوكه بالزنى أقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلا أن يكون كما قال" خرّجه البخارىّ ومسلم . وفى بعض طرقه : " من قذف عبده بزنًى ثم لم يُثْبت أقيم

(1) آية ٢٥ سورة النساء .

عليه يوم القيامة الحدّ ثمانون" ذكره الدّارَقُطْنِيّ . قال العلماء : وإنما كان ذلك في الآخرة لارتفاع المِلْك واستواء الشريف والوضيع والحرّ والعبد، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ؛ ولما كان ذلك تكافأ الناس في الحدود والحرمة ، واقتُصّ من كل واحد لصاحبه إلا أن يعفو المظلوم عن الظالم . وإنما لم يتكافئوا في الدنيا لئلا تدخل الداخلة على المالكين في مكافأتهم لهم، فلا تصح لهم حرمة ولا فضل في منزلة، وتبطل فائدة التسخير ؛ حكمةً من الحكيم العليم، لا إله إلا هو .

التاسعة — قال مالك والشافعيّ : من قذف من يحسبه عبدا فإذا هو حر فعليه الحدّ ؛ وقاله الحسن البصريّ واختاره ابن المنذر . قال مالك : ومن قذف أمّ الولد حُدّ؛ وروى عن ابن عمر، وهو قياس قول الشافعيّ . وقال الحسن البصريّ : لا حدّ عليه .

العاشرة — واختلف العلماء فيمن قال لرجل : يا من وطئ بين الفخذين ؛ فقال ابن القاسم : عليه الحدّ؛ لأنه تعريض . وقال أشهب : لا حدّ فيه؛ لأنه نسبة إلى فعلٍ لا يعدّ زنًى إجماعا .

الحادية عشرة — إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفا عند مالك . وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأبو ثور : ليس بقذف ؛ لأنه ليس بزنًى إذ لا حدّ عليها، ويعزّر . قال ابن العربيّ : والمسئلة محتملة مشكلة، لكن مالك طلب(1) حماية عرض المقذوف ، وغيرُه راعى حمايةَ ظهر القاذف ؛ وحمايةُ عرض المقذوف أولى ؛ لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزمه الحدّ . قال ابن المنذر : وقال أحمد في الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذلك الصبيّ إذا بلغ عشرا ضُرب قاذفه . قال إسحاق : إذا قذف غلاما يطأ مثلُه فعليه الحدّ، والجارية إذا جاوزت تسعا مثل ذلك . قال ابن المنذر : لا يحدّ من قَذف من لم يبلغ؛ لأن ذلك كذب، ويعزّر على الأذى . قال أبو عبيد : في حديث عليّ رضي الله عنه أن امرأة جاءته فذكرت أن زوجها يأتي جاريتها فقال : إن كنتِ صادقةً رجمناه وإن كنت كاذبة

---

(1) في ابن العربي : «غلب» .

جلدناك . فقالت : رُدّونى إلى أهلى غَيْرَى نَغِرَة (١) . قال أبو عبيد : فى هـذا الحديث من الفقه أن على الرجل إذا واقع جارية امرأته الحدّ .

وفيه أيضا إذا قذفه بذلك قاذف كان على قاذفه الحـد ؛ ألا تسمع قوله : وإن كنتِ كاذبة جلدناك . ووجه هذا كله إذا لم يكن الفاعل جاهلا بما يأتى وبما يقول ، فإن كان جاهلا وادّعى شُبهة دُرِئ عنه الحدّ فى ذلك كله .

وفيه أيضـا أن رجلا لو قذف رجلا بحضرة حاكم وليس المقـذوف بحاضر أنه لا شىء على القاذف حتى يجىء فيطلب حدّه ؛ لأنه لا يدرى لعله يصدّقه ؛ ألا ترى أن عليّاً عليه السلام لم يعرض لهـا .

وفيه أن الحاكم إذا قُذف عنـده رجل ثم جاء المقذوف فطلب حقه أخذه الحاكم بالحدّ بسماعه ؛ ألا تراه يقول : وإن كنتِ كاذبة جلدناك ؛ وهذا لأنه من حقوق الناس .

قلت : اختلف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميين ؛ وسيأتى . قال أبو عبيد : قال الأصمعى سألنى شعبة عن قوله «غَيْرَى نَغِرة» ؛ فقلت له : هو مأخوذ من نَغَرِ القِدْر ، وهو غليانها وفَوْرُها ؛ يقال منـه : نَغِرت تَنْغَر ، ونَغَرت تَنْغِر إذا غلت . فمعناه أنهـا أرادت أن جوفها يَغْلِى من الغيظ والغَيْرة لمـّا لم تجد عنده ما تريد . قال : ويقال منه رأيت فلانا يتنغّر على فلان ؛ أى يغلى جوفه عليه غيظا .

الثانية عشرة — من قذف زوجة من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم حُدّ حدّين ؛ قاله مسروق . قال ابن العربى : والصحيح أنه حدّ واحد ؛ لعموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ » الآية ، ولا يقتضى شرفُهن زيادة فى حدّ من قذفهن ؛ لأن شرف المنزلة لا يؤثّر فى الحدود ، ولا نقصها يؤثر فى الحدّ بتنقيص . والله أعلم . وسيأتى الكلام فيمن قذف عائشة رضى الله عنها ، هل يقتل أم لا .

الثالثة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَـةِ شُهَدَاءَ ﴾ الذى يفتقر إلى أربعـة شهداء دون سائر الحقوق هو الزنى ؛ رحمةً بعباده وسترا لهم . وقد تقدّم فى سورة النساء (٢) .

(١) سيأتى الكلام على هذه الكلمة بعد قليل . (٢) راجع جـ ٥ ص ٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة عشرة — من شرط أداء الشهود الشهادة عند مالك رحمه الله أن يكون ذلك في مجلس واحد ؛ فإن افترقت لم تكن شهادة . وقال عبد الملك : تقبل شهادتهم مجتمعين ومفترقين . فرأى مالك أن اجتماعهم تعبّد ؛ و به قال ابن الحسن . ورأى عبد الملك أن المقصود أداء الشهادة واجتماعها وقد حصل ؛ وهو قول عثمان البَتّيّ وأبي ثَوْر واختاره ابن المنذر لقوله تعالى : « ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » وقوله : « فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ » ولم يذكر مفترقين ولا مجتمعين .

الخامسة عشرة — فإن تمت الشهادة إلا أنهم لم يُعَدَّلوا ؛ فكان الحسن البصريّ والشَّعْبيّ يَرَيان أن لا حدّ على الشهود ولا على المشهود ؛ و به قال أحمد والنّعمان ومحمد بن الحسن . وقال مالك : إذا شهد عليه أربعة بالزنى فإن كان أحدهم مسقوطا عليه أو عبدا يجلدون جميعا . وقال سفيان الثوريّ وأحمد و إسحاق في أربعة عميان يشهدون على امرأة بالزنى : يضربون .

السادسة عشرة — فإن رجع أحد الشهود وقد رُجم المشهود عليه في الزنى ؛ فقالت طائفة : يَغْرَم ربع الدية ولا شيء على الآخرين . وكذلك قال قتادة وحماد وعكرمة وأبو هاشم ومالك وأحمد وأصحاب الرأي . وقال الشافعيّ : إن قال عمدت ليقتل ؛ فالأولياء بالخيار إن شاءوا قتلوا و إن شاءوا عفوْا وأخذوا ربع الدية ، وعليه الحدّ . وقال الحسن البصريّ : يقتل ، وعلى الآخرين ثلاثة أرباع الدية . وقال ابن سِيرين : إذا قال أخطأت وأردت غيره فعليه الدية كاملة ، و إن قال تعمّدت قتل ؛ و به قال ابن شُبْرُمَة .

السابعة عشرة — واختلف العلماء في حدّ القذف هل هو من حقوق الله أو من حقوق الآدميّين أو فيه شائبة منهما ؛ الأول — قول أبي حنيفة . والثاني — قول مالك والشافعيّ . والثالث — قاله بعض المتأخرين . وفائدة الخلاف أنه إن كان حقا لله تعالى و بلغ الإمام أقامه و إن لم يَطلب ذلك المقذوفُ ، ونفعت القاذف التوبةُ فيما بينه و بين الله تعالى ، و يتشطّر فيه الحدّ بالرق كالزنى . و إن كان حقا للآدمي فلا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ، و يسقط بعفوه ، ولم تنفع القاذفَ التوبةُ حتى يحلله المقذوف .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ قراءة الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء . وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وأبو زُرعة بن عمرو بن جرير « بِأربعةٍ » (بالتنوين) « شُهَدَاءَ » . وفيه أربعة أوجه : يكون فى موضع جر على النعت لأربعة ، أو بدلا . ويجوز أن يكون حالا من نكرة أو تمييزا ؛ وفى الحال والتمييز نظر ؛ إذ الحال من نكرة ، والتمييز مجموع . وسيبويه يرى أنه تنوين العدد ، وتركُ إضافته إنما يجوز فى الشعر . وقد حسّن أبو الفتح عثمان ابن جنّى هذه القراءة وحبب (١) على قراءة الجمهور . قال النحاس : ويجوز أن يكون « شهداء » فى موضع نصب ؛ بمعنى ثم لم يحضروا أربعة شهداء .

التاسعة عشرة — حكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينة يرَوْن ذلك كالمِرْوَد فى المُكْحُلة ؛ على ما تقدّم فى « النساء » (٢) فى نص الحديث . وأن تكون فى موطن واحد ؛ على قول مالك . وإن ٱضطرب واحد منهم جُلد الثلاثة ؛ كما فعل عمر فى أمر المغيرة بن شعبة ؛ وذلك أنه شَهد عليه بالزنى أبو بكرة نُفَيع بن الحارث وأخوه نافع ؛ وقال الزهراوى : عبد الله بن الحارث ، وزياد أخوهما لأم وهو مستلحق معاوية ، وشبل بن معبد البَجَلى ، فلما جاءوا لأداء الشهادة وتوقف زياد ولم يؤدها ، جلد عمر الثلاثةَ المذكورين .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ﴾ الجلد الضرب . والمجالدة المضاربة فى الجلود أو بالجلود ؛ ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف أو غيره . ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرًا * كأن يَدِى بالسيف مِخْراق لاعبِ

﴿ ثَمَانِينَ ﴾ نصب على المصدر . ﴿ جَلْدَةً ﴾ تمييز . ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ هذا يقتضى مدة أعمارهم ، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون ؛ أى خارجون عن طاعة الله عز وجل .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ فى موضع نصب على الاستثناء . ويجوز أن يكون فى موضع خفض على البدل . والمعنى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا إلا الذين تابوا وأصلحوا من بعد القذف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فتضمنت الآية ثلاثة أحكام فى القاذف :

---

(١) وردت هذه الكلمة مضطربة فى نسخ الأصل ؛ ففى نسخة « خبث » وفى أخرى « وجبت » وفى رابعة « وجيبت » .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٨٣

جلده، وردّ شهادته أبدا، وفسقه. فالاستثناء غير عامل فى جلده بإجماع؛ إلا ما روى عن الشَّعْبِيّ على ما يأتى. وعاملٌ فى فسقه بإجماع. واختلف الناس فى عمله فى ردّ الشهادة؛ فقال شُريح القاضى وإبراهيم النَّخَعِيّ والحسن البصرىّ وسفيان الثَّوْرىّ وأبو حنيفة: لا يعمل الاستثناء فى ردّ شهادته، وإنما يزول فسقه عند الله تعالى. وأما شهادة القاذف فلا تقبل ألبتة ولو تاب وأكذب نفسه ولا بحال من الأحوال. وقال الجمهور: الاستثناء عامل فى رد الشهادة، فإذا تاب القاذف قُبلت شهادته؛ وإنما كان ردها لعلّة الفسق فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته مطلقا قبل الحدّ وبعده، وهو قول عامة الفقهاء. ثم اختلفوا فى صورة توبته؛ فمذهب عمر بن الخطاب رضى الله عنه والشّعبِيّ وغيره، أن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى حُدّ فيه. وهكذا فعل عمر؛ فإنه قال للذين شهدوا على المغيرة: من أكذب نفسه أَجَزْت شهادته فيما استقبل، ومن لم يفعل لم أُجِز شهادته؛ فأكذب الشِّبل بن معبد ونافع بن الحارث بن كَلَدة أنفسهما وتابا، وأبى أبو بكرة أن يفعل؛ فكان لا يقبل شهادته. وحكى هذا القول النحاس عن أهل المدينة. وقالت فرقة — منها مالك رحمه الله تعالى وغيره —: توبته أن يَصْلُح ويَحْسُن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب؛ وحسبه الندم على قذفه والاستغفارُ منه وترك العوْد إلى مثله؛ وهو قول ابن جرير. ويروى عن الشّعبِيّ أنه قال: الاستثناء من الأحكام الثلاثة، إذا تاب وظهرت توبته لم يُحدّ وقبلت شهادته وزال عنه التفسيق؛ لأنه قد صار ممن يُرْضَى من الشهداء؛ وقد قال الله عز وجل: «وإنى لَغَفّارٌ لِمَن تاب»(1) الآية.

الثانية والعشرون — اختلف علماؤنا رحمهم الله تعالى متى تسقط شهادة القاذف؛ فقال ابن الماجِشُون: بنفس قذفه. وقال ابن القاسم وأشهب وسُحْنون: لا تسقط حتى يجلد؛ فإن مَنع من جلده مانعُ عفوٍ أو غيره لم تردّ شهادته. وقال الشيخ أبو الحسن اللَّخْمِيّ: شهادته فى مدة الأجل موقوفة؛ ورجّح القول بأن التوبة إنما تكون بالتكذيب فى القذف، وإلا فأىّ رجوع لعَدْل إن قَذف وحُدّ وبقى على عدالته.

(1) آية ٨٢ سورة طـه.

الثالثة والعشرون — واختلفوا أيضا على القول بجواز شهادته بعد التوبة فى أى شىء تجوز؛ فقال مالك رحمه الله تعالى : تجوز فى كل شىء مطلقا؛ وكذلك كل من حُدّ فى شىء من الأشياء؛ رواه نافع وابن عبد الحكم عن مالك، وهو قول ابن كنانة . وذكر الوَقَار(١) عن مالك أنه لا تقبل شهادته فيما حُدّ فيه خاصة، وتقبل فيما سوى ذلك؛ وهو قول مُطَرِّف وابن الماجِشُون . وروى العُتْبِىّ عن أَصْبَغ وسُحْنون مثله . قال سُحْنون : من حُدّ فى شىء من الأشياء فلا تجوز شهادته فى مثل ما حدّ فيه . وقال مُطَرِّف وابن الماجشون : من حدّ فى قذف أو زِنًى فلا تجوز شهادته فى شىء من وجوه الزنى، ولا فى قذف ولا لِعان وإن كان عدلا؛ ورو ياه عن مالك . واتفقوا على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز فى الزنى .

الرابعة والعشرون — الاستثناء إذا تعقّب جُمَلا معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعىّ وأصحابهما . وعند أبى حنيفة وجُلّ أصحابه يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق؛ ولهذا لا تقبل شهادته، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة .

وسبب الخلاف فى هذا الأصل سببان : أحدهما — هل هذه الجمل فى حكم الجملة الواحدة للعطف الذى فيها، أو لكل جملة حكمُ نفسها فى الاستقلال وحرفُ العطف محسّن لا مُشْرِك، وهو الصحيح فى عطف الجمل؛ لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض، على ما يعرف من النحو .

السبب الثانى — يشبه الاستثناء بالشرط فى عوده إلى الجمل المتقدمة، فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء، أولا يُشَبَّه به، لأنه من باب القياس فى اللغة وهو فاسد على ما يعرف فى أصول الفقه . والأصل أن كل ذلك محتمَل ولا ترجيح، فتعيّن ما قاله القاضى من الوقف . ويتأيّد الإشكال بأنه قد جاء فى كتاب الله عز وجل كِلَا الأمرين؛ فإن آية المحاربة فيها عود الضمير إلى الجميع باتفاق، وآية قتل المؤمن خطأ فيها ردّ الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق، وآية القذف محتملة للوجهين، فتعيّن الوقف من غير مَيْن . قال علماؤنا : وهذا نظر

(١) الوقار (كسحاب) : لقب زكريا بن يحيى الفقيه المصرى .

كلي أصــولى . ويترجح قول مالك والشافعى رحمهما الله من جهة نظر الفقــه الجزئى بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهى[1] عن قبــول الشهادة جميعا إلا أن يفــرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له . وأجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الكفر ، فيجب أن يكون ما دون ذلك أولى ؛ والله أعلم . قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقــة ؛ قال : وليس مَن نسب إلى الزنى بأعظم جرما من مرتكب الزنى ، ثم الزانى إذا تاب قبلت شهادته ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ؛ مع أن مثل هــذا الاستثناء موجود فى مواضع من القرآن ؛ منهــا قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ — إلى قوله — إلا الذين تَابُوا[2] » . ولا شك أن هذا الاستثناء إلى الجميع ؛ وقال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرما من الكافر، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهــادته . قال : وقوله « أَبَدًا » أى ما دام قاذفا ؛ كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبدا ؛ فإن معناه ما دام كافرا . وقال الشَّعْبِي للمخالف فى هذه المسألة : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهــادته ! ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجمــلة الأخيرة عند أقوام من الأصوليين فقوله : « وأولئك هم الفاسِقون » تعليل لا جملة مستقلة بنفسها ؛ أى لا تقبلوا شهادتهم لفسقهم ، فإذا زال الفسق فلمَ لا تقبــل شهادتهم . ثم توبة القاذف إكذابه نفسه ، كما قال عمر لقَذَفة المغيرة بحضرة الصحابة من غير نكير ، مع إشاعة القضية وشهرتهــا من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار . ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يجــز أن يذهب علم ذلك عن الصحابة ، ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف أبدا ، ولم يسعهم السكوت عن القضاء بتحريف تأويل الكتاب ؛ فسقط قولهم ، والله المستعان .

الخامســة والعشرون — قال القشيرى : ولا خلاف أنه إذا لم يجلد القاذف بأن مات المقذوف قبل أن يطالب القاذفَ بالحدّ ، أو لم يرفع إلى السلطان ، أو عفا المقذوف ، فالشهادة مقبولة ؛ لأن عند الخصم فى المسألة النهى عن قبول الشهادة معطوف على الجلد ؛ قال الله تعالى :

(١) عبارة الأصل : « الاستثناء راجع الى الفسق والتوبة جميعا ... » والتصويب عن كتب الفقه .
(٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

« فاجلدوهم ثمانين جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبدا » . وعند هذا قال الشافعىّ : هو قبل أن يُحَدّ شرّ منه حين حُدّ ؛ لأن الحدود كفارات فكيف تردّ شهادته فى أحسن حاليه دون أخسهما .

قلت : هكذا قال ولا خلاف . وقد تقدم عن ابن الماجشون أنه بنفس القذف تردّ شهادته . وهو قول الليث والأوزاعىّ والشافعىّ : تردّ شهادته وإن لم يحدّ ؛ لأنه بالقذف يفسق ، لأنه من الكبائر فلا تقبل شهادته حتى تصح براءته بإقرار المقذوف له بالزنى أو بقيام البينة عليه .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ يريد إظهار التوبة . وقيل : وأصلحوا العمل . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث تابوا وقبل توبتهم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

فيه ثلاثون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾ «أنفُسُهم» بالرفع على البدل . ويجوز النصب على الاستثناء ، وعلى خبر « يكن » . ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ بالرفع قراءة الكوفيين على الابتداء والخبر ؛ أى فشهادة أحدهم التى تزيل عنه حدّ القذف أربع شهادات . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو « أربعَ » بالنصب ؛ لأن معنى « فشهادةُ » أن يشهد ؛ والتقدير : فعليهم أن يشهد أحدهم أربعَ شهادات ، أو فالأمر أن يشهد أحدهم أربع شهادات ؛ ولا خلاف فى الثانى أنه منصوب بالشهادة . ﴿ وَالْخَامِسَةُ ﴾ رفع بالابتداء .

والخــبر « أنّ » وصلتها ؛ ومعنى المخففة كمعنى المثقلة لأن معناها أنه . وقرأ أبو عبـد الرحمن وطلحة وعاصم فى رواية حفص «والخامِسةَ» بالنصب، بمعنى وتشهد الشهادة الخامسة . الباقون بالرفع على الابتداء، والخبر فى « أنّ لعنةَ اللهِ عليهِ » ؛ أى والشهادة الخامسة قوله لعنة الله عليه.

الثانيــة — فى سبب نزولهـا، وهو ماروه أبو داود عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بشَرِيك بن سَحْماء؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "البَيِّنةَ أو حدٌّ فى ظهرك" قال : يارسول الله، إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته يلتمس البينة! فجعل النبيّ صـلى الله عليه وسلم يقول : "البينةَ و إلا حَدٌّ فى ظهرك" فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق، وَلَيُنْزِلَنّ الله فى أمرى ما يبرئ ظهرى من الحدّ ؛ فنزلت « والذِين يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » فقرأ حتى بلغ « مِن الصادِقِين » الحديث بكماله . وقيل : لمـا نزلت الآية المتقدمة فى الذين يرمون المحصنات وتناول ظاهرها الأزواجَ وغيرَهم قال سـعد بن معاذ : يا رسول الله ، إن وجدت مع امرأتى رجلا أمهـله حتى آتى بأربعة ! والله لأضربنّـه بالسيف غير مُصْفح عنه . فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "أتعجبون من غَيْرة سعدٍ لأنا أغْيَرُ منه واللهُ أغْيَرُ منى" . وفى ألفاظ سعد روايات مختلفة ، هذا نحو معناها . ثم جاء من بعد ذلك هلال بن أمية الواقفى فرمى زوجته بشَرِيك بن سَحْماء البَلَوِى على ما ذكرنا ، وعزم النبيّ صـلى الله عليه وسلم على ضربه حدّ القذف؛ فنزلت هـذه الآية عند ذلك ، فجمعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وتلاعنا ، فتلكّأت المرأة عند الخامسة لمّـا وُعِظت وقيل إنها موجِبة (١)؛ ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم (٢)؛ فالْتَعَنَت ، وفرّق رسول الله صلى الله عليه وسـلم بينهما ، وولدت غلاما كأنه جَمَلٌ أَوْرَق (٣) — على النعت المكروه — ثم كان الغلام بعـد ذلك أميرا بمصر، وهو لا يعرف لنفســه أباً . وجاء أيضا عُوَيْمِر العَجْلانىّ فرمى امرأته ولاعن . والمشهور أن نازلة هلال كانت قبـلُ ، وأنها سبب الآية . وقيل : نازلة عُويمر بن أشقر كانت قبلُ ؛ وهو حديث صحيح مشهور خرّجه الأئمة .

(١) أى الشهادة الخامسة موجبة للعذاب الأليم ان كانت كاذبة . (٢) أريد باليــوم الجنس؛ أى جميع الأيام . (٣) الأورق من الإبل : الذى فى لونه بياض الى سواد .

قال أبو عبد الله بن أبى صُفْرة : الصحيح أن القاذف لزوجه عُويمر ، وهلال بن أمية خطأ . قال الطبرى يستنكر قوله فى الحديث هلال بن أمية : و إنما القاذف عويمر بن زيد بن الجد ابن العَجْلانى ، شهد أُحُدًا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، رماها بشَرِيك بن السَّحْماء ، والسَّحماء أمه ؛ قيل لها ذلك لسوادها ، وهو ابن عبدة بن الجد بن العَجْلانى ؛ كذلك كان يقول أهل الأخبار . وقيل : قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على الناس فى الخطبة يوم الجمعة « والذين يَرْمُون المحصنات » فقال عاصم بن عَدِى الأنصارى : جعلنى الله فداك ! لو أن رجلا منّا وجد على بطن آمرأته رجلا ، فتكلم فأخبر بما جرى جُلد ثمانين ، وسماه المسلمون فاسقا فلا تقبل شهادته ؛ فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء ، و إلى أن يلتمس أربعة شهود فقد فرغ الرجل من حاجته ! فقال عليه السلام : "كذلك أنزلت يا عاصم بن عَدِى" . فخرج عاصم سامعا مطيعا ؛ فاستقبله هلال بن أمية يسترجع ؛ فقال : ما وراءك ؟ فقال : شر ! وجدت شريك بن السحماء على بطن امرأتى خَولة يزنى بها ؛ وخولة هذه بنت عاصم بن عدى ، كذا فى هذا الطريق أن الذى وجد مع امرأته شريكا هو هلال بن أمية ، والصحيح خلافه حسبما تقدم بيانه . قال الكلبى : والأظهر أن الذى وجد مع امرأته شريكا عُوَيمِرٌ العَجْلانى ؛ لكثرة ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لاعن بين العَجْلانى وامرأته . واتفقوا على أن هذا الزانى هو شريك ابن عبدة وأمه السحماء ، وكان عُويمر وخولةُ بنت قيس وشَرِيك بنى عم عاصم ، وكانت هذه القصة فى شعبان سنة تسع من الهجرة ، منصرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تَبُوك إلى المدينة ؛ قاله الطبرى . وروى الدَّارَقُطْنِى عن عبد الله بن جعفر قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لاعن بين عُويمر العجلانى وامرأته ، مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوة تَبُوك ، وأنكر حملها الذى فى بطنها وقال هو لآبن السَّحْماء ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاتِ آمرأتك فقد نزل القرآن فيكما " ؛ فلاعن بينهما بعد العصر عند المنبر على خَمْل (١) . فى طريقه الواقدى عن الضحاك بن عثمان عن عمران بن أبى أنس قال : سمعت عبد الله بن جعفر يقول ... ... فذكره .

(١) الخمل : هُدب القطيفة ونحوها مما ينسج وتفضل له فضول كخمل الطِّنفسة .

الثالثــة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ عامّ فى كل رَمْى، سواء قال : زنيتِ أو يازانية أو رأيتها تزنى، أو هــذا الولد ليس منى ؛ فإن الآية مشتملة عليه . ويجب اللّعان إن لم يأت بأربعــة شهداء؛ وهــذا قول جمهور العلمــاء وعامّة الفقهاء وجماعة أهل الحديث . وقد روى عن مالك مثل ذلك . وكان مالك يقول : لا يلاعن إلا أن يقول : رأيتك تزنى ؛ أو ينفى حملا أو ولدا منها . وقول أبى الزِّناد ويحيى بن سعيد والبَتّى مثل قول مالك : إن الملاعنة لا تجب بالقذف، وإنما تجب بالرؤية أو نفى الحمل مع دعوى الاستبراء؛ هذا هو المشهور عنــد مالك ، وقاله ٱبن القــاسم . والصحيح الأوّل لعموم قوله : « والذِين يَرْمُونَ أزواجَهم » . قال ابن العربى : وظاهر القرآن يكفى لإيجاب اللعان بمجرد القذف من غير رؤية ؛ فلْتُعَوِّلوا عليه ، لا سيما وفى الحــديث الصحيح : أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فٱذهب فأت بها " ولم يكلفه ذكر الرؤية . وأجمعوا أن الأعمى يلاعن إذا قذف ٱمرأته . ولو كانت الرؤية من شرط اللعان ما لاعن الأعمى؛ قاله ابن عمر رضى الله عنهما . وقد ذكر ابن القصّار عن مالك أن لعــان الأعمى لا يصح إلا أن يقول : لمست فرجه فى فرجها . والحجة لمــالك ومن ٱتبعه ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء هــلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تِيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء فوجد عنــد أهله رجلا ، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يَهِجْه حتى أصبح ، ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندهم رجلا ، فرأيت بعينى وسمعت بأذنى؛ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به واشتدّ عليه؛ فنزلت «والذين يَرْمُونَ أزواجَهم ولم يكن لهم شُهَدَاءُ إلا أَنْفُسُهُمْ » الآية ؛ وذكر الحــديث . وهو نص على أن الملاعنة التى قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وســلم إنما كانت فى الرؤية ، فلا يجب أن يُتعدّى ذلك . ومن قذف ٱمرأته ولم يذكر رؤية حدّ ؛ لعموم قوله تعــالى : « والذين يَرْمُون المحْصَنَاتِ » .

الرابعة — إذا نفى الحمل فإنه يلتعن ؛ لأنه أقوى من الرؤية ولا بدّ من ذكر عدم الوطء والأستبراء بعده . واختلف علماؤنا فى الأستبراء؛ فقال المغيرة ومالك فى أحد قوليهما : يجزى فى ذلك حَيْضة . وقال مالك أيضا : لا ينفيه إلا بثلاث حِيَض . والصحيح الأوّل؛ لأن براءة الرحم من الشّغل يقع بها كما فى استبراء الأَمَة ، وإنما راعَيْنا الثلاث حِيَض فى العدد لحكم آخر يأتى بيانه فى الطلاق إن شاء الله تعالى . وحكى اللَّخْمِىّ عن مالك أنه قال مرة : لا يُنْفَى الولد بالأستبراء؛ لأن الحيض يأتى على الحمل . وبه قال أشهب فى كتاب ابن المَوّاز ، وقاله المغيرة . وقال : لا يُنْفَى الولد إلا بخمس سنين لأنه أكثر مدة الحمل على ما تقدّم .

الخامسة — اللعان عندنا يكون فى كل زوجين حرّين كانا أو عبدين، مؤمنَيْن أو كافرين، فاسقَين أو عَدْلَين . وبه قال الشافعىّ . ولا لعان بين الرجل وأَمَته، ولا بينه وبين أمّ ولده . وقيل : لا ينتفى ولد الأمة عنه إلا بيمين واحدة؛ بخلاف اللعان . وقد قيل : إنه إذا نفى ولَدَ أمّ الولد لاعن . والأوّل تحصيل مذهب مالك ، وهو الصواب . وقال أبو حنيفة : لا يصح اللعان إلا من زوجين حُرّين مسلمين ؛ وذلك لأن اللعان عنده شهادة، وعندنا وعند الشافعىّ يمين ، فكلّ من صحت يمينه صح قذفه ولعانه . وٱتفقوا على أنه لا بد أن يكونا مكلّفَيْن . وفى قوله[(١)] : « وجد مع امرأته رجلا » . دليل على أن الملاعنة تجب على كل زوجين؛ لأنه لم يخص رجلا من رجل ولا امرأة من امرأة، ونزلت آية اللعان على هذا الجواب فقال : « والذين يَرْمُون أزواجهم » ولم يخص زوجا من زوج . وإلى هذا ذهب مالك وأهل المدينة؛ وهو قول الشافعىّ وأحمد وإسحاق وأبى عبيد وأبى ثَوْر . وأيضا فإن اللعان يوجب فسخ النكاح فأشبه الطلاق؛ فكل من يجوز طلاقه يجوز لعانه . واللعان أيمان لا شهادات؛ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شهادتهما »[(٢)] أى أيماننا . وقال تعالى : « إذا جاءك المنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ » . ثم قال تعالى : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً »[(٣)] .

---

(١) أى قول عويمر ، أو غيره على الخلاف المتقدم . وفى الأصول : « وفى قوله صلى الله عليه وسلم وجد ... الخ » وهو تحريف . (٢) آية ١٠٧ سورة المائدة . راجع جـ ٦ ص ٣٥٩

(٣) آية ١٦ سورة المجادلة .

وقال عليه السلام: "لولا الأيمان لكان لى ولها شأن". وأما ما آحتج به الثورى وأبو حنيفة فهى حجج لا تقوم على ساق؛ منها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين الحـرة والعبد لعـان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان" . أخرجه الدَّارَقُطْنِىّ من طرق ضعفها كلّها . وروى عن الأوزاعى وابن جريج وهما إمامان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله ، ولم يرفعه (١) إلى النبي صلى الله عليه وسلم . واحتجوا من جهة النظر أن الأزواج لمـا استثنوا من جمـلة الشهداء بقوله « ولم يكن لهم شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » وجب ألا يلاعن إلا من تجوز شهادته . وأيضا فلوكانت يمينا ما رُدّدت ، والحكمة فى ترديدها قيامها فى الأعداد مقام الشهود فى الزنى . قلنا : هذا يبطل بيمين القَسامة فإنهـا تُكَرّر وليست بشهادة إجماعا ، والحكمة فى تكرارها التغليظ فى الفروج والدماء . قال ابن العربى : والفَيْصل فى أنهـا يمين لا شهادة أن الزوج يحلف لنفســه فى إثبـات دعواه وتخليصه من العذاب ، وكيف يجوز لأحد أن يدّعى فى الشريعة أن شاهدا يشهد لنفسه بمـا يوجب حكما على غيره ! هذا بعيد فى الأصل معدوم فى النظر .

السادســـة — واختلف العلماء فى ملاعنة الأخرس؛ فقال مالك والشافعىّ : يلاعن؛ لأنه ممن يصح طلاقه وظهاره وإيلاؤه ، إذا فُهم ذلك عنه . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن ؛ لأنه ليس من أهل الشهادة ، ولأنه قد ينطق بلسانه فينكر اللعان ، فلا يمكننا إقامة الحدّ عليه . وقد تقدم هذا المعنى فى سورة « مريم » (٢) والدليل عليه ، والحمد لله .

السابعـــة — قال ابن العربى : رأى أبو حنيفة عموم الآية فقال : إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها فإنه يلاعن؛ ونسى أن ذلك قد تضمّنه قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات » وهــذا رماها محصنة غير زوجة ؛ و إنمـا يكون اللعان فى قذف يلحق فيه النسب ، وهذا قذف لا يلحق فيه نسب فلا يوجب لعانا ، كما لو قذف أجنبية .

---

(١) فى سنن الدارقطنى : « يرفعاه » . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٠١ طبعة أولى أو ثانية .

الثامنـة — إذا قذفها بعد الطلاق نظرت ؛ فإن كان هنالك نسب يريد أن ينفيه أو حَمْل يتبرأ منه لاعن و إلا لم يلاعن . وقال عثمان البَتِّى : لا يلاعن بحال لأنها ليست بزوجة . وقال أبو حنيفة . لا يلاعن فى الوجهين ؛ لأنها ليست بزوجة . وهـذا ينتقض عليه بالقذف قبل الزوجية كما ذكرناه آنفا ، بل هـذا أولى ؛ لأن النكاح قد تقدم وهو يريد الانتفاء من النسب وتبرئته من ولد يُلحق به فلا بُدّ من اللعان . و إذا لم يكن هنالك حمل يرجى ولا نسب يخاف تعلقه لم يكن للعان فائدة فلم يحكم به ، وكان قذفا مطلقا داخلا تحت عموم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات » الآية ، فوجب عليه الحدّ و بطل ما قاله البَتِّى لظهور فساده .

التاسعة — لا ملاعنة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدّة إلا فى مسئلة واحدة ، وهى أن يكون الرجل غائبا فتأتى امرأته بولد فى مغيبه وهو لا يعلم فيطلّقها فتنقضى عدّتها ، ثم يَقْدَم فينفيه فله أن يلاعنها هاهنا بعد العدّة . وكذلك لو قدم بعد وفاتها ونفى الولد لاعن لنفسه وهى ميتة بعد مدّة من العدّة ، و يرثها لأنها ماتت قبل وقوع الفرقة بينهما .

العاشـرة — إذا انتفى من الحمل و وقع ذلك بشرطه لاعن قبل الوضع ؛ و به قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن إلا بعد أن تضع ، لأنه يحتمل أن يكون ريحا أو داء من الأدواء . ودليلنا النص الصريح بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم لاعن قبل الوضع ، وقال : " إن جاءت به كذا فهو لأبيه و إن جاءت به كذا فهو لفلان " فجاءت به على النعت المكروه .

الحادية عشرة — إذا قذف بالوطء فى الدبر [لزوجه] لاعن . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن ؛ و بناه على أصله فى أن اللواط لا يوجب الحدّ . وهذا فاسد ؛ لأن الرمى به فيه معرّة وقد دخل تحت عموم قوله تعالى : « والذين يَرْمُون أزواجهم » وقد تقدم فى «الأعراف[1]، والمؤمنون[2]» أنه يجب به الحدّ .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها . (٢) راجع ص ١٠٦ من هذا الجزء .

الثانية عشرة — قال ابن العربي: من غريب أمر هذا الرجل أنه [قال][1] إذا قذف زوجته وأمها بالزنى: إنه إن حدّ للأم سقط حدّ البنت، وإن لاعن للبنت لم يسقط حدّ الأم، وهذا لا وجه له، وما رأيت لهم [فيه] شيئا يحكى، وهذا باطل جدا؛ فإنه خص عموم الآية في البنت وهي زوجة بحد الأم من غير أثر ولا أصل قاسه عليه.

الثالثة عشرة — إذا قذف زوجته ثم زنت قبل التعانه فلا حدّ ولا لعان. وبهذا قال أبو حنيفة والشافعيّ وأكثر أهل العلم. وقال الثوري والمُزَنيّ: لايسقط الحدّ عن القاذف، وزِنَى المقذوف بعد أن قُذف لايقدح في حصانته المتقدمة ولا يرفعها؛ لأن الاعتبار الحصانةُ والعفة في حال القذف لابعده. كما لو قذف مسلما فارتد المقذوف بعد القذف وقبل أن يحدّ القاذف لم يسقط الحدّ عنه. وأيضا فإن الحدود كلّها معتبرة بوقت الوجوب لا وقت الإقامة. ودليلنا هو أنه قد ظهر قبل استيفاء اللعان والحدّ معنًى لو كان موجودا في الابتداء منع صحة اللعان ووجوب الحدّ، فكذلك إذا طرأ في الثاني؛ كما إذا شهد شاهدان ظاهرهما العدالة فلم يحكم الحاكم بشهادتهما حتى ظهر فسقهما بأن زنيا أو شربا خمرا فلم يجز للحاكم أن يحكم بشهادتهما تلك. وأيضا فإن الحكم بالعفة والإحصان يؤخذ من طريق الظاهر لا من حيث القطع واليقين، وقد قال عليه السلام: "ظَهْرُ المؤمن حِمًى"؛ فلا يحدّ القاذف إلا بدليل قاطع، وبالله التوفيق.

الرابعة عشرة — من قذف امرأته وهي كبيرة لا تحمل تلاعنا؛ هو لدفع الحدّ، وهي لدرء العذاب. فإن كانت صغيرة لا تحمل لاعن هو لدفع الحدّ ولم تلاعن هي لأنها لو أقرت لم يلزمها شيء. وقال ابن الماجِشُون: لا حدّ على قاذف مَن لم تبلغ. قال اللَّخْميّ: فعلى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل.

الخامسة عشرة — إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى أحدهم زوجها فإن الزوج يلاعن وتُحَدّ الشهود الثلاثة؛ وهو أحد قولي الشافعيّ. والقول الثاني أنهم لا يحدّون. وقال أبو حنيفة: إذا شهد الزوج والثلاثة ابتداءً قبلت شهادتهم وحُدّت المرأة. ودليلنا قوله

(١) زيادة عن ابن العربي.

تعـالى : « والذين يَرْمُون المحصناتِ » الآية . فأخبر أن من قذف محصنا ولم يأت بأربعة شهداء حُدّ؛ فظاهره يقتضي أن يأتي بأربعة شهداء سوى الرامى، والزوج رامٍ لزوجته فخرج عن أن يكون أحد الشهود . والله أعلم .

السادسـة عشرة — إذا ظهر بامرأته حمل فترك أن ينفيَه لم يكن له نَفْيه بعد سكوته . وقال شُريح ومجاهـد : له أن ينفيه أبدا . وهذا خطأ؛ لأن سكوته بعـد العلم به رِضًى به؛ كما لو أقرّ به ثم ينفيه فإنه لا يُقبل منه، والله أعلم .

السابعـة عشرة — فإن أخّر ذلك إلى أن وضعت وقال : رجوت أن يكون رِيحا يَنْفَشّ أو تسقطه فأستريح من القذف؛ فهل لنَفْيه بعد وضعه مدّة ما فإذا تجاوزها لم يكن له ذلك؛ فقـد اختلف فى ذلك ، فنحن نقول : إذا لم يكن له عذر فى سكوته حتى مضت ثلاثة أيام فهو راضٍ به ليس له نفيـه؛ وبهـذا قال الشافعى . وقال أيضا : متى أمكنه نفيـه على ما جرت به العـادة من تمكنه من الحـاكم فلم يفعـل لم يكن له نفيه من بعـد ذلك . وقال أبو حنيفة : لا أعتبر مدّة . وقال أبو يوسف ومحمد : يعتبر فيه أربعون يوما ، مدّة النفاس . قال ابن القَصّار : والدليـل لقولنا هو أن نفى ولده محرّم عليه ، وآستلحاق ولد ليس منه محرّم عليه، فلا بدّ أن يوسّع عليـه لكى ينظر فيه ويفكّر، هل يجوز له نفيه أو لا . وإنمـا جعلنا الحدّ ثلاثة لأنه أوّل حدّ الكثرة وآخر حدّ القلة، وقد جعلت ثلاثة أيام يختبر بها حال المُصَرّاة(١)؛ فكذلك ينبغى أن يكون هنا . وأما أبو يوسف ومحمد فليس اعتبارهم بأولى من اعتبار مدّة الولادة والرضاع؛ إذ لا شاهد لهم فى الشريعة، وقد ذكرنا نحن شاهدا فى الشريعة من مدّة المُصَرّاة .

الثامنة عشرة — قال ابن القصار : إذا قالت آمرأة لزوجها أو لأجنبيّ يازانيه — بالهاء — وكذلك الأجنبي لأجنبي، فلست أعرف فيـه نصًّا لأصحابنا ، ولكنه عندى يكون قذفا وعلى قائله الحدّ، وقد زاد حرفا؛ وبه قال الشافعيّ ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف :

(١) المصراة : الناقة أو البقرة أو الشاة تصرّ أخلافها ولا تحلب أياما حتى يجتمع اللبن فى ضرعها ، فاذا حلبها المشترى استغزرها . ومنه الحديث : "من اشترى مصراة فهو بخير النظرين" أى خير الأمرين له ؛ إما إمساك المبيع أو رده .

لايكون قذفا . واتفقوا أنه إذا قال لامرأته يازان أنه قذف . والدليل على أنه يكون فى الرجل قذفا هو أن الخطاب إذا فهم منــه معناه ثبت حكمه ، ســواء كان بلفظ أعجمى أو عربى . ألا ترى أنه إذا قال للرأة زنيتَ (بفتح التاء) كان قذفا ؛ لأن معناه يفهم منه . ولأبى حنيفة وأبى يوسف أنه لمــا جاز أن يُخاطَب المؤنث بخطاب المذكر لقوله تعالى : «وقال نسوة» صلح أن يكون قوله يا زان للؤنث قذفا . ولمّــا لم يجز أن يؤنث فعــل المذكر إذا تقدم عليــه لم يكن لخطابه بالمؤنث حكم ، والله أعلم .

التاســعة عشرة — يلاعن فى النكاح الفاسد زوجته لأنها صارت فراشا ويلحق النسب فيه فجرى اللعان عليه .

الموفيــة عشرين — اختلفوا فى الزوج إذا أبى من الآلتعان ؛ فقال أبو حنيفة : لا حدّ عليــه ؛ لأن الله تعالى جعــل على الأجنبى الحدّ وعلى الزوج اللّعان ، فلمــا لم ينتقل اللعان إلى الأجنبى لم ينتقل الحــدّ إلى الزوج ، ويسجن أبدا حتى يلاعن لأن الحدود لا تؤخر قياسا . وقال مالك والشافعىّ وجمهور الفقهاء : إن لم يلتعن الزوج حدّ ؛ لأن اللعان له براءة كالشهود للأجنبىّ ، فإن لم يأت الأجنبى بأربعة شهداء حدّ ، فكذلك الزوج إن لم يلتعن . وفى حديث العَجْلانِىّ ما يدل على هــذا ؛ لقوله : إنْ سكَتُّ سكتُّ على غَيظ وإن قَتلتُ قُتلت وإن نطقْتُ جُلدت .

الحــادية والعشرن — واختلفوا أيضا هــل للزوج أن يلاعن مع شهوده ؛ فقال مالك والشافعىّ : يلاعن كان له شهود أو لم يكن ؛ لأن الشهود ليس لهم عمــل فى غير درء الحدّ ، وأما رفع الفراش ونفى الولد فلا بدّ فيه من اللعان . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إنمــا جعل اللعان للزوج إذا لم يكن له شهود غير نفسه ؛ لقوله تعالى : «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ» .

الثانية والعشرون — البداءة فى اللعان بمــا بدأ الله به ، وهو الزوج ؛ وفائدته دَرْء الحدّ عنه ونفى النسب منه ؛ لقوله عليه السلام : "البينةَ وإلا حَدٌّ فى ظهرك" . ولو بُدئَ بالمرأة قبله لم يَجْز ؛ لأنه عكس ما رتّبــه الله تعالى . وقال أبو حنيفة : يجزى . وهذا باطل ؛ لأنه

خلاف القرآن، وليس له أصل يرده إليه ولا معنًى يقوّى به ، بل المعنى لنا ؛ لأن المرأة إذا بدأت باللعان تنتفى ما لم يُثبت وهذا لا وجه له .

الثالثة والعشرون — وكيفية اللعان أن يقول الحاكم للملاعن : قل أشهد بالله لرأيتها تزنى ورأيت فرج الزانى فى فرجها كالمِرْود فى المكحلة وما وطئتها بعد رؤيتى . وإن شئت قلت : لقد زنت وما وطئتها بعد زناها . يردّد ماشاء من هذين اللفظين أربع مرات . فإن نكَل عن هذه الأيمان أو عن شىء منها حُدّ . وإذا نفى حملا قال : أشهد بالله لقد استبرأتها وما وطئتها بعدُ، وما هذا الحمل منى؛ ويشير إليه؛ فيحلف بذلك أربع مرات ويقول فى كل يمين منها : وإنى لمن الصادقين فى قولى هذا عليها . ثم يقول فى الخامسة «علىّ لعنةُ اللهِ إنْ كُنْتُ من الكاذبين» . وإن شاء قال : إن كنت كاذبا فيما ذكرت عنها . فإذا قال ذلك سقط عنه الحدّ وانتفى عنه الولد . فإذا فرغ الرجل من التعانه قامت المرأة بعده فحلفت بالله أربعة أيمان ، تقول فيها : أشهد بالله إنه لكاذب ، أو إنه لمن الكاذبين فيما ادّعاه علىّ وذكر عنى . وإن كانت حاملا قالت : وإن حملى هذا منه . ثم تقول فى الخامسة : وعلىّ غضب الله إن كان صادقا، أو إن كان من الصادقين فى قوله ذلك . ومَن أوجب اللعان بالقذف يقول فى كل شهادة من الأربع : أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به فلانة من الزنى . ويقول فى الخامسة : علىّ لعنة الله إن كنت كاذبا فيما رميت به من الزنى . وتقول هى : أشهد بالله إنه لكاذب فيما رمانى به من الزنى . وتقول فى الخامسة : علىّ غضب الله إن كان صادقا فيما رمانى به من الزنى . وقال الشافعىّ : يقول الملاعن أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميت به زوجى فلانة بنت فلان، ويشير إليها إن كانت حاضرة، يقول ذلك أربع مرات، ثم يوعظه الإمام ويذكّره الله تعالى ويقول : إنى أخاف إن لم تكن صدقت أن تبوء بلعنة الله؛ فإن رآه يريد أن يمضى على ذلك أمر من يضع يده على فيه ، ويقول : إن قولك وعلىّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين موجِبًا ؛ فإن أبى تركه يقول ذلك : لعنة الله علىّ إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة من الزنى . احتج بما رواه أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلا حيث أمر المتلاعنَيْن أن يضع يده على فيه عند الخامسة يقول : إنها موجِبة .

الرابعــة والعشرون — اختلف العلماء فى حكم من قذف امرأته برجل سمّاه ، هل يحدّ أم لا ؛ فقال مالك : عليــه اللعان لزوجته ، وحُدّ للرمىّ . و به قال أبو حنيفة ؛ لأنه قاذف لمن لم يكن له ضرورة إلى قذفه . وقال الشافعى : لا حدّ عليه ؛ لأن الله عز وجل لم يجعل على من رمى زوجتــه بالزنى إلا حدّا واحدا بقوله : « والذين يرمون أزواجهم » ، ولم يفرق بين مَن ذكر رجلا بعينه و بين من لم يذكر؛ وقد رمى العَجْلانِىُّ زوجته بشَرِيك وكذلك هلال ابن أمية؛ فلم يحدّ واحد منهما . قال ابن العربى : وظاهر القرآن لنا ؛ لأن الله تعالى وضع الحدّ فى قذف الأجنبى والزوجة مطلقَيْن، ثم خص حدّ الزوجة بالخلاص باللعان و بقى الأجنبىّ على مطلق الآية . و إنمــا لم يُحَدّ العجلانِىُّ لشريك ولا هلالٌ لأنه لم يطلبه ؛ وحدّ القــذف لا يقيمه الإمام إلا بعد المطالبة إجماعا منا ومنه .

الخامســة والعشرون — إذا فرغ المتلاعنان من تلاعنهما جميعا تفرّقا وخرج كل واحد منهما على باب من المسجد الجامع غير الباب الذى يخرج منه صاحبه ، ولو خرجا من باب واحد لم يضر ذلك لعانَهما . ولا خلاف فى أنه لا يكون اللعان إلا فى مسجد جامع تجمــع فيه الجمعة بحضرة السلطان أو من يقوم مقامه من الحكام . وقد استحب جمــاعة من أهل العــلم أن يكون اللعان فى الجامع بعــد العصر . وتلتعن النصرانية من زوجها المســلم فى الموضع الذى تعظّمه من كنيستها مثل ما تلتعن به المسلمة .

السادسة والعشرون — قال مالك وأصحابه : و بتمــام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنَيْن ، فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان ، ولا يحــل له مراجعتها أبدا لا قبــل زوج ولا بعده ؛ وهو قول اللّيث بن سعد وزُفَرَ بن الهُذَيل والأوزاعىّ . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمــد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرّق الحاكم بينهما ؛ وهو قول الثورى ؛ لقول ابن عمر : فرّق رسول الله صــلى الله عليه وسلم بين المتلاعنَيْن ؛ فأضاف الفرقة إليــه ، ولقوله عليه الســلام : " لا سبيل لك عليها " . وقال الشــافعىّ : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقــد زال فراش امرأته ، الْتعنت أو لم تلتعن . قال : وأما التعان المرأة فإنمــا هو لدرء الحدّ عنها لا غير ؛ وليس لالتعانها فى زوال الفراش معنًى . ولمــا كان لعان الزوج ينفى

الولد ويسقط الحدّ رفع الفراش . وكان عثمان البَتّى لا يرى التلاعن ينقص شيئا من عصمة الزوجين حتى يطلّق . وهذا قول لم يتقدمه إليه أحد من الصحابة؛ على أن البَتّى قد استحب للملاعن أن يطلّق بعد اللعان ، ولم يستحسنه قبل ذلك ؛ فدلّ على أن اللعان عنده قد أحدث حكما . وبقول عثمان قال جابر بن زيد فيما ذكره الطبرى ، وحكاه اللَّخْمىّ عن محمد بن أبى صُفْرة . ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة . وآحتج أهل هذه المقالة بأنه ليس فى كتاب الله تعالى إذا لاعن أو لاعنت يجب وقوع الفرقة ، وبقول عُوَيْمِر : كذبتُ عليها إن أمسكتُها ؛ فطلّقها ثلاثا، قال : ولم ينكر النبىّ صلى الله عليه وسلم ذلك عليه ولم يقل له لم قلت هذا ، وأنت لا تحتاج إليه ؛ لأن باللعان قد طلقت . والحجة لمالك فى المشهور ومن وافقه قولُه عليه السلام "لا سبيل لك عليها" . وهذا إعلام منه أن تمام اللعان رفع سبيله عنها وليس تفريقه بينهما باستئناف حكم ، وإنما كان تنفيذا لما أوجب الله تعالى بينهما من المباعدة ، وهو معنى اللعان فى اللغة .

السابعة والعشرون — ذهب الجمهور من العلماء أن المتلاعنَيْن لا يتناكحان أبدا ، فإن أكذب نفسه جلد الحدّ ولحق به الولد ، ولم ترجع إليه أبدا . وعلى هذا السنةُ التى لا شك فيها ولا اختلاف. وذكر ابن المنذر عن عطاء أن الملاعن إذا أكذب نفسه بعد اللعان لم يحدّ، وقال : قد تفرقا بلعنة من الله . وقال أبو حنيفة ومحمد : إذا أكذب نفسه جلد الحدّ ولحق به الولد، وكان خاطبا من الخطاب إن شاء؛ وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وسعيد بن جبير وعبد العزيز بن أبى سلمة . وقالوا : يعود النكاح حلالا كما لحق به الولد؛ لأنه لا فرق بين شىء من ذلك . وحجة الجماعة قوله عليه السلام : "لا سبيل لك عليها" ؛ ولم يقل إلا أن تكذب نفسك . وروى ابن إسحاق وجماعة عن الزهرى قال : فمضت السنة أنهما إذا تلاعنا فُرّق بينهما فلا يجتمعان أبدا . ورواه الدَّارَقُطْنِىّ ، ورواه مرفوعا من حديث سعيد بن جبير عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبدا" . وروى عن علىّ وعبد الله قالا : مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان . عن علىّ : أبدا .

الثامنة والعشرون ـــ اللعان يفتقر إلى أربعة أشياء :

عدد الألفاظ ـــ وهو أربع شهادات على ما تقدم .

والمكان ـــ وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان، إن كان بمكة فعند الركن والمقام، وإن كان بالمدينــة فعند المنبر، وإن كان ببيت المقــدس فعند الصخرة، وإن كان في سائر البـلدان ففى مساجدها، وإن كانا كافرين بعث بهما إلى الموضـع الذى يعتقدان تعظيمه، إن كانا يهوديين فالكنيسة، وإن كانا مجوسيين ففى بيت النـار، وإن كانا لا دين لهما مثل الوثنيين فإنه يلاعن بينهما فى مجلس حكمه .

والوقت ـــ وذلك بعد صلاة العصر .

وجمع الناس ـــ وذلك أن يكون هناك أربعــة أنفس فصاعدا؛ فاللفظ وجمع الناس مشروطان، والزمان والمكان مستحبان .

التاسعة والعشرون ـــ من قال: إن الفراق لا يقع إلا بتمام التعانهما، فعليه لو مات أحدهما قبل تمامه ورثه الآخر. ومن قال : لا يقع إلا بتفريق الإمام فمات أحدهما قبل ذلك وتمام اللعان ورثه الآخر. وعلى قول الشافعىّ : إن مات أحدهما قبل أن تلتعن المرأة لم يتوارثا .

الموفية ثلاثيـــن ـــ قال ابن القصّار : تفريق اللعان عندنا ليس بفسخ؛ وهو مذهب المدوّنة : فإن اللعان حكم تفريقه حكم تفريق الطلاق، ويعطَى لغــير المدخول بهـا نصف الصداق . وفى مختصر ابن الجلّاب : لا شىء لها؛ وهذا على أن تفريق اللعان فسخ .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو

عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۖ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ
عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم
مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)
وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا أُولِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ
أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)

فيه ثمـان وعشرون مسئلة (١) :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ « عُصْبَةٌ » خـبر « إنّ ». ويجوز نصبها على الحال، ويكون الخبر « لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ». وسبب نزولها ما رواه الأئمـة من حديث الإفك الطويل فى قصة عائشة رضوان الله عليها ، وهو خبر صحيح مشهور، أغنى اشتهاره عن ذكره، وسيأتى مختصرا . وأخرجه البخاريّ تعليقا ، وحديثه أتم . قال : وقال أسامة عن هشام بن عروة عن أبيـه عن عائشة ، وأخرجه أيضا عن محمـد بن كثير عن أخيه سليمان من حديث مسروق عن أم رُومان أم عائشة أنها قالت : لمـا رُميت عائشة خرّت مغشيًّا عليها . وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبى وائل قال : حدثنى مسروق بن الأجدع قال حدثتنى أمّ رومان وهى أم عائشـة قالت : بينـا أنا قاعدة أنا وعائشةُ إذ وَلَجت امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بفلان وفعل [بفلان] ! فقالت أم رومان : وما ذاكِ ؟ قالت آبنى فيمن حدّث الحـديث ! قالت : وما ذاك ؟ قالت كذا وكذا . قالت عائشة : سمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم . قالت : وأبو بكر ؟ قالت نعم ! فخرّت مغشيًّا عليها ؛ فمـا أفاقت إلا وعليها حُمَّى بنافِضٍ (٢) ، فطرحْتُ عليها ثيابها فغطيتها ؛ فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " ما شأن هـذه ؟ " فقالت : يا رسول الله ، أخذتها الحُمَّى بنافض . قال : " فلعـلّ فى حديثٍ تُحُدِّث به " قالت نعم . فقعدت عائشة فقالت : والله ، لئن حلفتُ لا تصدّقونى ! ولئن قلت لا تَعْذِرونى ! مَثَـلى ومثَلُكم كيعقوبَ وبَنِيه (٣) ، واللهُ المستعان على ما تصفون . قالت : وانصرف ولم يقل شيئا ؛ فأنزل الله عذرها . قالت : بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك . قال أبو عبد الله الحميدى : كان بعض من لقينا من الحفاظ البغداديين يقول الإرسال فى هـذا الحديث أبْيَن ، واستدلّ على ذلك بأن أم رومان تُوفِّيت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسروقٌ لم يشاهد النبيّ صلى الله عليه وسلم بلا خلاف . وللبخاريّ من حديث عبيد الله بن عبد الله بن أبى مُليكة أن عائشـة كانت تقرأ « إِذْ تَلِقُونَهُ

---

(١) يلاحظ أن المسائل سبع وعشرون . (٢) أى برعدة . (٣) اذ قال فى محنته : والله المستعان ... الخ .

بِأَلْسِنَتِكُمْ » وتقول : الوَلْق الكذب . قال ابن أبى مُلَيكة : وكانت أعلمَ بذلك[1] من غيرها لأنه نزل فيها . قال البخاريّ : وقال مَعْمر[2] بن راشد عن الزهرى : كان حديث الإفك فى غَزْوَة المُرَيْسِيع . قال ابن إسحاق : وذلك سنة ستّ . وقال موسى بن عقبة : سنة أربع . وأخرج البخارى من حديث معمر عن الزُّهرِى قال قال لى الوليد بن عبد الملك : أبلغك أن عليًّا كان فيمن قَذَف ؟ قال : قلت لا ، ولكن قد أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عائشة قالت لهما : كان علىٌّ مُسَلِّماً[3] فى شأنها . وأخرجه أبو بكر الإسماعيلىّ فى كتابه المخرج على الصحيح من وجه آخر من حديث معمر عن الزهرى ، وفيه : قال كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال : الذى تولّى كِبْره منهم علىّ بن أبى طالب ؟ فقلت لا ، حدثنى سعيد بن المسيّب وعُروة وعلقمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة كلّهم يقول سمعت عائشة تقول : والذى تولّى كبره عبدُ الله بن أُبَىّ . وأخرج البخارى أيضا من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة : والذى تولّى كِبْرَه منهم عبدُ الله بن أُبَىّ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ بِالْإِفْكِ ﴾ الإفك الكذب . والعصبة ثلاثة رجال ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا من الثلاثة إلى العشرة . ابن عُيينة : أربعون رجلا . مجاهد : من عشرة إلى خمسة عشر . وأصلها فى اللغة وكلام العرب الجماعةُ الذين يتعصّب بعضهم لبعض . والخير حقيقته ما زاد نفعه على ضره ، والشرّ ما زاد ضره على نفعه . و إنّ خيرا لا شرّ فيه هو الجنة . وشرًّا لا خير فيه هو جهنم . فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير؛ لأن ضرره من الألم قليل فى الدنيا، وخيره هو الثواب الكثير فى الأخرى . فنبّه الله تعالى عائشة وأهلها وصَفْوان، إذ الخطاب لهم فى قوله « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ؛ لرجحان النفع والخير على جانب الشر .

الثالثــة — لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة معه فى غَزْوة بنى المُصْطَلِق وهى غزوة المُرَيْسِيع ، وقَفَل ودنا من المدينة آذن ليلة بالرحيل قامت حين آذنوا بالرحيل

(١) أى بالذى قرأت به. (٢) الذى فى البخارى «النعمان بن راشد». (٣) قوله : « مسلما » بكسر اللام المشددة من التسليم؛ أى ساكتا فى شأنها . وقيل بفتح اللام، من السلامة من الخوض فيه .

فمشت حتى جاوزت الجيش، فلمــا فرغت من شأنها أقبلت إلى الرّحْل فلمست صدرها فإذا عِقدٌ من جَزْعِ ظَفَارِ[1] قد ٱنقطع، فرجعت فالتمسته فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانصرفت فلم تجد أحدا، وكانت شابّة قليلة اللحم، فرفع الرجال هَوْدَجها ولم يشعروا بزوالها منه؛ فلما لم تجد أحدا اضطجعت فى مكانها رجاءَ أن تُفتقد فيُرجع إليهــا، فنامت فى الموضــع ولم يوقظها إلا قول صَفْوان بن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحِفْظ الساقة. وقيل: إنهــا استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته وتنحّى عنها حتى ركبت عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش فى نَحْر الظَّهِيرة؛ فوقع أهل الإفك فى مقالتهم، وكان الذى يُجتمع إليه فيه ويَسْتَوْشِيه[2] ويُشْعِلُه عبدُ الله بن أُبَيّ ٱبن سَلُول المنافق، وهو الذى رأى صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيّكم باتت مع رجل. وكان من قالته حسان بن ثابت ومِسْطح بن أُثاثة وحَمْنَة بنت جَحْش. هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإتقانه فى البخارى ومسلم، وهو فى مسلم أكمل. ولمــا بلغ صَــفْوان قولُ حسان فى الإفك جاء فضربه بالسيف ضربةً على رأسه وقال:

تَلَقَّ ذُباب الســيف عنى فإننى * غلام إذا هُوجيت ليس بشاعر

فأخذ جماعة حسان ولَبَّبوه[3] وجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح حسان واستوهبه إيّاه. وهذا يدل على أن حسان ممن تَوَلَّى الكِبْر؛ على ما يأتى والله أعلم.

وكان صفوان هــذا صاحبَ ساقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة. وقيل: كان حَصُورا لا يأتى النساء؛ ذكره ابن إسحاق من طريق عائشة. وقيل: كان له ابنان؛ يدل على ذلك حديثُــه المروى مع ٱمرأته، وقولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ابنيه: "لهما أشبه به من الغراب بالغراب". وقوله فى الحديث: والله ما كَشَفْت كَنَف أنثى قطّ؛ يريد بزِنًى. وقتل شهيدا رضى الله عنــه فى غزوة أرمينِية سنة تسع عشرة فى زمان عمر، وقيل: ببلاد الروم سنة ثمــان وخمسين فى زمان معاوية.

---

(١) الجزع (بفتح الجيم وسكون الزاى): خرز معروف فى سواده بياض كالعروق. وظفار (كحضار): مدينــة باليمن.

(٢) يستوشــيه: يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يفشيه ويشــيعه ويحركه.

(٣) لبب فلان فلانا: أخذ بتلبيبه؛ أى جمع ثيابه عند صدره ونحره فى الخصومة ثم جره.

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ يعنى ممن تكلم بالإفك . ولم يُسَمَّ من أهل الإفك إلا حسان ومِسْطَح وحَمْنة وعبد الله؛ وجُهل الغير؛ قاله عروة بن الزبير، وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان، وقال : إلا أنهم كانوا عُصْبة؛ كما قال الله تعالى . وفى مصحف حَفْصة « عصبة أربعة » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ وقرأ حُميد الأعرج ويعقوب « كُبْرَه » بضم الكاف . قال الفراء : وهو وجه جيّد؛ لأن العرب تقول : فلان تولَّى عُظْم كذا وكذا؛ أى أكبره . روى عن عائشة أنه حسان، وأنها قالت حين عَمِيَ : لعل العذاب العظيم الذى أوعده الله به ذهابُ بصره؛ رواه عنها مسروق . وروى عنها أنه عبد الله بن أُبَىّ؛ وهو الصحيح، وقاله ابن عباس . وحكى أبو عمر بن عبد البر أن عائشة برّأت حسان من الفِرْية، وقالت : إنه لم يقل شيئا . وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئا من ذلك فى قوله :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ * وتُصبح غَرْثَى من لُحُوم الغوافِلِ (١)
حَليلةُ خيرِ الناس دِينًا ومَنْصِبًا * نَبِيِّ الهُدَى والمَكْرُمات الفواضل
عَقيلةُ حَيٍّ من لُؤَىِّ بن غالب * كِرامِ المساعى مَجْدُها غيرُ زائل
مُهَذَّبةٌ قد طَيَّب الله خِيمَها (٢) * وطَهَّرها من كل شَيْن وباطل
فإن كان ما بُلِّغْتِ أَنِّى قلتُه * فلا رفعتْ سَوْطِى إلىّ أناملى
فكيف ووُدِّى ما حييتُ ونُصْرتِى * لآل رسول الله زَيْنِ المحافل
له رُتَبٌ عالٍ على الناس فضلها * تقاصَرُ عنها سَوْرة المتطاول

وقد روى أنه لما أنشدها : حصان رزان؛ قالت له : لستَ كذلك؛ تريد أنك وقعت فى الغوافل . وهذا تعارض، ويمكن الجمع بأن يقال: إن حسانا لم يقل ذلك نصا وتصريحا، ويكون عرّض بذلك وأومأ إليه فنُسب ذلك إليه؛ والله أعلم .

---

(١) الحصان : العفيفة . ورزان : ذات ثبات ووقار وعفاف . وغرثى : جائعة . ماتزن : ما تتهم . الغوافل : جمع غافلة؛ أى لا ترتع فى أعراض الناس . (٢) الخيم (بالكسر) : الشيمة والطبيعة والخلق والأصل .

وقد اختلف الناس فيــه هل خاض فى الإفك أم لا ، وهل جلد الحدّ أم لا ؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان، وهى المسألة :

السادســة — فروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جلد فى الإفك رجلين وامرأة : مِسْطَحا وحسان وحَمْنَة، وذكره الترمذى . وذكر القشيريّ عن آبن عباس قال : جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم آبن أُبَىّ ثمانين جلدة،وله فى الآخرة عذاب النار . قال القُشَيْرِىّ : والذى ثبت فى الأخبار أنه ضرب آبن أُبَىّ وضرب حسان وحمنة،وأما مِسْطح فلم يثبت عنه قذف صريح، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح. قال المـاوردى وغيره : آختلفوا هل حدّ النبيّ صلى الله عليــه وسلم أصحاب الإفك؛ على قولين : أحدهما أنه لم يحـدّ أحدا من أصحاب الإفك لأن الحـدود إنمـا تقام بإقرار أو ببيّنة ، ولم يتعبّده الله أن يقيمها بإخباره عنها؛ كما لم يتعبّده بقتل المنافقين، وقد أخبره بكفرهم .

قلت : وهــذا فاسد مخالف لنص القرآن ؛ فإن الله عز وجل يقول : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ » أى على صــدق قولهم « فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَـانِينَ جَلْدَةً » .

والقول الثانى — أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حدّ أهل الإفك عبدَ الله بن أُبَىّ ومِسْطح ابن أثاثة وحسان بن ثابت وحَمْنة بنت جحش؛ وفى ذلك قال شاعر من المسلمين :

لقــد ذاق حسّان الذى كان أهــلَه * وحَمْنَــةُ إذ قالوا هجــيرًا ومِسْــطَحُ
وابنُ سَــلُولَ ذاق فى الحَــدّ خِزْيَة * كما خاض فى إفك من القول يُفْصِح
تعاطَوْا برجــم الغيب زَوْجَ نبيهم * وسخطة ذى العرش الكريم فأبرحوا (١)
وآذوْا رســولَ الله فيهــا فَجُلِّلُوا * مخازِىَ تبــقى عُمِّمُوها وفُضِّــحوا
فصُبّ عليهم مُحْصَــدات كأنهــا * شآبيب قطر من ذُرَى المُزْن تَسْفَحُ

قلت : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلمــاء أن الذى حُدّ حسان ومِسْطح وحَمْنــة، ولم يُسمع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَىّ . روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : لمـا نزل عُذْرى قام النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، وتلا القرآن؛ فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين

(١) أى جاءوا بأمر مفرط فى الإثم .

والمرأة فضربوا حدّهم، وسمّاهم : حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحَمْنة بنت جحش . وفى كتاب الطحاوى « ثمانين ثمانين » . قال علماؤنا . وإنما لم يُحدّ عبد الله بن أبَىّ لأن الله تعالى قد أعدّ له فى الآخرة عذابا عظيما؛ فلو حُدّ فى الدنيا لكان ذلك نقصا من عذابه فى الآخرة وتخفيفا عنه مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضى الله عنها وبكذب كل من رماها؛ فقد حصلت فائدة الحدّ، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف؛ كما قال الله تعالى: «فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» . وإنما حدّ هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تَبِعة من ذلك فى الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحدود "إنها كفارة لمن أقيمت عليه"؛ كما فى حديث عُبادة بن الصامت . ويحتمل أن يقال : إنما ترك حدّ ابن أُبىّ استئلافا لقومه واحتراما لابنه، وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك، وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عُبادة ومن قومه؛ كما فى صحيح مسلم . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للؤمنين فى ظنّهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا . قال ابن زيد : ظن المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بأمه؛ قاله المَهْدَوِىّ . و « لولا » بمعنى هَلّا . وقيل : المعنى أنه كان ينبغى أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمرَ على أنفسهم؛ فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك فى عائشة وصفوان أبعد . وروى أن هذا النظر السديد وقع من أبى أيوب الأنصارىّ وامرأته؛ وذلك أنه دخل عليها فقالت له : يا أبا أيوب، أسمعتَ ما قيل ! فقال نعم ! وذلك الكذب ! أكنتِ أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك ! قالت : لا والله! قال : فعائشة والله أفضل منك؛ قالت أم أيوب نعم . فهذا الفعل ونحوه هو الذى عاتب الله تعالى عليه المؤمنين[1] إذ لم يفعله جميعهم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ قال النحاس : معنى « بأنفسهم » بإخوانهم . فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه . وتواعد من ترك ذلك ومن نقله .

(١) فى الأصول وتفسير ابن عطية : « عاتب الله تعالى على المؤمنين » .

قلت : ولأجل هـذا قال العلماء : إن الآية أصـل فى أن درجة الإيمـان التى حازها الإنسان، ومنزلةَ الصلاح التى حلّها المؤمن، ولُبْسة العفاف التى يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل و إن شاع، إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا .

التاسعـــة — قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْـهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ هـذا توبيخ لأهل الإفك . و « لولا » بمعنى هلّا؛ أى هـلّا جاءوا بأربعة شهـداء على ما زعموا من الافتراء . وهذا ردّ على الحكم الأوّل، وإحالة على الآية السابقة فى آية القذف .

العاشـــرة — قوله تعـالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْـدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أى هم فى حكم الله كاذبون . وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق فى قذفه، ولكنه فى حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا فى علم الله تعالى؛ وهو سبحانه إنمـا رتب الحدود على حكمه الذى شرعه فى الدنيا لا على مقتضى علمه الذى تعلق بالإنسـان على ما هو عليه، فإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة .

قلت : ومما يقوّى هذا المعنى ويَعْضُده ما خرّجه البخارىّ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : أيها الناس إن الوَحْىَ قد انقطع و إنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنـا خيرا أمّناه وقرّبناه، وليس لنا من سريرته شىء الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمّنه ولم نصدّقه، وإن قال إن سريرته حسنة . وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله عز وجل .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾(١) «فَضْلُ» رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر محذوف لا تظهره العرب . وحُذف جواب «لولا» لأنه قد ذُكر مثله بعدُ؛ قال الله عز وجل «ولولا فضل الله عليكم ورحمته» لمسّكم؛ أى بسبب ما قلتم فى عائشة عذابٌ عظيم فى الدنيا والآخرة . وهـذا عتاب من الله تعـالى بليغ، ولكنه برحمته ستر عليكم فى الدنيا ويرحم فى الآخرة من أتاه تائبا . والإفاضـة : الأخذ فى الحـديث، وهو الذى وقع عليه العتاب؛ يقال : أفاض القوم فى الحديث أى أخذوا فيه .

(١) يريد آية ١٠ وهى قوله تعالى : «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم» .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قراءة محمد بن السَّمَيْقَع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف ؛ من الإلقاء ، وهذه قراءة بيّنة . وقرأ أُبَيّ وابن مسعود « إذ تتلقّونه » من التَّلَقّى ، بتاءين . وقرأ جمهور السبعة بحرف التاء الواحدة و إظهار الذال دون إدغام ؛ وهذا أيضا من التلق . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائىّ بإدغام الذال فى التاء . وقرأ ابن كثير بإظهار الذال و إدغام التاء فى التاء ؛ وهذه قراءة قَلِقة ؛ لأنها تقتضى اجتماع ساكنين ، وليست كالإدغام فى قراءة من قرأ « فلا تناجَّوْا . ولا تنابزوا » لأن دونه الألف الساكنة ، وكونها حرف لِين حسنت هنالك ما لا تحسن مع سكون الذال . وقرأ ابن يَعْمَر وعائشة رضى الله عنهما — وهم أعلم الناس بهذا الأمر — « إذ تَلِقُونه » بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ؛ ومعنى هذه القراءة من قول العرب : وَلَق الرجل يَلِق وَلْقًا إذا كذب واستمر عليه ؛ فجاءوا بالمتعدّى شاهدا على غير المتعدّى . قال ابن عطية : وعندى أنه أراد إذ تلقون فيه ؛ فحذف حرف الجر فآتصل الضمير . وقال الخليل وأبو عمرو : أصل الوَلْق الإسراع ؛ يقال : جاءت الإبل تَلِق ؛ أى تسرع . قال :

لما رأوا جيشا عليهم قد طرق * جاءوا بأسراب من الشأم وَلِقْ
إن الحُصَين زَلِق وزُمَّلِق * جاءت به عَنْس[1] من الشأم تَلِقْ

يقال : رجل زَلِق و زُمَلِق ؛ مثال هُدَبِد ، وزُمَالِق وزُمَّلِق (بتشديد الميم) وهو الذى ينزل قبل أن يجامع ؛ قال الراجز :

* إنّ الحُصين زَلِق وزُمَّلِق *

والوَلْق أيضا أخفّ الطعن . وقد وَلَقه يَلِقه وَلْقًا . يقال : وَلَقه بالسيف وَلَقات ، أى ضربات ؛ فهو مشترك .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ مبالغة و إلزام وتأكيد . والضمير فى « تَحْسَبُونَهُ » عائد على الحديث والخوض فيه والإذاعة له . و﴿ هَيِّنًا ﴾ أى شيئا يسيرا لا يلحقكم فيه إثم . ﴿ وهو عند الله ﴾ فى الوزر ﴿ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا مثل قوله عليه السلام فى حديث القَبْرين : " إنهما ليُعَذَّبان وما يُعَذَّبان فى كبير " أى بالنسبة إليكم .

(١) العنس : الناقة القوية .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عتاب لجميع المؤمنين ؛ أى كان ينبغى عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هـذا من زوج نبيّـه عليه الصـلاة والسلام ، وأن تحكموا على هـذه المقالة بأنها بهتان؛ وحقيقة البهتان أن يقـال فى الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقـال فى الإنسان ما فيه . وهذا المعنى قد جاء فى صحيح الحديث عن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم . ثم وعظهم تعالى فى العودة إلى مثل هذه الحالة . و « أنْ » مفعول من أجله ، بتقدير : كراهية أن، ونحوه .

الخامسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ توقيف وتوكيد ؛ كما تقـول : ينبغى لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا .

السادسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ يعنى فى عائشة ؛ لأن مثله لا يكون إلا نظير القول فى المقُول عنـه بعينه ، أو فيمن كان فى مرتبته من أزواج النبيّ صـلى الله عليه وسـلم؛ لمـا فى ذلك من إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِرْضه وأهله ؛ وذلك كفر من فاعله .

السابعة عشرة — قال هشام بن عمار سمعت مالكا يقول : من سَبّ أبا بكر وعمر أُدّب ، ومن سبّ عائشة قُتل ؛ لأن الله تعالى يقول : « يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ؛ فمن سَبّ عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتل . قال ابن العربيّ : « قال أصحاب الشافعيّ من سبّ عائشة رضى الله عنها أُدّب كما فى سائر المؤمنين ، وليس قوله « إن كنتم مؤمنين » فى عائشة [لأن ذلك][1] كفر، وإنمـا هو كما قال عليه السلام : ” لا يؤمن من لا يأمن جارُه بوائقَه “ . ولو كان سلب الإيمـان فى سبّ من سبّ عائشة حقيقة لكان سلبه فى قوله : ” لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن “ حقيقة . قلنا : ليس[2] كما زعمتم ؛ فإن[3]

(١) زيادة عن ابن العربى .	(٢) فى الأصول : « لئن كان كما زعمتم أن أهل » والتصويب عن ابن العربى .	(٣) فى الأصول وابن العربى : « أن » بدون فاء .

أهل الإفك رَمَوْا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى فكل من سبها بما برأها الله منه مكذّب لله . ومن كذّب الله فهو كافر؛ فهذا طريق قول مالك، وهى سبيل لائحة لأهل البصائر . ولو أن رجلا سبّ عائشة بغير ما برأها الله منه لكان جزاؤه الأدب » .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ أى تفشو؛ يقال : شاع الشيء شُيُوعا وشَيْعًا وشَيَعانا وشَيْعُوعة؛ أى ظهر وتفرق . ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى فى المحصنين والمحصنات . والمراد بهذا اللفظ العام عائشةُ وصَفْوان رضى الله عنهما . والفاحشة : الفعل القبيح المُفْرِط القبح . وقيل : الفاحشة فى هذه الآية القولُ السيئ . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى الحدّ . وفى الآخرة عذاب النار؛ أى للمنافقين، فهو مخصوص . وقد بينا أن الحَدّ للؤمنين كفارة . وقال الطبرى : معناه إن مات مُصِرًّا غير تائب .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى يعلم مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليه، ويعلم كل شيء . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ روى من حديث أبى الدَّرْداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيُّما رجلٍ شَدّ عَضُدَ آمرئ من الناس فى خصومة لا علم له بها فهو فى سخط الله حتى ينزع عنها . وأيّما رجل قال بشفاعته دون حدّ من حدود الله أن يقام فقد عاند الله حقا وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة . وأيّما رجل أشاع على رجل مسلم كلمةً وهو منها برىء يرى أن يَشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله تعالى أن يرميه بها فى النار — ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى : — إن الذين يحبّون أن تَشيع الفاحشة فى الذين آمنوا " الآية .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى مسالكه ومذاهبه؛ المعنى : لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليها الشيطان . وواحد الخُطُوات خُطْوة، وهو ما بين القدمين . والخَطْوة (بالفتح) المصدر؛ يقال : خَطَوتُ خَطْوةً، وجمعها خَطَوات . وتخطّى إلينا فلان؛ ومنه الحديث أنه رأى رجلا يتخطَّى رقابَ الناس يوم الجمعة .

(١) فى الأصول : « الآية » . (٢) فى الاصول : « ولو أن رجلا سب عائشة بعين ما برأها الله منه لكان جزاؤه الكفر » . والتصويب عن ابن العربى .

وقرأ الجمهور « خُطُوات » بضم الطاء . وسكّنها عاصم والأعمش . وقرأ الجمهور « مَازَكَى » بتخفيف الكاف؛ أي ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رُشْدا . وقيل : « ما زكى » أي ما صلح؛ يقال : زَكَا يزكو زَكاء؛ أي صلح . وشـدّدها الحسن وأبو حَيْـوة ؛ أي أن تزكيتــه لكم وتطهيره وهدايته إنمـا هي بفضله لا بأعمالكم . وقال الكسائي : « يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان » معترض، وقوله « ما زكى منكم من أحدٍ أبدا » جواب لقوله أولا وثانيا « ولولا فضل الله عليكم » .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية . المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قُحَافة رضي الله عنه ومِسْطح بن أُثَاثة . وذلك أنه كان آبن بنت خالته وكان من المهاجرين البَدْرِيِّين المساكين . وهو مِسْطح بن أُثَاثة آبن عَبّاد بن المطلب بن عبد مناف . وقيل : آسمه عَوف، ومسطح لقب . وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لمسكنته وقرابته ؛ فلمـا وقع أمر الإفك وقال فيه مسطحٌ ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبدا ، فجاء مسطح فآعتذر وقال : إنمـا كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول . فقال له أبو بكر : لقد ضحكت وشاركت فيما قيل ؛ ومرّ على يمينه ، فنزلت الآية . وقال الضحاك وابن عباس : إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا : والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة ؛ فنزلت الآية في جميعهم . والأول أصح ؛ غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسَـعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته غابرَ الدهر . روى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم » العشر آيات ، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ؛ فأنزل الله تعالى « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ — إلى قوله — أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ » . قال عبد الله بن المبارك : هذه أَرْجَى آية في كتاب الله تعالى ؛ فقال أبو بكر : والله إني لأحبّ أن يغفر الله لي ؛ فرجَع الى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : لا أَنْزِعُها منه أبدا .

الثانية والعشرون — فى هذه الآية دليل على أن القذف و إن كان كبيرا لا يُحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مِسْطحا بعد قوله بالهجرة والإيمان؛ وكذلك سائر الكبائر؛ ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »(١) .

الثالثة والعشرون — من حلف على شيء لايفعله فرأى فعله أَوْلَى منه أتاه وكفّر عن يمينه، أو كفّر عن يمينه وأتاه؛ كما تقدم فى « المائدة »(٢) . ورأى الفقهاء أن من حلف ألا يفعل سُنّة من السنن أو مندوبا وأبّد ذلك أنها جُرْحة فى شهادته؛ ذكره الباجى فى المنتقى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ ﴾ « ولا يأتل » معناه يحلف؛ وزنها يفتعل، من الأَلِيّة وهى اليمين؛ ومنه قوله تعالى « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ »؛ وقد تقدم فى « البقرة »(٣) . وقالت فرقة : معناه يُقَصِّر؛ من قولك : أَلَوْتُ فى كذا إذا قصرت فيه؛ ومنه قوله تعالى « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا »(٤) .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ تمثيل وحجة؛ أى كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم؛ وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام : " من لا يرحم لا يرحم " .

السادسة والعشرون — قال بعض العلماء : هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ . وقيل . أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا »(٥) . وقد قال تعالى فى آية أخرى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ »(٦)؛ فشرح الفضل الكبير فى هذه الآية، وبشر به المؤمنين فى تلك . ومن آيات الرجاء قوله تعالى : « قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ »(٧) وقوله تعالى : « اللَّهُ لَطِيفٌ

(١) آية ٦٥ سورة الزمر . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها . (٣) راجع ج ٣ ص ١٠٣
(٤) راجع ج ٤ ص ١٧٨ (٥) آية ٤٧ سورة الأحزاب . (٦) آية ٢٢ سورة الشورى .
(٧) آية ٥٣ سورة الزمر .

بعباده». وقال بعضهم: أرجى آية في كتاب الله عز وجل: « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»[1] [2]؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار .

السابعــة والعشرون — قوله تعــالى: ﴿ أَنْ يُؤْتُوا ﴾ أي ألا يؤتوا، فحذف « لا »؛ كقول القائل: * فقلت يمين الله أبرحُ قاعدًا[3] *

ذكره الزجاج . وعلى قول أبي عبيدة لا حاجة إلى إضمار «لا». ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ من عَفا الربع أي دَرَس؛ فهو مَحْوُ الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع .

قوله تعــالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتــان:

الاولى — قوله تعالى: ﴿ٱلْمُحْصَنَاتِ﴾ تقدّم في «النساء»[4] . وأجمع العلماء على أن حكم المحصنين في القذف كحكم المحصنات قياسا واستدلالا، وقــد بيناه أول السورة والحمد لله . واختلف فيمن المراد بهذه الآية؛ فقال سعيد بن جُبير: هي في رُماة عائشة رضوان الله عليها خاصّةً . وقال قوم: هي في عائشة وسائر أزواج النبيّ صلى الله عليه وسـلم؛ قاله ابن عباس والضحاك وغيرهما . ولا تنفع التوبة . ومن قــذف غيرهن من المحصنات فقــد جعل الله له توبة؛ لأنه قال: «والذين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثم لَمْ يَأْتُوا بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ — إلى قوله — إلا الَّذِينَ تابوا» فجعل الله لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة؛ قاله الضحاك . وقيل: هذا الوعيد لمن أصرّ على القذف ولم يتب . وقيل: نزلت في عائشــة، إلا أنه يراد بها كل من اتّصف بهــذه الصفة . وقيل: إنه عام لجميع النــاس القذفة من ذكر وأنثى؛ ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأنفس المحصنات؛ فدخل في هــذا المذكر والمؤنث؛ واختــاره النحاس . وقيل: نزلت في مشركي مكة؛ لأنهم يقولون للمرأة إذا هاجرت إنمــا خرجت لتفْجُر .

(١) آية ١٩ سورة الشورى . (٢) آية ٥ سورة الضحى . (٣) هذا صدر بيت لامرئ القيس، وتمامه:
* ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي *
(٤) راجع جـ ٥ ص ١٢٠

الثانيــة : ﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ قال العلماء : إن كان المراد بهذه الاية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة الإبعاد وضربُ الحد واستيحاشُ المؤمنين منهم وهجرُهم لهم ، وزوالُهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين . وعلى قول من قال : هى خاصة لعائشة تترتب هذه الشدائد فى جانب عبد الله بن أُبَىّ وأشباهه . وعلى قول من قال : نزلت فى مشركى مكة فلا كلام، فإنهم مبعدون، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم؛ ومن أسلم فالإسلام يَجُبّ ما قبـله . وقال أبو جعفر النحاس : مِن أحسن ما قيل فى تأويل هذه الآية إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى ؛ ويكون التقدير : إن الذين يرمون الأنفس المحصنات ، فدخل فى هذا المذكر والمؤنث، وكذا فى الذين يرمون؛ إلا أنه غلب المذكر على المؤنث .

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قراءة العامة بالتـاء، واختاره أبو حاتم . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف «يشهد» بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل، والمعنى : يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بمـا كانوا يعملون من القذف والبهتان . وقيل : تشهد عليهـم ألسنتهم ذلك اليوم بمـا تكلموا به . ﴿ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ أى وتتكلم الجوارح بمـا عملوا فى الدنيـا .

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

أى حسابهم وجزاؤهم . وقرأ مجاهد « يومئذ يُوَفِّيهم اللهُ دِينَهم الحقُّ » برفع « الحق » على أنه نعت لله عز وجل . قال أبو عبيد : ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ؛ ليكون نعتا لله عز وجل ، وتكون موافقة لقراءة أُبَىّ، وذلك أن جرير بن حازم قال : رأيت فى مصحف أُبَىّ « يُوَفِّيهُمُ اللهُ الحَقُّ دِينَهُمْ » . قال النحاس : وهذا الكلام من أبى عبيد غير

مَرْضِيّ؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسّواد الأعظم . ولا حجة أيضا فيه لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أُبَيّ كذا جاز أن تكون القراءة : يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم ، يكون «دينهم» بدلا من الحق . وعلى قراءة العامة « دِينَهُمُ الْحَقَّ » يكون « الحقّ » نعتا لدينهم ، والمعنى حسن ؛ لأن الله عزّ وجلّ ذكر المسيئين وأعلم أنه يجازيهم بالحق ؛ كما قال الله عزّ وجلّ : «وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ»(١) ؛ لأن مجازاة الله عزّ وجلّ للكافر والمسيء بالحق والعدل ، ومجازاته للمحسن بالإحسان والفضل . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه . وقد ذكرناهما في غير موضع ، وخاصّةً في الكتاب الأسنى .

قوله تعالى : ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قال ابن زيد : المعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون للخبيثات ، وكذا الطيّبات للطيّبين والطيّبون للطيّبات . وقال مجاهد وابن جُبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول . قال النحاس في كتاب معاني القرآن : وهذا أحسن ما قيل في هذه الآية . ودلّ على صحة هذا القول « أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ » أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات . وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً» الآية ؛ فالخبيثات الزواني ، والطيبات العفائف ، وكذا الطيبون والطيبات . واختار هذا القول النحاس أيضا ، وهو معنى قول ابن زيد . ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ يعني به الجنس . وقيل : عائشة وصفوان ، فجمع ؛ كما قال : «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ»(٢) والمراد أخوان ؛ قاله الفراء .

---

(١) آية ١٧ سورة سبأ . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢

و ﴿ مُبَرَّءُونَ ﴾ يعنى منزّهين مما رُموا به . قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُمى بالفاحشة برّأه الله على لسان صبىّ فى المهد، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برّأها الله تعالى بالقرآن؛ فما رضى لها ببراءة صبىّ ولا نبىّ حتى برّأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وروى عن علىّ بن زيد بن جُدْعان عن جدّته عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن آمرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوّجنى، ولقد تزوّجنى بكرا وما تزوّج بكرا غيرى، ولقد تُوُفِّىَ صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفى حجرى ، ولقد قُبر فى بيتى ، ولقد حفّت الملائكة بيتى، وإن كان الوحى لينزل عليه وهو فى أهله فينصرفون عنه، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه فما يُبِينُنى عن جسده ، وإنى لأبنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عُذْرِى من السماء، ولقد خُلقتُ طيّبة وعند طيّب ، ولقد وُعدت مغفرة ورزقا كريما؛ تَعْنِى قولَه تعالى « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو الجنة .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا ﴾ لما خصّص الله سبحانه ابن آدم الذى كرّمه وفضّله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار، وملّكهم الاستمتاع بها على الآنفراد، وحجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها، أدّبهم بما يرجع إلى الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عَوْرة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من آطّلع فى بيت قوم من غير إذنهم حلّ لهم أن يفقئوا عينه " . وقد آختلف فى تأويله؛ فقال بعض العلماء : ليس هذا على ظاهره،

فإن فقأ فعليه الضمان، والخبر منسوخ، وكان قبل نزول قوله تعالى : «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا» . ويحتمل أن يكون خرج على وجه الوعيد لا على وجه الحتم ، والخبر إذا كان مخالفا لكتاب الله تعالى لا يجوز العمل به . وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتكلم بالكلام في الظاهر وهو يريد شيئا آخر؛ كما جاء في الخبر أن عباس بن مِرْداس لما مدحه قال لبلال : " قم فاقطع لسانه " وإنما أراد بذلك أن يدفع إليه شيئا، ولم يرد به القطع في الحقيقة . وكذلك هذا يحتمل أن يكون ذكر فَقْء العين والمراد أن يعمل به عمل حتى لا ينظر بعد ذلك في بيت غيره . وقال بعضهم : لا ضمان عليه ولا قصاص؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لحديث أنس، على ما يأتي .

الثانيــة — سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري وغيره عن عَدِيّ بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحِبّ أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد فيأتي الأب فيدخل عليّ وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن ؛ فأنزل الله تعالى : «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ» .

الثالثــة — مدّ الله سبحانه وتعالى التحريم في دخول بيت ليس هو بيتك إلى غاية هي الاستئناس، وهو الاستئذان . قال ابن وهب قال مالك : الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان؛ وكذا في قراءة أُبَيّ وابن عباس وسعيد بن جُبير «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» . وقيل : إن معنى « تستأنسوا » تستعلموا؛ أي تستعلموا من في البيت . قال مجاهد : بالتنحنح أو بأي وجه أمكن ، ويتأنّى قدرَ ما يعلم أنه قد شُعِر به ، ويدخل إثر ذلك . وقال معناه الطبري؛ ومنه قوله تعالى : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » (١) أي علمتم . وقال الشاعر :

آنستْ نَبْأة وأفزعها القنّـ * ـاص عصرًا وقد دنا الإمساء

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٦

قلت : وفى سنن ابن ماجه : حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا عبد الرحيم بن سليمان عن واصل ابن السائب عن أبى سَوْرة عن أبى أيوب الأنصارىّ قال قلنا : يارسول الله ، هذا السلام، فما الاستئذان؟ قال : "يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة و يتنحنح و يؤذن أهل البيت".

قلت : وهذا نص فى أن الاستئناس غير الاستئذان؛ كما قال مجاهد ومن وافقه .

الرابعــة — وروى عن ابن عبـاس و بعض الناس يقول عن سعيد بن جُبير « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » خطأ أو وَهَم من الكاتب ، إنما هو « حتى تستأذنوا » . وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره؛ فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا » ، وصح الإجماع فيها من لَدُن مدّة عثمان ، فهى التى لا يجوز خلافها . و إطلاق الخطأ والوَهَم على الكاتب فى لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس ؛ وقد قال عزّ وجلّ : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ؛ وقال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . وقد روى عن ابن عباس أن فى الكلام تقديما وتأخيرا؛ والمعنى : حتى تسلّموا على أهلها وتستأنسوا ؛ حكاه أبو حاتم . قال ابن عطية : ومما يَنْفِى هذا القول عن ابن عباس وغيره أن « تستأنسوا » متمكنة فى المعنى، بيّنةُ الوجه فى كلام العـرب . وقد قال عمر للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أستأنس يا رسـول الله ؛ وعمر واقف على باب الغرفة ، الحديث المشهور . وذلك يقتضى أنه طلب الأنس به صلى الله عليـه وسلم، فكيف يخطّئ ابن عباس أصحاب الرسول فى مثل هذا .

قلت : قد ذكرنا من حديث أبى أيوب أن الاستئناس إنما يكون قبل السلام ، وتكون الاية على بابها لا تقديم فيها ولا تأخير، وأنه إذا دخل سلّم . والله أعلم .

الخامســة — السنّة فى الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليهـا . قال ابن وهب قال مالك : الاستئذان ثلاث، لا أحب أن يزيد أحد عليها، إلا من عَلِم أنه لم يُسمع، فلا أرى بأسا أن يزيد إذا استيقن أنه لم يُسـمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : السـلام عليكم أأدخل ؛ فإن أُذِن له دخل ، و إن أمر بالرجوع انصرف ، و إن سُكت عنـه استأذن

ثلاثا ؛ ثم ينصرف من بعد الثلاث . و إنما قلنا : إن السنّة الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليها لحديث أبي موسى الأشعريّ ، الذى استعمله مع عمر بن الخطاب وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخُدريّ ، ثم أبيّ بن كعب . وهو حديث مشهور أخرجه الصحيح ، وهو نص صريح ؛ فإن فيه : فقال — يعني عمر — ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : أتيتُ فسلّمت على بابك ثلاث مرات فلم ترد عليّ فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع " . وأما ما ذكرناه من صورة الاستئذان فما رواه أبو داود عن رِبْعِيّ قال : حدّثنا رجل من بني عامر استأذن على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في بيت ، فقال : أَلِج ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لخادمه : " اخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان — فقال له — قل السلام عليكم أأدخل " فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن له النبيّ صلى الله عليه وسلم فدخل . وذكره الطبري وقال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَمة له يقال لها « روضة » : " قولي لهذا يقول السلام عليكم أدخل ؟ " الحديث . وروى أن ابن عمر آذته الرمضاء يوما فأتى فسطاطا لامرأة من قريش فقال : السلام عليكم أأدخل؟ فقالت المرأة : ادخل بسلام ، فأعاد فأعادت ، فقال لها : قولي ادخل . فقالت ذلك فدخل ؛ فتوقف لما قالت : بسلام ؛ لاحتمال اللفظ أن تريد بسلامك لا بشخصك .

السادسة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما خُصّ الاستئذان بثلاث لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثا سُمع وفُهم ؛ ولذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى يُفهم عنه ، و إذا سلّم على قوم سلّم عليهم ثلاثا . و إذا كان الغالب هذا ؛ فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أن ربّ المنزل لا يريد الإذن ، أو لعلّه يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه ؛ فينبغي للمستأذن أن ينصرف ؛ لأن الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل ، و ربما يضره الإلحاح حتى ينقطع عما كان مشغولا به ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب حين استأذن عليه فخرج مستعجلا فقال : "لعلنا أعجلناك..." الحديث . وروى عقيل عن ابن شهاب قال : أما سنة التسليمات الثلاث فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى سعد

ابن عُبادة فقال : "السلام عليكم" فلم يردّوا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "السلام عليكم" فلم يردّوا، فآنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما فَقَد سعدٌ تسليمَه عرف أنه قد انصرف؛ فخرج سعد فى أثره حتى أدركه، فقال : وعليك السلام يا رســول الله، إنمـا أردنا أن نستكثر من تسليمك، وقد والله سمعنا؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سعد حتى دخل بيته . قال ابن شهاب : فإنما أُخذ التسليم ثلاثا من قِبَـل ذلك؛ رواه الوليد ابن مسلم عن الأوزاعىّ قال : سمعت يحيى بن أبى كثير يقول حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة [عن قيس بن سعد] (١) قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا فقال : "السلام عليكم ورحمة الله" قال فردّ سعد ردًّا خفيا، قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام ... الحديث، أخرجه أبو داود وليس فيه «قال ابن شهاب فإنما أُخذ التسليم ثلاثا من قبل ذلك» . قال أبو داود : ورواه عمر بن عبد الواحد وابن سماعة عن الأوزاعىّ مرسلا لم يذكرا قيس بن سعد .

السابعـــة — روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الاستئذان تَرَكَ العملَ به الناس . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وذلك لاتخاذ الناس الأبواب وقرعها؛ والله أعلم . روى أبو داود عن عبـد الله بن بُسر قال : كان رســول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : "السلام عليكم السلام عليكم" وذلك أن الدُّور لم يكن عليها يومئذ ستور .

الثامنـــة — فإن كان الباب مردودا فله أن يقف حيث شاء منه ويستأذن، وإن شاء دقّ الباب؛ لمـا رواه أبو موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وســلم كان فى حائط بالمدينة على قُفّ البئر (٢) فمـد رجليه فى البئر فدق الباب أبو بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ايذن له وبشره بالجنة" . هكذا رواه عبـد الرحمن بن أبى الزناد وتابعه صالح بن كَيْسان ويونس بن يزيد؛ فرووه جميعا عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن عبد الرحمن بن نافع

(١) زيادة عن سنن أبى داود يقتضيها السياق .
(٢) قف البئر : هو الدكة التى تجعل حولها . وأصل القف : ما غلظ من الأرض وارتفع .

عن أبي موسى . وخالفهم محمــد بن عمرو الليثي فرواه عن أبي الزناد عن أبي سلمة عن نافع ابن عبد الحارث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك؛ و إسناده الأوّل أصح، والله أعلم .

التاســعة — وصفة الدق أن يكون خفيفا بحيث يسمع ، ولا يعنُف فى ذلك؛ فقــد روى أنس بن مالك رضى الله عنــه قال : كانت أبواب النبيّ صــلى الله عليه وســلم تقرع بالأظافير؛ ذكره أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب فى جامعه .

العاشــرة — روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبــد الله رضى الله عنهما قال : استأذنت على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "من هــذا" ؟ فقلت أنا، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنا أنا"! كأنه كره ذلك . قال علماؤنا : إنما كره النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك لأن قوله أنا لا يحصل بها تعريف، و إنما الحكم فى ذلك أن يذكر اسمه كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبو موسى؛ لأن فى ذكر الاسم إســقاط كُلْفة السؤال والجــواب . ثبت عن عمر بن الخطاب أنه أتى النبيّ صلى الله عليه وســلم وهو فى مَشْربة له فقال : الســلام عليك يا رسول الله ، الســلام عليكم أيدخل عمر ؟ وفى صحيح مســلم أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : السلام عليكم، هذا أبو موسى، السلام عليكم، هذا الأشعرى ... الحديث .

الحادية عشرة — ذكر الخطيب فى جامعه عن علىّ بن عاصم الواســطى قال : قدمت البصرة فأتيت منزل شعبة فدققت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت أنا، فقال : يا هذا ! ما لى صديق يقال له أنا ؛ ثم خرج إلىّ فقال : حدّثنى محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حاجة لى فطرقت عليه الباب فقال : "من هذا" ؟ فقلت أنا، فقال : "أنا أنا"! كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كره قولى هذا، أو قوله هذا. وذكر عن عمر بن شَبّة حدّثنا محمد بن ســلام عن أبيه قال : دققت على عمرو بن عُبيد الباب فقال لى : من هذا؟ فقلت أنا، فقال : لا يعلم الغيب إلا الله . قال الخطيب : سمعت علىّ ابن المُحَسِّن القاضى يحكى عن بعض الشــيوخ أنه كان إذا دُقّ بابُه فقال من ذا ؟ فقال الذى على الباب أنا، يقول الشيخ : أنا هَمٌّ دَقّ .

الثانية عشرة — ثم لكل قوم فى الاستئذان عُرْفُهم فى العبارة؛ كما رواه أبو بكر الخطيب مسندا عن أبى عبد الملك مولى أم مسكين بنت عاصم بن عمر بن الخطاب قال : أرسلتنى مولاتى إلى أبى هريرة فجاء معى، فلما قام بالباب قال : أندر؟ قالت أندرون . وترجم عليه (باب الاستئذان بالفارسية) . وذكر عن أحمد بن صالح قال : كان الدراوَرْدِىّ من أهل أصبهان (١) نزل المدينة، فكان يقول للرجل إذا أراد أن يدخل : أندرون، فلقبه أهل المدينة الدراوردى .

الثالثة عشرة — روى أبو داود عن كَلَدة بن حنبل أن صفوان بن أميّة بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن وجَدَاية وضَغَابِيس (٢) والنبىّ صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة، فدخلت ولم أسلم فقال : "ارجع فقل السلام عليكم" وذلك بعد ما أسلم صفوان بن أمية . وروى أبو الزبير عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له" . وذكر ابن جُرَيج أخبرنى عطاء قال : سمعت أبا هريرة يقول : إذا قال الرجل أدخل؟ ولم يسلم فقل لا حتى تأتى بالمفتاح؛ فقلت السلام عليكم؟ قال نعم . وروى أن حذيفة جاءه رجل فنظر إلى ما فى البيت فقال : السلام عليكم أأدخل؟ فقال حذيفة : أما بعينك فقد دخلت! وأما بآستك فلم تدخل .

الرابعة عشرة — ومما يدخل فى هذا الباب ما رواه أبو داود عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "رسولُ الرجلِ إلى الرجل إذْنُه" ؛ أى إذا أرسل إليه فقد أذن له فى الدخول، يبينه قوله عليه السلام : "إذا دُعِىَ أحدكم [إلى طعام] (٣) فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن" . أخرجه أبو داود أيضا عن أبى هريرة .

الخامسة عشرة — فإن وقعت العين على العين فالسلام قد تعيّن، ولا تَعُدّ رؤيتك إذنا لك فى دخولك عليه، فإذا قضيت حق السلام لأنك الوارد عليه تقول : أدخل؟ فإن أذن لك وإلا رجعت .

(١) هو عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبى عبيد . (راجع ترجمته فى كتاب تهذيب التهذيب) . (٢) الجداية : الذكر والأنثى من أولاد الظباء إذا بلغ ستة أشهر أو سبعة؛ بمنزلة الجدى من المعز . والضغابيس : القثاء؛ واحدها ضُغبوس . وقيل : هى نبت ينبت فى أصول الثمام، يسلق بالخل والزيت ويؤكل . (٣) زيادة عن سنن أبى داود .

السادسة عشرة — هــذه الأحكام كلها إنمــا هي في بيت ليس لك، فأما بيتــك الذي تسكنه فإن كان فيه أهلك فلا إذن عليها، إلا أنك تسلّم إذا دخلت . قال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلّم على أهلك، فهم أحق من سلمت عليهم . فإن كان فيه معك أمك أو أختك فقالوا : تنحنح وآضرب برجلك حتى ينتبها لدخولك؛ لأن الأهل لا حشمة بينك وبينها . وأما الأم والأخت فقد يكونا على حالة لا تحب أن تراهما فيها . قال ابن القاسم قال مالك : ويستأذن الرجل على أمه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما . وقد روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أستأذن على أمي؟ قال "نعم" قال : إني أخدمها؟ قال : "استأذن عليها" فعاوده ثلاثا؛ قال "أتحب أن تراها عُريانة"؟ قال لا؛ قال: "فاستأذن عليها" ذكره الطبري .

السابعة عشرة — فإن دخل بيت نفسه وليس فيه أحد؛ فقال علماؤنا : يقول السلام علينا، من ربّنا التحيات الطيبات المباركات، لله السلام . رواه ابن وهب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسنده ضعيف . وقال قتادة : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنه يؤمر بذلك . قال : وذكر لنا أن الملائكة تردّ عليهم . قال ابن العربي : والصحيح ترك السلام والآستئذان، والله أعلم .

قلت : قول قتادة حَسَن .

قوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ الضمير في «تجدوا فيها» للبيوت التي هي بيوت الغير . وحكى الطبري عن مجاهــد أنه قال : معنى قوله « فإن لم تجدوا فيها أحدا » أي لم يكن لكم فيهــا متاع . وضعّف الطبري هذا التأويل، وكذلك هو في غاية الضعف؛ وكأن مجاهدا رأى أن البيوت غير المسكونة إنمــا تُدْخَل دون إذن إذا كان للداخل فيها متاع .

ورأى لفظة «المتاع» متاع البيت، الذى هو البُسُط والثياب؛ وهذا كله ضعيف . والصحيح أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها والأحاديث؛ التقـدير: يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا، فإن أذن لكم فادخلوا وإلا فارجعوا؛ كما فعل عليه السلام مع سـعد، وأبو موسى مع عمر رضى الله عنهما . فإن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم فلا تدخلوها حتى تجدوا إذنا . وأسند الطبرى عن قتادة قال قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمرى هذه الآية فما أدركتها أن أسـتأذن على بعض إخوانى فيقول لى ارجع فارجع وأنا مغتبط ؛ لقوله تعالى : « هو أزكى لكم » .

الثانيـة — سواء كان الباب مغلقا أو مفتوحا؛ لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذن من ربه، بل يجب عليه أن يأتى البـاب ويحاول الإذن على صفة لا يطّلع منه على البيت لا فى إقباله ولا فى انقلابه . فقد روى علماؤنا عن عمر بن الخطاب أنه قال : من ملأ عينيه من قاعة بيت فقد فَسَق . وروى الصحيح عن سهل بن سعد أن رجلا اطلع فى جُحْرٍ فى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مِدْرًى[1] يرجّل به رأسـه؛ فقال له رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أعلم أنك تنظر لطَعَنْتُ به فى عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر" . وروى عن أنس أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن فخذفته[2] بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح" .

الثالثـة — إذا ثبت أن الإذن شرط فى دخول المنزل فإنه يجوز من الصغير والكبير . وقد كان أنس بن مالك دون البـلوغ يستأذن على رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، وكذلك الصحابة مع أبنائهـم وغلمانهم رضى الله عنهـم . وسيأتى لهذا مزيد بيـان فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعّدٌ لأهل التجسّس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصى والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع فى محظور .

(١) المدرى والمدراة : شىء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر .
(٢) الخذف : رميك حصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وترمى بها .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

فيــه مسألتان :

الأولى — رُوِى أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمّق فى الأمر ، فكان لا يأتى موضعا خَرِبا ولا مسكونا إلا سلّم واستأذن ؛ فنزلت هذه الآية ، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان فى كل بيت لا يسكنه أحد ؛ لأن العلة فى الاستئذان إنما هى لأجل خوف الكشفة على الحرمات ؛ فإذا زالت العلة زال الحكم .

الثانيــة — اختلف العلماء فى المراد بهذه البيوت ؛ فقال محمد بن الحنفيّة وقتادة ومجاهد : هى الفنادق التى فى طرق السابلة . قال مجاهد : لا يسكنها أحد بل هى موقوفة ليأوى إليها كل ابن سبيل ، وفيها متاع لهم ؛ أى استمتاع بمنفعتها . وعن محمد بن الحنفية أيضا أن المراد بها دور مكة ؛ و يبيّنه قول مالك . وهـذا على القول بأنها غير متملَّكة ، وأن الناس شركاء فيها ، وأن مكة أخذت عَنْوة . وقال ابن زيد والشَّعْبِيّ : هى حوانيت القَيْسَارِيّات . قال الشعبيّ : لأنهم جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها ، وقالوا للناس هَلُمّ . وقال عطاء : المراد بها الخِرَب التى يدخلها الناس للبول والغائط ؛ ففى هـذا أيضا متاع . وقال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ؛ أما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خَرِبة يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها ، فهذا متاع وكلّ منافع الدنيا متاع . قال أبو جعفر النحاس : وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين ، وهو موافق للغة . والمتاع فى كلام العرب : المنفعة ؛ ومنه أمتع الله بك . ومنه « فَمَتِّعُوهنّ » .

قلت : واختاره أيضا القاضى أبو بكر بن العربىّ وقال : أما من فسّر المتاع بأنه جميع الانتفاع فقد طبّق المفصل وجاء بالفَيْصل ، و بيّن أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع ؛ فالطالب يدخل فى الخانكات وهى المدارس لطلب العلم ، والساكن يدخل الخانات

وهى الفنانق ، أى الفنادق. والزَّبون يدخل الدكان للابتياع ، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة؛ وكلٌّ يؤتى على وجهه من بابه . وأما قول ابن زيد والشَّعبيّ فقول ! وذلك أن بيوت القَيْسَارِيَّات محظورة بأموال الناس ، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أذن له ربها، بل أربابها موكَّلون بدفع الناس .

قوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ وصل تعالى بذكر السّتر ما يتعلّق به من أمر النظر؛ يقال : غضّ بصره يَغُضّه غضًّا؛ قال الشاعر :

فغُضَّ الطَّرْف إنك من نُمَيرٍ * فلا كَعْبًا بلغْتَ ولا كِلابَا

وقال عَنْتَرَة :

وأغض طرفى ما بدت لِيَ جارتِى * حتى يُوارِى جارتِى مأواهَا

ولم يذكر الله تعالى ما يُغَض البصر عنه ويحفظ الفرج، غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه المحرّم دون المحلّل . وفى البخارى : « وقال سعيد بن أبى الحسن للحسن إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورءوسهن؟ قال : اصرف بصرك ؛ يقول الله تعالى « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » وقال قتادة : عمّا لا يحلّ لهم؛ « وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ » خائنةَ الأعْيُن [من](١) النظر إلى ما نُهِيَ عنه » .

الثانية — قوله تعالى : ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ « من » زائدة؛ كقوله « فما منكم من أحد عنه حاجِزِين »(٢) . وقيل : «من» للتبعيض؛ لأن من النظر ما يباح . وقيل : الغض النقصان ؛ يقال : غض فلان من فلان أى وضع منه ؛ فالبصر إذا لم يمكَّن من عمله فهو موضوع منه ومنقوص . فـ « مِن » صلة للغض، وليست للتبعيض ولا للزيادة .

---

(١) زيادة عن صحيح البخارى . (٢) آية ٤٧ سورة الحاقة .

الثالثـــة — البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته. ووجب التحذير منــه، وغضّه واجب عن جميع المحرّمات، وكلّ ما يخشى الفتنة من أجله؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إياكم والجلوسَ على الطُّرُقات" فقالوا: يا رســول الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدّث فيهــا. فقال: "فإذا أبيتُم إلا المجلس فأعطُوا الطريقَ حقّه" قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: "غَضُّ البصر وكفّ الأذى وردُّ السلام والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر". رواه أبو سـعيد الخُدْرِيّ، خرّجه البخاريّ ومسلم. وقال صلى الله عليه وسلم لعليّ: "لا تُتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية". وروى الأوزاعيّ قال: حدّثني هارون بن رِئاب أن غَزْوان وأبا موسى الأشعريّ كانا في بعض مَغازِيهم، فكشفت جارية فنظر إليها غَزْوان، فرفع يده فلطم عينه حتى نَفَرَت[1]، فقال: إنك للحّاظة إلى ما يضرك ولا ينفعــك؛ فلقِيَ أبا موسى فسأله فقال: ظلمتَ عينك، فآستغفر الله وتُب، فإن لها أوّل نظرة وعليها ما كان بعد ذلك. قال الأوزاعي: وكان غَزْوان ملك نفسه فلم يضحك حتى مات رضى الله عنه. وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفُجَاءة؛ فأمرني أن أصرف بصري. وهذا يقوّي قول من يقول: إن «من» للتبعيض؛ لأن النظرة الأولى لا تُمْلَك فـلا تدخل تحت خطاب تكليف، إذ وقوعها لا يتأتّى أن يكون مقصودا، فلا تكون مكتسبة فلا يكون مكافا بهــا؛ فوجب التبعيض لذلك، ولم يقل ذلك في الفرج؛ لأنها تُمْلك. ولقد كره الشعبيّ أن يُديم الرجل النظر إلى آبنته أو أمه أو أخته؛ وزمانُه خير من زماننا هذا!! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذاتِ محرمة نظر شهوة يردّدها.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي يستروها عن أن يراها من لا يحلّ. وقيل: «ويحفظوا فروجهم» أي عن الزنى؛ وعلى هذا القول لو قال: «من فروجهم» لجــاز. والصحيح أن الجميع مراد واللفظ عام. وروى بَهْز بن حكيم بن معاوية القُشَيْريّ عن أبيه عن جده قال: قلت يارسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: "احفظ

(١) نفرت العين وغيرها من الأعضاء تنفر نفورا: هاجت وورمت.

عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك " . قال : الرجل يكون مع الرجل ؟ قال : " إن استطعت ألا يراها فافعل " . قلت : فالرجل يكون خاليا ؟ فقال : " الله أحقّ أن يُستحيا منه من الناس " . وقد ذكرت عائشة رضى الله عنها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وحالَها معه فقالت : ما رأيت ذلك منه، ولا رأى ذلك منى .

الخامسة — بهذه الآية حرّم العلماء نصًّا دخول الحمام بغير مئزر . وقد روى عن ابن عمر أنه قال : أطْيَب ما أنفق الرجل درهم يعطيه للحمام فى خلوة . وصح عن ابن عباس أنه دخل الحمام وهو مُحرِم بالجحفة . فدخوله جائز للرجال بالمآزر، وكذلك النساء للضرورة كغسلهن من الحيض أو النفاس أو مرض يلحقهن ؛ والأَوْلَى بهن والأفضلُ لهن غسلهن إن أمكن ذلك فى بيوتهن ، فقد روى أحمد بن مَنيع حدّثنا الحسن بن موسى حدّثنا ابن لَهِيعة حدّثنا زَبّان عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدَّرْداء أنه سمعها تقول : لقِينى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خرجت من الحمام فقال : " من أين يا أمّ الدرداء " ؟ فقالت من الحمام ؛ فقال : " والذى نفسى بيده ما من آمرأة تضع ثيابها فى غير بيت أحد من أمّهاتها إلا وهى هاتكة كلّ ستر بينها وبين الرحمن عز وجل". وخرّج أبو بكر البزّار عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احذروا بيتا يقال له الحمام". قالوا : يا رسول الله، ينقى الوسخ؟ قال : " فاستتروا " . قال أبو محمد عبد الحق : هذا أصح إسناد حديث فى هذا الباب؛ على أن الناس يرسلونه عن طاوس ، وأما ما خرّجه أبو داود فى هذا من الحظر والإباحة فلا يصح منه شىء لضعف الأسانيد؛ وكذلك ما خرّجه الترمذى .

قلت : أما دخول الحمام فى هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدِّين؛ لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسّطوا الحمام رمى مآزرهم، حتى يُرَى الرجل البَهِىّ ذو الشيبة قائما منتصبا وسط الحمام وخارجه بادِيًا عن عورته ضامًّا بين فخذيه ولا أحد يغيّر عليه . هذا أمر بين الرجال فكيف من النساء ! لا سيّما بالديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التى هى عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ! .

السادســة — قال العلماء : فإن استتر فليدخل بعشرة شروط :

الأول — ألّا يدخل إلا بنيّة التداوى أو بنيّة التطهير عن الرُّحَضاء[1] .

الثانى — أن يعتمد أوقات الخلوة أو قلّة الناس .

الثالث — أن يستر عورته بإزار صَفيق .

الرابع — أن يكون نظره إلى الأرض أو يستقبل الحائط لئلا يقع بصره على محظور .

الخامس — أن يُغيّر ما يرى من منكر برفق، يقول : استتر سترك الله !

السادس — إن دلّكه أحد لا يمكّنــه من عورته ، من سرته إلى ركبتــه إلا امرأته أو جاريته . وقد اختلف فى الفخذين هل هما عورة أم لا .

السابع — أن يدخله بأجرة معلومة بشرطٍ أو بعادة الناس .

الثامن — أن يصبّ المـاء على قدر الحاجة .

التاسع — إن لم يقدر على دخوله وحده آتفق مع قوم يحفظون أديانهــم على كرائه .

العاشر — أن يتذكر به جهنم . فإن لم يمكنه ذلك كله فليستتر وليجتهد فى غضّ البصر.

ذكر الترمذيّ أبو عبد الله فى نوادر الأصول من حديث طاوس عن عبد الله بن عبـاس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آتقوا بيتا يقال له الحمام" . قيل : يا رسول الله، إنه يذهب به الوسخ ويذكّر النار، فقال : " إن كنتم لا بُدّ فاعلين فآدخلوه مستترين" . وخرّج من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " نِعم البيت يدخله الرجل المسلم بيتُ الحمام — وذلك لأنه إذا دخله سأل الله الجنة وآستعاذ به من النار — وبئس البيتُ يدخله الرجل بيتُ العروس" . وذلك لأنه يرغّبه فى الدنيا وينسيه الآخرة . قال أبو عبد الله : فهذا لأهل الغفلة ، صيّر الله هذه الدنيا بما فيها سببا للذّكر لأهل الغفلة ليذكروا بها آخرتهم ؛ فأما أهل اليقين فقــد صارت الآخرة نُصْب أعينهم فلا بيت حمّـام يزعجه ولا بيت عروس

(١) الرحضاء : العرق فى أثر الحمى .

يستفزه، لقد دَقَّت الدنيا بما فيها من الصنفين والضربين فى جنب الآخرة، حتى أن جميع نعيم الدنيا فى أعينهم كنُثارة الطعام من مائدة عظيمة، وجميع شدائد الدنيا فى أعينهم كتفلة عوقب بها مجرم أو مسيء قد كان استوجب القتل أو الصلب من جميع عقوبات أهل الدنيا .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أى غضّ البصر وحفظ الفرج أطهر فى الدين وأبعد من دنس الأنام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ ﴾ أى عالم . ﴿ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

قوله تعالى : وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ خصّ الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد؛ فإن قوله « قل للمؤمنين » يكفى؛ لأنه قول عام يتناول الذَّكر والأنثى من المؤمنين، حسب كلّ خطاب عام فى القرآن . وظهر التضعيف فى « يَغْضُضْنَ » ولم يظهر فى « يَغُضُّوا » لأن لام الفعل من الثانى ساكنة ومن الأوّل متحركة، وهما فى موضع

جزم جوابا . وبدأ بالغَضّ قبـل الفرج لأن البصر رائد للقلب ؛ كما أن الحُمَّى رائد الموت . وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ألم تر أن العين للقلب رائد * فما تألف العينان فالقلب آلف

وفى الخبر "النظر سَهْم من سهام إبليس مسموم فمن غضّ بصره أورثه الله الحلاوة فى قلبه" . وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيّنها لمن ينظر؛ فإذا أدبرت جلس على عَجُزها فزيّنها لمن ينظر. وعن خالد بن أبى عمران قال . لا تُتْبِعنّ النظرة النظرة فربما نظر العبد نظرةً نَغِل (١) منها قلبُه كما يَنْغَل الأديم فلا يُنتفع به . فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار عما لا يحل؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة، ولا المرأة إلى الرجل؛ فإن علاقتها به كعلاقته بها ؛ وقصدها منه كقصده منها . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر ..." الحديث . وقال الزهرى فى النظر إلى التى لم تحض من النساء : لا يصلح النظر الى شىء منهن ممن يُشْتَهَى النظرُ إليهن وإن كانت صغيرة . وكره عطاء النظر إلى الجوارى اللاتى يبعن بمكة إلا أن يريد أن يشترى . وفى الصحيحين عنه عليه السلام أنه صرف وجه الفضل عن الخَثْعَمِيّة (٢) حين سألته ، وطَفِق الفضل ينظر إليها . وقال عليه السلام : " الغَيْرة من الإيمان والمِذاء من النفاق " . والمِذَاء هو أن يجمع الرجل بين النساء والرجال ثم يخلّيهم يُماذِى بعضهم بعضا؛ مأخوذ من المَذْى . وقيل : هو إرسال الرجال إلى النساء؛ من قولهم : مَذَيْتُ الفرس إذا أرسلتَها تَرْعَى . وكلّ ذَكَر يَمْذِى ، وكلّ أنثى تَقْذِى ؛ فلا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدى زينتها إلا لمن تحلّ له ، أو لمن هى محرّمة عليه على التأبيد؛ فهو آمن أن يتحرك طبعه إليها لوقوع اليأس له منها .

---

(١) النغل (بالتحريك) : الفساد . ونغل الأديم إذا عفن وتهرّى فى الدباغ فينفسد و يهلك .

(٢) فى البخارى : «عن ابن عباس قال : كان الفضل رديف النبيّ صلى الله عليه وسلم فجاءت امرأة من خثعم ، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليـه ، فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضـل إلى الشق الآخر؛ فقالت : ان فريضة الله أدركت أبى شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال نعم » .

الثانيــة — روى الترمذى عن نَبْهان مولى أم سلمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهــا ولميمونة وقد دخل عليها آبن أمّ مَكْتُوم : "احتجبا" فقالتا : إنه أعمى؛ قال : "أفَعَمْيَاوَانِ أنتما ألستما تُبصرانه" . فإن قيل : هذا الحديث لا يصحّ عند أهل النقل لأن راويه عن أم سلمة نبهان مولاها وهو ممن لا يحتج بحديثه . وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه عليه السلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن كما غلظ عليهن أمر الحجاب؛ كما أشار إليه أبو داود وغيره من الأئمة . ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر فاطمة بنت قيس أن تعتدّ فى بيت أمّ شَرِيك؛ ثم قال : " تلك آمرأة يغشاها أصحابى آعتدى عنـد آبن أمّ مَكْتُوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك " . قلنا : قـد استدلّ بعض العلماء بهـذا الحديث على أن المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة كالرأس ومعلّق القُرْط؛ وأما العورة فلا . فعلى هذا يكون مخصصا لعموم قوله تعالى: «وقل للمؤمنات يَغْضُضن من أبصارهنّ »، وتكون « من » للتبعيض كما هى فى الآية قبلها . قال ابن العربى : وإنمـا أمرها بالانتقال من بيت أمّ شَرِيك إلى بيت آبن أمّ مكتوم لأن ذلك أوْلى بهـا من بقائها فى بيت أمّ شريك؛ إذ كانت أمّ شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها، فيكثر الرائى لها، وفى بيت آبن أمّ مكتوم لا يراها أحد؛ فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأوْلى، فرخص لها فى ذلك، والله أعلم .

الثالثــة — أمر الله سبحانه وتعـالى النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى الآية حذارا من الآفتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزينة؛ واختلف الناس فى قدر ذلك؛ فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . وزاد ابن جبير الوجه . وقال سعيد بن جبير أيضا وعطاء والأوزاعىّ : الوجه والكفان والثياب . وقال ابن عباس وقتادة والمِسْوَر بن مَخْرَمة : ظاهر الزينة هو الكحل والسّوار والخضاب إلى نصف الذراع والقِرطة والفَتَخ[(١)]؛ ونحو هذا فمباح أن تُبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس . وذكر الطبرى عن

(١) الفتخ (بفتحتين جمع الفتخة) : خواتيم كبار تلبس فى الأيدى .

قتادة فى معنى نصف الذراع حديثا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر آخر عن عائشة رضى الله عنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عَرَكت (١) أن تظهر إلا وجهها و يديها إلى هاهنا " وقبض على نصف الذراع . قال ابن عطية : و يظهر لى بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تُبدى وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابدّ منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك . فـ«ـما ظهر» على هذا الوجه مما تؤدّى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفوّ عنه .

قلت : هذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورَهما عادةً وعبادةً وذلك فى الصلاة والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما . يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رِقاق ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها : " يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحِيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا " وأشار إلى وجهه وكفّيه . فهذا أقوى فى جانب الاحتياط ؛ ولمراعاة فساد الناس فلا تُبدى المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفّيها ، والله الموفق لا ربّ سواه . وقد قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد من علمائنا : إن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفّيها الفتنةُ فعليها سَتر ذلك ؛ و إن كانت عجوزا أو مُقَبَّحة جاز أن تكشف وجهها وكفّيها .

الرابعة — الزينة على قسمين : خِلْقية ومُكتَسبة ؛ فالخِلْقية وجهها فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة ومعنى الحيوانية ؛ لما فيه من المنافع وطرق العلوم . وأما الزينة المكتسبة فهى ما تحاوله المرأة فى تحسين خِلقتها ؛ كالثياب والحلى والكُحْل والخضاب ؛ ومنه قوله تعالى : « خُذُوا زِينَتَكُمْ » . وقال الشاعر :

يأخُذْن زينتهنّ أحسنَ ما تَرَى * و إذا عَطِلن فهنّ خير عواطل

الخامسة — من الزينة ظاهر و باطن ؛ فما ظهر فمباح أبدا لكل الناس من المحارم والأجانب ؛ وقد ذكرنا ما للعلماء فيه . وأما ما بَطَن فلا يحل إبداؤه إلا لمن سمّاهم الله تعالى فى هذه

(١) عركت المرأة : حاضت .

الآية ، أو حلّ محاهم . واختلف فى السِّوار ؛ فقالت عائشة : هى من الزينة الظاهرة لأنها فى اليدين . وقال مجاهد : هى من الزينة الباطنة ؛ لأنها خارج عن الكفين و إنما تكون فى الذراع . قال ابن العربى : وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان فى القدمين .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ قرأ الجمهور بسكون اللام التى هى للامر . وقرأ أبو عمرو فى رواية ابن عباس بكسرها على الأصل ؛ لأن الأصل [فى لام] الأمر الكسر ، وحذفت الكسرة لثقلها ، و إنما تسكينها لتسكين عَضُد وفَخِذ . و « يَضْرِبْن » فى موضع جزم بالأمر ، إلا أنه بُنى على حالة واحدة إتباعا للماضى عند سيبويه . وسبب هذه الآية أن النساء كنّ فى ذلك الزمان إذا غطين رءوسهنّ بالأخمرة وهى المقانع سَدَلْنَها من وراء الظهر . قال النقاش : كما يصنع النَّبَط ؛ فيبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك ؛ فأمر الله تعالى بلَيّ الخمار على الجيوب ، وهيئة ذلك أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها لتستر صدرها . روى البخارى عن عائشة أنها قالت : رحم الله نساءَ(١) المهاجرات الأُوَل ؛ لما نزل « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » شَقَقْن أُزُرَهن فآختمرن بها . ودخلت على عائشة حفصةُ بنت أخيها عبد الرحمن رضى الله عنهم وقد اختمرت بشىء يَشِفّ عن عنقها وما هنا لك ؛ فشقّته عليها وقالت : إنما يُضرب بالكثيف الذى يستر .

السابعة — الخُمُر : جمع الخِمار ، وهو ما تغطّى به رأسها ؛ ومنه آختمرت المرأة وتخمّرت ، وهى حَسَنة الخِمْرة . والجيوب : جمع الجيب ، وهو موضع القطع من الدّرع والقميص ؛ وهو من الجَوْب وهو القطع . ومشهور القراءة ضم الجيم من « جيوبهنّ » . وقرأ بعض الكوفيين بكسرها بسبب الياء ؛ كقراءتهم ذلك فى : بيوت وشيوخ . والنحويون القدماء لا يجيزون هذه القراءة و يقولون : بيت و بيوت كفَلْس وفُلوس . وقال الزجاج : يجوز على أن تبدل من الضمة كسرة ؛ فأما ما روى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فمحال ، لا يقدر أحد أن ينطق به إلا على الإيماء إلى ما لا يجوز . وقال مقاتل : « على جيوبهنّ » أى على صدورهنّ ؛ يعنى على مواضع جيوبهنّ .

(١) أى النساء المهاجرات . وهو نحو شجر الأراك ؛ أى شجر هو الأراك .

الثامنــة — فى هذه الآية دليل على أن الجَيْب إنمـا يكون فى الثوب موضعَ الصدر . وكذلك كانت الجيوب فى ثيـاب السَّلَف رضـوان الله عليهم ؛ على ما يصنعه النساء عنـدنا بالأندلس وأهـل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم . وقد ترجم البخاريّ رحمـة الله تعالى عليه (باب جيب القميص من عند الصدر وغيره) وساق حديث أبى هريرة قال : ضرب رسول الله صلى الله عليـه وسلم مَثَل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد قد آضطرّتْ أيديَهما إلى ثُديِّهما وتراقيهما ... " الحديث ، وقد تقدم بكماله(١) ، وفيـه : قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول بأصبعيه هكذا فى جَيْبه ؛ فلو رأيتَه يوسِّعها ولا تتوسّع(٢) . فهذا يبيّن لك أن جَيْبه عليه السلام كان فى صدره ؛ لأنه لو كان فى منكِبه لم تكن يداه مضطرّة إلى ثَدْيَيه وتراقيه . وهذا استدلال حسن .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ البَعْل هو الزوج والسيّد فى كلام العرب ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل: "إذا ولدت الأَمَة بَعْلَها" يعنى سيدها ؛ إشارة إلى كثرة السّرارى بكثرة الفتوحات ، فيأتى الأولاد من الإماء فتعتق كلّ أم بولدها وكأنه سيّدها الذى مَنّ عليها بالعتق ، إذ كان العتق حاصلا لهـا من سببه ؛ قاله آبن العربى .

قلت : ومنه قوله عليه السلام فى مارِيَة : " أعتقها ولدُها " فنسب العتق إليه . وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث . والله أعلم .

مسألة — فالزوج والسيد يرى الزينة من المرأة وأكثر من الزينـة إذ كلّ محلٍّ من بدنها حلال له لذةً ونظرا . ولهذا المعنى بدأ بالبعولة ؛ لأن آطلاعهم يقع على أعظم من هذا ، قال الله تعالى : «والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانُهم فإنهم غير مَلُومين»(٣) .

العاشـرة — اختلف النـاس فى جواز نظـر الرجل إلى فرج المرأة ؛ على قولين : أحدهما — يجوز ؛ لإنه إذا جاز له التلذذ به فالنظر أَوْلى . وقيل : لا يجوز ؛ لقول عائشة

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٠ .　　(٢) جواب « لو » محذوف ؛ أى لتعجبت .
(٣) راجع ص ١٠٥ من هذا الجزء .

رضى الله عنها فى ذكر حالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت ذلك منه ولا رأى ذلك منى . والأول أصح ، وهذا محمول على الأدب ؛ قاله ابن العربى . وقد قال أصْبَغ من علمائنا : يجوز له أن يلحسه بلسانه . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : أما الزوج والسيد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد وظاهرِ الفرج دون باطنه . وكذلك المرأة يجوز أن تنظر إلى عورة زوجها، والأَمَة إلى عورة سيدها .

قلت : وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "النظر إلى الفرج يورث الطمس" أى العمى ، أى فى الناظر . وقيل : إن الولد بينهما يولد أعمى . والله أعلم .

الحادية عشرة — لما ذكر الله تعالى الأزواج وبدأ بهم ثنّى بذوى المحارم وسوّى بينهم فى إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر . فلا مِرْية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحْوط من كشف ولد زوجها . وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم ؛ فيبدَى للأب مالا يجوز إبداؤه لولد الزوج . وقد ذكر القاضى إسماعيل عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لهن تحل . قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البُعُولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله تعالى : « لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ » (١) . وقال فى سورة النُّور : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » الآية . فذهب ٱبن عباس إلى هذه الآية، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ يريد ذكور أولاد الأزواج ، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سَفَلوا، من ذُكران كانوا أو إناث ؛ كبنى البنين وبنى البنات . وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن عَلَوْا من جهة الذكران لآباء الآباء وآباء الآمهات، وكذلك أبناؤهن وإن سَفَلوا . وكذلك أبناء البنات وإن سفلن؛ فيستوى فيه أولاد البنين وأولاد البنات . وكذلك أخواتهن ، وهم مَن ولده الآباء والأمهات أو أحد الصّنفين . وكذلك بنو الإخوة

(١) آية ٥٥ سورة الأحزاب .

و بنو الأخوات و إن سَفَلُوا من ذُكران كانوا أو إناث كبنى بنى الأخوات و بنى بنات الأخوات . وهذا كله فى معنى ما حرم من المناكح ، فإن ذلك على المعانى فى الولادات وهؤلاء محارم ، وقد تقدم فى « النساء »(١) . والجمهور على أن العَمّ والخال كسائر المحارم فى جواز النظر لهما إلى ما يجوز لهم . وليس فى الآية ذكر الرضاع ، وهو كالنسب على ما تقدم . وعند الشعبىّ وعكرمة ليس العم والخال من المحارم . وقال عكرمة : لم يذكرهما فى الآية لأنهما تبعان لأبنائهما .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعنى المسلمات ، و يدخل فى هذا الإماء المؤمنات ، و يخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم ؛ فلا يحل لامرأة مؤمنة أن تكشف شيئا من بدنها بين يدى امرأة مشركة إلا أن تكون أَمَة لها ؛ فذلك قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ » . وكان ابن جريج وعُبَادة بن نُسَىّ وهشام القارئ يكرهون أن تقبّل النصرانيةُ المسلمة أو ترى عورتها ، و يتأوّلون « أو نسائهن » . وقال عُبَادة بن نُسَىّ : وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى عبيدة بن الجراح : أنه بلغنى أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمّامات مع نساء المسلمين ؛ فامنع من ذلك ، وحُلْ دونه ؛ فإنه لا يجوز أن ترى الذمية عِرْيَة(٢) المسلمة . قال : فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال : أيّما امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد إلا أن تبيّض وجهها فسوّد الله وجهها يوم تبيضّ الوجوه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يحل للمسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية ؛ لئلا تصفها لزوجها . وفى هذه المسألة خلاف للفقهاء . فإن كانت الكافرة أَمَةً لمسلمة جاز أن تنظر إلى سيدتها ؛ وأما غيرها فلا ، لانقطاع الولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر ، ولما ذكرناه . والله أعلم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء المسلمات والكتابيّات . وهو قول جماعة من أهل العلم ، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما . وقال ابن عباس : لا بأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وقال أشهب : سئل مالك أتلْقِى المرأة خمارها بين يدى الخصىّ؟ فقال نعم ، إذا كان

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٥ وما بعدها (٢) عِرْية المرأة : ما يعرى منها وينكشف .

مملوكا لهـا أو لغيرها ؛ وأما الحر فلا . و إن كان لخلا كبيرا وَغْدًا تملكه ، لا هيئة له ولا مَنْظَر فلينظر إلى شعرها . قال أشهب قال مالك : ليس بواسع أن تدخل جارية الولد أو الزوجة على الرجل المرحاضَ ؛ قال الله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُـكُمْ » . وقال أشهب عن مالك : ينظر الغلام الوَغْد إلى شعر سيّدته ، ولا أحبه لغـلام الزوج . وقال سـعيد بن المسيب : لا تغرّنكم هذه الآية «أوما ملكت أيمانهنّ» إنما عَنَى بها الإماء ولم يَعْن بها العبيد . وكان الشعبيّ يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وهو قول مجاهد وعطاء . وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة بعَبْد قد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوبٌ إذا غطّت به رأسها لم يبلغ إلى رجليها ، و إذا غطّت به رجليها لم يبلغ إلى رأسها ؛ فلما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم ما تَلْقَى من ذلك قال : " إنه لا بأس عليك إنما هو أبوك وغلامك " .

الخامسة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ أى غير أولى الحاجة . والإِرْبَةُ الحاجة ، يقال : أَرِبْتُ كذا آرَب أَرَباً . والإِرْب والإربة والمَـأْرُبة والأَرَب : الحاجة ؛ والجمـع مآرب ؛ أى حوائج . ومنه قوله تعـالى : « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » (١) وقد تقدم . وقال طَرَفة :

إذا المرء قال الجهل والحوب والخَنا (٢) * تقـدّم يوما ثم ضـاعت مآربـه

واختلف النـاس فى معـنى قوله : « أوِ التَّابعِينَ غيرِ أُولِي الإِرْبَةِ » فقيل : هو الأحمق الذى لا حاجة به إلى النساء . وقيل الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فيأكل معهم و يرتفق بهـم ؛ وهو ضعيف لا يكترث للنساء ولا يشتهيهن . وقيل العِنّين . وقيل الخصيّ . وقيل المخنَّث . وقيل الشيخ الكبير، والصبيّ الذى لم يُدْرِك . وهذا الاختلاف كلّه متقارب المعنى، ويجتمع فيمن لا فَهْم له ولا هِمّة ينتبه بها إلى أمر النساء . وبهذه الصفة كان هِيْت المخنَّث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمع منه ما سمع من وصف محاسن المرأة : باديَةَ بنة غَيْلان ، أمر بالاحتجاب منه . أخرج حديثه مسلم وأبو داود ومالك فى الموطأ وغيرهم عن

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٧ (٢) الحوب (بضم الحاء وفتحها) : الإثم . والخنا : الفحش .

هشام بن عروة عن عروة عن عائشة . قال أبو عمر : ذكر عبد الملك بن حبيب عن حبيب كاتب مالك قال قلت لمالك : إن سفيان زاد فى حديث ابنة غيلان : «أن مخنثاً يقال له هِيتٌ» وليس فى كتابك هيت ؟ فقال مالك : صدق ، هو كذلك وغرّبه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الحِمَى وهو موضع من ذى الحُلَيفة ذات الشمال من مسجدها . قال حبيب وقلت لمالك : وقال سفيان فى الحديث : إذا قعدت تَبَنَّت (١) ، و إذا تكلّمت تَغَنَّت . قال مالك : صدق ، هو كذلك . قال أبو عمر : ما ذكره حبيب كاتب مالك عن سفيان أنه قال فى الحديث يعنى حديث هشام بن عروة «أن مخنثا يدعى هِيتاً» فغير معروف عند أحد من رواته عن هشام ، لا ابن عيينة ولا غيره ، ولم يقل فى نَسَق الحديث « إن مخنثا يدعى هيتا » ، و إنما ذكره عن ابن جُريج بعد تمام الحديث ، وكذلك قوله عن سفيان أنه يقول فى الحديث : إذا قعدت تبنّت و إذا تكلّمت تغنّت ، هذا ما لم يقله سفيان ولا غيره فى حديث هشام بن عروة ، وهذا اللفظ لا يوجد إلا من رواية الواقدى ، والعجب أنه يحكيه عن سفيان ويحكى عن مالك أنه كذلك ، فصارت رواية عن مالك ، ولم يروه عن مالك غير حبيب ولا ذكره عن سفيان غيره أيضا ، والله أعلم . وحبيب كاتب مالك متروك الحديث ضعيف عند جميعهم ، لا يُكتب حديثه ولا يلتفت إلى ما يجيء به . ذكر الواقِدىّ والكلبى أن هِيتاً المخنّث قال لعبد الله بن أُمَيّة المخزومىّ وهو أخو أم سَلَمة لأبيها وأمّه عاتكة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال له وهو فى بيت أخته أمّ سلمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : إن فتح الله عليكم الطائف فعليك ببادِيَةَ بنت غَيلان بن سَلَمة الثَّقَفىّ ، فإنها تُقبل بأربع وتُدبر بثمان (٢) ، مع ثَغر كالأُقْحُوان ، إن جلست تَبَنّت و إن تكلّمت تغنّت ، بين رجليها كالإناء المكفوء (٣) ، وهى كما قال قَيس بن الخَطِيم :

تغـترِق الطّرفَ وهى لاهِيَةٌ (٤) * كأنما شَـفَّ وَجْهَها نُزُفُ

---

(١) أى صارت كالمبناة من سمنها وعظمها . قال ابن الأثير : أى فرّجت رجليها لضخم ركبها (فرجها) ؛ كأنه شبهها بالقبة من الأدم .　(٢) يعنى تقبل بأربع عكن وتدبر بثمان عُكَن . والعكن والأعكان : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .　(٣) يعنى ضخم ركبها (فرجها) ونهوده كأنه إناء مكبوب .　(٤) يقول : من نظر إليها استغرقت طرفه و بصره وشغلته عن النظر إلى غيرها ، وهى لاهية غير محتفلة . والنزف (بضم فسكون ، وحرك هنا لضرورة الشعر) : خروج الدم . وفى شرح ديوان قيس : «أراد أن فى لونها مع البياض صفرة ؛ وذلك أحسن» .

بين شُكُول النساء خِلقتها * قَصْدٌ فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَف(١)
تنام عن كُبْر شأنها فإذا * قامتْ رُوَيْدًا تكاد تَنْقَصِف

فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لقد غلغلت النظر إليها يا عدوّ الله " . ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمَى . قال : فلما ٱفْتُتحت الطائف تزوجها عبد الرحمن بن عَوف فولدت له منه بُرَيْهة ؛ فى قول الكلبى . ولم يزل هِيت بذلك المكان حتى قُبض النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما وَلِيَ أبو بكر كُلِّم فيه فأبى أن يردّه ، فلما وَلِيَ عمر كُلِّم فيه فأبى ، ثم كُلِّم فيه عثمان بعدُ . وقيل : إنه قد كَبِر وضَعُف وٱحتاج ، فأذن له أن يدخل كل جمعة فيسأل و يرجع إلى مكانه . قال : وكان هِيت مولًى لعبد الله بن [أبى] أمية المخزومى ، وكان له طُوَيْس(٢) أيضا ، فمن ثَمّ قِيل(٣) الخَنَث . قال أبو عمر : يقال «بادية» بالياء و «بادنة» بالنون ، والصواب فيه عندهم بالياء ، وهو قول أكثرهم ، وكذلك ذكره الزبيرى بالياء .

السادسة عشرة — وصف التابعين بـ « غير » لأن التابعين غير مقصودين بأعيانهم ، فصار اللفظ كالنكرة . و « غير » لا يتمحّض نكرة فجاز أن يجرى وصفا على المعرفة . و إن شئت قلت هو بدل . والقول فيها كالقول فى «غير المغضوب عليهم» . وقرأ عاصم وابن عامر «غيرَ» بالنصب فيكون ٱستثناء ؛ أى يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإِرْبة منهم . ويجوز أن يكون حالا ؛ أى والذين يتبعونهن عاجزين عنهن ؛ قاله أبو حاتم . وذو الحال ما فى «التابعين» من الذكر .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع ، والدليل على ذلك نعتُه بـ « الذين » . وفى مصحف حَفْصة « أو الأطفال » على الجمع . و يقال : طفلٌ ما لم يراهق الحُلُم . و ﴿ يَظْهَرُوا ﴾ معناه يطّلعوا بالوطء ؛ أى لم يكشفوا عن عوراتهنّ للجماع لصغرهنّ . وقيل : لم يبلغوا أن يطيقوا النساء ؛ يقال : ظهرت على كذا أى علمته ، وظهرت

---

(١) الشُّكُول : الضروب . وقَصْد : ليست بالجسيمة ولا النحيفة . والجَبْلة : الغليظة ؛ من جبل (كفرح) فهو جَبِل وجَبْل . والقَضَف : الدقة وقلة اللحم . (٢) طُوَيس لقب غلب عليه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، مولى بنى مخزوم ، وهو أول من غنى بالعربى بالمدينة ، وأول من ألقى الخَنَث بها . (راجع ترجمته فى الأغانى جـ ٣ ص ٢٧ طبع دار الكتب المصرية) . (٣) فى الأصول : « قيل المخنث » والتصويب عن الأغانى .

على كذا أى قهرته . والجمهور على سكون الواو من « عورات » لاستثقال الحركة على الواو . وروى عن ابن عباس فتح الواو؛ مثل جَفْنة وجفنات . وحكى الفراء أنها لغة قيس « عورات » [بفتح] الواو . النحاس : وهذا هو القياس ؛ لأنه ليس بنعت ، كما تقول : جفنة وجفنات؛ إلا أن التسكين أجود فى « عورات » وأشباهه ، لأن الواو إذا تحركت وتحرك ما قبلها قُلبت ألفا؛ فلو قيل هذا لذهب المعنى .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء فى وجوب ستر ما سوى الوجه والكفين منه على قولين : أحدهما — لا يلزم؛ لأنه لا تكليف عليه، وهو الصحيح . والآخر — يلزمه؛ لأنه قد يشتهى وقد تشتهى أيضا هى؛ فإن راهق فحكمه حكم البالغ فى وجوب الستر. ومثله الشيخ الذى سقطت شهوته؛ اختلف فيه أيضا على قولين كما فى الصبى ، والصحيح بقاء الحرمة؛ قاله ابن العربى .

التاسعة عشرة — أجمع المسلمون على أن السَّوْءتين عورة من الرجل والمرأة ، وأن المرأة كلّها عورة، إلا وجهها ويديها فإنهم اختلفوا فيهما . وقال أكثر العلماء فى الرجل : من سرته إلى ركبته عورة؛ لا يجوز أن تُرَى . وقد مضى فى « الأعراف » القول فى هذا مستوفًى (١) .

المُوفية عشرين — قال أصحاب الرأى : عورة المرأة مع عبدها من السّرة إلى الركبة . ابن العربى : وكأنهم ظنّوها رجلا أو ظنوه آمرأة ، والله تعالى قد حرّم المرأة على الإطلاق لنظر أو لذة ، ثم آستثنى اللذة للأزواج ومِلْك اليمين، ثم آستثنى الزينة لاثنى عشر شخصا العبد منهم، فما لنا ولذلك ! هذا نظر فاسد واجتهاد عن السداد متباعد . وقد تأوّل بعض الناس قولَه « أو ما ملكت أيمانهنّ » على الإماء دون العبيد؛ منهم سعيد بن المسيِّب. فكيف يحملون على العبيد ثم يلحقون بالنساء ، هذا بعيد جدّا! وقد قيل : إن التقدير أو ما ملكت أيمانهنّ من غير أُولِى الإِرْبة أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال؛ حكاه المهدوِىّ .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية ؛ أى لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لتُسْمِع صوت خَلْخالها؛ فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشدّ،

(١) راجع ج ٧ ص ١٨٢

والغرض التستر . أسند الطبرى عن المعتمر عن أبيه أنه قال : زعم حضرمى أن آمرأة آتخذت بُرَتَين(١) من فضة واتخذت جَزْعا(٢) فجعلت فى ساقها فمرّت على القوم فضربت برجلها الأرض فوقع الخلخال على الجَزْع فصوّت؛ فنزلت هذه الآية . وسماع هذه الزينة أشدّ تحريكا للشهوة من إبدائها ؛ قاله الزجاج .

الثانية والعشرون — من فعل ذلك منهنّ فَرَحًا بحليهنّ فهو مكروه . ومن فعل ذلك منهنّ تبرُّجًا وتعرُّضًا للرجال فهو حرام مذموم . وكذلك من ضرب بنعله من الرجال ، إن فعل ذلك تعجُّبًا حَرُم ، فإن العُجْب كبيرة . وإن فعل ذلك تَبَرُّجًا لم يجز .

الثالثة والعشرون — قال مَكِّىّ رحمه الله تعالى : ليس فى كتاب الله تعالى آيةٌ أكثرَ ضمائر من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميرا للؤمنات من مخفوض ومرفوع .

قوله تعالى : ﴿ وتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ المؤمنون ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا ﴾ أمرٌ . ولا خلاف بين الأمّة فى وجوب التوبة ، وأنها فرض متعيّن ؛ وقد مضى الكلام فيها فى « النساء »(٣) وغيرها فلا معنى لإعادة ذلك . والمعنى : وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير فى أداء حقوق الله تعالى ، فلا تتركوا التوبة فى كل حال .

الثانية — قرأ الجمهور « أَيُّهَ » بفتح الهاء . وقرأ ابن عامر بضمها ؛ ووجهه أن تُجعل الهاء من نفس الكلمة ، فيكون إعراب المنادى فيها . وضعّف أبو علىّ ذلك جدّا وقال : آخر الآسم هو الياء الثانية من أى ، فالمضموم ينبغى أن يكون آخر الاسم ، ولو جاز ضم الهاء هاهنا لآقترانها بالكلمة لجاز ضم الميم فى « اللَّهُمَّ » لآقترانها بالكلمة فى كلام طويل . والصحيح أنه إذا ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قراءة فليس إلا اعتقاد الصحة فى اللغة ، فإن القرآن هو الحجة . وأنشد الفراء :

يأيّه القلبُ اللَّجُوجُ النفس * أفق عن البيض الحسان اللعس

(١) البُرَة : الخلخال ، وكل حلقة من سوار وقرط . (٢) الجزع (بفتح الجيم) ضرب من الخرز .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٩٠

اللَّعَس : لون الشَّفَة إذا كانت تضرب إلى السواد قليـلا ، وذلك يستملح ؛ يقال : شَـفَة لعساء، وفتية ونسوة لُعْس . وبعضهم يقف «أَيُّهْ» . وبعضهم يقف «أيّها» بالألف؛ لأن علة حذفها فى الوصل إنما هو سكونها وسكون اللام، فإذا كان الوقف ذهبت العلة فرجعت الألف كما ترجع الياء إذا وقفت على «مُحِلِّى» من قوله تعالى : «غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ»(١) . وهذا الاختلاف الذى ذكرناه كذلك هو فى «يأيّه الساحر» . «يأيه الثقلان» .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٢)

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — هذه المخاطبة تدخل فى باب السّتر والصلاح ؛ أى زوّجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفّف ؛ والخطاب للأولياء . وقيل للأزواج . والصحيح الأول ؛ إذ لو أراد الأزواجَ لقال «وٱنكحوا» بغير همز، وكانت الألف للوصل . وفى هذا دليل على أن المرأة ليس لها أن تُنكح نفسها بغير وَلِىّ؛ وهو قول أكثر العلماء . وقال أبو حنيفة : إذا زوّجت الثيّبُ أو البكر نفسها بغير وَلِىّ كُفْئًا لها جاز . وقد مضى هذا فى «البقرة»(٢) مستوفًى .

الثانيـــة — اختلف العلمـاء فى هـذا الأمر على ثلاثة أقوال؛ فقال علماؤنا : يختلف الحكم فى ذلك بٱختلاف حال المؤمن من خوف العَنت، ومن عدم صبره، ومن قوّته على الصبر وزوال خشـية العَنَت عنـه . وإذا خاف الهلاك فى الدِّين أو الدنيا أو فيهما فالنكاح حَتْمٌ . وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة فقال الشافعىّ: النكاح مباح. وقال مالك وأبو حنيفة: هو مستحب . تعلّق الشافعىّ بأنه قضاء لذةٍ فكان مباحا كالأكل والشرب . وتعلّق علماؤنا بالحديث الصحيح : "من رَغِب عن سُنّتى فليس منّى" .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ أى الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء؛ واحدهم أَيِّم . قال أبو عمرو : أيامى مقلوب أيايم . واتفق أهل اللغة على أن الأيّم فى الأصل

(١) أول سورة المائدة . (٢) راجع جـ ٣ ص ٧٢

هى المرأة التى لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبًا؛ حكى ذلك أبو عمرو والكسائى وغيرهما. تقول العرب: تأيّمت المرأة إذا أقامت لا تتزوّج. وفى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أنا وآمرأةٌ سَفْعاء الخدّين(١) تأيّمت على ولدها الصّغار حتى يبلغوا أو يغنيهم الله من فضله كهاتين فى الجنة".
وقال الشاعر:

فإن تَنْكِحِى أَنْكِحْ وإن تَتَأَيَّمِى * وإن كنتُ أَفْتَى منكمُ أتأيّمُ

ويقال: أَيِّم بيّن الأَيْمة. وقد آمَتْ هى، وإمْتُ أنا. قال الشاعر:

لقد إمْتُ حتى لامَنِى كلّ صاحب * رجاءً بسَلْمَى أن تَئِيمَ كما إمْتُ

قال أبو عبيد: يقال رجل أيِّم وآمرأة أيِّم؛ وأكثر ما يكون ذلك فى النساء، وهو كالمستعار فى الرجال. وقال أُمَيَّة بن أبى الصَّلْت:

لله درُّ بنى علىٍّ أيّمٍ منهم وناكحِ

وقال قوم: هذه الآية ناسخة لحكم قوله تعالى: «والزَّانيةُ لاينكِحها إلا زانٍ أو مُشْرِكٌ وحُرِّم ذلك على المؤمنين». وقد بيّناه فى أوّل السورة(٢) والحمد لله.

الرابعة — المقصود من قوله تعالى: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ» الحرائرُ والأحرار؛ ثم بيّن حكم المماليك فقال «والصّالِحِينَ مِنْ عبادِكم وإمائكم». وقرأ الحسن «والصالحين من عبيدكم»، وعَبيد اسم للجمع. قال الفراء: ويجوز «وإماءَكم» بالنصب، يردّه على «الصالحين» يعنى الذكور والإناث؛ والصلاح الإيمان. وقيل: المعنى ينبغى أن تكون الرغبة فى تزويج الإماء والعبيد إذا كانوا صالحين فيجوز تزويجهم، ولكن لا ترغيب فيه ولا استحباب؛ كما قال «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا». ثم قد تجوز الكتابة وإن لم يُعلم أن فى العبد خيرا، ولكن الخطاب ورد فى الترغيب والاستحباب، وإنما يُستحب كتابة من فيه خير.

الخامسة — أكثر العلماء على أن للسيّد أن يُكره عبده وأَمَته على النكاح؛ وهو قول مالك وأبى حنيفة وغيرهما. قال مالك: ولا يجوز ذلك إذا كان ضررا. وروى نحوه عن

(١) السفع: السواد والشحوب. أراد أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسودّ إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها. (٢) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

الشافعيّ، ثم قال : ليس للسـيّد أن يكره العبـد على النكاح . وقال النَّخَعِيّ : كانوا يكرهون المماليك على النكاح و يغلقون عليهم الأبواب . تمسّك أصحاب الشافعيّ فقالوا : العبد مكلف فلا يجبر على النكاح؛ لأن التكليف يدل على أن العبد كامل من جهة الآدميّة ، و إنمـا تتعلق به المملوكية فيما كان حظًّا للسيد من مِلْك الرقبـة والمنفعة ، بخلاف الأَمَة فإنه له حق المملوكيـة فى بُضْعها ليستوفيه؛ فأما بُضْع العبد فلا حقّ له فيـه ، ولأجل ذلك لا تباح السيّدة لعبدها . هـذه عمدة أهل خراسان والعراق ، وعمدتهم أيضا الطلاق ، فإنه يملكه العبد بتملّك عقده . ولعلمائنا النكتة العظمى فى أن مالكيّة العبد استغرقتها مالكية السيد؛ ولذلك لا يتزوج إلا بإذنه بإجمـاع . والنكاح و بابُه إنمـا هو من المصالح، ومصلحة العبد موكولة إلى السيد، هو يراها و يقيمها للعبد .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رجع الكلام إلى الأحرار؛ أى لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة؛ « إن يكونوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ من فَضْـلِه » . وهـذا وَعْدٌ بالغنى للتزوّجين طلب رضا الله واعتصاما من معاصيه . وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح؛ وتلا هذه الآية . وقال عمر رضى الله عنه : عَجَبى ممن لا يطلب الغنى فى النكاح، وقد قال الله تعالى « إن يكونوا فقراء يُغْنِهِمُ الله من فضله » . وروى هـذا المعنى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا . ومن حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاثة كلّهم حقٌّ على الله عونُه المجاهد فى سبيل الله والناكح يريد العفاف والمكاتَب يريد الأداء". أخرجه ابن ماجه فى سننه . فإن قيل : فقد نجد الناكح لا يستغنى؛ قلنا : لا يلزم أن يكون هـذا على الدوام ، بل لو كان فى لحظة واحدة لصدّق الوعد . وقـد قيل : يغنيه؛ أى يغنى النفس . وفى الصحيح "ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض (١) إنمـا الغنى غِنَى النفس" . وقد قيل : ليس وعد لا يقع فيه خُلْف؛ بل المعنى أن المـال غادٍ ورائح ، فارجوا الغنى . وقيل : المعنى يغنهم الله من فضله إن شاء؛ كقوله تعالى :

---

(١) العرض (بالتحريك) : متاع الدنيا وحطامها

« فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »(١)، وقال تعالى : « يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وقيل : المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يُغْنِهِمُ الله بالحلال ليتعفّفوا عن الزنى .

السابعة — هذه الآية دليل على تزويج الفقير، ولا يقول كيف أتزوج وليس لى مال؛ فإن رزقه على الله . وقد زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم المرأة التى أتته تَهَب له نفسها لمن ليس له إلا إزار واحد، وليس لها بعد ذلك فسخ النكاح بالإعسار لأنها دخلت عليه؛ و إنما يكون ذلك إذا دخلت على اليسار فخرج معسرا، أو طرأ الإعسار بعد ذلك لأن الجوع لا صبر عليه؛ قاله علماؤنا . وقال النقاش : هذه الآية حجة على من قال : إن القاضى يفرّق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيرا لا يقدر على النفقة ؛ لأن الله تعالى قال « يُغْنِهِم الله » ولم يقل يفرّق . وهذا انتزاع ضعيف، وليس هذه الآية حكما فيمن عجز عن النفقة، و إنما هى وعد بالإغناء لمن تزوج فقيرا . فأمّا من تزوّج موسرا وأعسر بالنفقة فإنه يفرّق بينهما؛ قال الله تعالى : « و إنْ يَتَفَرّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِن سَعَتِه »(٢) . ونفحات الله تعالى مأمولة فى كل حال موعود بها .

قوله تعالى : وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فيه أربع مسائل :

(١) آية ٤١ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٠ سورة النساء .

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ ﴾ الخطاب لمن يملك أمر نفسه ، لا لمن زِمامه بيـد غيره فإنه يقوده إلى ما يراه ؛ كالمحجور — قولا واحدا — والأَمَة والعبـد ؛ على أحد قولى العلماء .

الثانيـــة — « واَستعفف » وزنه اسـتفعل ؛ ومعناه طلب أن يكون عفيفا ؛ فأمر الله تعالى بهذه الآية كلَّ من تعذّر عليه النكاح ولا يجده بأىّ وجهٍ تعذّر أن يستعفف . ثم لمـا كان أغلب الموانع على النكاح عدم المـال وعد بالإغناء من فضله ؛ فيرزقه ما يتزوج به ، أو يجـد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه شهوة النساء . وروى النسائىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عزّ وجل عونُهم المجاهدُ فى سبيل الله والناكح الذى يريد العفاف والمكاتب الذى يريد الأداء " .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ أى طَوْل نكاح ؛ فحـذف المضاف . وقيـل : النكاح هاهنا ما تُنكح به المـرأة من المهر والنفقة ؛ كاللِّحاف اسم لمـا يُلتحف به . واللباس اسم لمـا يلبس ؛ فعلى هذا لا حذف فى الآية ، قاله جماعة من المفسرين ؛ وحملهم على هذا قوله تعالى : « حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ من فضله » فظنوا أن المأمور بالاَستعفاف إنما هو من عدِم المـال الذى يتزوج به . وفى هذا القول تخصيص المأمورين بالاَستعفاف ؛ وذلك ضعيف ، بل الأمر بالاَستعفاف متوجّه لكل من تعذّر عليه النكاح بأىّ وجه تعـذّر ، كما قدمناه ، والله تعالى أعلم .

الرابعـــة — من تاقت نفســه إلى النكاح فإن وجد الطَّوْل فالمستحبّ له أن يتزوّج ، وإن لم يجد الطول فعليه بالاستعفاف ما أمكن ولو بالصوم فإن الصوم له وِجَاء ؛ كما جاء فى الخبر الصحيح . ومن لم تتق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلى لعبادة الله تعالى . وفى الخبر " خيركم الخفيف الحاذِ الذى لا أهل له ولا ولد " . وقد تقدّم جواز نكاح الإماء عند عدم الطّول للحرة فى « النساء »[1] والحمد لله . ولمـا لم يجعل الله له من العفّة والنكاح درجةً دلّ على أن ما عداهما

(١) راجع جـ ٥ ص ١٣٦ وما بعدها .

محرّم، ولا يدخل فيه مِلك اليمين؛ لأنه بنصّ آخر مباح ، وهو قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانكم » بجاءت فيه زيادة، ويبقى على التحريم الاستمناء ردّا على أحمد[(١)] . وكذلك يخرج عنه نكاح المتعة بنسخه، وقد تقدّم هذا فى « المؤمنين[(١)] » .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ ﴾ « الذين » فى موضع رفع . وعند الخليل وسيبويه فى موضع نصب على إضمار فعل ؛ لأن بعده أمرا . ولما جرى ذكر العبيد والإماء فيما سبق وصل به أن العبد إن طلب الكتاب فالمستحب كتابته؛ فَرُبَّما يقصد بالكتابة أن يستقل ويكتسب ويتزوّج إذا أراد، فيكون أعفّ له . قيل : نزلت فى غلام لحُوَيْطب ابن عبد العُزّى يقال له صبح — وقيل صبيح — طلب من مولاه أن يكاتبه فأبى؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فكاتبه حُوَيطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأدّاها، وقتل بحُنَين فى الحرب؛ ذكره القُشَيْرِىّ وحكاه النقاش . وقال مَكِّىّ : هو صبيح القبطى غلام حاطب بن أبى بَلْتَعَة . وعلى الجملة فإن الله تعالى أمر المؤمنين كافة أن يكاتِب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيّده منه خيرا .

الثانيــة — الكتاب والمكاتبة سواء؛ مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين، لأنها معاقدة بين السيّد وعبده ؛ يقال : كاتب يكاتب كتابا ومكاتبة ، كما يقال : قاتل قتالا ومقاتلة . فالكتاب فى الآية مصدر كالقتال والجلاد والدفاع . وقيل : الكتاب هاهنا هو الكتاب المعروف الذى يكتب فيه الشىء ؛ وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا . فالمعنى يطلبون العتق الذى يُكتب به الكتاب فيدفع إليهم .

الثالثــة — معنى المكاتبة فى الشرع : هو أن يكاتِب الرجل عبده على مال يؤدّيه مُنَجَّمًا عليه ؛ فإذا أدّاه فهو حُرّ . ولها حالتان : الأولى — أن يطلبها العبد ويُجيبه السيّد ؛ فهذا

(١) راجع ص ١٠٥ وما بعدها من هذا الجزء .

مطلق الآية وظاهرها . الثانيــة — أن يطلبها العبد و يأباها السـيد؛ وفيها قولان : الأوّل لعكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دِينار والضحاك بن مُزاحم و جماعة أهل الظاهر أن ذلك واجب على السيد . وقال علماء الأمصار : لا يجب ذلك . وتعلّق من أوجبها بمطلق الأمر، وأفعل بمطلقه على الوجوب حتى يأتى الدليل بغيره . وروى ذلك عن عمــر بن الخطاب وابن عباس، واختاره الطبرى . واحتج داود أيضا بأن سِيرِين أبا محمد بن سِيرِين سأل أنس بن مالك الكتابة وهو مولاه فأبى أنس؛ فرفع عمر عليه الدِّرة، وتلا « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا »، فكاتبــه أنس . قال داود : وما كان عمــر ليرفع الدّرة على أنس فيما له مبــاح ألا يفعله . وتمسك الجمهور بأن الإجماع منعقد على أنه لو سأله أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك ، ولم يجبر عليــه وإن ضوعف له فى الثمن . وكذلك لو قال له أعتقنى أو دَبِّرْنى أو زوّجنى لم يلزمه ذلك بإجماع، فكذلك الكتابة؛ لأنها معاوضة فلا تصح إلا عن تراضٍ . وقولهم : مطلق الأمر يقتضى الوجوب صحيح، لكن إذا عَرِى عن قرينة تقتضى صرفه عن الوجوب، وتعليقه هنا بشرط علم الخير فيه؛ فعلّق الوجوب على أمر باطن وهو علم السيّد بالخيريّة . و إذا قال العبد : كاتبنى؛ وقال السيد : لم أعلم فيك خيرا؛ وهو أمر باطن، فيرجع فيه إليه و يعوّل عليه . وهذا قوىّ فى بابه .

الرابعــة — واختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ خَيْرًا ﴾ فقال ابن عباس وعطاء : المــال . مجاهد : المــال والأداء . الحسن والنَّخَعِىّ : الدِّين والأمانة . وقال مالك : سمعت بعض أهل العــلم يقولون هو القوّة على الاكتساب والأداء . وعن الليث نحوه ، وهو قول الشافعىّ . وقال عَبِيدة السَّلْمانِىّ : إقامة الصلاة والخير (١) . قال الطحاوى : وقول من قال إنه المــال لا يصح عندنا ؛ لأن العبــد مالٌ لمولاه ، فكيف يكون له مال . والمعنى عندنا : إنْ علمتم فيهم الدِّين والصدق، وعلمتم أنهم يعاملونكم على أنهم متعبّدون بالوفاء لكم بما عليهم من الكتابة والصدق فى المعاملة فكاتبوهم . وقال أبو عمر : من لم يقل إن الخير هنا المــال أنكر أن يقال إن علمتم فيهم مالا ، و إنما يقال : علمت فيه الخير والصلاح والأمانة ؛ ولا يقال : علمت فيه المــال ، و إنما يقال علمت عنده المــال .

(١) لعل كلمة « والخير » مقحمة .

قلت : وحديث بَرِيرة يردّ قول من قال : إن الخير المـالُ ؛ على ما يأتى .

الخامســـة ــ اختلف العلماء فى كتابة من لا حِرْفة له ؛ فكان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حِرْفة ، ويقـول : أتأمرنى أن آكل أوساخ الناس ؛ ونحوه عن سَلْمان الفارسى . وروى حَكيم بن حِزام قال : كتب عمر بن الخطاب إلى عُمير بن سعد : أما بعد ! فإنه مَن قِبَلك من المسلمين أن يكاتبوا أرقّاءهم على مسألة الناس . وكرهه الأوزاعىّ وأحمد وإسحاق . ورخّص فى ذلك مالك وأبو حنيفـة والشافعىّ . وروى عن علىّ رضى الله عنـه أن ابن التّيّاح مؤذّنه قال له : أكاتَب وليس لى مال ؟ قال نعم ؛ ثم حض الناسَ على الصدقة علىّ ؛ فأعطَوْنى ما فضل عن مكاتبتى ، فأتيت عليّـا فقال : اجعلها فى الرّقاب . وقد روى عن مالك كراهة ذلك ، وأن الأَمَة التى لا حِرفة لها يكره مكاتبتها لمـا يؤدّى إليه من فسادها . والحجة فى السنة لا فيما خالفها . روى الأئمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلتْ علىّ بَرِيرة فقالت : إنـــ أهلى كاتبونى على تسـع أواق فى تسع سنين ، كلّ سنة أوقيّة ، فأعِينِينى ... الحديث . فهذا دليل على أن للسيد أن يكاتب عبـده وهو لا شىء معه ؛ ألا ترى أن بَرِيرة جاءت عائشة تخبرها بأنها كاتبت أهلها وسألتها أن تعينها ، وذلك كان فى أوّل كتابتها قبل أن تؤدّى منهـا شيئا ؛ كذلك ذكره ابن شهاب عن عروة أنـــ عائشة أخبرته أن بريرة جاءت تستعينها فى كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئا ؛ أخرجه البخارى وأبو داود . وفى هـــذا دليل على جواز كتابة الأَمَة ، وهى غير ذات صنعة ولا حرفة ولا مال ، ولم يسأل النبىّ صلى الله عليه وســلم هل لها كسب أو عمل واصب (١) أو مال ، ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ليقع حكمه عليه ؛ لأنه بُعث مبيِّناً معلِّما صلى الله عليه وسلم . وفى هذا الحديث ما يدل على أن من تأوّل فى قوله تعالى : « إن علمتم فيهـم خيرا » أن المـال الخير ، ليس بالتأويل الجيد ، وأن الخير المذكور هو القوة على الاكتساب مع الأمانة . والله أعلم .

السادســـة ــ الكتابة تكون بقليل المـال وكثيره ، وتكون على أنجُم ؛ لحديث بَرِيرة . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء والحمد لله . فلو كاتبه على ألف درهم ولم يذكر أجلا نُجِّمت

(١) وصب الشىء : دام .

عليه بقدر سِعايته وإن كره السيّد . قال الشافعيّ : لا بُدّ فيها من أجل؛ وأقلها ثلاثة أنجم . واختلفوا إذا وقعت على نجم واحد فأكثر أهل العلم يجيزونها على نجم واحد . وقال الشافعيّ : لا تجوز على نجم واحد، ولا تجوز حالّةً أَلْبَتَّةَ، وإنمـا ذلك عتق على صفة؛ كأنه قال : إذا أدّيتَ كذا وكذا فأنت حر وليست كتابة . قال ابن العربيّ : اختلف العلماء والسّلف في الكتابة إذا كانت حالّة على قولين، واختلف قول علمائنا كاختلافهم . والصحيح في النظر أن الكتابة مؤجّلة؛ كما ورد بها الأثر في حديث بَرِيرة حين كاتبت أهلها على تسع أواق في كل عام أُوقيّة، وكما فعلت الصحابة؛ ولذلك سُمّيت كتابة لأنهـا تُكتب ويُشهد عليها، فقد استوسق[1] الأسم والأثر، وعَضَده المعنى؛ فإن المـال إن جعله حالًّا وكان عنـد العبد شيء فهو مال مقاطعة وعقد مقاطعة لا عقـد كتابة . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : إذا كاتبه على مال معجّل كان عتقا على مال، ولم تكن كتابة . وأجاز غيره من أصحابنا الكتابة الحالّة وسماها قِطاعة، وهو القياس؛ لأن الأجل فيها إنما هو فسحة للعبد في التكسّب . ألا ترى أنه لو جاء بالمنجّم عليه قبل مَحِلّه لوجب على السيد أن يأخذه ويتعجّل للمكاتَب عتقه . وتجوز الكتابة الحالّة؛ قاله الكوفيون .

قلت : لم يرد عن مالك نصّ في الكتابة الحـالّة؛ والأصحاب يقولون : إنهـا جائزة، ويسمّونها قِطاعة . وأما قول الشافعي إنها لا تجوز على أقـل من ثلاثة أنجم فليس بصحيح؛ لأنه لو كان صحيحا لجاز لغيره أن يقول : لا يجوز على أقل من خمسة نجوم؛ لأنها أقلّ النجوم التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بَرِيرة، وعلِم بها النبيّ صلى الله عليه وسلم وقضى فيها؛ فكان بصواب الحجة أَوْلى . روى البخارى عن عائشــة أن بَرِيرة دخلت عليها تستعينها في كتابتها وعليها خمسة أواق نُجّمت عليها في خمس سنين ... الحديث . كذا قال الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة : وعليها خمســة أواق نجمت عليها في خمس سنين . وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت بَرِيرة فقالت : إنى كاتبت أهلى على تسـع أواق ... الحـديث . وظاهر الروايتين

(١) استوسق : اجتمع .

تعارض، غير أن حديث هشام أولى لاتصاله وانقطاع حديث يونس؛ لقول البخارى : وقال الليث حدثنى يونس؛ ولأن هشاما أثبت فى حديث أبيه وجدّه من غيره، والله أعلم .

السابعة — المكاتَب عبدٌ ما بقى عليه من مال الكتابة شىء ؛ لقوله عليه السلام : " المكاتب عبد ما بقى عليه من مكاتبته درهم" . أخرجه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه . وروى عنه أيضا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أيّما عبدٍ كاتب على مائة دينار فأدّاها إلا عشرة دنانير فهو عبد" . وهذا قول مالك والشافعى وأبى حنيفة وأصحابهم والثورىّ وأحمد وإسحاق وأبى ثور وداود والطبرى . وروى ذلك عن ابن عمر من وجوه، وعن زيد بن ثابت وعائشة وأم سلمة ، لم يُختلف عنهم فى ذلك رضى الله عنهم . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب ، وبه قال ابن المسيّب والقاسم وسالم وعطاء . قال مالك : وكل من أدركنا ببلدنا يقول ذلك . وفيها قول آخر روى عن علىّ أنه إذا أدّى الشطر فهو غريم ؛ وبه قال النَّخَعِىّ . وروى ذلك عن عمر رضى الله عنه، والإسناد عنه بأن المكاتَب عبد ما بقى عليه درهم ، خيرٌ من الإسناد عنه بأن المكاتَب إذا أدَّى الشطر فلا رِقّ عليه؛ قاله أبو عمر . وعن علىّ أيضا يعتق منه بقدر ما أدَّى . وعنه أيضا أن العَتاقة تجرى فيه بأوّل نَجْم يؤدّيه . وقال ابن مسعود : إذا أدى ثلث الكتابة فهو عتيق غريم ؛ وهذا قول شريح . وعن ابن مسعود : لو كانت الكتابة مائتى دينار وقيمة العبد مائة دينار فأدّى العبدُ المائة التى هى قيمته عتق ؛ وهو قول النَّخَعِىّ أيضا . وقول سابع — إذا أدّى الثلاثة الأرباع وبقى الربع فهو غريم ولا يعود عبدا؛ قاله عطاء بن أبى رَباح، رواه ابن جريج عنه . وحكى عن بعض السلف أنه بنفس عقد الكتابة حرّ، وهو غريم بالكتابة ولا يرجع إلى الرق أبدا . وهذا القول يردّه حديث بَرِيرة لصحته عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفيه دليل واضح على أن المكاتَب عبد ، ولولا ذلك ما بِيعت بَرِيرة، ولو كان فيها شىء من العتق ما أجاز بيعَ ذلك ؛ إذ من سنّته المجمع عليها ألا يباع الحرّ . وكذلك كتابة سَلْمان وجُوَيْرِيَة ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم حكم لجميعهم بالرق حتى أدّوا الكتابة . وهى حجة للجمهور فى أن المكاتَب عبد ما بقى

عليه شيء . وقد ناظر عليّ بن أبي طالب زيدَ بن ثابت في المكاتب ؛ فقال لعليّ : أكنت راجمه لو زنى ، أو مجيزا شهادته لو شهد ؟ فقال عليّ لا . فقال زيد : هو عبد ما بقي عليه شيء . وقد روى النَّسائيّ عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المكاتَب يَعتِق منه بقدر ما أدّى ويقام عليه الحدّ بقدر ما أدّى ويرِث بقدر ما عَتَق منه " . وإسناده صحيح . وهو حجة لما روى عن عليّ ، ويعتضد بما رواه أبو داود عن نَبْهان مكاتَب أمّ سلمة قال سمعت أمّ سلمة تقول : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان لإحداكنّ مكاتب وكان عنده ما يؤدّى فلتحتجب منه " . وأخرجه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح . إلا أنه يحتمل أن يكون خطابا مع زوجاته ، أخذًا بالاحتياط والورع في حقهن ؛ كما قال لسَوْدة : " احتجبي منه " مع أنه قد حكم بأخوّتها له ، وبقوله لعائشة وحفصة : " أفَعَمْيَاوَان أنتما ألستما تُبصرانه " يعني ابن أمّ مكتوم ، مع أنه قال لفاطمة بنت قيس : " اعتدّي عند ابن أم مكتوم " وقد تقدم هذا المعنى .

الثامنــة — أجمع العلماء على أن المكاتَب إذا حلّ عليه نَجْم من نجومه أو نجمان أو نجومُه كلُّها فوقف السيد عن مطالبته وتركه بحاله أن الكتابة لا تنفسخ ما داما على ذلك ثابتَيْن .

التاســعة — قال مالك : ليس للعبد أن يُعجز نفسه إذا كان له مال ظاهر ، وإن لم يظهر له مال فذلك إليه . وقال الأوزاعيّ : لا يمكّن من تعجيز نفسه إذا كان قويًّا على الأداء . وقال الشافعيّ : له أن يُعجز نفسه ، عُلِم له مال أو قوّةٌ على الكتابة أو لم يُعلم ؛ فإذا قال : قد عَجَزت وأبطلت الكتابة فذلك إليه . وقال مالك : إذا عَجَز المكاتَب فكلّ ما قبضه منه سيّده قبل العجز حلّ له ، كان من كسبه أو من صدقة عليه . وأما ما أعين به على فَكاك رقبته فلم يَفِ ذلك بكتابته كان لكل من أعانه الرجوع بما أعْطَى أو تحلّل منه المكاتَب . ولو أعانوه صدقة لا على فَكاك رقبته فذلك إن عجز حلّ لسيّده ولو تمّ به فكاكه وبقيت منه فضلة . فإن كان بمعنى الفَكاك ردّها إليهم بالحصص أو يحلّلونه منها . هذا كله مذهب مالك فيما ذكر ابن القاسم . وقال أكثر أهل العلم : إن ما قبضه السيد منه من كتابته ، وما فَضَل بيده بعد عجزه

من صدقة أو غيرها فهو لسيده ، يطيب له أخذ ذلك كله . هذا قول الشافعيّ وأبى حنيفة وأصحابهما وأحمد بن حنبل ، ورواية عن شريح . وقال الثَّوْرِيّ : يجعل السيد ما أعطاه فى الرقاب ؛ وهو قول مسروق والنخَعِيّ ، ورواية عن شريح . وقالت طائفة : ما قبض منه السيد فهو له ، وما فضَل بيده بعد العجز فهو له دون سيده ؛ وهذا قول بعض من ذهب إلى أن العبد يملك . وقال إسحاق : ما أُعطى بحال الكتابة ردّ على أربابه .

العاشرة — حديث بَرِيرة على آختلاف طرقه وألفاظه يتضمّن أن بريرة وقع فيها بيع بعد كتابةٍ تقدمت . واختلف الناس فى بيع المكاتَب بسبب ذلك . وقد ترجم البخاريّ (باب بيع المكاتب إذا رضى) . وإلى جواز بيعه للعتق إذا رضى المكاتب بالبيع ولو لم يكن عاجزا — ذهب ابن المنذر والدّاوُدِيّ ، وهو الذى آرتضاه أبو عمر بن عبد البر، وبه قال ابن شهاب وأبو الزّناد وربيعة؛ غير أنهم قالوا : لأن رضاه بالبيع عجز منه . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : لا يجوز بيع المكاتب ما دام مكاتبا حتى يعجز، ولا يجوز بيع كتابته بحال ؛ وهو قول الشافعيّ بمصر . وكان بالعراق يقول : بيعه جائز ، وأما بيع كتابته فغير جائزة . وأجاز مالك بيع الكتابة ؛ فإن أداها عتق ، وإلا كان رقيقا لمشترى الكتابة . ومنع من ذلك أبو حنيفة؛ لأنه بيع غَرَر . واختلف قول الشافعيّ فى ذلك بالمنع والإجازة . وقالت طائفة : يجوز بيع المكاتَب على أن يمضى فى كتابته؛ فإن أدّى عَتق وكان وَلاؤه للذى آبتاعه ، ولو عَجَز فهو عبد له . وبه قال النّخَعِيّ وعطاء واللّيث وأحمد وأبو ثور . وقال الأوزاعِيّ : لا يباع المكاتب إلا للعتق، ويُكره أن يباع قبل عجزه ؛ وهو قول أحمد وإسحاق . قال أبو عمر : فى حديث بَرِيرة إجازةُ بيع المكاتب إذا رضى بالبيع ولم يكن عاجزا عن أداء نَجْم قد حلّ عليه ؛ بخلاف قول من زعم أن بيع المكاتب غير جائز إلا بالعجز؛ لأن بَرِيرة لم تذكر أنها عَجَزت عن أداء نجم ، ولا أخبرت بأن النجم قد حلّ عليها ، ولا قال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم أعاجزة أنت أم هل حل عليك نجم . ولو لم يجز بيع المكاتب والمكاتبة إلا بالعجز عن أداء ما قد حلّ لكان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد سألها أعاجزة هى أم لا ، وما كان ليأذن

فى شرائها إلا بعد علمه صلى الله عليه وسلم أنها عاجزة ولو عن أداء نجم واحد قد حل عليها . وفى حديث الزُّهْرِىّ أنها لم تكن قضت من كتابتها شيئا . ولا أعلم فى هذا الباب حجّة أصحّ من حديث بَرِيرة هذا ، ولم يُرْوَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم شىء يعارضه ، ولا فى شىء من الأخبار دليل على عجزها . استدلّ من منع من بيع المكاتَب بأمور : منها أن قالوا إن الكتابة المذكورة لم تكن انعقدت ، وأن قولها كاتبت أهلى معناه أنها راوضتهم عليها ، وقدّروا مبلغها وأجلها ولم يعقدوها . وظاهر الأحاديث خلافُ هذا إذ تُؤُمِّل مساقها . وقيل : إن بريرة عجزت عن الأداء فاتفقت هى وأهلها على فسخ الكتابة ، وحينئذ صح البيع ؛ إلا أن هذا إنما يتمشّى على قول من يقول : إن تعجيز المكاتب غير مفتقر إلى حكم حاكم إذا اتفق العبد والسيد عليه ؛ لأن الحق لا يعدوهما ، وهو المذهب المعروف . وقال سُحْنُون : لا بدّ من السلطان ؛ وهذا إنما خاف أن يتواطآ على ترك حق الله تعالى . ويدل على صحة أنها عجزت ما روى أن بَرِيرة جاءت عائشة تستعينها فى كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئا ؛ فقالت لها عائشة : ارجعى إلى أهلك فإن أحبّوا أن أقضى عنك كتابتك فعلت . فظاهر هذا أن جميع كتابتها أو بعضها استحقّ عليها ؛ لأنه لا يُقْضَى من الحقوق إلا ما وجبت المطالبة به ، والله أعلم . هذه التأويلات أشبه ما لهم وفيها من الدَّخَل ما بيّناه . وقال ابن المنذر : ولا أعلم حجة لمن قال ليس له بيع المكاتب إلا أن يقول لعل بريرة عَجَزت . قال الشافعىّ : وأظهر معانيه أن لمالك المكاتَب بيْعَه .

الحادية عشرة — المكاتب إذا أدّى كتابته عَتَق ولا يحتاج إلى ابتداء عتق من السيّد . وكذلك ولده الذين وُلدوا فى كتابته من أَمَته ، يَعْتِقون بعتقه ويَرِقّون برقّه ؛ لأن ولد الإنسان من أَمَته بمثابته اعتبارا بالحر وكذلك ولد المكاتَبة ، فإن كان لهما ولد قبل الكتابة لم يدخل فى الكتابة إلا بشرط .

الثانية عشرة — ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ ﴾ هذا أمر للسّادة بإعانتهم فى مال الكتابة ؛ إما بأن يعطوهم شيئا مما فى أيديهم — أعنى أيدى السادة — أو يحطّوا عنهم شيئا

من مال الكتابة . قال مالك : يوضع عن المكاتب من آخر كتابته . وقد وضع ابن عمر خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفا . واستحسن علىّ رضى الله عنه أن يكون ذلك ربع الكتابة . قال الزهراوىّ : روى ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبى الحسن ثلثها . وقال قتادة : عشرها . ابن جُبير : يسقِط عنه شيئا ، ولم يحدّه ؛ وهو قول الشافعى ، واستحسنه الثورى . قال الشافعى : والشىء أقلّ شىء يقع عليه آسم شىء ، ويجبر عليه السيد ويحكم به الحاكم على الورثة إن مات السيد . ورأى مالك رحمه الله تعالى هذا الأمر على الندب ، ولم ير لقدر الوضيعة حدّا . احتج الشافعىّ بمطلق الأمر فى قوله « وآتوهم » ، ورأى أن عطف الواجب على الندب معلوم فى القرآن ولسان العرب ؛ كما قال تعالى : « إن اللهَ يأمُرُ بالعَدْل والإحسانِ وإيتَاءِ ذِى القُرْبَى » وما كان مثله . قال ابن العربى : وذكره قبله إسماعيل بن إسحاق القاضى ، جعل الشافعىّ الإيتاء واجبا ، والكتابة غير واجبة ؛ فجعل الأصل غير واجب والفرع واجبا ، وهذا لا نظير له ، فصارت دعوى محضة . فإن قيل : يكون ذلك كالنكاح لا يجب فإذا انعقد وجبت أحكامه ، منها المتعة . قلنا : عندنا لا تجب المتعة فلا معنى لأصحاب الشافعىّ . وقد كاتب عثمان بن عفان عبده وحلف ألّا يحطّه... ، فى حديث طويل .

قلت : وقد قال الحسن والنّخعِىّ وبُريدة إنما الخطاب بقوله « وآتوهم » للناس أجمعين فى أن يتصدقوا على المكاتَبين ، وأن يعينوهم فى فَكاك رقابهم . وقال زيد بن أسلم : إنما الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتَبين من مال الصدقة حظّهم ؛ وهو الذى تضمّنه قوله تعالى « وفى الرقاب » . وعلى هذين القولين فليس لسيد المكاتب أن يضع شيئا عن مكاتبه . ودليل هذا أنه لو أراد حطّ شىء من نجوم الكتابة لقال وضَعُوا عنهم كذا .

الثالثة عشرة — إذا قلنا : إن المراد بالخطاب السادة فرأى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك من أوّل نجومه ، مبادرةً إلى الخير خوفا ألا يدرك آخرها . ورأى مالك رحمه الله تعالى وغيره أن يكون الوضع من آخر نجم . وعلّة ذلك أنه إذا وضع من أوّل نجم ربّما عجز العبد

فرجع هو وماله إلى السيد ، فعادت إليه وَضيعته وهي شبه الصدقة . وهذا قول عبد الله بن عمر وعليّ . وقال مجاهد : يترك له من كل نجم . قال ابن العربي : والأقوى عندى أن يكون فى آخرها ؛ لأن الإسقاط أبدا إنما يكون فى أخريات الديون .

الرابعة عشرة — المكاتب إذا بيع للعتق رضًا منه بعد الكتابة وقبض بائعه ثمنه لم يجب عليه أن يعطيه من ثمنه شيئا ، سواء باعه لعتق أو لغير عتق ، وليس ذلك كالسيد يؤدّى إليه مكاتب كتابته فيؤتيه منها ، أو يضع عنه من آخرها نجما أو ما شاء؛ على ما أمر الله به فى كتابه؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يأمر موالى بَرِيرة بإعطائها مما قبضوا شيئا ، وإن كانوا قد باعوها للعتق .

الخامسة عشرة — اختلفوا فى صفة عقد الكتابة ؛ فقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : صفتها أن يقول السيد لعبده كاتبتك على كذا وكذا من المال ، فى كذا وكذا نجما ، إذا أدّيته فأنت حر . أو يقول له أدّ إلىّ ألفا فى عشرة أنجم وأنت حر . فيقول العبد قد قبلت ونحو ذلك من الألفاظ ؛ فمتى أداها عَتق . وكذلك لو قال العبد كاتبني ، فقال السيد قد فعلت ، أو قد كاتبتك . قال ابن العربي : وهذا لا يلزم؛ لأن لفظ القرآن لا يقتضيه والحال يشهد له ؛ فإن ذكره فحسن ، وإن تركه فهو معلوم لا يحتاج إليه . ومسائل هذا الباب وفروعه كثيرة ، وقد ذكرنا من أصوله جملة ، فيها لمن اقتصر عليها كفاية ، والله الموفق للهداية .

السادسة عشرة — فى ميراث المكاتب ؛ واختلف العلماء فى ذلك على ثلاثة أقوال : فمذهب مالك أن المكاتب إذا هلك وترك مالا أكثر مما بقى عليه من كتابته وله ولد ولدوا فى كتابته أو كاتب عليهم ، ورثوا ما بقى من المال بعد قضاء كتابته ؛ لأن حكمهم كحكمه ، وعليهم السعى فيما بقى من كتابته لو لم يخلف مالا ، ولا يعتقون إلا بعتقه ، ولو أدّى عنهم ما رجع بذلك عليهم؛ لأنهم يعتقون عليه ؛ فهم أولى بميراثه لأنهم مساوون له فى جميع حاله .

والقول الثانى — أنه يؤدّى عنه من ماله جميع كتابته ، وجعل كأنه قد مات حرا ، ويرثه جميع ولده ، وسواء فى ذلك من كان حرًّا قبل موته من ولده ومن كاتب عليهم أو ولدوا

فى كتابته؛ لأنهم قد استووا فى الحرية كلّهم حين تأدّت عنهم كتابتهم . روى هذا القول عن علىّ وابن مسعود، ومن التابعين عن عطاء والحسن وطاوس و إبراهيم، و به قال فقهاء الكوفة سفيان الثورىّ وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حَىّ، و إليه ذهب إسحاق .

والقول الثالث — أن المكاتب إذا مات قبل أن يؤدّى جميع كتابته فقد مات عبدا، وكل ما يخلفه من المال فهو لسيده، ولا يرثه أحد من أولاده، لا الأحرار ولا الذين معه فى كتابته؛ لأنه لما مات قبل أن يؤدى جميع كتابته فقد مات عبدا وماله لسيده، فلا يصح عتقه بعد موته؛ لأنه محال أن يَعتِق عبد بعد موته، وعلى ولده الذين كاتب عليهم أو ولدوا فى كتابته أن يسعَوْا فى باقى الكتابة، و يسقط عنهم منها قدر حصته، فإن أدّوا عَتَقوا لأنهم كانوا فيها تَبَعًا لأبيهم، و إن لم يؤدوا ذلك رَقُّوا . هذا قول الشافعى، و به قال أحمد بن حنبل، وهو قول عمر بن الخطاب و زيد بن ثابت وعمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ روى عن جابر بن عبد الله وابن عباس رضى الله عنهم أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن أُبَىّ، وكانت له جاريتان إحداهما تسمى مُعاذة والأخرى مُسَيْكة، وكان يُكرههما على الزنى و يضربهما عليه ٱبتغاء الأجر وكسب الولد؛ فشكَتا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين . ومعاذة هذه أمُّ خولة التى جادلت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى زوجها . وفى صحيح مسلم عن جابر أن جارية لعبد الله بن أُبَىّ يقال لها مُسَيكة وأخرى يقال لها أُمَيمة فكان يُكرههما على الزنى، فشكَتا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل « ولا تُكْرِهوا فتياتِكم على البِغاء — إلى قوله — غفور رحيم » .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ راجع إلى الفَتَيات، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التحصُّن فحينئذ يمكن ويتصوّر أن يكون السيد مكرها، ويمكن أن ينهى عن الإكراه . و إذا كانت الفتاة لا تريد التحصن فلا يتصور أن يقال للسيد لا تكرهها؛ لأن الإكراه لا يتصور فيها وهى مريدة للزنى . فهذا أمر فى سادة وفتيات حالُهم هذه . و إلى هذا المعنى أشار ابن العربى

فقال : إنمـا ذكر الله تعـالى إرادة التحصن من المرأة لأن ذلك هو الذى يصوّر الإكراه ؛ فأما إذا كانت هى راغبة فى الزنى لم يتصوّر إكراه ، فحصِّلوه . وذهب هذا النظرُ عن كثير من المفسرين ؛ فقال بعضهم قوله : « إن أردن تحصُّنًا » راجع إلى الأيامى . قال الزجاج والحسين بن الفضل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إن أردن تحصنا . وقال بعضهم : هـذا الشرط فى قوله : « إن أردن » مُلْغًى ، ونحو ذلك ممـا يَضْعُف . والله الموفق .

قوله تعـالى : ﴿ لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى الشيء الذى تَكْسِبه الأَمَة بفرجها ، والولد يُسـترقّ فيباع . وقيل : كان الزانى يفتدى ولده من المزنىّ بها بمائة من الإبل يدفعها إلى ســيدها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ ﴾ أى يقهرهن . ﴿ فإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ ﴾ لهن ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهن . وقرأ ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن جبير « لهن غفور » بزيادة لهن . وقد مضى الكلام فى الإكراه فى « النحل »(١) والحمد لله . ثم عدّد تعالى على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات ، وفيما ضرب لهم من أمثال المـاضين من الأمم ليقع التحفظ ممـا وقع أولئك فيه .

قوله تعـالى : ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠ وما بعدها .

النور فى كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر . وآستعمل مجازا فيما صح من المعانى ولاح ؛ فيقال منه : كلام له نور . ومنه : الكتاب المنير ، ومنه قول الشاعر :

نسب كأن عليه من شمس الضحا * نورا ومن فلق الصباح عمودا

والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمس العصر وقمره . قال :

* فإنك شمس والملوك كواكبٌ [(1)] *

وقال آخر :

هلا خصصت من البلاد بمقصد * قمرَ القبائل خالدَ بن يزيد

وقال آخر :

إذا سار عبد الله من مَرْوَ ليلةً * فقد سار منها نورها و جمالها

فيجوز أن يقال : لله تعالى نور ، من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ، ونورُ جميع الأشياء منه ابتداؤها وعنه صدورها ، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جلّ وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرا . وقد قال هشام الجوالق وطائفة من المُجَسِّمة : هو نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام . وهذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقلا على ما يعرف فى موضعه من علم الكلام . ثم إن قولهم متناقض ؛ فإن قولهم جسم أو نور حكمٌ عليه بحقيقة ذلك ، وقولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفيٌ لما أثبتوه من الجسمية والنور ؛ وذلك متناقض ، وتحقيقه فى علم الكلام . والذى أوقعهم فى ذلك ظواهر اتبعوها منها هذه الآية ، وقوله عليه السلام إذا قام من الليل يتهجّد : "اللّهُمّ لك الحمد أنت نور السموات والأرض". وقال عليه السلام وقد سئل : هل رأيت ربّك ؟ فقال "رأيت نورا" . إلى غير ذلك من الأحاديث .

وآختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : المعنى أى به وبقدرته أنارت أضواؤها ، واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها . فالكلام على التقريب للذهن ؛ كما يقال : الملك نور أهل البلد ؛ أى به قِوام أمرها وصلاحُ جملتها ؛ لجَرَيان أموره على سنن السّداد . فهو فى الملك

---

(1) هذا صدر بيت للنابغة الذبيانى من قصيدة يمدح بها النعمان . وعجزه :

* اذا طلعت لم يبد منهن كوكب *

مجـاز ، وهو فى صـفة الله حقيقة محضة ؛ إذ هو الذى أبدع الموجودات وخلق العقل نورًا هاديا ؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضّوْء ظهور المبصَرات ، تبـارك الله تعالى لا ربّ غيره . قال معناه مجـاهد والزهرى وغيرهما . قال ابن عرفة : أى منوّر السموات والأرض . وكذا قال الضحاك والقُرَظى . كما يقولون : فلان غياثنـا ؛ أى مغيثنا . وفلان زادى ؛ أى مزوّدى . قال جرير :

وأنت لنـا نور وغَيْث وعِصْمة * ونَبْتٌ لمن يرجو نَـداك ورِيقُ

أى ذو وَرَق . وقال مجاهد : مدبّر الأمور فى السموات والأرض . أُبَىّ بن كعب والحسن وأبو العالِيَة : مزيّن السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزيّنُ الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين . وقال ابن عباس وأنس : المعنى الله هادى أهـل السموات والأرض . والأول أعمّ للعانى وأصح مع التأويل .

قوله تعـالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ أى صفة دلائله التى يقذفها فى قلب المؤمن ؛ والدلائل تسمى نورا . وقد سمّى الله تعالى كتابه نُورًا فقال : « وأنزلنا إليكم نورا مبينا »(١) وسمى نبيّه نورا فقال : « قد جاءكم من اللهِ نُورٌ وكتابٌ مبين »(٢) . وهذا لأن الكتاب يهدى و يبيّن ، وكذلك الرســول . ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبيّنها وواضعها . وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثّل به ، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة ، وذلك أن يريد مَثَل نور الله الذى هو هداه و إتقانه صنعة كل مخلوق و براهينه الساطعة على الجملة ، كهذه الجملة من النور الذى تتخذونه أنتم على هذه الصفة ، التى هى أبلغ صفات النور الذى بين أيدى النـاس ؛ فمثل نور الله فى الوضوح كهذا الذى هو منتهاكم أيهـا البشر .

والمِشْكاة : الكَوّة فى الحائط غير النـافذة ؛ قاله ابن جبير وجمهور المفسرين ، وهى أجمـع للضوء ، والمصباحُ فيها أكثر إنارة منه فى غيرها ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء . والمشكاة وعاء من أَدَم كالدَّلْو يبرّد فيها المـاء ؛ وهو على وزن مِفعلة كالمِقراة(٣) والمِصْفاة . قال الشاعر :

---

(١) آية ١٧٤ سورة النساء . (٢) آية ١٥ سورة المائدة . (٣) المقراة : القصعة التى يقرى الضيف فيها .

كأن عَيْنيه مِشكاتان فى حجر (١) * قِيضا اقتياضا بأطراف المناقير

وقيل : المِشْكاة عمود القِنديل الذى فيه الفتيلة . وقال مجاهد : هى القنديل . وقال « فى زجاجة » لأنه جسم شفاف ، والمصباح فيه أنور منه فى غير الزجاج . والمصباح : الفتيل بناره . ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أى فى الإنارة والضوء . وذلك يحتمل معنيين : إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك ، وإما أن يريد أنها فى نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك . وهذا التأويل أبلغ فى التعاون على النور . قال الضحاك : الكوكب الدُّرِّى هو الزُّهَرة .

قوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أى من زيت شجرة ، فحذف المضاف . والمباركة المُنَمّاة؛ والزيتون من أعظم الثمار نَماء، والرمان كذلك . والمعسان (٢) يقتضى ذلك . وقول أبى طالب يرثى مسافر بن أبى عمرو بن أميّة بن عبد شمس :

ليتَ شِعْرِى مسافِرَ بن أبى عمـ * ـرو وليتٌ يقولها المحزونُ

بورك الميْت الغريب كما بُو * رِك نبعُ الرمان والزيتونُ

وقيل : من بركتهما أن أغصانهما تُورق من أسفلها الى أعلاها . وقال ابن عباس : فى الزيتونة منافع ، يُسرج بالزيت ، وهو إدام ودِهان ودباغ ، ووَقود يوقد بحطبه وتُفْله ، وليس فيه شىء إلا وفيه منفعة ، حتى الرَّماد يغسل به الإِبْرَيْسَم (٣) . وهى أول شجرة نبتت فى الدنيا ، وأوّل شجرة نبتت بعد الطوفان ، وتنبت فى منازل الأنبياء والأرض المقدسة ، ودعا لها سبعون نبيًّا بالبركة ؛ منهم إبراهيم ، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قال : " اللّهُمّ بارك فى الزيت والزيتون " . قاله مرتين .

قوله تعالى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ اختلف العلماء فى قوله تعالى « لا شَرقِيّة ولا غَرْبِيّة » فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم : الشرقية التى تصيبها الشمس إذا شَرَقت

---

(١) ورد هذا البيت برواية اخرى فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى وقد نسبه لأبى زبيد . والرواية فيه .

كأنّ عينيه فى وَقْبَين من حجر * قيضا ... ... الخ

والوَقْب : نقرة فى الصخرة يجتمع فيها الماء . وقيضا : شقتا . والمناقير : واحده منقار، وهى حديدة كالفأس ينقر بها الحجر وغيره . (٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى بعض نسخ الأصل وفى بعضها : «والمعنيان يقتضى» ولعلها « والمعنى يقتضى » . (٣) الإبريسم : معرّب ، وفيه ثلاث لغات ، وهو الحرير .

ولا تصيبها إذا غَرَبت؛ لأن لهـا سترا . والغربيّة عكسها؛ أي أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يواريها عن الشمس شيء وهو أجود لزيْتها ، فليست خالصة للشرق فتسمّى شرقية ولا للغرب فتسمّى غربيّــة، بل هي شرقية غربية . وقال الطبري عن ابن عباس : إنها شجرة في دَوْحة قد أحاطت بها؛ فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب . قال ابن عطية : وهذا قول لا يصح عن ابن عباس؛ لأن الثمرة التي بهـذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهد في الوجود . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مَثَل ضرب به الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية . الثعلبيّ: وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيـا ؛ لأنها بدل من الشجرة ، فقال « زيتونة » . وقال ابن زيد : إنها من شجر الشأم؛ فإن شجر الشأم لا شرقيّ ولا غربيّ ، وشجر الشأم هو أفضل الشجر، وهي الأرض المباركة . و« شرقيةٍ » نعت لـ « زيتونةٍ » و« لا » ليست تحول بين النعت والمنعوت، «ولا غربية» عطف عليه .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ مبالغة في حسنه وصفائه وجودته . ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي اجتمع في المِشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصار لذلك نور على نور . واعتقلت هـذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون ؛ فكذلك براهين الله تعالى واضحة ، وهي برهان بعد برهان، وتنبيه بعـد تنبيه؛ كإرساله الرسل وإنزاله الكتب، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر . ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده، وذكر تفضله للعباد في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمـان . وقرأ عبد الله بن عَيّاش بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السُّلَميّ « اللهُ نَوَّر » بفتح النون والواو المشدّدة . واختلف المتأوّلون في عود الضمير في « نوره » على من يعود؛ فقال كعب الأحبار وابن جُبير : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي مَثَل نور محمد صـلى الله عليه وسـلم . قال ابن الأنباريّ : « الله نور السموات والأرض » وقف حسن، ثم تبتدئ « مَثَـلُ نورِه كمشكاةٍ فيها مِصبَاحٌ » على معنى نور محمد صلى الله عليه وسلم . وقال أُبَيّ بن كعب وابن جبير

أيضا والضحاك : هو عائد على المؤمنين . وفى قراءة أُبَىّ « مثل نور المؤمنين » . وروى أن فى قراءته « مثل نور المؤمن » . وروى أن فيها « مثل نور من آمن به » . وقال الحسن : هو عائد على القرآن والإيمان . قال مكّىّ : وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله « والأرض » . قال ابن عطية : وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثَّل؛ فعلى من قال : الممثّل به محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قول كَعْب الحِبْر(١)؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النبوّة وما يتصل بها من عمله(٢) وهداه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة هى الوحى، والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به ، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التى تضمّنها الوَحْى . ومن قال : الممثّل به المؤمن، وهو قول أُبَىّ؛ فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، وزيتها هو الحجج والحكمة التى تضمّنها . قال أُبَىّ : فهو على أحسن الحال يمشى فى الناس كالرجل الحىّ يمشى فى قبور الأموات . ومن قال : إن الممثّل به هو القرآن والإيمان؛ فتقدير الكلام: مثل نوره الذى هو الإيمان فى صدر المؤمن فى قلبه كمشكاة؛ أى كهذه الجملة . وهذا القول ليس فى مقابلة التشبيه كالأولين؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان . وقالت طائفة : الضمير فى «نوره» عائد على الله تعالى . وهذا قول ابن عباس فيما ذكر الثعلبىّ والماوَرْدِىّ والمهدوِىّ، وقد تقدّم معناه . ولا يوقف على هذا القول على «الأرض» . قال المهدوىّ: الهاء لله عز وجل؛ والتقدير : الله هادى أهل السموات والأرض، مَثَل هداه فى قلوب المؤمنين كمِشْكاة؛ وروى ذلك عن ابن عباس . وكذلك قال زيد بن أسلم، والحسن : إن الهاء لله عز وجل . وكان أُبَىّ وابن مسعود يقرآنها «مثلُ نُوره فى قلب المؤمن كمشكاة» . قال محمد بن على الترمذى : فأما غيرهما فلم يقرأها فى التنزيل هكذا، وقد وافقهما فى التأويل أن ذلك نوره فى قلب المؤمن، وتصديقه فى آية أخرى يقول « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ(٣) » . وٱعتلّ الأوّلون بأن قالوا : لا يجوز أن يكون الهاء لله عز وجل؛ لأن الله عز وجل لا حدّ

(١) الحبر (بالفتح والكسر) : العالم ذميا كان أو مسلما . وكعب الحبر (بالكسر) : منسوب الى الحبر الذى يكتب به؛ لأنه صاحب كتب . (٢) فى ابن عطية : «من علمه» . (٣) آية ٢٢ سورة الزمر .

لنوره . وأمال الكسائي فيما روى عنه أبو عمر الدُّورِيّ الألف من «مشكاة» وكسر الكاف التي قبلها . وقرأ نصر بن عاصم « زَجاجة » بفتح الزاي و « الزَّجاجة » كذلك ، وهي لغة . وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم « دُرّيّ » بضم الدال وشد الياء ، ولهذه القراءة وجهان : إمّا أن ينسب الكوكب إلى الدُّرّ لبياضه وصفائه ، وإمّا أن يكون أصله دُرِّيء مهموز ، فُعِّيل من الدَّرء وهو الدفع ، وخُفّفت الهمزة . ويقال للنجوم العظام التي لا تعرف أسماؤها : الدَّراري ، بغير همز ؛ فلعلّهم خفّفوا الهمزة ، والأصل من الدَّرء الذي هو الدفع . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «دُرّيء» بالهمز والمد ، وهو فُعِّيل من الدَّرء ؛ بمعنى أنها يدفع بعضُها بعضا . وقرأ الكسائي وأبو عمرو « دِرّيء » بكسر الدال والهمز من الدرء والدفع ؛ مثل السِّكّير والفِسِّيق . قال سيبويه : أي يدفع بعض ضوئه بعضا من لمعانه . قال النحاس : وضعّف أبو عبيد قراءة أبي عمرو والكسائي تضعيفا شديدا ، لأنه تأوّلها من درأت أي دفعت ؛ أي كوكب يجري من الأفق إلى الأفق . وإذا كان التأويل على ما تأوله لم يكن في الكلام فائدة ، ولا كان لهذا الكوكب مزية على أكثر الكواكب ؛ ألا ترى أنه لا يقال جاءني إنسان من بني آدم . ولا ينبغي أن يتأوّل لمثل أبي عمرو والكسائي مع علمهما وجلالتهما هذا التأويل البعيد ، ولكن التأويل لهما على ما روى عن محمد بن يزيد أن معناهما في ذلك : كوكب مندفع بالنور ؛ كما يقال : اندرأ الحريق أي اندفع . وهذا تأويل صحيح لهذه القراءة . وحكى سعيد بن مَسْعدة أنه يقال : درأ الكوكب بضوئه إذا امتد ضوءه وعلا . وقال الجوهري في الصّحاح : ودرأ علينا فلان يدرأ دروءًا أي طلع مفاجأة . ومنه كوكب دِرّيء ، على فِعّيل ؛ مثل سِكّير وخِمّير ؛ لشدّة توقده وتلألئه . وقد درأ الكوكب دروءا . قال أبو عمرو بن العلاء : سألت رجلا من سعد بن بكر من أهل ذات عِرْق فقلت : هذا الكوكب الضخم ما تُسمّونه ؟ قال : الدِّرّيء ، وكان من أفصح الناس . قال النحاس : فأما قراءة حمزة فأهل اللغة جميعا قالوا : هي لحن لا تجوز ، لأنه ليس في كلام العرب اسم على فُعِّيل . وقد اعترض أبو عبيد في هذا فاحتج لحمزة فقال : ليس هو فُعِّيل وإنما هو فُعُّول ، مثل سبوح ، أبدل من الواو ياء ؛ كما قالوا : عُتِيّ . قال أبو جعفر النحاس : وهذا الاعتراض والاحتجاج من أعظم الغلط

وأشدّه؛ لأن هذا لا يجوز ألْبَتَّة، ولو جاز ما قال لقيل فى سُبُّوح سُبِّيح، وهذا لا يقوله أحد، وليس عُتِيّ من هذا، والفرق بينهما واضح بَيِّن؛ لأنه ليس يخلو عُتِيّ من إحدى جهتين: إما أن يكون جمع عاتٍ فيكون البدل فيه لازما، لأن الجمع باب تغيير، والواو لا تكون طرفا فى الأسماء وقبلها ضمة، فلما كان قبل هذه ساكن وقبل الساكن ضمة والساكن ليس بحاجز حصين أبدل من الضمة كسرة فقلبت الواو ياء. وإن كان عُتِيّ واحدا كان بالواو أَوْلى، وجاز قلبها لأنها طرف، والواو فى فُعول ليست طرفا فلا يجوز قلبها. قال الجوهرى: قال أبو عبيد إن ضممت الدال قلت دُرِّيّ، يكون منسوبا إلى الدر، على فُعْلِيّ ولم تهمزه لأنه ليس فى كلام العرب فُعيل. ومن همزه من القراء فإنما أراد فُعُّولا مثل سُبُّوح فاستثقل فردّ بعضه إلى الكسر. وحكى الأخفش عن بعضهم «دَرِّيء» من درأته، وهمزها وجعلها على فَعِّيل مفتوحة الأول. قال: وذلك من تلألئه. قال الثعلبي: وقرأ سعيد بن المسيب وأبو رَجاء «دَرِّيء» بفتح الدال مهموزا. قال أبو حاتم: هذا خطأ لأنه ليس فى الكلام فَعِّيل؛ فإن صح عنهما فهما حجة. ﴿يُوقَدُ﴾ قرأ شيبة ونافع وأيوب وسلام وابن عامر وأهل الشام وحفص «يوقد» بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال. وقرأ الحسن والسُّلَمِيّ وأبو جعفر وأبو عمرو بن العلاء البصرى «تَوَقَّد» مفتوحة الحروف كلها مشدّدة القاف، واختارها أبو حاتم وأبو عبيد. قال النحاس: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جميعا للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف؛ لأنه الذى ينير ويضيء، وإنما الزجاجة وعاء له. و«تَوَقَّدَ» فعل ماض من تَوَقَّد يتوقّد، ويُوقَد فعل مستقبل من أوقد يُوقَد. وقرأ نصر ابن عاصم «تَوَقَّدَ» والأصل على قراءته تتوقد حذف إحدى التاءين لأن الأخرى تدل عليها. وقرأ الكوفيون «تُوقَد» بالتاء يعنون الزجاجة. فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة. ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقدم القول فيه. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ على تأنيث النار. وزعم أبو عبيد أنه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم أن السُّدِّى روى عن أبى مالك عن ابن عباس أنه قرأ «ولَوْ لم يمسسه نار» بالياء. قال محمد بن يزيد: التذكير على أنه تأنيث غير حقيقى، وكذا سبيل المؤنث عنده.

وقال آبن عمر : المشكاة جَوْف محمد صلى الله عليه وسلم، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذى جعله الله تعالى فى قلبه يوقد من شجرة مباركة؛ أى أن أصله من إبراهيم وهو شجرته ؛ فأوقد الله تعالى فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم النور كما جعله فى قلب إبراهيم عليه السـلام . وقال محمـد بن كعب : المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله عليهـم أجمعين؛ سمّاه الله تعالى مصباحا كما سماه سراجا فقال : «وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا» يوقد من شجرة مباركة وهى آدم عليه السلام ، بُورِك فى نسـله وكَثُر منه الأنبياء والأولياء . وقيل : هى إبراهيم عليـه السلام ، سمّاه الله تعـالى مباركا لأن أكثر الأنبياء كانوا من صُلْبه . ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى لم يكن يهودِيًّا ولا نصرانيا و إنمـا كان حَنِيفًا مسلما . و إنمـا قال ذلك لأن اليهود تصلِّى قِبَل المغرب والنصارى تصلِّى قبل المشرق . ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ أى يكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه . ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ نَبِيٌّ من نَسْل نبيّ . وقال الضحاك : شـبه عبد المطلب بالمشكاة وعبد الله بالزجاجة والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمصباح كان فى قلبهما ، فورث النبوّة من إبراهيم . ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ أى شجرة التُّقَى والرضوان وعشيرة الهدى والإيمـان، شجرة أصلها نبوّة، وفرعها مروءة، وأغصانها تنزيل، وورقها تأويل، وخدمها جبريل وميكائيل . قال القاضى أبو بكر آبن العربى : ومن غريب الأمر أن بعض الفقهاء قال إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لإبراهيم ومحمد ولعبد المطلب وابنـه عبد الله؛ فالمشكاة هى الكوّة بلغـة الحبشة ، فشبّه عبد المطلب بالمشكاة فيها القِنديل وهو الزجاجة ، وشبّه عبد الله بالقِنديل وهو الزجاجة ؛ ومحمد كالمصباح يعنى من أصلابهما ، وكأنه كوكب دُرّىٌّ وهو المشتَرِى « يوقد من شجرة مباركة » يعنى إرْث النبوّة من إبراهيم عليه السلام هو الشجرة المباركة، يعنى حنيفيّة لاشرقيّة ولا غربية، لايهودية ولا نصرانية . « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار» يقول : يكاد إبراهيم يتكلم بالوحى من قبل أن يوحَى إليه . « نورٌ على نور » إبراهيم ثم محمد صلى الله عليه وسلم . قال القاضى : وهذا كله عدول عن الظاهر، وليس يمتنع فى التمثيل أن يتوسع المرء فيه .

قلت : وكذلك فى جميع الأقوال لعـدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأول ، وأن هـذا مَثَل ضربه الله تعالى لنوره ، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلا تنبيها لخلقه إلا ببعض خلقه ، لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم ، ولو لا ذلك ما عَرف الله إلّا الله وحده ، قاله آبن العربى . قال آبن عباس : هذا مَثَل نور الله وهُداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضيء قبل أن تمسه النار ، فإن مسّته النار زاد ضوءه ، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم زاده هُدًى على هدًى ونورا على نور ؛ كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة : « هذا رَبِّى » ، من قبل أن يخبره أحد أن له رَبًّا ؛ فلما أخبره الله أنه ربُّه زاد هُدًى ، فقال له رَبُّه : «أَسْلِمْ قال أسلمتُ لرب العالمين» . ومن قال إن هذا مَثَل للقرآن فى قلب المؤمن قال : كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يُهتـدَى به ولا ينقص ؛ فالمصباح القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة لسانه وفهمه ، والشجرة المباركة شجرة الوحى . ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ تكاد حجج القرآن تتضح ولو لم يقرأ . ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ يعنى أن القرآن نور من الله تعالى لخلقه ، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن ، فآزدادوا بذلك نورا على نور . ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز ، وأنه لا يناله إلا من أراد الله هداه فقال : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ أى يبيّن الأشباه تقريبا إلى الأفهام . ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بالمهدىّ والضّال . وروى عن آبن عباس أن اليهود قالوا : يا محمـد ، كيف يَخْلُص نور الله تعالى من دون السماء ؛ فضرب الله تعالى ذلك مثلا لنوره .

قوله تعـالى : فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ الباء في « بيوت » تضم وتكسر؛ وقد تقدّم (1) . واختلف في الفاء من قوله « في » فقيل : هي متعلقة بـ« مصباح » . وقيل : بـ«يسبح له »؛ فعلى هذا التأويل يوقف على « عليم » . قال ابن الأنباري: سمعت أبا العباس يقول هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب؛ كأنه قال وهي في بيوت. وقال الترمذي الحكيم محمد بن علي : « في بيوت » منفصل، كأنه يقول : الله في بيوت أذن الله أن تُرفع؛ و بذلك جاءت الأخبار أنه "من جلس في المسجد فإنه يجالس ربّه". وكذا ما جاء في الخبر فيما يحكى عن التوراة "أن المؤمن إذا مشى إلى المســجد قال الله تبارك اسمه عبــدي زارني وعليّ قِراه ولن أرضى له قِرًى دون الجنة" . قال ابن الأنباري : إن جعلت « في » متعلقة بـ«يسبّح » أو رافعــة للرجال حَسُن الوقف على قــوله « والله بكل شيء عليم » . وقال الرُّمّاني : هي متعلقة بـ« يوقد » وعليــه فلا يوقف على « عليم » . فإن قيل : فمــا الوجه إذا كان البيوت متعلقــة بـ« يوقد » في توحيــد المصباح والمشكاة و جمع البيوت ، ولا يكون مشكاة واحدة إلا في بيت واحد . قيل : هذا من الخطاب المتلوّن الذي يفتتح بالتوحيد ويختم بالجمع؛ كقوله تعالى : يأيها النّبيّ إذا طلّقتم النساء » ونحوه. وقيل: رجع إلى كل واحد من البيوت . وقيل: هو كقوله تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا » و إنمــا هو في واحدة منها . واختلف الناس في البيوت هنا على خمسة أقوال : الأوّل — أنها المساجد المخصوصة لله تعالى بالعبادة، وأنها تضيء لأهــل السماء كما تضيء النجوم لأهــل الأرض؛ قاله ابن عباس ومجاهــد والحسن . الثــاني — هي بيوت بيت المقدس؛ عن الحسن أيضا . الثــالث — بيوت النبيّ صلى الله عليــه وسلم؛ عن مجاهــد أيضا . الرابع — هي البيوت كلّها؛ قاله عكرمة . وقوله « يُسَبِّحُ له فيهــا بالْغُدُوِّ والاصال » يقوى أنها المساجد . وقول خامس — أنها المساجد الأربعــة التي

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٤٦ طبعة ثانية .

لم يبنها إلا نبيّ : الكعبة و بيت أريحا ومسجد المدينة ومسجد قُبَاء؛ قاله ابن بُريدة . وقد تقدّم ذلك فى « براءة » [1] .

قلت — الأظهر القول الأوّل ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أحبَّ الله عز وجل فليحبنى ومن أحبنى فليُحبّ أصحابى ومن أحب أصحابى فليُحبّ القرآن ومن أحبّ القرآن فليُحبّ المساجد فإنها أفنية الله أبنيته أذن الله فى رفعها و بارك فيها ميمونةٌ ميمون أهلها محفوظةٌ محفوظ أهلها هم فى صلاتهم والله عز وجل فى حوائجهم هم فى مساجدهم والله من ورائهم " .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ « أذن » معناه أمر وقضى . وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر؛ فإن اقترن بذلك أمر و إنفاذ كان أقوى . و « ترفع » قيل : معناه تُبْنَى وتُعْلَى؛ قاله مجاهد وعكرمة . ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجدا من ماله بنى الله له بيتا فى الجنة " . وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة تحض على بنيان المساجد . وقال الحسن البصرى وغيره : معنى « ترفع » تعظّم، و يرفع شأنها، وتطهر من الأنجاس والأقذار؛ ففى الحديث " أن المسجد لَيَنْزَوِى من النجاسة كما ينزوى الجلد من النار " . و روى ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أخرج أذًى من المسجد بنى الله له بيتا فى الجنة " . و روى عن عائشة قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتخذ المساجد فى الدور وأن تطهر وتطيَّب .

الثالثــة — إذا قلنا : إن المراد بنيانها فهل تزيّن وتنقش؟ اختلف فى ذلك؛ فكرهه قوم وأباحه آخرون . فروى حماد بن سلمة عن أيوب عن أبى قِلَابة عن أنس وقتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد " . أخرجه أبو داود . وفى البخارى — وقال أنس : "يتباهَوْن بها ثم لا يَعْمُرونها إلا قليلا " . وقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٠

ابن عباس : لَتُزَخْرِفُنَّها كما زَخْرفتِ اليهود والنصارى . وروى الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول من حديث أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدَّبار عليكم " . احتجّ من أباح ذلك بأن فيه تعظيم المساجد والله تعالى أمر بتعظيمها فى قوله « فى بيوت أذن الله أن تُرْفَعَ » يعنى تعظم . وروى عن عثمان أنه بنى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالسَّاج(١) وحسّنه . قال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم و بالغ فى عمارته وتزيينه ، وذلك فى زمن ولايته قبل خلافته ، ولم ينكر عليه أحد ذلك . وذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق فى عمارة مسجد دمشق وفى تزيينه مثل خراج الشأم ثلاث مرات . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجد بيت المقدس و بالغ فى تزيينه .

الرابعة — ومما تصان عنه المساجد وتنزه عنه الروائح الكريهة والأقوال السيئة وغير ذلك على ما نبيّنه ؛ وذلك من تعظيمها . وقد صح من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى غَزْوة تَبُوك : " من أكل من هذه الشجرة — يعنى الثُّوم — فلا يأتِيَنّ المساجد " . وفى حديث جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل من هذه البقلة الثُّوم " وقال مرة : " من أكل البصل والثوم والكُرّاث فلا يقربَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم " . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خطبته : ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ولا أراهما إلا خبيثتين ، هذا البصلَ والثُّوم ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجد ريحهما من رجل فى المسجد أَمَر به فأخرِج إلى البقيع ، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهُما طبخا . خرّجه مسلم فى صحيحه . قال العلماء : وإذا كانت العلة فى إخراجه من المسجد أنه يُتأذَّى به ففى القياس أن كل من تأذى به جيرانه فى المسجد بأن يكون ذَرِب اللسان سفيها عليهم ، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَرِيمه(٢) لسوء صناعته ، أو عاهة مؤذية كالجذام

(١) الساج : شجر يعظم جدا ، لا ينبت إلا ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين ، لا تكاد الأرض تبليه .
(٢) أى لا تفارقه .

وشبهه . وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجه ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول . وكذلك يجتنب مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كمجالس العلم والولائم وما أشبهها ، مَن أكل الثُّوم وما فى معناه ، مماله رائحة كريهة تؤذى الناس . ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث ، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام (١) رحمه الله أفتى فى رجل شكاه جيرانه واتفقوا عليه أنه يؤذيهم فى المسجد بلسانه ويده فشُوور فيه ؛ فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه ، وألا يشاهد معهم الصلاة ؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه ، فذاكرته يوما أمره وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك وراجعته فيه القول ؛ فاستدل بحديث الثُّوم ، وقال : هو عندى أكثر أذًى من أكل الثوم ، وصاحبه يُمنع من شهود الجماعة فى المسجد .

قلت : وفى الآثار المرسلة « أن الرجل ليكذب الكِذْبَة فيتباعد عنه المَلَك من نتن ريحه » . فعلى هذا يُخرج من عُرف منه الكذب والتقوّل بالباطل فإن ذلك يؤذى .

الخامسة — أكثر العلماء على أن المساجد كلها سواء ؛ لحديث ابن عمر . وقال بعضهم : إنما خرج النهى على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل جبريل عليه السلام ونزوله فيه ؛ ولقوله فى حديث جابر : "فلا يقربَنّ مسجدنا" . والأوّل أصح ، لأنه ذكر الصفة فى الحكم وهى المسجدية ، وذكرُ الصفة فى الحكم تعليل . وقد روى الثعلبى بإسناده عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتى الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نجائب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران ورءوسها من المسك وأزمّتها من الزبرجد الأخضر وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعمارها متعلقون بها فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقربون وأنبياء مرسلون فينادى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم " . وفى التنزيل « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ (٢) » . وهذا عام

(١) فى بعض نسخ الأصل : « هاشم » . (٢) آية ١٨ سورة التوبة . راجع جـ ٨ ص ٩٠ .

فى كل مسجد . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فآشهدوا له بالإيمان إن الله تعالى يقول «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»". وقد تقدم.

السادســة — وتصان المساجد أيضا عن البيع والشراء وجميع الاشتغال ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى دعا إلى الجمل الأحمر (١) : " لا وَجَدْتَ إنما بُنِيت المساجد لمَا بُنِيت له ". أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما صلى قام رجل فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا وَجدتَ إنما بُنِيت المساجد لمَا بُنِيت له " . وهـذا يدل على أن الأصـل ألا يعمل فى المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن. وكذا جاء مفسرا من حديث أنس قال: بينما نحن فى المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم : مَهِ مَهْ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " لا تُزْرِمُوه دَعُوه (٢) " . فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : " إن هــذه المساجد لا تصلح لشيء من هــذا البول ولا القذر إنما هى لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن " . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم . قال : فأمر رجلا من القوم فجـاء بدَلْو من ماء فشنّه (٣) عليه . خرّجه مسلم . ومما يدل على هذا من الكتاب قوله الحق : «وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» . وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية بن الحكم السُّلَمِيّ : " إن هذه المساجد (٤) لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ". أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث بطوله خرجه مسلم فى صحيحه، وحسبك ! وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه صوت رجل فى المسجد فقال : ما هذا الصوت ! أتدرى أين أنت ! وكان خَلَف بن أيوب جالسا فى مسجده فأتاه غلامه يسأله عن شيء فقـام وخرج من المسـجد وأجابه ؛ فقيل له فى ذلك فقال : ما تكلمت فى المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا، فكرهت أن أتكلم اليوم .

---

(١) أى من وجد ضالتى ، وهو الجمـل الأحمر فدعانى اليه .   (٢) أى لا تقطعوا عليه بوله ؛ يقال : زرم البول (بالكسر) انقطع ؛ وأزرمه غيره .   (٣) الشنّ : الصب المنقطع ؛ أى رشه عليه رشا متفرقا .

(٤) الذى فى صحيح مسلم : « إن هذه الصلاة ... الخ » .

السابعــة — روى الترمذىّ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن تناشد الأشعار فى المسجد ، وعن البيع والشراء فيه ، وأن يتحلّق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة . قال : وفى الباب عن بُريدة وجابر وأنس حديث عبدالله ابن عمرو حديث حسن . قال محمد بن إسماعيل : رأيت محمدا (١) و إسحاق وذكر غيرهما يحتجّون بحديث عمرو بن شعيب . وقد كره قوم من أهل العلم البيع والشراء فى المسجد ؛ و به يقول أحمد و إسحاق . وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام أتى على قوم يتبايعون فى المسجد فجعل رداءه مِخراقا (٢) ، ثم جعل يسعى عليهم ضربا و يقول: يا أبناء الأفاعى ، اتخذتم مساجد الله أسواقا ! هذا سوق الآخرة .

قلت : وقد كره بعض أصحابنا تعليم الصبيان فى المساجد ، ورأى أنه من باب البيع . وهذا إذا كان بأجرة ، فلو كان بغير أجرة لمنع أيضا من وجه آخر ، وهو أن الصبيان لا يتحرّزون عن الأقذار والوسخ ؛ فيؤدّى ذلك إلى عدم تنظيف المساجد ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بتنظيفها وتطييبها فقال : " جَنِّبُوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وسلّ سيوفِكم و إقامةَ حدودِكم ورفعَ أصواتكم وخصوماتكم وأجمروها فى الجُمَع وآجعلوا على أبوابها المطاهر " . فى إسناده العلاء بن كثير الدمشقى مولى بنى أمية ، وهو ضعيف عندهم ؛ ذكره أبو أحمد بن عدىّ الجرجانى الحافظ . وذكر أبو أحمد أيضا من حديث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : صلّيت العصر مع عثمان أمير المؤمنين فرأى خياطا فى ناحية المسجد فأمر بإخراجه ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنه يكنِس المسجد و يغلق الأبواب و يرشّ أحيانا . فقال عثمان : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " جنّبوا صنّاعكم من مساجدكم " . هذا حديث غير محفوظ ، فى إسناده محمد بن مجيب الثقفى ، وهو ذاهب الحديث .

قلت : ما ورد فى هذا المعنى و إن كان طريقه لَيِّنًا فهو صحيح معنًى ؛ يدل على صحته ما ذكرناه قبل . قال الترمذىّ : وقد رُوى عن بعض أهل العلم من التابعين رُخْصةٌ فى البيع

(١) الذى فى الترمذى : « احمد » . (٢) المخراق : ثوب يلف و يضرب به الصبيان بعضهم بعضا .

والشراء فى المسجد . وقد رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غير حديث رخصةٌ فى إنشاد الشعر فى المسجد .

قلت : أما تناشد الأشعار فاختلف فى ذلك ، فمن مانع مطلقا ، ومن مجيز مطلقا . والأولى التفصيل ، وهو أن يُنظر إلى الشعر فإن كان مما يقتضى الثناء على الله عز وجل أو على رسوله صلى الله عليه وسلم أو الذبّ عنهما كما كان شعر حسان ، أو يتضمن الحض على الخير والوعظ والزهد فى الدنيا والتقلّل منها ، فهو حسن فى المساجد وغيرها ؛ كقول القائل :

طَوّفى يا نفس كى أقصد فردا صمدا * وذرينى لست أبغى غير ربى أحدا
فهو أنسى وجليسى ودعى الناس * فما إن تجدى من دونه ملتحدا(١)

وما لم يكن كذلك لم يجز ؛ لأن الشعر فى الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والتزين بالباطل ، ولو سلم من ذلك فأقل ما فيه اللّغْوُ والهَذَر ، والمساجد منزهة عن ذلك ؛ لقوله تعالى : « فى بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَع » . وقد يجوز إنشاده فى المسجد ؛ كقول القائل :

كفَحْل العَذاب(٢) الفَرْدِ يضرب به النَّدَى * تَعَلَّى النَّدَى فى متنه وتَحَدّرا

وقول الآخر :

إذا سقط السماء بأرض قوم * رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

فهذا النوع وإن لم يكن فيه حَمْد ولا ثناء يجوز ؛ لأنه خالٍ عن الفواحش والكذب . وسيأتى ذكر الأشعار الجائزة وغيرها بما فيه كفاية فى « الشعراء » إن شاء الله تعالى . وقد روى الدارقطنيّ من حديث هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : ذُكر الشعراء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هو كلام حَسَنه حَسَن وقبيحه قبيح " . وفى الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبى هريرة وابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ذكره فى السنن .

قلت : وأصحاب الشافعيّ يأثرون هذا الكلام عن الشافعيّ وأنه لم يتكلم به غيره ؛ وكأنهم لم يقفوا على الأحاديث فى ذلك . والله أعلم .

(١) هكذا ورد هذا الشعر فى نسخ الأصل ؛ ولم نعرف من أى وزن هو . (٢) العذاب (بالفتح والدال المهملة) : ما استرق من الرمل . وقيل : جانبه الذى يرق ويلى الجَدَد من الأرض . الواحد والجمع سواء .

الثامنة — وأما رفع الصوت فإن كان مما يقتضى مصلحة للرافع صوتَه دُعى عليه بنقيض قصده، لحديث بَريرة المتقدّم، وحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سمع رجلا يَنْشُد ضالّة فى المسجد فليقل لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا". وإلى هذا ذهب مالك وجماعة، حتى كرهوا رفع الصوت فى المسجد فى العلم وغيره. وأجاز أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن مسلمة من أصحابنا رفع الصوت فى الخصومة والعلم؛ قالوا: لأنهم لا بدّ لهم من ذلك. وهذا مخالف لظاهر الحديث، وقولهم: «لا بدّ لهم من ذلك»، ممنوع، بل لهم بُدّ من ذلك لوجهين: أحدهما بملازمة الوَقَار والحرمة، وبإحضار ذلك بالبال والتحرز من نقيضه. والثانى أنه إذا لم يتمكن من ذلك فليتّخذ لذلك موضعا يخصّه، كما فعل عمر حيث بَنَى رحبة تُسمَّى البطيحاء، وقال: من أراد أن يَلْغَط أو يُنْشِد شعرا — يعنى فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — فليخرج إلى هذه الرحبة. وهذا يدل على أن عمر كان يكره إنشاد الشعر فى المسجد، ولذلك بنى البطيحاء خارجه.

التاسعة — وأما النوم فى المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجل أو امرأة من الغرباء ومن لا بيت له فجائز؛ لأن فى البخارى — وقال أبو قِلابة عن أنس: قدِم رهط من عُكْل على النبىّ صلى الله عليه وسلم فكانوا فى الصُّفّة[1]، وقال عبد الرحمن بن أبى بكر: كان أصحاب الصفة فقراء. وفى الصحيحين عن ابن عمر أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم. لفظ البخارى. وترجم (باب نوم المرأة فى المسجد) وأدخل حديث عائشة فى قصة السوداء[2] التى اتهمها أهلها بالوِشاح، قالت عائشة: وكان لها خِبَاء فى المسجد أو حِفْش[3]... الحديث. ويقال: كان مبيت عطاء بن أبى رَبَاح فى المسجد أربعين سنة.

---

(١) موضع مظلل فى أخريات المسجد النبوى تأوى إليه المساكين. (٢) السوداء: يريد أمة سوداء كانت لحى من العرب، فاتهموها بسرقة وشاح وطفقوا يفتشون حتى فتشوا قُبُلها. قالت: والله إنى لقائمة معهم إذ مرت الحُدَيّاة فألقته بينهم ... فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت، فكان لها خباء فى المسجد ... ... راجع صحيح البخارى (باب المساجد). (٣) الخباء: الخيمة من صوف أو وبر. والحفش (بكسر الحاء وسكون الفاء): بيت صغير.

العاشـــرة — روى مسلم عن أبي حميد أو عن أبي أُسَيْد قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فَلْيَقُل اللَّهُمَّ افتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللَّهُمَّ إنى أسألك من فضلك " . خرجه أبو داود كذلك ؛ إلا أنه زاد بعد قوله " إذا دخل أحدكم المسجد : فليسلِّم وليصلِّ(١) على النبيّ صلى الله عليه وسـلم ثم ليقل اللهـم افتح لى ... " الحديث . وروى ابن ماجه عن فاطمة بنت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال " باسم الله والسلام على رسول الله اللَّهُمَّ اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج قال بآسم الله والصلاة على رسول الله اللَّهُمَّ اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتـك وفضلك " . وروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليصلّ على النبيّ صلى الله عليه وسـلم وليقل اللهـمّ افتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فَلْيُسَلِّم على النبيّ صلى الله عليه وسـلم وليقل اللَّهُمّ اعْصِمْنِى من الشـيطان الرجيم " . وخرج أبو داود عن حَيْوة بن شُريح قال : لَقِيت عقبة بن مسلم فقلت له بلغنى أنك حدّثت عن عبد الله بن عمرو بن العـاصى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد قال " أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم " قال نعم . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان حُفِظ منى سـائرَ اليوم .

الحادية عشرة — روى مسلم عن أبى قتادة أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبـل أن يجلس " وعنـه قال : دخلت المسـجد ورسول الله صلى الله عليه وسـلم جالس بين ظَهْرَانَيِ الناس ، قال فجلست فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منعك أن تركع ركعتين قبـل أن تجلس " ؟ فقلت : يا رسـول الله ، رأيتـك جالسا والنـاس جلوس . قال : " فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين " . قال العلماء : فجعل صلى الله عليه وسلم للمسجد مزيّة يتميّز بهـا عن سائر البيوت ، وهو ألا يجلس حتى يركع . وعامّةُ العلمـاء على أن الأمر بالركوع على النـدب والترغيب .

(١) الذى فى سنن أبى داود " فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم " .

وقد ذهب داود وأصحابه إلى أن ذلك على الوجوب؛ وهذا باطل، ولو كان الأمر على ما قالوه لحرُم دخول المسجد على المحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ ، ولا قائل به فيما أعلم ، والله أعلم . فإن قيل : فقد روى إبراهيم بن يزيد عن الأوزاعيّ عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين و إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل من ركعتيه فى بيته خيرا" ، وهذا يقتضى التسوِيَة بين المسجد والبيت . قيل : هذه الزيادة فى الركوع عند دخول البيت لا أصل لها ؛ قال ذلك البخارى . وإنما يصح فى هذا حديث أبى قتادة الذى تقدم لمسلم، وإبراهيم هذا لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الحميد ، ولا أعلم له إلا هذا الحديث الواحد ؛ قاله أبو محمد عبد الحق .

الثانية عشرة — روى سعيد بن زَبّان حدثنى أبى عن أبيه عن جده عن أبى هند رضى الله عنه قال : حَمَل تميمٌ — يعنى الدّارِى — من الشأم إلى المدينة قنادِيل وزَيْتا ومُقُطّا ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة فأمر غلاما يقال له أبو البزاد فقام فنَشَط(1) المُقُط وعلق القناديل وصبّ فيها الماء والزيت وجعل فيها الفتيل؛ فلما غَرَبت الشمس أمر أبا البزاد فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا هو بها تزهر؛ فقال : "من فعل هذا"؟ قالوا : تميم الدّارِى يا رسول الله؛ فقال: "نورت الإسلام نور الله عليك فى الدنيا والآخرة أمَا إنه لو كانت لى آبنة لزوّجْتُكها" . قال نَوْفل بن الحارث : لى آبنة يا رسول الله تسمى المغيرة بنت نَوْفل فآفعل بها ما أردت؛ فأنكحه إيّاها . زَبّان (بفتح الزاى والباء وتشديدها بنقطة واحدة من تحتها) ينفرد بالتّسمّى به سعيد وحده ، فهو أبو عثمان سعيد بن زَبّان بن قائد بن زبان بن أبى هند ، وأبو هند هذا مولى آبن بياضة حجّام النبىّ صلى الله عليه وسلم . والمُقُط : جمع المِقاط ، وهو الحبل ، فكأنه مقلوب القِماط . والله أعلم . وروى ابن ماجه عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : أوّل من أسرج فى المساجد تَميمٌ الدّارِىّ . وروى عن أنس أن النبىّ

(1) نشط الحبل : ربطه .

صلى الله عليه وسلم قال : "من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحَمَلة العرش يُصلّون عليه ويستغفرون له ما دام ذلك الضــوء فيه وإن كنس غبار المسجد نقد الحُــور العين" . قال العلماء : ويستحب أن ينوّر البيت الذى يقرأ فيه القرآن بتعليق القناديل ونصب الشموع فيه، ويزاد فى شهر رمضان فى أنوار المساجد .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ ﴾ اختلف العلماء فى وصف الله تعالى المسبِّحين؛ فقيل : هم المراقبون أمر الله، الطالبون رضاءه، الذين لا يشغلهم عن الصــلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيــا . وقال كثير من الصحابة : نزلت هــذه الآية فى أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كلّ شــغل وبادروا . ورأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله « لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ » . وروى ذلك عن ابن مسعود . وقرأ عبد الله بن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر عنه والحسن « يسبَّح له فيها » بفتح الباء على ما لم يسمّ فاعله . وكان نافع وابن عمر وأبو عمرو وحمزة يقرءون « يُسَبِّح » بكسر البــاء؛ وكذلك روى أبو عمرو عن عاصم . فمن قــرأ « يسبَّح » بفتح البــاء كان على معنيين : أحدهما أن يرتفع « رجال » بفعل مضمر دلّ عليه الظاهر؛ بمعنى يسبّحه رجال؛ فيوقف على هذا على « الآصال » . وقد ذكر سيبويه مثل هذا . وأنشد :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارعٌ لخصومة * ومُخْتَبِط مما تُطيح الطّــوائحُ[1]

المعنى : يبكيه ضــارع . وعلى هــذا تقول : ضُرب زيد عمرو؛ على معنى ضربه عمرو . والوجه الآخر — أن يرتفع « رجال » بالابتداء، والخبر « فى بيوت »؛ أى فى بيوت أذن الله أن ترفع رجال . و « يسبح له فيها » حال من الضمير فى « ترفع »؛ كأنه قال : أن ترفع؛

---

(١) اختلف فى قائله، ونسبه صاحب الخزانة لنهشل بن حَرِىّ . وهذا البيت من أبيات فى مرثية أخيه يزيد، ومطلعها :

لعمرى لئن أمسى يزيد بن نَهْشَل * حَشَا جَدَث تَسفى عليه الروائح

وقوله : « ضارع » من الضراعة، وهو الخضوع والتذلل . و « المختبط » الذى يسألك من غير معرفة كانت بينكما؛ وأراد به هنــا المحتاج . و « تطيح » تذهب وتهلك . و « الطوائح » جمع مطيحة، وهى القواذف . و « الحشا » ما فى البطن . و « جدث » بفتح الجيم والثــاء : القبر . و « الروائح » : الأيام الروائح .

مسبحا له فيها ، ولا يوقف على « الآصال » على هـذا التقدير . ومن قرأ « يسبح » بكسر الباء لم يقف على « الآصال » ؛ لأن « يسبح » فعل للرجال ، والفعل مضطر إلى فاعله ولا إضمار فيه . وقد تقدم القول فى « الغدوّ والآصال » فى آخر « الأعراف »(1) والحمد لله وحده .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ قيل : معناه يصلى . وقال ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن صلاة ؛ ويدل عليه قوله « بِالغدوّ والآصالِ » ، أى بالغداة والعَشِىّ . وقال أكثر المفسرين : أراد الصلاة المفروضة ؛ فالغدو صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين ؛ لأن اسم الآصال يجمعها .

الخامسة عشرة — روى أبو داود عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من خرج من بيته متطهِّرا إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المُحْرِم ومن خرج إلى تسبيح الضُّحَا لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المُعْتَمِر وصلاةٌ على إثر صلاة [لا لَغْوَ بينهما](2) كتاب فى عِلِّيِّين " . وخرّج عن بُريدة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " بشّر المشّائين فى الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له نُزُلًا فى الجنة كلما غَدَا أو راح " . فى غير الصحيح من الزيادة " كما أن أحدكم لو زار من يحب زيارته لاجتهد فى كرامته " ؛ ذكره الثعلبى . وخرّج مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خَطْوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة " . وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصلاته فى سوقه بضعا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه(3) إلا الصلاةُ لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْطُ خُطوةً إلا رُفع له بها درجةٌ وحُطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبِسه والملائكة يصلّون على

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (2) زيادة عن سنن أبى داود .
(3) النهز : الدفع .

أحدكم ما دام في مجلسه الذى صلّى فيــه يقولون اللّهُمّ ٱرحمه اللّهم ٱغفر له اللّهُمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيــه ما لم يُحْدِث فيــه ". في رواية : ما يُحْـدث ؟ قال " يَفْسُو أو يَضْرِط ". وقال حكيم بن زريق : قيل لسعيد بن المسيب أحضور الجنازة أحبّ إليك أم الجلوس في المسجد؟ فقال : من صلّى على جنازة فله قيراط ، ومن شهد دفنها فله قيراطان ؛ والجلوس في المسجد أحبّ إلى ؛ لأن الملائكة تقول : اللّهُمّ ٱغفر له اللهم ٱرحمــه اللّهم تُبْ عليه . وروى عن الحكم بن عمير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كونوا في الدنيــا أضيافا وٱتخذوا المساجد بيوتا وعوّدوا قلوبكم الرقة وأكثروا التفكر والبكاء ولا تختلف بكم الأهواء. تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون وتؤمّلون مالا تدركون" . وقال أبو الدَّرْداء لابنــه : ليكن المسجد بيتَــك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " إن المساجد بيوت المتقين . ومن كانت المساجد بيتــه ضمن الله تعـالى له الرَّوح والراحة والجواز على الصراط " . وكتب أبو صادق الأزدى إلى شعيب بن الحَبْحاب : أنْ عليك بالمساجد فٱلزمها ؛ فإنه بلغنى أنها كانت مجالس الأنبياء . وقال أبو إدريس الخَوْلانِيّ : المساجد مجالس الكرام من النــاس . وقال مالك بن دينار : بلغنى أن الله تبارك وتعالى يقول " إنى أَهُمّ بعذاب عبادى فأنظر إلى عُمّار المساجد وجلساء القرآن ووُلْدان الإســلام فيسكن غضبى " . وروى عنــه عليه السلام أنه قال : سيكون في آخر الزمان رجال يأتون المساجد فيقعدون فيها حِلَقًا حِلَقا ذِكْرُهم الدنيــا وحبّها فلا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة" . وقال ٱبن المسيِّب : من جلس في مسجد فإنما يجالس ربّه، فمــا حقّه أن يقول إلا خيرا . وقــد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه[1] كفاية . وقد جمع بعض العلماء في ذلك خمس عشرة خصلة، فقال : من حرمة المسجد أن يسلّم وقت الدخول إن كان القوم جلوسا، وإن لم يكن في المسجد أحد قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وأن يركع ركعتين قبــل أن يجلس ، وألا يشترى فيه ولا يبيع ، ولا يَسُلّ فيه سهما ولا سيفا ، ولا يطلب فيه ضالّة ، ولا يرفع فيه صوتا

---

(١) راجع ج ٨ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

بغير ذكر الله تعالى، ولا يتكلّم فيه بأحاديث الدنيا، ولا يتخطّى رقاب الناس، ولا ينازع فى المكان، ولا يضيّق على أحد فى الصف، ولا يمرّ بين يدى مصلٍّ، ولا يبصق، ولا يتنخّم، ولا يتمخّط فيه، ولا يفرقع أصابعه، ولا يعبث بشىء من جسده، وأن يُنَزَّه عن النجاسات والصبيان والمجانين، وإقامة الحدود، وأن يكثر ذكر الله تعالى ولا يغفل عنه . فإذا فعل هذه الخصال فقد أدّى حق المسجد، وكان المسجد حرزا له وحِصْنًا من الشيطان الرجيم . وفى الخبر " أن مسجدا ارتفع بأهله إلى السماء يشكوهم إلى الله لما يتحدّثون فيه من أحاديث الدنيا " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عامر الشّعْبِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اقتراب الساعة أن يُرَى الهلال قَبَلًا(١) فيقال لليلتين وأن تتخذ المساجد طُرُقا وأن يظهر موت الفجأة " . هذا يرويه عبد الكبير بن المعافى عن شريك عن العباس بن ذَرِيح عن الشعبى عن أنس . وغيره يرويه عن الشعبى مرسلا، والله أعلم . وقال أبو حاتم : عبد الكبير بن معافى ثقة كان يُعَدّ من الأبدال(٢) . وفى البخارى عن أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من مرّ فى شىء من مساجدنا أو أسواقنا بنَبْل فليأخذ على نصالها لا يَعْقِر بكفّه مسلما " . وخرّج مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البُزاق فى المسجد خطيئة وكفّارتها دفنها " . وعن أبى ذَرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " عُرِضت علىّ أعمال أمّتى حَسَنُها وسيئها فوجدتُ فى محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق ووجدت فى مساوى أعمالها النُّخاعة(٣) تكون فى المسجد لا تُدفن " . وخرّج أبو داود عن الفرج بن فضالة عن أبى سعد(٤) الحميرى قال : رأيت واثلة بن الأَسْقع فى مسجد دمشق بَصَق على الحصير ثم مسحه برجله؛ فقيل له : لم فعلت هذا؟ قال : لأنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله . فرج بن فضالة ضعيف، وأيضا فلم يكن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حُصُر . والصحيح أن رسول الله صلى

(١) قال ابن الأثير : « أى يرى ساعة ما يطلع لعظمه ووضوحه من غير أن يتطلب . وهو بفتح القاف والباء» .

(٢) الأبدال : قوم من الصالحين؛ بهم يقيم الله الأرض، أربعون فى الشام وثلاثون فى سائر البلاد، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر؛ فلذلك سموا أبدالا . وواحد الأبدال العُبّاد بدل وبَدَل . وقال ابن دريد : الواحد بديل .

(٣) النخاعة : النخامة . (٤) فى الأصول : « عن أبى سعيد الخدرى » وهو تحريف؛ لأن فرج بن فضالة لم يرو عن أبى سعيد الخدرى، وإنما روى عن أبى سعد الحميرى، وأبو سعد هذا صاحب واثلة بن الأسقع .

الله عليه وسلم إنما بصق على الأرض ودلكه بنعله اليسرى، ولعلّ واثلة إنمـا أراد هذا لحمل الحصـير عليـه .

السادسة عشرة — لمـا قال تعالى : « رجال » وخصّهم بالذكر دلّ على أن النساء لا حظّ لهنّ في المساجد، إذ لا جمعة عليهنّ ولا جماعة، وأن صلاتهن في بيوتهن أفضل. روى أبو داود عن عبد الله رضي الله عنـه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتُها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها " .

السابعة عشرة — قوله تعالى . ﴿لَا تُلْهِيهِمْ﴾ أي لا تشغلهم . ﴿تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ خصّ التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل بها الإنسان عن الصلاة . فإن قيل : فلمَ كرّر ذكر البيع والتجارةُ تشمله . قيل له : أراد بالتجارة الشراء لقوله « ولا بيع ». نظيره قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْـوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا »(1) قاله الواقدي . وقال الكلبي : التجار هم الجُـلّاب المسافرون، والباعة هم المقيمون . ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ اختلف في تأويله؛ فقال عطاء : يعني حضور الصلاة؛ وقاله ابن عباس، وقال : المكتوبة . وقيل عن الأذان؛ ذكره يحيى بن سلام . وقيل : عن ذكره بأسمائه الحسنى؛ أي يوحّدونه ويمجّدونه . والآية نزلت في أهل الأسواق؛ قاله ابن عمر . قال سالم : جاز عبد الله بن عمر بالسّوق وقـد أغلقوا حوانيتهم وقاموا ليصلّوا في جماعة فقال : فيهـم نزلت « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ » الآية . وقال أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله . وقيل : إن رجلين كانا في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أحدهما بياعا فإذا سمـع النداء بالصلاة فإن كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وَضْعاً ، وإن كان بالأرض لم يرفعه . وكان الآخر قَيْنـاً يعمل السيوف للتجارة، فكان إذا كانت مِطْرَقته على السَّنْدان أبقاها موضوعة، وإن كان قد رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان ؛ فأنزل الله تعالى هـذا ثناء عليهما وعلى كل من اقتـدى بهمـا .

(1) آخر ســورة الجمعـة .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ هذا يدلّ على أن المراد بقوله « عن ذكر الله » غير الصلاة؛ لأنه يكون تكرارا . يقال : أقام الصلاة إقامةً، والأصل إقواما فقلبت حركةُ الواو على القاف فانقلبت الواو ألفا و بعدها ألف ساكنة فحذفت إحداهما، وأثبتت الهاء لئلا تحذفها فتُجْحِف، فلما أضيفت قام المضاف مقام الهاء فجاز حذفها، و إن لم تضف لم يجز حذفها؛ ألا ترى أنك تقول : وَعَد عِدَة، ووَزَن زِنَة، فلا يجوز حذف الهاء لأنك قد حذفت واوا؛ لأن الأصل وَعد وِعْدَةً، ووَزَن وِزْنة، فإن أضفت حذفت الهاء، وأنشد الفراء :

إنّ الخَلِيط أَجَدُّوا البَيْنَ فَٱنْجَرَدُوا * وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذى وَعَدُوا

يريد عِدَة، فحذف الهاء لما أضاف . وروى من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يأتى الله يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنها نُجُب بيض قوائمها من العنبر وأعناقها من الزعفران و رءوسها من المسك وأَزِمّتها من الزبرجد الأخضر وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها وأئمتها يسوقونها وعُمّارها متعلقون بها فتجوز عَرَصات القيامة كالبرق الخاطف فيقول أهل الموقف هؤلاء ملائكة مقرّبون أو أنبياء مرسلون فينادَى ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم“. وعن علىّ رضى الله عنه أنه قال : يأتى على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا ٱسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرون مساجدهم وهى من ذكر الله خراب، شرُّ أهلِ ذلك الزمن علماؤهم، منهم تخرج الفتنة و إليهم تعود؛ يعنى أنهم يعلمون ولا يعملون بواجبات ما علموا .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ قيل : الزكاة المفروضة؛ قاله الحسن. وقال ابن عباس : الزكاة هنا طاعة الله تعالى والإخلاص؛ إذ ليس لكل مؤمن مال . ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ يعنى يوم القيامة . ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ ﴾ يعنى من هوله وحذر الهلاك . والتقلّب التحوّل، والمراد قلوب الكفار وأبصارهم . فتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر، فلا هى ترجع إلى أماكنها ولا هى تخرج . وأما تقلب الأبصار فالزَّرَق بعد الكَحَل والعَمَى بعد البصر . وقيل : تتقلّب القلوب بين الطمع فى النجاة والخوف من

الهلاك ، والأبصار تنظر من أىّ ناحية يعطَوْن كتبهـم ، و إلى أى ناحية يؤخذ بهم . وقيل : إن قلوب الشاكين تحول عما كانت عليه من الشك ، وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين ؛ وذلك مثل قوله تعالى : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »(١) ؛ فما كان يراه فى الدنيا غَيًّا يراه رُشْـدًا ؛ إلا أن ذلك لا ينفعهم فى الآخرة . وقيل : تقلّب على جمـر جهنم ؛ كقوله تعالى : « يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ »(٢) ، « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ »(٣) . فى قول من جعل المعنى تقلّبها على لهب النار . وقيل : تقلب بأن تلفحها النار مرة وتُنْضِجها مرة . وقيل إن تقلب القلوب وَجيبها(٤) ، وتقلّب الأبصار النظر بها إلى نواحى الأهوال . ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ فذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات و إن كان يجازى عليها لأمرين : أحدهما — أنه ترغيب ، فاقتصر على ذكر الرغبة . الثـانى — أنه فى صفـة قوم لا تكون منهم الكبائر ؛ فكانت صغائرهم مغفورة . ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — ما يضاعفه من الحسـنة بعشر أمثالها . الثـانى — ما يتفضل به من غير جزاء . ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَـيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى من غير أن يحاسبه على ما أعطاه ؛ إذ لا نهـاية لعطائه . وروى أنه لمـا نزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد قُبَاء ، فحضر عبـد الله بن رَوَاحة فقال : يا رسـول الله ، قد أفلح من بنى المساجد ؟ قال : " نعم يا بن رواحة " قال : وصلّى فيها قائمـا وقاعدا ؟ قال : " نعم يابن رواحة " قال : ولم يَبِت لله إلا ساجدا ؟ قال : "نعم يابن رواحة . كُفَّ عن السّجْع فما أعطى عبد شيئا شرا من طلاقة فى لسانه " ؛ ذكره المـاوَرْدِىّ .

قوله تعـالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

(١) آية ٢٢ سورة ق .　(٢) آية ٦٦ سورة الأحزاب .　(٣) آية ١١٠ سورة الأنعام .
(٤) وجب القلب وجيبا : اضطرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر . قال مقاتل : نزلت فى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، كان يترهّب متلمّسا للدّين، فلما خرج صلى الله عليه وسلم كفر . أبو سهل : فى أهل الكتاب . الضحاك : فى أعمال الخير للكافر، كصلة الرحم ونفع الجيران . والسراب : ما يُرَى نصف النهار فى اشتداد الحرّ، كالماء فى المفاوز يلتصق بالأرض . والآل الذى يكون ضُحًا كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء . وسُمِّيَ السَّراب سرابا لأنه يَسْرُب أى يجرى كالماء . و يقال : سَرَب الفحل أى مضى وسار فى الأرض . و يسمى الآلَ أيضا، ولا يكون إلا فى البرِّيّة والحر فيغترّ به العطشان . قال الشاعر :

فكنت كمُهْرِيق الذى فى سِقائه ✽ لِرَقراقِ آلٍ فوق رابيةٍ صَلْدِ

وقال آخـر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم ✽ كلَمْع سراب بالفــلا متألق

وقال امرؤ القيس :

ألم أُنْضِ المَطِيّ بكل خَرْقٍ ✽ أَمَقِّ(١) الطُّولِ لَمّاعِ السراب

والقيعة جمع القاع، مثل جيرة وجار، قاله الهَرَوِيّ وقال أبو عبيدة : قِيعةٌ وقاعٌ واحد، حكاه النحاس . والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب . وأصل القاع الموضعُ المنخفض الذى يستقر فيه الماء، وجمعه قِيعان . قال الجوهرى : والقاع المستوى من الأرض، والجمع أَقْوُع وأقواع وقِيعان، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ والقِيعة مثل القاع، وهو أيضا من الواو . و بعضهم يقول : هو جمع . ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ﴾ أى العطشان . ﴿ مَاءً ﴾ أى يحسَب السّراب ماء . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ مما قدّره ووجد أرضا لا ماء فيها . وهذا مَثَل ضربه الله تعالى للكفار، يُعَوِّلون على ثواب أعمالهم فإذا

(١) فى الأصول : « طويل الطول » والتصويب عن ديوان امرئ القيس . والأمق : الطويل . قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب (شارح الديوان) : وفى البيت ما يسأل عنه من طريق العربية ، وهو إضافة «أمق» الى «الطول» فيتوهم أنه من إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الأمق هو الطويل ؛ وليس على ما يتوهم ؛ إنما هو كما تقول : «بعيد البعد» .

قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر؛ أى لم يجدوا شيئا كما لم يجد صاحب السّراب إلا أرضا لا ماء فيها ؛ فهو يهلك أو يموت . ﴿ وَوَجَدَ اللّهَ عِنْدَهُ ﴾ أى وجد الله بالمرصاد . ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ أى جزاء عمله . قال آمرؤ القيس :

فَوَلَّى مُدْبِرًا يَهْوِى حَثِيثًا * وأيقن أنّه لاقَى الحِسابَا

وقيل : وَجَد وعْد الله بالجزاء على عمله . وقيل : وجد أمر الله عند حَشْره؛ والمعنى متقارب . وقرئ « بقِيعَات » . المهدوىّ : ويجـوز أن تكون الألف مُشْبَعة من فتحة العين . ويجوز أن تكون مثل رَجُل عِزْهٍ وعِزْهاة ، للذى لا يقرب النساء . ويجـوز أن يكون جمع قِيعة ، و يكون على هذا بالتـاء فى الوصل والوقف . وروى عن نافع وأبى جعفر وشيبة « الظمان » بغير همز ، والمشهور عنهما الهمز؛ يقال : ظمِئ يظمأ ظَمَأً فهو ظمآن ، و إن خففت الهمزة قلت الظمان . وقـوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا » ابتـداء « أَعْمَالُهُـمْ » ابتداء ثان . والكاف من « كَسَرَابٍ » الخبرُ، والجملة خبر عن « الذين » . ويجوز أن تكون « أعمالهم » بدلا من « الذين كفروا » ؛ أى وأعمال الذين كفروا كسراب ، فحذف المضاف .

قوله تعـالى : أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَـٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِـهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ ﴾ ضرب تعالى مثلا آخر للكفار، أى أعمالهم كسراب بقيعة أو كظلمات . قال الزجاج : إن شئت مثّل بالسّراب و إن شئت مثّل بالظلمات ؛ فـ« أوْ » للإباحة حسبما تقدم من القول فى « أَوْ كَصَيِّبٍ »[1] . وقال الجُرْجَانِى : الآية الأولى فى ذكر أعمال الكفار، والثانية فى ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضا من أعمالهم، وقد قال تعالى : « يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ »[2] ؛ أى من الكفر إلى

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

الإيمان . وقال أبو عليّ : « أوكظلمات » أوكذى ظلمات ؛ ودل على هذا المضاف قوله تعالى : « إذا أَخْرَجَ يَدَهُ » فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف . قال القشيرىّ : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجُرْجانى لكفر الكافر ، وعند أبى علىّ للكافر . وقال ابن عباس فى رواية : هـذا مَثَل قلب الكافر . ﴿ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ قيل : هو منسوب الى اللُّجّة ، وهو الذى لا يُدْرَك قعره . واللُّجة معظم الماء ، والجمع لجج . والْتَجّ البحر إذا تلاطمت أمواجه ؛ ومنه ما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من رَكِب البحر إذا ٱلتجّ فقد بَرِئت منه الذّمة " . والْتجّ الأمر إذا عَظُم وٱختلط . وقوله تعالى : « حَسِبَتْهُ لُجَّةً »[١] أى ما له عمق . و لَجَّجَتِ السفينة أى خاضت اللُّجة (بضم اللام) . فأما اللَّجَة (بفتح اللام) فأصوات الناس ؛ يقول : سمعت لَجَّةَ الناس؛ أى أصواتهم وصخبهم . قال أبو النَّجْم :

* فى لَجَّةٍ أَمْسِكْ فُلَاناً عن فُلِ *

والتجت الأصوات أى اختلطت وعظمت . ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ أى يعلو ذلك البحر اللُّجىّ موج . ﴿ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أى من فوق الموج موجٌ ، ومن فوق هـذا الموج الثانى سحاب ؛ فيجتمع خوفُ الموج وخوفُ الريح وخوفُ السحاب . وقيل : المعنى يغشاه موج من بعده موج ؛ فيكون المعنى : الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض ، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ، ومن فوق هـذا الموج سحاب . وهو أعظم للخوف من وجهين : أحدهما — أنه قد غَطّى النجوم التى يُهتدَى بها . الثانى — الريح التى تنشأ مع السحابِ والمطر الذى ينزل منه . ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن والبَزّى عن ابن كثير « سحابُ ظلماتٍ » بالإضافة والخفض . قُنْبُل « سحابٌ » منونا « ظلماتٍ » بالجر والتنوين . الباقون بالرفع والتنوين . قال المهدوىّ : من قرأ « مِنْ فوقه سحابُ ظلماتٍ » بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها ؛ كما يقال : سحابُ رحمةٍ ، إذا ارتفع فى وقت المطر . ومن قرأ « سحابٌ ظلماتٍ » جَرّ « ظلماتٍ » على التأكيد لـ«ظلماتٍ »

(١) آية ٤٤ سورة النمل .

الأولى أو البـدل منها . و « سحابٌ » ابتـداء و « من فوقه » الخبر . ومن قرأ « سحابُ ظلمـاتٍ » فظلمات خبر ابتداء محذوف ؛ التقـدير : هى ظلمات أو هـذه ظلمات . قال ابن الأنبارىّ : « من فوقه موج » غير تام ؛ لأن قوله « من فوقه سحاب » صلة للمَوْج ، والوقف على قوله « من فوقه سحاب » حَسَن ، ثم تبتـدئ « ظلمـاتٌ بعضها فوق بعض » على معنى هى ظلمات بعضها فوق بعض . وروى عن أهـل مكة أنهـم قرءوا « ظُلُماتٍ » على معنى أو كظُلُماتٍ ظُلَماتٍ بعضُها فوق بعض ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب . ثم قيـل : المراد بهـذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليـل وظلمة البحر ؛ فلا يُبصر من كان فى هـذه الظلمات شيئا ولا كَوْكبا . وقيل : المـراد بالظلمات الشدائد ؛ أى شدائد بعضها فوق بعض . وقيل : أراد بالظلمات أعمال الكافر ، و بالبحر اللُّجِّى قلبه ، و بالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحَيْرة ، و بالسحاب الرَّيْنُ والخَتْم والطبع على قلبه . روِى معناه عن ابن عباس وغيره ؛ أى لا يُبصر بقلبه نور الإيمـان ، كما أن صاحب الظلمات فى البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها . وقال أُبَىّ بن كعب : الكافر يتقلّب فى خمس من الظلمات : كلامه ظلمة ، وعمـله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصـيره يوم القيامة إلى الظلمات فى النار و بئس المصير . ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ ﴾ يعنى الناظر . ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أى من شـدّة الظلمات . قال الزجاج وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يكَد ؛ وهو معنى قول الحسن . ومعنى « لم يَكَدْ » لم يطمع أن يراها . وقال الفَـرّاء : كاد صـلة ، أى لم يرها ؛ كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرّد : يعنى لم يرها إلا من بعـد الجهد ؛ كما تقول : ما كدت أراك من الظلمة ، وقد رآه بعد يأس وشدّة . وقيل : معناه قَرُب من الرؤية ولم ير ؛ كما يقال : كاد العروس يكون أميرا ، وكاد النعام يطير ، وكاد المنتعل يكون راكبا . النحاس : وأصح الأقوال فى هـذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة . ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا ﴾ يهتدى به أظلمتْ عليه الأمور . وقال ابن عباس : أى من لم يجعل الله له دينا فما له من دين ، ومن لم يجعل الله له نورا يمشى به يوم القيامة لم يهتد

إلى الجنة، كقوله تعالى : « وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ »[1] . وقال الزجاج : ذلك فى الدنيا؛ والمعنى : من لم يهده الله لم يهتد . وقال مقاتل بن سليمان : نزلت فى عتبة بن ربيعة ، كان يلتمس الدِّين فى الجاهلية ، ولَبِس المُسُوح ، ثم كفر فى الإسلام . الماوَرْدِىّ : فى شيبة ابن ربيعة ، وكان يترهّب فى الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدِّين، فكفر فى الإسلام .

قلت : وكِلاهُمَا مات كافرا ، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالآية وغيرهما . وقد قيل : نزلت فى عبد الله بن جَحْش، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصّر بعد إسلامه . وذكر الثّعلبىّ : وقال أنس قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى خلقنى من نور وخلق أبا بكر من نورى وخلق عمر وعائشة من نور أبى بكر وخلق المؤمنين من أمتى من نور عمر وخلق المؤمنات من أمتى من نور عائشة فمن لم يحبنى ويحب أبا بكر وعمر وعائشة فما له من نور " . فنزلت « ومَنْ لم يجعلِ اللهُ له نورًا فما له مِن نُورٍ » .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ لما ذكر وضوح الآيات زاد فى الحجة والبيّنات ، وبيّن أن مصنوعاته تدلّ بتغييرها على أن لها صانعا قادرا على الكمال؛ فله بِعْثة الرسل ، وقد بعثهم وأيّدهم بالمعجزات ، وأخبروا بالجنة والنار . والخطاب فى « ألم تر » للنبىّ صلى الله عليه وسلم، ومعناه : ألم تعلم ؛ والمراد الكُلّ . ﴿ أنّ اللهَ يُسَبِّحُ له مَنْ فِى السموات ﴾ من الملائكة . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من الجن والإنس . ﴿ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ قال مجاهد وغيره : الصلاة للإنسان والتسبيح لما سواه من الخلق . وقال سفيان : للطير صلاةٌ ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إنّ ضربها بأجنحتها صلاة، وإن أصواتها

(١) آية ٢٨ سورة الحديد .

تسبيح؛ حكاه النقاش . وقيــل : التسبيح هاهنا ما يرى في المخلوق من أثر الصنعة . ومعنى « صافاتٍ » مصطفات الأجنحة في الهواء . وقرأ الجماعة « والطّيرُ » بالرفع عطفا على « مَنْ » . وقال الزجاج : ويجوز « والطيرَ » بمعنى مع الطير . قال النحاس : وسمعته يخبر «قمتُ وزيدًا» بمعنى مع زيد . قال : وهو أجود من الرفع . قال : فإن قلت قمت أنا وزيد ، كان الأجود الرفع ، ويجوز النصب . ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ يجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قــد علم الله صلاته وتسبيحه ؛ أي علم صلاة المصلِّي وتسبيحَ المسبِّح . ولهــذا قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَـا يَفْعَلُونَ ﴾ أي لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . ومن هذه الجهة يجوز نصب « كل » عند البصريين والكوفيين بإضمار فعل يفسّره ما بعده . وقد قيــل : المعنى قد علم كلُّ مُصَلٍّ ومسبّح صلاة نفسه وتسبيحه الذي كُلِّفه . وقرأ بعض الناس « كلٌّ قد عُلِم صلاتُه وتسبيحُه » غير مسمًّى الفاعل . وذكر بعض النحويين أن بعضهم قرأ « كلٌّ قد عَلَّم صلاتَه وتسبيحه » ؛ فيجوز أن يكون تقديره : كلٌّ قــد علّمه الله صــلاته وتسبيحه . ويجوز أن يكون المعنى : كلٌّ قد علّم غيرَه صلاته وتسبيحه ، أي صــلاة نفسه ؛ فيكون التعليم الذي هو الإفهام والمراد الخصوص ؛ لأن من الناس من لم يُعَلَّم . ويجوز أن يكون المعنى كلٌّ قد استدل منه المستدِلّ ، فعبّر عن الاستدلال بالتعليم ؛ قاله المهدوِيّ . والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكُرّر تأكيدا ؛ كقوله « يَعْلَمُ السِّرَّ والنَّجْوَى » . والصلاة قد تسمَّى تسبيحا ؛ قاله القُشَيْرِيّ . ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ تقدّم في غير موضع .

قوله تعــالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ ذكر من حججه شيئا آخر، أى ألم تر بعينى قلبك . « يُزْجِي سَحَاباً » أى يسوق إلى حيث يشاء . والريح تُزْجِي السحاب ، والبقرة تزجى ولدها أى تسوقه . ومنه زجا الخراجُ يزجو زَجاءً (ممدودا) إذا تيسَّرت جِبايته . وقال النابغة :

إنى أتيتك من أهلى ومن وطنى * أزجِى حُشاشة نفسٍ ما بها رَمَقُ

وقال أيضا: أسْرَتْ عليه من الجوزاء سارِيَةٌ * تُزْجِى الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى يجمعه عند انتشائه؛ ليقوَى ويتّصل ويَكْثُف . والأصل فى التأليف الهمز، تقول : تألف . وقرئ « يُوَلِّف » بالواو تخفيفا . والسحاب واحد فى اللفظ، ولكن معناه جمع؛ ولهذا قال : « يُنْشِىءُ السَّحاب » . و« بين » لا يقع إلا لاثنين فصاعدًا ، فكيف جاز بينه ؟ فالجواب أن « بينه » هنا لجماعة السحاب؛ كما تقول : الشجر قد جلستُ بينه لأنه جمع ، وذكّر الكناية على اللفظ؛ قال معناه الفراء . وجواب آخر — وهو أن يكون السحاب واحدا لجاز أن يقال بينه؛ لأنه مشتمل على قطع كثيرة، كما قال :

* ... ... بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ *

فأوقع « بين » على الدخول، وهو واحد لاشتماله على مواضع . وكما تقول : ما زلت أدور بين الكوفة؛ لأن الكوفة أماكن كثيرة؛ قاله الزجاج وغيره . وزعم الأصمعي أن هذا لا يجوز، وكان يروى :

* ... ... بين الدَّخُول وحَوْمَلِ *

﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أى مجتمعا، يركب بعضه بعضا؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ »(١) . والرَّكْمُ جمع الشيء؛ يقال منه : رَكَم الشيءَ يَرْكُمُه رَكْمًا إذا جمعه وألقى بعضه على بعض . وٱرتكم الشيءُ وتراكم إذا اجتمع . والرُّكْمة الطين المجموع . والرُّكَام : الرمل المتراكم . وكذلك السحاب وما أشبهه . ومُرْتَكَمُ الطريق (بفتح الكاف) جادّته . ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ فى « الوَدْق » قولان : أحدهما — أنه البرق؛ قاله أبو الأشهب العقيلي . ومنه قول الشاعر :

أثرنا عَجَاجةً وخرجن منها * خروج الوَدْق من خَلَل السحاب

(١) آية ٤٤ سورة الطور .

الثاني — أنه المطر؛ قاله الجمهور . ومنه قول الشاعر :

فلا مُزْنة ودَقَتْ ودْقَها * ولا أرضَ أبْقَلَ إبقالها

وقال امرؤ القيس :

فدمعهما وَدْقٌ وسَحٌّ ودِيمَةٌ * وسَكْبٌ وتَوْكافٌ وتَنْهَمِلانِ

يقال : ودَقَت السحابة فهي وادقة . وودَق المطر يَدِق ودْقًا ؛ أي قَطَر . ووَدَقْتُ إليه دنوت منه . وفي المثل : وَدَق العيْرُ إلى الماء ؛ أي دنا منه . يُضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه . والموضع مَوْدِق . ووَدَقْتُ [به] وَدْقًا استأنستُ به . ويقال لذات الحافر إذا أرادت الفحل : وَدَقَتْ تَدِق وَدْقًا ، وأوْدَقَتْ واستودَقَتْ . وأتان وَدُوق وفرس وَدُوق ، ووَدِيق أيضا ، وبها وِداق . والوَدِيقة : شدة الحَرّ . وخِلال جمع خَلَل ؛ مثلُ الجبل والجبال ، وهي فُرَجُه ومخارج القطر منه . وقد تقدم في « البقرة »(١) أن كعبا قال : إن السحاب غِرْبال المطر ؛ لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء لأفسد مايقع عليه من الأرض . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو العالية « من خلله » على التوحيد . وتقول : كنت في خلال القوم ؛ أي وسطهم . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ قيل : خلق الله في السماء جبالا من بَرَد ، فهو ينزِّل منها بَرَدًا ؛ وفيه إضمار ، أي ينزِّل من جبال البرد بَرَدًا ، فالمفعول محذوف . ونحو هذا قول الفراء ؛ لأن التقدير عنده : من جبال برد ؛ فالجبال عنده هي البرد . و « بَرَد » في موضع خفض ؛ ويجب أن يكون على قوله المعنى : من جبالٍ بردٍ فيها ؛ بتنوين جبال . وقيل : إن الله تعالى خلق في السماء جبالا فيها برد ؛ فيكون التقدير : وينزل من السماء من جبال فيها برد . و « مِن » صلة . وقيل : المعنى وينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال من بَرَد إلى الأرض ؛ فـ « مِن » الأولى للغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية للتبعيض لأن البَرَد بعض الجبال ، والثالثة لتبيين الجنس لأن جنس تلك الجبال من البَرَد . وقال الأخفش : إن « مِن » في الجبال و « بَرَد » زائدة في الموضعين ، والجبال والبرد في موضع نصب ؛ أي ينزل من السماء بَرَدا يكون كالجبال . والله أعلم . ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠١ طبعة ثانية .

فيكون إصابته نقمة، وصرفه نعمة . وقد مضى فى « البقرة »[١] . و« الرعد »[١] أن من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى مما يكون فى ذلك الرعد . ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أى ضوء ذلك البرق الذى فى السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ من شدّة بَريقه وضوئه . قال الشّمّاخ :

وما كادت إذا رفعَتْ سَناهَا ﴿ لِيُبْصِر ضوءها إلّا البَصيرُ

وقال امرؤ القيس :

يضيء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ ﴿ أهانَ السَّليط فى الذُّبال المُفَتَّلِ[٢]

فالسَّنا (مقصور) ضَوْء البرق . والسَّنا أيضا نبت يتداوَى به . والسَّناء من الرفعة ممدود . وكذلك قرأ طلحة بن مُصَرِّف « سناء » بالمد على المبالغة فى شدة الضوء والصّفاء؛ فأطلق عليه اسم الشرف . قال المبرّد : السَّنَا (مقصور) وهو اللمع؛ فإذا كان من الشّرف والحسب فهو ممدود، وأصلهما واحد وهو الالتماع . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « سَنَاءُ بُرَقِه » قال أحمد بن يحيى : وهو جمع بُرْقة . قال النحاس : البُرْقة المقدار من البَرْق، والبَرْقة المرّة الواحدة . وقرأ الجَحْدَرِيّ وابن القَعْقاع « يُذْهِب بالأبصار » بضم الياء وكسر الهاء؛ من الإذهاب ، وتكون الباء فى « بالأبصار » صلةً زائدة. الباقون «يَذْهَبُ بالأبصار» بفتح الياء والهاء، والباء للإلصاق. والبَرْق دليل على تكاثف السحاب، و بشير بقوّة المطر، ومحذّر من نزول الصواعق. ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ قيل : تقليبهما أن يأتى بأحدهما بعد الآخر. وقيل : تقليبهما نقصهما وزيادتهما. وقيل : هو تغيير النهار بظلمة السحاب مرّة وبضَوْء الشمس أخرى؛ وكذا الليل مرّة بظلمة السحاب ومرّة بضوء القمر؛ قاله النقاش . وقيل : تقليبهما باختلاف ما يقدّر فيهما من خير وشر ونفع وضرّ. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى الذى ذكرناه من تقلّب الليل والنهار، وأحوال المطر والصيف والشتاء ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى اعتبارا ﴿ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى لأهل البصائر من خَلْق .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٨ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٩ ص ٢٩٨

(٢) السليط : الزيت . والذبال : جمع ذبالة ، وهى الفتيلة .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ قرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى « وَاللهُ خَالِقُ كُلِّ » بالإضافة . الباقون « خلق » على الفعل . قيل : إن المعنيين فى القراءتين صحيحان . أخبر الله عز وجل بخبرين ، ولا ينبغى أن يقال فى هذا : إحدى القراءتين أصح من الأخرى . وقد قيل : إن « خلق » لشىء مخصوص ، وإنما يقال خالق على العموم ؛ كما قال الله عز وجل : « الخالق البارئ » . وفى الخصوص « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » وكذا « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » . فكذا يجب أن يكون « اللهُ خَلَقَ كلَّ دابّة من ماء » . والدّابة كل ما دَبَّ على وجه الأرض من الحيوان ؛ يقال : دَبَّ يَدِب فهو دابّ ؛ والهاء للمبالغة . وقد تقدم فى « البقرة »(١) . ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾ لم يدخل فى هذا الجنّ والملائكة ؛ لأنا لم نشاهدهم ، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء ، بل فى الصحيح "أن الملائكة خُلقوا من نور والجنّ من نار"(٢) . وقد تقدم . وقال المفسرون : « من ماء » أى من نُطفة . قال النقاش : أراد أَمْنِيَة الذكور . وقال جمهور النَّظَرة : أراد أن خلْقة كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين ؛ وعلى هذا يتخرج قول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشيخ الذى سأله فى غَزاة بدر : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نحن من ماء" . الحديث . وقال قوم : لا يستثنى الجن والملائكة ، بل كل حيوان خلق من الماء ؛ وخلق النار من الماء ، وخلق الريح من الماء ؛ إذ أوّل ما خلق الله تعالى من العالم الماء ، ثم خلق منه كل شىء .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٦ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٣ وما بعدها .

قلت : ويدل على صحة هذا قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بطنِهِ » المشىُ على البطن للحيّات والحُوت، ونحوه من الدود وغيره . وعلى الرِّجْلين للإنسان والطير إذا مشى . والأربع لسائر الحيوان . وفى مصحف أُبَىّ « ومنهم من يمشى على أكثر » ؛ فعمّ بهذه الزيادة جميع الحيوان كالسّرطان والخشَاش ؛ ولكنه قرآن لم يثبته إجماع ؛ لكن قال النقاش : إنما اكتفى فى القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهى قوام مشيه ، وكثرة الأرجل فى بعضه زيادة فى خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان فى مَشْيه إلى جميعها . قال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلا بل هى محتاج إليها فى تنقّل الحيوان ، وهى كلّها تُحرك فى تصرفه . وقال بعضهم : ليس فى الكتاب ما يمنع من المشى على أكثر من أربع ؛ إذ لم يقل ليس منها ما يمشى على أكثر من أربع . وقيل فيه إضمار : ومنهم من يمشى على أكثر من أربع؛ كما وقع فى مصحف أُبَىّ . والله أعلم . و« دَابّة » تشمل مَن يعقل ومالا يعقل؛ فغلّب من يعقل لما اجتمع مع من لا يعقل؛ لأنه المخاطب والمتعبَّد؛ ولذلك قال « فمنهم » . وقال « من يمشى » فأشار بالاختلاف إلى ثبوت الصانع ؛ أى لولا أن للجميع صانعا مختارا لما اختلفوا ، بل كانوا من جنس واحد ؛ وهو كقوله : « يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إنّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ »(1) .
﴿ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يريد خلقه ﴿ قَدِيرٌ ﴾ .
﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ تقدم بيانه فى غير موضع .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(1) آية ٤ سورة الرعد .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴾ يعنى المنافقين ، يقولون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص . ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ أى ويقولون، وكذبوا . ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال الطبرى وغيره : إن رجلا من المنافقين ٱسمه بشر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فى أرض ، فدعاه اليهودىّ إلى التحاكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المنافق مبطلا، فأبى من ذلك وقال : إن محمدا يَحيف علينا ؛ فلنُحَكِّم كعب بن الأشرف ؛ فنزلت الآية فيه . وقيل : نزلت فى المغيرة بن وائل من بنى أميـة ، كان بينه وبين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه خصومة فى ماء وأرض فٱمتنع المغيرة أن يحاكم عليًّا إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وقال : إنه يُبْغِضنى؛ فنزلت الآية، ذكره المـاوَرْدىّ . وقال : «لِيَحْكُمَ» ولم يقل ليحكما لأن المعنىّ به الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنمـا بدأ بذكر الله إعظاما لله واستفتاح كلام .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى طائعين منقادين؛ لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق . يقال : أذعن فلان لحكم فلان يُذعِن إذعانا . وقال النقاش : « مذعنين » خاضعين ، مجاهـد : مسرعين . الأخفش وٱبن الأعرابى : مُقِرّين . ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ شكّ وريْب . ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوا ﴾ أم حدث لهم شك فى نبوّته

وعدله . ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أى يجور فى الحكم والظلم . وأتى بلفظ الاستفهام لأنه أشدّ فى التوبيخ وأبلغ فى الذّم؛ كقول جَرير فى المدح :

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بُطُونَ راحِ

﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى المعاندون الكافرون؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى .

الثالثة — القضاء يكون للسلمين إذا كان الحكم بين المُعَاهَد والمسلم ولا حقّ لأهل الذّمة فيه . وإذا كان بين ذِمّيين فذلك إليهما . فإن جاءا قاضيَ الإسلام فإن شاء حكم وإن شاء أعرض؛ كما تقدم فى « المائدة » (1) .

الرابعة — هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعى إلى الحاكم لأن الله سبحانه ذمّ من دُعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم فقال : « أَفِى قُلُوبِهِم مرض » الآية . قال ابن خُوَيْزِ منداد : واجب على كل من دُعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق ، أو عداوة بين المدّعى والمدّعى عليه . وأسند الزهراوِىّ عن الحسن ابن أبى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يُجب فهو ظالم ولا حقّ له" . ذكره الماوَرْدىّ أيضا . قال ابن العربى : وهذا حديث باطل؛ فأما قوله "فهو ظالم" فكلام صحيح ، وأما قوله "فلا حقّ له" فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق .

قوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى الى كتاب الله وحكم رسوله . ﴿ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ قال ابن عباس : أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار ، وإن كان ذلك فيما يكرهون؛ أى هذا قولهم ، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا

(1) راجع ج ٦ ص ١٨٤

يقولون سمعنـا وأطعنا . فالقول نصب على خبر كان ، واسمها فى قوله « ان يقولوا » نحـو « وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاّ أنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا[1] ذُنُوبَنَا » . وقيل : إنمـا قولُ المؤمنين ، وكان صلة فى الكلام ؛ كقوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا[2] » . وقرأ ابن القعقاع « لِيُحْكَمَ بينهم » غير مسمّى الفاعل . علىّ بن أبى طالب « إنمـا كان قولُ » بالرفع .

قوله تعـالى : وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمر به وحكم . ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ قرأ حفص « وَيَتَّقْهِ » بإسكان القاف على نية الجزم ؛ قال الشاعر :

ومن يَتَّـقْ فإنّ الله معـه * ورِزْقُ الله مُؤْتابٌ وغادِى

وكسرها الباقون ، لأن جزمه بحذف آخره . وأسكن الهـاء أبو عمرو وأبو بكر . واختلس الكسرة يعقوب وقالُون عن نافع والبُسْتِيّ عن أبى عمرو وحفص . وأشبع كسرة الهاء الباقون . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ذكر أسـلم أن عمر بينما هو قائم فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسـلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ! قال : نعم ! إنى قرأت التوراة والزّبور والإنجيل وكثيرا من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيرا يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال قوله تعالى : «ومن يُطِعِ اللهَ» فى الفرائض «ورَسُولَه» فى السنن «وَيَخْشَ اللهَ» فيما مضى من عمره «وَيَتَّقْهِ» فيما بقى من عمره « فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » والفائز من نجا من النـار وأدخل الجنـة . فقال عمر : قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " أوتيتُ جوامع الكَلِم " .

(١) آية ١٤٧ سورة آل عمران . (٢) آية ٢٩ سورة مريم .

قوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ عاد إلى ذكر المنافقين، فإنه لما بيّن كراهتهم لحكم النبيّ صلى الله عليه وسلم أتوه فقالوا : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا؛ فنزلت هذه الآية . أى وأقسموا بالله أنهم يخرجون معك فى المستأنف ويطيعون . ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى طاقة ما قدروا أن يحلفوا . وقال مقاتل : من حلف بالله فقد أجهد فى اليمين . وقد مضى فى « الأنعام »[1] بيان هذا . و «جَهْدَ» منصوب على مذهب المصدر تقديره : إقساما بليغا . ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ وتم الكلام . ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أولى بكم من أيمانكم؛ أو ليكن منكم طاعة معروفة، وقول معروف بإخلاص القلب، ولا حاجة إلى اليمين . وقال مجاهد : المعنى قد عُرِفت طاعتكم وهى الكذب والتكذيب؛ أى المعروف منكم الكذب دون الإخلاص . ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل .

قوله تعالى : قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بإخلاص الطاعة وترك النفاق . ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى فإن تتولّوا، فحذف إحدى التاءين . ودلّ على هذا أن بعده «وعليكم» ولم يقل وعليهم . ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أى من تبليغ الرسالة . ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أى من الطاعة له؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ جعل الاهتداء مقرونا بطاعته . ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أى التبليغ ﴿الْمُبِينُ﴾ .

(١) راجع جـ ٧ ص ٦٢

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ﴾ (٥٥)

نزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ قاله مالك . وقيل : إن سبب هـذه الآية أن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم شكا جَهْد مكافحة العدوّ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ، وأنهم لا يضعون أسلحتهم ؛ فنزلت الآية . وقال أبو العالية : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفا هو وأصحابه، يدعون إلى الله سرًّا وجهرا، ثم أُمِر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون و يمسون فى السلاح . فقال رجل : يا رسول الله، أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : "لا تلبثون إلّا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة". ونزلت هذه الآية ، وأظهر الله نبيّه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . قال النحاس : فكان فى هذه الآية دلالة على نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله جل وعز أنجز ذلك الوعد . قال الضحاك فى كتاب النقاش : هـذه تتضمن خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ؛ لأنهم أهل الإيمان وعملوا الصالحات . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الخلافة بعدى ثلاثون". و إلى هذا القول ذهب ابن العربىّ فى أحكامه، وآختاره وقال: قال علماؤنا هذه الاية دليل على خلافة الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم، وأن الله استخلفهم ورضى أمانتهم، وكانوا على الدّين الذى آرتضى لهم، لأنهم لم يتقدّمهم أحد فى الفضيلة إلى يومنا هذا ، فآستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذَبُّوا عن حَوْزة الدِّين ؛ فنفذ الوعد فيهم ، و إذا لم يكن هذا الوعد لهم نجز ، وفيهم نَفَذ ، وعليهم وَرَدَ، ففيمن يكون إذاً ، وليس بعدهم مثلهم إلى يومنا هـذا، ولا يكون فيما بعده . رضى الله عنهم . وحكى هـذا القولَ القُشَيْرى عن

ابن عباس . واحتجُّوا بمـا رواه سَفِينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سَمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكا" . قال سفينة : أمسـك [عليكَ](١) خلافة أبى بكر سنتين ، وخلافة عمر عشرا ، وخلافة عثمان ثنى عشرة سنة ، وخلافة علىّ ستًّا . وقال قوم : هذا وعد لجميع الأمة فى ملك الأرض كلّها تحت كلمة الإسلام؛ كما قال عليـه الصلاة والسلام : "زُوِيَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلْك أمتى ما زُوِىَ لى منهـا" . واختار هـذا القول ابن عطية فى تفسيره حيث قال : والصحيح فى الآية أنها فى آستخلاف الجمهور، واستخلافهم هو أن يملّكهم البلاد ويجعلهم أهلها؛ كالذى جرى فى الشأم والعراق وخراسان والمغرب . قال ابن العربى : قلنا لهم هذا وعد عام فى النبوّة والخلافة و إقامـة الدعوة وعموم الشريعة ، فنفذ الوعد فى كل أحد بقدره وعلى حاله ؛ حتى فى المفتين والقضاة والأئمـة ، وليس للخلافة محل تنفذ فيـه الموعدة الكريمة إلا من تقدّم من الخلفاء . ثم ذكر اعتراضا وانفصالا معناه : فإن قيل هـذا الأمر لا يصـح إلا فى أبى بكر وحده ، فأما عمر وعثمان فقُتِلا غِيلَةً ، وعلىّ قد نُوزِع فى الخلافة . قلنا : ليس فى ضمن الأمن السلامةُ من الموت بأىّ وجه كان ، وأما علىّ فلم يكن نزاله فى الحرب مُذْهِبًا للأمن ، وليس من شرط الأمن رفع الحرب إنمـا شرطه مِلْك الإنسان لنفسه باختياره ، لا كما كان أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسـلم بمكة . ثم قال فى آخر كلامه : وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين ، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين ؛ فهذا نهاية الأمن والعز .

قلت : هذه الحـال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضى الله عنهم حتى يُخَصُّوا بها من عموم الآية ، بل شاركهم فى ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم . ألا ترى إلى إغزاء قريش المسلمين فى أُحُد وغيرها وخاصـة الخَنْدق ، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم فقال : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وِمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَـدِيدًا »(٢) . ثم إن الله ردّ الكافرين لم ينالوا خيرا ، وأمّن

(١) زيادة عن ابن العربى . والخطاب لسعيد بن جمدان راوى الحديث عن سفينة .
(٢) آية ١٠ وما بعدها سورة الأحزاب .

المؤمنين وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهو المراد بقوله : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » . وقوله « كَمَا ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يعنى بنى إسرائيـل ، إذ أهلك الله الجبابرة بمصر ، وأورثهم أرضهـم وديارهم فقال : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا »[1] . وهكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين، ثم إن الله تعـالى أمنهم ومكّنهم وملّكهم ، فصح أن الآية عامة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غير مخصوصة ؛ إذ التخصيص لايكون إلا بخبر ممن يجب [له] التسليم ، ومن الأصل المعلوم التمسكُ بالعموم . وجاء فى معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم لمـا قال أصحابه : أما يأتى علينا يوم نأمن فيــه ونضع السلاح ؟ فقال عليه السلام : "لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة" . وقال صلى الله عليه وسلم : "والله لَيُتِمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون" . خرّجه مسـلم فى صحيحه ؛ فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم . فالآية معجزة النبوة؛ لأنها إخبار عما سيكون فكان .

قوله تعـالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فيه قولان : أحدهما — يعنى أرض مكة ؛ لأن المهاجرين سألوا الله تعـالى ذلك فوُعِدوا كما وُعِدت بنو إسرائيـل؛ قال معناه النقاش . الثانى — بلاد العرب والعجم . قال ابن العربىّ : وهو الصحيح؛ لأن أرض مكة محرّمة على المهاجرين، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لكن البائسُ سعد بن خَوْلة" . يرثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ مات بمكة . وقال فى الصحيح أيضا : "يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسـكه ثلاثا" . واللام فى « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم » جـواب قَسَم مُضْـمَر؛ لأن الوعد قول، مجازها : قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات والله ليستخلفنّهم فى الأرض فيجعلهم ملوكها وسكانها . ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعنى بنى إسرائيل، أهلك الجبابرة بمصر والشأم وأورثهم أرضهم وديارهم . وقراءة العامة «كما اسْتَخْلَفَ» بفتح التاء واللام؛ لقوله «وَعَدَ» . وقوله « لَيَسْتَخْلِفَنّهم » . وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضّل عن عاصم « ٱستُخلِف » بضم

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

التاء وكسر اللام على الفعل المجهول . ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام؛ كما قال تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (١) وقد تقدّم . وروى سليم بن عامر عن المقداد ابن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مَدَر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل أمّا بعزهم فيجعلهم من أهلها وأما بذلهم فيدينون بها" . ذكره الماوردى حجة لمن قال : إن المراد بالأرض بلاد العرب والعجم؛ وهو القول الثانى ، على ما تقدم آنفا . ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ قرأ ابن مُحَيصن وابن كثير ويعقوب وأبو بكر بالتخفيف ؛ من أبدل، وهى قراءة الحسن ، وآختيار أبى حاتم . الباقون بالتشديد؛ من بدّل، وهى اختيار أبى عبيد؛ لأنها أكثرما فى القرآن، قال الله تعالى : «لا تَبْدِيلَ لكلماتِ الله» . وقال : « وإذَا بَدَّلْنَا آيَةً » ونحوه، وهما لغتان . قال النحاس : وحكى محمد بن الجَهْم عن الفرّاء قال : قرأ عاصم والأعمش « وليبدّلنّهم » مشددة، وهذا غلط على عاصم؛ وقد ذكر بعده غلطا أشدّ منه، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف . قال النحاس : وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيل والتخفيف فرقا ، وأنه يقال : بدّلته أى غيرته ، وأبدلته أزلته وجعلت غيره . قال النحاس : وهذا القول صحيح ؛ كما تقول : أبدِلْ لى هذا الدرهم ، أى أزله وأعطنى غيره . وتقول : قد بدّلت بعدنا ، أى غيّرت؛ غير أنه قد يستعمل أحدهما موضع الآخر؛ والذى ذكره أكثر . وقد مضى هذا فى «النساء» (٢) والحمد لله، وذكرنا فى سورة «إبراهيم» الدليلَ من السنة على أن بدل معناه إزالة العين؛ فتأمله هناك (٣) . وقرئ «عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا» (٤) مخففا ومثقلا . ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾ هو فى موضع الحال ؛ أى فى حال عبادتهم الله بالإخلاص . ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم . ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها — لا يعبدون إلهًا غيرى؛ حكاه النقاش . الثانى — لا يراءون بعبادتى أحدا . الثالث — لا يخافون غيرى ؛ قاله ابن عباس . الرابع — لا يحبّون غيرى ؛ قاله مجاهد . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أى بهذه النعم . والمراد كفران النعمة؛ لأنه قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ والكافر بالله فاسق بعد هذا الإنعام وقبله .

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٣ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٤ (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٨٢ (٤) آية ٣٢ سورة القلم.

قوله تعـالى : وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

تقدّم؛ فأعاد الأمر بالعبادة تأكيدا .

قوله تعـالى : لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

قوله تعـالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هـذا تسلية للنبيّ صلى الله عليـه وسلم ووعدٌ بالنصرة . وقراءة العامة « تَحْسَبَنَّ » بالتاء خطابا . وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو حَيْوة « يَحْسَبَنَّ » بالياء، بمعنى لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم معجزين الله فى الأرض؛ لأن الحُسْبان يتعـدّى إلى مفعولين . وهذا قول الزجاج . وقال الفراء وأبو علىّ : يجوز أن يكون الفعل للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى لا يحسبنّ محمد الذين كفروا معجزين فى الأرض . فـ « الذين» مفعول أوّل ، و « معجزين » مفعول ثان . وعلى القول الأوّل « الذين كفروا » فاعل « أنفسهم » مفعول أوّل، وهو محذوف مراد «معجزين» مفعول ثان. قال النحاس : وما علمت أحدا من أهل العربية بَصْرِيًّا ولا كوفيًّا إلا وهو يخطِّئ قراءة حمزة؛ فمنهم من يقول : هى لحن؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد ليحسبنّ . وممن قال هـذا أبو حاتم . وقال الفراء : هو ضعيف؛ وأجازه على ضعفه، على أنه يحـذف المفعول الأوّل ، وقـد بيناه . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول فى هـذه القراءة : يكون « الذين كفروا » فى موضـع نصب . قال : ويكون المعنى ولا يحسبنّ الكافر الذين كفروا معجزين فى الأرض .

قلت : وهـذا موافق لمـا قاله الفراء وأبو علىّ ؛ لأن الفاعل هناك النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى هـذا القول الكافر . و « معجزين » معناه فائتين . وقد تقـدّم[(١)] . ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ اى المرجع .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٨

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

فيـه سبع مسائل :

الأولى — قال العلماء . هـذه الآية خاصّة والتى قبلها عامة؛ لأنه قال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُـوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » ثم خصّ هنـا فقال : « لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ » فخصّ فى هـذه الآية بعض المستأذنين، وكذلك أيضا يتاول القول فى الأولى فى جميع الأوقات عموما . وخص فى هـذه الآية بعض الأوقات ، فلا يدخل فيها عبد ولا أَمَة؛ وَغْدا كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان . قال مقاتل : نزلت فى أسماء بنت مَرْثَد، دخل عليها غلام لها كبير، فآشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت عليه الآية . وقيل : سبب نزولها دخول مُدْلج على عمر؛ وسيأتى .

الثانيـة — اختلف العلماء فى المراد بقوله تعالى « لِيستأذِنْكم » على ستة أقوال :

الأول — أنها منسوخة، قاله ابن المسيّب وابن جبير .

الثـانى — أنها ندب غير واجبة؛ قاله أبو قِلَابة، قال : إنما أمروا بهذا نظرا لهم .

الثالث — عنى بها النساء؛ قاله أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ . وقال ابن عمر : هى فى الرجال دون النساء . وهو القول الرابع .

الخامس — كان ذلك واجبـا، إذ كانوا لاغَلَق لهم ولا أبواب، ولو عاد الحـال لعاد الوجوب؛ حكاه المهدوِىّ عن ابن عباس .

السادس — أنها محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء؛ وهو قول أكثر أهل العلم؛ منهم القاسم وجابر بن زيد والشَّعْبِيّ . وأضعفها قول السُّلَمِيّ لأن «الذين» لا يكون للنساء فى كلام العرب، إنما يكون للنساء « اللاتِى واللواتِى » . وقول ابن عمر يستحسنه أهل النظر، لأن « الذين » للرجال فى كلام العرب ، و إن كان يجوز أن يدخل معهم النساء فإنما يقع ذلك بدليل، والكلام على ظاهره ، غير أن فى إسناده لَيْث بن أبى سليم (١) . وأما قول ابن عباس فروى أبو داود عن عبيد الله بن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول : آية لم يؤمر بها أكثر الناس آيةُ الاستئذان وإنى لآمر جاريتى هذه تستأذن علىّ . قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس «يأمر به» . وروى عكرمة أن نفرا من أهل العراق قالوا : يابن عباس، كيف ترى فى هذه الآية التى أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها [أحد (٢)]، قول الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا لِيستأذِنْكم الذين مَلَكَتْ أيمانُكم والذين لم يَبْلُغُوا الحُلُمَ منكم ثلاثَ مَرّاتٍ من قبل صلاة الفجر وحين تَضَعُون ثيابَكم من الظَّهِيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاثُ عَوْراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم » . قال أبو داود : قرأ القَعْنَبِيّ إلى « عليمٌ حكيمٌ » قال ابن عباس : إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحبّ السّتر، وكان الناس ليس لبيوتهم سُتُور ولا حِجال (٣) ، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل والرجلُ على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان فى تلك العورات ، فجاءهم الله بالستور والخير ، فلم أر أحدا يعمل بذلك [بعد (٢)] .

قلت : هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد وابن جبير؛ فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت ، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت فى كثير من مساكن المسلمين فى البوادى والصحارى ونحوها . وروى

---

(١) فى تهذيب التهذيب : «قال ابن حبان اختلط فى آخر عمره، فكان يقلب الأسانيد و يرفع المراسيل، و يأتى عن الثقات بما ليس من حديثهم . وقال البزار : كان أحد العباد، إلا أنه أصابه اختلاط فاضطرب حديثه... الخ » .

(٢) زيادة عن سنن أبى داود . (٣) الحجال : جمع الحجلة (بالتحريك) وهو بيت كالقبة يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار .

وَكيع عن سفيان عن موسى بن أبى عائشة عن الشعبى « يأيها الذين آمنوا لِيستأذنْكُم الذين ملكت أيمانكم » قال : ليست بمنسوخة . قلت : إن الناس لا يعملون بها ؛ قال : الله عز وجل المستعان .

الثالثة — قال بعض أهل العلم : إن الاستئذان ثلاثا مأخوذ من قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لِيَستأذِنْكم الذين مَلَكَتْ أيمانُكم والذين لم يَبْلُغوا الحُلُمَ منكم ثلاثَ مرّات» قال يزيد: ثلاث دفعات . قال : فورد القرآن فى المماليك والصبيان ، وسنّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجميع . قال ابن عبد البر : ما قاله من هذا و إن كان له وجه فإنه غير معروف عن العلماء فى تفسير الآية التى نزع بها ، والذى عليه جمهورهم فى قوله « ثلاثَ مرّات » أى فى ثلاث أوقات . و يدلّ على صحة هذا القول ذِكْرُه فيها « من قبل صلاة الفَجْر وحين تَضَعُون ثيابَكم من الظَّهِيرة ومن بعد صلاة العشاء » .

الرابعة — أدّب الله عز وجل عباده فى هذه الآية بأن يكون العبيد إذ لا بال لهم ، والأطفالُ الذين لم يبلغوا الحُلُم إلا أنهم عَقَلُوا معانى الكَشْفة ونحوها ، يستأذنون على أهليهم فى هذه الأوقات الثلاثة ، وهى الأوقات التى تقتضى عادة الناس الانكشافَ فيها وملازمةَ التعرِّى . فما قبل الفجر وقتُ انتهاء النوم و وقت الخروج من ثياب النوم ولبس ثياب النهار . ووقتُ القائلة وقت التجرّد أيضا وهى الظهيرة ، لأن النهار يظهر فيها إذا علا شعاعه وآشتد حرّه . و بعد صلاة العشاء وقت التّعَرِّى للنوم ؛ فالتكشف غالب فى هذه الأوقات . يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الأنصار يقال له مُدْلِج إلى عمر بن الخطاب ظَهِيرةً ليدعوه ، فوجده نائما قد أغلق عليه الباب ، فدقّ عليه الغلام الباب فناداه ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فآنكشف منه شىء ، فقال عمر : وَدِدت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعات إلا بإذن ؛ ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد أنزلت ، فخر ساجدا شكرا لله . وهى مكية .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ أى الذين لم يحتلموا من أحراركم ؛ قاله مجاهد . وذكر إسماعيل بن إسحاق كان(١) يقول : ليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم مما ملكت أيمانكم ؛ على التقديم والتأخير ، وأن الآية فى الإماء . وقرأ الجمهور بضم اللام ، وسكّنها الحسن بن أبى الحسن لثقل الضمة . وكان أبو عمرو يستحسنها . و «ثلاثَ مرّات» نصب على الظرف ؛ لأنهم لم يؤمروا بالاستئذان ثلاثا ، إنما أمروا بالاستئذان فى ثلاثة مواطن ، والظرفية فى « ثلاث » بيّنة : مِن قبل صلاة الفجر ، وحين تَضَعُون ثيابكم من الظّهِيرة ، ومن بعد صلاة العشاء . وقد مضى معناه . ولا يجب أن يستأذن ثلاث مرات فى كل وقت . ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ قرأ جمهور السبعة « ثلاثُ عَوْراتٍ » برفع « ثلاث » . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم «ثلاثَ» بالنصب على البدل من الظرف فى قوله «ثلاثَ مرات » . قال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود . وقال الفرّاء : الرفع أحب إلىّ . قال : وإنما آخترت الرفع لأن المعنى : هذه الخصال ثلاثُ عورات . والرفع عند الكسائى بالابتداء ، والخبر عنده ما بعده ، ولم يقل بالعائد ، وقال نصًّا بالابتداء . قال : والعَوْرات الساعاتُ التى تكون فيها العَوْرة ؛ إلا أنه قرأ بالنصب ، والنصب فيه قولان : أحدهما — أنه مردود على قوله «ثلاثَ مرّات» ؛ ولهذا استبعده الفراء . وقال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات ؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . و « عَوْرات » جمع عَوْرة ، وبابه فى الصحيح أن يجىء على فعلات (بفتح العين) كجَفَنة وجَفَنات ، ونحو ذلك . وسكّنوا العين فى المُعْتَلّ كبَيْضة وبَيْضات ؛ لأن فتحه داع إلى اعتلاله فلم يفتح لذلك ؛ فأما قول الشاعر :

أبو بَيَضاتٍ رائحٌ مُتَأَوِّبٌ * رَفِيقٌ بمسح المَنْكِبَيْن سَبُوحُ(٢)

[فشاذّ] .

---

(١) كذا فى نسخ الأصل ، وظاهر أن فى العبارة سقطا .

(٢) كذا فى اللسان مادة « بيض » . والذى فى نسخ الأصل :

أبو بيضات رائح أو مُغْتَد * عجلان ذا زاد وغير مزوّد

وهذا البيت للنابغة الذبيانى ، وصواب إنشاده : أمن آل ميّة رائح أو مُغْتَد * ... ... الخ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى فى الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبذّلين . ﴿ طَوَّافُونَ ﴾ بمعنى هم طوافون . قال الفراء : كقولك فى الكلام إنما هم خدمكم وطوافون عليكم . وأجاز الفراء نصب « طوافين » لأنه نكرة، والمضمر فى « عليكم » معرفة . ولا يجيز البصريون أن يكون حالا من المضمرَيْن اللذَيْن فى « عليكم » وفى « بعضكم » لآختلاف العاملين . ولا يجوز مررت بزيد ونزلت على عمرو العاقلَيْن، على النعت لهما . فمعنى « طَوّافون عليكم » أى يطوفون عليكم وتطوفون عليهم؛ ومنه الحديث فى الهرّة "إنما هى من الطوّافين عليكم أو الطوّافات"(١). فمنع فى الثلاث العورات من دخولهم علينا؛ لأن حقيقة العَوْرة كل شيء لامانع دونه، ومنه قوله « إنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى سهلة للمَدْخَل، فبيّن العلة الموجبة للإذن، وهى الخلوة فى حال العورة؛ فتعين آمتثاله وتعذر نسخه . ثم رفع الجُنَاح بقوله « لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ » أى يطوف بعضكم على بعض . ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى يبيّن الله لكم آياته الدالة على متعبّداته بياناً مثل مايبيّن لكم هذه الأشياء . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم(٢) .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ يريد العَتَمة . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تَغْلِبَنّكم الأعراب على آسم صلاتكم ألَا إنّها العِشاء وهُمْ يعتِمون بالإبل". وفى رواية "فإنها فى كتاب الله العِشاءُ وإنها تُعْتِم بحِلاب الإبل" . وفى البخارى عن أبى بَرْزة : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يؤخّر العشاء . وقال أنس : أخّر النبيّ صلى الله عليه وسلم العشاء . وهذا يدل على العشاء الأولى . وفى الصحيح : فصلّاها، يعنى العصر بين العشاءين المغرب والعشاء . وفى الموطّأ وغيره : ولو يعلمون ما فى العَتَمة والصبح لأ تَوْهما ولو حَبْواً . وفى مسلم عن جابر

---

(١) قوله « أو الطوافات » يحتمل أن يكون على معنى الشك من الراوى . ويحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، يريد أن هذا الحيوان لا يخلو أن يكون من جملة الذكور الطوافين أو الإناث الطوافات (عن الباجى) .

(٢) راجع ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

ٱبن سَمُرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الصلوات نحوًا من صلاتكم، وكان يؤخّر العَتَمة بعد صلاتكم شيئا، وكان يُخفّ الصلاة . قال القاضي أبو بكر بن العربي : وهذه أخبار متعارضة ، لا يُعلم منها الأول من الآخر بالتاريخ ، ونهيه عليه السلام عن تسمية المغرب عشاء وعن تسمية العشاء عَتَمة ثابت، فلا مردّ له من أقوال الصحابة فضلًا عمن عداهم . وقد كان ٱبن عمر يقول : من قال صلاة العتمة فقــد أثم . وقال ٱبن القاسم قال مالك : « وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ » فالله سماها صلاة العشاء فأحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن تسمّى بمـا سمّاها الله تعالى به ، و يعلّمها الإنسان أهله وولده، ولا يقال عَتَمة إلا عند خطاب من لا يفهم . وقد قال حسان :

وكانت لا يزال بهـا أنيس * خلالَ مُروجِها نَعَمٌ وَشـــاءُ
فدَعْ هذا ولكن مَنْ لِطَيْفٍ * يؤرّقني إذا ذهب العشـــاء

وقد قيل : إن هذا النهى عن ٱتباع الأعراب فى تسميتهم العشاء عَتَمة، إنمـا كان لئلا يُعدل بها عما سمّـاها الله تعالى فى كتابه إذ قال : « ومن بعــد صلاة العشاء » ؛ فكأنه نَهْيُ إرشاد إلى ما هو الأَوْلى ، وليس على جهــة التحريم ، ولا على أن تسميتها العتمة لا يجوز . ألا ترى أنه قد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وســلم قد أطلق عليها ذلك ، وقد أباح تسميتها بذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . وقيل : إنمـا نهى عن ذلك تنزيها لهذه العبادة الشريفة الدّينية عن أن يطلق عليها ما هو ٱسم لفعلة دُنْيَوِيّة ، وهى الحَـلْبة التى كانوا يحلبونها فى ذلك الوقت ويسمونها العتمة؛ ويشهد لهذا قوله : " فإنها تُعْتِم بحلاب الإبل " .

الثامنـــة[1] ـــ روى ابن ماجه فى سننه حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا إسماعيل بن عيّاش عن عُمارة بن غَزِيّة عن أنس بن مالك عن عمر بن الخطاب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " من صَــلّى فى جماعة أربعين ليلة لا تفــوته الركعة الأولى من صلاة العشاء كتب الله له بها عِتْقًا من النار ". و فى صحيح مسلم عن عثمان بن عفان قال قال رسول الله صلى

(١) تقدّم أن المسائل سبع .

الله عليه وسلم : " من صلّى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصفَ الليل ومن صلّى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليلَ كلّه ". وروى الدّارَقُطْنِيّ فى سننه عن سُبيع أو تُبَيْع عن كعب قال : من توضأ فأحسن الوضوء وصلى العشاء الآخرة وصلّى بعدها أربع ركعات فأتمّ ركوعهن وسجودهن ويعلم ما يقترئ(١) فيهن كن له بمنزلة ليلة القدر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٩)

قرأ الحسن « الحُلْم » فحذف الضمة لثقلها . والمعنى : أن الأطفال أمروا بالاستئذان فى الأوقات الثلاثة المذكورة؛ وأبيح لهم الأمر فى غير ذلك كما ذكرنا . ثم أمر تعالى فى هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحلم على حكم الرجال فى الاستئذان فى كل وقت . وهذا بيان من الله عز وجل لأحكامه وإيضاح حلاله وحرامه، وقال « فَلْيَسْتَأْذِنُوا » ولم يقل فليستأذنوكم . وقال فى الأولى « لِيَسْتَأْذِنْكُم » لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متعبّدين . وقال ابن جُرَيج : قلت لعطاء « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » قال : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا، أحرارا كانوا أو عبيدا . وقال أبو إسحاق الفَزَارِيّ : قلت للأوزاعيّ ما حدّ الطفل الذى يستأذن ؟ قال : أربع سنين، قال : لا يدخل على امرأة حتى يستأذن . وقال الزهرىّ : أى يستأذن الرجل على أمه؛ وفى هذا المعنى نزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٦٠)

(١) يقترئ بمعنى يقرأ .

فيــه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ القواعد واحدتها قاعد، بلا هاء، ليدلّ حذفها على أنه قعود الكِبَر، كما قالوا : آمرأة حامل، ليدلّ بحذف الهاء أنه حمل حَبَل . قال الشاعر :

فلو أنّ ما فى بطنــه بين نِســوَةٍ ＊ حَبِلْن و إن كنّ القــواعد عُقرَا

وقالوا فى غير ذلك : قاعدة فى بيتها، وحاملة على ظهرها، بالهــاء . والقواعد أيضا : إساس البيت، واحده قاعدة، بالهاء .

الثانيــة ــ القواعد : العُجّز اللواتى قعدن عن التصرف من السنّ، وقعدن عن الولد والمَحِيض، هــذا قول أكثر العلماء . قال ربيعة : هى التى إذا رأيتها تستقذرها من كِبَرها . وقال أبو عبيدة : اللاتى قعــدن عن الولد، وليس ذلك بمستقيم، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتَع، قاله المهدوِىّ .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ إنمــا خص القواعد بذلك لآنصراف الأنفس عنهن، إذ لا مذهب للرجال فيهن، فأبيح لهن ما لم يبح لغيرهن، وأزيل عنهن كُلْفة التحفظ المتعب لهن .

الرابعــة ــ قــرأ آبن مسعود وأُبَىّ وآبن عبــاس « أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيــابِهن » بزيادة « من » . قال آبن عباس : وهو الجِلْباب . وروى عن آبن مسعود أيضا «من جلابيبهن» . والعرب تقول : امرأة واضع، للتى كَبِرت فوضعت خِمارها . وقال قوم : الكبيرة التى أيِست من النكاح، لو بدا شعرها فلا بأس، فعلى هذا يجوز لهــا وضع الخمار . والصحيح أنها كالشابة فى التستّر، إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذى يكون فوق الدِّرع والخِمــار، قاله ابن مسعود وابن جُبير وغيرهما .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أى غير مظهرات ولا متعرضات بالزينــة لِيُنْظر إليهن، فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق . والتبرّج : التكشّف والظهور للعيون، ومنه : بروج مشيّدة، و بروج السماء والأسوار، أى لا حائل دونها يسترها .

وقيل لعائشة رضى الله عنها: يا أم المؤمنين، ما تقولين فى الخضاب والصِّباغ والتمائم والقُرْطين والخَلْخال وخاتم الذهب ورقاق الثياب؟ فقالت: يا معشر النساء، قصتكنّ قصةُ امرأة واحدة، أحلّ الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروْا منكن مُحَرَّما. وقال عطاء: هذا فى بيوتهن، فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب. وعلى هذا «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ» غير خارجات من بيوتهن. وعلى هذا يلزم أن يقال: إذا كانت فى بيتها فلا بد لها من جلباب فوق الدِّرع، وهذا بعيد، إلا إذا دخل عليها أجنبى. ثم ذكر تعالى أنّ تحفّظ الجميع منهن، واستعفافَهنّ عن وضع الثياب والتزامَهنّ ما يلزم الشباب أفضل لهن وخير. وقرأ ابن مسعود « وأن يتعففن» بغير سين. ثم قيل: من التبرج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يصفانها. روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صِنفان من أهل النار لم أرهما قومٌ معهم سِيَاط كأذناب البَقَر يضربون بها الناس ونساءٌ كاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مائلات رءوسهن كأَسْنِمة البُخْتِ المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن رِيحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا". قال ابن العربى: وإنما جعلهنّ كاسيات لأن الثياب عليهنّ، وإنما وصفهنّ بأنهنّ عاريات لأن الثوب إذا رَقَّ يصفهنّ، ويبدى محاسنهنّ؛ وذلك حرام.

قلت: هذا أحد التأويلين للعلماء فى هذا المعنى. والثانى — أنهنّ كاسيات من الثياب عارِياتٌ من لباس التقْوَى الذى قال الله تعالى فيه: «ولِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ»[1]. وأنشدوا:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التُّقَى * تقلّب عُرْيَانًا وإن كان كاسِيا
وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربِّه * ولا خيرَ فيمن كان لِلّه عاصِيا

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينا أنا نائم رأيت الناس يُعْرَضون علىّ[2] وعليهم قُمُص منها ما يبلغ الثُّدِىَّ ومنها ما دون ذلك ومَرّ عمر ابن الخطاب وعليه قميص يجرّه" قالوا: ماذا أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: "الدِّين". فتأويله صلى الله عليه وسلم القميص بالدِّين مأخوذ من قوله تعالى: «ولِبَاسُ التَّقْوَى ذلك خير». والعرب تكنى عن الفضل والعفاف بالثياب؛ كما قال شاعرهم:

(١) آية ٢٦ سورة الأعراف. (٢) الذى فى صحيح مسلم: «يعرضون وعليهم ...».

* ثياب بنى عَوْف طَهارَى نَقِيّة (١) *

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعثمان : " إن الله سيُلْبِسك قميصا فإن أرادوك أن تخلعه فلا تخلعه " . فعبّر عن الخلافة بالقميص، وهى استعارة حسنة معروفة .

قلت : هذا التأويل أصح التأويلين، وهو اللائق بهنّ فى هذه الأزمان، وخاصّةً الشباب؛ فإنهنّ يتزيّن ويخرجن متبرّجات؛ فهن كاسيات بالثياب عاريات من التّقْوَى حقيقة، ظاهرا وباطنا، حيث تُبْدِى زينتها، ولا تبالى بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودهنّ، وذلك مشاهد فى الوجود منهنّ، فلو كان عندهنّ شيء من التقوى لما فعلن ذلك، ولم يعلم أحد ما هنالك. ومما يقوى هذا التأويل ما ذُكر من وصفهنّ فى بقيّة الحديث فى قوله : " رءوسهنّ كأسنمة البُخْت " . والبُخْت ضرب من الإبل عظام الأجسام، عظام الأسنمة؛ شبه رءوسهنّ بها لما رفعن من ضفائر شعورهنّ على أوساط رءوسهنّ . وهذا مشاهد معلوم، والناظر إليهنّ ملوم . قال صلى الله عليه وسلم : "ماتركتُ بعدى فتنةً أضرّ على الرجال من النساء" . خرّجه البخارى .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

(١) هذا صدر بيت لأمرئ القيس، وعجزه كما فى ديوانه :
* وأوجههم عند المشاهد غرّان *

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية على أقوال ثمانية . أقربها — هل هى منسوخة أو ناسخة أو مُحْكَمَة؛ فهذه ثلاثة أقوال :

الأول — أنها منسوخة من قوله تعالى : «وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخر الآية؛ قاله عبد الرحمن آبن زيد ، قال : هذا شىء قد آنقطع ، كانوا فى أوّل الإسلام ليس على أبوابهم أغلاق ، وكانت الستور مرخاة ، فربما جاء الرجل فدخل البيت وهو جائع وليس فيه أحد ؛ فسوّغ الله عز وجل أن يأكل منه ، ثم صارت الأغلاق على البيوت فلا يحلّ لأحد أن يفتحها ، فذهب هذا وآنقطع . قال صلى الله عليه وسلم : "لا يَحْتَلِبَنّ أحدٌ ماشيةَ أحدٍ إلا بإذنه ..." الحديث . خرّجه الأئمة .

الثانى — أنها ناسخة ؛ قاله جماعة . روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لما أنزل الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » قال المسلمون : إن الله عز وجل قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، وأن الطعام من أفضل الأموال ، فلا يحلّ لأحد منّا أن يأكل عند أحد ، فكفّ الناس عن ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل «ليس على الأعمى حرج — إلى — أو ما مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَه » . قال : هو الرجل يوكّل الرجل بضيعته .

قلت : علىّ بن أبى طلحة هذا هو مولى بنى هاشم سكن الشام ، يُكْنَى أبا الحسن ويقال أبا محمد ، واسم أبيه أبى طلحة سالمٌ ، تُكلِّم فى تفسيره ؛ فقيل : إنه لم يرَ آبن عباس ، والله أعلم .

الثالث — أنها محكمة ؛ قاله جماعة من أهل العلم ممن يُقْتَدَى بقولهم ؛ منهم سعيد بن المسيِّب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وروى الزُّهْرِىّ عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان المسلمون يُوعِبُون فى النَّفِير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضَمْناهم ويقولون : إن احتجتم فكُلُوا ؛ فكانوا يقولون إنما أحلّوه لنا عن غير طِيب نَفْس ؛ فأنزل الله عز وجل « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم » إلى آخر الآية . قال النحاس : « يوعِبون » أى يخرجون بأجمعهم فى المغازى ؛

يقال : أوْعَب بنو فلان لبني فلان إذا جاءوهم بأجمعهم . وقال ابن السِّكِّيت : يقال أوْعب بنو فلان جلاءً ؛ فلم يبق ببلدهم منهم أحد . وجاء الفرسُ بِرَكْضٍ وَعِيب ؛ أى بأقصى ماعنده . وفى الحديث : "فى الأنف إذا آستوعب جَدْعُه الدِّيَةُ" إذا لم يترك منه شىء . واستيعاب الشىء استئصاله . ويقال : بَيْتٌ وَعِيبٌ إذا كان واسعا يَسْتَوْعِب كلّ ما جُعل فيه . والضَّمْنَى هم الزَّمْنَى ، واحدهم ضَمِن مثل زَمِن . قال النحاس : وهذا القول من أجلّ ما روى فى الآية ؛ لما فيه عن الصحابة والتابعين من التوفيق أن الآية نزلت فى شىء بعينه . قال ابن العربى : وهذا كلام منتظم لأجل تخلّفهم عنهم فى الجهاد وبقاء أموالهم بأيديهم ، لكن قوله «أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ» قد اقتضاه ؛ فكان هذا القول بعيدا جدا . لكن المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به من المشى ، وما يتعذّر من الأفعال مع وجود العَرَج ، وعن المريض فيما يؤثّر المرض فى إسقاطه ؛ كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك . ثم قال بعد ذلك مبيّنا : وليس عليكم حرج فى أن تأكلوا من بيوتكم . فهذا معنى صحيح ، وتفسير بيّن مفيد ، يَعْضُده الشرع والعقل ، ولا يحتاج فى تفسير الآية إلى نقل .

قلت : وإلى هذا أشار آبن عطية فقال : فظاهر الآية وأمرُ الشريعة يدلّ على أن الحرج عنهم مرفوع فى كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضى نيتهم فيه الإتيان بالأكمل ، ويقتضى العذر أن يقع منهم الأنقص ؛ فالحرج مرفوع عنهم فى هذا . فأما ما قال الناس فى هذا الحرج هنا وهى :

الثانيـــة ـــ فقال آبن زيد : هو الحرج فى الغزو ؛ أى لا حرج عليهم فى تأخرهم . وقوله تعالى : « وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » الآية ـ معنًى مقطوع من الأوّل . وقالت فرقة : الآية كلّها فى معنى المطاعم . قالت : وكانت العرب ومَن بالمدينة قبل المَبْعث تتجنّب الأكل مع أهل الأعذار ؛ فبعضهم كان يفعل ذلك تَقَذُّرًا لجَوَلان اليد من الأعمى ، ولانبساط الجلسة من الأعرج ، ولرائحة المريض وعلّاته ؛ وهى أخلاق جاهليــة وكبر ، فنزلت الآية مؤذنة .

وبعضهــم كان يفعل ذلك تحرجا من غير أهل الأعذار ، إذ هم مقصرون عن درجة الأصحاء فى الأكل ، لعدم الرؤية فى الأعمى ، وللعجز عن المزاحمة فى الأعرج ، ولضعف المريض؛ فنزلت الآية فى إباحة الأكل معهم. وقال آبن عباس فى كتاب الزّهْرَاوِىّ : إن أهل الأعذار تحرجوا فى الأكل مع الناس من أجل عذرهم ؛ فنزلت الآية مبيحة لهم . وقيل : كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئا ذهب به إلى بيوت قرابته؛ فتحرج أهل الأعذار من ذلك ؛ فنزلت الآية .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ هذا ابتداء كلام ؛ أى ولا عليكم أيها الناس . ولكن لما اجتمع المخاطَب وغير المخاطب غلّب المخاطب لينتظم الكلام . وذكر بيوت القرابات وسقط منها بيوتُ الأبناء ؛ فقال المفسرون : ذلك لأنها داخلة فى قوله « فى بيــوتكم » لأن بيت ابن الرجل بيتُه ؛ وفى الخبر " أنت ومالك لأبيك " . ولأنه ذكر الأقرباء بعدُ ولم يذكر الأولاد . قال النحاس : وعارض بعضهم هــذا القول فقال : هــذا تحكّم على كتاب الله تعالى ؛ بل الأولى فى الظاهر ألا يكون الآبن مخالفا لهؤلاء ، وليس الاحتجاج بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " أنت ومالك لأبيك " بقوِىّ لوَهْى هذا الحديث ، وأنه لو صح لم تكن فيه حجة ؛ إذ قد يكون النبىّ صلى الله عليه وسلم علم أن مال ذلك المخاطب لأبيه . وقــد قيل إن[1] المعنى : أنت لأبيك ، ومالك مبتدأ ؛ أى ومالك لك . والقاطع لهـذا التوارثُ بين الأب والآبن . وقال الترمـذى الحكيم : ووجه قوله تعالى « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » كأنه يقول مساكنكم التى فيها أهاليكم وأولادكم ؛ فيكون للأهل والولد هناك شىء قد أفادهم هـذا الرجل الذى له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القُوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شىء من ملكهم فليس عليه فى ذلك حرج .

(١) فى بعض النسخ : « إن معنى » .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴾ قال بعض العلماء : هذا إذا أذنوا له فى ذلك . وقال آخرون : أذنوا له أو لم يأذنوا فله أن يأكل ؛ لأن القرابة التى بينهم هى إذنٌ منهم . وذلك لأن فى تلك القرابة عَطْفًا تسمح النفوس منهم بذلك العطف أن يأكل هذا من شيئهم ويُسَرّوا بذلك إذا علموا . ٱبن العربى : أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبذولا ، فإذا كان محرزا دونهم لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الآدخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محرز عنهم إلا بإذن منهم .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ يعنى مما ٱخترنتم وصار فى قبضتكم . وعظم ذلك ما ملكه الرجل فى بيته وتحت غَلَقه؛ وذلك هو تأويل الضحاك وقتادة ومجاهد . وعند جمهور المفسرين يدخل فى الآية الوكلاء والعبيد والأُجَراء . قال ٱبن عباس : عنى وكيل الرجل على ضيعته ، وخازنه على ما له ؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قيِّم عليه . وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يَطْعَم الشىء اليسير . ٱبن العربى : وللخازن أن يأكل مما يُخزن إجماعا ؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حَرُم عليه الأكل. وقرأ سعيد بن جُبير «مُلِّكْتُم» بضم الميم وكسر اللام وشدها . وقرأ أيضا «مفاتيحه» بياء بين التاء والحاء، جمع مفتاح؛ وقد مضى فى «الأنعام»(1) . وقرأ قتادة « مفتاحه » على الإفراد . وقال ٱبن عباس : نزلت هذه الآية فى الحارث ٱبن عمرو ، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازِيًا وخلّف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال : تحرّجت أن آكل من طعامك بغير إذنك؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ الصديق بمعنى الجمع ، وكذلك العدوّ؛ قال الله تعالى : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي »(2) . وقال جرير :

دعَوْن الهــوَى ثم ٱرْتَمَيْنَ قلوبَنا　＊　بأسهم أعداء وهن صـدِيقُ

(1) راجع جـ ٧ ص ١　　(٢) آية ٧٧ سورة الشعراء .

والصديق من يَصْدقك فى مودّته وتَصْدقه فى مودّتك . ثم قيل : إن هـذا منسوخ بقوله « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ »(١)، وقوله تعالى : « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا » الآية ، وقوله عليه السلام : "لا يحل مال آمرئ مسلم إلا بطيبة نفس منه" . وقيل : هى محكمة، وهو أصح . ذكر محمد بن ثَوْر عن مَعْمَر قال : دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رُطَبًا فجعلت آكله، فقال : ماهذا؟ فقلت : أبصرت رطبا فى بيتك فأكلت، قال : أحسنت، قال الله تعالى : «أَوْ صَدِيقِكُمْ» . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله «أَوْ صَدِيقِكُمْ» قال : إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته لم يكن بذلك بأس . وقال معمر قلت لقتادة : ألا أشرب من هذا الحُبّ(٢) ؟ قال : أنت لى صديق ! فما هذا الاستئذان . وكان صلى الله عليه وسلم يدخل حائط أبى طلحة المسمّى ببَيْرَحا(٣) ويشرب من ماء فيها طيّب بغير إذنه ، على ما قاله علماؤنا؛ قالوا : والماء متملّك لأهله . وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته، أو لما بينهما من المَوَدّة . ومن هذا المعنى إطعام أمّ حَرام له صلى الله عليه وسلم إذ نام عندها؛ لأن الأغلب أن ما فى البيت من الطعام هو للرجل، وأن يد زوجته فى ذلك عاريَة . وهذا كله مالم يتخذ الأكل خُبْنَة(٤)، ولم يقصد بذلك وقاية ماله ، وكان تافها يسيرا .

السابعة — قرن الله عز وجل فى هـذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة، لأن قرب المودة لَصيق . قال آبن عباس فى كتاب النقاش : الصديق أوكد من القرابة؛ ألا ترى استغاثة الجَهَنَّميين « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »(٥) .

قلت : ولهذا لا تجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه، كما لا تجوز شهادة القريب لقريبه . وقد مضى بيان هـذا والعلة فيه فى « النساء »(٦) . وفى المثل « أيهم أحب إليك أخوك أم صديقك » قال : أخى إذا كان صديقى .

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب . (٢) الحب (بضم الحاء المهملة) : الجرة الضخمة ، والخابية . وقال ابن دريد : هو الذى يجعل فيه الماء، فلم ينوعه . (٣) راجع الكلام على ضبطها فى معجم البلدان لياقوت . (٤) الخبنة : معطف الإزار وطرف الثوب؛ أى لا يأخذ منه فى ثوبه . (٥) آية ١٠٠ سورة الشعراء . (٦) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ وما بعدها .

الثامنـــة ــ قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قيل : إنها نزلت فى بنى ليث بن بكر، وهم حىّ من بنى كِنانة، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ويمكث أياما جائعا حتى يجد من يؤاكله . ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له * أكِيلًا فإنى لست آكله وَحْدِى

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان لا يأكل وحده . وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضــيفه؛ فنزلت الآية مبيّنة سُنّة الأكل، ومذهبة كلّ ما خالفها من ســيرة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرما، نحت به نحو كرم الخلق، فأفرطت فى إلزامه، وإن إحضار الأكِيل لحَسَن، ولكن بألا يحرم الانفراد .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ «جميعا» نصب على الحال . و «أَشْتَاتًا» جمع شَتّ، والشَّتّ المصدر بمعنى التفرّق؛ يقال : شتّ القوم أى تفرّقوا . وقد ترجم البخارىّ فى صحيحه (باب ــ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) الآية . و(النِّهْــد والاجتماع) . ومقصوده فيما قاله علماؤنا فى هــذا الباب : إباحة الأكل جميعا وإن اختلفت أحوالهم فى الأكل . وقد سوّغ النبىّ صلى الله عليه وسلم ذلك، فصارت تلك ســنّة فى الجماعات التى تدعى إلى الطعام فى النِّهْــد والولائم وفى الإملاق فى الســفر . وما ملكت مفاتحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك . والنِّهْد : ما يجمعه الرفقاء من مال أو طعام على قدر فى النفقة ينفقونه بينهم؛ وقد تناهدوا؛ عن صاحب العين . وقال ابن دُرَيد : يقال من ذلك : تناهــد القوم الشىء بينهم . الهَرَوِىّ : وفى حديث الحَسَن "أخرجوا نِهْدَكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم" . النِّهْد : ما تخرجه الرُّفقة عند المناهدة؛ وهو استقسام النفقة بالسويّة فى السفر وغيره . والعرب تقول : هات نِهْدَك؛ بكسر النون . قال المهلّب : وطعام النِّهْد لم يوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسّواء، وإنما يأكل كل واحد على قدر نَهْمته، وقد يأكل الرجل أكثر من غيره . وقد قيل : إن

تركها أشبه بالوَرَع . وإن كانت الرُّفقة تجتمع كل يوم على طعام أحدهم فهو أحسن من النهد ؛ لأنهم لا يتناهدون إلا ليُصيبَ كلّ واحد منهم من ماله ، ثم لا يدرى لعل أحدهم يقصّر عن ماله ، ويأكل غيره أكثر من ماله ؛ وإذا كانوا يوما عند هذا ويوما عند هذا بلا شرط فإنما يكونون أضيافا والضّيفُ يأكل بطيب نَفْس ممّا يُقدَّم إليه . وقال أيوب السِّختيانى : إنما كان النّهد أن القوم كانوا يكونون فى السفر فيسبق بعضهم إلى المنزل فيذبح ويهيّء الطعام ثم يأتيهم ، ثم يسبق أيضا إلى المنزل فيفعل مثل ذلك ؛ فقالوا : إن هذا الذى تصنع كلّنا نحب أن نصنع مثله فتعالَوْا نجعل بيننا شيئا لا يتفضل بعضنا على بعض ، فوضعوا النِّهد بينهم . وكان الصلحاء إذا تناهدوا تحرّى أفضلهم أن يزيد على ما يخرجه أصحابه ، وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه فعله سرًّا دونهم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ اختلف المتأولون فى أى البيوت أراد ؛ فقال إبراهيم النَّخَعِىّ والحسن : أراد المساجد ؛ والمعنى : سلِّموا على من فيها من ضيفكم . فإن لم يكن فى المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله . وقيل: يقول السلام عليكم ؛ يريد الملائكة ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وذكر عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر عن عمرو بن دِينار عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتا فسلِّموا على أنفسكم » الآية، قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقيل : المراد بالبيوت البيوت المسكونة ؛ أى فسلموا على أنفسكم . قاله جابر بن عبد الله وابن عباس أيضا وعطاء بن أبى رباح . وقالوا : يدخل فى ذلك البيوت غير المسكونة ، ويسلّم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال ابن العربى : القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص؛ وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه ، فإذا دخل بيتا لغيره آستأذن كما تقدّم ، فإذا دخل بيتا لنفسه سلم كما ورد فى الخبر، يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ قاله ابن عمر . وهذا إذا كان فارغا ؛ فإن كان فيه أهله وخدمه

فليقل : السلام عليكم . و إن كان مسجدا فليقل : الســلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وعليــه حمل ابن عمر البيتَ الفارغ . قال ابن العربى : والذى أختاره إذا كان البيت فارغا ألا يلزم السلام ، فإنه إن كان المقصود الملائكة فالملائكة لا تفارق العبــد بحــال ، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله بأن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وقد تقــدم فى سورة « الكهف »(١) . وقال القُشَيْرِى فى قوله « إذا دخلتم بُيُوتًا » : والأوجه أن يقال إن هــذا عام فى دخول كل بيت ، فإن كان فيــه ساكن مسلم يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، و إن لم يكن فيــه ساكن يقول الســلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، و إن كان فى البيت من ليس بمسلم قال الســلام على من ٱتبع الهــدى ، أو السلام علينا وعلى عبــاد الله الصالحين . وذكر ابن خُوَيْزِ مَنْداد قال : كتب إلىّ أبو العباس الأصمّ قال حدثنا محمــد بن عبد الله بن عبــد الحكم قال حدثنا ابن وهب قال حدثنا جعفر بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخلتم بيوتا فسلّموا على أهلها وآذكروا اسم الله فإن أحدكم إذا ســلّم حين يدخل بيته وذكر اسم الله تعالى على طعامه يقول الشيطان لأصحابه لا مَبيت لكم ها هنا ولا عَشاء و إذا لم يسلّم أحدكم إذا دخل ولم يذكر ٱسم الله على طعامه قال الشيطان لأصحابه أدركتم المبيت والعشاء " .

قلت : هذا الحديث ثَبَت(٢) معنــاه مرفوع من حديث جابر ، خرّجه مسلم . وفى كتاب أبى داود عن أبى مالك الأشجعىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وَلَجَ الرجل بيته فلْيقل اللّهُمَّ إنى أسألك خير الْوُلُوج وخير الخروج بٱسم الله وَلَجْنَا وبٱسم الله خرجنا وعلى الله ربّنا توكلنا ثم ليسلِّم على أهله " .

الحــادية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً ﴾ مصدر ، لأن قوله « فسَلِّموا » معناه فَحَيُّوا . وصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودّة المسلَّم عليه . ووصفها أيضــا بالطّيب لأن سامعها يستطيبها . والكاف من قوله « كذلك » كاف تشبيه . و « ذلك » إشارة إلى هذه السُّنَن ، أى كما بيّن لكم سُنّة دينكم فى هذه الأشياء يبيّن لكم سائر ما بكم حاجة إليه فى دينكم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٦	(٢) كذا فى الأصول . وقد ورد معنى هــذا الحديث فى كتاب الأدب المفرد للبخارى من رواية جابر .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ « إِنَّمَا » فى هذه الآية للحصر؛ المعنى : لا يتمّ ولا يكمل إيمانٌ من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معنّت فى أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله فى وقت الجمع، ونحو ذلك . وبين تعالى فى أول السورة أنه أنزل آيات بينات، وإنما النزول على محمد صلى الله عليه وسلم؛ فختم السورة بتأكيد الأمر فى متابعته عليه السلام؛ ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن .

الثانيـة — واختلف فى الأمر الجامع ماهو؛ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، من إقامة سُنّة فى الدِّين، أو لترهيب عدوّ باجتماعهم وللحروب؛ قال الله تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » . فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور فى ذلك . والإمام الذى يُترقّب إذنه هو إمام الإمْرة، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيئ . وقال مَكْحُول والزُّهْرِىّ : الجمعة من الأمر الجامع . وإمام الصلاة ينبغى أن يُستأذن إذا قدّمه إمام الإمرة، إذا كان يرى المستأذن . قال ابن سيرين : كانوا يستأذنون الإمام على المنبر؛ فلما كثر ذلك قال زياد : من جعل يده على فيه فليخرج دون إذن، وقد كان هذا بالمدينة حتى أن سهل بن أبى صالح رَعَف يوم الجمعة فاستأذن الإمام . وظاهر الآية يقتضى أن يُستأذن أميرُ الإمْرة الذى هو فى مقعد النبوة، فإنه ربما كان له رأى فى حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين . فأما إمام الصلاة فقط

فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدّين للذى هو فى مقعد النبوّة . وروى أن هذه الآية نزلت فى حفر الخندق حين جاءت قريش وقائدها أبو سفيان، وغطفان وقائدها عُيَيْنة بن حِصْن؛ فضرب النبيّ صلى الله عليه وسلم الخندق على المدينة، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المنافقون يتسلّلون لِواذًا من العمل و يعتذرون بأعذار كاذبة . ونحوه روى أشهب وابن عبد الحكم عن مالك، وكذلك قال محمد بن إسحاق . وقال مقاتل : نزلت فى عمر رضى الله عنه ، آستأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غَزْوة تَبُوك فى الرجعة فأذن له وقال : "انطلق فوالله ما أنت بمنافق" يريد بذلك أن يُسمع المنافقين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنما استأذن عمر رضى الله عنه فى العُمْرة فقال عليه السلام لما أذن له : "يا أبا حَفْص لا تنسنا فى صالح دعائك" .

قلت : والصحيح الأوّل لتناوله جميع الأقوال . واختار ابن العربيّ ما ذكره فى نزول الآية عن مالك وابن إسحاق، وأن ذلك مخصوص فى الحرب . قال : والذى يبين ذلك أمران :

أحدهما — قوله فى الآية الأخرى : «قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا» . وذلك أن المنافقين كانوا يتلوذون ويخرجون عن الجماعة و يتركون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الله جميعهم بألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ و بذلك يتبين إيمانه .

الثانى — قوله «لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ» وأىّ إذن فى الحدث والإمام يخطب، وليس للإمام خيار فى منعه ولا إبقائه، وقد قال «فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ»؛ فبيّن بذلك أنه مخصوص فى الحرب .

قلت : القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى . ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخيار إن شاء أن يأذن و إن شاء منع . وقال قتادة : قوله «فأذن لمن شئت منهم» منسوخة بقوله «عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُم» . ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ﴾ أى لخروجهم عن الجماعة إن علمت لهم عذرا . ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يريد : يَصيح من بعيد : يا أبا القاسم ! بل عظّموه كما قال فى الحُجُرات «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ»(١) الآية . وقال سعيد بن جُبير ومُجاهد : المعنى قولوا يا رسول الله، فى رِفق ولِين، ولا تقولوا يا محمد بتجهُّم . وقال قتادة : أمرهم أن يشرّفوه و يفخّموه . ابن عباس : لا تتعرضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه فإن دعوته موجبة . ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ التسلّل والانسلال : الخروج . واللِّواذ من الملاوذة ، وهى أن تستتر بشىء مخافة مَن يراك ؛ فكان المنافقون يتسلّلون عن صلاة الجمعة . «لِوَاذًا» مصدر فى موضع الحال ؛ أى متلاوذين ، أى يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه آستتارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة ؛ حكاه النقاش . وقد مضى القول فيه . وقيل : كانوا يتسلّلون فى الجهاد رجوعا عنه يلوذ بعضهم ببعض . وقال الحسن : لواذا فرارا من الجهاد؛ ومنه قول حسان :

وقريشٌ تجول منّا لِوَاذا(٢) * لم تحافظ وخَفّ منها الحُلُوم

وصحّت واوها لتحركها فى لاوذ . يقال : لاوذ يلاوِذ ملاوذة ولِواذا . ولاذ يلوذ [لوذا] ولِياذا؛ انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها اتباعا للاذ فى الآعتلال ؛ فإذا كان مصدرَ فاعَل لم يُعَلّ؛ لأن فاعَل لا يجوز أن يُعَلّ .

قوله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ بهذه الآية آحتجّ الفقهاء على أن الأمر على الوجوب . ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذّر من مخالفة أمره، وتوعّد

(١) آية ٣ (٢) فى الأصول : « منكم » والتصويب عن الديوان ، والرواية فيه :
وقريش تلوذ منا لواذا * لم يقيموا وخف منها الحلوم

بالعقاب عليها بقوله : ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فتحرم مخالفته ، فيجب امتثال أمره . والفتنة هنا القتل ؛ قاله ابن عباس . عطاء : الزلازل والأهوال . جعفر بن محمد : سلطان جائر يُسلّط عليهم . وقيل : الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . والضمير فى « أَمْرِهِ » قيل هو عائد إلى أمر الله تعالى ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إلى أمر رسوله عليه السلام ؛ قاله قتادة . ومعنى « يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ » أى يُعرضون عن أمره . وقال أبو عبيدة والأخفش : « عن » فى هذا الموضع زائدة . وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ؛ والمعنى : يخالفون بعد أمره ؛ كما قال :

* ... لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ(1) *

ومنه قوله : « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى بعد أمر ربه . و « أن » فى موضع نصب بـ « يَحْذَرِ » . ولا يجوز عند أكثر النحويين حذر زيدا ، وهو فى « أن » جائز ؛ لأن حروف الخفض تحذف معها .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهو يجازيكم به . و « يعلم » هنا بمعنى علم . ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ بعد ما كان فى خطاب رجع فى خبر ؛ وهذا يقال له : خطاب التلوين . ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى يخبرهم بأعمالهم ويجازيهم بها . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أعمالهم وأحوالهم .

ختمت السورة بما تضمنت من التفسير ، والحمد لله على التيسير .

---

(1) هذا من معلقة امرئ القيس . والبيت بتمامه :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها * نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

تم بعون الله تعالى الجـزء الثانى عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث عشر ، وأوله سورة "الفرقان"

كَمُلَ طبع الجزء الثانى عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٣٠ ربيع الأوّل سنة ١٣٦١
(١٦ أبريل سنة ١٩٤٢) م محمد نديم

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومى
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثالث عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومى
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

الجزء الثالث عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م

بيان

تم تحقيق هذا الجزء من تفسير القرطبي وهو الثالث عشر على الأصول الآتية :

(١)	نسخة	رقم	٩٥	تفسير	المرموز	إليها	بحرف	ا
(٢)	»	»	٢٦٨	»	»	»	»	ب
(٣)	»	»	٢٨٣	»	»	»	»	ج
(٤)	»	»	١	» حليم »		»	»	ح
(٥)	»	»	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية المرموز إليها بحرف				ز
(٦)	»	»	٥١٣	تفسير	المرموز	إليها	بحرف	ش
(٧)	»	»	٣١٨	»	»	»	»	ط
(٨)	»	»	٩٣	»	»	»	»	ك

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدّمة الجزء الثالث (الطبعة الثانية)

حققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

فهـــرس الجـــزء الثـالث عشر

تفســـير ســـورة الفرقان

صفحة

تفسير ســـورة الشعراء

تفسير ســـورة النمـــل

تفسير سورة القصص

صفحة

تفسير سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ٱبن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهى : « وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » إلى قوله : « وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . وقال الضحاك : هى مدنية، وفيها آيات مكية ؛ قوله : « وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ » الآيات .

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار فى النبوّة والرد على مقالاتهم [وجهالاتهم][1] ؛ فمن جملتها قولهم : إن القرآن ٱفتراه محمد، وإنه ليس من عند الله .

قوله تعالى : تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ « تَبَارَكَ » ٱختلف فى معناه ؛ فقال الفرّاء : هو فى العربية و « تقدّس » واحد، وهما للعظمة . وقال الزجاج : « تَبَارَكَ » تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذى خير . وقيل : « تَبَارَكَ » تعالى . وقيل : تعالى عطاؤه، أى زاد وكثر . وقيل : المعنى دام وثبت إنعامه . قال النحاس : وهذا أولاها فى اللغة والاشتقاق ؛ من برك الشىء إذا ثبت ؛ ومنه برك الجمل والطير على الماء، أى دام

(١) من ك .

وثبت . فأما القول الأول فخلط (١) ؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا فى شىء .
قال الثعلبي : ويقال تبارك الله، ولا يقال متبارَك ولا مبارَك ؛ لأنه ينتهى فى أسمائه وصفاته إلى حيث ورد التوقيف . وقال الطِّرِمّاح :

تباركتَ لا مُعْطٍ لشىء منعتَه * وليس لما أعطيتَ يا ربِّ مانع

وقال آخر :

* تباركتَ ما تقدِرْ يقعْ ولك الشكرُ *

قلت : قد ذكر بعض العلماء فى أسمائه الحسنى « المبارك » وذكرناه أيضا فى كتابنا . فإن كان وقع آتفاق على أنه لا يقال فيسلَّم للإجماع ، وإن كان وقع فيه آختلاف فكثير من الأسماء آختلف فى عدّه ؛ كالدهر وغيره . وقد نبهنا على ذلك هنالك ، والحمد لله .

و « الفرقان » القرآن . وقيل : إنه آسم لكل مُنزَّل ؛ كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ (٢) » . وفى تسميته فرقانا وجهان : أحدهما — لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر . الثانى — لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام ؛ حكاه النقاش . ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ آسم « يَكُونَ » [فيها (١)] مضمر يعود على « عَبْدِهِ » وهو أَوْلى لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون يعود على « الفرقان » . وقرأ عبد الله بن الزبير : « عَلَى عِبَادِهِ » . ويقال : أنذر إذا خوّف ؛ وقد تقدم فى أول « البقرة (٣) » . والنذير : المحذِّر من الهلاك . الجوهرى : والنذير المنذر ، والنذير الإنذار . والمراد بـ « بالعالمين » هنا الإنس والجن ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد كان رسولا إليهما ، ونذيرا لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ، ولم يكن غيره عامّ الرسالة إلا نوح فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، لأنه بدأ به الخلق .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ عظّم تعالى نفسه . ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ نزّه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله ؛ يعنى بنات الله سبحانه وتعالى . وعما قالت اليهود : عزير آبن الله ؛ جلّ الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح آبن الله ؛ تعالى الله عن ذلك . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ كما قال عبدة الأوثان .

---

(١) فى ك : فغلط . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٩٥ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٨٤ .

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثَّنَوِيَّة : إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء . ولا كما يقول من قال : للخلوق قدرة الإيجـاد . فالآية ردٌّ على هؤلاء . ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أى قـدّر كل شيء ممـا خلق بحكمته على ما أراد، لا عن سهوة وغفلة، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة، فهو الخالق المُقَدِّر(١) ؛ فإياه فاعبدوه .

قوله تعـالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب فى ٱتخاذهم الآلهة ، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ يعنى الآلهـة . ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمّـا ٱعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع ، عبّر عنها كما يعبّر عما يعقل . ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى لا دفع ضرّ وجلب نفع، فحـذف المضـاف . وقيل : لا يقـدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء ، ولا لمن يعبدهم ، لأنها جمادات . ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أى لا يميتون أحدا، ولا يحيونه. والنشور : الإحياء بعد الموت؛ أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدّم(٢) . وقال الأعشى :

حتى يقولَ الناسُ ممـا رَأَوْا　*　يا عجبًـا للميّتِ النّـاشـرِ

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى مشركى قريش . وقال ٱبن عباس : القائل منهم ذلك النضر بن الحرث؛ وكذا كلّ ما فى القرآن فيه ذكر الأساطير. قال محمد بن إسحق : وكان مؤذيا للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿إِنْ هَـٰذَا﴾ يعنى القرآن . ﴿إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ﴾ أى كذب ٱختلقه . ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعنى اليهود؛ قاله مجاهد. وقال ٱبن عباس :

(١) فى ك : المقتدر.　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٩ .

المراد بقوله «قَوْمٌ آخَرُونَ» أبو فُكَيْهة مولى بنى الحضرمى وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب . وقد مضى فى « النحل » ذكرهم[1] . ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا﴾ أى بظلم . وقيل : المعنى فقد أتوا ظلما . ﴿وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة؛ مثل أحدوثة وأحاديث . وقال غيره : أساطير جمع أسطار؛ مثل أقوال وأقاويل . ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ يعنى محمدا . ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أى تلق عليه وتقرأ . ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ حتى تحفظ . و « تملى » أصله تملل؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف : كقولهم : تقضّى البازى؛ وشبهه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذى يعلم السر ، فهو عالم الغيب ، فلا يحتاج إلى معلم . وذكر « السر » دون الجهر؛ لأنه من علم السر فهو فى الجهر أعلم . ولو كان القرآن مأخوذا من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بفنون تخرج عنها ، فليس مأخوذا منها . وأيضا ولو كان مأخوذا من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضا كما تمكن محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه . ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يريد غفورا لأوليائه رحيما بهم .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَقَالُوا » ذكر شيئا آخر من مطاعنهم . والضمير فى «قَالُوا» لقريش؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس مشهور ، وقد تقدّم

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٧٧ فما بعد .

فى « سبحان »[1] . ذكره ابن إسحق فى السيرة وغيره . مضمنه — أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا : يامحمد ! إن كنت تحب الرياسة ولّيناك علينا ، وإن كنت تحب المـال جمعنا لك من أموالنا ؛ فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك رجعوا فى باب الاحتجاج معه فقالوا : ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ! فعيّروه بأكل الطعام ؛ لأنهـم أرادوا أن يكون الرسول ملكا ، وعيّروه بالمشى فى الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسـواق ، وكان عليـه السلام يخالطهم فى أسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ؛ فقالوا : هـذا يطلب أن يتملك علينا ، فمـاله يخالف سيرة الملوك ؛ فأجابهم الله بقوله ، وأنزل على نبيه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » فلا تغتم ولا تحزن ، فإنها شكاة ظاهر عنك عارها .

الثانيـــة — دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش . وكان عليه السلام يدخلها لحاجته ، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته ، ويعـرض نفسه فيها على القبائل ، لعـلّ الله أن يرجع بهم إلى الحق . وفى البخارى فى صفته عليه السلام : « ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخّاب فى الأسواق » وقد تقدّم فى « الأعراف »[2] . وذكر السوق مذكور فى غير ما حديث ، ذكره أهل الصحيح . وتجارة الصحابة فيها معروفة ، وخاصة المهاجرين ؛ كما قال أبو هريرة : وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفْق[3] بالأسـواق ؛ خرجه البخارى . وسيأتى لهـذه المسئلة زيادة بيان فى هذه السورة إن شاء الله .

قوله تعـالى : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْـهِ مَلَكٌ ﴾ أى هـلا . ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ جواب الاستفهام . ﴿ أَوْ يُلْقَى ﴾ فى موضع رفع ؛ والمعنى : أو هلا يلقى ﴿ إِلَيْـهِ كَنْزٌ ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ هلا ﴿ تَكُونُ لَهُ جَنَّـةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ « يأكل » بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين بالنون ، والقراءتان حسنتان تؤديان عن معنى ، وإن كانت القراءة بالياء أبين ؛ لأنه

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٨ .　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٩ .
(٣) الصفق : التبايع .

قد تقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحده فأن يعود الضمير عليه أبين ؛ ذكره النحاس .
﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ تقدم في « سبحان »[1] والقائل عبد الله ابن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أي ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا إلى تكذيبك . ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ﴾ شرط ومجازاة، ولم يدغم « جَعَلَ لَكَ » لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين . ﴿ وَيَجْعَلْ لَكَ ﴾ في موضع جزم عطفا على موضع « جعل » . ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعا من الأول . وكذلك قرأ أهل الشام . ويروى عن عاصم أيضا : « وَيَجْعَلُ لَكَ » بالرفع ؛ أي وسيجعل لك في الآخرة قصورا . قال مجاهد : كانت قريش ترى البيت من حجارة قصرا كائنا ما كان . والقصر في اللغة الحبس، وسمي القصر قصرا لأن من فيه مقصور عن أن يوصل إليه . وقيل : العرب تسمي بيوت الطين القصر . وما يتخذ من الصوف والشعر البيت . حكاه القُشَيري . وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خَيْثَمة قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعط ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئا ؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة ؛ فقال : "يجمع ذلك لي في الآخرة" فأنزل الله عز وجل : «تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٢ .

مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا » . و يروى أن هذه الآية أنزلهـا رضوان خازن الجنان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفى الخبر : إن رضوان لمـا نزل سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قال : يا محمد ! رب العزة يقرئك السلام ، وهـذا سَفَط[1] — فإذا سَفَط من نور يتلألأ — يقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا ، مع أنه لا ينقص مالك[2] فى الآخرة مثل جناح بعوضة ؛ فنظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير له ؛ فضرب جبريل بيده الأرض يشير أن تواضع ؛ فقـال : " يا رضوان لا حاجة لى فيها الفقر أحب إلىّ وأن أكون عبدا صابرا شكورا " . فقال رضوان : أصبت[3] ! الله لك . وذكر الحديث .

قوله تعـالى : بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ يريد جهنم تتلظى عليهم . ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى من مسيرة خمسمائة عام . ﴿ سَمِعُوا لَهَـا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ قيل : المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لهـا صوت التغيظ عليهم . وقيـل : المعنى إذا رأتهم خزّانها سمعوا لهم تغيظا وزفيرا حرصا على عذابهم . والأول أصح ؛ لمـا روى مرفوعا أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا " قيل : يا رسول الله ! ولهـا عينان ؟ قال : " أما سمعتم الله عز وجل يقول : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَـا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » يخرج عُنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وُكِّلت بكل من جعل مع الله إلها آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه " فى رواية " فيخرج عُنق من النـار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب

(١) السفط : الذى يعبى فيـه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء . وقيل : كالجوالق . وفى ك : سوط . وهو تحريف . (٢) فى ك : بمالك . (٣) فى ك : أصاب الله لك .

السمسم" ذكره رزين فى كتابه، وصححه ابن العربى فى قبسه، وقال : أى تفصلهم عن الخلق فى المعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة . وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "يخرج عُنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إنى وُكِّلت بثلاث بكل جبّار عنيد وبكلّ من دعا مع الله إلها آخر وبالمصوِّرين" . وفى الباب عن أبى سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال الكلبى : سمعوا لها تغيظا كتغيظ بنى آدم وصوتا كصوت الحمار . وقيل : فيه تقديم وتأخير، سمعوا لها زفيرا وعلموا لها تغيظا . وقال قطرب : التغيظ لا يسمع، ولكن يرى، والمعنى : رأوا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا؛ كقول الشاعر :

ورأيت زوجك فى الوغى[1] * متقلدا سيفا ورمحا

أى وحاملا رمحا . وقيل : « سَمِعُوا لَهَا » أى فيها؛ أى سمعوا فيها تغيظا وزفيرا للمعذّبين . كما قال تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ »[2] و« فى واللام » يتقاربان؛ تقول : أفعل هذا فى الله ولله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله كان يقول : إن جهنم لتضيّق على الكافر كتضييق الزُّج[3] على الرمح؛ ذكره ابن المبارك فى رقائقه. وكذا قال ابن عباس، ذكره الثعلبى والقُشيرى عنه، وحكاه الماوردى عن عبد الله بن عمرو . ومعنى « مُقَرَّنِينَ » مكتّفين؛ قاله أبو صالح . وقيل : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قرنوا مع الشياطين؛ أى قرن كل واحد منهم إلى شيطانه؛ قاله يحيى بن سلام . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »[2] وقال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبايا * وأُبْنا بالملوك مُقَرَّنينا[4]

﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى هلاكا؛ قاله الضحاك . ابن عباس : ويلا . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول من يقوله إبليس وذلك أنه أول من يكسى حلة من النار

(١) كذا فى الأصول وهو الصواب . وفى المطبوع : الورى .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٩٤ و٣٨٤ .
(٣) الزج (بالضم) : الحديدة التى فى أسفل الرمح .
(٤) الرواية فى البيت : «مصفدينا» .

فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول واثبوراه " . وآنتصب على المصدر ، أى ثبرنا ثبورا ؛ قاله الزجاج . وقال غيره : هو مفعول به .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة . وقال : ثبورا لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع ؛ وهو كقولك : ضربته ضربا كثيرا ، وقعد قعودا طويلا . ونزلت الآيات فى آبن خَطَل وأصحابه .

قوله تعالى : قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ . إن قيل : كيف قال « أَذَٰلِكَ خَيْرٌ » ولا خير فى النار ؛ فالجواب أن سيبويه حكى عن العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وقد علم أن السعادة أحبّ إليه . وقيل : ليس هو من باب أفعل منك ، وإنما هو كقولك : عنده خير . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال[1] :

* فشرُّكما لخيركما الفداءُ *

قيل : إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا فى باب المنازل ؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين . وقيل : هو مردود على قوله : « تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ » الآية . وقيل : هو مردود على قوله : « أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » . وقيل : إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار ؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن فى النار خيرا .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أى من النعيم . ﴿ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ قال الكلبي : وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم ، فسألوه ذلك الوعد فقالوا : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ »[2] . وهو معنى قول آبن عباس . وقيل : إن الملائكة تسأل لهم

(١) هو حسان بن ثابت — رضى الله عنه — يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ويهجو أبا سفيان ، وصدر البيت : * أتهجوه ولست له بكفء * (٢) راجع ج ٤ ص ٣١٧ .

الجنة ؛ دليله قوله تعالى : «رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ»(١) الآية . وهذا قول محمد ابن كعب القُرظى . وقيل : معنى « وَعْدًا مَسْئُولًا » أى واجبا و إن لم يكن يسأل كالدَّين ؛ حكى عن العرب : لأعطينك ألفا . وقيل : « وَعْدًا مَسْئُولًا » يعنى أنه واجب لك فتسأله . وقال زيد بن أسلم : سألوا الله الجنة فى الدنيا ورغبوا إليه بالدعاء، فأجابهم فى الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا . وهذا يرجع إلى القول الأول .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ قرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو فى رواية الدورى : « يحشرهم » بالياء . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله فى أول الكلام : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ » وفى آخره «أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ» . الباقون بالنون على التعظيم . ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وابن جريج . الضحاك وعكرمة : الأصنام . ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم . ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ وهذا استفهام توبيخ للكفار . ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أى قال المعبودون من دون الله سبحانك ؛ أى تنزيها لك(٢) ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ . فإن قيل : فإن كانت الأصنام التى تعبد تحشر فكيف تنطق وهى جماد ؟ قيل له : ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدى والأرجل . وقرأ الحسن وأبو جعفر : « أَنْ نُتَّخَذَ » بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول . وقد تكلم فى هذه القراءة النحويون ؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر:

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٣ فما بعد . (٢) فى ط : فإذا .

لا يجوز « نُتَّخَذ » . وقال أبو عمرو : لو كانت « نُتَّخَذ » لحذفت « مِن » الثانية فقلت : أن نُتَّخَـذ من دونك أولياءَ . كذلك قال أبو عبيدة ، لا يجوز « نُتَّخَذ » لأن الله تعالى ذكر « مِن » مرتين ، ولو كان كما قرأ لقال : أن نُتخذ من دونك أولياء . وقيل : إن « مِن » الثانية صلة قال النحاس : ومثل أبي عمرو على جلالته ومحله يستحسن ما قال ؛ لأنه جاء ببينة . وشرح ما قال أنه يقال : ما آتخذت رجلا وليـا ؛ فيجوز أن يقع هـذا للواحد بعينه ؛ ثم يقال : ما آتخذت من رجل وليا فيكون نفيا عاما ، وقولك « وليا » تابع لمـا قبله فلا يجوز أن تدخل فيه « مِن » لأنه لا فائدة فى ذلك . ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أى فى الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم . ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ أى تركوا ذكرك فأشركوا بك بطرا وجهلا فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك . وفى الذكر قولان : أحدهما ــ القرآن المنزّل على الرسل ، تركوا العمل به ؛ قاله آبن زيد . الثانى ــ الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم . إنهم ﴿ كَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هلكى ؛ قاله آبن عباس . مأخوذ من البوار وهو الهلاك . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه وقد أشرف على أهل حِمص : ياأهل حمص ! هلم إلى أخ لكم ناصح ، فلما آجتمعوا حوله قال : ما لكم لا تستحيون ! تبنـون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا[1] وجمعوا عبيدا ، وأملوا بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا ، وآمالهم غرورا ، ومساكنهم قبورا . فقوله : « بُورًا » أى هلكى . وفى خبر آخر : فأصبحت منازلهم بورا ؛ أى خالية لا شىء فيها . وقال الحسن : « بُورًا » لا خير فيهم . مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شهر بن حَوْشَب : البوار الفساد والكساد ؛ مأخوذ من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد ؛ ومنه الحديث " نعوذ بالله من بوار الأَيِّم " . وهو آسم مصدر كالزّور يستوى فيـه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث . قال آبن الزِّبَعْرى :

يارسول المليك إنّ لسـانى * راتِـقٌ ما فَتَقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أُبارى الشيطانَ فى سَنَن الغَـ * ـيِّ ومَنْ مَالَ ميـلَه مَثْبُـورُ

(١) فى ك : شديدا . والمعنى : قويا . محققه .

وقال بعضهم : الواحد بائر والجمع بور ، كما يقال : عائذ وعُوذ، وهائد وهُود . وقيل: « بُورًا » عميا عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى يقول الله تعالى عند تبرّى المعبودين : « فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . ﴿ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم . وقيل : فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿ صَرْفًا ﴾ للعذاب ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ من الله . وقال ابن زيد : المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد؛ وعلى هذا فمعنى « بِمَا تَقُولُونَ » بما تقولون من الحق . وقال أبو عبيد : المعنى؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذى هداكم الله إليه ، ولا نصرا لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم . وقراءة العامة « بِمَا تَقُولُونَ » بالتاء على الخطاب ، وقد بيّنا معناه . وحكى الفراء أنه يقرأ: « فَقَدْ كَذَبُوكُمْ » مخففا، « بِمَا يَقُولُونَ » . وكذا قرأ مجاهد والبزّى بالياء، ويكون معنى « يَقُولُونَ » بقولهم . وقرأ أبو حَيْوة : « بِمَا يَقُولُونَ » بياء « فَمَا تَسْتَطِيعُونَ » بتاء على الخطاب لمتخذى الشركاء . ومن قرأ بالياء فالمعنى : فما يستطيع الشركاء . ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : من يشرك منكم ثم مات عليه . ﴿ نُذِقْهُ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ أى شديدا؛ كقوله تعالى : « وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا »(١) أى شديدا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ نزلت جوابا للمشركين حيث قالوا : « مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ » . وقال ابن عباس : لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة وقالوا : « مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ »

(١) راجع ج ١٠ ص ٢١٤ .

الآية حزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فنزلت تعـزية له ؛ فقال جبريل عليـه السلام : السلام عليك يا رسـول الله! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » أى يبتغون المعايش فى الدنيا .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن فى «إن» إلا الكسر ، ولو لم تكن اللام ما جاز أيضا إلا الكسر ؛ لأنها مستأنفة . هـذا قول جميع النحويين . قال النحاس : إلا أن علىّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال : يجوز فى «إنّ» هذه الفتح وإن كان بعدها اللام ؛ وأحسبه وهْما منه . قال أبو إسحق الزجاج : وفى الكلام حذف ؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسـلا إلا إنهم ليأكلون الطعام ، ثم حذف رسـلا ، لأن فى قوله : « مِنَ الْمُرْسَلِينَ » ما يدل عليه . فالموصوف محذوف عند الزجاج . ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقية الصلة كما قال الفراء . قال الفراء : والمحذوف « مَن » والمعنى إلا مَن إنهم ليأكلون الطعام . وشبّهه بقوله : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ »(١) ، وقوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »(٢) أى ما منكم إلا من هو واردها . وهذا قول الكسائىّ أيضا . وتقول العرب : ما بعثت إليك من الناس إلا مَن إنه ليطيعك(٣) . فقولك : إنه ليطيعك صلة من . قال الزجاج : هذا خطأ ؛ لأن من موصولة فلا يجوز حذفها . وقال أهل المعانى : المعنى ؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم ليأكلون ؛ دليله قوله تعالى : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ »(١) . وقال ابن الأنبارىّ : كسرت « إِنَّهُم » بعد « إلا » للاستئناف بإضمار واو . أى إلا وإنهم . وذهبت فرقة إلى أن قوله : « لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » كناية عن الحدث .

قلت : وهـذا بليغ فى معناه ، ومثله « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ »(٤) . ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ قرأ الجمهور «يَمْشُونَ» بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين . وقرأ علىّ وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة ؛ بمعنى يُدْعَون إلى المشى ويحملون عليـه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة ، وهى بمعنى يَمْشُونَ ؛ قال الشاعر :

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٧ وص ٣٦٦ . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٣٥ .
(٣) فى ك : ليعطيك ، ليعطيك صلة . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢٥٠ .

ومَشَّى بأعطان المَبَاءة وآبتغى * قلائصَ منها صعبةٌ ورَكُوبُ (١)

وقال كعب بن زهير :

منه تظل سِباعُ الجوّ ضامِزة (٢) * ولا تُمَشِّى بواديه الأَراجيلُ

بمعنى تَمْشى .

الثالثــة — هذه الآية أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك . وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع ، لكنا نذكر هنا من ذلك ما يكفى فنقول : قال لى بعض مشايخ هذا الزمان فى كلام جرى : إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء ؛ فقلت مجيبا له : هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء ، والرعاع السفهاء ، أو من طاعن فى الكتاب والسنة العلياء ؛ وقد أخبر الله تعالى فى كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق : «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ (٣)» . وقال : «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ» قال العلماء : أى يتجرون ويحترفون . وقال عليه الصلاة والسلام : "جُعِل رزقى تحت ظل رُمْحى" وقال تعالى «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا (٤)» وكان الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ويحترفون وفى أموالهم يعملون ، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون ؛ أتراهم ضعفاء ! بل هم كانوا والله الأقوياء ، وبهم الخلف الصالح آقتدى ، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء . قال : إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء ، فتناولوها مباشرة فى حق الضعفاء ، فأما فى حق أنفسهم فلا ؛ وبيان ذلك أصحابُ الصُّفَّة .

قلت : لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان ؛ كما ثبت فى القرآن «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (٥)» وقال : «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى (٦)» الآية . وهذا من البينات والهدى . وأما أصحاب الصُّفَّة فإنهم كانوا ضيف الإسلام

(١) فى روح المعانى : «ذلول» بدل «ركوب» . (٢) الجو : البر الواسع . وضامزة : ساكتة ، وكل ساكت فهو ضامز . والأراجيل : جمع أرجال كأناعيم جمع أنعام ؛ وأرجال جمع رجل . يصف الشاعر أسدا بأن الأسود والرجال تخافه ، فالأسود ساكتة من هيبته والرجال ممتنعة عن المشى بواديه .

(٣) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ . (٤) راجع جـ ٨ ص ١٥ . (٥) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ .

(٦) راجع جـ ٢ ص ١٨٤ .

عند ضيق الحال، فكان عليه السلام إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هـذا يحتطبون ويسوقون(١) الماء إلى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم. كذا وصفهم البخارى وغيره. ثم لما افتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمروا، وبالأسباب أمروا. ثم إن هـذا القول يدل على ضعف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لأنهم أيدوا بالملائكة وثبتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هـذا، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذى انعقد عليه إجماع المسلمين؛ وإلا كان يكون قوله الحق: « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ(٢) » — الآية — مقصورا على الضعفاء، وجميع الخطابات كذلك. وفى التنزيل حيث خاطب موسى الكليم «اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ(٣)» وقد كان قادرا على فلق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام « وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ(٤) » وقد كان قادرا على سقوط الرطب دون هز ولا تعب؛ ومع هـذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان، أو تجاب دعوته، أو يكرم بكرامة فى خاصة نفسه أو لأجل غيره، ولا تهد لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية. هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى: « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(٥) » فإنا نقول: صدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل؛ بدليل؛ قوله: « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا(٥) » وقال: « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(٦) » ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل فى وجود ذلك؛ وهو معنى قوله عليه السلام: "اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض" أى بالحرث والحفر والغرس. وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه، وسمى المطر رزقا لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور فى كلام العرب. وقال عليه السلام: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه" وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب. ولو قدر رجل بالجبال منقطعا عن الناس لما كان له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش

(١) فى ك: يستقون. (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٥. (٣) راجع ص ١٠٠ من هذا الجزء فما بعد.
(٤) راجع جـ ١١ ص ٩٤. (٥) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٨. (٦) راجع جـ ١٧ ص ٦.

به ؛ وهو معنى قوله عليه السلام : " لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكّله لرزقتم كما تُرزق الطير تغدو خِماصا و تروح بِطانا " فغدوّها ورواحها سبب ؛ فالعجب العجب ممن يدعى التجريد والتوكل على التحقيق ، و يقعد على ثنيات الطريق ، و يدع الطريق المستقيم ، والمنهج الواضح القويم . ثبت فى البخارى عن ٱبن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون و يقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس ؛ فأنزل الله تعالى « وتَزَوَّدُوا »[١] . ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقا . والتوكل ٱعتماد القلب على الرب فى أن يُلِمّ شعثه و يجمع عليه أرَبَه ؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر . وهذا هو الحق . سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال : إنى أريد الحج على قدم التوكل . فقال : ٱخرج وحدك ؛ فقال : لا، إلاّ مع الناس . فقال له : أنت إذن متكل على أجربتهم . وقد أتينا على هذا فى كتاب « قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذلّ السؤال بالكسب والصناعة »[٢] .

الرابعــة — خرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " . وخرج البزّار عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن ٱستطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " . أخرجه أبو بكر البَرْقانى مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ — من رواية عاصم — عن أبى عثمان النهدي عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفرّخ " . ففى هذه الأحاديث ما يدلّ على كراهة دخول الأسواق، لا سيما فى هذه الأزمان التى يخالط فيها الرجال النسوان . وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل فى الأسواق وظهرت فيها المناكر : كُرِه دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم فى الدّين تنزيها لهم عن البقاع التى يُعصى الله فيها . فحق على من ٱبتلاه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله ٱقتصر منه على قدر ضرورته ، وتحرز من سوء عاقبته وبليته .

---

(١) راجع ج ٢ ص ٤١١ . (٢) كذا فى ك وهو الصواب وفى ا و ب و ى : بالكتب والشفاعة .

الخامســة — تشبيه النبيّ صلى الله عليه وسلم السوق بالمعركة تشبيه حسن ؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمى بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضا . فشبّه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها .

السادســة — قال ابن العربيّ : أما أكل الطعام فضرورة الخلق لاعار ولا دَرك[1] فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة؛ ومن الأحاديث الموضوعة[2] "الأكل في السوق دناءة" .

قلت : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعمّا هو ؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن ؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن . وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن ، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيسارِيات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا . نعوذ بالله من سخطه .

السابعــة — خرّج أبو داود الطيالسيّ في مسنده حدّثنا حماد بن زيد قال حدّثنا عمرو ابن دِينار قهرمان[3] آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : "من دخل سوقا من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئة وبنى له قصرا في الجنة" خرّجه الترمذيّ أيضا وزاد بعد "ومحا عنه ألف ألفِ سيئة" : "ورفع له ألف ألف درجةٍ وبنى له بيتا في الجنة". وقال : هذا حديث غريب . قال ابن العربيّ : وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سِواه[4] ليعمرها بالطاعة إذ عُمرت بالمعصية، وليحليها بالذكر إذ عطلت بالغفلة، وليعلِّم الجهلة ويذكر الناسين .

(١) الدرك (يسكن ويحرك) : التبعة . (٢) الحديث رواه الطبراني عن أبي أمامة والخطيب عن أبي هريرة وضعفه السيوطي . (٣) القهرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل، بلغة الفرس .
(٤) سواه : أي سوى الله تعالى .

الثامنـة ـ قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أى إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغنى فتنة للفقير ، والفقير الصابر فتنة للغنى . ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه ؛ فالغنى ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه . والفقير ممتحن بالغنى،عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه،وأن يصبر كل واحد منهما على الحق؛ كما قال الضحاك فى معنى «أَتَصْبِرُونَ» : أى على الحق . وأصحاب البلايا يقولون : لِمَ لم نعافَ؟ والأعمى يقول: لِمَ لَمْ أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة . والرسول المخصوص بكرامة النبوّة فتنة لأشراف النـاس من الكفار فى عصره . وكذلك العلماء وحكام العـدل . ألا ترى إلى قولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[(١)] . فالفتنة أن يحسد المبتلَى المعافى ، ويحقر المعافى المبتلى . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر . « أَتَصْبِرُونَ » محذوف الجواب، يعنى أم لا تصبرون . فيقتضى جوابا كما قاله المزنى ، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصيا فى مراكب ومناكب ، فخطر بباله شىء فسمع من يقرأ الآية : « أَتَصْبِرُونَ » فقال : بلى ربنا ! نصبر ونحتسب . وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هـذه الآية حين رأى أشهب بن عبـد العزيز فى مملكته عابرا عليـه ، ثم أجاب نفسه بقوله : سنصبر . وعن أبى الدرداء أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول[(٢)] : " ويل للعـالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للـالك من المملوك وويل للمملوك من المـالك وويل للشـديد من الضعيف وويل للضعيف من الشـديد وويل للسلطان من الرعيـة وويل للرعيـة من السلطان وبعضهـم لبعض فتنة وهو قوله : « وَجَعَلْنَا بَعْضَـكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَـةً أَتَصْبِرُونَ » " أسنده الثعلبى تغمده الله برحمتـه . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ابن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبى مُعَيط وعُتْبة بن ربيعة والنضر ابن الحرث حين رأوا أبا ذرّ وعبـد الله بن مسعود، وعمارا وبلالا وصُهَيبا وعامر بن فُهَيرة ، وسالمـا مولى أبى حُذَيفة ومِهْجَعا مولى عمـر بن الخطاب وجبرا مولى الحَضْرمى، وذويهم ؛ فقـالوا على سبيل الاستهزاء : أنسلم فنكون مثـل هؤلاء ؟ فأنزل الله تعـالى يخاطب هؤلاء

(١) راجع جـ ١٦ ص ٨٢ فما بعد . (٢) كذا فى ك و ز .

المؤمنين : «أَتَصْبِرُونَ» على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالتوقيف بـ «أَتَصْبِرُونَ» خاص للمؤمنين المحققين(١) من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، أي آختبارا لهم . ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم : «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا»(٢) .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي بكل آمرئ وبمن يصبر أو يجزع ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، وبمن أدّى ما عليه من الحق ومن لا يؤدّى . وقيل : «أَتَصْبِرُونَ» أي آصبروا . مثل «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ»(٣) أي آنتهوا؛ فهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يريد لا يخافون البعث ولقاء الله ، أي لا يؤمنون بذلك . قال :

إذا لَسَعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا　＊　وخَالَفَهَا في بيت نُوبٍ عَوامِلِ(٤)

وقيل : «لَا يَرْجُونَ» لا يبالون . قال :

لعمركَ ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِمًا　＊　على أيِّ جَنْبٍ كان في الله مَصْرَعِي(٥)

آبن شجرة : لا يأملون ؛ قال :

أترجو أُمَّـــةٌ قتلتْ حسينا　＊　شـفاعةَ جدّه يومَ الحسابِ

﴿لَوْلَا أُنْزِلَ﴾ أي هلا أنزل . ﴿عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فيخبروا أن محمدا صادق . ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ عيانا فيخبرنا برسالته . نظيره قوله تعالى : «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ

(١) وفي ك : المحفين : أي أهل الكرامة . في ب : المحقين　(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٥ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٨٥ فما بعد .　(٤) البيت لأبي ذؤيب وتقدّم شرحه في جـ ٨ ص ٣١١ .
(٥) البيت من قصيدة لخبيب بن عدي قالها حين بلغه أن الكفار قد اجتمعوا لصلبه .

يَنْبُوعًا » إلى قوله : « أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (١) » . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ حيث سألوا الله الشطط ؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب ، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، فلا عين تراه . وقال مقاتل : « عُتُوًّا » علوا فى الأرض . والعتو : أشد الكفر وأفحش الظلم . و إذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة ؟ وهم لا يميزون بينهم و بين الشياطين ، ولا بدّ لهم من معجزة يقيمها من يدّعى أنه مَلَك ، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة ، وأن ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت : فتبشر المؤمنين بالجنة ، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم . ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ يريد تقول الملائكة حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها ؛ عن ٱبن عباس وغيره . وقيل : إن ذلك يوم القيامة ؛ قاله مجاهد وعطية العوفى . قال عطية : إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى : فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة . وٱنتصب « يَوْمَ يَرَوْنَ » بتقدير لا بشرى للجرمين يوم يرون الملائكة . « يَوْمَئِذٍ » تأكيد لـ « يَوْمَ يَرَوْنَ » . قال النحاس : لا يجوز أن يكون « يَوْمَ يَرَوْنَ » منصوبا بـ « بُشْرَى » لأن ما فى حيز النفى لا يعمل فيما قبله ، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة ؛ ودلّ على هذا الحذف ما بعده . ويجوز أن يكون التقدير : لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة ، و « يَوْمَئِذٍ » مؤكد . ويجوز أن يكون المعنى : ٱذكر يوم يرون الملائكة : ثم ٱبتدأ فقال : « لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا » أى وتقول الملائكة حراما محرما أن تكون لهم البشرى إلا للؤمنين . قال الشاعر :

أَلَا أَصْبَحَتْ أَسْمَاءُ حِجْرًا مُحَرَّمًا * وَأَصْبَحْتُ من أَدْنَى حُمُوَّتِهَا حَمَا (٢)

أراد ألا أصبحت أسماء حراما محرما .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٨ فما بعد .
(٢) قاله رجل كانت له آمرأة فطلقها وتزوجها أخوه ؛ أى أصبحت أخا زوجها بعد ما كنت زوجها .

وقال آخـــر[1] :

حَنّت إلى النَّخْلَةِ القُصْوى فقلتُ لها * حِجْـرٌ حرامٌ أَلَا تِلْكَ الدَّهارِيسُ

وروى عن الحسن أنه قال : « وَيَقُولُونَ حِجْرًا » وقْفٌ من قول المجرمين ؛ فقال الله عز وجل : « مَحْجُورًا » عليهم أن يعاذوا أو يجاروا ؛ فحجـر الله ذلك عليهم يوم القيامة . والأول قول ابن عباس . وبه قال الفراء؛ قاله ابن الأنباريّ . وقرأ الحسن وأبو رجاء : « حُجْرًا » بضم الحـاء والناس على كسرها . وقيل : إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم ؛ قاله قتـادة فيما ذكر المـاوردي . وقيـل : هو قول الكفار للملائكة . وهي كلمة استعاذة وكانت معروفة في الجاهلية؛ فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال : حجرا محجورا؛ أي حراما عليك التعرض لي . وانتصابه على معنى: حجرت عليك، أو حجر الله عليك؛ كما تقول : سقيا ورعيا. أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا : نعوذ بالله منكم؛ ذكره القشيريّ، وحكى معناه المهدوي عن مجاهد . وقيل : « حِجْرًا » من قول المجرمين . « مَحْجُورًا » من قول الملائكة؛ أي قالوا للملائكة نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا. فتقول الملائكة : « مَحْجُورًا » أن تعاذوا من شر هذا اليوم ؛ قاله الحسن .

قوله تعـالى : وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة ؛ أي قصـدنا في ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل برٍّ عند أنفسهم . يقال : قدِم فلان إلى أمر كذا أي قصده . وقال مجاهد : « قَدِمْنَا » أي عمدنا . وقال الراجز :

وقَـدِم الخوارجُ الضُّـلالُ * إلى عِبـاد ربِّهـم فقـالوا
* إن دماءكم لنـا حلالُ *

(١) البيت للتلمس ؛ والنخلة القصوى : واد . والدهاريس : الدواهي . يقول لناقته : هذا الذي حنت إليه ممنوع . وبعده : أمي شآمية إذ لا عراق لنـا * قوما نودّهم إذ قومنا شوس

وقيل: هو قدوم الملائكة، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله(١). ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أى لا ينتفع به؛ أى أبطلناه بالكفر. وليس «هَبَاءً» من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين. والتصغير هُبَيٌّ فى موضع الرفع، ومن النحويين من يقول: هُبَيْءٌ(٢) فى موضع الرفع؛ حكاه النحاس. وواحده هباة والجمع أهباء. قال الحرث بن حِلِّزة [يصف ناقة]:

فَتَرى خلفَها من الرَّجْعِ والوَقْـ * ـعِ مَنِينًا كأنه أهباء(٣)

وروى الحرث عن على قال: الهباء المنثور شعاع الشمس الذى يدخل من الكوة. وقال الأزهرىّ: الهباء ما يخرج من الكوة فى ضوء الشمس شبيه بالغبار. تأويله: إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور. فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار. والمنبث المتفرق. وقال ابن عرفة: الهبوة والهَبَاء التراب الدقيق. الجوهرى: ويقال له إذا ارتفع هبا يَهْبُو هُبُوًّا وأهبيته أنا. والهَبْوة الغَبَرة. قال رؤبة.

تَبْدُو لنا أعلامُه بعد الغَرَقْ * فى قِطَعِ الآلِ وهَبْوَاتِ الدُّقَقْ(٤)

وموضعٌ هابى التراب أى كأن ترابه مثل الهباء فى الرقة. وقيل: إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس أيضا: إنه الماء المهراق. وقيل: إنه الرماد؛ قاله عبيد بن يعلى(٥).

قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

تقدم القول فيه عند قوله تعالى: «قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ»(٦). قال النحاس: والكوفيون يجيزون «العسل أحلى من الخل» وهذا قول مردود؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيرا منه ولا حلاوة فى الخل. ولا يجوز أن يقال: النصرانى خير من اليهودى؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد فى الخير. لكن يقال: اليهودى شر

(١) كذا فى الأصول؛ وعبارة ابن عطية: «أسنده إليه لأنه عن أمره». (٢) قال النحاس: والتقدير عنده هبىء. (٣) قوله «خلفها» أى خلف الناقة. والرجع: رجع قوائمها. والوقع: وقع خفافها. والمنين: الغبار الدقيق الذى تثيره. (٤) الدقق: مادق من التراب، والواحد منه الدقى كما تقول الجلى والجلل. (٥) كذا فى الأصول؛ وفى «روح المعانى»: يعلى بن عبيد. (٦) راجع ص ٩ من هذا الجزء.

من النصرانى؛ فعلى هذا كلام العرب . و « مُسْتَقَرًّا » نصب على الظرف إذا قدر على غير باب « أفعل منك » والمعنى لهم خير فى مستقر . و إذا كان من باب « أفعل منك » فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوى . قال قتادة : « وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » منزلا ومأوى . وقيل : هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار . ومنه الحديث المرفوع " إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق فى مقدار نصف يوم فيَقِيلُ أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار " ذكره المهدوى . وقال ابن مسعود(١) : لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، ثم قرأ : « ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم » كذا هى فى قراءة ابن مسعود . وقال ابن عباس : الحساب من ذلك اليوم فى أوله ، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . ومنه ما روى : " قِيلوا فإن الشياطين لا تَقِيل " . وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " فقلت : ما أطول هذا اليوم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها فى الدنيا " .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ أى واذكر يوم تشقق السماء بالغمام . وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وأبو عمرو : « تشقَّقُ » بتخفيف الشين وأصله تتشقق بتائين فحذفوا الأولى تخفيفا ، واختاره أبو عبيد . الباقون « تَشَّقَّقُ » بتشديد الشين على الادغام ، واختاره أبو حاتم . وكذلك فى « ق »(٢) . « بِالْغَمَامِ » أى عن الغمام . والباء وعن يتعاقبان؛ كما تقول : رميت بالقوس وعن القوس . روى أن السماء تتشقق عن سحاب

---

(١) فى ك : أبو سعيد .		(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦ فما بعد .

أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم فتنشق السماء عنه؛ وهو الذى قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ »[1] . ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ من السموات ، ويأتى الربّ جل وعز فى الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء ، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه ؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال . وقال ابن عباس : تتشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الجن والإنس ، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى سماء الدنيا ، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة ، ثم ينزل الكروبيون[2] وحملة العرش ؛ وهو معنى قوله : « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » أى من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين . وقيل : إن السماء تنشق بالغمام الذى بينها وبين الناس ؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماء ؛ فإذا انشقت السماء انتقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سواها . وقرأ ابن كثير : « وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ » بالنصب من الإنزال . الباقون . «وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ » بالرفع . دليله : « تَنْزِيلًا » ولو كان على الأول لقال إنزالا . وقد قيل : إن نَزَّل وأنزل بمعنى ؛ فجاء « تَنْزِيلًا » على « نَزَّل »[3] وقد قرأ عبد الوهاب عن أبى عمرو : « وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقرأ ابن مسعود : « وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ » . أُبىّ ابن كعب : « وَنُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ » . وعنه « وتنزلت الملائكة » .

قوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ « الْمُلْكُ » مبتدأ و « الْحَقُّ » صفة له و « لِلرَّحْمَنِ » الخبر ؛ لأن الملك الذى يزول وينقطع ليس بملك ؛ فبطلت يومئذ أملاك المالكين وانقطعت دعاويهم ، وزال كل ملك وملكه ، وبقى الملك الحق لله وحده . ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزى والهوان ، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة ؛ على ما تقدّم فى الحديث . وهذه الآية دالة عليه ؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيرا فهو على المؤمنين يسير . يقال : عَسِر يَعْسَر ، وعَسُر يَعْسُر .

---

(١) راجع ج ٣ ص ٢٥ . (٢) الكروبيون (بفتح الكاف) : سادة الملائكة ؛ منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل هم المقربون والكرب القرب . (٣) فى ك : وقد قيل قرأ .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ الماضي عضضت . وحكى الكسائيّ عضَضت بفتح الضاد الأولى . وجاء التوقيف عن أهل التفســير ، منهم آبن عباس وسعيد آبن المسيب أن الظالم ها هنا يراد به عقبــة بن أبي مُعَيط ، وأن خليله أمية بن خلف ؛ فعقبة قتــله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنــه ؛ وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبيّ صلى الله عليه وســلم بقتله ؛ فقال : أأقتل دونهم ؟ فقال . نعم ، بكفرك وعتوّك . فقال : من للصبية ؟ فقال : النار . فقام عليّ رضي الله عنه فقتله . وأمية قتله النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا من دلائل نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خبَّر عنهما بهذا فقتلا على الكفر . ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة ، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قبِلَ من غيره في معصية الله عز وجل . قال آبن عبـاس وقتادة وغيرهما : وكان عقبة قــد همّ بالإســلام فمنعه منه أبيّ بن خلف وكانا خِدنين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قتلهما جميعا : قُتل عقبة يوم بدر صــبرا ، وأبيّ بن خلف في المبـارزة يوم أحد ؛ ذكره القشيريّ والثعلبيّ ، والأوّل ذكره النحاس . وقال السهيليّ : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » هو عقبة بن أبي مُعَيط ، وكان صــديقا لأمية بن خلف الجُمَحيّ ويروى لأبي بن خلف أخ أمية ، وكان قــد صنع وليمــة فدعا إليهــا قريشا ، ودعا رســول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم . وكره عقبــة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قــريش أحد فأســلم ونطق بالشهادتين ، فأتاه رســول الله صلى الله عليــه وسلم وأكل من طعامه ، فعاتبــه خليله أميــة بن خلف ، أو أبي ابن خلف وكان غائبا . فقال عقبة : رأيت عظيما ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش . فقال له خليله : لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت . ففعل

عدوّ الله ما أمره به خليله ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » . قال الضحاك : لما بصق عقبة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع بصاقه فى وجهه وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر فى وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل أثر ذلك فى وجهه حتى قتل . وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله . ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ فى الدنيا ، يعنى طريقا إلى الجنة . ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ دعاء بالويل والثبور على محالفة الكافر ومتابعته . ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يعنى أمية ، وكنى عنه ولم يصرح بآسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصا به ولا مقصورا ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما . وقال مجاهد وأبو رجاء : الظالم عام فى كل ظالم ، وفلان : الشيطان . وآحتج لصاحب هذا القول بأن بعده « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا » . وقرأ الحسن : « يَا وَيْلَتِي » وقد مضى فى « هود »(1) بيانه . والخليل : الصاحب والصديق وقد مضى فى « النساء »(2) بيانه . ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ أى يقول هذا النادم : لقد أضلنى من آتخذته فى الدنيا خليلا عن القرآن والإيمان به . وقيل : « عَنِ الذِّكْرِ » أى عن الرسول . ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ قيل : هذا من قول الله لا من قول الظالم . وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي » . والخذل الترك من الإعانة ؛ ومنه خذلان إبليس للشركين لما ظهر لهم فى صورة سراقة بن مالك ، فلما رأى الملائكة تبرأ منهم . وكل من صدّ عن سبيل الله وأطيع فى معصية الله فهو شيطان للإنسان ، خذولا عند نزول العذاب والبلاء . ولقد أحسن من قال :

تجنّب قرين السّوء وآصرِمْ حبالَه * فإن لم تجد عنه محيصًا فداره
وأحبب حبيب الصدق وآحذر مراءه * تنل منه صفو الود مالم تماره
وفى الشيب ما ينهى الحليم عن الصِّبا * إذا آشتعلت نيرانه فى عذاره

آخر :

آصحب خيار الناس حيث لقيتهم * خير الصحابة من يكون عفيفا
والناس مثل دراهم ميزتها * فوجدت منها فضة وزيوفا

---

(1) راجع ج ٩ ص ٦٩ . (2) راجع ج ٥ ص ٤٠٠ .

وفى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يُحذيك (١) وإما أن تبتاع منه و إما أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك و إما أن تجد ريحا خبيثة " لفظ مسلم . وأخرجه أبو داود من حديث أنس . وذكر أبو بكر البزّار عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله، أيّ جلسائنا خير؟ قال : " من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله " . وقال مالك بن دينار : إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص (٢) مع الفجار . وأنشد :

وصاحب خيار الناس تَنْجُ مسلّما * وصاحب شرار الناس يوما فتندما

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ، يشكوهم إلى الله تعالى . ﴿ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ أى قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر؛ عن مجاهد والنخعيّ . وقيل : معنى « مَهْجُورًا » أى متروكا؛ فعزّاه الله تبارك وتعالى وسلّاه بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى كما جعلنا لك يا محمد عدوا من مشركى قومك — وهو أبو جهل فى قول ابن عباس — فكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من مشركى قومه ، فاصبر ، لأمرى كما صبروا ، فإنى هاديك وناصرك على كل من ناوأك . وقد قيل : إن قول الرسول « يَارَبِّ » إنما يقوله يوم القيامة؛ أى هجروا القرآن وهجرونى وكذبونى . وقال أنس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من تعلّم (٣) القرآن وعلّق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء

(١) أحذاه : أعطاه . (٢) الخبيص : حلواء تعمل من التمر والسمن .

(٣) فى الأصول : « من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفا ... » وتصحيح هذا الأثر من روح المعانى والبيضاوى والشهاب على أنهم تكلموا فى صحته إذ فى سنده أبو هدبة وهو كذاب .

يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين إن عبدك هذا آتخذنى مهجورا فاقض بينى و بينه " . ذكره الثعلبي . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ نصب على الحال أو التمييز، أى يهديك و ينصرك فلا تبال بمن عاداك . وقال آبن عباس : عدوّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ آختلف فى قائل ذلك على قولين : أحدهما — أنهم كفار قريش؛ قاله آبن عباس . والثانى — أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا قالوا : هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور [على داود](١) . فقال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى فعلنا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ نقوى به قلبك فتعيه وتحمله(٢)؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون و يقرءون ، والقرآن أنزل على نبيّ أمىّ ؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبيّ(٣) صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل به ؛ فكان كلما نزل وحى جديد زاده قوّة قلب .

قلت : فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك فى قدرته ؟ . قيل : فى قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن فى لحظة واحدة ، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه فى حكمه، وقد بيّنا وجه الحكمة فى ذلك . وقد قيل : إن قوله « كَذَلِكَ » من كلام المشركين ، أى لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أى كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على « كَذَلِكَ » ثم يبتدئ « لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » . ويجوز أن يكون الوقف على قوله : « جُمْلَةً وَاحِدَةً » ثم يبتدئ « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرّقا لنثبت به فؤادك . قال

---

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) فى ك : وتحتمله . (٣) فى ب و ك : عند النبى .

ابن الأنباري : والوجه الأول أجود وأحسن، والقول الثاني قد جاء به التفسير، حدّثنا محمد ابن عثمان الشيبي قال حدّثنا منجاب قال حدّثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[1] قال : أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء، فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل عليه السلام على محمد عشرين سنة . قال : فهو قوله « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ »[2] يعني نجوم القرآن « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . قال : فلما لم ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم جملة واحدة، قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة؛ فقال الله تبارك وتعالى : « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » يا محمد . ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ يقول : ورسّلناه ترسيلا ؛ يقول : شيئا بعد شيء .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ يقول : لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت . قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوّة ؛ لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم، ويدلّ على هذا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وعلم الله عز وجل أن الصلاح في إنزاله متفرقا، لأنهم ينبهون به مرة بعد مرة، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ، فكانوا يتعبدون بالشيء إلى وقت بعينه قد علم الله عز وجل فيه الصلاح، ثم ينزل النسخ بعد ذلك؛ فمحال أن ينزل جملة واحدة : افعلوا كذا ولا تفعلوا . قال النحاس : والأولى أن يكون التمام « جُمْلَةً وَاحِدَةً » لإنه إذا وقف على « كَذَٰلِكَ » صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدّم لها ذكر . قال الضحاك : « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أي تفصيلا . والمعنى : أحسن من مثلهم تفصيلا؛ فحذف لعلم السامع . وقيل : كان المشركون يستمدّون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٩ .　　(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٣ .

والتبديل ، فكان ما يأتى به النبي صلى الله عليه وسلم أحسن تفسيرا مما عندهم؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل ، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل ، ولهذا قال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ »[1] . وقيل : « لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » كقولهم فى صفة عيسى إنه خلق من غير أب إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ أى بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ تقدم فى « سبحان »[2] . ﴿ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ لأنهم فى جهنم . وقال مقاتل : قال الكفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو شر الخلق ؛ فنزلت الآية . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى دينا وطريقا . ونظم الآية : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة ، وهم محشورون على وجوههم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يريد التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا ﴾ تقدم فى « طه »[3] ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا ﴾ الخطاب لهما . وقيل : إنما أمر موسى صلى الله عليه وسلم بالذهاب وحده فى المعنى . وهذا بمنزلة قوله : « نَسِيَا حُوتَهُمَا »[2] . وقوله : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »[4] وإنما يخرج من أحدهما . قال النحاس : وهذا مما لا ينبغى أن يجترأ به على كتاب الله تعالى ، وقد قال جل وعز : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . فَأْتِيَاهُ فَقُولَا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٦٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٣ .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٩١ وص ١٢ . (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٦١ .

إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ»(١) . ونظير هذا : «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ»(٢) . وقد قال جل ثناؤه : «ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا»(٣) قال القشيرى : وقوله فى موضع آخر : «ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى» لا ينافى هذا؛ لأنهما إذا كان مأمورين فكل واحد مأمور. و يجوز أن يقال : أمر موسى أولا، ثم لما قال : «وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي» قال : «ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ» . ﴿ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يريد فرعون وهامان والقبط . ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ ﴾ فى الكلام إضمار؛ أى فكذبوهما ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أى أهلكناهم إهلاكا .

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ فى نصب «قوم» أربعة أقوال : العطف على الهاء والميم فى «دَمَّرْنَاهُمْ» . الثانى — بمعنى آذكر . الثالث — بإضمار فعل يفسره ما بعده؛ والتقدير : وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم . الرابع — أنه منصوب بـ «أَغْرَقْنَاهُمْ» قاله الفراء . ورده النحاس قال : لأن «أغرقنا» ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل فى المضمر وفى «قَوْمَ نُوحٍ» . ﴿ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده؛ لأنه لم يكن فى ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده؛ فنوح إنما بعث بلا إله إلا الله، وبالإيمان بما ينزل الله، فلما كذبوه كان فى ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة . وقيل : إن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل؛ لأنهم لا يفرق بينهم فى الإيمان، ولأنه ما من نبى إلا يصدق سائر أنبياء الله، فمن كذب منهم نبيا فقد كذب كل من صدقه من النبيين . ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ أى بالطوفان، على ما تقدم فى «هود»(٤) . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أى علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى للمشركين من قوم نوح ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى فى الآخرة. وقيل : أى هذه سبيلى فى كل ظالم .

قوله تعالى : وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٨٣ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٢٦ فما بعد . (٤) راجع جـ ٩ ص ٢٩ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ كله معطوف على « قَوْمَ نُوحٍ » إذا كان « قوم نوح » منصوبا على العطف ، أو بمعنى آذكر . ويجوز أن يكون كله منصوبا على أنه معطوف على المضمر في « دَمَّرْنَاهُمْ » أو على المضمر في « جَعَلْنَاهُمْ » وهو آختيار النحاس ؛ لأنه أقرب إليه . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار فعل ؛ أي آذكر عادا الذين كذبوا هودا فأهلكهم الله بالريح العقيم ، وثمودا كذبوا صالحا فأهلكوا بالرجفة . و ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ والرّسّ في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية ، والجمع رساس[1] . قال :

* تنابلة يحفرون الرِّسَاسَا *

يعني آبار المعادن . قال آبن عباس : سألت كعبا عن أصحاب الرس قال : صاحب «يس» الذي قال : « يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ »[2] قتله قومه ورسّوه في بئر لهم يقال لها الرس طرحوه فيها ، وكذا قال مقاتل . السدي : هم أصحاب قصة «يس» أهل أنطاكية ، والرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار مؤمن آل « يس » فنسبوا إليها . وقال عليّ رضي الله عنه : هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر فدعا عليهم نبيهم ؛ وكان من ولد يهوذا ، فيبست الشجرة فقتلوه ورسّوه في بئر ، فأظلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم . وقال آبن عباس : هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعا وعطشا . وقال وهب بن منبه : كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشي ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيبا فكذبوه وآذوه ، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم ، فبينما هم حول البئر في منازلهم آنهارت بهم وبديارهم ؛ فخسف الله بهم فهلكوا جميعا . وقال قتادة : أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعيبا فكذبوه فعذبهما الله بعذابين . قال قتادة : والرس قرية بفَلْج اليمامة . وقال عكرمة : هم قوم رسّوا نبيهم في بئر حيا . دليله ما روى محمد بن كعب القرظيّ عمن حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فحفر أهل القرية بئرا وألقوا فيها نبيهم حيا وأطبقوا عليه حجرا ضخما

(١) هو النابغة الجعدي والتنابلة : رجال قصار . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٧ فما بعد .

وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره و يبيعه و يأتيه بطعامه وشرابه فيعينه الله على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه فبينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائمـا ثم هبّ من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هبّ فآحتمل حُزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قـد أراهم الله تعالى آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه ومات ذلك النبي". قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن ذلك العبد الأسود لَأول من يدخل الجنة" وذكر هذا الخبر المهدوى والثعلبي ، واللفظ للثعلبي ، وقال : هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم ، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم . وقال الكلبي : أصحـاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبيًا فأكلوه . وهم أول من عمل نساؤهم السَّحْق؛ ذكره المـاوردى . وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرّقوا فيها المؤمنين ، وسيأتى (1) . وقيل : هم بقايا من قوم ثمود ، وأن الرس البئر المذكورة فى « الحج » فى قوله : « وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ » (2) على ما تقدم . وفى الصحاح : والرس آسم بئر كانت لبقية من ثمود . وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السَّحْق ، وكان نساؤهم كلهم سحاقات . وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن من أشراط الساعة أن يكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السَّحْق" وقيل : الرس ماء ونخل لبنى أسـد . وقيل : الثلج المتراكم فى الجبـال؛ ذكره القُشَيرى . وما ذكرناه أولا هو المعروف ، وهو كل حفـر آحتفِر كالقبر والمعدن والبئر . قال أبو عبيدة : الرس كل ركيّة لم تطو ؛ وجمعها رِساس . قال الشاعر :

وهم سائرون إلى أرضهـم * فياليتهـم يَحفرون الرِّساسا

والرّس آسم واد فى قول زهير :

بَكَرْنَ بُكُورًا وآسْتَحَرْنَ بِسُحْرةٍ * فهنّ لوادى الرَّسّ كاليـدِ للفمِ

ورسست رسًّا : حفرت بئرا . ورُسَّ الميتُ أى قُبر . والرس : الإصلاح بين الناس ، والإفساد أيضا وقد رسست بينهم؛ فهو من الأضداد . وقد قيل فى أصحاب الرس غير ما ذكرنا ، ذكره

(1) راجع جـ ١٩ ص ٢٨٤ . (2) راجع جـ ١٢ ص ٧٥ .

الثعلبي وغيره . ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى أمما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس . وعن الربيع بن خيثم آشتكى فقيل له : ألا نتداوى فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر به؟ قال : لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني و بين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا كانوا أكثر وأشد حرصا على جمع المال، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقي ولا المنعوت ؛ فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات، رحمه الله .

قوله تعالى : وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ قال الزجاج . أى وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال و بينا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة . وقيل : انتصب على تقدير ذكرنا كلا ونحوه، لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ؛ ذكره المهدوي . والمعنى واحد . ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ أى أهلكنا بالعذاب . وتبرت الشيء كسرته . وقال المؤرج والأخفش : دمرناهم تدميرا . تبدل التاء والباء من الدال والميم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ﴾ يعني مشركي مكة . والقرية قرية قوم لوط . و﴿ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الحجارة التي أمطروا بها . ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أى في أسفارهم ليعتبروا . قال آبن عباس : كانت قريش في تجارتها(١) إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ »(٢) وقال : « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ »(٣) وقد تقدم . ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ أى لا يصدقون بالبعث . ويجوز أن يكون معنى « يَرْجُونَ » يخافون . ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه : بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة .

---

(١) في ك : تجاراتهم . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٢٠ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٥ .

قوله تعـالى : وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ جواب « إِذَا » « إِنْ يَتَّخِذُونَكَ » لأن معناه يتخذونك . وقيـل : الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون : « أَهَـذَا الَّذِي » وقوله : « إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض . ونزلت فى أبى جهل كان يقول للنبيّ صلى الله عليـه وسلم مستهزئا : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا ﴾ والعائد محذوف، أى بعثه الله . « رَسُولًا » نصب على الحال والتقدير : أهذا الذى بعثه الله مرسلا . « أَهَذَا » رفع بالابتداء و « الَّذِي » خبره . « رَسُولًا » نصب على الحال . و « بَعَثَ » فى صلة « الَّذِي » واسم الله عز وجل رفع بـ « بَعَثَ » . ويجوز أن يكون مصدرا؛ لأن معنى « بَعَثَ » أرسل و يكون معنى « رَسُولًا » رسالة على هذا . والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار . ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾ أى قالوا قد كاد أن يصرفنا . ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أى حبسنا أنفسنا على عبادتها . قال الله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَـذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ يريد من أضل دينا أهم أم محمد، وقد رأوه فى يوم بدر .

قوله تعـالى : أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ عَجَّب نبيه صلى الله عليه وسلم من إضمارهم على الشرك و إصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم، ثم يعمد(١) إلى حجر يعبده من غير حجة . قال الكلبي وغيره : كانت العرب إذا هوى الرجل منهم شيئا عبده من دون الله ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعَبَد الأحسن؛ فعلى هـذا يعنى : أرأيت من اتخذ إلهه بهواه؛ فحذف الجـار . وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله ، ثم تلا هـذه الآية .

---

(١) فى ك : ثم يعمدوا ــ يعبدوه وهو خطأ من الناسخ وهو إن : يعمدون ــ يعبدونه ــ كما تقتضى العبارة .

قال الشاعر :

لعمر أبيها[(١)] لو تبدّت لناسك * قد اعتزل الدنيا بإحدى المناسك

لَصلّى لها قبل الصلاة لربه * ولا ارتد فى الدنيا بأعمال فاتك

وقيل : «اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ» أى أطاع هواه . وعن الحسن لا يهوى شيئا إلا اتبعه ، والمعنى واحد . ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أى حفيظا وكفيلا حتى تردّه إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد . أى ليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك ، وإنما عليك التبليغ . وهذا رد على القدرية . ثم قيل : إنها منسوخة بآية القتال . وقيل : لم تنسخ ؛ لأن الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن . وذمّهم جل وعز بهذا . «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ» سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه ؛ أى هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع . وقيل : المعنى أنهم لمّا لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا ؛ والمراد أهل مكة . وقيل : «أَمْ» بمعنى بل فى مثل هذا الموضع . ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أى فى الأكل والشرب لا يفكرون فى الآخرة . ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام . وقال مقاتل : البهائم تعرف ربها وتهتدى إلى مراعيها[(٢)] وتنقاد لأربابها التى تعقلها[(٢)] ، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذى خلقهم ورزقهم . وقيل : لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوّة لم تعتقد بطلان ذلك أيضا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

(١) فى ك : أبيك . (٢) فى ك : مراتعها . التى تعلفها .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم . وقال الحسن وقتادة وغيرهما : مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقيـل : هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها . والأوّل أصح ؛ والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ؛ فإن فيهـا يجد المريض راحة والمسافر وكل ذى علة : وفيهـا ترد نفوس الأموات والأرواح منهـم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها . وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب . وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا ؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . أبو عبيدة : الظل بالغـداة والفىء بالعشى ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس ؛ سمى فيئا لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب . قال الشاعر ، وهو حميد ابن ثور يصف سرحة(١) وكنى بها عن آمرأة :

فلا الظِّلُّ من بَرْدِ الضُّحَا تَسْتطِيعُهُ * ولا الْـفَىْءُ من بَرْدِ العشِىّ تـذُوقُ

وقال آبن السّكيت : الظل ما نسخته الشمس والفىء ما نسـخ الشمس . وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظلّ . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَـلَهُ سَاكِنًا ﴾ أى دائمـا مستقرا لا تنسخه الشمس . آبن عباس : يريد إلى يوم القيامة ، وقيل : المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيـلًا ﴾ أى جعلنا الشمس بنسخها الظلّ عنـد مجيئها دالة على أن الظلّ شىء ومعنى ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النـور ما عرفت الظلمة . فالدليل فعيل بمعنى الفاعل . وقيل : بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب . أى دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به ؛ أى أتبعناها إياه . فالشمس دليل أى حجة و برهان ، وهو الذى يكشف المشكل و يوضحه . ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه فى معنى الاسم ؛ كما يقال : الشمس برهان والشمس حق . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾ يريد ذلك الظل الممدود . ﴿ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى يسيرا قبضه علينا . وكل أمرِ ربنا عليه يسير . فالظل مكثه فى هـذا الجو بمقدار طلوع

(١) السرحة : واحدة السرح ، وهو شجر كبار عظام لا ترعى و إنما يستظل فيه .

الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظلّ مقبوضا ، وخلفه فى هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل ، إنما ذلك بقية نور النهار . وقال قوم : قبضه بغروب الشمس ؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله بمجىء الليل ودخول الظلمة عليه . وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل فى الذهاب شيئا فشيئا ؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيمى . وقيل : « ثُمَّ قَبَضْنَاهُ » أى قبضنا ضياء الشمس بالفىء « قَبْضًا يَسِيرًا » . وقيل : « يَسِيرًا » أى سريعا ، قاله الضحاك . قتادة : خفيا ؛ أى إذا غابت الشمس قبض الظل قبضا خفيا ؛ كلما قُبض جزءٌ منه جُعل مكانه جزءٌ من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة . فهذا معنى قول قتادة ؛ وهو قول مجاهد .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعنى سترا للخلق يقوم مقام اللباس فى ستر البدن . قال الطبرى : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث يستر الأشياء ويغشاها .

الثانية — قال ابن العربى : ظن بعض الغُفْلة أن من صلّى عريانا فى الظلام أنه يجزئه ؛ لأن الليل لباس . وهذا يوجب أن يصلّى فى بيته عريانا إذا أغلق عليه بابه . والستر فى [الصلاة][1] عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس . ولا حاجة إلى الإطناب فى هذا .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أى راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال . وأصل السبات من التمدد . يقال : سبتت المرأة شعرها أى نقضته وأرسلته . ورجل مسبوت أى ممدود الخلقة . وقيل : للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون ، وفى التمدد معنى الراحة . وقيل :

(١) فى الأصول : « فى الظلام » . والتصويب من « أحكام القرآن لابن العربى » .

السبت القطع ؛ فالنوم ٱنقطاع عن الاشتغال ؛ ومنــه سَبَتَ اليهودُ لانقطاعهم عن الأعمال فيــه . وقيل : السبت الإقامة فى المكان ؛ فكأن السبات سكون مّا وثبوت عليــه ؛ فالنوم سُبَاتٌ على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة . وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ؛ أى جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الإجمام والراحة .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ من الانتشار للمعاش ؛ أى النهـار سبب الإحياء للانتشار . شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة . وكان عليه السلام إذا أصبح قال : " الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ نُشُرًا[(1)] بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ تقدم فى «الأعراف» مســـتوفى .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ .

فيه خمس عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : « مَاءً طَهُورًا » يتطهر به ؛ كما يقال : وضوء للمـاء الذى يتوضأ به . وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورا . فالطهور (بفتح الطاء) الاسم . وكذلك الوَضوء والوَقود . وبالضم المصدر ، وهذا هو المعروف فى اللغة ؛ قاله ٱبن الأنبارى . فبيّن أن المـاء المنزل من السماء طاهر فى نفسه مطهِّر لغيره ؛ فإن الطهور بنـاء مبالغة فى طاهر ، وهــذه المبالغة ٱقتضت أن يكون طاهرا مطهرا . وإلى هذا ذهب الجمهور . وقيل : إن « طَهُورًا » بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبى حنيفة ؛ وتعلق بقوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا[(2)] » يعنى طاهرا .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٢٨ و « نشرا » بالنون قراءة نافع . (٢) راجع ج ١٩ ص ١٤٥ .

وبقول الشاعر :

خليلىّ هل فى نظرة بعد توبة * أداوى بها قلبى علىّ فجُور
إلى رُجّج الأكفالِ غِيدٍ من الظِّبا (١) * عِذاب الثنايا رِيقُهنّ طَهُورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر . وتقول العرب : رجل نؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره ، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه . ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خسائس الصفات كالغِل والحَسَد ، فإذا شربوا هذا الشراب يطهرهم الله من رحض الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة ، فجاءوا الله بقلب سليم ، ودخلوا الجنة بصفات التسليم ، وقيل لهم حينئذ : «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» (٢) . ولما كان حكمه فى الدنيا بزوال حكم الحدث بجريان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته (٣) فى الآخرة . وأما قول الشاعر :

* ... رِيقُهنّ طَهُورُ *

فإنه قصد بذلك المبالغة فى وصف الريق بالطهورية لعذوبته وتعلقه بالقلوب ، وطيبه فى النفوس ، وسكون غليل المحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور ، وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية ؛ فإن الشعراء يتجاوزون فى الاستغراق حدّ الصدق إلى الكذب ، ويسترسلون فى القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية ، وربما وقعوا فى الكفر من حيث لا يشعرون . ألا ترى إلى قول بعضهم :

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رجلَها * لما كنتُ أدرى عِلّةً للتيمم

وهذا كفر صراح ، نعوذ بالله منه . قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا منتهى لباب كلام العلماء ، وهو بالغ فى فنّه ؛ إلا أنى تأملت من طريق العربية فوجدت فيه

---

(١) فى ابن العربى واللسان مادة « رجح » :

* إلى رجح الأكفال هيف خصورها *

وامرأة رجاح وراجح ، ثقيلة العجيزة ، من نسوة رجح .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد .

(٣) فى ب و ز و ك : حكمته ورحمته .

مطلعا مشرقا ، وهو أن بنــاء فعول للبالغــة ، إلا أن المبالغة قــد تكون فى الفعل المتعدّى كما قال الشاعر :

* ضَرُوبٌ بنصل السيف سُوقَ سِمانها (١) *

وقد تكون فى الفعل القاصر كما قال الشاعر :

* نَؤُوم الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ (٢) *

و إنمـا تؤخذ طهورية المـاء لغيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة؛ كقوله عليه السلام : " لا يقبل الله صــلاة بغير طهور " . وأجمعت الأمة لغــة وشريعة على أن وصف طهــور يختص بالمـاء فلا يتعدى إلى سائر المـائعات وهى طاهرة؛ فكان ٱقتصارهم بذلك على المـاء أدلّ دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتى فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا : وَقُود وسَحُور بفتح الفـاء ، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به ؛ فوصف المـاء بأنه طهــور (بفتح الطاء) أيضـا يكون خبرا عن الآلة التى يتطهر بها . فإذا ضمت الفاء فى الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبرا عنه . فثبت بهذا أن ٱسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناء للبالغة و يكون خبرا عن الآلة ، وهو الذى خطر ببال الحنفية ، ولكن قصرت أشداقها عن لَوْكه ، و بعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » . وقوله عليه السلام : " جعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا " يحتمل المبالغة و يحتمل العبارة به عن الآلة؛ فلا حجة فيه لعلمائنا، لكن يبقى قوله : « لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ (٣) » نص فى أن فعله يتعدى إلى غيره .

الثانيـــة — الميـاه المنزلة من السماء والمودعة فى الأرض طاهرة مطهرة على ٱختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها ، والمخالط للمـاء على ثلاثة أضرب : ضرب يوافقه

(١) هذا صدر بيت من قصيدة لأبى طالب بن عبد المطلب يمدح بها مسافر بن عمرو القرشى ؛ وتمـامه .

* إذا عدموا زادا فإنـك عاقـر *

(٢) هذا عجز بيت من معلقة آمرئ القيس ؛ وصدره :

* و يضحى فتيت المسك فوق فراشها *

والآنتطاق : الآتزار للعمل . والتفضل : التوشح ، وهو لبسها أدنى ثيابها .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٧ .

فى صفتيه جميعا، فإذا خالطه فغيّره لم يسلبه وصفا منهما لموافقته لها وهو التراب . والضرب الثانى يوافقه فى إحدى صفتيه وهى الطهارة، فإذا خالطه فغيّره سلبه ماخالفه فيه وهو التطهير[1]؛ كماء الورد وسائر الطاهرات . والضرب الثالث يخالفه فى الصفتين جميعا، فإذا خالطه فغيره سلبه الصفتين جميعا لمخالفته له فيهما وهو النجس .

الثالثــة — ذهب المصريون[2] من أصحاب مالك إلى أن قليل المـاء يفسده قليل النجاسة، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غيّر لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات . ولم يحدّوا بين القليل والكثير حدّا يوقف عنده، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك فى الجُنُب يغتسل فى حوض من الحياض التى تسقى فيها الدواب ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد المـاء؛ وهو مذهب ابن القـاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن اتبعهم من المصريين . إلا ابن وهب فإنه يقول فى المـاء بقول المدنيين من أصحاب مالك . وقولهم ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه : أن المـاء لا تفسده النجاسة الحالّة فيه قليلا كان أو كثيرا إلا أن تظهر فيه النجاسة [الحالة فيه][3] وتغيّر منه طعما أو ريحا أو لونا . وذكر أحمد بن المعذّل أن هذا قول مالك بن أنس فى المـاء . وإلى هذا ذهب إسمعيل بن إسحق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهرى وسائر المنتحلين لمذهب مالك من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعى والليث بن سـعد والحسن بن صالح وداود بن علىّ . وهو مذهب أهل البصرة، وهو الصحيح فى النظر وجيـد الأثر . وقال أبو حنيفة : إذا وقعت نجاسة فى المـاء أفسدته كثيرا كان أو قليلا إذا تحققت عموم النجاسة فيه . ووجه تحققها عنده أن تقع مثلا نقطة بول فى بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس . وفى المجموعة نحو مذهب أبى حنيفة . وقال الشافعى بحديث القلتين، وهو حديث مطعون فيه؛ اختلف فى إسناده ومتنه؛ أخرجه أبو داود والترمذى وخاصة الدّارَقُطْنى، فإنه صدّر به كتابه وجمع طرقه . قال ابن العربى : وقد رام الدّارَقُطْنى على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر[4] . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما ما ذهب إليـه الشافعى من حديث القلتين فمذهب ضعيف من جهـة النظر، غير ثابت

(١) قوله التطهير . المراد به رفع الحدث . محققه . (٢) فى ك : البصريون . ويبدو أنه غلط من الناسخ .
(٣) من ك . (٤) فى ك : فلم يستطع .

فى الأثر؛ لأنه قـد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل ، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغهما فى أثر ثابت ولا إجماع ، فلو كان ذلك حدّا لازما لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حدّ ما حدّه النبيّ صلى الله عليـه وسلم ؛ لأنه من أصـل دينهم وفرضهم ، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه ، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف .

قلت : وفيما ذكر ابن المنذر فى القلتين من الخلاف يدلّ على عدم التوقيف فيهما والتحديد . وفى سنن الدَّارَقُطْنِى عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال : القِلال الخوابى العظام . وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين . ويظهر من قول الدَّارَقُطْنِى أنها مثل قِلال هَجَر ؛ لسياقه حديث الإسراء عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليـه وسلم قال "لمـا رفعت إلى سِدرة المنتهى فى السماء السابعة نبقها مثـل قِلال هجـر وورقها مثل آذان الفيلة" وذكر الحديث . قال ابن العربى : وتعلق علماؤنا بحديث أبى سعيد الخـدرى فى بئر بُضاعة [(1)]، رواه النسـائىّ والترمذى وأبو داود وغيرهم . وهو أيضـا حديث ضعيف لا قدم له فى الصحة فلا تعويل عليه . وقد فاوضت الطوسى الأكبر فى هـذه المسئلة فقال : إن أخاص المذاهب فى هـذه المسئلة مذهب مالك ، فإن المـاء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه ؛ إذ لا حديث فى البـاب يعوّل عليه ، وإنما المعوّل على ظاهر القرآن وهو قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وهو ما دام بصفاته ، فإذا تغـيّر عن شيء منها خرج عن الاسم لخـروجه عن الصفة ، ولذلك لمـا لم يجد البخارى إمام الحديث والفقه فى الباب خبرا يعوّل عليه قال : (باب إذا تغير وصف المـاء) وأدخل الحـديث الصحيح : "ما من أحد يُكلَم فى سبيل الله والله أعلم بمن يُكلَم فى سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَب [(2)] دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك" . فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الدم بحاله وعليه رائحة المسك ، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية . ولذلك قال علماؤنا : إذا تغير المـاء بريح جيفة على طرفه وساحله لم يمنع ذلك الوضوء منه . ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيسا له للمخالطة والأول مجاورة [لا تعويل عليها [(3)]] .

---

(١) بئر بضاعة : بئر قديمة بالمدينة . ويقال إن بضاعة اسم امرأة نسبت إليها البئر . (٢) يثعب : يجرى .
(٣) هذه زيادة من الأحكام لابن العربى .

قلت : وقد آستدلّ به أيضا على نقيض ذلك ، وهو أن تغير الرائحة يخرجه عن أصله . ووجه هذا الآستدلال أن الدم لما آستحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثا نجسا، وأنه صار مسكا؛ وإن المسك بعض دم الغزال .

فكذلك المـاء إذا تغيرت رائحتـه . وإلى هـذا التأويل ذهب الجمهـور فى المـاء . وإلى الأول ذهب عبد الملك . قال أبو عمر : جعلوا الحكم للرائحة دون اللون، فكان الحكم لها فاستدلوا عليها فى زعمهم بهـذا الحديث . وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليـه النفس ، ولا فى الدم معنى المـاء فيقاس عليه، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء، وليس من شأن أهل العلم اللغز به وإشكاله؛ وإنمـا شأنهم إيضاحه وبيانه، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيّننّه للنـاس ولا يكتمونه ، والمـاء لا يخلو تغيّره[1] بنجاسة أو بغير نجاسـة ، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع العلمـاء على أنه غير طاهر ولا مطهر ، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على أصله . وقال الجمهور : إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة و حمأة . وما أجمعوا عليه فهو الحق الذى لا إشكال فيه، ولا التباس معه .

الرابعــة — المـاء المتغير بقراره كزرنيخ أو جير يجرى عليه، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الآحتراز عنـه فاتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به ، لعدم الآحتراز منه والآنفكاك عنه ؛ وقد روى آبن وهب عن مالك أن غيره أولى منه .

الخامســة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : ويكره سؤر النصرانىّ وسائر الكفار والمدمن الخمـر ، وما أكل الجيف ؛ كالكلاب وغيرها . ومن توضأ بسـؤرهم فلا شىء عليـه حتى يستيقن النجاسة . قال البخارىّ : وتوضأ عمر رضى الله عنه من بيت نصرانية . ذكر سفيان آبن عيينة قال : حدّثونا عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لمـا كنا بالشأم أتيت عمر بن الخطاب بماء فتوضأ منه فقال : من أين جئت بهذا المـاء ؟ ما رأيت ماء عذبا ولا ماء سماء أطيب منه . قال قلت : جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية؛ فلما توضأ أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى تسلمى ، بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق . قال : فكشفت عن رأسها؛ فإذا

(١) لعل العبارة : تغيره بنجاسة .

مثل الثَّغامة[1] ، فقالت : عجوز كبيرة ، و إنما أموت الآن ! فقال عمر رضى الله عنــه : اللهم آشهد . خرجه الدَّارَقُطْنىّ ، حدّثنا الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا أحمد بن إبراهيم البُوشَنْجِى قال حدّثنا سفيان . . فذكره . ورواه أيضا عن الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا خلاد بن أسلم حدّثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنــه توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال : أيتها العجوز أسلمى ... ؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدّم .

السادســـة — فأما الكلب إذا ولغ فى المـاء فقال مالك : يغسل الإناء سبعا ولا يتوضأ منــه وهو طاهر . وقال الثورىّ : يتوضأ بذلك المـاء و يتيمم معه . وهو قول عبد الملك آبن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة . وقال أبو حنيفة : الكلب نجس ، و يغسل الإناء منه لأنه نجس . و به قال الشافعىّ وأحمــد و إسحق . وقــد كان مالك يفرق بين ما يجــوز آتخاذه من الكلاب و بين ما لا يجــوز آتخاذه منها فى غسل الإناء من ولوغه . وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده ، لا ينجس ولوغه شيئا ولغ فيه طعاما ولا غيره ؛ إلا أنه آستحب هراقة ما ولغ فيه من المـاء ليسارة مؤنته . وكلب البادية والحاضرة ســواء . و يغسل الإناء منه على كل حال سبعا تعبدا . هــذا ما آستقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه . ذكر آبن وهب قال : حدّثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليــه وسلم عن الحياض التى تكون فيما بين مكة والمدينــة ، فقيل له : إن الكلاب والسباع ترد عليها . فقال : " لها ما أخذت فى بطونها ولنــا ما بقى شراب وطهور " أخرجه الدَّارَقُطْنىّ . وهذا نص فى طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه . وفى البخارىّ عن آبن عمر أن الكلاب كانت تقبــل وتدبر فى مسجد رســول الله صلى الله عليــه وسلم ولا يرشّون شيئا من ذلك . وقال عمر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذى سأله عمرو بن العاص : هل ترد حوضك السباع . فقال عمر : ياصاحب الحوض ، لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا . أخرجه مالك والدَّارَقُطْنىّ . ولم يفــرق بين الســباع ، والكلب من جملتها ، ولا حجة للمخالف

(١) الثغامة : نبات أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به .

فى الأمر بإراقة ماولغ فيه وأن ذلك للنجاسة ، وإنما أمر بإراقته لأن النفس تعافه لا لنجاسته ؛ لأن التنزه من الأقذار مندوب إليه ، أو تغليظا عليهم لأنهم نهوا عن آقتنائها كما قاله ابن عمر والحسن ؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم فى الماء لقلته عندهم فى البادية ، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من آقتنائها . وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسته كما ذكرناه بدليلين : أحدهما — أن الغسل قد دخله العدد . الثانى — أنه جعل للتراب فيه مدخل لقوله عليه السلام : " وعفّروه الثامنة بالتراب " . ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه مدخل كالبول . وقد جعل صلى الله عليه وسلم الهر وما ولغ فيه طاهرا ، والهرّ سَبُع لا خلاف فى ذلك ؛ لأنه يفترس ويأكل الميتة ؛ فكذلك الكلب وما كان مثله من السباع ؛ لأنه إذا جاء نَصٌّ فى أحدهما كان نصّا فى الآخر . وهذا من أقوى أنواع القياس . هذا لو لم يكن هناك دليل ؛ وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف . والحمد لله .

السابعة — ما مات فى الماء مما لا دم له فلا يضرّ الماء إن لم يغيّر ريحه ؛ فإن أنتن لم يتوضأ به . وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه ؛ إلا أن تتغير رائحته ، فإن تغيرت رائحته وأنتن لم يجز التطهر به ولا الوضوء منه ، وليس بنجس عند مالك . وأما ماله نفس سائلة فمات فى الماء ونزح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلا أو كثيرا عند المدنيين . وآستحب بعضهم أن ينزح من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به ، ولا يحدّون فى ذلك حدّا لا يتعدّى . ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزح الدلاء ، فإن آستعمله أحد فى غسل أو وضوء جاز إذا كانت حاله ما وصفنا . وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يتيمم ، فيجمع بين الطهارتين أحتياطا ، فإن لم يفعل وصلّى بذلك الماء أجزأه . وروى الدَّارَقُطْنىّ عن محمد بن سيرين أن زِنجيا وقع فى زمزم — يعنى فمات — فأمر به آبن عباس رضى الله عنه فأخرج فأمر بها أن تنزح . قال : فغلبتهم عين جاءتهم من

الركن فأمر بها فدسمت بالقُباطِي (١) والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها انفجرت عليهم . وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاما وقع في بئر زمزم فنزحت . وهذا يحتمل أن يكون الماء تغير ، والله أعلم . وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول : كل نفس سائلة لا يتوضأ منها ، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجُنْدُب (٢) إذا وقعن في الرِّكاء (٣) فلا بأس به . قال شعبة : وأظنه قد ذكر الوزغة . أخرجه الدَّارَقُطْنِي، حدّثنا الحسين بن إسمعيل قال حدّثنا محمد بن الوليد قال حدّثنا محمد بن جعفر قال حدّثنا شعبة ... ؛ فذكره .

الثامنـــة — ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الهر من الماء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبي قتادة، أخرجه مالك وغيره . وقد روى عن أبي هريرة فيه خلاف . وروى عن عطاء بن أبي رباح وسعيد آبن المسيّب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهر وغسل الإناء منه . وآختلف في ذلك عن الحسن . ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه . قال الترمذي لما ذكر حديث مالك : «وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة، هذا حديث حسن صحيح، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم؛ مثل الشافعي وأحمد وإسحق، لم يروا بسؤر الهرة بأسا» . وهذا أحسن شيء في الباب، وقد جوّد مالك هذا الحديث عن إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة، ولم يأت به أحد أتم من مالك . قال الحافظ أبو عمر : الحجة عند التنازع والآختلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناء حتى شربت . الحديث . وعليه آعتماد الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله؛ فإنه كان يكره سؤره . وقال : إن توضأ به أحد أجزأه، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الهرة أحسن من أنه لم يبلغه حديث أبي قتادة، وبلغه حديث أبي هريرة في الكلب فقاس الهر عليه ، وقد فرقت السنة بينهما في باب

(١) دسم الشيء يدسمه دسما : سدّه . والقباطي (بالضم) : ثياب من كتان رقيق يعمل بمصر؛ نسبة إلى القبط على غير قياس . والمطارف : جمع مطرف، وهو رداء من خز مربع ذو أعلام . (٢) الجندب كهدهد طوير شبه الجرادة . قيل هو الصرصر . (٣) الركاء (جمع ركوة) : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

التعبد فى غسل الإناء ، ومَن حَجَّته السنة خاصمته ، وما خالفها مطرح . و بالله التوفيق . ومن حجتهم أيضا ما رواه قرة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الهر أن يغسل مرة أو مرتين " شك قرة . وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد ، وقرة ثقة ثبت .

قلت : هذا الحديث أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ ، ومتنه : " طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهر مرة أو مرتين " . قرة شك . قال أبو بكر : كذا رواه أبو عاصم مرفوعا ، ورواه غيره عن قرة (ولوغ الكلب) مرفوعا و (ولوغ الهر) موقوفا . وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يغسل الإناء من الهر كما يغسل من الكلب " قال الدَّارَقُطْنِيّ : لا يثبت هذا مرفوعا والمحفوظ من قول أبى هريرة وآختلاف عنه . وذكر معمر وآبن جريج عن آبن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهر مثل الكلب . وعن مجاهد أنه قال فى الإناء يلغ فيه السنور قال : آغسله سبع مرات . قاله الدَّارَقُطْنِيّ .

التاسعة — الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة ؛ إلا أن مالكا وجماعة من الفقهاء الجِلّة كانوا يكرهون الوضوء به . وقال مالك : لا خير فيه ، ولا أحب لأحد أن يتوضأ به ، فإن فعل وصلّى لم أر عليه إعادة الصلاة و يتوضأ (١) لما يستقبل . وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأصحابهما : لا يجوز آستعماله فى رفع الحدث ، ومن توضأ به أعاد ؛ لأنه ليس بماء مطلق ، و يتيم واجده لأنه ليس بواجد ماء . وقال بقولهم فى ذلك أصبغ بن الفرج ، وهو قول الأوزاعيّ . وآحتجوا بحديث الصُّنابِحِيّ خرجه مالك وحديث عمرو بن عبسة أخرجه مسلم ، وغير ذلك من الآثار . وقالوا : الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه ؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب . قال أبو عمر : وهذا عندى لا وجه له ؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده ، و إنما معنى قوله : «خرجت الخطايا مع الماء» إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده

(١) فى ك : وليتوضأ .

المؤمنين رحمة منه بهـم وتفضلا عليهم . وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك ، وأن الوضوء بالمـاء المستعمل جائز ؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليـه شيء وهو ماء مطلق . وآحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن فى أعضاء المتوضئ نجاسة . و إلى هذا ذهب أبو عبد الله المَرْوَزِىّ محمد بن نصر . وروى عن علىّ بن أبى طالب وآبن عمر وأبى أُمامة وعطاء بن أبى رَبَاح والحسن البصرى والنَّخَعِىّ ومكحول والزهرىّ أنهـم قالوا فيمن نسى مسح رأسـه فوجد فى لحيته بللا : إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأسـه ؛ فهؤلاء كلهم أجازوا الوضوء بالمـاء المستعمل . روى عبد السلام بن صالح حدّثنا إسحق بن سُويد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم مرضىّ أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم خرج عليهم ذات يوم وقد آغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها المـاء، فقلنا : يا رسول الله ، هذه لمعـة لم يصبها المـاء ؛ فكان له شـعر وارد(1)، فقال(2) بشعره هكذا على المكان فبَـلَّه . أخرجه الدَّارَقُطْنِىّ، وقال : عبد السلام بن صالح هذا بصرىّ وليس بقوىّ، وغيره من الثقات يرويه عن إسحق عن العلاء مرسلا، وهو الصواب .

قلت : الراوى الثقة عن إسحق بن سُويد العدوى عن العلاء بن زياد العدوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آغتسل ... ؛ الحديث فيما ذكره هشيم . قال آبن العربى : «مسئلة المـاء المستعمل إنمـا تنبنى على أصل آخر ، وهو أن الآلة إذا أدّى بها فرض هل يؤدى بها فرض آخر أم لا ؛ فمنع ذلك المخـالف قياسا على الرقبة إذا أدّى بهـا فرض عتق لم يصلح أن يتكرر فى أداء فرض آخر ؛ وهـذا باطل من القول ، فإن العتق إذا أتى على الرق أتلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعتق آخر . ونظيره من المـاء ما تلف على الأعضـاء فإنه لا يصح أن يؤدّى به فرض آخر لتلف عينه حِسًّا كما تلف الرق فى الرقبة بالعتق حكما، وهذا نفيس فتأملوه » .

---

(1) أى مسترسل طويل . (2) العـرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده ، أى أخذ . وقال برجله ؛ أى مشى : وقال بالماء على يده ؛ أى قلب . وقال بثوبه ؛ أى رفعه . وكل ذلك على المجاز والاتساع .

العاشرة — لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماء، راكدا كان الماء أو غير راكد؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغيّر طعمه أو لونه أو ريحه". وفرقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسة على الماء تنجس؛ واختاره ابن العربي. وقال: من أصول الشريعة في أحكام المياه أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده". فمنع من ورود اليد على الماء وأمر بإيراد الماء عليها؛ وهذا أصل بديع في الباب، ولولا وروده على النجاسة — قليلا كان أو كثيرا — لما طهرت. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بول الأعرابي في المسجد: "صبّوا عليه ذَنُوبا(1) من ماء". قال شيخنا أبو العباس: واستدلّوا أيضا بحديث القلتين، فقالوا: إذا كان الماء دون القلتين فخلته نجاسة تنجس وإن لم تغيّره، وإن ورد ذلك القدر فأقلّ على النجاسة فأذهب عينها بقي الماء على طهارته وأزال النجاسة. وهذه مناقضة، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق صوريّ ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها. ثم هذا كله منهم يرده قوله عليه الصلاة والسلام: "الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه".

قلت: هذا الحديث أخرجه الدَّارَقُطْنِيّ عن رِشدين بن سعد أبي الحجاج عن معاوية ابن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وليس فيه ذكر اللون. وقال: لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوي، وأحسن منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خَدِيج عن أبي سعيد الخدري قال قيل: يارسول الله،

(1) الذنوب (بالفتح): الدلو.

أنتوضأ من بئر بُضاعة ؟ وهى بئر تلقى فيها الحِيَض[(١)] ولحوم الكلاب والنتن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المــاء طهور لا ينجسه شيء " أخرجه أبو داود والترمذى والدَّارَقُطْنِيّ كلهم بهذا الإسناد . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد جوّد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبى سعيد فى بئر بُضاعة أحسن مما روى أبو أسامة . فهذا الحديث نص فى ورود النجاسة على المــاء ، وقد حكم صلى الله عليه وسلم بطهارته وطهوره . قال أبو داود : سمعت قتيبة بن سعيد قال سألت قيِّم بئر بضاعة عن عمقها ؛ قلت : أكثر ما يكون المــاء فيها ؟ قال : إلى العانة . قلت : فإذا نقص؟ قال : دون العورة . قال أبو داود : وقدّرت بئر بُضاعة بردائى مددته عليها ثم ذرعته فإذا عرضها ستة أذرع ، وسألت الذى فتح لى باب البستان فأدخلنى إليه : هل غيّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال لا . ورأيت فيها ماء متغير اللون . فكان هذا دليلا لنــا على ما ذكرناه ، غير أن آبن العربى قال : إنها فى وسط السَّبَخة ، فماؤها يكون متغيّرا من قرارها ؛ والله أعلم .

الحــادية عشرة ـــ المــاء الطاهر المطهــر الذى يجــوز به الوضــوء وغسل النجاسات هو المــاء القراح الصافى من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار ، وما عرفه الناس ماء مطلقا غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافيا ولا يضره لونــ أرضه على ما بيناه . وخالف فى هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ فى السفر ، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر . فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به . إلا أن أصحابه يقولون : إذا زالت النجاسة به جاز . وكذلك عنده النار والشمس ؛ حتى أن جلد الميتة إذا جفّ فى الشمس طهر من غير دباغ . وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع ، بحيث تجوز الصلاة عليه ، ولكن لا يجــوز التيمم بذلك التراب . قال آبن العربى : لمــا وصف الله سبحانه المــاء بأنه طهور وآمتن بإنزاله من السماء ليطهرنا به دلّ على آختصاصه بذلك ؛ وكذلك قال عليه الصلاة

(١) الحيض : الخرق التى يمسح بها دم الحيض ؛ ويقال لها المحايض .

والسلام لأسماء بنت الصدّيق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب : "حُتّيه[١] ثم ٱقرِصيه ثم ٱغسليه بالماء" . فلذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما فى ذلك من إبطال الأمتنان ، وليست النجاسة معنى محسوسا حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض، و إنما النجاسة حكم شرعى عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره ؛ إذ ليس فى معناه ، ولأنه لو لحق به لأسقطه، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل فى إسقاطه سقط فى نفسه . وقد كان تاج السنة ذو العز ٱبن المرتضى[٢] الدبوسى يسميه فرخ زنى .

قلت : وأما ما ٱستُدِلّ به على ٱستعمال النبيذ فأحاديث واهية ، ضعاف لا يقوم شيء منها على ساق ؛ ذكرها الدَّارَقُطْنِيّ وضعفها ونصّ عليها . وكذلك ضعف ما روى عن ٱبن عباس موقوفا "النبيذ وضوء لمن لم يجد الماء" . فى طريقه ٱبن محرز[٣] متروك الحديث . وكذلك ما روى عن على أنه قال : لا بأس بالوضوء بالنبيذ . الحجاج وأبو ليلى ضعيفان . وضعف حديث ٱبن مسعود وقال : تفرّد به ٱبن لهيعة وهو ضعيف الحديث . وذكر عن علقمة ابن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعى الجن ؟ فقال لا .

قلت : هذا إسناد صحيح لا يختلف فى عدالة رواته . وأخرج الترمذى حديث ٱبن مسعود قال : سألنى النبى صلى الله عليه وسلم : "ما فى إدواتك[٤]" فقلت : نبيذ . فقال : "تمرة طيبة وماء طهور" قال : فتوضأ منه . قال أبو عيسى : وإنما روى هذا الحديث عن أبى زيد عن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا نعرف له رواية غير هذا الحديث، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ ؛ منهم سفيان وغيره، وقال بعض أهل العلم : لا يتوضأ بالنبيذ ، وهو قول الشافعى وأحمد و إسحق، وقال إسحق : إن ٱبتلى رجل بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيمّم أحب إلى . قال أبو عيسى : وقول من يقول لايتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه ؛ لأن الله تعالى قال : «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا

(١) ٱقرصيه : والقرص بالصاد المهملة الدلك بأطراف الأصابع والأظفار مع صب الماء عليه حتى يذهب أثره .
(٢) فى ب و ك : ذو العز المرتضى . (٣) فى ب : محرز . (٤) الإداوة (بالكسر) : إناء صغير من جلد يتخذ للماء .

صَعِيدًا طَيِّبًا » . وهذه المسئلة مطولة فى كتب الخلاف ؛ وعمدتهم التمسك بلفظ المـاء حسبما تقدم فى « المـائدة[1] » بيانه والله أعلم .

الثانيـــة عشرة — لمـا قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَـا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » وقال : « لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ[2] » توقف جمـاعة فى ماء البحر ؛ لأنه ليس بمنزل من السماء ؛ حتى رووا عن عبد الله بن عمر وآبن عمرو معـا أنه لا يتوضأ به ؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم . ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن حكمه حين قال لمن سأله : "هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته" أخرجه مالك . وقال فيه أبو عيسى : هـذا حديث حسن صحيح . وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، منهم أبو بكر وعمر وآبن عباس ، لم يروا بأسا بمـاء البحر ، وقد كره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء بماء البحر ؛ منهم آبن عمر وعبد الله بن عمرو ، وقال عبد الله بن عمرو : هو نار . قال أبو عمر ؛ وقـد سئل أبو عيسى الترمذى عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سُلَيم فقال : هو عندى حديث صحيح . قال أبو عيسى فقلت للبخارى : هشيم يقول فيه أبى آبن بَرْزة . فقال : وَهِم فيه ، إنما هو المغيرة بن أبى بُرْدة . قال أبو عمر : لا أدرى ما هذا من البخارى رحمه الله ، ولو كان صحيحا لأخرجه فى مصنفه الصحيح عنده ، ولم يفعل لأنه لا يعول فى الصحيح إلا على الإسناد . وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده ، وهو عندى صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول له والعمل به ، ولا يخالف فى جملته أحد من الفقهاء ، و إنمـا الخلاف بينهم فى بعض معانيه . وقد أجمع جمهور من العلماء و جماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء : أن البحر طهور ماؤه ، وأن الوضوء به جائز ؛ إلا ما روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص أنهما كرها الوضوء بمـاء البحر ، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه ، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب . وهذا يدلّك على آشتهار الحديث عندهم ، وعملهم به وقبولهم له ، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول . و بالله التوفيق .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٠٥ فمـا بعد .	(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧١ فمـا بعد .

قال أبو عمر : وصفوان بن سُلَيم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، من عُبّاد أهل المدينة وأتقاهم لله ، ناسكا ، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير ، كثير العمل ، خائفا لله ، يكنى أبا عبد الله ، سكن المدينة لم ينتقل عنها ، ومات بها سنة آثنتين وثلاثين ومائة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبى يسأل عن صفوان بن سُلَيم فقال : ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين . وأما سعيد بن سلمة فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان — والله أعلم — ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم . وأما المغيرة ابن أبى بُرْدة فقيل عنه إنه غير معروف فى حملة العلم كسعيد بن سلمة . وقيل : ليس بمجهول . قال أبو عمر : المغيرة بن أبى بردة وجدت ذكره فى مغازى موسى بن نصير بالمغرب ، وكان موسى يستعمله على الخيل ، وفتح الله له فى بلاد البربر فتوحات فى البر والبحر . وروى الدَّارَقُطْنِيّ من غير طريق مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله " . قال إسناده حسن .

الثالثة عشرة — قال آبن العربى : توهّم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به ، وهو مذهب باطل ، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت : أجنبت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وآغتسلت من جَفْنة وفضلت فضلة ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغتسل منه فقلت : إنى قد آغتسلت منه . فقال : " إن الماء ليس عليه نجاسة — أو — إن الماء لا يُجْنِب " . قال أبو عمر : وردت آثار فى هذا الباب مرفوعة فى النهى عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة . وزاد بعضهم فى بعضها : ولكن ليغترفا جميعا . فقالت طائفة : لا يجوز أن يغترف الرجل مع المرأة فى إناء واحد ؛ لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه . وقال آخرون : إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها . وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثرا . والذى ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة وتتوضأ المرأة من فضله ، آنفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد . وفى مثل هذا آثار كثيرة صحاح . والذى نذهب إليه أن

المـاء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيـه من النجاسات أو غلب عليـه منها ؛ فلا وجه للاشتغال بمـا لا يصح من الآثار والأقوال . والله المستعان .

روى الترمذيّ عن ابن عباس قال حدثتني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسـول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد من الجنابة . قال هذا حديث حسن صحيح . وروى البخاريّ عن عائشة قالت : كنت أغتسل أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد يقال له الفَرَق (١) . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بفضل ميمونة . وروى الترمذي عن ابن عباس قال : اغتسل بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في جَفْنة فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ منه فقالت : يارسول الله، إني كنت جنبا . قال : " إن المـاء لا يُجْنِب " . قال : هـذا حديث حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوريّ ومالك والشافعي . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عمرة عن عائشة رضي الله عنهـا قالت : كنت أتوضأ أنا والنبيّ صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وقد أصابت الهرة منه قبل ذلك . قال : هـذا حديث حسن صحيح . وروى أيضا عن رجل من بني غِفار قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل طهور المرأة . وفي الباب عن عبـد الله بن سَرْجِس ، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة ، وهو قول أحمد وإسحق .

الرابعـــة عشرة — روى الدَّارَقُطْنِيّ عن زيد بن أسـلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر ابن الخطاب كان يسخن له المـاء في قُمْقُمَة (٢) ويغتسل به . قال : وهذا إسناد صحيح . وروى عن عائشة قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم وقـد سَخَّنت ماء في الشمس . فقال " لا تفعلي يا حميراء فإنه يورث البرص " . رواه خالد بن إسمعيل المخزومي عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة، وهو متروك . ورواه عمرو بن محمد الأعشم عن فليح عن الزهريّ عن عروة عن عائشة . وهو منكر الحديث، ولم يروه غيره عن فليح، ولا يصح عن الزهري ؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ .

---

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر رطلا ، وبالسكون مائة وعشرون رطلا .

(٢) القمقمة والقمقم (كهدهد) : ما يسخن فيه المـاء من نحاس وغيره .

الخامسة عشرة — كل إناء طاهر فجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة ؛ لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آتخاذهما . وذلك — والله أعلم — للتشبه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما . ومن توضأ فيهما أجزاه وضوءه وكان عاصيا باستعمالها . وقد قيل : لا يجزئ الوضوء فى أحدهما . والأول أكثر ؛ قاله أبو عمر . وكل جلد ذُكّىَ فجائز آستعماله للوضوء وغير ذلك . وكان مالك يكره الوضوء فى إناء جلد الميتة بعد الدباغ ؛ على آختلاف من قوله . وقد تقدّم فى « النحل »(١) .

قوله تعالى : ﴿ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ (٤٩)

قوله تعالى : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ ﴾ أى بالمطر . ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات . قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . وقال : « ميتا » ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد ؛ قاله الزجاج . وقيل : أراد بالبلد المكان . ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ قراءة العامة بضم النون . وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضّل عنهما « نَسْقِيَهُ » (بفتح)(٢) النون . ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أى بشرا كثيرا وأناسيّ واحده إنسى نحو جمع القُرْقُور(٣) قَرَاقير وقَرَاقِر فى قول الأخفش والمبرد وأحد قولى الفراء؛ وله قول آخر وهو أن يكون واحده إنسانا ثم تبدل من النون ياء ؛ فتقول : أناسى، والأصل أناسين ، مثل سِرحان وسراحين، و بستان و بساتين؛ فجعلوا الياء عوضا من النون، وعلى هذا يجوز سراحى و بساتى، لا فرق بينهما . قال الفراء : ويجوز « أَنَاسِى » بتخفيف الياء التى فيما بين لام الفعل وعينه؛ مثل قراقير وقراقر . وقال « كَثِيرًا » ولم يقل كثيرين ؛ لأن فعيلا قد يراد به الكثرة ؛ نحو « وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا »(٤) .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٦ . (٢) كذا فى ب و ك . وفى غيرهما : « بضم النون » ، وهو خطأ .

(٣) القرقور : ضرب من السفن . وقيل : هى السفينة العظيمة أو الطويلة .

(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ فما بعد .

قوله تعـالى : وَلَقَــدْ صَرَّفْنَــٰهُ بَيْنَهُــمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّـاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعنى القرآن، وقد جرى ذكره فى أول السورة : قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » . وقوله : « لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى » وقوله : « اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » . ﴿ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى جحودا له وتكذيبا به . وقيل : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » هو المطر . روى عن ابن عباس وآبن مسعود : وأنه ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرّفه حيث يشاء ، فما زيد لبعض نقص من غيرهم . فهذا معنى التصريف . وقيل : « صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ » وابلا وطَشًا وطَلًا ورهاما — الجوهرى : الرهام الأمطار اللينـة — ورَذَاذًا . وقيـل : تصريفه تنـويع الآنتفاع به فى الشرب والسق والزراعات به والطهارات وسـقى البساتين والغسل وشبهه . « لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » قال عكرمة : هو قولهم فى الأنواء : مطرنا بنوء كذا . قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير آختلافا أن الكفر هاهنا قولهم مطرنا بنوء كذا وكذا ؛ وأن نظيره فعل النجم كذا ، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر . وروى الربيع بن صبيح قال : مُطِر الناس على عهد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فلما أصبح قال النبى صلى الله عليه وسلم : " أصبح الناس فيها رجلين شاكر وكافر فأما الشاكر فيحمد الله تعـالى على سقياه وغيائه وأما الكافر فيقول مُطرنا بنوء كذا وكذا[(١)] " . [وهذا متفق على صحته بمعناه وسيأتى فى الواقعة إن شاء الله[(٢)]] وروى من حديث آبن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من سـنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصى صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفيافى والبحار" . وقيل : التصريف راجع إلى الريح ، وقد مضى فى « البقرة[(٣)] » بيانه . وقرأ حمزة والكسائى : « لِيَذْكُرُوا » مخففـة الذال من الذكر . الباقون مثقلا من التذكّر ؛ أى ليذكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجوز الإشراك به ؛ فالتذكر قريب من الذكر غير أن التذكر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف فى التذكر .

(١) كذا فى ز و ا . وفى ك : بنوء كذا . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٣ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ أى رسولا ينذرهم كما قسمنا المطر ليخف عليك أعباء النبوة، ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيرا للكل لترتفع درجتك فٱشكر نعمة الله عليك . ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى فيما يدعونك إليه من ٱتباع آلهتهم . ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ قال ٱبن عباس بالقرآن . ٱبن زيد : بالإسلام . وقيل : بالسيف ؛ وهذا فيه بعدٌ ؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال . ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لا يخالطه فتور .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم . و « مَرَجَ » خلّى وخلط وأرسل . قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما فى الآخر . قال ٱبن عرفة : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى خلطهما فهما يلتقيان ؛ يقال : مرجته إذا خلطته . ومَرِجَ الدينُ والأمر ٱختلط وٱضطرب ؛ ومنه قوله تعالى : « فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ »(١) . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاصى(٢) : " إذا رأيتَ الناس مَرِجت عهودهم وخفّت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا " وشبك بين أصابعه فقلت له : كيف أصنع عند ذلك ، جعلنى الله فداك ! قال : " ٱلزم بيتك وٱملك عليك لسانك وخذ بما تعرف ودع ما تنكر وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة " خرجه النسائى وأبو داود وغيرهما . وقال الأزهرى : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » خلّى بينهما ؛ يقال مَرَجتُ الدابة إذا خليتها ترعى . وقال ثعلب : المرج الإجراء؛ فقوله : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أى أجراهما . وقال الأخفش : يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنًى . ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ أى حلو شديد العذوبة .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٤ . (٢) الحديث فى الفتنة .

﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى فيه ملوحة ومرارة . وروى [عن][1] طلحة أنه قرئ : « وَهَٰذَا مَلِحٌ » بفتح الميم وكسر اللام . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ أى حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ؛ كما قال فى سورة الرحمن « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ »[2] . ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى سترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر . فالبرزخ الحاجز، والحجر المانع . وقال الحسن : يعنى بحر فارس و بحر الروم . وقال ابن عباس وابن جبير : يعنى بحر السماء و بحر الأرض . قال ابن عباس : يلتقيان فى كل عام و بينهما برزخ قضاء[3] من قضائه . « وَحِجْرًا مَحْجُورًا » حراما محرما أن يعذب هذا الملح بالعذب ، أو يملح هذا العذب بالملح .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ أى خلق من النطفة إنسانا . ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أى جعل الإنسان « نَسَبًا وَصِهْرًا » . وقيل : « مِنَ الْمَاءِ » إشارة إلى أصل الخلقة فى أن كلّ حىّ مخلوق من الماء . وفى هذه الآية تعديد النعمة على الناس فى إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة فى ذلك .

الثانية — قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين . قال ابن العربى : النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع؛ فإن كان بمعصية كان خلقا مطلقا ولم يكن نسبا محققا، ولذلك لم يدخل تحت قوله : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ »[4] بنته من الزنى؛ لأنها ليست ببنت له فى أصح القولين لعلمائنا وأصح القولين فى الدين؛ و إذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا فلا يحرّم الزنى بنتَ أمّ ولا أمّ بنت، وما يحرّم من الحلال لا يحرّم من الحرام؛ لأن الله آمتنّ بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما، وعلّق الأحكام فى الحل والحرمة عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما .

---

(١) من ب .
(٢) راجع جـ ١٧ ص ١٦١ .
(٣) فى ك : قضاء من قضائه . لعله الأشبه .
(٤) راجع جـ ٥ ص ١٠٥ .

قلت : آختلف الفقهاء فى نكاح الرجل آبنته من زنى أو أخته أو بنت آبنه من زنى؛ فحرم ذلك قوم منهم آبن القاسم، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك ابن الماجشون، وهو قول الشافعى، وقد مضى هذا فى «النساء»(١) مجوّدا . قال الفراء : النسب الذى لايحلّ نكاحه، [والصهر الذى يحل نكاحه](٢) . وقاله الزجاج، وهو قول على بن أبى طالب رضى الله عنه . وآشتقاق الصّهر من صهرت الشيء إذا خلطته ؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه، فسمّيت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها . وقيل : الصهر قرابة النكاح ؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء . والأصهار يقع عاما لذلك كله ؛ قاله الأصمعى . وقال آبن الأعرابى : الأخْتَان أبو المرأة وأخوها وعمها — كما قال الأصمعى — والصهر زوج آبنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه . وقال محمد بن الحسن فى رواية أبى سليمان الجوزجانى : أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته، وكل ذات محرم منه، وأصهاره كل ذى رحم محرم من زوجته . قال النحاس : الأولى فى هذا أن يكون القول فى الأصهار ما قال الأصمعى، وأن يكون من قبلهما جميعا . يقال : صهرت الشيء أى خلطته ؛ فكل واحد منهما قد خلط(٣) صاحبه . والأولى فى الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين : إحداهما الحديث المرفوع، روى محمد آبن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما أنت يا على فختنى وأبو ولدى وأنت منى وأنا منك" . فهذا على أن زوج البنت ختن . والجهة الأخرى أن آشتقاق الختن من ختنه إذا قطعه ؛ وكأن الزوج قد آنقطع عن أهله، وقطع زوجته عن أهلها . وقال الضحاك : الصهر قرابة الرضاع . قال آبن عطية : وذلك عندى وَهْمٌ أوجبه أن آبن عباس قال : حرم من النسب سبع، ومن الصهر خمس . وفى رواية أخرى من الصهر سبع ؛ يريد قوله عز وجل : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ » فهذا هو النسب . ثم يريد بالصهر قوله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ » إلى قوله : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » . ثم ذكر المحصنات . ومحمل هذا أن آبن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه، فقد أشار

(١) راجع جـ ٥ ص ١١٤ فما بعد . (٢) من ك . (٣) فى ك : خالط .

بما ذكر إلى عظمه وهو الصهر ، لا أن الرضاع صهر ، وإنما الرضاع عديل النسب يحرم منـه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيـه . ومن روى : وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات ؛ وهنّ ذوات الأزواج .

قلت : فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدّم نسبا ، وهو قول الزجاج . قال أبو إسحق : النسب الذى ليس بصهر من قوله جل ثنـاؤه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » إلى قـوله « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ » والصهر من له التزويج . قال ابن عطيـة : وحكى الزهراوى قولا أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات .

قلت : وذكر هـذا القول النحاس ، وقال : لأن المصاهرة من جهتين تكون . وقال ابن سيرين : نزلت هـذه الآية فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليّ رضى الله عنه ؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر . قال ابن عطية : فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ على خلق ما يريده .

قوله تعـالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ لما عدد النعم وبيّن كال قدرته عجب من المشركين فى إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر ؛ أى إن الله هو الذى خلق ما ذكره، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتا جمادات لا تنفع ولا تضر . ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ [1] روى عن ابن عباس « الْكَافِرُ » هنا أبو جهل [لعنه الله] ؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه . وقال عكرمة : « الْكَافِرُ » إبليس، ظهر على عداوة ربه . وقال مُطَرِّف : « الْكَافِرُ » هنا الشيطان . وقال الحسن : « ظَهِيرًا » أى معينا للشيطان على المعاصى . وقيـل : المعنى ؛ وكان الكافر على ربه هينا ذليلا لا قدر له ولا وزن عنده ؛ من قول العرب : ظهرت به أى جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه . ومنـه قوله تعالى : « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » [2] أى هينا .

(١) من ك .	(٢) راجع ج ٩ ص ٨٥ فما بعد .

ومنه قول الفرزدق :

تميمَ بنَ قيسٍ لا تكوننّ حاجتي * بظَهْرٍ فلا يعيا عليّ جوابُها

هذا معنى قول أبي عبيدة . وظهير بمعنى مظهور . أى كفر الكافرين هين على الله تعالى ، والله مستهين به لأن كفره لا يضره . وقيل : وكان الكافر على ربه الذى يعبده وهو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر ونفع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ يريد بالجنة مبشرا ونذيرا من النار ؛ وما أرسلناك وكيلا ولا مسيطرا . ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحى . و « مِن » للتأكيد . ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ لكن من شاء ؛ فهو استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من شاء ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بإنفاقه من ماله فى سبيل الله فلينفق . ويجوز أن يكون متصلا ويقدّر حذف المضاف ؛ التقدير : إلا أجر « مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » باتباع دينى حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ تقدم معنى التوكل فى «آل عمران»[1] وهذه السورة وأنه اعتماد القلب على الله تعالى فى كل الأمور، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أى نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء . والتسبيح التنزيه ، وقد تقدم . وقيل : « وَسَبِّحْ » أى وصلّ له ؛ وتسمى الصلاة تسبيحا . ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ أى عليما فيجازيهم بها .

(١) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ .

قوله تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم في الأعراف (١) . و « ٱلَّذِى » في موضع خفض نعتا للحيّ . وقال : « بَيْنَهُمَا » ولم يقل بينهن ؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين ؛ كقول القُطاميّ :

ألم يحزنك أن حبال قيس * وتغلب قد تباينتا انقطاعا

أراد وحبال تغلب فثنّى ، والحبال جمع ؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين . ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ قال الزجاج : المعنى فاسأل عنه . وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن ؛ كما قال تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (٢) » وقال الشاعر :

هلّا سألتِ الخيل يا ابنة مالك (٣) * إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

وقال [عَلْقَمة بن عَبَدة (٤)] :

فإن تسألوني بالنساء فإنني * خبير (٥) بأدواء النساء طبيب

أي عن النساء وعما لم تعلمي . وأنكره عليّ بن سليمان وقال : أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن ؛ لأن في هذا إفسادا لمعاني قول العرب : لو لقيت فلانا للقيك به الأسد ؛ أي للقيك بلقائك إياه الأسد . المعنى فاسأل بسؤالك إياه خبيرا . وكذلك قال ابن جبير : الخبير هو الله تعالى . ف« خَبِيرًا » نصب على المفعول به بالسؤال .

قلت : قول الزجاج يخرّج على وجه حسن ، وهو أن يكون الخبير غير الله ؛ أي فاسأل عنه خبيرا ، أي عالما به ، أي بصفاته وأسمائه . وقيل : المعنى فاسأل له خبيرا ، فهو نصب

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٨ فما بعد . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٧٨ . (٣) البيت من معلقة عنترة .
(٤) في نسخ الأصول : « وقال امرؤ القيس » وهو تحريف . والبيت من قصيدة لعلقمة مطلعها :
طحا بك قلب في الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب
(٥) يروى : بصير أي عليم .

على الحال من الهاء المضمرة . قال المهدوي : ولا يحسن حالا إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسئول، ولا يصح كونها حالا من الفاعل؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره . ولا يكون من المفعول؛ لأن المسئول عنه وهو الرحمن خبير أبدا ، والحال في أغلب الأمر يتغير و ينتقل؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة؛ مثل : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا »[1] فيجوز . وأما « الرَّحْمَنُ » ففي رفعه ثلاثة أوجه : يكون بدلا من المضمر الذي في « اسْتَوَى » . و يجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هو الرحمن . و يجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » . و يجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحي الذي لا يموت الرحمنِ؛ يكون نعتا . و يجوز النصب على المدح .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي لله تعالى . ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾ على جهة الإنكار والتعجب ، أي ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب . وزعم القاضي أبو بكر بن العربي أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف ، واستدل على ذلك بقوله : « وَمَا الرَّحْمَٰنُ » ولم يقولوا ومن الرحمن . قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ »[2] . ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين؛ أي لما تأمرنا أنت يا محمد . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي : « يَأْمُرُنَا » بالياء ، يعنون الرحمن؛ كذا تأوله أبو عبيد ، قال : ولو أقروا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفارا . فقال النحاس : وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد ، ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم « أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا » النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فتصح القراءة على هذا ، و إن كانت الأولى أبين وأقرب تناولا[3] . ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ أي زادهم قول القائل لهم اسجدوا للرحمن نفورا عن الدين . وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية : إلهي زادني لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣١٧ . (٣) في ك و ز : متناولا .

قوله تعـالى : تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾

قوله تعـالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ أى منازل ؛ وقد تقدّم ذكرها[1] . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ قال آبن عباس : يعنى الشمس ؛ نظيره : « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا[2] » . وقراءة العامة : «سِرَاجًا» بالتوحيد . وقرأ حمزة والكسائى : «سُرُجًا» يريدون النجوم العظام الوقادة . والقراءة الأولى عند أبى عبيد أولى ؛ لأنه تأوّل أن السُّرُج النجوم ، وأن البروج النجوم ؛ فيجيء المعنى نجوما ونجوما . النحاس : ولكن التأويل لهم أن أبان بن تغلب قال : السرج النجوم الدرارى . الثعلبى : كالزهرة والمشترى و زحل والسماكين ونحوها . ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ينير الأرض إذا طلع . و روى عِصمة عن الأعمش «وَقُمْرًا» بضم القاف و إسكان الميم . وهذه قراءة شاذة ، ولو لم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين فى وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه عِصمة الذى يروى القراءات ، وقد أولع أبو حاتم السجستانى بذكر ما يرويه عِصمة هذا .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ خِلْفَةً ﴾ قال أبو عبيدة : الخِلفة كل شيء بعـد شيء . وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه . و يقال للبطون : أصابته خِلفة ؛ أى قيام وقعود يخلف هـذا ذاك . ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعـد الورق الأول فى الصيف . ومن هذا المعنى قول زهير بن أبى سُلْمى :

بهـا العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفـةً * وأَطْلَاؤُها يَنْهضنَ من كُلِّ مَجْثَـمِ[3]

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٣٠٥ . (٣) العين (بالكسر) جمع أعين وعيناء ، وهى بقر الوحش ؛ سميت بذلك لسعة أعينها . والأطلاء : جمع طلا ، وهو ولد البقرة و ولد الظبية الصغير . والمجثم : الموضع الذى يجثم فيه ؛ أى يقام فيه .

الرئم ولد الظبي وجمعه آرام؛ يقــول : إذا ذهب فوج جاء فوج . ومنــه قول الآخر[(١)] يصف آمرأة تنتقل من منزل فى الشتاء إلى منزل فى الصيف دأبا .

وَلها بالمـاطرونِ إذا * أَكَلَ النملُ الذى جَمعَـا
خِلْفـةً حتى إذا آرتبعتْ * سَكَنتْ مِن جِلّقٍ بِيَعَـا
فى بيوت وَسْطَ دَسْكَرةٍ * حولَهـا الزيتونُ قد يَنَعَا

قال مجاهــد : « خِلْفَةً » من الخلاف ؛ هذا أبيض وهذا أسود ؛ والأوّل أقوى . وقيل : يتعاقبان فى الضياء والظلام والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف ؛ أى جعل الليل والنهار ذوى خِلفة ، أى آختــلاف . ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ أى يتذكر ، فيعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثا فيعتبر فى مصنوعات الله ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه فى العقل والفكر والفهم . وقال عمر بن الخطاب وآبن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهــار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل . وفى الصحيح : "ما من آمرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليهــا نوم فيصلّى ما بين طلوع الشمس إلى صــلاة الظهر إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة" . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل" .

الثانيـــة — قال آبن العربيّ : سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول : إن الله تعالى خلق العبد حيا عالمــا ، وبذلك كماله ، وسلّط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخِلقة ؛ إذ الكمال للأوّل الخالق ، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر فى طاعة الله فليفعل . ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين ســنة ينام ليلها فيذهب النصف من عمره لغوا ، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون ســنة ، ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثى عمره فى لذة فانيــة ، ولا يتلف عمره بسهر فى لذة باقية عند الغنيّ الوفيّ الذى ليس بعديم ولا ظلوم .

(١) هو يزيد بن معاوية . والمـاطرون : موضع بالشام قرب دمشق .

الثالثـــة ـــ الأشياء لا تتفاضل بأنفسها ؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة ، و إنما يقع التفاضل بالصفات . وقد آختلف أيّ الوقتين أفضل ، الليل أو النهار . وفى الصوم غنية فى الدلالة ، والله أعلم ؛ قاله آبن العربى .

قلت : والليل عظيم قدره ؛ أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ »(١) ، وقال : « قُمِ اللَّيْلَ »(٢) على ما يأتى بيانه . ومدح المؤمنين على قيامه فقال : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ »(٣) . وقال عليه الصلاة والسلام : "والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ المـاء النار وصلاة الرجل فى جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى" حسبما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة ـــ قرأ حمـزة وحده : « يَذْكُرَ » بسكون الذال وضم الكاف . وهى قـراءة آبن وثّاب وطلحة والنَّخَعيّ . وفى مصحف أبيّ « يَتَذَكَّرَ » بزيادة تاء . وقـرأ الباقون : « يَذَّكَّرَ » بتشديد الكاف . ويَذْكُرَ ويَذَّكَّرَ بمعنى واحد . وقيل : معنى « يَذْكُرَ » بالتخفيف أى يذكر ما نسـيه فى أحد الوقتين فى الوقت الثـانى ، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيهـا .

﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ يقال : شكر يشكر شكرا وشكورا ، مثـل كفر يكفر كفرا وكفورا . وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواما لمعاشهم . وكأنهم لـا قالوا : « وَمَا الرَّحْمَنُ »(٤) قالوا : هو الذى يقدر على هذه الأشياء .

قوله تعـالى : وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ لـا ذكر جهالات المشركين وطعنهـم فى القرآن والنبـوة ذكر عباده المؤمنين أيضـا وذكر صفاتهم ، وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم ، كما قال : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ »(١) وقد تقـدّم . فمن أطاع الله وعبـده وشغل سمعـه و بصره ولسانه وقلبه بمـا أمره فهو الذى يستحق

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥ وص ٣٠٧ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٣٠ .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٩٩ فما بعد . (٥) فى ك : قال .

اسم العبودية ، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى : « أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ » يعني في عدم الاعتبار ؛ كما تقدّم في « الأعراف »(١) . وكأنه قال : وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض ، فحذف هم ؛ كقولك : زيد الأمير ، أي زيد هو الأمير . فـ « الَّذِينَ » خبر مبتدإ محذوف ؛ قاله الأخفش . وقيل : الخبر قوله في آخر السورة : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » وما بين المبتدإ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها ؛ قاله الزجاج . قال : ويجوز أن يكون الخبر « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ » . و « يَمْشُونَ » عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم ، فذكر من ذلك العظم ، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض ؛ وهو معاشرة الناس وخلطتهم .

قوله تعالى : « هَوْنًا » الهون مصدر الهيّن وهو من السكينة والوقار . وفي التفسير : يمشون على الأرض حلماء متواضعين ، يمشون في اقتصاد . والقصد والتؤدة وحسن السَّمْت من أخلاق النبوة . وقال صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس في الإيضاع(٢) " وروى في صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زال زال تقلعا ، ويخطو تكفؤا ، ويمشي هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما يحط من صَبَب . التقلع ، رفع الرجل بقوة والتكفؤ : الميل إلى سنن المشي وقصده . والهون الرفق والوقار . والذريع الواسع الخطا ؛ أي أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه ؛ خلاف مشية المختال ، ويقصد سمته ؛ وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة . كما قال : كأنما يحط من صَبَب ؛ قاله القاضي عياض . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرع جِبلة لا تكلفا . قال الزهري : سرعة المشي تذهب بهاء الوجه . قال ابن عطية : يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار ؛ والخير في التوسط . وقال زيد بن أسلم : كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » فما وجدت من ذلك شفاء ، فرأيت في المنام من جاءني فقال لي : هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض . قال القُشيري : وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية ، بل في طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك(٣) . وقد قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢٤ فما بعد . (٢) الإيضاع : سير مثل الخبب . (٣) في ك : هزل .

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[1] » . وقال ٱبن عبـاس : بالطاعة والمعروف والتواضع . الحسن : حلمـاء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقيل : لا يتكبرون على الناس .

قلت : وهـذه كلها معانٍ متقاربة، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه ؛ جعلنا الله منهم بفضـله ومنّه . وذهبت فرقة إلى أن « هَوْنًا » مرتبط بقوله : « يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ » أن المشى هو هون . قال ٱبن عطية : ويشـبه أن يتأول هـذا على أن تكون أخلاق ذلك المـاشى هونا مناسـبة لمشيه ، فيرجع القول إلى نحو ما بينـاه . وأما أن يكون المراد صـفة المشى وحده فبـاطل ؛ لأنه رب ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس[2] . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ فى مشيه كأنمـا ينحط[3] فى صبب . وهو عليه الصلاة والسلام الصدر فى هذه الأمة . وقوله عليه الصلاة والسلام : " من مشى منكم فى طمع فليمش رويدا " إنمـا أراد فى عقد نفسه ، ولم يرد المشى وحده . ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدّين تمسكوا بصورة المشى فقط ؛ حتى قال فيهم الشاعر[4] ذمًّا لهم :

كلُّهم يمشِى رُوَيْد * كلُّهم يَطْلُبُ صَيْد

قلت : وفى عكسه أنشد ٱبن العربىّ لنفسه .

تواضعتُ فى العليـاء والأصل كابر * وحزتُ قصابَ السبق بالهوْن فى الأمر
سكونٌ فلا خبث السريرة أصـله * وجلّ سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ قال النحاس : ليس « سَلَامًا » من التسليم إنمـا هو من التسلّم ؛ تقول العرب : سلاما ، أى تَسلُّما منك ، أى براءة منك . منصوب على أحد أمرين : يجوز أن يكون منصوبا بـ «قَالُوا» ، ويجوز أن يكون مصدرا ؛ وهذا قول سيبويه . قال ٱبن عطية : والذى أقوله : أن « قَالُوا » هو العامل فى « سَلَامًا » لأن المعنى قالوا هذا اللفظ . وقال مجاهد : معنى « سَلَامًا » سَدَادًا . أى يقول للجاهل كلاما

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٦٩ فما بعد . (٢) الأطلس من الذئاب : هو الذى تساقط شعره ، وهو أخبث ما يكون . وقيـل : هو الذى فى لونه غبرة إلى السواد . (٣) من هـ ، وهو الرواية . (٤) هذا من كلام أبى جعفر المنصور الخليفة فى مدح عمرو بن عبيد الزاهد المشهور . وتمـامه : * غير عمرو بن عبيد *

يدفعه به برفق ولين . فـ «قَالُوا» على هذا التأويل عامل في قوله : «سَلَامًا» على طريقة النحويين ؛ وذلك أنه بمعنى قولا . وقالت فرقة : ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاما ؛ بهذا اللفظ . أي سلمنا سلاما أو تسليما ، ونحو هذا ؛ فيكون العامل فيه فعلا من لفظه على طريقة النحويين .

مســألة : هذه الآية كانت قبل آية السيف ، نسخ منها ما يخص الكفرة وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة . وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه ، وما تكلم فيه على نسخ سواه ؛ رجح به أن المراد السلامة لا التسليم ؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة . والآية مكية فنسختها آية السيف . قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاما في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية . قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلّموا على المشركين لكنه على معنى قوله : تسلّما منكم ، ولا خير ولا شر بيننا وبينكم . المبرد : كان ينبغي أن يقال : لم يؤمر المسلمون يومئــذ بحربهم ثم أمروا بحربهم . محمد بن يزيد : أخطأ سيبويه في هــذا وأساء العبارة . ٱبن العربيّ : لم يؤمر المسلمون يومئــذ أن يسلّموا على المشركين ولا نُهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم ، ولا يداهنهم . وقد ٱتفق الناس على أن السفيه من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له سلام عليك .

قلت : هــذا القول أشبه بدلائل السنة . وقد بيّنا في سورة « مريم »(١) ٱختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ؛ والله أعلم . وقد ذكر النضر بن شميل قال حدثني الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابيّ وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فلما سلمنا ردّ علينا السلام وقال لنا : ٱستووا . وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال . فقال لنا أعرابيّ إلى جنبه : أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ »(٢) فصعدنا إليه فقال : هل لكم في خبز فطير ، وابن هجير ، وماء نمير(٣)؟ فقلنا : الساعة فارقناه . فقال : سلاما . فلم ندر ما قال . قال فقال الأعرابيّ : إنه

(١) راجع جـ ١١ ص ١١١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢ فما بعد .

(٣) الفطير : خلاف الخمير ، وهو العجين الذي لم يختمر . والهجير : الفائق الفاضل . والنمير : الناجع في الري .

سألكم متاركة لا خير فيها ولا شر. فقال الخليل : هو من قول الله عز وجل : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . قال ٱبن عطية : ورأيت فى بعض التواريخ أن إبرهيم بن المهدىّ — وكان من المـائلين على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه — قال يوما بحضرة المـأمون وعنده جماعة : كنت أرى علىّ بن أبى طالب فى النـوم فكنت أقول له من أنت ؟ فكان يقـول : علىّ بن أبى طالب . فكنت أجىء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمنى فى عبورها . فكنت أقول : إنمـا تدعى هذا الأمر بٱمرأة ونحن أحق به منك . فما رأيت له فى الجواب بلاغة كما يذكر عنـه . قال المأمون : وبمـاذا جاوبك ؟ قال : فكان يقول لى سـلاما . قال الراوى : فكأن إبراهيم بن المهدىّ لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه فى ذلك الوقت . فنبه المأمون على الآية من حضره وقال : هو والله ياعم علىّ بن أبى طالب ، وقـد جاوبك بأبلغ جواب ، فخزى إبراهيم وٱستحيا . وكانت رؤيا لا محالة صحيحة .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ قال الزجاج : بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم . قال زهير[1] :

فبتنا قيـاما عند رأس جوادنا * يزاولنـا عن نفسه ونزاوله

وأنشدوا فى صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق منـاما * وٱذرِ الدموع على الخدود سِجاما
وٱعـلم بأنك ميت ومحـاسَبٌ * يا من على سخـط الجليـل أقاما
لله قـوم أخلصـوا فى حبِّـه * فرضِى بهـم وٱختصهم خدّاما
قـوم إذا جنّ الظلام عليهـم * باتوا هنـالك سُجَّـدا وقيـاما
خمص البطون من التعفف ضمّرا * لا يعرفون سـوى الحلال طعاما

(١) فى الأصول : «قال ٱمرؤ القيس» . وهو تحريف . والبيت من قصيدة لزهير مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله * وعرى أفـراس الصـبا ورواحله

وقال ابن عباس : من صلّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا وقائما .
وقال الكلبي : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا وقائما .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله . ابن عباس : يقولون ذلك فى سجودهم وقيامهم . ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى لازما دائما غير مفارق . ومنه سمى الغريم لملازمته . و يقال : فلان مغرم بكذا أى لازم له مولع به . وهذا معناه فى كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابى وابن عرفة وغيرهما . وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـ * ـط جزيلا فإنه لا يبالى

وقال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم . وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الهلاك . والمعنى واحد . وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم فى الدنيا فلم يأتوا به[(١)]، فأغرمهم ثمنها بإدخالهم النار . ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى بئس المستقر وبئس المقام . أى إنهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ اختلف المفسرون فى تأويل هذه الآية . فقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معناه أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار، ومن أنفق فى طاعة الله تعالى فهو القَوام .

---

(١) فى ك : فلما لم يأتوا به غرمهم .

وقال آبن عباس : من أنفق مائة ألف فى حق فليس بسرف، ومن أنفق درهما فى غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقــد قتر. وقاله مجاهد وآبن زيد وغيرهما . وقال عون آبن عبــد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك . قال آبن عطية : وهــذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال. إن النفقة فى معصية أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره وكذلك التعدى على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون متزهون عن ذلك ، وإنمــا التأديب فى هذه الآية هو فى نفقة الطاعات فى المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقا آخر أو عيالا ونحو هذا ، وألا يضيق أيضا ويقــتر حتى يجيع العيال ويفرط فى الشح ، والحسن فى ذلك هو القوام، أى العــدل ، والقــوام فى كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب ، أو ضد هذه الخصال ، وخير الأمور أوساطها ؛ ولهــذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أن يتصدق بجميع ماله ، لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره فى الدِّين، ومنع غيره من ذلك . ونعم ما قال إبراهيم النَّخَعِىّ : هو الذى لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقــول الناس قــد أسرف . وقال يزيد بن أبى حبيب : هم الذين لا يلبسون الثياب لجمال ، ولا يأكلون طعاما للذة . وقال يزيد أيضا فى هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يســتر عوراتهم ويكنهم من الحر والبرد . وقال عبد الملك آبن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه آبنته فاطمة : ما نفقتك ؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية . وقال عمــر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهى شيئا إلا آشتراه فأكله . وفى سنن آبن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من السرف أن تأكل كل ما آشتهيت " وقال أبو عبيــدة : لم يزيدوا على المعروف ولم يبخــلوا . كقوله تعــالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ »(1) وقال الشاعر :

ولا تغلُ فى شىء من الأمر وآقتصد * كلا طَرَفَىْ قصدِ الأمورِ ذميمُ

(1) راجع ج ١٠ ص ٢٤٩ فما بعد .

وقال آخـر :

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما آشتهتْ * ولم يَنْهها تاقت إلى كل باطـل

وساقت إليه الإثم والعـار بالذى * دعتـه إليه من حـلاوة عاجل

وقال عمر لابنه عاصم : يا بنيّ ، كل فى نصف بطنـك ؛ ولا تطرح ثوبا حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم . ولحاتم طيّ :

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعـا

﴿ وَلَمْ يَقْـتُرُوا ﴾ قرأ حمـزة والكسائيّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على آختلاف عنهما « يَقْتُرُوا » بفتح الياء وضم التاء ، وهى قراءة حسنة ؛ من قتر يقتر . وهذا القياس فى اللازم ، مثل قعد يقعد . وقرأ أبو عمرو بن العـلاء وآبن كثير بفتح الياء وكسر التاء ، وهى لغة معروفة حسنة . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء . قال الثعلبي : كلها لغات صحيحة . النحاس : وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه ؛ لأن أهل المدينة عنده لا يقع فى قراءتهم الشاذ ، وإنما يقال : أقتر يقتر إذا آفتقر ، كما قال عز وجل : « وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَـدَرُهُ »(١) وتأول أبو حاتم لهم أن المسرف يفتقر سريعا . وهذا تأويل بعيد ، ولكن التأويل لهم أن أبا عمر الجَرْميّ حكى عن الأصمعيّ أنه يقال للإنسان إذا ضيّق : قتر يقتر ويقتر ، وأقتر يُقتر . فعلى هـذا تصح القراءة ، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب متناولا ، وأشهر وأعرف . وقرأ أبو عمرو والناس « قَوَامًا » بفتح القاف ؛ يعنى عدلا . وقرأ حسّان آبن عبد الرحمن : « قِوَامًا » بكسر القـاف ؛ أى مبلغا وسدادا وملاك حال . والقِوام بكسر القاف : مايدوم عليه الأمر ويستقر . و [قيل :](٢) هما لغتان بمعنًى . و « قَوَامًا » خبر كان ، وآسمها مقدر فيها ؛ أى كان الإنفاق بين الإسراف والقـتر قواما ؛ قاله الفراء . وله قول آخر يجعل « بَيْنَ » آسم كان وينصبها ؛ لأن هذه الألفاظ كثير(٣) آستعمالها فتركت على حالها فى موضع الرفع . قال النحاس : ما أدرى ما وجه هذا ؛ لأن « بينا » إذا كانت فى موضع رفع رفعت ؛ كما يقال : بَيْنُ عينيه أحمرُ .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠١ . (٢) من ك . (٣) فى ك : كثر .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة فى عبادتهم الأوثان ، وقتلهم النفس بوَأْدِ البنات ؛ وغير ذلك من الظلم والاغتيال ، والغارات ، ومن الزنى الذى كان عندهم مباحا . وقال من صرف هـذه الآية عن ظاهرها من أهل المعانى : لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص ، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنهم أعلى وأشرف ، فقال : معناها لا يدعون الهوى إلهـا ، ولا يذلون أنفسهـم بالمعاصى فيكون قتلالها . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحا ؛ بل بالضرورة فيكون كالنكاح . قال شيخنا أبو العباس : وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق (١) . وهى نبعة باطنية ونزعة باطلية وإنما صح تشريف عباد الله باختصاص الإضافة بعد أن تحلّوا بتلك الصفات الحميدة وتخلّوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة ، فبدأ فى صدر هذه الآيات بصفات التحلى تشريفا لهم ، ثم أعقبها بصفات التخلى تبعيدا (٢) لها ؛ والله أعلم .

قلت : ومما يدلّ على بطلان ما ادعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها ما روى مسلم من حديث عبـد الله بن مسـعود قال قلت : يارسول الله ، أىّ الذنب أكبر عند الله ؟ قال : " أن تدعو لله ندا وهو خلقك " قال : ثم أى ؟ قال : " أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم " قال : ثم أىّ ؟ قال : "أن تزانى حليلة جارك" فأنزل الله تعالى تصديقها : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأثام فى كلام العرب العقاب ، وبه قرأ ابن زيد وقتادة هذه الآية .

(١) أحمق . (٢) كذا فى ز ر ك .

ومنه قول الشاعر :

جَزى الله ابن عُروة حيث أمسى * عُقوقًا والعُقوقُ له أثامُ

أى جزاء وعقوبة . وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد : إن «أَثَامًا» وادٍ فى جهنم جعله الله عقابا للكفرة . قال الشاعر :

لقيت المهالك فى حربنا * وبعد المهالك تلقى أثاما

وقال السدّى : جبل فيها . قال :

وكان مُقامُنا ندعوا عليهم * بأبطَح ذى المجاز له أثامُ

وفى صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ؛ فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، وهو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة(١)، فنزلت : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . ونزل : «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ»(٢) الآية . وقد قيل : إن هذه الآية ، « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » نزلت فى وحشى قاتل حمزة ؛ قاله سعيد بن جبير وابن عباس ، وسيأتى فى « الزمر »(٢) بيانه .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان ؛ على ما تقدم بيانه فى « الأنعام »(٣) . ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا ملك يمين . ودلّت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى ؛ ولهذا ثبت فى حد الزنا القتل لمن كان محصنا أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى « يُضَاعَفْ . وَيَخْلُدْ » جزما . وقرأ ابن كثير : « يُضَعَّفْ » بشد العين وطرح الألف ؛ وبالجزم فى « يُضَعَّفْ . وَيَخْلُدْ » . وقرأ طلحة بن سليمان : « نُضَعِّفْ » بضم النون وكسر العين المشدّدة . « الْعَذَابَ » نصب « وَيَخْلُدْ » جزم ، وهى قراءة أبى جعفر وشيبة .

---

(١) فى ك و ز : لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة . ولعله الأشبه بالمعنى . محققه .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٧ فما بعد . (٣) راجع جـ ٧ ص ١٣٣ .

وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر : « يُضَاعَفُ ، وَيُخْلَدُ » بالرفع فيهما على العطف والاستئناف . وقرأ طلحة بن سليمان : « وَتَخْلُدْ » بالتاء على معنى مخاطبة الكافر . وروى عن أبى عمرو « وَيُخْلَدْ » بضم الياء من تحت وفتح اللام . قال أبو على : وهى غلط من جهة الرواية . و « يُضَاعَفْ » بالجزم بدل من « يَلْقَ » الذى هو جزاء الشرط . قال سيبويه : مضاعفة العذاب لُقِيُّ الأثام . قال الشاعر :

مَتَى تأتنا تُلْمِمْ بنا فى دِيارنا * تجدْ حطَبًا جَزْلًا ونارًا تأَجَّجَا

وقال آخـــر :

إنّ علىّ اللهَ أَنْ تُبايِعَا[1] * تُؤْخَذَ كَرْهًا أو تَجِئَ طائعَا

وأما الرفع ففيه قولان : أحدهما أن تقطعه مما قبله . والآخر أن يكون محمـولا على المعنى؛ كأن قائلا قال : ما لُقِيّ الأثام ؟ فقيل له : يضاعف له العذاب . و ﴿ مُهَانًا ﴾ معناه ذليلا خاسئا مُبْعَدًا مطرودا .

قوله تعـالى : إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ عَمَلًا صَالِحًـا ﴾ لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل فى الكافر والزانى . واختلفوا فى القاتل من المسلمين على ما تقدم بيـانه فى « النسـاء »[2] ومضى فى « المـائدة »[3] القول فى جواز التراخى فى الاستثناء فى اليمين ، وهو مذهب ابن عباس مستدلا بهذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافرٍ مؤمن ، وموضع عاصٍ مطيع . وقال مجاهد والضحاك : أن يبدلهم

(١) الشاهد فى حمل تؤخذ على تبايع و إبداله منه . وأراد بقوله « الله » القسم ، والمعنى إن على والله فلما حذف الجار نصب . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٣٢ فما بعد . (٣) راجع جـ ٦ ص ٢٧٣ .

الله من الشرك الإيمان وروى نحوه عن الحسن . قال الحسن : قوم يقولون التبديل فى الآخرة، وليس كذلك ، إنما التبديل فى الدنيا؛ يبدلهم الله إيمانا من الشرك، و إخلاصا من الشك ، و إحصانا من الفجور . وقال الزجاج : ليس بجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن بجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . وروى أبو ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أن السيئات تبدّل بحسنات" . وروى معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما . وقال أبو هريرة : ذلك فى الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته ، فيبدل الله السيئات حسنات . وفى الخبر : "لَيتمنّين أقوام أنهم أكثروا من السيئات" فقيل : ومن هم ؟ قال : "الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات" . رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الثعلبي والقُشيري . وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ؛ أى يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدّلها حسنات .

قلت : فلا يبعد فى كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : "أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالِق الناس بخلق حسن" . وفى صحيح مسلم عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخرَ أهل النار خروجا منها رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيقال آعرِضوا عليه صِغار ذنوبه وآرفعوا عنه كِبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عمِلت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطع أن ينكر وهو مشفِق فى كِبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئةٍ حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا" فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه . وقال أبو طَويل(١) : يا رسول الله ، أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئا ، وهو فى ذلك لم يترك حاجّة ولا داجّة إلا آقتطعها فهل له من توبة ؟ قال : "هل أسلمت" قال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال "نعم .

(١) أبو طويل : كنية شطب الممدود ، رجل من كندة .

تفعل الخـيرات وتترك السـيئات يجعلهن الله كلهن خيرات " . قال : وغدراتي وفجـراتي يانبيّ الله قال : " نعم " . قال : الله أكبر ! فما زال يكررها حتى توارى . ذكره الثعلبي . قال مبشر بن عبيد، وكان عالما بالنحو والعربية : الحاجّة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا . والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

قوله تعـالى : وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ لا يقال : من قام فإنه يقوم ؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب ؟ فقال ابن عباس : المعنى من آمن من أهـل مكة وهاجر ولم يكن قتـل وزنى بل عمـل صالحا وأدّى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا ؛ أي فإني قدّمتهم وفضلتهم على من قاتل النبيّ صلى الله عليه وسلم واستحل المحارم . وقال القفّال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ » ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا . وقيل : أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله ، فليست تلك التوبة نافعـة ؛ بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابا ؛ أي تاب حق التوبة وهي النصوح، ولذا أكد بالمصدر . فـ « متابا » مصدر معناه التأكيد، كقـوله : « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا »[1] أي فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أي لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه . والزور كل باطل زُوّر وزُخرف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد . وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس . وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين . عِكرمة : لعِبٌ

(١) راجع جـ ٦ ص ١٧ فما بعد .

كان فى الجاهلية يسمى بالزور . مجاهد : الغناء؛ وقاله محمد بن الحنفية أيضا . ابن جُريج : الكذب ؛ وروى عن مجاهد . وقال علىّ بن أبى طلحة ومحمد بن علىّ : المعنى لا يشهدون بالزور، من الشهادة لا من المشاهدة . قال ابن العربى : أما القول بأنه الكذب فصحيح ، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع ، وأما من قال إنه لِعبٌ كان فى الجاهليـة فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة، أو أمر يعود إلى الكفر ، وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهى إلى هذا الحد .

قلت : من الغناء ما ينتهى سماعه إلى التحريم ، وذلك كالأشعار التى توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال، أو يثير كامنا من حب اللهو ؛ مثل قول بعضهم :

ذهبىّ اللون تحسب من * وجنتيـه النـار تُقتدَحُ
خوّفونى من فضيحتـه * ليتـه وافى وأفتضِـحُ

لاسيما إذا اقترن بذلك شبّابات(١) وطارات مثل ما يفعل اليوم فى هـذه الأزمان ، على ما بيناه فى غير هذا الموضع . وأما من قال إنه شهادة الزور، وهى :

الثانيــة ــ فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنـه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخّم وجهه، ويحلق رأسـه ، ويطوف به فى السوق(٢) . وقال أكثر أهل العلم : ولا تقبل له شهادة أبدا و إن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله . وقد قيل : إنه إذا كان غير مبرِّز فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدّم بيانه فى سورة «الحج»(٣) فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قد تقدّم الكلام فى اللغو(٤)، وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك ممـا قاربه ، و يدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنـين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر . وقال مجاهـد : إذا أوذوا صـفحوا . وروى عنه : إذا ذكر النكاح كنَّوا(٥) عنه . وقال الحسن : اللغو المعاصى كلها . وهذا جامع . و «كِرَامًا» معناه معرضين منكرين لا يرضَونه ، ولا يمـالئون عليه ، ولا يجالسون أهـله .

(١) الشبابة (بالتشديد) : نوع من المزمار (مولد) . (٢) فى ك : الأسواق .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٥٥ . (٤) راجع جـ ٣ ص ٩٩ فما بعد . (٥) كنوا عنه من التكنية . كذا فى ك و ز .

أى مروا مرّ الكرام الذين لا يدخلون فى الباطل . يقال : تكرم فـلان عما يشينه ، أى تنزّه وأكرم نفسه عنه . وروى أن عبد الله بن مسعود[1] سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لقد أصبح ابن أمّ عبد كريما " . وقيل : من المرور باللغو كريما أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسـمع . وقال : ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ وليس ثَمَّ خرور ؛ كما يقال : قعـد يبكى وإن كان غير قاعد ؛ قاله الطبرىّ واختاره ؛ قال ابن عطيـة : وهو أن يخروا صمّا وعميانا هى صـفة الكفار ، وهى عبارة عن إعراضهم ؛ وقـرن ذلك بقولك : قعـد فلان يشتمنى وقام فلان يبكى وأنت لم تقصد الإخبـار بقعود ولا قيام ، وإنمـا هى توطئات فى الكلام والعبارة . قال ابن عطية : فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر، فإذا أعرض وضـلّ كان ذلك خرورا ، وهو السقوط على غير نظام وترتيب ؛ وإن كان قد شبّه به الذى يخر ساجدا لكن أصله على غير ترتيب . وقيل : أى إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجدا وبكيا ، ولم يخروا عليها صما وعميانا . وقال الفراء : أى لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

الثانيـــة ــ قال بعضهم : إن من سمع رجلا يقرأ سجدة يسجد معـه ؛ لأنه قد سمع آيات الله تتلى عليه . قال ابن العربىّ : وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده ، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا فى مسئلة واحدة ؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذى جالس معه جالس ليسمعه فليسجد معـه ، وإن لم يلتزم السماع [معه[2]] فلا سجود عليه . وقد مضى هذا فى « الأعراف[3] » .

(١) فى ك : بن عمر . لقد أصبح ابن آدم عبدا كريما . (٢) من ك . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٥٢ .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال الضحاك : أى مطيعين لك . وفيه جواز الدعاء بالولد وقد تقدّم (١) . والذرّية تكون واحدا وجمعا . فكونها للواحد قوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » (٢) وكونها للجمع « ذُرِّيَّةً ضِعَافًا » (٣) وقد مضى فى « البقرة » (٤) اشتقاقها مستوفى . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن : « وَذُرِّيَّاتِنَا » وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وطلحة وعيسى : « وذريتنا » بالأفراد . « قُرَّةَ أَعْيُنٍ » نصب على المفعول ، أى قرّة أعين لنا . وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأنس : " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه " وقد تقدّم بيانه فى « آل عمران » (١) و « مريم » (٢) . وذلك أن الإنسان إذا بورك له فى ماله وولده قرّت عينه بأهله وعياله ، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرّية محافظون على الطاعة ، معاونون له على وظائف الدِّين والدنيا ، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده ، فتسكن عينه عن الملاحظة ، ولا تمتد عينه إلى ما ترى ؛ فذلك حين قرّة العين ، وسكون النفس . ووحّد « قُرّة » لأنه مصدر ؛ تقول : قرّت عينك قُرّة . وقُرّة العين يحتمل أن تكون من القرار ، ويحتمل أن تكون من القُرّ وهو الأشهر . والقُرّ البرد ؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد . وأيضا فإن دمع السرور بارد ، ودمع الحزن سخن ، فمن هذا يقال : أقرّ الله عينك ، وأسخن الله عين العدو . وقال الشاعر :

فكم سَخِنتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ * وقَرّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ١١ ص ٧٩ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٥٠ . (٤) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أى قدوة يقتدى بنا فى الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعى متقيا قدوة ؛ وهذا هو قصد الداعى . وفى الموطأ : " إنكم أيها الرهط أئمـة يقتدى بكم " فكان ٱبن عمر يقول فى دعائه : اللهم ٱجعلنا من أئمـة المتقين . وقال : «إِمَامًا» ولم يقل أئمة على الجمع ؛ لأن الإمام مصدر . يقال : أمّ القوم فلان إماما ؛ مثل الصيام والقيام . وقال بعضهم : أراد أئمة، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء، يعنى أمراءنا . وقال الشاعر

يا عاذلاتى لا تَزِدْنَ مَلامتِى　*　إنّ العـواذل لَسْنَ لِى بأميرِ

أى أمراء . وكان القشيرى أبو القاسم شـيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ؛ يعنى بتوفيق الله وتيسيره ومنتـه لا بما يدّعيـه كل أحد لنفسـه . وقال إبراهيم النَّخعيّ : لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة فى الدِّين . وقال ابن عباس : ٱجعلنا أئمة هدى، كما قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّـةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (١) » وقال مكحول : ٱجعلنا أئمة فى التقوى يقتدى بنا المتقون . وقيل : هذا من المقلوب ؛ مجازه : وٱجعل المتقين لنا إماما ؛ وقاله مجاهد . والقول الأوّل أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة فى الدين ندب . وإمام واحد يدلّ على جمع ؛ لأنه مصدر كالقيام . قال الأخفش : الإمام جمع آمّ من أمّ يؤمّ جمع على فِعال، نحو صاحب وصِحاب، وقائم وقِيام .

قوله تعـالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَـا صَبَرُوا ﴾ « أُولَٰئِكَ » خبر « وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ » فى قول الزجاج على ما تقدّم، وهو أحسن ما قيل فيه . وما تخلل بين المبتدإ وخبره أوصافهم من التحلى والتخلى ؛ وهى إحدى عشرة : التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسىء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله . و«الْغُرْفَةَ» الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ٱبن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . « بِمَـا صَبَرُوا » أى بصبرهم على أمر ربهم : وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال محمد ٱبن على بن الحسين : « بِمَـا صَبَرُوا » على الفقر والفاقة فى الدنيا . وقال الضحاك : « بِمَـا صَبَرُوا» عن الشهوات . ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٠٩ .

وحمزة والكسائى وخلف : « وَيَلْقَوْنَ » مخففة، واختاره الفـراء؛ قال لأن العرب تقول : فلان يُتلقّى بالسلام وبالتحية وبالخير بالتاء، وقلما يقولون فلان يُلَقّى السلامة . وقرأ الباقون : « وَيُلَقَّوْنَ » واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعـالى : « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً »(١) . قال أبو جعفر النحاس : وما ذهب إليه الفراء واختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت « يُلَقَّوْنَ » كانت فى العربية بتحية وسـلام، وقال كما يقال : فلان يُتلقّى بالسلام وبالخـير ؛ فمن عجيب ما فى هذا الباب أنه قال يتلقى والآية « يُلَقَّوْنَ » والفرق بينهما بيّن : لأنه يقـال فلان يتلقى بالخير(٢) ولا يجوز حذف الباء ، فكيف يشبه هـذا ذاك ! وأعجب من هذا أن فى القرآن « وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً » ولا يجوز أن يقرأ بغيره. وهذا يبيّن أن الأولى على خلاف ما قال . والتحية من الله والسلام من الملائكة . وقيل : التحية البقاء الدائم والملك العظيم ؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد، وأنهما من قبل الله تعالى؛ دليله قوله تعالى: « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ »(٣) وسيأتى . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال ﴿ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ هذه آية مشكلة تعلقت بها الملحدة. يقال : ما عبأت بفلان أى ما باليت به؛ أى ما كان له عندى وزن ولا قدر . وأصل يعبأ من العِبء وهو الثقل . وقول الشاعر(٤) :

كأن بصدره وبجانبيه * عَبِيرًا باتَ يَعْبَؤُهُ عَرُوسُ

أى يجعـل بعضه على بعض . فالعبء الحمـل الثقيل ، والجمع أعبـاء . والعبء المصدر . وما استفهامية؛ ظهر فى أثناء كلام الزجاج، وصرح به الفراء . وليس يبعد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفى خرج مخرج الاستفهام ؛ كما قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »(٥) قال ابن الشجرى : وحقيقة القول عندى أن موضع « ما » نصب؛ والتقدير : أىّ عِبء يعبأ بكم؛ أى أىّ مبالاة يبـالى ربى بكم لولا دعاؤكم؛ أى لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذى هو الدعاء على هـذا القول مضاف إلى مفعوله ؛ وهو اختيار الفراء . وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف فى قوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٣٣ . (٢) فى ك : بالتحية . (٣) راجع جـ ١٤ ص ١٩٩ .
(٤) هو أبو زبيد يصف أسدا ، كما فى اللسان مادة « عبأ » . ورواه هكذا :
كأن بنحره وبمنكبيه * عبيرا بات يعبؤه عروس (٥) راجع جـ ١٧ ص ١٨٢ .

الخَبَالُ (١) » تقديره : لم يعبأ بكم . ودليل هذا القول قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٢) » فالخطاب لجميع الناس ؛ فكأنه قال لقريش منهم : أى ما يبال الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت ؛ وذلك الذى يعبأ بالبشر من أجله . ويؤيد هـذا قراءة ابن الزبير وغيره . « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » فالخطاب بمـا يعبأ لجميع الناس ، ثم يقول لقريش : فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزاما . وقال النقاش وغيره : المعنى ؛ لولا استغاثتكم إليه فى الشدائد ونحو ذلك . بيانه : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ (٣) » ونحو هذا . وقيـل : « مَا يَعْبَأُ بِكُمْ » أى بمغفـرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم « لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » معه الآلهة والشركاء . بيانه : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (٤) » ؛ قاله الضحاك . وقال الوليـد بن أبى الوليد : بلغنى فيهـا أى ما خلقتـكم ولى حاجة إليـكم إلا تسألونى فأغفر لكم وأعطيكم . وروى وهب بن مُنَبِّـه أنه كان فى التوراة : « يا ابن آدم وعزتى ما خلقتك لأربح عليك إنمـا خلقتك لتربح علىّ فاتخذنى بدلا من كل شىء فأنا خير لك من كل شىء » . قال ابن جِنِّى : قـرأ ابن الزبير وابن عباس « فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ » . قال الزهراوى والنحاس : وهى قراءة ابن مسعود وهى على التفسير ؛ للتاء والميم فى « كَذَّبْتُمْ » . وذهب القتبى والفارسى إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، الأصـل لولا دعاؤكم آلهة من دونه ؛ وجواب « لَوْلَا » محذوف تقديره فى هذا الوجه : لم يعذبكم . ونظير قوله : لولا دعاؤكم آلهة قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ (٥) » . ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أى كذبتم بمـا دعيتم إليه ؛ هذا على القول الأول ؛ وكذبتم بتوحيد الله على الثانى . ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى يكون تكذيبكم ملازما لكم . والمعنى : فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا (٦) » أى جزاء ما عملوا وقوله : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَـا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٧) » أى جزاء ما كنـتم تكفرون . وحسن إضمار التكذيب لتقدّم ذكر فعـله ؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دلّ بلفظه على مصدره ، كما قال : « وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٨) » أى لكان الإيمان . وقوله : « وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (٩) » أى يرضى الشكر . ومثله كثير . وجمهور المفسرين

(١) راجع جـ ٩ ص ٣١٨ . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ . (٣) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء .
(٤) راجع جـ ٥ ص ٤٢٦ . (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٤٢ . (٦) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ .
(٧) راجع جـ ٦ ص ٤١١ . (٨) راجع جـ ٤ ص ١٧٣ . (٩) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٦ فما بعد .

على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بَدْر ، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم . وفي صحيح مسلم عن عبد الله : وقد مضت البطشة والدخان واللزام . وسيأتي مبينا في سورة « الدخان »(١) إن شاء الله تعالى . وقالت فرقة : هو توعد بعذاب الآخرة . وعن ابن مسعود أيضا : اللزام التكذيب نفسه ؛ أي لا يعطون التوبة منه ؛ ذكره الزهراوي ؛ فدخل في هذا يوم بَدْر وغيره من العذاب الذي يُلزَمونه . وقال أبو عبيدة : لزاما فيصلا أي فسوف يكون فيصلا بينكم وبين المؤمنين . والجمهور من القراء على كسر اللام ؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فإما يَنْجُوَا من خَسْف أرض * فقد لَقِيا حُتُوفَهما لِزاما

ولزاما وملازمة واحد . وقال الطبري : « لِزَامًا » يعني عذابا دائما لازما ، وهلاكا مفنيا يلحق بعضكم ببعض ؛ كقول أبي ذؤيب :

ففاجاه بعادية لزام(٢) * كما يَتَفَجَّرُ الحوضُ اللَّقِيفُ

يعني باللزام الذي يتبع بعضه بعضا ، وباللقيف المتساقط الحجارة المتهدم . النحاس : وحكى أبو حاتم عن أبي زيد قال سمعت قَعْنَبا أبا السَّمَّال يقرأ : « لَزاما » بفتح اللام . قال أبو جعفر : يكون مصدر لزِم والكسر أولى ، يكون مثل قِتال ومقاتلة ، كما أجمعوا على الكسر في قوله عز وجل : « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى »(٣) . قال غيره : اللِّزام بالكسر مصدر لازم لِزاما مثل خاصم خصاما ، واللَّزام بالفتح مصدر لَزِم مثل سَلِم سلاما أي سلامة ؛ فاللَّزام بالفتح اللّزوم ، واللِّزام الملازمة ، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل ، فاللزام وقع موقع ملازِم ، واللزام وقع موقع لازِم . كما قال تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا »(٤) أي غائرا . قال النحاس : وللفراء قول في اسم يكون ؛ قال : يكون مجهولا وهذا غلط ؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة ، كما قال تعالى : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ »(٥) وكما حكى النحويون كان زيد منطلق [يكون في كان مجهول(٦)] ويكون المبتدأ وخبره خبر المجهول ، والتقدير : كان الحديث ؛ فأما أن يقال كان منطلقا ، ويكون في كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه . وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٣٣ . (٢) العادية . القوم يعدون على أرجلهم ؛ أي فحملتهم لزام كأنهم لزموه لا يفارقون ما هم فيه وشبه حملتهم بتهدم الحوض إذا تهدم . ويروى : * فلم ير غير عادية لزاما * (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٦٠ . (٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٢ . (٥) راجع جـ ٩ ص ٢٥٥ فما بعد . (٦) من ك .

ســـــورة الشـــــعراء

هى مكية فى قول الجمهـور . وقال مقاتل : منها مدنى ؛ الآية التى يذكر فيها الشعراء، وقوله : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وقال آبن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » إلى آخرها . وهى مائتان وسبع وعشرون آية . وفى رواية : ست وعشرون . وعن آبن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : " أعطيت السورة التى تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصّل نافلة " . وعن البراء بن عازب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المبين مكان الإنجيل وأعطانى الطواسين مكان الزبور وفضلنى بالحواميم والمفصل ماقرأهن نبى قبلى " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿ طسٓمٓ ﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائى وخلف: بإمالة الطاء مشبعا فى هذه السورة وفى أختيها. وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهرى: بين اللفظين؛ وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ الباقون بالفتح مشبعا. قال الثعلبى: وهى كلها لغات فصيحة. وقد مضى فى «طـه»(١) قول النحاس فى هذا. قال النحاس: وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائى: «طسٓمٓ» بإدغام النون فى الميم، والفراء يقول بإخفاء النون. وقرأ الأعمش: وحمزة: «طسين ميم» بإظهار النون. قال النحاس: للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه: يبيّنان عند حروف الحلق، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقلبان ميما عند الباء ويكونان من الخياشيم؛ أى لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التى نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنه ليس هاهنا حرف من حروف الحلق فتبيّن النون عنده، ولكن فى ذلك وُجَيْه: وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها، فإذا وقف عليها تبينت النون. قال الثعلبى: الإدغام آختيار أبى عبيد وأبى حاتم قياسا على كل القرآن، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم. قال النحاس: وحكى أبو إسحق فى كتابه «فيما يجرى وفيما لا يجرى» أنه يجوز أن يقال: «طسينَ ميمُ» بفتح النون وضم الميم، كما يقال هذا معدى كربُ. وقال أبو حاتم: قرأ خالد: «طسينَ ميمُ». آبن عباس: «طسم» قَسَم وهو آسم من أسماء الله تعالى، والمقسم عليه: «إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً». وقال قتادة: آسم من أسماء القرآن أقسم الله به. مجاهد: هو آسم السورة؛ ويحسن افتتاح السورة. الربيع: حساب مدة قوم. وقيل: قارعة تحل بقوم. «طسٓمٓ» و«طسٓ» واحد. قال(٢):

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ * بأَنْ تُسْعِدَا والدَّمعُ أَشْفَاه ساجِمُهْ

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٨.

(٢) هو المتنبى؛ والبيت مطلع قصيدة له مدح بها أبا الحسن على آبن عبد الله العدوى. وأشجاه: أحزنه. والطاسم: الدارس. والساجم: السائل. والمعنى: طالب وفاءهما بالإسعاد وهو الإعانة على البكاء والموافقة، ولذلك قال: (والدمع أشفاه ساجمه) والمعنى ابكيا معى بدمع فى غاية السجوم فهو أشفى للوجد، فإن الربع فى غاية الطسوم وهو أشجى للحب. وأراد بالوفاء هنا البكاء لأنهما عاهداه على الإسعاد. «شرح التبيان جـ ٢ للعكبرى».

وقال القرظى : أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه . وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل : الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة . وقال جعفر بن محمد بن علىّ : الطاء شجرة طوبى، والسين سِـدرة المنتهى، والميم محمد صلى الله عليه وسـلم . وقيل : الطاء من الطاهر والسين من القدوس — وقيـل : من السميع وقيل : من السلام — والميم من المجيد . وقيـل : من الرحيم . وقيل: من الملك . وقد مضى هذا المعنى فى أول سورة « البقرة »[1] . والطَّوَاسِيمُ والطَّواسِينُ سور فى القرآن جُمعت على غير قياس . وأنشد أبو عبيدة :

وبالطَّواسِيم التى قد ثُلِّثت　＊　وبالحواميم التى قـد سُبِّعت

قال الجوهرى : والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد، فيقال : ذواتُ طسم وذواتُ حـم .

قوله تعـالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ رفع على إضمـار مبتدإ أى هـذه « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » التى كنتم وعدتم بهـا ؛ لأنهم قـد وعدوا فى التوراة والإنجيل بإنزال القرآن . وقيل : « تِلْكَ » بمعنى هذه . ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ أى قاتل نفسك ومهلكها. وقد مضى فى « الكهف »[2] بيانه . ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى لتركهم الإيمان . قال الفراء : « أن » فى موضع نصب؛ لأنهـا جزاء . قال النحاس : وإنمـا يقال : بإن مكسورة لأنها جزاء ؛ كذا المتعارف . والقول فى هـذا ما قاله أبو إسحق فى كتابه فى القرآن ؛ قال : « أَنْ » فى موضع نصب مفعول من أجله ؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمـان . ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِـمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ أى معجزة ظاهرة وقـدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية ؛ ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية . وقال أبو حمزة الثُّمالىّ فى هذه الآية : [بلغنى أن هذه الآية][3] صوتا يسمع من السماء فى النصف من شهر رمضان؛ تخرج به العواتق من البيوت وتضج له الأرض . وهذا فيه بُعدٌ؛ لأن المراد قريش لا غيرهم . ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أى فتظل أعناقهم ﴿ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال مجاهد : أعناقهم كبراؤهم؛ وقال النحاس : ومعروف فى اللغة؛ يقال : جاءنى عُنُق من الناس أى رؤساء منهم . أبو زيد والأخفش : «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم؛

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٨ .　　(٣) من ز و ك .

يقال : جاءنى عُنُق من الناس أى جماعة . وقيل : إنما أراد أصحاب الأعناق، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . قتادة : المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوى أحد منهم عنقه إلى معصية . ابن عباس : نزلت فينا وفى بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذلّ لنا أعناقهم بعد معاوية ؛ ذكره الثعلبى والغزنوى [فالله أعلم][1] . وخاضعين وخاضعة هنا سواء؛ قاله عيسى بن عمر وآختاره المبرد . والمعنى: إنهم إذا ذلّت رقابهم ذلّوا؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها . و يسوغ فى كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثانى ؛ قال الراجز :

طولُ الليالى أسرعتْ فى نَقْضى * طَوَيْنَ طُولِى وطَوَيْنَ عَرْضى

فأخبر عن الليالى وترك الطول . وقال جرير[2] :

ارى مَرَّ السنين أَخَذْنَ مِنّى * كما أَخَذَ السِّرارُ من الهلالِ

وإنما جاز ذلك لأنه لو أسقط مرّ وطول من الكلام لم يفسد معناه ، فكذلك رد الفعل إلى الكناية فى قوله : « فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ » لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدّى ما بقى من الكلام عنه حتى يقول : فظلوا لها خاضعين . وعلى هذا آعتمد الفراء وأبو عبيدة . والكسائى يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البصريين والفراء . ومثل هذا الحذف لا يقع فى شىء من الكلام؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ تقدّم فى « الأنبياء »[3] . ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ أى أعرضوا ومن أعرض عن شىء ولم يقبله فهو تكذيب له . ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وعيد لهم ؛ أى فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذى آستهزءوا به .

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ نبّه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذى يستحق أن يُعبد ؛ إذ هو القادر على كل شىء . والزوج هو اللون ؛ قاله الفراء . و « كَرِيم » حسن شريف، وأصل

---

(١) من ز و ك . (٢) تقدم البيت فى ج ٧ ص ٢٦٤ . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٦٨ فما بعد .

الكرم في اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر[1]، ورجل كريم شريف فاضل صفوح . ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى . وقد تقدّم في سورة « البقرة »[2] والله سبحانه هو المخرج والمنبت له[3]. وروى عن الشعبي أنه قال : الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار إلى النـار فهو لئيم . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين لمـا سبق من علمي فيهـم . و « كَانَ » هنا صـلة في قول سيبويه ؛ تقديره : وما أكثرهم مؤمنين . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليـائه .

قوله تعـالى : وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ « إِذْ » في موضع نصب ؛ المعنى : وٱتل عليهم « إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ » ويدلّ على هذا أن بعده . « وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » ذكره النحاس. وقيل : المعنى؛ وٱذكر إذ نادى كما صرح به في قوله : « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ »[4] وقوله : « وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ »[5] وقوله : « وَٱذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ »[6] . وقيل : المعنى ؛ « وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ » كان كذا وكذا . والنداء الدعاء بيافلان، أي قال ربك ياموسى : ﴿ أَنِ ٱئْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم أخبر من هم فقـال ، ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ فـ « قـومَ » بدل ؛ ومعنى « أَلَا يَتَّقُونَ » ألا يخافون عقاب الله ؟ وقيل : هـذا من الإيمـاء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، ودلّ قوله : « يَتَّقُونَ » على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى . وقيل : المعنى؛ قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالتاء

(١) في ز و ك : كثيرة التثمير . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٢٧ فما بعد . (٣) في ك المخرج للنبات .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٣ . (٥) راجع جـ ١٥ ص ٢١٧ . (٦) راجع جـ ١١ ص ٨٩ فما بعد .

لحاز . ومثله « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ »[(١)] بالتاء والياء . وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم « أَلَا تَتَّقُونَ » بتاءين أى قل لهم « أَلَا تَتَّقُونَ » . ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ أى قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ أى فى الرسالة والنبوة . ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ لتكذيبهم إياى . وقراءة العامة « وَيَضِيقُ » « وَلَا يَنْطَلِقُ » بالرفع على الاستئناف . وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة : « وَيَضِيقَ — وَلَا يَنْطَلِقَ » بالنصب فيهما ردّا على قوله : « أَنْ يُكَذِّبُونِ » قال الكسائى : القراءة بالرفع ؛ يعنى فى « يَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » [من وجهين : أحدهما الابتداء والآخر بمعنى وإنى يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى[(٢)]] يعنى نسقا على « إِنِّي أَخَافُ » . قال الفراء : ويقرأ بالنصب . حكى ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى ابن عمر وكلاهما له وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ؛ لأن النصب عطف على « يُكَذِّبُونِ » وهذا بعيد يدلّ على ذلك قوله عز وجل : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي » فهذا يدلّ على أن هذه كذا . ومعنى ، « وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » فى المحاجة على ما أحب ؛ وكان فى لسانه عُقْدة على ماتقدّم فى « طه »[(٣)] . ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحى ، واجعله رسولا معى ليؤازرنى ويظاهرنى ويعاوننى . ولم يذكر هنا ليعيننى ؛ لأن المعنى كان معلوما ، وقد صرح به فى سورة « طه » : « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا » وفى القصص : « أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي »[(٤)] وكأن موسى أذن له فى هذا السؤال ، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه . ففى هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيرا ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه فى ذلك لوم . ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾[(٤)] الذنب هنا قتل القبطى واسمه فاثور على ما يأتى فى « القصص » بيانه ، وقد مضى فى « طه » ذكره . وخاف موسى أن يقتلوه به ، ودلّ على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو ؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى كلا لن يقتلوك . فهو ردع وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى ؛ أى ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم ؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك ،

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤ . (٢) من ك .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ . (٤) راجع ص ٢٨٤ وص ٢٥٩ من هذا الجزء .

ولا يقوون عليـه . ﴿ فَاذْهَبَا ﴾ أى أنت وأخوك فقـد جعلته رسولا معك . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى ببراهيننا وبالمعجزات . وقيل : أى مع آياتنا . ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى . ﴿ مُسْتَمِعُونَ ﴾ أى سامعـون ما يقولون وما يجاوبون . وإنمـا أراد بذلك تقوية قلبيهمـا وأنه يعينهما ويحفظهما . والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف البارى سبحانه بذلك . وقـد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير . وقال فى «طه»[1] : « أَسْمَعُ وَأَرَى » وقال : «مَعَكُمْ» فأجراهما مجرى الجمع ؛ لأن الاثنين جماعة . ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه . ويجوز أن يكون لجميع بنى إسرائيل .

قوله تعـالى : فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال أبو عبيـدة : رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا ؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين . قال الهذلى :

أَلِكْنِى إليهـا وخَيْرُ الرَّسُـــو * لِ أَعْلَمُهُـمْ بنَوَاحِى الخَـبَرْ

الكنى إليها معناه أرسلنى . وقال آخر[2] :

لقد كَذَبَ الواشون ما بُحْتُ عندهمْ * بِسِــرٍّ ولا أَرسلتُهُـــمْ برســولِ

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٠١ فما بعد . (٢) هو كثير . ويروى أيضا فى اللسان مادة « رسل » :

* بليـــل ولا أرسلتهم برسيـــل *

آخـر[1] : أَلَا أَبْلِغْ بَنِي عمرو رسولًا * بأنّي عن فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

وقال العباس بن مرداس :

أَلَا مَن مُبلِغٌ عنّي خُفَافًا * رسـولًا بيتُ أهلِك مُنْتَهاها

يعني رسالة فلذلك أنّثها . قال أبو عبيد : ويجوز أن يكون الرسول في معنى الآثنين والجمع؛ فتقول العرب : هـذا رسولي ووكيلي ، وهـذان رسولي ووكيلي، وهـؤلاء رسولي ووكيلي . ومنه قوله تعالى : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » . وقيل : معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين . ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم ؛ وكان فرعون آستعبدهم أربعمائة سنة ، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا . فآنطلقا فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البوّاب على فرعون فقال : ها هنا إنسان يزعم ه رسول رب العالمين . فقال فرعون : آيذن له لعلنا نضحك منه؛ فدخلا عليـه وأديا الرسالة . وروى وهب وغيره : أنهما لمـا دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعا من أسد ونمور وفهودٍ يتفرج عليها، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهرون، فأسرعوا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهرون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصبص إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال : ما أنتما ؟ قالا : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فعرف موسى لأنه نشأ في بيته ؛ فـ ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ على جهة المنّ عليـه والاحتقار . أي ربيناك صغيرا ولم نقتلك في جمـلة من قتلنا ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه . ثم قرره بقتل القبطي بقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ والفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل . وقرأ الشعبي : « فِعلتك » بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أي فعلتك التي تعرف فكيف تدعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك . وقال الشاعر :

كأنّ مِشيتَها مِن بيت جارتِها * مَرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَـلُ

(١) هو الأسعر الجعفيّ . عن فتاحتكم : أي عن حكمكم .

ويقال : كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة . ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ قال الضحاك : أى فى قتلك القبطى إذ هو نفس لا يحل قتله . وقيل : أى بنعمتى التى كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك ؛ قاله ٱبن زيد . الحسن : « مِنَ الْكَافِرِينَ » فى أنى إلهك . السّدى : « مِنَ الْكَافِرِينَ » بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعيبه . وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى و بين رجوعه نبيّا أحد عشر عاما غير أشهر . فـ﴿ ـقَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا ﴾ أى فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطى ﴿ وَأَنَا ﴾ إذ ذاك ﴿ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى من الجاهلين ؛ فنفى عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل . وكذا قال مجاهد؛ «مِنَ الضَّالِّينَ » من الجاهلين . ابن زيد : من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل . وفى مصحف عبد الله « مِنَ الجَاهِلِينَ » ويقال لمن جهل شيئا ضل عنه . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » من الناسين ؛ قاله أبو عبيدة . وقيل : « وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » عن النبوّة ولم يأتنى عن الله فيه شىء ، فليس علىّ فيما فعلته فى تلك الحالة توبيخ . و بيّن بهذا أن التربية فيهم لا تنافى النبوّة والحلم على الناس ، وأن القتل خطأ أو فى وقت لم يكن فيه شرع لا ينافى النبوّة .

قوله تعالى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أى خرجت من بينكم إلى مَدْين كما فى سورة « القصص » : « فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ »(١) وذلك حين القتل . ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ يعنى النبوّة؛ عن السّدى وغيره . الزجاج : تعليم التوراة التى فيها حكم الله . وقيل : علما وفهما . ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ ٱختلف الناس فى معنى هذا الكلام ؛ فقال السّدى والطّبرى والفراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة ؛ كأنه يقول : نعم ؟ وتربيتك نعمة علىّ من حيث عبّدت غيرى وتركتنى ؛ ولكن لا يدفع ذلك رسالتى . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أى أتمنّ علىّ بأن ربيتنى وليدا وأنت قد ٱستعبدت بنى إسرائيل وقتلتهم ؟ ! أى ليست بنعمة ؟ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومى ؛ فكيف تذكر إحسانك إلىّ على

(١) راجع جـ ص ٢٦٥ من هذا الجزء .

الخصوص ؟ ! قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فيه تقدير آستفهام ؛ أي أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضا وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى ، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

* تَرُوحُ من الحيّ أم تَبْتَكِر *

ولا أعلم بين النحويين آختلافا في هذا إلا شيئا قاله الفراء . قال : يجوز حذف ألف الآستفهام في أفعال الشك ، وحكى تُرَى زيدا منطلقا ؟ بمعنى أُتُرى . وكان علي بن سليمان يقول في هذا : إنما أخذه من ألفاظ العامة . قال الثعلبيّ : قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة؟ على طريق الآستفهام؛ كقوله : «هَذَا رَبِّي»(1) «فَهُمُ الْخَالِدُونَ» . قال الشاعر(2) :

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيلدُ لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

وأنشد الغزنوي شاهدا على ترك الألف قولهم :

لم أنس يوم الرحيل وقفتَها * وجفنها من دموعها شَرِقُ

وقولَها والركابُ واقفةٌ * تَركتني هكذا وتَنطلقُ

قلت : ففي هذا حذف ألف الآستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس . وقال الضحاك: إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون بآستفهام وبغير آستفهام ؛ والمعنى : لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي؛ فأي نعمة لك عليّ ! فأنت تمنّ عليّ بما لا يجب أن تمنّ به . وقيل : معناه كيف تمنّ بالتربية وقد أهنت قومي ؟ ومن أهين قومه ذل . و «أَنْ عَبَّدْتَ» في موضع رفع على البدل من « نِعْمة » ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى : لأن عبدت بني إسرائيل ؛ أي آتخذتهم عبيدا . يقال : عبدته وأعبدته بمعنى ؛ قاله الفراء وأنشد :

عَلَامَ يُعبِدُنِي قومي وقد كَثُرَت * فيهم أَباعِرُ ما شاءوا وعِبْدانُ

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٥ . (2) هو أبو خراش الهذلي ؛ وقد تقدم شرح البيت في جـ ١١ ص ٢٨٧ .

قوله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا
تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ
ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم
مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى فى قوله : رسول رب العالمين ؛ فاستفهمه آستفهاما عن مجهول من الأشياء . قال مكىّ وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فلذلك آستفهم بـ« ـما » . قال مكى : وقد ورد له آستفهام بـ« ـمن » فى موضع آخر و يشبه أنها مواطن ؛ فأتى موسى بالصفات الدالّة على الله من مخلوقاته التى لا يشاركه فيها مخلوق ، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى ؛ لأن الأجناس محدثة ، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التى تبيِّن للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها . فقال فرعون : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك . فزاد موسى فى البيان بقوله : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه ؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لابد لهم من مغيِّر ، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا ، وأنهم لا بد لهم من مكوِّن . فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى ليس يجيبنى عما أسأل ؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أن ليس ملكه كملكك ؛ لأنك إنما تملك بلدا واحدا لا يجوز أمرك فى غيره ، و يموت من لا تحب أن يموت ، والذى أرسلنى يملك المشرق والمغرب ؛ ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : علم موسى عليه السلام أن قصده فى السؤال معرفة من سأل عنه ، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم . ثم لما آنقطع فرعون لعنه الله فى باب الحجة رجع إلى الآستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن ، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك ؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمَّ إلها غيره . وفى توعده بالسجن ضعف . وكان فيما يروى

أنه يفزع منه فزعا شديدا حتى كان اللعين لا يمسك بوله . وروى أن سجنه كان أشد من القتل . وكان إذا سجن أحدا لم يخرجه من سجنه حتى يموت ، فكان مَخُوفا . ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعدُ فرعون ﴿ قَالَ ﴾ له على جهة اللطف به والطمع فى إيمانه : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ فيتضح لك به صدقى ، فلما سمع فرعون ذلك طمع فى أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿ فَقَالَ ﴾ له ﴿ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه ؛ لأن ما تقدّم يكفى منه . ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته . وقد تقدّم بيان ذلك وشرحه فى « الأعراف »(١) إلى آخر القصة . وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا ؛ أى إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين . وهذا يدلّ على شدّة استبصارهم وقوّة إيمانهم . قال مالك : دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام ، وأن السحرة آمنوا به فى يوم واحد . يقال : لا ضَيْرَ ولا ضَوْر ولا ضَرّ ولا ضَرَر ولا ضارُورة بمعنى واحد ؛ قاله الهروى . وأنشد أبو عبيدة :(٢)

فإنك لا يَضُورك بعد حَوْلٍ * أظبيٌ كان أُمَّك أم حِمارُ

وقال الجوهرى : ضَارَه يَضُوره ويضيره ضَيْرا وضَوْرا أى ضَرّه . قال الكسائى : سمعت بعضهم يقول لا ينفعنى ذلك ولا يَضُورنى . والتّضور الصياح والتلوى عند الضرب أو الجوع . والضُّورَة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن . ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ يريد ننقلب إلى رب كريم رحيم ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . « أَنْ » فى موضع نصب أى لأن كنا . وأجاز الفراء كسرها على أن تكون مجازاة . ومعنى : ﴿ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى عند ظهور الآية ممن كان فى جانب فرعون . الفراء : أول مؤمنى زماننا . وأنكره الزجاج وقال : قد روى أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفا ، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ » روى ذلك عن ابن مسعود وغيره .

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٦ فما بعد . (٢) البيت لخداش بن زهير ، واستشهد به سيبويه فى كتابه على جعل اسم كان نكرة وخبرها معرفة ضرورة . والمعنى : لا تبالى بعد قيامك بنفسك واستغنائك عن أبويك من انتسبت إليه من شريف أو وضيع ، وضرب المثل بالظبى أو الحمار .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ لما كان من سنته تعالى فى عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، أمر موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى . ومعنى : « إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ » أى يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم . وفى ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛ فخرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل سَحَرا، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بنى إسرائيل يقول له فى ترك الطريق فيقول : هكذا أمرت . فلما أصبح فرعون وعلم بسُرَى موسى ببنى إسرائيل، خرج فى أثرهم، و بعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروى أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان . وروى أن بنى إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا . والله أعلم بصحته . وإنما اللازم من الآية الذى يُقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من

بنى إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك . قال ابن عباس : كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل . والشِّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّراذم . قال الجوهرى : الشِّرذمة الطائفة من النـاس والقطعة من الشيء . وثوب شراذم أى قطع . وأنشد الثعلبى قول الراجـــز :

جاء الشتـــاءُ وثيـابى أخلاقْ * شَراذمٌ يَضحكُ منها النَّـوَّاقْ

النَّـوَّاق من الرجال الذى يروض الأمـور ويصلحها (١) ؛ قاله فى الصحاح . واللام فى قوله : « لَشِرْذِمَةٌ » لام توكيـد وكثيرا ما تدخل فى خبر إن ، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيدا لسوف يقوم . والدليل على أنه جائز قوله تعـالى : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وهـذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف ؛ قاله النحاس . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَـا لَغَائِظُونَ ﴾ أى أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التى آستعاروها على ما تقـدم . وماتت أبكارهم تلك الليلة . وقد مضى هذا فى « الأعراف » (٢) و « طه » (٣) مستوفى . يقال : غاظنى كذا وأغاظنى . والغيظ الغضب ومنه التغيظ والآغتياظ . أى غاظونا بخروجهم من غير إذن . ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيـعٌ حَذِرُونَ ﴾ أى مجتمع [مستعد] (٤) أخذنا حذرنا وأسلحتنا . وقرئ : « حَاذِرُونَ » ومعناه معنى « حَذِرُونَ » أى فرقون خائفون . قال الجوهرى : وقرئ : « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ » و « حَذِرُونَ » و « حَذُرونَ » بضم الذال حكاه الأخفش ؛ ومعنى : « حَاذِرُونَ » متأهبون ، ومعنى : « حَذِرُونَ » خائفون . قال النحاس : « حَذِرُونَ » قراءة المدنيين وأبى عمرو ، وقراءة أهل الكوفة : « حَاذِرُونَ » وهى معروفة عن عبد الله بن مسعود وآبن عباس ؛ و « حَادِرُونَ » بالدال غير المعجمة قراءة أبى عبّاد وحكاها المهـدوى عن ابن أبى عمار ، والمـاوردى والثعلبى عن سُمَيْط بن عجلان . قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى « حَذِرُونَ » « وحَاذِرُونَ » واحد . وهو قول سيبويه وأجاز : هو حَذِرٌ زيدا ؛ كما يقال : حاذر زيدا ، وأنشد :

حَذِرٌ أمورًا لا تَضِـيرُ وآمِنٌ * ما ليس مُنْجِيَهُ من الأقدارِ

(١) ويقال هو آسم آبنه . ويروى (التواق) بالتاء .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٢٧ فما بعد .
(٤) من ز و ك .

وزعم أبو عمر الجَرْمي أنه يجوز هو حذرٌ زيدا على حذف مِن . فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذِر وحاذر ؛ منهم الكسائي والفراء ومحمد بن يزيد ؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر ، أي متيقظ متنبه ، فإذا كان هكذا لم يتعدّ ، ومعنى حاذر مستعدّ وبهذا جاء التفسير عن المتقدّمين . قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل : « وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ » قال : مُؤْدون في السلاح والكُراع مُقْوون ، فهذا ذاك بعينه . وقوله : مُؤْدون معهم أداة . وقد قيل : إن المعنى : معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال ؛ فأما « حادِرون » بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حَدْرة أي ممتلئة ؛ أي نحن ممتلئون غيظا عليهم ؛ ومنه قول الشاعر[(١)] :

وعين لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ * شُقَّتْ مآقيهما مِنْ أُخُرْ

وحكى أهل اللغة أنه يقال : رجل حادِرٌ إذا كان ممتلئ اللحم ؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح . المهدوي : الحادر القويّ الشديد .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعني من أرض مصر . وعن عبد الله ابن عمرو قال : كانت الجنات بحافتي النيل في الشقّتين جميعا من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . والنيل سبعة خلجان : خليج الإسكندرية ، وخليج سَخَا ، وخليج دمياط ، وخليج سَرْدُوس ، وخليج مَنْف ، وخليج الفيوم ، وخليج المَنْهَى[(٢)] متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزروع ما بين الخلجان كلها . وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا بما دبّروا وقدّروا من قناطرها وجسورها وخلجانها ؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعا نيل السلطان ، ويُخلَع على ابن أبي الرّداد[(٣)] ؛ وهذه الحال مستمرّة إلى الآن . وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخراج على الناس . وكانت أرض مصر جميعها تروى

(١) هو امرؤ القيس . (٢) وهو بحر يوسف عليه السلام . (٣) هو عبد الله بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي الرّداد المؤذن ؛ قدم مصر من البصرة وحدّث بها ، وجعل على قياس النيل في ولاية يزيد بن عبد الله التركي — وكانت النصارى تتولى قياسه — وأجرى عليه سبعة دنانير في كل شهر ، واستقر قياسه في بنيه زمانا طويلا . وتوفي أبو الرّداد سنة ٢٦٦ هـ . عن خطط المقريزي ج ١ ص ٥٨ .

من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعا ، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعا ونودى عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعا ، آزداد فى خراجها ألف ألف دينار . فإذا خرج عن ذلك ونودى عليه إصبعا واحدا من تسـعة عشر ذراعا نقص خراجها ألف ألف دينـار . وسبب هذا ما كان ينصرف فى المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها . فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبع من تسعة عشر ذراعا بمقياس مصر . وأما أعمال الصعيد الأعلى ، فإن بها ما لا يتكامل ريّه إلا بعد دخول المـاء فى الذراع الثانى والعشرين بالصعيد الأعلى .

قلت : أما أرض مصر فلا تروى جميعهـا الآن إلا من عشرين ذراعا وأصابع ؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها ، وهو من عجائب الدنيا ؛ وذلك أنه يزيد إذا آنصبت المياه فى جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر ، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصـل إليها إلا بالمراكب والقياسات . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : نيل مصر سيد الأنهـار ، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلل الله له الأنهار ؛ فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده ، فأمدته الأنهار بمائها ، وفجّر الله له عيونا ، فإذا آنتهى إلى ما أراد الله عز وجل ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . وقال قيس بن الحجاج : لمـا افتتحت مصر أتى أهلها إلى عمـرو بن العاص حين دخل بئـونة من أشهر القبط فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ فقالوا : إذا كان لاثنتى عشرة ليـلة تخلو من هـذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها ؛ أرضينا أبويها ، وحملنا عليها من الحلىّ والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل ؛ فقال لهم عمرو : هـذا لا يكون فى الإسلام ؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبـله . فأقاموا أبيب ومسرى لا يجرى قليل ولا كثير، وهموا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، فأعلمه بالقصة ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وإن الإسلام يهـدم ما قبله ولا يكون هـذا . وبعث إليـه ببطاقة فى داخل كتابه . وكتب إلى عمرو : إنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى ، فألقها فى النيل

إذا أتاك كتابي . فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر — أما بعد — فإن كنت إنما تجرى من قِبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يُجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . قال : فألقى البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل . فلما ألقى البطاقة فى النيل ، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله فى ليلة واحدة ستة عشر ذراعا ، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة . قال كعب الأحبار : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا سَيْحان وجَيْحان والنيل والفرات ، فسيحان نهر الماء فى الجنة ، وجيحان نهر اللبن فى الجنة ، والنيل نهر العسل فى الجنة ، والفرات نهر الخمر فى الجنة . وقال ابن لَهِيعَة : الدجلة نهر اللبن فى الجنة .

قلت : الذى فى الصحيح من هذا حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة" لفظ مسلم » وفى حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعة رجلٍ من قومه قال : "وحدّث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ياجبريل ماهذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات" لفظ مسلم . وقال البخارىّ من طريق شَريك عن أنس "فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يَطَّرِدان[1] فقال ماهذان النهران ياجبريل قال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا ياجبريل فقال هذا هو الكوثر الذى خبأ لك ربُّك . " وذكر الحديث . والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء . وقال سعيد بن جبير : المراد عيون الذهب . وفى الدخان « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ[2] » . قيل : إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوّل مصر إلى آخرها . وليس فى الدخان « وكنوز » . « وكنوز » جمع كنز ، وقد مضى هذا

(١) يطردان : أى يجريان ، وهما يفتعلان من الطرد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٣٨ .

فى سورة « براءة »[1] . والمراد بها ها هنا الخزائن . وقيل : الدفائن . وقال الضحاك : الأنهار ؛ وفيه نظر ؛ لأن العيون تشملها. ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد : المقام الكريم المنابر ؛ وكانت ألف منبر لألف جبّار يُعَظِّمون عليها فرعون وملكه . وقيل : مجالس الرؤساء والأمراء ؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول . وقال سعيد بن جبير : المساكن الحسان . وقال ابن لهيعة : سمعت أن المقام الكريم الفيوم. وقيل : كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسماها الله كريمة بهــذا . وقيل : مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عُدّة وزينة ؛ فصار مقامها أكرم منزل بهــذا ؛ ذكره المــاوردى . والأظهر أنهــا المساكن الحسان كانت تكرم عليهم . والمقام فى اللغة يكون الموضع ويكون مصدرا . قال النحاس : المقام فى اللغة الموضع ؛ من قولك قام يقوم ؛ وكذا المقامات واحدها مقامة ؛ كما قال[2] :

وفيهم مَقَاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم　*　وأنديةٌ ينتــابُها القــولُ والفعلُ

والمقام أيضا المصدر من قام يقوم . والمقام (بالضم) الموضع من أقام . والمصدر أيضا من أقام يقــيم .

قوله تعــالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنــات والعيون والكنوز والمقــام الكريم أورثه الله بنى إسرائيــل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلىّ آل فرعون بأمر الله تعالى .

قلت : وكلا الأمرين حصل لهم . والحمد لله . ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى فتبع فرعون وقومه بنى إسرائيــل . قال السدى : حين أشرقت الشمس بالشعاع . وقال قتادة : حين أشرقت الأرض بالضياء . قال الزجاج : يقال شَرَقت الشمسُ إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . واختلف فى تأخر فرعون وقومه عن موسى وبنى إسرائيل على قولين : أحدهما —

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ .　　(٢) هو زهير بن أبى سلمى ؛ وينتابها : أى يقال فيها الجميل ويفعل به .

لاشتغالهم بدفن أبكارهم فى تلك الليلة ؛ لأن الوباء فى تلك الليلة وقع فيهم ؛ فقوله : « مُشْرِقِينَ » حال لقوم فرعون . الثانى — إن سحابة أظلتهم وظُلْمة فقالوا : نحن بعد فى الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا . وقال أبو عبيدة : معنى « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ناحية المشرق . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون : «فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ» بالتشديد وألف الوصل ؛ أى نحو المشرق ؛ مأخوذ من قولهم : شرّق وغرّب إذا سار نحو المشرق والمغرب . ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فاتبع قوم فرعون بنى إسرائيل مشرّقين فهلكوا ، وورث بنو إسرائيل بلادهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾[(١)] أى تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية . ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أى قرب منا العدو ولا طاقة لنا به . وقراءة الجماعة : «لَمُدْرَكُونَ» بالتخفيف من أدرك . ومنه : «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ»[(٢)] . وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهرى : «لَمُدَّرَكُونَ»[(٣)] بتشديد الدال من ادّرك . قال الفراء : حفر واحتفر بمعنى واحد ، وكذلك « لَمُدْرَكُونَ » و « لَمُدَّرَكُونَ » بمعنى واحد . النحاس : وليس كذلك يقول النحويون الحذّاق ؛ إنما يقولون : مُدْرَكون ملحقون ، ومدّركون مجتهد فى لحاقهم ، كما يقال : كسبت بمعنى أصبت وظفرت ، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمعَ موسى وقرب منهم ، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القوىّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم ، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » فردّ عليهم قولهم وزجرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر « كَلَّا » أى لم يدركوكم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي » أى بالنصر على العدوّ . « سَيَهْدِينِ » أى سيدلّنى على طريق النجاة ؛ فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل ، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ وذلك أنه

(١) كذا فى الأصول . (٢) راجع ج ٨ ص ٣٧٧ . وكسر الراء — كما فى البحر وروح المعانى والكشاف . (٣) على وزن مفتعلون ، وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال ، من ادّرك الشىء إذا تتابع ففنى .

عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله ؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه . وقد مضى في « البقرة »(١) قصة هذا البحر . ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، أي الجبل العظيم . والطود الجبل ؛ ومنه قول امرئ القيس :

فبينا المرءُ في الأحياءِ طَوْدٌ　*　رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فمالا

وقال الأسود بن يَعْفُر :

حَلُّوا بأنقرةٍ يَسيلُ عليهمُ　*　ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أطْوادِ

جمع طود أي جبل . فصار لموسى وأصحابه طريقا في البحر يَبَسًا ؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدّم في « يونس »(٢) انصب عليهم وغرق فرعونُ ؛ فقال بعض أصحاب موسى : ماغرق فرعونُ ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه . وروى ابن القاسم عن مالك قال : خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا له بم أمرك الله ؟ قال : أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينفلق ؛ فقالا له افعل ما أمرك الله فلن يخلفك ؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقا له ؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه ، ثم ارتد كما كان . وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾ أي قربناهم إلى البحر ؛ يعني فرعون وقومه . قاله ابن عباس وغيره ؛ قال الشاعر :

وكُلُّ يومٍ مَضَى أو ليلةٍ سلَفَتْ　*　فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ

أبو عبيدة : « أَزْلَفْنَا » جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع . وقرأ أبو عبد الله بن الحرث وأُبيّ بن كعب وابن عباس : « وَأَزْلَقْنَا » بالقاف على معنى أهلكناهم ؛ من قوله : أزلقت الناقةُ وأزلقت الفرسُ فهي مُزْلِق إذا أزلقت ولدها(٣) . ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ يعني فرعون وقومه . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي علامة على قدرة الله تعالى

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ فما بعد و ص ٣٨٧ .　　(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٦ .
(٣) في ك : إذا ألقت ولدها .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلّت على قبر يوسف الصديق عليه السلام . وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا . قال موسى : فأيكم يدرى قبره ؟ قال : ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل ؛ فأرسل إليها ؛ فقال : دلّيني على قبر يوسف ، قالت : لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي ، قال : وما حكمك ؟ قالت : حكمي أن أكون معك في الجنة ؛ فثقل عليه ، فقيل له : أعطها حكمها ؛ فدلّتهم عليه ، فاحتفروه واستخرجوا عظامه ، فلما أقلوها ، فإذا الطريق مثل ضوء النهار في رواية : فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل ، فأتت بهم إلى بحيرة ، فقالت لهم : أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام ؛ فتبينت لهم الطريق مثل ضوء النهار . وقد مضى في « يوسف »[1] . وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بأعرابي فأكرمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حاجتك " قال : ناقة أرحلها وأعنزا أحلبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل " فقال أصحابه : وما عجوز بني إسرائيل ؟ فذكر لهم حال هذه العجوز التي احتكمت على موسى أن تكون معه في الجنة .

قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ .

قوله تعـالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نبّه المشركين على فرط جهلهم إذ رغبوا عن آعتقاد إبراهيم ودينـه وهو أبوهم . والنبأ الخبر ؛ أى آقصص عليهم يا محمد خبره وحديثـه وعيبه على قومه ما يعبدون . وإنمـا قال ذلك ملزما لهم الحجة . والجمهور من القراء على تخفيف الهمزة الثانيـة وهو أحسن الوجوه ؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم . وإن شئت حقّقتهما فقلت : « نَبَأَ إِبْرَاهِـيمَ » . وإن شئت خفّفتهما فقلت : « نبا إبراهيم » . وإن شئت خففت الأولى . وثَمَّ وجهٌ خامس إلا أنه بعيـد فى العربيـة وهو أن يدغم الهمزة فى الهمزة كما يقال رأّاس للذى يبيع الرءوس . وإنمـا بعد لأنك تجمـع بين همزتين كأنهما فى كلمة واحدة ، وحَسُن فى فَعَّال لأنه لا يأتى إلا مدغما . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أى أىّ شىء تعبدون ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب . ﴿ فَنَظَلُّ لَهَـا عَاكِفِينَ ﴾ أى فنقيم على عبادتهـا . وليس المراد وقتا معينا بل هو إخبار عما هم فيه . وقيل : كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ، وكانوا فى الليل يعبـدون الكواكب . فيقال : ظل يفعـل كذا إذا فعـله نهارا وبات يفعـل كذا إذا فعله ليلا . ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ قال الأخفش : فيه حذف ؛ والمعنى : هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؛ قال الشاعر[(١)] :

القـائد الخيــلَ مَنْكُوبًا دَوابِرُهـا * قد أُحْكِمَتْ حَكَمَاتِ القِدِّ والأَبَقَا

قال : والأَبَق الكَتّان لحذف . والمعنى ؛ وأحكمت حكمات الأَبَق . وفى الصحاح : والأَبَق بالتحريك القِنّب . وروى عن قتادة أنه قرأ : « هَـلْ يُسْمِعُونَكُمْ » بضم اليـاء ؛ أى هل يسمعونكم أصواتهم ﴿ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أى هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم ، أو تملك لكم خيرا أو ضرّا إن عصيتم ؟ ! وهذا آستفهام لتقرير الحجة ؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فمـا معنى عبادتكم لها . ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فنزعوا إلى التقليد

---

(١) هو زهير بن أبى سلمى . والبيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . وأحكمت : جعلت لها حكمات من القد . والحكمات جمع حكمة وهى ما تكون على أنف الدابة . ودوابرها : مؤخر حوافرها . ومنكوبا : أى أصابت الحجارة دوابرها وأدمتهـا .

من غير حجة ولا دليل . وقد مضى القول فيه . ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ من هذه الأصنام ﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ الأولون ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ واحد يؤدّى عن جماعة ، وكذلك يقال للمرأة هى عدوّ الله وعدوّة الله ؟ حكاهما الفراء . قال على بن سليمان : من قال عدوّة الله وأثبت الهاء قال هى بمعنى معادية ، ومن قال عدوّ للؤنث والجمع جعله بمعنى النسب . ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوّ لى إن عبدتهم يوم القيامة ؛ كما قال : « كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (١) » . وقال الفراء : هو من المقلوب ؛ مجازه فإنى عدوّ لهم لأن من عاديته عاداك . ثم قال : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الكلبي : أى إلا من عبد رب العالمين ؛ إلا عابد رب العالمين ؛ فحذف المضاف . قال أبو إسحق الزجاج : قال النحويون هو آستثناء ليس من الأوّل ؛ وأجاز أبو إسحق أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل و يعبدون معه الأصنام ، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله . وتأوّله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده : فإنهم لو عبدتُهم عدوّ لى يوم القيامة ؛ على ما ذكرنا . وقال الجرجانى : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدوّ لى . و إلا بمعنى دون وسوى ؛ كقوله : « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى (٢) » أى دون الموتة الأولى .

قوله تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى يرشدنى إلى الدين . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى يرزقنى . ودخول « هو » تنبيه على أن غيره لا يُطعم ولا يَسقى ؛ كما تقول : زيد هو الذى فعل كذا ؛ أى لم يفعله غيره . ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال : « مَرِضْتُ » رعاية للأدب و إلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعا . ونظيره قول

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٨ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٥٤ .

فتى موسى : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ »[1] . ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبيّن أن الله هو الذى يميت و يحيي . وكله بغير ياء : « يهدين » « يشفين » لأن الحذف فى رءوس الآى حسن لتتفق كلها . وقرأ ابن أبى إسحق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء ؛ لأن الياء اسم و إنما دخلت النون لعلة . فإن قيل : فهذه صفة لجميع[2] الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة ؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها ؛ وهذا إلزام صحيح .

قلت : وتجوّز بعض أهل الإشارات فى غوامض المعانى فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم . فقال : «وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ» أى يطعمنى لذة الإيمان و يسقين حلاوة القبول . ولهم فى قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » وجهان : أحدهما — إذا مرضت بمخالفته شـفانى برحمته . الثانى — إذا مرضت بمقاساة الخلق ، شفانى بمشاهدة الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفانى بالتوبة . وتأولوا قوله : « وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ » على ثلاثة أوجه : فالذى يميتنى بالمعاصى يحيينى بالطاعات . الثانى : يميتنى بالخوف يحيينى بالرجاء . الثالث : يميتنى بالطمع و يحيينى بالقناعة . وقول رابع : يميتنى بالعدل و يحيينى بالفضل . وقول خامس : يميتنى بالفراق و يحيينى بالتلاق . وقول سادس : يميتنى بالجهل و يحيينى بالعقل ؛ إلى غير ذلك ممـا ليس بشىء منه مراد من الآية ؛ فإن هـذه التأويلات الغامضة ، والأمور الباطنة ، إنمـا تكون لمن حذق وعرف الحق ؛ وأما من كان فى عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ، وتترك الأمور الظاهرة؟ هذا محال . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ « أَطْمَعُ » أى أرجو . وقيـل : هو بمعنى اليقين فى حقه ، و بمعنى الرجاء فى حق المؤمنين سواه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحق : « خَطَايَايَ » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال النحاس : خطيئة بمعنى

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٣ . (٢) كذا فى أ و ز و ك .

خطايا معروف فى كلام العرب ، وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله عز وجل « فَٱعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ »(١) ومعناه بذنوبهم . وكذا « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ »(٢) معناه الصلوات ، وكذا « خَطِيئَتِي » إن كانت خطايا . والله أعلم . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا »(٣) وقوله : « إِنِّي سَقِيمٌ »(٤) وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب : « هَـٰذَا رَبِّي » وقد مضى بيان هـذا مستوفى(٥) . وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها . ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم . وهـذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له . وفى صحيح مسلم عن عائشة ؛ قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، و يطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : " لا ينفعه إنه لم يقل يوما « رَبِّ ٱغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » " .

قوله تعالى : رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ « حُكْمًا » معرفة بك و بحدودك وأحكامك ؛ قاله ٱبن عباس . وقال مقاتل : فهما وعلما ؛ وهو راجع إلى الأول . وقال الكلبي : نبوة ورسالة إلى الخلق . « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى بالنبيين من قبلى فى الدرجة . وقال ٱبن عباس : بأهل الجنة ؛ وهو تأكيد قوله : « هَبْ لِي حُكْمًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ قال ٱبن عباس : هو ٱجتماع الأمم عليه . وقال مجاهد : هو الثناء الحسن . قال ٱبن عطية : هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين ؛ وكذلك أجاب الله دعوته ، وكل أمة تتمسك به وتعظمه ، وهو على الحنيفية التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مكى : وقيل معناه سؤاله أن يكون من ذريته فى آخر الزمان

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢١٣ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٤٢ فما بعد . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٩ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٩٢ . (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٥ فما بعد .

من يقوم بالحق ؛ فأجيبت الدعوة فى محمد صلى الله عليه وسلم ، قال ٱبن عطية : وهذا معنى حسن إلا أن لفظ[1] الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ . وقال القشيرى : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة فى حق كل أحد .

قلت : وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا وهو يصلى على إبراهيم وخاصة فى الصلوات ، وعلى المنابر التى هى أفضل الحالات وأفضل الدرجات . والصلاة دعاء بالرحمة : والمراد باللسان القول ، وأصله جارحة الكلام . قال القتبى : وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة . قال الأعشى :

إِنِّى أَتَتْنِى لِسانٌ لا أُسَرُّ بِها * مِن عَلْوُ لا عَجَبٌ مِنها ولا سَخَرُ

قال الجوهرى : يروى من علو بضم الواو وفتحها وكسرها . أى أتانى خبر من أعلى ، والتأنيث للكلمة . وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر . روى أشهب عن مالك قال قال الله عز وجل : « وَٱجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ » لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا ويرى فى عمل الصالحين ، إذا قصد به وجه الله تعالى ؛ وقد قال الله تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي[2] » وقال : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا[2] » أى حبا فى قلوب عباده وثناء حسنا ، فنبّه تعالى بقوله : « وَٱجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ » على ٱستحباب ٱكتساب ما يورث الذكر الجميل . الليث بن سليمان : إذ هى الحياة الثانية . قيل :

* قد مات قومٌ وهُمْ فى النّاس أحْياءُ *

قال ٱبن العربى : قال المحققون من شيوخ الزهد فى هذا دليل على الترغيب فى العمل الصالح الذى يكسب الثناء الحسن ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ٱبن آدم ٱنقطع عمله إلا من ثلاث " [الحديث] وفى رواية إنه كذلك فى الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطا يكتب له عمله إلى يوم القيامة . وقد بيناه فى آخر « آل عمران[3] » والحمد لله .

(١) فى ك : معنى الآية . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٦ وص ١٦٠ فما بعد . (٣) راجع جـ ٤ ص ٣٢٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها؛ وهو يرد قول بعضهم : لا أسأل جنة ولا نارا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ ﴾ كان أبوه وعده فى الظاهر أن يؤمن به فاستغفر له لهذا ؛ فلما بان أنه لا يفى بما قال تبرأ منه . وقد تقدّم هذا المعنى (١) . « إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » أى المشركين . « وكان » زائدة . ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى لا تفضحني على رءوس الأشهاد ، أو لا تعذبنى يوم القيامة . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة " والغبرة هى القترة . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه فيقول يارب إنك وعدتنى ألا تخزنى يوم يبعثون فيقول الله تعالى إنى حرمت الجنة على الكافرين " انفرد بهما البخارى رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأول . أى يوم لا ينفع مال ولا بنون أحدا . والمراد بقوله : « وَلَا بَنُونَ » الأعوان ؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع ؟ وقيل : ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم ، أى لم ينفعه إبراهيم . ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ هو استثناء من الكافرين ؛ أى لا ينفعه ماله ولا بنوه . وقيل : هو استثناء من غير الجنس ، أى لكن « مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » ينفعه لسلامة قلبه . وخص القلب بالذكر ؛ لأنه الذى إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح . وقد تقدّم فى أول « البقرة » (٢) . واختلف فى القلب السليم فقيل : من الشك والشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ؛ قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيّب : القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ؛ قال الله تعالى : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » (٢) وقال أبو عثمان السيّارى : هو القلب الخالى عن البدعة المطمئن إلى السنة . وقال الحسن : سليم من آفة المال والبنين . وقال الجنيد : السليم فى اللغة اللديغ ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله . وقال الضحاك : السليم الخالص .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٤ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٧ فما بعد و ص ١٩٧ .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن ، أى الخالص من الأوصاف الذميمة ، والمتصف بالأوصاف الجميلة ؛ والله أعلم . وقد روى عن عروة أنه قال : يا بنيّ لا تكونوا لعّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، قال الله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . وقال محمد بن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير" يريد — والله أعلم — أنها مثلها فى أنها خالية من كل ذنب ، سليمة من كل عيب ، لا خبرة لهم بأمور الدنيا ؛ كما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أكثر أهل الجنة البُلْهُ" وهو حديث صحيح . أى البُلْه عن معاصى الله . قال الأزهرى : الأبله هنا هو الذى طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه . وقال القتبي : البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس .

قوله تعالى : وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى قربت وأدنيت ليدخلوها . وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها . ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ أى أظهرت ﴿ الْجَحِيمُ ﴾ يعنى جهنم . ﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾

أى الكافرين الذين ضلوا عن الهدى . أى تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن ، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ ﴾ من عذاب الله ﴿ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ لأنفسهم . وهذا كله توبيخ . ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا ﴾ أى قلبوا على رءوسهم . وقيل : دهوروا وألق بعضهم على بعض . وقيل : جمعوا . مأخوذ من الكَبْكَبة وهى الجماعة ؛ قاله الهروى . وقال النحاس : هو مشتق من كَوْكَبِ الشيء أى معظمه . والجماعة من الخيل كَوْكَبٌ وكَبْكَبة . وقال ابن عباس : جمعوا فطرحوا فى النار . وقال مجاهد : دهوروا . وقال مقاتل : قذفوا . والمعنى واحد . تقول : دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفته فى مَهْوَاة . يقال : هو يدهور اللقم إذا كبرها . ويقال : فى الدعاء كَبَّ الله عدوّ المسلمين ولا يقال أكبه . وكبكبه ، أى كبه وقلبه . ومنه قوله تعالى : « فَكُبْكِبُوا فِيهَا » والأصل كُبِّبوا فأبدل من الباء الوسطى كاف استثقالا لاجتماع الباءات . قال السدى : الضمير فى « كُبْكِبُوا » لمشركى العرب ﴿ وَالْغَاوُونَ ﴾ الآلهة . ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ من كان من ذريته . وقيل : كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فاتبعه . وقال قتادة والكلبى ومقاتل : « الْغَاوُونَ » هم الشياطين . وقيل : إنما تلقى الأصنام فى النار وهى حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم . ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ يعنى الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذ . ﴿ تَاللَّهِ ﴾ حلفوا بالله ﴿ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد ؛ وهذا معنى قوله : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى فى العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم . ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ يعنى الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام . وقيل : أسلافنا الذين قلدناهم . قال أبو العالية وعكرمة : « الْمُجْرِمُونَ » إبليس وابن آدم القاتل هما أول من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصى . ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ أى شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين . ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى صديق مشفق ؛ وكان علىّ رضى الله عنه يقول : عليكم بالإخوان فإنهم عدّة الدنيا وعدّة الآخرة ؛

ألا تسمع إلى قول أهل النار: « فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » . الزمخشرى : وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحد الصـديق لقلتـه؛ ألا ترى أن الرجل إذا آمتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته؛ رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة؛ وأما الصـديق فهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأَنُوق ؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : آسم لا معنى له . ويجوز أن يريد بالصديق الجمع والحميم القريب والخاص ؛ ومنه حامّة الرجل أى أقرباؤه . وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار؛ ومنه الحَمّام والحُمّى ؛ فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه ؛ يقال : وهم حُزانته أى يحزنهم ما يحزنه . ويقال : حُمّ الشىء وأَحَمّ إذا قرب ، ومنه الحُمّى؛ لأنها تقرب من الأجل . وقال على بن عيسى: إنما سمى القريب حميما؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذا من الحمِيّة . وقال قتادة: يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودّة الصديق ورقة الحميم . ويجوز: « وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ » بالرفع على موضع « مِن شَافِعِينَ » ؛ لأن « مِن شَافِعِينَ » فى موضع رفع . وجمع صديق أصدقاء وصُدَقاء وصـداق . ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره . وحكى الكوفيون : أنه يقال فى جمعه صُدْقان . النحاس : وهذا بعيد؛ لأن هذا جمع ماليس بنعت نحو رغيف ورُغفان . وحكوا أيضا صديق وأصادق . وأفاعل إنمـا هو جمع أَفْعَـل إذا لم يكن نعتا نحو أشجع وأشاجع . ويقال : صديق للواحد والجماعة وللمرأة؛ قال الشاعر[(١)] :

نَصَبْنَ الهـوَى ثم آرتمين قلوبَنا * بأَعْيُنِ أَعْدَاءٍ وهُنّ صَـدِيق

ويقال : فلان صُدَيِّقِى أى أخص أصدقائى، وإنمـا يُصَغّر على جهة المدح ؛ كقول حُباب آبن المنذر : (أنا جُذَيْلُهـا[(٢)] المحكّك، وعُذَيْقُها المرَجّب) ذكره الجوهرى . النحاس : وجمع حميم أحِمّاء وأَحِمّة وكرهوا أفعلاء للتضعيف . ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَـا كَرَّةً﴾ « أنّ » فى موضع رفع؛ المعنى ولو وقع لنـا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنـا شفعاء . تمنـوا حين لا ينفعهم التمنى .

---

(١) هو جرير. (٢) عنى بجذيلها المحكك الأصل من الشجرة — أو عود ينصب — تحتك به الإبل فتشتفى به ؛ أى قد جربنى الأمور ولى علم ورأى يشتفى بهما كما تشتفى هذه الإبل الجربى بهذا الجذيل . والترجيب هنا إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط ؛ أى إن لى عشيرة تعضدنى وتمنعنى . والعذيق تصغير عذق (بالفتح) وهى النخلة بحملها .

وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون . قال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون : « مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ »". وقال الحسن : ما اجتمع ملأ على ذكر الله ، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفَّعون . وقال كعب : إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا، فيمُرّ أحدهما بصاحبه وهو يُجر إلى النار ، فيقول له أخوه : والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجو بها، خذها أنت يا أخي فتنجو بها مما أرى ، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف . قال : فيأمر الله بهما جميعا فيدخلان الجنة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدم والحمد لله .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ
قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا
بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال « كَذَّبَتْ » والقوم مذكر؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال : « الْمُرْسَلِينَ » لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسـل . وقيل : كذبوا نوحا فى النبوّة وفيما أخبرهم به من مجىء المرسلين بعده . وقيل : ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام . وقد مضى هذا فى « الفرقان»(١) . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أى ابن أبيهم وهى أخوة نسب لا أخوة دين . وقيل : هى أخوة المجانسة . قال الله تعـالى : « وَمَا أَرْسَلْنَـا مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ »(٢) وقد مضى هـذا فى « الأعراف »(٣) . وقيل : هو من قول العرب يا أخا بنى تميم . يريدون يا واحدا منهم . الزمخشرى : ومنه بيت الحماسة :

لا يَسْألون أخاهم حِينَ يَنْدُبُهم　＊　فى النّائبـاتِ على ما قال بُرْهَانَا

﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى ألا تتقون الله فى عبادة الأصنام . ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى . وقيل : « أَمِينٌ » فيما بينكم ؛ فإنهـم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل؛ كمحمد صلى الله عليه وسلم فى قريش . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من الإيمان . ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى لا طمع لى فى مالكم . ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ أى ما جزائى ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرر تأكيدا .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعالى : « قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ » أى نصدق قولك . « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » الواو للحال وفيه إضمار قد، أى وقد اتبعك . « الْأَرْذَلُونَ » جمع الأرذل ، المكسر الأراذل والأنثى الرُّذْلَى والجمع الرُّذَل . قال النحاس : ولا يجوز حذف الألف واللام فى شىء من هذا عند أحد من النحويين علمنـاه . وقرأ ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمى وغيرهم ،

---

(١) راجع ص ٣١ من هذا الجزء .　　(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٤٠ .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٣٥ .

« وَأَتْبَاعُكَ الْأَرْذَلُونَ » . النحاس : وهى قراءة حسنة؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقد . وأتباع جمع تبع وتبيع يكون للواحد والجمع . قال الشاعر :

له تَبَعٌ قد يعلمُ النَّاسُ أنه * على من يُدانِي صَيِّفٌ ورَبِيعُ

آرتفاع « أَتْبَاعُكَ » يجوز أن يكون بالابتداء و « الْأَرْذَلُونَ » الخبر؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير فى قوله : « أَنُؤْمِنُ لَكَ » والتقدير: أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعدّ منهم؛ وحسن ذلك الفصل بقوله: «لَكَ» وقد مضى القول فى الأراذل فى سورة « هود »(1) مستوفًى . ونزيده هنا بيانا وهى المسئلة :

الثانيـة — فقيل: إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكناته وبنو بنيه . وآختلف هل كان معهم غيرهم أم لا . وعلى أن الوجهين كان فالكل صالحون؛ وقد قال نوح : « وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » والذين معه هم الذين آتبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذمّ بل الأرذلون هم المكذبون لهم . قال السهيلى : وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت فى تفسير هذه الآية : هم الحاكة والحجّامون . ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبيّ الله وآتباعهم له مشرّفا كما تشرّف بِلالٌ وسَلْمَان بسبقهما للإسلام؛ فهما من وجوه أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم، فلا ذرية(2) نوح كانوا حاكة ولا حجّامين، ولا قول الكفرة فى الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذمّا ولا نقصا؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقالتهم أصلا؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة فى الدين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « كان » زائدة؛ والمعنى : وما علمى بما يعملون؛ أى لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصّنائع ؛ وكأنهم قالوا : إنما آتبعك هؤلاء الضعفاء طمعا فى العزة والمال . فقال : إنى لم أقف على باطن أمرهم وإنما إلى ظاهرهم . وقيل : المعنى إنى

(1) راجع ج ٩ ص ٢٣ فما بعد . (2) فى ك فلا زدلة .

لم أعلم أن الله يهديهم و يضلكم و يرشدهم و يغويكم و يوفقهم و يخذلكم . ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أى فى أعمالهم و إيمانهم ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وجواب « لو » محذوف؛ أى لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لمـا عبتموهم بصنائعهم . وقراءة العامة : « تَشْعُرُونَ » بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر . وقرأ ٱبن أبى عَبْلَة ومحمد بن السَّمَيْقَع : « لو يشعرون » بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »(١) . وروى أن رجلا سأل سفيان عن آمرأة زنت وقتلت ولدها وهى مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال : « إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ » . ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لخساسة أحوالهم وأشغالهم . وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش . ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ يعنى : إن الله ما أرسلنى أخص ذوى الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله و إن كان فقيرا .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ﴾ أى عن سب آلهتنا وعيب ديننا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى بالحجارة؛ قاله قتـادة . وقال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين . قال الثمـالى : كل مرجومين فى القـرآن فهو القتل إلا فى مريم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ »(٢) أى لأسبنك . وقيل : « مِنَ الْمَرْجُومِينَ » من المشتومين؛ قاله السدى . ومنه قول أبى دؤاد.(٣) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ذلك لمـا يأس من إيمـانهم . والفتح الحكم وقد تقدم . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها . والمشحون المملوء ، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم . ولم يؤنث الفلك ها هنا؛ لأن الفلك ها هنا واحد لا جمع ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ أى بعـد إنجائنا نوحا ومن آمن . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

---

(١) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ .　　(٢) راجع ج ١١ ص ١١٠ .

(٣) كذا فى جميع نسخ الأصل ؛ وهنا سقط لعله بيت من الشعر أورده المؤلف شاهدا على أن الرجم معناه الشتم ؛ كما أورد بيت الجعدى شاهدا على ذلك عند تفسير قوله تعالى : « ولولا رهطك لرجمناك » . راجع ج ٩ ص ٩١ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا
ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة . وتكذيبهم المرسلين كما تقدم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بيّن المعنى وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ الرّيع ما ارتفع من الأرض في قول ابن عباس وغيره ، جمع رِيعة . وكم ريع أرضك أي كم ارتفاعها . وقال قتادة : الرّيع الطريق . وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدى . وقاله ابن عباس أيضا . ومنه قول المسيَّب(١) ابن عَلَس :

في الآلِ يَخفِضُها ويرفَعُها ❊ ريعٌ يَلُوحُ كأنَّه سَحْـــلُ

(١) مسيّب بشد اللام مع فتح . قاموس .

شبّه الطريق بثــوب أبيض . النحاس : ومعروف فى اللغة أن يقال لمـا ٱرتفع من الأرض ريعٌ وللطريق ريعٌ . قال الشاعر (١) :

طرائقُ الخَوَافِي مشرق فَوْقَ رِيعَةٍ * نَدَى ليــلِهِ فى ريشــه يَتَرقرقُ

وقال عمارة : الريع الجبل الواحد رِيعة والجمع رِياع . وقال مجاهد : هو الفجّ بين الجبلين . وعنــه : الثنية الصغيرة . وعنــه : المنظرة . وقال عكرمة ومقاتل : كانوا يهتــدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالا طوالا ليهتدوا بها ؛ يدل عليه قوله تعالى : «آيَةً» أى علامة . وعن مجاهد : الريع بنيان الحَمَـام دليله « تَعْبَثُونَ » أى تلعبون؛ أى تبنون بكل مكان مرتفع آية علَما تلعبون بها على معنى أبنيــة الحمام و بروجها . وقيل : تعبثون بمن يمــرّ فى الطريق . أى تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم . وقال الكلبي : إنه عبث العشّارين بأموال من يمر بهم؛ ذكره المــاوردى . وقال ٱبن الأعرابى : الريع الصومعــة، والريع البرج من الحمام يكون فى الصحراء . والريع التلُّ العالى . وفى الريع لغتان : كسر الراء وفتحها وجمعها أرياع ؛ ذكره الثعلبى .

قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِــعَ ﴾ أى منازل؛ قاله الكلبي . وقيل : حُصُونا مشيدة؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد . ومنه قول الشاعر :

تَرَكْنا ديارَهُم منهــم قِفَارًا * وهَدَّمْنا المصانعَ وَالْبُرُوجَا

وقيل : قصورا مشيدة؛ وقاله مجاهد أيضا . وعنه : بروج الحمام؛ وقاله السدى .

قلت : وفيــه بعدٌ عن مجاهد؛ لأنه تقدّم عنــه فى الريع أنه بنيان الحمَـام فيكون تكرارا فى الكلام . وقال قتادة : مآجل للمــاء تحت الأرض . وكذا قال الزجاج : إنها مصانع المــاء، واحدتها مُصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ . ومنه قول لَبِيد :

بَلِينا وما تَبْـلَى النجومُ الطوالِعُ * وتبقَى الجبالُ بَعْــدَنا والمَصانِــعُ

---

(١) هو ذو الرمة يصف بازيا . وفى ديوانه — طبع أوربا — « واقع » بدل « مشرق » .

الجوهري : المصنَعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعة بضم النون . والمصانع الحصون . وقال أبو عبيدة : يقال لكل بناء مصنعة . حكاه المهدوى . وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أى كى تخلدوا . وقيل : لعل استفهام بمعنى التوبيخ أى فهل « تَخْلُدُونَ » كقولك : لعلك تشتمني أى هل تشتمني . روى معناه عن ابن زيد . وقال الفراء : كيما تخلدون لا تتفكرون فى الموت . وقال ابن عباس وقتادة : كأنكم خالدون باقون فيها . وفى بعض القراءات « كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُونَ »(1) ذكره النحاس . وحكى قتادة : أنها كانت فى بعض القراءات « كأنكم خالدون » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ البطش السطوة والأخذ بالعنف . وقد بَطَش به يبطش ويبطِش بطشا . وباطشه مباطشة . وقال ابن عباس ومجاهد : البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط . ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلما . وقال مجاهد أيضا : هو ضرب بالسياط ؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي . وقيل : هو القتل بالسيف فى غير حق . حكاه يحيى بن سلّام . وقال الكلبي والحسن : هو القتل على الغضب من غير تثبت . وكله يرجع إلى قول ابن عباس . وقيل : إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء . قال ابن العربي : ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ »(2) وذلك أن موسى عليه السلام لم يسل عليه سيفا ولا طعنه برمح، وإنما وكزه وكانت منيته فى وكزته . والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع ، ويليه السوط والعصا ، ويليه الحديد ، والكل مذموم إلا بحق . والآية نزلت خبرا عمن تقدم من الأمم ، ووعظا من الله عز وجل لنا فى مجانبة ذلك الفعل الذى ذمهم به وأنكره عليهم .

قلت : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت فى كثير من هذه الأمة ، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية(3) ؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا فى غير حق . وقد أخبر صلى

(1) مبنى للمفعول مخففا ومشددا. (2) راجع جـ ٩٢٥ من هذا الجزء فما بعد .

(3) البحرية : هم من المماليك الأتراك الذين استخدمهم الملك الصالح الأيوبى، وأسكنهم جزيرة الروضة . وأول ملوكهم عز الدين أيبك . وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ .

الله عليه وسلم أن ذلك يكون . كما في صحيح مسـلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسـيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المـائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها و إن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا". وخرج أبو دواد من حديث آبن عمر قال سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : " إذا تبايعتم بالعينة(١) وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلّا لا ينزعه حتى ترجعـوا إلى دينكم " . « جَبَّارِينَ » قتّالين . والجبار القتال في غير حق . وكذلك قوله تعـالى : « إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ » قاله الهروى . وقيل : الجبار المتسلّط العاتى ؛ ومنـه قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ(٢) » أى بمسلّط . وقال الشاعر :

سَلَبْنَا مِنَ الجَبَّارِ بالسَّيفِ مُلْكَهُ * عَشِيًّا وأطرافُ الرِّمَاحِ شَـوَارِعُ

قوله تعـالى ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ تقدّم . ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَـا تَعْلَمُونَ ﴾ أى من الخـيرات ؛ ثم فسرها بقوله : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يعبد و يشكر ولا يكفر . ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك . ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوى على ما تقوله . و روى العباس عن أبي عمرو وبشر عن الكسائى : « أَوَعَظتَّ » مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد؛ لأن الظاء حرف إطباق إنمـا يدغم فيما قرب منه جدا وكان مثله ومخرجه . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى دينهم ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الفرّاء : عادة الأوّلين . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو والكسائى : « خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » . الباقون « خُلُقُ » . قال الهروى : وقوله عز وجل : « إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ » أى آختلاقهم وكذبهم، ومن قرأ : « خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » فمعناه عادتهم، والعرب تقول : حدّثنا فلان بأحاديث الخَلْق أى بالخرافات والأحاديث المفتعلة . وقال آبن الأعرابي :

(١) العينة أن تبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم تشتريها منه بأقل من الثمن الذى بعتها به .
(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٨ .

الخُلُق الدين والخلق الطبع والخلُق المروءة . قال النحاس : «خُلُقُ الأَوَّلِينَ» عند الفراء يعني عادة الأولين . وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : « خُلُقُ الأَوَّلِينَ » مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر : والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا" أي أحسنهم مذهبا وعادة وما يجرى عليه الأمر في طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجرا فاضلا، ولا أن يكون أكمل إيمانا من السيّء الخلق الذي ليس بفاجر . قال أبو جعفر : حكى لنا عن محمد بن يزيد أن معنى « خُلُقُ الأَوَّلِينَ » تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى ؛ لأن فيها مدح آبائهم ، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم ، وقولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ »(١) . وعن أبي قِلابَة : أنه قرأ : « خُلْق » بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف « خُلُق » . ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع . وقد قيل: إن معنى « خُلُقُ الأَوَّلِينَ » دين الأولين . ومنه قوله تعالى : « فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ »(٢) أي دين الله . و« خُلُقُ الأَوَّلِينَ » عادة الأولين : حياة ثم موت ولا بعث . وقيل : ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدي بهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نفعل . وقيل : المعنى خلق أجسام الأولين؛ أي ما خلقنا إلا كخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي بريح صرصر عاتية على ما يأتي في « الحاقة »(٣) . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قال بعضهم : أسلم معه ثلثمائة ألف ومئون وهلك باقيهم . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

(١) راجع ١٦ ص ٧٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٦ .

طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ
لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ؛ وكانوا يسكنون الحِجْر كما تقدّم في « الحجر »(١) وهي ذوات نخل و زروع ومياه . ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ يعني في الدنيا آمنين من الموت والعذاب . قال ابن عباس : كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم . ودلّ على هذا قوله : « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا »(٢) فقرّعهم صالح ووبّخهم وقال : أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ . الزمخشري : فإن قلت لم قال : « وَنَخْلٍ » بعد قوله : « وَجَنَّاتٍ » والجنات تتناول النخل أوّل شيء كما يتناول النَّعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل كما يذكرون النَّعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير ؛

كَأَنَّ عَيْنَيَّ فِي غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ * من النَّواضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقَا

يعني النخل ؛ والنخلة السَّحُوق البعيدة الطول .

قلت : فيه وجهان ؛ أحدهما — أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عنها . والثاني — أن يريد بالجنات غيرها من الشجر ؛ لأن اللفظ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٥ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ٥٥ فما بعد .

يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل . والطلعة هى التى تطلع من النخلة كنصل السيف ؛ فى جوفه شماريخ القِنـوِ ، والقِنو آسم للخـارج من الجـذع كما هو بعرجونه وشماريخـه . و « هَضِيمٌ » قال آبن عباس : لطيف مادام فى كُفُرّاه . والهضيم اللطيف الدقيق ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* عَلَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[(١)] *

الجوهرى : ويقال للطلع هَضيم ما لم يخرج من كُفُرّاه ؛ لدخول بعضه فى بعض . والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين . ونحوه حكى الهروى ؛ قال : هو المنضم فى وعائه قبل أن يظهر؛ ومنـه رجل هضيم الجنبين أى منضمهما ؛ هـذا قول أهل اللغة . وحكى المـاوردى وغيره فى ذلك آثنى عشر قولا : أحدها — أنه الرطب اللين ؛ قاله عكرمة . الثانى — هو المذنّب من الرطب ؛ قاله سعيد بن جبير . قال النحاس : وروى أبو إسحق عن يزيد — هو آبن أبى زياد كوفى ويزيد بن أبى مريم شامى — « وَنَخْلٌ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » قال : منه ما قد أرطب ومنه مذنّب . الثالث — أنه الذى ليس فيه نوى ؛ قاله الحسن . الرابع — أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتت ؛ قاله مجاهد . وقال أبو العالية : يتهشم فى الفم . الخامس — هو الذى قد ضمر بركوب بعضه بعضا ؛ قاله الضحاك ومقاتل . السادس — أنه المتلاصق بعضه ببعض ؛ قاله أبو صخـر . السابع — أنه الطلع حين يتفرق ويخضر؛ قاله الضحاك أيضا . الثامن — أنه اليانع النضيج؛ قاله آبن عباس . التاسع — أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر؛ حكاه آبن شجرة ؛ قال :

كأنّ حَمولةً تُجْلَى عليــهِ * هَضِيمٌ ما يُحَسُّ له شُقُوقُ

العاشر — أنه الرخو ؛ قاله الحسن . الحـادى عشر — أنه الرخص اللطيف أوّل ما يخرج وهو الطلع النَّضِيدُ ؛ قاله الهروى . الثـانى عشر — أنه البَرْنِيّ[(٢)] ؛ قاله آبن الأعرابى ؛ فعيل بمعنى فاعل أى هنئ مرئ من آنهضام الطعام . والطلع آسم مشتق من الطلوع وهو الظهور ؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات .

---

(١) صدر البيت . * هصرت بفودى رأسها فتمايلت *

(٢) البرنى : ضرب من التمر وهو أجوده ؛ واحدته برنية .

قوله تعـالى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ » النَّحت النَّجر والبَرْى ؛ نحته ينحته (بالكسر) نحتا إذا براه والنُّحَاتة البُرَاية . والمِنْحَت ما ينحت به . وفى « وَالصَّافَاتِ » قال : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »(١) . وكانوا ينحتونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدّم بناؤهم من المدر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع : «فَرِهِينَ» بغير ألف . الباقون : « فَارِهِينَ » بألف وهما بمعنى واحد فى قول أبى عبيدة وغيره ؛ مثل : «عِظَامًا نَخِرَةً»(٢) و « نَاخِرَة » . وحكاه قطرب . وحكى فَرُهَ يفرُه فهو فاره وفَرِهَ يفرَه فهو فرِه وفاره إذا كان نشيطا . وهو نصب على الحـال . وفرق بينهما قوم فقالوا : «فَارِهِينَ» حاذقين بنحتها ؛ قاله أبو عبيدة ؛ وروى عن آبن عباس وأبى صالح وغيرهما . وقال عبد الله بن شدّاد : « فَارِهِينَ » متجبرين . وروى عن آبن عبـاس أيضا أن معنى : «فَرِهِينَ» بغير ألف أشرين بطرين ؛ وقاله مجاهد . وروى عنه شرهين . الضحاك : كيِّسين . قتادة : معجبين ؛ قاله الكلبى ؛ وعنه : ناعمين . وعنه أيضا آمنين ؛ وهو قول الحسن . وقيل : متخيرين ؛ قاله الكلبى والسدى . ومنه قول الشاعر :

إلى فَـرِهٍ يمـاجد كلَّ أمرٍ * قصـدتُ له لأختبر الطِّباعَا

وقيل : متعجبين ؛ قاله خُصيف . وقال آبن زيد : أقوياء . وقيل : فرهين فرحين ؛ قاله الأخفش . والعرب تعاقب بين الهاء والحاء ؛ تقول : مدهته ومدحته ؛ فالفرِه الأشِر الفرِح ثم الفرح بمعنى المَرح مذموم ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا »(٣) وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ »(٤) . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ قيل : المراد الذين عقروا الناقة . وقيل : التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قال السّدى وغيره : أوحى الله تعالى إلى صالح : إن قومك سيعقرون ناقتك ؛ فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل . فقال لهم صالح : إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ؛ فقالوا : لا يولد فى هذا الشهر ذكر إلا قتلناه . فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك . وكان آبن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريعا ؛ وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا . وغضب

(١) راجع جـ ١٥ ص ٩٤ فما بعد .
(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٩٥ .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٠ .
(٤) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله . قالوا : نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون فى غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله و إنا لصادقون ؛ فيصدّقوننا و يعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر . وكان صالح لا ينام معهم فى [القرية وكان يأوى إلى][1] مسجده ، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم ، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم ، فرأى ذلك ناس ممن كان قد اطلع على ذلك ، فصاحوا فى القرية : يا عباد الله ! أما رضى صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم ؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة . وقال ابن إسحق : إنما اجتمع التسعة على سبّ[2] صالح بعد عقرهم الناقة و إنذارهم بالعذاب على ما يأتى بيانه فى سورة « النمل » إن شاء الله تعالى . ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ هو من السحر فى قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوى . أى أصبت بالسحر فبطل عقلك ؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا . وقيل : من المعلّلين بالطعام والشراب ؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضا فيما ذكر الثعلبي . وهو على هـذا القول من السَّحر وهو الرئة أى بشر لك سَحْر أى رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال [لبيد][3] :

فإن تسألينا فيمَ نحن فإننا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال [امرؤ القيس] :

* ونُسْحَرُ بالطَّعام و بالشَّرابِ[4] *

﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك . ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ قال ابن عباس : قالوا إن كنت صادقا فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء[5] فتضع ونحن ننظر ، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنا . فدعا الله

---

(١) الزيادة من « قصص الأنبياء » للثعلبى . (٢) راجع ص ٢١٥ من هذا الجزء .
(٣) فى نسخ الأصل : امرؤ القيس ؛ والتصويب من ديوان لبيد . (٤) صدر البيت :

* أرانا موضعين لأمر غيب *

موضعين : مسرعين . وأمر غيب يريد الموت وأنه قد غيب منا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب .
(٥) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر .

وفعل الله ذلك فـ « قَالَ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ » أى حظ [من المـاء][1] ؛ أى لكم شرب يوم ولها شرب يوم ؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أوّل النهار وتسقيهم اللبن آخر النهـار ، و إذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ، ليس لهم فى يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئا ، ولا لهـا أن تشرب فى يومهم من مائهم شيئا . قال الفـراء : الشِّرب الحظ من المـاء . قال النحاس : فأما المصدر فيقال فيه شرِب شَرْباً وشُربا وشِربا وأكثرها المضمومة ؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشـتركان مع شيء آخر فيكون الشِّرْب الحظ من المـاء ، ويكون الشَّرْب جمع شارب كما قال[2] :

* فقلتُ للشَّرْب فى دُرْنَا وقد ثَمِلُوا *

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائى يختاران الشَّرب بالفتح فى المصدر ، و يحتجان برواية بعض العلماء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنها أيام أكل وشَرْب " . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا ؛ لأنهما حرفان متحرّكان من جنس واحد . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهى ، ولا يجوز حذف الفاء منه ، والجزم كما جاء فى الأمر إلا شيئا روى عن الكسائى أنه يجيزه . ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ أى على عقرها لمـا أيقنوا بالعـذاب . وذلك أنه أنظرهم ثلاثا فظهرت عليهم العلامة فى كل يوم، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب . وقيـل : لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا ، بل طلبوا صالحا عليه السلام ليقتلوه لمـا أيقنوا بالعذاب . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها . وهو بعيد . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ إلى آخره تقدّم . و يقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمـانمـائة رجل وآمرأة . وقيل : كانوا أربعة آلاف . وقال كعب : كان قوم صالح آثنى عشر ألف قبيل كل قبيل نحو آثنى عشر ألفا من سوى النساء والذرّية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات .

---

(١) زيادة يقتضيها المعنى . (٢) هو الأعشى وتمـامه :

* شيموا فكيف يشيم الشارب الثمـل *

ودرنا (بضم الدال والفتح) موضع زعموا أنه بناحية اليمـامة . اللسان .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾
وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ
أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي
مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾
ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ مضى معناه وقصته فى « الأعراف »(١) و « هود »(٢) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ كانوا ينكحونهم فى أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم « فى الأعراف »(١) . ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يعنى فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح . قال إبراهيم بن مهاجر : قال لى مجاهد كيف يقرأ عبد الله : « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » قلت : « وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم » قال : الفرج ؛ كما قال : « فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ »(٣) . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أى متجاوزون لحدود الله . ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ ﴾ عن قولك هذا . ﴿ لَتَكُونَنَّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٣ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٣ ص ٨٠ .

مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى من بلدنا وقريتنا . ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ ﴾ يعـنى اللواط ﴿ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أى المبغضين والقلى البغض؛ قليته أقليه قِلًى وقَلاء . قال[1] :

* فلستُ بمقليِّ الخلالِ ولا قَالِى *

وقال آخــر[2] :

عليك السلامُ لا مُلِلتِ قريبــةً * ومالَكِ عنــدى إن نأيتِ قَــلاءُ

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أى من عذاب عملهـم . دعا الله لمـا أيس من إيمانهـم ألا يصيبه من عذابهم .

قال تعـالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ولم يكن إلا آبنتاه على ما تقدّم فى « هود »[3] . ﴿ إِلَّا عَجُـوزًا فِي الْغَـابِرِينَ ﴾ روى سـعيد عن قتـادة قال : غبرت فى عذاب الله عز وجل أى بقيت . وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقين فى الهَرَم أى بقيت حتى هَرِمت . قال النحاس : يقال للذاهب غابر والباقى غابر كما قال[4] :

لا تَكْسَــعِ الشَّوْلَ بأَغْبَارِهَا * إنكَ لا تدْرِى مَنِ النَّـاتِجُ

وكـما قال[2] :

فمـا وَنَى محمدٌ مذ انْ غَفَـرْ * له الإلهُ ما مَضَى وما غَــبَرْ

أى ما بقى . والأغبار بقيات الألبان . ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى أهلكناهم بالخسف والحصب؛ قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجا من القرية . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ يعنى الحجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ . وقيـل : إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها الله بالحجارة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وآبنتاه .

---

(١) هو آمرؤ القيس؛ وصدر البيت : * صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٢) هو الحرث بن حلزة؛ وكسع الناقة بغبرها ترك فى ضرعها بقية من اللبن .

وبعــده : وآحلب لأضيافك ألبانهـا * فإن شر اللبن الوالج

يقول : لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها ، وآحلبها لأضيافك، فلعــل عدوا يغير عليهـا فيكون نتاجها له دونك .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٧٣ فما بعد . (٤) هو العجاج .

قوله تعالى : كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾
أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ
يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة . ومن قرأ : « أَصْحَابُ الأَيْكَةِ » فهي الغيضة . ومن قرأ : « لَيْكَةَ » فهو اسم القرية . ويقال : هما مثل بكة ومكة ؛ قاله الجوهري . وقال النحاس : وقرأ أبو جعفر ونافع : « كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ » وكذا قرأ : في « ص »(1) . وأجمع القراء على الخفض في التي في سورة « الحِجْرِ »(2) والتي في سورة « ق »(3) فيجب أن يرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحدا . وأما ما حكاه أبو عبيد من أن « ليكة » هي اسم القرية التي كانوا فيها وأن « الأيكة » اسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه ، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعا من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه .

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٤٤ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤٥ . (٣) راجع جـ ١٧ ص ٨ .

و روى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال : أرسل شعيبٌ عليه السلام إلى أمتين : إلى قومه من أهل مدين، و إلى أصحاب الأيكة؛ قال : والأيكة غيضة من شجر ملتف . وروى سعيد عن قتادة قال : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامة شجرهم الدوم وهو شجر المُقل. وروى ٱبن جبير عن الضحاك قال : خرج أصحاب الأيكة — يعني حين أصابهم الحر — فانضموا إلى الغيضة والشجر ، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها ، فلما تكاملوا تحتها أُحرقوا . ولو لم يكن هذا إلا ما روى عن ٱبن عباس قال : و« الأيكة » الشجر . ولا نعلم بين أهل اللغة ٱختلافا أن الأيكة الشجر الملتف ، فأما ٱحتجاج بعض من ٱحتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد « ليكة » فلا حجة له ؛ والقول فيه : إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت وٱستغنت عن ألف الوصل؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض؛ كما تقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها بِلَحْمرِ ؛ فإن شئت كتبته في الخط على ما كتبته أولا ، وإن شئت كتبته بالحذف ؛ ولم يجز إلا الخفض ؛ قال سيبويه : وٱعلم أن مالا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف ٱنصرف ؛ ولا نعلم أحدا خالف سيبويه في هذا . وقال الخليل : « الأيكة » غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب ؛ لأنه لم يكن أخا لأصحاب الأيكة في النسب ، فلما ذكر مدين قال : « أَخَاهُمْ شُعَيْبًا »[1] ؛ لأنه كان منهم . وقد مضى في « الأعراف » القول في نسبه . قال ٱبن زيد : أرسل الله شعيبا رسولا إلى قومه أهل مدين ، و إلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة ؛ وقاله قتادة . وقد ذكرناه . ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تخافون الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الآية . وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة ؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى ، والطاعة والإخلاص في العبادة ، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة . ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ الناقصين للكيل

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٧ فما بعد .

والوزن . ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى أعطوا الحق . وقد مضى فى « سبحان »(١) وغيرها ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم فى « هود »(٢) وغيرها . ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ قال مجاهد : الجِبِلّة هى الخليقة . وجُبِل فلان على كذا أى خُلق ؛ فالخُلُق جِبِلّة وجُبُلّة وجِبْلَة وجُبْلَة وجَبْلَة ذكره النحاس فى «معانى القرآن» . « والجِبِلّة » عطف على الكاف والميم . قال الهروى : الجِبِلّة والجُبْلَة والجِبِلّ والجُبُلّ والجَبْل لغات ؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ؛ ومنه قوله تعالى : « جِبِلًّا كَثِيرًا »(٣) . قال النحاس فى كتاب « إعراب القرآن » له : ويقال جُبُلّة والجمع فيهما جَبَّال ، وتحذف الضمة والكسرة من الباء ، وكذلك التشديد من اللام ؛ فيقال : جُبْلَة وجُبَل ، ويقال : جِبْلَة وجِبَال ؛ وتحذف الهاء من هذا كله . وقرأ الحسن باختلاف عنه : «وَالْجُبُلَّةَ الْأَوَّلِينَ» بضم الجيم والباء ؛ وروى عن شيبة والأعرج . الباقون بالكسر . قال :

والموتُ أعظمُ حادثٍ * فيما يَمُرّ على الجِبِلّه

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدّم . ﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى ما نظنك إلا من الكاذبين فى أنك رسول الله تعالى . ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا(٤) مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى جانبا من السماء وقطعة منه ، فننظر إليه ؛ كما قال : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ »(٥) . وقيل : أرادوا أنزل علينا العذاب . وهو مبالغة فى التكذيب . قال أبو عبيدة : الكِسْف جمع كِسْفة مثل سِدْر وسِدْرة . وقرأ السلمى وحفص: « كِسَفًا » جمع كِسْفَة أيضا وهى القطعة والجانب تقديره كِسْرة وكِسَر . قال الجوهرى : الكِسْفة القطعة من الشيء ؛ يقال أعطنى كِسفة من ثوبك والجمع كِسَف وكِسْف . ويقال : الكِسْف والكِسْفَة واحد . وقال الأخفش : من قرأ : « كِسْفًا » جعله واحدا ومن قرأ : « كِسَفًا » جعله جمعا . وقد مضى هذا فى سورة « سبحان »(٦) . وقال الهروى : ومن قرأ : « كِسْفًا » على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف ؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقا واحدا ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٦ وص ٣٣٠ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٦ . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٤٧ .
(٤) « كسفا » بإسكان السين قراءة نافع . (٥) راجع جـ ١٧ ص ٧٧ .

وهو من كسفت الشيء كسفا إذا غطيته . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ؛ أي إنما عليّ التبليغ وليس العذاب الذي سألتم إليّ وهو يجازيكم . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ قال ابن عباس : أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها ، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا . وقيل : أقامها الله فوق رءوسهم، وألهبها حرّا حتى ماتوا من الرَّمْدِ . وكان من أعظم يوم في الدنيا عذابا . وقيل : بعث الله عليهم سَموما فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم نارا فاحترقوا . وعن ابن عباس أيضا وغيره : إن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم، وأرسل عليهم هَدّة وحرًّا شديدا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماء فأنضجهم الحر، فخرجوا هربا إلى البرية ، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها بردا وروحا وريحا طيبة ، فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله تعالى عليهم نارا ، ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى ، فصاروا رمادا ؛ فذلك قوله : « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا »(١) وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقيل : إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام، وسلّط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظلّ ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب، ليتبردوا فيها فيجدوها أشدّ حرّا من الظاهر . فهربوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة وهي الظّلّة ، فوجدوا لها بردا ونسيما ، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا . وقال يزيد الجُرَيْريّ : سلّط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيد » فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد ، فاجتمعوا كلهم تحته ، فوقع عليهم الجبل وهو الظّلة . وقال قتادة : بعث الله شعيبا إلى أمتين : أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظّلة ، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٥٩ .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عاد إلى ما تقدّم بيانه فى أوّل السورة من إعراض المشركين عن القرآن . ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ « نَزَلَ » مخففا قرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو . الباقون : « نَزَّلَ » مشدّدا « بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ » نصبا وهو آختيار أبى حاتم وأبى عبيد لقوله : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ » وهو مصدر نزل ، والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدّر ، لأن المعنى و إن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك ؛ كما قال تعالى : « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ »(١) أى يتلوه عليك فيعيه قلبك . وقيل : ليثبت قلبك . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ أى لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول . ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى و إن ذكر نزوله لفى كتب الأوّلين يعنى الأنبياء . وقيل : أى إن ذكر محمد عليه السلام فى كتب الأولين ؛ كما قال تعالى : « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »(٢) والزُّبُر الكتب الواحد زَبُور كرسول و رسل ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال مجاهد : يعنى عبد الله آبن سلّام وسلمان وغيرهما ممن أسلم . وقال آبن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة

(١) راجع ج ٢ ص ٣٦ . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٩٩ .

يسألونهم عن محمد عليه السلام، فقالوا : إن هذا لزمانه، وإنا لنجد فى التوراة نعته وصفته . فيرجع لفظ العلمـاء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هـذا القول . وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون فى أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنهم مظنون بهم علمٌ . وقرأ ابن عامر : « أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » . الباقون « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً » بالنصب على الخبر واسم يكن « أَنْ يَعْلَمَهُ » والتقدير أو لم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة . وعلى القراءة الأولى اسم كان « آيةٌ » والخبر « أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وقرأ عاصم الجحدرى : « أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ أى على رجل ليس بعربىّ اللسان ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بغير لغة العرب لمـا آمنوا ولقالوا لا نفقه . نظيره : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا »[(١)] الآية . وقيل : معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لمـا آمنوا به أنفـة وكبرا . يقال : رجل أعجم وأعجمىّ إذا كان غير فصيح وإن كان عربيا، ورجل عجمىّ وإن كان فصيحا ينسب إلى أصله؛ إلا أن الفرّاء أجاز أن يقال رجل عجمىّ بمعنى أعجمىّ . وقرأ الحسن : « عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِيِّينَ » مشدّدة بياءين جعله نسبة . ومن قرأ : « الْأَعْجَمِينَ » فقيل : إنه جمع أعجم . وفيه بعد؛ لأن ما كان من الصفات الذى مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون، ولا بالألف والتاء؛ لا يقال أحمرون ولا حمراوات . وقيل : إن أصله الأعجميين كقراءة الجحدرى ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلا عليها . قاله أبو الفتح عثمان بن جِنِّى . وهو مذهب سيبويه .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ يعنى القـرآن أى الكفر به ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . وقيل : سلكنا التكذيب فى قلوبهم؛ فذلك الذى منعهم من الإيمان؛ قاله يحيى بن سلّام . وقال عكرمة : القسوة . والمعنى متقارب وقد مضى فى « الحجـر »[(٢)] . وأجاز الفرّاء[(٣)] الجزم فى « لَا يُؤْمِنُونَ »؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة . وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كى لا فى مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت؛ فتقول : ربطت

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٦٨ .	(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧ .	(٣) فى ك : المختار .

الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم؛ لأن معناه إن لم أربطه ينفلت، والرفع بمعنى كيلا ينفلت . وأنشد لبعض بني عُقيل :

وحتى رأينا أحسنَ الفعلِ بيننا * مُسَاكَنَةً لا يَقرِفُ الشرَّ قارِفُ

بالرفع لما حذف كى . ومن الجزم قول الآخر :

لَطَالَمَا حَلَّأْتُمَاها لا تَرِدْ * فخلِّيَاها والسِّجالَ تَبْتَرِدْ (١)

قال النحاس : وهذا كله فى « يُؤْمِنُونَ » خطأ عند البصريين ، ولا يجوز الجزم بلا جازم ؛ ولا يكون شيء يعمل عملا فإذا حذف عمل عملا أقوى من عمله وهو موجود؛ فهذا آحتجاج بيّن . ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى العذاب . وقرأ الحسن : « فَتَأْتِيَهُمْ » بالتاء؛ والمعنى : فتأتيهم الساعة بغتة فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها، ولكثرة ما فى القرآن من ذكرها . وقال رجل للحسن وقد قرأ : « فَتَأْتِيَهُمْ » : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة . فانتهره وقال : إنما هى الساعة تأتيهم بغتة أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها . ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أى مؤخرون وممهلون . يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها . قال القشيرى : وقوله : « فَيَأْتِيَهُمْ » ليس عطفا على قوله : « حَتَّى يَرَوُا » بل هو جواب قوله : « لَا يُؤْمِنُونَ » فلما كان جوابا للنفى آنتصب؛ وكذلك قوله : « فَيَقُولُوا » .

قوله تعالى : أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال مقاتل : قال المشركون للنبيّ صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتى به ! فنزلت : « أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » . ﴿ أَفَرَأَيْتَ

(١) حلأْها : منعها من ورود الماء . والسجال : (جمع سجل) وهى الدلو الضخمة المملوءة ماء . وتبترد : تشرب الماء لتبرد به كبدها . والبيت قاله بعض النسوة لبعض لما زرن آمرأة قد تزوجت من رجل كان عاشقا لها .

إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ يعنى فى الدنيا والمراد أهل مكة فى قول الضحاك وغيره . ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب والهلاك ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ . « مَا » الأولى آستفهام معناه التقرير، وهو فى موضع نصب بـ « أَغْنَى » و « ما » الثانية فى موضع رفع، ويجوز أن تكون الثانية نفيا لا موضع لها . وقيل : « ما » الأولى حرف نفى، و « ما » الثانية فى موضع رفع بـ « أغنى » والهاء العائدة محذوفة . والتقدير : ما أغنى عنهم الزمان الذى كانوا يمتعونه . وعن الزهرى : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » ثم يبكى و يقول :

نهـارُك يامغـرورُ سهوٌ وغفلةٌ * وليـــلُك نومٌ والرَّدَى لك لازمُ
فلا أنتَ فى الأَيقاظ يقظانُ حازمٌ * ولا أنتَ فى النُّــوَّام ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بمـا يَفْنَى وتفرحُ بالمـنى * كما سُرَّ باللذات فى النوم حالمُ
وتَسعى إلى ماسوف تكره غِبَّـهُ * كذلك فى الدنيـا تَعيشُ البهائمُ

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ « مِن » صـلة ؛ المعنى : وَمَا أَهْلَكْنَا قرية . ﴿ إِلَّا لَهَـا مُنْذِرُونَ ﴾ أى رسل . ﴿ ذِكْرَى ﴾ . قال الكسائى : « ذِكْرَى » فى موضع نصب على الحال . النحاس : وهـذا لا يحصل ، والقول فيه قول الفراء وأبى إسحق أنها فى موضع نصب على المصدر ؛ قال الفراء : أى يذكّرون ذكْرَى ؛ وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى « إِلَّا لَهَـا مُنْذِرُونَ » إلا لها مذكّرون . و « ذِكْرَى » لا يتبين فيه الإعراب ؛ لأن فيها ألفا مقصورة . ويجـوز « ذِكْرًى » بالتنوين، ويجوز أن يكون « ذِكرى » فى موضع رفع على إضمار مبتدإ . قال أبو إسحق : أى إنذارنا ذكرى . وقال الفراء : أى ذلك ذكرى ، وتلك ذكرى . وقال آبن الأنبارى قال بعض المفسرين : ليس فى « الشعراء » وقف تام إلا قوله « إِلَّا لَهَـا مُنْذِرُونَ » وهذا عندنا وقف حسن؛ ثم يبتدئ « ذِكْرَى » على معنى هى ذكرى أى يذكرهم ذكرى ، والوقف على « ذِكْرَى » أجـود . ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم :

قوله تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ يعنى القرآن بل ينزل به الروح الأمين . ﴿ وما يَنْبَغِى لَهُمْ وما يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ أى برمى الشهب كما مضى فى سورة « الحِجر » بيانه[(١)] . وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْقَع : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ » قال المهدوى : وهو غير جائز فى العربية ومخالف للخط . وقال النحاس : وهـذا غلط عند جميع النحويين؛ وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا غلط عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة ؛ لما رأى الحسن فى آخره ياء ونونا وهو فى موضع رفع اشتبه عليه بالجمع المسلَّم فغلط، وفى الحديث : "احذروا زلّة العالِم" وقد قرأ هو مع الناس : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ »[(٢)] ولو كان هـذا بالواو فى موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة . وقال الثعلبى : قال الفراء : غلط الشيخ – يعنى الحسن – فقيل ذلك للنضر بن شُمَيل فقال : إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما، جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه . مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ بذلك إلا وقد سمعا فى ذلك شيئا؛ وقال المؤرِّج : إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه . وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابيا يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون؛ فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ قيل : المعنى قل لمن كفر هذا . وقيل : هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا ؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره . ودلّ على هذا قوله : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أى لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٠٦ .

قوله تعـالى : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ـــ قوله تعـالى : « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ » خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب فى مفارقته إياهم على الشِّرك . وعشيرته الأقربون قريش . وقيل : بنو عبد مناف . ووقع فى صحيح مسلم : ” وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلَصين “ . وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ؛ إذ لم يثبت نقله فى المصحف ولا تواتر . ويلزم على ثبوته إشكال؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألّا ينذر إلّا من آمن من عشيرته؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص فى دين الإسلام وفى حبّ النبى صلى الله عليه وسلم لا المشركون؛ لأنهـم ليسوا على شىء من ذلك ، والنبى صلى الله عليــه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتى بعدهم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يثبت ذلك نقــلا ولا معنى . وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال : لمـا نزلت هــذه الآية « وَأَنذِرْ عَشِــيرَتَكَ الأَقْــرَبِينَ » دعا رســول الله صلى الله عليــه وسلم قريشا فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال : ” يابنى كعب بن لؤى أنقــذوا أنفسكم من النار يابنى مرّة بن كعب أنقــذوا أنفسكم من النار يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأَبُلُّها ببلالها[1] “ .

---

(١) ” سأبلها ببلالها “ : أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا .

الثانيــة — فى هذا الحديث والآية دليل على أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله : " إن لكم رحمـا سأبلُّها ببلالها " وقوله عز وجل : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ »(١) الآية ، على ما يأتى بيانه هناك(٢) [إن شاء الله] .

قوله تعـالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم فى سورة « الحِجر »(٣) و « سبحان »(٣) يقال : خفض جناحه إذا لان . ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أى خالفوا أمرك . ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى برىء من معصيتكم إياى ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ، لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بمـا يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه .

قوله تعـالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذى لا يغالب ، الرحيم الذى لا يخـذل أولياءه . وقرأ العـامة : « وَتَوَكَّلْ » بالواو وكذلك هو فى مصاحفهم .

وقرأ نافع وابن عامر : « فَتَوَكَّلْ » بالفـاء وكذلك هو فى مصاحف المدينـة والشام . ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى حين تقوم إلى الصلاة فى قول أكثر المفسرين : ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : يعنى حين تقوم حيثما كنت . ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : فى المصلّين . وقال ابن عباس : أى فى أصلاب الآباء ، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيّاً . وقال عكرمة : يراك قائمـا وراكعا وساجدا ؛ وقاله ابن عباس أيضا . وقيل : المعنى ؛ إنك ترى بقلبك فى صـلاتك من خلفك كما ترى بعينك من قدامك . وروى عن مجاهد ؛ ذكره المـاوردى والثعلبى . وكان عليه السلام يرى من خلفه كما يرى من بين يديه ، وذلك ثابت فى الصحيح وفى تأويل الآية بعيد ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ تقدم .

قوله تعـالى : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

(١) راجع ج ١٨ ص ٥٨ . (٢) من ك . (٣) راجع ج ١٠ ص ٥٦ وص ٢٤٢ .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ إنما قال : «تَنَزَّلُ» لأنها أكثر ما تكون فى الهواء، وأنها تمر فى الريح . ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ تقدم فى « الحجر »(١) . فـ « يُلْقُونَ السَّمْعَ » صفة الشياطين « وَأَكْثَرُهُمْ » يرجع إلى الكهنة . وقيل : إلى الشياطين .

قوله تعالى : وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ » جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء ؛ قال ٱبن عباس : هم الكفار « يَتَّبِعُهُمْ » ضلال الجن والإنس . وقيل : « الْغَاوُونَ » الزائلون عن الحق ، ودلّ بهذا أن الشعراء أيضا غاوون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك . وقد قدمنا فى سورة « النور »(٢) أن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ويكره ، ويحرم . روى مسلم من حديث عمرو بن الشَّرِيد عن أبيه قال : رِدِفت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوما](٣) فقال : " هل معك من شعر أمية بن أبى الصَّلْت شىء " قلت : نعم . قال "هِيه" فأنشدته بيتا . فقال "هِيه" ثم أنشدته بيتا . فقال "هِيه" حتى أنشدته مائة بيت . هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته . وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم : عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريد أبيه ؛ وهو وَهَم ؛ لأن الشريد هو الذى أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وٱسم أبى الشَّريد سُوَيْد . وفى هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحِكَم والمعانى المستحسنة شرعا وطبعا ، وإنما ٱستكثر النبى صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ فما بعد .　(٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٧١ .　(٣) الزيادة من صحيح مسلم .

كان حكيما، ألا ترى قوله عليه السلام: "وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يسلم" فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه، كقول القائل:

الحمد لله العليّ المنان * صار الثريد في رءوس العيدان(١)

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مدحه كقول العباس:

مِن قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي مُسْـ * ـتودع حيث يُخصَفُ الورقُ

ثم هبطت البلاد لا بشرٌ أنْـ * ـتَ ولا مُضغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفة تركب السَّفِينَ وقد ألْـ * ـجَمَ نَسْرًا وأهلَه الغَرَقُ

تنقلُ مِن صَالبٍ إلى رَحِمٍ * إذا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ(٢)

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يَفْضُضِ الله فاك". أو الذبّ عنه كقول حسان:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه * وعند اللهِ في ذاك الجزاءُ

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم. أو الصلاة عليه، كما روى زيد بن أسلم، خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحا في بيت، وإذا عجوز تنفش صوفا وتقول:

على محمدٍ صلاةُ الأبرار * صلى عليه الطيِّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوّامًا بُكًا بالأسحارْ * يا ليتَ شِعْري والمنايا أطوارْ

* هل يَجمعنِّي وحبيبي الدارْ *

يعني النبي صلى الله عليه وسلم، فجلس عمر يبكي. وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال:

إنّي رضيتُ عليا للهُدَى عَلَمًا * كما رضيتُ عَتيقًا صاحبَ الغارِ

وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَه * وما رضيتُ بقتل الشيخ في الدارِ

كلُّ الصحابة عندي قُدوةٌ عَلَمٌ * فهل عليّ بهذا القول من عارِ

إن كنتَ تعلم أنّي لا أحبهمُ * إلا من أجلك فاعتقني من النار

(١) كذا في الأصول. (٢) طبق: قرن. أراد إذا مضى قرن ظهر قرن آخر.

وقال آخر فأحسن :

حُبُّ النبيِّ رسـول الله مُفْـتَرَضٌ * وحُبُّ أصحابِه نـورٌ ببرهانِ
من كان يعلم أن الله خالقـه * لا يَرمينَّ أبا بكرٍ ببهتانِ
ولا أبا حفصٍ الفـاروقَ صاحبَه * ولا الخليفـة عثمان بن عفـانِ
أمّا علـيٌّ فمشهـورٌ فضائلُه * والبيت لا يَستوى إلا بأركانِ

قال ابن العـربى : أما الاستعارات فى التشبيهات فمأذون فيهـا وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد ؛ فبذلك يضرب المَلك الموكَّل بالرؤيا المثَـلَ ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي صلى الله عليه وسلم :

بانت سـعادُ فقلبي اليـوم متبُولُ * مُتَيَّمٌ إثرَها لم يُفْـدَ مكبُولُ
وما سُعادُ غداةَ البَيْن إذ رَحَلُوا * إلا أَغَنُّ غضيضُ الطَّرْف مكحولُ
تجلو عوارِضَ ذِى ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ * كأنّه مُنْهَـلٌ بالـرَّاح معـلولُ

فجاء فى هـذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع ، والنبي صلى الله عليـه وسلم يسمع ولا ينكر فى تشبيهه ريقها بالراح . وأنشد أبو بكر رضى الله عنه [(١)] :

فَقَـدْنا الوحىَ إذ ولَّيتَ عنّـا * وودَّعَنـا من الله الكلامُ
سـوى ما قد تركتَ لنـا رهيناً * تـوارَثه القراطيسُ الكرامُ
فقـد أورثتنـا ميراثَ صدقٍ * عليـك به التحيةُ والسـلامُ

فإذا كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يسمعه وأبو بكر ينشـده ، فهل للتقليد والاقتـداء موضع أرفع من هذا . قال أبو عمر : ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من أولى النُّهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القـدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى ، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحلّ سماعه ولا قوله ؛ وروى أبو هريرة قال

(١) قال ذلك فى رثاء النبي صلى الله عليه وسلم .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : " أصدق كلمة — أو أشعر كلمة — قالتها العرب قول لبيد : * أَلَا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ * "

أخرجه مسلم وزاد " وكاد أمية بن أبى الصَّلْت أن يُسلِم " وروى عن ابن سيرين أنه أنشد شعرا فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر . فقال : ويلك يا لُكَع ! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا فى القوافى ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح ! قال : وقد كانوا يتذاكرون الشعر . قال : وسمعت ابن عمر ينشد :

يُحِبُّ الخمرَ من مال النَّدامَى * ويَكرهُ أن يفارقَهُ الفَلُوسُ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعرا مجيدا مقدَّما فيه . وللزبير بن بكار القاضى فى أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حسنة تسمى عَثْمة فعتب عليها فى بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ؛ منها قوله :

تَغلغَل حُبُّ عَثْمةَ (١) فى فؤادى * فباديه مع الخافى يسيرُ

تَغلغَل حيث لم يبلغ شَرابٌ * ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ

أكاد إذا ذكرتُ العهد منها * أطير لو آن إنسانا يَطيرُ

وقال ابن شهاب : قلت له تقول الشعر فى نسكك وفضلك ! فقال : إن المصدور إذا نفث برأ .

الثانية — وأما الشعر المذموم الذى لا يحلّ سماعه وصاحبه ملوم ، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحّهم على حاتم ، وأن يبهتوا البرىء ويفسقوا التقىّ ، وأن يفرطوا فى القول بما لم يفعله المرء ، رغبة فى تسلية النفس وتحسين القول ؛ كما روى عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فبِتْنَ بجانبَىَّ مُصَرَّعاتٍ (٢) * وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الختامِ

---

(١) فى ك : حثمة . (٢) مصرعات : سكارى .

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : ياأمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحد بقوله : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ » . وروى أن النعمان بن عدِىّ بن نَضْلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

مَنْ مُبلِغُ الحسناءِ[(١)] أنّ حليلَها * بمَيْسَانَ يُسقَى فى زُجاجٍ وحَنْتَمِ

إذا شئتُ غنّتنى دَهاقينُ قريةٍ * ورقَّاصةٌ تَجْذو[(٢)] على كلّ مَنْسِمِ

فإن كنت نَدْمانِى فبالأكبرِ اسقِنِى * ولا تَسقِنِى بالأصغرِ المتثلِّمِ

لعلّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه * تَنادُمنا بالجَوْسَقِ[(٣)] المتهدِّمِ

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقُدوم عليه . وقال : إى والله إنى ليسوءنى ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين مافعلت شيئا مما قلت ؛ وإنما كانت فضلة من القول ، وقد قال الله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ؛ ولكن لا تعمل لى عملا أبدا وقد قلت ماقلتَ . وذكر الزبير بن بكار قال : حدّثنى مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبى ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة : إنى قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابى هذا فاشدد عليهما واحملهما إلىّ . فلما أتاه الكتاب حملهما إليه ، فأقبل على عمر ؛ فقال : هيه !

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظرٍ * ولا كليالى الحجِّ أَفْلَتْنَ ذَاهَوَى

وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غيرِه * إذا راح نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شىء غيرك ؛ فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يفلتون ! ثم أمر بنفيه . فقال : يا أمير المؤمنين ! أوخير من ذلك ؟ فقال : ماهو ؟ قال : أعاهد الله أنى لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء فى شعر أبدا ، وأجدّد توبة ؛ فقال : أو تفعل ؟ قال : نعم ؛ فعاهد الله على توبته وخلاه ؛ ثم دعا بالأحوص ، فقال هيه !

الله بينى وبينَ قيِّمِها * يَفِرُّ منّى بها وأَتَّبِعُ

(١) فى ك : ألا هل أتى الحسناء ... وفى أسد الغابة : فمن مبلغ . وفى ب : الخنساء .

(٢) تجذو : تقوم على أطراف الأصابع . (٣) الجوسق : القصر ؛ فارسى معرب .

بل الله بين قيمها وبينك ! ثم أمر بنفيه ؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى ، وقال : والله لاأرده ما كان لى سلطان ، فإنه فاسق مجاهر . فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحل سماعه ولا إنشاده فى مسجد ولا غيره ، كمنثور الكلام القبيح ونحوه . وروى إسمعيل بن عَيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حَسَنُ الشعر كحَسَن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" رواه إسمعيل عن عبد الله الشامى وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره . وروى عبد الله ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" .

الثالثة — روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحا حتى يَرِيَه خيرٌ من أن يمتلىء شعرا" وفى الصحيح أيضا عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذوا الشيطان — أو أمسكوا الشيطان — لَأَنْ يمتلئَ جوفُ رجلٍ قيحا خيرٌ له من أن يمتلئَ شعرا" قال علماؤنا : وإنما فعل النبى صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعلّ هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقا للتكسب ، فيفرط فى المدح إذا أعطى ، وفى الهجو والذم إذا مُنع ، فيؤذى الناس فى أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف فى أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام . وكل مايقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحل الإصغاء إليه ، بل يجب الإنكار عليه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعا تعيّن عليه أن يداريه بما استطاع ، ويدافعه بما أمكن ، ولا يحلّ له أن يعطى شيئا ابتداء ، لأن ذلك عون على المعصية ؛ فإن لم يجد من ذلك بدًّا أعطاه بنية وقاية العرض ؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتب له به صدقة . قلت : [قوله](١) : "لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قيحا حتى يَرِيَه" القيح المِدّة يخالطها دم . يقال منه : قاح الجُرْح يَقيح وتَقيّح وقَيَّح . و "يَرِيه" قال الأصمعى : هو من الوَرْى على

(١) من ك :

مثال الرمى وهو أن يَدْوَى جوفُه، يقال منه : رجل مُوَرًى مشدّد غير مهموز . وفى الصحاح : ورى القيح جوفه يرِيه وريا إذا أكله . وأنشد اليزيدى :

* قالت له وَرْيًا إذا تَنحنحَا *

وهذا الحديث أحسن ما قيل فى تأويله : إنه الذى قد غلب عليه الشعر، وآمتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به فى الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول . ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية، لحكم العادة الأدبية . وهذا المعنى هو الذى أشار إليه البخارى فى صحيحه لما بوّب على هذا الحديث « باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر » . وقد قيل فى تأويله : إن المراد بذلك الشعر الذى هُجِيَ به النبيّ صلى الله عليه وسلم أو غيره . وهذا ليس بشيء؛ لأن القليل من هجو النبيّ صلى الله عليه وسلم وكثيره سواء فى أنه كفر ومذموم، وكذلك هجو غير النبيّ صلى الله عليه وسلم من المسلمين محرّم قليله وكثيره، وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى .

الرابعة — قال الشافعى : الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام، يعنى أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع . قال الأوّل منهم :

* وجُرح اللسانِ كجُرْحِ اليدِ *

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الشعر الذى يرد به حسان على المشركين : " إنه لأسرع فيهم من رشق النَّبْل " أخرجه مسلم . وروى الترمذى وصححه عن آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل مكة فى عُمرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحة يمشى بين يديه ويقول :

خَلُّوا بنى الكفّار عن سبيله * اليومَ نَضرِبْكُمْ على تنزيله
ضربًا يزيلُ الهامَ عن مَقيلِه * ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله

فقال عمر: يابن رَوَاحة ! فى حرم الله وبين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلّ عنه يا عمر فلهو أسرعُ فيهم من نَضح النَّبْل " .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ لم يختلف القراء في رفع « وَالشُّعَرَاءُ » فيما علمت . ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره « يَتَّبِعُهُمُ » وبه قرأ عيسى آبن عمر ؛ قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حب النصب ؛ قرأ : « وَالسَّارِقَ والسَّارِقَةَ »(١) و « حَمَّالَةَ الْحَطَبِ »(٢) و « سُورَةً أَنْزَلْنَاهَا »(٣) . وقرأ نافع وشيبة والحسن والسلمي : « يَتْبَعُهُمْ » مخففا . الباقون « يَتَّبِعُهُمْ » . وقال الضحاك : تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل واحد غُواةُ قومه وهم السفهاء فنزلت ؛ وقاله آبن عباس . وعنه هم الرواة للشعر . وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضُلّال الجن والإنس ؛ وقد ذكرناه . وروى غُضَيْف(٤) عن النبي صلى الله عليه وسلم : "من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه" وعن آبن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما آفتتح مكة رنّ(٥) إبليس رنة وجمع إليه ذريته ؛ فقال آيئسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفشوا فيهما — يعني مكة والمدينة — الشِّعْر .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ يقول : في كل لغو يخوضون ، ولا يتبعون سَنَن الحق ؛ لأن من آتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت ، ولم يكن هائما(٦) يذهب على وجهه لا يبالي ما قال . نزلت في عبد الله بن الزِّبَعْرَى ومُسافِع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت . ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم يكذبون ؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه . وقيل : إنها نزلت في أبي عزة الجُمَحي حيث قال :

أَلَا أبلغا عنّي النبيّ محمّدًا * بأنّكَ حقٌّ والمليكُ حميدُ
ولَكِنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْرًا وأهلَهُ * تأوّهَ منّي أعظمٌ وجلودُ

ثم آستثنى شعر المؤمنين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق ؛ فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في كلامهم ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق ،

(١) راجع ج ٦ ص ١٦٩ فما بعد . (٢) راجع ج ٢٠ ص ٢٣٩ (٣) راجع ج ١٢ ص ١٥٨
(٤) في ا : خصيف . (٥) رن : صاح صيحة حزينة . (٦) كذا في ز و ب و ط و ك وفي ا و ح : هاذيا .

وبما حدّه الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد ٱنتصر بالباطل. وقال أبو الحسن المبرد. لما نزلت: «وَٱلشُّعَرَاءُ» جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا: يانبي الله! أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال: "ٱقرءوا ما بعدها «إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ» — الآية — أنتم «وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا» أنتم" أى بالرد على المشركين. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ٱنتصروا ولا تقولوا إلا حقا ولا تذكروا الآباء والأمهات" فقال حسان لأبى سفيان:

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه * وعندَ الله فى ذاك الجزاءُ
وإن أبى ووالدتى وعِرْضى * لعِرض محمد منكم وِقاءُ
أتشتمه ولستَ له بكفءٍ * فشركما لخيركما الفداءُ
لسانى صارمٌ لا عيبَ فيه * وبحرى لا تكدِّره الدِّلاءُ

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل فى الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأنّ ما ترمونهم به نَضْح النَّبل". وقال كعب:

جاءت سَخِينةُ[1] كى تُغالبَ ربَّها * ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد مدحك الله يا كعب فى قولك هذا". وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى: «وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ» منسوخ بقوله: «إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ». قال المهدوى: وفى الصحيح عن ٱبن عباس أنه ٱستثناء. «وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» فى هذا تهديد لمن ٱنتصر بظلم[2] [قال شريح] سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدى الله عز وجل؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة. وقرأ ٱبن عباس: «أَيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ» بالفاء والتاء ومعناهما واحد[2] [ذكره] الثعلبي. ومعنى: «أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» أى مصير يصيرون وأى مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى

(١) السخينة: طعام حار يتخذ من دقيق وسمن — وقيل من دقيق وتمر — أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة، وكانت قريش تكثر من أكلها فعيرت بها حتى سموا سخينة. (٢) من ج و ز و ك.

النار ، وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع . والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضدّ ما هو فيه ، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلبا ، وليس كل منقلب مرجعا ؛ والله أعلم ؛ ذكره الماوردي . و « أَيَّ » منصوب بـ « يَنْقَلِبُونَ » وهو بمعنى المصدر ، ولا يجوز أن يكون منصوبا بـ « سَيَعْلَمُ » لأن أيا وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر النحويون ؛ قال النحاس : وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض .

سورة النمل

مكية كلها في قول الجميع ، وهي ثلاث وتسعون آية . وقيل : أربع وتسعون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)

قوله تعالى : ﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ مضى الكلام في الحروف المقطعة في « البقرة »(١) وغيرها . و « تِلْكَ » بمعنى هذه ؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين . وذكر القرآن بلفظ المعرفة ، وقال : « وَكِتَابٍ مُبِينٍ » بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة ؛ كما تقول : فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل . والكتاب هو القرآن ، فجمع له بين الصفتين : بأنه قرآن وأنه كتاب ؛ لأنه ما يظهر بالكتابة ، ويظهر بالقراءة . وقد مضى

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ فما بعد .

اشتقاقهما في « البقــرة » . وقال في سورة الحجــر : « الٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ »[1] فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة ؛ وذلك لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة ، وأن يجعل صفة . ووصفه بالمبين لأنه بيّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده ؛ وقد تقدّم .

قــوله تعــالى : ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « هُــدًى » في موضع نصب على الحال من الكتاب ؛ أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة . ويجوز فيه الرفع على الابتداء ؛ أي هو هــدى . وإن شئت على حذف حرف الصفة ؛ أي فيــه هدى . ويجوز أن يكون الخــبر « لِلْمُؤْمِنِينَ » ثم وصفهم فقــال : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وقد مضى في أوّل « البقرة »[2] بيان هذا .

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أي لا يصدّقون بالبعث . ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قيــل : أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة . وقيل : زينــا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها . وقال الزجاج : جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه . ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يترددون في أعمالهم الخبيثة ، وفي ضــلالتهم . عن ابن عباس . أبو العالية : يتمــادون . قتادة : يلعبون . الحسن : يتحيرون ؛ قال الراجز :

وَمَهْمَهٍ أطــرافُه في مَهْمَهِ * أَعْمَى الهُدَى بالحائرين العُمَّهِ[3]

قوله تعــالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُــوءُ الْعَذَابِ ﴾ وهو جهنم . ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ . « فِي الْآخِرَةِ » تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ أي يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه . ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ « لَدُنْ » بمعنى عنــد إلا أنها مبنية غير معربة ؛ لأنها لا تتمكن ، وفيهــا لغات ذكرت في « الكهف »[1] . وهــذه الآية بساط وتمهيد لمــا يريد أن يسوق من الأقاصيص ، وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١ وص ٣٥٢ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٦٢ .
(٣) البيت لرؤبة ، ويروى : بالجاهلين العمه .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ﴾ «إِذْ» منصوب بمضمر وهو آذكر ؛ كأنه قال على أثر قوله : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » : خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله . ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أى أبصرتها من بعد . قال الحرث بن حلِّزة :

آنست نَبْأَةً وأفزعها القنّـاصُ عصرًا وقد دنا الإمساءُ (١)

﴿ سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى : « بِشِهَابٍ قَبَسٍ » بتنوين « شهاب » . والباقون بغير تنوين على الإضافة ؛ أى بشعلة نار ؛ وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وزعم الفرّاء فى ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم : ولدار الآخرة ، ومسجد الجامع ، وصلاة الأولى ؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا آختلفت أسماؤه . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين ، لأن معنى الإضافة فى اللغة ضم شيء إلى شيء

(١) آنست : أحست . والنبأة : الصوت الخفى .

فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع، فمحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها . و « شِهابِ قبسٍ » إضافة النوع والجنس، كما تقول : هذا ثوبُ خزٍّ، وخاتمُ حديدٍ وشبهه . والشهاب كل ذى نُور؛ نحو الكوكب والعُود الموقَد . والقبَس اسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه ؛ فالمعنى بشهاب من قبس . يقال . أقبست قبسا؛ والاسم قبس . كما تقول : قبضت قبضا . والاسم القبض . ومن قرأ : « بِشِهابٍ قَبَسٍ » جعله بدلا منه . المهدوى : أو صفة له ؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسما غير صفة، ويجوز أن يكون صفة ؛ فأما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قبسا والقبس المقبوس ؛ وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتا . والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن . وهى إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه . ولو قرئ بنصب قبس على البيان أو الحال كان أحسن . ويجوز فى غير القرآن بشهابٍ قبسًا على أنه مصدر أو بيان أو حال . « لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسنا، ومعناه يستدفئون من البرد . يقال : اصطلى يصطلى إذا استدفأ . قال الشاعر :

النارُ فاكهةُ الشتاءِ فمن يُرِدْ * أكلَ الفواكهِ شاتياً فليصطلِ

الزجاج : كل أبيض ذى نُور فهو شهاب . أبو عبيدة : الشهاب النار . قال أبو النَّجم :

كأنما كان شهاباً واقدًا * أضاء ضوءاً ثم صار خامدًا

أحمد بن يحيى : أصل الشهاب عود فى أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه ؛ وقول النحاس فيه حسن : والشهاب الشعاع المضيء ومنه الكوكب الذى يمد ضوءه فى السماء . وقال الشاعر :

فى كفّه صَعْدةٌ[1] مثقّفةٌ * فيها سِنانٌ كشُعلة القَبَس

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ أى فلما جاء موسى الذى ظن أنه نار وهى نور ؛ قاله وهب بن منبّه . فلما رأى موسى النار وقف قريبا منها ، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العُلَّيق ، لا تزداد النار إلا عظما وتضرّما ، ولا تزداد الشجرة

(١) الصعدة : القناة التى تنبت مستقيمة .

إلا خضرة وحسنا ، فعجب منها وأهوى إليها بضغث فى يده ليقتبس منها ؛ فمالت إليه ؛ فخافها فتأخر عنها ، ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة لا يدرى من أمرها ، إلى أن « نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » . وقد مضى هذا المعنى فى « طه »(1) . ﴿ نُودِىَ ﴾ أى ناداه الله ، كما قال : « وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ »(1) . ﴿ أَنْ بُورِكَ ﴾ قال الزجاج : « أَنْ » فى موضع نصب ؛ أى بأنه . قال : ويجوز أن تكون فى موضع رفع جعلها اسم ما لم يسم فاعله . وحكى أبو حاتم أن فى قراءة أبىّ وابن عباس ومجاهد « أن بوركت النار ومن حولها » . قال النحاس : ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ، ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى . وحكى الكسائى عن العرب : باركك الله ، وبارك فيك . الثعلبى : العرب تقول باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربع لغات . قال الشاعر :

فبوركتَ مولودًا وبوركتَ ناشئًا * وبوركتَ عند الشَّيب إذ أنتَ أشيبُ

الطبرى : قال « بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ » ولم يقل بورك [فى من فى](2) النار على لغة من يقول باركك الله . ويقال باركه الله ، وبارك له ، وبارك عليه ، وبارك فيه بمعنًى ؛ أى بورك على من فى النار وهو موسى ، أو على من فى قرب النار ، لا أنه كان فى وسطها . وقال السّدى : كان فى النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة ؛ أى بورك فيك ياموسى وفى الملائكة الذين هم حولها . وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه ؛ قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ »(3) . وقول ثالث قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير : قُدِّس من فى النار وهو الله سبحانه وتعالى ، عنى به نفسه تقدّس وتعالى . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : النار نور الله عز وجل ؛ نادى الله موسى وهو فى النور ؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نورا عظيما فظنه نارا ؛ وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز فى جهة « وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ »(4)

(1) راجع جـ ١١ ص ١٧٢ فما بعد وص ١١٣ . (2) الزيادة من تفسير الطبرى . وفى ط و ك : ولم يقل بورك على النار (3) راجع جـ ٩ ص ٧٠ . (4) راجع جـ ١٦ ص ١٢١ .

لا أنه يتحيز فيهما، ولكن يظهر فى كل فعل فيعلَم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أى بورك من فى النار سلطانه وقدرته. وقيل: أى بورك ما فى النار من أمر الله تعالى الذى جعله علامة.

قلت: ومما يدلّ على صحة قول ٱبن عباس ما خرّجه مسلم فى صحيحه، وٱبن ماجه فى سننه واللفظ له عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط و يرفعه حجابه النور لو كشفها(١) لأحرقت سُبُحات وجهه كل شىء أدركه بصره" ثم قرأ أبو عبيدة: "أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" أخرجه البيهقى أيضا. ولفظ مسلم عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات؛ فقال: "إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط و يرفعه يُرفَع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور — وفى رواية أبى بكر النار — لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما ٱنتهى إليه بصرُه من خلقه" قال أبو عبيد: يقال السُّبحات إنها جلال وجهه، ومنها قيل: سبحان الله إنما هو تعظيم له وتنزيه. وقوله: "لو كشفها" يعنى لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبّتهم لرؤيته لاحترقوا وما ٱستطاعوا لها. قال ٱبن جُرَيج: النار حجاب من الحجب وهى سبعة حجب؛ حجاب العزّة، وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار، وحجاب النور، وحجاب الغمام، وحجاب الماء. و بالحقيقة فالمخلوق المحجوب والله لا يحجبه شىء؛ فكانت النار نورا و إنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه نارا، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. وقال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها فأسمعه تعالى كلامه من ناحيتها، وأظهر له ربو بيته من جهتها. وهو كما روى أنه مكتوب فى التوراة: «جاء الله من سيناء وأشرف(٢) من ساعير وٱستعلى من جبال فاران». فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها، و إشرافه(٢) من ساعير بعثه المسيح منها، وٱستعلاؤه من فاران بعثه محمدا صلى الله عليه وسلم، وفاران مكة. وسيأتى فى «القصص»(٣) بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

---

(١) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار. (هامش ٱبن ماجه).

(٢) فى ك: وأشرق و إشراقه. وهو الأشبه. (٣) راجع ص ٢٨١ من هذا الجزء.

قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تنزيها وتقديسا لله رب العالمين . وقد تقدّم فى غير موضع ، والمعنى : أى ويقول من حولها : « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » لحذف . وقيل : إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء ، آستعانة بالله تعالى وتنزيها له ؛ قاله السدى . وقيل : هو من قوله الله تعالى . ومعناه : و بورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين ؛ حكاه آبن شجرة .

قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الهاء عماد وليست بكناية فى قول الكوفيين . والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن . « أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ » الغالب الذى ليس كمثله شيء « الْحَكِيمُ » فى أمره وفعله . وقيل : قال موسى يا رب من الذى نادى ؟ فقال له : « إِنَّهُ » أى أنى أنا المنادى لك « أَنَا اللَّهُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ قال وهب بن منبّه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها . وقيل : إنمـا قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلّم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛ وكل نبيّ لابدّ له من آية فى نفسه يعلم بها نبوّته . وفى الآية حذف : أى وألق عصاك فألقاها من يده فصارت حيّة تهتز كأنها جانّ ، وهى الحيّة الخفيفة الصغيرة الجسم . وقال الكلبي : لاصغيرة ولا كبيرة . وقيل : إنها قلبت له أوّلا حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة . وقيل : آنقلبت مرة حية صغيرة ، ومرة حية تسعى وهى الأنثى ، ومرة ثعبانا وهو الذكر الكبير من الحيات . وقيل : المعنى آنقلبت ثعبانا تهتز كأنها جانّ لها عظم الثعبان وخفة الجانّ وآهتزازه وهى حية تسعى . وجمع الجانّ جِنّان ؛ ومنه الحديث "نهى عن قتل الجنّان التى فى البيوت" . ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ خائفا على عادة البشر ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى لم يرجع ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : لم يلتفت . ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ أى من الحية وضررها . ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وتم الكلام ثم آستثنى آستثناء منقطعا فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ . وقيل : إنه آستثناء من محذوف ؛ والمعنى : إنى لا يخاف لدىّ المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ﴾ فإنه لا يخاف ؛ قاله الفرّاء .

قال النحاس : آستثناء من محذوف محال ؛ لأنه آستثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز إني لأضرب القوم إلا زيدا بمعنى إني لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيدا ؛ وهذا ضـد البيان ، والمجيء بما لا يعرف معناه . وزعم الفـراء أيضا : أن بعض النحويين يجعل إلا بمعنى الواو أي ولا من ظلم ؛ قال :

وكلُّ أخٍ مفـارِقُه أخوهُ　*　لعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ

قال النحاس : وكون « إلَّا » بمعنى الواو لا وجه له ولا يجـوز في شيء من الكلام ، ومعنى « إلَّا » خلاف الواو ؛ لأنك إذا قلت : جاءني إخوتك إلا زيدا أخرجت زيدا ممـا دخل فيـه الإخوة فلا نسـبة بينهما ولا تقارب . وفي الآية قول آخر : وهـو أن يكون الآستثناء متصلا ، والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد ، سوى ما روى عن يحيي بن زكريا عليه السلام ، وما ذكره الله تعالى في نبينا عليه السلام في قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[1] ذكره المهـدوي وآختاره النحاس ؛ وقال : علم الله من عصى منهم [يُسِرّ الخيفة][2] فآستثناه فقال : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ » فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له . الضحاك : يعني آدم وداود عليهما السلام . الزمخشري : كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطي . فإن قال قائل : فمـا معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة ؟ قيل له : هـذه سبيل العلماء بالله عزوجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين ، وهم أيضا لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به ، فهـم يخافون من المطالبة به . وقال الحسن وآبن جريج : قال الله لموسى إني أخفتك لقتلك النفس . قال الحسن : وكانت الأنبيـاء تذنب فتعاقَب . قال الثعلبي والقشيري والمـاوردي وغيرهم : فالآستثناء على هذا صحيح ؛ أي إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة . وكان موسى خاف من قتل القبطي وتاب منه . وقد قيل : إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر . وقد مضى هذا في « البقرة »[3] .

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٦١ فـا بعد .　(٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ فـا بعد .

قلت : والأول أصح لتنصلهم من ذلك فى القيامة كما فى حديث الشفاعة ، و إذا أحدث المقرّب حدثا فهو و إن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدّر عليه صفاء الثقة . وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث فى ذلك الفرعونى ، ثم آستغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له ، ثم قال بعد المغفرة : « رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ »(١) ثم آبتلى من الغد بالفرعونى الآخر وأراد أن يبطش به ، فصار حدثا آخر بهذه الإرادة . و إنما آبتلى من الغد لقوله : « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » وتلك كلمة آقتدار من قوله لن أفعل ، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل ، فسلط عليه الإسرائيلى حتى أفشى سره ، لأن الإسرائيلى لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده ، فأفشى عليه فـ « قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فهرب الفرعونى وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلى على موسى ، وكان القتيل بالأمس مكتوما أمره لايدرى من قتله ، فلما علم فرعون بذلك ، وجّه فى طلب موسى ليقتله ، وآشتد الطلب وأخذوا مجامع الطرق ؛ جاء رجل يسعى فـ « قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » الآية . فخرج كما أخبر الله . فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث ؛ فهو و إن قرّبه ربه وأكرمه وآصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولّت به ولم يعقّب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾(٢) تقدم فى « طه » القول فيه . ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة فى تسع آيات . المهدوى : المعنى : « أَلْقِ عَصَاكَ » « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من تسع آيات . وقال القشيرى معناه : كما تقول خرجت فى عشرة نفر وأنت أحدهم . أى خرجت عاشر عشرة . فـ « فى » بمعنى « من » لقربها منها كما تقول خذ لى عشرا من الإبل فيها فحلان أى منها . وقال الأصمعى فى قول آمرئ القيس :

وهل ينعمن(٣) من كان آخر عهده * ثلاثين شهرا فى ثلاثة أحوال

(١) راجع ص ٢٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩١ . (٣) وفى رواية : « وهل يعمن » .

فى بمعنى من . وقيـل : فى بمعنى مع ؛ فالآيات عشرة منها اليـد، والتسع : الفلق والعصا والجـراد والقُمَّل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطَّمْس[(١)] . وقد تقدّم بيـان جميعه .
﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ قال الفرّاء : فى الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه ، أى إنك مبعوث أو مرسـل إلى فرعون وقومه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله ؛ وقد تقـدّم :

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى واضحة بينة . قال الأخفش : ويجوز مَبصرة وهو مصدر كما يقال : الولد مَجْبنة . ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ جروا على عادتهـم فى التكذيب فلهذا قال : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرا، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى . وهـذا يدلّ على أنهم كانوا معاندين . و « ظُلْمًا » و « عُلُوًّا » منصوبان على نعت مصدر محذوف، أى وجحدوا بهـا جحودا ظلما وعلوا . والبـاء زائدة أى وجحدوها ؛ قاله أبو عبيدة . ﴿ فَانْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى آخر أمر الكافرين الطاغين، انظر ذلك بعين قلبـك وتدبر فيه . الخطاب له والمراد غيره .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ أى فهما ؛ قاله قتادة . وقيل : علما بالدين والحكم وغيرهما كما قال : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ[(٢)] » . وقيل : صنعة الكيمياء . وهو شاذ . وإنمـا الذى آتاهما الله النبوّة والخلافة فى الأرض والزبور . « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) الطمس : طمس الشيء إذهابه عن صورته . وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة . راجع جـ ٨ ص ٣٧٤ .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ .

الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » وفى الآية دليل على شرف العلم و إنافة محله وتقدّم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم وأجزل القِسَم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين . « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »(١) . وقد تقدّم هذا فى غير موضع .

قوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال الكلبى : كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا فورث سليمان من بينهم نبوّته وملكه، ولو كان وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء؛ وقاله آبن العربى؛ قال : فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوّة، وزاده من فضله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . قال آبن عطية : داود من بنى إسرائيل وكان ملكا وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوّة، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمى ميراثا تجوزا؛ وهذا نحو قوله : " العلماء ورثة الأنبياء " ويحتمل قوله عليه السلام : " إنا معشر الأنبياء لا نورث " أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه؛ وهذا كما تقول : إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة ، والمراد أن ذلك فعل الأكثر . ومنه ما حكى سيبويه : إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف .

قلت : قد تقدّم هذا المعنى فى « مريم »(٢) وأن الصحيح القول الأوّل لقوله عليه السلام : " إنا معشر الأنبياء لا نورث " فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل . قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبدا من سليمان . قال غيره : ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخّر له الإنس والجن والطير والوحش ، وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وورث أباه فى الملك والنبوّة ، وقام بعده بشريعته ، وكل نبى جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى ، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها . وبينه وبين الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة . واليهود تقول ألف

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٩٦ فما بعد . (٢) راجع ج ١١ ص ٨١ فما بعد .

وثلاثمائة وآثنتان وستون سنة . وقيل : إن بين موته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحوا من ألف وسبعمائة ، واليهود تنقص منها ثلثمائة سنة ، وعاش نيفا وخمسين سنة .

قوله تعالى : « وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ » أى قال سليمان لبنى إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله « عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ » أى تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة فى الأرض فى أن فهمنا من أصوات الطير المعانى التى فى نفوسها . قال مقاتل فى الآية : كان سليمان جالسا ذات يوم إذ مرّ به طائر يطوف ، فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لى : السلام عليك أيها الملك المسلّط والنبى لبنى إسرائيل ! أعطاك الله الكرامة ، وأظهرك على عدوّك ، إنى منطلق إلى أفراخى ثم أمرّ بك الثانية ؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع ؛ فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلّط ، إن شئت أن تأذن لى كيما أكتسب على أفراخى حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بى ما شئت . فأخبرهم سليمان بما قال ؛ وأذن له فانطلق . وقال فَرْقَد السَّبَخِىّ : مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا لا يا نبى الله . قال إنه يقول : أكلتُ نصف ثمرة فعلى الدنيا العَفَاء . ومرّ بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبىّ فخا فقال له سليمان : آحذر يا هدهد ! فقال : يا نبى الله ! هذا صبىّ لا عقل له فأنا أسخر به . ثم رجع سليمان فوجده قد وقع فى حِبالة الصبىّ وهو فى يده ، فقال : هدهد ما هذا ؟ قال : ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نبى الله . قال : ويحك ! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ ! قال : يا نبى الله إذا نزل القضاء عمِىَ البصر . وقال كعب . صاح وَرَشان عند سليمان ابن داود ، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : لِدُوا للموت وآبنوا للخراب . وصاحت فاختة ، فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يُخلقوا وليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا . وصاح عنده طاوس ، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : كما تدين تدان . وصاح عنده هدهد ، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا . قال فإنه يقول : من لا يَرحم لا يُرحم . وصاح صُرَد عنده ، فقال : أتدرون ما يقول؟

قالوا : لا . قال إنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين ؛ فمن ثَمَّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وقيل : إن الصُّرَد هو الذى دلّ آدم على مكان البيت . وهو أول من صام ؛ ولذلك يقال للصُّرَد الصوّام؛ روى عن أبى هريرة . وصاحت عنده طِيطَوى فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : كل حىّ ميّت وكل جديد بال . وصاحت خُطَّافة عنده، فقال : أتدرون ما تقول : ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : قدّموا خيرا تجدوه ؛ فمن ثَمّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها . وقيل : إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة ، فآنسه الله تعالى بالخُطَّاف وألزمها البيوت ، فهى لا تفارق بنى آدم أنسًا لهم . قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ »(1) إلى آخرها وتمدّ صوتها بقوله « الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال إنها تقول : سبحان ربى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه . وصاح قُمْرى عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : سبحان ربى العظيم المهيمن . وقال كعب : وحدثهم سليمان ، فقال الغراب يقول : اللهم ٱلعن العَشَّار ؛ والحِدأة تقول : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » . والقطاة تقول : من سكت سلِم . والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همــه . والضفدع يقول : سبحان ربى القدّوس . والبازى يقول : سبحان ربى وبحمده . والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان .

وقال مكحول : صاح دُرّاج عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال إنه يقول : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » . وقال الحسن قال النبى صلى الله عليــه وسلم : "الديك إذا صاح قال ٱذكروا الله يا غافلين" . وقال الحسن بن على بن أبى طالب قال النبى صلى الله عليه وسلم : "النسر إذا صاح قال يا بن آدم عِش ما شئت فآخرك الموت وإذا صاح العُقَاب قال فى البعد من الناس الراحة وإذا صاح القُنْبر قال إلهى ٱلعن مبغضى آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » إلى آخرها فيقول : « وَلَا الضَّالِّينَ » ويمد بها صوته كما يمد القارئ" . قال قتادة والشعبى : إنما هذا الأمر فى الطير خاصة ، لقوله : « عُلِّمْنَا

(1) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ .

مَنْطِقَ الطَّيْرِ » والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة . قال الشعبي : وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين . وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان ، وإنمـا ذكر الطير لأنه كان جندا من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته ؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردّد ترداد أمر الطير . وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قد يقع لمـا يفهم بغير كلام ، والله جل وعز أعلم بمـا أراد . قال ابن العربي : من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم ، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات ، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا ، أنفع من كذا وأضر من كذا ؛ فما ظنك بالحيوان .

قوله تعـالى : وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ ﴾ « حُشِرَ » جُمِـع والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا [(١)] » واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام ؛ فيقـال : كان معسكره مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سَرِيّة . ابن عطية : واختلف في معسكره ومقدار جنده اختلافا شديدا غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيما ملأ الأرض ، وانقادت له المعمورة كلها .
﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ معناه يُرَدّ أولهم إلى آخرهم ويُكَفّون . قال قتادة : كان لكل صنف وَزَعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيهـا . يقال : وزعته أوزعه وَزَعا أي كففته . والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم . روى محمد بن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لمـا وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى — تعني

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤١٦ .

يوم الفتح — قال أبو قحافة وقد كُفَّ بصرُه يومئذ لابنته : اظهرى بى على أبى قُبَيس . قالت : فأشرفت به عليه فقال : ما ترين ؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا . قال تلك الخيل . قالت وأرى رجلا من السواد مقبلا ومدبرا . قال : ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر . وذكر تمام الخبر . ومن هذا قوله عليه السلام : " ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر " قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : " أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة " خرّجه الموطأ . ومن هذا المعنى قول النابغة :

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبَا * وقلت أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

آخـر :

ولما تلاقَينا جرت من جُفوننا * دموعٌ وَزَعْنا غَرْبَها بالأَصابع

آخـر :

ولا يَزَعُ النفس اللَّجوجَ عن الهوى * من الناس إلا وافرُ العقل كامله

وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفريق . والقوم أوزاع أى طوائف . وفى القصة : إن الشياطين نسجت له بساطا فرسخا فى فرسخ ذهبا فى إبريسم، وكان يوضع له كرسىّ من ذهب وحوله ثلاثة آلاف كرسى من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب، والعلماء على كراسى الفضة .

الثانيـة — فى الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وَزَعة يكفّون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . وقال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو فى مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال : والله ما يُصلح هؤلاء الناسَ إلا وَزَعةٌ . وقال الحسن أيضا : لا بدّ للناس من وازع؛ أى من سلطان يكفهم . وذكر ابن القاسم قال حدّثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يَزَعُ الإمام أكثر مما يَزَعُ القرآن؛ أى من الناس . قال ابن القاسم : قلت لمالك ما يزع ؟ قال : يكف . قال القاضى أبو بكر ابن العربى : وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع

الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن وهـذا جهل بالله وحكمته . قال : فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق ، لا زيادة عليها ، ولا نقصان معها ، ولا يصلح سواها ، ولكن الظلمة خاسوا بها ، وقصروا عنها ، وأتوا ما أتوا بغير نية ، ولم يقصدوا وجه الله فى القضاء بها ، فلم يرتدع الخلق بها ، ولو حكموا بالعدل ، وأخلصوا النيـة ، لاستقامت الأمور ، وصلح الجمهور .

قوله تعـالى : حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَـا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَـٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْـلِ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنه واد بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . ﴿ قَالَتْ نَمْـلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ﴾ قال الشعبى : كان للنملة جناحان فصارت من الطير، فلذلك علم منطقها ولولا ذلك لمـا علمه . وقد مضى هذا ويأتى . وقرأ سليمان التيمى بمكة : «نَمُلَةٌ» و «النَّمُلُ» بفتح النون وضم الميم . وعنه أيضا ضمهما جميعا . وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها . قال كعب : مرّ سليمان عليه السلام بوادى السَّدير من أودية الطائف ، فأتى على وادى النمل ، فقامت نملة تمشى وهى عرجاء تتكاوس مثل الذئب فى العظم ؛ فنادت : « يَاأَيُّهَا النَّمْـلُ » الآية . الزمخشرى : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال ، وكانت تمشى وهى عرجاء تتكاوس ؛ وقيل : كان آسمها طاخية . وقال السهيلى : ذكروا آسم النملة المكلِّمة لسليمان عليه السلام ، وقالوا آسمها حرميا ، ولا أدرى كيف يتصـوّر للنملة آسم عَلَم والنمـل لا يسمى بعضهم بعضا ، ولا الآدميون يمكنهم تسمية

واحدة منهم باسم عَلَم، لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضا واقعون تحت ملكة بنى آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإن العلمية فيما كان كذلك موجودة عند العرب. فإن قلت: إن العلمية موجودة فى الأجناس كثُعَالة وأسامة وجَعَار وقَثَام فى الضبع ونحو هذا كثير؛ فليس آسم النملة من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم عَلَم لنملة واحدة معينة من بين سائر النمل، وثعالة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس فهو ثُعالة، وكذلك أُسامة وآبن آوى وآبن عِرس وما أشبه ذلك. فإن صح ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملة الناطقة قد سميت بهذا الاسم فى التوراة أو فى الزبور أو فى بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم. وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه. ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» التفاتة مؤمن. أى من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألّا يشعروا. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله: «ضَاحِكًا» إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يُسرّ نبيّ بأمر دنيا؛ وإنما سُرّ بما كان من أمر الآخرة والدّين. وقولها: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» إشارة إلى الدّين والعدل والرأفة. ونظير قول النملة فى جند سليمان: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» قول الله تعالى فى جند محمد صلى الله عليه وسلم: «فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ»(١). التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثنى على جند سليمان هى النملة بإذن الله تعالى، والمثنى على جند محمد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه؛ لما لجنود محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل على جند غيره من الأنبياء؛ كما لمحمد صلى الله عليه وسلم فضل على جميع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين. وقرأ شهر بن حوشب: «مَسْكَنَكُمْ» بسكون السين على الإفراد. وفى مصحف أبيّ «مَسَاكِنَكُنَّ لَا يَحْطِمَنْكُمْ». وقرأ سليمان التّيمى: «مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنْكُنَّ» ذكره النحاس؛ أى لا يكسرنكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٥.

قال المهدوى : وأفهم الله تعالى النملة هـذا لتكون معجزة لسليمان . وقال وهب : أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته فى سمـع سليمان ؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده . وقد قيل : إن هذا الوادى كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد قاله الكلبي . وقال نَوْف الشامى وشَقيق بن سَلَمة : كان نمـل ذلك الوادى كهيئة الذئاب فى العظم . وقال بُرَيْدَة الأسلمى : كهيئة النعاج . قال محمـد بن على الترمذى : فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت ، وإنمـا آفتقد صوت النمل لصغر خلقها ، وإلا فالأصوات فى الطيور والبهائم كائنة ، وذلك منطقهم ، وفى تلك المناطق معانى التسبيح وغير ذلك ، وهو قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »(١) .

قلت : وقـوله « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ » يدل على صحة قول الكلبي ؛ إذ لو كانت كهيئة الذئاب والنعاج لمـا حطمت بالوطء ؛ والله أعلم . وقال : « ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » فجاء على خطاب الآدميين لأن النمل هاهنا أجرى مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون . قال أبو إسحق الثعلبي : ورأيت فى بعض الكتب أن سليمان قال لهـا لم حذّرتِ النمـل ؟ أخفت ظلمى ؟ أما علمتِ أنى نبيّ عدل ؟ فلم قلت « يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ » فقالت النملة : أما سمعت قولى : « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » مع أنى لم أرد حطم النفوس ، وإنمـا أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثـل ما أعطيت ، أو يفتتن بالدنيـا ، ويشـتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر . فقال لها سليمان : عظينى . فقالت النملة : أما علمت لم سُمِّى أبوك داود؟ قال : لا . قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ؛ هل علمت لم سُمِّيت سليمان ؟ قال : لا . قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وإن لك أن تلحق بأبيك(٢) . ثم قالت : أتدرى لِمَ سخر الله لك الريح ؟ قال : لا . قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح . ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴾ متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها ، فقالت : هل عندكم من شيء نهـديه إلى

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ فما بعد .

(٢) العبارة فى « قصص الأنبياء » للثعلبى : « قالت لأنك سليم ركنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك ، وحق لك أن تلحق بأبيك داود .

نبيّ الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدى له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة . قالت : حسنة ؛ آيتونى بها . فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها ، فأمر الله الريح فحملتها ، وأقبلت تشق الأنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها فى كفّه ، وأنشأت تقول :

ألم تَرنا نُهدِى إلى الله مَالَهُ * وإن كان عنه ذاغنى فهو قابلُهْ
ولو كان يُهدَى للجليل بقدره * لقصّر عنه البحرُ يوما وساحلُهْ
ولكننا نُهدى إلى من نُحبُّه * فيرضى به عنا ويشكر فاعلُهْ
وما ذاك إلا من كريمٍ فعالُه * وإلا فما فى ملكنا ما يشاكلُهْ

فقال لها : بارك الله فيكم ؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله . وقال ابن عباس : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والصُّرَد والنملة والنحلة ؛ خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروى من حديث أبى هريرة . وقد مضى فى « الأعراف »(١) . فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، فنفت عنهم الجور ؛ ولذلك نهى عن قتلها ، وعن قتل الهدهد ؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس . وقال عكرمة : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارًّا بوالديه . والصُّرَد يقال له الصوّام . وروى عن أبى هريرة قال : أول من صام الصُّرد ولما خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم فى بناء البيت كانت السكينة(٢) معه والصُّرَد ، فكان الصّرد دليله على الموضع والسكينة مقداره ، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت ونادت وقالت : ابن يا إبراهيم على مقدار ظلّى . وقد تقدّم فى « الأعراف »(١) سبب النهى عن قتل الضفدع وفى « النحل »(٣) النهى عن قتل النحل . والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٠ .

(٢) السكينة : سحابة كما فى القصة . وفى حديث على رضى الله عنه إن السكينة ريح سريعة الممر . وليس بواضح .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٣٤ .

الثانيـــة — قرأ الحسن : « لَا يَحَطِّمَنَّكُمْ » وعنه أيضا «لَا يَحِطِّمَنَّكُمْ» وعنه أيضا وعن أبي رجاء : « لَا يُحَطِّمَنَّكُمْ » والحَطْم الكسر . حطمته حَطْما أى كسرته وتَحطَّم ؛ والتَّحطيم التكسير ، « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » يجوز أن يكون حالا من سليمان وجنوده ، والعامل فى الحال « يَحْطِمَنَّكُمْ » . أو حالا من النملة والعامل « قَالَتْ » : أى قالت ذلك فى حال غفلة الجنود ؛ كقولك : قمت والناس غافلون . أو حالا من النمل أيضا والعامل « قَالَتْ » على أن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها . وفيه بعدٌ وسيأتى .

الثالثـــة — روى مسـلم من حديث أبى هريرة عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم "أن نمـلة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمـل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفى أن قرصتك نمـلة أهلكت أمة من الأمم تسبِّح" وفى طريق آخر : "فهلا نملة واحدة" . قال علماؤنا : يقال إن هذا النبيّ هو موسى عليه السلام ، وإنه قال : يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع . فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسلّط عليه الحر حتى ٱلتجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلّها ، وعندها قرية النمل ، فغلبه النوم ، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرته ، فدلكهنّ بقدمه فأهلكهنّ ، وأحرق تلك الشجرة التى عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة فى ذلك آية : لمـا لدغتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها ! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة ، وشرا ونقمة على العاصى . وعلى هذا فليس فى الحديث ما يدلّ على كراهةٍ ولا حظرٍ فى قتل النمل ؛ فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار ، فكيف بالهوام والدواب التى قد سخرت لك وسلطت عليهـا ، فإذا آذاك أبيح لك قتله . وروى عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله . وقوله : "ألا نملة واحدة" دليل على أن الذى يؤذِى يؤذَى ويقتـل ، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عنـد العلماء . وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التى لدغت من غيرها ؛ لأنه ليس المراد القصاص ؛ لأنه لو أراده لقـال ألا نملتك التى لدغتك ، ولكن قال : ألا نمـلة مكان نملة ؛ فعم البرىء

والجانى بذلك ، ليعلم أنه أراد أن ينبهه لمسئلته ربّه فى عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصى . وقد قيل : إن هذا النبيّ كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة فى شرعه ؛ فلذلك إنما عاتبه الله تعالى فى إحراق الكثير من النمل لا فى أصل الإحراق . ألا ترى قوله : "فهلا نملة واحدة" أى هلا حرقت نملة واحدة . وهذا بخلاف شرعنا ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التعذيب بالنار . وقال : "لا يعذب بالنار إلا الله" وكذلك أيضا كان قتل النمل مباحا فى شريعة ذلك النبيّ ؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل . وأما شرعنا فقد جاء من حديث ٱبن عباس وأبى هريرة النهى عن ذلك . وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل . وقد قيل : إن هذا النبيّ إنما عاتبه الله حيث ٱنتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد ، وكان الأولى الصبر والصفح ؛ لكن وقع للنبيّ أن هذا النوع مؤذٍ لبنى آدم ، وحرمة بنى آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق ، فلو ٱنفرد له هذا النظر ولم ينضم إليه التشفى الطبعى لم يعاتب . والله أعلم . لكن لما ٱنضاف إليه التشفى الذى دلّ عليه سياق الحديث عوتب عليه .

الرابعة — قوله : "أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح" مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق ، كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقا وفهمه سليمان عليه السلام — وهذا معجزة له — وتبسم من قولها . وهذا يدلّ دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا ، لكن لا يسمعه كل أحد ، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبيّ أو ولىّ . ولا ننكر هذا من حيث أنا لا نسمع ذلك ؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك فى نفسه . ثم إن الإنسان يجد فى نفسه قولا وكلاما ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه . وقد خرق الله العادة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأسمعه كلام النفس من قوم تحدّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما فى نفوسهم ، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا فى كتب معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك فى غير ما قضية . وإياه عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : "إن فى أمتى محدّثين وإن عمر منهم" . وقد مضى هذا المعنى

فى [تسبيح](١) الجمـاد فى « سبحان »(٢) وأنه تسبيح لسان ومقـال لا تسبيح دلالة حال . والحمـد لله .

الخامســة — قوله تعالى : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا » وقرأ ابن السميقع : « ضحكا » بغير ألف ، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدلّ عليه تبسم ، كأنه قال ضحك ضحكا ، هذا مذهب سيبويه . وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس « تَبَسَّمَ » لأنه فى معنى ضحك . ومن قـرأ : « ضَاحِكًا » فهو منصوب على الحـال من الضمير فى « تَبَسَّمَ » . والمعنى تبسم مقدار الضحك ؛ لأن الضحك يستغرق التبسم ، والتبسم دون الضحك وهو أوله . يقـال : بَسَمَ (بالفتح) يَبْسِم بَسْمًا فهو باسم وآبتسم وتبسم ، والمَبْسِم الثغر مثل المجلس من جلس يجلس ورجل مِبسام و بسّـام كثير التبسم ، فالتبسم آبتـداء الضحك . والضحك عبارة عن الآبتداء والآنتهاء ، إلا أن الضحك يقتضى مزيدا على التبسم ، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل قهقه . والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام فى غالب أمرهم . وفى الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له : أكنت تجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم كثيرا ؛ كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلّى فيه الصبح — أو الغداة — حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدّثون و يأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون و يتبسم . وفيه عن سعد قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين(٣) ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آرم فِداك أبى وأمّى" قال فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه . فكان عليه السلام فى أكثر أحواله يتبسم . وكان أيضا يضحك فى أحوال أُخَر ضحكا أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذى تبدو فيه اللَّهَوات . وكان فى النادر عند إفراط تعجبه ربمـا ضحك حتى بدت نواجذه . وقد كره العلماء منه الكثرة ؛ كما قال لقمان لآبنه : يا بنيّ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب . وقـد روى مرفوعا من

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ فما بعد .

(٣) "أحرق المسلمين" أى أثخن فيهم ، وعمل فيهم نحو عمل النار . « هامش مسلم » .

حديث أبي ذر وغيره . وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين رمى سعدا الرجل فأصابه ، إنما كان سرورا بإصابته لا بانكشاف عورته ؛ فإنه المنزّه عن ذلك صلى الله عليه وسلم .

السادسة — لا آختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول . وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير . قال آبن عطية : والنمل حيوان فطن قوى شمام جدا يدّخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت ، ويشق الكزبرة بأربع قطع ؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقتين ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره عدّة . قال آبن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها ؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنور الإسفرايني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ؛ ووحدانية الإله ، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا ؛ أما أنّا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ فـ « أن » مصدرية . و « أَوْزِعْنِي » أي ألهمني ذلك . وأصله من وزع فكأنه قال : كفّني عما يسخط . وقال محمد بن إسحق : يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي آمرأة أوريا التي آمتحن الله بها داود ، أو أنه بعد موت زوجها تزوّجها داود فولدت له سليمان عليه السلام . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة « ص » (١) إن شاء الله تعالى .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي مع عبادك ، عن آبن زيد . وقيل : المعنى في جملة عبادك الصالحين .

قوله تعالى : وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٦٥ .

مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

فيه ثمانية عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ ذكر شيئا آخر مما جرى له فى مسيره الذى كان فيه من النمل ما تقدّم . والتفقد تطلّب ما غاب عنك من شيء . والطير اسم جامع والواحد طائر ، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها . وكانت تصحبه فى سفره وتظله بأجنحتها . وآختلف الناس فى معنى تفقده للطير ؛ فقالت فرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك ، والتّهمّم بكل جزء منها ؛ وهذا ظاهر الآية . وقالت فرقة : بل تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب ؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير ؛ ليتبيّن من أين دخلت الشمس . وقال عبد الله بن سَلَام : إنما طلب الهدهد لأنه آحتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان نزل فى مفازة عُدِم فيها الماء ، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء ، ثم كانت الجنّ تخرجه فى ساعة يسيرة ؛ تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة ؛ قاله آبن عباس فيما روى عن آبن سَلَام . قال أبو مِجْلَز قال آبن عباس لعبد الله بن سَلَام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل . قال : أتسألنى وأنت تقرأ القرآن ؟ قال . نعم ثلاث مرات . قال : لم تفقد سليمان الهدهد دون

سائر الطير ؟ قال : آحتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه — أو قال مسافته — وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقده . وقال فى كتاب النقاش : كان الهدهد مهندسا . وروى أن نافع بن الأزرق سمع آبن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له : قف يا وقّاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخّ حين يقع فيه ؟ ! فقال له آبن عباس : إذا جاء القدر عَمِى البصر . وقال مجاهد : قيل لآبن عباس كيف تفقّد الهدهد من الطير ؟ فقال : نزل منزلا ولم يدر ما بُعْد الماء ، وكان الهدهد مهتديا إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت كيف يهتدى والصبيّ يضع له الحِبَالة فيصيده ؟ ! فقال : إذا جاء القدر عَمِيَ البصر . قال آبن العربى : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

قلت : هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان كما تقدّم . وأنشدوا :

إذا أراد الله أمرًا بآمرئٍ * وكان ذا عقلٍ ورأيٍ ونَظَرْ
وحيلةٍ يعملها فى دفع ما * يأتى به مكروهُ أسبابِ القَدَرْ
غطّى عليه سمعَه وعقلَه * وسلّه من ذهنه سلَّ الشَّعَرْ
حتى إذا أنفذ فيه حكمه * ردّ عليه عقلَه ليعتبِرْ

قال الكلبى : لم يكن له فى مسيره إلا هدهد واحد . والله أعلم .

الثانية — فى هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم . فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام المُلْك . ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ، قال : لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليُسأل[1] عنها عمر . فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . وفى الصحيح عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بِسَرْغٍ[2] لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . الحديث ، قال علماؤنا : كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط .

---

(١) فى ك : ليسئل . (٢) سرغ (بسكون الراء وفتحها) : قرية بوادى تبوك من طريق الشام .

وكان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه، فقـد دلّ القرآن والسنة وبيّنـا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيتــه، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال . ورحم الله ٱبن المبارك حيث يقول :

وهل أفسدَ الدينَ إلّا الملوكُ * وأحبـارُ ســوءٍ ورهبانُهـا (١)

الثالثـــة — قوله تعـالى : « مَالِىَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ » أى ما للهدهد لا أراه؛ فهو من القلب الذى لا يعرف معناه . وهو كقولك : ما لى أراك كئيبا . أى مالك . والهدهد طير معروف وهدهدته صوته . قال ٱبن عطية : إنمـا مقصد الكلام الهدهد غاب لكنه أخذ اللازم عن مغيبه وهو أن لا يراه، فاستفهم على جهـة التوقيف على اللازم وهـذا ضرب من الإيجاز . والاستفهام الذى فى قوله : « مَالِىَ » ناب مناب الألف التى تحتاجها أم . وقيل : إنما قال : « مَالِىَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ »؛ لأنّه ٱعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتى الملك العظيم، وسخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل، فلمـا فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصّر فى حق الشكر، فلأجله سُلبها؛ فجعل يتفقد نفسه؛ فقال : « مَالِىَ » . قال ٱبن العربى : وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا مالهم (٢)، تفقدوا أعمالهم؛ هذا فى الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصّر فى الفرائض ! . وقرأ ٱبن كثير وٱبن محيصن وعاصم والكسائى وهشام وأيوب : « مَالِىَ » بفتح الياء وكذلك فى « يسۤ » (٣) « وَمَالِىَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى » . وأسكنها حمزة ويعقوب . وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو : بفتح التى فى « يسۤ » وإسكان هـذه . قال أبو عمرو : لأن هذه التى فى « النمـل » ٱستفهام، والأخرى ٱنتفاء . وٱختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان « فَقَـالَ مَالِىَ » . وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهـم أرادوا أن يفرّقوا بين ما كان مبتدأ، وبين ما كان معطوفا على ما قبله، وهذا ليس بشىء؛ وإنمـا هى ياء النفس، من العرب من يفتحها ومنهم من يسكنها، فقرءوا باللغتين؛ واللغة الفصيحة فى ياء النفس أن تكون مفتوحة؛ لأنها ٱسم وهى على حرف واحد، وكان الآختيار ألا تسكن فيجحف الاسم . ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ ﴾ بمعنى بل .

---

(١) فى ك : « ورهبانا » . (٢) فى أحكام القرآن لابن العربى : «إذا فقدوا آمالهم ... الخ» .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٧ فما بعد .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ دليل على أن الحدّ على قدر الذنب لا على قدر الجسد؛ أما أنه يرفق بالمحدود في الزمان والصفة . روى عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه . قال ابن جريج : ريشه أجمع . وقال يزيد بن رومان : جناحاه . فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظا على العاصين، وعقابا على إخلاله بنَوْبته ورتبته؛ وكأن الله أباح له ذلك، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع . والله أعلم . وفي « نوادر الأصول » قال : حدّثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال حدّثنا عون بن عمارة، عن الحسين الجُعْفي، عن الزبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، قال : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان بارا بوالديه(١) . وسيأتي . وقيل : تعذيبه أن يجعل مع أضداده . وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد . وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : بأن يجعله للشمس بعد نتفه . وقيل : بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدّبون بالهجران الجسد(٢) بتفريق إلفه . وهو مؤكد بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة . قال أبو حاتم : ولو قرئت « لَأُعَذِّبَنْهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنْهُ » جاز . ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة بينة . وليست اللام في « لَيَأْتِيَنِّي » لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد؛ ولكن لما جاء في أثر قوله : « لَأُعَذِّبَنَّهُ » وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه . وقرأ ابن كثير وحده : « لَيَأْتِيَنَّنِي » بنونين .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي الهدهد . والجمهور من القراء على ضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها . ومعناه في القراءتين أقام . قال سيبويه : مَكَث يمكُث مُكُوثا كما قالوا قعد يقعد قعودا . قال : ومَكُث مثل ظَرُف . قال غيره : والفتح أحسن لقوله تعالى : « مَاكِثِينَ »(٣) إذ هو من مكث؛ يقال : مَكَث يمكُث فهو ماكِث؛ ومَكُث يمكُث مثل عَظُم يعظُم فهو مكيث؛ مثل عظيم . ومَكُث يمكث فهو ماكث؛ مثل حَمُض يحمُض فهو حامض . والضمير في « مَكَثَ » يحتمل أن يكون لسليمان؛ والمعنى : بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل . ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر . فجاء : ﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ وهي :

(١) في ك : بأبويه . (٢) في ك : الجنيد : بتفريق إلفه . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦ .

السادســـة — أى علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان فى هــذا ردّ على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب . وحكى الفراء « أَحَطُّ » يدغم التـاء فى الطاء . وحكى « أَحَتُّ » بقلب الطاء تاء وتدغم .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه، ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح . وقرأ الجمهور : « سبإ » بالصرف . وابن كثير وأبو عمرو : « سَبَأَ » بفتح الهمزة وترك الصرف؛ فالأوّل على أنه ٱسم رجل نسب إليه قوم ، وعليه قول الشـاعر :

الواردون وتيم فى ذُرَى سبإ * قد عَضّ أعناقَهُمْ جلدُ الجواميس

وأنكر الزجاج أن يكون ٱسم رجل ،وقال : «سبأ» ٱسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

قلت : [وقع فى عيون المعانى للغزنوى ثلاثة أميال . قتادة والسدى بعث إليه اثنا عشر نبيا](١). وأنشد للنابغة الجَعْدى :

من سَبَأَ الحـاضرين مَأرِبَ إذْ * يَبْنُون من دون سَيْلِهِ العَرِمَا

قال : فمن لم يصرف قال إنه ٱسم مدينـة ، ومن صرف وهو الأكثر فلأنه ٱسم البلد فيكون مذكرا سمى به مذكر . وقيـل : ٱسم ٱمرأة سميت بها المدينة . والصحيح أنه ٱسم رجل ، كذلك فى كتاب الترمذى من حديث فروة بن مُسَيْك المرادى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : وسيأتى إن شاء الله تعالى . قال ٱبن عطية : وخفى هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواء . وزعم الفـراء أن الرُّؤاسيّ سأل أبا عمرو بن العـلاء عن سبإ فقال : ما أدرى ما هو . قال النحاس : وتأول الفراء على أبى عمرو أنه منعه من الصرف لأنه مجهول ، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف . وقال النحاس : وأبو عمرو أجلّ من أن يقول مثل هذا ،وليس فى حكاية الرُّؤاسى عنه دليل أنه إنمـا منعه من الصرف لأنه لم يعرفه، و إنما قال لا أعرفه، ولو سئل نحويّ عن ٱسم فقال لا أعرفه لم يكن فى هذا دليل على أنه يمنعه من الصرف، بل الحق على غير هذا؛ والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه؛ لأن أصل الأسماء الصرف ؛ و إنمـا يمنع الشيء

(١) فى ب .

من الصرف لعلة داخلة عليه؛ فالأصل ثابت بيقين فلا يزول بما لا يعرف . وذكر كلاما كثيرا عن النحاة وقال فى آخره : والقول فى «سبإ» ما جاء التوقيف فيه أنه فى الأصل آسم رجل، فإن صرفته فلأنه قد صار آسما للحىّ، وإن لم تصرفه جعلته آسما للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف وحجته فى ذلك قاطعة؛ لأن هذا الأسم لما كان يقع له التذكير والتأنيث كان التذكير أولى؛ لأنه الأصل والأخف .

الثامنة — وفى الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندى ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه . هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضى الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان . وكان علم التيمم عند عمّار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا : لا يتيمم الجنب . وكان حكم الإذن فى أن تنفر الحائض عند آبن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت . وكان غسل رأس المحرم معلوما عند آبن عباس وخفى عن المِسْوَر بن مَخْرَمة . ومثله كثير فلا يطوّل به .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ لما قال الهدهد : « جِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » قال سليمان : وما ذلك الخبر ؟ قال : « إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ » يعنى بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبإ . ويقال : كيف خفى على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطّه وبين بلدها قريبة، وهى من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف . ويروى أن أحد أبويها كان من الجن . قال ابن العربى : وهذا أمر تنكره الملحدة[1]، ويقولون : الجن لا يأكلون ولا يلدون؛ كذبوا لعنهم الله أجمعين؛ ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلا فإن صح نقلا فبها ونعمت .

قلت : خرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال : قدم وفد من الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يا محمد آنْهَ أمتك أن يستنجوا بعَظْم أو رَوْثة أو جمجمة فإن الله جاعل لنا فيها رزقا . وفى صحيح مسلم : فقال " لكم كل عَظْم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم " فقال رسول الله صلى الله

(١) قال محققه : أنكره جمع من فحول العلماء، كالماوردي، وهو الحق لأنه لا يمكن التزاوج بين جنسين متباينين .

عليه وسـلم : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعـام إخوانكم الجن " وفى البخارى من حديث أبى هريرة قال فقلت : ما بال العَظْم والرَّوثة ؟ فقال : " هما من طعـام الجن و إنه أتانى وفدُ جِن نِصيبِين ونِعْم الجنُّ فسألونى الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا رَوْثة إلا وجدوا عليها طعاما " وهذا كله نص فى أنهـم يطعمون . وأما نكاحهم فقد تقدّمت الإشارة إليه فى « سـبحان » عند قوله : « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ »[1] . وروى وهيب بن جرير ابن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بلقيس من الجنّ يقال لها بلعمة بنت شيصان . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعـالى .

العاشـــرة — روى البخاريّ من حديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسـلم لمـا بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال : " لن يُفلح قوم ولَّوا أمرَهم آمرأة " قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا نص فى أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيـه ؛ ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبى حنيفة أنها إنما تقضى فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ؛ ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدّمة على الحكم ، و إنما سبيل ذلك التحكيم[2] والاستنابة فى القضية الواحدة ، وهـذا هو الظن بأبى حنيفـة وابن جرير . وقد روى عن عمر أنه قدّم امرأة على حِسبة السـوق . ولم يصح فلا تلتفتوا إليـه ، فإنمـا هو من دسائس[3] المبتدعة فى الأحاديث . وقد تناظر فى هذه المسئلة القاضى أبو بكر بن الطيب المـالكى الأشعرى مع أبى الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية ، فقال أبو الفرج : الدليـل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضى لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيهـا ، وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل . فاعترض عليه القاضى أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور ، وتدبير الأمور وحماية البَيْضـة ، وقبض الخـراج ورده على مستحقه ، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل . قال ابن العربى : وليس

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٩ . (٢) فى ب وك : كسبيل التحكيم . (٣) فى ك : من وساوس .

كلام الشيخين فى هذه المسئلة بشىء؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت بَرْزَة(١) لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم؛ وان يفلح قطّ من تصور هذا ولا من آعتقده .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة؛ أى مما تحتاجه المملكة . وقيل : المعنى أوتيت من كل شىء فى زمانها شيئا فحذف المفعول؛ لأن الكلام دلّ عليه . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أى سرير؛ ووصفه بالعظم فى الهيئة ورتبة السلطان . قيل : كان من ذهب تجلس عليه . وقيل : العرش هنا الملك؛ والأوّل أصح؛ لقوله تعالى : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . الزمخشرى : فإن قلت كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله فى الوصف بالعظيم ؟ قلت : بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض . قال آبن عباس : كان طول عرشها ثمانين ذراعا، وعرضه أربعين ذراعا، وآرتفاعه فى السماء ثلاثين ذراعا، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر . قتادة : وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مُسَتَّرا بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق . مقاتل : كان ثمانين ذراعا [فى ثمانين ذراعا(٢)]، وآرتفاعه من الأرض ثمانون ذراعا، وهو مكلل بالجواهر . آبن إسحق : وكان يخدمها النساء، وكان معها لخدمتها ستمائة آمرأة . قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها آمرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قيل : كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى . وقيل : كانوا مجوسا يعبدون الأنوار . وروى عن نافع أن الوقف على « عرش » . قال المهدوى :

(١) البرزة هنا : الكهلة التى تحتجب آحتجاب الشواب؛ وهى مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم .
(٢) من ب و ك .

فعظيم على هذا متعلق بمـا بعده ، وكان ينبغى على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها ؛ أى[1] وجودى إياها كافرة . وقال ابن الأنبارى : « وَلَهَـا عَرْشٌ عَظِيمٌ » وقف حسن ، ولا يجوز أن يقف على « عرش » ويبتدئ « عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا » إلا على من فتح ؛ لأن عظيما نعت لعرش فلو كان متعلقا بوجدتها لقلت عظيمة وجدتها ؛ وهذا محال من كل وجه . وقد حدّثنى أبو بكر محمد بن الحسين بن شهريار ، قال : حدّثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجلىّ ، عن بعض أهل العلم أنه قال : الوقف على « عرش » والابتداء « عظيم » على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر . قال : وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب ، ويحتج بأن عرشها أحقر وأدق شأنا من أن يصفه الله بالعظيم . قال ابن الأنبارى : والاختيار عندى ما ذكرته أوّلا ؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليـل . وغير منكر أن يصف الهدهد عرشها بالعظيم إذ رآه متناهى الطول والعرض ؛ وجريه على إعراب « عرش » دليل على أنه نعته . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ما هم فيه من الكفر . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى عن طريق التوحيد . وبيّن بهـذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق . ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الله وتوحيده .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة : « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ » بتشديد « أَلَا » قال ابن الأنبارى : « فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ » غير تام لمن شدّد « أَلَّا » لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا . قال النحاس : هى « أن » دخلت عليها « لا » و « أن » فى موضع نصب ؛ قال الأخفش : بـ « ـزين » أى وزين لهم لئلا يسجدوا لله . وقال الكسائى : بـ « ـفصدّهم » أى فصدهم ألا يسجدوا . وهو فى الوجهين مفعول له . وقال اليزيدى وعلى بن سليمان : « أن » بدل من « أعمالهم » فى موضع نصب . وقال أبو عمرو : و « أن » فى موضع خفض على البدل من السبيل . وقيل : العامل فيها « لَا يَهْتَدُونَ » أى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ؛ أى لا يعلمون أن ذلك واجب عليهم . وعلى هذا القول « لا » زائدة ؛ كقوله : « مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »[2] أى ما منعك أن تسجد . وعلى هذه القراءة

(١) فى ب و ك : أى عظيم وجودى أنها كابرة .　　(٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٩ فما بعد .

فليس بموضع سجدة ؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصد، أو بمنع الاهتداء . وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما : « أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ »(١) بمعنى ألا ياهؤلاء اسجدوا ؛ لأن « يا » ينادى بها الأسماء دون الأفعال . وأنشد سيبويه :

يا لعنةُ اللهِ والأقوامِ كلِّهمُ * والصالحين على سِمْعانَ من جارِ

قال سيبويه : (يا) لغير اللعنة ، لأنه لو كان للعنة لنصبها ، لأنه كان يصير منادى مضافا ، ولكن تقديره ياهؤلاء لعنة الله والأقوام على سِمعان . وحكى بعضهم سماعا عن العرب : ألا يا ارحموا ألا يا اصدُقوا . يريدون ألا ياقوم ارحموا اصدُقوا ، فعلى هذه القراءة « اسْجُدُوا » في موضع جزم بالأمر والوقف على « أَلَا يَا » ثم تبتدئ فتقول : « اسْجُدُوا » . قال الكسائي : ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر . وفي قراءة عبد الله : « أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » بالتاء والنون . وفي قراءة أبيّ « أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ » فهاتان القراءتان حجة لمن خفف . الزجاج : وقراءة التخفيف تقتضي(٢) وجوب السجود دون التشديد . واختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة التشديد . وقال : التخفيف وجه حسن إلا أن فيه انقطاع الخبر من أمر سبأ ، ثم رجع بعد إلى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع في وسطه . ونحوه قال النحاس . قال : قراءة التخفيف بعيدة ؛ لأن الكلام يكون معترضا ، وقراءة التشديد يكون الكلام بها متسقا ، وأيضا فإن السواد على غير هذه القراءة ؛ لأنه قد حذف منها ألفان ، وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو ياعيسى بن مريم . ابن الأنباري : وسقطت ألف « اسجدوا » كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر ، ولما سقطت ألف « يا » واتصلت بها ألف « اسْجُدُوا » سقطت ، فعد سقوطها دلالة على الاختصار وإيثارا لما يخفّ وتقل ألفاظه . وقال الجوهري في آخر كتابه : قال بعضهم : إن « يا » في هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال : ألا اسجدوا لله ، فلما أدخل عليه « يا » للتنبيه سقطت الألف التي في « اسْجُدُوا » لأنها

---

(١) الألوسي : « ألا » بالتخفيف على أنها للاستفتاح و « يا » حرف نداء ، والمنادى محذوف ؛ أي ألا ياقوم اسجدوا وسقطت ألف الوصل في « اسجدوا » وكتبت الياء متصلة بالسين على خلاف القياس .

(٢) وفي ب : تعطي .

ألف وصـل، وذهبت الألف التي فى « يا » لاجتماع الساكنين؛ لأنها والسين ساكنتان .
قال ذو الرُّمة :

أَلَا يا آسْلَمِي يا دارَمَيَّ على البِلَى * وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

وقال الجرجانيّ : هو كلام معـترض من الهدهد أو سـليمان أو من الله . أي ألا ليسجدوا؛ كقوله تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ»[(1)] قيل : إنه أمر أى ليغفروا. وتنتظم على هذا كتابة المصحف ؛ أى ليس هاهنا نداء . قال ابن عطية : قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله « العظيم » وهو قول ابن زيد وابن إسحق؛ و يعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم فى معنى شرع . ويحتمل أن يكون من قول سـليمان لما أخبره الهـدهد عن القوم . و يحتمل أن يكون من [قول][(2)] الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل، وقراءة التشـديد فى « ألّا » تعطى أن الكلام للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، والتخفيف يقتضي الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه . وقال الزمخشري : فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا أم فى إحداهما ؟ قلت هى واجبة فيهما جميعا؛ لأن مواضع السجدة إمّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذم [لمن][(2)] تركها، و إحدى القـراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك .

قلت : وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما فى « الانشقاق »[(3)] وسجد النبى صلى الله عليه وسلم فيها، كما ثبت فى البخاريّ وغيره فكذلك « النمـل » . والله أعلم . الزمخشري : وما ذكره الزجاج من وجوب السـجدة مع التخفيف دون التشديد فغـير مرجوع إليـه .
﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ خَبْء السماء قطرها، وخَبْء الأرض كنوزها ونباتها . وقال قتادة : الخَبْء السر . النحاس : وهـذا أولى . أى ما غاب فى السموات والأرض، و يدلّ عليـه «مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» . وقرأ عكرمة ومالك بن دينار : « الخب » بفتح الباء من غير همز. قال المهدوى : وهو التخفيف القياسي؛ وذكر من يترك الهمز فى الوقف . وقال النحاس :

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠ فما بعد . (٢) من ك . (٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٧٢ فما بعد .

وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ : «الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا» بألف غير مهموزة، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية، واعتلّ بأنه إن خفّف الهمزة ألقى حركتها على الباء فقال : « الْخَبَ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » وأنه إن حوّل الهمزة قال : الْخَبْيَ بإسكان الباء وبعدها ياء . قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه . وحكى سيبويه عن العرب أنها تبدل من الهمزة ألفا إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة، وتبدل منها واوا إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة؛ فتقول : هذا الْوَثْوُ وعجبت من الْوَثْيِ(1) ورأيت الْوَثَا؛ وهذا من وُثِئَت يده؛ وكذلك هذا الْخَبْوُ وعجبت من الْخَبْيِ، ورأيت الخَبَا؛ وإنما فعل هذا لأن الهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف . وحكى سيبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون : هـذا الخَبُؤُ؛ يضمون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة، ويثبتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزة مكسورة، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزة مفتوحة . وحكى سيبويه أيضا أنهم يكسرون وإن كانت الهمزة مضمومة، إلا أن هـذا عن بني تميم؛ فيقولون : الرِّدِئُ(2)؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلها كسرة؛ لأنه ليس في الكلام فِعُلٌ . وهذه كلّها لغات داخلة على اللغة التي قرأ بها الجماعة؛ وفي قراءة عبد الله « الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّمٰوَاتِ » و« من » و« في » يتعاقبان؛ تقول العرب : لأستخرجنّ العلم فيكم يريد منكم؛ قاله الفراء . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قراءة العامة فيهما بياء [الغائب](3)، وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الهدهد، وأن الله تعالى خصّه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له، وإنكار سجودهم للشمس، وإضافته للشيطان، وتزيينه لهم، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لها . وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص والكسائي : «تُخْفُونَ» و« تُعْلِنُونَ » بالتاء على الخطاب؛ وهذه القراءة تعطي أن الآية

(1) في اللسان : الوثي : الضرب حتى يرهص اللحم ويصل الضرب إلى العظم من غير كسر .
(2) الردء بمعنى الصاحب . (3) في ب وك .

من خطاب الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ قرأ ابن محيصن «العظيمُ» : رفعا نعتا لله . الباقون بالخفض نعتا للعرش . وخص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه فى ضمنه وقبضته .

الرابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ من النظر الذى هو التأمل والتصفح . ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقالتـك . و « كنت » بمعنى أنت . وقال : « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ » ولم يقل سننظر فى أمرك ؛ لأن الهدهد لمـا صرح بفخر العلم فى قوله : « أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك [كفاء(١)] لمـا قاله .

الخامسة عشرة — فى قوله : « أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » دليل على أن الإمام يجب عليـه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليـه . وإنمـا صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر بمـا يقتضى الجهاد ، وكان سليمان عليه السـلام حبب إليه الجهاد . وفى الصحيح : "ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله من أجل ذلك أنزل الكتابَ وأرسل الرسل" . وقد قبل عمر عذر النعمان بن عدى ولم يعاقبه . ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة ، كما فعل سليمان ؛ فإنه لمـا قال الهدهـد : « إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » لم يستفزه الطمع ، ولا استجره حبّ الزيادة فى الملك إلى أن يعرض له حتى قال : « وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ » فغاظه حينئذ ما سمع ، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر ، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك ، فقال : « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » ونحو منه ما رواه الصحيح عن المِسْور بن مَخْرَمة ، حين استشار عمر النـاس فى إملاص المـرأة وهى التى يضرب بطنها فتلقى جنينها ؛ فقال المغـيرة ابن شعبة : شهدت النبى صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغُرةٍ عبدٍ أو أمة(٢) . قال فقال عمر : ائتنى بمن يشهد معك ؛ قال : فشهد له محمد بن مسلمة وفى رواية فقال : لا تبرح حتى تأتى بالمخرج

(١) فى ب . وفى ك : حقا كما قاله . (٢) فى ز : وليدة .

من ذلك ؛ فخرجت فوجدت محمــد بن مسلمة فجئت به فشهد . ونحوه حديث أبى موسى فى الآستئذان وغيره .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ قال الزجاج : فيها خمسة أوجه « فَأَلْقِهِى إِلَيْهِمْ » بإثبات الياء فى اللفظ . وبحذف الياء و إثبات الكسرة دالّة عليها « فَأَلْقِهِ إِلَيْهِم » . و بضم الهاء و إثبات الواو على الأصل « فَأَلْقِهُو إِلَيْهِم » . وبحذف الواو و إثبات الضمة « فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ » . واللغة الخامسة قرأ بها حمــزة بإسكان الهاء « فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ » . قال النحاس : وهــذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة بعيــدة تكون : يقدّر الوقف ؛ وسمعت على بن سليمان يقول : لا تلتفت إلى هذه العلة ، ولو جاز أن يصل وهو ينوى الوقف لجاز أن يحــذف الإعراب من الأسماء . وقال : « إليهم » على لفظ الجمع ولم يقل إليهــا ؛ لأنه قال : « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ » فكأنه قال : فألقــه إلى الذين هذا دينهم ؛ آهتماما منه بأمر الدِّين ، وآشتغالا به عن غيره ، و بنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك . وروى فى قصص هــذه الآية أن الهدهد وصل فألفى دون هذه الملكة حُجَب جدران ، فعمد إلى كُوّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منهــا الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها ، فدخل منهــا و رمى الكتاب على بلقيس وهى — فيما يروى — نائمة ؛ فلمــا آنتبهت وجدته فراعها ، وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدت ، فنظرت إلى الكُوّة تَهَمُّما بأمر الشمس ، فرأت الهدهد فعلمت . وقال وهب وآبن زيد : كانت لها كُوّة مستقبلة مطلع الشمس ، فإذا طلعت سجدت ، فسدها الهدهد بجناحه ، فآرتفعت الشمس ولم تعلم ، فلمــا آستبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصــحيفة إليها ، فلمــا رأت الخاتم آرتعدت وخضعت ، لأن مُلك ســليمان عليه الســلام كان فى خاتمه ؛ فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتى بعد . وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره ، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر ، فرفرف ساعة والنــاس ينظرون إليه ، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب فى حجرها .

السابعة عشرة — فى هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام . وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبّار؛ كما تقدّم فى « آل عمران »(١) :

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أمره بالتولّى حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك . بمعنى : وكن قريبا حتى ترى مراجعتهم ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال ابن زيد : أمره بالتولّى بمعنى الرجوع إليه ؛ أى ألقه وارجع . قال وقوله : «فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» فى معنى التقديم على قوله : « ثُمَّ تَوَلَّ » واتساق رتبة الكلام أظهر؛ أى ألقه ثم تول، وفى خلال ذلك فانظر أى انتظر . وقيل : فاعلم؛ كقوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ »(٢) أى اعلم ماذا يرجعون أى يجيبون وماذا يردّون من القول . وقيل : « فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ » [يتراجعون](٣) بينهم من الكلام .

قوله تعالى : قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ ﴾ فى الكلام حذف ؛ والمعنى : فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهى تقول : « يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ » ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم فى نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالا لسليمان عليه السلام ؛ وهذا قول ابن زيد . وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم ، فكرامة الكتاب ختمه ؛ وروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : لأنه بدأ فيه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وقد قال صلى الله عليه وسلم : ”كل كلام لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم“ . وقيل : لأنه بدأ

(١) راجع جـ ٤ ص ١٠٥ فما بعد .	(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٨٦	(٣) فى ك .

فيه بنفسه ، ولا يفعل ذلك إلا الجلّة . وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه ، من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، إني أقرّ لك بالسمع والطاعة ما استطعت ، وإن بنيّ قد أقرّوا لك بذلك . وقيل : توهمت أنه كتاب جاء من السماء إذ كان الموصّل طيرا . وقيل : «كَرِيمٌ» حسن ، كقوله : «وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» [(١)] أي مجلس حسن . وقيل : وصفته بذلك ، لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًّا ولا لعنا ، ولا ما يغيّر النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عز وجل ؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : «ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ» [(٢)] وقوله لموسى وهرون : «فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ» [(٣)] . وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها . وقد روى أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان . وفي قراءة [عبد الله] [(٤)] «وَإِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَانَ» بزيادة واو .

الثانية — الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى قوله تعالى : «إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ» [(٥)] وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور ؛ فإن كان لملك قالوا : العزيز وأسقطوا الكريم غفلة ، وهو أفضلها خصلة . فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى : «وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ» [(٥)] فهذه عزته وليست لأحد إلا له ؛ فاجتنبوها في كتبكم ، واجعلوا بدلها العالي ؛ توفية لحق الولاية ، وحياطة للديانة ؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي .

الثالثة — كان رسم المتقدّمين إذا كتبوا أن يبدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وبذلك جاءت الآثار . وروى الربيع عن أنس قال : ما كان أحد أعظم حرمة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدءوا بأنفسهم . وقال ابن سيرين قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن أهل فارس إذا كتبوا بدءوا بعظمائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه"

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٢٨ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠ . (٣) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ .
(٤) في الأصول : «وفي قراءة أبي» وهو مخالف لما عليه كتب التفسير ، فالمروي عن أبيّ أنه قرأ : «ألا من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم» بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء . (٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٣ وص ٣٦٦ .

قال أبو الليث فى كتاب « البستان » له : ولو بدأ بالمكتوب إليه لجاز؛ لأن الأمة قد ٱجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا فى ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسن فى زماننا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأن البداية بنفسه تعدّ منه ٱستخفافا بالمكتوب [إليه](١) وتكبّرا عليه؛ إلا أن يكتب إلى عبد من عبيده، أو غلام من غلمانه .

الرابعـــة — وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغى أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر . وروى عن ٱبن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام . والله أعلم .

الخامســة — ٱتفقوا على كتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أوّل الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الريبــة، وعلى هــذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : أيمـا كتاب لم يكن مختوما فهو أغلف . وفى الحديث : "كرم الكتاب خَتْمُه" . وقال بعض الأدباء، هو ٱبن المقفع : من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد ٱستخف به؛ لأن الختم ختم . وقال أنس : لمـا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم فقيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه ختم؛ فٱصطنع خاتما ونقش على فصه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأنى أنظر إلى وبيصه(٢) وبياضه فى كفّه .

السادســة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ « وَإِنَّهُ » بالكسر فيهما أى وإن الكلام، أو إن مبتدأ الكلام « بسم الله الرحمن الرحيم » . وأجاز الفراء « أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ » بفتحهما جميعا على أن يكونا فى موضع رفع بدل من الكتاب(٣)؛ بمعنى ألقى إلىّ أنه من سليمان . وأجاز أن يكونا فى موضع نصب على حذف الخافض؛ أى لأنه من سليمان ولأنه؛ كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله . وقرأ الأشهب العُقَيْلىّ ومحمد بن السَّمَيْقع : « أَلَّا تَغْلُوا » بالغين المعجمة؛ وروى عن وهب بن منبّه؛ من غلا يغلوا إذا تجاوز وتكبّر. وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة . ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أى منقادين طائعين مؤمنين .

---

(١) من ك .　　(٢) الوبيص : البريق واللمعان .　　(٣) فى ك : بدل من الكلام .

قوله تعالى : قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ الملأ أشراف القوم وقد مضى فى سورة « البقرة » (١) القول فيه . قال ٱبن عباس : كان معها ألف قَيْل . وقيل : ٱثنا عشر ألف قَيْل مع كل قَيْل مائة ألف . والقَيْل الملك دون الملك الأعظم . فأخذت فى حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها فى كل أمر يعرض ، بقولها : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ فكيف فى هذه النازلة الكبرى . فراجعها الملا بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها ؛ وهذه محاورة حسنة من الجميع . قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا هم أهل مشورتها ، كل رجل منهم على عشرة آلاف .

الثانية — فى هذه الآية دليل على صحة المشاورة . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ » فى « آل عمران » (٢) إما ٱستعانة بالآراء ، وإما مداراة للأولياء . وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » (٣) . والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ؛ فهذه بلقيس ٱمرأة جاهلية كانت تعبد الشمس : « قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ » لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضائهم على الطاعة لها ، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدّهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ماعندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٣٦ فما بعد .

من أمرهم، وربمـا كان فى آستبدادها برأيها وهن فى طاعتها، ودخيلة فى تقـدير أمرهم، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوّة شوكتهم، وشدّة مدافعتهم؛ ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. قال آبن عباس: كان من قوة أحدهم أنه يَرْكُض فرسَه حتى إذا احتدّ ضم فخذيه فحبسه بقوّته.

الثالثـــة ـــ قوله تعـالى: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْـكِ فَانْظُـرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ سـلّموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لهـا من القوّة والبأس والشدّة، فلمـا فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقُرى التى يتغلبون عليها. وفى هذا الكلام خوف على قومها، وحيطة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام. ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قيل: هو من قول بلقيس تأكيدا للمعنى الذى أرادته. وقال ابن عباس: هو من قول الله عز وجل معرِّفًا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته بذلك ومخبرا به. وقال وهب: لمـا قرأت عليهم الكتاب لم تعـرف اسم الله، فقـالت: ما هذا؟! فقال بعض القوم: ما نظن هذا إلا عفريتا عظيما من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريده؛ فسكّتوه. وقال الآخر: أراهم ثلاثة من العفاريت؛ فسكّتوه؛ فقال شاب قد علم: يا سيدة الملوك! إن سليمان ملِك قد أعطاه مَلِكُ السماء مُلْكا عظيما فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية إلهه، والله اسم مليك السماء، والرحمن الرحـيم نعوته؛ فعندها قالت: «أَفْتُونِي فِي أَمْرِي» فقالوا: «نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ» فى القتال «وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ» [قوة][1] فى الحرب واللقاء «وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ» ردّوا أمرهم إليها لمـا جربوا على رأيهـا من البركة «فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ» فـ«قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً» أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور، فصدق الله قولهـا. «وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» قال ابن الأنبارى: «وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً» هذا وقف تام؛ فقال الله عز وجل تحقيقا لقولها: «وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» وشبيه به فى سورة «الأعراف»[2] «قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» تم الكلام، فقال فرعون: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ». وقال ابن شجرة: هو قول بلقيس، فالوقف «وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» أى وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.

---

(١) من ك. (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٦ فما بعد.

قوله تعـالى : وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فيــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها ؛ أى إنى أجرب هذا الرجل بهدية، وأعطيه فيها نفاس من الأموال، وأغرب عليه بأمور المملكة : فإن كان ملكا دنياويا أرضاه المـال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيـا لم يرضه المـال ولَازَمَنا فى أمر الدِّين ، فينبغى لنـا أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس فى تفصيلها ، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أرسلت إليه بلَبِنة من ذهب ، فرأت الرســل الحيطان من ذهب فصغُر عنــدهم ما جاءوا به . وقال مجاهد : أرسلت إليــه بمائتى غلام ومائتى جارية . وروى عن ابن عباس : باثنتى عشرة وصيفة مذكَّرين قد ألبستهم زىّ الغلمان ، واثنى عشر غلاما مؤنثين قد ألبستهم زىّ النساء، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر، وباثنتى عشرة نجيبة تحمل لَبِن الذّهب، وبخرزتين إحداهما غير مثقوبة ، والأخرى مثقوبة ثَقْبا معوجا، وبقدح لا شىء فيه، وبعصا كان يتوارثها ملوك حِمْيَر، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها . وقيــل : كان الرســول واحدا ولكن كان فى صحبته أتباع وخدم . وقيــل : أرسلت رجلا من أشراف قومها يقال له المنــذر بن عمرو ، وضمت إليــه رجالا ذوى رأى وعقل، والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة ، قد خولف بينهم فى اللباس ، وقالت للغلمان : إذا كلَّمكم ســليمان فكلِّموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء، وقالت للجوارى : كلِّمنه بكلام فيه غِلظ يشبه كلام الرجال ؛ فيقال : إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله . وقيل : إن الله أخبر سليمان بذلك ، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة ، ثم قال : أىّ الدواب رأيتم أحسن فى البر والبحر ؟ قالوا : يا نبىّ الله رأينا فى بحر كذا دواب مُنقَّطة(١) مختلفة ألوانها، لها أجنحة وأعراف ونواصى؛ فأمر بها فجــاءت فشدّت على يمين الميدان وعلى يساره ، وعلى لبنات الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفاتها؛ ثم قال : للجن علىّ بأولادكم ؛ فأقامهم — أحسن ما يكون من الشباب — عن يمين

(١) فى ز و ط و ك : منطقة .

الميدان و يساره . ثم قعد سليمان عليــه السلام على كرسيه فى مجلسه ، و وضع له أربعة آلاف كرسيّ من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء ، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فآصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم من الميــدان ونظروا إلى مُلك سليمان ، ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم أحسن منها تَروث على لِبنات الذهب والفضــة ، تقاصرت إليهم أنفسهم ، و رموا ما معهم من الهــدايا . وفى بعض الروايات : إن سليمان لمــا أمرهم بفرش الميــدان بلَبِنات الذهب والفضــة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضــع بساط من الأرض غير مفروش ، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم فى ذلك المكان ، فلما رأوا الشياطين رأوا منظرا هائلا فظيعا ففزعوا وخافوا ، فقالت لهم الشياطين : جُوزُوا لا بأس عليكم ؛ فكانوا يمرون على كُرْدُوس كُرْدُوس من الجنّ والإنس والبهائم والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان ، فنظر إليهــم سليمان نظرا حسنا بوجه طَلْق ، وكانت قالت لرسولها : إن نظر إليك نظر مغضَب فآعلم أنه ملِك فلا يهولنّك منظره فأنا أعز منه ، و إن رأيت الرجل بشًّا لطيفا فآعلم أنه نبيّ مرسل فتفهم قوله وردّ الجواب ، فأخبر الهدهد سليمان بذلك على ما تقدّم . وكانت عمدت إلى حُقَّة من ذهب فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة ، وخرزة معوجة الثَّقب ، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه : إن كنت نبيًّا فميّز بين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما فى الحُقَّة ، وعرفنى رأس العصا من أسفلها ، وآثقب الدرّة ثقْبا مستويا ، وأدخل خيط الخرزة ، وآملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء ؛ فلما وصل الرسول و وقف بين يدى سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه ، وقال : أين الحُقَّة؟ فأتى بها فحركها ، فأخبره جبريل بما فيها ، ثم أخبرهم سليمان . فقال له الرسول : صدقت ؛ فآثقب الدرّة ، وأدخل الخيط فى الخَرَزة ؛ فسأل سليمان الجن والإنس عن ثَقْبها فعجزوا ؛ فقال للشياطين : ما الرأى فيهــا ؟ فقالوا : ترســل إلى الأَرَضة ، فجاءت الأرضة فأخذت شــعرة فى فيها حتى خرجت من الجانب الآخر ؛ فقال لهــا سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تصير رزقى فى الشجرة ؛

فقال لها : لكِ ذلك . ثم قال سليمان : من لهذه الخَرَزة يسلكها الخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبيّ الله ؛ فأخذت الدودة الخيط فى فيها ودخلت الثُّقْب حتى خرجت من الجانب الآخر ؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت تجعل رزقى فى الفواكه ؛ قال : ذلك لكِ . ثم ميز بين الغلمان [والجوارى][1] . قال السدىّ : أمرهم بالوضوء، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حَدْرا ، وجعل الجوارى يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى ، ومن اليمنى على اليسرى ، فميّز بينهم بهذا . وقيل : كانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ، ثم تحمله على الأخرى ، ثم تضرب به على الوجه ؛ والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به فى الوجه ، والجارية تصب على بطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، والجارية تصب الماء صبا ، والغلام يحدر على يديه ؛ فميز بينهم بهذا . وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال : أرسلت بلقيس بمائتى وصيفة ووصيف ، وقالت : إن كان نبيا فسيعلم الذكور من الإناث ؛ فأمرهم فتوضئوا ؛ فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفّه قال هو من الإناث ، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور ؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال : أى الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها ، ثم رد سليمان الهدية ؛ فروى أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد ؛ قالت لقومها : هذا أمر من السماء[2] .

الثانيـــة — كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثبت عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليـه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردّها علامة على ما فى نفسها ؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكا أو نبيا ؛ لأنه قال لها فى كتابه : « أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس هـذا من الباب الذى تقرر فى الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنما هى رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهى الرشوة التى لا تحـل . وأما الهـدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن من مشرك .

(١) الزيادة من « قصص الأنبياء » للثعلبى . (٢) فى ز : قال لها هذا أمر من السماء .

الثالثـــة ــ فإن كانت من مشرك ففى الحـديث "نُهِيت عن زَبْد المشركين" يعنى رِفدهم وعطاياهم. وروى عنه عليه السلام أنه قبلها كما فى حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيلىّ وغيره، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون : ليس فيهـا ناسخ ولا منسوخ، والمعنى فيها : أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله فى الإسلام، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملا على الكفّ عنه؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء فى هذا؛ فإنه جمع بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعـــة ــ الهدية مندوب إليها، وهى مما تورث المودة وتذهب العداوة؛ روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراسانى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تصافحوا يذهب الغِلّ وتَهادوا تحابُّوا وتذهب الشَّحناء". وروى معاوية بن الحكم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تهادوا فإنه يضعِّف الودّ ويذهب بغوائل الصَّدر". وقال الدَّارَقُطْنِيّ : تفرد به ابن بُجَير عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرضىّ، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهرى. وعن ابن شهاب قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تهادوا بينكم فإن الهدية تُذهب السَّخيمة" قال ابن وهب : سألت يونس عن السَّخيمة ما هى فقال : الغل. وهذا الحديث وصـله الوقّاصى عثمان عن الزهرى وهو ضعيف. وعلى الجملة : فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، وفيه الأسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع اتباع السنة أنهـا تزيل حزازات النفوس، وتكسب المهدى والمهدَى إليه رنّة فى اللقاء والجلوس. ولقد أحسن من قال :

هدايا النـاس بعضهم لبعض　＊　تُـولِّد فى قلوبهـمُ الوِصـالَا
وتزرعُ فى الضمير هَوًى ووُدًّا　＊　وتُكسبهـمْ إذا حضروا جَمـالَا

آخـــر :

إنّ الهـدايا لهـا حظٌ إذا وَرَدتْ　＊　أحظى من الابن عند الوالد الحدب

الخامســـة ــ روى عن النبى صـلى الله عليـه وسلم أنه قال : "جلساؤكم شركاؤكم فى الهـدية" واختلف فى معناه؛ فقيل : هو محمول على ظاهره. وقيل : يشاركهم على وجه

الكرم والمروءة، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه . وقال أبو يوسف : ذلك فى الفواكه ونحوها . وقال بعضهم : هم شركاؤه فى السرور لا فى الهدية . والخبر محمول فى أمثال أصحاب الصُّفَّة والخوانق والرباطات؛ أما إذا كان فقيها من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابه، فإن أشركهم فذلك كرم وجود منه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَنَاظِرَةٌ ﴾ أى منتظرة ﴿ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال قتادة : يرحمها الله أن كانت لعاقلة فى إسلامها وشركها؛ قد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس . وسقطت الألف فى « بِمَ » للفرق بين « ما » الخبرية . وقد يجوز إثباتها؛ قال[(١)] :

على ما قام يشتمنى لئيمٌ * كخنزيرٍ تمرَّغ فى رمادِ

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ﴾ أى جاء الرسول سليمان بالهدية قال : « أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ » . قرأ حمزة ويعقوب والأعمش : بنون واحدة مشددة وياء ثابتة بعدها .

---

(١) هو حسان بن المنذر يهجو بنى عائذ بن عمرو بن مخزوم وقبله :

وإن تصلح فإنك عائذىّ * وصلح العائذىّ إلى فساد

الباقون بنونين وهو آختيار أبي عبيد ؛ لأنهـا فى كل المصاحف بنونين . وقـد روى إسحق عن نافع أنه كان يقـرأ : « أَتُمِدُّونِ » بنون واحدة مخففة بعـدها ياء فى اللفظ . قال ابن الأنبارى : فهـذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عنـد الوقف ، ليصح لهـا موافقة هجاء المصحف . والأصـل فى النون التشديد ، فخفف التشديد من ذا الموضع كما خفف من : أشهد أنك عالم ، وأصله : أنك عالم . وعلى هـذا المعنى بنى الذى قرأ : « تُشَاقُّونِ فِيهِم »(١) ، « أَتُحَاجُّونِ فِي اللَّهِ »(٢) . وقد قالت العرب : الرجال يضربونِ و يقصدونِ ، وأصله يضربونّى و يقصدونّى : لأنه إدغام يضربوني و يقصدوني قال الشاعر :

تَرْهبِين والجيدُ منكِ لِلَيْلَى ✱ والحَشَا والبُغَامُ(٣) والعينَانِ

والأصل ترهبيني فخفف . ومعنى « أَتُمِدُّونَنِي » أتزيدونني مالا إلى ما تشاهدونه من أموالى .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ أى فما أعطانى من الإسلام والملك والنبوة خير ممـا أعطاكم ، فلا أفرح بالمـال . و « آتَانِ » وقعت فى كل المصاحف بغير ياء . وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص : « آتَانِيَ اللَّهُ » بيـاء مفتوحة ؛ فإذا وقفوا حذفوا . وأما يعقوب فإنه يثبتها فى الوقف ويحذف فى الوصـل لالتقاء الساكنين . الباقون بغير ياء فى الحالين . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة فى الدنيا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد ؛ آرجع إليهم بهديتهم . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لام قسم والنون لهـا لازمة . قال النحاس : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : هى لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير ؛ لام توكيد ، ولام أمر ، ولام خفض ؛ وهذا قول الحذاق من النحويين ؛ لأنهم يردّون الشيء إلى أصله : وهـذا لا يتهيأ إلا لمن درب فى العربية . ومعنى « لَا قِبَـلَ لَهُمْ بِهَـا » أى لا طاقة لهم عليهـا . ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَـا ﴾ أى من أرضهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . وقيل : « مِنْهَا » أى من قرية سبأ . وقد سبق ذكر القرية فى قوله : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٨ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٨ فما بعد . (٣) بغام الظبية : صوتها .

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا » . « أَذِلَّةً » قد سُلبوا ملكهم وعزّهم . « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أى مهانون أذلاء من الصّغر وهو الذل إن لم يسلموا ؛ فرجع إليها رسولها فأخبرها ؛ فقالت : قد عرفت أنه ليس بملك ولا طاقة لنا بقتال نبيّ من أنبياء الله . ثم أمرت بعرشها فجُعل في سبعة أبيات بعضها في جوف بعض ؛ في آخر قصر من سبعة قصور ؛ وغلقت الأبواب ، وجعلت الحرس عليه ، وتوجهت إليه في آثنى عشر ألف قَيْل[1] من ملوك اليمن ، تحت كل قَيْل مائة ألف . قال آبن عباس : وكان سليمان مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذى يسأل عنه ؛ فنظر ذات يوم رهجا[2] قريبا منه ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : بلقيس يا نبيّ الله . فقال سليمان لجنوده — وقال وهب وغيره : للجن — ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وقال عبد الله بن شداد : كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لما قال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » وكانت خلفت عرشها بسبأ ، ووكّلت به حفظة . وقيل : إنها لما بعثت بالهدية بعثت رسلها في جندها لتغافص[3] سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهب سليمان لها إن كان طالب ملك ، فلما علم ذلك قال : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا » . قال آبن عباس : كان أمره بالإتيان بالعرش قبل أن يكتب الكتاب إليها ، ولم يكتب إليها حتى جاءه العرش . وقال آبن عطية : وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديتها وردّه إياها ، وبعثه الهدهد بالكتاب ؛ وعلى هذا جمهور المتأولين . وآختلفوا في فائدة آستدعاء عرشها ؛ فقال قتادة : ذُكر له بعظَم وجَوْدة ؛ فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمى أموالهم ؛ والإسلام على هذا الدِّين ؛ وهو قول آبن جريج . وقال آبن زيد : آستدعاه ليريها القدرة التى هى من عند الله ، ويجعله دليلا على نبوته ؛ لأخذه من بيوتها[4] دون جيش ولا حرب ؛ و « مُسْلِمِينَ » على هذا التأويل بمعنى مستسلمين ؛ وهو قول آبن عباس . وقال آبن زيد أيضا : أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ . وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان عليه السلام فيولد له منها [ولد][5] ، فلا يزالون في السخرة والخدمة لنسل سليمان فقالت لسليمان

(١) في ك : قائد ، تحت كل قائد . (٢) الرهج : الغبار . (٣) المغافصة : الأخذ على غرة .
(٤) في ب وك : على ثقاتها : أى حذرها . (٥) من ك .

فى عقلها خلل ؛ فأراد أن يمتحنها بعرشها . وقيل : [أراد][1] أن يختبر صدق الهدهد فى قوله : « وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » قاله الطبرى . وعن قتـادة : أحب أن يراه لمـا وصفه الهدهـد . والقول الأول عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى : « قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » . ولأنها لو أسلمت لحظر عليـه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها . روى أنه كان من فضة وذهب مرصعا بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان فى جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفى : « عِفْرِيَةٌ » ورويت عن أبى بكر الصديق رضى الله عنـه . وفى الحديث ، " إن الله يُبغض العِفرِية النفرِية" . [النفرية][2] إتباع لعفرية . قال قتادة : هى الداهية قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عِفر وعِفرية وعِفريت وعُفَارية . وقيل : «عفريت» أى رئيس . وقرأت فرقة : «قال عِفْرٌ» بكسر العين ؛ حكاه ابن عطية ؛ قال النحاس : من قال عفرية جمعه على عفارٍ ، ومن قال : عفريت كان له فى الجمع ثلاثة أوجه ؛ إن شاء قال عفاريت ، و إن شاء قال عَفارٍ ؛ لأن التاء زائدة ؛ كما يقال : طواغٍ فى جمع طاغوت ، و إن شاء عوض من التاء ياء فقال عَفارِى . والعفريت من الشياطين القوى المـارد . والتاء زائدة . وقد قالوا : تَعَفْرَتَ الرجل إذا تخلق بخلق الأذاية . وقال وهب بن منبـه : اسم هـذا العفريت كودن ؛ ذكره النحاس . وقيـل : ذكوان ؛ ذكره السُّهيلى . وقال شعيب الجُبّائى : اسمه دعوان . وروى عن ابن عباس أنه صخر الجنى . ومن هذا الاسم قول ذى الرُّمَّة :

كأنّه كوكَبٌ فى إِثْرِ عِفْـرِيةٍ * مُصَوَّبٌ[3] فى سوادِ الليل مُنْقَضِبُ

وأنشد الكسائى[4] :

إذ قال شَـيطانُهمُ العِفـرِيتُ * ليس لكمْ مُـلكٌ ولا تثبيتُ

(١) من ب . (٢) من ك . (٣) وفى ديوانه طبع أوربا « مسوم » بدل « مصوب » وهو بمعنى معلم منقضب والبيت فى وصف ثور وحشى ؛ كأن الثور كوكب مصوب منقضب فى إثر عفرية فى سواد الليل .

(٤) البيت لرؤبة من قصيدة يمدح بهـا مسلمة بن عبد الملك .

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن عفريتا من الجن جعل يَفْتِك(١) علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاةَ وإنّ الله أمكننى منه فَذَعَتُّه(٢)" وذكر الحديث . وفى البخارى "تَفَلّت(٣) على البارحة" مكان "جعل يَفْتِك" . وفى "الموطأ" عن يحيى ابن سعيد أنه قال : أُسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه ؛ فقال جبريل : أفلا أعلّمك كلماتٍ تقولهن إذا قلتهنّ طُفِئت شعلته وخَرّ لفيه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بلى" فقال : "أعوذ بالله الكريم(٤) وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شرّ ما ينزل من السماء وشرّ ما يَعرُج فيها [وشرّ ما ذرأ فى الأرض ، وشر ما يخرج منها](٥) ومن فِتَن الليل والنهار ومن طوارقِ الليل والنهار إلا طارقا يَطرُق بخيرٍ يا رحمن" .

قوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ يعنى فى مجلسه الذى يحكم فيه . ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ أى قوىّ على حمله . « أَمِينٌ » على ما فيه . ابن عباس : أمين على فرج المرأة ؛ ذكره المهدوى . فقال سليمان أريد أسرع من ذلك ؛ فـ﴿ قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أكثر المفسرين على أن الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل ، وكان صدّيقا يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أَعْطى ، وإذا دعى به أجاب . وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبى صلى الله عليه وسلم "إن اسم الله الأعظم الذى دعا به آصف بن برخيا يا حىّ يا قيوم" قيل : وهو بلسانهم ، أهيا شراهيا ؛ وقال الزهرى : دعاء الذى عنده اسم الله الأعظم ؛ يا إلهنا وإله كل شى إلها واحدا لا إله إلا أنت آيتنى بعرشها ؛ فمَثَلَ بين يديه . وقال مجاهد : دعا فقال : يا إلهنا وإله كل شىء ياذا الجلال والإكرام . قال السُّهيلىّ : الذى عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان ، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى .

---

(١) الفتك : الأخذ فى غفلة وخديعة . (٢) فذعته : أى دفعته دفعا شديدا . وفى رواية "فذعته" بالذال المعجمة ومعناه خنقته . (٣) "تفلت" : أى تعرض لى فلتة أى بغتة . (٤) فى ك : أعوذ بوجه الله العظيم . (٥) من ب .

وقيل : هو سليمان نفسه ؛ ولا يصح فى سياق الكلام مثل هـذا التأويل . قال ٱبن عطية : وقالت فرقة هو سليمان عليه السلام ، والمخاطبة فى هـذا التأويل للعفريت لما قال : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ » كأن سليمان ٱستبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » وٱستدلّ قائلو هـذه المقالة بقول سليمان : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » .

قلت : ما ذكره ٱبن عطيـة قاله النحاس فى معانى القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء الله تعـالى . قال بحر : هو مَلَك بيـده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت . قال السُّهَيلىّ : وذكر محمـد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّة بن أُدّ ؛ وهذا لا يصح البتة لأن ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخـة ، وٱسمه عمرو بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعَدّ : ومعدّ كان فى مدة بختنصر ، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل ؛ فإذا لم يكن معدّ فى عهـد سليمان ، فكيف ضَبّة بن أدّ وهو بعـده بخمسة آباء ؟ ! وهـذا بيّن لمن تأمله . ابن لَهِيعة : هو الخضر عليـه السـلام . وقال ابن زيد : الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح كان فى جزيرة من جزائر البحر ، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض؛ وهل يعبـد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ، فدعا بٱسم من أسماء الله تعالى بجيء بالعـرش . وقول سابع : إنه رجل من بنى إسرائيل ٱسمه يمليخا(١) كان يعـلم ٱسم الله الأعظم ؛ ذكره القشـيرى . وقال ابن أبى بزة : الرجل الذى كان عنـده علم من الكتاب اسمـه أسطوم وكان عابدا فى بنى إسرائيـل ؛ ذكره الغزنوى . وقال محمد بن المنكدر : إنمـا هو سليمان عليه السلام ؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم وليس ذلك كذلك ؛ إنمـا كان رجل من بنى إسرائيـل عالم آتاه الله علما وفقها قال : « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » قال : هات . قال : أنت نبىّ الله ٱبن نبى الله فإن دعوت الله جاءك به ، فدعا الله سـليمان فجاءه الله بالعرش . وقول ثامن : إنه جبريل عليـه السلام ؛ قاله النَّخَعى؛ وروى عن ٱبن عباس . وعلم الكتاب على هذا علمه بكتب الله المنزلة ، أو بمـا فى اللوح المحفوظ . وقيل : علم كتاب سليمان إلى بلقيس . قال ٱبن عطية : والذى

(١) فى ب و ك : تمليخا .

عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بنى إسرائيل آسمه آصف بن برخيا ؛ روى أنه صلّى ركعتين ، ثم قال لسليمان : يا نبىّ الله آمدد بصرك فمدّ بصره نحو اليمن فإذا بالعرش ، فما ردّ سليمان بصره إلا وهو عنده . قال مجاهد : هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئا حسيرا . وقيل: أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول : آفعل كذا فى لحظة عين؛ وهذا أشبه ؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهى كرامة ، وكرامة الولىّ معجزة النبىّ . قال القشيرىّ : وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان ، قال للعفريت : «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» . وعند هؤلاء ما فعل العفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإن الجن يقدرون على مثل هذا . ولا يقطع جوهر فى حال واحدة مكانين ، بل يتصوّر ذلك بأن يعدم الله الجوهر فى أقصى الشرق ثم يعيده فى الحالة الثانية ، وهى الحالة التى بعد العدم فى أقصى الغرب . أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها . قال القشيرى : ورواه[(1)] وهب عن مالك . وقد قيل : بل جىء به فى الهواء ؛ قاله مجاهد . وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة . وقال مالك : كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام . وفى التفاسير آنخرق بعرش بلقيس مكانه الذى هو فيه ثم نبع بين يدى سليمان ؛ قال عبد الله بن شدّاد : وظهر العرش من نفق تحت الأرض ؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أى ثابتا عنده . ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ﴾ أى هذا النصر والتمكين من فضل ربى . ﴿ لِيَبْلُوَنِى ﴾ قال الأخفش : المعنى لينظر ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ . وقال غيره : معنى « لِيَبْلُوَنِى » ليتعبدنى ؛ وهو مجاز . والأصل فى الابتلاء الاختبار أى ليختبرنى أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه ، حيث آستوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها . والشكر قيد النعمة الموجودة ، وبه تنال النعمة المفقودة[(2)] . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ أى عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ فى التفضل .

(١) فى ب و ك : قاله القشيرى ورواه ابن وهب . (٢) فى ك : المقصودة .

قوله تعـالى : قَالَ نَكِّرُوا لَهَـا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَـدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّـا جَآءَتْ قِيـلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَـا عَرْشَهَا ﴾ أى غيّروه . قيـل : جعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه . وقيل : غيّر بزيادة أو نقصان . قال الفرّاء وغيره : إنمـا أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له : إن فى عقلها شيئا فأراد أن يمتحنها . وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له منهـا ولد فيبقون مسخَّرين لآل سليمان أبدا ؛ فقالوا لسليمان : إنهـا ضعيفة العقل ، ورجلها كرجل الحمار ؛ فقال : « نَكِّرُوا لَهَـا عَرْشَهَا » لنعرف عقلها . وكان لسليمان ناصح من الجن ، فقال كيف لى أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها؟ فقال : أنا أجعل فى هـذا القصر ماء ، وأجعل فوق المـاء زجاجا ، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها ؛ فهذا هو الصرح الذى أخبر الله تعالى عنه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ ﴾ يريد بلقيس ، ﴿ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق ، فلم تقرّ بذلك ولم تنكر ، فعلم سـليمان كمال عقلها . قال عكرمة : كانت حكيمة فقالت : « كَأَنَّهُ هُوَ » . وقال مقاتل : عرفته ولكن شَبَّهت عليهم كما شَبَّهوا عليها ؛ ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت نعم هو ؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضا . وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أنّ الجن مسخَّرون له ، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوّة وتؤمن به . وقد قيل هذا فى مقابلة تعميتها الأمر فى باب الغلمان والجوارى . ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ قيل : هو من قول بلقيس ؛ أى أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية فى العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره . وقيـل : هو من قول سليمان أى أوتينا العلم

بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة . وقيل : « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ » بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها . وقيل : هو من كلام قوم سليمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الوقف على « مِنْ دُونِ اللَّهِ » حسن؛ والمعنى: منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر ف «ما» في موضع رفع . النحاس : المعنى؛ أي صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه [عن أن تسلم][1] . ويجوز أن يكون « ما » في موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله؛ أي حال بينها و بينه . ويجوز أن يكون المعنى: وصدها الله؛ أي منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت « عن » وتعدى الفعل . نظيره: « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ »[2] أي من قومه . وأنشد سيبويه[3] :

ونُبِّئْتُ عبدَ الله بالجوِّ أصبحتْ * كراماً مواليها لئيما صميمُها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ قرأ سعيد بن جبير: « أنها » بفتح الهمزة، وهي في موضع نصب بمعنى لأنها . ويجوز أن يكون بدلا من «ما» فيكون في موضع رفع إن كانت « ما » فاعلة الصد . والكسر على الاستئناف .

قوله تعالى : قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ التقدير عند سيبويه: ادخلي إلى الصرح فحذف إلى وعدّى الفعل . وأبو العباس يغلّطه في هذا ؛ قال : لأن دخل يدلّ على مدخول . وكان الصرح صحنا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان، عمله ليريها ملكا أعظم من ملكها؛ قاله مجاهد.

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٣ فما بعد .

(٣) البيت للفرزدق ، وأراد بعبد الله القبيلة ، وهي عبد الله بن دارم .

وقال قتادة : كان من قوارير خلفه ماء « حَسِبَتْه لُجَّـةً » أى ماء . وقيل : الصرح القصر؛ عن أبي عبيـدة . كما قال[1] :

* تَحسِب أعلامَهنّ الصُّروحَا *

وقيـل : الصَّرح الصَّحْن ؛ كما يقال : هذه صَرْحة الدار وقاعتها ؛ بمعنًى . وحكى أبو عبيدة فى الغريب المصنف أن الصَّرح كل بناء عال مرتفع من الأرض ، وأن الممرد الطويل . النحاس : أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملا واحدا صرح؛ من قولهم : لبن صريح إذا لم يَشُبه ماء؛ ومن قولهم : صَرَّح بالأمر ، ومنه : عربى صريح . وقيل : عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن ، ورجلها رِجل حمار؛ قاله وهب بن منبه . فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق : وتعجبت من كون كرسيه على المـاء ، ورأت ما هالها ، ولم يكن [لها][2] بَدّ من آمتثال الأمر. ﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ فإذا هى أحسن الناس ساقا ؛ سليمة مما قالت الجن ، غير أنها كانت كثيرة الشعر ، فلما بلغت هذا الحد ، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها : « إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ » والممرد المحكوك المملس ، ومنه الأمرد . وتمرد الرجل إذ أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه ؛ قاله الفراء . ومنه الشجرة المرداء التى لا ورق عليها . ورملة مرداء إذا كانت لا تُنْبِت . والممرد أيضا المطوَّل ، ومنه قيل للحصن مارد . أبو صالح : طويل على هيئة النخلة . آبن شجرة : واسع فى طوله وعرضه . قال :

غدوت صباحا باكرا فوجدتهم * قبيل الضحا فى السَّابرىّ المـرَّد

أى الدروع الواسـعة . وعند ذلك آستسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم ؛ على ما يأتى . ولمـا رأى سـليمان عليه السـلام قدميها قال لنا صحه من الشياطين : كيف لى أن أقلع هـذا الشعر من غير مضرة بالجسد ؟ فدلّه على عمل النُّورَة ، فكانت النُّورَة والحمامات من يومئذ . فيروى أن سليمان تزوّجها عند ذلك وأسكنها الشام؛ قاله الضحاك .

(١) البيت لأبى ذؤيب وهو بتمـامه :

على طرق كنحور الظبا * تحسب أعلامهنّ الصروحا

يقول : هذه الطرق كنحور الظبا فى بيانها .

(٢) من ب و ز و ط و ك .

وقال سعيد بن عبد العزيز فى كتاب النقاش : تزوّجها وردّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ؛ فولدت له غلاما سمّاه داود مات فى زمانه . وفى بعض الأخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهى من أزواج سليمان عليه السلام فى الجنة" فقالت عائشة : هى أحسن ساقين منى ؟ فقال عليه السلام : "أنت أحسن ساقين منها فى الجنة" ذكره القشيرى . وذكر الثعلبى عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أول من آتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار فمسه حرُّها قال أوّاه من عذاب الله (١)" . ثم أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها باليمن، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها آرتفاعا : سَلْحون و بَيْنون وغُمْدان، ثم كان سليمان يزورها فى كل شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام . وحكى الشّعبى أن ناسا من حِمْير حفروا مقبرة الملوك ، فوجدوا فيها قبر معقودا فيه آمرأة عليها حُلَل منسوجة بالذهب ، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب :

يأيها الأقوامُ عُوجُوا معا * وأربعوا فى مَقْبَرِى العِيسَا
لتعلموا أنّى تلك التى * قد كنتُ أُدعَى الدهرَ بَلْقِيسَا
شَيَّدْتُ قصرَ المُلْكِ فى حِمْيرٍ * قَوْمِى وقِدْمًا كان مأنوسا
وكنتُ فى مُلْكى وتدبيره * أُرْغِمُ فى الله المَعَاطِيسَا
بَعْلِى سليمانُ النبيُّ الذى * قد كان للتوراة دِرِّيسَا
وسخّر الريحُ له مركبا * تَهُبُّ أحيانا رَوَامِيسَا
مع آبن داودَ النبىّ الذى * قَدَّسه الرحمنُ تَقْدِيسَا

وقال محمد بن إسحق ووهب بن منبّه : لم يتروجها سليمان، وإنما قال لها : آختارى زوجا؛ فقالت : مثلى لا ينكح وقد كان لى من الملك ما كان . فقال : لا بد فى الإسلام من ذلك . فآختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدان، فزوجه إياها وردها إلى اليمن، وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يطيعه ، فبنى له المصانع، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان . وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح

(١) فى ك : عذاب النار .

لا فى أنه تزوجها ولا فى أنه زوّجها . وهى بلقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد آبن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وكان جدها الهداهد ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ولدا كلهم ملوك ، وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان أبوها السرح يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفؤا لى ، وأبى أن يتزوج منهـم ، فزوجوه(١) آمرأة من الجن يقال لهـا ريحانة بنت السكن ، فولدت له بلقمة وهى بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليـه وسلم : "كان أحد أبوى بلقيس جنيا" فـات أبوها ، وآختلف عليهـا قومها فرقتين ، وملكوا أمرهم رجلا فساءت سيرته ، حتى فجر بنساء رعيته ، فأدركت بلقيس الغيرة ، فعرضت عليه نفسها فتزوجها ، فسقته الخمر حتى حزت رأسه ، ونصبته على باب دارها فملكوها . وقال أبو بكرة : ذكرت بلقيس عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "لا يفلح قوم ولوا أمرهم(٢) آمرأة" . ويقال : إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيرا لملك عاتٍ يغتصب نساء الرعية ، وكان الوزير غيورا فلم يتزوج ، فصحب مرة فى الطريق رجلا لا يعرفه ، فقال هل لك من زوجة ؟ فقال : لا أتزوج أبدا ، فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن ، فقال لئن تزوجت آبنتى لا يغتصبها أبدا . قال : بل يغتصبها . قال : إنا قوم من الجن لا يقدر علينا ؛ فتزوج آبنته فولدت له بلقيس ؛ ثم ماتت الأم وآبتنت بلقيس قصرا فى الصحراء ، فتحدث أبوها بحديثها غلطا ، فنمى للملك خبرها فقال له : يافلان تكون عندك هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتينى بها ، وأنت تعلم حبى للنساء ! ثم أمر بحبسه ، فأرسلت بلقيس إليه إنى بين يديك ؛ فتجهز للسير إلى قصرها ، فلما همّ بالدخول بمن معه أخرجت إليـه الجوارى من بنات الجن مثـل صورة الشمس ، وقلن له ألا تستحى ؟ ! تقول لك سـيدتنا أتدخل بهؤلاء الرجال معك على أهلك ! فأذن لهم بالآنصراف ودخل وحده ، وأغلقت عليـه الباب وقتلته بالنعال ، وقطعت رأسه ورمت به إلى عسكره ، فأمّروها عليهم ؛ فلم تزل كذلك إلى أن

(١) فى ك : فتزوج .

(٢) الحـديث مروى فى البخارى والنسائى والترمذى من طريق أبى بكر فى آبنة كسرى ؛ وذلك أنه لمـا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن فارسا ملكوا آبنة كسرى لمـا هلك قال صلى الله عليه وسلم : "ولن يفلح قوم ولوا أمرهم آمرأة" .

بلّغ الهدهد خبرها سليمان عليه السلام . وذلك أن سليمان لما نزل فى بعض منازله قال الهدهد : إن سليمان قد آشتغل بالنزول ، فآرتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها ، فأبصر الدنيا يمينا وشمالا ، فرأى بستانا لبلقيس فيه هدهد ، وكان اسم ذلك الهدهد عفير ، فقال عفير اليمن ليعفور سليمان : من أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ قال : أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان آبن داود . قال : ومَن سليمان ؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكل ما بين السماء والأرض . فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد ، ملكها آمرأة يقال لها بلقيس ، تحت يدها آثنا عشر ألف قَيْل(١) ، تحت يد كل قَيل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذرارى ، فانطلق معه ونظر إلى بلقيس ومُلكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر ، وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة فلم يجده ، وكانوا على غير ماء . قال آبن عباس فى رواية : وقعت عليه نفحة من الشمس . فقال لوزير الطير : هذا موضع مَن ؟ قال : يا نبىّ الله هذا موضع الهدهد . قال : وأين ذهب ؟ قال : لا أدرى أصلح الله الملك . فغضب سليمان وقال : « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا » الآية . ثم دعا بالعُقَاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأسا فقال : ما تريد يانبىّ الله ؟ فقال : علىّ بالهدهد الساعة . فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى لزق بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ، فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن ، فآنقض نحوه وأنشب فيه مِخْلَبه . فقال له الهدهد : أسألك بالله الذى أقدرك وقوّاك علىّ إلا رحمتنى . فقال له : الويل لك ، وثكلتك أُمّك ! إن نبىّ الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك . ثم أتى به فآستقبلته النّسور وسائر عساكر الطير . وقالوا الويل لك ، لقد توعدك نبىّ الله . فقال : وما قدرى وما أنا ! أما آستثنى؟ قالوا : بلى ! إنه قال : « أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » ثم دخل على سليمان فرفع رأسه ، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعا لسليمان عليه السلام . فقال له سليمان : أين كنت عن خدمتك ومكانك ؟ لأعذبنك عذابا شديدا أو لأذبحنك . فقال له الهدهد : يا نبىّ الله ! آذكر وقوفك بين يدى الله بمنزلة وقوفى بين يديك . فآقشعر جلد سليمان وآرتعد وعفا عنه . وقال عكرمة : إنما صرف الله سليمان عن ذبح الهدهد أنه

(١) فى ب و ط و ك : قائد تحت يد كل قائد .

كان بارّا بوالديه؛ ينقل الطعام إليهما فيزقهما . ثم قال له سليمان : ما الذى أبطأ بك ؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عن بلقيس وعرشها وقومها حسبما تقدّم بيانه . قال الماوردى : والقول بأن أمّ بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين ، وآختلاف الطبعين ، وتفارق الحِسّين (١)؛ لأن الآدمى جسمانى والجن روحانى ، وخلق الله الآدمى من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، ويمنع الامتزاج مع هذا التباين ، ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف (٢).

قلت : قد مضى القول فى هذا ، والعقل لا يحيله مع ما جاء من الخبر فى ذلك ، وإذا نظر فى أصل الخلق فأصله الماء على ما تقدّم بيانه ، ولا بعد فى ذلك ؛ والله أعلم . وفى التنزيل « وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ (٣) » وقد تقدّم . وقال تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٤) » على ما يأتى فى « الرحمن » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى بالشرك الذى كانت عليه ؛ قاله آبن شجرة . وقال سفيان : أى بالظن الذى توهمته فى سليمان ؛ لأنها لما أمرت بدخول الصرح حسبته لجة ، وأن سليمان يريد تغريقها فيه . فلما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن . وكسرت « إن » لأنها مبتدأة بعد القول . ومن العرب من يفتحها فيعمل فيها القول . ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . إذا سكنت « مع » فهى حرف جاء لمعنى بلا اختلاف بين النحويين . وإذا فتحتها ففيها قولان : أحدهما — أنه بمعنى الظرف آسم . والآخر — أنه حرف خافض مبنى على الفتح؛ قاله النحاس :

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

(١) فى ز « الجسمين » . (٢) قال محققه : هذا هو الحق وما يحيله العلم يحيله العقل .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٨ . (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٨٠ .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تقدّم معناه . ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد : أى مؤمن وكافر ؛ قال : والخصومة ما قصه الله تعالى فى قوله : « أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ (١) » إلى قوله : « كَافِرُونَ » . وقيل : تخاصمهم أن كل فرقة قالت : نحن على الحق دونكم .

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ؛ المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجاب إليكم الثواب ، وتقدّمون الكفر الذى يوجب العقاب ؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار : آيتنا بالعذاب . وقيل : أى لم تفعلون ما تستحقون به العقاب ؛ لا أنهم آلتمسوا تعجيل العذاب . ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أى هلا تتوبون إلى الله من الشرك . ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكى ترحموا ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أى تشاءمنا . والشؤم النحس . ولا شيء أضر بالرأى ولا أفسد للتدبير من آعتقاد الطِّيَرة . ومن ظن أن خُوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقال الشاعر :

طِيَرةُ الدهرِ لا تَردُّ قضاءً * فاعذرِ الدهرَ لا تَشُبه بلومِ
أىُّ يومٍ يَخُصُّـه بسعودٍ * والمنايا ينزلن فى كل يومِ
ليس يومٌ إلا وفيه سعودٌ * ونحوسٌ تجرى لقومٍ فقومِ

وقد كانت العرب أكثر الناس طِيَرة ، وكانت إذا أرادت سفرا نفرت طائرا ، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت ، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت ، فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : "أَقِرُّوا الطير على وكُناتها (٢)" على ما تقدم بيانه فى « المائدة (٣) » . ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى مصائبكم . ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أى تمتحنون . وقيل : تعذبون بذنوبكم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٠ . (٢) الوكنات (بضم الكاف وفتحها وسكونها) جمع وكنة (بالسكون) وهى عش الطائر ووكره : ويروى : « على مكناتها » . (٣) راجع جـ ٦ ص ٦٠ .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أى فى مدينة صالح وهى الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أى تسعة رجال من أبناء أشرافهم . قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ، وكانوا يفسدون فى الأرض ويأمرون بالفساد ، فجلسوا عند صخرة عظيمة فقلبها الله عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : بلغنى أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم ، وذلك من الفساد فى الأرض ؛ وقاله سعيد بن المسيّب . وقيل : فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم . وقيل : غير هذا . واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه القوم وأقناهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاص جمة ؛ وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون . والرهط آسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط . والجمع أرهط وأراهط . قال :

يا بؤس للحرب التى * وضعت أراهط فآستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدَار عاقر الناقة ؛ ذكره آبن عطية .

قلت : وآختلف فى أسمائهم ؛ فقال الغزنوى : وأسماؤهم قُدَار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما وذهيم وذعما وذعيم وقتال وصداق . آبن إسحق : رأسهم قدار بن سالف ومصدع ابن مهرع ، فآتبعهم سبعة ؛ هم بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسماؤهم . وذكر الزمخشرى أسماءهم عن وهب بن منبّه : الهذيل بن عبد رب ، غنم بن غنم ، رياب بن مهرج ، مصدع بن مهرج ، عمير بن كردبة ، عاصم بن مخرمة ، سبيط بن صدقة ، سمعان بن صفى ، قدار بن سالف ؛ وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وكانوا من أبناء أشرافهم . السّهيلى : ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وسماهم بأسمائهم ، وذلك لا ينضبط برواية ؛ غير أنى أذكره على وجه الآجتهاد

والتخمين، ولكن نذكره على ما وجدناه فى كتاب محمد بن حبيب، وهم: مصدع بن دهر. ويقال دهم، وقدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعما وهرما ودعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردى أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعما ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطح وقدار، وكانوا بأرض الحجر وهى [أرض](١) الشام.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يجوز أن يكون « تَقَاسَمُوا » فعلا مستقبلا وهو أمر؛ أى قال بعضهم لبعض آحلفوا. ويجوز أن يكون ماضيا فى معنى الحال كأنه قال: قالوا متقاسمين بالله؛ ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: « يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ » وليس فيها « قَالُوا ». « لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ » قراءة العامة بالنون فيهما وآختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائى: بالتاء فيهما، وضم التاء واللام على الخطاب أى أنهم تخاطبوا بذلك؛ وآختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحميد بالياء فيهما، وضم الياء واللام على الخبر. والبيات مباغتة العدو ليلا. ومعنى « لِوَلِيِّهِ » أى لرهط صالح الذى له ولاية الدم. ﴿ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ(٢) أَهْلِهِ ﴾ أى ما حضرنا، ولا ندرى من قتله وقتل أهله. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى إنكارنا لقتله. والمُهْلَك بمعنى الإهلاك؛ ويجوز أن يكون الموضع. وقرأ [عاصم](٣) والسلمى: (بفتح الميم واللام) أى الهلاك؛ يقال: ضرب يضرب مَضْرَبا أى ضربا. وقرأ المفضل وأبو بكر: (بفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع الجلوس؛ ويجوز أن يكون مصدرا؛ كقوله تعالى: « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ(٤) » أى رجوعكم.

قوله تعالى: وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

---

(١) من ب و ك. (٢) « مهلك » بضم الميم وفتح اللام قراءة الجمهور. (٣) فى الأصول: « وقرأ حفص... الخ » وحفص يقرأ بفتح الميم وكسر اللام. (٤) راجع ج ٨ ص ٣٠٨.

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ مكرهم ما روى أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة ، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب ، آتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلا و يقتلوه وأهله المختصين به ؛ قالوا : فإذا كان كاذبا في وعيده أوقعنا به ما يستحق ، و إن كان صادقا كنا عجلناه قبلنا ، وشفينا نفوسنا ؛ قاله مجاهد وغيره . قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فآمتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخا بالحجارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . وقال قتادة : خرجوا مسرعين إلى صالح ، فسلّط عليهم ملك بيده صخرة فقتلهم . وقال السّدى : نزلوا على جرف من الأرض ، فآنهار بهم فأهلكهم الله تحته . وقيل : آختفوا في غار قريب من دار صالح ، فآنحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعا ؛ فهذا ما كان من مكرهم . ومكر الله مجازاتهم على ذلك . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى بالصيحة التى أهلكتهم . وقد قيل : إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل . والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ؛ ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة . وكان الأعمش والحسن وابن أبي إسحق وعاصم وحمزة والكسائى يقرءون : « أَنَّا » بالفتح ؛ وقال آبن الأنبارى : فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ » لأن « أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ » خبر كان . ويجوز أن تجعلها في موضع رفع على الإتباع للعاقبة . و يجوز أن تجعلها في موضع نصب من قول الفراء ، وخفض من قول الكسائى على معنى : بأنا دمرناهم ولأنا دمرناهم . و يجوز أن تجعلها في موضع نصب على الإتباع لموضع « كَيْفَ » فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . وقرأ آبن كثير ونافع وأبو عمرو : « إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ » بكسر الألف على الآستئناف ؛ فعلى هذا المذهب يحسن الوقف على « مَكْرِهِمْ » . قال النحاس : و يجوز أن تنصب « عَاقِبَةُ » على خبر « كَانَ » ويكون « إِنَّا » في موضع رفع على أنها آسم « كان » . ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدإ تبيينا للعاقبة ؛ والتقدير : هى إنا دمرناهم ؛ قال أبو حاتم : وفي حرف أُبَىّ « أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ » تصديقا لفتحها .

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة بالنصب على الحال عند الفرّاء والنحاس ؛ أى خالية عن أهلها خرابا ليس بها ساكن . وقال الكسائى وأبو عبيدة : « خَاوِيَةً » نصب على القطع ؛ مجازه : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال ؛ كقوله : « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا »(١) . وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجحدرى : بالرفع على أنها خبر عن « تِلْكَ » و « بُيُوتُهُمْ » بدل من « تِلْكَ » . ويجوز أن تكون « بُيُوتُهُمْ » عطف بيان و « خَاوِيَةٌ » خبر عن « تِلْكَ » . ويجوز أن يكون رفع « خَاوِيَةٌ » على أنها خبر ابتداء محذوف؛ أى هى خاوية ، أو بدل من « بُيُوتُهُمْ » لأن النكرة تبدل من المعرفة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله ويخافون عذابه . قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل . والباقون خرج بأبدانهم — فى قول مقاتل وغيره — خُرَاجٌ مثل الحِمّص ؛ وكان فى اليوم الأوّل أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود . وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، وهلاكهم يوم الأحد . قال مقاتل : فقعت تلك الخراجات ، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فخمدوا ، وكان ذلك ضحوة . وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ؛ فلما دخلها مات صالح ؛ فسميت حضرموت . قال الضحاك : ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضورا ؛ على ما تقدّم بيانه فى قصة أصحاب الرّسّ .

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١٣ .

قوله تعـالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أى وأرسلنا لوطا ، أو آذكر لوطا . « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » وهم أهل سـدوم . وقال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ الفعـلة القبيحة الشنيعة . ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنهـا فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم . وقيل : يأتى بعضكم بعضا وأنتم تنظرون إليه . وكانوا لا يستترون عتوّا منهم وتمرّدا . ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أعاد ذكرها لفـرط قبحها وشنعتها . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَـلُونَ ﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة . وآختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من « أَئِنَّكُمْ » فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها ؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الآستفهام .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَـا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أى عن أدبار الرجال . يقولون ذلك آستهزاء منهـم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : عابوهم والله بغـير عيب بأنهـم يتطهرون من أعمال السوء . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا آمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ وقرأ عاصم : « قَدَرْنَا » مخففا والمعنى واحد . يقال قـد قَدَرتُ الشيءَ قَدْرا وقَدَرا وقدّرته . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَـرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى من أنذر فلم يقبل الإنذار . وقد مضى بيان هذا فى « الأعراف »(١) و « هود »(٢) .

قوله تعـالى : قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ .	(٢) راجع جـ ٩ ص ٨١ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ قال الفرّاء قال أهل المعانى : قيل للوط « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » على هلاكهم . وخالف جماعة من العلماء الفرّاء فى هذا وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية . قال النحاس : وهذا أولى، لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره . وقيل : المعنى؛ أى « قُلْ » يا محمد « الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » يعنى أمته عليه السلام . قال الكلبي : اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته . وقال ابن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، و بعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، و إصغائهم إليه ، و إنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وفى مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى ، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن .

قوله تعالى : « الَّذِينَ اصْطَفَى » اختار؛ أى لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ ﴾ وأجاز أبو حاتم « أَأَللَّهُ خَيْرٌ » بهمزتين . النحاس : ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك ؛ لأن هذه المدّة إنما جيء بها فرقا بين الاستفهام والخبر، وهذه ألف التوقيف ، و « خَيْرٌ » ههنا ليس بمعنى أفضل منك ، و إنما هو مثل قول الشاعر[(١)] :

أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

فالمعنى فالذى فيه الشر منكما للذى فيه الخير الفداء . ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت : فلان شر من فلان ففى كل واحد منهما شر . وقيل : المعنى ؛ الخير فى هذا

(١) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .

أم فى هـذا الذى تشركونه فى العبادة ! وحكى سيبويه : السـعادة أحب إليك أم الشقاء ؛ وهو يعـلم أن السعادة أحب إليه . وقيـل : هو على بابه من التفضيل ، والمعنى : آلله خير أم ماتشركون؛ أى أثوابه خير أم عقاب ماتشركون . وقيل: قال لهم ذلك ؛لأنهم كانوا يعتقدون أن فى عبادة الأصنام خيرا فخاطبهم الله عز وجل على آعتقادهم . وقيل : اللفظ لفظ الآستفهام ومعناه الخـبر . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب : « يُشْرِكُونَ » بياء على الخـبر . الباقون بالتاء على الخطاب ، وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه [الآية] يقول : " بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم " .

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال أبو حاتم : تقـديره ؛ آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض ؛ وقد تقدّم . ومعناه : قدر على خلقهن . وقيل : المعنى؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض ؟ فهو مردود على ما قبله من المعنى ؛ وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلهتهم . ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ الحديقة البستان الذى عليه حائط . والبهجة المنظر الحسن . قال الفراء : الحديقة البستان المحظر عليه حائط ، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النخل ذات بهجة ، والبهجة الزينة والحسن؛ يبهج به من رآه . ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ « ما » للنفى ومعناه الحظر والمنع من فعل هـذا ؛ أى ما كان للبشر ، ولا يتهيأ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم ، أن ينبتوا شجرها ؛ إذهم عجزة عن مثلها ، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود .

قلت : وقد يستدلّ من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن ؛ وهو قول مجاهد . ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلق فليخلقوا ذرّة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة " رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة؛ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " قال الله عز وجل " فذكره ؛ فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء ممـا خلقه الله وضاهاه فى التشبيه فى خلقه

فيا انفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح . وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به . وقد قال ابن عباس للذى سأله أن يصنع الصور : إن كنت لا بد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له خرجه مسلم أيضا . والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « سبأ »(١) إن شاء الله تعالى ثم قال على جهة التوبيخ : ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى هل معبود مع الله يعينه على ذلك . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ بالله غيره . وقيل : « يَعْدِلُونَ » عن الحق والقصد ؛ أى يكفرون . وقيل : « إِلَٰهٌ » مرفوع بـ « مع » تقديره : أمع الله ويلكم إله . والوقف على « مَعَ اللَّهِ » حسن .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى مستقرا . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى وسطها مثل : « وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا »(٢) . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعنى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ مانعا من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب . وقال ابن عباس : سلطانا من قدرته فلا هذا يغيّر ذاك ولا ذاك يغيّر هذا . والحجز المنع . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية .

قوله تعالى : أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٧١ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٨ فما بعد .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدي : الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله . وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابورى : هو المفلس . وقال سهل ابن عبد الله : هو الذى إذا رفع يديه إلى الله داعيا لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أنا أسألك بالله أن تدعو لى فأنا مضطر؛ قال : إذًا فآسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر :

وإنى لأدعو الله والأمر ضيق　＊　على فما ينفك أن يتفرجا
ورب أخ سدت عليه وجوهه　＊　أصاب لها لما دعا الله مخرجا

الثانيـــة — وفى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى بكرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى دعاء المضطر : "اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت" .

الثالثـــة — ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه؛ والسبب فى ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عمـا سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر؛ كما قال تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١) » وقوله : « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٢) » فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم . وقال تعالى : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فيجيب المضطر لموضـع اضطراره وإخلاصه . وفى الحديث : "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده" ذكره صاحب الشهاب؛ وهو حديث صحيح . وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال لمعاذ لمـا وجهه إلى أرض اليمن " واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب "

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ فما بعد .　　(٢) راجع ص ٣٦٢ من هذا الجزء .

وفى كتاب الشهاب : "اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين" وهو صحيح أيضا . وخرج الآجرّى من حديث أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : "فإنى لا أردها ولو كانت من فم كافر" فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافرا، وكذلك إن كان فاجرا فى دينه ؛ ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته . وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له ، أو اقتصاص منه، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل : « وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا »(١) وأكد سرعة إجابتها بقوله : "تحمل على الغمام" ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكّل ملائكته بتلقى دعوة المظلوم وبحملها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلهم، فيظهر منه معاونة المظلوم ، وشفاعة منهم له فى إجابة دعوته، رحمة له . وفى هذا تحذير من الظلم جملة، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره ؛ حيث قال على لسان نبيه فى صحيح مسلم وغيره : « يا عبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث . فالمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن، منفرد عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته ، فتصدق ضرورته إلى المولى ، فيخلص إليه فى اللجاء ، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنّته عليه وشفقته ، إلا عند تكامل عجزه عنه ، وصدق ضرورته ؛ وإياسه عن برّ ولده ، مع وجود أذيته ، فيسرع الحق إلى إجابته .

قوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أى الضر . وقال الكلبى : الجور . ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى سكانها يهلك قوما وينشئ آخرين . وفى كتاب النقاش : أى ويجعل أولادكم خلفا منكم . وقال الكلبى : خلفا من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ على جهة التوبيخ ؛ كأنه قال أمع الله ويلكم إله ؛ فـ « إله » مرفوع بـ « مع » .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٥ .

ويجوز أن يكون مرفوعا بإضمار أ إله مع الله يفعل ذلك فتعبدوه . والوقف على « مَعَ اللَّهِ » حسن . ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام و يعقوب : «يَذَّكَّرُونَ» بالياء على الخبر، كقوله : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » و « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » فأخبر فيما قبلها و بعدها ؛ واختاره أبو حاتم . الباقون بالتاء خطابا لقوله : « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ﴾ أى يرشدكم الطريق ﴿ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التى تتوجهون إليها بالليل والنهار . وقيـــل : وجعل مفاوز البر التى لا أعلام لها ، ولجج البحار كأنها ظلمات ؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُرًا(١) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى قدام المطر باتفاق أهل التأويل . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يفعل ذلك و يعينه عليه . ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من دونه .

قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كانوا يقرون أنه الخالق الرازق فألزمهم الإعادة ؛ أى إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة ، وهو أهون عليه . ﴿ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ يخلق و يرزق و يبدئ و يعيد : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى حجتكم أن لى شريكا، أو حجتكم فى أنه صنع أحد شيئا من هذه الأشياء غير الله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وعن بعضهم : أخفى غيبه على الخـلق ، ولم يُطلع عليـه أحد لئلا يأمن أحد من عبيده مكره . وقيل : نزلت فى المشركين حين سألوا النبى صـلى الله عليه وسـلم عن قيـام الساعة . و « مَنْ » فى موضع رفع ؛ والمعنى : قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله ؛ فإنه بدل من « مَن » قاله الزجاج . الفراء : وإنمـا رفع ما بعد « إلا » لأن ما قبلها جحد ، كقوله : ما ذهب أحد إلا أبوك ؛

(١) « نشرا » بالنون على قراءة نافع . وفيه سبع قراءات ؛ راجع جـ ٧ ص ٨ و ص ٢٢٢ .

والمعنى واحد . قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ؛ يعنى فى الكلام . قال النحاس : وسمعته يحتج بهذه الآية على من صدّق منجما ؛ وقال : أخاف أن يكفر بهذه الآية .

قلت : وقد مضى هذا فى « الأنعام »[1] مستوفى . وقالت عائشة : من زعم أن محمدا يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » خرجه مسلم . وروى أنه دخل على الحجاج منجّم فاعتقله الحجاج ، ثم أخذ حصيات فعدّهن ، ثم قال : كم فى يدى من حصاة ؟ فحسب المنجم ثم قال : كذا ؛ فأصاب . ثم اعتقله فأخذ حصيات لم يعدهن فقال : كم فى يدى ؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ ؛ ثم قال : أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها ؛ قال : لا . قال : فإنى لا أصيب . قال : فما الفرق ؟ قال : إن ذلك أحصيته فخرج عن حدّ الغيب ، وهذا لم تحصه فهو غيب و « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » وقد مضى هذا فى « آل عمران »[2] والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى . وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد : « بَلْ أَدْرَكَ » من الإدراك . وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش[3] : « بَلِ ادَّرَكَ » غير مهموز مشدّدا . وقرأ ابن محيصن : « بَلْ أَادَّرَكَ » على الاستفهام . وقرأ ابن عباس : « بَلَى » بإثبات الياء « أَدَّارَكَ » بهمزة قطع والدال مشدّدة وألف بعدها ؛ قال النحاس : و إسناده إسناد صحيح ، هو من حديث شُعبة يرفعه إلى ابن عباس . وزعم هرون القارئ أن قراءة أُبَىّ « بَلْ تَدَارَكَ عِلْمُهُمْ » [وحكى الثعلبى أنها فى حرف أُبَىّ أم تدارك . والعرب تضع بَلْ موضع (أم) و (أم) موضع بل إذا كان فى أوّل الكلام استفهام ؛ كقول الشاعر :

فوالله لا أدرى أسلمى تقولت * أم القول أم كل إلى حبيب

أى بل كل . قال النحاس][4] : القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد ؛ لأن أصل « ادَّارَكَ » تدارك ، أدغمت الدال فى التاء وجيء بألف الوصل ؛ وفى معناه قولان : أحدهما

(١) راجع جـ ٧ ص ١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٧ . (٣) لم تذكر كتب التفسير الأخرى الأعمش فى هذه القراءة . ولعل هذه رواية أخرى عنه غير الرواية المتقدمة . (٤) من ب .

أن المعنى بل تكامل علمهم فى الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وُعِدوا به معاينة فتكامل علمهم به . والقول الآخر أن المعنى : بل تتابع علمهم اليوم فى الآخرة ، فقالوا تكون وقالوا لا تكون . القراءة الثانية فيها [أيضا][1] قولان : أحدهما أن معناه كمل فى الآخرة ، وهو مثل الأول ؛ قال مجاهد : معناه يدرك علمهم فى الآخرة و يعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا مكذِّبين . والقول الآخر أنه على معنى الإنكار ، وهو مذهب أبى إسحق ؛ واستدلّ على صحة هذا القول بأن بعده « بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » أى لم يدرك علمهم علم الآخرة . وقيل : بل ضلّ وغاب علمهم فى الآخرة فليس لهم فيها علم . والقراءة الثالثة : « بَلِ ٱدَّرَكَ » فهى بمعنى « بَلِ ٱدَّارَكَ » وقد يجىء افتعل وتفاعل بمعنى ؛ ولذلك صُحِّح ازدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا . القراءة الرابعة : ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار ، كما تقول : أ أنا قاتلتك ؟ ! فيكون المعنى لم يدرك ؛ وعليه ترجع قراءة ٱبن عباس ؛ قال ٱبن عباس : « بَلَى أَدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ » أى لم يدرك . قال الفرّاء : وهو قول حسن كأنه وجهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث ، كقولك لرجل تكذبه : بَلَى لعمرى قد أدركت السَّلَفَ فأنت تَروى مالا أروى ! وأنت تكذبه . وقراءة سابعة : « بَلَ ٱدَّرَكَ » بفتح اللام ؛ عدل إلى الفتحة لخفتها . وقد حكى نحو ذلك عن قطرب فى « قُمَ ٱللَّيْلَ » فإنه عدل إلى الفتح . وكذلك و (بِعَ الثوبَ) ونحوه . وذكر الزمخشرى فى الكتاب : وقرئ « بَلْ أَ أَدَّرَكَ » بهمزتين « بَلْ آأَدَّرَكَ » بألف بينهما « بَلَى أَ أَدَّرَكَ » « أَمْ تَدَارَكَ » « أَمْ أَدَّرَكَ » فهذه ثنتا عشرة قراءة ، ثم أخذ يعلل وجوه القراءات وقال : فإن قلت فما وجه قراءة « بَلْ أَ أَدَّرَكَ » على الاستفهام ؟ قلت : هو ٱستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ : « أَمْ أَدَّرَكَ » و « أَمْ تَدَارَكَ » لأنها أم التى بمعنى بل والهمزة ، وأما من قرأ : « بَلَى أَ أَدَّرَكَ » على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها ، و إذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور وقت كونها ؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن . « فِى ٱلْآخِرَةِ » فى شأن الآخرة ومعناها . ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أى فى الدنيا . ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أى بقلوبهم واحدهم عمٍو . وقيل : عَمٍ ؛ وأصله عميون حذفت الياء لالتقاء الساكنين ولم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها .

(١) ب و ك .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى مشركى مكة . ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا آيِنَّا[1] لَمُخْرَجُونَ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفى سورة : «العنكبوت»[2] . وقرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة . وقرأ عاصم وحمزة أيضا باستفهامين إلا أنهما حققا الهمزتين ، وكل ماذكرناه فى السورتين جميعا واحد . وقرأ الكسائى وابن عامر ورُوَيس ويعقوب : «أَئِذَا» بهمزتين «إِنَّنَا» بنونين على الخبر فى هذه السورة ، وفى سورة : «العنكبوت» باستفهامين ؛ قال أبو جعفر النحاس : القراءة «إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا آيِنَّا لَمُخْرَجُونَ» موافقة للخط حسنة ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه : «إِذَا» ليس باستفهام و «آيِنَّا» استفهام وفيه «إنّ» فكيف يجوز أن يعمل ما فى حيز الاستفهام فيما قبله ؟ ! وكيف يجوز أن يعمل ما بعد «إنّ» فيما قبلها ؟ ! وكيف يجوز غدًا إن زيدا خارج ؟ ! فإذا كان فيه استفهام كان أبعد ، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلا لما ذكره . وقال أبو جعفر : وسمعت محمد ابن الوليد يقول : سألنا أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشكلة ، وهى قول الله تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ»[3] فقال : إن عمل فى «إِذَا» «ينبئكم» كان محالا ؛ لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت ، وإن عمل فيه ما بعد «إنّ» كان المعنى صحيحا وكان خطأ فى العربية أن يعمل ماقبل «إنّ» فيما بعدها ؛ وهذا سؤال بيّن رأيت أن يذكر فى السورة التى هو فيها ؛ فأما أبو عبيد فمال إلى قراءة نافع وردّ على من جمع بين استفهامين ، واستدلّ بقوله تعالى : «أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ»[4] وبقوله تعالى : «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»[5] وهذا الرّد على أبى عمرو وعاصم وحمزة

(١) قال ابن عطية : (ممدود الألف) ومثله فى «البحر» و «روح المعانى» .
(٢) راجع ص ٣٤٠ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٦٢ .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٢١ .
(٥) راجع جـ ١١ ص ٢٨٧ .

وطاحة والأعرج لا يلزم منه شيء، ولا يشبه ما جاء به من الآية شيئا؛ والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد؛ ومعنى : « أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » أفإن مت خلدوا . ونظير هذا : أزيد منطلق، ولا يقال : أزيد أمنطلق؛ لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثاني جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الآستفهام ، والأول كلام يصلح فيه الآستفهام ؛ فأما من حذف الآستفهام من الثاني وأثبته في الأول فقرأ : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا إِنَّنَا » فحذفه من الثاني ؛ لأن في الكلام دليلا عليه بمعنى الإنكار .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ تقدّم في سورة « المؤمنون »(١) . وكانت الأنبياء يقرّبون أمر البعث مبالغة في التحذير؛ وكل ما هو آت فقريب .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي « قُلْ » لهؤلاء الكفار « سِيرُوا » في بلاد الشام والحجاز واليمن . ﴿ فَانْظُرُوا ﴾ أي بقلوبكم وبصائركم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ المكذبين لرسلهم . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ﴾ في حرج ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ نزلت في المستهزئين الذين آقتسموا عقاب مكة وقد تقدّم ذكرهم(٢) . وقرئ : « فِي ضِيقٍ » بالكسر وقد مضى في آخر « النحل »(٢) . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴾ أي وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿ إِنْ كُنتُم صَادِقِينَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٤٥ .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٥٨ وص ٢٠٣ .

قوله تعالى : قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أى آقترب لكم ودنا منكم ﴿ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى من العذاب ؛ قاله آبن عباس . وهو من ردفه إذا تبعه وجاء فى أثره ؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى آقترب لكم ودنا لكم . أو تكون متعلقة بالمصدر . وقيل : معناه معكم . وقال آبن شجرة : تبعكم ؛ ومنه رِدْف المرأة ؛ لأنه تبـع لها من خلفها ؛ ومنه قول أبى ذؤيب :

عاد السوادُ بياضًا فى مَفَارِقِـهِ * لا مَرحبًا ببياض الشَّيْب إذ رَدِفَا

قال الجوهرى : وأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ فى رَدِفه ، مثل تَبِعه وأتبعه بمعنى ؛ قال خُزَيمة بن مالك بن نَهد :

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّرَيَّا * ظَننتُ بآل فاطمةَ الظُّنونَا

يعنى فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحدِ القارظَيْن . وقال الفراء : « رَدِفَ لَكُمْ » دنا لكم ولهذا قال : «لَكُمْ» . وقيل : رَدِفه ورَدِف له بمعنًى فتزاد اللام للتوكيد ؛ عن الفراء أيضا . كما تقول : نقدته ونقدت له ، وكِلْته ووزنته ، وكِلْتُ له ووزنت له ؛ ونحو ذلك . «بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ» من العذاب فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ فى تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله ونعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أى تخفى صدورهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون من الأمور . وقرأ آبن محيصن وحميد : «مَا تَكُنُّ» من كَنَنتُ الشىء إذا سترتَه هنا . وفى « القصص »(١) تقديره : ما تَكُنّ صدورهم عليه ؛ وكأن الضمير الذى فى الصدور كالجسم السائر . ومن قرأ : « تُكِنُّ » فهو المعروف ؛ يقال : أكننت الشىء إذا أخفيته فى نفسك .

(١) راجع ص ٣٠٤ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ؛ حكاه النقاش . وقال آبن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ؛ وهـذا عام . وإنما دخلت الهاء في «غَائِبَةٍ» إشارة إلى الجمع ؛ أي . ما من خَصْلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أثبتها في أم الكتاب عنده ؛ فكيف يخفى عليه ما يسرّ هؤلاء وما يعلنونه . وقيل : أي كل شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرجه للأجل المؤجل له ؛ فالذي يستعجلونه من العـذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه . والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وذلك أنهم آختلفوا في كثير من الأشـياء حتى لعن بعضهم بعضا فنزلت . والمعنى : إن هذا القرآن يبيّن لهم ما آختلفوا فيه لو أخذوا به ، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل ، وما سقط من كتبهم من الأحكام . ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خص المؤمنين لأنهم المنتفعون به . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ﴾ أي يقضي بين بني إسرائيل فيما آختلفوا فيه في الآخرة ، فيجازي المحقّ والمبطل . وقيـل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرّفوه .
﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المنيع الغالب الذي لا يردّ أمره ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى فوّض إليه أمرك واعتمد عليه ؛ فإنه ناصرك . ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى الظاهر . وقيل : المظهر لمن تدبر وجه الصواب . ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ يعنى الكفار لتركهم التدبر ؛ فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل . وقيل : هذا فيمن علم أنه لا يؤمن . ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ يعنى الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون ؛ نظيره : «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ» (١) كما تقدّم . وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبى إسحق وعباس عن أبى عمرو : «وَلَا يَسْمَعُ» بفتح الياء والميم « الصُّمُّ » رفعا على الفاعل . الباقون «تُسْمِعُ» مضارع أسمعت «الصُّمَّ» نصبا .

مسألة — وقد احتجت عائشة رضى الله عنها فى إنكارها أن النبى صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية ؛ فنظرت فى الأمر بقياس عقلى ووقفت مع هذه الآية . وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما أنتم بِأَسْمَعَ منهم" قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أن ردّ الله إليهم إدراكا سمعوا به مقاله ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقى من الكفرة ، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

قلت : روى البخارى رضى الله عنه ؛ حدّثنى عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال حدّثنا سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى طلحة أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقُذِفوا فى طَوِىٍّ من أطواء بدر خَبِيث مُخْبِث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فشدّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه ، قالوا : ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرَّكِىّ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؛ فإنا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا فهل وجدتم ما وَعَد ربُّكم حقًّا ؛ قال فقال عمر : يا رسول الله ! ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم "والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرًا ونقمةً وحسرةً وندمًا . خرجه مسلم

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٣ فما بعد .

أيضا . قال البخاري : حدّثنا عثمان قال حدّثنا عَبْدة عن هشام عن أبيه عن ٱبن عمر قال : وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر فقال : "هل وجدتم ما وَعَد رَبُّكُمْ حَقًّا" ثم قال : "إنهم الآن ليعلمون أن الذى كنت أقول لهم هو الحق" ثم قرأت(١) «إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى» حتى قرأت الآية . وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور، وبما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا ٱنصرفوا عنه، إلى غير ذلك؛ فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه . وهذا واضح وقد بيّناه فى كتاب «التذكرة» .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أى كفرهم؛ أى ليس فى وسعك خلق الإيمان فى قلوبهم . وقرأ حمزة : «وَمَا أَنْتَ تَهْـدِى الْعُمْىَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ» كقوله : «أَفَأَنْتَ تَهْـدِى الْعُمْىَ»(٢) . الباقون : «بِهَـادِي الْعُمْيِ» وهى ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم وفى «الروم»(٣) مثله . وكلهم وقف على «بِهَادِى» بالياء فى هذه السورة وبغير ياء فى «الروم» ٱتبـاعا للصحف، إلا يعقوب فإنه وقف فيهما جميعا باليـاء . وأجاز الفـراء وأبو حاتم : «وَمَا أَنْتَ بِهَـادٍ الْعُمْىَ» وهى الأصل . وفى حرف عبد الله «وَمَا أَنْ تَهْـدِى الْعُمْىَ» . ﴿ إِنْ تُسْمِـعُ ﴾ أى ما تسـمع . ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَـا ﴾ قال ٱبن عبـاس : أى إلا من خلقته للسعادة فهم مخلصون فى التوحيد .

قوله تعـالى : وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

---

(١) أى عائشة رضى الله عنها .　　(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦ .　　(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ اختلف في معنى وقع القول وفي الدابة ؛ فقيل : معنى « وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ » وجب الغضب عليهم ؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : أي حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون . وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم . وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . قال عبد الله : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع ، قالوا هذه المصاحف تُرفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : يُسرَى عليه ليلا فيصبحون منه قَفْرا ، وينسون لا إله إلا الله ، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم ؛ وذلك حين يقع القول عليهم .

قلت : أسنده أبو بكر البزار قال حدّثنا عبد الله بن يوسف الثَّقَفي قال حدّثنا عبد المجيد ابن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن أبيه أنه قال : أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع وينسى الناس مكانه ، وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يُرفَع ؛ قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : فيصبحون فيقولون كنا نتكلم بكلام ونقول قولا فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية ، وذلك حين يقع القول عليهم . وقيل : القول هو قوله تعالى : « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ »(1) فوقوع القول وجوب العقاب على هؤلاء ، فإذا صاروا إلى حد لا تقبل توبتهم ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذ تقوم القيامة ؛ ذكره القشيري . وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » فقال : أوحى الله إلى نوح « إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ »(2) وكأنما كان على وجهي غطاء فكشف . قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ؛ لأن الناس ممتحنون ومؤخّرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين ، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن ويتوب ؛ فلهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية ، فإذا زال هذا وجب القول عليهم ، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٩٦ . (2) راجع جـ ٩ ص ٢٩ .

قلت : وجميـع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معـنى واحد . والدليـل عليه آخر الآية «إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ» وقرئ: «أَنّ» : بفتح الهمزة وسيأتى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمـانُها [لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيرا][1] طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابّةُ الأرض" وقد مضى . واختلف فى تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج آختلافا كثيرا؛ قد ذكرناه فى كتاب «التذكرة» ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى . فأول الأقوال أنه فصيل ناقة صالح وهو أصحها — والله أعلم — لمـا ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : "لهـا ثلاث خرجات من الدهر فتخرج فى أقصى البـادية ولا يدخل ذكرها القـرية — يعنى مكة — ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها فى البادية ويدخل ذكرها القرية" يعنى مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فآرفضّ الناس منها شتّى ومعًا وتثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبـدأت بهم فجلّت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرىّ وولّت فى الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يافلان الآن تصـلّى فتقبل عليـه فتسمه فى وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ويصطلحون فى الأمصار يُعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول ياكافر آقض حقى" وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله : "وهى ترغو" والرغاء إنمـا هو للإبل؛ وذلك أن الفصيل لمـا قتلت الناقة هرب فآنفتح له حجر فدخل فى جوفه ثم آنطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل . وروى أنها دابة مزغبة شعراء، ذات قوائم طولها ستون ذراعا، ويقال إنهـا الجساسة؛ وهو قول عبد الله بن عمر . وروى عن آبن عمر أنها على خلقة الآدميين؛ وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض . وروى أنها جمعت من خلق

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

كل حيوان . وذكر المـاوردى والثعلبى رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيـل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنـق نعامة ، وصدرها صدر أسـد ، ولونها لون نمـر ، وخاصرتها خاصرة هـر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل آثنا عشر ذراعا — الزمخشرى : بذراع آدم عليه السلام — ويخرج معها عصا موسى وخاتم سـليمان ، فتنكت فى وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه ، وتنكت فى وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسود وجهه ؛ قاله ابن الزبير رضى الله عنهما . وفى كتاب النقاش عن ابن عباس رضى الله عنهما : إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التى آقتلعتها العُقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة . وحكى المـاوردىّ عن محمد بن كعب عن على بن أبى طالب رضى الله عنـه أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله ما لهـا ذنب و إن لها للحية . قال المـاوردى : وفى هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس و إن لم يصرح به .

قلت : ولهذا — والله أعلم — قال بعض المتأخرين من المفسرين : إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنسانا متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا ، فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة . قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبى فى كتاب المفهم له : و إنمـا كان عند هذا القائل الأقرب لقوله تعـالى : « تُكَلِّمُهُمْ » وعلى هذا فلا يكون فى هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة ، ولا يكون من العشر الآيات المذكورة فى الحديث ؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير ، فلا آية خاصة بها فلا ينبغى أن تذكر مع العشر ، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول ، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذى على أهل الأرض أن يسمّوه بآسم الإنسان أو بالعـالم أو بالإمام إلى أن يسمّى بدابة ؛ وهـذا خروج عن عادة الفصحاء ، وعن تعظيم العلمـاء ، وليس ذلك دأب العقلاء ؛ فالأولى ما قاله أهل التفسير ، والله أعلم بحقائق الأمور .

قلت — قد رفع الإشكال فى هـذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه . وآختلف من أى موضع تخرج ، فقال عبد الله بن عمر : تخرج من جبل الصفا بمكة ؛ يتصدع فتخرج منه . قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمى على موضع خروجها

لفعلت . وروى فى خبرعن النبي صـلى الله عليه وسـلم : " إن الأرض تنشـق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى وأنها تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن هو مؤمن سِمةً كأنها كوكب دُرّى وتسم بين عينى الكافر نكتة سوداء كافر " وذكر فى الخبر أنها ذات وبر وريش ؛ ذكره المهدوى . وعن ابن عباس أنهـا تخرج من شِعْب فتمَسّ رأسها السحاب ورجلاها فى الأرض لم تخرجا ، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام . وعن حذيفة : تخرج ثلاث خرجات ؛ خرجة فى بعض البوادى ثم تَكْمُن ، وخرجة فى القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء ، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها . الزمخشرى : تخرج من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ؛ فقوم يهربون ، وقوم يقفون نظّارة . وروى عن قتادة أنهـا تخـرج فى تهامة . وروى أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنّور نوح عليه السلام . وقيل : من أرض الطائف ؛ قال أبو قبيل : ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال : من هنا تخـرج الدابة التى تكلّم النـاس . وقيل : من بعض أودية تهامة ؛ قاله ابن عباس . وقيل : من صخرة من شِعْب أجياد ؛ قاله عبد الله بن عمرو . وقيل : من بحر سَدُوم ؛ قاله وهب بن منبّه . ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة المـاوردى فى كتابه . وذكر البغوىّ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدّثنا علىّ بن الجعـد عن فُضيل بن مرزوق الرقاشى الأغر — وسـئل عنه يحيى بن معين فقال ثقة — عن عطية العوفى عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع فى الكعبة كجرى الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها .

قلت : فهذه أقوال الصحابة والتابعين فى خروج الدابة وصفتها ، وهى ترد قول من قال من المفسرين : إن الدابة إنمـا هى إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر . وقـد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تخـرج الدابة فتسم النـاس على خراطيمهم " ذكره المـاوردىّ . « تُكَلِّمُهُمْ » بضم التـاء وشدّ اللام المكسورة — من الكلام — قراءة العامة ؛ يدلّ عليـه قراءة أبىّ « تُنَبِّئُهُمْ » . وقال السدىّ : تكلمهم ببطلان الأديان سوى

دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسوءهم . وقيل : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه من قَرُب وبَعُد « إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » أى بخروجى ؛ لأن خروجها من الآيات . وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء: «تَكْلِمُهُمْ» بفتح التاء من الكلم وهو الجرح ؛ قال عكرمة : أى تَسِمُهم . وقال أبو الجوزاء : سألت ابن عباس عن هذه الآية « تُكَلِّمُهُمْ » أو « تَكْلِمُهُمْ » ؟ فقال : هى والله تُكَلِّمُهُمْ وتَكْلِمُهُم ؛ تُكلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أى تجرحه . وقال أبو حاتم : « تُكَلِّمُهُمْ » كما تقول تُجَرِّحهم؛ يذهب إلى أنه تكثير من « تَكْلِمُهُمْ » . ﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبى إسحق ويحيى: «أن» بالفتح. وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة : « إن » بكسر الهمزة . قال النحاس : فى المفتوحة قولان وكذا المكسورة ؛ قال الأخفش : المعنى بأنّ وكذا قرأ ابن مسعود « بِأَنَّ » وقال أبو عبيدة : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها ؛ أى تخبرهم أن الناس . وقرأ الكسائى والفراء : « إِنَّ النَّاسَ» بالكسر على الاستئناف . وقال الأخفش : هى بمعنى تقول إن الناس ؛ يعنى الكفار. «بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » يعنى بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيمانا ولم يبق إلا مؤمنون وكافرون فى علم الله قبل خروجها ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى زمرة وجماعة . ﴿ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ يعنى بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى يُدفَعون ويساقون إلى موضع الحساب . قال الشماخ :

وكم وَزَعْنَا من خَمِيسٍ جَحْفَلٍ * وكَمْ حَبَوْنَا من رئيسٍ مِسْحَلِ

وقال قتادة : « يُوزَعُونَ » أى يُرَدّ أولهم على آخرهم . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ ﴾ أى قال الله ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي ﴾ التى أنزلتها على رسلى ، وبالآيات التى أقمتها دلالة على توحيدى . ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾ أى ببطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدلّين . ﴿ أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ أى ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا

مافيها . ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أى وجب العذاب عليهم بظلمهم أى بشركهم . ﴿ فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى ليس لهم عذر ولا حجة . وقيل : يختم على أفواههم فلا ينطقون؛ قاله أكثر المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى يستقرون فينامون . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى يبصر فيه لسعى الرزق . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله . ذكر الدلالة على إلهيته وقدرته أى ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أى واذكر يوم أو ذكّرهم يوم ينفخ فى الصور . ومذهب الفراء أن المعنى : وذلكم يوم ينفخ فى الصور؛ وأجاز فيه الحذف . والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل . قال مجاهد : كهيئة البوق . وقيل : هو البوق بلغة أهل اليمن . وقد مضى فى « الأنعام »[(1)] بيانه وما للعلماء فى ذلك . ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة " قلت : يارسول الله ما الصُّور؟ قال :

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠ .

" قرن والله عظيم والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصَّعْق والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين " وذكر الحديث . ذكره على بن معبد والطبرى والثعلبى وغيرهم ، وصححه ابن العربى . وقد ذكرته فى كتاب « التذكرة » وتكلمنا عليه هنالك ، وأن الصحيح فى النفخ فى الصّور أنهما نفختان لا ثلاث ، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لها ؛ أى فزعوا فزعا ماتوا منه ؛ أو إلى نفخة البعث وهو آختيار القشيرى وغيره ؛ فإنه قال فى كلامه على هذه الآية : والمراد النفخة الثانية أى يحيون فزعين يقولون : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا (١) » ؛ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم ؛ وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق فى أرض الجزاء . [قاله قتادة (٢)] وقال الماوردى : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ . » هو يوم النشور من القبور ، قال وفى هذا الفزع قولان : أحدهما أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك فى كذا إذا أسرعت إلى ندائك فى معونتك . والقول الثانى : إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن ؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم [ففزعوا (٢)] وخافوا . وهذا أشبه القولين .

قلت : والسنة الثابتة من حديث أبى هريرة وحديث عبد الله بن عمرو يدل على أنهما نفختان لا ثلاث ؛ خرجهما مسلم وقد ذكرناهما فى كتاب « التذكرة » وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان ؛ قال الله تعالى ؛ « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » فآستثنى هنا كما آستثنى فى نفخة الفزع فدلّ على أنهما واحدة . وقد روى آبن المبارك عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل حىّ والأخرى يحيى الله بها كل ميت " فإن قيل : فإن قوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٣) » إلى أن قال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » وهذا يقتضى بظاهره أنها ثلاث . قيل له : ليس كذلك ، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانيـة التى يكون عنها خروج الخلق من قبورهم ؛ كذلك قال آبن عباس ومجاهد

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٨ فما بعد . (٢) من ك . راجع جـ ١٩ ص ١٨٨ فما بعد .

وعطاء وآبن زيد وغيرهم . قال مجاهـد : هما صيحتان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذن الله . وقال عطاء : «الرَّاجِفَةُ» القيامة و «الرادِفَةُ» البعث . وقال آبن زيد : « الراجفة » الموت و « الرادفة » الساعة . والله أعلم . «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم آختلف في هـذا المستثنى مَن هم . ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عنـد ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش . وقال القشـيري : الأنبياء داخلون في جملتهم ؛ لأن لهم الشهادة مع النبوّة وقيل : الملائكة . قال الحسن : آستثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين . قال مقاتل : يعني جبريل وميكائيل و إسرافيـل وملك الموت . وقيـل : الحور العين . وقيل : هم المؤمنون؛ لأن الله تعالى قال عقيب هذا : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِـذٍ آمِنُونَ » . وقال بعض علمائنا : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمـــل .

قلت : خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعوّل عليه ؛ لأنه نص في التعيين وغيره آجتهاد . والله أعلم . وقيل : غير هذا على ما يأتي في « الزُّمَر[1] » . وقوله : « فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » ماض و« يُنْفَخُ » مستقبل فيقال : كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المعنى ؛ لأن المعنى : إذا نفخ في الصور ففزع . « إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللَّهُ » نصب على الاستثناء . ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ قـرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وآبن عامر وآبن كثير: « آتُوهُ » جعلوه فعلا مستقبلا . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » مقصورا على الفعل المـاضي، وكذلك قرأه آبن مسعود . وعن قتادة « وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ » . قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحق في القراءات [من قرأ[2]] : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » وحّده على لفظ « كُلّ » ومن قرأ : « آتُوهُ » جمع على معناها، وهذا القول غلط قبيح؛ لأنه إذا قال : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ » فلم يوحّد وإنمـا جمع،

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ فما بعد . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

ولو وحّد لقال : « أَتَاهُ » ولكن من قال : « أَتَوْهُ » جمع على المعنى وجاء به ماضيا لأنه رده إلى « فَفَزِعَ » ومن قرأ : « وَكُلٌّ آتُوهُ » حمله على المعنى أيضا وقال : « آتُوهُ » لأنها جملة منقطعة من الأول . قال ابن نصر : قد حكى عن أبي إسحق رحمه الله ما لم يقله ، ونص أبي إسحق : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » ويقرأ : « آتُوهُ » فمن وحّد فللفظ « كُلّ » ومن جمع فلمعناها . يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر « كلّ » فعلى اللفظ أو جمع فعلى المعنى ؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى . قال المهدوى : ومن قرأ « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى « كل » دون لفظها ، ومن قرأ : « وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ » فهو اسم الفاعل من أتى . يدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾(1) . ومن قرأ : « وَكُلٌّ أَتَاهُ » حمله على لفظ « كلّ » دون معناها وحمل « دَاخِرِينَ » على المعنى ؛ ومعناه صاغرين ؛ عن ابن عباس وقتادة . وقد مضى في « النحل »(2) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ قال ابن عباس : أي قائمة وهي تسير سيرا حثيثا . قال القتبي : وذلك أن الجبال تُجمع وتُسيّر ، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير ؛ وكذلك كل شيء عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر ، لكثرته وبعد ما بين أطرافه ، وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير . قال النابغة في وصف جيش :

بِأَرْعَنَ مثل الطَّودِ تَحسبُ أنَّهمْ * وُقوفٌ لِحاجٍ والرِّكابُ تُهمْلِجُ

قال القشيري . وهذا يوم القيامة ؛ أي هي لكثرتها كأنها جامدة ؛ أي واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسها تسير سير السحاب ، والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهي تسير ؛ أي تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء ، فقال الله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »(3) ويقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها ، وإبراز ما كانت تواريه ؛ فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة ؛ ثم تصير كالعهن المنفوش ؛ وذلك إذا صارت السماء كالمُهْل ، وقد جمع الله بينهما فقال : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ

(1) راجع جـ ١١ ص ١٥٥ فما بعد . (2) راجع جـ ١٠ ص ١١١ .
(3) راجع جـ ١٩ ص ١٧٣ فما بعد .

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (١) » . والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تنقطع بعد أن كانت كالعهن . والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدّمة قارّة فى مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز ، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها . والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعا فى الهواء كأنها غبار ، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسادا جامدة ، وهى بالحقيقة مارّة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكّة متفتتة . والحالة السادسة أن تكون سرابا فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئا منها كالسراب . قال مقاتل : تقع على الأرض فتسوّى بها . ثم قيل هذا مثل . قال الماوردى : وفيهما ضُرب له ثلاثة أقوال (٢) : أحدها أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ؛ قاله سهل بن عبد الله . الثانى : أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتا فى القلب وعمله صاعد إلى السماء . الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أى هذا من فعل الله ، و[ما] هو فعل منه فهو متقَن . و « تَرَى » من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين . والأصل تَرْأَى فألقيت حركة الهمزة على الراء فتحركت الراء وحذفت الهمزة ، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن ، إلا أن التخفيف لازم لتَرَى . وأهل الكوفة يقرءون : « تَحْسَبُهَا » بفتح السين وهو القياس ؛ لأنه من حَسِب يحسَب إلا أنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافها أنه قرأ بالكسر فى المستقبل ، فتكون على فَعِل يفعِل مثل نعِم ينعِم وبئِس يبئِس وحكى يَئس ييئِس من السالم (٣) ، لا يعرف فى كلام العرب غير هذه الأحرف . « وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » تقديره مرّا مثل مرّ السحاب ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تُزال من أماكنها من على وجه الأرض ، وتُجمع وتُسيَّر كما تُسيَّر السحاب ، ثم تُكسَّر فتعود إلى الأرض كما قال : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٤) » . « صُنْعَ اللَّهِ » عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر ؛ لأنه لما قال عز وجل : « وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » دلّ على أنه قد صنع ذلك صنعا . ويجوز النصب على الإغراء ؛ أى انظروا صنع الله . فيوقف

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤ . (٢) فى ك : أقايل .
(٣) كذا فى الأصول ، وفى اللسان : نعم ينعم من السالم . وهو الصواب . (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٩٦ .

على هذا على « السَّحَابِ » ولا يوقف عليه على التقدير الأول . ويجوز رفعه على تقدير ذلك صنع الله . « الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ » أى أحكمه، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم: "رحم الله من عمل عملا فأتقنه". وقال قتادة: معناه أحسن كل شىء . والإتقان الإحكام؛ يقال: رجل تِقْن أى حاذق بالأشياء . وقال الزهرى: أصله من آبن تِقْن، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم فضرب به المثل؛ يقال: أَرْمَى من آبن تِقْن ثم يقال لكل حاذق بالأشياء تقن . ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [والباقون تفعلون] (١) بالتاء على الخطاب قراءة الجمهور . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء .

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قال آبن مسعود وآبن عباس رضى الله عنهما: الحسنة لا إله إلا الله . وقال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف بالله الذى لا إله إلا هو ولا يستثنى أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقال على بن الحسين بن على رضى الله عنهم: غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فبينما هو فى أرض الروم فى أرض جلفاء و بردى رفع صوته فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فخرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له: والذى نفسى بيده إنها الكلمة التى قال الله تعالى: « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » . وروى أبو ذرّ قال: قلت يا رسول الله أوصنى . قال: "آتق الله وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها" قال قلت: يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: "من أفضل الحسنات" وفى رواية قال: "نعم هى أحسن الحسنات" ذكره البيهقى . وقال قتادة: « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ » بالإخلاص والتوحيد . وقيل: أداء الفرائض كلها .

قلت: إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها — على ما تقدّم بيانه فى سورة « إبراهيم » (٢) — فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض . « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » قال آبن عباس: أى وصل إليه الخير منها؛ وقاله مجاهد . وقيل: فله الجزاء الجميل وهو الجنة . وليس «خير» للتفضيل . قال عكرمة وآبن جريج: أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا؛ فإنه ليس شىء خيرا ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . وقيل: « فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا » للتفضيل أى ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره، وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد؛

(١) من ك . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٥٨ فما بعد .

قاله ابن عباس . وقيل : يرجع هذا إلى الإضعاف فإن الله تعالى يعطيه بالواحدة عشرا ؛ وبالإيمان في مدّة يسيرة الثواب الأبدي؛ قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد . ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي « فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ » بالإضافة . قال أبو عبيد: وهذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال : «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» صار كأنه فزع دون فزع دون فزع . قال القشيري : وقرئ : «مِنْ فَزَعٍ» بالتنوين ثم قيـل يعني به فزعا واحدا كما قال : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ »(١) . وقيل : عنى الكثرة لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة .

قلت : فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى . قال المهدوي : ومن قرأ : « مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ » بالتنوين انتصب « يَوْمَئِـذٍ » بالمصدر الذي هو « فَزَعٍ » . ويجوز أن يكون صـفة لفزع ويكون متعلقا بمحذوف؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل الذي هو « آمِنُونَ » . والإضافة على الاتساع في الظروف . ومن حذف التنوين وفتح الميم بناه لأنه ظرف زمان ، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكنا، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بني . وأنشد سيبويه :

على حينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ　＊　فَنَدْلًا زُرَيْقُ المَالَ نَدْلَ الثَّعَالِبِ(٢)

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أي بالشرك ؛ قاله ابن عباس والنّخعيّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنة لا إله إلا الله، وأن السيئة الشرك في هذه الآية . ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ قال ابن عباس : ألقيت . وقال الضحاك : طرحت ؛ يقال كببت الإناء أي قلبته على وجهه ، واللازم منه أكب ؛ وقلّما يأتي هذا في كلام العرب . ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ أي يقال لهم هل تجزون . ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة . ﴿ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا جزاء أعمالكم .

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٥ فما بعد .

(٢) زريق : اسم قبيلة وهو منادى . والندل هنا الأخذ باليدين . والندل أيضا السرعة في السير . « ندل الثعالب » : يقال في المثـل : (هو أكسب من ثعلب) لأنه يدخر لنفسه ، ويأتي على ما يعدو عليـه من الحيوان إذا أمكنه . والبيت في وصف تجار وقيل لصوص ، وقبله :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم　＊　ويرجعن من دارين بجر الحقائب

قوله تعالى : إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ يعنى مكة التى عظّم الله حرمتها ؛ أى جعلها حرما آمنا ؛ لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصاد فيها صيد ، ولا يعضد فيها شجر ؛ على ما تقدّم بيانه فى غير موضع . وقرأ ابن عباس : « الَّتِى حَرَّمَهَا » نعتا للبلدة . وقراءة الجماعة « الَّذِى » وهو فى موضع نصب نعت لـ « رب » ولو كان بالألف واللام لقلت المحرِّمها ؛ فإن كانت نعتا للبلدة قلت المحرِّمها هو ؛ لا بدّ من إظهار المضمر مع الألف واللام ؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له ؛ فإن قلت الذى حرمها لم تحتج أن تقول هو . ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى من المنقادين لأمره ، الموحِّدين له . ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أى وأمرت أن أتلو القرآن ، أى أقرأه . ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ فله ثواب هدايته . ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ فليس علىّ إلا البلاغ ؛ نسختها آية القتال . قال النحاس . « وَأَنْ أَتْلُوَ » نصب بأن . قال الفراء : وفى إحدى القراءتين « وَأَنِ اتْلُ » وزعم أنه فى موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو ، قال النحاس : ولا نعرف أحدا قرأ هذه القراءة ، وهى مخالفة لجميع المصاحف .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على نعمه وعلى ما هدانا . ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى فى أنفسكم وفى غيركم كما قال : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ »(1) . ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أى دلائل قدرته ووحدانيته فى أنفسكم وفى السموات وفى الأرض ؛ نظيره قوله تعالى : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »(2) . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(1) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٤ . (2) راجع جـ ١٧ ص ٣٩ .

قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن عاصم بالتاء على الخطاب؛ لقوله : « سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » فيكون الكلام على نسق واحد . الباقون بالياء على أن يرد إلى ما قبله « فَمَنِ ٱهْتَدَى » فأخبر عن تلك الآية . كملت السورة والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة القصص

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة في وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وهي قوله عز وجل : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » . وقال مقاتل : فيها من المدني « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ » إلى قوله : « لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » . وهي ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ طسٓمٓ ﴾ تقدم الكلام فيه . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ « تِلْكَ » في موضع رفع بمعنى هذه تلك و « آيَاتُ » بدل منها . ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ « نَتْلُو » و « آيَاتُ » بدل منها أيضا، وتنصبها كما تقول : زيدا ضربت . و « الْمُبِينِ »

أى المبين بركته وخيره، والمبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وقصص الأنبياء، ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. ويقال: بان الشيء وأبان [اتضح](1). ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون، واحتج على مشركى قريش، وبيّن أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، وكذلك قرابة قريش لمحمد، وبين أن فرعون علا فى الأرض وتجبّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنب العلوّ فى الأرض، وكذلك التعزز بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون. «نَتْلُو عَلَيْكَ» أى يقرأ عليك جبريل بأمرنا «مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ» أى من خبرهما و «من» للتبعيض و «مِنْ نَبَإِ» مفعول «نَتْلُو» أى نتلو عليك بعض خبرهما؛ كقوله تعالى: «تُنْبِتُ بِالدُّهْنِ»(2). ومعنى: «بِالْحَقِّ» أى بالصدق الذى لا ريب فيه ولا كذب. «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى يصدّقون بالقرآن و يعلمون أنه من عند الله؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى استكبر وتجبّر؛ قاله ابن عباس والسّدىّ. وقال قتادة: علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره وادّعى الربوبية. وقيل: بملكه وسلطانه فصار عاليا على من تحت يده. «فِي الْأَرْضِ» أى أرض مصر. ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى فرقا وأصنافا فى الخدمة. قال الأعشى:

وبلدة يَرْهَبُ الجوّابُ دجلتَها * حتى تراه عليها يبتغى الشِّيَعَا

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ أى من بنى إسرائيل. ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم القول فى هذا فى «البقرة»(3) عند قوله: «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ» الآية؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له: إن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يديه، أو قال المنجّمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعبّرت كذلك. قال

(1) فى الأصول: «أفصح» وهو تحريف. والتصويب من كتب اللغة.

(2) راجع جـ ١٢ ص ١١٤. (3) راجع جـ ١ ص ٣٨٤ فما بعد.

الزجاج: العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، و إن كذب فلا معنى للقتل . وقيل : جعلهم شيعا فاستسخر كل قوم من بنى إسرائيل فى شغل مفرد . «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أى فى الأرض بالعمل والمعاصى والتجبر .

قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى نتفضل عليهم وننعم . وهذه حكاية مضت . ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال ابن عباس : قادة فى الخير . مجاهد : دعاة إلى الخير . قتادة : ولاة وملوكا؛ دليله قوله تعالى : « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا »(١) .

قلت : وهذا أعم فإن الملك إمام يؤتم به ويقتدى به . ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ لملك فرعون ؛ يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط . وهذا معنى قوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها؛ يعنى أرض الشام ومصر . ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أى ونريد أن نرى فرعون . وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف : «وَيَرَى» بالياء على أنه فعل ثلاثى من رأى « فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا » رفعا لأنه الفاعل . الباقون « نُرِيَ » بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعى من أرى يُرِى، وهى على نسق الكلام ؛ لأن قبله « وَنُرِيدُ » وبعده « وَنُمَكِّنَ » . « فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا » نصبا بوقوع الفعل . وأجاز الفراء « وَيُرِيَ فِرْعَوْنَ » بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويرى الله فرعون ﴿ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدى رجل من بنى إسرائيل فكانوا على وجل «مِنْهُمْ» فأراهم الله « مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » . قال قتادة : كان حازيًا لفرعون — والحازى المنجم — قال إنه سيولد فى هذه السنة مولود يذهب بملكك ؛ فأمر فرعون بقتل الولدان فى تلك السنة . وقد تقدّم .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٣ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٢ .

قوله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ قد تقدّم معنى الوحى ومحامله . وآختلف فى هذا الوحى إلى أم موسى ؛ فقالت فرقة : كان قولا فى منامها . وقال قتادة : كان إلهاما . وقالت فرقة : كان بمَلَك يمثّل لها . قال مقاتل : أتاها جبريل بذلك ، فعلى هذا هو وحى إعلام لا إلهام . وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية ، وإنما إرسال المَلَك إليها على نحو تكليم المَلَك للأقرع والأبرص والأعمى فى الحديث المشهور ، خرجه البخارى ومسلم ، وقد ذكرناه فى سورة « براءة »(1) . وغير ذلك مما روى من تكليم الملائكة للناس من غير نبوّة ، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيا . وآسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلى . وقال الثعلبى : وآسم أم موسى لوحا بنت هاند بن لاوى بن يعقوب(2) . « أَنْ أَرْضِعِيهِ » وقرأ عمر ابن عبد العزيز : « أَنِ ٱرْضِعِيهِ » بكسر النون وألف وصل ، حذف همزة أرضع تخفيفا ثم كسر النون لالتقاء الساكنين . قال مجاهد : وكان الوحى بالرضاع قبل الولادة . وقال غيره بعدها . قال السدى : لما ولدت أمّ موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به بما فى الآية ؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة . وقال آبن جريج : أمرت بإرضاعه أربعة أشهر فى بستان ، فإذا خافت أن يصيح — لأن لبنها لا يكفيه — صنعت به هذا . والأوّل أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله : « فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » و « إِذَا » لما يستقبل من الزمان ؛ فيروى أنها

(1) راجع جـ ٨ ص ١٨٨ فما بعد (2) وقيل فى آسمها أيضا : يوخابذ . وقيل : يوخابيل ، وقيل غير ذلك .

اتخذت له تابوتا من بَرْدى وقيّرته بالقار من داخله ، ووضعت فيه موسى وألقته فى نيل مصر . وقد مضى خبره فى « طـه »[1] . قال ابن عباس : إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس ، وعملوا بالمعاصى ؛ فسلّط الله عليهم القبط ، وساموهم سوء العذاب ، إلى أن نجاهم الله على يد موسى . قال وهب : بلغنى أن فرعون ذبح فى طلب موسى سبعين ألف وليد . ويقال : تسعون ألفا . ويروى أنها حين اقتربت وضَربها الطلق ، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ؛ فقالت : لينفعنى حُبُّك اليوم ؛ فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مَفْصِل منها ، ودخل حبّه قلبها ، ثم قالت : ما جئتكِ إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حبًّا ما وجدت مثله قط ، فاحفظيه ؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة ووضعته فى تنّور مسجور نارا لم تعلم ما تصنع لما طاش عقلها ، فطلبوا فلم يلفوا شيئا ، فخرجوا وهى لا تدرى مكانه ، فسمعت بكاءه من التنّور ، وقد جعل الله عليه النار بردا وسلاما .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ فيه وجهان : أحدهما — لا تخافى عليه الغرق ؛ قاله ابن زيد . الثانى — لا تخافى عليه الضيعة ؛ قاله يحيى بن سَلّام . ﴿ وَلَا تَحْزَنِي ﴾ فيه أيضا وجهان : أحدهما — لا تحزنى لفراقه ؛ قاله ابن زيد . الثانى — لا تحزنى أن يقتل ؛ قاله يحيى بن سَلّام . فقيل : إنها جعلته فى تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار ، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته فى اليم بعد أن أرضعته أربعة أشهر . وقال آخرون : ثلاثة أشهر . وقال آخرون ثمانية أشهر ؛ فى حكاية الكلبى . وحكى أنه لما فرغ النجار من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره ، فبعث معه من يأخذه ، فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق ، فأيقن أنه المولود الذى يخاف[2] منه فرعون ، فآمن من ذلك الوقت ؛ وهو مؤمن آل فرعون ؛ ذكره الماوردى . وقال ابن عباس : فلما توارى عنها ندّمها الشيطان وقالت فى نفسها : لو ذبح عندى فكفنته وواريته لكان أحب إلىّ من إلقائه فى البحر ؛

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٥ فما بعد . (٢) فى ك : تخوف .

فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى إلى أهل مصر . حكى الأصمعىّ قال : سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول :

أستغفر الله لذنبي كلِّه * قَبَّلتُ إنسانًا بغير حِلِّه

مثل الغزال ناعمًا فى دَلِّه * فانتصف الليل ولم أصلِّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك! فقالت : أو يعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » الآية ؛ فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدّى إلى كونه لهم عدوّا وحزنا ؛ فاللام فى « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة ؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرّة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوّا وحزنا ، فذكر الحال بالمآل ؛ كما قال الشاعر :

وللمنايا تُربِّى كلُّ مُرْضِعةٍ * ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنِيها

وقال آخر :

فللموت تَغْذُو الوالداتُ سِخَالَهَا * كما لخراب الدهر تُبنَى المساكنُ

أى فعاقبة البناء الخراب و إن كان فى الحال مفروحا به . والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة ، والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة : التقطه التقاطا . ولقيت فلانا التقاطا . قال الراجز[1] :

* ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا *

ومنه اللقطة . وقد مضى بيان ذلك من الأحكام فى سورة « يوسف »[2] بما فيه كفاية . وقرأ الأعمش ويحيى والمفضل وحمزة والكسائى وخلف : « وَحُزْنًا » بضم الحاء وسكون الزاى . والباقون بفتحهما واختاره أبو عبيد . وأبو حاتم قال التفخيم[3] فيه . وهما لغتان مثل العَدَم

(١) هو نقادة الأسدى ، كما فى اللسان مادة « لقط » . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٣٤ فما بعد .

(٣) التفخيم فى اصطلاح القراء : الفتح .

والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد . ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وكان وزيره من القبط . ﴿ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أى عاصين مشركين آثمين .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَتِ آمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُـرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ يروى أن آسـية آمرأة فرعون رأت التابوت يعوم فى البحر ، فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت فيه صبيا صـغيرا فرحمته وأحبته ؛ فقالت لفرعون : « قُـرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » أى هو قرة عين لى ولك فـ « قُرَّةُ » خبر آبتداء مضمر ؛ قاله الكسائى . وقال النحاس : وفيــه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحق ؛ [قال] (١) : يكون رفعا بالابتداء والخبر « لَا تَقْتُلُوهُ » وإنمـا بَعُد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرة عين (٢). وجوازه أن يكون المعنى : إذا كان قرة عين لى ولك فلا تقتلوه . وقيل : تم الكلام عند قوله : « وَلَكَ » . النحاس : والدليل على هذا أن فى قراءة عبد الله ابن مسـعود « وَقَالَتِ آمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُـرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » . ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قـرةَ عين لى ولك . وقالت : « لَا تَقْتُلُوهُ » ولم تقل لا تقتله فهى تخاطب فرعون كما يخاطَب الجبّارون ؛ وكما يخبرون عن أنفسهم . وقيل : قالت « لَا تَقْتُلُوهُ » فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بنى إسرائيل . ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ فنصيب منه خيرا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وكانت لا تلد ، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لهـا ، وكان فرعون لمـا رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه — على ما تقدّم — قالوا له إن غلاما من بنى إسرائيل يفسد ملكك ؛ فأخذ بنى إسرائيـل بذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسـلهم ، فعاد يذبح عاما ويستحيى عاما ، فولد هرون فى عام الآستحياء ، وولد موسى فى عام الذبح .

قوله تعـالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ هذا آبتداء كلام من الله تعالى ؛ أى وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه . وقيل : هو من كلام المرأة ؛ أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه ، ولا يشـعرون إلا أنه ولدنا . واختلف المتأولون فى الوقت الذى قالت فيــه آمرأة فرعون « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاطه التابوت لمـا أشعرت فرعون به ؛

---

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٢) فى ك : لى وله .

ولما أعلمته سبق إلى فهمه(١) أنه من بنى إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال : علىّ بالذباحين ؛ فقالت آمرأته ما ذُكر ؛ فقال فرعون : أمّا لى فلا . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرّة عين له " وقال السدّى : بل ربّته حتى دَرَج ، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بنى إسرائيل وأخذه فى يده ، فمدّ موسى يده ونتف لحية فرعون ، فهمّ حينئذ بذبحه ، وحينئذ خاطبته بهذا ، و جربته له فى الياقوتة والجمرة ، فاحترق لسانه وعلق العقدة على ما تقدّم فى « طـه »(٢) . قال الفرّاء : سمعت محمد بن مروان الذى يقال له السدّى يذكر عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت « قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا » ثم قالت : « تَقْتُلُوهُ » قال الفرّاء : وهو لحن ؛ قال آبن الأنبارى : وإنما حكم عليه باللحن ؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون ؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم ، فالنون فيه علامة الرفع . قال الفرّاء : و يقوّيك على ردّه قراءة عبد الله بن مسعود « وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ » بتقديم « لَا تَقْتُلُوهُ » .

قوله تعالى : وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

(١) فى ك : إلى توهمه . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجونى وأبو عبيدة : « فَارِغًا » أى خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . وقال الحسن أيضا وابن إسحق وابن زيد : « فَارِغًا » من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر « لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي » والعهد الذى عهده إليها أن يردّه ويجعله من المرسلين ؛ فقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغرّقتيه أنت ! ثم بلغها أن ولدها وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : « فَارِغًا » من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق ؛ وقاله الأخفش أيضا . وقال العلاء بن زياد : « فَارِغًا » نافرا . الكسائى : ناسيا ذاهلا . وقيل : والها ؛ رواه سعيد بن جبير . ابن القاسم عن مالك : هو ذهاب العقل ؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش ، ونحوه قوله تعالى : « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى جوف لا عقول لها كما تقدّم فى سورة « إبراهيم »(١) . وذلك أن القلوب مراكز العقول ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا »(٢) ويدل عليه قراءة من قرأ : « فَزِعًا » . النحاس : أصح هذه الأقوال الأول، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ؛ فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى . وقول أبى عبيدة فارغا من الغم غلط قبيح ؛ لأن بعده « إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا » . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كادت تقول وا ابناه ! وقرأ فضالة ابن عبيد الأنصارى رضى الله عنه ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبو العالية وابن محيصن : « فَزِعًا » بالفاء والعين المهملة من الفزع ؛ أى خائفة عليه أن يقتل . ابن عباس : « قَرِعًا » بالقاف والراء والعين المهملتين ، وهى راجعة إلى قراءة الجماعة « فَارِغًا » ولذلك قيل للرأس الذى لا شعر عليه : أقرع ؛ لفراغه من الشعر . وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : « فِرْغًا » بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف ، وهو كقولك : هدرا وباطلا ؛ يقال :

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٧٧ فما بعد .	(٢) راجع جـ ١٢ ص ٧٦ فما بعد .

دماؤهم بينهم فَرْغ أى هدر ؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها . وفى قوله تعالى : « وَأَصْبَحَ » وجهان : أحدهما ــ أنها ألقته ليلا فأصبح فؤادها فى النهار فارغا . الثانى ــ أنها ألقته نهارا ومعنى : « أَصْبَحَ » أى صار ؛ كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد ✻ وأصبحت المدينة للوليد

﴿ إِنْ كَادَتْ ﴾ أى إنها كادت ؛ فلما حذفت الكناية سكنت النون . فهى « إن » المخففة ولذلك دخلت اللام فى ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى لتظهر أمره ؛ من بدا يبدو إذا ظهر . قال آبن عباس : أى تصيح عند إلقائه : وا ابناه . السدّى : كادت تقول لما حُملت لإرضاعه وحضانته هو آبنى . وقيل : إنه لما شَبَّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون ؛ فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول هو آبنى . وقيل : الهاء فى « به » عائدة إلى الوحى تقديره : إن كانت لتبدى بالوحى الذى أوحيناه إليها أن نردّه عليها . والأوّل أظهر . قال آبن مسعود : كادت تقول أنا أمه . وقال الفرّاء : إن كادت لتبدى بإسمه لضيق صدرها . ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ قال قتادة : بالإيمان . السدّى : بالعصمة . وقيل : بالصبر . والربط على القلب : إلهام الصبر . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من المصدّقين بوعد الله حين قال لها : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ » . وقال : « لَتُبْدِي بِهِ » ولم يقل : لتبديه ؛ لأن حروف الصفات قد تزاد فى الكلام ؛ تقول : أخذت الحبل وبالحبل . وقيل : أى لتبدى القول به .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى قالت أم موسى لأخت موسى : آتبعى أثره حتى تعلمى خبره . وآسمها مريم بنت عمران ؛ وافق آسمها آسم مريم أم عيسى عليه السلام ؛ ذكره السّهيلى والثّعلبى . وذكر الماوردى عن الضحاك : أن آسمها كلثمة . وقال السهيلى : كلثوم ؛ جاء ذلك فى حديث رواه الزبير بن بكّار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " أشعرت أن الله زوّجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية آمرأة فرعون " فقالت : الله أخبرك بهذا ؟ فقال : " نعم " فقالت : بالرفاء والبنين . ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ أى بعد ؛ قاله مجاهد . ومنه الأجنبى .

قال الشــاعر (١) :

فَــلَا تَحْرِمَــنِّى نائلًا عن جَنَــابةٍ * فإنِّى آمرؤٌ وسْطَ القِبَابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب . وقال آبن عباس : « عَنْ جُنُبٍ » أى عن جانب . وقرأ النعمان آبن سالم : «عن جانِبٍ» أى عن ناحية . وقيل : عن شوق؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة لجذام؛ يقولون : جنبت إليك أى آشتقت . وقيــل : « عَنْ جُنُبٍ » أى عن مجانبة لها منه فلم يعرفوا أنها أمه بسبيل . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه بناحية [كأنها (٢)] لا تريده، وكان يقرأ : « عَنْ جَنْبٍ » بفتح الجيم وإسكان النون . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشى على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله تعــالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى منعناه من الآرتضاع من قبل؛ أى من قبــل مجىء أمه وأخته . و « الْمَرَاضِعَ » جمع مُرْضِــع . ومن قال مراضيع . فهو جمع مِرضاع ، ومفعال يكون للتكثير ، ولا تدخل الهاء فيــه فرقا بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجارٍ على الفعــل ، ولكن من قال مِرضاعة جاء بالهــاء للمبالغة ؛ كما يقال مِطرابة . قال آبن عباس : لا يؤتى بمرضع فيقبلها . وهذا تحريم منع لا تحريم شرع؛ قال آمرؤ القيس :

جَالَتْ لِتصرعَنى فقلت لها آقْصِرِى * إنّى آمرؤٌ صَرْعِى عليــك حَــرامُ (٣)

أى ممتنع . فلما رأت أخته ذلك قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ الآية . فقالوا لها عند قولها : ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ وما يدريكِ ؟ لعلكِ تعرفين أهله ؟ فقالت : لا؛ ولكنهم يحرصون على مَسرّة الملك ، ويرغبون فى ظِئْره . وقال السّدى وآبن جُرَيج : قيل لها لمــا قالت : « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » قد عرفتِ أهل هذا الصبى فدلّينا عليهم؛ فقالت : أردت وهم للملك ناصحون . فدلتهم على أم موسى ، فآنطلقت إليها بأمرهم فجاءت بهــا ، والصبىّ على يد فرعون يعلّله شفقة عليه ، وهو يبكى يطلب الرضاع ، فدفعه إليها ؛ فلما وجد الصبىّ

(١) هو علقمة بن عبدة ، قاله يخاطب به الحرث بن جبلة يمدحه ، وكان قد أسر أخاه شأسا — وأراد بالنائل إطلاق أخيه شأس من سجنه — فأطلق له أخاه شأسا ومن أسر معه من بنى تميم . (٢) الزيادة من كتب التفسير .
(٣) جالت قلقت . يقول : ذهبت الناقة بقلقها ونشاطها لتصرعنى فلم تقدر على ذلك لحذق بالركوب ومعرفتى به .

ريح أمه قبل ثديها . وقال ٱبن زيد . ٱسترابوها حين قالت ذلك فقالت : وهم للملك ناصحون . وقيل : إنها لما قالت : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ » وكانوا يبالغون فى طلب مرضعة يقبل ثديها فقالوا : من هى ؟ فقالت : أمى ؛ فقيل : لها لبن ؟ قالت : نعم ! لبن هرون — وكان ولد فى سنة لا يقتل فيها الصبيان — فقالوا صدقت والله . « وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ » أى فيهم شفقة ونصح ؛ فروى أنه قيل لأم موسى حين ٱرتضع منها : كيف ٱرتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت : إنى ٱمرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أكاد أوتى بصبىّ إلا ٱرتضع منى . قال أبو عمران الجونى : وكان فرعون يعطى أم موسى كل يوم دينارا . قال الزمخشرى : فإن قلت كيف حلّ لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟ قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربىّ تأخذه على وجه الاستباحة .

قوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ ﴾ أى رددناه وقد عطف الله قلب العدوّ عليه ، ووفينا لها بالوعد . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أى بولدها . ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أى بفراق ولدها . ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى أكثر آل فرعون لا يعلمون ؛ أى كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء (١) وقيل : أى أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله فى كل ما وعد حق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قد مضى الكلام فى الأشد فى « الأنعام » (٢) . وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » (٣) فإن ذلك أول الأشد ، وأقصاه أربع وثلاثون سنة ؛ وهو قول سفيان الثورى . و « ٱسْتَوَى » قال ٱبن عباس : بلغ أربعين سنة . والحكم : الحكمة قبل النبوّة . وقيل : الفقه فى الدين . وقد مضى بيانها فى « البقرة » (٤) وغيرها . والعلم الفهم فى قول السدى . وقيل : النبوّة . وقال مجاهد : الفقه . محمد بن إسحق : أى العلم بما فى دينه ودين آبائه ؛ وكان له تسعة من بنى إسرائيل يسمعون منه ، ويقتدون به ، ويجتمعون إليه ، وكان هذا قبل النبوّة .

(١) كذا فى ك و ز . وهو الأشبه . وفى ا : سوء القضاء .
(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٤ .
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٣١ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى كما جزينا أم موسى لما آستسلمت لأمر الله ، وألقت ولدها فى البحر ، وصدّقت بوعد الله ؛ فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهى آمنة ، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة ؛ وكذلك نجزى كل محسن .

قوله تعالى : وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق فى دينه ، عاب ما عليه قوم فرعون ؛ وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفا مستخفيا . وقال السدى : كان موسى فى وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون ، وكان يركب مراكبه ، حتى كان يدعى موسى آبن فرعون ؛ فركب فرعون يوما وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف — قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر — ثم علم موسى بركوب فرعون ، فركب بعده ولحق بتلك القرية فى وقت

القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله آبن عباس . وقال أيضا : هو بين العشاء والعَتَمة . وقال آبن إسحق : بل المدينة مصر نفسها، وكان موسى فى هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام ، فدخل مدينة فرعون يوما على حين غفلة من أهلها . قال سعيد بن جبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام . وقال آبن زيد : كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبُعْد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد . وقال الضحاك : طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله ، فآستغفر ربه فغفر له . ويقال فى الكلام : دخلت المدينة حين غفل أهلها، ولا يقال: على حين غفل أهلها؛ فدخلت «على» فى هذه الآية لأن الغفلة هى المقصودة؛ فصار هذا كما تقول : جئت على غفلة، وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة ، وكذا الآية . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ والمعنى : إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته ؛ أى من بنى إسرائيل . ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى من قوم فرعون . ﴿ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى طلب نصره وغوثه، وكذا قال فى الآية بعدها : « فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ » أى يستغيث به على قبطىّ آخر . وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين فى الملل كلها على الأمم، وفرض فى جميع الشرائع . قال قتادة : أراد القبطىّ أن يُسَخِّر الإسرائيلى ليحمل حطبا لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فآستغاث بموسى . قال سعيد بن جبير : وكان خبازا لفرعون . ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ قال قتادة : بعصاه . وقال مجاهد : بكفه؛ أى دفعه . والوكز واللكز واللَّهز واللَّهد بمعنى واحد ، وهو الضرب بجُمْع الكفّ مجموعا كعقد ثلاثة وسبعين . وقرأ آبن مسعود : « فَلَكَزَهُ » . وقيل : اللّكز فى اللحى والوكز على القلب . وحكى الثعلبى أن فى مصحف عبد الله بن مسعود « فَنَكَزَهُ » بالنون والمعنى واحد . وقال الجوهرى عن أبى عبيدة : اللكز الضرب بالجُمْع على الصدر . وقال أبو زيد : فى جميع الجسد ، واللهز : الضرب بجُمْع اليد فى الصدر مثل اللّكز؛ عن أبى عبيدة أيضا . وقال أبو زيد : هو بالجُمْع فى اللَّهازِم والرقبة؛ والرجل مِلْهَز بكسر الميم .

وقال الأصمعي : نَكَزه؛ أي ضربه ودفعــه . الكسائي : نَهَزه مثل نَكَزه ووَكَزه ، أي ضربه ودفعه . ولَهَده لَهْدًا أي دفعه لذلّه فهو ملهود؛ وكذلك لَهّده؛ قال طَرَفة يذمّ رجلا :

بطيء عن الدّاعي سريع إلى الخنا(١) * ذَلُول بأَجْمَاعِ الرجالِ مُلَهَّــدِ

أي مُدفَّع وإنمــا شدّد للكثرة . وقالت عائشة رضي الله عنها : فلَهَدَني — تعني النبي صــلى الله عليه وسلم — لَهْدَة أوجعني ؛ خرجه مســلم . ففعل موسى عليه الســلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه ، وهو معنى : « فَقَضَى عَلَيْهِ » . وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه [فقد](٢) قضيت عليه . قال(٣) :

* قَدْ عَضَّهُ فَقَضَى عليه الأَشْجَعُ *

﴿ قَالَ هَــذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي من إغوائه . قال الحسن : لم يكن يحلّ قتــل الكافر يومئذ في تلك الحال ؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال . ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ خبر بعد خبر . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ندم موسى عليه الســلام على ذلك الوكز الذي كان فيــه ذهاب النفس ، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبــه . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر؛ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفرله ، حتى أنه في القيامة يقول : إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها . وإنما عدده على نفســه ذنبا . وقال : « ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضا فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم . قال النقاش(٤) : لم يقتله عن عمد مريدا للقتل ، وإنمــا وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه . قال وقد قيل : إن هذا كان قبــل النبوّة . وقال كعب : كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ، وكان قتــله مع ذلك خطأ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل . وروى مســلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياأهل العراق! ما أسألكم عن الصغيرة، وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت

(١) ويروى : « عن الجلى » . والذلول ضــدّ الصعب . ويروى : « ذليل » . وأجماع جمع (جمع) وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . (٢) من ك . (٣) هو جرير . والأشجع يريد به الشجاع من الحيات . وصدر البيت :

* أيفايشون وقد رأوا حفاثهم *

(٤) في ك : النحاس .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الفتنة تجيء من هاهنا — وأومأ بيده نحو المشرق — من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » " .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » أى من المعرفة والحكم والتوحيد « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » أى عونا للكافرين . قال القشيرى : ولم يقل بما أنعمت علىّ من المغفرة؛ لأن هذا قبل الوحى، وما كان عالما بأن الله غفر له ذلك القتل . وقال الماوردى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » فيه وجهان : أحدهما — من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوى والثعلبى . قال المهدوى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » من المغفرة فلم تعاقبنى(١) . الوجه الثانى — من الهداية .

قلت : [قوله](٢) « فَغَفَرَ لَهُ » يدل على المغفرة؛ والله أعلم . قال الزمخشرى قوله تعالى : « بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ » يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف تقديره؛ أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة لأتوبن « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » . وأن يكون آستعطافا كأنه قال : رب آعصمنى بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة فلن أكون إن عصمتنى ظهيرا للجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وآنتظامه فى جماته ، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى آبن فرعون ؛ وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلىّ المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له قتله . وقيل : أراد إنى وإن أسأت فى هذا القتل الذى لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيلى مؤمنا ونصرة المؤمن(٣) واجبة فى جميع الشرائع . وقيل فى بعض الروايات : إن ذلك الإسرائيلى كان كافرا ، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيليا ولم يرد الموافقة فى الدين ، فعلى هذا ندم لأنه أعان كافرا على كافر، فقال : لا أكون بعدها ظهيرا للكافرين . وقيل : ليس هذا خبرا بل هو دعاء؛ أى فلا أكون بعد هذا ظهيرا؛ أى فلا تجعلنى يا رب ظهيرا للجرمين . وقال الفراء :

---

(١) فى ك : فلن أعين بعدها مجرما . (٢) من ك . (٣) فى ك : المؤمنين .

المعنى، اللهم فلن أكون ظهيرا للمجرمين، وزعم أن قوله هذا هو قول ابن عباس. قال النحاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام، كما يقال[1]: لا أعصيك لأنك أنعمت علىّ؛ وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء؛ لأن آبن عباس قال: لم يستثن فآبتلى من ثانى يوم؛ والآستثناء لا يكون فى الدعاء، لا يقال: اللهم آغفر لى إن شئت؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن آبن عباس هذا ثم حكى عنه قوله.

قلت: قد مضى هـذا المعنى ملخصا مبيّنا فى سورة « النمـل »[2] وأنه خبر لا دعاء. وعن ابن عبـاس: لم يستثن فآبتلى به مرة أخرى؛ يعنى لم يقل فلن أكون إن شاء الله. وهـذا نحو قوله: « وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا »[3].

الثانيـة — قال سلمة بن نُبَيط: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال: أعطهم؛ فقال: أعفنى؛ فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئا؟ وقال: لا أحب أن أعين الظلمة على شىء من أمرهم. وقال عبيد الله بن الوليد الوَصَّافى[4] قلت لعطاء بن أبى رَبَاح: إن لى أخا يأخذ بقلمه، وإنما يحسب ما يدخل ويخرج، وله عيال ولو ترك ذلك لاحتـاج وآدّانَ؟ فقال: مَن الرأس؟ قلت: خالد بن عبد الله القَسْرى؛ قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: « رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ » قال آبن عباس: فلم يستثن فآبتلى به ثانيـة فأعانه الله، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينـه — قال عطـاء: فلا يحلّ لأحد أن يعين ظالمـا ولا يكتب له ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين. وفى الحديث: "ينادى مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمـة حتى من لَاقَ لهم دَوَاة أو بَرَى لهم قلما فيُجمعون فى تابوت من حديد فيرمى به فى جهنم". ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبّت الله قدميـه على الصراط يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَض فيه الأقدام". وفى الحديث: "من مشى مع ظالم فقد أجرم" فالمشى مع الظالم لا يكون جرما

(١) فى ك: كأنه قال. (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء فما بعد.
(٣) راجع جـ ٩ ص ١٠٧ فما بعد. (٤) فى الأصول: عبد الله والتصويب من التاج والتهذيب.

إلا إذا مشى معه ليعينه ، لأنه آرتكب نهى الله تعالى فى قوله سبحانه وتعالى : « وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »(١) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ قد تقدم فى « طه »(٢) وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون ؛ ردًّا على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافى المعرفة بالله ولا التوكل عليه ؛ فقيل : أصبح خائفا من قتل النفس أن يؤخذ بها . وقيل : خائفا من قومه أن يسلموه . وقيل : خائفا من الله تعالى . ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدّث به الناس . وقال قتادة : « يَتَرَقَّبُ » أى يترقب الطلب . وقيل : خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطى غير الإسرائيلى . و « أَصْبَحَ » يحتمل أن يكون بمعنى صار ؛ أى لما قتل صار خائفا . ويحتمل أن يكون دخل فى الصباح ؛ أى فى صباح اليوم الذى يلى يومه . و « خَائِفًا » منصوب على أنه خبر «أصبح» ، وإن شئت على الحال ، ويكون الظرف فى موضع الخبر . ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى خلّصه بالأمس يقاتل قبطيا آخر أراد أن يسخره . والاستصراخ الاستغاثة . وهو من الصراخ ؛ وذلك لأن المستغيث يصرخ ويصوّت فى طلب الغَوْث(٣) . قال :

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ ‏ * ‏ كَانَ الصُّراخُ له قرعَ الظَّنَابِيب

قيل : كان هذا الإسرائيلىّ المستنصر السامرىّ آستسخره طباخ فرعون فى حمل الحطب إلى المطبخ ؛ ذكره القشيرى . و « الَّذِي » رفع بالابتداء و « يَسْتَصْرِخُهُ » فى موضع الخبر . ويجوز أن يكون فى موضع نصب على الحال . وأمس لليوم الذى قبل يومك ، وهو مبنى على الكسر لالتقاء الساكنين ، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين . ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام . وحكى سيبويه وغيره أن

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٧ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٠٢ .

(٣) هو سلامة بن جندل . والظنابيب (جمع ظنبوب) : وهو حرف العظم اليابس من الساق . والمراد سرعة الإجابة .

من العرب من يجرى أمس مجرى ما لا ينصرف فى موضع الرفع خاصة، وربما آضطر الشاعر ففعل هذا فى الخفض والنصب ؛ قال الشاعر :

* لقد رأيتُ عجبًـا مُذْ أَمْس *

فخفض بمذ ما مضى واللغــة الجيدة الرفع ؛ فأجرى أمس فى الخفض مجراه فى الرفع على اللغــة الثانية . ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ والغوىّ الخائب؛ أى لأنك تشادّ من لا تطيقه . وقيــل : مضلّ بيّن الضلالة ؛ قتلت بسببك أمس رجلا ، وتدعونى اليوم لآخر . والغوىّ فعيــل من أغوى يُغْــوى، وهو بمعنى مُغْــوٍ؛ وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجِــع والمؤلم . وقيل : الغوىّ بمعنى الغــاوى . أى إنك لغوىّ فى قتال من لا تطيق دفع شره عنــك . وقال الحسن : إنما قال للقبطىّ : « إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » فى آستسخار هذا الإسرائيلىّ وهمّ أن يبطش به . يقال: بَطَش يَبْطُش ويبطِش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى . ﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي ﴾ قال آبن جبــير . أراد موسى أن يبطش بالقبطىّ فتــوهم الإسرائيلىّ أنه يريده؛ لأنه أغلظ له فى القول؛ فقال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » فسمع القبطىّ الكلام فأفشاه . وقيــل : أراد أن يبطش الإسرائيلىّ بالقبطىّ فنهــاه موسى فخاف منه؛ فقــال : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ » . ﴿ إِنْ تُرِيدُ ﴾ أى ما تريد . ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قتالا؛ قال عكرمة والشعبى : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين بغير حق . ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ أى من الذين يصلحون بين النــاس .

قوله تعــالى : وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون؛ ذكره الثعلبيّ . وقيل : طالوت ؛ ذكره السهيليّ . وقال المهدويّ عن قتادة : شمعون مؤمن آل فرعون . وقيل : شمعان؛ قال الدّارَقُطْنِيّ : لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . وروى أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر؛ فـ﴿ قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي يتشاورون في قتلك بالقبطيّ الذي قتلته بالأمس . وقيل : يأمر بعضهم بعضا . قال الأزهريّ : ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضا؛ نظيره قوله : «وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ»(١) . وقال النمر بن تولب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمةً * وفي كل حادثة يُؤْتَمَر

﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي ينتظر الطلب . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقيل : الجبار الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن . وقيل : المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فارّا بنفسه منفردا خائفا ، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، للنّسب الذي بينه وبينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخلوه من زاد وغيره ، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : «عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» وهذه حالة المضطر .

قلت : روى أنه كان يتقوّت ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفّ قدميه . قال أبو مالك : وكان فرعون وجّه في طلبه وقال لهم : اطلبوه في ثنيات الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق . فجاءه ملك راكبا فرسا ومعه عنزة ، فقال لموسى : اتبعني فاتبعه فهداه إلى الطريق، فيقال : إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه . ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين . وهو أكثر وأصح . قال مقاتل والسّدي : إن الله بعث إليه جبريل ؛ فالله أعلم . وبين مدين ومصر ثمانية أيام؛ قاله ابن جبير والناس . وكان مُلْك مدين لغير فرعون .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٦٩ .

قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أى بلغها . ووروده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه . ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول فى المورود ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه و إن لم يدخل . فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه ؛ ومنه قول زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ * وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ [1]

(١) تقدم شرح هذا البيت فى هامش جـ ١١ ص ١٣٧ .

وقد تقدّمت هــذه المعانى فى قوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »[(١)] . ومدين لا تنصرف إذ هى بلدة معروفة .

قال الشاعر[(٢)] :

رُهبانُ مدينَ لو رأوكِ تنزّلُوا * والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ

وقيل : قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقد مضى القول فيه فى « الأعراف »[(٣)] . والأمة : الجمع الكثير . و ﴿يَسْقُونَ﴾ معناه ماشيتهم . و ﴿مِنْ دُونِهِمُ﴾ معناه ناحية إلى الجهة التى جاء منها ، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمّة ، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان ، ومنه قوله عليه السلام : " فَلَيُذَادَنَّ[(٤)] رجالٌ عن حوضى " وفى بعض المصاحف : « آمرأتين حابستين تذودان » يقال : ذاد يذود إذا [حبس][(٥)] . وذُدت الشىء حبسته ؛ قال الشاعر[(٦)] :

أَبِيت على باب القَــوَافِى كأنّمــا * أَذُودُ بها سِرْبًا من الوحشِ نُزَّعَا

أى أحبس وأمنع . وقيل : « تَذُودَانِ » تطردان ؛ قال[(٧)] :

لقــد سَلبتْ عصاكَ بنو تميم * فمــا تَدْرِى بأىِّ عصًا تَذُودُ

أى تطرد وتكفّ وتمنع . آبن سلام : تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس ؛ فحذف المفعول : إما إيهاما على المخاطب ، وإما آستغناء بعلمه . قال آبن عباس : تذودان غنمهما عن المــاء خــوفا من السقاة الأقوياء . قتادة : تذودان النــاس عن غنمهما ؛ قال النحاس : والأوّل أَوْلى ؛ لأن بعده « قَالَتَــا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » ولو كانتا تذودان عن غنمهما النــاس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء . فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى شأنكما ؛ قال رؤبة .

* يا عَجَبًا ما خَطْبُه وخَطبِى *

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٣١ فما بعد . (٢) هو جرير . والعصم (جمع الأعصم) : وهو من الظباء الذى فى ذراعه بياض ، وقيل : فى ذراعيه ، والفادر : المسن منها . وقيل : العظيم . ويروى : « من شعف العقول » . وقبله :

يا أمّ طلحة ما لقينا مثلكم * فى المنجدين ولا بغور الغائر

(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ . (٤) فليذادن ، أى ليطردن . ويروى : " فلا تذادن " أى لا تفعلوا فعلا يوجب طردكم عنه ، قال ابن الأثير : والأولى أشبه . (٥) فى الأصول : « إذا ذهب » وهو تحريف . (٦) هو سويد بن كراع يذكر تنقيحه شعره . (٧) هو جرير يهجو الفرزدق .

ٱبن عطية : وكان ٱستعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب ، أومضطهد ، أومن يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر ؛ فأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخ كبير؛ فالمعنى : لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأن عادتهما التأني حتى يُصدِر الناسُ عن الماء ويخلى ؛ وحينئذ تَرِدان . وقرأ ٱبن عامر وأبو عمرو : « يَصْدُرَ » من صَدَرَ، وهو ضد وَرَدَ أي يرجع الرِّعاء . والباقون «يُصْدِرَ» بضم الياء من أصدر ؛ أي حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم . والرِّعاء جمع راع ؛ مثل تاجر وتِجار ، وصاحب وصِحاب . قالت فرقة : كانت الآبار مكشوفة ، وكان زَحْم الناس يمنعهما ، فلما أراد موسى أن يسقي لهما زَحَم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى ، فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوة . وقالت فرقة : إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصَّهاريج ، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما ، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما ، فرَقَّ لهما موسى ، فعمد إلى بئر كانت مغطّاة والناس يسقون من غيرها ، وكان حَجَرها لا يرفعه إلا سبعة ، قاله ٱبن زيد . ابن جريج : عشرة . ابن عباس : ثلاثون . الزجاج : أربعون ؛ فرفعه . وسقى للمرأتين ؛ فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة . وقيل : إن بئرهم كانت واحدة ، وأنه رفع عنها الحجر بعد ٱنفصال السقاة ، إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات . روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما ٱستقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال، فجاء موسى فاقتلعها وٱستقى ذَنُوبا واحدا لم تحتج إلى غيره فسقى لهما .

الثانيــة ــ إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لٱبنتيه بسقي الماشية ؟ قيل له : ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه؛ وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك ، والعادة متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر ، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ إلى ظل سَمُرة (١) ؛ قاله ٱبن مسعود . وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله : ﴿ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وكان لم يذق طعاما

(١) السمرة : شجرة صغيرة الورق ، قصيرة الشوك ، لها برمة صفراء يأكلها الناس .

سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: «إِنْ تَرَكَ خَيْرًا»(١) وقوله: «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ»(٢) ويكون بمعنى القوة كما قال: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ»(٣) ويكون بمعنى العبادة كقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»(٤) قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضرّ لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفي هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: «إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» أي إني لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنيني بك عمن سواك(٥).

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ في هذا الكلام اختصار يدلّ عليه هذا الظاهر؛ قدّره [ابن] إسحق(٦): فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه — وقيل الصغرى — أن تدعوه له، «فجاءت» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سلفعا(٧) من النساء، خرّاجة ولاجة. وقيل: جاءته ساترة وجهها بكم درعها؛ قاله عمر بن الخطاب. وروى أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أخي شعيب، وأن شعيبا كان قد مات. وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن، قال الله تعالى: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا»(٨) كذا في سورة «الأعراف» وفي سورة الشعراء: «كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» قال قتادة: بعث الله تعالى شعيبا إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلاف في اسم أبيه. فروى أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبت ريح فضمت قميصها فوصفت عجيزتها، فتحرج موسى من النظر

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥٧ فما بعد. (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٦٢ فما بعد.
(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٤٤. (٤) راجع جـ ١١ ص ٣٠٤ فما بعد.
(٥) في ك: أبديت. (٦) في الأصول: أبو إسحق والتصويب عن تفسير ابن عطية والطبري.
(٧) السلفع من النساء: الجريئة على الرجال. (٨) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ فما بعد.

إليها فقال: ٱرجعى [خلفى] وأرشدينى إلى الطريق بصوتك. وقيل: إن موسى قال ابتداء: كونى ورائى فإنى رجل عبرانىّ لا أنظر فى أدبار النساء، ودلّينى على الطريق يمينا أو يسارا؛ فذلك سبب وصفها [له] بالأمانة؛ قاله ٱبن عباس. فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فآنسه بقوله: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون. وقرب إليه طعاما فقال موسى: لا آكل؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا؛ فقال شعيب: ليس هذا عوض السقى، ولكن عادتى وعادة آبائى قِرى الضيف، وإطعام الطعام؛ فحينئذ أكل موسى.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت فى كل ملة، وهى من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافا للأصم حيث كان عن سماعها أصم.

السادسة — قوله تعالى: ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ ﴾ الآية. فيه عرض الولىّ بنته على الرجل؛ وهذه سنة قائمة؛ عرض صالح مدين ٱبنته على صالح بنى إسرائيل، وعرض عمر ابن الخطاب ٱبنته حفصة على أبى بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، ٱقتداء بالسلف الصالح. قال ٱبن عمر: لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان: إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر؛ الحديث ٱنفرد بإخراجه البخارى.

السابعة — وفى هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولىّ لا حظّ للمرأة فيه؛ لأن صالح مدين تولاه، وبه قال فقهاء الأمصار. وخالف فى ذلك أبو حنيفة. وقد مضى.

الثامنة — هذه الآية تدلّ على أن للأب أن يزوّج ٱبنته البكر البالغ من غير ٱستئمار، وبه قال مالك وٱحتج بهذه الآية، وهو ظاهر قوىّ فى الباب، وٱحتجاجه بها يدلّ على أنه كان يعوّل على الإسرائيليات؛ كما تقدّم. وبقول مالك فى هذه المسألة قال الشافعى وكثير من العلماء. وقال أبو حنيفة: إذا بلغت الصغيرة فلا يزوّجها أحد إلا برضاها؛ لأنها بلغت

(١) من ب وط وك.

حدّ التكليف ؛ فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوّجها بغير رضاها لأنه لا إذن لها ولا رضا ؛ بغير خلاف .

التاسعة — آستدل أصحاب الشافعي بقوله : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ » على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح . وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد[(1)] وداود ومالك على آختلاف عنه . وقال علماؤنا في المشهور : ينعقد النكاح بكل لفظ . وقال أبو حنيفة : ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد ؛ أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم . وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن ابن حيّ فقالوا : ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية ، قالوا : فكذلك النكاح . قالوا : والذي خصّ به النبي صلى الله عليه وسلم تعرى البُضع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة ، وتابعهم ابن القاسم فقال : إن وهب آبنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئا ، وهو عندي جائز كالبيع . قال أبو عمر : الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة ، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شيء من الأموال . وأيضا فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه ، وهو ضدّ الطلاق فكيف يقاس عليه ! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله : أبحت لك وأحللت [لك][(2)] فكذلك الهبة . وقال صلى الله عليه وسلم : "آستحللتم فروجهنّ بكلمة الله" يعني القرآن ، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة ، وإنما فيه التزويج والنكاح ، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ يدلّ على أنه عرض لا عقد ؛ لأنه لو كان عقدا لعين المعقود عليها له ؛ لأن العلماء وإن كانوا قد آختلفوا في جواز البيع إذا قال : بعتك أحد عبديّ هذين بثمن كذا ؛ فإنهم آتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح ؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح .

الحادية عشرة — قال مكيّ : في هذه الآية خصائص في النكاح ؛ منها أنه لم يعين الزوجة ولا حدّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينقد شيئا .

(1) في ط و ك : أبو عبيدة . (2) من ب و ط و ك .

قلت : فهذه أربع مسائل تضمنتها المسألة الحادية عشرة .

الأولى — من الأربع مسائل [التعيين](١)، قال علماؤنا : أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المراوضة، وإنما عرض الأمر مجملا، وعيّن بعد ذلك . وقد قيل : إنه زوّجه صفوريا وهي الصغرى . يروى عن أبي ذرّ قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت : « يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ » " . قيل : إن الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها؛ لأنه رآها في رسالته، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الآختيار وهو يضمر غيره . وقيل غير هذا ؛ والله أعلم . وفي بعض الأخبار أنه تزوّج بالكبرى ؛ حكاه القشيري .

الثانيـــة — وأما ذكر أوّل المدّة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه ؛ فإمّا رسماه ، وإلا فهو من أوّل وقت العقد .

الثالثـــة — وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرّره شرعنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن؛ رواه الأئمة ؛ وفي بعض طرقه : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماتحفظ من القرآن " فقال : سورة البقرة والتي تليها ؛ قال : " فعلمها عشرين آية وهي آمرأتك " . وآختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فكرهه مالك، ومنعه آبن القاسم ، وأجازه آبن حبيب؛ وهو قول الشافعي وأصحابه ؛ قالوا : يجوز أن تكون منفعة الحرّ صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن . وقال أبو حنيفة : لا يصح ؛ وجوّز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سـنة ؛ لأن العبد والدار مال ؛ وليس خدمتها بنفسه مالا . وقال أبو الحسن الكرخي : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى : « فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ »(٢) . وقال أبو بكر الرازي : لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان . وقال آبن القاسم : ينفسخ قبل البناء ويثبت بعـده .

(١) من ك .	(٢) راجع جـ ٥ ص ١٢٠ فما بعد .

وقال أصبغ : إن نقد معــه شيئا ففيه آختلاف ، وإن لم ينقــد فهو أشد ، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصــة شعيب ؛ قاله مالك وآبن المــوّاز وأشهب . وعــوّل على هــذه الآية جمــاعة من المتأخرين والمتقدمين فى هــذه النازلة ؛ قال آبن خوَيْزِ مَنْدَاد . تضمّنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح ،ويكره أن تجعل الإجارة مهرا ، وينبغى أن يكون المهر مالآ كما قال عز وجل : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ »(١) . هذا قول أصحابنا جميعا .

الرابعــة ــ وأما قوله : ودخل ولم ينقد فقد آختلف الناس فى هذا؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر ؟ فإن كان حين عقد فماذا نقد ؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار ؛ قاله ابن القاسم . فإن دخل قبل أن ينقد مضى ، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا : تعجيل الصداق أو شىء منه مستحب . على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع فى الخدمة ؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الآنتظار فى النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط . [وأما إن كان بشرط](٢) فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحا مثل التأهب للبناء أو آنتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة ؛ نص عليه علماؤنا .

الثانية عشرة ــ فى هــذه الآية آجتماع إجارة ونكاح ، وقد آختلف علمــاؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال : الأول ــ قال فى ثمانيــة أبى زيد : يكره آبتــداء فإن وقع مضى . الثانى ــ قال مالك وآبن القاسم فى المشهور : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعــده ؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينــة . الثالث ــ أجازه أشهب وأصبغ . قال آبن العربى : وهذا هو الصحيح وعليه تدلّ الآية ؛ وقد قال مالك النكاح أشــبه شىء بالبيوع ، فأى فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح .

فرع ــ وإن أصدقها تعليم شعر مباح صحّ ؛ قال المزنى : وذلك مثــل قول الشاعر :

يقول العبــد(٣) فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما آستفادا

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها خمرا أو خنزيرا .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٥ فما بعد . (٢) من ب وك . (٣) فى ب وك : المرء .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقا وقال مالك إنه جائز ويحمل على العرف ، فلا يحتاج فى التسمية إلى الخدمة ، وهو ظاهر قصة موسى ، فإنه ذكر إجارة مطلقة . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول وقد ترجم البخارى : «باب من آستأجر أجيرا فبين له الأجل ولم يبين له العمل» لقوله تعالى : « عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ » . قال المهلب : ليس كما ترجم ؛ لأن العمل عندهم كان معلوما من سقى وحرث ورعى وما شاكل أعمال البادية فى مهنة أهلها ، فهذا متعارف وإن لم يبين له أشخاص الأعمال ولا مقاديرها ؛ مثل أن يقول له : إنك تحرث كذا من السنة ، وترعى كذا من السنة ، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية ، وإنما الذى لا يجوز عند الجميع أن تكون المدة مجهولة ، والعمل مجهول غير معهود(١) لا يجوز حتى يعلم . قال آبن العربى : وقد ذكر أهل التفسير أنه عين له رعية الغنم ، ولم يرو من طريق صحيحة ، ولكن قالوا : إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم ، فكان ما عُلم من حاله قائما مقام التعيين للخدمة فيه .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعى شهورا معلومة ، بأجرة معلومة ، لرعاية غنم معدودة ؛ فإن كانت معدودة معينة ، ففيها تفصيل لعلمائنا ؛ قال آبن القاسم : لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت ، وهى رواية ضعيفة جدا ؛ وقد آستأجر صالح مدين موسى على غنمه ، وقد رآها ولم يشترط خلفا ؛ وإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت عند علمائنا . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تجوز لجهالتها ؛ وعوّل علماؤنا على العرف حسبما ذكرناه آنفا ؛ وأنه يعطى بقدر ما تحتمل قوته . وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوته ، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوة موسى برفع الحجر .

الخامسة عشرة — قال مالك : وليس على الراعى ضمان وهو مصدّق فيما هلك أو سرق ؛ لأنه أمين كالوكيل . وقد ترجم البخارى : « باب إذا أبصر الراعى أو الوكيل شاة تموت أو شيئا(٢) يفسد فأصلح ما يخاف الفساد » وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت

(١) فى ك : غير معلوم . (٢) فى ك : أو شاة .

لهم غنم ترعى بسَلْع(١) ، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتًا فكسرت حجرا فذبحتها به ، فقال لهم : لا تأكلوا حتى أسأل النبي — أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله — وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم — أو أرسل إليه — فأمره بأكلها ؛ قال عبد الله : فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت . قال المهلّب : فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما آئتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب ؛ وهذا قول مالك وجماعة . وقال آبن القاسم : إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة . وقال غيره : يضمن حتى يبين ما قال .

السادسة عشرة — وآختلف آبن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت ؛ فقال آبن القاسم : لا ضمان عليه ؛ لأن الإنزاء من إصلاح المال ونمائه . وقال أشهب : عليه الضمان ؛ وقول آبن القاسم أشبه بدليل حديث كعب ، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه بآجتهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، وممن يعلم إشفاقه على المال ؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعل ؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتًا لما عرف(٢) من فسقه .

السابعة عشرة — لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام ؛ ولكن روى يحيى بن سلّام أن صالح مدين جعل لموسى كل سخلة توضع خلاف لون أمها ، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلّهن . وقال غير يحيى : بل جعل له كل بلقاء تولد له ، فولدن له كلهن بُلْقا . وذكر القُشيري أن شعيبا لما آستأجر موسى قال له : آدخل بيت كذا وخذ عصا من العصيّ التي في البيت ، فأخرج موسى عصا ، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعيب ، فأمره شعيب أن يلقيها في البيت ويأخذ عصا أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك ، فعلم شعيب أن له شأنا ؛ فلما أصبح قال له : سق الأغنام إلى مفرق الطريق ، فخذ عن يمينك

(١) سلع : جبل بالمدينة . (٢) في ك : علم .

وليس بها عشب كثير ، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشبا كثيرا وتِنّينا كبيرا لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق ، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها ، فنام موسى وخرج التِّنين ، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديدا وحاربت التِّنين حتى قتلته ، وعادت إلى موسى عليه السلام ، فلما انتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتِّنين مقتولا ، فعاد إلى شعيب عشاء ، وكان شعيب ضريرا فمس الأغنام ، فإذا ، أثر الخصب بادٍ عليها ، فسأله عن القصة فأخبره بها ، ففرح شعيب وقال : كل ما تلد هذه المواشي هذه السنة قالِب لونٍ — أى ذات لونين — فهولك ؛ فجاءت جميع السخال تلك السنة ذات لونين ، فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة . وروى عُيَيْنة بن حِصن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه" فقال له شعيب لك منها — يعني من نتاج غنمه — ما جاءت به قالب لون ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ[1] . قال الهروى : العزوز البكيئة ؛ مأخوذ من العَزَاز وهى الأرض الصلبة ، وقد تعززت الشاة . والفَشُوش التى يَنْفَش لبنُها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل ، ومثله الفَتوح والثَرُورُ . ومن أمثالهم : (لَأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الوَطْبِ) أى لأخرجن غضبك وكبرك من رأسك . ويقال : فَشَّ السِّقاءَ إذا أخرج منه الريح . ومنه الحديث : " إن الشيطان يَفُش بين أَلْيَتَيْ أحدكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث " أى ينفخ نفخا ضعيفا . والكَمُوش : الصغيرة الضرع ، وهى الكميشة أيضا ؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه ؛ ومنه يقال : رجل كميش الإزار . والكَشُودُ مثل الكَموش . والضَّبُوبُ الضيقة ثقب الإحليل . والضَّبُّ الحَلْب بشدّة العصر . والثَّعُولُ الشاة التى لها زيادة حلمة وهى الثعل . والثَّعل زيادة السنّ ، وتلك الزيادة هى [الرَّاءولُ[2]] . ورجل أثعل . والثعل [ضيق[3]] مخرج اللبن . قال الهروى : وتفسير قالب لون فى الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها .

(١) فى ب وط وك ولأصبوب مكشبة . ولم نجد له معنى . (٢) الزيادة من اللسان، وفى الأصول : « هى الثعل » ولعله تحريف ؛ إذ أن عبارة اللسان « وتلك السن الزائدة يقال لها الراءول » . (٣) زيادة يقتضيها المعنى . فى ب عبارة لم نجد لها وجها ؛ هى : الصبوب التى ضرعها مثل الموزتين .

الثامنة عشرة — الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز ؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة ، وإن من البلاد الخصبة ما يعلم ولاد الغنم فيها قطعا وعِدّتها وسلامة سخالها كديار مصر وغيرها ، بيد أن ذلك لا يجوز في شرعنا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغَرَر ، ونهى عن المضامين والملاقيح . والمضامين ما في بطون الإناث ، والملاقيح ما في أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر :

* مَلْقُوحَة في بطنِ نابٍ حامِلِ *

وقد مضى في سورة « الحِجر »(١) بيانه . على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع . وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه ؛ وبه قال أحمد .

التاسعة عشرة — الكفاءة في النكاح معتبرة ؛ واختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب ، أو في بعض ذلك . والصحيح جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »(٢) . وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عريانا فأنكحه ابنته لما تحقق [من دينه(٣)] ورأى من حاله ، وأعرض عما سوى ذلك . وقد تقدّمت هذه المسألة مستوعبة والحمد لله .

الموفية عشرين — قال بعضهم : هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذكرا لصداق المرأة ، وإنما كان اشتراطا لنفسه على ما يفعله الأعراب ؛ فإنها تشترط صداق بناتها ، وتقول : لي كذا في خاصة نفسي ، وترك المهر مفوّضا ؛ ونكاح التفويض جائز . قال ابن العربي : هذا الذي تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام لا يليق بالأنبياء ؛ فأما إذا اشترط الولي شيئا لنفسه ، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين : أحدهما — أنه جائز . والآخر — لا يجوز . والذي يصح عندي التقسيم ؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكرا أو ثيبا ؛ فإن كانت ثيبا جاز ؛ لأن نكاحها

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٧ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٠ فما بعد .

(٣) الزيادة من « أحكام القرآن لابن العربي » .

بيدها ، و إنمـا يكون للولىّ مباشرة العقد ، ولا يمتنع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع . و إن كانت بكرا كان العقد بيـده ، وكأنه عوض فى النكاح لغـير الزوج وذلك باطل ؛ فإن وقع فُسِخ قبل البناء ، وثبت بعده على مشهور الرواية . والحمد لله .

الحـادية والعشرون ــ لمـا ذكر الشرط وأعقبه بالطوع فى العشر خرج كل واحد منهما على حكمه ، ولم يلحق الآخر بالأول ، ولا ٱشترك الفرض والطوع ؛ ولذلك يكتب فى العقود الشروط المتفق عليها ، ثم يقال وتطوّع بكذا ، فيجرى الشرط على سبيله ، والطوع على حكمه ، وٱنفصل الواجب من التطوّع . وقيـل : ومن لفظ شعيب حسن فى لفظ العقود فى النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتى بيـانه فى « الأحزاب »(١) . وجعـل شعيب الثمـانية الأعوام شرطا ، ووكل العاشرة إلى المروءة .

الثانيـــة والعشرون ــ قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ لمـا فرغ كلام شعيب قرّره موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثق فى أن الشرط إنمـا وقع فى ثمـان حِجج . و « أَيَّمَا » ٱستفهام منصوب بـ « قَضَيْتُ » و « الْأَجَلَيْنِ » مخفوض بإضافة « أى » إليهما و « ما » صلة للتأكيد وفيـه معنى الشرط وجوابه « فَلَا عُدْوَانَ » وأن « عدوان » منصوب بـ « لا » . وقال ٱبن كيسان : « ما » فى موضع خفض بإضافة « أى » إليها وهى نكرة و « الْأَجَلَيْنِ » بدل منها . وكذلك فى قوله : « فَبِمَا رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ »(٢) أى رحمة بدل من ما ؛ قال مكى : وكان يتلطف فى ألا يجعل شيئا زائدا فى القرآن ، ويخرج له وجها يخرجه من الزيادة . وقرأ الحسن : « أَيْمَـا » بسكون الياء . وقرأ ٱبن مسعود : « أَيَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ » . وقرأ الجمهور : « عُدْوَانَ » بضم العين . وأبو حَيْوة بكسرها ؛ والمعنى : لا تبعة علىّ ولا طلب فى الزيادة عليـه . والعدوان التجاوز فى غير الواجب ، والحجج السنون . قال الشاعر(٣) :

لمن الديار بِقنــة الحجــر * أقوين من حِجج ومن دهر

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٠٢ فـا بعد . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ .
(٣) هو زهير بن أبى سلمى . و يروى : ومن شهر .

الواحدة حجة بكسر الحاء . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قيل : هو من قول موسى . وقيل : هو من قول والد المرأة . فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما فى الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحدا من الخلق ، وقد آختلف العلماء فى وجوب الإشهاد فى النكاح ؛ وهى :

الثالثة والعشرون — على قولين : أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين . و به قال أبو حنيفة والشافعى . وقال مالك : إنه ينعقد دون شهود ؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّفّ . وقد مضت هذه المسألة فى « البقرة »[1] مستوفاة . وفى البخارى عن أبى هريرة : أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار فقال آيتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيدا ؛ فقال آيتنى بكفيل؛ فقال كفى بالله كفيلا . قال صدقت فدفعها إليه ؛ وذكر الحديث .

قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : سألنى رجل من النصارى أى الأجلين قضى موسى . فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله — يعنى آبن عباس — فقدمت عليه فسألته ؛ فقال : قضى أكلهما وأوفاهما . فأعلمت النصرانى فقال : صدق والله هذا العالم . وروى عن آبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سأل فى ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين . وحكى الطبرى عن مجاهد أنه قضى عشرا وعشرا بعدها ؛ [رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس][2] قال آبن عطية : وهذا ضعيف .

---

(١) راجع ج ٣ ص ٧٩ فما بعد . (٢) من ب .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل : فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء؛ لما لَهُ عليها من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمرا فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما آستحللتم به الفروج .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ الآية . تقدّم القول في ذلك في « طه »(١) . والجِذوة بكسر الجيم قراءة العامة، وضمها حمزة ويحيى، وفتحها عاصم والسُّلَمى وزرّ بن حُبيش . قال الجوهرى : الجِذْوة والجُذْوة والجَذْوَةُ الجمرة الملتهبة والجمع جِذًا وجُذًا وجَذًا . قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أى قطعة من الجمر؛ قال : وهى بلغة جميع العرب . وقال أبو عبيدة : والجِذوة مثل الجذمة وهى القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نار أو لم يكن . قال آبن مقبل :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا * جَزْلَ الجِذَا غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ(٢)

وقال :

وَأَلْقَى على قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جِذْوَةً * شَديدًا عليها حَمْيُها ولهيبُها(٣)

قوله تعالى : فَلَمَّآ أَتَـٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعنى الشجرة قدم ضميرها عليها . ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ ﴾ « مِن » الأولى والثانية لآبتداء الغاية ، أى أتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة . و « مِنَ الشَّجَرةِ » بدل من قوله : « مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ » بدل الاشتمال ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ، وشاطئ الوادى وشطه جانبه، والجمع شُطّان وشواطئ، ذكره القشيرى . وقال الجوهرى : ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع . وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطئ

(١) راجع جـ ١١ ص ١٧١ . (٢) الخوار هنا العود الذى يتقصف والدعر الذى إذا وضع على النار لم يستوقد ودخن . (٣) ويروى : * شديدا عليها حرها والتهابها *

ومشى هو على شاطىء آخر . ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ أى عن يمين موسى . وقيل : عن يمين الجبل . ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ وقرأ الأشهب العقيلى : « فِي الْبَقْعَةِ » بفتح الباء . وقولهم بِقاع يدلّ على بَقْعة ، كما يقال جَفْنة وجِفَان . ومن قال بُقْعة قال بُقَع مثل غُرْفة وغُرَف . ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أى من ناحية الشجرة . قيل : كانت شجرة العلّيق . وقيل : سَمُرة وقيل : عَوْسج . ومنها كانت عصاه ؛ ذكره الزمخشرى . وقيل : عُنّاب ، والعَوْسج إذا عظم يقال له الغَرْقَد . وفى الحديث : إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدّجال فلا يختفى أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت يامسلم هذا يهودى ورائى تعال فاقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق . خرجه مسلم . قال المهدوى : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء . ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفات المخلوقين . قال أبو المعالى : وأهل المعانى وأهل الحق يقولون مَن كلمه الله تعالى وخصّه بالرتبة العليا والغاية القصوى ، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات ، كما أن مَن خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته ، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه منزّها عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث ، ولا مثل له سبحانه فى ذاته وصفاته ، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه . قال الأستاذ أبو إسحق : آتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق فى موسى عليه السلام معنى من المعانى أدرك به كلامه كان آختصاصه فى سماعه ، وأنه قادر على مثله فى جميع خلقه . وآختلفوا فى نبينا عليه السلام هل سمع ليلة الإسراء كلام الله ، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود ، وآتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التى عرفوا بها معناه دون سماعه له فى عينه . وقال عبد الله آبن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها الله تعالى فى بعض الأجسام . قال أبو المعالى : وهذا مردود ؛ بل يجب آختصاص موسى

عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقا للعادة، ولو لم يُقَل ذلك لم يكن لموسى عليه السلام آختصاص بتكليم الله إياه . والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز، وخلق له علما ضروريا، حتى علم أن ماسمعه كلام الله، وأن الذي كلّمه وناداه هو الله رب العالمين . وقد ورد في الأقاصيص أن موسى عليه السلام قال : سمعت كلام ربي بجميع جوارحي، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتي . وقد مضى هذا المعنى في « البقرة »[(١)] مستوفى . ﴿ أَنْ يَامُوسَى ﴾ « أَنْ » في موضع نصب بحذف حرف الجر أي بـ « بأَنْ يَامُوسَى » . ﴿ إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ نفى لربوبية غيره سبحانه . وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسله؛ لأنه لا يصير[(٢)] رسولا إلا بعد أمره بالرسالة، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على « أَنْ يَامُوسَى » وتقدم الكلام في هذا في « النمل »[(٣)] و « طه »[(٤)] . و ﴿ مُدْبِرًا ﴾ نصب على الحال وكذلك موضع قوله : ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ نصب على الحال أيضا . ﴿ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ قال وهب : قيل له آرجع إلى حيث كنت . فرجع فلفّ دُرّاعته[(٥)] على يده، فقال له الملك : أرأيت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لَفُّك[(٦)] يدك ؟ قال : لا ولكني ضعيف خلقت من ضعف . وكشف يده فأدخلها في فم الحية فعادت عصا . ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ أي مما تحاذر .

قوله تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ . (٢) في ب : يعتبر . (٣) راجع ص ١٥٦ فما بعد من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١١ ص ١٨٥ . (٥) الدراعة : ضرب من الثياب التي تلبس . وقيل : جبة مشقوقة المقدم . (٦) في ب : ضعيف .

فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ الآية ؛ تقدّم القول فيه . ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ « من » متعلقة بـ « ـولّى » أى ولّى مدبرا من الرهب . وقرأ حفص والسُّلَمىّ وعيسى بن عمر وٱبن أبى إسحق : « مِنَ الرَّهْبِ » بفتح الراء و إسكان الهاء . وقرأ ٱبن عامر والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجزم الهاء . الباقون بفتح الراء والهـاء . وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعـالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا »[(١)] وكلهـا لغات وهو بمعنى الخـوف . والمعنى إذا هَالَك أمرُ يَدِك وشعاعها فأدخلها فى جيبك وٱرددها إليه تعد كما كانت . وقيل : أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية . عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك عن ٱبن عباس؛ قال فقال ٱبن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام، ثم يدخل يده فيضعها على صـدره إلا ذهب عنه الرعب . ويحـكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أن كاتبا كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض . فقال له عمر : خذ قلمك وٱضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك فإنى ما سمعتها من أحد أكثر ممـا سمعتها من نفسى . وقيـل : المعنى ٱضمم يدك إلى صـدرك ليذهب الله ما فى صـدرك من الخوف . وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون و إما من الثعبان . وضم الجناح هو السكون؛ كقوله تعـالى : « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَـةِ »[(٢)] يريد الرفق . وكذلك قوله : « وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »[(٣)] أى ٱرفق بهم . وقال الفراء : أراد بالجناح عصاه . وقال بعض أهل المعانى : الرهب الكُمّ بلغة حمير و بنى حنيفة . قال مقاتل : سألتنى أعرابية شيئا وأنا آكل فملأت الكف وأومأت إليها فقالت : ها هنا

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٣٦ فما بعد . (٢) راجع ١٠ ص ٢٤٣ فما بعد .
(٣) راجع ص ١٤٣ من هذا الجزء .

فى رهبى . تريد فى كُمّى . وقال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول لآخر أعطنى رهبك . فسألته عن الرهب فقال : الكُمّ ؛ فعلى هذا يكون معناه آضمم إليك يدك وأخرجها من الكُم ؛ لأنه تناول العصا و يده فى كمه وقوله : « ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » يدلّ على أنها اليد اليمنى ؛ لأن الجيب على اليسار . ذكره القشيرى .

قلت : وما فسروه من ضم اليد إلى الصدر يدلّ على أن الجيب موضعه الصدر . وقد مضى فى سورة « النور »[1] بيانه . الزمخشرى : ومن بدع التفاسير أن الرهب الكُم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطنى مما فى رهبك، وليت شعرى كيف صحته فى اللغة ! وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم، ثم ليت شعرى كيف موقعه فى الآية، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل ؛ على أن موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانِقَة[2] من صوف لا كمين لها . قال القشيرى : وقوله : « وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان . وقيل : « وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى شمر وآستعد لتحمل أعباء الرسالة .

قلت : فعلى هذا قيل « إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ » أى من المرسلين ؛ لقوله تعالى : « إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ »[3] . قال آبن بحر : فصار على هذا التأويل رسولا بهذا القول . وقيل : إنما صار رسولا بقوله : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ والبرهانان اليد والعصا . وقرأ آبن كثير : بتشديد النون وخففها الباقون . وروى أبو عمارة عن أبى الفضل عن أبى بكر عن آبن كثير، « فَذَانِّيكَ » بالتشديد والياء . وعن أبى عمرو أيضا قال لغة هذيل : « فَذَانِيكَ » بالتخفيف والياء . ولغة قريش « فَذَانِكَ » كما قرأ أبو عمرو وآبن كثير . وفى تعليله خمسة أقوال : قيل شدّد النون عوضا من الألف الساقطة فى ذانك الذى هو تثنية ذا المرفوع، وهو رفع بالابتداء، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأن أصله فذانك فحذف الألف الأولى عوضا من النون الشديدة . وقيل :

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٣١ . (٢) الزرمانقة : جبة من صوف، وهى عجمية معربة .
(٣) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام فى ذلك . مكى : وقيل إن من شدّد إنما بناه على لغة من قال فى الواحد ذلك ، فلما بنى أثبت اللام بعد نون التثنية ، ثم أدغم اللام فى النون على حكم إدغام الثانى فى الأول ، والأصل أن يدغم الأول أبدا فى الثانى ، إلا أن يمنع من ذلك علة فيدغم الثانى فى الأول ، والعلة التى منعت فى هذا أن يدغم الأول فى الثانى أنه لو فعل ذلك لصار فى موضع النون التى تدل على التثنية لام مشددة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثانى فى الأول لذلك ، فصار نونا مشددة . وقد قيل : إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأول فى الثانى على أصول الإدغام فصار نونا مشددة . وقيل : شددت فرقا بينها وبين الظاهر التى تسقط الإضافة نونه ؛ لأن ذان لا يضاف . وقيل : للفرق بين الاسم المتمكن وبينها . وكذلك العلة فى تشديد النون فى « اللذان » و « هـذان » . قال أبو عمرو : إنما آختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلة حروفه فقرأه بالتثقيل . ومن قرأ : « فَذَانِيكَ » بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده « فَذَانِّكَ » بالتشديد فأبدل من النون الثانية ياء كراهية التضعيف ، كما قالوا : لا أملاه فى لا أَمَلُّه فأبدلوا اللام الثانية ألفا . ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ يعنى معينا مشتق من أردأته أى أعنته . والردء العون . قال الشاعر :

ألم تر أنّ أصرم كان ردئى * وخيرَ النـاس فى قُلٍّ ومال

النحاس : وقد أردأه ورداه أى أعانه ؛ وترك همزه تخفيفا . وبه قرأ نافع : وهو بمعنى المهموز . قال المهدوى : ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أُردى على المائة أى زاد عليها ، وكأن المعنى أرسله معى زيادة فى تصديق . قاله مسلم بن جندب . وأنشد قول الشاعر :

وأسمـر خَطِّيًّا كأنّ كُعوبَه * نوى القَسْب قد أردَى ذراعا على العَشْر

كذا أنشد الماوردى هذا البيت : قـد أردى . وأنشده الغزنوى والجوهرى فى الصحاح قد أرمى[1] ؛ قال : والقسب الصلب ، والقسب تمر يابس يتفتت فى الفم صلب النواة . قال

(١) أرمى وأربى لغتان .

يصف رمحا : وأسمر . البيت . قال الجوهرى : ردؤ الشيء يردؤ رداءة فهو ردىء أى فاسد، وأردأته أفسدته، وأردأته أيضا بمعنى أعنته؛ تقول : أردأته بنفسى أى كنت له رِدءا وهو العون . قال الله تعالى : « فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي » . قال النحاس : وقد حكى ردأته : رِدءا وجمع ردءٍ أَرْدَاءٌ . وقرأ عاصم وحمزة : « يُصَدِّقُنِي » بالرفع . وجزم الباقون ؛ وهو آختيار أبى حاتم على جواب الدعاء . وآختار الرفع أبو عبيد على الحال من الهاء فى « أَرْسِلْهُ » أى أرسله ردءا مصدّقا حالة التصديق ؛ كقوله : « أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ »(1) أى كائنة ؛ حال صرف إلى الآستقبال . ويجوز أن يكون صفة لقوله : « رِدْءًا » . ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ إذا لم يكن لى وزير ولا معين ؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عنى ، فـ ﴿ قَالَ ﴾ الله جل وعز له : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أى نقويك به ؛ وهذا تمثيل ؛ لأن قوّة اليد بالعضد . قال طَرَفة :

بَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بيـد * إلّا يدًا ليست لها عَضد

ويقال فى دعاء الخير: شدّ الله عضدك . وفى ضدّه : فتّ الله فى عضدك . ﴿ وَيَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى حجة و برهانا . ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بالأذى ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى تمتنعان منهم « بِآيَاتِنَا » فيجوز أن يوقف على « إِلَيْكُمَا » ويكون فى الكلام تقديم وتأخير . وقيل : التقدير « أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » بآياتنا . قاله الأخفش والطبرى . قال المهدوى : وفى هذا تقديم الصلة على الموصول ، إلا أن يقدّر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن آتبعكما الغالبون . وعنى بالآيات سائر معجزاته .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم

(1) راجع جـ ٦ ص ٣٦٧ فما بعد .

مَّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّى
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى ظاهرات واضحات ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ مكذوب مختلق ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ . وقيل : إن هذه الآيات ما ٱحتج به موسى فى إثبات التوحيد من الحجج العقلية . وقيل : هى معجزاته .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ قراءة العامة بالواو . وقرأ مجاهد وٱبن كثير وٱبن محيصن : « قَالَ » بلا واو ؛ وكذلك هو فى مصحف أهل مكة . ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ أى بالرشاد . ﴿ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما : « يكون » بالياء والباقون بالتاء . وقد تقدم هذا . ﴿ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى دار الجزاء . ﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ قال ٱبن عباس : كان بينها و بين قوله : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى »(1) أربعون سنة ، وكذب عدوّ الله بل علم أن له ثَمَّ ربًّا هو خالقه وخالق قومه . « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »(2) . قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ أى ٱطبخ لى الآجرّ ؛ عن ٱبن عباس رضى الله عنه . وقال قتادة : هو أوّل من صنع الآجرّ و بنى به . ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال — قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء — وأمر بطبخ الآجرّ والجص ، ونشر الخشب ،

(1) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٠ . (2) راجع جـ ١٤ ص ٧٥ فما بعد .

وضرب المسامير ، فبنوا ورفعوا البناء وشيّدوه بحيث لم يبلغه بنيان منـذ خلق الله السموات والأرض ، فكان البانى لا يقدر أن يقوم على رأسـه ، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه . فحكى السدّى : أن فرعون صعد السطح ورمى بنُشّابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء، فقال قد قتلت إله موسى . فروى أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته ، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع ؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة فى البحر، وقطعة فى الغرب ، وهلك كل من عمل فيـه شيئا . والله أعلم بصحة ذلك . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ الظن هنا شك ، فكفر على الشك ؛ لانه قد رأى من البراهين ما لا يُخِيـل(١) على ذى فطرة .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أى تعظّم ﴿ هُوَ وَجُنُـودُهُ ﴾ أى عن الإيمـان بموسى . ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَـقِّ ﴾ أى بالعـدوان ، أى لم تكن له حجـة تدفع ما جاء به موسى . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى توهموا أنه لا معاد ولا بعث . وقرأ نافع وآبن محيصن وشيبة وحميد و يعقوب وحمزة والكسائى : «لَا يَرْجِعُونَ» بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل . الباقون : « يُرْجَعُونَ » على الفعل المجهول . وهو آختيار أبى عبيد، والأول آختيار أبى حاتم . ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ وكانوا ألفى ألف وستمائة ألف . ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أى طرحناهم فى البحر المـالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يقال له إِسَاف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدّى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية ٱلْقُلْزُم يقال له بطن مُرَيْرَة، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل، يعنى نهر النيل . وهذا ضعيف والمشهور الأوّل . ﴿ فَانْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى آخر أمرهم . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّـةً ﴾ أى جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من آتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر . وقيل : جعـل الله الملأ من قومه رؤساء السّفلة منهم ، فهم يدعون إلى جهنم . وقيـل : أئمة يأتم بهم ذوو العبر و يتّعظ بهم أهـل البصائر . ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أى إلى عمل أهل

(١) لا يخيل : أى لايشكل .

النار ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ . ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم . وقيل : أى ألزمناهم اللعن أى البعد عن الخير . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ أى من المهلكين الممقوتين . قاله ابن كيسان وأبو عبيدة . وقال ابن عباس : المشوّهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون . وقيل : من المبعدين . يقال : قَبَحه الله أى نحاه من كل خير ، وقَبحه وقَبَحه وقَبَّحه إذا جعله قبيحا . وقال أبو عمرو : قبحت وجهه بالتخفيف معناه قَبَّحت . قال الشاعر :

أَلَا قَبَحَ اللهُ البراجِمَ كلَّها * وقَبَّح يَرْبوعا وقبَّح دارِمَا

وانتصب يوما على الحمل على موضع « فِي هَذِهِ الدُّنْيَا » واستغنى عن حرف العطف فى قوله : « مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » كما استغنى عنه فى قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ »[1] . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » مضمرا يدلّ عليه قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » فيكون كقوله : « يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ »[2] . ويجوز أن يكون العامل فى « يوم » قوله : « هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » وإن كان الظرف متقدما . ويجوز أن يكون مفعولا على السعة ، كأنه قال : وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ؛ قاله قتادة . قال يحيى ابن سلّام : هو أوّل كتاب — يعنى التوراة — نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام . وقيل : الكتاب هنا ستّ من المثانى السبع التى أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس ، ورواه مرفوعا . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ قال أبو سعيد الخدرى قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التى مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » "

---

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٨٢ . (٢) راجع ص ١٩ من هذا الجزء .

أي من بعد قوم نوح وعاد وثمود . وقيل : أي من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون . ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي آتيناه الكتاب بصائر . أي ليتبصروا ﴿ وَهُدًى ﴾ أي من الضلالة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن بها . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا ، ويثقوا بثوابهم في الآخرة .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ أي ما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أي بجانب الجبل الغربيّ قال الشاعر :

أعطاكَ من أعطى الهُدَى النبيَّا * نُورًا يَزِينُ المنبرَ الغربيَّا

﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا ، وألزمناه عهدنا . وقيل : أي إذ قضينا إلى موسى أمرك وذكرناك بخير ذكرٍ . وقال ابن عباس : « إِذْ قَضَيْنَا » أي أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم . ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي من الحاضرين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أي من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ حتى نسوا ذكر الله أي عهده وأمره . نظيره : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ »[1] . وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبيّنا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت ، وأن الله سيبعثه ، ولكن طالت المدّة ، وغلبت القسوة ، فنسيَ القوم ذلك . وقيل : آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود ، ثم تطاول العهد فكفروا ، فأرسلنا محمدا مجدّدا للدين وداعيا الخلق إليه : وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي مقيما كمقام موسى وشعيب بينهم .

قال العَجّاج :　　* فبات حيث يدخلُ الثَّويُّ *

أي الضيف المقيم . وقوله : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي تذكرهم بالوعد والوعيد . ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي أرسلناك في أهل مكة ، وآتيناك كتابا فيه هذه الأخبار : ولولا ذلك لما علمتها .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٨ فما بعد .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى كما لم تحضر جانب المكان الغربى إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين . وروى عمرو بن دينار يرفعه قال : " نودى يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى " فذلك قوله : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » . وقال أبو هريرة — وفى رواية عن ابن عباس — إن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ورحمتكم قبل أن تسترحمونى » قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمته قال : يارب أرنيهم . فقال الله : « إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم » قال : بلى يارب . فقال الله تعالى : « يا أمة محمد » فأجابوا من أصلاب آبائهم . فقال : « قد أجبتكم قبل أن تدعونى » ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا . ﴿ وَلَكِنْ ﴾ فعلنا ذلك ﴿ رَحْمَةً ﴾ منّا بكم . قال الأخفش : « رَحْمَةً » نصب على المصدر أى ولكن رحمناك رحمة . وقال الزجاج : هو مفعول من أجله أى فعل ذلك بك لأجل الرحمة . النحاس : أى لم تشهد قصص الأنبياء ، ولا تليت عليك ، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة . وقال الكسائى : على خبر كان ؛ التقدير : ولكن كان رحمة . قال : ويجوز الرفع بمعنى هى رحمة . الزجاج : الرفع بمعنى ولكن فعل ذلك رحمة . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى العرب ؛ أى لم تشاهد تلك الأخبار ، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ ﴾ يريد قريشا . وقيل : اليهود . ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ أى عقوبة ونقمة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصى . وخص الأيدى بالذكر؛ لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها . وجواب « لَوْلَا » محذوف أى لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدّمة ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ لما بعثنا الرسل . وقيل : لعاجلناهم بالعقوبة . و بعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدّم فى « سبحان »(١) وآخر « طه »(٢) . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ نصب على جواب التحضيض . ﴿ وَنَكُونَ ﴾ عطف عليه . ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من المصدّقين . وقد احتج بهذه الآية من قال : إن العقل يوجب الإيمان والشكر؛ لأنه قال : « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » وذلك موجب للعقاب إذ تقرّر الوجوب قبل بعثة الرسل ، و إنما يكون ذلك بالعقل . قال القشيرى : والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما احتيج إلى تجديد الرسل . أى هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل ، و يظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم . وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة و بعثة الرسل .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى كفار مكة ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلا ﴿ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ من العصا واليد البيضاء ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٦٤ فما بعد .

وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ(١) تَظَاهَرَا ﴾ أى موسى ومحمد تعاونا على السحر . قال الكلبي : بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته . فلما رجع الجواب إليهم « قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا » . وقال قوم : إن اليهود علّموا المشركين، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتى موسى، فإنه أوتى التوراة دفعة واحدة . فهذا الاحتجاج وارد على اليهود، أى أو لم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتى موسى حين قالوا فى موسى وهرون هما ساحران و﴿ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ أى وإنا كافرون بكل واحد منهما . وقرأ الكوفيون : « سِحْرَانِ » بغير ألف؛ أى الإنجيل والقرآن . وقيل : التوراة والفرقان؛ قاله الفراء . وقيل : التوراة والإنجيل . قاله أبو رزين . الباقون « سَاحِرَانِ » بألف . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركى العرب . وبه قال ابن عباس والحسن . الثانى — موسى وهرون . وهذا قول اليهود لهما فى ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد . فيكون الكلام احتجاجا عليهم . وهذا يدل على أن المحذوف فى قوله : « لَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ » لما جدّدنا بعثة الرسل؛ لأن اليهود اعترفوا بالنبوات ولكنهم حرّفوا وغيّروا واستحقوا العقاب، فقال : قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم . الثالث — عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتى موسى فى التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمدا ساحرين والكتابين سحرين .

قوله تعالى : قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

---

(١) قراءة نافع : « ساحران تظاهرا » وعليها المصنف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ أى قل يا محمد إذ كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين « فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ » ليكون ذلك عذرا لكم فى الكفر ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى أنهما سحران . أو فأتوا بكتاب هو أهدى من كتابى موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا يقوى قراءة الكوفيين « سِحْرَانِ » . « أَتَّبِعْهُ » قال الفراء : بالرفع؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة . قال : وإذا جزمت — وهو الوجه — فعلى الشرط .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان ، وأنه لا حجة لهم . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا أحد أضل منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أى أتبعنا بعضه بعضا ، وبعثنا رسولا بعد رسول . وقرأ الحسن : « وَصَلْنَا » مخففا . وقال أبو عبيدة والأخفش : معنى « وصلنا » أتممنا كصلتك الشيء . وقال ابن عُيَيْنة والسدّى : بيّنا . وقاله ابن عباس . وقال مجاهد : فصلنا . وكذلك كان يقرؤها . وقال ابن زيد : وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم فى الآخرة فى الدنيا . وقال أهل المعانى : والينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضه بعضا : وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض . قال الشاعر :

فقل لبنى مروان ما بال ذمّة * وحبلٍ ضعيف ما يزال يُوَصَّلُ (1)

وقال امرؤ القيس :

دَرِيرٍ كَخُذْروفِ الوليد أَمَرَّهُ * تَقَلُّبُ كفَّيه بخيط مُوَصَّلِ (2)

---

(1) رواية البحر وروح المعانى : ما بال ذمتى * بحبل ... ... الخ

(2) درير : مستدر فى العدو ؛ يصف سرعة جرى فرسه . والخذروف شىء يدوّره الصبى فى يده ويسمع له صوت ويسمى الخرارة . وأمره أحكم فتله .

والضمير في « لهم » لقريش ؛ عن مجاهد . وقيل : هو لليهود . وقيل : هو لهم جميعا . والآية رد على من قال هلا أوتي محمد القرآن جملة واحدة . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يتذكرون محمدا فيؤمنوا به . وقيل : يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ؛ قاله على بن عيسى . وقيل : لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام . حكاه النقاش .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣)

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أخبر أن قوما ممن أوتوا الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن ؛ كعبد الله بن سلام وسلمان . ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى : منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردي . وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » قاله قتادة . وعنه أيضا : أنها نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . وعن رفاعة القرظي (١) : نزلت في عشرة أنا أحدهم . وقال عروة بن الزبير : نزلت في النجاشي وأصحابه ووجه باثني عشر رجلا فجلسوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو جهل وأصحابه قريبا منهم ، فآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه ، فقال لهم : خيبكم الله من ركب ، وقبحكم من وفد ، لم تلبثوا أن صدقتموه ، وما رأينا ركبا أحمق منكم ولا أجهل ؛ فقالوا : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » لم نأل أنفسنا رشدا « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » وقد تقدم هذا في « المائدة » (٢)

(١) في ط و جـ و ش : رفاعة بن قرظة . وهو الأشبه . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٥٥ فما بعد .

عند قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ »(١) مستوفى . وقال أبو العالية : هؤلاء قوم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم . ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل القرآن . وقيل : من قبل محمد عليه السلام ﴿ هُمْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بمحمد عليه السلام ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ . ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ أى إذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزوله ، أو من قبل بعثة محمد عليه السلام ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ أى موحدين ، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبيّ — صلى الله عليه وسلم — فآمن به وآتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدّى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران " قال الشعبى للخراسانى : خذ هذا الحديث بغير شىء ، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة وخرجه البخارى أيضا . قال علماؤنا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين آستحق كل واحد منهم أجرين ؛ فالكتابى كان مخاطبا من جهة نبيه ، ثم أنه خوطب من جهة نبيّنا فأجابه وآتبعه فله أجر الملتين ، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء التربية ، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياها إحياء الحرية التى ألحقها فيه بمنصبه ، فقد قام

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٥ فما بعد .

بما أمر فيها، فأجر كل واحد منهما أجرين . ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه، الحسنة بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور . ولذلك قيل : إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحر، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للعبد المملوك المصلح أجران " والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك . قال سعيد بن المسيّب : وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى ماتت أمه لصحبتها . وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعمّا للمملوك أن يُتوفّى يحسن عبادة الله وصحابة سيده نعمّا له " .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ عام في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون . درأت إذا دفعت، والدرء الدفع . وفي الحديث " ادرءوا الحدود بالشبهات "[1] . قيل : يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى . وقيل : يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب؛ وعلى الأول فهو وصف لمكارم الأخلاق؛ أي من قال لهم سوءا لاينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه . فهذه آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، وهي مما نسختها آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . ومنه قوله عليه السلام لمعاذ " وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى، والصبر على الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع، وفي ذلك حض على الصدقات . وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة؛ ثم مدحهم أيضا على إعراضهم عن اللغو؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا »[2] أي إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا

(١) في حوش « ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » والله أعلم . (٢) راجع ص ٧٩ من هذا الجزء .

عنه؛ أى لم يشتغلوا به ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى متاركة ؛ مثل قوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »[1] أى لنا ديننا ولكم دينكم . « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » أى أمنا لكم منا فإنا لا نحاربكم[2] ، ولا نسابكم ، وليس من التحية فى شىء . قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال . ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة .

قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت فى أبى طالب .

قلت : والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت فى شأن أبى طالب عم النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهو نص [حديث][3] البخارى ومسلم، وقد تقدّم [الكلام فى][4] ذلك فى « براءة »[5] . وقال أبو روق قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى العباس . وقاله قتادة . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ قال مجاهد : لمن قدّر له أن يهتدى . وقيل : معنى « مَنْ أَحْبَبْتَ » أى من أحببت أن يهتدى . وقال جبير بن مطعم : لم يسمع أحد الوحى يلقى على النبىّ صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر الصدّيق فإنه سمع جبريل وهو يقول : يا محمد اقرأ : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾

(١) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء . (٢) فى ش : لا نحاوركم . وفى جـ : لا نجاوركم .
(٣) فى جـ و ش . (٤) من ش . (٥) راجع جـ ٨ ص ٢٧٠ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ هذا قول مشركى مكة . قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا — يعنى مكة — لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم . وكان هذا من تعللاتهم ؛ فأجاب الله تعالى عما اعتلّ به فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ أى ذا أمن . وذلك أن العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض، و يقتل بعضهم بعضا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهم عدوهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة فى قتالهم . والتخطف الانتزاع بسرعة ؛ وقد تقدم . قال يحيى بن سلام يقول : كنتم آمنين فى حرمى، تأكلون رزقى، وتعبدون غيرى، أفتخافون إذا عبدتمونى وآمنتم بى . ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى يُجمع إليه ثمراتُ كل أرض و بلد؛ عن ابن عباس وغيره . يقال : جبى الماء فى الحوض أى جمعه . والجابية الحوض العظيم . وقرأ نافع : « تُجْبَى » بالتاء؛ لأجل الثمرات . الباقون بالياء ؛ لقوله : « كُلِّ شَيْءٍ » واختاره أبو عبيد . قال : لأنه حال بين الاسم المؤنث و بين فعله حائل ، وأيضا فإن الثمرات جمع ، وليس بتأنيث حقيقى . ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عندنا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعقلون ؛ أى هم غافلون عن الاستدلال ، وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، و يمنع الكفار عنهم فى إسلامهم . و « رِزْقًا » نصب على المفعول من أجله . ويجوز نصبه على المصدر بالمعنى؛ لأن معنى: «تُجْبَى» ترزق . وقرئ: « يُجْنَى » بالنون من الجنا، وتعديته بإلى كقولك يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ بيّن لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف فى ترك الإيمان أكثر ؛ فكم من قوم كفروا ثم حلّ بهم البوار ، والبطر

(١) الخافة العيبة ومنه الحديث " المؤمن كمثل خافة الزرع " .

الطغيان بالنعمة ؛ قاله الزجاج « مَعِيشَتَهَا » أى فى معيشتها فلما حذف (فى) تعدّى الفعل ؛ قاله المازنى (١) . الزجاج كقوله : « وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا (٢) » . الفرّاء : هو منصوب على التفسير . قال كما تقول : أبطرت مالك و بطرته . ونظيره عنده : « إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (٣) » وكذا عنده . « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا (٤) » ونصب المعارف على التفسير محال عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحدا نكرة يدلّ على الجنس . وقيل : آنتصب بـ « بَطِرَتْ » ومعنى : « بَطِرَتْ » جهلت ؛ فالمعنى : جهلت شكر معيشتها . ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى لم تسكن بعد إهلاك أهلها إلا قليلا من المساكن وأكثرها خراب . والآستثناء يرجع إلى المساكن أى بعضها يسكن ؛ قاله الزجاج . وآعترض عليه ؛ فقيل : لو كان الآستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل ؛ لأنك تقول : القوم لم تضرب إلا قليل؛ ترفع إذا كان المضروب قليلا ، و إذا نصبت كان القليل صفة للضرب ؛ أى لم تضرب إلا ضربا قليلا ، فالمعنى إذًا : فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مرّ بالطريق يوما أو بعض يوم، أى لم تُسْكن من بعدهم إلا سكونا قليلا . وكذا قال ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافر أو مارّ الطريق يوما أو ساعة . ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أى لما خلّفوا بعد هلاكهم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أى القرى الكافر [أهلها] (٥) . ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ قرئ بضم الهمزة وكسرها لإتباع الجر يعنى مكة و ﴿رَسُولًا﴾ يعنى محمدا صلى الله

(١) فى ش : قاله الزجاج والمازنى .	(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٢ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٢ .	(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٣ .	(٥) من ش .

عليه وسلم . وقيل : « فِي أُمِّهَا » يعني في أعظمها « رَسُولًا » ينذرهم . وقال الحسن : في أوائلها .

قلت : ومكة أعظم القرى لحرمتها وأولها، لقوله تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ »(١) وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها ؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهي أم ما حولها . وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة « يوسف »(٢) . ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ « يَتْلُوا » في موضع الصفة أي تاليا أي يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا . ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى ﴾ وسقطت النون للإضافة مثل « ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ »(٣) . ﴿ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ أي لم أهلكهم إلا وقد آستحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم . وفي هذا بيان لعدله وتقدّسه عن الظلم . أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا آستحقوا الإهلاك بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم . ونزّه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال عزّ من قائل : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » فنصّ في قوله « بِظُلْمٍ » على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما لهم منه ، وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم ، دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ »(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يأهل مكة ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ أي تتمتعون بها مدّة حياتكم ، أو مدّة في حياتكم ، فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي أفضل وأدوم ، يريد الدار الآخرة وهي الجنة . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقي أفضل من الفاني . قرأ أبو عمرو : « يَعْقِلُونَ » بالياء . الباقون بالتاء على الخطاب وهو الاختيار لقوله تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ » . قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب ﴿ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فأعطى منها بعض ما أراد . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي في النار . ونظيره قوله : « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣٧ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٤ ، ١٤٤ .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٤٥ .
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٥٣ فما بعد .

مِنَ المُحْضَرِينَ[(١)] » قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب ، وفى أبى جهل بن هشام . وقال مجاهد : نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل . وقال محمد بن كعب . نزلت فى حمزة وعلىّ ، وفى أبى جهل وعمارة بن الوليد . وقيل : فى عمار والوليد بن المغيرة ؛ قاله السدى . قال القشيرى : والصحيح أنها نزلت فى المؤمن والكافر على التعميم . الثعلبى : وبالجملة فإنها نزلت فى كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أى ينادى الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم . ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أى حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء؛ قاله الكلبى . وقال قتادة : هم الشياطين . ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ أى دعوناهم إلى الغىّ . فقيل لهم : أغويتموهم ؟ قالوا : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ . يعنون أضللناهم كما كنا ضالين . ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تبرأ بعضنا من بعض ، والشياطين يتبرءون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرءون ممن قبل منهم؛ كما قال تعالى : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ[(٢)] » .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٠٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ﴾ أى للكفار ﴿ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى آستغيثوا بآلهتكم التى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى آستغاثوا بهم . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم . ﴿ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ قال الزجاج : جواب « لَوْ » محذوف ؛ والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى ، ولما صاروا إلى العذاب . وقيل : أى لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم . وقيل المعنى : ودّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة . ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أى يقول الله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتى . ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى خفيت عليهم الحجج ؛ قاله مجاهد؛ لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة . و « ٱلْأَنْبَاءُ » الأخبار؛ سمّى حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها . ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الحجج ؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم؛ قاله الضحاك . وقال آبن عباس : «لَا يَتَسَاءَلُونَ» أى لا ينطقون بحجة . وقيل : « لَا يَتَسَاءَلُونَ » فى تلك الساعة ، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة ، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم : « وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »(1) . وقال مجاهد : لا يتساءلون بالأنساب . وقيل : لا يسأل بعضهم بعضا أن يحمل من ذنوبه شيئا ؛ حكاه آبن عيسى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من الشرك ﴿ وَآمَنَ ﴾ أى صدّق ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ أى من الفائزين بالسعادة . وعسى من الله واجبة .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

(1) راجع ج ٦ ص ٤٠١ .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة ؛ أى الاختيار إلى الله تعالى فى الشفعاء لا إلى المشركين . وقيل : هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال : « لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(١) يعنى نفسه زعم ، وعروة بن مسعود الثقفى من الطائف . وقيل : هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به . قال ابن عباس : والمعنى ؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته . وقال يحيى بن سلام : والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته . وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويختار الأنصار لدينه .

قلت : وفى كتاب البزار مرفوعا صحيحا عن جابر " إن الله تعالى اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى وفى أصحابى كلهم خير واختار أمتى على سائر الأمم واختار لى من أمتى أربعة قرون " . وذكر سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه فى قوله عز وجل : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » قال : من النعم الضأن، ومن الطير الحمام . والوقف التام « وَيَخْتَارُ » . وقال علىّ بن سليمان : هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يَخْتَارُ » لأنها لو كانت فى موضع نصب لم يعد عليها شىء. قال وفى هذا رد على القدرية . قال النحاس : التمام « وَيَخْتَارُ » أى ويختار الرسل . ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ أى ليس يرسل من اختاروه هم . قال أبو إسحق : « وَيَخْتَارُ » هذا الوقف التام المختار ، ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ « يختار » ويكون المعنى ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة . قال القشيرى : الصحيح الأول لإطباقهم [على] الوقف على قوله « وَيَخْتَارُ » . قال المهدوى : وهو أشبه بمذهب أهل السنة و « ما » من قوله : « مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ » نفى عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شىء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل . الزمخشرى : « مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ » بيان لقوله : « وَيَخْتَار » ؛ لأن معناه يختار ما يشاء؛ ولهذا لم يدخل العاطف، والمعنى؛ إن الخيرة لله تعالى فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أى ليس لأحد

(١) راجع جـ ١٦ ص ٨٢ فما بعد .

من خلقه أن يختار عليه . وأجاز الزجاج وغيره أن تكون « ما » منصوبة بـ « يَخْتَارُ » . وأنكر الطبري أن تكون « ما » نافية، لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهى لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدم كلام بنفي . قال المهدوى : ولا يلزم ذلك ؛ لأن « ما » تنفى الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها ؛ ولأن الآى كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك فى النص . وتقدير الآية عند الطبرى : ويختار لولايته الخيرة من خلقه ؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » للهداية من خلقه من سبقت له السعادة فى علمه، كما آختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم ، فـ « ما » على هذا لمن يعقل وهى بمعنى الذى و « الْخِيَرَةُ » رفع بالابتداء و « لَهُمُ » الخبر والجملة خبر « كان » . وشبهه بقولك : كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف ؛ إذ ليس فى الكلام عائد يعود على آسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد . وقد روى معنى ما قاله الطبرى عن آبن عباس . قال الثعلبى : و « ما » نفى أى ليس لهم الآختيار على الله . وهذا أصوب كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »(1) . قال محمود الوراق :

توكّل على الرحمن فى كل حاجةٍ * أردتَ فإن الله يقضى ويقدر
إذا ما يرِدْ ذو العرش أمرا بعبده * يصبْه وما للعبد ما يتخيّر(2)
وقد يهلك الإنسانُ من وجهِ حِذْره(3) * وينجو بحمد الله من حيث يحذر

وقال آخر :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ * والدّهرُ ذو دُولٍ والرِّزْقُ مقسومُ
والخيرُ أجمعُ فيما آختار خالقُنا * وفى آختيار سواه اللّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء : لا ينبغى لأحد أن يقدُم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة فى ذلك، بأن يصلى ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة : « قُلْ يَأَيُّهَا

(1) راجع جـ ١٤ ص ١٨٦ فما بعد . (2) فى جـ و ط : وما للعبد لا يخير . والتصويب من ش .
(3) فى ش : من وجه أمنه . لعل صواب الشطر : وينجو بحمد الله من ليس يحذر . وهذا ما يفيده معنى التوكل .

الْكَافِرُونَ »(١) وفى الركعة الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . وآختار بعض المشايخ أن يقرأ فى الركعة الأولى : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » الآية، وفى الركعة الثانية : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وكلٌّ حسن . ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام ، وهو ما رواه البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلّمنا السورة من القرآن ؛ يقـول : " إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهـم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعـلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فاقْدُره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فآصرفه عنى وآصرفنى عنه وآقدر لى الخير حيث كان ثم رضّنى به " قال : ويسمى حاجته . وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال : " اللهم خِرْ لى وآختر لى " . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يا أنس إذا هممت بأمر فآستخر ربك فيه سبع مرات ثم آنظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه " . قال العلماء : وينبغى له أن يفرّغ قلبـه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلا إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبـه يعمل عليه ، فإن الخير فيه إن شـاء الله . وإن عزم على سفر فيتوخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين آقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم نزه نفسه سبحانه بقوله الحق ؛ فقال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى تنزيها . ﴿ وَتَعَالَى ﴾ أى تقدّس وتمجد ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون . وقرأ آبن محيصن وحميد : « تَكُنُّ » بفتح التاء وضم الكاف . وقد تقدم هذا فى « النمل »(٢) . تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليـه شى ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تقدم معناه ، وأنه المنفرد بالوحدانية ، وأن جميع المحامد إنما تجب له ، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٥ وص ٢٤٤ . (٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدا ﴾ أى دائما ؛ ومنه قول طرفة .

لعمرُك ما أمرى علىّ بغُمّةٍ * نهارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَدِ (١)

بيّن سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه . ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ أى بنور تطلبون فيه المعيشة . وقيل : بنهار تبصرون فيه معايشكم وتصلح فيه الثمار والنبات . ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ سماع فهم وقبول . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أى تستقرون فيه من النصب . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ما أنتم فيه من الخطإ فى عبادة غيره ؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلمَ تشركون به . ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى فيهما . وقيل : الضمير للزمان وهو الليل والنهار . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى لتطلبوا من رزقه فيه أى فى النهار فحذف . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(١) الغمة : الأمر الذى لا يهتدى له ؛ والمعنى ؛ لا أتحير فى أمرى نهارا وأرتوه ليلا فيطول على الليل

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين، ينادون مرة فيقال لهم : « أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا يستجيبون ، فتظهر حيرتهم (١) ، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون . وهو توبيخ وزيادة خزى . والمناداة هنا ليست من الله ؟ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢) » لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكتهم ، ويقيم الحجة (٣) عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله ، وقوله : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » حين يقال لهم : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (٤) » وقال : « شُرَكَائِيَ » لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أى نبيا ؛ عن مجاهد . وقيل : هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم فى الدنيا . والأول أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٥) » وشهيد كل أمة رسولها الذى يشهد عليها . والشهيد الحاضر . أى أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم . ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى حجتكم . ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أى علموا صدق ما جاءت به الأنبياء . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى ذهب عنهم وبطل . ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد .

قوله تعالى : إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

(١) فى جـ و ط : فيظهر حزنهم ، وفى ش : خزيهم .	(٢) راجع جـ ٢ ص ٢٣٤ .
(٣) فى جـ و ط و ش : الحجج .	(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ .	(٥) راجع جـ ٥ ص ١٩٧ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ لما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا » بيّن أن قارون أوتيها واغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون ، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه . قال النّخعيّ وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى لحًّا ؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث . وقال ابن إسحق : كان عمّ موسى لأب وأمّ . وقيل : كان ابن خالته . ولم ينصرف للعجمة والتعريف . وما كان على وزن فاعول أعجميا لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف فى المعرفة وانصرف فى النكرة ، فإن حسنت فيه الألف واللام انصرف إن كان اسما لمذكر نحو طاوس وراقود . قال الزجاج : ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف . ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ بغيه أنه زاد فى طول ثوبه شبرا ؛ قاله شهر بن حوشب . وفى الحديث " لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطرا " وقيل : بغيه كفره بالله عز وجل ؛ قاله الضحاك . وقيل : بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده ؛ قاله قتادة . وقيل : بغيه نسبته ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ؛ قاله ابن بحر . وقيل : بغيه قوله إذا كانت النبوّة لموسى والمذبح والقربان فى هرون فمالى ! فروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهرون ؛ يقرب القربان ويكون رأسا فيهم ، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه ، وجد قارون فى نفسه وحسدهما . فقال لموسى : الأمر لكما وليس لى شيء إلى متى أصبر . قال موسى ؛ هذا صنع الله . قال : والله لا أصدقنك حتى تأتى بآية ؛ فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاه ، فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيّهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر — وكانت من شجر اللوز — فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . « فَبَغَى عَلَيْهِمْ » من البغى وهو الظلم . وقال يحيى بن سلّام وابن المسيّب : كان قارون غنيا عاملا لفرعون على بنى إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم . وقول سابع : روى عن ابن عباس قال : لما أمر الله

تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى آمرأة بغيّ وأعطاها مالا، وحملها على أن آدعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذى فلق البحر لبنى إسرائيل ، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . فتداركها الله فقالت : أشهد أنك برىء، وأن قارون أعطاني مالا ، وحملني على أن قلت ما قلت ، وأنت الصادق وقارون الكاذب . فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه . فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرض خذيه؛ [يا أرض خذيه](١) وهي تأخذه شيئا فشيئا وهو يستغيث يا موسى ! إلى أن ساخ في الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه . وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى : آستغاث بك عبادى فلم ترحمهم، أما أنهم لو دعوني لوجدوني قريبا مجيبا . آبن جريج: بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة . وذكر آبن أبي الدنيا في كتاب الفرج: حدّثني إبراهيم بن راشد قال حدّثني داود بن مهران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان آبن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقى قارون يونس في ظلمات البحر، فنادى قارون يونس ، فقال : يا يونس تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه . فقال يونس : ما منعك من التوبة . فقال: إن توبتي جعلت إلى آبن عمى فأبى أن يقبل منى . وفي الخبر : إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل في الصور . والله أعلم . قال السّدى : وكان آسم البغى سبرتا، وبذل لها قارون ألفي درهم . قتادة : وكان قطع البحر مع موسى(٢) وكان يسمى المنوّر من حسن صورته في التوراة ، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامرى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ قال عطاء : أصاب كثيرا من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن مروان: إنه كان يعمل الكيمياء . ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ « إنّ » وآسمها وخبرها في صلة « ما » و « ما » مفعولة « آتَيْنَا » . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون في الصلات؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذى وأخواته « إن » وما عملت فيه، وفي القرآن « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ » . وهو جمع مِفتح بالكسر وهو ما يفتح

(١) من جـ و ط و ش . (٢) في جـ و ط و ش : مع بني إسرائيل .

به . ومن قال مفتاح قال مفاتيح . ومن قال هى الخزائن فواحدها مَفتح بالفتح . ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة أى تميلهم بثقلها ؛ فلما آنفتحت التاء دخلت الباء . كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤس . فصار « لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » فجعل العصبة تنوء أى تنهض متثاقلة ؛ كقولك قم بنا أى آجعلنا نقوم . يقال : ناء ينوء نوءا إذا نهض بثقل . قال الشاعر(١) :

تنوء بأخراها فَلأْيًا قِيامُها * وتَمشِى الهُوَينَى عن قريبٍ فتَبْهَرُ

وقال آخر :

أخذتُ فلم أملك ونُؤْتُ فلم أَقُمْ * كأنِّىَ من طول الزمان مقيَّدُ

وأناءنى إذا أثقلنى ؛ عن أبى زيد . وقال أبو عبيدة : قوله «لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ» مقلوب، والمعنى لتنوء بها العصبة أى تنهض بها . أبو زيد : نؤت بالحمل إذا نهضت . قال الشاعر :

إنا وجدنا خَلَفا بئس الخَلَف * عبدًا إذا ما ناء بالحمل وقف

والأوّل معنى قول آبن عباس وأبى صالح والسدى . وهو قول الفراء وآختاره النحاس . كما يقال : ذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأَنَأْتُهُ ؛ فأما قولهم : له عندى ما ساءه وناءه فهو إتباع كان يجب أن يقال وأناءه . ومثله هنأنى الطعام ومرأنى، وأخذه ما قدُم وما حدُث . وقيل : هو مأخوذ من النأى وهو البعد . ومنه قول الشاعر :

ينْأَوْنَ عنا وما تَنْأَى مودّتُهم * فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا

وقرأ بديل بن ميسرة : « لَيَنُوءُ » بالياء ؛ أى لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى . وقال أبو عبيدة : قلت لرؤبة بن العجاج فى قوله :

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ * كأنّه فى الجِلدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما . فقال : أردت كل ذلك . وآختلف فى العصبة وهى الجماعة التى يتعصب بعضهم لبعض على أحدعشر قولا : الأوّل — ثلاثة رجال ؛ قاله آبن عباس . وعنه أيضا من الثلاثة إلى العشرة .

(١) هو ذو الرمة . يريد تنيئها عجيزتها إلى الأرض لضخامتها وكثرة لحمها فى أردافها .

وقال مجاهد : العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر . وعنه أيضا : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر . وعنه أيضا : من عشرة إلى خمسة . ذكر الأوّل الثعلبي، والثاني القشيري والماوردي ، والثالث المهدوي . وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك : أربعون رجلا . السدّى ما بين العشرة إلى الأربعين . وقاله قتادة أيضا . وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون ، ومنهم من يقول سبعون . وهو قول أبى صالح إن العصبة سبعون رجلا ؛ ذكره الماوردي . والأوّل ذكره عنه الثعلبي . وقيل : ستون رجلا . وقال سعيد بن جبير : ست أو سبع . وقال عبد الرحمن بن زيد : ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر . وقال الكلبي : عشرة لقول إخوة يوسف « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ »[1] وقاله مقاتل . وقال خيثمة : وجدت فى الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلا غراء محجلة، وأنها لتنوء بها من ثقلها، مايزيد مفتح منها على إصبع ، لكل مفتح منها كنز مال ، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم . قال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل . وقيل : من جلود البقر لتخف عليه ، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلا فيما ذكره القشيري . وقيل : على أربعين بغلا . وهو قول الضحاك . وعنه أيضا : إن مفاتحه أوعيته . وكذا قال أبو صالح : إن المراد بالمفاتح الخزائن ؛ فالله أعلم . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ أى المؤمنون من بنى إسرائيل ؛ قاله السدّى . وقال يحيى بن سلّام : القوم هنا موسى . وقال الفراء . وهو جمع أريد به واحد كقوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ »[2] وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدّم . ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ أى لا تأشر ولا تبطر . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أى البطرين؛ قاله مجاهد والسدّى . قال الشاعر :

واستُ بِمِفْراحٍ إذا الدهرُ سرَّنى * ولا ضارعٍ[3] فى صرفه المتقلب

وقال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإنّ الفَرِح بالمال لا يؤدّى حقّه . وقال مبشر[4] ابن عبد الله : لا تفرح لا تفسد . قال الشاعر[5] :

إذا أنتَ لم تبرح تؤدّى أمانةً * وتحملُ أخرى أفرحتك الودائعُ

(١) راجع جـ ٩ ص ١٢٩ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٧٩ .
(٣) ويروى : ولا جازع من صرفه المتحوّل .
(٤) كذا فى جـ و ش .
(٥) أنشده أبو عبيدة لبيهس العذرى .

أى أفسدتك . وقال أبو عمرو : أفرحه الدين أثقله . وأنشده : إذا أنت ... البيت . وأفرحه سره فهو مشترك . قال الزجاج : والفرحين والفارحين سواء . وفرّق بينهما الفراء فقال : معنى الفرحين الذين هم فى حال فرح ، والفارحين الذين يفرحون فى المستقبل . وزعم أن مثله طمع وطامع وميّت ومائت . و يدلّ على خلاف ما قال قول الله عز وجل : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ »(١) ولم يقل مائت . وقال مجاهد أيضا : معنى « لَا تَفْرَحْ » لا تبغ « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى الباغين . وقال ٱبن بحر : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين .

قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى ٱطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهى الجنة ؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه فى الآخرة لا فى التجبر والبغى.

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ٱختلف فيه ؛ فقال ٱبن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عملا صالحا فى دنياك ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها . فالكلام على هذا التأويل شدّة فى الموعظة . وقال الحسن وقتادة : معناه لا تضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به و إصلاح الأمر الذى يشتهيه . وهذا مما يجب ٱستعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدّة ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما ٱبن عمر فى قوله : ٱحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، وٱعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . وعن الحسن : قدّم الفضل ، وأمسك ما يبلغ . وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف . وقيل : أراد بنصيبه الكفن . فهذا وعظ متصل ؛ كأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذى هو الكفن . ونحو هذا قول الشاعر :

نَصيبُك مما تجمعُ الدهرَ كلَّه * رداءان تُلْوَى فيهما وحَنُوط

وقال آخر: وهى القناعة لا تبغى بها بدلا * فيها النعيم وفيها راحة البدن

ٱنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ٱبن العربى : وأبدع ما فيه عندى قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك من الدنيا و يا ما أحسن هذا . ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى أطع الله وٱعبده كما أنعم عليك.

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٤ .

ومنه الحديث : ما الإحسان ؟ قال : " أن تعبد الله كأنك تراه " وقيل : هو أمر بصلة المساكين . قال ابن العربي : فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله . وقال مالك : الأكل والشرب من غير سرف . قال ابن العربي : أرى مالكا أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء ، ويشرب العسل ، ويستعمل الشواء ، ويشرب الماء البارد . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع . ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قوله تعالى : قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ يعني علم التوراة . وكان فيما روى من أقرأ الناس لها ، ومن أعلمهم بها . وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات . وقال ابن زيد : أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني . فقوله : « عِندِي » معناه إن عندي أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل فيّ . وقيل : أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب ؛ قاله علي بن عيسى . ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له اكتسابها لما اجتمعت عنده . وقال ابن عباس : على علم عندي بصنعة الذهب . وأشار إلى علم الكيمياء . وحكى النقاش : أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء ، ويوشع الثلث ، وهرون الثلث ، فخدعهما قارون — وكان على إيمانه — حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء ، فكثرت أمواله . وقيل : إن موسى علم الكيمياء ثلاثة ؛ يوشع بن نون ، [وكالب[1] بن يوفنا] ، وقارون ، واختار الزجاج القول الأول ، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء . قال : لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له . وقيل : إن موسى علّم أخته علم الكيمياء ، وكانت زوجة قارون ، وعلمت أخت موسى قارون ؛ والله أعلم .

(١) في الأصول « طالوت » وهو تحريف . والتصويب من كتب التفسير .

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى بالعذاب . ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أى الأمم الخالية الكافرة . ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى للمال، ولو كان المال يدلّ على فضل لما أهلكهم . وقيل : القوة الآلات ، والجمع الأعوان والأنصار ، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أى « أَوَ لَمْ يَعْلَمْ » قارون « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ » . ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى لا يسألون سؤال آستعتاب كما قال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ »(1) « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ »(2) وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »(3) قاله الحسن . وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين ؛ فإنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون . وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب . وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا فى الدنيا . وقيل : أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسئلتهم عن ذنوبهم .

قوله تعالى : فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ أى على بنى إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمل فى يوم عيد . قال الغزنوى : فى يوم السبت . « فِى زِينَتِهِ » أى مع زينته . قال الشاعر :

إذا ما قلوب القوم طارت مخافة * من الموت أرسوا بالنفوس المواجد(4)

أى مع النفوس . كان خرج فى سبعين ألفا من تبعه ، عليهم المعصفرات ، وكان أول من صُبغ له الثياب المعصفَرة . قال السدى : مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٧٧ . (2) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١ فما بعد . (3) راجع جـ ١٠ ص ٥٩ .
(4) فى أ : أرموا بالنفوس . وفى جـ : أرسوا بالنفوس النواجذ . ولم نعثر عليه .

ذهب على قُطُف الأُرْجُوان . قال آبن عباس : خرج على البغال الشهب . مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأُرْجُوان ، وعليهم المعصفَرات ، وكان ذلك أول يوم رؤى فيه المعصفَر . قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قُطُف حمر . قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأُرْجُوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر . وقال آبن زيد : خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفَرات . الكلبي : خرج فى ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون . وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنه : كانت زينته القِرْمِز .

قلت : القِرْمِز صبغ أحمر مثل الأُرْجُوان ، والأُرْجُوان فى اللغة صبغ أحمر ؛ ذكره القشيرى . ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الدنيا . ثم قيل : هذا من قول مؤمنى ذلك الوقت ، تمنوا مثل ماله رغبة فى الدنيا . وقيل : هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها ، وهم الكفار .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم أحبار بنى إسرائيل للذين تمنوا مكانه ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ يعنى الجنة . ﴿ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أى لا يؤتى الأعمال الصالحة ، أو لا يؤتى الجنة فى الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله . وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله : « ثَوَابُ اللَّهِ » .

قوله تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ قال مقاتل : لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله ؛ لأنه كان آبن عمه ؛ أخى أبيه ، فخسف

الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إنى لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبدا. يقال: خَسَف المكانُ يَخسِف خُسوفا ذهب فى الأرض وخَسَف الله به الأرض خَسْفا أى غاب به فيها. ومنه قوله تعالى: «فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ» وخَسَف هو فى الأرض وخُسِف به. وخسوف القمر كسوفه. قال ثعلب: كَسَفت الشمسُ وخَسَف القمرُ؛ هذا أجود الكلام. والخسف النقصان؛ يقال: رضى فلان بالخسف أى بالنقيصة. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أى جماعة وعصابة. ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ لنفسه أى الممتنعين فيما نزل به من الخسف. فيروى أن قارون يَسفُل كل يوم بقدر قامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل فى الصور؛ وقد تقدّم؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أى صاروا يتندمون على ذلك التمنى و﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ [وى] حرف تندّم. قال النحاس: أحسن ما قيل فى هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائى إن القوم تَنبّهوا أو نُبِّهوا، فقالوا وَىْ، والمتندم من العرب يقول فى خلال تندّمه وَىْ. قال الجوهرى: وَىْ. كلمة تعجب، ويقال: وَيْكَ ووَى لعبد الله. وقد تدخل وَىْ على كأن المخففة والمشدّدة تقول: ويكأن الله. قال الخليل: هى مفصولة؛ تقول: «وَىْ» ثم تبتدئ فتقول: «كَأَنّ». قال الثعلبى: وقال الفرّاء هى كلمة تقرير، كقولك: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها: أين ٱبنكَ وَيْلك؟ فقال: وَىْ كأنّه وراء البيت؛ أى أما ترينه. وقال ٱبن عباس والحسن: ويك كلمة ٱبتداء وتحقيق تقديره: إن الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيه بمنزلة ألا فى قولك ألا تفعل وأمّا فى قولك أما بعد. قال الشاعر (1):

سالتَانِى الطــلاقَ إذ رَأَتَانِى * قَــلَّ مالِى قد جِئْتُمَانِى بِنُــكْرِ
وَىْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ له نَشَبٌ يُحْبَـ * ـبُ ومَنْ يَفتقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

(1) هو زيد بن عمرو بن نفيل.

وقال قُطْرُب : إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وَيْ . قال عَنترة :

ولقد شَفَى نفسي وأَبرأ سُقْمَها * قَوْلُ الفوارس وَيْكَ عَنترَ أَقْدِمِ

وأنكره النحاس وغيره، وقالوا : إن المعنى لا يصح عليه ؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحدا فيقولوا له ويلك ، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر . وأيضا فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز . وقال بعضهم : التقدير ويلك اعلم أنه ؛ فأضمر اعلم . ابن الأعرابي : « وَيْكَأَنَّ اللهَ » أي اعلم . وقيل : معناه ألم تر أن الله . وقال القتبي : معناه رحمة لك بلغة حِمْير . وقال الكسائي : وَيْ فيه معنى التعجب . ويروى عنه أيضا الوقف على وَيْ وقال كلمة تفجّع . ومن قال : ويك فوقف على الكاف فمعناه أعجب لأن الله يبسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون . وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب لا اسما ؛ لأن وَيْ ليست مما يضاف . وإنما كتبت متصلة ؛ لأنها لما كثر استعمالها جعلت مع ما بعدها كشيء واحد . ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ . وقرأ الأعمش : « لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا » . وقرأ حفص : « لَخَسَفَ بِنَا » مسمّى الفاعل . الباقون : على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبي عبيد . وفي حرف عبد الله « لَانْخُسِفَ بِنَا » كما تقول انطلق بنا . وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف . واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين : أحدهما قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » . والثاني قوله : « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا » فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى . ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ عند الله .

قوله تعالى : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ يعنى الجنة . وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها . يعنى تلك التى سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى رفعة وتكبرا على الإيمان والمؤمنين ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ عملا بالمعاصى . قاله ابن جريج ومقاتل . وقال عِكْرِمة ومسلم البَطِين : الفساد أخذ المال بغير حق . وقال الكلبي الدعاء إلى غير عبادة الله . وقال يحيى بن سلام : هو قتل الأنبياء والمؤمنين . ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قال الضحاك : الجنة . وقال أبو معاوية : الذى لا يريد علوا هو من لم يجزع من ذلها ، ولم ينافس فى عزها ، وأرفعهم عند الله أشدّهم تواضعا ، وأعزّهم غدا ألزمهم لذلّ اليوم . وروى سفيان بن عُيَيْنة عن إسمعيل بن أبى خالد قال : مرّ علىّ بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كِسَرا لهم ، فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم ، فتلا هذه الآية « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا » ثم نزل وأكل معهم . ثم قال : قد أجبتكم فأجيبونى . فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم . خرّجه أبو القاسم الطبرانى سليمان بن أحمد قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال حدّثنى أبى ، قال حدّثنا سفيان بن عُيَيْنة . فذكره . وقيل : لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب . والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى ، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له ؛ لأنها تضره ولا تنفعه .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ تقدّم فى « النمل »(١) . وقال عكرمة : ليس شىء خيرا من لا إله إلا الله . وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير . ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أى بالشرك ﴿ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى يعاقب بما يليق بعمله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا

(١) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء فما بعد .

لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم برده إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنة . والأول أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله وآبن عباس ومجاهد وغيرهم . قال القتبي : معاد الرجل بلده ؛ لأنه ينصرف ثم يعود . وقال مقاتل : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من الغار ليلا مهاجرا إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة فآشتاق إليها ، فقال له جبريل إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » أي إلى مكة ظاهرا عليها . قال آبن عباس : نزلت هذه الآية بالجُحْفة ليست مكية ولا مدنية . وروى سعيد بن جبير عن آبن عباس « إِلَىٰ مَعَادٍ » قال : إلى الموت . وعن مجاهد أيضا وعكرمة والزهري والحسن : إن المعنى لرادك إلى يوم القيامة ؛ وهو آختيار الزجاج . يقال : بيني وبينك المعاد ؛ أي يوم القيامة ؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء و « فَرَضَ » معناه أنزل . وعن مجاهد أيضا وأبي مالك وأبي صالح : « إِلَىٰ مَعَادٍ » إلى الجنة . وهو قول أبي سعيد الخدري وآبن عباس أيضا ؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء . وقيل : لأن أباه آدم خرج منها . ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ ﴾ أي قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفي ضلال مبين ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أنا أم أنتم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي ما علمت أننا نرسلك إلى الخلق وننزل عليك القرآن . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال الكسائي : هو آستثناء منقطع بمعنى لكن . ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي عونا لهم ومساعدا . وقد تقدّم في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ يعنى أقوالهم وكذبهم وأذاهم ، ولا تلتفت نحوهم وآمض لأمرك وشأنك . وقرأ يعقوب : «يَصُدُّنْكَ» مجزوم النون . وقرئ : « يُصِدُّنَّكَ » من أصدّه بمعنى صدّه وهى لغة فى كلب . قال الشاعر [1] :

أُنَاسٌ أصدوا الناسَ بالسيف عنهم * صُدُودَ السَّوَاقِى عن أنوفِ الحَوَائِمِ [2]

﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى إلى التوحيد . وهذا يتضمن المهادنة والموادعة . وهذا كله منسوخ بآية السيف . وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقى الشيطان فى أمنيته أمر الغَرَانيق على ما تقدّم [3] . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أى لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو . نفى لكل معبود و إثبات لعبادته . ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ قال مجاهد : معناه إلا هو . وقال الصادق : دينه . وقال أبو العالية وسفيان : أى إلا ما أريد به وجهه ؛ أى ما يقصد إليه بالقربة . قال :

أستغفرُ اللهَ ذنبًا لستُ مُحْصِيَه * ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ

وقال محمد بن يزيد : حدّثنى الثورى قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » فقال : إلا جاهه ، كما تقول لفلان وجه فى الناس أى جاه . ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ فى الأولى والآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . قال الزجاج : « وَجْهَهُ » منصوب على الاستثناء ، ولو كان فى غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع ، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال [4] :

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُهُ أخُوه * لَعَمْرُ أبيكَ إلّا الفَرْقَدانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه . « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » بمعنى ترجعون إليه .

تمت سورة القصص والحمد لله

(١) هو ذو الرمة . (٢) ويروى : بالضرب ... من أنوف الحائم .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ .

(٤) هو عمرو بن معدى كرب ، ويروى لسوار بن المضرب . (شواهد سيبويه) .

سورة العنكبوت

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة . وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلّام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن مَن كان من المسلمين بمكة . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نزلت بين مكة والمدينة . وهي تسع وستون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ تقدّم القول في أوائل السور . وقال ابن عباس : المعنى أنا الله أعلم . وقيل : هو اسم للسورة . وقيل اسم للقرآن . « أَحَسِبَ » استفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن . « أَنْ يُتْرَكُوا » في موضع نصب بـ « حَسِبَ » وهي وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه . و « أن » الثانية من « أَنْ يَقُولُوا » في موضع نصب على إحدى جهتين ، بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا . والجهة الأخرى أن يكون على التكرير، والتقدير « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » أَحَسِبُوا «أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمّار بن ياسر وياسر أبوه وسُمَيّة أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ، وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين ؛ قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختبارا للمؤمنين وفتنة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت

نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجود حكمها بقية الدهر . وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية فى ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك . وإذا اعتبر أيضا كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ، ولكن التى تشبه نازلة المسلمين مع قريش هى ما ذكرناه من أمر العدو فى كل ثغر .

قلت : ما أحسن ماقاله ، ولقد صدق فيما قال رضى الله عنه . وقال مقاتل : نزلت فى مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بَدْر ، رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ : " سيد الشهداء مِهْجَع وهو أول من يُدْعى إلى باب الجنة من هذه الأمة ". فجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت : «الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا» . وقال الشعبي : نزل مفتتح هذه السورة فى أناس كانوا بمكة من المسلمين ، فكتب إليهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا فأتبعهم المشركون فآذوهم . فنزلت فيهم هذه الآية : « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » فكتبوا إليهم : نزلت فيكم آية كذا ، فقالوا : نخرج وإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا »(1) . « وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » يمتحنون ؛ أى أظنّ الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون فى إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى ابتلينا الماضين كالخليل ألقى فى النار ، وكقوم نشروا بالمناشير فى دين الله فلم يرجعوا عنه . وروى البخارىّ عن خَبّاب بن الأَرَتّ : قالوا شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا . فقال : " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمِنْشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمَشط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه فما يصرفه ذلك عن دينه واللهِ ليتمنّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون " . وخرج ابن ماجه عن

(1) راجع جـ ١٠ ص ١٩٢ .

أبي سعيد الخدري قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حرّه بين يدى فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدّها عليك . قال : "إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويُضعّف لنا الأجر" قلت : يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء ؟ قال "الأنبياء" وقلت : ثم من . قال "ثم الصالحون أَنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يَحُوبها (١) وأَنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرحُ أحدكم بالرخاء" . وروى سعد بن أبي وقاص قال : قلت يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء ؟ قال : "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلْبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقّة ٱبتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة" . وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوما فأخذه السبع فأكله ، فقال عيسى : يارب وزيرى فى دينك ، وعونى على بنى إسرائيل، وخليفتى فيهم، سلطت عليه كلبا فأكله . قال : « نعم كانت له عندى منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فٱبتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة » . وقال وهب : قرأت فى كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عينا ، فإنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين ، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فٱبك على نفسك ، فقد خولف بك عن سبيلهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أى فليُرِيَنَّ الله الذين صدقوا فى إيمانهم . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » (٢) وغيرها . قال الزجاج : ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه ، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما ، ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه . وإنما يعلم صدق الصادق واقعا كائنا وقوعه ، وقد علم أنه سيقع . وقال النحاس : فيه قولان — أحدهما — أن يكون « صَدَقُوا » مشتقا من الصِّدْق و « الْكَاذِبِينَ » مشتقا من الكَذِب الذى هو ضد الصِّدق ، ويكون المعنى ؛ فليبينن الله الذى صدقوا فقالوا نحن مؤمنون

(١) وردت هذه الكلمة فى سنن ابن ماجه بالحاء المهملة ، وقال هامشه : « يحوبها » من حبى بحاء مهملة وباء موحدة أى يجعل لها جيبا . ووردت فى الجامع الصغير للسيوطى بالجيم وقال شارحه : هى بجيم وواو وموحدة أى يخرقها و يقطعها ، وكل شيء قطع وسطه فهو مجوب . ورواية الجامع الصغير هى المتبادرة . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣ .

وآعتقدوا مثل ذلك، والذين كذبوا حين آعتقدوا غير ذلك. والقول الآخر — أن يكون صدقوا مشتقا من الصَّدق وهو الصُّلب، والكاذبين مشتقا من كَذَّب إذا آنهزم، فيكون المعنى؛ فليعلمن الله الذين ثبتوا في الحرب، والذين آنهزموا؛ كما قال الشاعر[(1)]:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا * ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا

فجعل «لَيَعْلَمَنَّ» في موضع فليبينن مجازا. وقراءة الجماعة: «فَلَيَعْلَمَنَّ» بفتح الياء واللام. وقرأ علي بن أبي طالب بضم الياء وكسر اللام وهي تبين معنى ما قاله النحاس. ويحتمل ثلاثة معان: الأول — أن يعلم في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا؛ بمعنى يوقفهم على ما كان منهم. الثاني — أن يكون المفعول الأول محذوفا تقديره؛ فليعلمن الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين؛ أي يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة: الثالث — أن يكون ذلك من العلامة؛ أي يضع لكل طائفة علامة يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من أسر سريرة ألبسه الله رداءها"

قوله تعالى: أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي الشرك ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال آبن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة ابن أبي سفيان والعاص بن وائل. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الحكم ما حكموا في صفات

(1) هو زهير بن أبي سلمى. وعثر بشد المثلثة آسم موضع.

ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء . و « ما » في موضع نصب بمعنى ساء شيئا أو حكما يحكمون . ويجوز أن تكون « ما » في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم . وهذا قول الزجاج . وقدرها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك : أحدهما — أن يكون موضع « مَا يَحْكُمُونَ » بمنزلة شيء واحد ، كما تقول : أعجبني ما صنعت ؛ أي صنيعك ؛ فـ « ما » والفعل مصدر في موضع رفع ، التقدير ؛ ساء حكمهم . والتقدير الآخر أن تكون « ما » لا موضع لها من الإعراب ، وقد قامت مقام الاسم لساء ، وكذلك نعم وبئس . قال أبو الحسن ابن كيسان : وأنا أختار أن أجعل لـ « ما » موضعا في كل ما أقدر عليه ؛ نحو قوله عز وجل : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ »(1) وكذا « فَبِمَا نَقْضِهِمْ »(2) وكذا « أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ »(3) « ما » في موضع خفض في هذا كله وما بعده تابع لها ، وكذا ، « إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً »(4) « ما » في موضع نصب و « بَعُوضَةً » تابع لها .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ « يَرْجُو » بمعنى يخاف من قول الهذلي في وصف عسال :

* إذا لسعته النحل لم يرج لسعها(5) *

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى : من كان يخاف الموت فليعمل عملا صالحا فإنه لا بد أن يأتيه ؛ ذكره النحاس . قال الزجاج : معنى « يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ » ثواب الله و « من » في موضع رفع بالابتداء و « كَانَ » في موضع الخبر ، وهي في موضع جزم بالشرط ، و « يَرْجُو » في موضع خبر كان ، والمجازاة ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي ومن جاهد في الدين ، وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات ، فإنما يسعى لنفسه ؛ أي ثواب ذلك كله له ؛ ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي عن أعمالهم . وقيل : المعنى ؛ من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاده .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ . (2) راجع جـ ٦ ص ١١٤ .
(3) راجع ص ٢٧٩ من هذا الجزء . (4) راجع جـ ١ ص ٢٤١ .
(5) تمام البيت : * وحالفها في بيت نوب عوامل * ويروى : عواسل

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بأحسن أعمالهم وهو الطاعات . ثم قيل : يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها فى الشرك ، ويثابوا على ما عملوا من حسنة فى الإسلام . ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم فى الكفر والإسلام ، ويثابوا على حسناتهم فى الكفر والإسلام .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ نزلت فى سعد بن أبى وقاص فيما روى الترمذى قال : أنزلت فىَّ أربعُ آيات فذكَر قصةً ؛ فقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر ! والله لا أطعم طعاما، ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر؛ قال : فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا[1] فاها فنزلت هذه الآية . « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن سعد أنه قال : كنت بارًا بأمى فأسلمتُ ، فقالت : لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بى ، ويقال يا قاتل أمه ، وبقيت يوما ويوما فقلت : يا أماه ! لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا، فإن شئت فكلى، وإن شئت فلا تأكلى، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى ﴾ الآية . وقال ابن عباس : نزلت فى عيّاش ابن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك . وعنه أيضا : نزلت فى جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق . و « حُسْنًا » نصب عند البصريين على التكرير أى ووصيناه حسنا . وقيل : هو على القطع تقديره، ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيرا أى

(١) شجروا فاها : أى أدخلوا فى شجره عودا حتى يفتحوه به .

بالخير . وقال أهل الكوفة : تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسنا فيقدر له فعل .
وقال الشاعر :

عَجِبتُ من دَهْمَاءَ إذ تَشكونَا ＊ ومن أبى دَهْمَاءَ إذ يُوصينَا

＊ خيرًا بها كأنّما خافونا ＊

أى يوصينا أن نفعل بها خيرا ؛ كقوله : « فَطَفِقَ مَسْحًا »(١) أى يمسح مسحا . وقيل : تقديره ووصيناه أمرا ذا حسنٍ ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : معناه ألزمناه حسنا . وقراءة العامة : « حُسْنًا » بضم الحاء و إسكان السين . وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك : بفتح الحاء والسين . وقرأ الجحدرى : « إحْسَانًا » على المصدر ؛ وكذلك فى مصحف أبىّ ، التقدير : ووصينا الإنسان أن يحسن إليهما إحسانا ، ولا ينتصب بوصينا ؛ لأنه قد آستوفى مفعوليه . ﴿ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ وعيد فى طاعة الوالدين فى معنى الكفر . ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم . وقوله : « لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » مبالغة على معنى ؛ فالذين هم فى نهاية الصلاح وأبعد غاياته . و إذا تحصل للؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته و جزاؤه وهو الجنة .

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ الآية نزلت فى المنافقين كانوا يقولون آمنا بالله ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴾ أى أذاهم ﴿ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ فى الآخرة فآرتد عن إيمانه . وقيل : جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية فى الله .

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٩٢ فما بعد .

﴿وَلَئِنْ جَاءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون؛ فقال الله لهم: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى الله أعلم بما فى صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت فى ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة فى أنفسهم افتتنوا. وقال الضحاك: نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك. وقال عكرمة: كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم، فأنزل الله: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ»[1] فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا فلحقهم المشركون، فافتتن بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم. وقيل: نزلت فى عيّاش بن أبى ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذى وضرب فارتد. وإنما عذبه أبو جهل والحرث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت فى القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة.

قوله تعالى: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أى ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ جزم على الأمر. قال الفراء والزجاج: هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء؛ أى إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، كما قال[2]:

فقلتُ ادعى وأدعُ فإنّ أندَى * لِصوتٍ أن يُنادِىَ داعيانِ

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤٥.

(٢) البيت لمدثار بن شيبان النمرى وقبله:

تقول خليلتى لما اشتكينا * سيدركنا بنو القرم الهجان

أى إن دعوتِ دعوتُ . قال المهدوى : وجاء وقوع ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ بعده على الحمل على المعنى ؛ لأن المعنى إن ٱتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم . فلما كان الأمر يرجع فى المعنى إلى الخبر وقع عليــه التكذيب كما يوقع عليــه الخبر . قال مجاهد : قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث ، فإن كان عليكم وزر فعلينا ؛ أى نحن نحمــل عنكم ما يلزمكم . والحمــل ههنا بمعنى الحمالة لا الحمل على الظهر . وروى أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة . ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يعنى ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم . روى معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم فى « آل عمران »(1) . قال أبو أمامة الباهلى : "يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل ٱقتصوا من عبــدى فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فٱجعلوا عليه" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » . وقال قتادة : من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء . ونظيره قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ »(2) . ونظير هذا قوله عليه السلام : "من سنّ فى الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" روى من حديث أبى هريرة وغيره . وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من دعا إلى هدى فٱتُّبِــع عليه وعمل به فله مثل أجور من ٱتّبعه ولا يَنْقص ذلك من أجورهم شيئا وأيمــا داعٍ دعا إلى ضلالة فٱتُّبِــع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن ٱتّبعه لا يَنْقص ذلك من أوزارهم شيئا" ثم قرأ الحسن : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » .

قلت : هذا مرسل وهو معنى حديث أبى هريرة خرجه مسلم . ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أيما داعٍ دعا إلى ضلالة فٱتُّبِــع فإن له مثلَ أوزار من ٱتّبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئا وأيما داعٍ دعا إلى هدًى فٱتُّبِــع فإن له مثل أجور من ٱتّبعه

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٥٧ فما بعد .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٩٦ .

ولا ينقص من أجورهم شيئا" خرجه ٱبن ماجه فى السنن . وفى الباب عن أبى جُحَيفة وجرير . وقد قيـل : إن المراد أعوان الظلمة . وقيـل : أصحاب البدع إذا ٱتُّبِعوا عليها . وقيل : محدِثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم . والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كله .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَـنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوح تسلية لنبيّه صلى الله عليـه وسلم ؛ أى ٱبتلى النبيون قبلك بالكفار فصبروا . وخصّ نوحا بالذكر؛ لأنه أوّل رسول أرسـل إلى الأرض وقد ٱمتلأت كفرا على ما تقدّم بيانه فى « هود »(١) . وأنه لم يلق نبيّ من قومه ما لقى نوح على ما تقدّم فى « هود » عن الحسن . وروى عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليـه وسلم قال : " أوّل نبيّ أرسل نوح " قال قتادة : وبعث من الجزيرة . وٱختلف فى مبلغ عمره . فقيل : مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى فى كتابه . قال قتادة : لبث فيهم قبـل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلثمائة سنة ، ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة . وقال ٱبن عباس : بعث نوح لأربعين سنة، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وعنه أيضا : أنه بعث وهو ٱبن مئتين وخمسين سـنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، وعاش بعـد الطوفان مائتى سنة . وقال وهب : عمّر نوحٌ ألفا وأربعمائة سنة . وقال كعب الأحبار : لبث نوح فى قومه ألف سـنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان سبعين عاما فكان مبلغ عمره ألف سـنة وعشرين عاما . وقال عون بن أبى شـداد : بعث نوح وهو ٱبن خمسين وثلاثمـائة سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان ثلثمائة سنة

(١) راجع جـ ٩ ص ٤٢ فما بعد .

وخمسين سنة ؛ فكان مبلغ عمره ألف سنة وسمائة ســنة وخمسين سنة ونحوه عن الحسن . قال الحسن : لمـا أتى ملك المـوت نوحا ليقبض روحه قال : يانوح كم عشت فى الدنيـا؟ قال : ثلثمائة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاما فى قومى، وثلثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان . قال ملك الموت : فكيف وجدت الدنيـا ؟ قال نوح : مثل دار لهـا بابان دخلت من هـذا وخرجت من هـذا . وروى من حديث أنس قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " لمـا بعث الله نوحا إلى قومه بعثـه وهو آبن خمسين ومائتى ســنة فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وبقى بعد الطوفان خمسين ومائتى سنة فلما أتاه ملك الموت قال يانوح يا أكبر الأنبياء وياطويل العمر ويامجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال مثل رجل بنى له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر" وقد قيل: دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر. وقال آبن الوردى : بَنَى نوح بيتـا من قصب، فقيل له : لو بنيت غير هذا، فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال أبو المهاجر : لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فى بيت من شعر، فقيل له : يانبىّ الله آبن بيتا، فقال : أموت اليوم [أو] أموت غدا . وقال وهب بن منبّه: مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلا من الموت . وقال مقاتل وجويبر : إن آدم عليه السلام حين كبر ورقّ عظمه قال يارب إلى متى أكدّ وأسعى ؟ قال يا آدم حتى يولد لك ولد مختون . فولد له نوح بعد عشرة أبطن ، وهو يومئذ آبن ألف سنة إلا ستين عاما . وقال بعضهم : إلا أربعين عاما . والله أعلم . فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهـو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم . وكان آسم نوح السكن . وإنما سمى السكن؛ لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه ، فهو أبوهم . وولد له سام وحام ويافث ، فولد سام العرب وفارس والروم، وفى كل هؤلاء خير. وولد حام القبط والسودان والبربر. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج. وليس فى شىء من هؤلاء خير. وقال آبن عباس : فى ولد سام بياض وأدمة، وفى ولد حام سواد وبياض قليل . وفى ولد يافث ــ وهم الترك والصقالبة ــ الصفرة والحمرة . وكان له ولد رابع وهو كنعان الذى غرق، والعرب تسميه يام . وسمى نوح نوحا لأنه ناح على قومه ألف سنة

إلا خمسين عاما، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناح عليهم. وذكر القشيرى أبو القاسم عبد الكريم فى كتاب التخبيرله : يروى أن نوحا عليه السلام كان ٱسمه يشكر ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه يانوح كم تنوح . فسمى نوحا؛ فقيل . يارسول الله فأى شىء كانت خطيئته ؟ فقال : " إنه مر بكلب فقال فى نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه ٱخلق أنت أحسن من هذا . وقال يزيد الرقاشى : إنما سمى نوحا لطول ما ناح على نفسه . فإن قيل: فلم قال: «أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا»ولم يقل تسعمائة وخمسين عاما. ففيه جوابان: أحدهما — أن المقصود به تكثير العدد، فكان ذكره الألف أكثر فى اللفظ وأكثر فى العدد . الثانى — ماروى أنه أعطى من العمر ألف سنة، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده، فلما حضرته الوفاة رجع فى ٱستكمال الألف، فذكر الله تعالى ذلك تنبيها على أن النقيصة كانت من جهته. ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ قال ٱبن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : المطر . الضحاك : الغرق . وقيل : الموت . روته عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم. ومنه قول الشاعر:

* أفناهم طوفانُ موتٍ جارف *

قال النحاس: يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال و « أَلْفَ سَنَةٍ » منصوب على الظرف « إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » منصوب على الاستثناء من الموجب . وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول ؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول . فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض . كأنك قلت ٱستثنيت زيدا .

تنبيه — روى حسان بن غالب بن نجيح أبو القاسم المصرى، حدثنا مالك بن أنس عن الزهرىّ عن ٱبن المسيّب عن أُبىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان جبريل يذاكرنى فضل عمر فقلت ياجبريل ما بلغ فضل عمر قال لى يا محمد لو لبثتُ معك ما لبث نوح فى قومه ما بلغت لك فضل عمر " ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادى . وقال : تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه .

قوله تعالى :﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ معطوف على الهاء. ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الهاء والألف فى « جَعَلْنَاهَا » للسفينة، أو للعقوبة ، أو للنجاة ؛ ثلاثة أقوال .

قوله تعالى : وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال الكسائي : « وَإِبْرَاهِيمَ » منصوب بـ « أَنْجَيْنَا » يعني أنه معطوف على الهاء . وأجاز الكسائي أن يكون معطوفا على نوح ، والمعنى وأرسلنا إبراهيم . وقول ثالث : أن يكون منصوبا بمعنى واذكر إبراهيم . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾ أي أفردوه بالعبادة . ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي ٱتقوا عقابه وعذابه . ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي من عبادة الأوثان ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا ﴾ أي أصناما . قال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو من فضة أو نحاس ، والوثن ما يتخذ من جصّ أو حجارة . الجوهري : الوثن الصنم والجمع وُثْنٌ وأوثانٌ مثل أُسد وآساد . ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ قال الحسن : معنى « تَخْلُقُونَ » تنحتون ؛ فالمعنى إنما تعبدون أوثانا وأنتم تصنعونها . وقال مجاهد : الإفك الكذب ، والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب . وقرأ أبو عبد الرحمن : « وَتَخَلَّقُونَ » . وقرئ : « تُخَلِّقُونَ » بمعنى التكثير من خَلَّق و « تَخَلَّقُونَ » من تَخلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرّص . وقرئ : « أَفِكًا » وفيه وجهان : أن يكون مصدرا نحو كذب ولعب والإفك مخففا منه كالكذب واللعب . وأن يكون صفة على فَعِل أي خلقا أَفِكا أي ذا إفك وباطل . و « أوثانا » نصب بـ « تعبدون » و « ما » كافة . ويجوز في غير القرآن رفع أوثان على أن تجعل « ما » ٱسما لأن ؛ و « تعبدون » صلته ، وحذفت الهاء لطول الاسم وجعل أوثان خبر إن . فأما « وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » فهو منصوب بالفعل لا غير . وكذا ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ

اللهِ الرِّزْقَ ﴾ أي آصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله فإياه فآسألوه وحده دون غيره . ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقيل : هـو من قوله إبراهيم أى التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ .

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم ، وهي آختيار أبي عبيـد وأبي حاتم . قال أبو عبيد : لذكر الأمم كأنه قال أو لم ير الأمم كيف . وقرأ أبو بكر والأعمش وآبن وثّاب وحمزة والكسائي : « تَرَوْا » بالتاء خطابا ؛ لقوله : « وَإِنْ تُكَذِّبُوا » . وقد قيـل : « وَإِنْ تُكَذِّبُوا » خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم . ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعنى الخلق والبعث . وقيـل : المعنى أو لم يروا كيف يبدئ الله الثمـار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبدا . وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولدا ، وخلق من الولد ولدا . وكذلك سائر الحيوان . أى فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لأنه إذا أراد أمرا قال له كن فيكون .

قوله تعـالى : قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيروا فى الأرض ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله . ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير : «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفة والرآفة وشبهه . الجوهرى : أنشأه الله خلقه ، والاسم النشأة والنشاءة بالمدّ عن أبى عمرو بن العلاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بعدله . ﴿ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى بفضله . ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ترجعون وتردون . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ قال الفراء : معناه ولا من فى السماء بمعجزين الله . وهو غامض فى العربية؛ للضمير الذى لم يظهر فى الثانى . وهو كقول حسان :

فمن يَهْجو رسول الله منكم * ويَمدحُهُ ويَنصرُه سَواءُ

أراد ومَن يمدحه وينصره سواء؛ فأضمر مَن ؛ وقاله عبد الرحمن بن زيد . ونظيره قوله سبحانه : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ »[(١)] أى مَن له . والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض فى الأرض ولا أهل السماء إن عصوه . وقال قُطْرُب : ولا فى السماء لو كنتم فيها، كما تقول : لا يفوتنى فلان بالبصرة ولا هاهنا، بمعنى لا يفوتنى بالبصرة لو صار إليها . وقيل : لا يستطيعون هربا فى الأرض ولا فى السماء . وقال المبرّد : والمعنى ولا مَن فى السماء على أن مَن ليست موصولة ولكن تكون نكرة و « فِي السَّمَاءِ » صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف . وردّ ذلك علىّ ابن سليمان . وقال : لا يجوز . وقال : إن مَن إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة؛ قال : والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون؛ والمعنى لو كنتم فى السماء ما أعجزتم الله؛ كما قال : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ »[(٢)] . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ويجوز « نَصِيرٌ » بالرفع على الموضع، وتكون « مِن » زائدة . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام . ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أى من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أو يسوا . وهذه

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٧ . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٢ .

الآيات آعتراض من الله تعالى تذكيرا وتحذيرا لأهل مكة . ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ثم آتفقوا على تحريقه ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى من إذايتها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أى فى إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقى فيها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ . وقراءة العامة : «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و « أَنْ قَالُوا » فى محل الرفع آسم كان . وقرأ سالم الأفطس وعمرو ابن دينار : «جَوَابُ» بالرفع على أنه آسم «كان» و «أَنْ» فى موضع الخبر نصبا . ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وقرأ حفص وحمزة : « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » . وآبن كثير وأبو عمرو والكسائى : « مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ » . والأعشى عن أبى بكر عن عاصم وآبن وثاب والأعمش : « مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ » . الباقون . « مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ » . فأما قراءة آبن كثير ففيها ثلاثة أوجه ؛ ذكر الزجاج منها وجهين : أحدهما — أن المودة آرتفعت على خبر إنّ وتكون « ما » بمعنى الذى . والتقدير إن الذى آتخذتموه من دون الله أوثانا مودّةُ بينكم . والوجه الآخر أن يكون على إضمار مبتدإ أى هى مودّةُ أو تلك مودّةُ بينكم . والمعنى آلهتكم أو جماعتكم مودّةُ بينكم . قال آبن الأنبارى : «أَوْثَانًا» وقف حسن لمن رفع المودّة بإضمار ذلك مودّة بينكم ، ومن رفع المودّة على أنها خبر إنّ لم يقف . والوجه الثالث الذى لم يذكره أن يكون « مَوَدَّةُ » رفعا بالآبتداء و « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » خبره ؛ فأما إضافة « مَوَدَّةُ » إلى « بَيْنِكُمْ » فإنه جعل « بَيْنِكُمْ » آسما غير ظرف ، والنحويون يقولون جعله مفعولا على السعة . وحكى سيبويه : يا سارق الليلة أهل الدار . ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف ؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذكرها . ومن رفع « مَوَدَّةٌ » ونوّنها فعلى معنى ما ذكر ، و « بَيْنَكُمْ » بالنصب ظرفا . ومن نصب « مَوَدَّةَ » ولم ينوّنها جعلها مفعولة بوقوع الآتخاذ عليها وجعل « إنما » حرفا واحدا ولم يجعلها بمعنى الذى . ويجوز نصب المودّة على أنه مفعول من أجله كما تقول : جئتك آبتغاء الخير ، وقصدت فلانا مودّة له « بينكم » بالخفض . ومن نوّن «مَوَدَّةً» ونصبها فعلى ما ذكر « بَيْنَكُمْ » بالنصب من غير إضافة ، قال آبن الأنبارى : ومن قرأ : « مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ »

و « مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ » لم يقف على الأوثان، ووقف على الحياة الدنيا . ومعنى الآية جعلتم الأوثان تتحابون عليها وعلى عبادتها فى الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ تتبرأ الأوثان من عبّادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ »(1) . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأتباع . وقيل : تدخل فيه الأوثان كقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(2) .

قوله تعالى : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ لُوطٌ أوّل من صدّق إبراهيم حين رأى النار عليه بردا وسلاما . قال ابن إسحق آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته ، وآمنت به سارة وكانت بنت عمه . ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ قال النّخعيّ وقتادة : الذى قال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي » هو إبراهيم عليه السلام . قال قتادة ، هاجر من كوثا وهى قرية من سواد الكوفة إلى حرّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة . قال الكلبي : هاجر من أرض حرّان إلى فلسطين . وهو أوّل من هاجر من أرض الكفر . قال مقاتل : هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة . وقيل : الذى قال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي » لوط عليه السلام . ذكر البيهقى عن قتادة قال : أوّل من هاجر إلى الله عز وجل بأهله عثمان ابن عفان رضى الله عنه . قال قتادة : سمعت النضر بن أنس يقول سمعت أبا حمزة يعنى أنس ابن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد رأيت خَتَنك ومعه امرأته . قال : " على أى حال رأيتهما " قالت : رأيته وقد حمل

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٠٩ . (2) راجع جـ ١١ ص ٢٤٣ .

امرأته على حمار من هذه الدَّبَّابة(١) وهو يسوقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط" قال البيهقي: هــذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانيــة إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي ســنة خمس من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم. وتقدم الكلام في الهجرة في «النساء»(٢) وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ﴾ أي منّ الله عليه بالأولاد فوهب له إسحق ولدا ويعقوب ولد ولد. وإنما وهب له إسحق من بعد إسمعيل ويعقوب من إسحق. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه. ووحد الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]، فهو عبارة عن الجمع. فالتوراة أُنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده؛ والفرقان على محمد من ولده صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه؛ قاله عكرمة. وروى سفيان عن حميد ابن قيس قال: أمر سعيد بن جبير إنسانا أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه: «وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا» فقال عكرمة: أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا؛ فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: «وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً»(٣) أي عاقبة وعملا صالحا وثناء حسنا. وذلك أن أهل كل دين يتولونه. وقيل: «آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا» أن أكثر الأنبياء من ولده. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ليس «فِي الْآخِرَةِ» داخلا في الصلة وإنما هو تبيين. وقد مضى في «البقرة»(٤) بيانه. وكل هذا حثّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق.

قوله تعالى: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا

(١) أي الضعاف التي تدب في المشي ولا تسرع.
(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٩ فما بعد.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٨.
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٣٣.

ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟
إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا
لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الكسائى : المعنى وأنجينا لوطا أو أرسلنا لوطا . قال : وهذا الوجه أحب إلىّ . ويجوز أن يكون المعنى واذكر لوطا إذ قال لقومه موبخا أو محذرا ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ « أَئِنَّكُمْ » تقدم القراءة فى هذا و بيانها فى سورة « الأعراف »(1) . وتقدم قصة لوط وقومه فى « الأعراف »(1) و « هود »(2) أيضا . ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ قيل : كانوا قطاع الطريق؛ قاله ابن زيد . وقيل : كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة؛ حكاه ابن شجرة . وقيل : إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال قاله وهب بن منبّه . أى استغنوا بالرجال عن النساء .

قلت : ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، و يستغنون عن النساء بذلك . ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ النادى المجلس واختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه ؛ فقالت فرقة : كانوا يخذفون النساء بالحصى ، و يستخفّون بالغريب والخاطر عليهم . ورونه أم هانئ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . قالت أم هانئ : سألت رسول الله صلى

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ و ص ٢٤٢ فما بعد . (2) راجع جـ ٩ ص ٧٩ .

الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل: « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » قال: "كانو يخذفون من يمر بهم و يسخرون منه فذلك المنكر الذى كانوا يأتونه" أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، وذكره النحاس والثعلبي والمهدوى والمـاوردى . وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم : " إن قوم لوط كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخـذف فإذا مرّ بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به " يعنى يذهب به للفاحشة فذلك قوله : « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » . وقالت عائشة وآبن عباس والقاسم بن أبى بَزّة(١) والقاسم ابن محمد : إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم . وقال [منصور(٢) عن] مجاهد كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم و بعضهم يرى بعضا . وعن مجاهد: كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحنـاء والصفير والحذف ونبـذ الحياء فى جميـع أمورهم . قال آبن عطية : وقـد توجد هذه الأمور فى بعض عصاة أمة محمد صلى الله عليـه وسلم، فالتناهى واجب . قال مكحول : فى هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط : مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحنّاء، وحلّ الإزار ، وتنقيض(٣) الأصابع، والعمامة التى تلف حول الرأس ، والتشابك ، ورمى الجُلاهِق(٤) ، والصفير والحذف ، واللوطية . وعن آبن عباس قال : إن قوم لوط كانت فيهـم ذنوب غير الفاحشة ، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ، و يشتم بعضهم بعضا، و يتضارطون فى مجالسهم، و يخذفون و يلعبون بالنَّرْد والشِّطْرَنج، و يلبسون المصبغات ، و يتناقرون بالديكة، و يتناطحون بالكباش، و يُطرِّفون أصابعهم بالحنّاء ، وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال، و يضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله وهم أوّل من ظهر على أيديهم اللوطية والسِّحاق . فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج فقالوا : ﴿ آئْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ ﴾ أى إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه . وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على آعتقاد كذبه . وليس يصح فى الفطرة أن يكون معاند يقول هذا . ثم استنصر

---

(١) بفتح الموحدة وتشديد الزاى كما فى التقريب . (٢) فى كل النسخ : مجاهد ومنصور . والتصويب عن تفسير الطبرى وغيره . (٣) تنقيض الأصابع فرقعتها . (٤) الجلاهق كعلابط البندق الذى يرمى به . والخذف بالخاء المعجمة الحذف به .

لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم، فجاءوا إبراهيم أولا مبشرين بنصرة لوط على قومه حسبما تقدّم بيانه في « هود »(١) وغيرها. وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿ لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ بالتخفيف. وشدّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ بالتخفيف. وشدّد الباقون. وهما لغتان: أنجى ونجّى بمعنى. وقد تقدّم. وقرأ ابن عامر: ﴿ إِنَّا مُنَزِّلُونَ ﴾ بالتشديد وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أبقيت. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يرجم بها قوم من هذه الأمة. وقال ابن عباس: هي آثار منازلهم الخربة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض. وكل ذلك باقٍ فلا تعارض.

قوله تعالى: وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدّم ذكرهم وفسادهم في « الأعراف »(١) و « هود »(٢). ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ وقال يونس النحوي: أي اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال. ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي لا تكفروا فإنه أصل كل فساد. والعُثُوّ والعِثيّ أشد الفساد. عَثِيَ يَعْثَى وعَثَا يَعْثُو بمعنى واحد. وقد تقدّم. وقيل: « وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ » أي صدّقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه.

قوله تعالى: وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ قال الكسائي: قال بعضهم هو راجع إلى أول السورة؛ أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود. قال: وأحب إليّ أن يكون معطوفا على

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ فما بعد. (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٥ وص ٦٢ فما بعد.

« فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » وأخذت عادا وثمودا . وزعم الزجاج : أن التقدير وأهلكنا عادا وثمودا . وقيل : المعنى واذكر عادا إذ أرسلنا إليهم هودا فكذبوه فأهلكناهم، وثمودا أيضا أرسلنا إليهم صالحا فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عادا بالريح العقيم . ﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ يا معشر الكفار ﴿ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾ بالحجر والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم لحذف فاعل التبين . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي عن طريق الحق . ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ فيه قولان : أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة قاله مجاهد . والثاني — كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين . وهذا القول أشبه؛ لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة . قال الفراء : كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم . وقيل : أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم العذاب.

قوله تعالى : وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ قال الكسائي : إن شئت كان محمولا على عاد ، وكان فيه ما فيه، و إن شئت كان على « فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ » وصدّ قارون وفرعون وهامان . وقيل : أي وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ عن الحق وعن عبادة الله . ﴿ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ أي فائتين . وقيل : سابقين في الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم . ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ قال الكسائي : « فَكُلًّا » منصوب بـ « أَخَذْنَا » أي أخذنا كلا بذنبه . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ يعني قوم لوط . والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار . وتستعمل في كل عذاب

﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ يعنى ثمودا وأهل مدين . ﴿ وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ يعنى قارون ﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قوم نوح وقوم فرعون . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم و بعث إليهم الرسل وأزاح العذر .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ﴾ قال الأخفش : « كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ » وقف تام ، ثم قصّ قصّتها فقال : ﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ قال ابن الأنبارى : وهذا غلط ؛ لأن « اتَّخَذَتْ بَيْتًا » صلة للعنكبوت ، كأنه قال : « كمثل التى اتخذت بيتا » ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول ، وهو بمنزلة قوله : « كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا »(١) فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل . قال الفراء : هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا . ولا يحسن الوقف على العنكبوت ؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذى لا يقيها من شىء ، فشبهت الآلهة التى لا تنفع ولا تضر به . ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ أى أضعف البيوت ﴿ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ . قال الضحاك : ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ « لَوْ » متعلقة ببيت العنكبوت . أى لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التى لا تغنى عنهم شيئا ، وأن هذا مثلهم لما عبدوها ؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف . وقال النحاة : إن تاء العنكبوت فى آخرها مزيدة ؛ لأنها تسقط فى التصغير والجمع وهى مؤنثة . وحكى الفراء تذكيرها وأنشد :

على هَطَّالِهِمْ منهم بُيوتٌ　＊　كأنّ العنكبوتَ قد ابتناها

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩٤ .

ويروى : * على أهطالهم منهم بيوتُ *

قال الجوهري والهطال : آسم جبل . والعنكبوت الدويبة المعروفة التي تنسج نسجا رقيقا مهلهلا بين الهواء . ويجمع عناكيب وعَناكِب وعِكاب وعُكُب وأَعْكُب . وقد حكى أنه يقال عَنْكَب وعَكَنْباة[1] ؛ قال الشاعر :

كأنّما يَسقطُ من لُغامِها * بيتُ عَكَنْبَاةٍ على زِمَامِها

وتُصغّر فيقال عُنَيْكِب . وقد حكى عن يزيد بن مَيْسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى . وقال عطاء الخراساني : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك نهى عن قتلها . ويروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ «ما» بمعنى الذي، و«مِنْ» للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لآنقلب المعنى، والمعنى : إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه . وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب : «يَدْعُونَ» بالياء وهو آختيار أبي عبيد؛ لذكر الأمم قبلها . الباقون بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا ﴾[2] أي هذا المثل وغيره مما ذكر في «البقرة» و«الحج»[3] وغيرهما ﴿ نَضْرِبُهَا ﴾ نبينها ﴿ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ أي يفهمها ﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أي العالمون بالله؛ كما روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وآجتنب سخطه" .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالعدل والقسط . وقيل : بكلامه وقدرته وذلك هو الحق . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي علامة ودلالة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المصدّقين .

(١) ويقال أيضا : عنكباة بتقديم النون على الكاف . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٤١ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٩٦ .

قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ ﴾ أمر من التلاوة والدءوب عليها . وقد مضى في «طه»(١) الوعيد فيمن أعرض عنها، وفي مقدّمة الكتاب(٢) الأمر بالحض عليها . والكتاب يراد به القرآن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته وإقامة الصلاة أداؤها في أوقاتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها . وقد تقدّم بيان ذلك في « البقرة »(٢) فلا معنى للإعادة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يريد إن الصلاة الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب ؛ كما قال عليه السلام : " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه شيء " قالوا : لا يبقى من دَرَنه شيء ؛ قال : " فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا " خرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ، وقال فيه حديث حسن صحيح . وقال ابن عمر : الصلاة هنا القرآن . والمعنى : الذي يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر ، وعن الزنى والمعاصي .

قلت : ومنه الحديث الصحيح : " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين " يريد قراءة الفاتحة . وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُريج والكلبي : العبد ما دام في صلاته لا يأتي فحشاء ولا منكرا؛ أي إن الصلاة تنهى ما دمت فيها . قال ابن عطية : وهذه عجمة وأين هذا مما رواه أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يدع شيئا من الفواحش والسرقة إلا ركبه، فذُكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الصلاة ستنهاه "

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥٨ فما بعد . (٢) راجع جـ ١ ص ١٦٢ فما بعد .

فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألم أقل لكم " .
وفى الآية تأويل ثالث، وهو الذى آرتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون؛ فقيل المراد بـ « أَقِمِ الصَّلَاةَ » إدامتها والقيام بحدودها ، ثم أخبر حكما منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر، وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة. والصلاة تشغل كل بدن المصلّى، فإذا دخل المصلّى فى محرابه وخشع وأخبت لربه وآدكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت ، وخامرها آرتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة . فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغى أن تكون .

قلت : لا سيما و إن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله، وهذا أبلغ فى المقصود وأتم فى المراد؛ فإن الموت ليس له سنّ محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرض معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . وروى عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة آرتعد وآصفر لونه ، فكُلِّم فى ذلك فقال : إنى واقف بين يدى الله تعالى، وحقّ لى هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك . فهذه صلاة تنهى ولا بدّ عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، كصلاتنا — وليتها تجزى — فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان ، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده . وعلى هذا يخرّج الحديث المروىّ عن آبن مسعود وآبن عباس والحسن والأعمش قولهم : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا " وقد روى أن الحسن أرسله عن النبى صلى الله عليه وسلم وذلك غير صحيح السند . قال آبن عطية سمعت أبى رضى الله عنه يقول : فإذا قررنا ونُظر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصى تبعده من الله حتى كأنها معصية ، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر فى تقريبه من الله ، بل تتركه على حاله ومعاصيه ، من الفحشاء والمنكر والبعد ، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذى كان سبيله ؛ فكأنها بعّدته حين لم تكفّ بُعده عن الله . وقيل لآبن مسعود : إن فلانا كثير الصلاة . فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها .

قلت : وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث : " لم تزده من الله إلا بعدا ولم يزدد بها من الله إلا مقتا " إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته ؛ لغلبة المعاصى على صاحبها . وقيل : هو خبر بمعنى الأمر . أى ليتنه المصلى عن الفحشاء والمنكر . والصلاة بنفسها لا تنهى ، ولكنها سبب الأنتهاء . وهو كقوله تعالى : « هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ »(١) وقوله : « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ »(٢) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له فى عبادتكم وصلواتكم . قال معناه آبن مسعود وآبن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرّة وسلمان والحسن؛ وهو آختيار الطبرى . وروى مرفوعا من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » قال : " ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه " . وقيل : ذكركم اللهَ فى صلاتكم وفى قراءة القرآن أفضل من كل شىء . وقيل : المعنى ؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر . وقال الضحاك : ولذكر الله عند ما يحرم فيترك أجلّ الذكر . وقيل : المعنى ولذكر الله للنهى عن الفحشاء والمنكر أكبر أى كبير ، وأكبر يكون بمعنى كبير . وقال آبن زيد وقتادة : ولذكر الله أكبر من كل شىء أى أفضل من العبادات كلها بغير ذكر . وقيل : ذكر الله يمنع من المعصية فإن مَن كان ذاكرا له لا يخالفه . قال آبن عطية : وعندى أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق ، أى هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل فى غير الصلاة ؛ لأن الأنتهاء لا يكون إلا من ذاكر اللهَ مراقبٍ له . وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى ؛ كما فى الحديث " من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم " والحركات التى فى الصلاة لا تأثير لها فى نهى ، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله . وأما ما لا يتجاوز اللسان ففى رتبة أخرى . وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربَّه . قال الله عز وجل : « فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ »(٣) . وباقى الآية ضرب من الوعيد والحثّ على المراقبة .

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٧٥ . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٣ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٧١ .

قوله تعالى : وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ
إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ
وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن
يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ فقال مجاهد : هى محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته ؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة . وقوله على هذا : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق . وقيل: المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله ابن سلام ومن آمن معه . ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك . وقوله على هذا التأويل: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ يريد به من بقى على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم . والآية على هذا أيضا محكمة . وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال . قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ »[(١)] . قاله قتادة « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى جعلوا لله ولدا، وقالوا : « يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ »[(٢)] و « إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ »[(٣)] فهؤلاء المشركون [الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا][(٤)] الجزية فانتصروا [منهم] . قال النحاس وغيره : من قال هى منسوخة احتج بأن الآية مكية ، ولم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزية ، ولا غير ذلك . وقول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول. واختار هذا القول ابن العربى .

(١) راجع جـ ٨ ص ١٠٨ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٣٧ فما بعد . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٩٤ .
(٤) عبارة الأصول هنا : «فهؤلاء المشركون فى سقوط الجزية ... الخ» والتصويب مستفاد من كتب التفسير .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : وقوله : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب بجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا ، أو يعطوا الجزية .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ روى البخاريّ عن أبي هريرة : قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية و يفسرونها بالعربية ، لأهل الإسلام ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم" « وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ » . وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما أن تكذّبوا بحق و إما أن تصدّقوا بباطل" (١) . وفي البخاريّ : عن حُمَيد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعبَ الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب ، و إن كنا مع ذلك لَنبلُو عليه الكذب .

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ الضمير في « قَبْلِهِ » عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله ، ولا تختلف إلى أهل الكتاب ، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك ، فلو كنت ممن يقرأ كتابا ، و يخط حروفا ﴿ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي من أهل الكتاب ، وكان لهم في آرتيابهم متعلّق ، وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أميّ لا يكتب ولا يقرأ وليس به . قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يخط ولا يقرأ ، فنزلت هذه الآية ؛ قال النحاس : دليلا على نبوته لقريش ؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك .

(١) في ش : إما أن تكذبوا الحق و إما أن تصدقوا الباطل .

الثانية — ذكر النقاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبي انه قال : ما مات النبي صلى الله عليه وسلم حتى كتب . وأسند أيضا حديث أبى كَبْشة السَّلُولى ؛ مضمنه : أنه صلى الله عليه وسلم قرأ صحيفة لعُيَيْنة بن حِصن ، وأخبر بمعناها. قال ٱبن عطية : وهذا كله ضعيف ، وقول الباجى رحمه الله منه .

قلت: وقع فى صحيح مسلم من حديث البراء فى صلح الحديبية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى: "ٱكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله" فقال له المشركون : لو نعلم أنك رسول الله تابعناك — وفى رواية بايعناك — ولكن ٱكتب محمد بن عبد الله فأمر عليًّا أن يمحوها ، فقال على : والله لا أمحاه (١) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرنى مكانها " فأراه فمحاها وكتب ٱبن عبد الله . قال علماؤنا رضى الله عنهم : وظاهر هذا أنه عليه السلام محا تلك الكلمة التى هى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيده، وكتب مكانها ٱبن عبد الله . وقد رواه البخارى بأظهر من هذا . فقال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتب . وزاد فى طريق أخرى : ولا يحسن أن يكتب . فقال جماعة ، بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده ، منهم السمنانى وأبو ذرّ (٢) والباجى ، ورأوا أن ذلك غير قادح فى كونه أميا ، ولا معارض بقوله : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » ولا بقوله : " إنا أمة أميـة لا نكتب ولا نحسب " بل رأوه زيادة فى معجزاته ، وٱستظهارا على صدقه وصحـة رسالته ، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة ، ولا تعاطٍ لأسبابها ، و إنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ٱبن عبد الله لمن قرأها ، فكان ذلك خارقا للعادة ، كما أنه عليه السلام عَلِم عِلم الأوّلين والآخرين من غير تعلم ولا ٱكتساب ، فكان ذلك أبلغ فى معجزاته ، وأعظم فى فضائله . ولا يزول عنه ٱسم الأمىّ بذلك ؛ ولذلك قال الراوى عنه فى هذه الحالة : ولا يحسن أن يكتب . فبقى عليه ٱسم الأمىّ مع كونه قال كتب . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وقد أنكر هذا كثير من

(١) محا الشيء يمحوه ويمحاه محوا ومحيا أذهب أثره .

(٢) السمنانى هو أبو عمرو الفلسطينى . وأبو ذر هو عبد الله بن أحمد الهروى ، والباجى هو أبو الوليد .

متفقهة الأندلس وغيرهم، وشددوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية ، وعدم التوقف فى تكفير المسلمين ، ولم يتفطنوا ؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه السلام فى الصحيح ، لا سيما رمىُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة ؛ على أن المسألة ليست قطعية ، بل مستندها ظواهر أخبار أحاد صحيحة ، غير أن العقل لا يحيلها . وليس فى الشريعة قاطع يحيل وقوعها .

قلت : وقال بعض المتأخرين من قال هى آية خارقة ، فيقال له : كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهى كونه أميا لا يكتب ؛ وبكونه أميًا فى أمة أميّة قامت الحجة ، وأفحم الجاحدون، وانحسمت الشبهة ، فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية . وإنما الآية ألّا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضا . وإنما معنى كتب وأخذ القلم ؛ أى أمر من يكتب به من كُتّابه ، وكان من كتبة الوحى بين يديه صلى الله عليه وسلم ستة وعشرون كاتبا .

الثالثة — ذكر القاضى عِياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : " أَلِقِ الدواة وحرّف القلَم وأقم البـاء وفرّق السين ولا تُعور الميم وحسّن الله ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم " قال القاضى : وهـذا وإن لم تصح الرواية أنه صلى الله عليه وسلم كتب فلا يبعد أن يُرزَق علم هذا ، ويُمنَع القراءة والكتابة .

قلت : هذا هو الصحيح فى الباب أنه ما كتب ولا حرفا واحدا ، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجى . فإن قيل : فقد تهجى النبى صلى الله عليه وسلم حين ذكر الدجال فقال : " مكتوب بين عينيه ك ا ف ر " وقلتم إن المعجزة قائمة فى كونه أميا؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ » الآية وقال : " إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" فكيف هذا؟ فالجواب ما نصّ عليه صلى الله عليه وسلم فى حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضا . ففى حديث حذيفة " يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب " فقـد نصّ فى ذلك على غير الكتّاب ممن يكون أميّا . وهذا من أوضح ما يكون جليا .

قوله تعالى : بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ يعنى القرآن . قال الحسن : وزعم الفراء فى قراءة عبد الله « بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » المعنى بل آيات القرآن آيات بينات . قال الحسن : ومثله « هَذَا بَصَائِرُ »[1] ولو كانت هذه لجاز ، نظيره : « هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي »[2] قال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظرا ، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون . فقال كعب فى صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء وهم فى الفقه أنبياء . ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أى ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر ، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه . وهى كذلك فى صدور الذين أوتوا العلم ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به ، يحفظونه و يقرءونه . ووصفهم بالعلم ؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين . وقال قتادة وابن عباس : « بَلْ هُوَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم « آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » من أهل الكتاب يجدونه مكتوبا عندهم فى كتبهم بهذه الصفة أميا لا يقرأ ، ولا يكتب ، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا . وهذا اختيار الطبرى . ودليل هذا القول قراءة ابن مسعود وابن السميقع : « بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » وكان عليه السلام آيات لا آية واحدة ؛ لأنه دلّ على أشياء كثيرة من أمر الدين ؛ فلهذا قال : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » . وقيل : بل هو ذو آيات بيّنات ، فحذف المضاف . ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى الكفار ؛ لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به .

قوله تعالى : وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ١١ ص ٥٥ فما بعد .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء . قيل : كما جاء صالح بالناقة ، وموسى بالعصا ، وعيسى بإحياء الموتى ؛ أى ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فهو يأتى بها كما يريد ، إذا شاء أرسلها وليست عندى ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ . وقـرأ ابن كثير و أبو بكر وحمـزة والكسائى : « آيَةٌ » بالتوحيد . وجمـع الباقون . وهو آختيـار أبى عبيد؛ لقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ هذا جواب لقولهم « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ » أى أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذى قـد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله ، أو بسورة منه فعجزوا ، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر ؛ والكلام مقدور لهم ، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة . وقيل : إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتف فيه كتاب فقال "كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم" فأنزل الله تعالى : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ » أخرجه أبو محمد الدارمىّ فى مسنده . وذكره أهل التفسير فى كتبهم . وفى مثل هـذا قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه : " لو كان موسى بن عمران حيّا لمـا وسعه إلا آتباعى " وفى مثله قال صلى الله عليه وسـلم " ليس منا من لم يتغنّ بالقـرآن " أى يستغنى به عن غيره . وهذا تأويل البخارى رحمه الله فى الآية . و إذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ما ذكرناه فى مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أى فى القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ فى الدنيا والآخرة . وقيل : رحمة فى الدنيا باستنقاذهم من الضلالة . ﴿ وَذِكْرَى ﴾ فى الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أى قل للمكذبين لك كفى بالله شهيدا يشهد لى بالصدق فيما أدعيه من أنى رسوله ، وأن هذا القرآن كتابه . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء . وهـذا آحتجاج عليهم فى صحة شهادته عليهم ؛ لأنهم قد

أقروا بعلمه فلزمهم أن يقروا بشهادته . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ قال يحيى بن سلام : بإبليس . وقيل : بعبادة الأوثان والأصنام؛ قاله ابن شجرة . ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ أى لتكذيبهم برسله ، وجحدهم لكتابه . وقيل : بما أشركوا به من الأوثان ، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أنفسهم وأعمالهم فى الآخرة .

قوله تعالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ لما أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار : عجّل لنا هذا العذاب . وقيل : إن قائل ذلك النّضر بن الحرث وأبو جهل حين قالا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ »(١) وقولهم : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ »(٢) وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ فى نزول العذاب . قال ابن عباس : يعنى هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة . بيانه : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »(٣) . وقال الضحاك : هو مدة أعمارهم فى الدنيا . وقيل : المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : الوقت الذى قدره الله لهلاكهم وعذابهم ؛ قاله ابن شجرة . وقيل : هو القتل يوم بدر . وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر. دليله قوله : « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ »(٤) . ﴿ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ يعنى الذى استعجلوه . ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى لا يعلمون بنزوله عليهم . ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أى يستعجلونك وقد أعد لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال . وقيل : نزلت فى عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »(٥) .

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩٨ . (٢) راجع ج ١٥ ص ١٥٥ فما بعد . (٣) راجع ج ١٧ ص ١٤٥ فما بعد . (٤) راجع ج ٧ ص ١١ . (٥) راجع ج ١٠ ص ٣٢٧ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قيل : هو متصل بما هو قبله ؛ أى يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم . وإنما قال : ﴿ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ للقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم ؛ كما قال الشاعر :

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وماءً باردا (١) *

وقال آخــر :

لقد كان قوّادَ الجيادِ إلى العِدَا * عليهنّ غابٌ من قَــنًى ودروع

﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة : « نَقُولُ » بالنون . الباقون بالياء . وآختاره أبو عبيد؛ لقوله : « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ » ويحتمل أن يكون الملك الموكّل بهم يقول : « ذُوقُوا » والقراءتان ترجع إلى معنى . أى يقول الملك بإمرنا ذوقوا .

قوله تعالى : يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ هذه الآية نزلت فى تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة — فى قول مقاتل والكلبي — فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأن البقاء فى بقعة على أذى الكفار ليس بصواب . بل الصواب أن يتلمس عبادة الله فى أرضه مع صالحى عباده ؛ أى إن كنتم فى ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها . وقال آبن جبير وعطاء : إن الأرض التى فيها الظلم

(١) تمام البيت : * حتى شتت همالة عيناها *

والمنكر تترتب فيها هذه الآية ، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق . وقاله مالك . وقال مجاهد : «إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ» فهاجروا وجاهدوا . وقال مُطَرِّف بن الشِّخِّير : المعنى إن رحمتي واسعة . وعنه أيضا : إن رزق لكم واسع فآبتغوه في الأرض . قال سفيان الثوري : إذا كنت بأرض غالية فانتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزا بدرهم . وقيل : المعنى : إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة . ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ حتى أورثكموها . «فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» «إِيَّايَ» منصوب بفعل مضمر، أي فاعبدوا إياي فآعبدون، فآستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله : «فَإِيَّايَ» بمعنى الشرط؛ أي إن ضاق بكم موضع فإياي فآعبدوني [في غيره](١)؛ لأن أرضي واسعة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ تقدّم في «آل عمران»(٢) . وإنما ذكره هاهنا تحقيرا لأمر الدنيا ومخاوفها . كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقر الله شأن الدنيا . أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا ، فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه و إلى ما يمتثل . ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضا منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو و يعقوب والجحدري وآبن أبي إسحق وآبن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : «يَا عِبَادِي» بإسكان الياء . وفتحها الباقون . «إِنَّ أَرْضِي» فتحها آبن عامر . وسكنها الباقون . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبر آستوجب الجنة وكان رفيق محمد و إبراهيم " عليهما السلام . «ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» . وقرأ السلمي وأبو بكر عن عاصم : «يُرْجَعُونَ» بالياء؛ لقوله : «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله : «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» وأنشد بعضهم :

المَوتُ في كلِّ حينٍ يَنْشُدُ الكَفَنَا * ونحن في غفلةٍ عمّا يُرادُ بِنَا
لا تَرْكَنَنَّ إلى الدّنيا وزَهْرتِها * وإن تَوَشَّحْتَ من أثوابها الحَسَنَا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧ فما بعد .

أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فعلُوا　*　أينَ الذين هُمُو كانوا لها سكَنَا
سقاهُمُ الموتُ كأسًا غيرَ صافيةٍ　*　صيرهم تحت أطباقِ الثَّرَى رُهُنَا

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش و يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي : «لَنُثْوِيَنَّهُمْ» بالثاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة؛ أي لنعطينهم غرفا يثوون فيها . وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسلمي : « لَيُبَوِّئَنَّهُمْ » بالياء مكان النون . الباقون ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أي لننزلهم » « غُرَفًا » جمع غرفة وهي العِلِّيَّة المشرفة . وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدريّ الغابرَ من الأفق من المشرق أو المغرب [(١)] لتفاضل ما بينهم " قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين " وخرج الترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها " فقام إليه أعرابي فقال : لمن هي يارسول الله ؟ قال : " هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام " وقد زدنا هذا المعنى بيانا في كتاب « التذكرة » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أسند الواحدي عن يزيد بن هرون، قال : حدّثنا حجاج بن المِنْهال عن الزهري — وهو عبد الرحمن بن عطاء — عن عطاء عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر [ويأكل] [(٢)] فقال " يابن عمر مالك لا تأكل " فقلت لا أشتهيه يا رسول الله فقال " لكني أشتهيه وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاما ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين " قال : والله ما برحنا حتى نزلت : « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

---

(١) هذه رواية أبي سعيد الخدري ؛ كما في صحيح مسلم .　(٢) الزيادة من كتاب «أسباب النزول» للواحدي .

قلت : وهذا ضعيف يُضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سَنَتهم ، ٱتفق البخارى عليه ومسلم . وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين . وقد روى ٱبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون "ٱخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة" قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت : « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أى ليس معها رزقها مدّخرا ، وكذلك أنتم يرزقكم الله فى دار الهجرة . وهذا أشبه من القول الأوّل . وتقدّم الكلام فى « كَأَيِّنْ » وأن هذه « أَىّ » دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم . والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد . أى كشىء كثير من العدد من دابة . قال مجاهد : يعنى الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا . الحسن : تأكل لوقتها ولا تدّخر لغد . وقيل : « لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أى لا تقدر على رزقها « اللَّهُ يَرْزُقُهَا » أينما توجهت « وَإِيَّاكُمْ » . وقيل : الحمل بمعنى الحمالة . وحكى النقاش : أن المراد النبيّ صلى الله عليه وسلم يأكل ولا يدّخر .

قلت : وليس بشىء ، لإطلاق لفظ الدابة ، وليس مستعملا فى العرف إطلاقها على الآدمى فكيف على النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد مضى هذا فى « النمل »(1) عند قوله : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ » قال ٱبن عباس : الدوابّ هو كل مادبّ من الحيوان ، فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلا ٱبن آدم والنمل والفأر . وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر فى مِحْضنه . ويقال للعقعق مخابىء إلا أنه ينساها . ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ يسوّى بين الحريص والمتوكل فى رزقه ، وبين الراغب والقانع ، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغترّ الجلِد أنه مرزوق بجلَده ، ولا يتصوّر العاجز أنه ممنوع بعجزه . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « لو أنكم تَوَكّلون على الله حق تَوَكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا » . ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما فى قلوبكم .

(1) راجع ص ٢٢٣ من هذا الجزء .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الآية . لما عيّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء ، وكان هذا تمويها ، وكان فى الكفار فقراء أيضا أزال الله هذه الشبهة . وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق . أى فإذا آعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء ، فكيف تَشكُّون فى الرزق ، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد ؛ ولهذا وصله بقوله تعالى : « اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ » . ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كيف يكفرون بتوحيدى و ينقلبون عن عبادتى . ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أى لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر ، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر ، فكل شيء بقضاء وقدر . ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من أحوالكم وأموركم . وقيل : عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى من السحاب مطرا . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ أى جدبها وقحط أهلها . ﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ أى فإذا أقررتم بذلك فلِم تشركون به وتنكرون الإعادة . و إذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين ؛ فكرر تأكيدا . ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

أى لا يتدبرون هذه الحجج . وقيل : « الْحَمْدُ لِلَّهِ » على إقرارهم بذلك . وقيل : على إنزال الماء وإحياء الأرض . ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ أى شىء يُلهَى به ويُلعَب . أى ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذى لاحقيقة له ولا ثبات ، قال بعضهم : الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها . وأنشد :

تروحُ لنا الدنيا بغير الذى غَدَتْ * وتَحدثُ من بعدِ الأمور أمورُ
وتجرِى الليالى باجتماعٍ وفُرقةٍ * وتطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغورُ
فمن ظنّ أنّ الدهرَ باقٍ سروره * فذاكَ محالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللهُ عمّن صَيّر الهمَّ واحدًا * وأيقن أن الدائراتِ تَدُورُ

قلت : وهذا كله فى أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضرورى الذى به قوام العيش ، والقوّة على الطاعات . وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة ، وهو الذى يبقى كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »(١) أى ما ٱبتغى به ثوابه ورضاه . ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى دار الحياة الباقية التى لا تزول ولا موت فيها . وزعم أبوعبيدة: أن الحيوان والحياة والحِىّ بكسر الحاء واحد . كما قال(٢) :

* وقد ترى إذ الحياةُ حِىٌّ *

وغيره يقول : إن الحِىّ جمع على فِعول مثل عِصىّ . والحيوان يقع على كل شىء حىّ . وحيوان عينٌ فى الجنة . وقيل : أصل حيوان حَيَيَان فأبدلت إحداهما واوا ؛ لاجتماع المثلين . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أنها كذلك .

قوله تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٤ فما بعد . (٢) البيت للعجاج وتمامه :
* وإذ زمان الناس دغفلى *

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ يعنى السفن وخافوا الغرق ﴿ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى صادقين فى نياتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى يدعون معه غيره، وما لم ينزل به سلطانا . وقيل : إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملّاح لغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ قيل : هما لام كى أى لكى يكفروا ولكى يتمتعوا . وقيل : « إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله و يتمتعوا بالدنيا . وقيل : هما لام أمر معناه التهديد والوعيد . أى اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا . ودليل هذا قراءة أُبَىّ « وَتَمَتَّعُوا » . ابن الأنبارى : ويقوى هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة : « وَلْيَتَمَتَّعُوا » بجزم اللام . النحاس : « وَلِيَتَمَتَّعُوا » لام كى، و يجوز أن تكون لام أمر ؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد . ومن قرأ : « وَلْيَتَمَتَّعُوا » بإسكان اللام لم يجعلها لام كى؛ لأن لام كى لايجوز إسكانها . وهى قراءة ابن كثير والمسيّبى وقالون عن نافع، وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم . الباقون بكسر اللام . وقرأ أبو العالية: « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » تهديد ووعيد .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : هى مكة وهم قريش أمّنهم الله تعالى فيها . ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ قال الضحاك : يقتل بعضهم بعضا و يَسبى بعضهم بعضا . والخطف الأخذ بسرعة . وقد مضى فى « القصص »[1]

(١) راجع ص ٢٩٩ من هذا الجزء .

وغيرها . فأذكرهم الله عز وجل هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة . أى جعلتُ لهم حرما آمنا أمنوا فيه من السّبي والغارة والقتل، وخلّصتهم فى البر كما خلصتهم فى البحر، فصاروا يشركون فى البر ولا يشركون فى البحر . فهذا تعجب من تناقض أحوالهم . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : أفبالشرك . وقال يحيى بن سلّام : أفبإبليس . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : أفبعافية الله . وقال ابن شجرة : أفبعطاء الله وإحسانه . وقال ابن سلّام : أفبما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى . وحكى النقاش : أفبإطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف يكفرون . وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكا وولدا، وإذا فعل فاحشة قال : « وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا »(1) . ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ قال يحيى بن سلّام : بالقرآن . وقال السّدّي : بالتوحيد . وقال ابن شجرة : بمحمد صلى الله عليه وسلم . وكل قول يتناول القولين . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى مستقر . وهو استفهام تقرير .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ أى جاهدوا الكفار فينا . أى فى طلب مرضاتنا . وقال السّدّي وغيره : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال . قال ابن عطية : فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته . قال الحسن بن أبي الحسن : الآية فى العبّاد . وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم : هي فى الذين يعملون بما يعلمون . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من عمل بما علم علّمه الله ما لم يعلم " ونزع بعض العلماء إلى قوله : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ »(2) . وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ » . وقال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد فى الآية

(1) راجع ج ٧ ص ١٨٧ . (2) راجع ج ٣ ص ٣٧٧ فما بعد .

قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عُيَيْنة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: «لَنَهْدِيَنَّهُمْ». وقال الضحاك: معنى الآية؛ والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان. ثم قال: مثل السُّنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى؛ من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السُّنة في الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال. ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة من طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير أي الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي طريق الجنة؛ قاله السّدي. النقاش: يوفقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخاصنّ نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لام تأكيد ودخلت في «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون اسما ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفا فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار؛ كما تقول إن زيدا لفي الدار. و«مَعَ» إذا سكنت فهي حرف لا غير. وإذا فتحت جاز أن تكون اسما، وأن تكون حرفا. والأكثر أن تكون حرفا جاء لمعنى. وتقدّم معنى الإحسان والمحسنين في «البقرة»(1) وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيّتين بونٌ.

(1) راجع ج ٢ ص ٣٦١ .

محققه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

تم بعون الله تعالى الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر وأوله سورة «الروم»

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء الثالث عشر من "تفسير القرطبي"
بمطبعة دار الكتب فى شهر المحرّم سنة ١٣٨٤ هـ (مايو سنة ١٩٦٤ م) ما

محمد حمدى جنيدى
رئيس المطبعة

إحسان عثمان
مدير إدارة المطبعة والتصوير

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الرابع عشر

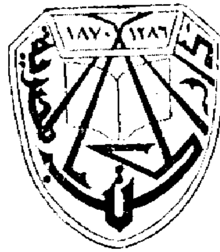

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م

بيـان

تم تحقيق هـذا الجزء (الرابع عشر) من تفسير القرطبي، على الأصول الآتية :

(١)	نسـخة	رقـم	٩٥	تفسير،	المـرموز	إليها	بحـرف	ا
(٢)	»	»	٢٦٨	»	»	»	»	ب
(٣)	»	»	٢٨٣	»	»	»	»	ج
(٤)	»	»	١	»	حليم »	»	»	ح
(٥)	»	»	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية، المرموز إليها بحرف				ز
(٦)	»	»	٥١٣	تفسير،	المـرموز	إليها	بحـرف	ش
(٧)	»	»	٣١٨	»	»	»	»	ط
(٨)	»	»	٩٣	»	»	»	»	ك

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدّمة الجزء الثالث (الطبعة الثانية)

الاثنين ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ
١٤ سبتمبر سنة ١٩٦٤ م

حققـه
أحمـد عبد العليم البردونى

فهـرس الجـزء الرابـع عشر

سـورة الـروم

صفحة

سـورة لقمان

ســـورة الســـجدة

ســـورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكية كلها من غير خلاف، وهي ستون آية

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ روى الترمذيّ عن أبي سعيد الخُدريّ قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ — إلى قوله — يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ » . قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . قال : هذا حديث غريب (1) من هذا الوجه . هكذا قرأ نصر بن عليّ الجهضميّ « غَلَبَتِ الرُّومُ » . ورواه أيضا من حديث ابن عباس بأتمّ منه . قال ابن عباس في قول الله عز وجل : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ » قال : غَلَبَت وغُلِبَت ، قال : كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ؛ فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أما إنهم سيغلبون " فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ؛ فذكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " ألا جعلته

(1) في نسخة الترمذي : « هذا حديث حسن غريب ... » .

إلى دون" — أراه قال العشر — قال قال أبو سعيد: والبِضع ما دون العشرة. قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله «الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ — إلى قوله — وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ». قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. ورواه أيضا عن نِيَار بن مُكْرَم الأَسْلَمِيّ قال: لما نزلت «الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ» وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة: «الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ». قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين! أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرّهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البِضع؟ ثلاث سنين أو تسع (١) سنين؟ فَسَمِّ بيننا وبينك وسطا تنتهي إليه؛ قال فسمَّوا بينهم ستّ سنين؛ قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ قال: لأن الله تعالى قال «فِي بِضْعِ سِنِينَ» قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. وروى القُشَيْرِيّ وابن عطية وغيرهما: أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها إلى المشركين فقال: أسرّكم أن غَلبت الروم؟ فإن نبيّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين. فقال له أُبَيّ بن خلف وأُميّة أخوه — وقيل أبو سفيان ابن حرب —: يا أبا فَصيل! (٢) — يعرّضون بكنيته «يا أبا بكر» — فلْنَتَنَاحَبْ — أي نتراهن

(١) في جوك: «أو سبع». (٢) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

فى ذلك فراهنهم أبو بكر . قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار[1]، وجعلوا الرهان خمس قلائص[2] والأجل ثلاث سنين . وقيـل : جعلوا الرهان ثلاث قلائص . ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: "فهلا احتطت، فإن البضع ما بين الثلاث والتسع والعشر! ولكن ارجع فزدهم فى الرهان واستزدهم فى الأجل" ففعـل أبو بكر، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام ؛ فغلبت الروم فى أثناء الأجل . وقال الشعبيّ : فظهروا فى تسع سنين . القشيرىّ : المشهور فى الروايات أن ظهور الروم كان فى السابعة من غلبــة فارس للروم، ولعـل رواية الشعبيّ تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النقلة . وفى بعض الروايات : أنه جعل القلائص سبعا إلى تسع سنين . ويقال : إنه آخر فتوح كسرى أبرويز فتح فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار ؛ فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . وحكى النقاش وغيره : أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه لما أراد الهجرة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم تعلق به أُبىّ بن خلف وقال له : أعطنى كفيلا بالخطر[3] إن غلبت ؛ فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أُبىّ الخروج إلى أُحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ثم مات أُبىّ بمكة من جرح جرحه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية على رأس تسع سنين من مناحبتهم . وقال الشعبيّ : لم تمض تلك المدّة حتى غلبت الروم فارس؛ وربطوا خيلهم بالمدائن ، وبنوا روميّة ؛ فقَمَر[4] أبو بكر أُبَيًّا وأخذ مال الخَطَر من ورثته، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "تصدّق به" فتصدّق به . وقال المفسرون : إن سبب غلبة الروم فارس[5] آمرأةٌ كانت فى فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال ، فقال لها كسرى : أريد أن أستعمل أحد بنيك على جيش أجهزه إلى الروم؛ فقالت : هذا هُرْمُز أروَغ من ثعلب وأحذر من صقر، وهذا فَرُّخان أحدّ من سنان وأنفذ من نَبْل، وهذا شهربزان[6] أحلم من كذا ، فآختر؛ قال فآختار الحليم وولّاه ، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على

---

(١) فى جـ : « الرهان » . (٢) القلائص : جمع القلوص ، وهى الفتية من الإبل . (٣) الخطر (بالتحريك) : الرهن ، وما يخاطر عليه . (٤) قمرت الرجل : غلبته . (٥) راجع هذا الخبر فى تاريخ الطبرى (جـ ٤ ص ١٠٠٥ من القسم الأول طبع أوربا) . (٦) هكذا ورد فى كتب التفسير . والذى فى تاريخ الطبرى : « شهربراز » .

الروم . قال عكرمة وغيره : إن شهر بزان لما غلب الروم خرّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرُّخان : لقد رأيتني جالسا على سرير كسرى؛ فكتب كسرى إلى شهر بزان أرسل إلىّ برأس فرخان فلم يفعل؛ فكتب كسرى إلى فارس: إني قد استعملت عليكم فُرُّخان وعزلت شهر بزان، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولى أن يقتل شهر بزان؛ فأراد فَرُّخان قتل شهر بزان فأخرج له شهر بزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فرُّخان، فقال شهر بزان لفرخان: إن كسرى كتب إلىّ أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعته أبدا في أمرك، أفتقتلني أنت بكتاب واحد ؟ فرد المُلْك إلى أخيه، وكتب شهر بزان إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى، فغلبت الروم فارس ومات كسرى . وجاء الخبر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح من معه من المسلمين؛ فذلك قوله تعالى: «الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ» يعني أرض الشام. عكرمة : بأذرعات ، وهي ما بين بلاد العرب والشام . وقيل : إن قيصر كان بعث رجلا يدعى يحنّس و بعث كسرى شهر بزان فالتقيا بأذرعات و بصرى وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم . مجاهد : بالجزيرة، وهو موضع بين العراق والشام . مقاتل : بالأردنّ وفلسطين . و « أدنى » معناه أقرب . قال ابن عطية : فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

تنوّرتها من أذرعات وأهلُها * بيثربَ أدنى دارِها نظر عالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأردنّ فهي أدنى إلى أرض الروم . فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سُرّ الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم في الحرب .

وقد مضى الكلام في فواتح السور . وقرأ أبو سعيد الخدريّ وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قُرّة « غَلَبَتِ الرُّومُ » بفتح الغين واللام . وتأويل ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعز ذلك على كفار قريش وسرّ بذلك المسلمون ، فبشر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضا في بضع سنين؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم . قال أبو جعفر النحاس :

قراءة أكثر النـاس « غُلِبت الروم » بضم الغين وكسر اللام . و روى عن ابن عمـر وأبى سعيد الخدرى أنهما قرأا « غَلَبَت الروم » وقرأا « سيُغلبون » . وحكى أبو حاتم أن عِصمة روى عن هارون : أن هـذه قراءة أهل الشام؛ وأحمد بن حنبل يقـول : إن عصمة هذا ضعيف، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه ، والحديث يدل على أن القراءة « غُلِبَت » بضم الغين، وكان فى هذا الإخبار دليل على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الروم غلبتها فارس ، فأخبر الله عز وجل نبيـه محمدا صلى الله عليه وسـلم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، وأن المؤمنين يفرحون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب ، فكان هـذا من علم الغيب الذى أخبر الله عز وجل به ممـا لم يكن [علموه][1] ، وأمر أبا بكر أن يراهنهم على ذلك وأن يبالغ فى الرهان، ثم حُرّم الرهان بعدُ ونُسخ بتحريم القِمار . قال ابن عطية : والقراءة بضم الغين أصح ، وأجمع الناس على « سيغلِبون » أنه بفتح اليـاء ، يراد به الروم . و يروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضا بضم الياء[2] فى « سيغلِبون » ، وفى هذه القراءة قلب للمعنى الذى تظاهرت الروايات به . قال أبو جعفر النحاس : ومن قرأ « سيُغلبون » فالمعنى عنده : وفارس من بعد غلبهم ، أى من بعـد أن غَلَبوا ، سيُغلبون . وروى أن إيقـاع الروم بالفرس كان يوم بدر ؛ كما فى حديث أبى سعيد الخدرى حديثِ الترمِذى ، و روى أن ذلك كان يوم الحديبية ، وأن الخبر وصل يوم بيعـة الرّضوان ؛ قاله عكرمة وقتادة . قال ابن عطية : وفى كِلا اليومين كان نصر من الله للؤمنين . وقـد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمّهم أن تغلب إنمـا هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، وفارس[3] من أهل الأوثان ؛ كما تقدّم بيانه فى الحديث . قال النحاس : وقول آخر وهو أولى — أن فرحهم إنمـا كان لإنجاز وعد الله تعالى ؛ إذ كان فيـه دليل على النبـوّة لأنه أخبر تبارك وتعالى بمـا يكون فى بضع سنين فكان فيـه . قال ابن عطية : ويشـبه أن يعلّل ذلك بمـا يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدوّ الأصغر لأنه أيسر مئونة ، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه ؛ فتأمّل هذا المعنى ، مع ما كان رسول الله

---

(١) زيادة عن النحاس . (٢) فى ك : بفتح الياء . (٣) فى ش : « كالمسلمين ، فهم أقرب من أهل الأوثان ... » .

صلى الله عليه وسلم ترجّاه من ظهور دينــه وشَرْعِ الله الذى بعثه به وغلبته على الأمم ، و إرادة كفار مكة أن يرميه الله بملِك يستأصله و يريحهم منــه . وقيل : سرورهم إنمــا كان بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبيَّ عليه السلام يوم بدر ؛ حكاه القُشَيْرِىّ .

قلت : و يحتمــل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسروا بظهورهم على عدوّهم و بظهور الروم أيضا و بإنجاز وعد الله . وقرأ أبو حَيْوَة الشامىّ ومحمد بن السَّمَيْقَع « من بعد غَلْبهم » بسكون اللام ، وهما لغتان ، مثل الظَّعْن والظَّعَن . وزعم الفرّاء أن الأصل « من بعد غلبتهــم » فحذفت التــاء كما حذفت فى قــوله عن وجل « وَإِقَامِ الصَّلَاةِ » وأصــله و إقامة الصلاة . قال النحاس : « وهذا غلط لا يُخِيل[1] على كثير من أهل النحو ؛ لأن « إقام الصلاة » مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله ، فجعلت التاء عوضا من المحذوف ، و «غلب» ليس بمعتل ولا حذف منه شيء . وقد حكى الأصمعىّ : طَرَد طَرَدًا ، وجَلَبَ جَلَبًا ، وحَلَبَ حَلَبًا ، وغَلَبَ غَلَبًا ، فأىّ حذف فى هذا ، وهل يجوز أن يقال فى أَكَلَ أَكْلا وما أشبهه — : حذف منه » ؟ .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ حذفت الهاء من « بِضع » فرقا بين المذكر والمؤنث ، وقد مضى الكلام فيه فى « يوسف »[2] . وفتحت النون من « سِنِينَ » لأنه جمع مسلم . ومن العرب من يقول « فى بضع سنين » كما يقول فى « غِسلين » . وجاز أن يُجمع سنة جمع من يعقل بالواو والنون والياء والنون ؛ لأنه قد حذف منها شيء فجعل هذا الجمع عوضا من النقص الذى فى واحده ؛ لأن أصل « سنة » سنهة أو سنوة ، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه ؛ هذا قول البصريين . و يلزم الفرّاء أن يضمها لأنه يقول : الضمة دليل على الواو وقد حذف من سنة واو فى أحد القولين ، ولا يضمها أحد علمناه .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أخبر تعالى بآنفراده بالقدرة وأن ما فى العالم من غلبة وغيرها إنمــا هى منه و بإرادته وقــدرته فقال « لله الأمر » أى إنفاذ الأحكام .

---

(١) أى لا يشكل ، وهو من أخال الشيء اشتبه . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٩٧ .

« مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » أى من قبل هذه الغلبة ومن بعدها . وقيل : من قبلِ كل شيء ومن بعد كل شيء . و « مِن قبلُ ومِن بعدُ » ظرفان بنيا على الضم؛ لأنهما تعرّفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف فخالفا تعريف الأسماء وأشبها الحروف فى التضمين فبنيا ، وخُصّا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد فى أنه إذا نُكّر وأضيف زال بناؤه، وكذلك هما فَضُمّا . ويقال : «من قبلٍ ومِن بعدٍ» . وحكى الكسائىّ عن بعض بنى أسد « لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدُ » الأوّل مخفوض منوّن ، والثانى مضموم بلا تنوين . وحكى الفرّاء « مِن قبلِ ومن بعدِ » مخفوضين بغير تنوين . وأنكره النحاس وردّه . وقال الفرّاء فى كتابه : فى القرآن أشياء كثيرة ، الغلط فيها بيّن ، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان . قال الزجاج : المعنى من متقدّم ومن متأخر . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ ﴾ تقدم ذكره . ﴿ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يعنى من أوليائه؛ لأن نصره مختصّ بغلبة أوليائه لأعدائه ، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصره، وإنما هو ٱبتلاء وقد يسمّى ظَفَرا . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى نقمته ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ لأهل طاعته .

قوله تعالى : وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ لأن كلامه صدق . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الكفار وهم أكثر . وقيل : المراد مشركو مكة . وانتصب « وَعْدَ اللهِ » على المصدر؛ أى وعد ذلك وعدا . ثم بيّن تعالى مقدار ما يعلمون فقال : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى أمر معايشهم ودنياهم : متى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يغرسون وكيف يبنون؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . وقال الضحاك : هو بنيان قصورها، وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها؛ والمعنى واحد . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا

عند استراقهم السمع من سماء الدنيا؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: الظاهر والباطن؛ كما قال في موضع آخر «أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ» (١).

قلت: وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا، حتى لقد قال الحسن: بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي. وقال أبو العباس المبرِّد: قسم كسرى أيامه فقال: يصلح يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ قال بعضهم:

ومن البليّة أن ترى لك صاحبا * في صورة الرجل السميع المبصر
فطِنٍ بكل مصيبة في ماله * وإذا يصاب بدينه لم يشعر

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ظرف للتفكر وليس بمفعول، تعدّى إليه «يَتَفَكَّرُوا» بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم، إنما أمروا أن يستعملوا التفكر في خلق السموات والأرض وأنفسهم، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرها إلا بالحق. قال الزجاج: في الكلام حذف، أي فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلا عليه. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال الفراء: معناه إلا للحق؛ يعني الثواب والعقاب. وقيل: إلا لإقامة الحق. وقيل: «بِالْحَقِّ» بالعدل. وقيل: بالحكمة؛ والمعنى متقارب. وقيل: «بِالْحَقِّ» أي أنه هو الحق وللحق خلقها، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي للسموات والأرض أجل

(١) آية ٣٣ سورة الرعد. جـ ٩ ص ٣٢٣.

ينتهيان إليه وهو يوم القيامة . وفى هــذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوق أجلا ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء . وقيل : « وَأَجَلٍ مُسَمًّى » أى خلق ما خلق فى وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير : لكافرون بلقاء ربهم ، على التقديم والتأخير ؛ أى لكافرون بالبعث بعد الموت . وتقول : إن زيدا فى الدار لجالس . ولو قلت : إن زيدا لفى الدار لجالس جاز . فإن قلت : إن زيدا جالس لفى الدار لم يجز؛لأن اللام إنما يؤتى بها توكيدا لاسم إن وخبرها ، وإذا جئت بهما لم يجز أن تأتى بها . وكذا إن قلت : إن زيدا لجالس لفى الدار لم يجز .

قوله تعـالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ ببصائرهم وقلوبهم . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ ﴾ أى قلبوها للزراعة ؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حرث ؛ قال الله تعالى : « تُثِيرُ الْأَرْضَ »(١) . ﴿ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أى وعمـروها أولئك أكثر ممـا عمروها هؤلاء فلم تنفعهـم عمارتهم ولا طول مدتهـم . ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات . وقيـل : بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا . ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالشرك والعصيان .

قوله تعـالى : ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٤٥٣

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى ﴾ السّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوإ وهو الأقبح ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن . وقيل : يعنى بها هاهنا النار ؛ قاله ابن عباس . ومعنى « أساءوا » أشركوا ؛ دل عليه « أن كذبوا بِآياتِ الله » . « السوءى » : اسم جهنم ؛ كما أن الحسنى اسم الجنة . ﴿ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أى لأن كذبوا ؛ قاله الكسائى. وقيل : بأن كذبوا . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ » بالرفع اسم كان ، وذكّرت لأن تأنيثها غير حقيقى . و « السُّوءَى » خبر كان . والباقون بالنصب على خبر كان . « السوءى » بالرفع آسم كان . ويجوز أن يكون آسمها التكذيب ؛ فيكون التقدير : ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا ؛ و يكون السوءى مصدراً لأساءوا ، أوصفة لمحذوف ؛ أى الخلّة السوءى . وروى عن الأعمش أنه قرأ « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءُ » برفع السوء . قال النحاس : السوء أشدّ الشر ؛ والسوءى الفعلى منه . ﴿ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ قيل بمحمد والقرآن ؛ قاله الكلبي . مقاتل : بالعذاب أن ينزل بهم . الضحاك : بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر « يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ « يُبْلَسُ » بفتح اللام ؛ والمعروف فى اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وآنقطعت حجته ، ولم يؤمّل أن يكون له حجة . وقريب منه : تحيّر ؛ كما قال العجاج :

يا صاحِ هل تَعرِفُ رَسْماً مُكْرَسا * قال نعم أعرفه وأَبْلَسا[1]

(١) المكرس : الذى قد بعرت فيه الإبل و بولت فركب بعضه بعضا .

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا ، وأنه أبلس لأنه انقطعت حجته . النحاس : ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف ، وهو فى القرآن غير منصرف . الزجاج : المبلس الساكت المنقطع فى حجته، اليائس من أن يهتدى إليها . ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم ﴾ أى ماعبدوه من دون الله ﴿ شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ قالوا ليسوا بآلهة فتبرءوا منها وتبرأت منهم؛ حسبما تقدم فى غير موضع .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ يعنى المؤمنين من الكافرين ؛ ثم بين كيف تفريقهـم فقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال النحاس : سمعت الزجاج يقول : معنى « أمّا » دع ما كنا فيه وخذ فى غيره . وكذا قال سيبويه : إن معناها مهما كنا[(١)] فى شىء فخذ فى غير ما كنا فيه . ﴿ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك : الروضة الجنة ، والرياض الجنان . وقال أبو عبيد : الروضــة ما كان فى تسفُّل ، فإذا كانت مرتفعة فهى تُرْعة . وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت فى موضع مرتفع غليظ ؛ كما قال الأعشى :

ما رَوْضَةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبَةٌ * خَضْراءُ جَادَ عليهـا مُسْبِلٌ هَطِـلُ[(٢)]
يضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ * مُؤَزَّرٌ بعـميم النَّبْتِ مُكْتَهِلُ[(٣)]
يومًا بأطْيَبَ منها نَشْـرَ رائحـةٍ * ولا بأحسنَ منها إذ دَنَا الأُصُـلُ[(٤)]

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت ، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهى ترعة . وقد قيل فى الترعة غير هذا . وقال القُشَيْرِىّ : والروضة عند العرب ما ينبت حول

(١) فى ش و جـ « مهما يكن » . (٢) رياض الحزن أحسن من رياض الخفوض لارتفاعها .

(٣) قوله : « يضاحك الشمس » أى يدور معها حيثما دارت . وكوكب كل شىء معظمه ؛ والمراد هنا الزهر . ومؤزر : مفعل من الإزار . والشرق : الريان الممتلىء ماء . والعميم : التام السن . والمكتهل : الذى قد بلغ وتم . (٤) النشر : الرائحة الطيبة . والأصل : جمع أصيل ؛ وخص هنا الوقت لأن المنبت يكون فيه أحسن ما يكون لتباعد الشمس والفىء عنه .

الغــدير من البقول ؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه . الجوهري : والجمع رَوْض ورِياض ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلهــا . والرّوض : نحوٌ من نصف القِــرْبَة ماء . وفى الحوض رَوْضة من ماء إذا غطّى أسفله . وأنشد أبو عمرو :

* ورَوْضةٍ سَقَيْتُ منها نِضْوتِى (١) *

﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ قال الضحاك وابن عباس : يُكرمون . وقيل ينعّمون ؛ وقاله مجاهد وقتادة . وقيل يسرّون . السُّدّى : يفرحون . والحَبْرَة عند العرب : السرور والفرح ؛ ذكره المــاوردى . وقال الجوهرى : الحَبْر : الحُبُور وهو السرور ؛ ويقال: حبره يحبره (بالضم) حَبْرا وحَبَرَة ؛ قال تعالى : « فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » أى ينعمون ويكرمون ويسرون . ورجل يَحْبُور (٢) يفعول من الحبور . النحاس : وحكى الكسائى حبرته أى أكرمته ونعّمته . وسمعت علىّ بن ســليمان يقول: هو مشتق من قولهم: على أسنانه حَبْرة أى أثر؛ فـ « يحبرون » يَتَبيّن عليهم أثر النعيم . والحَبر مشتق من هذا . قال الشاعر :

لا تمـــلأ الدّلْوَ وعَرِّق (٣) فيهــا * أما تَرَى حَبارَ من يَسْـــقيها

وقيل : أصله من التحبير وهو التحسين ؛ فـ « يُحْبَرُونَ » يحسّنون . يقال : فلان حَسَن الحبر والسِّبْر إذا كان جميلا حسن الهيئة . ويقال أيضا : فلان حسن الحَبْر والسَّبْر (بالفتح) ؛ وهذا كأنه مصدر قولك : حَبَرْتُه حَبْرا إذا حسّنته . والأول اسم ؛ ومنه الحديث : "يخرج رجل من النار ذهب حِبْره وسِبْره" وقال يحيى بن أبى كثير « فى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » قال : السَّمَاع (٤) فى الجنة ؛ وقاله الأوزاعى ، قال : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع (٤) لم تبق شجرة فى الجنة إلا رَدّدت الغناء بالتسبيح والتقديس . وقال الأوزاعى : ليس أحد من خلق الله أحسنَ صوتا من إسرافيل ، فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم . زاد غير الأوزاعى : ولم تبق شجرة فى الجنة إلا ردّدت ، ولم يبق سِتر ولا باب إلا ارتج وانفتح ، ولم تبــق حلقة

---

(١) النضو : الدابة التى أهزلتها الأسفار .
(٢) اليحبور : الناعم من الرجال .
(٣) أعرقت الكأس وعرّقتها : أقللت ماءها .
(٤) السماع : الغناء .

إلا طنت بألوان طنينها ، ولم تبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت فى مقاصبها فزَمَرت تلك المقاصب بفنون الزمر، ولم تبق جارية من جوار الحور العِين إلا غنّت بأغانيها، والطير بألحانها ، و يوحى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم وأسمِعوا عبادى الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصوات روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة، ثم يقول الله جل ذكره : يا داود قم عند ساق عرشى فمجّدنى ؛ فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويجليها(١) وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى : « فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » . ذكره الترمذيّ الحكيم رحمه الله . وذكر الثعلبيّ من حديث أبى الدّرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكّر الناس ؛ فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم؛ وفى أخريات القوم أعرابىّ فقال : يا رسول الله، هل فى الجنة من سماع؟ فقال : " نعم يا أعرابىّ ! إن فى الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خمصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة " فسأل رجل أبا الدّرداء : بماذا يتغنين ؟ فقال : بالتسبيح . والخمصانية : المرهفة الأعلى، الخمصانة البطن، الضخمة الأسفل .

قلت : وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام؛ فلا تعارض بين تلك الأقوال . وأين هذا من قوله الحق : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » على ما يأتى(٢). وقوله عليه السلام : " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". وقد روى : "إن فى الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار(٣) فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا " . ذكره الزمخشرىّ .

(١) فى ك : « ويحليها » بالحاء المهملة . وفى كتاب التذكرة : « ويخليها » بالخاء المعجمة .
(٢) راجع ص ١٠٣ من هذا الجزء . (٣) فى الأصول : « الأجراس » .

قوله تعالى : وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُولَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ تقدّم الكلام فيه . ﴿ وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ أى بالبعث . ﴿ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : معذبون . وقيل : نازلون؛ ومنه قوله تعالى : « إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ » أى نزل به ؛ قاله ابن شجرة ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

فيـه ثلاث مسـائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ ﴾ الآية فيه ثلاثة أقوال : الأول ـ أنه خطاب للؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة فى هـذه الأوقات . قال ابن عباس : الصلوات الخمس فى القرآن؛ قيل له : أين ؟ فقال : قال الله تعالى « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ » صلاة المغرب والعشاء « وَحِينَ تُصْبِحُونَ » صـلاة الفجر « وَعَشِيًّا » العصر « وَحِينَ تُظْهِرُونَ » الظهر؛ وقاله الضحاك وسعيد بن جبير . وعن ابن عبـاس أيضا وقتادة : أن الآية تنبيه على أربع صـلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر؛ قالوا : والعشاء الآخرة هى فى آية أخرى فى « وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ »(١) وفى ذكر أوقات العورة . وقال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » فى الصلوات . وسمعت علىّ بن سليمان يقول : حقيقته عندى : فسبحوا الله فى الصلوات ، لأن التسبيح يكون فى الصلاة؛ وهو القول الثانى . والقول الثالث ـ فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون ؛ ذكره المـاوردىّ . وذكر القول

(١) راجع جـ ٩ ص ١١٠ .

الأوّل ، ولفظه فيه : فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون . وفى تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان : أحدهما — لما تضمنها من ذكر التسبيح فى الركوع والسجود . الثانى — مأخوذ من السبحة والسبحة الصلاة ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تكون لهم سبحة يوم القيامة " أى صلاة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ اعتراض بين الكلام بدءوب الحمد على نعمه وآلائه . وقيل : معنى «وَلَهُ ٱلْحَمْدُ» أى الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد . والأوّل أظهر؛ فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ودوام نعمته؛ فيكون نوعا آخر خلاف الصلاة ، والله أعلم . وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدّم النهار . وفى سورة « سبحان »[1] بدأ بصلاة الظهر إذ هى أوّل صلاة صلاها جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم . المـاوردىّ : وخص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للإنسان فى النهار متقلبا فى أحوالٍ توجب حمد الله تعالى عليها ، وفى الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها ؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار ، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل .

الثالثـــة — قـرأ عكرمة « حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ » والمعنى : حينا تمسون فيه وحينا تصبحون فيه ؛ فحذف « فيه » تخفيفا ، والقول فيه كالقول فى « وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا »[2] . ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ قال الجوهرىّ : العشىّ والعشية من صـلاة المغرب إلى العتمة ؛ تقول : أتيته عشية أمسِ وعشىّ أمسِ . وتصغـير العشىّ : عشيان ، على غير [قياس] مُكَبَّره ؛ كأنهم صـغّروا عَشْيَانًا ، والجمع عُشَيَّانات . وقيـل أيضا فى تصغيره : عُشَيْشِيَان ، والجمـع عُشَيْشِيَات . وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيَة ، والجمـع عُشَيْشِيات . والعِشاء (بالكسر[3] والمد) مثل العشىّ . والعِشاءان[4] المغرب والعتمة . وزعم قوم أن العِشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، وأنشدوا :

غدونا غـدوة سحـــرا بليـــلٍ * عِشاء بعـد ما ٱنتصف النهـار

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١٠ . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٧٧ فما بعد . (٣) من ك . (٤) فى جـ : «والعشاء» .

الماوردى : والفرق بين المساء والعشاء : أن المساء بُدُوّ الظلام بعد المغيب ، والعشاء آخر النهار عند ميل الشمس للغيب ، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس .

قوله تعالى : يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

بيّن كمال قدرته ، أى كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها ، كذلك يحييكم بالبعث . وفى هذا دليل على صحة القياس ، وقد مضى فى « آل عمران » بيان «يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ» (١) .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أى من علامات رُبُوبيّته ووحدانيته أن خلقكم من تراب ؛ أى خلق أباكم منه والفرع كالأصل ، وقد مضى بيان هذا فى «الأنعام»[1] . و « أنْ » فى موضع رفع بالابتداء وكذا « أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً » .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قِوام معايشكم ، فلم يكن ليخلقكم عبثًا ؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح . ومعنى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى نساء تسكنون إليها . ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى من نطف الرجال ومن جنسكم . وقيل : المراد حوّاء ، خلقها من ضِلع آدم ؛ قاله قتادة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : المودّة الجماع ، والرحمة الولد ؛ وقاله الحسن . وقيل : المودّة والرحمة عطفُ قلوبهم بعضهم على بعض . وقال السدى : المودةُ : المحبةُ ، والرحمةُ : الشفقةُ ؛ ورُوى معناه عن ابن عباس قال : المودّة حبُّ الرجل امرأته ، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء . ويقال : إن الرجل أصله من الأرض ، وفيه قوة الأرض ، وفيه الفرج الذى منــه بُدئ خلقه فيحتاج إلى سَكَن ، وخُلقت المرأة سكنا للرجل ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » الآية . وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » فأوّل ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما[2] فيه من غليان القوّة ، وذلك أن الفرج إذا تحمل فيــه هيّج ماء الصلب إليه ، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج ، وللرجال خُلق البُضع منهنّ ، قال الله تعالى : «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ»[3] فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال ، فعليها بذله فى كل وقت يدعوها الزوج ، فإن منعته فهى ظالمــة وفى حرج عظيم ؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها" . وفى لفظ آخر : " إذا باتت المرأة هاجرة فِراش زوجِها لعنتها المــلائكة حتى تُصبح " . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ تقــدّم

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ .		(٢) كذا فى الأصل .		(٣) راجع جـ ١٣ ص ١٣٢ .

فى « البقرة » وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق . ﴿ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ (١) اللّسان فى الفم ؛ وفيه اختلاف اللغات : من العربيّة والعجمية والتركية والرومية . واختلاف الألوان فى الصور : من البياض والسواد والحمرة ؛ فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر . وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين ؛ فلا بد من فاعل، فعُلِم أن الفاعل هو الله تعالى ؛ فهذا من أدلّ دليل على المدبر البارئ . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) أى للبرّ والفاجر . وقرأ حفص : « للعالِمين » بكسر اللام جمع عالم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قيل : فى هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ؛ فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه فى الاسم الظاهر خاصة ؛ فجعل النوم بالليل دليلا على الموت ، والتصرفُ بالنهار دليلا على البعث . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ يريد سماع تفهّم وتدبّر . وقيل : يسمعون الحق فيتبعونه . وقيل : يسمعون الوعظ فيخافونه . وقيل : يسمعون القرآن فيصدّقونه ؛ والمعنى متقارب . وقيل : كان منهم من إذا تُلِي القرآن وهو حاضر سدّ أذنيه حتى لا يسمع ؛ فبيّن الله عز وجل هذه الدلائل عليه . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قيل : المعنى أن يريكم ، فحذف « أن » لدلالة الكلام عليه ؛ قال طرفة :

ألا أيّهذا اللائمى أحْضُرُ الوغَى * وأنْ أشْهَدَ اللّذاتِ هل أنت مُخْلِدِى

وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ أى ويريكم البرق من آياته . وقيل : أى ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق ؛ كما قال الشاعر (٣) :

وما الدّهر إلا تارتان فمنهما * أموتُ وأخرى أبتغى العيش أكْدَحُ

وقيل : أى من آياته أنه يريكم البرق خوفا وطمعا من آياته ؛ قاله الزجاج ، فيكون عطف جملة على جملة . ﴿ خَوْفًا ﴾ أى للمسافر . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ للقيم ؛ قاله قتادة . الضحاك :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥١ . (٢) بفتح اللام قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .
(٣) هو ابن مقبل ؛ كما فى شواهد سيبويه والخزانة .

« خَوْفًا » من الصــواعق ، « وَطَمَعًا » فى الغيث . يحيى بن سـلام : « خَوْفًا » من البرد أن يهلك الزرع ، « وَطَمَعًا » فى المطر أن يحيي الزرع . ابن بحر : « خَوْفًا » أن يكون البرق بَرْقًا خُلَّبًا لا يمطر ، « وَطَمَعًا » أن يكون ممطرا ؛ وأنشد قول الشاعر :

لا يكن بَرْقُك برقًا خُلَّبـا * إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخـــر :

فقـد أرِد المياه بغـــير زاد * ســوى عدّى لها برق الغمام

والبرق الخُلَّب : الذى لا غيث فيـه كأنه خادع ؛ ومنه قيـل لمن يَعِد ولا يُنْجز : إنمـا أنت كبرقِ خُلّب . والخُلّب أيضا : السحاب الذى لا مطر فيـه . ويقال : بَرْقُ خُلّب ، بالإضافة . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقـدم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ « أَنْ » فى محل رفع كما تقدم؛ أى قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد . وقيل : بتدبيره وحكمته ؛ أى يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق . وقيل : « بأمرِهِ » بإذنه؛ والمعنى واحد . ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أى الذى فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم ؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث ؛ كما يجيب الداعى المطاعَ مَدْعُوُّه ؛ كما قال القائل :

دَعَـــوْتُ كُلَيبا بآسمـــه فكأنمـا * دعوت برأس الطَّود أو هو أسرع[1]

يريد برأس الطود : الصّـدى أو الحجـر إذا تَدَهْـده . وإنمـا عطف هـذا على قيام السموات والأرض بـ « ثم » لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتـداره على مثـله ، وهو أن يقول : يأهل القبور قوموا؛ فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ »[2] . و « إذا » الأولى فى قوله تعـالى :

(١) رواية البيت كما فى اللسان :

دعوت جليـدا دعـوة فكأنما * دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

قال : وآبن الطود : الجلمود الذى يتدهـدى من الطود . والطود : الجبل العظيم . وتدهده الحجر : تدحرج . فى كتاب ما يعول عليه : دعوت خليدا ... بالخاء المعجمة .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٩ .

« إِذَا دَعَاكُمْ » للشرط ، والثانية فى قوله تعالى : « إِذَا أَنْتُمْ » للفاجأة ، وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط . وأجمع القراء على فتح التاء هنا فى « تَخْرُجُونَ » . واختلفوا فى التى فى «الأعراف» فقرأ أهل المدينة : « ومنها تُخرجون » بضم التاء، وقرأ أهل العراق : بالفتح(١)، وإليه يميل أبو عبيد . والمعنيان متقاربان ، إلا أن أهل المدينة فرّقوا بينهما لنسق الكلام ، فنسقُ الكلام فى التى فى « الأعراف » بالضم أشبه؛ إذ كان الموت ليس من فعلهم ، وكذا الإخراج . والفتح فى سورة الروم أشبه بنسق الكلام ؛ أى إذا دعاكم خرجتم أى أطعتم؛ فالفعل [بهم](٢) أشبه . وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة؛ على ما تقدّم ويأتى . وقرئ: « تخرجون » بضم التاء وفتحها ، ذكره الزَّمَخْشَرِىّ ولم يزد على هذا شيئا، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق ، والله أعلم . ﴿ وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا وعبدا . ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ رُوى عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "كلّ قنوت فى القرآن فهو طاعة" . قال النحاس : مطيعون طاعة انقياد . وقيل : « قَانِتُونَ » مقرّون بالعبودية ، إما قالة وإما دلالة ؛ قاله عِكرمة وأبو مالك والسدّى . وقال ابن عباس : « قَانِتُونَ » مصلون . الربيع بن أنس : « كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » أى قائم يوم القيامة ؛ كما قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٣) أى للحساب . الحسن : كل له قائم بالشهادة أنه عبد له . سعيد بن جبير : « قَانِتُونَ » مخلصون .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أمّا بدء خلقه فبعلوقه فى الرّحم قبل ولادته ، وأمّا إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث ؛ فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته ؛ استدلالا بالشاهد على الغائب ، ثم أكد ذلك بقوله

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ فما بعد . (٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٢ .

﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عمر : «يُبْدِئُ الْخَلْقَ» من أبدأ يبدئ؛ دليله قوله تعالى : « إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ »(١) . ودليل قراءة العامة قوله سبحانه : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»(٢) . و « أَهْوَنُ » بمعنى هيّن ؛ أى الإعادة هيّن عليه؛ قاله الرّبيع بن خُثيم والحسن . فأهون بمعنى هيّن ؛ لأنه ليس شىء أهونَ على الله من شىء . قال أبو عبيدة : ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شىء على شىء فقوله مردود بقوله تعالى : « وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً » وبقوله : « وَلَا يَئُـودُهُ حِفْظُهُمَا » . والعرب تحمل أفعل على فاعل ، ومنه قول الفرزدق :

إن الذى سَمَكَ السماء بنى لنـا * بيتًا دعائمـه أعزّ وأطول

أى دعائمه عزيزة طويلة . وقال آخر(٣) :

لَعَمْرُكَ ماأدرى وإنى لأَوْجَل * على أيّنا تَعْـدُو المنيّة أوّل

أراد : إنى لوجل . وأنشد أبو عبيدة أيضا :

إنى لأَمْنَحُكَ الصّدود وإننى * قَسَمًا إليك مع الصُّدودلأَمْيَلُ(٤)

أراد لمائل . وأنشد أحمد بن يحيى :

تَمَنّى رجال أن أموت وإن أَمُتْ * فتلك سبيلٌ لست فيها بأَوْحَدِ

أراد بواحد . وقال آخر :

لعمرك إن الزِّبرقان لبـاذل * لمعروفه عند السنينَ وأفضل

أى وفاضل . ومنه قولهم : الله أكبر ؛ إنما معناه الله الكبير . وروى معمر عن قتادة قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود « وهو عليه هين » . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك : إن المعنى أن الإعادة أهون عليه ــ أى على الله ــ من البداية؛ أى أيسر ، وإن كان جميعه على الله تعالى هينا؛ وقاله ابن عباس . ووجهه أن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لعباده ؛ يقول : إعادة الشىء على الخلائق أهون من ابتدائه ؛ فينبغى أن يكون البعث لمن قدر على البـداية عندكم وفيما بينكم

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٩٤ . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٨٧ فما بعد .

(٣) القائل هو معن بن أوس . (٤) البيت للأحوص بن محمد الأنصارى .

أهونَ عليه من الإنشاء . وقيل : الضمير في «عَلَيْهِ» للخلوقين؛ أي وهو أهون عليه، أي على الخلق، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم : كونوا فيكونون؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نُطَفًا ثم عَلَقا ثم مُضَغا ثم أجِنّة ثم أطفالا ثم غلمانا ثم شبانا ثم رجالا أو نساء . وقاله ٱبن عباس وقُطْرُب . وقيل : أهون أسهل؛ قال :

وهان على أسماء أن شطَّت النَّوَى * يحنّ إليها والِهٌ ويتــوق

أي سهل عليها، وقال الربيع بن خُثَيم في قوله تعالى: « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » قال : ما شيء على الله بعزيز . عِكْرمة: تعجّب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية . ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أي ما أراده جلّ وعزّ كان . وقال الخليل : المثل الصفة؛ أي وله الوصف الأعلى﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أي صفتها . وقد مضى الكلام في ذلك(١). وعن مجاهد : « الْمَثَلُ الْأَعْلَى » قولُ لا إله إلا الله ؛ ومعناه : أي الذي له الوصف الأعلى، أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية . وكذا قال قتادة : إن المثل الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله؛ ويَعْضُده قوله تعالى : « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ » على ما نبينه آنفا إن شاء الله تعالى . وقال الزجاج: « وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » أي قوله : « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأوّل . وقال ابن عباس : أي ليس كمثله شيء ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم(٢) .

قوله تعالى : ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ . وجـ ٢ ص ١٣١ .

فيـــه مسألتان :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ثم قال : ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾، ثم قال : ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ف «من» الأولى للابتـداء؛ كأنه قال : أخذ مثلا وآنتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم . والثانية للتبعيض ، والثالثة زائدة لتأكيـد الاستفهام . والآية نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك؛ قاله سعيد بن جبير . وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله للشركين؛ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في ماله ونفسه مثله ، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء .

الثانيـــة ـــ قال بعض العلمـاء : هـذه الآية أصل في الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لمـا قال جل وعز : « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » الآية، فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ! فيقال لهم : فكيف يتصوّر أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي ؛ فهذا حكم فاسـد وقلة نظـر وعَمَى قلب ! فإذا بطلت الشركة بين العبيـد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالَم شريكا لله تعالى في شيء من أفعاله ؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك ، إذ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضا بالمـال والعمل ؛ والقـديمُ الأزليّ منزه عن ذلك جلّ وعز .

وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب ، فافهم ذلك .

قوله تعـالى : بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لمـا قامت عليهم الحجـة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك . ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي لا هادي لمن أضله الله تعالى . وفي هذا ردّ على القدرية . ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ .

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال الزجاج : « فِطْرَةَ » منصوب بمعنى اتبع فطرة الله . قال : لأن معنى «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» اتبع الدين الحنيف واتبع فطرة الله . وقال الطبرى : «فِطْرَةَ اللَّهِ» مصدر من معنى : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ» لأن معنى ذلك : فطر الله الناس على ذلك فطرة . وقيل : معنى ذلك اتبعوا دين الله الذى خلق الناس له ؛ وعلى هذا القول يكون الوقف على « حَنِيفًا » تاما . وعلى القولين الأولين يكون متصلا ، فلا يوقف على « حَنِيفًا » . وسميت الفطرة دينا لأن الناس يُخلقون له ، قال جلّ وعز : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(١) . ويقال : «عَلَيْهَا» بمعنى لها ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »(٢) . والخطاب بـ«أَقِمْ وَجْهَكَ» للنبي صلى الله عليه وسلم ، أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم ؛ كما قال : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ »(٣) وهو دين الإسلام . وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوة على الجد فى أعمال الدين ؛ وخصّ الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه . ودخل فى هذا الخطاب أمّتُه باتفاق من أهل التأويل . و « حَنِيفًا » معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة .

الثانية — فى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة — فى رواية " على هذه الملة — أبواه يُهوّدانه ويُنصّرانه ويُمجّسانه كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء(٤) هل تُحسّون فيها من جدعاء " ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم ؛ «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» ، فى رواية : " حتى

(١) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ . (٣) راجع ص ٤٢ من هذا الجزء.
(٤) أى سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها .

تكونوا أنتم تجدعونها " قالوا : يا رسول الله ، أفرأيتَ من يموت صغيرا ؟ قال : " الله أعلم بمـا كانوا عاملين " . لفظ مسلم .

الثالثــة ــ واختلف العلمـاء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدّدة ، منها الإسـلام ، قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهمـا ، قالوا : وهو المعروف عند عامّة السلف من أهل التأويل ، واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة ، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس يوما : " ألَا أحدّثكم بما حدّثني الله في كتابه ، أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين ، وأعطاهم المـال حلالا لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالا وحراما ... " الحديث . وبقوله صلى الله عليه وسلم : " خمس من الفطرة ... " فذكر منها قصّ الشارب ، وهو من سنن الإسلام ، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سـليما من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه ، وأنهم إذا ماتوا قبـل أن يُدرِكوا في الجنـة ، أولادَ مسلمين كانوا أو أولاد كفار . وقال آخرون : الفطرة هي البِداءة التي ابتدأهم الله عليها ، أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء ، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ . قالوا : والفطرة في كلام العرب البداءة . والفاطر : المبتدئ ، واحتجوا بما روى عن ابن عباس أنه قال : لم أكن أدري ما فاطـر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي ابتدأتها . قال المَرْوَزِيّ : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه . قال أبو عمر في كتاب التمهيد له : ما رسمه مالك في موطّئه وذكر في باب القدر[1] فيـه من الآثار ــ يَدلّ على أن مذهبه في ذلك نحو هذا ، والله أعلم . ومما احتجوا به ما روى عن كعب القُرَظي في قول الله تعالى : « فَرِيقًا هَـدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّـلَالَةُ »[2] قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيّره إلى الضلالة وإن عمل بأعمال الهدى ، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة ، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، قال : وكان من الكافرين .

(١) في جـ ، ش ، ك : أبواب . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٨٨ فما بعد .

قلت : قد مضى قول كعب هذا فى « الأعراف » وجاء معناه مرفوعا من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : دُعِى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت : يا رسول الله ، طُوبَى لهـذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السـوء ولم يدركه ! قال : "أو غير ذلك يا عائشة ! إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم" خرجه ابن ماجه فى السنن . وخرج أبو عيسى الترمذىّ عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده كتابان فقال : "أتدرون ما هذان الكتابان" ؟ فقلنا : لا يا رسـول الله ، إلا أن تخبرنا ؛ فقال للذى فى يده اليمنى : "هـذا كتاب من رب العالمين فيـه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا — ثم قال للذى فى شماله — هـذا كتاب من رب العالمين فيـه أسماء أهل النـار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فـلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ..." وذكر الحديث ، وقال فيـه : حديث حسن . وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى : «فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» ولا قوله عليه السلام : "كل مولود يولد على الفطرة" العمومَ ، وإنما المراد بالناس المؤمنون ؛ إذ لو فُطر الجميع على الإسـلام لمـا كفر أحد ، وقد ثبت أنه خلق أقواما للنار ؛ كما قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ »(١) وأخرج الذرّية من صلب آدم سـوداء وبيضاء . وقال فى الغلام الذى قتـله الخضر : طبع يوم طبع كافرا . وروى أبو سعيد الخُدْرى قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بنهار(٢) ؛ وفيه : وكان فيما حفِظْنا أن قال : "ألَا إن بنى آدم خُلقوا طبقات شتّى فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا ، ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا ، ومنهم حَسَن القضاء حَسَن الطلب". ذكره حماد بن زيد بن سلمة(٣) فى مسند الطيالسى قال : حدثنا علىّ بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد . قالوا : والعموم بمعنى الخصوص كثير فى لسان العرب ؛ ألا ترى إلى قوله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢٤ . (٢) أى والشمس عالية . (٣) لفظ « مسلمة » ساقط من جـ ، ش .

عز وجل : «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ»(١) ولم تدمر السموات والأرض . وقوله : «فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ»(٢) ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة . وقال إسحاق بن راهويه الحنظلي : تم الكلام عند قوله : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» ثم قال : «فِطْرَةَ اللَّهِ» أى فطر الله الخلق فطرة إمّا بجنة أو نار، وإليه أشار النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : "كل مولود يولد على الفطرة" ولهذا قال : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ قال شيخنا أبو العباس : من قال هى سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة فى القرآن؛ لأن الله تعالى قال : « لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » وأما فى الحديث فلا ؛ لأنه قد أخبر فى بقية الحديث بأنها تبدّل وتغيّر . وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر : الفطرة هى الخلقة التى خلق عليها المولود فى المعرفة بربه ؛ فكأنه قال : كل مولود يولد على خِلْقة يعرف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة ؛ يريد خِلقة مخالفة لخلقة البهائم التى لا تصل بخلقتها إلى معرفته . واحتجوا على أن الفطرة الخلقة ، والفاطر الخالق؛ لقول الله عز وجل : «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»(٣) يعنى خالقهن، وبقوله : «وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي»(٤) يعنى خلقنى، وبقوله : «الَّذِي فَطَرَهُنَّ»(٥) يعنى خلقهن . قالوا : فالفطرة الخلقة ، والفاطر الخالق ؛ وأنكروا أن يكون المولود يُفْطَر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قالوا : وإنما المولود على السلامة فى الأغلب خِلْقةً وطبعاً وبِنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميّزوا . واحتجوا بقوله فى الحديث : "كما تُنْتَج البَهيمةُ بهيمةً جمعاءَ — يعنى سالمة — هل تُحِسّون فيها من جَدْعاء" يعنى مقطوعة الأذن . فمثّل قلوبَ بنى آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخَلْق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعدُ وأنوفها ؛ فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب(٦) . يقول : فكذلك قلوب الأطفال فى حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة، فلما بلغوا آستهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلّهم . قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان فى أوّليّة أمورهم ما آنتقلوا عنه أبدا ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون . قالوا :

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٠٥ . (٢) راجع ج ٦ ص ٤٢٥ .
(٣) راجع ج ١٤ ص ٣١٨ فما بعد . (٤) راجع ج ١٥ ص ١٧ .
(٥) راجع ج ١١ ص ٢٩٦ . (٦) راجع ج ٦ ص ٣٣٥ .

ويستحيل فى المعقول أن يكون الطفل فى حين ولادته يعقل كفرا أو إيمانا ، لأن الله أخرجهم فى حال لا يفقهون معها شيئا ، قال الله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا (١) » فمن لا يعلم شيئا استحال منه كفر أو إيمان ، أو معرفة أو إنكار . قال أبو عمر بن عبد البر : هذا أصح ما قيل فى معنى الفطرة التى يولد الناس عليها . ومن الحجة أيضا فى هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢) » و « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣) » ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشىء . وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (٤) » ولما أجمعوا على دفع القَوَد والقصاص والحدود والآثام عنهم فى دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك . والله أعلم . ويستحيل أن تكون الفطرة المذكورةُ الإسلامَ ، كما قال ابن شهاب ؛ لأن الإسلام والإيمان : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وهذا معدوم من الطفل ، لا يجهل ذلك ذو عقل . وأما قول الأوزاعى : سألت الزهرىّ عن رجل عليه رَقَبة أيجزى عنه الصبىّ أن يعتقه وهو رضيع ؟ قال نعم ؛ لأنه وُلد على الفطرة يعنى الإسلام ؛ فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه ؛ لأن حكمه حكمُ أبويه . وخالفهم آخرون فقالوا : لا يجزى فى الرقاب الواجبة إلا من صام وصلّى ، وليس فى قوله تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٥) » ولا فى " أن يختم الله للعبد بما قضاه له وقدّره عليه " — دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمنا أو كافرا ، لما شهدت له العقول أنه فى ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيمانا ولا كفرا ، والحديث الذى جاء فيه : " أن الناس خلقوا على طبقات " ليس من الأحاديث التى لا مطعن فيها ؛ لأنه انفرد به علىّ بن زيد بن جُدْعان ، وقد كان شعبة (٦) يتكلّم فيه . على أنه يحتمل قوله : " يولد مؤمنا " أى يولد ليكون مؤمنا ، ويولد ليكون كافرا على سابق علم الله فيه ، وليس فى قوله فى الحديث " خلقت هؤلاء للجنة وخلقت هؤلاء للنار " أكثر من مراعاة ما يختم به لهم ؛ لا أنهم فى حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو نارا ، أو يعقل كفرا أو إيمانا .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥١ .
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٦٢ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ٨٢ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٣١ فما بعد .
(٥) راجع جـ ٧ ص ١٨٧ فما بعد .
(٦) لفظة « شعبة » ساقطة من جـ

قلت : وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له ، ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة ، وشيخنا أبو العباس . قال ابن عطية : والذى يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدّة ومهيّأة لأن يميّز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربّه ويعرف شرائعه ويؤمن به ؛ فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدّين الذى هو الحنيف، وهو فِطْـرة الله الذى على الإعداد له فطـر البشر ، لكن تَعرِضهم العوارض ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يُنَصِّرانه" فذِكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة . وقال شيخنا في عبارته : إن الله تعالى خلق قلوب بنى آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودينَ الإسلام وهو الدِّين الحق . وقد دلّ على صحة هذا المعنى قوله : "كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء هل تُحسّون فيها من جَدْعاء" يعنى أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليما من الآفات ، فلو تُرك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملا بريئا من العيوب ، لكن يُتصرّف فيه[1] فيُجدع أذنه ويُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل ؛ وكذلك الإنسان ، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح .

قلت : وهذا القول مع القول الأوّل موافق له في المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة : من خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلاف الليل والنهار ؛ فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يمينا وشمالا ، وأنهم إن ماتوا صغارا فهم في الجنة ، أعنى جميع الأطفال ، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذّر أقرّوا له بالربوبية وهو قوله تعالى : «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ[2] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا»[3] . ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقرّوا له بالرّبوبية ، وأنه الله لا إله غيره ، ثم يُكتب العبد في بطن أمّه شقيّا أو سعيدا على

(١) لفظة « فيه » ساقطة من جـ　　(٢) قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣١٤ فما بعد .

الكتاب الأوّل ؛ فمن كان فى الكتاب الأوّل شقياً عُمّـر حتى يجرى عليه القلم فينقض الميثاق الذى أخذ عليه فى صلب آدم بالشرك ، ومن كان فى الكتاب الأوّل سعيدا عُمّر حتى يجرى عليه القلم فيصير سعيدا ، ومن مات صغيرا من أولاد المسلمين قبـل أن يجرى عليه القلم فهم مع آبائهم فى الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجرى عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأوّل الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ولم ينقض الميثاق . ذهب إلى هـذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله عليه السلام لمـا سئل عن أولاد المشركين فقال : " الله أعلم بمـا كانوا عاملين " يعنى لو بلغوا . ودلّ على هذا التأويل أيضا حديث البخارىّ عن سَمُرة بن جُنْدُب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ الحـديثُ الطويل حديثُ الرؤيا ، وفيـه قوله عليه السلام : " وأما الرجل الطـويل الذى فى الروضة فإبراهيم عليـه السلام ، وأما الوِلدان حوله فكل مولود يولد على الفطـرة " . قال فقيل : يارسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " وأولاد المشركين " . وهذا نصّ يرفع الخلاف ، وهو أصح شىء رُوى فى هذا الباب ، وغيره من الأحاديث فيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . وقد روى من حديث أنس قال : سئل رسـول الله صلى الله عليـه وسلم عن أولاد المشركين فقال : " لم تكن لهم حسنات فيجزَوْا بهـا فيكونوا من ملوك الجنة ، ولم تكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار ، فهم خدم لأهل الجنة " ذكره يحيى بن سلام فى التفسير له . وقد زدنا هذه المسألة بيـانا فى كتاب التذكرة ، وذكرنا فى كتاب المقتبس فى شرح مـوطأ مالك بن أنس ماذكره أبو عمر من ذلك ، والحمد لله . وذكر إسحاق بن راهْوَيه قال : حدّثنا يحيى بن آدم قال : أخبرنا جرير بن حازم عن أبى رجاء العُطارِدىّ قال : سمعت ابن عباس يقول : لا يزال أمر هذه الأمة مواتيا أو متقاربا — أو كلمة تشبه هاتين — حتى يتكلموا أو ينظروا فى الأطفال والقَدَر . قال يحيى بن آدم : فذكرته لابن المبارك فقال : أيسكت الإنسان على الجهل ؟ قلت : فتأمر بالكلام ؟ قال فسكت . وقال أبو بكر الوراق : « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » هى الفقر والفاقة ؛ وهذا حسن ؛ فإنه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج ، نعم ! وفى الآخرة .

قوله تعـالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق . ولا يجيء الأمر على خلاف هـذا بوجه ؛ أى لا يشقى من خلقه سعيدا ، ولا يسعد من خلقه شقيًّا . وقال مجاهد : المعنى لا تبديل لدين الله ؛ وقاله قتادة وابن جُبير والضحاك وابن زيد والنَّخَعِيّ، قالوا : هـذا معناه في المعتقدات . وقال عكرمة : وروى عن ابن عباس وعمـر ابن الخطاب أن المعنى : لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولهـا ؛ فيكون معناه النهى عن خِصاء الفحول من الحيوان . وقد مضى هـذا في « النساء »[١] . ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى ذلك القضاء المستقيم ؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل : ذلك الحساب البيّن . وقيل : «ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» أى دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقا معبودا ، و إلهًا قديما سبق قضاؤه ونَفَذ حكمه .

قوله تعـالى : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ آختلف في معناه ؛ فقيل : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص . وقال يحيى بن سلام والفرّاء : مقبلين إليه . وقال عبدالرحمن بن زيد : مطيعين له . وقيل : تائبين إليه من الذنوب[٢] ؛ ومنه قول [أبى] قيس بن الأَسْلَت :

فإن تابـوا فإن بني ســـليم * وقومهم هوازن قـد أنابوا

والمعـنى واحد ؛ فإن « ناب وتاب وثاب وآب » معناه الرجوع . قال المـاوردِيّ : وفي أصل الإنابة قولان : أحدهما — أن أصله القطع ؛ ومنه أخذ آسم الناب لأنه قاطع ؛ فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ بالطاعة . الثـانى — أصله الرجوع ؛ مأخوذ[٣] من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ؛ ومنه النَّوْبة لأنها الرجوع إلى عادة . الجوهرى :

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٨٩ فما بعد .
(٢) لفظة « من الذنوب » ساقطة من جـ
(٣) لفظة « مأخوذ » ساقطة من جـ

وأناب إلى الله أقبل وتاب . والنَّوْبة واحدة النُّوَب ، تقول : جاءت نَوْبتك ونيابتك ، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم في الماء وغيره . وانتصب على الحال . قال محمد بن يزيد : لأن معنى : «أَقِمْ وَجْهَكَ» فأقيموا وجوهكم منيبين . وقال الفرّاء : المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين . وقيل : انتصب على القطع ؛ أي فأقم وجهك أنت وأمتك المنيبين إليه ؛ لأن الأمر له ، أمرٌ لأمته ؛ فحسن أن يقول منيبين إليه ، وقد قال الله تعالى : «يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ»(١) . ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي خافوه وامتثلوا ما أمركم به . ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [بيّن أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص ؛ فلذلك قال : «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»(٢)] وقد مضى هذا مبينا «في النساء والكهف»(٣) وغيرهما . ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ تأوله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة : أنه لأهل القبلة من أهل الأهواء والبِدع . وقد مضى « في الأنعام »(٤) بيانه . وقال الربيع بن أنس : الذين فرّقوا دينهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وقاله قتادة ومَعْمَر . وقرأ حمزة والكسائي : «فَارَقُوا دِينَهم» ، وقد قرأ بذلك عليّ ابن أبي طالب ؛ أي فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه ، وهو التوحيد . ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أي فِرقا ؛ قاله الكلبيّ . وقيل أديانا ؛ قاله مقاتل . ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي مسرورون معجبون ، لأنهم لم يتبيّنوا الحق وعليهم أن يتبيّنوه . وقيل : كان هذا قبل أن تنزل الفرائض . وقول ثالث : أن العاصي لله عز وجل قد يكون فرحا بمعصيته ، فكذلك الشيطان وقُطّاع الطريق وغيرهم ؛ والله أعلم . وزعم الفرّاء أنه يجوز أن يكون التمام «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» ويكون المعنى : من الذين فارقوا دينهم «وَكَانُوا شِيَعًا» على الاستئناف ، وأنه يجوز أن يكون متصلا بما قبله . [النحاس : وإذا كان متصلا بما قبله(٢)] فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف ؛ كما قال جل وعز : « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ » ولو كان بلا حرف لجاز .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٤٧ . (٢) ما بين المربعين ساقط من جـ
(٣) راجع جـ ٥ ص ١٨٠ وجـ ١١ ص ٦٩ . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٤٩ وص ٢٤٠ .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ أى قحط وشدّة ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ ﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس : مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون . ومعنى هذا الكلام التعجب، عجب نبيّه من المشركين فى ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم؛ أى إذا مسّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرض وشدّة دعوْا ربّهم؛ أى استغاثوا به فى كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ أى عافية ونعمة . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى يشركون به فى العبادة .

قوله تعالى : لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قيل : هى لام كى . وقيل : هى لام أمر فيه معنى التهديد؛ كما قال جل وعز : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ »(١) . ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد . وفى مصحف عبد الله « وَلِيَتَمَتَّعُوا » ؛ أى مكّناهم من ذلك لكى يتمتعوا، فهو إخبار عن غائب؛ مثل : « لِيَكْفُرُوا » . وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب؛ أى تمتعوا أيها الفاعلون لهذا .

قوله تعالى : أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ استفهام فيه معنى التوقيف . قال الضحاك : « سُلْطَانًا » أى كتابا؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس . وأضاف الكلام إلى الكتاب توسّعا . وزعم الفرّاء أن العرب تؤنّث السلطان؛ تقول : قضتْ به عليك السلطان . فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة؛ أى حجة

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٢ فما بعد.

تنطق بشرككم ؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضا . وقال عليّ بن سليمان عن أبي العباس محمد ابن يزيد قال : سُلطان جمع سليط ؛ مثل رغيف ورغفان ، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيثه على معنى الجماعة . وقد مضى في « آل عمران » الكلام في السلطان أيضا مستوفى(١). والسلطان : ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمرا يستوجب به عقوبة ؛ كما قال تعالى : « أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(٢) » .

قوله تعالى : وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ يعني الخِصْب والسّعة والعافية ؛ قاله يحيى بن سلام . النّقاش : النعمة والمطر . وقيل : الأمن والدّعة ؛ والمعنى متقارب . ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ أي بالرحمة . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي بلاء وعقوبة ؛ قاله مجاهد . السّدّي : قحط المطر . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما عملوا من المعاصي . ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ أي ييأسون من الرحمة والفرج(٣) ؛ قاله الجمهور . وقال الحسن : إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى في السرّ . قَنِط يَقْنَط ، وهي قراءة العامة . وقَنَط يَقْنِط ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب . وقرأ الأعمش : «قَنِط يَقْنِط(٤)» بالكسر فيهما ؛ مثل حَسِب يَحْسِب . والآية صفة للكافر ، يقنط عند الشدّة ، ويبطَر عند النعمة ؛ كما قيل :

كحمار السُّوء إن أعلفته * رَمَح الناس وإن جاع نَهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه بهذه المثابة ؛ وقد مضى في غير موضع . فأما المؤمن فيشكر ربّه عند النعمة ، ويرجوه عند الشدّة .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ . (٢) راجع ج ١٣ ص ١٧٦ فما بعد .
(٣) في ك ، ش : « الفرج » بالحاء . (٤) راجع ج ١٠ ص ٣٥ .

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء أو يضيق ؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

قوله تعالى : فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تقدّم أنه سبحانه يبسط الرزق [لمن يشاء](١) ويقدر أمر من وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنى . والخطاب للنبى عليه السلام والمراد هو وأمته ؛ لأنه قال : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » . وأمر بإيتاء ذى القربى لقرب رحمه ؛ وخير الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرحم . وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً : " أما إنّك لو أعطيتها أخوالك كان أعظمَ لأجرك " .

الثانيـــة — واختلف فى هذه الآية ؛ فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البرّ على كل حال ؛ وهو الصحيح . قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة . وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبى صلى الله عليه وسلم . والأول أصح ؛ فإن حقهم مبيّن فى كتاب الله عز وجل فى قوله : « فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ »(٢) . وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذى القربى على جهة الندب . قال الحسن : « حقّه » المواساة فى اليسر وقول ميسور فى العسر . ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس : أى أطعم السائل الطوّاف ؛ وابن السبيل : الضيف ؛ فجعل الضيافة فرضا ، وقد مضى جميع هذا مبسوطا مبيّنا فى مواضعه(٣) والحمد لله .

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ك .	(٢) راجع جـ ٨ ص ١ .

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٥ و ٢٤١ . وجـ ٨ ص ١١ وجـ ٩ ص ٦٤ .

الثالثــة — ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أى إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجهُ الله والتقرُّبُ إليه . ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى الفائزون بمطلوبهم من الثواب فى الآخرة . وقد تقدّم فى « البقرة »(1) القول فيه .

قوله تعـالى : وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾

فيه أربع مسـائل :

الأولى — لمّـا ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضا وجهه . وقرأ الجمهور : « آتَيْتُم » بالمد بمعنى أعطيتم . وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ ؛ بمعنى ما فعلتم من رِبًا لِيَرْبُوَ ؛ كما تقـول : أتيت صـوابا وأتيت خطأ . وأجمعوا على المدّ فى قوله : «وَمَا آتَيْتُم مِنَ زَكَاةٍ» . والربا الزيادة وقد مضى فى « البقرة »(2) معناه ؛ وهو هناك محرّم وهاهنا حلال . وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام . قال عكرمة فى قوله تعالى : «وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » قال : الرِّبَا رِبَوان ، ربا حلال وربا حرام ؛ فأما الرّبا الحلال فهو الذى يُهْدَى ، يُلتمس ماهو أفضل منه . وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الرّبا الحلال الذى يُهدى ليُثاب ماهو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له فيه أجر(3) وليس عليه فيه إثم . وكذلك قال ابن عباس : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا » يريد هدية الرجل الشئ يرجو أن يثاب أفضل منه ؛ فذلك الذى لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه ، وفى هذا المعنى نزلت الآية . قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها ممـا يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره ؛ فهو و إن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عنـد الله تعالى . وقاله القاضى أبو بكر بن العربى . وفى كتاب النَّسائى

(1) راجع جـ١ ص ١٨١ . (2) راجع جـ٣ ص ٣٤٨ فما بعد . (3) فى جـ : « وليس فيه أجر » .

عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هديّة فقال : " أهدية أم صــدقة (١) [فإن كانت هدية فإنما يُبتغى بها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الحاجة ، و إن كانت صدقة فإنما يُبتغى بها وجه الله عز وجل " قالوا: لا بل هدية ؛ فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم ويسألونه. وقال ابن عباس أيضا و إبراهيم النّخعي: نزلت فى قوم يُعطون قراباتهــم و إخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضّل عليهم ، وليزيدوا فى أموالهم على وجه النفع لهم . وقال الشّعْبي : معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحدا وخف له لينتفع به فى دنياه فإن ذلك النفع الذى يَجزِى به الخدمة لا يربو عند الله . وقيل : كان هذا حراما على النبيّ صــلى الله عليه وسلم على الخصوص ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ » (٢) فنهى أن يعطى شيئا فيأخذ أكثر منه عِوضا . وقيل : إنه الربا المحرّم؛ فمعنى : «لَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ» على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه . قال السدّى : نزلت هذه الآية فى ربا ثقيف ؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش .

الثانيــــة ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى: صريح الآية فيمن يَهب يطلب (٣) الزيادة من أموال الناس فى المكافأة. قال المُهلَّب: اختلف العلماء فيمن وَهَب هبة يطلب ثوابها وقال: إنما أردت الثواب ؛ فقال مالك : ينظر فيه؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك ؛ مثل هبة الفقير للغنيّ ، وهبــة الخادم لصاحبه ، وهبة الرجل لأميره ومَن فوقه ؛ وهو أحد قولى الشافعى . وقال أبو حنيفــة : لا يكون له ثواب إذا لم يشــترط؛ وهو قول الشافعى الآخر. قال : والهبة للثواب باطلة لاتنفعه ؛ لأنها بيع بثمن مجهول. واحتج الكوفى بأن موضوع الهبــة التبرع ، فلو أوجبنا فيها العوض لبطل معنى التبرع وصارت فى معنى المعاوضات ، والعرب قد فرّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض ، والهبــة بخلاف ذلك . ودليلنا ما رواه مالك فى موطئــه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : أيّمــا رجل وهب هبــة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى

(١) ما بين المربعين ساقط من ش .　(٢) راجع جـ ١٩ ص ٦٦ .　(٣) لفظة يطلب ساقطة من جـ و ش .

منها . ونحوه عن علىّ رضى الله عنه قال: المواهب ثلاثة: مَوْهبة يراد بها وجه الله ، وموهبة يراد بها وجوه الناس، وموهبة يراد بها الثواب؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يُثَب منها . وترجم البخارىّ رحمه الله (باب المكافأة فى الهبة) وساق حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويُثيب عليها ، وأثاب على لَقْحة[1] ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب ، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائدا على القيمة . خرجه الترمذى .

الثالثة — ما ذكره علىّ رضى الله عنه وفصّله من الهبة صحيح ؛ وذلك أن الواهب لا يخلو فى هبته من ثلاثة أحوال: أحدها — أن يريد بها وجه الله تعالى ويبتغى عليها الثواب منه . والثانى — أن يريد بها وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويُثْنُوا عليه من أجلها . والثالث — أن يريد بها الثواب من الموهوب له ؛ وقد مضى الكلام فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : " الأعمال بالنيات وإنما لكل آمرئ ما نوى " . فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وآبتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنيًّا حتى لا يكون كَلًّا فالنية فى ذلك متبوعة ؛ فإن كان ليتظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله ، وإن كان لما له عليه من حق القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله .

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها فلا منفعة له فى هبته؛ لا ثواب فى الدنيا ولا أجر فى الآخرة ؛ قال الله عز وجل : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ »[2] الآية .

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته، وله أن يرجع فيها مالم يثب بقيمتها ، على مذهب ابن القاسم ، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها ، على ظاهر قول عمر

(١) اللقحة (بكسر اللام وفتحها) : الناقة الحلوب . (٢) راجع ج ٣ ص ٣١١ .

وعلىّ، وهو قول مُطَرِّف فى الواضحة: أن الهبة ما كانت قائمة العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها وإن أثابه الموهوب فيها أكثر منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء. وقيل: تلزمه القيمة كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فوت الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقا؛ قاله ابن العربي.

الرابعـــة — قوله تعـالى: ﴿ لِيَرْبُوَ ﴾ قرأ جمهور القرّاء السبعة: «ليربو» بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وقرأ نافع وحده: بضم التاء [والواو] ساكنة على المخاطبة؛ بمعنى تكونوا ذوى زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشعبي. قال أبو حاتم: هى قراءتنـا. وقرأ أبو مالك: «لتربوها» بضمير مؤنث. ﴿ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى لا يزكو ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصا له؛ وقد تقدّم فى «النساء»[1]. ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ ﴾ قال ابن عباس: أى من صدقة. ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى ذلك الذى يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر؛ كما قال: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا[2] كَثِيرَةً». وقال: «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ[2]». وقال: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله: «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ[3]». وفى معنى المُضْعفين قولان: أحدهمـا — أنه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر — أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم؛ أى هم أصحاب أضعاف، كما يقال: فلان مُقْوٍ إذا كانت إبله قوية، أوله أصحاب أقوياء. ومُسْمِن إذا كانت إبله سمانا. ومُعْطِش إذا كانت إبله عِطاشًا. ومضعِف إذا كانت إبله ضعيفة؛ ومنه قول النبيّ صـلى الله عليه وسلم: "اللهم إنى أعوذ بك من الخبيث المخبِث الشيطان الرجيم". فالمخبث: الذى أصحابه خبث، يقال: فلان ردىء أى هو ردىء؛ فى نفسه. ومردِئ: أصحابهُ أردئاء.

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٠.	(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧ وص ٣١٤.

(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤.

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر . وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي . ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لا يفعل . ثم نزّه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ، ويجعلون لهم من أموالهم .

قوله تعالى : ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر ؛ فقال قتادة والسدّى : الفساد الشرك ، وهو أعظم الفساد . وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : فساد البَرّ قتلُ ابن آدم أخاه ؛ قابيلُ قتل هابيل . وفي البحر بالمَلِك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا . وقيل : الفساد القحط وقلّة النبات وذهاب البركة . ونحوه قال ابن عباس قال : هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا . قال النحاس : وهو أحسن ما قيل في الآية . وعنه أيضا : أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم . وقال عطية : فإذا قلّ المطر قلّ الغوص عنده ، وأخفق الصيادون ، وعميت دواب البحر . وقال ابن عباس : إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر ، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ . وقيل : الفساد كساد الأسعار وقلّة المعاش . وقيل : الفساد المعاصي وقطعُ السبيل والظلم ؛ أى صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات ؛ والمعنى كله متقارب . والبر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس ؛ لا ما قاله بعض العُبّاد(1) : أن البر اللسانُ ، والبحر القلب ؛ لظهور

(1) في ج ، ك : « في الفقه » .

ما على اللسان وخفاء ما فى القلب . وقيل : الـبَر : الفيافى، والبحر : القرى ؛ قاله عكرمة . والعـرب تسمي الأمصار البحار . وقال قتادة : الـبّر أهل العمود ، والبحر أهل القـرى والريف . وقال آبن عباس : إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر ؛ وقاله مجاهد، قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جارٍ فهى بحر . وقال معناه النحاس، قال : فى معناه قولان : أحدهما — ظهر الجَـدْب فى البر ؛ أى فى البوادى وقراها ، وفى البحر أى فى مدن البحر، مثل : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ »(١) . أى ظهر قلة الغيث وغلاء السعر . ﴿ بِمَـا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّـاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ﴾ أى عقاب بعض ﴿ الَّذِى عَمِلُوا ﴾ ثم حذف . والقول الآخر — أنه ظهرت المعاصى من قطع السبيل والظلم ، فهـذا هو الفساد على الحقيقة، والأول مجاز إلا أنه على الجواب الثـانى، فيكون فى الكلام حذف واختصار دلّ عليه ما بعده، و يكون المعنى : ظهرت المعاصى فى البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليـذيقهم عقاب بعض الذى عمـلوا . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يتو بون . وقال : « بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا » لأن معظم الجزاء فى الآخرة . والقراءة « لِيُذِيقَهُمْ » بالياء . وقرأ آبن عباس بالنون ، وهى قراءة السُّلَمِى وآبن مُحَيْصِن وقُنْبُل و يعقوب على التعظيم ؛ أى نذيقهم عقو بة بعض ما عملوا .

قوله تعـالى : قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُـلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى قل لهم يا محمد سيروا فى الأرض ليعتبروا بمن قبلهم، و ينظروا كيف كان عاقبـة من كذب الرسـل ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ أى كافرين فأهلكوا .

قوله تعـالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ قال الزجاج : أى أقم قصدك ، واجعل جهتك اتباع الدّين القيم ؛ يعنى الإسلام . وقيل : المعنى أوضح الحق وبالغ فى الإعذار ، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا يردّه الله عنهم، فإذا لم يردّه لم يتهيأ لأحد دفعه . ويجوز عند غير سيبويه « لَا مَرَدًّا لَهُ » وذلك عند سيبويه بعيد ، إلا أن يكون فى الكلام عطف . والمراد يوم القيامة . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرّقون . وقال الشاعر :

وكُنّا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً (١) * من الدهر حتى قيل لن يَتَصدّعا

أى لن يتفرقا؛ نظيره قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » . والأصل يتصدّعون ؛ ويقال : تصدّع القوم إذا تفرّقوا ؛ ومنه اشتق الصداع، لأنه يفرق شُعب الرأس .

قوله تعالى : مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أى يوطّئون لأنفسهم فى الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح؛ ومنه : مهدُ الصبيّ . والمهاد الفراشُ، وقد مهدت الفراش مَهْدًا : بسطته ووطّأته . وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها . وتمهيد العذر : بسطُه وقبوله . والتمهّد : التمكن . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد « فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » قال : فى القبر .

قوله تعالى : لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

---

(١) البيت لمتمم بن نويرة اليربوعى من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا مطلعها :

لعمرى وما دهرى بتأبين هالك * ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وقوله : « كندمانى جذيمة » يعنى جذيمة الأبرش وكان ملكا . ونديماه : يقال لهما مالك وعقيل . و يضرب بهما المثل لطول ما نادماه، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله ، وقيل يصدّعون ليجزيهم الله ؛ أي ليميّز الكافر من المسلم . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أي ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشّرات أي بالمطر لأنها تتقدّمه . وقد مضى في «الحجر» بيانه [1] . ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني الغيث والخصب . ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ أي في البحر عند هبوبها . وإنما زاد « بِأَمْرِهِ » لأن الرياح قد تهبّ ولا تكون مواتية ، فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال بحبسها ، وربما عصفت فأغرقتها بأمره . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعني الرزق بالتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة . وقد مضى هذا كلّه مبينا [2] .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي المعجزات والحجج النيّرات ﴿ فَانْتَقَمْنَا ﴾ أي فكفروا فانتقمنا ممن كفر . ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ « حقًّا » نصب على خبر كان ، «ونصر» اسمها . وكان أبو بكر يقف على « حَقًّا » أي وكان عقابنا حقا ، ثم قال : « عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » ابتداء وخبر ؛ أي أخبر بأنه لا يخلف الميعاد [3] ، ولا خُلف في خبرنا . وروى من حديث أبي الدّرداء قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من مسلم يَذُبّ عن عرض أخيه إلا كان حقًّا على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة — ثم تلا — وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين " . ذكره النحاس والثعلبيّ والزّمخشريّ وغيرهم .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥ .　　(٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ و ٣٩٧ و جـ ٢ ص ١٩٤ فما بعد .

(٣) في جـ ، ش : « أي أخبرنا به ولا ... » .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ قرأ ابن محيصن وابن كثير وحمزة والكسائي : « الريح » بالتوحيد . والباقون بالجمع . قال أبو عمرو : وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد . وقد مضى في « البقرة »(١) معنى هذه الآية وفي غيرها . « كِسَفًا » جمع كِسْفة وهي القطعة . وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر « كِسْفا » بإسكان السين، وهي أيضا جمع كسفة؛ كما يقال : سِدْرة وسِدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المضمر الذي بعده عائدا عليه؛ أي فترى الودق أي المطر يخرج من خلال الكسف؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء [لا غير](٢) فالتذكير فيه حَسَن . ومن قرأ : « كِسَفًا » فالمضمر عنده عائد على السحاب . وفي قراءة الضحاك وأبي العالية وابن عباس : « فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ » ويجوز أن يكون خَلَل جمع خِلال . ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ أي بالمطر . ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم . ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم . و « مِنْ قَبْلِهِ » تكرير عند الأخفش معناه التأكيد؛ وأكثر النحويين على هذا القول؛ قاله النحاس . وقال قُطْرُب : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للطر؛ أي وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر . وقيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودلّ على الزرع المطر إذ بسببه يكون . ودلّ عليه أيضا « فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا » على ما يأتي . وقيل : المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته؛ واختار هذا القول النحاس؛ أي من قبل رؤية السحاب ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي ليائسين . وقد تقدم ذكر السحاب(٣) .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ فما بعدها . (٢) ما بين المربعين زيادة من ش وك . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠٠ فما بعدها .

قوله تعالى : فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ يعني المطر ؛ أي انظروا نظر استبصار واستدلال ؛ أي استدلوا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي : « آثَارِ » بالجمع . الباقون بالتوحيد ؛ لأنه مضاف إلى مفرد . والأثر فاعل « يُحْيِي » ويجوز أن يكون الفاعل اسم الله عز وجل . ومن قرأ : « آثَارِ » بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة ؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »[1] . وقرأ الجحدري وأبو حيوة وغيرهما : « كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ » بتاء ؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة ؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة ؛ أي كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار . « ويحيي » أي يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء . و﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ ﴾ في موضع نصب على الحال على الحمل على المعنى لأن اللفظ لفظ الاستفهام والحال خبر ؛ والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ يعني الريح ، والريح يجوز تذكيره . قال محمد بن يزيد : لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقي ، نحو أعجبني الدار وشبهه . وقيل : فرأوا السحاب . وقال ابن عباس : الزرع ، وهو الأثر ؛ والمعنى : فرأوا الأثر مصفرا ؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدل على يبسه ، وكذا السحاب يدل على أنه لا يمطر ، والريح على أنها لا تُلقح ﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي لَيَظَلُّنَّ ؛ وحسن وقوع الماضي في موضع المستقبل لما في الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل ؛ قاله الخليل وغيره .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧ فما بعد .

قوله تعالى : فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أى وَضَحت الحجج يا محمد؛ لكنهم لإلْفِهم تقليد الأسلاف فى الكفر ماتت عقولهم وعميت بصائرهم، فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى لا تُسمع مواعظَ الله إلا المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخَلقتُ لهم الهدايةَ . وقد مضى هذا فى « النمل »(1) ووقع قوله « بِهَادِ الْعُمْىِ » هنا بغير ياء .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ ذكر استدلالا آخر على قدرته فى نفس الإنسان ليعتبر . ومعنى : « مِنْ ضَعْفٍ » من نطفة ضعيفة . وقيل : « مِنْ ضَعْفٍ » أى فى حال ضعف ؛ وهو ما كانوا عليه فى الابتداء من الطفولة والصغر . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يعنى الشبيبة . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ يعنى الهرم . وقرأ عاصم وحمزة : بفتح الضاد فيهن ، الباقون بالضم ، لغتان ، والضم لغة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقرأ الجحدرىّ : «من ضَعْف ثم جعل من بعد ضَعْف» بالفتح فيهما ؛ «ضُعْفًا» بالضم خاصة . أراد أن يجمع بين اللغتين . قال الفراء : الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم . الجوهرى : الضَّعْف والضُّعْف : خلاف القوة . وقيل : الضعف بالفتح فى الرأى ، وبالضم فى الجسد ؛ ومنه الحديث فى الرجل

(1) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٣ .

الذى كان يخدع فى البيوع : "أنه يبتاع وفى عُقدته ضعف"(١) . ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ مصدر كالشّيب ، والمصدر يصلح للجملة ، وكذلك القول فى الضعف والقوة . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى من قوة وضعف . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بتدبيره . ﴿ الْقَدِيرُ ﴾ على إرادته . وأجاز النحويون الكوفيون « من ضَعَف » بفتح العين ، وكذا كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانيا أو ثالثا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى يحلف المشركون . ﴿ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ليس فى هذا رد لعذاب القبر ، إذ كان قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه تعوّذ منه ، وأمر أن يتعوّذ منه ، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال : سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة وهى تقول : اللّهمّ أمتعنى بزوجى رسول الله ، وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية ، فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر" فى أحاديث مشهورة خرجها مسلم والبخاريّ وغيرهما . وقد ذكرنا منها جملة فى كتاب (التذكرة) . وفى معنى : « مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » قولان : أحدهما — أنه لا بدّ من خمدة قبل يوم القيامة ، فعلى هذا قالوا : مالبثنا غَيْرَ سَاعَةٍ . [(٢) والقول الآخر — أنهم يعنون فى الدنيا لزوالها وانقطاعها ، كما قال تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »(٣) كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، وإن كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون . قال الله عز وجل :](٢) ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أى كانوا يكذبون فى الدنيا ، يقال : أُفِكَ الرجلُ إذا صُرف عن الصّدق والخير . وأرض مأفوكة : ممنوعة من المطر . وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه ، والقرآن يدلّ على غير ذلك ، قال الله عز وجل : « كَذَٰلِكَ كَانُوا

---

(١) أى فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه . (٢) ما بين المربعين ساقط من ش . (٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٧ فما بعد .

يُؤْفَكُونَ » أى كما صُرفوا عن الحق فى قَسَمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يُصرفون عن الحق فى الدنيا ؛ وقال جل وعز : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ »(١) وقال : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا »(٢) .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ اختلف فى الذين أوتوا العلم ؛ فقيل الملائكة . وقيل الأنبياء . وقيل علماء الأمم . وقيل مؤمنو هذه الأمة . وقيل جميع المؤمنين ؛ أى يقول المؤمنون للكفار ردّا عليهم لقد لبثتم فى قبوركم إلى يوم البعث . والفاء فى قوله : « فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ » جواب لشرط محذوف دلّ عليه الكلام ؛ مجازه : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث . وحكى يعقوب عن بعض القراء وهى قراءة الحسن : « إلى يوم البَعَث » بالتحريك ؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الحلْق . وقيل : معنى « فِي كِتَابِ اللّهِ » فى حكم الله . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والإيمانَ لقد لبثتم إلى يوم البعث ؛ قاله مقاتل وقتادة والسّدى . القشيرى : وعلى هذا « أُوتُوا الْعِلْمَ » بمعنى كتاب الله . وقيل : الذين حكم لهم فى الكتاب بالعلم ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ أى اليوم الذى كنتم تنكرونه .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٠٥ فما بعد .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٢ .

قوله تعـالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ. وقيل: لمـا ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذر وافلم يعذروا. ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى ولا حالهم حال من يستعتب و يرجع ؛ يقـال : استعتبته فأعتبنى ، أى استرضيته فأرضانى ، وذلك إذا كنت جانيا عليه. وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه . وسيأتى فى « فصلت » (١) بيانه . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ» بالياء، والباقون بالتاء.

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل مَثَل يدلهم على مايحتاجون إليه، و ينبههم على التوحيد وصدق الرسل. ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أى معجزة؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ﴾ يامعشر المؤمنين. ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أى تتبعون البـاطل والسحر ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلّة التوحيد ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى اصـبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ﴾ أى لا يستفزنّك عن دينك ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ قيل : هو النضر بن الحارث . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ يقال : استخف فلان فلانا أى آستجهله حتى حمله على آتباعه فى الغيّ . وهو فى موضع جزم بالنهى، أُكّد بالنون الثقيلة فبُنِىَ على الفتح كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر. «الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ» فى موضـع رفع ، ومن العرب من يقول : اللذون فى موضع الرفع . وقد مضى فى « الفاتحة » (٢) .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١ فما بعد .	(٢) راجع جـ ١ ص ١٤٨ .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية ، غير آيتين قال قتادة : أولها « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ » إلى آخر الآيتين[1] . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ » . وهي أربع وثلاثون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ مضى الكلام في فواتح السور . و « تِلْكَ » في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أي هذه تلك . ويقال : « تِيكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » بدلا من تلك . والكتاب : القرآن . والحكيم : المحكم ؛ أي لا خلل فيه ولا تناقض . وقيل ذو الحكمة وقيل الحاكم ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب على الحال ؛ مثل : « هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً[2] » وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي . وقرأ حمزة : « هُدًى وَرَحْمَةٌ » بالرفع ، وهو من وجهين : أحدهما — على إضمار مبتدأ ؛ لأنه أول آية . والآخر — أن يكون خبر « تِلْكَ » . والمحسن : الذي يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه . وقيل : هم المحسنون في الدين وهو الإسلام ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ[3] » الآية . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ في موضع الصفة ، ويجوز الرفع على القطع بمعنى : هم الذين ، والنصب بإضمار أعني . وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في « البقرة[4] » وغيرها .

---

(١) راجع ص ٧٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ . (٣) راجع جـ ٥ ص ٣٩٩ .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٦٢ فما بعد . وجـ ٦ ص ٢٢١ .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء . و « لَهْـوَ الْحَدِيثِ » : الغناء؛ فى قول ابن مسعود وابن عبـاس وغيرهما . النحاس : وهو ممنوع بالكتاب والسنة؛ والتقدير : من يشترى ذا لهو أو ذات لهو ؛ مثل : «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ»(١) . أو يكون التقدير : لمـا كان إنمـا اشتراها يشتريها و يبالغ فى ثمنها كأنه اشتراها للهو(٢) .

قلت : هذه إحدى الآيات الثلاث التى آستدلّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه . والآية الثانية قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ »(٣) . قال ابن عباس: هو الغناء بالحِمْيَرِيّة ؛ اسمدى لنا؛ أى غنّى لنا .

والآية الثالثة قوله تعـالى : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ »(٤) قال مجـاهد : الغناء والمزامير . وقد مضى فى « سبحان »(٤) الكلام فيه . و روى الترمذىّ عن أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تبيعوا القَيْنَات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام؛ فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله " إلى آخر الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنمـا يُروى من حديث القاسم عن أبى أمامة، والقاسم ثقة وعلىّ بن يزيد يضعّف فى الحديث ؛ قاله محمد بن إسماعيل . قال ابن عطية : و بهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الجَـوْزى عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنَّخَعِىّ .

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد . (٢) كذا فى جميع نسخ الأصل . وفى كتاب النحاس : « أو يكون التقدير : لمـا كان إنمـا يشتريها و يبالغ فى ثمنها كأنه اشترى اللهـو » . وفى العبارتين غموض ، ولعل العبارة هكذا : أو يكون التقدير أنه لمـا كان إنمـا يشتريها و يبالغ فى ثمنها لأجل لهوها كان كأنه اشترى اللهو .

(٣) راجع جـ ١٧ ص ١٢١ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٩٠ .

قلت : هذا أعلى ما قيل فى هذه الآية ، وحلف على ذلك ٱبن مسعود بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء . روى سعيد بن جُبير عن أبى الصَّهباء البكرى قال : سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ » فقال : الغناء والله الذى لا إله إلا هو؛ يرددها ثلاث مرات . وعن ابن عمر أنه الغناء؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول . وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال قال عبد الله بن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب ؛ وقاله مجاهد ، وزاد : إنّ لهو الحديث فى الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل . وقال الحسن : لهو الحديث المعازِف والغناء . وقال القاسم بن محمد : الغناء باطل والباطل فى النار . وقال ابن القاسم سألت مالكا عنه فقال : قال الله تعالى : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ »(1) أفحق هو؟ ! وترجم البخارى(2) (بَابٌ كُلُّ لهو باطلٌ إذا شغل عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه تعال أقامرك)،وقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) فقوله : « إذا شَغَل عن طاعة الله » مأخوذ من قوله تعالى : « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » . وعن الحسن أيضا : هو الكفر والشرك . وتأوّله قوم على الأحاديث التى يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعب . وقيل : نزلت فى النضر بن الحارث ؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم : رستم ، واسفنديار ؛ فكان يجلس بمكة ، فإذا قالت قريش إن محمدا قال كذا ضحك منه ، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول : حديثى هذا أحسن من حديث محمد ؛ حكاه الفرّاء والكَلْبى وغيرهما . وقيل : كان يشترى المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قَيْنَتِه فيقول : أطعميه وٱسقيه وغنّيه ؛ ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . وهذا القول والأوّل ظاهر فى الشراء . وقالت طائفة : الشراء فى هذه الآية مستعار ، وإنما نزلت الآية فى أحاديث قريش وتلهيهم بأمر الإسلام وخوضهم فى الباطل . قال ابن عطية : فكان ترك مايجب فعله وامتثال هذه المنكرات

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٣٥ فما بعد .

(2) فى آخر كتاب الاستئذان .

شراءً لها؛ على حد قوله تعـالى : « أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ »[١] ؛ اشتروا الكفر بالإيمـان؛ أي استبدلوه منه واختاروه عليه . وقال مُطَرِّف : شراء لهو الحديث استحبابه . قتادة : ولعلّه لا ينفق فيه مالا ، ولكن سماعه شراؤه .

قلت : القول الأوّل أولى ماقيل به فى هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه ، وقول الصحابة والتابعين فيه . وقد زاد الثعلبي والواحدي فى حديث أبى أمامة : "ومامن رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المَنْكب[٢] [والآخر على هذا المنكب] فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت". وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صوتان ملعونان فاجران أنْهى عنهما : صوت مزمار ورنّة شيطان عند نغمة ومَرح ورنّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب". وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ عليه السلام قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " بُعثت بكسر المزامير " خرجه أبو طالب الغَيْلانى . وخرّج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " بُعثت بهدم المزامير والطبل " . وروى الترمذى من حديث عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فعلت أمّتى خمس عشرة خَصْلة حلّ بها البلاء — فذكر منها : إذا اتخذت القَيْنـات والمعازِف" . وفى حديث أبى هريرة : " وظهرت القِيان والمعـازِف " . وروى ابن المبـارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المُنْكَدِر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جلس إلى قَينة يسمع منها صُبّ فى أذنه الآنُك[٣] يوم القيامة " . وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبى سـلمة عن محمد بن المنكدِر قال : بلغنا أن الله تعـالى يقول يوم القيامة : " أين عبـادى الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهـو ومزامير الشيطان أحِلّوهم رياض المسك[٤] وأخبروهم أنى قد أحللت عليهم رضوانى " . وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثله ، وزاد بعد قوله " المسك : ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدى وشكرى وثنائى ، وأخبروهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون" . وقد روى مرفوعا هـذا المعنى من حديث أبى موسى الأشعرى أنه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم :

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٠ . (٢) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع .
(٣) الآنك : الرصاص . (٤) فى جـ ، ش : " رياض الجنة ".

" من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين " . فقيل : ومَن الروحانيون يا رسول الله؟ قال : " قراء أهل الجنة " خرّجه الترمذيّ الحكيم أبو عبدالله فى نوادر الأصول، وقد ذكرنا فى كتاب التذكرة مع نظائره : " فمن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة، ومن لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة " . إلى غير ذلك . وكل ذلك صحيح المعنى على ما بيّناه هناك . ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلّوا عليه " . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء . وهى المسألة : —

الثانيـة — وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذى يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجُون الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن؛ فهذا النوع إذا كان فى شعر يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرمات لا يُختلف فى تحريمه؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق . فأما ماسلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان فى حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أَنْجَشَة (١) وسَلَمة بن الأكوع . فأما ما ابتدعتـه الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات (٢) والطار والمعازف والأوتار فحـرام . ابن العربىّ : فأما طبل الحرب فلا حرج فيه؛ لأنه يقيم النفوس ويُرهب العدو . وفى اليراعة (٣) تردّد . والدف مباح . (٤)[الجوهرىّ : وربمـا سمّوا قصبة الراعى التى يزمر بها هيرعة ويراعة] (٤) . قال القشيرىّ : ضُرب بين يدى النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة، فهمّ أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح " فكنّ يضربن ويقلن : نحن بنات النجار، حبذا محمد من جار . وقد قيل : إن الطبل فى النكاح كالدّف، وكذلك الآلات المشهرة للنكاح يجوز استعمالها فيـه بمـا يحسن من الكلام ولم يكن فيه رَفَث .

---

(١) هو عبد أسـود كان يسوق أو يقود بنساء النبىّ صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، وكان حسن الحداء، وكانت الإبل تزيد فى الحركة بحدائه .

(٢) الشبابة (بالتشديد) : قصبة الزمر، وهى مولدة .

(٣) اليراعة : مزمار الراعى .

(٤) مابين المربعين ساقط من ج، ش .

الثالثـــة ـــ الاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُرَد به الشهادة، فإن لم يدم لم ترَدّ . وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال : سألت مالك بن أنس عما يُرَخِّص فيــه أهل المدينة من الغناء فقال : إنمــا يفعله عنــدنا الفساق . وذكر أبو الطيب طاهر بن عبــد الله الطبرىّ قال : أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال : إذا اشترى جارية ووجدها مغنية كان له ردّها بالعيب ؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة ؛ إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنــه زكريا الساجى أنه كان لا يرى به بأسا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْــدَاد : فأما مالك فيقال عنــه : إنه كان عالمــا بالصناعة وكان[1] مذهبــه تحريمها . وروى عنه أنه قال : تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لى أمى : أىْ بنىّ ! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولستَ كذلك ، فاطلب العلوم الدينيــة ؛ فصحبت ربيعــة فجعل الله فى ذلك خــيرا . قال أبو الطيب الطــبرىّ : وأما مذهب أبى حنيفــة فإنه يكره الغناء مع إباحته شرب النّبيــذ ، ويجعــل سمــاع الغناء من الذنوب . وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة : إبراهيم والشــعبىّ وحماد والثورى وغيرهم، لا اختلاف بينهــم فى ذلك . وكذلك لا يعرف بين أهــل البصرة خلاف فى كراهيــة ذلك والمنع منه ؛ إلا ما روى عن عبيــد الله بن الحسن العنبرى أنه كان لا يرى به بأسا . قال : وأما مذهب الشــافعىّ فقال : الغناء مكروه يشــبه الباطل ، ومن استكثر منــه فهو سفيه تردّ شهادته . وذكر أبو الفرج الجَوْزى عن إمامه أحمــد بن حنبــل ثلاثَ روايات قال : وقد ذكر أصحابنا عن أبى بكر الخَلّال وصاحبه عبد العزيز إباحة الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان فى زمانهما من القصائد الزُّهديّات ؛ قال : وعلى هذا يحمل مالم يكرهه أحمد ؛ ويدلّ عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولدا وجارية مغنية فاحتاج الصبى إلى بيعها فقال : تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية . فقيل له : إنها تساوى ثلاثين ألفا ؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوى عشرين ألفا ؟ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . قال أبو الفرج : وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغنى بقصائد الزهد، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشـــق .

(١) لفظة : « كان » ساقطة من جـ .

وهذا دليل على أن الغناء محظور؛ إذ لو لم يكن محظورا ما جاز تفويت المال على اليتيم . وصار هذا كقول أبى طلحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم : عندى خمر لأيتام ؟ فقال : " أرِقها " . فلو جاز استصلاحها لما أمر بتضييع مال اليتامى . قال الطبريّ : فقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه . وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبرى ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليكم بالسواد الأعظم . ومن فارق الجماعة مات مِيتة جاهلية " . قال أبو الفرج : وقال القفّال من أصحابنا : لا تقبل شهادة المغنِّى والرقاص .

قلت : وإذ قد ثبت أن هذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز . وقد ادّعى أبو عمر بن عبد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك . وقد مضى فى الأنعام عند قوله : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ »(١) وحسبُك .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : وأما سماع القينات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته ؛ إذ ليس شىء منها عليه حراما لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها . أمّا أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرَّفَث ، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يحل ولا يجوز مُنع من أوّله واجتُثّ من أصله . وقال أبو الطيّب الطبريّ : أما سماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرَم فإن أصحاب الشافعيّ قالوا لا يجوز ، سواء كانت حرّة أو مملوكة . قال : وقال الشافعيّ : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تردّ شهادته ؛ ثم غلّظ القول فيه فقال : فهى دِياثة . وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيها .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قراءة العامة بضم الياء ؛ أى ليضل غيره عن طريق الهدى ، وإذا أضل غيره فقد ضل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيس وابن أبى إسحاق (بفتح الياء) على اللازم ؛ أى ليَضل هو نفسه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣ .

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قراءة المدنيّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفا على «مَنْ يَشْتَرِي» ويجوز أن يكون مستأنفا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي : «وَيَتخِـذَها» بالنصب عطفا على «لِيُضِلَّ» . ومن الوجهين جميعا لا يحسن الوقف على قوله : «بِغَـيْرِ عِلْمٍ» والوقف على قوله : «هُزُوًا» ، والهاء في «يَتَّخِذَهَا» كناية عن الآيات . ويجـوز أن يكون كناية عن السبيـل ؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر . ﴿ أُولَئِكَ لَهُـمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أي شديد يهينهـم . قال الشـاعر :

ولقد جزعت إلى النصارى بعد ما * لَقِيَ الصليبُ من العذاب مهينا (١)

قوله تعـالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ يعني القرآن . ﴿ وَلَّى ﴾ أي أعرض . ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ ثِقَـلًا وصَمَما . وقد تقـدّم (٢) . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ تقدّم أيضا (٣) .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي دائمين . ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقًّا ﴾ أي وعدهم الله هذا وعدا حقا لا خُلْف فيه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدّم أيضا (٤) .

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة يهجو بها الأخطل ، مطلعها :

أمسيت إذ رحل الشباب حزينا * ليت الليالي قبل ذاك فنينا

(٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ فما بعد .

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ و جـ ٢ ص ١٣١ فما بعد .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ تكون « تَرَوْنَهَا » في موضع خفض على النعت لـ « عَمَد » فيمكن أن يكون ثَمّ عَمَد ولكن لا تُرى . ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من « السَّموَات » ولا عَمَد ثَمّ الْبَتّة . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا ، ولا عَمَد ثَمّ ؛ قاله مكيّ . ويكون « بِغَيْرِ عَمَدٍ» التمام. وقد مضى في « الرعد »(١) الكلام في هذه الآية . ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالا ثوابت . ﴿ أَنْ تَمِيدَ ﴾ في موضع نصب ؛ أي كراهية أن تميد . والكوفيون يقدّرونه بمعنى لئلا تميد . ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ عن ابن عباس : من كل لون حَسَن . وتأوّله الشعبيّ على الناس ؛ لأنهم مخلوقون من الأرض ؛ قال : من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم ، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم . وقد تأول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب ، وظاهر القرآن يدلّ على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [(٢) مبتدأ وخبر . والخلق بمعنى المخلوق ؛ أي هذا الذي ذكرته مما تعاينون « خَلْقُ اللَّهِ »](٢) أي مخلوق الله ، أي خلقها من غير شريك . ﴿ فَأَرُونِي ﴾ معاشر المشركين ﴿ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام . ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ أي المشركون ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي خسران ظاهر . و « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء وخبره « ذا » وذا بمعنى الذي . و « خلق » واقع على هاء محذوفة ؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه ؛ والجملة في موضع نصب بـ «أروني» وتضمر الهاء مع « خلق »

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ . (٢) ما بين المربعين ساقط من ش .

تعود على الذين ؛ أى فأرونى الأشياء التى خلقها الذين من دونه . وعلى هـذا القول تقول : ماذا تعلمت، أنحوٌ أم شعر . ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ«أرونى و « ذا » زائد ؛ وعلى هذا القول يقول : ماذا تعلمت ، أنحوا أم شعرا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ مفعولان . ولم ينصرف « لُقْمَانَ » لأن فى آخره ألفا ونونا زائدتين ؛ فأشبه فُعلان الذى أنثاه فَعلَى فلم ينصرف فى المعرفة لأن ذلك ثقل ثان، وآنصرف فى النكرة لأن أحد الثقلين قد زال؛ قاله النحاس . وهو لقمان بن باعوراء ابن ناحور بن تارح ، وهو آزر أبو إبراهيم ؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق . وقيل : هو لقمان ابن عنقاء بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة ؛ ذكره السهيلي . قال وهب : كان آبن أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . الزَّمَخْشَرِيّ : وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل كان من أولاد آزر ، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، وكان يُفتى قبل مبعث داود ، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له ، فقال : ألا أكتفى إذ كُفيت . وقال الواقدى : كان قاضيا فى بنى إسرائيل . وقال سعيد ابن المسيِّب : كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوّة ؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيا . وقال بنبوّته عِكرمة والشعبي ؛ وعلى هـذا تكون الحكمة النبوّة . والصواب أنه كان رجلا حكيما بحكمة الله تعالى — وهى الصواب فى المعتقدات والفقه فى الدِّين والعقل(١) — قاضيًا فى بنى إسرائيل ، أسود مشقّق الرِّجلين ذا مشافر ، أى عظيم الشفتين ؛ قاله ابن عباس وغيره . وروى من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لم يكن لقمان نبيًّا ولكن كان عبدا كثير التفكر

(١) فى تفسير ابن عطية : « ... والعمل » .

حسن اليقين ، أحبّ الله تعالى فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، وخيّره فى أن يجعله خليفة يحكم بالحق ؛ فقال : ربّ ، إن خيّرتنى قبلتُ العافية وتركت البلاء ، وإن عزمتَ علىّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمنى ؛ ذكره ابن عطيـة . وزاد الثعلبىّ : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لِمَ يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه المظلوم من كل مكان ، إن يُعَنْ فبالحَرَى(١) أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة . ومن يكن فى الدنيا ذليلا [فذلك](٢) خير من أن يكون فيها شريفا . ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة . فعجبت الملائكة من حسن منطقه ؛ فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه يتكلّم بها . ثم نودى داود بعده فقبلها — يعنى الخلافة — ولم يشترط ما اشترطه لقمان ، فهوَى فى الخطيئة غير مرة ، كل ذلك يعفو الله عنه . وكان لقمان يوازره بحكمته ؛ فقال له داود : طوبى لك يالقمان ! أعطيت الحكمة وصُرف عنك البلاء ، وأُعطى داود الخلافة وآبتُلى بالبلاء والفتنة . وقال قتادة : خيّر الله تعالى لقمان بين النبوّة والحكمة ؛ فاختار الحكمة على النبوّة ؛ فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم فذرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطق بها ؛ فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوّة وقد خيّرك ربك؟ فقال : إنه لو أرسل إلىّ بالنبوّة عَزْمةً(٣) لرجوت فيها العون منه ، ولكنه خيّرنى فخفت أن أضعُف عن النبوّة ، فكانت الحكمة أحبّ إلىّ .

واختلف فى صنعته ؛ فقيل : كان خياطا ؛ قاله سعيد بن المسيّب ، وقال لرجل أسود : لا تحزن من أنك أسود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثةٌ من السودان : بلال ومِهْجع مولى عمر ولقمان . وقيل : كان يحتطب كل يوم لمولاه حُزْمة حطب . وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض . وقيل : كان راعيا ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له : ألست عبد بنى فلان؟ قال بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدَر الله ، وأدائى الأمانة ، وصدق الحديث ،

(١) يقال : فلان حرىّ بكذا ، وحرى بكذا ، وحر بكذا ، وبالحرى أن يكون كذا ؛ أى جدير وخليق .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) عزائم الله : فرائضه التى أوجبها على عباده .

وترك ما لا يعنيني؛ قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال خالد الرَّبَعي : كان نجارا؛ فقال له سيده : اذبح لى شاة وائتنى بأطيبها مُضْغتين؛ فأتاه باللسان والقلب؛ فقال له : ما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له : ألق أخبثها مضغتين؛ فألقى اللسان والقلب؛ فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تُلقى أخبثها فألقيت اللسان والقلب؟! فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

قلت : هـذا معناه مرفوع في غير ما حديث؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلُحت صَلُح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ". وجاء في اللسان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة؛ منها قوله عليـه السلام : " من وقاه الله شر اثنتين وَلَج الجنة : ما بين لَحْيَيْه(١) ورجليه ... " الحديث. وحِكَم لقمان كثيرةٌ مأثورة هذا منها. وقيل له : أيّ الناس شر؟ قال : الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئا .

قلت : وهـذا أيضا مرفوع معنى، قال صلى الله عليـه وسلم : " كلّ أمتي معافى إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يافلان عمِلت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربّه ويصبح يكْشف سِتر الله عنه ". رواه أبو هريرة خرجه البخاري. وقال وهب بن منبّه : قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب. وروى أنه دخل على داود عليـه السلام وهو يَسْرُد الدروع، وقد ليّن الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله، فأدركته الحكمة فسكت؛ فلما أتمها لبسها وقال : نِعم لَبُوسُ الحرب أنتِ. فقال : الصمت حكمة، وقليل فاعله. فقال له داود : بحقّ ما سُمّيت حكيما .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ فيه تقديران : أحدهما أن تكون « أن » بمعنى أى مفسرة؛ أى قلنا له اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها؛ كما حكى سيبويه : كتبت إليه أن قم؛ إلا أن هـذا الوجه عنده بعيد. وقال الزجاج : المعنى ولقد آتينا لقمان

(١) اللحيان : حائطا الفم، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لحى .

الحكمة لأن يشكر الله تعالى . وقيل : أى بأن آشكر لله تعالى فشكر ؛ فكان حكيما بشكره لنا . والشكر لله : طاعته فيما أمر به . وقد مضى القول فى حقيقته لغة ومعنى فى «البقرة»[1] وغيرها. ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأن نفع الثواب عائد إليه . ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أى كفر النعم فلم يوحّد الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن عبادة خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ عند الخلق ؛ أى محمود . وقال يحيى بن سلام : « غَنِيّ » عن خلقه «حَمِيدٌ» فى فعله

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ﴾ قال السُّهَيْلِى : اسم ابنه ثاران؛ فى قول الطبرى والقُتَبِىّ . وقال الكلبى : مشكم . وقيل أنعم ؛ حكاه النقاش . وذكر القشيرى أن ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما .

قلت : ودلّ على هذا قوله : « لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . وفى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال : لما نزلت « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ »[2] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : يا بنىّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ". واختلف فى قوله : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فقيل : إنه من كلام لقمان . وقيل : هو خبر من الله تعالى منقطعا من كلام لقمان متصلا به فى تأكيد المعنى؛ ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لما نزلت : «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» أشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لم يظلم؛ فأنزل الله تعالى: « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »فسكن إشفاقهم، وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبرا من الله تعالى؛ وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد . و « إذ » فى موضع نصب بمعنى اذكر . وقال الزجاج

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩ فما بعد .

فى كتابه فى القرآن : إن « إذ » فى موضع نصب بـ « آتينا » والمعنى : ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال . النحاس : وأحسبه غلطا ؛ لأن فى الكلام واوا تمنع من ذلك . وقال : ﴿ يَا بُنَيِّ ﴾ بكسر الياء ؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة ، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده ؛ وقد مضى فى « هود »(1) القول فى هذا . وقوله : « يابنى » ليس هو على حقيقة التصغير و إن كان على لفظه ، و إنما هو على وجه الترقيق ؛ كما يقال للرجل : يا أُخَىّ ، وللصبى هو كُوَيْس .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

فيــه ثمــانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصيّة لقمان . وقيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ٱبنه ؛ أخبر الله به عنه ؛ أى قال لقمان لابنه : لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك ، فإن الله وصّى بهما فى طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى . وقيل : أى و إذ قال لقمان لابنه ؛ فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه ؛ أى قلنا له ٱشكر لله ، وقلنا له ووصينا الإنسان . وقيل : و إذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وأمرنا الناس بهذا ، وأمر لقمان به ٱبنه ؛ ذكر هذه الأقوال القشيرى . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سعد ابن أبى وقّاص ؛ كما تقدم فى « العنكبوت »(2) وعليه جماعة المفسرين .

(1) فى نسخ الأصل : « يوسف » وهو تحريف . راجع جـ ٩ ص ٣٩ .   (2) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ .

وجملة هـذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى فى ركوب كبيرة ولا فى ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما فى المباحات، ويستحسن فى ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم فى الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أن هـذا أقوى من الندب؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى(١) من الندب. وخالف الحسن فى هذا التفصيل فقال: إن منعته أمه من شهود العِشاء شفقة فلا يطعها.

الثانيـــة — لما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل من أَبَرّ؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أبوك" فجعل له الربع من المَبَرَّة كما فى هذه الآية؛ وقد مضى هذا كله فى «سبحان»(٢).

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أى حملته فى بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة ثم يُضعفها الحمل. وقرأ عيسى الثَّقَفىّ: «وَهَنًا على وَهَن» بفتح الهاء فيهما؛ ورويت عن أبى عمرو، وهما بمعنًى واحد. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هل للعواذل من ناهٍ فَيزْجُرَها * إن العواذل فيها الأَيْنُ والوَهَن

يقال: وَهَن يَهِن، ووَهُن يَوْهَنُ ووَهِن، يَهِن؛ مثل وَرِم يرِم. وانتصب «وَهْنًا» على المصدر؛ ذكره القشيرى. النحاس: على المفعول الثانى بإسقاط حرف الجر؛ أى حملته بضعف على ضعف. وقرأ الجمهور: «وَفِصَالُهُ» وقرأ الحسن ويعقوب: «وفَصْله» وهما لغتان؛ أى وفصاله فى انقضاء عامين؛ والمقصود من الفصال الفطام، فعبّر بغايته ونهايته. ويقال: انفصل عن كذا أى تميّز؛ وبه سُمِّىَ الفَصيل.

(١) لفظة «أقوى» ساقطة من الأصل المطبوع. (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٩.

الرابعـــة — الناس مُجْمِعـون على العامين فى مدة الرضاع فى باب الأحكام والنفقات ، وأما فى تحريم اللبن فحدّدت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص . وقالت فرقة : العامان وما ٱتصل بهما من الشهر ونحـوه إذا كان متصل الرضاع . وقالت فرقة : إن فُطِم الصبيّ قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك فى الحولين لا يحرّم ؛ وقد مضى هذا فى «البقرة»(١) مستوفًى .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي ﴾ « أَن » فى موضع نصب فى قول الزجاج، وأن المعنى : ووصينا الإنسان بوالديه أن ٱشكرلى . النحاس : وأجود منه أن تكون « أن » مفسرة، والمعنى : قلنا له أن ٱشكر لى ولوالديك . قيل : الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية . وقال سفيان بن عُيَيْنة : من صلّى الصـلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه فى أدبار الصلوات فقد شكرهما .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِـعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قد بينا أن هذه الآية والتى قبلها نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص لمّا أسلم، وأن أمّه وهى حَمْنة بنت أبى سفيان بن أميّة حلفت ألّا تأكل؛ كما تقدم فى الآية قبلها .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ نعت لمصدر محـذوف ؛ أى مصاحبا معروفا؛ يقال صاحبته مصاحبة ومصاحَبًا . و« مَعْرُوفًا » أى ما يحسن .

والآية دليـلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المـال إن كانا فقيرين، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق . وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق للنبيّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت : يا رسول الله، إن أمّى قدِمت علىّ وهى راغبة أفأصلها ؟ قال: "نعم" . وراغبة قيل معناه : عن الإسلام . قال ٱبن عطية : والظاهر عندى أنها راغبة فى الصلة ، وما كانت لِتَقْدم على أسماء لولا حاجتها . ووالدة أسماء هى قُتيلة بنت عبد العُزّى بن عبد أسـد . وأم عائشة وعبد الرحمن هى أم رُومان قديمة الإسلام .

(١) راجع ج ٣ ص ١٦٠ .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وصيّة لجميع العالم ؛ كأن المأمور الإنسان. و « أَنَابَ » معناه مال ورجع إلى الشيء؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين . وحكى النقاش أن المأمور سعد، والذى أناب أبو بكر؛ وقال : إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزّبير فقالوا : آمنت ! قال نعم؛ فنزلت فيه : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ »(١) فلمّا سمعها الستة آمنوا؛ فأنزل الله تعالى فيهم : « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى(١) — إلى قوله — أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ » . وقيل : الذى أناب النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : ولما أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عُتبة . ثم توعّد عز وجل ببَعث مَن فى القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها .

قوله تعالى : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾

المعنى : وقال لقمان لابنه يا بُنَيّ . وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى . وهذه الغاية التى أمكنه أن يفهمه، لأن الخردلة يقال : إن الحسّ لا يدرك لها ثِقَلًا ، إذ لا ترجّح ميزانا . أى لو كان للإنسان رزق مثقال حبّة خَرْدَل فى هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هى رزقه ؛ أى لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إلىّ .

قلت : ومن هذا المعنى قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود : "لا تكثر همك ما يُقَدَّر يكون وما تُرْزَق يأتيك". وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ؛ سبحانه لا شريك له . وروى أن ابن لقمان سأل أباه

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٧ فما بعد . وص ٢٤٣ فما بعد .

عن الحبة تقع فى سُفل البحر أيعلمها الله ؟ فراجعه لقمان بهذه الآية . وقيل : المعنى أنه أراد الأعمال ، المعاصى والطاعات ؛ أى إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقالَ حبة يأت بها الله ؛ أى لا تفوت الإنسان المقدّر وقوعُها منه . وبهذا المعنى يتحصل فى الموعظة ترجية وتخويف مضاف [ذلك[1]] إلى تبيين قدرة الله تعالى . وفى القول الأول ليس فيه ترجية ولا تخويف .

قوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أى قدر حبة، وتصلح للأعمال؛ أى ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة . ومما يؤيد قول من قال هى من الجواهر : قراءة عبد الكريم الجَزَرى[2] «فتكِنّ» بكسر الكاف وشدّ النون، من الكنّ الذى هو الشيء المغطى . وقرأ جمهور القرّاء : « إِنْ تَكُ » بالتاء من فوق « مِثْقَالَ » بالنصب على خبر كان ، واسمها مضمر تقديره : مسألتك ، على ما روى ؛ أو المعصية والطاعة على القول الثانى ؛ ويدلّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد كيف يعلمها الله؟ فقال لقمان له : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » الآية . فما زال ابنه يضطرب حتى مات؛ قاله مقاتل . والضمير فى « إِنَّهَا » ضمير القصة؛ كقولك : إنها هند قائمة ؛ أى القصة إنها إن تك مثقال حبة . والبصريون يجيزون : إنها زيد ضربته؛ بمعنى إن القصة . والكوفيون لا يجيزون هذا إلا فى المؤنث كما ذكرنا . وقرأ نافع : « مِثقالُ » بالرفع، وعلى هذا « تكُ » يرجع إلى معنى خردلة؛ أى إن تك حبة من خردل . وقيل : أسند إلى المثقال فعلا فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه؛ لأن مثقال الحبة من الخردل إما سيئة أو حسنة؛ كما قال : « فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا[3] » فأنث وإن كان المثل مذكرا؛ لأنه أراد الحسنات . وهذا كقول الشاعر :

مَشَيْنَ كما اهتزت رِماحٌ تسفّهتْ * أعالِيَها مَرُّ الرياح النّواسِمِ[4]

و « تَكُ » هاهنا بمعنى تقع فلا تقتضى خبرا .

(١) زيادة عن ابن عطية . (٢) فى جـ : « الجوزى » . (٣) فى جـ : « الجوزى » . راجع جـ ٧ ص ١٥٠ . (٤) البيت لذى الرمة . و «تسفهت» : استخفت، والسفه خفة العقل وضعفه . و « النواسم » : الضعيفة الهبوب . وصف نساء فيقول : إذا مشين اهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت .

قوله تعالى : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ قيل : معنى الكلام المبالغة والانتهاء فى التفهيم؛ أى أن قدرته تعالى تنال ما يكون فى تضاعيف صخرة وما يكون فى السماء والأرض . وقال ابن عباس : الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض . وقيل : هى الصخرة على ظهر الحوت . وقال السُّدّى : هى صخرة ليست فى السموات والأرض، بل هى وراء سبع أَرَضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال : ﴿ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وفيهما غُنْيَة عن قوله : « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ »؛ وهـذا الذى قاله ممكن، ويمكن أن يقال : قوله : « فَتَكُنْ فِي صَخْـرَةٍ » تأكيد؛ كقوله : « اقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ »[1]، وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا »[2] .

قوله تعالى : يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ وصّى ٱبنـه بعُظْم الطاعات وهى الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو فى نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هى الطاعات والفضائل أجمع . ولقد أحسن من قال :

وٱبدأ بنفسك فٱنهها عن غَيّها * فإذا ٱنتهت عنـه فأنت حكيم

فى أبيات تقدّم فى « البقرة » ذكرُها[3] .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ يقتضى حضًّا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر؛ فهو إشعار بأن المغيِّر يؤذَى أحيانا؛ وهـذا القدر على جهة الندب والقوّة فى ذات الله؛ وأما على اللزوم فلا، وقد مضى الكلام فى هـذا مستوفًى فى « آل عمـران والمـائدة »[4] . وقيل : أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل؛ وهذا قول حسن لأنه يعمّ .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١١٧ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٤ .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٦٧ . (٤) راجع جـ ٤ ص ٤٧، وجـ ٦ ص ٢٤٣ .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ قال ابن عباس : من حقيقة الإيمـان الصبرُ على المكاره . وقيل : إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من عزم الأمور ؛ أى مما عزمه الله وأمر به ؛ قاله ابن جريج . ويحتمـل إن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة . وقول ابن جريج أصوب .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى وابن مُحَيْصن : « تصاعر » بالألف بعد الصاد . وقـرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد : « تُصَعِّر » وقـرأ الجحدرى : « تُصْعِر » بسكون الصاد؛ والمعنى متقارب . والصَّعَر : الميل؛ ومنه قول الأعرابى : وقد أقام الدهر صعرى ، بعد أن أقمت صعره . ومنه قول عمرو بن حُنَىّ التغلبى :

وكنا إذا الجبّار صَعَّر خدّه * أقمنا له من مَيْـله فتقوَّمِ (١)

وأنشده الطبرى : « فتقوّمَا » (٢) . قال ابن عطية : وهو خطأ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة . وفى بيت آخر :

* أقمنـا له من خدّه المتصـعر *

قال الهروى : « ولا تصاعر » أى لا تعرض عنهم تكبّرا عليهم ؛ يقال : أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَد إذ أصابه داء يَلْوِى منه عنقه . ثم يقال للمتكبّر : فيه صَعَر وصَيَد؛ فمعنى : « لَا تُصَعِّرْ » أى لا تلزم خدّك الصَّعَر . وفى الحديث : " يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر "

---

(١) يريد : فتقوم أنت . (٢) قبل هذا البيت كما فى معجم الشعراء للمرزبانى :

نعاطى الملوك الحق ما قصدوا بنـا * وليس علينـا قتلهم بمحــرم

قال المرزبانى : وهذا البيت — بيت الشاهد — يروى من قصيدة المتلمس التى أولها :

يعــيرنى أمى رجال ولن ترى * أخا كــرم إلا بأن يتــكرما

والأصعر : المعرض بوجهه كبرا، وأراد رُذالة الناس الذين لا دين لهم . وفى الحديث : "كلّ صعّار ملعونٌ" أى كل ذى أُبّهة وكبر .

الثانيــة ــ معنى الآية : ولا تُمِل خدّك للناس كبرا عليهم و إعجابا واحتقارا لهم . وهذا تأويل ابن عباس وجماعة . وقيل : هو أن تلوِى شِدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره ؛ فالمعنى : أقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا ، و إذا حدّثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه . وكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل .

قلت : ومن هذا المعنى (١) ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث" . فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه . وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك؛ وكذلك يصنع هو بك . ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسرّه و يسرّك ؛ فمعنى التدابر موجود فيمن صعّر خده، و به فسر مجاهد الآية . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : قوله : « وَلَا تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ » كأنه نهى أن يذلّ الإنسان نفسه من غير حاجة ؛ ونحو ذلك روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس للإنسان أن يذلّ نفسه" .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى متبخترا متكبرا، مصدر فى موضع الحال، وقد مضى فى « سبحان » (٢) . وهو النشاط والمشى فرحا فى غير شغل وفى غير حاجة . وأهل هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء؛ فالمرِح مختال فى مشيته . روى يحيى ابن جابر الطائى عن ابن عائذ الأزدى عن غُضيف بن الحارث قال : أتيت بيت المقدس أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير (٣) قال : فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاصى فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يابن آدم ما غرّك بى ! ألم تعلم أنى بيت الوحدة ! ألم تعلم أنى بيت الظلمة ! ألم تعلم أنى بيت الحق ! يابن آدم ما غرّك بى ! لقد كنت تمشى حولى

(١) فى جـ « ومن هذا الباب » . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٠ . (٣) ورد هذا الاسم مضطربا فى نسخ الأصل . والتصويب عن تهذيب التهذيب .

فَدادا . قال ابن عائذ قلت لغُضيف : ما الفدّاد يا أبا أسماء ؟ قال : كبعض مِشيتك يابن أخي أحيانا . قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال كثير وذا خُيلاء . وقال صلى الله عليه وسلم : " من جرّ ثوبه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة". والفخور : هو الذي يعدد ما أعطي ولا يشكر الله تعالى؛ قاله مجاهد . وفي اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك .

قوله تعـالى : وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ج إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ لمـا نهاه عن الخُـلُق الذميم رسم له الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال : « وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ » أي توسّط فيه . والقصد : ما بين الإسراع والبطء؛ أي لا تَدِبّ دبيب المُتَمَاوتين ولا تَثب وثب الشطار؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن " . فأما ما روى عنه عليه السلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما : كان إذا مشى أسرع ــ فإنمـا أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت ؛ والله أعلم . وقد مدح الله سبحانه مَن هذه صفته حسبما تقدّم بيانه في « الفرقان »(١) .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أي انقص منه؛ أي لا تتكلف رفع الصوت وخذ منـه ما تحتاج إليه ؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي . والمراد بذلك كله التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذّن تكلّف رفع الأذان بأكثر من طاقته : لقد خشيت أن ينشق مُرَيْطَاؤك ! والمؤذّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر(٢) . والمُرَيْطاء : ما بين السرة إلى العانة .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ أي أقبحها وأوحشها؛ ومنه أتانا بوجه منكر . والحمار مَثَل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقه؛ ومن استفحاشهم

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٨ .　(٢) في الأصول : « معمر » بالميم بدل الياء وهو تحريف .

لذكره مجردا أنهـم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون : الطويل الأذنين ؛ كما يكنى عن الأشـياء المستقذرة . وقـد عُدَّ فى مساوئ الآداب أن يجرى ذكر الحمـار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منـه الرُّجْلة (١) . وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعا وتذللا لله تبارك وتعالى .

الرابعـــة — فى الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت فى المخاطبة والمُلاحاة (٢) بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عاليـة . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا" . وقد روى : أنه (٣) ماصاح حمار ولا نبح كلب إلا أن يرى شيطانا . وقال سفيان الثَّوْرِى : صياح كل شىء تسبيح إلا نهيق الحمير . وقال عطاء : نهيق الحمير دعاء على الظلمة .

الخامســـة — وهذه (٤) الآية أدب من الله تعـالى بترك الصياح فى وجوه النـاس تهاونا (٥) بهم ، أو بترك الصياح جمـلة ؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغير ذلك ، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، حتى قال شاعرهم :

جَهِـير الكلام جهـير العُطاس * جهِـير الرُّواء (٦) جـهير النَّعَـم
ويَعْـدُو على الأَيْنَ (٧) عَدْوَى الظَّلِيم * ويعـلو الرجال بخَـلْق عَمَـم

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله : « إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » أى لو أن شيئا يهاب لصوته لكان الحمار ؛ فجعلهم فى المثل سواء .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ اللام للتأكيد، ووحد الصوت وإن كان مضافا إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة ، وهو مصدر صات يَصُوت صَوْتا فهو صائت . ويقال : صوّت تصويتا فهو مصوِّت . ورجل صاتٌ أى شـديد الصوت بمعنى صائت ؛ كقولهم : رجل مالٌ ونالٌ ؛ أى كثير المـال والنوال .

(١) الرجلة (بضم فسكون) : المشى راجلا . (٢) الملاحاة : الملاومة والمباغضة .
(٣) لفظة «أنه» ساقطة من جـ . (٤) فى ك : «وفى هذه الآية إذن من الله تعالى بترك الصوت والصياح» .
(٥) فى جـ : «تهازيا» . (٦) الرواء (بالضم والمد) : المنظر الحسن . والنعم : الإبل .
(٧) الأين : الإعياء . والخلق العمم : التام .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعمه على بنى آدم، وأنه سخر لهم «مَا فِي السَّمَوَاتِ» من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم . «وَمَا فِي الْأَرْضِ» عام فى الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى . ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ أى أكملها وأتمها . وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة : «وَأَصْبَغَ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سُفْلها إلى عُلوها فتردّها صادا . والنِّعَم : جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر (بفتح الدال) وهى قراءة نافع وأبى عمرو وحفص . الباقون : « نِعمةً » على الإفراد، والإفراد يدلّ على الكثرة ؛ كقوله تعـالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »(1) . وهى قراءة ابن عبـاس من وجوه صحاح . وقيل : إن معناها الإسلام ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : " الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنة ما ستر عليك من سيّئ عملك ". النحاس : وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال فى قول الله عز وجل : «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ»(2) قال : يدخلكم الجنة . وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة ، فكذا لـمّا كان الإسلام يئول أمره إلى الجنة سُمّى نعمة . وقيـل : الظاهرة الصحة وكمال الخلق ، والباطنة المعرفة والعقل . وقال المحاسبى : الظاهرة نعم الدنيا ، والبـاطنة نعم العُقْبى . وقيـل : الظاهرة ما يرى بالأبصار من المـال والجاه والجمال فى النـاس وتوفيق الطاعات ، والبـاطنة ما يجده المـرء فى نفسه من العلم بالله

(1) راجع جـ ٩ ص ٣٦٦ فما بعد .
(2) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فما بعد .

وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات . وقد سرد المـاوَرْدىّ فى هذا أقوالا تسعة ، كلها ترجع إلى هذا .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تقدّم معناها فى « الحج »(١) وغيرها . نزلت فى يهودىّ جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقـال : يا محمد ، أخبرنى عن ربك، من أىّ شىء هو ؟ فجاءت صاعقة فأخذته؛ قاله مجاهد . وقد مضى هذا فى « الرعد »(٢) . وقيل : إنهـا نزلت فى النضر بن الحارث ، كان يقول : إن الملائكة بنـات الله؛ قاله ابن عباس . ﴿ يُجَـادِلُ ﴾ يخاصم ﴿ بِغَـيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى بغير حجـة ﴿ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أى نيّر بيّن؛ إلا الشيطان فيما يلقى إليهم . « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَـائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ »(٣) وإلا تقليد الأسلاف كما فى الآية بعدُ . ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ يتبعونه .

قوله تعـالى : وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع؛ نظيره : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَـاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ »(٤) . وفى حديث جبريل قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ قال ابن عباس : لا إله إلا الله؛ وقد مضى فى « البقـرة »(٥) . وقد قرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه والسُّلَمِى وعبد الله بن مسلم بن يسار : « وَمَنْ يُسَلِّمْ » . النحاس : و « يسلّم » فى هذا أعرف؛ كما قال عز وجل : « فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ »(٦) ومعنى: « أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » قصدت بعبـادتى إلى الله عز وجل؛ ويكون « يسلّم » على التكثير ؛ إلا أن المستعمل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٥ و ١٥ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٩٨ . (٣) راجع جـ ٧ ص ٧٧ .
(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٤٨ فما بعد . (٥) راجع جـ ٣ ص ٢٧٩ . (٦) راجع جـ ٤ ص ٤٥ .

فى سـلّمت أنه بمعنى دفعت ؛ يقال سلمت فى الحنطة ، وقد يقال أسـلمت . الزمخشرى : قرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : « وَمَنْ يُسَلِّمْ » بالتشديد ؛ يقال : أسلم أمرك وسلّم أمرك إلى الله تعـالى ؛ فإن قلت : ماله عُدّى بإلى ، وقد عدّى باللام فى قوله عز وجل : « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ »[1] ؟ قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله ؛ أى خالصا له . ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه . والمراد التوكل عليه والتفويض إليه . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ أى مصيرها .

قوله تعـالى : وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى نجازيهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ . ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى نبقيهم فى الدنيا مدّة قليلة يتمتعون بها . ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أى نلجئهم ونسـوقهم . ﴿ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وهو عذاب جهنم . ولفظ « مَن » يصلح للواحد والجمع ، فلهـذا قال : « كُفْرُهُ » ثم قال : « مَرْجِعُهُمْ » وما بعده على المعنى .

قوله تعـالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى هم يعترفون بأن الله خالقهن فلم يعبدون غيره . ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى على ما هدانا له من دينه ، وليس الحمـد لغيره . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا ينظـرون ولا يتـدبّرون . ﴿ لِلَّهِ

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٤ فما بعد .

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وخلقا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أى الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، وإنما أمرهم لينفعهم . ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ أى المحمود على صنعه .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

لما احتجّ على المشركين بما احتجّ بيّن أن معانى كلامه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهاية لها. وقال القفّال : لما ذكر أنه سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأنه أسبغ النعم نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاما، والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب . قال القُشَيْرِى : فردّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أَوْلى ؛ والمخلوق لا بدّ له من نهاية ، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفى النهاية عما يقدّر فى المستقبل على إيجاده، فأما ما حصره الوجود وعدّه فلابدّ من تناهيه، والقديمُ لا نهاية له على التحقيق . وقد مضى الكلام فى معنى «كَلِمَاتُ اللَّهِ» فى آخر « الكهف »(١) . وقال أبو علىّ : المراد بالكلمات والله أعلم ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود . وهذا نحو مما قاله القفّال، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معانى كلمات الله وهى فى نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور . ومعنى نزول الآية : يدلّ على أن المراد بالكلمات الكلام القديم . قال ابن عباس : إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت : يا محمد ، كيف عُنينا بهذا القول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »(٢) ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان كل شيء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "التوراة قليل من كثير" ونزلت هذه الآية ، والآية مدنية . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبيّن أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه عز وجل علم قبل أن

(١) راجع جـ ١١ ص ٦٨ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٤ .

يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من كل شىء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذرّ؛ وعلم الأجناس كلّها وما فيها من شعرة وعضو ، وما فى الشجرة من ورقة ، وما فيها من ضروب الخلق ، وما يتصرف فيـه من ضروب الطّعم واللون ؛ فلو سَمّى كل دابة وحدها ، وسَمّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحولت عليه من الأحوال، وما زاد فيها فى كل زمان ، وبيّن كلّ شجرة وحدها وما تفرّعت إليه ، وقدّر ما ييبس من ذلك فى كل زمان ، ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها، ثم كان البحر مدادا لذلك البيان الذى بيّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر .

قلت : هذا معنى قول القفال ، وهو قول حسن إن شاء الله تعـالى . وقال قوم : إن قريشا قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر ؛ فنزلت . وقال السدّى : قالت قريش ما أكثر كلام محمد ! فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء ، وخبره فى الجملة التى بعدها ، والجمـلة فى موضع الحال ؛ كأنه قال : والبحر هـذه حاله ؛ كذا قدّرها سيبويه . وقال بعض النحويين : هو عطف على « أنّ » لأنها فى موضع رفع بالابتداء . وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحاق: «وَالْبَحْرَ» بالنصب على العطف على « ما » وهى اسم « أنّ » . وقيل : أى ولو أن البحر يمدّه أى يزيد فيه . وقرأ ابن هُرْمُز والحسن : « يُمِدّه » ؛ من أمدّ . قالت فرقة : هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة : مدّ الشيء بعضه بعضا؛ كما تقول : مدّ النيل الخليج؛ أى زاد فيه . وأمدّ الشيء ماليس منه . وقد مضى هذا فى « البقرة . وآل عمران [(١)] » . وقرأ جعفر بن محمد: « والبحر مداده » . ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ تقدم [(٢)] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم أيضا [(٣)] . وقال أبو عبيدة : البحر ها هنا المـاء العذب الذى ينبت الأقلام ، وأما المـاء الملح فلا ينبت الأقلام .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ وجـ ٤ ص ١٩٤ فما بعد .　　(٢) راجع جـ ١١ ص ٦٨ .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣١ .

قوله تعالى : مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال الضحاك : المعنى ما ابتداء خلقكم جميعا إلا كخلق نفس واحدة، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة . قال النحاس : وهكذا قدّره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة؛ مثل : «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ»[(1)] . وقال مجاهد : لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون . ونزلت الآية في أُبَيّ بن خلف وأبي الأسدين[(2)] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق ، قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد خلقنا أطوارا ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عِظاما ، ثم تقول إنا نُبعث خَلْقًا جديدا جميعا في ساعة واحدة ! فأنزل الله تعالى: «مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»؛ لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لما يقولون ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بما يفعلون .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدم في «الحج وآل عمران»[(3)] . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديرا للآجال وإتماما للمنافع . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قال الحسن : إلى يوم القيامة . قتادة :

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد . (٢) كذا في نسخ الأصل . وفي روح المعاني : « وأبي الأسود » .
(٣) في الأصل : « الحج والأنعام » وهو تحريف . راجع جـ ١٢ ص ٩٠ وجـ ٤ ص ٥٦ .

إلى وقته فى طلوعه وأفوله لا يعدوه ولا يقصر عنه . ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى من قدر على هذه الأشياء فلا بدّ من أن يكون عالما بها، والعالم بها عالم بأعمالكم . وقراءة العامة « تَعْمَلُونَ » بالتاء على الخطاب . وقرأ السُّلَمِيّ ونصر بن عاصم والدُّورِيّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر . ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقرّوا ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى الشيطان ؛ قاله مجاهد . وقيل : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ العليّ فى مكانته ، الكبير فى سلطانه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ ﴾ أى السفن ﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضع الخبر . ﴿ فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ ﴾ أى بلطفه بكم و برحمته لكم فى خلاصكم منه . وقرأ ابن هُرمُز : «بنعمات الله» جمع نعمة وهو جمع السلامة، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت . ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ « مِنْ» للتبعيض، أى ليريكم جرى السفن ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال ابن شجرة : «مِنْ آيَاتِهِ» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه . النقاش : ما يرزقهم الله منه . وقال الحسن : مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدّعاء . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى صبّار لقضائه شكور على نعمائه . وقال أهل المعانى : أراد لكل مؤمن بهذه الصفة ؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان . والآية : العلامة، والعلامة لاتستبين فى صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء . قال الشَّعْبِيّ : الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله؛ ألم تر إلى قوله تعالى : « إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » وقوله : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ »[1] وقال عليه السلام : "الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر" .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٩ .

قوله تعالى : وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ قال مقاتل : كالجبال . وقال الكلبي : كالسحاب ؛ وقاله قتادة — جمع ظُلّة ؛ شبّه الموج بها لكبرها وارتفاعها . قال النابغة في وصف بحر :

يماشيهن أخضر ذو ظلال * على حافاته فِلَق الدِّنان

وإنما شبّه الموج وهو واحد بالظل وهو جمع ؛ لأن الموج يأتي شيئا بعد شيء ويركب بعضه بعضا كالظلل . وقيل : هو بمعنى الجمع ، وإنما لم يجمع لأنه مصدر . وأصله من الحركة والازدحام ؛ ومنه : ماج البحر ، والناس يموجون . قال كعب :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه * أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد بن الحنفية : « مَوْجٌ كالظِّلال » جمع ظِلّ . ﴿ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ موحّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه ؛ وقد تقدّم (1) . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾ يعني من البحر . ﴿ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ قال ابن عباس : مُوفٍ بما عاهد عليه الله في البحر . النقاش : يعني عدل في العهد ، وفَى في البر بما عاهد عليه الله في البحر . وقال الحسن : «مُقْتَصِدٌ» مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : « مُقْتَصِدٌ » في القول مضمر للكفر . وقيل : في الكلام حذف ؛ والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر . ودلّ على المحذوف قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ الختار : الغدار . والختْر : أسوأ الغدر . قال عمرو بن معديكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير * ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى :

بالأبلق الفَرْدِ من تَيْماء منزلُهُ * حِصنٌ حَصِين وجارٌ غيرُ خَتّار

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ .

قال الجوهري : الختر الغدر ؛ يقال : ختره فهو ختار . الماوردي : وهو قول الجمهور . وقال عطية : إنه الجاحد . ويقال : ختر يختِر ويختُر (بالضم والكسر) خترا؛ ذكره القُشيري. وجحْد الآيات إنكار أعيانها . والجحد بالآيات إنكار دلائلها .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ يعني الكافر والمؤمن ؛ أي خافوه ووحّدوه . ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ تقدم معنى « يَجزي » في البقرة[(١)] وغيرها . فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث[(٢)] لم تمسّه النار إلا تحِلّة القسم". وقال : "من ابتلى بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كنّ له حجابا من النار" . قيل له : المعنيّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنب ولده ، ولا مولود ذنب والده ، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر . والمعنيّ بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار ، ويكون الولد سابقا له إلى الجنة . ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ﴾ أي تخدعنكم ﴿ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة[(٣)] والحديد[(٤)] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره، وهو الذي يغرّ الخلق ويمنّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة ؛ وفي سورة «النساء»[(٥)] : «يَعِدُهم ويُمنّيهم» . وقرأ سِماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْقَع بضم الغين ؛ أي لا تغترّوا . كأنه مصدر غرّ يغر غُرورا . قال سعيد بن جُبير : هو أن يعمل بالمعصية ويتمنى المغفرة .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٧ . (٢) أي لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجرى عليهم القلم فيكتب عليهم الحنث ؛ وهو الإثم . (٣) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٧ .
(٥) راجع جـ ٥ ص ٣٩٥ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

زعم الفراء أن هذا معنى النفى ؛ أى ما يعلمه أحد إلا الله تعالى . قال أبو جعفر النحاس : وإنما صار فيه معنى النفى والإيجاب بتوقيف الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل « وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ » : " إنها هذه " :

قلت : قد ذكرنا فى سورة «الأنعام»[(١)] حديث ابن عمر فى هذا ، خرجه البخارى . وفى حديث جبريل عليه السلام قال : " أخبرنى عن الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا " قال : " صدقت " . لفظ أبى داود الطيالسى . وقال عبد الله بن مسعود : كل شىء أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم غير خمس : « إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ، الآية إلى آخرها . وقال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل ؛ فمن ادعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه خالفه . ثم إن الأنبياء يعلمون كثيرا من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم . والمراد إبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقى بالأنواء[(٢)] وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك ؛ حسبما تقدم ذكره فى الأنعام[(١)] . وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده . وروى أن يهوديا كان يحسب حساب النجوم ، فقال لابن عباس : إن شئت نبأتك نجم ابنك ، وأنه يموت بعد عشرة أيام ،

(١) راجع جـ ٧ ص ١ و ص ٢ فما بعد . (٢) الأنواء : جمع نوء ، وهو سقوط نجم فى المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله فى ساعته . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها .

وأنت لا تمـوت حتى تعمى ، وأنا لا يحـول علىّ الحول حتى أموت . قال : فأين موتك يا يهودىّ؟ فقال : لا أدرى . فقال ابن عباس : صدق الله . «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُـوتُ » فرجع ابن عباس فوجد ابنه محموما ، ومات بعد عشرة أيام . ومات اليهودىّ قبل الحول ، ومات ابن عباس أعمى . قال علىّ بن الحسين راوى هذا الحديث : هـذا أعجب الأحاديث . وقال مقاتل : إن هـذه الآية نزلت فى رجل من أهـل البادية اسمـه الوارث ابن عمرو بن حارثة ، أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى حبلى فأخبرنى ماذا تلد ، وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ، وقد علمتُ متى وُلدت فأخبرنى متى أموت ، وقـد علمت ما عملت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غدا ، وأخبرنى متى تقوم الساعة ؟ فأنزل الله تعالى هـذه الآية؛ ذكره القُشَيْرِى والمـاوَرْدىّ . وروى أبو المَلِيح عن أبى عَزّة الهُـذلِىّ قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يَقْدَمَها — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — «إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ — إلى قوله — بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُـوتُ » ذكره المـاوردىّ ، وخرّجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بمعناه . وقد ذكرناه فى كتاب (التذكرة) مستوفًى . وقراءة العامة : «وَيُنَزِّلُ» مشدّدا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمـزة والكسائى مخففا . وقـرأ أُبَىّ بن كَعْب : « بِأَيَّةِ أَرْضٍ » الباقون «بِأَيِّ أَرْضٍ» . قال الفراء : اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أىّ . وقيل : أراد بالأرض المكان فذكّر . قال الشاعر :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها * ولا أرضَ أبقَل إبقالَهـا (١)

وقال الأخفش : يجوز مررت بجارية أىّ جارية ، وأيّة جارية . وشبه سيبويه تأنيث «أىّ» بتأنيث كُلّ فى قولهم : كُلَّتُهُنّ . ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ﴾ « خَبِيرٌ » نعت لـ « عليم » أو خبر بعد خبر . والله تعالى أعلم .

(١) القائل هو عامر بن جوين الطائى . وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بها من الغيث . والمزنة : السحابة . والودق : المطر .

تفسير سورة السجدة

وهى مكية ، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة ؛ وهى قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » تمام ثلاث آيات ؛ قاله الكلبيّ ومقاتل . وقال غيرهما : إلا خمس آيات ، من قوله تعالى : « تَتَجَافَى[1] جُنُوبُهُمْ — إلى قوله — الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » . وهى ثلاثون آية . وقيل تسع وعشرون . وفى الصحيح عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » السجدة، و « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » الحديث . وخرج الدارميّ أبو محمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ : « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » السجدة ، و « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ » . قال الدارميّ : وأخبرنا أبو المغيرة قال حدثنا عبدة عن خالد بن مَعْدَان قال : اقرءوا المنجية، وهى « الٓمٓ . تَنْزِيلُ » فإنه بلغنى أن رجلا كان يقرؤها ، مايقرأ شيئا غيرها ، وكان كثير الخطايا ؛ فنشرت جناحها عليه وقالت : ربّ اغفر له فإنه كان يُكثر من قراءتى ؛ فشفّعها الربّ فيه وقال : "اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وآرفعوا له درجة" .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ الإجماع على رفع « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » ولو كان منصوبا على المصدر لجاز ؛ كما قرأ الكوفيون : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ[1] » . و « تَنْزِيلُ » رفع بالابتداء والخبر ﴿ لَارَيْبَ فِيهِ ﴾ . أو خبر على إضمار مبتدأ؛ أى هذا تنزيل، أو المتلو تنزيل، أو هذه الحروف تنزيل . ودلّت : « الٓمٓ »

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣ فما بعد .

على ذكر الحروف . ويجوز أن يكون « لَا رَيْبَ فِيهِ » فى موضع الحال من « الْكِتَابِ » . و ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الخبر . قال مكىّ : وهو أحسنها . ومعنى : « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » لاشك فيه أنه من عند الله؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأوّلين .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ هذه «أَمْ» المنقطعة التى تقدّر ببل وألف الاستفهام؛ أى بل أيقولون . وهى تدلّ على خروج من حديث إلى حديث؛ فإنه عز وجلّ أثبت أنه تنزيل من رب العالمين، وأن ذلك مما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى افتعله واختلقه . ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ كذّبهم فى دعوى الافتراء . ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا ﴾ قال قتادة : يعنى قريشا، كانوا أمّة أميّة لم يأتهم نذير من قبل محمد صلى الله عليه وسلم . و « لِتُنْذِرَ » متعلق بما قبلها فلا يوقف على « مِنْ رَبِّكَ » . ويجوز أن يتعلق بمحذوف؛ التقدير: أنزله لتنذر قوما، فيجوز الوقف على « مِنْ رَبِّكَ » . و « ما » فى قوله : ﴿ مَا أَتَاهُمْ ﴾ نفى . ﴿ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ صلة . و « نَذِيرٍ » فى محل الرفع، وهو المُعْلِم المُخَوِّف . وقيل : المراد بالقوم أهل الفَترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل . وقيل : كانت الحجة ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدّم من الرسل وإن لم يروا رسولا ؛ وقد تقدّم هذا المعنى[(1)] .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

---

(١) راجع ج ٦ ص ١٢١ .

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ عرّفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن و يتأملوه . ومعنى : « خَلَقَ » أبدع وأوجد بعد العدم و بعد أن لم تكن شيئا . ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة . قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقداره ألف سنة من سِنِي الدنيا . وقال الضحاك : في ستة آلاف سنة ؛ أي في مدّة ستة أيام من أيام الآخرة . ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم في الأعراف والبقرة وغيرهما(١)، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفى في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) . وليست « ثُمَّ » للترتيب وإنما هي بمعنى الواو . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي ما للكافرين من وليّ يمنع من عذابهم ولا شفيع . ويجوز الرفع على الموضع . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ في قدرته ومخلوقاته .

قوله تعالى : يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : ينزل القضاءَ والقدر . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل . وروى عمرو بن مرّة عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبّر أمر الدنيا أربعة : جبريل ، وميكائيل، وملَك الموت ، وإسرافيل ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . فأما جبريل فموكّل بالرياح والجنود . وأما ميكائيل فموكّل بالقطر والماء . وأما مَلَك الموت فموكّل بقبض الأرواح . وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم . وقد قيل : إن العرش موضع التدبير؛ كما أن مادون العرش موضع التفصيل؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ »(٢) . وما دون السموات موضع التصريف؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا »(٣) .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وجـ ١ ص ٢٥٤ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٥٧ .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ قال يحيى بن سلام : هو جبريل يصعد إلى السماء بعد نزوله بالوحى . النقاش : هو الملك الذى يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض . وقيل : إنها أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع حملتها من الملائكة ؛ قاله ابن شجرة . ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ . وقيل : « ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ » أى يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » وهو يوم القيامة . وعلى الأقوال المتقدمة فالكناية فى « يَعْرُجُ » كناية عن الملك، ولم يجر له ذكر لأنه مفهوم من المعنى، وقد جاء صريحا فى « سَأَلَ سَائِلٌ » قوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ[(1)] إِلَيْهِ » . والضمير فى ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود على السماء على لغة من يذكّرها، أو على مكان الملك الذى يرجع إليه، أو على اسم الله تعالى؛ والمراد إلى الموضع الذى أقره فيه، وإذا رجعت إلى الله فقد رجعت إلى السماء، أى إلى سدرة المنتهى؛ فإنه إليها يرتفع ما يصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها؛ ثبت معنى ذلك فى صحيح مسلم . والهاء فى « مِقْدَارُهُ » راجعة إلى التدبير، والمعنى : كان مقدار ذلك التدبير ألف سنة من سِنِي الدنيا ؛ أى يقضى أمر كل شىء لألف سنة فى يوم واحد ، ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى ، ثم كذلك أبدا ؛ قاله مجاهد . وقيل : الهاء للعروج . وقيل : المعنى أنه يدبّر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه فى يوم كان مقداره ألف سنة . وقيل : المعنى يدبر أمر الشمس فى طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع ، فى يوم كان مقداره فى المسافة ألف سنة . وقال ابن عباس : المعنى كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ؛ لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة . وروى ذلك عن جماعة من المفسرين ، وهو اختيار الطبرى ؛ ذكره المهدوى . وهو معنى القول الأول. أى أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة فى يوم من أيامكم ؛ ذكره الزمخشرى . وذكر الماوردى عن ابن عباس والضحاك أن الملك يصعد فى يوم مسيرة ألف سنة . وعن قتادة أن الملك ينزل ويصعد فى يوم مقداره ألف سنة ؛ فيكون مقدار

(1) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٨ .

نزوله خمسمائة سنة، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدّى . وعلى قول ابن عباس والضحاك : النزول ألف سنة، والصعود ألف سنة . ﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى مما تحسبون من أيام الدنيا . وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سِنِي العالَم ، وليس بيوم يستوعب نهارا بين ليلتين ؛ لأن ذلك ليس عند الله . والعرب قد تعبّر عن مـدّة العصر باليوم ؛ كما قال الشاعر :

يومان يومُ مُقامات وأندية * ويومُ سير إلى الأعداء تأويب (١)

وليس يريد يومين مخصوصين ، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم . وقرأ ابن أبى عبلة : « يُعْرَجُ » على البناء للفعول . وقرئ : « يَعُدُّونَ » بالياء . فأما قوله تعالى : « فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » فمشكل مع هذه الآية . وقد سأل عبد الله بن فيروز الدّيلمى عبدَ الله بن عباس عن هذه الآية وعن قوله : « فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » فقال : أيام سمّاها سبحانه، وما أدرى ما هى ؟ فأكره أن أقول فيها مالا أعلم . ثم سئل عنها سعيد بن المسيّب فقال : لا أدرى . فأخبرته بقول ابن عباس فقال ابن المسيّب للسائل : هـذا ابن عباس اتّقى أن يقول فيها وهو أعلم منى . ثم تكلم العلماء فى ذلك فقيل : إن آية « سَأَلَ سَائِلٌ » هو إشارة إلى يوم القيامة، بخلاف هذه الآية . والمعنى : أن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة ؛ قاله ابن عباس . والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر . قال :

ويوم كظل الرمح قصّر طوله * دَمُ الزّق عنّا واصطفاقُ المزاهر

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : أوقات القيامة مختلفة، فيعـذّب الكافر بجنس من العذاب ألف سـنة ، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدّته خمسون ألف سنة . وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفا ، كلّ موقف ألف سنة . فمعنى : « يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَـنَةٍ » أى مقدار

(١) البيت لسلامة بن جندل . والتأويب فى كلام العرب : سير النهار كله إلى الليل . يقال : أوّب القوم تأويبا أى ساروا بالنهار .

وقت ، أو موقف من يوم القيامة . وقال النحاس : اليوم فى اللغة بمعنى الوقت ؛ فالمعنى : تعرج الملائكة والروح إليه فى وقت كان مقداره ألف سنة ، وفى وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة . وعن وهب بن منبّه « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » قال : ما بين أسفل الأرض إلى العرش . وذكر الثعلبيّ عن مجاهد وقتادة والضحاك فى قوله تعالى : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »(١) أراد من الأرض إلى سدرة المنتهى التى فيها جبريل . يقول تعالى : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة فى يوم واحد من أيام الدنيا . وقوله : ﴿إِلَيْهِ﴾ يعنى إلى المكان الذى أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه . وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ »(٢) أراد أرض الشام . وقال تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ »(٣) أى إلى المدينة . وقال أبو هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أتانى ملك من ربى عز وجل برسالة ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء والأخرى على الأرض لم يرفعها بعد " .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى علم ما غاب عن الخلق وما حضرهم . و « ذَٰلِكَ » بمعنى أنا ، حسبما تقدّم بيانه فى أوّل البقرة(٤) . وفى الكلام معنى التهديد والوعيد؛ أى أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإنى أجازى عليها .

قوله تعالى : ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(١) راجع ص ٨٧ و ٨٨ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٩٨ .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٤٧ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٥٧ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « خَلْقَهُ » بإسكان اللام . وفتحها الباقون . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلبا لسهولتها . وهو فعل ماض فى موضع خفض نعت لـ « شىء » . والمعنى على ما روى عن ابن عباس : أحكم كلّ شىء خلقه ، أى جاء به على ما أراد ، لم يتغيّر عن إرادته . وقول آخر — أن كل شىء خلقه حسن ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتى بمثله ؛ وهو دالّ على خالقه . ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه ؛ لأن قوله : « أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ » يدلّ على : خَلَقَ كلّ شىء خَلْقًا ؛ فهو مثل : « صُنْعَ اللَّهِ »(١) و « كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ »(٢) . وعند غيره منصوب على البدل من « كلّ » أى الذى أحسن خلق كل شىء . وهو مفعول ثان عند بعض النحويين ، على أن يكون معنى : « أَحْسَنَ » أفهم وأعلم ؛ فيتعدّى إلى مفعولين ، أى أفهم كل شى خلقه . وقيل : هو منصوب على التفسير ؛ والمعنى : أحسن كل شىء خلقا . وقيل : هو منصوب بإسقاط حرف الجر ، والمعنى : أحسن كل شىء فى خلقه . وروى معناه عن ابن عباس و ﴿ أَحْسَنَ ﴾ أى أتقن وأحكم ؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التى أريد لها . ومن هذا المعنى قال ابن عباس وعكرمة : ليست است القرد بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد « أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » قال : أتقنه . وهو مثل قوله تبارك وتعالى : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ »(٣) أى لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة [على] خلق الإنسان . ويجوز : «خلقه» بالرفع ؛ على تقدير ذلك خلقه . وقيل : هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى ؛ والمعنى : حسّن خَلْق كل شىء حَسَنٍ . وقيل : هو عموم فى اللفظ والمعنى ، أى جعل كل شى خلقه حسنا ، حتى جعل الكلب فى خلقه حسنا ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : فى است القرد حسنة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ يعنى آدم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ تقدّم فى « المؤمنون »(٤) وغيرها . وقال الزجاج : « مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ضعيف ،

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٢٠ .
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩

وقال غيره : «مَهِينٍ» لا خطر له عند الناس . ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ رجع إلى آدم، أى سوّى خلقه . ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ ثم رجع إلى ذرّيته فقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ . وقيل : ثم جعل ذلك الماء المَهين خلقا معتدلا، وركّب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفا . وأيضا فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله : «عَبْدِى» . وعبّر عنه بالنفخ لأن الروح فى جنس الريح . وقد مضى هذا مبيّنا فى «النساء»(١) وغيرها . ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أى ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون .

قوله تعالى : وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا قول منكرى البعث ؛ أى هلكنا وبطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضلّ الماء فى اللبن إذا ذهب . والعرب تقول للشئ غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضلّ . قال الأخطل :

كنتَ القَذَى فى موج أكدر مُزْبد * قذف الأَتِىّ به فضلّ ضلالا

وقال قُطْرُب : معنى ضَلَلْنا غِبنا فى الأرض . وأنشد قول النابغة الذبيانى :

فآبَ مُضِلّوه بعين جَلِيّة * وغُودِر بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونائِلُ

وقرأ ابن مُحَيصن ويحيى بن يعمر: «ضَلِلْنَا» بكسر اللام، وهى لغة . قال الجوهرىّ : وقد ضلِلت أضِل قال الله تعالى : «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى»(٢) . فهذه لغة نجد وهى الفصيحة . وأهل العالية يقولون : «ضَلِلْتُ» — بكسر اللام — أَضَلّ . وهو ضالّ تالّ ، وهى الضلالة والتلالة . وأضلّه أى أضاعه وأهلكه . يقال : أُضِلّ الميّت إذا دفن . قال :

* فآب مُضِلوه ... ... * البيت .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٢ .   (٢) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

ابن السِّكِّيت . أضللت بعيري إذا ذهب منك . وضللت المسجد والدار : إذا لم تعرف موضعهما . وكذلك كل شيء مقيم لا يهتدى له . وفى الحديث "لعلّى أَضِل الله" يريد أضل عنه، أى أخفى عليه، من قوله تعالى : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » أى خفينا . وأضله الله فضَلّ؛ تقول : إنك تهدِى الضالّ ولا تهدِى المتضال . وقرأ الأعمش والحسن : « صَلَلْنَا » بالصاد؛ أى أَنتنَّا . وهى قراءة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . النحاس : ولا يعرف فى اللغة صللنا ولكن يقال : صلّ اللحمُ وأصلّ ، وخَمّ وأخمّ إذا أنتن . الجوهرىّ : صلّ اللحم يصلّ — بالكسر — صلولا، أى أنتن، مطبوخا كان أو نيئًا . قال الحُطَيئة :

ذاك فتًى يبــذُل ذا قِدرِه * لَا يُفْسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولُ

وأَصَلّ مثله . ﴿ إِنَّا (١) لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى نخلق بعد ذلك خلقا جديدا؟ ويقرأ : «أَئِنَّا» . النحاس : وفى هــذا سؤال صعب من العربية ؛ يقال : ما العامل فى « إِذَا » ؟ و « إِنّ » لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . والسؤال فى الاستفهام أشدّ ؛ لأن ما بعــد الاستفهام أجدر ؛ ألا يعمل فيما قبله من « إن » كيف وقد اجتمعا . فالجواب على قراءة من قرأ : « إنا » أن العامل «ضَلَلْنَا» ، وعلى قراءة من قرأ : «أَئِنَّا» أن العامل مضمر، والتقدير أنبعث إذا متنا . وفيه أيضا سؤال آخر، يقال : أين جواب « إذَا » على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط؟ فالقول فى ذلك أن بعدها فعلا ماضيا ؛ فلذلك جاز هــذا . ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ أى ليس لهم جحــود قدرة الله تعالى عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُــلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

فيه مسألتان :

---

(١) قوله : « إنا » قراءة نافع، وعليها جرى المؤلف .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفّيهم وأنه يعيدهم . ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ من توفى العدد والشئ إذا استوفاه وقبضه جميعا . يقال : توفاه الله أى استوفى روحه ثم قبضه . وتوفيت مالى من فلان أى استوفيته . ﴿ مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾ واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله؛ كما تقدّم فى «البقرة»(1) . وتصرّفه كلّه بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه . وروى فى الحديث أن "البهائم كلّها يتوفّى الله أرواحها دون مَلَك الموت" كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية .

قلت : وقد روى خلافه ، وأن مَلَك الموت يتوفّى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة . روى جعفر بن محمد عن أبيه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ارفق بصاحبي فإنه مؤمن" فقال مَلَك الموت عليه السلام : "يا محمد ، طِب نفسا وقَرّ عَيْناً فإنى بكل مؤمن رفيق . وأعلم أن ما من أهل بيت مَدَر ولا شعر فى برّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها" . قال جعفر ابن علىّ : بلغنى أنه يتصفّحهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماوردىّ . وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت البغدادىّ قال : حدّثنى أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال : حدّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفّار قال حدّثنا أبو بكر حامد المصرى قال حدّثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مُهير الكلابىّ قال : حضرت مالك بن أنس رضى الله عنه فأتاه رجل فسأله : أبا عبد الله، البراغيث أمَلَك الموت يقبض أرواحها؟ قال : فأطرق مالك طويلا ثم قال : ألها أنفس ؟ قال نعم . قال : مَلَك الموت يقبض أرواحها؛ « اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »(2) . قال ابن عطية بعد ذكره الحديث : وكذلك الأمر فى بنى آدم، إلا أنه نوعٌ شُرِّف بتصرف مَلَك وملائكة معه فى قبض أرواحهم . فخلق الله تعالى مَلَك

---

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٨ . (2) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٠ فما بعد .

الموت وخلق على يديه قبض الأرواح ، واستلالها من الأجسام وإخراجها منها . وخلق الله تعالى جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره؛ فقال تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ »[1] ، وقال تعالى : « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا »[2] وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام » . والبارئ خالق الكل، الفاعل حقيقة لكل فعل؛ قال الله تعالى : «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » . « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ »[3] . «يُحْيِي وَيُمِيتُ» . فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يُزْهق الروح . وهذا هو الجمع بين الآى والأحاديث ؛ لكنه لما كان مَلَك الموت متولى ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفّى إليه كما أضيف الخلق للملك ؛ كما تقدم فى « الحج »[4] . وروى عن مجاهد أن الدنيا بين يدى مَلَك الموت كالطَّست بين يدى الإنسان يأخذ من حيث شاء . وقد روى هذا المعنى مرفوعا ، وقد ذكرناه فى (كتاب التذكرة) . وروى أن مَلَك الموت لما وكّله الله تعالى بقبض الأرواح قال : ربّ جعلتنى أُذكر بسوء ويشتمنى بنو آدم . فقال الله تعالى له : " إنى أجعل للموت عللا وأسبابا من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير" . وقد ذكرناه فى التذكرة مستوفًى — وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب — بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك .

الثانيـة — استدلّ بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله : ﴿ وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ أى بقبض الأرواح . قال ابن العربى : « وهذا أخذ من لفظه لا من معناه، ولو اطّرد ذلك لقلنا فى قوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا »[5] : إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة فى تبليغ رسالته ، ولقلنا أيضا فى قوله تبارك وتعالى : « وَآتُوا الزَّكَاةَ »[4] إنه وكالة ؛ فإن الله تعالى ضمن الرزق لكلّ دابة وخصّ الأغنياء بالأغذية وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم، وأمر بتسليمه إليهم مقدارا معلوما فى وقت معلوم، دبّره بعلمه، وأنفذه

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٨ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٦ وص ٩٩ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٦ .
(٤) راجع جـ ١٢ ص ٧ وص ٩٩ . (٥) راجع جـ ٧ ص ٣٠١ فما بعد .

من حكمه، وقدّره بحكمته . والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلّق عليها . ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (١) » ولا يقال : هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده ؛ لأن المقصدَين مختلفان . أما إنه إذا لم يكن بدّ من المعاني فيقال : إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنيب من يأخذ الحق ممن هو عليه قسرًا دون أن يكون له في ذلك فعل، أو يرتبط به رضًا إذا وجد ذلك .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ابتداء وخبر . قال الزجاج : والمخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم مخاطبةٌ لأمته . والمعنى : ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب . ومذهب أبي العباس غير هذا، وأن يكون المعنى : يا محمد، قل للجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك . « نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ » أي من الندم والخزي والحزن والذلّ والغم . « عِنْدَ رَبِّهِمْ » أي عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم . « رَبَّنَا » أي يقولون ربنا . « أَبْصَرْنَا » أي أبصرنا ما كنا نكذب . « وَسَمِعْنَا » ما كنا ننكر . وقيل : « أَبْصَرْنَا » صدق وعيدك . « وَسَمِعْنَا » تصديق رسلك . أبصروا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع . « فَارْجِعْنَا » أي إلى الدنيا . « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أي مصدقون بالبعث ؛ قاله النقاش . وقيل : مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق ؛ قاله يحيى بن سلام . قال سفيان الثوريّ : فأكذبهم الله تعالى فقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢) ﴾ . وقيل : معنى « إِنَّا مُوقِنُونَ » أي قد زالت عنا الشكوك الآن ؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا ، ولكن لم يكونوا

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٩ فما بعد .

يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا . وقيل : أى ربنا لك الحجة ، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك فى الدنيا ، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا . فهذا اعتراف منهم ، ثم طلبوا أن يردّوا إلى الدنيا ليؤمنوا .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)

قال محمد بن كعب القُرَظيّ : لما قالوا : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » ردّ عليهم بقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يقول : لو شئت لهديت الناس جميعا فلم يختلف منهم أحد ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ الآية ؛ ذكره ابن المبارك فى « رقائقه » فى حديث طويل . وقد ذكرناه فى « التذكرة » . النحاس : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » فى معناه قولان : أحدهما — أنه فى الدنيا . والآخر — أن سياق الكلام يدلّ على أنه فى الآخرة ؛ أى لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة كما سألوا . « وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى حق القول منى لأعذبن من عصانى بنار جهنم . وعلم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردهم لعادوا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » .

وهذه الهداية معناها خلق المعرفة فى القلب . وتأويل المعتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لا يحسن منه فعله ؛ لأنه ينقض الغرض المُجْرَى بالتكليف إليه وهو الثواب الذى لا يُستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره . وقالت الإمامية فى تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة فى الآخرة ولم يعاقب أحدا ، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها ؛ قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله . وفى جواز ذلك منع ؛ لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان . وقد تكلم

العلماء عليهم فى هذين التأويلين بما فيه كفاية فى أصول الدين . وأقرب مالهم فى الجواب أن يقال: فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه ، فصار يؤدّى ذلك إلى مذهب الجبرية ، وهو مذهب رذل عندنا وعندكم؛ فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف فمن شاء آمن وأطاع اختيارا لا جبرا ؛ قال الله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ »[1] ، وقال : «فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا»[1] . ثم عقّب هاتين الآيتين بقوله تعالى: « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . [فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ، ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله][2]؛ ولهذا فرّطت المجبرة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق[3] بمشيئة الله تعالى ، فقالوا : الخلق مجبورون فى طاعتهم كلها ، التفاتا إلى قوله : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . وفرّطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة العباد ، فقالوا : الخلق خالقون لأفعالهم ، التفاتا منهم إلى قوله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » . ومذهبنا هو الاقتصاد فى الاعتقاد؛ وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقدرية ؛ وخير الأمور أوساطها . وذلك أن أهل الحق قالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، وهو أنا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة فى يد الإنسان بغير محاولته و إرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرّك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش؛ ومن لا يفرق بين الحركتين : حركة الارتعاش وحركة الاختيار، وهما موجودتان فى ذاته ومحسوستان فى يده بمشاهدته و إدراك حاسته — فهو معتوه فى عقله ومختلّ فى حسه، وخارج من حزب العقلاء . وهذا هو الحق المبين، وهو طريق بين طريقَي الإفراط والتفريط . و :

* كلا طرفَيْ قصد الأمور ذميم[4] *

---

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٣٩ فما بعد و ص ١٥٠ .
(٢) ما بين المربعين ساقط من جـ ، ك .
(٣) كذا فى نسخ الأصل : « ولعلها مقرونة » .
(٤) هذا عجز بيت وصدره :

* ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد *

وبهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سمّوا هذه المنزلة بين المنزلتين كسبًا ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه : «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ»(١) .

قوله تعالى : فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه من النسيان الذي لا ذكر معه ؛ أي لم يعملوا لهذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين . والآخر — أن « نَسِيتُمْ » بما تركتم، وكذا « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » . واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ »(٢) قال : والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال : « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ »(٣) فلو كان آدم ناسيا لكان قد ذكره . وأنشد :

كأنه خارجًا من جَنْب صَفْحَته * سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ(٤)

أي تركوه . ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة . قال الضحاك : «نَسِيتُمْ» أي تركتم أمري . يحيى بن سلام : أي تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم . ﴿ نَسِينَاكُمْ ﴾ تركناكم من الخير ؛ قاله السُّدّي . مجاهد : تركناكم في العذاب . وفي استئناف قوله : « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » وبناء الفعل على « إنّ » واسمها تشديد في الانتقام منهم . والمعنى : فذوقوا هذا؛ أي ما أنتم فيه من نكس الرءوس والخزي والغمّ بسبب نسيان الله . أو ذوقوا العذاب المخلّد، وهو الدائم الذي لا انقطاع له في جهنم . ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي . وقد يعبّر بالذّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوما، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم . قال عمر بن أبي ربيعة :

فذُقْ هجرها إن كنت تزعم أنها * فسادٌ ألا يا رُبَّما كذب الزعم

(١) راجع ج٣ص٤٢٤ فما بعد . (٢) راجع ج١١ص٢٥١ . (٣) راجع ج٧ص١٧٧ فما بعد .
(٤) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم . الشرب (بالفتح) : جماعة القوم يشربون . والمفتأد . موضع النار الذي يشوى فيه . والبيت من معلقة النابغة الذبياني .

الجوهري : وذُقْت ما عند فلان ؛ أى خبرته . وذقت القَوْس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدّتها . وأذاقه الله وبال أمره . قال طُفيل :

فذوقوا كما ذُقنا غَداة مُحَجِّرٍ * من الغيظ فى أكبادنا والتَّحَوُّب

وتذوّقته أى ذقته شيئا بعد شيء . وأمر مستذاق أى مجرّب معلوم . قال الشاعر :

وعهدُ الغانيات كعهد قَيْنٍ * وَنَتْ عنه الجعائل مُسْتذاقِ

والذوّاق : الملول .

قوله تعالى : إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)

هذه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى أنهم لإلفهم الكفر لا يؤمنون بك ؛ إنما يؤمن بك وبالقرآن المتدبرون له والمتعظون به ، وهم الذين إذا قرئ عليهم القرآن ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ قال ابن عباس : ركّعا . قال المهدويّ : وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة ؛ واستدلّ بقوله تبارك وتعالى : « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ »(١) . وقيل : المراد به السجود ، وعليه أكثر العلماء ؛ أى خَرُّوا سُجَّدًا لله تعالى على وجوههم تعظيما لآياته وخوفا من سطوته وعذابه . ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى خلطوا التسبيح بالحمد ؛ أى نزّهوه وحَمِدوه ؛ فقالوا فى سجودهم : سبحان الله وبحمده ، سبحان ربّى الأعلى وبحمده ؛ أى تنزيها لله تعالى عن قول المشركين . وقال سفيان : « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ » أى صلّوا حمدا لربهم . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » كما استكبر أهل مكة عن السجود .

قوله تعالى : تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أى ترتفع وتنبو عن مواضع الاضطجاع . وهو فى موضع نصب على الحال ؛ أى متجافية جنوبهم . والمضاجع جمع مضجع ؛ وهى

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٨٢ .

مواضع النوم . و يحتمل عن وقت الاضطجاع ، ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى . ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة :

وفينـا رســول الله يتــلو كتابه * إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجـافى جنبـه عن فراشــه * إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قال الزّجاج والرُّمانيّ : التّجافى التنحى إلى جهة فوق . وكذلك هـو فى الصفح عن المخطئ فى سَبٍّ ونحوه . والجُنوب جمع جنب . وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان : أحدهما — لذكر الله تعالى ، إمّا فى صلاة و إما فى غير صلاة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثانى — للصلاة . وفى الصلاة التى تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها — التّنفّل بالليل ؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس ، وهو الذى فيه المدح ، وهو قول مجاهد والأوزاعيّ ومالك بن أنس والحسن بن أبى الحسن وأبى العالية وغيرهم . و يدلّ عليـه قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » لأنهم جُوزُوا على ما أخفوا بمـا خفى . والله أعلم . وسيأتى بيانه .

وفى قيام الليل أحاديث كثيرة ؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال له : " أَلَا أدُلُّك على أبواب الخـير : الصوم جُنّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ المـاء النار ، وصلاة الرجل من جَوْف الليل — قال ثم تلا — « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ — حتى بلغ — يَعْمَلُونَ » " أخرجه أبو داود الطيالسيّ فى مسـنده والقاضى إسمـاعيل ابن إسحاق وأبو عيسى الترمذيّ ، وقال فيه : حديث حسن صحيح . الثـانى — صلاة العشاء التى يقال لها العتمة ؛ قاله الحسن وعطاء . وفى الترمذيّ عن أنس بن مالك أن هـذه الآية « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » نزلت فى انتظار الصـلاة التى تُدْعَى العَتَمَة قال : هـذا حديث حسن غريب . الثالث — التنفُّل ما بين المغرب والعشاء ؛ قاله قتادة وعكرمة . وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » قال : كانوا يتنفّلون ما بين المغرب والعشاء . الرابع — قال الضحاك : تجافِى الجُنُب ، هو أن يصلّ الرجل العشاء والصبح فى جماعة . وقاله أبو الدّرداء وعُبادة .

قلت : وهذا قول حسن ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى . وذلك أن منتظر العشاء إلى أن يصليها فى صلاة وذكرٍ لله جلّ وعز ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يزال الرجل فى صلاةٍ ما انتظر الصلاة" . وقال أنس : المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل . قال ابن عطية : وكانت الجاهلية ينامون من أوّل الغروب ومن أيّ وقت شاء الإنسان ، فجاء انتظار وقت العشاء غريبًا شاقًّا . ومصلّي الصبح فى جماعة لا سيما فى أوّل الوقت ؛ كما كان عليه السلام يصليها . والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة فى أوّل الوقت يقوم سَحَرًا يتوضأ و يصلّي و يذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر؛ فقد حصل التجافى أوّل الليل وآخره . يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من صلّى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام الليل كله". ولفظ الترمذى وأبى داود فى هذا الحديث : "من شهد العشاء فى جماعة كان له قيام نصف ليلة، ومن صلّى العشاء والفجر فى جماعة كان له كقيام ليلة" . وقد مضى فى سورة «النور» (1) عن كعب فيمن صلّى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات كن له بمنزلة ليلة القدر .

وجاءت آثار حسان فى فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثنى محمد بن الحجاج أو ابن أبى الحجاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصر فى الجنة" فقال له عمر بن الخطاب : إذًا تَكْثُر قصورنا و بيوتنا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الله أكبر وأفضل — أو قال — أطيب" . وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : صلاة الأوّابين الخلوة التى بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة . وكان عبد الله بن مسعود يصلّى فى تلك الساعة و يقول : صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء؛ ذكره ابن المبارك . ورواه الثعلبي مرفوعا عن ابن عمر قال قال

---

(1) راجع ج ١٢ ص ٣٠٨ .

النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من جفَتْ جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصران في الجنة مسيرة عام، وفيهما من الشجر ما لو نزلها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة " . وهي صلاة الأوابين وغفلة الغافلين . وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يردّ الدعاء بين المغرب والعشاء .

فصـل في فضل التجافي — ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكرم ؛ لِيَقُمِ الحامدون لله على كل حال ، فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة . ثم ينادى ثانية : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم؛ لِيَقُمِ الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » . قال : فيقومون فيسرحون إلى الجنة . قال : ثم ينادى ثالثة : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيَقُمِ الذين كانوا « لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة . ذكره الثعلبيّ مرفوعا عن أسماء بنت يزيد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أَوْلى بالكَرَم، لِيَقُمِ الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم ينادى الثانيةَ ستعلمون اليوم مَن أَوْلَى بالكرم لِيَقُمِ الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون، ثم ينادى الثالثةَ ستعلمون اليوم من أولى بالكرم لِيَقُمِ الحامدون لله على كل حال في السرّاء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا إلى الجنة، ثم يحاسب سائر الناس". وذكر ابن المبارك قال أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبي العلاء بن الشِّخِّير عن أبي ذرّ قال : ثلاثة يَضْحَك الله إليهم ويستبشر الله بهم : رجل قام من الليل وترك فراشه ودِفْئه ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ؛ فيقول الله لملائكته : " ما حمل عبدى على ما صنع " فيقولون : ربّنا أنت أعلم به منا ؛ فيقول : " أنا أعلم به ولكن أخبرونى " فيقولون : رَجّيته شيئا فرجاه وخوّفته فخافه . فيقول : " أشهدكم أنى قد أمنته مما خاف وأوجبت له ما رجاه " قال : ورجل كان

فى سَرِيّة فلقِى العدوّ فانهزم أصحابه وثبت هو حتى يُقتل أو يفتح الله عليهم ؛ فيقول الله لملائكته مثل هذه القصة . ورجل سَرَى فى ليلة حتى إذا كان فى آخر الليل نزل هو وأصحابه ، فنام أصحابه وقام هو يصلّى ؛ فيقول الله لملائكته ... " وذكر القصة .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ فى موضع نصب على الحال ؛ أى داعين . ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة ؛ أى تتجافى جنوبهم وهم أيضا فى كل حال يدعون ربّهم ليلهم ونهارهم . و﴿ خَوْفاً ﴾ مفعول من أجله . ويجوز أن يكون مصدرا . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ مثله ؛ أى خوفا من العذاب وطمعا فى الثواب . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تكون « ما » بمعنى الذى وتكون مصدرا، وفى كلا الوجهين يجب أن تكون منفصلة[(١)] من « مِن » و « يُنْفِقُونَ » قيل : معناه الزكاة المفروضة . وقيل : النوافل ؛ وهذا القول أمدح .

قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قرأ حمزة : ﴿ مَا أُخْفِى لَهُمْ ﴾ بإسكان الياء . وفتحها الباقون . وفى قراءة عبد الله «مَانُخْفِى» بالنون مضمومة . وروى المفضّل عن الأعمش « ما يُخْفَى لَهُمْ » بالياء المضمومة وفتح الفاء . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة : «من قُرّات أعين» . فمن أسكن الياء من قوله : « ما أخفى فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم . و « ما » فى موضع نصب بـ « أخفى » وهى استفهام ، والجملة فى موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين ، والضمير العائد على « ما » محذوف . ومن فتح الياء فهو فعل ماض مبنى للفعول . و « ما » فى موضع رفع بالابتداء، والخبر « أخفى » وما بعده ، والضمير فى « أخفى » عائد على « ما » . قال الزجاج : ويقرأ « مَا أَخْفَى لَهُمْ » بمعنى ما أخفى الله لهم ؛ وهى قراءة محمد بن كعب، و « ما » فى موضع نصب . المهدوىّ : ومن قرأ : « قرّات أعين » فهو جمع قُرّة، وحَسُن الجمع فيه لإضافته إلى جمع، والإفراد لأنه

---

(١) الذى فى كتب الإملاء أنه يجوز .

مصدر ، وهو اسم للجنس . وقال أبو بكر الأنبارى : وهـذا غير مخالف للصحف ؛ لأن تاء « قُرّة » تكتب تاء على لغة من يجرى الوصل على الوقف ؛ كما كتبوا (رحمت الله) بالتاء . ولا يُستنكر سـقوط الألف من « قُرات » فى الخط وهو موجود فى اللفـظ ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموات(١) وهى ثابتة فى اللسان والنطق . والمعنى المراد : أنه أخبر تعالى بمـا لهم من النعيم الذى لم تعلمه نفس ولا بشر ولا مَلَك . وفى معنى هذه الآية : قال النبى صلى الله عليـه وسلم : " قال الله عز وجل أعْدَدْتُ لعبـادى الصالحين ما لا عيْن رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر — ثم قرأ هذه الآية — « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ — إلى قوله — بِمَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ » " خرجه الصحيح من حديث سهل بن سعد الساعدى . وقال ابن مسعود : فى التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر . وقال ابن عبـاس : الأمر فى هـذا أجلّ وأعظم من أن يُعرف تفسيره .

قلت : وهذه الكرامة إنمـا هى لأعلى أهل الجنة منزلا ؛ كما جاء مبيّنًا فى صحيح مسلم عن المغيرة بن شُعبة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سأل موسى عليه السلام ربّه فقال ياربِّ ما أدنى أهل الجنة منزلةً قال هو رجل يأتى بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أىْ ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثـلُ مُلْك مَلِك من ملوك الدنيـا فيقول رضيتُ ربِّ فيقول لك ذلك ومثله ومثله معه ومثله ومثله ومثله ومثله فقال فى الخامسة رضيت رَبّ فيقال هـذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك فيقول رضيتُ رَبّ قال رَبِّ فأعلاهم منزلةً قال أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ(٢) كرامتهم بيدى وخَتمتُ عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر — قال — ومصْداقُه من كتاب الله قوله تعالى : «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ

(١) فى بعض النسخ : « المسلمات » .

(٢) قال النووى : « أما أردت فبضم التاء ، ومعناه اخترت واصطفيت . وأما غرست كرامتهم بيدى الخ فمعناه اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق الى كرامتهم تغيير » .

مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وقد روى عن المغيرة موقوفا قوله . وخرّج مسلم أيضا عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذُخْرًا بَلْهَ(١) ما أَطْلَعَكُمْ عليه — ثم قرأ — « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » " . وقال ابن سيرين : المراد به النظر إلى الله تعالى . وقال الحسن : أخفى القوم أعمالا فأخفى الله تعالى لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى ليس المؤمن كالفاسق ؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم . قال ابن عباس وعطاء بن يَسار : نزلت الآية فى علىّ بن أبى طالب والوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيْط ؛ وذلك أنهما تلاحيا(٢) فقال له الوليد : أنا أَبْسَطُ منك لسانا وأحدّ سِنانا وأردّ للكتيبة — وروى وأملأ فى الكتيبة — جسدا . فقال له علىّ : اسكت ! فإنك فاسق ؛ فنزلت الآية . وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت فى علىّ وعُقبة بن أبى مُعَيْط . قال ابن عطية : وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية ؛ لأن عُقبة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل فى طريق مكة مُنْصَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر . ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد . وذلك يحتمل أن يكون فى صدر إسلام الوليد لشىء كان فى نفسه ، أو لما روى من نقله عن بنى المُصْطَلِق ما لم يكن ، حتى نزلت فيه : «إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا»(٣) على ما يأتى فى الحُجُرات بيانه . ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه ؛ لأنه كان على طرف مما يبغى ، وهو الذى شرب الخمر فى زمن

(١) بله : من أسماء الأفعال ، وهى مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ؛ فالذى لم يطلعكم أعظم ؛ وكأنه أضرب عنه استقلالا له فى جنب ما لم يطلع عليه . (شرح النووى) .

(٢) الملاحاة : المقاولة والمخاصمة .

(٣) راجع جـ ١٦ ص ٣١١ .

عثمان رضى الله عنـه ، وصلّى الصبح بالناس ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ، ونحو هذا ممـا يطول ذكره .

الثانيـة — لمـا قسّم الله تعـالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهـم بالكفر — لأن التكذيب فى آخر الآية يقتضى ذلك — اقتضى ذلك نفى المساواة بين المؤمن والكافر ؛ ولهذا منع القصاص بينهما ؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول . وبذلك احتج علماؤنا على أبى حنيفة فى قتله المسلم بالذمىّ . وقال : أراد نفى المساواة هاهنا فى الآخرة فى الثواب وفى الدنيا فى العدالة . ونحن حملناه على عمومه ، وهو أصح ؛ إذ لا دليل يخصه ؛ قاله ابن العربى .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ قال الزجاج وغيره : « مَنْ » يصلح للواحد والجمع . النحاس : لفظ « مَنْ » يؤدى عن الجماعة ؛ فلهذا قال : « لَا يَسْتَوُونَ » ؛ هذا قول كثير من النحويين . وقال بعضهم : « لَا يَسْتَوُونَ » لاثنين ؛ لأن الاثنين جمع ؛ لأنه واحد جمع مع آخر . وقاله الزجاج أيضا . والحديث يدلّ على هـذا القول ؛ لأنه عن ابن عباس . وغيره قال : نزلت « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا » فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ، « كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » فى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيط . وقال الشاعر :

أليس المـوت بينهما سـواء * إذا ماتوا وصاروا فى القبور

قوله تعـالى : أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أخبر عن مقرّ الفريقين غدًا ؛ فالمؤمنين جنات المأوى ، أي يأوون إلى الجنات ؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك

الموضع يتضمن جنات . ﴿ نُزُلًا ﴾ أى ضيافة . والنُّزُلُ : ما يُهيّأ للنازل والضيف . وقد مضى فى آخر « آل عمران »(١) وهو نصب على الحال من الجنات ؛ أى لهم الجنات معدّة، ويجوز أن يكون مفعولا له . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ أى مقامهم فيها . ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أى إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها، لأنهم يطمعون فى الخروج منها . وقد مضى هذا فى «الحج»(٢) . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ أى يقول لهم خزنة جهنم . أو يقول الله لهم : ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ والذوق يُستعمل محسوسًا ومعنًى . وقد مضى فى هذه السورة بيانه(٣) .

قوله تعالى : وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى ﴾ قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأُبَىّ بن كعب وإبراهيم النَّخَعِىّ : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا؛ وقاله ابن عباس . وعنه أيضا أنه الحدود . وقال ابن مسعود والحسين بن علىّ وعبد الله بن الحارث : هو القتل بالسيف يوم بدر . وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف؛ وقاله مجاهد . وعنه أيضا : العذاب الأدنى عذاب القبر؛ وقاله البراء ابن عازب . قالوا : والأكبر عذاب يوم القيامة . قال القشيرىّ : وقيل عذاب القبر . وفيه نظر؛ لقوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » . قال : ومن حمل العذاب على القتل قال : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يرجع من بقى منهم . ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم؛ إلا ما روى عن جعفر بن محمد أنه خروج المهدى بالسيف . والأدنى غلاء السعر . وقد قيل : إن معنى قوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » على قول مجاهد والبراء : أى لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه؛

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ .　　(٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٧ .

(٣) راجع ص ٩٨ و ٩٩ من هذا الجزء .

كقوله : « فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا »(١) . وسُمِّيت إرادة الرجوع رجوعا كما سُمِّيت إرادة القيام قياما في قوله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ »(٢) . ويدلّ عليه قراءة من قرأ : « يُرْجَعُونَ » على البناء للفعول ؛ ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه . ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أي بحججه وعلاماته . ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ بترك القبول . ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى ؛ قاله ابن عباس . وقد لقيه ليلة الإسراء . قتادة : المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء . والمعنى واحد . وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة ، وستلقاه فيها . وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول ؛ قاله مجاهد والزجاج . وعن الحسن أنه قال في معناه : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » فأوذي وكُذّب ، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيَه من التكذيب والأذى ؛ فالهاء عائدة على محذوف ، والمعنى من لقاء ما لاقى . النحاس : وهذا قول غريب ، إلا أنه من رواية عمرو

(١) راجع ص ٩٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٦ ص ٨٠ فما بعد .

ابن عُبيد . وقيل في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى : قل يتوفاكم مَلَك الموت الَّذي وُكِّل بكم فلا تكن في مِرْية من لقائه ؛ فجاء معترضا بين « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » وبين « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » . والضمير في « وَجَعَلْنَاهُ » فيه وجهان : أحدهما — جعلنا موسى؛ قاله قتادة . الثاني — جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي قادة وقُدوة يُقتَدى بهم في دينهم . والكوفيون يقرءون « أَئِمَّة » النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة ، وهو من دقيق النحو .

وشرحه : أن الأصل « أَأْمِمَة » ثم ألقيت حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم ، وخففت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان ، والجمع بين همزتين في حرفين بعيد ؛ فأمّا في حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك : آدم وآخر . ويقال : هذا أوَمّ من هذا وأيَمّ ؛ بالواو والياء . وقد مضى هذا في « براءة »(1) والله تعالى أعلم . ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا . ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ أي أمرناهم بذلك . وقيل : « بِأَمْرِنَا » أي لأمرنا ؛ أي يهدون الناس لديننا . ثم قيل : المراد الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله قتادة . وقيل : المراد الفقهاء والعلماء . ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ قراءة العامة « لَمَّا » بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها ؛ أي حين صبروا . وقرأ يحيى وحمزة والكسائي وخلف ورُوَيْس عن يعقوب : « لِمَا صَبَرُوا » أي لصبرهم جعلناهم أئمة . واختاره أبو عبيد اعتبارا بقراءة ابن مسعود « بِمَا صَبَرُوا » بالباء . وهذا الصبر صبرٌ على الدين وعلى البلاء . وقيل : صبروا عن الدنيا . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازى كُلًّا بما يستحق . وقيل : يقضي بين الأنبياء وبين قومهم ؛ حكاه النقاش .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

(1) راجع جـ ٨ ص ٨٤ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب « نَهْدِ لَهُمْ » بالنون، فهذه قراءة بيّنة . النحاس : وبالياء فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعل لـ « يهد »؟ فتكلم النحويون فى هذا، فقال الفراء : « كَمْ » فى موضع رفع بـ « يَهْدِ » . وهذا نقض لأصول النحويين فى قولهم: إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا فى « كَمْ » بوجه ؛ أعنى ما قبلها . ومذهب أبى العباس أن « يهْدِ » يدلّ على الهُدَى ؛ والمعنى أولم يَهْد لهم الهدى . وقيل : المعنى أولم يهد الله لهم ؛ فيكون معنى الياء والنون واحدا ؛ أى أولم نُبَيّن لهم إهلاكنا القرون الكافرة من قبلهم . وقال الزجاج : « كَمْ » فى موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » . ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ يحتمل الضمير فى « يَمْشُونَ » أن يعود على الماشين فى مساكن المهلكين ؛ أى وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون . ويحتمل أن يعود على المهلَكين فيكون حالا ؛ والمعنى : أهلكناهم ماشين فى مساكنهم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أى أولم يعلموا كمال قدرتنا بسَوْقنا الماء إلى الأرض اليابسة التى لا نبات فيها لنحييها . الزمخشرى : الجرز الأرض التى جُرِز نباتها ، أى قُطع ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعِىَ وأزيل . ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ قال ابن عباس : هى أرض باليمن . وقال مجاهد : هى أَبْيَن . وقال عكرمة : هى الأرض الظمآى . وقال الضحاك : هى الأرض الميتة العَطْشَى . وقال الفراء : هى الأرض التى لا نبات فيها . وقال الأصمعى : هى الأرض التى لا تنبت شيئا . وقال محمد بن يزيد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام؛ إلا أنه يجوز على قول من قال : العباس والضحاك . والإسناد

عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعن فيه . وهذا إنما هو نعت والنعت للعرفة يكون بالألف واللام؛ وهو مشتق من قولهم : رجل جَروز إذا كان لا يبقى شيئا إلا أكله . قال الراجز :

خِبٌّ جَروز وإذا جاع بكى * ويأكل التمر ولا يُلقى النَّوى

وكذلك ناقةٌ جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده . وسيف جُراز: أي قاطع ماضٍ . وَجَرَزتِ الجراد الزرع : إذا استأصلته بالأكل . وحكى الفرّاء وغيره أنه يقال : أرض جُرُز وجُرْز وجَرْز وجَرَز . وكذلك بخل ورغب ورهب؛ في الأربعة أربع لغات . وقد روى أن هذه الأرض لا أنهار فيها ، وهي بعيدة من البحر، وإنما يأتيها في كل عام وِدَان (١) فيزرعون ثلاث مرات في كل عام . وعن مجاهد أيضا : أنها أرض النيل . ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بالماء . ﴿ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ ﴾ من الكلأ والحشيش . ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ من الحبّ والخضر والفواكه . ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم . و « فَنُخْرِجُ » يكون معطوفا على « نَسُوقُ » أو منقطعا مما قبله . « تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهم » في موضع نصب على النعت .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ « مَتَى » في موضع رفع ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الظرف . قال قتادة : الفتح القضاء . وقال الفراء والقُتَبِيّ : يعني فتح مكة . وأَوْلى مِن هذا ما قاله مجاهد، قال : يعني يوم القيامة . ويروى أن المؤمنين قالوا : سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء . فقال الكفار على التهزيء : متى يوم الفتح ، أي هذا الحكم . ويقال للحاكم : فاتح وفتاح؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل . وفي القرآن : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

(١) في الأصول : « واديان » . والودان : البلل .

قومنا بالحق[1] » وقد مضى هذا فى « البقرة[2] » وغيرها . ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ على الظرف . وأجاز الفراء الرفع . ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى يؤخرون و يمهلون للتوبة ، إن كان يوم الفتح يومَ بدر أو فتح مكة . ففى بدر قُتلوا[3] ، و يوم الفتح هربوا فلحقهم خالد بن الوليد فقتلهم .

قوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قيل : معناه فأعرض عن سفههم ولا تجبهم إلا بما أمرت به . ﴿ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى انتظر يوم الفتح ، يوم يحكم الله لك عليهم . ابن عباس : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن مشركى قريش مكة ، وأن هذا منسوخ بالسيف فى « براءة » فى قوله : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ[4] » . « وَانْتَظِرْ » أى موعدى لك . قيل : يعنى يوم بدر . ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾ أى ينتظرون بكم حوادث الزمان . وقيل : الآية غير منسوخة ، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهُدْنة وغيرها . وقيل : أعرض عنهم بعد ما بلغت الحجة ، وانتظر إنهم منتظرون . إن قيل : كيف ينتظرون القيامة وهم لا يؤمنون؟ ففى هذا جوابان : أحدهما — أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من أسباب القيامة ، فيكون هذا مجازا . والآخر — أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة ، فيكون هذا جوابا لهذين الصنفين . والله أعلم . وقرأ ابن السَّمَيْقَع : « إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ » بفتح الظاء . ورويت عن مجاهد وابن مُحَيْصن . قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازه : إنهم منتظرون بهم . قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ، أى انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك . وقد قيل : إنّ قراءة ابن السَّمَيْقَع (بفتح الظاء) معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن يُنْتظر هلاكهم ، يعنى أنهم هالكون لا محالة ، وانتظر ذلك فإن الملائكة فى السماء ينتظرونه ، ذكره الزمخشرى . وهو معنى قول الفرّاء . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٣ فما بعد .
(٣) فى ش : « هزموا » .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٧٢ .

سورة الأحزاب

مدنيّة فى قول جميعهم . نزلت فى المنافقين وإيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطعنهم فيه وفى مناكحته وغيرها . وهى ثلاث وسبعون آية . وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة . وكانت فيها آية الرجم : (الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فارجموهما أَلْبَتَّةَ نكالاً من الله والله عزيز حكيم) ؛ ذكره أبو بكر الأنبارى عن أُبَيّ بن كعب . وهذا يحمله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من الأحزاب إليه ما يزيد على ما فى أيدينا ، وأن آية الرَّجْم رفع لفظها . وقد حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلّام قال حدّثنا ابن أبى مريم عن ابن لَهِيعة عن أبى الأسود عن عروة عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتى آية ، فلما كُتِب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هى الآن . قال أبو بكر : فمعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة : أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا .

قلت : هذا وجه من وجوه النسخ ، وقد تقدم فى «البقرة»(1) القولُ فيه مستوفًى والحمد لله . وروى زِرّ قال قال لى أُبَيّ بن كعب : كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية ؛ قال : فوالذى يحلف به أُبَيّ بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فارجموهما أَلْبَتَّةَ نكالاً من الله والله عزيز حكيم . أراد أُبَيّ أن ذلك من جملة ما نُسخ من القرآن . وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾

(1) راجع جـ ٢ ص ٦١ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ ضُمّت «أىّ» لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها . و « النبيّ » نعت لأىّ عند النحويين؛ إلا الأخفش فإنه يقول : إنه صلة لأىّ . مكّي : ولا يُعرف فى كلام العرب اسم مفرد صلة لشيء . النحاس : وهو خطأ عند أكثر النحويين؛ لأن الصلة لا تكون إلا جملة ، والاحتيال له فيما قال أنه لما كان نعتا لازما سُمِّيَ صلة ؛ وهكذا الكوفيون يسمّون نعت النكرة صلةً لها . ولا يجوز نصبه على الموضع عند أكثر النحويين . وأجازه المازنيّ، جعله كقولك : يا زيدُ الظريفَ، بنصب « الظريف » على موضع زيد . مكّيّ : وهذا نعت يستغنى عنه ، ونعت « أىّ » لا يستغنى عنه فلا يحسن نصبه على الموضع . وأيضا فإن نعت « أىّ » هو المنادى فى المعنى فلا يحسن نصبه . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحبّ إسلام اليهود : قُرَيظة والنَّضير وبنى قَيْنُقَاع ،وقد تابعه[1] ناس منهم على النفاق، فكان يُلين لهم جانبَه؛ ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه، وكان يسمع منهم؛ فنزلت . وقيل؛ إنها نزلت فيما ذكر الواحدى والقُشَيْرِيّ والثّعلبيّ والماوَرْدِى وغيرهم فى أبى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبى الأعور عمرو[2] بن سفيان ، نزلوا المدينة على عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول رأس المنافقين بعد أُحُد ، وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح وطُعْمة بن أُبَيْرِق، فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللّات والعزّى ومَناة، وقل إن لها شفاعة ومنعة[3] لمن عبدها ، وندَعُك وربّك . فشقّ على النبي صلى الله عليه وسلم ما قالوا . فقال عمر : يا رسول الله ائذن لى فى قتلهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنى قد أعطيتهم الأمان " فقال عمر : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة؛ فنزلت الآية . ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ أى خَفِ الله . ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ من أهل مكة؛ يعنى أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة . ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ من أهل المدينة؛ يعنى عبد الله بن أُبَىّ وطُعْمة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح فيما نُهيت عنه،

---

(١) فى بحر وك : « بايعه » . (٢) فى الأصول : « عمر » . (٣) فى أسباب النزول : « ومنفعة » .

ولا تمل إليهم . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بكفرهم ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يفعل بهم . الزمخشري : وروى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السُّلَمي قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم في الموادعة التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم عبد الله بن أُبَيّ ومُعَتِّب بن قُشَير والجَدّ بن قيس، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا . وذكر الخبر بمعنى ما تقدّم . وأن الآية نزلت في نقض العهد ونَبْذ الموادعة . «وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ» من أهل مكة . «وَٱلْمُنَافِقِينَ» من أهل المدينة فيما طلبوا إليك . وروى أن أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، ويزوّجه شيبةُ بن ربيعة بنته، وخوّفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع؛ فنزلت . النحاس : ودلّ بقوله «إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً» على أنه كان يميل إليهم استدعاءً لهم إلى الإسلام؛ أي لو علم الله عز وجل أن ميْلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه؛ لأنه حكيم . ثم قيل : الخطاب له ولأمته .

قوله تعالى : وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني القرآن . وفيه زَجْر عن اتباع مراسم الجاهلية، وأمر بجهادهم ومنابذتهم؛ وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص . والخطاب له ولأمته . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ قراءة العامة بتاء على الخطاب، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق : «يعملون» بالياء على الخبر، وكذلك في قوله : «بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا»(1) . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي اعتمد عليه في كل أحوالك؛ فهو الذي يمنعك ولا يضرك من خذلك . ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ حافظا . وقال شيخ من أهل الشام : قدِم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد من ثَقِيف فطلبوا منه أن يمتعهم باللات سنةً — وهي الطاغية التي كانت ثَقيف تعبدها — وقالوا : لتعلم قريش منزلتنا عندك؛ فهم

(1) راجع جـ ١٦ ص ٣٨٠ فما بعد .

النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنزلت « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا » أى كافيًا لك ما تخافه منهم . و « بِاللهِ » فى موضع رفع لأنه الفاعل . و « وَكِيلًا » نصب على البيان أو الحال .

قوله تعالى : مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قال مجاهد : نزلت فى رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه ، وكان يقول : إن لى فى جوفى قلبين ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد . قال : وكان من فِهْر . الواحدىّ والقُشَيْرِىّ وغيرهما : نزلت فى جميل بن معمر الفهرى ، وكان رجلا حافظا لما يسمع . فقالت قريش : ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان . وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هُزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر ، رآه أبو سفيان فى العير وهو معلّق إحدى نَعْلَيْه فى يده والأخرى فى رجله ؛ فقال أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال انهزموا . قال : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلىّ ؛ فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده . وقال السُّهَيْلىّ : كان جميل بن معمر الجُمَحىّ ، وهو ابن معمر ابن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، واسم جمح : تَيْم ؛ وكان يدعى ذا القلبين فنزلت فيه الآية ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما * قضى وَطَرًا منها جَمِيلُ بن معمر

قلت : كذا قالوا جميل بن معمر . وقال الزمخشرىّ : جميل بن أسد الفهرى . وقال ابن عباس : سببها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا له قلبان ؛ لأنه ربما كان فى شىء فنزع

فى غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ؛ فقالوا ذلك عنه فأكذبهم الله عز وجل . وقيل : نزلت فى عبد الله بن خَطَل . وقال الزهرى وابن حبّان : نزل ذلك تمثيلا فى زيد بن حارثة لما تبنّاه النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فالمعنى : كما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين . قال النحاس : وهذا قول ضعيف لا يصح فى اللغة ، وهو من منقطعات الزهرى ، رواه معمر عنه . وقيل : هو مثل ضرب للمُظاهر ؛ أى كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المُظاهر أمّه حتى تكون له أُمّان . وقيل : كان الواحد من المنافقين يقول : لى قلب يأمرنى بكذا ، وقلب يأمرنى بكذا ؛ فالمنافق ذو قلبين ؛ فالمقصود ردّ النفاق . وقيل : لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى فى قلب ، كما لا يجتمع قلبان فى جوف ؛ فالمعنى : لا يجتمع اعتقادان متغايران فى قلب . ويظهر من الآية بجملتها نفى أشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت ، وإعلام بحقيقة الأمر ، والله أعلم .

الثانيــة — القلب بَضْعة(١) صغيرة على هيئة الصَّنَوْبَرة ، خلقها الله تعالى فى الآدمى وجعلها محلا للعلم ، فيحصى به العبد من العلوم ما لا يسع فى أسفار ، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهى ، ويضبطه فيه بالحفظ الربانى ، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئا . وهو بين لَمَّتين(٢) : لَمّة من المَلَك ، ولَمّة من الشيطان ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . خرّجه الترمذى ، وقد مضى فى « البقرة »(٣) . وهو محل الخَطَرات والوساوس ومكان الكفر والإيمان ، وموضع الإصرار والإنابة ، ومجرى الانزعاج والطمأنينة(٤) . والمعنى فى الآية : أنه لا يجتمع فى القلب الكفر والإيمان ، والهدى والضلال ، والإنابة والإصرار ؛ وهذا نفى لكل ما توهمه أحد فى ذلك من حقيقة أو مجاز ، والله أعلم .

الثالثــة — أعلم الله عز وجل فى هذه الآية أنه لا أحد بقلبين ، ويكون فى هذا طعن على المنافقين الذين تقدّم ذكرهم ؛ أى إنما هو قلب واحد ، فإمّا فيه إيمان وإمّا فيه كفر ؛ لأن

---

(١) البضعة (بالفتح وقد تكسر) القطعة من اللحم . (٢) اللمة (بالفتح) الهمة والخطرة تقع فى القلب .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ فما بعد . (٤) فى بعض النسخ : « والطمأنينة والاعتدال » .

درجة النفاق كأنها متوسطة ، فنفاها الله تعالى وبيّن أنه قلب واحد . وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية ، متى نسي شيئا أو وهم . يقول على جهة الاعتذار : ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يعني قول الرجل لامرأته : أنتِ عليّ كظهر أمي . وذلك مذكور في سورة « المجادلة »(١) على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزلت : « ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » وكان زيد فيما روى عن أنس ابن مالك وغيره مَسْبِيًّا من الشام، سبته خيل من تهامة ، فابتاعه حكيم بن حزام بن خُويلد، فوهبه لعمته خديجة فوهبته خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبنّاه ، فأقام عنده مدّة ، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه ، فقال لهما النبيّ صلى الله عليه وسلم وذلك قبل البعث : " خَيِّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء " . فاختار الرق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حريته وقومه ، فقال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : " يامعشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه " وكان يطوف على حِلَق قريش يشهدهم على ذلك ، فرضي ذلك عمه وأبوه وانصرفا . وكان أبوه لما سبي يدور الشام ويقول :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدر ما فعل * أحَيٌّ فيُرجَى أم أتى دونه الأجَلْ
فوالله لا أدري وإني لسائل * أغالك بعدي السَّهلُ أم غالك الجبل
فياليت شعري ! هل لك الدهرَ أَوْبَةٌ * فحسبي من الدنيا رجوعُك لي بَجَلْ(٢)
تُذَكِّرُنِيه الشمس عند طلوعها * وتَعْرِض ذكراه إذا غَرْبُهَا أفَلْ
وإن هبّت الأرياح هَيَّجْنَ ذِكرَه * فياطول ما حُزْني عليه وما وَجَلْ
سأُعْمِل نَصّ العيس في الأرض جاهدًا * ولا أسأم التَّطواف أو تسأمُ الإبل
حياتِيَ أو تأتِي عليّ منيّتي * فكل امرئ فانٍ وإن غرّه الأملْ

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٧٩ فما بعد .
(٢) بجل : كنعم زنة ومعنى . وأبجله الشيء : كفاه .

فأخبر أنه بمكة ؛ فجاء إليه فهلك عنده . وروى أنه جاء إليه فخيّره النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا وانصرف . وسيأتى من ذكره وفضله وشرفه شفاءٌ عند قوله : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا »[1] إن شاء الله تعالى . وقتل زيد بمُؤْتَة من أرض الشأم سنة ثمانٍ من الهجرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أمّره فى تلك الغزاة ، وقال : "إن قُتل زيد فجعفر فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة" . فقتل الثلاثة فى تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نَعْى زيد وجعفر بكى وقال : "أخَوَاى ومؤنساى ومحدِّثاى" .

قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٥)

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ نزلت فى زيد بن حارثة ، على ما تقدّم بيانه . وفى قول ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، دليل على أن التَّبنِّى كان معمولا به فى الجاهلية والإسلام ، يُتوارث به ويتناصر ، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله : « ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ » أى أعدل . فرفع الله حكم التَّبنِّى ومنع من إطلاق لفظه ، وأرشد بقوله إلى أن الأَوْلى والأعدل أن يُنسب الرجل إلى أبيه نَسَبًا ؛ فيقال : كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جَلَده وظَرْفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان يُنسب إليه فيقال فلان بن فلان . وقال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنّى ، وهو من نسخ السنّة بالقرآن ؛ فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف ، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى وَلائه ، فإن لم يكن له وَلاء معروف قال له يا أخى ؛ يعنى فى الدين ، قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[2] .

---

(١) راجع ص ١٨٨ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٢٢

الثانيـة — لو نسبه إنسان إلى أبيه من التبنّى فإن كان على جهة الخطأ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد فلا إثم ولا مؤاخذة؛ لقوله تعالى: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ». وكذلك لو دعوت رجلا إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه فليس عليك بأس؛ قاله قتادة. ولا يجرى هذا المجرى ما غلب عليه اسم التبنّى كالحال فى المِقْداد بن عمرو فإنه كان غلب عليه نسب التبنّى، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبنّاه فى الجاهلية وعرف به. فلما نزلت الآية قال المِقْداد: أنا ابن عمرو؛ ومع ذلك فبقى الإطلاق عليه. ولم يُسمع فيمن مضى من عَصَّى مُطْلِق ذلك عليه وإن كان متعمدا. وكذلك سالم مولى أبى حذيفة، كان يدعى لأبى حذيفة. وغير هؤلاء ممن تُبُنِّى وانْتُسب لغير أبيه وشُهِر بذلك وغَلب عليه. وذلك بخلاف الحال فى زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد، فإن قاله أحد متعمّدا عصى لقوله تعالى: «وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» أى فعليكم الجناح. والله أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى «غَفُورًا» للعمد، و«رَحِيمًا» برفع إثم الخطأ.

الثالثـة — وقد قيل: إن قول الله تبارك وتعالى: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ» مُجْمَل؛ أى وليس عليكم جناح فى شىء أخطأتم، وكانت فُتْيا عطاء وكثيرٍ من العلماء. على هذا إذا حلف رجل ألّا يفارق غريمه حتى يستوفى منه حقه، فأخذ منه ما يرى أنه جيّد من دنانير فوجدها زيوفا أنه لا شىء عليه. وكذلك عنده إذا حلف ألا يسلّم على فلان فسلّم عليه وهو لا يعرفه أنه لا يحنث؛ لأنه لم يتعمد ذلك. و«ما» فى موضع خفض ردًّا على «ما» التى مع «أَخْطَأْتُمْ». ويجوز أن تكون فى موضع رفع على إضمار مبتدإ؛ والتقدير: ولكن الذى تؤاخَذون به ما تعمّدت قلوبكم. قال قتادة وغيره: من نسب رجلا إلى غير أبيه، وهو يرى أنه أبوه، خطأً[(1)] فذلك من الذى رفع الله فيه الجناح. وقيل: هو أن يقول له فى المخاطبة: يا بُنَىَّ؛ على غير تَبَنٍّ.

الرابعـة — قوله تعالى[(2)]: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ «بِأَفْوَاهِكُمْ» تأكيد لبطلان القول؛ أى أنه قول لا حقيقة له فى الوجود، إنما هو قول لسانىّ فقط. وهذا كما تقول: أنا أمشى

(1) فى ش: «خطأ من الخطأ الذى ...».

(2) هذه المسألة هكذا وردت فى جميع نسخ الأصل. و يلاحظ أنها مقحمة هنا وموضعها الآية السابقة.

إليك على قَدَم؛ فإنما تريد بذلك المبرّة . وهذا كثير . وقد تقدّم هذا المعنى فى غير موضع[1] .
﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ « الحقّ » نعت لمصدر محذوف؛ أى يقول القول الحق . و ﴿ يَهْدِى ﴾ معناه يبين؛ فهو يتعدى بغير حرف جرّ .

الخامسة — الأدعياء جمع الدّعىّ، وهو الذى يدعى آبنا لغير أبيه أو يدّعى غير أبيه؛ والمصدر الدِّعْوة بالكسر؛ فأمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصُّلْب، فمن جهل ذلك فيه ولم تشتهر أنسابهم كان مَوْلًى وأخًا فى الدِّين . وذكر الطبرىّ أن أبا بكرة قرأ هذه الآية وقال : أنا ممن لا يُعرف أبوه، فأنا أخوكم فى الدِّين ومولاكم . قال الراوى عنه : ولو علم — والله — أن أباه حمار لانتمى إليه . ورجال الحديث يقولون فى أبى بكرة : نُفَيع بن الحارث .

السادسة — روى الصحيح عن سعد بن أبى وقّاص وأبى بكرة كلاهما قال : سَمِعَتْه أذناى ووعاه قلبى محمداً[2] صلى الله عليه وسلم يقول : "من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام" . وفى حديث أبى ذرّ أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس من رجل آدّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر" .

قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هذه الآية أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت فى صدر الإسلام؛ منها : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يصلّى على ميّت

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٧ وجـ ٨ ص ١١٨ فما بعد .

(٢) قوله : « محمداً » نصب على البدل من الضمير المنصوب فى قوله : « سمعته أذناى » .

عليه دَيْن ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال : "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن تُوُفِّيَ وعليه دَين فعليّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته" أخرجه الصحيحان . وفيهما أيضا "فأيكم ترك دَيْناً أو ضَياعا فأنا مولاه" . قال ابن العربيّ : فانقلبت الآن الحال بالذنوب ، فإن تركوا مالا ضُويق العصبة فيه ، وإن تركوا ضياعا أسلموا إليه ؛ فهذا تفسير الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم وتنبيهه ؛ (ولا عِطْر بعد عَرُوس) . قال ابن عطية : وقال بعض العلماء العارفين هو أَوْلى بهم من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة . قال ابن عطية : ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : "أنا آخِذ بحُجَزِكم عن النارِ وأنتم تقتحمون فيها تقحّم الفَراش" .

قلت : هذا قول حسن في معنى الآية وتفسيرها ، والحديث الذي ذُكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما مَثَلي ومَثَل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفَراش يقعن فيه[(١)] وأنا آخِذٌ بحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمُون فيه". وعن جابر مثله ؛ وقال : "وأنتم تَفَلَّتُون من يدى" . قال العلماء : الحُجْزَة للسراويل، والمَعْقِد للإزار؛ فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه . وهذا مثل لاجتهاد نبيّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا، وحرصه على تخلّصنا من الهلكات التي بين أيدينا؛ فهو أَوْلى بنا من أنفسنا؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدوّنا اللعين بناصِرنا أحقر من الفِراش وأذلّ من الفَراش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! وقيل : أولى بهم أي أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أَوْلى . وقيل : أولى بهم أي هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم ؛ أي فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمه .

الثانية — قال بعض أهل العلم : يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دين الفقراء اقتداءً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال : "فعليّ قضاؤه" . والضَّياع (بفتح الضاد) مصدر ضاع، ثم جعل آسما لكل ما هو بصدد أن يضيع

(١) مرجع الضمير في هذه الرواية المستوقد المفهوم من الكلام .

من عيال و بنين لا كافل لهم، ومال لا قيّم له . وسمّيت الأرض ضَيعة لأنها معرّضة للضياع، وتجمع ضِياعا بكسر الضاد .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ شرّف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين؛ أى فى وجوب التعظيم والمبرّة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضى الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات . وقيل : لما كانت شفقتهن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات ، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة التّبنّي . وجاز تزويج بناتهن، ولا يجعلن أخوات للناس . وسيأتى عدد أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى آية التخيير(١) إن شاء الله تعالى .

واختلف الناس هل هنّ أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة؛ على قولين : فروى الشعبيّ عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن آمرأة قالت لها : يا أمّة؛ فقالت لها : لست لك بأمّ، إنما أنا أمّ رجالكم . قال ابن العربى : وهو الصحيح .

قلت : لا فائدة فى آختصاص الحصر فى الإباحة للرجال دون النساء ، والذى يظهر لى أنهن أمهات الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء . يدلّ عليه صدر الآية : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ »، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً . ويدلّ على ذلك حديث أبى هريرة وجابر؛ فيكون قوله : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » عائدا إلى الجميع . ثم إن فى مصحف أُبيّ بن كعب « وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم » . وقرأ ابن عباس : « من أنفسهم وهو أب [لهم](٢) وأزواجه [أمهاتهم](٢) » . وهذا كلّه يوهن مارواه مسروق إن صح من جهة الترجيح، و إن لم يصح فيسقط الاستدلال به فى التخصيص، و بقينا على الأصل الذى هو العموم الذى يسبق إلى الفهوم(٣) . والله أعلم .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ قيل : إنه أراد بالمؤمنين الأنصار، و بالمهاجرين قريشا . وفيه قولان :

(١) راجع ص ١٦٤ من هذا الجزء . (٢) مابين المربعين ز يادة يقتضيها السياق، ليست فى نسخ الأصل .
(٣) كذا فى جـ . وفى ك : « الفهم » . وفى ش : « المفهوم » .

أحدهما — أنه ناسخ للتوارث بالهجرة . حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل فى سورة الأنفال « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا »(١) فتوارث المسلمون بالهجرة ؛ فكان لا يرث الأعرابىّ المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئا حتى يهاجر ، ثم نسخ ذلك فى هذه السورة بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ » . الثانى — أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة فى الدّين ؛ روى هشام بن عُروة عن أبيه عن الزبير : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نِعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ؛ فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخيت أنا كعب بن مالك ، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله ؛ فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيرى ، حتى أنزل الله تعالى هـذه الآية فرجعنا إلى موارثنا . وثبت عن عُروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين الزّبير وبين كعب بن مالك ، فارْتُثّ(٢) كعب يوم أُحُد فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته ؛ فلو مات يومئذ كعب عن الضِّح(٣) والريح لورثه الزبير ، فأنزل الله تعالى : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » . فبيّن الله تعالى أن القرابة أولى من الحِلْف ، فتركت الوراثة بالحِلْف وورثوا بالقرابة . وقد مضى فى « الأنفال »(٤) الكلام فى توريث ذوى الأرحام . وقوله : « فِي كِتَابِ اللَّهِ » يحتمل أن يريد القرآن ، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذى قضى فيه أحوال خلقه . و« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » متعلق بـ « أَوْلَى » لا بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ » بالإجماع ؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصا ببعض المؤمنين ، ولا خلاف فى عمومها ، وهذا حلّ إشكالها ؛ قاله ابن العربى . النحاس : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ » يجوز أن يتعلق « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » بـ « أُولُو » فيكون التقدير : وأُولُو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين . ويجوز أن يكون المعنى أَوْلَى من المؤمنين . وقال المهدوىّ : وقيل إن معناه : وأولو الأرحام بعضهم أولى

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٥٥ فما بعد . (٢) الارتثاث : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح . (٣) الضح (بالكسر) : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض . أراد لو مات عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح ؛ وكنى بهما عن كثرة المال . (٤) راجع جـ ٨ ص ٥٩ .

ببعض فى كتاب الله إلا مايجوز لأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يُدعَين أمهات المؤمنين .
والله تعالى أعلم .

الخامسة — واختلف فى كونهن كالأمهات فى المَحْرَم وإباحة النظر ؛ على وجهين :
أحدهما — هنّ مَحْرَم ، لا يحرم النظر إليهنّ . الثانى — أن النظر إليهن محرّم ، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظًا لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقّه تحريمُ النظر إليهن ؛ ولأن عائشة رضى الله عنها كانت إذا أرادت دخول رجل عليها أمرت (١) أختها أسماء أن ترضعه ليصير آبنًا لأختها من الرضاعة ، فيصير مَحْرَمًا يستبيح النظر . وأما اللاتى طلقهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته فقد آختلف فى ثبوت هذه الحرمة لهن على ثلاثة أوجه : أحدها — ثبتت لهن هذه الحرمة تغليبًا لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الثانى — لا يثبت لهن ذلك ، بل هن كسائر النساء ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أثبت عصمتهن ، وقال : " أزواجى فى الدنيا هنّ أزواجى فى الآخرة " . الثالث — من دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن ثبتت حرمتها وحَرُم نكاحها وإن طلقها ؛ حفظًا لحرمته وحراسة لخلوته ، ومن لم يدخل بها لم تثبت لها هذه الحرمة ؛ وقد همّ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه برجم آمرأة فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوّجت فقالت : لم هذا ! وما ضرب علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجابًا ولا سُمّيت أمّ المؤمنين ؛ فكفّ عنها عمر رضى الله عنه .

السادسة — قال قوم : لا يجوز أن يُسَمَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم أبًا لقوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ » . ولكن يقال : مثل الأب للمؤمنين ؛ كما قال : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم ... " الحديث . خرجه أبو داود . والصحيح أنه يجوز أن يقال : إنه أبٌ للمؤمنين ، أى فى الحرمة ، وقوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » أى فى النسب . وسيأتى . وقرأ ابن عباس : « مِنْ أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه » . وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال : حُكَّها ياغلام ؟ فقال : إنها فى مصحف أُبَىّ ؛ فذهب إليه

(١) راجع جـ ٥ ص ١٠٩ و جـ ٤ ص ١٥٤ شرح الموطأ .

فسأله فقال له أُبَىّ : إنه كان يلهيني القرآن و يلهيك الصَّفْق[1] بالأسواق؟وأغلظ لعمر . وقد قيل فى قول لوط عليه السلام « هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِى »[2] : إنما أراد المؤمنات؛ أى تزوّجوهن . وقد تقدّم .

السابعــة — قال قوم : لا يقال بناته أخوات المؤمنين، ولا أخوالهن أخوال المؤمنين وخالاتهم . قال الشافعىّ رضى الله عنه : تزوّج الزبير أسماء بنت أبى بكر الصديق وهى أخت عائشة، ولم يقل هى خالة المؤمنين . وأطلق قوم هذا وقالوا : معاوية خال المؤمنين؛ يعنى فى الحرمة لا فى النسب .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَـائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ يريد الإحسان فى الحياة، والوصية عند الموت؛ أى إن ذلك جائز؛ قاله قتادة والحسن وعطاء . وقال محمد ابن الحنفيّة : نزلت فى إجازة الوصية لليهودىّ والنّصرانىّ؛أى يفعل هذا مع الوَلِىّ والقريب وإن كان كافرا ؛ فالمشرك وَلِىّ فى النسب لا فى الدّين فيوصى له بوصية . واختلف العلماء هل يجعل الكافر وصيًّا؛ فجوّز بعضٌ ومنع بعض . وردّ النظر إلى السلطان فى ذلك بعض ؛ منهم مالك رحمه الله تعالى . وذهب مجاهد وابن زيد والرّمانى إلى أن المعنى : إلى أوليائكم من المؤمنين . ولفظ الآية يَعْضُد هذا المذهب، وتعميم الولىّ أيضا حسن . وولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنمـا تدفع أن يلقى إليه بالموَدّة كولىّ الإسلام .

التاســعة — قوله تعـالى : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ « الْكِتَابِ » يحتمل الوجهين المذكورين المتقدمين فى « كِتَابِ اللَّهِ » . و « مَسْطُورًا » من قولك سطرت الكتاب اذا أثبتــه أسطارا . وقال قتادة : أى مكتوبًا عند الله عن وجل ألّا يرث كافرٌ مسلما . قال قتادة : وفى بعض القراءة « كَانَ ذَٰلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبًا » . وقال القُرَظىّ : كان ذلك فى التوراة .

قوله تعـالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

(١) الصفق : التبايع . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٦ فما بعد .

قوله تعالى : « ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ أى عهدهم على الوفاء بما حملوا ، وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويصدّق بعضهم بعضا ؛ أى كان مسطورا حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء . ﴿ وَمِنْكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ وإنما خصّ هؤلاء الخمسة وإن دخلوا فى زمرة النبيّين تفضيلا لهم . وقيل : لأنهم أصحاب الشرائع والكتب ، وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم . ويحتمل أن يكون هذا تعظيما فى قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أى هذا مما لم تختلف فيه الشرائع ، أى شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أى كان فى ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة ، والهجرة سبب متأكد فى الدّيانة ، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد ؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن فى دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق ؛ فلا تُداهنوا فى الدين ولا تمالئوا الكفار . ونظيره : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا — إلى قوله — وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »(١) . ومن ترك التفرق فى الدين ترك موالاة الكفار . وقيل : أى النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك فى الكتاب مسطورا ومأخوذا به المواثيق من الأنبياء . ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى عهدًا وثيقًا عظيما على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضا ، والميثاق هو اليمين بالله تعالى ؛ فالميثاق الثانى تأكيد للميثاق الأوّل باليمين . وقيل : الأوّل هو الإقرار بالله تعالى، والثانى فى أمر النبوّة . ونظير هذا قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي »(٢) الآية . أى أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلن محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نبيّ بعده . وقدّم محمدا فى الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ» قال : "كنت أوّلهم فى الخلق وآخرهم فى البعث" . وقال مجاهد : هذا فى ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤ فما بعد .

قوله تعالى : لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها — ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم؛ حكاه النقاش . وفى هذا تنبيه؛ أى إذا كان الأنبياء يُسألون فكيف مَن سواهم .

الثانى — ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ؛ حكاه علىّ بن عيسى .

الثالث — ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم ؛ حكاه ابن شجرة .

الرابع — ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة، وفى التنزيل : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ »(١) . وقد تقدم . وقيل : فائدة سؤالهم توبيخ الكفار؛ كما قال تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ »(٢) . ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

يعنى غزوة الخندق والأحزاب وبنى قُرَيظة(٣) ، وكانت حالا شديدة معقبة بنعمة ورخاء وغبطة ، وتضمّنت أحكاما كثيرة وآيات باهرات عزيزة ، ونحن نذكر من ذلك بعون الله تعالى ما يكفى فى عشر مسائل :

الأولى — اختلف فى أىّ سنة كانت ؛ فقال ابن إسحاق : كانت فى شوال من السنة الخامسة . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ،

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٧٤ .

(٣) سميت غزوة الخندق لأجل الخندق الذى حفر حول المدينة بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما تسميتها بالأحزاب : فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين ، وهم قريش وغطفان واليهود .

وهى وبنو قُريظة فى يوم واحد، وبين بنى قريظة والنَّضير أربع سنين . قال ابن وهب وسمعت مالكا يقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال من المدينة ، وذلك قوله تعالى : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » . قال : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من ها هنا واليهود من ها هنا والنَّجدية من ها هنا . يريد مالك : إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغَطَفان . وكان سببها : أن نفرا من اليهود منهم كنانة بن الربيع بن أبى الحُقَيق وسلام بن أبى الحُقَيق وسلام ابن مِشْكم وحُيَيّ بن أخطب النضيريّون وهَوْذة بن قيس وأبو عمار من بنى وائل ، وهم كلهم يهود ، هم الذين حزّبوا الأحزاب وألّبوا وجمعوا ، خرجوا فى نفر من بنى النَّضير ونفر من بنى وائل فأتوا مكة فدعوا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وواعدوهم من أنفسهم بعون من آنتدب إلى ذلك ؛ فأجابهم أهل مكة إلى ذلك ، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غَطَفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم؛ فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غَطَفان وقائدهم عُيينة بن حصن بن حُذيفة بن بدر الفَزَاريّ على فَزارة ، والحارث بن عوف المُرِّى على بنى مُرّة ، ومسعود بن رُخَيلة على أشجع . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم وخروجهم شاور أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق فرضى رأيه . وقال المهاجرون يومئذ : سلمان منا . وقال الأنصار : سلمان منا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سلمان منّا أهل البيت " . وكان الخندق أوّلَ مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر . فقال : يارسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا؛ فعمل المسلمون فى الخندق مجتهدين ، ونكص المنافقون وجعلوا يتسلّلون لِواذاً (١) فنزلت فيهم آيات من القرآن ذكرها ابن إسحاق وغيره . وكان مَن فرغ من المسلمين من حصّته عاد إلى غيره ، حتى كمل الخندق . وكانت فيه آيات بيّنات وعلامات للنبوّات .

قلت : ففى هذا الذى ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهى : —

---

(١) أى مستخفين ومستترين بعضهم ببعض .

الثانيـــة — مشاورة السلطان أصحابه وخاصّته في أمر القتال ؛ وقد مضى ذلك في « آل عمران ، والنمل »[1] . وفيه التحصّن من العدوّ بما أمكن من الأسباب واستعمالها ؛ وقد مضى ذلك في غير موضع . وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوما على الناس ؛ فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ ، فالمسلمون يدٌ على مَن سواهم ؛ وفي البخاري ومسلم عن البَرَاء بن عازِب قال : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنّي الغبارُ جِلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رَواحة ويقـــول :

اللّهُمَّ لولا أنت ما ٱهتدينا * ولا تصـــدّقنا ولا صَلّينا

فأنزِلَن سكينةً علينَـا * وثبّت الأقدام إن لاقَيْنا

وأما ما كان فيه من الآيات وهي : —

الثالثـــة — فروى النسائي عن أبي سكينة رجلٍ من المحرَّرين[2] عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ المِعْوَل ووضع رداءه ناحية الخندق وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا »[3] الآية ؛ فنَدَرَ[4] ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر، فبَرَق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرْقَةٌ ، ثم ضرب الثانية وقال : « وَتَمَّتْ » الآية ؛ فندر الثلث الآخر ؛ فبرقت برقة فرآها سلمان ، ثم ضرب الثالثة وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا » الآية ؛ فندر الثلث الباقي ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ رداءه وجلس . قال سلمان : يا رسول الله ، رأيتك حين ضربت ! ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رأيت ذلك يا سلمان" ؟ فقال : أيْ والذي بعثك بالحق يا رسول الله ! قال : " فإني حين ضربت الضربة الأولى رُفعت لي مدائن كِسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعينيّ " — قال له من حضره من أصحابه : يا رسول الله ،

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤٩ فما بعد . و جـ ١٣ ص ١٩٤ . (٢) أي المعتق من النار .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٧١ . (٤) ندر : سقط .

ادع الله أن يفتحها علينا و يغنّمنا ذراريهم (١) ويخرّب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربتُ الضربة الثانية فرُفعت لى مدائن قَيْصر وما حولها حتى رأيتها بعينىّ — قالوا : يا رسول الله ، ادع الله تعالى أن يفتحها علينا و يغنمنا ذراريهم و يخرب بأيدينا بلادهم؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربتُ الضربة الثالثة فرُفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعينىّ — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : دعوا الحبشة ما وَدَعوكم وآتركوا الترك ما تركوكم " . وخرجه أيضا عن البَرَاء قال : لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ،فآشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه وأخذ المِعْول وقال : "باسم الله" فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال : " الله أكبر أُعْطِيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكانى هذا " قال : ثم ضرب أخرى وقال : " باسم الله " فكسر ثلثا آخر ثم قال : " الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض " . ثم ضرب الثالثة وقال : " باسم الله " فقطع الحجر وقال : " الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن والله إنى لأبصر باب صنعاء " . صححه أبو محمد عبد الحق .

الرابعة — فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش فى نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهلِ تهامة ، وأقبلت غَطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أُحُد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى نزلوا بظهر سَلْع (٢) فى ثلاثة آلاف وضربوا عسكرهم والخندق بينهم و بين المشركين ، وآستعمل على المدينة آبنَ أُمّ مَكْتوم — فى قول ابن شهاب — وخرج عدوّ الله حُيَىّ بن أخطب النضرى حتى أتى كعب بن أسد القُرَظىّ ، وكان صاحبَ عقد بنى قريظة و رئيسَهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاقده وعاهده؛ فلما سمع كعب بن أسد حُيَىّ بن أخطب

---

(١) فى النسائى : « ديارهم » .	(٢) سلع : جبل بالمدينة .

أغلق دونه باب حصنه وأبى أن يفتح له ؛ فقال له : افتح لى يا أخى ؛ فقال له : لا أفتح لك ، فإنك رجل مشئوم ، تدعونى إلى خلاف محمد وأنا قد عاقدته وعاهدته ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا، فلست بناقض ما بيني و بينه . فقال حُيَيّ : افتح لى حتى أكلمك وأنصرف عنك ؛ فقال: لا أفعل؛ فقال: إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك؛ فغضب كعب وفتح له ؛ فقال : يا كعب ! إنما جئتك بعزّ الدهر ، جئتك بقريش وسادتها، وغَطَفان وقادتها ؛ قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمدا ومن معه ؛ فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام(١) لا غيث فيه ! ويحك ياحُيَيّ ؟ دَعْني فلستُ بفاعل ما تدعونى إليه ؛ فلم يزل حُيَيّ بكَعْب يَعِده ويَغُرّه حتى رجع إليه وعاقده على خِذلان محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأن يسير معهم ؛ وقال له حُيَيّ بن أخطب : إن انصرفت قريش وغَطَفان دخلت عندك بمن معى من اليهود . فلما انتهى خبر كعب وحُيَيّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن عُبادة وهو سيد الخزرج ، وسيّد الأوْس سعد بن معاذ ، و بعث معهما عبد الله بن رَواحة وخَوّات بن جُبير ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انطلقوا إلى بنى قُريظة فإن كان ما قيل لنا حقا فآلحنوا لنا لَحْنًا ولا تَفُتُّوا فى أعضاد الناس . و إن كان كذبا فآجهروا به للناس" فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا عهد له عندنا ؛ فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكانت فيه حدّة فقال له سعد بن عُبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فالذى بيننا و بينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة المسلمين فقالا : عَضَل والقَارَة — يعرّضان بغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرَّجيع خُبيب وأصحابه — فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم . "أبشروا يا معشر المسلمين" وعظم عند ذلك البلاء وآشتدّ الخوف ، وأتى المسلمين عدوُّهم من فوقهم ؛ يعنى من فوق الوادى من قبل المشرق ، ومن أسفل منهم من بطن الوادى من قبل المغرب ، حتى ظنوا بالله الظنونا ، وأظهر المنافقون كثيرا مما كانوا يسرّون ، فمنهم من قال : إن بيوتنا عورة ، فلننصرف إليها ،

---

(١) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

فإنا نخاف عليها ؛ وممن قال ذلك : أَوْس بن قَيْظى . ومنهـم من قال : يَعِـدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط ! وممن قال ذلك : مُعَتِّب بن قُشَير أحد بني عمرو بن عوف . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون بضعا وعشرين ليـلة قريبا من شهر لم يكن بينهم حَرْب إلا الرمي بالنَّبْل والحصى . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اشتدّ على المسلمين البلاء بعث إلى عُيَيْنة بن حِصن الفَزَارى ، وإلى الحـارث بن عوف المرِّى ، وهمـا قائدا غَطَفان ، فأعطاهمـا ثلث ثمـار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطفان ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هـذه المقالة مراوضة ولم تكن عقدا ؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضِيَا أتى سـعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما وآستشارهما فقالا : يا رسول الله ، هـذا أمر تحبّه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ، أو أمر تصنعه لنـا؟ قال : "بل أمر أصنعه لكم ، والله ما أصنعه إلا أنّى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قَوْس واحدة" فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمِعوا قَطّ أن ينالوا منا ثمرة إلا شِراء أو قِرًى ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! ! فسُرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وقال : "أنتم وذاك" . وقال لعيينة والحارث : "انصرفا فليس لكما عنـدنا إلا السيف" . وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فمحاها .

الخامســـة — فأقام رسـول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على حالهم ، والمشركون يحاصرونهم ولا قتال بينهم ؛ إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ العامرىّ من بني عامر بن لُؤَىّ ، وعِكرمة بن أبى جهل ، وهُبَيرة بن أبى وهب ، وضِرار بن الخطاب الفهرىّ ، وكانوا فرسان قريش وشجعانهم ، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : إن هـذه لمكيدة ، ما كانت العـرب تكيدها . ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخنـدق ، فضربوا خيلهـم فاقتحمت بهم ، وجاوزوا الخندق وصاروا بين الخندق وبين سَلْع ، وخرج على بن أبى طالب

فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثُّغرة التى اقتحموا منها ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، وكان عمرو بن عبد وُدّ قد أثبتته الجراح يوم بَدْر فلم يشهد أُحُدًا ، وأراد يوم الخندق أن يُرى مكانُه ، فلما وقف هو وخيله ، نادى : من يبارز ؟ فبرزله علىّ بن أبى طالب وقال له : ياعمرو ، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تُدْعَى إلى إحدى خَلّتين إلا أخذت احداهما ؟ قال نعم . قال : فإنى أدعوك إلى الله والإسلام . قال : لا حاجة لى بذلك . قال : فأدعوك إلى البراز . قال : يا بن أخى ، والله ما أحبّ أن أقتلك لما كان بينى وبين أبيك . فقال له علىّ : أنا والله أحبّ أن أقتلك . فحَمِى عمرو بن عبد وُدّ ونزل عن فرسه ، فعقره وصار نحو علىّ ، فتنازلا وتجاولا وثار النقع بينهما حتى حال دونهما ، فما انجلى النَّقْع حتى رُئِىَ علىّ على صدر عمرو يقطع رأسه ، فلما رأى أصحابُه أنه قد قتله علىّ اقتحموا بخيلهم الثُّغرة منهزمين هاربين . وقال علىّ رضى الله عنه فى ذلك :

نصر الحجارةَ من سفاهة رأيه * ونصرتُ دِينَ محمد بضراب (١)

نازلته فتركته متجدِّلًا (٢) * كالجذع بين دَكادكٍ ورَوابى (٣)

وعففتُ عن أثوابه ولو أننى * كنت المقطَّرَ بَزَّنى أثوابى (٤)

لا تحسبَنَّ الله خاذلَ دينه * ونبيِّه يا معشر الأحزاب

قال ابن هشام : أكثر أهل العلم بالسير (٥) يشك فيها لعلىّ . قال ابن هشام : وألقى عِكرمة ابن أبى جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ؛ فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

فرّ وألقَى لنا رُمْحَه * لعلّك عِكرِمَ لم تَفْعلِ

ووليت تَعْدُو كعَدْوِ الظّلِ * يم ما إن تجور عن المَعْدِلِ

ولم تُلق ظهرك مستأنسًا * كأن قفاك قَفَا فُرْعُلِ

(١) فى سيرة ابن هشام : « بصوابى » . (٢) فى سيرة ابن هشام : « فصددت حين تركته ... » .

(٣) المتجدّل : اللاصق بالأرض . والدكادك : جمع دكداك ، وهو الرمل اللين . والروابى : جمع رابية ، وهو ما ارتفع من الأرض . (٤) المقطر : الذى ألقى على أحد قطريه ، أى جنبيه . و بزنى : سلبنى وجردنى .

(٥) فى سيرة ابن هشام : « بالشعر » .

قال ابن هشام : فرعل صغير الضباع . وكانت عائشة رضي الله عنها في حصن بني حارثة ، وأمّ سعد بن معاذ معها ، وعلى سعد درع مُقَلَّصة (١) قد خرجت منها ذراعه ، وفي يده حربته وهو يقول :

لَبِّثْ قليلاً يلحق الهَيْجَا جَمَلْ * لا بأس بالموت إذا كان الأجَلْ

ورُمي يومئذ سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل (٢) . واختلف فيمن رماه ؛ فقيل : رماه حِبّان بن قيس ابن العَرِقة (٣) ، أحد بني عامر بن لؤي ، فلما أصابه قال له : خذها وأنا ابن العَرِقة . فقال له سعد : عرّق الله وجهك في النار . وقيل : إن الذي رماه خفاجة ابن عاصم بن حبان (٤) . وقيل : بل الذي رماه أبو أسامة الجُشَمي ، حليف بني مخزوم . ولحسان مع صفية بنت عبد المطلب خبر طريف يومئذ ؛ ذكره ابن إسحاق وغيره .

قالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها : كنا يوم الأحزاب في حصن حسان ابن ثابت ، وحسان معنا في النساء والصبيان ، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في نحر العدو لا يستطيعون الانصراف إلينا ، فإذا يهودي يدور ، فقلت لحسان : انزل إليه فاقتله ؛ فقال : ما أنا بصاحب هذا يابنة عبد المطلب ! فأخذت عمودا ونزلت من الحصن فقتلته ، فقلت : يا حسان ، انزل فاسلبه ، فلم يمنعني من سَلَبه إلا أنه رجل . فقال : مالي بسلبه حاجة يابنة عبد المطلب ! قال : فنزلت فسلبته . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد أنكر هذا عن حسان جماعة من أهل السِّيَر وقالوا : لو كان في حسان من الجبن ما وصفتم لهجاه بذلك الذين كان يهاجيهم في الجاهلية والإسلام ، ولَهُجِيَ بذلك ابنه عبد الرحمن ؛ فإنه كان كثيرا ما يهاجي الناس من شعراء العرب ؛ مثل النجاشي وغيره .

السادسة — وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي ، فمُرْني بما شئت ؛ فقال له رسول

---

(١) مقلصة : مجتمعة منضمة . (٢) الأكحل : عرق في وسط الذراع . (٣) العرقة (بفتح العين وكسر الراء) : أم حبان ، واسمها قلابة بنت سعيد بن سعد تكنى أم فاطمة ، وسميت العرقة لطيب ريحها ، وهي جدة خديجة . (٤) في الأصول : « جبارة » والتصويب من سيرة ابن هشام وشرح المواهب .

الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنت رجل واحد من غَطَفان فلو خرجتَ فخذّلت عنّا إن استطعت كان أحبّ إلينا من بقائك معنا فآخرج فإن الحرب خدعة (١) (٢) " . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قُريظة — وكان ينادمهم فى الجاهلية — فقال : يابنى قريظة ، قد عرفتم وُدّى إياكم ، وخاصّة مابينى و بينكم ؛ قالوا : قل فلستَ عندنا بمتّهم ؛ فقال لهم : إن قريشا وغَطَفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، و إن قريشا وغَطَفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نُهْزَة (٢) أصابوها ، و إن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوْا بينكم و بين الرجل ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا . ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لهم : قد عرفتم وُدّى لكم معشرَ قريش ، وفراقى محمدا ، وقد بلغنى أمر أرى من الحق أن أبلّغكموه نصحًا لكم ، فاكتموا علىّ ؛ قالوا نفعل ؛ قال : تعلمون أن معشر يهودَ ، قد نَدِموا على ما كان من خذلانهم محمدا ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد نَدِمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغَطَفان [رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب] (٣) أعناقهم ، ثم نكون معك على ما بقى منهم حتى نستأصلهم . ثم أتى غَطَفان فقال مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين ، أرسل أبو سفيان إلى بنى قُرَيظة عِكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان يقول لهم : إنا لسنا بدار مُقام ، قد هلك الخُفّ والحافر ، فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز محمدا ؛ فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما نال منّا مَن تعدّى فى السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا ؛ فلما رجع الرسول بذلك قالوا : صَدَقنا والله نعيم بن مسعود ؛ فردّوا

(١) فى ك : « أن تقاتل معنا » . وفى جـ : « مقامك » . قوله : « خدعة » فى النهاية لابن الأثير : « يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال ، وبضمها مع فتح الدال . فالأول معناه : أن الحرب ينقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع ؛ أى أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة . وهى أفصح الروايات وأصحها . ومعنى الثانى : هو الاسم من الخداع . ومعنى الثالث : أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفى لهم ، كما يقال : فلان رجل لعبة وضحكة ؛ أى كثير اللعب والضحك .

(٢) النهزة : الفرصة تجدها من صاحبك .

(٣) ما بين المربعين كذا ورد فى ك . والذى فى جـ ، ش : « ... وغطفان رهنا رجالا ونسلمهم » .

إليهم الرسل وقالوا : والله لا نعطيكم رهنا أبدا فاخرجوا معنا إن شئتم و إلا فلا عهد بيننا و بينكم . فقال بنو قريظة : صدق والله نعيم بن مسعود . وخذل الله بينهم، واختلفت كلمتهم، وبعث الله عليهم رِيحًا عاصفًا فى ليالٍ شديدة البرد؛ فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم .

السابعة — فلما اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف أمرهم، بعث حذيفة ابن اليمان ليأتيه بخبرهم، فأتاهم واستتر فى غمارهم(١)، وسمع أبا سفيان يقول : يامعشر قريش ، ليتعرف كل امرئ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد جليسى وقلت : ومن أنت؟ فقال : أنا فلان . ثم قال أبو سفيان : و يلكم يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخُفّ(٢) وأخلفتنا بنو قُريظة ، ولقينا من هذه الريح ماترون، ما يستمسك لنا بناء، ولا تثبت لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا فإنى مرتحل ؛ ووثب على جمله فما حلّ عقال يده إلا وهو قائم . قال حذيفة : ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لى إذ بعثنى ، قال لى : "مُرّ إلى القوم فاعلم ما هم عليه ولا تحدث شيئا" — لقتلته بسهم ؛ ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رحيلهم ، فوجدته قائما يصلّى فى مِرْط لبعض نسائه مراجل — قال ابن هشام : المراجل ضرب من وَشْى اليمن — فأخبرته فحمد الله .

قلت : وخبر حذيفة هذا مذكور فى صحيح مسلم ، وفيه آيات عظيمة ، رواه جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمىّ عن أبيه قال : كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبلَيْت . فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ! لقد رأيتُنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقرّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألَا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة" ؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال : "ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة" ؟ فسكتنا فلم يجبه أحد . فقال : "قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم" فلم أجد بُدًّا إذ دعانى باسمى أن أقوم . قال : "اذهب فأتنى بخبر القوم ولا تَذْعَرْهم(٣) علىّ" قال : فلما ولّيت من عنده جعلت كأنما

(١) مثلث الغين .　　(٢) الكراع : اسم يجمع الخيل . والخف : اسم يجمع الإبل .
(٣) الذعر : الفزع ، يريد لا تعلمهم بنفسك وامش فى خفية لئلا ينفروا منك و يقبلوا علىّ .

أمشي في حَمّام(١) حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يَصْلِي ظهره بالنار، فوضعت سهما في كَبِد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولا تَذْعَرْهم عليّ" ولو رميته لأصبته: فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمّام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ قُرِرت، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلّي فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: "قم يا نَوْمان". ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذهب الأحزاب، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم، فأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم في صورة دِحْيَة بن خليفة الكلبي، على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له: يا محمد، إن كنتم قد وضعتم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها. إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قُريظة، وإني متقدم إليهم فمزلزل بهم حصونهم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي: —

الثامنة — مناديا فنادى: لا يصلّينّ أحد العصر إلا في بني قُريظة؛ فتخوّف ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قُريظة. وقال آخرون: لا نصلّي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت. قال: فما عنّف واحدا من الفريقين. وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين. وقد مضى بيانه في «الأنبياء»(٢). وكان سعد بن معاذ إذ أصابه السهم دعا ربه فقال: اللّهم إن كنت أبقيتَ من حرب قريش فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أحب أن أجاهدهم من قوم كذّبوا رسولك وأخرجوه. اللّهمّ وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تُمِتْني حتى تقرّ عيني في بني قُريظة. وروى ابن وهب عن مالك قال: بلغني أن سعد بن معاذ مرّ بعائشة رضي الله عنها ونساءٍ معها في الأُطُم(٣) (فارع)(٤)، وعليه دِرع مُقلَّصة(٥) مشمّر الكُمّين، وبه أثر صفرة وهو يرتجز:

لَبِّثْ قليلاً يُدرِك الهَيْجا جَمَلْ * لا بأس بالموت إذا حان الأَجَلْ

---

(١) يقول: كأنما أمشي في حرّ لم يصبني برد ولا من تلك الريح الشديدة شيء ببركة توجيه النبي صلى الله عليه وسلم.
(٢) راجع جـ ١١ ص ٣١١. (٣) الأطم: حصن مبني بحجارة. (٤) في الأصول: «في الأطم الذي فارع». وفارع حصن بالمدينة، يقال إنه حصن حسان بن ثابت. (٥) مقلصة: مجتمعة منضمة.

فقالت عائشة رضى الله عنها : لست أخاف أن يصاب سعد اليوم إلا فى أطرافه؛ فأصيب فى أَكْحَله . وروى ٱبن وهب وٱبن القاسم عن مالك قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رجلا أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصيب فى أكحله ثم قال : اللهم إن كان حرب قُرَيظة لم يبق منه شيء فاقبضنى إليك ، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقنى حتى أجاهد مع رسولك أعداءه ؛ فلما حُكِّم فى بنى قُرَيظة تُوُفِّىَ ؛ ففرح الناس وقالوا : نرجو أن يكون قد استجيبت دعوته .

التاسعة — ولما خرج المسلمون إلى بنى قُرَيظة أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية علىّ بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة ٱبن أمّ مَكْتوم ، ونهض علىّ وطائفة معه حتى أتوا بنى قريظة ونازلوهم ، فسمعوا سبّ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانصرف علىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يارسول الله ، لا تبلغ إليهم ، وعَرَّض له . فقال له : " أظنك سمعت منهم شتمى . لو رأونى لكفُّوا عن ذلك " ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا . فقال لهم : " نقضتم العهد يا إخوة القرود أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته " فقالوا : ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا ؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة . وعرض عليهم سيّدهُم كعب ثلاثَ خصال ليختاروا أيّها شاءوا : إما أن يُسلموا و يتبعوا محمدا على ماجاء به فيسلَموا . قال : وتحرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم ، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذى تجدونه مكتوبا فى كتابكم . وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدموا ؛ فيقاتلون حتى يموتوا من آخرهم . وإما أن يبيّتوا المسلمين ليلة السبت فى حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلا . فقالوا له : أما الإسلام فلا نُسلم ولانخالف حكم التوراة ، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم ، ونحن لا نتعدّى فى السبت . ثم بعثوا إلى أبى لُبابة ، وكانوا حلفاء بنى عمرو بن عوف وسائر الأَوْس ، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالهم وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ فقال نعم ، — وأشار بيده إلى حَلْقه — إنه الذبح إن فعلتم . ثم ندم أبو لبابة فى الحين ، وعلم أنه خان الله ورسوله ، وأنه أمرٌ لا يستره الله عليه عن نبيّه صلى الله عليه وسلم .

فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فربط نفسه فى سارية وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه فكانت امرأته تَحُلّه لوقت كل صلاة . قال ابن عُيينة وغيره : فيه نزلت : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ»[1] الآية . وأقسم ألّا يدخل أرض بنى قُريظة أبدا مكاناً أصاب فيه الذنب . فلما بلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم مِن فعل أبى لُبابة قال : "أمَا إنه لوأتانى لاستغفرت له وأمّا إذْ فعل مافعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى" فأنزل الله تعالى فى أمر أبى لبابة : «وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ»[2] الآية . فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطلاقه ، فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثب الأوْس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله، وقد علمتَ أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفتَ[3] عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول فى بنى النَّضير حلفاء الخَزْرج، فلايكن حظُّنا أوْكَسَ وأنقص عندك من حَظّ غيرنا ، فهم موالينا . فقال لهم رســول الله صلى الله عليه وسلم : "يا معشر الأوس ألّا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم — قالوا بلى . قال — : — فذلك إلى سعد بن معاذ" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب له خيمة فى المسجد ، ليعوده من قريب فى مرضه من جرحه الذى أصابه فى الخندق . فحكم فيهــم بأن تُقتل المقاتِلة ، وتُسْبَى الذرية والنساء ، وتقسم أموالهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة[4]" . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم — زمن ابن إسحاق — فخندق بها خنادق ، ثم أمر عليه السلام فضربت أعناقهم فى تلك الخنادق ، وقتل يؤمئذ حييّ بن أخْطب وكعب بن أسد ، وكانا رأس القوم ، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة . وكان على حُيَيّ حُلّة فُقّاحيّة[5] قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة ، أنملة أنملة لئلا يُسْلَبها . فلما نظر إلى رسول الله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٤ . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٤٢ .
(٣) الأسعاف : قضاء الحاجة . (٤) أرقعة جمع رقيع ، والرقيع السماء ؛ سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم .
(٥) أي بلون الورد حين أن يتفتح .

صلى الله عليه وسلم حين أتى به و يداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال : أمَا والله ما لُمتُ نفسى فى عداوتك .

* ولكنه من يخذل الله يخذل *

ثم قال : يأيها الناس، لا بأس بأمر الله كتاب وقَدَر ومَلْحمة(١) كُتبت على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه . وقتـل من نسائهم امرأة ، وهى بُنـانة امرأة الحكم القُرَظِىّ التى طرحت الرَّحَى على خَلّاد بن سُويد فقتلته . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل كل من أنبت منهـم وترك من لم يُنبِت . وكان عطية القُرَظِىّ ممن لم ينبت ، فاستحياه رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مذكور فى الصحابة . ووَهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت ابن قيس بن شَمّاس ولَدَ الزَّبِير بن باطا فاستحياهم؛ منهم عبد الرحمن بن الزَّبير أسلم وله صحبة . ووَهَب أيضا عليه السلام رفاعة بن سَمَوْءل القرظى لأم المنذر سلمى بنت قيس، أخت سَليط ابن قيس من بنى النجار، وكانت قد صلّت إلى القبلتين؛ فأسـلم رفاعة وله صحبة و رواية . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : أتى ثابت بن قيس بن شَمّـاس إلى ابن باطا — وكانت له عنده يد — وقال : قد استوهبتك من رسول الله صلى الله عليه وسـلم ليدك التى لك عندى ، قال : ذلك يفعل الكريم بالكريم ، ثم قال : وكيف يعيش رجل لا ولد له ولا أهل ؟ قال : فأتى ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فأعطاه أهله وولده ، فأتى فأعلمه فقال : كيف يعيش رجل لا مال له ؟ فأتى ثابت النبىّ صلى الله عليه وسلم فطلبـه فأعطاه ماله ، فرجع إليـه فأخبره ؛ قال : ما فعل ابن أبى الحُقَيق الذى كأن وجهه مرآة صينية ؟ قال : قتـل . قال : فما فعل المجلسان ، يعنى بنى كعب بن قريظة و بنى عمرو ابن قُريظة؟ قال : قتلوا . قال : فما فعلت الفئتان؟ قال : قتلتا . قال : برئت ذمتك، ولن أصبّ فيها دلوا أبدا، يعنى النخل، فألحقنى بهم، فأبى أن يقتله فقتله غيره . واليد التى كانت لابن باطا عند ثابت أنه أسره يوم بُعاث فجز ناصيته وأطلقه .

---

(١) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل .

العاشرة — وقسم صلى الله عليه وسلم أموال بنى قُريظة فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما . وقد قيل : للفارس سهمان وللراجل سهم . وكانت الخيل للمسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرسا . ووقع للنبي صلى الله عليه وسلم من سَبْيِهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة[١] أحد بنى عمرو بن قُريظة، فلم تزل عنده إلى أن مات صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن غَنيمة قريظة هى أول غنيمة قسِّم فيها للفارس والراجل، وأول غنيمة جعل فيها الخُمس . وقد تقدم أن أول ذلك كان فى بعث عبد الله بن جَحْش؛ فالله أعلم . قال : أبو عمر : وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أولَ غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ »[٢] الآية . وكان عبد الله بن جَحْش قد خمّس قبل ذلك فى بعثه ، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله ؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه .

وكان فتح قريظة فى آخر ذى القعدة وأول ذى الحجة من السنة الخامسة من الهجرة . فلما تمّ أمر بنى قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ ، فانفجر جرحه ، وانفتح عرقه، فجرى دمه ومات رضى الله عنه . وهو الذى أتى الحديث فيه : "اهتزّ لموته عَرْشُ الرحمن" يعنى سكان العرش من الملائكة فرحوا بقدوم روحه واهتزّوا له . وقال ابن القاسم عن مالك : حدّثنى يحيى بن سعيد قال : لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملَك ، ما نزلوا إلى الأرض قبلها . قال مالك : ولم يستشهد يوم الخَنْدق من المسلمين إلا أربعة أو خمسة .

قلت : الذى اسْتُشْهِد يوم الخندق من المسلمين ستةُ نفرٍ فيما ذكر أهل العلم بالسِّيَر : سعد ابن معاذ أبو عمرو من بنى عبد الأشهل ، وأنس بن أُوس بن عتيك ، وعبد الله بن سهل ، وكلاهما أيضا من بنى عبد الأشهل ، والطّفيل بن النعمان ، وثعلبة بن غَنَمَة[٣] ، وكلاهما من بنى سلمة ، وكعب بن زيد من بنى دينار بن النجار ، أصابه سَهْمٌ غَرْبٌ[٤] فقتله ، رضى الله عنهم .

(١) ويقال : فيه «خنافة» بالخاء المعجمة . (٢) راجع جـ ٨ ص ١ . (٣) فى المواهب اللدنية والإصابة : « ثعلبة بن عنمة بفتح العين المهملة والنون » . (٤) قال ابن هشام : « سهم غرب ، وسهم غرب (بإضافة وغير إضافة) وهو الذى لا يعرف من أين جاء ولا من رمى به » .

وقتل من الكفار ثلاثة : منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار ، أصابه سهم مات منه بمكة . وقد قيل : إنما هو عثمان بن أمية بن منبه بن عبيد بن السباق . ونوفل بن عبد الله ابن المغيرة المخزومي ، اقتحم الخندق فتورّط فيه فقتِل ، وغلب المسلمون على جسده ؛ فروى عن الزهري أنهم أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جسده عشرة آلاف درهم فقال : "لا حاجة لنا بجسده ولا بثمنه" فخلّى بينهم و بينه . وعمرو بن [عبد] ودّ الذى قتله عليّ مبارزة، وقد تقدّم . واستشهد يوم قُريظة من المسلمين خَلّاد بن سُويد بن ثعلبة بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج ؛ طرحت عليه امرأةٌ من بني قُريظة رحى فقتلته . ومات في الحصار أبو سنان بن مِحْصَن بن حُرْثان الأسدي ، أخو عُكاشة بن مِحْصَن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقبرة بني قُريظة التي يتدافن فيها المسلمون السكان بها اليوم . ولم يُصب غير هذين ، ولم يغزُ كفارُ قريش المؤمنين بعد الخندق . وأسند الدارِميّ أبو محمد في مسنده : أخبرنا يزيد ابن هارون عن ابن أبي ذِئب عن المَقْبُرِيّ عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن أبيه قال : حُبِسنا يوم الخندق حتى ذهب هوِيّ[1] من الليل حتى كفينا ؛ وذلك قول الله عز وجل : « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالًا فأقام فصلّى الظهر فأحسن كما كان يصليها في وقتها ، ثم أمره فأقام العصر فصلّاها ، ثم أمره فأقام المغرب فصلّاها ، ثم أمره فأقام العشاء فصلّاها ، وذلك قبل أن ينزل : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا[2] أَوْ رُكْبَانًا » خرّجه النسائي أيضا . وقد مضت هذه المسألة في « طه »[3] . وقد ذكرنا في هذه الغزاة أحكاما كثيرة لمن تأملها في مسائل عشر . ثم نرجع إلى أوّل الآي وهي تسع عشرة آية تضمّنت ما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعني الأحزاب . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ قال مجاهد : هي الصَّبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم . قال : والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذ . وقال عِكْرِمة : قالت الجنوب للشَّمال ليلة الأحزاب :

---

(١) الهوى (بالفتح) : الزمان الطويل . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٢٣ . (٣) راجع ج ١١ ص ١٨٠

انطلق لنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت الشّمال : إن مَحْوَةَ(١) لا تسرى بليل . فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصَّبا . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نُصرت بالصَّبا وأهلِكت عادٌ بالدَّبور" . وكانت هذه الريح معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا قريبا منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا فى عافية منها، ولا خبر عندهم بها . ﴿ وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وقرئ بالياء؛ أى لم يرها المشركون . قال المفسرون : بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها فى بعض ، وأرسل الله عليهم الرُّعْب ، وكثر تكبير الملائكة فى جوانب العسكر؛ حتى كان سيِّد كل خباء يقول : يابنى فلان هُلُمّ إلىّ فإذا اجتمعوا قال لهم : النَّجاءَ النَّجاءَ ؛ لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ وقرئ: «يعملون» بالياء على الخبر، وهى قراءة أبى عمرو . الباقون بالتاء؛ يعنى من حفر الخندق والتحرز من العدوّ .

قوله تعالى : إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ « إِذْ » فى موضع نصب بمعنى واذكر . وكذا «وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ» . «مِنْ فَوْقِكُمْ» يعنى من فوق الوادى، وهو أعلاه من قبل المشرق ، جاء منه عَوْف بن مالك فى بنى نصر ، وعيينة بن حِصْن فى أهل نجد، وطُليحة ابن خويلد الأسدى فى بنى أسد . « وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ » يعنى من بطن الوادى من قبل المغرب ، جاء منه أبو سفيان بن حَرْب على أهل مكة ، ويزيد بن جَحْش على قريش ، وجاء أبو الأعور السُّلَمى ومعه حُيَيّ بن أخطب اليهودى فى يهود بنى قُريظة مع عامر بن الطُّفَيل من وجه الخندق . ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى شَخَصت . وقيل : مالت؛ فلم تلتفت إلا إلى

(١) محوة : من أسماء الشمال ؛ لأنها تمحو السحاب وتذهب بها ، وهى معرفة لا تنصرف ، ولا تدخلها ألف ولام .

عدوّها دَهَشًا من فرط الهَوْل . ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهي الحلاقيم، واحدها حنجرة؛ فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة . وقيل : هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد ؛ قال[1] :

إذا ما غَضِبْنَا غَضْـــبَةً مُضَـــرِيَّةً　＊　هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دَمَا

أي كادت تقطر . ويقال : إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلا؛ ولهذا يقال للجبان : انتفخ سَحْره . وقيل : إنه مثل مضروب في شدّة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة . قال معناه عكرمة . روى حماد ابن زيد عن أيوب عن عكرمة قال : بلغ فزعها . والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه ؛ أي كأنه لشدّة اضطرابه بلغ الحنجرة . والحنجرة والحُنجور (بزيادة النون) حرف الحلق . ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال الحسن : ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون . وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أي قلتم هلك محمد وأصحابه . وآختلف القرّاء في قوله تعالى : «الظُّنُونَا ، والرسولا ، والسبيلا» آخر السورة ؛ فأثبت ألفاتها في الوقف والوصل نافع وابن عامر . وروى عن أبي عمرو والكسائي تمسكا بخط المصحف، مصحف عثمان، وجميع المصاحف في جميع البلدان . وآختاره أبو عبيد ؛ إلا أنه قال : لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن . قالوا : ولأن العرب تفعل ذلك في قوافي أشعارهم ومصاريعها ؛ قال :

نحن جلبنا القُرَّح[2] القوافِلَا　＊　تستنفر الأواخرُ الأوائلا

وقرأ أبو عمرو والجحدريّ ويعقوب وحمزة بحذفها في الوصل والوقف معا . قالوا : هي زائدة في الخط كما زيدت الألف في قوله تعالى : «وَلَأَوْضَعُوا[3] خِلَالَكُمْ» فكتبوها كذلك ، وغير هذا . وأما الشعر فموضع ضرورة ، بخلاف القرآن فإنه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه . قال آبن الأنباري : ولم يخالف المصحف من قرأ . « الظنون . والسبيل . والرسول » بغير ألف

---

(١) القائل هو بشار بن برد .　　(٢) القرح : جمع القارح ، وهي الناقة أوّل ما تحمل .

(٣) هذا يدل على أن رسم المصحف : « ولا أوضعوا » بزيادة ألف .

فى الحروف الثلاثة، وخطّهن فى المصحف بألف لأن الألف التى فى « أطعنا » والداخلة فى أوّل « الرسول . والظنون . والسبيل » كفى من الألف المتطرفة المتأخرة كما كَفَتْ ألفُ أبى جادٍ من ألف هوّاز . وفيه حجة أخرى : أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يُلحق دِعامة للحركة التى تسبق والنية فيه السقوط ؛ فلما عُمل على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشىء الواحد يوجب الوقفُ سقوطَهما و يعمل على أن صورة الألف فى الخط لا توجب موضعا فى اللفظ، وأنها كالألف فى «سٰحِران» وفى «فٰطِر السموات والأرض» وفى «وٰعَدْنَا مُوسى» وما يشبههن مما يُحذف من الخط وهو موجود فى اللفظ (١)، وهو مسقط من الخط . وفيه حجة ثالثة هى أنه كتب على لغة من يقول لقيت الرجلا . وقرئ على لغة من يقول : لقيت الرجل، بغير ألف . أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنهم رووا عن العرب قام الرّجلُو، بواو، ومررت بالرجلى، بياء، فى الوصل والوقف . ولقيت الرجلا ؛ بألف فى الحالتين كلتيهما . قال الشاعر :

أسائلةٌ عُميرةُ عن أبيها * خلالَ الجيش تَعْتَرِف الرّكابا (٢)

فأثبت الألف فى « الركاب » بناء على هذه اللغة . وقال الآخر :

إذا الجوزاء أردفت الثريا * ظننت بآل فاطمة الظنونا

وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره . وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن والكسائىّ بإثباتها فى الوقف وحذفها فى الوصل . قال ابن الأنبارىّ : ومن وصل بغير ألف ووقف بألف لجائز أن يحتج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصًا على بقاء الفتحة، وأن الألف تدعمها وتقويها .

قوله تعالى : هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

« هنا » للقريب من المكان . و « هنالك » للبعيد . و « هناك » للوسط . ويشار به إلى الوقت، أى عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال . ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ أى حرّكوا تحريكا .

(١) فى الأصول : « وهو موجود فى اللفظ ويثبت فى اللفظ وهو ... » .
(٢) البيت لبشر بن أبى خازم . واعترف القوم : سألهم .

قال الزجاج : كل مصدر من المضاعف على فِعلال يجوز فيه الكسر والفتح ؛ نحو قلقلته قِلقالا وقَلقالاً ، وزلزلوا زِلزالاً وزَلزالاً . والكسر أجود ؛ لأن غير المضاعف على الكسر نحو دحرجته دِحراجا . وقراءة العامة بكسر الزاى . وقرأ عاصم والجحدرِىّ « زَلزالا » بفتح الزاى . قال ابن سلام : أى حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا . وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق . وقيل : إنه ٱضطرابهم عما كانوا عليه ؛ فمنهم من اضطرب فى نفسه ومنهم من اضطرب فى دينه . و « هنالك » يجوز أن يكون العامل فيه « ٱبْتُلِيَ » فلا يوقف على «هنالك» . ويجوز أن يكون « وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » فيوقف على «هنالك» .

قوله تعالى : وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق . ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى باطلا من القول . وذلك أن طُعْمة بن أُبَيْرِق ومُعَتِّب ٱبن قُشير وجماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق : كيف يَعِدُنا كنوز كِسْرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرّز ؟ وإنما قالوا ذلك لمّا فَشَا فى أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم من قوله عند ضرب الصخرة ، على ما تقدم فى حديث النسائىّ ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ الطائفة تقع على الواحد فما فوقه . وعُنِى به هنا أَوْس بن قَيْظِىّ والد عَرابة بن أوس ؛ الذى يقول فيه الشماخ :

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجْد * تلقّاها عَرابةُ باليمين

و «يَثْرِب» هى المدينة؛ وسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض، والمدينة ناحية منها . السُّهَيْلِيّ : وسميت يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم . وفى بعض هـذه الأسماء اختلاف . و بنو عميل(١) هم الذين سكنوا الجُحْفَة(٢) فأجحفت بهم السيول فيها . و بها سميت الجحفة . ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بفتح الميم قراءة العامة . وقرأ حفص والسُّلَمى والجحدرى وأبو حَيْوَة : بضم الميم؛ يكون مصدرا من أقام يقيم، أى لا إقامة، أو موضعا يقيمون فيه . ومن فتح فهو اسم مكان؛ أى لا موضع لكم تقيمون فيه . ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أى إلى منازلكم . أمروهم بالهروب من عسكر النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : قالت اليهود لعبد الله بن أُبَىّ آبن سلول وأصحابه من المنافقين : ما الذى يحملكم على قتـل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه ! فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم فأنتم آمنون .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ فى الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثة ابن الحارث، فى قول ابن عباس . وقال يزيد بن رُومان : قال ذلك أوس بن قَيظِىّ عن ملإ من قومه . ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أى سائبة ضائعة ليست بحصينة، وهى مما يلى العدوّ . وقيـل : مُمْكِنة للسّراق لخلوها من الرجال . يقـال : دارٌ مُعْوِرة وذات عَوْرة إذا كان يسهل دخولها . يقال : عَوِر المكان عَوَرًا فهو عَوِر . و بيوت عَوِرة . وأعْور فهو مُعوِر . وقيل : عَوِرة ذات عَوْرة . وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عَوْرة؛ قاله الهرَوِىّ . وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو رجاء العُطارِدىّ : «عَوِرة» بكسر الواو؛ يعنى قصيرة الجدران فيها خلل . تقول العرب : دار فلانٍ عَوِرة إذا لم تكن حصينة . وقـد أعور الفارس إذا بدَا فيـه خَلَل للضرب والطعن؛ قال الشاعر :

متى تَلْقَهـم لم تَلْقَ فى البيت مُعْـوِرًا * ولا الضيفَ مفجوعًا ولا الجارَ مُرْمِلَا

---

(١) فى كتاب معجم البلدان لياقوت : «يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليـه السلام» .

(٢) فى معجم البلدان : «وقال الكلبى : إن العماليق أخرجوا بنى عقيل وهم إخوة عاد فنزلوا الجحفة ...» .

الجوهرى : والعورة كل خلل يتخوف منه فى ثغر أو حرب . النحاس : يقال أعور المكان إذا تبينت فيه عورة، وأعور الفارس إذا تبين فيه موضع الخلل . المهدوى : ومن كسر الواو فى «عورة» فهو شاذ؛ ومثله قولهم : رجل عور؛ أى لا شىء له (١) ، وكان القياس أن يعل فيقال : عار؛ كيوم راح (٢) ، ورجل مال؛ أصلهما روح ومول . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ تكذيبا لهم وردا عليهم فيما ذكروه . ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى ما يريدون إلا الهرب . قيل : من القتل . وقيل : من الدين . وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى قبيلتين من الأنصار : بنى حارثة وبنى سلمة؛ وهموا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق ، وفيهم أنزل الله تعالى : «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا (٣)» الآية . فلما نزلت هذه الآية قالوا : والله ما ساءنا ما كنا هممنا به ؛ إذ الله ولينا . وقال السدى : الذى استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بنى حارثة أحدهما — أبو عرابة بن أوس ، والآخر أوس بن قيظى . قال الضحاك : ورجع ثمانون رجلا بغير إذنه .

قوله تعالى : وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ﴾ وهى البيوت أو المدينة؛ أى من نواحيها وجوانبها ، الواحد قطر، وهو الجانب والناحية . وكذلك القتر لغة فى القطر . ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا ﴾ أى لجاءوها؛ هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر . وقرأ الباقون بالمد؛ أى لأعطوها من أنفسهم ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقد جاء فى الحديث : أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يعذبون فى الله ويسألون الشرك ، فكل أعطى ما سألوه إلا بلالا . وفيه دليل على قراءة المد ، من الإعطاء . ويدل على قراءة القصر قوله : « وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ

(١) اضطربت الأصول هنا؛ فقد ذكر فى ش : «رجل أعور أى لا شىء له» . وفى ج : «رجل عور كور ...» بالكاف . وفى ك : «رجل عور لور ...» باللام . ولعل الكلمة الأخيرة اتباع؛ على أننا لم نجدها فى مظانها .

(٢) أى ذو ريح وذو مال .

(٣) راجع ج ٤ ص ١٨٥ .

لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ» ، فهذا يدل على «لَأَتَوْهَا» مقصورا . وفى «الفتنة» هنا وجهان : أحدهما — سُئلوا القتال فى العصبية لأسرعوا إليه ؛ قاله الضحاك . الثانى — ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين ؛ قاله الحسن . ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا ﴾ أى بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا ؛ قاله السُّدّى والقُتَبِيّ والحسن والفراء . وقال أكثر المفسرين : أى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا ولأجابوا بالشرك مسرعين ؛ وذلك لضعف نياتهم ولفرط نفاقهم ؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَانُوا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْـلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل غزوة الخندق و بعد بدر . قال قتادة : وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر ، فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلنّ . وقال يزيد بن رُومان : هم بنو حارثة ، همّوا يوم أُحُد أن يفشلوا مع بنى سَلِمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم . ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى مسئولا عنه . قال مقاتل والكلبى : هم سبعون رجلا بايعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك ولربّك ماشئت . فقال : " أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم " فقالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك يانبيّ الله ؟ قال : " لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة " . فذلك قوله تعالى : « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى أن الله ليسألهم عنه يوم القيامة .

قوله تعالى : قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ أى من حضر أجله مات أو قُتل ؛ فلا ينفع الفِرار . ﴿ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى فى الدنيا بعد الفِرار إلى أن تنقضى آجالكم ؛ وكل ما هو آتٍ فقريب . وروى السّاجى عن يعقوب الحضرمىّ « وَإِذًا لَا يُمَتَّعُونَ » بياء . وفى بعض الروايات « وإذا لا تمتعوا » نصب بـ « إِذًا » والرفع بمعنى ولا تمتعون . و « إِذًا » ملغاة، ويجوز إعمالها . فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء . فإذا كانت مبتدأة نَصَبْت بها فقلت : إِذًا أكرمَك .

قوله تعالى : قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى يمنعكم منه . ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴾ أى هلاكا . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ أى خيرا ونصرا وعافية . ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى لا قريبا ينفعهم ولا ناصرًا ينصرهم .

قوله تعالى : قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ أى المعترضين منكم لأن يصدّوا الناس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهو مشتق من عاقنى عن كذا أى صرفنى عنه . وعوّق ، على التكثير ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ على لغة أهل الحجاز . وغيرهم يقولون : « هَلُمُّوا » للجماعة ، وهَلُمِّى للمرأة ؛ لأن الأصل : « ها » التى للتنبيه ضُمّت إليها « لَمّ » ثم حذفت الألف استخفافًا وبُنيت على الفتح . ولم يجز فيها الكسر ولا الضم لأنها لا تنصرف . ومعنى « هَلُمّ » أقبل ؛ وهؤلاء طائفتان ؛ أى منكم من يثبّط ويعوّق . والعوق المنع والصرف ؛ يقال : عاقه يعوقه عوقا ، وعوّقه واعتاقه بمعنى واحد . قال مقاتل : هم عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه المنافقون .

« وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ » فيهم ثلاثة أقوال : أحدها — أنهم المنافقون؛ قالوا للسلمين : ما محمد وأصحابه إلا أَكَلَة رأس[1] ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا . الثانى — أنهم اليهود من بنى قُريظة؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين : هلم إلينا؛ أى تعالوا إلينا وفارقوا محمدا فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظَفِر لم يُبق منكم أحدا . والثالث — ما حكاه ابن زيد : أن رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف؛ فقال أخوه — وكان من أمّه وأبيه — : هلم إلىّ، قد تُبِع بك وبصاحبك؛ أى قد أحيط بك وبصاحبك . فقال له : كذبت ، والله لأخبرنه بأمرك؛ وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا » . ذكره الماوَرْدِى والثعلبي أيضا . ولفظه : قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب ، انطلق رجل من عند النبي صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه بين يديه رغيف وشواء ونبيذ؛ فقال له : أنت فى هذا ونحن بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هَلُمّ إلى هذا فقد تبع لك ولأصحابك ، والذى تحلف به لا يستقلّ بها محمد أبدا . فقال : كذبت . فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية . ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خوفا من الموت . وقيل : لا يحضرون القتال إلا رياءً وسُمْعة .

قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٩)

قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أى بخلاء عليكم؛ أى بالحفر فى الخندق والنفقة فى سبيل الله؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : بالقتال معكم . وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد ؛ وهو جمع آكل .

وقيل : أَشِحَّةً بالغنائم إذا أصابوها ؛ قاله السدى . وانتصب على الحال . قال الزجاج : ونصبه عند الفراء من أربع جهات : إحداها — أن يكون على الذم ؛ ويجوز أن يكون عنده نصبا بمعنى يعوقون أشحة . ويجوز أن يكون التقدير : والقائلين أشحة . ويجوز عنده [« وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا » أشحة ؛ أى أنهم يأتونه أشحة على الفقراء بالغنيمة](١). النحاس : ولا يجوز أن يكون العامل فيه « المعوقين » ولا « القائلين » ؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول . ابن الأنبارى : « إِلَّا قَلِيلًا » غير تام ؛ لأن « أَشِحَّةً » متعلق بالأول ، فهو ينتصب من أربعة أوجه : أحدها — أن تنصبه على القطع من « المعوّقين » كأنه قال : قد يعلم الله الذين يعوقون عن القتال و يشحون عن الإنفاق على فقراء المسلمين . ويجوز أن يكون منصوبا على القطع من « القائلين » أى وهم أشحة . ويجوز أن تنصبه على القطع مما فى « يأتون » ؛ كأنه قال : ولا يأتون البأس إلا جبناء بخلاء . ويجوز أن تنصب « أشحة » على الذمّ . فمن هذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله : « إِلَّا قَلِيلًا » . « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ » وقف حسن . ومثله « أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ » حال من المضمر فى « سَلَقُوكُمْ » وهو العامل فيه . ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ وصفهم بالجبن ؛ وكذا سبيل الجبان ينظر يمينا وشمالا محدّدا بصره ، وربما غشى عليه . وفى « الْخَوْفُ » وجهان : أحدهما — من قتال العدوّ إذا أقبل ؛ قاله السدّى . الثانى — الخوف من النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا غلب ؛ قاله ابن شجرة . « رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » خوفا من القتال على القول الأول . ومن النبىّ صلى الله عليه وسلم على الثانى . « تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة . وقيل : لشدّة خوفهم حذرا أن يأتيهم القتل من كل جهة . ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ وحكى الفراء « صلقوكم » بالصاد . وخطيبٌ مِسْلاق ومِصْلاق إذا كان بليغا . وأصل الصلق الصوت ؛ ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لعن الله الصالقة والحالقة والشاقّة " . قال الأعشى :

(١) ما بين المربعين من كتاب النحاس وهو واضح . وعبارة الأصول : « ولا يأتون البأس إلا قليلا ، يأتونه أشحة ؛ أى أشحة على الفقراء بالغنيمة جبناء » .

فيهم المجـد والسماحة والنجْـ * ـدَةُ فيهم والخاطب السّلاق (١)

قال قتادة : ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم فى وقت قسمة الغنيمة ، يقولون : أعطنا أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم . فعند الغنيمة أشحّ قوم وأبسطهم لسانا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم . قال النحاس : هذا قول حسن؛ لأن بعده «أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ» (٢) . وقيل : المعنى بالغوا فى مخاصمتكم والاحتجاج عليكم . وقال القتبى : المعنى آذوكم بالكلام الشديد . السّلق : الأذى . ومنه قول الشاعر :

ولقد سلقنا هوازنا * بنواهل حتى انحنينا

«أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ» أى على الغنيمة؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : على المال أن ينفقوه فى سبيل الله؛ قاله السدّى . «أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا» يعنى بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان؛ والمنافق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم بالكفر (٣) . ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى لم يثبهم عليها؛ إذا لم يقصدوا وجه الله تعالى بها . ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — وكان نفاقهم على الله هيّنا . الثانى — وكان إحباط عملهم على الله هيّنا .

قوله تعالى : يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أى لجبنهم؛ يظنون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا، ولكنهم لم يتباعدوا فى السير . ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أى وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال . ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ تمنوا أن يكونوا مع الأعراب حذرًا من القتل وتربّصًا للدوائر . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «لو أنهم بُدًّى فى الأعراب» ؛ يقال : بادٍ وبُدًّى؛ مثل غازٍ وغُزًّى . ويُمَدّ مثل صائم وصوّام . بدا فلان يبدو إذا خرج

(١) ويروى : «المسلاق» . (٢) فى الأصول : «أشحة عليكم» .
(٣) عبارة الأصول : «لوصف الله عز وجل بالكفر» وهو خطأ .

إلى البادية . وهى البِداوة والبَداوة؛ بالكسر والفتح . وأصل الكلمة من البَدْو وهو الظهور . ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ وقرأ يعقوب فى رواية رُوَيس « يتساءلون عن أنبائكم » أى عن أخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم . يتحدّثون : أمَا هلك محمد وأصحابه ! أمَا غلب أبو سفيان وأحزابه ! أى يودّوا لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم . وقيل : أى هم أبدًا لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين ، وهل أصيبوا . وقيل : كان منهم فى أطراف المدينة من لم يحضر الخندق ، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين . ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى رميًا بالنّبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة ؛ ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيرا .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

فيه مسألتان .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هذا عتاب للمتخلفين عن القتال ؛ أى كان لكم قدوة فى النبى صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله فى خروجه إلى الخندق . والأسوة القدوة . وقرأ عاصم « أُسوة » بضم الهمزة . الباقون بالكسر ؛ وهما لغتان . والجمع فيهما واحد عند الفرّاء . والعلة عنده فى الضم على لغة من كسر فى الواحدة : الفرقُ بين ذوات الواو وذوات الياء ؛ فيقولون كِسْوة وكُسًا ، ولِحية ولِحًى . الجوهريّ : والأُسوة والإسوة بالضم والكسر لغتان . والجمع أُسًى وإسًى . وروى عقبة ابن حسان الهجرى عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » قال : فى جوع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال : تفرد به عقبة بن حسان عن مالك ، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ الأسوة القدوة . والأسوة ما يتأسّى به ؛ أى يُتعزّى به . فيقتدَى به فى جميع أفعاله ويتعزّى به فى جميع أحواله ؛ فلقد شُجّ وجهه ، وكسرت رباعيته ،

وقُتل عمه حمزة » وجاع بطنه ، ولم يُلْفَ إلا صابرا محتسبًا ، وشاكرا راضيًا . وعن أنس ابن مالك عن أبي طلحة قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا [عن بطوننا](١) عن حَجَر حجر ؛ فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه : حديث غريب . وقال صلى الله عليه وسلم لما شُجّ : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وقد تقدّم . ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدّق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال . وقيل : أي لمن كان يرجو ثواب الله في اليوم الآخر . ولا يجوز عند الحذاق من النحويين أن يكتب «يرجو» إلا بغير ألف إذا كان لواحد؛ لأن العلة التي في الجمع ليست في الواحد . ﴿ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ خوفا من عقابه، ورجاء لثوابه . وقيل : إن « لِمَنْ » بدل من قوله : « لَكُمْ » ولا يجيزه البصريون؛ لأن الغائب لا يبدل من المخاطب، وإنما اللام من « لِمن » متعلقة بـ«حسنة»، و«أُسْوة» اسم « كَانَ» و « لَكُمْ» الخبر . وٱختلف فيمن أريد بهذا الخطاب على قولين : أحدهما — المنافقون؛ عطفًا على ما تقدّم من خطابهم . الثاني — المؤمنون؛ لقوله : « لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ » .

وٱختلف في هذه الأسوة بالرسول عليه السلام، هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؛ على قولين :) أحدهما — على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب . الثاني — على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب . ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا .

قوله تعالى : وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ ومن العرب من يقول : « راء » على القلب . ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ ﴾ يريد قوله تعالى في سورة البقرة : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

(١) زيادة عن سنن الترمذي .

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ (1) » الآية . فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا : « هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ؛ قاله قتادة . وقول ثانٍ رواه كُثير بن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال : " أخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها — يعنى على قصور الحيرة ومدائن كسرى — فأبشروا بالنصر " فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله ، موعد صادق ؛ إذ وُعدنا بالنصر بعد الحصر . فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : « هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ذكره الماوردى . و « مَا وَعَدَنَا » إن جعلت « ما » بمعنى الذى فالهاء محذوفة . و إن جعلتها مصدرا لم تحتج إلى عائد ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ قال الفراء : ومازادهم النظر إلى الأحزاب . وقال على بن سليمان : « رأى » يدل على الرؤية ، وتأنيث الرؤية غير حقيقى ، والمعنى : ما زادهم الرؤية إلا إيمانا بالرب وتسليما للقضاء ، قاله الحسن . ولو قال : ما زادوهم لجاز . ولما آشتد الأمر على المسلمين وطال المقام فى الخندق ، قام عليه السلام على التل الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى ، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : " من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة " فلم يجبه أحد . وقال ثانيا وثالثا فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : " من هذا " ؟ فقال حذيفة . فقال : " ألم تسمع كلامى منذ الليلة " ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، منعنى أن أجيبك الضُّرّ والقُرّ . قال : " انطلق حتى تدخل فى القوم فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى تردّه إلىّ ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتينى " . فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : " يا صريخ المكروبين و يا مجيب المضطرين اكشف همى وغمى وكربى فقد ترى حالى وحال أصحابى " . فنزل جبريل وقال : " إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك " فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول : " شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت أصحابى " . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحا ؛ فبشّر أصحابه بذلك ،

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٣ .

قال حذيفة : فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد؛ فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء . وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش : النجاءَ النجاءَ ! وفعل كذلك عُيينة بن حِصن والحارث بن عوف والأقرع ابن حابس . وتفرّقت الأحزاب، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشَّعَث ما شاء الله ؛ فجاءته فاطمة بغَسول فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : "وضعتَ السلاح ولم تضعه أهل السماء، مازلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء — ثم قال — انهض إلى بني قريظة" . وقال أبو سفيان : ما زلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الرَّوْحاء .

قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ رفع بالابتداء، وصلُح الابتداء بالنكرة لأن «صَدَقُوا» في موضع النعت . ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ . «مَن» في موضع رفع بالابتداء . وكذا «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» والخبر في المجرور . والنَّحْب : النذر والعهد؛ تقول منه : نَحَبت أنحُب؛ بالضم . قال الشاعر :

وإذا نحبت كَلْبٌ على الناس إنهم * أحق بتاج الماجد المتكرم

وقال آخر :

* قد نحب المجدُ علينا نَحْبا (١) *

وقال آخر :

* أنَحْبٌ فيقضَى أم ضلالٌ وباطلُ (٢) *

(١) قبله : * ياعمرو يا بن الأكرمين نسبا *
(٢) هذا عجز بيت للبيد، وصدره : * ألا تسألان المرء ماذا يحاول *

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال عمّي أنس بن النّضْر — سُمّيت به — ولم يشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكَبُر عليه فقال : أوّل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غِبتُ عنه ، أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واهًا(١) لريح الجنة ! أجدها دون أُحُد ؛ فقاتل حتى قُتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورَمْية . فقالت عمّتي الرُّبَيِّع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا بِبَنانه . ونزلت هذه الآية « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » لفظ الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » الآية : منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصيبت يده ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أوْجب(٢) طلحة الجنة " . وفي الترمذي عنه : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابي جاهل : سله عمن قضى نحبه من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ، يوقّرونه ويهابونه ؛ فسأله الأعرابي فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ؛ ثم إني اطّلعت من باب المسجد وعلي ثياب خضر ، فلما رآني النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أين السائل عمن قضى نحبه " ؟ قال الأعرابي : أنا يا رسول الله . قال : " هذا ممن قضى نَحْبَه " قال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير . وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أُحُد ، مرّ على مصعب بن عُمير وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودَعا له ، ثم تلا هذه الآية : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ — إلى — تَبْدِيلًا » ثم قال رسول الله صلى الله عليه

(١) هذه الكلمة توضع موضع الاعجاب بالشيء .

(٢) أوجب الرجل : إذا فعل فعلا وجبت له به الجنة أو النار .

وسلم : " أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأْتوهم وزوروهم والذى نفسى بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه " . وقيل : النحب الموت ؛ أى مات على ما عاهد عليه؛ عن ابن عباس . والنحب أيضا الوقت والمدّة . يقال : قضى فلان نحبه إذا مات . وقال ذو الرمّة :

عشيّةَ فرّ الحارثيّون بعد ما * قضى نَحْبه فى ملتقَى الخيل هَوْبَرُ

والنَّحْب أيضا الحاجة والهمة؛ يقول قائلهم : مالى عندهم نحب؛ وليس المراد بالآية . والمعنى فى هذا الموضع بالنحب النذر كما قدّمنا أوّلا ؛ أى منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قتل ؛ مثل حمزة وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم . ومنهم من ينتظر الشهادة وما بدّلوا عهدهم ونذرهم . وقد روى عن ابن عباس أنه قرأ « فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمِنْهُم مَنْ بَدَّلَ تَبْدِيلًا » . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا الحديث عند أهل العلم مردود؛ لخلافه الإجماع ، ولأن فيه طعنا على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرفهم بالصدق والوفاء؛ فما يعرف فيهم مغيّر وما وجد من جماعتهم مبدّل؛ رضى الله عنهم . ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى أمر الله بالجهاد ليجزى الصادقين فى الآخرة بصدقهم . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ قال محمد بن عمرو يرفعه إلى عائشة : قالت « الَّذِينَ كَفَرُوا » هاهنا أبو سفيان وعُيينة بن بدر، رجع أبو سفيان إلى تِهامة، ورجع عُيينة إلى نجد . ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ بأن أرسل عليهم ريحا وجنودا حتى رجعوا ورجعت بنو قُريظة إلى صياصيهم؛ فكفى أمر قريظة بالرعب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا ﴾ أمره ﴿ عَزِيزًا ﴾ لا يُغلَب .

قوله تعالى : وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى الذين عاونوا الأحزاب : قريشا وغطفان ؛ وهم بنو قريظة . وقد مضى خبرهم . ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أى حصونهم ؛ واحدها صِيصَة . قال الشاعر :

فأصبحت الثِّيران صَرْعَى وأصبحتْ * نساء تميم يبتدرن الصياصيا (١)

ومنه قيل لشوكة الحائك التى بها يُسوى السَّداة واللُّحمة : صِيصة . قال دريدُ بن الصِّمَّة :

فجئتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه * كوقع الصَّياصِى فى النسيج المُمدَّد

ومنه : صِيصَة الديك التى فى رجله . وصَياصِى البقر قرونها ؛ لأنها تمتنع بها . وربما كانت تركّب فى الرماح مكان الأسنة ؛ ويقال : جَذَّ اللهُ صِئْصِئه ؛ أى أصله . ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال . ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ وهم النساء والذّرية ؛ على ما تقدّم . ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ﴾ بعدُ . قال يزيد ابن رُومان وابن زيد ومقاتل : يعنى حُنَين ؛ ولم يكونوا نالوها ، فوعدهم الله إياها . وقال قتادة : كنا نحدّث أنها مكة . وقال الحسن : هى فارس والروم . وقال عِكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — على ما أراد بعباده من نقمة أو عفوٍ قديرٌ ؛ قاله محمد بن إسحاق . الثانى — على ما أراد أن يفتحه

---

(١) البيت لعبد بنى الحسحاس ؛ وقد أورده صاحب اللسان شاهدا على أن صياصى البقر قرونها ؛ وروايته فى البيت :

فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت * نساء تميم يلتقطن الصياصيا

أى يلتقطن القرون لينسجن بها ؛ يريد لكثرة المطر غرق الوحش .

من الحصون والقُرَى قدير ؛ قاله النقاش . وقيل : « وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » مما وَعَدَكُمُوه « قَدِيراً » لا تردّ قدرته ولا يجوز عليه العجز تعالى . ويقال : تأسِرون وتأسُرون (بكسر السين وضمها) حكاه الفراء .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

فيه ثماني مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّم من المنع من إيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألنه شيئا من عرَض الدنيا . وقيل : زيادة في النفقة . وقيل : آذَيْنَه بغيْرة بعضهنّ على بعض . وقيل : أُمِر صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهنّ وتخييرهنّ بين الدنيا والآخرة . وقال الشافعيّ رحمه الله تعالى : إن مَنْ مَلَك زوجة فليس عليه تخييرها . أُمِر صلى الله عليه وسلم أن يخيّر نساءه فآخترنه . وجملة ذلك أن الله سبحانه خيّر النبيّ صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبياً مَلِكا وعرض عليه مفاتيح خزائن الدنيا ، وبين أن يكون نبياً مِسكيناً ؛ فشاور جبريل فأشار عليه بالمسكنة فاختارها ؛ فلما اختارها وهي أعلى المنزلتين ، أمره الله عز وجل أن يخيّر زوجاته ؛ فربما كان فيهنّ من يكره المقام معه على الشدّة تنزيهاً له . وقيل : إن السبب الذى أُوجِب التخيير لأجله ، أن امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لها حَلْقة من ذهب ، فصاغ لها حلقة من فضة وطلاها بالذهب — وقيل بالزعفران — فأبت إلا أن تكون من ذهب ؛ فنزلت آية التخيير فخيرهنّ ، فقلن اخترنا الله ورسوله . وقيل : إن واحدة منهنّ اختارت الفراق . فالله أعلم . روى البخاريّ ومسلم — واللفظ لمسلم — عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله

صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال : — فأذِن لأبي بكر فدخل ، ثم جاء عمــر فاستأذن فأذِن له ، فوجد النبيّ صلى الله عليه وســلم جالسا حوله نساؤه واجمًا ساكتًا — قال : — فقال والله لأقولنّ شيئا أضحك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رســول الله ، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمتُ إليهــا فَوَجَأْتُ عنقها ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هنّ حولي كما ترى يسألنَني النفقة " فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها ؛ كلاهما يقول : تسألن رســول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! ! فقلن : واللهِ لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنــده . ثم اعتزلهنّ شهرا أو تسعا وعشرين . ثم نزلت عليه هــذه الآية : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » . قال : فبدأ بعائشة فقال : " يا عائشة ، إني أريد أن أعرِض عليك أمرا أحِبُّ ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك " قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبويّ ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت . قال : " لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها ، إنّ الله لم يبعثني مُعَنِّتا ولا مُتَعَنِّتًا ولكن بعثني معلما مُيَسِّرًا " . وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي فقال : " يا عائشة ، إني ذاكر لكِ أمرا فلا عليكِ ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويكِ " قالت : وقد علم أن أبويّ لم يكونا ليأمراني بفــراقه ؛ قالت ثم قال : " إنّ الله يقول : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » " فقلت : أفي هذا أستأمر أبويّ ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، وفعل أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت . قال : هــذا حديث حسن صحيح . قال العلمــاء : وأما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها ، وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تختــار فراقه ، ويعلم من أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم أزواج، منهن من دخل بها، ومنهن من عقـد عليها ولم يدخل بها، ومنهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها .

فأولهنّ : خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ بن كلاب . وكانت قبله عند أبي هالة[(١)] واسمه زرارة بن النبّاش الأسدى ، وكانت قبله عند عتيق بن عائذ، وَلدت منه غلاما اسمه عبد مناف . وولدت من أبي هالة هنـد بن أبي هالة، وعاش إلى زمن الطاعون فمـات فيه . ويقال : إن الذى عاش إلى زمن الطاعون هند بن هند، وسُمعت نادبته تقول حين مات : واهندُ بن هنداه، وار بيبَ رسول الله . ولم يتزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة غيرها حتى ماتت . وكانت يوم تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة، وتوفيت بعـد أن مضى من النبوّة سـبع سنين، وقيل : عشر . وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة . وهى أول امرأة آمنت به . وجميـع أولاده منها غير إبراهـيم . قال حكيم بن حزام : توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفنّاها بالحَجُون ؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرتها، ولم تكن يومئذ سُنّةُ الجنازة الصلاةَ عليها .

ومنهن : سَوْدة بنت زَمْعة بن قيس بن عبد شمس العامرية ، أسلمت قديما وبايعت ، وكانت عند ابن عم لهـا يقال له السكران بن عمرو ؛ وأسلم أيضا ، وهاجرا جميعا إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها . وقيل : مات بالحبشة؛ فلما حلّت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فتزوّجها ودخل بها بمكة ، وهاجر بها إلى المدينة ؛ فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألّا يفعل وأن يدعها فى نسائه، وجعلت ليلتها لعائشة ــ حسبما هو مذكور فى الصحيح ــ فأمسكها، وتوفيت بالمدينة فى شوّال سنة أربع وخمسين .

ومنهن : عائشة بنت أبى بكر الصدّيق، وكانت مسماة لجُبير بن مطعِم، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر : يا رسول الله، دَعْنى أَسُلّها من جُبير سَلًّا رفيقا ؛ فتزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين، وقيل بثلاث سنين ؛ وبنى بها بالمدينة

---

(١) فى كتب الصحابة أقوال فيمن كان قبل .

وهى بنت تسع، و بقيت عنده تسع سنين، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بنت ثمان عشرة، ولم يتزوج بكرا غيرها، وماتت سنة تسع وخمسين، وقيل ثمان وخمسين .

ومنهن : حفصة بنت عمر بن الخطاب القُرَشية العدوية، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلقها، فأتاه جبريل فقال : "إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة" فراجعها . قال الواقدى : وتوفيت فى شعبان سنة خمس وأربعين فى خلافة معاوية، وهى ابنة ستين سنة . وقيل : ماتت فى خلافة عثمان بالمدينة .

ومنهن : أم سلمة ، واسمها هند بنت أبى أميّة المخزومية — واسم أبى أمية سُهيل — تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليال بقين من شوّال سنة أربع ، زوّجها منه آبنها سلمة على الصحيح، وكان عُمَرُ آبنُها صغيرا، وتوفيت فى سنة تسع وخمسين . وقيل : سنة ثنتين وستين؛ والأول أصح . وصلّى عليها سعيد بن زيد . وقيل أبو هريرة . وقُبِرت بالبقيع وهى ابنة أربع وثمانين سنة .

ومنهنّ ، أم حبيبة، وآسمها رَمْلة بنت أبى سفيان . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْرى إلى النجاشى، ليخطب عليه أم حبيبة فزوجه إياها، وذلك سنة سبع من الهجرة، وأصدق النجاشى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، وبعث بها مع شُرحبيل بن حَسَنة ، وتوفيت سنة أربع وأربعين . وقال الدَّارَقُطْنِى : كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة على النصرانية ، فزوّجها النجاشى النبى صلى الله عليه وسلم، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، وبعث بها إليه مع شُرحبيل بن حسنة .

ومنهنّ : زينب بنت جَحْش بن رِئاب الأسديّة؛ وكان اسمها بَرّة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب، وكان آسم أبيها بُرّة؛ فقالت : يا رسول الله ، بدّل اسم أبى فإن البُرّة حقيرة؛ فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : "لو كان أبوك مؤمنا سميناه بآسم رجل منا أهل البيت ولكنى قد سميته جحشا والجحش من البُرّة" ذكر هذا الحديث الدَّارَقُطْنِى . تزوجها

رسول الله صلى الله عليه وسـلم بالمدينة فى سنة خمس من الهجرة ، وتوفيت سنة عشرين ، وهى بنت ثلاث وخمسين .

ومنهنّ : زينب بنت خُذيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ابن عامر بن صَعْصعة الهلالية ، كانت تسمى فى الجاهليـة أمّ المساكين ؛ لإطعامها إياهم . تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان على رأس واحد وثلاثين شهرا من الهجرة ، فمكثت عنده ثمـانية أشهر، وتوفيت فى حياته فى آخر ربيع الأوّل على رأس تسعة وثلاثين شهرا ، ودفنت بالبقيع .

ومنهنّ : جُوَيرية بنت الحارث بن أبى ضِرار الخُزاعية المُصْطَلِقيّة، أصابها فى غزوة بنى المُصْطَلِق فوقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شَمّاس فكاتبها؛ فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها وتزوّجها، وذلك فى شعبان سنة ست، وكان آسمها بَرّة فسمّاها رسـول الله صلى الله عليه وسلم جُوَيرية، وتوفيت فى ربيع الأول سنة ست وخمسين . وقيل : سنة خمسين، وهى ابنة خمس وستين .

ومنهن : صفية بنت حُيَىّ بن أخْطَب الهارونية، سباها النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبر واصطفاها لنفسه، وأسلمت وأعتقها، وجعل عتقها صداقها . وفى الصحيح : أنها وقعت فى سهم دِحْيَة الكَلْبىّ فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسـلم بسبعة أرؤس، وماتت فى سنة خمسين . وقيل : سنة اثنتين وخمسين، ودفنت بالبقيع .

ومنهن : رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنافة من بنى النَّضير، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقها، وتزوّجها فى سنة ست، وماتت مَرْجِعَه من حَجة الوَداع، فدفنها بالبقيع . وقال الواقدىّ : ماتت سـنة ست عشرة وصلّى عليها عمر . قال أبو الفرج الجَوْزىّ : وقد سمعت من يقول : إنه كان يطؤها بِملْك اليمين ولم يعتقها .

قلت : ولهـذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلى فى عداد أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَرِف على عشرة أميال من مكة، وذلك فى سنة سبع من الهجرة فى عُمْرة القَضيّة، وهى آخر امرأة تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدّر الله تعالى أنها ماتت فى المكان الذى بنى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، ودفنت هنالك ، وذلك فى سنة إحدى وستين . وقيل : ثلاث وستين . وقيل ثمان وستين .

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهنّ اللاتى دخل بهن ؛ رضى الله عنهن .

فأما من تزوّجهن ولم يدخل بهن؛ فمنهن : الكلابية . واختلفوا فى اسمها؛ فقيل فاطمة . وقيل عَمْرة . وقيل العالية . قال الزهريّ : تزوّج فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعاذت منه فطلقها ، وكانت تقول : أنا الشقيّة . تزوّجها فى ذى القعدة سنة ثمان من الهجرة، وتوفيت سنة ستين .

ومنهن : أسماء بنت النعمان بن الجَوْن بن الحارث الكِنْدية، وهى الجونية . قال قتادة : لما دخل عليها دعاها فقالت : تعال أنت ، فطلّقها . وقال غيره : هى التى استعاذت منه . وفى البخاريّ قال : تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أميمة بنت شَراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين . وفى لفظ آخر قال أبو أُسيد : أُتِى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجَوْنية ، فلما دخل عليها قال : " هبِى لى نفسك " فقالت : وهل تهب المَلِكة نفسها للسُّوقة ! فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن ؛ فقالت : أعوذ بالله منك ! فقال : " قد عُذتِ بمعاذ " ثم خرج علينا فقال : " يا أبا أسَيد ، اكسها رازِقيين(١) وألحقها بأهلها " .

ومنهنّ : قُتَيْلة بنت قيس، أخت الأشعث بن قيس، زوّجها إياه الأشعث، ثم انصرف إلى حَضْرَمَوْت ، فحملها إليه فبلغه وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم . فردّها إلى بلاده، فارتدّ

(١) قوله « رازقيين » بالتثنية ، صفة موصوف محذوف للعلم . فى رواية « رازقيتين » والرازقية : ثياب من كتان بيض طوال .

وارتدت معه . ثم تزوّجها عِكرمة بن أبي جَهْل ، فوجد من ذلك أبو بكر وَجْدًا شديدا . فقال له عمر : إنها والله ماهى من أزواجه ، ماخيّرها ولا حجبها . ولقد برّأها الله منه [1] بالارتداد . وكان عروة ينكر أن يكون تزوّجها .

ومنهنّ : أم شريك الأزدية ، واسمها غُزَيَّة بنت جابر بن حكيم [2] ، وكانت قبله عند أبي بكر ابن أبي سلمى ، فطلقها النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يدخل بها . وهى التى وهبت نفسها . وقيل : إن التى وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم خَوْلة بنت حكيم .

ومنهنّ : خَوْلة بنت الهُذَيل بن هُبَيرة ، تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهلكت قبل أن تصل إليه .

ومنهنّ : شَرَاف بنت خليفة ، أخت دِحْية ، تزوّجها ولم يدخل بها .

ومنهنّ : ليلى بنت الخَطِيم ، أخت قيس ، تزوّجها وكانت غيورا فاستقالته فأقالها .

ومنهنّ : عمرة بنت معاوية الكِندية ، تزوّجها النبي صلى الله عليه وسلم . قال الشعبيّ : تزوّج آمرأة من كِنْدة فجىء بها بعد ما مات .

ومنهنّ : ابنة جندب بن ضمرة الجُنْدُعية . قال بعضهم : تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنكر بعضهم وجود ذلك .

ومنهنّ : الغِفارِيّة . قال بعضهم : تزوّج آمرأة من غِفار ، فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بياضا فقال : " الْحَقِى بأهلك " . ويقال : إنما رأى البياض بالكلابية . فهؤلاء اللاتى عقد عليهنّ ولم يدخل بهنّ ؛ صلى الله عليه وسلم .

فأما من خطبهنّ فلم يتم نكاحه معهنّ ، ومن وهبت له نفسها :

فمنهنّ : أم هانئ بنت أبي طالب ، واسمها فاختة . خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : إنى امرأة مُصْبِيَة [3] واعتذرت إليه فعذرها .

---

(١) كذا فى الأصول وأسد الغابة ، وعبارته : « وقد برأها الله بالردّة » والذى فى شرح المواهب : « ... وارتدت مع أخيها فبرئت من الله ورسوله ... الخ » .

(٢) فى المواهب : « جابر بن عوف » .

(٣) أى ذات صبيان .

ومنهنّ : ضُباعة بنت عامر .

ومنهنّ : صفية بنت بَشامة بن نضلة، خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان أصابها سِباء، فخيّرها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : " إن شئت أنا وإن شئت زوجك " ؟ قالت : زوجي . فأرسلها ؛ فلعنتها بنو تميم ؛ قاله ابن عباس .

ومنهنّ : أم شريك . وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : ليلى بنت الخَطيم ؛ وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : خولة بنت حكيم بن أمية ؛ وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأرجأها ، فتزوّجها عثمان بن مظعون .

ومنهنّ : جَمْرة بنت الحارث بن عَوف المزي ؛ خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبوها : إن بها سوءا ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد برِصَت ، وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر .

ومنهنّ : سودة القرشية؛ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مصبِية . فقالت : أخاف أن يَضْغُوَ[(١)] صِبْيَتِي عند رأسك . فحمِدها ودعا لها .

ومنهنّ : امرأة لم يُذكر اسمها . قال مجاهد : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : أستأمر أبي . فلقِيت أباها فأذن لها ، فلقِيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قد التحفنا لحافا غيرك " .

فهؤلاء جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان له من السَّرارى سُرِّيّتان : مارِية القبطية، ورَيْحانة ؛ في قول قتادة. وقال غيره : كان له أربع : مارية، ورَيحانة، وأخرى جميلة أصابها في السَّبْي، وجاريةٌ وهبتها له زينب بنت جحش .

---

(١) أي يصيحوا و يضجوا .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ « إِنْ » شرط ، وجوابه « فَتَعَالَيْنَ » ؛ فعلق التخيير على شرط . وهذا يدل على أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان ، فينفذان ويمضيان ؛ خلافا للجهال المبتدعة الذين يزعمون أن الرجل إذا قال لزوجته : أنتِ طالق إن دخلتِ الدار ، أنه لا يقع الطلاق إن دخلت الدار ؛ لأن الطلاق الشرعيّ هو المنجَّز في الحال لا غير .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ هو جواب الشرط ، وهو فعل جماعة النساء ، من قولك تعالى ؛ وهو دعاء إلى الإقبال إليه يقال : تعال بمعنى أقبل ، وُضع لمن له جلالة ورفعة ، ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال ، وأما في هذا الموضع فهو على أصله ؛ فإن الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ قد تقدّم الكلام في المُتْعة في « البقرة »[1] . وقرئ « أُمَتِّعُكُنَّ » بضم العين . وكذا « وَأُسَرِّحُكُنَّ » بضم الحاء على الاستئناف . والسراح الجميل : هو أن يكون طلاقا للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لها .

الخامسة — اختلف العلماء في كيفية تخيير النبيّ صلى الله عليه وسلم أزواجه على قولين : الأوّل — أنه خيّرهنّ بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق ، فاخترن البقاء ؛ قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبيّ وابن شهاب وربيعة . ومنهم من قال : إنما خيّرهنّ بين الدنيا فيفارقهنّ ، وبين الآخرة فيمسكهنّ ؛ لتكون لهنّ المنزلة العليا كما كانت لزوجهنّ ؛ ولم يخيّرهنّ في الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة . ومن الصحابة عليّ فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال : لم يخيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه إلا بين الدنيا والآخرة .

قلت : القول الأوّل أصح ؛ لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت : قد خيّرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقا ! في رواية : فاخترناه فلم يعدّه طلاقا . ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق ؛ لذلك قال : " يا عائشة إني ذاكر لكِ أمرًا فلا عليك ألّا تعجلي فيه حتى تستأمري

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٠ فما بعد .

أبويك " الحـديث . ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار فى اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة . فثبت أن الاستئمار إنمـا وقع فى الفرقة ، أو النكاح . والله أعلم .

السادســة — اختلف العلماء فى المخيَّرة إذا اختارت زوجها ؛ فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمـة الفتوى : إنه لا يلزمه طلاق ، لا واحدة ولا أكثر ؛ هـذا قول عمر ابن الخطاب وعلىّ وٱبن مسعود وزيد بن ثابت وٱبن عباس وعائشة . ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وٱبن شهاب . وروى عن علىّ وزيد أيضا : إن ٱختارت زوجها فواحدة بائنـة ؛ وهو قول الحسن البصرىّ والليث ، وحكاه الخطابى والنقاش عن مالك . وتعلقوا بأن قوله : اختارى، كناية عن إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة؛ كقوله : أنتِ بائن . والصحيح الأول؛ لقول عائشة : خيّرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعدّه علينا طلاقا . أخرجه الصحيحان . قال ابن المنـذر : وحديث عائشة يدل على أن المخيّرة إذا ٱختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقا، ويدل على أن ٱختيارها نفسها يوجب الطلاق ، و يدل على معنى ثالث؛ وهو أن المخيَّرة إذا ٱختارت نفسها أنها تطليقة يملك زوجها رجعتها؛ إذ غير جائز أن يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما أمره الله. وروى هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وبه قال ابن أبى ليلى والثورىّ والشافعىّ . وروى عن علىّ أنهـا إذا ٱختارت نفسها أنهـا واحدة بائنة . وهو قول أبى حنيفـة وأصحابه . ورواه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك . وروى عن زيد بن ثابت أنها إذا ٱختارت نفسها أنها ثلاث . وهو قول الحسن البصرىّ، وبه قال مالك والليث؛ لأن الملك إنمـا يكون بذلك . وروى عن علىّ رضى الله عنـه أنها إذا ٱختارت نفسها فليس بشىء . وروى عنه أنها إذا ٱختارت زوجها فواحدة رجعية .

السابعـــة — ذهب جماعة من المدنيّين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء، والقضاء ماقضت فيهما جميعا ؛ وهو قول عبد العزيز بن أبى سلمة . قال ابن شعبان : وقـد ٱختاره كثير من أصحابنا ، وهو قول جماعة من أهل المدينة . قال أبو عمر : وعلى هذا القول أكثر

الفقهاء . والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما ؛ وذلك أن التمليك عنـد مالك هو قول الرجل لامرأته : قد ملّكتك ؛ أى قـد ملّكتك ما جعل الله لى من الطلاق واحدة أو آثنتين أو ثلاثا ؛ فلما جاز أن يملّكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك ، كان القولُ قولَه مع يمينه إذا ناكرها . وقالت طائفـة من أهل المدينـة : له المناكرة فى التمليـك وفى التخيير سـواء فى المدخول بها . والأوّل قول مالك فى المشهور . وروى ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك أن للزوج أن يناكر المخيَّرة فى الثـلاث ، وتكون طلقة بائنة كما قال أبو حنيفة . وبه قال أبو الجَهْم . قال سُحْنون : وعليه أكثر أصحابنا .

وتحصيل مذهب مالك : أن المخيّرة إذا آختارت نفسها وهى مدخول بهـا فهو الطلاق كله ، وإن أنكر زوجها فلا نكرة له . وإن آختارت واحدة فليس بشىء ، وإنما الخيار البتات ، إما أخذته وإما تركته ؛ لأن معنى التخيير التسريح ؛ قال الله تعالى فى آية التخيير : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾(١) فمعنى التسريح البتات ، قال الله تعالى : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » . والتسريح بإحسان هو الطلقة الثالثة ؛ روى ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم كما تقدّم . ومن جهة المعنى أن قوله : اختارينى أو آختارى نفسك يقتضى ألّا يكون له عليها سبيل إذا آختارت نفسها ، ولا يملك منها شيئا ؛ إذ قد جعل إليها أن تخرج ما يملكه منهـا أو تقيم معه إذا آختارته ، فإذا آختارت البعض من الطلاق لم تعمل بمقتضى اللفظ ، وكانت بمنزل من خُيّر بين شيئين فاختار غيرهما . وأما التى لم يدخل بها فله مناكرتها فى التخيير والتمليك إذا زادت على واحدة ؛ لأنها تبين فى الحال .

الثامنـــة — اختلفت الرواية عن مالك متى يكون لها الخيـار ؛ فقال مرة : لها الخيار ما دامت فى المجلس قبل القيام أو الآشتغال بمـا يدل على الإعراض . فإن لم تختر ولم تقض شيئا حتى آفترقا من مجلسهما بطل ما كان من ذلك إليها ؛ وعلى هذا أكثر الفقهاء . وقال مرة : لها الخيار أبدا ما لم يعلم أنها تركت ؛ وذلك يُعلم بأن تمكّنه من نفسها بوطء أو مباشرة ؛ فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختر شيئا كان له رفعها إلى الحاكم لتوقع أو تسقط ، فإن أبت أسقط

(١) راجع ج ٣ ص ١٢٥

الحاكم تمليكها . وعلى القول الأول إذا أخذت فى غير ذلك من حديث أو عمل أو مشى أو ما ليس فى التخيير بشىء كما ذكرنا سقط تخييرها . واحتج بعض أصحابنا لهذا القول بقوله تعالى : « فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »[(١)] . وأيضا فإن الزوج أطلق لها القول ليعرف الخيار منها، فصار كالعقد بينهما ؛ فإن قبلته وإلا سقط ؛ كالذى يقول : قد وهبت لك أو بايعتك، فإن قبل وإلا كان الملك باقيا بحاله . هذا قول الثورى والكوفيين والأوزاعى والليث والشافعى وأبى ثور ؛ وهو آختيار آبن القاسم . ووجه الرواية الثانية أن ذلك قد صار فى يدها وملّكته على زوجها بتمليكه إياها فلما ملكت ذلك وجب أن يبقى فى يدها كبقائه فى يد زوجها .

قلت : وهذا هو الصحيح لقوله عليه السلام لعائشة : "إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك" رواه الصحيح ، وخرّجه البخارى ، وصححه الترمذى . وقد تقدم فى أول الباب . وهو حجة لمن قال : إنه إذا خيّر الرجل آمرأته أو ملّكها أن لها أن تقضى فى ذلك وإن آفترقا من مجلسهما ؛ روى هذا عن الحسن والزُّهْرى ، وقاله مالك فى إحدى روايتيه . قال أبو عبيد : والذى عندنا فى هذا الباب ، آتباع السنة فى عائشة فى هذا الحديث ، حين جعل لها التخيير إلى أن تستأمر أبويها ، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجا من الأمر . قال المَرْوَزى : هذا أصح الأقاويل عندى ، وقاله آبن المنذر والطّحاوى .

قوله تعالى : يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٨ .

قوله تعـالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ فيـه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء: لمـا آختار نساءُ النبيّ صلى الله عليه وسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم شكرهنّ الله على ذلك فقال تكرمة لهن : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ » الآية (١) . وبين حكمهن عن غيرهن فقال : وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا (١) » . وجعل ثواب طاعتهنّ وعقاب معصيتهنّ أكثر مما لغيرهنّ فقال: « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » . فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بفاحشة — والله عاصم رسوله عليه السلام من ذلك كما مر فى حديث الإفك (٢) — يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لشرف منزلتهنّ وفضل درجتهنّ ، وتقدّمهنّ على سائر النساء أجمع . وكذلك بيّنت الشريعة فى غير ما موضع حسبما تقـدّم بيانه غير مرة — أنه كلما تضاعفت الحُرُمات فهتكت تضاعفت العقوبات ؛ ولذلك ضُوعف حدّ الحرّ على العبد والثيّب على البكر . وقيل : لمـا كان أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مهبط الوحى وفى منزل أوامر الله ونواهيه ، قـوى الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر ممـا يلزم غيرهن ؛ فضوعف لهنّ الأجر والعذاب . وقيل ، إنمـا ذلك لعظم الضرر فى جرائمهن بإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (١) » . واختار هذا القول الكِيَا الطبرى .

الثانيـــة — قال قوم: لو قُدّر الزنى من واحدة منهن — وقد أعاذهنّ الله من ذلك — لكانت تُحدّ حدّين لعظم قدرها ، كما يزاد حدّ الحرة على الأَمَة . والعذاب بمعنى الحدّ ، قال الله تعـالى : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا (٢) طَائِفَـةٌ (٣) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المِثلين أو المرتين . وقال أبو عبيدة : ضِعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة . وقاله أبو عمرو فيما

(١) راجع ص ٢١٩ وص ٢٢٨ وص ٢٣٧ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٩٧ فما بعد وص ١٦٦ . (٣) راجع ج ١٢ ص ١٦٢ .

حكى الطبري عنه؛ فيضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة . وضعّفه الطبري . وكذلك هو غير صحيح و إن كان له باللفظ تعلّق الاحتمال . وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأن العذاب في الفاحشة بإزاء الأجر في الطاعة؛ قاله ابن عطية . وقال النحاس : فرق أبو عمرو بين « يُضَاعف و يضعّف » قال : «يُضَاعَف» للرار الكثيرة . و «يضعّف» مرتين . وقرأ « يضعّف » لهذا . وقال أبو عبيدة : « يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ » يجعل ثلاثة أعذبة . قال النحاس : التفريق الذي جاء به أبو عمرو وأبو عبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللغة علمته ، والمعنى في «يضاعف و يضعّف» واحد؛ أي يجعل ضعفين؛ كما تقول : إن دفعت إليّ درهما دفعت إليك ضِعْفَيه ؛ أي مِثْلَيه ؛ يعني درهمين . و يدل على هذا « نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » ولا يكون العذاب أكثر من الأجر . وقال في موضع آخر « آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ »(١) أي مثلين . و روى معمر عن قتادة « يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » قال : عذابُ الدنيا وعذاب الآخرة . قال القشيري أبو نصر : الظاهر أنه أراد بالضعفين المثلين ؛ لأنه قال : « نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » . فأما في الوصايا ، لو أوصى لإنسان بضعفي نصيب ولده فهو وصية بأن يعطَى مِثل نصيبه ثلاث مرات ؛ فإن الوصايا تجري على العرف فيما بين الناس ، وكلام الله يردّ تفسيره إلى كلام العرب ، والضعف في كلام العرب المِثل إلى ما زاد ، وليس بمقصور على مثلين . يقال : هذا ضعف هذا ؛ أي مثله . وهذا ضعفاه ، أي مثلاه ؛ فالضعف في الأصل زيادة غير محصورة؛ قال الله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ »(١) ولم يرد مِثلا ولا مِثلين . كل هذا قول الأزهري . وقد تقدم في « النور » الاختلاف في حد من قذف واحدة منهن(٢) ؛ والحمد لله .

الثالثة — قال أبو رافع : كان عمر رضي الله عنه كثيرا ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصبح ، وكان إذا بلغ « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ » رفع بها صوته ؛ فقيل له في ذلك فقال : "أذكّرهن العهد" . قرأ الجمهور : «مَنْ يَأْتِ» بالياء . وكذلك «مَنْ يَقْنُتْ» حملا على لفظ

---

(١) راجع ص ٢٥٠ و ص ٣٠٦ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٢ ص ١٧٦ .

«مَن» . والقنوت الطاعة؛ وقد تقدم. وقرأ يعقوب : «من تأت» و «تقنت» بالتاء من فوق، حملا على المعنى . وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهى الزنى واللواط . و إذا وردت منكرة فهى سائر المعاصى . و إذا وردت منعوتة فهى عقوق الزوج وفساد عشرته . وقالت فرقة : بل قوله « فَاحِشَةٍ مبيِّنَةٍ » تعم جميع المعاصى . وكذلك الفاحشة كيف وردت . وقرأ ابن كثير «مبيَّنة» بفتح الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها . وقرأت فرقة : «يُضَاعِفْ» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى. وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة «نضاعِف» بالنون المضمومة ونصب «العذاب» وهذه قراءة ابن مُحَيْصن . وهذه مفاعلة من واحد؛ كطارقت النعل وعاقبت اللص. وقرأ نافع وحمزة والكسائى «يضاعَف» بالياء وفتح العين، «العذابُ» رفعا . وهى قراءة الحسن وابن كثير وعيسى . وقرأ ابن كثير وابن عامر « نُضَعِّف » بالنون وكسر العين المشددة ، « العذابَ » نصبا . قال مقاتل : هذا التضعيف فى العذاب إنما هو فى الآخرة؛ لأن إيتاء الأجر مرتين أيضا فى الآخرة . وهذا حسن ؛ لأن نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يأتين بفاحشة توجب حدًّا . وقد قال ابن عباس : ما بَغَت امرأة نبيّ قط ، و إنما خانت فى الإيمان والطاعة. وقال بعض المفسرين : العذاب الذى تُوعَدْن به «ضعفين» هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ فكذلك الأجر . قال ابن عطية : وهـذا ضعيف، اللهم إلا أن يكون أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لا ترفع عنهن حدودُ الدنيا عذابَ الآخرة ، على ما هى حال الناس عليه؛ بحكم حديث عُبادة بن الصامت (٢) . وهذا أمر لم يُرْوَ فى أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا حفظ تقرره . وأهل التفسير على أن الرزق الكريم الجنة؛ ذكره النحاس .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ و جـ ٣ ص ٢١٣ .

(٢) لفظ الحديث كما فى كتاب البخارى فى تفسير سورة الممتحنة : « قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا — وقرأ آية النساء (يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك — فمن وفى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له . ومن أصاب منها شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه و إن شاء غفرله) » .

قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ يعنى فى الفضل والشرف. وقال : « كَأَحَدٍ » ولم يقل كواحدة ؛ لأن أحدا نفى (١) من المذكر والمؤنث والواحد والجماعة. وقد يقال على ما ليس بآدمىّ ؛ يقال : ليس فيها أحد ، لا شاة ولا بعير . وإنما خصص النساء بالذكر لأن فيمن تقدم آسية ومريم . وقد أشار إلى هذا قتادة ؛ وقد تقدّم فى « آل عمران » الاختلاف فى التفضيل بينهن ، فتأمله هناك (٢) . ثم قال : « إِنِ اتَّقَيْتُنَّ » أى خفتن الله . فبيّن أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى ؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه ، ونزول القرآن فى حقهن .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ فى موضع جزم بالنهى ؛ إلا أنه مبنىّ كما بنى الماضى ، هذا مذهب سيبويه ؛ أى لا تلنّ القول . أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا ، ولا يكون على وجه يُظهر فى القلب علاقة بما يَظهر عليه من اللين ، كما كانت الحال عليه فى نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه ؛ مثل كلام المريبات والمومسات . فنهاهن عن مثل هذا .

قوله تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ ﴾ بالنصب على جواب النهى . ﴿ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق ؛ عن قتادة والسُّدّى . وقيل : تشوّف لفجور ، وهو الفسق والغَزَل ؛ قاله عكرمة . وهذا أصوب ، وليس للنفاق مدخل فى هذه الآية . وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ « فَيَطْمِع » بفتح الياء وكسر الميم . النحاس : أحسب هذا غلطا ، وأن يكون قرأ « فيطمَعِ » (٣) بفتح الميم وكسر العين بعطفه على « تَخْضَعْنَ » فهذا وجه جيد حسن . ويجوز « فيُطْمِع » بمعنى فيطمع الخضوع أو القول .

---

(١) كذا فى الأصول ؛ يريد أنه نفى عام للذكر والمؤنث . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٢

(٣) فى الأصول : « بفتح الياء » .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن عباس : أمرهن بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة فى القول من غير رفع صوت ؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام . وعلى الجملة فالقول المعروف : هو الصواب الذى لا تنكره الشريعة ولا النفوس .

قوله تعالى : وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ ﴾ قرأ الجمهور « وِقرن » بكسر القاف . وقرأ عاصم ونافع بفتحها . فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون من الوقار ؛ تقول : وَقَرَ يَقِر وَقارًا أى سكن ، والأمر قِرْ ، وللنساء قِرْن ، مثل عِدْن وزِنّ . والوجه الثانى — وهو قول المبرد[1] ، أن يكون من القرار ؛ تقول : قَرَرت بالمكان (بفتح الراء) أَقِرّ ، والأصل أقْرِرن ، بكسر الراء ، فحذفت الراء الأولى تخفيفا ؛ كما قالوا فى ظَلَلت : ظِلت ، ومَسَسْت : مِسْت ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . قال أبو علىّ : بل على أن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف ؛ كما أبدلت فى قيراط ودينار ، و يصير للياء حركة الحرف المبدل منه ؛ فالتقدير : إقْيِرْن ، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحرك الياء بالكسر ، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين ، وتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها فيصير « قِرْن » . وأما قراءة أهل المدينة وعاصم ، فعلى لغة العرب : قرِرت فى المكان إذا أقمت فيه (بكسر الراء) أَقَرّ (بفتح القاف) ؛ من باب حمِد يَحْمَد ، وهى لغة أهل الحجاز ذكرها أبو عبيد فى « الغريب المصنف » عن الكسائى ، وهو من أجلّ مشايخه ، وذكرها الزجاج وغيره ، والأصل « إقْرَرْن »

(١) فى نسخة : « الفراء » .

حذفت الراء الأولى لثقل التضعيف، وألقيت حركتها على القاف فتقول: قَرْن. قال الفراء: هو كما تقول: أَحَسْتَ صاحبك، أى هل أَحْسَسْت. وقال أبو عثمان المازنى: قَرِرت به عينا (بالكسر لا غير)، من قُرّة العين. ولا يجوز قَرِرت فى المكان (بالكسر) وإنما هو قَرَرت (بفتح الراء)، وما أنكره من هذا لا يقدح فى القراءة إذا ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فيستدلّ بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة. وذهب أبو حاتم[1] أيضا أن «قَرْن» لا مذهب له فى كلام العرب. قال النحاس: وأمّا قول أبى حاتم: «لا مذهب له» فقد خولف فيه، وفيه مذهبان: أحدهما ما حكاه الكسائى، والآخر ما سمعت علىّ بن سليمان يقول، قال: وهو من قَرِرْتُ به عَيْنا أَقَر، والمعنى: واْقررن به عَيْناً فى بيوتكن. وهو وجه حسن؛ إلا أن الحديث يدلّ على أنه من الأول. كما روى أن عمارا قال لعائشة رضى الله عنها: إن الله قد أمرك أن تَقَرِّى فى منزلك؛ فقالت: يا أبا اليَقْظان، مازلتَ قوّالا بالحق! فقال: الحمد لله الذى جعلنى كذلك على لسانك. وقرأ ابن أبى عَبْلة «واْقْرِرن» بألف وصل وراءين، الأولى مكسورة.

الثانيــة — معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى. هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء؛ كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة؛ على ما تقدم فى غير موضع. فأمر الله تعالى نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهنّ، وخاطبهنّ بذلك تشريفا لهنّ، ونهاهنّ عن التبرج، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. وقد تقدّم معنى التبرج فى «النور»[2]. وحقيقته إظهار ما ستره أحسن؛ وهو مأخوذ من السّعة، يقال: فى أسنانه بَرَج إذا كانت متفرقة؛ قاله المبرد. واختلف الناس فى «الجاهلية الأولى»؛ فقيل: هى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس الدّرع من اللؤلؤ، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال. وقال الحكم بن عُيينة: ما بين آدم ونوح،

---

(١) فى جـ، ش، ك: «زعم».	(٢) راجع جـ ١٢، ص ٣٠٩.

وهي ثمانمائة سنة ، وحُكيت لهم سِيَر ذميمة . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس .
الكلبيّ : ما بين نوح وإبراهيم . قيل : إن المرأة كانت تلبس الدّرع من اللؤلؤ غير مَخِيط
الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى .
الشعبي : ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . أبو العالية : هى زمان داود وسليمان ؛
كان فيه للمرأة قميص من الدرّ غير مخيط الجانبين . وقال أبو العباس المبرد : والجاهلية الأولى
كما تقول الجاهلية الجهلاء ، قال : وكان النساء فى الجاهلية الجهلاء يُظهرن ما يقبح إظهاره ،
حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلّها(1) ، فينفرد خِلّها بما فوق الإزار إلى الأعلى ، وينفرد
زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد :
كان النساء يتمشّين بين الرجال ، فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه
أشار للجاهلية التى لحقنها ، فأُمِرْن بالنقلة عن سيرتهنّ فيها ، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة
الكفرة ؛ لأنهم كانوا لا غَيْرة عندهم ؛ وكان أمر النساء دون حجاب(2) ، وجَعْلُها أولى بالنسبة
إلى ما كنّ عليه ؛ وليس المعنى أن ثَمّ جاهلية أخرى . وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدّة
التى قبل الإسلام ، فقالوا : جاهليّ فى الشعراء . وقال ابن عباس فى البخاريّ : سمعت أبى
فى الجاهلية يقول ؛ إلى غير هذا .

قلت : وهذا قول حسن . ويعترض بأن العرب كانت أهل قَشَف وضَنْك فى الغالب ،
وأن التنعم وإظهارَ الزينة إنما جرى فى الأزمان السابقة ، وهى المراد بالجاهلية الأولى ،
وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المِشية على تَغْنيج وتكسير وإظهار المحاسن
للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعا . وذلك يشمل الأقوال كلّها ويعمّها فيلزمن
البيوت ، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكنّ على تبذُّل(3) وتستُّر تام . والله الموفق .

الثالثة — ذكر الثعلبيّ وغيره : أن عائشة — رضى الله عنها — كانت إذا قرأت هذه
الآية تبكى حتى تَبُلّ خمارها . وذكر أن سَوْدة قيل لها : لم لا تحجّين ولا تَعتَمرين كما يفعل

(1) فى ش : « خلها » والخلم (بالكسر) : الصديق الخالص . (2) فى الأصول : « حجبة » .
(3) التبذل : ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة على جهة التواضع .

أخواتك ؟ فقالت : قد حججت واعتمرت ، وأمرنى الله أن أقـرّ فى بيتى . قال الراوى : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها . رضوان الله عليها ! قال ابن العربى : لقد دخلت نَيِّفًا على ألف قرية ، فما رأيت نساء أصْون عيالا ولا أعفّ نساء من نساء نابلس، التى رُمى بها الخليل صلى الله عليه وسلم بالنار؛ فإنى أقمت فيها فما رأيت امرأة فى طريق نهارا إلا يوم الجمعة فإنهنّ يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهنّ، فإذا قُضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهنّ لم تقع عينى على واحدة منهنّ إلى الجمعة الأخرى . وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهنّ حتى استشهدن فيه .

الرابعـــة — قال ابن عطية : بكاء عائشة رضى الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمّار : إن الله قد أمرك أن تَقَرِّى فى بيتك . قال ابن العربى : تعلق الرافضة — لعنهم الله — بهذه الآية على أمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها إذ قالوا : إنها خالفت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مأزق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها . قالوا : ولقد حُصر عثمان ، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقربت لتخرج إلى مكة؛ فقال لها مَرْوان : أقيمى هنا يا أمّ المؤمنين، وردّى هؤلاء الرّعاع؛ فإن الإصلاح بين الناس خير من حَجّك . قال ابن العربى قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إن عائشة رضى الله عنها ، نذرت الحج قبل الفتنة ، فلم تر التخلف عن نذرها؛ ولو خرجت فى تلك الثائرة لكان ذلك صوابا لها . وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس ، ورجَوْا بركتها ، وطمِعوا فى الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق ، وظنّت هى ذلك [فخرجت][1] مقتدية بالله فى قوله : « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ »[2]، وقوله : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا »[3] . والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى؛ حر

---

(١) زيادة عن ابن العربى .　　(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٨٢ .　　(٣) راجع جـ ١٦ ص ٣١٥ .

أو عبد . فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح ، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان ، فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه ، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبى بكر عائشة رضى الله تعالى عنها ، فاحتملها إلى البصرة ، وخرجت فى ثلاثين امرأة ، قرنهن علىّ بها حتى أوصلوها إلى المدينة برّة تقيّة مجتهدة ، مصيبة مثابة فيما تأولت ، مأجورة فيما فعلت ؛ إذ كل مجتهد فى الأحكام مصيب . وقد تقدّم فى « النحل »(١) اسم هذا الجمل ، وبه يعرف ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى فيما أمر ونهى . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قال الزجاج : قيل يراد به نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ؛ على ما يأتى بيانه بعدُ . و « أَهْلَ الْبَيْتِ » نصب على المدح . قال : وإن شئت على البدل . قال : ويجوز الرفع والخفض . قال النحاس : إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجز عند أبى العباس محمد بن يزيد ، قال لا يبدل من المخاطبة ولا من المخاطب ؛ لأنهما لا يحتاجان إلى تبيين . ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ مصدر فيه معنى التوكيد .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ج إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ هذه الألفاظ تعطى أن أهل البيت نساؤه . وقد اختلف أهل العلم فى أهل البيت ، من هم ؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس : هم زوجاته خاصّةً ، لا رجل معهن . وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى : « وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ » . وقالت فرقة منهم الكلبىّ : هم علىّ وفاطمة والحسن والحسين خاصة ؛ وفى هذا أحاديث عن النبىّ عليه السلام ، واحتجّوا بقوله تعالى : « لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ »

(١) راجع ج ١٠ ص ٧٣ فما بعد .

بالميم، ولو كان للنساء خاصة لكان « عنكنّ ويطهركنّ » ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل ؛ كما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؛ أى امرأتك ونساؤك ؛ فيقول : هم بخير ؛ قال الله تعالى : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ »(١) .

والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم . وإنما قال : «وَيُطَهِّرَكُمْ» لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعَلِيًّا وحسَنًا وحُسَيْنًا كان فيهم، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب المذكر ؛ فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت ، لأن الآية فيهنّ ، والمخاطبة لهنّ ، يدلّ عليه سياق الكلام . والله أعلم . أما أن أمّ سلمة قالت : نزلت هذه الآية فى بيتى، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا وفاطمة وحَسَنًا وحُسَيْنًا ، فدخل معهم تحت كساءٍ خَيْبَرِيّ وقال : " هؤلاء أهل بيتى " — وقرأ الآية — وقال : " اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا " فقالت أمّ سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : " أنتِ على مكانك وأنتِ على خير " أخرجه الترمذى وغيره وقال : هذا حديث غريب . وقال القشيرى : وقالت أمّ سلمة أدخلت رأسى فى الكساء وقلت : أنا منهم يارسول الله ؟ قال : " نعم " . وقال الثعلبى : هم بنو هاشم، فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم . وروى نحوه عن زيد بن أرقم رضى الله عنهم أجمعين . وعلى قول الكلبى يكون قوله : « وَاذْكُرْنَ » ابتداء مخاطبة الله تعالى ، أى مخاطبة أمر الله عز وجل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، على جهة الموعظة وتعديد النعمة بذكر ما يتلى فى بيوتهنّ من آيات الله تعالى والحكمة . قال أهل العلم بالتأويل : «آيَاتِ اللَّهِ» القرآن . « وَالْحِكْمَةِ » السنة . والصحيح أن قوله : « وَاذْكُرْنَ » منسوق على ما قبله . وقال « عنكم » لقوله « أهل » فالأهل مذكر ؛ فسماهنّ — وإن كنّ إناثا — باسم التذكير فلذلك صار « عنكم » . ولا اعتبار بقول الكلبى وأشباهه، فإنه توجد له أشياء فى هذا التفسير ما لو كان فى زمن السلف الصالح لمنعوه من ذلك وحجروا عليه . فالآيات كلها من قوله : «يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ — إلى قوله — إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» منسوق بعضها على بعض،

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٠ .

فكيف صار فى الوسط كلاما منفصلا لغيرهنّ! وإنما هذا شيء جرى فى الأخبار أن النبي عليه السلام لما نزلت عليه هذه الآية دعا عليًّا وفاطمة والحسن والحسين ، فعمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلفّها عليهم ، ثم ألوى بيده إلى السماء فقال : "اللّهم هؤلاء أهل بيتى اللّهُم أذهبْ عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا" . فهذه دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية ، أحبَّ أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج ، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيّرها لهم خاصّة ، وهى دعوة لهم خارجة من التنزيل .

الثانيــة ـــ لفظ الذِّكْر يحتمل ثلاثة معان : أحدها ـــ أى آذكرن موضع النعمة ، إذ صيّركن الله فى بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة . الثانى ـــ آذكرن آيات الله وآقدرن قدرها ، وفكِّرن فيها حتى تكون منكن على بالٍ لتتعظن بمواعظ الله تعالى، ومن كان هذا حاله ينبغى أن تحسن أفعاله . الثالث ـــ «آذكرن» بمعنى آحفظن وآقرأن والزمنه الألسنة، فكأنه يقول : آحفظن أوامر الله تعالى ونواهيه، وذلك هو الذى يُتلى فى بيوتكن من آيات الله . فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن فى بيوتهن ، وما يرين من أفعال النبى عليه الصلاة والسلام ، ويسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس ، فيعملوا ويقتدوا . وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء فى الدِّين .

الثالثــة ـــ قال ابن العربى : فى هذه الآية مسألة بديعة ، وهى أن الله تعالى أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علمه من الدين ؛ فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا ؛ ولهذا قلنا : يجوز العمل بخبر بُسْرة[(١)] فى إيجاب الوضوء من مسّ الذكر ؛ لأنها روَت ما سمعت وبلّغت ما وعَت . ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال، كما قال أبو حنيفة ، على أنه قد نقل عن سعد بن أبى وقاص وآبن عمر .

(١) هى بسرة بنت صفوان بن نوفل ؛ روت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

فيـه مسألتان :

الأولى — روى الترمذى عن أم عُمارة الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ! فنزلت هذه الآية : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » الآية . هذا حديث حسن غريب . و « الْمُسْلِمِينَ » اسم « إنّ » . « وَالْمُسْلِمَاتِ» عطف عليه . ويجوز رفعهن عند البصريين ، فأما الفرّاء فلا يجوز عنده إلا فيما لا يتبين فيه الإعراب .

الثانيـة — بدأ تعالى فى هذه الآية بذكر الإسلام الذى يعمّ الإيمان وعمل الجوارح ، ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه عُظْم الإسلام ودعامته . والقانت : العابد المطيع . والصادق : معناه فيما عوهد عليه أن يفي به . والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات فى المَكْره والمَنْشط (١) . والخاشع : الخائف لله . والمتصدّق بالفرض والنفل . وقيل : بالفرض خاصّة ؛ والأوّل أمدح . والصائم كذلك . ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أى عما لا يحلّ من الزنى وغيره . وفى قوله : « وَالْحَافِظَاتِ » حذف يدل عليه المتقدّم ، تقديره : والحافظاتها ، فاكتفى بما تقدّم . وفى « الذَّاكِرَاتِ » أيضا مثله ، ونظيره قول الشاعر :

---

(١) المكره (بفتح الميم) : المكروه . والمنشط : وهو الأمر الذى تنشط له وتخف إليه وتؤثر فعله ؛ وهو مصدر بمعنى النشاط .

وكُمْتًا مُدَمّاةً كأنّ متونها * جرى فوقها واستشعرتْ لَوْنَ مُذْهِبِ(١)

وروى سيبويه : « لَوْنَ مُذْهَبِ » بالنصب . وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء، كأنه قال : واستشعرته ؛ فيمن رفع لونا . والذاكر قيل فى أدبار الصلوات وغُدُوًّا وعَشِيًّا ، وفى المضاجع وعند الانتباه من النوم . وقد تقدّم هذا كله مفصلا فى مواضعه ، وما يترتب عليه من الفوائد والأحكام ، فأغنى عن الإعادة(٢) . والحمد لله رب العالمين . قال مجاهد : لا يكون ذاكرا لله تعالى كثيرا حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا . وقال أبو سعيد الخدرىّ رضى الله عنه : من أيقظ أهله بالليل وصلّيا أربع ركعات كُتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى قتادة وابن عباس ومجاهد فى سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته، فظنّت أن الخطبة لنفسه، فلما تبيّن أنه يريدها لزيد ، كرهت وأبت وامتنعت ؛ فنزلت الآية . فأذعنت زينب حينئذ وتزوّجته . فى رواية : فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبدا ، إلى أن نزلت هذه الآية ، فقال له أخوها : مُرْنى بما شئت ، فزوّجها من زيد . وقيل : إنها نزلت فى أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيط ، وكانت وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فزوّجها من زيد بن حارثة ؛ فكرهت ذلك هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول

(١) الكمت : جمع أكمت ، وهى حمرة تضرب إلى السواد . والمدماة : شديدة الحمرة مثل الدم . والمتون : جمع متن ، وهو الظهر . واستشعرت : جعلت شعارها . والمذهب : المموّه بالذهب . والبيت لطفيل الغنوى (عن سيبويه والعينى) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٣١ وجـ ٤ ص ٨٢ و ٣١٠ .

الله صلى الله عليه وسلم فزوّجنا غيره؛ فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد ؛ قاله ابن زيد . وقال الحسن : ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بأمر أن يعصياه .

الثانيـــة — لفظة «ما كان، وما ينبغي» ونحوهما، معناها الحظر والمنع . فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون ؛ كما في هذه الآية . وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا كقوله تعالى : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا »(١) . وربمـا كان العلم بامتناعه شرعا كقوله تعالى : «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ »(٢)، وقوله تعـالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ»(٣) . وربما كان في المندوبات؛ كما تقول : ما كان لك يافلان أن تترك النوافل ، ونحو هذا .

الثالثـــة — في هذه الآية دليل بل نص في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان؛ خلافا لمـالك والشافعيّ والمغيرة وسُحْنون . وذلك أن الموالي تزوّجت في قريش؛ تزوّج زيد زينب بنت جحش . وتزوّج المقـداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير . وزوّج أبو حذيفة سالما من فاطمة(٤) بنت الوليد بن عُتبة . وتزوّج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف . وقد تقدّم هذا المعنى في غير(٥) موضع .

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ قرأ الكوفيون: «أَنْ يَكُونَ» بالياء . وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنه قـد فرق بين المؤنث وبين فعـله . الباقون بالتاء ؛ لأن اللفظ مؤنث [فتأنيث] فعله حسن . والتذكير على أن الخيرة بمعنى التخيير ؛ فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار . وقرأ ابن السَّمَيْقَع « الخِيْرَة » بإسكان الياء . وهذه الآية في ضمن قوله تعالى : «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»(٦) . ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضل .

---

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٢١ . (٢) راجع ج ٤ ص ١٢١ . (٣) راجع ج ١٦ ص ٥٣ .

(٤) في الأصول وابن العربي : « هند » والتصويب عن كتب الصحابة . (٥) راجع ج ٣ ص ٦٩ و ج ١٣ ص ٢٧٨ . (٦) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء .

وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي و بعض الأصوليين، من أن صيغة « أفعل » للوجوب في أصل وضعها ؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلّف عند سماع أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية، ثم علّق على المعصية بذلك الضلالَ، فلزم حمل الأمر على الوجوب . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى الترمذيّ قال : حدّثنا عليّ بن حجر قال حدثنا داود بن الزّبرقان عن داود بن أبي هند عن الشعبيّ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لوكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ يعني بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق فأعتقته . ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ — إلى قوله — وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا : تزوّج حليلة ابنه ، فأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبنّاه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ »

فلان مولى فلان ، وفلان أخو فلان ، هو أقسط عند الله [يعنى أعدل][(١)] . قال أبو عيسى : هذا حديث [غريب][(١)] قد روى عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها . قالت : لو كان النبيّ صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » هذا الحرف لم يُرْوَ بطوله .

قلت : هذا القدر هو الذى أخرجه مسلم فى صحيحه، وهو الذى صححه الترمذى فى جامعه . وفى البخاريّ عن أنس بن مالك أن هذه الآية «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة . وقال عمر وٱبن مسعود وعائشة والحسن : ما أنزل الله على رسوله آية أشدّ عليه من هذه الآية . وقال الحسن وعائشة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحى لكتم هذه الآية لشدّتها عليه . وروى فى الخبر أنه : أمسى زيد فأوى إلى فراشه ، قالت زينب : ولم يستطعنى زيد، وما أمتنع منه غير ما منعه الله منى ، فلا يقدر علىّ . هذه رواية أبى عِصْمة نوح بن أبى مريم، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك . وفى بعض الروايات : أن زيدا تورّم ذلك منه حين أراد أن يقربها ؛ فهذا قريب من ذلك . وجاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن زينب تؤذينى بلسانها وتفعل وتفعل ! و إنى أريد أن أطلقها ، فقال له : "أمسك عليك زوجك وٱتق الله" الآية . فطلّقها زيد فنزلت : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » الآية .

وٱختلف الناس فى تأويل هذه الآية ؛ فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين ، منهم الطبرى وغيره — إلى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وقع منه ٱستحسان لزينب بنت جحش ، وهى فى عِصْمة زيد ، وكان حريصا على أن يطلّقها زيد فيتزوّجها هو ؛ ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها ، ويشكو منها غِلظة قولٍ وعصيان أمرٍ ، وأذًى باللسان وتعظّمًا بالشرف، قال له : " اتق الله — أى فيما تقول عنها — وأمسك عليك زوجك" وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إيّاها . وهذا الذى كان يخفى فى نفسه، ولكنه لزم مايجب من الأمر بالمعروف .

(١) زيادة عن صحيح الترمذى .

وقال مقاتل : زوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً، ثم إنه عليه السلام أتى زيدا يوما يطلبه ، فأبصر زينب قائمة ، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتمّ نساء قريش، فهوِيَها وقال : "سبحان الله مقلِّبَ القلوب" ! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطِن زيد فقال : يارسول الله ، ائذن لى فى طلاقها ، فإن فيها كبراً ، تعظُم علىّ وتؤذيني بلسانها ، فقال عليه السلام : " أمسك عليك زوجك واتقِ الله " . وقيل : إن الله بعث ريحا فرفعت الستر وزينب مُتَفَضِّلَة(١) فى منزلها ، فرأى زينب فوقعت فى نفسه ، ووقع فى نفس زينب أنها وقعت فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما جاء يطلب زيدا ، فجاء زيد فأخبرته بذلك ، فوقع فى نفس زيد أن يطلقها . وقال ابن عباس : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ الحبّ لها . ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أى تستحييهم . وقيل : تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلتَ طلِّقها ، ويقولون أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها . ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فى كل الأحوال . وقيل : والله أحق أن تستحى منه، ولا تأمر زيدا بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك، فعاتبه الله على جميع هذا . وروى عن علىّ بن الحسين : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه يتزوّجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكّى زيد للنبيّ صلى الله عليه وسلم خُلُقَ زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية : " اتق الله فى قولك وأمسك عليك زوجك " وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوّجها ، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علِم أنه سيتزوّجها ؛ وخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس فى أن يتزوّج زينب بعد زيد، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشِي الناس فى شيء قد أباحه الله له ، بأن قال: «أَمْسِكْ» مع علمه بأنه يطلّق . وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أى فى كل حال . قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ماقيل فى تأويل هذه الآية، وهو الذى

(١) تفضلت المرأة : لبست ثياب مهنتها . أو كانت فى ثوب واحد .

عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ؛ كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري[1] ، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم . والمراد بقوله تعالى : «وَتَخْشَى النَّاسَ» إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نَهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه . فأما ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم هَوِى زينب امرأة زيد — وربما أطلق بعض المُجّان لفظ عَشِق — فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا، أو مستخِفّ بحرمته. قال الترمذي الحكيم في نوادر الأصول ، وأسند إلى علي بن الحسين قوله : فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرا من الجواهر، ودُرًّا من الدُّرَر، أنه إنما عَتَب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد : " أمسك عليك زوجك " وأخذتك خشية الناس أن يقولوا : تزوّج امرأة ابنه ؛ والله أحق أن تخشاه. وقال النحاس : قال بعض العلماء : ليس هذا من النبي صلى الله عليه وسلم خطيئة؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه . وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه؛ وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس .

الثانيــة — قال ابن العربي : فإن قيل لأيّ معنى قال له : " أمسك عليك زوجك " وقد أخبره الله أنها زوجه . قلنا : أراد أن يختبر منه مالم يعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها؛ فأبدى له زيد من النُّفرة عنها والكراهة فيها مالم يكن علمه منه في أمرها . فإن قيل : كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بدّ منه ؟ وهذا تناقض . قلنا : بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة ؛ لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة ؛ ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلَّق الأمر لمتعلَّق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما. وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه وقوله : « وَٱتَّقِ ٱللَّهَ » أي في طلاقها ، فلا تطلقها . وأراد نهي تنزيه لا نهي تحريم ، لأن الأولى ألا يطلق . وقيل : « ٱتَّقِ ٱللَّهَ » فلا تذمّها بالنسبة

---

(١) هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء القشيري ، الفقيه المالكي ولي قضاء العراق . له كتاب في الأحكام والرد على المزني والأشربة ، ورد فيه على الطحاوي ، وكتاب في الأصول ، والرد على القدرية والرد على الشافعي . توفي سنة ٣٤٣ هـ (الوافي بالوفيات للصفدي) .

إلى الكِبَر وأذى الزوج . « وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ » قيل تعلّق قلبه . وقيل : مفارقة زيد إياها . وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها ؛ لأن الله قد أعلمه بذلك .

الثالثـــة ــ روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد : "ما أجد فى نفسى أوثق منك فاخطب زينب علىّ" قال : فذهبت وولّيتها ظهرى توقيرا للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وخطبتها ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامِر[(1)] ربّى ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ، فتزوّجها النبيّ صلى الله عليه وسلم ودخل بها .

قلت : معنى هذا الحديث ثابت فى الصحيح . وترجم له النسائى (صلاة المرأة إذا خُطبت واستخارتها ربّها) روى الأئمة ــ واللفظ لمسلم ــ عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : " فاذكرها علىّ " قال : فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخَمِّر عجينها . قال : فلما رأيتها عَظُمت فى صدرى ، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فولّيتها ظهرى ، ونَكَصْتُ على عقبى ، فقلت : يازينب ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ؛ قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامِر ربّى ؛ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . قال : فقال ولقد رأيتُنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حين امتدّ النهار ... الحديث . فى رواية " حتى تركوه " . وفى رواية عن أنس أيضا قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْلَمَ على امرأة [من نسائه][(2)] ما أَوْلَمَ على زينب ؛ فإنه ذبح شاة . قال علماؤنا : فقوله عليه السلام لزيد : " فاذكرها علىّ " أى اخطبها ؛ كما بيّنه الحديث الأول . وهذا امتحان لزيد واختبار له ، حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه .

قلت : وقد يستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب علىّ فلانة ، لزوجه المطلقة منه ، ولا حرج فى ذلك . والله أعلم .

---

(1) آمره فى أمره ، ووامره واستأمره : شاوره .

(2) زيادة من مسلم .

الرابعــة — لمـا وكلت أمرها إلى الله وصحّ تفويضها إليه تولّى الله إنكاحها ؛ ولذلك قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ . وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم « وَطَرًا زَوَّجْتُكَهَا » . ولمـا أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء ممـا يكون شرطا في حقوقنا(١) ومشروعا لنا . وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم ، التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين . ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول : زوجكنّ آباؤكنّ وزوّجني الله تعـالى . أخرجه النسائي عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفخـر على نسـاء النبي صلى الله عليه وسلم تقول : إن الله عز وجل أنكحني من السماء . وفيها نزلت آية الحجاب ؛ وسيأتي .

الخامســة — المُنْعَم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة ، كما بيناه؛ وقد تقدم خبره في أوّل السورة(٢) . وروى أن عمّه لقيه يوما وكان قد ورد مكة في شغل له ، فقال : ما اسمك يا غلام ؟ قال : زيد؛ قال : ابن من ؟ قال : ابن حارثة . قال ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبي . قال : فما اسم أمك؟ قال : سُعْدَى ، وكنت في أخوالي طيّ؛ فضمّه إلى صدره . وأرسل إلى أخيـه وقومه فحضروا ، وأرادوا منـه أن يقيم معهم ؛ فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد ابن عبد الله؛ فأتوه وقالوا : هذا ابننا فردّه علينا . فقال : " أعرِضُ عليه فإن اختاركم فخذوا بيده " فبعث إلى زيد وقال : " هل تعرف هؤلاء " ؟ قال نعم ! هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمي . فقال له النبي صـلى الله عليه وسـلم : " فأيّ صاحب كنتُ لك " ؟ فبـكى وقال : لِمَ سألتني عن ذلك ؟ قال : " أخيّرك فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق وإن أردت أن تقيم فأنا مَن قد عرفتَ " فقال : ما أختار عليك أحدا . فجـذبه عمّه وقال : يا زيد ، اخترت العبـوديّة على أبيك وعمك ! فقال : أي والله العبودية عنـد محمد أحبّ إليّ من أن أكون عندكم . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا أني وارث وموروث " . فلم يزل يقال : زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعـالى : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » ونزل « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » .

(١) في ش : « حقوقها » .　　(٢) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء .

السادسة — قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلي رضي الله عنه : كان يقال زيد بن محمد حتى نزل « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » فقال : أنا زيد بن حارثة . وحرم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد . فلما نُزِع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، (١) وعلم الله وحشته من ذلك شرّفه بخِصِّيصة لم يكن يَخُصّ بها أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي أنه سماه في القرآن ؛ فقال تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا » يعني من زينب . ومَن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه (٢) قرآنا يُتْلَى في المحاريب، نوّه به غاية التنويه؛ فكان في هذا تأنيس له وعِوض من الفخر بأبوة محمد صلى الله عليه وسلم له . ألا ترى إلى قول أُبَيّ ابن كعب حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا" فبكى وقال : أَوَذُكِرتُ هنالك ؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره؛ فكيف بمن صار اسمه قرآنا يُتلى مخلَّدًا لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن، وأهل الجنة كذلك أبدا ، لا يزال على ألسنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكورا على الخصوص عند رب العالمين ؛ إذ القرآن كلام الله القديم ، وهو باق لا يبيد؛ فاسم زَيْد هذا في الصحف المكرّمة المرفوعة المطهرة ، تذكره في التلاوة السَّفَرةُ الكرام البَرَرَة . وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضا من الله تعالى له مما نُزِع عنه . وزاد في الآية أن قال : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » أي بالإيمان؛ فدلّ على أنه من أهل الجنة، علِم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَطَرًا ﴾ الوَطَر كلّ حاجة للمرء له فيها همّة؛ والجمع الأوطار . قال ابن عباس : أي بلغ ما أراد من حاجته؛ يعني الجماع . وفيه إضمار؛ أي لما قضى وطره منها وطلّقها « زَوَّجْنَاكَهَا » . وقراءة أهل البيت « زَوَّجْتُكَهَا » . وقيل : الوطر عبارة عن الطلاق؛ قاله قتادة .

الثامنة — ذهب بعض الناس من هذه الآية ، ومن قول شعيب : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ » (٣) إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أن يكون : « أنكحه إياها » فتقدّم

(١) في الأصول : « ... وهذا الفخر منه » بزيادة لفظة « منه » .
(٢) لفظة « اسمه » ساقطة من الأصل المطبوع . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٧١ .

ضمير الزوج كما فى الآيتين . وكذلك قوله عليه السلام لصاحب الرداء "اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن" . قال ابن عطية : وهذا غير لازم ؛ لأن الزوج فى الآية مخاطب فحسن تقديمه، وفى المهور الزوجان [سواء]، فقدّم من شئت، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال، وأنهم القوّامون .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ دليل على ثبوت الولىّ فى النكاح ؛ وقد تقدّم الخلاف فى ذلك[1] . روى أن عائشة وزينب تفاخرتا، فقالت عائشة : أنا التى جاء بى الملَك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سَرَقة[2] من حرير فيقول : " هذه امرأتك " خرّجه الصحيح . وقالت زينب : أنا التى زوّجنى الله من فوق سبع سموات . وقال الشعبي : كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى لأدِلّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تَدِلّ بهنّ — : إن جَدّى وجدّك واحد، وإن الله أنكحك إيّاى من السماء، وإن السّفير فى ذلك جبريل . وروى عن زينب أنها قالت : لما وقعت فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستطعنى زيد، وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منّى فلا يقدر علىّ .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة . أعلمهم أن هذا ونحوه هو السَّنن الأقدم فى الأنبياء أن ينالوا ما أحلّه لهم؛ أى سَنّ لمحمد صلى الله عليه وسلم التوسعة عليه فى النكاح سُنّة الأنبياء الماضية ؛ كداود وسليمان . فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سُرِّية ، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرِّية . وذكر الثعلبىّ عن مقاتل وابن الكلبىّ أن الإشارة إلى داود عليه السلام ؛ حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٧٢ فما بعدها . (٢) السرق (بفتحتين) : شقق الحرير الأبيض .

و « سُنَّةَ » نصب على المصدر؛ أي سَنَّ الله له سُنة واسعة . و « الَّذِينَ خَلَوْا » هم الأنبياء؛ بدليل وصفهم بعدُ بقوله : « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ » .

قوله تعالى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تزوج زينب قال الناس : تزوج امرأة ابنه ؛ فنزلت الآية ؛ أي ليس هو بابنه حتى تحرم عليه حليلته ، ولكنه أبو أمته في التبجيل والتعظيم ، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم ، وأعلم أن محمدا لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة . ولم يقصد بهذه الآية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن له ولد، فقد ولد له ذكور : إبراهيم ، والقاسم ، والطيِّب ، والمطهَّر؛ ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا . وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ، ولم يكونا رجلين معاصرَيْن له .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال الأخفش والفرّاء : أي ولكن كان رسول الله . وأجازا « ولكنْ رسولُ الله وخاتَمُ » بالرفع . وكذلك قرأ ابن أبي عَبْلة وبعض الناس « ولكِنْ رسولُ اللهِ » بالرفع؛ على معنى هو رسول الله وخاتم النبيين . وقرأت فرقة «ولكنّ» بتشديد النون ، ونصب «رسول الله» على أنه اسم «لكنّ» والخبر محذوف . « وَخَاتَمَ » قرأ عاصم وحده بفتح التاء، بمعنى أنهم به خُتموا ؛ فهو كالخاتَم والطابَع لهم . وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم ؛ أي جاء آخرهم . وقيل : الخاتَم والخاتِم لغتان ؛ مثل طابَع وطابِع ، ودانَق ودانِق ، وطابَق من اللحم وطابِق .

الثالثة — قال ابن عطية : هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمّة[(١)] خَلَفا وسلَفا متلقّاة على العموم التام مقتضية نصًّا أنه لا نبيّ بعده صلى الله عليه وسلم. وما ذكره القاضي أبو الطيّب في كتابه المسمّى بالهداية : من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف . وما ذكره الغزالي

(١) في ج، ش : «الأئمة» .

فى هذه الآية ، وهذا المعنى فى كتابه الذى سمّاه بالاقتصاد، إلحاد عندى ، وتطرّق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين فى ختم محمد صلى الله عليــه وسلم النبوّة ؛ فالحذرَ الحذرَ منــه ! والله الهـادى برحمته .

قلت : وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا نبوّة بعدى إلا ما شاء الله". قال أبو عمر : يعنى الرؤيا — والله أعلم — التى هى جزء منها ؛ كما قال عليه السلام : "ليس يبقى بعــدى من النبوّة إلا الرؤيا الصالحة" . وقرأ ابن مسعود « من رجالكم ولكن نبيًّا ختم النبيين» . قال الرُّمّانى : ختم به عليــه الصلاة والسلام الاستصلاح، فمن لم يصلح به فميئوس من صلاحه .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : "بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق" . وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : "مَثَلى ومَثَلُ الأنبياء كمثَل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لَبِنــة فجعل النــاس يدخلونها ويتعجّبون منهــا ويقولون لولا موضِــعُ اللَّبِنة ! — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فأنا موضع اللَّبِنــة جئت فختمتُ الأنبياء" . ونحوه عن أبى هريرة ، غير أنه قال : فأنا اللَّبِنة وأنا خاتَم النبيين " .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه ، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم . وجعل تعالى ذلك دون حدّ لسهولته على العبد . ولعظم الأجر فيــه قال ابن عباس : لم يُعذر أحد فى ترك ذكر الله إلا من غُلب على عقله . وروى أبو سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنــون" . وقيــل : الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب ، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان .

قوله تعـالى : وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

أى اشغلوا ألسنتكم فى معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير . قال مجاهد : وهذه كلمات يقولهن الطاهر والمحدِث والجنب . وقيل : ادعوه . قال جرير :

فلا تنس تسبيح الضحى إن يوسفًا * دعا ربه فاختاره حين سبحا

وقيل : المراد صلّوا لله بكرة وأصيلا ؛ والصلاة تسمّى تسبيحا . وخص الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها ، لاتصالها بأطراف الليل[1]. وقال قتادة والطبري : الإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر . والأصيل : العشيّ وجمعه أصائل . والأُصُل بمعنى الأصيل ، وجمعه آصال ؛ قاله المبرد . وقال غيره : أُصُل جمع أصيل ؛ كرغيف ورغف . وقد تقدم[2] .

مسألة — هذه الآية مدنيّة ، فلا تعلّق بها لمن زعم أن الصلاة إنما فرضت أوّلاً صلاتين في طرفي النهار . والرواية بذلك ضعيفة فلا التفات إليها ولا معوّل عليها . وقد مضى الكلام في كيفية فرض الصلاة وما للعلماء في ذلك في « سبحان[3] » والحمد لله .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصّةً ، وليس لنا فيه شيء ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قلت : وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم ، ودليل على فضلها[4] على سائر الأمم . وقد قال : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[5] » . والصلاة من الله على العبد هي رحمته له وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ؛ كما قال : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا[6] » وسيأتي . وفي الحديث : أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أيُصلّي ربك جل وعز ؟ فأعظم ذلك ؛ فأوحى الله جل وعز : « إن صلاتي بأن رحمتي سبقت غضبي » ذكره النحاس . وقال ابن عطية : وروت فرقة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) في ك : « بأطراف النهار » . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥٥ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢١٠
(٤) في أ ، جـ ، ش : « فضيلتها » . (٥) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ (٦) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٣ فما بعد .

قيل له : يا رسول الله، كيف صلاة الله على عباده . قال : "سُبُّوح قُدُّوس — رحمتي سبقت غضبي" . واختلف في تأويل هذا القول؛ فقيل : إنه كلمة من كلام الله تعالى وهي صلاته على عباده . وقيل سُبُّوح قُدُّوس من كلام(١) محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدّمه بين يدى نطقه باللفظ الذى هو صلاة الله وهو " رحمتي سبقت غضبي " من حيث فهم من السائل أنه توهّم في صلاة الله على عباده وجهًا لا يليق بالله عز وجل؛ فقدّم التنزيه والتعظيم بين يدى إخباره.

قوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى من الضلالة إلى الهدى . ومعنى هذا التثبيت على الهداية؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية . ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيسًا لهم فقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾.

قوله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

اختلف في الضمير الذى في « يَلْقَوْنَهُ » على من يعود؛ فقيل على الله تعالى ، أى كان بالمؤمنين رحيما ، فهو يؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة . وفي ذلك اليوم يلقونه . و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أى تحية بعضهم لبعض . ﴿ سَلَامٌ ﴾ أى سلامة لنا ولكم من عذاب الله . وقيل : هذه التحية من الله تعالى؛ المعنى : فيسلّمهم من الآفات ، أو يبشرهم بالأمن من المخافات ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أى يوم القيامة بعد دخول الجنة . قال معناه الزجاج ؛ واستشهد بقوله جل وعز : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ(٢) » . وقيل : « يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ » أى يوم يلقون مَلَك الموت ؛ وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلّم عليه . روى عن البَراء بن عازب قال : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » فيسلّم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه ، لا يقبض روحه حتى يسلّم عليه .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

---

(١) في ا، جـ، ش : « كلام » من كلام . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣١٣

هذه الآية فيها تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم . وهذه الآية تضمنت من أسمائه صلى الله عليه وسلم ستة أسماء ولنبيّنا صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها فى الكتاب والسنة والكتب المتقدّمة . وقد سماه الله فى كتابه محمدا وأحمد . وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه الثقات العدول : " لى خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب " . وفى صحيح مسلم من حديث جُبير بن مُطْعِم : وقد سماه الله « رَءُوفًا رَحِيمًا » . وفيه أيضا عن أبى موسى الأشعرىّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمِّى لنا نفسه أسماء ، فيقول : « أنا محمد وأحمد والمُقَفِّى والحاشر ونبيّ التوبة ونبيّ الرحمة » . وقد تتبع القاضى أبو الفضل عِياض فى كتابه المسمّى (بالشِّفا) ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما نقل فى الكتب المتقدّمة[1] ، وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة ، قد صدقت عليه صلى الله عليه وسلم مُسَمَّياتها ، ووجدت فيه معانيها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربىّ فى أحكامه فى هذه الآية من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم سبعة وستين اسما . وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس أن لمحمد صلى الله عليه وسلم مائة وثمانين اسما ، من أرادها وجدها هناك . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا ومعاذا ، فبعثهما إلى اليمن ، وقال : "اذهبا فبشِّرا ولا تُنَفِّرا ، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا فإنه قد أنزل علىّ ..." وقرأ هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدًا ﴾ قال سعيد عن قتادة : « شاهدًا » على أمّته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ، ونحو ذلك . ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ معناه للمؤمنين برحمة الله وبالجنة . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد . ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ الدعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به ، ومكافحة الكفرة . و﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ هنا معناه : بأمره إياك ، وتقديره ذلك فى وقته وأوانه . ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ هنا استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه .

(١) فى ا و ش : « القديمة » .

وقيل : « وَسِرَاجًا » أى هاديا من ظلم الضلالة ؛ وأنت كالمصباح المضيء . ووصفه بالإنارة لأن من السُّرُج ما لا يضيء ، إذا قلّ سليطه(١) ودقّت فتيلته . وفى كلام بعضهم : ثلاثة تُضْنِي : رسول بطيء ، وسراج لا يضيء ، ومائدة ينتظر لها من يجيء . وسئل بعضهم عن الموحشَيْن فقال : ظلام ساتر وسراج فاتر ، وأسند النحاس قال : حدّثنا محمد بن إبراهيم الرازى قال حدّثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدى قال حدّثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن شَيبان النحوى قال حدّثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا» دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ومعاذا فقال : " انطلقا فبشّرا ولا تُعسّرا فإنه قد نزل علىّ الليلة آية « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا — من النار — وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ — قال — شهادة أن لا إله إلا الله — بِإِذْنِهِ — بأمره — وَسِرَاجًا مُنِيرًا — قال — بالقرآن " . وقال الزجاج : « وَسِرَاجًا » أى وذا سراج مُنير ؛ أى كتاب نيّر . وأجاز أيضا أن يكون بمعنى : وتاليًا كتاب الله .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الواو عاطفة جملة على جملة ؛ والمعنى منقطع من الذى قبله . أمره تعالى أن يبشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى . وعلى قول الزجاج : ذا سراج منير ، أو وتاليًا سراجًا منيرا ، يكون معطوفا على الكاف لا فى « أَرْسَلْنَاكَ » . قال ابن عطية : قال لنا أُبَيّ رضى الله عنه : هذه من أرجى آية عندى فى كتاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيّه أن يبشّر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا ؛ وقد بيّن تعالى الفضل الكبير فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

(١) السليط : الزيت .

عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (١)» . فالآية التى فى هذه السورة خبر ، والتى فى « حٰمٓ . عٓسٓقٓ » تفسير لها . ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ ﴾ أى لا تطعهم فيما يشيرون عليك من المداهنة فى الدين ولا تمالئهم . « ٱلْكَافِرِينَ » : أبى سفيان وعكرمة وأبى الأعور السُّلَمِىّ ؛ قالوا : يا محمد ، لا تذكر آلهتنا بسوء نتبعك . « وَٱلْمُنَافِقِينَ » : عبد الله بن أُبَىّ وعبد الله ابن سعد وطُعْمة بن أُبَيْرِق ، حثّوا النبىّ صلى الله عليه وسلم على إجابتهم بتعلّة المصلحة . ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أى دع أن تؤذيهم مجازاةً على إذايتهم إياك (٢) . فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم ، والصفح عن زللهم ؛ فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول . ونُسخ من الآية على هذا التأويل ما يخصّ الكافرين ، وناسخه آية السيف . وفيه معنى ثانٍ : أى أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك ، ولا تشتغل به ؛ فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل . وهذا تأويل مجاهد ، والآية منسوخة بآية السيف . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أمره بالتوكل عليه وآنسه بقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ وفى قوة الكلام وعدٌ بنصر . والوكيل : الحافظ القائم على الأمر .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ لما جرت قصة زيد وتطليقه زينب ، وكانت مدخولا بها ، وخطبها النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء عدّتها — كما بيّناه — خاطب الله المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء ، وبيّن ذلك الحكم للأمة ؛ فالمطلّقة إذا لم تكن ممسوسةً لا عدّة عليها بنص الكتاب و إجماع الأمة على ذلك . فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعا .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٠ (٢) فى الأصول : « على إذايتك إياهم » .

الثانيـة — النكاح حقيقة فى الوطء، وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث إنه طريق إليه . ونظيره تسميتهم الخمر إثما[1] لأنه سبب فى اقتراف الإثم . ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقد، لأنه فى معنى الوطء، وهو من آداب القرآن، الكناية عنه بلفظ : الملامسة والمماسّة والقُربان والتغشّى والإتيان .

الثالثـة — استدل بعض العلماء بقوله تعالى : « ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » و بمهلة « ثُمَّ » على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلّق المرأة قبل نكاحها و إن عيّنها، فإن ذلك لا يلزمه . وقال هـذا نَيِّفٌ على ثلاثين من صاحب وتابع و إمام . سمّى البخارىّ منهم اثنين[2] وعشرين . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا طلاق قبل نكاح" ومعناه : أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح . قال حبيب بن أبى ثابت : سئل على بن الحسين رضى الله عنهما عن رجل قال لامرأة : إن تزوجتك فأنت طالق ؟ فقال : ليس بشىء؛ ذكر الله عز وجل النكاح قبل الطلاق . وقالت طائفة من أهل العلم : إن طلاق المعيّنة الشخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح؛ منهم مالك و جميع أصحابه، وجمع عظيم من علماء الأمة . وقد مضى فى «براءة»[3] الكلام فيها ودليل الفريقين . والحمد لله . فإذا قال : كل امرأة أتزوجها [طالق] وكل عبد أشتريه حرّ، لم يلزمه شىء . و إن قال : كلّ امرأة أتزوّجها إلى عشرين سنة ، أو إن تزوّجت من بلد فلان أو من بنى فلان فهى طالق ، لزمه الطلاق ما لم يخف العَنَت على نفسه فى طول السنين، أو يكون عمره فى الغالب لا يبلغ ذلك ، فله أن يتزوّج . و إنما لم يلزمه الطلاق إذا عمّم لأنه ضيّق على نفسه المناكح، فلو منعناه ألّا يتزوّج لحرج[4] وخيف عليه العنت . وقد قال بعض أصحابنا : إنه إن وجد ما يتسرر به لم ينكح، وليس بشىء ، وذلك أن الضرورات والأعذار ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورة كمن لم يحلف، قاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد .

---

(١) الخمر : تؤنث وتذكر ، والتأنيث أكثر . (٢) الذى سماهم البخارى فى (باب لا طلاق قبل النكاح) أربعة وعشرون . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢١١ (٤) حرج : أثم .

الرابعة — استدلّ داود — ومن قال بقوله — ان المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدّتها ثم فارقها قبل أن يمَسها، أنه ليس عليها أن تتم عدّتها ولا عدّةٌ مستقبلة؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها . وقال عطاء بن أبى رباح وفرقة : تمضى فى عدّتها من طلاقها الأول — وهو أحد قولى الشافعى — ؛ لأن طلاقه لها إذا لم يمسها فى حكم من طلقها فى عدّتها قبل أن يراجعها . ومن طلّق امرأته فى كل طُهر مرّة بنت ولم تستأنف . وقال مالك : إذا فارقها قبل أن يمسها إنها لا تبنى على ما مضى من عدّتها ، وإنها تنشىء من يوم طلقها عدّة مستقبلة . وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان ارتجعها ولا حاجة له بها . وعلى هذا أكثر أهل العلم؛ لأنها فى حكم الزوجات المدخول بهن فى النفقة والسكنى وغير ذلك؛ ولذلك تستأنف العدّة من يوم طلقت ، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام . وقال الثورى : أجمع الفقهاء عندنا على ذلك .

الخامسة — فلو كانت بائنة غير مبتوتة فتزوّجها فى العدّة ثم طلّقها قبل الدخول فقد اختلفوا فى ذلك أيضا ، فقال مالك والشافعى وزفر وعثمان البتّى : لها نصف الصداق وتتم بقية العدّة الأولى . وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثّورى والأوزاعى : لها مهر كامل للنكاح الثانى وعدّة مستقبلة . جعلوها فى حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه . وقال داود : لها نصف الصداق ، وليس عليها بقية العدّة الأولى ولا عدّة مستقبلة . والأوْلى ما قاله مالك والشافعى ، والله أعلم .

السادسة — هذه الآية مخصصة لقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ »[1] ، ولقوله : « وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ »[2] . وقد مضى فى « البقرة » ، ومضى فيها الكلام فى المتعة[2] ، فأغنى عن الإعادة هنا . ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه دفع المتعة بحسب الميسرة والعسرة ، قاله

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٦٢ (٢) راجع جـ ٣ ص ١١٢ فما بعد ، وص ٢٠٠ فما بعد .

ابن عباس . الثاني — أنه طلاقها طاهرا من غير جماع ؛ قاله قتادة . وقيل : فسرحوهن بعد الطلاق إلى أهلهن ، فلا يجتمع الرجل والمطلقة في موضع واحد .

السابعة — قوله تعالى : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال سعيد : هي منسوخة بالآية التي في البقرة ، وهي قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » أي فلم يذكر المتعة . وقد مضى الكلام في هذا في « البقرة »(١) مستوفى . وقوله : « وَسَرِّحُوهُنَّ » طلقوهن . والتسريح كناية عن الطلاق عند أبي حنيفة ، لأنه يستعمل في غيره فيحتاج إلى النية . وعند الشافعي صريح . وقد مضى في « البقرة »(١) القول فيه فلا معنى للإعادة . ﴿جَمِيلًا﴾ سنة ، غير بدعة .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

فيه تسع عشرة مسألة :

الأولى — روى السدي عن أبي صالح عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت(٢) إليه فعذرني ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٤ وص ١٢٥

(٢) قالت : إني امرأة مصبية (ذات صبيان) . وفي بعض الروايات : قالت يا رسول الله ، لأنت أحب إلي من سمعي وبصري وحق الزوج عظيم . فأخشى أن أضيع حق الزوج .

عَمَّـاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قالت : فـلم أكن أحل له ؛ لأنى لم أهاجر، كنت من الطُّلقاء . خرّجه أبو عيسى وقال : هـذا حديث حسن لا نعـرفه إلا من هذا الوجه . قال ابن العربيّ : وهو ضعيف جدا ، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يُحتجّ بهـا .

الثانيـــة ــ لمـا خير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترنه ، حَرُم عليـه التزوج بغيرهن والاستبدال بهنّ ، مكافأة لهن على فعلهن . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ الآية . وهل كان يحلّ له أن يطلق واحدة منهن بعد ذلك ؟ فقيل : لا يحل له ذلك جزاءً لهن على اختيارهن له . وقيل : كان يَحِلّ له ذلك كغيره من النـاس ولكن لا يتزوج بدلها . ثم نسخ هذا التحريم فأباح له أن يتزوج بمن شاء عليهن من النساء ، والدليل عليـه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ والإحلال يقتضى تقـدّم حَظْر . وزوجاته اللاتى فى حياته لم يكنّ محرمات عليـه ، وإنمـا كان حرم عليه التزويج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن ، ولأنه قال فى سـياق الآية ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ الآية . ومعلوم أنه لم يكن تحتــه أحد من بنات عمه ولا من بنات عماته ولا من بنـات خاله ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحلّ له التزويج بهذا ابتداء . وهذه الآية وإن كانت مقدمة فى التلاوة فهى متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها ، كآيتى الوفاة فى « البقرة »(١) .

وقد اختلف الناس فى تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ فقيل : المراد بها أن الله تعالى أحلّ له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، قاله ابن زيد والضحاك . فعلى هذا تكون الآية مبيحة جميع النساء حاشا ذوات المحارم . وقيل : المراد أحللنا لك أزواجك، أى الكائنات عندك، لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة، قاله الجمهور من العلماء. وهو الظاهر، لأن قوله : «آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» ماض، ولا يكون الفعل المـاضى بمعنى الاستقبال إلا بشروط . ويجىء الأمر على هذا التأويل ضيّقًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . ويؤيد هذا التأويل ما قاله

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٧٣ و ٢٢٦

ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج فى أىّ الناس شاء ، وكان يشقّ ذلك على نسائه، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا مَن سُمِّيَ ، سُرّ نساؤه بذلك .

قلت : والقول الأوّل أصح لما ذكرناه . ويدلّ أيضا على صحته ماخرّجه الترمذىّ عن عطاء قال: قالت عائشة رضى الله عنها : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ الله تعالى له النساء . قال : هذا حديث حسن صحيح .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أحلّ الله تعالى السرارى لنبيّه صلى الله عليه وسلم ولأمّته مطلقا ، وأحل الأزواج لنبيّه عليه الصلاة والسلام مطلقا ، وأحلّه للخلق بعدَدٍ . وقوله : ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أى ردّه عليك من الكفار . والغنيمة قد تسمى فيئًا ؛ أى مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ أى أحللنا لك ذلك زائدا من الأزواج اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، على قول الجمهور؛ لأنه لو أراد أحللنا لك كل آمرأة تزوجتَ وآتيت أجرها ، لما قال بعد ذلك : «وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ» لأن ذلك داخل فيما تقدّم .

قلت : وهذا لا يلزم ، وإنما خصّ هؤلاء بالذكر تشريفا ؛ كما قال تعالى : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »[(1)] . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ فيه قولان : الأوّل — لا يحلّ لك من قرابتك كبنات عمك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب ، وبنات أولاد بنات عبد المطلب ، وبنات الخال من ولد بنات عبد مناف بن زُهْرة إلا من أسلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه" . الثانى — لا يحلّ لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥

مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا (١) ﴾ ومن لم يهاجر لم يَكْمُل ، ومَن لم يكمل لم يصلح للنبيّ صلى الله عليه وسلم الذى كَمُل وشَرُف وعَظُم ، صلى الله عليه وسلم .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿ مَعَكَ ﴾ المَعِيّة هنا الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة فيها ؛ فمن هاجر حلّ له ، كان فى صحبته إذ هاجر أو لم يكن . يقال : دخل فلان معى وخرج معى ؛ أى كان عمله كعملى و إن لم يقترن فيه عَمَلُكما . ولو قلت : خرجنا معا لاقتضى ذلك المعنيين جميعا : الاشتراك فى الفعل ، والاقتران [فيه] .

السابعــة ــ ذكر الله تبارك وتعالى العمّ فَرْدًا والعمّات جمعا . وكذلك قال : «خَالِكَ» ، « وَخَالَاتِكَ » والحكمة فى ذلك : أن العمّ والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ؛ وليس كذلك العمة والخالة . وهذا عُرْف لغوىّ ، فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال ، وهذا دقيق فتأملوه ؛ قاله ابن العربى .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً ﴾ عطف على « أَحْلَلْنَا » . المعنى وأحللنا لك امرأة تَهَب نفسها من غير صداق . وقد اختلف فى هــذا المعنى ؛ فروى عن ابن عباس أنه قال : لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح أو مِلك يمين . فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد . وقال قوم : كانت عنده موهوبة .

قلت : والذى فى الصحيحين يقوّى هذا القول و يَعْضُدُه ؛ روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتى وَهَبْنَ أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أما تستحى امرأة تَهَب نفسها لرجل ! حتى أنزل الله تعالى « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » فقلت : والله ما أرى رَبَّكَ إلا يسارع فى هــواك . وروى البخارىّ عن عائشة أنها قالت : كانت خَوْلة بنت حكيم من اللائى وهبن أنفسهنّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فدلّ هذا على أنهن كنّ غير واحدة . والله تعالى أعلم . الزَّمَخْشَرىّ : وقيل الموهبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، و زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخَوْلة بنت حكيم .

(١) راجع جـ ٨ ص ٥٥

قلت : وفى بعض هذا اختلاف . قال قتادة : هى ميمونة بنت الحارث . وقال الشعبيّ : هى زينب بنت خزيمة أم المساكين آمرأة من الأنصار . وقال عليّ بن الحسين والضحاك ومقاتل : هى أم شريك بنت جابر الأسدية . وقال عروة بن الزبير : أم حكيم بنت الأوقص السلمية .

التاسعة — وقد آختلف فى اسم الواهبة نفسها ؛ فقيل هى أم شريك الأنصارية ، اسمها غُزِيّة . وقيل غُزَيلة . وقيل ليلى بنت حكيم . وقيل : هى ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجاءها الخاطب وهى على بعيرها فقالت : البعير وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هى أم شريك العامرية ، وكانت عند أبى العكر الأزدى . وقيل عند الطُّفيل بن الحارث فولدت له شريكا . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوّجها ، ولم يثبت ذلك . والله تعالى أعلم ؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر . وقال الشعبيّ وعروة : هى زينب بنت خزيمة أم المساكين . والله تعالى أعلم .

العاشرة — قرأ جمهور الناس « إِنْ وَهَبَتْ » بكسر الألف ، وهذا يقتضى استئناف الأمر ؛ أى إن وقع فهو حلال له . وقد روى عن آبن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم يكن عند النبيّ صلى الله عليه وسلم آمرأة موهوبة ؛ وقد دللنا على خلافه . وروى الأئمة من طريق سهل وغيره فى الصحاح : أن آمرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت أهب لك نفسى ، فسكت حتى قام رجل فقال : زوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فلو كانت هذه الهبة غير جائزة لما سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يقرّ على الباطل إذا سمعه ؛ غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظرا بيانا ؛ فنزلت الآية بالتحليل والتخيير ، فاختار تركها وزوّجها من غيره . ويحتمل أن يكون سكت ناظرا فى ذلك حتى قام الرجل لها طالبا . وقرأ الحسن البصريّ وأُبَيّ بن كعب والشعبيّ «أَنْ» بفتح الألف . وقرأ الأعمش « وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَتْ » . قال النحاس : وكسر «إِنْ» أجمع للمعانى ؛ لأنه قيل إنهن نساء . وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها ؛ لأن الفتح على البدل من آمرأة ، أو بمعنى لأن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مُؤْمِنَةً ﴾ يدلّ على أن الكافرة لا تحلّ له . قال إمام الحرمين : وقد آختلف فى تحريم الحرة الكافرة عليه . قال آبن العربى : والصحيح عندى تحريمها عليه، وبهذا يتميز علينا ؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر ؛ فجوّز لنا نكاح الحرائر الكتابيات ، وقصر هو صلى الله عليه وسلم لجلالته على المؤمنات . وإذا كان لا يحلّ له من لم تهاجر لنقصان فضل الهجرة فأحرى ألّا تحل له الكافرة الكتابية لنقصان الكفر .(١)

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا ﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة ، قد تقدمت فى «النساء» وغيرها .(٢) وقال الزجاج : معنى « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيّ » حلّت . وقرأ الحسن : «أن وهبت» بفتح الهمزة . و «أن» فى موضع نصب . قال الزجاج : أى لأن . وقال غيره : « أن وهبت » بدل اشتمال من « آمرأة » .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى إذا وهبت المرأة نفسها وقبلها النبى صلى الله عليه وسلم حلت له ، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك . كما إذا وهبت لرجل شيئا فلا يجب عليه القبول ؛ بَيْد أن من مكارم أخلاق نبيّنا أن يقبل من الواهب هبته . ويرى الأكارم أن ردّها هُجْنة فى العادة ، ووصمة على الواهب وأَذِيّة لقلبه ؛ فبيّن الله ذلك فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله قرآنا يتلى ؛ ليرفع عنه الحرج ، ويبطل بُطْل الناس فى عادتهم وقولهم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَكَ ﴾ أى هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية لا تجوز ؛ فلا يجوز أن تَهَب المرأة نفسها لرجل . ووجه الخاصيّة أنها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك . فأما فيما بيننا فللمفوّضة طلب المهر قبل الدخول ، ومهر المثل بعد الدخول .

---

(١) فى ابن العربى « الحرة » . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٢٧ فما بعد .

الخامسة عشرة — أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز[1]، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح؛ إلا ما روى عن أبى حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا : إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز . قال ٱبن عطية : فليس فى قولهم إلا تجويز العبارة ولفظة الهبة ، وإلا فالأفعال التى ٱشترطوهاهى أفعال النكاح بعينه ، وقد تقدمت هذه المسألة فى «القصص» مستوفاة[2] . والحمد لله .

السادسة عشرة — خصّ الله تعالى رسوله فى أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد — فى باب الفرض والتحريم والتحليل — مزيّةً على الأمة وُهبت له[3] ، ومرتبة خصّ بها ؛ ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره ، وحُرِّمت عليه أفعال لم تحرم عليهم ، وحللت له أشياء لم تحلل لهم ؛ منها متفق عليه ومختلف فيه .

فأما ما فُرض عليه فتسعة : الأوّل — التهجد بالليل ؛ يقال : إن قيام الليل كان واجبا عليه إلى أن مات ؛ لقوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . قُمِ ٱلَّيْلَ »[4] الآية . والمنصوص أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ »[5] وسيأتى . الثانى — الضحا . الثالث — الأضحى . الرابع — الوتر ؛ وهو يدخل فى قسم التهجّد . الخامس — السواك . السادس — قضاء دين من مات معسرا . السابع — مشاورة ذوى الأحلام فى غير الشرائع . الثامن — تخيير النساء . التاسع — إذا عمل عملا أثبته . زاد غيره : وكان يجب عليه إذا رأى منكرا أنكره وأظهره ، لأن إقراره لغيره على ذلك يدلّ على جوازه ؛ ذكره صاحب البيان .

وأما ما حرم عليه فجملته عشرة : الأول — تحريم الزكاة عليه وعلى آله . الثانى — صدقة التطوّع عليه ، وفى آله تفصيل باختلاف . الثالث — خائنة الأعين[6] ، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر ، أو يخدع عما يجب . وقد ذمّ بعضَ الكفار عند إذنه ثم ألان له القول

---

(١) أى أمر غير جائز . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٧٢ (٣) فى ابن العربى : « وهبة له » .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٣٠ (٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٧ (٦) الخائنة بمعنى الخيانة ، وهى من المصادر التى جاءت على لفظ الفاعلة كالعافية ؛ فاذا كف الإنسان لسانه وأومأ بعينه فقد خان ، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خائنة الأعين .

عنـد دخوله (١) . الرابع — حرّم الله عليه إذا لبس لأْمته (٢) أن يخلعها عنـه أو يحكم الله بينه و بين محاربه . الخامس — الأكل متكئًا . السادس — أكل الأطعمة الكريهة الرائحة . السابع — التبدّل بأزواجه ؛ وسيأتى . الثامن — نكاح آمرأة تكره صحبته . التاسع — نكاح الحرّة الكتابية . العاشر — نكاح الأمة .

وحرّم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيها له وتطهيرا . فحرّم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه ؛ تأكيدًا لحجته وبيانا لمعجزته ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ (٣) » . وذكر النقاش أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كتب ؛ والأوّل هو المشهور . وحرم عليه أن يمدّ عينيه إلى ما متّع به الناس ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ (٤) » الآية .

وأما ما أحِلّ له صلى الله عليه وسلم فجملته ستة عشر : الأوّل — صَفِيّ المغنم . الثانى — الاستبداد بخمس الخمس أو الخمس . الثالث — الوصال . الرابع — الزيادة على أربع نسوة . الخامس — النكاح بلفظ الهبة . السادس — النكاح بغير وليّ . السابع — النكاح بغير صداق . الثامن — نكاحه فى حالة الإحرام . التاسع — سقوط القَسْم بين الأزواج عنـه ؛ وسيأتى . العـاشر — إذا وقـع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها ؛ وحلّ له نكاحها . قال آبن العربى : هكذا قال إمام الحرمين ، وقد مضى ما للعلماء فى قصة زيد من هـذا المعنى . الحادى عشر — أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها . الثانى عشر — دخوله مكة بغـير إحرام ، وفى حقنا فيه اختلاف . الثالث عشر — القتال بمكة . الرابع عشر — أنه لا يورث . وإنمـا ذكر هذا فى قسم التحليل لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض زال عنه أكثر ملكه ، ولم يبق له إلا الثلث خالصا ، وبقى ملك رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، على ما تقرر بيانه فى آية المواريث (٥) ، وسـورة « مريم (٦) » بيانه أيضا . الخامس عشر — بقاء زوجيّته من بعد

(١) راجع كتاب البخارى ومسلم (باب الأدب) . (٢) اللأْمة (وقد يترك همزها) : الدرع . وقيل السلاح .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٦١ .
(٥) راجع جـ ٥ ص ٥٩ . (٦) راجع جـ ١١ ص ١٨ .

المـوت . السادس عشر — إذا طلّق امرأة تبـقى حرمته عليها فلا تُنكح . وهذه الأقسام الثلاثة تقدّم معظمها مفصلا فى مواضعها . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

[وأُبيح (١) له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك، لقوله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » . وعلى كل أحد من المسلمين أن يَقِيَ النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه (٢) . وأبيح له أن يحمى لِنفسه . وأكرمه الله بتحليل الغنائم . وجعلت الأرض له ولأمته مسجدا وطهورا . وكان من الأنبياء [مَن] لا تصح صلاتهم إلا فى المساجد . ونُصِر بالرُّعْب؛ فكان يخافه العدوّ من مسيرة شهر . وبُعث إلى كافة الخلق ، وقد كان مَن قبله من الأنبياء يُبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض . وجُعلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة . وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجارَ المـاء من الصخرة . وقد انشق القمر للنبي صلى الله عليه وسلم، وخرج المـاء من بين أصابعه صلى الله عليه وسـلم . وكانت معجزة عيسى صلى الله عليه وسـلم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . وقد سبّح الحصى فى يد النبي صلى الله عليه وسـلم، وحنّ الجذع إليه؛ وهـذا أبلغ . وفضّله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له، وجعل معجزته فيه باقيـة إلى يوم القيامة ، ولهذا جُعلت نبوّته مؤبّدة لا تُنسخ إلى يوم القيامة (١)] .

السابعة عشر — قوله تعالى : ﴿ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى ينكحها، يقال: نَكَح واستنكح؛ مثل عَجِب واستعجب، وعجِـل واستعجل . ويجوز أن يَرِد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح ، أو طلب الوطء . و « خَالِصَةً » نصب على الحال ، قاله الزجاج . وقيـل : حال من ضمير متصل بفعل مضمر دلّ عليه المضمر، تقـديره : أحللنا لك أزواجك ، وأحللنا لك امرأة مؤمنة أحللناها خالصة، بلفظ الهبة وبغير صداق وبغير ولىّ .

الثامنة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فائدته أن الكفار وإن كانوا مخـاطبين بفروع الشريعة عنـدنا فليس لهم فى ذلك دخـول، لأن تصريف الأحكام إنمـا يكون فيهم على تقدير الإسلام .

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ج وك . (٢) فى ش : « بنفسه » بالباء بدل اللام؛ والجملة غير ظاهرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى ما أوجبنا على المؤمنين ، وهو ألا يتزوّجوا إلا أربع نسوة بمهر و بيّنة ووَليّ . قال معناه أُبَيّ بن كعب وقتادة وغيرهما .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق فى أمر أنت فيه محتاج إلى السّعة، أى بيّنا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » . فـ « لكيلا » متعلق بقوله : « إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ » أى فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أثمت عند ربّك فى شيء . ثم آنس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

فيه إحدى عشرة مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ قرئ مهموزا وغير مهموز ، وهما لغتان ، يقال : أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته . ﴿ وَتُؤْوِي ﴾ تضمّ ، يقال : آوى إليه (ممدودة الألف) ضمّ إليه . وأوى (مقصورة الألف) انضمّ إليه .

الثانيـة — وآختلف العلماء فى تأويل هـذه الآية ، وأصح ما قيل فيها . التوسـعة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ترك القَسْم ، فكان لا يجب عليه القَسْم بين زوجاته . وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشـة رضى الله عنهـا ؛ قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفُسَهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله عز وجل « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » قالت : قلت والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . قال

آبن العربىّ : هـذا الذى ثبت فى الصحيح هو الذى ينبغى أن يعوّل عليه . والمعنى المراد : هو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مخيّرا فى أزواجه ، إن شاء أن يَقْسِم قَسَم ، و إن شاء أن يترك القَسم ترك . نخص النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن جعل الأمر إليه فيه؛ لكنه كان يقسم من قِبَل نفســه دون أن فرض ذلك عليه ، تطييبا لنفوسهنّ ، وصونًا لهنّ عن أقوال الغَيْرة التى تؤدى إلى ما لا ينبغى . وقيــل : كان القَسْم واجبا على النبى صــلى الله عليه وســلم ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية . قال أبو رَزِين : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد همّ بطلاق بعض نسائه فقلن له : اقسم لنا ماشئت . فكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، فكان قسمتهنّ من نفسه وماله سواء بينهنّ . وكان ممن أرجى ســودة وجُوَيْرِيَة وأم حبيبة وميمونة وصفية ؛ فكان يقسم لهنّ ماشاء . وقيل : المراد الواهبات . روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى قوله : « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » قالت : هذا فى الواهبات أنفسهنّ . قال الشعبيّ : هنّ الواهبات أنفسهنّ؛ تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم منهنّ وترك منهنّ . وقال الزُّهْرى : ما علمنا أن رســول الله صلى الله عليه وســلم أرجأ أحدا من أزواجه ، بل آواهن كلهن . وقال آبن عباس وغيره : المعنى فى طلاق من شاء ممن حصل فى عصمته ، و إمساك من شاء . وقيــل غير هذا . وعلى كلّ معنًى فالآية معناها التوسعة على رســول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة . وما آخترناه أصح والله أعلم .

الثالثـــة ــــ ذهب هبــة الله فى الناسخ والمنسوخ إلى أن قوله : « تُرْجِى مَنْ تَشَـاءُ » الآية ، ناسخ لقوله : « لَا يَحِـلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » الآية . وقال : ليس فى كتاب الله ناسخ تقدّم المنسوخَ سوى هـذا . وكلامه يضعف من جهات . وفى « البقرة » عدّة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشر ، وهو ناسخ للحول وقد تقدّم عليه[1] .

الرابعـــة ــــ قوله تعالى : ﴿ وَمَنِ آبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ « آبْتَغَيْتَ » طلبت ،والابتغاء الطلب . و « عَزَلْتَ » أزلت ؛ والعزلة الإزالة ، أى إن أردت أن تؤوى إليك آمرأة ممن

(١) راجع جـ ٣ ص ١٧٤ و ٢٢٦ .

عزلتهن من القسمة وتضمّها إليك فلا بأس عليك فى ذلك . وكذلك حكم الإرجاء ، فدلّ أحد الطرفين على الثانى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى لا ميل، يقال : جنحت السفينة أى مالت إلى الأرض . أى لا ميل عليك باللوم والتوبيخ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ قال قتادة وغيره : أى ذلك التخيير الذى خيّرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا ؛ لأنهن إذا علمن أن الفعل[1] من الله قرّت أعينهن بذلك ورضين ؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له فى شىء كان راضيا بما أوتى منه وإن قلّ . وإن علم أن له حقًّا لم يقنعه ما أوتى منه ، واشتدت غيْرته عليه وعَظُمَ حرصه فيه . فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه فى أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه ، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن ، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه . وقرئ : « تُقِرَّ أعينَهن » بضم التاء ونصب الأعين . « وتُقَرَّ أعينُهن » على البناء للمفعول . وكان عليه السلام مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن، تطييبا لقلوبهن — كما قدّمناه — ويقول : " اللهم هذه قدرتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك " يعنى قلبه؛ لإيثاره عائشة رضى الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك فى شىء من فعله . وكان فى مرضه الذى توفى فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت عائشة . قالت عائشة : أوّل ما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرّض فى بيتها — يعنى بيت عائشة — فأذنّ له ... الحديث ، خرجه الصحيح . وفى الصحيح أيضا عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتفقد[2] ،

---

(١) فى ش وك : « العدل » .

(٢) كذا فى ش وك ، والذى فى البخارى : ليتعذر » قال القسطلانى : « بالعين المهملة والذال المعجمة ؛ أى يطلب العذر فيما يحاوله من الانتقال إلى بيت عائشة . وعند القابسى « يتقدّر » بالقاف والدال المهملة ؛ أى يسأل عن قدر ما بقى إلى يومها ليهون عليه بعض ما يجد ، لأن المريض يجد عند بعض أهله ما لا يجده عند بعض من الأنس والسكون » .

يقول : " أين أنا اليوم أين أنا غدا " استبطاء ليوم عائشة رضى الله عنها . قالت : فلما كان يومى قبضه الله تعالى بين سَحْرى ونَحْرى(١) ؛ صلى الله عليه وسلم .

السابعـــة — على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوما وليلة ؛ هذا قول عامة العلماء . وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك فى الليل دون النهار . ولا يُسقِط حقّ الزوجة مرضُها ولا حَيضُها ، ويلزمه المقام عندها فى يومها وليلتها . وعليه أن يعدل بينهن فى مرضه كما يفعل فى صحته ؛ إلا أن يَعْجِز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صحّ استأنف القَسم . والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات فى ذلك سواء . قال عبد الملك : للحُرّة ليلتان وللأمة ليلة . وأما السرارى فلا قَسْم بينهن و بين الحرائر ، ولا حظّ لهن فيه .

الثامنـــة — ولا يجمع بينهن فى منزل واحد إلا برضاهن ، ولا يدخل لإحداهن فى يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة . واختلف فى دخوله لحاجة وضرورة ؛ فالأكثرون على جوازه ؛ مالك وغيره . وفى كتاب ابن حبيب منعه . وروى ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ، فإذا كان يوم هـذه لم يشرب من بيت الأخرى المـاء . قال ابن بكير : وحدّثنا مالك عن يحيى بن سـعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتـا فى الطاعون . فأسهم بينهما أيهما تدلى أول .

التاســعة — قال مالك : و يعدل بينهن فى النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال ، ولا يلزم ذلك فى المختلفات المناصب . وأجاز مالك أن يفضل إحداهمـا فى الكسوة على غير وجه الميل . فأما الحُبّ والبغض فخارجان عن الكسب فلا يتأتّى العدل فيهما ، وهو المعنىّ بقوله صلى الله عليه وسلم فى قَسْمه . "اللهم هذا فِعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك". أخرجه النسائى وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها . وفى كتاب أبى داود « يعنى القلب » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ»(٢) ، وقوله تعالى : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ » . وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا ، تنبيها منه لنا على أنه يعلم

(١) تريد بين جنبى وصدرى . والسحر : الرئة ، فأطلقت على الجنب مجازا ، من باب تسمية المحل باسم الحال فيه . والنحر : الصدر .		(٢) راجع جـ ٥ ص ٤٠٧ .

ما فى قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض مَن عندنا من النساء دون بعض، وهو العالِم بكل شيء « لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ »(١) « يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى »(٢) لكنه سَمَح فى ذلك ، إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميـل ، وإلى ذلك يعود قوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً » . وقد قيل فى قوله : « ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ » وهى :

العاشـرة — أى ذلك أقرب ألّا يحزنّ إذا لم يجمع إحداهن مع الأخرى و يعاين الأثَرَة والميل . وروى أبو داود عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشِقه مائل" . ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ توكيد للضمير، أى ويرضين كلهن . وأجاز أبو حاتم والزجاج « وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ » على التوكيد للمضمر الذى فى « آتيتهن » . والفراء لا يجيزه ، لأن المعنى ليس عليه ، إذ كان المعنى وترضى كل واحدة منهن، وليس المعنى بما أعطيتهن كلهن. النحاس: والذى قاله حسن.

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ خبر عام ، والإشارة إلى ما فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص . وكذلك يدخل فى المعنى أيضا المؤمنون . وفى البخارىّ عن عمرو بن العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت : أىّ الناس أحبّ إليك ؟ فقال : "عائشة" فقلت : من الرجال ؟ قال : "أبوها" قلت : ثم مَن ؟ قال : "عمر بن الخطاب ..." فعدّ رجالا . وقد تقدّم القول فى القلب بما فيه كفاية فى أول « البقرة »(٣) ، وفى أول هذه السورة(٤) . يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا نجارا قال له سيّده : اذبح شاة وائتنى بأطيبها بَضْعتين ، فأتاه باللسان والقلب . ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له : ألق أخبثها بَضْعتين، فألقى اللسان والقلب . فقال : أمرتك أن تأتينى بأطيبها بَضْعتين فأتيتنى باللسان والقلب، وأمرتك أن تُلقى بأخبثها بَضْعتين فألقيت اللسان والقلب ! ؟ فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا .

(١) راجع جـ ٤ ص ٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٦٥ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ . (٤) ص ١١٧ من هذا الجزء .

قوله تعالى : لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى تأويل قوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » على أقوال سبعة :

الأولى — أنها منسوخة بالسّنة ، والناسخ لها حديث عائشة ، قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ له النساء . وقد تقدّم (١) .

الثانى — أنها منسوخه بآية أخرى ، روى الطحاوىّ عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ الله له أن يتزوج من النساء من شاء، إلا ذات مَحْرم، وذلك قوله عز وجل : «تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ» . قال النحاس : وهذا والله أعلم أولى ما قيل فى الآية ؛ وهو وقول عائشة واحد فى النسخ . وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحلّ له ذلك بالقرآن . وهو مع هذا قول علىّ بن أبى طالب وابن عباس وعلىّ بن الحسين والضحاك . وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال : محال أن تنسخ هذه الآية يعنى « تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » وهى قبلها فى المصحف الذى أجمع عليه المسلمون . ورجح قول من قال نسخت بالسّنة . قال النحاس : وهذه المعارضة لا تلزم وقائلها غالط ؛ لأن القرآن بمنزلة سورة واحدة ، كما صحّ عن ابن عباس : أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى شهر رمضان . ويبين لك أن اعتراض هذا [المعترض] لا يلزم [أن] قوله عز وجل « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » (٢) منسوخة على قول أهل التأويل — لا نعلم بينهم

(١) ص ٢٠٧ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣ ص ٢٢٦ .

خلافا — بالآية التي قبلها « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (١) » :

الثـالث — أنه صلى الله عليه وسلم حظر عليه أن يتزوّج على نسائه ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ هـذا قول الحسن وابن سيرين وأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . قال النحاس : وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ .

الرابـــع — أنه لمـا حرم عليهن أن يتزوجن بعـده حُرم عليـه أن يتزوّج غيرهن ؛ قاله أبو أمامة بن سهل بن حُنَيف .

الخـامس — « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى من بعد الأصناف التى سُمّيت ؛ قاله أُبَىّ بن كعب وعكرمة وأبو رَزين ، وهو اختيار محمد بن جرير . ومن قال إن الإباحة كانت له مطلقة قال هنا : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ » معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات . وهذا تأويل فيه بُعْدٌ . وروى عن مجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة أيضا . وهو القول السادس . قال مجاهد : لئلا تكون كافرة أمًّا للؤمنين . وهذا القول يبعد؛ لأنه يقدّره : من بعد المسلمات، ولم يجر للسلمات ذكر . وكذلك قدّر « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ » أى ولا أن تطلق مسلمة لتستبدل بها كتابيـــة .

الســابع — أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان له حلال أن يتزوّج من شاء ثم نسخ ذلك . قال : وكذلك كانت الأنبياء قبله صلى الله عليه وعليهم وسلم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ قال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله ، يقول أحدهم : خذ زوجتى وأعطنى زوجتك ، روى الدَّارَقُطْنِي عن أبى هريرة قال : كان البدل فى الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى وأزيدك ؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا أَنْ تَبَـدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » قال : فدخل عُيينة بن حِصْن الفَزَارِىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده

(١) راجع ج ٣ ص ١٧٤ ، ٢٢٦

عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ياعُيينة فأين الاستئذان"؟ فقال : يارسول الله ، ما استأذنت على رجل من مُضَر منذ أدركت . قال : مَن هذه الحميراء إلى جنبك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذه عائشة أم المؤمنين " قال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق . فقال : " ياعُيينة ، إن الله قد حرّم ذلك " . قال فلما خرج قالت عائشة : يا رسول الله ، مَن هـذا ؟ قال : " أحمق مطاعٌ وإنه على ما ترين لَسَيّدُ قومه " . وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب ، من أنها كانت تبادل بأزواجها . قال الطبري : وما فعلت العرب قط هذا ، وما روى من حديث عيينة بن حصن من أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة ... الحديث ، فليس بتبديل ، ولا أراد ذلك ، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول .

قلت : وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة من أن البـدل كان في الجاهلية يدلّ على خلاف ما أنكر من ذلك ، والله أعلم . قال المـبرد : وقرئ «لَا يَحِل» بالياء والتاء . فمن قرأ بالتاء فعلى معنى جماعة النساء ، وبالياء من تحت على معنى جميع النساء . وزعم الفراء قال : اجتمعت القراء على أن القراءة بالياء ، وهذا غلط ، وكيف يقال : اجتمعت القراء وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلاف عنه !

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال ابن عباس : نزل ذلك بسبب أسماء بنت عُمَيس ، أعجب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين مات عنها جعفر بن أبي طالب حُسنها ، فأراد أن يتزوّجها ، فنزلت الآية ؛ وهذا حديث ضعيف قاله ابن العربي .

الرابعـة — في هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها . وقد أراد المغيرة بن شُعبة زواج امرأة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " انظر إليها فإنه أجدر أن يُؤْدَم بينكما[(١)] " . وقال عليه السلام لآخر : " انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا " أخرجه الصحيح . قال الحميدي وأبو الفرج الجوزي . يعني صفراء أو زرقاء . وقيل رمصاء[(٢)] .

(١) أي أحرى أن تدوم المودّة بينكما . يقال : أدم الله بينهما يأدم أدما ؛ أي ألف ووفق .

(٢) الرمص (بالتحريك) : وسخ يجتمع في الموق ؛ فإن سال فهو غمص ، وإن جمد فهو رمص .

الخامسة ــ الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغّبه فى نكاحها . ومما يدلّ على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل" . فقوله : "فإن استطاع فليفعل" لا يقال مثله فى الواجب . وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعيّ والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر . وقد كره ذلك قوم لا مبالاة بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة ، وقوله تعالى : « وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » . وقال سهل بن أبى حثمة : رأيت محمد بن مسلمة يطارد ثُبَيْتَة بنت الضحاك على إجّار من أجاجير المدينة فقلت له : أتفعل هذا ؟ فقال نعم ! قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا ألقى الله فى قلب أحدكم خِطْبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها " . الإجّار : السطح، بلغة أهل الشام والحجاز . قال أبو عبيد : وجمع الإجار أجاجير وأجاجرة .

السادسة ــ اختلف فيما يجوز أن ينظر منها؛ فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفّيها، ولا ينظر إلا بإذنها . وقال الشافعيّ وأحمد : بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة . وقال الأوزاعيّ : ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها . قال داود : ينظر إلى سائر جسدها؛ تمسكاً بظاهر اللفظ . وأصولُ الشريعة تردّ عليه فى تحريم الاطلاع على العورة . والله أعلم .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ اختلف العلماء فى إحلال الأَمَة الكافرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم على قولين : تحلّ لعموم قوله : « إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » ؛ قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم . قالوا : قوله تعالى « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى لا تحلّ لك النساء من غير المسلمات ، فأما اليهوديات والنّصرانيات والمشركات فحرام عليك؛ أى لا يحلّ لك أن تتزوج كافرة فتكون أُمًّا للؤمنين ولو أعجبك حسنها، إلا ما ملكت يمينك، فإن له أن يتسرّى بها . القول الثانى ــ لا تحلّ؛ تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة، وقد قال الله تعالى : « وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ »(1) فكيف به صلى الله عليه وسلم .

(1) راجع جـ ١٨ ص ٦٥ .

و « ما » فى قوله : « إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » فى موضع رفع بدل من «النساء» . ويجوز أن يكون فى موضع نصب على استثناء ، وفيه ضعف . ويجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : إلا ملك يمينك ، وملك بمعنى مملوك ، وهو فى موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

فيـه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ « أنْ » فى موضع نصب على معنى : إلا بأن يؤذن لكم ، و يكون الاستثناء ليس من الأول . ﴿ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ نصب على الحال ، أى لا تدخلوا فى هـذه الحال . ولا يجوز فى « غيْرَ » الخفض على النعت للطعام ، لأنه لو كان نعتا لم يكن بدّ من إظهار الفاعلين ، وكان يقول : غير ناظرين إناه أنتم . ونظير هـذا من النحو : هذا رجلٌ مع رجل ملازمٌ له ، و إن شئت قلت : هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو .

وهذه الآية تضمّنت قصتين : إحداهما — الأدب فى أمر الطعام والجلوس . والثانية — أمر الحجاب . وقال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت فى الثقلاء . فأما القصة الأولى فالجمهور

من المفسرين على أن : سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أَوْلَم عليها (١) ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته مولّية وجهها إلى الحائط ، فثَقُلُوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أنس : فما أدرى أأنا أخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى و بينه ونزل الحجاب . قال : ووعظ القومَ بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ — إلى قوله — إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمًا » أخرجه الصحيح . وقال قتادة ومقاتل فى كتاب الثعلبيّ : إن هذا السبب جرى فى بيت أم سلمة . والأوّل الصحيح ، كما رواه الصحيح . وقال ابن عباس : نزلت فى ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون . وقال إسماعيل بن أبى حكيم : وهذا أدب أدّب الله به الثقلاء . وقال ابن أبى عائشة فى كتاب الثعلبيّ : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود فى بيت زينب ، القصة المذكورة آنفا . وقالت عائشة رضى الله عنها وجماعة : سببها أن عمر قال قلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهنّ البَرّ والفاجر ، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن ؛ فنزلت الآية . وروى الصحيح عن ابن عمر قال : قال عمر وافقت ربّى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر . هذا أصح ما قيل فى أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهية ، لا يقوم شىء منها على ساق ، وأضعفها ما روى عن ابن مسعود : أن عمر أمر نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحجاب ، فقالت زينب بنت جحش : يابن الخطاب ، إنك تغار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا ! فأنزل الله تعالى : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » وهذا باطل ، لأن الحجاب نزل يوم البناء بزينب ، كما بيّناه . أخرجه البخاريّ ومسلم والترمذى وغيرهم . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَطْعَم ومعه بعض

(١) أى التى كانت امرأة زيد ثم طلقها وانقضت عدتها منه .

أصحابه ، فأصاب يَدُ رجل منهم يدَ عائشة ، فكره النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت آية الحجاب. قال ابن عطية: وكانت سـيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمـة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونُضْـجه . وكذلك إذا فرغوا منـه جلسوا كذلك ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك فى بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ودخل فى النهى سائر المؤمنين ، والتزم الناس أدب الله تعالى لهم فى ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل ، لاقبله لانتظار نُضْج الطعام .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ دليل على أن البيت للرجل ، ويحكم له به ، فإن الله تعالى أضافه إليه . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ والْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا(١) خَبِيرًا » قلنا : إضافة البيوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسـلم إضافة مِلك ، و إضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محل ، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والإذن إنمـا يكون للمـالك .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى بيوت النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته ، هل هى ملك لهنّ أم لا على قولين : فقالت طائفة : كانت ملكا لهنّ ، بدليل أنهنّ سكنّ فيها بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى وفاتهنّ ، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهب ذلك لهنّ فى حياته . الثـانى — أن ذلك كان إسكانا كما يسكن الرجل أهله ولم يكن هبة ، وتمـادى سكناهنّ بها إلى الموت . وهذا هو الصحيح ، وهو الذى ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربيّ وغيرهم ، فإن ذلك من مئونتهنّ التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثناها لهنّ ، كما استثنى لهنّ نفقاتهنّ حين قال : "لا تَقْتَسِم ورثتى دينارا ولا درهما ، ما تركت بعد نفقة أهـلى ومئونة عاملى فهو صدقة" . هكذا قال أهـل العلم ، قالوا : ويدلّ على ذلك أن مساكنهنّ لم يرثها عنهنّ ورثتهنّ . قالوا : ولو كان ذلك ملكا لهنّ كان لا شك قد ورثه عنهنّ ورثتهنّ . قالوا : وفى ترك ورثتهنّ ذلك دليـل على أنها لم تكن لهنّ ملكا ، وإنمـا كان لهنّ

(١) راجع ص ١٨٢ من هذا الجزء .

سكنى حياتهنّ ، فلما توفين جعل ذلك زيادة فى المسجد الذى يعم المسلمين نفعه، كما جعل ذلك الذى كان لهنّ من النفقات فى تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مضين لسبيلهنّ، فزيد إلى أصل المال فصرف فى منافع المسلمين مما يعمّ جميعهم نفعُه . والله الموفق .

قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ أى غير منتظرين وقت نُضْجه . و « إِنَاهُ » مقصور ، وفيه لغات : « إِنَى » بكسر الهمزة . قال الشيبانى :

وكِسْرَى إذ تقسّمه بَنُوه * بأسياف كما اقْتُسِم اللّحام

تمخّضت المَنون له بيوم * أَنَى[1] ولكل حاملة تمام

وقرأ ابن أبى عبلة : « غَيْرِ نَاظِرِينَ إِنَاه » مجرورا صفة لـ « طعام » . الزمخشرىّ : وليس بالوجه ، لأنه جرى على غير ما هو له ، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ ، فيقال : غيرِ ناظرين إناه أنتم ، كقولك : هندٌ زيدٌ ضاربته هى . وأَنى (بفتحها) ، وأَناء (بفتح الهمزة والمد) قال الحطيئة :

وآنَيتُ العَشاء إلى سُهَيل * أو الشِّعْرَى فطال بِىَ الأَناءُ

يعنى إلى طلوع سهيل . وإناه مصدر أنى الشىء يأنى إذا فرغ وحان وأدرك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ فأكّد المنع، وخصّ وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب، وحفظ الحضرة الكريمة من المباسطة المكروهة . قال ابن العربىّ : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فى الدخول فادخلوا ، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذناً كافيا فى الدخول . والفاء فى جواب « إذا » لازمة لما فيها من معنى المجازاة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ أمر تعالى بعد الإطعام بأن يتفرق جميعهم وينتشروا . والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل . والدليل على ذلك أن الدخول حرام ، وإنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله .

(١) « أنى » هنا فعل ماض ، بمعنى أدرك وبلغ ؛ كما فى اللسان وشرح القاموس .

السادسة — فى هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ؛ لأنه قال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا » فلم يجعل له أكثر من الأكل، ولا أضاف إليه (١) سواه ، وبقى الملك على أصله .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ عطف على قوله : « غَيْرَ نَاظِرِينَ » و « غَيْرَ » منصوبة على الحال من الكاف والميم فى « لكم » أى غير ناظرين ولا مستأنسين ؛ والمعنى المقصود : لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وليمة زينب . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أى لا يمتنع من بيانه وإظهاره . ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك فى البشر . وفى الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سُليم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأت الماء " .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ﴾ الآية . روى أبو داود الطيالسى عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربى فى أربع ...؛ الحديث . وفيه : قلت يارسول الله ، لو ضربتَ على نسائك الحجاب ، فإنه يدخل عليهن البرّ والفاجر ، فأنزل الله عز وجل « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » .

واختلف فى المتاع ؛ فقيل : مايتمتع به من العوارىّ (٢) . وقيل فَتْوَى . وقيل صحف القرآن . والصواب أنه عام فى جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا .

التاسعة — فى هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن فى مسألتهنّ من وراء حجاب فى حاجة تَعْرِض ، أو مسألة يُستفتين فيها ؛ ويدخل فى ذلك جميع النساء بالمعنى ، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها ؛ كما تقدّم ، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعيّن عندها .

(١) فى ح ، ش : « إليهم » .	(٢) العوارى : جمع العارية ، ما تداولوه بينهم .

العاشرة — استدلّ بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى ، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها . وعلى إجازة شهادته أكثر العلماء ، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعيّ وغيرهما . قال أبو حنيفة : تجوز في الأنساب . وقال الشافعيّ : لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ يريد من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء ، وللنساء في أمر الرجال ؛ أي ذلك أنفى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية . وهذا يدلّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له ؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ الآية . هذا تكرار للعلة وتأكيد لحكمها ؛ وتأكيد العلل أقوى في الأحكام .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ روى إسماعيل ابن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلا قال : لو قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجتُ عائشة ؛ فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » الآية . ونزلت : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن : قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حِراء — في نفسه — لو توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوّجت عائشة ، وهي بنت عمي . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدّث به في نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله ، وأعتق رقيقا فكفّر الله عنه . وقال ابن عطية : روى أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوّجت عائشة ؛ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأذّى به ؛ هكذا كنّى عنه ابن عباس ببعض الصحابة . وحكى مكيّ عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبيد الله .

قلت : وكذا حكى النحاس عن معمر أنه طلحة ؛ ولا يصح . قال ابن عطية : لله درّ ابن عباس ! وهذا عندى لا يصح على طلحة بن عبيد الله . قال شيخنا الإمام أبو العباس : وقد حكى هـذا القول عن بعض فضلاء الصحابة ، وحاشاهم عن مثله ! والكذب فى نقله (١) ؛ وإنمـا يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . يروى أن رجلا من المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سلمة بعد أبى سلمة ، وحفصة بعد خُنيس بن حُذافة : ما بال محمد يتزوّج نساءنا ! والله لو قدمات لأجَلْنا السهام على نسائه ؛ فنزلت الآية فى هذا ؛ فحرم الله نكاح أزواجه من بعـده ، وجعل لهن حكم الأمهات . وهـذا من خصائصه تمييزًا لشرفه وتنبيها على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الشافعىّ رحمه الله : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتى مات عنهن لا يحلّ لأحد نكاحهن ، ومن استحلّ ذلك كان كافرا ؛ لقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا » . وقد قيل : إنمـا منع من التزوج بزوجاته ؛ لأنهن أزواجه فى الجنة ، وأن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها . قال حذيفة لامرأته : إن سرّك أن تكونى زوجتى فى الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوّجى من بعدى ؛ فإن المرأة لآخر أزواجها . وقد ذكرنا ما للعلماء فى هذا فى (كتاب التذكرة) من أبواب الجنة .

الرابعة عشرة — اختلف العلماء فى أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد موته ؛ هل بقين أزواجا أم زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت فهـل عليهن عدة أم لا ؟ فقيل : عليهن العدة ؛ لأنه تُوُفِّى عنهن ، والعدة عبادة . وقيـل : لا عدة عليهن ؛ لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة . وهو الصحيح ؛ لقوله عليـه السلام : " ما تركت بعد نفقة عيالى " وروى " أهلى " وهـذا آسم خاص بالزوجيـة ؛ فأبقى عليهن النفقة والسكنى مـدة حياتهن لكونهن نساءه ، وحرمن على غيره ؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح . وإنمـا جعل الموت فى حقه عليه السلام لهن بمنزلة المغيب فى حق غيره ؛ لكونهن أزواجا له فى الآخرة قطعا بخلاف سائر

(١) فى ش : « وحاشاهم عن مثله ... وإنما ... والكذب فى نقله » وموضع النقط فى الأصـل بياض . وفى ك : « وحاشاهم عن مثله وإنما الكذب فى نقله » .

الناس ؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله فى دار واحدة ، فربمـا كان أحدهما فى الجنة والآخر فى النار ؛ فبهذا انقطع السبب فى حق الخلق وبقى فى حق النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قال عليه السلام : " زوجاتى فى الدنيـا هن زوجاتى فى الآخرة " . وقال عليه السلام : " كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي فإنه باق إلى يوم القيامة " .

فرع ــ فأما زوجاته عليه السلام اللاتى فارقهن فى حياته مثل الكَلْبية وغيرها ؛ فهل كان يحلّ لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف . والصحيح جواز ذلك ؛ لمـا روى أن الكلبية التى فارقها رسول الله صلى الله عليه وسـلم تزوجها عكرمة بن أبى جهل على ما تقدّم . وقيل : إن الذى تزوّجها الأشعث بن قيس الكندى . قال القاضى أبو الطيّب : الذى تزوّجها مهاجر بن أبى أميّة ، ولم ينكر ذلك أحد ؛ فدلّ على أنه إجماع .

الخامسة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ يعنى أَذِيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نكاح أزواجه ؛ فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه .

السادسة عشرة ــ قد بيّنا سبب نزول الحجاب من حديث أنس وقول عمر ، وكان يقول لسَوْدة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة : قد رأيناك يا سودة ، حرصا على أن ينزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . ولا بُعْد فى نزول الآية عند هذه الأسباب كلها ــ والله أعلم ــ بَيْدَ أنه لمـا ماتت زينب بنت جحش قال : لا يشهد جنازتها إلا ذو محرم منها ؛ مراعاةً للحجاب الذى نزل بسببها . فدلته أسماء بنت عُميس على سترها فى النعش فى القُبّة ، وأعلمته أنها رأت ذلك فى بلاد الحبشة فصنعه عمر . وروى أن ذلك صُنع فى جنازة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

البارئ سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفى وما كان وما لم يكن ، لايخفى عليه ماضٍ تَقَضَّى ، ولا مستقبلٌ يأتى . وهذا على العموم تمدّح به ، وهو أهل المدح والحمـد . والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدّم التعريض به فى الآية قبلها ، ممن أشير إليه بقوله : « ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » ، ومن أشير إليـه فى قوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ

تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا» فقيل لهم فى هذه الآية : إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها . فصارت هذه الآية منعطفة (١) على ماقبلها مبينة لها . والله أعلم .

قوله تعالى : لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — لمـا نزلت آية الحجاب قال الأباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية .

الثانيـــة — ذكر الله تعالى فى هذه الآية من يحلّ للمرأة البروزُ له ، ولم يذكر العمّ والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقد يسمى العم أبًا ، قال الله تعالى : « نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ (٢) » و إسماعيل كان العمّ . قال الزجاج : العمّ والخال ربمـا يصفان المـرأة لولديهما ، فان المرأة تحلّ لابن العمّ وابن الخال فكره لهما الرؤية . وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عنـد عمها أو خالها . وقد ذكر فى هـذه الآية بعض المحارم وذكر الجميـع فى سورة « النور » ، فهذه الآية بعض تلك ، وقد مضى الكلام هناك مستوفى (٣) ، والحمدلله .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ لمـا ذكر الله تعالى الرخصة فى هذه الأصناف وانجزمت الإباحة ، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة . وهـذا فى غاية البلاغة والإيجاز ، كأنه قال : اقتصرن على هـذا واتقين الله فيـه أن تتعدّينه إلى غيره . وخص النساء بالذكر وعيّنهن فى هذا الأمر ، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن . والله أعلم . ثم توعّد تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

(١) فى ابن العربى « منقطعة » وهو تحريف . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٨ .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٦

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

هذه الآية شرّف الله بها رسوله عليه السلام حياته وموته ، وذكر منزلته منه ، وطهّر بها سوء فعل من استصحب فى جهته فكرة سوء، أو فى أمر زوجاته ونحو ذلك . والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره .

مسألة — واختلف العلماء فى الضمير فى قوله : « يُصَلُّونَ » فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ؛ وهذا قولٌ من الله تعالى شرّف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض الذى جاء فى قول الخطيب : من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوَى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بئس الخطيب أنت ، قل ومن يعص الله ورسوله " أخرجه الصحيح . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره فى ضمير ، ولله أن يفعل فى ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : فى الكلام حذف ، تقديره إن الله يصلّى وملائكته يصلون ، وليس فى الآية اجتماع فى ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله . ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم " بئس الخطيب أنت " لهذا المعنى ، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما ، وسكت سكتة . واستدلوا بما رواه أبو داود عن عدىّ بن حاتم أن خطيبا خطب عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله ومن يعصهما . فقال : " قم — أو اذهب — بئس الخطيب أنت " . إلا أنه يحتمل أن يكون لمّا خطّاه فى وقفه وقال له : " بئس الخطيب " أصلح له بعد ذلك جميع كلامه ، فقال : " قل ومن يعص الله ورسوله " كما فى كتاب مسلم . وهو يؤيد القول الأول بأنه لم يقف على « ومن يعصهما » . وقرأ ابن عباس : «وملائكتُه» بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول « إنّ » . والجمهور بالنصب عطفا على المكتوبة .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا » أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم دون أنبيائه تشريفا له ، ولا خلاف فى أن

الصلاة عليـه فرض فى العمر مرة ، وفى كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التى لا يسع تركها ولايغفلها إلا من لاخير فيه . الزمخشرى : فإن قلت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبـة . وقد اختلفوا فى حال وجوبها ؛ فنهم من أوجبها كلما جرى ذكره . وفى الحديث : "من ذُكرت عنـده فلم يصلّ علىّ فدخل النار فأبعده الله" . ويروى أنه قيل له : يارسول الله ، أرأيت قول الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتمونى عنـه ما أخبرتكم به إن الله تعـالى وكّل بى ملكين فلا أُذكر عنـد مسلم فيصلّى علىّ إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملَكين آمين . ولا أُذكر عند عبـد مسلم فلا يصلى علىّ إلا قال ذلك الملَكان لا غفـر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لذينك الملَكين آمين" . ومنهم من قال : تجب فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ، كما قال فى آية السجدة وتشميت العاطس . وكذلك فى كل دعاء فى أوله وآخره ومنهم من أوجبها فى العمر . وكذلك قال فى إظهار الشهادتين . والذى يقتضيه الاحتياط : الصلاة عند كل ذكر ، لمـا ورد من الأخبار فى ذلك

الثانيـــة ــ واختلفت الآثار فى صفة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، فروى مالك عن أبى مسعود الأنصارىّ قال : أتانا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ونحن فى مجلس سعد ابن عُبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلّى عليـك يا رسول الله ، فكيف نصلّى عليـك ؟ قال : فسكت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد والسـلام كما قد علمتم" . ورواه النسائىّ عن طلحة مثله ، ، بإسقاط قوله : "فى العالمين" وقوله : "والسـلام كما قد علمتم" . وفى البـاب عن كعب بن عُجْرة وأبى حُميـد الساعدىّ وأبى سعيد الخُـدرىّ وعلىّ بن أبى طالب وأبى هريرة وبُريدة الخزاعىّ وزيد بن خارجة ،

ويقال ابن حارثة . أخرجها أئمة أهل الحـديث فى كتبهـم . وصحح الترمذىّ حديث كعب ابن عُجْرة . خرّجه مسـلم فى صحيحه مع حديث أبى حميد الساعدىّ . قال أبو عمر : روى شُعبة والثورىّ عن الحكم بن عبـد الرحمن بن أبى ليـلى عن كعب بن عُجرة قال : لمـا نزل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة ؟ فقال : " قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهـيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " وهذا لفظ حديث الثورىّ لا حديث شعبة ، وهو يدخل فى التفسير المسند إليه لقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » فبيّن كيف الصلاة عليه وعلمهم فى التحيات كيف السلام عليه ، وهو قوله : " السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته " . وروى المسعودىّ عن عون ابن عبد الله عن أبى فاختة عن الأسود عن عبد الله أنه قال : إذا صلّيتم على النبىّ صـلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه . قالوا فعلّمنا ؛ قال: " قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدِك ونبيِّك ورسولِك إمامِ الخير وقائد الخير ورسولِ الرحمة . اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهـيم وعلى آل إبراهيم إنك حميـد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهـيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " . وروينـا بالإسناد المتصل فى كتاب (الشفا) للقاضى عياض عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه قال : عدّهن فى يدى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقال : " عدّهن فى يدى جبريل وقال هكذا أنزلت من عندرب العزة اللهم صـلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهـيم وعلى آل إبراهيم إنك حميـد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهـيم وعلى آل إبراهيم إنك حميـد مجيد . اللهم وترحّم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميـد مجيد . اللهم وتحنّن على محمد

وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " . قال ابن العربي : من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم ، وأصحها ما رواه مالك فاعتمدوه . و رواية غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها لا يقوى ، و إنما على الناس أن ينظروا فى أديانهم نظرهم فى أموالهم ، وهم لا يأخذون فى البيع دينارا معيبا ، و إنما يختارون السالم الطيب ، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم سنده ، لئلا يدخل فى حيز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص ، بل ربما أصاب الخسران المبين .

الثالثة — فى فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من صلّى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا " . وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أفضل العبادات ، لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليس كذلك . قال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما . وروى سعيد بن المسيّب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الدعاء يُحجَب دون السماء حتى يصلّى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم رفع الدعاء . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من صلّى عليّ فى كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمى فى ذلك الكتاب " .

الرابعة — واختلف العلماء فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ؛ فالذى عليه الجمّ الغفير والجمهور الكثير : أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها . قال ابن المنذر : يستحب ألا يصلّى أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزية فى مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من أصحاب الرأى وغيرهم . وهو قول جُلّ أهل العلم . وحكى عن مالك وسفيان أنها فى التشهد الأخير

مستحبة ، وأن تاركها فى التشهد مسيء . وشــذّ الشافعيّ فأوجب على تاركها فى الصــلاة الإعادة . وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان . وقال أبو عمر: قال الشافعيّ إذا لم يصــلّ على النبيّ صلى الله عليه وســلم فى التشهد الأخير بعــد التشهد وقبل التسليم أعاد الصلاة . قال : وإن صلّى عليه قبل ذلك لم تجزه . وهذا قول حكاه عنه حَرْمَلة بن يحيى ، لا يكاد يوجد هكذا عن الشافعيّ إلا من رواية حَرْملة عنه ، وهو من كبار أصحابه الذين كتبوا كتبه . وقد تقلّده أصحاب الشافعيّ ومالوا إليه وناظروا عليه ، وهو عندهم تحصيل مذهبه . وزعم الطحاوىّ أنه لم يقل به أحد من أهل العــلم غيره . وقال الخطّــابى وهو من أصحاب الشافعيّ : وليست بواجبة فى الصلاة ، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعيّ ، ولا أعلم له فيها قدوة . والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعيّ وإجماعهم عليه ، وقد شُنّع عليه فى هذه المسألة جدا . وهذا تشهد ابن مسعود الذى اختاره الشافعيّ وهو الذى علّمه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وســلم ، وكذلك كل من روى التشهد عنه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عمر : كان أبو بكر يعلّمنا التشهد على المنبر كما تعلّمون الصبيان فى الكتّاب . وعلّمه أيضا على المنبر عمر ، وليس فيــه ذكر الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قلت : قد قال بوجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وســلم فى الصلاة محمد بن المَوّاز من أصحابنا فيما ذكر ابن القَصّار وعبــد الوهاب ، واختاره ابن العربيّ للحديث الصحيح : إن الله أمرنا أن نصــلّى عليك فكيف نصلّى عليك ؟ فعــلم الصلاة ووقتها فتعينت كيفيةً ووقتاً . وذكر الدَّارَقُطْنِيّ عن أبي جعفر محمد بن علىّ بن الحسين أنه قال : لو صلّيتُ صلاة لم أصلّ فيها على النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم . وروى مرفوعا عنه عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . والصواب أنه قول أبى جعفر ؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ .

الخامســـة — قوله تعالى: ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ قال القاضى أبو بكر بن بكير: نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر الله أصحابه أن يسلّموا عليه . وكذلك من بعدهم امروا

أن يسلّموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره . وروى النسائىّ عن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبِشْر يُرى فى وجهه ، فقلت : إنا لنرى البِشرى فى وجهك ! فقال : " إنه أتانى المَلَك فقال يا محمد إن ربّك يقول أما يرضيك إنه لا يصلّى عليك أحد إلا صلّيتُ عليه عشرا ولا يسلّم عليك أحد إلا سلّمتُ عليه عشرا " . وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما منكم من أحد يسلم علىّ إذا متُّ إلا جاءنى سلامه مع جبريل يقول يا محمد هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليه السلام ورحمة الله وبركاته " وروى النسائى عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله ملائكة سيّاحين فى الأرض يبلّغونى من أمّتى السلام " . قال القُشيرىّ : والتسليم قولك : سلام عليك .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

فيــه خمس مسائل :

الأولى ــ اختلف العلماء فى أذيّة الله بمــاذا تكون ؟ فقال الجمهــور من العلماء : معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ، ووصفه بمــا لا يليق به ؛ كقول اليهود لعنهم الله : وقالت اليهود يد الله مغــلولة . والنصارى : المسيح ابن الله . والمشركون : الملائــكة بنات الله والأصنام شركاؤه . وفى صحيح البخارىّ قال الله تعالى : " كذّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ... " الحديث . وقد تقدّم فى سورة « مريم »(١) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال الله تبارك وتعالى : " يؤذينى ابن آدم يقول ياخيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإنى أنا الدهر أقلّب ليــله ونهــاره فإذا شئت قبضتهما " . هكذا جاء هذا الحديث موقوفا على أبى هريرة فى هذه الرواية . وقد جاء مرفوعا عنه " يؤذينى ابن آدم

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٩

يَسُبّ الدهر وأنا الدهر أقلّب الليـل والنهار " أخرجه أيضا مسلم . وقال عكرمة : معنـاه بالتصوير والتعرّض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " لعن الله المصوّرين " . قلت : وهذا ممـا يقوّى قول مجاهد فى المنع من تصوير الشجر وغيرها ؛ إذ كل ذلك صـفة اختراع وتشبّه بفعل الله الذى انفرد به سـبحانه وتعـالى . وقد تقدّم هـذا فى سورة « النمـل »(١) والحمد لله . وقالت فرقة : ذلك على حذف مضاف ، تقديره : يؤذون أولياء الله . وأما أذِيّة رسوله صلى الله عليه وسلم فهى كل ما يؤذيه من الأقوال فى غير معنًى واحد، ومن الأفعال أيضا . أما قولهم : « فساحر . شاعر . كاهن مجنون . وأما فعلهم : فكسر رباعيته وشجّ وجهه يوم أُحُد، وبمكة إلقاء السَّلَى على ظهره وهو ساجد » إلى غير ذلك . وقال ٱبن عباس : نزلت فى الذين طعنوا عليه حين ٱتخذ صفية بنت حُيَيّ . وأطلق إيذاء الله ورسـوله وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن إيذاء الله ورسـوله لا يكون إلا بغير حق أبدا . وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه . . ومنه . .

الثانيـة ــ قال علماؤنا : والطعن فى تأمير أسـامة بن زيد أذيّة له عليـه السلام . روى الصحيح عن ٱبن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثًا وأمّر عليهم أسامة ٱبن زيد فطعن الناس فى إمرته ؛ فقام رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن تطعنوا فى إمرته فقد كنتم تطعنون فى إمرة أبيه من قبلُ وٱيْمُ الله إن كان لخليقا للإمارة وإن كان لَمِن أحب الناس إلىّ وإن هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده " . وهذا البعث ــ والله أعلم ــ هو الذى جهّزه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أسامة وأمّره عليهم وأمَره أن يَغْزُوَ « أُبْنَى » وهى القرية التى عند مُؤْتَة، الموضع الذى قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبى طالب وعبد الله ابن رَوَاحة . فأمره أن يأخذ بثأر أبيه فطعن مَن فى قلبه ريب فى إمْرته ؛ من حيث إنه كان من الموالى، ومن حيث إنه كان صغير السنّ؛ لأنه كان إذ ذاك ٱبن ثمان عشرة سنة؛ فمات النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعدُ عنها ؛ فنفذه أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٢١

الثالثة — فى هذا الحديث أوضح دليل على جواز إمامة المَوْلَى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى . وقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم سالما مولى أبى حُذيفة على الصلاة بقُبَاء ، فكان يؤمّهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش . وروى الصحيح عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقى عمر بعُسْفان ، وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملت على هذا الوادى ؟ قال : ٱبن أبزى . قال : ومَن ٱبن أَبْزَى ؟ قال : مَوْلًى من موالينا . قال : فٱستخلفت عليهم مَوْلًى ! قال : إنه لقارئ لكتاب الله و إنه لعالم بالفرائض — قال — أما إن نبيكم قد قال : "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما و يضع به آخرين".

الرابعة — كان أسامة رضى الله عنه الحب ٱبن الحبّ وبذلك كان يُدْعَى ، وكان أسودَ شديدَ السواد، وكان زيد أبوه أبيض من القطن . هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . وقال غير أحمد : كان زيد أزهر اللون وكان أسامة شديدَ الأُدْمَة . ويروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُحَسّن أسامة وهو صغير ويمسح مخاطه ، وينقّى أنفه ويقول : "لو كان أسامة جارية لزيّناه وجهزناه وحبّبناه إلى الأزواج" . وقد ذكر أن سبب ارتداد العرب بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم، أنه لما كان عليه السلام فى حجّة الوداع بجبل عرفة عشيّة عرفة عند النَّفر ، ٱحتبس النبيّ صلى الله عليه وسلم قليلا بسبب أسامة إلى أن أتاه؛ فقالوا : ما ٱحتبس إلا لأجل هذا! تحقيرا له . فكان قولهم هذا سبب ارتدادهم . ذكره البخاريّ فى التاريخ بمعناه . والله أعلم .

الخامسة — كان عمر رضى الله عنه يفرض لأسامة فى العطاء خمسة آلاف ، ولابنه عبد الله ألفين ؛ فقال له عبد الله : فضّلت علىّ أسامة وقد شهدتُ ما لم يشهد ! فقال : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، وأباه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك؛ ففضل رضى الله عنه محبوبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبوبه . وهكذا يجب أن يُحَبّ ما أحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُبْغَض مَن أبغض . وقد قابل مَرْوان هذا الحبّ بنقيضه ؛ وذلك أنه مرّ بأسامة بن زيد وهو يصلى عند باب بيت

النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له مَرْوان : إنما أردت أن نرى مكانك، فقد رأينا مكانك، فعل الله بك ! وقال(١) قولا قبيحا . فقال له أسامة : إنك آذيتني، وإنك فاحش متفحش، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله تعالى يبغض الفاحش المتفحش". فانظر ما بين الفعلين وقس ما بين الرجلين، فقد آذى بنو أمية النبيّ صلى الله عليه وسلم في أحبابه، وناقضوه في محابّه .

قوله تعالى : ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ معناه أُبعدوا من كل خير . واللعن في اللغة : الإبعاد، ومنه اللعان . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ تقدّم معناه في غير موضع . والحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

أذيّة المؤمنين والمؤمنات هي أيضا بالأفعال والأقوال القبيحة، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق . وهذه الآية نظيرُ الآية التي في النساء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا(٢) » كما قال هنا . وقد قيل : إن من الأذيّة تعييره بحسب مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه، لأن أذاه في الجملة حرام . وقد ميّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين فجعل الأوّل كفرا والثاني كبيرة، فقال في أذى المؤمنين : ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وقد بيّناه . وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبيّ بن كعب : قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا » الآية، والله إني لأضربهم وأنهرهم . فقال له أُبَيّ : يا أمير المؤمنين، لستَ منهم، إنما أنت معلم ومقوّم . وقد قيل : إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقيل : نزلت في عليّ، فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه . رضي الله عنه .

---

(١) في الأصول : « وفعل قولا ... » .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٨٠ .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

فيـه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ قد مضى الكلام فى تفضيل أزواجه واحدة واحدة[(1)] . قال قتادة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع . خمس من قريش : عائشة، وحفصة ، وأم حبيبة، وسَوْدة ، وأم سلمة . وثلاث من سائر العرب : ميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرية . وواحدة من بنى هارون : صفية . وأما أولاده فكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم أولاد ذكور وإناث .

فالذكور من أولاده : القاسم ،أمه خديجة، وبه كان يُكْنَى صلى الله عليه وسلم، وهو أوّل من مات من أولاده، وعاش سنتين . وقال عروة : ولدت خديجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم القاسم والطاهر وعبد الله والطيّب . وقال أبو بكر البرقى : ويقال إن الطاهر هو الطيّب وهو عبد الله . وإبراهيم أمه مارية القبطية ، ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفى ابن ستة عشر شهرا ، وقيل ثمانية عشر ؛ ذكره الدَّارَقُطْنِيّ . ودفن بالبقيع . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن له مرضعا تُتِمّ رضاعه فى الجنة " . وجميع أولاد النبيّ صلى الله عليه وسلم من خديجة سوى إبراهيم . وكل أولاده ماتوا فى حياته غير فاطمة .

وأما الإناث من أولاده فمنهنّ : فاطمة الزهراء بنت خديجة، ولدتها وقريش تبنى البيت قبل النبوّة بخمس سنين، وهى أصغر بناته ، وتزوّجها علىّ رضى الله عنهما فى [illegible] ثانية من الهجرة فى رمضان ، وبنى بها فى ذى الحجة . وقيل : تزوّجها فى رجب ، وتوفيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير ، وهى أوّل من لحقه من أهل بيته . رضى الله عنها .

(١) راجع ص ١٦٢ فما بعد من هذا الجزء .

ومنهن : زينب — أمها خديجة — تزوجها آبن خالتها أبو العاصى بن الربيع ، وكانت أم العاصى هالة بنت خويلد أخت خديجة . وآسم أبى العاصى لَقِيط . وقيل هاشم . وقيل هُشيم . وقيل مِقْسم . وكانت أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبرها .

ومنهن : رُقَيَّة — أمها خديجة — تزوجها عُتبة بن أبى لَهَب قبل النبوّة، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ »(1) قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلّق آبنتـه ؛ ففارقها ولم يكن بَنَى بها . وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم هى وأخواتها حين بايعه النساء، وتزوجها عثمان بن عفان ، وكانت نساء قريش يقلن حين تزوّجها عثمان :

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ * رقيّةٌ وبعلها عثمانُ

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين ، وكانت قد أسقطت من عثمان سقطا(2)، ثم ولدت بعد ذلك عبد الله، وكان عثمان يُكْنَى به فى الإسلام ، وبلغ ست سنين فنقره ديك فى وجهه فمات ، ولم تلد له شيئا بعد ذلك . وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى بدر فخلّف عثمانَ عليها ، فتوفّيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر، على رأس سبعة عشر شهرا من الهجرة . وقدم زيد بن حارثة بشيرا من بدر ، فدخل المدينة حين سوّى التراب على رُقَيّة . ولم يشهد دفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : أم كلثوم — أمها خديجة — تزوّجها عُتيبة بن أبى لهب — أخو عتبة — قبل النبوّة، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور فى أمر رقية، ولم يكن دخل بها، فلم تزل بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخواتها حين بايعه النساء ، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما توفّيت رقية تزوّجها عثمان ، وبذلك سمى ذا النُّورَيْن . وتوفيت

(1) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٤ . (2) السقط : بتثليث السين ؛ والكسر أكثر .

فى حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرها، و نزل فى حفرتها علىّ والفضل وأسامة . وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم : القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، وكان يقال له الطيّب والطاهر، وُولد بعد النبوّة ومات صغيرا . ثم أمّ كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية . فمات القاسم بمكة ثم مات عبـــد الله .

الثانيــة ــ لمــا كانت عادة العربيات التبذّل، وكنّ يكشفْن وجوههنّ كما يفعل الإماء، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن ، وتشعّب الفكرة فيهن، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسـلم أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن، وكنّ يتبرّزن فى الصحراء قبل أن تتخذ الكُنُف ــ فيقع الفرق بينهن و بين الإماء، فتُعرف الحرائر بسترهن، فيُكفّ عن معارضتهن من كان عذبا أو شابًّا . وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرّز للحاجة فيتعرض لها بعض الفجار يظن أنها أَمَة، فتصيح به فيذهب، فشكوا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . ونزلت الآية بسبب ذلك . قال معناه الحسن وغيره .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ الجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذى يســتر جميع البـــدن . وفى صحيح مسلم عن أمّ عطيّة قلت : يا رســول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : " لتُلْبِسْها أختُها من جلبابها " .

الرابعـــة ــ واختلف الناس فى صــورة إرخائه، فقال ابن عباس وعَبيدة السَّلْمانىّ : ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهــر منها إلا عين واحدة تُبصر بهــا . وقال ابن عباس أيضا وقتادة : ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشــدّه، ثم تعطفه على الأنف، و إن ظهــرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه . وقال الحسن : تغطّى نصف وجهها .

الخامســـة ــ أمر الله سبحانه جميع النساء بالستر، وأن ذلك لا يكون إلا بمــا لا يصف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت ؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء.

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ ليلة فقال : "سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر رُبَّ كاسيةٍ فى الدنيا عاريةٌ فى الآخرة" . وروى أن دِحْيَةَ الكلبيّ لما رجع من عند هِرَقْل فأعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم قُبْطِيَّة ؛ فقال : "اجعل صديعاً لك قميصا وأعط صاحبتك صديعا تختمر به" . والصّديع النصف . ثم قال له : "مُرْها تجعل تحتها شيئا لئلا يصف" . وذكر أبو هريرة رقّة الثياب للنساء فقال : الكاسيات العاريات الناعمات الشقيّات (١) . ودخل نسوة من بنى تميم على عائشة رضى الله عنها عليهنّ ثياب رِقاق، فقالت عائشة : إن كنتنّ مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه (٢) . وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضى الله عنها وعليها خمار قُبْطِيّ مُعَصْفَر، فلما رأتها قالت : لم تؤمن بسورة « النور » امرأة تلبس هذا . وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات رءوسهن مثل أسنمة البُخْت لا يَدخلْنَ الجنة ولا يجدْنَ ريحها" . وقال عمر رضى الله عنه : ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج فى أطمارها (٣) أو أطمار جارتها مستخفية، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها.

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ ﴾ أى الحرائر ، حتى لا يختلطن بالإماء؛ فإذا عُرِفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرّية ، فتنقطع الأطماع عنهن . وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هى . وكان عمر رضى الله عنه إذا رأى أمَة قد تقنعت ضربها بالدرّة ، محافظة على زيّ الحرائر . وقد قيل : إنه يجب الستر والتقنّع الآن فى حق الجميع من الحرائر والإماء. وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله : "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" حتى قالت عائشة رضى الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنعهنّ من الخروج إلى المساجد كما مُنعت نساء بنى إسرائيل . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ تأنيس للنساء فى ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع .

(١) فى ح : « المتنعمات » . (٢) وردت هذه الكلمة محرّفة فى نسخ الأصل، ولعلها « فتمتعن به » .
(٣) الأطمار : جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق .

قوله تعالى : لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ﴾ الآية . أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد ؛ كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال : «الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ» قال : هم شيء واحد ، يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء . والواو مقحمة ، كما قال :

إلى الملك القَرْم وابن الهمام * ولَيْثِ الكتيبة في المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة ، وقد مضى في « البقرة »[(1)] . وقيل : كان منهم قوم يُرجفون ، وقوم يتبعون النساء للرِّيبة ، وقوم يشكّكون المسلمين . قال عكرمة وشهر ابن حَوْشَب : « الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يعني الذين في قلوبهم الزنى . وقال طاوس : نزلت هذه الآية في أمر النساء . وقال سلمة بن كُهيل : نزلت في أصحاب الفواحش ، والمعنى متقارب . وقيل : المنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد ، عبّر عنهم بلفظين ؛ دليله آية المنافقين في أول سورة « البقرة »[(1)] . والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوّهم ، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قد قتلوا أو هزموا ، وإن العدوّ قد أتاكم ، قاله قتادة وغيره . وقيل كانوا يقولون : أصحاب الصُّفّة قوم عزّاب ، فهم الذين يتعرّضون للنساء . وقيل : هم قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حُبًّا للفتنة . وقد كان في أصحاب الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حُبًّا

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٥ وص ١٩٢ .

للفتنة . وقال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة ، والإرجاف : إشاعة الكذب والباطل للاغتمام[1] به . وقيل : تحريك القلوب ، يقال : رجفت الأرض — أي تحركت وتزلزلت — ترجُف رَجْفا . والرَّجَفان : الاضطراب الشديد . والرَّجّاف : البحر ، سُمّي به لاضطرابه . قال الشاعر :

المُطعِمون اللحم كلَّ عشيّة * حتى تَغيب الشمسُ في الرَّجّاف[2]

والإرجاف : واحدُ أراجيف الأخبار . وقد أرجفوا في الشيء ، أي خاضوا فيه . قال الشاعر :

فإنا وإن عيّرتمونا بقتله * وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ

وقال آخر :

أبالأراجيف يابن اللؤم توعدني * وفي الأراجيف خِلت اللؤمَ والخور[3]

فالإرجاف حرام ، لأن فيه إذاية . فدلّت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أي لنسلطنّك عليهم فتستأصلهم بالقتل . وقال ابن عباس : لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهم . ثم إنه قال عز وجل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ »[4] وإنه أمره بلعنهم ، وهذا هو الإغراء ؛ وقال محمد بن يزيد : قد أغراه بهم في الآية التي تلي هذه مع اتصال الكلام بها ، وهو قوله عز وجل : « أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » . فهذا فيه معنى الأمر

---

(١) في ز : « الاهتمام » وفي ش : الإغمام . (٢) قال ابن بري : البيت لمطرود بن كعب الخزاعي يرثي عبد المطلب جد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقبله :

يأيها الرجل المحوّل رحله * هلا نزلت بآل عبد مناف

(٣) البيت للعين المنقري يهجو به العجاج أو رؤبة . والرواية المعروفة فيه :

أبالأراجيز يابن اللؤم توعدني * وفي الأراجيز خلت اللؤم والخور

والأراجيز : جمع أرجوزة بمعنى الرجز ، وهو بحر من بحور الشعر . وجاء به علماء النحو شاهدا على أن « خلت » من الأفعال التي يلغى عملها لتوسطها بين مفعوليها . ولو نصبت قوله « اللؤم والخور » على المفعولية لجاز . (راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٦١ وباب ظن وأخواتها في كتب النحو) . (٤) راجع جـ ٨ ص ٢١٨ .

بقتلهم وأخذهم ؛ أى هـذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : « خمس يُقتلن فى الحِلّ والحَرَم » . فهذا فيه معنى الأمر كالآية سواء . النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية . وقيل : إنهم قد انتهوا عن الإرجاف فلم يُغرِبهم . ولام «لَنُغْرِيَنَّكَ» لام القسم ، واليمين واقعة عليها ، وأدخلت اللام فى «إن» توطئة لها.

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى فى المدينة . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نصب على الحال من الضمير فى « يُجَاوِرُونَكَ » ، فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى ؛ لأنهم لم يكونوا إلا أقلاء . فهذا أحد جوابى الفرّاء ، وهو الأولى عنده ، أى لا يجاورونك إلا فى حال قلتهم . والجواب الآخر ــ أن يكون المعنى إلا وقتا قليلا ، أى لا يبقون معك إلا مدّة يسيرة ، أى لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا ، فيكون نعتا لمصدر أو ظرف محذوف . ودلّ على أن مَن كان معك ساكنا بالمدينة فهو جارٌ . وقد مضى فى « النساء » [(١)] .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ هذا تمـام الكلام عند محمد بن يزيد ، وهـو منصوب على الحال . وقال ابن الأنبارىّ : « قليلا ملعونين » وقف حسن . النحاس : ويجوز أن يكون التمـام « إِلَّا قَلِيلًا » وتنصب « مَلْعُونِينَ » على الشـتم . كما قـرأ عيسى بن عمر: «وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» . وقد حكى عن بعض النحويين أنه قال : يكون المعنى أينما ثُقِفوا أخذوا ملعونين . وهذا خطأ لا يعمل ما [كان] [(٢)] مع المجازاة فيما قبله . وقيل : معنى الآية إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون . وقد فعل بهم هذا ، فإنه لمـا نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يافلان قم فاخرج فإنك منافق ويا فلان قم " فقام إخوانهم من المسلمين وتولّوا إخراجهم من المسجد .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر ؛ أى سنّ الله جل وعز فيمن أرجف بالأنبيـاء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى تحويلا وتغييرا ، حكاه النقّاش . وقال السدّى : يعنى أن من قُتل بحق فلا دِية على قاتله .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨٣ فما بعد . (٢) زيادة عن النحاس .

المهدوي : وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات . والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم ، وقد مضى هذا في « آل عمران »(١) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ هؤلاء المؤذون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما تُوعّدوا بالعذاب سألوا عن الساعة ، استبعادا وتكذيبا ، موهمين أنها لا تكون . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ أي أجبهم عن سؤالهم وقل علمها عند الله ، وليس في إخفاء الله وقتها عني ما يُبطل نبوّتي ، وليس من شرط النبيّ أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جلّ وعزّ . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أي ما يعلمك . ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ أي في زمان قريب . وقال صلى الله عليه وسلم : " بُعثت أنا والساعةُ كهاتين " وأشار إلى السبّابة والوسطى ، خرّجه أهل الصحيح . وقيل : أي ليست الساعة تكون قريبا ، فحذف هاء التأنيث ذهابا بالساعة إلى اليوم ؛ كقوله : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » ولم يقل قريبة ذهابا بالرحمة إلى العفو ، إذ ليس تأنيثها أصليا . وقد مضى هذا مستوفى(٢) . وقيل : إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها في كل وقت

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي طردهم وأبعدهم . واللعن : الطرد والإبعاد عن الرحمة . وقد مضى في « البقرة »(٣) بيانه . ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ فأنّث السعير لأنها بمعنى النار . ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه .

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٠٣ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٥ .

قوله تعالى : يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام، على الفعل المجهول . وقرأ عيسى الهمداني وابن إسحاق : « نُقَلِّبُ » بنون وكسر اللام . « وُجُوهَهُمْ » نصبا . وقرأ عيسى أيضا : « تُقَلِّبُ » بضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعيرُ وجوهَهم . وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار، فتسودّ مرة وتخضرّ أخرى . و إذا بدّلت جلودهم بجلود أخر فحينئذ يتمنون أنهم ما كفروا ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا ﴾ . و يجوز أن يكون المعنى : يقولون يوم تقلّب وجوههم فى النار يا ليتنا . ﴿ أَطَعْنَا اللّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ أى لم نكفر فننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون . وهذه الألف تقع فى الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها . وكذا « السَّبِيلَا » وقد مضى فى أوّل السورة (١) . وقرأ الحسن : « إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتِنَا » بكسر التاء ، جمع سادة . وكان فى هذا زجر عن التقليد . والسادة جمع السيد ، وهو فَعَلة ، مثل كتبة وفجرة . وساداتنا جمع الجمع . والسادة والكبراء بمعنًى . وقال قتادة : هم المطعمون فى غزوة بدر . والأظهر العموم فى القادة والرؤساء فى الشرك والضلالة ، أى أطعناهم فى معصيتك وما دعونا إليه ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ أى عن السبيل وهو التوحيد ، فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . والإضلال لا يتعدّى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر ، كقوله : « لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ » (٢) .

قوله تعالى : رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

(١) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٥ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ قال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال؛ أى عذّبهم مثلَى ما تعذّبنا فإنهم ضلّوا وأضلّوا . ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيي وعاصم بالباء. الباقون بالثاء، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس، لقوله تعالى: « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ »[(١)] وهذا المعنى كثير . وقال محمد بن أبى السرى : رأيت فى المنام كأنى فى مسجد عسقلان وكأن رجلا يناظرنى فيمن يبغض أصحاب محمد فقال : والعنهم لعنا كثيرا، ثم كررها حتى غاب عنى، لا يقولها إلا بالثاء . وقراءة الباء ترجع فى المعنى إلى الثاء؛ لأن ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، حذر المؤمنين من التعرّض للإيذاء، ونهاهم عن التشبّه ببنى إسرائيل فى أذيّتهم نبيّهم موسى . واختلف الناس فيما أوذى به محمد صلى الله عليه وسلم وموسى ، فحكى النقاش أن أذيّتهم محمدا عليه السلام قولهم : زيد بن محمد . وقال أبو وائل : أذيته أنه صلى الله عليه وسلم قسم قَسْمًا فقال رجل من الأنصار : إن هذه القِسمة ما أريد بها وجه الله ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال : " رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر " . وأما أذيّة موسى صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس وجماعة : هى ما تضمّنه حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه قال : " كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى عليه السلام يتستّر كثيرا ويخفى بدنه فقال قوم هو آدر[(٢)] وأبرص أو به آفة، فانطلق ذات يوم يغتسل فى عين بأرض الشأم وجعل ثيابه على صخرة ففرّ الحجر بثيابه واتبعه موسى عريانا يقول ثَوْبِى حَجَرُ ثوبى حَجَرُ[(٣)] حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فنظروا إليه وهو من

(١) راجع جـ ٢ ص ١٨٤ فما بعد . (٢) الأدره (وزان الغرفة) : انتفاخ الخصية .
(٣) أى دع ثوبى يا حجر .

أحسنهم خَلْقا وأعد لهم صورة وليس به الذى قالوا فهو قوله تبارك وتعالى : « فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » " أخرجه البخاري ومسلم بمعناه . ولفظ مسلم : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سَوْءة بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب يوما[(١)] يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه قال فجمح[(٢)] موسى عليه السلام بإثره يقول ثَوْبِى حَجَرُ ثوبى حَجَرُ حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سَوْءة موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نُظر إليه قال فأخذ ثوبه فطفِق بالحجر ضرْبا " قال أبو هريرة : والله إنه بالحجر نَدَبٌ[(٣)] ستةٌ أو سبعةٌ ضَرْبُ موسى بالحجر . فهذا قول . وروى عن ابن عباس عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : آذوْا موسى بأن قالوا : قتل هارون؛ وذلك أن موسى وهرون خرجا من فَحْص[(٤)] التِّيه إلى جبل فمات هارون فيه، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته، وكان ألين لنا منك وأشدّ حُبًّا . فآذوه بذلك فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به فى بنى إسرائيل، ورأوا آية عظيمة دلّتهم على صدق موسى، ولم يكن فيه أثر القتل . وقد قيل : إن الملائكة تكلّمت بموته ولم يعرف موضع قبره إلا الرَّخَم، وأنه تعالى جعله أصم أبكم . ومات هارون قبل موسى فى التِّيه، ومات موسى قبل انقضاء مدة التِّيه بشهرين . وحكى القشيرىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله، ثم مات . وقد قيل : إن أذِيّة موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون . والصحيح الأول . ويحتمل أن فعلوا كل ذلك فبرّأه الله من جميع ذلك .

مســألة — فى وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله فى الماء عُريانا — دليل على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور . ومنعه ابن أبى لَيْلَى واحتجّ بحديث لم يصحّ؛ وهو

(١) فى مسلم : « مرة » . (٢) جرى أشد الجرى . (٣) الندب (بالتحريك) : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد، فشبه به أثر الضرب فى الحجر . (٤) قال ياقوت : الفحص كل موضع يسكن سهلا كان أو جبلا بشرط أن يزرع . والتيه : هو الموضع الذى ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه . وهو أرض بين أيلة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر) . وهو الآن قلب شبه جزيرة طورسينا .

قـوله صلى الله عليه وسـلم : " لا تدخلوا المـاء إلا بمئزر فإن للمـاء عامرا " . قال القاضي عياض : وهو ضعيف عند أهل العلم .

قلت : أما إنه يستحب التستر لمـا رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن علي دخل غَديرا وعليه بُرد له متوشحا به ، فلمـا خرج قيل له ، قال : إنمـا تسترت ممن يراني ولا أراه ؛ يعني من ربي والملائكة . فإن قيل : كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل ؟ قيل : لأنه صدر عن الحجر فعل مَن يعقل . و « حَجرُ » منادى مفرد محذوف حرف النداء ، كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا »[1] . و « ثوبي » منصوب بفعل مضمر ؛ التقدير : أعطني ثوبي ، أو اترك ثوبي ، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا ﴾ أي عظيما . والوجيه عند العرب : العظيم القدر الرفيع المنزلة . ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه . وقرأ ابن مسعود : « وَكَانَ عَبْدًا لِلهِ » . وقيل : معنى « وَجِيهًا » أي كلمه تكليما . قال أبو بكر الأنباري في (كتاب الرد) : زعم مَن طعن في القرآن أن المسلمين صحّفوا « وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا » وأن الصواب عنده « وَكَانَ عَبْدًا لِلهِ وَجِيهًا » وذلك يدل على ضعف مقصـده ونقصان فهمه وقلة علمـه ، وذلك أن الآية لو حملت على قوله وقرئت : « وكان عبدا » نقص الثناء على موسى عليه السلام ؛ وذلك أن « وَجِيهًا » يكون عند أهل الدنيا وعند أهل زمانه وعند أهل الآخرة ، فلا يوقف على مكان المدح ، لأنه إن كان وجيها عند بني الدنيا كان ذلك إنعاما من الله عليه لا يبين عليه معه ثناء من الله . فلما أوضح الله تعالى موضع المدح بقوله : « وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا » استحق الشرف وأعظم الرفعة بأن الوجاهة عند الله ، فمن غيّر اللفظة صرف عن نبي الله أفخر الثناء وأعظم المدح .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

(١) راجع جـ ٩ ص ١٧٥ .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أي قصدا وحقًّا . وقال ابن عباس : أي صوابا . وقال قتادة ومقاتل : يعني قولوا قولا سديدا في شأن زينب وزيد ، ولا تنسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما لا يحلّ . وقال عكرمة وابن عباس أيضا : القول السداد لا إله إلا الله . وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه . وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره . وقيل : هو الإصلاح بين المتشاجرين . وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض . والقول السداد يعم الخيرات ، فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك .

وظاهر الآية يعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافا للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهة المؤمنين . ثم وعد جل وعز بأنه يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب ؛ وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة . ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي فيما أمر به ونهى عنه ﴿ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

لما بيّن تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بيّن ، أمر بالتزام أوامره . والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور . روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله : حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد[1] بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال

(١) في ش و ك : « محمد بن زيد » ولم نقف على تصويبه .

وما فيها يا رب قال إن حملتها أُجرت و إن ضيّعتها عُذّبت فاحتملها بمـا فيها فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها " . فالأمانة هى الفرائض التى ائتمن الله عليها العباد . وقـد اختلف فى تفاصيل بعضها على أقوال ؛ فقال ابن مسعود : هى فى أمانات الأموال كالودائع وغيرها . وروى عنه أنهـا فى كل الفرائض ، وأشـدّها أمانة المـال . وقال أُبَىّ بن كَعْب : من الأمانة أن ائتمنت المـرأة على فرجها . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وأن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيرها . وفى حديث مرفوع " الأمانة الصـلاة " إن شئت قلت قـد صلّيت و إن شئت قلت لم أصـلّ . وكذلك الصيام وغسل الجنـابة . وقال عبـد الله بن عمرو بن العـاص : أوّل ما خلق الله تعـالى من الإنسان فرجه وقال هـذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها[1] إلا بحق . فإن حفظتها حفظتك ؛ فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليـد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمـان لمن لا أمانة له . وقال السدّى : هى ائتمـان آدم ابنه قابيل على ولده وأهـله ، وخيانته إياه فى قتـل أخيه . وذلك أن الله تعالى قال له : " يا آدم ، هل تعلم أن لى بيتا فى الأرض " قال : " اللهم لا " قال : " فإن لى بيتا بمكة فأته ، فقال للسماء : احفظى ولدى بالأمانة ؟ فأبت ، وقال للأرض : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للجبال كذلك فأبت . فقال لقابيل : احفظ ولدى بالأمانة ، فقال نعم ، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك . فرجع فوجده قد قتل أخاه ، فذلك قوله تبارك وتعـالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا » الآية . وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عُرضت على السموات والأرض والجبـال ، قالت : وما فيها ؟ قيل لها : إن أحسنتِ جوزيتِ و إن أسأتِ عوقبتِ . فقالت لا . قال مجاهد : فلمـا خلق الله تعالى آدم عرضها عليـه ، قال : وما هى ؟ قال : إن أحسنت أجرتك و إن

(١) كذا وردت هـذه الجملة فى نسخ الأصل . والذى فى نوادر الأصول : « فلا تبسل منها شيئا إلا بحقها » والإبسال هنا التضييع ؛ وهو رواية الدر المنثور ؛ قال : « فلا تضيعها إلا فى حقهـا » . يقال : أبسلت فلانا إذا أسـلمته للهلكة .

أسأت عذبتك . قال : فقد تحملتها يارب . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها إلى أن أُخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر . وروى عليّ بن طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ » قال : الأمانة الفرائض ، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال ، إن أدّوها أثابهم ، و إن ضيّعوها عذّبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها . قال النحاس : وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير . وقيل : لما حضرت آدم صلى الله عليه وسلم الوفاة أمر أن يعرض الأمانة على الخلق ، فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه . وقيل : هذه الأمانة هى ما أودعه الله تعالى فى السموات والأرض والجبال والخلق ، من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها ، إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها ؛ قاله بعض المتكلمين . ومعنى « عَرَضْنَا » أظهرنا ، كما تقول : عرضت الجارية على البيع . والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ أى أن يحملن وزرها ، كما قال جل وعز : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »(1) . ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ قال الحسن : المراد الكافر والمنافق . ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ بربه . فيكون على هذا الجوابُ مجازا ، مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »(2) . وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهى الثواب والعقاب ، أى أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها ، وأشفقت وقالت : لا أبتغى ثوابا ولا عقابا ، وكلٌّ يقول : هذا أمر لا نطيقه ، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أُمِرن به وسُخِّرن له ، قاله الحسن وغيره . قال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب ، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير . وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام . والعرض على الإنسان إلزام . وقال القفّال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مَثَل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها

(1) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٠ فما بعد . (2) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد .

تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كُلّفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عَقَل . وهذا كقوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ »(١) — ثم قال : — « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » . قال القفال : فإذا تقرر فى أنه تعالى يضرب الأمثال، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل، وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز، أى إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت، فعبّر عن هذا المعنى بقوله . « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ » الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل، فرأيت أنها تقصر عنه . وقيل : « عَرَضْنَا » بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ، ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام . وذلك أن الله تعالى لما استخلفه على ذريته ، وسلّطه على جميع ما فى الأرض من الأنعام والطير والوحش، وعهد إليه عهدا أمره فيه ونهاه وحرّم وأحلّ ، فقبله ولم يزل عاملا به . فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه مَن يستخلف بعده ، ويقلده من الأمانة ما تقلده، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى، فأبَيْن أن يقبلنه شَفَقًا(٢) من عذاب الله . ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه . ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط، ولم يَهَب منه ما تهيبت السموات والأرض والجبال . « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا » لنفسه « جَهُولًا » بعاقبة ما تقلّد لربه . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على : عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة ! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيدا مما قال! وذلك أنه ردّد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة ، إلا أنه يومئ فى مقالته إلى أنه سلّطه على

(١) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ . (٢) الشفق والاشفاق : الخوف .

جميع ما فى الأرض، وعهِد الله إليه عهدا فيه أمره ونهيه وحلّه وحرامه، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السموات والأرض والجبال؛ فما تصنع السموات والأرض والجبال بالحلال والحرام ؟ وما التسليط[1] على الأنعام والطير والوحش ! وكيف إذا عرضه على ولده فقبله فى أعناق ذرّيته من بعده . وفى مبتدأ الخبر فى التنزيل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أن الإنسان حملها، أى من قِبَل نفسه لا أنه حُمِّل ذلك، فسماه « ظَلُومًا » أى لنفسه، « جَهُولًا » بما فيها . وأما الآثار التى هى بخلاف ما ذكر، فحدّثنى أبى رحمه الله قال حدثنا الفيض بن الفضل الكوفى حدثنا السّرِىّ بن إسماعيل عن عامر الشّعبىّ عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : لما خلق الله الأمانة مثّلها صخرة، ثم وضعها حيث شاء، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحمِلْنها، وقال لهن : إنّ هذه «الأمانة» ، ولها ثواب وعليها عقاب؛ قالوا : يارَبّ ، لا طاقة لنا بها؛ وأقبل الإنسان من قَبْل أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال : ما وقوفكم؟ قالوا : دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها؛ قال : فحركها بيده وقال : والله لو شئت أن أحملها لحملتها؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه ، ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لَزْددت؛ قالوا : دونك! فحملها حتى بلغ بها حِقْوَيه[2]، ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لَزْددت؛ قالوا : دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها، قالوا : مكانك ! إن هذه «الأمانة» ولها ثواب وعليها عقاب، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها، فهى فى عنقك وفى أعناق ذرّيتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلوما جهولا . وذكر أخبارا عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها . ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ أى التزم القيام بحقها، وهو فى ذلك ظلوم لنفسه . وقال قتادة : للأمانة، جهول بقدر ما دخل فيه . وهذا تأويل ابن عباس وابن جُبير . وقال الحسن : جهول بربه . قال : ومعنى «حملها» خان فيها . وقال الزجاج : والآية فى الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل . وقال ابن عباس وأصحابه

(١) فى ا : « وما تسليطه » . (٢) الحقو (بفتح الحاء وكسرها) : الخاصرة .

والضحاك وغيره : «الإنسان» آدم، تحمّل الأمانة فما تمّ له يوم حتى عصى المعصية التى أخرجته من الجنة . وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها . قال وما فيها ؟ قال : إن أحسنتَ جُزِيت وإن أسأت عوقبت . قال : أنا أحملها بما فيها بين أذنى وعاتق . فقال الله تعالى له : إنى سأعينك، قد جعلت لبصرك حجابا فأغلقه عما لا يحلّ لك، ولفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك. وقال قوم : «الإنسان» النوع كله. وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أولا . وقال السدّى : الإنسان قابيل . فالله أعلم . ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ اللام فى « لِيُعَذِّبَ » متعلقة بـ « حمل » أى حملها ليعذب العاصى ويثيب المطيع ؛ فهى لام التعليل ؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة . وقيل بـ « عرضنا » ؛ أى عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلدناها الإنسان ليظهر شركُ المشرك ونفاق المنافق ليعذبهم الله، وإيمانُ المؤمن ليثيبه الله . ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ ﴾ قراءة الحسن بالرفع ، يقطعه من الأوّل؛ أى يتوب الله عليهم بكل حال . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ خبر بعد خبر لـ « كان » . ويجوز أن يكون نعتا لغفور، ويجوز أن يكون حالا من المضمر . والله أعلم بالصواب .

سورة سبإ

مكية فى قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى : «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» الآية . فقالت فرقة : هى مكية، والمراد المؤمنون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنية، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلَام وغيره؛ قاله مقاتل . وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنون به كائنا من كان .

وهى أربع وخمسون آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ « الَّذِى » فى موضع خفض على النعت أو البدل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، وأن يكون فى موضع نصب بمعنى أعنى . وحكى سيبويه «الحمد لله أهلَ الحمد» بالرفع والنصب والخفض . والحمد الكامل والثناء الشامل كله لله ؛ إذ النعم كلها منه . وقد مضى الكلام فيه فى أول الفاتحة[1] . ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ ﴾ قيل : هو قوله تعالى : «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ[2] » . وقيل : هو قوله « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[3] » فهو المحمود فى الآخرة كما أنه المحمود فى الدنيا ، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للأولى . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فى فعله . ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بأمر خلقه .

قوله تعالى : يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ما يدخل فيها من قَطْر وغيره ، كما قال : « فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ[2] » من الكنوز والدفائن والأموات وما هى له كِفات[4] . ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره . ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات . وقرأ علىّ بن أبى طالب « وما نُنَزِّل » بالنون والتشديد . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الملائكة وأعمال العباد ؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٣١ .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد وص ٢٤٥ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣١٣ .
(٤) الكفات : الموضع الذى يضم إليه الشىء ويقبض .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ قيل : المراد أهل مكة . قال مقاتل : قال أبو سفيان لكفار مكة : واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نُبعث . فقال الله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وروى هارون عن طَلْق المعلم قال : سمعت أشياخنا يقرءون « قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَيَأْتِيَنَّكُمْ » بياء، حملوه على المعنى، كأنه قال : ليأتينكم البعث أو أمره . كما قال : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ »(١) . فهؤلاء الكفار مقرّون بالابتداء منكرون الإعادة، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث، وقالوا : وإن قدر لا يفعل . فهذا تحكّم بعد أن أخبر على ألسنة الرسل أنه يبعث الخلق ، وإذا ورد الخبر بشيء وهو ممكن في الفعل مقدور، فتكذيب مَن وجب صدقه محال . ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ بالرفع قراءة نافع وابن كثير على الابتداء ، وخبره « لَا يَعْزُبُ عَنْهُ » وقرأ عاصم وأبو عمرو « عالِمِ » بالخفض، أي الحمد لله عالمِ، فعلى هذه القراءة لا يحسن الوقف على قوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ » . وقرأ حمزة والكسائي : « علّام الغيب » على المبالغة والنعت . ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ أي لا يغيب عنه، « ويَعْزِب » أيضا . قال الفراء : والكسر أحبّ إليّ . النحاس : وهي قراءة يحيى بن وثّاب، وهي لغة معروفة . يقال : عزَب يعزُب ويعزِب إذا بَعُد وغاب . ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ أي قدر نملة صغيرة . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴾ وفي قراءة الأعمش « وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ » بالفتح فيهما عطفا على « ذَرَّةٍ » . وقراءة العامّة

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٢ .

بالرفع عطفا على « مِثْقَالُ » . ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ فهو العالم بما خلق ولا يخفى عليه شيء . ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ منصوب بلام كي، والتقدير: لتأتينكم ليجزي. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ بالثواب ، والكافرين بالعقاب . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ يعني المؤمنين . ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم . ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ أي في إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا ، وأن الله لا يقدر على بعثهم في الآخرة ، وظنوا أنا نهملهم ؛ فهؤلاء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ يقال : عاجزه وأعجزه إذا غالبه وسبقه . و « أَلِيمٍ » قراءة نافع بالكسر نعتا للرجز، فإن الرجز هو العذاب، قال الله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ »(١) . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ » برفع « الميم » هنا وفي « الجاثية »(٢) نعتا للعذاب . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد بن قيس ومجاهد وأبو عمرو « مُعَجِّزِينَ » مثبطين ؛ أي ثبطوا الناس عن الإيمان بالمعجزات وآيات القرآن .

قوله تعالى : وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

لما ذكر الذين سعوا في إبطال النبوة بين أن الذين أوتوا العلم يرون أن القرآن حق . قال مقاتل : « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » هم مؤمنو أهل الكتاب . وقال ابن عباس : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل جميع المسلمين ، وهو أصح لعمومه . والرؤية بمعنى العلم ، وهو في موضع نصب عطفا على « لِيَجْزِيَ » أي ليجزي وليرى ، قاله الزجاج والفراء . وفيه نظر ،

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٥ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٥٩ فما بعد .

لأن قوله : « لِيَجْزِيَ » متعلق بقوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمُ السَّاعَةُ »، ولا يقال : لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق ، فإنهم يرون القرآن حقًّا و إن لم تأتهم الساعة . والصحيح أنه رفع على الاستئناف ، ذكره القشيري .

قلت : و إذا كان « لِيَجْزِيَ » متعلقا بمعنى أثبت ذلك فى كتاب مبين، فيحسن عطف «وَيَرَى» [عليه]، أى وأثبت أيضا ليرى(1) الذين أوتوا العلم أن القرآن حق . و يجوز أن يكون مستأنفا . ﴿ الَّذِي ﴾ فى موضع نصب على أنه مفعول أول لـ « يرى » ﴿ هُوَ الْحَقَّ ﴾ مفعول ثان ، و « هو » فاصلة . والكوفيون يقولون « هو » عماد . و يجوز الرفع على أنه مبتدأ . و« الْحَقُّ » خبره، والجملة فى موضع نصب على المفعول الثانى، والنصب أكثر فيما كانت فيه الألف واللام عند جميع النحويين، وكذا ما كان نكرة لا يدخله الألف واللام فيشبه المعرفة . فإن كان الخبر اسما معروفا نحو قولك : كان أخوك هو زيد ، فزعم الفراء أن الاختيار فيه الرفع . وكذا كان محمد هو عمرو . وعلته فى اختياره الرفع أنه لما لم تكن فيه الألف واللام أشبه النكرة فى قولك : كان زيد هو جالس، لأن هذا لايجوز فيه إلا الرفع. ﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى يهدى القرآن إلى طريق الإسلام الذى هو دين الله . ودلّ بقوله : « العزيز» على أنه لا يغالب . و بقوله : « الْحَمِيدِ » على أنه لايليق به صفة العجز .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾ وإن شئت أدغمت اللام فى النون لقربها منها . ﴿ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ هذا إخبار عمن قال : «لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ» أى هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم، أى يقول لكم : إنكم تبعثون بعد البلى فى القبور . وهذا صادر عن فرط إنكارهم . الزمخشري : « فإن قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورا علما فى قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم ، فما معنى قولهم : « هَلْ نَدُلُّكُمْ

(1) فى الأصول : « وأثبت أيضا رؤية الذين ... » .

عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ » فنكّروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه، كما يُدَلّ على مجهول فى أمر مجهول. قلت : كانوا يقصدون بذلك الطَّنْز(١) والهزؤ والسخرية ، فأخرجوه مخرج التحكى(٢) ببعض الأحاجى التى يتحاجى بها للضحك والتلهّى ، متجاهلين به و بأمره . و « إذا » فى موضع نصب والعامل فيها « مُزِّقْتُمْ » قاله النحاس . ولا يجوز أن يكون العامل فيها « يُنَبِّئُكُمْ » ، لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت . ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد « إِنَّ » ، لأنه لا يعمل فيما قبله ، وألا يتقدّم عليها ما بعدها ولا معمولها . وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفا ؛ التقدير : إذا مزقتم كل ممزق بعثتم ، أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مزقتم . المهدوىّ : ولا يعمل فيه « مُزِّقْتُمْ » ؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف . وأجازه بعضهم على أن يجعل « إِذَا » للمجازاة ، فيعمل فيها حينئذ ما بعدها لأنها غير مضافة إليه . وأكثر ما تقع « إِذَا » للمجازاة فى الشعر . ومعنى ﴿ مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ فرقتم كل تفريق . والمَزْق خرق الأشياء؛ يقال : ثوب مَزِيق وممزوق ومتمزّق وممزّق .

قوله تعالى : أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفْتَرَى على اللهِ كَذِباً ﴾ لما دخلت ألف الاستفهام استغنيت عن ألف الوصل فحذفتها ، وكان فتح ألف الاستفهام فرقا بينها و بين ألف الوصل . وقد مضى هذا فى سورة « مريم » عند قوله تعالى : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ »(٣) مستوفًى . ﴿ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ هذا مردود على ما تقدّم من قول المشركين، والمعنى : قال المشركون « أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً » . والافتراء الاختلاق . « أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون، فهو يتكلم بما لا يدرى . ثم ردّ عليهم فقال : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى ليس الأمر كما قالوا، بل هو أصدق الصادقين ، ومن ينكر البعث فهو غدًا فى العذاب ، واليوم فى الضلال عن الصواب ؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله ونسبة الافتراء إلى من أيده الله بالمعجزات .

---

(١) الطنز : السخرية . (٢) فى الكشاف والبحر : «التحلى» باللام . (٣) راجع جـ ١١ ص ١٤٧

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

أعلم الله تعالى أن الذى قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث وعلى تعجيل العقوبة لهم ، فاستدلّ بقدرته عليهم ، وأن السموات والأرض ملكه ، وأنهما محيطتان بهم من كل جانب ، فكيف يأمنون الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة . وقرأ حمزة والكسائى « إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ » بالياء فى الثلاث ؛ أى إن يشأ الله أمر الأرض فتنخسف بهم ، أو السماء فتسقط عليهم كِسَفًا . الباقون بالنون على التعظيم . وقرأ السُّلَمِىّ وحفص « كِسَفًا » بفتح السين . الباقون بالإسكان . وقد تقدّم بيانه فى « سبحان »(١) وغيرها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى فى هذا الذى ذكرناه من قدرتنا « لآية » أى دلالة ظاهرة . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أى تائب رجّاع إلى الله بقلبه . وخص المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة فى حجج الله وآياته .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ بيّن لمنكرى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم أن إرسال الرسل ليس أمرًا بِدْعًا ، بل أرسلنا الرسل وأيّدناهم بالمعجزات ، وأحللنا بمن خالفهم العقاب . ﴿ آتَيْنَا ﴾ أعطينا . ﴿ فَضْلًا ﴾ أى أمرًا فضلناه به على غيره . واختلف فى هذا الفضل على تسعة أقوال : الأوّل ــ النبوّة . الثانى ــ الزبور . الثالث ــ العلم ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا »(٢) . الرابع ــ القوّة ، قال الله تعالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ »(٣) . الخامس ــ تسخير

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٦٣ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٥٨

الجبال والناس، قال الله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ »(١) . السادس — التوبة ، قال الله تعالى : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ »(١) . السابع — الحكم بالعدل، قال الله تعالى : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ »(١) الآية . الثامن — إلانة الحديد ، قال تعالى : « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ »(١) . التاسع — حسن الصوت ، وكان داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن . وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه ، وهو المراد بقوله تبارك وتعالى : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ »(٢) على ما يأتي إن شاء الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى : "لقد أوتيتَ مزمارا من مزامير آل داود" . قال العلماء : المزمار والمزمور الصوت الحسن، وبه سمّيت آلة الزمر مزمارا . وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بالتزيين والترجيع ، وقد مضى هذا في مقدّمة الكتاب(٣) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أي وقلنا يا جبال أوّبي معه ، أي سبّحي معه ، لأنه قال تبارك وتعالى : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ »(١) . قال أبو ميسرة : هو التسبيح بلسان الحبشة، ومعنى تسبيح الجبال : هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام في الشجرة ، فيُسمع منها ما يُسمع من المسبّح معجزةً لداود عليه الصلاة والسلام . وقيل : المعنى سيري معه حيث شاء ؛ من التأويب الذي هو سير النهار أجمع وينزل الليل . قال ابن مقبل :

لحقنا بحيّ أوّبوا السير بعد ما * دفعنا شُعاع الشمس والطرف يجنح

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما : « أُوبِي مَعَهُ » أي رجّعي معه؛ من آب يئوب إذا رجع، أَوْبًا وأَوْبة وإيابًا . وقيل : المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار ، فكان إذا قرأ الزبور صوّتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير، فكأنها فعلت ما فعل . وقال وهب ابن منبّه : المعنى نوحي معه والطير تساعده على ذلك ، فكان إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٨٤ وص ١٨٨ و ١٥٩ (٢) راجع ص ٣١٨ فما بعد من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١ ص ١١ فما بعد .

بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه . فصَدَى الجبالِ الذى يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة ؛ فأيّد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فَتْرة(١) ، فإذا دخلت الفترة اهتاج، أى ثار وتحرّك، وقوى بمساعدة الجبال والطير. وكان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكان الماء الجارى ينقطع عن الجرى وقوفا لصوته . « وَالطَّيْرُ » بالرفع قراءة ابن أبى إسحاق ونصر عن عاصم وابن هُرْمُز ومَسْلمة بن عبد الملك ، عطفا على لفظ الجبال ، أو على المضمر فى « أَوِّبِى » وحسّنه الفصل بمع . الباقون بالنصب عطفا على موضع « يَا جِبَالُ » أى نادينا الجبال والطير ، قاله سيبويه . وعند أبى عمرو ابن العلاء بإضمار فعل على معنى وسخرنا له الطير . وقال الكسائى : هو معطوف، أى وآتيناه الطير، حملا على « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا » . النحاس : ويجوز أن يكون مفعولا معه ، كما تقول : استوى الماء والخشبة . وسمعت الزجاج يجيز : قمت وزيدا ، فالمعنى أوّبى معه ومع الطير . ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ قال ابن عباس : صار عنده كالشمع . وقال الحسن : كالعجين ، فكان يعمله من غير نار . وقال السدّى : كان الحديد فى يده كالطين المبلول والعجين والشمع ، يصرفه كيف شاء ، من غير إدخال نار ولا ضرب بمِطْرَقة . وقاله مقاتل. وكان يفرغ من الدّرع فى بعض اليوم أو بعض الليل ، ثمنها ألف درهم . وقيل : أعطى قوةً يَثْنِى بها الحديد ، وسبب ذلك أن داود عليه السلام ، لما ملك بنى إسرائيل لقِى مَلَكا وداود يظنه إنسانا ، وداود متنكر خرج يسأل عن نفسه وسيرته فى بنى إسرائيل فى خفاء ، فقال داود لذلك الشخص الذى تمثّل له : " ما قولك فى هذا الملِك داود " ؟ فقال له المَلَك " نِعم العبد لولا خَلّة فيه " قال داود : " وما هى " ؟ قال : " يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله " . فرجع فدعا الله فى أن يعلّمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلّمه صنعةَ لَبُوس كما قال جل وعز فى سورة الأنبياء(٢) ، فألان له الحديد فصنع الدروع ، فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوى ألف درهم ، حتى ادّخر منها كثيرا وتوسّعت

(١) الفترة : الضعف . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠

معيشة منزله، ويتصدّق على الفقراء والمساكين، وكان ينفق ثلث المال في مصالح المسلمين، وهو أول من اتخذ الدروع وصنعها وكانت قبل ذلك صفائح . ويقال : إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف . والدرع مؤنثة إذا كانت للحرب . ودرع المرأة مذكر .

مسألة — في هذه الآية دليل على تعلّم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم ؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده " . وقد مضى هذا في « الأنبياء » مجوّدا والحمد لله .

قوله تعالى : أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ أي دروعًا سابغات ، أي كوامل تامات واسعات ؛ يقال : سبغ الدرعُ والثوب وغيرهما إذا غطّى كل ما هو عليه وفضل منه . ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ قال قتادة : كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا ؛ فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة . أي قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه . أي لا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة فتزيل المنعة . وقال ابن زيد : التقدير الذي أمر به هو في قدر الحَلْقة ، أي لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها . وقال ابن عباس : التقدير الذي أمر به هو في المسمار ، أي لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيَقْلَق[1] ، ولا غليظا فيَفْصِم الحلَق . روى «يقصم» بالقاف ، والفاء أيضا رواية . ﴿ فِي السَّرْدِ ﴾ السَّرْد نسج حلَق الدروع ، ومنه قيل لصانع حلق الدروع : السرّاد والزرّاد ، تبدل من السين الزاى ، كما قيل : سرّاط وزرّاط . والسّرد : الخَرْز ، يقال : سرد يسرد إذا خرز . والمِسْرَد : الإشفى ، ويقال سراد ؛ قال الشماخ :

(١) القلق : ألا يستقر في مكان واحد .

فظلت تباعا خيلنا في بيوتكم * كما تابعت سرد العنان الخوارز (١)

والسراد : السير الذي يخرز به ؛ قال لبيد :

يشك صفاحها بالروق شزرا * كما خرج السراد من النقال (٢)

ويقال : قد سرد الحديث والصوم ؛ فالسرد فيهما أن يجيء بهما (٣) ولاء في نسق واحد ؛ ومنه سرد الكلام . وفي حديث عائشة : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم ، وكان يحدث الحديث لو أراد العاد أن يعده لأحصاه . قال سيبويه : ومنه رجل سرندى أي جريء ؛ قال : لأنه يمضي قدما (٤) . وأصل ذلك في سرد الدرع ، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف . قال لبيد .

صنع الحديد مضاعفا أسراده * لينال طول العيش غير مروم

وقال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صنع السوابغ تبع (٥)

﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أي عملا صالحا . وهذا خطاب لداود وأهله ، كما قال : «اعملوا آل داود شكرا» . ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ قال الزجاج ، التقدير وسخرنا لسليمان الريح . وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه : «الريحُ» بالرفع على الابتداء ، والمعنى له تسخير الريح ، أو بالاستقرار ،

(١) رواية البيت كما في ديوانه :

شككن بأحشاء الذنابى على هدى * كما تابعت ... ... الخ

(٢) الروق : القرن . والنقال : جمع النقل (بالتحريك) والنقل ، وهو الخف الخلق . (٣) في الأصول : «به» .

(٤) أي لم يعرج ولم ينثن ؛ يوصف به الذكر والأنثى . (٥) قضاهما : أحكمهما ، أو فرغ منهما . والصنع (بالتحريك) : الحذق في العمل . والصنع هاهنا تبع ، وهو ملك من ملوك حمير . ويروى : «أو صنع السوابغ» .

أى ولسليمان الريح ثابتة، وفيه ذلك المعنى الأول . فإن قال قائل : إذا قلت أعطيت زيدا درهما ولعمرو دينار، فرفعته فلم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تعطه الدينار . وقيل : الأمر كذا ولكن الآية على خلاف هـذا من جهة المعنى ؛ لأنه قـد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عز وجل . ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أى مسيرة شهر . قال الحسن : كان يغدو من دمشق فَيقِيل بإصْطَخْر، وبينهما مسـيرة شهر للسرع، ثم يروح من إصْطَخْر ويبيت بكابُل، وبينهما شهر للسرع . قال السُّدّى : كانت تسير به فى اليوم مسيرة شهرين . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمائة ألف كرسى، ثم جلس رؤساء الإنس مما يليه، وجلس سِفْلة الإنس مما يليهم، وجلس رؤساء الجن ممـا يلى سِفْلة الإنس، وجلس سِفْلة الجن ممـا يليهم، ومُوكّل بكل كرسى طائر لعملٍ قـد عرفه، ثم تقلّهم الريح ، والطير تظلهم من الشمس ، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر، فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » . وقال وهب بن منبه : ذكر لى أن منزلا بناحية دِجْلة مكتوبا فيـه — كتبه بعض صحابة سـليمان ؛ إمّا من الجن وإما من الإنس — : نحن نزلنـا وما بنيناه ، ومَبْنِيًا وجدناه، غُدُوْنا من إصْطَخْر فقِلْناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعـالى فبائتون فى الشام . وقال الحسن : شغلت سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاة العصر، فعقر الخيل فأبدله الله خيرا منها وأسرع ، أبدله الريح تجرى بأمره حيث شاء ، غدوّها شهر ورواحها شهر . وقال ابن زيد : كان مستقر سليمان بمدينة تَدْمُر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العـراق، فبنوها له بالصُّفّاح[١] والعَمَد والرخام الأبيض والأصفر . وفيه يقول النابغة :

إلّا سـليمانَ إذ قال الإله له * قُمْ فى البريّة فاْحدُدْها[٢] عن الفَنَد

وخَيِّس[٣] الجن إنى قد أذنت لهم * يبنـون تَدْمر بالصُّفّاح والعَمَد

---

(١) الصفاح (كرمان) : حجارة عريضة رقيقة .	(٢) الحد : المنع . والفند : الخطأ .

(٣) خيس : ذلل .

فمن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وادلُله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهى الظلوم ولا تقعد على ضَمَد (١)

ووجدت هذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض يَشْكُر، أنشأهن بعض أصحاب سليمان عليه الصلاة والسلام :

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربِّنا * نروح إلى الأوطان من أرض تَدْمُرِ
إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ رواحِنا * مسيرةَ شهرٍ والغُدُوُّ لآخَرِ
أناسٌ شَرَوْا لله طوعًا نفوسَهم * بنصر ابن داودَ النبيِّ المطهَّرِ
لهم فى معالى الدِّين فضلٌ ورفعة (٢) * وإن نُسِبُوا يومًا فمن خير مَعْشَرِ
متى يركبوا الريحَ المطيعةَ أسرعتْ * مبادرةً عن شَهْرِها لم تُقَصِّرِ
تظلّهمُ طيرٌ صفوفٌ عليهمُ * متى رَفْرَفَتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ القِطر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره . أُسيلت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يذب النحاس فيما روى لأحد قبله ، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب؛ وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله تعالى لسليمان . قال قتادة : أسال الله عينا يستعملها فيما يريد . وقيل لعكرمة : إلى أين سالت ؟ فقال: لا أدرى ! وقال ابن عباس ومجاهد والسُّدّى : أجريت له عين الصُّفْر ثلاثة أيام بلياليهن . قال القشيرىّ: وتخصيص الإسالة بثلاثة أيام لا يدرى ما حدّه ، ولعله وَهْم من الناقل؛ إذ فى رواية عن مجاهد : أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يليها؛ وهذا يشير إلى بيان الموضع لا إلى بيان المدّة . والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون المياه، دلالة على نبوّته . وقال الخليل : القِطْر : النحاس المذاب .

قلت : دليله قراءة من قرأ : «من قِطْرٍ آنٍ» . ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى بأمره ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ الذى أمرناه به من طاعة سليمان . ﴿ نُذِقْهُ مِنْ

(١) الضمد : الحقد . (٢) فى الأصول : « رأفة » والتصويب عن البحر وروح المعانى .

عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى فى الآخرة ، قاله أكثر المفسرين . وقيل ذلك فى الدنيا ، وذلك أن الله تعالى وكّل بهم — فيما روى السُّدّى — ملكا بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته . و « مَن » فى موضع نصب بمعنى وسخرنا له من الجن من يعمل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع ، كما تقدّم فى الريح .

قوله تعالى : يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ المحراب فى اللغة : كل موضع مرتفع . وقيل للذى يصلّى فيه : محراب ؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظّم . وقال الضحاك : « مِن مَّحَارِيبَ » أى من مساجد . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب أشرف بيوت الدار . قال :

وماذا عليه أن ذكرتُ أوانسًا * كغِزلان رَمْل فى محاريبِ أقيالِ [(١)]

وقال عَدِىّ بن زيد :

كدُمَى العاج فى المحاريب أو كالـ * ـبَيْض فى الرّوْض زهره مستنيرُ

وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ؛ كما قال : « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » [(٢)] وقوله : « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ » [(٣)] أى أشرف عليهم . وفى الخبر " أنه أمر أن يعمل حول كرسيّه ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسوح يَصْرخون إلى الله دائما ، وهو على الكرسى فى موكبه والمحاريب حوله ، ويقول لجنوده إذا ركب : سبّحوا الله إلى ذلك العَلَم ، فإذا بلغوه قال : هلّلوه إلى ذلك العَلَم ، فإذا بلغوه قال : كبّروه إلى ذلك العَلَمَ الآخر ، فتَلِجّ الجنود بالتسبيح والتهليل لجّة واحدة .

(١) البيت لامرئ القيس . والأقيال : جمع قيل ، وهو الملك .
(٢) راجع ج ١٥ ص ١٦٥   (٣) راجع ج ١١ ص ٨٤

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَتَمَاثِيلَ ﴾ جمع تمثال . وهو كل ما صُوِّر على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان . وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بَنَوْا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصُّوَر " . أى ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا فى العبادة . وهذا يدلّ على أن التصوير كان مباحا فى ذلك الزمان ، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « نوح »(١) عليه السلام . وقيل : التماثيل طِلَّسْمات كان يعملها ، ويحرم على كل مصوِّر أن يتجاوزها فلا يتجاوزها ، فيعمل تمثالا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح فى مكان ، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدا مادام ذلك التمثال قائما . وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء . قال :

ويا رُبَّ يومٍ قد لَهَوْتُ وليلةٍ * بآنسةٍ كأنها خطّ تمثالِ(٢)

وقيل : إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا فى سبيل الله ولا يَحِيك(٣) فيهم السلاح . ويقال : إن اسفنديار كان منهم ؛ والله أعلم . وروى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أطلق النَّسران أجنحتهما .

الثالثـة — حكى مكىّ فى الهداية له : أن فرقة تجوّز التصوير ، وتحتج بهذه الآية . قال ابن عطية : وذلك خطأ ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوّزه .

قلت : ما حكاه مكىّ ذكره النحاس قبله ، قال النحاس : قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية ، ولما أخبر الله عز وجل عن المسيح . وقال قوم : قد صح النهى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم عنها ، والتوعّد لمن عملها أو اتخذها ، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحا قبله ، وكانت الحكمة فى ذلك لأنه بُعث عليه السلام والصور تُعبد ، فكان الأصلح إزالتها .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٧ فما بعد . (٢) البيت لامرئ القيس . (٣) حاك السيف حيكا : أثر وعمل .

الرابعــة — التمثال على قسمين : حيوان وموات . والموات على قسمين : جماد ونام؛ وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه ؛ لعموم قوله : « وَتَمَاثِيلَ » . وفى الإسرائيليات : أن التماثيل من الطير كانت على كرسى سليمان . فإن قيل : لا عموم لقوله : « وَتَمَاثِيلَ » فإنه إثبات فى نكرة، والإثبات فى النكرة لا عموم له ، إنما العموم فى النفى فى النكرة . قلنا : كذلك هو ، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثبات فى النكرة ما يقتضى حمله على العموم ، وهو قوله : « مَا يَشَاءُ » فاقتران المشيئة به يقتضى العموم له . فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟ قلنا : كان ذلك جائزا فى شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا ، والله أعلم . وعن أبى العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرّما .

الخامسة — مقتضى الأحاديث يدلّ على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء " إلا ما كان رَقْمًا(١) فى ثوب " فخص من جملة الصور ، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة فى الثوب : "أخّريه عنى فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا" . ثم بهتكه(٢) الثوب المصوّر على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز ، لقولها فى النُّمْرُقة(٣) المصوّرة : اشتريتها لك لتقعد عليها وتَوَسَّدها ، فمنع منه وتوعّد عليه . وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز فى الرقم فى الثوب ثم نسخه المنع منه . فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم ؛ قاله ابن العربى .

السادسة — روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حوّلى هذا فإنى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا " . قالت : وكانت لنا قطيفة كنا نقول علمها حرير ، فكنا نلبسها . وعنها قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مستترة بِقِرام(٤) فيه صورة ، فتلون وجهه ،

(١) الرقم : النقش والوشى .	(٢) الهتك : الخرق والشق .	(٣) النمرقة (بضم النون والراء وبكسرهما وبغير هاء) : الوسادة .	(٤) القرام : الستر الرقيق .

ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : " إن من أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يُشَبِّهونَ بخلق الله عز وجل " . وعنها : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سَهْوة (١) ، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّي إليه فقال : " أخّريه عنى " قالت : فأخرته فجعلته وسادتين . قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورَعًا ؛ لأن محل النبوّة والرسالة الكمالُ . فتأمله .

السابعة — قال المزنيّ عن الشافعيّ : إن دعى رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صورا ذات أرواح ، لم يدخل إن كانت منصوبة . وإن كانت توطأ فلا بأس ، وإن كانت صور الشجر . ولم يختلفوا أن التصاوير في الستور المعلقة مكروهة غير محرمة . وكذلك عندهم ما كان خرطا أو نقشا في البناء . واستثنى بعضهم " ما كان رقما في ثوب " ، لحديث سهل بن حُنيف .

قلت : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المصورين ولم يستثن . وقوله : " إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيُوا ما خلقتم " ولم يستثن . وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يخرج عُنُق (٢) من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول : إني وُكِّلت بثلاث : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر وبالمصوّرين " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وفي البخاريّ ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوّرون " . يدل على المنع من تصوير شيء ، أي شيء كان . وقد قال جل وعز : « ما كان لكم أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها (٣) » على ما تقدّم بيانه فاعلمه .

الثامنة — وقد استثنى من هذا الباب لُعَب البنات ، لما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّجها وهي بنت سبع سنين ، وزُفّت إليه وهي بنت تسع

(١) السهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلا شبيه بالمخدع والخزانة . وقيل : هو كالصفة تكون بين يدى البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء . (٢) العنق : القطعة .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢١٩

ولُعَبُها معها، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة . وعنها أيضا قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمعن (١) منه فيسربهنّ (٢) إلىّ فيلعبن معى . خرجهما مسلم . قال العلماء : وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهنّ . ثم إنه لا بقاء لذلك ، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له ، فرخّص فى ذلك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ قال ابن عرفة : الجوابى جمع الجابية، وهى حُفيرة كالحوض . وقال : كحياض الإبل . وقال ابن القاسم عن مالك : كالجَوْبَة من الأرض ، والمعنى متقارب. وكان يقعد على الجَفْنَة الواحدة ألف رجل. النحاس : «وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ» الأَوْلى أن تكون بالياء ، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيّرها عن حالها ، فلما كان يقال جوابٍ ودخلت الألف واللام أقرّ على حاله فحذف الياء . وواحد الجوابى جابية ، وهى القِدر العظيمة ، والحوض العظيم الكبير الذى يُجْبَى فيه الشيء أى يجمع؛ ومنه جبيت الخراج، وجَبيت الجراد؛ أى جعلت الكساء فجمعته فيه . إلا أن لَيْثًا روى عن مجاهد قال : الجوابى جمع جَوبة، والجوبة الحفرة الكبيرة تكون فى الجبل فيها ماء المطر . وقال الكسائى : جَبَوْت الماء فى الحوض وجبيته أى جمعته ، والجابية : الحوض الذى يجبي فيه الماء للإبل ، قال :

تروح على آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ * كجابية الشيخ العراقى تَفْهَقُ (٣)

ويروى أيضا .

نفى الذمّ عن آل المُحَلَّق جفنةٌ * كجابيـة السيح (٤) ... ...

ذكره النحاس .

---

(١) أى يتغيبن ويدخلن فى بيت أو من وراء ستر، حياء وهيبة له عليه السلام . (٢) أى يرسلهن ويبعثهن .

(٣) البيت للأعشى . والفهق : الامتلاء . وخص العراقى لجهله بالمياه لأنه حضرى ؛ فاذا وجدها ملأ جابيته وأعدها ولم يدر متى يجد المياه ، وأما البدوى فهو عالم بالمياه فهو لا يبالى ألا يعدها . (٤) السيح : الماء الظاهر الجارى على وجه الأرض .

قوله تعالى : ﴿ وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ قال سعيد بن جُبير : هى قدور النحاس تكون بفارس . وقال الضحاك : هى قدور تعمل من الجبال . غيره : قد نحتت من الجبال الصُّم مما عملت له الشياطين، أثافيها(١) منها منحوتة هكذا من الجبال . ومعنى « رَاسِيَاتٍ » ثوابت، لا تُحمل ولا تحرّك لعظمها . قال ابن العربى : وكذلك كانت قدور عبد الله بن جُدعان، يصعد إليها فى الجاهلية بسُلَّم . وعنها عبّر طرفة بن العبد بقوله :

كالجوابى لا تَنِى مُتْرَعَةً * لِقِرَى الأضياف أو للمحتضِر

قال ابن العربى : ورأيت برباط أبى سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعا ويأكلون جميعا من غير استئثار واحد منهم على أحد .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾ قد مضى معنى الشكر فى «البقرة»(٢) وغيرها . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال : "ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود" قال فقلنا : ما هن ؟ فقال: "العدل فى الرضا والغضب . والقصد فى الفقر والغنى . وخشية الله فى السر والعلانية" . خرجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة . وروى أن داود عليه السلام قال : " يارب كيف أطيق شكرك على نعمك . وإلهامى وقدرتى على شكرك نعمةٌ لك" فقال : " يا داود الآن عرفتنى " . وقد مضى هذا المعنى فى سورة «إبراهيم»(٣) . وأن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للمنعم واستعمالها فى طاعته، والكفران استعمالها فى المعصية . وقليل من يفعل ذلك؛ لأن الخير أقل من الشر، والطاعة أقل من المعصية، بحسب سابق التقدير . وقال مجاهد : لما قال الله تعالى « ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » قال داود لسليمان : إن الله عز وجل قد ذكر الشكر فاكفنى صلاة النهار أكفك صلاة الليل، قال : لا أقدر، قال : فاكفنى — قال الفاريابى، أراه قال إلى صلاة الظهر — قال نعم، فكفاه . وقال الزهرى : « ٱعْمَلُوا

(١) الأثافى (جمع الأثفية) : ما يوضع عليه القدر . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٤٣ .

آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » أى قولوا الحمد لله . و« شُكْرًا » نصب على جهة المفعول ؛ أى اعملوا عملا هو الشكر . وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هى فى نفسها الشكر إذ سدّت مسدّه ، ويبيّن هذا قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ »(١) وهو المراد بقوله «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور » . وقد قال سفيان بن عُيَيْنَة فى تأويل قوله تعالى « أَنِ اشْكُرْ لِي » أن المراد بالشكر الصلوات الخمس . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تَفَطَّرَ(٢) قدماه ؛ فقالت له عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : "أفلا أكون عبدا شكورا". انفرد بإخراجه مسلم . فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ؛ فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود ، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وعلى كل وجه ففيه تنبيه وتحريض . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل ؛ فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قوله تعالى « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور » . فقال عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر ! وروى أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار(٣) ويطعم المساكين الدَّرْمَك(٤). وقد قيل : إنه كان يأكل الرماد ويتوسّده ، والأول أصح ، إذ الرماد ليس بقوت . وروى أنه ما شبع قَطُّ ، فقيل له فى ذلك فقال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع . وهذا من الشكر ومن القليل ، فتأمّله ، والله أعلم .

قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٦٥ فما بعد . (٢) تفطر : تنشق . (٣) الخشكار : ما خشن من الطحين (فارسية) . (٤) الدرمك : دقيق الحوارى ، وهو الدقيق الأبيض .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ أى فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منـه ووقع به الموت ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ وذلك أنه كان متّكئا على المِنْسأة (وهى العصا بلسان الحبشة ، فى قول السُّـدّى . وقيل : هى بلغة اليمن ، ذكره القشيرىّ) فمات كذلك وبقى خافى الحال إلى أن سقط ميّتا لانكسار العصا لأكل الأَرَضة إياها ، فعُلم موته بذلك ، فكانت الأَرَضَة دالّة على موته ، أى سـببا لظهور مـوته ، وكان سأل الله تعـالى ألا يعلموا بمـوته حتى تمضى عليه سـنة . واختلفوا فى سبب سـؤاله لذلك على قولين : أحدهما ماقاله قتادة وغيره ، قال : كانت الجن تدّعى علم الغيب ، فلما مات سليمان عليه السلام وخفى موته عليهم ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَالَبِثُوا فِى الْعَـذَابِ الْمُهِينِ ﴾ . ابن مسعود : أقام حولا والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأَرَضَة مِنسأته فسقط . ويروى أنه لمـا سقط لم يُعلم منذ مات ؛ فوُضعت الأَرَضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة . وقيل : كان رؤساء الجن سبعة ، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام ، وكان دواد عليه السلام أسّس بيت المقدس فلما مات أوصى إلى سليمان فى إتمام مسجد بيت المقدس ، فأمر سليمان الجن به ؛ فلما دنا وفاته قال لأهله : لا تخبروهم بموتى حتى يتموا بناء المسجد ، وكان بقى لإتمامه سنة . وفى الخبر أن ملَك الموت كان صديقه فسأله عن آية موته فقال : أن تخرج من موضع سجودك شجرة يقال لهـا الخرنوبة ، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا تنبت فى بيت المقدس شجـرة فيسألها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ؛ فيقول : ولأى شىء أنت ؟ فتقول : لكذا ولكذا ؛ فيأمر بها فتقطع ، ويغرسها فى بسـتان له ، ويأمر بكتب منافعها ومضارّها وآسمها وما تصلح له فى الطب ؛ فبينما هو يصلّى ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخرنوبة ؛ قال : ولأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان : ما كانَ الله ليخربه وأنا حىّ ، أنتِ التى على وجهك هلاكى وهلاك بيت المقدس ! فنزعها وغرسها فى حائطه ثم قال : اللهم عَمّ عن الجن موتى حتى تعـلم الإنس أن

الجن لا يعلمون الغيب . وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما في غد ؛ ثم لبس كفنه وتحنط ودخل المحراب وقام يصلي واتكأ على عصاه على كرسيّه ، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أحسن ما قيل في الآية ، ويدل على صحته الحديث المرفوع ، روى إبراهيم بن طُهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كان نبيّ الله سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألها ما اسمك ؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت ؛ فبينما هو يصلي ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه قال ما اسمك؟ قالت : الخرنوبة ؛ فقال : لأي شيء أنت ؟ فقالت : لخراب هذا البيت ؛ فقال : اللّهمّ عَمِّ عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا لا يعلمون فسقطت ، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة . وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس « تَبَيَّنَت الإنْسُ أن لَوْ كَانَ الجِنُّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ » . وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس « تُبُيِّنَت الجِنُّ » غير مسمى الفاعل . ونافع وأبو عمرو « تأكل مِنْسَاتَه » بألف بين السين والتاء من غير همز . والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف ، لغتان ، إلا أن ابن ذَكْوَان أسكن الهمزة تخفيفا ، قال الشاعر في ترك الهمزة :

إذا دَبَبْتَ على المِنْساة من كِبَرٍ * فقد تباعد عنك اللّهْوُ والغَزَلُ

وقال آخر فهمز وفتح :

ضربنا بمِنْسَأة وجهه * فصار بذاك مهينا ذليلا

وقال آخر :

أمن أجل حَبْل لا أباك ضربته * بمنسأة قد جرّ حبلُك أحبُلاَ

وقال آخر فسكّن همزها :

وقائم قد قام من تُكَأتِهْ * كقومة الشيخ إلى مِنْسَأْتِهْ

وأصلها من : نسأت الغنم أى زجرتها وسقتها ، فسمّيت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشيء ويساق . وقال طَرَفَة :

أَمُونٍ كألواح الإران نَسَأْتُها * على لاحِب كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ (١)

فسكّن همزها . قال النحاس : واشتقاقها يدل على أنها مهموزة؛ لأنها مشتقة من نسأته أى أخرته ودفعته فقيل لها مِنْسأة لأنها يدفع بها الشيء ويؤخر . وقال مجاهد وعكرمة : هى العصا ، ثم قرأ « منساته » أبدل من الهمزة ألفا ، فإن قيل : البدل من الهمزة قبيح جدا وإنما يجوز فى الشعر على بُعْد وشذوذ ، وأبو عمرو بن العلاء لا يغيب عنه مثل هذا لاسيما وأهل المدينة على هذه القراءة . فالجواب على هذا أن العرب استعملت فى هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا كما يقع البدل فى غير هذا ولا يقاس عليه حتى قال أبو عمرو : ولست أدرى ممن هو إلا أنها غير مهموزة لأن ما كان مهموزا فقد يترك همزه وما لم يكن مهموزا لم يجز همزه بوجه . المهدوىّ : ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذّ بعيد ؛ لأن هاء التأنيث لا يكون ماقبلها إلا متحركا أو ألفا ، لكنه يجوز أن يكون ماسكن من المفتوح استخفافا ، ويجوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفا على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها فى قولهم العألم والخأتم ، وروى عن سعيد بن جبير « مِن » مفصولة « سأته » مهموزة مكسورة التاء؛ فقيل : إنه من سئة القوس فى لغة من همزها ، وقد روى همزسية القوس عن رؤبة . قال الجوهرى : سية القوس ما عطف من طرفيها ، والجمع سِيَات ، والهاء عوض من الواو ، والنسبة إليها سِيَوِىّ . قال أبو عبيدة : كان رؤبة يهمز « سية القوس » وسائر العرب لا يهمزونها . وفى دابة الأرض قولان : أحدهما — أنها الأَرَضة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقد قرئ « دابة الأَرَض » بفتح الراء ، وهو جمع الأَرَضة (٢) ؛ ذكره الماوردى . الثانى — أنها دابة تأكل العيدان . قال الجوهرى : والأَرَضة (بالتحريك) : دُوَيْبة تأكل الخشب ؛ يقال : أرِضت الخشبة تُؤرض أرْضا (بالتسكين) فهى مأروضة إذا أكلتها .

(١) الأمون : التى يؤمن عثارها . والإران : تابوت الموتى . واللاحب : الطريق الواضح . والبرجد : كساء مخطط
(٢) فى نسخ الأصل : « وهو واحد » .

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ أى سقط ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ قال الزجاج : أى تبينت الجن موته . وقال غيره : المعنى تبين أمر الجن؛ مثل : «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» . وفى التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس قال : أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولًا لا يُعلم بموته وهو متكئ على عصاه ، والجن منصرفة فيما كان أمرها به ، ثم سقط بعد حول؛ فلما خرّ تبيّنت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين . وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير . وفى الخبر : أن الجن شكرت ذلك للأَرَضَة فأينما كانت يأتونها بالماء . قال السدى : والطين ، ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فإنه مما يأتيها(١) به الشياطين شكرا ؛ وقالت : لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما . و « أنْ » فى موضع رفع على البدل من الجن ، والتقدير : تبين أمر الجن ، فحذف المضاف ، أى تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب . وهذا بدل الاشتمال . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على تقدير حذف اللام . و « لَبِثُوا » أقاموا . و « الْعَذَابِ الْمُهِينِ » السُّخرة والحمل والبنيان وغير ذلك . وعمّر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ، ومدّة ملكه أربعون سنة ؛ فملك وهو ٱبن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ٱبن سبع عشرة سنة . وقال السُّدِّى وغيره : كان عمر سليمان سبعا وستين سنة ، وملك وهو ٱبن سبع عشرة سنة . وٱبتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ٱبن عشرين سنة ، وكان ملكه خمسين سنة . وحكى أن سليمان عليه السلام ٱبتدأ بنيان بيت المقدس فى السنة الرابعة من ملكه ، وقرّب بعد فراغه منه ٱثنى عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة ، واتخذ اليوم الذى فرغ فيه من بنائه عيداً ، وقام على الصخرة رافعا يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : اللهمّ أنت وهبت لى هذا السلطان وقوّيتنى على بناء هذا المسجد ، اللهمّ فأوزعنى شكرك على ما أنعمت علىّ وتوفّنى على ملّتك ولا تُزِغ قلبى بعد إذ هديتنى ، اللهمّ إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرتَ له وتبت عليه . ولا خائفٌ إلا أمّنته . ولا سقيم

---

(١) فى ج ، ح ، ك : « فإنها مما يأتيها بها » .

إلا شفيته . ولا فقير إلا أغنيته . والخامس — ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه؛ إلا من أراد إلحادًا أو ظلمًا ، يارب العالمين؛ ذكره الماوردي .

قلت : وهذا أصح مما تقدّم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة، والدليل على صحة هذا ماخرّجه النسائي وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة : حكما يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا يَنْهَزه(١) إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه" وقد ذكرنا هذا الحديث في « آل عمران »(٢) وذكرنا بناءه في « سبحان »(٣) .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ(٤) آيَةٌ ﴾ قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على أنه اسم حيّ، وهو في الأصل اسم رجل؛ جاء بذلك التوقيف عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى الترمذي قال : حدّثنا أبو كُريب وعبد بن حُميد قالا حدّثنا أبو أسامة عن الحسن بن الحكم النخعي قال حدّثنا أبو سَبْرة النّخعي عن فَروة بن مُسيك المرادي قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؛ فأذن لي في قتالهم وأمرني ؛ فلما خرجت من عنده سأل عني : " ما فعل الغُطَيفي(٥) " ؟ فأخبر أني قد سِرت، قال : فأرسل في أثري فردّني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال : " ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك؛ قال : وأنزل في سبإ ما أنزل؛ فقال رجل : يارسول الله، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟ قال : ليس بأرض ولا بامرأة

---

(١) أي لا يحركه . (٢) راجع ج ٤ ص ١٣٧ (٣) راجع ج ١٠ ص ٢١١

(٤) « في مساكنهم » قراءة نافع وبها كان يقرأ المؤلف رحمة الله عليه . (٥) في الأصول والترمذي : « القطيفي » بالقاف بدل الغين وهو تحريف .

ولكنه رجل ولَد عشرة من العرب فتيامَن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة . فأما الذين تشاءموا فَلخْم وجُذام وغَسّان وعاملة . وأما الذين تيامَنوا فالأُزد والأشعرِيُّون وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار . فقال رجل : يارسول الله وما أنمار؟ قال: "الذين منهم خَثْعم وبَجِيلة" . وروى هذا عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب . وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو « لِسَبَأَ » بغير صرف ، جعله ٱسماً للقبيلة ، وهو اختيار أبى عبيد ، وٱستدل على أنه ٱسم قبيلة بأن بعده « فِى مَسَاكِنِهِمْ » . النحاس : ولو كان كما قال لكان فى مساكنها . وقد مضى فى « النمل »[1] زيادة بيان لهذا المعنى . وقال الشاعر فى الصرف :

الواردون وتَيْمٌ فى ذُرى سبأ * قد عضّ أعناقَهم جِلدُ الجواميس

وقال آخر فى غير الصرف :

من سَبَأَ الحاضرين مأرِبَ إذ * يَبْنُون من دون سَيْلها العَرِما

وقرأ قُنْبُل وأبو حَيْوَة والجَحْدَرِىّ « لِسَبَأْ » بإسكان الهمزة . « فِى مَسَاكِنِهِمْ » قراءة العامة على الجمع ، وهى ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد . وقرأ إبراهيم وحمزة وحفص «مسكنِهِم» موحَّداً ، إلا أنهم فتحوا الكاف . وقرأ يحيى والأعمش والكسائىّ موحَّداً كذلك ، إلا أنهم كسروا الكاف . قال النحاس : والساكن فى هذا أبين ؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى ، فإذا قلت «مسكنهم» كان فيه تقديران : أحدهما — أن يكون واحدا يؤدى عن الجمع . والآخر — أن يكون مصدراً لا يثنَّى ولا يُجمع ؛ كما قال الله تعالى : «خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ»[2] فجاء بالسمع موحَّداً . وكذا «مَقْعَدِ صِدْقٍ»[3] و«مَسْكِن» مثل مسجد ، خارج عن القياس ، ولا يوجد مثله إلا سماعاً . ﴿ آيَةٌ ﴾ اسم كان ، أى علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم ، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها ، وفى ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ يجوز

(١) راجع ج ١٣ ص ١٨١   (٢) راجع ج ١ ص ١٨٥   (٣) راجع ج ١٧ ص ١٤٩

أن يكون بدلا من « آية » ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، فيوقف على هـذا الوجه على «آية» وليس بتمام . قال الزجاج: أى الآية جنتان، فجنتان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف. وقال الفراء : رفع تفسيرا للآية ، ويجوز أن تنصب « آية » على أنها خبر كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضا فى غير القرآن . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قطّ ولا ذبابا ولا بُرغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب . وقيل : إن الآية هى الجنتان، كانت المرأة تمشى فيهما وعلى رأسها مِكْتَل (١) فيمتلىء من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها ؛ قاله قتادة . وروى أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قال سفيان : وُجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما : نحن بنينا سَلْحين فى سبعين خريفاً دائبين ، وعلى الآخر مكتوب : نحن بنينا صِرْواح، مَقِيل ومَراح ؛ فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله . قال القشيرى : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يَمنة ويَسرة؛ أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار، تستتر الناس بظلالها . ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى قيل لهم كلوا ، ولم يكن ثَمّ أمر، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم. وقيل: أى قالت الرسل لهم قد أباح الله تعالى لكم ذلك ؛ أى أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة . ﴿ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى من ثمار الجنتين . ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ يعنى على ما رزقكم . ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ هـذا كلام مستأنف؛ أى هـذه بلدة طيبة أى كثيرة الثمار . وقيل : غير سبخة . وقيل : طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها. قال مجاهد : هى صنعاء . ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى والمنعم بها عليكم ربّ غفور يستر ذنوبكم، فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه . وقيل : إنما ذكر المغفرة مشيرا إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. وقد مضى القول فى هذا فى أوّل «البقرة» (٢). وقيل: إنما امتنّ عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا.

---

(١) المكتل : شبه الزنبيل . (٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧

قوله تعـالى : فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ يعنى عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين . قال السُّدّى ووهب : بعث إلى أهل سـبأ ثلاثة عشر نبيًّا فكذبوهم . قال القُشيرى : وكان لهم رئيس يلقّب بالحمـار، وكانوا فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقيـل : كان له ولد فمات فرفع رأسـه إلى السماء فبزق وكفر ؛ ولهذا يقال : أكفر من حمار . وقال الجوهرىّ : وقولهم « أكفر من حمار » هو رجل من عادٍ مات له أولاد فكفر كفرًا عظيمًا، فلا يمرّ بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه و إلا قتـله . ثم لمـا سال السيل بجنتيهم تفرّقوا فى البلاد؛ على ما يأتى بيانه . ولهذا قيل فى المثل : « تفرّقوا أيادى سَبَا » . وقيل : الأَوْس والخـزرج منهم . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَـيْلَ العَرِمِ ﴾ والعـرِم فيما روى عن ابن عباس : السّد ؛ فالتقدير : سَيل السّد العَرِم . وقال عطاء : العرم اسم الوادى . قتادة : العرم وادى سبأ ؛ كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية، قيـل من البحر وأودية اليمن ؛ فردموا ردمًا بين جبلين وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث على قدر حاجاتهم ؛ فأخصبوا وكَثُرت أموالهم، فلما كذبوا الرسـل سلّط الله عليهم الفأر فنقب الردم . قال وهب : كانوا يزعمون أنهم يجدون فى علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدّهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرّة ؛ فلما جاء ما أراد الله تعـالى بهم أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الهِرر فساورتها حتى آستأخرت عن الصخرة ثم وثبت ودخلت فى الفرجة التى كانت عندها ونقبت السّد حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون ؛ فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض المـاء على أموالهم فغرّقها ودفن بيوتهم . وقال الزجاج : العَرِم اسم الجُرَذ الذى نقب السِّكْر عليهم، وهو الذى يقال له الخُلد — وقاله قتادة أيضا — فنسب السيل إليـه لأنه بسببه . وقد قال ابن الأعرابى أيضا : العَرِم من

أسماء الفأر . وقال مجاهد وابن أبي نَجيح : العَـرِم ماء أحمر أرسله الله تعـالى فى السَّد فشقه وهدمه . وعن ابن عباس أيضا أن العَرِم المطر الشديد . وقيل العَرْم بسكون الراء . وعن الضحاك كانوا فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام . وقال عمرو بن شُرَحْبيل : العرم المُسَنَّاة ، وقاله الجوهرىّ ، قال : ولا واحد لهـا من لفظها ، ويقال واحدها عَرِمة . وقال محمد بن يزيد : العَرِم كل شيء حاجز بين شيئين ، وهو الذى يسمى السِّكْر ، وهو جمع عَرِمة . النحاس : وما يجتمع من مطر بين جبلين وفى وجهه مُسَنَّاة فهو العَرِم ، والمُسَنَّاة هى التى يسميها أهل مصر الجسر[(١)] ؛ فكانوا يفتحونها إذا شاءوا فإذا رَويت جنتاهم سدّوها . قال الهَرَوِيّ : المُسَنَّاة الضفيرة تبنى للسيل تردّه ، سُمِّيت مُسَنَّاةً لأن فيها مفاتح المـاء . وروى أن العرم سدّ بنته بِلْقِيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام ، وهو المسنّاة بلغة حِمير ، بنته بالصخر والقار ، وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض ، وهو مشتق من العرامة وهى الشدّة ، ومنه : رجل عارم ، أى شديد ، وعَرَمت العظم أعرِمه وأعرُمه عَرْمًا إذا عَرَقتـه ؛ وكذلك عَرَمت الإبل الشجر أى نالت منه . والعُرام بالضم : العراق من العظم والشجر . وتعرّمت العظم تعرّقته . وصبيّ عارم بيِّن العُرام (بالضم) أى شَرِس . وقـد عرم يعرم ويعرم عرامة (بالفتح) . والعَـرِم العارم ؛ عن الجوهرىّ .

قوله تعـالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو (أُكُلِ خَمْطٍ) بغير تنوين مضافا . قال أهل التفسير والخليل : الخمط الأراك . الجوهرى : الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل . وقال أبو عبيدة : هو كل شجر ذى شوك فيه مرارة . الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله . المبرّد : الخمط كل ما تغيّر إلى ما لا يشتهى . واللبن خَمْط إذا حَمُض . والأَوْلى عنده فى القراءة « ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ » بالتنوين على أنه نعت لـ « أُكُل » أو بدل منـه ؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه عنـده ، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون

(١) فى ج : « الحبس » ، والحبس (بكسر الحاء) : حجارة أو خشب تبنى فى مجرى المـاء لتحبسه كى يشرب القوم ويسقوا أموالهم ، والجمع أحباس .

تقديرها ذواتى أكل حموضة أو أكل مرارة . وقال الأخفش : والإضافة أحسن فى كلام العرب؛ نحو قولهم : ثوبُ خَزٍّ . والخمط : اللبن الحامض . وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحَلَب ولم يتغيّر طعمه فهو سامط، وإن أخذ شيئا من الريح فهو خامط وخميط، فإن أخذ شيئا من طعم فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فُوَّهة(1) . وتخمّط الفحل: هَدَر . وتخمّط فلان أى غضب وتكبّر . وتخمّط البحر أى التطم . وخَمَطت الشاة أخمِطها خَمْطًا : إذا نزعت جلدها وشويتها فهى [خميط، فإن نزعت شعرها وشويتها فهى](2) سميط . والخَمْطة : الخمر التى قد أخذت رِيح الإدراك كريح التّفاح ولم تُدْرِك بعدُ . ويقال هى الحامضة؛ قاله الجوهرى . وقال القُتَبِى فى أدب الكاتب . يقال للحامضة خمطة، ويقال : الخمطة التى قد أخذت شيئًا من الرِيح؛ وأنشد :

عُقَارٌ كماء النِّيِّ ليست بخمطة * ولا خَلّةٍ يكْوِى الشُّروبَ شِهابُها(3)

﴿وأَثْلٍ﴾ قال الفرّاء : هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولا؛ ومنه اتخذ مِنبَرُ النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، وورقه كورق الطرفاء، الواحدة أثلة والجمع أثَلات . وقال الحسن : الأثل الخشب . قتادة : هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء رأيته بفَيْد . وقيل هو السَّمُر . وقال أبو عبيدة : هو شجر النُّضار . [النضار : الذهب . والنضار : خشب يعمل منه قصاع، ومنه : قدح نضار](4) . ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ قال الفرّاء : هو السَّمُر؛ ذكره النحاس . وقال الأزهرى : السِّدر من الشجر سِدران : برىّ لا يُنتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول وله ثمر عَفِص لا يؤكل، وهو الذى يسمى الضّال . والثانى — سِدْر ينبت على الماء وثمره النَّبِق وورقه غَسول يشبه شجر العُنّاب . قال قتادة: بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيّره الله تعالى من شرّ الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة

(1) فى المخصص لابن سيده : « ... فهو فوهة، صاحب العين : فوهة بالفاء » . وفى كتب اللغة « الفوهة بالضم » : اللبن تغير قليلا وفيه حلاوة . والفوهة (كقبرة : اللبن فيه طعم الحلاوة .
(2) ما بين المربعين ساقط من نسخ الأصل . وهو من كتب اللغة .
(3) الخلة : التى جاوزت القدر فخرجت من حال الخمر إلى حال الحموضة والخل . والشروب : الندامى . يقول : هى فى لون اللحم النىء .
(4) ما بين المربعين ساقط من ش .

وأنبت بدلهما الأراك والطرفاء والسدر . القُشَيْرِيّ : وأشجار البوادى لا تسمى جنة وبستانا ولكن لما وقعت الثانية فى مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة ، وهو كقوله تعالى : « وجزاءُ سَيِّئَةٍ سيئةٌ مِثْلُها »[1] . ويحتمل أن يرجع قوله « قَلِيلٍ » إلى جملة ما ذُكِر من الخَمْط والأَثْل والسِّدر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ أى هذا التبديل جزاء كفرهم . وموضع «ذلك» نصب ؛ أى جزيناهم ذلك بكفرهم . ﴿وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ قراءة العامة « يُجَازَى » بياء مضمومة وزاى مفتوحة ، « الكَفورُ » رفعًا على ما لم يُسمَّ فاعله . وقرأ يعقوب وحفص وحمزة والكسائىّ : «نُجازِى» بالنون وكسر الزاى ، « الكفورَ » بالنصب ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأن قبله « جَزَيْنَاهُمْ » ولم يقل جُوزُوا . النحاس : والأمر فى هذا واسع ، والمعنى فيه بيّن ، ولو قال قائل : خلق الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم من طين ، وقال آخر : خُلِق آدم من طين ، لكان المعنى واحدا .

مسألة — فى هذه الآية سؤال ليس فى هذه السورة أشدّ منه ، وهو أن يقال : لم خصّ الله تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصى ؟ فتكلم العلماء فى هذا ؛ فقال قوم : ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذى هو الاصطلام[2] والإهلاك إلا من كفر . وقال مجاهد : يجازى بمعنى يعاقب ؛ وذلك أن المؤمن يكفّر الله تعالى عنه سيئاته ، والكافر يجازَى بكل سوءٍ عمِله ؛ فالمؤمن يُجْزَى ولا يُجازَى لأنه يثاب[3] . وقال طاوس : هو المناقشة فى الحساب ، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب . وقال قُطْرُب خلاف هذا ، فجعلها فى أهل المعاصى غير الكفار ، وقال : المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر . النحاس : وأولى ما قيل فى هذه الآية وأجلّ ما روى فيها : أن الحسن قال مِثْلًا بمثل . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣٨ فما بعد . (٢) الاصطلام : الاستئصال . (٣) فى نسخ الأصل : «لايثاب» .

يقول : "من حوسب هلك" فقلت : يانبيّ الله ، فأين قوله جلّ وعزّ : «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً»(١) ؟ قال : "إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك" . وهذا إسناد صحيح ، وشرحه : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمِـل من خير ؛ ويبيّن هذا قوله تعالى فى الأوّل : «ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَـا كَفَرُوا» وفى الثانى : «وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ» ومعنى «يُجَازَى» : يكافأ بكل عَمَل عَمِله ، ومعنى «جزيناهم» . وفّيناهم ؛ فهذا حقيقة اللغة ، و إن كان « جازى » يقع بمعنى « جزى » مجازا .

قوله تعـالى : وَجَعَلْنَـا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَـا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ قال الحسن : يعنى بين اليمن والشأم . والقُرَى التى بورك فيها : الشام والأُرْدُنّ وفِلَسْطين . والبركة : قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والمـاء . ويحتمل أن يكون « بَارَكْنَا فِيهَا » بكثرة العدد . ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام . وقال قتادة : معنى « ظَاهِرَةً » : متصلة على طريق ، يغـدون فَيَقيلون فى قرية ويروحون فيبيتون فى قرية . وقيل : كان على كل مِيل قريةٌ بسوق ، وهو سبب أمن الطريق . قال الحسن : كانت المرأة تخرج معها مِغْزَلها وعلى رأسها مِكْتَلُها ثم تلتهى بمغزلها فلا تأتى بيتها حتى يمتلئ مِكْتَلُها من كل الثمـار ، فكان ما بين الشام واليمن كذلك . وقيل «ظَاهِرَةً» أى مرتفعة ، قاله المبرد . وقيل : إنما قيل لها « ظَاهِرَةً » لظهورها ، أى إذا خرجْتَ عن هذه ظهرت لك الأخرى ، فكانت قرى ظـاهرة أى معروفة ، يقال : هـذا أمر ظاهر أى معروف . ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أى جعلنا السير بين قراهم و بين القرى التى باركنا فيها سَـيْراً مقدّرا من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قـرية ، أى جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل فى قرية والمبيت فى قرية أخرى . و إنمـا يبالغ الإنسان فى السير لعـدم الزاد والمـاء

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٧٠

والخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد . ﴿ سِيرُوا فِيهَا ﴾ أى وقلنا لهم سيروا فيها، أى فى هذه المسافة فهو أمر تمكين ، أى كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين ، فهو أمر بمعنى الخبر ، وفيه إضمار القول . ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ﴾ ظرفان ﴿ آمِنِينَ ﴾ نصب على الحال . وقال : «لَيَالِيَ وَأَيَّامًا» بلفظ النكرة تنبيها على قِصر أسفارهم؛ أى كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه . قال قتادة : كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظِماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرك بعضهم بعضا ، ولو لقى الرجلُ قاتلَ أبيه لا يحرّكه .

قوله تعالى : فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ لما بَطِروا وطغَوْا وسئِموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكَدْح فى المعيشة ؛ كقول بنى إسرائيل : «فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا»(١) الآية . وكالنضر بن الحارث حين قال : «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ»(٢) فأجابه الله تبارك وتعالى، وقُتل يوم بدر بالسيف صَبْراً(٣) ؛ فكذلك هؤلاء تبدّدوا فى الدنيا ومُزّقوا كل مُمَزَّق ، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون الأزواد . وقراءة العامة « رَبَّنَا » بالنصب على أنه نداء مضاف، وهو منصوب لأنه مفعول به، لأن معناه : ناديْت ودعوْت . «بَاعِدْ» سألوا المباعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن مُحيْصن وهشام عن ابن عامر: « رَبَّنَا » كذلك على الدعاء « بَعِّدْ » من التبعيد . النحاس : و باعد و بعّد واحد فى المعنى ، كما تقول : قارب وقرّب . وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم

(١) راجع جـ ١ ص ٤٢٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٩٨

(٣) يقال للرجل إذا شدت يداه و رجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه أو حبس على القتل حتى يقتل : قتل صبرا .

و يعقوب، و يروى عن ابن عباس: «رَبُّنَا» رفعًا «باعَدَ» بفتح العين والدال على الخبر، تقديره: لقد باعد ربّنا بين أسفارنا، كأن الله تعالى يقول: قرّبنا لهم أسفارهم فقالوا أَشَرًا وبَطَرًا: لقد بُوعدت علينا أسفارنا. واختار هذه القراءة أبو حاتم قال: لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بَطَرًا وعجبا مع كفرهم. وقراءة يحيى بن يَعْمَر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس «رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» بشدّ العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال: شكَوْا أن ربهم باعد بين أسفارهم. وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري «رَبَّنَا بُعْدُ بَيْنِ أَسْفَارِنَا». «رَبَّنَا» نداء مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: «بُعْدُ بينِ أَسْفَارِنَا» ورفع «بين» بالفعل، أي بعدما يتصل بأسفارنا. وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التي قبلها في ضم العين إلا أنك تنصب «بين» على ظرف، وتقديره في العربية: بعد سيرنا بين أسفارنا. النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن خبّر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم بَطَرًا وأَشَرًا، وخبّر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكوا، كما قال ابن عباس. ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي بكفرهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أي يُتحدّث بأخبارهم، وتقديره في العربية: ذوى أحاديث. ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا. قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسّان بالشام، والأسد بعُمَان، وخُزاعة بتِهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدى سبا وأيادى سبأ، أي مذاهب سبأ وطرقها. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ الصبار الذي يصبر عن المعاصي، وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم. فإن أردت أنه صبر عن المعصية لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا. ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[(1)].

قوله تعالى: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧١ و ٣٩٧

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ فيه أربع قراءات : قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وآبن كثير وآبن عامر ويروى عن مجاهد، «وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ» بالتخفيف «إبليسُ» بالرفع «ظَنَّهُ» بالنصب ؛ أى فى ظنه . قال الزجاج : وهو على المصدر ؛ أى صدق عليهم ظنًّا ظنه إذ صدق فى ظنه؛ فنصب على المصدر أو على الظرف . وقال أبو علىّ : «ظنّه» نصب لأنه مفعول به؛ أى صدق الظن الذى ظنه إذ قال : «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ»(١) وقال : «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»(٢)؛ ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به ، ويقال : صدق الحديثَ ، أى فى الحديث . وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثّاب والأعمش وعاصم وحمزة والكسائىّ : «صدّق» بالتشديد «ظنّه» بالنصب بوقوع الفعل عليه . قال مجاهد : ظن ظنا فكان كما ظن فصدق ظنه . وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج(٣) «صدَق عليهم» بالتخفيف «إبليسَ» بالنصب «ظنُّه» بالرفع . قال أبو حاتم : لا وجه لهذه القراءة عندى ، والله تعالى أعلم . وقد أجاز هذه القراءة الفرّاء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل «صدق» «إبليسَ» مفعول به ؛ والمعنى : أن إبليس سوّل له ظنه فيهم شيئا فصدق ظنه ، فكأنه قال : ولقد صدّق عليهم ظن إبليسَ . و«على» متعلقة بـ «صدق» ، كما تقول : صدقت عليك فيما ظننته بك ، ولا تتعلق بالظن لاستحالة تقدم شىء من الصلة على الموصول . والقراءة الرابعة : «وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِم إبليسُ ظَنُّهُ» برفع إبليس والظن ، مع التخفيف فى «صدق» على أن يكون ظنه بدلا من إبليس وهو بدل الاشتمال . ثم قيل : هذا فى أهل سبأ ؛ أى كفروا وغيّروا وبدّلوا بعد أن كانوا مسلمين إلا قوما منهم آمنوا برسلهم . وقيل : هذا عام ؛ أى صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله تعالى ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حوّاء وهبط إبليس قال إبليس : أمّا إذ أصبتُ من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ! فكان ذلك ظنا من إبليس ؛ فأنزل الله تعالى : «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ» . وقال آبن عباس : إن إبليس قال : خُلقت من نار وخُلق آدم من طين

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٧

(٣) كذا فى نسخ الأصل وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفى روح المعانى والبحر المحيط : «أبوا لجهجاه» .

والنار تحرق كل شيء « لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »(١) فصدق ظنه عليهم . وقال زيد بن أسلم: إن إبليس قال يارب أرأيت هـؤلاء الذين كرمتهم وشرّفتهم وفضّلتهم علىّ لا تجـد أكثرهم شاكرين، ظنا منه فصدق عليهم إبليس ظنه . وقال الكلبي : إنه ظن أنه إن أغواهم أجابوه وإن أضلهم أطاعوه، فصدق ظنه . ﴿ فَاتَّبَعُوهُ ﴾ قال الحسن : ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته . ﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان : أحدهما أنه يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيرا من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، أي ماسلم من المؤمنين أيضا إلا فريق وهو المعنى بقوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »(١) . فأما ابن عباس فعنـه أنه قال : هم المؤمنون كلهم، فـ « من » على هذا للتبيين لا للتبعيض، فإن قيل : كيف علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعـلم الغيب ؟ قيل له : لمـا نفذ له في آدم مانفذ غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته، وقد وقع له تحقيق ما ظن . وجواب آخر وهو ما أجيب من قوله تعالى: « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ »(١) فأعطى القوة والاستطاعة، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك، فلما رأى أنه تاب على آدم وأنه سيكون له نسل يتبعونه إلى الجنة وقال: « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » علم أن له تبعا ولآدم تبعا، فظن أن تبعه أكثر من تبع آدم، لمـا وُضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهوات في أجواف الآدميين، فخـرج على ما ظن حيث نفخ فيهم وزيّـن في أعينهم تلك الشهوات، ومدّهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذى ظنه، والله أعلم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِـمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى لم يقهـرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين . والسلطان : القوة . وقيل الحجة، أى لم تكن له حجة يستتبعهم

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٧ فما بعد و ص ٢٨ .

بها، وإنما اتبعوه بشهوة وتقليد وهوى نفس، لا عن حجة ودليل. ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ ﴾ يريد علم الشهادة الذى يقع به الثواب والعقاب، فأما الغيب فقد علمه تبارك وتعالى. ومذهب الفراء أن يكون المعنى : إلا لنعلم ذلك عندكم؛ كما قال: « أَيْنَ شُرَكَائِيَ »(١) على قولكم وعندكم، وليس قوله : « إِلَّا لِنَعْلَمَ » جواب « وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ » فى ظاهره إنما هو محمول على المعنى؛ أى وما جعلنا له سلطانا إلا لنعلم، فالاستثناء منقطع، أى لا سلطان له عليهم ولكنا ابتليناهم بوسوسته لنعلم، فـ « إلا » بمعنى لكن. وقيل هو متصل، أى ما كان له عليهم من سلطان، غير أنّا سلّطناه عليهم ليتم الابتلاء. وقيل: « كَانَ » زائدة؛ أى وماله عليهم من سلطان، كقوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ »(٢) أى أنتم خير أمة. وقيل: لما اتصل طرف منه بقصة سبأ قال : وما كان لإبليس على أولئك الكفار من سلطان. وقيل : وما كان له فى قضائنا السابق سلطان عليهم. وقيل : « إِلَّا لِنَعْلَمَ » إلا لنظهر، وهو كما تقول : النار تحرق الحطب، فيقول آخر لا بل الحطب يحرق النار، فيقول الأول تعال حتى نجرب النار والحطب لنعلم أيهما يحرق صاحبه، أى لنظهر ذلك وإن كان معلوما لهم ذلك. وقيل : إلا لتعلموا أنتم. وقيل: أى ليعلم أولياؤنا والملائكة؛ كقوله : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ »(٣) أى يحاربون أولياء الله ورسوله. وقيل: أى ليميز، كقوله : « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(٤) وغيرها. وقرأ الزهرى « إِلَّا لِيُعْلَمَ » على ما لم يسم فاعله. ﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى أنه عالم بكل شىء. وقيل : يحفظ كل شىء على العبد حتى يجازيه عليه.

قوله تعالى : قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٨ . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٧٠ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ١٤٧ فما بعد . (٤) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى هـذا الذى مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتى، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك . وهذا خطاب توبيخ، وفيه إضمار : أى ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ماقضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك، و﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى ما لله من هـؤلاء من معين على خلق شيء ، بل الله المنفرد بالإيجاد؛ فهو الذى يُعبَد، وعبادة غيره محال .

قوله تعالى : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ أى شفاعة الملائكة وغيرهم . ﴿ عِنْدَهُ ﴾ أى عند الله . ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ قراءة العامة « أَذِنَ » بفتح الهمزة؛ لذكر الله تعالى أولا . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى « أُذِن » بضم الهمزة على ما لم يسم فاعله . والآذن هو الله تعالى . و« مَن » يجوز أن ترجع إلى الشافعين، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم . ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : خُلِّىَ عن قلوبهم الفزع. قطرب : أخرج ما فيها من الخوف. مجاهد: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة ؛ أى إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام ؛ إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة فى الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله؛ كما قال : « وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ »[1] . والمعنى : أنه إذا أذن لهم فى الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا؛ لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع فى تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سُرِّىَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ أى ماذا أمر الله به » فيقولون لهم : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ وهو أنه أذن لكم فى الشفاعة للؤمنين . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ فله أن يحكم فى عباده بما

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨١ .

يريد . ثم يجوز أن يكون هذا إذنا لهم فى الدنيا فى شفاعة أقوام ، ويجوز أن يكون فى الآخرة . وفى الكلام إضمار ؛ أى ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ففزع لما ورد عليه من الإذن تهيبا لكلام الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزع عن قلوبهم أجاب بالانقياد . وقيل : هذا الفزع يكون اليوم للملائكة فى كل أمر يأمر به الرب تعالى ؛ أى لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون ، مطيعون لله تعالى دون الجمادات والشياطين . وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : " اذا قضى الله فى السماء أمرا ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانا لقوله كأنها سلسلة على صَفْوانٍ(١) فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير — قال — والشياطين بعضهم فوق بعض " قال : حديث حسن صحيح . وقال النوّاس بن سمعان قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة أو رِعدة شديدة خوفا من الله تعالى فإذا سمع أهل السموات ذلك صعِقوا وخروا لله تعالى سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحْيه ما أراد ثم يمرّ جبريل بالملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا ياجبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلى الكبير — قال — فيقول كلهم كما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله تعالى " . وذكر البيهقى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » قال : كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحى، وكان إذا نزل الوحى سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصَّفْوان، فلا ينزل على أهل سماء إلا صَعِقوا فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ، ثم يقول يكون العام كذا ويكون كذا فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنة والكهنةُ الناسَ [يقولون] يكون العامَ كذا وكذا فيجدونه كذلك ؛ فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم دُحروا بالشُّهب فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك : هلك من فى السماء ، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة ،

(١) الصفوان : الصخر الأملس .

وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة، حتى أسرعوا فى أموالهم فقالت ثقيف وكانت أعقلَ العرب: أيها الناس! أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من فى السماء، وإن هذا ليس بانتثار، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هى والشمس والقمر والليل والنهار! قال فقال إبليس: لقد حدث فى الأرض اليوم حَدَث، فأتونى من تربة كل أرض فأتوه بها، فجعل يَشُمّها فلما شم تربة مكة قال من ها هنا جاء الحَدَث، فنصتوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث. وقد مضى هذا المعنى مرفوعا مختصرا فى سورة «الحجر»(١)، ومعنى القول أيضا فى رميهم بالشهب وإحراقهم بها، ويأتى فى سورة «الجن»(٢) بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: إنما يفزعون من قيام الساعة. وقال الكلبي وكعب: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام فَتْرة خمسمائة وخمسون سنة لا يجيء فيها الرسل، فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم الله تعالى جبريل بالرسالة، فلما سمعت الملائكة الكلام ظنوا أنها الساعة قد قامت، فصعِقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رءوسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فلم يدروا ما قال ولكنهم قالوا قال الحق وهو العلي الكبير، وذلك أن محمدا عليه السلام عند أهل السموات من أشراط الساعة. وقال الضحاك: إن الملائكة المعقِّبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الرب تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين هم أسفل من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجَّدا ويَصْعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة. وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكن أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صَعِقوا، وكان هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤملون أنتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة. وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين. قال الحسن ومجاهد وابن زيد: فى الآخرة عند نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم فى الدنيا قالوا الحق وهو العلي الكبير، فأقروا

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠.
(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٠ فما بعد.

حين لا ينفعهم الإقرار، أى قالوا قال الحق . وقراءة العامة « فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » . وقرأ ابن عباس « فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » مسمّى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى . ومن بناه للفعول فالجار والمجرور فى موضع رفع ، والفعل فى المعنى لله تبارك وتعالى . والمعنى فى القراءتين : أزيل الفزع عن قلوبهم ، حسبما تقدم بيانه . ومثله : أشكاه ، إذا أزال عنه ما يشكوه . وقرأ الحسن : « فُزِعَ » مثل قراءة العامة ، إلا أنه خفف الزاى ، والجار والمجرور فى موضع رفع أيضا ؛ وهو كقولك : انصرف عن كذا إلى كذا . وكذا معنى « فُرِغَ » بالراء والغين المعجمة والتخفيف غير مسمى الفاعل ، رويت عن الحسن أيضا وقتادة . وعنهما أيضا «فَرَغَ» بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل ، والمعنى : فرغ الله تعالى قلوبهم أى كشف عنها ، أى فرغها من الفزع والخوف ، وإلى ذلك يرجع البناء للفعول على هذه القراءة . وعن الحسن أيضا « فرّغ » بالتشديد .

قوله تعالى : قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة مما يقدر عليه الرب قرر ذلك فقال : قل يا محمد للشركين « مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السموَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السموات ؛ أى عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع . «وَالْأَرْضِ» أى الخارجة من الأرض عن الماء والنبات — أى لا يمكنهم أن يقولوا هذا فعلُ آلهتنا — فيقولون لا ندرى ، فقل إن الله يفعل ذلك الذى يعلم ما فى نفوسكم . وإن قالوا : إن الله يرزقنا فقد تقررت الحجة بأنه الذى ينبغى أن يعبد . ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هذا على وجه الإنصاف فى الحجة ؛ كما يقول القائل : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب . والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادين ، وأحد الفريقين مهتدٍ وهو نحن والآخر ضالّ وهو أنتم ؛

فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب ، والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض . « أَوْ إِيَّاكُمْ » معطوف على اسم « إنّ » ولو عطف على الموضع لكان « أو أنتم » ويكون « لَعَلَى هُدًى » للأول لا غير . وإذا قلت : « أَوْ إِيَّاكُمْ » كان للثانى أولى، وحذفت من الأول، ويجوز أن يكون للاول، وهو اختيار المبرد، قال : ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة : أحدنا كاذب، قد عرف المعنى، كما تقول : أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحدنا مخطئ، وقد عرف أنه هو المخطئ، فهكذا « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . و « أَوْ » عند البصريين على بابها وليست للشك ، ولكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى . وقال أبو عبيدة والفراء : هى بمعنى الواو ، وتقديره : وإنا على هدى وإياكم فى ضلال مبين . وقال جرير :

أثعلبةَ الفوارس أو رياحاً * عدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرِّبابا (١)

يعنى أثعلبة ورياحا . وقال آخر :

فلما آشتد أمر الحرب فينا * تأملنا رياحا أو رزاما

قوله تعالى : قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ أى اكتسبنا ، ﴿ وَلَا نُسْأَلُ ﴾ نحن أيضا ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم، لا أنه ينالنى ضرر كفركم، وهذا كما قال : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » (٢) والله مجازى الجميع . فهذه آية مهادنة ومتاركة، وهى منسوخة بالسيف . وقيل : نزل هذا قبل آية السيف .

قوله تعالى : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

(١) رواية الديوان وكتاب سيبويه : « والخشابا » .

(٢) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٩ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يريد يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أى يقضى فيثيب المهتدى و يعاقب الضال ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أى القاضى بالحق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الخلق . وهذا كله منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يكون « أَرُونِيَ » هنا من رؤية القلب ، فيكون «شُرَكَاء» المفعول الثالث ، أى عرفونى الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله عز وجل ، وهل شاركت فى خلق شىء ، فبينوا ما هو ؟ و إلا فلم تعبدونها . ويجوز أن تكون من رؤية البصر ، فيكون « شُرَكَاء » حالا . ﴿كَلَّا﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم . وقيل : إن « كَلَّا » رد لجوابهم المحذوف ، كأنه قال : أرونى الذين ألحقتم به شركاء . قالوا : هى الأصنام . فقال كلا ، أى ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى وما أرسلناك إلا للناس كافة أى عامة ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج : أى وما أرسلناك إلا جامعا للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع . وقيل : معناه كافا للناس ، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للمبالغة . وقيل : أى إلا ذا كافة ، فحذف المضاف ، أى ذا منع للناس من أن يَشِذُّوا عن تبليغك ، أو ذا منع لهم من الكفر ، ومنه :

كف الثوب، لأنه ضم طرفيه . ﴿ بَشِيرًا ﴾ أى بالجنة لمن أطاع . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من النار لمن كفر . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما عند الله وهم المشركون ؛ وكانوا فى ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عددا . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ يعنى موعدكم لنا بقيام الساعة . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فقال الله تعالى : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد : ﴿ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا يغرّنكم تأخيره . والميعاد الميقات . ويعنى بهذا الميعاد وقت البعث وقيل وقت حضور الموت؛ أى لكم قبل يوم القيامة وقت معين تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولى . وقيل : أراد بهذا اليوم يوم بدر ؛ لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم فى الدنيا فى حكم الله تعالى . وأجاز النحويون « ميعاد يومٌ » على أن يكون « ميعادٌ » ابتداءو « يومٌ » بدل منه ، والخبر « لكم » . وأجازوا « ميعادٌ يومًا » يكون ظرفا ، وتكون الهاء فى « عنه » ترجع إلى « يوم » ولا يصح « ميعادُ يومَ لا تستأخرون » بغير تنوين ، وإضافة « يوم » الى ما بعده إذا قدّرت الهاء عائدة على اليوم ، لأن ذلك يكون من إضافة الشىء إلى نفسه من أجل الهاء التى فى الجملة . ويجوز ذلك على أن تكون الهاء للميعاد لا لليوم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ۖ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يريد كفار قريش . ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال سعيد عن قتادة : « وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقيل من الآخرة . وقال ابن جُريج : قائل ذلك أبو جهل بن هشام . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد فى كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع ؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب و يحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم . ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال ﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى محبوسون فى موقف الحساب ، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا فى الدنيا أخلاء متناصرين . وجواب « لو » محذوف ؛ أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا . ثم ذكر أىّ شىء يرجع من القول بينهم فقال : ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ فى الدنيا من الكافرين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى أغويتمونا وأضللتمونا . واللغة الفصيحة « لَوْلَا أَنْتُمْ » ومن العرب من يقول « لولاكم » حكاها سيبويه ، تكون « لَوْلَا » تخفض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره . ومحمد بن يزيد يقول : لا يجوز « لولاكم » لأن المضمر عقيب المظهر ، فلما كان المظهر مرفوعا بالإجماع وجب أن يكون المضمر أيضا مرفوعا . ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى ﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار ، أى ما رددناكم نحن عن الهدى ، ولا أكرهناكم . ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين مصرين على الكفر. ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ المكر أصله فى كلام العرب الاحتيال والخديعة ، وقد مكر به يمكُرُ فهو ماكر ومكّار . قال الأخفش : هو على تقدير : هذا مكر الليل والنهار . قال النحاس : والمعنى — والله أعلم — بل مكركم فى الليل والنهار ، أى مسارّتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا . وقال سفيان الثورى : بل عملكم فى الليل والنهار . قتادة : بل مكركم بالليل والنهار صدّنا ؛ فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما ؛

وهو كقوله تعالى : « إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ »(١) فأضاف الأجل إلى نفسه ، ثم قال : « فإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً »(٢) إذ كان الأجل لهم . وهذا من قبيل قولك : ليله قائم ونهاره صائم . قال المبرد : أى بل مكركم الليل والنهار ، كما تقول العرب : نهاره صائم وليله قائم . وأنشد لجرير :

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلان فى السُّرَى * ونمتِ وما ليلُ المَطِىِّ بنائم

وأنشد سيبويه : * فنام ليلى وتجلّى همى *

أى نمت فيه . ونظيره : « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا »(٣) . وقرأ قتادة : « بل مكرٌ الليلَ والنهارَ » بتنوين « مكر » ونصب « الليل والنهار » ، والتقدير : بل مكر كائن فى الليل والنهار ، فحذف . وقرأ سعيد بن جبير « بَلْ مَكَرُّ » بفتح الكاف وشدّ الراء بمعنى الكرور ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف . ويجوز أن يرتفع بفعل مضمر دلّ عليه « أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ » كأنهم لما قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صدّنا مكر الليل والنهار . وروى عن سعيد بن جبير « بَلْ مَكَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » قال : مرّ الليلُ والنهار عليهم فغفلوا . وقيل : طول السلامة فيهما كقوله « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ »(٤) . وقرأ راشد « بل مَكَرَّ الليل والنهار » بالنصب ، كما تقول : رأيته مَقْدَمَ الحاج ، وإنما يجوز هذا فيما يعرف ، لو قلت : رأيته مقدمَ زيد ، لم يجز ؛ ذكره النحاس . ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى أشباها وأمثالا ونظراء . قال محمد بن يزيد : فلانٌ نِدُّ فلانٍ ، أى مثله . ويقال نَديد ؛ وأنشد :

أينما تجعلون إلىّ ندّا * وما أنتم لذى حسب نَديد

وقد مضى هذا فى البقرة(٥) . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ أى أظهروها ، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . قال امرؤ القيس :

تجاوزت أحراسا وأهوال مَعْشر * علىّ حِراصا لو يُسِرّون مَقْتَلى(٦)

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٩٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠١ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٦٠ . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٨ فما بعد .
(٥) راجع جـ ١ ص ٢٣٠ (٦) هذه رواية البيت كما فى نسخ الأصل والديوان وروايته كما فى المعلقات : تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا * على حراصا لو يشرون مقتلى « يشرون » بالشين المعجمة : يظهرون .

وروى « يُسِرون » . وقيل : « وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ » أى تبينت الندامة فى أسرار وجوههم . قيل : الندامة لا تظهر، وإنما تكون فى القلب، وإنما يظهر ما يتولّد عنها ، حسبما تقدّم بيانه فى سورة « يونس ، وآل عمران »(١) . وقيل : إظهارهم الندامة قولهم : « فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »(٢) . وقيل : أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال : « وَأَسَرُّوا النَّجْوَى »(٣) . ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الأغلال جمع غُلّ ، يقال : فى رقبته غُلّ من حديد . ومنه قيل للرأة السيئة الخلق : غُلّ قَمِل ، وأصله أن الغُلّ كان يكون من قِدّ وعليه شعر فيَقْمَل . وغَلَلتُ يده إلى عنقه؛ وقد غُلّ فهو مغلول، يقال : مالَه أُلّ وغُلّ(٤) . والغُلّ أيضا والغُلّة : حرارة العطش ، وكذلك الغليل ؛ يقال منه : غُلّ الرجلُ يُغَلّ غَلَلًا فهو مغلول ، على ما لم يسمّ فاعله ؛ عن الجوهرى . أى جعلت الجوامع فى أعناق التابعين والمتبوعين . قيل من غير هؤلاء الفريقين . وقيل يرجع « الَّذِينَ كَفَرُوا » إليهم . وقيل : تم الكلام عند قوله : « لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ » ثم ابتدأ فقال : « وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ » بعد ذلك فى أعناق سائر الكفار . ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُولَـٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٥٢ (٢) راجع جـ ١٣ ص ١١٧ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢١٥
(٤) أل : دفع فى قفاه . وغل : جن ؛ فوضع فى عنقه الغل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ قال قتادة : أى أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ أى فُضّلنا عليكم بالأموال والأولاد ، ولو لم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدّين والفضل لم يخوّلنا ذلك . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه ، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يوسعه ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أى يقتّر ، أى إن الله هو الذى يفاضل بين عباده فى الأرزاق امتحانا لهم ، فلا يدلّ شيء من ذلك على ما فى العواقب ، فسَعَة الرزق فى الدنيا لا تدلّ على سعادة الآخرة ، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغنى عنكم غدًا شيئا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هذا لأنهم لا يتأملون . ثم قال تأكيدا : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ قال مجاهد : أى قُرْبى . والزُّلْفة القربة . وقال الأخفش : أى إزلافا ، وهو اسم المصدر ، فيكون موضع « قُرْبَى » نصبا ، كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا . وزعم الفراء أن « التى » تكون للأموال والأولاد جميعا . وله قول آخر وهو مذهب أبى إسحاق الزجاج ، يكون المعنى : وما أموالكم بالتى تقربكم عندنا ، ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، ثم حذف خبر الأوّل لدلالة الثانى عليه . وأنشد الفراء :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأىُ مختلفُ

ويجوز فى غير القرآن : باللتين وباللاتى وباللواتى وباللذَين وبالّذين ، للأولاد خاصة ، أى لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة ، ولا تقربكم تقريبا . ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى إلا من آمن وعمل صالحا فلن يضره مالُه وولَده فى الدنيا . وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول : اللهم ارزقنى الإيمان والعمل ، وجنّبنى المالَ والولد ، فإنى سمعت فيما أوحيتَ « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » .

قلت : قول طاوس فيه نظر ، والمعنى والله أعلم : جنّبنى المال والولد المطْغِيَيْن أو اللذين لا خير فيهما ؛ فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنِعم هذا ! وقد مضى هذا فى « آل عمران

ومريم، والفرقان »[1] . و« مَن » في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ؛ أي لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانه وعمله يقربانه مني . وزعم الزجاج أنه في موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في « تقربكم » . النحاس : وهذا القول غلط ؛ لأن الكاف والميم للمخاطب فلا يجوز البدل ، ولو جاز هذا لجاز : رأيتك زيدا . وقول أبي إسحاق هذا هو قول الفراء ، إلا أن الفراء لايقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين ، ولكن قوله يئول إلى ذلك ، وزعم أن مثله « إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] يكون منصوبا عنده بـ « ينفع » . وأجاز الفراء أن يكون « مَن » في موضع رفع بمعنى : ماهو إلا من آمن ؛ كذا قال ، ولست أحصِّل معناه . ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ يعني قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »[2] فالضعف الزيادة ، أي لهم جزاء التضعيف ، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول . وقيل : لهم جزاء الأضعاف، فالضعف في معنى الجمع ، وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نفسه ، نحو : حق اليقين ، وصلاة الأولى . أي لهم الجزاء المضعَّف ، للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة .

وبهذه الآية استدلّ من فضّل الغنى على الفقر . وقال محمد بن كعب : إن المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية . ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ قراءة العامة « جَزَاءُ الضِّعْفِ » بالإضافة . وقرأ الزهري ويعقوب ونصر بن عاصم « جزاءً » منونا منصوبا « الضعفُ » رفعا ؛ أي فأولئك لهم الضعف جزاء، على التقديم والتأخير . « وَجَزَاءُ الضِّعْفِ » على أن يجازوا الضعف . و« جزاءٌ الضعفُ » مرفوعان ، الضعفُ بدل من جزاء. وقرأ الجمهور أيضا « في الغُرُفَات » على الجمع ، وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله : « لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا »[1] . الزمخشري : وقرئ « فِي الغـرفاتِ » بضم الراء وفتحها وسكونها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة وخلف «في الغرفة» على التوحيد ؛ لقوله تعالى : « أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ »[1] . والغرفة قد يراد بها اسم الجمع واسم الجنس . قال ابن عباس : هي غرف

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وجـ ١١ ص ٨٠ وجـ ١٣ ص ٨٢ و ص ١١٤ و ٣٥٩ .
(٢) راجع ٧ ص ١٥٠

من ياقوت وزبرجد ودُرّ . وقد مضى بيان ذلك[1] . ﴿ آمِنُونَ ﴾ أي من العذاب والموت والأسقام والأحزان . ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا ﴾ في إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا . ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ معاندين ، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أي في جهنم تحضرهم الزبانية فيها .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ كرر تأكيدا . ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسّع على من يشاء ويضيّق على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها في طاعة الله ، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه . وفيه إضمار ، أي فهو يخلفه عليكم ؛ يقال : أخلف له وأخلف عليه ، أي يعطيكم خلفه وبدله ، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمّ أعط منفقا خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا " . وفيه أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، " إن الله قال لي أَنفق أنفق عليك ... " الحديث . وهذه إشارة إلى الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة في طاعة الله . وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء — كما تقدّم[2] — سواء في الإجابة أو التكفير أو الادخار ؛ والادّخار ها هنا مثله في الأجر .

مسألة — روى الدّارَقُطْنِيّ وأبو أحمد بن عَدِيّ عن عبد الحميد الهلالي عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وَقَى به الرجل عرضَه فهو صدقة وما أنفق الرجل

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠٤ وجـ ١٣ ص ٨٣ و ٣٠٩   (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ فما بعد .

من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة فى بنيان أو معصية ". قال عبد الحميد : قلت لابن المنكدر : « ماوقى الرجل عرضه » ؟ قال : يعطى الشاعر وذا اللسان . عبد الحميد وثقه ابن معين .

قلت : أما ما أنفق فى معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البنيان فما كان منه ضروريا يكن الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه . وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته ، قال صلى الله عليه وسلم : " ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال ، بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والماء " . وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف »(١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ لما كان يقال فى الإنسان : إنه يرزق عياله ، والأمير جنده ؛ قال : « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » والرازق من الخلق يرزق ، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى . ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة ، كما قال : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »(٢) .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾(٣) هذا متصل بقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ »(٤) . أى لو تراهم فى هذه الحالة لرأيت أمرا فظيعا . والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وأمته . ثم قال : ولو تراهم أيضا « يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا » العابدين والمعبودين ، أى نجمعهم للحساب ﴿ ثُمَّ نَقُولُ(٣) لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ . قال سعيد عن قتادة : هذا

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٩ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥
(٣) قوله « نحشرهم ، نقول » بالنون قراءة نافع . (٤) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

آستفهام ؛ كقوله عز وجل لعيسى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ »[1] . قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان فى ذلك تبكيت لهم ؛ فهو آستفهام توبيخ للعابدين . ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيها لك . ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى أنت ربنا الذى نتولاه ونطيعه ونعبده ونُخلص فى العبادة له . ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ أى يطيعون إبليس وأعوانه . وفى التفاسير : أن حيًّا يقال لهم بنو مُلَيح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، و يزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله ؛ وهو قوله : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »[2] .

قوله تعالى : فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا ﴾ أى شفاعة ونجاة . ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ أى عذابا وهلاكا . وقيل : أى لا تملك الملائكة دفع ضرّ عن عابديهم ؛ فحذف المضاف . ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ يجوز أن يقول الله لهم أو الملائكة : ذوقوا .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ج وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ ﴾ يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ أى أسلافكم من

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٧٤ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٣٤

الآلهة التي كانوا يعبدونها . ﴿ وَقَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ﴾ يعنون القرآن ؛ أي ما هو إلا كذب مختلق . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ فتارةً قالوا سحر ، وتارةً قالوا إفك . ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك .

قوله تعالى : وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أي لم يقرءوا في كتاب أوتوه بطلانَ ما جئتَ به ، ولا سمعوه من رسول بُعث إليهم ، كما قال : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (١) » فليس لتكذيبهم وجه يتشبث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب و إن كانوا مبطلين : نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله ، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله الحق : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذب قبلهم أقوام كانوا أشدّ من هؤلاء بطشا وأكثر أموالا وأولادا وأوسع عيشا ، فأهلكتهم كثمود وعاد . ﴿ وَمَا بَلَغُوا ﴾ أي ما بلغ أهل مكة ﴿ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ تلك الأمم . والمعشار والعُشر سواء ، لغتان . وقيل : المعشار عشر العشر . الجوهري : ومعشار الشيء عشره ، ولا يقولون هـذا في شيء سوى العشر . وقيل : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان . قال ابن عباس : فليس أمة أعلمَ من أمته ، ولا كتاب أبين من كتابه . وقيل : المعشار هو عشر العشير ، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءا من ألف جزء . الماوردي : وهو الأظهر ، لأن المراد به المبالغة في التقليل . ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي عقابي في الأمم ، وفيه محذوف وتقديره : فأهلكناهم فكيف كان نكيري .

---

(١) راجع ج ١٦ ص ٧٤

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ تمم الحجة على المشركين ؛ أي قل لهم يا محمد : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ ﴾ أي أذكركم وأحذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه . ﴿ بِوَاحِدَةٍ ﴾ أي بكلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام ، تقتضي نفي الشرك و إثبات الإله . قال مجاهد : هي لا إله إلا الله ؛ وهذا قول ابن عباس والسّدي . وعن مجاهد أيضا : بطاعة الله . وقيل : بالقرآن ؛ لأنه يجمع كل المواعظ . وقيل : تقديره بخصلة واحدة، ثم بينها بقوله : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ فتكون « أَنْ » في موضع خفض على البدل من « وَاحِدَة » ، أو في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أي هي أن تقوموا . ومذهب الزجاج أنها في موضع نصب بمعنى لأن تقوموا . وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذي هو ضد القعود ، وهو كما يقال : قام فلان بأمر كذا ؛ أي لوجه الله والتقرب إليه . وكما قال تعالى : « وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ »(١) . ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ أي وُحدانا ومجتمعين ؛ قاله السّدي . وقيل : منفردا برأيه ومشاورا لغيره ، وهذا قول مأثور . وقال القُتَبي : مناظرا مع غيره ومفكّرا في نفسه ، وكله متقارب . و يحتمل رابعا أن المَثْنَى عمل النهار والفرادى عمل الليل ، لأنه في النهار معانٌ وفي الليل وحيد ، قاله الماوردي . وقيل : إنما قال : « مَثْنَى وَفُرَادَى » لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل ، فأوفرهم عقلا أوفرهم حظا من الله ، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة ، و إذا كانوا مَثْنَى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد ؛ والله أعلم . ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ الوقف عند أبي حاتم وابن الأنباري على «ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا» . وقيل : ليس هو بوقف ، لأن المعنى : ثم تتفكروا هل جرّبتم على صاحبكم كذبا ، أو رأيتم فيه جنة ، أو في أحواله من

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٠٢ .

فساد ، أو اختلف إلى أحد ممن يدّعى العلم بالسحر ، أو تعلّم الأقاصيص وقرأ الكتب ، أو عرفتموه بالطمع فى أموالكم ، أو تقدرون على معارضته فى سورة واحدة؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . ورَهْطَكَ مِنهم الْمُخلَصِين »(١) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعِد الصَّفا فهتف : ياصباحاه(٢) ؟ فقالوا : من هذا الذى يهتِف ! ؟ قالوا محمد ، فاجتمعوا إليه فقال : " يا بنى فلان يا بنى فلان يا بنى عبدمناف يا بنى عبد المطلب — فاجتمعوا إليه فقال — أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِىّ " ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : " فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " . قال فقال أبو لهب : تبًّا لك ! أمَا جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قال فنزلت هذه السورة : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وقَدْ تَبَّ »(٣) كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة .

قوله تعالى : قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى جُعْل على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى ذلك الجُعْل لكم إن كنت سألتكموه ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى رقيب وعالم وحاضر لأعمالى وأعمالكم، لا يخفى عليه شىء فهو يجازى الجميع .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ أى يبيّن الحجة ويظهرها . قال قتادة : بالحق بالوحى ، وعنه : الحق القرآن . وقال ابن عباس : أى يقذف الباطل بالحق علامُ الغيوبِ .

---

(١) قال القسطلانى فى قوله « ورهطك منهم المخلصين » : هو من عطف الخاص على العام ، وكان قرآنا فنسخت تلاوته . (٢) قوله : «ياصباحاه» بسكون الهاء ، وهى كلمة يقولها المستغيث ؛ وأصلها إذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون الغارة يوم الصباح . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٤ .

وقرأ عيسى بن عمـر « عَلّامَ الغيوب » على أنه بدل، أى قل إن ربى علام الغيوب يقذف بالحق . قال الزجاج . والرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل مما فى يقذف . النحاس : وفى الرفع وجهان آخران : يكون خبرا بعد خبر، ويكون على إضمار مبتدأ . وزعم الفراء أن الرفع فى مثل هذا أكثر فى كلام العرب إذا أتى بعد خبر « إنّ » ومثله « إِنَّ ذَلِكَ لَحَـقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّـارِ »(١) وقرئ : « الغُيوبُ » بالحركات الثلاث ، فالغُيوب كالبيوت، والغَيوب كالصبور، وهو الأمر الذى غاب وخَفِىَ جدًّا .(٢)

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُـلْ جَاءَ الْحَـقُّ ﴾ قال سـعيد عن قتادة : يريد القرآن . النحاس : والتقدير جاء صاحب الحق ؛ أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج . ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ ﴾ قال قتادة : الشيطان؛ أى ما يخلق الشيطان أحدًا . ﴿ وَمَا يُعِيدُ ﴾ فـ « ما » نَفْىٌ . ويجـوز أن يكون استفهاما بمعنى أىّ شىء؛ أى جاء الحق فأىّ شىء بقى للباطل حتى يعيده ويبدئه؛ أى فلم يبق منه شىء ، كقوله : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ »(٣) أى لا ترى .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَـآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَـا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى ﴾ وذلك أن الكفار قالوا تركتَ دين آبائك فضللت . فقال له : قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسى . وقراءة العامة « ضَللت » بفتح اللام . وقرأ يحيى بن وثّاب وغيره : « قُلْ إِنْ ضَلِلت » بكسر اللام وفتح الضاد من « أَضَلُّ »، والضلال والضلالة ضدّ الرشاد . وقد ضلَلت (بفتح اللام) أضل

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٥ .   (٢) عبارة روح المعانى : « ... الغيوب (بالكسر) كالبيوت » . وعبارة البحر : « ... أما الضم فجمع غيب ، وأما الكسر فكذلك استثقلوا ضمتين والواو فكسروا لتناسب الكسر مع الياء والضمة التى على الياء مع الواو، وأما الفتح ففعول للبالغة كالصبور » .

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٢١٦ .

(بكسر الضاد)، قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي » فهذه لغة نجد وهي الفصيحة . وأهل العالية يقولون « ضَلِلت » بالكسر « أَضَل »(١)، أي إثم ضلالتي على نفسي . ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ من الحكمة والبيان ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أي سميع ممن دعاه قريب الإجابة . وقيل وجه النظم : قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ويبين الحجة، وضلالُ من ضل لا يبطل الحجة، ولو ضللت لأضررت بنفسي، لا أنه يبطل حجة الله، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتني على الحجة إنه سميع قريب .

قوله تعـالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق . والمعنى : لو ترى إذا فزعوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم، روى معناه عن ابن عباس . الحسن : هو فزعهم في القبور من الصيحة . وعنه أن ذلك الفزع إنمـا هو إذا خرجوا من قبورهم، وقاله قتادة . وقال ابن مُغَفَّل : إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة . السّدّي : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا إلى التوبة . سـعيد بن جُبير : هو الجيش الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فزعهم . ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا نجاة؛ قاله ابن عباس . مجاهـد : فلا مهرب . ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي من القبور . وقيـل : من حيث كانوا، فهم من الله قريب لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه . وقال ابن عباس : نزلت في ثمانين ألفا يغزون في آخر الزمان الكعبة ليَخْرِبوها، وكما يدخلون البيداء يخسف بهم؛ فهو الأخذ من مكان قريب .

قلت : وفي هذا المعنى خبر مرفوع عن حذيفة وقد ذكرناه في كتاب التذكرة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب — : " فبيناهم

(١) في مختار الصحاح : « بالكسر فيهما » والذي في اللسان : « ضللت بالكسر أضل » .

كذلك إذ خرج عليهم السُّفياني من الوادى اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشـق فيبعث جيشين ، جيشا إلى المشرق ، وجيشا إلى المدينة ، فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة — يعني مدينة بغداد ، قال — فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بهـا ثلاثمـائة كبش[1] من ولد العباس ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين[2] فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السّبي والغنائم ويحُلّ جيشه الثـانى بالمدينـة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخـرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السـلام فيقول ياجبريل آذهب فأبِدْهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم ، وذلك قوله تعالى : «وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذيروهما من جُهينة ، ولذلك جاء القول : وعند جهينة الخبر اليقين . وقيل : « أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » أى قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ، وهذا على قول من يقول : هذا الفزع عند النزع . ويحتمل أن يكون هـذا من الفزع الذى هـو بمعنى الإجابة ؛ يقال : فزِع الرجل أى أجاب الصارخ الذى يستغيث به إذا نزل به خوف . ومنه الخبر إذا قال للأنصار : " إنكم لتقِلّون عند الطمع وتكثرون عند الفـزع " . ومن قال : أراد الخسف أو القتـل في الدنيا كيوم بدر قال : أخذوا في الدنيا قبل أن يؤخذوا في الآخرة . ومن قال : هو فزع يوم القيامة قال : أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها . وقيل : « أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » من جهنم فألقوا فيها .

قوله تعـالى : وَقَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى بالقرآن . وقال مجاهد : بالله عز وجل . الحسن : بالبعث . قتادة : بالرسـول صلى الله عليه وسـلم . ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال

(١) كبش القوم : رئيسهم ، وسيدهم ، وحاميتهم ، والمنظور إليه فيهم . (٢) في كتاب التذكرة « على ميلين » .

ابن عباس والضحاك : التناوش الرجعة ؛ أى يطلبون الرجعة إلى الدنيـا ليؤمنوا ، وهيهات من ذلك ! ومنه قول الشاعر :

تمــنّى أن تئوب إلىّ مىٌّ * وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السُّدّى : هى التوبة ؛ أى طلبوها وقد بَعُدت ، لأنه إنمـا تقبل التوبة فى الدنيا . وقيل : التناوش التناول ؛ قال ابن السِّكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسـه ولحيته : ناشه ينوشه نَوْشاً . وأنشد :

فهى تنوش الحوض نَوْشاً مِن عَلَا * نَوْشـاً به تَقْطع أجــوازَ الفَــلا (١)

أى تتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شربا كثيرا، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر . قال : ومنه المناوشــة فى القتال ؛ وذلك إذا تدانى الفريقان . ورجل نَوُوش أى ذو بطش . والتناوش . التناول : والانتياش مثله . قال الراجز :

* كانت تنوش العنقَ انتياشـا *

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقـول : أنَّى لهم تناول الإيمـان فى الآخرة وقد كفروا فى الدنيا . وقرأ أبو عمرو والكسائى والأعمش وحمزة : «وأنى لهم التناؤش» بالهمز . النحاس : وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة ؛ لأن « التناؤش » بالهمز البعد ، فكيف يكون : وأنى لهم البعد من مكان بعيد . قال أبو جعفر : والقراءة جائزة حسنة ، ولها وجهان فى كلام العرب ، ولا يتأول بها هـذا المتأول البعيد . فأحد الوجهين أن يكون الأصــل غير مهموز ، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها خفية ، وذلك كثير فى كلام العرب . وفى المصحف الذى نقلته الجماعة عن الجماعة « وَإِذَا الرُّسُــلُ أُقِّتَتْ (٢) » والأصل « وُقِّتت » لأنه مشتق من الوقت . ويقال فى جمع دار : أدؤر . والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال : يكون مشتقا من النئيش وهو الحركة فى إبطاء ؛ أى من أين لهم الحركة فيما قد بَعُد ، يقال : نأشت الشىء أخذته

(١) البيت لغيلان بن حريث : والضمير فى قوله « فهى » للإبل . وتنوش الحوض : تتناول ملأه . وقوله : « من علا » أن من فوق . يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق ؛ وذلك النوش الذى تناله هو الذى يعينها على قطع الفلوات . والأجواز : جمع جوز وهو الوسط .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٥٥ .

من بُعْد والنئيش : الشيء البطيء . قال الجوهري : التناؤش (بالهمز) التأخر والتباعد . وقد نأشت الأمر أنأشه نأشا أخرته ؛ فانتأش . ويقال : فعله نئيشا أي أخيرا . قال الشاعر :

تمنّى نئيشا أن يكون أطاعني * وقد حدثت بعد الأمور أمور (١)

وقال آخر :

قعدت زمانا عن طلابك للعلا * وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخُبْر (٢)

وقال الفراء : الهمز وترك الهمز في التناؤش متقارب ؛ مثل : ذِمْتُ (٣) الرجل وذَأَمْته أي عبته . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من الآخرة . وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال : « وأنّى لهم » قال : الرّدّ ، سألوه وليس بحين ردّ .

قوله تعالى : وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ أي بالله عز وجل . وقيل : بمحمد ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني في الدنيا . ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ العرب تقول لكل من تكلم بما لا يَحُقّه (٤) : هو يقذف ويرجم بالغيب . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب ، أي يرمون بالظن فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رَجْمًا منهم بالظن ؛ قاله قتادة . وقيل : « يقذفون » أي يرمون في القرآن فيقولون : سحر وشعر وأساطير الأولين . وقيل : في محمد ؛ فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون . ﴿ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي إن الله بعّد لهم أن يعلموا صدق محمد . وقيل : أراد البعد عن القلب ، أي من مكان بعيد عن قلوبهم . وقرأ مجاهد « ويُقْذَفون بالغيب » غير مسمّى الفاعل ، أي يُرمون به . وقيل : يقذف به إليهم من يغويهم ويضلهم .

(١) في اللسان مادة نأش : « ويحدث من بعد ... » .	(٢) في ش ، ك : « الخير » بالياء المثناة .

(٣) في اللسان : ذامه يذيمه ذيما وذاما عابه ، وذمته أذيمه وأذمته وذممته ، كله بمعنى .

(٤) حق الأمر يحقه وأحقه : كان منه على يقين .

قوله تعالى : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قيل : حيل بينهم و بين النجاة من العذاب . وقيل : حيل بينهم و بين ما يشتهون فى الدنيا من أموالهم وأهليهم . ومذهب قتادة أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز و ينتهوا إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك ؛ لأن ذلك إنما كان فى الدنيا وقد زالت فى ذلك الوقت . والأصل « حُوِل » فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثم حذفت حركتها لثقلها . ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ ﴾ الأشياع جمع شِيَع ، وشِيَع جمع شيعة . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى بمن مضى من القرون السالفة الكافرة . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ ﴾ أى من أمر الرسل والبعث والجنة والنار . وقيل : فى الدين والتوحيد ، والمعنى واحد . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى يستراب به ، يقال : أراب الرجل أى صار ذا ريبة ، فهو مريب . ومن قال هو من الريب الذى هو الشك والتهمة قال : يقال شكٌّ مريب ؛ كما يقال : عجبٌ عجيب وشعر شاعر ؛ فى التأكيد .

ختمت السورة ، والحمد لله رب العالمين .

سورة فاطر

مكية فى قول الجميع ، وهى خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قوله تعـالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يجوز فى « فاطر » ثلاثة أوجه : الخفض على النعت ، والرفع على إضمار مبتدأ ، والنصب على المدح . وحكى سيبويه : الحمد لله أهل الحمد [مثله (١)] وكذا « جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ » . والفاطر : الخالق . وقد مضى فى « يوسف » (٢) وغيرها . والفَطْر . الشق عن الشيء ؛ يقال : فطرته فانفطر . ومنه : فَطَر نابُ البعير طلع ، فهو بعير فاطر . وتفطّر الشيء تشقق . وسيف فُطار ، أى فيه تشقق . قال عنترة :

وسيفى كالعقيقة فهو كِمْعِى * سـلاحى لا أَفَـلّ ولا فُطَارا (٣)

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما «فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها، أى أنا ابتدأتها . والفَطْر . حلب الناقة بالسبابة والإبهام . والمراد بذكر السموات والأرض العالم كله ، ونبّه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة . ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ ﴾ لا يجوز فيه التنوين ، لأنه لمـا مضى . ﴿ رُسُلًا ﴾ مفعول ثان ، ويقال على إضمار فعل ؛ لأن « فاعلا » إذا كان لمـا مضى لم يعمل فيـه شيئا ، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منه تخفيفا . وقـرأ الضحاك « الحمد لله فطر السمواتِ والأرض » على الفعل المـاضى . « جاعِل الملائكةِ رسلا » الرسل منهـم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، صلى الله عليهم أجمعين . وقـرأ الحسن : « جَاعِلُ الملائكة » بالرفع . وقرأ خُليد بن نشيط « جعل الملائكة » وكله ظاهر . ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ نعت ، أى أصحـاب أجنحة . ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ (٤) ﴾ أى اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة . قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة؛ ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون من الأرض إلى السماء ، وهى مسيرة كذا فى وقت واحد ، أى جعلهم رسلا . قال يحيى بن سـلام : إلى الأنبياء . وقال السدّى : إلى العباد برحمة أو نقمة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه

---

(١) زيادة عن كتاب النحاس يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٩ ، جـ ٦ ص ٣٩٧

(٣) عقيقة البرق : شعاعه . والكمع (بكسر فسكون) والكميع : الضجيع . (٤) فى كتاب البحر : « وقيل أولى أجنحة » معترض ، و« مثنى » حال ، والعامل فعل محذوف يدل عليه « رسلا » ؛ أى يرسلون مثنى وثلاث ورباع » .

السلام له ستمائة جناح . وعن الزهرى أن جبريل عليه السلام قال له : " يا محمد ، لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب و إن العرش لعلى كاهله و إنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصْع — والوصع عصفور صغير — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته " . و « أُولُو » اسم جمع لذو ، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا، ونظيرهما فى المتمكنة : المخاض والخلفة(١) . وقد مضى الكلام فى « مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » فى « النساء »(٢) وأنه غير منصرف . ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ أى فى خلق الملائكة، فى قول أكثر المفسرين؛ ذكره المهدوى . وقال الحسن : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ » أى فى أجنحة الملائكة ما يشاء . وقال الزهرى وابن جريج : يعنى حسن الصوت . وقد مضى القول فيه فى مقدمة الكتاب(٣) . وقال الهيثم الفارسى : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى ، فقال : " أنت الهيثم الذى تُزَيِّن القرآن بصوتك جزاك الله خيرا " . وقال قتادة : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » الملاحة فى العينين والحسن فى الأنف والحلاوة فى الفم . وقيل : الخط الحسن . وقال مهاجر الكَلاعى قال النبى صلى الله عليه وسلم : " الخط الحسن يزيد الكلام وضوحا ". وقيل : الوجه الحسن . وقيل فى الخبر فى هذه الآية : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ؛ ذكره القُشَيرى . النقاش : هو الشعر الجَعْد(٤) . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من النقصان والزيادة . الزمخشرى : والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق؛ من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام فى الأعضاء، وقوة فى البطش، وحصافة فى العقل، وجزالة فى الرأى، وجرأة فى القلب، وسماحة فى النفس، وذلاقة فى اللسان، ولباقة فى التكلم، وحسن تأتٍّ(٥) فى مزاولة الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف .

---

(١) المخاض : الحوامل من النوق ، واحدتها خلفة على غير قياس ولا واحد لها من لفظها ؛ كما قالوا لواحدة النساء : امرأة ، ولواحدة الإبل : ناقة أو بعير .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٥ فما بعد .

(٣) راجع (باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى) .

(٤) ما فيه التواء وتقبض . أو القصير منه .

(٥) تأتى فلان لحاجته : إذا ترفق لها وأتاها من وجهها .

قوله تعالى : مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وأجاز النحويون فى غير القرآن « فلا ممسك له » على لفظ « ما » و « لها » على المعنى . وأجازوا « وما يُمْسك فلا مُرْسِلَ لها » . وأجازوا « ما يفتحُ الله للناس من رحمة » (بالرفع) تكون « ما » بمعنى الذى . أى إن الرسل بُعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله . وقيل : ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه ، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله . وقيل : هو الدعاء؛ قاله الضحاك . ابن عباس : من توبة . وقيل : من توفيق وهداية .

قلت : ولفظ الرحمة يجمع ذلك؛ إذ هى منكرة الإشاعة والإبهام، فهى متناولة لكل رحمة على البدل، فهو عام فى جميع ما ذكر . وفى موطأ مالك : أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس : مُطرنا بنَوْء الفتح، ثم يتلو هذه الآية « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » (١) . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ معنى هذا الذكر الشكر . ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يجوز (٢) فى « غير » الرفع والنصب والخفض، فالرفع من وجهين : أحدهما — بمعنى هل من خالق إلا الله ؛ بمعنى ما خالق إلا الله . والوجه الثانى — أن يكون نعتا على الموضع ؛ لأن المعنى : هل خالق غير الله ، و « من » زائدة . والنصب على الاستثناء .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣١ .

(٢) فى ش ، وك . « يجوز فى القرآن الرفع ... » الخ وفى ح : « فى غير القرآن » .

والخفض على اللفظ . قال حُميد الطويل : قلت للحسن : من خلق الشر ؟ فقال سبحان الله ! هل من خالق غير الله جل وعز، خلق الخير والشر . وقرأ حمزة والكسائى : « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غيرِ اللهِ » بالخفض . الباقون بالرفـع . ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى المطـر . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ أى النبات . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ من الأَفْك (بالفتح) وهو الصرف ؛ يقال : ما أفكَك عن كذا ، أى ما صرفك عنـه . وقيل : من الإفك (بالكسر) وهو الكذب ، ويرجع هـذا أيضا إلى ما تقدم ؛ لأنه قول مصروف عن الصدق والصواب ، أى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله . والآية حجـة على القدرية لأنه نفى خالقا غير الله وهم يثبتون معه خالقين ، على ما تقدم فى غير موضع .

قوله تعـالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعزِّى نبيّه ويسلّيه صلى الله عليه وسلم ، وليتأسَّى بمن قبله فى الصبر . ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن مُحَيْصِن وحميد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائىّ وخلف (بفتح التاء) على أنه مسمى الفاعل . واختاره أبو عبيد لقوله تعالى : « أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ »[1] الباقون « تُرْجَع » على الفعل المجهول .

قوله تعـالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ هذا وعظ للمكذبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحة قـوله : إن البعث والثواب والعقاب حق . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قال سعيد بن جُبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة ،

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٥٤ فما بعد .

حتى يقـول : يا ليتنى قدّمت لحيـاتى . ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَـرُورُ ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم : « الغَرور » الشيطان . وغرور جمع غَرّ ، وغَرّ مصدر . ويكون « الغَرور » مصدرا وهو بعيد عند غير أبي إسحاق ؛ لأن « غررته » متعدّ ، والمصدر المتعدّى إنمـا هو على فَعْل ؛ نحو : ضربته ضربا ، إلا فى أشياء يسيرة لا يقاس عليها ؛ قالوا : لزمْته لُزوما ، ونَهكه المرض نُهوكا . فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيـه ما قاله سعيد بن جبير ، قال : الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصى ثم يتمنّى على الله المغفرة . وقراءة العامة « الغَرور » (بفتح الغين) وهو الشيطان ؛ أى لا يغرّنكم بوساوسه فى أنه يتجاوز عنكم لفضلكم . وقرأ أبو حَيْوة وأبو السَّمّال العدوىّ ومحمد بن السَّمَيْقَع « الغُرور » (برفع الغين) وهو الباطل ؛ أى لا يغرّنكم الباطل . وقال ابن السكيت : والغُرور (بالضم) ما اغترّ به من متاع الدنيا . قال الزجاج : ويجـوز أن يكون الغرور جمع غارّ ؛ مثـل قاعد وقعود . النحاس : أو جمـع غَرّ ، أو يُشبَّه بقولهم : نهكه المرض نهوكا ولزمه لزوما . الزمخشرىّ : أو مصدر « غره » كاللزوم والنهوك .

قوله تعـالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَـا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِـلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أى فعـادوه ولا تطيعوه . ويدلكم على عداوته إخراجه أباكم من الجنـة ، وضمانه إضلالكم فى قـوله : « وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ »[1] الآية . وقوله : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ »[2] الآية . فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدو مبين ، واقتص علينا قصته ، وما فعل بأبينا آدم صلى الله عليـه وسلم ، وكيف انتدب لعداوتنا وغرورنا من قبـل وجودنا و بعده ، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا ممـا فيه هلاكنا . وكان الفضيل بن عياض يقول : يا كذاب

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٨٨ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ .

يا مُفتَرٍ ، ٱتق الله ولا تَسُبَّ الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر . وقال ابن السماك : يا عجبًا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ! وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ! وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) مجوّدا . و « عدوّ » فى قوله : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ » يجوز أن يكون بمعنى معادٍ ، فيثنّى ويجمع ويؤنث . ويكون بمعنى النسب فيكون موحدا بكل حال ؛ كما قال جل وعز : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي »(٢) . وفى المؤنث على هـذا أيضا عدو . النحاس : فأما قول بعض النحو يين إن الواو خفية فجاءوا بالهاء فخطأ ، بل الواو حرف جلد . ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ ﴾ كفّت « ما » « إنّ » عن العمل فوقع بعـدها الفعل . ﴿ حِزْبَهُ ﴾ أى أشـياعه . ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فهذه عداوته . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يكون « الَّذِينَ » بدلا « مِنْ أَصْحَابِ » فيكون فى موضـع خفض ، أو يكون بدلا من « حِزْبَهِ » فيكون فى موضع نصب ، أو يكون بدلا من الواو فيكون فى موضع رفـع . وقول رابع وهو أحسنها — يكون فى موضع رفع بالابتداء و يكون خبره « لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » ؛ وكأنه سبحانه بيّن حال موافقته ومخالفته ، و يكون الكلام قد تمّ فى قوله : « مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » ثم ابتدأ فقال : « الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فى موضع رفع بالابتداء أيضا ، وخبره ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أى لذنوبهم . ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعـالى : أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُـوءُ عَمَلِهِ ﴾ « مَنْ » فى موضع رفع بالابتداء ، وخبره محذوف . قال الكسائى : والذى يدلّ عليه قوله تعالى : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » فالمعنى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ذهبت نفسك عليهم حسرات . قال : وهذا كلام

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٠٨ فما بعد .

عربيّ طريف لا يعرفه إلا قليــل . وذكره الزمخشريّ عن الزجاج . قال النحاس : والذى قاله الكسائى أحسن ما قيل فى الآية ، لمـا ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله جل وعز نهى نبيّه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم، كما قال جل وعز : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ »[(١)] قال أهل التفسير : قاتل . قال نصر بن عليّ : سألت الأصمعيّ عن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أهل اليمن : " هم أرقّ قلوباً وأبخع طاعةً " مامعنى أبخع ؟ فقال : أنصح . فقلت له : إن أهل التفســير مجاهدا وغيرَه يقولون فى قــول الله عز وجل : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ » : معناه قاتِل نفسك . فقال : هو من ذاك بعينه، كأنه من شدة النصح لهم قاتل نفسه . وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حَسَناً ، فلا تَذْهب نفسُك عليهــم حسرات ، فإن الله يضلّ من يشاء ويهــدى من يشاء . وقيل : الجواب محذوف ؛ المعنى أفمن زين له سوءُ عمله كمن هدى ، ويكون يدل على هذا المحذوف « فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . وقرأ يزيد بن القَعْقاع : «فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَك» وفى « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ » أربعة أقوال، أحدها — أنهم اليهود والنصارى والمجوس؛ قاله أبو قِلابة . ويكون « سُوءُ عَمَلِهِ » معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثانى — أنهم الخوارج ؛ رواه عمــر بن القــاسم . فيكون « سُــوءُ عَمَلِهِ » تحريف التأويل . الثالث — الشيطان ؛ قاله الحسن . ويكون « سُــوءُ عَمَلِهِ » الإغواء . الرابع — كفار قريش ؛ قاله الكلبي . ويكون « سُوءُ عَمَــلِهِ » الشرك . وقال : إنها نزلت فى العاص بن وائل السَّهْمِى والأسود بن المطلب . وقال غيره : نزلت فى أبى جهل بن هشام . ﴿فَرَآهُ حَسَناً﴾ أى صوابا ؛ قاله الكلبيّ . وقيل : جميلا .

قلت: والقول بأن المراد كفار قريش أظهرالأقوال ؛ لقوله تعالى : «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ»[(٢)] ، وقــوله : « وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ »[(٣)] ، وقــوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً »[(١)] ، وقوله : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »[(٤)] ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٣٧ . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٨٤ .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٨٧ فما بعد .

وقوله فى هذه الآية : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » . وهذا ظاهر بيّن ، أى لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم ، فإن الله أضلهم . وهـذه الآية تردّ على القدرية قولهم على ما تقدم ؛ أى أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسنا تريد أن تهديه ، وإنما ذلك إلى الله لا إليك ، والذى إليك هو التبليغ . وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مُحَيْصن : « فَلَا تُذْهِب » بضم التاء وكسر الهـاء « نفسَك » نصبا على المفعول ، والمعنيان متقاربان . « حَسَرَاتٍ » منصوب مفعول من أجله ؛ أى فلا تذهب نفسك للحسرات . و « عَلَيْهِم » صلة « تذهب » ، كما تقول : هلك عليه حُبًّا ومات عليه حزنا . وهو بيان للتحسر عليه . ولا يجـوز أن يتعلق بالحسرات ؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته . ويجوز أن يكون حالا كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر ؛ كما قال جرير :

مَشقَ الهواجِرُ لحمَهُنّ مع السُّرَى * حتى ذَهَبْنَ كَلَا كِلًا وصُدُورَا

يريد : رجعن كَلَا كِلًا وصدورا ؛ أى لم يبق إلا كلا كلها وصدورها . ومنه قول الآخر :

فعـلى إثرهم تسـاقط نفسِى * حسرات وذكرهم لى سـقام

أو مصدرا . ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَـا يَصْنَعُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ مَيْت ومَيِّت واحد ، وكذا مَيِّتة ومَيْتة ؛ هذا قول الحُذّاق من النحويين . وقال محمد بن يزيد : هذا قول البصريين ، ولم يستثن أحدا ، واستدلّ على ذلك بدلائل قاطعة . وأنشد :

ليس من مات فاستراح بِمَيْتٍ * إنمـا المَيْت ميّت الأحيـاء

إنمـا المَيْت من يعيش كئيبـا * كاسِـفًا بالُه قليـل الرجاء

قال : فهل ترى بين مَيّت ومَيْت فرقا، وأنشد :

هَيْنون لَيْنون أيسارٌ بنــو يَسَر * سُــواس مَــكْرُمة أبنــاء أَيْسار

قال : فقد أجمعوا على أن هَيْنون ولَيْنون واحد ، وكذا مَيّت ومَيْت ، وسَيّد وسَيْد . قال : « فَسُقْنَاهُ » بعــد أن قال : « وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَــلَ الرِّيَاحَ » وهو من باب تلوين الخطاب . وقال أبو عبيدة : سبيله « فَتَسُوقُه » ، لأنه قال : « فَتُثِيرُ سَحَابًا » . الزمخشرى : فإن قلت : لم جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : لتحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحابَ ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ؛ وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تُستغرب ، أو تهمّ المخاطب أو غير ذلك ؛ كما قال تأبّط شرًّا

بأنى قــد لقيت الغول تهوى * بسَهْب[1] كالصــحيفة صحصحان

فأضربهــا بلا دَهش فخــرت * صريعا لليــدين وللجِــران[2]

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التى تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يُبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، لمــا كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : « فسقنا » و « أحيينا » معــدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليــه . وقراءة العــامة « الرياح » . وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى « الريح » توحيدا . وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى[3] . ﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُــورُ ﴾ أى كذلك تُحْيَون بعــد ماءتم ؛ من نشر الإنسان نشورا . فالكاف فى محل الرفع ؛ أى مثل إحياء الموت نشر الأموات . وعن أبى رزين العقيلى قال : قلت يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك فى خلقــه ؟ قال : " أمَا مررتَ بوادى أهلِك مُمْحِلًا ثم مررت به يهتزّ خَضِرا " قلت : نعم يا رسول الله . قال " فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته فى خلقه " وقد ذكرنا هذا الخبر فى « الأعراف[4] » وغيرها .

(١) السهب (بالفتح) : الفضاء المستوى البعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والصحصحان (بالفتح) : المستوى من الأرض . (٢) الجران (بالكسر) : مقدّم العنق من مذبح البعير إلى منحره .
(٣) راجع ج ٢ ص ١٩٨ . (٤) راجع ج ٧ ص ٢٣٠ .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ التقدير عند الفراء : من كان يريد علم العزة . وكذا قال غيره من أهل العلم . أى من كان يريد علم العزة التى لا ذلة معها ؛ لأن العزة إذا كانت تؤدّى إلى ذلة فإنما هى تعرض للذلّة ، والعزةُ التى لا ذُلّ معها لله عز وجل . ﴿ جَمِيعًا ﴾ منصوب على الحال . وقدّر الزجاج معناه : من كان يريد بعبادته الله عز وجل العزّةَ — والعزة له سبحانه — فإن الله عز وجل يُعزه فى الآخرة والدنيا .

قلت : وهذا أحسن ، وروى مرفوعا على ما يأتى . ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ظاهر هذا إيئاس السامعين من عزته ، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره ؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به — سبحانه — وبما وجب له من ذلك ، وهو المفهوم من قوله الحق فى سورة يونس : « وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ »(1) . ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوى الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تُستحق ؛ فتكون الألف واللام للاستغراق ، وهو المفهوم من آيات هذه السورة . فمن طلب العزة من الله وصدقه فى طلبها بافتقار وذل ، وسكون وخضوع ، وجدها عنده — إن شاء الله — غير ممنوعة ولا محجوبة عنه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "من تواضع لله رفعه الله" . ومن طلبها من غيره وَكَله إلى من طلبها عنده . وقد ذكر قوما طلبوا العزة عند من سواه فقال : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا »(2) . فأنبأك صريحا لا إشكال فيه أن العزة له يُعز بها من يشاء ويُذل من يشاء . وقال صلى الله عليه وسلم مفسّرا لقوله « مَنْ كَانَ يُرِيدُ

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٥٩ .

(2) راجع جـ ٥ ص ٤١٦ فما بعد .

العزّة فلله العزّة جميعًا » : "من أراد عز الدارين فليطع العزيز". وهذا معنى قول الزجاج . ولقد أحسن من قال :

وإذا تذلّلت الرقاب تواضعا * منا إليك فعزّها فى ذلها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة — ولله العزة — فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه الله .

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ وتم الكلام. ثم تبتدئ ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ على معنى : يرفعه الله، أو يرفع صاحبه . ويجوز أن يكون المعنى : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فيكون الكلام متصلا على ما يأتى بيانه . والصعود هو الحركة إلى فوق ، وهو العروج أيضا . ولا يتصوّر ذلك فى الكلام لأنه عَرَض ، لكن ضرب صعوده مثلا لقبوله ؛ لأن موضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل . وقال الزجاج : يقال ارتفع الأمر إلى القاضى أى علمه؛ فهو بمعنى العلم . وخص الكلام والطيب بالذكر لبيان الثواب عليه . وقوله : « إِلَيْهِ » أى إلى الله يصعد . وقيل : يصعد إلى سمائه والمحل الذى لا يجرى فيه لأحد غيره حكم . وقيل : أى يحمل الكتاب الذى كتب فيه طاعات العبد إلى السماء . و « الْكَلِمُ الطَّيِّبُ » هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيّبة . وقيل : هو التحميد والتمجيد، وذكر الله ونحوه . وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوةَ قوله * حتى يُزَيِّن ما يقول فَعالُ
فإذا وزنت فَعاله بمقاله * فتوازنا فإخاء ذاك جَمالُ

وقال ابن المُقَفع : قول بلا عمل، كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوسٍ بلا وتر . وفيه قيل :

لا يكون المقال إلا بفعلٍ * كلُّ قولٍ بلا فعالٍ هَباءُ
إنّ قولًا بلا فعالٍ جميل * ونِكاحًا بلا وَلِيّ سواء

وقرأ الضحاك «يُصعد» بضم الياء[(1)]. وقرأ جمهور الناس «الكلِم» جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن «الكلام».

قلت: فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكلِم و بالعكس؛ وعليه يخرج قول أبى القاسم: أقسام الكلام ثلاثة؛ فوضع الكلام موضع الكلم، والله أعلم. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب. وفى الحديث "لا يقبل الله قولا إلا بعمل، ولا يقبل قولا وعملا إلا بنيّة، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة". قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ اللهَ وقال كلاما طيّبا وأدّى فرائضه، ارتفع قوله مع عمله، وإذا قال ولم يؤدّ فرائضه ردّ قوله على عمله. قال ابن عطية: وهذا قول يردّه معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس. والحق أن العاصى التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاما طيبا فإنه مكتوب له متقبَّل منه، وله حسناته وعليه سيئاته، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك. وأيضا فإن الكلام الطيب عمل صالح، وإنما يستقيم قول من يقول: إن العمل هو الرافع للكلم، بأن يتأوّل أنه يزيده فى رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه. كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك، إذا تخلل أعماله كَلِمٌ طيّب وذكر الله تعالى كانت الأعمال أشرف؛ فيكون قوله: «وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» موعظة وتذكرة وحَضًّا على الأعمال. وأما الأقوال التى هى أعمال فى نفوسها؛ كالتوحيد والتسبيح فمقبولة. قال ابن العربى: «إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه. وتحقيق هذا: أن العمل إذا وقع شرطا فى قبول القول أو مرتبطا، فإنه لا قبول له إلا به، وإن لم يكن شرطا فيه فإن كلمه الطيب يكتب له، وعمله السّيئ يكتب عليه، وتقع الموازنة بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران».

قلت: ما قاله ابن العربى تحقيق. والظاهر أن العمل الصالح شرط فى قبول القول الطيّب. وقد جاء فى الآثار "أن العبد إذا قال: لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة

(1) فى روح المعانى: «وقال ابن عطية: وقرأ الضحاك «يصعد» بضم الياء ولم يذكر مبنيا للفاعل ولا مبنيا للمفعول، ولا إعراب ما بعده».

إلى عمله ، فإن كان العمل موافقا لقوله صعدا جميعا، و إن كان عمله مخالفا وقف قوله حتى يتوب من عمله ". فعلى هذا العملُ الصالح يرفع الكلمَ الطيِّب إلى الله . والكناية فى « يرفعه » ترجع إلى الكلم الطيب . وهــذا قول ابن عباس وشَهْر بن حَوْشَب وسعيد بن جُبير ومجاهد وقتادة وأبى العالية والضحاك . وعلى أن « الكلم الطيب » هو التوحيــد، فهو الرافع للعمل الصالح؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمــان والتوحيد . أى والعمل الصالح يرفعــه الكلم الطيب؛ فالكناية تعود على العمل الصالح . وروى هــذا القول عن شَهْر بن حَوْشَب قال : « الكلم الطيب » القــرآن « والعمل الصالح يرفعــه » القرآن . وقيل : تعود على الله جل وعز ؛ أى أن العمل الصالح يرفعــه الله على الكَلِم الطيِّب؛ لأن العمل تحقيــق الكلم ، والعامل أكثر تعبًــا من القائل، وهــذا هو حقيقة الكلام؛ لأن الله هو الرافع الخــافض . والثانى والأوّل مجاز ، ولكنه سائغ جائز . قال النحاس : القول الأوّل أولاها وأصحها لعلوّ من قال به، وأنه فى العربية أولى ؛ لأن القــرّاء على رفع العمل . ولو كان المعنى : والعمل الصالح يرفعــه الله، أو العمل الصالح يرفعه(1) الكلم الطيِّب ، لكان الاختيار نصف العمــل . ولا نعلم أحدا قرأه منصوبا إلا شيئا رُوى عن عيسى بن عمر أنه قال : قرأه أناس « والعملَ الصالحَ يرفعه الله » . وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذى أراد العزة وعلم أنهــا تُطلب من الله تعالى ؛ ذكره القشيرى .

الثانيــــة ــــ ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة، فقرأ هذه الآية : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» . وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف فى القول بالعموم، وقد دخل فى الصلاة بشروطها، فلا يقطعها عليه شىء إلا بثبوت ما يوجب ذلك؛ من مثل ما انعقدت به من قرآن أو ســنة أو إجماع . وقد تعلق من رأى ذلك بقوله عليــه السلام : " يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأســود " فقلت : ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال : " إن الأسود شيطان "(2) خرجه مسلم . وقد

(1) فى الأصول : «يرفع» .
(2) أورد المؤلف هذا الحديث بمعناه لا بلفظه .

جاء ما يعارض هـذا ، وهو ما خرّجه البخارى عن ابن أخى ابن شهـاب أنه سأل عمه عن الصلاة يقطعها شيء ؟ فقال : لا يقطعها شيء، أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : لقد كان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقوم فيصلى من الليل، وإنى لمعترضة بينه وبين القبلة على فراش أهله .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذكر الطبرى فى (كتاب آداب النفوس) : حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال حدّثنا سـفيان عن لَيْث بن أبى سليم عن شَهْر بن حَوْشَب الأشعرى فى قوله عن وجل : « وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُـورُ » قال : هم أصحاب الرياء ؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبيّ صـلى الله عليه وسلم لمـا اجتمعوا فى دار الندوة . وقال الكلبى : يعنى الذين يعملون السيئات فى الدنيا . مقاتل: يعنى الشرك، فتكون «السّيئات» مفعولة. ويقال : بار يبور إذا هلك وبطل . وبارت السوق أى كسدت، ومنه : نعوذ بالله من بوار الأيِّم (1) . وقـوله : « وَكُنتُمْ قَـوْمًا بُورًا (2) » أى هلكى . والمكر : ما عمل على سبيل احتيال وخديعة . وقد مضى فى « سـبأ (3) » .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ﴾ قال سعيد عن قتـادة قال : يعنى آدم عليه السلام ، والتقدير على هذا : خلق أصلكم من تراب . ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قال : أى التى أخرجها من ظهور آبائكم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَـكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال : أى زوّج بعضكم بعضا ، فالذكر زوج الأنثى ليتم البقاء فى الدنيـا إلى انقضاء مدّتها . ﴿ وَمَا تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ

(1) الأيِّم : التى لا زوج لهـا . (2) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٩ فما بعد .
(3) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أى جعلكم أزواجا فيتزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله ، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شيء عن تدبيره . ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ سماه معمّرا بمـا هو صائر إليـه . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ » إلا كتب عمـره ، كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة ؛ ثم يكتب فى كتاب آخر : نقص من عمـره يوم ، نقص شهر ، نقص سـنة ، حتى يستوفى أجله . وقاله سـعيد بن جبير أيضا ، قال : فمـا مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل فهو الذى يعمره ؛ فالهاء على هـذا للعمر . وعن سعيد أيضا : يكتب عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب فى أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره . وعن قتادة : المعمّر من بلغ ستين سـنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة . ومذهب الفرّاء فى معنى « وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ » أى ما يكون من عمره « وَلَا يُنْقَصُ من عُمُرِهِ » بمعنى معمر آخر ، أى ولا ينقص الآخر من عمره إلا فى كتاب . فالكناية فى «عمره» ترجع إلى آخر غير الأوّل . وكنّى عنه بالهاء كأنه الأوّل ، ومثله قولك : عندى درهم ونصفه ، أى نصف آخر . وقيل : إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع ، وتسعين إن عصى ، فأيهما بلغ فهو فى كتاب . وهـذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام : " من أحبّ أن يُبْسَط له فى رزقه ويُنْسأ له فى أثره[(١)] فليصل رحمه " أى أنه يكتب فى اللوح المحفوظ : عمر فلان كذا سـنة ، فإن وصل رحمـه زيد فى عمره كذا سـنة . فبيّن ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفـوظ ، إنه سيصل رحمـه فمن اطلع على الأوّل دون الثانى ظن أنه زيادة أو نقصان . وقد مضى هـذا المعنى عند قوله تعـالى : « يَمْحُـو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ[(٢)] » والكناية على هذا ترجع إلى العمر . وقيـل : المعنى وما يعمّر من معمّر أى هرم ، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب ؛ أى بقضاء من الله جل وعز . روى معناه عن الضحاك واختاره النحاس ، قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل . وروى نحوه عن ابن عباس . فالهاء على هـذا يجوز أن تكون للمعمّر ، ويجوز أن تكون لغير

(١) ينسأ : يؤخر . والأثر : الأجل ؛ لأنه تابع للحياة فى أثرها . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩ .

المعمر . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه . وقراءة العامة « يُنْقَص » بضم الياء وفتح القاف . وقرأت فرقة منهم يعقوب « يَنْقُص » بفتح الياء وضم القاف ، أى لا ينقص من عمره شيء . يقال ، نقص الشيءُ بنفسه ونقصه غيرُه ، وزاد بنفسه وزاده غيره ، متعدّ ولازم . وقرأ الأعرج والزهرى « مِن عُمْره » بتخفيف الميم . وضمها الباقون . وهما لغتان مثل السُّحْق والسُّحُق . و « يَسِيرٌ » أى إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه شيء منها ولا يعزب . والفعل منه : يَسُر . ولو سميت به إنسانا انصرف ؛ لأنه فعيل .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : « فُرَاتٌ » حلو، و « أُجَاجٌ » مرّ . وقرأ طلحة : « هذا مَلِح أجاج » بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف . وأما المالح فهو الذى يجعل فيه الملح . وقرأ عيسى وابن أبى إسحاق « سيغ شرابه » مثل سيد وميت . ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ لا اختلاف فى أنه منهما جميعا . وقد مضى فى « النحل » الكلام فيه (١) .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مذهب أبى إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح ، فقيل منهما لأنهما مختلطان . وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحلية من الدر وغيره من المواضع التى فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر عيونا عذبة ، و بينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج . وقيل:

(١) راجع جـ ١٠ ص ٨٥ .

من مطر السماء . وقال محمد بن يزيد قولا رابعا ، قال : إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة . النحاس : وهذا أحسنها وليس هذا عنده ، لأنهما مختلطان ، ولكن جمعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جل وعز : «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»(١) . وكما تقول : لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيرا وشرًّا . وكما تقول : لو رأيت الأصمعي وسيبويه لملأت يدك لغة ونحوًا . فقد عرف معنى هذا ، وهو كلام فصيح كثير ، فكذا : «وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا» فاجتمعا في الأوّل وانفرد الملح بالثاني .

الثالثة — وفي قوله : «تَلْبَسُونَهَا» دليل على أن لباس كل شيء بحسبه ؛ فالخاتم يجعل في الإصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق ، والخلخال في الرجل . وفي البخاري والنسائي عن ابن سيرين قال قلت لعبيدة : افتراش الحرير كلبسه ؟ قال نعم . وفي الصحاح عن أنس " فقمت على حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس " . الحديث .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ قال النحاس : أي ماء الملح خاصة ، ولولا ذلك لقال فيهما . وقد مخرت السفينة تمخر إذا شقت الماء . وقد مضى هذا في « النحل »(٢) . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قال مجاهد : التجارة في الفلك إلى البلدان البعيدة في مدّة قريبة ؛ كما تقدّم في « البقرة »(٣) . وقيل : ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتانه . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على ما آتاكم من فضله . وقيل : على ما أنجاكم من هوله .

قوله تعالى : يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدّم في « آل عمران »(٤) وغيرها . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ تقدّم في « لقمان »(٥) بيانه .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٨ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٨٩ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ فما بعد .
(٤) راجع جـ ٤ ص ٥٦ . (٥) راجع ص ٧٨ من هذا الجزء .

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أى هـذا الذى من صنعه ما تقرر هو الخالق المدبر ، والقادر المقتدر ؛ فهو الذى يعبـد . ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ أى لا يقدرون عليـه ولا على خلقه . والقِطمير : القشرة الرقيقـة البيضاء التى بين التمرة والنواة ؛ قاله أكثر المفسرين . وقال ابن عباس : هو شق النواة ؛ وهو اختيار المبرِّد ، وقاله قتادة . وعن قتادة أيضا : القِطمير القِمْع الذى على رأس النواة . الجوهرى : ويقال هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة ، تنبت منها النخلة .

قوله تعـالى : إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم ؛ لأنها جمـادات لا تبصر ولا تسمع . ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ إذ ليس كل سامع ناطقا . وقال قتادة : المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم . وقيـل : أى لو جعلنا لهم عقـولا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولمـا استجابوا لكم على الكفر . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أى يجحدون أنكم عبدتموهم ، و يتبرءون منكم . ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين ممـا يعقل ؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين ؛ أى يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا ، وأنهم أمروكم بعبادتهم ؛ كما أخبر عن عيسى بقوله : « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَـقٍّ » (١) . ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضا ، أى يحييها الله حتى تخـبر أنها ليست أهـلا للعبادة . ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هو الله جل وعز ؛ أى لا أحد أخبر بخلق الله من الله ، فلا ينبئك مثله فى عمله (٢) .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

---

(١) راجع ج ٦ ص ٣٧٤ . (٢) فى ب و ح : « علمه » .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى المحتاجون إليه فى بقائكم وكل أحوالكم . الزمخشرىّ : « فإن قلت لِمَ عرّف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدّة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ؛ لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف فى قوله : «وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا»(١) ، وقال : « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ »(٢) ولو نكّر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قوبل « الفقراء » بـ « الغنىّ » فما فائدة « الحميد » ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ، وليس كل غنىّ نافعا بغناه إلا إذا كان الغنىّ جوادا منعمًا ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم واستحق عليهم الحمد — ذكر « الحميد » ليدلّ به على أنه الغنىّ النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه » . وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند الخليل ، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما وتحقيقهما جميعا . ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴾ تكون « هو » زائدة ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعًا .

قوله تعالى : إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ فيه حذف ؛ المعنى إن يشأ [أن](٣) يذهبكم يذهبكم ؛ أى يفنيكم . ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى أطوع منكم وأزكى . ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أى ممتنع عسير متعذر . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »(٤) .

قوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(١) راجع جـ ٥ ص ١٦٨
(٢) راجع جـ ٤٦ من هذا الجزء .
(٣) زيادة عن النحاس .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٥٤

تقدم الكلام فيه (١)، وهو مقطوع مما قبله . والأصل « تَوْزَر » حذفت الواو اتباعا ليزر . ﴿ وازِرةٌ ﴾ نعت لمحذوف ، أى نفس وازرة . وكذا ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ قال الفرّاء : أى نفس مثقلة أو دابة . قال : وهذا يقع للذكر والمؤنث . قال الأخفش : أى وإن تدع مثقلة إنسانا إلى حِملها وهو ذنوبها . والحِمْل ما كان على الظهر ، والحَمْل حمل المرأة وحمل النخلة ؛ حكاهما الكسائىّ بالفتح لا غير . وحكى ابن السِّكِّيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر . ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ التقدير على قول الأخفش : ولو كان الإنسان المدعوّ ذا قربى . وأجاز الفرّاء ولو كان ذو قربى . وهذا جائز عند سيبويه ؛ ومثله « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَة » (٢) فتكون « كان » بمعنى وقع ، أو يكون الخبر محذوفا ؛ أى وإن كان فيمن تطالبون ذو عسرة . وحكى سيبويه : الناس مجزيّون بأعمالهم إن خير فخير ؛ على هذا . وخيرا فخير ؛ على الأوّل . وروى عن عكرمة أنه قال : بلغنى أن اليهودى والنصرانىّ يرى الرجل المسلم يوم القيامة فيقول له : ألم أكن قد أسديت إليك يدًا، ألم أكن قد أحسنت إليك؟ فيقول بلى . فيقول : آنفعنى؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه . وأن الرجل ليأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول : ألم أكن بك بارًّا ، وعليك مشفقًا ، وإليك محسنًا ، وأنت ترى ما أنا فيه ، فهب لى حسنة من حسناتك، أو احمل عنى سيئة ؛ فيقول : إن الذى سألتنى يسير، ولكنى أخاف مثل ما تخاف . وأن الأب ليقول لابنه مثل ذلك فيرد عليه نحوًا من هذا . وأن الرجل ليقول لزوجته : ألم أكن أحسن العِشرة لكِ ، فاحملى عنى خطيئة لعلى أنجو ؛ فتقول : إن ذلك ليسير ولكنى أخاف مما تخاف منه . ثم تلا عكرمة : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » . وقال الفُضيل بن عياض : هى المرأة تلقى ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ألم يكن ثديى لك سقاء ، ألم يكن حجرى لك وطاء؛ فيقول : بلى يا أماه؛ فتقول : يا بنىّ ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمل عنى منها ذنبا واحدا ؛ فيقول : إليكِ عنى يا أماه، فإنى بذنبى عنكِ مشغول .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٧١ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ أى إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى، وهو كقوله تعالى: « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ أى من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه . وقرئ: «ومن ازَّكَّى فإنما يزَّكَّى لنفسه». ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أى إليه مرجع جميع الخلق.

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أى الكافر والمؤمن والجاهل والعالم . مثل : « قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ »(٢) . ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « لا » زائدة ؛ والمعنى ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور . قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسَّموم يكون بالليل، وقيل بالعكس . وقال رُؤْبة ابن العجاج : الحرور تكون بالنهار خاصة، والسموم يكون بالليل خاصة، حكاه المهدوىّ . وقال الفراء : السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما . النحاس : وهذا أصح ؛ لأن الحرور فعول من الحرّ ، وفيه معنى التكثير ، أى الحرّ المؤذى .

قلت : وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قالت النار ربِّ أكل بعضى بعضا فأذَنْ لى أتنفس فأذِن لها بنَفَسين نَفَس فى الشتاء ونفس فى الصيف فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نَفَس جهنم وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم " . وروى من حديث الزهرىّ عن سعيد عن أبى هريرة : " فما تجدون من الحرّ فمن

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء فما بعد آية ١١ سورة يس .		(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٢٧ .

سمومها وشدّة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها " وهذا يجمع تلك الأقوال ، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار ؛ فتأمله . وقيل : المراد بالظل والحرور الجنة والنار ؛ فالجنة ذات ظل دائم ، كما قال تعالى : « أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا »[1] والنار ذات حرور ، وقال معناه السُّدّى . وقال ابن عباس : أى ظل الليل ، وحرّ السموم بالنهار . قُطرُب : الحرور الحر ، والظل البرد . ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ قال ابن قُتيبة : الأحياء العقلاء ، والأموات الجهال . قال قتادة : هذه كلها أمثال ؛ أى كما لا تستوى هذه الأشياء كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يُسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أى الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ؛ أى كما لا تُسمع من مات ، كذلك لا تُسمع من مات قلبه . وقرأ الحسن وعيسى الثقفيّ وعمرو ابن ميمون : « بِمُسْمِعِ مَن فِي القبورِ » بحذف التنوين تخفيفا ؛ أى هم بمنزلة [أهل] القبور فى أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه .

قوله تعالى : إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

أى رسول منذِر ؛ فليس عليك إلا التبليغ ، ليس لك من الهدى شيء إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى بشيرا بالجنة أهل طاعته ، ونذيرا بالنار أهل معصيته . ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى سلف فيها نبيّ . قال ابن جريج : إلا العرب .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ .

قوله تعـالى : وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أنبياءهم ، يسلّى رسـوله صلى الله عليـه وسلم . ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات . ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ أى الكتب المكتوبة . ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى الواضح . وكرر الزبر والكتاب وهمـا واحد لاختلاف اللفظين . وقيـل : يرجع البينات والزبر والكتاب إلى معنى واحد ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى كيف كانت عقوبتى لهم . وأثبت وَرْش عن نافع وشيبة الياء فى « نكيرى » حيث وقعت فى الوصل دون الوقف . وأثبتها يعقوب فى الحالين ، وحذفها الباقون فى الحالين . وقد مضى هذا كله ، والحمد لله .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هـذه الرؤية رؤية القلب والعلم ؛ أى ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل ؛ فـ « أنّ » واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولى الرؤية . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ هو من باب تلوين الخطاب . ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ نصبت « مُخْتَلِفًا » نعتا لـ« ثَمَرَاتٍ » . ﴿ أَلْوَانُهَا ﴾ رفع بمختلف ، وصلح أن يكون نعتًا لـ« ثمرات » لمـا عاد عليـه من ذكره . ويجـوز فى غير القرآن رفعـه ؛ ومثله رأيت رجلا خارجا أبوه .

﴿ بِهِ ﴾ أى بالماء وهو واحد، والثمرات مختلفة . ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ الجدد جمع جُدّة ، وهى الطرائق المختلفة الألوان ، وإن كان الجميع حجرا أو ترابا . قال الأخفش : ولو كان جمع جديد لقال : جُدُد (بضم الجيم والدال) نحو سرير وسرر . وقال زهير :

كأنه أسفع الخدّين ذو جُدُدٍ * طاوٍ ويرتع بعد الصيف عُريانا

وقيل : إن الجدد القِطع ، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته ؛ حكاه ابن بحر . قال الجوهرى : والجُدّة الخُطّة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجُدّة الطريقة ، والجمع جدد ؛ قال تعالى : « وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا » أى طرائق تخالف لون الجبل . ومنه قولهم : ركب فلان جُدّة من الأمر؛ إذا رأى فيه رأيا . وكساء مجدّد: فيه خطوط مختلفة . الزمخشرى : وقرأ الزهرى « جدد » بالضم جمع جديدة، وهى الجدّة؛ يقال : جديدة وجُدُد وجدائد ؛ كسفينة وسفن وسفائن . وقد فسّر بها قول أبى ذُؤيب :

* جَوْنُ السَّراةِ له جدائد أربعُ[(١)] *

وروى عنه «جَدَد» بفتحتين، وهو الطريق الواضح المسفر، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ ﴾ وقرئ : « والدواب » مخففا . ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ : « وَلَا الضَّالِين » لأن كل واحد منهما فرّ من التقاء الساكنين، فحرّك ذلك أولها، وحذف هذا آخرهما؛ قاله الزمخشرى . ﴿ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أى فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على صانع مختار . وقال : «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» فذكّر الضمير مراعاة لـ«من» ؛ قاله المؤرّج. وقال أبو بكر بن عياش : إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى «ما» مضمرة ؛ مجازه : ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه ، أى أبيض وأحمر وأسود . ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال أبو عبيدة : الغِربيب الشديد السواد ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن الجبال

(١) صدر البيت : * والدهر لا يبقى على حدثانه *

سود غرابيب . والعرب تقول للشديد السواد الذى لونه كلون الغراب : أسود غربيب . قال الجوهرى : وتقول هذا أسود غربيب ؛ أى شـديد السواد . وإذا قلت : غرابيب سود ، تجعل السود بدلا من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم : " إن الله يبغض الشيخ الغربيب " يعنى الذى يخضب بالسواد . قال امرؤ القيس :

العين طامحـة واليـد سابحة * والرِّجْل لاحـة والوجه غربيب (١)

وقال آخر يصف كَرْمًا :

ومن تعاجيب خلق الله غاطيـةٌ * يُعصَـر منهـا مُلاحيٌّ وغِربيب (٢)

﴿ كَذَلِكَ ﴾ هنا تمـام الكلام؛ أى كذلك تختلف أحوال العباد فى الخشية، ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ يعنى بالعلماء الذين يخافون قدرته ؛ فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، كما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » قال : الذين علموا أن الله على كل شىء قـدير . وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله تعالى فليس بعالِم . وقال مجاهـد : إنما العالِم من خشى الله عز وجل . وعن ابن مسعود : كفى بخشية الله تعـالى علما وبالاغترار جهلا . وقيل لسعد ابن إبراهيم : مَن أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عز وجل . وعن مجاهد قال : إنما الفقيه من يخـاف الله عز وجل . وعن على رضى الله عنه قال : إن الفقيه حقّ الفقيه من لم يُقنط

---

(١) هذه رواية الأصول . والبيت كما ورد فى ديوانه طبع مطبعة الاستقامة :

والبد سابحة والرجل ضارحة * والعين قادحة والمتن ملحوب

والماء منهمر والشدّ منحـدر * والقصب مضطمر واللون غربيب

قوله « سابحة » يعنى إذا جرى فرسـه مد يديه فكأنه سابح فى المـاء . وضرحت الدابة برجلها : رمحت . وقدحت العين : غارت . والمتن : الظهر . وقوله « سلحوب » بالسين ، وفسر بأنه أملس قليل اللحم . وهذا التفسير لم نجده لهذه الكلمة فى المظان التى بين أيدينا . والرواية فيه «ملحوب» بالميم . ولحب متن الفرس وعجزه : املاس فى حدور . ومتن لحوب . و « والشدّ » العدو . و « القصب » بالضم : الخصر . و « مضطمر » ضامر .

(٢) الغاطية : الشجرة التى طالت أغصانها وانبسطت على الأرض . و « ملاحىّ » : أبيض .

الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله تعالى ، ولم يؤمّنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ؛ إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها . وأسند الدارمىّ أبو محمد عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فضل العالِم على العابد كفضلى على أدناكم — ثم تلا هذه الآية — إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . إن الله وملائكته وأهلَ سمواته وأهلَ أرضيه والنونَ فى البحر يُصلون على الذين يعلّمون الناس الخير" الخبر مرسل . قال الدارمى : وحدثنى أبو النعمان حدثنا حماد ابن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثنى عمى جرير بن زيد[1] أنه سمع تُبَيْعًا يحدّث عن كعب قال : إنى لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل ، ويتفقهون لغير العبادة ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبسون جلود الضأن ، قلوبهم أمرُّ من الصبر ؛ فبى يغترّون ، وإياى يخادعون ، فبى حلفت لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران . خرّجه الترمذىّ مرفوعا من حديث أبى الدرداء وقد كتبناه فى مقدّمة الكتاب[2] . الزمخشرىّ : فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ » بالرفع « مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ » بالنصب ، وهو عمر بن عبد العزيز ، وتُحكى عن أبى حنيفة . قلت : الخشية فى هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يجلّهم ويعظمهم كما يُجَلّ المهيب المخشىّ من الرجال بين الناس من بين جميع عباده . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم ، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم . والمعاقِب والمثيب حقّه أن يخشى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

(١) فى الأصول : « جرير بن يزيد » وهو تحريف راجع تهذيب التهذيب وسنن الدارمى .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٩ فما بعد .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ هـذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصـلاة الفرض والنفـل ، وكذا فى الإنفاق . وقد مضى فى مقدمة الكتاب ما ينبغى أن يتخلق به قارئ القرآن.(١) ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ قال أحمـد بن يحيى : خبر « إن » « يرجون » . ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قيل : الزيادة الشفاعة فى الآخرة . وهذا مثل الآية الأخرى : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ — إلى قوله — وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ »(٢) ، وقوله فى آخر النساء : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » وهناك بيناه(٣) . ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ للذنوب . ﴿ شَكُورٌ ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب .

قوله تعـالى : وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعـالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٧٩ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦

فيه أربع مسائل :

الأولى — هذه الآية مشكلة ؛ لأنه قال جل وعز : ﴿ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ثم قال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال النحاس : فمن أصح ما روى فى ذلك ما روى عن ابن عباس « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » قال : الكافر؛ رواه ابن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضا . وعن ابن عباس أيضا «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» قال : نجت فرقتان ، و يكون التقدير فى العربية : فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ؛ أى كافر . وقال الحسن : أى فاسق . و يكون الضمير الذى فى « يَدْخُلُونَهَا » يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم . وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفراء أن المقتصد المؤمن العاصى ، والسابق التقى على الإطلاق . قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة الواقعة : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً »[(١)] الآية . قالوا و بعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم . ورواه مجاهد عن ابن عباس . قال مجاهد : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أصحاب المشأمة ، « وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » أصحاب الميمنة ، « وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» السابقون من الناس كلهم . وقيل : الضمير فى « يَدْخُلُونَهَا » يعود على الثلاثة الأصناف ، على ألا يكون الظالم هاهنا كافرا ولا فاسقا . وممن روى عنه هذا القول عمر وعثمان وأبو الدرداء، وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة، والتقدير على هذا القول : أن يكون الظالم لنفسه الذى عمل الصغائر . و(المقتصد) قال محمد بن يزيد : هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها ؛ فيكون « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » عائدا على الجميع على هذا الشرح والتبيين ؛ وروى عن أبى سعيد الخدرى . وقال كعب الأحبار : استوت مناكبهم — ورب الكعبة — وتفاضلوا بأعمالهم . وقال أبو إسحاق السَّبيعى : أما الذى سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج . وروى أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : " كلهم فى الجنة " . وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سابِقُنا سابق ومُقْتَصِدُنا ناج وظالمنا مغفور له " . فعلى هذا القول يقدّر مفعول الاصطفاء من قوله : « أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٩٨

ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » مضافا حُذف كما حذف المضاف فى « وَٱسْأَلِ الْقَـرْيَةَ »(١) أى اصطفينا دينهم، فبقى اصطفيناهم؛ لحذف العائد إلى الموصول كما حذف فى قوله : « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُـكُمْ »(١) أى تزدريهم ، فالاصطفاء إذًا موجه إلى دينهم، كما قال تعـالى : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَـكُمُ الدِّينَ »(٢) . قال النحاس : وقول ثالث — يكون الظالم صاحبَ الكبائر، والمقتصد الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته؛ فيكون : « جنَاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » للذين سـبقوا بالخيرات لا غير . وهـذا قول جماعة من أهل النظر ؛ لأن الضمير فى حقيقة النظر لمـا يليه أولى .

قلت : القول الوسط أَوْلاها وأصحها إن شاء الله ؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطفَوا بحمد الله، ولا اصطفى دينهم . وهذا قول ستة من الصحابة، وحسْبُك . وسنزيده بيانا و إيضاحا فى باقى الآية .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَوْرَثْنَـا الْكِتَابَ ﴾ أى أعطينا . والميراث عطاء حقيقةً أو مجازا ؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر . و « الكتابَ » هاهنا يريد به معانى الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لمـا أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة ، فكأنه ورّث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذى كان فى الأمم قبلنا . ﴿ ٱصْطَفَيْنَا ﴾ أى اخترنا . واشتقاقه من الصفو، وهو الخلوص من شوائب الكدر . وأصله اصتفَونا، فأبدلت التاء طاء والواو ياء . ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قيل المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس وغيره . وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة ، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والأُوَل لم يرثوه . وقيل : المصطفَوْن الأنبياء ، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر ، قال الله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ »(٣)، وقال : « يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ »(٤) فإذا جاز أن تكون النبوة موروثة فكذلك الكتاب . ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ من وقع فى صغيرة . قال ابن عطية : وهذا

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ و ص ٢٧ . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ١٦٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١١ ص ٧٣ فما بعد .

قول مردود من غير ما وجه . قال الضحاك : معنى «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ» أى من ذرّيّتهم ظالم لنفسه وهو المشرك . الحسن : من أممهم، على ما تقدّم ذكره من الخلاف فى الظالم . والآية فى أمّة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد ٱختلفت عبارات أرباب القلوب فى الظالم والمقتصد والسابق، فقال سهل بن عبد الله : السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل . وقال ذو النون المصرى : الظالم الذاكر الله بلسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه ، والسابق الذى لا ينساه . وقال الأنطاكى : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال . وقال ٱبن عطاء : الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحبه من أجل العقبى ، والسابق الذى أسقط مراده بمراد الحق . وقيل : الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار ، والمقتصد الذى يعبد الله طمعا فى الجنة ، والسابق الذى يعبد الله لوجهه لا لسبب . وقيل : الظالم الزاهد فى الدنيا، لأنه ظلم نفسه فترك لها حظا وهى المعرفة والمحبة، والمقتصد العارف، والسابق المحب . وقيل : الظالم الذى يجزع عند البلاء، والمقتصد الصابر على البلاء ، والسابق المتلذذ بالبلاء . وقيل : الظالم الذى يعبد الله على الغفلة والعادة، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق الذى يعبده على الهيبة . وقيل : الظالم الذى أُعطِىَ فمَنَع ، والمقتصد الذى أُعطِىَ فبذَل، والسابق الذى مُنِع فشكر وآثر . يروى أن عابِدَيْن التقيا فقال : كيف حال إخوانكم بالبصرة ؟ قال: بخير، إن أُعطوا شكروا وإن مُنعوا صبروا . فقال : هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ! عُبّادنا إن مُنعوا شكروا وإن أُعطوا آثروا[(١)] . وقيل : الظالم من ٱستغنى بماله ، والمقتصد من ٱستغنى بدينه ، والسابق من ٱستغنى بربه . وقيل : الظالم التالى للقرآن ولا يعمل به ، والمقتصد التالى للقرآن ويعمل به ، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به . وقيل : السابق الذى يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن ، والمقتصد الذى يدخل المسجد وقد أذّن ، والظالم الذى يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة ؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصّل لها ما حصّله غيره . وقال بعض أهل العلم فى هذا : بل السابق الذى يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين ، والمقتصد الذى إن فاتته الجماعة لم يفرط

(١) الزيادة من ك .

فى الوقت ، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة ؛ فهو أولى بالظلم . وقيل : الظالم الذى يحب نفسه ، والمقتصد الذى يحب دينه ، والسابق الذى يحب ربه . وقيـل : الظالم الذى ينتصف ولا يُنصف ، والمقتصد الذى ينتصف ويُنصف ، والسابق الذى يُنصف ولا ينتصف . وقالت عائشة رضى الله عنها : السابق الذى أسلم قبل الهجرة ، والمقتصد من أسلم بعد الهجرة ، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف ؛ وهم كلهم مغفور لهم .

قلت : ذكر هـذه الأقوال وزيادةً عليهـا الثعلبيّ فى تفسـيره . وبالجمـلة فهم طرفان وواسطة ، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل ؛ ومنه قول جابر بن حُنَيّ التَّغْلِبيّ :

نعاطى الملوك السِّلم ما قصدوا لنـا * وليس علينـا قتلُهـــم بمحـــرّم

أى نعاطيهم الصلح ماركبوا بنا القصد ، أى ما لم يجوروا ، وليس قتلهم بمحرّم علينا إن جاروا ؛ فلذلك كان المقتصد منزلةً بين المنزلتين ، فهو فوق الظالم لنفســه ودون السابق بالخـيرات . ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْـلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ يعنى إتياننا الكتاب لهم . وقيـل : ذلك الاصطفاء مع علمنـا بعيوبهم هو الفضل الكبير . وقيل : وعدُ الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير .

الثالثـــة ــ وتكلم النـاس فى تقـديم الظالم على المقتصـد والسابق فقيل : التقـديم فى الذكر لا يقتضى تشريفا ؛ كقوله تعـالى : « لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ »[1] . وقيل : قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليـل بالإضافة إليهم ، والسابقين أقل من القليـل ؛ ذكره الزمخشرى ولم يذكره غيره . وقيـل : قدّم الظالم لتأكيد الرجاء فى حقه ، إذ ليس له شىء يتكل عليه إلا رحمة ربه . واتكل المقتصد على حسن ظنه ، والسابق على طاعته . وقيل : قدّم الظالم لئلا ييئس من رحمة الله ، وأخّر السابق لئلا يعجب بعمله . وقال جعفر بن محمد بن على الصادق رضى الله عنه : قدم الظالم ليخبر أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر فى الاصطفائية إذا كانت ثَمّ عناية ، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله ، وكلهم فى الجنة

(١) راجع جـ ١٨ ص ٤٠ .

بحرمة كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وقال محمد بن علي الترمذي : جمعهم في الاصطفاء إزالةً للعلل عن العطاء، لأن الاصطفاء يوجب الإرث، لا الإرث يوجب الاصطفاء، ولذلك قيل في الحكمة : صحح النسبة ثم ادّع في الميراث . وقيل : أخر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب، كما قدّم الصوامع والبيع في « سورة الحج »[1] على المساجد، لتكون الصوامع أقربَ إلى الهدم والخراب ، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله . وقيل : إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدّموا الأدنى؛ كقوله تعالى : « لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »[2]، وقوله : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ »[3]، وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » .

قلت : ولقد أحسن من قال :

وغاية هـذا الجود أنت وإنما * يوافى إلى الغايات في آخر الأمر

الرابعة — قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمعهم في الدخول لأنه ميراث، والعاق والبارّ في الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب؛ فالعاصي والمطيع مقرون بالرب . وقرئ : « جَنَّةُ عَدْنٍ » على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقلتهم؛ على ما تقدّم . و « جَنَّاتِ عَدْنٍ » بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر؛ أي يدخلون جنات عدن يدخلونها . وهذا للجميع، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو عمرو « يُدخَلونها » بضم الياء وفتح الخاء . قال: لقوله « يُحَلَّوْنَ » . وقد مضى في « الحج » الكلام في قوله تعالى : « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ »[4] .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ قال أبو ثابت : دخل رجل المسجد فقال اللهم ارحم غُربتي وآنس وحدتي ويسر لي جليسا صالحا . فقال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا فلأنا أسعد بذلك منك، سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ

(١) راجع جـ ١٢ ص ٦٨ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٠٩ .
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٨ . (٤) راجع جـ ١٢ ص ٢٨ .

ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» — قال — فيجيء هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ويوبخ ويقرع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» ". وفي لفظ آخر " وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم(١) الله برحمته فهم الذين يقولون «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ — إلى قوله — وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ»". وقيل: هو الذي يؤخذ منه في مقامه؛ يعني يكفر عنه بما يصيبه من الهم والحزن، ومنه قوله تعالى: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ»(٢) يعني في الدنيا. قال الثعلبي: وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ لأنه قال: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا»، ولقوله: «الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» والكافر والمنافق لم يصطفوا.

قلت: وهذا هو الصحيح، وقد قال صلى الله عليه وسلم: " ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر ". فأخبر أن المنافق يقرؤه، وأخبر الحق سبحانه وتعالى أن المنافق في الدرك الأسفل من النار، وكثير من الكفار واليهود والنصارى يقرءونه في زماننا هذا. وقال مالك: قد يقرأ القرآن من لا خير فيه. والنَّصَب: التعب. واللُّغوب: الإعياء.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

(١) كذا في ش وح. وفي ب وك: «يتلافاهم». (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم . ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ مثل : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا »(١) . ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ مثل : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »(٢) . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى كافر بالله ورسوله . وقرأ الحسن « فيموتون » بالنون ، ولا يكون للنفى حينئذ جواب ، ويكون « فيموتون » عطفا على « يُقْضَى » تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون؛ كقوله تعالى : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(٣) . قال الكسائى : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » بالنون فى المصحف لأنه رأس آية و « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا » لأنه ليس رأس آية . ويجوز فى كل واحد منهما ما جاز فى صاحبه . ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى يستغيثون فى النار بالصوت العالى . والصراخ الصوت العالى ، والصارخ المستغيث ، والمصرخ المغيث . قال :

كنا إذا ما أتانا صارخ فَزِعٌ * كان الصراخُ له قرعَ الظَّنابيب(٤)

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ أى يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردّنا إلى الدنيا . ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : نقل : لا إله إلا الله . وهو معنى قولهم : ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى من الشرك؛ أى نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل . ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ هذا جواب دعائهم ؛ أى فيقال لهم ، فالقول مضمر . وترجم البخارى : (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر لقوله عز وجل « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ » يعنى الشيب) حدّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال حدّثنا عمر بن على قال حدّثنا مَعْن بن محمد الغِفارى عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعذر الله إلى آمرئ أخّر أجله حتى بلغه ستين سنة " . قال الخَطّابى : « أعذر إليه » أى بلغ به أقصى العذر، ومنه قولهم : قد

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٢٧ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٣ (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٦٤

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والظنابيب (جمع الظنبوب) وهو مسمار يكون فى جبة السنان .

أعذر من أنذر ؛ أى أقام عذر نفسه فى تقديم نذارته . والمعنى : أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر ؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا ، وهو سنّ الإنابة والخشوع وترقّب المنية ولقاء الله تعالى ؛ ففيه إعذار بعد إعذار، الأوّل بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والموتان(١) فى الأربعين والستين . قال علىّ وابن عباس وأبو هريرة فى تأويل قوله تعالى « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ » : إنه ستون سنة . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال فى موعظته : "ولقد أبلغ فى الإعذار من تقدّم فى الإنذار وإنه لينادى منادٍ من قِبل الله تعالى أبناء الستين « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكّر وجاءكم النذير »" . وذكر الترمذى الحكيم من حديث عطاء بن أبى رَباح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم القيامة نودى أبناء الستين وهو العمر الذى قال الله « أَوَلَمْ نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر »" . وعن ابن عباس أيضا أنه أربعون سنة . وعن الحسن البصرى ومسروق مثله . ولهذا القول أيضا وجه ، وهو صحيح ؛ والحجة له قوله تعالى : « حتى إِذا بلَغَ أَشُدَّه وبَلَغَ أربعِين سنةً » الآية(٢) . ففى الأربعين تناهى العقل ، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه(٣) ، والله أعلم . وقال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس ، حتى يأتى لأحدهم أربعون سنة ، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « الأعراف(٤) » . وخرّج ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أعمار أمّتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من تجاوز ذلك" .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ وقرئ « وجاءتكم النُّذُر » واختلف فيه ؛ فقيل القرآن . وقيل الرسول ؛ قاله زيد بن على وابن زيد . وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين ابن الفضل والفرّاء والطبرى : هو الشيب . وقيل : النذيرُ الحُمَّى . وقيل : موت الأهل والأقارب . وقيل : كمال العقل . والنذير بمعنى الإنذار .

(١) الموتان (بضم الميم وفتحها وسكون الواو) : الموت .
(٢) راجع جـ ١٦ ص ١٩٤
(٣) كيف هذا وقد عاش صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة ؟ ؟
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٧٦

قلت : فالشيب والحُمّى وموتُ الأهـل كلُّه إنذار بالموت ؛ قال صـلى الله عليه وسلم : " الحُمّى رائدُ الموت " . قال الأزهرى : معناه أن الحمى رسـول الموت ، أى كأنها تُشـعِر بقدومه وتُنْذِرُ بمجيئه . والشيب نذير أيضًا ؛ لأنه يأتى فى سنّ الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سنّ الصِّبَا الذى هو سِنُّ اللهو واللعب . قال :

رأيت الشيب من نُذُرِ المنايا * لصاحبـه وحسْـبُك مِن نذير

وقال آخــر :

فقلت لها المشيبُ نذيرُ عمـرى * ولست مسـودا وجه النـذير

وأما موت الأهــل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيـل فى كل وقت وأوان ، وحين وزمان . قال :

وأراك تحملهـم ولستَ تردّهم * فكأننى بك قـد حُمِلت فلم تُرَدَّ

وقال آخــر :

الموت فى كل حين ينشر الكَفَنَا * ونحن فى غفـلة عمّا يُرادُ بنـا

وأما كمال العقل فبِه تُعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات ؛ فالعاقل يعمل لآخرته ويرغب فيما عند ربه ؛ فهو نذير . وأما محمد صلى الله عليه وسلم فبعثه الله بشيرًا ونذيرًا إلى عباده قطعًا لحججهم ؛ قال الله تعالى : « لِئلّا يكون لِلناسِ على اللهِ حجـةٌ بعد الرسلِ »(١) ، وقال : « وما كنا مُعذِّبين حتى نَبْعَثَ رسولًا »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ يريد عذاب جهنم ؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتّعظتم . ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ أى مانع من عذاب الله .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ١٨ . (٢) راجع ١٠ ص ٢٣٠ .

تقدّم معناه فى غير موضع . والمعنى : علم أنه لو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحًا ، كما قال : « ولو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه»(١) . و ﴿ عالِمُ ﴾ إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضى والمستقبل ، وإذا كان منوّنا لم يجز أن يكون للماضى .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ ﴾ قال قتادة : خَلَفًا بعد خَلَف ، قَرْنًا بعد قرن . والخلف هو التالى للتقدّم ، ولذلك قيل لأبى بكر : ياخليفة الله ، فقال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا راض بذلك . ﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعلَيهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره وهو العقاب والعذاب . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أى بُغضًا وغضبًا . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أى هلاكًا وضلالًا .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ « شركاءكم » منصوب بالرؤية ، ولا يجوز رفعه ، وقد يجوز الرفع عند سيبويه فى قولهم : قد علمت زيدا أبو من هو ؟ لأن زيدًا فى المعنى مستفهم عنه . ولو قلت : أرأيت زيدا أبو من هو ؟ لم يجز الرفع . والفرق بينهما أن معنى هـذا أخبرنى عنه ، وكذا معنى هـذا أخبرونى عن شركائكم الذين تدعون من

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٩

دون الله ، أعبدتموهم لأن لهم شركة فى خلق السموات ، أم خلقوا من الأرض شيئا ! ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أى أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة . وكان فى هذا ردّ على من عبد غير الله عز وجل؛ لأنهم لا يجدون فى كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يُعْبَد غيره. ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم «على بيّنة» بالتوحيد، وجمع الباقون . والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى؛ لأنه لا يخلو من قرأه «على بينة» من أن يكون خالف السواد الأعظم ، أو يكون جاء به على لغة من قال: جاءنى طلحت ، فوقف بالتاء ، وهذه لغة شاذة قليلة ؛ قاله النحاس . وقال أبو حاتم وأبو عبيد : الجمع أولى لموافقته الخط، لأنها فى مصحف عثمان «بينات» بالألف والتاء . ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أى أباطيل تغرّ، وهو قول السادة للسّفْلة: إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم . وقيل : إن الشيطان يَعِد المشركين ذلك . وقيل : وعدهم بأنهم ينصرون عليهم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شىء من السموات والأرض بيّن أن خالقهما وممسكهما هو الله ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه . و «أن» فى موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولا ، أو لئلا تزولا ، أو يحمل على المعنى ؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا ، فلا حاجة على هذا إلى إضمار ، وهذا قول الزجاج . ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال الفراء : أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . و «إن» بمعنى ما . قال : وهو مثل قوله : «وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ» [1] . وقيل : المراد زوالها

(١) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء .

يوم القيامة . وعن إبراهيم قال : دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأحبار يتعلم منـه العلم ، فلمـا رجع قال له ابن مسعود : ما الذى أصبت من كعب ؟ قال سمعت كعبًا يقول : إن السماء تدور على قُطْب مثل قطب الرَّحَى ، فى عمود على منكب مَلَك ؛ فقال له عبد الله : وددتُ أنك انقلبت براحلتك ورحلها ، كذب كعب ، ما ترك يهوديّتـه ! إن الله تعـالى يقول : « إن الله يُمسك السمواتِ والأرضَ أن تزولا » إن السـموات لا تدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت . وعن ابن عباس نحوه ، وأنه قال لرجل مقبل من الشام : من لقيت به ؟ قال كعبا . قال : وما سمعتـه يقول ؟ قال : سمعته يقـول : إن السموات على منكب مَلَك . قال : كذب كعب ، أما ترك يهوديّته بعـدُ ! إن الله تعـالى يقول : « إن الله يُمسك السموات والأرض أن تزولا » والسموات سـبع والأرضون سبع ، ولكن لمـا ذكّرهما أجراهما مجرى شيئين ، فعادت الكناية إليهما ، وهو كقوله تعالى : « أَنَّ السَّموات والأرْضَ كانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَـا[(١)] » ثم ختم الآية بقوله : « إنه كان حليمًا غفُورًا » لأن المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل : أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين ، وقولهم اتخذ الله ولدا . قال الكلبى : لمـا قالت اليهود عزيرابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، كادت السـموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما ، فمنعهما الله ، وأنزل هـذه الآية فيه ؛ وهو كقوله تعـالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السمواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنه[(٢)] » الآية .

قوله تعـالى : وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّـا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَـلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِـدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْـدِيلًا ۖ وَلَن تَجِـدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْـوِيلًا ﴿٤٣﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢ . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٥٥ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم ، فلعنوا من كذب نبيّه منهم ، وأقسموا بالله جلّ اسمه ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى نبىّ ﴿ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ يعنى ممن كذّب الرسل من أهل الكتاب . وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بنى إسرائيل ، فلما جاءهم ما تمنّوه وهو النذير من أنفسهم ، نفروا عنه ولم يؤمنوا به . ﴿ اسْتِكْبَارًا ﴾ أى عتوّا عن الإيمان ﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ أى مكر العمل السيئ وهو الكفر وخَدْع الضعفاء ، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم . وأنّث « مِن إحدى الأمم » لتأنيث أُمّة ؛ قاله الأخفش . وقرأ حمزة والأخفش « ومكر السَّيِّئْ ولَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ » فحذف الإعراب من الأوّل وأثبته فى الثانى . قال الزجاج : وهو لحن؛ وإنما صار لحنًا لأنه حذف الإعراب منه . وزعم المبرِّد أنه لا يجوز فى كلام ولا فى شعر؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها ، لأنها دخلت للفرق بين المعانى . وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه ، فغلط من أدّى عنه ، قال : والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأن الثانى لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق ، والحركة فى الثانى أثقل منها فى الأوّل لأنها ضمة بين كسرتين . وقد احتج بعض النحويين لحمزة فى هذا بقول سيبويه ، وأنه أنشد هو وغيره :

* إذا آعوججن قلتُ صاحِبْ قَوِّمِ[(1)] *

وقال الآخر :

فاليوم أشرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ * إثمًا مِن الله ولا واغِلِ[(2)]

(1) تمامه : * بالدوّ أمثال السفين العوّم *
الدوّ : الصحراء . وأمثال السفين : رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفين البحر .

(2) البيت لامرئ القيس . والمستحقب : المكتسب للإثم الحامل له . والواغل : الداخل على القوم يشربون ولم يدع . قال هذا حين قتل أبوه ونذر الا يشرب الخمر حتى يثأر به ، فلما أخذ ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم فى شربها إذ قد وفى بنذره فيها .

وهذا لا حجة فيه؛ لأن سيبويه لم يجزه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه . وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده :

* إذا اعوججن قلت صاح قـوّم *

وأنه أنشـــد :

* فاليـوم أشرب غير مستحقِبِ *

بوصل الألف على الأمر؛ ذكر جميعه النحاس . الزمخشريّ : وقرأ حمـزة « ومكر السّيّئْ » بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات، ولعـله اختلس فظن سكونا، أو وقف وقفـة خفيفة ثم ابتدأ « ولا يحيق » . وقرأ ابن مسعود « ومَكْرًا سيئًا » . وقال المهدويّ : ومن سكّن الهمزة من قوله : « ومكر السيئ » فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالى الكسرات والياءات، كما قال :

* فاليـوم اشرب غير مستحقب *

قال القشيريّ : وقرأ حمزة « ومكر السيئْ » بسكون الهمزة، وخطّأه أقوام . وقال قوم : لعله وقف عليه لأنه تمـام الكلام، فغلط الراوى وروى ذلك عنه فى الإدراج، وقد سبق الكلام فى أمثال هذا، وقلنا : ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأه فلا بدّ من جوازه ، ولا يجـوز أن يقال : إنه لحن ، ولعـل مراد من صار إلى التخطئـة أن غيره أفصح منه ، وإن كان هو فصيحا . ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أى لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك . وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر .

وقال الشاعر :

وقد دفعوا المنيـة فاستقلت * ذراعًا بعـد ما كانت تحيق

أى تنزل ، وهذا قول قُطْرُب . وقال الكلبيّ : « يَحيق » بمعنى يُحيط . والحَوْق الإحاطة، يقال : حاق به كذا أى أحاط به . وعن ابن عباس أن كعبًا قال له : إنى أجد فى التـوراة «من حفَر لأخيه حُفرةً وقع فيها » ؟ فقال ابن عباس : فإنى أوجِدُك فى القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال : فاقرأ «ولا يَحيق المكر السيئ إلا بِأهلِهِ» . وفى أمثال العرب « من حفَر لأخيه

جُبًّا وقع فيه مُنْكَبًّا » وروى الزُّهرِي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا تَمكر ولا تُعِن ماكرًا فإن الله تعالى يقول : « ولا يَحيق المكر السيئ إلا بأهلِه » ، ولا تَبْغ ولا تُعِنْ باغيًا فإن الله تعالى يقول : « فمَن نَكَث فإنما يَنْكُثُ على نفسِه » وقال تعالى : « إنما بَغْيُكم على أنفسِكم » " وقال بعض الحكماء :

يأيها الظالم فى فعله * والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى * تُحصى المصائب وتَنسى النِّعم

وفى الحديث " المكر والخديعة فى النار " . فقوله : " فى النار " يعنى فى الآخرة تدخل أصحابها فى النار ؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى سياق هذا الحديث : "وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة" . وفى هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة ، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ فهل يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِين ﴾ أى إنما ينتظرون العذاب الذى نزل بالكفار الأولين . ﴿ فلن تَجِد لِسُنَّتِ اللهِ تَبديلا ولن تَجِد لِسُنَّتِ اللهِ تَحْويلًا ﴾ أى أجرى الله العذاب على الكفار ، ويجعل ذلك سُنة فيهم ، فهو يعذب بمثله من استحقه ، لا يقدر أحد أن يبدّل ذلك ، ولا أن يحوّل العذاب عن نفسه إلى غيره . والسُّنّة الطريقة ، والجمع سُنَن . وقد مضى فى « آل عمران »(1) وأضافها إلى الله عز وجل . وقال فى موضع آخر : ﴿ سُنَّةَ مَن قد أرسلنا قبلك مِن رُسُلِنا ﴾(2) فأضاف إلى القوم لتعلّق الأمر بالجانبين ؛ وهو كالأجل ، تارة يضاف إلى الله ، وتارة إلى القوم ؛ قال الله تعالى : « فإن أجل الله لآتٍ »(3) وقال : « فإذا جاء أجلهم » .

قوله تعالى : أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢١٦ . (2) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٢ . (3) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٦ .

بين السنة التي ذكرها ؛ أي أو لم يروا ما أنزلنا بعاد وثمود ، وبمـدين وأمثالهم لما كذّبوا الرسل ، فتدبروا ذلك بنظرهم إلى مساكنهم ودورهم ، وبما سمعوا على التواتر بما حلّ بهم ، أفليس فيه عبرة وبيان لهم ؛ ليسوا خيرًا من أولئك ولا أقوى ، بل كان أولئك أقوى ؛ دليله قوله : ﴿ وكانوا أَشَدَّ مِنهم قُوَّةً وما كان اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شيءٍ فِي السّموات ولا فِي الأَرضِ ﴾ أي إذا أراد إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك . ﴿ إنه كان عليمًا قديرًا ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعني من الذنوب . ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دَبّ ودَرَج . قال قتادة : وقد فُعل ذلك زمن نوح عليه السلام . وقال الكلبيّ : ﴿ مِنْ دابّةٍ ﴾ يريد الجنّ والإنس دون غيرهما ؛ لأنهما مُكَلَّفان بالعقل . وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم .

قلت : والأول أظهر ؛ لأنه عن صحابيّ كبير . قال ابن مسعود : كاد الجُعَل أن يُعذب في جُحره بذنب ابن آدم . وقال يحيى بن أبي كثير : أمَر رجل بالمعرف ونَهى عن المنكر ، فقال له رجل : عليك بنفسك ؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه . فقال أبو هريرة : كذبت ؟ والله الذي لا إله إلا هو — ثم قال — والذي نفسي بيده إن الحُبارَى لتموت هُزْلًا في وَكرها بظلم الظالم . وقال الثُّمَالي ويحيى بن سلام في هذه الآية : يحبس الله المطر فيهلك كل شيء ، وقد مضى في «البقرة» نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير[(1)] « ويَلْعَنُهم اللاّعنون » هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجَدْب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم . وذكرنا هنالك حديث البَراء

(١) راجع جـ ٢ ص ١٨٦ طبعة ثانية .

ابن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « و يلعنهم اللاعنون » قال : " دواب الأرض " . ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال مقاتل : الأجل المسمى هو ما وعدهم فى اللوح المحفوظ . وقال يحيى : هو يوم القيامة . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ أى بمن يستحق العقاب منهم ﴿ بَصِيرًا ﴾ . ولا يجوز أن يكون العامل فى « إذا » « بصيرا » كما لا يجوز : اليوم إن زيدا خارج . ولكن العامل فيها « جاء » لشبهها بحروف المجازاة، والأسماء التى يجازَى بها يعمل فيها ما بعدها . وسيبويه لا يرى المجازاة بـ « إذا » إلا فى الشعر، كما قال :

إذا قَصُرت أسيافنا كان وصلها ⁽¹⁾ * خُطانا إلى أعدائنا فنضارب

ختمت سورة « فاطر » والحمد لله

(١) البيت لقيس بن الخطيم الأنصارى راجع جـ ١ ص ٢٠١ طبعة ثانية أو ثالثة .

تم بعون الله تعالى الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس عشر، وأوله :

« سورة يس »

من الأصول التى راجعنا عليها هذا الجزء والذى قبله نسخة خطية فى مكتبة حضرة الأستاذ أحمد خيرى نجل المرحوم خيرى باشا، تفضل حضرته فأعارنا إياها .

وقد كان لهذه النسخة فضل كبير فى تيسير السبيل أمامنا ، فجزاه الله خير الجزاء .

جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ
سبتمبر سنة ١٩٦٤ م

حققه
أحمد عبد العليم
البردونى

استـــدراك

تقدّم فى الجزء الثالث ص ٩٣ عند الكلام على قوله تعـالى : « نساؤكم حرث لكم » :

إنمـا الأرحام أرضون لنا محترثات * فعلينا الزرع فيهـا وعلى الله النبات

وصواب إنشاده :

إنمـا الأرحام أر * ضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها * وعلى الله النبات

محققـــه

أحمد عبد العليم البردونى

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتى
د / نصر أحمد محمد بدوى . أتريس . مصر

بعون الله وجميل توفيقه ، قد تم طبع الجزء الرابع عشر من "تفسير القرطبي"
بمطبعة دار الكتب فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٨٤ ﻫ (أغسطس سنة ١٩٦٤ م) ما

محمد حمدى جنيدى
رئيس المطبعـة

إحسان عثمان
مدير إدارة المطبعة والتصوير

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الخامس عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الحادي عشر

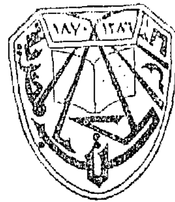

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م

بيان

تم بعون الله تعالى تحقيق هذا الجزء (الخامس عشر)
من تفسير القرطبي ، على الأصول الآتية :

(١)	نسخة	رقم	٩٥	تفسير ،	المرموز	إليها	بحرف	ا
(٢)	«	«	٢٦٨	«	«	«	«	ب
(٣)	«	«	١	« حليم «		«	«	ح
(٤)	«	«	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية ، المرموز إليها بحرف				ز
(٥)	«	«	٥١٣	تفسير ،	المرموز	إليها	بحرف	ش
(٦)	«	«	٩٣	«	«	«	«	ك
(٧)	«	«	٦٤	«	«	«	«	ل
(٨)	«	«	٩٧	«	«	«	«	ن
(٩)	«	«	٢٨٤	«	«	«	«	ه

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدمة الجزء الثالث (الطبعة الثانية)
و بالله التوفيق .

الأحد { ١ رمضان المعظم سنة ١٣٨٤ ه
٣ يناير سنة ١٩٦٥ م }

حققه
أحمد عبد العليم البردونى

فهـــرس الجـــزء الخـامس عشر

تفســـير ســـورة « يس »

صفحة

ســــورة الصّافّات

صفحة

سـورة الزُّمَـر

سورة غافر

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

وهي[1] مكية بإجماع . وهي ثلاث وثمانون آية ؛ إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى «وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ» نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، على ما يأتي . وفي كتاب أبي داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اقرءوا يس على موتاكم" . وذكر الآجُرّي من حديث أم الدرداء[2] عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما من ميت يُقرأ عليه سورة يس إلا هوّن الله عليه" . وفي مسند الدارميّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ سورة يس في ليلة ابتغاء وجه الله غُفر له في تلك الليلة" خرجه أبو نعيم الحافظ أيضا . وروى الترمذيّ عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شيء قلبا وقلبُ القرآن يس ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات" قال : هذا حديث غريب ، وفي إسناده هرون أبو محمد شيخ مجهول ؛ وفي الباب عن أبي بكر الصدّيق ، ولا يصح حديث أبي بكر من قبل إسناده ، وإسناده ضعيف . وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن في القرآن لسورةً تَشْفع لقرائها ويُغْفَر لمستمعها ، ألا وهي سورة يس تُدْعى في التوراة المعِمّة" قيل : يارسول الله وما المعِمّة ؟ قال : "تَعُمّ صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهاويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية" قيل : يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال : "تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدّق بها في سبيل الله ومن كتبها وشربها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رأفة وألف هدًى ونُزِع

---

(١) لفظة : « هي » ساقطة من ك .   (٢) كذا في الأصول . والذي في الدر المنثور : «أبي الدرداء» .

عنه كلّ داء وغلّ". ذكره الثعلبي من حديث عائشة؛ والترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه مسندا. وفي مسند الدارمي عن شَهْر بن حَوْشَب قال قال ابن عباس: من قرأ «يٰس» حين يصبح أعطى يُسْر يومه حتى يُمسي ومن قرأها في صدر ليلته أعطى يُسْر ليلته حتى يُصبح. وذكر النحاس عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لكل شيء قلب وقلب القرآن يٰس من قرأها نهارا كُفِي همّه ومن قرأها ليلا غفر ذنبه. وقال شهر ابن حَوْشَب: يقرأ أهل الجنة «طه» و «يٰس» فقط. رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردي فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لكل شيء قلبا وإن قلبَ القرآن يٰس ومن قرأها في ليلة أعطى يُسْر تلك الليلة ومن قرأها في يوم أعطى يُسْر ذلك اليوم وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرءون شيئا إلا طه ويٰس". وقال يحيى بن أبي كثير: بلغني أن من قرأ سورة «يٰس» ليلا لم يزل في فرح حتى يُصبح، ومن قرأها حين يُصبح لم يزل في فرح حتى يُمسي؛ وقد حدّثني من جرّبها؛ ذكره الثعلبي وابن عطية. قال ابن عطية: ويصدّق ذلك التجربة. وذكر الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال: حدّثنا محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوة فليكتب «يٰس» في جام بزعفران ثم يشربه؛ حدّثني أبي رحمه الله قال: حدّثنا أَصْرَم بن حَوْشَب، عن بقيّة بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد ابن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القرآن أفضل من كل شيء دون الله وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه فمن وقّر القرآن فقد وقّر الله ومن لم يوقّر القرآن لم يوقّر الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده. القرآن شافع مشفّع وماحِل(١) مصدّق فمن شَفَع له القرآنُ شُفِّع ومن مَحَل به القرآنُ صُدِّق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار. وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله الملبَسون نور الله المعلَّمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله يقول الله تعالى: يا حملة القرآن

(١) قال ابن الأثير: ماحل أي خصم مجادل مصدّق.

آستجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبا ويحببكم إلى عباده يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا [ويدفع عن تالى القرآن](١) بلوى الآخرة ومن آستمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش إلى التخوم وإن فى كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة تشفع لصاحبها فى أكثر من ربيعة ومضر وهى سورة يس ". وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفورا له ". وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد حروفها(٢) حسنات ".

قوله تعالى : يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يس ﴾ فى « يس » أوجه من القراءات : قرأ أهل المدينة والكسائى ﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ بإدغام النون فى الواو . وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة « يَسِنْ » بإظهار النون . وقرأ عيسى بن عمر « يسِنَ » بنصب النون . وقرأ آبن عباس وآبن أبي إسحق ونصر بن عاصم « يسِنِ » بالكسر . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع « يَسِنُ » بضم النون ؛ فهذه خمس قراءات . القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب فى العربية ؛ لأن النون تدغم فى الواو . ومن بيّن قال : سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها ، وإنما يكون الإدغام فى الإدراج . وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين : إحداهما أن يكون مفعولا ولا يصرفه ؛ لأنه عنده آسم أعجمى بمنزلة هابيل ، والتقدير آذكر يسين . وجعله سيبويه آسما للسورة . وقوله الآخر أن يكون مبنيا على الفتح مثل كيف وأين . وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبّه بقول العرب جيرِ لا أفعل ؛ فعلى هذا يكون « يسِنِ » قسما . وقاله آبن عباس . وقيل : مشبّه بأمسِ وحذامِ وهؤلاءِ ورقاشِ . وأما الضم فشبه بمنذُ وحيثُ وقطُّ ، وبالمنادى المفرد إذا قلت يا رجلُ ، لمن يقف عليه . قال آبن السَّمَيْقَع وهرون : وقد جاء فى تفسيرها

(١) الزيادة من « نوادر الأصول » للترمذى الحكيم . (٢) فى ب ، ح : « بعدد من فيها حسنات » .

يا رجل فالأولى بها الضم . قال ابن الأنبارى : « يس » وقف حسن لمن قال هو افتتاح للسورة ، ومن قال : معنى « يس » يا رجل لم يقف عليه . وروى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما أن معناه يا إنسان ، وقالوا فى قوله تعالى : « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ »(١) أى على آل محمد . وقال سعيد بن جبير : هو اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ودليله « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » . قال السيد الحميرى :

يا نفس لا تمحضى بالنُّصح جاهدةً * على المودّة إلا آلَ ياسينَ

وقال أبو بكر الوراق : معناه ياسيد البشر . وقيل : إنه اسم من أسماء الله ؛ قاله مالك . روى عنه أشهب قال : سألته هل ينبغى لأحد أن يتسمّى بياسين ؟ قال : ماأراه ينبغى لقول الله : « يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » يقول هذا اسمى يس . قال ابن العربى هذا كلام بديع ، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمّى باسم الرب إذا كان فيه معنى منه ؛ كقوله : عالم وقادر ومريد ومتكلم . وإنما منع مالك من التسمية بـ« يسين » ؛ لأنه اسم من أسماء الله لا يُدْرى معناه ؛ فربما كان معناه ينفرد به الربّ فلا يجوز أن يقدم عليه العبد . فإن قيل فقد قال الله تعالى : « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » قلنا : ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به ، وهذا الذى ليس بمتهجّى هو الذى تكلم مالك عليه ؛ لما فيه من الإشكال ؛ والله أعلم . وقال بعض العلماء : افتتح الله هذه السورة بالياء والسين وفيهما مجمع الخير : ودلّ المفتتح على أنه قلب ، والقلب أمير على الجسد ؛ وكذلك « يس » أمير على سائر السور ، مشتمل على جميع القرآن . ثم اختلفوا فيه أيضا ؛ فقال سعيد بن جُبير وعكرمة : هو بلغة الحبشة . وقال الشّعبى : هو بلغة طىّ . الحسن : بلغة كلب . الكلبى : هو بالسريانية فتكلمت به العرب فصار من لغتهم . وقد مضى هذا المعنى فى « طه »(٢) وفى مقدمة الكتاب(٣) مستوفى . وقد سرد القاضى عياض أقوال المفسرين فى معنى « يس » فحكى أبو محمد مكىّ أنه روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لى عند ربى عشرة أسماء" ذكر أن منها طه ويس اسمان له .

---

(١) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٦٥ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١ ص ٦٧ فما بعد .

قلت : وذكر الماوردي عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله " قاله القاضي . وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد ، مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عباس : « يس » يا إنسان أراد محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال : هو قسم وهو من أسماء الله سبحانه . وقال الزجاج : قيل معناه يا محمد وقيل يا رجل وقيل يا إنسان . وعن ابن الحنفية : «يس» يا محمد . وعن كعب : «يس» قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام [قال يا محمد](١) « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » ، ثم قال : «وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» . فإن قدر أنه من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم ، ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه . وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته . أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ؛ أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق . قال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل من قال إنه يا سيد ما فيه ، وقد قال عليه السلام : " أنا سيد ولد آدم " انتهى كلامه . وحكى القشيري قال ابن عباس : قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا ؛ فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين . «والحكيم» المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض ؛ كما قال : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ »(٢) . وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل . وقد يكون « الْحَكِيمِ » في حق الله بمعنى المحكم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي دين مستقيم وهو الإسلام . وقال الزجاج : على طريق الأنبياء الذين تقدموك ؛ [و] قال : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » خبر إن ، و« عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » خبر ثان ؛ أي إنك لمن المرسلين ، وإنك على صراط مستقيم . وقيل : المعنى لمن المرسلين على استقامة ؛ فيكون قوله : « عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » من صلة المرسلين ؛ أي إنك لمن المرسلين

(١) زيادة يقتضيها المقام ، و يدل عليها ما ورد في « الدر المنثور » للسيوطي عن كعب .

(٢) راجع ص ٣٣٧ من هذا الجزء .

الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ »(١) أي الصراط الذي أمر الله به .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ قرأ ابن عامر وحفص والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف : « تَنْزِيلَ » بنصب اللام على المصدر؛ أي نزّل الله ذلك تنزيلا . وأضاف المصدر فصار معرفة كقوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ »(١) أي فضربا للرقاب . الباقون « تَنْزِيلُ » بالرفع على خبر ابتداء محذوف أي هو تنزيل ، أو الذي أنزل إليك تنزيل العزيز الرحيم . هذا وقرئ : « تَنْزِيلِ » بالجر على البدل من « الْقُرْآن » والتنزيل يرجع إلى القرآن . وقيل : إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أي إنك لمن المرسلين ، وإنك « تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » . فالتنزيل على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو »(٢) ويقال : أرسل الله المطر وأنزله بمعنى . ومحمد صلى الله عليه وسلم رحمة الله أنزلها من السماء . ومن نصب قال : إنك لمن المرسلين إرسالا من العزيز الرحيم . و « العزيز » المنتقم ممن خالفه « الرَّحِيم » بأهل طاعته .

قوله تعالى : لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ « ما » لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير، منهم قتادة؛ لأنها نفي والمعنى : لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير . وقيل : هي بمعنى الذي فالمعنى : لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا . وقيل : إن « ما » والفعل مصدر؛ أي لتنذر قوما إنذار آبائهم . ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء؛ فالمعنى لم ينذروا برسول من أنفسهم . ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن غفلوا وأعرضوا ونسوا . ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر

(١) راجع جـ ١٦ ص ٥٤ وص ٢٥٥ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٧٢ فما بعد .

نبي ؛ وقد قال الله : « وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ »(١) وقال : « لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »(١) أى لم يأتهم نبي . وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء ، فالمعنى فهم معرضون الآن متغافلون عن ذلك ، ويقال للعرض عن الشيء إنه غافل عنه . وقيل : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن عقاب الله .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ﴾ أى وجب العذاب على أكثرهم ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بإنذارك . وهذا فيمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره . ثم بين سبب تركهم الإيمان فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ . قيل : نزلت في أبي جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين ؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمدا يصلي ليرضخن رأسه بحجر ؛ فلما رآه ذهب فرفع حجرا ليرميه ، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه ، والتصق الحجر بيده ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما ؛ فهو على هذا تمثيل أى هو بمنزلة من غُلَّت يده إلى عنقه ، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى ، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة : أنا أرضخ رأسه . فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال : والله ما رأيته ولقد سمعت صوته . فقال الثالث : والله لأشدخن أنا رأسه . ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خرَّ على قفاه مغشيا عليه . فقيل له : ما شأنك ؟ قال شأني عظيم ! رأيت الرجل فلما دنوت منه ، وإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت فحلا قط أعظم منه حال بيني وبينه ، فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلني . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ . وقرأ ابن عباس : « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ » . وقال الزجاج : وقرئ « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْدِيهِمْ » . قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ولا يقرأ بما خالف المصحف . وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة ؛ التقدير : إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالا فهي إلى الأذقان ، فهي كناية عن الأيدي لا عن الأعناق ، والعرب تحذف مثل هذا . ونظيره : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »(٢) وتقديره وسرابيل تقيكم البرد فحذف ؛ لأن ما وقى

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣١٠ وص ٨٥ .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٥٩ فما بعد .

من الحـر وقى من البرد؛ لأن الغُـلّ إذا كان فى العنق فلا بد أن يكون فى اليد ، ولا سيمـا وقد قال الله عز وجل : « فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ » فقد علم أنه يراد به الأيدى . « فَهُم مُّقْمَحُونَ » أى رافعو رءوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من غُلّت يده إلى ذقنه ٱرتفع رأسه . روى عبد الله بن يحيى : أن على بن أبى طالب عليه السلام أراهم الإقماح ، فجعل يديه تحت لحيته وألصقهما ورفع رأسـه . قال النحاس ، وهـذا أجلّ ما روى فيه وهو مأخوذ ممـا حكاه الأصمعى . قال : يقـال أقمحت الدابة إذا جذبت لجامها لترفـع رأسها . قال النحاس : والقاف مبدلة من الكاف لقربها منهـا ، كما يقال : قَهَرته وكَهَرته . قال الأصمعى : يقال أكمحتُ الدابةَ إذا جذبت عنانها حتى ينتصب رأسها . ومنه قول الشاعر :

* ... والرأسُ مُكمَـــحُ(١) *

ويقال : أكمحتها وأكفحتها وكبحتها؛ هذه وحدها بلا ألف عن الأصمعى . وقَمَح البعيرُ قُمُوحاً : إذا رفع رأسه عند الحوض وٱمتنع من الشرب ، فهو بعير قامحٌ وقَمِحٌ ؛ يقال : شَرِب فتقمّح وٱنقمح بمعنًى إذا رفع رأسه وترك الشرب رِيًّا . وقد قامحت إبلُك : إذا وردت ولم تشرب ، ورفعت رأسها من داء يكون بها أو برد . وهى إبل مُقامحة ، وبعير مقامح ، وناقة مقامح أيضا ، والجمع قِمَـاح على غير قياس؛ قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جَوانبهـا قُعُـودٌ * نَغُضّ الطرفَ كالإبل القِمَاحِ

والإقماح : رفع الرأس وغض البصر؛ يقال : أقْمَحه الغُلّ إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه . وشهرا قِماح : أشدّ ما يكون من البرد ، وهما الكانونان سميا بذلك ؛ لأن الإبل إذا وردت آذاها برد المـاء فقامحت رءوسها ؛ ومنـه قَمِحتُ السويقَ(٢) . وقيل : هو مثـل ضرب به الله تعـالى لهم فى ٱمتناعهم من الهدى كامتناع المغلول ؛ قاله يحيى بن سلّام وأبو عبيدة . وكما يقال : فلان حمار ؛ أى لا يبصر الهدى . وكما قال :

* لهم عن الرشـد أغلالٌ وأقياد *

---

(١) البيت لذى الرمة ، وتمـامه كما فى ديوانه طبع أوربا ص ٩٠ :

تمـــوج ذراعاها وترمى بجـوزها * حـــذارا من الإيعـاد والرأس مكمح

(٢) قمح السويق (بكسر الميم) : إذا ٱستفه .

وفى الخبر : أن أبا ذؤيب كان يهوى آمرأة فى الجاهلية ، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ يقول :

فليس كعهد الدارِ يا أُمّ مالكٍ * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهلِ ليس بقائلٍ * سِوى العدلِ شيئًا فآستراح العواذلُ (١)

أراد مُنِعنا بموانع الإسلام عن تعاطى الزنى والفسق . وقال الفراء أيضا : هذا ضرب مثل ؛ أى حبسناهم عن الإنفاق فى سبيل الله ؛ وهو كقوله تعالى : «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ» (٢) وقاله الضحاك . وقيل : إن هؤلاء صاروا فى الآستكبار عن الحق كمن جُعل فى يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقه ، فبقى رافعا رأسه لا يخفضه ، وغاضًّا بصره لا يفتحه . والمتكبر يوصف بآنتصاب العنق . وقال الأزهرى : إن أيديهم لما غُلَّت عند أعناقهم رَفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صُعُدا كالإبل ترفع رءوسها . وهذا المنع بخلق الكفر فى قلوب الكفار ، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم . وقيل : الآية إشارة إلى ما يُفعَل بأقوام غدًا فى النار من وضع الأغلال فى أعناقهم والسلاسل ؛ كما قال تعالى : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ » (٣) وأخبر عنه بلفظ الماضى . « فَهُمْ مُقْمَحُونَ » تقدّم تفسيره . قال مجاهد : « مُقْمَحُونَ » مُغلُّون عن كل خير .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال مقاتل : لما عاد أبو جهل إلى أصحابه ، ولم يصل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وسقط الحجر من يده ، أخذ

(١) يقول : رجع الفتى عما كان عليه من فتوته ، وصار كأنه كهل ، فاستراح العواذل لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه . سوى العدل : أى سوى الحق . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٩ فما بعد . (٣) راجع ص ٣٣٢ من هذا الجزء .

الحجر رجل آخر من بني مخزوم وقال : أقتله بهذا الحجر . فلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم طمس الله على بصره فلم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه ، فهذا معنى الآية . وقال محمد بن إسحق في روايته : جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل وأمية بن خلف ، يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغوا من أذاه ؛ فخرج عليهم عليه السلام وهو يقرأ «يس» وفي يده تراب فرماهم به وقرأ : «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا» فأطرقوا حتى مرّ عليهم عليه السلام . وقد مضى هذا في سورة « سبحان »(١) ومضى في « الكهف »(٢) الكلام في « سَدًّا » بضم السين وفتحها وهما لغتان . ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أي غطينا أبصارهم ؛ وقد مضى في أول «البقرة»(٣) . وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر «فأعشيناهم» بالعين غير معجمة من العَشاء في العين وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل قال :

* متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ(٤) *

وقال تعالى : «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ»(٥) الآية . والمعنى متقارب ، والمعنى أعميناهم ؛ كما قال :

ومن الحوادثِ لا أَبَالَكَ أنّني * ضُرِبتْ عليّ الأرضُ بالأَسْدَادِ

لا أهتدي فيها لموضعِ تَلْعَةٍ * بين العُذَيْبِ وبينَ أرضِ مُرَادِ

﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي الهدى ؛ قاله قتادة . وقيل : محمدا حين ائتمروا على قتله ؛ قاله السدي . وقال الضحاك : « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا » أي الدنيا « وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » أي الآخرة ؛ أي عَمُوا عن البعث وعَمُوا عن قبول الشرائع في الدنيا ؛ قال الله تعالى : «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ»(٦) أي زيّنوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة . وقيل : على هذا «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا» أي غرورا بالدنيا « وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا » أي تكذيبا بالآخرة . وقيل : «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» الدُّنْيَا . ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقدّم في « البقرة »(٣) والآية ردّ على القدرية وغيرهم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٩ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٥٩ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ وص ١٨٤ .
(٤) هو الحطيئة ، وتمام البيت : * تجد خير نار عندها خير موقد *
(٥) راجع جـ ١٦ ص ٨٩ . (٦) راجع ص ٣٥٤ من هذا الجزء .

وعن ابن شهاب : أن عمر بن عبد العزيز أحضر غيلان القدريّ فقال : يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقدر؛ فقال : يكذبون عليّ يا أمير المؤمنين . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » قال : آقرأ يا غيلان فقرأ حتى آنتهى إلى قوله : « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا » فقال آقرأ فقال : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » فقال : والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أنّ هذا في كتاب الله قط . فقال له : يا غيلان آقرأ أوّل سورة « يس » فقرأ حتى بلغ « وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين لكأني لم أقرأها[1] قط قبل اليوم ؛ آشهد يا أمير المؤمنين أني تائب . قال عمر : اللهم إن كان صادقا فتب عليه وثبته ، وإن كان كاذبا فسلّط عليه من لا يرحمه وآجعله آية للؤمنين ؛ فأخذه هشام فقطع يديه ورجليه وصلبه . وقال آبن عون : فأنا رأيته مصلوبا على باب دمشق . فقلنا : ما شأنك يا غيلان ؟ فقال : أصابتني دعوة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن وعمل به . ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي ما غاب من عذابه وناره ؛ قاله قتادة . وقيل : أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وآنفراده بنفسه . ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذنبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أي الجنة .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردًّا على الكفرة . وقال الضحاك والحسن : أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل . والأوّل أظهر ؛ أي نحييهم بالبعث للجزاء . ثم توعدهم بذكره كَتْب الآثار وهي :

الثانيــة — وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان . قال قتادة : معناه من عمل . وقاله مجاهد وآبن زيد . ونظيره قوله : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »[2] وقوله : « يُنَبَّأُ

(١) في الأصل المطبوع : « لم أرها » . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١١٦ فما بعد وص ١٥٠ وص ٢٤٢ .

الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »(١)، وقال : « ٱتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ »(٢) فآثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها : من أثر حسن ؛ كعلم علّموه، أو كتاب صنّفوه ، أو حبيس احتبسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك . أو سيّئ كوظيفة وظفها بعض الظلّام على المسلمين ، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم ، أو شيء أحدثه فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملاهٍ ، وكذلك كل سُنّة حسنة ، أو سيئة يستنّ بها . وقيل : هي آثار المشّائين إلى المساجد . وعلى هذا المعنى تأول الآية عمر وٱبن عباس وسعيد بن جُبير . وعن ٱبن عباس أيضا أن معنى : « وَآثَارَهُمْ » خُطاهم إلى المساجد . قال النحاس : وهذا أولى ما قيل فيه؛ لأنه قال : إن الآية نزلت في ذلك؛ لأن الأنصار كانت منازلهم بعيدة عن المسجد . وفي الحديث مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يُكتبُ له برِجلٍ حسنة وتُحطُّ عنه برِجل سيئة ذاهبا وراجعا إذا خرج إلى المسجد".

قلت : وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سَلِمة(٣) في ناحية المدينة فأرادوا النُّقلَة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن آثاركم تكتب" فلم ينتقلوا . قال : هذا حديث [حسن](٤) غريب من حديث الثوري . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سَلِمة أن يتحوّلوا إلى قرب المسجد؛ قال : والبقاع خالية ؛ قال : فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا بني سَلِمة دِيارَكم تُكتَبْ آثارُكم دِيارَكم تُكتَبْ آثارُكم" فقالوا : ما كان يسرنا أنا كنا تحوّلنا . وقال ثابت البُنَاني : مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت ، فحبسني فلما ٱنقضت الصلاة قال : مشيت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وأسرعت، فحبسني فلما ٱنقضت الصلاة قال: "أمَا علمت أن الآثار تُكتَب" فهذا ٱحتجاج بالآية . وقال قتادة ومجاهد أيضا والحسن : الآثار في هذه الآية الخُطَا . وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال : الآثار هي الخُطَا إلى الجمعة . وواحد الآثار أثَر ويقال أَثْر .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٩٧ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٤٢ .
(٣) سلمة بكسر اللام بطن من الأنصار . (٤) الزيادة من صحيح الترمذي .

الثالثة — في هذه الأحاديث المفسّرة لمعنى الآية دليل على أن البعد من المسجد أفضل ، فلو كان بجوار مسجد ، فهل له أن يجاوزه إلى الأبعد ؟ ٱختلف فيه ؛ فروى عن أنس أنه كان يجاوز المحدَث إلى القديم . وروى عن غيره : الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرًا . وكره الحسن وغيره هذا ؛ وقال : لا يدع مسجدًا قربه ويأتى غيره . وهذا مذهب مالك . وفى تخطى مسجده إلى المسجد الأعظم قولان . وخرّج ٱبن ماجه من حديث أنس ٱبن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة الرجل فى بيته بصلاة وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاةً وصلاته فى المسجد الذى يُجمَّع (١) فيه بخمسمائة صلاة" .

الرابعة — « ديارَكم » منصوب على الإغراء أى ٱلزموا ، و« نكتب » جزم على جواب الأمر . « وكُلَّ » نصب بفعل مضمر يدلّ عليه « أَحْصَيْنَاهُ » كأنه قال : وأحصينا كل شىء أحصيناه . ويجوز رفعه بالٱبتداء إلا أن نصبه أولى ؛ ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل . وهو قول الخليل وسيبويه . والإمام : الكتاب المقتدَى به الذى هو حجة . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : أراد اللوح المحفوظ . وقالت فرقة : أراد صحائف الأعمال .

قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

---

(١) يجمع (بالتشديد) من التجميع ، أى يصلى فيه الجمعة .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أُمِر أن يضرب لقومه مثلا بأصحاب القرية][(١)] هـذه القرية هى أنطاكية فى قول جميع المفسرين فيما ذكر المـاوردى . نسبت إلى أهل أنطبيس وهـو آسم الذى بناها ثم غُيّر لمـا عُرِّب ؛ ذكره السهيلى . و يقال فيها : أنتاكية بالتاء بدل الطاء . وكان بها فرعون يقال له أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام ؛ ذكره المهدوى، وحكاه أبو جعفر النحاس عن كعب ووهب . فأرسل الله إليه ثلاثة : وهم صادق ، وصـدوق ، وشلوم هو الثالث ، هذا قول الطبرى . وقال غيره : شمعون و يوحنا . وحكى النقاش : سمعان و يحيى، ولم يذكرا صادقا ولا صدوقا . و يجـوز أن يكون « مَثَلًا » و « أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ » مفعولين لآضرب ، أو « أَصْحَابَ ٱلْقَـرْيَةِ » بدلا من « مَثَلًا » أى آضرب لهم مثـلَ أصحابِ القرية فحذف المضاف . أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار هؤلاء المشركين أن يحلّ بهـم ماحلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل . قيل : رسل من الله على الآبتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله ، وهو قوله تعـالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ ﴾ وأضاف الربّ ذلك إلى نفسه ؛ لأن عيسى أرسلهما بأمر الربّ ، وكان ذلك حين رُفع عيسى إلى السماء . ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ قيل ضربوهما وسجنوهما . ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أى فقوّينا وشدّدنا الرسالة «بِثَالِثٍ» . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « فَعَزَزْنَا بِثَالِثٍ » بالتخفيف وشدّد الباقون . قال الجوهرى : وقوله تعـالى : « فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » يخفّف و يشدّد ؛ أى قوّينا وشدّدنا . قال الأصمعى : أنشدنى فيه أبو عمرو بن العلاء للتلمّس :

أُجُدٌ إذا رَحَلَت تَعزّزَ[(٢)] لحمُهـا * وإذا تُشَد بِنِسْعِها لا تَنْبِسُ

أى لا ترغو ؛ فعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى . وقيل : التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ؛ ومنه : «وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ»[(٣)] . والتشديد بمعنى قوّينا وكثّرنا . وفى القصة : أن عيسى أرسل

(١) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي .

(٢) وفى اللسان : أجد إذا ضمرت . ويروى فى غيره : عنس إذا ضمرت . (٣) راجع ص ١٧٤ من هذا الجزء .

إليهم رسولين ، فلقيا شيخا يرعى غُنيمات له وهو حبيب النجار صاحب «يس» فدعوه إلى الله وقالا : نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله . فطالبهما بالمعجزة فقالا : نحن نشفى المرضى وكان له ٱبن مجنون . وقيل : مريض على الفراش فمسحاه ، فقام بإذن الله صحيحا ؛ فآمن الرجل بالله . وقيل : هو الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، ففشا أمرهما ، وشفيا كثيرا من المرضى ، فأرسل الملك إليهما — وكان يعبد الأصنام — يستخبرهما فقالا : نحن رسولا عيسى . فقال : وما آيتكما ؟ قالا : نبرئ الأكمه والأبرص ونبرئ المريض بإذن الله ، وندعوك إلى عبادة الله وحده . فهمّ الملكُ بضربهما . وقال وهب : حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة ؛ فٱنتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثا . قيل : شمعون الصفا رأس الحواريين لنصرهما ؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم ، وٱستأنسوا به ، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به ، وأظهر موافقته فى دينه ، فرضى الملك طريقته ؛ ثم قال يوما للملك : بلغنى أنك حبست رجلين دعواك إلى الله ، فلو سألت عنهما ما وراءهما . فقال : إن الغضب حال بينى وبين سؤالهما . قال : فلو أحضرتهما . فأمر بذلك ؛ فقال لهما شمعون : ما برهانكما على ما تدّعيان ؟ فقالا : نبرئ الأكمه والأبرص . فجيء بغلام ممسوح العينين ؛ موضع عينيه كالجبهة ، فدعوا ربهما فٱنشق موضع البصر ، فأخذا بندقتين طينا فوضعاهما فى خديه ، فصارتا مقلتين يبصر بهما ؛ فعجب الملك وقال : إن هاهنا غلاما مات منذ سبعة أيام ولم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما ؟ فدعوا الله علانية ، ودعاه شمعون سرًّا ، فقام الميت حيًّا ، فقال للناس : إنى متّ منذ سبعة أيام ، فوُجدت مشركا ، فأدخلتُ فى سبعة أودية من النار ، فأحذّركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله ، ثم فتحت أبواب السماء ، فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وصاحبيه ، حتى أحيانى الله ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن عيسى روح الله وكلمته ، وأن هؤلاء هم رسل الله . فقالوا له : وهذا شمعون أيضا معهم ؟ فقال : نعم وهو أفضلهم . فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم ، فأثر قوله فى الملك ، فدعاه إلى الله ؛ فآمن الملك فى قوم كثير وكفر آخرون . وحكى القشيرى أن الملك آمن ولم يؤمن قومه ، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقى منهم من الكفار .

وروى أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا : يانبىّ الله إنا لا نعرف أن نتكلم بألسنتهم ولغاتهم . فدعا الله لهم فناموا بمكانهم ، فهبّوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية ، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم ؛ فذلك قوله : « وأيدناه بروح القُدُس » فقالوا جميعا : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ﴿ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يأمر به ولا [من شيء] (١) ينهى عنه ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ في دعواكم الرسالة ؛ فقالت الرسل : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وإن كذبتمونا ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ في أن الله واحد ﴿ قَالُوا ﴾ لهم ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي تشاءمنا بكم . قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا هذا بشؤمكم . ويقال: إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ عن إنذارنا ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال الفراء : لنقتلنكم . قال: وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل . وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل: لنشتمنكم؛ وقد تقدّم جميعه (٢) . ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قيل: هو القتل. وقيل : هو التعذيب المؤلم . وقيل: هو التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب. فقالت الرسل : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي شؤمكم معكم أي حظكم من الخير والشر معكم ولازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا؛ قال معناه الضحاك . وقال قتادة: أعمالكم معكم. ابن عباس : معناه الأرزاق والأقدار تتبعكم . الفراء : « طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ » رزقكم وعملكم؛ والمعنى واحد . وقرأ الحسن : « اطَّيُّرُكُمْ » (٣) أي تطيركم . ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ قال قتادة : إن ذكرتم تطيرتم . وفيه تسعة أوجه من القراءات : قرأ أهل المدينة : « أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ » بتخفيف الهمزة الثانية . وقرأ أهل الكوفة : « أَإِنْ » بتحقيق الهمزتين . والوجه الثالث : «آإِنْ ذُكِّرْتُمْ» بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين . والوجه الرابع : «آإِنْ» بهمزة بعدها ألف وبعد الألف همزة مخففة . والقراءة الخامسة «أَأَنْ» بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف . والوجه السادس : «أَأَنْ» بهمزتين محققتين مفتوحتين . وحكى الفراء : أن هذه القراءة قراءة أبي رزين .

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) راجع جـ ٩ ص ٩١ . (٣) قال أبو حيان في هذه القراءة : « اطيركم » مصدر اطير الذي أصله تطير فأدغمت التاء في الطاء ، فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر .

قلت : وحكاه الثعلبي عن زرّ بن حُبيش وابن السَّمَيْقَع . وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصري : « قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ » بمعنى حيث . وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة « ذُكِرْتُمْ » بالتخفيف ؛ ذكر جميعه النحاس . وذكر المهدوي عن طلحة بن مُصَرِّف وعيسى الهَمَذاني : « آنْ ذُكِّرْتُمْ » بالمد ، على أن همزة الاستفهام دخلت على همزة مفتوحة . الماجشون : « أَنْ ذُكِّرْتُمْ » بهمزة واحدة مفتوحة . فهذه تسع قراءات . وقرأ ابن هُرْمُز « طَيْرُكُمْ مَعَكُمْ » . « أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ » أي لإن وُعظتم ؛ وهو كلام مستأنف ، أي إن وعظتم تطيرتم . وقيل : إنما تطيروا لما بلغهم أن كل نبي دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك[(١)] ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ قال قتادة : مسرفون في تطيركم . يحيى بن سلام : مسرفون في كفركم . وقال ابن بحر : السرف هاهنا الفساد ؛ ومعناه بل أنتم قوم مفسدون . وقيل : مسرفون مشركون ، والإسراف مجاوزة الحد ، والمشرك[(٢)] يجاوز الحد .

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ هو حبيب بن مرى وكان نجارا . وقيل : إسكافا . وقيل : قصّارا . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب

(١) في ب وح وش وك : كان عاقبة قومه الهلاك . (٢) في ك : والشرك تجاوز الحد . وفي ب والمشرك مجاوز الحد . وفي ح المشرك تجاوز الحد .

ٱبن إسرائيل النجار وكان يَنْحت الأصنام ، وهو ممن آمن بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة ، كما آمن به تُبّع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما . ولم يؤمن بنبيّ أحدٌ إلا بعد ظهوره . قال وهب : وكان حبيب مجذوما ، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يَعكُف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه و يكشفون ضره فما ٱستجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربّنا القادر فيفرج عنك مابك . فقال : إن هذا لعجب ! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرّج عنى فلم تستطع ، [فكيف](١) يفرجه ربكم فى غداة واحدة؟ قالوا : نعم ، ربّنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئا ولا تضر . فآمن ودعوا ربهم فكشف الله مابه ، كأن لم يكن به بأس ، فحينئذ أقبل على التكسب ، فإذا أمسى تصدّق بكسبه ، فأطعم عياله نصفا وتصدّق بنصف ، فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم فـ﴿قَالَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية . وقال قتادة : كان يعبد الله فى غار ، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى ، فقال للرسلين : أتطلبون على ما جئتم به أجرا؟ قالوا : لا ، ما أجرنا إلا على الله . قال أبو العالية : فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه فـ « قَالَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » . ﴿ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾ أى لو كانوا متّهمين لطلبوا منكم المال ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فاهتدوا بهم . ﴿وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قال قتادة : قال له قومه أنت على دينهم؟ ! فقال : « وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » أى خلقنى . ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا ٱحتجاج منه عليهم . وأضاف الفطرة إلى نفسه ؛ لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر ، والبعث إليهم ؛ لأن ذلك وعيد يقتضى الزجر ، فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرا ، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرا . ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعنى أصناما . ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ يعنى ما أصابه من السقم . ﴿لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ يخلصونى مما أنا فيه من البلاء ﴿إِنِّي إِذاً﴾ يعنى إن فعلت ذلك ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى خسران ظاهر . ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قال ٱبن مسعود : خاطب الرسل بأنه

(١) الزيادة من تفسير الآلوسى .

مؤمن بالله ربهم ، ومعنى « فَٱسْمَعُونِ » أى فٱشهدوا ، أى كونوا شهودى بالإيمان . وقال كعب ووهب : إنما قال ذلك لقومه إنى آمنت بربكم الذى كفرتم به . وقيل : إنه لما قال لقومه « ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ . ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا » رفعوه إلى الملك وقالوا : قد تبعت عدوّنا ؛ فطوّل معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل ، إلى أن قال : « إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ » فوثبوا عليه فقتلوه . قال ٱبن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه (١) من دبره ، وأُلقى فى بئر وهى الرَّسّ وهم أصحاب الرَّسّ . وفى رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة . وقال السدى : رموه بالحجارة وهو يقول : اللهم ٱهدِ قومى حتى قتلوه . وقال الكلبى : حفروا حفرة وجعلوه فيها ، وردموا فوقه التراب فمات ردما . وقال الحسن : حرّقوه حرقا ، وعلّقوه من سور المدينة وقبره فى سور أنطاكية ؛ حكاه الثعلبى . وقال القشيرى : وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء ، فهو فى الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة ، فإذا أعاد الله الجنة أُدخلها . وقيل : نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه ، فوالله ما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها ؛ فذلك قوله : « قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ » فلما شاهدها « قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى » أى بغفران ربى لى ؛ فـ« ما » مع الفعل بمنزلة المصدر . وقيل : بمعنى الذى والعائد من الصلة محذوف . ويجوز أن تكون ٱستفهاما فيه معنى التعجب ، كأنه قال ليت قومى يعلمون بأى شىء غفر لى ربى ؛ قاله الفرّاء . وٱعترضه الكسائى فقال : لو صحّ هذا لقال بم من غير ألف . وقال الفراء : يجوز أن يقال بما بالألف وهو ٱستفهام وأنشد فيه أبياتا . الزمخشرى : « بِمَ غَفَرَ لِى » بطرح الألف أجود ، وإن كان إثباتها جائزا ؛ يقال : قد علمت بما صنعت هذا وبم صنعت . المهدوى : وإثبات الألف فى الٱستفهام قليل . فيوقف على هذا على « يَعْلَمُونَ » . وقال جماعة : معنى قيل « ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ » وجبت لك الجنة ؛ فهو خبر بأنه قد ٱستحق دخول الجنة ؛ لأن دخولها يُستحق بعد البعث .

---

(١) القصب : المعى .

قلت : والظاهر من الآية أنه لما قُتل قيل له آدخل الجنة . قال قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق؛ أراد قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » على ما تقدم في « آل عمران »(١) بيانه . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وقرئ « مِنَ الْمُكَرَّمِينَ » وفي معنى تمنيه قولان : أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته . الثاني تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله . قال ابن عباس : نصح قومه حيا وميتا . رفعه القشيري فقال : وفي الخبر أنه عليه السلام قال في هذه الآية "إنه نصح لهم في حياته وبعد موته". وقال آبن أبي ليلى : سُبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : علي بن أبي طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصدّيقون؛ ذكره الزمخشري مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في آفتدائه ، والآشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه . ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام . فلما قتل حبيب غضب الله له وعجل النقمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبيّ بعد قتله؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن . قال الحسن : الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء . وقيل : الجند العساكر؛ أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر؛ بل أهلكهم بصيحة واحدة . قال معناه ابن مسعود وغيره . فقوله : « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » تصغير لأمرهم؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء . وقيل : « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » على من كان قبلهم .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ فما بعد .

الزمخشرى : فإن قلت فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ؟ فقال : « وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » (١)، وقال : « بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » (٢) .

قلت : إنما كان يكفى ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة ، ولكن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم بكل شيء على سائر الأنبياء وأولى العزم من الرسل فضلا عن حبيب النجار ، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز مالم يوله أحدا ؛ فمن ذلك أنه أنزل له جنودا من السماء ، وكأنه أشار بقوله : « وَمَا أَنْزَلْنَا » . «وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ» إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التى لا يؤهل لها إلا مثلك ، وما كنا نفعل لغيرك . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ قراءة العامة « وَاحِدَةً » بالنصب على تقدير ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع وشيبة والأعرج : «صَيْحَةٌ» بالرفع هنا ، وفى قوله « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ » جعلوا الكون بمعنى الوقوع والحدوث ؛ فكأنه قال : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وأنكر هذه القراءة أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث فهو ضعيف ؛ كما تكون ما قامت إلا هندٌ ضعيفا ؛ من حيث كان المعنى ما قام أحد إلا هند . قال أبو حاتم : فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال : إن كان إلا صيحةٌ . قال النحاس : لا يمتنع شيء من هذا ، يقال : ما جاءتنى إلا جاريتك ، بمعنى ما جاءتنى امرأة أو جارية إلا جاريتك . والتقدير فى القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحق ، قال : المعنى إن كانت عليهم صيحة إلا صيحة واحدة ، وقدّره غيره : ما وقعت عليهم إلا صيحة واحدة . وكان بمعنى وقع كثير فى كلام العرب . وقرأ عبد الرحمن بن الأسود — ويقال إنه فى حرف عبد الله كذلك — « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً » . وهذا مخالف للمصحف . وأيضا فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح ، ومنه المثل : أثقلُ من الزَّوَاقى ؛ فكان يجب على هذا أن يكون زَقْوة . ذكره النحاس .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٢٨ فما بعد .	(٢) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ فما بعد .

قلت : وقال الجوهري : الزَّقْو والزَّقْي مصدر ، وقد زَقَا الصدى يَزْقُو زقاء : أي صاح[1] ، وكل صائح زاقٍ ، والزَّقْية الصَّيحة .

قلت : وعلى هذا يقال : زَقْوة وزَقْية لغتان ؛ فالقراءة صحيحة لا اعتراض عليها . والله أعلم .

﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ أي ميتون هامدون ؛ تشبيها بالرماد الخامد . وقال قتادة : هلكى . والمعنى واحد .

قوله تعالى : يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ منصوب ؛ لأنه نداء نكرة ولا يجوز فيه غير النصب عند البصريين . وفي حرف أُبَيّ « يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ » على الإضافة . وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيرا . وزعم الفراء أن الاختيار النصب ، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصلة كان صوابا . واستشهد بأشياء منها أنه سمع من العرب : يامُهتمّ بأمرنا لاتهتمّ . وأنشد :

* يا دارُ غيَّرها البِلَى تَغْييرا[2] *

قال النحاس : وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره ؛ لأنه يرفع النكرة المحضة ، ويرفع ما هو بمنزلة المضاف في طوله ، ويحذف التنوين متوسطا ، ويرفع ما هو في المعنى مفعول بغير علة أوجبت ذلك . فأما ما حكاه عن العرب فلا يشبه ما أجازه ؛ لأن تقدير يامُهتمّ بأمرنا لا تهتم على التقديم والتأخير ، والمعنى : يأيها المهتم لا تهتم بأمرنا . وتقدير البيت : يأيتها الدار ، ثم حوّل المخاطبة ؛ أي ياهؤلاء غيّر هذه الدار البلى ؛ كما قال الله جل وعز : « حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »[3] . فـ« حسرة » منصوب على النداء ؛ كما تقول يا رجلًا أقبل ، ومعنى النداء :

(١) في ك : « الصيد » . (٢) البيت للأحوص ؛ وتمامه :

* وسفت عليها الريح بعدك مورا *

(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ فما بعد .

هـذا موضع حضور الحسرة . الطبرى : المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندّمًا وتلهّفًا فى آستهزائهم برسل الله عليهم السلام . آبن عباس : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » أى ياويلا على العباد . وعنه أيضا : حلّ هؤلاء محلّ من يتحسر عليهم . وروى الربيع عن أنس عن أبى العالية أن العباد هاهنا الرسل؛ وذلك أن الكفار لما رأوا العذاب قالوا : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم؛ فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان؛ وقاله مجاهد . وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل . وقيل : « يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » من قول الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، لما وثب القوم لقتله . وقيل : إن الرسل الثلاثة هم الذين قالوا لما قتل القوم ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وحلّ بالقوم العذاب : يا حسرة على هؤلاء ، كأنهم تمنوا أن يكونوا قد آمنوا . وقيل : هذا من قول القوم قالوا لما قتلوا الرجل وفارقتهم الرسل ، أو قتلوا الرجل مع الرسل الثلاثة ، على آختلاف الروايات : يا حسرة على هؤلاء الرسل ، وعلى هذا الرجل ، ليتنا آمنا بهم فى الوقت الذى ينفع الإيمان . وتم الكلام على هـذا ، ثم آبتدأ فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ . وقرأ آبن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدب وعكرمة : « يَاحَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ » بسكون الهاء للحرص على البيان وتقرير المعنى فى النفس؛ إذ كان موضع وعظ وتنبيه والعرب تفعل ذلك فى مثله ، وإن لم يكن موضعا للوقف . ومن ذلك ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقطع قراءته حرفًا حرفًا ، حرصًا على البيان والإفهام . ويجوز أن يكون « عَلَى الْعِبَادِ » متعلقا بالحسرة . ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف لا بالحسرة ؛ فكأنه قدر الوقف على الحسرة فأسكن الهاء ، ثم قال : «عَلَى الْعِبَادِ» أى أتحسر على العباد . وعن آبن عباس والضحاك وغيرهما : « يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ » مضاف بحذف «على» . وهو خلاف المصحف . وجاز أن يكون من باب الإضافة إلى الفاعل فيكون العباد فاعلين ؛ كأنهم إذا شاهدوا العذاب تحسروا فهو كقولك يا قيام زيد . ويجوز أن تكون من باب الإضافة إلى المفعول ، فيكون العباد مفعولين ؛ فكأن العباد يتحسّر عليهم من يشفق لهم . وقراءة من قرأ : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » مقوّية لهذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قال سيبويه : «أنّ» بدل من « كم » ، ومعنى كم هاهنا الخبر ؛ فلذلك جاز أن يبدل منها ماليس باستفهام . والمعنى : ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون . وقال الفراء : « كَمْ » فى موضع نصب من وجهين : أحدهما بـ « يَرَوْا » وآستشهد على هذا بأنه فى قراءة آبن مسعود « أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا » . والوجه الآخر أن يكون « كَمْ » فى موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » . قال النحاس : القول الأوّل محال ؛ لأن « كَمْ » لا يعمل فيها ما قبلها ؛ لأنها آستفهام ، ومحال أن يدخل الآستفهام فى خبر ما قبله . وكذا حكمها إذا كانت خبرا ، وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل « أَنَّهُمْ » بدلا من كم . وقد ردّ ذلك محمد بن يزيد أشدّ ردّ ، وقال : « كَمْ » فى موضع نصب بـ « أَهْلَكْنَا » و « أَنَّهُمْ » فى موضع نصب ، والمعنى عنده بأنهم أى « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » بالاستئصال . قال : والدليل على هذا أنها فى قراءة عبد الله « مَنْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » . وقرأ الحسن : « إِنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » بكسر الهمزة على الاستئناف . وهذه الآية ردّ على من زعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت . ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يريد يوم القيامة للجزاء . وقرأ آبن عامر وعاصم وحمزة : « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بتشديد « لما » . وخفف الباقون . فـ«إن» مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالآبتداء ، وما بعده الخبر . وبطل عملها حين تغيّر لفظها . ولزمت اللام فى الخبر فرقا بينها وبين إن التى بمعنى ما . و«ما» عند أبى عبيدة زائدة . والتقدير عنده : وإن كلّ لجميع . قال الفرّاء : ومن شدّد جعل « لما » بمعنى إلا و « إن » بمعنى ما ؛ أى ما كلّ إلّا لجميع ؛ كقوله : « إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ »(١) . وحكى سيبويه فى قوله : سألتك بالله لما فعلت . وزعم الكسائى أنه لا يعرف هذا . وقد مضى هذا المعنى فى « هود »(٢) . وفى حرف أُبَىّ « وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

(١) راجع جـ ١٢ ص ١١٩ . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٥ فما بعد .

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ نبههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكّرهم توحيده وكمال قدرته ، وهى الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحبّ منها . ﴿ فَمِنْهُ ﴾ أى من الحب ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ وبه يتغذّون . وشدّد أهل المدينة « الْمَيِّتَةُ » وخفف الباقون ، وقد تقدّم (١) . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الأرض . ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين . ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ وخصصهما بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار . ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى فى البساتين . ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ الهاء فى « ثَمَرِهِ » تعود على ماء العيون؛ لأن الثمر منه آندرج؛ قاله الجرجانى والمهدوى وغيرهما . وقيل : أى ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا؛ كما قال : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ (٢) » . وقرأ حمزة والكسائى : « مِنْ ثُمُرِهِ » بضم الثاء والميم . وفتحهما الباقون . وعن الأعمش ضم الثاء وإسكان الميم . وقد مضى الكلام فيه فى « الأنعام (٣) » . ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ « ما » فى موضع خفض على العطف على « مِنْ ثَمَرِهِ » أى ومما عملته أيديهم . وقرأ الكوفيون : « وَمَا عَمِلَتْ » بغير هاء . الباقون « عَمِلَتْه » على الأصل من غير حذف . وحذف الصلة أيضا فى الكلام كثير لطول الاسم . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها فلا تحتاج إلى صلة ولا راجع . أى ولم تعمله أيديهم من الزرع الذى أنبته الله لهم . وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل . وقال غيرهم : المعنى ومن الذى عملته أيديهم أى من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٢٢ فما بعد .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٤٩ فما بعد .

آتخذوا من الحبوب بعلاج كالخبز والدهن المستخرج من السمسم والزيتون . وقيل : يرجع ذلك إلى ما يغرسه الناس . روى معناه عن آبن عباس أيضا . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمه .

قوله تعـالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ نزّه نفسه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عبدوا غيره مع ما رأوه من نعمه وآثار قدرته . وفيه تقـديرِ الأمر؛ أى سبّحوه ونزّهوه عما لا يليق به . وقيل : فيه معنى التعجب؛ أى عجبًا لهؤلاء فى كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات؛ ومَن تعجب من شيء قال : سبحان الله ! والأزواج الأنواع والأصناف؛ فكل زوج صنف؛ لأنه مختلف فى الألوان والطعوم والأشكال والصغر والكبر؛ فاختلافها هـو آزدواجها . وقال قتادة : يعنى الذكر والأنثى . ﴿ مِمَّـا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ يعنى من النبات؛ لأنه أصناف . ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعنى وخلق منهم أولادا أزواجا ذكورا و إناثا . ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُـونَ ﴾ أى من أصناف خلقه فى البر والبحر والسماء والأرض . ثم يجـوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر وتعلمه الملائكة . ويجوز ألا يعلمه مخلوق . ووجه الآستدلال فى هـذه الآية أنه إذا آنفرد بالخلق فلا ينبغى أن يشرك به .

قوله تعـالى : وَءَايَةٌ لَّهُـمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَـا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُـمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْـهُ النَّهَارَ ﴾ أى وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلاهيّته . والسلخ : الكشط والنزع؛ يقال : سلخه الله من دينه، ثم تستعمل بمعنى الإخراج . وقد جعـل ذهاب الضوء ومجىء الظلمة كالسلخ من الشيء وظهور المسلوخ فهى آستعارة . و﴿ مُظْلِمُـونَ ﴾ داخلون فى الظلام؛ يقال : أظلمنا أى دخلنا فى ظلام الليل، وأظهرنا دخلنا فى وقت الظهر، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا . وقيل : « منـه » بمعنى عنه، والمعنى نسلخ عنه ضـياء النهار . « فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُـونَ » أي فى ظلمة؛ لأن ضوء النهار يتداخل فى الهواء فيضيء؛ فإذا خرج منه أظلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ يجوز أن يكون تقديره وآية لهم الشمس . ويجوز أن يكون «الشمس» مرفوعا بإضمار فعل يفسره الثانى . ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ﴿ تَجْرِي ﴾ فى موضع الخبر أى جارية . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » قال "مستقرّها تحت العرش" . وفيه عن أبى ذرّ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما : "أتدرون أين تذهب هذه الشمس" ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : "إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها آرتفعى آرجعى من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرّها تحت العرش فتخرّ ساجدة ولا تزال كذلك حتى يقال لها آرتفعى ارجعى من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهى إلى مستقرّها ذاك تحت العرش فيقال لها آرتفعى أصبحى طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون متى ذلكم ذاك حين « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا »" . ولفظ البخارى عن أبى ذرّ قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبى ذرّ حين غربت الشمس : "تدرى أين تذهب" قلت الله ورسوله أعلم ؛ قال : "فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها و يوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها آرجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »" . ولفظ الترمذى عن أبى ذرّ قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبيّ صلى الله عليه وسلم جالس . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "يا أبا ذرّ أتدرى أين تذهب هذه" قال قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "فإنها تذهب فتستأذن فى السجود فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها آطلعى من حيث جئت فتطلع من مغربها" قال : ثم قرأ « ذَلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا »(1) قال وذلك قراءة عبد الله . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(1) كذا فى الأصول وفى صحيح الترمذى . ولعله تحريف ؛ إذ لا تعرف قراءة بهذا النص ؛ وقراءة عبد الله ابن مسعود « والشمس تجرى لا مستقرا لها » كما سيأتى .

وقال عكرمة : إن الشمس إذا غَرَبت دخلت محرابا تحت العرش تسبّح الله حتى تصبح ، فإذا أصبحت ٱستعفت ربها من الخروج فيقول لها الرب : ولم ذاك ؟ قالت : إنى إذا خرجت عُبِدت من دونك . فيقول الرب تبارك وتعالى : ٱخرجى فليس عليك من ذاك شيء، سأبعث إليهم جهنم مع سبعين ألف مَلَك يقودونها حتى يدخلوهم فيها . وقال الكلبي وغيره : المعنى تجرى إلى أبعد منازلها فى الغروب، ثم ترجع إلى أدنى منازلها؛ فمستقرها بلوغها الموضع الذى لا تتجاوزه بل ترجع منه؛ كالإنسان يقطع مسافة حتى يبلغ أقصى مقصوده فيقضى وَطَره، ثم يرجع إلى منزله الأوّل الذى ٱبتدأ منه سفره . وعلى تبليغ الشمس أقصى منازلها، وهو مستقرها إذا طلعت الهَنْعَة ، وذلك اليوم أطول الأيام فى السنة، وتلك الليلة أقصر الليالى، فالنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات، ثم يأخذ فى النقصان وترجع الشمس، فإذا طلعت الثريا ٱستوى الليل والنهار، وكل واحد ثنتا عشرة ساعة، ثم تبلغ أدنى منازلها وتطلع النّعائم ، وذلك اليوم أقصر الأيام ، والليل خمس عشرة ساعة ، حتى إذا طلع فَرْغ الدّلو المؤخّر ٱستوى الليل والنهار ، فيأخذ الليل من النهار كل يوم عشر ثلث ساعة، وكل عشرة أيام ثلث ساعة، وكل شهر ساعة تامة، حتى يستويا ويأخذ الليل حتى يبلغ خمس عشرة ساعة، ويأخذ النهار من الليل كذلك . وقال الحسن : إن للشمس فى السنة ثلثمائة وستين مطلعا ، تنزل فى كل يوم مطلعا ، ثم لا تنزله إلى الحول؛ فهى تجرى فى تلك المنازل وهى مستقرها . وهو معنى الذى قبله سواء . وقال ابن عباس : إنها إذا غربت وٱنتهت إلى الموضع الذى لا تتجاوزه ٱستقرت تحت العرش إلى أن تطلع .

قلت : ماقاله ٱبن عباس يجمع الأقوال فتأمله . وقيل : إلى ٱنتهاء أمدها عند ٱنقضاء الدنيا . وقرأ ٱبن مسعود وٱبن عباس « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا » أى إنها تجرى فى الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار، إلى أن يكوّرها الله يوم القيامة . وقد ٱحتج من خالف المصحف فقال : أنا أقرأ بقراءة ٱبن مسعود وٱبن عباس . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا باطل مردود على من نقله ؛ لأن أبا عمرو روى عن مجاهد عن ٱبن عباس وٱبنُ كثير روى

عن مجاهد عن ابن عباس « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » فهذان السندان عن ابن عباس اللذان يشهد بصحتهما الإجماع — يبطلان ما روى بالسند الضعيف مما يخالف مذهب الجماعة ، وما اتفقت عليه الأمة .

قلت : والأحاديث الثابتة التي ذكرناها ترد قوله ، فما أجرأه على كتاب الله ، قاتله الله . وقوله : « لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » أي إلى مستقرها ، والمستقر موضع القرار . ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ ﴾ أي الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرُ ﴾ يكون تقديره وآيةٌ لهم القمرُ . ويجوز أن يكون « وَالْقَمَرُ » مرفوعا بالابتداء . وقرأ الكوفيون « وَالْقَمَرَ » بالنصب على إضمار فعل وهو اختيار أبي عبيد . قال : لأن قبله فعلا وبعده فعلا ؛ قبله « نَسْلَخُ » وبعده « قَدَّرْنَاهُ » . النحاس : وأهل العربية جميعا فيما علمت على خلاف ما قال ، منهم الفراء قال : الرفع أعجب إليّ ، وإنما كان الرفع عندهم أولى ؛ لأنه معطوف على ما قبله ومعناه وآيةٌ لهم القمرُ . وقوله : إن قبله « نَسْلَخُ » فقبله ما هو أقرب منه وهو « تَجْرِي » وقبله « وَالشَّمْسُ » بالرفع . والذي ذكره بعده وهو « قَدَّرْنَاهُ » قد عمل في الهاء . قال أبو حاتم : الرفع أولى ؛ لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء . ويقال : القمر ليس هو المنازل فكيف قال ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ففي هذا جوابان : أحدهما قدرناه ذا منازل ؛ مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »(1) . والتقدير الآخر قدرنا له منازل ثم حذفت اللام ، وكان حذفها حسنا لتعدى الفعل إلى مفعولين مثل « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا »(2) . والمنازل ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة منها بمنزل ؛ وهي : الشَّرَطَان . الْبُطَيْن . الثُّرَيَّا . الدَّبَرَان . الهَقْعَة . الهنعة . الذِّراع . النَّثْرة . الطَّرْف . الجَبْهَة . الخَرَاتَان . الصَّرْفة . العَوَّاء . السِّمَاك . الغَفْر . الزُّبَانَيَان .

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥ فما بعد . (2) راجع جـ ٧ ص ٢٩٣ فما بعد .

الإكليل . القَلْب . الشَّوْلة . النَّعائم . البَلَدة . سَعْد الذَّابح . سَعْد بُلَع . سَعْد السُّعود . سَعْد الأَخْبِيَة . الفَرْغ المقدَّم . الفَرْغ المؤخَّر . بطن الحوت . فإذا صار القمر فى آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفلك فى ثمان وعشرين ليلة . ثم يَسْتَسِرّ ثم يطلع هلالا ، فيعود فى قطع الفلك على المنازل ، وهى منقسمة على البروج لكل برج منزلان وثلث . فللحمَل الشَّرَطان والبُطَين وثلث الثريا ، وللثور ثلثا الثريا والدَّبران وثلثا الهَقْعة ، ثم كذلك إلى سائرها . وقد مضى فى « الحجر »(١) تسمية البروج والحمد لله . وقيل : إن الله تعالى خلق الشمس والقمر من نار ثم كُسِيا النور عند الطلوع ، فأما نور الشمس فمن نور العرش ، وأما نور القمر فمن نور الكرسى ، فذلك أصل الخلقة وهذه الكسوة . فأما الشمس فتركت كسوتها على حالها لتشعشع وتشرق ، وأما القمر فأمرّ الروحُ الأمين جناحه على وجهه فمحا ضوءه بسلطان الجناح ، وذلك أنه روح والروح سلطانه غالب على الأشياء . فبقى ذلك المحو على مايراه الخلق ، ثم جعل فى غلاف من ماء ، ثم جعل له مجرى ، فكل ليلة يبدو للخلق من ذلك الغلاف قمرا بمقدار ما يقمِر لهم حتى ينتهى بدؤه ، ويراه الخلق بكماله واستدارته . ثم لا يزال يعود إلى الغلاف كل ليلة شىء منه فينقص من الرؤية والإقمار بمقدار ما زاد فى البدء . ويبتدئ فى النقصان من الناحية التى لا تراه الشمس وهى ناحية الغروب حتى يعود كالعرجون القديم ، وهو العِذْق المتقوّس ليُبسه ودقته . وإنما قيل القمر، لأنه يُقمِر أى يبيض الجوّ ببياضه إلى أن يَسْتَسِرّ .

الثانيــة — ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ قال الزجاج: هو عود العِذْق الذى عليه الشماريخ ، وهو فُعْلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أى سار فى منازله ، فإذا كان فى آخرها دقّ واستقوس وضاق حتى صار كالعُرجون . وعلى هذا فالنون زائدة . وقال قتادة : هو العِذْق اليابس المنحنى من النخلة . ثعلب : « كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » قال : « العُرْجُون » الذى يبقى من الكباسة فى النخلة إذا قطعت ، و « القَدِيم » البالى . الخليل : فى باب الرباعى « العُرْجُون » أصل العِذْق وهو أصفر عريض يشبَّه به الهلالُ إذا انحنى . الجوهرى :

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩ فما بعد .

«العرجون» أصل العِذق الذى يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا؛ وعَرْجَنه: ضربه بالعرجون . فالنون على قول هؤلاء أصلية؛ ومنه شعر أعشى بنى قيس :

شرق المسك والعبير بها(١) * فهى صفراء كعرجون القمر

فالعرجون إذا عتق ويبس وتقوس شبه القمر فى دقته وصفرته به . ويقال له أيضا الإهان والكباسة والقنو؛ وأهل مصر يسمونه الإسباطة . وقرئ : « العِرْجَوْن » بوزن الفِرجون وهما لغتان كالبُزْيون والبِزْيَون(٢)؛ ذكره الزمخشرى وقال : هو عود العِذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة . واعلم أن السنة منقسمة على أربعة فصول، لكل فصل سبعة منازل : فأولها الربيع ، وأوله خمسة عشر يوما من آذار ، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوما ؛ تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء، وسبعة منازل : الشَّرطان والبُطَين والثُّريا والدَّبران والهَقْعة والهَنْعة والذِّراع . ثم يدخل فصل الصيف فى خمسة عشر يوما من حَزِيران ، وعدد أيامه اثنان وتسعون يوما ؛ تقطع الشمس فيه ثلاثة بروج : السَّرطان ، والأسد ، والسُّنْبلة، وسبعة منازل : وهى النثرة والطَّرْف والجبهة والخَرَاتان والصَّرفة والعوَّاء والسِّماك . ثم يدخل فصل الخريف فى خمسة عشر يوما من أيلول ، وعدد أيامه أحد وتسعون يوما ، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج ؛ وهى الميزان ، والعقرب ، والقوس ، وسبعة منازل الغُفْر والزُّبانان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة . ثم يدخل فصل الشتاء فى خمسة عشر يوما من كانون الأوّل، وعدد أيامه تسعون يوما وربما كان أحدا وتسعين يوما، تقطع فيه الشمس ثلاثة بروج : وهى الجَدى والدَّلْو والحوت، وسبعة منازل سعد الذابح وسعد بُلَع وسعد السّعود وسعد الأَخبية والفَرْغ المقدم ، والفرغ المؤخر وبطن الحوت . وهذه قسمة السريانيين لشهورها : تشرين الأوّل، تشرين الثانى، كانون الأوّل، كانون الثانى، أشباط، آذار ، نيسان ، أيار ، حَزِيران ، تَمُّوز ، آب ، أيلول ، وكلها أحد وثلاثون إلا تشرين الثانى ونيسان وحزيران وأيلول ، فهى ثلاثون، وأشباط ثمانية وعشرون يوما وربع يوم .

---

(١) كذا فى الأصول ولم نعثر عليه فى ديوانه ، ويحتمل أن يكون : شرق العنبر والمسك بها .

(٢) البزيون : السندس . وقيل هو رقيق الديباج .

وإنما أردنا بهذا(١) أن تنظر فى قدرة الله تعالى ؛ فذلك قوله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » فإذا كانت الشمس فى منزل أهلّ الهلالُ بالمنزل الذى بعده، وكان الفجر بمنزلتين من قبله . فإذا كانت الشمس بالثريا فى خمسة وعشرين يوما من نيسان، كان الفجر بالشرطين، وأهلّ الهلال بالدبران، ثم يكون له فى كل ليلة منزلة حتى يقطع فى ثمان وعشرين ليلة ثمانيا وعشرين منزلة . وقد قطعت الشمس منزلتين فيقطعهما ، ثم يطلع فى المنزلة التى بعد منزلة الشمس فـ « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ ٱلْقَدِيمِ ﴾ قال الزمخشرى : القديم المحول وإذا قَدُم دَقّ وآنحنى وآصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه . وقيل : أقل عدّة الموصوف بالقديم الحَوْل، فلو أن رجلا قال : كل مملوك لى قديم فهو حر، أو كتب ذلك فى وصيته عتق من مضى له حول أو أكثر .

قلت : قد مضى فى « البقرة »(٢) ما يترتب على الأهلة من الأحكام والحمد لله .

قوله تعالى : لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ رفعت « الشمس » بالابتداء، ولا يجوز أن تعمل « لا » فى معرفة . وقد تكلم العلماء فى معنى هذه الآية، فقال بعضهم : معناها أن الشمس لا تدرك القمر فتبطل معناه . أى لكل واحد منهما سلطان على حياله ، فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه، إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك، فتطلع الشمس من مغربها على ما تقدّم فى آخر سورة « الأنعام »(٣) بيانه . وقيل : إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء . روى معناه عن آبن عباس والضحاك . وقال مجاهد : أى لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر . وقال قتادة : لكلٍّ حدّ وعَلَم لا يعدوه

(١) فى ك : « وإنما أراد بهذا أن ينظر » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٤١ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٧ ص ١٤٥ فما بعد .

ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا. وقال الحسن : إنهما لا يجتمعان فى السماء ليلة الهلال خاصة . أى لا تبق الشمس حتى يطلع القمر ، ولكن إذا غربت الشمس طلع القمر . يحيى بن سلّام : لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة ؛ لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها . وقيل : معناه إذا آجتمعا فى السماء كان أحدهما بين يدى الآخر فى منازل لا يشتركان فيها ؛ قاله آبن عباس أيضا . وقيل : القمر فى السماء الدنيا ، والشمس فى السماء الرابعة فهى لا تدركه ؛ ذكره النحاس والمهدوى . قال النحاس : وأحسن ما قيل فى معناها وأبينه مما لا يُدفَع : أن سير القمر سير سريع والشمس لا تدركه فى السير ؛ ذكره المهدوى أيضا . فأما قوله سبحانه : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ »[(1)] فذلك حين حَبْس الشمس عن الطلوع على ما تقدّم بيانه فى آخر « الأنعام »[(2)] ويأتى فى سورة « القيامة »[(1)] أيضا . وجمعهما علامة لآنقضاء الدنيا وقيام الساعة . ﴿ وَكُلٌّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يجرون . وقيل : يدورون . ولم يقل تسبح ؛ لأنه وصفها بفعل من يعقل . وقال الحسن : الشمس والقمر والنجوم فى فلك بين السماء والأرض غير ملصقة ؛ ولو كانت ملصقة ما جرت ؛ ذكره الثعلبى والماوردى . وآستدلّ بعضهم بقوله تعالى : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » على أن النهار مخلوق قبل الليل ، وأن الليل لم يسبقه بخلق . وقيل : كل واحد منهما يجيء وقته ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع بين الشمس والقمر يوم القيامة ؛ كما قال : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإنما هذا التعاقب الآن لتتم مصالح العباد . « وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »[(3)] ويكون الليل للإجمام والاستراحة ، والنهار للتصرف ؛ كما قال تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »[(4)] وقال : « وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا »[(1)] أى راحة لأبدانكم من عمل النهار . فقوله : « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » أى غالب النهار ؛ يقال : سبق فلان فلانا أى غلبه . وذكر المبرّد قال : سمعت عمارة يقرأ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » فقلت ما هذا ؟ قال : أردت سابقٌ النهارَ فحذفت التنوين ؛ لأنه أخفّ . قال النحاس : يجوز أن يكون « النهارَ » منصوبا بغير تنوين ويكون التنوين حذف لالتقاء الساكنين .

(1) راجع ج ١٩ ص ٩٤ وص ١٦٩ فما بعد .	(2) راجع ج ٧ ص ١٤٦
(3) راجع ج ١٠ ص ٢٢٧ فما بعد .	(4) راجع ج ١٣ ص ٣٠٨

قوله تعالى : وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها عبرة لهم ؛ لأن فى الآيات آعتبارا . الثانى نعمة عليهم ؛ لأن فى الآيات إنعاما . الثالث إنذار لهم ؛ لأن فى الآيات إنذارا . ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ (١) فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ من أشكل ما فى السورة ؛ لأنهم هم المحمولون . فقيل : المعنى وآية لأهل مكة أنا حملنا ذرية القرون الماضية « فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » فالضميران مختلفان ؛ ذكره المهدوى . وحكاه النحاس عن علىّ بن سليمان أنه سمعه يقوله . وقيل : الضميران جميعا لأهل مكة على أن يكون ذرياتهم أولادهم وضعفاء هم ؛ فالفلك على القول الأوّل سفينة نوح . وعلى الثانى يكون آسما للجنس ؛ خبّر جل وعز بلطفه وآمتنانه أنه خلق السفن يحمل فيها من يصعب عليه المشى والركوب من الذرية والضعفاء ، فيكون الضميران على هذا متفقين . وقيل : الذرية الآباء والأجداد، حملهم الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام ؛ فالآباء ذرية والأبناء ذرية ؛ بدليل هذه الآية ؛ قاله أبو عثمان . وسمّى الآباء ذرية ؛ لأن منهم ذرأ الأبناء . وقول رابع : أن الذرية النُّطَف حملها الله تعالى فى بطون النساء تشبيها بالفلك المشحون ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ ذكره الماوردى . وقد مضى فى « البقرة » آشتقاق الذرية والكلام فيها مستوفًى (٢) . و « الْمَشْحُونِ » المملوء الموقَر، و « الْفُلْكِ » يكون واحدا وجمعا . وقد تقدّم فى « يونس » (٣) القول فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ والأصل يركبونه فحذفت الهاء لطول الأسم (٤) وأنه رأس آية . وفى معناه ثلاثة أقوال : مذهب مجاهد وقتادة وجماعة من أهل التفسير،

(١) « ذرياتهم » بالجمع قراءة نافع . (٢) راجع ج ٢ ص ١٠٧ فما بعد .
(٣) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ (٤) كذا فى الأصول وفى إعراب القرآن للنحاس .

وروى عن ابن عباس أن معنى « مِنْ مِثْلِهِ » الإبل، خلقها لهم للركوب فى البر مثل السفن المركوبة فى البحر؛ والعرب تشبه الإبل بالسفن . قال طرفة :

كأنّ حُدُوجَ المالكيةِ غُدوةً　＊　خلايا سَفِينٍ بالنواصِفِ مِن دَدِ (١)

جمع خلّية وهى السفينة العظيمة . والقول الثانى أنه للإبل والدواب وكل ما يركب . والقول الثالث أنه للسفن؛ النحاس : وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس . « وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » قال : خلق لهم سفنا أمثالها يركبون فيها . وقال أبو مالك : إنها السفن الصغار خلقها مثل السفن الكبار؛ وروى عن ابن عباس والحسن . وقال الضحاك وغيره : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح . قال الماوردىّ : ويجىء على مقتضى تأويل على رضى الله عنه فى أن الذرية فى الفلك المشحون هى النطف فى بطون النساء قول خامس فى قوله : « وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » أن يكون تأويله النساء خلقن لركوب الأزواج لكن لم أره محكيا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ أى فى البحر فترجع الكناية إلى أصحاب الذرية، أو إلى الجميع ، وهذا يدلّ على صحة قول ابن عباس ومن قال : إن المراد « مِنْ مِثْلِهِ » السفن لا الإبل . ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى لا مغيث لهم رواه سعيد عن قتادة . وروى شيبان عنه : فلا منعة لهم ومعناهما متقاربان . و « صَرِيخَ » بمعنى مُصرِخ فعيل بمعنى فاعل . ويجوز « فَلَا صَرِيخٌ لَهُمْ »؛ لأن بعده مالا يجوز فيه إلا الرفع؛ لأنه معرفة وهو ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ والنحويون يختارون لا رجل فى الدار ولا زيد . ومعنى : « يُنْقَذُونَ » يخلصون من الغرق . وقيل : من العذاب . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ قال الكسائى : هو نصب على الاستثناء . وقال الزجاج : نصب مفعول من أجله؛ أى للرحمة ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ معطوف عليه . ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ إلى الموت؛ قاله قتادة . يحيى بن سلّام : إلى القيامة أى إلا أن نرحمهم ونمتعهم إلى آجالهم، وأن الله عجل عذاب الأمم السالفة، وأخر عذاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كذبوه إلى الموت والقيامة .

---

(١) الحدوج : جمع حدج ، وهو مركب من مراكب النساء . والمالكية منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة . والنواصف : جمع ناصفة ؛ وهى الرحبة الواسعة تكون فى الوادى . ودد : موضع .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ
إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً
وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ قال قتادة : يعني « ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم، « وَمَا خَلْفَكُمْ » من الآخرة . ابن عباس وابن جُبير ومجاهد : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من الذنوب، « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما يأتى من الذنوب . الحسن : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما مضى من أجلكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما بقى منه . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » من الدنيا، «وَمَا خَلْفَكُمْ» من عذاب الآخرة؛ قاله سفيان . وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس . قال : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ» من أمر الآخرة وما عملوا لها، «وَمَا خَلْفَكُمْ» من أمر الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها . وقيل : « مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » ما ظهر لكم « وَمَا خَلْفَكُمْ » ما خفى عنكم . والجواب محذوف، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا؛ دليله قوله بعد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى تصدّقوا على الفقراء . قال الحسن : يعنى اليهود أمروا بإطعام الفقراء . وقيل : هم المشركون قال لهم فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله؛ وذلك قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا »[1] فحرموهم وقالوا : لو شاء الله أطعمكم — آستهزاء — فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا . قالوا : ﴿ أَنُطْعِمُ ﴾ أى أنرزق ﴿ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ كان بلغهم من قول المسلمين : أن الرازق هو الله . فقالوا هزءا : أنرزق من لو يشاء الله أغناه . وعن آبن عباس : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله ! أيفقره الله ونطعمه نحن . وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون : لو شاء الله لأغنى فلانا ، ولو شاء الله لأعزّ ، ولو شاء الله لكان كذا . فأخرجوا هذا الجواب مخرج الآستهزاء بالمؤمنين ، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى . وقيل : قالوا هذا تعلقا بقول المؤمنين لهم : « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى فإذا كان الله رزقنا فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرزق منا ؟ . وكان هذا الآحتجاج باطلا ؛ لأن الله تعالى إذا ملّك عبدا مالا ثم أوجب عليه فيه حقا فكأنه آنتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى للاعتراض . وقد صدقوا فى قولهم : لو شاء الله أطعمهم ولكن كذبوا فى الآحتجاج . ومثله قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا »[1] ، وقوله : « قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ »[2] . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ قيل : هو من قول الكفار للمؤمنين ؛ أى فى سؤال المال وفى آتباعكم محمدا . قال معناه مقاتل وغيره . وقيل : هو من قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لهم . وقيل : من قول الله تعالى للكفار حين ردّوا بهذا الجواب . وقيل : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال : يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال : آبتلى قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء . فقال : والله يا أبا بكر ما أنت إلا فى ضلال ! أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت !؟ فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى »[3] الآيات . وقيل : نزلت الآية فى قوم من الزنادقة ، وقد كان فيهم أقوام يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع ، وآستهزءوا بالمسلمين بهذا القول ؛ ذكره القشيرى والماوردى .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٩ وص ١٢٨   (٢) راجع جـ١٨ص ١٢٠   (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٨٢ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ لما قيل لهم : « اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ » قالوا : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » وكان هذا استهزاء منهم أيضا أى لاتحقيق لهذا الوعيد؛ قال الله تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ ﴾ أى ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهى نفخة إسرافيل ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى يختصمون فى أمور دنياهم فيموتون فى مكانهم ؛ وهذه نفخة الصَّعْق . وفى « يَخِصِّمُون » خمس قراءات : قرأ أبو عمرو وابن كثير : « وَهُمْ يَخَصِّمُونَ » بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد . وكذا روى وَرْش عن نافع . فأما أصحاب القراءات وأصحاب نافع سوى ورش فرووا عنه « يَخْصِّمُونَ » بإسكان الخاء وتشديد الصاد على الجمع بين ساكنين . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة : « وَهُمْ يَخْصِمُونَ » بإسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه . وقرأ عاصم والكسائىّ « وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » بكسر الخاء وتشديد الصاد؛ ومعناه يخصم بعضهم بعضا . وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون فى الحجة أنهم لا يبعثون . وقد روى ابن جبير عن أبى بكر عن عاصم؛ وحماد عن عاصم كسر الياء والخاء والتشديد . قال النحاس : القراءة الأولى أبينها؛ والأصل فيها يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد فنقلت حركتها إلى الخاء . وفى حرف أُبَىّ « وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ » — وإسكان الخاء لا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين وليس أحدهما حرف مدّ ولين . وقيل : أسكنوا الخاء على أصلها؛ والمعنى يخصم بعضهم بعضا فحذف المضاف ؛ وجاز أن يكون المعنى يخصمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول . قال الثعلبى : وهى قراءة أُبَىّ بن كعب . قال النحاس : فأما « يَخِصِّمُون » فالأصل فيه أيضا يختصمون؛ فأدغمت التاء فى الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين . وزعم الفرّاء أن هذه القراءة أجود وأكثر ؛ فترك ما هو أولى من إلقاء حركة التاء على الخاء واجتلاب لها حركة أخرى وجمع بين ياء وكسرة ؛ وزعم أنه أجود وأكثر . وكيف يكون أكثر وبالفتح قراءة الخلق من أهل مكة وأهل البصرة وأهل المدينة ! وما روى عن عاصم من كسر الياء والخاء فللإتباع . وقد مضى هذا فى « البقرة »[1] فى « يَخْطَفُ

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٢

أبصارهم » وفى « يونس » « يهدّى »[1] . وقال عكرمة فى قوله جل وعز: « إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » قال : هى النفخة الأولى فى الصور . وقال أبو هريرة : يُنفخ فى الصّور والناس فى أسواقهم: فمن حالبٍ لقحة ، ومن ذارعٍ ثوبا ، ومن مارّ فى حاجة . وروى نعيم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يَلِيط[2] حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة ، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يتبلّعها حتى تقوم الساعة " . وفى حديث عبد الله بن عمرو : " وأوّل من يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله — قال — فيصعق ويصعق الناس " الحديث . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا لما فى يده من حق . وقيل : لا يستطيع أن يوصى بعضهم بعضا بالتوبة والإقلاع؛ بل يموتون فى أسواقهم ومواضعهم . ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا ماتوا . وقيل : إن معنى « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » لا يرجعون إليهم قولا . وقال قتادة : « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى إلى منازلهم؛ لأنهم قد أعجلوا عن ذلك .

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هذه النفخة الثانية للنشأة . وقد بيّنا فى سورة « النمل »[3] أنهما نفختان لا ثلاث . وهذه الآية دالة على ذلك . وروى المبارك بن فضالة

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٤١ (٢) يليط حوضه . وفى رواية يلوط حوضه : أى يطينه .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩

عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بين النفختين أربعون سنة : الأولى يميت الله بها كلّ حيّ، والأخرى يحيي الله بها كل ميّت" . وقال قتادة : الصُّور جمع صُورَة؛ أى نفخ فى الصور والأرواح . وصُورَة وصُور مثل سُورَة البناء وسُور؛ قال العَجّاج :

وربّ ذِى سُرَادِقٍ مَحْجُورِ * سِرْتُ إليـه فى أَعالِى السُّـورِ

وقد روى عن أبي هريرة أنه قرأ : « وَنُفِخَ فِي الصُّـوَرِ » . النحاس : والصحيح أن « الصور » بإسكان الواو : القَرْن؛ جاء بذلك التوقيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك معروف فى كلام العرب . أنشد أهل اللغة :

نحنُ نَطَحْنَاهُمْ غَداةَ الغُورَيْنْ * بالضَّابِحاتِ فى غُبَار النَّقْعَيْنْ

* نَطْحًا شـديدًا لا كَنَطْحِ الصُّـوَرَيْنْ *

وقد مضى هذا فى « الأنعام »[1] مستوفًى . ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور . وقرئ بالفاء « مِنَ الْأَجْدَافِ » ذكره الزمخشري . يقال: جَدَثٌ وجَدَفٌ . واللغة الفصيحة الجدث (بالثاء) والجمع أَجْدُث وأجداث؛ قال المتنخِّل الهذليّ :

عَرفتُ بأَجْدُثٍ فنِعافِ عِرْقٍ * عَلَاماتٍ كتَحْبِـير النِّمَـاطِ

وٱجتدثَ: أى ٱتخذ جَدَثا . ﴿ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ أى يخرجون؛ قاله ٱبن عبـاس وقتادة . ومنه قول ٱمرئ القيس :

* فَسُـلِّى ثِيـابِى من ثيـابِكِ تَنْسُـلِ *

ومنه قيل للولد نَسْل؛ لأنه يخرج من بطن أمه . وقيل : يسرعون . والنَّسَلان والعَسَلان : الإسراع فى السير، ومنه مشية الذئب؛ قال[2] :

عَسَلانَ الذِّئبِ أَمْسَى قارِبًا * بَرَدَ الليلُ عليه فنَسَلْ

يقال: عَسَل الذئبُ ونَسَل، يَعْسِل ويَنْسِل، من باب ضرب يضرب . ويقال: يَنْسُل بالضم أيضا . وهو الإسراع فى المشى؛ فالمعنى يخرجون مسرعين . وفى التنزيل : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ فما بعد . (٢) البيت للبيد، وقيل هو للنابغة الجعدى .

إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»[1]، وقال: «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ»[2]، وفي «سَأَلَ سَائِلٌ»[3]: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» أي يسرعون. وفي الخبر: شكونا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الضعف فقال "عليكم بالنَّسْل" أي بالإسراع في المشي فإنه ينشط.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ قال آبن الأنباري: «يَاوَيْلَنَا» وقف حسن ثم تبتدئ ﴿ مَنْ بَعَثَنَا ﴾. وروى عن بعض القراء «يَاوَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا» بكسر مِنْ والثاء من البعث. روى ذلك عن عليّ رضي الله عنه؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على قوله: «يَا وَيْلَنَا» حتى يقول ﴿ مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾. وفي قراءة أُبيّ بن كعب «مَنْ هَبَّنَا» بالوصل «مِنْ مَرْقَدِنَا» فهذا دليل على صحة مذهب العامة. قال المهدوي: قرأ آبن أبي ليلى: «قَالُوا يَاوَيْلَتَنَا» بزيادة تاء وهو تأنيث الويل، ومثله: «يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ»[4]. وقرأ عليّ رضي الله عنه «يَا وَيْلَتَا مِنْ بَعْثِنَا» ف «من» متعلقة بالويل أو حال من «ويلنا» فتتعلق بمحذوف؛ كأنه قال: يا ويلنا كائنا من بعثنا؛ وكما يجوز أن يكون خبرا عنه كذلك يجوز أن يكون حالا منه. و«مِن» من قوله: «مِنْ مَرْقَدِنَا» متعلقة بنفس البعث. ثم قيل: كيف قالوا هذا وهم من المعذبين في قبورهم؟ فالجواب أن أُبيّ بن كعب قال: ينامون نومة. وفي رواية فيقولون: يا ويلنا من أَهَبَّنَا من مرقدنا. قال أبو بكر الأنباري: لا يحمل هذا الحديث على أن «أَهبَّنا» من لفظ القرآن كما قاله من طعن في القرآن، ولكنه تفسير «بَعَثَنَا» أو معبر عن بعض معانيه. قال أبو بكر: وكذا حفظته «مَن هَبَّنَا» بغير ألف في أهبنا مع تسكين نون مَن. والصواب فيه على طريق اللغة «مَنَ اهبنَا» بفتح النون على أن فتحة همزة أهب ألقيت على نون «من» وأسقطت الهمزة؛ كما قالت العرب: من اخبرك من اعلمك؟ وهم يريدون من أخبرك. ويقال: أهببتُ النائم فهبّ النائمُ. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وعَاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْــلٍ تَلُومُنِي * ولم يَعتمِرْني قبل ذاكَ عَذُول

وقال أبو صالح: إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وبينهما أربعون سنة؛ فذلك قولهم: «مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا» وقاله آبن

(١) راجع ج ١٤ ص ٧٨
(٢) راجع ج ١٧ ص ١٣٠
(٣) راجع ج ١٨ ص ٢٧٨ وص ٢٩٦
(٤) راجع ج ٩ ص ٦٩

عباس وقتادة . وقال أهل المعانى : إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به فى قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم . قال مجاهد : فقال لهم المؤمنون: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ . قال قتادة : فقال لهم من هدى الله « هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . وقال الفراء : فقال لهم الملائكة: « هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . النحاس : وهذه الأقوال متفقة ؛ لأن الملائكة من المؤمنين وممن هدى الله عز وجل . وعلى هذا يتأول قول الله عز وجل: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ »(١) وكذا الحديث : "المؤمن عند الله خير من كل ما خلق" . ويجوز أن تكون الملائكة صلى الله عليهم وغيرهم من المؤمنين قالوا لهم : « هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . وقيل : إن الكفار لما قال بعضهم لبعض : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » صدّقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: «هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » فكذبنا به؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار . وكان حفص يقف على «مِنْ مَرْقَدِنَا» ثم يبتدئ فيقول : « هَٰذَا » . قال أبو بكر بن الأنبارى : « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا» وقف حسن؛ ثم تبتدئ : « هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » ويجوز أن تقف على مرقدنا هذا» فتخفض هذا على الإتباع للرقد، وتبتدئ : « مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » على معنى بَعْثُكم ما وعد الرحمن؛ أى بَعْثُكم وعد الرحمن . النحاس : التمام على « مِنْ مَرْقَدِنَا » و « هَٰذَا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » . ويجوز أن يكون فى موضع خفض على النعت لـ«مَرْقَدِنَا» فيكون التمام « مِنْ مَرْقَدِنَا هَٰذَا » . « مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ » فى موضع رفع من ثلاث جهات . ذكر أبو إسحاق منها اثنتين قال : يكون بإضمار هذا . والجهة الثانية أن يكون بمعنى حق ما وعد الرحمن بعثكم . والجهة الثالثة أن يكون بمعنى بعثكم ما وعد الرحمن . ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يعنى إن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة وهى قول إسرافيل : أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، والشعور المتمزقة ! إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . وهذا معنى قوله الحق : « يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ »(٢) . وقال : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ »(٢) على ما يأتى . وفى قراءة ابن مسعود إن صحّ عنه « إِنْ كَانَتْ إِلَّا زَقْيَةً

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٥ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦ فما بعد وص ١٢٥ فما بعد .

وَاحِدَةً » والزقية الصيحة ؛ وقد تقدّم هذا . ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ « فَإِذَا هُمْ » مبتدأ وخبره « جَمِيعٌ » نكرة ، و « مُحْضَرُونَ » من صفته . ومعنى « مُحْضَرُونَ » مجموعون أحضروا موقف الحساب ؛ وهو كقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ »(١) . قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى لا تنقص من ثواب عمل . ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ « مَا » فى محل نصب من وجهين : الأول أنه مفعول ثانٍ لما لم يسم فاعله . والثانى بنزع حرف الصفة ؛ تقديره : إلا بما كنتم تعملون ؛ أى تعملونه فحذف .

قوله تعالى : إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم افتضاض العذارى . وذكر الترمذى الحكيم فى كتاب مشكل القرآن له : حدّثنا محمد بن حميد الرازى ، حدّثنا يعقوب القُمّى ، عن حفص بن حميد ، عن شمر بن عطية ، عن شقيق بن سلمة ، عن عبد الله بن مسعود فى قوله : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ » قال : شغلهم افتضاض العذارى . حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا هرون بن المغيرة ، عن نهشل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس بمثله . وقال أبو قلابة : بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له تحوّل إلى أهلك فيقول أنا مع أهلى مشغول ؛ فيقال تحوّل أيضا إلى أهلك . وقيل : أصحاب الجنة فى شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصى ومصيرهم إلى النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم ؛ قاله سعيد بن المسيّب وغيره . وقال وكيع : يعنى فى السماع . وقال ابن كيسان : « فِي شُغُلٍ » أى فى زيارة بعضهم بعضا . وقيل : فى ضيافة الله تعالى . وروى أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين عبادى الذين

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٠ .

أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ؟ فيقومون كأنما وجوههم البدر والكوكب الدرىّ ، ركبانا على نجب من نور أزمتها من الياقوت ، تطير بهم على رءوس الخلائق ، حتى يقوموا بين يدى العرش ، فيقول الله جل وعز لهم : السلام على عبادى الذين أطاعونى وحفظوا عهدى بالغيب ، أنا اصطفيتكم وأنا اجتبيتكم وأنا اخترتكم ، اذهبوا فادخلوا الجنة بغير حساب فـ «لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ»(١) . فيمرون على الصراط كالبرق الخاطف فتفتح لهم أبوابها . ثم إن الخلق فى المحشر موقوفون فيقول بعضهم لبعض : ياقوم أين فلان وفلان ! ؟ وذلك حين يسأل بعضهم بعضا فينادى منادٍ «إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ» . و «شُغُلٍ» و «شُغْلٍ» لغتان قرئ بهما ، مثل الرُّعُب والرُّعْب ، والسُّحُت والسُّحْت ، وقد تقدم(٢) . ﴿فَاكِهُونَ﴾ قال الحسن : مسرورون . وقال ابن عباس : فرحون . مجاهد والضحاك : معجبون . السّدى : ناعمون . والمعنى متقارب . والفكاهة المزاح والكلام الطيّب . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج : «فَكِهُونَ» بغير ألف وهما لغتان كالفاره والفَره ، والحاذر والحَذِر ، قاله الفراء . وقال الكسائى وأبو عبيدة : الفاكه ذو الفاكهة ، مثل شاحم ولاحم وتامر ولابن ، والفَكِه : المتفكّه والمتنعم . و «فَكِهُون» بغير ألف فى قول قتادة : معجبون . وقال أبو زيد : يقال رجل فكِه إذا كان طيب النفس ضحوكا . وقرأ طلحة بن مُصرِّف : «فَاكِهِينَ» نصبه على الحال . ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ مبتدأ وخبره . ويجوز أن يكون «هُمْ» توكيدا «وَأَزْوَاجُهُمْ» عطف على المضمر ، و «مُتَّكِئُونَ» نعت لقوله «فَاكِهُونَ» . وقراءة العامة : «فِي ظِلَالٍ» بكسر الظاء والألف . وقرأ ابن مسعود وعبيد بن عمير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائى وخلف : «فى ظُلَلٍ» بضم الظاء من غير ألف ، فالظلال جمع ظِلّ ، وظُلَل جمع ظُلّة . ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يعنى السُّرر فى الحجال واحدها أريكة ، مثل سفينة وسفائن ، قال الشاعر :

كأنّ احمرارَ الوردِ فوق غُصُونِه * بوقتِ الضحى فى روضةِ المتضاحِك
خُدُودُ عذارَى قد خَجِلن من الحَيَا * تهادَيْنَ بالريحان فوق الأرائِك

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٠ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٦ ص ١٨٤ .

وفى الخبر عن أبى سعيد الخدرى قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عُدن أبكارا" . وقال ابن عباس : إنّ الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة ، لا يملّها ولا تملّه ، كلما أتاها وجدها بكرا ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ؛ فيجامعها بقوة سبعين رجلا ، لا يكون بينهما منيّ ؛ يأتى من غير منيّ منه ولا منها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ الدال الثانية مبدلة من تاء ، لأنه يفتعلون من دعا أى من دعا بشئ أعطيه . قاله أبو عبيدة ؛ فمعنى « يَدَّعُونَ » يتمنون من الدعاء . وقيل : المعنى أن من ادعى منهم شيئا فهو له ؛ لأن الله تعالى قد طبعهم على ألا يدّعى منهم أحد إلا ما يجمل ويحسن أن يدّعيه . وقال يحيى بن سلام : « يَدَّعُونَ » يشتهون . ابن عباس : يسألون . والمعنى متقارب . قال ابن الأنبارى : « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » وقف حسن ، ثم تبتدئ : « سَلَامٌ » على معنى ذلك لهم سلام . ويجوز أن يرفع السلام على معنى ولهم ما يدّعون مسلّم خالص . فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على « مَا يَدَّعُونَ » . وقال الزجاج : « سلام » مرفوع على البدل من « ما » أى ولهم أن يسلّم الله عليهم ، وهذا منَى أهل الجنة . وروى من حديث جرير بن عبد الله البَجَليّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم فإذا الربّ تعالى قد اطلع عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله : «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» . فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركاته عليهم فى ديارهم" ذكره الثعلبى والقشيرى . ومعناه ثابت فى صحيح مسلم ، وقد بيّناه فى «يونس» عند قوله تعالى : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» (1) . ويجوز أن تكون « ما » نكرة ، و « سَلَامٌ » نعتا لها ؛ أى ولهم ما يدعون مسلّم . ويجوز أن تكون «ما» رفع بالابتداء ، و «سلام» خبرعنها . وعلى هذه الوجوه لا يوقف على «وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ» . وفى قراءة ابن مسعود « سلامًا » يكون مصدرا ، وإن شئت فى موضع الحال ؛ أى ولهم

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ .

ما يدعون ذا سلام أو سلامة أو مسلّما؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يَدَّعُونَ» .
وقرأ محمد بن كعب القُرَظى «سِلْمٌ» على الاستئناف كأنه قال: ذلك سلم لهم لا يتنازعون فيه،
ويكون «وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ» تاما . ويجوز أن يكون «سَلَامٌ» بدلا من قوله: «وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ»،
وخبر «مَا يَدَّعُونَ» «لهم» . ويجوز أن يكون «سَلَامٌ» خبرا آخر، ويكون معنى الكلام
أنه لهم خالص من غير منازع فيه . ﴿ قَوْلًا ﴾ مصدر على معنى قال الله ذلك قولا . أو بقوله
قولا، ودلّ على الفعل المحذوف لفظ مصدره . ويجوز أن يكون المعنى ولهم ما يدعون قولا؛
أى عدة من الله . فعلى هذا المذهب الثانى لا يحسن الوقف على «يَدَّعُونَ» . وقال
السجستانى : الوقف على قوله «سَلَامٌ» تام؛ وهذا خطأ لأن القول خارج
مما قبله .

قوله تعالى : ﴿ وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ويقال تميّزوا وٱمّازوا وٱمتازوا بمعنى؛
ومزته فٱنماز وٱمتاز، وميّزته فتميّز. أى يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر
بأهل الجنة إلى الجنة؛ أى ٱخرجوا من جملتهم . قال قتادة : عزلوا عن كل خير . وقال
الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض؛ فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس
فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة . وعنه أيضا : إن لكل فرقة فى النار بيتا
تدخل فيه ويردّ بابه؛ فتكون فيه أبدا لا تَرى ولا تُرَى . وقال داود بن الجراح: فيمتاز المسلمون
من المجرمين، إلا أصحاب الأهواء فيكونون مع المجرمين .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية ؛ أي ألم أوصكم وأبلغكم على ألسـنة الرسل ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أي لا تطيعوه في معصيتي . قال الكسائي : لا للنهي ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ بكسر النون على الأصـل ، ومن ضم كره كسرة بعـدها ضمة . ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي عبادتي دين قويم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ ﴾ أي أغوى ﴿ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ أي خلقا كثيرا ؛ قاله مجاهد . قتادة : جموعا كثيرة . الكلبي : أممـا كثيرة ؛ والمعنى واحد . وقرأ أهل المدينة وعاصم : « جِبِلًّا » بكسر الجيم والباء . وأبو عمرو وابن عامر « جُبْلًا » بضم الجيم وإسكان الباء . الباقون « جُبُلًا » بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، وشدّدها الحسن وابن أبي إسحق وعيسى ابن عمر وعبد الله بن عبيـد والنضر بن أنس . وقرأ أبو يحيي والأشهب العقيلي « جِبْلًا » بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام . فهـذه خمس قراءات . قال المهدوي والثعلبي : وكلها لغات بمعنى الخلق . النحاس : أبينها القراءة الأولى ؛ والدليل على ذلك أنهم قد أجمعوا على أن قرءوا « وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ »(1) فيكون « جِبِلًّا » جمع جِبِلّة ، والاشتقاق فيه كله واحد . وإنمـا هو من جبـل الله عز وجل الخلق أي خلقهم . وقـد ذُكِرت قراءة سادسة وهي : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا » بالياء . وحكى عن الضحاك أن الجيل الواحد عشرة آلاف ، والكثير ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ؛ ذكره المـاوردي . ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله . ﴿ هَـذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم هـذه جهنم التي وعدتم فكذبتم بها . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قال : " إذا كان يوم القيامة جمـع الله الإنس والجن والأوّلين والآخرين في صعيد واحد ثم أشرف عنق من النار على الخلائق فأحاط بهم ثم ينادي منادٍ « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » فحينئـذ تجثو الأمم على ركبها وتضع كل ذات حمل حملها ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " .

---

(1) راجع جـ ١٣ ص ١٣٦

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : "هل تدرون ممّ أضحك؟ — قلنا الله ورسوله أعلم قال — من مخاطبة العبد ربه ، يقول يارب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلّا شاهدا منّى قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطق قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلّى بينه وبين الكلام فيقول بعدًا لكنّ وسحقًا فعنكنّ كنت أناضل" خرجه أيضا من حديث أبى هريرة . وفيه "ثم يقال له الآن نبعث شاهدَنا عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه](١) انطق فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه" . وخرج الترمذى عن معاوية بن حَيْدَة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال "من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول مايعرب عن أحدكم فخذه" فى رواية أخرى "فخذه وكفّه" الفِدام مِصْفاة الكوز والإبريق ؛ قاله الليث . قال أبو عبيد : يعنى أنهم منعوا الكلام حتى تكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفِدام الذى يجعل على الإبريق . ثم قيل فى سبب الختم أربعة أوجه : أحدها — لأنهم قالوا

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

« وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فختم الله على أفواههم حتى نطقت جوارحهم؛ قاله أبو موسى الأشعرى . الثانى — ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم؛ قاله آبن زياد . الثالث — لأن إقرار غير الناطق أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق؛ لخروجه مخرج الإعجاز، وإن كان يوما لا يحتاج إلى إعجاز. الرابع — ليعلم أن أعضاءه التى كانت أعوانا فى حق نفسه صارت عليه شهودا فى حق ربه . فإن قيل : لم قال « وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ » فجعل ما كان من اليد كلاما، وما كان من الرجل شهادة ؟ قيل : إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل؛ فلذلك عبر عما صدر من الأيدى بالقول، وعما صدر من الأرجل بالشهادة . وقد روى عن عُقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرِّجل اليسرى " ذكره الماوردى والمهدوى . وقال أبو موسى الأشعرى : إنى لأحسب أن أول ماينطق منه فخذه اليمنى؛ ذكره المهدوى أيضا . قال الماوردى : فاحتمل أن يكون تقدم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأن لذة معاصيه يدركها بحواسه التى هى فى الشطر الأسفل منها الفخذ، فجاز لقربه منها أن يتقدم فى الشهادة عليها . قال : وتقدمت اليسرى؛ لأن الشهوة فى ميامن الأعضاء أقوى منها فى مياسرها؛ فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى لقلة شهوتها .

قلت : أو بالعكس لغلبة الشهوة، أو كلاهما معاً والكفّ؛ فإن بمجموع ذلك يكون تمام الشهوة واللذة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ حكى الكسائى : طَمَس يَطمِس ويَطمُس . والمطموس والطَّمِيس عند أهل اللغة الأعمى الذى ليس فى عينيه شقّ . قال آبن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى، فلا يهتدون أبدا إلى طريق الحق . وقال الحسن والسّدى : المعنى لتركناهم عمياً يترددون . فالمعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقا إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها . وهذا آختيار الطبرى . وقوله : « فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ » أى آستبقوا الطريق ليجوزوا « فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » أى فمن أين يبصرون . وقال عطاء ومقاتل وقتادة وروى عن ابن عباس : ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم،

وأعميناهم عن غيهم ، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ؛ فاهتدوا وأبصروا رشدهم ، وتبادروا إلى طريق الآخرة . ثم قال : « فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » ولم نفعل ذلك بهم ؛ أى فكيف يهتدون وعين الهدى مطموسة ، على الضلال باقية . وقد روى عن عبد الله بن سلام فى تأويل هذه الآية غير ما تقدم ، وتأولها على أنها فى يوم القيامة . وقال : إذا كان يوم القيامة ومُدّ الصراط ، نادى منادٍ ليقم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ؛ فيقومون برّهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط ، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فُجّارهم ، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه . ثم ينادى منادٍ ليقم عيسى صلى الله عليه وسلم وأمته ؛ فيقوم فيتبعونه برّهم وفاجرهم فيكون سبيلهم تلك السبيل ، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام . ذكره النحاس وقد كتبناه فى التذكرة بمعناه حسب ما ذكره ابن المبارك فى رقائقه . وذكره القشيرى . وقال ابن عباس رضى الله عنه : أخذ الأسود بن الأسود حجرا ومعه جماعة من بنى مخزوم ليطرحه على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فطمس الله على بصره ، وألصق الحجر بيده ، فما أبصره ولا آهتدى ، ونزلت الآية فيه . والمطموس هو الذى لا يكون بين جفنيه شَقّ ، مأخوذ من طَمَس الريحُ الأثرَ ؛ قاله الأخفش والقتبى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ المسخ : تبديل الخلقة وقلبها حجرا أو جمادا أو بهيمة . قال الحسن : أى لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم . وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر . وقد يكون المسخ تبديل صورة الإنسان بهيمة ، ثم تلك البهيمة لا تعقل موضعا تقصده فتتحير ، فلا تقبل ولا تدبر . ابن عباس رضى الله عنه : المعنى لو نشاء لأهلكناهم فى مساكنهم . وقيل : المعنى لو نشاء لمسخناهم فى المكان الذى اجترءوا فيه على المعصية . ابن سلام : هذا كله يوم القيامة يطمس الله تعالى أعينهم على الصراط . وقرأ الحسن والسُّلَمى وزِرُّ بن حُبَيش وعاصم فى رواية أبى بكر : « مَكَانَاتِهِمْ » على الجمع ، الباقون بالتوحيد . وقرأ أبو حَيْوَة : « فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مَضِيًّا » بفتح الميم . والمُضى بضم الميم مصدر يَمضى مُضِيًّا إذا ذهب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ قرأ عاصم وحمزة «نُنَكِّسْهُ» بضم النون الأولى وتشديد الكاف من التنكيس . الباقون « نَنْكُسْه » بفتح النون الأولى وضم الكاف من نكستُ الشيءَ أَنْكُسُه نَكْسًا قلبته على رأسه فانتكس. قال قتادة : المعنى أنه يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا . وقال سفيان في قوله تعالى : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » إذا بلغ ثمانين سنة تغيّر جسمه وضعفت قوّته . قال الشاعر :

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدّتَه　*　وخانه ثِقَتاه السَّمْعُ والبصرُ

فطول العمر يصيِّر الشباب هَرَمًا، والقوّة ضعفا، والزيادة نقصا، وهذا هو الغالب . وقد تعوّذ صلى الله عليه وسلم من أن يردّ إلى أرذل العمر . وقد مضى في « النحل » بيانه[(1)] .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أنّ من فعل هذا بكم قادر على بعثكم . وقرأ نافع وابن ذكوان : « تعقلون » بالتاء . الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — أخبر تعالى عن حال نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وردّ قول من قال من الكفار إنه شاعر، وإن القرآن شعر، بقوله : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعاني فقط صلى الله عليه وسلم . من ذلك أنه أنشد يوما قول طرفة :

ستُبدِي لكَ الأيام ما كنتَ جاهلًا　*　ويأتيكَ من لم تزوّدْه بالأخبار

وأنشد يوما وقد قيل له من أشعر الناس فقال الذي يقول :

ألم ترياني كلّما جئت طارقاً　*　وجدتُ بها وإن لم تطيَّب طيباً

---

(١) راجع ج ١٠ ص ١٤٠ فما بعد .

وأنشد يوما :

أتجعلُ نَهْبِي ونَهْبَ العبيد * بين الأقرعِ وعُيَيْنَة

وقد كان عليه السلام ربما أنشد البيت المستقيم فى النادر . روى أنه أنشد بيت [عبد الله بن رواحة] :

يَبِيتُ يُجافى جَنْبَهُ عن فراشه * إذا آستثقلت بالمشركين المضاجعُ

وقال الحسن بن أبى الحسن : أنشد النبي عليه السلام :

* كَفَى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا *

فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله إنما قال الشاعر :

هريرةَ ودِّعْ إن تجهزْتَ غاديا * كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيَا

فقال أبو بكر أو عمر : أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وعن الخليل بن أحمد : كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام، ولكن لا يتأتَّى له .

الثانيــة — إصابته الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك ما يأتى أحيانا من نثر كلامه ما يدخل فى وزن ، كقوله يوم حُنين وغيره :

” هل أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ * وفى سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ “

وقوله :

” أنا النبيُّ لا كَذِبْ * أنا آبن عبد المطلبْ “

فقد يأتى مثل ذلك فى آيات القرآن ، وفى كل كلام ؛ وليس ذلك شعرا ولا فى معناه ؛ كقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »(1) ، وقوله : « نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ »(2) ، وقوله : « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ »(3) إلى غير ذلك من الآيات . وقد ذكر آبن العربى منها آيات وتكلم عليها وأخرجها عن الوزن، على أن أبا الحسن الأخفش قال فى قوله : ” أنا النبيّ لا كَذِبْ “ ليس بشعر . وقال الخليل فى كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزءين لا يكون شعرا . وروى عنه أنه من منهوك الرَّجز . وقد قيل :

(1) راجع جـ ٤ ص ١٣٢ (2) راجع جـ١٨ ص ٨٨ (3) راجع جـ ١٤ ص ٢٧١

لا يكون من منهوك الرجز إلا بالوقف على البـاء من قوله : " لا كذب " ، ومن قوله : " عبد المطلب " . ولم يعلم كيف قاله النبي صلى الله عليه وسلم . قال آبن العربي : والأظهر من حاله أنه قال " لا كَذِبُ " الباء مرفوعة ، وبخفض الباء من عبد المطلبِ على الإضافة . وقال النحاس قال بعضهم : إنمـا الرواية بالإعراب ، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعرا ؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأول أو ضمها أو نوّنها ، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر . وقال بعضهم : ليس هذا الوزن من الشعر . وهذا مكابرة العيان ؛ لأن أشعار العرب على هذا قد رواها الخليل وغيره . وأما قوله : " هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ " فقيل إنه من بحر السريع ، وذلك لا يكون إلا إذا كسرت التاء من دميت ، فإن سكن لا يكون شعرا بحال ؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول ، ولا مدخل لفعول في بحر السريع . ولعل النبي صلى الله عليه وسلم قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع . والمعول عليه في الآنفصال على تسليم أن هـذا شعر ، ويسقط الآعتراض ، ولا يلزم منه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عالمـا بالشعر ولا شاعر — أن التمثل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره ، لا يوجب أن يكون قائلها عالمـا بالشعر ، ولا يسمّى شاعرا باتفاق العلماء ، كما أن من خاط خيطا لا يكون خياطا . قال أبو إسحٰق الزجاج : معنى « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ » وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعرا ، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في هـذا . وقـد قيل : إنمـا خبّر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ، ولم يخبر أنه لا ينشد شعرا ، وهذا ظاهر الكلام . وقيل فيه قول بيّن ؛ زعم صاحبه أنه إجماع من أهل اللغـة ، وذلك أنهم قالوا : كل من قال قولا موزونا لا يقصد به إلى شـعر فليس بشعر وإنما وافق الشعر . وهذا قول بيّن . قالوا : وإنما الذي نفاه الله عن نبيه عليه السلام فهو العـلم بالشعر وأصنافه ، وأعاريضه وقوافيه والآتصاف بقوله ، ولم يكن موصوفا بذلك بالآتفاق . ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه إذا قدموا عليهم الموسم ، فقال بعضهم : نقول إنه شاعر . فقال أهل الفطنة منهم : والله لتكذبنكم العرب ، فإنهم يعرفون

أصناف الشعر، فوالله ما يشبه شيئًا منها، وما قوله بشعر. وقال أنيس أخو أبي ذر: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر (١) فلم يلتئم أنه شعر. أخرجه مسلم، وكان أنيس من أشعر العرب. وكذلك عتبة بن أبي ربيعة لما كلمه: والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ على ما يأتي بيانه من خبره في سورة «فصلت» (٢) إن شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرهما من فصحاء العرب العرباء، واللُّسْن البلغاء. ثم إن ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعدّ شعرا، وإنما يعدّ منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه؛ فقد يقول القائل: حدّثنا شيخ لنا وينادي يا صاحب الكسائي، ولا يعدّ هذا شعرا. وقد كان رجل ينادي في مرضه وهو من عُرض العامة العقلاء: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى.

الثالثة — روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه؛ فمن عيبه أن الله يقول: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» قال: ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: أن اجمع الشعراء قِبلك، وسَلْهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفة؛ وأحضر لَبِيدًا ذلك؛ قال: فجمعهم فسألهم فقالوا إنا لنعرفه ونقوله. وسأل لبيدا فقال: ما قلت شعرًا منذ سمعت الله عز وجل يقول: «الٓمٓ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» (٣) قال ابن العربي: هذه الآية ليست من عيب الشعر؛ كما لم يكن قوله: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ» (٤) من عيب الكتابة، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر. روى أن المأمون قال لأبي عليّ المِنْقري: بلغني أنك أميّ، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن. فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبق لساني منه بشيء، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقيم الشعر. فقال له: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل، يا جاهل! إن ذلك كان للنبي صلى الله عليه وسلم فضيلة، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة. وإنما منع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لنفي الظنة عنه، لا لعيب في الشعر والكتابة.

---

(١) أقراء الشعر: أنواعه وطرقه وبحوره ومقاصده.
(٢) راجع ص ٣٦٦ من هذا الجزء.
(٣) راجع جـ ١ ص ١٥٤
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أي وما ينبغي له أن يقوله . وجعل الله جل وعز ذلك علما من أعلام نبيه عليه السلام لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليه ؛ فيظن أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر . ولا اعتراض للملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول ؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ، ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر؛ ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا ؛ على ما تقدم بيانه . وقال الزجاج : معنى « وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » أي ما يتسهل له قول الشعر لا الإنشاء . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أي حي القلب؛ قاله قتادة . الضحاك : عاقلا . وقيل : المعنى لتنذر من كان مؤمنا في علم الله . هذا على قراءة التاء خطابا للنبي عليه السلام ، وهي قراءة نافع وابن عامر . وقرأ الباقون بالياء على معنى لينذر الله عز وجل ؛ أو لينذر محمد صلى الله عليه وسلم ، أو لينذر القرآن . وروى عن ابن السميقع « لِيَنْذَرَ » بفتح الياء والذال . ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ ﴾ هذه رؤية القلب ؛ أي أو لم ينظروا ويعتبروا ويتفكروا . ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة . و « ما » بمعنى الذي وحذفت الهاء لطول الاسم . وإن جعلت « ما » مصدرية لم تحتج إلى إضمار الهاء . ﴿ أَنْعَامًا ﴾ جمع نعم والنعم مذكر . ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ ضابطون قاهرون . ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ أي سخرناها لهم حتى يقود الصبي الجمل العظيم ويضربه ويصرفه كيف شاء لا يخرج من طاعته . ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ قراءة العامة بفتح الراء؛ أي مركوبهم ، كما يقال: ناقة

حَلوب أى محلوب . وقرأ الأعمش والحسن وابن السَّمَيْقَع : « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء على المصدر . وروى عن عائشة أنها قرأت : « فَمِنْهَا رَكُوبَتُهُمْ » وكذا فى مصحفها . والرَّكوب والرَّكوبة واحد ، مثل الحَلوب والحَلوبة ، والحَمول والحَمولة . وحكى النحويون الكوفيون : أن العرب تقول : امرأة صَبور وشَكور بغير هاء ، ويقولون : شاة حَلوبة وناقة رَكوبة ؛ لأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان له الفعل وبين ما كان الفعل واقعا عليه ، فحذفوا الهاء مما كان فاعلا وأثبتوها فيما كان مفعولا ؛ كما قال (١) :

فيهـا اثنتانِ وأربعون حَلُوبَةً * سُودًا كخافيةِ الغرابِ الأَسْحَمِ

فيجب أن يكون على هذا رَكوبتهم . فأما البصريون فيقولون : حذفت الهاء على النسب . والحجة للقول الأول ما رواه الجرمى عن أبى عبيدة قال : الرَّكوبة تكون للواحد والجماعة ، والرَّكوب لا يكون إلا للجماعة . فعلى هذا يكون لتذكير الجمع . وزعم أبو حاتم : أنه لا يجوز « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء لأنه مصـدر ؛ والرُّكوب ما يركب . وأجاز الفراء « فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ » بضم الراء ، كما تقول فمنها أكلهم ومنها شربهم . ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ من لحمانها ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغير ذلك . ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يعنى ألبانها ؛ ولم ينصرفا لأنهما من الجموع التى لا نظير لها فى الواحد . ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه .

قوله تعـالى : وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ أى قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل . ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى لما يرجون من نصرتها

(١) هو عنترة بن شداد .

لهم إن نزل بهم عذاب . ومن العرب من يقول: لعله أن يفعل . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعني الآلهة . وجمعوا بالواو والنون ؛ لأنه أخبر عنهم بخبر الآدميين . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعني الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي للآلهة ، ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال الحسن : يمنعون منهم ويدفعون عنهم . وقال قتادة : أي يغضبون لهم في الدنيا . وقيل : المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها ؛ فهم لها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وقيل : إن الآلهة جند للعابدين محضرون معهم في النار ، فلا يدفع بعضهم عن بعض . وقيل : معناه وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جند الله عليهم في جهنم ؛ لأنهم يلعنونهم ويتبرءون من عبادتهم . وقيل : الآلهة جند لهم محضرون يوم القيامة لإعانتهم في ظنونهم . وفي الخبر : إنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله فيتبعونه إلى النار ؛ فهم لهم جند محضرون .

قلت : ومعنى هذا الخبر ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، وفي الترمذي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يَطَّلِع عليهم ربُّ العالمين فيقولُ أَلَا لِيَتْبَعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يعبد فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون" وذكر الحديث بطوله . ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ هذه اللغة الفصيحة . ومن العرب من يقول يُحزِنك . والمراد تسلية نبيه عليه السلام ؛ أي لا يحزنك قولهم شاعر ساحر . وتم الكلام ، ثم آستأنف فقال : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك .

قوله تعالى : أَوَ لَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ ﴾ قال آبن عباس : الإنسان هو عبد الله بن أُبَيّ . وقال سعيد بن جبير : هو العاص بن وائل السَّهْمي . وقال الحسن : هو أُبَيّ بن خلف الجُمَحي .

وقاله ابن إسحق ، ورواه ابن وهب عن مالك . ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهو اليسير من الماء ؛ نطف إذا قطر . ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أى مجادل فى الخصومة مبين للحجة . يريد بذلك أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا . وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال : يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "نعم ويبعثك الله ويدخلك النار" فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أى ونسى أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة . أى جوابه من نفسه حاضر ؛ ولهذا قال عليه السلام : "نعم ويبعثك الله ويدخلك النار" ففى هذا دليل على صحة القياس ؛ لأن الله جل وعز احتج على منكرى البعث بالنشأة الأولى . «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» أى بالية . رمّ العظمُ فهو رَمِيمٌ ورِمَام . وإنما قال رميم ولم يقل رميمة ؛ لأنها معدولة عن فاعلة ، وما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن إعرابه ؛ كقوله : «وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا» (١) أسقط الهاء ؛ لأنها مصروفة عن باغية . وقيل : إن هذا الكافر قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن سحقتها وأذريتها فى الريح أيعيدها الله ! فنزلت : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى من غير شيء فهو قادر على إعادتها فى النشأة الثانية من شيء وهو عَجْمُ الذَّنَب . ويقال عَجْبُ الذَّنَب بالباء . ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أى كيف يبدئ ويعيد .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٩٩

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن فى العظام حياة وأنها تنجس بالموت . وهو قول أبى حنيفة وبعض أصحاب الشافعى . وقال الشافعى رضى الله عنه : لا حياة فيها . وقد تقدّم هذا فى « النحل »(١) . فإن قيل : أراد بقوله « مَنْ يُحْيِي العِظَامَ » أصحاب العظام ، وإقامة المضاف مقام المضاف إليه كثير فى اللغة ، موجود فى الشريعة . قلنا : إنما يكون إذا آحتيج لضرورة وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار ، ولا يفتقر إلى هذا التقدير ، إذا البارى سبحانه قد أخبر به وهو قادر عليه والحقيقة تشهد له ؛ فإن الإحساس الذى هو علامة الحياة موجود فيه ؛ قاله آبن العربى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ نبّه تعالى على وحدانيته ، ودل على كمال قدرته فى إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندىّ الرطب . وذلك أن الكافر قال : النطفة حارة رطبة بطبع الحياة تخرج منها الحياة ، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة ! فأنزل الله تعالى : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا » أى إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ؛ فهو القادر على إخراج الضد من الضد ، وهو على كل شىء قدير . ويعنى بالآية

(١) هذا يخالف مذهب الحنفية وما تقدم للؤلف فى ج ١٠ ص ١٥٥ من أن أبا حنيفة يقول بطهارة عظم الميتة .

ما فى المَرْخ والعَفَار، وهى زنادة العرب؛ ومنه قولهم: فى كل شجر نار واستمجد المَرْخُ والعفَار[(١)]؛ فالعَفَار الزَّنْد وهو الأعلى، والمَرْخ الزَّنْدة وهى الأسفل؛ يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحاك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار. وقال: « مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ » ولم يقل الخضراء وهو جمع، لأنه رده إلى اللفظ. ومن العرب من يقول: الشجر الخضراء؛ كما قال عز وجل: « مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ[(٢)] ». ثم قال تعالى محتجا: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أى أمثال المنكرين للبعث. وقرأ سلّام أبو المنذر ويعقوب الحضرمى: « يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » على أنه فعل. ﴿ بَلَى ﴾ أى إن خلق السموات والأرض أعظم من خلقهم؛ فالذى خلق السموات والأرض يقدر على أن يبعثهم. ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ وقرأ الحسن باختلاف عنه « الْخَالِقُ ».

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ قرأ الكسائى « فَيَكُونَ » بالنصب عطفا على « يقول » أى إذا أراد خلق شىء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة. وقد مضى هذا فى غير موضع. ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نزّه نفسه تعالى عن العجز والشرك. وملكوتُ وملكوتَى فى كلام العرب بمعنى ملك. والعرب تقول: جَبَرُوتَى خيرٌ من رَحَمُوتَى. وقال سعيد عن قتادة: « مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » مفاتح كل شىء. وقرأ طلحة بن مصرِّف وإبراهيم التيمى والأعمش، « مَلَكَةُ »، وهو بمعنى ملكوت إلا أنه خلاف المصحف. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى تردّون وتصيرون بعد مماتكم. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَمىّ وزِرّ بن حُبيش وأصحاب عبد الله « يَرْجِعُونَ » بالياء على الخبر.

---

(١) استمجد المرخ والعفار: أى استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما. وهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعض. (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢١٤.

تفسير سورة الصافات

مكية في قول الجميع

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ هذه قراءة أكثر القرّاء . وقرأ حمزة بالإدغام فيهنّ . وهذه القراءة التي نفر منها أحمد بن حنبل لما سمعها . النحاس : وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات : إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاي ، ولا من مخرج الذال ، ولا من أخواتهن ، وإنما أختاها الطاء والدال ، وأخت الزاي الصاد والسين ، وأخت الذال الظاء والثاء . والجهة الثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى . والجهة الثالثة أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة ؛ نحو دابّة وشابّة . ومجاز قراءة حمزة أن التاء قريبة المخرج من هذه الحروف . « وَالصَّافَّاتِ » قسم ؛ الواو بدل من الباء . والمعنى بربّ الصّافّات و « الزَّاجِرَاتِ » عطف عليه . ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ جواب القسم . وأجاز الكسائي فتح إن في القسم . والمراد بـ « الصَّافَّاتِ » وما بعدها إلى قوله : « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة في قول ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . تُصَفّ في السماء كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة . وقيل : تصفّ أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد . وهذا كما تقوم العبيد بين أيدي ملوكهم صفوفا . وقال الحسن : « صَفًّا » لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم . وقيل : هي الطير ؛ دليله قوله

تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ »[1] . والصف ترتيب الجمع على خط كالصفّ في الصلاة . « وَالصَّافَّاتِ » جمع الجمع؛ يقال : جماعة صافة ثم يجمع صافّات . وقيل : الصّافات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفًّا في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري . « فَالزَّاجِرَاتِ » الملائكة في قول ٱبن عباس وٱبن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه . إما لأنها تزجر السحاب وتسوقه في قول السدّي . وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح . وقال قتادة : هي زواجر القرآن . « فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى؛ قاله ٱبن مسعود وٱبن عباس والحسن ومجاهد وٱبن جُبير والسّدي . وقيل : المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع؛ لأنه كبير الملائكة فلا يخلو من جنود وأتباع . وقال قتادة : المراد كل من تلا ذكر الله تعالى وكتبه . وقيل : هي آيات القرآن وصفها بالتلاوة كما قال تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ »[2] . ويجوز أن يقال لآيات القرآن تاليات؛ لأن بعض الحروف يتبع بعضا؛ ذكره القشيري . وذكر الماوردي : أن المراد بالتّاليات الأنبياء يتلون الذكر على أممهم . فإن قيل : ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قيل له : إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود؛ كقوله[3] :

يَالَهْفَ زَيَّابَةَ للحارثِ الصـ * ـابِحِ فالغَانِمِ فالآيِبِ

كأنه قال : الذي صَبَّحَ فغَنِمَ فآب . وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل، وٱعمل الأحسن فالأجمل . وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله : رحم الله المحلّقين فالمقصّرين . فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات؛ قاله الزمخشري . « إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ » جواب القسم . قال مقاتل : وذلك أن الكفار بمكة قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحدا، وكيف يسع هذا الخلق فرد إله ! فأقسم الله بهؤلاء تشريفا .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢١٧ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٣١ .

(٣) هو سلمة بن ذهل و يعرف بابن زيابة وزيابة أبوه، وقيل أمه أمه . يقول يا لهف أبي على الحرث إذ صبح قومي بالغارة فغنم وآب سالما ألا أكون لقيته فقتلته . ويريد يا لهف نفسي . والحرث هو الحرث بن همام الشيباني كما في شرح أشعار الحماسة . وبعد هذا البيت .

والله لو لاقيته خاليا * لآب سيفانا مع الغالب

ونزلت الآية . قال ابن الأنبارى : وهو وقف حسن، ثم تبتدئ ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على معنى هو رب السموات . النحاس : ويجوز أن يكون « رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » خبرا بعد خبر، ويجوز أن يكون بدلا من « وَاحِدٌ » .

قلت : وعلى هذين الوجهين لا يوقف على «لَوَاحِدٌ» . وحكى الأخفش : «رَبَّ السَّمٰوَاتِ - وَرَبَّ الْمَشَارِقِ » بالنصب على النعت لاسم إن . بيّن سبحانه معنى وحدانيّته وألوهيته وكمال قدرته بأنه « رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى خالقهما ومالكهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى مالك مطالع الشمس . ابن عباس : للشمس كل يوم مشرق ومغرب؛ وذلك أن الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وخمسة وستين كوّة فى مطلعها، ومثلها فى مغربها على عدد أيام السنة الشمسية؛ تطلع فى كل يوم فى كوّة منها، وتغيب فى كوّة ، لا تطلع فى تلك الكوّة إلا فى ذلك اليوم من العام المقبل . ولا تطلع إلا وهى كارهة فتقول : ربّ لا تطلعنى على عبادك فإنى أراهم يعصونك . ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد ، وابن الأنبارى فى كتاب الرد عن عكرمة ؛ قال : قلت لابن عباس أرأيت ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فى أمية ابن أبى الصّلت " آمن شعرهُ وكفر قلبُه " قال : هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟ قلت : أنكرنا قوله :

والشمسُ تطلعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ * حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتوردُ
ليست بطالعةٍ لَهُمْ فى رِسْلِهَا * إلّا مُعَذَّبَةً وَإلّا تُجْلَدُ

ما بالُ الشمس تُجْلَد؟ فقال : والذى نفسى بيده ما طلعت شمس قط حتى ينخسها سبعون ألف مَلَك، فيقولون لها اطلعى اطلعى، فتقول لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله، فيأتيها ملك فيستقلّ لضياء بنى آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن الطلوع فتطلعُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما طلعت إلا بين قرنى شيطان ولا غربت إلا بين قرنى شيطان وما غربت قط إلا خرّت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدّها عن السجود فتغرُب بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها " لفظ ابن الأنبارى . وذكر

عن عكرمة عن ابن عباس قال : صدّق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمية بن أبى الصلت فى هذا الشعر :

زُحَلٌ وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يمينِهِ * والنّسر للأخرى وليثٌ مُرْصَدُ
والشمسُ تَطلعُ كلّ آخرِ ليلةٍ * حمراء يصبِحُ لونُها يتَوَرّدُ
ليست بطالعة لهم فى رِسْلِها * إلاّ مُعذَّبةً وإلاّ تُجْلَدُ

قال عكرمة : فقلت لابن عباس : يامولاى أتجلد الشمس؟ فقال : إنما اضطره الروىّ إلى الجلد لكنها تخاف العقاب . ودلّ بذكر المطالع على المغارب ؛ فلهذا لم يذكر المغارب ، وهو كقوله : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »[(١)] . وخصّ المشارق بالذكر ؛ لأن الشروق قبل الغروب . وقال فى سورة « الرحمن »[(٢)] : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » أراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس فى الأيام الطوال ، وأقصر يوم فى الأيام القصار على ما تقدّم فى « يس »[(٣)] والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة : خلقت النجوم ثلاثا ؛ رجوما للشياطين ، ونورا يهتدى بها ، وزينة لسماء الدنيا . وقرأ مسروق والأعمش والنخعى وعاصم وحمزة : « بِزِينَةٍ » مخفوض منوّن « الْكَوَاكِبِ » خفض على البدل من « زينة » لأنها هى . وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب « الْكَوَاكِبَ » بالمصدر الذى هو زينة . والمعنى بأن زينا الكواكب فيها . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ؛ كأنه قال : إنا زيناها « بزينة » أعنى « الكواكبَ » . وقيل : هى بدل من زينة على الموضع .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٩ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٦١
(٣) راجع ص ٢٧ من هذا الجزء .

ويجوز « بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبُ » بمعنى بأن زينتها الكواكبُ . أو بمعنى هى الكواكب . الباقون « بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » على الإضافة . والمعنى زينا السماء الدنيا بتزيين الكواكب ؛ أى بحسن الكواكب . ويجوز أن يكون كقراءة من نوّن إلا أنه حذف التنوين آستخفافا . ﴿ وَحِفْظًا ﴾ مصدر؛ أى حفظناها حفظا . ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ لما أخبر أن الملائكة تنزل بالوحى من السماء، بيّن أنه حرس السماء عن آستراق السمع بعد أن زيّنها بالكواكب . والمارد : العاتى من الجن والإنس، والعرب تسميه شيطانا .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ قال أبو حاتم : أى لئلا يسمعوا ثم حذف «أن» فرفع الفعل . الملأ الأعلى : أهل السماء الدنيا فما فوقها ، وسمّى الكل منهم أعلى بالإضافة إلى ملإ الأرض . الضمير فى « يَسَّمَّعُون » للشياطين . وقرأ جمهور الناس « يَسْمَعُونَ » بسكون السين وتخفيف الميم . وقرأ حمزة وعاصم فى رواية حفص « لَا يَسَّمَّعُونَ » بتشديد السين والميم من التسميع . فينتفى على القراءة الأولى سماعهم وإن كانوا يستمعون ، وهو المعنى الصحيح ، ويعضده قوله تعالى : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » . وينتفى على القراءة الأخيرة أن يقع منهم آستماع أو سماع . قال مجاهد : كانوا يتسمّعون ولكن لا يسمعون . وروى عن آبن عباس « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ » قال : هم لا يسمّعون ولا يتسمعون . وأصل « يَسَّمَّعُونَ » يتسمعون فأدغمت التاء فى السين لقربها منها . وآختارها أبو عبيد؛ لأن العرب لا تكاد تقول : سمعت إليه وتقول تسمّعت إليه . ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أى يُرمَون من كل جانب ؛ أى بالشُّهب . ﴿ دُحُورًا ﴾ مصدر؛ لأن معنى «يُقْذَفُونَ» يُدحَرون . دحرته دَحْرًا ودُحُورا أى طردته . وقرأ السُّلَمى ويعقوب الحضرمى « دَحُورًا » بفتح الدال يكون مصدرا على فعول . وأما الفرّاء فإنه قدّره على أنه آسم الفاعل . أى ويقذفون بما يدحرهم أى بدحور ثم حذف الباء ؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيرا [كما أنشدوا[1]] :

* تَمُرُّونَ الديارَ ولَمْ تَعُوجُوا *

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . والبيت لجرير وتمامه :

* كلامكم على إذن حرام *

وآختُلف هل كان هذا القذف قبل المبعث ، أو بعده لأجل المبعث ؛ على قولين . وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة «الجن»(١) عن آبن عباس . وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال : إن الذين قالوا لم تكن الشياطين تُرْمى بالنجوم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم رميت ؛ أي لم تكن تُرمَى رمياً يقطعها عن السمع ، ولكنها كانت تُرمَى وقتاً ولا تُرمَى وقتاً ، وتُرمى من جانب ولا تُرمَى من جانب . ولعل الإشارة بقوله تعالى : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » إلى هـذا المعنى ، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصباً . وإنمـا كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس ، يبلـغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره ، ويَسلَم واحد ولا يَسـلَم غيره ، بل يقبض عليه ويعاقب وينكّل . فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم زِيد في حفظ السماء ، وأعدّت لهم شُهُب لم تكن من قبل ؛ ليُدْحَروا عن جميع جوانب السماء ، ولا يُقَرّوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها ؛ فصاروا لا يقدرون على سماع شيء ممـا يجرى فيها ، إلا أن يختطف أحد منهم بخفّـة حركته خطفة ، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه ؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوّة . فإن قيل : إن هذا القذف إن كان لأجل النبوّة فلِمَ دام بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فالجواب ــ أنه دام بدوام النبوّة ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبر ببطلان الكهانة فقال : "ليس منا من تكهّن" فلو لم تحرس بعـد موته لعادت الجنّ إلى تسمّعها ، وعادت الكهانة . ولا يجوز ذلك بعد أن بطل ؛ ولأنّ قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين ، ولم يُؤمَن أن يظنوا أن الكهانة إنمـا عادت لتناهي النبوّة ، فصحّ أن الحكمة تقضى دوام الحراسة في حياة النبي عليه السلام ، وبعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي دائم ؛ عن مجاهـد وقتادة . وقال آبن عباس : شـديد . الكلبي والسدّي وأبو صالح : موجع ؛ أي الذي يصل وجعه إلى القلب ؛ مأخوذ من الوصب وهو المرض ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ آستثناء من قوله : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » وقيل : الاستثناء يرجع إلى غير

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٠

الوحى ؛ لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » فيسترق الواحد منهم شيئاً مما يتفاوض فيه الملائكة ، مما سيكون فى العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ؛ وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذ . وروى فى هذا الباب أحاديث صحاح ، مضمنها : أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد ، فيتقدّم الأجسر نحو السماء ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، فيقضى الله تعالى الأمر من أمر الأرض ، فيتحدّث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى ، فيلقيه إلى الذى تحته فربما أحرقه شهاب ، وقد ألقى الكلام ، وربما لم يحرقه على ما بيّناه . فتنزل تلك الكلمة إلى الكهّان ، فيكذبون معها مائة كذبة ، وتصدق تلك الكلمة فيصدّق الجاهلون الجميع كما بيّناه فى « الأنعام »(1) . فلما جاء الله بالإسلام حُرست السماء بشدة ، فلا يفلت شيطان سمع بتّةً . والكواكب الراجمة هى التى يراها الناس تنقضّ . قال النقاش ومكى : وليست بالكواكب الجارية فى السماء ؛ لأن تلك لا ترى حركتها ، وهذه الراجمة ترى حركتها ؛ لأنها قريبة منا . وقد مضى فى هذا الباب فى سورة « الحجر »(2) من البيان ما فيه كفاية . وذكرنا فى « سبإ »(3) حديث أبى هريرة . وفيه "والشياطين بعضهم فوق بعض" وقال فيه الترمذى حديث حسن صحيح . وفيه عن ابن عباس : "ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرّفونه ويزيدون". قال هذا حديث حسن صحيح . والخطف : أخذ الشيء بسرعة ؛ [يقال(4) :] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطِّفَ وخِطَّفَ . والأصل فى المشدّدات اختطف فأدغم التاء فى الطاء لأنها أختها ، وفتحت الخاء ؛ لأن حركة التاء ألقيت عليها . ومن كسرها فلالتقاء الساكنين . ومن كسر الطاء أتبع الكسر الكسر . ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أى مضىء ؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما . وقيل : المراد كواكب النار تتبعهم حتى تسقطهم فى البحر . وقال ابن عباس فى الشهب : تحرقهم من غير موت . وليست الشُّهُب التى يرجم الناس بها

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٣ فما بعد . (2) راجع جـ ١٠ ص ١٠ فما بعد .

(3) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٦ . (4) زيادة يقتضيها السياق ، ويدل عليها ما فى إعراب القرآن للنحاس .

من الكواكب الثوابت . يدلّ على ذلك رؤية حركاتها ، والثابتة تجرى ولا ترى حركاتها لبعدها . وقد مضى هذا . وجمع شهاب شهب ، والقياس فى القليل أشهبة وإن لم يُسمع من العرب . و « ثَاقِبٌ » معناه مضيء ؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز . ومنه قوله :

* وَزَنْدُكَ أَثْقَبُ أَزْنادِها *

أى أضوأ . وحكى الأخفش فى الجمع : شُهُبٌ ثُقُبٌ وثواقب وثقاب . وحكى الكسائى : ثَقَبتِ النارُ تثقُب ثقابةً وثقوبًا إذا آتقدت ، وأثقبتها أنا . وقال زيد بن أسلم فى الثاقب : إنه المستوقد ؛ من قولهم : أَثْقِب زَنْدَك أى آستوقد نارك ؛ قاله الأخفش . وأنشد قول الشاعر :

بينما المرءُ شِهابٌ ثاقبٌ * ضَربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمَدْ

قوله تعالى : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى سلهم يعنى أهل مكة ؛ مأخوذ من آستفتاء المفتى . ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ قال مجاهد : أى من خلقنا من السموات والأرض والجبال والبحار . وقيل : يدخل فيه الملائكة ومن سلف من الأمم الماضية . يدلّ على ذلك أنه أخبر عنهم « بمَن » قال سعيد بن جبير : الملائكة . وقال غيره : « مَنْ » الأمم الماضية وقد هلكوا وهم أشدّ خلقا منهم . نزلت فى أبى الأشد بن كَلَدَة ، وسمى بأبى الأشد لشدّة بطشه وقوّته . وسيأتى فى « البلد »(1) ذكره . ونظير هذه : « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »(2) وقوله : « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ »(3) . ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ أى لاصق ؛ قاله آبن عباس . ومنه قول علىّ رضى الله عنه :

تعلّمْ فإنّ الله زادكَ بَسطةً * وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لَازِبُ

(1) راجع ج ٢٠ ص ٦٤ (٢) راجع ص ٣٢٥ من هذا الجزء . (٣) راجع ج ١٩ ص ٢٠١

وقال قتادة وابن زيد : معنى « لَازِبٍ » لازق . الماوردى : والفرق بين اللاصق واللازق أن اللاصق : هو الذى قد لُصق بعضه ببعض ؛ واللازق : هو الذى يلتزق بما أصابه . وقال عِكرمة : « لَازِبٍ » لزج . سعيد بن جبير : أى جيد حرّ يلصق باليد . مجاهد : « لَازِبٍ » لازم . والعرب تقول : طينٌ لازِب ولازِم ؛ تبدل الباء من الميم . ومثله قولهم : لاتب ولازِم . على إبدال الباء بالميم . واللازب الثابت ؛ تقول : صار الشيء ضَرْبةَ لازبٍ ؛ وهو أفصح من لازم . قال النابغة :

ولا تَحْسَبُونَ الخيرَ لا شرَّ بعدَهُ * ولا تَحْسَبُونَ الشرَّ ضربةَ لَازِبِ

وحكى الفرّاء عن العرب : طين لاتِب بمعنى لازِم . واللاتب الثابت ؛ تقول منه : لَتَبَ يَلْتُبُ لَتْبًا ولُتُوبا ، مثل لَزَبَ يَلْزُبُ بالضم لزوبا ؛ وأنشد أبو الجرّاح فى اللاتب :

فإن يَكُ هذا من نَبِيذٍ شربتُهُ * فإنِّى من شرب النَّبِيذِ لَتَائِبُ
صُدَاعٌ وتَوْصِيمُ العِظَامِ وفَتْرَةٌ * وغَمٌّ مع الإشْرَاقِ فى الجَوفِ لَاتِبُ (١)

واللاتب أيضا : اللاصق مثل اللازب ؛ عن الأصمعى حكاه الجوهرى . وقال السدى والكلبى فى اللازب : إنه الخالص . مجاهد والضحاك : إنه المنتن .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم بفتح التاء خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به . وهى قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال :] (٢) إن الله لا يعجب من شىء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقيل : المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث . وقرأ الكوفيون إلا عاصما بضم التاء . واختارها أبو عبيد والفرّاء ، وهى مروية عن علىّ وابن مسعود ؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ : « بَلْ عَجِبْتُ » بضم التاء . ويروى عن ابن عباس . قال الفرّاء فى قوله سبحانه : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ » قرأها الناس بنصب

(١) قوله : « وغم مع الإشراق » كرواية اللسان . ورواية الطبرى : وغثى مع الإشراق .
(٢) الزيادة من تفسير الآلوسى .

التاء ورفعها، والرفع أحبّ إليّ؛ لأنها عن على وعبد الله وآبن عباس . وقال أبو زكريا الفراء : العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد ؛ وكذلك قوله : « ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »(١) ليس ذلك من الله كمعناه من العباد . وفى هذا بيان الكسر لقول شُرَيح حيث أنكر القراءة بها . روى جرير والأعمش عن أبى وائل شَقيق بن سَلَمة قال : قرأها عبد الله يعنى آبن مسعود « بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ » قال شريح : إن الله لا يعجب من شىء إنما يعجب مَن لا يعلم . قال الأعمش : فذكرته لإبراهيم فقال : إن شريحا كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شُرَيح وكان يقرؤها عبد الله « بَلْ عَجِبْتُ » . قال الهروىّ : وقال بعض الأئمة : معنى قوله « بَلْ عَجِبْتُ » بل جازيتهم على عجبهم ؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم فى غير موضع بالتعجب من الحق؛ فقال : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ »(٢) ، وقال : « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » ، « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ »(٣) فقال تعالى : « بَلْ عَجِبْتُ » بل جازيتهم على التعجّب .

قلت : وهذا تمام معنى قول الفراء وآختاره البيهقى . وقال علىّ بن سليمان : معنى القراءتين واحد، التقدير: قل يامحمد بل عجبت؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن . النحاس : وهذا قول حسن وإضمار القول كثير . البيهقى : والأول أصح . المهدوى : ويجوز أن يكون إخبار الله عن نفسه بالعجب محمولا على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كفر به مايقوم مقام العجب من المخلوقين؛ كما يُحْمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضحك لمن يرضى عنه — على ماجاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم — على أنه أظهر له من رضاه عنه مايقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازا وآتساعا . قال الهروىّ : ويقال معنى "عَجِبَ رَبُّكُم" أى رضى وأثاب، فسمّاه عجبا وليس بعجب فى الحقيقة؛ كما قال تعالى: « وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ »(٤) معناه ويجازيهم الله على مكرهم، ومثله فى الحديث "عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنوطِكم". وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيما . فيكون معنى قوله : « بَلْ عَجِبْت » أى بل عَظُم فعلهم عندى . قال البيهقى : ويشبه أن يكون هذا معنى حديث عقبة بن عامر قال :

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٧ (٢) راجع ص ١٤٩ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٥ فما بعد . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "عَجَب ربك من شاب ليست له صَبْوة"[(١)] وكذلك ما خرجه البخاري عن [أبي هريرة[(٢)] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل"] قال البيهقي : وقد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يُعَجِّب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده ، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل ، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة . وقيل : معنى « بَلْ عَجِبْتُ » بل أنكرت . حكاه النقاش . وقال الحسين بن الفضل : التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه ، وهو لغة العرب . وقد جاء في الخبر "عجب ربكم من إلِّكم[(٣)] وقُنوطكم" . ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ قيل : الواو واو الحال ، أي عجبت منهم في حال سخريتهم . وقيل : تم الكلام عند قوله : « بَلْ عَجِبْتَ » ثم ٱستأنف فقال : « وَيَسْخَرُونَ » أي مما جئت به إذا تلوته عليهم . وقيل : يسخرون منك إذا دعوتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ أي وُعظوا بالقرآن في قول قتادة . ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا ينتفعون به . وقال سعيد بن جبير : أي إذا ذُكر لهم ما حل بالمكذبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا . ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أي معجزة ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يسخرون في قول قتادة ، ويقولون إنها سحر . وٱستسخر وسخر بمعنًى مثل ٱستقر وقر ، وٱستعجب وعجب . وقيل : « يَسْتَسْخِرُونَ » أي يستدعون السخري من غيرهم . وقال مجاهد : يستهزئون . وقيل : أي يظنون أن تلك الآية سخرية . ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي إذا عجزوا عن مقابلة المعجزات بشيء قالوا هذا سحر وتخييل وخداع . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ أي أنبعث إذا متنا ؟ . فهو ٱستفهام إنكار منهم وسخرية ﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أي أوَ تبعث آباؤنا . دخلت ألف الاستفهام على حرف العطف . وقرأ نافع : « أَوْآبَاؤُنَا » بسكون الواو . وقد مضى هذا في سورة « الأعراف »[(٤)] . في قوله تعالى : « أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى » .

(١) أي ميل الى لهوى .	(٢) الزيادة من البخاري وفي الأصل بياض .

(٣) الإل : شدة القنوط . ويجوز أن يكون من رفع الصوت بالبكاء .	(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٥٣

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ أى نعم تبعثون . ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى صاغرون أذلاء ؛ لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون . وقيل : أى ستقوم القيامة و إن كرهتم ، فهذا أمر واقع على رغمكم و إن أنكرتموه اليوم بزعمكم . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أى صيحة واحدة ؛ قاله الحسن . وهى النفخة الثانية . وسمّيت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر ؛ أى يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السّوق . ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قيامٌ ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أى ينظر بعضهم إلى بعض . وقيل : المعنى ينتظرون ما يفعل بهم . وقيل : هى مثل قوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا »[(١)] . وقيل : أى ينظرون إلى البعث الذى أنكروه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ نادوا على أنفسهم بالويل ؛ لأنهم يومئذ يعلمون ماحلّ بهم . وهو منصوب على أنه مصدر عند البصريين . وزعم الفرّاء أن تقديره : يَاوَىْ لَنَا ، ووَىْ بمعنى حُزْن . النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلا وهو فى المصحف متصل ، ولا نعلم أحدا يكتبه إلا متصلا . و « يَوْمُ الدِّينِ » يوم الحساب . وقيل : يوم الجزاء . ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض ؛ أى هذا اليوم الذى كذبنا به . وقيل : هو من قول الله تعالى لهم . وقيل : من قول الملائكة ؛ أى هذا يوم الحكم بين الناس فيبين المحق من المبطل . فـ « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٤٢ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٦

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم
مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا
لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ
فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ هو من قول الله تعالى للملائكة : « ٱحْشُرُوا » المشركين « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشياعهم فى الشرك، والشرك الظلم؛ قال الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »(١) فيحشر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية . وقال عمر ابن الخطاب فى قول الله عز وجل : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » قال : الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . وقال ابن عباس : « وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشباههم . وهذا يرجع إلى قول عمر . وقيل : « وَأَزْوَاجَهُمْ » نساؤهم الموافقات على الكفر؛ قاله مجاهد والحسن، ورواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب. وقال الضحاك : « وَأَزْوَاجَهُمْ » قرناءهم من الشياطين . وهذا قول مقاتل أيضا : يحشر كل كافر مع شيطانه فى سلسلة . ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من الأصنام والشياطين وإبليس . ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى سوقوهم إلى النار . وقيل : « فَٱهْدُوهُمْ » أى دُلّوهم . يقال : هديته إلى الطريق، وهديته الطريق ؛ أى دللته عليه . وأهديتُ الهديّة وهَديتُ العروسَ ، ويقال أهديتها ؛ أى جعلتها بمنزلة الهديّة .

قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ﴾ وحكى عيسى بن عمر « أَنَّهُمْ » بفتح الهمزة . قال الكسائى : أى لأنهم وبأنهم، يقال : وَقفتُ الدابّة أقفها وَقْفا فوقفت هى وقوفا، يتعدى ولا يتعدى ؛ أى احبسوهم . وهذا يكون قبل السّوق إلى الجحيم ؛ وفيه تقديم وتأخير،

(١) راجع جـ ١٤ ص ٦٢

أى قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار . وقيل : يساقون إلى النار أولا ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار . «إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم ؛ قاله القرظى والكلبى . الضحاك : عن خطاياهم . ٱبن عباس : عن لا إله إلا الله . وعنه أيضا : عن ظلم الخلق . وفى هذا كله دليل على أن الكافر يحاسب . وقد مضى فى « الحِجْر »(١) الكلام فيه . وقيل : سؤالهم أن يقال لهم : «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ» إقامة للحجة . ويقال لهم : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ ؛ أى ينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله . وقيل : هو إشارة إلى قول أبى جهل يوم بدر : « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ »(٢) . وأصله تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا . وشدّدا ٱلْبَزِّى التاء فى الوصل .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال قتادة : مستسلمون فى عذاب الله عز وجل . ٱبن عباس : خاضعون ذليلون . الحسن : منقادون . الأخفش : ملقون بأيديهم . والمعنى متقارب . ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يعنى الرؤساء والأتباع ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يتخاصمون . ويقال لا يتساءلون فسقطت لا . النحاس : وإنما غلط الجاهل باللغة فتوهّم أن هذا من قوله : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ »(٣) إنما هو لا يتساءلون بالأرحام ، فيقول أحدهم : أسألك بالرحم الذى بينى و بينك لما نفعتنى ، أو أسقطت لى حقا لك علىّ ، أو وهبت لى حسنة . وهذا بيّن ؛ لأن قبله «فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ» . أى ليس ينتفعون بالأنساب التى بينهم ؛ كما جاء فى الحديث "إن الرجل لَيُسَرُّ(٤) بأن يصح له على أبيه أو على ٱبنه حق فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات" ، وفى حديث آخر "رحم الله ٱمرءا كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فأتاه فٱستحلّه قبل أن يطالبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب" . و « يَتَسَاءَلُونَ » هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضا ويوبخه فى أنه أضلّه أو فتح له بابا من المعصية ؛ يبين ذلك أن بعده ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين . قتادة : هو قول الإنس للجن . وقيل : هو من قول

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٤٥ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥١
(٤) فى ك : « يصبح » .

الأتباع للتبوعين ؛ دليله قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » الآية[١] . قال سعيد عن قتادة : أى تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها . وعن ابن عباس نحو منه . وقيل : تأتوننا عن اليمين التى نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح . والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح . وقيل: « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » تأتوننا مجىء من إذا حلف لنا صدّقناه . وقيل : تأتوننا من قبل الدّين فتهوّنون علينا أمر الشريعة وتنفّروننا عنها .

قلت : وهذا القول حسن جدا ؛ لأن من جهة الدّين يكون الخير والشر ، واليمين بمعنى الدّين ؛ أى كنتم تزينون لنا الضلالة . وقيل : اليمين بمعنى القوة ؛ أى تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى : « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ » أى بالقوة وقوة الرجل فى يمينه ؛ وقال الشاعر :

إذا مَا رَايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ * تلقّاها عَرابَةُ باليمينِ

أى بالقوة والقدرة . وهذا قول ابن عباس . وقال مجاهد : « تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى من قبل الحق أنه معكم ؛ وكله متقارب المعنى . ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا قول الشياطين لهم . وقيل : من قول الرؤساء ؛ أى لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم منه إلى الكفر ، بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه للإلف والعادة . ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة فى ترك الحق . ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ أى ضالين متجاوزين الحد. ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾ هو أيضا من قول المتبوعين ؛ أى وجب علينا وعليكم قول ربنا ، فكلنا ذائقو العذاب ، كما كتب الله وأخبر على ألسنة الرسل « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[٢] . وهذا موافق للحديث " إن الله جل وعز كتب للنار أهلا وللجنة أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم " . ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أى زيّنا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ بالوسوسة والاستدعاء . ثم قال خبرا عنهم : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ الضال والمضل . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أى مثل هذا الفعل ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى إذا قيل لهم قولوا فأضمر القول .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ١١٥

و « يَسْتَكْبِرُونَ » فى موضع نصب على خبر كان . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر إنّ ، وكان ملغاة . ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى طالب عند موته وآجتماع قريش "قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم" أبَوْا وأنِفُوا من ذلك . وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أنزل الله تعالى فى كتابه فذكر قوما آستكبروا فقال : «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ »" وقال تعالى : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا »(1) وهى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) آستكبر عنها المشركون يوم الحُدَيْبِيَة يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدّة؛ ذكر هذا الخبر البيهقى ، والذى قبله القشيرى .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ أى لقول شاعر مجنون ؛ فردّ الله جل وعز عليهم فقال : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى القرآن والتوحيد ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فيما جاءوا به من التوحيد . ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ الأصل لذائقون فحذفت النون آستخفافا وخفضت للإضافة . ويجوز النصب كما أنشد سيبويه :

فألفيتُه غيرَ مُسْتَعْتِبٍ * ولا ذاكرِ اللهِ إلّا قليلا

وأجاز سيبويه « وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةَ » على هذا . ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إلا بما عملتم من الشرك ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ آستثناء ممن يذوق العذاب . وقراءة أهل المدينة والكوفة « الْمُخْلَصِينَ » بفتح اللام ؛ يعنى الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته . الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لله العبادة . وقيل : هو آستثناء منقطع ؛ أى إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب .

(1) راجع ج ١٦ ص ٢٨٨

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ يعنى المخلصين ؛ أى لهم عطية معلومة لا تنقطع . قال قتادة : يعنى الجنة . وقال غيره : يعنى رزق الجنة . وقيل : هى الفواكه التى ذكر . قال مقاتل : حين يشتهونه . وقال ابن السائب : إنه بمقدار الغداة والعشى ؛ قال الله تعالى : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا »(١) . ﴿ فَوَاكِهُ ﴾ جمع فاكهة ؛ قال الله تعالى : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ »(٢) وهى الثمار كلها رطبها ويابسها ؛ قاله ابن عباس . ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ أى ولهم إكرام من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه . ﴿ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أى فى بساتين يتنعمون فيها . وقد تقدّم أن الجنان سبع فى سورة « يونس »(٣) منها النعيم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ قال عكرمة ومجاهد : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض تواصلاً وتحاباً . وقيل : الأسرّة تدور كيف شاءوا فلا يرى أحد قفا أحد . وقال ابن عباس : على سرر مكللة بالدرّ والياقوت والزبرجد ؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية ، وما بين عدن إلى أيلة . وقيل : تدور بأهل المنزل الواحد . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ لما ذكر مطاعمهم ذكر شرابهم . والكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرابه ؛ فإن كان فارغا فليس بكأس . قال الضحاك والسدى : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح . النحاس : وحكى من يوثق به من أهل اللغة

(١) راجع جـ ١١ ص ١٢٦ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٢٦ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٩ .

أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر: كأس ؛ فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح ؛ كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام: مائدة ؛ فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة . قال أبو الحسن ابن كيسان : ومنه ظعينة للهودج إذا كان فيه المرأة . وقال الزجاج : « بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض . والمعين : الماء الجاري الظاهر. ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ صفة للكأس . وقيل : للخمر . ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ قال الحسن : خمر الجنة أشدّ بياضا من اللبن . « لَذَّةٍ » قال الزجاج : أي ذات لذة فحذف المضاف . وقيل : هو مصدر جعل آسما أي بيضاء لذيذة ؛ يقال شراب لذّ ولذيذ، مثل نبات غَضّ وغضيض . فأما قول القائل(١) :

ولذٍ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تركتُهُ * بأرض العِدَا مِنْ خَشْيَةِ الحَدَثَانِ

فإنه يريد النوم . وقيل : « بَيْضَاءَ » أي لم يعتصرها الرجال بأقدامهم . ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي لا تغتال عقولهم ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع . ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ أي لا تذهب عقولهم بشربها ؛ يقال : الخمر غَوْلٌ للحِلْم ، والحرب غول للنفوس ؛ أي تذهب بها . ويقال : نُزِفَ الرجلُ يُنْزَفُ فهو منزوفٌ ونزيفٌ إذا سكر . قال آمرؤ القيس :

وإذ هي تمشي كمشي النزيـ * ـفِ يَصْرَعُه بالكثيب البَهَرْ(٢)

وقال أيضا :

نَزِيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تمايلت * تُراشِي الفؤادَ الرَّخْصَ ألَّا تَخَتَّرَا(٣)

وقال آخر(٤) :

فلثمتُ فاهَا آخذًا بقرونها * شُرْبَ النَّزِيفِ ببرد ماءِ الحَشْرَجِ

---

(١) هو الراعي . ويروى :

ولذ كطعم الصرخدى طرحته * عشية خمس القوم والعين عاشقه

والصرخد : موضع ينسب إليه الشراب . أراد أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذارا لهم .

(٢) البهر : الكلال وانقطاع النفس . (٣) الختر : ضعف يأخذ عند شراب الدواء أو السم . يقول : هي سكرى من الشراب ، إذا قامت به لوجه وجدت فتورا في عظامها وكسلا ، فهي تدارى فؤادها وتراشيه ألا يعذبها في مشيتها .

(٤) هو جميل بن معمر . وقيل البيت : لعمر بن أبي ربيعة . والحشرج : نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو .

وقرأ حمزة والكسائى بكسر الزاى؛ من أنزف القومُ إذا حان منهم النّزْف وهو السّكر. يقال: أحصدَ الزرعُ إذا حان حَصادُه، وأقطفَ الكرْمُ إذا حان قِطافُه، وأركبَ المهرُ إذا حان ركوبه. وقيل: المعنى لا ينفدون شرابهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أنزف الرجل فهو منزوف إذا فنيت خمره. قال الحطيئة:

لَعَمْرِى لئن أَنزفتمُ أو صَحَوْتمُ * لبئس النّدامَى كنتمُ آلَ أَبْجَرَا[1]

النحاس: والقراءة الأولى أبين وأصح فى المعنى؛ لأن معنى «يُنْزَفُونَ» عند جلة أهل التفسير منهم مجاهد لا تذهب عقولهم؛ فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفات التى تلحق فى الدنيا من خمرها من الصداع والسكر. ومعنى «يُنْزِفُونَ» الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نفد شرابه، وهو يبعد أن يوصف به شراب الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى لا ينفد أبدا. وقيل: «لَا يُنْزِفُونَ» بكسر الزاى لا يسكرون؛ ذكره الزجاج وأبو على على ما ذكره القُشَيرى. المهدوى: ولا يكون معناه يسكرون؛ لأن قبله «لَا فِيهَا غَوْلٌ». أى لا تغتال عقولهم فيكون تكرارا؛ ويسوغ ذلك فى «الواقعة»[2]. ويجوز أن يكون معنى «لَا فِيهَا غَوْلٌ» لا يمرضون؛ فيكون معنى «وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ» لا يسكرون أو لا ينفد شرابهم. قال قتادة: الغول وجع البطن. وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد «لَا فِيهَا غَوْلٌ» قال لا فيها وجع بطن. الحسن: صداع. وهو قول ابن عباس «لَا فِيهَا غَوْلٌ» لا فيها صداع. وحكى الضحاك عنه أنه قال: فى الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقىء والبول؛ فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال. مجاهد: داء. ابن كيسان: مغص. وهذه الأقوال متقاربة. وقال الكلبى: «لَا فِيهَا غَوْلٌ» أى إثم؛ نظيره: «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ»[2]. وقال الشعبى والسدى وأبو عبيدة: لا تغتال عقولهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا * وتذهبُ بالأولِ الأولِ

---

(١) نسبه الجوهرى إلى الأبيردى. وأبجر: هو أبجر بن جابر العجلى وكان نصرانيا.
(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢ وص ٦٨ فما بعد.

أى تصرع واحدًا واحدًا . وإنما صرف الله تعالى السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم . وقال أهل المعانى : الغول فساد يلحق فى خفاء . يقال : ٱغتاله ٱغتيالا إذا أفسد عليه أمره فى خفية . ومنه الغَوْل والغِيلة : وهو القتل خفية .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى نساء قد قَصَرْن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلى غيرهم ؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم . عكرمة : « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » أى محبوسات على أزواجهنّ . والتفسير الأوّل أبين ؛ لأنه ليس فى الآية مقصورات ولكن فى موضع آخر « مقصورات »(١) يأتى بيانه . و «قاصرات» مأخوذ من قولهم : قد ٱقتصر على كذا إذا ٱقتنع به وعدل عن غيره ؛ قال ٱمرؤ القيس :

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ منها لَأَثَّرا

ويروى : فوق الخد . والأوّل أبلغ . والإتب القميص ، والمحول الصغير من الذر . وقال مجاهد أيضا : معناه لايَغَرْنَ . ﴿ عِينٌ ﴾ عظام العيون الواحدة عيناء ؛ وقاله السّدى . مجاهد : « عِينٌ » حسان العيون . الحسن : الشديدات بياض العين ، الشديدات سوادها . والأوّل أشهر فى اللغة . يقال : رجل أعين واسع العين بيِّنُ العَيَن ، والجمع عِين . وأصله فُعْل بالضم فكسرت العين ؛ لئلا تنقلب الواو ياء . ومنه قيل لبقر الوحش عِين ، والثور أعين ، والبقرة عيناء . ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ أى مصون . قال الحسن وٱبن زيد : شُبِّهن ببيض النعام ، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة وهو أحسن ألوان النساء . وقال ٱبن عباس وٱبن جبير والسدى : شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى . وقال عطاء : شبهن بالسِّحاء الذى يكون بين القشرة العليا ولباب البيض . وسَحَاةُ كل شيء : قشره والجمع سَحًا ؛ قاله الجوهرى . ونحوه قول الطبرى ، قال : هو القشر الرقيق ، الذى على البيضة بين ذلك . وروى نحوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها ؛ قال ٱمرؤ القيس :

وبيضةِ خِدْرٍ لايرامُ خِباؤُها * تمتعت من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٨٨

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة : كأنه بيض النعام المغطّى بالريش ، وقيل : المكنون المصون عن الكسر؛ أي إنهن عذارى . وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ ؛ كقوله تعالى : « وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ »(١) أي في أصدافه ؛ قاله ابن عباس أيضا . ومنه قول الشاعر :

وهي بيضاءُ مثلُ لؤلؤة الغـ * ـوّاص ميزتْ من جوهرٍ مكنونِ

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع ؛ لأنه ردّ النعت إلى اللفظ .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم في الدنيا . وهو من تمام الأنس في الجنة . وهو معطوف على معنى « يُطَافُ عَلَيْهِم » المعنى يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشُّرّاب . قال بعضهم :

وما بَقِيتْ من اللّذاتِ إلا * أحاديثُ الكِرامِ على المُدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا ؛ إلا أنه جيء به ماضيا على عادة الله تعالى في إخباره .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ أى من أهل الجنة ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ أى صديق ملازم ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى بالبعث والجزاء . وقال سـعيد بن جبير : قرينـه شريكه . وقد مضى فى « الكهف » ذكرهما وقصتهما والاختلاف فى ٱسميهما مستوفًى عند قوله تعـالى : « وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ »(١) وفيهما أنزل الله جل وعز: «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ» إلى «مِنَ الْمُحْضَرِينَ» وقيل : أراد بالقرين قرينه من الشيطان كان يوسوس إليه بإنكار البعث . وقرئ : « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشديد الصاد ، رواه علىّ بن كيسة عن سليم عن حمزة . قال النحاس : ولا يجوز « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » لأنه لا معنى للصدقة هاهنا . وقال القشـيرى : وفى قراءة عن حمزة « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بتشـديد الصاد . وٱعترض عليه بأن هذا من التصديق لا من التصدّق . والاعتراض باطل ؛ لأن القراءة إذا ثبتت عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم فلا مجال للطعن فيها . فالمعنى « أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَّدِّقِينَ » بالمـال طلبا فى ثواب الآخرة . ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أى مجزيون محاسـبون بعد الموت ف﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لأهل الجنة: ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ . وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه فى الجنة هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين . وقيل : هو من قول الملائكة . وليس « هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ » بٱستفهام، إنمـا هو بمعنى الأمر، أى ٱطّلعوا ؛ قاله ٱبن الأعرابى وغيره . ومنه لمـا نزلت آية الخمر ، قام عمر قائمـا بين يدى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : يارب بيانا أشفى من هذا فى الخمر . فنزلت : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » قال : فنادى عمر ٱنتهينا ياربّنا . وقرأ ٱبن عباس : « هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ » بإسكان الطاء خفيفة « فَأُطْلِعَ » بقطع الألف مخفّفة على معنى هل أنتم مقبلون فأقبل . قال النحاس : « فَأُطْلِعَ فَرَآهُ » فيه قولان : أحدهما أن يكون فعلا مستقبلا معناه فأطلع أنا ، ويكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام . والقول الثانى أن يكون فعلا ماضيا ويكون ٱطّلَعَ وأُطْلِعَ واحدا . قال الزجاج : يقال طَلَعَ وأَطْلَعَ وٱطَّلَعَ بمعنًى واحد . وقدحكى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٩ فما بعد .

« هَـلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ » بكسر النون وأنكره أبوحاتم وغيره . النحاس : وهو لحن لا يجوز ؛ لأنه جمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافا لكان هـل أنتم مُطْلِعِيّ ، و إن كان سيبويه والفرّاء قد حكيا مثله ، وأنشدا :

هُمُ القـائلونَ الخـيرَ والآمِرونَهُ * إذا ماخَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما

وأنشد الفراء : والفاعلونه . وأنشد سيبويه وحده :

* ولم يَرْتَفِق والناس محتضرونه * (١)

وهذا شاذٌّ خارج عن كلام العرب ، وما كان مثل هـذا لم يحتجّ به فى كتاب الله عز وجل ، ولا يدخل فى الفصيح . وقد قيل فى توجيهه : إنه أجرى اسم الفاعل مجرى المضارع لقربه منه ، فجرى « مُطْلِعُون » مجرى يطلعون . ذكره أبو الفتح عثمان بن جنى وأنشد :

أرأيتَ إن جئتُ به أُمْلُودَا * مُرَجَّـلاً ويَلْبَس الْبُرُودَا

* أقائلُنّ أحضروا الشُّهُودَا * (٢)

فأجرى أقائلُنّ مجرى أتقولُن . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَٱطَّلَعَ فَرَآهُ » إنّ فى الجنة كُوًى ينظر أهلها منها إلى النار وأهلها . وكذلك قال كعب فيما ذكر ابن المبارك ، قال : إن بين الجنـة والنار كُوًى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا اطلع من بعض الكوى ؛ قال الله تعـالى : « فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَـوَاءِ الْجَحِيمِ » أى فى وسط النار والحَسَكُ حواليه ؛ قاله ابن مسعود . ويقال : تعبت حتى انقطع سَوَائى : أى وسطى . وعن أبى عبيدة : قال لى عيسى بن عمر : كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سَوَائى . وعن قتادة قال قال بعض العلماء : لولا أن الله جل وعز عرّفه إياه لمـا عرفه ، لقد تغيّر حِبْرُه وسِبْرُه (٣) . فعند ذلك يقول : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴾ « إن » مخففة من الثقيلة دخلت على كاد كما

---

(١) تمـامه : * جميعا وأيدى المعتفين رواهقه *

يقول : غشيه المعتفون وهم السائلون ، واحتضره الناس جميعا للعطاء ، فجلس لهم جلوس منصرف متبذل غير مرتفق .

(٢) وروى : أحضرى ؛ خطاب للرأة ، وهو الوجه ، على ما أورده الرضى فى خزانة الأدب حيث قال : ورواه العينى أحضروا بواو الجمع ولا وجه له . والرجز أورده السكرى فى أشعار هذيل لرجل منهم بلفظ : أقائلون أعجلى الشهودا .

(٣) الحبر والسبر : اللون والهيئة .

تدخل على كان . ونحوه « إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا » واللام هى الفارقة بينها و بين النافية . ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ فى النار . وقال الكسائى : « لَتُرْدِينِ » أى لتهلكنى، والردى الهلاك . وقال المبرد : لو قيل « لتردين » لتوقعنى فى النار لكان جائزا . « وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي » أى عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السوء . وما بعد لولا مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف . « لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » قال الفراء : أى لكنت معك فى النار محضرا . وأحضر لايستعمل مطلقا إلا فى الشر ؛ قاله الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ وقرئ « بِمَائِتِين » والهمزة فى « أَفَمَا » للاستفهام دخلت على فاء العطف ، والمعطوف محذوف معناه أنحن مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميتين ولا معذبين . ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى ﴾ يكون آستثناء ليس من الأول و يكون مصدرا ؛ لأنه منعوت . وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت ، ويقال : يأهل الجنة خلود ولا موت ، و يأهل النار خلود ولا موت . وقيل : هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله فى أنهم لايموتون ولا يعذّبون ؛ أى هذه حالنا وصفتنا . وقيل : هو من قول المؤمن توبيخا للكافر لما كان ينكره من البعث ، وأنه ليس إلا الموت فى الدنيا . ثم قال المؤمن مشيرا إلى ماهو فيه ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يكون « هو » مبتدأ وما بعده خبر عنه والجملة خبر إنّ . و يجوز أن يكون « هو » فاصلا . ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعدّ الله له فى الجنة وما أعطاه قال : « لِمِثْلِ هَذَا » العطاء والفضل « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . نظير ما قال له الكافر : « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا »(1) . و يحتمل أن يكون من قول الملائكة . وقيل : هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا ؛ أى قد سمعتم ما فى الجنة من الخيرات والجزاء ، و « لِمِثْلِ هَذَا » الجزاء « فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . النحاس : وتقدير الكلام — والله أعلم — فليعمل العاملون لمثل هذا . فإن قال قائل : الفاء فى العربية تدل على أن الثانى بعد الأول ، فكيف صار ما بعدها ينوى به التقديم ؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حق حروف الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة .

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٣

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ مبتدأ وخبر، وهو من قول الله جل وعز . ﴿ نُزُلًا ﴾ على البيان ؛ والمعنى أنعيم الجنة خير نزلا ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ خير نزلا . والنُّزُل في اللغة الرزق الذى له سعة — النحاس — وكذا النزْل إلا أنه يجوز أن يكون النزْل بإسكان الزاى لغة ، ويجوز أن يكون أصله النُّزُل؛ ومنه أقيم للقوم نُزُلهم، وآشتقاقه أنه الغذاء الذى يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه . وقد مضى هذا فى آخر سورة « آل عمران »(١) . وشجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها . قال المفسرون : وهى فى الباب السادس، وأنها تحيا بلهب النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء ؛ فلا بد لأهل النار من أن ينحدر إليها مَن كان فوقها فيأكلون منها ، وكذلك يصعد إليها من كان أسفل . وآختلف فيها هل هى من شجر الدنيا التى تعرفها العرب أم لا على قولين : أحدهما أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا آختلفوا فيها ؛ فقال قطرب : إنها شجرة مُرّة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل . القول الثانى : إنها لا تعرف فى شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية فى شجرة الزقوم قالت كفار قريش : مانعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزُّبْد والتمْر . فقال ابن الزِّبَعْرى : أكثر الله فى بيوتنا الزقوم . فقال أبو جهل لجاريته : زَقِّمينا ؛ فأتته بزبد وتمر . ثم قال لأصحابه : تزقّموا ؛ هذا الذى يخوّفنا به محمد ؛ يزعم أن النار تنبت الشجر، والنار تحرق الشجر !

---

(١) راجع ج ٤ ص ٣٢١

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى المشركين ، وذلك أنهم قالوا : كيف تكون فى النار شجرة وهى تحرق الشجر؟ وقد مضى هذا المعنى فى « سبحان »(١) وآستخفافهم فى هذا كقولهم فى قوله تعالى: « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »(٢) ، ماالذى يخصص هذا العدد ؟ حتى قال بعضهم : أنا أكفيكم منهم كذا فآكفونى الباقين . فقال الله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » والفتنة الآختبار ، وكان هذا القول منهم جهلا ، إذ لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب وخزنة النار . وقيل : هذا الآستبعاد الذى وقع للكفار هو الذى وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على نعيم أوعقاب تتخلله الأرواح ، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معانى زوّروها فى أنفسهم ، دون ما فهمه المسلمون من موارد الشرع ، و إذا ورد خبر الصادق بشيء موهوم(٣) فى العقل ، فالواجب تصديقه و إن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل فى موضع إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء[من غير مصير(٤) إلى علم الباطن . وقيل إنها فتنة أى عقوبة للظالمين] ؛ كما قال : « ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ »(٥) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ أى قعر النار ومنها منشؤها ثم هى متفرعة فى جهنم . ﴿ طَلْعُهَا ﴾ أى ثمرها ؛ سمى طلعا لطلوعه . ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ قيل : يعنى الشياطين بأعيانهم شبهها برءوسهم لقبحهم، ورءوس الشياطين متصوّر فى النفوس و إن كان غير مرئى . ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة هى كصورة مَلَك . ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحب يوسف : « مَاهَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ »(٦) وهذا تشبيه تخييلى؛ روى معناه عن آبن عباس والقُرَظى . ومنه قول آمرئ القيس :

* ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيـابِ أَغْوَالِ(٧) *

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٣ (٢) راجع ج ١٩ ص ٧٧ (٣) فى ك : «بشئ هو موهوم» .
(٤) ما بين المربعين ساقط من ح . (٥) راجع ج ١٧ ص ٣٥ (٦) راجع ج ٩ ص ١٨١
(٧) أراد بالمسنونة الزرق سهاما محددة الأزجة صافية . وصدر البيت :

* أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى *

و إن كانت الغولُ لا تعرف ؛ ولكن لما تصوّر من قبحها فى النفوس . وقد قال الله تعالى : « شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ »(١) فمردة الإنس شياطين مرئية . وفى الحديث الصحيح "ولكأنّ نخلها رءوس الشياطين" وقد ادعى كثير من العرب رؤية الشياطين والغيلان . وقال الزجاج والفراء : الشياطين حيات لها رءوس وأعراف ، وهى من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسما . قال الراجز وقد شبه المرأة بحية لها عُرْف :

عَنْجَرِدٌ تَحْلِفُ حين أحلِفُ * كمثلِ شيطانِ الحَمَاطِ أَعْرَفُ

الواحدة حَمَاطة . والأعرف الذى له عُرْف . وقال الشاعر يصف ناقته :

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيٍّ كأنّه * تَمَعُّجُ شيطانٍ بذى خِرْوَعٍ قَفْرِ

التَّمَعُّج : الاعوجاج فى السير، وسهم مَعُوج : يتلوى فى ذهابه . وتَمَعَّجت الحية : إذا تلوت فى سيرها . وقال يصف زمام الناقة(٢) :

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيٍّ كأنه * تَمَعُّجُ شيطانٍ بذى خِرْوَعٍ قَفْرِ

وقيل : إنما شبه ذلك بنبت قبيح فى اليمن يقال له الأَسْتَن والشيطان . قال النحاس : وليس ذلك معروفا عند العرب . الزمخشرى : هو شجر خشن منتن مُرّ منكر الصورة يسمى ثمره رءوس الشياطين . النحاس : وقيل الشياطين ضرب من الحيات قباح . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة . وقال فى « الغاشية »(٣) : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » وسيأتى . ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أى بعد الأكل من الشجرة ﴿لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب الخلط ، والشَّوْب والشُّوب لغتان كالفَقْر والفُقْر والفتح أشهر . قال الفراء : شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشىء يشوبهما شوبا وشيابة . فأخبر أنه يشاب لهم . والحميم : الماء الحار ليكون أشنع ؛ قال الله تعالى : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ »(٤) . السّدى : يشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم . وقيل : يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ؛ تغليظا لعذابهم وتجديدا

(١) راجع جـ ٧ ص ٦٨ . (٢) كذا فى الأصل ولعل العبارة والبيت هنا تكرار مع ما سبق ، وصواب العبارة الأولى « قال الشاعر يصف زمام ناقته » بزيادة لفظ زمام . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٢٩ .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ .

لبلائهم . ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ قيل : إن هـذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم فى عذاب غير النار ثم يردّون إليها . وقال مقاتل : الحميم خارج الجحيم فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردّون إلى الجحيم ؛ لقوله تعالى : « هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »(١) . وقرأ آبن مسعود : «ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون « ثم » بمعنى الواو . القشيرى : ولعل الحميم فى موضع من جهنم على طرف منها .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أى صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم . ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ أى يسرعون ؛ عن قتادة . وقال مجاهد : كهيئة الهرولة . قال الفراء : الإهراع الإسراع برعدة . وقال أبو عبيدة : « يُهْرَعُونَ » يُستحثون من خلفهم . ونحوه قول المبرّد . قال : المُهْرَع المستحث ؛ يقال : جاء فلان يُهْرَع إلى النار إذا آستحثه البرد إليها . وقيل : يُزعجون من شدّة الإسراع ؛ قاله الفضل . الزجاج : يقال هُرِع وأُهْرِع إذا آستحث وأزعج .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى من الأمم الماضية . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أى رسلا أنذروهم العذاب فكفروا . ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى آخر أمرهم . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين آستخلصهم الله من الكفر . وقد تقدّم(٢) . ثم قيل : هو آستثناء من « الْمُنْذَرِينَ » . وقيل هو من قوله تعالى : « وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ » .

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٧٥ (٢) راجع جـ ١ ص ٢٨

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ من النداء الذي هو الاستغاثة ؛ ودعا قيل بمسألة هلاك قومه . فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »(١) . ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ قال الكسائي : أي « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » له كنا . ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يعني أهل دينه ، وهم من آمن معه ، وكانوا ثمانين على ما تقدّم(٢) . ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو الغرق . ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه ؛ فذلك قوله : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . وقال سعيد بن المسيّب : كان ولد نوح ثلاثة والناس كلّهم من ولد نوح : فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى . وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب : السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم . ويافث أبو الصقالبة والترك [واللان(٣)] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك . وقال قوم : كان لغير ولد نوح أيضا نسل ؛ بدليل قوله : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ »(٤) . وقوله : « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٥) فعلى هذا معنى الآية : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » دون ذرية من كفر فإنا أغرقنا أولئك .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٥ .

(٣) في الأصول : « والأبر » ولعله تحريف إذ لا تعرف أمة من ولد يافث بهذا الاسم . والذي ذكره المسعودي وغيره « واللان من ولد يافث » . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢١٣ . (٥) راجع جـ ٩ ص ٤٨ .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى تركنا عليه ثناء حسنا فى كل أمة ، فإنه مُحَبَّب إلى الجميع ؛ حتى إن فى المجوس من يقول إنه أفريدون . روى معناه عن مجاهد وغيره . وزعم الكسائى أن فيه تقديرين : أحدهما « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ » يقال : « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » أى تركنا عليه هذا الثناء الحسن . وهذا مذهب أبى العباس المبرّد . أى تركنا عليه هذه الكلمة باقية ؛ يعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له ؛ وهو من الكلام المحكى ؛ كقوله تعالى : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا »[1] . والقول الآخر أن يكون المعنى وأبقينا عليه ؛ وتم الكلام ثم ابتدأ فقال : « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » أى سلامة له من أن يذكر بسوء « فِي الْآخِرِينَ » . قال الكسائى : وفى قراءة ابن مسعود « سلاما » منصوب بـ « تركنا » أى تركنا عليه ثناء حسنا سلاما . وقيل : « فِي الْآخِرِينَ » أى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : فى الأنبياء إذ لم يبعث بعده نبىّ إلا أمر بالاقتداء به ؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا »[2] . وقال سعيد ابن المسيّب : وبلغنى أنه من قاله حين يمسى « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » لم تلدغه عقرب . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وفى الموطأ عن خولة بنت حكيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من نزل منزلا فليقل أعوذ بكلمات الله التامّاتِ من شر ما خلق فإنه لن يضره شىء حتى يرتحل " . وفيه عن أبى هريرة أن رجلا من أسلم قال : ما نمت هذه الليلة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أى شىء " فقال : لدغتنى عقرب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما إنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرّك " .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نبقى عليهم الثناء الحسن . والكاف فى موضع نصب ؛ أى جزاء كذلك . ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا بيان إحسانه . قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى من كفر . وجمعه أُخَر . والأصل فيه أن يكون معه « مِن » إلا أنها حذفت ؛ لأن المعنى معروف ، ولا يكون آخرا إلا وقبله شىء من جنسه . « ثمّ » ليس للتراخى ها هنا بل هو لتعديد النعم ؛ كقوله : « أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا »[3] أى ثم أخبركم أنى قد أغرقت الآخرين ، وهم الذين تأخروا عن الإيمان .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٥٨ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٩ . (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٧١ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال ابن عباس : أى من أهل دينه . وقال مجاهد : أى على منهاجه وسنته . قال الأصمعى : الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار حتى يستوقد . وقال الكلبى والفراء : المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم . فالهاء فى « شيعته » على هذا لمحمد عليه السلام . وعلى الأوّل لنوح وهو أظهر ، لأنه هو المذكور أوّلا ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح ، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ، حكاه الزمخشرى .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى مخلص من الشرك والشك . وقال عوف الأعرابى : سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ فقال : الناصح لله عز وجل فى خلقه . وذكر الطبرى عن غالب القطان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجاج : مسكين أبو محمد ! إن عذبه الله فبذنبه ، وإن غفر له فهنيئا له ، وإن كان قلبه سليما فقد أصاب الذنوب من هو خير منه . قال عوف : فقلت لمحمد ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال هشام بن عروة : كان أبى يقول لنا : يا بنىّ لا تكونوا لعّانين ، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئا قط ، فقال تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . ويحتمل مجيئه إلى ربه وجهين : أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته ، الثانى عند إلقائه فى النار . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ وهو آزر(١) ، وقد مضى الكلام فيه . ﴿ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ تكون «ما» فى موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره . ويجوز أن تكون

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢ فما بعد .

«ما» و «ذا» فى موضع نصب بـ«تعبدون» . ﴿ أَئِفْكًا ﴾ نصب على المفعول به؛ بمعنى أتريدون إفكا . قال المبرّد : والإفك أسوأ الكذب، وهو الذى لا يثبت ويضطرب، ومنه ٱئتفكت بهم الأرض . ﴿ آلِهَةً ﴾ بدل من إفك ﴿ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أى تعبدون . ويجوز أن يكون حالا بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين . ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ فهو تحذير، مثل قوله : « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ »(١) . وقيل : أى شىء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره .

قوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ قال ٱبن زيد عن أبيه : أرسل إليه ملكهم إنّ غدًا عيدُنا فآخرج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمى . وكان علم النجوم مستعملا عندهم منظورا فيه ، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذرا لنفسه ؛ وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر فى النجوم . وقال ٱبن عباس : كان علم النجوم من النبوّة ، فلما حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم فيها عِلْمًا نبويًّا . وحكى جُوَيبر عن الضحاك : كان علم النجوم باقيا إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه فى موضع لا يطلع عليه منه ، فقالت لهم مريم : من أين علمتم بموضعه ؟ قالوا : من النجوم . فدعا ربه عند ذلك فقال : اللهم لا تفهمهم فى علمها، فلا يعلم علم النجوم أحد ؛ فصار حكمها فى الشرع محظورا ، وعلمها فى الناس مجهولا . قال الكلبى : وكانوا فى قرية بين البصرة والكوفة يقال لها هرمزجرد(٢)، وكانوا ينظرون فى النجوم . فهذا قول . وقال الحسن : المعنى أنهم لما كلّفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل . فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأى ؛ أى فيما طلع له منه، فعلم أن كل حىّ يَسْقَم فقال : « إِنِّي سَقِيمٌ » . الخليل والمبرّد : يقال للرجل إذا فكّر فى الشىء يدبّره : نظر فى النجوم . وقيل : كانت الساعة التى دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فيها الحمّى . وقيل : المعنى فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقا

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٨ (٢) ذكر هذا الاسم الطبرى فى تاريخه جـ ٢ ص ٣٤٦ طبعة ليدن م ١

ومدبرا، وأنه يتغير كتغيرها فقال : « إِنِّي سَقِيمٌ » . وقال الضحاك : معنى « سَقِيمٌ » سأسقم سقم الموت ؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت ، وهذا تورية وتعريض ؛ كما قال للملك لما سأله عن سارة هي أختي ؛ يعني أخوة الدين . وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك أيضا : أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدى كالطاعون ، وكانوا يهربون من الطاعون ، « فَـ » لذلك « تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ » أي فارين منه خوفا من العدوى . وروى الترمذي الحكيم قال : حدثنا أبي قال حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط عن السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن سَمُرة عن الهمداني عن ابن مسعود قال : قال أبو إبراهيم : إن لنا عيدا لو خرجت معنا لأعجبك ديننا . فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه ، وقال إني سقيم أشتكي رجلي ، فوطئوا رجله وهو صريع ، فلما مضوا نادى في آخرهم « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ »[1] . قال أبو عبد الله : وهذا ليس بمعارض لما قال ابن عباس وابن جبير ؛ لأنه يحتمل أن يكون قد اجتمع له أمران .

قلت : وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات" الحديث . وقد مضى في سورة « الأنبياء »[1] . وهو يدل على أنه لم يكن سقيما وإنما عرض لهم . وقد قال جل وعز : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »[2] . فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة . وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا ، ومنه المثل السائر « كَفَى بالسلامة داءً »[3] وقول لبيد :

فدعوتُ ربِّي بالسلامةِ جاهدًا ‌ * ‌ ليُصحَّني فإذا السَّلامةُ داءُ

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس فقالوا : مات وهو صحيح ! فقال أعرابي : أصحيح من الموت في عنقه ! فإبراهيم صادق ، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عُدَّ هذا ذنبا ؛ ولهذا قال : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ »[4] وقد مضى هذا كله مبينا والحمد لله[1] . وقيل : أراد سقيم النفس لكفرهم . والنجوم يكون جمع نجم ويكون واحدا مصدرا .

---

(١) راجع ج ١١ ص ٢٩٦ فما بعد وص ٣٠٠ (٢) راجع ص ٢٥٤ من هذا الجزء .
(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس حديثا عن ابن عباس بإسناد ضعيف .
(٤) راجع ج ١٣ ص ١١٠

قوله تعالى : فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ قال السّدى : ذهب إليهم . وقال أبو مالك : جاء إليهم . وقال قتادة : مال إليهم . وقال الكلبي : أقبل عليهم . وقيل : عدل . والمعنى متقارب . فراغ يَروغ رَوْغا ورَوَغانا إذا مال . وطريق رائغ أي مائل . وقال الشاعر :

ويُرِيكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلَاوة * ويَرُوغ عنك كما يَرُوغ الثعلبُ

فقال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فخاطبها كما يخاطب من يعقل ؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة . وكذا ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ . قيل : كان بين يدى الأصنام طعام تركوه ليأكلوه إذا رجعوا من العيد ، وإنما تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم . وقيل : تركوه للسَّدَنة . وقيل : قرّب هو إليها طعاما على جهة الاستهزاء ؛ فقال : «أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ» . ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ خصّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس . وقيل : المراد باليمين اليمين التى حلفها حين قال : « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ » . وقال الفراء وثعلب : ضربا بالقوة واليمين القوة . وقيل : بالعدل واليمين ها هنا العدل . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ »[1] أى بالعدل ، فالعدل لليمين والجور للشمال . ألا ترى أن العدوّ عن الشمال والمعاصى عن الشمال والطاعة عن اليمين ؛ ولذلك قال : « إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ » أى من قِبَل الطاعة . فاليمين هو موضع العدل من المسلم ، والشمال موضع الجور . ألا ترى أنه بايع الله بيمينه يوم الميثاق ، فالبيعة باليمين ؛ فلذلك يُعطَى كتابه غدا بيمينه ؛ لأنه وفّى بالبيعة ، ويُعطَى الناكث للبيعة الهارب برقبته من الله بشماله ؛ لأن الجور هناك . فقوله : « فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ » أى بذلك العدل الذى كان بايع الله عليه يوم الميثاق ثم وفّى له هاهنا . فجعل تلك الأوثان جُذَاذا ، أى فُتَاتا كالجذيذة

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٧٥

وهي السَّوِيق وليس من قبيل القوة؛ قاله الترمذي الحكيم . ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة: « يُزِفُّونَ » بضم الياء . الباقون بفتحها . أي يسرعون ؛ قاله ابن زيد . قتادة والسدى : يمشون . وقيل : المعنى يمشون بجمعهم على مهل آمنين أن يصيب أحد آلهتهم بسوء . وقيل : المعنى يتسللون تسللا بين المشي والعَدْو ؛ ومنه زَفِيف النعامة . وقال الضحاك : يسعون . وحكى يحيى بن سلّام : يُرْعَدون غضبا . وقيل : يختالون وهو مشي الخيلاء ؛ قاله مجاهد . ومنه أُخِذ زِفاف العروس إلى زوجها . وقال الفرزدق :

وجاء قَرِيعُ الشَّوْلِ قبلَ إِفَالِهَا * يَزِفُّ وجاءت خَلْفَه وهي زُفَّفُ[(١)]

ومن قرأ : « يُزِفُّون » فمعناه يزفون غيرهم أي يحملونهم على التزفيف . وعلى هذا فالمفعول محذوف . قال الأصمعي : أزففت الإبل أي حملتها على أن تزف . وقيل : هما لغتان يقال : زَفَّ القوم وأزَفُّوا ، وزففت العروس وأزففتها وازدففتها بمعنًى ، والمِزَفّة : المحفّة التي تُزَفّ فيها العروس ؛ حكى ذلك عن الخليل . النحاس : «يُزِفُّون» بضم الياء . زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبّهها بقولهم : أطردت الرجل أي صيّرته إلى ذلك . وطردته نحيته ؛ وأنشد هو وغيره :

تَمَنَّى حُصَينٌ أن يسودَ جِذَاعَةً * فأمسى حُصَينٌ قد أُذِلَّ وأُقْهِرا[(٢)]

أي صُيّر إلى ذلك ؛ فكذلك « يُزِفّون » يصيرون إلى الزفيف . قال محمد بن يزيد : الزفيف الإسراع . وقال أبو إسحق : الزفيف أول عَدْو النعام . وقال أبو حاتم : وزعم الكسائي أن قوما قرءوا « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ » خفيفة ؛ من وَزَف يَزِف ، مثل وَزَن يَزِن . قال النحاس : فهذه حكاية أبي حاتم وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئا . وروى الفراء وهو صاحب الكسائي عن الكسائي أنه لا يعرف « يَزِفُون » مخففة . قال الفراء : وأنا لا أعرفها . قال

---

(١) القريع : الفحل المختار للضراب . الشول من النوق جمع شائلة على غير قياس ، وهي الناقة التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . و إفالها : صغارها . و يزف : يعدو . يريد أن القريع يفر من شدة البرد وكذا الإفال . (٢) البيت للمخبل السعدي يهجو الزبرقان وقومه ، وهم المعروفون بالجذاع . والأصمعي يرويه كما في اللسان مادة قهر : «قد أذل وأقهرا» بالبناء للمعلوم ؛ أي صار أمره إلى الذل والقهر .

أبو إسحق : وقد عرفها غيرهما [أنه يقال][(١)] وَزَف يَزِف إذا أسرع . قال النحاس : ولا نعلم أحدا قرأ «يَزِفون» .

قلت : هى قراءة عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوى . الزمخشرى : و «يُزَفُّون» على البناء للفعول ، و « يُزْفُونَ » من زَفاه إذا حَداه ؛ كأنّ بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه . وذكر الثعلبى عن الحسن ومجاهد وابن السَّمَيْقع : «يَرْفُون» بالراء [من] رفيف النعام، وهو ركض بين المشي والطيران .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فيه حذف ؛ أى قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، فقال محتجا : «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» أى أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم تنجُرونها. والنَّحت النجـر والبرى ؛ نحته ينحته بالكسر نحتا أى براه . والنُّحاتة البُراية والمِنحَت ما ينحت به . ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ « ما » فى موضع نصب أى وخالق ما تعملونه من الأصنام، يعنى الخشب والحجارة وغيرهما ؛ كقوله : « بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ »[(٢)] وقيل: إن «ما» استفهام ومعناه التحقير لعملهم . وقيل : هى نفى، والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه . والأحسن أن تكون « ما » مع الفعل مصدرا ، والتقدير والله خلقكم وعملكم وهذا مذهب أهل السنة: أن الأفعال خلقٌ لله عز وجل واكتسابٌ للعباد . وفى هذا إبطال مذاهب القَدَرية والجَبْرية . وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله خالق كل صانع وصنعته" ذكره الثعلبى . وخرّجه البيهقى من حديث حُذَيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله عز وجل صنع كل صانع وصنعته فهو الخالق وهو الصانع سبحانه" وقد بيناهما فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

(٢) راجع ج ١١ ص ٢٩٦

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَٰنًا ﴾ أي تشاوروا في أمره لما غلبهم بالحجة حسب ما تقدّم في « الأنبياء »(١) بيانه . فـ« قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَٰنًا » تملئونه حطبا فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم . قال ٱبن عباس : بَنَوْا حائطا من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعا ، وملئوه نارا وطرحوه فيها . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فلما صار في البنيان قال : حسبي الله ونعم الوكيل . والألف واللام في « ٱلْجَحِيمِ » تدل على الكناية ؛ أي في جحيمه ؛ أي في جحيم ذلك البنيان . وذكر الطبري : أن قائل ذلك ٱسمه الهيزن(١) رجل من أعراب فارس وهم الترك ، وهو الذي جاء فيه الحديث "بينما رجل يمشي في حُلّة له يتبختر فيها نخسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة" والله أعلم . ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ أي بإبراهيم . والكيد المكر ؛ أي ٱحتالوا لإهلاكه . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ المقهورين المغلوبين إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها ، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم .

قوله تعالى : وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة . وأوّل من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه الله من النار « قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى » أي مهاجر من بلد قومي ومولدي إلى حيث أتمكن من عبادة ربي فإنه « سَيَهْدِينِ » فيما نويت إلى الصواب . قال مقاتل : هو أوّل من هاجر من الخلق مع لوط وسارة ، إلى الأرض المقدّسة وهي أرض الشام . وقيل : ذاهب بعملي وعبادتي ، وقلبي ونيتي . فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن . وقد مضى بيان هذا في « الكهف »(٢) مستوفى . وعلى الأوّل بالمهاجرة إلى الشام وبيت المقدس .

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٠٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ فما بعد .

وقيل: خرج إلى حرّان فأقام بها مدّة، ثم قيل: قال ذلك لمن فارقه من قومه؛ فيكون ذلك توبيخاً لهم. وقيل: قاله لمن هاجر معه من أهله؛ فيكون ذلك منه ترغيباً. وقيل: قال هذا قبل إلقائه في النار. وفيه على هذا القول تأويلان: أحدهما — إني ذاهب إلى ما قضاه عليّ ربي. الثاني — إني ميّت؛ كما يقال لمن مات: قد ذهب إلى الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصوّر أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تلف ما يلقى فيها، إلى أن قيل لها: «كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا» (1) فحينئذ سلم إبراهيم منها. وفي قوله: «سَيَهْدِينِ» على هذا القول تأويلان: أحدهما — «سَيَهْدِينِ» إلى الخلاص منها. الثاني — إلى الجنة. وقال سليمان ابن صُرَد وهو ممن أدرك النبيّ صلى الله عليه وسلم: لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحطب؛ فجعلت المرأة العجوز تحمل على ظهرها وتقول: أذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا؛ فلما ذُهب به ليطرح في النار «قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي». فلما طرح في النار قال: (حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) فقال الله تعالى: «يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا» فقال أبو لوط وكان ابن عمه: إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني. فأرسل الله عُنُقاً من النار فأحرقه.

الثانيــة — قوله تعــالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لما عرّفه الله أنه مخلّصه دعا الله ليعضُده بولد يأنس به في غُربته. وقد مضى في «آل عمران» (2) القول في هــذا. وفي الكلام حذف؛ أي هب لي ولدا صالحا من الصالحين، وحذف مثل هذا كثير. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي إنه يكون حليما في كبره فكأنه بُشّر ببقاء ذلك الولد؛ لأنّ الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدّم في «هود» (3). ويأتي أيضا في «الذاريات» (4).

قوله تعــالى: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن

(1) راجع جـ ١١ ص ٣٠٤ (2) راجع جـ ٤ ص ٧٣ (3) راجع جـ ٩ ص ٦٢
(4) راجع جـ ١٧ ص ٤٦

شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ ﴾ أى فوهبنا له الغلام، فلما بلغ معه المبلغ الذى يسعى مع أبيه فى أمور دنياه معينًا له على أعماله ﴿ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ . وقال مجاهد : « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ » أى شبّ وأدرك سعيُه سعىَ إبراهيم . وقال الفراء : كان يومئذ ٱبن ثلاث عشرة سنة . وقال ٱبن عباس : هو الاحتلام . قتادة : مشى مع أبيه . الحسن ومقاتل : هو سعى العقل الذى تقوم به الحجة . ٱبن زيد : هو السعى فى العبادة . ٱبن عباس : صام وصلّى، ألم تسمع الله عز وجل يقول : « وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا »[(1)] .

وٱختلف العلماء فى المأمور بذبحه . فقال أكثرهم : الذبيح إسحق . وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وٱبنه عبد الله وهو الصحيح عنه . روى الثورى وٱبن جريج يرفعانه إلى ٱبن عباس قال : الذبيح إسحق . وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلا قال له : يا بن الأشياخ الكرام . فقال عبد الله : ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلم . وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥

صلى الله عليه وسلم" . وروى أبو الزبير عن جابر قال : الذبيح إسحق . وذلك مروى أيضا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وعن عبد الله بن عمر : أن الذبيح إسحق . وهو قول عمر رضى الله عنه . فهؤلاء سبعة من الصحابة . وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشّعبى ومجاهد وسعيد بن جُبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبى بَزّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط[1] والزهرىّ والسدىّ وعبد الله بن أبى الهذيل ومالك بن أنس ، كلهم قالوا : الذبيح إسحق . وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، واختاره غير واحد منهم النحاس[2] والطبرى وغيرهما . قال سعيد بن جبير : أُرِىَ إبراهيمُ ذبح إسحق فى المنام ، فسار به مسيرة شهر فى غداة واحدة ، حتى أتى به المنحر من مِنًى ؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه ، وسار به مسيرة شهر فى رَوْحة واحدة طويت له الأودية والجبال . وهذا القول أقوى فى النقل عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين . وقال آخرون : هو إسمعيل . وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة . وروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضا ، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشّعبى و يوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظىّ والكلبى وعلقمة . وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد :

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسمعيلُ * نَطَقَ الكتابُ بذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصّ الإلهُ نبيَّنا * وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أُمَّتَه فلا تُنْكِرْ لَهُ * شرفاً به قد خَصّه التفضيلُ

وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعى أين عَزَب عنك عقلك ! ومتى كان إسحق بمكة ؟ وإنما كان إسمعيل بمكة ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم " أن الذبيح

(١) فى التهذيب : قال ابن أبى خيثمة : سمعت ابن معين يقول عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط ، ومن قال عبد الرحمن بن سابط فقد أخطأ ؛ وكذا ذكره البخارى . وفى اسم أبيه خلاف .
(٢) فى ش : «النقاش» .

إسمعيل " والأول أكثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن التابعين . وٱحتجوا بأن الله عز وجل قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه ، فهاجر إلى الشام مع آمرأته سارة وٱبن أخيه لوط فقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » أنه دعا فقال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فقال تعالى : « فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ »[1] ؛ ولأن الله قال : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشِّر به إبراهيم وإنما بُشِّر بإسحق ؛ لأنه قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ » ، وقال هنا : « بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » وذلك قبل أن يتزوج هاجر وقبل أن يولد له إسمعيل ، وليس في القرآن أنه بُشِّر بولد إلا إسحق . ٱحتج من قال إنه إسمعيل : بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحق في قوله تعالى : «وَإِسْمَعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ»[1] وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله : « إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ »[1] ؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى به ؛ ولأن الله تعالى قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا » فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيًّا ، وأيضا فإن الله تعالى قال : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ »[2] فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب . وأيضا ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة ، فدلّ على أن الذبيح إسمعيل ، ولو كان إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس . وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع ؛ أما قولهم : كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأنه يكون نبيّا ، فإنه يحتمل أن يكون المعنى : وبشرناه بنبوّته بعد أن كان من أمره ما كان ؛ قاله ٱبن عباس . وسيأتي . ولعله أُمر بذبح إسحق بعد أن ولد لإسحق يعقوب . ويقال : لم يرد في القرآن أن يعقوب يولد من إسحق . وأما قولهم : ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح يقع ببيت المقدس ، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدم . وقال الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وهذا مذهب ثالث .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قال مقاتل : رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات . وقال محمد بن كعب :

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١١٣ وص ١١٤ وص ٣٢٧		(٢) راجع جـ ٩ ص ٦٩

كانت الرسل يأتيهم الوحى من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا ؛ فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم . وهذا ثابت فى الخبر المرفوع ، قال صلى الله عليه وسلم : "إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا" . وقال آبن عباس : رؤيا الأنبياء وَحْيٌ ، وآستدل بهذه الآية . وقال السّدى : لما بُشِّر إبراهيم بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذًا لله ذبيح . فقيل له فى منامه : قد نذرت نذرا فَفِ بنذرك . ويقال : إن إبراهيم رأى فى ليلة التروية كأن قائلا يقول : إن الله يأمرك بذبح آبنك ؛ فلما أصبح رَوَّى فى نفسه أى فكّر أهذا الحُلْم من الله أم من الشيطان؟ فسمّى يوم التَّرْوية . فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضا وقيل له الوعد ، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسُمِّيَ يوم عرفة . ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فَهمَّ بنحره فسُمِّى يوم النَّحْر . وروى أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر . فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر . فقال إبراهيم : الله أكبر والحمد لله ؛ فبقى سُنة . وقد آختلف الناس فى وقوع هذا الأمر وهى :

الثالثة — فقال أهل السنة : إن نفس الذبح لم يقع ، وإنما وقع الأمر بالذبح قبل أن يقع الذبح ، ولو وقع لم يُتصوَّر رفعه ، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل ؛ لأنه لو حصل الفراغ من آمتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفِداء . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ : أى حققت ما نبهناك عليه ، وفعلت ما أمكنك ثم آمتنعت لما منعناك . هذا أصح ما قيل به فى هذا الباب . وقالت طائفة : ليس هذا مما ينسخ بوجه ؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته . وآستدل على هذا بقول مجاهد : قال إسحق لإبراهيم لا تنظر إلىّ فترحمنى ، ولكن آجعل وجهى إلى الأرض ؛ فأخذ إبراهيم السكين فأمرّها على حلقه فانقلبت . فقال له مالك ؟ قال : آنقلبت السكين . قال آطعنّى بها طعنًا . وقال بعضهم : كان كلما قطع جزءا التأم . وقالت طائفة : وجد حلقه نحاسا أو مغشّى بنحاس ، وكان كلما أراد قطعًا وجد منعًا . وهذا كله جائز فى القدرة الإلٰهية ، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح ، فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر . ولو كان قد جرى ذلك لبيّنه الله تعالى تعظيمًا لرتبة إسمعيل

وإبراهيم صلوات الله عليهما ، وكان أولى بالبيان من الفـداء . وقال بعضهـم : إن إبراهيم ما أُمر بالذبح الحقيـقي الذي هو فَرْيُ الأوداج وإنهـار الدم ، وإنمـا رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي ، فلما أتى بما أمر به من الإضجاع قيل له : « قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » وهذا كله خارج عن المفهوم . ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهم . وأيضا لو صحت هذه الأشياء لمـا ٱحتيج إلى الفداء .

الرابعــة ـ قوله تعالى : ﴿ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم « مَاذَا تُرِي » بضم التاء وكسر الراء من أرى يُرِي . قال الفرّاء : أي فٱنظر ماذا ترى من صبرك وجزعك . قال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره ، وإنمـا قال العلماء ماذا تشير ؛ أي ما تريك نفسك من الرأي . وأنكر أبو عبيد « تُرِي » وقال : إنمـا يكون هذا من رؤية العين خاصة . وكذلك قال أبو حاتم . النحاس : وهذا غلط ، وهـذا يكون من رؤية العين وغيرها وهو مشهور ، يقال : أريت فلانا الصواب ، وأريته رشده ، وهذا ليس من رؤية العين . الباقون « تَرَى » مضارع رأيت . وقد روى عن الضحاك والأعمش « تُرَى » غير مسمى الفاعل . ولم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله ، وإنمـا شاوره ليعلم صبره لأمر الله ؛ أو لتقـر عينه إذا رأى من ٱبنه طاعة في أمر الله فـ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ فَٱفعلْ مَا أُمِرتَ بِهِ *

فوصل الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذفت الهاء ؛ كقوله : « وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ ٱصْطَفَى » أي ٱصطفاهم على ما تقـدّم (١) . و « ما » بمعنى الذي . ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ قال بعض أهل الإشارة : لمـا استثنى وفقه الله للصبر . وقد مضى الكلام في « يَا أَبَتِ » وكذلك في « يَا بُنَيَّ » في « يوسف » (٢) وغيرها .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٢

(٢) راجع جـ ٩ ص ١٢١ و جـ ٢ ص ١٣٦

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أى ٱنقاد الأمر الله . وقرأ ٱبن مسعود وٱبن عباس وعليّ رضوان الله عليهم « فَلَمَّا سَلَّمَا » أى فوّضا أمرهما إلى الله . وقال ابن عباس : ٱستسلما . وقال قتادة : أسلم أحدهما نفسه لله عز وجل وأسلم الآخر ٱبنه . ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ قال قتادة : كَبّه وحوّل وجهه إلى القبلة . وجواب «لما» محذوف عند البصريين تقديره « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » فديناه بكبش . وقال الكوفيون : الجواب « نَادَيْنَاهُ » والواو زائدة مقحمة ؛ كقوله : « فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا[(١)] » أى أوحينا . وقوله : « وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ[(٢)] . وَٱقْتَرَبَ » أى ٱقترب . وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا[(٣)] وَقَالَ » أى قال لهم . وقال ٱمرؤ القيس :

* فلما أَجَزْنا ساحةَ الحَيِّ وٱنتحى[(٤)] *

أى ٱنتحى ، والواو زائدة . وقال أيضا :

حتّى إذا حَمَلَتْ بُطُونُكُمُ * ورأيتُم أبناءَكم شَبُّوا
وَقَلَبْتُمُ ظهرَ المِجَنِّ لنا * إن اللّئيمَ الفاجرَ الخَبُّ

أراد قلبتم . النحاس : والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تزاد . وفى الخبر : إن الذبيح قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه : يا أبت ٱشدد رباطى حتى لا أضطرب ، وٱكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع مَرَّ السكين على حَلْقي ليكون الموت أهون عليّ وٱقذفني للوجه ؛ لئلا تنظر إلى وجهى فترحمني ، ولئلا أنظر إلى الشفرة فأجزع ، وإذا أتيت إلى أمى فأقرئها منى السلام . فلما جَرّ إبراهيم عليه السلام السكين ضرب الله عليه صفيحة من نحاس ، فلم تعمل السكين شيئا ، ثم ضرب به على جبينه وحَزّ فى قفاه فلم تعمل السكين شيئا ؛ فذلك قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » كذلك قال ابن عباس : معناه كبه على وجهه فنودى « يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » فٱلتفت فإذا بكبش ؛ ذكره المهدوى . وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحته ، وأن المعنى لما اعتقد الوجوب وتهيأ للعمل ، هذا بهيئة

---

(١) راجع ٩ ص ١٤١ (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤٢ (٣) راجع ص ٢٨٥ من هذا الجزء .
(٤) تمامه : * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

الذبح ، وهذا بصورة المذبوح ، أعطيا محلًّا للذبح فِداء ولم يكن هناك مرّ سكين . وعلى هذا يتصوّر النسخ قبل الفعل على ما تقدّم . والله أعلم . قال الجوهرى : «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» أى صرعه؛ كما تقول : كَبّه لوجهه . الهروى : والتَّلّ الدفع والصرع؛ ومنه حديث أبى الدرداء رضى الله عنه : "وتركوك لِمَتَلِّك" أى لمصرعك . وفى حديث آخر: "فجاء بناقة كَوْماء فتلّها" أى أناخها . وفى الحديث "بينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فتُلَّت فى يدى" قال ابن الأنبارى : أى فألقيت فى يدى؛ يقال : تَلَلْت الرجل إذا ألقيته . قال ابن الأعرابى : فصبّت فى يدى؛ والتَّلّ الصبّ؛ يقال : تَلّ يَتُلّ إذا صبّ ، وتَلّ يتِلّ بالكسر إذا سقط . قلت : وفى صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام : "أتأذن لى أن أعطى هؤلاء" فقال الغلام : لا والله ، لا أوثر بنصيبى منك أحدا . قال : فتلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده؛ يريد جعله فى يده . وقال بعض أهل الإشارة : إن إبراهيم ادعى محبة الله ، ثم نظر إلى الولد بالمحبة ، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة ؛ فقيل له : يا إبراهيم اذبح ولدك فى مرضاتى ، فشمّر وأخذ السكين وأضجع ولده ، ثم قال : اللهم تقبله منى فى مرضاتك . فأوحى الله إليه : يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد ، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا ، فلما رددت قلبك بكُلِّيَّته إلينا رددنا ولدك إليك . وقال كعب وغيره : لما أرى إبراهيم ذبح ولده فى منامه ، قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدًا . فتمثل الشيطان لهم فى صورة الرجل ، ثم أتى أم الغلام وقال : أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت لا . قال : إنه يذهب به ليذبحه . قالت : كلا هو أرأف به من ذلك . فقال : إنه يزعم أن ربه أمره بذلك . قالت : فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه . ثم أتى الغلام فقال : أتدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لا . قال : فإنه يذهب بك ليذبحك . قال ولم ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فليفعل ما أمره الله به ، سمعا وطاعة لأمر الله . ثم جاء إبراهيم فقال : أين تريد ؟ والله إنى لأظن أن الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك

بذبح آبنك . فعرفه إبراهيم فقال : إليك عنى يا عدوّ الله ؛ فوالله لأمضين لأمر ربى . فلم يصب الملعون منهم شيئا . وقال آبن عباس : لما أمر إبراهيم بذبح آبنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى . وآختُلف فى الموضع الذى أراد ذبحه [فيه] فقيل : بمكة فى المقام . وقيل : فى المنحر بمنى عند الجمار التى رمى بها إبليس لعنه الله ؛ قاله آبن عباس وآبن عمر ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيّب . وحكى عن سعيد بن جُبير : أنه ذبحه على الصخرة التى بأصل ثَبِير بمِنًى . وقال آبن جريج : ذبحه بالشام وهو من بيت المقدس على ميلين . والأول أكثر ؛ فإنه ورد فى الأخبار تعليق قرن الكبش فى الكعبة ، فدل على أنه ذبحه بمكة . وقال آبن عباس : فوالذى نفسى بيده لقد كان أول الإسلام ، وإن رأس الكبش لمعلّق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس . أجاب من قال بأن الذبح وقع بالشام : لعل الرأس حمل من الشام إلى مكة . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نجزيهم بالخلاص من الشدائد فى الدنيا والآخرة . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى النعمة الظاهرة ؛ يقال : أبلاه الله إبْلاءً وبَلاءً إذا أنعم عليه . وقد يقال بَلاهُ . قال زهير :

* فأَبْلاهما خَيْرَ البلاءِ الذى يَبْلو (١) *

فزعم قوم أنه جاء باللغتين . وقال آخرون : بل الثانى من بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا آختبره ، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه ، ولا يقال من الابتلاء يبلوه . وأصل هذا كله من الاختبار أن يكون بالخير والشر ؛ قال الله عز وجل : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (٢) » . وقال أبو زيد : هذا من البلاء الذى نزل به فى أن يذبح آبنه ؛ قال : وهذا من البلاء المكروه .

---

(١) هذا عجز البيت وصدره : * جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم *

(٢) راجع ج ١١ ص ٢٨٧

السابعــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الذِّبح ٱسم المذبوح وجمعه ذبوح ؛ كالطحن ٱسم المطحون . والذَّبح بالفتح المصـدر . « عَظِيمٍ » أي عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة ، وإنمـا عظم قدره لأنه فدى به الذبيح ؛ أو لأنه متقبَّل . قال النحاس : عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف . وأهـل التفسير على أنه هاهنـا للشريف ، أو المتقبَّل . وقال ٱبن عباس : هو الكبش الذي تقرّب به هابيل، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله به إسمعيل . وعنه أيضا : أنه كبش أرسله الله من الجنة كان قد رعى في الجنة أربعين خريفًا . وقال الحسن : ما فدي إسمعيل إلا بتيس من الأَرْوَى هبط عليـه من ثبير ، فذبحه إبراهيم فداء عن ٱبنه ، وهـذا قول علي رضي الله عنـه . فلما رآه إبراهيم أخذه فذبحه وأعتق ٱبنه . وقال : يا بني اليوم وُهبت لي . وقال أبو إسحق الزجاج : قد قيل أنه فَدِي بوَعْل ، والوَعْل : التيس الجبلي . وأهل التفسير على أنه فُدِي بكبش .

الثامنـــة ــ في هذه الآية دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر . وهذا مذهب مالك وأصحابه . قالوا : أفضل الضحايا الفحول من الضأن ، وإناث الضأن أفضل من فحل المعز ، وفحول المعز خير من إناثها ، وإناث المعز خير من الإبل والبقر . وحجتهم قوله سبحانه وتعالى : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » أي ضخم الجثة سمين ، وذلك كبش لا جمل ولا بقرة . وروى مجاهد وغيره عن ٱبن عباس أنه سأله رجل : إني نذرت أن أنحر ٱبني ؟ فقال : يجزيك كبش سمين ، ثم قـرأ « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » . وقال بعضهم : لو علم الله حيوانا أفضل من الكبش لفدى به إسحق . وضحّى رسول الله صلى الله عليه وسـلم بكبشين أملحين . وأكثر ما ضُحّي به الكباش . وذكر ٱبن أبي شيبة عن ٱبن عُلَيَّة عن الليث عن مجاهـد قال : الذِّبح العظيم الشاة .

التاســعة ــ واختلفوا أيما أفضل : الأضحية أو الصدقة بثمنها . فقال مالك وأصحابه : الضحية أفضـل إلا بمنًى ؛ لأنه ليس موضع الأضحية ؛ حكاه أبو عمر . وقال ابن المنذر : روينا عن بلال أنه قال : ما أبالي ألا أضحي إلا بديك ولأن أضعه في يتيم قد ترِب فيه ــ

هكذا قال المحدث — أحب إلىّ من أن أضحى به . وهذا قول الشعبى إن الصدقة أفضل ، وبه قال مالك وأبو ثور . وفيــه قول ثانٍ : إن الضحية أفضل ؛ هــذا قول ربيعــة وأبى الزناد . وبه قال أصحاب الرأى . زاد أبو عمر وأحمــد بن حنبل قالوا : الضحية أفضل من الصدقة ؛ لأن الضحية ســنة مؤكدة كصلاة العيــد . ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل . وكذلك صلوات السنن أفضــل من التطوّع كله . قال أبو عمر : وقد روى فى فضل الضحايا آثار حسان ؛ فمنها ما رواه سعيد بن داود بن أبى زَنْبَر عن مالك عن ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من نفقة بعــد صلة الرحم أفضل عند الله من إهراق الدم" قال أبو عمر : وهو حديث غريب من حديث مالك . وعن عائشة قالت : يأيهــا الناس ضحُّوا وطِيبوا أنفساً ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وســلم يقول : "ما من عبد توجّه بأضحيته إلى القبلة إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسناتٍ محضراتٍ فى ميزانه يوم القيامة فإن الدم إن وقع فى التراب فإنما يقع فى حِرْز الله حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة" ذكره أبو عمر فى كتاب التمهيد . وخرجه الترمذى أيضــا عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما عمِــل آدمىٌّ من عملٍ يوم النحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإنّ الدم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض فطِيبوا بها نفسًا" قال : وفى الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أَرْقَم . وهذا حديث حسن .

العاشــــرة — الضحية ليست بواجبــة ولكنها سنّة ومعروف . وقال عكرمة : كان آبن عباس يبعثنى يوم الأضحى بدرهمين أشترى له لحما ، ويقول : من لقيتَ فقل هذه أضحية آبن عباس . قال أبو عمــر : ومَحمل[1] هذا وما روى عن أبى بكر وعمر أنهما لا يضحيان عنــد أهل العلم ؛ لئلا يعتقد فى المواظبة عليها أنها واجبة فرض ، وكانوا أئمة يقتدى بهم من بعدهم ممن ينظر فى دينه إليهم ؛ لأنهم الواسطة بين النبى صلى الله عليــه وسلم وبين أمته ، فساغ لهم مــن الآجتهاد فى ذلك ما لا يسوغ اليوم لغيرهم . وقد حكى الطحاوى فى مختصره : وقال

(١) لفظة : « ومحمل » ساقطة من ك .

أبو حنيفة : الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافر . قال : ويجب على الرجل من الأضحية على ولده الصغير مثل الذي يجب عليه عن نفسه . وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا : ليست بواجبة ولكنها سنة غير مرخص لمن وجد السبيل إليها في تركها . قال : وبه نأخذ . قال أبو عمر : وهذا قول مالك؛ قال : لا ينبغي لأحد تركها مسافرا كان أو مقيما، فإن تركها فبئس ما صنع إلا أن يكون له عذر إلا الحاج بمنًى . وقال الإمام الشافعي : هي سنة على جميع الناس وعلى الحاج بمنًى وليست بواجبة . وقد احتج من أوجبها بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بُرْدة بن نِيَار أن يعيد ضحية أخرى؛ لأن ما لم يكن فرضا لا يؤمر فيه بالإعادة . احتج آخرون بحديث أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا دخل العشر وأراد أحدكم أن يضحي" قالوا : فلو كان ذلك واجبا لم يجعل ذلك إلى إرادة المضحِّي . وهو قول أبي بكر وعمر وأبي مسعود البدريّ وبلال .

الحادية عشرة — والذي يضحي به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية : وهي الضأن والمعز والإبل والبقر . قال ابن المنذر : وقد حكي عن الحسن بن صالح أنه قال : يضحي ببقرة الوحش عن سبعة، وبالظبي عن رجل . وقال الإمام الشافعي : لو نزا ثور وحشي على بقرة إنسيّة، أو ثور أنسي على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أضحية . وقال أصحاب الرأي : جائز؛ لأن ولدها بمنزلة أمه . وقال أبو ثور : يجوز إذا كان منسوبا إلى الأنعام .

الثانية عشرة — قد مضى في سورة «الحج»(١) الكلام في وقت الذبح والأكل من الأضحية مستوفى . وفي صحيح مسلم عن أنس قال : "ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر ووضع رجله على صِفَاحهما" في رواية قال : "ويقول بسم الله والله أكبر" وقد مضى في آخر «الأنعام»(٢) حديث عمران بن حُصَين، ومضى في «المائدة»(٣) القول في التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأن ذكاة الجنين ذكاة أمه مستوفًى . وفي صحيح مسلم

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٤٢ فما بعد .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٥٥ فما بعد .

(٣) راجع جـ ٦ ص ٥٠ فما بعد .

عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمر بكبش أقرن يطأ فى سواد ويبرك فى سواد وينظر فى سواد فأتى به ليضحى به" فقال لها : "يا عائشة هَلُمِّى المدية" ثم قال : "أشحذيها بحجر" ففعلت ، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه ، ثم قال : "بسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد" ثم ضحى به . وقد آختلف العلماء فى هذا فكان الحسن البصرى يقول فى الأضحية : بسم الله والله أكبر هذا منك ولك تقبل من فلان . وقال مالك : إن فعل ذلك فحسن ، وإن لم يفعل وسمى الله أجزأه . وقال الشافعى : والتسمية على الذبيحة بسم الله ، فإن زاد بعد ذلك شيئا من ذكر الله ، أو صلّى على محمد عليه السلام لم أكرهه ، أو قال اللهم تقبل منى ، أو قال تقبل من فلان فلا بأس . وقال النعمان : يكره أن يذكر مع آسم الله غيره ؛ يكره أن يقول : اللهم تقبل من فلان عند الذبح . وقال : لا بأس إذا كان قبل التسمية وقبل أن يضجع للذبح . وحديث عائشة يردّ هذا القول . وقد تقدم أن إبراهيم عليه السلام قال لما أراد ذبح آبنه : الله أكبر والحمد لله . فبقى سنة .

الثالثة عشرة — روى البَرَاء بن عازِب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : ماذا يُتّقَى من الضحايا ؟ فأشار بيده وقال : "أربعا — وكان البراء يشير بيده ويقول يدى أقصر من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم — العرجاء البيّن ظَلَعُها والعوراء البيّن عَوَرُها والمريضة البيّن مرضُها والعجفاء التى لا تُنْقِى(١)" لفظ مالك ولا خلاف فيه . وآختلف فى اليسير من ذلك . وفى الترمذىّ عن علىّ رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف(٢) العين والأذن وألّا نضحّى بمقابلة ولا مُدَابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء . قال : والمقابلة ما قطع طرف أذنها ، والمدابَرة ما قطع من جانب الأذن ، والشّرقاء المشقوقة ، والخرقاء المثقوبة ؛ قال هذا حديث حسن صحيح . وفى الموطأ عن نافع : أن عبد الله بن عمر كان يتّقِى من الضحايا والبدن التى لم تُسْنِن والتى نقص من خَلْقها . قال مالك : وهذا أحبّ ما سمعت إلىّ . قال

---

(١) النقى : مخ العظام وشحمها . يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها .

(٢) نستشرف ؛ يعنى نتطلع العين والأذن ، ونبحث عنهما لئلا يكون فيهما عيب .

القتبي : لم تُسنن أي لم تنبت أسنانها كأنها لم تُعطَ أسنانا . وهذا كما يقال : فلان لم يُلْبَن أي لم يُعطَ لبنا ، ولم يُسمَّن أي لم يعط سمنا ، ولم يُعسَّل أي لم يُعطَ عسلا (١) . وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهتماء . قال أبو عمر : ولا بأس أن يضحى عند مالك بالشاة الهتماء إذا كان سقوط أسنانها من الكبر والهرم وكانت سمينة ؛ فإن كانت ساقطة الأسنان وهي فتية لم يجز أن يضحى بها ؛ لأنه عيب غير خفيف . والنقصان كله مكروه ، وشرحه وتفصيله في كتب الفقه . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم "استشرقوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم" ذكره الزمخشري .

الرابعة عشرة ـ ودلّت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش كما فدى به إبراهيم ابنه ؛ قاله ابن عباس . وعنه رواية أخرى : ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب ابنه ؛ روى الروايتين عنه الشعبي . وروى عنه القاسم بن محمد : يجزيه كفارة يمين . وقال مسروق : لا شيء عليه . وقال الشافعي : هو معصية يستغفر الله منها . وقال أبو حنيفة : هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة ولا يلزمه في غير ولده شيء . قال محمد : عليه في الحلف بنحر عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث . وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال : أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنث فعليه هديٌ . قال : ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل عند مقام إبراهيم ولا أراد فلا شيء عليه . قال : ومن جعل ابنه هَدْياً أهدى عنه ؛ قال القاضي ابن العربي : يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة ؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا ، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد ، وأخرجه عنه بذبح شاة . وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة ؛ لأن الله تعالى قال :

---

(١) عقب صاحب لسان العرب في مادة « سنن » على رواية القتبي وتفسيره بقوله : «وقد وهم القتبي في الرواية والتفسير ؛ لأنه روى الحديث "لم تسنن" بفتح النون الأولى ، وإنما حفظه من محدّث لم يضبطه . وأهل الثبت والضبط رووه "لم تسنن" بكسر النون وهو الصواب في العربية ، والمعنى لم تسن فأظهر التضعيف لسكون النون الأخيرة ، كما يقال : لم يجلل . وإنما أراد ابن عمر أنه يضحى بأضحية لم تثن ؛ أي لم تصر ثنية ، وإذا أثنت فقد أسنت . ثم قال : وأما خطأ القتبي من الجهة الأخرى فقوله : سننت البدنة إذا نبتت أسنانها وسنها الله غير صحيح ، وقوله : لم يلبن ولم يسمن أي لم يعط لبنا وسمنا غير صحيح ، وإنما معناهما لم يطعم سمنا ولم يسق لبنا » .

« مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » والإيمان التزام أصلى، والنذر التزام فرعى؛ فيجب أن يكون محمولا عليه . فإن قيل: كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز. قلنا: هذا اعتراض على كتاب الله ، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف بمن يفتى فى الحلال والحرام، وقد قال الله تعالى : « ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ » والذى يجلو الإلباس عن قلوب الناس فى ذلك : أن المعاصى والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال ، والمعصية عبارة عما تعلق به النهى من الأفعال ؛ فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسمعيل من إبراهيم صار طاعة وآبتلاء، ولهذا قال الله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ » فى الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهى بنا فى ذبح أبنائنا صار معصية . فإن قيل : كيف يصير نذرا وهو معصية . قلنا : إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوى الفداء ؟ فإن قيل : فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء ؟ قلنا : لو قصد ذلك لم يضره فى قصده ولا أثر فى نذره ؛ لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعا .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى على إبراهيم ثناء جميلا فى الأمم بعده ؛ فما من أمة إلا تصلى عليه وتحبه . وقيل : هو دعاء إبراهيم عليه السلام « وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »(١) . وقال عكرمة : هو السلام على إبراهيم أى سلاما منا . وقيل : سلامة له من الآفات مثل « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » حسب ما تقدم . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله تعالى .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال آبن عباس : بشر بنبوته وذهب إلى أن البشارة كانت مرتين(٢) ؛ فعلى هذا الذبيح هو إسحق بشر بنبوته جزاء على صبره ورضاه بأمر ربه وآستسلامه له . ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ ﴾ أى ثنينا عليهما النعمة وقيل كثرنا ولدهما ؛ أى باركنا على إبراهيم وعلى أولاده ، وعلى إسحق حين أخرج أنبياء بنى

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٢ (٢) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : بشر بنبوته ووقعت البشارة به مرتين .

إسرائيل من صلبه . وقد قيل : إن الكناية فى « عَلَيْهِ » تعود على إسمعيل وأنه هو الذبيح . قال المفضل : الصحيح الذى يدلّ عليه القرآن أنه إسمعيل ، وذلك أنه قص قصّة الذبيح ، فلما قال فى آخر القصّة : « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » ثم قال : « سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ » أى على إسمعيل « وَعَلَى إِسْحَقَ » كنى عنه ، لأنه قد تقدّم ذكره ثم قال : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا » فدلّ على أنها ذرية إسمعيل و إسحق ، وليس تختلف الرواة فى أن إسمعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة .

قلت : قد ذكرنا أوّلا ما يدل على أن إسحق أكبر من إسمعيل ، وأن المبشّر به هو إسحق بنص التنزيل ، فإذا كانت البشارة بإسحق نصا فالذبيح لا شك هو إسحق ، وبُشّر به إبراهيم مرتين ، الأولى بولادته والثانية بنبوّته ، كما قال ابن عباس . ولا تكون النبوّة إلا فى حال الكبر و « نَبِيًّا » نصب على الحال والهاء فى « عليه » عائدة إلى إبراهيم وليس لإسمعيل فى الآية ذكر حتى ترجع الكناية إليه . وأما ما روى من طريق معاوية قال : سمعت رجلا يقول للنبى صلى الله عليه وسلم : يابن الذبيحين ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم . ثم قال معاوية : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم ، نذر لله إن سهّل عليه أمرها ليذبحن أحدَ ولده لله ، فسهّل الله عليه أمرها ، فوقع السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله بنو مخزوم ، وقالوا : افْدِ ابنك ، ففداه بمائة من الإبل وهو الذبيح ، وإسمعيل هو الذبيح الثانى فلا حجة فيه ، لأن سنده لا يثبت على ما ذكرناه فى كتاب « الأعلام فى معرفة مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام » ، ولأن العرب تجعل العم أبا ، قال الله تعالى : « قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ »(١) وقال تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ »(٢) وهما أبوه وخالته . وكذلك ما روى عن الشاعر الفرزدق عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم لو صح إسناده فكيف وفى الفرزدق نفسه مقال .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ ﴾ لما ذكر البركة فى الذرية والكثرة قال : منهم محسن ومنهم مسىء ، وأن المسىء لاتنفعه بنوة النبوّة ، فاليهود والنصارى

(١) راجع ج ٢ ص ١٣٨ (٢) راجع ج ٩ ص ٢٦٤

وإن كانوا من ولد إسحق ، والعرب وإن كانوا من ولد إسمعيل ، فلابد من الفرق بين المحسن والمسيء والمؤمن والكافر ، وفي التنزيل : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » الآية ؛ أي أبناء رسل الله فرأوا لأنفسهم فضلا . وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ ﴾ لما ذكر إنجاء إسحق من الذبح ، وما منّ به عليه بعد النبوّة ، ذكر ما منّ به أيضا على موسى وهرون من ذلك . وقوله : ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ قيل : من الرق الذي لحق بني إسرائيل . وقيل من الغرق الذي لحق فرعون . ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ قال الفراء : الضمير لموسى وهرون وحدهما ؛ وهذا على أن الاثنين جمع ؛ دليله قوله : « وَآتَيْنَاهُمَا » « وَهَدَيْنَاهُمَا » . وقيل : الضمير لموسى وهرون وقومهما وهذا هو الصواب ؛ لأن قبله « وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا » . و﴿ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ التوراة ؛ يقال استبان كذا أي صار بيّنا ؛ واستبانه فلان مثل تبيّن الشيء بنفسه وتبيّنه فلانٌ . و﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ يريد الثناء الجميل . ﴿ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدّم .

---

(١) راجع ج ٦ ص ١٢٠

قوله تعالى : وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال المفسرون : إلياس نبيّ من بني إسرائيل . وروى عن ابن مسعود قال : إسرائيل هو يعقوب وإلياس هو إدريس . وقرأ « وَإِنَّ إِدْرِيسَ » وقاله عكرمة . وقال : هو في مصحف عبد الله « وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » وانفرد بهذا القول . وقال ابن عباس : هو عمّ اليسع (١) . وقال ابن إسحق وغيره : كان القيّم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوقنا ثم حزقيل ، ثم لما قبض الله حزقيل النبي عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، ونسوا عهد الله وعبدوا الأوثان من دونه ، فبعث الله إليهم إلياس نبيًّا وتبعه اليسع وآمن به ، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له : اخرج يوم كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلك من شيء فاركبه ولا تَهَبْه . فخرج ومعه اليسع فقال : يا إلياس ما تأمرني . فقذف إليه بكسائه من الجو الأعلى ، فكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل ، وكان ذلك آخر العهد به . وقطع الله على إلياس لذة المطعم والمشرب ، وكساه الريش وألبسه النور ، فطار مع الملائكة ، فكان إنسيًّا ملكيًا سماويًّا أرضيًّا . قال ابن قتيبة : وذلك أن الله تعالى قال لإلياس : « سلني أعطك » . قال : ترفعني إليك وتؤخر عني مذاقة الموت . فصار يطير مع الملائكة . وقال بعضهم : كان قد مرض وأحس الموت فبكى ، فأوحى الله إليه : لِمَ تبك؟ حرصًا على الدنيا ، أو جزعًا من الموت ، أو خوفًا من النار ؟ قال : لا ، ولا شيء من هذا وعِزّتك ، إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدي ولا أحمدك ! ويذكرك

(١) قال بعض المفسرين : هو ابن عم اليسع .

الذاكرون بعدى ولا أذكرك! ويصوم الصائمون بعدى ولا أصوم! و يصلّى المصلون ولا أصلى!!
فقيل له: « يا إلياس وعزتى لأؤخرنك إلى وقت لا يذكرنى فيه ذاكر » . يعنى يوم القيامة .
وقال عبد العزيز بن أبى روّاد: إنّ إلياس والخضر عليهما السلام يصومان شهر رمضان فى كل عام ببيت المقدس يوافيان الموسم فى كل عام . وذكر ابن أبى الدنيا ؛ إنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم : ما شاء الله ماشاء الله ، لايسوق الخير إلا الله ، ماشاء الله ماشاء الله ، لايصرف السوء إلا الله ؛ ما شاء الله ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله ؛ ما شاء الله ما شاء الله ؛ توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل . وقد مضى فى « الكهف » (1) . وذكر من طريق مكحول عن أنس قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بفَجّ الناقة عند الحجر ، إذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد المرحومة ، المغفور لها ، المتوب عليها ، المستجاب لها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أنس ، آنظر ما هذا الصوت ". فدخلت الجبل ، فإذا أنا برجل أبيض اللحية والرأس ، عليه ثياب بيض ، طوله أكثر من ثلثمائة ذراع ، فلما نظر إلىّ قال : أنت رسول النبى ؟ قلت نعم ؛ قال : ارجع إليه فأقرئه منى السلام وقل له : هذا أخوك إلياس يريد لقاءك . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حتى إذا كنا قريبا منه ، تقدّم النبى صلى الله عليه وسلم وتأخرت ، فتحدّثا طويلا ، فنزل عليهما شىء من السماء شبه السّفرة فدعوانى فأكلت معهما ، فإذا فيها كمأة ورمّان وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ، وجاءت سحابة فاحتملته فإذا أنا أنظر إلى بياض ثيابه فيها تهوى به ؛ فقلت للنبى صلى الله عليه وسلم : بأبى أنت وأمى ! هذا الطعام الذى أكلنا أمن السماء نزل عليه ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "سألته عنه فقال يأتينى به جبريل فى كل أربعين يوما أكلة ، وفى كل حول شربة من ماء زمزم ، وربما رأيته على الجبّ يملأ بالدلو فيشرب وربما سقانى " .

---

(1) راجع جـ ١١ ص ٤٣

قال ثعلب : اختلف الناس في قوله عز وجل هاهنا « بَعْـلًا » فقالت طائفة : البعل هاهنا الصنم . وقالت طائفـة : البعل هاهنا مَلَك . وقال ٱبن إسحق : ٱمرأة كانوا يعبـدونها . والأوّل أكثر . وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ٱبن عباس : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » قال : صنما . وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ٱبن عباس : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » قال : رَبًّا . النحاس : والقولان صحيحان ؛ أي أتدعون صنما عملتموه ربًّا . يقال : هـذا بعل الدار أي ربّها . فالمعنى أتدعون ربًّا ٱختلقتموه ، و «أَتَدْعُونَ» بمعنى أتُسمُّون . حكى ذلك سيبويه . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي : البعل الربّ بلغـة اليمن . وسمع ٱبن عباس رجلا من أهل اليمن يسوم ناقة بمِنًى فقال : منَ بعلُ هـذه ؟ . أي مَن ربّها ؛ ومنه سمي الزوج بعلا . قال أبو دؤاد[(1)] :

ورأيتُ بَعْـلَكِ في الوغَى * مُتقـلِّدا سيفًا ورُمْحـا

مقاتل : صنم كسره إليـاس وهرب منهم . وقيـل : كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فُتِنوا به وعظّموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعـلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسَّـدَنة يحفظونها ويعلّمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام . وبه سُميت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا . ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَـالِقِينَ ﴾ أي أحسن من يقال له خالق . وقيل : المعنى أحسن الصانعين ؛ لأن الناس يصنعون ولا يخلقون . ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خيثم والحسن وٱبن أبي إسحق وٱبن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي . وإليها يذهب أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى أبو عبيد أنها على النعت . النحاس : وهو غلط وإنمـا هو على البـدل ولا يجوز النعت هاهنا ؛ لأنه ليس بتحلية . وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع . قال أبو حاتم : بمعنى هو الله ربكم . قال النحاس : وأولى ممـا قال ـــ أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف . ورأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن الرفع

(١) هكذا في الأصول . ونسبه في الكامل لعبد الله بن الزبعري ورواه كما في المعاجم : ياليت زوجك في الوغى الخ وقد مضى للمصنف .

أولى وأحسن ؛ لأن قبله رأس آية فالاستئناف أولى . ابن الأنبارى : من نصب أو رفع لم يقف على « أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » على جهة التمام ؛ لأن الله عز وجل مترجم عن « أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » من الوجهين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذبوه . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى فى العذاب . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى من قومه فإنهم نجوا من العذاب . وقرئ « الْمُخْلِصِينَ » بكسر اللام وقد تقدم . ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ تقدم . ﴿ سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع . وقرأ عكرمة وأبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائى : « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » . وقرأ الحسن : « سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ » بوصل الألف كأنها ياسين دخلت عليها الألف واللام التى للتعريف . والمراد إلياس عليه السلام ، وعليه وقع التسليم ولكنه اسم أعجمى . والعرب تضطرب فى هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها . قال ابن جنّى : العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعبا ؛ فياسين وإلياس والياسين شىء واحد . الزمخشرىّ : وكان حمزة إذا وصل نصب وإذا وقف رفع . وقرئ : « على إلياسين » و « إِدْرِيسِينَ وإِدْرَسِينَ وَإِدْرَاسِينَ » على أنها لغات فى إلياس وإدريس . ولعل لزيادة الياء والنون فى السريانية معنى . النحاس : ومن قرأ : « سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ » فكأنه والله أعلم جعل اسمه إلياس وياسين ثم سلم على آله ؛ أى أهل دينه ومن كان على مذهبه ، وعلم أنه إذا سلم على آله من أجله فهو داخل فى السلام ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " اللهم صلّ على آل أبى أوفى " وقال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »(١) . ومن قرأ « إلياسين » فللعلماء فيه غير قول . فروى هرون عن ابن أبى إسحق قال : إلياسين مثل إبراهيم يذهب إلى أنه اسم له . وأبو عبيدة يذهب الى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم ؛ وأنشد :

* قَدْنِيَ من نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِى(٢) *

(١) راجع ص ٣١٨ فما بعد من هذا الجزء .

(٢) تمامه : * ليس الإمام بالشحيح الملحد *

والبيت من أرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان ، ويعرض بعبد الله بن الزبير ؛ يرميه بالبخل والإلحاد فى الحرم . وقيل هو لأبى بحدلة .

يقال : قِدنى وقَدِى لغتان بمعنى حَسْبى . وإنما يريد أبا خُبَيْب عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخل معه . وغير أبى عبيدة يرويه : الخُبَيْبِين على التثنية ؛ يريد عبد الله ومُصْعبا . ورأيت علىّ بن سليمان يشرحه بأكثر من هذا ؛ [قال][(١)] فإن العرب تسمى قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم ؛ فيقولون : المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلَّب . قال : فعلى هذا « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » سمّى كل رجل منهم بإلياس . وقد ذكر سيبويه فى كتابه شيئا من هذا ؛ إلا أنه ذكر أن العرب تفعل هذا على جهة النسبة ؛ فيقولون : الأشعرون يريدون به النسب . المهدوى : ومن قرأ « إلياسين » فهو جمع يدخل فيه إلياس فهو جمع إلياسىّ فحذفت ياء النسبة ؛ كما حذفت ياء النسبة فى جمع المكسّر فى نحو المهالبة فى جمع مهلبىّ ، كذلك حذفت فى المسلَّم فقيل المهلّبونَ . وقد حكى سيبويه : الأشعرون والنميرون يريدون الأشعريين والنميريين . السهيلىّ : وهذا لا يصح بل هى لغة فى إلياس ، ولو أراد ما قالوه لأدخل الألف واللام كما تدخل فى المهالبة والأشعريين ؛ فكان يقول : « سَلَامٌ على الإلياسين » لأن العَلَم إذا جمع ينكر حتى يعرّف بالألف واللام ؛ لا تقول : سلام على زيدين ، بل على الزيدين بالألف واللام . فإلياس عليه السلام فيه ثلاث لغات . النحاس : وٱحتج أبو عبيد فى قراءته « سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ » وأنه ٱسمه كما أن ٱسمه إلياس ؛ لأنه ليس فى السورة سلام على « آل » لغيره من الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، فكما سُمِّى الأنبياء كذا سُمِّىَ هو . وهذا الٱحتجاج أصله لأبى عمرو وهو غير لازم ؛ لأنا بينا قول أهل اللغة أنه إذا سلم على آله من أجله فهو سلام عليه . والقول بأن ٱسمه « إلياسين » يحتاج إلى دليل ورواية ؛ فقد وقع فى الأمر إشكال . قال الماوردى : وقرأ الحسن « سَلَامٌ عَلَى يَاسِينَ » بإسقاط الألف واللام وفيه وجهان : أحدهما أنهم آل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ٱبن عباس . الثانى أنهم آل ياسين ؛ فعلى هذا فى دخول الزيادة فى ياسين وجهان : أحدهما أنها زيدت لتساوى الآى ، كما قال فى موضع : « طُورِسيناء »[(٢)] وفى موضع آخر « طورِسِينِين »[(٣)] فعلى هذا يكون

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .		(٢) راجع جـ ١٢ ص ١١٤
(٣) راجع جـ ٢٠ ص ١١٢

السلام على أهله دونه، وتكون الإضافة إليه تشريفًا له . الثانى أنها دخلت للجمع فيكون داخلا فى جملتهم فيكون السلام عليه وعليهم . قال السهيلى : قال بعض المتكلمين فى معانى القرآن : آل ياسين آل محمد عليه السلام، ونزع إلى قول من قال فى تفسير « يٰس » يا محمد . وهـذا القول يبطل من وجـوه كثيرة : أحدها أن سياقة الكلام فى قصة إلياسين يلزم أن تكون كما هى فى قصة إبراهيم ونوح وموسى وهرون وأن التسليم راجع عليهـم، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام لقول قيل فى تلك الآية الأخرى مع ضعف ذلك القول أيضا؛ فإن « يٰس » و « حٰمٓ » و « الٓمٓ » ونحو ذلك القول فيها واحد، إنمـا هى حروف مقطّعة، إما مأخوذة من أسماء الله تعـالى كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبى : لله فى كل كتاب سرّ، وسرّه فى القرآن فواتح القرآن . وأيضا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لى خمسة أسماء" ولم يذكر فيها « يٰس » . وأيضـا فإن « يٰس » جاءت التـلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسما للنبى صلى الله عليه وسلم لقال : « يسنُ » بالضم، كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ »(١) وإذا بطل هذا القول لمـا ذكرناه، فـ«إلياسين» هو إلياس المذكور وعليه وقع التسليم . وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مثل إدريس وإدراسين، كذلك هو فى مصحف ابن مسعود . « وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » ثم قال : « سَلَامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ » ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدّم .

قوله تعـالى : وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ تقدم قصة لوط(٢) . ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى بالعقوبة . ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ و جـ ٩ ص ٧٣ فما بعد .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠١ فما بعد .

خاطب العرب : أى تمرون على منازلهم وآثارهم « مُصْبِحِينَ » وقت الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ تمرون عليهم أيضا . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى تعتبرون وتتدبرون .

قوله تعالى : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يونس هو ذو النون، وهو ابن متّى ، وهو ابن العجوز التى نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبيّ يرضع ، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدّخر عنه كرامة تقدر عليها . ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال ، ومات ابن المرأة يونس، فخرجت فى أثر إلياس تطوف وراءه فى الجبال حتى وجدته ، فسألته أن يدعو الله لها لعلّه يُحيِى لها ولدها؛ فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوما من موته، فتوضأ وصلّى ودعا الله فأحيا الله يونس ابن متى بدعوة إلياس عليه السلام . وأرسل الله يونس إلى أهل نِينَوى من أرض المَوْصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسبما تقدّم بيانه فى سورة « يونس »(1) ومضى فى « الأنبياء »(2) قصة يونس فى خروجه مغاضبا . واختلف فى رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده . قال الطبرى عن شهر بن حَوْشَب : إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال : انطلق إلى أهل نِينَوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم . قال : ألتمس دابة . قال : الأمر أعجل من ذلك . قال : ألتمس حذاء . قال : الأمر أعجل من ذلك . قال : فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدّم ولا تتأخر. قال: فتساهموا،

(1) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤　(2) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩ فما بعد .

قال : فسهم ، فجاء الحوت يبصبص بذنبه ، فنودى الحوت : أيا حوت ! إنا لم نجعل لك يونس رزقًا ، إنما جعلناك له حرزًا ومسجدًا . قال : فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مرّ به إلى الأُبُلّة ، ثم انطلق به حتى مرّ به على دجلة ، ثم انطلق حتى ألقاه فى نينوى . حدّثنا الحرث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حَوْشَب عن ابن عباس قال : إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت ؛ واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضبًا لربه ، فكان ما جرى منه قبل النبوّة . وقال آخرون : كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم] إلى ما أمره الله بدعائهم إليه ، وتبليغه إياهم رسالة ربه ، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله فى وقت وقّته لهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله ، فلما أظل القومَ العذابُ وغشيهم — كما قال الله تعالى فى تنزيله — تابوا إلى الله ، فرفع الله العذاب عنهم ، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذى كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال : وعدتهم وعدا فكذب وعدى . فذهب مغاضبًا ربه وكره الرجوع إليهم ، وقد جرّبوا عليه الكذب ؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس . وقد مضى هذا فى « الأنبياء »(1) وهو الصحيح على ما يأتى عند قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . ولم ينصرف يونس ؛ لأنه اسم أعجمى ولو كان عربيا لانصرف وإن كانت فى أوّله الياء ؛ لأنه ليس فى الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سمّيت بيُعْفُر صرفته(2) ؛ وإن سمّيت بيَعْفُر لم تصرفه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ قال المبرد : أصل أبق تباعد ؛ ومنه غلام آبق . وقال غيره : إنما قيل ليونس أبق ؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستترا من الناس . ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى المملوءة . « والفلك » يذكر ويؤنث ويكون واحدا وجمعا وقد تقدّم(3) . قال الترمذى الحكيم : سماه آبقًا لأنه أبق عن العبودية ، وإنما العبودية ترك الهوى وبذل النفس عند أمور الله ؛ فلما لم يبذل النفس عندما اشتدّت عليه العَزْمة من المَلَك حسبما تقدّم بيانه فى « الأنبياء » ، وآثر هواه لزمه اسم الآبق ، وكانت عزمة الملك فى أمر الله

(1) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩ فما بعد .

(2) وذلك لأنه زال عنه شبه الفعل بخلاف يعفر فإنه على وزن يقتل فمنع الصرف .

(3) راجع جـ ٢ ص ١٩٤

لا فى أمر نفسه، وبحظ حق الله لا بحظ نفسه ؛ فتحرى يونس فلم يصب الصواب الذى عند الله فسماه آبقا ومُليما .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ قال المبرد : فقارع، قال : وأصله من السهام التى تُجال . ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ قال : من المغلوبين . قال الفراء : دَحَضَتْ حجّتُه وأدحضها الله . وأصله من الزلق ؛ قال الشاعر :

قَتَلْنَا ٱلْمُدْحَضِينَ بِكُلِّ فَجٍّ * فقد قرّتْ بقتلِهِمُ العيونُ

أى المغلوبين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى أتى بما يلام عليه . فأما الملوم فهو الذى يلام، آستحق ذلك أو لم يستحق . وقيل : المليم المعيب . يقال : لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل . ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ قال الكسائى : لم تكسر «أن» لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لها . النحاس : والأمر كما قال ؛ إنما اللام فى جواب لولا . « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ » أى من المصلّين ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى عقوبة له ؛ أى يكون بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة . وآختلف كم أقام فى بطن الحوت . فقال السدى والكلبى ومقاتل بن سليمان : أربعين يوما . الضحاك : عشرين يوما . عطاء : سبعة أيام . مقاتل بن حيان : ثلاثة أيام . وقيل : ساعة واحدة . والله أعلم .

الخامسة — روى الطبرى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أراد الله — تعالى ذكره — حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما آنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا فقال فى نفسه ما هذا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دوابّ البحر " قال : " فسبح وهو فى بطن الحوت " قال : " فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة " قال : " ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر . قالوا : العبد الصالح الذى كان

يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال نعم . فشفعوا له عنـد ذلك فأمر الحوت بقذفه فى الساحل كما قال تعالى : « وَهُوَ سَقِيمٌ »". وكان سقمه الذى وصفه به الله تعالى ذكره : أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبىّ المنفوس قد نشر اللحم والعظم . وقد روى : أن الحوت سار مع السفينة رافعًا رأسه يتنفس فيـه يونس ويسبح، ولم يفارقهم حتى آنتهوا إلى البر، فلفظه سالما لم يتغير منـه شىء فأسلموا ؛ ذكره الزمخشرىّ فى تفسيره . وقال ابن العربى : أخبرنى غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبى المعـالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى : أنه سئل عن البارى فى جهة؟ فقال : لا، هو يتعالى عن ذلك . قيل له : ما الدليل عليه ؟ قال : الدليل عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم : " لا تفضلونى على يونس بن متّى " فقيل له : ماوجه الدليـل فى هذا الخبر ؟ فقال : لا أقوله حتى يأخذ ضيفى هذا ألف دينار يقضى بها دَيْنًا . فقام رجلان فقالا : هى علينا . فقال : لا يتبع بها آثنين ؛ لأنه يشق عليه . فقال واحد : هى علىّ . فقال : إن يونس بن متّى رمى بنفسه فى البحر فآلتقمه الحوت، فصار فى قعر البحر فى ظلمات ثلاث، ونادى « لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » كما أخبر الله عنـه، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسـلم حين جلس على الرفرف الأخضر وآرتقى به صعدا، حتى آنتهى به إلى موضع يسمع فيه صَرِيف الأقلام، وناجاه ربه بمـا ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى — بأقرب إلى الله تعالى من يونس فى بطن الحوت فى ظلمة البحر .

السادسـة — ذكر الطبرى : أن يونس عليـه السلام لمـا ركب فى السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا : هذه بخطيئة أحدكم . فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب : هذه خطيئتى فألقونى فى البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم . « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » فقال لهم : قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبى . وأنهم أبَوْا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه فى البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين . فلما رأى ذلك ألقى نفسه فى البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت . وروى أنه لمـا ركب فى السفينة تَقنّـع ورقد فساروا غير بعيد إذ جاءتهم

ريح كادت السفينة أن تغرق ، فآجتمع أهل السفينة فدعَوْا فقالوا : أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا ؛ فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح . ثم آنطلق يونس إلى مكانه فرقد ، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق ، فأيقظوه ودعوا الله فآرتفعت الريح . قال : فبيناهم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة ، فقال لهم يونس : ياقوم ! هذا من أجلي ! فلو طرحتمونى فى البحر لسرتم ولذهب الريح عنكم والرَّوْع . قالوا : لانطرحك حتى نتساهم ، فمن وقعت عليه رميناه فى البحر . قال : فتساهموا فوقع على يونس ؛ فقال لهم : ياقوم آطرحونى ! فمن أجلي أوتيتم ؛ فقالوا : لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى . ففعلوا فوقع على يونس . فقال لهم : ياقوم آطرحونى ! فمن أجلي أوتيتم ؛ فذلك قول الله عز وجل : « فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ » أى وقع السهم عليه ؛ فآنطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه فى البحر ، فإذا الحوت فاتح فاه ، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة ، فإذا بالحوت ، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر ، فإذا بالحوت فاتح فاه ؛ فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فآلتقمه الحوت ؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت : إنى لم أجعله لك رزقاً ولكن جعلت بطنك له وعاء . فمكث فى بطن الحوت أربعين ليلة فنادى فى الظلمات « أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » وقد تقدم ويأتى . ففى هذا من الفقه أن القُرْعة كانت معمولا بها فى شرع مَن قبلنا ، وجاءت فى شرعنا على ماتقدم فى «آل عمران»(١) قال آبن العربى : وقد وردت القرعة فى الشرع فى ثلاثة مواطن : الأول — كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . الثانى — أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع إليه أن رجلا أعتق ستة أعبدٍ لامال له غيرهم ، فأقرع بينهم ؛ فأعتق آثنين وأرقّ أربعة . الثالث — أن رجلين آختصما إليه فى مواريث قد درست فقال : "آذهبا وتوخّيا الحق وآستهما وليحلل كل واحد منكما صاحبه" . فهذه ثلاثة مواطن ، وهى القَسْم فى النكاح ، والعتق ، والقسمة ، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٦

وحسم داء التشهى . واختلف علماؤنا فى القرعة بين الزوجات فى الغزو على قولين ؛ الصحيح منهما الإقـراع ؛ وبه قال فقهـاء الأمصار . وذلك أن السـفر بجميعهن لايمكن ، واختيار واحدة منهن إيثار فلم يبق إلا القرعة . وكذلك فى مسألة الأعبد الستة ؛ فإن كل اثنين منهما ثلث ، وهو القدر الذى يجوز له فيه العتق فى مرض الموت ، وتعيينهما بالتشهى لايجوز شرعاً ؛ فلم يبق إلا القرعة . وكذلك التشاجر إذا وقع فى أعيـان المواريث لم يميز الحق إلا القُرْعة ، فصارت أصلا فى تعيين المستحق إذا أشكل . قال : والحق عندى أن تجرى فى كل مشكل ، فذلك أبين لها ، وأقوى لفصل الحكم فيها ، وأجلى لرفع الإشكال عنها ؛ ولذلك قلنا : إن القرعة بين الزوجات فى الطلاق كالقرعة بين الإماء فى العتق .

السابعـــة — الاقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر لايجوز . وإنمـا كان ذلك فى يونس وزمانه مقدّمة لتحقيق برهانه ، وزيادة فى إيمانه ؛ فإنه لايجوز لمن كان عاصيا أن يُقتل ولايرمى به فى النار أو البحر ، وإنمـا تجرى عليـه الحدود والتعزير على مقدار جنايته . وقد ظنّ بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم ، فيطرح بعضهـم تخفيفا ؛ وهـذا فاسـد ؛ فإنهـا لاتخفّ برمى بعـض الرجال وإنمـا ذلك فى الأموال ، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل .

الثامنـــة — أخبر الله عز وجل أن يونس كان من المسبِّحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ؛ ولذلك قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبـه إذا عَثَر . قال ابن عبـاس : « مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » من المصلّين . قال قتادة : كان يصلّى قبل ذلك فحفظ الله عز وجل له فنجّاه . وقال الربيع بن أنس : لولا أنه كان له قبل ذلك عمل صالح « لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » قال : ومكتوب فى الحكمة — إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر . وقال مقاتل : « مِنَ الْمُسَبِّحِينَ » من المصلّين المطيعين قبل المعصية . وقال وهب : من العابدين . وقال الحسن : ما كان له صـلاة فى بطن الحـوت ؛ ولكنه قـدّم عملا صالحا فى حال الرخاء فذكره الله به فى حال البلاء ، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه ، وإذا عَثَر وجد مُتّكَأً .

قلت : ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : "من ٱستطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل" فيجتهد العبد، ويحرص على خَصْلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه . وقد خرّج البخاري ومسلم من حديث ٱبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بينما ثلاثة نفر — في رواية ممن كان قبلكم — يتماشَوْن أخذهم المطر فأوَوْا إلى غار في جبل فٱنحطت على فم الغار صخرة من الجبل فٱنطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض ٱنظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فٱدعوا الله بها لعله يَفْرُجها عنكم " الحديث بكماله وهو مشهور، شهرته أغنت عن تمامه . وقال سعيد بن جبير : لما قال في بطن الحوت : «لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» قذفه الحوت . وقيل : «مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» من المصلّين في بطن الحوت .

قلت : والأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان، وعليه يدلّ حديث أبي هريرة المذكور قبل الذي ذكره الطبري . قال : فسبح في بطن الحوت . قال : فسمعت الملائكة تسبيحه؛ فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة . وتكون « كان » على هذا القول زائدة؛ أي فلولا أنه من المسبحين . وفي كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " دعاء ذي النون في بطن الحوت « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا ٱستجيب له " وقد مضى هذا في سورة « الأنبياء »(١) فيونس عليه السلام كان قبل مصليا مسبحا، وفي بطن الحوت كذلك . وفي الخبر : فنودي الحوت : إنا لم نجعل يونس لك رزقا، إنما جعلناك له حِرْزا ومسجدا . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨ ﴾

(١) راجع ج ١١ ص ٣٢٩

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ روى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل . وقال آبن قُسَيْط عن أبى هريرة : طرح يونس بالعراء وأنبت الله عليه يَقْطِينة ؛ فقلنا : يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدُّبَّاء ؛ هيأ الله له أُرْوِيَّةً(١) وحشية تأكل من خَشَاش الأرض — أو هَشَاش الأرض — فتَفَشَّج(٢) عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت . وقال سعيد بن جبير عن آبن عباس قال : خرج به — يعنى الحوت — حتى لَفَظه فى ساحل البحر، فطرحه مثل الصبيّ المنفوس لم ينقص من خلقه شيء . وقيل : إن يونس لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهى فيما ذكر شجرة القرع تتقطر عليه من اللبن حتى رجعت إليه قوته . ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها يبست ، فحزن وبكى عليها فعوتب ؛ فقيل له : أحزنت على شجرة وبكيت عليها ، ولم تحزن على مائة ألف وزيادة من بنى إسرائيل ، من أولاد إبراهيم خليلى ، أسرى فى أيدى العدو ، وأردت إهلاكهم جميعا . وقيل : هى شجرة التين . وقيل : شجرة الموز تغطى بورقها ، وآستظل بأغصانها ، وأفطر على ثمارها . والأكثر على أنها شجرة اليقطين على ما يأتى . ثم إن الله تبارك وتعالى آجتباه فجعله من الصالحين . ثم أمره أن يأتى قومه ويخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم ، فعمد إليهم حتى لقى راعيًا فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم ، فأخبره أنهم بخير ، وأنهم على رجاء أن يرجع إليهم رسولهم . فقال له : فأخبرهم أنى قد لقيت يونس . فقال : لا أستطيع إلا بشاهد . فسمى له عنزا من غنمه فقال : هذه تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهذه البقعة التى أنت فيها تشهد لك أنك لقيت يونس . قال : وماذا ؟ قال : وهذه الشجرة تشهد لك أنك لقيت يونس . وأنه رجع الراعى إلى قومه فأخبرهم أنه لقى يونس فكذبوه وهموا به شرا فقال : لا تعجلوا عليّ حتى أصبح ، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التى لقى فيها يونس ، فآستنطقها فأخبرتهم أنه لقى يونس ؛ وآستنطق الشاة والشجرة فأخبرتاهم أنه لقى يونس ، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك .

---

(١) الأروية : الأنثى من الوعول .   (٢) تفشج : تفرج ما بين رجليها .

ذكر هذا الخبر وما قبله الطبري رحمه الله . «فَنَبَذْنَاهُ» طرحناه . وقيل : تركناه . «بِالْعَرَاءِ» بالصحراء؛ قاله ٱبن الأعرابي . الأخفش : بالفضاء . أبو عبيدة : الواسع من الأرض . الفراء : العراء المكان الخالي . قال: وقال أبو عبيدة : العراء وجه الأرض؛ وأنشد لرجل من خزاعة :

ورفعتُ رِجْلًا لا أخافُ عثارها * ونَبَذْتُ بالبَلَدِ العَرَاءِ ثِيَابِي

وحكى الأخفش في قوله : «وَهُوَ سَقِيمٌ» جمع سقيم [سقمى و] (١) سقامى وسقام . وقال في هذه السورة : «فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ» وقال في «نون والقلم» (٢) : «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ» والجواب: أن الله عز وجل خبّر هاهنا أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم ولولا رحمة الله عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس . وقوله : «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» يعني «عَلَيْهِ» أي عنده ؛ كقوله تعالى : «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» (٣) أي عندي . وقيل: «عَلَيْهِ» بمعنى له . «شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» اليقطين : شجر الدُّبَّاء : وقيل غيرها ؛ ذكره ٱبن الأعرابي . وفي الخبر : "الدباء والبطيخ من الجنة" وقد ذكرناه في كتاب التذكرة . وقال المبرّد : يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترش ورقها على الأرض يقطينة نحو الدباء والبطيخ والحنظل؛ فإن كان لها ساق يقلها فهي شجرة فقط ، وإن كانت قائمة أي بعروق تفترش فهي نجمة وجمعها نجم . قال الله تعالى : «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» (٤) وروي نحوه عن ٱبن عباس والحسن ومقاتل . قالوا : كل نبت يمتد ويبسط على الأرض ولا يبقى على ٱستواء وليس له ساق نحو القثاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين . وقال سعيد بن جبير: هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه فيدخل في هذا الموز .

قلت : وهو مما له ساق . الجوهري : واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه . الزجاج : ٱشتقاق اليقطين من قطن بالمكان إذا أقام به فهو يفعيل . وقيل: هو ٱسم أعجمي . وقيل : إنما خص اليقطين بالذكر ؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب . وقيل : ما كان ثَمَّ يقطين

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس ، وهي عبارته عن الأخفش . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٣
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٩١ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٥٢ فما بعد .

فأنبته الله فى الحال . القشيرى : وفى الآية ما يدل على أنه كان مفروشا ليكون له ظل . الثعلبى : كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته ، فيبست فجعل يحزن عليها ؛ فقيل له : يا يونس أنت الذى لم تخلق ولم تسق ولم تُنبت تحزن على شجيرة ، فأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تريدنى أن أستأصلهم فى ساعة واحدة ، وقد تابوا وتبت عليهم ! فأين رحمتى يا يونس أنا أرحم الراحمين . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول : "إنها شجرة أخى يونس" وقال أنس : قُدِّم للنبىّ صلى الله عليه وسلم مَرَق فيه دُبّاء وقَديد فجعل يتبع الدُّبّاء حوالى القَصْعة . قال أنس : فلم أزل أحبّ الدّبّاء من يومئذ . أخرجه الأئمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قد تقدّم عن ٱبن عباس أن رسالة يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذه الحوت . وليس له طريق إلا عن شَهْر بن حَوْشَب . النحاس : وأجود منه إسنادا وأصح ما حدّثناه عن علىّ بن الحسين قال : حدّثنا الحسن ابن محمد قال حدّثنا عمرو بن العَنْقَزِىّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود فى بيت المال عن يونس النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرّقوا بين كل والدة وولدها ، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل وٱستغفروا ، فكفّ الله عز وجل عنهم العذاب ، وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئا — وكان من كَذَب ولم تكن له بينة قتل — فخرج يونس مغاضبا ، فأتى قوما فى سفينة فحملوه وعرفوه ، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يمينا وشمالا ؛ فقالوا : ما لسفينتكم ؟ فقالوا : لا ندرى . فقال يونس عليه السلام : إن فيها عبدا آبقا من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا أما أنت يا نبىّ الله فإنا لا نلقيك . قال : فٱقترعوا فمن قُرِع فليقع ، فٱقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه ، قال : فٱقترعوا ثلاثا فمن قُرِع فليقع . فٱقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثا فوقع . وقد وكل الله به جل وعز حوتا فابتلعه وهو يهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس عليه السلام

تسبيح الحصى « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت . قال: « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » قال : كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش . قال : وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت ، فكان يستظل بها ويصيب منها ، فيبست فبكى عليها ؛ فأوحى الله جل وعز إليه : أتبكى على شجرة يبست ، ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم ! قال : وخرج رسول الله يونس فإذا هو بغلام يرعى ؛ قال : يا غلام من أنت ؟ قال : من قوم يونس . قال : فإذا جئت إليهم فأخبرهم أنك قد لقيت يونس . قال : إن كنت يونس فقد علمت أنه من كذب قُتِل إذا لم تكن له بينة فمن يشهد لى؟ قال : هذه الشجرة وهذه البقعة . قال : فمرهما ؛ فقال لهما يونس : إذا جاءكما هذا الغلام فآشهدا له . قالتا نعم . قال : فرجع الغلام إلى قومه وكان فى منعة وكان له إخوة ، فأتى الملك فقال : إنى قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام . قال : فأمر به أن يُقتل ؛ فقالوا : إن له بيِّنة فأرسلوا معه . فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما : نشدتكما بالله جل وعز أتشهدان أنى لقيت يونس ؟ قالتا : نعم! قال : فرجع القوم مذعورين يقولون له : شهدت له الشجرة والأرض ! فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا . قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه فى مجلسه ، وقال : أنت أحق بهذا المكان منى . قال عبد الله : فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين فى هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذى لا يؤخذ بالقياس . وفيه أيضا من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها ، وضجّوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل . وهذا هو الصحيح فى الباب ، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه فى غيرهم فى قوله عز وجل : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »(1) وقوله عز وجل : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ »(2) الآية .

---

(1) راجع ص ٣٣٥ من هذا الجزء . (2) راجع جـ ٥ ص ٩٠ فما بعد .

وقال بعض العلماء : إنهم رأوا مخائل العذاب فتابوا . وهذا لا يمنع ، وقد تقدّم ما للعلماء في هذا في سورة « يونس »(١) فلينظر هناك .

قوله تعالى : « أَوْ يَزِيدُونَ » قد مضى في « البقرة »(٢) محامل « أو » في قوله تعالى : « أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » . وقال الفراء : « أو » بمعنى بل . وقال غيره : إنها بمعنى الواو ، ومنه قول الشاعر :

فلما آشتد أمرُ الحربِ فينا * تأمّلنا رِياحا أو رِزامَا

أي ورزاما . وهذا كقوله تعالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »(٣) . وقرأ جعفر بن محمد « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ وَيَزِيدُونَ » بغير همز؛ فـ«يزيدون» في موضع رفع بأنه خبر مبتدإ محذوف أي وهم يزيدون . النحاس : ولا يصح هذان القولان عند البصريين ، وأنكروا كون « أو » بمعنى بل وبمعنى الواو ؛ لأن بل للإضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده ، وتعالى الله عز وجل عن ذلك ، أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك ؛ والواو معناه خلاف معنى « أو » فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعاني ؛ ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر . وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم هم مائة ألف أو أكثر ، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون . وقيل : هو كما تقول : جاءني زيد أو عمرو وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب . وقال الأخفش والزجاج : أي أو يزيدون في تقديركم . قال آبن عباس : زادوا على مائة ألف عشرين ألفا . ورواه أُبيّ بن كعب مرفوعا . وعن آبن عباس أيضا : ثلاثين ألفا . الحسن والربيع : بضعاً وثلاثين ألفا . وقال مقاتل بن حيان : سبعين ألفا . ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أي إلى منتهى آجالهم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٤

(٢) راجع جـ ١ ص ٤٦٣ فما بعد .

(٣) راجع ١٠ ص ١٥٠

قوله تعالى : فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ لما ذكر أخبار الماضين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم آحتج على كفار قريش في قولهم : إن الملائكة بنات الله ؛ فقال : « فَٱسْتَفْتِهِمْ » . وهو معطوف على مثله في أول السورة وإن تباعدت بينهم المسافة ؛ أي فسل يا محمد أهل مكة « أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ » . وذلك أن جُهينة وخزاعة وبني مُلَيح وبني سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله ، وهذا سؤال توبيخ . ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أي حاضرون لخلقنا إياهم إناثاً ؛ وهذا كما قال الله عز وجل : « وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا(١) خَلْقَهُمْ » . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ ﴾ وهو أسوأ الكذب ﴿ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم إن لله ولدا وهو الذى لا يلد ولا يولد . و « إنّ » بعد « أَلَا » مكسورة؛ لأنها مبتدأة . وحكى سيبويه أنها تكون بعد أَمَا مفتوحة أو مكسورة ؛ فالفتح على أن تكون أَمَا بمعنى حقًّا، والكسر على أن تكون أَمَا بمعنى أَلَا . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول يجوز فتحها بعد أَلَا تشبيها بأَمَا ، وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرها ؛ لأن بعدها الرفع . وتمام الكلام « لَكَاذِبُونَ » . ثم يبتدئ ﴿ أَصْطَفَى ﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال : ويحكم « أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ » أي أختار البناتِ وترك البنين . وقراءة العامة « أَصْطَفَى » بقطع الألف ؛ لأنها ألف آستفهام دخلت على ألف الوصل ، فحذفت ألف الوصل وبقيت ألف الآستفهام مفتوحة مقطوعة على

(١) راجع جـ ١٦ ص ٧١ فما بعد .

حالها مثل : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » على ما تقدم (١) . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وحمزة « ٱصْطَفَى » بوصل الألف على الخبر بغير ٱستفهام . وإذا ٱبتدأ كسر الهمزة . وزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها ؛ لأن بعدها ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ من جهتين : إحداهما أن يكون تبيينا وتفسيرا لما قالوه من الكذب ويكون «مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» منقطعا مما قبله . والجهة الثانية أنه قد حكى النحويون — منهم الفراء — أن التوبيخ يكون بٱستفهام وبغير ٱستفهام كما قال جل وعز: « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا » (٢) . وقيل : هو على إضمار القول؛ أي ويقولون « ٱصْطَفَى الْبَنَاتِ » . أو يكون بدلا من قوله : «وَلَدَ ٱللَّهُ» لأن ولادة البنات وٱتخاذهنّ اصطفاء لهنّ؛ فأبدل مثال الماضي من مثال الماضي فلا يوقف على هذا على «لَكَاذِبُونَ» . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ في أنه لا يجوز أن يكون له ولد . ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ حجة وبرهان . ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ أي بحججكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في قولكم .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أكثر أهل التفسير أن الجنّة هاهنا الملائكة . روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : قالوا — يعني كفار قريش — الملائكة بنات الله؛ جل وتعالى . فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : فمن أمهاتهن . قالوا : مخدّرات الجنّ . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم جنّة لأنهم لا يُرَوْنَ . وقال مجاهد : إنهم بطن من بطون الملائكة يقال لهم الجنّة . وروى عن ابن عباس . وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال : إنما قيل لهم جِنة لأنهم خُزان على الجنان والملائكة كلهم جِنّة . « نَسَبًا » مصاهرة . قال قتادة والكلبي ومقاتل : قالت اليهود لعنهم الله إن الله صاهر الجنّ فكانت

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٩٩ فما بعد .

الملائكة من بينهم . وقال مجاهد والسدى ومقاتل أيضا : القائل ذلك كنانة وخزاعة؛ قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجنّ فزوّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سَرَوات بنات الجنّ . وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله فهو النسب الذى جعلوه .

قلت : قول الحسن فى هذا أحسن؛ دليله قوله تعالى : « إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(1) أى فى العبادة . وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضا : هو قولهم إن الله تعالى و إبليس أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أى الملائكة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى قائل هذا القول ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فى النار؛ قاله قتادة . وقال مجاهد : للحساب . الثعلبى : الأول أولى؛ لأن الإحضار تكرر فى هذه السورة ولم يرد الله به غير العذاب . ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى تنزيها لله عما يصفون . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فإنهم ناجون من النار .

قوله تعالى : فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ «ما» بمعنى الذى . وقيل : بمعنى المصدر، أى فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام . وقيل : أى فإنكم مع ما تعبدون من دون الله؛ يقال : جاء فلان وفلان . وجاء فلان مع فلان . ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على الله ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ بمضلّين . النحاس . أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى : ما أنتم بمضلّين أحدا إلا من قدّر الله عز وجل عليه أن يضل . وقال الشاعر :

فردّ بنعمته كيدَهُ * عليه وكان لنا فاتنا

أى مضلًّا .

(1) راجع ج ١٣ ص ١١٦

الثانيـة — فى هذه الآية ردٌّ على القَدَرية . قال عمرو بن ذرّ : قدمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكر عنده القَدَر ، فقال عمر : لو أراد الله ألّا يُعْصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة ، وإن فى ذلك لعلماً فى كتاب الله جل وعز ، عرفه من عَرَفه ، وجهله من جهله ؛ ثم قرأ : «فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ» إلا من كتب الله عز وجل عليه أن يصلَى الجحيم . وقال : فصلَت هذه الآية بين الناس ، وفيها من المعانى أن الشياطين لا يُضلون إلى إضلال أحد إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدى ، ولو علم الله جل وعز أنه يهتدى لحال بينه وبينهم ؛ وعلى هـذا قوله تعالى : « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ »[(١)] أى لست تَصِل منهم إلى شىء إلا إلى ما فى علمى . وقال لَبِيد بن ربيعة فى تثبيت القدَر فأحسن :

إنّ تَقْـوى ربِّنا خيرُ نَفَـلْ * وبإذنِ الله رَيْثِى وعَجَـلْ
أحمـدُ الله فـلا نِـدَّ لهُ * بيـديهِ الخـيرُ ما شاء فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدى * ناعِمَ البالِ ومَنْ شاء أَضَلْ

قال الفراء : أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل، وأهل نجد يقولون أفتنته .

الثالثـة — روى عن الحسن أنه قـرأ : « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالُ الْجَحِيمِ » بضم اللام . النحاس : وجماعة أهل التفسير يقولون إنه لحن ؛ لأنه لا يجوز هذا قاضُ المدينةِ . ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعت على بن سليمان يقوله ؛ قال : هو محمول على المعنى ؛ لأن معنى « مَنْ » جماعة ؛ فالتقدير صالون ، فحذفت النون للإضافة ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين . وقيل : أصله فاعل إلا أنه قُلب من صال إلى صايل وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومة فهو مثل « شَفَا جُرُفٍ هَارٍ » . ووجه ثالث أن تحذف لام «صال» تخفيفا وتجرى الإعراب على عينه ، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة . وأصلها بالية من بالى كعافية من عافى ؛ ونظيره قراءة من قرأ ، « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ »[(٢)] ، « وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَئَاتُ »[(٢)] أجرى الإعراب على العين . والأصل فى قراءة الجماعة صالِى بالياء فحذفها الكاتب من الخط لسقوطها فى اللفظ .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٨ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٩ فما بعد وص ١٦٤

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

هذا من قول الملائكة تعظيما لله عز وجل، و إنكارا منهم عبادة من عبدهم . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ قال مقاتل : هذه الثلاث الآيات نزلت و رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى ، فتأخر جبريل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أهنا تفارقني " فقال : ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني . وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » الآيات . والتقدير عند الكوفيين : وما منا إلا من له مقام معلوم . فحذف الموصول . وتقديره عند البصريين : وما منا مَلَكٌ إلا له مقام معلوم؛ أي مكان معلوم في العبادة ؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير . وقال ابن عباس : ما في السموات موضع شبرٍ إلا وعليه مَلَك يصلّي و يُسبّح . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملَك ساجد أو قائم" . وعن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أَطّت السماءُ وحُقّ لها أن تَئِط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذّذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تُعضَد" خرجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه حديث [حسن][(1)] غريب . ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال : لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد . ويروى عن أبي ذرّ موقوفا . وقال قتادة : كان يصلّي الرجال والنساء جميعا حتى نزلت هذه الآية : «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» . قال : فتقدّم الرجال وتأخر النساء . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » قال الكلبي : صفوفهم كصفوف أهل الدنيا في الأرض . وفي صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد؛ فقال : " ألا تَصُفّون كما تَصُفّ الملائكة عند ربها " فقلنا يا رسول الله كيف تصفّ الملائكة عند ربها ؟ قال ؟

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .

"يتمون الصفوف الأول ويتراصون فى الصف" وكان عمر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستووا إنما يريد الله بكم هدى الملائكة عند ربها ويقرأ : « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » تأخر يا فلان تقدم يافلان ؛ ثم يتقدم فيكبر . وقد مضى فى سورة « الحجر »(١) بيانه . وقال أبو مالك : كان الناس يصلون متبددين فأنزل الله تعالى : «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ » فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يصطفوا . وقال الشعبي : جاء جبريل أو ملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ؛ إن الملائكة لتصلى وتسبح ما فى السماء ملك فارغ . وقيل : أى لنحن الصافون أجنحتنا فى الهواء وقوفا ننتظر ما نؤمر به . وقيل : أى نحن الصافون حول العرش . « وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ » أى المصلون ؛ قاله قتادة . وقيل : أى المنزهون الله عما أضافه إليه المشركون . والمراد أنهم يخبرون أنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة وليسوا معبودين ولا بنات الله . وقيل : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للشركين ؛ أى لكل واحد منا ومنكم فى الآخرة مقام معلوم وهو مقام الحساب . وقيل : أى منا من له مقام الخوف، ومنا من له مقام الرجاء، ومنا من له مقام الإخلاص ، ومنا من له مقام الشكر . إلى غيرها من المقامات .

قلت : والأظهر أن ذلك راجع إلى قول الملائكة «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين ، أى كانوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إذا عيروا بالجهل قالوا : « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ » أى لو بعث إلينا نبي ببيان الشرائع لاتبعناه . ولما خففت « إن » دخلت على الفعل ولزمتها اللام فرقا بين النفى والإيجاب . والكوفيون

(١) راجع ج ١٠ ص ١٩ فما بعد .

يقولون : « إِنْ » بمعنى ما واللام بمعنى إلا . وقيل : معنى « لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا » أى كتابا من كتب الأنبياء ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى لو جاءنا ذكر كما جاء الأولين لأخلصنا العبادة لله . ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾ أى بالذكر . والفراء يقدره على حذف ؛ أى فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر فكفروا به . وهذا تعجيب منهم ، أى فقد جاءهم نبيّ وأنزل عليهم كتاب فيه بيان ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفوا بما قالوا . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الزجاج : يعلمون مغبّة كفرهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال الفراء : أى بالسعادة . وقيل : أراد بالكلمة قوله عز وجل : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي »(١) قال الحسن : لم يُقتل من أصحاب الشرائع قط أحد . ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ أى سبق الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة . ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ على المعنى ولو كان على اللفظ لكان هو الغالب مثل « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ »(٢) . وقال الشيباني : جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأس آية .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم . ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ قال قتادة : إلى الموت . وقال الزجاج : إلى الوقت الذى أمهلوا إليه . وقال ابن عباس : يعنى القتل ببدر . وقيل : يعنى فتح مكة . وقيل : الآية منسوخة بآية السيف . ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ قال قتادة : سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار . وعسى من الله للوجوب وعبّر بالإبصار عن تقريب الأمر ؛ أى عن قريب يبصرون . وقيل : المعنى فسوف يبصرون العذاب يوم

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٠٦	(٢) راجع ص ١٥٣ من هذا الجزء .

القيامة . ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم متى هـذا العذاب ؛ أى لا تستعجلوه فإنه واقع بكم .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أى العذاب . قال الزجاج : وكان عذاب هؤلاء بالقتـل . ومعنى « بِسَاحَتِهِمْ » أى بدارهم؛ عن السّدّى وغيره . والساحة والسّحْسَة فى اللغة فِناء الدار الواسع . الفرّاء : « نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » ونزل بهم سواء . ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب . وفيه إضمار أى فساء الصباح صباحهم . وخصّ الصباح بالذكر؛ لأن العذاب كان يأتيهم فيـه . ومنه الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه قال : لمـا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَسَاحى، فقالوا : محمد والخميس (١)، ورجعوا إلى حصنهم؛ فقال صلى الله عليه وسلم : "الله أكبر خَرِبت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين" وهو يبين معنى « فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ » يريد النبى صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ كرر تأكيدا وكذا ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد أيضا .

قوله تعـالى : سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

فيـه أربع مسـائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ نزّه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون. ﴿ رَبِّ الْعِـزَّةِ ﴾ على البـدل . ويجوز النصب على المـدح ، والرفع بمعنى هو ربّ العـزة . ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى من الصاحبة والولد . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن معنى « سُبْحَانَ اللَّهِ » فقال : "هو تنزيه الله عن كل سوء" (٢) وقد مضى فى « البقرة » مستوفى .

الثانيـــة ــ سئل محمـد بن سُحْنون عن معـنى « رَبِّ الْعِزَّةِ » لِم جاز ذلك والعِزّة من صفات الذات، ولا يقال ربّ القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز ؟ فقال : العزة تكون

---

(١) الخميس الجيش . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ و ٢٨٥ فما بعد و جـ ٢ ص ٧٦

صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله : « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » وصفه الفعل نحو قوله : « رَبِّ الْعِزَّةِ » والمعنى ربّ العزة التى يتعازّ بها الخلق فيما بينهم فهى من خلق الله عز وجل . قال : وقد جاء فى التفسير إن العزة ها هنا يراد بها الملائكة . قال : وقال بعض علمائنا : من حلف بعزة الله فإن أراد عزته التى هى صفته فحنث فعليه الكفارة ، وإن أراد التى جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه . الماوردى : « رَبِّ الْعِزَّةِ » يحتمل وجهين : أحدهما مالك العزة، والثانى ربّ كل شيء متعزّز من ملك أو متجبّر .

قلت : وعلى الوجهين فلا كفّارة إذا نواها الحالف .

الثالثة — روى من حديث أبى سعيد الخدرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل أن يُسلّم : «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ» إلى آخر السورة ؛ ذكره الثعلبى .

قلت : قرأت على الشيخ الإمام المحدّث الحافظ أبى علىّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد ابن عمروك البكرىّ بالجزيرة قُبَالة المنصورة من الديار المصرية ، قال أخبرتنا الحرّة أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعرى بنيسابور فى المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسمعيل ابن أبى بكر القارئ، قال حدثنا أبو الحسن عبد القادر بن محمد الفارسىّ، قال حدّثنا أبو سهل بشر بن أحمد الإسفراينى، قال حدّثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقى، قال حدّثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التيمى النيسابورى، قال حدّثنا هُشَيم عن أبى هرون العبدى عن أبى سعيد الخُدرىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول فى آخر صلاته أو حين ينصرف ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الماوردى : روى الشعبى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ذكره الثعلبى من حديث علىّ رضى الله عنه مرفوعا .

الرابعــة — قوله تعـالى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى الذين بلّغوا عن الله تعـالى التوحيد والرسالة . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسـلم : "إذا سلّمتم عليّ فسلّموا على المرسلين فإنمـا أنا رسول من المرسلين" وقيل : معنى « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » أى أَمْنٌ لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر . « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى على إرسال المرسلين مبشرين ومنـذرين . وقيل : أى على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين . وقيل : أى على هلاك المشركين؛ دليله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(١) .

قلت : والكل مراد والحمـد يعم . ومعنى « يَصِفُونَ » يكذبون؛ والتقدير عما يصفون من الكذب . تم تفسير الصافات .

ســورة ص

مكية فى قول الجميع ، وهى ست وثمـانون آية . وقيل ثمـان وثمـانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ صٓ ﴾ قراءة العامة « صٓ » بجـزم الدال على الوقف؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل : « الۤمۤ » و « الۤمۤر » . وقرأ أُبيّ بن كعب والحسن وابن أبي إسحٰق ونصر بن عاصم « صادِ » بكسر الدال بغير تنوين . ولقراءته مذهبان : أحدهما أنه من صادى يصادى إذا عارض؛ ومنـه « فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ »(٢) أى تعرّض . والمصاداة المعارضة؛ ومنـه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوت فى الأماكن الخالية . فالمعنى صادِ القرآنَ بعملك؛ أى عارضه بعملك وقابله به؛ فاعمل بأوامره، وانته عن نواهيه . النحاس : وهذا المذهب يروى عن

(١) راجع جـ ١٦ ص ٤٢٧ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢١٢

الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة . وعنه أن المعنى آتله وتعرض لقراءته . والمذهب الآخر أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين . وقرأ عيسى بن عمر « صادَ » بفتح الدال مثله : « قافَ » و « نونَ » بفتح آخرها . وله فى ذلك ثلاثة مذاهب : أحدهنّ أن يكون بمعنى آتْلُ . والثانى أن يكون فتح لالتقاء الساكنين وآختار الفتح للإتباع ؛ ولأنه أخفّ الحركات . والثالث أن يكون منصوبا على القسم بغير حرف ؛ كقولك : اللهَ لأفعلنّ ، وقيل : نصب على الإغراء . وقيل : معناه صادَ محمدٌ قلوب الخلق وآستمالها حتى آمنوا به . وقرأ آبن أبى إسحق أيضا « صادٍ » بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضا على حذف حرف القسم ، وهذا بعيد وإن كان سيبويه قد أجاز مثله . ويجوز أن يكون مشبها بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها . وقرأ هرون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع : « صادُ » و « قافُ » و « نونُ » بضم آخرهن ؛ لأنه المعروف بالبناء فى غالب الحال ، نحو منذُ وقطُ وقبلُ وبعدُ . و « صٓ » إذا جعلته آسما للسورة لم ينصرف ؛ كما أنك إذا سميت مؤنثا بمذكر لا ينصرف وإن قلّت حروفه . وقال آبن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن « صٓ » فقالا : لا ندرى ما هى . وقال عكرمة : سأل نافع آبن الأزرق آبن عباس عن « صٓ » فقال : « صٓ » كان بحرا بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار . وقال سعيد بن جبير : « صٓ » بحر يُحيي الله به الموتى بين النفختين . وقال الضحاك : معناه صدق الله . وعنه أن « صٓ » قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى . وقاله السدى ، وروى عن آبن عباس . وقال محمد بن كعب : هو مفتاح أسماء الله تعالى صمدُ وصانعُ المصنوعات وصادقُ الوعد . وقال قتادة : هو آسم من أسماء الرحمن . وعنه أنه آسم من أسماء القرآن . وقال مجاهد : هو فاتحة السورة . وقيل : هو مما آستأثر الله تعالى بعلمه ، وهو معنى القول الأوّل . وقد تقدّم جميع هذا فى « البقرة »(1) .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء ؛ أقسم بالقرآن تنبيها على جلالة قدره ؛ فإن فيه بيان كل شيء ، وشفاء لما فى الصدور ، ومعجزة للنبى صلى الله عليه وسلم . ﴿ ذِى الذِّكْرِ ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء ، وهو آسم معتل والأصل فيه ذَوَى على فَعَل . قال آبن عباس : ومقاتل معنى « ذِى الذِّكْرِ » ذى البيان . الضحاك :

(1) راجع جـ ١ ص ١٥٥

ذى الشرف أى من آمن به كان شرفا له فى الدارين؛ كما قال تعالى : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ »[1] أى شرفكم . وأيضا القرآن شريف فى نفسه لإعجازه وآشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره . وقيـل : « ذِى الذِّكْرِ » أى فيه ذكر ما يحتاج إليـه من أمر الدين . وقيـل : « ذِى الذِّكْرِ » أى فيه ذكر أسماء الله وتمجيده . وقيل : أى ذى الموعظة والذكر . وجواب القسم محذوف . وآختلف فيه على أوجه : فقيل جواب القسم « صۤ » ؛ لأن معناه حقّ فهى جواب لقوله : « وَالْقُرْآنِ » كما تقول : حقًّا والله، نزل والله، وجب والله؛ فيكون الوقف من هذا الوجه على قوله : « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » حسنًا، وعلى « فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » تمـاما . قاله آبن الانبارى . وحكى معناه الثعلبى عن الفراء . وقيـل : الجواب « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » لأن « بل » نفى لأمر سبق و إثبات لغـيره؛ قاله القتبىّ؛ فكأنه قال : «وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وشِقَاقٍ» عن قبول الحق وعداوة لمحمد صلى الله عليه وسـلم . أو « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصـدق والأمانة بل هم فى تكبر عن قبول الحق . وهو كقوله : « قۤ . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا »[2] . وقيل : الجواب « كَمْ أَهْلَكْنَا » كأنه قال : والقرآن لَكَمْ أهلكنا؛ فلما تأخرت « كَمْ » حذفت اللام منها؛ كقوله تعالى : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا »[3] ثم قال : «قَدْ أَفْلَحَ» أى لقد أفلح . قال المهدوى : وهذا مذهب الفراء . آبن الأنبارى : فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله : « فِى عِزَّةٍ وَشِـقَاقٍ » . وقال الأخفش : جواب القسم « إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَـقَّ عِقَابِ » ونحو منه قوله تعالى : « تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ »[4] وقوله : وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ . إِنْ كُلُّ نَفْسٍ »[3] . آبن الأنبارى : وهـذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص . وقال الكسائى : جواب القسم قـوله : « إِنَّ ذَلِكَ لَحَـقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » . آبن الأنبارى : وهذا أقبح من الأوّل؛ لأن الكلام أشدّ طولا فيما بين القسم وجوابه . وقيل الجواب قـوله : « إِنَّ هَـذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ » . وقال قتادة : الجواب محذوف تقديره « وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ » لتبعثنّ ونحوه .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٣ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ٧٢ وص ١ وص ٣

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ أى فى تكبر وامتناع من قبول الحق ؛ كما قال جل وعز : «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ»(١) والعزّة عند العرب : الغَلَبة والقَهْر. يقال : من عَزّ بَزّ؛ يعنى من غَلَب سَلَب . ومنه : « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » أراد غلبنى . وقال جرير :

يَعُزُّ عَلَى الطَّرِيقِ بِمَنْكِبيهِ * كما ابْتَرَك الْخَلِيعُ على القِداحِ(٢)

أراد يغلب . ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى فى إظهار خلاف ومباينة . وهو من الشّق كأنّ هذا فى شَقّ وذلك فى شَقّ . وقد مضى فى « البقرة »(٣) مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من قوم كانوا أمنع من هؤلاء . و « كَمْ » لفظة التكثير﴿فَنَادَوْا﴾ أى بالاستغاثة والتوبة . والنداء رفع الصوت؛ ومنه الخبر: " ألقه على بلال فإنه أَنْدى منك صوتا " أى أرفع . ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل . النحاس : وهذا تفسير منه لقوله عز وجل : « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » فأما إسرائيل فروى عن أبى إسحق عن التميمى عن ابن عباس « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال : ليس بحين نَزْوٍ(٤) ولا فِرار؛ قال : ضُبِط القوم جميعا قال الكلبي : كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض مناص؛ أى عليكم بالفرار والهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص؛ فقال الله عز وجل : «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » قال القشيرى : وعلى هذا فالتقدير : فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه ؛ أى ليس الوقت وقت ما تنادون به .وفى هذا نوع تحكم ؛ إذ يبعد أن يقال: كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار . وقيل : المعنى « وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ » أى لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه . قال القشيرى : وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو فى « وَلَاتَ حِينَ

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٨ فما بعد . (٢) البيت فى وصف جمل ؛ يقول : يغلب هذا الجمل الإبل على لزوم الطريق ؛ فشبه حرصه على لزوم الطريق ، وإلحاحه على السير بحرص هذا الخليع على الضرب بالقداح لعله يسترجع بعض ما ذهب من ماله ، والخليع المخلوع المقمور ماله . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٤) النزو : ضرب من العدو .

مَنَاصٍ» وقال الجرجاني : أى فنادوا حين لا مناص؛ أى ساعة لا منجىً ولا فوت . فلما قدم «لا» وأخّر «حين» آقتضى ذلك الواو ، كما يقتضى الحال إذا جعل ابتداء وخبرا ؛ مثل قولك : جاء زيد راكبا ؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبرا آقتضى الواو مثل جاءنى زيد وهو راكب ، فحين ظرف لقوله : «فَنَادَوْا» . والمناص بمعنى التأخر والفِرار والخلاص ؛ أى نادوا لطلب الخلاص فى وقت لا يكون لهم فيه خلاص . قال الفرّاء :

* أَمِنْ ذكر ليلى إذ نَأتك تَنُوصُ (١) *

يقال : ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصا ومَناصا أى فَرّ وزاغ . النحاس : ويقال : ناص ينوص إذا تقدم .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد ، والنَّوْص الحمار الوحشى . وآستناص أى تأخر ؛ قاله الجوهرى . وتكلم النحويون فى «وَلَاتَ حِينَ» وفى الوقف عليه ، وكثّر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلّام فى كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيرا مردود . فقال سيبويه : «لات» مشبّهة بليس والاسم فيها مضمر ؛ أى ليست أحياننا حين مناص . وحكى أن من العرب من يرفع بها فيقول : ولات حِينُ مناصٍ . وحكى أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفا كما كان الاسم محذوفا فى النصب ؛ أى ولات حينُ مناصٍ لنا . والوقف عليها عند سيبويه والفراء «ولات» بالتاء ثم تبتدئ «حِينَ مَنَاصٍ» وهو قول آبن كيسان والزجاج . قال أبو الحسن بن كيسان : والقول كما قال سيبويه ؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات . والوقوف عليها عند الكسائى بالهاء ولَاهْ . وهو قول المبرّد محمد بن يزيد . وحكى عنه على بن سليمان أن الحجة فى ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة ، كما يقال ثُمّهْ ورُبّهْ . وقال القشيرى : وقد يقال ثُمّتْ بمعنى ثُمّ ، ورُبّتْ بمعنى رُبّ ؛ فكأنهم زادوا فى لا هاء فقالوا لاه ، كما قالوا فى ثُمّ ثُمّه عند الوصل صارت تاء . وقال الثعلبى : وقال أهل اللغة : و «لَاتَ حِينَ» مفتوحتان كأنهما

(١) تمامه : * فتقصر عنها خطوة وتبوص *

والبوص بالباء الموحدة : التقدم .

كلمة واحدة ، وإنما هي « لا » زيدت فيها التاء نحو ربّ وربّتْ ، وثمّ وثُمّتْ . قال أبو زبيد الطائي :

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أَوَانٍ * فأَجَبْنا أَنْ ليس حينَ بَقاءِ

وقال آخر :

تذكَّرَ حُبَّ ليلى لاتَ حِينَا * وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ الْقَرِينا

ومن العرب من يخفض بها ؛ وأنشد الفراء :

فَلَتَعْرِفَنّ خَلَائقًا مَشْمُولَةً * ولَتَنْدَمَنّ ولاتَ ساعةِ مَنْدَمِ

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن « وَلَاتَ حِينَ » التاء منقطعة من حين ، ويقولون معناها وليست . وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين . وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّى . وقال أبو عبيد القاسم ابن سلّام : الوقف عندي على هذا الحرف « ولا » والابتداء « تَحِينَ مَنَاصٍ » فتكون التاء مع حين . وقال بعضهم : « لات » ثم يبتدئ فيقول : « حين مناصٍ » . قال المهدوي : وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين ، وهو خلاف قول المفسرين . ومن حجة أبي عبيد أن قال : إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن ؛ وأنشد لأبي وَجْزَةَ السعدي :

العاطفُون تَحِينَ مامِنْ عاطِفٍ * والمُطْعِمون زَمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ

وأنشد لأبي زبيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولا تأوانٍ * فأجبنا أن ليس حين بقاءِ

فأدخل التاء في أوان . قال أبو عبيد : ومن إدخالهم التاء في الآن ، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فذكر مناقبه ثم قال : اذهبْ بها تَلَانَ معك . وكذلك قول الشاعر (١) :

نَوِّلِي قبلَ نأْيِ دارِي جُمَانَا * وصِلِينا كما زَعَمْتِ تَلَانَا

(١) هو جميل بن معمر وبعده : إن خير المواصلين صفاء * من يوافى خليله حيث كانا

قال أبو عبيد : ثم مع هذا كله إنى تعمدت النظر فى الذى يقال له الإمام — مصحف عثمان — فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين . قال أبو جعفر النحاس : أما البيت الأول الذى أنشده لأبى وجزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه ، كلها على خلاف ما أنشده؛ وفى أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد :

* العاطفونَ ولاتَ ما مِن عاطِفٍ *

والرواية الثانية :

* العاطفونَ ولَاتَ حِينَ تَعاطُفٍ *

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان :

* العاطفونَةَ حِينَ ما مِن عاطِفٍ *

جعلها هاء فى الوقف وتاء فى الإدراج، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث .

الرواية الرابعة :

* العاطفونهُ حِين ما مِن عاطِفٍ *

وفى هذه الرواية تقديران؛ أحدهما وهو مذهب إسمعيل بن إسحق أن الهاء فى موضع نصب؛ كما تقول : الضاربون زيدا فإذا كنّيت قلت الضاربوه . وأجاز سيبويه فى الشعر الضاربونهُ ، فجاء إسمعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه فى إجازته مثله . والتقدير الآخر العاطفونهْ على أن الهاء لبيان الحركة ، كما تقول : مرّ بنا المسلمونهْ فى الوقف ، ثم أجريت فى الوصل مجراها فى الوقف ؛ كما قرأ أهل المدينة : « مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ »(1) وأما البيت الثانى فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه (ولات أوان) غير أن فيه شيئا مشكلا ؛ لأنه يروى (ولات أوانٍ) بالخفض ، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعا أو منصوبا . وإن كان قد روى عن عيسى بن عمر أنه قرأ « ولاتِ حِينِ مناصٍ »(2) [بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبت عنه أنه قرأ « ولاتِ حينَ مناص »] فبنى « لاتِ » على الكسر ونصب « حين » . فأما (ولَاتَ أوانٍ) ففيه تقديران ؛ قال الأخفش : فيه مضمر أى ولات حين أوان .

(1) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٨ فما بعد . (2) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس .

قال النحاس : وهذا القول بيّن الخطإ . والتقدير الآخر عن أبى إسحق قال : تقـديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب ، وكسره لالتقاء الساكنين . وأنشده محمد بن يزيد (ولات أوانٌ) بالرفع . وأما البيت الثالث فبيت مولّد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة . على أن محمد بن يزيد رواه (كما زعمت الآن) . وقال غيره : المعنى كما زعمت أنت الآن . فأسقط الهمزة من أنت والنـون . وأما ٱحتجاجه بحديث ٱبن عمر ، لمـا ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له : ٱذهب بها تَلَانَ إلى أصحابك فلا حجة ، فيه ؛ لأن المحدّث إنمـا يروى هذا على المعنى . والدليل على هـذا أن مجاهدا يروى عن ٱبن عمر هـذا الحديث وقال فيـه : ٱذهب فٱجهد جهدك . ورواه آخر : ٱذهب بها الآن معك . وأما ٱحتجاجه بأنه وجدها فى الإمام « تَحِينَ » . فلا حجـة فيه ؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفا لهـا فليس بإمام لهـا ، وفى المصاحف كلها « وَلَاتَ » فلو لم يكن فى هذا إلا هـذا الاحتجاج لكان مقنعا . وجمع مناص مناوص .

قوله تعـالى : ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ « أن » فى موضع نصب والمعنى من أن جاءهم . قيل : هو متصل بقوله : « فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » أى فى عزة وشقاق وعجبوا ، وقوله : « كَمْ أَهْلَكْنَا » معترض . وقيـل : لا بل هذا ابتداء كلام ؛ أى ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم . ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ أى يجىء بالكلام المموّه الذى يخـدع به الناس ؛ وقيـل : يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجتـه ﴿ كَذَّابٌ ﴾ أى فى دعوى النبوّة .

قوله تعـالى : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًـا وَاحِدًا ﴾ مفعولان أى صيّر الآلهة إلهـا واحدا . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أى عجيب . وقرأ السلمى : «عُجّابٌ» بالتشديد . والعُجاب والعُجّاب

والعَجَب ســواء . وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال : العَجِيب العَجَب ، والعُجَاب الذى قد تجاوز حدّ العَجَب ، والطويل الذى فيه طول ، والطُّوال ، الذى قد تجاوز حدّ الطُّول . وقال الجوهرى : العَجِيب الأمر الذى يتعجّب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال مقاتل : «عُجَّابٌ» لغة أزد شنوءة . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، قال : وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يابن أخى ماتريد من قومك ؟ فقال : " ياعم إنمـا أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب وتؤدّى إليهم بهـا الجزيةَ العجم " فقال : وما هى ؟ قال : " لا إله إلا الله " قال : فقالوا « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًـا وَاحِدًا » قال : فنزل فيهم القرآن « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِـقَاقٍ » حتى بلغ « إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ » خرّجه الترمذى أيضا بمعناه . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقيـل : لمـا أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنـه شق على قريش إسلامه فآجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا : آقض بيننا و بين آبن أخيك . فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقـال : يابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السـواء (١) ، فلا تمل كل الميل على قومك . قال : " وماذا يسألوني " قالوا : آرفضنا وآرفض ذكر آلهتنا وندعك وإلٰهك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أتعطونني كلمة واحدة وتملكون بها العرب وتدين لكم بهـا العجم " فقال أبو جهل : لله أبوك ! لنعطينكها وعشر أمثالهـا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا إله إلا الله " فنفروا من ذلك وقاموا ؛ فقالوا : « أَجَعَـلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًـا وَاحِدًا » فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد . فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى قوله : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ » .

(١) فى أ ، هامش : يسألك ذا السواء . وفى ح ، وز : « ذا السؤال » . وفى أبى السعود : يسألونك السواء والإنصاف . وفى البيضاوى كما فى الكشاف : يسألونك السؤال . وعلق عليه الشهاب بقوله : والظاهر أنه تحريف وأنه السواء أى العدل كما وقع فى غيره من التفاسير ا هـ .

قوله تعالى : وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا ﴾ « الملأ » الأشراف ، والانطلاق الذهاب بسرعة ؛ أى انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض : « أَنِ ٱمْشُوا » أى امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا فى دينه ﴿ وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ . وقيل : هو إشارة إلى مشيهم إلى أبى طالب فى مرضه كما سبق . وفى رواية محمد بن إسحق أنهم أبو جهل بن هشام ، وشيبة وعُتبة أبناء ربيعة بن عبد شمس ، وأمّية بن خلف ، والعاص ابن وائل ، وأبو مُعيط ؛ جاءوا إلى أبى طالب فقالوا : أنت سيدنا وأنصفنا فى أنفسنا ، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه ، فقد تركوا آلهتنا وطعنوا فى ديننا ؛ فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : إن قومك يدعونك إلى السواء والنَّصَفَة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة " فقال أبو جهل وعشرا . قال : " تقولون لا إله إلا الله " فقاموا وقالوا : « أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا » الآيات . « أَنِ ٱمْشُوا » « أن » فى موضع نصب والمعنى بأن امشوا . وقيل : «أن» بمعنى أى ؛ أى « وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ » أى امشوا ؛ وهذا تفسير انطلاقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ . وقيل : المعنى انطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : « ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ » أى على عبادة آلهتكم « إِنَّ هَٰذَا » أى هذا الذى جاء به محمد عليه السلام ﴿ لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ أى يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم

وغير تنزل بهم . وقيل : « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ » كلمة تحذير ؛ أى إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بما يريد ، فاحذروا أن تطيعوه . وقال مقاتل : إن عمر لما أسلم وقوى به الإسلام شقّ ذلك على قريش فقالوا : إن إسلام عمر فى قوة الإسلام لشىء يراد .

قوله تعالى : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ قال ابن عباس والقرظىّ وقتادة ومقاتل والكلبىّ والسدىّ : يعنـون ملّة عيسى النصرانية وهى آخر الملل . والنصارى يجعلون مع الله إلْها . وقال مجاهد وقتادة أيضا : يعنون ملة قريش . وقال الحسن : ماسمعنا أن هذا يكون فى آخر الزمان . وقيل : أى ماسمعنا من أهل الكتاب أن محمدا رسـول حق . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أى كذب وتخرص ؛ عن ابن عباس وغيره . يقال : خلق واختلق أى ابتدع . وخلق الله عز وجل الخلق من هذا ؛ أى ابتدعهم على غير مثال .

قوله تعالى : ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ هو استفهام إنكار ، والذكر هاهنا القرآن . أنكروا اختصاصه بالوحى من بينهم ؛ فقال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أى من وحيي وهو القرآن . أى قد علموا أنك لم تزل صدوقا فيما بينهم ، وإنما شكّوا فيما أنزلته عليك هل هو من عنـدى أم لا . ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أى إنما اغترّوا بطـول الإمهال ، ولو ذاقوا عذابى على الشرك لزال عنهم الشـك ، ولما قالوا ذلك ؛ ولكن لا ينفع الإيمـان حينئذ . و « لَمَّا » بمعنى لم وما زائدة كقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ »(١) و « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ »(٢) .

قوله تعـالى . ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ قيـل : أم لهم هـذا فيمنعوا محمدا عليه السـلام مما أنعم الله عز وجل به عليـه من النبـوة . و « أم » قـد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلا بكلام قبله ؛ كقوله تعـالى : « الٓمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ »(٣) وقد قيل إن قوله : « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » متصل بقوله : « وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء ؛ لأن خزائن السموات والأرض له ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾

(١) راجع ج ١٢ ص ١٢٤ (٢) راجع ج ٦ ص ٧ فما بعد . (٣) راجع ج ١٤ ص ٨٤ .

أى فإن ادعوا ذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أى فليصعدوا إلى السموات ، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحى على محمد . يقال : رَقِيَ يَرْقَى وارتقى إذا صَعِد . ورَقَى يَرْقِى رَقْيا مثل رَمَى يَرْمِى رَمْيا من الرُّقْيـة . قال الربيع بن أنس : الأسباب أرقّ من الشَّعر وأشدّ من الحديد ولكن لا ترى . والسبب فى اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره . وقيل : الأسباب أبواب السموات التى تنزل الملائكة منها ؛ قاله مجاهد وقتادة . قال زهير :

* ولَوْ رَامَ أسبابَ السماءِ بسُـلَّمٍ (١) *

وقيـل : الأسباب السموات نفسها ؛ أى فليصعدوا سمـاء سماء . وقال السـدى : « فِي الْأَسْبَابِ » فى الفضل والدين . وقيل : أى فليعلوا فى أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة . وهو معنى قول أبى عبيدة . وقيل : الأسباب الحبال ؛ يعنى إن وجدوا حبلا أو سببا يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا ؛ وهذا أمر توبيخ وتعجيز . ثم وعد نبيّه صلى الله عليه وسلم النصر عليهم فقال : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ ﴾ « ما » صلة وتقديره هم جند ؛ فـ« جُنْدٌ » خبر ابتداء محذوف . ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ أى مقموع ذليل قد انقطعت حجتهم ؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا . ويقـال : تهزّمت القـربة إذا انكسرت ، وهزمتُ الجيش كسرته . والكلام مرتبـط بمـا قبل ؛ أى « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » وهم جنـد من الأحزاب مهزومون ، فلا تغمك عزتهم وشقاقهم ، فإنى أهزم جمعهم وأسلب عزهم . وهذا تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد فُعِل بهم هذا فى يوم بدر . قال قتادة : وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلهـا يوم بَدْر . و « هُنَالِكَ » إشارة لبدر وهو موضع تحـزُّبهم لقتال محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد مضى ذلك فى « الأحزاب » (٢) . والأحزاب الجند ، كما يقال : جند من قبائل شتّى . وقيـل : أراد بالأحزاب القرون المـاضية من الكفّار . أى هؤلاء جند على طريقة أولئك ؛ كقوله

(١) صدر البيت :		* ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *

(٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢٨ فما بعد .

قوله تعالى : «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي»(١) أى على ديني ومذهبي . وقال الفراء : المعنى هم جندٌ مغلوب ؛ أى ممنوع عن أن يصعد إلى السماء . وقال القتبي : يعني أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم ، فهم لا يقدرون على أن يدّعوا الشيء من آلهتهم ، ولا لأنفسهم شيئا من خزائن رحمة الله ، ولا من ملك السموات والأرض .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكرها تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له ؛ أى هؤلاء من قومك يا محمد جندٌ من الأحزاب المتقدّمين الذين تحزّبوا على أنبيائهم ، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا . وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث ، وآختلف أهل العربية في ذلك على قولين : أحدهما — أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث . الثاني — أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه ، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة ، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيها عليه ؛ كقوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ »(٢) ولم يقل ذكرها ؛ لأنه لما كان المضمر فيه مذكرا ذكره ، وإن كان اللفظ مقتضيا للتأنيث . ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد . وقد آختلف في تأويل ذلك ؛ فقال آبن عباس : المعنى ذو البناء المحكم . وقال الضحاك : كان كثير البنيان ، والبنيان يسمى أوتادا . وعن آبن عباس أيضا وقتادة وعطاء : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلعَب له عليها . وعن الضحاك أيضا : ذو القوة والبطش . وقال الكلبي ومقاتل : كان يعذّب الناس بالأوتاد ، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقيا بين أربعة أوتاد في الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت . وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوارٍ ؛ كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتِد من حديد ويتركه حتى يموت . وقيل : ذو الأوتاد أى ذو الجنود الكثيرة فسميت الجنود أوتادا ؛

(١) راجع ج ٣ ص ٢٥٠ فما بعد . (٢) راجع ج ١٩ ص ٨٩ .

لأنهم يقوّون أمره كما يقوّى الوتِد البيت . وقال ٱبن قتيبة : العرب تقول هم فى عزّ ثابت الأوتاد، يريدون دائمـا شديدا . وأصل هذا أن البيت من بيوت الشَّعر إنمـا يثبت و يقوم بالأوتاد . قال الأسود بن يَعْفُر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعَمِ عِيشـةٍ * فى ظـلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأوتادِ

و واحد الأوتاد وتِد بالكسر ، و بالفتح لغة . وقال الأصمعى : يقال وتَد واتد كما يقال: شغل شاغل . وأنشد[1] :

لاقتْ على المـاءِ جُذَيْلا واتِدَا * ولم يكن يُخْلِفُهـا المَوَاعِـدَا

قال : شبّه الرجل بالجذْل . ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ أى الغيضة . وقد مضى ذكرها فى « الشعراء »[2] . وقرأ نافع وٱبن كثير وٱبن عامر : « لَيْكَةَ » بفتح اللام والتاء من غير همز . وهمز الباقون وكسروا التاء . وقد تقدّم هذا . ﴿ أُولَئِـكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أى هم الموصوفون بالقوّة والكثرة؛ كقولك فلان هو الرجل . ﴿ إِنْ كُلٌّ ﴾ بمعنى ما كل . ﴿ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أى فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب . وأثبت يعقوب الياء فى «عذابى» و « عقابى » فى الحالين وحذفها البـاقون فى الحالين . ونظير هـذه الآية قوله عز وجل : « وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْـلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْـلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ »[3] فسمى هذه الأمم أحزابا .

قوله تعـالى : وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَنْظُـرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ « يَنْظُرُ » بمعنى ينتظر؛ ومنـه قوله تعـالى : « ٱنْظُـرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »[4] . « هؤلاء » يعنى كفار مكة . « إِلَّا صَيْحَةً

(١) البيت لأبى محمد الفقعسى . والضمير فى لاقت ضمير الإبل . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٣٤ فـا بعد .
(٣) راجع ص ٣٠٩ فـا بعد من هذا الجزء . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ فما بعد .

وَاحِدَةً » أى نفخة القيامة . أى ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة . وقيل : ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التي هي النفخة في الصور، كما قال تعالى : « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً »(١) وهـذا إخبار عن قرب القيامة والموت . وقيل : أى ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهي النفخة . وقال عبد الله بن عمرو : لم تكن صيحة في السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض . ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أى من ترداد؛ عن ابن عباس. مجاهد : ما لها رجوع . قتادة : مالها من مثنوية . السدّى : مالها من إفاقة . وقرأ حمزة والكسائي : « مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ» بضم الفاء . الباقون بالفتح . الجوهري : والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت ؛ لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدِرّ ثم تُحلَب . يقال : ما أقام عنده إلا فُوَاقا ؛ وفي الحديث : " العيادة قدر فواق الناقة ". وقوله تعالى: «مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ» يقرأ بالفتح والضم أى مالها من نظرة وراحة وإفاقة . والفِيقة بالكسر ٱسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين : صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ قال الأعشى يصف بقرة :

حتى إذا فِيقَـةٌ في ضَرعِها ٱجتمعتْ * جاءتْ لِتُرضِع شِقَّ النَّفْسِ لَوْ رَضَعا

والجمع فِيق ثم أفواق مثل شِبر وأشبار ثم أفاويق . قال ٱبن همّام السَّلُولىّ :

وَذَمُّوا لنا الدنيا وهُمْ يَرْضَعُونَهَا * أَفَاوِيقَ حتى ما يَدِرُّ لها ثُعْـلُ(٢)

والأفاويق أيضا ما ٱجتمع في السحاب من ماء ، فهو يمطر ساعة بعد ساعة . وأفاقت الناقة إفاقة أى ٱجتمعت الفِيقة في ضرعها ؛ فهي مُفِيقٌ ومُفِيقَةٌ — عن أبي عمـرو — والجمـع مفاويق . وقال الفرّاء وأبو عبيـدة وغيرهما : « مِنْ فَوَاقٍ » بفتح الفاء أى راحة لا يفيقون فيها ، كما يفيق المريض والمغشىّ عليه . و « مِنْ فُوَاقٍ » بضم الفاء من ٱنتظار . وقد تقدّم أنهما بمعنًى وهو ما بين الحلبتين .

---

(١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء .

(٢) البيت في ذم علماء الدنيا . والثعل زيادة في أطباء الناقة والبقرة والشاة ؛ وهو لا يدر وإنما ذكره للمبالغة .

قلت : والمعنى المراد أنها ممتدّة لا تقطيع فيها، وروى أبو هريرة قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى طائفة من أصحابه ... الحديث . وفيه "يأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول آنفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدّها ويديمها ويطوّلها يقول الله عز وجل : « مَا يَنْظُرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ »" وذكر الحديث ، خرجه على بن معبد وغيره كما ذكرناه فى كتاب التذكرة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ قال مجاهد : عذابنا . وكذا قال قتادة : نصيبنا من العذاب . الحسن : نصيبنا من الجنة لنتنعم به فى الدنيا . وقاله سعيد بن جُبير . ومعروف فى اللغة أن يقال للنصيب قِطٌّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قِط . قال الفراء : القِط فى كلام العرب الحظ والنصيب . ومنه قيل للصك قِط . وقال أبو عبيدة والكسائى : القِط الكتاب بالجوائز والجمع القطوط ؛ قال الأعشى :

ولا المَلِكُ النّعمانُ يومَ لَقِيتُـهُ * بِغِبْطَتِهِ يُعطِى القُطوطَ وَيَأْفِقُ

يعنى كتب الجوائز . ويروى : بأُمّتِهِ بدل بغبطته ، أى بنعمته وحاله الجليلة ، ويأفِق يصلح . ويقال : فى جمع قِط أيضا قِططة وفى القليل أقط وأُقطاط . ذكره النحاس . وقال السدى : سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به . وقال إسمعيل بن أبى خالد : المعنى عجّل لنا أرزاقنا . وقيل : معناه عجل لنا ما يكفينا ؛ من قولهم : قَطْنِى ؛ أى يكفينى . وقيل : إنهم قالوا ذلك آستعجالا لكتبهم التى يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلى عليهم بذلك القرآن . وهو قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ »(١) . « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ »(٢) . وأصل القِط القَطّ وهو القطع ، ومنه قَطّ القلم ؛ فالقِط آسم للقطعة من الشىء كالقِسْم والقِسْم فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره ، إلا أنه فى الكتاب أكثر آستعمالا وأقوى حقيقة . قال أمية بن أبى الصَّلْت :

قَومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما * يُجْبَى إليهِ وَالقِطُّ والقَلَمُ

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٨ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٧٠

﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى قبل يوم القيامة فى الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد . وكل هذا آستهزاء منهم .

قوله تعالى : ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لما آستهزءوا به . وهذه منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم ، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم ، وسلاه بكل ما تقدّم ذكره . ثم أخذ فى ذكر داود وقصص الأنبياء ؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم ؛ وليعلم أن له فى الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء . وقيل : المعنى اصبر على قولهم ، وآذكر لهم أقاصيص الأنبياء؛ لتكون برهانا على صحة نبوّتك . « ذَا الْأَيْدِ» ذا القوّة فى العبادة . وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، وذلك أشد الصوم وأفضله ؛ وكان يصلى نصف الليل؛ وكان لا يفر إذا لاقى العدوّ؛ وكان قويا فى الدعاء إلى الله تعالى . وقوله : « عَبْدَنَا » إظهارا لشرفه بهذه الإضافة . ويقال : الأَيْدُ وَالآدُ كما تقول العيب والعاب . قال (١) :

* لم يَكُ يَنْآدُ فَأَمْسَى انْآدا *

ومنه رجل أَيِّدٌ أى قوىّ . وتأيَّدَ الشىء تقوّى ، قال الشاعر :

إذَا القـوسُ وَتَّرَهَا أَيِّدٌ * رَمَى فَأَصَابَ الكُلَى وَالذُّرا

يقول : إذا الله وتّر القوس التى فى السحاب رَمى كُلى الإبل وأسمنها بالشحم . يعنى من النبات الذى يكون من المطر . ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك : أى توّاب . وعن غيره : أنه كلما ذكر

(١) هو العجاج . وانآد العود ينآد انئيادا فهو منآد انثنى : واعوج . وصدر البيت :

* من أن تبدلت بآدى آدا *

ذنبه أو خطر على باله آستغفر منه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة" . ويقال آب يئوب إذا رجع ، كما قال (١) :

وكلُّ ذى غَيْبَةٍ يئوبُ * وغائبُ الموت لايئوبُ

فكان داود رجّاعا إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به .

قوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ « يُسَبِّحْنَ » فى موضع نصب على الحال . ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه . قال مقاتل : كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه ، وكان يفقه تسبيح الجبال . وقال ابن عباس : « يُسَبِّحْنَ » يصلّين . وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه . وقال محمد بن إسحق : أوتى داود من حسن الصوت ما يكون له فى الجبال دوىّ حسن ، وما تصغى لحسنه [الطير] (٢) وتصوت معه ، فهذا تسبيح الجبال والطير . وقيل : سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها ؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين . وقد مضى القول فى هذا فى « سبإ » (٣) وفى « سبحان » (٤) عند قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وأن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال . والله أعلم . ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ الإشراق أيضا آبيضاض الشمس بعد طلوعها . يقال : شَرَقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت . فكان داود يسبّح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها .

الثانية — روى عن آبن عباس أنه قال : كنت أمرّ بهذه الآية « بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ » ولا أدرى ماهى ، حتى حدّثتنى أم هانئ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ،

---

(١) هو عبيد بن الأبرص . (٢) زيادة يقتضيها المعنى .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٦٥ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٨ .

فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى صلاة الضحى ، وقال : "يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق". وقال عكرمة قال ٱبن عباس : كان فى نفسى شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها فى القرآن « يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ » . قال عكرمة : وكان ٱبن عباس لا يصلّى صلاة الضحى ثم صلاها بعد . وروى أن كعب الأحبار قال لابن عباس : إنى أجد فى كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس هى صلاة الأوابين . فقال ابن عباس : وأنا أوجدك فى القرآن ؛ ذلك فى قصة داود « يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ » .

الثالثـة — صلاة الضحى نافلة مستحبة ، وهى فى الغداة بإزاء العصر فى العشى ، لا ينبغى أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة ؛ ويرتفع كدرها ؛ وتشرق بنورها ؛ كما لا تصلى العصر إذا ٱصفرت الشمس . وفى صحيح مسلم عن زيد بن أرْقَم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة الأوابين حين تَرْمَض الفصالُ" الفصال والفصلان جمع فَصِيل ؛ وهو الذى يفطم من الرضاعة من الإبل . والرمضاء شدّة الحر فى الأرض . وخصّ الفصال هنا بالذكر؛ لأنها هى التى تَرْمَض قبل ٱنتهاء شدّة الحر التى تَرْمَض بها أمهاتها لقلة جَلَدها ، وذلك يكون فى الضحى أو بعده بقليل ، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها ؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربى . ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك ٱستعجالا ، لأجل شغله فيخسر عمله ؛ لأنه يصليها فى الوقت المنهى عنه ويأتى بعمل هو عليه لا له .

الرابعـة — روى الترمذى من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من صلّى الضحى ثنتى عشرة ركعة بنى الله له قصرا من ذهب فى الجنة" قال حديث غريب . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يصبح على كل سُلَامَى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى". وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على شَفْعة الضحى غُفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زَبَد البحر" . وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة

قال : " أوصانى خليلى بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر " لفظ البخارى . وقال مسلم " وركعتى الضحى " وخرّجه من حديث أبى الدرداء كما خرّجه البخارى من حديث أبى هريرة . وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة . والله أعلم . وأصل السُّلامى (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل ، ثم استعمل فى سائر عظام الجسد ومفاصله . وروى من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنه خلق كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفر الله وعزل حجرا عن طريق الناس أو شوكة أو عظما عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة سلامى فإنه يمشى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار " قال أبو توبة : وربما قال " يمسى " كذا خرجه مسلم . وقوله : " ويجزى من ذلك ركعتان " أى يكفى من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان . وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد ؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التى عليه فى الأصل . والله أعلم .

قوله تعالى : وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ معطوف على الجبال . قال الفراء : ولو قرئ « وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ » لجاز ؛ لأنه لم يظهر الفعل . قال ابن عباس : كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه . فاجتماعها إليه حشرها . فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله معه . وقيل : أى وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه ، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور . ﴿ كُلٌّ لَهُ ﴾ أى لداود ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أى مطيع ؛ أى تأتيه وتسبح معه . وقيل : الهاء لله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أى قويناه حتى ثبت . قيل : بالهيبة وإلقاء الرعب منه فى القلوب . وقيل : بكثرة الجنود . وقيل : بالتأييد والنصر . وهذا اختيار ابن العربى .

فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير مُعانٍ . وقال ابن عباس رضى الله عنه : كان داود أشدّ ملوك الأرض سلطانا . كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل فإذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضى عنكم نبيّ الله . والمُلْك عبارة عن كثرة المِلْك ، فقد يكون للرجل مِلك ولكن لا يكون ملِكا حتى يكثر ذلك ؛ فلو ملك الرجل دارا وامرأة لم يكن ملكا حتى يكون له خادم يكفيه مؤنة التصرف فى المنافع التى يفتقر إليها لضرورته الآدمية . وقد مضى هذا المعنى فى « براءة »(١) وحقيقة الملك فى « النمل »(٢) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أى النبوّة ؛ قاله السدى . مجاهد : العدل . أبو العالية : العلم بكتاب الله تعالى . قتادة : السنة . شريح : العلم والفقه . ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمى وقتادة : يعنى الفصل فى القضاء . وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس : بيان الكلام . علىّ بن أبى طالب : هو البينة على المدّعى واليمين على من أنكر . وقاله شُرَيح والشَّعْبىّ وقتادة أيضا . وقال أبو موسى الأشعرى والشّعبى أيضا : هو قوله أما بعد ، وهو أول من تكلم بها . وقيل : « فَصْلُ الْخِطَاب » البيان الفاصل بين الحق والباطل . وقيل : هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير فى اللفظ القليل . والمعنى فى هذه الأقوال متقارب . وقول علىّ رضى الله عنه يجمعه ؛ لأن مدار الحكم عليه فى القضاء ما عدا قول أبى موسى .

الثانيــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : فأما علم القضاء فلعَمْرُ إلٰهك إنه لنوع من العلم مجرد ، وفصل منه مؤكّد ، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام ؛ ففى الحديث : "أقضاكم علىّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل" . وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال ، عارفا بالحلال والحرام ، ولا يقوم بفصل القضاء . يروى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زُبْيَة للأسد ،

(١) راجع جـ ٨ ص ١٧١ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٦٤ فما بعد .

فوقع فيها الأسد ، وآزدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر ، وتعلق الآخر بآخر ، حتى صاروا أربعة ، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا ، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال ؛ قال فأتيتهم فقلت : أتقتلون مائتى رجل من أجل أربعة أناس ! تعالوا أقض بينكم بقضاء ؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم ، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحق بالقضاء . فجعل للأوّل ربع الدية ، وجعل للثانى ثلث الدية ، وجعل للثالث نصف الدية ، وجعل للرابع الدية ، وجعل الديات على من حفر الزُّبْيَة على قبائل الأربعة ؛ فسخط بعضهم ورضى بعضهم ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصوا عليه القصة ؛ فقال : "أنا أقضى بينكم" فقال قائل : إن عليا قد قضى بيننا . فأخبروه بما قضى علىّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القضاء كما قضى علىّ" فى رواية : فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء علىّ . وكذلك يروى فى المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال : إن آبن أبى ليلى — وكان قاضيا بالكوفة — جلد آمرأة مجنونة قالت لرجل يآبن الزانيين حدّين فى المسجد وهى قائمة . فقال : أخطأ من ستة أوجه . قال آبن العربى : وهذا الذى قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالروية إلا العلماء . فأما قضية علىّ فلا يدركها الشادى ، ولا يلحقها بعد التمرن فى الأحكام إلا العاكف المتمادى . وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولين خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها ، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ ، بَيْدَ أن الأوّل مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثة بالمجاذبة ، فله الديةُ بما قُتِل ، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم . وأما الثانى فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالآثنين اللذين قتلهما بالمجاذبة . وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف ؛ لأنه قتل واحدا بالمجاذبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجارى فيه . وهذا من بديع الآستنباط . وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعانى المتعلقة فرآها ستة : الأوّل أن المجنون لا حدّ عليه ؛ لأن الجنون يسقط التكليف . وهذا إذا كان القذف فى حالة الجنون ، وأما إذا كان يجنّ مرة ويُفيق أخرى فإنه يحدّ بالقذف فى حالة إفاقته . والثانى قولها يآبن الزانيين فجلدها حدّين لكل أب حدّ ، فإنما خطأه أبو حنيفة على مذهبه فى أن حدّ

القذف يتداخل ، لأنه عنده حق الله تعالى كحدّ الخمر والزنى . وأما الشافعى ومالك فإنهما يريان أن الحدّ بالقذف حق للآدمى ، فيتعدّد بتعدّد المقذوف . الثالث أنه جلد بغير مطالبة المقذوف ، ولا تجوز إقامة حدّ القذف بإجماع من الأمة إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حق لله تعالى ، ومن يقول إنه حق الآدمى . وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حق للآدمى ؛ إذ لو كان حقا لله لما توقف على المطالبة كحدّ الزنى . الرابع أنه والى بين الحدّين ، ومن وجب عليه حدّان لم يُوالَ بينهما ، بل يحدّ لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب ، [أو يستبل المضروب](١) ثم يقام عليه الحد الآخر . الخامس أنه حدّها قائمة ، ولا تحدّ المرأة إلا جالسة مستورة ؛ قال بعض الناس : فى زنبيل . السادس أنه أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعا . وفى القضاء فى المسجد والتعزير فيه خلاف . قال القاضى : فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء ، الذى وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات فى الحديث المروىّ "أقضاكم علىّ" . وأما من قال : إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم دون العرب ؛ وقد بين هذا بقوله : "وأوتيت جوامع الكلم" . وأما من قال : إنه قوله أما بعد ؛ فكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته : "أما بعد" . ويروى أن أول من قالها فى الجاهلية سحبان بن وائل ، وهو أول من آمن بالبعث ، وأول من توكأ على عصا ، وعمّر مائة وثمانين سنة . ولو صح أن داود عليه السلام قالها ، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم ، وإنما كان بلسانه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ

(١) الزيادة من ابن العربى .

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

فيـه أربع وعشرون مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ «الْخَصْمُ» يقع على الواحد والاثنين والجماعة ؛ لأن أصله المصدر . قال الشاعر :

وَخَصْمٍ غِضَابٌ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ * كنفضِ البَرَاذِينِ العِرابِ المَخَالِيَا

النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به هاهنا ملكان . وقيل : «تَسَوَّرُوا» وإن كان اثنين حملاً على الخصم ، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعا له ، مثل الركب والصحب . تقديره للاثنين ذوا خصمٍ وللجماعة ذوو خصمٍ . ومعنى: «تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ» أتوه من أعلى سوره . يقال : تسوّر الحائط تسلّقه ، والسور حائط المدينة وهو بغير همز ، وكذلك السُّوَر جمع سورةٍ مثل بُسْرةٍ وبُسَرٍ وهي كل منزلة من البناء . ومنه سورة القرآن ؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى . وقد مضى في مقدّمة الكتاب بيان هذا (١) . وقول النابغة :

ألم تَرَ أنَ اللهَ أعطاكَ سُورَةً * ترى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب

يريد شرفا ومنزلة . فأما السؤر بالهمز فهو بقية الطعام في الإناء . ابن العربي : والسؤر الوليمة بالفارسي . وفي الحديث : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب: "إن جابرا قد صنع لكم سؤرا فحَيَّهَلًا بكم" . والمحراب هنا الغرفة؛ لأنهم تسوّروا عليه فيها ؛ قاله يحيى ابن سلام . وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد . وقد مضى القول فيه في غير موضع (٢) . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ ﴾ جاءت «إِذْ» مرتين ؛ لأنهما فعلان . وزعم

(١) راجع جـ ١ ص ٦٥ فما بعد .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٧١ وجـ ١١ ص ٨٤ فما بعد .

الفرّاء : أن إحداهما بمعنى لمـا . وقول آخران تكون الثانية مع ما بعدها تبيينا لمـا قبلها .
قيـل : إنهما كانا إنسيين ؛ قاله النقاش . وقيـل : ملَكَين ؛ قاله جماعة . وعينهما جماعة فقالوا : إنهما جبريل وميكائيل . وقيل : ملَكَين في صورة إنسيين بعثهما الله إليـه في يوم عبادته . فمنعهما الحرس الدخول ، فتسوّروا المحراب عليه ، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين ؛ وهو قوله تعـالى : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَـوَّرُوا الْمِحْرَابَ » أى علوا ونزلوا عليـه من فوق المحراب ؛ قاله سـفيان الثوري وغيره . وسبب ذلك ما حكاه آبن عباس أن داود عليه السلام حدّث نفسه إن آبتلي أن يعتصم . فقيل له : إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حذرك . فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه ، فبيناهو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير ، فجعل يَدرُج بين يديه . فهمّ أن يتناوله بيده ، فآستدرج حتى وقع في كوّة المحراب ، فدنا منـه ليأخذه فطار ، فآطلع ليبصره فأشرف على آمرأة تغتسل ، فلما رأته غطت جسدها بشـعرها . قال السدّى : فوقعت في قلبه . قال آبن عباس : وكان زوجها غازيا في سبيل الله وهو أوريا بن حنانـــ ، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حملة التابوت ، وكان حملة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا ، فقدّمه فيهم فقتل ، فلما آنقضت عدّتها خطبها داود ، وآشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة بعده ، وكتبت عليه بذلك كتابا ، وأشهدت عليه خمسين رجلا من بنى إسرائيل ، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وَشبَّ ، وتسوّر الملكان وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه . ذكره المـاوردى وغيره . ولا يصح[(١)] . قال آبن العربى : وهو أمثل ما روى في ذلك .

(١) ما أورده القرطبي هنا في حق داود عليه الصلاة والسلام من قبيل الإسرائيليات ولا صحة لهـا ، وهو هراء وافتراء كما قال البيضاوى ، ومما يقدح في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولقد أحسن أبو حيان وأجاد حيث يقول : « يعلم قطعا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها ؛ ضرورة أنا لو جوّزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ، ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله تعـالى في كتابه يمر على ما أراده الله تعالى ، وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوّة طرحناه ؛ ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقـل في كل شـبهة ※ إذا آثر الأخبـار جلاس قصاص

والرقاشى مطروح الرواية عند التحقيق . وسيأتى للؤلف أن ينقل عن النحاس في صفحة ١٧٥ ما يؤيد ما أوردناه .

قلت : ورواه مرفوعا بمعناه الترمذيّ الحكيم في « نوادر الأصول » عن يزيد الرقاشيّ ، سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثا وأوصى صاحب البعث فقال : إذا حضر العدوّ قَرِّب فلانا وسماه ، قال فقرّبه بين يدى التابوت ـ قال ـ وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يُستنصر به فمن قُدِّم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتله فقُدِّم فقُتِل زوج المرأة ونزل المَلَكان على داود فقصّا عليه القصّة " . وقال سعيد عن قتادة : كتب إلى زوجها وذلك في حِصار عَمَّان(١) مدينة بلقاء أن يأخذوا بحلقة الباب ، وفيه الموت الأحمر ، فتقدّم فقتل . وقال الثعلبي قال قوم من العلماء : إنما امتحن الله داود بالخطيئة ؛ لأنه تمنى يوما على ربه منزلة إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وسأله أن يمتحنه نحو ما امتحنهم ، ويعطيه نحو ما أعطاهم . وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام ، يوم يقضى فيه بين الناس ، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه ، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله . وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحق ويعقوب . فقال : يارب ! إن الخير كله قد ذهب به آبائي ؛ فأوحى الله تعالى إليه : إنهم ابتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها ؛ ابتلى إبراهيم بنمروذ وبالنار وبذبح ابنه ، وابتلى إسحق بالذبح ، وابتلى يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره ، ولم تبتل أنت بشيء من ذلك . فقال داود عليه السلام : فابتلني بمثل ما ابتليتهم ، وأعطني مثل ما أعطيتهم ، فأوحى الله تعالى إليه : إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة . فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه ، وأغلق بابه ، وجعل يصلّي ويقرأ الزبور . فبينا هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب ، فيها من كل لون حسن ، فوقف بين رجليه ، فمدّ يده ليأخذها فيدفعها لابن له صغير ، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها فتنحت ، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة ، فذهب ليأخذها فطارت ونظرُ داود يرتفع في إثرها ليبعث إليها من يأخذها ، فنظر امرأة في بستان على شط بركة

(١) مدينة بلقاء يريد بها قصبة البلقاء .

تغتسل ؛ قاله الكلبي . وقال السدى : تغتسل عريانة على سطح لها ؛ فرأى أجمل النساء خَلْقا ، فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها ، فزاده إعجابا بها . وكان زوجها أوريا ابن حنان ، في غزوة مع أيوب بن صوريا ٱبن أخت داود ، فكتب داود إلى أيوب أن ٱبعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا ، وقَدِّمه قبل التابوت ، وكان من قدّم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد . فقدّمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك . قال الكلبي : وكان أوريا سيف الله في أرضه في زمان داود ، وكان إذا ضرب ضربة وكبّر كبّر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، وكبّرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهى ذلك إلى العرش ، فتكبر ملائكة العرش بتكبيره . قال : وكان سيوف الله ثلاثة ؛ (١) كالب بن يوفنا في زمن موسى ، وأوريا في زمن داود ، وحمزة بن عبد المطلب في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه : أن ٱبعثه في بعث كذا وقدمه قبل التابوت ؛ ففتح الله عليه ، فقتل في الثالثة شهيدا . فتزوج داود تلك المرأة حين ٱنقضت عدّتها . فهي أم سليمان بن داود . وقيل : سبب ٱمتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة شيء . قال الحسن : إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء ؛ جزءا لنسائه ، وجزءا للعبادة ، وجزءا لبنى إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويبكونه ويبكيهم ، ويوما للقضاء . فتذاكروا هل يمر على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك ؛ فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته ، وأمر ألا يدخل عليه أحد ، وأكبَّ على قراءة الزبور ، فوقعت حمامة من ذهب بين يديه . وذكر نحو ما تقدّم . قال علماؤنا : وفي هذا دليل وهي :

الثانيــة — على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كل يوم ، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه وإن كان مشغولا بالعبادة . وقد مضى هذا المعنى في « النساء » (٢) . وحكم كعب بذلك في زمن عمر بحضره رضى الله عنهما . وقد قال عليه السلام

(١) في النسخة الخيرية : وكان سيوف الله هكذا ثلاثة . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٩ .

لعبـد الله بن عمر : " إنّ لزوجك عليك حقـا " الحديث . وقال الحسن أيضـا ومجاهد : إنـ داود عليه السلام قال لبنى إسرائيل حين آستخلف : والله لأعدلنّ بينكم ، ولم يستثن فابتلى بهـذا . وقال أبو بكر الورّاق : كانـ داود كثـير العبادة فأعجب بعمـله وقال : هل فى الأرض أحد يعمل كعملى . [فأرسل][(١)] الله إليه جبريل ، فقال : إن الله تعالى يقول لك : أعجبتَ بعبادتك ، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب ، فإن أعجبت ثانية وَكَلْتُكَ إلى نفسك . قال : يارب كِلنى إلى نفسى سنة . قال : إن ذلك لكثير . قال : فشهرا . قال : إن ذلك لكثير . قال : فيوما . قال : إن ذلك لكثير . قال : يارب فكلنى إلى نفسى ساعة . قال : فشأنك بهـا . فوكّل الأحراس ، ولبس الصوف ، ودخل المحراب ، ووضع الزبور بين يديه ، فبينما هو فى عبادته إذ وقع الطائر بين يديه ، فكان من أمر المرأة ما كان . وقال سفيان الثورى : قال داود ذات يوم : يارب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم ، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم . فأوحى الله إليـه : يا داود منك ذلك أو منى؟ وعزتى لأكِلَنَّك إلى نفسك . قال : يارب آعف عنّى . قال : أكلك إلى نفسك سـنة . قال : لا بعزتك . قال : فشهرا . قال : لا بعزتك . قال : فأسـبوعا . قال : لا بعزتك . قال : فيوما . قال : لا بعزتك . قال : فساعة . قال : لا بعزتك . قال : فلحظة . فقال له الشـيطان : وما قدر لحظة . قال : كِلْنى إلى نفسى لحظة . فوكله الله إلى نفسـه لحظة . وقيل له : هى فى يوم كذا فى وقت كذا . فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة ، ووكل الأحراس حول مكانه . قيل : أربعة آلاف . وقيل : ثلاثين ألفا أو ثلاثة وثلاثين ألفا . وخلا بعبادة ربه ، ونشر الزبور بين يديه ، فجاءت الحمامة فوقعت له ، فكان من أمره فى لحظته مع المرأة ما كان . وأرسل الله عز وجل إليه الملكين بعد ولادة سليمان ، وضربا له المثل بالنعاج ، فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخرّ ساجدا أربعين ليلة على ما يأتى .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ لأنهما أتياه ليلا فى غير وقت دخول الخصوم . وقيل : لدخولهم عليه بغير إذنه . وقيل : لأنهم تسوّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب .

(١) فى الأصول : « فأوحى » .

قال ابن العربي : وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع ، بحيث لا يرتقى إليه آدمى بحيلة إلا أن يقيم إليه أياما أو أشهرا بحسب طاقته ، مع أعوان يكثر عددهم ، وآلات جمة مختلفة الأنواع . ولو قلنا : إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبرا عن ذلك : « تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » إذ لا يقال تسوّر المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها ، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازا ؛ وإذا شاهدت الكوة التي يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعا أنهما ملكان ؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا عُلْوِيّ . قال الثعلبي : وقد قيل : كان المتسوِّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم . فلما قضى داود بينهما بقضية قال له مَلَك من الملائكة : فهلا قضيت بذلك على نفسك ياداود . قال الثعلبي : والأول أحسن أنهما كانا مَلَكين نبّها داود على مافعل .

قلت : وعلى هذا أكثر أهل التأويل . فإن قيل : كيف يجوز أن يقول الملكان « خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » وذلك كذب والملائكة عن مثله منزّهون . فالجواب عنه أنه لا بد في الكلام من تقدير ، فكأنهما قالا : قدِّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ، وعلى ذلك يحمل قولهما : « إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على مافعل ؛ والله أعلم .

الرابعـة — إن قيل : لم فزع داود وهو نبيّ ، وقد قويت نفسه بالنبوّة ، واطمأنت بالوحي ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة في غاية المكانة ؟ قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذية ومنهما كان يخاف . ألا ترى إلى موسى وهرون عليهما السلام كيف قالا : « إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى »(١) فقال الله عز وجل : « لَا تَخَافَا » . وقالت الرسل للوط : « لَا تَخَفْ . إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ »(٢) وكذا قال الملكان هنا : « لَا تَخَفْ » . قال محمد بن إسحق : بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو في محرابه — مثلا ضربه الله له ولأوريا فرآهما واقفين على رأسه ؛ فقال : ما أدخلكما عليّ ؟ قالا : « لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » فجئناك لتقضي بيننا .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٠١ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٩ .

الخامســـة — قال ٱبن العربي : فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما ، وهلا أدّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه : الأوّل — أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن ، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام ، وقد كان ذلك في ٱبتداء شرعنا مهملا في هذه الأحكام ، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان . الثاني — أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب ، لٱحتمل أن يكون الفزع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له . الثالث — أنه أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا له حتى يعلم آخر الأمر منه ، ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا ؟ وهل يقترن بذلك عذر لهما أم لا يكون لهما عذر فيه ؟ فكان من آخر الحال ما ٱنكشف أنه بلاء ومحنة ، ومثل ضربه الله في القصة ، وأدب وقع على دعوى العصمة . الرابع — أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد .

قلت : وقول خامس ذكره القشيري ، وهو أنهما قالا : لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب ، توصلنا إلى الدخول بالتّسور ، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا . فقبل داود عذرهم ، وأصغى إلى قولهم .

السادســة — قوله تعالى : « خَصْمَانِ » إن قيل : كيف قال : « خَصْمَانِ » وقبل هذا : « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » فقيل : لأن الٱثنين جمع ، قال الخليل : كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما ٱثنين . وقال الكسائي : جمع لما كان خبرا ، فلما ٱنقضى الخبر وجاءت المخاطبة ، خبّر الٱثنان عن أنفسهما فقالا خصمان . وقال الزجاج : المعنى نحن خصمان . وقال غيره : القول محذوف ، أي يقول : « خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ » قال الكسائي : ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز . الماوردي : وكانا ملكين ، ولم يكونا خصمين ولا باغيين ، ولا يتأتى منهما كذب ، وتقدير كلامهما ما تقول : إن أتاك خصمان قالا بغى بعضنا على بعض . وقيل : أي نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض . وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين ٱثنين ومع كل واحد جمع . ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة

مع كل واحد من الفريق الآخر ، فحضروا الخصومات ولكن ابتدأ منهم اثنان ، فعرف داود بذكر النكاح القصة . وأغنى ذلك عن التعرض للخصومات الأخر . والبغى التعدّى والخروج عن الواجب . يقال : بغى الجُرْح إذا أفرط وجعه وترامى إلى مايفحش ، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أى لا تَجُرْ ، قاله السدّى . وحكى أبو عبيد : شططت عليه وأشططت أى جُرت . وفى حديث تميم الدارىّ : (إنّك لشاطّى) أى جائر علىّ فى الحكم . وقال قتادة : لا تَمِل . الأخفش : لا تُسرف . وقيل : لا تُفرط . والمعنى متقارب . والأصل فيه البعد من شطتِ الدار أى بعدت ؛ شطّتِ الدار تَشِطّ وتَشُطّ شطًّا وشُطوطًا بعدت . وأشطّ فى القضية أى جار ، وأَشطّ فى السَّوْم واشتط أى أبعد ، وأشطُّوا فى طلبى أى أمعنوا . قال أبو عمرو : الشطط مجاوزة القدر فى كل شىء . وفى الحديث : " لها مهر مثلها لا وَكْسَ ولا شطط " أى لا نقصان ولا زيادة . وفى التنزيل : « لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا »(١) أى جورا من القول وبعدا عن الحق . ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى أرشدنا إلى قصد السبيل .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ أى قال الملَك الذى تكلم عن أوريا « إِنَّ هَذَا أَخِي » أى على دينى ، وأشار إلى المدّعى عليه . وقيل : أخى أى صاحبى . « لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » وقرأ الحسن : « تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً » بفتح التاء فيهما وهى لغة شاذة ، وهى الصحيحة من قراءة الحسن ؛ قاله النحاس . والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة والشاة ؛ لما هى عليه من السكون والمعجَزة وضعف الجانب . وقد يكنى عنها بالبقرة والحِجْرة والناقة ؛ لأن الكل مركوب . قال ابن عون :

أنا أبوهنّ ثلاثٌ هُنّهْ * رابعةٌ فى البيت صُغْرا هُنّهْ
ونعجتى خمسا تُوفّيهِنّهْ * أَلَا فتًى سَمْحٌ يُغَذِّيهِنّهْ
طَىُّ النَّقَا فى الجوع يَطْوِيهِنّهْ * ويلُ الرَّغيف ويلَه مِنْهُنّهْ

---

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٦٥ فما بعد .

وقال عنترة :

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمَن حَلَّتْ لَهُ * حَرُمتْ عليَّ وليتها لم تَحرُمِ
فَبَعَثْتُ جاريتى فقلتُ لها آذْهَبِي * فتَجَسَّسِي أخبارَها لى وَآعْلَمِ
قالتْ رأيْتُ مِن الأعادى غِرَّةً * والشّاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِ
فكأنّما آلتفتتْ بجِيدِ جِدايةٍ * رَشَإٍ مِنَ الغِزْلانِ حُرٍّ أَرْثَمِ

وقال آخر (١) :

فَرَمَيتُ غَفْلَةَ عَيْنِه عَنْ شاتِه * فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلبِها وطِحالَها

وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء . قال الحسين بن الفضل : هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم ضرب زيد عمرا ، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق ، كأنه قال : نحن خصمان هذه حالنا . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل فى هذا أن المعنى : يقول : خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسألة ؛ كما تقول : رجل يقول لآمرأته كذا ؛ ما يجب عليه ؟

قلت : وقد تأول المزنى صاحب الشافعى هذه الآية ، وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث آبن شهاب الذى خرجه « الموطأ » وغيره : " هو لكَ يا عبدُ بنَ زَمْعَة " على نحو هذا ؛ قال المزنى : يحتمل هذا الحديث عندى — والله أعلم — أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحكم أنّ هذا يكون إذا آدعى صاحب فراش وصاحب زنى ، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد ، ولا على زَمْعَة قول آبنه إنه ولد زنى (٢) ، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره . وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره . وقد ذكر الله سبحانه فى كتابه مثل ذلك فى قصة داود والملائكة ؛ إذ دخلوا عليه ففزع منهم ، قالوا : لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين ، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة ، ولكنهم كلموه على المسألة ليعرف بها ما أرادوا تعريفه . فيحتمل أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم

(١) هو الأعشى . (٢) قوله : « إنه ولد زنى » . راجع الحديث فى « الموطأ » ج ٦ ص ٤ طبعة السلطان عبد الحفيظ .

حكم فى هذه القصة على المسألة ، وإن لم يكن أحد يؤنسنى على هذا التأويل فى الحديث ؛ فإنه عندى صحيح . والله أعلم .

التاسعة — قال النحاس : وفى قراءة ابن مسعود «إِنَّ هَذَا أَخِى كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى » و « كَانَ» هنا مثل قوله عز وجل : «وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»(١) فأما قوله : «أنثى» فهو تأكيد ، كما يقال : هو رجل ذكر وهو تأكيد . وقيل : لما كان يقال هذه مائة نعجة ، وإن كان فيها من الذكور شيء يسير ، جاز أن يقال : أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها . وفى التفسير : له تسع وتسعون امرأة . قال ابن العربى : إن كان جميعهن أحرارا فذلك شرعه ، وإن كن إماء فذلك شرعنا . والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصورا بعدد ، وإنما الحصر فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، لضعف الأبدان وقلة الأعمار . وقال القشيرى : ويجوز أن يقال : لم يكن له هذا العدد بعينه ، ولكن المقصود ضرب مثل ، كما تقول : لو جئتنى مائة مرة لم أقض حاجتك ، أى مرارا كثيرة . قال ابن العربى : قال بعض المفسرين : لم يكن لداود مائة امرأة ، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلا ؛ المعنى : هذا غنى عن الزوجة وأنا مفتقر إليها . وهذا فاسد من وجهين : أحدهما — أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له ، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصورا من النساء على ما فى شرعنا . الثانى — أنه روى البخارى وغيره أن سليمان قال : "لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله ونسى أن يقول إن شاء الله" وهذا نص .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أى امرأة واحدة : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أى انزل لى عنها حتى أكفلها . وقال ابن عباس : أعطنيها . وعنه : تحول لى عنها . وقاله ابن مسعود . وقال أبو العالية : ضمها إلىّ حتى أكفلها . وقال ابن كيسان : اجعلها كفلى ونصيبى . ﴿ وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ ﴾ أى غلبنى . قال الضحاك : إن تكلم كان أفصح منى ، وإن حارب كان أبطش منى . يقال : عزّه يعزّه (بضم العين فى المستقبل) عَزًّا غلبه . وفى المثل : من عَزَّ بَزَّ ؛ أى من غَلَبَ سَلَبَ . والاسم العزة وهى القوة والغلبة . قال الشاعر :

قَطَاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ * تُجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَنَاحُ

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤١ فما بعد .

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير : « وَعَازَّنِي فِي الْخِطَابِ » أي غالبني؛ من المعازّة وهي المغالبة ؛ عازّه أي غالبه . قال ابن العربي : واختلف في سبب الغلبة ؛ فقيل : معناه غلبني ببيانه . وقيل : غلبني بسلطانه ؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه . كان ببلادنا أمير يقال له : سير بن أبي بكر(١) فكلمته في أن يسأل لي رجلا حاجة ، فقال لي : أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لها . فقلت : أما إذا كان عدلا فلا . فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته ، كما عجب من جوابي له واستغربه .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ قال النحاس : فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام ؛ لأنه قال : لقد ظلمك من غير تثبت ببيّنة ، ولا إقرار من الخصم ؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن . فهذا قول .

وسيأتي بيانه في المسألة بعد هذا ، وهو حسن إن شاء الله تعالى . وقال أبو جعفر النحاس : فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم ؛ منهم عبد الله بن مسعود وابن عباس ، فإنهم قالوا : ما زاد داود صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل انزل لي عن امرأتك . قال أبو جعفر : فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبّهه عليه ، وليس هذا بكبير من المعاصي ، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم ، ويلحقه فيه إثم عظيم . كذا قال : في كتاب « إعراب القرآن » . وقال : في كتاب « معاني القرآن » له بمثله . قال رضي الله عنه : قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا ، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده ، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها . وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : ما زاد داود عليه السلام على أن قال : « أَكْفِلْنِيهَا » أي انزل لي عنها . وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال : ما زاد داود صلى الله عليه وسلم على أن قال : « أَكْفِلْنِيهَا » أي تحوّل لي عنها وضمها إليّ . قال أبو جعفر : فهذا أجلّ ما روي في هذا ، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق امرأته ، كما يسأل الرجل الرجل أن يبيعه جاريته ، فنبهه الله

(١) هو الأمير أبو بكر سير من أمراء المرابطين أحد قواد يوسف بن تاشفين المشاهير تركه بالأندلس حين عزم الرجوع إلى بلاده . ا هـ نفح الطيب .

عز وجل على ذلك ، وعاتبه لما كان نبيا وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها ، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه . قال ابن العربي : وأما قولهم إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله فهذا باطل قطعا ، فإن داود صلى الله عليه وسلم لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه ، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه : انزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك ، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة ، كانت في الأهل أو في المال . وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما : إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما ، فقال له : بارك الله لك في أهلك . وما يجوز فعله ابتداء يجوز طلبه ، وليس في القرآن أن ذلك كان ، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها ، ولا ولادتها لسليمان ، فعمن يروى هذا ويسند ؟ ! وعلى من في نقله يعتمد ، وليس يأثره عن الثقات الأثبات أحد . أما أن في سورة «الأحزاب» نكتة تدل على أن داود قد صارت له المرأة زوجة ، وذلك قوله : « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ »(1) يعني في أحد الأقوال : تزويج داود المرأة التي نظر إليها ، كما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فراق ، بل أمره بالتمسك بزوجته ، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها . فكانت هذه المنقبة لمحمد صلى الله عليه وسلم على داود مضافة إلى مناقبه العلية صلى الله عليه وسلم . ولكن قد قيل : إن معنى « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق . وقيل : أراد بقوله : «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره . وهذا أصح الأقوال . وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة ، وهذا نص القرآن . وروى أن سليمان كانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية ، وربك أعلم . وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » الآية : ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر ، أن داود عليه

(1) راجع جـ ١٤ ص ١٩٥ .

السلام كان قد أقدم على خِطبة آمرأة قد خطبها غيره، يقال : هو أوريا، فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه، وزاهدين فى الخاطب الأوّل ، ولم يكن بذلك داود عارفا، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك، من حيث أعجب بها إما وصفاً أو مشاهدةً على غير تعمد ؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير ، وذلك الخاطب لا آمرأة له ، فنبهه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسور الملَكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض؛ لكى يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ فيه الفتوى فى النازلة بعد السماع من أحد الخصمين ، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول . قال آبن العربى : وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا فى ملّة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر . وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين آدعى والآخر سلّم فى الدعوى ، فوقعت بعد ذلك الفتوى . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : " إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر" وقيل : إن داود لم يقض للآخر حتى آعترف صاحبه بذلك . وقيل : تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك . والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه .

قلت : ذكر هذين الوجهين القشيرى والماوردى وغيرهما . قال القشيرى : وقوله : « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ » من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعد آعترافه . وقد روى هذا وإن لم تثبت روايته ، فهذا معلوم من قرائن الحال ، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ماتقول، فسكّته بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه . قال ويحتمل أن يقال : كان من شرعهم التعويل على قول المدّعى عند سكوت المدّعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول . وقال الحليمى أبو عبد الله فى كتاب منهاج الدين له : ومما جاء فى شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت ، أو كانت خافية فظهرت : السجود لله عز وجل . قال والأصل فى ذلك قوله عز وجل : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ

الْخَصْمِ » إلى قوله : « وَحُسْنَ مَآبٍ » . أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام : أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر، إنما حكى أنه ظلمه، فكان ظاهر ذلك أنه رأى فى المتكلم مخائل الضعف والهضيمة ، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول، ودعاه ذلك إلى ألا يسأل الخصم؛ فقال له مستعجلا : « لَقَدْ ظَلَمَكَ » مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول : كانت لى مائة نعجة ولا شيء لهذا، فسرق منى هذه النعجة، فلما وجدتها عنده قلت له آرددها ، وما قلت له أكفلنيها ، وعلم أنى مرافعه إليك، فجرّنى قبل أن أجرّه ، وجاءك متظلما من قبل أن أحضره، لتظنّ أنه هو المحق وأنى أنا الظالم. ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه ، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه فى ذلك الوقت ، وهو الفتنة التى ذكرناها، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه ، فآستغفر ربه وخرّ راكعا لله تعالى شكرا على أن عصمه ، بأن آقتصر على تظليم المشكو، ولم يزده على ذلك شيئا من انتهار أو ضرب أو غيرهما، مما يليق بمن تصوّر فى القلب أنه ظالم ، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه ؛ فقال : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة ، التى توخاه بها بعد المغفرة، أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ فى الحكم ، والمبادرةَ إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه . ثم جاء عن آبن عباس أنه قال : سجدها داود شكرا، وسجدها النبي صلى الله عليه وسلم آتباعا، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم . ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ أى بسؤاله نعجتك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال؛ وهو كقوله تعالى : « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ »(١) أى من دعائه الخير .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ يقال : خليط وخلطاء، ولا يقال طويل وطولاء؛ لثقل الحركة فى الواو . وفيه وجهان : أحدهما أنهما الأصحاب . الثانى أنهما الشركاء .

(١) راجع ص ٣٧٢ من هذا الجزء .

قلت : إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد، وقد آختلف العلماء في صفة الخلطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كل واحد بغنمه فيجمعهما راع واحد والدّلو والمراح . وقال طاوس وعطاء : لا يكون الخلطاء إلا الشركاء . وهذا خلاف الخبر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : "لا يُجْمَع بين مفترق(١) ولا يفَرّق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية" وروى "فإنهما يترادّان الفضل" ولا موضع اتراد الفضل بين الشركاء؛ فآعلمه . وأحكام الخلطة مذكورة في كتب الفقه . ومالك وأصحابه و جمع من العلماء لا يرون [الصدقة](٢) على من ليس في حصته ما تجب فيه الزكاة . وقال الربيع والليث و جمع من العلماء منهم الشافعي : إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة . قال مالك : وإن أخذ المصّدّق بهذا ترادّوا بينهم للآختلاف في ذلك ، وتكون كحكم حاكم آختلف فيه .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي يتعدّى و يظلم . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدا . ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ يعني الصالحين، أي وقليل هم فـ « ما » زائدة . وقيل : بمعنى الذين وتقديره وقليل الذين هم . وسمع عمر رضي الله عنه رجلا يقول في دعائه : اللهم آجعلني من عبادك القليل . فقال له عمر : ما هذا الدعاء؟ . فقال أردت قول الله عز وجل : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر !

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أي آبتليناه . «وظَنّ» معناه أيقن . قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين . والقراءة « فَتَنَّاهُ » بتشديد النون دون التاء . وقرأ عمر آبن الخطاب رضي الله عنه « فَتَّنَّاهُ » بتشديد التاء والنون على المبالغة . وقرأ قتادة وعبيد آبن عمير وآبن السَّمَيْقع « فَتَنَاهُ » بتخفيفهما . ورواه علي بن نصر عن أبي عمرو، والمراد به الملكان اللذان دخلا على داود عليه السلام .

(١) في ك : « متفرق » .	(٢) زيادة يقتضيها السياق .

السادسة عشرة — قيل : لما قضى داود بينهما فى المسجد ، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، فلم يفطن داود، فأحبا أن يعرفهما ، فصعدا إلى السماء حِيال وجهه، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى آبتلاه بذلك، ونبهه على ما آبتلاه .

قلت : وليس فى القرآن ما يدل على القضاء فى المسجد إلا هذه الآية ، وبها آستدل من قال بجواز القضاء فى المسجد ، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعى لما أقرّهم داود على ذلك . ويقول : آنصرفا إلى موضع القضاء . وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء يقضون فى المسجد ، وقد قال مالك : القضاء فى المسجد من الأمر القديم . يعنى فى أكثر الأمور . ولا بأس أن يجلس فى رحبته؛ ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض، ولا يقيم فيه الحدود، ولا بأس بخفيف الأدب . وقد قال أشهب : يقضى فى منزله وأين أحب .

السابعة عشرة — قال مالك رحمه الله : وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم ، وأول من آستقضى معاوية . قال مالك : وينبغى للقضاة مشاورة العلماء . وقال عمر بن عبد العزيز : لا يستقضى حتى يكون عالما بآثار من مضى ، مستشيرا لذوى الرأى ، حليما نزها . قال : ويكون ورعا . قال مالك : وينبغى أن يكون متيقظا كثير التحذر من الحيل ، وأن يكون عالما بالشروط، عارفا بما لا بُدّ له منه من العربية؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التى تتضمن حقوق المحكوم له . وينبغى له أن يقول قبل إنجاز الحكم للطلوب : أبقيت لك حجة ؟ فإن قال لا حكم عليه، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتى بما له وجه أو بينة . وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة فى غير هذا الموضع .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ آختلف المفسرون فى الذنب الذى آستغفر منه على أقوال ستة : الأول أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها . قال سعيد بن جبير : إنما كانت فتنته النظرة . قال أبو إسحق : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها ، فصارت الأولى له والثانية عليه . الثانى أنه أغزى زوجها فى حملة التابوت . الثالث

أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها . الرابع أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود فزوّجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا ، فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخاطبها ، وقد كان عنده تسع وتسعون آمرأة. الخامس أنه لم يجزع على قتل أوريا ، كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج آمرأته ، فعاتبه الله تعالى على ذلك ؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله . السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر . قال القاضي آبن العربي : أما قول من قال : إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل . وأما من قال : إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندي بحال ؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب ! وحكى السديّ عن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرّما لجلدته ستين ومائة ؛ لأن حدّ [قاذف] الناس ثمانون وحدّ [قاذف] الأنبياء ستون ومائة . ذكره الماوردي والثعلبي أيضا . قال الثعلبي : وقال الحرث الأعور عن عليّ : من حدّث بحديث داود على ما ترويه القصاص معتقدا جلدته حدّين ؛ لعظم ما آرتكب برمى من قد رفع الله محله ، وآرتضاه من خلقه رحمة للعالمين ، وحجة للمجتهدين . قال آبن العربي : وهذا مما لم يصح عن عليّ . فإن قيل : فما حكمه عندكم ؟ قلنا : أما من قال إن نبيًّا زنى فإنه يقتل ، وأما من نسب إليه مادون ذلك من النظر والملامسة ، فقد آختلف [نقل](١) الناس في ذلك ؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته ، فإنه يناقض التعزير المأمور به ، فأما قولهم : إنه وقع بصره على آمرأة تغتسل عريانة ، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها ، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأمة ؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها ، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها . وأما قولهم : إنه [نوى](١) إن مات زوجها تزوجها فلا شيء فيه إذ لم يعرّضه للموت . وأما قولهم : إنه خطب على خطبة أوريا فباطل يردّه القرآن والآثار التفسيرية كلها .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي .

وقد روى أشهب عن مالك قال : بلغني أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريبا من داود عليه السلام وهي من ذهب ، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده ، ثم صنع مثل ذلك مرتين ، ثم طارت وأتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعر طويل ؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموع عينيه . قال ابن العربي : وأما قول المفسرين إن الطائر درج عنده فهمّ بأخذه وأتبعه فهذا لا يناقض العبادة ؛ لأنه مباح فعله ، لا سيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة ، وإنما اتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لا منفعة له فيه ، وإنما ذِكرهم لحسن الطائر خرقٌ في الجهالة . أما أنه روى أنه كان طائرا من ذهب فاتبعه ليأخذه ؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روى في الصحيح : « إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عريانا فخرَّ عليه رِجل من جراد [من ذهب](١) فجعل يحثى منه ويجعل في ثوبه ؛ فقال الله تعالى له : «يا أيوب ألم أكن أغنيتك» قال : «بلى يارب ولكن لا غنى لى عن بركتك» . وقال القشيري : فهمّ داود بأن يأخذه ليدفعه إلى ابن له صغير فطار ووقع على كُوّة البيت ؛ وقاله الثعلبي أيضا وقد تقدّم .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ أي خر ساجدا ، وقد يعبر عن السجود بالركوع . قال الشاعر :

فخـرّ على وَجهِـه راكِعاً * وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذنب

قال ابن العربي : لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود ؛ فإن السجود هو الميل ، والركوع هو الانحناء ، وأحدهما يدخل على الآخر ، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته ، ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر ، فسمي السجود ركوعا . وقال المهدوي : وكان ركوعهم سجودا . وقيل : بل كان سجودهم ركوعا . وقال مقاتل : فوقع من ركوعه ساجدا لله عز وجل . أي لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة ، ثم وقع من الركوع إلى السجود ؛ لاشتمالهما جميعا على الانحناء . ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي .

وقال الحسين بن الفضل : سألني عبد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل : « وَخَرَّ رَاكِعًا » فهل يقال للراكع خرَّ ؟ . قلت : لا . قال : فما معنى الآية ؟ قلت : معناها فخر بعد أن كان راكعا أي سجد .

الموفية عشرين — وٱختلف في سجدة داود هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أم لا ؟ فروى أبو سعيد الخدري أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأ بها فتَشَزَّنَ(١) الناس للسجود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها توبة نبيّ ولكني رأيتكم تَشَزَّنتم للسجود " ونزل وسجد . وهذا لفظ أبي داود . وفي البخاري وغيره عن ٱبن عباس أنه قال : « صٓ » ليست من عزائم القرآن ، وقد رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يسجد فيها . وقد روى من طريق عن ٱبن مسعود أنه قال : « صٓ » توبة نبيّ ولا يسجد فيها ؛ وعن ٱبن عباس أنها توبة نبيّ ونبيكم ممن أمر أن يقتدى به . قال ٱبن العربي : والذي عندي أنها ليست موضع سجود ، ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد فيها فسجدنا بالٱقتداء به . ومعنى السجود أن داود سجد خاضعا لربه ، معترفا بذنبه . تائبا من خطيئته ؛ فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية ، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي ٱتبعه ، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا ؟ فإن هذا أمر مشروع في كل أمة لكل أحد . والله أعلم .

الحادية والعشرون — قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : قوله « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » فيه دلالة على أن السجود للشكر مفردا لا يجوز ؛ لأنه ذكر معه الركوع ؛ وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكرا فأما سجدة مفردة فلا ؛ وذلك أن البشارات كانت تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة بعده ، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكرا ، ولو كان ذلك مفعولا لهم لنقل نقلا متظاهرا لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة .

(١) التشزن : التأهب والتهيؤ للشيء .

قلت : وفى سنن آبن ماجه عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم صلّى يوم بُشِّر برأس أبى جهل ركعتين . وخرّج من حديث أبى بكرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه أمر يسرّه — أو يسرّ به — خر ساجدا شكرا لله . وهذا قول الشافعى وغيره .

الثانية والعشرون — روى الترمذى وغيره واللفظ للغير : أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ : « صٓ وَالْقُـرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » فلما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة ، فسمعها وهى تقول : اللهم أعظم لى بهذه السجدة أجرا ، وآرزقنى بها شكرا .

قلت : خرّج آبن ماجه فى سننه عن ابن عباس قال : كنت عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأتاه رجل فقال : إنى رأيت البارحة فيما يرى النائم ، كأنى أصلى إلى أصل شجرة ، فقرأت السجدة [فسجدت] (١) فسجدتْ الشجرة لسجودى ، فسمعتها تقول : اللهم آحطط بها عنى وزرا ، وآكتب لى بها أجرا ، وآجعلها لى عندك ذخرا . قال ابن عباس : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « السجدة » فسجد ، فسمعته يقول فى سجوده مثل الذى أخبره الرجل عن قول الشجرة . ذكره الثعلبى عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : قلت يا رسـول الله رأيتُنى فى النوم كأنى تحت شجرة والشجرة تقرأ « صٓ » فلمـا بلغت السجدة سجدتْ فيها ، فسمعتها تقول فى سجودها : اللهم آكتب لى بها أجرا ، وحطّ عنى بها وزرا ، وآرزقنى بها شكرا ، وتقبلها منى كما تقبلت من عبدك داود سجدته . فقال لى النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "أفسجدت أنت يا أبا سعيد" فقلت : لا والله يا رسول الله . فقال : "لقد كنت أحق بالسجود من الشجرة" ثم قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم «صٓ» حتى بلغ السجدة فسجد ، ثم قال مثل ما قالت الشجرة .

الثالثـة والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أى فغفرنا له ذنبـه . قال آبن الأنبارى : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ » تام ، ثم تبتدئ « وَإِنَّ لَهُ » وقال القشيرى : و يجوز الوقف على « فَغَفَرْنَا لَهُ » ثم تبتدئ « ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ » كقوله : « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ » أى الأمر ذلك ،

(١) الزيادة من سنن آبن ماجه .

وقال عطاء الخراساني وغيره : إن داود سجد أربعين يوما حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه، فنودى : أجائع فتطعَم وأعارٍ فتكسَى، فنَحَب نحبة هاج المرعى من حرّ جوفه، فغفِر له وسترها . فقال : يا رب هـذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غفرته ، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلا من بنى إسرائيل، تركت أولادهم أيتاما ، ونساءهم أرامل ؟ قال : يا داود لا يجاوزنى يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة . قال : يا رب هكذا تكون المغفرة الهينة . ثم قيل : ياداود آرفع رأسك . فذهب ليرفع رأســه فإذا به قد نَشِب فى الأرض ، فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها . رواه الوليد بن مسلم عن آبن جابر عن عطاء . قال الوليد : وأخبرنى مُنير بن الزبير ، قال : فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله . قال الوليد قال ابن لهيعة : فكان يقول فى سجوده سبحانك هـذا شرابي دموعى ، وهـذا طعامى فى رماد بين يدى . فى رواية : إنه سجد أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة ، فبكى حتى نبت العُشْب من دموعه . وروى مرفوعا من حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن داود مكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول فى سجوده : يا رب داود زلّ زلّة بَعُد بها ما بين المشرق والمغرب ربّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثا فى الخلق من بعده فقال له جبريل بعــد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهمّ الذى هممت به" وقال وهب : إن داود عليه السلام نودى إنى قد غفرت لك . فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال : لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك ؟ قال يارب كيف وأنت لا تظلم أحدا . فقال الله لجبريل : آذهب إلى داود فقــل له يذهب إلى قــبر أوريا فيتحال منــه ، فأنا أسمعه نداءه . فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ، ونادى يا أوريا فقال : لبيك ! من هـذا الذى قطع علىّ لذتى وأيقظنى ؟ فقال : أنا أخوك داود أسألك أن تجعلنى فى حلّ فإنى عرّضتك للقتل؛ قال : عرضتنى للجنة فأنت فى حلّ . وقال الحسن وغيره : كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ، ويقول: تعالوا إلى داود الخطّاء ، ولا يشرب شرابا إلا مزجه بدموع عينيه . وكان يجعل خبز الشعير اليابس فى قَصْعة فلا يزال

يبكى حتى يبتل بدموعه ، وكان يذرّ عليه الرماد والملح فيأكل و يقول : هذا أكل الخاطئين . وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل و يصوم نصف الدهر ، ثم صام بعده الدهر كله وقام الليل كله . وقال : يا رب اجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته منقوشة فى كفه . فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شىء إلا رآها فأبكته ، و إن كان ليؤتى بالقدح ثلثاه ماء ، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه . وروى الوليد بن مسلم : حدّثنى أبو عمرو الأوزاعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنما مثل عينى داود مثل القِربتين تَنْطُفان ولقد خدّد الدموع فى وجه (١) داود خديد الماء فى الأرض" . قال الوليد : وحدّثنا عثمان بن أبى العاتكة أنه كان فى قول داود إذ هو خِلْوٌ من الخطيئة شدّة قوله فى الخطائين أن كان يقول : اللهم لا تغفر للخطائين . ثم صار إلى أن يقول : اللهم رب اغفر للخاطئين لكى تغفر لداود معهم ؛ سبحان خالق النور . إلهى ! خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتى فكلهم عليك يدلنى . إلهى ! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها ؛ سبحان خالق النور . إلهى ! إذا ذكرت خطيئتى ضاقت الأرض برُحْبها علىّ ، و إذا ذكرت رحمتك ارتد إلىّ روحى . وفى الخبر : أن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته ؛ فكان ينادى : إلهى ! إذا ذكرت خطيئتى ضاقت علىّ الأرض برحبها ، و إذا ذكرت رحمتك ارتد إلىّ روحى ؛ ربِّ ! اغفر للخاطئين كى تغفر لداود معهم . وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الأفرشة كلها . وكان إذا كان يوم نَوْحه نادى مناديه فى الطرق والأسواق والأودية والشّعاب وعلى رءوس الجبال وأفواه الغيران : ألا إن هذا يوم نوح داود ، فمن أراد أن يبكى على ذنبه فليأت داود فيسعده ؛ فيهبط السياح من الغيران والأودية ، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عُكَّفٌ ؛ و بنو إسرائيل حول منبره ؛ فإذا أخذ فى العويل والنوح ، وأثارت الحرقات منابع دموعه ، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحا و بكاء ، حتى يموت حول منبره بشر كثير فى مثل ذلك اليوم . ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة ؛ أتاه مَلَك الموت وهو يصعد فى محرابه و ينزل ؛

(١) فى ز : « فى خد » بدل « فى جه » .

فقال : جئت لأقبض روحك . فقال : دعني حتى أنزل أو أرتقي . فقال : مالي إلى ذلك سبيل ؛ نفــدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فمــا أنت بمؤثر بعدها أثرا . قال : فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحــال . وكان بينــه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة . وقيل : تسع وسبعون ، وعاش مائة سنة ، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة .

الرابعة والعشرون — قوله تعــالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ قربة بعد المغفرة . ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قالا : والله إن أوّل من يشرب الكأس يوم القيامة داود . وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر : الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة . وعن مجاهد : يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة في يده : فإذا رأى أهاويل يوم القيامة لم يجد منها محرزا إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى . قال : ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال له ها هنا ؛ ثم يرى فيقلق فيقال له ها هنا ، ثم يرى فيقلق فيقال له ها هنا ؛ [حتى يقترب فيسكن] (١) فذلك قوله عز وجل : « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ » ذكره الترمذي الحكيم . قال : حدّثنا الفضل بن محمد ، قال حدّثنا عبد الملك بن الأصبغ قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال حدّثنا إبراهيم بن محمد الفزاري عن عبد الملك بن أبي سليمان عن مجاهد فذكره . قال الترمذي : ولقد كنت أمر زمانا طويلا بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد والمعنى من قوله : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا » والقط الصحيفة في اللغة ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » (٢) : وقال لهم " إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم " قالوا : « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا » أي صحيفتنا « قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » قال الله تعالى : « اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ » فقص قصة خطيئته إلى منتهاها ، فكنت أقول : أمره بالصبر على ما قالوا ، وأمره بذكر داود فأي شيء أريد من هذا الذكر ؟ وكيف اتصل هذا بذاك ؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه ، حتى هداني الله له

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام ويدل عليها ما ورد في آخر القصة . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٩

يوما فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعطون كتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاء بأمر الله، وقالوا: «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» فأوجعه ذلك من استهزائهم، فأمره بالصبر على مقالتهم، وأن يذكر عبده داود، سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة في كفه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القدح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ[1] سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووليه وصفيه؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا، فكيف كان يحل بأعداء الله وبعصاته من خلقه وأهل خزيه، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجحود، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا»[2] فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يوم القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال له هاهنا، ثم يرى فيقلق ثم يقال هاهنا، ثم يرى فيقلق حتى يُقرِّب فيسكن.

قوله تعالى: يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي ملّكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف[3] من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين. وقد مضى في «البقرة» القول في الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله.

---

(١) لعل الأصل: حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ. (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨.

(٣) راجع جـ ١ ص ٢٦٣ فما بعد.

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى بالعدل . وهو أمر على الوجوب وقد ٱرتبط هذا بما قبله ، وذلك أن الذى عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل . فقيل له بعد هذا؛ فاحكم بين الناس بالعدل ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ أى لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى عن طريق الجنة . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى يحيدون عنها ويتركونها ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ فى النار ﴿ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أى بما تركوا من سلوك طريق الله ؛ فقوله : « نَسُوا » أى تركوا الإيمان به ، أوتركوا العمل به فصاروا كالناسين . ثم قيل : هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوّة . وقيل : بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته .

الثالثة — الأصل فى الأقضية قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » وقوله : « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ »(١) وقوله تعالى : « لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ »(٢) وقوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ »(١) الآية . وقد تقدّم الكلام فيه .

الرابعة — قال ٱبن عباس فى قوله تعالى : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » قال : إن ٱرتفع لك الخصمان فكان لك فى أحدهما هوًى ، فلا تشته فى نفسك الحق له ليفلُج(٣) على صاحبه ، فإن فعلتَ محوتُ ٱسمك من نبوّتى ، ثم لا تكون خليفتى ولا أهل كرامتى . فدلّ هذا على بيان وجوب الحكم بالحق ، وألّا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أورجاء نفع ، أو سبب يقتضى الميل من صحبة أو صداقة ، أو غيرهما . وقال ابن عباس : إنما ٱبتلى سليمان بن داود عليه السلام ، لأنه تقدّم إليه خصمان فهوى أن يكون الحق لأحدهما . وقال عبد العزيز بن أبى روّاد : بلغنى أن قاضيا كان فى زمن بنى إسرائيل ، بلغ من اجتهاده أن طلب إلى ربه

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٠٩ وص ٢١٢		(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٧٥

(٣) يفلج على صاحبه : يظفر و يفوز .

أن يجعل بينه و بينه علَما ، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك ؛ وإذا هو قصّر عرف ذلك ، فقيل له : آدخل منزلك ، ثم مدّ يدك فى جدارك ، ثم آنظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فآخطط عندها خطا ؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فآرجع إلى ذلك الخط فآمدد يدك إليه ، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه ، و إن قصّرت عن الحق قصّر بك ، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضى إلا بحق ، و إذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا ، ولم يفض إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتى ذلك الخط ، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحلّ الله له من أهل أو مطعم أو مشرب . فلما كان ذات يوم وهو فى مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه ، فوقع فى نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه ، وكان أحدهما له صديقا وخِدْنًا ، فتحرّك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضى له ، فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه ، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم ، فمدّ يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمّر إلى السقف ، وإذا هو لا يبلغه فخرّ ساجدا وهو يقول : يارِبّ شيئا لم أتعمده ولم أرِدْه فبيِّنْه لى . فقيل له : أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك ، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضى له به ، قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردّ الحق إلى أهله وأنت كاره . وعن ليث قال : تقدّم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقيل له فى ذلك، فقال : تقدّما إلىّ فوجدت لأحدهما مالم أجد لصاحبه ، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك له ،ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما . وقال الشعبي : كان بين عمر وأُبَىّ خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر : هذا أوّل جورك ؛ أجلسنى و إياه مجلسا واحدا ؛ فجلسا بين يديه .

الخامسة — هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه ؛ لأن الحكام لو مكِّنوا أن يحكموا بعلمهم ، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه ويهلك عدوّه إلا آدعى علمه فيما حكم به . ونحو ذلك روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر ؛ قال : لو رأيت رجلا على حدّ من حدود

الله، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري . وروى أن امرأة جاءت إلى عمر فقالت له : احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم مالي عنده . فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد؛ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اشترى فرسا فجحده البائع، فلم يحكم عليه بعلمه وقال : " من يشهد لي " فقام خزيمة فشهد فحكم . خرج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى في « البقرة »(١) .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أي هزلا ولعبا . أي ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا . ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلا . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ثم وبخهم فقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والميم صلة تقديره : أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فكان في هذا ردّ على المرجئة؛ لأنهم يقولون : يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه . وبعده أيضا : ﴿ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار؛ قاله ابن عباس . وقيل هو عام في المسلمين المتقين والفجّار الكافرين وهو أحسن، وهو ردّ على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد .

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٠٥ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أى هذا كتاب ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ يا محمد ﴿ لِيَدَّبَّرُوا ﴾ أى ليتدبروا فأدغمت التاء فى الدال . وفى هذا دليل على وجوب معرفة معانى القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهَذّ(١)، إذ لا يصح التدبر مع الهَذّ على ما بيناه فى كتاب التذكار . وقال الحسن : تدبر آيات الله اتباعها . وقراءة العامة « لِيَدَّبَّرُوا » . وقرأ أبو جعفر وشيبة : « لِتَدَبَّرُوا » بتاء وتخفيف الدال، وهى قراءة علىّ(٢) رضى الله عنه . والأصل لتتدبروا فحذف إحدى التاءين تخفيفا ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى أصحاب العقول واحدها لُبٌّ، وقد جمع على أَلُبّ، كما جمع بُؤْس على أبؤس، ونُعْم على أنعم؛ قال أبو طالب :

* قلبى إليه مُشرِفُ الأَلُبِّ *

وربما أظهروا التضعيف فى ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيت :

إليكم ذوِى آلِ النبىّ تَطَلَّعَتْ * نوازِعُ من قلبِى ظِماءٌ وَأَلْبُبُ

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان . و « أَوَّابٌ » معناه مطيع . ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ يعنى الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر؛ كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها؛ يقال : قوم أجواد وخيل جِياد، جاد الرجلُ بماله يجود جُودا فهو جواد، وقوم جُود مثال

---

(١) الهذ : سرعة القراءة .

(٢) وفى الألوسى أن عليا قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الياء آخر الحروف وكذا فى البحر لأبى حيان .

قَذَالٍ وقُذُلٍ، و إنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك امرأة جَوَاد ونسوة جُود مثل نوارٍ ونُور، قال الشاعر[1] :

صَنَاعٌ بإِشْفاها حَصانٌ بِشَكْرِهَا * جَوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ

وتقول : سِرنا عُقْبة جَوَادا، وعُقبتين جَوَادين، وعُقَبا جِيادا . وجاد الفرس أى صار رائعا يجود جُودة (بالضم) فهو جواد للذكر والأنثى، من خيل جِياد وأجياد وأجاويد . وقيل : إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجِيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق [في] الخيل من صفات فَرَاهتها . وفي الصافنات أيضا وجهان : أحدهما أن صفونها قيامها . قال القتبي والفراء : الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها . ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأ مقعده من النار" أى يديمون له القيام؛ حكاه قطرب أيضا وأنشد قول النابغة :

لنا قُبَّةٌ مضروبةٌ بِفنائها * عِتاقُ المَهارى والجِياد الصَّوافن

وهذا قول قتادة . الثاني أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث؛ كما قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفونَ فما يَزالُ كأنَّهُ * مِمَّا يقومُ على الثَّلاثِ كَسيرا[2]

وقال عمرو بن كُلثوم :

تَرَكْنا الخيلَ عاكِفَةً عَلَيْهِ * مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفونا

وهذا قول مجاهد . قال الكلبي : غزا سليمان أهل دمشق ونَصيبين فأصاب منهم ألف فرس . وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة . وقال الحسن : بلغني أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة . وقاله الضحاك . وأنها كانت خيلا أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة . ابن زيد : أخرج

---

(١) هو أبو شهاب الهذلي ورواه ابن السكيت : والعرض وافر . وروى : جواد بزاد الركب والعرق زاخر : وامرأة صناع أى ماهرة حاذقة عمل اليدين . والإشفى المخصف للنعال وعنى أن مرفقها حديد كالإشفى . والشكر الفرج . والعرق زاخر أراد به الجوع؛ يعني تجود بقوتها مع شدة الجوع . (٢) ورد في اللسان في مادة صفن أن قوله : مما يقوم لم يرد من قيامه : وإنما أراد من الجنس الذي يقوم على الثلاث؛ وجعل «كسيرا» حالا من ذلك النوع الزمن لا من الفرس المذكور.

الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحـر، وكانت لهـا أجنحة . وكذلك قال على رضى الله عنه : كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة . وقيل : كانت مائة فرس . وفى الخبر عن إبراهيم التيمى : أنها كانت عشرين ألفا، فالله أعلم . فقال: ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ يعنى بالخير الخيل، والعرب تسميها كذلك، وتُعاقِب بين الراء واللام؛ فتقول : آنهملت العين وآنهمرت، وختلت وخترت إذا خدعت . قال الفراء : الخير فى كلام العرب والخيل واحد . النحاس : فى الحديث " الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة " فكأنها سمّيت خيرا لهذا . وفى الحديث : لمـا وفد زيد الخيل على النبي صلى الله عليه وسلم، قال له : " أنت زيد الخير " وهو زيد بن مهلهل الشاعر . وقيـل : إنمـا سميت خيرا لمـا فيها من المنافع . وفى الخبر : إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له : آختر منها واحدا فاختار الفرس ؛ فقيل له : آخترت عزك؛ فصار آسمه الخير من هذا الوجه . وسمّى خيلا؛ لأنها موسومة بالعز . وسمّى فرسا لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطا وتناولا . وسمّى عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسمعيل جزاء عن رفع قواعد البيت ، وإسمعيل عربى فصارت له نحْـلة من الله ؛ فسمى عربيـا . و « حُبَّ » مفعول فى قول الفـراء . والمعنى إنى آثرت حبّ الخير . وغيره يقدره مصدرا أضيف إلى المفعـول ؛ أى أحببت الخير حبـًّا فألهانى عن ذكر ربى . وقيـل : إن معنى « أَحْبَبْتُ » قعدت وتأخرت من قولهم : أَحَبَّ البعيرُ إذا برك وتأخر . وأحب فلان أى طأطأ رأسه . قال أبو زيد : يقال: بعير مُحِبٌّ، وقد أحبّ إحبابا وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت . وقال ثعلب : يقال أيضا للبعير الحسير مُحِبٌّ ؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربى . و « حُبَّ » على هذا مفعول له . وذكر أبو الفتح الهمدانى فى كتاب التبيان : أحببت بمعنى لزمت ؛ من قوله (١) :

* مِثْـلَ بعـيرِ السَّـوْءِ إذْ أَحَبَّـا *

---

(١) هو أبو محمد الفقعسى ؛ وصدر البيت : * حلت عليه بالقفيل ضربا *
والقفيل السوط . وفى كتب اللغة : ضرب بعير السوء ... الخ .

﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعني الشمس كناية عن غير مذكور؛ مثل قوله تعالى : « مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ »[1] أى على ظهر الأرض؛ وتقول العرب : هاجت باردة أى هاجت الريح باردة . وقال الله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ »[2] أى بلغت النفس الحلقوم . وقال تعالى : « إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ »[3] ولم يتقدم للنار ذكر . وقال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل وهو قوله : « بِالْعَشِيِّ » . والعشيّ ما بعد الزوال، والتوارى الاستتار عن الأبصار، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق؛ قاله قتادة وكعب . وقيل : هو جبل قاف . وقيل : جبل دون قاف . والحجاب الليل سمّى حجابا لأنه يستر ما فيه . وقيل : « حَتَّى تَوَارَتْ » أى الخيل فى المسابقة . وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل ، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه فى المسابقة؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر . وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان فى صلاة ، فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غُنِمت فأشار بيده ، لأنه كان يصلّى حتى توارت الخيل، وسترتها جُدر الأصطبلات ، فلما فرغ من صلاته قال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا » أى فأقبل تمسحها مسحا . وفى معناه قولان : أحدهما أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراما منه لها، وليرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله . وقال قائل هذا القول : كيف يقتلها؟ وفى ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له . وقيل : المسح هاهنا هو القطع أُذن له فى قتلها . قال الحسن والكلبي ومقاتل : صلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهى تعرض عليه، وكانت ألف فرس؛ فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ، ولم يُعلَم بذلك هيبة له فاغتم؛ فقال : « رُدُّوهَا عَلَيَّ » فردّت فعقرها بالسيف؛ قربة لله وبقى منها مائة ، فما فى أيدى الناس من الخيل العتاق اليوم فهى من نسل تلك الخيل . قال القشيرى : وقيل : ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا، فلم يذكّره أحد ما نسى من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحا ، فتذكر سليمان تلك

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٦١ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٣٠ (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٦٠ فما بعد .

الصلاة الفائتة، وقال على سبيل التلهف : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى عن الصلاة ، وأمر برد الأفراس إليه ، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها ، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس ؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة ، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة . ولعله عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبة عن النفار ، ثم ذبحها فى الحال ليتصدق بلحمها ؛ أو لأن ذلك كان مباحا فى شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله ، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله ، فأثنى الله عليه بهذا ، و بين أنه أثابه بأن سخر له الريح ، فكان يقطع عليها من المسافة فى يوم ما يقطع مثله على الخيل فى شهرين غدوّا ورواحا . وقد قيل : إن الهاء فى قوله : « رُدُّوهَا عَلَىَّ » للشمس لا للخيل . قال ابن عباس : سألت عليًّا عن هذه الآية فقال : ما بلغك فيها؟ فقلت سمعت كعبا يقول : إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة، قال : « إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » أى آثرت « حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى » الآية « رُدُّوهَا عَلَىَّ » يعنى الأفراس وكانت أربع عشرة ؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوما ؛ لأنه ظلم الخيل . فقال على بن أبى طالب : كذب كعب ؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت ؛ أى غربت الشمس بالحجاب ؛ فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : « رُدُّوهَا » يعنى الشمس فردوها حتى صلّى العصر فى وقتها، وأن أنبياء الله لا يظلمون؛ لأنهم معصومون .

قلت : الأكثر فى التفسير أن التى توارت بالحجاب هى الشمس ، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها و يتعلق بذكرها ، حسب ما تقدّم بيانه . وكثيرا ما يضمرون الشمس ؛ قال لبيد :

حتّى إذا أَلْقَتْ يَدًا فى كافِرٍ * وأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا

والهاء فى « رُدُّوهَا » للخيل ، ومسحها قال الزهرى وابن كيسان : كان يمسح سوقها وأعناقها ، ويكشف الغبار عنها حُبًّا لها . وقاله الحسن وقتادة وابن عباس . وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم رؤى وهو يمسح فرسه بردائه . وقال : " إنى عوتبت الليلة فى الخيل "

خرّجه الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلا . وهو فى غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيى ابن سعيد عن أنس . وقد مضى فى « الأنفال »(١) قوله عليه السلام : "وآمسحوا بنواصيها وأكفالها" وروى ٱبن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف .

قلت : وقد آستدل الشبلى وغيره من الصوفية فى تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا . وهو آستدلال فاسد ؛ لأنه لايجوز أن ينسب إلى نبىّ معصوم أنه فعل الفساد . والمفسرون آختلفوا فى معنى الآية ؛ فمنهم من قال : مسح على أعناقها وسوقها إكراما لها وقال : أنت فى سبيل الله ؛ فهذا إصلاح . ومنهم من قال : عرقبها ثم ذبحها ، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز . وقد مضى فى « النحل »(٢) بيانه . وعلى هذا فما فعل شيئا عليه فيه جناح . فأما إفساد ثوب صحيح لالغرض صحيح فإنه لايجوز . ومن الجائز أن يكون فى شريعة سليمان جواز مافعل ، ولا يكون فى شرعنا . وقد قيل : إنما فعل بالخيل مافعل بإباحة الله جل وعز له ذلك . وقد قيل : إن مسحه أياها وسْمُها بالكىّ وجعلها فى سبيل الله ؛ فالله أعلم . وقد ضعف هذا القول من حيث أن السّوق ليست بمحل للوسم بحال . وقد يقال : الكىّ على الساق علاطٌ ، وعلى العنق وِثاق . والذى فى الصحاح للجوهرى : عَلَط البعيرَ عَلْطا كواه فى عنقه بسمة العِلاط . والعِلاطان جانبا العنق .

قلت : ومن قال إن الهاء فى « رُدُّوهَا » ترجع للشمس فذلك من معجزاته . وقد آتفق مثل ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم . خرّج الطحاوى فى مشكل الحديث عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه فى حجر علىّ ، فلم يصلّ العصر حتى غربت الشمس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أصليت ياعلى" قال : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فآردد عليه الشمس" قالت أسماء : فرأيتها غربت ثم رأيتها بعد ماغربت طلعت على الجبال والأرض ، وذلك بالصَّهْباء فى خيبر . قال الطحاوى : وهذان الحديثان ثابتان ، ورواتهما ثقات .

(١) راجع ج ٨ ص٣٦ فما بعد .
(٢) راجع ج ١٠ ص ٧٦ فما بعد .

قلت : وضعّف أبو الفرج ابن الجوزى هذا الحديث فقال : وغلو الرافضة فى حب علىّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله ؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليّا عليه السلام العصر فردّت له الشمس ، وهذا من حيث النقل محال ، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدّد لا يردّ الوقت . ومن قال : إن الهاء ترجع إلى الخيل ، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان فى السباق ، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع . وقد مضى القول فيه فى « يوسف » (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة ، وملك بعد الفتنة عشرين سنة ؛ ذكره الزمخشرى . و « فَتَنَّا » أى ٱبتلينا وعاقبنا . وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس قال : ٱختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة ٱمرأة سليمان ، وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم ، ثم قضى بينهما بالحق ، فأصابه الذى أصابه عقوبة لذلك الهوى . وقال سعيد بن المسيّب : إن سليمان عليه السلام ٱحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد ، ولا ينصف مظلوما من ظالم ؛ فأوحى الله تعالى إليه : « إنى لم أستخلفك لتحتجب عن عبادى ، ولكن لتقضى بينهم وتنصف مظلومهم » .

(١) راجع جـ ٩ ص ١٤٥ فما بعد .

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن منبّه : إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزاه فى البحر، فى جزيرة من جزائر البحر يقال لهـا صيدون . فألقيت عليه محبتها وهى تعرض عنه ، لا تنظر إليه إلا شزرا ، ولا تكلمه إلا نزرا ، وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها ، وكانت فى غاية من الجمال ، ثم إنها سألته أن يصنع لهـا تمثالا على صورة أبيها حتى تنظر إليه ، فأمر فصنع لهـا فعظمته وسجدت له ، وسجدت معها جواريها ، وصار صنما معبودا فى داره وهو لا يعلم ، حتى مضت أربعون ليـلة ، وفشا خبره فى بنى إسرائيل وعلم به سـليمان فكسره ، وحرقه ثم ذرّاه فى البحر . وقيل : إن سليمان لما أصاب ٱبنة ملك صيدون وٱسمها جرادة ــ فيما ذكر الزمخشرى ــ أعجب بهـا ، فعرض عليها الإسلام فأبت ، فخوفها فقالت : ٱقتلنى ولا أسـلم ، فتزوّجها وهى مشركة ، فكانت تعبد صنما لها من ياقوت أربعين يوما فى خفية من سليمان ؛ إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملـكه أربعين يوما . وقال كعب الأحبار : إنه لمـا ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه . وقال الحسن : إنه قارب بعض نسائه فى شىء من حيض أو غيره . وقيل : إنه أُمِرَ ألّا يتزوّج ٱمرأة إلا من بنى إسرائيل ، فتزوّج ٱمرأة من غيرهم ، فعوقب على ذلك ؛ والله أعـلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ قيل : شيطان فى قول أكثر أهل التفسير[(١)]؛ ألقى الله شـبه سليمان عليه السلام علبـه ، وٱسمه صخر بن عمير صاحب البحر ، وهو الذى دل سليمان على المـاس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس ، فصوّتت[(٢)] الحجارة لمـا صنعت بالحديد ، فأخذوا المـاس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت . قال ابن عباس : كان ماردا لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سـليمان بن داود ، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه ، فجاء صخر فى صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من ٱمرأة من نساء سليمان أمّ ولد له يقال لها الأمينة ؛ قاله شهر ووهب . وقال ٱبن عباس وٱبن جبير : ٱسمها جرادة . فقام أربعين يوما على ملك سليمان وسليمان هارب ، حتى ردّ الله عليه الخاتم والمُلْك . وقال سعيد بن المسيّب : كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه ، فأخذه الشيطان من تحته .

(١) فى ا : « فى قول أكثر المفسرين » .　(٢) فى ح ، ز ، ك : « فضربت » .

وقال مجاهد : أخذه الشيطان من يد سليمان ؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان آسمه آصف : كيف تضلون الناس ؟ فقال له الشيطان : أعطنى خاتمك حتى أخبرك . فأعطاه خاتمه ، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسىّ سليمان ، متشبها بصورته ، داخلا على نسائه ، يقضى بغير الحق ، ويأمر بغير الصواب[1] . وآختلف فى إصابته لنساء سليمان ، فحكى عن آبن عباس ووهب بن منبّه : أنه كان يأتيهنّ فى حيضهنّ . وقال مجاهد : منع من إتيانهنّ . وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربا إلى ساحل البحر يتضيّف الناس ؛ ويحمل سموك الصيادين بالأجر ، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه . قال قتادة : ثم إن سليمان بعد أن آستنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوتة من صياد . قيل : إنه آستطعمها . وقال آبن عباس : أخذها أجرة فى حمل حوت . وقيل : إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها ، وذلك بعد أربعين يوما من زوال ملكه ؛ وهى عدد الأيام التى عُبِد [فيها] الصنم فى داره ، وإنما وجد الخاتم فى بطن الحوت ، لأن الشيطان الذى أخذه ألقاه فى البحر . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : بينما سليمان على شاطىء البحر وهو يعبث بخاتمه ، إذ سقط منه فى البحر وكان ملكه فى خاتمه . وقال جابر بن عبد الله : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله" . وحكى يحيى بن أبى عمرو الشيبانى أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان ، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعا لله تعالى . قال آبن عباس وغيره : ثم إن

---

(١) هذه الأقوال لا تصح قطعا لمنافاتها للعصمة التى هى من أخص صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولو صح شىء منها لكان الوحى محل الشك والارتياب ؛ وقد قال أبو حيان فى تفسيره : نقل المفسرون فى هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وهى إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة ، ولم يبين الله الفتنة ما هى ولا الجسد الذى ألقاه على كرسى سليمان . إلى أن قال : لم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوّه به ، ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكروه ، كتمثل الشيطان بصورة نبى ، حتى يلتبس أمره عند الناس ، ويعتقدوا أن ذلك المتصوّر هو النبى . ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبى ، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها . وقال الألوسى : ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهنّ وهنّ حيض . الله أكبر ! ! هذا بهتان عظيم ، وخطب جسيم . وسيأتى للمؤلف تضعيف هذا القول أيضا .

سليمان لما ردّ الله عليه ملكه ، أخذ صخرا الذى أخذ خاتمه ، ونقر له صخرة وأدخله فيها ، وسدّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص ، وختم عليها بخاتمه وألقاها فى البحر ، وقال : هذا محبسك إلى يوم القيامة . وقال على رضى الله عنه : لما أخذ سليمان الخاتم ، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح ، وهرب الشيطان الذى خلف فى أهله ، فأتى جزيرة فى البحر ، فبعث إليه الشياطين فقالوا : لا نقدر عليه ، ولكنه يَرِد عينا فى الجزيرة فى كل سبعة أيام يوما ، ولا نقدر عليه حتى يسكر ! قال : فنزح سليمان ماءها وجعل فيها خمرا ، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر ، فقال : والله إنك لشراب طيب إلا أنك تطيشين الحليم ، وتزيدين الجاهل جهلا . ثم عطش عطشا شديدا ثم أتاه فقال مثل مقالته ، ثم شربها فغلبت على عقله ، فأروه الخاتم فقال : سمعا وطاعة . فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل ، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا : إن الدخان الذى ترون من نفسه ، والماء الذى يخرج من الجبل من بوله . وقال مجاهد : اسم ذلك الشيطان آصف . وقال السدى اسمه حبقيق ، فالله أعلم . وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصوّر بصورة الأنبياء ، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم فى حقّ ، وهم مع الشيطان فى باطل . وقيل : إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان ، وأنه لما ولد اجتمعت الشياطين ، وقال بعضهم لبعض : إن عاش له ابن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة ، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله . فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب ، وغدا ابنه فى السحاب خوفا من مضرة الشياطين ، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين ، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتا . قال معناه الشعبى . فهو الجسد الذى قال الله تعالى : « وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا » .

وحكى النقاش وغيره : إن أكثر ما وطئ سليمان جواريه طلبا للولد ، فولد له نصف إنسان ، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه جاءت به القابلة فألقته هناك . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال سليمان لأطوفنّ الليلة على

تسعين آمرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله؛ فقال له صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ جميعا فلم تحمل منهن إلا آمرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيمُ الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون" وقيل : إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فُتِن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف : إنك مفتون ولذلك لا يتماسك فى يدك، ففِرّ إلى الله تعالى تائبا من ذلك، وأنا أقوم مقامك فى عالمك إلى أن يتوب الله عليك، ولك من حين فتنت أربعة عشر يوما . ففرّ سليمان هاربا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت، وكان عنده علم من الكتاب . وقام آصف فى ملك سليمان وعياله، يسير بسيره ويعمل بعمله ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى، وردّ الله عليه ملكه؛ فأقام آصف فى مجلسه، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم . وقيل : إن الجسد كان سليمان نفسه ؛ وذلك أنه مرض مرضا شديدا حتى صار جسدا . وقد يوصف به المريض المضنى فيقال : كالجسد الملقى .

صفة كرسىّ سليمان وملكه

روى عن آبن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة كرسىّ ، ثم يجىء أشراف الناس فيجلسون مما يليه، ثم يأتى أشراف الجن فيجلسون مما يلى الإنس، ثم يدعو الطير فتظلّهم، ثم يدعو الريح فتقلّهم ، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر . وقال وهب وكعب وغيرهما : إن سليمان عليه السلام لما مَلَك بعد أبيه، أمر باتخاذ كرسى ليجلس عليه للقضاء، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور آرتدع وتهيب ؛ فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مُفصّصة بالدر والياقوت والزبرجد، وأن يحفّ بنخيل الذهب؛ فحف بأربع نخلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاوسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض، وجعلوا من جنبى الكرسىّ أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر .

وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر ، وآتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر ، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي . وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى ، فيستدير الكرسيّ كلّه بما فيه دوران الرحى المسرعة ، وتنشر تلك النُّسور والطواويس أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ، ويضربان الأرض بأذنابهما . وكذلك يفعل فى كل درجة يصعدها سليمان ، فإذا آستوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه ، ثم يستدير الكرسي بما فيه ، ويدور معه النسران والطاوسان والأسدان مائلان برءوسهما إلى سليمان ، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر ، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة ، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء . قالوا : ويجلس عظماء بنى إسرائيل على كراسى الذهب المفصصة بالجواهر، وهى ألف كرسيّ عن يمينه، ويجلس عظماء الجن على كراسى الفضة عن يساره وهى ألف كرسيّ ، ثم تحف بهم الطير تظلهم، ويتقدّم الناس لفصل القضاء . فإذا تقدّمت الشهود للشهادات، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دوران الرحى المسرعة ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وينشر النسران والطاوسان أجنحتهما ، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق . وقيل : إن الذى كان يدور بذلك الكرسيّ تِنِّين من ذهب ذلك الكرسى عليه، وهو عظم مما عمله له صخر الجنيّ؛ فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التى فى أسفل الكرسيّ إلى أعلاه دُرْن معه، فإذا وقفن وقَفْن كلهنّ على رأس سليمان وهو جالس ، ثم ينضحن جميعا على رأسه ما فى أجوافهنّ من المسك والعنبر . فلما توفى سليمان بعث بُخْتَنَصَّر فأخذ الكرسيّ فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها ، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعا . ومات بُخْتَنَصَّر وحُمل الكرسيّ إلى بيت المقدس، فلم يستطع قط ملك أن يجلس عليه، ولكن لم يدرِ أحد عاقبة أمره، ولعله رُفع .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أى رجع إلى الله وتاب . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي ﴾ أى اغفر لى ذنبى ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْـدِي ﴾ يقال : كيف أقدم سـليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله تعـالى ، و بغضه لها ، وحقارتها لديه ؟ . فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، و إقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه ، وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه ، وتحقيق الوعود فى أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ماصرّح بذلك لملائكته فقال : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (١) وحوشى سـليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيـا ؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها ، و إنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك ، فأجيب نوح فأهلك من عليها ، وأعطى سليمان المملكة . وقد قيل : إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التى علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده ، أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » وهذا فيه نظر . والأول أصح . ثم قال له : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال الحسن : ما من أحد إلا ولله عليه تبعة فى نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا » الآية .

قلت : وهـذا يردّ ما روى فى الخبر : إن آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه فى الدنيا . وفى بعض الأخبار : يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا ؛ ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل له ؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه لأنه من طريق المنّـة ، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة ، وهو سبحانه يقول : « وَإِنَّ لَهُ عِنْـدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ » . وفى الصحيح : "لكل نبيّ دعوة مستجابة فتعجل كل نبيّ دعوته" الحديث . وقد تقدّم فجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية ، فلذلك لم تكن عليه تبعة . ومعنى قوله : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » أى أن يسأله . فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة . وقيل : إن سؤاله مُلكا لا ينبغى

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٨

لأحد من بعده؛ ليكون محلّه وكرامته من الله ظاهرا فى خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس فى المحلّ عنده، فكلّ يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محلّه عنده، ولهذا لما أخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم العفريت الذى أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى» فردّه خاسئا. فلو أعطى أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية، فكأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يزاحمه فى تلك الخصوصية، بعد أن علم أنه شىء هو الذى خُصّ به من سخرة الشياطين، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ أى ليّنة مع قوتها وشدّتها حتى لا تضرّ بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما روى فرسخا فى فرسخ، مائة درجة بعضها فوق بعض، كل درجة صنف من الناس، وهو فى أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه؛ صلوات الله وسلامه عليه. وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدّثنا أحمد ابن جعفر، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدّثنا أبو بكر بن عياش عن إدريس بن وهب بن منبّه، قال حدّثنى أبى قال: كان لسليمان ابن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد، فركب الريح يوما فمرّ بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال: لقد أوتى آل داود ملكا عظيما! فحملت الريح كلامه فألقته فى أذن سليمان، قال فنزل حتى أتى الحرّاث فقال: إنى سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه؛ لتسبيحةٌ واحدة يقبلها الله منك خيرٌ مما أوتى آل داود. فقال الحرّاث: أذهب الله همّك كما أذهبتَ همّى.

قوله تعالى: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أى أراد؛ قاله مجاهد. والعرب تقول: أصاب الصواب وأخطأ الجواب. أى أراد الصواب وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابى. وقال الشاعر:

أَصَابَ الكلامَ فلم يَستطِعْ * فأَخْطا الجوابَ لَدَى المفصِلِ

وقيــل : أصاب أراد بلغة حِمْير . وقال قتادة : هو بلسان هَجَر . وقيل : « حَيْثُ أَصَابَ » حيثما قصد ، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود . ﴿ وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أى وسخرنا له الشياطين وما سُخِّرت لأحد قبله . « كُلَّ بَنَّاءٍ » بدل من الشياطين أى كل بناء منهم ، فهم يبنون له ما يشاء . قال[1] :

إِلَّا سُلَيْمَانَ إذ قال الإِلٰهُ لَهُ * قُمْ فى البريّةِ فٱحْدُدْهَا عن الفَنَدِ
وَخَيِّسِ الجِنَّ إِنى قد أَذِنْتُ لهم * يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

« وَغَوَّاصٍ » يعنى فى البحر يستخرجون له الدرّ . فسليمان أوّل من ٱستخرج له اللؤلؤ من البحر . ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أى وسخرنا له مردة الشياطين حتى قرنهم فى سلاسل الحديد وقيود الحديد ؛ قاله قتادة . السدّى : : الأغلال . ٱبن عباس : فى وثاق . ومنه قول الشاعر[2] :

فآبُوا بالنِّهَاب وبالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

قال يحيى بن سلّام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخّرهم .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا ﴾ الإشارة بهذا إلى الملك ، أى هذا الملك عطاؤنا ، فأعطِ من شئت أو ٱمنع من شئت لا حساب عليك ؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما . قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام ؛ فإن الله تعالى يقول : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال قتادة : الإشارة فى قوله تعالى : « هَٰذَا عَطَاؤُنَا » إلى ما أعطيه من القوة على الجماع ، وكانت له ثلثمائة ٱمرأة وسبعمائة سرية ، وكان فى ظهره ماء مائة رجل ؛ رواه عكرمة عن ابن عباس[3] . ومعناه فى البخارى . وعلى هذا « فَٱمْنُنْ » من المَنِىّ ؛ يقال : أَمْنَى يُمْنِى ومَنَى يَمْنِى لغتان ، فإذا أمرت من أمنى قلت أَمْنِ ؛ ويقال : من مَنَى يَمْنِى فى الأمر ٱمْنِ ، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت ٱمنن . ومن

---

(١) هو النابغة الذبيانى : ويروى إذ قال المليك له . ويروى فٱزجرها عن الفند . أى الخطإ . وخيس أى ذلل . والصفاح : جمع صفاحة بشدّ الفاء وهى حجارة رقاق عراض . (٢) هو عمرو بن كلثوم : والبيت من معلقته .

(٣) قال أبو حيان فى تفسيره : ولعله لا يصح عن ٱبن عباس لأنه لم يجر هنا ذكر النساء ، ولا ما أوتى من القدرة على ذلك .

ذهب به إلى المِنّة قال : منّ عليه ؛ فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين ؛ لأنه كان مضاعفا فقال آمْنُنْ . فيروى فى الخبر أنه سخر له الشياطين ، فمن شاء منّ عليه بالعتق والتخلية ، ومن شاء أمسكه ؛ قاله قتادة والسّدى . وعلى ما روى عكرمة عن ابن عباس : أى جامع من شئت من نسائك ، واترك جماع من شئت منهن لا حساب عليك . ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى إن أنعمنا عليه فى الدنيا فله عندنا فى الآخرة قربة وحسن مرجع .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فى الصبر على المكاره . « أَيُّوبَ » بدل . ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر « إِنِّى » بكسر الهمزة أى قال . قال الفراء : وأجمعت القراء على أن قرءوا « بِنُصْبٍ » بضم النون والتخفيف . النحاس : وهذا غلط وبعده مناقضة وغلط أيضا ؛ لأنه قال : أجمعت القراء على هذا ، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ : « بِنَصَبٍ » بفتح النون والصاد فغلط على أبى جعفر ، وإنما قرأ أبو جعفر : « بِنُصُبٍ » بضم النون والصاد ؛ كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروى عن الحسن . فأما « بِنَصَبٍ » فقراءة عاصم الجحدرى ويعقوب الحضرمى . وقد رويت هذه القراءة عن الحسن . وقد حكى « بِنَصْبٍ » بفتح النون وسكون الصاد عن أبى جعفر . وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَب ؛ فنُصْب ونَصَب كحُزْن وحَزَن . وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَب كوُثْن ووَثَن . ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حذفت منه الضمة ، فأما « وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ »(1) فقيل : إنه جمع نصاب . وقال أبو عبيدة وغيره : النُّصْبُ الشر والبلاء . والنَّصَب التعب والإعياء . وقد قيل فى معنى : « أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » أى ما يلحقه من وسوسته لا غير . والله أعلم . ذكره

(1) راجع ج ٦ ص ٥٧

النحاس . وقيل : إن النصب ما أصابه فى بدنه ، والعذاب ما أصابه فى ماله ؛ وفيه بُعْد .
وقال المفسرون : إن أيوب كان روميا من البَثَنِيَّة (١) وكنيته أبو عبد الله فى قول الواقدى ؛ آصطفاه الله بالنبوة ، وآتاه جملة عظيمة من الثروة فى أنواع الأموال والأولاد . وكان شاكرا لأنعُم الله ، مواسيا لعباد الله ، بَرًّا رحيما . ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر . وكان لإبليس موقف من السماء السابعة فى يوم من الأيام ، فوقف به إبليس على عادته ؛ فقال الله له أو قيل له عنه : أَقَدَرْتَ من عبدى أيوب على شىء؟ ! فقال : يارب ! وكيف أقدر منه على شىء ، وقد آبتليته بالمال والعافية ، فلو آبتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله ، ولخرج عن طاعتك . قال الله : قد سلطتك على أهله وماله . فانحط عدوُّ الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم ، وقال قائل منهم : أكون إعصارا فيه نار أهلك ماله فكان ؛ فجاء أيوبَ فى صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى ؛ فقال : الحمد لله هو أعطاه وهو منعه . ثم جاء قصره بأهله وولده ، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده ، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه ، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب . قال : يارب سلطنى على بدنه . قال : قد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره ، فنفخ فى جسده نفخة آشتعل [منها] (٢) فصار فى جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت ، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه . وقال عند ذلك : « مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ » . ولم يخلص إلى شىء من حشوة البطن ؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب ، فمكث كذلك ثلاث سنين . فلما غلبه أيوب آعترض لامرأته فى هيئة أعظم من هيئة بنى آدم فى القدر والجمال ، وقال لها : أنا إله الأرض ، وأنا الذى صنعت بصاحبك ما صنعت ، ولو سجدت لى سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله وهم عندى . وعرض لها فى بطن الوادى ذلك كله فى صورته ؛ أى أظهره لها ، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله . وذكروا كلاما طويلا فى [سبب بلائه و] (٣) مراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذى

(١) صحيح المحققون أنه من بنى إسرائيل كما جزم به الألوسى وغيره . والبثنية بالتحريك وكسر النون وياء مشددة : قرية بدمشق بينها وبين أذرعات .
(٢) الزيادة من قصص الأنبياء للثعلبى .
(٣) زيادة يقتضيها السياق .

نزل به ، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك وآعترضوا عليه؛ وقيل : آستعان به مظلوم فلم ينصره فآبتلى بسبب ذلك . وقيل : آستضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فابتلى بذلك . وقيل : كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم فى ولايته ، فداهنه لأجلها بترك غزوه فابتلى . وقيل : كان الناس يتعدون آمرأته و يقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها ؛ فلهذا قال : « مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ » . وآمرأته ليا بنت يعقوب . وكان أيوب فى زمن يعقوب وكانت أمه آبنة لوط . وقيل : كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام . ذكر القولين الطبرى رحمه الله . قال آبن العربى : ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان فى السماء السابعة يوما من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض، فكيف يرقى إلى محل الرضا ، ويجول فى مقامات الأنبياء ، و يخترق السموات العلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل ؟! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم . وأما قولهم : إن الله تعالى قال له هل قدرت من عبدى أيوب على شىء فباطل قطعا ؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون ؛ فكيف يكلم من تولّى إضلالهم ؟ . ! وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن فى القدرة، ولكنه بعيد فى هذه القصة . وكذلك قولهم : إنه نفخ فى جسده حين سلّطه عليه فهو أبعد، والبارى سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقِرّ له — لعنةُ الله عليه — عينٌ بالتمكن من الأنبياء فى أموالهم وأهليهم وأنفسهم . وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض، ولو تركتِ ذكر الله وسجدتِ أنتِ لى لعافيته، فآعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلٰها فى الأرض ، وأنه يسجد له ، وأنه يعافِى من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبىّ ؟ ! ولو كانت زوجة سوادىّ أو فَدْم[1] بربرىّ ما ساغ ذلك عندها . وأما تصويره الأموال والأهل فى وادٍ للمرأة فذلك مالا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو فى طريق السحر فيقال إنه من جنسه .

(١) الفدم من الناس : القليل الفهم والفطنة .

ولو تصوّر لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهى فوقنا فى المعرفة بذلك ؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه و جريه بين الناس وتصويره . قال القاضى : والذى جرأهم على ذلك وتذرّعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » فلما رأوه قد شكا مسّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير فى هذه الأقوال . وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها ، فى إيمانها وكفرها ، طاعتها وعصيانها ، خالقها هو الله لا شريك له فى خلقه ، ولا فى خلق شىء غيرها ، ولكن الشر لا ينسب إليه ذكرا ، وإن كان موجودا منه خَلْقا ؛ أدبًا أدّبنا به ، وتحميدا علّمناه ، وكان من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم لربه به قوله من جملته : "والخير فى يديك والشر ليس إليك" على هذا المعنى . ومنه قول إبراهيم : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ »(1) وقال الفتى للكليم : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ »(2) وأما قولهم : إنه آستعان به مظلوم فلم ينصره ، فمن لنا بصحة هذا القول . ولا يخلو أن يكون قادرا على نصره ، فلا يحلّ لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزّه عن ذلك . أو كان عاجزا فلا شى عليه فى ذلك ، وكذلك قولهم : إنه منع فقيرا من الدخول ؛ إن كان علم به فهو باطل عليه ، وإن لم يعلم به فلا شىء عليه فيه . وأما قولهم : إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل دارى . ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز ؛ نعم وبحسن الكلام . قال آبن العربى القاضى أبو بكر رضى الله عنه : ولم يصح عن أيوب فى أمره إلا ما أخبرنا الله عنه فى كتابه فى آيتين ؛ الأولى قوله تعالى : « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ »(2) والثانية فى « ص » « أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » . وأما النبى صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : "بينا أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رجل من جراد من ذهب" الحديث . وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على أى لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ؛ فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا .

(1) راجع جـ ١٣ ص ١١٠ فما بعد . (2) راجع جـ ١١ ص ١٢ و ص ٣٢٢

وفى الصحيح واللفظ للبخارى أن ابن عباس قال : يا معشر المسلمين ! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه محضا لم يُشَب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب ، فقالوا : « هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » [1] ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم ، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة .

قوله تعالى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ الركض الدفع بالرجل . يقال : رَكَض الدابة وركض ثوبه برجله . وقال المبرّد : الرَّكْض التحريك ؛ ولهذا قال الأصمعى : يقال رُكِضَت الدابّة ولا يقال رَكَضت هى ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك . وحكى سيبويه : رَكَضتُ الدابةَ فركضتْ مثل جَبرتُ العظم فجَبر وحزنته فحزن ؛ وفى الكلام إضمار أى قلنا له : «ٱرْكُضْ» قاله الكسائى . وهذا لما عافاه الله . ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أى فركض فنبعت عين ماء فاغتسل به ، فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه . وقال قتادة : هما عينان بأرض الشام فى أرض يقال لها الجابية ، فاغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه . ونحوه عن الحسن ومقاتل ؛ قال مقاتل : نبعت عين حارّة واغتسل فيها فخرج صحيحا ، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا . وقيل : أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء فى جسده . والمغتسل الماء الذى يغتسل به ؛ قاله القتبي . وقيل : إنه الموضع الذى يغتسل فيه ؛ قاله مقاتل . الجوهرى : واغتسلت بالماء ، والغسول الماء الذى يغتسل به ، وكذلك المغتسل ، قال الله تعالى : « هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » والمغتسل أيضا الذى يغتسل فيه ، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها مغسِل الموتى والجمع المغاسل . واختلف كم بقى أيوب فى البلاء ؛ فقال ابن عباس : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات . وقال وهب بن منبّه : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٧ فما بعد .

وعُذِّب بُخْتَنَصَّر وحُوِّل(١) فى السباع سبع سنين . ذكره أبو نعيم . وقيل : عشر سنين . وقيل : ثمان عشرة سنة . رواه أنس مرفوعا فيما ذكر الماوردى :

قلت : وذكره ابن المبارك ، أخبرنا يونس بن يزيد ، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب ، وما أصابه من البلاء ، وذكر أن البلاء الذى أصابه كان به ثمان عشرة سنة . وذكر الحديث القشيرى . وقيل : أربعين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ تقدّم فى « الأنبياء »(٢) الكلام فيه . ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أى نعمة منا . ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى عبرة لذوى العقول .

قوله تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ كان أيوب حلف فى مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة؛ وفى سبب ذلك أربعة أقوال : أحدها ــ ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها فى صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب ؛ فقال أداويه على أنه إذا برئ قال أنت شفيتنى ، لا أريد جزاء سواه . قالت : نعم ! فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها . وقال : وَيْحَكِ ذلك الشيطان . الثانى ــ ما حكاه سعيد بن المسيّب ، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها . الثالث ــ ما حكاه يحيى بن سلّام وغيره : أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه وأنه يبرأ، فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفى مائة . و[الرابع] قيل : باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب ، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربنها، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به ،

(١) حول بمعنى مسخ ؛ راجع قصة دانيال فى قصص الأنبياء للثعلبى .
(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٣ فما بعد .

فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة . وقيل : الضغث قبضة حشيش مختلطة الرَّطب باليابس . وقال آبن عباس : إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه .

الثانيــة — تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل آمرأته تأديبا . وذلك أن آمرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة ، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود . إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب آمرأته فوق حدّ الأدب . وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب آمرأته فوق حدّ الأدب ؛ ولهذا قال عليه السلام : "وآضربوهنّ ضربا غير مُبرِّح" على ما تقدم في « النساء » بيانه (١) .

الثالثــة — وآختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده ؛ فروى عن مجاهد أنه عام للناس . ذكره آبن العربي . وحكى عن القشيري أن ذلك خلص بأيوب . وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باق، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة بَرَّ . وروى نحوه الشافعي . وروى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم في المقعد الذي حملت منه الوليدة، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة . وقال القشيري : وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم؟ فقال : ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع . آبن العربي : وروى عن عطاء أنها لأيوب خاصة . وكذلك روى أبو زيد عن آبن القاسم عن مالك : من حلف ليضربنّ عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبرّ . قال بعض علمائنا : يريد مالك قوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » (٢) أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا . قال آبن المنذر : وقد روينا عن عليّ أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة . وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل : « فَآجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » (٣) وهذا مذهب أصحاب الرأي . وقد آحتج الشافعي لقوله بحديث، وقد تُكُلِّم في إسناده، والله أعلم .

قلت : الحديث الذي آحتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال : حدثنا أحمد آبن سعيد الهَمْداني، قال حدثنا بن وهب، قال : أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال : أخبرني

(١) راجع جـ ٥ ص ١٧٢ فما بعد . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢١١ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٥٩

أبو أمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، أنه ٱشتكى رجل منهم حتى أَضْنَى، فعاد جِلدةً على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها فوقع عليها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: ٱستفتوا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنى قد وقعت على جارية دخلت علىّ. فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذى هو به؛ لو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة. قال الشافعى: إذا حلف ليضربنّ فلانا مائة جلدة، أو ضربا ولم يقل ضربا شديدا ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور فى الآية ولا يحنث. قال ٱبن المنذر: وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضربا خفيفا فهو بارّ عند الشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى. وقال مالك: ليس الضرب إلا الضرب الذى يؤلم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ دليل على أن الاستثناء فى اليمين لا يرفع حكما إذا كان متراخيا. وقد مضى القول فيه فى «المائدة» (١) يقال: حنِث فى يمينه يحنث إذا لم يَبَرّ بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة أى فٱضرب لا تحنث.

الخامسة — قال ابن العربى: قوله تعالى: «فَٱضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ» يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن فى شرعهم كفارة، وإنما كان البرّ والحِنث. والثانى أن يكون صدر منه نذر لا يمين، وإذا كان النذر معيَّنا فلا كفارة فيه عند مالك وأبى حنيفة، وقال الشافعى: فى كل نذر كفارة.

قلت: قوله إنه لم يكن فى شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقى فى البلاء ثمان عشرة سنة، كما فى حديث ابن شهاب، قال له صاحباه: لقد أذنبت ذنبا ما أظنّ أحدا بلغه. فقال أيوب صلى الله عليه وسلم: ما أدرى ما تقولان، غير أن ربى

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٨٢ فما بعد.

عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله ، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلى ، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألّا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق(١) فنادى ربه « أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وذكر الحديث . فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب ، وأن من كفّر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة .

السادسة — استدل بعض جهّال المتزهدة ، وطَغام المتصوّفة بقوله تعالى لأيوب : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » على جواز الرقص . قال أبو الفرج الجوزى : وهذا احتجاج بارد ، لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لهم فيه شبهة ، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء . قال ابن عقيل : أين الدلالة فى مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازا من الرقص ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوام دلالة على جواز الرقص فى الإسلام ، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى : «ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ(٢) الْحَجَرَ» دلالة على ضرب المحادّ(٣) بالقضبان ! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع . وقد احتج بعض قاصريهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : " أنت منّى وأنا منك " فحَجَل . وقال لجعفر : " أشبهتَ خَلْقى وخُلُقى " فحَجَل . وقال لزيد : " أنت أخونا ومولانا " فحجل . ومنهم من احتج بأن الحبشة زَفَنت والنبى صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم . والجواب — أما الحَجْل فهو نوع من المشى يُفعَل عند الفرح فأين هو والرقص ، وكذلك زَفْن الحبشة نوع من المشى يفعل عند اللقاء للحرب .

السابعة — قوله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ أى على البلاء . ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى توّاب رجّاع مطيع . وسئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر ، وأنعم على الآخر فشكر ، فقال : كلاهما سواء ، لأن الله تعالى أثنى على عبدين ، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا ، فقال فى وصف أيوب : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » وقال فى وصف سليمان : « نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

(١) فى ح : إلا بحق . (٢) راجع جـ ١ ص ٤١٧ (٣) فى أ ، ك : «بالمخاد» بالخاء المعجمة .

قلت : وقد ردّ هذا الكلام صاحب «القوت» وآستدل بقصة أيوب فى تفضيل الفقير على الغنىّ وذكر كلاما كثيرا شيد به كلامه ، وقد ذكرناه فى غير هـذا الموضع من كتاب « منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد » . وخفى عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء و بعده ، و إنما آبتلى بذهاب ماله وولده وعظيم الداء فى جسده . وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به آمتُحِنوا وفُتِنوا . فأيوب عليه السلام دخل فى البلاء على صفة ، فخرج منه كما دخل فيه ، وما تغيّر منه حال ولا مقال ، فقد آجتمع(١) مع أيوب فى المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذى يفضل فيه بعض الناس بعضا . وبهذا الآعتبار يكون الغنى الشاكر والفقير الصابر سواء . وهو كما قال سفيان . والله أعلم . وفى حديث آبن شهاب عن النبى صلى الله عليه وسلم : " إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه : « آرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ » فآغتسل فأعاد الله لحمه وشعره و بشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان فى جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فآئتزر بأحدهما وآرتدى بالآخر ثم أقبل يمشى إلى منزله وراث(٢) على آمرأته فأقبلت حتى لقيته وهى لا تعرفه فسلّمت عليه وقالت أى يرحمك الله هل رأيت هذا الرجل المبتلَى ؟ قال من هو ؟ قالت نبىّ الله أيوب ، أما والله ما رأيت أحدا قط أشبه به منك إذ كان صحيحا . قال فإنى أيوب وأخذ ضِغْثا فضربها به " فزعم آبن شهاب أن ذلك الضغث كان ثُماما(٣) . وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم ، فأقبلت سحابة حتى سجلت(٤) فى أندر(٥) قمحه ذهبا حتى آمتلأ ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أندر شعيره وقطانيه(٦) فسجلت فيه ورقا حتى آمتلأ .

---

(١) الضمير يعود على سليمان عليه السلام .

(٢) راث : أبطأ .

(٣) الثمام : نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص .

(٤) السجل : الأنصباب المتواصل .

(٥) الأندر : الموضع الذى يدرس فيه القمح وغيره .

(٦) القطانى : الحبوب التى تطبخ كالحمص والعدس واللوبيا وما شاكلها .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وقرأ ٱبن عباس : « عَبْدَنَا » بإسناد صحيح ؛ رواه ٱبن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه ، وهي قراءة مجاهد وحُميد وٱبن مُحَيْصن وٱبن كثير ؛ فعلى هذه القراءة يكون « إِبْرَاهِيمَ » بدلا من « عَبْدَنَا » و « إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » عطف . والقراءة بالجمع أبين ، وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، ويكون « إِبْرَاهِيمَ » وما بعده على البدل . النحاس : وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت : رأيت أصحابنا زيدا وعمرا وخالدا ، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب ، وإذا قلت رأيت صاحبنا زيدا وعمرا وخالدا فزيد وحده بدل وهو صاحبنا ، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هذا ، غير أنه قد علم أن قوله : « وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ » داخل في العبودية . وقد ٱستدل بهذه الآية من قال : إن الذبيح إسحق لا إسماعيل ، وهو الصحيح على ما ذكرناه في كتاب « الإعلام بمولد النبي عليه السلام » . ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ قال النحاس : أما « الْأَبْصَارِ » فمتفق على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم . وأما « الْأَيْدِي » فمختلف في تأويلها ؛ فأهل التفسير يقولون : إنها القوة في الدين . وقوم يقولون : « الْأَيْدِي » جمع يد وهي النعمة ؛ أي هم أصحاب النعم ؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم . وقيل : هم أصحاب النعم والإحسان ؛ لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيرا . وهذا ٱختيار الطبري . ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أي الذين ٱصطفاهم من الأدناس وٱختارهم لرسالته . ومصطفين جمع مصطفى والأصل مصتفى وقد مضى في « البقرة »(١) عند قوله : « إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ » « والْأَخْيَارِ » جمع خير . وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٣

وعيسى الثقفى « أولى الأَيْد » بغير ياء فى الوصل والوقف على معنى أولى القوة فى طاعة الله . ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذف الياء تخفيفا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ قراءة العامة « بِخَالِصَةٍ » منونة وهى آختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن آبن عامر « بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ » بالإضافة فمن نون خالصة فـ « ذِكْرَى الدَّار » بدل منها؛ التقدير إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها، ويرغبوا فيها ويُرَغِّبوا الناس فيها . ويجوز أن يكون « خَالِصَةٍ » مصدرًا لخلَص و « ذِكْرَى » فى موضع رفع بأنها فاعله ، والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار؛ أى تذكير الدار الآخرة . ويجوز أن يكون « خالصة » مصدرا لأخلصت فحذفت الزيادة ، فيكون « ذِكْرَى » على هذا فى موضع نصب ، التقدير : بأن أخلصوا ذكرى الدار . والدار يجوز أن يراد بها الدنيا ؛ أى ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها ، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم ، كما قال تعالى : « وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا »(1) ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها . ومن أضاف خالصة إلى الدار فهى مصدر بمعنى الإخلاص ، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر؛ أى بإخلاصهم ذكرى الدار . ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ؛ أى بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وهى الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم . وقال آبن زيد : معنى أخلصناهم أى بذكر الآخرة ؛ أى يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون فى الدنيا . وقال مجاهد : المعنى إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

(1) راجع جـ ١١ ص ١١٣

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ (١) مضى ذكر اليسع فى « الأنعام » وذكر ذى الكفل فى « الأنبياء » (٢) . ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ أى ممن آختير للنبوّة . ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل فى الدنيا وشرف يذكرون به فى الدنيا أبدا . ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أى لهم مع هذا الذكر الجميل فى الدنيا حسن المرجع فى القيامة . ثم بيّن ذلك بقوله تعـالى : ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ﴾ والعدن فى اللغة الإقامة ؛ يقال : عدن بالمكان إذا أقام . وقال عبد الله ابن عمر : إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن (٣) حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمســة آلاف حِبرة (٤) لا يدخله إلا نبيّ أو صـدّيق أو شهيد . ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ حال ﴿ لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ رفعت الأبواب لأنه آسم ما لم يسم فاعله . قال الزجاج : أى مفتحة لهم الأبواب منها . وقال الفرّاء : مفتحة لهم أبوابها . وأجاز الفرّاء : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابَ » بالنصب . قال الفرّاء : أى مفتحة الأبواب ثم جئت بالتنوين فنصبت . وأنشد هو وسيبويه :

ونأخذُ بعدهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ * أَجَبَّ الظَّهْرَ ليس له سَنامُ (٥)

وإنمـا قال : « مُفَتَّحَةً » ولم يقل مفتوحة؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس . قال الحسن : تُكلَّم : آنفتحى فتنفتح آنغلقى فتنغلق . وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ أى يدعون فى الجنات متكئين فيها . ﴿ بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى بألوان الفواكه ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أى وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه .

قوله تعـالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أى على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى فى « الصافات » (٦) . ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أى على سن واحد . وميلاد آمرأة واحدة، وقد

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٣٧ .

(٣) تقدّمت هـذه الرواية فى جـ ٩ ص ٣١١ بهـذا اللفظ وهى توافق ما فى تفسـير الطبرى وغيره عن عبد الله ابن عمرو ، ولفظ الأصل هنا « جنة عدن قصر فى الجنة » الخ . (٤) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها) ضرب من البرود اليمنيـة مخطط . (٥) البيت للنابغة والشاهد فيه نصب الظاهر بأجب على نيـة التنوين ؛ وقد وصف مرض النعمان بن المنذر وأنه إن هلك صار الناس فى أسوإ حال وأضيق عيش ، وتمسكوا منه بمثل ذنب بعير أجب وهو الذى لا سنام له من الهزال . (٦) راجع ص ٨٠ من هذا الجزء .

تساوين فى الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة. قال ابن عباس : يريد الآدميات. و« أَتْرَابٌ » جمع تِرْب وهو نعت لقاصرات، لأن « قَاصِرَاتُ » نكرة وإن كان مضافا إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال :

مِن القاصراتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ * من الذَّرِّ فوقَ الإِتْبِ مِنها لَأَثَّرَا (١)

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى هذا الجزاء الذى وعدتم به. وقراءة العامة بالتاء أى ما توعدون أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر، وهى قراءة السُّلَمى واختيار أبى عبيد وأبى حاتم، لقوله تعالى : « وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ » فهو خبر. « لِيَوْمِ الْحِسَابِ » أى فى يوم الحساب، قال الأعشى :

المُهِينِينَ مَا لَهُمْ لِزمانِ السّـ * ـوءِ حتى إذا أفاق أفاقوا

أى فى زمان السوء.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع، كما قال : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (٢) » وقال : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٣) ».

قوله تعالى : هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين. قال الزجاج : « هَٰذَا » خبر ابتداء محذوف أى الأمر هذا فيوقف على « هذا » قال ابن الأنبارى : « هذا » وقف حسن ثم تبتدئ « وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ » وهم الذين كذبوا الرسل.

(١) قاله امرؤ القيس. المحول : الصغير. والإتب : درع المرأة. وبردة تشق فتلبس من غير كمين ولا جيب.
(٢) راجع ج ٩ ص ١٠٣ (٣) راجع ج ٢٠ ص ١١٥ فما بعد.

﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ أى منقلب يصيرون إليه . ثم بيّن ذلك بقوله : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى بئس ما مهدوا لأنفسهم ، أو بئس الفراش لهم . ومنه مهد الصبي . وقيل : فيه حذف أى بئس موضع المهاد . وقيل : أى هذا الذى وصفت لهؤلاء المتقين ، ثم قال : وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على « هذا » أيضا .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ « هَٰذَا » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « حَمِيمٌ » على التقديم والتأخير؛ أى هذا حميم وغساق فليذوقوه . ولا يوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » ويجوز أن يكون « هَٰذَا » فى موضع رفع بالابتداء و « فَلْيَذُوقُوهُ » فى موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذى فى «هَٰذَا» فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويرتفع « حَمِيمٌ » على تقدير هذا حميم . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا، وحميم وغساق إذا لم تجعلهما خبرا فرفعهما على معنى هو حميم وغسّاق . والفرّاء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غسّاق وأنشد :

حتّى إذا ما أَضَاءَ الصُّبْحُ (١) فى غَلَسٍ * وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِىٌّ ومَحْصُودُ

وقال آخر (٢) :

لها مَتَاعٌ وأَعْوانٌ غَدَوْنَ بِهِ * قِتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقَا

ويجوز أن يكون « هَٰذَا » فى موضع نصب بإضمار فعل يفسره « فَلْيَذُوقُوهُ » كما تقول زيدا اضربه . والنصب فى هذا أولى فيوقف على « فَلْيَذُوقُوهُ » وتبتدئ « حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » على تقدير الأمر حميم وغسّاق . وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين فى «وغَسَاق» . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى «وغسّاق» بالتشديد، وهما لغتان بمعنى واحد فى قول الأخفش . وقيل : معناهما مختلف؛ فمن خفّف فهو اسم مثل عَذاب وجَواب وصوَاب، ومن شدّد قال : هو اسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة ، نحو ضرّاب وقتّال وهو فعّال من غَسَق يغسِق فهو غسّاق وغاسِق . قال ابن عباس : هو الزمهرير يخوّفهم

---

(١) رواه السمين : أضاء البرق . (٢) قائله زهير بن أبى سلمى يصف الناقة التى يسنق عليها . وقتب وغرب بيان للتاع . والقتب : أداة السانية ، والغرب : الدلو العظيمة . وانسحقا : أى مضى وبعد سيلانه .

ببرده . وقال مجاهد ومقاتل : هو الثلج البارد الذى قد ٱنتهى برده . وقال غيرهما . إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرِّه . وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن من فى المغرب ، ولو وقع منه شيء فى المغرب لأنتن من فى المشرق . وقال قتـادة : هو ما يسيل من فروج الزناة ومن نَتْن لحـوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن . وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النـار . وهذا القول أشبه باللغـة ؛ يقال : غَسَق الجرح يغسِق غسقا إذا خرج منه ماء أصفر ؛ قال الشاعر :

إذا ما تَذَكَّرْتُ الحيـاةَ وطِيبَها * إلىّ جَرَى دَمْعٌ من اللّيلِ(١) غاسِقُ

أى بارد . ويقال : ليل غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار . وقال السدّى : الغسّاق الذى يســيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم . وقال ٱبن زيد : الحميم دموع أعينهم ، يجمع فى حياض النار فيسقونه ، والصديد الذى يخرج من جلودهم . والاختيار على هذا « وغَسّاق » حتى يكون مثل سيّال . وقال كعب : الغسّاق عين فى جهنم يسيل إليها سم كل ذى حُمَةٍ من عقرب وحيّة . وقيل : هو مأخوذ من الظلمة والسواد . والغسق أوّل ظلمة الليل ، وقد غَسَقَ الليلُ يغسِق إذا أظلم . وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "لو أن دَلْوا من غساق يُهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا" .

قلت : وهـذا أشبه على الاشتقاق الأوّل كما بينا ، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلما فيصح الاشتقاقان . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ قرأ أبو عمرو: « وَأُخَرُ » جمع أخرى مثـل الكبرى والكُبَر . الباقون : «وَآخَرُ» مفرد مذكر . وأنكر أبو عمرو « وَآخَرُ » لقوله تعالى : « أَزْوَاجٌ » أى لا يخبر بواحد عن جماعة . وأنكر عاصم الجحدرىّ « وَأُخَرُ » قال : ولو كانت « وَأُخَرُ » لكان من شكلها . وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان . « وَآخَرُ » أى وعذاب آخر سوى الحميم والغساق . « مِنْ شَكْلِهِ » قال قتادة : من نحـوه . قال ٱبن مسعود : هو

(١) لعله من العين .

الزمهرير . وآرتفع « وآخر » بالابتداء و « أَزْوَاجٌ » مبتدأ ثانٍ و « مِنْ شَكْلِهِ » خبره والجملة خبر « آخر » . ويجوز أن يكون « وآخر » مبتدأ والخبر مضمر دل عليه « هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » لأن فيه دليلا على أنه لهم ؛ فكأنه قال : ولهم آخر ويكون « مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و « أَزْوَاجٌ » مرفوع بالظرف . ومن قرأ « وَأُخَرُ » أراد وأنواع من العذاب أُخَرُ ، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناسا فجمع لاختلاف الأجناس . أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريرا ثم جمع كما قالوا : شابت مفارقه . أو على أنه جمع لما في الكلام من الدلالة على جواز الجمع ؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله : « هَـذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ » والضمير في « شَكْلِهِ » يجوز أن يعود على الحميم أو الغسّاق . أو على معنى : « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ » ما ذكرنا ، ورفع « أُخَرُ » على قراءة الجمع بالابتداء و « مِنْ شَكْلِهِ » صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدإ و « أَزْوَاجٌ » خبر المبتدإ . ولا يجوز أن يحمل على تقدير ولهم أخر و « مِنْ شَكْلِهِ » صفة لأخر و « أَزْوَاجٌ » مرتفعة بالظرف كما جاز في الإفراد ؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث آرتفع « أَزْوَاجٌ » مفرد ؛ قاله أبو علي . و « أَزْوَاجٌ » أي أصناف وألوان من العذاب . وقال يعقوب : الشكل بالفتح المثل وبالكسر الدلّ (١) .

قوله تعالى : ﴿ هَـذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ قال آبن عباس : هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع ، قالت الخزنة للقادة : « هَذَا فَوْجٌ » يعني الأتباع والفوج الجماعة « مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ » أي داخل النار معكم ؛ فقالت السادة : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أي لا آتسعت منازلهم في النار . والرحب السعة ، ومنه رحبة المسجد وغيره . وهو في مذهب الدعاء فلذلك نصب ؛ قال النابغة :

لَا مَرْحَبًا بِغَـدٍ وَلَا أَهْلًا بِهِ * إِنْ كَانَ تَفْرِيقُ الأَحِبَّةِ فِي غَدِ

---

(١) يقال : آمرأة ذات شكل (بالكسر) أي ذات دلال ، وهو حسن الحديث وحسن المزح والهيئة .

قال أبو عبيدة العرب تقول : لامرحبا بك ؛ أى لارحبت عليك الأرض ولا اتسعت .
﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ قيل : هو من قول القادة ، أى إنهم صالوا النار كما صليناها . وقيل :
هو من قول الملائكة متصل بقولهم : « هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ » و « قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ »
هو من قول الأتباع . وحكى النقاش : إن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم
بدر ، والفوج الثانى أتباعهم ببدر . والظاهر من الآية أنها عامة فى كل تابع ومتبوع .
﴿ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أى دعوتمونا إلى العصيان ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ لنا ولكم ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى الأتباع
﴿ رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا ﴾ قال الفراء : من سوّغ لنا هذا وسنّه . وقال غيره : من قدم لنا
هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصى ﴿ فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ وعذابا بدعائه إيانا فصار
ذلك ضعفا . وقال ابن مسعود : معنى عذابا ضعفا فى النار الحيات والأفاعى . ونظير هذه
الآية قوله تعالى : " رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ "(1) .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعنى أكابر المشركين ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾
قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول أبو جهل : أين بلال أين
صُهيب أين عمّار أولئك فى الفردوس ! واعجبا لأبى جهل ! مسكين ؛ أسلم ابنه عكرمة ، وابنته
جُوَيرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو ؛ قال :

ونورًا أضاء الأرض شرقًا ومغربًا * وموضع رِجلى منه أسود مُظلِمُ

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ قال مجاهد : أتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾
فلم نعلم مكانهم . قال الحسن : كل ذلك قد فعلوا ؛ اتخذوهم سخريًّا ، وزاغت عنهم أبصارهم
فى الدنيا محقرة لهم . وقيل : معنى « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ » أى أهم معنا فى النار فلا

(1) راجع ج ٧ ص ٢٠٤

نراهم . وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرءون « مِنَ الْأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ » بحذف الألف في الوصل . وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرءون « أَتَّخَذْنَاهُمْ » بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل ؛ لأنه قد استغنى عنها ؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على « الْأَشْرَارِ » لأن « اتَّخَذْنَاهُمْ » حال . وقال النحاس والسجستاني : هو نعت لرجال . قال ابن الأنباري : وهذا خطأ ؛ لأن النعت لا يكون ماضيا ولا مستقبلا . ومن قرأ : « أَتخذناهم » بقطع الألف وقف على « الْأَشْرَارِ » قال الفراء : والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب . « أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ » إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية ، وإذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل . وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضّل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي : « سُخْرِيًّا » بضم السين . الباقون بالكسر . قال أبو عبيدة : من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير . وقد تقدّم . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ « لَحَقٌّ » خبر إنّ و « تَخَاصُمُ » خبر مبتدإ محذوف بمعنى هو تخاصم . ويجوز أن يكون بدلا من حق . ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر . ويجوز أن يكون بدلا من ذلك على الموضع . أي إنّ تخاصم أهل النار في النار لحق . يعني قولهم : « لَا مَرْحَبًا بِكُمْ » الآية وشبهه من قول أهل النار .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾ أي مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدّم . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ أي معبود ﴿ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الذي لا شريك له ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ بالرفع على النعت وإن نصبت الأول نصبته . ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح . « وَالْعَزِيزُ » معناه المنيع الذى لا مثل له . « الْغَفَّارُ » الستار لذنوب خلقه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أى وقل لهم يا محمد : « هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ » أى ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغى أن يُستخفَّ به . قال معناه قتادة . نظيره قوله تعالى : « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ »(١) . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعنى القرآن الذى أنبأكم به خبر جليل . وقيل : عظيم المنفعة ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول ابن عباس والسدى اختصموا فى أمر آدم حين خلق فـ « قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا »(٢) وقال إبليس : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ »(٣) وفى هذا بيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى ؛ فقد قامت المعجزة على صدقه ، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه ؛ ولهذا وصل قوله بقوله : « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » . وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألنى ربى فقال يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى قلت فى الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشى على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء فى السَّبَرات(٤) والتعقيب فى المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام " خرجه الترمذى بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن معاذ بن جبل أيضا وقال حديث حسن صحيح . وقد كتبناه بكماله فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، وأوضحنا إشكاله والحمد لله . وقد مضى فى « يس »(٥) القول فى المشى إلى المساجد ، وأن الخطا تكفر السيئات ، وترفع الدرجات . وقيل : الملأ الأعلى الملائكة والضمير فى « يَخْتَصِمُونَ » لفرقتين . يعنى قول من قال منهم الملائكة بنات الله ،

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٦٧ (٢) راجع جـ ١ ص ٢٦١ (٣) راجع جـ ٧ ص ١٦٩ فما بعد .
(٤) السبرات جمع سبر بسكون الباء وهى شدة البرد . (٥) راجع ص ١٢ فما بعد من هذا الجزء .

[ومن قال آلهة تعبد] (١) . وقيل : الملأ الأعلى هاهنا قريش ؛ يعنى ٱختصامهم فيما بينهم سرًّا ، فأطلع الله نبيه على ذلك . ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى إن يوحى إلىّ إلا الإنذار . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع « إِلَّا إِنَّمَا » بكسر الهمزة ؛ لأن الوحى قول ، كأنه قال : يقال لى إنما أنت نذير مبين ، ومن فتحها جعلها فى موضع رفع ؛ لأنها ٱسم ما لم يسمّ فاعله . قال الفراء : كأنك قلت ما يوحى إلىّ إلا الإنذار . النحاس : ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى إلا لأنما . والله أعلم .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ « إذ » من صلة « يَخْتَصِمُونَ » المعنى ؛ ما كان لى من علم بالملإ الأعلى حين يختصمون حين ﴿ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ . وقيل : « إِذْ قَالَ » بدل من « إِذْ يَخْتَصِمُونَ » و « يَخْتَصِمُونَ » يتعلق بمحذوف ؛ لأن المعنى ما كان لى من علم بكلام الملإ الأعلى وقت ٱختصامهم . ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ « إذا » تردّ الماضى إلى المستقبل ؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه ؛ أى خلقته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ أى من الروح الذى أملكه ولا يملكه غيرى . فهذا معنى الإضافة ، وقد مضى هذا المعنى مجوّدا فى « النساء » (٢) فى قوله فى عيسى « وَرُوحٌ مِنْهُ » . ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ نصب على الحال . وهذا سجود تحية لا سجود عبادة . وقد مضى فى « البقرة » (٣) . ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أى ٱمتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعا له وتعظيما لله بتعظيمه ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ أنف من السجود له جهلا بأن السجود له طاعة لله ، والأنفة من طاعة الله ٱستكبارا كفر ، ولذلك كان من الكافرين بٱستكباره عن أمر الله تعالى . وقد مضى الكلام فى هذا فى « البقرة » (٣) مستوفى .

(١) زيادة يقتضيها المقام وذكرها أبو حيان فى تفسيره . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٣ وص ٢٩٦

قوله تعالى : قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن
نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾
قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ ﴾ أى صرفك وصدّك ﴿ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ أى عن أن تسجد ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريما له ، وإن كان خالق كل شيء وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد ؛ فخاطب الناس بما يعرفونه فى تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئا بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم ، فذكر اليد هنا بمعنى هذا . قال مجاهد : اليد ها هنا بمعنى التأكد والصلة ، مجازه لما خلقت أنا كقوله : «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ»(1) أى يبقى ربك . وقيل : التشبيه فى اليد فى خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة ؛ وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى . وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : مالى بهذا الأمر يد ، ومالى بالحِمْل الثقيل يَدَانِ . ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع . وقال الشاعر :

تَحمَّلْتَ مِن [عَفْرَاءَ](2) ما ليس لِى بِهِ * ولا لِلجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ يَدَانِ

وقيل : «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» لما خلقت بغير واسطة . ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أى عن السجود ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أى المتكبرين على ربك . وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة «بِيَدَيَّ ٱسْتَكْبَرْتَ» موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل : «أَمْ يَقُولُونَ

(1) راجع جـ ١٧ ص ١٦٤ فما بعد .

(2) فى الأصول ذلفاء وهو تحريف . والبيت لعروة بن حزام .

ٱفْتَرَاهُ » وشبهه . ومن آستفهم فـ« أمْ » معادلة لهمزة الآستفهام وهو تقرير وتوبيخ . أى آستكبرت بنفسك حين أبيت عن السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ قال الفرّاء : من العرب من يقول أنا أخير منه وأشرّ منه ؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الآستعمال . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فَضَّل النار على الطين وهذا جهل منه ؛ لأن الجواهر متجانسة فقاس فأخطأ القياس . وقد مضى في « الأعراف »(١) بيانه . ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ يعنى من الجنة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أى مرجوم بالكواكب والشهب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ أى طردى و إبعادى من رحمتى ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حينئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يُجَب إلى ذلك، وأُخِّر إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلق فيه، فأُخِّر إليه تهاونا به . ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بنى آدم بتزيين الشهوات و إدخال الشبه عليهم ، فمعنى : « لَأُغْوِيَنَّهُمْ » لأستدعينهم إلى المعاصى وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين أخلصتهم لعبادتك، وعصمتهم منى . وقد مضى في « الحجر »(٢) بيانه .

قوله تعالى : قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ والْحَقَّ أَقُولُ ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائى . وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول . وأجاز الفرّاء فيه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧١ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٨

الخفض . ولا آختلاف فى الثانى فى أنه منصوب بـ«أقول» ونصب الأول على الإغراء أى فآتبعوا الحق وآستمعوا الحق، والثـانى بإيقاع القول عليـه . وقيل : هو بمعنى أُحِقّ الحقّ أى أفعله . قال أبو على : الحق الأوّل منصوب بفعل مضمر أى يحق الله الحق، أو على القسم وحذف حرف الجـر؛ كما تقول : اللهِ لأفعلنّ؛ ومجازه : قال فبالحق وهو الله تعـالى أقسم بنفسه . « والْحَقَّ أَقُولُ » جملة آعترضت بين القسم والمقسم عليه، وهو توكيد القصة، و إذا جعل الحق منصوبا بإضمار فعل كان «لأملأنّ» على إرادة القسم . وقد أجاز الفرّاء وأبو عبيد أن يكون الحق منصوبا بمعنى حقا « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجـوز زيدا لأضربنّ؛ لأن ما بعد اللام مقطوع ممـا قبلها فلا يعمل فيـه . والتقـدير على قولهما لأملأنّ جهنم حقّا . ومن رفع « الحقّ » رفعه بالآبتـداء؛ أى فأنا الحقُّ أو الحقُّ منى . رويا جميعا عن مجاهد . ويجوز أن يكون التقدير هذا الحقّ . وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحـقّ لأملأن جهنم بمعنى فالحـق أن أملأ جهنم . وفى الخفض قولان وهى قراءة آبن السَّمَيْقَع وطلحة بن مُصَرِّف : أحدهما أنه على حذف حرف القسم . هذا قول الفراء قال كما يقول : اللهِ عزّ وجل لأفعلنّ . وقد أجاز مثل هـذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجِز الخفض؛ لأن حروف الخفض لا تضمر، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلا من واو القسم؛ كما أنشدوا(١) :

* فمثلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِع *

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أى من نفسك وذريتك ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ ﴾ من بنى آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى من جُعل على تبليغ الوحى وكنى به عن غير مذكور . وقيل هو راجع إلى قوله : « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أى لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به . وروى مسروق عن عبـد الله بن مسعود قال :

(١) البيت لامرئ القيس من معلقته وتمـامه :

* فألهيتها عن ذى تمـائم محول *

من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف؛ فإن قوله لا أعلم عِلْمٌ ، وقد قال الله عز وجل لنبيّه صلى الله عليه وسلم : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للتكلف ثلاث علامات ينازع مَن فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم " . وروى الدَّارَقُطْني من حديث نافع عن ابن عمر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فسار ليلا فمروا على رجل جالس عند مَقْراة[1] له ، فقال له عمر : يا صاحب المَقْرَاة أَوْلَغت السباع الليلة في مَقْرَاتك ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " يا صاحب المَقْرَاة لا تخبره هذا متكلِّف لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور " .
وفي الموطإ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضا ، فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر : يا صاحب الحوض لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع وترد علينا .
وقد مضى القول في المياه في سورة « الفرقان »[2] . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ من الجن والإنس . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أي نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق « بَعْدَ حِينٍ » قال قتادة : بعد الموت . وقاله الزجاج . وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد : يعني يوم القيامة . وقال الفراء : بعد الموت وقبله . أي لتظهر لكم حقيقة ما أقول : « بَعْدَ حِينٍ » أي في المستأنف أي إذا أخذتكم سيوف المسلمين . قال السّدي : وذلك يوم بدر . وكان الحسن يقول : يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين . وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين . قال : إن من الحين مالا تدركه كقوله تعالى : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ومنه ما تدركه ؛ كقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر . وقد مضى القول في هذا في « البقرة »[3] و « إبراهيم »[4] والحمد لله .

(١) المقراة الحوض الذي يجتمع فيه الماء . النهاية لابن الأثير .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ٤٥
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ فما بعد .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ فما بعد .

سـورة الزُّمَر

ويقال سورة الغرف . قال وهب بن منبه : من أحب أن يعرف قضاء الله عز وجل في خلقه فليقرأ سورة الغرف . وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » والأخرى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » الآية . وقال آخرون : إلا سبع آيات من قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشي وأصحابه على ما يأتي . وروى الترمذي عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل . وهي خمس وسبعون آية . وقيل : اثنتان وسبعون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَنْزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٤)

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ . ويجوز أن يكون مرفوعا بمعنى هذا تنزيل ؛ قاله الفراء . وأجاز الكسائي والفراء أيضا « تَنْزِيلَ » بالنصب على أنه مفعول به . قال الكسائي : أي اتبعوا واقرءوا « تَنْزِيلَ الْكِتَابِ » . وقال الفراء : هو على الإغراء مثل قوله : « كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ »(١) أي الزموا . والكتاب القرآن سمي بذلك لأنه مكتوب .

(١) راجع جـ ٥ ص ١٢٠

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أى هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق؛ أى بالصدق وليس بباطل وهزل . ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — « مُخْلِصًا » نصب على الحال أى مُوحِّدا لا تشرك به شيئا ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ أى الطاعة . وقيـل : العبادة وهو مفعول به . ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى الذى لا يشوبه شيء . وفى حديث الحسن عن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إنى أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء النـاس . فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : "والذى نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئا شورك فيـه" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) و « النساء »(٢) و « الكهف »(٣) مستـوفًى .

الثانيـة — قال ابن العربى : هذه الآية دليل على وجوب النية فى كل عمل، وأعظمه الوضوء الذى هو شطر الإيمان، خلافا لأبى حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان إن الوضوء يكفى من غير نية ، وما كان ليكون من الإيمـان شطرا ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

قوله تعـالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى الأصنام والخبر محذوف، أى قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم مَن ربكم وخالقكم؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله ، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنـا عنـده . قال الكلبى : جواب هـذا الكلام فى الأحقاف(٤) « فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً » والزلفى القربة؛ أى ليقربونا إليـه تقريبا ، فوضع « زُلْفَى » فى موضع المصـدر . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٠٧ (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢٥ (٣) راجع جـ ١١ ص ٦٩ فما بعد .
(٤) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٩

زُلْفَى » وفي حرف أُبَيّ « وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » ذكره النحاس . قال : والحكاية في هذا بينة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلا بما يستحق . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد ؛ أي للدين الذي ٱرتضاه وهو دين الإسلام ؛ كما قال الله تعالى : « وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (١) وفي هذا ردّ على القدرية وغيرهم على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي لو أراد أن يسمي أحدا من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزيها له عن الولد ﴿ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي هو القادر على الكمال المستغني عن الصاحبة والولد ، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به . ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل . قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ قال الضحاك : أي يلقي هذا على هذا وهذا على هذا . وهذا على معنى التكوير في اللغة وهو طرح الشيء بعضه على بعض ؛ يقال كوّر المتاع أي ألقى بعضه على بعض ؛

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٩ وجـ ٩ ص ٣٤٠

ومنه كور العمامة . وقد روى عن ابن عباس هذا فى معنى الآية . قال : ما نقص من الليل دخل فى النهار وما نقص من النهار دخل فى الليل . وهو معنى قوله تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ »(١) . وقيل : تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ، ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته ، وهذا قول قتادة . وهو معنى قوله تعالى : « يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا »(٢) . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى بالطلوع والغروب لمنافع العباد . ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى فى فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة [حين(٣)] تنفطر السماء وتنتثر الكواكب . وقيل : الأجل المسمى هو الوقت الذى ينتهى فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها . قال الكلبى : يسيران إلى أقصى منازلهما ، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يجاوزانه . وقد تقدم بيان هـذا فى سورة «يس»(٤) . ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ « ألا » تنبيه أى تنبهوا فإنى أنا « الْعَزِيزُ » الغالب « الْغَفَّارُ » الساتر لذنوب خلقه برحمته .

قوله تعـالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعنى آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى ليحصل التناسل وقد مضى هـذا فى « الأعراف »(٢) وغيرها . ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول ، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل . وهذا يسمى التدريج ، ومثله قوله تعالى : « قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا »(٢) الآية . وقيل : أنزل أنشأ وجعل . وقال سعيد بن جبير : خلق . وقيل : إن الله تعالى خلق هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض ، كما قيل فى قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ »(٥) فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد . وقيل : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ » أى أعطاكم . وقيل : جعل الخلق إنزالا ، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى : خلق لكم كذا بأمره النازل . قال قتـادة : من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٠ (٢) راجع جـ ٧ ص ٥٤ وص ٢٩ وص ٣٣٧
(٣) فى نسخ الأصل : حتى . (٤) راجع ص ٣٢ من هذا الجزء .
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٠

زوج . وقد تقدّم هذا[1] . ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ قال قتادة والسّدّى : نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما . ابن زيد : « خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ » خلقا في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم . وقيل : في ظهر الأب ثم خلقا في بطن الأمّ ثم خلقا بعد الوضع . ذكره الماوردى . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المَشِيمَة . قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك . وقال ابن جبير : ظلمة المَشِيمَة وظلمة الرَّحِم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل : ظلمة صُلْب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرَّحِم . وهذا مذهب أبي عبيدة . أي لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين . ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ﴾ أي الذي خلق هذه الأشياء ﴿ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره . وقرأ حمزة : «إِمِّهَاتِكُمْ» بكسر الهمزة والميم . والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

قوله تعالى : إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أي أن يكفروا أي لا يحب ذلك منهم . وقال ابن عباس والسّدّى : معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »[2] . وكقوله : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ »[3] أي المؤمنون . وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة . وقيل : لا يرضى الكفر وإن أراده ؛ فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبإرادته كفر لا يرضاه ولا يحبه ، فهو يريد كون ما لا يرضاه ، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه ، فالإرادة غير الرضا . وهذا مذهب أهل السنة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٨ (٣) راجع جـ ١٩ ص ١٢٤

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى يرضى الشكر لكم ؛ لأن « تَشْكُرُوا » يدل عليه . وقد مضى القول فى الشكر فى « البقرة »[1] وغيرها . ويرضى بمعنى يثيب ويثنى ، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » وإما ثناؤه فهو صفة ذات . و « يَرْضَهْ » بالإسكان فى الهاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم . وأشبع الضمة ابن ذكوان وابن كثير وابن محيصن والكسائى وورش عن نافع[2] . واختلس الباقون . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ تقدّم[3] فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر ﴿ ضُرٌّ ﴾ أى شدّة من الفقر والبلاء ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أى راجعا إليه مُخْبِتا مطيعا له مستغيثا به فى إزالة تلك الشدّة عنه . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ أى أعطاه وملّكه . يقال : خوّلك الله الشيء أى ملّكك إياه ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا الْمَالَ يُخْوِلُوا * وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا[4]

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ فما بعد . وجـ ٢ ص ١٩٢ (٢) فى الأصول : ورش عن نافع . وفى البيضاوى : وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية الخ يعنى ورواية أخرى بالاختلاس كما هو المشهور فى رواية ورش .

(٣) راجع جـ ٩ ص ١٥٧ . وجـ ١٠ ص ٢٣٠ (٤) البيت لزهير ، ويروى : هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا ، والإخبال الإعارة أى يستعيرون الناقة للانتفاع بألبانها وأوبارها والفرس للغزو عليها . وإن ييسروا يغلوا : أى إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الإبل فيقامرون عليها .

وخَوَلُ الرجل : حَشَمُه الواحد خائل . قال أبو النّجم :

أَعْطَى فـلم يَبْخَـلْ ولم يُبَخَّـلِ * كُوم الذُّرى مِن خَوَلِ المُخَوِّلِ

﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى نسى ربه الذى كان يدعوه من قبـل فى كشف الضر عنه . فـ « ـما » على هذا الوجه لله عز وجل وهى بمعنى الذى . وقيل : بمعنى من كقوله : «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ»(١) والمعنى واحد . وقيل : نسى الدعاء الذى كان يتضرع به إلى الله عز وجل . أى ترك كون الدعاء منه إلى الله؛ فما والفعل على هذا القول مصدر . ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أوثانا وأصناما . وقال السّدى : يعنى أندادا من الرجال يعتمدون عليهم فى جميع أمورهم . ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى ليقتدى به الجهال . ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ أى قل لهذا الإنسان « تَمَتَّع » وهو أمر تهديد فمتاع الدنيا قليل . ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى مصيرك إلى النار .

قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ بيّن تعـالى أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره . وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائى « أَمَّنْ » بالتشديد . وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة : « أَمَنْ هُوَ » بالتخفيف على معنى النداء؛ كأنه قال يامن هو قانت . قال الفراء : الألف بمنزلة يا، تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل . وحكى ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال أوس بن حَجَر :

أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْـتُمُ بِيَـدٍ * إِلَّا يَدًا لَيْسَت لهـا عَضُـدُ

وقال آخر هو ذو الرُّمّة :

أَدَارًا بِحُزْوَى هِجْتِ لِلعَيْنِ عَبْرَةً * فَمَـاءُ الهَوَى يَرْفَضُّ أَوْ يَتَرَقْرَقُ

فالتقدير على هذا « قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » يامن هو قانت إنك من أصحاب الجنة؛ كما يقال فى الكلام : فلان لا يصلى ولا يصوم، فيا من يُصلى ويَصوم أبشر؛ فحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل : إن الألف فى « أمن » ألف آستفهام أى « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ » أفضل ؟ أم من جعل لله أندادا؟ والتقدير الذى هو قانت خير . ومن شدد

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٥

« أَمَّنْ » فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم خير « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ » فالجملة التى عادلت أم محذوفة ، والأصل أم من فأدغمت فى الميم . النحاس : وأم بمعنى بل ، ومَن بمعنى الذى ؛ والتقدير : أم الذى هو قانت أفضل ممن ذكر . وفى قانت أربعة أوجه : أحدها أنه المطيع ؛ قاله آبن مسعود . الثانى أنه الخاشع فى صلاته ؛ قاله آبن شهاب . الثالث أنه القائم فى صلاته ؛ قاله يحيى ابن سلّام . الرابع أنه الداعى لربه . وقول آبن مسعود يجمع ذلك . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل قنوت فى القرآن فهو طاعة لله عز وجل " وروى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل أى الصلاة أفضل ؟ فقال : " طول القنوت " وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام . وروى عبد الله عن نافع عن آبن عمر سئل عن القنوت فقال : ما أعرف القنوت إلا طول القيام ، وقراءة القرآن . وقال مجاهد : من القنوت طول الركوع وغضّ البصر . وكان العلماء إذا وقفوا فى الصلاة غضّوا أبصارهم ، وخضعوا ولم يلتفتوا فى صلاتهم ، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلا ناسين . قال النحاس : أصل هذا أن القنوت الطاعة ، فكل ماقيل فيه فهو طاعة لله عز وجل ، فهذه الأشياء كلها داخلة فى الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع : قال لى آبن عمر قم فصلّ فقمت أصلّى وكان علىّ ثوب خَلِق ، فدعانى فقال لى : أرأيت لو وجهتك فى حاجة أكنت تمضى هكذا ؟ فقلت : كنت أتزيّن قال : فالله أحق أن تتزيّن له . وآختلف فى تعيين القانت هاهنا ، فذكر يحيى بن سلام أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال آبن عباس فى رواية الضحاك عنه : هو أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . وقال آبن عمر : هو عثمان رضى الله عنه . وقال مقاتل : إنه عمّار بن ياسر . الكلبى : صُهَيب وأبو ذرّ وآبن مسعود . وعن الكلبى أيضا أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال . ﴿ آنَاءَ ٱللَّيْلِ ﴾ قال الحسن : ساعاته ؛ أوله وأوسطه وآخره . وعن ابن عباس : « آنَاءَ ٱللَّيْلِ » جوف الليل . قال آبن عباس : من أحبّ أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة ، فليره الله فى ظلمة الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه . وقيل : مابين المغرب والعشاء . وقول الحسن عام . ﴿ يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ قال سعيد بن جبير : أى عذاب الآخرة . ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أى

نعيم الجنة . وروى عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال: هذا مُتَمَنٍّ .
ولا يقف على قوله : « رَحْمَةَ رَبِّهِ » من خفف « أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ » على معنى النداء ؛ لأن
قوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ متصل إلا أن يقدر في الكلام
حذف وهو أيسر، على ماتقدم بيانه . قال الزجاج : أي كما لا يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون كذلك لا يستوى المطيع والعاصى . وقال غيره : الذين يعلمون هم الذين ينتفعون
بعلمهم ويعملون به ، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي أصحاب العقول من المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي قل يامحمد لعبادى المؤمنين ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾
أي اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو وقد تقدم (١) . وقال ابن عباس : يريد جعفر بن أبي طالب
والذين خرجوا معه إلى الحبشة . ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ يعنى
بالحسنة الأولى الطاعة وبالثانية الثواب في الجنة . وقيل : المعنى للذين أحسنوا في الدنيا حسنة
في الدنيا ، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة ، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحة والعافية
والظفر والغنيمة . قال القُشيرى : والأول أصح ؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا .

قلت : وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم . وقد تكون الحسنة في الدنيا
الثناء الحسن، وفي الآخرة الجزاء . ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل
بالمعاصى . وقد مضى القول في هذا مستوفى في « النساء » (٢) . وقيل : المراد أرض الجنة ؛ رغّبهم
في سعتها وسعة نعيمها ؛ كما قال : « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » (٣) والجنة قد تسمى أرضا ؛

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٥ ص ٣٤٨ فما بعد . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٠٣

قال الله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » والأول أظهر فهو أمر بالهجرة . أى آرحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا . المـاوردى : يحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق ؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الآمتنان .

قلت : فتكون الآية دليـلا على الآنتقال من الأرض الغـالية ، إلى الأرض الراخية ؛ كما قال سفيان الثورى : كن فى موضع تملأ فيه جرابك خبزا بدرهم . ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى بغير تقدير . وقيل : يزاد على الثواب؛ لأنه لو أعطى بقدر ماعمل لكان بحساب . وقيــل : « بِغَيْرِ حِسَابٍ » أى بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا . و « الصَّابِرُونَ » هنا الصائمون ؛دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبرا عن الله عز وجل: " الصوم لى وأنا أجزى به " قال أهل العـلم : كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا الصوم فإنه يُحثى حَثْوًا و يُغرف غَرْفا ؛ وحكى عن على رضى الله عنه . وقال مالك بن أنس فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قال : هو الصبر على فجـائع الدنيا وأحزانها . ولا شك أن كل من سلّم فيما أصابه ، وترك مانهى عنه، فلا مقدار لأجره . وقال قتـادة : لاوالله ماهناك مكيال ولا ميزان، حدثنى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تنصب الموازين فيؤتى بأهـل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصبّ عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض ممـا يذهب به أهل البلاء من الفضل ". وعن الحسين بن على رضى الله عنهما قال سمعت جدى رسول الله صلى عليه وسلم يقول : " أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس، يابُنى إن فى الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البـلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يُصبّ عليهم الأجر صبا " ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . ولفظ صابر يمدح به و إنما هو لمن صبر عن المعاصى ، و إذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا؛ قاله النحاس . وقد مضى فى « البقرة »(١) مستوفى .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ تقدّم أول السورة ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ من هذه الأمة ، وكذلك كان؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها ، وأسلم لله وآمن به ، ودعا إليه صلى الله عليه وسلم . واللام فى قوله : « لِأَنْ أَكُونَ » صلة زائدة ؛ قاله الجرجانى وغيره . وقيل : لام أجل . وفى الكلام حذف أى أمرت بالعبادة « لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يريد عذاب يوم القيامة . وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه ؛ قاله أكثر أهل التفسير . وقال أبو حمزة الثمالى وابن المسيّب : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »(٢) فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧٤ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦١ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴾ « اللَّهَ » نصب بـ « أَعْبُدُ » ﴿ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ طاعتى وعبادتى . ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ ؛ كقوله تعالى : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ »(١) . وقيل : منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال ميمون بن مهران عن ابن عباس : ليس من أحد إلا و[قد](٢) خلق الله له زوجة فى الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله . فى رواية عن ابن عباس : فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك ، وهو قوله تعالى : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ سمى ما تحتهم ظللا ؛ لأنها تظل من تحتهم ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ »(٣) وقوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »(٤) . ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ قال ابن عباس : أولياءه . ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أى يا أوليائى خافون . وقيل : هو عام فى المؤمن والكافر . وقيل : خاص بالكفار .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ قال الأخفش : الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة . وقد تقدم(٥) . أى تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها . قال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان . وقال الضحاك والسدى : هو الأوثان . وقيل : إنه الكاهن . وقيل إنه اسم أعجمى مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت . وقيل : انه اسم عربى مشتق من الطغيان ، و « أن » فى موضع نصب بدلا من الطاغوت ، تقديره : والذين

(١) راجع ص ٣٦٦ من هذا الجزء . (٢) زيادة من ح و ك . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٠٥ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٣ ص ٣٥٦ (٦) راجع جـ ٥ ص ٨٠/

ٱجتنبوا عبادة الطاغوت . ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى رجعوا إلى عبادته وطاعته . ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ فى الحياة الدنيا بالجنة فى العقبى . روى أنها نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضى الله عنهم ؛ سألوا أبا بكر رضى الله عنه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا . وقيل : [نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذرّ وغيرهما ممن وحّد الله تعالى قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ قال ٱبن عباس : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به . وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أى محكمه فيعملون به . وقيل : يستمعون عزما وترخيصا فيأخذون بالعزم دون الترخيص . وقيل : يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو . وقيل : إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحّد الله قبل الإسلام « لا إلٰه إلا الله » . وقال عبد الرحمن بن زيد[(١)] :] نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذرّ الغفارى وسلمان الفارسى، ٱجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها فى جاهليتهم، وٱتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لما يرضاه . ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى الذين ٱنتفعوا بعقولهم .

قوله تعالى : أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ (١٩)

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية . قال ٱبن عباس : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان . وكرر الاستفهام فى قوله : « أَفَأَنْتَ » تأكيداً لطول الكلام، وكذا قال سيبويه فى قوله تعالى : « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ »[(٢)] على ما تقدّم . والمعنى : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ » أفأنت تنقذه . والكلام شرط وجوابه . وجىء بالاستفهام؛ ليدل على التوقيف والتقرير . وقال الفراء : المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ك . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٢٢

كلمة العذاب . والمعنى واحد . وقيل : إن فى الكلام حذفا والتقدير : أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه ، وما بعده مستأنف . وقال : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ » وقال فى موضع آخر: « حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ »(١) لأن الفعل إذا تقدم ووقع بينه وبين الموصوف به حائل جاز التذكير والتأنيث ، على أن التأنيث هنا ليس بحقيقى بل الكلمة فى معنى الكلام والقول ؛ أى أفمن حق عليه قول العذاب .

قوله تعالى : لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ لما بين أن للكفار ظللا من النار من فوقهم ومن تحتهم بين أن للتقين غرفا فوقها غرف ؛ لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا و« لكن » ليس للاستدراك ؛ لأنه لم يأت نفى كقوله : ما رأيت زيدا لكن عمرا ، بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى كقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يأت . ﴿غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ قال ابن عباس : من زبرجد وياقوت ﴿تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى هى جامعة لأسباب النزهة . ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر ؛ لأن معنى « لَهُمْ غُرَفٌ » وعدهم الله ذلك وعدا . ويجوز الرفع بمعنى ذلك وعد الله . ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ أى ما وعد الفريقين .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى إنه لا يخلف الميعاد فى إحياء الخلق ، والتمييز بين المؤمن والكافر ، وهو قادر على ذلك كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء . « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى من السحاب « مَاءً » أى المطر ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ أى فأدخله فى الأرض

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٤٠

وأسكنه فيها ؛ كما قال : « فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ »(١) . ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع يَنْبُع و يَنْبَع و يَنْبِع بالرفع والنصب والخفض . النحاس : وحكى لنا ابن كيسان في قول الشاعر(٢) :

* يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ *

أن معناه يَنْبَع فأشبع الفتحة فصارت ألفا ؛ نبوعا خرج . واليَنْبُوع عين الماء والجمع الينابيع . وقد مضى في « سبحان »(٣) . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿ زَرْعًا ﴾ هو للجنس أي زروعا شتى لها ألوان مختلفة ؛ حمرة وصفرة و زرقة وخضرة ونورا . قال الشعبي والضحاك : كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ؛ إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون والركايا . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي ييبس . ﴿ فَتَرَاهُ ﴾ أي بعد خضرته ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ قال المبرد قال الأصمعي : يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها و ولّى . قال : وكذلك هاج النبت . قال : وكذلك قال غير الأصمعي . وقال الجوهري : هاج النبت هياجا أي يبس . وأرض هائجة يبس بقلها أو اصفر ؛ وأهاجت الريح النبت أيبسته ؛ وأهيجنا الأرض أي وجدناها هائجة النبات ؛ وهاج هائجه أي ثار غضبه ؛ وهدأ هائجه أي سكنت فورته . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أي فتاتا مكسرا من تحطم العود إذا تفتت من اليبس . والمعنى أن من قدر على هذا قدر على الإعادة . وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض ؛ أي أنزل من السماء قرآنا فسلكه في قلوب المؤمنين « ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » أي دينا مختلفا بعضه أفضل من بعض ؛ فأما المؤمن فيزداد إيمانا و يقينا ؛ وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع . وقيل : هو مثل ضربه الله للدنيا ؛ أي كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ١١٢

(٢) قائله عنترة : و يروى ؛ غضوب حرة . وتمامه : * زيافة مثل الفنيق المقرم *

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ شرح فتح و وسع . قال آبن عباس : وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه . وقال السدى : وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه ؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام ؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام . ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى على هدى من ربه كمن طبع على قلبه وأقساه . ودلّ على هذا المحذوف قوله : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » قال المبرد : يقال قسا القلب إذا صَلُب ، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها . وقلبٌ قاسٍ أى صُلْب لا يرقّ ولا يلين . والمراد بمن شرح الله صدره هاهنا فيما ذكر المفسرون علىّ وحمزة رضى الله عنهما . وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال مقاتل : عمار بن ياسر . وعنه أيضا والكلبي رسول الله صلى الله عليه وسلم . والآية عامة فيمن شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه . وروى مُرّة[1] عن آبن مسعود قال : قلنا يا رسول الله قوله تعالى : «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » كيف آنشرح صدره؟ قال : "إذا دخل النور القلب آنشرح وآنفتح" قلنا : يارسول الله وما علامة ذلك ؟ . قال : "الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله" وخرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث آبن عمر : أن رجلا قال يا رسول الله أى المؤمنين أكيس ؟ قال : "أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم له آستعدادا وإذا دخل النور فى القلب آنفسح وآستوسع" قالوا : فما آية ذلك يا نبىّ الله؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والآستعداد للموت قبل نزول الموت" فذكر صلى الله عليه وسلم خصالا ثلاثة ، ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان ، فإن الإنابة إنما هى أعمال البر ؛ لأن دار الخلود إنما وضعت جزاء لأعمال البر ، ألا ترى كيف ذكره الله فى مواضع فى تنزيله ثم قال بعقب ذلك : « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فالجنة جزاء الأعمال ؛ فإذا آنكمش العبد فى أعمال البر فهو إنابته إلى دار الخلود ، وإذا خمد حرصه عن الدنيا ، ولها عن طلبها ، وأقبل على

(١) هو مرة بن شراحيل الهمدانى يروى عن أبى بكر وعمر وعلى وأبى ذر وحذيفة وابن مسعود الخ ... التهذيب .

ما يغنيه منها فآكتفى به وقنع ، فقد تجافى عن دار الغرور . وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظرا فى كل أمر ، واقفا متأدبا متثبتا حذرا يتورّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه ، فقد آستعدّ للموت . فهذه علامتهم فى الظاهر . وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا ، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذى ولج القلب . وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قيل : المراد أبو لهب وولده، ومعنى : «مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره . وقيل : إن « مِن » بمعنى عن، والمعنى قست عن قبول ذكر الله . وهذا آختيار الطبرى . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله تعالى آطلبوا الحوائج من السمحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى" . وقال مالك بن دينار : ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم.

قوله تعالى : ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعنى القرآن لما قال : «فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» بيّن أن أحسن ما يُسمع ما أنزله الله وهو القرآن . قال سعد بن أبى وقاص قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدّثتنا فأنزل الله عز وجل : «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» فقالوا : لو قصصت علينا فنزل : «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ»(1) فقالوا : لو ذكرتنا فنزل : «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ»(2) الآية . وعن آبن مسعود رضى الله عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملّوا ملّة فقالوا له : حدّثنا فنزلت . والحديث ما يحدث به المحدِّث . وسمى القرآن حديثا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدّث به

(1) راجع جـ ٩ ص ١١٩ (2) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٨

أصحابه وقومه، وهو كقوله : « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بعده يُؤْمِنُونَ »[1] وقوله : « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ »[2] وقوله : « إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا »[3] وقوله : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا »[4] وقوله : « فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ »[5] قال القشيرى : وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فليدل على أن كلامه محدث وهو وهم ؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما فى قوله : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » وقد قالوا : إن الحـدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسمـاء الربّ تعـالى . ﴿ كِتَابًا ﴾ نصب على البدل من « أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » ويحتمل أن يكون حالا منه . ﴿ مُتَشَابِهًا ﴾ يشبه بعضه بعضا فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضا ، ليس فيه تناقض ولا آختلاف . وقال قتادة : يشبه بعضه بعضا فى الآى والحروف . وقيـل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ؛ لمـا يتضمّنه من أمر ونهى وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز . ثم وصفه فقال : ﴿ مَثَانِيَ ﴾ تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام وثنى للتلاوة فلا يمل . ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف ممـا فيه من الوعيد . ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ أى عند آية الرحمة . وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به . وقيل : « إِلَى ذِكْرِ اللهِ » يعنى الإسلام .

الثانيـــة ــ عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : كان أصحاب النبى صلى الله عليـه وسلم ، إذا قرئ عليهم القـرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم . قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشيًّا عليه . فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحى : مرّ آبن عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال : ما بال هـذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط . فقال آبن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط . ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عمر بن عبد العزيز : ذكر عند آبن سيرين الذين يُصرعون إذا قرئ عليهم القرآن، فقال : بيننا و بينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه، ثم يقرأ عليـه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق . وقال أبو عمران

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣٠ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٣٥٣ فما بعد .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ٥ ص ٣٠٥ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٨ ص ٢٥١

الجونى : وعظ موسى عليه السلام بنى إسرائيل ذات يوم فشقّ رجل قميصه ، فأوحى الله إلى موسى : قل لصاحب القميص لا يشق قميصه فإنى لا أحبّ المبذرين ؛ يشرح لى عن قلبه .

الثالثـــة — قال زيد بن أسلم : قرأ أبىّ بن كعب عند النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فرقّوا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "آغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة". وعن العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا آقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتّت عنه خطاياه كما يتحاتّ عن الشجرة البالية ورقُها " . وعن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما آقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرّمه الله على النار " . وعن شهر بن حَوْشَب عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل فى قلب الرجل كاحتراق السعفة، أما تجد إلا قشعريرة ؟ قلت : بلى ؛ قالت : فآدع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب . وعن ثابت البُنَانى قال قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا آقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى . يقال : آقشعر جلد الرجل آقشعرارا فهو مقشعر والجمع قشاعر فتحذف الميم ، لأنها زائدة ؛ يقال أخذته قشعريرة . قال آمرؤ القيس :

فبِتُّ أكابِدُ ليلَ التَّمـا(١) * مِ والقلبُ من خشيـةٍ مُقْشَعِرُّ

وقيل : إن القرآن لما كان فى غاية الجزالة والبلاغة، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته ، آقشعرت الجلود منه إعظاما له ، وتعجبا من حسن ترصيعه وتهيبا لما فيه ؛ وهو كقوله تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (٢) » فالتصدّع قريب من الآقشعرار ، والخشوع قريب من قوله : « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » ومعنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه . ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾ أى القرآن هدى الله . وقيل : أى الذى وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى من خذله فلا مرشد له . وهو يرد على القَدَرية وغيرهم . وقد مضى معنى هذا كله مستوفى فى غير موضع والحمد لله . ووقف آبن كثير وآبن محيصن على قوله : « هَادٍ » فى الموضعين بالياء ، الباقون بغير ياء .

(١) ليل التمام : أطول ما يكون من ليالى الشتاء . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٤٤

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ قال عطاء وابن زيد : يُرْمَى به مكتوفا في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه . وقال مجاهد : يجرّ على وجهه في النار . وقال مقاتل : هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه ، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت ، فتشتعل النار في الحجر وهو معلّق في عنقه ، فحرها ووهجها على وجهه؛ لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال . والخبر محذوف . قال الأخفش : أي « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ » أفضل أم من سعد ، مثل : « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(١) . ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي وتقول الخزنة للكافرين ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي جزاء كسبكم من المعاصي . ومثله : « هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ تقدّم معناه(٣) . وقال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته ، أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما . قال : والخزي من المكروه والخزاية من الاستحياء ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي مما أصابهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٩ (٢) راجع ص ٣٦٦ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ٨ ص ١٢٩ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل مثل يحتاجون إليه ؛ مثل قوله تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ »(١) وقيل : أى ما ذكرناه من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ نصب على الحال . قال الأخفش : لأن قوله جل وعز : « فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ » معرفة . وقال على ابن سليمان : « عَرَبِيًّا » نصب على الحال و « قُرْآنًا » توطئة للحال كما تقول مررت بزيد رجلا صالحا فقولك صالحا هو المنصوب على الحال . وقال الزجاج : « عَرَبِيًّا » منصوب على الحال و « قُرْآنًا » توكيد . ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ النحاس : أحسن ما قيل فيه قول الضحاك ، قال : غير مختلف . وهو قول ابن عباس ، ذكره الثعلبي . [وعن ابن عباس أيضا غير مخلوق ، ذكره المهدوى وقاله السدى فيما ذكره الثعلبي](٢) . وقال عثمان بن عفان : غير متضاد . وقال مجاهد : غير ذى لَبْس . وقال بكر بن عبد الله المزنى : غير ذى لَحْن . وقيل : غير ذى شكّ . قاله السدى فيما ذكره الماوردى . قال :

وقد أتاكَ يقينٌ غيرُ ذى عِوجٍ * من الإلهِ وقولٌ غيرُ مكذوبِ

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والكذب .

قوله تعالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ قال الكسائى : نصب « رَجُلًا » لأنه ترجمة للمثل وتفسير له ، وإن شئت نصبته بنزع الخافض ، مجازه : ضرب الله مثلا برجل « فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » قال الفراء : أى مختلفون . وقال المبرد : أى متعاسرون من شَكُس يَشْكُس شُكْسًا [بوزن قفل](٣) فهو شَكِسٌ مثل عَسُر يَعْسُر عُسْرا فهو عَسِر ؛ يقال : رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ . ويقال : رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ أى

(١) راجع ج ٦ ص ٤١٩ (٢) ما بين المربعين ساقط من ا ، ز . (٣) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .

شَرِسٌ عسِر شَكِسٌ ؛ قاله الجوهري . الزمخشري : والتشاكس والتشاخس الاختلاف . يقال : تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه . ويقال : شاكسني فلان أي ماكسني وشاحّني في حق . قال الجوهري : رجل شَكْس بالتسكين أي صَعْب الخُلُق . قال الراجز :

* شَكْسٌ عَبُوسٌ عَنْبَسٌ عَذَوَّرُ *

وقوم شُكْسٌ مثال رَجُلٌ صَدْق وقوم صُدْق . وقد شَكِس بالكسر شَكَاسةً . وحكى الفراء : رجل شَكِسٌ . وهو القياس، وهذا مَثَل من عبد آلهة كثيرة . ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصا لسيد واحد ، وهو مَثَل من يعبد الله وحده . ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ هذا الذي يخدم جماعة شركاء، أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، لا يلقاه رجل إلا جرّه واستخدمه ؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحدا منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعبا أو على هدى مستقيم . وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة : « وَرَجُلًا سَلَمًا » وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب : «وَرَجُلًا سَالِمًا» واختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه . قال : لأن السالم الخالص ضدّ المشترك، والسَّلَم ضدّ الحرب ولا موضع للحرب هنا . النحاس : وهذا الاحتجاج لا يلزم ؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فهذا وإن كان السلم ضدّ الحرب فله موضع آخر ؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلما لك . ويلزمه أيضا في سالم ما ألزم غيره ؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به . والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة . واختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة «سَلَمًا» قال وهذا الذي لا تنازع فيه . وقرأ سعيد ابن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر «سِلْمًا» بكسر السين وسكون اللام . وسِلْمًا وسَلَما مصدران، والتقدير : ورجلا ذا سلم فحذف المضاف و « مَثَلًا » صفة على التمييز، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالاهما . وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الحق فيتبعونه .

قوله تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقرأ ابن محيصن وابن أبي عبلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحق « إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُمْ مَائِتُونَ » وهي قراءة حسنة وبها قرأ عبد الله بن الزبير . النحاس : ومثل هذه الألف تحذف في الشواذ و « مائت » في المستقبل كثير في كلام العرب ؛ ومثله ما كان مريضا وإنه لمارض من هذا الطعام . وقال الحسن والفراء والكسائي : المَيِّت بالتشديد من لم يمت وسيموت ، والمَيْت بالتخفيف من فارقته الروح ؛ فلذلك لم تخفف هنا . قال قتادة : نُعيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسُه ، ونُعيت إليكم أنفسُكم . وقال ثابت البُنَاني : نَعى رجلٌ إلى صلة بن أَشْيَم أخًا له فوافقه يأكل، فقال : ادْنُ فكُل فقد نُعي إلى أخي منذ حين ؛ قال : وكيف وأنا أوّل من أتاك بالخبر . قال إن الله تعالى نعاه إليّ فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أخبره بموته وموتهم ؛ فاحتمل خمسة أوجه : أحدها أن يكون ذلك تحذيرا من الآخرة . الثاني أن يذكره حثًّا على العمل . الثالث أن يذكره توطئة للموت . الرابع لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره ، حتى أن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته احتج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية فأمسك . الخامس ليعلمه أن الله تعالى قد سوّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره ؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم ؛ قاله ابن عباس وغيره . وفي خبر فيه طول : إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد . وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يارسول الله ! أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : " نعم ليكررنّ عليكم حتى يؤدّى إلى كل ذي حق حقه " فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد . وقال ابن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ » فقلنا : وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد ، حتى رأيت

بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف؛ فعرفت أنها فينا نزلت . وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة . فلما كان يوم صِفّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا . وقال إبراهيم النَّخَعي : لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : ما خصومتنا بيننا ؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا : هذه خصومتنا بيننا . وقيل تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مظلمته، ويردّها في حسنات من وجبت له . وهذا عام في جميع المظالم كما في حديث أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون من المفلس" قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . قال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار" خرجه مسلم . وقد مضى المعنى مجوّدا في « آل عمران »[1] وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت له مظلمة لأحد من عِرْضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" وفي الحديث المسند "أول ما تقع الخصومات في الدنيا" وقد ذكرنا هذا الباب كله في « التذكرة » مستوفى .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ فزعم أن له ولدا وشريكا ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ آستفهام تقرير ﴿ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى مقام للجاحدين، وهو مشتق من ثَوَى بالمكان إذا أقام به يَثْوِى ثَوَاء وثُوِيًّا مثل مَضَى مَضَاء ومُضِيًّا، ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى . وهذا يدل على أن ثَوَى هى اللغة الفصيحة . وحكى أبو عبيد أَثْوَى، وأنشد قول الأعشى :

أَثْوَى وَقَصَّـــر لَيْـــلَةً لِيُزَوَّدَا * وَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْـلَةَ مَوْعِدَا

والأصمعى لا يعرف إلا ثَوَى ، و يروى البيت أَثَوَى على الآستفهام . وأَثْوَيتُ غيرى يتعدى ولا يتعـدّى .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ فى موضع رفع بالآبتداء وخبره ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وآختلف فى الذى جاء بالصِّدق وصَدَّق بِهِ ؛ فقال على رضى الله عنه : «الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ» النبي صلى الله عليه وسلم « وَصَدَّقَ بِهِ » أبو بكر رضى الله عنه . وقال مجاهد : النبي عليه السلام وعلىّ رضى الله عنه . السّدى : الذى جاء بالصدق جبريل صلى الله عليه وسلم والذى صدّق به محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن زيد ومقاتل وقتـادة : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ » النبي صلى الله عليه وسلم « وَصَدَّقَ بِهِ » المؤمنون . وآستدلوا على ذلك بقوله : « أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » كما قال : « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »(١) . وقال النّخعى ومجاهد : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَـدَّقَ بِهِ » المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة فيقولون : هذا الذى أعطيتمُونا قد آتبعنا ما فيه؛ فيكون « الَّذِي » على هذا بمعنى جمع كما تكون مَنْ بمعنى جمع . وقيل : بل حذفت منه النون لطول الآسم ، وتأوله الشعبى على أنه واحد . وقال : « الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ » محمد صـلى الله عليه وسـلم فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظَّم هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا . وقيل : إن ذلك عام فى كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله آبن عباس وغيره، وآختاره الطبرى . وفى قراءة آبن مسعود « وَالَّذِي(٢) جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَقُوا بِهِ » وهى قراءة على التفسير . وفى قراءة أبى صالح الكوفى « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ » مخففا على معنى وصدق بمجيئه

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤   (٢) فى ك، ل، « والذين » .

به ، أي صدق في طاعة الله عز وجل ، وقد مضى في « البقرة »(١) الكلام في « الَّذِي » وأنه يكون واحدا ويكون جمعا . ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي من النعيم في الجنة ، كما يقال : لك إكرام عندي ؛ أي ينالك مني ذلك . ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الثناء في الدنيا والثواب في الآخـــرة .

قوله تعـالى : ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي صدّقوا « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ » . ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام . ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي يثيبهم على الطاعات في الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي الجنة .

قوله تعـالى : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ حذفت الياء من « كاف » لسكونها وسكون التنوين بعــدها ؛ وكان الأصل ألا تحذف في الوقف لزوال التنوين ، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك في الوصل . ومن العرب من يثبتها في الوقف على الأصل فيقول : كافي . وقراءة العامة « عَبْدَهُ » بالتوحيد يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم . وقرأ حمــزة والكسائي « عِبَادَهُ » وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهـــم . واختار أبو عبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه : « وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » . ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس ؛ كقوله عز من قائل : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ »(٢) وعلى هــذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانيــة . والكفاية شر الأصنام ، فإنهم كانوا يخوّفون المؤمنين بالأصنام ، حتى قال إبراهيم عليه السلام . « وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ »(٣) . وقال الجرجاني : إن الله كافٍ عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٢ فما بعد .	(٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٧٩
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٩

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبيّ صلى الله عليه وسلم مَضَرَّة الأوثان، فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرها بالفأس، فقال له سادنها : أُحَذِّرُكها يا خالد فإن لها شدّة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس. وتخويفهم لخالد تخويف للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه الذي وجه خالدا . ويدخل في الآية تخويفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بكثرة جمعهم وقوتهم ؛ كما قال : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ »(1) . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ تقدم . ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ أي ممن عاداه أو عادى رسله .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي ولئن سألتهم يا محمد ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرّون بأن الخالق هو الله، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلهتهم التي هي مخلوقة لله تعالى، وأنت رسول الله الذي خلقها وخلق السموات والأرض . ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا « أَفَرَأَيْتُمْ » ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ بشدة وبلاء ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿ أَوْ أَرَادَنِي

(1) راجع جـ ١٧ ص ١٤٥ .

بِرَحْمَةٍ ﴾ نعمة ورخاء ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ قال مقاتل : فسألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فسكتوا . وقال غيره : قالوا لا تدفع شيئا قدّره الله ولكنها تشفع . فنزلت : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه ؛ يعني فسيقولون لا [أي لا تكشف ولا تمسك] (١) ف « قُلْ » أنت « حَسْبِيَ اللَّهُ » أي عليه توكلت أي اعتمدت و ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ يعتمد المعتمدون . وقد تقدّم الكلام (٢) في التوكل . وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ماعدا عاصما « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » بغير تنوين . وقرأ أبو عمرو وشيبة وهي المعروفة من قراءة الحسن وعاصم « هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ » . « مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ » بالتنوين على الأصل وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال ، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود . قال الشاعر :

الضاربين عُمَيْراً عن بُيُوتِهِمُ　＊　بالتَّلِّ يومَ عُمَيْرٌ ظالمٌ عادِي

ولو كان ماضيا لم يجز فيه التنوين ، وحذف التنوين على التحقيق ، فإذا حذفت التنوين لم يبق بين الاسمين حاجز فخفضت الثاني بالإضافة . وحذف التنوين كثير في كلام العرب موجود حسن ؛ قال الله تعالى : « هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ » (٣) وقال : « إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ » (٤) قال سيبويه : ومثل ذلك « غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ » (٣) وأنشد سيبويه :

هل أنتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتِنا　＊　أو عَبْدَ رَبٍّ أخا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ

وقال النابغة :

احْكُمْ كحُكْمِ فتاةِ الحيِّ إذ نظرتْ　＊　إلى حَمَامٍ شِرَاعٍ وارِدِ الثَّمَدِ (٥)

معناه واردٍ الثَّمَدَ فحذف التنوين ؛ مثل « كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أي على مكانتي أي على جهتي التي تمكنت عندي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . وقرأ أبو بكر « مَكَانَاتِكُمْ » وقد مضى في « الأنعام » (٦) .

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .　(٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ و ٣٠٢ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣١٤ وص ٣١ .　(٤) راجع جـ ١٧ ص ١٤٠ .
(٥) يقول الشاعر للنعمان بن المنذر وكان واجدا عليه : كن حكيما في أمري كحكم زرقاء اليمامة في حزرها لحمام التي مرت طائرة بها . وخبرها مشهور . والشراع : الموضع الذي ينحدر منه إلى الماء . والثمد : الماء القليل على وجه الأرض .
(٦) راجع جـ ٧ ص ٨٩ .

﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى يهينه ويذله أى فى الدنيا وذلك بالجوع والسيف . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أى فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ تقدم الكلام فى هذه الآية مستوفى فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أى يقبضها عند فناء آجالها ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ اختلف فيه . فقيل : يقبضها عن التصرف مع بقاء أرواحها فى أجسادها ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى ﴾ وهى النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها ؛ قاله ابن عيسى . وقال الفراء : المعنى ويقبض التى لم تمت فى منامها عند انقضاء أجلها . قال : وقد يكون توفيها نومها ؛ فيكون التقدير على هذا والتى لم تمت وفاتها نومها . وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فتتعارف ماشاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها . وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » أى يعيدها . قال على رضى الله عنه : فما رأته نفس النائم وهى فى السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهى الرؤيا الصادقة ، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها فى جسدها تلقيها الشياطين ، وتخيل إليها الأباطيل فهى الرؤيا الكاذبة .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٨ فما بعد .

وقال ابن زيد : النوم وفاة والموت وفاة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون" . وقال عمر : النوم أخو الموت . وروى مرفوعا من حديث جابر بن عبد الله قيل : يارسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : "لا، النوم أخو الموت والجنة لاموت فيها" خرجه الدارقطني . وقال ابن عباس : فى ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التى بها العقل والتمييز ، والروح التى بها النفس والتحريك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه . وهذا قول ابن الأنبارى والزجاج . قال القشيرى أبو نصر : وفى هذا بُعْد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة فى الحالين شيء واحد ؛ ولهذا قال : « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » فإذًا يقبض الله الروح فى حالين فى حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه فى حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شيء مقبوض ، وما قبضه فى حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة . وقوله : « وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » أى يزيل الحابس عنه فيعود كما كان . فتوفى الأنفس فى حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة فى محل الإدراك . وتوفيها فى حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية . « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ » بألا يخلق فيها الإدراك كيف وقد خلق فيها الموت ؟ « وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى » بأن يعيد إليها الإحساس .

الثانيـــة ـــ وقد اختلف الناس من هذه الآية فى النفس والروح ؛ هل هما شيء واحد أو شيئان على ماذكرنا . والأظهر أنهما شيء واحد ، وهو الذى تدل عليه الآثار الصحاح على ماذكره فى هذا الباب . من ذلك حديث أم سلمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى سلمة وقد شَقَّ[1] بصرُه فأغمضه ، ثم قال : "إن الروح إذا قُبِض تَبِعه البصرُ" وحديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بصرُه" قال : فذلك حين يَتْبَع بصرُه نَفْسَه" خرجهما مسلم . وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(١) شق بصره : أى انفتح .

" تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا آخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطّيب آخرجى حميدة وأبشرى برَوْح وريحان وربٍّ راضٍ غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء " وذكر الحديث وإسناده صحيح خرجه آبن ماجه ؛ وقد ذكرناه فى « التذكرة » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: " إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها ". وذكر الحديث . وقال بلال فى حديث الوادى : أخذ بنَفْسى يارسول الله الذى أخذ بنفسك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مقابلا له فى حديث زيد بن أسلم فى حديث الوادى : " يأيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردّها إلينا فى حين غير هذا ".

الثالثة — والصحيح فيه أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة ، يُجذَب ويُخْرج وفى أكفانه يُلَف ويُدرَج ، وبه إلى السماء يُعرَج ، لا يموت ولا يفنى ، وهو مما له أوّل وليس له آخر ، وهو بعينين ويدين ، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة ؛ كما فى حديث أبى هريرة . وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض ؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله فى كتاب « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . وقال تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ »[(1)] يعنى النفس إلى خروجها من الجسد ؛ وهذه صفة الجسم . والله أعلم .

الرابعة — خرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه وليسمّ الله فإنه لا يعلم ما خلَفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقّه الأيمن وليقل سبحانك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نَفْسى فآغفر لها " . وقال البخارى وآبن ماجه والترمذى : " فآرحمها " بدل " فاغفر لها " " وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " زاد الترمذى " وإذا آستيقظ فليقل الحمد لله الذى عافانى فى جسدى وردّ علىّ روحى وأذن لى بذكره ". وخرج البخارى عن حُذَيْفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ؛ ثم يقول : " اللهم باسمك أموت وأحيا " وإذا آستيقظ قال " الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٣٠ .

قوله تعالى : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمى الفاعل « الْمَوْتَ » نصبا ؛ أى قضى الله عليها وهو آختيار أبى حاتم وأبى عبيد؛ لقوله فى أول الآية : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ » فهو يقضى عليها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى « قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ » على ما لم يسم فاعله . النحاس ، والمعنى واحد غير أن القراءة الأولى أبين وأشبه بنسق الكلام ؛ لأنهم قد أجمعوا على « وَيُرْسِلُ » ولم يقرءوا « وَيُرْسَل » . وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته وآنفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ، ويحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك سواه . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يعنى فى قبض الله نَفْس الميّت والنائم ، وإرساله نَفْس النائم وحبسه نفس الميّت ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وقال الأصمعى سمعت معتمرا يقول : روح الإنسان مثل كُبَّة الغَزْل(١) ، فترسل الروح ، فيمضى ثم تمضى ثم تطوى فتجىء فتدخل ؛ فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شىء فى حال النوم ومعظمها فى البدن متصل بما يخرج منها آتصالا خفيا ، فإذا آستيقظ المرء جذب معظم روحه ما آنبسط منها فعاد . وقيل غير هذا ؛ وفى التنزيل : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أى لا يعلم حقيقته إلا الله . وقد تقدم فى « سبحان »(٢) .

قوله تعالى : أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أى بل آتخذوا يعنى الأصنام وفى الكلام ما يتضمن لم ؛ أى « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » لم يتفكروا ولكنهم آتخذوا آلهتهم شفعاء . ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾ أى قل لهم يا محمد أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا

(١) كبة الغزل : ما جمع منه . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ فما بعد .

لا يملكون شيئا من الشفاعة ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأنها جمادات . وهذا استفهام إنكار . ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ نص فى أن الشفاعة لله وحده كما قال : « مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ »(١) فلا شافع إلا من شفاعته « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ » . « جَمِيعًا » نصب على الحال . فإن قيل : «جَمِيعًا» إنما يكون للاثنين فصاعدا والشفاعة واحدة . فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدّى عن الاثنين والجميع ﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، وعلى الحال عند يونس . ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾ قال المبرد : انقبضت . وهو قول ابن عباس ومجاهد . وقال قتادة : نفرت واستكبرت وكفرت وتعصت . وقال المؤرّج أنكرت . وأصل الاشمئزاز النفور والازورار . قال عمرو بن كلثوم :

إذا عضّ الثّقافُ بها اشْمَأَزَّتْ * وولَّتْهم عَشَوْزَنَةً زَبُونَا(٢)

وقال أبو زيد : اشمأز الرجل ذعر من الفزع وهو المذعور . وكان المشركون إذا قيل لهم «لا إله إلا الله» نفروا وكفروا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان حين ألقى الشيطان فى أمنية النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءته سورة « والنجم » تلك الغَرانيقُ العُلَى و إن شفاعتهم تُرتجى(٣) . قاله جماعة المفسرين . ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى يظهر فى وجوههم البشر والسرور .

قوله تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦٨

(٢) الثقاف ما تقوم به الرماح . وعشوزنة صلبة شديدة . والزبون الدفوع . والبيت فى وصف قناة ، وقبله :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت * على الأعداء قبلك أن تلينا

(٣) راجع جـ ١٢ ص ٧٩ فما بعد .

قوله تعـالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب لأنه نداء مضاف وكذا ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ ﴾ ولا يجـوز عند سيبويه أن يكون نعتـا . ﴿ أَنْتَ تَحْـكُمُ بَيْنَ عِبَـادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وفي صحيح مسـلم عن أبي سـلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي صلى الله عليه وسـلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل آفتتح صلاته "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيـل «فَاطِرَ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَـادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ» آهدني لمـا آختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" ولمـا بلغ الربيع بن خُثَيْم قتل الحسين بن علي رضي الله عنهم قرأ: «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» . وقال سعيد بن جبير : إني لأعرف آية ما قـرأها أحد قط فسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كذبوا وأشركوا ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُـوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم . وقـد مضى هذا في سورة «آل عمران»[1] و «الرعد»[2] . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ من أجل ما روي فيـه ما رواه منصور عن مجاهد قال : عملوا أعمالا توهموا أنهـا حسنات فإذا هي سيئات . وقاله السدي . وقيل : عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا ، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة . ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ«بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» من دخول النار . وقال سفيان الثوري في هذه الآية : ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة ابن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديدا ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال :

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣١ (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠٧

أخاف آية من كتاب الله « وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر لهم ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى عقاب ما كسبوا من الكفر والمعاصى . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ونزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ج بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا ج وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ج إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ قيل : إنها نزلت فى حذيفة بن المغيرة . ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ قال قتادة : « عَلَى عِلْمٍ » عندى بوجوه المكاسب ، وعنه أيضا « عَلَى عِلْمٍ » على خير عندى . وقيل : « عَلَى عِلْمٍ » أى على علم من الله بفضلى . وقال الحسن : « عَلَى عِلْمٍ » أى بعلم علمنى الله إياه . وقيل : المعنى أنه قال قد علمت أنى إذا أوتيت هذا فى الدنيا أن لى عند الله منزلة ؛ فقال الله : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أى بل النعم التى أوتيتها فتنة تختبر بها . قال الفراء : أنث « هى » لتأنيث الفتنة ، ولو كان بل هو فتنة لجاز . النحاس : التقدير بل أعطيته فتنة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يعلمون إن أعطاءهم المال آختبار .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ أنث على تأنيث الكلمة . ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال : « إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي » . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « ما » للجحد أى لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقيل :

أي فما الذى أغنى أموالهم؟ فـ « ـما » آستفهام . ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى جزاء سيئات أعمالهم . وقد يسمى جزاء السيئة سيئة . ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا ﴿ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ الأمة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى بالجوع والسيف . ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين الله ولا سابقيه . وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمن بالذكر ؛ لأنه هو الذى يتدبر الآيات وينتفع بها . ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكرا وآستدراجا ، وتقتيره رفعة وإعظاما .

قوله تعالى : قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ وإن شئت حذفت الياء ؛ لأن النداء موضع حذف . النحاس : ومن أجلّ ما روى فيه ما رواه محمد بن إسحق عن نافع عن آبن عمر عن عمر قال : لما آجتمعنا على الهجرة ، آتعدتُ

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٨ وجـ ٨ ص ٣٥١ .

أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمِى ، وعَيَّاش بن أبى ربيعة بن عُتْبة ، فقلنا : الموعد أضاة[(١)] بنى غفار ، وقلنا : من تأخر منا فقد حُبِس فليمض صاحبه ، فأصبحت أنا وعياش ابن عتبة وحُبِس عنا هشام ، وإذا به قد فُتِن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم أيضا يقولون هذا فى أنفسهم ، فأنزل الله عز وجل فى كتابه : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» إلى قوله تعالى : « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ » قال عمر : فكتبتها بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت علىّ خرجت بها إلى ذى طُوًى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فقالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم أو بعثوا إليه : إن ما تدعو إليه لحسن أَوَ تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية : «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» ذكره البخارى بمعناه . وقد مضى فى آخر «الفرقان»[(٢)] . وعن ابن عباس أيضا نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونُسْلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله ! فأنزل الله هذه الآية . وقيل : إنها نزلت فى قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى العبادة ، وخافوا ألّا يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم فى الجاهلية . وقال ابن عباس أيضا وعطاء : نزلت فى وحشىّ قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه : وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أَتَى وَحْشِىّ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا محمد أتيتك مستجيرا فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد كنت أحبّ أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله" قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت

---

(١) الأضاة : غدير . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ فما بعد .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ» إلى آخر الآية فتلاها عليه؛ فقال أرى شرطا فلعلي لا أعمل صالحا، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»(١) فدعا به فتلا عليه؛ قال : فلعلي ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت : «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» فقال : نعم الآن لا أرى شرطا . فأسلم . وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء أنها سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ : «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ولا يبالي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» . وفي مصحف ابن مسعود «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ» . قال أبو جعفر النحاس : وهاتان القراءتان على التفسير، أي يغفر الله لمن يشاء . وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له ، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة ، ودلّ على أنه يريد التائب ما بعده «وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ» فالتائب مغفور له ذنوبه جميعا ، يدل على ذلك «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ»(٢) فهذا لا إشكال فيه . وقال عليّ ابن أبي طالب : ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» وقد مضى هذا في «سبحان»(٣) . وقال عبد الله بن عمر : وهذه أرجى آية في القرآن فردّ عليهم ابن عباس وقال أرجى آية في القرآن قوله تعالى : «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ» وقد مضى في «الرعد»(٤) . وقرئ «وَلَا تَقْنِطُوا» بكسر النون وفتحها . وقد مضى في «الحجر»(٥) بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة . لما بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه ، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص . ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي اخضعوا له وأطيعوا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ في الدنيا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٢٩
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٢ فما بعد . (٤) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ فما بعد .
(٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ فما بعد .

﴿ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ أى لا تمنعون من عذابه . وروى من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من السعادة أن يطيل الله عمر المرء فى الطاعة ويرزقه الإنابة، وإن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله" .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ» هو القرآن وكله حسن، والمعنى ما قال الحسن : التزموا طاعته، واجتنبوا معصيته . وقال السدى : الأحسن ما أمر الله به فى كتابه . وقال ابن زيد : يعنى المحكمات، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقال : أنزل الله كتبا التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز . وقيل : هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة . وقيل : يعنى العفو؛ لأن الله تعالى خيّر نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص . وقيل ما علّم الله النبىّ عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن؛ وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن . وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا ﴾ «أَنْ» فى موضع نصب أى كراهة « أَنْ تَقُولَ » وعند الكوفيين لئلا تقول وعند البصريين حذر « أَنْ تَقُولَ » . وقيل : أى من قبل « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ » لأنه قال قبل هذا : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ » . الزمخشرى : فإن قلت لم نكّرت ؟ قلت : لأن المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يريد نفسا متميزة من الأنفس، إمّا بلجاج فى الكفر شديد، أو بعقاب عظيم . ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى :

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ * أَتَانِى كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبَا

وهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحدا، ونظيره : رُبَّ بلدٍ قطعت، ورُبَّ بطلٍ قارعت، ولا يقصد إلا التكثير . « يَا حَسْرَتَا » والأصل « يَا حَسْرَتِى » فأبدل من الياء ألف؛ لأنها أخف وأمكن فى الاستغاثة بمد الصوت، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء :

يا مَرْحَباه بحمارِ ناجِيَهْ (1) * إذا أَتَى قَرَّبْتُهُ لِلسَّانِيَهْ

(1) الناجية : السريعة . وفى تفسير الفراء ناهية بدل ناجية وكذا روى فى اللسان وشرح القاموس فى مادة سنا . والسانية هنا مصدر على فاعلة بمعنى الاستسقاء؛ أراد قربته للسانية .

ور بما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدل على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر: «يَا حَسْرَتَاىَ» والحسرة الندامة. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ قال الحسن: فى طاعة الله. وقال الضحاك: أى فى ذكر الله عز وجل. قال: يعنى القرآن والعمل به. وقال أبو عبيدة: «فى جنب الله» أى فى ثواب الله. وقال الفراء: الجنب القرب والجوار؛ يقال فلان يعيش فى جنب فلان أى فى جواره؛ ومنه «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ»(١) أى على ما فرطت فى طلب جواره وقربه وهو الجنة. وقال الزجاج: أى على ما فرطت فى الطريق الذى هو طريق الله الذى دعانى إليه. والعرب تسمى السبب والطريق إلى الشيء جنبا؛ تقول: تجرعت فى جنبك غصصا؛ أى لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك. وقيل: «فِي جَنْبِ اللَّهِ» أى فى الجانب الذى يؤدى إلى رضا الله عز وجل وثوابه، والعرب تسمى الجانب جنبا، قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُودا لِذاكَ القَلْبُ * النَّاسُ جَنْبٌ والأَمِيرُ جَنْبُ

يعنى الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفة: أى تركت من أمر الله؛ يقال ما فعلت ذلك فى جنب حاجتى؛ قال كُثَيِّر:

أَلَا تَتَّقِينَ اللهَ فى جَنْبِ عاشِقٍ * له كَبِدٌ حَرَّى عليكِ تَقَطَّعُ

وكذا قال مجاهد؛ أى ضيعت من أمر الله. ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما جلس رجل مجلسا ولا مشى ممشى ولا اضطجع مضطجعا لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه تِرَةً(٢) يوم القيامة" أى حسرة؛ خرجه أبو داود بمعناه. وقال إبراهيم التيمى: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذى آتاه الله فى الدنيا يوم القيامة فى ميزان غيره، قد ورثه وعمل فيه بالحق، كان له أجره وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذى خوله الله إياه فى الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل، أو يرى رجلا يعرفه أعمى فى الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمى هو. ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أى وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول فى الدنيا وبأولياء الله [تعالى]: قال قتادة: لم يكفه أن ضيع

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٧٩ فما بعد.		(٢) فسرها ابن الأثير فى النهاية بالنقص أو التبعة.

طاعة الله حتى سخر من أهلها . ومحل « إن كنت » النصب على الحال ؛ كأنه قال : فرطت وأنا ساخر؛ أى فرطت فى حال سخريتى . وقيل وما كنت إلا فى سخرية ولعب وباطل؛ أى ما كان سعيي إلا فى عبادة غير الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ هذه النفس ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴾ أى أرشدنى إلى دينه ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى الشرك والمعاصى . وهذا القول لو أن الله هدانى لاهتديت قول صدق . وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهم فى قوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا »(١) فهى كلمة حق أريد بها باطل ؛ كما قال علىّ رضى الله عنه لما قال قائل من الخوارج لا حكم إلا لله . ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ يعنى هذه النفس ﴿ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أى رجعة . ﴿ فَأَكُونَ ﴾ نصب على جواب التمنى، وإن شئت كان معطوفا على « كَرَّةً » لأن معناه أن أكر ؛ كما قال الشاعر(٢) :

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي * أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

وأنشد الفراء :

فَمَالَكَ مِنها غَيْرُ ذِكْرَى وخَشْيَةٍ * وتَسْأَلَ عن رُكْبَانِها أَيْنَ يَمَّمُوا

فنصب و (تسأل) على موضع الذكرى ؛ لأن معنى الكلام فمالك منها إلا أن تذكر . ومنه للبس عباءة وتقر ؛ أى لأن ألبس عباءة وتقر . وقال أبو صالح : كان رجل عالم فى بنى إسرائيل وجد رقعة : إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة ؛ فقال : ولأى شيء أتعب نفسى فترك عمله وأخذ فى الفسوق والمعصية ، وقال له إبليس : لك عمر طويل فتمتع فى الدنيا ثم تتوب ، فأخذ فى الفسوق وأنفق ماله فى الفجور، فأتاه ملك الموت فى ألذ ما كان ، فقال : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ؛ ذهب عمرى فى طاعة الشيطان ، فندم حين لا ينفعه الندم ؛ فأنزل الله خبره فى القرآن . وقال

(١) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ (٢) قائله ميسون بنت بجدل الكلبية .

قتــادة : هؤلاء أصناف ؛ صنف منهم قال : « يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ » . وصنف منهم قال : « لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » . وقال آخر : « لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » فقال الله تعالى ردًا لكلامهم : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ قال الزجاج : « بَلَى » جواب النفي وليس في الكلام لفظ(1) النفي ، ولكن معنى « لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي » ماهداني ، وكأن هذا القائل قال ما هديت ؛ فقيل : بلى قد بيّن لك طريق الهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن . « آيَاتِي » أى القرآن . وقيل : عنى بالآيات المعجزات ؛ أى وضح الدليل فأنكرته وكذبته ﴿ وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ أى تكبرت عن الإيمان ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقال : « اسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ » وهو خطاب الذكر ؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى . يقال : ثلاثة أنفس . وقال المبرد ؛ تقول العرب نفس واحد أى إنسان واحد . وروى الربيع بن أنس عن أم سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « قَدْ جَاءَتْكِ آيَاتِي فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ » . وقرأ الأعمش « بَلَى قَدْ جَاءَتْهُ آيَاتِي » وهذا يدل على التذكير . والربيع ابن أنس لم يلحق أمّ سَلَمة إلا أن القراءة جائزة ؛ لأن النفس تقع للذكر والمؤنث . وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال : يجب إذًا كسر التاء أن تقول وكنت من الكوافر أو من الكافرات . قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ ألا ترى أن قبله « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ » ثم قال : « وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ » ولم يقل من السواخر ولا من الساخرات . والتقدير في العربية على كسر التاء « وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ » من الجمع الساخرين أو من الناس الساخرين [أو من القوم الساخرين](2) .

قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾

(1) كلمة « لفظ » ساقطة من ل .
(2) ما بين المربعين ساقط من ل .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أى مما حاط بهـم من غضب الله ونقمته . وقال الأخفش : « تَرَى » غير عامل فى قـوله : « وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » إنما هو ابتداء وخبر . الزمخشرى : جملة فى موضع الحال إن كان «تَرَى» من رؤية البصر ، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب . ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ و بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال عليه السلام : " سَفَهُ الحقّ وغَمْصُ النـاس " أى احتقارهم . وقد مضى فى «البقرة»(١) وغيرها . وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم " يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن(٢) جهنم " .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ وقرئ : « وَيُنْجِي » أى من الشرك والمعاصى . ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر . وقرأ الكوفيون : « بِمَفَازَاتِهِمْ » وهو جائز كما تقول بسعاداتهم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة، قال : " يحشر الله مع كل امرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رُعْب أو خَوْف قال له لا تُرَع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعنىّ به فإذا كثر ذلك عليه قال فمـا احسنك فمن أنت فيقول أما تعرفنى أنا عملك الصالح حملتنى على ثقلى فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك فهى التى قال الله : « وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » " . ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وقائم به . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ واحدها مِقليد . وقيل : مقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد . والمقاليد المفاتيح عن ابن عباس وغيره . وقال السدى : خزائن السموات والأرض . وقال غيره : خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات . وفيـه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدها إقليد . قال الجوهرى : والإقليد المفتاح، والمِقلد مفتاح كالمنجل ربما يقلد به الكلأ كما يقـلد القَتّ(٣) إذا جعل حِبالا ؛ أى يفتل والجمع المقاليـد . وأُقلِد البحرُ على خلقٍ كثير أى غرّقهم كأنه أغلق عليهـم . وخرج البيهقى عن ابن عمر أن عثمان بن عفان

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ (٢) كلمة «سجن» ساقطة من ل . (٣) فى ل : «حبل» بالحاء والباء .

رضى الله عنــه سأل رسول الله صلى الله عليــه وسلم عن تفسير قوله تعــالى : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما سألنى عنها أحد، لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمــده أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت بيده الخــير وهو على كل شيء قــدير " ذكره الثعلبي في تفسيره، وزاد من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال : أولها يحرس من إبليس، والثانية يحضره آثنــا عشر ألف ملك، والثالثة يعطى قنطارا من الأجر، والرابعة ترفع له درجة، والخامسة يزوجه الله من الحور العين، والسادسة يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله أيضا من الأجر كمن حج وآعتمر فقبلت حجته وعمرته، فإن مات من ليلته مات شهيدا . وروى الحارث عن علىّ قال : سألت رســول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير المقاليد فقال : " يا علىّ لقد سألت عن عظيم المقاليد هو أن تقول عشرا إذا أصبحت وعشرا إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وأستغفر الله ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيــده الخير وهو على كل شيء قدير " من قالها عشرا إذا أصبح، وعشرا إذا أمسى أعطاه الله خصالا ستا : أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليــه سلطان، والثــانية يعطى قنطارا فى الجنة هو أثقل فى ميزانه من جبل أحد، والثالثة ترفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة يزوجه الله من الحور العين، والخامسة يشهده آثنا عشر ألف مَلَك يكتبونها له فى رق منشور ويشهدون له بها يوم القيامة، والسادسة يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حج وآعتمر فقبل الله حجته وعمرته، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء . وقيــل : المقاليد الطاعة يقــال ألق إلى فلان بالمقاليد أى أطاعه فيما يأمره؛ فمعــنى الآية له طاعة من فى السموات والأرض .

قوله تعــالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى بالقرآن والحجج والدلالات . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدم .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ وذلك حين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك . و « غير » نصب بـ « أَعْبُدُ » على تقدير أعبد غير الله فيما تأمروني . ويجوز أن ينتصب بـ « تَأْمُرُونِّي » على حذف حرف الجر؛ التقدير : أتأمرونّي بغير الله أن أعبده، لأنّ أن مقدرة وأن والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير : أتأمرونّي بعبادة غير الله . وقرأ نافع : « تَأْمُرُونِيَ » بنون واحدة مخففة وفتح الياء . وقرأ ابن عامر : « تَأْمُرُونَنِي » بنونين مخففتين على الأصل . الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة . وقرأ نافع على حذف النون الثانية وإنما كانت المحذوفة الثانية ؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها، وأيضا حذف الأولى لا يجوز؛ لأنها دلالة الرفع . وقد مضى في «الأنعام»(1) بيانه عند قوله تعالى : « أَتُحَاجُّونِّي » . « أَعْبُدُ » أي أن أعبد فلما حذف « أن » رفع؛ قاله الكسائي . ومنه قول الشاعر :

* أَلَا أَيُّهَذَا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى(2) *

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ « أَعْبُدَ » بالنصب .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ قيل : إن في الكلام تقديما وتأخيرا ؛ والتقدير : لقد أوحي إليك لئن أشركت وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك . وقيل : هو على بابه ؛ قال مقاتل : أي أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف . ثم قال : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ » يا محمد ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وهو خطاب للنبي

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٩ (2) البيت من معلقة طرفة وتمامه :

* وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي *

صلى الله عليه وسلم خاصة . وقيل : الخطاب له والمراد أمته ؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك . والإحباط الإبطال والفساد؛ قال القشيري : فمن ارتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر ؛ ولهذا قال : « مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » فالمطلق ها هنا محمول على المقيد ؛ ولهذا قلنا : من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج .

قلت : هذا مذهب الشافعي . وعند مالك تجب عليه الإعادة وقد مضى في « البقرة »(1) بيان هذا مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ النحاس : في كتابي عن أبي إسحق لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ « اعْبُدْ » قال : ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين . قال النحاس : وقال الفراء يكون منصوبا بإضمار فعل . وحكاه المهدوي عن الكسائي . فأما الفاء فقال الزجاج : إنها للمجازاة . وقال الأخفش : هي زائدة . وقال ابن عباس : « فاعْبُدْ » أي فوحّد . وقال غيره : « بَلِ اللَّهَ » فأطع ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لنعمه بخلاف المشركين .

قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قال المبرد : ما عظّموه حق عظمته من قولك فلان عظيم القدر . قال النحاس : والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذا عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها . ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ . ثم نزّه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة

(1) راجع جـ ٣ ص ٤٨

فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وفى الترمذى عن عبد الله قال : جاء يهودى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » . قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة و يطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" . وفى الترمذى عن عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » قالت : قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : "على جسر جهنم" فى رواية "على الصراط يا عائشة" قال : حديث حسن صحيح . وقوله : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ » " و يقبض الله الأرض " عبارة عن قدرته و إحاطته بجميع مخلوقاته ؛ يقال : ما فلان إلا فى قبضتى ، بمعنى ما فلان إلا فى قدرتى ، والناس يقولون الأشياء فى قبضته يريدون فى ملكه وقدرته . وقد يكون معنى القبض والطى إفناء الشيء و إذهابه فقوله جل وعز : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ » يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعا ذاهبة فانيـة يوم القيامة ، والمراد بالأرض الأرضون السبع ؛ يشهد لذلك شاهدان : قوله « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا » ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتض للبالغة . وقوله : « وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » ليس يريد به طيًّا بعلاج وآنتصاب ، و إنمـا المراد بذلك الفناء والذهاب ؛ يقال : قد آنطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره . وآنطوى عنا دهر بمعنى المضى والذهاب . واليمين فى كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك ؛ ومنه قوله تعـالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ (١) » يريد به الملك ؛ وقال « لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٢) » أى بالقوة والقدرة أى لأخذنا قوته وقدرته . قال الفـراء والمبرد : اليمين القوة والقدرة . وأنشدا :

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْـدٍ * تَلَقَّـاهَا عَرابـةُ بِالْيَمِـينِ (٣)

(١) راجع جـ ٥ ص ١١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٥ فما بعد .
(٣) قائله الحطيئة . وقيل هو للشماخ .

وقال آخـــر :

وَلَمّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَق نورُها * تَنَاولتُ منها حاجتِي بِيَمِينِ
قَتَلتُ شُنَيْفًا ثم فاران(١) بَعده * وكان على الآيات غيرَ أمينِ

وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضا؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال : « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ »(٢) وقال: « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » حسب ما تقدّم في « الفاتحة »(٣) ولذلك قال في الحديث : "ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وقد زدنا هذا الباب في « التذكرة » بيانا، وتكلمنا على ذكر الشمال في حديث ابن عمر قوله : "ثم يطوى الأرض بشماله" .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ بين ما يكون بعد قبض الأرض وطىّ السماء وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخلق في الأولى منهما ويحيون في الثانية وقد مضى الكلام في هذا في « النمل »(٤) و « الأنعام »(٥) أيضا. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن صاحبي الصور بأيديهما — أو في أيديهما — قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران" خرجه ابن ماجه في السنن. وفي كتاب أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصُّور، وقال: "عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل". واختلف في المستثنى من هم؟ فقيل : هم الشهداء متقلدين أسيافهم حول العرش. روى مرفوعا من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي. وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت [عليهم السلام. وروى من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ

(١) في ح : « قاران » بالقاف بدل الفاء ولم نعثر على هذين البيتين فيما لدينا من المراجع. (٢) جـ ١٩ ص ٢٤٧
(٣) راجع جـ ١ ص ١٤٢ (٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٠

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ » فقالوا : يا نبيّ الله من هم الذين آستثنى الله تعالى؟ قال: "هم جبريل وميكائيل و إسرافيل وملك الموت] (١) فيقول الله تعالى لملك الموت يا ملك الموت من بقى من خلقى وهو أعلم فيقول يارب بقى جبريل وميكائيل و إسرافيل وعبدك الضعيف (٢) ملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرائيل وميكائيل فيخران ميتين كالطودين العظيمين فيقول متْ يا ملك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقى فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام وجهك الباقى الدائم وجبريل الميت (٣) الفانى فيقول الله تعالى ياجبريل لابدّ من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطّود العظيم على الظّرب من الظّراب (٤) " ذكره الثعلبى . وذكره النحاس أيضا من حديث محمد بن إسحق، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله جل وعز : « فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ » قال: " جبريل وميكائيل وحملة العرش وملك الموت و إسرافيل " وفى هذا الحديث: " إن آخرهم موتا جبريل عليه وعليهم السلام " وحديث أبى هريرة فى الشهداء أصح على ما تقدّم فى « النمل » (٥) . وقال الضحاك : هو رضوان والحور ومالك والزّبانية . وقيل : عقارب أهل النار وحياتها . وقال الحسن : هو الله الواحد القهار وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت . وقال قتادة : الله أعلم بثنياه . وقيل : الاستثناء فى قوله : « إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ » يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى؛ أى فيموت من فى السموات والأرض إلا من سبق موته؛ لأنهم كانوا قد ماتوا . وفى الصحيحين وآبن ماجه واللفظ له عن أبى هريرة قال قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذى آصطفى موسى على البشر؛ فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه؛ قال : تقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ما بين المربعين ساقط من ك .

(٢) كلمة : « الضعيف » ساقطة من ك .

(٣) كلمة : « الميت » ساقطة من ك .

(٤) الظرب ككتف : الجبل الصغير والجمع ظراب ، وقد يجمع فى القلة على أظرب .

(٥) راجع ج ١٣ ص ٢٤١

فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "قال الله عز وجل: « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أرفع رأسه قبلي أو كان ممن آستثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب" وخرجه الترمذي أيضا وقال فيه: حديث حسن صحيح. قال القشيري: ومن حمل الآستثناء على موسى والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله. فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكون بالموت، ولا يبعد أن يكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوّزه العقل، والأمر في وقوعه موقوف على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه السلام قال: "لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش(1) بجانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن آستثنى الله" خرجه مسلم. ونحوه عن أبي سعيد الخدري؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية وزوال عقل لا عن موت بردّ الحياة. والله أعلم.

قوله تعالى: « فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » أي فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون. وقيل: قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي ينتظرون ما يفعل بهم. وأجاز الكسائي قياما بالنصب؛ كما تقول: خرجت فإذا زيد جالسا.

قوله تعالى: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)

---

(1) باطش بجانب العرش: أي متعلق به بقوة.

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إشراقها إضاءتها ؛ يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت وشَرَقت إذا طلعت . ومعنى: « بِنُورِ رَبِّهَا » بعدل ربها؛ قاله الحسن وغيره . وقال الضحاك : بحكم ربها ؛ والمعنى واحد؛ أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور . وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به . وقال ابن عباس : النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض . وروى أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء . والمعنى أنها أشرقت بنورٍ خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حدّ إضافة الملك إلى المالك . وقيل : إنه اليوم الذى يقضى فيه بين خلقه؛ لأنه نهار لا ليل معه . وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير : « وأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ » على مالم يسم فاعله وهي قراءة على التفسير . وقد ضل قوم هاهنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس، وهو متعال عن [مشابهة](1) المحسوسات، بل هو منوّر السموات والأرض ، فمنه كل نور خلقا و إنشاء . وقال أبو جعفر النحاس : وقوله عز وجل : وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا » يبين هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح "تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامّون فى رؤيته" وهو يروى على أربعة أوجه : لا تُضامُون ولا تضارُون ولا تضامُّون ولا تضارُّون؛ فمعنى "لا تضامُون" لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم فى الدنيا فى النظر إلى الملوك . و"لا تضارُون" لا يلحقكم ضير . و"لا تضامُّون" لاينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه . و"لا تضارُّون" لا يخالف بعضكم بعضا ؛ يقال : ضارّه مُضارّة وضرارا(2) أى خالفه .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ قال ابن عباس : يريد اللوح المحفوظ . وقال قتادة : يريد الكتاب والصحف التى فيها أعمال بنى آدم، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ أى جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أممهم . ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾(3) الذين شهدوا على الأمم من أمة

(١) فى الأصول : «مباينة المحسوسات» وهو تحريف . (٢) فى ا ، ك ، ل : «ضاررته ... خالفته» .
(٣) فى ا ، ح ، ك ، ل : « يشهدون » .

محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »(١) . وقيل : المراد بالشهداء الذين آستشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله ؛ قاله السدى . قال ابن زيد : هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم . قال الله تعالى : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها ، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتى بيانه في « قاف »(٢) . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق والعدل . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير : لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم . ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ من خير أو شر . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك فتشهد الكتب والشهود(٣) إلزاما للحجة .

قوله تعالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ هذا بيان توفية كل نفس عملها ، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة . والزُّمَر : الجماعات واحدتها زُمْرة كظُلْمة وغُرْفة . وقال الأخفش وأبو عبيدة : « زُمَرًا » جماعات متفرقة بعضها إثر بعض . قال الشاعر :

وتَرَى النَّاسَ إلى مَنْزِلِه * زُمَــرًا تَنْتَابُه بعــدَ زُمَــرْ

وقال آخــر :

حـتّى آحـزَأَلَّتْ * زُمَــرٌ بعــد زُمَــرْ

(١) راجع ج ٢ ص ١٥٣		(٢) راجع ج ١٧ ص ١٤

(٣) كلمة : « والشهود » ساقطة من الأصل المطبوع .

وقيــل : دفعا وزجرا بصوت كصوت المزمار . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ جواب إذا، وهى سبعة أبواب . وقد مضى فى « الحجر »(١) . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ واحدهم خازن نحو سدنة وسادن، يقولون لهم تقريعا وتوبيخا . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أى الكتب المنزلة على الأنبياء . ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ ﴾ أى يخوفونكم ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أى قد جاءتنا، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وهى قوله تعالى : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »(٢) . ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا جهنم . وقــد مضى الكلام فى أبوابها . قال وهب : تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع فى الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(١) تقدم بيانه .

قوله تعـالى : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ يعنى من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته . وقال فى حق الفريقين : « وَسِيقَ » بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزى والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ فما بعد و ص ١٠٠

(٢) راجع جـ ٩ ص ١١٤

على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتـل ؛ وسوق أهـل الجنان سـوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهـم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك؛ فشتان ما بين السوقين . ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ قيل : الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف . قال المبرد : أى سعدوا وفتحت؛ وحذف الجواب بليغ فى كلام العرب . وأنشد[(١)] :

فَلَوْ أَنَّهَـا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَـةً * ولٰكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح . وقال الزجاج : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا » دخلوها وهو قريب من الأول . وقيل : الواو زائدة . قاله الكوفيون وهو خطأ عند البصريين . وقد قيل : إن زيادة الواو دليـل على أن الأبواب فتحت لهم قبـل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعـالى ؛ والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة ؛ بدليل قوله : « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »[(٢)] وحذف الواو فى قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا لهم . ذكره المهدوى وحكى معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة فى إثبات الواو فى الثانى وحذفها من الأول؛ فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد؛ وهو أنه لمـا قال الله عز وجل فى أهل النار: « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » دلّ بهذا على أنها كانت مغلقة ولمـا قال فى أهل الجنة : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » دلّ بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم . وقيل : إنها واو الثمانية . وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية؛ فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية . قاله أبو بكر بن عياش . قال الله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ »[(٣)] وقال : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ » ثم قال فى الثامن : « وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ »[(٤)] وقال : « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ »[(٥)] وقال « ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا »[(٣)] وقد مضى القول فى هذا فى « براءة » مستوفى وفى « الكهف » أيضا .

---

(١) البيت لامرئ القيس . « وتموت جميعة » بمعنى أنه مريض فنفسه لا تخرج بمرة ؛ ولكنها تموت شيئا بعد شىء ؛ وهو معنى تساقط أنفسا . (٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٩ وص ١٩٤
(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٧١ (٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٨٢ فما بعد .

قلت : وقد ٱستدل بهـذا من قال إن أبواب الجنـة ثمـانية ؛ وذكروا حديث عمـر ابن الخطاب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " ما منكم من أحد يتوضأ فَيُبْلِغ — أو فَيُسْبِـغ الوضوء — ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمـانية يدخل من أيها شاء" (1) خرجه مسلم وغيره . وقد خرج الترمذى حديث عمر هـذا وقال فيه : " فتح له من أبواب الجنة ثمـانية أبواب يوم القيـامة " بزيادة مِن ، وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » وٱنتهى عددها إلى ثلاثة عشر بابا ، وذكرنا هناك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد فى الحديث من ذلك ، فمن أراده وقف عليه هناك . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ قيل : الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أى فى الدنيا . قال مجاهد : بطاعة الله . وقيـل : بالعمل الصالح . حكاه النقاش والمعنى واحد . وقال مقـاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فَيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » بمعنى التحية ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

قلت : خرج البخارى حديث القنطرة هذا فى جامعه من حديث (2) أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَخْلُص المؤمنون من النـار فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيـا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا " وحكى النقاش : إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » (3) ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها : «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ» وهذا يروى معناه عن علىّ رضى الله عنه . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أى إذا دخلوا الجنة

(1) يبلغ الوضوء : يوصل الوضوء إلى مواضعه ؛ فالوضوء فيه مفتوح الواو . ومعنى يسبغ الوضوء يكمله على الوجه المسنون ؛ فالوضوء فيه مضموم الواو . (هامش مسلم) . (2) فى الأصل المطبوع : «فى جامعه عن أبى سعيد...» .
(3) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥

قالوا هــذا . ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ أى أرض الجنة . قيل : إنهم ورثوا الأرض التى كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسّدى وأكثر المفسرين وقيل : إنهــا أرض الدنيا على التقديم والتأخير . قوله تعالى : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ ﴾ قيل : هو من قولهم أى نعم الثواب هذا . وقيل : هو من قول الله تعالى ؛ أى نعم ثواب المحسنين هذا الذى أعطيتهم .

قوله تعــالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ ﴾ يا محمد ﴿ حَافِّينَ ﴾ أى محـدقين ﴿ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به ؛ أى يصلّون حول العرش شكرا لربهم . والحافون أخذ من حافات الشيء ونواحيه . قال الأخفش : واحدهم حاف . وقال الفرّاء : لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين . ودخلت « مِن » على « حَوْل » لأنه ظرف والفعل يتعدّى إلى الظرف بحرف وبغير حرف . وقال الأخفش : « مِنْ » زائدة أى حافّين حول العرش . وهو كقولك : ما جاءنى من أحد، فمن توكيد . الثعلبي : والعرب تدخل الباء أحيانا فى التسبيح وتحذفها أحيانا ، فيقولون : سبح بحمد ربك، وسبح حمدًا لله ؛ قال الله تعالى : « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى »(١) وقال : « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ »(٢) . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ ﴾ بين أهل الجنة والنار . وقيل : قضى بين النبيين الذين جىء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل . ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقال قتادة فى هذه الآية : ٱفتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ »(٣) وختم بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ فلزم الاقتداء به ، والأخذ فى ٱبتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده . وقيل : إن قول « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » من قول الملائكة فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه . ورُوِىَ من حديث ٱبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قرأ على المنبر آخر سورة « الزمر » فتحرك المنبر مرتين .

تم تفسير ســـورة « الزمر »

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣		(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٢		(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٨٣

تفسير سورة غافر ، وهى سورة المؤمن ، وتسمى سورة الطول

وهى مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وعن الحسن إلا قوله : «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلوات نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما « إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ » والتى بعدها . وهى خمس وثمانون آية. وقيل ثنتان وثمانون آية.

وفى مسند الدارمى قال : حدثنا جعفر بن عون عن مِسْعر عن سعد بن إبراهيم قال : كنّ الحواميم يسمين العرائس. وروى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الحواميم ديباج القرآن " وروى عن ابن مسعود مثله . وقال الجوهرى وأبو عبيدة : وآل حم سور فى القرآن. قال ابن مسعود: آل حم ديباج القرآن. قال الفراء: إنما هو كقولك آل فلان وآل فلان كأنه نسب السورة كلها إلى حم ؛ قال الكُمَيْت :

وَجَدْنا لكم فى آلِ حَامِيمَ آيةً * تَأَوَّلَهَا مِنَّا تَقِى ومُعْرِبُ (1)

قال أبو عبيدة: هكذا رواها الأموى بالزاى، وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب . وقال أبو عبيدة : الحواميم سور فى القرآن على غير قياس ؛ وأنشد :

* وبالحواميم التى قد سُبِّعَتْ (2) *

قال : والأولى أن تجمع بذوات حم . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لكل شىء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم هنّ روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحبّ أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم " . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : " مثل الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب " ذكرهما الثعلبى . وقال أبو عبيد : وحدّثنى حجاج بن محمد عن أبى معشر عن محمد بن قيس قال : رأى رجل سبع جوارٍ حسان مزينات فى النوم فقال لمن أنتن بارك الله فيكن فقلن نحن لمن قرأنا نحن الحواميم .

(1) الآية التى ذكرها هى قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » يقول الشاعر : من تأول هذه الآية لم يسعه إلا التشيع لآل النبى صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم ، وإبداء المودة . وتقى : ساكت عنه للتقية . ويروى : تقى معرّب ، كمكلم أى مبين لما فى نفسه . (2) صدره : * وبالطواسين التى قد ثلثت . *

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ (٤)

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ آختلف في معناه؛ فقال عكرمة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "« حمٓ » آسم من أسماء الله تعالى وهي مفاتيح خزائن ربك" قال آبن عباس : « حمٓ » آسم الله الأعظم. وعنه : « الۤر » و« حمٓ » و « نٓ » حروف الرحمن مقطعة. وعنه أيضا : آسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وقال قتادة : إنه آسم من أسماء القرآن. مجاهد : فواتح السور. وقال عطاء الخراساني : الحاء آفتتاح آسمه حميدٌ وحنّانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم آفتتاح آسمه ملكٌ ومجيدٌ ومنّانٌ ومتكبرٌ ومصوّرٌ؛ يدلّ عليه ما روى أنس أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما « حم » فإنا لا نعرفها في لساننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "بدء أسماء وفواتح سور[(١)]". وقال الضحاك والكسائي : معناه قُضِيَ ما هو كائن. كأنه أراد الإشارة إلى تهجي « حمٓ »؛ لأنها تصير حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم؛ أي قُضِيَ ووَقَع. قال كعب بن مالك :

فلمّا تَلاقَيْنا هم ودارت بِنَا الرّحى * ولَيْسَ لِأَمْرٍ حَمَّه الله مَدْفَعُ

وعنه أيضا : إن المعنى حُمَّ أمر الله أي قرب؛ كما قال الشاعر :

قد حُمَّ يومي فسُرَّ قومٌ * قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونَوْمُ

ومنه سُمِّيت الحُمَّى؛ لأنها تقرّب من المنية. والمعنى المراد قرب نصره لأوليائه، وآنتقامه من أعدائه كيوم بدر. وقيل : حروف هجاء؛ قال الجرمي[(٢)] : ولهذا تقرأ ساكنة الحروف

(١) في ح، ل : «سوره».
(٢) في ل : «الجوهري».

نخرجت مخرج التهجى ، وإذا سميّت سورة بشىء من هذه الحروف أعربت ؛ فتقول : قرأت « حمٓ » فتنصب ؛ قال الشاعر : (١)

يُذَكِّرنى حاميمَ والرُّمحُ شاجِرٌ * فهلّا تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ

وقرأ عيسى بن عمر الثقفى : « حمَ » بفتح الميم على معنى آقرأ حم أو لالتقاء الساكنين . آبن أبى إسحق وأبو السَّمّال بكسرها . والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين ، أو على وجه القسم . وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم . الباقون بالوصل . وكذلك فى حمٓ . عسٓقٓ » . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائى وخلف وآبن ذكوان بالإمالة فى الحاء . وروى عن أبى عمرو بين اللفظين وهى قراءة نافع وأبى جعفر وشيبة . الباقون بالفتح مشبعا .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ آبتداء والخبر ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . ويجوز أن يكون « تَنْزِيلُ » خبرا لمبتدإ محذوف ؛ أى هذا « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » . ويجوز أن يكون « حمٓ » مبتدأ و « تَنْزِيلُ » خبره والمعنى : أن القرآن أنزله الله وليس منقولا ولا مما يجوز أن يكذّب به .

قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ قال الفراء : جعلها كالنعت للمعرفة وهى نكرة . وقال الزجاج : هى خفض على البدل . النحاس : وتحقيق الكلام فى هذا وتلخيصه أن « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لما مضى فيكونا نعتين ، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل ، ويجوز النصب على الحال ، فأما « شَدِيدِ الْعِقَابِ » فهو نكرة ويكون خفضه على البدل . قال آبن عباس : « غَافِرِ الذَّنْبِ » لمن قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » « وَقَابِلِ التَّوْبِ » ممن قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » « شَدِيدِ الْعِقَابِ » لمن لم يقل : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . وقال ثابت البُنَانى : كنت إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير فى مكان لا تمر فيه الدواب ، قال : فآستفتحت « حمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » فمر علىّ رجل على دابة فلما قلت « غَافِرِ الذَّنْبِ » قال : قل يا غافر الذنب آغفر لى ذنبى ، فلما قلت : « قَابِلِ التَّوْبِ » قال :

(١) قائله شريح بن أوفى العبسى . وقيل هو للأشتر النخعى .

قل يا قابل التوب تقبل توبتي ، فلما قلت : « شَدِيدِ الْعِقَابِ » قال : قل يا شديد العقاب آعف عني ، فلما قلت : « ذِي الطَّوْلِ » قال : قل يا ذا الطول طُلْ عليّ بخير ، فقمت إليه فأُخذ ببصري ، فآلتفت يمينا وشمالا فلم أر شيئا . وقال أهـل الإشارة : « غَافِرِ الذَّنْبِ » فضـلا « وَقَابِلِ التَّوْبِ » وعدا « شَدِيدِ الْعِقَابِ » عدلا « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » فردًا . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه آفتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع في هـذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : آكتب من عمر إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمـد الله إليك الذي لا إله إلا هو « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حـمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ » ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر مَن عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قـد وعدني الله أن يغفر لي ، وحذّرني عقابه ، فلم يبرح يردّدها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته . فلما بلغ عمر أمرُه قال : هكذا فآصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد[(1)] زلّ زلّة فسدّدوه وآدعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه . و « التَّوْبِ » يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توبا ، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم ؛ ومنه قوله[(2)] :

* فَيَخْبُو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا *

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة . قال أبو العباس : والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدرا ، أي يقبل هذا الفعل ، كما تقول قال قولا ، وإذا كان جمعا فمعناه يقبل التوبات .

﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ على البدل وعلى النعت ؛ لأنه معرفة . وأصل الطول الإنعام والفضل[(3)] يقال منه : اللهم طُلْ علينا أي أنعم وتفضل . قال آبن عباس : « ذِي الطَّوْلِ » ذي النعم . وقال مجاهد : ذي الغنى والسّعة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا[(4)] » أي غنى وسعة . وعن آبن عباس أيضا : « ذِي الطَّوْلِ » ذي الغنى عمن[(5)] لا يقول لا إله إلا الله . وقال عكرمة :

---

(1) لفظة : « قد » ساقطة من المطبوع . (2) قائله القطامي وصدره :

* وكنا كالحريق أصاب غابا *

(3) في المطبوع : « والتفضل » . (4) راجع جـ ٥ ص ١٣٥ فما بعد . (5) في نسخ الأصل : « عمن يقول » .

﴿ ذِى الطَّوْلِ ﴾ ذى المنّ . قال الجوهرى : والطَّوْل بالفتح المنّ ؛ يقال منه طال عليه وتطوّل عليه إذا آمتن عليه . وقال محمد بن كعب : « ذِى الطَّوْلِ » ذى التفضل ؛ قال المـاوردى : والفرق بين المنّ والتفضل أن المنّ عفو عن ذنب . والتفضل إحسان غير مستحقّ . والطول مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيـل : لأنه طالت مدّة إنعامه . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعـالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ سجل سبحانه على المجـادلين فى آيات الله بالكفر ، والمراد الجدال بالبـاطل ، من الطعن فيهـا ، والقصد إلى إدحاض الحـق ، وإطفاء نور الله تعـالى . وقد دل على ذلك فى قوله تعـالى (١) : « وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَـقَّ » . فأما الجدال فيهـا لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العـلم فى آستنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بهـا وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » عند قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ » (٢) مستوفى . ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ ﴾ وقرئ : « فَلَا يَغُرَّكَ » ﴿ تَقَلُّبُهُمْ ﴾ أى تصرفهم ﴿ فِى الْبِـلَادِ ﴾ فإنى وإن أمهلتهم لا أهملهم بل أعاقبهم . قال آبن عباس : يريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن . وقيـل : « لَا يَغْرُرْكَ » ما هم فيـه من الخير والسعة فى الرزق فإنه متاع قليل فى الدنيا . وقال الزجاج : « لَا يَغْرُرْكَ » سلامتهم بعـد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك . وقال أبو العالية : آيتان ما أشدّهما على الذين يجادلون فى القرآن : قوله : « مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » ، وقوله : « وَإِنَّ الَّذِينَ آخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ » (٣) .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) فى ل : « قوله تعالى » بإسقاط « فى » . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ فما بعد .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ .

أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ
شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ
ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ على تأنيث الجماعة أى كذبت الرسل . ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود فمن بعدهم . ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أى ليحبسوه و يعذبوه . وقال قتادة والسدى : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك ؛ كقوله : « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ »(١) . والعرب تسمى الأسير الأخيذ ؛ لأنه مأسور للقتل ؛ وأنشد قطرب قول الشاعر :

فإمّا تأخُذونِى تقتُلونِى * فكَمْ مِنْ آخِذٍ يهْوَى خُلودِى(٢)

وفى وقت أخذهم لرسولهم قولان : أحدهما عند دعائه لهم . الثانى عند نزول العذاب بهم . ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أى ليزيلوا . ومنه مكان دَحْض أى مَزْلَقة ؛ والباطل داحض ؛ لأنه يزلق و يزل فلا يستقر . قال يحيى بن سلّام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان . ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أى بالعذاب . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى عاقبة الأمم المكذبة . أى أليس وجدوه حقا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ ﴾ أى وجبت ولزمت ؛ مأخوذ من الحق لأنه اللازم . ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ هذه قراءة العامة على التوحيد . وقرأ نافع وابن عامر : « كَلِمَاتُ » جمعا .

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٣ .	(٢) فى تفسير السمين : * وكم من واحد يهوى خلودى *

﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ ﴾ قال الأخفش : أى لأنهم و بأنهم . قال الزجاج : و يجـوز إنهم بكسر الهمزة . ﴿ أَصْحَابُ ٱلنَّـارِ ﴾ أى المعذّبون بها وتم الكلام . ثم ٱبتـدأ فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ و يروى : أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى و رءوسهم قد خرقت العرش ، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم ، وهم أشراف الملائكة وأفضلهم . ففى الحديث : " أن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا و يروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة " . و يقال : خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، و بين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام . وقيل : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهلّلين مكبّرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صفّ قيام ، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم ، و رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ومن ورائهم مائة ألف صفّ ، قد وضعوا الأيمـان على الشمائل ، ما منهم أحد(١) إلا وهو يسبّح بمـا لا يسبّح به الآخر . وقرأ ٱبن عباس : « ٱلْعُرْشُ » بضم العين ؛ ذكر جميعه الزمخشرى رحمه الله . وقيل : ٱتصل هذا بذكر الكفار ؛ لأن المعنى — والله أعلم — « ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » أى يسألون لهم المغفرة من الله تعالى . وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه الله عز وجل ، وأمر ملائكة بحمله ، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به ؛ كما خلق فى الأرض بيتا وأمر بنى آدم بالطواف به وٱستقباله فى الصلاة . وروى ٱبن طَهْمان ، عن موسى بن عقبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لى أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " ذكره البيهقى وقد مضى فى « البقرة »(٢) فى آية الكرسى عظم العرش وأنه أعظم المخـلوقات . وروى ثور بن يزيد ، عن خالد بن معـدان ، عن كعب الأحبـار أنه قال : لمـا خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقا أعظم منى ؛ فٱهتز فطوّقه الله بحية ، للحية

(١) فى ل : « ما منهم من أحد » . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧٦ فـا بعد .

سبعون ألف جناح ، فى الجناح سبعون ألف ريشة ، فى كل ريشــة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان . يخرج من أفواهها فى كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر، وعدد ورق الشجر، وعدد الحصى والثرى، وعدد أيام الدنيا، وعدد الملائكة أجمعين ، فالتوت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية وهى ملتوية[1] به . وقال مجاهد : بين السماء السابعة و بين العرش سبعون ألف حجاب ، حجاب نور وحجاب ظُلْمة ، وحجاب نور وحجاب ظلمة . ﴿ رَبَّنَـا ﴾ أى يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أى وسعت رحمتك وعلمك كل شىء، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير . ﴿ فَٱغْفِـرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ أى من الشرك والمعاصى ﴿ وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أى دين الإســلام . ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى آصرفه عنهم حتى[2] لا يصل إليهم . قال إبراهيم النخعى : كان أصحاب عبـد الله يقولون الملائكة خير من آبن الكَوّاء ، هم يستغفرون لمن فى الأرض وآبن الكَوّاء يشهد عليهم بالكفر، قال إبراهيم : وكانوا يقولون لا يحجبون الآستغفار عن أحد من أهل القبلة . وقال مطرِّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هــذه الآية . وقال يحيى بن معاذ الرازى لأصحابه فى هذه الآية : آفهموها فما فى العالم جنة أرجى منها ؛ إن مَلَكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحَمَلة العرش يستغفرون للؤمنين . وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت : « ويَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بكى ثم قال : ياخلف ! ما أكرم المؤمن على الله نائمـا على فراشه والملائكة يستغفرون له .

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَـا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّا تِ عَدْنٍ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار : ما جنات عدن . قال : قصـور من ذهب فى الجنــة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل . ﴿ ٱلَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ « التى » فى محل نصب نعتا للجنات . ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ « مَنْ » فى محل نصب عطفا على الهاء والميم فى قوله : « وَأَدْخِلْهُمْ » . « وَمَنْ صَلَحَ » بالإيمان

(١) هذا الخبر وأشباهه من الإسرائيليات التى يحشرها أهل القصص وليس مما يصح .
(٢) فى ح، ز، ل : « عنهم لا يصل » .

﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ وقد مضى فى « الرعد »(١) نظير هـذه الآية . قال سـعيد ابن جُبير : يدخل الرجل الجنة ، فيقول : يارب أين أبى وجدّى وأمى ؟ وأين ولدى وولد ولدى ؟ وأين زوجاتى ؟ فيقـال إنهـم لم يعملوا كعملك ؛ فيقول : يارب كنت أعمـل لى ولهم ؛ فيقال أدخلوهم الجنة . ثم تلا : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » إلى قوله : « وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » . ويقرب من هذه الآية قوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »(٢) .

قوله تعـالى : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ قال قتادة : أى وقهم مايسوءهم ، وقيل : التقدير وقهم عذاب السيئات وهو أمرٌ(٣) من وقاه الله يقيه وقاية بالكسر ؛ أى حفظه . ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أى بدخول الجنة ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى النجاة الكبيرة .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال الأخفش : « لَمَقْتُ » هذه لام الابتداء وقعت بعد « يُنَادَوْنَ » لأن معناه يقال لهم والنداء قول . وقال غيره : المعنى يقال لهم : « لَمَقْتُ اللهِ » إياكم فى الدنيا ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ « أَكْبَرُ » من مقت بعضكم بعضا يوم القيامة ؛ لأن بعضهم عادى بعضا ومقته يوم القيامة ، فأذعنوا عند ذلك ، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار . وقال الكلبى : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يانفس ؛ فتقول الملائكة لهم وهم فى النار : لمقت الله

(١) راجع جـ ٩ ص ٣١٢ فما بعد . (٢) فى ا ، ح ، ل : « والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم » وهى قراءة . راجع جـ ١٧ ص ٦٦ . (٣) بل هو دعاء لأنه من الخلق إلى الخالق .

إياكم إذ أنتم فى الدنيا وقد بعث إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم . وقال الحسن : يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون « لَمَقْتُ اللَّهِ » إياكم فى الدنيا « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » اليوم . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : المعنى « لَمَقْتُ اللَّهِ » لكم « إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » « أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » إذ عاينتم النار . فإن قيل : كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم ؟ ففيه وجهان : أحدهما أنهـم أحلوها بالذنوب محل الممقوت . الثـانى أنهم لمـا صاروا إلى حال زال عنهم الهوى ، وعلموا أن نفوسهم هى التى أبقتهم فى المعاصى مقتوها . وقال محمد بن كعب القرظى : إن أهل النار لمـا يئسوا مما عند الخزنة وقال لهم مالك : « إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » على ما يأتى . قال بعضهـم لبعض : يا هؤلاء ! إنه قد نزل بكم من العـذاب والبلاء ما قد ترون ، فهلم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا ، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم ، ثم جزعوا فنادوا « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ » أى من ملجإ ؛ فقـال إبليس عنـد ذلك : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » إلى قوله : « مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ » يقول : بمغنٍ عنكم شيئا « إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ » فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم . قال[1] : فنودوا « لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » إلى قوله : « فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » قال فردّ عليهم : « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ذكره ٱبن المبارك .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ ٱختلف أهل التأويل فى معنى قولهم : « أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ » فقـال ٱبن مسعود وٱبن عبـاس وقتادة والضحاك : كانوا أمـواتا فى أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التى لا بد منها فى الدنيـا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان ، وهو قوله[2] تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » . وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحياهم فى القبور للمسألة ، ثم أميتوا ثم أحيوا فى الآخرة . وإنما صار إلى هذا ؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على

(١) لفظ « قال » ساقط من ح .　　(٢) فى أ ، ح ، ز ، ل : « كقوله » .

النطفة . وٱستدل العلماء من هـذا فى إثبات سؤال القبر ، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة ؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت ولا تتغير ولا تفسد ، وهو حىّ لنفسه لايتطرّق إليه موت ولا غشية ولا فناء . وقال ٱبن زيد فى قوله : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ » الآية قال : خلقهم فى ظهر آدم وأخرجهم (١) وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم . وقد مضى هذا فى « البقرة (٢) » . ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ ٱعترفوا حيث لاينفعهم الاعتراف وندموا حيث لاينفعهم الندم . ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى هل نردّ إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؛ نظيره : « هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٣) » وقوله : « فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا (٤) » وقوله : « يَالَيْتَنَا نُرَدُّ (٥) » الآية .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ « ذَٰلِكُمْ » فى موضع رفع أى الأمر « ذَٰلِكُمْ » أو « ذَٰلِكُمْ » العذاب الذى أنتم فيه بكفركم . وفى الكلام متروك تقديره فأجيبوا بأن لاسبيل إلى الرد . وذلك لأنكم « إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ » أى وُحِّد الله « وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ » وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، و إن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله . قال الثعلبى : وسمعت بعض العلماء يقول : ﴿ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ ﴾ بعد الرد إلى الدنيا لو كان [به (٦)] ﴿ تُؤْمِنُوا ﴾ تصدّقوا المشرك ؛ نظيره : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » . ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ عن أن تكون له صاحبة أو ولد » .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

(١) ا ، ح ، ز ، ل : « واستخرجهم » . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٤٩ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ .
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٩٥ . (٥) راجع جـ ٦ ص ٤٠٨ . (٦) من « ح » .

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي دلائل توحيده وقدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق؛ لأن بالآيات قوام الأديان، وبالرزق قوام الأبدان. وهذه الآيات هي السموات والأرضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي ما يتعظ بهذه الآيات فيوحد الله ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي يرجع إلى طاعة الله. ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ أي اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي العبادة. وقيل: الطاعة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ عبادة الله فلا تعبدوا أنتم غيره.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ «ذُو الْعَرْشِ» على إضمار مبتدأ. قال الأخفش: ويجوز نصبه على المدح. ومعنى «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» أي رفيع الصفات. وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جبير: رفيع السموات السبع. وقال يحيى بن سلام: هو رفعة درجة أوليائه في الجنة. فـ«رَفِيعُ» على هذا بمعنى رافع فعيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه الذي لا أرفع قدرا منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، وهي أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره؛ قاله الحليمي. وقد ذكرناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» والحمد لله. «ذُو الْعَرْشِ» أي خالقه ومالكه لا أنه محتاج إليه. وقيل: هو من قولهم: ثُلَّ عرشُ فلان أي زال ملكه وعزه، فهو سبحانه «ذُو الْعَرْشِ» بمعنى ثبوت ملكه وسلطانه وقد بيناه في «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ أي الوحي والنبوة «عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»، وسمى ذلك روحا لأن الناس يحيون به؛ أي يحيون من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح. وقال ابن زيد: الروح القرآن؛ قال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا»[1]. وقيل: الروح جبريل؛ قال الله تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ»[2] وقال: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ»[3]. ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي من قوله. وقيل: من قضائه. وقيل: «مِنْ» بمعنى الباء أي بأمره. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء يشاء هو أن يكونوا أنبياء وليس لأحد فيهم مشيئة.

(١) راجع جـ ١٦ ص ٥٤. (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٣٨. (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٧٦.

﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ أى إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث . فقوله : «لِيُنْذِرَ» يرجع إلى الرسول . وقيل : أى لينذر الله ببعثه الرسل إلى الخلائق « يَوْمَ التَّـلَاقِ » . وقرأ ٱبن عباس والحسن وٱبن السَّمَيْقَع «لِتُنْذِرَ» بالتاء خطابا للنبي عليه السلام . «يَوْمَ التَّلَاقِ» قال ٱبن عباس وقتادة : يوم تلتقى أهل السماء وأهـل الأرض . وقال قتادة أيضا وأبو العـالية ومقاتل : يلتقى(١) فيه الخلق والخالق . وقيل : العابدون والمعبودون . وقيـل : الظالم والمظلوم . وقيل : يلقى كل إنسان جزاء عمله . وقيل : يلتقى الأولون والآخرون على صعيد واحد ؛ روى معناه عن ٱبن عبـاس . وكله صحيح المعنى . ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ يكون بدلا من يوم الأول . وقيـل : « هُمْ » فى موضع رفع بالابتـداء و « بَارِزُونَ » خبره والجمـلة فى موضع خفض بالإضافة ؛ فلذلك حذف التنوين من « يَوْمَ » وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ ؛ تقول لقيتك يومَ زيدٌ أمـيرٌ . فإن كان بمعنى إذا لم يجـز نحو أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ . ومعنى : « بَارِزُونَ » خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء؛ لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمْتًا على ما تقدّم فى « طه »(٢) بيانه . ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ قيل : إن هـذا هو العامل فى « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ » أى لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم « يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ » . ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وذلك عند فناء الخلق . وقال الحسن : هو السائل تعالى وهو المجيب ؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب(٣) نفسه سبحانه فيقول: ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . النحاس : وأصح ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ٱبن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها ، فيؤمر منـادٍ ينادى «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» فيقول العبـاد مؤمنهم وكافرهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فيقول المؤمنون هذا [الجواب](٤) سرورا وتلذذا ، ويقـوله الكافرون غما وٱنقيادا وخضوعا . فأما أن يكون هـذا والخلق غير موجودين فبعيد ؛ لأنه لا فائدة فيـه ، والقول صحيح عن ٱبن مسعود وليس هو ممـا يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

(١) فى الأصول : « يلتقى » ما عدا الأصل المطبوع « يلقى » . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٤٦ فما بعد .
(٣) فى ا ، ح ، ز ، ل : « فيجيب نفسه لمن الملك فيقول ... » . وجملة « لمن الملك » معجمة .
(٤) ما بين المربعين من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .

قلت : والقول الأول ظاهر جدا ؛ لأن المقصود إظهار آنفراده تعالى بالملك عند آنقطاع دعاوى المدّعين وآنتساب المنتسبين ؛ إذ قد ذهب كلّ مَلِك ومُلْكه ومتكبّر وملكه وآنقطعت نسبهم ودعاويهم ، ودلّ على هـذا قوله الحق عند قبض [الأرض] (١) والأرواح وطيّ السماء : " أنا الملِك أين ملوك الأرض " كما تقـدّم في حديث أبي هريرة وفي حديث آبن عمر ، ثم يطوي الأرض بشماله [والسموات بيمينه] (١) ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون . وعنه قوله سبحانه : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » هو آنقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر . قال محمد بن كعب قوله سبحانه : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » [يكون] (١) بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا فيقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » فلا يجيبه أحد ؛ لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول : « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » لأنه بقي وحده وقهر خلقه . وقيل : إنه ينادي منادٍ فيقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ » فيجيبه أهل الجنة : « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فالله أعلم . ذكره الزمخشري .

قوله تعـالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْـزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ ﴾ أي يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده « الْيَوْمَ تُجْـزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ » من خير أو شر . ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ أي لا ينقص أحد شيئا مما عمله . ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحسّاب ؛ لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمـه شيء فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره ؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة . وقـد مضى هذا المعنى في « البقرة » (٢) . وفي الخبر : ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

قوله تعـالى : وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ج مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ صلے وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ

(١) ما بين المربعين من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ .

لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا
فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا
هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ
لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ
فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ أى يوم القيامة، سميّت بذلك لأنها قريبة؛ إذ كل ما هو آتٍ قريب . وأَزِفَ فلانٌ أى قرب يأزَفُ أَزَفًا؛ قال النابغة :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكابَنَا * لَمَّا تَزُلْ بِرِحالِنا وَكَأَنَّ قَدِ

أى قرب، ونظير هذه الآية : «أَزِفَتِ الآزِفَةُ»(١) أى قربت الساعة، وكان بعضهم يتمثل و يقول :

أَزِفَ الرَّحِيلُ ولَيْسَ لِي مِن زَادِ * غَيْرُ الذُّنُوبِ لِشِقْوَتِي ونَكادِي

﴿ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ على الحال وهو محمول على المعنى . قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس «لَدَى الحَنَاجِرِ» فى حال كظمهم . وأجاز الفراء أن يكون التقدير «وأَنْذِرْهُمْ» كَاظِمِينَ . وأجاز رفع «كَاظِمِينَ» على أنه خبر للقلوب . وقال : المعنى إذ هم كاظمون . وقال الكسائى : يجوز رفع ﴿ كاظِمين ﴾ على الابتداء . وقد قيل : إن المراد بـ«يوم الآزِفَةِ» يوم حضور المنية ؛ قاله قطرب . وكذا ﴿ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ ﴾ عند حضور المنية . والأول أظهر . وقال قتادة : وقعت فى الحناجر من المخافة فهى لا تخرج ولا تعود فى أمكنتها ، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾(٢) . وقيل ، هذا إخبار عن نهاية الجزع ، كما قال : ﴿ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ﴾(٣) وأضيف اليوم إلى ﴿ الآزِفَةِ ﴾ على تقدير يوم القيامة ﴿الآزِفَةِ﴾ أو يوم المجادلة ﴿الآزِفَةِ﴾ . وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشىء إلى

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٢١ . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٧٦ .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ١٤٤ فما بعد .

نفسه مثل مسجد الجامع وصـلاة الأولى . ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى من قريب ينفع ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فيشفع فيهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة . وقال ٱبن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها . وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غَضّ بصره ، فإذا رأى منهم غفـلة تدسّس بالنظر ، فإذا نظر إليـه أصحابه غَضّ بصره ، وقد علم الله عز وجل منه أنه يودّ (١) لو نظر إلى عورتها . وقال مجاهد : هى مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه . وقال قتادة : هى الهَمْزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى . وقال الضحاك : هى قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى . وقال السدى : إنها الرَّمْز بالعين . وقال سفيان : هى النظرة بعد النظرة . وقال الفراء : « خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ » النظرة الثانية « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » النظرة الأولى . وقال ٱبن عباس : « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » أى هل يزنى بها لو خلا بها أو لا . وقيل : « وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» تكنّه وتضمره . ولمـا جىء بعبد الله بن أبى سرح (٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ما ٱطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضى الله عنه ، صَمت رسولُ الله صـلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" فلما ٱنصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله : "ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه" فقال رجل من الأنصار فهلّا أومأتَ إلىّ يا رسول الله ؛ فقال : "إن النبي لا تكون له خائنة أعين" . ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أى يجازى من غَضّ بصره عن المحارم ، ومن نظر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها . ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى الأوثان ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك . وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهى ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ نافع وشيبة وهشام : «تَدْعُونَ» بالتاء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ «هو» زائدة فاصلة . ويجوز أن تكون فى موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن .

---

(١) فى ا ، ز ، ل ، ن « أن يوده » .

(٢) عبد الله بن أبى سرح : كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ٱرتد ولحق بالمشركين ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة . راجع جـ ٧ ص ٤٠ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ فى موضع جزم عطف على « يَسِيرُوا » ويجوز أن يكون فى موضع نصب على أنه جواب، والجزم والنصب فى التثنية والجمع واحد . ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ اسم كان والخبر فى « كَيْفَ » . و﴿ وَاقٍ ﴾ فى موضع خفض معطوف على اللفظ . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على الموضع فرفعه وخفضه واحد؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى غير موضع(١) فأغنى عن الإعادة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ وهى التسع(٢) الآيات المذكورة فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » وقد مضى تعيينها . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة واضحة بينة، وهو يذكر و يؤنث . وقيل : أراد بالسلطان التوراة . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير فى عداوة موسى كان عليهم؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما ؛ لأن عمله فى الكفر والتكذيب كأعمالهما . ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ فما بعد .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ فما بعد .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وهى المعجزة الظاهرة ﴿ قَالُوا ٱقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان ، ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم ، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب ، كالضفادع والقمّل والدّم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر ، فأغرقهم الله . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أى فى خسران وهلاك ، و إن الناس لا يمتنعون من الإيمان و إن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلا .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ « أَقْتُلْ » جزم ؛ لأنه جواب الأمر « وَلْيَدْعُ » جزم ؛ لأنه أمر و « ذَرُونِي » ليس بمجزوم و إن كان أمرا ولكن لفظه لفظ المجزوم وهو مبنى . وقيل : هذا يدلّ على أنه قيل لفرعون : إنا نخاف أن يدعو عليك فيجاب ؛ فقال : « وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » أى لا يهولنّكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى . ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أى عبادتكم لى (١) إلى عبادة ربه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر فى الأرض (٢) الفساد . أى يقع بين الناس بسببه الخلاف . وقراءة المدنيين وأبى عبـد الرحمن السُّلَمى وابن عامر وأبى عمرو : «وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » وقراءة الكوفيين «أَوْ أَنْ يَظْهَرَ» بفتح الياء «الْفَسَادُ» بالرفع وكذلك هى فى مصاحف الكوفيين : « أو » بألف و إليه يذهب أبو عبيد ؛ قال : لأن فيه زيادة حرف وفيه فصل ؛ ولأن « أو » تكون بمعنى الواو . النحاس : وهـذا عند حُذّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو ؛ لأن فى ذلك بطلان المعانى ، ولو جاز أن تكون بمعنى الواو لمـا ٱحتيج إلى هذا ها هنـا ؛ لأن معنى الواو « إِنِّي أَخَافُ » الأمرين جميعا ومعنى « أَوْ » لأحد الأمرين أى « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ » فإن أعوزه ذلك أظهر فى الأرض الفساد .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ لمـا هدده فرعون بالقتل ٱستعاذ موسى بالله ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى متعظم عن الإيمان بالله ، وصفته أنه ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ .

(١) لفظة « لى » ساقطة من ل ، ز .　　　(٢) لفظة « فى الأرض » ساقطة من ا ، ز ، ل .

قوله تعالى : وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : « وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ » ذكر بعض المفسرين : أن ٱسم هذا الرجل حبيب . وقيــل : شمعان بالشين المعجمة . قال السُّهيلي : وهو أصح ما قيل فيــه . وفى تاريخ الطبرى رحمه الله : ٱسمه خبرك[(١)]. وقيل : حزقيل . ذكره الثعلبي عن ٱبن عباس وأكثر العلماء . الزمخشري : وٱسمه سمعان أو حبيب . وقيل خربيل أو حزبيل . وٱختلف هل كان إسرائيليا أو قبطيا فقــال الحسن وغيره : كان قبطيا . ويقــال : إنه كان ٱبن عم فرعون ؛ قاله السدى . قال : وهو الذى نجا مع موسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : « مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ » وهذا الرجل هو المراد بقوله تعــالى : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى »[(٢)] الآية . وهذا قول مقاتل . وقال ٱبن عباس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير ٱمرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى فقال : « إِنَّ الْمَــلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » .

[وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الصِّدِّيقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقــول ربي الله والثالث أبو بكر الصِّدِّيق وهو أفضلهم"[(٣)]] وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أى لا تعجب من مشركى قومك . وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون ؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء . وقيل : كان هذا الرجل من بنى إسرائيل يكتم إيمــانه من آل فرعون ؛ عن السّدى أيضا . ففى الكلام على هــذا تقديم وتأخير ، والتقدير : وقال رجل مؤمن يكتم إيمــانه من آل فرعون . فمن جعل الرجل قبطيا

(١) فى هامش الطبرى طبع أوربا « خبرك » وجبرك .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٦٦ .
(٣) الزيادة أوردها الجمل فى حاشيته عن القرطبي .

ف« مِن » عنــده متعلقة بمحذوف صــفة لرجل؛ التقــدير : وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون ؛ أي من أهله وأقاربه . ومن جعله إسرائيليا ف«مِن » متعلقة ب«يكتم » في موضع المفعول الثــاني ل « يكتم » . القشــيري : ومن جعله إسرائيليا ففيه بعــد ؛ لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه . قال الله تعالى : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا »(١) وأيضا ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول .

الثانيـــة ـــ قوله تعــالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أي لأن يقول ومن أجل « أَنْ يَقُــولَ رَبِّيَ اللَّهُ » ف« أَنْ » في موضــع نصب بنزع الخافض . ﴿ وَقَــدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعني الآيات التسع ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ولم يكن ذلك لشك منــه في رسالته وصــدقه ، ولكن تلطفــا في الاستكفاف واستنزالا عن الأذى . ولو كان و« إِنْ يكن » بالنون جاز ولكن حذفت النون لكثرة الاستعمال على قول سيبويه؛ ولأنها نون الإعراب على قول أبي العباس . ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أي إن لم يصبكم إلا بعض الذي يعدكم به هلكتم . ومذهب أبي عبيدة أن معنى « بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ » كل الذي يعدكم وأنشد قول لبيد :

تَرَّاكُ أمكنـــةٍ إذا لم أرْضَهــا　*　أو يَرْتَبِط بَعْضَ النفوسِ حِمَامُها(٢)

فبعض بمعنى كلّ ؛ لأن البعض إذا أصابهم أصابهم الكل لا محالة لدخوله في الوعيد، وهذا ترقيق الكلام في الوعظ . وذكر المــاوردي : أن البعض قــد يستعمل في موضــع الكل تلطفا في الخطاب وتوسعا في الكلام ؛ كما قال الشاعر(٣) :

قَدْ يُدْرِكُ المتــأنّي بعضَ حاجتِهِ　*　وقد يكونُ مَعَ المُسْتَعجِلِ الزَّلَلُ

وقيل أيضا : قال ذلك لأنه حذرهم أنواعا من العذاب كل نوع منها مهلك؛ فكأنه حذرهم أن يصيبهم بعض تلك الأنواع . وقيل : وعدهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى يصبكم أحد العذابين . وقيل : أي يصبكم هذا العذاب الذي يقوله في الدنيا

---

(١) راجع ج ٥ ص ١٩٩　(٢) ويروى : أو يعتلق بدل يرتبط كما في اللسان .　(٣) هو عمر القطامي .

وهو بعض الوعيد ، ثم يترادف العذاب فى الآخرة أيضا . وقيل : وعدهم العذاب إن كفروا والثواب إن آمنوا ، فإذا كفروا يصيبهم بعض ما وعدوا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ [على نفسه][(١)] ﴿ كَذَّابٌ ﴾ على ربه إشارة إلى موسى و يكون هـذا من قول المؤمن . وقيل : « مُسْرِفٌ » فى عناده « كَذَّابٌ » فى آدعائه إشارة إلى فرعون و يكون هذا من قول الله تعالى .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ يَكْتُمُ إِيمَـانَهُ ﴾ قال القـاضى أبو بكر بن العربى : ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمـانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمنا بآعتقاده ، وقد قال مالك : إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه ، كما يكون مؤمنا بقلبه وكافرا بقلبه . فجعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك ، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه فى أصول الفقه ؛ بمـا لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافرا و إن لم يتلفظ بلسانه ، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمنا بحال حتى يتلفظ بلسانه ، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه و بين الله تعالى ، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره ، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير فى صحته من التكليف ، و إنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله .

الرابعـــة — روى البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ما صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسـلم بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رســول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثو به فى عنقه فخنقه به خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » لفظ البخارى . خرجه الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن على رضى الله عنه قال : آجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فأقبل هذا يجؤه[(٢)] وهـذا يتلتله ، فاستغاث النبى صلى الله عليه وسـلم يومئذ فلم يغثه[(٣)] أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ ذا و يتلتل ذا

(١) ساقط من ل . (٢) وجأه يجؤه وجأ ضربه . والتلتلة التحريك والإقلاق والزعزعة .
(٣) فى ح « يومئذ فلم يغثه يومئذ أحد » .

ويقول بأعلى صوته : ويلكم « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ » والله إنه لرسول الله ؛ فقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ . فقال عليّ : والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون؛ إن ذلك رجل كتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

قلت : قول عليّ رضي الله عنه إن ذلك رجل كتم إيمانه يريد في أول أمره بخلاف الصدّيق فإنه أظهر إيمانه ولم يكتمه؛ وإلا فالقرآن مصرح بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا قتل موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه . في « نوادر الأصول » أيضا عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالوا لها : ما أشدّ شيء رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان المشركون قعودا في المسجد ، ويتذاكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول في آلهتهم، فبيناهم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شيء صدّقهم، فقالوا : ألست تقول كذا في آلهتنا قال : "بلى" فتشبثوا فيه بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال له : أدرك صاحبك . فخرج من عندنا وإن له غدائر، فدخل المسجد وهو يقول : ويلكم « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمسّ شيئا من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام؛ إكرام إكرام .

قوله تعالى : يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿ يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفى قوله « يا قَوْمِ » دليل على أنه قبطى، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: « يَاقَوْمِ » ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه « لَكُمُ الْمُلْكُ » فاشكروا الله على ذلك. ﴿ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى غالبين وهو نصب على الحال أى فى حال ظهوركم. والمراد بالأرض أرض مصر فى قول السدى وغيره؛ كقوله: « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ »(١) أى فى أرض مصر. ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أى من عذاب الله تحذيرا لهم من نقمه إن كان موسى صادقا، فذكر وحذر فعلم فرعون ظهور حجته فقال: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فى تكذيب موسى والإيمان بى.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ ﴾ زادهم فى الوعظ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿ يا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ زاد فى الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلما موطنا نفسه على القتل، أو واثقا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾. وقراءة العامة ﴿ التَّنَادِ ﴾ بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبى الصَّلت:

وبَثَّ الخلق فيها إذ دحاها * فهم سُكَّانُها حتى التَّنَاد

سمى بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضا؛ فينادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار: ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾(٢) وينادى أصحاب النار [أصحاب الجنة](٣): ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾(٢) وينادى المنادى أيضا بالشقوة

(١) راجع جـ ٩ ص ٢١٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩ (٣) ما بين المربعين ساقط من ز، ل، ن.

والسعادة : ألا إن فلان بن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وهذا عند وزن الأعمال . وتنادى الملائكة أصحاب الجنة : « أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(١) وينادى حين يذبح الموت : ياأهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت . وينادى كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء . وقرأ الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد : « التَّنَادِ » بإثبات الياء فى الوصل والوقف على الأصل . وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة « يوم التَّنَادِّ » بتشديد الدال . قال بعض أهل العربية : هذا لحن ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدّ إذا مَرَّ على وجهه هاربا ؛ كما قال الشاعر(٢) :

وَبَرْكٍ هُجُودٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي　*　نَوَادِيَهَا أَسْعَى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ

قال : فلا معنى لهذا فى القيامة . قال أبو جعفر النحاس : وهذا غلط والقراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ؛ فذلك قوله : « يَوْمَ التَّنَادِ » . وقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٣) الآية . وقوله : « وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا »(٤) ذكره ابن المبارك بمعناه . قال : وأخبرنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال : حدّثنا عبدالجبار بن عبيدالله بن سلمان فى قوله [تعالى] : « إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ » ثم تستجيب لهم أعينهم بالدمع فيبكون حتى ينفد الدمع ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فيبكون حتى ينفد الدم ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح . قال : يرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح ، فيبكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق فى الطين . وقيل : إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام فى الصور نفخة الفزع . ذكره على بن معبد والطبرى وغيرهما من حديث أبى هريرة ، وفيه " فتكون الأرض كالسفينة فى البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما فى بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨　　(٢) هو طرفة . فى اللسان : نواديه أمشى . يقول : إبل باركة نيام ، ونواديها أى ماند منها . ويروى هواديها أى أوائلها . أى أثارت مخافتى نوادي هذا البرك حال مشى إليه بالسيف .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١٦٨　　(٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٥

هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها و يولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضا وهى التى يقول الله تعالى : « يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » الحديث بكماله . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هنالك . وروى عن علىّ بن نصر عن أبى عمرو إسكان الدال من « التَّنَاد » فى الوصل خاصة . وروى أبو معمر عن عبد الوارث زيادة الياء فى الوصل خاصة وهو مذهب ورش . والمشهور عن أبى عمرو حذفها فى الحالين . وكذلك قرأ سائر السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه وسوى ابن كثير على ما تقدّم . وقيل : سمّى يوم القيامة يوم التناد؛ لأن الكافر ينادى فيه بالويل والثبور والحسرة . قاله ابن جريج . وقيل : فيه إضمار أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم التناد؛ فالله أعلم . ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ على البدل من « يَوْمِ التَّنَاد » ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى من خلق الله فى قلبه الضلال فلا هادى له . وفى قائله قولان : أحدهما موسى . الثانى مؤمن آل فرعون وهو الأظهر . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قيل : إن هذا من قول موسى . وقيل : هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء؛ وأراد يوسف ابن يعقوب جاءهم بالبينات « أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ »[(١)] قال ابن جريج : هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولا إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهى الرؤيا . وقال ابن عباس : هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيًّا

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٢

عشرين سنة . وحكى النقاش عن الضحاك : أن الله تعالى بعث إليهم رسولا من الجن يقال له يوسف . وقال وهب بن منبه : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر . وغيره يقول : هو آخر . النحاس : وليس في الآية ما يدل على أنه هو ؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعا بها وعليهم أن يصدقوه بها . ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أي أسلافكم كانوا في شك . ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أي من يدعي الرسالة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مشرك ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ شاك في وحدانية الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي في حججه الظاهرة ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أي بغير حجة و برهان و « الَّذِينَ » في موضع نصب على البدل من « مَنْ » وقال الزجاج : أي كذلك يضل الله الذين يجادلون في آيات الله فـ « الَّذِينَ » نصب . قال : ويجوز أن يكون رفعا على معنى هم الذين أو على الابتداء والخبر ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ . ثم قيل : هذا من كلام مؤمن آل فرعون . وقيل : ابتداء خطاب من الله تعالى . « مَقْتًا » على البيان أي « كَبُرَ » جدالهم « مَقْتًا » ؛ كقوله : « كَبُرَتْ كَلِمَةً »[(1)] ومقت الله تعالى ذمه لهم ولعنه إياهم و إحلال العذاب بهم . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ أي يختم ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق . وقراءة العامة « عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ » بإضافة قلب إلى المتكبر واختاره أبو حاتم وأبو عبيد . وفي الكلام حذف والمعنى : « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ » على كل « مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » فحذف « كُلّ » الثانية لتقدّم ما يدلّ عليها . و إذا لم يقدر حذف « كلّ » لم يستقم المعنى ؛ لأنه يصير معناه أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه . و إنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلبا قلبا . ومما يدل على حذف « كُلّ » قول أبي دُؤاد[(2)] :

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأً * ونارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نارا

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣ . (2) هو جارية بن الحجاج الإيادي . وقيل اسمه حنظلة بن الشرقي ؛ وكان في عصر كعب بن مامة الإيادي الذي يضرب به المثل في الجود . « الشعر والشعراء لابن قتيبة » .

يريد وكلّ نارٍ . وفى قراءة ابن مسعود « عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ » فهذه قراءة على التفسير والإضافة . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام « قلبٍ » منون على أن « متكبرٍ » نعت للقلب فكنى بالقلب عن الجملة ؛ لأن القلب هو الذى يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" ويجوز أن يكون على حذف المضاف ؛ أى على كل ذى قلب متكبر ؛ تجعل الصفة لصاحب القلب .

قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ لما قال مؤمن آل فرعون ما قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم ، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم ؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصرح . وقد مضى فى « القصص » ذكره[1] . ﴿ لَعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾ « أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ » بدل من الأول . وأسباب السماء أبوابها فى قول قتادة والزهرى والسدّى والأخفش ، وأنشد :

ومَنْ هاب أَسْبَابَ المنايا يَنَلْنَهُ * ولَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[2]

وقال أبو صالح : أسباب السموات طرقها . وقيل : الأمور التى تستمسك بها السموات . وكرر أسباب تفخيما ؛ لأن الشىء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيما لشأنه[3] . والله أعلم . ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى ﴾ فأنظر إليه نظر مشرف عليه . توهم أنه جسم تحويه الأماكن . وكان فرعون

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٨ فما بعد . (٢) البيت من معلقة زهير بن أبى سلمى .
(٣) فى ح « لبيانه » .

يدعى الألوهية ويرى تحقيقها بالجلوس فى مكان مشرف . وقراءة العامة « فَأَطَّلِعُ » بالرفع نسقا على قوله : « أَبْلُغُ » وقرأ الأعرج والسُّلَمِيّ وعيسى وحفص « فَأَطَّلِعَ » بالنصب ؛ قال أبو عبيدة : على جواب « لعل » بالفاء . النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع ؛ لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب ٱطلعت . ومعنى الرفع « لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ » ثم لعلى أطلع بعد ذلك ؛ إلا أن ثم أشد تراخيا من الفاء . ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أى وإنى لأظن موسى كاذبا فى ٱدعائه إلٰهًا دونى، وإنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة . وهذا يوجب شك فرعون فى أمر الله . وقيل : إن الظن بمعنى اليقين أى وأنا أتيقن أنه كاذب ، وإنما أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن ما أتيقنه .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [أى كما قال هذه المقالة وارتاب زيّن له الشيطان أو زين الله سوء عمله] (١) أى الشرك والتكذيب . ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ قراءة الكوفيين « وصُدَّ » على ما لم يسم فاعله وهو ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ ويجوز على هذه القراءة « وصِدّ » بكسر الصاد نقلت كسرة الدال على الصاد ؛ وهى قراءة يحيى بن وثّاب وعلقمة . وقرأ ٱبن أبى إسحق وعبد الرحمن بن بكرة « وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ » بالرفع والتنوين . الباقون « وَصَدَّ » بفتح الصاد والدال . أى صد فرعون الناس عن السبيل . ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أى فى خسران وضلال، ومنه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » (٢) وقوله : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » (٣) وفى موضع « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » (٤) فهدّ الله صرحه وغرّقه هو وقومه على ما تقدّم (٣) .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ

(١) ما بين المربعين ساقط من المطبوع ، وفى ن « زين له سوء عمله » .   (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٤ .
(٣) راجع جـ ٩ ص ٩٥ وص ٥٩ .   (٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٨٨ فما بعد .

حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى
ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ
دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ
هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمن آل فرعون؛ أى اقتدوا بى فى الدين . ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى طريق الهدى وهو الجنة . وقيل : من قول موسى . وقرأ معاذ بن جبل « الرَّشَّادِ » بتشديد الشين وهو لحن عند أكثر أهل العربية ؛ لأنه إنما يقال أرشد يُرشد ولا يكون فَعّال من أفعل إنما يكون من الثلاثى ، فإن أردت التكثير من الرباعى قلت : مِفْعال . قال النحاس : يجوز أن يكون رشّاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه ، ولكن كما يقال لَأّال من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جاريا عليه . ويجوز أن يكون رشاد من رشد يرشد أى صاحب رشّاد ؛ كما قال :

* كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ (1) *

الزمخشرى : وقرئ «الرَّشَّادِ» فَعّال من رَشِد بالكسر كعَلّام أو من رَشَد بالفتح كعبّاد . وقيل : من أرشد كجبّار من أجبر وليس بذاك ؛ لأن فعّالا من أفعل لم يجئ إلا فى عدّة أحرف : نحو دراك وسآر وقصّار وجبّار . ولا يصح القياس على هذا القليل . ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد كعوّاج وبتّات (2) غير منظور فيه إلى فعل . ووقع فى المصحف « اتَّبِعُونِ »

(1) البيت للنابغة الذبيانى وتمامه : * وليل أقاسيه بطىء الكواكب *

(2) العواج : بياع العاج ؛ والبتات : بياع البت وهو كساء غليظ .

بغير ياء . وقرأها يعقوب وابن كثير بالإثبات فى الوصل والوقف . وحذفها أبو عمرو ونافع فى الوقف وأثبتوها فى الوصل ، إلا ورشًا حذفها فى الحالين ، وكذلك الباقون ؛ لأنها وقعت فى المصحف بغير ياء ومن أثبتها فعلى الأصل .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أى يتمتع بها قليلا ثم تنقطع وتزول . ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى الاستقرار والخلود . ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان . بيّن ذلك بقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ يعنى الشرك ﴿ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وهو العذاب . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : يعنى لا إله إلا الله . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدق بقلبه لله وللأنبياء . ﴿ فَأُولَئِكَ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله . وهى قراءة ابن كثير وابن مُحَيْصن وأبى عمرو ويعقوب وأبى بكر عن عاصم ، يدل عليه ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الباقون « يَدْخُلُونَ » بفتح الياء .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ﴾ أى إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ بيّن أن ما قال فرعون من قوله : « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » سبيل الغيّ عاقبته النار وكانوا دعوه إلى اتباعه ؛ ولهذا قال : ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهو فرعون ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ . ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ تقدّم الكلام فيه[(١)] ، ومعناه حقا . ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ « مَا » بمعنى الذى ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ قال الزجاج : ليس له استجابة دعوة تنفع ؛ وقال غيره : ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ . وقال الكلبي : ليس له شفاعة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وكان فرعون أوّلا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، ثم دعاهم إلى عبادة البقر ، فكانت تُعبَد ما كانت شابة ، فإذا هَرِمت أمر بذبحها ، ثم دعا بأخرى لتعبد ، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى . ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ قال قتادة وابن سيرين : يعنى المشركين . وقال مجاهد والشعبي : هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها . وقال عِكرمة : الجبارون

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٠

والمتكبرون. وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله . وهذا جامع لما ذكر. و«أَنَّ» في المواضع في موضع نصب بإسقاط حرف الجر . وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن « لَاجَرَمَ » رد لكلام يجوز أن يكون موضع « أَنَّ » رفعا على تقدير وجب أن ما تدعوننى إليـه ، كأنه قال : وجب بطلان ما تدعوننى إليه ، والمردّ إلى الله ، وكون المسرفين هم أصحاب النار .

قوله تعـالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ تهديد ووعيد . و «ما» يجوز أن تكون بمعنى الذى أى الذى أقوله لكم . ويجوز أن تكون مصدرية أى فستذكرون قولى لكم إذا حلّ بكم العذاب . ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أتوكل عليه وأسلم أمرى إليه . وقيل : هذا يدل على أنهم أرادوا قتله . وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه . وقد قيل : القائل موسى . والأظهر أنه مؤمن آل فرعون ؛ وهو قول ٱبن عباس .

قوله تعـالى : فَوَقَـٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أى من إلحاق أنواع العـذاب به فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فوض أمره إلى الله . قال قتادة : كان قبطيا فنجاه الله مع بنى إسرائيل . فالهاء على هـذا لمؤمن آل فرعون . وقيل : إنها لموسى على ما تقدّم من الخلاف . ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُـوءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ قال الكسائى : يقـال حاق يحيق حَيْقا وحُيُوقا إذا نزل ولزم . ثم بين العذاب فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَـا ﴾ وفيه ستة أوجه : يكون رفعا على البدل من «سُوءُ» . ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء . وقال الفراء : يكون مرفوعا بالعائد على معنى النار عليها يعرضون ، فهذه أربعة أوجه فى الرفع، وأجاز الفراء النصب ؛ لأن بعـدها عائدا وقبلها ما يتصـل به ، وأجاز الأخفش الخفض على البـدل من « ٱلْعَذَابِ » . والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ . وٱحتج بعض أهل العلم فى تثبيت

عذاب القبر بقوله : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » ما دامت الدنيا . كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال : هذه الآية تدل على عذاب القبر فى الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ . وفى الحديث عن ابن مسعود : أن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشى فيقال هذه داركم . وعنه أيضا : إن أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها . وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال : سمعت ميمون بن [مهران] (١) يقول : كان أبو هريرة إذا أصبح ينادى : أصبحنا والحمد لله وعُرِضَ آلُ فرعون على النار . فإذا أمسى نادى : أمسينا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار . وفى حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكافر إذا مات عُرِض على النار بالغداة والعشى " ثم تلا « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » وإن المؤمن إذا مات عُرِض روحه على الجنة بالغداة والعشى " وخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " . قال الفراء : فى الغداة والعشى بمقادير ذلك فى الدنيا . وهو قول مجاهد . قال : « غُدُوًّا وَعَشِيًّا » قال : من أيام الدنيا . وقال حماد بن محمد الفزارى : قال رجل للأوزاعى رأينا طيورا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب ، بيضا صغارا فوجا فوجا لا يعلم عددها إلا الله ، فإذا كان العشاء رجعت مثلها سودا . قال : تلك الطيور فى حواصلها أرواح آل فرعون ، يعرضون على النار غدوا وعشيا ، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رياشها وصارت سودا ، فينبت عليها من الليل رياشها بيضا وتتناثر السود ، ثم تغدو فتعرض على النار غدوا وعشيا ، ثم ترجع إلى وكرها فذلك دأبها ما كانت فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو الهاوية . قال الأوزاعى : فبلغنا أنهم

(١) فى نسخ الأصل : « ميمون بن ميسرة » وهو تحريف ، والتصويب عن « التهذيب » .

ألفا ألف وستمائة ألف . و «غُدُوًّا» مصدر جعل ظرفا على السعة . و«عَشِيًّا» عطف عليه وتم الكلام . ثم تبتدئ « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » على أن تنصب يوما بقوله : « أَدْخِلُوا » ويجوز أن يكون منصوبا بـ « يُعْرَضُونَ » على معنى « يُعْرَضُونَ » على النار فى الدنيا « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ » فلا يوقف عليه . وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائى : « أَدْخِلُوا » بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل وهى آختيار أبى عبيد؛ أى يأمر الله الملائكة أن يدخلوهم، ودليله « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » . الباقون « ٱدْخُلُوا » بوصل الألف وضم الخاء من دخل أى يقال لهم : « ٱدْخُلُوا » يا « آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » وهو آختيار أبى حاتم . قال : فى القراءة الأولى : «آل» مفعول أول و «أَشَدَّ» مفعول ثان بحذف الجر، وفى القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف . وآل فرعون : من كان على دينه وعلى مذهبه، و إذا كان من كان على دينه ومذهبه فى أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك . وروى آبن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن العبد يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا منهم يحيى بن زكريا ولد مؤمنا وحيي مؤمنا ومات مؤمنا وإن العبد يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا منهم فرعون ولد كافرا وحيي كافرا ومات كافرا" ذكره النحاس . وجعل الفرّاء فى الآية تقديما وتأخيرا مجازه : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » . « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » فجعل العرض فى الآخرة، وهو خلاف ما ذهب إليه الجمهور من آنتظام الكلام على سياقه على ما تقدّم . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ أي يختصمون فيها ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الانقياد للأنبياء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشرك في الدنيا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أي متحملون ﴿ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ أي جزءا من العذاب. والتبع يكون واحدا ويكون جمعا في قول البصريين واحده تابع . وقال أهل الكوفة: هو جمع لا واحد له كالمصدر فلذلك لم يجمع ولو جمع لقيل أتباع . ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أي في جهنم . قال الأخفش : « كُلٌّ » مرفوع بالابتداء. وأجاز الكسائي والفراء «إِنَّا كُلًّا فِيهَا» بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر في « إِنَّا » وكذلك قرأ ابن السَّمَيْقَع وعيسى بن عمر . والكوفيون يسمون التأكيد نعتا . ومنع ذلك سيبويه ؛ قال : لأن « كُلًّا » لا تنعت ولا ينعت بها . ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره؛ وقال معناه المبرد قال : لا يجوز أن يبدل من المضمر هنا ؛ لأنه مخاطب ولا يبدل من المخاطَب ولا من المخاطِب؛ لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما ؛ هذا نص كلامه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أي لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره؛ فكل منا كافر .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من الأمم الكافرة . ومن العرب من يقول اللذون على أنه جمع مسلم معرب؛ ومن قال : « الَّذِينَ » في الرفع بناه كما كان في الواحد مبنيا . وقال الأخفش : ضمت النون إلى الذي فأشبه خمسةَ عشرَ فبني على الفتح . ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ خزنة جمع خازن ويقال : خُزّان وخُزّن . ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ « يُخَفِّفْ » جواب مجزوم وإن كان بالفاء كان منصوبا ؛ إلا أن الأكثر في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللغات كما قال[1] :

* قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ *

قال محمد بن كعب القرظي : بلغني أو ذكر لي أن أهل النار استغاثوا بالخزنة ؛ فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فسألوا يوما

(١) هو امرؤ القيس والبيت من معلقته ، وتمامه :

* بسقط اللوى بين الدخول فحومل *

واحدا يخفّف عنهم فيه العذابُ فردّت عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ الخبر بطوله . وفى الحديث عن أبى الدرداء خرجه الترمذى وغيره قال : يلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيأكلونه لا يغنى عنهم شيئا ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غُصَّة فيغَصُّون به ، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثوا بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها ، فإذا وقع فى بطونهم قطّع أمعاءهم وما فى بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة يقولون : « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فيجيبوهم « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى خسار وتبار .

قوله تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ويجوز حذف الضمة لثقلها فيقال : « رُسْلَنَا » والمراد موسى عليه السلام . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فى موضع نصب عطف على الرسل ، والمراد المؤمن الذى وعظ . وقيل : هو عام فى الرسل والمؤمنين ، ونصرهم بإعلاء الحجج و إفلاحها فى قول أبى العالية . وقيل : بالانتقام من أعدائهم . قال السدى : ما قَتَل قوم قط نبيا أو قوما من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم ، فصاروا منصورين فيها و إن قُتِلوا .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى يوم القيامة . قال زيد بن أسلم : « الْأَشْهَادُ » أربعة : الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد . وقال مجاهد والسدى : « الْأَشْهَادُ » الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب . وقال قتادة : الملائكة والأنبياء . ثم قيل :

« ٱلْأَشْهَادُ » جمع شهيد مثل شريف وأشراف . وقال الزجاج : « ٱلْأَشْهَادُ » جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب . النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعا أدِّي كما سمع[1]، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء : « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ » بالتاء على تأنيث الجماعة . وفي الحديث عن أبي الدرداء و بعض المحدثين يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من ردّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقا على الله عز وجل أن يردّ عنه نار جهنم" ثم تلا : «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا » . وعنه عليه السلام أنه قال : "من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة ملكا يحميه من النار ومن ذكر مسلما بشيء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال"[2] . ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من يوم الأول . ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ قرأ نافع والكوفيون « يَنفَعُ » بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ ﴾ « ٱللَّعْنَةُ » البعد من رحمة الله و« سُوءُ ٱلدَّارِ » جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَى ﴾ هذا دخل في نصرة الرسل في الدنيا والآخرة أي آتيناه التوراة والنبوة . وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنور ؛ وفي التنزيل : « إِنَّا أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ »[3] . ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة جعلناها لهم ميراثا . ﴿ هُدًى ﴾ بدل من الكتاب ويجوز بمعنى هو هدى ؛ يعني ذلك الكتاب . ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ أي موعظة لأصحاب العقول .

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ

(١) في ا ، ح ، ز : « ما جاء به مسموعا أدى على ما يسمع » .
(٢) رواه سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه . النحاس .   (٣) راجع ج ٦ ص ١٨٨ .

خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أى فاصبر يا محمد على أذى المشركين ، كما صبر من قبلك « إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ » بنصرك وإظهارك ، كما نصرت موسى وبنى إسرائيل . وقال الكلبي : نسخ هذا بآية السيف . ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ قيل : لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : لذنب نفسك على من يجوّز الصغائر على الأنبياء . ومن قال لا تجوز قال : هذا تعبد للنبي عليه السلام بدعاء ؛ كما قال تعالى : « وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا »(1) والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده . وقيل : فٱستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ يعنى صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : هى صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غُدْوة وركعتان عشيّة . عن الحسن أيضا ذكره الماوردى . فيكون هذا مما نسخ والله أعلم . وقوله : « بِحَمْدِ رَبِّكَ » بالشكر له والثناء عليه . وقيل : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى ٱستدم التسبيح فى الصلاة وخارجا منها لتشتغل بذلك عن ٱستعجال النصر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ يخاصمون ﴿ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أى حجة ﴿ أَتَاهُمْ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ قال الزجاج : المعنى ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه . قدره على الحذف . وقال غيره : المعنى ماهم ببالغى الكبر على غير حذف ؛ لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن ٱتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل ٱرتفاعهم ، ونقصت أحوالهم ، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا ، فأعلم الله عز وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذى أملوه بالتكذيب . والمراد المشركون . وقيل : اليهود ؛ فالآية مدنية على هذا كما تقدم أول السورة .

(1) راجع جـ ٤ ص ٣١٦ .

والمعنى : إن تعظَّموا عن آتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الدجال سيخرج عن قريب فيردّ الملك إلينا، وتسـير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله [فذلك كبر لا يبلغونه][1] فنزلت الآية فيهم . قاله أبو العالية وغيره . وقد تقدم فى « آل عمران »[2] أنه يخرج ويطأ البلاد كلها إلا مكة والمدينة . وقد ذكرنا خبره مستوفى فى كتاب « التذكرة » . وهو يهودى وآسمه صاف ويكنى أبا يوسف . وقيل : كل من كفر بالنبى صلى الله عليه وسلم . وهذا حسن ؛ لأنه يعم . وقال مجاهد : معناه فى صدورهم عظمة ماهم ببالغيها والمعنى واحد . وقيـل : المراد بالكبر الأمر الكبير أى يطلبون النبـوة أو أمرا كبيرا يصلون به إليـك من القتـل ونحوه ، ولا يبلغون ذلك . أو يتمنون موتك قبل أن يتم دينك ولا يبلغونه .

قوله تعـالى : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ قيل : من فتنة الدجال على قول من قال إن الآية نزلت فى اليهـود . وعلى القول الآخر من شر الكفار . وقيـل : من مثـل ما آبتلوا به من الكفر والكبر . ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ « هُوَ » يكون فاصلا ويكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن على ماتقدم .

قوله تعـالى : ﴿ لَخَـلْقُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ مبتدأ وخبره . قال أبو العاليـة : أى أعظم من خلق الدجال حين عظّمته اليهود . وقال يحيى بن سـلام : هو آحتجاج على منكرى البعث ؛ أى هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم آعتقدوا عجزى عنها ؟ . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ أى المؤمن والكافر والضال والمهتدى . ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَـاتِ ﴾ أى ولا يستوى العامل للصالحات ﴿ وَلَا ٱلْمُسِىءُ ﴾ الذى يعمل السيئات . ﴿ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ قراءة العامة بياء على الخـبر وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده . وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٩ وص ١٠٠ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ ﴾ هذه لام التأكيد دخلت فى خبر إن وسبيلها أن تكون فى أوّل الكلام؛ لأنها توكيد الجملة إلا أنها تُزحلق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه . تقول : إن عمرا لخارج؛ وإنما أخرت عن موضعها لئلا يجمع بينها وبين إنّ؛ لأنهما يؤدّيان عن معنى واحد، وكذا لا يجمع بين إنّ وأنّ عند البصريين . وأجاز هشام إنّ أنّ زيدا منطلق حقّ؛ فإن حذفت حقّا لم يجز عند أحد من النحويين علمته؛ قاله النحاس . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ لا شك ولا مرية . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لا يصدّقون بها وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصى .

قوله تعالى : وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الآية؛ روى النعمان بن بشير قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " الدعاء هو العبادة " ثم قرأ « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة . وكذا قال أكثر المفسرين ؛

وأن المعنى : وحّدونى واعبدونى أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . وقيل : هو الذكر والدعاء والسؤال . قال أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسْع نعله إذا ٱنقطع " ويقال الدعاء : هو ترك الذنوب . وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال : أعطِيَتْ هذه الأمة ثلاثا لم تُعْطهن أمة قبلهم إلا نبيّ : كان إذا أرسل نبيّ قيل له أنت شاهد على أمتك ، وقال تعالى لهذه الأمة : « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » وكان يقال للنبيّ : ليس عليك فى الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وكان يقال للنبيّ ٱدعنى أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : « ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

قلت : مثل هذا لا يقال من جهة الرأى . وقد جاء مرفوعا ؛ رواه ليث عن شهر ابن حَوْشَب عن عبادة بن الصامت ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أعطيت أمتى ثلاثا لم تُعط إلا للأنبياء كان الله تعالى إذا بعث النبيّ قال ٱدعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة : « ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وكان الله إذا بعث النبيّ قال : ما جعل عليك فى الدين من حرج وقال لهذه الأمة : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(١) وكان الله إذا بعث النبيّ جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس " ذكره الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » .
وكان خالد الربعى يقول : عجيب لهذه الأمة ! قيل لها : « ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أمرهم بالدعاء ووعدهم الاستجابة وليس بينهما شرط . قال له قائل : مثل ماذا ؟ قال : مثل قوله تعالى : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »(٢) فهاهنا شرط ، وقوله : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ »(٣) ، فليس فيه شرط العمل ؛ ومثل قوله : « فَٱدْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » فهاهنا شرط ، وقوله تعالى : « ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » ليس فيه شرط . وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها فى حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك . وقد قيل : إن هذا من باب المطلق والمقيد على ماتقدم فى « البقرة »(٢) بيانه . أى « أَسْتَجِبْ لَكُمْ » إن شئت ؛ كقوله : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »(٤) . وقد تكون الاستجابة فى غير عين المطلوب على حديث أبى سعيد الخدرى على ماتقدم

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٩ .		(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ و جـ ٢ ص ٣٠٩ .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٥ .		(٤) راجع جـ ٦ ص ٤٢٣ .

فى ﴿ البقرة ﴾ [١] بيانه فتأمله هناك . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورُوَيس عن يعقوب وعيّاش عن أبى عمرو وأبو بكر والمفضّل عن عاصم ﴿ سَيُدْخَلُونَ ﴾ بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسمّ فاعله . الباقون ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ بفتح اليـاء وضم الخاء . ومعـنى ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين أذلاء وقد تقدّم [٢] .

قوله تعـالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ ﴿ جَعَلَ ﴾ هنا بمعنى خلق ؛ والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق ؛ فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين ؛ نحو قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ وقد مضى هذا المعنى فى غير موضع [٣] . ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى مضيئا لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا فى طلب معائشكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فضله وإنعامه عليهم .

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ بيّن الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أى كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمـان بعد أن تبينت لكم دلائله كذلك ؛ أى كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه فـ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ يصرف عن الحق ﴿ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ زاد فى تأكيد التعريف والدليل ؛ أى جعل لـكم الأرض مستقرا لـكم فى حياتكم وبعد الموت . ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَـاءً ﴾ تقـدّم [٤] . ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أى خلقكم فى أحسن صورة . وقرأ أبو رزين والأشهب العقيلى « صِوَرَكُمْ » بكسر الصاد ؛ قال الجوهرى : والصِّوَر بكسر الصاد لغة فى الصُّوَر جمع صورة ، وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى :

أشْبَهْنَ مِن بَقَـرِ الخَلْصَاءِ أعْيُنَهَـا * وهُنَّ أحْسَنُ مِن صِيرانِها صِوَرَا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣١٠ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١١ وجـ ١٣ ص ٢٤٢ .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٨٦ . (٤) راجع جـ ١ ص ٢٢٩ .

[والصِّيران جمع صُوار وهو القطيع من البقر والصِّوار أيضا وعاء المسك][(١)] وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاحَ الصِّوارُ ذكرتُ لَيْلَى * وأذكُرها إذا نَفَح الصِّوَارُ

والصِّيارُ لغة فيه . ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ تقدّم[(٢)] . ﴿ هُوَ الحَيُّ ﴾ أى الباقى الذى لا يموت ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى الطاعة والعبادة . ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ قال الفراء : هو خبر وفيه إضمار أمر أى ادعوه واحمدوه . وقد مضى هذا كله مستوفى فى «البقرة»[(٣)] وغيرها . وقال ابن عباس : من قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » فليقل « الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ » .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ أى قل يا محمد : نهانى الله الذى هو الحى القيوم ولا إله غيره ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ غيره . ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ البَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ أى دلائل توحيده ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أذل وأخضع ﴿ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ وكانوا دعوه إلى دين آبائه ، فأمر أن يقول هذا .

---

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى لا يتم الكلام إلا بها .

(٢) راجع ج ٢ ص ٢٢٣ . وج ١ ص ١٣٦ .

(٣) مضى هذا الكلام للصنف فى تفسير الفاتحة ج ١ ص ١٣٦ فليراجع هناك لا فى البقرة ولعل ما فى الأصل تحريف .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أى أطفالا . وقد تقدّم هذا[1] . ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ وهى حالة آجتماع القوة وتمام العقل . وقد مضى فى « الأنعام »[2] بيانه . ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ بضم الشين قراءة نافع وآبن محيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل ؛ لأنه جمع فَعْل ، نحو : قَلْب وقُلُوب ورأس ورءوس . وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة ، وفى العدد القليل أشياخ والأصل أشيخ ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة فى الياء ثقيلة . وقرئ « شَيْخًا » على التوحيد ؛ كقوله : « طِفْلًا » والمعنى كل واحد منكم ؛ وآقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس . وفى الصحاح : جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيخة وشيخان ومَشْيخة ومَشَايخ ومَشْيوخاء ، والمرأة شَيخة . قال عَبيد[3] :

* كأنّها شَيْخَةٌ رَقُوبُ[4] *

وقد شاخ الرجلُ يَشيخ شَيخًا بالتحريك على أصله وشَيْخوخة ، وأصل الياء متحركة فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فعلول . وشَيَّخ تَشْييخا أى شاخ . [وشَيَّخته][5] دعوته شيخا للتبجيل . وتصغير الشيخ شُيَيخ وشِيَيخ أيضا بكسر الشين ولا تقل شُوَيخ . النحاس : وإن آضطر شاعر جاز أن يقول أشيخ مثل عين وأعين إلا أنه حسن فى عين ؛ لأنها مؤنثة . والشيخ من جاوز أربعين سنة . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ قال مجاهد : أى من قبل أن يكون شيخا ، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا . ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ﴾ قال مجاهد : الموت للكل . واللام لام العاقبة . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إله غيره .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ فما بعد .

(٣) هو عبيد بن الأبرص .

(٤) الرقوب : التى ترقب ولدها خوف أن يموت . والبيت فى وصف فرسه ؛ وتمامه :

* باتت على أرم عذوبا *

(٥) الزيادة من كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ زاد في التنبيه أي هو الذي يقدر على الإحياء والإماتة . ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ أي أراد فعله قال : ﴿ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . ونصب « فيكون » ابن عامر على جواب الأمر . وقد مضى في « البقرة »(١) القول فيه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ قال ابن زيد : هم المشركون بدليل قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ . وقال أكثر المفسرين : نزلت في القدرية . قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٨ فما بعد .

فلا أدرى فيمن نزلت . قال أبو قبيل : لا أحسب المكذّبين بالقدَر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا . وقال عقبة بن عامر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "نزلت هذه الآية في القدَرية" ذكره المهدوى .

قوله تعـالى : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم . قال التيمى : لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وضع على جبـل لوَهَصه حتى يبلغ المـاء الأسـود . ﴿ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ بالرفع قراءة العامـة عطفا على الأغلال. قال أبو حاتم : ﴿يُسْحَبُونَ﴾ مستأنف على هذه القراءة . وقال غيره : هو فى موضع نصب على الحال ، والتقدير : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ » مسحوبين . وقـرأ ٱبن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وٱبن مسعود « والسَّلاسِلَ » بالنصب « يَسْحَبُونَ » بفتح الياء والتقدير فى هذه القراءة ويسحبون السلاسل . قال ٱبن عباس : إذا كانوا يجرونها فهو أشدّ عليهم . وحكى عن بعضهم « والسلاسِلِ » بالجـر ووجهه أنه محمول على المعنى ؛ لأن المعنى أعناقهم فى الأغلال والسلاسل ؛ قاله الفـرّاء . وقال الزجاج : ومن قـرأ « والسلاسِلِ يسحبون » بالخفض فالمعنى عنده وفى « السلاسِلِ يُسْحَبُونَ » . قال ٱبن الأنبارى : والخفض على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت زيد فى الدار لم يحسن أن تضمر «فى» فتقول زيد الدارِ، ولكن الخفض جائز على معنى إذ أعناقهم فى الأغلال والسلاسل ، فتخفض السلاسل على النسق على تأويل الأغلال ؛ لأن الأغلال فى تأويل الخفض ؛ كما تقول : خاصم عبد الله زيدا العاقلين فتنصب العاقلين . ويجوز رفعهما ؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه صاحبه ؛ أنشـد الفرّاء :

قد سَالَم الحياتِ منه القدَمَا * الأُفْعُـوَانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما[1]

فنصب الأفعوان على الإتباع للحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم . فمن نصب السلاسل أو خفضها لم يقف عليها . و «الحميم » المتناهى فى الحر . وقيل : الصديد المغلى . ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ

(١) الشجعم : الضخم من الحيات .

يُسْجَرُونَ ﴾ أي يطرحون فيها فيكونون وقودا لها؛ قاله مجاهد . يقال : سجرت التنور أي أوقدته، وسجرته ملأته؛ ومنه « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ »(١) أي المملوء . فالمعنى على هذا تملأ بهم النار؛ وقال الشاعر يصف وعلا :

إذا شاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً * تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ والسَّمْسَمَا

أي عينا مملوءة . ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أي هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب؛ من ضلّ الماءُ في اللبن أي خفي . وقيل : أي صاروا بحيث لا نجدهم . ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي شيئا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع . وليس هذا إنكارا لعبادة الأصنام؛ بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي ذلكم العذاب ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ بالمعاصي يقال لهم ذلك توبيخا . أي إنما نالكم هذا بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة . وقيل إن فرحهم بها عندهم أنهم قالوا للرسل : نحن نعلم أنا لا نبعث ولا نعذّب . وكذا قال مجاهد في قوله جل وعز : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أي تبطرون وتأشرون . وقد مضى في « سبحان »(١) بيانه . وقال الضحاك : الفرح السرور، والمرح العدوان . وروى خالد عن ثور عن معاذ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لحِمين(٢) ويبغض كل حبر سمين" فأما أهل بيت لحمين : فالذي يأكلون لحوم الناس بالغيبة . وأما الحبر السمين : فالمتحبر بعلمه ولا يخبر بعلمه الناس؛ يعني المستكثر من علمه ولا ينتفع به الناس . ذكره الماوردي . وقد قيل في

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٥٨ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٠ فما بعد .

(٣) الحديث في النهاية "إن الله ليبغض أهل البيت اللحمين" .

اللحِمين[(١)] : أنهم الذين يكثرون أكل اللحم ؛ ومنه قول عمر : اتقوا هذه المجازر فإنّ لها ضراوة كضراوة الخمر؛ ذكره المهدوى . والأول قول سفيان الثورى . ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك اليوم ، وقد قال الله تعالى : « لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ »[(٢)] . ﴿ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ تقدم جميعه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ هذا تسلية للنبي عليه السلام ؛ أى إنا لننتقم لك منهم إما فى حياتك أو فى الآخرة . ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ فى موضع جزم بالشرط وما زائدة للتوكيد وكذا النون وزال الجزم وبنى الفعل على الفتح . ﴿ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف عليه ﴿ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ الجواب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ ﴾ عزّاه أيضا بما لقيت الرسل من قبله . ﴿ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ ﴾ أى أنبأناك بأخبارهم وما لقوا من قومهم . ﴿ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ ﴾ أى من قبل نفسه ﴿ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ أى إذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكهم الله ، وإنما التأخير لإسلام من علم الله إسلامه منهم، ولمن فى أصلابهم من المؤمنين . وقيل : أشار بهذا إلى القتل ببدر . ﴿ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أى الذين يتبعون الباطل والشرك .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : الأنعام ها هنا الإبل . ﴿ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فاحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأنّ

(١) الضراوة فى قول عمر : العادة فى النفس الطالبة لأكل اللحم ، وهى حال ناشئة عن الاعتياد .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٠ وص ١٠٠ فما بعد .

الله عز وجل قال فى الأنعام : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وقال فى الخيل : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا » ولم يذكر إباحة أكلها . وقد مضى هذا فى « النحل »(١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ فى الوبر والصوف والشعر واللبن والزبد والسمن والجبن وغير ذلك . ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أى تحمل الأثقال والأسفار . وقد مضى فى « النحل »(١) بيان هذا كله فلا معنى لإعادته . ثم قال : ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ يعنى الأنعام فى البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ فى البحر ﴿ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى آياته الدالة على وحدانيته وقدرته فيما ذكر . ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ نصب « أيا » بـ « تنكرون » ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ماقبله ، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار فى « أى » الرفع ، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب ؛ أى إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عددا ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع ؛ يقال : دلوت بفلان إليك أى استشفعت

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٦ فما بعد وص ٧١ فما بعد .

به إليك . وعلى هذا « ما » للجحد أى فلم يغن عنهم ذلك شيئا . وقيـل : « ما » للاستفهام أى أىّ شىء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا . ولم ينصرف « أَكْثَرَ » ؛ لأنه على وزن أفعل . وزعم الكوفيون أن كل مالا ينصرف فإنه يجـوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا فإنه لا يجوز صرفه بوجه فى شعر (١) ولا غيره إذا كانت معه من . قال أبو العباس : ولو كانت من المـانعة من صرفه لوجب ألا يقال : مررت بخير منك وشر [منك (٢) و] من عمرو .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالآيات الواضحات . ﴿ فَرِحُوا بِمَـا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِـلْمِ ﴾ فى معناه ثلاثة أقوال . قال مجاهد : إن الكفار الذين فرحوا بمـا عندهم من العلم قالوا : نحن أعلم منهم لن نعذّب ولن نبعث . وقيل : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحـو « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا (٣) » . وقيل : الذين فرحوا الرسل لمّـا كذبهم قومهم أعلمهم الله عز وجل أنه مهلك الكافرين ومنجيهم والمؤمنين فـ « فَرِحُوا بِمَـا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ » بنجاة المؤمنين ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى بالكفار ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب آستهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أى عاينوا العذاب . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَـا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى بالأوثان التى أشركناهم فى العبادة ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَـانُهُمْ ﴾ بالله عنـد معاينة العذاب وحين رأوا البأس . ﴿ سُـنَّةَ اللَّهِ ﴾ مصدر ؛ لأن العرب تقول : سَنّ يسن سنّا وسُنّة ؛ أى سنّ الله عز وجل فى الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب . وقد مضى هـذا مبينا فى « النساء (٤) » و « يونس (٥) » وأن التوبة لا تقبل بعـد رؤية العذاب وحصول العـلم الضرورى . وقيـل : أى آحذروا يأهل مكة سـنّة الله فى إهلاك الكفرة فـ « سنّة الله » منصوب على التحذير والإغراء . ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ قال الزجاج : وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه بيّن لنا الخسران لمـا رأوا العذاب . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى « لَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَـانُهُمْ لَمَّـا رَأَوْا بَأْسَنَا » « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » كسنتنا فى جميـع الكافرين فـ « سنة » نصب بنزع الخافض أى كسـنّة الله فى الأمم كلها . والله أعلم . تم تفسير سورة « غافر » والحمد لله .

---

(١) عبارة الأصول : « فى معرفة ولا غيره » . والتصويب من النحاس . (٢) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٧ . (٤) راجع جـ ٥ ص ٩٢ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٣٨٤ .

سورة فصلت مكية في قول الجميع

وهي أربع وخمسون ، وقيل : ثلاث وخمسون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال الزجاج : « تَنْزِيلٌ » رفع بالابتداء وخبره ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ وهذا قول البصريين . وقال الفراء : يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا . ويجوز أن يقال: « كِتَابٌ » بدل من قوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : نعت لقوله : « تَنْزِيلٌ » . وقيل : « حمٓ » أى هذه « حمٓ » كما تقول باب كذا، أى هو باب كذا ف « حمٓ » خبر ابتداء مضمر أى هو « حمٓ »، وقوله « تَنْزِيلٌ » مبتدأ آخر، وقوله : « كِتَابٌ » خبره . « فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » أى بينت وفسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته . الحسن : بالوعد والوعيد . سفيان : بالثواب والعقاب . وقرئ « فَصَلَتْ » أى فرقت بين الحق والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك فصل أى تباعد من البلد . ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فى نصبه وجوه ؛ قال الأخفش : هو نصب على المدح . وقيل : على إضمار فعل؛ أى أذكر « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على إعادة الفعل؛ أى فصلنا « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : على الحال أى « فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » فى حال كونه « قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقيل : لما شغل « فُصِّلَتْ » بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل انتصب « قُرْآنًا » لوقوع البيان عليه . وقيل : على القطع . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الضحاك : أى إن

القرآن منزل من عنـد الله . وقال مجاهد : أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل . وقيل : يعلمون العربية فيعجزون عن مثله . ولو كان غير عربيّ لما علموه .

قلت : هذا أصح ، والسورة نزلت تقريعا وتوبيخا لقريش في إعجاز القرآن . ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان من الآيات والعامل فيه « فُصِّلَتْ » . وقيل : همـا نعتان للقرآن « بَشِيرًا » لأولياء الله « نَذِيرًا » لأعدائه . وقرئ « بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ » صـفة للكتاب . أو خبر مبتـدإ محذوف . ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهـل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سمـاعا ينتفعون به . وروى أن الريان بن حرملة قال : قال الملأ من قريش وأبو جهل قـد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالمـا بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ؛ فقال عتبـة ابن ربيعة : والله لقـد سمعت الكهانة والشـعر والسحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى عليّ إن كان كذلك . فقالوا : إيتـه فحدّثه . فأتى النبيّ صلى الله عليـه وسلم فقال له : يا محمد ! أنت خير أم قصيّ بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبـد المطلب ؟ أنت خير أم عبـد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسـفّه أحلامنا ، وتذم ديننـا ؟ فإن كنت إنمـا تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنـات قريش شئت ، وإن كنت تريد المـال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان هـذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنـا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك . والنبي صلى الله عليـه وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : " قد فرغت يا أبا الوليد[(1)] " ؟ قال : نعم . فقال : "يابن أخي اسمع" قال : أسمـع . قال : « بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ . حـمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » إلى قوله : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُـودَ » فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي صلى الله عليـه وسلم ، وناشده الله والرحم ليسكُتَنّ ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل ؛ فقال :

(١) كذا في « ن » . والذي في أ : « ... فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال اسمع ، بسم الله ... » . وفي ح ، ل : « . . . فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال بسم الله . . . » .

أصبوتَ إلى محمد ؟ أم أعجبكَ طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد تعلمون أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى لما قصصت عليه القصة أجابنى بشىء والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ماسمع منه إلى قوله : « مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » وأمسكت بفيه وناشدته بالرَّحم أن يكفّ ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب ؛ يعنى الصاعقة . وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد له عن محمد بن كعب القرظى، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « حمٓ . فُصِّلَتْ » حتى آنتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغ يستمع ، قد آعتمد على يديه من وراء ظهره ، فلما قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة قال له : "يا أبا الوليد قد . سمعتَ الذى قرأتُ عليك فأنت وذاك" فآنصرف عتبة إلى قريش فى ناديها فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى مضى به من عندكم . ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد؟ قال : والله لقد سمعت كلاما من محمد ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطيعونى فى هذه وأنزلوها بى ؛ خلُّوا محمدا وشأنه وآعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كُفيتموه بأيدى غيركم ، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به ؛ لأن مُلْكه مُلْككم وشَرَفه شرفُكم . فقالوا : هيهات ! سحرك محمد ياأبا الوليد . وقال : هذا رأيى لكم فآصنعوا ما شئتم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ الأكنة جمع كِنان وهو الغطاء . وقد مضى فى « البقرة »(١) . قال مجاهد : الكِنان للقلب كالجنة للنبل . ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أى صَمَم ؛ فكلامك لايدخل أسماعنا ، وقلوبنا مستورة عن فهمه . ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ أى خلاف فى الدين ، لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل . قال معناه الفراء وغيره . وقيل : ستر مانع عن الإجابة . وقيل : إن أباجهل آستغشى على رأسه ثوبا وقال : يامحمد بيننا وبينك حجاب . آستهزاء منه . حكاه النقاش وذكره القشيرى . فالحجابُ هنا

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٥

الثوب . ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أى آعمل فى هلاكنا فإنا عاملون فى هلاكك(١)؛ قاله الكلبى . وقال مقاتل : آعمل لإلهك الذى أرسلك ، فإنا نعمل لآلهتنا التى نعبدها . وقيل : آعمل بما يقتضيه دينك ، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا . ويحتمل خامسا(٢) : فاعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا ؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى لست بملك بل أنا من بنى آدم . قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع . ﴿ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى من السماء على أيدى الملائكة ﴿ إِنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ﴿ فَ ﴾ آمنوا به و ﴿ آسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ أى وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه ، كما يقول الرجل : آستقم إلى منزلك ؛ أى لا تعرج على شىء غير القصد إلى منزلك . ﴿ وَآسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى من شرككم . ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قال آبن عباس : لا يشهدون « أن لا إله إلا الله » وهى زكاة الأنفس . وقال قتادة : لا يقرون بالزكاة أنها واجبة . وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة . قرّعهم بالشح الذى يأنف منه الفضلاء ، وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه . وقال الفراء وغيره : كان المشركون ينفقون النفقات ، و يسقون الحجيج و يطعمونهم ، فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فنزلت فيهم هذه الآية . ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فلهذا لا ينفقون فى الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون .

---

(١) فى ح ، ل : « فإنا عاملون فى مثل ذلك » . (٢) لم يذكر المصنف إلا أربعة أقوال ولعل الخامس ما ذكره الكشاف : « فاعمل فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك » .

الزمخشري : فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ؟ قلت : لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته [واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته[(١)]] ألا ترى إلى قوله عز وجل : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ[(٢)] » أي يثبتون أنفسهم ، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة[(٣)] من الدنيا ، فقويت عصبيتهم ولانت شكيمتهم ، وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحروب وجوهدوا . وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس : غير مقطوع ، مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته ، ومنه قول ذي الإصبع :

إنِّي لَعَمْرُكَ مابابي بِذِي غَلَقٍ * على الصَّدِيقِ ولا خَيْرِي بِمَمْنُونِ[(٤)]

وقال آخر :

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ * ـعِ مَنِينًا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ

يعني بالمنين الغبار المنقطع الضعيف . وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : غير منقوص . ومنه المنون ، لأنها تنقص مُنَّة الإنسان أي قوته ، وقاله قطرب ، وأنشد قول زهير :

فَضْلَ الجِيادِ على الخَيْلِ البِطاءِ فَلَا * يُعْطِي بِذلِكَ مَمْنُونًا ولا نَزِقَا[(٥)]

قال الجوهري : والمن القطع ، ويقال النقص ، ومنه قوله تعالى : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » . وقال لبيد :

* غُبْسٌ كَوَاسِبُ لَا يُمَنُّ طَعَامُهَا[(٦)] *

---

(١) الزيادة من تفسير الزمخشري . (٢) راجع ج ٣ ص ٣١٤ .
(٣) اللمظة في اللغة : النكتة من بياض أو سواد ، والمراد بها هنا الشيء اليسير من حطام الدنيا .
(٤) ويروى : ولازادي بممنون . (٥) البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان .
(٦) صدر البيت : * لمعفر قهد تنازع شلوه *
وقد وقع هذا البيت غلطا في بعض نسخ الجوهري فراجع تحقيقه في اللسان مادة « من » .

وقال مجاهد: «غَيْرُ مَمْنُونٍ» غير محسوب. وقيل: «غَيْرُ مَمْنُونٍ» عليهم به. قال السدى: نزلت فى الزَّمْنَى والمَرْضَى والهَرْمَى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه.

قوله تعالى: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ «أَئِنَّكُمْ» بهمزتين الثانية بين بين و«أَائِنَّكُمْ» بألف بين همزتين وهو آستفهام معناه التوبيخ. أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم؛ أى لِمَ تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرض؟! «فِى يَوْمَيْنِ» الأحد والآثنين. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أى أضدادا وشركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أى فى الأرض ﴿رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ يعنى الجبال. وقال وهب: لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء؛ فقال لجبريل: ثَبِّتها ياجبريل. فنزل فأمسكها فغلبته الرياح، قال: يارب أنت أعلم لقد غُلِبت فيها فثبّتها بالجبال وأرساها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. قال السدى: أنبت فيها شجرها. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ قال السدى والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها فى يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى «قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» أى أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من

التجارات والأشجار والمنافع فى كل بلدة مالم يجعله فى الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد . قال عكرمة : حتى إنه فى بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلا بمثل . وقال مجاهد والضحاك : السابرى من سابور، والطيالسة من الرى، والحبر اليمانية من اليمن . ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يعنى فى تتمة أربعة أيام . ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام، وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما؛ أى فى تتمة خمسة عشر يوما . قال معناه ابن الأنبارى وغيره . ﴿ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ قال الحسن : المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة . الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى : وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين . واختاره الطبرى . وقرأ الحسن البصرى ويعقوب الحضرمى « سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ » بالجر . وعن ابن القعقاع « سَوَاءٌ » بالرفع؛ فالنصب على المصدر و « سَوَاءً » بمعنى استواء أى استوت استواء . وقيل : على الحال والقطع؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أى « فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ » مستوية تامة . والرفع على الابتداء والخبر « لِلسَّائِلِينَ » أو على تقدير هذه « سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ » . وقال أهل المعانى : معنى « سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ » ولغير السائلين؛ أى خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويعطى من سأل ومن لا يسأل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أى عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها . والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال؛ يدل عليه قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » وقد مضى القول هناك (١) . وروى أبو صالح عن ابن عباس فى قوله : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » يعنى صعد أمره إلى السماء؛ وقاله الحسن . ومن قال : إنه صفة ذاتية زائدة قال : استوى فى الأزل بصفاته . و« ثُمَّ » ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس؛ على ما مضى فى « البقرة » (١) عن ابن مسعود وغيره . ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أى جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجاها لخلقى . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسماء : أطلعى شمسك

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥٤

وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شُقِّي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» . وفي الكلام حذف أي أتينا أمرك «طَائِعِينَ» . وقيل : معنى هذا الأمر التسخير؛ أي كونا فكانتا كما قال تعالى : «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»(١) فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما . وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما ، وهو قول الجمهور . وفي قوله تعالى لهما وجهان : أحدهما أنه قول تكلم به . الثاني أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد؛ ذكره الماوردي . «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» فيه أيضا وجهان : أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ؛ ومنه قول الراجز :

امْتَلأَ الحَوْضُ وقال قَطْنِي * مَهْلًا رُوَيْدًا قَدْ مَلأْتُ بَطْنِي

يعني ظهر ذلك فيه . وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى؛ قال أبو نصر السكسكي : فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء ما بحيالها ، فوضع الله تعالى فيه حَرَمه . وقال : «طَائِعِينَ» ولم يقل طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سموات وأرضون؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما . وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراهما في الكناية مجرى من يعقل ، ومثله : «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»(٢) وقد تقدّم . وفي حديث : إن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يارب لو أن السموات والأرض حين قلت لهما «ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» عصياك ما كنت صانعا بهما ؟ قال كنت آمر دابة من دوابي فتبتلعهما . قال : يا رب وأين تلك الدابة ؟ قال : في مَرْج من مُرُوجي . قال : يا رب وأين ذلك المرج ؟ قال عِلْم من علمي . ذكره الثعلبي . وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة «آتِيَا» بالمدّ والفتح . وكذلك قوله : «آتَيْنَا طَائِعِينَ» على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما «قَالَتَا» أعطينا «طَائِعِينَ» فحذف المفعولين جميعا . ويجوز وهو أحسن أن يكون «آتَيْنَا» فاعلنا فحذف مفعول واحد . ومن قرأ «آتَيْنَا» فالمعنى جئنا بما فينا؛ على ما تقدّم بيانه في غير ما موضع والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٦ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٤ وجـ ٩ ص ١٢٢

قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى أكملهنّ وفرغ منهنّ . وقيل : أحكمهنّ كما قال(١) :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا * دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة أيام ؛ كما قال تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » على ما تقدّم فى « الأعراف(٢) » بيانه . قال مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون . وعن عبد الله بن سَلَام قال : خلق الله الأرض فى يومين ، وقدّر فيها أقواتها فى يومين ، وخلق السموات فى يومين ؛ خلق الأرض فى يوم الأحد والاثنين ، وقدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق السموات فى يوم الخميس ويوم الجمعة ، وآخر ساعة فى يوم الجمعة خلق الله آدم فى عَجَل ، وهى التى تقوم فيها الساعة ، وما خلق الله من دابة إلا وهى تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن(٣) . على هذا أهل التفسير ؛ إلا مارواه مسلم من حديث أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ، فقال : "خلق الله التربة يوم السبت" الحديث ، وقد تكلمنا على إسناده فى أول سورة «الأنعام»(٤) . ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال قتادة والسّدى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وخلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج . وهو قول ابن عباس ؛ قال : ولله فى كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذى فى السماء الدنيا هو البيت المعمور . وقيل : أوحى الله فى كل سماء ؛ أى أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها . والإيحاء قد يكون أمرا ؛ لقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(٥) » وقوله : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ(٤) » أى أمرتهم وهو أمر تكوين . ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أى بكواكب تضيء . وقيل : إن فى كل سماء كواكب تضيء . وقيل : بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا . ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أى وحفظناها حفظا ؛ أى من الشياطين الذين يسترقون السمع . وهذا

---

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . والصنع بفتحين : الحاذق . (٢) راجع ج ٧ ص ٢١٩

(٣) فى ا ، ز ، ل : «الإنس والشياطين» . (٤) راجع ج ٦ ص ٣٨٤ وص ٣٦٣ (٥) راجع ج ٢٠ ص ١٤٨

الحفظ بالكواكب التي تُرجم بها الشياطين على ما تقدّم في « الحِجْر »(١) بيانه . وظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء . وقال في آية أخرى : « أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا »(٢) ثم قال : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » وهذا يدل على خلق السماء أوّلا . وقال قوم : خلقت الأرض قبل السماء ؛ فأما قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » فالدَّحْوُ غير الخلق ؛ فالله خلق الأرض ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض أي مدّها وبسطها ؛ قاله ٱبن عباس . وقد مضى هذا المعنى مجوّدا في « البقرة »(٣) والحمد لله . ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يعني كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان . ﴿ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي خوفتكم هلاكا مثل هلاك عاد وثمود . ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعني من أرسل إليهم وإلى من قبلهم ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ موضع «أنْ» نصب بإسقاط الخافض أي بـ«ألَّا تَعْبُدُوا» و ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ بدل الرسل ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ من الإنذار والتبشير . قيل : هذا ٱستهزاء منهم . وقيل : إقرار منهم بإرسالهم ثم بعده جحود وعناد .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ (٣) راجع جـ ١ ص ٢٥٥

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهددهم بالعذاب ، وقالوا : نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا . وذلك أنهم كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم . وقد مضى فى « الأعراف »(١) عن ابن عباس : أن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعا . فقال الله تعالى ردًّا عليهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقدرة ، وإنما يقدر العبد بإقدار الله ؛ فالله أقدر إذًا . ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى بمعجزاتنا يكفرون .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ هذا تفسير الصاعقة التى أرسلها عليهم ؛ أى ريحا باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب . ويقال : أصلها صَرَّرَ من الصِّرّ [وهو البرد](٢) فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل ؛ كقولهم كَبْكَبوا أصله كَبَّبوا ، وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفّف . أبو عبيدة : معنى صَرْصَر : شديدة عاصفة . عكرمة وسعيد بن جبير : شديدة البرد . وأنشد قُطْرُب قول الحطيئة :

المُطْعِمون إذا هبّتْ بصَرْصَرةٍ * والحاملون إذا آستُودُوا على النّاسِ

آستودوا : إذا سئلوا الدية . مجاهد : الشديدة السموم . وروى معمر عن قتادة قال : باردة . وقاله عطاء ؛ لأن « صَرْصَرًا » مأخوذ من صرّ والصرّ فى كلام العرب البرد كما قال(٣) :

لها عُذَرٌ كقُرون النِّسا * ءِ رُكِّبْنَ فى يومِ ريحٍ وصِرّ

وقال السدى : الشديدة الصّوت . ومنه صَرّ القلمُ والباب يصِرّ صريرا أى صَوَّت . ويقال : درهم صَرِّىٌّ وصِرِّىٌّ للذى له صوت إذا نُقِد . قال ابن السِّكِّيت : صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر وهو البرد ، ويجوز أن يكون من صرير الباب ، ومن الصَّرة وهى الصيحة . ومنه « فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ »(٤) . وصَرْصَر اسم نهر بالعراق . ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ أى مشئومات ؛

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ فما بعد . (٢) الزيادة من اللسان عن ابن السكيت لأن هذا الكلام له .

(٣) هو آمرؤ القيس يصف فرسه . (٤) راجع جـ ١٧ ص ٤٦

قاله مجاهد وقتادة . كنّ آخر شوّال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك « سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً »[1] قال ابن عباس : ماعذب قوم إلا فى يوم الأربعاء . وقيل : « نَحِسَاتٍ » باردات ؛ حكاه النقاش . وقيل : متتابعات ؛ عن ابن عباس وعطية . الضحاك : شداد . وقيل : ذات غبار ؛ حكاه ابن عيسى . ومنه قول الراجز :

قدِ اغْتَدى قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ * لِلصَّيدِ فى يَوْمٍ قليـلِ النَّحْسِ

قال الضحاك وغيره : أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، ودرّت الرياح عليهم فى غير مطر، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد[2] ، وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه ، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عنـد بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى ، مختلفة أديانهم ، وكلهم مُعَظِّم لمكة ، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى . وقال جابر بن عبـد الله والتيمى : إذا أراد الله بقـوم خيرا أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح ، وإذا أراد الله بقوم شرا حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمـرو « نَحْسَاتٍ » بإسكان الحاء على أنه جمع نحس الذى هو مصدر وصف به . الباقون : « نَحِسَاتٍ » بكسر الحاء أى ذوات نحس . ومما يدل على أن النحس مصدر قوله : « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ »[3] ولو كان صـفة لم يضف اليوم إليـه ؛ وبهذا كان يحتج أبو عمـرو على قراءته ؛ واختاره أبو حاتم . واختار أبو عبيد القراءة الثانيـة وقال : لا تصح حجـة أبى عمرو ؛ لأنه أضاف اليـوم إلى النحس فأسكن ، وإنما كان يكون حجة لو نوّن اليوم ونعت وأسكن ؛ فقال : « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه . وقال المهدوى : ولم يسمع فى « نَحْسٍ » إلا الإسكان . قال الجوهرى : وقرئ فى قوله : « فِي يَوْمٍ نَحِسٍ » على الصـفة ، والإضافة أكثر وأجـود . وقـد نحِس الشىء بالكسر فهو نحس أيضا ؛ قال الشاعر :

أبلـغ جذاما ولخْـما أنّ إخوتهم * طَيًّا وبَهْراء قوم نصرهم نحِس

ومنه قيل : أيام نَحِسَاتٍ . ﴿ لِنُذِيقَهُمْ ﴾ أى لكى نذيقهم ﴿ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالريح العقيم . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ أى أعظم وأشدّ ﴿ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ .

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٥٨ (٢) فى ا ، ح ، ز ، ل : «لعاد» . (٣) راجع ج ١٧ ص ١٣٤ فما بعد .

قوله تعالى : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أي بينا لهم الهدى والضلال ؛ عن ابن عباس وغيره . وقرأ الحسن وابن أبي إسحق وغيرهما « وَأَمَّا ثَمُودَ » بالنصب وقد مضى الكلام فيه في « الأعراف »(١) . ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان . وقال أبو العالية : اختاروا العمى على البيان . السدي : اختاروا المعصية على الطاعة . ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ « الْهُونِ » بالضم الهوان . وهون بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس ابن مُضَر أخو كنانة وأسد . وأهانه : استخف به . والاسم الهوان والمهانة . وأضيف الصاعقة إلى العذاب ، لأن الصاعقة اسم للمبيد المهلك ، فكأنه قال مهلك العذاب ؛ أي العذاب المهلك . والهون وإن كان مصدرا فمعناه الإهانة والإهانة عذاب ، فجاز أن يجعل أحدهما وصفا للآخر ؛ فكأنه قال : صاعقة الهون . وهو كقولك : عندي علم اليقين ، وعندي العلم اليقين . ويجوز أن يكون الهون اسما مثل الدون ؛ يقال : عذاب هون أي مُهين ؛ كما قال : « مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ »(٢) . وقيل : أي صاعقة العذاب ذي الهون . ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة ، على ما تقدم . ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعني صالحا ومن آمن به ؛ أي ميزناهم عن الكفار ، فلم يحل بهم ما حل بالكفار ، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكفارهم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٨ (٢) راجع ج ١٤ ص ٢٧٧

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قرأ نافع «نَحْشُرُ» بالنون «أَعْدَاءَ» بالنصب. الباقون «يُحْشَرُ» بياء مضمومة «أَعْدَاءُ» بالرفع ومعناهما بيّن. وأعداء الله: الذين كذّبوا رسله وخالفوا أمره. «فَهُمْ يُوزَعُونَ» يساقون ويدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدى: يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدة بدئ بالأكابر فالأكابر جرما. وقد مضى فى «النمل» الكلام فى «يُوزَعُونَ» مستوفى (1).

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ «ما» زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الجلود يعنى بها الجلود بأعيانها فى قول أكثر المفسرين. وقال السدى وعبيد الله بن أبى جعفر والفراء: أراد بالجلود الفروج؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جُؤَيّة:

(2)
المرءُ يسعى للسلا * مةِ والسلامةُ حسبه
أو سالم من قد تثـ * ـنّى جلدُه وابيضّ رأسه

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿وَقَالُوا﴾ يعنى الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما كنا نجادل عنكم ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لما خاطبتْ وخوطِبَتْ أُجريتْ مُجرى من يعقل. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا، فمن قدر عليه قدر على أن يُنطق الجلود وغيرها من الأعضاء. وقيل: «وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» ابتداء كلام من الله. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: "هل تدرون مِمّ أضحك" قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تُجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا (3) وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيُختَم على فيه فيقال لأركانه انطقى فتَنطِق بإعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام قال فيقول بُعْدًا لكنّ وسُحْقًا فعنكنّ كنت أناضل" وفى حديث أبى هريرة ثم يقال: "الآن نبعث شاهدنا

(1) راجع جـ ١٣ ص ١٦٧ (2) كذا فى الأصول، ولم نعثر على هذين البيتين.
(3) فى ا، ز، و، ح، ل «عليك حسيبا».

عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه][1] انطق فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعْذِر[2] من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي سخط الله عليه " خرجه أيضا مسلم .

قوله تعالى : وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَـٰسِرِينَ (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم : ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي ؛ قليلٌ فِقهُ قلوبهم ، كثيرٌ شحمُ بطونهم : فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ؛ وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ » الآية ؛ خرجه الترمذي فقال : اختصم عند البيت ثلاثة نفر ، ثم ذكره بلفظه حرفا حرفا وقال : حديث حسن صحيح ؛ حدّثنا هنّاد قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عِمارة ابن عُمَير عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قال عبد الله : كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) ليعذر من نفسه : على بناء الفاعل من الإعذار؛ والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه ، ولشهادة أعضائه عليه ، بحيث لم يبق له عذر . (هامش مسلم) .

نفـرٍ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فقهُ قلوبهم، قرشيٌّ وختَناه ثقفيّان، أو ثقفيٌّ وختَناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه، فقـال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هـذا، فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمعه، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله ! فقال عبـد الله : فذكرت ذلك للنبي صـلى الله عليه وسـلم فأنزل الله تعـالى : « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » إلى قوله : « فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الثعلبي : والثقفيّ عبدُ ياليل، وختَناه ربيعة وصفوان بن أمية . ومعنى « تَسْتَتِرُونَ » تستخفون في قول أكثر العلماء؛ أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفى من نفسه عملَه، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية . وقيل : الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة . وقال معناه مجاهد . وقال قتادة : « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ » أي تظنون « أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ » بأن يقول سمعت الحقّ وما وعيت وسمعت مالا يجوز من المعـاصي « وَلَا أَبْصَارُكُمْ » فتقول رأيت آيات الله وما آعتبرت ونظرت فيما لا يجـوز « وَلَا جُلُودُكُمْ » تقدم . ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من أعمالكم فجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم . روى بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » قال : " إنكم تُدعون يوم القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بفِدام فأول ما يبين عن الإنسان فخـذه وكفه " قال عبـد الله بن عبد الأعلى الشامى (1) فأحسن .

العمرُ ينقُصُ والذُّنوب تَزيـدُ * وتُقالُ عَثْراتُ الفـتى فيعـودُ
هل يستطِيعُ جُحُودَ ذنبٍ واحِدٍ * رجـلٌ جوارِحُه عليـهِ شُهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنيهِ فيشتهِى * تقليلَهـا وعنِ الممـاتِ يحِيـدُ

(1) كذا في الأصول وفي كتاب « أدب الدنيا والدين » : عبد الأعلى بن عبد الله الشامى .

وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه يابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد فاعمل فيّ خيرا أشهد لك به غدا فإني لو قد مضيت لم ترني أبدا ويقول الليل مثل ذلك " ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال . وقال محمد بن بشير فأحسن :

مَضَى أمسُك الأدْنى شَهيدا معدّلا　*　ويومُك هـذا بالفعـال شهيـدُ

فإنْ تكُ بالأمسِ اقترفت إساءةً　*　فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميـدُ

ولا تُرْجِ فِعلَ الخير منـك إلى غدٍ　*　لعـلّ غـداً يأتِي وأنت فَقِيـدُ

قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي أهلككم فأوردكم النار . قال قتادة : الظنّ هنا بمعنى العلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما أساءوا الظن بربهم فأهلكهم " فذلك قوله : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » . وقال الحسن البصري : إن قوما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إني أحسن الظن بربي وكذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله تعالى : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . وقال قتادة : من استطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل ، فإن الظن اثنان ظنّ ينجي وظنّ يردي . وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم . نظيره : « فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ »(1) على ما تقدّم . ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ في الدنيا وهم مقيمون على كفرهم ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ . وقيل : المعنى « فَإِنْ يَصْبِرُوا »

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٣٦ فما بعد .

فى النار أو يجزعوا « فَالنَّارُ مَثْـوًى لَهُمْ » أى لا محيص لهم عنها ، ودل على الجزع قـوله : « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ؛ لأن المستعتب جزِع والمعتب المقبول عتابه ؛ قال النابغة :

فإنْ أَكُ مَظْـلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه * وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

أى مثلك من قِبَل الصلح والمراجعة إذا سُئل . قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجِدة . تقول : عاتبته معاتبة ، و بينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها . يقال : إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب . وأعتبنى فلان : إذا عاد إلى مَسَرَّتى راجعا عن الإساءة ، والآسم منه العُتْبَى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب . واستعتب وأعتب بمعنى ، وآستعتب أيضا طلب أن يُعْتَب ؛ تقول : آستعتبته فأعتبنى أى آسترضيته فأرضانى . فمعنى « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا » أى طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لابد لهم من النار . وفى التفاسـير : وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين . وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية « وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا » بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتِبِينَ » بكسر التاء أى إن أقالهم الله وردّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لِمـا سبق لهم فى علم الله من الشقاء ، قال الله تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[(1)] ذكره الهروى . وقال ثعلب : يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ قال النقاش : أى هيأنا لهم شياطين . وقيل : سلطنا عليهم قرناء يزيّنون عندهم المعاصى ، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضا ؛ أى سبّبنا لهم قرناء ؛ يقال : قيّض الله فلانا لفلان أى جاءه به وأتاحه له ، ومنه قوله تعالى : «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ» . القشيرى : ويقال قيّض الله لى رزقا أى أتاحه كما كنت أطلبه ، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة ؛ قايضت الرجل مقايضة أى عاوضته بمتاع ، وهما قيّضان كما تقول بيّعان . ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا فحسّـنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[(2)] حسّنوا لهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة ؛ عن مجاهد . وقيـل : المعنى « قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » فى النار « فَزَيَّنُوا لَهُمْ » أعمالهم فى الدنيا ؛ والمعنى قدّرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم . وقيل : المعنى أحوجناهم إلى الأقران ؛ أى أحوجنا

(1) راجع جـ ٦ ص ٤١٠ . (2) فى ا ، ح ، ز ، ل « حسنوا لهم من بعد مماتهم » .

الفقير إلى الغنى لينال منه، والغنى إلى الفقير ليستعين به فزين بعضهم لبعض المعاصي . وليس قوله : « وَمَا خَلْفَهُمْ » عطفا على « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضمار . قال ابن عباس : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » تكذيبهم بأمور الآخرة « وَمَا خَلْفَهُمْ » التسويف والترغيب فى الدنيا . الزجاج : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ما عملوه « وَمَا خَلْفَهُمْ » ما عزموا على أن يعملوه . وقد تقدم قول مجاهد . وقيل : المعنى لهم مثل ما تقدم من المعاصى « وما خلفهم » ما يعمل بعدهم . ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ ﴾ أى وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم . وقيل : « فى » بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلهم فيما دخلوا فيه . وقيل : « فِي أُمَمٍ » فى جملة أمم؛ ومثله قول الشاعر (١) :

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ * فُوكًا فَفِي آخَرِينَ قد أُفِكُوا

يريد فأنت فى جملة آخرين لست فى ذلك بأوحد . ومحل « فِي أُمَمٍ » النصب على الحال من الضمير فى « عَلَيْهِمْ » أى حق عليهم القول كائنين فى جملة أمم . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ أعمالهم فى الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) هو عمرو بن أذينة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن فقالوا : « لَا تَسْمَعُوا » . وقيل : معنى « لَا تَسْمَعُوا » لا تطيعوا ؛ يقال : سمعت لك أي أطعتك . « وَالْغَوْا فِيهِ » قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدرى ما يقول . وقيل : إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن . وقال مجاهد : المعنى « وَالْغَوْا فِيهِ » بالمُكَاء والتصفيق والتخليط في المنطق حتى يصير لَغْوًا . وقال الضحاك : أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول . وقال أبو العالية وابن عباس أيضا : قَعُوا فيه وعيبوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ محمدا على قراءته فلا يظهر(١) ولا يستميل القلوب . وقرأ عيسى بن عمر والجحدري وابن أبي إسحق وأبو حَيْوَة وبكر بن حبيب السهمي « وَالْغُوا » بضم الغين وهي لغة من لغا يلغو . وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى . قال الهروي : وقوله : « وَالْغَوْا فِيهِ » قيل : عارضوه بكلام لا يفهم . يقال : لغوت ألغو وألغى ، ولغي يلغى ثلاث لغات . وقد مضى معنى اللغو في « البقرة »(٢) وهو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل .

قوله تعالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قد تقدم أن الذوق يكون محسوسا ، ومعنى العذاب الشديد : ما يتوالى فلا ينقطع . وقيل : هو العذاب في جميع أجزائهم . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة جزاء قبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا . وأسوأ الأعمال الشرك .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ أي ذلك العذاب الشديد ، ثم بينه بقوله « النَّارُ » . وقرأ ابن عباس « ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ » فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية . و « ذَٰلِكَ » ابتداء و « جَزَاءُ » الخبر و « النَّارُ » بدل من « جَزَاءُ » أو خبر مبتدإ مضمر ، والجملة في موضع بيان للجملة الأولى .

---

(١) في ا ، ح ، ز ، « فلا تظهر ولا تستميل القلوب » . (٢) راجع جـ ٣ ص ٩٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى فى النار فذكره بلفظ الماضى والمراد المستقبل ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ يعنى إبليس وآبن آدم الذى قتل أخاه . عن آبن عباس وآبن مسعود وغيرهما ؛ ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع : " ما من مسلم يُقتل ظلما إلا كان على آبن آدم الأوّل كفل من ذنبه لأنه أوّل من سنّ القتل " خرّجه الترمذى ، وقيل : هو بمعنى الجنس وبُنى على التثنية لآختلاف الجنسين . ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ فى النار وهو الدرك الأسفل . سألوا أن يُضعِّف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس . وقرأ آبن محيصن والسوسى عن أبى عمرو وابن عامر وأبو بكر والمفضل ﴿ أَرْنَا ﴾ (١) بإسكان الراء ، وعن أبى عمرو أيضا بآختلاسها . وأشبع الباقون كسرتها وقد تقدّم فى ﴿ الأعراف ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ قال عطاء عن آبن عباس : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ؛ وذلك أن المشركين قالوا ربُّنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ؛ فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربُّنا الله وحده لا شريك له ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ؛ فآستقام . وفى الترمذى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ قال : " قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن آستقام " قال : حديث غريب . ويروى فى هذه الآية عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ معنى ﴿ آستقاموا ﴾ ؛ ففى صحيح مسلم

(١) هكذا فى نسخ الأصل وصوابه فى البقرة فى جـ ٢ ص ١٢٧ .

عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — وفى رواية — غيرك . قال : " قـل آمنت بالله ثم آسـتقم " زاد الترمذى قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ ؟ فأخذ بلسان نفسه وقال : " هذا " . وروى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ لم يشركوا بالله شيئا . وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه : ما تقولون فى هاتين الآيتين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ و﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ (١) فقالوا : آستقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة ؛ فقال أبو بكر : لقد حملتموها على غير المحمل ﴿ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ ﴾ بشرك ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾. وروى عن عمر رضى الله عنـه أنه قال على المنـبر وهو يخطب : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ فقال : آستقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يرغوا روغان الثعالب . وقال عثمان رضى الله عنه : ثم أخلصوا العمل لله . وقال علىّ رضى الله عنه : ثم أدوا الفرائض . وأقوال التابعين بمعناها . قال آبن زيد وقتادة : آستقاموا على الطاعة لله . الحسن : آستقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته وآجتنبوا معصيته . وقال مجاهد وعكرمة : آستقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا . وقال سفيان الثورى : عملوا على وفاق ما قالوا . وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله . وقال الفضيل بن عياض : زهدوا فى الفانيـة ورغبوا فى الباقية . وقيل : آستقاموا إسرارا كما آستقاموا إقرارا . وقيل : آستقاموا فعـلا كما آستقاموا قولا . وقال أنس : لمـا نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هم أمتى وربِّ الكعبة " . وقال الإمام آبن فُورك : السين سين الطلب مثـل آستسق أى سألوا من الله أن يثبتهم على الدين . وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم أنت ربنا فآرزقنا الآستقامة .

قلت : وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها : آعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا، وداموا على ذلك . ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ قال آبن زيد ومجاهد : عند الموت . وقال مقاتل وقتادة : إذا قاموا من قبورهم للبعث . وقال آبن عباس : هى بشرى تكون لهم من

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٠ .

الملائكة فى الآخرة . وقال وكيع وابن زيد : البشرى فى ثلاثة مواطن عند الموت وفى القبر وعند البعث . ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أى بـ « أَلَّا تَخَافُوا » فحذف الجار . وقال مجاهد : لا تخافوا الموت ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم . وقال عطاء بن أبى رباح : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها لكم . وقال عكرمة : ولا تخافوا أمامكم، ولا تحزنوا على ذنوبكم . ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى تقول لهم الملائكة الذين تتنزل عليهم بالبشارة « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » قال مجاهد : أى نحن قرناؤكم الذين كنا معكم فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة . وقال السدى : أى نحن الحفظة لأعمالكم فى الدنيا وأولياؤكم فى الآخرة . ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى؛ والله ولى المؤمنين ومولاهم . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ أى من الملاذ . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تسألون وتتمنون . ﴿ نُزُلًا ﴾ أى رزقا وضيافة . وقد تقدم فى « آل عمران »(١) وهو منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلا . وقيل : على الحال . وقيل : هو جمع نازل ، أى لكم ما تدعون نازلين ، فيكون حالا من الضمير المرفوع فى « تَدَّعُونَ » أو من المجرور فى « لَكُمْ » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ هذا توبيخ للذين تواصَوْا باللغو فى القرآن . والمعنى : أىّ كلام أحسن من القرآن ، ومن أحسن قولا من الداعى إلى الله وطاعته وهو محمد صلى الله عليه وسلم . قال ٱبن سيرين والسدى وٱبن زيد والحسن : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولىّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ؛ أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه . وقالت عائشة رضى الله عنها وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد : نزلت فى المؤذّنين . قال فضيل بن رفيدة : كنت مؤذنا لأصحاب عبد الله بن مسعود ، فقال لى عاصم بن هبيرة : إذا أذّنت فقلت : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، فقل وأنا من المسلمين ؛ ثم قرأ هذه الآية ؛ قال ابن العربى : الأول أصح ؛ لأن الآية مكية والأذان مدنى ؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى ؛ لا أنه[1] كان المقصود وقت القول ، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال فى النبىّ صلى الله عليه وسلم وقد خنقه الملعون : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ »[2] وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان .

قلت : وقول ثالث وهو أحسنها ؛ قال الحسن : هذه الآية عامة فى كل من دعا إلى الله . وكذا قال قيس بن أبى حازم قال : نزلت فى كل مؤمن . قال : ومعنى « وَعَمِلَ صَالِحًا » الصلاة بين الأذان والإقامة . وقاله أبو أمامة ؛ قال : صلى ركعتين بين الأذان والإقامة . وقال عكرمة : « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلّى وصام . وقال الكلبى : أدى الفرائض .

قلت : وهذا أحسنها مع ٱجتناب المحارم وكثرة المندوب . والله أعلم . ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال ٱبن العربى : وما تقدّم يدل على الإسلام ، لكن لما كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة ، وكان العمل يكون للرياء والإخلاص ، دل على أنه لابدّ من التصريح بالاعتقاد لله فى ذلك كله ، وأن العمل لوجهه .

مسألة — لما قال الله تعالى : « وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » ولم يقل له ٱشترط إن شاء الله ، كان فى ذلك رد على من يقول أنا مسلم إن شاء الله .

---

(١) فى ا ، ل : « لأنه كان ... » . (٢) راجع ص ٣٠٦ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ قال الفراء: «لَا» صلة أى «وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ» وأنشد :

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعلَهمُ * والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ

أراد أبو بكر وعمر؛ أى لا يستوى ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشرك . قال آبن عباس : الحسنة لا إله إلا الله، والسيئة الشرك . وقيل: الحسنة الطاعة، والسيئة الشرك . وهو الأول بعينه. وقيل: الحسنة المداراة، والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك : الحسنة العلم، والسيئة الفحش . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الحسنة حبّ آل الرسول، والسيئة بغضهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ نسخت بآية السيف، وبقى المستحب من ذلك : حسن العشرة والآحتمال والإغضاء . قال آبن عباس : أى آدفع بحلمك جهل من يجهل عليك . وعنه أيضا : هو الرجل يسبّ الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقا فغفر الله لى، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك (١) . وكذلك يروى فى الأثر : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال ذلك لرجل نال منه . وقال مجاهد : « بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » يعنى السلام إذا لقى من يعاديه ؛ وقاله عطاء . وقول ثالث ذكره القاضى أبو بكر بن العربى فى الأحكام وهو المصافحة . وفى الأثر : " تصافحوا يَذهبِ الغِلُّ " . ولم ير مالك المصافحة، وقد آجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان : قد صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفرا حين قدم من أرض الحبشة ؛ فقال له مالك : ذلك خاص . فقال له سفيان : ما خَصّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يخصّنا ، وما عمّه يعمّنا ، والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها . وقد روى قتادة قال قلت لأنس : هل كانت المصافحة فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . وهو حديث صحيح . وفى الأثر : " من تمام المحبة الأخذ باليد " . ومن حديث محمد بن إسحق وهو إمام مقدّم ، عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانا يجر ثوبه — والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده — فآعتنقه وقبّله .

(١) فى جـ ، ز ، ل ، ن : « إن كنت صادقا فى فغفر . . » .

قلت : قد روى عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من(١) العلماء . وقد مضى ذلك في «يوسف»(٢) وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما" .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أى قريب صديق . قال مقاتل : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، كان مؤذيا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له وليًّا بعد أن كان عدوًا بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فصار وليًّا في الإسلام حميا بالقرابة . وقيل : هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام ، كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه ؛ ذكره الماوردي . والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر ؛ لقوله تعالى : « فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » . وقيل : كان هذا قبل الأمر بالقتال . قال ابن عباس : أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم . وروى أن رجلا شتم قَنْبَراً مولى علىّ ابن أبي طالب فناداه علىّ يا قَنْبَر ! دع شاتمك ، وآلهُ عنه ترضي الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه . وأنشدوا :

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللَّئِيم تَكَرُّماً * أَضَرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ

وقال آخر :

وما شَيْءٌ أَحَبُّ إلى سَفِيهٍ * إذا سبَّ الكَرِيمَ مِن الجَوَابِ
مُتَارَكَةُ السَّفِيهِ بلا جوابٍ * أَشَدُّ على السَّفِيهِ من السِّبابِ

وقال محمود الوراق(٣) :

سَأُلزِم نفسِي الصَّفْحَ عن كلّ مذنِبٍ * وإن كَثُرَتْ منه لَدَيَّ الجَرائمُ
فما الناس إلّا واحِدٌ مِن ثلاثةٍ * شريفٌ ومَشْروفٌ ومِثْلٌ مقاوِمُ

(١) لفظة : « من » ساقطة من ا ، ح ، ز ، ل . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٦٦ .

(٣) الأبيات التالية معزوة في كتاب «أدب الدنيا والدين» ص ٢٥٢ طبع وزارة المعارف إلى الخليل بن أحمد .

فأما الذى فَوْقى فَأَعْرِفُ قَدْرَه * وَأَتْبَعُ فيه الحَقَّ والحَقُّ لازِمُ

وأما الذى دونِى فإنْ قال صُنْتُ عن * إجابَتِه عِرضِى وإن لَامَ لائمُ

وأما الذى مِثْلِى فإنْ زَلَّ أوهَفَا * تَفَضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلم حاكِمُ

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا ﴾ يعنى هذه الفَعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ بكظم الغيظ وآحتمال الأذى . ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى نصيب وافر من الخير؛ قاله آبن عباس . وقال قتادة ومجاهد : الحظ العظيم الجنة . قال الحسن : والله ما عظم حظ قط دون الجنة . وقيل : الكناية فى « يُلَقَّاهَا » عن الجنة؛ أى مايلقاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ تقدّم فى آخر « الأعراف »(١) مستوفًى . ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ من كيده وشره ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لآستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعالك وأقوالك .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وقد مضى فى غير موضع(٢) . ثم نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خالقين فليس ذلك لفضيلة لهما فى أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله؛ لأن خالقهما هو الله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧

(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٢

ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما . ﴿ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ وصورهنّ وسخرهنّ ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار . وقيل : للشمس والقمر خاصة ؛ لأن الاثنين جمع . وقيل : الضمير عائد على معنى الآيات ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وإنما أنث على جمع التكثير ولم يجر على طريق التغليب للذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل . ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أى لا يملون عبادته . قال زهير :

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ * ثمانين حَوْلًا لا أبالَكَ يَسْأَمِ

مسألة — هذه الآية آية سجدة بلا خلاف ؛ وٱختلفوا فى موضع السجود منها . فقال مالك : موضعه « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » ؛ لأنه متصل بالأمر . وكان عليّ(1) وٱبن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله « تَعْبُدُونَ » . وقال ٱبن وهب والشافعى : موضعه « وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال . وبه قال أبو حنيفة . وكان ٱبن عباس يسجد عند قوله : « يَسْأَمُونَ » . وقال ٱبن عمر : ٱسجدوا بالآخرة(2) منهما . وكذلك يروى عن مسروق وأبى عبد الرحمن السلمى وإبراهيم النخعى وأبى صالح ويحيى بن وثاب وطلحة وزبيد اليامِيّين(3) والحسن وٱبن سيرين . وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله : « يَسْأَمُونَ » . قال ٱبن العربى : والأمر قريب .

مسألة — ذكر ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : أن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس ؛ وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم ، فصلى النبيّ صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف .

قلت : صلاة الكسوف ثابتة فى الصحاح البخارى ومسلم وغيرهما . وٱختلفوا فى كيفيتها ٱختلافا كثيرا ، لاختلاف الآثار ، وحسبك ما فى صحيح مسلم من ذلك ، وهو العمدة فى الباب . والله الموفق للصواب .

---

(1) فى ح : « وكان على يسجد عند قوله . . . » . (2) فى ا ، ز ، ل : « السجدة بالآخرة . . . » .
(3) هذه النسبة إلى يامة بطن من همدان .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ الخطاب لكل عاقل أى « وَمِنْ آيَاتِهِ » الدالة على أنه يحيي الموتى « أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى يابسة جدبة؛ هذا وصف الأرض بالخشوع؛ قال النابغة :

رمادٌ كَكُحْلِ الْعَيْنِ لَأْيًا أُبِينُهُ　*　وَنُؤْىٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خَاشِع (١)

والأرض الخاشعة : الغبراء التى تنبت . وبلدة خاشعة : أى مغبرة لا منزل بها . ومكان خاشع . ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ أى بالنبات؛ قاله مجاهد . يقال : اهتز الإنسان أى تحرك؛ ومنه :

تراه كَنَصْلِ السيف يَهْتَزُّ لِلنَّدى　*　إذا لم تَجِدْ عِند آمرِئِ السَّوْءِ مَطْمَعا

﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى انتفخت وعلت قبل أن تنبت؛ قاله مجاهد . أى تصعدت عن النبات بعد موتها . وعلى هذا التقدير يكون فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : ربت واهتزت . والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فربُوُّها ارتفاعها . ويقال للوضع المرتفع : ربوة ورابية؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد فى جسمه بالكبر طولا وعرضا . وقرأ أبو جعفر وخالد « وَرَبَأَتْ » ومعناه عظمت؛ من الربيئة . وقيل : « اهْتَزَّتْ » أى استبشرت بالمطر « وَرَبَتْ » أى انتفخت بالنبات . والأرض إذا انشقت بالنبات : وُصِفت بالضحك؛ فيجوز وصفها بالاستبشار أيضا . ويجوز أن يقال الربو والاهتزاز واحد؛ وهى حالة خروج النبات . وقد مضى هذا المعنى فى « الحج » (٢) ﴿ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) تقدم فى غير موضع .

---

(١) شبه الرماد بكحل العين لسواده؛ فإنه يسودّ متى تقادم عهده وإصابته الأمطار . والنؤى : حفير حول الخيمة . والجذم : الأصل . وأثلم : مهدوم . وخاشع : تداعت آثاره واستوى بالأرض . يريد أن ذلك الرماد تغير ولم أتبينه إلا بعد لأى؛ أى بعد جهد ومشقة .

(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٣ .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٥ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي يميلون عن الحق في أدلتنا . والإلحاد : الميل والعدول . ومنه اللحد في القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه . يقال : ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل . ولَحَد لغة فيه . وهذا يرجع إلى الذين قالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا : ليس القرآن من عند الله ، أو هو شعر أو سحر ؛ فالآيات آيات القرآن . قال مجاهد : « يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أي عند تلاوة القرآن بالمُكَاء والتَّصْدِيَة واللغو والغناء . وقال ابن عباس : هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه . وقال قتادة : « يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » يكذبون في آياتنا . وقال السدي : يعاندون ويشاقون . وقال ابن زيد : يشركون ويكذبون . والمعنى متقارب . وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل . وقيل : الآيات المعجزات ، وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز . ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ ﴾ على وجهه وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره . ﴿ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله مقاتل . وقيل : عثمان . وقيل : عمار ابن ياسر . وقيل : حمزة . وقيل : عمر بن الخطاب . وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي . وقيل : المؤمنون . وقيل : إنها على العموم ؛ فالذي يلقى في النار الكافر ، والذي يأتي آمنا يوم القيامة المؤمن ؛ قاله ابن بحر . ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمر تهديد ؛ أي بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء . ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وعيد بتهديد وتوعُّد .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ الذكر ها هنا القرآن فى قول الجميع؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام . والخبر محذوف [تقديره](١) هالكون أو معذبون . وقيل : الخبر « أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وآعترض قوله : « مَا يُقَالُ لَكَ » ثم رجع إلى الذكر فقال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » ثم قال : « أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ » والأول الاختيار؛ قال النحاس : عند النحويين جميعا فيما علمت . ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أى عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه : عزيز من عند الله . وقيل : كريم على الله . وقيل : «عَزِيزٌ» أى أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل . وقيل : ينبغى أن يعز ويُجَلّ وألا يلغى فيه . وقيل: «عَزِيزٌ» من الشيطان أن يبدّله؛ قاله السدى . مقاتل : منع من الشيطان والباطل . السدى : غير مخلوق فلا مثل له . وقال آبن عباس أيضا : « عَزِيزٌ » أى ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله . ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه؛ قاله الكلبى . وقال السدى وقتادة : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » يعنى الشيطان ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص . وقال سعيد بن جبير : لا يأتيه التكذيب « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » . آبن جريج : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون . وعن آبن عباس : « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » من الله تعالى « وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » يريد من جبريل صلى الله عليه وسلم، ولا من محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ آبن عباس : « حَكِيمٍ » فى خلقه « حَمِيدٍ » إليهم . قتادة : « حَكِيمٍ » فى أمره « حَمِيدٍ » إلى خلقه .

قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ أى من الأذى والتكذيب ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعزى نبيه ويسليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لك ولأصحابك ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يريد لأعدائك وجيعا . وقيل : أى ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد، وهو كقوله : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ[1] » أى لم تدعهم إلا إلى ما تدعو[2] إليه جميع الأنبياء ، فلا معنى لإنكارهم عليك . وقيل : هو استفهام ، أى أىّ شىء يقال لك « إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » . وقيل : « إِنَّ رَبَّكَ » كلام مبتدأ وما قبله كلام تام إذا كان الخبر مضمرا . وقيل : هو متصل بـ « مَا يُقَالُ لَكَ » . « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى إنما أمرت بالإنذار والتبشير .

قوله تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥٓ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ﴾ أى بلغة غير العرب ﴿ لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أى بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية . فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا . وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله ، ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان .

الثانيــة — وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربى ، وأنه نزل بلغة العرب ، وأنه ليس أعجميا ، وأنه إذا نقل عنها إلى غيرها لم يكن قرآنا .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى « آأعجمى وعربى » بهمزتين مخففتين ، والعجمىّ الذى ليس من العرب كان فصيحا أو غير فصيح ، والأعجمى الذى لا يفصح كان من العرب أو من العجم . فالأعجم ضدّ الفصيح وهو الذى لا يبين كلامه . ويقال للحيوان غير الناطق أعجم ، ومنه "صلاة النهار عجماء" أى لا يجهر فيها بالقراءة فكانت النسبة إلى الأعجم آكد ، لأن الرجل العجمى الذى ليس من العرب قد يكون

(١) راجع ص ٢٧٦ من هذا الجزء . (٢) فى ح ، ز ، ل ، ن « إلى ما دعوا إليه » .

فصيحا بالعربية، والعربيّ قد يكون غير فصيح؛ فالنسبة إلى الأعجميّ آكد في البيان . والمعنى أقرآن أعجميّ، ونبيّ عربي ؟ وهو ٱستفهام إنكار . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ٱبن عامر « أَعْجَمِيٌّ » بهمزة واحدة على الخبر . والمعنى « لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » فكان منهم عربيّ يفهمه العرب، وأعجمي يفهمه العجم . وروى سعيد بن جبير قال : قالت قريش : لولا أنزل القرآن أعجميا وعربيا فيكون بعض آياته عجميا و بعض آياته عربيا فنزلت الآية . وأنزل في القرآن من كل لغة فمنه « السِّجِّيل » وهي فارسية وأصلها سنك كِيل ؛ أي طين وحجر، ومنه « الفِرْدَوْس » رومية وكذلك « القِسْطَاس » وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وٱبن ذكوان وحفص على الاستفهام، إلا أنهم ليَّنُوا الهمزة على أصولهم . والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع . ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي صمم عن سماع القرآن . ولهذا تواصَوْا باللغو فيه . ونظير هذه الآية : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » (1) وقد مضى مستوفى . وقراءة العامة ﴿ عَمًى ﴾ على المصدر . وقرأ ٱبن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قَتَّة « وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ » بكسر الميم أي لا يتبين لهم . وٱختار أبو عبيد القراءة الأولى ؛ لإجماع الناس فيها ؛ ولقوله أوّلا : « هُدًى وشِفَاءٌ » ولو كان هادٍ وشافٍ لكان الكسر في « عَمًى » أجود؛ ليكون نعتا مثلهما؛ تقديره : « وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » في ترك قبوله بمنزلة من في آذانهم « وَقْرٌ (2) وَهُوَ » يعني القرآن « عَلَيْهِمْ » ذو عمى ؛ لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف . وقيل المعنى والوقر عليهم عمى . ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل . وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب . و يقال للذى لا يفهم : أنت تنادَى من بعيد . أي كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥		(2) لفظ « وقر » ساقطة من أ ، ح ، ز ، ل .

ولا يفهمه . وقال الضحاك : « يُنَادَوْنَ » يوم القيامة بأقبح أسمائهم « مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم . وقيل : أى من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم ، فهو ينادى من مكان بعيد فينقطع صوت المنادى عنه وهو لم يسمع . وقال على رضى الله عنه ومجاهد : أى بعيد من قلوبهم . وفى التفسير : كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون . وحكى معناه النقاش .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة ﴿ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أى آمن به قوم وكذب به قوم . والكناية ترجع إلى الكتاب ، وهو تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا يحزنك آختلاف قومك فى كتابك ، فقد آختلف من قبلهم فى كتابهم . وقيل : الكناية ترجع إلى موسى . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى فى إمهالهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بتعجيل العذاب . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أى شديد الريبة . وقد تقدّم (١) . وقال الكلبى فى هذه الآية : لولا أن الله أخّر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم . وقيل : تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ شرط وجوابه وكذا ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ . والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد ، فمن أطاع فالثواب له ، ومن أساء فالعقاب عليه . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره ، وإذا آنتفت المبالغة آنتفى غيرها ، دليله قوله الحق : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا (٢) » وروى العدول الثقات ،

(١) راجع جـ ٩ ص ٥٩ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٤٦

والأئمة الأثبات ، عن الزاهد العدل ، عن أمين الأرض ، عن أمين السماء ، عن الرب جل جلاله : « ياعبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا » الحديث . وأيضا فهو الحكيم المالك[(١)] ، وما يفعله المالك فى ملكه لا اعتراض عليه ؛ إذ له التصرف فى ملكه بما يريد .

قوله تعالى : إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ج وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ج وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ صلے وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى حين وقتها . وذلك أنهم قالوا : يامحمد إن كنت نبيا فخبّرنا متى قيام الساعة فنزلت : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ ﴾ « مِنْ » زائدة أى وما تخرج ثمرة . ﴿ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أى من أوعيتها ، فالأكمام أوعية الثمرة ، واحدها كُمّة وهى كل ظرف لمال أوغيره ؛ ولذلك سمى قشر الطّلع أعنى كُفُرّاه الذى ينشق عن الثمرة كُمّة ؛ قال ابن عباس : الكُمّة الكُفُرّى قبل أن تنشق ، فإذا انشقت فليست بكمة . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « الرحمن[(٢)] » . وقرأ نافع وابن عامر وحفص « مِنْ ثَمَرَاتٍ » على الجمع . الباقون « ثَمَرَة » على التوحيد والمراد الجمع ، لقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ﴾ والمراد الجمع ، يقول : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ » كما يرد إليه علم الثمار والنتاج . ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أى ينادى الله المشركين ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ الذين زعمتم فى الدنيا أنها آلهة تشفع . ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى الأصنام . وقيل : المشركون . ويحتمل أن يريدهم جميعا العابد والمعبود ﴿ آذَنَّاكَ ﴾ أسمعناك وأعلمناك . يقال : آذن يؤذن : إذا أعلم ، قال[(٣)] :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ * رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

---

(١) فى ح ، ن « الحليم » . (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٥٦ (٣) هو الحرث بن حلزة ، والبيت مطلع معلقته .

﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أى نعلمك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكا . لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدّم فى غير موضع (١) . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى بطل عنهم ﴿ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أى أيقنوا وعلموا ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى فرار عن النار . و « مَا » هنا حرف وليس باسم ؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى؛ تقديره : وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب . يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب . وقيل : إن الظن هنا الذى هو أغلب الرأى ، لا يشكون فى أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها . وليس يبعد أن يكون لهم ظن ورجاء إلى أن يؤيسوا .

قوله تعالى : لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أى لا يملّ من دعائه بالخير . والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز . قال السدى : والإنسان هاهنا يراد به الكافر . وقيل : الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف . وفى قراءة عبد الله « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَالِ » . ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ الفقر والمرض ﴿ فَيَئُوسٌ ﴾ من روح الله ﴿ قَنُوطٌ ﴾ من رحمته . وقيل : « يَئُوسٌ » من إجابة الدعاء « قَنُوطٌ » بسوء الظن بربه . وقيل : « يَئُوسٌ » أى ييأس من زوال ما به من المكروه « قَنُوطٌ » أى يظن أنه يدوم ؛ والمعنى متقارب .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٣

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ عافية ورخاء وغنًى ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر . ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي ﴾ أى هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملى ؛ فيرى النعمة حتما واجبا على الله تعالى ، ولم يعلم أنه آبتلاه بالنعمة والمحنة ؛ ليتبين شكره وصبره . وقال آبن عباس : « هَـٰذَا لِي » أى هذا من عندى . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أى الجنة ، واللام للتأكيد . يتمنى الأمانى بلا عمل . قال الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب : للكافر أمنيتان أما فى الدنيا فيقول : « لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ » ، وأما فى الآخرة فيقول : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »(١) و « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا »(٢) . ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى لنجزينهم . قسم أقسم الله عليه . ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ يريد الكافر ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ . وقال آبن عباس : يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه . ومعنى « نَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى ترفّع عن الآنقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله . وقيل : « نَأَىٰ » تباعد . يقال : نأيته ونأيت عنه نأيًا بمعنى تباعدت عنه ، وأنأيته فآنتأى : أبعدته فبعُد ، وتناءوا تباعدوا ، والمنتأى الموضع البعيد ، قال النابغة :

فإنّك كالليل الذى هو مُدركى * وإنْ خِلتُ أنّ المُنتأَى عنكَ واسعُ

وقرأ يزيد بن القعقاع و « نَاءَ بِجَانِبِهِ » بالألف قبل الهمزة . فيجوز أن يكون من « ناء » إذا نهض . ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأوّل . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى أصابه المكروه ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير ، والعرب تستعمل الطول والعرض فى الكثرة . يقال : أطال فلان فى الكلام وأعرض فى الدعاء إذا أكثر . وقال آبن عباس : « فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » فذو تضرع وآستغاثة . والكافر يعرف ربه فى البلاء ولا يعرفه فى الرخاء .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٨

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٨٦

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أى قل لهم يامحمد « أَرَأَيْتُمْ » يامَعْشَر المشركين ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ﴾ أى فأى الناس أضل ، أى لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم . وقيل : قوله : « إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » يرجع إلى الكتاب المذكور فى قوله : « آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » والأوّل أظهر وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ﴾ أى علامات وحدانيتنا وقدرتنا « فِي الْآفَاقِ » يعنى خراب منازل الأمم الخالية ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ بالبلايا والأمراض . وقال ابن زيد : « فِي الْآفَاقِ » آيات السماء(1) « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » حوادث الأرض . وقال مجاهد : « فِي الْآفَاقِ » فتح القرى ؛ فيسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه فى آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما ، وفى ناحية المغرب خصوصا من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة عن المعهود خارقة للعادات « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » فتح مكة . وهذا اختيار الطبرى . وقاله المنهال بن عمرو والسدى . وقال قتادة والضحاك : « فِي الْآفَاقِ » وقائع الله فى الأمم « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » يوم بدر . وقال عطاء وابن زيد أيضا « فِي الْآفَاقِ » يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات

(1) فى ا ، ح ، ز ، ل : « آفاق السماء » .

والأشجار والجبال والبحار وغيرها . وفي الصحاح (١) : الآفاق النواحي ، واحدها أُفُق وأُفْق مثل عُسْر وعُسُر ، ورجل أَفَقِيّ بفتح الهمزة والفاء : إذا كان من آفاق الأرض . حكاه أبو نصر . وبعضهم يقول : أُفُقِيّ بضمهما وهو القياس . وأنشد غير الجوهري :

أَخَذْنَا بِآفاقِ السَّماءِ عَلَيْكُمُ * لنا قَمَراها والنُّجُومُ الطَّوالِعُ

« وَفِي أَنْفُسِهِمْ » من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول ؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين ، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة . وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه . وقيل : ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من كونهم نطفا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدم في «المؤمنون» (٢) بيانه . وقيل : المعنى سَيَرَوْن ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن وأخبار الغيوب ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدها أنه القرآن . والثاني الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه . والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق . والرابع أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الرسول الحق . ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل بـ « يَكْفِ » و ﴿أَنَّهُ﴾ بدل من « رَبِّكَ » فهو رفع إن قدرته بدلا على الموضع ، وجر « أن » قدرته بدلا على اللفظ . ويجوز أن يكون نصبا بتقدير حذف اللام ، والمعنى أولم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده ؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وإذا شهده جازى عليه . وقيل : المعنى « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » في معاقبته الكفار . وقيل : المعنى « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ » شاهدا على أن القرآن من عند الله . وقيل : « أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » مما يفعله العبد « شَهِيدٌ » والشهيد بمعنى العالم ؛ أو هو من الشهادة التي هي الحضور ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة . وقال السدي : أي من البعث . ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء .

(١) في ن : « وغير ذلك » . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٩

قاله السدى . وقال الكلبي : أحاطت قدرته بكل شيء . وقال الخطابي : هو الذى أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذى أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا . وهذا الاسم أكثر ما يجيء فى معرض الوعيد ، وحقيقته الإحاطة بكل شيء ، وأستئصال المحاط به ، وأصله مُحْيِط نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت . يقال منه : أحاط يحيط إحاطة وحيطة، ومن ذلك حائط الدار، يحوطها أهلها . وأحاطت الخيل بفلان : إذا أخذ مأخذا حاصرا من كل جهة ، ومنه قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ »(١) والله أعلم بصواب ذلك .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩

حققه
أحمد عبد العليم البردونى

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس عشر ، وأوله :
« سـورة الشورى »

بعون الله ، وجميل توفيقه ، قد تم طبع الجزء الخامس عشر من « تفسير القرطبي » بمطبعة دار الكتب ، فى شهر شوّال سنة ١٣٨٤ هـ ، فبراير (سنة ١٩٦٥ م) م

محمد حمدى على جنيدى
رئيس المطبعة

(مطبعة دار الكتب ١٥٨/١٩٦٣/٢٠٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السادس عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السادس عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

فهرس الجزء السادس عشر

ســورة الشــورى

صفحة

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الجاثية

*

ســورة الأحقــاف

سورة الفتح

إصـــلاح خطـــأ

جزء	ص	س	خطـأ	صـواب
١	٤٩	٢١	طِرْزان	طِـرّان
١	٢٠٨	٢٢	الإهـلالة	الإهالـــة
١	٢٣٥	١٦	عن مسعود	عن ابن مسعود
١	٣٦٧	٢	لا تنهى عن	لا تنــه عن
١	٣٩٧	١٨	كى تشكرون	كى تشكروا
٢	١١٠	٢٢	الُحليـــمى	الَحليـــمى
٢	١١٤	٥	وارتـق	وارتـق
٢	٢٤٨	٧	ما انهى النبي	ما نهى النبي
٢	٢٧٩	١٣	عُبيدة السّلمانى	عَبِيدة السّلمانى
٢	٢٩١	٥	بألا قادر	بأن لا قادر
٤	٣٢٦	١٨	« مـدح »	« ح »
٥	٣٠١	١١	عليك سلام الله من	عليك سلام من
٥	٣٧٧	٦	عن عَضُدِ	عن عَضْدِ

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء فى الأجزاء المـاضية أثبتناها هنا للفائدة .

هذا و إنا لا نزال نذكر بالحمد والثناء تلك اليد التى أسداها إلينا حضرة الأستاذ أحمد خيرى نجـل المرحوم خيرى باشا بإعارته لنـا نسخته الخطية ، التى كانت عونا لنـا فى المراجعـة والتصحيح م

أحمد عبد العليم البردونى
المصحح بالقسم الأدبى
بدار الكتب المصرية

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتى
د/ نصر أحمد محمد بدوى . أتريس . مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

مكيّة فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة : « قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ »[1] إلى آخرها . وهى ثلاث وخمسون آية .

قوله تعالى : حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن : سألت الحسين بن الفضل : لم قطع «حمٓ» من «عٓسٓقٓ» ولم تقطع « كهيعص» و « المٓر » و «المٓصٓ»؟ فقال : لأن « حم . عسق » بين سُوَرٍ أوّلها « حم » فجرت مجرى نُظائرها قبلها وبعدها ؛ فكأن « حم » مبتدأ و « عسق » خبره . ولأنها عدّت آيتين، وعدّت أخواتها اللواتى كتبت جملة آية واحدة . وقيل : إن الحروف المعجمة كلها فى المعنى واحد، من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام؛ ذكره الجُرْجَانِىّ . وكتبت « حم . عسق » منفصلا و « كهيعص» متصلا لأنه قيل : حمٓ؛ أى حمّ ما هو كائن، ففصّلوا بين ما يقدّر فيه فعل و بين ما لا يقدّر . ثم لو فُصل هذا ووُصل ذا لجاز؛ حكاه القُشيرىّ . وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس « حم . سق » قال ابن عباس:

---

(١) آية ٢٣ .

وكان عليّ رضى الله عنه يعرف الفتن بها . وقال أرطاة بن المنذر : قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرنى عن تفسير قوله تعالى : « حم . عسق »؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثا فأعرض عنه . فقال حذيفة بن اليمان : أنا أنبئك بها، قد عرفت لِمَ تركها؛ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله ؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق ، يبنى عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقا ، فإذا أراد الله زوال ملكهم وانقطاع دولتهم، بعث على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداءَ مظلمة، فتحترق كلها كأنها لم تكن مكانها، فتصبح صاحبتها متعجبة، كيف قُلبت ! فما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا ؛ فذلك قوله : «حم . عسق» . أى عزمة(١) من عزمات الله وفتنة وقضاء حُمّ : حمّ . « ع » : عدلاً منه ، « س » : سيكون ، « ق » : واقع فى هاتين المدينتين .

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تُبنى مدينة بين دجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل(٢) والصَّراة يجتمع فيها جبابرة الأرض تجبى إليها الخزائن يخسف بها — وفى رواية بأهلها — فلَهِىَ أسرع ذهابا فى الأرض من الوَتِد الجيد فى الأرض الرِّخوة" . وقرأ ابن عباس «حمٓ . سقٓ» بغير عين . وكذلك هو فى مصحف عبد الله بن مسعود ؛ حكاه الطبرىّ . وروى نافع عن ابن عباس : « الحاء » حلمه(٣) ، و « الميم » مجده، و «العين» علمه، و « السين » سَنَاه، و « القاف » قدرته؛ أقسم الله بها . وعن محمد بن كعب : أقسم الله بحلمه ومجْده وعلوّه وسَنَاه وقدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إلٰه إلا الله مخلصا من قلبه . وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : « الحاء » من الرحمن، و « الميم » من المجيد، و «العين» من العليم، و «السين» من القدّوس ، و «القاف» من القاهر . وقال مجاهد : فواتح السور . وقال عبدالله بن بُريدة : إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا . وذكر القشيرىّ واللفظ للثعلبىّ : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لمّا نزلت هذه الآية عُرِفت الكآبة فى وجهه؛

(١) أى حق من حقوقه . (٢) وروى بفتح أوله وطائه . (٣) فى بعض النسخ . «حكمه» بالكاف .

فقيل له : يا رسول الله ، ما أحزنك ؟ قال : "أخبرت ببلايا تنزل بأمتي من خسف وقذف ونارٍ تحشرهم وريح تقذفهم في البحر وآياتٍ متتابعات متصلات بنزول عيسى وخروج الدجال" . والله أعلم . وقيل : هذا في شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فـ « الحاء » حوضه المورود، و « الميم » ملكه الممدود، و « العين » عزه الموجود ، و « السين » سناه المشهود ، و « القاف » قيامه في المقام المحمود، وقربه في الكرامة(١) من الملك المعبود . وقال ابن عباس : ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه : «حمٓ . عٓسٓقٓ»؛ فلذلك قال : « يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ » . المهدويّ : وقد جاء في الخبر أن "« حم . عسق » معناه أُوحيت إلى الأنبياء المتقدّمين". وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير ومجاهد «يوحَى» (بفتح الحاء) على ما لم يسم فاعله؛ وروى عن ابن عمر . فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز أن يكون اسم ما لم يسمّ فاعله مضمرا ؛ أي يوحى إليك القرآن الذي تضمّنته هذه السورة، ويكون اسم الله مرفوعا بإضمار فعل، التقدير : يوحيه الله إليك؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ » أي يسبّحه رجال . وأنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ بخصومة * وأشعثُ ممن طوّحته الطوائح(٢)

فقال : لِيُبْكَ يزيدُ ، ثم بيّن من ينبغي أن يبكيه ، فالمعنى يبكيه ضارع . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ؛ كأنه قال : الله يوحيه . أو على تقدير إضمار مبتدأ أي الموحي الله . أو يكون مبتدأ والخبر « العزيزُ الحكيمُ » . وقرأ الباقون « يوحِي إليك » بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ تقدّم في غير موضع(٣) .

---

(١) في نسخة من الأصل : « وقربه يوم القيامة من الملك ... » .

(٢) رواية البيت كما في كتاب سيبويه وخزانة الأدب :

لِيُبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

وهذا البيت نسبه سيبويه للحارث بن نهيك . ونسبه صاحب خزانة الأدب لنهشل بن حريّ في مرثية يزيد . (راجع الشاهد الخامس والأربعين) .　　(٣) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . وجـ ٣ ص ٢٧٨ .

قوله تعالى : تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة بالتاء . وقرأ نافع وابن وثّاب والكسائى بالياء . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد فى الطاء، وهى قراءة العامة . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عبيد « ينفطرن » من الانفطار؛ كقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقد مضى فى سورة « مريم » بيان هذا (١) . وقال ابن عباس : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ » أى تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التى تليها ؛ من قول المشركين : « اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا (٢) » . وقال الضّحاك والسُّدّى : «يتفطرن» أى يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن . وقيل : «فوقهن»، فوق الأرضين من خشية الله لو كنّ مما يعقل .

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى ينزّهونه عما لا يجوز فى وصفه وما لا يليق بجلاله . وقيل : يتعجّبون من جرأة المشركين؛ فيُذكر التسبيح فى موضع التعجّب . وعن علىّ رضى الله عنه : أن تسبيحهم تعجّب مما يرون من تعرّضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» بأمر ربهم؛ قاله السُّدّى . ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال الضحاك : لمن فى الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدى . بيانه فى سورة المؤمن : «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا (٣)» . وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش . وقيل : جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبىّ . وقال وهب ابن منبّه : هو منسوخ بقوله : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنوا » . قال المهدوىّ : والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاص للؤمنين . وقال أبو الحسن الماوَرْدىّ عن الكلبىّ : ان الملائكة لما رأت المَلَكين اللّذين اختُبرا وبُعثا إلى الأرض ليحكما بينهم ، فافتتنا بالزّهرة

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٦ . (٢) آية ١١٦ سورة البقرة . (٣) آية ٧

وهربا إلى إدريس — وهو جدّ أبي نوح عليهما السلام — وسألاه أن يدعُوَ لهما ، سبّحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم . قال أبو الحسن بن الحصار : وقد ظن بعض مَن جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت ، وأنها منسوخة بالآية التي في المؤمن ، وما علموا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للؤمنين خاصة ، ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض . الماوردي : وفي استغفارهم لهم قولان : أحدهما — من الذنوب والخطايا ؛ وهو ظاهر قول مقاتل . الثاني — أنه طلب الرزق لهم والسّعة عليهم ؛ قاله الكلبي .

قلت : وهو أظهر ، لأن الأرض تعمّ الكافر وغيره ، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر . وقد رُوي في هذا الباب خبر رواه عاصم الأحول عن أبي عثمان عن سلمان قال : إن العبد إذا كان يذكر الله في السّراء فنزلت به الضّراء قالت الملائكة : صوت معروف من آدميّ ضعيف ، كان يذكر الله تعالى في السراء فنزلت به الضراء ؛ فيستغفرون له . فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت منكر من آدميّ كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء ؛ فلا يستغفرون . وهذا يدلّ على أن الآية في الذاكر لله تعالى في السراء والضراء ، فهي خاصّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين . والله أعلم . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى : « إنّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمواتِ والأَرْضَ أَنْ تَزُولَا[1] — إلى أن قال — إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ[2] » . والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام ؛ فيكون عاما ؛ قاله الزّمخشري . وقال مُطرّف : وجدنا أنصح عبادِ الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين . وقد تقدّم[3] . ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ قال بعض العلماء : هيّب وعظّم جلّ وعزّ في الابتداء ، وألطف وبشّر في الانتهاء .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

(١) آية ٤١ سورة فاطر . (٢) آية ٦ سورة الرعد . (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٩٥ .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما يعبدونها . ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى يحفظ أعمـالهم ليجازيهم بها . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وهـذه منسوخة بآية السيف . وفى الخـبر : " أطّت السماء وحُقَّ لهـا أن تئط " أى صوّتت من ثقـل سكانها لكثرتهم ، فهم مع كثرتهم لا يفترون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يشركون به .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أوحينا إليـك و إلى من قبلك هـذه المعانى فكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًّا بيّناه بلغة العرب . وقيـل : أى أنزلنا عليك قرآنا عربيا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه . والمعنى واحد . ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعنى مكة . وقيل لمكة أم القُرى لأن الأرض دُحيت من تحتها . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من سائر الخلق . ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أى بيوم الجمع، وهو يوم القيامة . ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه . ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ابتداء وخبر . وأجاز الكسائىّ النصب على تقدير : لتنذر فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير .

قوله تعـالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال الضحاك : أهل دين واحد ؛ أهل ضلالة أو أهـل هُدًى . ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أنس بن مالك : فى الإسلام . ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ عطف على اللفظ . ويجوز « ولا نصيرٌ » بالرفع على الموضع و « مِن » زائدة .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا ﴾ أى بل اتخذوا . ﴿ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى أصناما . ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أى وليك يا محمد وولىّ من آتبعك ، لا ولىّ سواه . ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ يريد عند البعث . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شىء .

قوله تعالى : وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين؛ أى وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم حكمه إلى الله لا إليكم، وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لا غيره، وأمور الشرائع إنما تُتَلَقَّى من بيان الله . ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى الموصوف بهذه الصفات هو ربى وحده ؛ وفيه إضمار : أى قل لهم يا محمد ذلكم الله الذى يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّى . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع .

قوله تعالى : فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بالرفع على النعت لآسم الله ، أو على تقدير هو فاطر . ويجوز النصب على النداء ، والجرّ على البدل من الهاء فى « عليه » . والفاطر : المبدع والخالق . وقد تقدّم[1] . ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قيل معناه إناثا . وإنما

(١) راجع ج ٦ ص ٣٩٧ ، ج ٩ ص ٢٧٠ و ٣٤٦ ، ج ١٤ ص ٢٤ وما بعدها و ٣١٩

قال : « مِن أنفسِكم » لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم . وقال مجاهـد : نَسْلاً بعد نسـل .
﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى الثمـانية التى ذكرها فى « الأنعام »(١) ذكور الإبل والبقر والضأن والمعز وإناثها . ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ أى يخلقكم وينشئكم «فيه» أى فى الرحم . وقيل : فى البطن. وقال الفرّاء وآبن كَيْسان : « فيه » بمعنى به . وكذلك قال الزجاج : معنى « يذرؤكم فيه » يكثّركم به ؛ أى يكثّركم يجعلكم أزواجا ، أى حلائل ؛ لأنهن سبب النسل . وقيـل : إن الهـاء فى « فيه » للجعل ، ودلّ عليـه « جَعَل » ؛ فكأنه قال : يخلقكم ويكثّركم فى الجعل . آبن قُتيبة : « يذرؤكم فِيهِ » أى فى الزوج؛ أى يخلقكم فى بطون الإناث . وقال : ويكون « فيه » فى الرحم ، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدّم لهـا ذكر . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ قيل : إن الكاف زائدة للتوكيد؛ أى ليس مثله شىء . قال :

* وصالياتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنْ(٢) *

فأدخل على الكاف كافاً تأكيدا للتشبيه . وقيـل : المثل زائدة للتوكيد ؛ وهو قول ثعلب : ليس كهو شىء؛ نحو قوله تعـالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا(٣) » . وفى حرف ابن مسعود « فإن آمنوا بمـا آمنتم به فقد اهتدوا » قال أَوْس بن حَجَر :

وقَتْلَى كمثل جذوع النخـ ـيـل يغشاهم مطـر منهمر

أى كجذوع . والذى يُعتقد فى هذا الباب أن الله جل آسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمـائه وعلىّ صـفاته ، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشـبّه به ، وإنمـا جاء ممـا أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق ، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ؛ إذ صفات القـديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض ، وهو تعالى منزه عن ذلك ؛ بل لم يزل بأسمـائه وبصفاته على ما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الصاليات : الأثافى ، وهى الأحجار التى ينصب عليها القـدر . ومعنى يؤثفين : ينصبن للقدر . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الخامس والثلاثين بعد المـائة وكتاب سيبويه) . (٣) آية ١٣٧ سورة البقرة .

أسماء الله الحسنى) ، وكفى فى هذا قوله الحق : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطّلة من الصفات . وزاد الواسطى رحمه الله بيانا فقال : ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة . رضى الله عنهم !

قوله تعالى : لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم فى « الزُّمَر »[(1)] بيانه . النحاس : والذى يملك المفاتيح يملك الخزائن؛ يقال للفتاح : إقليد ، وجمعه على غير قياس ؛ كمحاسن والواحد حسن . ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم أيضا فى غير موضع[(2)] .

قوله تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٤ . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٩ ص ٣١٤

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ أى الذى له مقاليد السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم بيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ وهو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما . ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ؛ قال الله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » وقد تقدّم القول فيه (١) . ومعنى « شرع » أى نهج وأوضح وبيّن المسالك . وقد شَرَع لهم يَشْرَع شَرْعًا أى سنّ . والشارع : الطريق الأعظم . وقد شَرَع المنزِلُ اذا كان على طريق نافذ . وشرعت الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة . وشرعت الأديم إذا سلخته . وقال يعقوب : إذا شققت ما بين الرجلين ، قال : وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِية . وشرعت فى هذا الأمر شروعا أى خضت . ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ « أنْ » فى محل رفع ، على تقدير والذى وصّى به نوحا أن اقيموا الدّين ، ويوقف على هذا الوجه على « عيسى » . وقيل : هو نصب ، أى شرع لكم إقامة الدين . وقيل : هو جرّ بدلا من الهاء فى « به » ؛ كأنه قال : به أقيموا الدين . ولا يوقف على « عيسى » على هذين الوجهين . ويجوز أن تكون « أن » مفسرة ؛ مثل أن آمشوا ، فلا يكون لها محل من الإعراب .

الثانية — قال القاضى أبو بكر بن العربىّ : ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال فى حديث الشفاعة الكبير المشهور : " ولكن ائتوا نوحا فإنه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقولون له أنت أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ... " وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أوّل نبىّ (٢) بغير إشكال ؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نُبوّة ، ولم تُفرض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم ، وإنما كان تنبيها على بعض

(١) راجع ج ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) فى نسخ الأصل : « كما أن آدم أوّل رسول نبى بغير إشكال ، إلا أن آدم » والتصويب عن ابن العربى .

الأمور واقتصارا على ضرورات المعـاش ، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء ؛ واستقر المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات، ووظّف عليه الواجبات وأوضح له الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر(١) بالأنبياء — صلوات الله عليهم — واحدا بعد واحد وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والزّلَف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والإذاية للخلق كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كله مشروع دينًا واحدا وملة متحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أي اجعلوه قائما؛ يريد دائما مستمرا محفوظا مستقرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب ؛ فمن الخلق مَن وفى بذلك ومنهم من نَكَث؛ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه . واختلفت الشرائع وراء هذا في معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم » . والله أعلم . قال مجاهد : لم يبعث الله نبيًّا قطّ إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم؛ وقاله الوالِبِيّ عن ابن عباس، وهو قول الكلبيّ . وقال قتادة : يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقال الحكم : تحريم الأمهات والأخوات والبنات . وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها . وخص نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنهم أرباب الشرائع.

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي عَظُم عليهم . ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان . قال قتادة : كَبُر على المشركين فاشتدّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويُعليها ويظهرها على من

(١) في ابن العربي : « ويتناشر » .

ناوأها . ثم قال : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يختار . والاجتباء الاختيار ؛ أى يختار للتوحيد من يشاء . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ أى يستخلص لدينه من رجع إليه . ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ قال ابن عباس : يعنى قريشا . ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم؛ وكانوا يتمنّون أن يبعث إليهم نبيّ؛ دليله قوله تعالى فى سورة فاطر : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ »(١) يريد نبيًّا . وقال فى سورة البقرة : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ »(٢) على ما تقدّم بيانه هناك . وقيل : أمم الأنبياء المتقدّمين ؛ فإنهم فيما بينهم آختلفوا لما طال بهم المَدَى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقال آبن عباس أيضا : يعنى أهل الكتاب ؛ دليله فى سورة المُنْفَكِّين « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » . فالمشركون قالوا : لم خُصّ بالنبوّة! واليهود حسدوه لما بُعث؛ وكذا النصارى . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى بغيا من بعضهم على بعض طلبا للرياسة ؛ فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فى تأخير العقاب عن هؤلاء . ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : القيامة ؛ لقوله تعالى : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »(٣) . وقيل : إلى الأجل الذى قضى فيه بعذابهم . ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين من آمن وبين من كفر بنزول العذاب . ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد المختلفين فى الحق . ﴿ لَفِي شَكٍّ ﴾ من الذى أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : «إن الذين أورثوا الكتاب» قريش . «من بعدهم» من بعد اليهود والنصارى . « لفى شك » من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى « من بعدهم » من قبلهم؛ يعنى من قبل مشركى مكة، وهم اليهود والنصارى .

---

(١) آية ٤٢ راجع جـ ١٤ ص ٣٥٧

(٢) آية ٨٩ راجع جـ ٢ ص ٢٧ طبعة ثانية .

(٣) آية ٤٦ سورة القمر .

قوله تعالى : فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ . لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى أو لقريش قيل له : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أى فتبيّنت شكّهم فادع إلى الله؛ أى إلى ذلك الدّين الذى شرعه الله للأنبياء ووصاهم به . فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » أى إليها . و « ذلك » بمعنى هذا . وقد تقدّم أول «البقرة»(١) . والمعنى فلهذا القرآن فادع . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع . وقيل : إن اللام على بابها؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذى تقدم ذكره فادع واستقم . قال ابن عباس : أى إلى القرآن فادع الخلق . ﴿ وَٱسْتَقِمْ ﴾ خطاب له عليه السلام . قال قتادة : أى استقم على أمر الله . وقال سفيان : أى استقم على القرآن . وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنظر إلى خلاف من خالفك . ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى أن أعدل؛ كقوله تعالى : « وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٢) . وقيل : هى لام كى، أى لكى أعدل . قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوّى بينكم فى الدّين فأومن بكل كتاب وبكل رسول . وقال غيرهما : لأعدل فى جميع الأحوال . وقيل : هذا العدل هو العدل فى الأحكام . وقيل فى التبليغ . ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود؛ أى لنا ديننا ولكم دينكم . قال : ثم نُسخت بقوله «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»(٣) الآية . قال مجاهد : ومعنى « لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل : ليس بمنسوخ؛

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٦٦ سورة غافر . (٣) آية ٢٩ سورة التوبة .

لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، و بعد العناد لاحجة ولاجدال. قال النحاس : و يجوز أن يكون معنى « لا حُجَّةَ بيننا و بينكم » على ذلك القول : لم يؤمر أن يحتجّ عليكم و يقاتلكم ؛ ثم نسخ هذا . كما أن قائلا لو قال من قبل أن تحول القبلة : لا تصلّ الى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد، لجاز أن يقال نسخ ذلك . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى فهو يحكم بيننا اذا صرنا إليه، ويجازى كُلًّا بما كان عليه . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه الى دين قريش، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوّجه شيبةُ بآبنته .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ رجع الى المشركين . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ قال مجاهد : من بعد ما أسلم الناس . قال : وهؤلاء قد توهّموا أن الجاهلية تعود . وقال قتادة : الذين يحاجون فى الله اليهود والنصارى ، ومحاجّتهم قولهم نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء . وكان المشركون يقولون : « أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا »(١) فقال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى لاثبات لها كالشيء الذى يزلّ عن موضعه . والهاء فى « له » يجوز أن يكون لله عز وجل؛ أى من بعد ما وحّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية . ويجوز أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى من بعد ما استجيب لمحمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين . يقال : دَحَضت حجّته دُحوضًا بطلت . وأدحضها الله . والإدحاض : الإزلاق . ومكان دَحْض ودَحَض أيضا

(١) آية ٧٣ سورة مريم .

(بالتحريك) أى زَلَق . ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت . ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت . ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ يريد فى الدنيا . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يريد فى الآخرة عذاب دائم .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ (١٧)

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن وسائر الكتب المنزلة . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى العدل ؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين . والعدل يسمى ميزانا ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل . وقيل : الميزان ما بين فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه . وهذه الأقوال متقاربة المعنى . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . وقيل : إنه الميزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به ؛ لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ؛ قال الله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ »(١) . قال مجاهد : هو الذى يوزن به . ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به] . وقيل : الميزان محمد صلى الله عليه وسلم ، يقضى بينكم بكتاب الله . ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ فلم يخبره بها . يحضه على العمل بالكتاب والعدل والسوية ، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئ اليوم الذى يكون فيه المحاسبة ووزن الأعمال ، فيوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف . فـ « لعل الساعة قريب » أى منك وأنت لا تدرى . وقال : « قريب » ولم يقل قريبة ؛ لأن تأنيثها غير حقيقى لأنها كالوقت ؛ قاله الزجاج . والمعنى : لعل البعث أو لعل مجىء الساعة قريب . وقال الكسائى : « قريب » نعت يُنعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »(٢) . قال الشاعر :

وكنا قريبا والديار بعيدة * فلما وصلنا نُصْب أعينهم غبنا

(١) آية ٢٥ سورة الحديد .		(٢) آية ٥٦ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ٢٢٧ .

قوله تعالى : يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ يعنى على طريق الاستهزاء ، ظنًّا منهم أنها غير آتية ، أو إيهاما للضَّعَفة أنها لا تكون . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد فى الطاعة؛ كما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجعون »(١) . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أى التى لا شك فيها . ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى يشكّون ويخاصمون فى قيام الساعة . ﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكّروا لعلموا أن الذى أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا ، قادر على أن يبعثهم .

قوله تعالى : ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : حَفِيّ بهم . وقال عكرمة : بارّ بهم . وقال السُّدّىّ : رفيق بهم . وقال مقاتل : لطيف بالبرّ والفاجر، حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم . وقال القُرَظىّ : لطيف بهم فى العرض والمحاسبة . قال :

غدًا عند مَوْلَى الخلق للخلق موقفٌ * يسائلهم فيـه الجليـل و يلطف

وقال جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين : يلطف بهم فى الرزق من وجهين : أحدهما — أنه جعل رزقك من الطيبات . والثانى — أنه لم يدفعه إليك مرّةً واحدة فتبذّره . وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم فى القرآن وتفصيله وتفسيره . وقال الجُنيد : لطيف

(١) آية ٦٠ سورة المؤمنون .

بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه . وقال محمد بن علىّ الكتّانىّ : اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكّل عليه ورجع إليه، فحينئذ يقبله و يُقبل عليه . وجاء فى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول جلّ وعزّ امّحت آثارهم واضمحلّت صُوَرهم و بقى عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين خفّفوا عنهم العذاب فيخفَّف عنهم العذاب" . قال أبو علىّ الثقفىّ رضى الله عنه :

أمرّ بأفناء القبور كأنني ＊ أخو فطنة والثوب فيه نحيف

ومن شقّ فاه الله قدّر رزقه ＊ وربّى بمن يلجأ إليه لطيف

وقيل : اللطيف الذى ينشر من عباده المناقب و يستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "يا من أظهر الجميل وستر القبيح" . وقيل : هو الذى يقبل القليل و يبذل الجزيل . وقيل : هو الذى يجبر الكسير و ييسّر العسير . وقيل : هو الذى لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله . وقيل : هو الذى يبذُل لعبده النعمة فوق الهمة و يكلفه الطاعة دون الطاقة؛ قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(١) ، « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً »(٢) ، وقال : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(٣) ، « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ »(٤) . وقيل : هو الذى يعين على الخدمة و يكثر المِدْحة . وقيل : هو الذى لا يعاجل من عصاه ولا يخيّب من رجاه . وقيل : هو الذى لا يرد سائله ولا يوئس آمله . وقيل : هو الذى يعفو عمن يهفو . وقيل : هو الذى يرحم من لا يرحم نفسه . وقيل : هو الذى أوْقد فى أسرار العارفين من المشاهدة سراجًا ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجًا ، وأجزل لهم من سحائب برّه ماء ثجّاجًا . وقد مضى فى « الأنعام »(٥) قول أبى العالية والجُنيد أيضا . وقد ذكرنا جميع هذا فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف، والحمد لله . ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ويحرم من يشاء . وفى تفضيل قوم بالمال حكمةٌ؛ ليحتاج

(١) آية ٣٤ سورة إبراهيم . (٢) آية ٢٠ سورة لقمان . (٣) آية ٧٨ سورة الحج .
(٤) آية ٢٨ سورة النساء . (٥) راجع جـ ٧ ص ٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

البعض إلى البعض، كما قال : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا »(١)، فكان هـذا لطفا بالعباد .
وأيضا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ، كما قال : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ »
على ما تقدّم بيانه(٢) . ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ .

قوله تعـالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ الحرث العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمـر : واحْرُث لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا . ومنـه سمى الرجل حارثا . والمعنى : أى من طلب بمـا رزقناه حرثًا لآخرته ، فأدّى حقوق الله وأنفق فى إعزاز الدّين، فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشرا إلى سبعمائة فأكثر. ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ أى طلب بالمـال الذى آتاه الله ريـاسـة الدنيا والتوصّل إلى المحظورات، فإنا لا نحرمه الرزق أصلا، ولكن لا حظّ له فى الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَـا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْـلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَـا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا »(٣) . وقيـل : « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » نوفقه للعبادة ونسهلها عليـه . وقيل : حرث الآخرة الطاعة ؛ أى من أطاع فله الثواب . وقيل : « نزد له فى حرثه » أى نعطيه الدنيا مع الآخرة . وقيل : الآية فى الغَزْو؛ أى من أراد بغَزْوِه الآخرة أوتى الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوتى منها . قال القُشيرى : والظاهر أن الآية فى الكافر؛ يوسع له فى الدنيا ؛ أى لا ينبغى له أن يغترّ بذلك لأن الدنيا لا تبقى . وقال قتادة : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا . وقال أيضا : يقول الله تعالى : "من عمل لآخرته زدناه فى عمله وأعطيناه من الدنيـا ما كتبنا له ومن آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيبًا فى الآخرة

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . (٢) آية ٢٠ سورة الفرقان . راجع ج ١٣ ص ١٨
(٣) آية ١٨ وما بعدها سورة الإسراء .

إلا النــار ولم يصب من الدنيا إلا رزقا قد قسمناه له لا بُدّ أن كان يؤتاه مع إيثــار أو غير إيثار". وروى جُوَيْبِر عن الضحاك عن آبن عباس قال : وقوله عز وجل : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرةِ » من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة « نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه » أي فى حسناته . « ومن كان يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا » أي من كان من الفُجّار يريد بعمله الحَسَن الدنيا « نُؤْتِهِ مِنها » ثم نسخ ذلك فى سبحان : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ »(١). والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر والأشياء كلها بإرادة الله عزّوجل. ألا ترى أنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقل أحدكم اللّهُمّ آغفرلى إن شئت اللّهُمّ آرحمنى إن شئت" . وقد قال قتادة ما تقدم ذكره، وهو يبيّن لك أن لا نسخ . وقد ذكرنا فى « هود »(٢) أن هذا من باب المطلق والمقيّد، وأن النسخ لا يدخل فى الأخبار . والله المستعان .

مســـألة : هذه الآية تبطل مذهب أبى حنيفة فى قوله : إنه من توضأ تَبَرُّداً أنه يجزيه عن فريضة الوضوء الموظّف عليــه؛ فإن فريضة الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدهما على الآخر، ولا تجزى نيته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله آبن العربى.

قوله تعـالى : أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أى ألهم ! والميم صلة والهمزه للتقريع . وهــذا متصل بقوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا »، وقوله تعالى : «اللهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ والمِيزَانَ » كانوا لايؤمنون به ، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذى لم يأذن به الله ! وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به . ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يوم

(١) آية ١٨ (٢) راجع جـ ٩ ص ١٤

القيامة حيث قال: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» . ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فى الدنيا، فعاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع . ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى المشركين . ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الدنيا القتلُ والأسر والقهر، وفى الآخرة عذاب النار . وقرأ ابن هُرْمُز «وأنّ» بفتح الهمزة على العطف على «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ» والفصلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائز . ويجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعا على تقدير : وجب أنّ الظالمين لهم عذاب أليم ؛ فيكون منقطعا مما قبله كقراءة الكسر؛ فاعلمه .

قوله تعالى : ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أى خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى من جزاء ما كسبوا . والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر . ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أى نازل بهم . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الرَّوْضة : الموضع النَّزِه الكثير الخضرة . وقد مضى فى «الروم»(١) . ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى من النعيم والثواب الجزيل . ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى لا يوصف ولا تهتدى العقول إلى كُنْه صفته ؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذى يقدر قدره .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص ١١

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قرئ « يُبَشِّرُ » من بَشَّره ، « ويُبْشِر » من أبشره ، « ويَبْشُر » من بَشَره ، وفيه حذف ؛ أى يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور و يزدادوا منه وجدًا فى الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى قل يامجد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلًا . ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ قال الزجاج : «إلا المودة» استثناء ليس من الأول ؛ أى إلا أن تَوَدُّونى لقرابتى فتحفظونى . والخطاب لقريش خاصّةً ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم . قال الشعبيّ : أكْثَرَ الناسُ علينا فى هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ؛ فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسطَ الناس فى قريش ، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَده ؛ فقال الله له : « قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ » إلا أن تَوَدُّونى فى قرابتى منكم ؛ أى تراعوا ما بينى و بينكم فتصدّقونى . فـ « الْقُرْبَىٰ » ها هنا قرابة الرَّحِم ؛ كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوّة . قال عكرمة : وكانت قريش تَصِل أرحامها فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعته ؛ فقال : "صِلُونى كما كنتم تفعلون" . فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذكّركم قرابتى ؛ على أنه استثناء ليس من الأوّل ؛ ذكره النحاس . وفى البخاريّ عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : « إلا المودّةَ فى القُرْبَى » فقال سعيد بن جُبير : قُرْبَى آل محمد ؛ فقال ابن عباس : عجِلت ! إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ؛ فقال : إلا أن تَصِلوا ما بينكم من القرابة . فهذا قول . وقيل : القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا أسألكم أجرا إلا أن تَوَدّوا قرابتى وأهل بيتى ، كما أمر بإعظامهم ذوى القربى . وهذا قول على بن حسين وعمرو بن شعيب والسُّدّى . وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما أنزل الله عز وجل : « قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المَوَدَّةَ فى القُرْبَى » قالوا : يا رسول الله ، من

هؤلاء الذين نَوَدُّهم ؟ قال : " عليّ وفاطمة وأبناؤهما " . ويدل عليه أيضا ما روى عن عليّ رضى الله عنه قال : شكوت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى . فقال : "أما ترضى أن تكون رابعَ أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيمانتا وشمائلنا وذرّيتنا خلف أزواجنا " . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " حُرِّمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عِتْرتِى ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقينى يوم القيامة " . وقال الحسن وقتادة : المعنى إلا أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقربوا إليه بطاعته . فـ « الْقُرْبَى » على هذا بمعنى القربة . يقال : قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى ؛ كالزُّلْفة والزُّلْفَى . وروى قَزَعة بن سُويد عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " قل لا أسألكم على ما آتيتكم به أجرا إلا أن توادّوا وتقرّبوا إليه بالطاعة " . وروى منصور وعوف عن الحسن «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودّة فِى القُرْبَى » قال : يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقربون منه بطاعته . وقال قوم : الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة ؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وأمرهم الله بمودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه ؛ فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه ، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا «وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ » (١) ؛ فأنزل الله تعالى « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ » (٢) فنسخت بهذه الآية وبقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » (٣) ، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ » (٤) ، وقوله : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » (٥) ؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل . ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس . قال الثعلبيّ : وليس بالقوىّ ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول : إن التقرّب إلى الله بطاعته ومودّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ ؛ وقد

(١) آية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ سورة الشعراء . (٢) آية ٤٧ سورة سبأ . (٣) آية ٨٦ سورة ص . (٤) آية ٧٢ سورة المؤمنون . (٥) آية ٤٠ سورة الطور وآية ٤٦ سورة القلم .

قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " من مات على حُب آل محمد مات شهيدا . ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوّار قبره الملائكة والرحمــة . ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله . ومن مات على بُغْض آل محمد لم يَرِح(١) رائحة الجنة . ومن مات على بغض آل بيتى فلا نصيب له فى شفاعتى " .

قلت : وذكر هذا الخبر الزَّمَخْشَرِيّ فى تفسيره بأطول من هذا فقال: وقال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمــان . ألا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنــة ثم مُنْكَر ونكير . ألا ومن مات على حب آل محمد فُتح له فى قبره بابان إلى الجنــة . ألا ومن مات فى حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة . ألا ومن مات على حُبّ آل محمد مات على السنة والجماعة . ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه أيس من رحمة الله . ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا . ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يَشُمّ رائحة الجنة " . قال النحاس : ومذهب عِكْرِمة ليست بمنسوخة؛ قال : كانوا يَصِلون أرحامهم فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قطعوه فقال : " قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا أن تَوَدُّونى وتحفظونى لقرابتى ولا تكذبونى " .

قلت : وهذا هو معنى قول ابن عباس فى البُخارِىّ والشَّعْبِيّ عنه بعينه؛ وعليه لا نسخ. قال النحاس : وقول الحسن حسن ، و يدل على صحته الحديثُ المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدّثنا أحمد بن محمد الأزدى قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادى قال أخبرنا أسد آبن موسى قال حدّثنا قَزَعة(٢) — وهو ابن يزيد البصرى — قال حدّثنا عبد الله بن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا أسئلكم على ما أنبئكم به من البينّات والهُدَى أجرًا إلا أن توادّوا الله عز وجل وأن تَتقربوا إليه بطاعته". فهذا المبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا ، وكذا قالت الأنبياء صــلى الله عليهم قبله : « إِنْ أَجْرِىَ إلا على الله » .

---

(١) أى لم يشم ريحها ؛ يقال : راح يَرِيح ، وراح يَراح ، وأراح يُرِيح . والثلاثة قد روى بها الحديث .

(٢) تقدم أنه قزعة بن سويد؛ وهو ممن يروى عن آبن ابى نجيح . (راجع تهذيب التهذيب) .

الثانيـة — واختلفوا في سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : لما قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه ؛ فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم، وتنوبه نوائب وحقوق لا يسعها ما في يديه فنجمع له ؛ ففعلوا ، ثم أتوه به فنزلت . وقال الحسن : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون ، فقالت الأنصار نحن فعلنا ، وفخرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى مِقْسم عن ابن عباس قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فخطب فقال للأنصار : "ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بي . ألم تكونوا ضُلّالا فهداكم الله بي . ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بي ألا تردّون عليّ" ؟ فقالوا : بِمَ نجيبك ؟ قال : "تقولون ألم يطردك قومُك فآويناك . ألم يكذبك قومك فصدّقناك ..." فعدّد عليهم . قال : فجثَوْا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك ؛ فنزلت : « قل لا أسئلكم عليه أجرًا إلا المودّةَ في القُرْبَى » . وقال قتادة : قال المشركون لعلّ محمدا فيما يتعاطاه يطلب أجرا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ ليحثّهم على مودّته ومودّة أقربائه . قال الثعلبيّ : وهذا أشبه بالآية ؛ لأن السورة مكية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أي يكتسب . وأصل القرف الكسب ؛ يقال : فلان يَقْرِف لعياله ؛ أي يكسب . والاقتراف الاكتساب ؛ وهو مأخوذ من قولهم : رجل قرفة ، إذا كان محتالا . وقد مضى في « الأنعام »(١) القول فيه . وقال ابن عباس : « وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً » قال المودّة لآل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أي نضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعدًا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ قال قتادة : «غفور» للذنوب ، «شكور» للحسنات . وقال السُّدّي : «غفور» لذنوب آل محمد عليه السلام ، «شكور» لحسناتهم .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٠

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ الميم صلة؛ والتقدير أيقولون افترى . واتصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال : « وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ »(١)، وقال « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ »(٢) قال إتماما للبيان : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً » يعنى كفار قريش قالوا : إن محمدا اختلق الكذب على الله . ﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به فى هذه الآية . وقال مجاهد ومقاتل : « إن يشأ الله » يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقةٌ من قولهم . وقيل : المعنى إن يشأ يزل تمييزك . وقيل : المعنى لو حدّثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لطبع على قلبك ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم وعاجلهم بالعقاب . فالخطاب له والمراد الكفار؛ ذكره القشيرى . ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ﴾ قال ابن الأنبارى : « يختم على قلبك » تام . وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير؛ مجازه : والله يمحو الباطل ؛ فحذف منه الواو فى المصحف ، وهو فى موضع رفع . كما حُذفت من قوله «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ»(٣)، «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ»(٤) ولأنه عطف على قوله «يختم على قلبك» . وقال الزجاج : قوله «أم يقولون ٱفترى على ٱلله كذباً» تمام؛ وقوله «ويمح الله الباطل» احتجاج على من أنكر ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته فى المفترين . ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ ﴾ أى الإسلام فيثبته ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بما أنزله من القرآن . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ عام، أى بما فى قلوب العباد . وقيل خاص . والمعنى أنك لو حدّثت نفسك أن تفترى على الله كذبا لعلمه وطبع على قلبك .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

(١) آية ١٥ من هذه السورة .	(٢) آية ١٧ من هذه السورة .
(٣) آية ١٨ سورة العلق .	(٤) آية ١١ سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » قال قوم فى نفوسهم : ما يريد إلا أن يحثنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وأنهم قد آتهموه فأنزل «أم يقولون افترى على الله كذبا » الآية ؛ فقال القوم : يا رسول الله، فإنا نشهد أنك صادق ونتوب . فنزلت : «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده» . قال ابن عباس : أى عن أوليائه وأهل طاعته. والآية عامة . وقد مضى الكلام فى معنى التّوبة وأحكامها (١)، ومضى هذا اللفظ فى «براءة» (٢) . ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى عن الشرك قبل الإسلام . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى من الخير والشر . وقرأ حمزة والكسائى وحفص وخلف بالتاء على الخطاب، وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه . الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين خبرين : الأوّل وهو «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده» والثانى «وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .

قوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

«الذين» فى موضع نصب؛ أى ويستجيب الله الذين آمنوا، أى يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه . وقيل : يعطيهم مسألتهم إذا دعوه . وقيل : ويجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال : أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى فى «البقرة» (٣) . وقال ابن عباس : «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات» يشفّعهم فى إخوانهم . « وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » قال : يشفّعهم فى إخوان إخوانهم . وقال المُبرّد : معنى « ويستجيب الذين آمنوا » وليستدع الذين آمنوا الإجابة ؛ هكذا حقيقة معنى استفعل . فـ«الذين » فى موضع رفع . ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٠ وما بعدها .
(٢) آية ١٠٤ راجع جـ ٨ ص ٢٥٠
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — فى نزولها؛ قيل: إنها نزلت فى قوم من أهل الصُّفّة تمنّوْا سَعة الرزق . وقال خَبّاب بن الأرتّ : فينا نزلت ؛ نظرنا إلى أموال بنى النَّضير وقُريظة و بنى قَيْنُقَاع فتمنّيناها فنزلت . ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه وسّع . و بَسَط الشيء نشره . و بالصاد أيضا . ﴿لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا . وقال ابن عباس : بغيُهم طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس . وقيل أراد لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه ، لقوله : " لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا " وهذا هو البَغْى ، وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : لو جعلناهم سواء فى المال لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع . وقيل : أراد بالرزق المطر الذى هو سبب الرزق ؛ أى لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء ، فيقبِض تارة ليتضرّعوا و يبسُط أخرى ليشكروا . وقيل : كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض؛ فلا يبعد حمل البغى على هذا . الزَّمَخْشَرِيّ : « لبغَوْا » من البغى وهو الظلم؛ أى لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مأشرة ، وكفى بقارون عبرة . ومنه قوله عليه السلام : " أخوَف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها " . ولبعض العرب :

وقد جعل الوسْمِىُّ يُنبِت بيننا * وبين بنى دُودَان نَبْعًا وشَوْحطا[(١)]

يعنى أنهم أحيَوا فحدّثوا أنفسهم بالبغى والتغابن . أو من البَغْى وهو البَذَخ والكبر؛ أى لتكبّروا فى الأرض وفعلوا مايتبع الكبر من العلو فيها والفساد . ﴿وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَايَشَاءُ﴾ أى ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم . وقال مقاتل : « ينزل بقدر ما يشاء » يجعل من يشاء غنياً ومن يشاء فقيرا .

---

(١) الوسمى : مطر أول الربيع . والنبع والشوحط : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسىّ . وفى نسخ الأصل و بعض كتب التفسير : « ... بنى رومان » . ودودان : أبو قبيلة من أسد .

الثانيـــة ـــ قال علماؤنا : أفعال الربّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزْوِى عنه الدنيا ، مصلحةً له . فليس ضيق الرزق هواناً ولا سَعة الرزق فضيلة ؛ وقد أعطى أقواما مع علمه أنهم يستعملونه فى الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح . والأمر على الجملة مفوض إلى مشيئته ، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح فى كل فعل من أفعال الله تعالى . وروى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : " من أهان لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة وإنى لأسرع شىء إلى نصرة أوليائى وإنى لأغضب لهم كما يغضب الليْث الحَرِد . وما تردّدت فى شىء أنا فاعله تردّدى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بدّ له منه . وما تقرّب إلىّ عبدى المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدى المؤمن يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه فاذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومؤيّدًا فإن سألنى أعطيته وإن دعانى أجبته . وإن من عبادى المؤمنين من يسألنى الباب من العبادة وإنى عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العُجْب فأفسده . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر . وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى . وإنى لأدبّر عبادى لعلمى بقلوبهم فإنى عليم خبير" . ثم قال أنس : اللهم إنى من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرنى برحمتك .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصِن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وحمزة والكسائى « يُنْزِل » مخففا . الباقون بالتشديد . وقرأ ابن وَثّاب أيضا والأعمش وغيرهما « قَنِطوا » بكسر النون ؛ وقد تقدّم جميع هذا[1] . والغيث المطر ؛ وسمى الغَيْث غيثًا لأنه يغيث

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦ ، ٦٧ وجـ ١٤ ص ٣٤

الخلق . وقد غاث الغيث الأرض أى أصابها . وغاث الله البلاد يَغيثها غَيْثًا . وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثًا فهى أرض مَغيثة ومَغْيُوثة . وعن الأصمعيّ قال : مررت ببعض قبائل العرب وقد مُطروا فسألت عجوزا منهم : أتاكم المطر ؟ فقالت : غِثنا ما شئنا غَيْثاً ؛ أى مُطرنا . وقال ذو الرُّمّة : قاتل الله أَمَةَ بنى فلان ما أفصحها ! قلت لها كيف كان المطر عندكم ؟ فقالت : غِثْنا ما شئنا . ذكر الأول الثعلبى والثانى الجوهرى . وربما سمى السحاب والنبات غَيْثًا .

والقنوط الإياس ؛ قاله قتادة وغيره . قال قتادة : ذُكر أنّ رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قَحَط المطرُ وقَلّ الغيث وقَنَط النـاس ؟ فقال : مطرتم إن شاء الله ؛ ثم قرأ « وهو الذى ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا » . والغيث ما كان نافعا فى وقته ، والمطر قد يكون نافعا وضارًّا فى وقته وغير وقتـه ؛ قاله الماوَرْدىّ . ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ قيل المطـر ؛ وهو قول السُّدّى . وقيل ظهور الشمس بعد المطر ؛ ذكره المهدَوى . وقال مقاتل : نزلت فى حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ، ثم أنزل الله المطر . وقيل : نزلت فى الأعرابى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة فى خبر الاستسقاء ؛ ذكره القشيرى ، والله أعلم . ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ «الولى» الذى ينصر أولياءه . «الحميد» المحمود بكل لسان .

قوله تعـالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علاماته الدالة على قدرته . ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال مجاهد : يدخل فى هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(١) . وقال الفرّاء : أراد ما بثّ فى الأرض دون السماء ؛ كقوله « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من الملح دون العَذْب . وقال أبو علىّ : تقديره وما بث فى أحدهما ؛ فحذف المضاف . وقوله « يخرج منهما » أى من أحدهما . ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ .

(١) آية ٨ سورة النحل .

قوله تعالى : وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « بما كسبت » بغير فاء . الباقون « فبما » بالفاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة فى الحرف والأجر . قال المهدوي : إن قدرت أن «ما» الموصولة جاز حذف الفاء و إثباتها، والإثبات أحسن . و إن قدرتها التى للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه ، وأجازه الأخفش واحتج بقوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »(١) . والمصيبة هنا الحدود على المعاصى؛ قاله الحسن . وقال الضحاك : ما تعلّم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » ثم قال : وأيّ مصيبة أعظم من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبى رَوّاد . قال أبو عبيد : إنما هذا على الترك، فأما الذى هو دائب فى تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك فى شئ . ومما يحقق ذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان ينسى الشئ من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : سمع قراءة رجل فى المسجد فقال : " ماله رحمه الله لقد أذكرنى آيات كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا " . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، والمعنى الذى أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله عز وجل . و إذا كان يكفّر عنى بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روى هذا المعنى مرفوعا عنه رضى الله عنه ، قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدّثنا بها النبى صلى الله عليه وسلم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الآية . " يا علىّ ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم . والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا عنه

(١) آية ١٢١ سورة الأنعام .

فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعـد عفوه " . وقال الحسن : لمـا نزلت هـذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما من اختلاج عِرْق ولا خَدْش عُود ولا نكبة حجر إلّا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر" . وقال الحسن : دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل : لا بد أن أسالك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران : يا أخى لا تفعل ! فوالله إنى لأحِبّ الوجع ومن أحبه كان أحبّ الناس إلى الله ، قال الله تعـالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير» فهذا ممـا كسبت يدى ، وعَفْوُ ربى عمـا بقى أكثر . وقال مُرّة الهَمْدانى : رأيت على ظهر كف شُريح قُرحة فقلت : يا أبا أميـة ، ما هذا ؟ قال : هـذا بمـا كسبت أيديكم و يعفو عن كثير . وقال ابن عَون : إن محمد بن سيرين لمـا ركبه الدّين اغتمّ لذلك فقال : إنى لأعرف هذا الغم ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة . وقال أحمد ابن أبى الحَوَارِى[(1)] قيـل لأبى سليمان الدّارانى : ما بال العقـلاء أزالوا اللوم عمن أساء إليهم ؟ فقال : لأنهم علموا أن الله تعالى إنمـا ابتلاهم بذنوبهم ، قال الله تعـالى « وما أصابكم من مصيبـة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » . وقال عِكْرمة : ما من نكبة أصابت عبـدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها أو لينال درجة لم يكن يوصّله إليها إلا بهـا . وروى أن رجلا قال لموسى : يا موسى سـل الله لى فى حاجة يقضيها لى هو أعلم بهـا؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزّق السّبُع لحمه وقتله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال الله تبارك وتعالى له : "ياموسى إنه سألنى درجة علمت أنه لم يبلغها بعمله فأصبته بما ترى لأجعلها وسيلة له فى نيل تلك الدرجة " . فكان أبو سليمان الدارانى إذا ذكر هـذا الحديث يقول : سبحان من كان قادرا على أن ينيله تلك الدرجة بلا بلوى ! ولكنه يفعل ما يشاء .

قلت : ونظير هذه الآية فى المعنى قوله تعالى «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» وقد مضى القول فيه[(2)] . قال علماؤنا : وهذا فى حق المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخرة الى الآخرة . وقيل : هذا خطاب للكفار، وكان إذا أصابهم شرّ قالوا : هذا بشؤم محمد؛ فردّ عليهم وقال بل ذلك

---

(١) ضبط كسكارى (بالفتح) أو أحد الحوار يين (شرح القاموس) .　　(٢) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦

بشؤم كفركم . والأول أكثر وأظهر وأشهر . وقال ثابت البُنَانِيّ : إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا . ثم فيها قولان : أحدهما — أنها خاصة فى البالغين أن تكون عقوبة لهم، وفى الأطفال أن تكون مثوبة لهم . الثانى — أنها عقوبة عامة للبالغين فى أنفسهم والأطفال فى غيرهم من والد ووالدة . ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى عن كثير من المعاصى ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن . وقيل : أى يعفو عن كثير من العصاة ألا يعجل عليهم بالعقوبة . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بفائتين الله؛ أى لن تعجزوه ولن تفوتوه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١) تقدّم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى ومن علاماته الدالة على قدرته السفنُ الجارية فى البحر كأنها من عظمها أعلام . والأعلام : الجبال، وواحد الجوارى جارية، قال الله تعالى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» (٢) . سُمّيت جارية لأنها تجرى فى الماء . والجارية : هى المرأة الشابة؛ سُمّيت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب . وقال مجاهد : الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبى . وذكر الماوَرْدى عنه أنها الجبال . وقال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم . قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا :

وإنّ صخرا لتأتمّ الهُداة به * كأنه علمٌ فى رأسه نار

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ ﴾ كذا قرأه أهل المدينة «الرياح» بالجمع . ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أى فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجرى . رَكَد الماء ركودا سكن . وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظهيرة . وكلّ ثابت فى مكان فهو راكد . وركَد

(١) راجع جـ ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة الحاقة .

الميزان آستوى . وركد القوم هدءوا . والمراكد : المواضع التي يَركُد فيها الإنسان وغيره . وقرأ قتادة « فَيَظْلِلْنَ » بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة، مثل ضَلَلتُ(١) أَضِل . وفتح اللام هي اللغة المشهورة . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي صبار على البَلْوَى شكور على النعماء . قال قُطْرُب : نعم العبد الصبار الشكور ، الذي إذا أعطى شكر وإذا آبتُلِيَ صبر . قال عَوْن بن عبد الله : فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلى غير صابر .

قوله تعالى : أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن؛ أي يغرقهن بذنوب أهلها . وقيل : يوبق أهل السفن . ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ من أهلها فلا يغرقهم معها ؛ حكاه الماوردي . وقيل : « ويعفو عن كثير » أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك . قال القُشيري : والقراءة الفاشية « ويعفُ » بالجزم ، وفيها إشكال؛ لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ويهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يعف» على هذا، لأنه يصير المعنى : إن يشأ يعف، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذًا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم « ويعفو » بالرفع، وهي جيدة في المعنى . ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ يعني الكفار؛ أي إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع(٢)، ومضى القول في ركوب البحر في « البقرة(٣) » وغيرها بما يغني عن إعادته . وقرأ نافع وابن عامر

(١) في الأصول : « ظللت أظل » بالظاء المعجمة . والتصويب عن الكشاف .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ وجـ ١٣ ص ٢٢٣ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية .

« ويعلمُ » بالرفع ، الباقون بالنصب . فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء ؛ كقوله في سورة التوبة « ويُخْزِهِم وينصُرْكُم عليهم »(١) ثم قال « ويتوبُ اللهُ على من يشاءُ » رفعا . ونظيره في الكلام إن تأتني آتك وينطلقُ عبد الله . أو على أنه خبر ابتداء محذوف . والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهَدُوا منكُمْ ويَعلَمَ الصَّابِرِينَ »(٢) صرف من حال الجزم الى النصب استخفافا كراهيةً لتوالى الجزم؛ كقول النابغة :

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يهلِكْ * ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ(٣)
ونُمْسِكَ بعده بِذِنَابِ عَيْشٍ * أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنامُ(٤)

وهذا معنى قول الفَرّاء، قال : ولو جزم « ويعلم » جاز . وقال الزجاج : نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزما؛ تقول : ما تصنعْ أصنعْ مثله وأُكرِمَك . وإن شئت قلت : وأُكرِمْك بالجزم . وفي بعض المصاحف « وليعلم » . وهذا يدل على أن النصب بمعنى : وليعلم أو لأن يعلم . وقال أبو علي والمبرّد : النصب بإضمار « أن » على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر؛ أي ويكون منه عَفْوٌ وأن يعلم، فلما حمله على الاسم أضمر أن، كما تقول : إن تأتني وتعطيني أكرمك ، فتنصب تعطيني ؛ أي إن يكن منك إتيان وأن تعطيني . ومعنى ﴿ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي من فرار ومهرب ؛ قاله قُطْرُب . السُّدّى : من ملجأ . وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به . ومنه قولهم : فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) ﴾

(١) آية ١٤ (٢) آية ١٤٢ سورة آل عمران . (٣) أبو قابوس : كنيته النعمان بن المنذر؛ يريد أنه كان كالربيع في الخصب لمجتديه، وكالشهر الحرام لجاره؛ أي لا يوصل الى من أجاره . والمعنى : إن يمت النعمان يذهب خير الدنيا لأنها كانت تعمر به وبجوده وعدله ونفعه للناس ، ومن كان في ذمته وسلطانه فهو آمن على نفسه محقون الدم كما يأمن الناس في الشهر الحرام على أموالهم ودمائهم . (٤) ذناب كل شيء : عقبه ومؤخره . وأجب الظهر مقطوع السنام . يقول : إن مات بقينا في طرف عيش قد مضى صدره ومعظمه وخيره، وقد بقي منه ذنبه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يريد من الغنى والسَّعة فى الدنيا . ﴿فَمَتَاعُ﴾ أى فإنما هو متاعٌ فى أيام قليلة تنقضى وتذهب؛ فلا ينبغى أن يتفاخر به . والخطاب للشركين . ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صدّقوا ووحّدوا ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ نزلت فى أبى بكر الصدّيق حين أنفق جميع ماله فى طاعة الله فلامه الناس . وجاء فى الحديث أنه : أنفق ثمانين ألفا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ الذين فى موضع جرّ معطوف على قوله : « خير وأبقى للذين آمنوا » أى وهو للذين يجتنبون ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ ﴾ وقد مضى القول فى الكبائر فى « النساء »(١) . وقرأ حمزة والكسائىّ « كبير الإثم » والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »(٢) ، وكما جاء فى الحديث : "منعت العراق درهمها وقفيزها" . الباقون بالجمع هنا وفى « النجم »(٣) . ﴿ وَالفَوَاحِشَ ﴾ قال السُّدّى : يعنى الزنى . وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشرك. وقال قوم : كبائر الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها . والفواحش داخلة فى الكبائر، ولكنها تكون أفحش وأشنع كالقتل بالنسبة الى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة . وقيل : الفواحش والكبائر بمعنًى واحد؛ فكرر لتعدد اللفظ ؛ أى يجتنبون المعاصى لأنها كبائر وفواحش . وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم . قيل : نزلت فى عمر حين شُتم بمكة . وقيل فى أبى بكر حين لامه الناس على

(١) آية ٣١ راجع جـ ٥ ص ١٥٨ وما بعدها .	(٢) آية ٣٤ سورة ابراهيم . و ١٨ سورة النحل .
(٣) آية ٣٢

انفاق ماله كله وحين شُتم فحَلُم . وعن عليّ رضى الله عنه قال : اجتمع لأبى بكر مال مرة، فتصدّق به كله فى سبيل الخير ؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ — الى قوله — وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردّ عليه شيئا ؛ فنزلت الآية . وهذه من محاسن الأخلاق ، يُشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهِل عليهم ؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ؛ لقوله تعالى فى آل عمران « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »(1) . وهو أن يتناولك الرجل فتكظِم غيظك عنه . وأنشد بعضهم :

إنى عفوت لظالمى ظلمى * ووهبت ذاك له على علمى

ما زال يظلمنى وأرحمه * حتى بكيت له من الظلم

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ قال عبد الرحمن ابن زيد : هم الأنصار بالمدينة ؛ استجابوا الى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيبا منهم قبل الهجرة . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ أى يتشاورون فى الأمور . والشُّورَى مصدر شاورته ؛ مثل البشرى والذكرى ونحوه . فكانت الأنصار قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمرا تشاوروا فيه ثم عملوا عليه ؛ فمدحهم الله تعالى به ؛ قاله النقاش . وقال الحسن : أى إنهم لانقيادهم إلى الرأى فى أمورهم متفقون لا يختلفون ؛ فمدحوا باتفاق كلمتهم . قال الحسن : ما تشاور قوم قطُّ إلا هُدُوا لأرشد أمورهم . وقال

(1) آية ١٣٤ راجع ج ٤ ص ٢٠٦

الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، وورد النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهـم فى دار أبى أيوب على الإيمـان به والنصرة له . وقيـل تشاورهم فيما يعرض لهم؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض . وقال ابن العربى : الشُّورَى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب الى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هُدُوا . وقد قال الحكيم :

إذا بلغ الرأى المشـورة فاستعن * برأى لبيب أو مشـورة حازم (١)

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فإن الخَـوَافى (٢) قـوّة للقوادم

فمدح الله المشاورة فى الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك . وقد كان النبيّ صلى الله عليـه وسلم يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحـروب ؛ وذلك فى الآراء كثير . ولم يكن يشاورهم فى الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحـرام . فأما الصحابة بعد استئثار الله تعـالى به علينا فكانوا يتشاورون فى الأحكام و يستنبطونها من الكتاب والسنة . وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافـةُ ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبى بكر والأنصار ما سـبق بيانه (٣) . وقال عمر رضى الله عنه : نرضى لدنيـانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسـلم لديننا . وتشاوروا فى أهل الردة فآستقر رأى أبى بكر على القتال . وتشاوروا فى الجَدّ وميراثه ، وفى حدّ الخمر وعدده . وتشاوروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب؛ حتى شاور عمر الهُرْمُزان حين وفَدَ عليه مسلما فى المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدوّ المسلمين مثـل طائر له ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس وإن كسر الجنـاح الاخر نهضت الرجلان والرأس وإن شُـدِخ الرأس ذهب الرجلان والجناحان . والرأسُ كِسْرى والجنـاح الواحد قيصر والاخر فارس ؛ فَمُـر المسلمين فلينفروا الى كِسْرى ... وذكر الحديث . وقال بعض العقلاء : ما أخطأت قطُّ ! إذا حَزَبَنى أمر شاورت قومى ففعلت الذى يرون؛ فإن أصبت فهم المصيبون، وإن أخطأت فهم المخطئون.

(١) البيتان لبشار بن برد . والخـوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . والقوادم : عشر ريشات فى مقدم الجناح وهى كبار الريش . (٢) فى الأصول « نافع » . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢٤

الثالثة — قد مضى فى « آل عمران » ما تضمنته الشُّورى من الأحكام عند قوله تعالى «وشاوِرْهُمْ فى الأمر»[1] . والمَشُورة بركة . والمَشْوَرة : الشُّورَى، وكذلك المشورة (بضم الشين) ؛ تقول منه : شاورته فى الأمر واستشرته بمعنًى . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شُورَى بينكم فظَهر الأرض خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها". قال حديث غريب. ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى ومما أعطيناهم يتصدقون . وقد تقدّم فى « البقرة »[2] .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴾ أى أصابهم بغى المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن المشركين بَغَوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وآذوهم وأخرجوهم من مكة ، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم فى الأرض ونصرهم على من بغى عليهم ؛ وذلك قوله فى سورة الحج « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

(١) آية ١٥٩ راجع جـ ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨ وما بعدها .

لَقدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا ... »[1] الآيات كلها . وقيل : هو عام فى بَغْى كل باغ من كافر وغيره؛ أى إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه . وهذه إشارة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود . قال ابن العربى : ذكر الله الانتصار فى البغى فى معرض المدح ، وذكر العفو عن الجرم فى موضع آخر فى معرض المدح ؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعا الى حالتين؛ إحداهما أن يكون الباغى معلنا بالفجور، وَقِحًا فى الجمهور ، مؤذيا للصغير والكبير ؛ فيكون الانتقام منه أفضل . وفى مثله قال إبراهيم النَّخَعِىّ : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق . الثانية — أن تكون الفلتة ، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة و يسأل المغفرة ؛ فالعفو هاهنا أفضل، وفى مثله نزلت « وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »[2] . وقوله : « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ »[3] . وقوله : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ »[4] .

قلت : هذا حسن ، وهكذا ذكر الكِيَا الطبرى فى أحكامه قال : قوله تعالى « وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرونَ» يدل ظاهره على أن الانتصار فى هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى و إقام الصلاة؛ وهو محمول على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِىّ أنهم كانوا يكرهون للؤمنين أن يذلوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصر على ذلك . والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجانى نادما مقلعا . وقد قال عقيب هذه الآية « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » . و يقتضى ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقبه بقوله « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » . وهو محمول على الغفران عن غير المُصِرّ ، فأما المصرّ على البغى والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التى قبلها . وقيل : أى إذا أصابهم البغى تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم و يدفعوه؛ قاله ابن بحر . وهو راجع الى العموم على ما ذكرنا .

---

(١) آية ٣٩ راجع جـ ١٢ ص ٦٧ (٢) آية ٢٣٧ سورة البقرة . (٣) آية ٤٥ سورة المائدة . (٤) آية ٢٢ سورة النور .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ قال العلماء : جعل الله المؤمنين صنفين ؛ صنفٌ يعفون عن الظالم فبدأ بذكرهم فى قوله : « وَإِذَا مَاغَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وصنف ينتصرون من ظالمهـم . ثم بين حدّ الانتصار بقوله : « وَجزاءُ سيّئةٍ سيئةٌ مِثلُهـا » فينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدى . قال مقاتل وهشام بن حُجَير : هذا فى المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبّ أو شتم . وقاله الشافعى وأبو حنيفة وسـفيان . قال سفيان : وكان ابن شُبْرُمَة يقول : ليس بمكة مثل هشام . وتأول الشافعى فى هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير علمه ؛ واستشهد فى ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم لهند زوج أبى سفيان : "خذى من ماله مايكفيك وولدك" فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفىً فى « البقرة »(١) . وقال ابن أبى نَجِيح : إنه محمول على المقابلة فى الجراح . واذا قال : أخزاه الله أو لعنه الله أن يقول مثـله . ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب . وقال السُّدِّى : إنمـا مدح الله من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتـداء بالزيادة على مقـدار ما فعل به ؛ يعنى كما كانت العرب تفعله . وسمى الجزاء سيئةً لأنه فى مقابلتها ؛ فالأول ساء هذا فى مال أو بدن ، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضا ؛ وقد مضى هذا كله فى « البقرة »(١) مستوفى .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ قال ابن عباس : من ترك القصاص وأصلح بينه و بين الظالم بالعفو ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى إن الله يأجره على ذلك . قال مقاتل : فكان العفو من الأعمـال الصالحة . وقد مضى فى « آل عمـران »(٢) فى هذا ما فيه كفاية ، والحمـد لله . وذكر أبو نعيم الحافظ عن على بن الحسين رضى الله عنهـم قال : إذا كان يوم القيـامة نادى منادٍ أيكم أهل الفضل ؟ فيقوم ناس من الناس ؛ فيقال : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجـنة ؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم قالوا مَن أنتم ؟ قالوا أهل الفضـل ؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كنا إذا جُهل علينا حَلِمنا

(١) راجع ج ٢ ص ٣٥٥ (٢) راجع ج ٤ ص ٢٠٧

وإذا ظُلمنـا صَبَرْنا وإذا سِيء إلينا عفـونا ؛ قالوا آدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وذكر الحـديث . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى مَن بدأ بالظـلم ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقيل : لا يحبّ مَن يتعدى فى الاقتصاص ويجاوز الحد ؛ قاله ابن عيسى .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ أى المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لَوْمه ، بل يُحمـد على ذلك مع الكافر . ولا لوم إن آنتصر الظالم من المسـلم ؛ فالانتصار من الكافر حتم ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب .

الخامســة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفى ذلك بنفسه . وهـذا ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها — أن يكون قصاصا فى بدن يستحقه آدمى ، فلا حرج عليـه إن آستوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام فى تفوته بالقصاص لمـا فيه من الجرأة على سفك الدم . وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج ، وهو فى الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب . القسم الثانى — أن يكون حدّ الله تعالى لا حق لادمى فيـه كحدّ الزنى وقطع السرقة ؛ فان لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليـه ، وإن ثبت عنـد حاكم نُظر ، فان كان قطعا فى سرقة سقط به الحـدّ لزوال العضو المستحق قطعه ، ولم يجب عليه فى ذلك حق لأن التعزير أدب ، وإن كان جلدا لم يسقط به الحـدّ لتعدّيه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه . القسم الثالث — أن يكون حقا فى مال ؛ فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به ، وإن كان غير عالم نُظر ، فـإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له إلا الاستسرار بأخذه . وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بيّنة تشهد له ففى جواز استسراره بأخذه مذهبان : أحدهما — جوازه ؛ وهو قول مالك والشافعى . الثانى — المنع ؛ وهو قول أبى حنيفة .

السادســة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أى بعدوانهم عليهـم ؛ فى قول أكثر العلماء . وقال آبن جُريج : أى يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم .

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى فى النفوس والأموال؛ فى قول الأكثرين . وقال مقاتل : بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصى . وقال أبو مالك : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بمكة غير الإسلام دينا . وعلى هذا الحدّ قال آبن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وإن هذا للشركين خاصة . وقول قتادة : إنه عام ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام . وقد بيناه والحمد لله .

السابعــة ـــ قال آبن العربى : هذه الاية فى مقابلة الآية المتقدّمة فى « براءة » وهى قوله « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ »(١) ؛ فكما نفى الله السبيل عمن أحسن فكذلك نفاها(٢) على من ظلم ؛ واستوفى بيان القسمين .

الثامنـــة ـــ وآختلف علماؤنا فى السلطان يضع على أهـل بلد مالاً معلوما يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم ؛ هـل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم . فقيل لا ؛ وهو قول سحنون من علمائنا . وقيل : نعم، له ذلك إن قدر على الخلاص، وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودى ثم المالكى . قال : ويدل عليـه قول مالك فى الساعى يأخذ من غنم أحـد الخلطاء شاة وليس فى جميعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشىء . قال : ولست آخذ بما روى عن سحنون ؛ لأن الظلم لا أسوة فيه ، ولا يلزم أحد أن يولج نفسه فى ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » .

التاســعة ـــ وآختلف العلمـاء فى التحليل ؛ فكان ابن المُسَيِّب لا يحـلل أحدا من عِرض ولا مال . وكان سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين يحللان من العِرض والمـال . ورأى مالك التحليل من المـال دون العرض . روى آبن القاسم وآبن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب « لا أحلل أحدا » فقال : ذلك يختلف ؛ فقلت له يا أبا عبد الله ، الرجلُ يسلف الرجلَ فيهلك ولا وفاء له ؟ قال : أرى أن يحلله وهو أفضل عندى ؛ فان الله تعـالى يقول « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » . فقيل له : الرجل يظلم الرجل ؟

---

(١) آية ٩١ (٢) فى ابن العربى : « أثبتها » .

فقال : لا أرى ذلك ، هو عندى مخالف للأول ؛ يقول الله تعالى « إنما السبيلُ على الذين يَظْلِمُون الناس » ويقول تعالى « ما على المحسنين من سَبِيلٍ » فلا أرى أن يجعله من ظلمه فى حِلّ . قال ٱبن العربى : فصار فى المسئلة ثلاثة أقوال : أحدها لا يحلّله بحالٍ؛ قاله سعيد ٱبن المسيب . الثانى — يحلّله؛ قاله محمد بن سيرين . الثالث — إن كان مالا حلله وإن كان ظلما لم يحلله؛ وهو قول مالك . وجه الأول ألّا يحلل ماحرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله . ووجه الثانى أنه حقه فله أن يسقط كما يسقط دمَه وعِرْضه . ووجه الثالث الذى اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن تحلله ، وان كان ظالمـا فمن الحق ألا تتركه لئلا تغتر الظلمة ويسترسلوا (١) فى أفعالهم القبيحة . وفى صحيح مسلم حديثُ أبى اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لغريمه : أُخرج الىّ ، فقد علمتُ أين أنت ؛ فخرج ؛ فقال : ما حملك على أن آختبأت منى ؟ قال : أنا والله أحدّثك ثم لا أكذبك ، خشيتُ والله أن أحدّثك فأكذبك ، وان أعِدك فأخلِفك ، وكنتَ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنتُ والله مُعْسِراً . قال قلت : آللهِ ؟ قال اللهِ (٢) ؛ قال : فأتى بصحيفة فمحاها فقال : إن وجدتَ قضاءً فٱقض ، وإلا فأنت فى حِلّ ... وذكر الحديث . قال ٱبن العربى : وهذا فى الحىّ الذى يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء التَّمَحُّل (٣) ، فكيف بالميت الذى لا محالةَ له ولا ذِمّة معه .

العاشرة — قال بعض العلماء : إن مَن ظُلم وأخذ له مال فإنما له ثواب ما آحتبس عنه الى موته ، ثم يرجع الثواب الى ورثته ، ثم كذلك الى آخرهم ؛ لأن المال يصير بعده للوارث . قال أبو جعفر الداودى المالكى : هذا صحيح فى النظر ؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل مَن ظلمه ولم يترك شيئا أو ترك مالم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم الى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .

(١) فى بعض الأصول : « ويستمرون » وفى البعض الآخر : « ويستشرون » . (٢) قال النووى : « الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام ، والثانى بلا مد ، والهاء فيهما مكسورة . قال القاضى : ورويناه بفتحهما معا ، وأكثر أهل العربية لا يجيزون إلا الكسر » . (٣) فى ٱبن العربى : « التحلل » . وقد كتب على هامش نسخة من الأصل بخط الناسخ : « يقال تمحل أى احتال فهو متمحل قاله الجوهرى » .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أي صبر على الأذى و « غفر » أي ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظلمه مسلم . ويحكى أن رجلا سبّ رجلا في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويَعْرَق فيمسح العَرَق ، ثم قام فتلا هـذه الآية، فقال الحسن : عقلها والله ! وفهمها إذ ضيّعها الجاهلون . وبالجملة العفو مندوب اليـه ، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا اليه كما تقـدّم؛ وذلك إذا آحتيج الى كفّ زيادة البغي وقطع مادّة الأذى ، وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم مايدل عليه ، وهو أن زينب أسمعت عائشـة رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي ؛ فقال لعائشـة : " دونكِ فانتصري " خرجه مسلم في صحيحه بمعناه . وقيل : « صَبَر » عن المعاصي وستر على المساوئ . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها . وقيل من عزائم الصواب التي وفق لها . وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ثلاث آيات قبلها، وقد شتمه بعض الأنصار فردّ عليه ثم أمسك . وهي المدنيات من هذه السـورة . وقيل : هذه الآيات في المشركين، وكان هـذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال؛ وهو قول آبن زيد، وقد تقدّم . وفي تفسير آبن عباس « وَلَمَن آنتصر بعد ظلمه » يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم . ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر . ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد بالظـلم والكفر . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يريد وجيع . ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَـرَ ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ حيث قبلوا الفداء وصبروا على الأذى .

قوله تعـالى : وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أى يخذله ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة فى القربى ، ولم يصدّقه فى البعث وأن متاع الدنيا قليل . أى من أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هادٍ.

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ أى الكافرين . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ يعنى جهنم . وقيل رأوا العذاب عند الموت . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يطلبون أن يُردّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون الى ذلك .

قوله تعالى : وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥)

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على النار لأنها عذابهم ؛ فكنّى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث ؛ لأن ذلك العذاب هو النار ، وإن شئت جهنم ، ولو راعى اللفظ لقال عليه . ثم قيل : هم المشركون جميعا يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها ؛ قاله الأكثرون. وقيل : آل فرعون خصوصا ، تُحبس أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح ؛ فهو عرضهم عليها ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : إنهم عامة المشركين ، تعرض عليهم ذنوبهم فى قبورهم ، ويعرضون على العذاب فى قبورهم ؛ وهذا معنى قول أبى الحجاج . ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ ذهب بعض القراء إلى الوقف على « خاشعين » . وقوله : « مِنَ الذُّلِّ » متعلق بـ«ينظرون» . وقيل : متعلق بـ«خاشعين» . والخشوع الانكسار والتواضع . ومعنى ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أى لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تاما ؛ لأنهم ناكسو الرءوس . والعرب تصف الذليل بغَضّ الطرف ، كما يستعملون فى ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم بريبة فيكون عليه منها غضاضة . وقال مجاهد : « مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » أى ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عميا ، وعين القلب طرفٌ خفيّ . وقال قتادة والسدّى والقُرَظِيّ وسعيد بن جُبير : يسارقون النظر من شدّة الخوف . وقيل : المعنى ينظرون من

عين ضعيفة النظر . وقال يونس : « من » بمعنى الباء ؛ أى ينظرون بطرف خفى ، أى ضعيف من الذل والخوف ، ونحوه عن الأخفش . وقال ابن عباس : بطرف ذابل ذليل . وقيل : أى يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يقول المؤمنون فى الجنة لما عاينوا ما حل بالكفار إن الخسران فى الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم فى العذاب المخلد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا فى النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا فى الجنة فقد حيل بينه وبينهم . وقيل : خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل فى الجنة من الحور العين . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى « أولئك هم الوارثون »". وقد تقدم[1] . وفى مسند الدارمى عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوجه اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار وما منهن واحدة إلا ولها قُبُلٌ شهى وله ذكر لا ينثنى " . قال هشام ابن خالد : " من ميراثه من أهل النار" يعنى رجالا أدخلوا النار فورث أهل الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون . ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ أى دائم لا ينقطع . ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى أعوانا ونصراء ﴿يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى من عذابه ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى طريق يصل به إلى الحق فى الدنيا والجنة فى الآخرة؛ لأنه قد سدت عليه طريق النجاة .

(١) راجع ج ١٢ ص ١٠٨

قوله تعالى : ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ استجيبوا لِربكم ﴾ أى أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة . استجاب وأجاب بمعنى؛ وقد تقدّم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يومٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ﴾ يريد يوم القيامة؛ أى لا يردّه أحد بعد ما حكم الله به وجعله أجلا ووقتا. ﴿ مَا لَكُمْ مِن ملجأ ﴾ أى من ملجأ ينجيكم من العذاب . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أى من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد . وقيل : النكير بمعنى المنكر ؛ كالأليم بمعنى المؤلم ؛ أى لا تجدون يومئذ منكرا لما ينزل بكم من العذاب ؛ حكاه ابن أبى حاتم ، وقاله الكلبي . الزجاج : معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها . وقيل : « من نكير » أى إنكار ما ينزل بكم من العذاب ، والنكير والإنكار تغيير المنكر .

قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أى عن الايمان ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى حافظا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها . وقيل: موكلا بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا ؛ أى ليس لك إكراههم على الايمان . ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وقيل : نسخ هذا بآية القتال . ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ الكافر . ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ رخاء وصحة . ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ بطر بها . ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاء وشدّة . ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أى لما تقدّم من النعمة فيعدّد المصائب وينسى النعم .

قوله تعالى : لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك : يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهنّ ، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم ؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فميزهم بسمة التعريف . وقال واثلة بن الأسقع : إن مِن يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر ، وذلك أن الله تعالى قال : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » فبدأ بالإناث . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاما ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد تَوْءَمًا ، غلاما وجارية ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا . قال القُتَبِيّ : التزويج ها هنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقول العرب : زوجت إبلي إذا جمعت بين الكبار والصغار . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ أي لا يولد له ؛ يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم . وعَقِمت المرأة تَعْقَم عَقْمًا ؛ مثل حَمِد يَحْمَد . وعَقُمت تَعْقُم ، مثل عُظم يعظم . وأصله القطع ، ومنه المُلْك العقيم ، أي تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفا على الملك . وريح عقيم ؛ أي لا تلقح سحابا ولا شجرا . ويوم القيامة يوم عقيم ؛ لأنه لا يوم بعده . ويقال : نساء عُقْم وعُقُم ؛ قال الشاعر[(1)] :

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهَه * إن النساء بمثله عُقُمُ

(1) في لسان العرب : « قال أبو دهبل يمدح عبد الله بن الأزرق المخزومي . وقيل هو للحزين الليثي » .

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى الأنبياء خصوصا وإن عم حكمها . وهب لُلوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث ، وجعل عيسى ويحيى عقيمين ؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر . قال إسحاق : نزلت فى الأنبياء ، ثم عَمّت . ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾ يعنى لوطا عليه السلام، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان . ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ يعنى ابراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له ثمانية ذكور . ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد له أربعة بنين وأربع بنات . ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ يعنى يحيى بن زكريا عليهما السلام ؛ لم يذكر عيسى . ابن العربى : قال علماؤنا « يهب لمن يشاء إناثا » يعنى لوطا كان له بنات ولم يكن له ابن . « ويهب لمن يشاء الذكور » يعنى إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت . وقوله « أو يزوجهم ذكرانا وإناثا » يعنى آدم، كانت حوّاء تلد له فى كل بطن توءمين ذكرا وأنثى ، ويزوج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر ، حتى أحكم الله التحريم فى شرع نوح صلى الله عليه وسلم . وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان له ذكور وإناث من الأولاد : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله[(١)] وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ؛ وكلهم من خديجة رضى الله عنها ، وإبراهيم وهو من مارية القبطية . وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا ، إلى أن تقوم الساعة ، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة ؛ ليبقى النسل ، ويتمادى الخلق ، وينفذ الوعد ، ويحقّ الأمر ، وتعمر الدنيا ، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحدة ما يملؤها ويبقى . ففى الحديث : "إن النار لن تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه[(٢)] ، فتقول قِط قَط[(٣)] . وأما الجنة فيبقى منها فينشئ الله لها خلقا آخر " .

الثانية — قال ابن العربى : إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوته يخلق الخلق ابتداء من غير شىء ، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئا من شىء لا عن حاجة ؛ فانه قدوس

---

(١) القول الأصح أن الذكور ثلاثة : القاسم وعبد الله (ويسمى بالطيب والطاهر) وابراهيم . راجع شرح المواهب اللدنية . (٢) قال القسطلانى : « أى يذلها تذليل من يوضع تحت الرجل ، والعرب تضع الأمثال بالأعضاء ولا تريد أعيانها كقولها للنادم : سقط فى يده » . (٣) قوله : « قط قط » بكسر الطاء وسكونها فيهما ، ويجوز التنوين مع الكسر والمعنى : حسبى حسبى قد اكتفيت .

عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال القدوس السلام؛ فخلق آدم من الأرض وخلق حواء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبا على الوطء كائنا عن الحمل موجودا في الجنين بالوضع؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سبق ماءُ الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماءُ المرأة ماء الرجل آنثا (١)". وكذلك في الصحيح أيضا "إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله".

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال "نعم" فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلّت (٢)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعِيها وهل يكون الشبه إلا من قِبل ذلك. إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه". قال علماؤنا: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان خرجه مسلم أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهودي: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فاذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذكرا باذن الله وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا باذن الله ..." الحديث. فجعل في هذا الحديث أيضا العلو يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِي المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولا علّة واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشبه للأخوال والذكورة والشّبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديثين. والذى يتعين تأويله الذى في حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قولهم سابقني فلان فسبقته أى غلبته؛ ومنه قوله تعالى:

---

(١) روى بالمد وتخفيف النون وبالقصر وتشديد النون.

(٢) قوله: «تربت يداك». معناه: ما أصبت! وهو في الأصل بمعنى صار في يدك التراب ولا أصبت خيرا أى افتقرت، لكن لا يريدون به الدعاء على المخاطب، كما يقولون: قاتله الله؛ الى غير ذلك. وقوله «وألت»: أى صاحت لما أصابها من شدة هذا الكلام. وروى بضم الهمزة مع التشديد؛ أى طعنت بالألة وهى الحربة. قال ابن الأثير: وفيه بعد؛ لأنه لا يلائم لفظ الحديث.

« وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين قيل عليه : علا . و يؤ يد هذا التأو يل قوله فى الحديث: "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آنثا" . وقد بنى القاضى أبو بكر بن العربى على هذه الأحاديث بناء فقال: إن للماءين أربعة أحوال : الأول أن يخرج ماء الرجل أولا، الثانى أن يخرج ماء المرأة أولا ، الثالث أن يخرج ماء الرجل أولا و يكون أكثر، الرابع أن يخرج ماء المرأة أولا و يكون أكثر . و يتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أولا ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أولا وكان أكثر جاء الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة. وإن خرج ماء المرأة أولا وكان أكثر جاء الولد أنثى بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم الغلبة . وإن خرج ماء الرجل أولا لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكرا بحكم السبق وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة. وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل . قال : وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم .

الثالثة — قال علماؤنا : كانت الخلقة مستمرة ذكرا وأنثى إلى أن وقع فى الجاهلية الأولى الخنثى فأتِىَ به فريضَ العرب ومعمَّرها[1] عامرَ بن الظَّرِب فلم يدر ما يقول فيه وأرجأهم عنه؛ فلما جَنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأقَضّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجىء به الأفكار وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حاله فقالت : ما بك ؟ قال لها : سهرت لأمر قُصِدت به فلم أدر ما أقول فيه ؟ فقالت ما هو ؟ قال لها : رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله فى الميراث ؟ قالت له الأمَة : ورِّثه من حيث يبول ؛ فعقَلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين . وجاء الاسلام على ذلك فلم تنزل إلا فى عهد علىّ رضى الله عنه فقضى فيها . وقد روى الفَرَضيُّون عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يورّث ؟ قال : من حيث يبول . وروى

(١) فى ابن العربى : « ومعتمدها » . و يقال أنه عاش ثلثمائة عام .

أنه أتى بخنثى من الأنصار فقال : " ورثوه من أوّل ما يبول " . وكذا روى محمد بن الحنفية عن عليّ، ونحوه عن ابن عباس ، وبه قال ابن المسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المزنى عن الشافعى . وقال قوم : لا دلالة فى البول ؛ فان خرج البول منهما جميعا قال أبو يوسف : يحكم بالأكثر . وأنكره أبو حنيفة وقال : أتكيله ! ولم يجعل أصحاب الشافعى للكثرة حكما . وحكى عن عليّ والحسن أنهما قالا : تعد أضلاعه، فان المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد . وقد مضى ما للعلماء فى هذا فى آية المواريث فى « النّساء »(١) مجوّداً والحمد لله .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : وقد أنكر قوم من رءوس العوام وجود الخنثى ، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى . قلنا : هذا جهل باللغة ، وغباوة عن مقطع الفصاحة ، وقصور عن معرفة سعة القدرة . أما قدرة الله سبحانه فانه واسع عليم ؛ وأما ظاهر القرآن فلا ينفى وجود الخنثى ؛ لأن الله تعالى قال : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء » . فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه ؛ لأن القدرة تقتضيه . وأما قوله « يَهَبُ لمن يشاء إناثا ويَهَبُ لمن يشاء الذكور . أوْ يزوّجهم ذُكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عَقِيماً » فهذا إخبار عن الغالب فى الموجودات ، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل ، والوجود يشهد له والعِيان يكذب منكره ، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبى سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ؛ فربُّك أعلم به ، ومع طول الصحبة عقلنى الحياء عن سؤاله ، وبودّى اليوم لو كاشفته عن حاله .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(١) راجع جـ ٥ ص ٦٥ فما بعدها .

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً ﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ألّا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن موسى لن ينظر إليه " فنزل قوله « وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وَحْيًا » ؛ ذكره النقاش والواحدى والثعلبي . ﴿ وَحْياً ﴾ قال مجاهد : نَفْثٌ يُنْفَث فى قلبه فيكون إلهاما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إن روح القُدُس نَفَث فى رُوعِى (١) إنّ نَفْسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . خذوا ما حَلّ ودَعُوا ما حُرِّم " . ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ كارساله جبريل عليه السلام . وقيل : « إلا وحيا » رؤيا يراها فى منامه ؛ قاله محمد بن زهير . « أو من وراءِ حجاب » كما كلم موسى . « أو يرسل رسولا » قال زهير هو جبريل عليه السلام . ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ وهذا الوحى من الرسل خطاب منهم للأنبياء يسمعونه نطقا ويرونه عيانا . وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحى على النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وذكرياء عليهم السلام . فأما غيرهم فكان وحيا إلهاما فى المنام . وقيل « إلا وحيا » بارسال جبريل « أومن وراء حجاب » كما كلّم موسى « أو يرسل رسولا » إلى النـاس كافّة . وقرأ الزهرى وشيبة ونافع « أو يرسلُ رسولا فيوحِى » برفع الفعلين . الباقون بنصبهما . فالرفع على الاستئناف ؛ أى وهو يرسل . وقيل « يرسل » بالرفع فى موضع الحال ؛ والتقدير إلا موحيا أو مرسلا . ومن نصب عطفوه على محل الوحى ؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى أو يرسل . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة . ويكون فى موضع الحال ؛ التقدير أو بأن يرسل رسولا . ولا يجوز أن يعطف « أو يرسل » بالنصب على « أن يكلمه » لفساد المعنى ؛ لأنه يصير : ما كان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولا ، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم .

---

(١) الروع (بالضم) : القلب والعقل . والروع (بالفتح) : الفزع .

الثانيـة — احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلم رجلا فأرسل إليه رسولا أنه حانث ؛ لأن المرسل قد سُمّى فيها مكلّما للمرسَل إليه ، إلا أن ينوى الحالف المواجهة بالخطاب . قال ابن المنذر : واختلفوا فى الرجل يحلف ألّا يكلم فلانا فكتب إليه كتابا أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال الثّورى : الرسول ليس بكلام . وقال الشافعى : لا يبين أن يحنَث . وقال النَّخَعىّ : والحكم فى الكتاب يحنث . وقال مالك : يحنث فى الكتاب والرسول . وقال مَرّة : الرسول أسهل من الكتاب . وقال أبو عبيد : الكلام سوى الخط والإشارة . وقال أبو ثور : لا يحنث فى الكتاب . قال ابن المنذر : لا يحنث فى الكتاب والرسول .

قلت : وهو قول مالك . قال أبو عمر : ومن حلف ألا يكلم رجلا فسلم عليه عامدا أو ساهيا ، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث فى ذلك كله عند مالك . و إن أرسل إليه رسولا أو سلم عليه فى الصلاة لم يحنث .

قلت : يحنث فى الرسول إلا أن ينوى المشافهة ؛ للآية ، وهو قول مالك وابن الماجشُون . وقد مضى فى أول « سورة مريم »(1) هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أى وكالذى أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿ رُوحًا ﴾ أى نبوّة ؛ قاله ابن عباس . الحسن وقتادة : رحمة من عندنا . السُّدّى : وحيا . الكلبى : كتابا . الربيع : هو جبريل . الضحاك : هو القرآن . وهو قول

(1) راجع جـ ١١ ص ٨٦

مالك بن دينار . وسماه روحا لأن فيه حياةً من موت الجهل . وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب . ويمكن أن يحمل قوله « ويسئلونك عن الروح » على القرآن أيضا « قل الروح من أمر ربى » أى يسئلونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر الله أنزله علىّ معجزا ؛ ذكره القُشَيْرى . وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أى لم تكن تعرف الطريق إلى الايمان . وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصفا بالإيمان . قال القشيرى : وهو من مجوزات العقول ، والذى صار إليه المعظم ان الله ما بعث نبيا إلا كان مؤمنا به قبل البعثة . وفيه تحكّم ، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به . قال القاضى أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن[1] قبل النبوة فللناس فيه خلاف ؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك فى شىء من ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام . قال الله تعالى « وآتيناه الحُكْمَ صَبِيًّا[2] » قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكتاب الله فى حال صباه . قال معمر : كان ابن سنتين أو ثلاث ؛ فقال له الصبيان : لم لا تلعب ! فقال : أللعب خُلقت ! وقيل فى قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ[3] » صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين ، فشهد له أنه كلمة الله وروحه . وقيل : صدقه وهو فى بطن أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له . وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله « لا تَحْزَنِى » على قراءة من قرأ « مِنْ

---

(١) كذا فى الأصل .   (٢) آية ١٢ سورة مريم .   (٣) آية ٣٩ سورة آل عمران .

تَحْتَهَا » ، وعلى قول من قال إن المنادى عيسى ونصّ على كلامه فى مهده فقال « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نَبِيًّا » . وقال : «فَفَهَّمْنَاها سليمانَ وَكُلًّا آتينا حُكْمًا وَعِلْمًا» (١) وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبي يلعب فى قصة المرجومة وفى قصة الصبيّ ما اقتدى به أبوه داود . وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما . وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل . وقال المفسرون فى قوله تعالى «ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ» (٢) : أى هديناه صغيرا؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل ابداء خلقه . وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم بعث الله إليه مَلَكًا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال : قد فعلتُ ، ولم يقل أفعل ؛ فذلك رشده . وقيل : إن إلقاء إبراهيم فى النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة . وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين . وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة (٣) . وقيل : أوحى إلى يوسف وهو صبي عند ما همّ إخوته بإلقائه فى الجُبّ بقوله تعالى : « وأَوْحَيْنَا إِليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا » (٤) الآية ؛ إلى غير ذلك من أخبارهم . وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء ، وقال فى حديثه صلى الله عليه وسلم : " لما نشأت بُغِّضت إلىّ الأوثان وبُغِّض إلىّ الشعر ولم أهُمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعد " . ثم يتمكن الأمر لهم ، وتترادف نفحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوّة فى تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة . قال الله تعالى : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » (٥) . قال القاضى : ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نبيّ واصطُفِى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك . ومستند هذا الباب النقل . وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله .

---

(١) آية ٧٩ سورة الأنبياء . (٢) آية ٥١ سورة الأنبياء . (٣) فى الأصول : «خمسة عشر شهرا» راجع ج ٧ ص ٢٥ . (٤) آية ١٥ سورة يوسف . (٥) آية ١٤ سورة القصص .

قال القاضي : وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبينا عليـه السلام بكل ما ٱفترته ، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وٱختلقته ، ممـا نص الله عليـه أو نقلته إلينـا الرواة ، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه . ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظع وأقطع في الحجـة من توبيخه بنهيهم عن تركه آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل ؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ؛ إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا « مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » كما حكاه الله عنهم .

الثالثـة — وتكلم العلماء في نبينا صلى الله عليه وسلم، هل كان مُتَعَبَّدًا بدين قبل الوَحْي أم لا ؛ فمنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبوعا من عُرِف تابعا ، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح . وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليـه بشيء في ذلك ، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل ولا ٱستبان عنـدها(١) في أحدهما طريق النقل ، وهـذا مذهب أبي المعالي . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبلـه وعاملا به ؛ ثم ٱختلف هؤلاء في التعيين ، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها ؛ فلا يجـوز أن يكون النبي على دين منسوخ . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم ؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء . وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى ؛ لأنه أقدم الأديان . وذهبت المعـتزلة إلى أنه لا بدّ أن يكون على دينٍ ولكن عين الدين غير معلومة عندنا . وقد أبطل هـذه الأقوال كلها أئمتنا ؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة ، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه . والذي يُقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحدا من أمته ومخاطبًا بكل شريعته ؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلّ وعز . وأنه

(١) في الأصول : « عندهما » .

صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر[(١)] ولا حضر حلف المطر[(٢)] ولا حلف المطيِّبين[(٣)]؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك. فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثا بسنده عن جابر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه؛ فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد؟ فالجواب أن هذا حديث أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًّا وقال: هذا موضوع أو شبيه بالموضوع. وقال الدّارَقُطْنى: إن عثمان وَهِم في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يلتفت إليه؛ والمعروف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم خلافه عند أهل العلم من قوله: "بُغِّضت إلىّ الأصنام" وقوله في قصة بَحِيرا حين استحلف النبيّ صلى الله عليه وسلم باللّات والعُزّى إذ لَقِيَه بالشام في سَفْرته مع عمه أبي طالب وهو صبيّ، ورأى فيه علامات النبوّة فاختبره بذلك؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا تسألني بهما فوالله ما أبغضت شيئا قطُّ بُغْضَهما" فقال له بَحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؛ فقال: "سل عما بدا لك". وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلِفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة؛ لأنه كان

(١) الموضع الذي يجتمعون للسمر فيه. (٢) كذا في الأصول. (٣) في الأصول: «المطيب».
قال ابن الأثير: «أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق. فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات، فذلك الذي ورد النهي عنه في الاسلام بقوله صلوات الله عليه: "لا حِلف في الاسلام". وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذلك الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة" يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق؛ وبذلك يجتمع الحديثان، وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الاسلام. والممنوع منه ما خالف حكم الاسلام».

ويلاحظ أنه قال صلى الله عليه وسلم: "شهدت غلاما مع عمومتي حلف المطيبين". اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتَيْم في دار ابن جدعان في الجاهلية وجعلوا طيبا في جَفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم؛ فسموا المطيبين. وقال عليه السلام: "شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت إلى مثله في الاسلام لأجبت". قال ابن الأثير: يعني حلف الفضول. (راجع نهاية ابن الأثير مادة حلف. طيب. فضل).

موقف إبراهيم عليه السلام . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ »[1] وقال : « أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ »[2] وقال « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ » الآية . وهذا يقتضى أن يكون متعبدًا بشرع . فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدين ؛ على ما تقدم بيانه فى غير موضع وفى هذه السورة عند قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ »[3] والحمد لله .

الرابعة — إذا تقرر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا فى تأويل قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » . فقال جماعة : معنى الإيمان فى هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : تفاصيل هذا الشرع ؛ أى كنت غافلا عن هذه التفاصيل . ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيرى : وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبى العالية . وقال بكر القاضى : ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام . قال : وكان قبل مؤمنا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيمانا . وهذه الأقوال الأربعة متقاربة . وقال ابن خزيمة : عنى بالإيمان الصلاة ؛ لقوله تعالى «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاما والمراد الخصوص . وقال الحسين بن الفضل : أى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ؛ أى مَن الذى يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما . وقيل : ما كنت تدرى شيئا إذ كنت فى المهد وقبل البلوغ . وحكى الماوردى نحوه عن علىّ بن عيسى قال : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا الرسالة ، ولا الإيمان لولا البلوغ . وقيل : ما كنت تدرى ما الكتاب لولا إنعامنا عليك ، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك ؛ وهو محتمل . وفى هذا الإيمان وجهان : أحدهما أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوته . والثانى — أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوة .

---

(١) آية ١٣٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٢٣ سورة النحل . (٣) آية ١٣ من هذه السورة .

قلت : إنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ؛ على ما تقدم . وقيل : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » أى كنت من قوم أُمِّيين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان ، حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم ؛ وهو كقوله تعالى : «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»(١) . روى معناه عن ابن عباس رضى الله عنهما . ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : يعنى الإيمان . السُّدِّى : القرآن . وقيل الوحى . أى جعلنا هـذا الوحى ﴿ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى من نختاره للنبوّة ؛ كقوله تعالى : «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ»(٢) . ووحّد الكناية لأن الفعل فى كثرة أسمائه بمنزلة الفعل فى الاسم الواحد ؛ ألا ترى أنك تقول : إقبالك و إدبارك يعجبنى ؛ فتوحّد ، وهما اثنان . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ أى تدعو وترشـد ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه . وقال علىّ : إلى كتاب مستقيم . وقرأ عاصم الجَحْدَرِىّ وحَوْشب « و إنك لَتُهْـدَى » غير مُسَمَّى الفاعل ؛ أى لَتُـدْعَى . الباقون « لتهدى » مسمى الفاعل . وفى قراءة أُبَىّ « و إنك لتدعو » . قال النحاس : وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد ، و إنمـا يحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير ؛ كما قال « و إنك لتهدى » أى لتدعو . وروى معمر عن قتادة فى قوله تعالى «و إنك لَتَهْدِى إلى صراط مستقيم» قال : « ولكل قوم هاد » . ﴿ صِرَاطِ اللهِ ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة . قال علىّ : هو القرآن . وقيل الإسلام . ورواه النوّاس بن سمعان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ملكا وعبدا وخلقا . ﴿ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ وعيد بالبعث والجزاء . قال سهل بن أبى الجعد : احترق مصحف فلم يبق إلا قوله «ألا إلى الله تصـير الأمور» وغرق مصحف فامّحى كله إلا قوله « ألا إلى الله تصـير الأمور » . والحمد لله وحده .

---

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت . (٢) آية ١٠٥ سورة البقرة .

ســورة الزخــرف

مكية بإجماع . وقال مقاتل : إلا قـوله « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا »(١) . وهي تسع وثمـانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَـٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ تقدّم(٢) الكلام فيـه . وقيل : « حم » قسم . « والكتاب المبين » قسم ثانٍ ؛ ولله أن يقسم بمـا شاء . والجواب « إنا جعلنـاه » . وقال ابن الأنبارى : من جعل جواب «والكتاب» « حم » — كما تقول نزل والله وَجَب والله — وقف على «الكتاب المبين» . ومن جعل جواب القسم «إنا جعلناه» لم يقف على «الكتاب المبين» . ومعنى «جعلناه» أى سميناه ووصفناه؛ ولذلك تعدّى إلى مفعولين؛ كقوله تعالى : « مَا جَعَـلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ »(٣) . وقال السـدى : أى أنزلناه قرآنا . مجاهـد : قلناه . الزجاج وسـفيان الثّورى : بيّناه . ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أى أنزلناه بلسان العـرب؛ لأن كل نبىّ أنزل كتابه بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثورى وغيره . وقال مقاتل : لأن لسان أهـل السماء عربىّ . وقيل : المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتاب اسم جنس فكأنه أقسم بجميـع ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربيا . والكناية فى قوله « جعلناه » ترجع إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر فى هذه السورة ؛ كقوله تعـالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى تفهمون أحكامه ومعانيه . فعلى هذا القول يكون خاصا للعرب دون العجم؛ قاله ابن عيسى . وقال ابن زيد : المعنى لعلكم تتفكرون؛ فعلى هذا يكون خطابا عاما للعرب والعجم . ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه؛ على ما تقدّم فى غير موضع .

---

(١) آية ٤٥ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ (٣) آية ١٠٣ سورة المائدة .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أى رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض؛ قال الله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ» (١) وقال تعالى : «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» (٢) . وقال ابن جريج: المراد بقوله تعالى « وإنه » أى أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية . «لَعَلِيٌّ» أى رفيع عن أن ينال فيبدّل « حَكِيمٌ » أى محفوظ من نقص أو تغيير . وقال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق؛ فالكتاب عنده ، ثم قرأ « وإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » . وكسر الهمزة من « أم الكتاب » حمزة والكسائى . وضم الباقون، وقد تقدّم (٣) .

قوله تعالى : أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ افنضرب عنكم الذكر صفحا ﴾ يعنى : القرآن ؛ عن الضحاك وغيره . وقيل : المراد بالذكر العذاب؛ أى أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدى ، ورواه العوفى عن ابن عباس . وقال ابن عباس : المعنى أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به . وعنه أيضا أن المعنى أتكذبون بالقرآن ولا تعاقبون . وقال السدى أيضا : المعنى أفنترككم سُدًى فلا نأمركم ولا ننهاكم . وقال قتادة : المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم . وعنه أيضا : أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم . وقاله ابن زيد . قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته . وقال الكسائى : أفنطوى عنكم الذكر طيًّا فلا توعظون ولا تؤمرون . وقيل : الذكر التذكر؛ فكأنه قال أنترك تذكيركم لأن كنتم قوما مسرفين؛ فى قراءة من فتح. ومن كسر جعلها للشرط

(١) آية ٧٧ سورة الواقعة . (٢) آية ٢١ سورة البروج . (٣) راجع ج ٥ ص ٧٢

وما قبلها جوابا لها؛ لأنها لم تعمل في اللفظ. ونظيره «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[(١)] وقيل: الجواب محذوف دل عليه ما تقدّم؛ كما تقول: أنت ظالم إن فعلت. ومعنى الكسر عند الزجاج الحال؛ لأن في الكلام معنى التقرير والتوبيخ. ومعنى ﴿ صَفْحًا ﴾ إعراضا؛ يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه. وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته. والأصل فيه صفحة العنق؛ يقال: أعرضت عنه أي وليته صفحة عنق. قال الشاعر[(٢)]:

صَفُوحًا فما تلقاك إلا بخيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّتِ

وانتصب «صَفْحا» على المصدر لأن معنى «أفنضرب» أفنصفح. وقيل: التقدير أفنضرب عنكم الذكر صافحين، كما يقال: جاء فلان مَشْياً. ومعنى ﴿مُسْرِفِينَ﴾ مشركين. واختار أبو عبيدة الفتح في «أنْ» وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وابن عامر، قال: لأن الله تعالى عاتبهم على ما كان منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم.

قوله تعالى: وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ «كم» هنا خبرية والمراد بها التكثير؛ والمعنى ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»[(٣)] أي ما أكثر ما تركوا. ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ أي لم يكن يأتيهم نبي ﴿ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك. يعزي نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم ويسليه. ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أي قوما أشدّ منهم قوة. والكناية في «منهم» ترجع إلى المشركين المخاطبين بقوله «أفنضرب عنكم الذكر صفحا» فكنّى عنهم بعد أن خاطبهم. و«أشدّ» نصب على الحال. وقيل هو مفعول؛ أي فقد أهلكنا

(١) آية ٢٧٨ سورة البقرة. (٢) هو كثير عزة. (٣) آية ٢٥ سورة الدخان.

أقوى من هؤلاء المشركين فى أبدانهم وأتباعهم . ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ أى عقوبتهم ؛ عن قتادة . وقيل : صفة الأولين؛ نخبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم؛ حكاه النقاش والمهدوى . والمَثَل : الوصف والخبر .

قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعنى المشركين . ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ العَلِيمُ﴾ فأقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم . وقد مضى فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة . وهذا ابتداء إخبار منه عن نفسه ، ولو كان هذا إخبارا عن قول الكفار لقال الذى جعل لنا الأرض . ﴿مِهادا﴾ فراشا و بساطا . وقد تقدّم (٢) . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » ﴿وجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى معايش . وقيل طرقا ، لتسالكوا منها إلى حيث أردتم . ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتستدلون بمقدوراته على قدرته . وقيل « لعلكم تهتدون » فى أسفاركم؛ قاله ابن عيسى . وقيل : لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : تهتدون إلى معايشكم .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ قال ابن عباس : أى لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم ، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة ، حتى

(١) راجع ج ٦ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٠٩ .

يكون معاشا لكم ولأنعامكم. ﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾ أى أحيينا. ﴿ بِهِ ﴾ أى بالماء. ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ أى مقفرة من النبات. ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أى من قبوركم؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى فى «الأعراف»(١) مجوّدا. وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائى وابن ذكوان عن ابن عامر «تَخْرُجون» بفتح التاء وضم الراء. الباقون على الفعل المجهول.

قوله تعالى: وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ أى والله الذى خلق الأزواج. قال سعيد بن جبير: أى الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أراد أزواج النبات؛ كما قال تعالى: «وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»(٢) و «مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ»(٣). وقيل ما يتقلّب فيه الانسان من خير وشر، وإيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم.

قلت: وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه. ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ الإبل ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ فى البر والبحر. ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ ذكّر الكناية لأنه ردّه إلى ما فى قوله «ما تركبون»؛ قاله أبو عبيد. وقال الفرّاء: أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس، فصار الواحد فى معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند؛ فلذلك ذكّر، وجمع الظهور، أى على ظهور هذا الجنس.

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٠.　(٢) آية ٧ سورة ق.　(٣) آية ٧ سورة الشعراء.

الثانيـة — قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها؛ وهو الصحيح لقوله عليه السلام: "بينما رجلٌ راكب بقرة إذ قالت له لَمْ أخلق لهذا إنما خلقت للحرث" فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر"[1]. وما هما في القوم. وقد مضى هذا في أوّل سورة «النحل»[2] مستوفًى والحمد لله.

الثالثـة — قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ يعني به الابل خاصة بدليل ما ذكرنا؛ ولأن الفلك إنما تركب بطونها؛ ولكنه ذكرهما جميعا في أوّل الآية وعطف آخرها على أحدهما. ويحتمل أن يجعل ظاهرهما باطنهما؛ لأن الماء غمره وستره وباطنهما ظاهرا؛ لأنه آنكشف للظاهرين وظهر للبصرين.

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ركبتم عليه، وذكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا في البر والبحر. ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ أي ذلّل لنا هذا المركب. وفي قراءة عليّ بن أبي طالب «سبحان من سخر لنا هذا». ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين؛ في قول آبن عباس والكلبي. وقال الأخفش وأبو عبيدة: «مقرنين» ضابطين. وقيل: مماثلين في الأيد والقوّة؛ من قولهم: هو قِرْن فلان إذا كان مثله في القوّة. ويقال: فلان مُقْرِن لفلان أي ضابط له. وأقرنت كذا أي أطقته. وأقرن له أي أطاقه وقوِيَ عليه؛ كأنه صار له قِرْنا. قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين» أي مطيقين. وأنشد قُطْرُب قول عمرو بن مَعْدِيكَرِب:

لقد علم القبائل ما عُقَيلٌ * لنا في النائبات بمقرنينا

وقال آخر:

ركبتم صَعْبَتي أشرًا وحَيْفًا * ولستم للصّعاب بمقرنينا

والمُقْرِن أيضا: الذي غلبته ضَيعته؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها؛ أو يكون يسقي إبله ولا ذائد له يذودها. قال آبن السِّكِّيت: وفي أصله قولان: أحدهما — أنه مأخوذ من الإقران؛ يقال: أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق. وأقرنت كذا إذا أطقته وحكمته؛ كأنه جعله

(١) أي أبو بكر وعمر لم يكونا حاضرين. (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧٢

فى قرن — وهو الحبل — فأوثقه به وشدّه . والثانى — أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير؛ يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الخامســـة — علمنا الله سـبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرّفنـا فى آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ؛ وهى قوله تعالى : « وقال ٱركَبُوا فيهـا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيها ومُرْساها إنّ رَبِّى لغفـورٌ رحيمٌ » (١) فكم من راكب دابة عثَرَت به أو شَمَسَت أو تَقَحّمت (٢) أو طاح من ظهرها فهلك (٣) . وكم من راكبين فى سفينة ٱنكسرت بهم فغـرقوا . فلما كان الركوب مباشرةَ أمرٍ محظور وٱتصالا بأسباب من أسـباب التلف أمر ألا ينسى عنـد ٱتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه . ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقـاء الله بإصلاحه من نفسه . والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه . حكى سليمان بن يسار أن قوما كانوا فى سـفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : « سبحان الذى سخّر لنا هذا وما كنّا له مُقْـرِنين » وكان فيهم رجل على ناقة له رازم (٤) — وهى التى لا تتحـرك هزالا — فقال : أمّا أنا فإنى لهذه لمقرِن، قال : فقمصت به فدقت عنقه . وروى أن أعرابيا ركب قعودا له وقال إنى لمقرن له فركضت به القعود (٥) حـتى صرعته فٱندقّت عنقه . ذكر الأوّل المـاوردى والثانى ٱبن العـربى . قال : وما ينبغى لعبد أن يدع قول هـذا وليس بواجب ذكره باللسان ؛ فيقول متى ركب وخاصة فى السفر إذا تذكر : « سبحانَ الذى سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنين . وإنّا إلى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمـال، اللهم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفر، وكآبة المنقلَب، والحَوْر بعد الكَوْر، وسوء المنظر فى الأهل والمـال . يعنى بـ « الحور بعد الكور » تشتت أمر الرجل بعـد ٱجتماعه . وقال عمرو بن دينار : ركبت مع أبى جعفر إلى أرض له نحو حائط يقال لها مدركة، فركب

(١) آية ٤١ سورة هود . (٢) تقحم الفرس براكبه ألقاه على وجهه . (٣) فى الأصول : « فهلكت » . (٤) وجد على هامش نسخة من الأصل بخط ناسخه : « الرازم من الإبل : الثابت على الأرض الذى لا يقوم من الهزال . وقد رزمت الناقة ترزُم وترزِم رزوما ورزاما قامت من الإعياء والهزال فلم تتحرك فهى رازم . قاله الجوهرى فى الصحاح» . (٥) هذه عبارة ابن العربى والأصول . و يلاحظ أن القعود مذكر .

على جمل صَعْب فقلت له : أبا جعفر ! أما تخاف أن يصرعك ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " على سنام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا آسم الله كما أمركم ثم آمتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله " . وقال عليّ بن ربيعة : شهدت عليّ بن أبي طالب ركب دابة يوما فلما وضع رجله في الركاب قال : باسم الله ، فلما آستوى على الدابة قال الحمد لله ، ثم قال « سبحان الذى سَخَّرَ لنا هـذا وما كنا له مُقْرِنِين . وإنا إلى ربنا لَمُنْقَلِبونَ » ثم قال : الحمد لله والله أكبر — ثلاثا — اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ؛ ثم ضحك فقلت له : ما أضحكك؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعتُ ، وقال كما قلت ؛ ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : " العبد — أو قال — عجبا لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فآغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره " . خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، وأبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْداد في أحكامه . وذكر الثعلبيّ نحوه مختصرا عن عليّ رضي الله عنه ، ولفظه عنه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله في الركاب قال : "باسم الله — فإذا استوى قال — الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين" . وروى آبن أبي نَجِيح عن مجاهد قال : من ركب ولم يقل « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» قال له الشيطان تَغَنَّه ؛ فإن لم يحسن قال له تمنّه ؛ ذكره النحاس . ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوْا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلّ طِلاهم(1) وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره . الزَّمَخْشَرِيّ : ولقد بلغني أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يَصْحُ إلا بعد ما آطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ؛ فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية ! ؟

---

(1) الطلاء : ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وبعض العرب يسمى الخمر الطلاء ؛ يريد بذلك تحسين اسمها .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا له مِن عِبادِهِ جُزْءًا ﴾ أى عِدْلًا ؛ عن قتادة . يعنى ما عبد من دون الله عز وجل . الزجاج والمبرد : الجزء هاهنا البنات ؛ عجّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكا أو ولدا ، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به ؛ لأن هذا من صفات النقص . قال الماوردى : والجزء عند أهل العربية البنات ؛ يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ؛ قال الشاعر :

إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوما فلا عَجَبٌ * قد تجزئُ الحُرَّةُ المذكارُ أحيانا

الزمخشرىّ : ومن بِدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث ، وادّعاء أن الجزء فى لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدَث متحوّل ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتا ، وبيتا :

* إن أجزأت حرة يوما فلا عجب *

* زُوِّجْتُهَا من بنات الأوْس مُجْزِئة * (١)

وإنما قوله « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » متصل بقوله « ولئن سَأَلْتَهُمْ » أى ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى « مِن عِبادِهِ جُزْءًا » أن قالوا الملائكة بنات الله ؛ فجعلوهم جزءا له وبعضا ، كما يكون الولد بَضْعَة من والده وجزءا له . وقرئ « جزُؤا » بضمتين . ﴿ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الكافر . ﴿ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ قال الحسن : يعدّ المصائب وينسى النعم . « مُبِينٌ » مظهر الكفر .

---

(١) وتمامه كما فى اللسان مادة جزأ : * للعوسج اللدن فى أبياتها زجل *

قوله تعالى : أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ الميم صلة؛ تقديره آتخذ مما يخلق بنات كما زعمتم أن الملائكة بنات الله ؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ . ﴿ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ أى آختصكم وأخلصكم بالبنين؛ يقال : أصفيته بكذا؛ أى آثرته به . وأصفيته الودّ أخلصته له . وصافيته وتصافينا تخالصنا . عجب من إضافتهم إلى الله آختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين ؛ وهو مقدّس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه آتخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس؟ وهذا كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تلك إذا قسمةٌ ضِيزَى »(١) .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ أى بأنه ولدت له بنت ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أى صار وجهه ﴿ مُسْوَدًّا ﴾ قيل ببطلان مثَله الذى ضربه. وقيل : بما بُشّر به من الأنثى؛ دليله فى سورة النحل « و إذا بُشِّرَ أحدُهم بِالأُنثَى »(٢) . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم وآربدّ وجهه غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت :

ما لِأبى حمزة(٣) لا يأتينا * يَظَلّ فى البيت الذى يلينا
غضبانَ ألا نلد البنينا * وإنما نأخذ ما أعطينا

وقرئ « مسودٌ ، ومسوادٌ » . وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه آسم «ظل» و « مسودا » خبر « ظل » . ويجوز أن يكون فى « ظل » ضمير عائد على أحد وهو آسمها ، و « وجهه »

(١) آية ٢١ سورة النجم . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١٦ . (٣) فى رواية «جمزة» بالجيم. وفى بلوغ الأرب للآلوسى : « لأبى الذلفاء » .

بدل من الضمير . و « مسودا » خبر «ظل» . ويجوز أن يكون رفع « وجهه » بالابتداء، و يرفع « مسودا » على أنه خبره،وفى «ظل» آسمها والجملة خبرها . ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى حزين؛ قاله قتادة . وقيل مكروب ؛ قاله عكرمة . وقيل ساكت ؛ قاله ابن أبى حاتم ؛ وذلك لفساد مثله و بطلان حجته . ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبها لله ؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه . ومن اسودّ وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى ، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه ؛ فكيف إلى الله عز وجل ! وقد مضى فى « النحل » فى معنى هذه الآية ما فيه كفاية(١) .

قوله تعالى : أَوَ مَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِى الحِلْيَةِ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ﴾ أى يُرَبَّى ويَشِبّ . والنُّشوء: التربية؛ يقال : نشأت فى بنى فلان نَشْئًا ونشوءا إذا شَبَبْت فيهم . ونُشِّئ وأنشِئ بمعنًى . وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وَثّاب وحفص وحمزة والكسائى وخَلَف « يُنَشَّأُ » بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين؛ أى يربى ويكبر فى الحلية . وآختاره أبو عبيد؛ لأن الإسناد فيها أعلى . وقرأ الباقون « يَنْشأ » بفتح الياء وإسكان النون ، وآختاره أبو حاتم ؛ أى يرسخ وينبت ؛ وأصله من نشأ أى ارتفع ؛ قاله الهروى . فـ«يُنَشَّأ» متعد، و «ينشأ» لازم .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿فِى الحِلْيَةِ﴾ أى فى الزينة . قال ابن عباس وغيره : هنّ الجوارى زِيُّهن غير زىّ الرجال . قال مجاهد : رُخّص للنساء فى الذهب والحرير؛ وقرأ هذه الآية . قال الكِيا: فيه دلالة على إباحة الحُلِىّ للنساء، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١١٦

قلت — روى عن أبى هريرة أنه كان يقول لابنته : يا بنيّة ، إياك والتحلّى بالذهب ! فإنى أخاف عليك اللهب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أى فى المجادلة والإدلاء بالحجة . قال قتادة : ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها . وفى مصحف عبد الله « وهو فى الكلام غير مبين » . ومعنى الآية : أيضاف إلى الله من هذا وصفه ! أى لا يجوز ذلك . وقيل : المنشأ فى الحلية أصنامهم التى صاغوها من ذهب وفضة وحلّوها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . ويكون معنى « وهو فى الخصام غير مبين » على هذا القول : أى ساكت عن الجواب . و « مَن » فى محل نصب ؛ أى اتخذوا لله من ينشأ فى الحلية . ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء والخبر مضمر ؛ قاله الفرّاء . وتقديره : أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة . وإن شئت قلت خفض ردا إلى أوّل الكلام وهو قوله « بما ضَرَب » ، أو على « ما » فى قوله « مما يخلق بنات » . وكون البدل فى هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائله بين البدل والمبدل منه . ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ قرأ الكوفيون « عباد » بالجمع . واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذبهم فى قولهم إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا ببناته . وعن ابن عباس أنه قرأ « عُبّاد الرحمن » ، فقال سعيد بن جبير : إن فى مصحفى « عبد الرحمن » فقال : امحها واكتبها « عباد الرحمن » . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « بل عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »(١) . وقوله تعالى : « أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ »(٢) . وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »(٣) . وقرأ الباقون « عند الرحمن » بنون ساكنة ، واختاره أبو حاتم . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ »(٤) وقوله « وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ »(٥) . والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم

(١) آية ٢٦ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠٢ سورة الكهف . (٣) آية ١٩٤ سورة الأعراف .
(٤) آخر سورة الأعراف . (٥) آية ١٩ سورة الأنبياء .

فى نسبة الأولاد إلى الله سبحانه ، ثم فى تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله . وذكر العباد مدح لهم ؛ أى كيف عبدوا من هو فى نهاية العبادة ، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل . والجعل هنا بمعنى القول والحُكْم ؛ تقول : جعلت زيدا أعلم الناس ؛ أى حكمت له بذلك . ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث . وقيل : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم سألهم وقال : "فما يدريكم أنهم إناث" ؟ فقالوا : سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فى أنهم إناث ، فقال الله تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ أى يسئلون عنها فى الآخرة . وقرأ نافع « أَوُشْهِدوا »[1] بهمزة آستفهام داخلة على همزة مضمومة مسهّلة ، ولا يمدّ سوى ماروى المسيّبي عنه أنه يمدّ . وروى المفضل عن عاصم مثل ذلك وتحقّق الهمزتين . والباقون « أشهدوا » بهمزة واحدة للاستفهام . وروى عن الزهرى « أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ » على الخبر، «ستكتب» قراءة العامة بضم التاء على الفعل المجهول « شهادتهم » رفعا . وقرأ السُّلمى وآبن السَّمَيْقَع وهُبيرة عن حفص « سنكتب » بنون، « شهادتهم » نصبا بتسمية الفاعل . وعن أبى رجاء « ستكتب شهاداتهم » بالجمع .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ ﴾ يعنى قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية : لو شاء الرحمن على زعمكم ماعبدنا هذه الملائكة . وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل . وكل شيء بإرادة الله ، وإرادتُه تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها ؛ وخلاف المعلوم والمراد مقدور وإن لم يقع . ولو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ماحصل منهم . وقد مضى هذا المعنى فى الأنعام عند قوله «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»[2] وفى يس : « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ »[3] . وقوله ﴿ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مردود إلى

(١) رسمناها هكذا تصويرا للنطق . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٧

قوله « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا » أى ما لهم بقولهم : الملائكة بنات الله ؛ من علم ؛ قاله قتادة ومقاتل والكلبي . وقال مجاهد وابن جريج : يعني الأوثان ؛ أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم . « من » صلة . ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يحدسون ويكذبون ؛ فلا عذر لهم في عبادة غير الله عز وجل . وكان في ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهذا أو رضى ذلك منا ، ولهذا لم ينهنا ولم يعاجلنا بالعقوبة .

قوله تعالى : أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾

هذا معادل لقوله « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » . والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتابا من قبله ؛ أى من قبل القرآن بما ادعوه؛ فهم به متمسكون يعملون بما فيه .

قوله تعالى : بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَلَى أُمَّةٍ ﴾ أى على طريقة ومذهب ؛ قاله عمر بن عبد العزيز . وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة « على إِمَّة » بكسر الألف . والأمة الطريقة . وقال الجوهرى : والإمة (بالكسر) : النعمة . والإمة أيضا لغة في الأُمّة ، وهى الطريقة والدّين ؛ عن أبي عبيدة . قال عَدِىّ بن زيد فى النعمة :

ثم بعد الفَلَاح والمُلْكِ والأمة واريتهُمُ هناك القبور

عن غير الجوهرى . وقال قتادة وعطية : « على أمة » على دِين ؛ ومنه قول قيس بن الخَطيم :

كنا على أمة آبائنا * ويقتدى الآخر بالأول

قال الجوهري : والأمة الطريقة والدين ، يقال : فلان لا أمة له ، أي لا دين له ولا نحلة . قال الشاعر :

* وهل يستوي ذو أمة وكفورُ *

وقال مجاهد وقطرب : على دين على ملة . وفي بعض المصاحف « قالوا إنا وجدنا آباءنا على ملة » وهذه الأقوال متقاربة . وحكى عن الفراء على ملة على قبلة . الأخفش : على استقامة ، وأنشد قول النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً * وهل يأثمن ذو أُمّة وهو طائع

الثانيـــة — ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي نهتدي بهم . وفي الآية الأخرى « مقتدون » أي نقتدي بهم ، والمعنى واحد . قال قتادة : مقتدون متبعون . وفي هـذا دليل على إبطال التقليد ، لذمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى القول في هذا في « البقرة » مستوفى[1] . وحكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد ابن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش ؛ أي وكما قال هؤلاء فقد قال من قبلهم أيضا . يُعزّي نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ »[2] . والمترف : المنعَّم ؛ والمراد هنا الملوك والجبابرة .

قوله تعالى : قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ أي قل يا محمد لقومك : أو ليس قد جئتكم من عند الله بأهدى ، يريد بأرشد . ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني بكل ما أرسـل به الرسل . فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولفظه لفظ الجمع ؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سـواه . وقرئ « قل وقال وجئتكم وجئنا كم » يعني أتتبعون آباءكم ولـو جئتكم بدين أهـدى من دين آبائكم ؟ قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى . وقد مضى في « البقرة » القول في التقليد وذمه فلا معنى لإعادته[1] .

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١١ فما بعدها ، طبعة ثانية .　　(٢) آية ٤٣ سورة فصلت .

قوله تعالى : فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَانْتَقَمْنَا منهم﴾ بالقحط والقتل والسبي ﴿فانظُرْ كيف كانَ عاقِبةُ المُكَذِّبينَ﴾ آخر أمر من كذب الرسل . [وقراءة العامة « قل أولو جئتكم » (١) . وقرأ ابن عامر وحفص «قال أوَ لَوْ» على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة . وقرأ أبو جعفر «قل أو لو جئنا كم» بنون وألف ، على أن المخاطبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل] .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ﴾ أى ذكّرهم إذ قال . ﴿إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء يستعمل للواحد فما فوقه فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ؛ لأنه مصدر وضع موضع النعت ؛ لا يقال : البراءان والبراءون ؛ لأن المعنى ذو البراء وذوو البراء . قال الجوهري : وتبرّأت من كذا ، وأنا منه بَراء ، وخَلاء منه ، لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر فى الأصل ؛ مثل : سَمِع سَماعا . فإذا قلت : أنا برىء منه وخَلِيّ ثنّيتَ وجمعت وأنّثت ، وقلت فى الجمع : نحن منه بُرَآء مثل فقيه وفقهاء ، وبِراء أيضا مثل كريم وكِرام ، وأبراء مثل شريف وأشراف ، وأبرياء مثل نصيب وأنصباء ، و بريئون . وامرأة بريئة وهما بريئتان وهن بريئات و برايا . ورجل برىء و بُراء مثل عجيب وعجاب . والبَراء (بالفتح) أول ليلة من الشهر ، سميت بذلك لتبرؤ القمر من الشمس . ﴿ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى ﴾ استثناء متصل ، لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم . قال قتادة : كانوا يقولون الله ربنا ، مع عبادة الأوثان . ويجوز أن يكون منقطعا ؛ أى لكن الذى فطرنى فهو يهدين . قال ذلك ثقةً بالله وتنبيها لقومه إن الهداية من ربه .

قوله تعالى : وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

(١) ما بين المربعين مقحم من الآية السابقة .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ الضمير فى « جعلها » عائد على قوله « إلا الذى فطرنى » . وضمير الفاعل فى «جعلها» لله عز وجل؛ أى وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقيـة فى عقبه، وهم ولده و ولد ولده ؛ أى إنهـم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضا فى ذلك . والعقب من يأتى بعده . وقال السدى : هم آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : قوله « فى عقبه » أى فى خلفه . وفى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها كلمة باقية فى عقبه . أى قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله . قال مجاهـد وقتادة : الكلمة لا إله إلا الله . قال قتـادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال الضحاك : الكلمة أن لا تعبدوا إلا الله . عكرمة : الإسلام؛ لقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »[(١)] . القرظى : وجعل وصية إبراهيم التى وصى بها بنيه وهو قوله «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ»[(٢)] — الآية المذكورة فى البقرة — كلمةً باقيـة فى ذريته وبنيـه . وقال ابن زيد : الكلمة قوله « أسلمت لرب العـالمين » وقـرأ « هو سماكم المسلمين من قبل » . وقيل : الكلمة النبوة . قال ابن العربى : ولم تزل النبوة باقية فى ذرية إبراهيم . والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم .

الثانيـــة — قال ابن العـربى : إنمـا كانت لإبراهيم فى الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين ؛ إحداهما فى قوله « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ »[(٣)] فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد . ثانيهما قوله « وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ »[(٤)] . وقيل : بل الأولى قوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ »[(٥)] فكل أمة تعظمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه فى سام أو نوح .

الثالثـــة — قال ابن العربى : جرى ذكر العقب ها هنا موصولا فى المعنى ، وذلك مما يدخل فى الأحكام وترتب عليه عقـود العُمْرى[(٦)] والتحبيس . قال النبيّ صـلى الله عليه وسلم :

---

(١) آخر سورة الحج .　(٢) آية ١٣٢　(٣) آية ١٢٤ سورة البقرة .　(٤) آية ٣٥ سورة إبراهيم .　(٥) آية ٨٤ سورة الشعراء .　(٦) العمرى (كحبلى) : تمليك الشىء مدة العمر .

" أيّما رَجُلٍ أُعْمِر عُمْرَى له ولعقِبه فإنها للذى أعطِيَها لا ترجع إلى الذى أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث " . وهى تَرِد على أحد عشر لفظا :

اللفظ الأوّل — الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عمن وُجد من الرجل وامرأته فى الإناث والذكور . وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعا ؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعيّن وأولاد الذكور من المعيّن دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين ، ولذلك لم يدخلوا فى الحبس بهذا اللفظ ؛ قاله مالك فى المجموعة وغيرها .

قلت : هذا مذهب مالك وجميع أصحابه المتقدّمين ، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى « يُوصِيكُمُ اللّهُ فِى أولادِكم »(١) . وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون فى الأحباس ؛ يقول المحبِّس : حبست على ولدى أو على عقِبى . وهـذا اختيار أبى عمر بن عبد البر وغيره ؛ واحتجوا بقول الله جل وعز : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ»(٢) . قالوا : فلما حَرّم الله البنات فحرمت بذلك بنت البنت بإجماع علم أنها بنت ووجب أن تدخل فى حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنعام »(٣) مستوفًى .

اللفظ الثانى — البنون ؛ فإن قال : هذا حبس على ابنى ؛ فلا يتعدّى الولد المعين ولا يتعدّد . ولو قال ولدى ، لتعدّى وتعدّد فى كل من ولد . وإن قال على بنىّ ، دخل فيه الذكور والإناث . قال مالك : من تصدّق على بنيه وبنى بنيه فإن بناته وبنات بناته يدخلن فى ذلك . روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن فى ذلك مع بنات صلبه . والذى عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون فى البنين . فإن قيل فقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحسن ابن ابنته : " إن ابنى هـذا سيّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " . قلنا : هذا مجاز ، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه ؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل فى ولد بنته ليس بابنى ؛ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه ؛

(١) آية ١١ سورة النساء . (٢) آية ٢٣ سورة النساء . (٣) راجع ج ٧ ص ٣١ .

لأن الحقائق لا تنفي عن منتسباتها[1] . ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيـه دون أمه ؛ ولذلك قيل في عبد الله بن عباس : إنه هاشمي وليس بهلالي وإن كانت أمه هلالية .

قلت : هذا الاستدلال غير صحيح ، بل هو ولد على الحقيقة في اللغة لوجود معنى الولادة فيه ، ولأن أهـل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعـالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ »[2] . وقال تعالى « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ — الى قوله — مِنَ الصَّالِحِينَ » فجعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدّم بيانه هناك . فان قيل فقد قال الشاعر :

بنونا بنـو أبنائنا وبناتنـا * بنوهن أبنـاء الرجال الأباعد

قيل لهم : هذا لا دليل فيه ؛ لأن معنى قوله إنما هو ولد بنيه الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب ، وإن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك ؛ اذ ينتسبون إلى غيره فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية ولم ينف عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن ؛ وقد يقول الرجل في ولده ليس هو بابني إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقا ، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه . ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولدا فقد أفسد معناه وأبطل فائدته ، وتأول على قائله ما لا يصح ؛ اذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي ابنا ، ولا يسمى ولد الابنة ابنا ؛ من أجل أن معنى الولادة التي اشتق منها اسم الولد فيه أبين وأقوى ، لأن ولد الابنة هو ولدها بحقيقة الولادة ، وولد الابن انما هو ولده بماله مما كان سببا للولادة . ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده في اللسان ، وانما أخرجهم منه قياسا على الموارثة . وقد مضى هذا في «الأنعام»[2] والحمد لله .

اللفظ الثالث — الذرية ؛ وهي مأخوذة من ذرأ الله الخلق ؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ — الى أن قال — وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى » . وإنمـا كان من ذريته من قبـل أمه . وقد مضى في « البقرة »[3] اشتقاق الذرية وفي « الأنعام » الكلام على « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ » الآية ؛ فلا معنى للاعادة .

(١) في نسخة من الأصل : « مشبهاتها » . وفي ابن العربي « مسمياتها » .
(٢) آية ٨٤ سورة الأنعام . راجع جـ ٧ ص ٣١ . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

اللفظ الرابع — العقب؛ وهو فى اللغة عبارة عن شيء بعـد شيء كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال : أعقب الله بخير؛ أى جاء بعد الشدّة بالرخاء . وأعقب الشيبُ السواد . وعَقَب يَعْقُب عقو با وعَقْبًا اذا جاء شيئا بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل : عَقِبه . والمِعْقَاب من النساء : التى تلد ذكرا بعـد أنثى، هكذا أبدا . وعقب الرجل : ولده وولد ولده الباقون بعده . والعاقبة الولد؛ قال يعقوب : فى القرآن «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ» . وقيل : بل الورثة كلهم عَقِب . والعاقبة الولد؛ ولذلك فسره مجاهد هنا . وقال ابن زيد : هاهنا هم الذرية . وقال ابن شهاب : هم الولد و ولد الولد . وقيل غيره على ما تقدّم عن السُّدى . وفى الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القـدم وهى مؤنّثـة . وعقب الرجل أيضا ولده و ولد ولده . وفيـه لغتان : عَقِب وعَقْب (بالتسكين) وهى أيضا مؤنثة، عن الأخفش . وعَقَب فـلان مكان أبيه عاقبة أى خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى « ليس لِوَقْعَتِهَا كاذبة »(١) . ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد فى المعنى . واختلف فى الذرّية والنسل فقيل إنهما بمـنزلة الولد والعقب؛ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك . وقيـل : إنهم يدخلون فيهما . وقد مضى الكلام فى الذرية هنا وفى « الأنعام »(٢) .

اللفظ الخامس . نسلى ؛ وهو عند علمائنا كقوله ولدى و ولد ولدى؛ فانه يدخل فيـه ولد البنات . ويجب أن يدخلوا؛ لأن نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجهٍ، ولم يقترن به ما يخصه كما اقترن بقوله عَقِبى ما تناسلوا . وقال بعض علمائنا : إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيـه ولد البنات ؛ إلا أن يقول المحبس نسلى ونسل نسلى، كما اذا قال عقبى وعقب عقبى . وأما اذا قال ولدى أو عقبى مفردا فلا يدخل فيه البنات .

اللفظ السادس — الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع . قال ابن القاسم : هما سواء، وهم العَصَبة والإخوة والبنات والعمات، ولا يدخل فيه الخالات . وأصل أهـل الاجتماعُ ،

(١) آية ٢ سورة الواقعة .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣١ .

يقال : مكانٌ آهل إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومن دخل في القُعْدُد[1] من النساء، والعصبة مشتقة منه وهي أخص به . وفي حديث الإفك : يا رسول الله ، أَهْلُكَ ! ولا نعلم إلا خيرا ؛ يعني عائشة . ولكن لا تدخل فيه الزوجة بإجماع وإن كانت أصل التأهل؛ لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربطها وينحل بالطلاق . وقد قال مالك : آل محمد كلُّ تقي ؛ وليس من هذا الباب . وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فاشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة . وقد قال أبو إسحاق التونسي : يدخل في الأهل كل من كان من جهة الأبوين؛ فوفّى الاشتقاق حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال . وهذه المعاني إنما تنبني على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق ؛ فهذان لفظان .

اللفظ الثامن — قرابة ؛ فيه أربعة أقوال : الأول — قال مالك في كتاب محمد وابن عبدوس : إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الخالات . الثاني — يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه؛ قاله عليّ بن زياد . الثالث — قال أشهب : يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء . الرابع — قال ابن كنانة : يدخل فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات وبنات الأخت . وقد قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى »[2] قال : إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم . وقال : لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ فهذا يضبطه والله أعلم .

اللفظ التاسع — العشيرة؛ ويضبطه الحديث الصحيح : إن الله تعالى لما أنزل « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »[3] دعا النبي صلى الله عليه وسلم بطون قريش وسماهم — كما تقدّم ذكره — وهم العشيرة الأقربون ؛ وسواهم عشيرة في الإطلاق . واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد، كما تقدّم من قول علمائنا .

(١) في الأصول : « ومن دخل في العقد » . وفي ابن العربي : « ومن دخل في العقدة » وقد أثبتناه كما ترى استئناسا بما في شرح الباجي على الموطأ؛ وعبارته : « ... ولا يدخل في ذلك الخالات . ومعنى ذلك عندي العصبة أو من كان في قعددهن من النساء » . والقعدد (بضم أوله وسكون ثانيه وضم ثالثه وفتحه) : القريب .

(٢) آية ٢٣ سورة الشورى . (٣) آية ٢١٤ سورة الشعراء . راجع جـ ١٣ ص ١٤٣

اللفظ العاشر — القوم ؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء . والقوم يشمل الرجال والنساء، وإن كان الشاعر قد قال :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــوم آل حِصْــن أم نســاء

ولكنــه أراد أن الرجل إذا دعا قومــه للنصرة عنى الرجال ، وإذا دعاهم للحُرْمــة دخل فيهم الرجال والنساء ؛ فتعمّمه الصفة وتخصّصه القرينة .

اللفظ الحادى عشر — الموالى؛ قال مالك : يدخل فيــه موالى أبيه وابنه مع مواليه . وقال ابن وهب : يدخل فيه أولاد مواليه . قال ابن العربى : والذى يتحصل منه أنه يدخل فيه من يرثه بالولاء ؛ قال : وهــذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسنة المبيّنة له ؛ والتفريع والتتميم فى كتاب المسائل، والله أعلم .

قوله تعـالى : بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ وقــرئ « بل متعنـا » . ﴿ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُــمْ ﴾ أى فى الدنيـا بالإمهال . ﴿ حَتَّى جَاءَهُــمُ الْحَقُّ ﴾ أى محمد صــلى الله عليــه وسلم بالتوحيــد والإسلام الذى هو أصــل دين إبراهيم . وهو الكلمة التى بقّاها الله فى عقبــه . ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أى يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة . ﴿ وَلَمَّـا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالُوا هَــذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ ﴾ أى هلّا نزل ﴿ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ ﴾

وقـرئ « على رَجْل » بسكون الجـيم . ﴿ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى من إحدى القريتين ؛ كقوله تعالى : « يَخْـرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » أى من أحدهما . أو على أحد رجلين من القريتين . القريتان : مكة والطائف . والرجلان : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبي جهل . والذى من الطائف أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى ؛ قاله قتـادة . وقيل : عمير بن عبد ياليل الثقفى من الطائف ، وعتبة بن ربيعة من مكة ؛ وهو قول مجاهد . وعن ابن عباس : أن عظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفى . وقال السدى : كنانة بن عبد بن عمرو . وروى أن الوليد بن المغيرة — وكان يسمى ريحانة قريش — كان يقول : لو كان مايقوله محمد حقا لنزل علىّ أو على أبى مسعود ؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ يعنى النبوّة فيضعونها حيث شاءوا . ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى أفقرنا قوما وأغنينا قوما ؛ فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهـم فكيف يفوّض أمر النبوّة إليهم . قال قتادة : تلقاه ضعيف القـوّة قليل الحيلة عِيّ اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شـديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتَّر عليه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن فى رواية عنه « معايشهم » . وقيل : أى نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما علىّ وأنا قادر على نزع النّعمة عنهما ؛ فأى فضل وقدر لهما . ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فاضلنا بينهم ؛ فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس ؛ قاله مقاتل . وقيل : بالحرية والرق ؛ فبعضهم مالك وبعضهم مملوك . وقيل : بالغـنى والفقر ؛ فبعضهم غنى وبعضهم فقـير . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر . ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ قال السدى وابن زيد : خَوَلًا وخدّاما ، يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض . وقال قتادة والضحاك : يعنى ليملك بعضهم بعضا . وقيل : هو من السخرية التى بمعنى الاستهزاء ؛ أى ليستهزئ الغنى بالفقير . قال الأخفش : سَخِرت به وسَخِرت منه ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وبه ؛ كلٌّ يقال . والاسم السُّخرِية (بالضم) . والسُّخْرِىّ والسِّخْرِى (بالضم والكسر) . وكل الناس ضمُّوا « سخريا » إلا ابن مُحَيْصِن ومجاهد فإنهما قرآ « سِخريا » . ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أى أفضل ممـا يجمعون من الدنيا . ثم قيل : الرحمة النبوة ، وقيل الجنة . وقيل : تمـام الفرائض خير من كثرة النوافل . وقيل : ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم .

قوله تعـالى : وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

فيـــه خمس مســائل :

الأولى — قال العلماء : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة وَدَرَجها ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب ؛ فيحمل ذلك على الكفر . قال الحسن : المعنى لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ماوصفناه ؛ لهوان الدنيا عنـد الله عز وجل . وعلى هـذا أكثر المفسرين آبن عباس والسدى وغيرهم . وقال آبن زيد : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » فى طلب الدنيا وآختيارها على الآخرة « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » . وقال الكسائى : المعنى لولا أن يكون فى الكفار غنىٌّ وفقير وفى المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا هذا لهوانها .

الثانيـــة — قرأ آبن كثير وأبو عمرو « سَقْفًا » بفتح السين و إسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع؛ آعتبارا بقوله تعالى «فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ» . وقرأ الباقون بضم السين والقاف على الجمـع ؛ مثل رَهْن ورُهُن . قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما . وقيـل : هو جمع سقيف ؛ مثل كَثيب وكُثب ، ورَغيف ورُغُف ؛ قاله الفراء . وقيل : هو جمع سُقوف ؛ فيصير جَمْعَ الجمع : سَقْف وسُقُوف ، نحو فَلْس وفُلُوس . ثم جعلوا فُعُولا كأنه آسم واحد فجمعوه على فُعُل . وروى عن مجاهد « سَقْفًا » بإسكان القاف . وقيل : اللام فى « لبيوتهم » بمعنى على ؛ أى على بيوتهم . وقيل : بدل ؛ كما تقول فعلت هذا لزيد لكرامته ؛ قال الله تعالى « وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » كذلك قال هنا « لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ » .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ يعنى الدَّرَج ؛ قاله ٱبن عباس وهو قول الجمهور . واحدها مِعراج ، والمِعراج السُّلَّم ؛ ومنه ليـلة المعراج . والجمع معارج ومعاريج ؛ مثل مفاتح ومفاتيح ؛ لغتـان . « ومعاريج » قرأ أبو رجاء العُطَارِدِى وطلحة بن مُصَرِّف ؛ وهى المراقى والسلاليم . قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج ؛ مثل مِرقاة ومَرقاة . ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ أى على المعارج يرتقون و يصعدون ؛ يقال : ظهرت على البيت أى علوت سطحه . وهـذا لأن من علا شيئا وٱرتفع عليه ظهر للناظرين . و يقال : ظهرت على الشيء أى علمته . وظهرت على العدوّ أى غلبته . وأنشد نابغـة بنى جَعْدة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

عَـــلَوْنا السماء عِزّةً ومهـابةً * و إنا لنرجو فوق ذلك مظهـرا (١)

أى مصعدا ؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقال " إلى أين " ؟ قال إلى الجنة ؛ قال " أجل إن شاء الله " . قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟ !

الرابعــة — استدل بعض العلمـاء بهذه الآية على أن السقف لاحَقَّ فيه لرب العُلْو ؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها . وهذا مذهب مالك رحمه الله. قال ابن العربى : وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسـقف و باب ؛ فمن له البيت فله أركانه . ولا خلاف أن العلو له الى السماء . واختلفوا فى السفل ؛ فمنهم من قال هو له ، ومنهـم من قال ليس له فى باطن الأرض شيء . وفى مذهبنا القولان . وقـد بيّن حديث الاسرائيلى الصحيح فيما تقدّم : أن رجلا باع من رجل دارا فبناها فوجد فيها جَرّة من ذهب ، فجاء بها إلى البائع فقال : إنمـا اشتريت الدار دون الجَرّة ، وقال البائع : إنمـا بعت الدار بمـا فيها ؛ وكلهم تدافعها فقضى بينهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يزوّج أحدهمـا ولده من بنت

(١) رواية البيت كما فى كتاب الأغانى جـ ٥ ص ٨ طبع دار الكتب المصرية : * بلغنا السماء مجدنا وجدودنا *

وروايته كما فى جمهرة أشعـار العرب : * بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا *

وروايته كما فى اللسان مادة «ظهر» : * بلغنا السماء مجـدنا وسـناؤنا *

الآخر ويكون المال لهما . والصحيح أن العُلْو والسُّفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع؛ فإذا باع أحدهما أحد الموضعين فله منه ما ينتفع به وباقيه للبتاع منه .

الخامسة — من أحكام العُلْو والسُّفل . إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيعتلّ السفل أو يريد صاحبه هَدْمَه؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال : إذا أراد صاحب السفل أن يهدم ، أو أراد صاحب العلو أن يبنى علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة ، ويكون هدمه له أرفق لصاحب العلو؛ لئلّا ينهدم بانهدامه العلو، وليس لرب العلو أن يبنى على علوه شيئا لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذى لا يضر بصاحب السفل . ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها ويخاف ضررها على صاحب السفل. قال أشهب : وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبنى السفل؛ فإن أبى صاحب السفل من البناء قيل له بِعْ ممن يبنى . وروى ابن القاسم عن مالك فى السفل لرجل والعلو لآخر فاعتل السفل ، فإن صلاحه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله؛ لأن عليه إمّا أن يحمله على بنيان أو على تعليق، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثانى على صاحب الأوسط . وقد قيل: إن تعليق العلو الثانى على رب العلو حتى يبنى الأسفل. وحديث النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوْا جميعا" — أصلٌ فى هذا الباب . وهو حجة لمالك وأشهب . وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضرّ به ، وأنه إن أحدث عليه ضررا لزمه إصلاحه دون صاحب العلو ، وأن لصاحب العلو منعه من الضرر؛ لقوله عليه السلام : "فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوْا جميعا" ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو ممنوع من إحداث

ما لا يجوز له فى السنة . وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ وقد مضى فى « الأنفال »[(١)] . وفيه دليـل على جواز القرعة واستعمالهـا ، وقد مضى فى « آل عمران »[(٢)] فتأمل كُلًّا فى موضعه تجده مبيناً ، والحمد لله .

قوله تعـالى : وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ﴾ أى و لجعلنا لبيوتهم . وقيل : « لبيوتهم » بدل اشتمال من قوله « لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ » . « أَبْوَابًا » أى من فضـة . ﴿ وَسُرُرًا ﴾ كذلك ، وهو جمع السرير . وقيل : جمع الأَسِرَّة ، والأسِرَّة جمع السرير ، فيكون جمع الجمع . ﴿ يَتَّكِئُونَ عَلَيْهَا ﴾ الاتكاء والتَّوَكُّؤ : التحامل على الشيء ، ومنه « أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا » . و رجل تُكَأَة ، مثال هُمَزَة ، كثير الاتكاء . والتُّكَأَة أيضا : ما يُتَّكأُ عليه . واتكأ على الشيء فهو متّكئ ، والموضع متّكأ . وطعنه حتى أتكأه (على أفْعَلَه) أى ألقاه على هيئة المُتَّكِئ . وتوكّأت على العصا . وأصل التاء فى جميع ذلك واو ، ففُعل به ما فُعـل باتّزن واتّعد . ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ الزخرف هنا الذهب ، عن ابن عباس وغيره . نظيره : « أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ »[(٣)] وقد تقدّم . وقال ابن زيد : هو ما يتخـذه الناس فى منازلهم من الأمتعة والأثاث . وقال الحسن : النقوش ، وأصـله الزينة . يقال : زخرفت الدار ، أى زينتها . وتزخرف فلان ، أى تزين . وانتصب «زخرفا» على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا . وقيل : بنزع الخافض ، والمعنى فجعلنا لهم سُقُفًا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب ، فلما حذف «من» قال «و زخرفا» فنصب . ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر « و إنْ كل ذلك لمـا متاع الحياة الدنيا » بالتشديد . الباقون بالتخفيف ، وقد ذُكر هذا . وروى عن أبى رجاء كسر اللام من « لِمَا » ، فـ « ما » عنده بمنزلة الذى ، والعائد عليها محذوف ، والتقدير : و إن كل ذلك الذى

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ فما بعدها . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٦ فما بعدها . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

هو متاع الحياة الدنيا ، وحذف الضمير هاهنا كحذفه فى قراءة من قرأ « مَثَلًا ما بَعُوضَةٌ فما فوقها » و « تَمَاماً على الذِى أَحْسَنُ »[(١)][(٢)] . أبو الفتح : ينبغى أن يكون « كُلٌّ » على هذه القراءة منصوبة ؛ لأن « إن » مخففة من الثقيلة ، وهى إذا خففت و بطل عملها لزمتها اللام فى آخر الكلام للفرق بينها و بين « إن » النافية التى بمعنى ما ؛ نحو إن زيد لقائم ، ولا لام هنا سوى الجارة . ﴿ وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يريد الجنة لمن آتقى وخاف . وقال كعب : إنى لأجد فى بعض كتب الله المنزلة : لولا أن يَحْزَن عبدى المؤمن لكلّلت رأس عبدى الكافر بالإكليل ، ولا يتصدّع ولا ينبِض منه عرق بوجع . وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر". وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" . وفى الباب عن أبى هريرة ، وقال : حديث حسن غريب . وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن * إذًا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً * وقد شَبِعت فيها بطون البهائم

وقال آخر :

تمتّع من الأيام إن كنت حازما * فإنك فيها بين ناهٍ وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه * فما فاته منها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن رَقّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابا لمحسن * ولا رضى الدنيا عقابا لكافر

قوله تعالى : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

---

(١) راجع ج ١ ص ٢٤٣ (٢) راجع ج ٧ ص ١٤٢

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا . فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وقرأ آبن عباس وعكرمة «وَمَنْ يَعْشَ» بفتح الشين، ومعناه يعمى؛ يقال منه عَشِيَ يَعْشَى عشًا إذا عَمِيَ . ورجل أعشى وآمرأة عشواء إذا كان لا يبصر؛ ومنه قول الأعشى :

رأتْ رجــلًا غائب الوافِــدَيْـ * ـنِ مختلفَ الخلق أعْشَى ضــريرا (١)

وقــوله :

أأن رأت رجــلًا أعْشَى أضَرَّ به * رَيْبُ المنـونِ ودَهْرٌ مُفْنِـدٌ خَبِـلُ

الباقون بالضم؛ من عشا يعشو إذا لحقـه ما يلحق الأعشى . وقال الخليل : العشو هو النظر ببصر ضعيف؛ وأنشد :

مـتى تأتِه تَعْشُــو إلى ضَـوْءِ ناره * تَجِــد خيرَ نارٍ عنــدها خيرُ مُوقِــدِ (٢)

وقال آخــر :

لنعـم الفــتى يعشو إلى ضـوء ناره * إذا الريح هبّت والمـكان جـديب

الجَوْهَرِيّ : والعَشَا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذى لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار . والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان . وأعشاه الله فعشِي (بالكسر) يَعْشَى عَشًى، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا يَعْشوان؛ لأن الواو لمـا صارت فى الواحد ياء لكسرة ما قبلها تُركت فى التثنيـة على حالهـا . وتعاشى إذا أَرَى من نفسه أنه أعشى . والنسبة إلى أَعْشَى أَعْشَوِيّ . وإلى العَشِيَّة عَشَوِيّ . والعشواء : الناقـة التى لا تبصر أمامها فهى تَخْبِط بيديها كلّ شيء . وركب فلان العشواء إذا خَبَط أمره على غير بصيرة . وفلان خابطٌ خبطَ عشواء .

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا » (٣) أى نواصل لكم الذكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أى نسبب له شيطانا جزاء له على كفره ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ قيل فى الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قول ابن عباس .

(١) فى اللسان مادة «وفد» : « والوافدان اللذان فى شعر الأعشى هما الناشزان من الخدّين عند المضغ ؛ فاذا هرم الانسان غاب وافداه » .	(٢) البيت للحطيئة .	(٣) آية ٥

وقيل فى الآخرة إذا قام من قبره؛ قاله سـعيد الجُـرَيْرِى . وفى الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يُشْفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأن المؤمن يُشْفع بمَلَك حتى يقضى الله بين خلقه ؛ ذكره المهـدوىّ . وقال القشيرى : والصحيح فهو له قرين فى الدنيا والآخرة. وقال أبو الهيثم والأزهرى : عَشَوْت إلى كذا أى قصدته . وعشوت عن كذا أى أعرضت عنه، فتفرق بين «إلى» و «عن»؛ مثل : مِلْتُ إليه، ومِلْتُ عنه . وكذا قال قتادة : يَعْشُ، يُعْرِض؛ وهو قول الفراء . النحاس : وهو غير معروف فى اللغة . وقال القُرَظى : يولّى ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه. وأنكر العُتْبِىّ عشوت بمعنى أعرضت ؛ قال : وإنما الصواب تعاشيت . والقول قول أبى الهيثم والأزهرى . وكذلك قال جميع أهل المعرفة . وقرأ السُّلَمِىّ وابن أبى اسحاق و يعقوب وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش «يقيّض» (بالياء) لذكر «الرحمن» أوّلا؛ أى يقيّض له الرحمن شيطانا . الباقون بالنون. وعن ابن عباس «يُقَيَّضْ لَهُ شَيْطَانٌ فهو له قَرِينٌ» أى ملازم ومصاحب . قيل : «فهو» كناية عن الشيطان؛ على ما تقدّم. وقيل: عن الإعراض عن القرآن[(١)]؛ أى هو قرين للشيطان . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى وإن الشيطان ليصدونهم عن سبيل الهدى ؛ وذُكر بلفظ الجمع لأن « مَن » فى قوله « ومَن يعش » فى معنى الجمع . ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أى ويحسب الكفار ﴿ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا ﴾ على التوحيد قـرأ أبو عمرو وحمـزة والكسائى وحفص؛ يعنى الكافر يوم القيامة . الباقون « جاءانا » على التثنية ، يعنى الكافر وقرينه وقد جُعلا فى سلسلة واحدة، فيقول الكافر ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أى مشرق الشتاء ومشرق الصيف، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ[(٢)] » ونحوه قول مقاتل . وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لهما جميعا ؛ لأنه قد عرف ذلك بما بعده ؛ كما قال :

وعَيْنٌ لهـا حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ * شُقَّت مآقيهما من أُخُرْ[(٣)]

(١) فى الأصول : «عن التعرض». (٢) آية ١٧ سورة الرحمن. (٣) البيت لامرئ القيس. وحدرة : مكتنزة صلبة، وقيل الواسعة الجاحظة . وبدرة : تبدر بالنظر، وقيل تامة كالبدر .

قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بُعْـدَ مَشْرِقِ أطـول يوم فى السنة إلى مَشْرِق أقصر يوم فى السنة ، ولذلك قال « بُعْدَ المشرقين » . وقال الفـراء : أراد المشرق والمغرب فغلّب آسم أحدهما، كما يقال : القمران للشمس والقمر، والعُمَران لأبى بكر وعمر، والبصرتان للكوفـة والبصرة، والعصران للغداة والعصر . وقال الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأنشد أبو عبيدة لجَرِير :

ما كان يرضى رسـول الله فعلهم * والعُمَرانِ أبو بكر ولا عمـر

وأنشد سيبويه :

* قَدْنِيَ من نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِى *

يريد عبد الله ومصعبا ابنى الزبير ، وإنمـا أبو خبيب عبد الله . ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ أى فبئس الصاحب أنت؛ لأنه يورده إلى النار . قال أبو سعيد الخُدْرِى : إذا بُعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار .

قوله تعـالى : وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ « إذ » بدل من اليوم ؛ أى يقـول الله للكافر لن ينفعكم اليـوم إذ أشركتم فى الدنيا هـذا الكلام ؛ وهو قول الكافر « يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ» أى لا تنفع الندامة اليوم . «إنكم» بالكسر ﴿ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ وهى قراءة ابن عامر باختلاف عنـه . الباقون بالفتح . وهى فى موضـع رفع تقديره : ولن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب ؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه . أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار التأسّى كما يتأسّى أهل المصائب فى الدنيا، وذلك أن التأسى يستروحه أهل الدنيا فيقول أحدهم : لى فى البلاء والمصيبة أسـوة ؛ فيسكن ذلك من حزنه ؛ كما قالت الخنساء :

فـلولا كثرة الباكين حـولى * على إخوانهـم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن * أعزّى النفس عنـه بالتأسّى

وإذا كان فى الآخرة لم ينفعهم التأسى شيئا لشغلهم بالعذاب . وقال مقاتل : لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ؛ لأن قُرَناءكم وأنتم فى العذابِ مشترِكون كما اشتركتم فى الكفر .

قوله تعالى : أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا؛ ففيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وفيه ردّ على القدرية وغيرهم ، وأن الهدى والرشد والخذلان فى القلب خَلْقُ الله تعالى ، يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء .

قوله تعالى : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد نخرجنك من مكة من أذى قريش . ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ وهو الانتقام منهم فى حياتك . ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ؛ وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام ؛ يريد ما كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم من الفتن . و « نَذْهَبَنَّ بك » على هذا نتوفينّك . وقد كان بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم نقمة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يُرِه فى أمته إلا التى تَقَرّ به عينه وأبقى النقمة بعده ، وليس من نبيّ إلا وقد أُرِى النّقمة فى أمته . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُرِى ما لقيت أمته من بعده ، فما زال منقبضا ، ما انبسط ضاحكا حتى لقى الله عز وجل . وعن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أراد الله بأمة خيرا قبض نبيّها قبلها فجعله لها فَرَطًا وسَلَفا . وإذا أراد الله بأمة عذابا عذّبها ونبيُّها حيٌّ لتقَرّ عينه لما كذّبوه وعصَوْا أمره" .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب؛ فـ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يوصّلك إلى الله ورضاه وثوابه . ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعنى القرآن شرفٌ لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم؛ نظيره: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ»(١) أى شرفكم . فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب؛ فاحتاج أهل اللغات كلّها إلى لسانهم كلّ من آمن بذلك فصاروا عيالا عليهم؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذى عنى به من الأمر والنهى وجميع ما فيه من الأنباء، فشَرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سُمّى عربيًّا . وقيل : بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة . وقيل : تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به . وقيل : « وإنه لذكر لك ولقومك » يعنى الخلافة فإنها فى قريش لا تكون فى غيرهم؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "الناس تَبَعٌ لقريش فى هذا الشأن مُسْلمهم تَبَعٌ لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم" . وقال مالك : هو قول الرجل حدّثنى أبى عن أبيه، حكاه ابن أبى سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر الماورديّ والثعلبيّ وغيرهما . قال ابن العربى : ولم أجد فى الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببَغْداد فإن بنى التميمى بها يقولون : حدّثنى أبى قال حدّثنى أبى، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك شَرُفت أقدارهم، وعظّم الناس شأنهم، وتهمّمت الخلافة بهم . ورأيت بمدينة السلام ابنى أبى محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبى الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد ابن أُكَينة بن عبد الله التميمى وكانا يقولان : سمعنا أبانا رزق الله يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول سمعت أبى يقول، سمعت أبى يقول سمعت علىّ بن أبى طالب

(١) آية ١٠ سورة الأنبياء .

يقول وقد سئل عن الحنان المنان فقال : الحنان الذى يُقبل على من أعرض عنه ، والمنان الذى يبدأ بالنوال قبل السؤال . والقائل سمعت عليًّا : أ كَيْنة بن عبد الله جدّهم الأعلى . والأقوى أن يكون المراد بقوله « وإنه لذكْرٌ لك ولقومك » يعنى القرآن ؛ فعليه انبنى الكلام وإليه يرجع المصير، والله أعلم . قال الماوَرْدِيّ : « ولقومك » فيهم قولان : أحدهما — من اتبعك من أمتك؛ قاله قتادة وذكره الثعلبي عن الحسن . الثانى — لقومك من قريش ؛ فيقال ممن هذا ؟ فيقال من العرب ، فيقال من أيّ العرب؟ فيقال من قريش؛ قاله مجاهد .

قلت — والصحيح أنه شرف لمن عمِل به ، كان من قريش أو من غيرهم . روى ابن عباس قال : أقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم من سَرِيّة أو غَزاة فدعا فاطمة فقال : "يافاطمة اشترى نفسك من الله فإنى لا أُغْنِي عنك من الله شيئا" وقال مثل ذلك لنِسْوَته ، وقال مثل ذلك لعِتْرته ، . ثم قال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: "ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا قريش بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الأنصار بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الموالى بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون . إنما أنتم من رجل وآمرأة وأنتم كجِمام(١) الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلابالتقوى". وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لينتهين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونون شرًّا عند الله من الجِعلان التى تدفع النَّتْن بأنفها كلّكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنكم عُبِّيّة الجاهلية وفخرها بالآباء [الناس] مؤمن تقىٌّ وفاجر شقى" . خرجهما الطبرى . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى الحُجُرات إن شاء الله تعالى .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أى عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفرّاء . وقال ابن جُرَيج : أى تسألون أنت ومن معك على ما أتاك . وقيل تسألون عما عملتم فيه ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

(١) الجمام (بالتثليث) : ما علا رأس المكيال من الطفاف .

قال ابن عباس وابن زيد : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — وهو مسجد بيت المقدس — بعث الله له آدم ومَن وُلد من المرسلين، وجبريل مع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فأذّن جبريل صلى الله عليه وسلم ثم أقام الصلاة، ثم قال : يا محمد تقدّم فصل بهم ؛ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل صلى الله عليه وسلم : " سل يا محمد من أرسلنا مِن قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا أسأل قد اكتفيت " . قال ابن عباس : وكانوا سبعين نبيًّا منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلم بالله منهم . في غير رواية ابن عباس : فصلّوْا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ؛ وكان يلي ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأمّهم ركعتين ؛ فلما انفتل (١) قام فقال : "إن ربّي أوحى إليّ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله " ؟ فقالوا : يا محمد، إنا نشهد إنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل و إنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانا، وأن لا نبيّ بعدك إلى يوم القيامة إلا عيسى بن مريم فإنه مأمور أن يتبّع أثرك" . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى « وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » قال : لقِيَ الرّسل ليلة أسرى به . وقال الوليد بن مسلم في قوله تعالى «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» قال : سألت عن ذلك خليد بن دَعْلَج فحدّثني عن قتادة قال سألهم ليلة أسرى به ، لقي الأنبياء ولقي آدم ومالك خازن النار .

قلت : هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية . و « مِن » التي قبل « رسلنا » على هذا القول غير زائدة . وقال المبرد وجماعة من العلماء : إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا . وروى أن في قراءة ابن مسعود « واسأل الذى أرسلنا إليهم قبلك رسلنا» .

(١) انفتل عن الصلاة : اذا انصرف عنها .

وهذه قراءة مفسّرة ؛ فـ«من » على هذا زائدة، وهو قول مجاهد والسُّدّى والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وآبن عباس أيضا. أى واسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وقيل : المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك ؛ فحذفت « عن » ، والوقف على « رسلنا » على هـذا تام ، ثم ابتـدأ بالاستفهام على طريق الإنكار . وقيل : المعنى واسأل تُبّاع مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا ، فحذف المضاف . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسـلم والمراد أمته . ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أخبر عن الآلهـة كما أخبر عمن يعقل فقال « يعبدون » ولم يقـل تعبد ولا يعبدن ؛ لأن الآلهـة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عمن يعقل .

وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والمشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهـة التوقيف والتقرير ؛ لا لأنه كان فى شك منه . وآختلف أهل التأويل فى سؤال النبيّ صلى الله عليه وسـلم لهم على قولين : أحدهما — أنه سألهم فقالت الرسل بُعثنا بالتوحيد ؛ قاله الواقدى . الثـانى — أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل ؛ حتى حكى آبن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : "هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشدّ إيمانا وأعظم يقينا من أن يسأل عن ذلك" . وقد تقدّم هذا المعنى فى الروايتين حسبما ذكرناه .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ لمـّا أعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه منتقم له من عدوّه، وأقام الحجـة بآستشهاد الأنبيـاء وآتفاق الكل على التوحيد أكّد ذلك بقصـة موسى وفرعون ، وما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به و بقومه من الإغراق والتكذيب ؛ أى أرسلنا موسى بالمعجزات وهى التسع الآيات فكُذِّب ؛ فجعلت العاقبة الجميلة له ، فكذلك أنت . ومعنى ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء وسخرية ؛ يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحـر وتخييل ، وأنهم قادرون عليها . وقوله : ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أى كانت آيات موسى من كِبار الآيات ، وكانت كل واحدة أعظمَ مما قبلها . وقيل: « إلا هى أكبر من أختهـا » لأن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما ، فتُضَمّ الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح . ومعنى الأُخُوّة المشاكلة والمناسبة ؛ كما يقال : هذه صاحبة هذه ؛ أى هما قريبتان فى المعنى . ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أى على تكذيبهم بتلك الآيات؛ وهوكقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ»(1) . والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع . وكانت هذه الآيات الأخيرة عذابا لهم وآياتٍ لموسى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ من كفرهم . ﴿ وَقَالُوا يَأَيُّهَـا السَّاحِرُ﴾ لمـا عاينوا العذاب قالوا يأيها الساحر ؛ نادَوْه بمـا كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم . وقيل: كانوا يسمّون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم . قال ابن عباس : « يأيها الساحر » يأيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيما يوقّرونه ؛ ولم يكن السحر صفةَ ذم . وقيل : يأيها الذى غَلَبنا بسحره ، يقال : ساحرته فسحرته ؛ أى غلبتـه بالسحر ؛ كقول العـرب : خاصمته فخصمته أى غلبتـه بالخصومة ، وفاضلته ففضلته؛ ونحوها . ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معـنى الاستفهام ، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا . وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بن وَثّاب « أيُّهُ الساحر » بغير ألف والهاء مضمومة ؛ وعلّتها أن الهاء خُلطت بما قبلها وألزمت ضم الياء الذى أوجبه النداء المفرد . وأنشد الفرّاء :

يأيُّهُ القلبُ اللَّجُـوجُ النفس * أفق عن البيض الحسانِ اللُّعْس

(1) آية ١٣٠ سورة الأعراف .

نضم الهاء حملا على ضم الياء؛ وقد مضى فى «النور»(١) معنى هذا . ووقف أبو عمرو وابن أبى إسحاق ويحيى والكسائى « أيها » بالألف على الأصل . الباقون بغير ألف ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف . ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ أى بما أخبرنا عن عهده إليك إنا إن آمنا كشف عنا؛ فسله يكشف عنا . ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى فيما يستقبل . ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ أى فدعا فكشفنا . ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أى ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا . وقيل : قولهم « إننا لمهتدون » إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدوا .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال ؛ فنادى بمعنى قال ؛ قاله أبو مالك . فيجوز أن يكون عنده عظماء القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه فى جموع القبط؛ وكأنه نودى به بينهم . وقيل : إنه أمر من ينادى فى قومه؛ قاله ابن جريج . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ أى لا ينازعنى فيه أحد . قيل : إنه ملك منها أربعين فرسخا فى مثلها؛ حكاه النقاش . وقيل : أراد بالملك هنا الإسكندرية . ﴿ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ يعنى أنهار النيل، ومعظمها أربعة : نهر المَلِك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تِنِّيس(٢) . قال قتادة : كانت جنانا وأنهارا تجرى من تحت قصوره . وقيل : من تحت سريره . وقيل : «من تحتى» أى تصرّفى نافذ فيها من غير صانع . وقيل : كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن الجرى . قال القُشَيْرِىّ : ويجوز ظهور خوارق العادة على مدّعى الرُّبوبية؛ إذ لا حاجة فى تمييز الإله من غير الإله إلى فعلٍ خارق للعادة . وقيل : معنى « وهذه الأنهار تجرى من تحتى » أى القوّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى؛ قاله الضحاك . وقيل : أراد بالأنهار الأموال، وعبّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . وقوله « تجرى من تحتى » أى أفرّقها على من يتبعنى ؛ لأن الترغيب والقدرة فى الأموال دون

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٣٨

(٢) فى كتاب روح المعانى للألوسى : « والأنهار : الخلجان التى تخرج من النيل المبارك ؛ كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ؛ ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك ؛ لكنه اندرس فجدده أحمد بن طولون ملك مصر فى الاسلام» .

الأنهار . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ عظمتي وقوّتي وضَعْف موسى . وقيــل قدرتي على نفقتكم وعجز موسى . والواو في « وهذه » يجوز أن تكون عاطفة للأنهار على « مُلك مِصر » و «تجرى» نصب على الحال منها . ويجوز أن تكون واو الحال ، وآسم الإشارة مبتدأ ، و « الأنهــار » صفة لاسم الإشارة ، و « تجرى » خبر للبتدأ . وفتحَ الياء من « تحتيَ » أهل المدينة والبَزِّى وأبو عمرو، وأسكن الباقون . وعن الرشــيد أنه لمــا قرأها قال : لأُوَلِّيَنّها أحسن عبيدى، فولّاها الخَصيبَ، وكان على وضوئه . وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهذه القرية التي آفتخر بها فرعون حتى قال «أليس لى ملك مصر»؟! والله لهى عنــدى أقلّ من أن أدخلها! فثنى عِنانه . ثم صرّح بحاله فقال ﴿ أم أنَا خَيْرٌ ﴾ قال أبو عبيدة والسُّدِّى : «أم» بمعنى «بل» وليست بحرف عطف؛ على قول أكثر المفسرين . والمعنى : قال فرعون لقومه بل أنا خير ﴿ مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ أى لا عِزّ له فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعنى ما كان في لسانه من العقــدة ؛ على ما تقدّم في « طــه »(١) . وقال الفراء : في « أم » وجهان : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذى جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت جعلتها نَسَقاً على قوله «أليس لى ملك مصر» . وقيل : هي زائدة . وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون « أم » زائدة؛ والمعنى أنا خير من هــذا الذى هو مهين . وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جُلاجِلٍ　*　وبين النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ(٢)

أى أنت أحسن أمْ أمّ سالم . ثم آبتــدأ فقال أنا خير . وقال الخليــل وسيبويه : المعنى أفلا تبصرون، أم أنتم بصراء، فعطف بـ « أم » على «أفلا تبصرون» لأن معنى «أم أنا خير» أى أم تبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء . وروى عن عيسى

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٢ .

(٢) القائل هو ذو الرمة . والوعساء : رملة لينة . وجلاجل : موضع بعينه . والنقاء : الكثيب من الرمل .

الثَّقفِي ويعقوب الحَضْرَمي أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف تبصرون الثاني . وقيل : مَن وقف على « أم » جعلها زائدة، وكأنه وقف على « تبصرون » من قوله « أفلا تبصرون » . ولا يتم الكلام على « تبصرون » عند الخليل وسيبويه؛ لأن « أم » تقتضي الاتصال بما قبلها . وقال قوم : الوقف على قوله « أفلا تبصرون » ثم ٱبتدأ « أم أنا خير » بمعنى بل أنا خير؛ وأنشد الفَرّاء :

بدت مثل قَرْن الشمس في رَوْنق الضحى * وصورتها أم أنتِ في العين أمْلَحُ

فمعناه : بل أنتِ أملح . وذكر الفَرّاء أن بعض القراء قرأ « أمَا أنا خير » ؛ ومعنى هذا ألست خيرا . وروى عن مجاهد أنه وقف على « أم » ثم يبتدئ « أنا خير » وقد ذُكر .

قوله تعالى : فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي هلّا ﴿ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزِيّ أهل الشرف . وقرأ حفص « أَسْوِرة » جمع سِوار، كخمار وأخمرة . وقرأ أُبَيّ « أساور » جمع إسوار . وابن مسعود « أساوير » . الباقون « أساورة » جمع الأسورة ؛ فهو جمع الجمع . ويجوز أن يكون « أساورة » جمع « إسوار » وألحقت الهاء في الجمع عوضا من الياء؛ فهو مثل زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشبهه . وقال أبو عمرو ابن العَلاء : واحد الأساورة والأساور والأساوير إسوار ، وهي لغة في سُوار . قال مجاهد : كانوا إذا سوّروا رجلا سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق ذهب علامةً لسيادته، فقال فرعون: هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقا ! ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعني متتابعين؛ في قول قتادة . مجاهد : يمشون معًا . ابن عباس : يعاونونه على من خالفه؛ والمعنى : هلّا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ؛ فيكون ذلك أهْيَبَ في القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا

كرسل الملوك فى الشاهـد ، ولم يعلم أن رسل الله إنمـا أيِّدوا بالجنود السماوية ؛ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرّده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا — فى قول مقاتل — أو دليلا على صدقه — فى قول الكلبي — وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف، وقد كان فى الجائز أن يُكَذَّب مع مجئ الملائكة كما كُذّب مع ظهـور الآيات . وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله تعـالى : فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعـالى : ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ قال ابن الأعرابى : المعنى فٱستجهل قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفة أحلامهم وقلّة عقولهم ؛ يقال : استخفه الفرح أى أزعجه ، وٱستخفه أى حمـله على الجهل ؛ ومنه « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ »(١) . وقيل : استفزّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب . وقيـل : استخفّ قـومه أى وجدهم خفاف العقول . وهـذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه، فلابدّ من إضمارٍ بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . وقيـل : استخف قومه وقهرهم حتى ٱتبعوه ؛ يقال استخفه خلاف استثقله ، وٱستخف به أهانه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله .

قوله تعـالى : فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا آسَـفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ روى الضحاك عن ابن عبـاس : أى غاظونا وأغضبونا . وروى عنـه علىّ بن أبى طلحة : أى أسخطونا . قال المـاوردىّ : ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهـة ، والغضب إرادة الانتقام . القُشَيْرىّ : والأسف هاهنا بمعنى الغضب ؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات، وإما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قول المـاوردى .

(١) آية ٦٠ سورة الروم .

وقال عمر بن ذَرّ : يأهل معاصي الله، لا تغترّوا بطول حلم الله عنكم ، وآحذروا أسفه ؛ فإنه قال « فَلَمَّا آسَفُونا انتقمنا منهم » . وقيل : «آسفونا» أي أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين ؛ نحو السـحرة وبني اسرائيـل . وهو كقوله تعـالى : « يُؤْذُونَ اللهَ »(١) و « يحاربون الله »(٢) أي أولياءه ورســله .

قوله تعـالى : فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَـلًا لِّلْأَخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا ﴾ أي جعلنا قوم فرعون سَلَفًا . قال أبو مِجْلَز : «سَلَفًا» لمن عمل عملهم، «وَمَثَلًا» لمن يعمل عملهم. وقال مجاهد : «سلفا» إخبارًا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، «ومثلا» أي عبرة لهم . وعنه أيضا «سلفا» لكفار قومك يتقدّمونهم إلى النار . قتادة : « سلفا » إلى النار، « ومثلا » عِظةً لمن يأتي بعدهم . والسلف المتقدّم ؛ يقال : سَلَف يَسْلُف سَلَفًا ؛ مثل طلب طلبا؛ أي تقدّم ومضى . وسلف له عمل صالح أي تقدّم . والقوم السُّلّاف المتقدّمون . وسَلَفُ الرجل : آباؤه المتقدّمون ؛ والجمع أسلاف وسُلّاف . وقراءة العامة « سَلَفًا » (بفتح السين واللام) جمع سالف ؛ كخادم وخَدَم ، وراصد و رَصَد، وحارس وحَرَس . وقرأ حمزة والكسائي «سُلُفا» (بضم السين واللام) . قال الفراء : هو جمع سليف، نحو سرير وسُرُر . وقال أبو حاتم : هو جمع سَلَف ؛ نحـو خَشَب وخُشُب ، وثَمَر وثُمُر، ومعناهما واحد . وقرأ عليّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائل والنَّخَعي وحُميد بن قيس «سُلَفًا» (بضم السين وفتـح اللام) جمع سُلْفة ، أي فِرقة متقدّمة . قال المُؤَرِّج والنَّضْر بن شُمَيل : « سُلَفًا » جمع سُلْفة، نحو غُرْفَة وغُرَف، وطُرْفَة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم .

قوله تعـالى : وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

لمّـا قال تعـالى : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَـدُونَ » تعلّق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخـذه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم إلهًا؛ قاله قتادة . ونحوه عن مجاهد قال : إن قريشا قالت إن محمدا

(١) آية ٥٧ سورة الأحزاب . (٢) آية ٣٣ سورة المائدة .

يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى ؛ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن عباس : أراد به مناظرة عبد الله بن الزِّبَعْرَى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى ، وأن الضارب لهـذا المثل هو عبـد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حالة كفـره لمـا قالت له قريش إن محمدا يتلو « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(١) الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليـه ؛ قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عُزَيْراً ، أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ؛ وذلك معنى قوله « يَصِدُّونَ » . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »(٢) . ولو تأمل ٱبن الزبعرى الآية ما ٱعترض عليهـا ؛ لأنه قال « وما تعبدون » ولم يقـل ومن تعبدون ، وإنمـا أراد الأصنام ونحوها ممـا لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين . وقد مضى هذا فى آخر سورة « الأنبياء »(٣) . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال لقريش : " يا معشر قريش لا خير فى أحد يُعبد من دون الله " . قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبيًّا وعبدا صالحـا ، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله ! . فأنزل الله تعـالى « ولَمَّـا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » أى يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . قرأ نافع وابن عامر والكسائى « يَصُدُّونَ » (بضم الصـاد) ومعناه يُعرِضون؛ قاله النَّخَعِيّ ، وكسر الباقون . قال الكسائى : هما لغتان؛ مثل يَعْرِشون ويَعْرُشون ، ويَنِمُّون ويَنُمُّون ، ومعناه يَضِجُّون . قال الجوهرى : وصَدّ يَصُدّ صديدا، أى ضَجّ . وقيل : إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض ، وبالكسر من الضجيج؛ قاله قُطْرُب . قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لكانت : إذا قومك عنه يصدون . الفَرّاء : هما سـواء؛ منه وعنه . ابن المُسيّب : يصـدون يضجون . الضحاك يعجون . ابن عباس : يضحكون . أبو عبيدة : مَن ضَمّ فمعناه يعدلون؛ فيكون المعنى : من أجل المَيْل يعدلون . ولا يُعـدّى « يصدون » بمن ، ومن كسر فمعناه يضجون؛ فـ « من » متصلة بـ « يصدون » والمعنى يضجون منه .

---

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أى آلهتنا خير أم عيسى ؟ قاله السُّدِّى . وقال : خاصموه وقالوا إن كل من عبد من دون الله فى النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير، فأنزل الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الآية . وقال قتادة : « أم هو » يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . وفى قراءة ابن مسعود « آلهتنا خير أم هذا » . وهو يقوّى قول قتادة ، فهو استفهام تقرير فى أن آلهتهم خير . وقرأ الكوفيون و يعقوب « أآلهتنا » بتحقيق الهمزتين، ولَيّن الباقون . وقد تقدم . ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ «جدلا» حال؛ أى جدلين . يعنى ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل؛ لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مجادلون بالباطل . وفى صحيح الترمذىّ عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ضل قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل — ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية — «ما ضربوه لك إلا جَدَلًا بل هم قوم خَصِمون » " .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أى ما عيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوّة، وجعله مَثَلًا لبنى إسرائيل؛ أى آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى؛ فإن عيسى كان من غير أب ، ثم جعل إليه من إحياء الموتى و إبراء الأكْمَه والأبرص والأسقام كلها مالم يُجعل لغيره فى زمانه ، مع أن بنى إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأحبَّه إلى الله عز وجل ، والناسُ دونهم؛ ليس أحد عند الله عز وجل مثلَهم . وقيل : المراد بالعبد المنعم عليه محمد صلى الله عليه

وسلم؛ والأول أظهر . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أي بدلًا منكم ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ يكونون خلفًا عنكم؛ قاله السُّدِّي . ونحوه عن مجاهد قال : ملائكة يعمرون الأرض بدلا منكم . وقال الأزهري : إن « مِن » قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية .

قلت : قد تقدم هذا المعنى في « براءة »(١) وغيرها . وقيل : لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة وإن لم تجر العادة بذلك، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف؛ والمعنى : لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا، أو يقال لهم بنات الله . ومعنى ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ يخلف بعضهم بعضا؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بن جُبير : يريد القرآن؛ لأنه يدل على قرب مجيء الساعة، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها . وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة أيضا : إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وإنه لَعَلَمٌ للساعة » (بفتح العين واللام) أي أمارة . وقد روى عن عِكرمة « وإنه للعلم » (بلامين) وذلك خلاف للمصاحف . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم؛ فرد الحديث إلى عيسى بن مريم قال : قد عُهِد إلىّ فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل؛ فذكر خروج الدجال — قال : فأنزل فأقتله . وذكر الحديث، خرّجه ابن ماجه في سننه . وفي صحيح مسلم "فبينما هو — يعني المسيح الدجال — إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤١

دِمَشْق بين مَهْرُودَتَيْن(١) واضعاً كفّيه على أجنحة مَلَكين إذا طأطأ رأسه قَطَر و إذا رفعه تحدّر منه جُمَان كاللؤلؤ فلا يَحِلّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ونَفَسُه [ينتهي] حيث ينتهي طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ(٢) فيقتله ..." الحديث ... وذكر الثعلبي والزَّمَخْشَرِيّ وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء على ثَنِيّة من الأرض المقدسة يقال لها أَفِيق(٣) بين مُمَصَّرَتَيْن(٤) وشعر رأسه دَهين و بيده حربة يقتل بها الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى و يصلّي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير و يكسر الصليب و يخرب البِيَع والكنائس و يقتل النصارى إلّا من آمن به " . وروى خالد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأنبياء إخوة لِعَلّات أمهاتهم شتّى ودينهم واحد وأنا أَوْلَى الناس بعيسى بن مريم إنه ليس بيني و بينه نبيّ و إنه أوّل نازل فيكسر الصليب و يقتل الخنزير و يقاتل الناس على الإسلام " . قال الماوَرْدِيّ : وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رُفع التكليف لئلا يكون رسولا إلى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى و ينهاهم . وهذا قول مردود لثلاثة أمور ؛ منها الحديث ، ولأن بقاء الدنيا يقتضي التكليف فيها ، ولأنه ينزل آمرًا بمعروف وناهياً عن منكر . وليس يُستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصورا على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه .

قلت : ثبت في صحيح مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَيَنْزِلَنّ عيسى بن مريم حَكَماً عادلا فَلَيَكْسِرَنّ الصليبَ وليقتُلَنّ الخنزير ولَيَضَعَنّ الجِزْيَةَ ولَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنّ الشحناء والتّباغُضُ والتحاسد ولَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يقبله أحد " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم و إمامكم منكم " وفي رواية " فأمّكم منكم " قال ابن أبي ذئب : تدري " ما أمّكم

(١) أي شقتين أو حلتين . (٢) لد (بالضم والتشديد) : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين .

(٣) في روح المعاني : « أفيق بفاء وقاف بوزن أمير ، وهي هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ... » .

(٤) الممصرة من الثياب : التي فيها صفرة خفيفة .

منكم " ؟ قلت : تخبرني ؛ قال : فأمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فهذا نص على أنه ينزل مجددا لدين النبي صلى الله عليه وسلم للذى درس منه ، لا بشرع مبتدأ والتكليف باق ؛ على ما بيناه هنا وفى كتاب التذكرة . وقيل : « وإنه لَعِلْمٌ للسّاعة » أى وإن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى ؛ قاله ابن إسحاق .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وإنه » وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لعلم للساعة ؛ بدليل قوله عليه السلام : "بُعثت أنا والساعةَ كهاتين" وضمّ السبابة والوسطى ؛ خرّجه البخارى ومسلم . وقال الحسن : أوّل أشراطها محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فلاَ تَمْتَرُنَّ بها ﴾ فلا تشكّون فيها ؛ يعنى فى الساعة ، قاله يحيى بن سلام . وقال السُّدّى : فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها فانها كائنة لا محالة . ﴿ واتَّبِعُونِ ﴾ أى فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله . ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى طريق قويم إلى الله ، أى إلى جنّته . وأثبت الياء يعقوب فى قوله « واتبعون » فى الحالين ، وكذلك « وأطيعون » . وأبو عمرو وإسماعيل عن نافع فى الوصل دون الوقف ، وحذف الباقون فى الحالين . ﴿ ولَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى لا تغترّوا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين ؛ فان شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها مما تضمنته من جنة أو نار . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تقدم فى « البقرة »[1] وغيرها

قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخَلْقَ الطير والمائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

هنا الإنجيل. ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ﴾ أى النبوة؛ قاله السدى. ابن عباس : علم ما يؤدى إلى الجميل ويكف عن القبيح . وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيرى والماوردى . ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال مجاهد : من تبديل التوراة . الزجاج : المعنى لأبين لكم فى الإنجيل بعض الذى تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد : و بيّن لهم فى غير الإنجيل ما احتاجوا إليه . وقيل : بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه . ويجوز أن يختلفوا فى أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها . وقيل : إن بنى إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم . ومذهب أبى عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى : « يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ »[1] : وأنشد الأخفش قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها * أو تعتلق بعض النفوس حمامها

والموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض . و يقال للنية : عَلُوق وعَلاقة . قال المفضل البكرى :

وسائلة بثَعْلَبة بن سَيْر[2] * وقد علقت بثعلبة العَلُوقُ

وقال مقاتل : هو كقوله « وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »[3] . يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة ؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ و إذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلها أو ابن إله . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره . ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى عبادة الله صراط مستقيم ، وما سواه معوج لا يؤدّى سالكه إلى الحق .

قوله تعالى : فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

---

(١) آية ٢٨ سورة غافر . (٢) يريد ثعلبة بن سيار . (٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ قال قتادة : يعني ما بينهم ، وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضا ؛ قاله مجاهد والسدي . الثاني — فرق النصارى من النُّسْطُورِية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا في عيسى ؛ فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ؛ قاله الكلبي ومقاتل ، وقد مضى هذا في سورة « مريم »(1) . ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا وأشركوا ؛ كما في سورة «مريم»(1) . ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي أليم عذابه ؛ ومثله : ليل نائم ؛ أي ينام فيه . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ يريد الأحزاب لا ينتظرون . ﴿ إلا الساعة ﴾ يريد القيامة . ﴿ أن تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفطنون . وقد مضى في غير موضع(2) . وقيل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا الساعة . ويكون « الأحزاب » على هذا ، الذين تحزبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . ويتصل هذا بقوله تعالى : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا »(3) .

قوله تعالى : ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي أعداء ، يعادي بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا . ﴿ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في أُمَيَّة بن خَلَف الجُمَحِيّ وعُقْبة بن أبي مُعَيط ، كانا خليلين ؛ وكان عقبة يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبي معيط ؛ فقال له أمية : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا ولم تَتْفُل في وجهه ؛ ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبي صلى الله عليه وسلم قتله فقتله يوم بَدْرٍ صَبْرًا(4) ، وقُتل أمية في المعركة ؛ وفيهم نزلت هذه الآية . وذكر الثعلبي رضي الله عنه في هذه الآية قال : كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فمات أحد المؤمنين فقال : يا رب ،

(1) راجع ج ١١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ . (2) راجع ج ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(3) آية ٥٨ من هذه السورة . (4) الصبر : نصب الإنسان للقتل .

إن فلانا كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، وكان يأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، ويخبرنى أنى ملاقيك ، يا رب فلا تُضلّه بعدى ، واهده كما هديتنى، وأكرمه كما أكرمتنى ؛ فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما ، فيقول الله تعالى : لِيُثنِ كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول يا رب، إنه كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، ويخبرنى أنى ملاقيك ؛ فيقول الله تعالى : نِعم الخليل ونعم الأخ ونعم الصاحب كان . قال : ويموت أحد الكافرَيْن فيقول : يا رب ، إن فلانا كان ينهانى عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك يا رب ألّا تَهْدِه بعدى ، وأن تضله كما أضللتنى ، وأن تهينه كما أهنتنى؛ فإذا مات خليله الكافر قال الله تعالى لهما : ليثن كل واحد منكما على صاحبه ؛ فيقول : يا رب ، إنه كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب ؛ فيقول الله تعالى : بئس الصاحب والأخ والخليل كنت . فيلعن كلّ واحد منهما صاحبه .

قلت : والآية عامة فى كل مؤمن ومتقٍ وكافر ومُضِل .

قوله تعالى : يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى منادٍ فى العَرَصات "يا عِبادِى لا خوف عليكم اليوم" ، فيرفع أهل العَرْصة رءوسهم ؛ فيقول المنادى : « الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » فينكّس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين . وذكر المحاسبى فى الرعاية : وقد روى فى هذا الحديث أن المنادى ينادى يوم القيامة : «يا عِبادِى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» فيرفع الخلائق رءوسهم، يقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمِين » فينكّس الكفار رءوسهم ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم . ثم ينادى الثالثة : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكس أهل الكبائر رءوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليّه ولا يُسلمه عند الهلكة . وقرئ « يا عباد » .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾

قال الزجاج : « الذين» نصب على النعت لـ « عبادى » لأن «عبادى» منادى مضاف . وقيـل : « الذين آمنوا » [خبر لمبتدإ محذوف أو(١)] ابتداء وخبره محذوف ؛ تقديره هم الذين آمنوا ، أو الذين آمنوا يقال لهم « ادخلوا الجنة » . وقرأ أبو بكر وزِرّ بن حُبيش « يا عِبادِىَ » بفتح اليـاء و إثباتها فى الحـالين ، ولذلك أثبتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس ساكنة فى الحالين . وحذفها الباقون فى الحالين ؛ لأنها وقعت مثبتة فى مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى يقال لهم ادخلوا الجنة ، أو يا عبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة . ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المسلمات فى الدنيا . وقيـل : قرناؤكم من المؤمنين . وقيـل : زوجاتكم من الحُـور العين . ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ تكرمون ؛ قاله ابن عباس ؛ والكرامة فى المنزلة . الحسن : تفرحون ، والفرح فى القلب . قتادة : تنعمون ، والنعيم فى البدن . مجاهد : تسرّون ، والسرور فى العين . ابن أبى نجيح : تعجبون ، والعجب هاهنا درك ما يستطرف . يحيى بن أبى كثير : هو التلذذ بالسماع . وقد مضى هذا فى « الروم(٢) » .

قوله تعـالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى لهـم فى الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم فى صحاف من ذهب وأكواب . ولم يذكر الأطعمة والأشربة ؛ لأنه يعـلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شىء . وذكر الذهب فى الصحاف واستغنى به عن الإعادة فى الأكواب ؛ كقوله تعـالى :

(١) زيادة لا يستقيم المعنى إلا بها . (٢) راجع جـ ١٤ ص ١٢

« والذَّاكِرِين اللهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ »(١) . وفى الصحيحين عن حُذيفة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تلبسوا الحرير ولا الدِّيباج ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها(٢) فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة". وقد مضى فى سورة « الحج »(٣) أن من أكل فيهما فى الدنيا أو لبس الحرير فى الدنيا ولم يتب حُرِم ذلك فى الآخرة تحريما مؤبدا . والله أعلم . وقال المفسرون : يطوف على أدناهم فى الجنة منزلةً سبعون ألف غلام بسبعين ألف صحفة من ذهب، يُغْدَى عليه بها ؛ فى كل واحدة منها لون ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضا ، ويراح عليه بمثلها . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام، مع كل غلام صحفة من ذهب ، فيها لون من الطعام ليس فى صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها، لا يشبه بعضه بعضا. ﴿وأكْوَابٍ﴾ أى ويطاف عليهم بأكواب ؛ كما قال تعالى : « ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضةٍ وأكوابٍ »(٤) . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن رجل عن أبى قِلابة قال : يُؤْتَوْن بالطعام والشراب ، فإذا كان فى آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتَضْمُر لذلك بطونهم ، ويفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك ؛ ثم قرأ « شرابا طهورا » . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يَتْفُلُون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخطون] قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جُشاء ورَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التسبيحَ والتحميد والتكبير — فى رواية — كما يلهمون النَّفَس" .

الثانيــة — روى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يُجَرْجِر فى بطنه نار جهنم" وقال : "لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها" وهذا يقتضى التحريم، ولا خلاف فى ذلك .

(١) آية ٣٥ سورة الأحزاب . راجع جـ ١٤ ص ١٨٥ (٢) قوله « فى صحافها » على حدّ قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ... . فالضمير » عائد على الفضة ، و يلزم حكم الذهب بطريق الأولى .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٩ (٤) آية ١٥ سورة الإنسان .

واختلف النـاس فى استعمالها فى غير ذلك . قال آبن العـربى : والصحيح أنه لا يجوز الرجال استعمالها فى شيء ؛ لقول النبي صلى الله عليـه وسلم فى الذهب والحرير : "هذان حرام لذكور أمتى حلّ لإناثها" . والنهى عن الأكل والشرب فيهـا يدل على تحريم استعمالها؛ لأنه نوع من المتاع فلم يجز . أصله الأكل والشرب، ولأن العلة فى ذلك استعجال أمر[1] الآخرة، وذلك يستوى فيـه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : "هى لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة" فلم يجعل لنا فيها حظا فى الدنيا .

الثالثـة — إذا كان الإناء مُضَبَّبا بهما أو فيه حَلْقة منهما، فقال مالك : لا يعجبنى أن يُشرب فيه، وكذلك المرآة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبنى أن ينظر فيها وجهه . وقد كان عند أنس إناء مضبّب بفضة وقال : لقد سقيت فيه النبي صلى الله عليـه وسلم . قال آبن سيرين : كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة ؛ فقال أبو طلحة : لا أغير شيئا ممـا صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتركه .

الرابعـة — إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناؤها ؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطُّنبور[2] . وفى كتب علمائنا أنه يلزم الغُرْم فى قيمتها لمن كسرها ، وهو معنى فاسد ، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها . ولا يجوز تقويمها فى الزكاة بحال . وغير هذا لا يلتفت إليه.

قوله تعـالى : ﴿ بِصِحَافٍ ﴾ قال الجوهرى : الصحفة كالقَصْعة والجمـع صِحاف . قال الكسائى : أعظم القصاع الجَفْنة ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة ، ثم المِئْكلة تشـبع الرجلين والثـلاثة ، ثم الصُّحَيفة تُشبع الرجل . والصحيفة الكتاب والجمـع صحف وصحائف .

قوله تعالى : ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ قال الجوهرى : الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب . قال الأعشى يصف الخمر :

---

(١) فى آبن العربى : « أجر » .

(٢) الطنبور : من آلات الطرب ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس ؛ معرّب .

صَرِيفِيَّــةٌ طَيِّبٌ طَعْمُهَــا * لهَــا زَبَدٌ بينَ كُوبٍ ودَنّ[١]

وقال آخَـــر[٢] :

مُتَّكِئاً تَصْـفِقُ أبوابُهُ * يسعى عليه العَبْدُ بالكُوب

وقال قتادة : الكُوب المدوّر القصير العنق القصير العروة . والإبريق المستطيـل العنق الطويل العروة . وقال الأخفش : الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها . وقال قُطْرُب : هي الأباريق التي ليست لها عُرًى . وقال مجاهد : إنها الآنية المدوّرة الأفواه . السُّــدّي : هي التي لا آذان لها . ابن عَزيز: «أكواب» أباريق لا عُرَى لها ولاخراطيم؛ واحدها كوب .

قلت : وهو معنى قول مجاهد والسُّدّي ، وهو مذهب أهل اللغة أنها التي لا آذان لهــا ولا عُرًى .

قوله تعــالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ روى الترمذيّ عن سليمان بن بُريدة عن أبيه أن رجلا سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هل في الجنــة من خيل ؟ قال : " إن اللهُ أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك [في الجنة[٣]] حيث شئت" . قال : وسأله رجل فقال يا رسول الله، هل في الجنــة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه قال : " إنْ يُدخلك الله الجنــة يكن لك فيهــا ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك" . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام «وفيها ماتشتهيه الأنفس » ، الباقون « تشتهي الأنفس » أي تشتهيه الأنفس؛ تقول : الذي ضربت زيد؛ أي الذي ضربته زيد . ﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ تقــول : لَذّ الشيءُ يَــلَذّ لذاذا ، ولذاذة . ولَذِذت بالشيء ألَذّ (بالكسر في المــاضي والفتح في المستقبل) لذاذا ولذاذة ؛ أي وجدته لذيــذا . والتذذت به وتلذذت به بمعنًى ، أي في الجنــة ما تستلذه العين فكان حَسَن المَنْظَر . وقال سعيد بن جبير : «وتلذ الأعين» النظر إلى الله عز وجل؛ كما في الخبر : " أسألك لذة النظر إلى وجهك " . ﴿ وأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ باقون دائمون ؛ لأنها لو انقطعت لتبغضت .

(١) الصريفية : الخمر المنسوبة الى صريفون ، وهي قرية عند عكبراء ، أو لأنها أخذت من الدنّ ساعتئذ كاللبن الصريف (الحليب الحار ساعة يصرف من الضرع) . (٢) هو عدي بن زيد . (٣) زيادة عن سنن الترمذي .

قوله تعـالى : وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ أى يقال لهم هــذه تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا . وقال ابن خالَوَيْه : أشار تعالى إلى الجنة بتلك و إلى جهنم بهذه ؛ ليخوّف بجهنم و يؤكد التحذير منها . وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التى ينظر إليها . ﴿ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارا ؛ فالكافر يرث نار المسلم، والمسلم يرث جنة الكافر ؛ وقد تقدم هذا مرفوعا فى « قد أفلح المؤمنون »(١) من حديث أبى هريرة، وفى « الأعراف »(٢) أيضا .

قوله تعـالى : لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

الفاكهة معروفة ، وأجناسها الفواكه ، والفاكِهانىّ الذى يبيعها . وقال ابن عباس : هى الثمـار كلها ، رطبها ويابسها ؛ أى لهــم فى الجنة ســوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لمـا ذكر أحوال أهل الجنــة ذكر أحوال أهل النار أيضا ليبين فضل المطيع على العاصى . ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أى لايخفف عنهم ذلك العــذاب . ﴿ وَهُمْ فِيــهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى آيسون من الرحمــة . وقيل : ساكتون سكوت يأس ؛ وقــد مضى فى « الأنعام »(٣) . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أنفسهم بالشرك . ويجوز «ولكن كانوا هم الظالمون» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبر كان .

قوله تعـالى : وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨ (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يا مالِكُ ﴾ وهو خازن جهنم ، خلقه لغضبه ؛ إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضا . وقرأ عليّ وابن مسعود رضى الله عنهما « ونادوا يا مالِ » وذلك خلاف المصحف . وقال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « ونادوا يا مال » باللام خاصة ؛ يعنى رخم الاسم وحذف الكاف . والترخيم الحذف ، ومنه ترخيم الاسم فى النداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول فى مالك : يا مال ، وفى حارث : يا حار، وفى فاطمة : يا فاطم، وفى عائشة : يا عائش، وفى مروان : يا مرو ، وهكذا . قال :

يا حار لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية * لم يَلْقَها سُوقَةٌ قبلى ولا مَلِكُ (١)

وقال آمرؤ القيس :

أحار ترى بَرْقًا أُرِيك وَمِيضه * كلمع اليدين فى حَبِيّ مُكَلَّلِ (٢)

وقال أيضا :

أفاطِم مَهْلًا بعضَ هذا التدلُّلِ * وإن كنت قد أزمعتِ صُرْمِى فأجْمِلِ (٣)

وقال آخر (٤) :

يا مَرْوَ إن مَطِيَّتِى محبوسةٌ * ترجو الحِباء وربُّها لم ييأس

وفى صحيح الحديث "أى فل ، هَلُمّ" . ولك فى آخر الاسم المرخّم وجهان : أحدهما — أن تبقيه على ما كان عليه قبل الحذف . والآخر — أن تبنيه على الضم ؛ مثل : يا زيد ؛ كأنك أنزلته منزلته ولم تراع المحذوف . وذكر أبو بكر الأنبارى قال : حدّثنا محمد بن يحيي المْروزىّ قال حدّثنا محمد — وهو ابن سعدان — قال حدّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى ، وهو من قصيدة يخاطب بها الحارث بن ورقاء الصيداوى وكان أغار على بنى عبدالله ابن غطفان فغنم وأخذ ابل زهير وراعيه يسارا ، فطالبهم بذلك ليردوا عليه ما أخذوه وتوعدهم بالهجاء ... الخ ، راجع شرح ديوان زهير ص ١٦٤ المطبوع بدار الكتب المصرية . (٢) يروى « أصاح » . والحبى : السحاب المعترض بالأفق . والمكلل . المتراكب . (٣) فاطمة هى ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر . والصرم (بالضم) : القطيعة . (٤) هو الفرزدق يخاطب مروان بن الحكم وكان واليا على المدينة فوفد عليه مادحاله ، فأبطأ عليه جائزته ... والحباء (بكسر الحاء المهملة) : العطاء . وجعل الرجاء للناقة وهو يريد نفسه مجازا . (شرح الشواهد للشنتمرى) .

عيينة عن مجاهـد قال : كنا لا ندرى ما الزخرف حتى وجدناه فى قـراءة عبد الله « بيت من ذهب »(١) ، وكنا لا ندرى « ونادوا يا مالك » أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه فى قراءة عبد الله « ونادوا يا مالِ » على الترخيم . قال أبو بكر : لا يعمل على هـذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله فى الرواية عن الرسول عليه السلام، و كتاب الله أحق بأن يحتاط له وينفى عنه الباطل .

قلت : وفى صحيح البخارى عن صَفْوان بن يَعْلَى عن أبيه قال سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر «ونادَوْا يامالكُ لِيَقْضِ علينا ربك» بإثبات الكاف . وقال محمد بن كعب القُرَظى : بلغنى — أوذكر لى — أن أهل النار استغاثوا بالخَزَنة فقال الله تعالى : « وَقَالَ الّذين فِى النَّارِ لِخزَنةِ جهنم ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِن العذابِ»(٢) فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيـه العذاب، فردّتْ عليهـم « أوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلَّا فِى ضَلَالٍ » قال : فلما يَئسوا مما عند الخزنة نادَوْا مالكًا، وهو عليهم وله مجلس فى وسطها، وجسور تمر عليها ملائكة العذاب، فهـو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا : « يامالك ليقض علينا رَبُّك » قال : سألوا الموت ، قال : فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانين سنة ،قال: والسنة ستون وثلثمائة يوم ،والشهر ثلاثون يوما ،واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعـد الثمانين فقال : « إنكم ماكثون » وذكر الحديث ، ذكره ابن المبـارك . وفى حديث أبى الدَّرْداء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيقولون اُدعوا مالكا فيقولون يامالك لِيَقْضِ علينا رَبُّك قال إنكم ماكثون" . قال الأعمش : نُبِّئْت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام ، خرّجه الترمذى . وقال ابن عباس : يقولون ذلك فلا يجيبهم ألف سنة، ثم يقول إنكم ماكثون . وقال مجاهد ونَوْف البِكَالِىّ : بين ندائهم و إجابته إياهم مائة سنة . وقال عبد الله بن عمرو : أربعون سنة، ذكره ابن المبارك .

---

(١) فى قوله تعالى : « أو يكون لك بيت من زخرف » آية ٩٣ سورة الإسراء . راجع جـ ١٠ ص ٣٣١

(٢) آية ٤٩ سورة غافر .

قوله تعالى : لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾

يحتمل أن يكون هذا من قول مالك لهم؛ أى إنكم ما كثون فى النار لأنا جئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا . ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم؛ أى بيّنا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم الرسل . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : « ولكن أكثركم » أى ولكن كلكم . وقيل : أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم، وأما الأتباع فما كان لهم أثر . ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ أى للإسلام ودين الله ﴿ كَارِهُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فى دار النَّدْوَة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجلٌ ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه؛ فنزلت هـذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر . «أَبْرَمُوا» أحكموا . والإبرام الإحكام . أبرمت الشيء أحكمته . وأبرم الفتال إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثانى، والأول سَحِيل؛ كما قال :

* ... ... من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ (١) *

فالمعنى أم أحكموا كيدًا فإنا محكمون لهم كَيْدًا؛ قاله ابن زيد ومجاهد . قتادة : أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث . الكلبى : أم قضَوْا أمرًا فإنا قاضون عليهم بالعذاب . وأم بمعنى بل . وقيل : « أَمْ أَبْرَمُوا » عطف على قوله «أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٢)» . وقيل : أى ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا ، أم سمعوا فأعرضوا لأنهم فى أنفسهم أبرموا أمرا آمنوا به العقاب .

قوله تعالى : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

(١) هذا عجز بيت لزهير بن أبى سلمى . والبيت كما فى ديوانه :

يمينا لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

والسحيل، الغزل الذى لم يبرم . (٢) آية ٤٥ من هذه السورة .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ أى ما يسرّونه فى أنفسهم و يتناجَوْن به بينهـم . ﴿ بَلَى ﴾ نسمع ونعلم . ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى الحفظة عندهم يكتبون عليهم . و روى أن هذا نزل فى ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ وقال الثانى : إذا جَهَـرتم سمع ، و إذا أسررتم لم يسمع . وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظى . وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود فى سورة « فُصِّلَتْ »(١) .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُـلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ اختلف فى معنـاه؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّى : المعنى ما كان للرحمن ولد؛ فـ« إن » بمعنى ما ، و يكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدئ «فأنا أوّل العابدين» أى الموحِّدين من أهل مكة على أنه لا ولد له . والوقف على « العابدين » تام . وقيل : المعنى قل يامحمد إن ثبت لله ولد فأنا أوّل من يعبد ولدَه ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ؛ وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلتَ بالدليل فأنا أوّل من يعتقده ؛ وهذا مبالغة فى الاستبعاد ؛ أى لاسبيل إلى اعتقاده . وهذا ترقيق فى الكلام ؛ كقوله : « وإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »(٢) . والمعنى على هذا : فأنا أوّل العابدين لذلك الولد ، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد . وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل من عبده وحده ، على أنه لا ولد له . وقال السُّدِّى أيضا : المعنى لو كان له ولد كنت أوّل من عبده ، على أن له ولدا ولكن لا ينبغى ذلك . قال المَهْدَوِى : فـ« إن » على هذه الأقوال للشرط ، وهو الأجود ، وهو اختيار الطبرى ؛ لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى . وقيل : إن معنى « العابدين » الآنفين . وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العَبِدين .

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥١　　(٢) آية ٢٤ سورة سبأ . راجع جـ ١٤ ص ٢٩٨

وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليمانى « فأنا أول العَبِدين » بغير ألف ، يقال ، عَبِدَ يَعْبَدُ عَبَدًا (بالتحريك) إذا أنِف وغضب فهو عَبِد ، والاسم العَبَدة مثل الأنفة ، عن أبى زيد . قال الفرزدق :

أولئك أجلاسى فجئنى بمثلهم * وأَعْبَدُ أن أهْجُو كُلَيْبًا بدارِم

وينشد أيضا :

أولئك ناس إن هَجَوْنِى هجوتهم * وأَعْبَدُ أن يهجى كُلَيْبٌ بدارم

قال الجوهرى : وقال أبو عمرو وقوله تعالى «فأنا أول العابدين» من الأَنَف والغضب ، وقاله الكسائى والقُتَبِى ، حكاه الماوردى عنهما . وقال الهَرَوِى : وقوله تعالى « فأنا أول العابدين » قيل هو من عَبِد يَعْبَد ، أى من الآنفين . وقال ابن عرفة : إنما يقال عَبِد يَعبَدُ فهو عَبِد ، وقلّما يقال عابد ، والقرآن لا يأتى بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، ولكن المعنى فأنا أول من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لا ولد له . وروى أن آمرأة دخلت على زوجها فولدت منه لستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان رضى الله عنه فأمر برجمها ؛ فقال له علىّ : قال الله تعالى « وَحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا » وقال فى آية أخرى « وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ » فوالله ما عَبِد عثمانُ أن بعث إليها تُرَدّ . قال عبد الله بن وهب : يعنى ما استنكف ولا أنِف . وقال ابن الأعرابى : «فأنا أول العابِدين» أى الغضاب الآنفين . وقيل : «فأنا أول العابدين» أى أنا أول من يعبده على الوحدانية مخالفًا لكم . أبو عبيدة : معناه الجاحدين ؛ وحكى : عَبَدَنى حَقّى أى جحدنى . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « وُلْد » بضم الواو وإسكان اللام . الباقون وعاصم « وَلَد » وقد تقدّم[(١)] . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى تنزيها له وتقديسا . نزّه نفسه عن كل ما يقتضى الحدوث ، وأمر النبىَّ صلى الله عليه وسلم بالتنزيه . ﴿ عما يصفون ﴾ أى عما يقولون من الكذب .

قوله تعالى : فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١٥٥

قوله تعـالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ يعنى كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة . أى اتركهـم يخوضوا فى باطلهـم ويلعبوا فى دنياهـم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ إمّا العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة . وقيل : إن هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو مُحْكَم ، وإنما أخرج مخـرج التهديد . وقـرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد وحُميد وابن القَعْقَاع وابن السَّمَيْقَع « حتى يَلْقَوا » بفتح اليـاء و إسكان اللام من غير ألف ، وفتح القاف هنـا وفى « الطـور »(١) و « المعارج »(٢) . الباقون « يُلَاقُوا » .

قوله تعـالى : وَهُـوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

هذا تكذيب لهم فى أن لله شريكا وولدا ؛ أى هو المستحق للعبادة فى السماء والأرض . وقال عمر رضى الله عنـه وغيره : المعنى وهو الذى فى السماء إله فى الأرض(٣) ، وكذلك قـرأ . والمعنى أنه يعبد فيهما . وروى أنه قـرأ هو وابن مسعود وغيرهما « وهو الذى فِى السماءِ اللهُ وفِى الأرضِ اللهُ » وهذا خلاف المصحف . و « إلٰهٌ » رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ أى وهو الذى فى السماء هو إله ؛ قاله أبو على . وحسن حذفه لطول الكلام . وقيل : « فى » بمعنى على ؛ كقوله تعالى : « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ » أى على جذوع النخل ؛ أى هو القادر على السماء والأرض . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ تقدّم(٤) .

قوله تعـالى : وَتَبَـارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُـلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُـمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّـاعَةِ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ تَبَـارَكَ ﴾ تفاعل من البركة ؛ وقد تقدّم(٥) . ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى وقت قيامها . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى « وإليه يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . وكان ابن مُحَيْصِن وحُميد ويعقوب وابن أبى إسحاق يفتحون أوله على أصولهم . وضم الباقون .

(١) آية ٤٥	(٢) آية ٤٢	(٣) فى بعض نسخ الأصل : « ... فى السماء اله وفى الأرض ... »
(٤) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .	(٥) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣

قوله تعالى : وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

فيــه مسألتــان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ « مَن » فى موضع الخفض . وأراد بـ « الذين يدعون مِن دونِهِ » عيسى وعُزَيْرًا والملائكة . والمعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم و بصيرة ؛ قاله سعيد بن جبير وغيره . قال : وشهادة الحق لا إله إلا الله . وقيل : « من » فى محل رفع ؛ أى ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ؛ يعنى الآلهة — فى قول قتادة — أى لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق ؛ يعنى عُزيرا وعيسى والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله . ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما شهدوا به . وقيل : إنها نزلت بسبب أن النضر بن الحارث وَنَفَرًا من قريش قالوا : إن كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولّى الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه ؛ فأنزل الله « وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلا مَنْ شَهِد بِالحق » أى اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيامة . ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى المؤمنين إذا أذن لهم . قال ابن عباس : « إلا من شهِد بِالحق » أى شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقيل : أى لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق ؛ فإن من شهد بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك . و « إلا » بمعنى لكن ؛ أى لا ينال المشركون الشفاعة لكن ينال الشفاعة من شهد بالحق ؛ فهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلا ؛ لأن فى جملة « الذين يدعون مِن دونِهِ » الملائكة . ويقال : شَفَعْتُه وشَفَعْتُ له ؛ مثل كِلْتُه وكِلْتُ له . وقد مضى فى « البقرة » معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها (١) . وقيل : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحق » إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق فى الدنيا ، مع علمهم بذلك منه بأن يكون الله أخبرهم به ، أو بأن شاهدوه على الإيمان .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على معنيين : أحدهما — أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة . والثاني — أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالما بها . ونحوه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم " إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فَدَعْ " . وقد مضى في « البقرة »(١) .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي لأقروا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له . يقال : أَفَكَه يأْفِكُه أَفْكًا، أي قلبه وصرفه عن الشيء . ومنه قوله تعالى : «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا»(٢) . وقيل : أي ولئن سألت الملائكة وعيسى « من خلقهم» لقالوا الله . « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أي فأنى يُؤفك هؤلاء في ادعائهم إياهم آلهة .

قوله تعالى : وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

في « قِيلِه » ثلاث قراءات : النصب، والجر، والرفع . فأما الجر فهي قراءة عاصم وحمزة . وبقية السبعة بالنصب . وأما الرفع فهي قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُنْدُب . فمن جر حمله على معنى : وعنده علم الساعة وعلم قِيلِه . ومن نصب فعلى معنى : وعنده علم الساعة ويعلم قِيلَه، وهذا اختيار الزجاج . وقال الفراء والأخفش : يجوز أن يكون « قيله » عطفا على قوله « أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ »(٣) . قال ابن الأنباري : سألت أبا العباس محمد ابن يزيد المبرد بأي شيء تنصب القيل؟ فقال : أنصبه على « وعنده علم الساعة ويعلم قيله » . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « تُرْجعون »، ولا على « يعلمون » . ويحسن الوقف على « يكتبون »(٤) . وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القِيل على معنى : لا نسمع سِرَّهم ونجواهم

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٨٩ . (٢) آية ٢٢ سورة الأحقاف . (٣) آية ٨٠ من هذه السورة .
(٤) في آية ٨٠ .

وقِيلَه ؛ كما ذكرنا عنهما . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « يكتبون » . وأجاز الفراء والأخفش أيضا : أن ينصب على المصدر؛ كأنه قال : وقال قِيله ، وشكا شكواه إلى الله عزّ وجلّ ، كما قال كعب بن زُهير :

تمشى الوُشاةُ جَنابَيها[(١)] وقِيلَهُم * إنّك يابنَ أبى سُلْمَى لَمقتُولُ

أراد : ويقولون قيلهم . ومن رفع « قيله » فالتقدير : وعنده قِيلُه ، أو قِيلُه مسموع ، أو قِيلُه هذا القول . الزمخشرىّ : والذى قالوه ليس بقوى فى المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه . والرفع على قولهم : أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ، ويكون قوله « إنّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لا يؤمنون » جواب القسم ؛ كأنه قال : وأقسم بقيله يارب ، أو قيله يارب قسمى ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . وقال ابن الأنبارى : ويجوز فى العربية «وقيله» بالرفع ، على أن ترفعه بإن هؤلاء قوم لا يؤمنون . المَهْدَوِىّ : أو يكون على تقدير وقِيلُه قِيلُه يارب ؛ فحذف قيله الثانى[(٢)] الذى هو خبر ، وموضع « يارب » نصب بالخبر المضمر ، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذف بعض الموصول وبقى بعضه ؛ لأن حذف القول قد كثر حتى صار بمنزلة المذكور . والهاء فى « قِيله » لعيسى ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى ذكره إذ قال « قل إن كان للرحمن وَلَدٌ » . وقرأ أبو قِلابة « يارَبَّ » بفتح الباء . والقيل مصدر كالقول ؛ ومنه الخبر "نهى عن قيل وقال" . ويقال : قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا . وفى النساء « وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا »[(٣)] .

قوله تعالى : فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال قتادة : أمره بالصفح عنهم ثم أمره بقتالهم ؛ فصار الصفح منسوخا بالسيف . ونحوه عن ابن عباس قال : « فاصفح عنهم » أى أعرض عنهم . ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أى معروفا ؛ أى قل لمشركى أهل مكة « فسوف تعلمون » ثم نُسخ هذا فى سورة «براءة» بقوله تعالى : «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم»[(٤)] الآية . وقيل : هى مُحْكَمة لم تنسخ . وقراءة العامة « فسوف

(١) أى ناحيتيها . (٢) فى الأصول : «الأول» . (٣) آية ١٢٢ . (٤) آية ٥ .

يعلمون » (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيّه بالتهديد . وقرأ نافع وابن عامر « تعلمون » (بالتاء) على أنه من خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين بالتهديد . و « سَلَامٌ » رفع بإضمار عليكم؛ قاله الفراء . ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيّة لهم ؛ حكاه النقاش . وروى شعيب بن الحبحاب أنه عرّفه بذلك كيف السلام عليهم؛ والله أعلم .

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق، إلا قوله تعالى : « إِنَّا كاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا »(1) . وهى سبع وخمسون آية . وقيل تسع . وفى مسند الدارمىّ عن أبى رافع قال : " من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفورا له وزوّج من الحور العين " . رفعه الثعلبىّ من حديث أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفورا له " . وفى لفظ آخر عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك " . وعن أبى أمامة قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتا فى الجنة " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾

إن جعلت «حم» جواب القسم تمّ الكلام عند قوله «المبين» ثم تبتدئ « إنّا أنزلناه » . وإن جعلت « إنّا كُنّا مُنْذِرِين » جواب القسم الذى هو « الكتاب » وقفت على «منذرين» وابتدأت «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» . وقيل : الجواب «إنا أنزلناه» ، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به ، ولا تكون صفة المقسم به جوابا للقَسَم ، والهاء فى « أنزلناه »

(1) آية ١٥ .

للقــرآن . ومن قال : أقسم بسائر الكتب فقوله « إنا أنزلناه » كنّى به عن غير القــرآن؛ على ما تقدّم بيانه فى أوّل « الزخرف »(١) . والليلة المباركة ليلة القــدر . ويقال : ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصَّك، وليلة القدر . ووصفها بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب . وروى قتادة عن واثلة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنزلت صحف إبراهيم فى أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لِستّ مَضَيْن من رمضان وأنزلت الزبور لاثنتى عشرة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان". ثم قيل : أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا فى هذه الليلة . ثم أنزل نَجْماً نَجْماً فى سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب . وقيل : كان ينزل فى كل ليلة القدر ما ينزل فى سائر السنة . وقيل كان ابتــداء الإنزال فى هذه الليلة . وقال عكرمة : الليلة المباركة هاهنا ليلة النصف من شعبان . والأوّل أصح لقوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » . قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القــدر من أم الكتاب إلى بيت العِزّة فى سمــاء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فى الليالى والأيام فى ثلاث وعشرين سنة . وهــذا المعنى قد مضى فى « البقرة »(٢) عند قوله تعالى « شَهْرُ رَمَضَانَ الذِى أُنزِلَ فِيهِ القرآن » ، ويأتى آنفا إن شاء الله تعالى .

قوله تعــالى : فِيهَــا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

قال ابن عباس : يُحْكِم اللهُ أمرَ الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق . وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم . وقيل : إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيّران؛ قاله ابن عمر . قال المهدوى : ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون فى ذلك العام ولم يزل ذلك فى علمه عز وجل . وقال عكرمة : هى ليلة النصف من شعبان يُبْرَم فيها أمر السنة ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وروى عثمان بن المغيرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : " تقطع الآجال من شعبان

(١) راجع ص ٦١ من هذا الجزء . (٢) آية ١٨٥ راجع جـ ٢ ص ٢٩٠ طبعة ثانية .

إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج ٱسمه فى الموتى" . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا نهارها فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفر فأغفر له ألا مبتلى فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر" ذكره الثعلبى . وخرج الترمذى بمعناه عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كَلْب". وفى الباب عن أبى بكر الصديق قال أبو عيسى : حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحجاج بن أرْطاه عن يحيي بن أبى كثير عن عروة عن عائشة، وسمعت محمدا يضعف هذا الحديث، وقال : يحيي بن أبى كثير لم يَسمع من عروة والحجاج بن أرطاه لم يَسمع من يحيي بن أبى كثير .

قلت : وقد ذكر حديثَ عائشة مطولا صاحب كتاب العروس ، واختار أن الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان، وأنها تسمى ليلة البراءة . وقد ذكرنا قوله والرد عليه فى غير هذا الموضع، وأن الصحيح إنما هى ليلة القدر على ما بيناه . روى حماد ٱبن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كُلْثوم قال : سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا أبا سعيد، أرأيت ليلة القدر أفى كل رمضان هى؟ قال : أىْ والذى لا إله إلا هو، إنها فى كل رمضان، إنها الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضى الله كلّ خلق وأجل ورزق وعمل إلى مثلها . وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج، يقال : يحج فلان ويحج فلان . وقال فى هذه الآية : إنك لترى الرجل يمشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى، وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هى للملائكة الموكلين بأسباب الخلق . وقد ذكرنا هذا المعنى آنفا . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان؛ وهو باطل لأن الله تعالى قال فى كتابه الصادق القاطع : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » فنص على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عين من زمانه الليل ها هنا بقوله « فى ليلة مباركة » ؛

فمن زعم أنه فى غيره فقد أعظم الفِرْية على الله، وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث يعوّل عليه لا فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها . الزمخشرىّ : «وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر؛ فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف؛ ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم؛ ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله؛ فيلقى على ألسنة الخلق مدحه، وعلى قلوبهم هيبته . وقرئ « نفرّق » بالتشديد، و « يَفْرق » كلٌّ على بنائه للفاعل ونصب « كل»؛ والفارق الله عز وجل . وقرأ زيد بن علىّ رضى الله عنه « نفرق » بالنون . ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ كلّ شأن ذى حكمة؛ أى مفعول على ما تقتضيه الحكمة » .

قوله تعالى : أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ قال النقاش : الأمر هو القرآن أنزله الله من عنده . وقال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده . وهو مصدر فى موضع الحال . وكذلك ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهما عند الأخفش حالان؛ تقديرهما : أنزلناه آمرين به وراحمين . المبرد : « أمرا » فى موضع المصدر؛ والتقدير : أنزلناه إنزالا . الفرّاء والزجاج : « أمرا » نصب بـ « يُفْرَق »؛ مثل قولك : يفرق فرقا . فأمْر بمعنى فرق فهو مصدر؛ مثل قولك : يضرب ضربا . وقيل : « يفرق » يدلّ على يؤمر؛ فهو مصدر عمل فيه ما قبله . ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال الفرّاء : « رحمة » مفعول بـ« مرسلين » . والرحمة النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال الزجاج : « رحمة » مفعول من أجله؛ أى أرسلناه للرحمة . وقيل : هى بدل من قوله « أمرا » . وقيل : هى مصدر . الزمخشرىّ : « أمرا » نصب على الاختصاص؛ جعل كلّ أمر جزلا فخْمًا بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وكسبه

فخامة بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لَدُنَّا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا . وفى قراءة زيد بن علىّ « أمْرٌ من عنـدنا » على هو أمر ، وهى تنصر انتصابه على الاختصاص . وقرأ الحسن « رحمةٌ » على تلك هى رحمة ، وهى تنصر انتصابها بأنه مفعول له .

قوله تعالى : رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قرأ الكوفيون « رَبِّ » بالجر . الباقون بالرفع ، ردّا على قوله « إنه هو السميع العليم » . وإن شئت على الابتداء ، والخبر لا إله إلا هو . أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ تقديره : هو رب السموات والأرض . والجر على البدل من « رَبِّك » وكذلك « ربِّكم وربِّ آبائكم الأولين » بالجر فيهما ؛ رواه الشَّيْزَرِىّ [1] عن الكسائى . الباقون بالرفع على الاستئناف . ثم يحتمل أن يكون هـذا الخطاب مع المعترف بأن الله خلق السموات والأرض ؛ أى إن كنتم موقنين به فاعلموا أن له أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب . ويجوز أن يكون الخطاب مع من لا يعترف أنه الخالق ؛ أى ينبغى أن يعرفوا أنه الخالق ، وأنه الذى يحيى ويميت . وقيل : الموقن ها هنا هو الذى يريد اليقين ويطلبه ؛ كما تقول : فلان يُنْجِد ؛ أى يريد نجدا . ويُتْهِم ؛ أى يريد تِهامة . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى هو خالق العالم ؛ فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شىء . و « هو يحيي ويميت » أى يحيى الأموات ويميت الأحياء . ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مالككم ومالك من تقدم منكم . واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ أى ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار فى قولهم : إن الله خالقهم ؛ وإنما

(١) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازى ، كان حجازيا ثم انتقل الى شيزر (كحيدر ، بلدة قرب حماة) وأقام بها الى أن مات فنسب اليها ، أخذ القراءة عرضا وسماعا من الكسائى ، وله عنه انفرادات . (غاية النهاية) .

يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم فهم فى شك . و إن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون فى دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة . وقيل : « يلعبون » يضيفون إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم الافتراء استهزاء . و يقال لمن أعرض عن المواعظ : لاعب ؛ وهوكالصبي الذى يلعب فيفعل ما لا يدرى عاقبته .

قوله تعالى : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين؛ قاله قتادة . وقيل : معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتى السماء بدخان مبين ؛ ولذلك سُمِّى الحافظ رقيبا . وفى الدُّخَان أقوال ثلاثة : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجئ بعدُ ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوما يملأ ما بين السماء والأرض ؛ فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم؛ وهو من آثار جهنم يوم القيامة . وممن قال إن الدخان لم يأت بعدُ : علىّ وآبن عباس وآبن عمر وأبو هريرة وزيد بن علىّ والحسن وآبن أبى مليكة وغيرهم . وروى أبو سعيد الخُدْرِىّ مرفوعا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة ؛ يأخذ المؤمن منه ؛ كالزَّكْمَة . وينفخ الكافرَ حتى يخرج من كل مسمع منه؛ ذكره الماوردى . وفى صحيح مسلم عن أبى الطُّفَيل عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفَارِىّ قال : آطّلع النبىّ صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال : " ما تذكرون " ؟ قالوا : نذكر الساعة ؛ قال : " إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشر آيات — فذكر — الدخانَ والدَّجالَ والدابةَ وطلوعَ الشمس من مغربها ونزولَ عيسى بن مريم وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ وثلاثةَ خُسُوف خَسْفٌ بالمَشْرِق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرة العرب وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمن تَطْرُد الناس إلى مَحْشرهم " . فى رواية عن حُذيفة "إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خَسْفٌ بالمشرق وخسفٌ بالمغرب وخسف فى جزيرة العرب والدُّخانُ والدّجالُ

ودابّةُ الأرض و يأجوجُ ومأجوجُ وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّلُ الناس". وخرجه الثعلبيّ أيضا عن حُذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوّل الآيات خروجًا الدجالُ ونزولُ عيسى بن مريم ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن أَبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتَقِيل معهم إذا قالوا وتصبح معهم إذا أصبحوا وتُمْسي معهم إذا أمسوا". قلت: يا نبيّ الله، وما الدخان؟ قال هذه الآية: " «فَٱرْتَقِبْ يومَ تأتى السماءُ بدُخانٍ مُبِينٍ» يمــلأ ما بيــن المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليــلة أما المؤمن فيصيبه منه شــبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره". فهذا قول. القول الثاني — أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا؛ قاله ابن مسعود. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم. والحديث عنه بهذا في صحيح البخاريّ ومسلم والترمذيّ. قال البخاريّ: حدثني يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مَسْرُوق قال قال عبد الله: إنما كان هــذا لأن قريشا لمــا استعصت على النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسِنِي يوسف، فأصابهم قَحْــطٌ وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينــه و بينها كهيئة الدخان من الجهد؛ فأنزل الله تعــالى: «فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخَانٍ مبِينٍ. يَغْشَى النَّــاسَ هَــذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». قال: فأُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمُضَرَ فإنها قد هلكت. قال: "لمُضَرَ! إنك لجريء". فاستسق فسُقُوا؛ فنزلت: «إِنَّكُمْ عائِدُونَ». فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية؛ فأنزل الله عز وجل «يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ». قال: يعني يوم بدر. قال أبو عبيدة: والدُّخَان الجَدْب. القُتَبيّ: سُمِّيَ دخانا ليبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان. القول الثالث — إنه يوم فتح مكة لمــا حجبت السماءَ الغبرة؛ قاله عبــد الرحمن الأعرج. ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ في موضع الصفة للدخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود فهو خاص بالمشركين مــن أهل مكة. و إن كان من

أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم . ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى يقول الله لهم : « هـذا عذاب أليم » . فمن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : « هـذا عذاب أليم » حكاية حال ماضية، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية . وقيل : « هذا » بمعنى ذلك . وقيل : أى يقول الناس لذلك الدخان : « هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وقيل : هو إخبار عن دنو الأمر ؛ كما تقول : هذا الشتاء فأعدّ له .

قوله تعالى : رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أى يقولون ذلك ؛ اكشف عنا العذاب فـ « إنا مؤمنون » ؛ أى نؤمن بك إن كشفته عنا . قيل : إن قريشا أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هـذا القول . قال قتادة : « العذاب » هنا الدخان . وقيل : الجوع ؛ حكاه النقاش .

قلت : ولا تناقض ؛ فإن الدخان لم يكن إلا من الجوع الذى أصابهم ؛ على ما تقدم . وقد يقال للجوع والقحط : الدخان ؛ ليبس الأرض فى سنة الجَدْب وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار ، ولهذا يقال لسَنة الجَدْب : الغبراء . وقيل : إن العذاب هنا الثلج . قال الماورديّ وهذا لا وجه له ؛ لأن هذا إنما يكون فى الآخرة أو فى أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الثلج ؛ غير أنه مقول فحكيناه .

قوله تعالى : أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى من أين يكون لهم التذكّر والاتعاظ عند حلول العذاب . ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ يبيّن لهم الحق ، والذِّكرى والذِّكر واحد ؛ قاله البخاريّ . ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتّعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعـد تولّيهم عن محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم إيّاه . وقيل : أى أنّى ينفعهم

قولهم : « إنا مؤمنون » بعد ظهور العذاب غدًا أو بعد ظهور أعلام الساعة ، فقد صارت المعارف ضرورية . وهذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة . ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أى علّمه بَشَرٌ أو علمه الكَهَنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

قوله تعالى : إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ أى وقتا قليلا ، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ؛ أى فى زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ؛ قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه . ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . ومن قال هذا فى القيامة قال : أى لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر . وقيل : معنى ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إلينا ؛ أى مبعوثون بعد الموت . وقيل : المعنى « إنكم عائدون » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

قوله تعالى : يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿ يَوْمَ ﴾ محمول على ما دلّ عليه ﴿ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ؛ أى ننتقم منهم يوم نَبْطِش . وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد « إنّ » لا يفسر ما قبلها . وقيل : إن العامل فيه « منتقمون » . وهو بعيد أيضا ؛ لأن ما بعد « إن » لا يعمل فيما قبلها . ولا يحسن تعلّقه بقوله : « عائدون » ولا بقوله : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ » ؛ إذ ليس المعنى عليه . ويجوز نصبه بإضمار فعل ؛ كأنه قال : ذكّرهم أو اذكر . ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون ، فإذا عدتم أنتقم منكم يوم نبطش البطشة الكبرى . ولهذا وصل هذا بقصة فرعون ، فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب ، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا . وقيل : « إنّا كاشِفو العذابِ قليلا إنكم عائدون » كلام تام . ثم ابتدأ « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » أى ننتقم من جميع الكفار . وقيل : المعنى وارتقب الدخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش ، فحذف واو العطف ؛

كما تقول : آتق النار اتق العذاب . و ﴿ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ فى قول ابن مسعود : يوم بدر . وهو قول ابن عباس وأُبَيّ بن كعب ومجاهد والضّحاك . وقيل : عذاب جهنم يوم القيامة ؛ قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضا ، واختاره الزجاج . وقيل : دخان يقع فى الدنيا ، أو جوع أو قَحْط يقع قبل يوم القيامة . الماوردِيّ : ويحتمل أنها قيام الساعة ؛ لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا . و يقال : انتقم الله منه ؛ أى عاقبه . والاسم منه النّقمة والجمع النَّقِمات[1] . وقيل بالفرق بين النّقمة والعقوبة ؛ فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة . والنقمة قد تكون قبلها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : العقوبة ما تقدّرت والانتقام غير مقدّر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

أى آبتليناهم . ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة . والمعنى : عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم فكذبوا فأهلكوا ؛ فهكذا أفعل بأعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا . وقيل : فتنّاهم عذبناهم بالغرق . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : ولقد جاء آلَ فرعون رسول كريم وفتنّاهم ، أى أغرقناهم ؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل . والواو لا ترتّب . ومعنى ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى كريم فى قومه . وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح . وقال الفرّاء : كريم على ربّه إذ اختصه بالنبوّة و إسماع الكلام .

قوله تعالى : أَنْ أَدُّوٓا إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَىَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : المعنى جاءهم فقال اتبعونى . فـ « عِبادَ الله » منادى . وقال مجاهد : المعنى أرسلوا معى عباد الله وأطلقوهم من العذاب . فـ « عِبادَ الله » على هذا مفعول . وقيل : المعنى أدُّوا إلىّ سمعكم حتى أبلغكم رسالةَ ربى . ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى أمين على الوحى فآقبلوا نصحى . وقيل : أمين على ما أستأديه

(١) فى كتب اللغة : « النقمة بالكسر والفتح وكفرحة جمع نقم ككلم وعنب وكلمات » .

منكم فلا أخون فيه . ﴿ وأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لا تتكبّروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته . وقال قتادة : لا تبغوا على الله . ٱبن عباس : لا تفتروا على الله . والفرق بين البغى والافتراء أن البغى بالفعل والافتراء بالقول . وقال ابن جُريج : لا تَعْظُمُوا على الله . يحيى بن سلام : لا تستكبروا على عبادة الله . والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاولُ المقتدر، والاستكبارَ ترفعُ المحتقر؛ ذكره الماوردى . ﴿ إِنِّى آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قال قتادة : بعذر بيّن . وقال يحيى بن سلام : بحجة بيّنة . والمعنى واحد؛ أى برهان بيّن .

قوله تعالى : وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾

كأنهم توعّدوه بالقتل فٱستجار بالله . قال قتادة : « تَرْجُمُونِ » بالحجارة . وقال ٱبن عباس : تشتمونِ؛ فتقولوا ساحر كذاب . وأظهر الذال من « عُذْتُ » نافع وٱبن كثير وٱبن عامر وعاصم ويعقوب . وأدغم الباقون . والإدغام طلبا للتخفيف، والإظهار على الأصل . ثم قيل : إنى عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال : « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا »(١) . وقيل : إنى أعوذ؛ كما تقول : نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله؛ أى أقسم .

قوله تعالى : وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِى﴾ أى إن لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لأجل برهانى؛ فاللام فى « لى » لام أجل . وقيل : أى وإن لم تؤمنوا بى؛ كقوله : « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ »(٢) أى به . ﴿ فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ أى دعونى كَفافًا(٣) لا لِىَ ولا عَلَىَّ؛ قاله مقاتل . وقيل : أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا . وقيل : خلّوا سبيلى وكُفُّوا عن أذاى . والمعنى متقارب، والله أعلم .

قوله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) آية ٣٥ سورة القصص . (٢) آية ٢٦ سورة العنكبوت . (٣) أى مكفوفا عنى شركم .

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ فيه حذف ؛ أى فكفروا فدعا ربه . ﴿ أَنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ بفتح « أنّ » أى بأن هؤلاء . ﴿ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أى مشركون، قد امتنعوا من إطلاق بنى إسرائيل ومن الإيمان .

قوله تعالى : فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادى؛ أى بمن آمن بالله من بنى إسرائيل . ﴿ لَيْلًا ﴾ أى قبل الصباح . ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ وقرأ أهل الحجاز « فآسر » بوصل الألف . وكذلك ٱبن كثير؛ من سرى . الباقون « فأسر » بالقطع؛ من أسرى . وقد تقدّم[(١)] . وتقدّم خروج فرعون وراء موسى فى « البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس[(٢)] » وإغراقه وإنجاء موسى؛ فلا معنى للإعادة .

الثانيـة — أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلا . وسَيْرُ الليل فى الغالب إنما يكون عن خَوْف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدوّ فيتخذ الليل سِترا مُسْدِلًا ؛ فهو من أستار الله تعالى . وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرّ أو جَدْب ؛ فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك . وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يَسْرِى ويُدْلِج[(٣)] ويترفّق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة . وفى الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطُوا الإبل حَظّها من الأرض وإذا سافرتم فى السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها[(٤)]" . وقد مضى فى أول « النحل[(٥)] » ؛ والحمد لله .

قوله تعالى : وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٩ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها . وجـ ٨ ص ٣٧٧ وما بعدها . وجـ ١١ ص ٢٢٧ وما بعدها . وجـ ١٣ ص ١٠٥ وما بعدها . (٣) قوله : « يسرى » أى يسير عامة الليل . و « يدلج » أى سار من أول الليل . وربما استعمل لسير آخر الليل . (٤) قوله : « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنقى (بكسر النون وسكون القاف) هو المخ ؛ ومعناه أسرعوا فى السير الإبل لتصلوا الى المقصد وفيها بقية من قوتها . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٧٣

قال ابن عباس : ﴿ رَهْوًا ﴾ أي طريقا . وقاله كعب والحسن . وعن ابن عباس أيضا سمتا . الضحاك والربيع : سهلا . عكرمة : يَبَسًا ؛ لقوله : « فَٱضْرِبْ لهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا » . وقيل : مفترقا . مجاهد : منفرجا . وعنه يابسا . وعنه ساكنا ؛ وهو المعروف في اللغة . وقاله قتادة والهَرَوِيّ . وقال غيرهما : منفرجا . وقال ابن عرفة : وهما يرجعان إلى معنًى واحد وإن اختلف لفظاهما ؛ لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج . وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام . والرَّهْوُ عند العرب : الساكن؛ يقال : جاءت الخيل رَهْوًا؛ أي ساكنة . قال :

والخيل تَمْزَعُ رَهْوًا في أعنّتها　*　كالطير تنجو من الشُّؤْبوب ذي البَرَد (١)

الجوهري : ويقال افعل ذلك رَهْوًا؛ أي ساكنا على هِينَتِك (٢) . وعيشٌ راهٍ؛ أي ساكن رافه. وخِمْسٌ راهٍ؛ إذا كان سهلا . ورها البحر أي سكن . وقال أبو عبيد : رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا أي فتح؛ ومنه قوله تعالى : « وَٱتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا » . والرَّهْوُ : السير السهل؛ يقال : جاءت الخيل رهوا . قال ابن الأعرابي : رَهَا يَرْهُو في السير أي رَفَق . قال القطامي في نعت الركاب :

يَمْشِين رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذِلةٌ　*　ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ

والرَّهْوُ والرَّهْوة : المكان المرتفع ، والمنخفض أيضا يجتمع فيه الماء؛ وهو من الأضداد . وقال أبو عبيد : الرَّهْو : الجَوْبة تكون في مَحَلّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره . وفي الحديث أنه قضى أن "لا شفعة في فِناء ولا طريقٍ ولا مَنْقَبةٍ ولا رُكْحٍ ولا رَهْوٍ" (٣) . والجمع رِهَاء . والرَّهْو : المرأة الواسعة الهَنِ؛ حكاه النَّضْر بن شُمَيْل . والرَّهْو : ضرب من الطير؛ ويقال :

(١) البيت للنابغة الذبياني . و « تمزع » : تمرّ مرًّا سريعا . وقد وردت هذه الكلمة في الأصل محرفة ؛ ففي بعضها « تمرح » بالراء والحاء . وفي البعض الآخر : « تمرع » بالراء والعين . ويروى : « غربا » بدل « رهوا » أي حدة . و « الشؤبوب » : السحاب العظيم القطر .　(٢) الهينة (بالكسر) : السكينة والوقار .

(٣) الفناء : فناء الدار، وهو ما امتد معها من جوانبها . والمنقبة : هي الطريق بين الدارين . وقيل : هو الطريق الذي يعلو أنشاز الأرض . والركح (بالضم) : ناحية البيت من ورائه ؛ وربما كان فضاء لا بناء فيه .

هو الكُرْكِيّ . قال الهَرَوِيّ : ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى — وقاله القشيريّ — أى سِرْ ساكنا على هِينَتِك ؛ فالرَّهو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر . وعلى الأوّل هو من نعت البحر؛ أى آتركه ساكنا كما هو قد انفرق فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر لمـا قطعه بعصاه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبعه فرعون فقيل له هـذا . وقيل : ليس الرَّهْو من السكون بل هو الفرجة بين الشيئين ؛ يقال : رَهَا ما بين الرجلين أى فرج . فقوله : « رهوا » أى منفرجا . وقال الليث : الرهو مَشْيٌ فى سكون؛ يقال : رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ . وعيشٌ راهٍ : وادعٌ خافض . وآفعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا؛ أى ساكنا بغير شدّة . وقد ذكرناه آنفا . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى إن فرعون وقومه . ﴿ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه .

قوله تعـالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ كَمْ ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى «الشعراء» مستوفًى[1] . ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ النَّعْمة (بالفتح) التنعيم؛ يقال : نعّمه الله وناعَمَه فتنعّم . وآمرأة مُنَعَّمة ومُنَاعَمَة؛ بمعنًى . والنِّعمة (بالكسر) اليَـدُ والصَّنِيعة والمِنة وما أنعم به عليـك . وكذلك النُّعْمَى . فإن فتحت النون مددت وقلت : النَّعماء . والنعيم مثله . وفلان واسع النِّعمة؛ أى واسع المـال . جميعه عن الجوهريّ . وقال ابن عمر : المراد بالنِّعمة نيل مصر . ابن لَهِيعة : الفيوم . ابن زياد : أرض مصر لكثرة خيرها . وقيل : ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعَة . وقد يقال : نَعْمَة ونِعْمَة (بفتح النون وكسرها) ؛ حكاه المـاورديّ . قال : وفى الفرق بينهما وجهان : أحدهما — أنها بكسر النون فى المِلْك، و بفتحها فى البَدَن والدِّين؛ قاله النَّضْر بن شُمَيل . الثانى — أنها بالكسر من المِنّة وهو الإفضال والعطيّة، و بالفتح من التنعيم وهو سَعة العيش والراحة؛ قاله ابن زياد.

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

قلت : هذا الفرق هو الذى وقع فى الصّحاح وقد ذكرناه . وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة « فَكِهِين » بغير ألف ؛ ومعناه أَشِرين بَطِرين . قال الجوهرى : فَكِه الرجل (بالكسر) فهو فَكِه إذا كان طيّب النفس مزّاحا . والفكِه أيضا الأَشِر البطِر . وقرئ « وَنَعْمَةٍ كانوا فِيها فَكِهِين » أى أَشِرين بطرين . و « فاكهين » أى ناعمين . القشيرى : « فاكهين » لاهين مازحين ؛ يقال : إنه لفاكه أى مزّاح . وفيه فُكاهة أى مزح . الثعلبىّ : وهما لغتان كالحاذر والحذِر ، والفارِه والفرِه . وقيل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة . والفاكهة : فضلٌ عن القوت الذى لا بدّ منه .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾

قال الزجاج : أى الأمر كذلك ؛ فيوقف على « كذلك » . وقيل : إن الكاف فى موضع نصب ، على تقدير نفعل فعلا كذلك بمن نريد إهلاكه . وقال الكلبى : « كذلك » أفعل بمن عصانى . وقيل : « كذلك » كان أمرهم فأهلكوا . ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين ، فصاروا لها وارثين ؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث . ونظيره « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا [1] » الآية .

قوله تعالى : فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى لكفرهم . ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ . أى مؤخرين بالغرق . وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ؛ أى عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق ، وبكته الليالى الشاتيات . قال الشاعر :

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

فالريح تبكى شَجْوَها[1] * والبرق يلمع فى الغمامه

وقال آخر[2] :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة * تُبكى عليك نجومَ الليل والقمرا

وقالت الخارجية[3] :

أيا شجر الخابور مالك مُورِقًا * كأنك لم تجزع على آبن طَرِيف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً فى وجوب الجزع والبكاء عليه . والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فَقْد . وقيل : فى الكلام إضمار ؛ أى ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة؛ كقوله تعالى : « وآسأل القرية » بل سرّوا بهلاكهم؛ قاله الحسن . وروى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله فإذا مات فقداه فبكيا عليه ـ ثم تلا ـ «فما بكت عليهم السماء والأرض»". يعنى أنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكى عليهم لأجله ، ولا صعِد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكى فَقْدَ ذلك . وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا . قال أبو يحيى : فعجبت من قوله فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكى على عبد يَعْمُرها بالركوع والسجود ! وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِىّ كدوِىّ النحل ! . وقال علىّ وابن عباس رضى الله عنهما : إنه يبكى عليه مُصَلّاه من الأرض ومصعد عمله من السماء . وتقدير الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض . وهو معنى قول سعيد بن جُبير . وفى بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه : أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان . ويشبه أن يكون قولَ مجاهد . وقال شُريح الحضرمى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغُرَباء يوم القيامة ـ

(١) البيت ليزيد بن مُفَرِّغ الحميرى . وقد ورد هذا البيت فى الأصول محرفا ؛ والتصويب عن وفيات الأعيان وشرح الكامل . (٢) هو جرير . (٣) الخارجية هى ليلى بنت طريف الشيبانى ترثى أخاها الوليد ابن طريف ؛ وكان رأس الخوارج وأشدّهم بأسا وصولة .

قيل : من هم يارسول الله؟ قال — هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا — ثم قال — ألا لا غُرْبة على مؤمن وما مات مؤمن فى غُربة غائبًا عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « فما بكت عليهم السماء والأرض » — ثم قال — ألا إنهما لا يبكيان على الكافر " .

قلت : وذكر أبو نعيم محمد بن معمر قال : حدثنا أبو شعيب الحَرّانى قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعىّ قال حدثنى عطاء الخراسانى قال : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقيل : بكاؤهما حمرة أطرافهما؛ قاله علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — وعطاء والسُّدّى والترمذى محمد ابن علىّ وحكاه عن الحسن . قال السُّدّى : لما قُتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما بكت عليه السماء، وبكاؤها حمرتها . وحكى جرير عن يزيد بن أبى زياد قال : لما قتل الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما احمرّ له آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها . وقال محمد بن سيرين : أخبرونا أن الحمرة التى تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقال سليمان القاضى : مُطِرْنا دمًا يوم قتل الحسين .

قلت : روى الدَّارَقُطْنِىّ من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الشفق الحمرة " . وعن عُبادة بن الصامت وشداد ابن أوس قالا : الشفق شفقان، الحمرة والبياض؛ فإذا غابت الحمرة حلّت الصلاة . وعن أبى هريرة قال : الشفق الحمرة . وهذا يردّ ما حكاه ابن سيرين . وقد تقدم فى « سبحان »(١) عن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكرياء والحسين بن علىّ، وحمرتها بكاؤها . وقال محمد بن على الترمذى : البكاء إدرار الشيء فإذا أدرّت العين بمائها قيل بكت، وإذا أدرّت السماء بحمرتها قيل بكت، وإذا أدرت الأرض بغبرتها قيل بكت؛ لأن المؤمن نور ومعه نور الله؛ فالأرض مضيئة بنوره وإن غاب عن عينيك، فإن فقدت نور المؤمن اغبرّت فدرّت

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٠ .

باضبرارها ؛ لأنها كانت غبراء بخطايا أهل الشرك ، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن ؛ فإذا قبض المؤمن منها دَرّت بغبرتها . وقال أنس : لما كان اليوم الذى دخل فيه النبيّ صلى ٱلله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء ، فلما كان اليوم الذى قبض فيه أظلم كلّ شيء ، وإنا لفى دفنه ما نفضنا الأيدى منه حتى أنكرنا قلوبنا . وأما بكاء السماء فحمرتها كما قال الحسن . وقال نصر بن عاصم : إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر ، وإنما ذلك لدنو الساعة ، فتدِرّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين . وقيل : بكاؤها أمارة تظهر منها تدلّ على أسَف وحزن .

قلت : والقول الأوّل أظهر ؛ إذ لااستحالة فى ذلك . وإذا كانت السموات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم — كما بيناه فى « سبحان ومريم وحم فصلت »(١) — فكذلك تبكى ؛ مع ما جاء من الخبر فى ذلك .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعنى ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون ، من قتل الأبناء واستخدام النساء ، واستعبادهم إياهم وتكلفهم الأعمال الشاقة . ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من « العذابِ المهِينِ » فلا تتعلق « مِن » بقوله : « مِن العذابِ » لأنه قد وصف ، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل . وقيل : أى أنجيناهم من العذاب ومن فرعون . ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ المُسْرِفِينَ﴾ أى جبارا من المشركين . وليس هذا عُلوّ مَدح بل هو عُلُوٌّ فى الإسراف ؛ كقوله : « إِن فِرعون علا فِى الأرضِ »(٢) . وقيل : هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَد اخْتَرْنَاهُمْ﴾ يعنى بنى إسرائيل . ﴿على عِلْمٍ﴾ أى على علم منا بهم لكثرة الأنبياء منهم . ﴿على العالَمِينَ﴾ أى عالمى زمانهم ؛ بدليل قوله لهذه الأمة : « كنتم خَيْرَ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ و جـ ١١ ص ١٥٧ و جـ ١٥ ص ٣٤٤ (٢) آية ٤ سورة القصص .

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١) » . وهذا قول قتادة وغيره . وقيل على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ؛ حكاه ابن عيسى والزَّمَخْشَرِيّ وغيرهما . ويكون قوله : « كنتم خَيْرَ أُمَّةٍ » أي بعد بني إسرائيل . والله أعلم . وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآياتِ ﴾ أي من المعجزات لموسى . ﴿ ما فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ قال قتادة : الآيات إنجاؤهم من فرعون وفلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم وإنزال المَنّ والسَّلْوَى . ويكون هذا الخطاب متوجِّها إلى بني إسرائيل . وقيل : إنها العصا واليد . ويشبه أن يكون قول الفرّاء . ويكون الخطاب متوجها إلى قوم فرعون . وقول ثالث — إنه الشر الذي كفّهم عنه والخير الذي أمرهم به؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . ويكون الخطاب متوجها إلى الفريقين معًا من قوم فرعون وبني إسرائيل . وفي قوله : « بَلَاءٌ مُبِينٌ » أربعة أوجه : أحدها — نعمة ظاهرة؛ قاله الحسن وقتادة . كما قال الله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا (٢) » . وقال زُهير :

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو (٣)

الثاني — عذاب شديد؛ قاله الفرّاء . الثالث — اختبار يتميز به المؤمن من الكافر؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وعنه أيضا : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ؛ ثم قرأ « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والخيرِ فِتْنَةً (٤) » .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران . (٢) آية ١٧ سورة الأنفال . (٣) صدره :
* رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم * (٤) آية ٣٥ سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعنى كفار قريش ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ ﴾ ابتداء وخبر . مثل « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ »(١) ، « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا »(٢) ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ أى بمبعوثين . ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنشر الله الموتى فنشروا . وقد تقدّم(٣) . والمنشورون المبعوثون . قيل : إنّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال : يا محمد، إن كنت صادقا فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا؛ أحدهما — قُصَيّ بن كِلَاب فإنه كان رجلا صادقا؛ لنسأله عما يكون بعد الموت . وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف؛ فكأنه قال: إن كنت صادقا فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف . وهو كقول قائل : لو قال إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء ؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء؛ حكاه الماوردى . ثم قيل : «فأتوا بآبائنا» مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ؛ كقوله : « رَبِّ ارْجِعُونِ »(٤) قاله الفرّاء . وقيل : مخاطبة له ولأتباعه .

قوله تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هذا استفهام إنكار؛ أى إنهم مستحقون فى هذا القول العذاب؛ إذ ليسوا خيرا من قوم تبع والأمم المهلكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء . وقيل : المعنى أهم أظهر نعمة وأكثر أموالا أم قوم تُبّع . وقيل : أهم أعزّ وأشدّ وأمنع أم قوم تبع . وليس المراد بتُبّع رجلا واحدا بل المراد به ملوك اليمن؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة . فتُبّع لقب للملك منهم كالخليفة للسلمين، وكِسْرَى للفُرْس، وقَيْصر للروم . وقال أبو عبيدة : سُمِّيَ كل واحد منهم تُبّعًا لأنه يتبع صاحبه . قال الجوهرى : والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تُبّع . والتُّبّع أيضا الظّل؛ وقال :

(١) آية ١٥٥ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٩ سورة الأنعام . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٧٨
(٤) آية ٩٩ سورة المؤمنون .

يَرد المياه حَضِيرةً ونَفِيضةً * وِرْدَ القَطاة إذا ٱسْمَألّ التُّبَّعُ[(١)]

والتبع أيضا ضرب من الطير . وقال السهيلي : تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر وحضرموت، وإن مَلَكَ اليمن وحدها لم يقل له تبع؛ قاله المسعودى . فمن التبابعة : الحارث الرائش، وهو ابن همال ذى سدد[(٢)] . وأبرهة ذو المنار . وعمرو ذو الأذعار . وشمر بن مالك، الذى تنسب إليه سَمَرْقَنْد . وأفريقيس بن قيس، الذى ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان، وبه سميت إفريقية .

والظاهر من الآيات أن الله سبحانه إنما أراد واحدا من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدّ من معرفة غيره؛ ولذلك قال عليه السلام : "ولا أدرى أتُبّع لَعِينٌ أم لا" . ثم قد روى عنه أنه قال : "لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمنا". فهذا يدلّك على أنه كان واحدا بعينه، وهو — والله أعلم — أبو كرب الذى كسا البيت بعد ما أراد غَزْوَه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمّا أخبر أنها مُهاجَر نبيّ ٱسمه أحمد . وقال شعرا أودعه عند أهلها ؛ فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فأدّوْه إليه . ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد . وفيه :

شهدت على أحمد أنه * رسول من الله بارى النَّسَمْ
فلو مُدّ عمرى إلى عمره * لكنت وزيرًا له وٱبنَ عَمّ

وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا والزمخشرى وغيرهم أنه حُفر قبر له بصنعاء — ويقال بناحية حمير — فى الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب "هذا قبر حُبَّى ولَمِيس" ويروى أيضا : حبي وتماضر، ويروى أيضا : هذا قبر رضوى وقبر حُبّى ابنتا تبع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئا؛ وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

---

(١) البيت لسعدى — وقيل لسلمى — الجهنية ترثى أخاها أسعد . والحضيرة والنفيضة : جماعة القوم، وقيل : النفر يُغْزَى بهم . وقيل غير هذا . واسمأل الظل : قصر وضمر؛ وذلك عند نصف النهار .

(٢) وردت هذه الأسماء محرّفة .

قلت : وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان فى الكتاب الذى كتبه : « أما بعد، فإنى آمنت بك وبكتابك الذى أنزل عليك ، وأنا على دينك وسنتك ، وآمنت بربك ورب كل شىء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام؛ فإن أدركتُك فيها ونِعْمَت ، و إن لم أدركك فاشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة ؛ فإنى من أمتك الأولين و بايعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام » . ثم ختم الكتاب ونقش عليه : « لِلّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » . وكتب على عنوانه « إلى محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم . من تُبَّع الأول » . وقد ذكرنا بقية خبره وأوله فى « اللمع اللؤلؤية فى شرح العشر بينات النبوية[1] » للفارابى رحمه الله . وكان من اليوم الذى مات فيه تبع إلى اليوم الذى بعث فيه النبى صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا يزيد ولا ينقص .

واختلف هل كان نبيًّا أو ملِكا؛ فقال ابن عباس : كان تبع نبيًّا . وقال كعب : كان تبع ملِكا من الملوك، وكان قومه كُهّانًا وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأمر الفريقين أن يقرب كل فريق منهم قُرْبَانًا ففعلوا، فتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا تسبوا تُبَّعًا فإنه كان رجلا صالحا . وحكى قتادة أن تبعًا كان رجلا من حمير، سار بالجنود حتى عَبَر الحِيرة وأتى سَمَرْقَند فهدمها؛ حكاه الماوردى . وحكى الثعلبى عن قتادة أنه تبع الحِميرى، وكان سار بالجنود حتى عبر الحِيرة . وبنى سَمَرْقَنْد وقتل وهدم البلاد . وقال الكلبى : تبع هو أبو كَرِب أسعد بن ملكيكرب ، وإنما سمى تبعا لأنه تَبِع مَن قبله . وقال سعيد بن جُبير : هو الذى كسا البيت الحِبَرات[2] . وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمه، وضرب بهم لقريش مثلًا لقربهم من دارهم وعِظَمهم فى نفوسهم ؛ فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم — لأنهم كانوا مجرمين — كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك . وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تبع خيرا من قريش . وقيل : سُمِّىَ أولهم تبعًا لأنه اتبع قرن الشمس وسافر فى الشرق مع العساكر .

(١) اضطربت الأصول فى هذا الكتاب وفى اسم مؤلفه، ولم نعثر عليه .
(٢) الحبرات (بكسر ففتح جمع حِبَرَة وحَبَرَة) : ضرب من برود اليمن مُنَمَّر .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ « الذين » فى موضع رفع عطف على « قَوْمُ تُبَّعٍ » . « أهلكناهم » صلته . و يكون « مِنْ قبلِهم » متعلقًا به . و يجوز أن يكون « مِن قبلهم » صلة « الذين » و يكون فى الظرف عائد إلى الموصول . و إذا كان كذلك كان «أهلكناهم» على أحد أمرين : إمّا أن يقدّر معه «قد» فيكون فى موضع الحال . أو يقدر حذف موصوف ؛ كأنه قال : قوم أهلكناهم . والتقدير أفلا تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاءِ المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين . ويجوز أن يكون « والذين مِن قبلِهم » ابتداء خبره «أهلكناهم» . و يجوز أن يكون « الذين » فى موضع جر عطفا على « تبع » كأنه قال : قوم تبع المهلكين من قبلهم . و يجوز أن يكون « الذين » فى موضع نصب باضمار فعل دل عليه « أهلكناهم » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى غافلين ؛ قاله مقاتل . وقيل : لاهين ؛ وهو قول الكلبي . ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى إلا بالأمر الحق ؛ قاله مقاتل . وقيل : إلا للحق ؛ قاله الكلبي والحسن . وقيل : إلا لإقامة الحق و إظهاره من توحيد الله والتزام طاعته . وقد مضى هذا المعنى فى « الأنبياء »[1] . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعنى أكثر الناس . ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ هو يوم القيامة ؛ وسمى بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . دليله قوله تعالى : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ »[2] . ونظيره قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »[3] . فـ«يوم الفصل» ميقات الكل ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »[4] أى الوقت المجعول لتمييز المسيء من المحسن ، والفصل بينهما : فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وهذا غاية فى التحذير والوعيد . ولا خلاف بين القرّاء فى رفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٦ . (٢) آية ٣ سورة الممتحنة . (٣) آية ١٤ سورة الروم .
(٤) آية ١٧ سورة النبأ .

« ميقَاتُهُــمْ » على أنه خبر « إنّ » واسمها « يَوْمَ الفَصْــلِ » . وأجاز الكسائى والفَرّاء نصب « ميقاتهم » ، بـ « إن » و « يوم الفصل » ظرف فى مــوضع خبر « إن » ؛ أى إن ميقاتهم يوم الفصل .

قوله تعــالى : يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُــوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعــالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَــيْئًا ﴾ « يَوْمَ » بدل من « يوم » الأول. والمَوْلَى : الوَلِيُّ وهو ابن العمّ والناصر . أى لا يدفع آبن عم عن ابن عمه ، ولا قريبٌ عن قريبه ، ولا صديقٌ عن صديقه . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أى لا ينصر المؤمن الكافر لقرابته . ونظير هذه الآية « وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا »(١) الآية . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ « مَن » رفع على البدل من المضمر فى « يُنْصَرُون » ، كأنك قلت : لا يقوم أحد إلا فلان . أو على الابتداء والخــبر مضمر ؛ كأنه قال : إلا من رحم الله فمغفور له ؛ أو فيغنى عنــه ويشفع وينصر . أو على البدل من « مَوْلًى » الأول ؛ كأنه قال : لا يغنى إلا من رحم الله . وهو عند الكسائى والفَرّاء نصب على الاســتثناء المنقطع ؛ أى لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يغنيهم من المخلوقين . ويجوز أن يكون اســتثناء متصلا ؛ أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم فى شــفاعة بعضهم لبعض . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى المنتقم من أعدائه الرحيمُ بأوليائه؛ كما قال «شَدِيدِ العِقابِ ذِى الطَّوْلِ»(٢) فقرن الوعد بالوعيد .

قوله تعــالى : إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّــومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ كل ما فى كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهــاء ؛ إلا حرفا واحدا فى ســورة الدخان « إن شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ » ؛ قاله

(١) آية ٤٨ سورة البقرة . (٢) آية ٣ سورة غافــر .

ابن الأنبارى . و ﴿ الْأَثِيمِ ﴾ الفاجر ؛ قاله أبو الدرداء . وكذلك قرأ هو وابن مسعود . وقال همام بن الحارث : كان أبو الدرداء يقرئ رجلا « إن شجرة الزقومِ طعام الأثيم » والرجل يقول : طعام اليتيم ؛ فلما لم يفهم قال له : « طعام الفاجر » . قال أبو بكر الأنبارىّ : حدّثنى أبى قال حدّثنا نصر قال حدّثنا أبو عبيد قال حدّثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : علّم عبد الله بن مسعود رجلا « إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم ؛ فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ ؛ فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر؟ قال بلى ؛ قال فافعل . ولا حجة فى هذا للجهال من أهل الزَّيْغ ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبا للتعلّم ، وتوطئةً منه له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزمخشرىّ : « وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤديةً معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهى أن يؤدّى القارئ المعانى على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ؛ لأن فى كلام العرب خصوصا فى القرآن الذى هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ، من لطائف المعانى والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر . وروى علىّ بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه فى إنكار القراءة بالفارسية » . وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسمّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغليت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار . وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل ، وهو النُّحاس المذاب . وقراءة العامة « تَغْلِى » بالتاء حملًا على الشجرة . وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيصن ورُوَيس عن يعقوب « يغلى » بالياء حملًا على الطعام ؛ وهو فى معنى الشجرة . ولا يُحمل على المهْل لأنه

ذكر للتشبيه . و « الأثيم » الآثم؛ من أثِم يأثَم إثْمًا؛ قاله القشيرى وابن عيسى . وقيل هو المشرك المكتسب للإثم؛ قاله يحيى بن سلام . وفى الصحاح : وقد أثِم الرجل (بالكسر) إثما ومأثما إذا وقع فى الإثم ، فهو آثم وأثيم وأثوم أيضا . فمعنى « طَعَامُ الْأَثِيمِ » أى ذى الإثم الفاجر؛ وهو أبو جهل . وذلك أنه قال : يَعِدُنا محمد أن فى جهنم الزقّوم ، و إنما هو الثريد بالزُّبد والتمر؛ فبيّن الله خلاف ما قاله . وحكى النقّاش عن مجاهد أن شجرة الزقوم أبو جهل .

قلت : وهذا لا يصح عن مجاهد . وهو مردود بما ذكرناه فى هذه الشجرة فى سورة « الصافات وسبحان »(١) أيضا .

قوله تعالى : خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ ﴾ أى يقال للزبانية خذوه؛ يعنى الأثيم . ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾ أى جُرّوه وسُوقوه . والعَتْل : أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِله ؛ أى تجرّه إليك لتذهب به إلى حبس أو بليّة . عتلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا إذا جذبته جَذْبا عنيفا . ورجل مِعْتَل (بالكسر) . وقال يصف فرسًا :

* نَفْرَعُه فَرْعًا ولسنا نَعتِله(٢) *

وفيه لغتان : عَتَلَه وعَتَنه (باللام والنون جميعا) ؛ قاله ابن السكيت . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو « فٱعتِلوه » بالكسر. وضم الباقون . ﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ وسط الجحيم . ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِن عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ . قال مقاتل : يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبى جهل بمقمع من حديد ؛ فيتفتّت رأسه عن دماغه ، فيجرى دماغه على جسده ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٨٣ وجـ ١٥ ص ٨٥

(٢) القائل هو أبو النجم؛ وقبله :

طار عن المهر نَسِيل ينسُله * عن مفرع الكتفين حرٍّ عَطَلُه

ثم يصبّ الملك فيه ماء حميا قد انتهى حره فيقع في بطنه؛ فيقول الملَك : ذُقِ العذاب . ونظيره « يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءوسِهِمُ الْحَمِيمُ »[(١)] .

قوله تعالى : ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ قال ابن الأنباري : أجمعت العوام على كسر « إنّ » . وروى عن الحسن عن عليّ رحمه الله «ذق أنك» بفتح «أن» ، وبها قرأ الكسائيّ . فمن كسر « إن » وقف على « ذُقْ » . ومن فتحها لم يقف على « ذق » ؛ لأن المعنى ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم . قال قتادة : نزلت في أبي جهل وكان قد قال : ما فيها أعزّ مني ولا أكرم؛ فلذلك قيل له : ذق إنك أنت العزيز الكريم . وقال عكرمة : التقى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله أمرني أن أقول لك أَوْلَى لك فأولى" فقال : بأي شيء تهددني ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه؛ فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية . أي يقول له الملك : ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك . وقيل : هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص؛ أي قال له : إنك أنت الذليل المهان . وهو كما قال قوم شعيب لشعيب : « إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ »[(٢)] يعنون السفيه الجاهل في أحد التأويلات على ما تقدّم[(٣)] . وهذا قول سعيد بن جبير . ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تقول لهم الملائكة : إن هذا ما كنتم تشكون فيه في الدنيا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

---

(١) آية ١٩ سورة الحج . (٢) آية ٨٧ سورة هود . (٣) راجع جـ ٩ ص ٨٧

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ لما ذكر مستقر الكافرين وعذابهم ذكر نزل المؤمنين ونعيمهم . وقرأ نافع وابن عامر « فى مُقام » بضم الميم . الباقون بالفتح . قال الكسائى : المَقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال :

* عفَتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها * (١)

قال الجوهرى : وأما المَقام والمُقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج وهذا مُدَحْرَجُنا . وقيل : المقام (بالفتح) المشهد والمجلس، و(بالضم) يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدرا ويقدّر فيه المضاف، أى فى موضع إقامة . ﴿ أمينٍ ﴾ يؤمن فيه من الآفات ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ بدل « من مقام أمين » . ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا . والسُّنْدُس : مارَقّ من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه . وقد مضى فى « الكهف » (٢) .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أى الأمر كذلك الذى ذكرناه . فيوقف على « كذلك » . وقيل : أى كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم حُورًا عِينًا . وقد مضى الكلام فى العِين فى « والصافات » (٣) . والحُور : البيض، فى قول قتادة والعامة، جمع حوراء . والحَوْراء : البيضاء التى يرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه فى كعبها؛ كالمرآة من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون . ودليل هذا التأويل أنها فى حرف ابن مسعود « بعِيس عِين » (٤) . وذكر أبو بكر الأنبارى أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدّثنا حسين

---

(١) هذا أوّل معلقة لبيد . وتمامه : * بمِنًى تأبد غولها فرجامها *

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٥

(٤) العيس (بالكسر) : بياض يخالطه شىء من شقرة .

قال حدّثنا عمار بن محمد قال : صلّيت خلف منصور بن المعتمر فقرأ في « حم » الدخان « بِعِيس عِين . لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى » . والعِيس : البيض ؛ ومنه قيل للإبل البيض : عيس، واحدها بعير أَعْيس وناقة عَيْساء . قال امرؤ القيس :

يَرُعْنَ إلى صوتي إذا ما سمعنه * كما تَرْعَوِي عِيطٌ إلى صوت أَعْيَسا[1]

فمعنى الحور هنا : الحسان الثاقبات[2] البياض بحسن . وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحُور العين ليرى مُخّ ساقها من وراء اللحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلّة، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء . وقال مجاهد : إنما سُمِّيت الحُور حورا لأنهنّ يحار الطرف في حسنهنّ وبياضهنّ وصفاء لونهنّ . وقيل : إنما قيل لهنّ حور لحَوَر أعينهنّ . والحَوَر : شدّة بياض العين في شدّة سوادها . امرأة حَوْراء بيّنة الحَوَر . يقال : احورّت عينه احورارا، واحورّ الشيء ابيضّ . قال الأصمعي : ما أدري ما الحَوَر في العَين؟ وقال أبو عمرو : الحَوَر أن تسودّ العين كلّها مثل أعين الظباء والبقر . قال : وليس في بني آدم حَوَر ؛ وإنما قيل للنساء : حُور العين لأنهنّ يشبّهن بالظباء والبقر . وقال العَجّاج :

* بأعينٍ مُحَوَّراتٍ حُورِ[3] *

يعني الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحَدَق . والعِين جمع عَيْناء ؛ وهي الواسعة العظيمة العينين . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مهور الحُور العين قبضات التمر وفِلَق الخبز " . وعن أبي قِرصافة[4] سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إخراج القُمَامة من المسجد مهور الحور العِين " . وعن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) العيط (جمع عيطاء) . الناقة الفتية التي لم تحمل . (٢) الثاقب : المضيء .

(٣) في الأصول : * بأعين محورات بيض *

والتصويب عن أراجيز العجاج . وقبله : * إذ ترمى من خلل الخدور *

وبعده : * خزر بألباب إلى صور *

(٤) أبو قرصافة (بكسر أوله) اسمه جندرة بن خيشنة الكناني .

قال : " كنس المساجد مهور الحور العين " ذكره الثعلبي رحمه الله . وقد أفردنا لهذا المعنى بابا مفردا فى (كتاب التذكرة) والحمد لله .

واختلف أيما أفضل فى الجنة؛ نساء الآدميات أم الحور ؟ فذكر ٱبن المبارك قال : وأخبرنا رِشْدِين عن ٱبن أنْعُم عن حِبّان بن أبى جَبَلة قال : إن نساء الآدميات من دخل منهنّ الجنة فُضّلن على الحُور العِين بما عملن فى الدنيا . وروى مرفوعا إن " الآدميات أفضل من الحُور العِين بسبعين ألف ضعف " . وقيل : إن الحور العين أفضل؛ لقوله عليه السلام فى دعائه : " وأبدله زوجًا خيرا من زوجه ". والله أعلم . وقرأ عكرمة « بِحُورٍ عِينٍ » مضاف . والإضافة والتنوين فى « بحور عين » سواء .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قال قتادة : « آمنين » من الموت والوَصَب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ أى لا يذوقون فيها الموت ألْبَتّةَ لأنهم خالدون فيها . ثم قال : ﴿ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ على الاستثناء المنقطع؛ أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا . وأنشد سيبويه :

من كان أسرع فى تَفَرُّق فالج ✱ فلَبُونه جَرِبتْ معًا وأغدّتِ (1)

(1) فى كتاب سيبويه : ✱ من كان أشرك ✱
والقائل هو عنز بن دجاجة المازنى . وفالج هذا؛ هو فالج بن مازن بن مالك . سعى عليه بعض بنى مازن وأساء اليه حتى رحل عنهم، ولحق ببنى ذكوان بن بهثة فنسب اليهم . وكانت بنو مازن قد ضيقوا على رجل منهم يسمى « ناشرة » حتى انتقل عنهم الى بنى أسد، فدعا هذا الشاعر المازنى على بنى مازن حيث اضطروه فألجئ الى الخروج عنهم . واستثنى « ناشرة » منهم؛ لأنه لم يرض فعلهم، ولأنه قد امتحن محنة « فالج » بهم . واللبون : ذوات اللبن، وتقع للواحد والجماعة . ومعنى « أغدت » صارت فيها الغدة ، وهى من أدواء الإبل كالذبحة . والغلواء : النماء والارتفاع . والمنبت : المنمى والمغذى . و يروى بكسر الباء، ومعناه النابت النامى . (عن شرح الشواهد) .

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال :

إلا كاشِرةَ الذى ضيّعتُمُ * كالغصن فى غُلَوائه المتنبِّتِ

وقيل : إن « إلا » بمعنى بعد؛ كقولك : ما كلّمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك؛ أى بعد رجل عندك . وقيل : « إلا » بمعنى سوى؛ أى سوى الموتة التى ماتوها فى الدنيا؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ »(١) . وهو كما تقول : ما ذقت اليوم طعاما سوى ما أكلت أمس . وقال القُتَبِيّ : « إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى » معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويلقى الرَّوح والرَّيحان، وكان موته فى الجنة لاتصاله بأسبابها ؛ فهو استثناء صحيح . والموت عَرَض لا يذاق ، ولكن جعل كالطعام الذى يكره ذوقه ، فاستعير فيه لفظ الذوق . ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ﴾ أى فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم . فـ « فضلا » مصدر عمل فيه « يَدْعُون » . وقيل : العامل فيه « ووقاهم » . وقيل فعل مضمر . وقيل : معنى الكلام الذى قبله ؛ لأنه تفضل منه عليهم ، إذ وفّقهم فى الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة . ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة . وقيل: هو من قولك فاز بكذا؛ أى ناله وظَفِر به .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعنى القرآن؛ أى سهّلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه . ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى يتعظون وينزجرون . ونظيره « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »(٢) . ختم السورة بالحثّ على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا؛ كما قال فى مفتتح السورة : « إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » ، « إنا أنزلناه فِى لَيلةِ القَدْرِ » على ما تقدم . ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أى انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ؛ حكاه

(١) آية ٢٢ سورة النساء .

(٢) آية ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ سورة القمر .

النقاش . وقيل : ٱنتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان . والمعنى متقارب . وقيل : ارتقب ما وعدتك من الثواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب . وقيل : ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم .

سورة الجاثية

مكّية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ، هي : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ»(١) نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ذكره الماوردي . وقال المهدوي والنحاس عن ابن عباس : إنها نزلت في عمر رضي الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عز وجل « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » ثم نسخت بقوله : « فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(٢) . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف . وهي سبع وثلاثون آية . وقيل ست .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ مبتدأ و ﴿ تَنزِيلُ ﴾ خبره . وقال بعضهم : « حمٓ » ٱسم السورة . و« تنزيل الكتاب » مبتدأ . وخبره «من الله» . والكتاب القرآن . و« العزيز» المنيع . « الحكيم » في فعله . وقد تقدم جميع هذا(٣) .

قوله تعالى : إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ

(١) آية ١٤ . (٢) آية ٥ سورة التوبة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ و جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى فى خلقهما ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ يعنى المطر . ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ تقدّم جميعه مستوفًى فى «البقرة» وغيرها(١). وقراءة العامة « وما يَبُثُّ من دَابّةٍ آياتٌ » « وتَصريف الرِّياح آياتٌ » بالرفع فيهما . وقرأ حمزة والكسائى بكسر التاء فيهما . ولا خلاف فى الأوّل أنه بالنصب على اسم « إنّ » وخبرها «فى السموات» . ووجه الكسر فى «آيات» الثانى العطف على ما عملت فيه ؛ التقدير : و إن فى خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ . فأما الثالث فقيل : إن وجه النصب فيه تكرير « آيات » لما طال الكلام؛ كما تقول : ضربت زيدا زيدا . وقيل : إنه على الحمل على ما عملت فيه «إنّ» على تقدير حذف «فى»؛ التقدير: وفى اختلاف الليل والنهار آيات . فحذفت « فى » لتقدّم ذكرها . وأنشد سيبويه فى الحذف :

أَكُلَّ آمرئٍ تَحْسِبِين آمرأً * ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا(٢)

فحذف « كل » المضاف إلى نار المجرورة لتقدّم ذكرها . وقيل : هو من باب العطف على عاملين . ولم يجزه سيبويه ، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين ؛ فعطف «اختلاف» على قوله : « وفى خلقكم » ثم قال : « وتصريف الرياح آيات » فيحتاج إلى العطف على عاملين ، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل ، فلم تقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا فى حال . وأما قراءة الرفع فحملا على موضع « إن » مع ما عملت فيه . وقد ألزم النحويون فى ذلك أيضا العطف على عاملين؛ لأنه عَطَف على « واختلاف » على «وفى خلقكم» ، وعطف «آيات» على موضع «آيات» الأوّل ، ولكنه يقدّر على تكرير «فى» . و يجوز أن يرفع

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ وما بعدها . وجـ ١٤ ص ٥٨ (٢) البيت لأبى دؤاد الأيادى .

على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة . وحكى الفراء رفع « اختلاف » و « آيات » جميعا، وجعل الاختلاف هو الآيات .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ أى هذه آيات الله؛ أى حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق الذى لا باطل ولا كذب فيه . وقرئ « يتلوها » بالياء . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ ﴾ وقيل بعد قرآنه ﴿ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر . وقرأ ابن مُحَيْصن وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائى « تؤمنون » بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ « ويلٌ » وادٍ فى جهنم . توعّد من ترك الاستدلال بآياته . والأفّاك : الكذاب . والإفك الكذب . « أثيم » أى مرتكب للإثم . والمراد فيما رُوى النضرُ بن الحارث . وعن ابن عباس أنه الحارث بن كَلَدة . وحكى الثعلبى أنه أبو جهل وأصحابه . ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ﴾ يعنى آيات القرآن . ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أى يتمادى على كفره متعظما فى نفسه عن الانقياد؛ مأخوذ من صرّ الصُّرة إذا شدّها . قال معناه ابن عباس وغيره . وقيل : أصله من إصرار الحمار على العانة[(١)]، وهو أن ينحى عليها صارًّا أذنيه . و « أنْ » من « كأنْ » مخففة من الثقيلة؛ كأنه لم يسمعها، والضمير ضمير الشأن؛ كما فى قوله : * كأنْ ظَبْية تَعطُو إلى ناضر السَّلَمْ[(٢)] *

(١) العانة : الأتان (الحمارة) . (٢) ويروى : الى وارق السلم . وهذا عجز بيت لابن صريم اليشكرى . وصدره كما فى كتاب سيبويه والمقاصد النحوية : * ويوما توافينا بوجه مقسم * والمقسم : المحسن . و « تعطو » : تتناول . و« السلم » : شجر بعينه . وصف امرأة حسنة الوجه فشبهها بظبية مخصبة المرعى .

ومحل الجملة النصب؛ أى يصرّ مثل غير السامع . وقد تقدّم فى أوّل « لقمان » القول فى معنى هذه الآية (١) . وتقدّم معنى ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) فى « البقرة » .

قوله تعـالى : وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ نحو قوله فى الزقوم : إنه الزبد والتمر، وقوله فى خزنة جهنم : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذلّ مخزٍ . ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ما هم فيه من التعزز فى الدنيا والتكبر عن الحـق جهنمُ . وقال ابن عباس : « من ورائهـم جهنم » أى أمامهم؛ نظيره « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ » (٣) أى من أمامه . قال :

أليس ورائى إن تراخت منيّتى * أدبّ مع الولدان أزحف كالنّسر

﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أى من المـال والولد؛ نظيره « لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا » (٤) أى من المـال والولد . ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى دائم مؤلم .

قوله تعـالى : هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)

قوله تعـالى : ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ ابتداء وخبر؛ يعنى القرآن . وقال ابن عباس : يعنى كل ما جاء به محمد صلى الله عليــه وسلم . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى جحـدوا دلائله .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٥٧ . (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) آية ١٦ سورة إبراهيم . (٤) آية ١٠ سورة آل عمران .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الرجز العذاب ؛ أى لهم عذاب من عذاب أليم ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ »(١) أى عذابا . وقيل : الرجز القذر مثل الرجس ؛ وهو كقوله تعالى : « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ »(٢) أى لهم عذاب من تجرع الشراب القذر . وضم الراء من الرجز ابن مُحَيْصن حيث وقع . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحفص « اليم » بالرفع ؛ على معنى لهم عذاب أليم من رجز . الباقون بالخفض نعتا للرجز .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، و بين أنه خلق ما خلق لمنافعهم . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ يعنى أن ذلك فعله وخلقه و إحسانٌ منه و إنعام . وقرأ ابن عباس والجَحْدَرى وغيرهما « جميعا مِنَّةً » بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوبا على المصدر . قال أبو عمرو : وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها « مِنَّةً » أى تفضلا وكرما . وعن مسلمة بن محارب أيضا « جميعا مَنُّهُ » على إضافة المَنّ إلى هاء الكناية . وهو عند أبى حاتم خبر ابتداء محذوف ؛ أى ذلك، أو هو مَنُّه . وقراءة الجماعة ظاهرة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ جزم على جواب « قُلْ » تشبيها بالشرط والجزاء ؛ كقولك : قم تُصب خيرا . وقيل : هو على حذف اللام . وقيل : على معنى قل

---

(١) آية ٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٦ سورة إبراهيم .

لهم اغفروا يغفروا ؛ فهو جواب أمر محذوف دل الكلام عليه ؛ قاله عليّ بن عيسى واختاره ابن العربيّ . ونزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهمّ أن يبطش به. قال ابن العربيّ : وهـذا لم يصح . وذكر الواحديّ والقشيريّ وغيرهما عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عمر مع عبد الله بن أُبَيّ فى غَزْوة بنى المُصْطَلِق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها المُرَيْسِيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى ، وأبطأ عليه فقال : ما حبسك؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قِرب النبيّ صلى الله عليه وسلم وقِرب أبى بكر ، وملأ لمولاه . فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سَمِّن كلبك يأكلك . فبلغ عمَرَ رضى الله عنه قولُه ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ؛ فأنزل الله هذه الآية . هذه رواية عطاء عن ابن عباس . وروى عنه ميمون بن مِهران قال : لما نزلت « مَنْ ذا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا (١) » قال يهوديّ بالمدينة يقال له فِنْحاص : احتاج ربّ محمد ! قال : فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج فى طلبه ؛ فجاء جبريل عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " إن ربّك يقول لك قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ " . واعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج فى طلب اليهودى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه ، فلما جاء قال : " يا عمر ، ضع سيفك " قال : يا رسول الله ، صدقت ، أشهد إنك أرسلت بالحق . قال : " فإن ربك يقول قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله " قال : لا جرم ! والذى بعثك بالحق لا ترى الغضب فى وجهى .

قلت : وما ذكره المهدويّ والنحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول القُرَظيّ والسُّدّى وعليه يتوجه النسخ فى الآية . وعلى أن الآية نزلت بالمدينة أو فى غزوة بنى المُصْطَلِق فليست بمنسوخة . ومعنى « يغفروا » : يعفوا ويتجاوزوا . ومعنى « لا يرجون أيام الله » : أى لا يرجون ثوابه . وقيل : أى لا يخافون بأس الله ونقمه . وقيل : الرجاء بمعنى الخوف ، كقوله : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (٢) » أى لا تخافون له عظمة . والمعنى : لا تخشون

(١) آية ٢٤٥ سورة البقرة .	(٢) آية ١٣ سورة نوح .

مثل عذاب الأمم الخالية ، والأيام يعبّر بها عن الوقائع . وقيل : لا يأملون نصر الله لأوليـائه وإيقاعه بأعدائه . وقيل : المعنى لا يخـافون البعث.﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَـا كَانُوا يَكسِبُونَ ﴾ قراءة العامة «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى ليجزى الله.وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر «لنجزى» بالنـون على التعظيم . وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة «لِيُجْزَى» بياء مضمومة وفتح الزاى على الفعل المجهول، «قوما» بالنصب . قال أبو عمرو : وهذا لحن ظاهر . وقال الكسائى : معناه ليجزى الجـزاءُ قوما ، نظيره «وَكَذٰلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ» على قراءة ابن عامر وأبى بكر فى سورة «الأنبياء»[1] . قال الشاعر :

ولو وَلَدتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَكَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا[2]

أى لَسُبّ السَّبُّ .

قوله تعـالى : مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

تقـــدّم[3] .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى التوراة.﴿ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الحكم : الفهمُ فى الكتاب . وقيل : الحكم على الناس والقضاء . «والنبوّة» يعنى الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام.﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الحلال

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٣٤ (٢) قائله جرير يهجو الفرزدق . وقفيرة (كجهينة) : أم الفرزدق .

من الأقوات والثمار والأطعمة التى كانت بالشام . وقيـل : يعنى المَنّ والسَّلْوَى فى التِّيه . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أى على عالَمِى زمانهـم ؛ على ما تقـدّم فى « الدخان »(١) بيـانه . ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ قال ابن عباس: يعنى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وشواهد نبوّته بأنه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب، وينصره أهل يثرب . وقيـل : بيّنات الأمر شرائعُ واضحات فى الحلال والحرام ومعجزات . ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يريد يُوشَع بن نُون ؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم ؛ حكاه النقاش . وقيـل : « إلا من بعـد ما جاءهم العلم » نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى حسـدًا على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه الضحاك . وقيل : معنى « بَغْياً » أى بغى بعضهم على بعض يطلب الفضل والرياسة، وقتلوا الأنبياءَ؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البينات ولكن أعرضـوا عنها للمنافسة فى الرياسـة . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى يحـكم ويفصِل . ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعـالى : ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

فيـــه مسألتـان :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَـةٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ الشريعة فى اللغـة : المذهب والملة . ويقال لمشرعة المـاء ـــ وهى مورد الشاربة ـــ : شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد . فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين؛ والجمع الشرائع . والشرائع فى الدين : المذاهب التى شرعها الله لخلقه . فمعنى « جعلناك على شريعة من الأمر » أى على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق . وقال ابن عباس : « على شريعة » أى على هدًى من الأمر . قتادة: الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض . مقاتل : البينة؛ لأنها

(١) راجع ج ١٦ ص

طريق إلى الحق . الكلبي : السُّنة؛ لأنه يُستن بطريقة مَن قبله من الأنبياء . ابن زيد : الدِّين ؛ لأنه طريق النجاة . قال ابن العربي : والأمر يرد في اللغة بمعنيين : أحدهما — بمعنى الشأن كقوله : « فَٱتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » (١) . والثاني — أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي . وكلاهما يصح أن يكون مرادا ها هنا ؛ وتقديره : ثم جعلناك على طريقة من الدِّين وهي ملّة الإسلام؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » (٢) .

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، و إنما خالف بينها في الفروع حسبما علمه سبحانه .

الثانية — قال ابن العربي : ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شَرْعَ مَن قبلنا ليس بشرع لنا ؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته منفردان بشريعة، و إنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني المشركين . وقال ابن عباس : قُريظة والنَّضير . وعنه : نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه .

قوله تعالى : إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي أصدقاء وأنصار وأحباب . قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أولياء اليهود . ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي ناصرهم ومعينهم . والمتقون هنا : الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

---

(١) آية ٩٧ سورة هود . (٢) آية ١٢٣ سورة النحل .

قوله تعــالى : هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعــالى : ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ابتداء وخبر؛ أى هذا الذى أنزلت عليك براهين ودلائل ومعالم للناس فى الحــدود والأحكام . وقرئ « هــذه بصائر » أى هــذه الآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشد وطريق يؤدّى إلى الجنة لمن أخذ به . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ فى الآخرة ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

قوله تعــالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعــالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى اكتسبوها . والاجتراح : الاكتساب ؛ ومنه الجوارح ، وقد تقدّم فى المــائدة[1] . ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ ﴾ قال الكلبي : « الذين اجترحوا » عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة والوليد بن عُتــبة . و « الذين آمنوا » علىّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث — رضى الله عنهم — حين برزوا إليهــم يوم بدر فقتلوهم . وقيــل : نزلت فى قوم من المشركين قالوا : إنهم يعطون فى الآخرة خيرا مما يعطاه المؤمن؛ كما أخبر الرب عنهم فى قوله : «ولئن رُجعتُ إلى ربى إنّ لى عنده للحسنى»[2] . وقوله « أم حسب » استفهام معطوف معناه الإنكار . وأهل العربيــة يجوّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطا للخطاب . وقــوم يقولون : فيــه إضمار؛ أى والله ولىّ المتقين أفيعلم المشركون ذلك أم حسبوا أنا نسوّى بينهم . وقيل : هى أم المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان . وقراءة العامة « سواءٌ » بالرفع على أنه خبر ابتداء مقــدّم ، أى محياهم ومماتهم سواء . والضمير فى «محياهم ومماتهم» يعود على الكفار، أى محياهم محيا سوء ومماتهم كذلك . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش « سواء » بالنصب، واختاره أبو عبيد قال : معناه

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٦ . (٢) آية ٥٠ سورة فصلت .

نجعلهم سواء. وقرأ الأعمش أيضا وعيسى بن عمر «ومماتَهم» بالنصب، على معنى سواء فى محياهم ومماتهم؛ فلما أسقط الخافض انتصب. ويجوز أن يكون «محياهم ومماتهم» بدلا من الهاء والميم فى نجعلهم؛ المعنى: أن نجعل محياهم ومماتهم سواء كمحيا الذين آمنوا ومماتهم. ويجوز أن يكون الضمير فى «محياهم ومماتهم» للكفار والمؤمنين جميعا. قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمنا ويبعث مؤمنا، والكافر يموت كافرا ويبعث كافرا. وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبى الضحا عن مسروق قال قال رجل من أهل مكة: هذا مقام تميم الدارى، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركع ويسجد ويبكى «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية كلها. وقال بشير: بتّ عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلى فمرّ بهذه الآية فمكث ليله حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاء شديد. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرا ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعرى! من أى الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة.

قوله تعالى: وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ أى بالأمر الحق. ﴿وَلِتُجْزَى﴾ أى ولكى تجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى فى الآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئا إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلٰهه الذى يعبده ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن

شـيئا وَهوِيَه اتخذه إلٰهـا . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبـد الآخر . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن قيس السهمى أحد المستهزئين ، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه . وقال سفيان بن عيينة : إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة . وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيبا لذوى العقول من هذا الجهل . وقال الحسن بن الفضل : فى هذه الآية تقديم وتأخير ، مجازه : أفرأيت من اتخذ هواه إلٰهه . وقال الشَّعْبِيّ : إنما سُمِّى الهوى [هَوًى] لأنه يهـوى بصاحبه فى النـار . وقال ابن عباس : ما ذكر الله هَوًى فى القرآن إلا ذمّه ، قال الله تعالى : «وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ»(١) . وقال تعالى : «وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا»(٢) . وقال تعالى «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ»(٣) . وقال تعالى : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ»(٤) . وقال تعالى : «وَلَا تَتَّبِـعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»(٥) . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : ” لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لمـا جئت به “ . وقال أبو أمامة سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : ” ما عُبِد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى “ . وقال شدّاد بن أوس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : ” الكَيِّس من دان نفسه وعمِل لمـا بعد الموت . والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله “ . وقال عليه السـلام : ” إذا رأيت شُحّاً مطاعا وهوًى مُتَّبعاً ودنيا مؤثرة و إعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعْ عنك أمر العامة “ . وقال صلى الله عليه وسـلم : ” ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فالمهلكات شُحٌّ مطاع وهوًى متبع و إعجاب المرء بنفسه . والمنجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب “ . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ؛ فإن كان عمله

---

(١) آية ١٧٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .
(٣) آية ٢٩ سورة الروم . (٤) آية ٥٠ سورة القصص .
(٥) آية ٢٦ سورة ص .

تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح . وقال الأصمعي سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هَوَانٌ سرقت نونه ؛ فأخذه شاعر فنظمه وقال :

نُونُ الهوان من الهَوَى مسروقةٌ * فإذا هَوِيتَ فقد لقيت هوانا

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه * فإذا هويت فقد كَسَبت هوانا
وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى * فاخضع لحبّك كائناً من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة * ألا يُرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها * والحرّ يشبع تارةً ويجوع

ولابن دُرَيْد :

إذا طالبتك النفس يوما بشهوة * وكان إليها للخلاف طريق
فَدَعْها وخالف ما هَوِيت فإنما * هواك عدوٌّ والخلاف صديق

ولأبي عبيد الطُّوسيّ :

والنفس إن أعطيتها مناها * فاغرة نحو هواها فاها

وقال أحمد بن أبي الحَوارَى : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له : أنت عليل . قال نعم . قلت مذكم؟ قال : مذ عرفت نفسي! قلت فتداوى ؟ قال : قد أعياني الدواء، وقد عزمت على الكَيّ . قلت وما الكي ؟ قال : مخالفة الهوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هواك داؤك ؛ فإن خالفته فدواؤك . وقال وهب : إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته .

وللعلماء فى هذا الباب فى ذم الهــوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيــه كفاية منه؛ وحسبك بقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى »(١) .

قوله تعــالى : ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ أى على علم قد علمه منه . وقيل : أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال ابن عباس : أى على علم قد سبق عنده أنه سيضل . مقاتل : على علم منه أنه ضال ؛ والمعنى متقارب . وقيل : على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر . ثم قيل : « على علم » يجوز أن يكون حالا من الفاعل ؛ المعنى : أضله على علم منه به ، أى أضله عالما بأنه من أهل الضلال فى سابق علمه . ويجوز أن يكون حالا من المفعول ؛ فيكون المعنى : أضله فى حال علم الكافر بأنه ضال . ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه الهدى . ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾(٢) أى غطاء حتى لا يبصر الرشد . وقرأ حمــزة والكسائى « غَشْوة » بفتح الغين من غير ألف ، وقد مضى فى « البقرة »(٣) . وقال الشاعر :

أما والــــذى أنــا عبـــدٌ له * يمينًــا ومالَك أبدى اليمــــينا
لــئن كــنت ألبستنى غَشْوة * لقد كنت أصــفيتك الوُدّ حينا

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْــدِ اللهِ﴾ أى من بعد أن أضــله . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتعرفون أنه قادر على ما يشاء .

وهذه الآية ترد على القدرية والإماميــة ومن سلك سبيلهم فى الاعتقاد ؛ إذ هى مصرحة بمنعهم من الهداية . ثم قيل : «وختم على سمعه وقلبه» إنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم . وقيل : إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم ؛ كما تقدم فى أول «البقرة»(٤) . وحكى ابن جريج أنها نزلت

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .		(٢) فى بعض نسخ الأصل : « الهوى » بالواو .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٨٦ .

فى الحـارث بن قيس من الغياطلة[1] . وحكى النقاش أنها نزلت فى الحـارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليـلة ومعه الوليد ابن المغـيرة ، فتحدّثا فى شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق ! فقال له مَهْ ! وما دلّك على ذلك !؟ قال : يا أبا عبـد شمس ، كنا نسمّيه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تمّ عقله وكَمُل رشـده ، نسمّيه الكذاب الخائن ! ! والله إنى لأعلم أنه لصادق ! قال : فمـا يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به؟ قال : تتحدّث عنى بنـات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة ، واللات والعزّى إن اتبعته أبدا . فنزلت « وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِـهِ وَقَلْبِهِ » .

قوله تعـالى : وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَـا ٱلدُّنْيَـا نَمُـوتُ وَنَحْيَـا وَمَا يُهْلِـكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ هـذا إنكار منهم للآخرة وتكذيب للبعث و إبطال للجزاء . ومعنى « نموت ونحيا » أى نموت نحن وتحيا أولادنا ؛ قاله الكلبي . وقرئ « ونُحيا » بضم النون . وقيل : يموت بعضنا ويحيا بعضنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى نحيا ونموت ؛ وهى قراءة ابن مسعود . ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ قال مجاهد : يعنى السنين والأيام . وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد . وقرئ « إلا دهر يمرّ » . وقال ابن عيينة كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذى يهلكنا وهو الذى يحيينا و يميتنا ؛ فنزلت هـذه الآية . وقال قُطْرُب : وما يهلكنا إلا الموت ؛ وأنشد قول أبى ذُؤيب :

أمِن المَنُـونِ ورَيْبِهـا تتوجّعُ * والدّهْرُ ليس بمعتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

(١) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص ٧٥ طبع أوربا) : « بنو قيس بن عدى كانوا من رجال قريش يلقبون الغياطل ، وكان قيس سـيد قريش فى دهره غير مدافع » . قال : « والغياطل : جمع غيطلة ، وهو الشـجر الملتف ، واختلاط الظلام » .

وقال عكرمة : أى وما يهلكنا إلا الله . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان أهل الجاهلية يقولون ما يُهْلِكنا إلا الليل والنهار وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبّون الدهر قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدَّهْرَ وأنا الدَّهْرُ بيدى الأمر أقلّب الليل والنهار" .

قلت : قوله "قال الله" إلى آخره نَصُّ البخارى ولفظه . وخرجه مسلم أيضا وأبو داود . وفى الموطأ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقولنّ أحدكم ياخَيْبَةَ الدهر فإن الله هو الدهر" . وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله . وقال : من لم يجعله من العلماء اسما إنما خرج ردا على العرب فى جاهليتها ؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم فى هذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر؛ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التى تضيفونها إلى الدهر فيرجع السبّ إليه سبحانه ؛ فَنُهُوا عن ذلك . ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم ... " الحديث . ولقد أحسن من قال، وهو أبو علىّ الثقفىّ :

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ * لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِهِ
الدهرُ مأمورٌ له آمرٌ * وينتهى الدهرُ إلى أمره
كم كافرٍ أموالُه جَمَّةٌ * تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ * يزداد إيماناً على فَقْرِه

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيرا ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بنىّ وذِكْرَ الدهر ! وأنشد :

فما الدهر بالجانى لشىء لحَينِه * ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدَّهْرَا
ولكن متى ما يبعث الله باعثا * على معشرٍ يجعلْ مياسيرهم عُسْرَا

وقال أبو عبيد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول "فإن الله هو الدهر" ! ؟
فقلت : وهل كان أحد يسب الله فى آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إن محلا وإنّ مرتحلا * وإنّ فى السّفر إذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالعدل * ل وولّى الملامة الرّجلا

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب ؛ حتى ذكروه فى أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه . قال عمرو بن قميئة :

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى * فكيف بمن يُرمَى وليس برام
فلو أنها نبل إذًا لاتّقيتها * ولكننى أُرمَى بغير سهام
على الراحتين مرّة وعلى العصا * أنُوءُ ثلاثًا بعدهن قيامى

ومثله كثير فى الشعر . ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا ربّ سواه . ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى علم . و « من » زائدة ؛ أى قالوا ما قالوا شاكين . ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى ما هم إلا يتكلمون بالظن . وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك فى البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث فى الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين ؛ فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويردّون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم ؛ فشرّ هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار ؛ لأن هؤلاء يُلبسون على الحق، ويُغتر بتلبيسهم الظاهر . والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم . وقيل : نموت وتحيا آثارنا ؛ فهذه حياة الذكر . وقيل أشاروا إلى التناسخ ؛ أى يموت الرجل فتجعل روحه فى موات فتحيا به .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة فى جواز البعث لم يكن ثَمَّ دَفْعٌ ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبر كان، والاسم «إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا» الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردّ الله عليهم بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ يعنى بعد كونكم نُطَفًا أمواتا ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ كما أحياكم فى الدنيا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم . الزمخشرى : « فإن قلت لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أَدْلَوْا به كما يُدْلِي المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسُمّيت حجة على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله :

* تَحِيّـةُ بينهم ضَرْبٌ وَجِيعُ[(١)] *

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد نفى أن تكون لهم حجـة أَلْبَتّةَ . فإن قلت : كيف وقـع قوله « قل الله يحييكم » جواب « ائتـوا بآبائنا إن كنتم صادقين » ؟ قلت : لمـا أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبَكِّت ألزموا ما هم مقرون به من أن الله عز وجل هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، وضُمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصـغَوْا إلى داعى الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه » .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ « يوم » الأول منصوب بـ « يَخْسَر » و « يومئذ » تكرير للتأكيد

---

(١) هذا عجز بيت لعمرو بن معد يكرب ، وصدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *
يقول : إذا تلاقوا فى الحرب جعلوا بدلا من تحية بعضهم لبعض الضرب الوجيع . ودلفت : زحفت . والدليف : مقاربة الخطو فى المشى .

أو بدل . وقيل : إن التقدير وله الملك يوم تقوم الساعة . والعامل فى « يومئذ » « يخسر » ، ومفعول « يخسر » محذوف ؛ والمعنى يخسرون منازلهم فى الجنة .

قوله تعالى : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أى من هَوْل ذلك اليوم . والأُمّة هنا : أهلُ كل ملة . وفى الجاثية تأويلات خمس : الأوّل — قال مجاهد : مستوفزة . وقال سفيان : المستوفز الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله . الضحاك : ذلك عند الحساب . الثانى — مجتمعة ؛ قاله ابن عباس . الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين . الثالث — متميزة ؛ قاله عكرمة . الرابع — خاضعة بلغة قريش ؛ قاله مُؤَرِّج . الخامس — باركة على الركب ؛ قاله الحسن . والجَثْوُ : الجلوس على الركب . جثا على ركبتيه يجثو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا ؛ على فعول فيهما ، وقد مضى فى « مريم »(1) : وأصل الجثوة(2) : الجماعة من كل شىء . قال طَرَفة يصف قبرين :

ترى جُثْوَتَين من تراب عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيح مُنَضَّد(3)

ثم قيل : هو خاص بالكفار ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إنه عام للؤمن والكافر انتظارا للحساب . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باباه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كأنى أراكم بالكَوْم(4) جاثين دون جهنم" ذكره الماوردى . وقال سلمان : إن فى يوم القيامة لساعةً هى عشر سنين يَخِرّ الناس فيها جُثاةً على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادى "لا أسألك اليوم إلا نفسى" . ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ قال يحيى ابن سلام : إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذى كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر ؛

---

(1) راجع جـ ١١ ص ١٣٢ . (٢) مثلثة الجيم .

(٣) الصم : الصلب . والمنضد : الذى جعل بعضه على بعض .

(٤) الكوم : المواضع المشرفة .

قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد . وقيل : « كتابها » ما كتبت الملائكة عليها . وقيل كتابها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب ها هنا اللوح المحفوظ . وقرأ يعقوب الحضرمى « كُلَّ أمةٍ » بالنصب على البدل من « كل » الأولى لما فى الثانيـة من الإيضاح الذى ليس فى الأولى ؛ إذ ليس فى جُثُوها شيء من حال شرح الجثو كما فى الثانيـة من ذكر السبب الداعى إليه وهو استدعاؤها إلى كتابها . وقيل : انتصب بإعمال « ترى » مضمرا . والرفع على الابتداء . ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر .

قوله تعالى : هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ﴾ قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة . ﴿ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى يشهد . وهو استعارة ؛ يقال : نطق الكتاب بكذا أى بين . وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ؛ فكأنه ينطق عليهم ؛ دليله قوله : « وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »[(١)] . وفى المؤمنين : « وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »[(٢)] وقد تقدم[(٣)] . و « يَنْطِقُ » فى موضع الحال من الكتاب ، أو من ذا ، أو خبر ثان لذا ، أو يكون « كتابنا » بدلا من « هذا » و « ينطق » الخبر . ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى نأمر بنسخ ما كنتم تعملون . قال على رضى الله عنه : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيـه أعمال بنى آدم . وقال ابن عباس : إن الله وكل ملائكة مطهرين فينسخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما يكون من أعمـال بنى آدم فيعارضـون حفظة الله على العباد كل خميس ، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العبـاد موافقا لما فى كتابهم الذى استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيـه ولا نقصان . قال ابن عباس : وهـل يكون النسخ إلا من كتاب . الحسن : نستنسخ ما كتبته الحفظـة

---

(١) آية ٤٩ سورة الكهف . (٢) آية ٦٢ سورة المؤمنون .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٨ و جـ ١٢ ص ١٣٤ .

على بنى آدم ؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال . وقيل : تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد ، ثم إذا عادوا إلى مكانهم نُسخ منه الحسنات والسيئات ؛ ولا تحوّل المباحات إلى النسخة الثانية . وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عز وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى الجنة ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أى فيقال لهم ذلك . وهو استفهام توبيخ . ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن قبولها . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين تكسبون المعاصى . يقال : فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم ؛ فالمجرم من أكسب نفسه المعاصى . وقد قال الله تعالى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ »(١) فالمجرم ضدّ المسلم فهو المذنب بالكفر إذًا .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى البعث كائن . ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة « والساعةَ » بالنصب عطفا على « وَعْدَ » . الباقون بالرفع على الابتداء ، أو العطف

---

(١) آية ٣٥ سورة القلم .

على موضع « إن وعد الله » . ولا يحسن على الضمير الذى فى المصدر ؛ لأنه غير مؤكد ، والضمير المرفوع إنما يعطف عليه بغير تأكيد فى الشعر . ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ ﴾ هل هى حق أم باطل . ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ تقديره عند المبرد : إن نحن إلا نظن ظنا . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ أن الساعة آتية .

قوله تعالى : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أى ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى نزل بهم وأحاط . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من عذاب الله .

قوله تعالى : وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ ﴾ أى نترككم فى النار كما تركتم لقاء يومكم هذا ؛ أى تركتم العمل له . ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى مسكنكم ومستقركم . ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ من ينصركم .

قوله تعالى : ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ هُزُوًا ﴾ لعبا . ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى خدعتكم بأباطيلها وزخارفها ، فظننتم أن ليس ثم غيرها ، وأن لا بعث . ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أى من النار . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون . وقد تقدم[1] . وقرأ حمزة والكسائى « فاليوم لا يَخْرُجُون » بفتح الياء وضم الراء ؛ لقوله تعالى :

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٦٢ و جـ ١٤ ص ٤٩ و جـ ١٥ ص ٣٥٣

« كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا »(١) . الباقون بضم الياء وفتح الراء ؛ لقوله تعالى : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا » . ونحوه .

قوله تعالى : فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قرأ مجاهد وحميد وابن مُحَيْصِن « رَبُّ السموات وربُّ الأرض ربُّ العالمين » بالرفع فيها كلها على معنى هو ربُّ . ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال . ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ والله أعلم .

سورة الأحقاف

مكية فى قول جميعهم . وهى أربع وثلاثون آية ، وقيل خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ تقدّم(٢) . ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ تقدّم أيضا . ﴿ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى القيامة ، فى قول ابن عباس وغيره . وهو الأجل الذى تنتهى إليه السموات والأرض . وقيل : إنه هو الأجل

(١) آية ٢٠ سورة السجدة . (٢) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

المقدور لكل مخلوق . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا ﴾ خُوِّفُوه ﴿ مُعرِضُونَ ﴾ مُوَلُّون لاهون غير مستعدّين له . ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ؛ أي عن إنذارهم ذلك اليوم .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله . ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي هل خلقوا شيئا من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾ أي نصيب ﴿ فِى السَّمَوَاتِ ﴾ أي في خلق السموات مع الله . ﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أي من قبل هذا القرآن .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ قراءة العامة « أو أثارة » بألف بعد الثاء . قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هو خط كانت تخطه العرب في الأرض " . ذكره المهدوي والثعلبي . قال ابن العربي : ولم يصح . وفي مشهور الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " كان نبيّ من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك " ولم يصح أيضا .

قلت: هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمي ، خرجه مسلم . وأسند النحاس : حدّثنا محمد بن أحمد (يعرف بالجرايجي[1]) قال حدّثنا محمد بن بندار قال حدّثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل « أو أثارة من علم » قال " الخط " وهذا صحيح أيضا . قال ابن العربي : واختلفوا في تأويله ؛ فمنهم من قال : جاء لإباحة الضرب ؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله .

(١) اضطربت الأصول في كتابة هذه النسبة .

ومنهم من قال جاء للنهى عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال : " فمن وافق خطه فذاك " ولا سبيل إلى معرفة طريق النبي المتقدم فيه ؛ فإذًا لا سبيل إلى العمل به . قال :

(١)
لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصا * ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع

وحقيقته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب ، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحلّ بهم ، فصار ظناً مبنياً على ظن ، وتعلقاً بأمر غائب قد درست طريقه وفات تحقيقه ؛ وقد نهت الشريعة عنه ، وأخبرت أن ذلك مما اختص الله به ، وقطعه عن الخلق ، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها فى درك الأشياء المغيبة ؛ فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب ؛ فلا يجوز مزاحمته فى ذلك ، ولا يحل لأحد دعواه . وطلبه عناء لو لم يكن فيه نهى ؛ فإذ وقد ورد النهى فطلبه معصية أو كفر بحسب قصد الطالب .

قلت : ما اختاره هو قول الخطابى . قال الخطابى : قوله عليه السلام : " فمن وافق خطه فذاك " هذا يحتمل الزجر إذ كان ذلك علما لنبوته وقد انقطعت ، فنهينا عن التعاطى لذلك . قال القاضى عياض : الأظهر من اللفظ خلاف هذا ، وتصويب خط من يوافق خطه ؛ لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التخرّص وآدعاء الغيب جملة — فإنما معناه أن من وافق خطه فذاك الذى يجدون إصابته ؛ لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم . وحكى مكى فى تفسير قوله : "كان نبى من الأنبياء يخط " أنه كان يخط بأصبعه السبابة والوسطى فى الرمل ثم يزجر . وقال ابن عباس فى تفسير قوله " ومنا رجال يخطون" : هو الخط الذى يخطه الحازى (٢) فيعطى حُلوانا فيقول : آقعد حتى أخط لك ، وبين يدى الحازى غلام معه ميل ثم يأتى إلى أرض رِخوة فيخط الأستاذ خطوطا معجلة لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو على مهل خطين خطين ، فإن بقى خطان فهو علامة النجح ، وإن بقى خط فهو علامة الخيبة . والعرب تسميه الأسحم وهو مشئوم عندهم .

(١) البيت للبيد . والرواية فيه : « الضوارق » بدل « الضوارب » . والطرق : الضرب بالحصا . والطوارق المتكهنات . (٢) الحازى : الكاهن .

الثالثة — قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يُبْق من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ؛ فإنه أذن فيها ، وأخبر أنها جزء من النبوّة وكذلك الفأل ؛ وأما الطِّيَرة والزجر فإنه نهى عنهما . والفأل : هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا ؛ فإن سمع مكروها فهو تطيّر ؛ أمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويمضي على أمره مسرورا . وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجْله ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اللّهُمّ لا طَيْرَ إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ". وقد روى بعض الأدباء :

الفأل والزجر والكهان كلهم * مضلّلون ودون الغيب أقفال

وهذا كلام صحيح ، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به ؛ فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه ؛ فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم .

قلت : قد مضى في الطِّيَرة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في « المائدة »(١) وغيرها . ومضى في « الأنعام »(٢) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب ، وأن أحدا لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله ، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على مَجْرى العادة . وقد يختلف مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر ، وإذا رآها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر . وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تهلك ثمرها فلا تثمر ؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعا ثانيا فتثمر . وكما أنه جائز أيضا ألا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد الله إفناء العالم ذلك الوقت . إلى غير ذلك مما تقدّم في « الأنعام » بيانه .

الرابعة — قال ابن خُوَيْزِمَنداد : قوله تعالى : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » يريد الخط . وقد كان مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه . وإذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحيل والتزوير . وقد روى عنه أنه قال : " يحدث الناس فجورا فتحدث لهم أقضية " . فأما إذا شهد الشهود على الخط المحكوم به ؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه ، أشهدنا على

(١) راجع جـ ٦ ص ٥٩ وما بعدها .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢

ما فيه وإن لم يعلموا ما فى الكتاب . وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك — فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به . وقيل : « أو أثارة من علم » أو بقية من علم ؛ قاله ابن عباس والكلبي وأبو بكر بن عياش وغيرهم . وفى الصحاح «أو أثارة من علم» بقية منه . وكذلك الأَثَرة (بالتحريك) . ويقال : سمِنت الإبل على أثارة ؛ أى بقية شحم كان قبل ذلك . وأنشد الماوردى والثعلبى قول الراعى :

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها * نباتا فى أَكِمّته فقارا

وقال الهَرَوىّ : والأثارة والأثر : البقية ؛ يقال : ما ثَمّ عين ولا أثر . وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : « أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » خاصة من علم . وقال مجاهد : روايةٍ تأثرونها عمن كان قبلكم . وقال عكرمة ومقاتل : رواية عن الأنبياء . وقال القُرَظى : هو الإسناد . الحسن : المعنى شيء يثار أو يستخرج . وقال الزجاج : « أَوْ أَثَارَةٍ » أى علامة . والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة . وأصل الكلمة من الأَثْر ، وهى الرواية ؛ يقال : أثرت الحديث آثُره أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر ؛ إذا ذكرته عن غيرك . ومنه قيل : حديث مأثور ؛ أى نقله خَلَف عن سَلَف . قال الأعشى :

إن الذى فيه تَمَارَيْتُمَا * بُيِّن للسامع والآثر

ويروى « بَيَّن » وقرئ « أَوْ أُثْرَة » بضم الهمزة وسكون الثاء . ويجوز أن يكون معناه بقية من علم . ويجوز أن يكون معناه شيئا مأثورا من كتب الأولين . والمأثور : ما يتحدّث به مما صح سنده عمن تحدّث به عنه . وقرأ السُّلَمى والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ؛ أى خاصة من علم أوتيتموها أو أوثرتم بها على غيركم . وروى عن الحسن أيضا وطائفة « أَثْرة » مفتوحة الألف ساكنة الثاء ؛ ذكر الأولى الثعلبى والثانيةَ الماوردى . وحكى الثعلبى عن عكرمة : أو ميراث من علم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها ؛ فأولها المعقول ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُـمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع . ثم قال : « ائتونِي بِكِتَابٍ مِن قبلِ هذا » فيه بيان أدلة السمع « أو أثارة من علم » .

قوله تعـالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَضَـلُّ ﴾ أى لا أحد أضل وأجهل ﴿ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَـامَةِ ﴾ وهى الأوثان . ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِـمْ غَافِلُونَ ﴾ يعـنى لا يسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها وهى جماد مخـرج ذكور بنى آدم ؛ إذ قـد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التى تخدم .

قوله تعـالى : وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُـمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ يريد يوم القيامة . ﴿ كَانُوا لَهُـمْ أَعْدَاءً ﴾ أى هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيـامة . فالملائكة أعداء الكفار ، والجنّ والشياطين يتبرءون غدًا من عبدتهـم ، ويلعن بعضهم بعضا . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليله قوله تعالى : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ »[1] . وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهـم كانوا سـبب هلاكهم ، وجحـد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

---

(١) آية ٦٣ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ الميم صلة ؛ التقدير : أيقولون افتراه ؛ أى تقوّله محمد . وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا . ومعنى الهمزة فى « أم » الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضىّ منه العجب . وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله و يفتريه على الله ، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة ، و إذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له ، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا ؛ والضمير للحق ، والمراد به الآيات . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ على سبيل الفرض . ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى لا تقدرون على أن تردّوا عنى عذاب الله ؛ فكيف أفترى على الله لأجلكم . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تقولونه ؛ عن مجاهد . وقيل : تخوضون فيه من التكذيب . والإفاضة فى الشىء : الخوض فيه والاندفاع . أفاضوا فى الحديث أى اندفعوا فيه . وأفاض البعير أى دفع جِرّته من كَرِشه فأخرجها ؛ ومنه قول الشاعر :

* وأَفَضْنَ بعد كُظُومهنّ بجِرّة * (١)

---

(١) هذا صدر بيت للراعى ، وعجزه كما فى معجم البلدان لياقوت فى « حقيل » :

* من ذى الأبارق إذ رعين حقيلا *

وذو الأبارق وحقيل : موضع واحد . يقول : كن كظوما من العطش (والكاظم من الإبل الذى أمسك عن الجرة) ، فلما ابتل ما فى بطونها أفضن بجرة .

وأفاض الناس من عرفات إلى مِنًى أى دفعوا، وكل دَفعة إفاضة . ﴿ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا ﴾ نصب على التمييز . ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى هو يعلم صدق وأنكم مبطلون . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أى أوّل من أرسل، قد كان قبلى رسل ؛ عن ابن عباس وغيره . والبِدْع : الأوّل . وقرأ عكرمة وغيره « بِدَعا » بفتح الدال ، على تقدير حذف المضاف ؛ والمعنى : ما كنت صاحب بدَع . وقيل : بِدْع و بديع بمعنًى ؛ مثل نصف ونصيف . وأبدع الشاعر : جاء بالبديع . وشيء بِدْع (بالكسر) أى مبتدَع . وفلان بِدْعٌ فى هذا الأمر أى بديع . وقوم أبداع ؛ عن الأخفش . وأنشد قُطْرُب قولَ عدىّ بن زيد :

فلا أنا بدع من حوادثَ تعترى * رجالا غدت من بعد بؤسى بأسعد[1]

﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ يريد يوم القيامة . ولمّا نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون وقالوا : كيف نتبع نبيًّا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يُفعل به ؛ فنزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[2] فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار . وقالت الصحابة : هنيئا لك يا رسول الله، لقد بين الله لك ما يفعل بك يا رسول الله، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا؟ فنزلت «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»[3] الآية . ونزلت «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا»[4] . قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك . وقالت أم العلاء امرأةٌ من الأنصار : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان

(١) هذا رواية البيت كما فى نسخ الأصل . والذى فى شعراء النصرانية :

فلست بمن يخشى حوادث تعترى * رجالا فبادوا بعد بؤس وأسعد

(٢) آية ٢ سورة الفتح . (٣) آية ٥ سورة الفتح . (٤) آية ٤٧ سورة الأحزاب .

ابن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا فتُوُفِّي، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب! إن الله أكرمك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك أن الله أكرمه" ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟ ! قال: "أمّا هو فقد جاءه اليقين وما رأينا إلا خيرا فوالله إني لأرجو له الجنــة ووالله إني لرســول الله وما أدري ما يفعــل بي ولا بكم" . قالت : فوالله لا أزكّي بعده أحدًا أبدًا . ذكره الثعلبي، وقال : وإنما قال هــذا حين لم يعلم بغفران ذنبه، وإنما غفر الله له ذنبه في غَزْوَة الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين .

قلت : حديثُ أمِّ العلاء خرّجه البخاريّ ، وروايتي فيه: "وما أدري ما يُفعل به" ليس فيــه "بي ولا بكم" وهو الصحيح إن شاء الله، على ما يأتي بيانه . والآية ليست بمنسوخة؛ لأنها خبر . قال النحاس : محــال أن يكون في هــذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين : أحدهما أنه خبر ، والآخر أنه من أوّل السورة إلى هــذا الموضع خطاب للشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للشركين كما كان قبله وما بعده ، ومحال أن يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم للشركين "ما أدري ما يفعل بي ولا بكم" في الآخرة ؛ ولم يزل صلى الله عليه وسلم من أوّل مبعثه إلى ممــاته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار، ومن مات على الإيمان واتّبعه وأطاعه فهو في الجنة ؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم ما يفعل به وبهم في الآخرة . وليس يجوز أن يقول لهم ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ فيقولون كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفض ودَعة أم إلى عذاب وعقاب . والصحيح في الآية قول الحسن ، كما قرأ علي بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا أبو بكر الهذلي عن الحسن «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا» قال أبو جعفر : وهــذا أصح قولٍ وأحسنه ، لا يدري صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر . ومثله «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّــوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ(١)» . وذكر الواحدي وغيره عن الكلبي عن أبي صالح عن

(١) آية ١٨٨ سورة الأعراف .

ابن عباس : لما اشتدّ البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ؛ فقصّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا : يا رسول الله ، متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟ فسكت النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وما أدرِى ما يُفعل بِى ولا بِكم » أى لا أدرى أأخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أم لا . ثم قال : " إنما هو شىء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يُوحَى إلىّ " أى لم يوح إلىّ ما أخبرتكم به . قال القُشَيرى : فعلى هذا لا نسخ فى الآية . وقيل : المعنى لا أدرى ما يفرض علىّ وعليكم من الفرائض . واختار الطبرى أن يكون المعنى : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا ، أتؤمنون أم تكفرون ، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخّرون .

قلت : وهو معنى قول الحسن والسُّدّى وغيرهما . قال الحسن : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه فى الجنة حين أخذ ميثاقه فى الرسل ، ولكن قال ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى ، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلى ؛ ولا أدرى ما يفعل بكم ؛ أأمتى المصدّقة أم المكذّبة ، أم أمتى المرمية بالحجارة من السماء قَذْفًا ، أو مخسوفٌ بها خَسْفًا ؛ ثم نزلت « هو الذِى أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى ودِينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[(1)] . يقول : سيظهر دينه على الأديان . ثم قال فى أمته : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »[(2)] فأخبره تعالى بما يصنع به وبأمته ؛ ولا نسخ على هذا كله ، والحمد لله . وقال الضحاك أيضا : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " أى ما تؤمرون به وتنهون عنه . وقيل : أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى القيامة ؛ ثم بيّن الله تعالى ذلك فى قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » وبيّن فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بين حال الكافرين .

قلت : وهذا معنى القول الأول ؛ إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان ، وأنه أمر أن يقول ذلك للمؤمنين ؛ والصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره . و « ما » فى « ما يفعل » يجوز أن

(١) آية ٣٣ سورة التوبة . (٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .

تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وقرئ « يوحِي » أي الله عز وجل . تقدّم في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن . ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وقال الشعبي : المراد محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبدُ الله بن سَلَام ، شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور في التوراة ، وأنه نبيّ من عند الله . وفي الترمذي عنه : ونزلت فيّ آيات من كتاب الله ، نزلت فيّ « وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » . وقد تقدّم في آخر سورة «الرعد»(١) . وقال مسروق : هو موسى والتوراة ، لا ابن سَلَام ؛ لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية . وقال : وقوله « وكفرتم به » مخاطبة لقريش . الشعبي : هو من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوراة ؛ لأن ابن سَلَام إنما أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعامين ، والسورة مكية . قال القُشَيْرِيّ : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية ، وأسلم ابن سَلَام قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بعامين . ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع في سورة مكية ؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ضعوها في سورة كذا . والآية في محاجة المشركين ، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود في أشياء ؛ أي شهادتهم لهم وشهادة نبيّهم لي من أوضح الحجج . ولا يبعد أن تكون السورة في محاجة اليهود ، ولما جاء ابن سَلَام مُسْلِمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال : يا رسول الله ، اجعلني حَكَمًا بينك وبين اليهود ، فسألهم عنه : " أيّ رجلٍ هو فيكم " قالوا : سيِّدُنا وعالمنا . فقال : " إنه قد آمن بي " فأساءوا القول فيه .. الحديث ،

(١) راجع ج ٩ ص ٣٣٥

وقد تقدّم (١) . قال ابن عباس : رضيت اليهود بحكم ابن سلام ، وقالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن يشهد لك آمنا بك؛ فسئل فشهد ثم أسلم. ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ أى على مثل ما جئتكم به ؛ فشهد موسى على التوراة ومحمد على القرآن . وقال الجُرْجانى . « مِثْل » صلة ، أى وشهد شاهد عليه أنه من عند الله . ﴿فَآمَنَ﴾ أى هذا الشاهد. ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن الإيمان. وجواب « إن كان » محذوف تقديره : فآمن أتؤمنون؛ قاله الزجاج . وقيل : « فآمن واستكبرتم » أليس قد ظلمتم ؛ يبيّنه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقيل : «فآمن واستكبرتم» أفتأمنون عذاب الله . و « أرأيتم » لفظ موضوع للسؤال والاستفهام؛ ولذلك لا يقتضى مفعولا . وحكى النقاش وغيره : إن فى الآية تقديما وتأخيرا ، وتقديره : قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بنى إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ اختلف فى سبب نزولها على ستة (٢) أقوال :

الأوّل — أن أباذرّ الغفارى دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا ؛ فبلغ ذلك قريشا فقالوا : غفارُ الحلفاء لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو المتوكل .

الثانى — أن زِنّيرة (٣) أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها : أصابك اللاتُ والعُزّى ؛ فردّ الله عليها بصرها . فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زِنّيرة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عروة بن الزبير .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣٥ (٢) كذا فى نسخ الأصل . و يلاحظ أن المؤلف رحمه الله ذكر خمسة أقوال .
(٣) زنيرة (بكسر الزاى وتشديد النون المكسورة) : رومية ، وكانت من السابقات إلى الإسلام ، وممن يعذب فى الله ، وكان أبو جهل يعذبها ، وهى من السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصديق وأنقذهم من التعذيب .

الثالث — أن الذين كفروا هم بنو عامر وغَطَفان وتميم وأَسَد وحَنْظَلة وأَشْجَع ، قالوا لمن أسلم من غِفار وأسلم وجُهينة ومُزينة وخزاعة : لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه رُعاة البَهْم إذ نحن أعزّ منهم؛ قاله الكلبي والزّجاج، وحكاه القُشيري عن ابن عباس . وقال قتادة : نزلت في مشركي قريش ، قالوا : لو كان ما يدعونا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه بِلال وصُهيب وعَمّار وفلان وفلان . وهو القول الرابع .

القول الخامس — أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعني عبد الله بن سَلَام وأصحابه : لو كان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه ؛ قاله أكثر المفسرين ، حكاه الثعلبي . وقال مسروق : إن الكفار قالوا لو كان خيرا ما سبقتنا إليه اليهود ، فنزلت هذه الآية .

وهذه المعارضة من الكفار في قولهم : لو كان خيرا ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات بانقلابها عليهم لكل من خالفهم ؛ حتى يقال لهم : لو كان ما أنتم عليه خيرا ما عدلنا عنه ، لو كان تكذيبكم للرسول خيرا ما سبقتمونا إليه؛ ذكره الماوردي . ثم قيل : قوله « ما سبقونا إليه » يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين ، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »(1) . ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ يعني الإيمان . وقيل القرآن . وقيل محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أي لما لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به عادَوْه ونسبوه إلى الكذب ، وقالوا هذا إفك قديم ؛ كما قالوا : أساطير الأولين . وقيل لبعضهم : هل في القرآن : من جهل شيئا عاداه ؟ فقال نعم ؛ قال الله تعالى : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » ومثله « بل كَذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه »(2) .

قوله تعالى : وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

(1) آية ٢٢ سورة يونس . (2) آية ٣٩ سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى ومن قبل القرآن ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ أى التوراة ﴿ إِمَاماً ﴾ يقتدى بما فيه ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من الله . وفى الكلام حذف؛ أى فلم تهتدوا به . وذلك أنه كان فى التوراة نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم والإيمانُ به فتركوا ذلك . و « إماماً » نصب على الحال؛ لأن المعنى : وتقدّمه كتاب موسى إمامًا . «ورحمةً» معطوف عليه . وقيل : انتصب بإضمار فعل؛ أى أنزلناه إماما ورحمة . وقال الأخفش : على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة ، لأن النكرة إذا أعيدت أو أضيفت أو أدخل عليها ألفا ولاما صارت معرفة . ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ ﴾ يعنى للتوراة ولما قبله من الكتب . وقيل : مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ لِسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ منصوب على الحال؛ أى مصدّق لما قبله عربيا ، و « لسانا » توطئة للحال أى تأكيد ؛ كقولهم : جاءنى زيد رجلا صالحا ؛ فتذكر رجلا توكيدا . وقيل : نصب بإضمار فعل تقديره : وهذا كتاب مصدّق أعنى لسانا عربيا . وقيل : نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره : بلسان عربى . وقيل : إن لسانا مفعول والمراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى وهذا كتاب مصدّق للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه معجزته ؛ والتقدير : مصدّق ذا لسان عربى . فاللسان منصوب بمصدّق، وهو النبى صلى الله عليه وسلم . ويبعد أن يكون اللسان القرآن ؛ لأن المعنى يكون يصدّق نفسه . ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قراءة العامة « لينذر » بالياء خبرا عن الكتاب؛ أى لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية . وقيل : هو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقرأ نافع وابن عامر والبَزّى بالتاء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ « بشرى » فى موضع رفع؛ أى وهو بشرى . وقيل : عطفًا على الكتاب؛ أى وهذا كتاب مصدّق وبشرى . ويجوز أن يكون منصوبا بإسقاط حرف الخفض ؛ أى لينذر الذين ظلموا وللبشرى ؛ فلما حذف الخافض نصب . وقيل : على المصدر ؛ أى وتبشر المحسنين بشرى؛ فلما جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة نصب ؛ كما تقول : أتيتك لأزورك ، وكرامة لك وقضاء لحقك ؛ يعنى لأزورك وأكرمك وأقضى حقك؛ فنصب الكرامة بفعل مضمر .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الآية تقدم معناها[(١)] . وقال ابن عباس : نزلت فى أبى بكر الصديق . والآية تعم . ﴿جَزَاءً﴾ نصب على المصدر .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ بين اختلاف حال الإنسان مع أبويه، فقد يطيعهما وقد يخالفهما؛ أى فلا يبعد مثل هذا فى حق النبىّ صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويكفر البعض . فهذا وجه اتصال الكلام بعضه ببعض؛ قاله القشيرىّ .

الثانيــة — قوله تعالى : « حسنا » قراءة العامة « حُسْنًا » وكذا هو فى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام . وقرأ ابن عباس والكوفيون « إِحْسَانًا » وحجتهم قوله تعالى فى سورة (الأنعام وبنى إسرائيل) : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[(٢)] وكذا هو فى مصاحف الكوفة . وحجة القراءة الأولى قوله تعالى فى سورة العنكبوت : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا »[(٣)]

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٧ (٢) آية ١٥١ سورة الأنعام، ٢٣ سورة الإسراء . (٣) آية ٨

ولم يختلفوا فيها . والحُسْن خلاف القُبح . والإحسان خلاف الإساءة . والتوصية الأمر . وقد مضى القول فى هذا وفيمن نزلت[(١)] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أى بكره ومشقة . وقراءة العامة بفتح الكاف . واختاره أبو عبيد، قال : وكذلك لفظ الكره فى كل القرآن بالفتح إلا التى فى سورة البقرة « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ »[(٢)] لأن ذلك اسم وهذه كلها مصادر . وقرأ الكوفيون « كُرْهًا » بالضم . قيل : هما لغتان مثل الضُّعْف والضَّعف والشُّهْد والشَّهْد؛ قاله الكسائى، وكذلك هو عند جميع البصريين . وقال الكسائىّ أيضا والفراء فى الفرق بينهما : إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه، و بالفتح ما حمل على غيره؛ أى قهرا وغصبا ؛ ولهذا قال بعض أهل العربية : إن كرها (بفتح الكاف) لحن .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا، و إن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا . و روى أن عثمان قد أُتِىَ بامرأة قد ولدت لستة أشهر؛ فأراد أن يقضى عليها بالحدّ؛ فقال له علىّ رضى الله عنه : ليس ذلك عليها، قال الله تعالى : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » وقال تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فالرضاع أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها . وقد مضى فى « البقرة »[(٣)] . وقيل : لم يعدّ ثلاثة أشهر فى ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نُطْفَة وعَلَقَة ومُضْغَة فلا يكون له ثقل يُحَس به ، وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ »[(٤)] . والفصال الفطام . وقد تقدّم فى « لقمان »[(٥)] الكلام فيه . وقرأ الحسن و يعقوب وغيرهما « وفَصْله » بفتح الفاء وسكون الصاد . و روى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصديق، وكان حمله وفصاله فى ثلاثين شهرا ، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهرا . وفى الكلام إضمار؛

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ (٢) آية ٢١٦ (٣) راجع جـ ٣ ص ١٦٠ وما بعدها .
(٤) آية ١٨٩ سورة الأعراف . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٦٤ وما بعدها .

أى ومدّة حمله ومدّة فصاله ثلاثون شهرا ؛ ولولا هـذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغيّر المعنى .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال ابن عباس : ثمانى عشرة سنة . وقال فى رواية عطاء عنه : إن أبا بكر صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبيّ صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سـنة ، وهم يريدون الشام للتجارة ، فنزلوا منزلا فيـه سدرة ، فقعد النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسأله عن الدِّين . فقال الراهب : مَن الرجل الذى فى ظل الشـجرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبـد الله ابن عبد المطلب . فقال : هذا والله نبيّ ، وما آستظل أحد تحتها بعد عيسى . فوقع فى قلب أبى بكر اليقين والتصديق ؛ وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسفاره وحضره . فلما نُبِّئ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سـنة ، صدّق أبو بكر رضى الله عنه رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم وهو ابن ثمانية وثلاثين سـنة . فلما بلغ أربعين سـنة قال : « رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ » الآية . وقال الشـعبيّ وابن زيد : الأشُدّ الحُلُم . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين . وعنه قيام الحجة عليه . وقد مضى فى « الأنعام » الكلام[(١)] فى الآية . وقال السدى والضحاك : نزلت فى سعد بن أبى وقاص . وقد تقدّم[(٢)] . وقال الحسن : هى مرسلة نزلت على العموم . والله أعلم .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى ﴾ أى ألهمنى . ﴿ أَنْ أَشْكُرَ ﴾ فى موضع نصب على المصـدر ؛ أى شكر نعمتك ﴿ عَلَىَّ ﴾ أى ما أنعمت به علىّ من الهـداية ﴿ وَعَلَى وَالِدَىَّ ﴾ بالتحنن والشفقة حتى ربيانى صغيرا . وقيـل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية وعلى والدىّ بالغنى والثروة . وقال علىّ رضى الله عنه : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ؛ أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك مَن بعده . ووالده هو أبو قحـافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم . وأمّه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٨ و جـ ١٤ ص ٦٣

أم الخير ، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد . وأم أبيه أبي قحافة « قَيْلة » (بالياء المعجمة باثنتين من تحتها) . وامرأة أبي بكر الصدّيق اسمها « قُتيلة » (بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها) بنت عبد العُزّى . ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ قال ابن عباس : فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذَّبون في الله منهم بلال وعامر بن فُهيرة ؛ ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح منكم اليوم صائما " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن تبع منكم اليوم جنازة " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن أطعم منكم اليوم مسكينا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال : " فمن عاد منكم اليوم مريضا " ؟ قال أبو بكر أنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما اجتمعن في آمرئ إلا دخل الجنة " .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي آجعل ذرّيتي صالحين . قال ابن عباس : فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر . وقال سهل بن عبد الله : المعنى اجعلهم لي خَلَف صِدق ، ولك عبيد حق . وقال أبو عثمان : اجعلهم أبرارا لي مطيعين لك . وقال ابن عطاء : وفقهم بصالح أعمال ترضى بها عنهم . وقال محمد بن علي : لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلا . وقال مالك بن مِغْوَل : اشتكى أبو معشر آبنَه إلى طَلْحة بن مُصَرِّف ؛ فقال : استعن عليه بهذه الآية ؛ وتلا « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه . ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي المخلصين بالتوحيد .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما . وقرئ « يَتَقَبَّلُ ، وَيَتَجَاوَزُ » بفتح الياء ؛ والضمير فيهما يرجع لله عز وجل . وقرأ حفص وحمزة والكسائي « نتقبل ، ونتجاوز » بالنون فيهما ؛ أى نغفرها ونصفح عنها . والتجاوز أصله من جزت الشيء إذا لم تقف عليه . وهذه الآية تدل على أن الآية التي قبلها « ووصينا الإنسان » إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم . وهو قول الحسن . ومعنى « نتقبل عنهم » أى نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات . قال زيد بن أسلم — ويحكيه مرفوعا — : إنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم . وقيل : الأحسن ما يقتضى الثواب من الطاعات ، وليس فى الحسن المباح ثواب ولا عقاب ؛ حكاه ابن عيسى . ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ « فى » بمعنى مع ، أى مع أصحاب الجنة ، تقول : أكرمك وأحسن إليك فى جميع أهل البلد ، أى مع جميعهم . ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ ﴾ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله ؛ أى وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق . وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ؛ لأن الصدق هو ذلك الوعد الذى وعده الله ؛ وهو كقوله تعالى : « حَقُّ الْيَقِينِ »(١) . وهذا عند الكوفيين ، فأما عند البصريين فتقديره : وعد الكلام الصدق أو الكتاب الصدق ، فحذف الموصوف . وقد مضى هذا فى غير موضع(٢) . ﴿ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ فى الدنيا على ألسنة الرسل ؛ وذلك الجنة .

قوله تعالى : وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى أن أبعث . ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ قراءة نافع وحفص وغيرهما « أُفٍّ » مكسور منوّن . وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن والمفضل عن عاصم « أُفَّ » بالفتح من غير تنوين . الباقون بالكسر غير منوّن ؛ وكلها لغات ، وقد مضى فى « بنى إسرائيل »(١) . وقراءة العامة « أتعدانِنِي » بنونين مخففتين . وفتح ياءه أهل المدينة ومكة . وأسكن الباقون . وقرأ أبو حَيْوَة والمغيرة وهشام « أتعدانّى » بنون واحدة مشدّدة ؛ وكذلك هى فى مصاحف أهل الشام . والعامة على ضم الألف وفتح الراء من « أن أُخرج » . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء . قال ابن عباس والسُّدِّى وأبو العالية ومجاهد : نزلت فى عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما ، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عز وجل . وقال قتادة والسدى أيضا : هو عبد الرحمن بن أبى بكر قبل إسلامه ، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام و يعدانه بالبعث ؛ فيردّ عليهما بما حكاه الله عز وجل عنه ؛ وكان هذا منه قبل إسلامه . و روى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت أن تكون نزلت فى عبد الرحمن . وقال الحسن وقتادة أيضا : هى نعت عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه . وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ » أى العذاب ، ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين ؛ فالصحيح أنها نزلت فى عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه . وقال محمد بن زياد : كتب معاوية إلى مروان ابن الحكم حتى يبايع الناس ليزيد ؛ فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : لقد جئتم بها هِرَقْلِيَّة(٢) ، أتبايعون لأبنائكم ! فقال مروان : هو الذى يقول الله فيه «والذى قال لوالديه أُفٍّ لكما» الآية . فقال : والله ما هو به ، ولو شئت لسمّيت ، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت فَضَض(٣) من لعنة الله . قال المهدوىّ : ومن جعل الآية فى عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك « أولئك الذين

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٢ .
(٢) أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم ؛ وهرقل : اسم ملك الروم .
(٣) كل ما انقطع من شىء أو تفرق فهو فضض ؛ أراد أنك قطعة وطائفة منها .

حَقَّ عليهم القول» يراد به من اعتقد ما تقدّم ذكره؛ فأوّل الآية خاص وآخرها عام . وقيل : إن عبد الرحمن لما قال « وقد خلت القرون من قبلى » قال مع ذلك : فأين عبد الله آبن جُدْعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقولون .فقوله « أولئك الذين حَقّ عليهم القولُ » يرجع إلى أولئك الأقوام .

قلت : قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبى بكر فى سورة «الأنعام» عند قوله « له أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إلى الهُـدَى »[(١)] ما يدل على نزول هذه الآية فيه؛ إذ كان كافرا وعند إسلامه وفضله تعيّن أنه ليس المراد بقوله « أولئك الذين حَقَّ عليهم القولُ » . ﴿ وَهُمَا ﴾ يعنى والديه . ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى يدعوان الله له بالهداية . أو يستغيثان بالله من كفره ؛ فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . وقيل : الاستغاثة الدعاء؛ فلا حاجة إلى الباء . قال الفرّاء : أجاب الله دعاءه وغُواثه . ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ ﴾ أى صدّق بالبعث . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى صدْق لا خلف فيه . ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا ﴾ أى ما يقوله والداه . ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ يعنى الذين أشار إليهم آبن أبى بكر فى قوله أَحْيُوا لى مشايخ قريش ، وهم المعنيّون بقوله « وقد خلت القرون من قبلى » . فأما آبن أبى بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه فى قوله « وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» على ما تقدّم . ومعنى «حَقَّ عليهم القولُ» أى وجب عليهم العذاب، وهى كلمة الله : "هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى" . ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أى مع أمم . ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ تقدّمت ومضت . ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الكافرين ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى تلك الأمم الكافرة ﴿ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ لأعمالهم ؛ أى ضاع سعيهم وخسروا الجنة .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾ أى ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنّ والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار فى هـذه الآية تذهب سِفالا، ودرج أهل الجنة عُلُوًّا . ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو و يعقوب بالياء لذكر الله قبله ، وهو قوله تعالى : « إنّ وعد الله حقٌّ » واختاره أبو حاتم . الباقون بالنون ردًّا على قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ » وهو اختيار أبي عبيد . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا يزاد على مسىء ولا ينقص من محسن .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ﴾ أى ذكّرهم يا محمد يوم يعرض . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى يكشف الغطاء فيقرّبون من النار وينظرون إليها . ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ أى يقال لهم أذهبتم ؛ فالقول مضمر . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية و يعقوب وابن كثير « أأذهبتم » بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو حَيْوة وهشام « آذهبتم » بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام . الباقون بهمزة واحدة من غير مدّ على الخبر، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ، والعرب توبّخ بالاستفهام وبغير الاستفهام ؛ وقد تقدّم . واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبى عمرو وحمزة والكسائى، مع من وافقهم شيبة والزهرى وابن محيصن والمغيرة بن أبى شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلّة الناس . وترك الاستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك ، كما تقول : أنا ظلمتك ؟ تريد أنا لم أظلمك . وإثباته حسن أيضا ؛ يقول القائل : ذهبت فعلت كذا ؛ يُوَبِّخ و يقول : أذهبت فعلت ! كل ذلك جائز . ومعنى

« أذهبتم طَيِّبَاتِكم » أى تمتعتم بالطيبات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات؛ يعنى المعاصى . ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى عذاب الخزى والفضيحة . قال مجاهد : الهون الهوان. قتادة : بلغة قريش .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ فى أفعالكم بَغْيًا وظلمًا . وقيل : « أذهبتم طيباتكم » أى أفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى . قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوّة؛ مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه؛ أى شبابه وقوّته . قال الماوردِىّ : ووجدت الضحاك قاله أيضا .

قلت : القول الأوّل أظهر ، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاءً وصنابا وصَلائِقَ، ولكنى استبقى حسناتى ؛ فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » وقال أبو عبيد فى حديث عمر : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة . وفى بعض الحديث : وأفلاذ . قال أبو عمرو وغيره : الصلاء (بالمدّ والكسر) : الشواء؛ سُمِّىَ بذلك لأنه يُصْلَى بالنار . والصِّلاء أيضا : صلاء النار؛ فإن فتحت الصاد قصرت وقلت : صَلَى النار . والصِّناب : الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب . قال أبو عمرو : ولهذا قيل للبرذَوْن : صِنابِىّ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك . قال : والسلائق (بالسين) هو مايسلق من البقول وغيرها . وقال غيره : هى الصلائق بالصاد؛ قال جرير :

تُكَلِّفُنِي معيشةَ آلِ زيدٍ * ومَن لى بالصّلائق والصِّناب

والصلائق : الخبز الرقاق العريض . وقد مضى هذا المعنى فى « الأعراف »(١) . وأما الكراكر فكراكر الإبل ، واحدتها كِركِرة وهى معروفة ؛ هذا قول أبى عبيد . وفى الصحاح : والكِرْكِرة رَحَى زَوْر البعير، وهى إحدى الثفنات الخمس . والكِركِرة أيضا الجماعة من

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩٨

الناس . وأبو مالك عمرو بن كِركِرة رجل من علماء اللغة . قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهي القطعة من الكَبِد . قال أعشى باهلة :

تَكْفِيــهِ حُــزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمّ بهـا * من الشِّـواء ويُرْوِي شُرْبَه الغُمَرُ (١)

وقال قتـادة : ذكر لنا أن عمر رضي الله عنــه قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما، وألينكم لباسا، ولكني أستبق طيباتي للآخرة . ولمـا قدم عمر الشام صُنع له طعام لم ير قط مثله قال : هذا لنا! فمـا لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير! فقال خالد ابن الوليد : لهم الجنة؛ فاغْرَوْرَقت عَيْنَا عمرَ بالدموع وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا هم في حظهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيدا . وفي صحيح مسلم وغيره أن عمر رضي الله عنه دخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في مَشْرُبته (٢) حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئا يردّ البصر إلا أُهُبًا (٣) جلودا معطونة قد سـطع ريحها؛ فقلت : يارسول الله، أنت رسول الله وخِيرته، وهذا كِسْرى وقَيْصر في الدِّيباج والحرير؟ قال : فاستوى جالسا وقال : "أَفي شَكٍّ أنت يابن الخطاب . أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيـا" فقلت : استغفر لي! فقال : "اللَّهُمّ اغفر له" . وقال حفص بن أبي العاص : كنت أتغدّى عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبز والزيت، والخبز والخل، والخبز واللبن، والخبز والقَديد، وأقلّ ذلك اللحم الغريض (٤) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كلّه؛ فجيء بخبز متفلّع (٥) غليظ؛ فجعل يأكل ويقول : كلوا؛ فجعلنا لا نأكل؛ فقال : ما لكم لا تأكلون؟ فقلنـا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا؛ فقال : يابن أبي العاص أما ترى بأني عالم أن لو أمرتُ بعَنَـاق (٦) سمينة فيلقى عنها شـعرها ثم تُخرج مَصْلِيّة (٧) كأنهـا كذا وكذا،

---

(١) الغمر (بضم الأول وفتح الثاني) : القدح الصغير .

(٢) المشربة (بفتح الميم والراء) : الموضع الذي يشرب منه الناس . (وبضم الراء وفتحها) : الغرفة .

(٣) بضم الهمزة والهاء، وبفتحهما على غير قياس؛ جمع إهاب؛ وهو الجلد . (٤) الغريض : الطري .

(٥) في نسخة من الأصل : « متقلع » بالقاف . والمتفلع : المتشقق . (٦) العناق : الأنثى من ولد المعز؛ والجمع أعنق وعنوق . (٧) الصلاء (بالكسر) : الشواء .

أَمَا ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشُنّ عليه من المـاء فيصبح كأنه دم غزال؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل(١) ! ما تنعت العيش ؛ قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركناكم فى العيش! ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : « أذهبتم طيّباتِكم فِى حياتِكم الدنيا واستمتعتم بِها » . ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى الهوان . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله . ﴿ وبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ تخرجون عن طاعة الله . وقال جابر : اشتهى أهلى لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما هذا يا جابر؟ فأخبرته ؛ فقال : أوكلما اشتهى أحدكم شيئا جعله فى بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم » الآية . قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والمـاء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها استسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمّارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوّله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله . والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبًا كان أو قفارا(٢) ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدِم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللّحم إذا تيسّر؛ ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله دَيْدَنًا . ومعيشة النبيّ صلى الله عليه وسلم معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهَب الإخلاص ، ويُعين على الخلاص برحمته . وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحللة ، وهو حسن ؛ فإن

(١) فى بعض نسخ الأصل : «أجاد» .

(٢) القفار (بالفتح) : الطعام بلا أدم .

تناول الطيب الحلال مأذون فيه ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين . ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ أى اذكر لهؤلاء المشركين قصة عادٍ ليعتبروا بها . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود ليقتدى به ، ويهون عليه تكذيب قومه له . والأحقاف : ديار عاد ، وهى الرمال العظام ؛ فى قول الخليل وغيره . وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم . والأحقاف جمع حِقْف ، وهو ما استطال من الرمل العظيم وآعوج ولم يبلغ أن يكون جبلا ، والجمع حِقاف وأحقاف [وحقوف] . وآحقوقف الرمل والهلال أى آعوج . وقيل : الحِقف جمع حِقاف . والأحقاف جمع الجمع . ويقال : حِقْفٌ أحقف . قال الأعشى :

* بات إلى أرطاة حِقف أحْقَفَا (١) *

أى رمل مستطيل مشرف . والفعل منه آحقوقف . قال العجاج :

طىّ الليالى زُلَفًا فزلفا * سَمَاوَةَ الهلال حتى احقوقفا

أى انحنى واستدار . وقال امرؤ القيس :

كحِقف النقا (٢) يمشى الوِليدانِ فوقه * بما احتسبا من لِين مَسٍّ وتَسْهالِ

وفيما أريد بالأحقاف هاهنا مختلف فيه . فقال ابن زيد : هى رمال مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ؛ وشاهده ما ذكرناه . وقال قتادة : هى جبال

(١) هذا الرجز نسبه الطبرى فى تفسيره الى العجاج ؛ ولم نعثر عليه فى شعر الأعشى ولا فى أراجيز العجاج . والأرطاة : جمعه أرطى ، وهو شجر من شجر الرمل . (٢) النقا : الكثيب من الرمل .

مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْر قريب من عدن؛ يقال: شِحْر عُمَان وشَحْر عمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن. وعنه أيضا: ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر. وقال مجاهد: هى أرض من حِسْمَى تسمى بالأحقاف. وحِسْمَى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها. قال النابغة:

فأصبحَ عاقِلًا بجبالِ حِسْمَى * دُقاقَ التُّرْبِ مُحْتَزِمَ القَتامِ (١)

قاله الجوهرى. وقال ابن عباس والضحاك: الأحقاف جبل بالشام. وعن ابن عباس أيضا: وادٍ بين عُمان ومهرة. وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بوادٍ يقال له مهرة، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيّة (٢)؛ فيقال: إبل مَهْرِيّة ومَهارِى. وكانوا أهل عُمُدٍ سيّارة فى الربيع فإذا هاجَ (٣) العود رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم. وقال الكلبى: أحقاف الجبل ما نَضَب عنه الماء زمان الغرق، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره. وروى الطُّفيل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: خيرُ وادِيَيْن فى الناس وادٍ بمكة ووادٍ نزل به آدم بأرض الهند. وشرُّ وادِيَيْن فى الناس وادٍ بالأحقاف ووادٍ بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواح الكفار. وخير بئر فى الناس بئر زمزم. وشر بئر فى الناس بئر بَرَهُوت، وهو فى ذلك الوادى الذى بحضرموت. ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ أى مضت الرسل. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أى من قبل هود. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أى ومن بعده؛ قاله الفرّاء. وفى قراءة ابن مسعود «من بين يديه ومن بعده». ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا من قول المرسل، فهو كلام معترض. ثم قال هود ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل «ألا تعبدوا إلا الله» من كلام هود، والله أعلم.

قوله تعالى: قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم

(١) قال ابن بَرّى: «أى حسمى قد أحاط به القتام كالحزام له». (٢) فى معجم البلدان لياقوت وكتب اللغة أن الإبل المهرية تنسب الى مهرة بن حيدان أبو قبيلة. (٣) هاج البقل: إذا أخذ فى اليبس.

مَآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — لتزيلنا عن عبادتها بالإفك . الثاني — لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع؛ قاله الضحاك . قال عُرْوة بن أُذَيْنَة :

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ * فُوكًا ففي آخرين قد أفكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت في قوم قد صرفوا . ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد . ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أنك نبي . ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ ﴾ بوقت مجيء العذاب . ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ لا عندي . ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ عن ربكم . ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ في سؤالكم استعجال العذاب . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ قال المبرد: الضمير في « رأوه » يعود إلى غير مذكور؛ وبيّنه قوله : « عَارِضًا » فالضمير يعود إلى السحاب؛ أي فلما رأوا السحاب عارضا . و« عارضا » نصب على التكرير؛ سُمّيَ بذلك لأنه يبدو في عرض السماء . وقيل : نصب على الحال . وقيل : يرجع الضمير إلى قوله : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » فلما رأوه حسبوه سحابا يمطرهم ، وكان المطر قد أبطأ عنهم ، فلما رأوه « مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » استبشروا . وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال الجوهري : والعارض السحاب يعترض في الأفق؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ أي ممطر لنا ؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة . والعرب إنما تفعل مثل هذا في الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها . قال جرير :

يارُبَّ غابِطنا لوكان يطلبكم * لاقَى مباعدةً منكم وحِرْمانا

ولا يجوز أن يقال : هذا رجل غلامنا . وقال أعرابي بعد الفطر : رُبَّ صائمة لن تصومه وقائمة لن تقومه؛ فجعله نعتا للنكرة وأضافه إلى المعرفة .

قلت : قوله : « لا يجوز أن يكون صفة لعارض » خلاف قول النحويين ، والإضافة في تقدير الانفصال ، فهي إضافة لفظية لا حقيقية ؛ لأنها لم تفد الأول تعريفا ، بل الاسم نكرة على حاله ؛ فلذلك جرى نعتا على النكرة . هـذا قول النحويين في الآية والبيت . ونعت النكرة نكرة . و « رُبّ » لا تدخل إلا على النكرة . ﴿ بَلْ هُـوَ ﴾ أي قال هُودٌ لهم . والدليل عليه قراءة من قرأ « قال هود بل هـو » وقرئ « قل بل ما استعجلتم به هي ريح » أي قال الله قل بل هو ما استعجلتم به ؛ يعني قولهم : «فَأْتِنَا بِمَـا تَعِدُنَا» ثم بيّن ما هو فقال : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والريح التي عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه ، وخرج هـود من بين أظهرهم ، فجعلت تحمل الفساطيط وتحمل الظَّعينة (١) فترفعها كأنها جرادة ، ثم تضرب بها الصخور . قال ابن عباس : أوّل ما رأو العارض قاموا فمدّوا أيديهم ؛ فأوّل ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهـم الريح ما بين السماء والأرض مثـل الريش ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهـم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما (٢) ، ولهم أنين ؛ ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر ؛ فهي التي قال الله تعـالى فيها : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي كل شيء مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها . قال ابن عباس : أي كل شيء بُعثت إليه ، والتدمير : الهلاك . وكذلك الدَّمار . وقرئ « يَدْمُرُ كُلُّ شيء » من دَمَر دمارًا . يقال : دمّره تدميرا ودمارا ودمّر عليـه بمعنًى . ودَمَر يَدْمُر دُمورا دخل بغير إذن . وفي الحديث : " من سبق طَرْفُه استئذانه فقد دَمَر " مخفّف الميم . وتَدْمُر : بلد بالشام . ويَرْبُوع تُدْمُرِيّ إذا كان صغيرا قصيرا . ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ بإذن ربها . وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لَهَوَاتِه (٣) إنما كان يتبسّم . قالت : وكان إذا رأى غَيْماً أو رِيحاً

---

(١) الظعينة : الجمل يظعن عليه . والهودج فيه امرأة أم لا . (٢) الأيام الحسوم : الدائمة في الشر .

(٣) جمع لهاة ، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

عُرِف فى وجهه. قالت: يارسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيتَه عُرِف فى وجهك الكراهية؟ فقال: "ياعائشة، مايُؤَمِّنُنِي أن يكون فيه عذاب عُذِّب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هـذا عارِضٌ مُمْطِرُنا" خرّجه مسلم والترمذيّ، وقال فيه: حديث حسن. وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نُصِرت بالصَّبا[1] وأهلكت عادٌ بالدبور". وذكر الماورديّ أن القائل «هذا عارِضٌ مُمْطِرنا» من قوم عاد: بكر بن معاوية؛ ولما رأى السحاب قال: إنى لأرى سحابا مرمدا، لا تدع من عاد أحدا[2]. فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه فى ناديهم. قال ابن إسحاق: واعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يُلِين أعلى ثيابهم، وتلتذ الأنفس به؛ وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتَدْمَغُهم بالحجارة حتى هلكوا. وحكى الكلبيّ أن شاعرهم قال فى ذلك:

فدعا هود عليهم * دعوةً أضحَوا همودا
عصفت ريح عليهم * تركت عادًا خمودا
سخرت سبع ليال * لم تدع فى الأرض عودا

وعمر هود فى قومه بعدهم مائة وخمسين سنة. ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة «لا يرى إلا مساكنهم» بالياء غير مسمى الفاعل. وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ «ترى» بالتاء. وقد روى ذلك عن أبى بكر عن عاصم. الباقون «تَرَى» بتاء مفتوحة. «مساكنَهم» بالنصب؛ أى لا ترى يا محمد إلا مساكنهم. قال المهدَويّ: ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذى هو المساكن المؤنثة؛ وهو قليل لا يستعمل إلا فى الشعر. وقال أبو حاتم: لا يستقيم هـذا فى اللغة إلا أن يكون فيها إضمار؛ كما تقول فى الكلام ألا تُرى النساء إلا زينب. ولا يجوز لا ترى إلا زينب.

(١) الصبا (بالفتح): ريح الشمال. والدبور: ريح الجنوب.

(٢) فى نهاية ابن الأثير واللسان مادة (رمد) وتاريخ الطبرى: «خذها رمادا رمددا، لا تذر من عاد أحدا» والرمدد (بالكسر): المتناهى فى الاحتراق والدقة.

وقال سيبويه : معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحمزة . قال الكسائيّ : معناه لا يرى شيء إلا مساكنهم، فهو محمول على المعنى؛ كما تقول : ما قام إلا هند، والمعنى ما قام أحد إلا هند . وقال الفراء : لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل ، وإنما ترى مساكنهم لأنها قائمة . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ قيل : إن « إنْ » زائدة؛ تقديره ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه . وهذا قول القُتَبِيّ .

وأنشد الأخفش :

يُرَجِّي المرءُ ما إن لا يراه * وتعرِض دون أدناه الخطوب

وقال آخر :

فما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولكن * منايانا ودَوْلَةُ آخرينا[1]

وقيل : إن « ما » بمعنى الذي . و « إن » بمعنى ما؛ والتقدير ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّد . وقيل : شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير ولقد مكناهم في ما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشدّ ؛ وتمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ يعني قلوبا يفقهون بها . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من عذاب الله . ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ ﴾ يكفرون . ﴿ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أحاط بهم . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

---

(١) البيت لفروة بن مسيك المرادي . والطب : الشأن والعادة والشهوة والإرادة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ﴾ يريد حِجْر ثمود وقُرَى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم . ﴿ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ ﴾ يعني الحجج والدلالات وأنواع البيّنات والعظات ، أي بيّناها لأهل تلك القرى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلم يرجعوا . وقيل : أي صرفنا آيات القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

قوله تعالى : فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ﴾ «لولا» بمعنى هلّا ؛ أي هلّا نصرهم آلهتهم التي تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : «هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ»[1] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم . قال الكسائي : القُرْبان كلُّ ما يُتقرب به إلى الله تعالى من طاعة ونَسيكة ؛ والجمع قرابين ؛ كالرهبان والرهابين . وأحد مفعولي اتخذ الراجع[2] إلى الذين المحذوف ، والثاني «آلهةً» . و «قُرْبَانًا» حال ؛ ولا يصح أن يكون «قربانا» مفعولا ثانيا . و «آلهة» بدل منه لفساد المعنى ؛ قاله الزمخشري . وقرئ «قُرُبانا» بضم الراء . ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أي هلكوا عنهم . وقيل : «بل ضلوا عنهم» أي ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم ؛ إذ هي جماد . وقيل : ضلوا عنهم ؛ أي تركوا الأصنام وتبرءوا منها . ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ أي والآلهة التي ضلّت عنهم هي إفكهم في قولهم : إنها تقربهم إلى الله زُلْفَى . وقراءة العامة «إِفْكُهُمْ» بكسر الهمزة وسكون الفاء ؛ أي كذبهم . والإفك : الكذب ، وكذلك الأفيكة ، والجمع الأفائك . ورجل أفاك أي كذاب . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير «وذلك أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) الضمير الراجع .

والفاء والكاف، على الفعل؛ أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد . والأُفْكُ (بالفتح) مصدر قولك : أَفَكَه يأْفِكه أَفكا ؛ أى قلبه وصرفه عن الشيء . وقرأ عكرمة « أَفَّكهم » بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير. قال أبو حاتم : يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعيم . وذكر المهدوِيّ عن ابن عباس أيضا « آفِكهم » بالمد وكسر الفاء ؛ بمعنى صارفهم . وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه « آفَكهم » بالمدّ؛ فجاز أن يكون أفعلهم ، أى أصارهم إلى الإفك . وجاز أن يكون فاعلهم كخادعهم . ودليل قراءة العامة « إفكُهم » قوله ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى يكذبون . وقيل «إفكُهم» مثل «أفَكُهم» . الإفك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر؛ قاله المهدوِيّ .

قوله تعالى : وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ﴾ هذا توبيخ لمشركى قريش ؛ أى إن الجنّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنتم معرضون مصُرون على الكفر . ومعنى « صَرَفنا » وجهنا اليك وبعثنا . وذلك أنهم صُرفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب — على ما يأتى — ولم يكونوا بعد عيسى قد صُرفوا عنه إلا عند مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم : لما مات أبو طالب خرج النبي صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النُّصْرة فقصد عبْد يالِيل ومسعودا وحبيبا وهم إخوة — بنو عمرو بن عمير — وعندهم امرأة من قريش من بنى جُمَح ؛ فدعاهم إلى الإيمان وسألهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم : هو يَمْرط[(1)] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : ما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلمك كلمة أبدا ؛ إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام ، وإن كنت تكذب فما ينبغى لى أن أكلمك . ثم أغرَوْا به سفهاءهم

---

(١) يمرط : ينزع .

وعبيدهم يسبُّونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعُتْبة وشَـيْبة ابني ربيعة . فقال للجُمَحِيّة : "ماذا لقِينا من أحمائك" ؟ ثم قال : " اللّهُمّ إنى أشكو إليك ضَعْف قوتى وقِلّة حِيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّى ؛ لِمَن تَكِلُنى ! إلى عبد(١) يَتَجَهَّمُنى(٢) ، أو إلى عدوّ ملّكته أمرى ! إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسـع لى ، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بى غضـبك، أو يحـلّ على سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك" . فرحمه ابنـا ربيعة وقالا لغلام لهما نصرانىّ يقال له عدّاس : خذ قِطْفًا من العنب وضعه فى هذا الطبق ثم ضعه بين يدى هذا الرجل ؛ فلما وضعه بين يدى رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال النبى صلى الله عليه وسلم " بٱسم الله " ثم أكل ؛ فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال النبى صلى الله عليه وسـلم : "مِن أىّ البلاد أنت يا عدّاس وما دينك " ؟ قال : أنا نصرانى من أهل نِينَوَى . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتّى " ؟ فقال : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال : " ذاك أخى كان نبيًّا وأنا نبىّ " فٱنكبّ عدّاس حتى قبّل رأس النبى صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه . فقال له ابنـا ربيعة : لم فعلت هكذا ! ؟ فقال : يا سَيِّدَىَّ ما فى الأرض خير من هذا ، أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبىّ . ثم ٱنصرف النبىّ صلى الله عليه وسلم حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان ببطن نَخْلة قام من الليل يصلى فمرّ به نفر من جنّ أهل نَصِيبِين . وكان سبب ذلك أن الجنّ كانوا يسترقون السمع ، فلمـا حُرِست السماء ورُمُوا بالشهب قال إبليس : إن هـذا الذى حدث فى السماء لِشىء حدث فى الأرض ؛ فبعث سراياه ليعرف الخـبر، أولهم رَكْب نَصِيبين وهم أشراف الجنّ إلى تِهـامة ، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبىّ صـلى الله عليه وسلم يصلى صـلاة الغداة ببطن نخـلة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : أنصتوا . وقالت طائفـة : بل أمِر النبى صلى الله عليه وسلم أن ينذر

---

(١) فى سيرة ابن هشام : «بعيد» . (٢) أى يلقانى بالغلظة والوجه الكريه .

الجنّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ؛ فصرف الله عز وجل إليه نفرا من الجنّ من نِينَوَى وجمعهم له ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنى أريد أن أقرأ القرآن على الجنّ الليلة فأيكم يتبعنى" ؟ فأطرقوا ، ثم قال الثانية فأطرقوا ، ثم قال الثالثة فأطرقوا ؛ فقال آبن مسعود : أنا يا رسول الله ؛ قال آبن مسعود : ولم يحضر معه أحد غيرى ؛ فآنطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم شِعْبًا يقال له « شِعْب الْحَجُون » وخطّ لى خطا وأمرنى أن أجلس فيه وقال : "لا تخرج منه حتى أعود إليك" . ثم انطلق حتى قام فآفتتح القرآن ، فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وتمشى فى رفرفها ، وسمعت لَغَطًا وغَمْغَمَةً حتى خِفْت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وغَشِيَته أسْوِدة(١) كثيرة حالت بينى و بينه حتى ما أسمع صوته ، ثم طَفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ، ففرغ النبيّ صلى الله عليه وسلم مع الفجر فقال : "أنمت" ؟ قلت : لا والله ، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول اجلسوا ؛ فقال : "لو خرجت لم آمن عليك أن يختطفك بعضهم" ثم قال : "هل رأيت شيئا" ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، رأيت رجالًا سُودًا مُسْتَثْفِرِى(٢) ثيابًا بيضًا ؛ فقال : "أولئك جنّ نَصِيبين سألونى المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل(٣) ورَوْثة وبعرة" . فقالوا : يا رسول الله يُقَذِّرها الناس علينا . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث . قلت : يا نبيّ الله ، وما يغنى ذلك عنهم ! قال : "إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل ، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبّها يوم أُكِل" فقلت : يا رسول الله ، لقد سمعت لغطا شديدا ؟ فقال : "إن الجنّ تدارأت(٤) فى قَتِيل بينهم فتحاكموا إلىّ فقضيت بينهم بالحق" . ثم تبرز النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم أتانى فقال : "هل معك ماء" ، فقلت يا نبيّ الله ، معى إداوة(٥) فيها شىء من نبيذ التمر فصببت على يديه فتوضأ فقال : "تمرة طيّبة وماء طهور" . روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضا عن آبن مسعود . وليس

(١) أسودة (جمع السواد) والسواد والأسودات والأساود : جماعة الناس . وقيل هم الضروب المتفرقون .

(٢) الاستثفار : أن يدخل الانسان إزاره بين فخذيه ملويا ثم يخرجه . (٣) العظم الحائل : المتغير ؛ قد غيره البلى . (٤) تدارأ : اختلف . (٥) الإداوة : إناء صغير من جلد .

فى حديث معمر ذكر نبيذ التمر . وروى عن أبى عثمان النَّهْدِىّ أن ابن مسعود أبصر زُطًّا(1) فقال: ما هؤلاء؟ قال : هؤلاء الزُّطّ . قال: ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنّ فكانوا مستفزّين يتبع بعضهم بعضا . وذكر الدَّارَقُطْنِىّ عن عبد الله بن لَهِيعة حدّثنى قيس بن الحجاج عن حنش عن ابن عباس عن ابن مسعود أنه وضأ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ بنبيذ فتوضأ به وقال: "شراب وطهور" . ابنُ لَهِيعة لا يحتج به . وبهذا السند عن ابن مسعود أنه خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، فقال له رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "أمعك ماء يابن مسعود" ؟ فقال : معى نبيـذ فى إداوة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صُبّ علىّ منه" . فتوضأ وقال : "هو شراب وطهور" تفرّد به ابن لَهِيعة وهو ضعيف الحديث . قال الدارقطنى : وقيل إن ابن مسعود لم يشهد مع النبيّ صلى الله عليـه وسلم ليلة الجنّ . كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبـد الله وغيرهما عنه أنه قال : ما شهدت ليلة الجنّ . حدّثنا أبو محمد بن صاعد حدّثنا أبو الأشعث حدّثنا بشر بن المفضل حدّثنا داود بن أبى هند عن عامر عن علقمة بن قيس قال قلت لعبد الله بن مسعود : أشهد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحد منكم ليلة أتاه داعى الجنّ؟ قال لا . قال الدارقطنى: هذا إسناد صحيح لا يختلف فى عدالة راويه . وعن عمرو بن مُرّة قال قلت لأبى عبيدة : حضر عبدالله بن مسعود ليلة الجنّ؟ فقال لا . قال ابن عباس : كان الجنّ سـبعة نفر من جنّ نَصِيبين فجعلهم النبيّ صلى الله عليه وسـلم رسلا إلى قومهم . وقال زِرّ بن حُبيش : كانوا تسـعةً أحدهم زَوْبعـة . وقال قتادة : إنهم من أهل نِينَوَى . وقال مجاهد: من أهل حران . وقال عكرمة: من جزيرة الموصل . وقيل : إنهم كانوا سبعة ، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين . وروى ابن أبى الدنيا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال فى هذا الحديث وذكر فيه نصيبين فقال : "رفعت إلىّ حتى رأيتها فدعوت الله أن يكثر مطرها وينضر شجرها وأن يُغْزِر نهرها" . وقال السهيلى : ويقال كانوا سبعة ، وكانوا يهودا فأسلموا؛ ولذلك قالوا « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وقيل فى أسمائهم : شاصر(2) وماصر ومنشى

---

(1) الزط : جيل أسود من السند . وقيل : إعراب « جَتّ » بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند .

(2) فى كتب اللغة : « شصار » ككتاب .

وماشى والأحقب ؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد . ومنهم عمرو بن جابر ؛ ذكره ابن سلام من طريق أبى إسحاق السَّبِيعى عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان فى نفر من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حَيّة قتيل ، فعمد رجل منا إلى ردائه فشقّه وكفن الحية ببعضه ودفنها؛ فلما جنّ الليل إذا امرأتان تسألان : أيّكم دفن عمرو بن جابر؟ فقلنا : ما ندرى من عمرو بن جابر! فقالتا : إن كنتم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه ، إن فَسَقة الجنّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو ، وهو الحيّة التى رأيتم ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم ولّوْا إلى قومهم منذرين . وذكر ابن سلام رواية أخرى : أن الذى كفّنه هو صفوان بن المُعَطَّل .

قلت : وذكر هذا الخبر الثعلبى بنحوه فقال : وقال ثابت بن قطبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا : إنا كنا فى سفر فرأينا حية متشحّطة فى دمائها، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا : أيّكم دفن عَمْرًا ؟ قلنا : وما عمرو! قالوا الحية التى دفنتم فى مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآن من النبىّ صلى الله عليه وسلم وكان بين حَيَّيْن من الجنّ مسلمين وكافرين قتال فقتل . ففى هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن فى سفر ولا حَضَرَ الدفن؛ والله أعلم . وذكر ابن أبى الدنيا عن رجل من التابعين سمّاه : أن حية دخلت عليه فى خِبائه تَلْهَث عطشا فسقاها ثم أنها ماتت فدفنها، فأُتِى من الليل فسلّم عليه وشكر ، وأخبر أن تلك الحية كانت رجلا من جنّ نَصِيبين اسمه زوبعة . قال السُّهَيْلىّ : وبلغنا فى فضائل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه مما حدّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلى أن عمر بن عبد العزيز كان يمشى بأرض فلاة، فإذا حية ميّتة فكفنها بفضلة من ردائه ودفنها ؛ فإذا قائل يقول : ياسرق، أشهد لسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستموت بأرض فلاة فيكفنك رجل صالح " . فقال : ومن أنت يرحمك الله ! فقال : رجل من الجنّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق منهم إلا أنا وسرق، وهذا سرق قد مات . وقد قتلت

عائشة رضي الله عنها حية رأتها في حجرتها تستمع وعائشة تقرأ ؛ فأتيت في المنام فقيل لهـا : إنك قتلت رجلا مؤمنا من الجن الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ فقالت : لو كان مؤمنا ما دخل على حرم رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ فقيل لها : ما دخل عليك إلا وأنت متقنعة ، وما جاء إلا ليستمع الذكر . فأصبحت عائشـة فزعة ، وآشـترت رقابا فأعتقتهم . قال السهيلي : وقـد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجن ما حضرنا ؛ فإن كانوا سـبعة فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم ، وليس باسم علم ؛ فإن الأسمـاء التي ذكرناها آنفا ثمانيـة بالأحقب . والله أعلم .

قلت : وقد ذكر الحافظ آبن عساكر في تاريخه : هامة بن الهيم[1] بن الأقيس بن إبليس ؛ قيل : إنه من مؤمني الجن وممن لقي النبي صلى الله عليه وسلم وعلّمه سورة «إذا وقعت الواقعة» و «المرسلات» و«عمّ يتساءلون» و«إذا الشمس كُوّرت» و«الحمد» و«المعوّذتين» . وذكر أنه حضر قتل هابيل وشَرِك في دمه وهو غلام ابن أعوام ، وأنه لقي نُوحًا وتاب على يديه ، وهودًا وصالحا ويعقوب ويوسف وإليـاس وموسى بن عمـران وعيسى بن مريم عليهم السـلام . وقد ذكر المـاوردي أسماءهم عن مجاهد فقال : حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم . وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدّثنا محمد آبن البراء قال حدّثنا الزبير بن بكار قال : كان حمزة بن عتبة بن أبي لهب يُسَمِّي جنّ نَصيبين الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : حسى ومسى وشاصر وماصر والأخر والأرد وأنيان[2] .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أي حضروا النبي صلى الله عليه وسـلم ، وهو من باب تلوين الخطاب . وقيل : لمـا حضروا القرآن واستماعه . ﴿ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض اسكتوا لآستماع القرآن . قال آبن مسعود : هبطوا على النبي صـلى الله عليه وسـلم

(١) في بعض الأصول : «الأهيم» .

(٢) لم نوفق لتحقيق هذه الأسماء . والأصول والمصادر التي بين أيدينا مضطربة فيها .

وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه « قالوا أنصتوا » قالوا صه . وكانوا سبعة : أحدهم زوبعة، فأنزل الله تعالى : «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا » الآية إلى قوله : « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » . وقيل : « أنصتوا » لسماع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعنى متقارب . ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير « فَلَمَّا قَضَى » بفتح القاف والضاد، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة . وذلك أنهم خرجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاءوا وادى نخلة والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فى صلاة الفجر، وكانوا سبعة، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين ، ولم يعلم بهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : بل أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفرا من الجنّ ليستمعوا منه وينذروا قومهم ؛ فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنّ ، منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذّرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا . وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، وأنه أرسلهم . ويدل على هذا قولهم : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ » ولولا ذلك لما أنذروا قومهم . وقد تقدّم عن ٱبن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جعلهم رسلا إلى قومهم ؛ فعلى هذا ليلةُ الجنّ ليلتان، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى . وفى صحيح مسلم ما يدل على ذلك على ما يأتى بيانه فى « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ » . وفى صحيح مسلم عن مَعْن قال : سمعت أبى قال سألت مسروقا من آذن[(١)] النبيّ صلى الله عليه وسلم بالجنّ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثنى أبوك — يعنى ٱبن مسعود — أنه آذنته بهم شجرة .

قوله تعالى : قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

(١) آذن : أعلم .

يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ أي القرآن ، وكانوا مؤمنين بموسى . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ، ولذلك قالوا : « أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » . وعن ابن عباس أن الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى ، فلذلك قالت : « أُنْزِلَ من بعد موسى » . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعني ما قبله من التوراة . ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ دين الحق . ﴿ وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الله القويم . ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ وهـذا يدل على أنه كان مبعوثًا إلى الجنّ والإنس . قال مُقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجنّ والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : يدل على قوله ما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحدٌ قبلي كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثت إلى كلّ أحمرَ وأسودَ وأحِلّت لِيَ الغنائم ولم تُحَلّ لأحد قبلي وجُعلت لِيَ الأرض طيّبةً طهورا ومسجدًا فأيّما رجلٍ أدركته الصلاة صلّى حيث كان ونُصرْتُ بالرُّعْب بين يَدَيْ مَسِيرةِ شَهْرٍ وأعطيتُ الشفاعةَ " . قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجنّ والإنس . وفي رواية من حديث أبي هريرة " وبُعثت إلى الخلق كافّةً وخُتم بي النبيّون " . ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي بالداعي ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « به » أي بالله ؛ لقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ . قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا ، فرجعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء ، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم .

مســـألة — هذه الآي تدلّ على أن الجنّ كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب . وقال الحسن : ليس لمؤمني الجنّ ثواب غير نجاتهم من النار ؛ يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . وبه قال أبو حنيفة قال : ليس ثواب الجنّ إلا أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون

فى الإساءة يجازَوْن فى الإحسان مثل الإنس . وإليه ذهب مالك والشافعيّ وابن أبى ليلى . وقد قال الضحاك : الجنّ يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . قال القشيرىّ : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء، والعلم عند الله .

قلت : قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا »(١) يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة؛ لأنه قال فى أوّل الآية : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي »(٢) — إلى أن قال — وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » . والله أعلم؛ وسيأتى لهذا فى سورة « الرحمن » مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى لا يفوت الله ولا يسبقه ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله . ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الرؤية هنا بمعنى العلم . و « أنّ » واسمها وخبرها سدّت مسدّ مفعولى الرؤية . ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ احتجاج على منكرى البعث . ومعنى « لَمْ يَعْيَ » يعجز ويضعف عن إبداعهنّ . يقال : عيّ بأمره وعَيِيَ إذا لم يهتد لوجهه ؛ والإدغام أكثر . وتقول فى الجمع عَيُوا ، مخففا ، وعَيّوا أيضا بالتشديد . قال :

(١) آية ١٣٢ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٠ سورة الأنعام .

عَيُّـوا بِأَمرِهمُ كما * عَيَّتْ ببيضتها الحمامهْ (١)

وعَيِيت بأمرى إذا لم تهتد لوجهه . وأعيانى هو . وقرأ الحسن « ولم يَعى » بكسر العين وإسكان اليـاء ؛ وهو قليل شاذ ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا فى أسماء قليلة ؛ نحو غاية وآية . ولم يأت فى الفعل سوى بيت أنشده الفرّاء ؛ وهو قول الشاعر :

فكأنها بين النساء سَبِيكَةٌ * تمشِي بِسُـدّة بَيْتِها فتُـعِي (٢)

﴿ بِقَادِرٍ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء فى قوله : « وكَفَى بِاللهِ شهيدا » ، وقوله : « تَنْبُتُ بالدُّهْنِ » (٣) . وقال الكسائىّ والفرّاء والزجاج : الباء فيـه خَلَف الاستفهام والجحد فى أوّل الكلام . قال الزجاج : والعرب تدخلها مع الجحد تقول : ما ظننت أن زيدا بقـائم . ولا تقول : ظننت أن زيدا بقائم . وهو لدخول « ما » ودخول « أنّ » للتوكيد . والتقـدير : أليس الله بقادر ؛ كقوله تعـالى : « أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ » (٤) . وقرأ ابن مسعود والأعرج والجَحْدرِىّ وابن أبى إسحاق و يعقوب « يَقدر » واختاره أبو حاتم ؛ لأن دخول البـاء فى خبر « أنّ » قبيح . واختار أبو عبيد قراءة العامة ؛ لأنها فى قراءة عبد الله « خَلَقَ السَّمواتِ والأرض قَادِرٌ » بغير باء . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ أى ذكّرهم يوم يعرضون فيقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فيقول لهم المقرّر : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْفُرُونَ ﴾ أى بكفركم .

(١) البيت لعبيد بن الأبرص . (٢) السدّة : الفناء .
(٣) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٤) آية ٨١ سورة يس .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قال ابن عباس : ذوو الحزم والصبر ؛ قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : إن أولى العزم : نوح ، وهود ، وإبراهيم . فأمر الله عز وجل نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم . وقال السدّى : هم ستة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . وقيل : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ؛ وهم المذكورون على النسق فى سورة « الأعراف والشعراء » . وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدّة . وإبراهيم صبر على النار . وإسحاق صبر على الذبح . ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر . ويوسف صبر على البئر والسجن . وأيوب صبر على الضرّ . وقال ابن جريج : إنه منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم . وقال الشعبيّ والكلبيّ ومجاهد أيضا : هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة . وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون فى سورة « الأنعام » وهم ثمانية عشر : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهرون ، وزكرياء ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط . واختاره الحسن بن الفضل لقوله فى عقبه : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »[1] . وقال ابن عباس أيضا : كل الرسل كانوا أولى عزم . واختاره علىّ بن مهدى الطبرىّ ، قال : وإنما دخلت « من » للتجنيس لا للتبعيض ؛ كما تقول : اشتريت أردية من البزّ وأكسية من الخزّ . أى اصبر كما صبر الرسل . وقيل : كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متّى ؛ ألا ترى أن

(١) آية ٩٠ سورة الأنعام .

النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يكون مثله ؛ لخفّة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مُغاضِباً لقومه ، فابتلاه الله بثلاث : سلّط عليه العمالقــة حتى أغاروا على أهله وماله ، وسلّط الذئب على ولده فأكله ، وسلط عليــه الحُوت فابتلعه ؛ قاله أبو القاسم الحكيم . وقال بعض العلماء : أولو العزم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل بالشام فعصوهم ، فأوحى الله إلى الأنبياء أنى مرسِل عذابى إلى عصاة بنى إسرائيل ؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بنى إسرائيل ، و إن شئتم نجيتكم وأنزلت العــذاب ببنى إسرائيل ؛ فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب و ينجى الله بنى إسرائيل ؛ فأنجى الله بنى إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب . وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض ؛ فمنهم من نُشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات ، ومنهم من حُرّق بالنار . والله أعلم . وقال الحسن : أولو العزم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى ؛ فأما إبراهيم فقيل له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمِين »(١) ثم آبتلى فى ماله وولده ووطنه ونفسه ، فوجد صادقا وافيــا فى جميع ما ابتلى به . وأما موسى فعزمه حين قال له قومه : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »(٢) . وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبه عليها ، فأقام يبكى أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجــرة ، فقعد تحت ظلها . وأما عيسى فعزمه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال : " إنها مَعْبر فآعبروها ولا تعمروها " . فكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : اصبر ؛ أى كن صادقا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم ، واثقًا بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى ، مهتمًّا بما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود ، زاهدا فى الدنيا مثل زهد عيسى . ثم قيل : هى منسوخة بآية السيف . وقيل : مُحْكَمة ؛ والأظهر أنها منسوخة ؛ لأن السورة مكية . وذكر مقاتل : أن هذه الآية نزلت على رســول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ، فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولو العزم من الرسل ، تسهيلا عليه وتثبيتًا له . والله أعلم . ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ قال مقاتل : بالدعاء

---

(١) آية ١٣١ سورة البقرة .	(٢) آية ٦١ سورة الشعراء .

عليهم . وقيل : فى إحلال العذاب بهم ، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة . ومفعول الاستعجال محـذوف ، وهو العذاب . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال يحيى : من العـذاب . النقاش : من الآخرة . ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أى فى الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى . وقال النقاش : فى قبورهم حتى بعثوا للحساب . ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ يعنى فى جنب يوم القيامة . وقيل : نسّاهم هَوْل ما عاينوا من العذاب طول لبثهم فى الدنيا . ثم قال : ﴿ بَلَاغٌ ﴾ أى هذا القرآن بلاغ ؛ قاله الحسن . فـ « بلاغ » رفع على إضمار مبتدأ ؛ دليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ »(١)، وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ»(٢) . والبلاغ بمعنى التبليغ . وقيل : أى إن ذلك اللبث بلاغ ؛ قاله ابن عيسى ، فيوقف على هذا على « بلاغ » وعلى « نهار » . وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على « وَلَا تَسْتَعْجِلْ » ثم ابتدأ « لهم » على معنى لهم بلاغ . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام ، — وهى رافعة — بشيء ليس منهما . ويجوز فى العربيـة : بلاغا و بلاغٍ ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغا ؛ على المصدر أو على النعت للساعة . والخفض على معنى من نهـارٍ بلاغٍ . و بالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن . وروى عن بعض القـرّاء « بَلِّغ » على الأمر ؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على « من نهار » ثم يبتدئ « بلغ » . ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى الخارجون عن أمر الله ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقرأ ابن مُحَيْصِن « فهل يَهْلِك إلا القوم » على إسـناد الفعل إلى القـوم . وقال ابن عباس : إذا عَسُر على المـرأة وَلَدُها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين فى صحيفة ثم تغسل وتسق منها ؛ وهى : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »(٣) . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » صدق الله العظيم . وعن قتادة : لا يهلك إلا هالك مشرك(٤) . وقيل : هذه أقوى آية فى الرجاء . والله أعلم .

(١) آخر سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٦ سورة الأنبياء . (٣) آخر سورة النازعات .

(٤) فى تفسير الطبرى : « تعلموا ما يهلك على الله الا هالك ولّى الإسلام ظهره ، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله » .

سورة القتال، وهى سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنيـة فى قول ابن عباس ؛ ذكره النحاس . وقال الماوردى : فى قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعـد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه ؛ فنزل عليه « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ »(١) . وقال الثعلبى : إنها مكية ؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد ابن جُبَير . وهى تسع وثلاثون . وقيل ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهـل مكة كفروا بتوحيد الله، وصدّوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه ؛ وقاله السدّى . وقال الضحاك : « عن سبيل الله » عن بيت الله بمنع قاصديه . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطل كيدهم ومكرهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وجعل الدائرة عليهم؛ قاله الضحاك . وقيل : أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام وفكّ الأسارى وقِرَى الأضياف وحفظ الجوار . وقال ابن عباس : نزلت فى المُطْعِمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث ابن هشام ، وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبَىّ وأميـة ابنا خلف ، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج ، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام ، وزَمْعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن عامر بن نوفل .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

(١) آية ١٣

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار . وقال مقاتل : إنها نزلت خاصّة في ناس من قريش . وقيل : هما عامّتان فيمن كفر وآمن . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطلها . وقيل : أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ من قال إنهم الأنصار فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم . ومن قال إنهم من قريش فهي الهجرة . ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى . ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ لم يخالفوه في شيء ؛ قاله سفيان الثوري . وقيل : صدّقوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم . وقيل : أي إن القرآن هو الحق من ربهم ، نسخ به ما قبله ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان . ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي شأنهم ؛ عن مجاهد وغيره . وقال قتادة : حالهم . ابن عباس : أمورهم . والثلاثة متقاربة وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم ؛ ومنه قول الشاعر :

فإن تُقبِلي بالودّ أُقبِل بمثله * وإن تدبري أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم . « والبال » كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر فيقولون فيه : بالات . المبرد : قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب ؛ يقال : ما يخطر فلان على بالي ؛ أي على قلبي . الجوهري : والبال رخاء النفس ؛ يقال فلان رَخِيّ البال . والبال : الحال ؛ يقال ما بالك . وقولهم : ليس هذا من بالي ؛ أي مما أباليه . والبال : الحوت العظيم من حيتان البحر ؛ وليس بعربي . والبالة : وعاء الطِّيب ؛ فارسي معرّب ؛ وأصله بالفارسية پيلة . قال أبو ذؤيب :

كأنّ عليها بالةً لَطِمِيَّةً * لها من خلال الدَّأْيَتَيْنِ أَرِيجُ (١)

(١) اللطمية : العنبرة التي لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها . والدأي : فقر الكاهل والظهر .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وأنّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع؛ أى الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدّم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق . والباطلُ : الشركُ . والحقُّ : التوحيد والإيمان . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أى كهذا البيان الذى بُيّن يُبيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير فى « أَمْثَالَهُمْ » يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا .

قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ لما ميّز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار . قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان . وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذمّة؛ ذكره الماوَرْديّ . واختاره ابن العربى وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه؛ « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » مصدر . قال الزجاج أى فاضربوا الرقاب ضربا . وخصّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقيل : نصب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولك يانفسُ صبراً . وقيل : التقدير

اقصدوا ضرب الرقاب. وقال: «فضرب الرقاب» ولم يقل فاقتلوهم؛ لأن فى العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشّدة ما ليس فى لفظ القتل؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره؛ وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعُلوه وأوْجَهُ أعضائه .

الثانيــة ــ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أى أكثرتم القتل. وقد مضى فى «الأنفال» عند قوله تعالى: «حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ»[1]. ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أى إذا أسرتموهم. والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرا؛ يقال: أوثقته إيثاقا ووثاقا. وأما الوِثاق (بالكسر) فهو اسم الشيء الذى يوثق به كالرِّباط؛ قاله القشيرى. وقال الجوهرىّ: وأوثقه فى الوثاق أى شدّه، وقال تعالى: «فَشُدُّوا الوَثاق». والوِثاق (بكسر الواو) لغة فيه. وإنما أمر بشدّ الوثاق لئلا يُفلتوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾. ولم يذكر القتل هاهنا اكتفاء بما تقدّم من القتل فى صدر الكلام، و«مَنًّا» و«فِدَاءً» نصب بإضمار فعل. وقرئ «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء؛ أى فإما أن تمنُّوا عليهم منًّا، وإما أن تفادوهم فِداءً. روى عن بعضهم أنه قال: كنت واقفا على رأس الحجاج حين أُتِىَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِنْدة فقال: يا حجاج، لاجازاك الله عن السنة والكرم خيرا! قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال «فإذا لقيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمّا فِدَاءً» فى حق الذين كفروا؛ فوالله! ما مَنَنْتَ ولا فَدَيْتَ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم * إذا أثقل الأعناقَ حِملُ المغارم

فقال الحجاج: أُفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام!؟ خَلُّوا سبيل من بقى. فخُلِّىَ يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زُهاء ألفين، بقول ذلك الرجل.

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها.

الثالثة — واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول — أنها منسوخة، وهى فى أهل الأوثان، لا يجوز أن يُفادوا ولا يُمَنّ عليهم . والناسخ لها عندهم قوله تعالى : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(١) وقوله : « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ »(٢) وقوله : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً »(٣) الآية ؛ قاله قتادة والضحاك والسدى وابن جُرَيج والعَوْفى عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين . وقال عبد الكريم الجَوْزِىّ : كُتب إلى أبى بكر فى أسير أُسر، فذكروا أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا؛ فقال : اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إلىّ من كذا وكذا .

الثانى — أنها فى الكفار جميعا . وهى منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد قالوا : إذا أُسر المشرك لم يجز أن يُمَنّ عليه، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين ؛ ولا يجوز أن يفادَى عندهم إلا بالمرأة ؛ لأنها لا تقتل . والناسخ لها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف ؛ فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجِزْية . وهو المشهور من مذهب أبى حنيفة ؛ خيفة أن يعودوا حَرْبًا للمسلمين . ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » قال نسخها « فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ » . وقال مجاهد : نسخها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . وهو قول الحكم .

الثالث — أنها ناسخة ؛ قاله الضحاك وغيره . روى الثَّورى عن جُوَيْبر عن الضحاك « فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » قال نسخها « فَإِمَّا مَنًّا بعدُ وإمّا فداءً » . وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء « فَإِمَّا مَنًّا بعدُ وإمّا فداءً » فلا يقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفَادى ؛ كما قال الله عز وجل . قال أشعث : كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو « فَإِمَّا مَنًّا بعدُ وإمّا فداء » . وقال الحسن أيضا : فى الآية تقديم وتأخير ؛ فكأنه قال : فَضَرْبَ الرِّقَاب حتى تضع الحرب أوزارها . ثم قال : « حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ » .

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) آية ٥٧ سورة الأنفال . (٣) آية ٣٦ سورة التوبة .

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله ؛ لكنه بالخيار في ثلاثة منازل : إما أن يَمُنّ، أو يفادي ، أو يسترق .

الرابـــع — قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعـالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ »(١) . فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بمـا رآه من قتل أو غيره .

الخامس — أن الآية محكمة ، والإمام مخيّر في كل حال؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبي عبيـد وغيرهم . وهو الاختيار ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك؛ قَتل النبيّ صلى الله عليه وسلم عُقْبَةَ بن أبي مُعَيط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبْرًا ، وفادى سائر أسارى بدر، ومَنّ على ثُمَـامة بن أُثَال الحنفي وهو أسير في يده، وأخذ من سلمة بن الأَكْوَع جارية ففدى بها أناسا من المسلمين، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ومنّ عليهم، وقد منّ على سَبْيِ هوازن . وهذا كله ثابت في الصحيح ، وقد مضى جميعه في (الأنفال)(٢) وغيرها . قال النحاس : وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما ؛ وهو قول حسن ، لأن النسخ إنمـا يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمـل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسـخ ، إذا كان يجوز أن يقـع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسـترقاق والمفاداة والمنّ ؛ على ما فيـه الصلاح للمسـلمين . وهـذا القول يروى عن أهل المدينـة والشافعي وأبي عبيد ، وحكاه الطحاوي مذهبًا عن أبي حنيفة ، والمشهور عنه ما قدّمناه ، وبالله عز وجل التوفيق .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَـرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قال مجاهد وابن جبير : هو خروج عيسى عليه السـلام . وعن مجاهـد أيضا : أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسـلام ؛ فيُسْـلِم كلّ يهوديّ ونصراني وصاحب مِلّة، وتأمن الشاة من الذئب . ونحـوه

(١) آية ٦٧ سورة الأنفال . (٢) راجع جـ ٨ ص ٤٥ وما بعدها .

عن الحسن والكلبي والفرّاء والكسائي . قال الكسائي : حتى يُسْلِم الخلق . وقال الفرّاء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقال الكلبي : حتى يظهر الإسلام على الدِّين كله . وقال الحسن : حتى لا يعبدوا إلا الله . وقيل : معنى الأوزار السّلاح ؛ فالمعنى شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح . وقيل : معناه حتى تضع الحرب، أي الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة . ويقال للكراع أوزار . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها * رماحا طوالا وخيلا ذكورا
ومن نَسْج داود يحدى بها * على أثر الحَيّ عِيرًا فعيرا (١)

وقيل : « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أي أثقالها . والوِزْر الثِّقْل ؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال . وأثقالها السلاح لثقل حملها . قال ابن العربي : « قال الحسن وعطاء : في الآية تقديم وتأخير؛ المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق ؛ وليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أمَرَنا الله ؛ وقرأ « حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » . قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس في تفسير الله للمنّ والفداء منع من غيره ؛ فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد ، وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم حكم الرجم؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال ، وربك أعلم » .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ « ذلك » في موضع رفع على ما تقدّم ؛ أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت . وقيل : هو منصوب على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ؛ المعنى ذلك حكم الكفار . وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام؛ وهو كما قال تعالى : « هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ » (٢) . أي هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا . ومعنى « لانْتَصَرَ منهم » أي أهلكهم بغير قتال . وقال

(١) هذه رواية البيت في الأصول . وروايته في كتاب « الأعشين » .

ومن نسج داود موضونة * تساق مع الحي عيرا فعيرا

والموضونة : الدرع المنسوجة . وفي شعراء النصرانية : ... على أثر العيس ...　　(٢) آية ٥٥ سورة ص .

ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين ؛ كما فى السورة نفسها . ﴿ والَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قراءة العامة « قاتلوا » وهى اختيار أبى عبيد . وقرأ أبو عمرو وحفص « قُتِلوا » بضم القاف وكسر التاء ، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير . وقرأ الجَحْدَرى وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة « قَتَلُوا » بفتح القاف والتاء من غير ألف ؛ يعنى الذين قتلوا المشركين . قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعْلُ هُبَلُ . ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يومٌ بيوم بَدْر والحرب سِجال . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا سواء . قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم فى النار يعذبون " . فقال المشركون : إن لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم . وقد تقدّم ذكر ذلك فى (آل عمران(١)) .

قوله تعالى : سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾

قال القشيرى : قراءة أبى عمرو « قُتِلوا » بعيدة؛ لقوله تعالى : «سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ» والمقتول لا يوصف بهذا . قال غيره : يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة ، أو سيهدى من بقى منهم ؛ أى يحقق لهم الهداية . وقال ابن زياد : سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير فى القبر . قال أبو المعالى : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : « فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ » . ومنه قوله تعالى : « فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ(٢) » معناه فاسلكوا بهم إليها .

قوله تعالى : وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٤ (٢) آية ٢٣ سورة الصافات .

أى إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم ؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم . قال معناه مجاهـد وأكثر المفسرين . وفى البخارى ما يدل على صحـة هـذا القول عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار [فيَتَقَصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا](١) حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة [منه](١) بمـنزله فى الدنيـا " . وقيل : « عرَّفها لهـم » أى بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال. قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل: فيه حذف؛ أى: عَرَّف طرقها ومساكنها و بيوتها لهم؛ فحـذف المضاف . وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو المَلَك الموكل بعمل العبد يمشى بين يديه و يتبعه العبد حتى يأتى العبد منزله ، و يعرّفه المَلَك جميع ما جعل له فى الجنة . وحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ يردّه . وقال ابن عباس « عرّفها لهـم » أى طيّبها لهـم بأنواع الملاذ ؛ مأخوذ من العَرْف ، وهو الرائحة الطيبة . وطعام مُعَرَّف أى مطيَّب؛ تقول العرب : عرّفت القدر إذا طيّبتها بالملح والأبزار . وقال الشاعر يخاطب رجلا و يمدحه :

* عَرُفْتَ كإتْبٍ عرّفته اللَّطائم(٢) *

يقول : كما عَرُف الإتْب ، وهو البَقِير والبَقِيرة ، وهو قميص لا كُمّين له تلبسه النساء . وقيـل : هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته؛ يقال : حرير معرّف ؛ أى بعضه على بعض ، وهو من العُرْف المتتابع كعُرْف الفرس . وقيـل : « عرفهـا لهم » أى وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة . وقيل: عرّف أهل السماء أنها لهم إظهارا لكرامتهم فيها . وقيل : عرف المطيعين أنها لهم .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٧)

---

(١) زيادة عن صحيح البخارى . (٢) اللطائم (جمع لطيمة) : قطعة مسك .

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار . نظيره « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » (١) وقد تقدم . وقال قُطْرُب : إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله، والمعنى واحد . ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أى عند القتال . وقيل على الإسلام . وقيل على الصراط . وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب . وقد مضى فى « الأنفال » (٢) هذا المعنى . وقال هناك : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا » (٢) فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا؛ كقوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ » (٣) ثم نفاها بقوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » (٤) . « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » (٥) ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحده .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسّره « فَتَعْسًا لَهُمْ » كأنه قال : أتعس الذين كفروا . و « تعسًا لهم » نصب على المصدر بسبيل الدعاء ؛ قاله الفرّاء، مثل سَقْيًا له ورَعْيًا . وهو نقيض لَعًا (٦) له . قال الأعشى :

* فالتَّعْسُ أَوْلَى لها من أن أقول لَعَا (٧) *

وفيه عشرة أقوال : الأوّل — بُعْدًا لهم ؛ قاله ابن عباس وابن جُرَيْج . الثانى — حزنًا لهم ؛ قاله السدى . الثالث — شقاء لهم ؛ قاله ابن زيد . الرابع — شَتْمًا لهم من الله ؛ قاله الحسن . الخامس — هلاكا لهم ؛ قاله ثَعْلَب . السادس — خَيْبَةً لهم ؛ قاله الضحاك وابن زيد . السابع — قبحا لهم ؛ حكاه النقاش . الثامن — رغما لهم ؛ قاله الضحاك أيضا . التاسع —

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧٧ (٣) آية ١١ سورة السجدة .
(٤) آية ٤٠ سورة الروم . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) لعا : كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارتفاع . (٧) فى اللسان وكتاب الأعشين : «أدنى» بدل «أولى» . وصدره :

* بذات لوث عفرناة إذا عثرت *

واللوث (بالفتح) : القوة » . وعفرناة : قوية .

شرًّا لهم؛ قاله ثعلب أيضا . العاشر — شِقْوة لهم؛ قاله أبو العالية . وقيل : إن التَّعْس الانحطاط والعِثار . قال ابن السِّكِّيت : التعس أن يَخِر على وجهه . والنُّكْس أن يَخِرّ على رأسه . قال: والتعس أيضا الهلاك . قال الجوهري : وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش . وقد تَعَس (بفتح العين) يَتْعَس تَعْسًا، وأتعسه الله . قال مُجَمِّع بن هلال :

تقول وقد أفردتُها من خَليلها * تَعِسْتَ كما أَتْعَسْتَنِي يا مُجَمِّعُ

يقال : تعسًا لفلان؛ أي ألزمه الله هلاكا . قال القُشَيْرِيّ : وجوّز قوم تَعِس (بكسر العين).

قلت : ومنه حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَعِس عَبْدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة[1] إن أُعطِي رَضِيَ و إن لم يُعْطَ لم يرض" خرّجه البخاري . في بعض طرق هذا الحديث "تعس وآنتكس و إذا شِيك فلا آنتقش[2]" خرّجه ابن ماجه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان . ودخلت الفاء في قوله « فَتَعْسًا » لأجل الإبهام الذي في « الذين »، وجاء « وأضل أعمالهم » على الخبر حملا على لفظ الذين ؛ لأنه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حَمْلًا على المعنى ، وأضل حملا على اللفظ .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

أي ذلك الإضلال والإتعاس ؛ لأنهم ﴿ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ﴾ من الكتب والشرائع . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي ما لهم من صور الخيرات ، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقْبَل الله العمل إلا من مؤمن . وقيل : أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾

---

(١) القطيفة : دثار . والخميصة : كساء أسود مربع له أعلام وخطوط .

(٢) قوله « شيك » أي أصابته شوكة . و « فلا انتقش » أي فلا خرجت شوكته بالمنقاش .

بين أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان ، ثم وصل هذا بالنظر ؛ أى ألم يسر هؤلاء فى أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ كَيْفَ كَانَ ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم ﴿ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . يقال : دمّره تدميرا ، ودمّر عليه بمعنًى . ثم تواعد مشركى مكة فقال ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أى أمثال هذه الفعلة ؛ يعنى التدمير . وقال الزجاج والطبرى : الهاء تعود على العاقبة ؛ أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (١١)

أى وليّهم وناصرهم . وفى حرف ابن مسعود « ذلك بأن الله ولِيّ الذين آمنوا » . فالمولى : الناصر هاهنا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال :

فغدتْ كِلَا الفَرْجَيْنِ تحسب أنه * مَوْلَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[(١)]

قال قتادة : نزلت يوم أُحُد والنبيّ صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، إذ صاح المشركون : يومٌ بيوم ، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قولوا الله مولانا ولا مولى لكم" وقد تقدّم[(٢)] . ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ أى لا ينصرهم أحد من الله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (١٢)

---

(١) البيت من معلقة لبيد . ويروى : « فعدت » بالعين المهملة . أخبر أنها (أى البقرة) خائفة من كلا جانبيها من خلفها وأمامها . والفرج : الواسع من الأرض . والفرج : الثغر المخوف ، وهو موضع المخافة .

(٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ تقدّم في غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ في الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما في غدهم . وقيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع . ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي مقام ومنزل .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ تقدّم الكلام في « كأين » في (آل عمران)[1] . وهي هاهنا بمعنى كم ؛ أي وكم من قرية . وأنشد الأخفش قول لبيد :

وكائن رأينا من ملوك وسُوقة * ومفتاح قَيْد للاسير المكبل

فيكون معناه : وكم من أهل قرية . ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي أخرجك أهلها . ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة وابن عباس : لما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : " اللّهمّ أنتِ أحبّ البلاد إلى الله وأنت أحبّ البلاد إليّ ولولا المشركون أَهْلُكِ أخرجوني لما خرجت منك " . فنزلت الآية ؛ ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح .

قوله تعالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الألف ألف تقرير. ومعنى « على بينة » أي على ثبات ويقين ؛ قاله ابن عباس . أبو العالية : وهو محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة : الوَحْيُ . ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أي عبادة الأصنام ، وهو أبو جهل والكفار .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى ما اشتهوا . وهذا التزيين من جهة الله خلقا . ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة . ويجوز أن يكون من الكافر؛ أى زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر . وقال « سُوء » على لفظ « مَن » « واتبعوا » على معناه .

قوله تعالى : مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عزوجل : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ » وصف تلك الجنات؛ أى صفة الجنة المعدّة للمتقين . وقد مضى الكلام فى هذا فى «الرعد»[(١)] . وقرأ علىّ بن أبى طالب «مِثال الجنة التى وعد المتقون» . ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أى غير متغيّر الرائحة . والآسِن من الماء مثلُ الآجن . وقد أَسَن الماء يأسُن ويأسِن [أسْناً و] أُسُونا إذا تغيرت رائحته . وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أجْنًا وأُجونًا . ويقال بالكسر فيهما : أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أسْناً وأجْناً؛ قاله اليزيدى . وأسِن الرجل أيضا يأسَن (بالكسر لا غير)[(٢)] إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغُشِى عليه أو دار رأسُه . قال زُهير :

قد أترك القرن[(٣)] مُصْفَرًّا أناملُه * يَميد فى الرُّمح مَيد المائح الأسِنِ

ويروى « الوسن » . وتأسّن الماء تغيّر . أبو زيد : تأسّن علىّ تأسُّنا اعتلّ وأبطأ . أبو عمرو : تأسّن الرجل أباه أخذ أخلاقه . وقال اللّحيانى : إذا نزع إليه فى الشبه . وقراءة العامة « آسن » بالمدّ . وقرأ ابن كثير وحُميد « أسن » بالقصر، وهما لغتان؛ مثل حاذر وحذر . وقال الأخفش : أسن للحال، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال . ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤ (٢) أى فى الماضى . (٣) وفيه رواية أخرى : «يغادر القرن» .

لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أى لم يَحْمَض بطول المقام كما تتغيّر ألبان الدنيا إلى الحموضة . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لم تُدَنّسها الأرجل ولم تُرَنّقها (١) الأيدى كخمر الدنيا ؛ فهى لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون . يقال : شراب لَذّ ولذيذ بمعنًى . واستلذّه عدّه لذيذا . ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النحل . « مُصَفًّى » أى من الشمع والقَذَى ، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنّسه النحل . وفى الترمذى عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة بحر الماء و بحر العسل و بحر اللبن و بحر الخمر ثم تشقّق الأنهار بعدُ " . قال : حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة " . وقال كعب : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ، ونهر الفرات نهر لبنهم ، ونهر مصر نهر خمرهم ، ونهر سَيْحان نهر عسلهم . وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر . والعسل : يذكر و يؤنث . وقال ابن عباس : «من عَسَلٍ مُصَفًّى» أى لم يخرج من بطون النحل . ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ « مِن » زائدة للتأكيد . ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أى لذنوبهم . ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ قال الفرّاء : المعنى أفمن يخلد فى هذا النعيم كمن يخلد فى النار . وقال الزجاج : أى أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زُيّن له سوء عمله وهو خالد فى النار . فقوله « كمن » بدل من قوله « أفمن زين له سوء عمله » . وقال ابن كيسان : مثل هذه الجنة التى فيها الثمار والأنهار كمثل النار التى فيها الحميم والزقوم . ومثل أهل الجنة فى النعيم المقيم كمثل أهل النار فى العذاب المقيم . ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ أى حارا شديد الغليان ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم ؛ فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم . والأمعاء : جمع مِعًى ، والتثنية مِعيان ، وهو جميع ما فى البطن من الحوايا .

---

(١) رنّق الماء : كدره .

قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أى من هؤلاء الذين يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام، وزُين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون : عبد الله بن أُبَىّ آبن سَلُول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت (١) والحارث بن عمرو ومالك بن دُخْشم ، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه؛ قاله الكلبي ومقاتل . وقيل : كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين؛ فيستمعون منه ما يقول ، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر . ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أى إذا فارقوا مجلسك . ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال عكرمة : هو عبد الله بن العباس . قال آبن عباس : كنت ممن يُسأل ، أى كنت من الذين أوتوا العلم . وفى رواية عن ابن عباس : أنه يريد عبد الله بن مسعود . وكذا قال عبد الله بن بريدة : هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن : هو أبو الدرداء . وقال ابن زيد : إنهم الصحابة . ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى الآن ؛ على جهة الاستهزاء . أى أنا لم ألتفت إلى قوله . و « آنفا » يراد به الساعة التى هى أقرب الأوقات إليك ؛ من قولك : استأنفت الشيء إذا ابتدأت به . ومنه أَمْرٌ أُنُف، ورَوْضة أُنُف؛ أى لم يرعها أحد . وكأس أنف : إذا لم يُشرب منها شيء ؛ كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . قال الشاعر (٢) :

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنفَ القِصاع

(١) كذا فى الأصول . وفى سيرة ابن هشام وابن الأثير طبع أوربا : « اللُّصَيت » بالتاء المثناة من فوق . وفى تاريخ الطبرى (طبع أوربا قسم أوّل ص ١٦٩٩) : « اللصيب » بالباء الموحدة . (٢) هو الحطيئة .

وقال آخر[1] :

إن الشِّواء والنَّشيل والرُّغُف * والْقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

* للطاعنين الخيل والخيل قُطُفْ[2] *

وقال امرؤ القيس :

* قد غَدَا يحملني في أنفه[3] *

أي في أوله . وأُنُفُ كلّ شيء أوله . وقال قتادة في هؤلاء المنافقين : الناس رجلان : رجل عَقَل عن الله فانتفع بما سمع ، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع . وكان يقال : الناس ثلاثة : فسامع عامل ، وسامع عاقل ، وسامع غافل تارك .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ فلم يؤمنوا . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ في الكفر . ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا ﴾ أي للإيمان زادهم الله هدى . وقيل : زادهم النبيّ صلى الله عليه وسلم هدى . وقيل : ما يستمعونه من القرآن هدى ؛ أي يتضاعف يقينهم . وقال الفرّاء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى . وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل : أحدها — زادهم علما ؛ قاله الربيع بن أنس . الثاني — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ؛ قاله الضحاك . الثالث — زادهم بصيرة في دينهم وتصديقا لنبيهم ؛ قاله الكلبيّ . الرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أي ألهمهم إياها . وقيل : فيه خمسة أوجه : أحدها — آتاهم الخشية ؛ قاله الربيع . الثاني — ثواب تقواهم في الآخرة ؛ قاله السديّ . الثالث — وفقهم للعمل الذي فرض عليهم ؛ قاله مقاتل . الرابع — بيّن لهم ما يتقون ؛ قاله ابن زياد والسدّيّ أيضا . الخامس — أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ ؛ قاله عطية . الماورديّ : ويحتمل . سادسا —

---

(١) هو لقيط بن زرارة . والنشيل : ما طبخ من اللحم بغير تابل . والرغف جمع رغيف . ويقال : أرغفة ورغفان .

(٢) في الأصول : « حنف » والتصويب عن اللسان مادة « قطف » . وقد ورد هذا الشطر في اللسان مادة « نشل » : « للضاربين الهام والخيل قطف » . وقطفت الدابة : أساءت السير وأبطأت .

(٣) تمامه : * لاحق الأيطل محبوك ممر *

أنه ترك الرخص والأخذ بالعـزائم . وقرئ « وأعطاهم » بدل « وآتاهم » . وقال عكرمة : هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .

قوله تعـالى : فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَهَـلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة . وهذا وعيد للكفار . ﴿ فَقَـدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أماراتها وعلاماتهـا . وكانوا قد قرءوا فى كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء؛ فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها ؛ قاله الضحاك والحسن . وفى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وضمّ السبابة والوسطى ؛ لفظ مسـلم . وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه . ويروى " بعثت والساعة كَفَرَسَىْ رِهان " . وقيل : أشراط الساعة أسبابُها التى هى دون معظمها . ومنه يقال للدُّون من الناس: الشَّرَط . وقيل: يعنى علامات الساعة انشقاق القمر والدخان ؛ قاله الحسن أيضا . وعن الكلبي : كثرة المـال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام . وقد أتينا على هذا البـاب فى كتاب « التـذكرة » مستوفًى والحمد لله . وواحد الأشراط شَرَط ؛ وأصله الأعلام . ومنه قيل الشُّرَط ؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يُعرفون بها . ومنه الشَّرْط فى البيع وغيره . قال أبو الأسود :

فإن كنتِ قد أزْمَعْتِ بالصُّرْم بيننا * فقـد جعلتِ أشراط أوّله تبـدو

ويقـال : أشرط فلان نفسه فى عمـل كذا أى أعلمها وجعلها له . قال أوْس بن حَجَر يصف رجلا تدلّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعَة[1] يقطعها ليتّخذ منها قَوْسًا :

فأشْرَط نفسه فيهـا وهو مُعْصِمٌ * وألْـقَى بأسبابٍ له وتَوَكّلا

(١) النبعة (واحدة النبع) : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القِسِيّ .

﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ «أن» بدل اشتمال من «الساعة»؛ نحو قوله : « أَنْ تَطَئُوهُمْ » من قوله : «رِجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ»(١) . وقرئ « بَغَتَّة » بوزن جَرَبَّة(٢) ، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها؛ وهي مَرْوية عن أبي عمرو . الزمخشري : وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو ، وأن يكون الصواب « بَغَتَة » بفتح الغين من غير تشديد؛ كقراءة الحسن . وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة «إِنْ تَأْتِهم بغتة» . قال المهدوي : ومن قرأ «إن تأتِهم بغتة» كان الوقف على «الساعة» ثم استأنف الشرط . وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق ؛ كأنه قال : إن شكُّوا في مجيئها « فقد جاء أشراطها » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ «ذكراهم» ابتداء و«أَنَّى لَهُمْ» الخبر. والضمير المرفوع في « جاءتهم » للساعة؛ التقدير : فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؛ قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة ؛ قاله ابن زيد . وفي الذكرى وجهان : أحدهما — تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر . الثاني — هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا ؛ روى أبان عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك" ذكره الماوردي .

قوله تعالى : فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ قال الماوردي : وفيه — وإن كان الرسول عالما بالله — ثلاثة أوجه : يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . الثاني — ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا . الثالث — يعني فاذكر أن لا إله إلا الله؛ فعبّر عن الذكر بالعلم

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) الجربة (بالفتح والتشديد) : القطيع من حمُر الوحش . وقد يقال للأقوياء من الناس إذا كانوا جماعة متساوين : جربة .

لحدوثه عنه . وعن سفيان بن عُيَيْنة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفرْ لِذنبك » فأمر بالعمل بعد العلم وقال : « ٱعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ — إلى قوله — سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ »(١) وقال : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ »(٢) . ثم قال بعدُ : « فَٱحْذَرُوهُمْ »(٣) . وقال تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ »(٤) . ثم أمر بالعمل بعدُ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب . الثاني — استغفر الله ليعصمك من الذنوب . وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان ؛ أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار . وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة ؛ وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين ؛ فنزلت الآية . أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله ، فلا تعلق قلبك بأحد سواه . وقيل : أمر بالاستغفار لتقتدي به الأمة . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي ولذنوبهم . وهذا أمر بالشفاعة . وروى مسلم عن عاصم الأحْوَل عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميّ قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ! فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبيّ صلى الله عليه وسلم؟ قال : نعم ، ولك . ثم تلا هذه الآية « واستغفرْ لِذنبك ولِلمؤمنين والمؤمنات » ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوّة بين كتفيه ، جُمْعًا(٥) [عليه](٦) خِيلان كأنه الثآليل .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها — يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم . الثاني — « متقلبكم » في أعمالكم نهارا « ومثواكم » في ليلكم نياما . وقيل

(١) آية ٢٠ سورة الحديد . (٢) آية ٢٨ سورة الأنفال . (٣) في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » آية ١٤ سورة التغابن . (٤) آية ٤١ سورة الأنفال .
(٥) يريد مثل جُمع الكف ، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها . (٦) زيادة عن صحيح مسلم . والخيلان : جمع خال ، وهو الشامة في الجسد . والثآليل : جمع ثؤلول ، وهي حبيبات تعلو الجسد .

« متقلبكم » فى الدنيا . « ومثواكم » فى الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال عكرمة : « متقلبكم » فى أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات . « ومثواكم » مقامكم فى الأرض . وقال ابن كَيْسان : « متقلبكم » من ظهر إلى بطن إلى الدنيا . « ومثواكم » فى القبور .

قلت : والعموم يأتى على هذا كله ، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بنى آدم وسكناتهم ، وكذا جميع خلقه . فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أُولَى وأُخْرَى . سبحانه! لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى المؤمنون المخلصون . ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ اشتياقا للوحى وحرصا على الجهاد وثوابه . ومعنى «لولا» هلا . ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ لا نسخ فيها . قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشد القرآن على المنافقين . وفى قراءة عبد الله « فإذا أنزلت سورة مُحْدَثَة » أى محدثة النزول . ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ ﴾ أى فرض فيها الجهاد . وقرئ « فإذا أنزلت سورة وذَكَر فيها القتالَ » على البناء للفاعل ونصب القتال . ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى شك ونفاق . ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق ؛ كمن يَشْخَص بصره عند الموت ؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعا وهلعا ، ولميلهم فى السر إلى الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ « فأولَى لهم » قال الجوهرى : وقولهم : أَوْلَى لك ، تهدُّد ووعيد . قال الشاعر :

فأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعى : معناه قاربَه ما يُهْلكه ؛ أى نزل به /و وأنشد :

فعادَى بين هادِيَتَيْن منها * وأَوْلَى أن يزيد على الثلاث

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل أحد فى « أَوْلى » أحسن مما قال الأصمعى .

وقال المبرد : يقال لمن هَـمّ بالعَطَب ثم أفلَت : أَوْلى لك ؛ أى قاربت العطب . كما روى أن أعرابيـا كان يوالى رَمْىَ الصيد فيُفْلِت منه فيقول : أَوْلى لك . ثم رمى صـيدا فقاربه ثم أفلت منه فقال :

فلو كان أَوْلَى يُطعِـم القومَ صِدتُهم * ولكنّ أَوْلَى يَتْرُكُ القـومَ جُوَّعَا

(وقيـل : هو كقول الرجل لصاحبه : يا محروم ، أىّ شىء فاتك)! وقال الجُرْجَانِىّ : هو مأخوذ من الويل ؛ فهو أفعل، ولكن فيه قلب ؛ وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام . وقد تم الكلام على قوله : « فأَوْلى لهم » . قال قتادة : كأنه قال العقاب أَوْلَى لهم . وقيل : أى وَلِيَهـم المكروه(. ثم قال : « طاعة وقول معروف » أى طاعة وقـول معروف أمثـل وأحسن ؛ وهو مذهب سيبويه والخليل . وقيل : إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف ؛ لحذف المبتدأ فيوقف على « فأَوْلَى لهم » . وكذا من قدّر يقولون منا طاعة . وقيـل : إن الآية الثانيـة متصلة بالأولى . واللام فى قوله « لهم » بمعنى البـاء ؛ أى الطاعة أولى وأليق بهم ، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله . وهى قراءة أُبَىّ « يقولون طاعة »). وقيل : إن « طاعة » نعت لـ « سورة » ؛ على تقدير : فإذا أنزلت سورة ذات طاعة ، فلا يوقف على هذا على « فأَوْلى لهم » . وقال ابن عباس : إن قولهم « طاعة » إخبار من الله عز وجل عن المنافقين. والمعنى لهم طاعة وقول معروف قبل وجوب الفرائض عليهم ، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها . فيوقف على هذا على « فأَوْلَى » .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى جدّ القتال، أو وجب فرض القتال، كرهوه . فكرهوه جواب « إذا » وهو محذوف . وقيل : المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر . ﴿ فَـلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى الإيمان والجهاد . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من المعصية والمخالفة .

قوله تعالى : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ اختلف فى معنى « إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » فقيل : هو من الولاية . قال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم حكاما أن تفسدوا فى الأرض بأخذ الرُّشا . وقال الكلبيّ : أى فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فى الأرض بالظلم . وقال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا فى الأرض بالمعاصى وقطع الأرحام . وقال كعب : المعنى فهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بعضكم بعضا . وقيل : من الإعراض عن الشيء . قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا فى الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطّعوا أرحامكم . وقيل : « فهل عسيتم » أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تفسدوا فى الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم . وقرئ بفتح السين وكسرها، وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفًى[1] . وقال بكر المزنى : إنها نزلت فى الحَرُورِيّة والخوارج؛ وفيه بُعْدٌ . والأظهر أنه إنما عنى بها المنافقون . وقال ابن حيان : قريش. ونحوه قال المسيب بن شريك والفراء، قالا : نزلت فى بنى أمية و بنى هاشم؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مغفل قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فِي الأرض » — ثم قال — هم هذا الحىّ من قريش أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناس ألا يفسدوا فى الأرض ولا يقطعوا أرحامهم " . وقرأ علىّ بن أبى طالب « إن تُوُلِّيتم أن تفسدوا فِي الأرض » بضم التاء والواو وكسر اللام . وهى قراءة ابن أبى إسحاق، ورواها رُوَيْس عن

(١) راجع ج ٣ ص ٢٤٤

يعقوب . يقــول : إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم فى الفتنة وحاربتموهم . ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ بالبغى والظلم والقتــل . وقرأ يعقوب وســلام وعيسى وأبو حاتم « وتَقْطعوا » بفتح التــاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتبارا بقوله تعالى « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ »[(١)] . وروى هذه القراءة هارون عن أبى عمرو . وقرأ الحسن « وتَقَطَّعوا » مفتوحة الحروف مشدّدة؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بينهم »[(٢)] . الباقون « وتُقَطِّعوا » بضم التــاء مشدّدة الطاء، من التقطيع على التكثير، وهو اختيار أبى عبيد . وتقــدّم ذكر «عسيتم» فى (البقرة)[(٣)] . وقال الزجاج فى قراءة نافع : لو جاز هذا لجاز «عَسِى» بالكسر . قال الجوهرىّ : و يقال عَسَيت أن أفعل ذلك، وعَسِيت بالكسر . وقرئ «فهل عَسِيتم » بالكسر .

قلت : و يدل قوله هذا على أنهما لغتان . وقد مضى القول فيه فى « البقرة »[(٣)] مستوفى .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى طردهم وأبعــدهم من رحمتــه . (فَأَصَمَّهُمْ) عن الحق . (وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ) أى قلوبهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأن مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق و إن سمعه؛ فجعله كالبهيمة التى لا تعقل . وقال : « فهل عسيتم » ثم قال : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » فرجع من الخطاب إلى الغَيْبة على عادة العرب فى ذلك .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام . ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أى بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهــم لا يعقلون . وهــذا يردّ على القــدرية والإمامية مذهبهم . وفى حديث مرفوع أن النبىّ صلى الله عليه وســلم قال : ”إن عليها أقفالا كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها“ . وأصل القَفْل اليُبْس والصلابة . و يقال لمــا يبس من الشجر : القَفْل . والقفيل مثله . والقفيل أيضا نبت . والقفيل : الصوت . قال الراجز :

لمــا أتاك يابسا قِرْشَبّا * قمت إليه بالقفيل ضربا

* كيف قَرَيْتَ شَيْخَكَ الأَزَبَّا[(٤)] *

(١) آية ٢٧ سورة البقرة . (٢) آية ٩٣ سورة الأنبياء . (٣) جـ ٣ ص ٢٤٤

(٤) الأزب (بالفتح والتشديد) : الكثير الشعر .

القِرْشَبّ (بكسر القاف) : المسِنّ ؛ عن الأصمعي . وأقفله الصوم أى أيبسه ؛ قاله القشيرى والجوهرىّ . فالأقفال ها هنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوّه عن الإيمـان . أى لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر ؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال : « على قلوبٍ » لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم فى هـذه الجملة . والمراد أم على قـلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها .

الثالثـــة — فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِم فقالت هـذا مَقام العائذ من القطيعة قال نعم أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وَصلكِ وأقطع مَن قطعكِ قالت بلى قال فذاكِ لكِ — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — اقرءوا إن شئتم «فهل عَسَيتم إن تَوَلّيتم أن تُفسِدوا فِى الأرض وتقطّعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعْمَى أبصارهم . أفلا يتدبرون القـرآن أم على قلوبٍ أقفالها»" . وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار . وقال قتادة وغيره : معنى الآية فلعلكم ، أو يخاف عليكم ، إن أعرضتم عن الإيمـان أن تعودوا إلى الفساد فى الأرض لسفك الدماء . قال قتادة : كيف رأيتم القـوم حين تَوَلّوْا عن كتاب الله تعالى ! ألم يسفكوا الدماء الحرام و يقطعوا الأرحام وعصوا الرّحمن . فالرحم على هذا رَحِم دين الإسلام والإيمان ، التى قـد سماها الله إخوة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة »[(1)] . وعلى قول الفرّاء أن الآية نزلت فى بنى هاشم وبنى أميـة ؛ والمراد من أضمر منهم نفاقا ؛ فأشار بقطع الرحم إلى ما كان بينهم و بين النبىّ صلى الله عليه وسلم من القرابة بتكذيبهم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وذلك يوجب القتال . و بالجمـلة فالرحم على وجهين : عامة وخاصة ؛ فالعامة رَحِم الدِّين ، و يجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم ، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم ، والنَّصَفة فى معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة ؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم ، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم . وأما الرحم الخاصة وهى رحم القرابة من طرفى الرجل أبيه وأمه ، فتجب لهم الحقوق الخاصة و زيادة ؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم ،

(١) آية ١٠ سورة الحجرات .

وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم ؛ وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب . وقال بعض أهل العلم : إن الرحم التى تجب صلتها هى كل رحم مَحْرَم ، وعليه فلا تجب فى بنى الأعمام و بنى الأخوال . وقيل : بل هذا فى كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوى الأرحام فى المواريث، مَحْرَمًا كان أو غير محرم . فيخرج من هذا أن رحم الأم التى لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم . وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله و يعمه الرحم تجب صلته على كل حال ، قربةً ودينية ؛ على ما ذكرناه أولا والله أعلم . وقد روى أبو داود الطيالسى فى مسنده قال : حدّثنا شعبة قال أخبرنى محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحدّث عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للرحم لسانا يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قُطعتُ يا رب ظُلمت يا رب أُسيء إلىّ فيجيبها ربُّها ألا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعكِ " . وفى صحيح مسلم عن جُبير بن مُطْعِم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة قاطع " . قال ابن أبى عمر قال سفيان : يعنى قاطع رَحِم . ورواه البخارى .

الرابعة — قوله عليه السلام : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم ... " «خلق» بمعنى اخترع وأصله التقدير، كما تقدّم (1) . والخلق هنا بمعنى المخلوق . ومنه قوله تعالى : « هذا خَلْقُ اللهِ (2) » أى مخلوقه . ومعنى " فرغ منهم " كمل خلقهم . لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم ؛ إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة ؛ تعالى عن ذلك . وقوله : " قامت الرّحم فقالت " يحمل على أحد وجهين : أحدهما — أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك ، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها و يكتب ثواب مَن وصلها ووزر مَن قطعها ؛ كما وكل الله بسائر الأعمال كراما كاتبين ، و بمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين . وثانيهما —

(1) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ (2) آية ١١ سورة لقمان .

أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدّة الاعتناء . فكأنه قال : لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام ؛ كما قال تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ — ثم قال — وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »(١) . وقوله : " فقالت هـذا مقام العائذ بك من القطيعة " مقصود هـذا الكلام الإخبار بتأكّد أمر صلة الرحم ، وأن الله سبحانه قد نزلها بمنزلة من آستجار به فأجاره ، وأدخله فى ذمتـه وخُفارته(٢) . وإذا كان كذلك فجارُ الله غير مخذول وعهـدُه غير منقوض . ولذلك قال مخاطبا للرَّحِم : " أمَا تَرْضَيْن أن أصل مَن وصلِك وأقطع من قطعكِ " . وهذا كما قال عليه السـلام : " ومن صلى الصبح فهو فى ذمة الله تعـالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه بذمته بشيء يدركه ثم يكُبّه فى النار على وجهه " .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

قال قتادة : هم كفار أهـل الكتاب ، كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعـد ما عرفوا نعته عندهم ؛ قاله ابن جريج . وقال ابن عباس والضحاك والسدى : هم المنافقون ، قعدوا عن القتال بعد ما علموه فى القرآن . ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أى زيّن لهم خطاياهم ؛ قاله الحسن . ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ أى مَدّ لهم الشيطان فى الأمل ووعدهم طول العمر ؛ عن الحسن أيضا . وقال: إن الذى أملى لهم فى الأمل ومدّ فى آجالهم هو الله عز وجل ؛ قاله الفرّاء والمفضـل . وقال الكَلْبيّ ومُقاتل : إن معنى « أملى لهم » أمهلهم ؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أمْلَى لهم بالإمهال فى عذابهم . وقرأ أبو عمرو وآبن أبى إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة « وَأُمْلِيَ لهم » بضم الهمزة وكسر اللام وفتح اليـاء ؛ على ما لم يسمّ فاعله . وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدَرى ويعقوب ، إلا أنهم سكّنوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم ؛ كأنه قال : وأنا أملى لهم . واختاره أبو حاتم ، قال : لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان

(١) آية ٢١ سورة الحشر .	(٢) الخفارة (بالضم والكسر) : الذمام .

يملى لهم ، وليس كذلك ؛ فلهذا عدل إلى الضم . قال المهـدوى : ومن قرأ « وأَمْلَى لهم » فالفاعل اسم الله تعـالى . وقيل الشيطان . واختار أبو عبيد قراءة العامة ، قال : لأن المعنى معلوم ؛ لقوله : « لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ »[(١)] ردّ التسبيح على اسم الله ، والتوقيرَ والتعزيرَ على آسم الرسول .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ أى ذلك الإملاء لهم حتى يتمـادوا فى الكفر بأنهم قالوا ؛ يعنى المنـافقين واليهود . ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ وهم المشركون . ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أى فى مخالفة محمد والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره فى السر. وهم إنما قالوا ذلك سرًّا فأخبر الله نبيّه. وقراءة العامة « أسرارهم » بفتح الهمزة، جمع سِرّ ؛ وهى اختيـار أبى عبيـد وأبى حاتم . وقـرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم « إِسرارهم » بكسر الهمزة على المصدر؛ نحو قوله تعالى: « وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا »[(٢)] جُمع لاختلاف ضروب السِّرّ .

قوله تعـالى : فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ (٢٧)

قوله تعـالى: ﴿ فَكَيْفَ ﴾ أى فكيف تكون حالهم. ﴿ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ ﴾ أى ضاربين ؛ فهو فى موضع الحال . ومعنى الكلام التخويف والتهديد ؛ أى إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر . وقد مضى فى « الأنفال والنحل »[(٣)] . وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه . وقيل : ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله

(١) آية ٩ سورة الفتح . (٢) آية ٩ سورة نوح . (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٨ و جـ ١٠ ص ٩٩

صلى الله عليه وسلم ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب . وقيل : ذلك فى القيامة عند سَوْقهم إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى ذلك جزاؤهم . ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ قال ابن عباس : هو كتمانهم ما فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم . وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر . ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ يعنى الإيمان . ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ نفاق وشك ؛ يعنى المنافقين . ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ الأضغان ما يضمر من المكروه . واختلف فى معناه ؛ فقال السدّى : غِشّهم . وقال ابن عباس : حسدهم . وقال قُطْرُب : عداوتهم . وأنشد قول الشاعر :

قل لابن هند ما أردت بمنطق * ساء الصديق وشيّد الأضغانا

وقيل : أحقادهم . واحدها ضغن . قال :

* وذى ضِغن كففت النفس عنه *

وقد تقدّم . وقال عمرو بن كلثوم :

وإن الضغن بعد الضغن يفشو * عليك ويخرج الداء الدفينا

قال الجوهري : الضغن والضغينة : الحقد . وقد ضغن عليه (بالكسر) ضِغْناً . وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا أبطنوا على الأحقاد . واضْطَغَنت الصبيّ إذا أخذته تحت حضنك . وأنشد الأحمر :

* كأنه مُضْطَغِنٌ صَبِيّا *

أي حامله في حِجره . وقال ابن مُقْبل :

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضها * ومِرْفَقٍ كرئاس السيف إذ شَسَفَا (١)

وفرس ضاغنٌ لا يعطي ما عنده من الجَرْي إلا بالضرب . والمعنى : أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام . ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ أي لعرّفناكهم . قال ابن عباس : وقد عرّفه إيّاهم في سورة « براءة » (٢) . تقول العرب : سأريك ما أصنع ؛ أي سأعلمك ؛ ومنه قوله تعالى : « بما أراك الله » (٣) أي بما أعلمك . ﴿ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي بعلاماتهم . قال أنس : ما خفي على النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم . وقد كنا في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم (٤) الناس، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» فذلك سيماهم . وقال ابن زيد : قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأَبَوْا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله ، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها . ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أي في فحواه ومعناه . ومنه قول الشاعر :

* وخير الكلام ما كان لَحْنَا *

أي ما عُرِف بالمعنى ولم يُصَرَّح به . مأخوذ من اللحن في الإعراب، وهو الذهاب عن الصواب، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" أي أذهب بها في الجواب لقوته على تصريف الكلام . أبو زيد :

(١) المغرض : جانب البطن أسفل الأضلاع . و « رئاس السيف » : مقبضه . و « الشاسف » : اليابس من الضمر والهزال . (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٦ . (٣) آية ١٠٥ سورة النساء .

(٤) في نسخ الأصل : « يشكونهم » .

لَحَنْتُ له (بالفتح) أَلْحَنُ لَحْنًا إذا قُلْتَ له قَوْلًا يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره . ولَحِنَه هو عَنِّى (بالكسر) يلحنه لحنا أى فهمه . وألحنته أنا إياه ، ولاحنت الناس فاطنتهم ؛ قال الفَزارِىّ :

وحديثٍ أَلَذُّه هو مما * يَنْعَت الناعِتُون يُوزَن وَزْنَا
منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا * نًا وخير الحديث ما كان لحنَا

يريد أنها تتكلم [بشىء] وهى تريد غيره ، وتُعَرِّض فى حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها . وقد قال تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » . وقال القَتّال الكِلاَبِىّ :

ولقد وَحَيْتُ(١) لكم لكيما تفهموا * ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمرتاب

وقال مرار الأسدى :

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابنى * صدودُكِ تُرْضِين الوشاةَ الأعادِيَا

قال الكلبى : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبىّ صلى الله عليه وسلم منافق إلا عرفه . وقيل : كان المنافقون يخاطبون النبى صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم ؛ والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ذلك و يأخذ بالظاهر المعتاد ، فنبهه الله تعالى عليه ، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم . قال أنس : فلم يَخْفَ منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عَرّفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء منها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أى نتعبدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور . وقيل : لنعاملنكم معاملة المختبرين . ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ عليه . قال ابن عباس : « حَتَّى نَعْلَمَ » حتى نميز . وقال علىّ رضى الله عنه . « حتى نعلم » حتى نرى . وقد مضى

(١) فى اللسان : « لحنت » .

فى « البقرة »[1] . وقراءة العامة بالنون فى « نَبْلُوَنَّكُمْ » و « نعلم » « ونَبْلُوَ » . وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ . وروى رُوَيس عن يعقوب إسكان الواو من « نبلو » على القطع مما قبل . ونصب الباقون ردًّا على قوله : « حَتَّى نَعْلَمَ » . وهذا العلم هو العلم الذى يقع به الجزاء؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم . فتأويله : حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ؛ لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا ، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة . ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ نختبرها ونظهرها . قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضيل بن عِياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللّهمّ لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود . وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر . نظيرها « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ » الآية[2] . ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ ﴾ أى عادّوه وخالفوه . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ أى علموا أنه نبيّ بالحجج والآيات . ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ﴾ بكفرهم . ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ثواب ما عملوه .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ لما بيّن حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة فى أوامره والرسول فى سننه . ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى حسناتكم بالمعاصى؛ قاله الحسن . وقال الزُّهْرِى : بالكبائر . ابن جُريج : بالرياء والسمعة .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية . (٢) آية ٣٦ سورة الأنفال .

وقال مقاتل والثُّمَالِيّ : بالمَنّ؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسلامه . وكلّه متقارب ، وقول الحسن يجمعه . وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصي تخرج عن الإيمان .

الثانيـة — احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوّع — صلاةً كان أو صوما — بعد التلبس به لا يجوز؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه . وقال من أجاز ذلك — وهو الإمام الشافعيّ وغيره — : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأمّا ما كان نفلا فلا؛ لأنه ليس واجبا عليه . فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه . ووجه تخصيصه أن النفل تطوّع، والتطوّع يقتضي تخييرا . وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب؛ حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال . وقال مقاتل : يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود في النار . وقد مضى في « البقرة »(١) الكلام فيه . وقيل : إن المراد بالآية أصحاب القَلِيب(٢) . وحكمها عام .

قوله تعالى : فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أي تضعفوا عن القتال . والوَهْن : الضعف . وقد وَهَن الإنسانُ ووَهَنَه غيره، يتعدّى ولا يتعدّى . قال :

* إنني لست بمَوْهُونٍ فَقِرْ(٣) *

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٨ (٢) المراد به قليب بدر . (٣) هذا عجز بيت لطرفة، وصدره :

* وإذا تلسنني ألسنها *

ووهن أيضا (بالكسر) وَهْناً أى ضعف ، وقرئ « فما وهِنوا » بضم الهاء وكسرها . وقد مضى فى (آل عمران)[1] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ أى الصلح . ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أى وأنتم أعلم بالله منهم . وقيل : وأنتم الأعلون فى الحجة . وقيل : المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم فى الظاهر فى بعض الأحوال . وقال قتادة : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها .

الثالثـــة — واختلف العلمـاء فى حكمها ؛ فقيل : إنها ناسخة لقـوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا »[2] ؛ لأن الله تعـالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح . وقيل : منسوخة بقوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » . وقيل : هى محكمة . والآيتان نزلتا فى وقتين مختلفى الحال . وقيل : إن قوله « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » مخصوص فى قوم بأعيانهم ، والأخرى عامة . فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين . وقد مضى هـذا المعنى مستوفى[2] . ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ أى بالنصر والمعونة ؛ مثل « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »[3] . ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لن ينقصكم؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه الموتور الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه؛ تقول منه : وَتَرَه يَتِرُه وَتْراً وتِرَةً . ومنه قوله عليه السلام : "من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله" أى ذهب بهما . وكذلك وَتَرَه حقّه أى نقصه . وقوله تعالى : « ولَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » أى لن ينتقصكم فى أعمالكم؛ كما تقول : دخلت البيت؛ وأنت تريد فى البيت؛ قاله الجوهرى . الفراء : « ولن يَتِرَكُمْ » هو مشتق من الوتر وهو الفرد ؛ فكان المعنى ولن يفردكم بغير ثواب .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٠

(٢) آية ٦١ سورة الأنفال . راجع جـ ٨ ص ٣٩

(٣) ٦٩ سورة العنكبوت .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تقدّم فى « الأنعام »(١) . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ شرط وجوابه . ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى لا يأمركم بإخراج جميعها فى الزكاة ؛ بل أمر بإخراج البعض ؛ قاله ابن عُيينة وغيره . وقيل : « لا يسألكم أموالكم » لنفسه أو لحاجة منه إليها ؛ إنما يأمركم بالإنفاق فى سبيله ليرجع ثوابه إليكم . وقيل : « لا يسألكم أموالكم » إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها . وقيل : ولا يسألكم محمد أموالكم أجرًا على تبليغ الرسالة . نظيره «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»(٢) الآية . ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ يلحّ عليكم ؛ يقال : أحفى بالمسئلة وألحف وألحّ بمعنًى واحد . والحَفِىّ المستقصى فى السؤال ؛ وكذلك الإحفاء الاستقصاء فى الكلام والمنازعة . ومنه أحفى شاربه أى استقصى فى حذه . ﴿ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أى يخرج البخل أضغانكم . قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيْصِن وحُمَيد « وَتَخْرُج » بتاء مفتوحة وراء مضمومة . « أضغانُكُم » بالرفع لكونه الفاعل . وروى الوليد عن يعقوب الحضرمىّ « ونخرج » بالنون . وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبى عمرو « ويخرجُ » بالرفع فى الجيم على القطع والاستئناف . والمشهور عنه « ويُخرِج » كسائر القرّاء ، عطف على ما تقدّم .

قوله تعالى : هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤		(٢) آية ٥٧ سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ ﴾ أى هأنتم هؤلاء أيها المؤمنون تُدْعَوْن ﴿ لِتُنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى فى الجهاد وطريق الخير . ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى على نفسه؛ أى يمنعها الأجر والثواب . ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أى إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم . ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ اليها . ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أى أطوع لله منكم . روى الترمذىّ عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » قالوا : ومن يُستبدل بنا ؟ قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَنْكِب سَلْمان ثم قال : "هذا وقومه . هذا وقومه" قال : حديث غريب فى إسناده مقال . وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد على بن المدينى أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تَوَلَّينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ سلمان، قال : "هذا وأصحابه . والذى نفسى بيده لو كان الإيمان مَنُوطًا بالثُّرَيّا لتناوله رجال من فارس". وقال الحسن : هم العجم . وقال عكرمة : هم فارس والروم . قال المحاسبىّ : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسنُ دِينًا ، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليمن ، وهم الأنصار؛ قاله شريح بن عبيد . وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار . وعنه أنهم الملائكة . وعنه هم التابعون . وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس . ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ قال الطبرىّ : أى فى البخل بالإنفاق فى سبيل الله . وحكى عن أبى موسى الأشعرىّ أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هى أحبّ إلىّ من الدنيا " . والله أعلم .

ســـورة الفتـــح

مدنية بإجماع، وهي تسع وعشرون آية . ونزلت ليلًا بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِية . روى محمد بن إسحاق عن الزهري عن عُرْوة عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم ، قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِيَة من أولها إلى آخرها . وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ؛ فقال عمر بن الخطاب : ثَكِلَتْ أم عمر ، نَزَرْتَ(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كلّ ذلك لم يجبك ؛ فقال عمر : فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ قرآن ، فما نَشِبْتُ(٢) أن سمعت صارخًا يصرخ بي ؛ فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه ؛ فقال : "لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس — ثم قرأ — «إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا»". لفظ البخاري . وقال الترمذي : حديث حسن غريب صحيح . وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال : لما نزلت «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا . لِيغفر لك اللهُ ما تقدّم مِن ذنبك وما تأخر ويُتِمّ نِعمته عليك ويهديك صِراطا مستقيما — إلى قوله — فوزا عظيما» مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحر الهَدْيَ بالحديبية ، فقال : "لقد أنزلت عليّ آية هي أحبُّ إليّ من الدنيا جميعا" . وقال عطاء عن ابن عباس : إن اليهود شمتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى : «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ! فاشتد ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : «إِنا فَتَحْنَا لك فَتْحًا مُبِينًا لِيغفِرَ لك اللهُ ما تقدّم مِن ذنبك وما تأخر» . ونحوه قال مقاتل

(١) أي ألححت عليه وبالغت في السؤال .
(٢) أي ما لبثت وما تعلقت بشيء .

ابن سليمان : لما نزل قوله تعالى : « وما أدرى ما يُفْعَلُ بِى ولا بِكم (١) » فرح المشركون والمنافقون وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ولا بأصحابه ؛ فنزلت بعد ما رجع من الحديبية « إنَّا فتحنا لك فتحًا مُبِينًا » أى قضينا لك قضاء . فنسخت هذه الآيةُ تلك . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لقد أنزلت علىّ سورة ما يَسُرُّنى بها حُمْرُ النَّعَم" . وقال المسعودى : بلغنى أنه من قرأ سورة الفتح فى أوّل ليلة من رمضان فى صلاة التطوّع حفظه الله ذلك العام .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾

اختلف فى هذا الفتح ما هو؟ ففى البخارىّ حدّثنى محمد بن بشار قال حدّثنا غُنْدَر قال حدّثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » قال : الحُدَيْبِيَة . وقال جابر : ما كنّا نَعُدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية . وقال الفرّاء (٢) : تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا ونحن نَعُدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنّا نَعُدّ مع النبىّ صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة (٣) ، والحديبية بئر . وقال الضحاك : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » بغير قتال . وكان الصلح من الفتح . وقال مجاهد : هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه . وقال : كان فتح الحديبية آية عظيمة ، نزح ماؤها فمجّ فيها فدرّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال موسى بن عقبة : قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ؛ لقد صدّونا عن البيت . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا" . وقال الشعبىّ فى قوله تعالى « إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا » قال : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب فيها ما لم يُصب فى غزوة ؛ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ،

(١) آية ٩ سورة الأحقاف . (٢) فى تفسير الطبرى : « البراء » .
(٣) فى تفسير الطبرى : « خمس مائة » .

وأطعموا نخل خيبر، و بلغ الهَدْىُ مَحِلَّه ، وظهرت الروم على فارس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس . وقال الزهرىّ : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ؛ وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم فى بعض وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ؛ فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف . وقال مجاهد أيضا والعَوْفى : هو فتح خَيْبر . والأوّل أكثر، وخَيْبَرُ إنما كانت وعدًا وُعِدوه؛ على ما يأتى بيانه فى قوله تعالى : « سيقول الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ »[1] ، وقوله «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ»[2] . وقال مُجَمِّع بن جارية — وكان أحد القرّاء الذين قرءوا القرآن — : شهدنا الحديبية مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر ؛ فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال : فخرجنا نُوجِف[3] فوجدنا نبىّ الله صلى الله عليه وسلم عند كُراع الغَميم[4] ، فلما اجتمع الناس قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم « إنا فتحنا لك فتحاً مُبيناً » فقال عمر بن الخطاب : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : "نعم ، والذى نفسى بيده إنه لفتح". فقسمت خيبر على أهل الحديبية ، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية ‹وقيل : إن قوله تعالى « فَتْحاً » يدل على أن مكة فتحت عَنْوة[5]؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقا إلا على مافتح عَنْوةً . هذا هو حقيقة الاسم .›وقد يقال: فُتح البلد صُلْحاً ، فلا يفهم الصلح إلا بأن يقرن بالفتح ، فصار الفتح فى الصلح مجازا . والأخبار دالة على أنها فتحت عَنْوة ؛ وقد مضى القول فيها[6] ، و يأتى .

قوله تعالى : لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

(١) آية ١٥ من هذه السورة . (٢) آية ٢٠ من هذه السورة . (٣) الإيجاف : سرعة السير .
(٤) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة . (٥) أى فتحت بالقتال ، قوتل أهلها حتى غلبوا عليها .
(٦) راجع جـ ٨ ص ٢

قال ابن الأنبارى : «فَتْحاً مُبِيناً» غير تام؛ لأن قوله « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ » متعلق بالفتح . كأنه قال : إنا فتحنا لك فتحا مبينا لكى يجمع الله لك مع الفتح المغفرة ؛ فيجمع الله لك به ما تقرّ به عينك فى الدنيا والآخرة . وقال أبو حاتم السجستانى : هى لام القسم . وهذا خطأ ؛ لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ؛ ولو جاز هذا لجاز : ليقوم زيد ؛ بتأويل ليقومن زيد . الزَّمَخْشَرِيّ : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قال : يَسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك ليجمع لك عِزّ الدارين وأعراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدوّ سببا للغفران والثواب . وفى الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر » مَرْجِعَه من الحديبية ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لقد أنزلت عليّ آية أحبّ إلى مما على وجه الأرض " . ثم قرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ فقالوا : هنيئا مريئا يا رسول الله ، لقد بيّن الله لك ماذا يُفعل بك ؛ فماذا يُفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزًا عَظِيماً » قال حديث حسن صحيح . وفيه عن مُجَمِّع ابن جارية . واختلف أهل التأويل فى معنى « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » فقيل : « ما تقدّم من ذنبك » قبل الرسالة . « وما تأخر » بعدها ؛ قاله مجاهد . ونحوه قال الطبرى وسفيان الثورى ؛ قال الطبرى : هو راجع إلى قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح — إلى قوله — توّاباً » . « لِيغفر لك اللهُ ماتقدم مِن ذنبِك » قبل الرسالة « وَمَا تَأَخَّرَ » إلى وقت نزول هذه الآية . وقال سفيان الثورى : «لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» ما عملته فى الجاهلية من قبل أن يوحى إليك . « وَمَا تَأَخَّرَ » كل شيء لم تعمله ؛ وقاله الواحدى . وقد مضى الكلام فى جريان الصغائر على الأنبياء فى سورة « البقرة » (١) ؛ فهذا قول . وقيل :

(١) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

« ما تقدّم » قبل الفتح . « وما تأخّر » بعد الفتح . وقيل : « ما تقدّم » قبل نزول هـذه الآية . « وما تأخّر » بعـدها . وقال عطاء الخُراسانيّ : « ما تقـدّم من ذنبك » يعنى من ذنب أبويك آدم وحَوّاء . « وما تأخّر » من ذنوب أمتك . وقيل : من ذنب أبيك إبراهيم . « وما تأخّر » من ذنوب النبيين . وقيل : « ما تقدّم » من ذنب يوم بَدْر . « وما تأخر » من ذنب يوم حُنَين . وذلك أن الذنب المتقدّم يوم بدر ، أنه جعل يدعو و يقول : " اللّهُمّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعْبد فى الأرض أبدا " وجعل يردّد هـذا القول دفعات ، فأوحى الله إليه من أين تعلم أنى لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبدا ؛ فكان هذا الذنب المتقدّم . وأما الذنب المتأخر فيوم حُنين ، لمـا انهزم الناس قال لعمه العباس ولابن عمه أبى سفيان : " ناولانى كَفًّا من حَصْباء الوادى " فناولاه فأخذه بيده ورمى به فى وجوه المشركين وقال : " شاهت الوجوه . حَم . لا ينصرون " فانهزم القوم عن آخرهم ، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء . ثم نادى فى أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم : " لو لم أرمهم لم ينهزموا " فأنزل الله عز وجل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »[1] فكان هذا هو الذنب المتأخر . وقال أبو على الرُّوذَبَارِىّ : يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ قال ابن عباس : فى الجنـة . وقيـل : بالنبوّة والحكمة . وقيـل : بفتح مكة والطائف وخيبر . وقيـل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبّر . ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه . ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أى غالبًا منيعًا لا يتبعه ذل .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

(١) آية ١٧ سورة الأنفال .

« السكينة » : السكون والطمأنينة . قال ابن عباس : كل سكينة فى القرآن هى الطمأنينة إلا التى فى « البقرة »(١) . وتقدّم معنى زيادة الإيمان فى « آل عمران »(٢) . وقال ابن عباس : بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ؛ فلما صدّقوه فيها زادهم الصلاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الزكاة ؛ فلما صدّقوه زادهم الصيام ؛ فلما صدّقوه زادهم الحج ؛ ثم أكمل لهم دينهم ؛ فذلك قوله : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أى تصديقًا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان . وقال الربيع بن أنس : خَشْيَةً مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينا مع يقينهم . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يريد الملائكة والجنّ والشياطين والإنس ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما يريده .

قوله تعالى : لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

أى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا . ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة . وقيل : اللام فى «لِيدخل» يتعلق بما يتعلق به اللام فى قوله : « لِيغفر لك الله ». ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب . ﴿ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أى نجاةً من كل غم ، وظفرا بكل مطلوب . وقيل : لما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه « لِيغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر » قالوا : هنيئا لك يا رسول الله، فماذا لنا ؟ فنزل « لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جنّاتٍ » ولما قرأ « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليك » قالوا : هنيئا لك ؛ فنزلت «وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي»(٣) فلما قرأ «وَيَهْدِيَكَ صِراطا مستقيما» نزل فى حق الأمة « وَيَهْدِيَكُمْ صِراطًا مستقيما »(٤) . ولما قال « وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » نزل « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

---

(١) راجع ج ٣ ص ٢٤٨ (٢) راجع ج ٤ ص ٢٨٠

(٣) آية ٣ سورة المائدة . (٤) آية ٢٠ من هذه السورة .

الْمُؤْمِنِينَ »[1] . وهو كقوله تعالى: « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا »[2] . ثم قال : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ »[3] ذكره القُشَيْرِيّ .

قوله تعالى : وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾أى بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين، وبأن يسلط النبيّ عليه السلام قتلًا وأسرًا واسترقاقا . ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعني ظنّهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يرجع إلى المدينة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم . كما قال : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » . وقال الخليل وسيبوَيْه : «السوء» هنا الفساد . ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبْيِ والأسر، وفي الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « دائرة السوء » بالضم . وفتح الباقون . قال الجوهري : ساءه يسوءه سَوْءًا (بالفتح) ومَساءة ومَسايِة؛ نقيض سره، والاسم السُّوء (بالضم). وقرئ «عليهم دائرة السُّوء» يعني الهزيمة والشر . ومن فتح فهو من المساءة . ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . تقدم في غير موضع جميعه، والحمد لله . وقيل : لما جرى صلح الحديبية قال ابن أُبَيّ : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدوّ، فأين فارس والروم ! فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم . وقيل : يدخل فيه

(١) آية ٤٧ سورة الروم . (٢) آية ٥٦ سورة الأحزاب .
(٣) آية ٤٣ سورة الأحزاب .

جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : « ولله جنود السموات » الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون. وأعاد لأن الذى سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين . والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد . فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مُسَمًّى .

قوله تعالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ قال قتادة : على أمتك بالبلاغ . وقيل : شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية . وقيل : مُبَيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم . وقيل : شاهدا عليهم يوم القيامة . فهو شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة . وقد مضى فى «النساء» عن سعيد بن جبير[1] هذا المعنى مبينا . ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة . ﴿وَنَذِيرًا﴾[2] من النار لمن عصى ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى فى « البقرة » اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما . وانتصب « شاهدا ومبشرا ونذيرا » على الحال المقدرة . حكى سيبويه : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا؛ فالمعنى : إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة . وعلى هذا تقول : رأيت عمرا قائما غدا . ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو « ليؤمنوا » بالياء ، وكذلك « يعزّروه ويُوقّروه ويُسبّحوه » كله بالياء على الخبر . واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ؛ فأما قبله فقوله « ليدخل » وأما بعده فقوله « إن الذين يبايعونك » الباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أى تعظموه وتفخّموه؛ قاله الحسن والكلبى . والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمنعوا منه . ومنه التعزير فى الحدّ ؛ لأنه مانع . قال القَطَامِىّ :

---

(١) يلاحظ أن الذى مضى فى سورة النساء هو : سعيد بن المسيب . راجع جـ ٥ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

أَلا بَكَرَتْ مَيٌّ بغير سَفَاهةٍ * تُعاتِبُ والمَوْدُودُ ينفعه العَزْر

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف. وقال بعض أهل اللغة: تطيعوه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تسوّدوه؛ قاله السدى. وقيل تعظموه. والتوقير: التعظيم والتَّرْزِين أيضا. والهاء فيهما للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وهنا وقف تام، ثم تبتدئ «وتسبحوه» أي تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي عَشِيًّا. وقيل: الضمائر كلّها لله تعالى؛ فعلى هذا يكون تأويل «تعزروه وتوقروه» أي تثبتوا له صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك. واختار هذا القول القشيرى. والأوّل قول الضحاك، وعليه يكون بعض الكلام راجعا إلى الله سبحانه وتعالى وهو «وتسبّحوه» من غير خلاف. وبعضه راجعا إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو «وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ» أي تدعوه بالرسالة والنبوّة لا بالاسم والكُنْيَة. وفى «تسبحوه» وجهان: أحدهما — تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح. والثانى — هو فعل الصلاة التى فيها التسبيح. «بُكْرَةً وأَصِيلًا» أي غُدْوة وعشيًّا. وقد مضى القول فيه[(1)]. وقال الشاعر:

لَعَمْرِى لأنت البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ * وأجلس فى أَفْيَائه بالأصائِل[(2)]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحُدَيْبِيَة يا محمد. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ بيّن أن بيعتهم لنبيّه صلى الله عليه وسلم إنما هى بيعة الله؛ كما قال تعالى: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»[(3)]. وهذه المبايعة هى بيعة الرضوان؛ على ما يأتى بيانها فى هذه السورة إن شاء الله تعالى. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل: يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء، ويده فى المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطاعة. وقال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا

(1) راجع ج ١٤ ص ١٩٨. (2) البيت لأبى ذؤيب. (3) آية ٨٠ سورة النساء.

من البَيعة . وقال ابن كَيْسان : قوة الله ونُصرته فوق قوتهم ونصرتهم . ﴿ فَمَنْ نَكَثَ ﴾ بعد البيعة . ﴿ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أى يرجع ضرر النّكْث عليه؛ لأنه حَرَمَ نفسَه الثواب وألزمها العقاب . ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ قيل فى البيعة . وقيل فى إيمانه . ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعنى فى الجنة . وقرأ حفص والزهرى « عليهُ » بضم الهاء . وجرّها الباقون . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « فسنؤتيه » بالنون . واختاره الفرّاء وأبو معاذ . وقرأ الباقون بالياء . وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لقرب اسم الله منه .

قوله تعالى : سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قال مجاهد وابن عباس : يعنى أعراب غِفار ومُزَينة وجُهينة وأسلم وأشجع والدِّيل ؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ؛ تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حَذَرًا من قريش ، وأحرم بعُمْرة وساق معه الهَدْىَ ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشّغل؛ فنزلت . وإنما قال : « المخلفون » لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيّه . والمخلَّف المتروك . وقد مضى فى « براءة »(١) . ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أى ليس لنا من يقوم بهما . ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ جاءوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ؛ ففضحهم الله تعالى بقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ وهذا هو النفاق المحض . ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ قرأ حمزة والكسائى « ضُرًّا » بضم الضاد هنا فقط ؛ أى أمرًا يضركم . وقال ابن عباس : الهزيمة .

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٦

الباقون بالفتح ؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا . و بالضم اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال . والمصدر يؤدّى عن المرّة وأكثر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا : لأنه قابله بالنفع وهو ضدّ الضر . وقيل : هما لغتان بمعنًى ؛ كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أى نصرًا وغنيمة . وهذا ردّ عليهم حين ظنّوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر و يعجل لهم النفع .

قوله تعالى : بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا . (١٢)

قوله تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أَكَلة[(١)] رأس لا يرجعون . ﴿ وَزُيِّنَ ذَلِكَ ﴾ أى النفاق . ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وهذا التزيين من الشيطان، أو يخلق الله ذلك فى قلوبهم . ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أن الله لاينصر رسوله . ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هَلْكَى ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير . قال الجَوْهَرِىّ : البُور : الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِىّ :

يا رسول المليك إن لسانى * راتِق ما فَتَقْتُ إذ أنا بُور

وامرأة بُور أيضا ؛ حكاه أبو عبيد . وقوم بُورٌ هَلْكَى . قال تعالى : «وكنتم قوما بورا» وهو جمع بائر ؛ مثل حائل وحُول . وقد بار فلان أى هلك . وأباره الله أى أهلكه . وقيل : « بورا » أشرارًا ؛ قاله ابن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لا ينفع الطُّول من نُوكِ الرجال وقد * يهدى الإله سبيل المَعْشَر البور[(٢)]

أى الهالك .

---

(١) أى هم قليل يشبعهم رأس واحد . (٢) ورد هذا البيت فى الأصول مخزوما .

قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالنفاق .

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أى هو غنيّ عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكاليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى.

قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يعنى مغانم خيبر؛ لأن الله عز وجل وعد أهل الحُدَيْبِيَة فتح خَيْبَر ، وأنها لهم خاصّةً من غاب منهم ومن حضر . ولم يَغِب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضر . قال ابن إسحاق : وكان المتولّى للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصارى من بنى سلمة ، وزيد بن ثابت من بنى النجار ؛ كانا حاسبين قاسمين . ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أى دعونا . تقول : ذَرْه ، أى دعه . وهو يَذَرُه ؛ أى يَدَعُه . وأصله وذِرَه يَذَرُه مثالُ وَسِعه يَسَعُه . وقد أُمِيت صدره[1] ، لا يقال : وذَره ولا واذر ، ولكن تركه وهو تارك . قال مجاهد : تخلفوا عن الخروج إلى مكة ، فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ قوما

(١) هذه عبارة الأصل وصحاح الجوهرى . وعبارة اللسان : «والعرب قد أماتت المصدر من « يذر » والفعلَ الماضى ، فلا يقال . ... » الخ .

ووجّه بهم قالوا ذَرُونا نتّبعكم فنقاتل معكم . ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَـدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ أى يغيّروا . قال ابن زيد : هو قوله تعالى « فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُـلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا »[1] الآية . وأنكر هذا القول الطبرى وغيره ؛ بسبب أن غزوة تبوك كانت بعـد فتح خَيْبَر و بعـد فتح مكة . وقيل : المعنى يريدون أن يغـيّروا وعد الله الذى وعد لأهـل الحُدَيْبِيَـة ؛ وذلك أن الله تعـالى جعل لهم غنائم خيبر عوَضًا عن فتح مكة إذ رجعـوا من الحديبية على صلح ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الطبرى وعليه عامة أهـل التأويل . وقرأ حمزة والكسائى « كَلِمَ » بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة ؛ نحو سَلِمة وسَلِم . الباقون « كلام » على المصـدر . واختاره أبو عبيـد وأبو حاتم ، اعتبارا بقوله « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي »[2] . والكلام : ما استقل بنفسه من الجمل . قال الجوهرى : الكلام اسم جنس يقـع على القليل والكثير . والكَلِم لا يكون أقـلّ من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة ؛ مثل نَبِقة ونَبِق . ولهذا قال سيبويه : « هذا بابُ عِلْمِ ما الكَلِمُ من العربيـة » ولم يقل ما الكلام؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الاسم والفعل والحرف ؛ فجاء بما لا يكون إلا جمعا ، وترك ما يمكن أن يقـع على الواحد والجماعة . وتَمِيمٌ تقول : هى كِلْمـة ، بكسر الكاف، وقد مضى فى « براءة » القول فيها[3] . ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نُصيب معكم من الغنائم . وقيل قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم " . فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى «فسيقولون بل تحسدوننا» فقال الله تعالى ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى لا يعلمون إلا أمر الدنيا . وقيـل : لا يفقهون من أمر الدّين إلا قليـلا ؛ وهو ترك القتـال .

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة . (٢) آية ١٤٤ سورة الأعراف .

(٣) راجع جـ ٨ ص ١٤٩

قوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ أى قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وآبن أبى لَيْلَى وعطاء الخراسانى : هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن آبن أبى ليلى : الروم . وعن الحسن أيضا : فارس والروم . وقال آبن جُبير : هوازن وثقيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغَطَفان يوم حُنين . وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحاب مُسَيْلِمة . وقال رافع بن خَديج : والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى « سَتُدْعَوْنَ إلى قومٍ أُولِي بأسٍ شديدٍ » فلا نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعدُ . وظاهر الآية يردّه .

الثانية — فى هذه الآية دليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك فى هوازن وغطفان يوم حنين فلا ؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعى لهم الرسول عليه السلام ؛ لأنه قال « لن تخرجوا معِىَ أبدًا ولن تقاتلوا معِىَ عدوًّا »(١) فدلّ على أن المراد بالداعى غير النبى صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبى صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . الزَّمَخْشَرِىّ : فإن صحّ ذلك عن قتادة فالمعنى لن تخرجوا معى أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب فى الدِّين .

(١) آية ٨٣ سورة التوبة .

أو على قول مجاهد كان الموعد أنهـم لا يتبعون رسول الله صـلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم فى المغنم .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْـلِمُونَ ﴾ هـذا حُكْمُ من لا تؤخذ منهـم الجـزية ، وهو معطوف على « تقاتلونهـم » أى يكون أحد الأمرين ، إما المقاتـلة و إما الإسلام؛ لا ثالث لهما . وفى حرف أُبَىّ « أو يُسْـلِموا » بمعنى حتى يُسلِموا؛ كما تقول : كُلْ أو تشبع؛ أى حتى تشبع . قال :

فقلت له لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنمـا * نحاوِل مُلْكًا أو نموت فنُعذَرا[(1)]

وقال الزجاج : قال « أو يسلمون » لأن المعنى أو هـم يسلمون من غير قتال . وهـذا فى قتال المشركين لا فى أهل الكتاب .

الرابعـة ــ قوله تعـالى : ﴿ فإنْ تُطِيعُوا يُؤْتِـكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الغنيمة والنصر فى الدنيـا ، والجنـة فى الآخرة . ﴿ و إنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْـلُ ﴾ عامَ الحُدَيْبِيَـة . ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب النار .

قوله تعـالى : لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس : لمـا نزلت « وإنْ تتولَّوْا كما تولَّيْتُمْ من قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عذابًا أليمًا » قال أهل الزَّمانة : كيف بنا يارسول الله ؟ فنزلت « ليس على الأعْمَى حَرَجٌ ولا على الأعْرَجِ حَرَجٌ ولا على المَرِيض حَرَجٌ » أى لا إثم عليهم فى التخلف عن الجهاد لعماهـم وزمانتهم وضعفهم . وقد مضى فى « براءة » وغيرها الكلام فيـه مُبيَّنًا[(2)] . والعَرَج : آفة تعرض لرِجْل واحدة، و إذا كان ذلك مؤثّرًا فعلل الرِّجْلين أولى أن يؤثر . وقال مقاتل : هم أهل الزمانة

(١) البيت لأمرئ القيس . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٢٦ وجـ ١٢ ص ٣١٢

الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم . أى من شاء أن يسير منهم معكم إلى خَيْبَر فليفعل . ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمره . ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ قرأ نافع وآبن عامر « ندخله » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدّم اسم الله أوّلا . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ هذه بَيْعة الرضوان، وكانت بالحديبية، وهذا خبر الحديبية على اختصار : وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أقام مُنْصَرَفه من غَزْوة بني المُصْطَلِق في شوّال ، وخرج في ذي القعدة مُعْتَمِراً ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن آتبعه من العرب ، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة . وقيل : ألف وخمسمائة . وقيل غير هذا ، على ما يأتي . وساق معه الهَدْيَ ، فأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم الناسُ أنه لم يخرج لحرب، فلما بلغ خروجه قريشا خرج جمعهم صادّين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ودخول مكة ، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك ، وقدّموا خالد بن الوليد في خيل إلى « كُرَاع الغَمِيم » فورَد الخبر بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « بعُسْفان »(١) وكان المخبر له بشر بن سفيان الكَعْبي ، فسلك طريقا يخرج به في ظهورهم ، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة ، وكان دليله فيهم رجل من أسلم، فلما بلغ ذلك خيلَ قريش التي مع خالد ، جرت إلى قريش تُعلمهم بذلك ،

(١) عسفان (بضم أوّله وسكون ثانيه) : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة . وقيل : على مرحلتين من مكة على طريق المدينة . (معجم البلدان) .

فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية بركت ناقته صلى الله عليه وسلم فقال الناس : خَلَأَتْ ! خَلَأَتْ(١) ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما خَلَأَتْ وما هو لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطّة يسألونى فيها صلة رَحِم إلا أعطيتهم إياها " . ثم نزل صلى الله عليه وسلم هناك ؛ فقيل : يا رسول الله ، ليس بهذا الوادى ماء ! فأخرج عليه الصلاة والسلام سهما من كِنانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قَلِيب من تلك القُلُب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرِّواء(٢) حتى كفى جميع الجيش . وقيل : إن الذى نزل بالسّهم فى القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمى وهو سائق بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسلم يومئذ . وقيل : نزل بالسهم فى القَليب البرَاء بن عازب ، ثم جرت السُّفَراء بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين كفار قريش ، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاءه سُهيل بن عمرو العامرى ، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك ، فإذا كان من قابل أتى مُعْتَمِرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح ، حاشا السيوف فى قُرُبها فيقيم بها ثلاثا ويخرج ، وعلى أن يكون بينه و بينهم صلح عشرة أعوام ، يتداخل فيها الناس و يأمن بعضهم بعضا ، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلما من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ؛ فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجا ؛ فقال لأصحابه . " اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سببا إلى ظهور دينه " فأنِس الناس إلى قوله هذا بعد نفار منهم ، وأبى سهيل بن عمرو أن يكتب فى صدر صحيفة الصلح : من محمد رسول الله ، وقالوا له : لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد ! فلا بد أن تكتب : باسمك اللّهمّ . فقال لعليّ وكان يكتب صحيفة الصلح : " امح يا عليّ ، واكتب باسمك اللّهُمّ " فأبَى عليّ أن يمحو بيده « محمد رسول الله » . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعرضه عليّ " فأشار إليه فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأمره أن

(١) خلأت الناقة : حرنت و بركت من غير علة .　　(٢) الرواء : الكثير .

يكتب «من محمد بن عبد الله» . وأتى أبو جندل بن سهيل يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يرسُف في قيوده، فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيه؛ فعظم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر أبا جندل "أنّ الله سيجعل له فرجًا ومخرجاً". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولا، فجاء خبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قتلوه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة؛ فرُوِى أنه بايعهم على الموت . وروى أنه بايعهم على ألاّ يفرّوا . وهي بيعة الرضوان تحت الشجرة، التي أخبر الله تعالى أنه رضى عن المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يدخلون النار . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيمينه على شماله لعثمان؛ فهو كمن شهدها . وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال : أوّل من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أبو سفيان الأسدى . وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة[(1)]، وقال : بايعناه على ألاّ نفرّ ولم نبايعه على الموت . وعنه أنه سمع جابرا يسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرَة؛ فبايعناه، غيرَ جَدّ بن قيس الأنصارى اختبأ تحت بطن بعيره . وعن سالم بن أبي الجعد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة . فقال : لو كنا مائةَ ألفٍ لكفانا، كنا ألفا وخمسمائة . وفي رواية : كنا خمس عشرة مائة . وعن عبد الله بن أبي أوْفَى قال : كان أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة، وكانت أسْلَم ثُمُن المهاجرين . وعن يزيد بن أبي عبيد قال قلت لسلمة: على أى شيء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال: على الموت. وعن البراء بن عازب قال : كتب عليّ رضى الله عنه الصلح بين النبيّ صلى الله عليه وسلم و بين المشركين يوم الحديبية؛ فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فقالوا :

(١) السمرة : شجر الطلح .

لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ: "آمْحُه". فقال: ما أنا بالذى أمحاه(١)؛ فمحاه النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده . وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثا، ولا يدخلها بسلاح الا جُلُبّان السلاح. [قلت لأبي إسحاق: وما جُلُبّان السلاح؟ قال:](٢) القِراب وما فيه . وعن أنس: أن قريشا صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سهيل بن عمرو: أما باسم الله(٣)، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم! ولكن آكتب ما نعرف: باسمك اللّهمّ . فقال: "اكتب من محمد رسول الله" قالوا: لو علمنا أنك رسوله لآتبعناك! ولكن آكتب آسمك وآسم أبيك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اكتب من محمد بن عبد الله" فاشترطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم: أن من جاء منكم لم نردّه عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا! قال "نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا".

وعن أبي وائل قال: قام سهل بن حُنيف يوم صِفِّين فقال يأيها الناس، آتّهموا أنفسَكم، لقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا؛ وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين . فجاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال "بلى" قال . أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال "بلى" قال ففيم نعطِى الدّنيّة فى ديننا ونرجعُ ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم؟ فقال "يابن الخطاب إنى رسول الله ولن يُضَيِّعَنِى الله أبدا" قال: فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظًا فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال بلى؛ قال: أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال بلى . قال: فعلام نعطِى الدّنيّة فى ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا و بينهم؟ فقال: يابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا . قال: فنزل القرآن على رسول الله صلى

(١) أمحاه: لغة فى أمحوه . (٢) زيادة عن مسلم . (٣) قوله: «أما باسم الله ...» أى فنحن ندريه . وأما البسملة التى تذكرها بتمامها فما ندريها .

الله عليه وسلم بالفتح ؛ فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه ؛ فقال : يا رسول الله ، أوَ فَتْحٌ هو ؟ قال " نعم " . فطابت نفسه ورجع .

قوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء ؛ قاله الفراء . وقال ابن جُريج وقتادة : من الرضا بأمر البَيْعة على ألا يفرّوا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت . ﴿ فأنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا . وقيل : « فعلم ما فى قلوبهم » من الكآبة بصدّ المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم عنهم ؛ إذا رأى أنه يدخل الكعبة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما ذلك رؤيا منام" . وقال الصدّيق : لم يكن فيها الدخول فى هذا العام . والسكينة : الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد . وقيل الصبر . ﴿ وأثَابَهُمْ فَتْحاً قريباً ﴾ قال قتادة وابن أبى ليلى : فتح خيبر . وقيل فتح مكة . وقرئ « وآتاهم » ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يأخُذُونَهَا ﴾ يعنى أموال خيبر ؛ وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة . فـ « مَغَانِمَ » على هذا بدل من « فَتْحًا قريباً » والواو مُقحَمة . وقيل : «ومغانم» فارس والروم .

قوله تعالى : وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تأخُذُونَهَا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد . إنها المغانم التى تكون إلى يوم القيامة . وقال ابن زيد : هى مغانم خيبر . ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ ﴾ أى خيبر ؛ قاله مجاهد . وقال ابن عباس : عجّل لكم صلح الحديبية . ﴿ وكَفَّ أيْدِيَ النَّاسِ عنكُمْ ﴾ يعنى أهل مكة ؛ كفّهم عنكم بالصلح . وقال قتادة : كفّ أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبرى ؛ لأن كف أيدى المشركين بالحديبية مذكور فى قوله « وهو الذى كف أيْدِيَهُمْ عنكم »(١) . وقال ابن

(١) آية ٢٤ من هذه السورة .

عباس : في « كَفَّ أيْدِيَ النَّاسِ عنكم » يعني عُيينة بن حِصْن الفَزَارِي وعوف بن مالك النَّضْري ومن كان معهما، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبي صلى الله عليه وسلم محاصر لهم؛ فألقى الله عز وجل في قلوبهـم الرعب وكَفَّهم عن المسلمين . ﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للؤمنين؛ فيعلموا أن الله يحرسهم في مشهدهم ومَغيبهم. وقيل: أي ولتكون كف أيديهم عنكم آية للؤمنين . وقيل : أي ولتكون هـذه التي عجلها لكم آية للؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها . والواو في «ولتكون» مقحمة عند الكوفيين. وقال البصريون : عاطفة على مضمر؛ أي وكف أيدي النـاس عنكم لتشكروه ولتكون آية للؤمنين . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أي يزيدكم هُدًى، أو يثبتكم على الهداية .

قوله تعـالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأُخْرَى ﴾ « أخرى » معطوفة على « هـذه » ؛ أي فعجّل لكم هـذه المغانم ومغانم أخرى . ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فتحت على المسلمين ؛ كأرض فارس والروم، وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وٱبن أبي ليـلى . وعن ٱبن عباس أيضـا والضحاك وٱبن زيد وٱبن إسحاق : هي خيـبر ، وعدها الله نبيّه قبـل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها . وعن الحسن أيضا وقتادة : هو فتح مكة . وقال عكرمة : حُنين؛ لأنه قال « لم تَقْدِرُوا عليها » . وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات درك المطلوب في الحال كما كان في مكة؛ قاله القشيري . وقال مجاهد : هي ما يكون إلى يوم القيامة . ومعنى « قد أحاط الله بها » أي أعدّها لكم ؛ فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه، فهو محصور لا يفوت، فأنتم و إن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم . وقيـل : « أحاط الله بها » علم أنها ستكون لكم ؛ كما قال « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا »[(١)] . وقيـل : حفظها الله عليكم ؛ ليكون فتحها لكم . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

(١) آية ١٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ﴾ قال قتادة : يعنى كفار قريش فى الحُدَيْبِيَة . وقيل : « ولو قاتلكم » غَطَفان وأسد والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر ؛ لكانت الدائرة عليهم . ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه . وانتصب « سُنَّةَ » على المصدر . وقيل : « سنة الله » أى كسنة الله . والسنة الطريقة والسِّيرة . قال :

فلا تجزَعَن من سِيرة أنت سِرْتَها * فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرها[1]

والسُّنة أيضا : ضرب من تمر المدينة . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ وهى الحديبية . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم من جبل التَّنعيم[2] متسلّحين يريدون غِرّة[3] النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فأخذناهم سِلْمًا[4]

(١) البيت لخالد بن عتبة الهذلى .
(٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف .
(٣) الغرة (بالكسر) : الغفلة ، أى يريدون أن يصادفوا منه صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم .
(٤) رواية مسلم : « فأخذهم سلما فاستحياهم » . وقوله « سلما » قال ابن الأثير : « يروى بكسر السين وفتحها ، وهما لغتان فى الصلح ، وهو المراد فى الحديث على ما فسره الحميدى فى غريبه . وقال الخطابى : إنه السلم ، بفتح السين واللام ، يريد الاستسلام والإذعان ...... وهذا هو الأشبه بالقضية ؛ فإنهم لم يؤخذوا عن صلح وإنما أخذوا قهرا وأسلموا أنفسهم عجزا ... » .

فاستحييناهم ؛ فأنزل الله تعالى « وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » . وقال عبـد الله بن مغفّل المُزَنِيّ : كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحـديبية فى أصـل الشجرة التى قال الله فى القرآن ؛ فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا فدعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ؛ فقال لهم رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "هل جئتم فى عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا" . قالوا : اللهم لا ؛ فخلّى سبيلهم . فأنزل الله تعالى : «وهو الذى كفّ أيديهم عنكم» الآية . وذكر ابن هشام عن وَكيع : وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلا أو ثمانين رجلا للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة فى أطرافهم ؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم فى الصلح ، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين يُسَمَّوْن العُتَقاء ، ومنهم معاوية وأبوه . وقال مجاهد : أقبـل النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَمِرًا ، إذ أخذ أصحابه ناسا من الحرم غافلين فأرسلهم النبيّ صـلى الله عليه وسـلم ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة . وقال قتادة : ذكر لنـا أن رجلا من أصحاب رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقال له زُنَيم ، اطّلع الثَّنِيّة من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه ؛ فبعث النبيّ صلى الله عليـه وسلم خيلا فأتوا باثنى عشر فارسا من الكفار ، فقال لهم النبيّ صـلى الله عليه وسلم : "هـل لكم علىّ ذمّة" ؟ قالوا لا ؛ فأرسلهم فنزلت . وقال ابن أبزى والكلبي : هم أهـل الحديبية ، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين ، وكفّ أيدى المسلمين عنهم . وقـد تقدّم أن خالد بن الوليـد كان فى خيـل المشركين . قال القشيرى : فهـذه رواية ، والصحيح أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسـلم فى ذلك الوقت . وقد قال سـلمة بن الأكْوَع : كانوا فى أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان ، فإذا الوادى يسير بالرجال والسـلاح ، قال : فجئت لستة من المشركين أسـوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؛ فأتيت بهم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم . وكان عمـر قال فى الطريق : يا رسول الله ، نأتى قوما حَرْبًا وليس معنا سلاح ولا كُرَاع ؟ فبعث

رســول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيهـا ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عكرمة بن أبى جَهْل خرج إليـك فى خمسمائة فارس؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : " هذا ابن عمك أتاك فى خمسمائة " . فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ؛ فيومئـذ سُمِّى بسيف الله ، فخرج ومعه خيـل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة . وهذه الرواية أصح ، وكان بينهـم قتال بالحجارة ، وقيل بالنَّبل والظُّفْر(١) . وقيل : أراد بكف اليد أنه شرط فى الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم ؛ فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردّهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل ، ومنهم أبو بَصـير ، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم ، حتى جاء كبار قريش إلى النبي صلى الله عليه وسـلم وقالوا : اضممهم إليك حتى نأمن ؛ ففعل . وقيل : همّت غَطَفان وأسـد منع المسلمين من يهود خَيْبر ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم ، فمنعهم الله عن ذلك ؛ فهو كفّ اليد . ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ فيه قولان : أحدهمـا — يريد به مكة . الثانى — الحديبية ، لأن بعضها مضاف إلى الحرم . قال المـاوردى : وفى قوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِم » بفتح مكة . وتكون هـذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحا ؛ لقوله عز وجل : « كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم » .

قلت : الصحيح أن هذه الآية نزلت فى الحديبية قبل فتح مكة ، حسب ما قدمناه عن أهـل التأويل من الصحابة والتـابعين . وروى الترمذى قال : حدثنـا عبد بن حُميد قال حدثنى سـليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمـانين هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه؛ فأخذوا أخذًا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى : « وهو الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهـم » الآية . قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن صحيح ؛ وقد تقدّم . وأما فتح مكة فالذى تدل عليه الأخبار أنها إنمـا فُتحت عَنْوة؛ وقد مضى القول فى ذلك فى « الحج »(٢) وغيرها . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ .

(١) الظفر (بالضم) : طرف القوس . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٣

قوله تعالى : هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ . فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى قريشا ، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة حين أحرم النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعُمْرة، ومنعوا الهَدْى وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه . وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دِينًا ؛ فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه ، وأدخل الأنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه ووعده .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾ (١) أى محبوسا . وقيل موقوفا . وقال أبو عمرو ابن العلاء : مجموعا . الجوهرى : عكفه أى حبسه ووقفه، يَعكِفه و يَعْكُفه عَكْفًا ؛ ومنه قوله تعالى : « والهَدْىَ معكوفا » ؛ يقال : ما عكفك عن كذا . ومنه الاعتكاف فى المسجد وهو الاحتباس . ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ أى منحره؛ قاله الفراء . وقال الشافعى رضى الله عنه : الحَرَم . وكذا قال أبو حنيفة رضى الله عنه: المُحْصَر محلّ هَدْيه الحرَم. والمَحِلّ (بكسر الحاء) : غاية الشيء . (وبالفتح) : هو الموضع الذى يحله الناس. وكان الهَدْىُ سبعين بَدَنة ، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلا. وقد اختلف العلماء فى هذا على ما تقدّم بيانه فى « البقرة » عند قوله تعالى « فإن أُحصِرتم »(٢) والصحيح ماذكرناه. وفى صحيح مسلم عن أبى الزبير عن جابر

---

(١) فى الأصول : « واقفا » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

ابن عبـد الله قال : نَحْرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البَـدَنةَ عن سبعة ، والبقَرة عن سبعة . وعنه قال : اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج والعُمْرة كلُّ سبعة فى بَدَنة . فقال رجل لجابر : أيُشْتَرَك فى البَدنة مايشترك فى الجَزُور؟ قال : ماهى إلا من البُدْن . وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة ، اشتركنا كل سبعة فى بدنة . وفى البخارىّ عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين؛ فحـال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسـلم بدنة وحلق رأسه . قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خِرَاش بن أمية بن أبى العيص الخزاعى ،وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن ينحروا ويحلّوا؛ ففعلوا بعد توقُّف كان منهم أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت له أم سلمـة : لو نحرت لنحروا ؛ فنحر رسول الله صلى الله عليـه وسلم هَدْيه ونحروا بنحره، وحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا للمُحَلِّقين ثلاثا وللمقصِّرين مرة . ورأى كعب بن عُجْرة والقَمْل يسقط على وجهـه ؛ فقال : " أيؤذيك هـوامّك " ؟ قال نعم ؛ فأمره أن يحـلق وهو بالحديبيـة . خرّجه البخارى والدارقطنى . وقـد مضى فى « البقرة »(١) .

الثالثـة ــ قوله تعالى : ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان . وقرئ «حتى يبلغ الهَدِىُّ محلّه» بالتخفيف والتشديد ؛ الواحدة هَدْيَة . وقد مضى فى « البقرة »(٢) أيضا . وهـو معطوف على الكاف والميم من « صَدُّوكم » . و ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال ،وموضع « أنْ » من قوله «أنْ يبلغ محلّه» نصب على تقدير الحمل على « صَدّوكم » أى صدّوكم وصدّوا الهَدْى عن أن يبلغ . ويجوز أن يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : وصَدُّوا الهَدْى كراهية أن يبلغ محله . أبو على : لا يصح حمله على العكف ؛ لأنّا لانعلم «عكف» جاء متعدّيا ، ومجىء « معكوفا » فى الآية يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ كأنه لمـا كان حَبْسًا حُمِل المعنى على ذلك ، كما حُمِل الرَّفَث على معنى الإفضاء فعُدِّىَ بإلى ؛ فإن حُمِل على ذلك كان موضعه نصبا على قياس قول سيبويه ، وجرًّا على قياس

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٨٣ طبعة ثانية . (٢) جـ ٢ ص ٣٧٨ .

قول الخليل . أو يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : محبوسا كراهية أن يبلغ محله . ويجوز تقدير الجر فى « أن » لأن عن تقدمت ؛ فكأنه قال : وصدوكم عن المسجد الحرام، وصدوا الهدى « عن » أن يبلغ محله . ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس : مررت برجل إنْ زيدٍ وإن عمرٍو ؛ فأضمر الجار لتقدم ذكره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾ يعنى المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار ؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة وأبى جَنْدل بن سهيل ، وأشباههم . ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ أى تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون . ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ؛ يقال : وطئت القوم ؛ أى أوقعت بهم . و « أن » يجوز أن يكون رفعاً على البدل من « رجالٌ، ونساءٌ » كأنه قال ولولا وطؤكم رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات . و يجوز أن يكون نصبا على البدل من الهاء والميم فى « تعلموهم » ؛ فيكون التقدير : لم تعلموا وطأهم ؛ وهو فى الوجهين بدل الاشتمال . « ولم تعلموهم » نعت لـ « رجالٌ » و « نساءٌ » . وجواب «لولا » محذوف ؛ والتقدير : ولولا أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم فى دخول مكة ، ولسلطكم عليهم؛ ولكنا صُنّاً من كان فيها يكتم إيمانه خوفاً . وقال الضحاك : لولا مَن فى أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ المَعَرّة العيب، وهى مفعلة من العُرّ وهو الجَرَب ؛ أى يقول المشركون : قد قتلوا أهل دينهم . وقيل : المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن فى دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارةَ دون الدِّية فى قوله : « فإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » قاله الكلبى ومقاتل وغيرهما . وقد مضى

فى « النساء » القول فيه . وقال ابن زيد : « مَعَرَّةٌ » إثم . وقال الجوهرى وابن إسحاق : غُرْم الدِّيَة . قُطْرُب : شدّة . وقيل غَمّ .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدّى ؛ حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدا لكان عن غير قصد . وهــذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليــه السلام فى قولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ؛ أى لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمتــه . ويجوز أن تتعلق بالإيمـان. ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين ؛ لأن الجميع يدخلون فى الرحمــة . وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ؛ أى جنته .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أى تميّزوا ؛ قاله القُتَبِى . وقيل : لو تفرقوا ؛ قاله الكلبى . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ؛ قاله الضحاك . ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار . وقال علىّ رضى الله عنــه : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن هــذه الآية « لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » فقال : "هم المشركون من أجداد نبى الله ومن كان بعــدهم وفى عصرهم كانــ فى أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذابا أليمـا" .

الثالثــة — هــذه الآية دليل على مراعاة الكافر فى حرمة المؤمن ؛ إذ لا يمكن إذاية الكافر إلا بإذاية المؤمن . قال أبو زيد قلت لابن القاسم : أرأيت لو أن قوما من المشركين فى حصن من حصونهم ، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى فى أيديهم ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٢٣ . (٢) آية ١٨ سورة النمل .

أيحرق هـذا الحصن أم لا ؟ قال : سمعت مالكا وسئل عن قوم من المشركين فى مراكبهم أنرمى فى مراكبهم بالنـار ومعهم الأسارى فى مراكبهم ؟ قال : فقال مالك لا أرى ذلك ؛ لقوله تعالى لأهل مكة : «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» . وكذلك لو تترّس كافر بمسلم لم يجز رميـه . وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحدا من المسلمين فعليـه الدية والكفارة . فإن لم يعلموا فلا ديَة ولا كفارة ؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا ، فإذا فعلوه صاروا قَتَلَة خطأ والدية على عواقلهم . فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا . وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تِبَاعة . قال ابن العربى : « وقد قال جماعة إن معناه لو تزيّلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال . وهذا ضعيف ؛ لأن من فى الصلب أو فى البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرّة . وهو سبحانه قد صرح فقال : «ولولا رِجالٌ مؤمنون ونِساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم» وذلك لا ينطلق على من فى بطن المرأة وصلب الرجال ، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، وأبى جندل بن سهيل . وكذلك قال مالك : وقد حاصرنا مدينـة الروم فحبس عنهم المـاء ، فكانوا يُنزلون الأسارى يستقون لهم المـاء ، فلا يقدر أحد على رميهم بالنَّبل ، فيحصل لهم المـاء بغير اختيارنا . وقد جوّز أبو حنيفة وأصحابه والثّورى الرمىَ فى حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . ولو تترّس كافر بولد مسلم رمى المشرك ، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دِيَة فيه ولا كفارة . وقال الثورى : فيه الكفارة ولا دِيَة . وقال الشافعى بقولنا . وهذا ظاهر ؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز ؛ سيما بروح المسلم ؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضى الله عنه . والله أعلم » .

قلت : قد يجوز قتل التُّرْس ، ولا يكون فيـه اختلاف إن شاء الله ، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كليـة قطعية . فمعنى كونها ضرورية ، أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس . ومعنى أنها كليـة ، أنها قاطعة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتـل الترس مصلحة كل المسلمين ؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها

قطعية، أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعا . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها ؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعا ؛ فإما بأيدي العدو فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين . وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون . ولا يتأتى لعاقل أن يقول : لا يقتل التُّرس في هذه الصورة بوجه ؛ لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين ، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة ، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها ؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم . والله أعلم .

الرابعة — قراءة العامة « لَوْ تَزَيَّلُوا » إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ « تزايلوا » وهو مثل « تزيّلوا » في المعنى . والتزايل : التباين . و « تزيّلوا » تفعّلوا ، من زِلْت . وقيل : هي تَفَيْعَلُوا . « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » قيل : اللام جواب لكلامين ؛ أحدهما — « لولا رجال » والثاني — « لو تزيلوا » . وقيل جواب « لولا » محذوف ؛ وقد تقدّم . « ولو تزيلوا » ابتداء كلام .

قوله تعالى : إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)

العامل في « إذ » قوله تعالى : « لَعَذَّبْنَا » أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا . أو فعل مضمر تقديره واذكروا . ﴿ الْحَمِيَّةَ ﴾ فعيلة وهي الأَنَفَة . يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيّة (بالتشديد) ومَحْمِيَة إذا أَنِفْت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله . ومنه قول المتلمّس :

ألا إنني منهم وعِرْضِي عِرْضُهم * كذي الأنف يحمي أنفه أن يُكَشَّمَا (١)

أي يمنع . قال الزهري : حَمِيَّتُهم أنفتهم من الإقرار للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة

(١) الكشم : قطع الأنف باستئصال .

والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة . وكان الذى امتنـع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسـول الله : سهيل بن عمرو ؛ على ما تقدّم . وقال ابن بحـر : حميّتهم عصبيّتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنفة من أن يعبدوا غيرها . وقيل : « حَمِيَّـةَ الجاهلِيةِ » إنهـم قالوا : قتلوا أبناءنا و إخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ؛ واللات والعزى لا يدخلها أبدا . ﴿ فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أى الطمأنينة والوقار ﴿ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ قيل لا إله إلا الله . روى مرفوعا من حديث أُبَيّ بن كَعْب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو قول عليّ وابن عمر وابن عباس، وعمرو بن مَيْمُون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ، وسـلمة بن كُهيل وعبيـد بن عمير وطلحة بن مُصَرِّف ، والربيع والسدى وابن زيد . وقاله عطاء الخراسانى، وزاد « محمد رسول الله » . وعن عليّ وابن عمر أيضا هى لا إله إلا الله والله أكبر . وقال عطاء بن أبى رباح ومجاهد أيضا : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قـدير . وقال الزهرىّ : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى أن المشركين لم يُقِرّوا بهـذه الكلمة ؛ فخصّ الله بها المؤمنين . و « كلمـة التقوى » هى التى يتقّى بهـا من الشرك . وعن مجاهد أيضا أن « كلمـة التقوى » الإخلاص . ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أى أحق بها من كفار مكة؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيّه . ﴿ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

قوله تعـالى : لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

١ قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى المنـام أنه يدخل مكة على هذه الصفة؛ فلما صالح قريشا بالحُدَيْبِيَة ارتاب المنافقون حتى قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم

إنه يدخل مكة ؛ فأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » فأعلمهم أنهم سيدخلون فى غير ذلك العام، وأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق . وقيل : إن أبا بكر هو الذى قال إن المنام لم يكن مؤقتا بوقت ، وأنه سيدخل . وروى أن الرؤيا كانت بالحديبية، وأن رؤيا الأنبياء حق . والرؤيا أحد وجوه الوحى إلى الأنبياء . ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أى فى العام القابل ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنه حكاية ما قيل للنبى صلى الله عليه وسلم فى منامه ؛ خوطب فى منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك ولهذا استثنى ؛ تأدب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »[1] . وقيل : خاطب الله العباد بما يجب أن يقولوه ؛ كما قال « ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » . وقيل : استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلقُ فيما لا يعلمون ؛ قاله ثعلب . وقيل : كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى ؛ قاله الحسين بن الفضل . وقيل : الاستثناء من « آمنين »؛ وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة . وقيل : معنى « إن شاء الله » إن أمركم الله بالدخول . وقيل : أى إن سهل الله . وقيل : « إن شاء الله » أى كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : « إنْ » بمعنى « إذ » ؛ أى إذ شاء الله؛ كقوله تعالى « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[2] أى إذ كنتم . وفيه بُعْدٌ؛ لأن « إذ » فى الماضى من الفعل ، و « إذا » فى المستقبل ؛ وهذا الدخول فى المستقبل ، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلّقه بشرط المشيئة ، وذلك عام الحديبية ؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذى طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتدّ عليهم وصالحهم ورجع ؛ ثم أذن الله فى العام المقبل فأنزل الله « لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق » . وإنما قيل له فى المنام « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إن شاء الله » فحكى فى التنزيل ما قيل له فى المنام؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك ، والله تعالى لا يشك ، و « لتدخلن » تحقيق فكيف يكون شك . فـ « إن » بمعنى « إذ » . ﴿آمِنِينَ﴾ أى من العدو. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) آية ٢٧٨ سورة البقرة .

وَمُقَصِّرِينَ ﴾ والتحليق والتقصير جميعا للرجال ؛ ولذلك غلب المذكر على المؤنث . والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة »[1] . وفى الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبيّ صلى الله عليه وسلم على المَرْوَة بِمِشْقَص . وهذا كان فى العُمْرة لا فى الحج، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلق فى حجته . ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حال من المحلِّقين والمقصِّرين ؛ والتقدير : غير خائفين . ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أى علم ما فى تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم . وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خَيْبَر فافتتحها ، و رجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوّة أضعاف ما كان فيه فى ذلك العام، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوّة وعدّة بأضعاف ذلك . وقال الكلبي : أى علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم . وقيل : علم أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم . ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أى من دون رؤيا النبيّ صلى الله عليه وسلم فتح خيبر ؛ قاله ٱبن زيد والضحاك . وقيل فتح مكة . وقال مجاهد : هو صلح الحديبية ؛ وقاله أكثر المفسرين . قال الزهرى : ما فتح الله فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية؛ لأنه إنما كان القتال حين تلتقى الناس ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضا ؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة . فلم يُكَلَّمْ أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ؛ فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثلُ ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . يدلّك على ذلك أنهم كانوا سنة ستّ يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى يعليه على كل الأديان . فالدِّين اسم بمعنى المصدر ،

(١) راجع جـ٢ ص ٣٨١ طبعة ثانية .

ويستوى لفظ الواحد والجمع فيــه . وقيل : أى ليظهر رسوله على الدين كله؛ أى على الدين الذى هو شَرْعه بالحجة ثم باليد والسيف؛ ونسخ ما عداه . ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ «شهيدا» نصب على التفسير ، والباء زائدة ؛ أى كفى الله شهيدا لنبيّه صلى الله عليه وسلم؛ وشهادته له تبيّن صحة نبوّته بالمعجزات . وقيــل : « شهيدا » على ما أرسل به ؛ لأن الكفار أبوْا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رسـول الله .

قوله تعالى : مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ « محمد » مبتدأ و « رسول » خبره . وقيل : « محمد » ابتــداء و « رسول الله » نعتــه . ﴿ وَالَّذِينَ مَعَــهُ ﴾ عطف على المبتدأ ، والخبر فيما بعده؛ فلا يوقف على هذا التقدير على « رســول الله » . وعلى الأول يوقف على « رســول الله » ؛ لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف به أصحابه ؛ فيكون « محمد » ابتداء و « رسول الله » الخبر « والذين معه » ابتداء ثان .و « أشداء » خبره و « رحماء » خبر ثان . وكون الصفات فى جملة أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الأشبه . قال ابن عباس : أهل الحديبية أشداء على الكفار؛ أى غلاظ عليهم كالأسد على فريسته . وقيل : المراد بـ « الذين معه » جميع المؤمنين . ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يرحم بعضهم بعضا . وقيــل :

متعاطفون متوادّون . وقرأ الحسن « أشداء على الكفار رحماء بينهم » بالنصب على الحال ؛ كأنه قال : والذين معه فى حال شـدّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم . ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم . ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْـلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ أى يطلبون الجنـة ورضا الله تعـالى .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ السيما العلامة؛ وفيها لغتان : المد والقصر ؛ أى لاحت علامات التهجّد بالليل وأمارات السهر . وفى سنن ابن ماجه قال : حدّثنا إسماعيل بن محمـد الطلحى قال حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبى سـفيان عن جابر قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" . وقال ابن العربى : ودسّه قوم فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف . وقـد روى ابن وهب عن مالك « سيماهم فى وجوهـم من أثر السجود » ذلك ممـا يتعلق بجباههم من الأرض عنـد السجود ؛ وبه قال سعيد بن جبير . وفى الحـديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسـلم : صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقـد وَكَف(1) المسجد وكان على عريش ؛ فانصرف النبيّ صلى الله عليه وسـلم من صلاته وعلى جبهته وأرنبتـه أثر المـاء والطين . وقال الحسن : هو بياض يكون فى الوجه يوم القيامة . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، ورواه العَوْفى عن ابن عباس؛ قاله الزهرى . وفى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة، وفيه :"حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمـه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار بأثر السجود تأكل النـار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النـار أن تأكل أثر السجود" . وقال شَهْر بن حَوْشب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال ابن عباس ومجاهد: السيماء فى الدنيـا وهو السَّمْت الحسن . وعن مجاهـد أيضا : هو الخشوع والتواضع . قال

(1) أى قطر سقفه .

منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعالى « سِيماهم في وجوههم » أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال لا ؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكْبة العنز وهو أقسى قلبا من الحجارة ! ولكنه نور في وجوههم من الخشوع . وقال ابن جُرَيج : هو الوقار والبهاء . وقال شَمِر بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل . قال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى . وقال الضحاك : أما انه ليس بالنَّدَب في وجوههم ولكنه الصفرة . وقال سفيان الثَّوْرِيّ : يصلّون بالليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك في وجوههم؛ بيانُه قوله صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " . وقد مضى القول فيه آنفا . وقال عطاء الخراساني : دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ ﴾ قال الفرّاء: فيه وجهان، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم في التوراة وفي الإنجيل أيضا ، كمثلهم في القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنجيل» وإن شئت قلت : تمام الكلام ذلك مثلهم في التوراة، ثم ابتدأ فقال ومثلهم في الإنجيل . وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان، أحدهما في التوراة والآخر في الإنجيل؛ فيوقف على هذا على « التوراة » . وقال مجاهد : هو مثل واحد ؛ يعني أن هذه صفتهم في التوراة والإنجيل ؛ فلا يوقف على « التوراة » على هذا ، ويوقف على « الإنجيل » ، ويبتدئ ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ على معنى وهم كزرع . و « شطأه » يعني فِراخه وأولاده؛ قاله ابن زيد وغيره . وقال مقاتل : هو نبت واحد؛ فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه . قال الجوهري : شَطْءُ الزرع والنبات فراخه ، والجمع أشطاء . وقد أشطأ الزرعُ خرج شَطْؤه . قال الأخفش في قوله « أخرج شطأه » أي طَرَفه . وحكاه الثعلبي عن الكسائي . وقال الفراء : أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِئ إذا خرج . قال الشاعر :

أخرج الشطء على وجه الثرى * ومن الأشجار أفنان الثمر

الزجاج : أخرج شطأه أي نباته . وقيل : إن الشطء شوك السُّنْبُل؛ والعرب أيضا تسميه : السَّفَا ؛ وهو شَوْك البُهْمَى[1] ؛ قاله قُطْرُب . وقيل : إنه السنبل؛ فيخرج من الحبة

---

(١) البهمى : نبت تجد به الغنم وجدا شديدا ما دام أخضر .

عشر سنبلات وتسع وثمـان؛ قاله الفراء ، حكاه المـاوردى . وقرأ ٱبن كثير وابن ذكوان « شَطَأَه » بفتح الطاء ، وأسكن الباقون . وقرأ أنس ونصر بن عاصم وٱبن وَثّاب «شَطَاه» مثل عصاه . وقرأ الجَحْدَرِىّ وٱبن أبى إسحاق « شَطَه » بغير همز؛ وكلها لغات فيها .

وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ يعنى أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون و يكثرون ؛ فكان النبىّ صـلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينـه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قَوِىَ أمره ؛ كالزرع يَبْدُو بعد البَذْر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباتُه وأفراخُه . فكان هـذا من أصح مَثَل وأقوى بيان . وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر . ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى قوّاه وأعانه وشدّه ؛ أى قوّى الشطءُ الزرع . وقيل بالعكس؛ أى قوّى الزرعُ الشطءَ . وقراءة العامة « آزره » بالمدّ . وقرأ ٱبن ذكوان وأبو حَيْوَة وحُميد بن قيس « فَأَزَرَهُ » مقصورة ؛ مثل فَعَلَه . والمعروف المدّ . قال امرؤ القيس :

بمَحْنِيَةٍ(١) قد آزر الضَّالَ نَبْتُها * مَجَرّ جيوش غانمين وخُيَّبِ

﴿ فَٱسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ على عوده الذى يقـوم عليه فيكون ساقا له . والسُّوق : جمـع الساق . ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أى يعجب هذا الزرع زرّاعَه . وهو مَثَلٌ كما بيّنا ؛ فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم، والشَّطْءُ أصحابه ؛ كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقَوُوا ؛ قاله الضحاك وغيره . ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ؛ أى فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

الرابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى وعد الله هؤلاء الذين مع محمد؛ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة . ﴿ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى ثوابا لا ينقطع وهو الجنة . وليست « مِن » فى قـوله « منهم » مبعّضة لقوم من الصحابة دون قـوم ، ولكنها عامة

---

(١) المحنية (بالتخفيف) : واحدة المحانى، وهى معاطف الأودية . والضال (بتخفيف اللام) : شجرة السّدر .

مجنّسة ؛ مثلُ قوله تعالى : « فآجتنبوا الرِّجْس من الأوثان »(١) لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس ؛ أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتّى ، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب ؛ فأدخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » ؛ أى من هذا الجنس ، يعنى جنس الصحابة . ويقال : أنفق نفقتك من الدراهم؛ أى اجعل نفقتك هذا الجنس . وقد يخصص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بوعد المغفرة تفضيلا لهم، و إن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة . وفى الآية جواب آخر : وهو أن « من » مؤكدة للكلام ؛ والمعنى وعدهم الله كلَّهم مغفرة وأجرا عظيما . فجرى مجرى [قول] العربى : قطعت من الثوب قميصا؛ يريد قطعت الثوب كلّه قميصا . و « مِن » لم يبعض شيئا . وشاهد هذا من القرآن «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ»(٢) معناه وننزل القرآن شفاء ؛ لأن كل حرف منه يشفى ، وليس الشفاء مختصًّا به بعضه دون بعض . على أن من اللغويين من يقول « من » مجنّسة؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن . قال زُهير :

* أمِن أمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ(٣) *

أراد من ناحية أمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ ، أم من منازلها دِمْنَة . وقال الآخر :

أخُـو رغائبَ يعطيها و يسألهـا * يأبَى الظُّلامةَ منـه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ(٤)

فـ « من » لم تُبَعِّض شيئا ، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نَوْفَلٌ زُفَرُ . والنَّوْفَل : الكثير العطاء . والزُّفَر : حامل الأثقال والمؤن عن الناس .

الخامســة — روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية « محمد

---

(١) آية ٣٠ سورة الحج . (٢) آية ٨٢ سورة الإسراء . (٣) الدمنة : آثار الناس وما سودوا بالرماد . لم تكلم : لم تبين ؛ والعرب تقول لكل ما بين من أثر وغيره : تكلم؛ أى ميز ، فصار بمنزلة المتكلم .

(٤) البيت لأعشى باهلة .

رسولُ اللهِ والذين معه » حتى بلغ « يُعجِبُ الزُّرّاعَ لِيغيظَ بِهِمُ الكفارَ » . فقال مالك : مَن أصبح من الناس فى قلبه غَيْظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ؛ ذكره الخطيب أبو بكر .

قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله . فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه فى روايته فقد رَدّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين ؛ قال الله تعالى : « مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشِدّاءُ على الكُفّارِ » الآية . وقال : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » إلى غير ذلك من الآى التى تضمنت الثناء عليهم ، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ »(1) . وقال : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِم وَأَمْوالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »(2) ، ثم قال عَزّ من قائل : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِم — إلى قوله — فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(3) . وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ الناسِ قَرْنِى ثم الذين يلونهم " وقال : " لا تَسُبُّوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهبًا لم يدرك مُدَّ أَحدهم ولا نَصيفه " خرجهما البخارى . وفى حديث آخر : " فلو أن أحدكم أنفق ما فى الأرض لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصـيفه " . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مدّ أحدهم إذا تصـدق به ولا نصف المـد ؛ فالنصيف هو النصف هنا . وكذلك يقال للعُشْر عَشِير ، وللخُمس خميس ، وللتّسع تَسـيع ، وللثّمن ثَمين ، وللسّبع سَبيع ، وللسّدس سَدِيس ، وللربع رَبيـع . ولم تقل العرب للثلث ثليث . وفى البزّار عن جابر مرفوعا صحيحا : " إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى " . وقال " فى أصحابى كلّهم خير " . وروى عُوَيم بن ساعدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وَجلّ اختارنى واختار لى أصحابى فجعل لى منهم وزراء وأختانا وأصهارا فمن سبّهم فعليه لعنة

---

(1) آية ٢٣ سورة الأحزاب . (2) آية ٨ سورة الحشر . (3) آية ٩ سورة الحشر .

الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفًا(١) ولا عَدْلًا " . والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ؛ فحَذَارِ من الوقوع فى أحد منهم ، كما فعل مَن طعن فى الدين فقال : إن المُعَوِّذَتين ليستا من القرآن ، وما صحّ حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تثبيتهما ودخولهما فى جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها ، فروايته مطّرحة . وهذا ردّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة ، وإبطالٌ لما نقلته لنا الصحابة من الملة . فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجُهَنى ممن روى لنا الشريعة فى الصحيحين البخارى ومسلم وغيرهما ، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجرا عظيما . فمن نسبه أو واحدا من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة ، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومتى أُلحِق واحد منهم تكذيبا فقد سُبّ ؛ لأنه لا عار ولا عَيْب بعد الكفر بالله أعظمُ من الكذب ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن سَبّ أصحابه ؛ فالمكذّب لأصغرهم — ولا صغير فيهم — داخلٌ فى لعنة الله التى شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألزمها كلَّ مَن سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلَت أصواتهم ؛ فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن أبا هريرة مُتَّهَم فيما يرويه ، وصَرّحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونَصَر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وغيره ؛ فنظر إلىّ الرشيد نظر مُغْضِب ، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب ؛ فدخل فقال لى : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنّط وتكفّن ! فقلت : اللّهُمّ إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك ، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه ،

(١) الصرف : التوبة . وقيل النافلة . والعدل : الفدية . وقيل الفريضة .

فَسلَّمنى منــه . فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف وبين يديه النِّطْـع [1] ؛ فلما بَصُرَ بى قال لى : يا عمر بن حبيب ما تلقّانى [أحد] [2] من الرد والدفع [لقولى بمثل] [2] ما تلقيتنى به ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن الذى قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم [وعلى ما جاء به] [2] ؛ إذا كان أصحابه كذابين فالشريعــة باطلة ، والفرائض والأحكام فى الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كلّه مردود غير مقبول ؛ فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله ! وأمر لى بعشرة آلاف درهم .

قلت : فالصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله . هــذا مذهب أهل السُّنّة ، والذى عليه الجماعة من أئمة هــذه الأمة . وقد ذهبت شِرْذِمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ؛ فيلزم البحث عن عدالتهم . ومنهم من فرق بين حالهم فى بُداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العــدالة إذ ذاك ؛ ثم تغيّرت بهــم الأحوال فظهرت فيهم الحــروب وسفك الدماء؛ فلا بُدّ من البحث . وهــذا مردود ؛ فإن خيــار الصحابة وفضلاءهم كعليّ وطلحة والزبير وغيرهم رضى الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكّاهم ورضى عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنــة بقوله تعالى « مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » . وخاصّة العشرة المقطوع لهم بالجنــة بإخبار الرســول هم القُدْوَة مع علمهم بكثير من الفــتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم؛ إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب. وسيأتى الكلام فى تلك الأمور فى سورة « الحجرات » مبيّنة إن شاء الله تعالى .

---

(١) النطع (بالكسر) : بساط من الأديم .

(٢) زيادة عن كتاب تاريخ بغداد فى ترجمة عمر بن حبيب .

تفسير سورة الحجرات

مدنيـة بإجماع . وهى ثمانى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال العلماء : كان فى العرب جفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وتلقيبِ الناس . فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب . وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرميّ : « لا تَقَدَّمُوا » بفتح التاء والدال من التقدّم . الباقون « تُقَدِّمُوا » بضم التاء وكسر الدال من التقديم ؛ ومعناهما ظاهر . أى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدّم قولَه أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدّمه على الله تعالى ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل .

الثانيـة — واختلف فى سبب نزولها على أقوال ستة :

الأول — ما ذكره الواحديّ من حديث ابن جُريج قال : "حدّثنى ابن أبى مُليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : أَمِّر القَعْقاع بن مَعْبد . وقال عمر : أَمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ؛

فنزل في ذلك : « يَأَيُّها الذين آمنوا لا تُقَدِّمُوا بين يَدَيِ اللهِ ورسولِه — إلى قوله — وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ » . رواه البخارى عن الحسن بن محمد بن الصباح ، ذكره المهدوِيّ أيضا .

الثاني — ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلا إذ مضى إلى خَيْبَر ، فأشار عليه عمر برجل آخر ، فنزل « يأيها الذين آمنوا لا تُقَدِّمُوا بين يَدَيِ اللهِ ورسوله » . ذكره المهدوى أيضا .

الثالث — ما ذكره الماوَرْدِيّ عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم ، إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفئوا[1] إلى المدينة ، فلقُوا رجلين من بنى سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا : من بنى عامر ، لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ، فجاء نفر من بنى سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن بيننا و بينك عهدا ، وقد قتل منا رجلان ، فوداهما النبيّ صلى الله عليه وسلم بمائة بعير ، ونزلت عليه هذه الآية فى قتلهم الرجلين . وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون لو أنزل فىّ كذا ، او أنزل فىّ كذا ؟ فنزلت هذه الآية . ابن عباس : نُهُوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . مجاهد : لا تفتاتوا[2] على الله ورسوله حتى يقضى الله على لسان رسوله ، ذكره البخارى أيضا . الحسن : نزلت فى قوم ذَبَحُوا قبل أن يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . ابن جُريج : لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذى أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قلت : هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضى أبو بكر بن العربى ، وسردها قبله الماوردى . قال القاضى : وهى كلها صحيحة تدخل تحت العموم ؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها ، ولعلها نزلت دون سبب ، والله أعلم . قال القاضى : إذا قلنا إنها نزلت فى تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها

---

(١) انكفأ القوم انكفاء : رجعوا وتبددوا .

(٢) افتات الكلام : ابتدعه . وافتات عليه فى الأمر : حكم عليه . وافتات برأيه : استبد به .

عليه كالصلاة والصوم والحج؛ وذلك بيّن . إلا أن العلماء اختلفوا في الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدّ خَلّة الفقير، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين . فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغيّر النصاب تبيّن أنها صدقة تطوّع . وقال أشهب : لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة؛ وكأنه طرد الأصل في العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب . ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز؛ لأنه معفوٌّ عنه في الشرع بخلاف الكثير . وما قاله أشهب أصح؛ فإن مفارقة اليسير الكثير في أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير . فأما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة . فإما تقديم كلّي كما قاله أبو حنيفة والشافعيّ، وإمّا حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في مرضه : " مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس " . فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما : قولي له إن أبا بكر رجل أسِيف(2) وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء؛ فَمُرْ عمر فليصلّ بالناس . فقال صلى الله عليه وسلم : " إنكنّ لأنتنّ صواحبُ يوسف(3) . مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس " . فمعنى قوله " صواحب يوسف " الفتنة بالردّ عن الجائز إلى غير الجائز .

---

(1) في الأصول : « وذلك أن العلماء ... » والتصويب عن ابن العربي .

(2) سريع البكاء والحزن . وقيل : هو الرقيق .

(3) قال القسطلاني : « أي مثلهن في إظهار خلاف ما في الباطن ؛ فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن الصديق لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو ألا يتشاءم الناس به . وهذا مثل زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة وغرضها أن ينظرن إلى حسن يوسف و يعذرنها في محبته ؛ فعبر بالجمع في قوله « انكن » والمراد عائشة فقط . وفي قوله « صواحب » والمراد زليخا كذلك .

وربمـا احتج بغاة القياس بهـذه الآية . وهو باطل منهـم ؛ فإن ما قامت دلالتـه فليس في فعله تقـديم بين يديه . وقـد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القـول بالقياس في فروع الشرع ؛ فليس إذًا تقدّم بين يديه . ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ يعنى في التقدّم المنهى عنـه . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بفعلكم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ يأيُّهـا الذينَ آمنُو لا تَرْفَعُوا أصواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ روى البخاريّ والترمذيّ عن ابن أبي مُليكة قال : حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدِم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه ؛ فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ؛ فتكلما عنـد النبيّ صلى الله عليه وسـلم حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي . فقال عمر: ما أردت خلافك ؛ قال : فنزلت هذه الآية : «يأيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النبيّ» قال : فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُسمع كلامه حتى يَستفهمه . قال : وما ذكر ابن الزبير جدّه يعنى أبا بكر . قال : هذا حديث غريب حسن . وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسلا ، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير .

قلت : هو البخارى ، قال : عن ابن أبي مُليكة كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر ، رفعـا أصواتهما عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قدِم عليـه رَكْب بنى تَميم ؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مُجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ؛ فقال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافي . فقال : ما أردتُ خلافك . فارتفعت أصواتهما

فى ذلك ؛ فأنزل الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النبى» الآية .
فقال ٱبن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه .
ولم يذكر ذلك عن أبيه (١) ؛ يعنى أبا بكر الصديق . وذكر المهدوىّ عن علىّ رضى الله عنــه :
نزل قــوله « لا ترفعوا أصواتَكم فَوْقَ صَوْتِ النبىّ » فينا لمـا ٱرتفعت أصواتنا أنا وجعفر
وزيد بن حارثة ، نتنازع ٱبنة حمزة لمـا جاء بها زيد من مكة ؛ فقضى بهـا رسول صلى الله
عليه وسلم لجعفر؛ لأن خالتها عنده. وقد تقدم هذا الحديث فى « آل عمران (٢) » . وفى الصحيحين
عن أنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله،
أنا أعلم لك عِلْمَهُ ؛ فأتاه فوجده جالسا فى بيته مُنَكِّسًا رأسه؛ فقال له : ما شأنك ؟ فقال :
شَرٌّ ! كان (٣) يرفع صوتَه فَوْقَ صوتِ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقد حبِط عمله وهو من أهل النار.
فأتى الرجلُ النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى (٤) : فرجع إليه المرة
الآخرة ببشارة عظيمة ؛ فقال : "ٱذهب إليه فقل له إنك لستَ من أهل النار ولكنك من
أهل الجنة " . لفظ البخارى. وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى يُكْنَى أبا محمد
بٱبنه محمد . وقيــل : أبا عبد الرحمن . قُتِــل له يوم الحَرَّة (٥) ثلاثةٌ من الولد : محمد ، ويحيى ،
وعبــد الله . وكان خطيبا بليغا معروفا بذلك ، كان يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه
وسلم، كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولمـا قَدِم وَفْدُ تميم على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فٱفتخر ، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة
بليغة جَزْلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد :

---

(١) قوله « عن أبيه » يريد جده لأمه أسماء .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٨٨ .

(٣) هذا التفات من الحاضر إلى الغائب ؛ والأصل : كنت أرفع صوتى .

(٤) هو ابن أنس ؛ أحد رجال سند الحديث .

(٥) الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة ، تعرف بحرة واقم ، وبها كانت الوقعة فى سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام يزيد بن معاوية حين أنهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينــة من الصحابة والتابعين ، وأمّر عليهم مسلم بن عقبة المرى .

أتيناك كَيْمَا يعرف الناس فضلنا * إذا خالفونا عنـد ذكر المكارِم

وإنا رءوس الناس من كل مَعْشَر * وأن ليس فى أرض الحجاز كدارِم

وإن لنـا المِرْباع[(١)] فى كل غارة * تكون بنجد أو بأرض التهائم

فقام حسان فقال :

بَنى دارِم لا تَفْخَرُوا إن فَخْرَكُمْ * يعود وَبَالًا عنـد ذكر المكارم

هَبِلتم[(٢)] علينا تفخرون وأنتمُ * لنـا خَوَلٌ مِن بين ظِئر وخادِم

فى أبيـات لها .

فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا؛ فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعـالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صـوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول » . وقال عطاء الخراسانى : حدّثتنى ابنة ثابت بن قيس قالت : لمـا نزلت « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ » الآية، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه؛ ففقَده النبيّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليـه يسأله ما خبره؛ فقال : أنا رجل شـديد الصوت؛ أخاف أن يكون حَبِط عملى . فقال عليه السـلام : "لستَ منهم بل تعيش بخـير وتموت بخير" . قال : ثم أنزل الله « إنّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[(٣)] » فأغلق بابه وطَفِق يبكى؛ ففقَده النبيّ صلى الله عليه وسـلم فأرسل إليه فأخبره؛ فقال : يا رسول الله، إنى أحب الجمال وأحب أن أسـود قومى . فقال : "لست منهم بل تعيش حَمِيدًا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة" . قالت : فلما كان يوم اليمـامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَة فلما التقوْا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم؛ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتـلا ؛ وعلى ثابت يومئـذ درع له نفيسة ؛ فمرّ به رجل من

(١) فى سيرة ابن هشام : « ... أو بأرض الأعاجم » والمرباع : ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة .

(٢) هبلتم : فقدتم . والخول : حشم الرجل وأتباعه .

(٣) آية ١٨ سورة لقمان .

المسلمين فأخذها؛ فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له : أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حُلْم فتضيعه، إني لما قُتلت أمس مَرّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزلُه في أقصى الناس، وعند خبائه فرس يَسْتَنّ(١) في طِوَله، وقد كَفَأ على الدّرع بُرْمَةً، وفوق البرمة رَحْل؛ فَأْتِ خالدا فمُرْه أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعني أبا بكر — فقل له : إن عليّ من الدَّين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان؛ فأتى الرجل خالدا فأخبره؛ فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيّته . قال : ولا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت، رحمه الله؛ ذكره أبو عمر في الاستيعاب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أي لا تخاطبوه : يا محمد، ويا أحمد . ولكن : يا نبيّ الله، ويا رسول الله؛ توقيراً له . وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ليقتدي بهم ضَعَفة المسلمين فنُهِيَ المسلمون عن ذلك . وقيل : « لا تجهروا له » أي لا تجهروا عليه، كما يقال : سقط لِفيه؛ أي على فيه . ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الكاف كاف التشبيه في محل النصب؛ أي لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض . وفي هذا دليل [على] أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة؛ أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلّت عن رتبتها . ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي من أجل أن تحبط، أي تبطل؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : أي لئلا تحبط أعمالكم .

الثالثــة — معنى الآية الأمر بتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته؛ أي إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ

(١) استن الفرس : قمص وعدا إقبالا وإدبارا . والطول والطيل (بالكسر) : الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والطرف الآخر في يد الفرس؛ ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه .

الذى يبلغه بصوته ، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه غالبا لكلامكم ، وجهرُه باهرًا لجهركم ؛ حتى تكون مزيته عليكم لائحة ، وسابقته واضحة ، وآمتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق . لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتَبْهَرُوا منطقه بصخبكم . وفى قراءة ابن مسعود «لا ترفعوا بأصواتكم» . وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام . وكره بعض العلمـاء رفع الصوت فى مجالس العلماء تشريفا لهم ؛ إذ هم ورثة الأنبياء .

الرابعـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : حرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حيًّا ، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثلُ كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئَ كلامه ، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ؛ كما كان يلزمه ذلك فى مجلســه عند تلفظه به . وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنـة بقوله تعـالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا »(١) . وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحْى ، وله من الحكمة مثل ما للقرآن ؛ إلا معانى مستثناة ، بيانها فى كتب الفقه .

الخامســة — وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة ؛ لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون . وإنمـا الغرض صوت هو فى نفســه والمسموع من جِرْسه(٢) غيرُ مناسب لما يهاب به العظماء و يوقّر الكبراء ، فيتكلف الغض منـه وردّه إلى حدّ يميل به الى ما يستبين فيـه المأمور به من التعزير والتوقير . ولم يتنـاول النهى أيضا رفع الصوت الذى لايتأذّى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك ؛ ففى الحديث أنه قال عليه السلام للعباس آبن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حُنين : " اصرخ بالناس " وكان العباس أجهر الناس صوتا ؛ يروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس : يا صباحاه ! فأسقطت الحوامل لشدّة صوته ، وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

---

(١) آية ٢٠٤ سورة الأعراف .

(٢) الجرس (بفتح الجيم وكسرها) : الصوت .

زَجْرُ أبي عُرْوَةَ[1] السباع إذا * أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه .

السادسة — قال الزجاج : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ التقدير لأن تحبط ؛ أي فتحبط أعمالكم ، فاللام المقدّرة لام الصيرورة ، وليس قوله : « أَنْ تَحْبَطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون » بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ؛ فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع . كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو هريرة : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » قال أبو بكر رضي الله عنه : والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السِّرار[2] . وذكر سنيد قال : حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال : لما نزلت « لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسُولِهِ » قال أبو بكر : والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخي السِّرار . وقال عبد الله بن الزبير : لما نزلت « لا ترفعوا أصواتكم » ما حدث عمر عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ؛ فنزلت « إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أصواتهم عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أولئك الذين ٱمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى » . قال الفراء : أي أخلصها للتَّقْوَى . وقال الأخفش : أي اختصها للتقوى . وقال ابن عباس : « ٱمتحن اللهُ قلوبَهُمْ للتقْوَى » طهّرهم من كل قبيح ، وجعل في قلوبهم الخوف من الله

(١) أبو عروة : كنية العباس .

(٢) السرار (بالكسر) : المسارّة ؛ أي كصاحب السرار ، أو كمثل المسارّة لخفض صوته ؛ والكاف صفة لمصدر محذوف .

والتقوى . وقال عمر رضى الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات . والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأدِيمَ مَحْنًا حتى أوسعته. فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى وسّعها وشرحها للتقوى . وعلى الأقوال المتقدمة : امتحن قلوبهم فأخلصها ؛ كقولك : امتحنت الفضة أى اختبرتها حتى خلصت . ففى الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص . وقال أبو عمرو : كل شيء جَهَدته فقد محنته . وأنشد :

أتت رذايا بادِيًا كَلالها (١) * قد محنت واضطربت آطالها

﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

قال مجاهد وغيره : نزلت فى أعراب بنى تميم ؛ قدم الوفد منهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادَوْا النبيّ صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا ، فإن مَدْحَنا زَيْنٌ وذَمّنا شَيْن . وكانوا سبعين رجلا قدّموا الفداءَ ذَرارِىَّ لهم ؛ وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم نام للقائلة . وروى أن الذى نادى الأقرع بن حابس ، وأنه القائل : إن مَدْحِى زَيْنٌ وإنّ ذَمِّى شَيْن؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ذاك الله" . ذكره الترمذى عن البراء بن عازب أيضا . وروى زيد بن أرقم فقال : أتى أناس النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس بأتباعه ، وإن يكن مَلِكاً نَعِشْ فى جنابه (٢) . فأتَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته : يا محمد، يا محمد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . قيل : إنهم كانوا من بنى تميم . قال مقاتل : كانوا تسعة عشر : قيس بن عاصم، والزِّبْرِقان بن بَدْر، والأقْرَع بن حابس، وسُويد بن هاشم، وخالد بن مالك، وعطاء بن حابس، والقَعْقاع بن مَعْبَد، ووَكِيع بن وكيع، وعُيَيْنة بن حِصْن

(١) الرذايا : جمع رذية ، وهى الهزيلة المهزولة من السير . والكلال : الإعياء . والآطال : جمع إطل ؛ وهو الخاصرة .
(٢) فى الطبرى : « فى جناحه » .

وهو الأحمق المطاع ، وكان من الجرارين يجر عشرة آلاف قناة ، أى يتبعه . وكان اسمه حذيفة وسمى عُيَيْنة لشَتَر[1] كان فى عَيْنَيه . ذكر عبد الرزاق فى عُيينة هذا أنه الذى نزل فيه « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا »[2] . وقد مضى فى آخر « الأعراف » من قوله لعمر رضى الله عنه ما فيه كفاية[3] ؛ ذكره البخارى . وروى أنهم وفدوا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقد ، فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد ، اخرج إلينا ؛ فاستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هم جُفاة بنى تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم " . والحُجُرات جمع حُجْرة ؛ كالغُرُفات جمع غُرْفة ، والظُّلُمات جمع ظُلْمة . وقيل : الحجرات جمع الحُجَر ، والحُجَر جمع حُجْرة ؛ فهو جمع الجمع . وفيه لغتان[4] : ضمّ الجيم وفتحها . قال :

ولما رأونا باديًا رُكَباتنا ✱ على موطن لا نخلط الجِدَّ بالهَزْلِ

والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . وحظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهى فُعْلة بمعنى مفعولة . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع « الحُجَرَات » بفتح الجيم استثقالا للضمتين . وقرئ « الحُجْرات » بسكون الجيم تخفيفا . وأصل الكلمة المنع . وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حجرت عليه . ثم يحتمل أن يكون المنادى بعضا من الجملة فلهذا قال : « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ج وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

أى لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم . وكان صلى الله عليه وسلم لا يحتجب عن الناس إلا فى أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه فى تلك الحالة

---

(١) الشتر (بفتحتين) : انقلاب فى جفن العين . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ (٤) وفيه لغة ثالثة : سكون الجيم .

من سوء الأدب . وقيل : كانوا جاءوا شفعاء فى أسارى بنى عنبر فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم، وفادى على النصف . ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (٦)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ قيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيْط . وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة مُصَدِّقا إلى بنى المُصْطَلِق ؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم — فى رواية : لإحْنَة كانت بينه و بينهم — ؛ فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام . فبعث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبّت ولا يَعْجَل ؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا ؛ فبعث عُيُونَه فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ؛ فعاد إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت هذه الآية ؛ فكان يقول نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " التأنّى من الله والعجلة من الشيطان " . فى رواية : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بنى المُصْطَلِق بعد إسلامهم ؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوا صدقاتهم . فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغَزْوِهم ؛ فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدّى إليه ما قبلنا من الصدقة ، فٱستمر راجعا ، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله ، والله ما خرجنا لذلك ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وسُمِّىَ الوليدُ فاسقًا أى كاذبا . قال

ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله : الفاسق الكذاب . وقال أبو الحسن[1] الوراق : هو المعلن بالذنب . وقال ابن طاهر : الذى لا يستحى من الله . وقرأ حمزة والكسائى «فتثبتوا» من التثبت . الباقون « فتبينوا » من التبيين ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ أى لئلا تصيبوا ؛ فـ « ـأن » فى محل نصب بإسقاط الخافض . ﴿ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أى بخطأ . ﴿ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ على العجلة وترك التأنى .

الثانيــة — فى هذه الآية دليلٌ على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً ؛ لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق . ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعا ؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها . وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود ، وإثبات حق مقصود على الغير ؛ مثل أن يقول : هذا عبدى ؛ فإنه يقبل قوله . وإذا قال : قد أنفذ فلان هذا لك هدية ؛ فإنه يقبل ذلك . وكذلك يقبل فى مثله خبر الكافر . وكذلك إذا أقر لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعا . وأما فى الإنشاء على غيره فقال الشافعى وغيره : لا يكون وَلِيًّا فى النكاح . وقال أبو حنيفة ومالك : يكون وَلِيًّا ؛ لأنه يَلِى مالها فيلى بُضْعَها . كالعدل ، وهو وإن كان فاسقا فى دينه إلا أن غَيْرته موفرة وبها يحمى الحريم ، وقد يبذل المال ويصون الحرمة ؛ وإذا وَلِىَ المال فالنكاح أولى .

الثالثــة — قال ابن العربى : ومن العَجَب أن يجوز الشافعى ونظراؤه إمامةَ الفاسق . ومن لا يؤتمن على حبة مال [كيف][2] يصحّ أن يؤتمن على قنطار دين . وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلّون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا اسْتُطِيعت إزالتهم صُلِّىَ معهم ووراءهم ؛ كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ؛ فإذا أحسنوا فأحسن ، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم . ثم كان من الناس من إذا صلّى معهم تَقِيَّةً أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته . وبوجوب الإعادة أقول ؛

---

(١) فى بعض النسخ : « أبو الحسين » .

(٢) زيادة عن ابن العربى .

فلا ينبغى لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيـد سِرًّا فى نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

الرابعـــة — وأما أحكامه إن كان واليًا فينفذ منها ما وافق الحق ويردّ ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذى أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هـذا القول من رواية [تؤثر][1] أو قول يحكى؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر .

الخامســة — لا خلاف فى أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره فى قول يبلغه أو شىء يوصله ، أو إذن يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلِّغ ؛ فإن تعـلّق به حق لغيرهما لم يقبل قوله . وهذا جائز للضرورة الداعية إليه ؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق فى هذه المعانى إلا العدول لم يحصل منها[2] شىء لعدمهم فى ذلك . والله أعلم .

السادســة — وفى الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم؛ فإن حَكم الحاكمُ قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة .

السابعـــة — فإن قضى بمـا يغلب على الظن لم يكن ذلك عمـلا بجهالة ؛ كالقضـاء بالشاهدين العـدلين ، وقبول قول العـالم المجتهـد . وإنمـا العمل بالجهالة قبول قـول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله . ذكر هذه المسألة القُشَيْرى ، والذى قبلها المَهْدَوِى .

قوله تعـالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) فى ابن العربى : « منهم » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾ فلا تكذبوا ؛ فإن الله يُعْلمه أنباءكم فتفتضحون. ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة و إثم ؛ فإنه لو قتل القومَ الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه لكان خطأ ، ولَعَنَتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه و بينهم . ومعنى طاعة الرسول لهم : الائتمار بما يأمر به فيما يبلّغونه عن الناس والسماع منهم . والعَنَت الإثم ؛ يقال : عَنِت الرجل . والعنت أيضا الفجور والزنى ؛ كما فى سورة « النساء »[1] . والعنت أيضا الوقوع فى أمر شاق ؛ وقد مضى فى آخر « براءة » القول فى « عَنِتُّم » بأكثر من هذا[2] . ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ﴾ هذا خطاب للؤمنين المخلصين الذين لا يكذّبون النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بالباطل؛ أى جعل الإيمان أحبّ الأديان إليكم . ﴿ وَزَيَّنَهُ ﴾ بتوفيقه . ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى حسنه إليكم حتى اخترتموه . وفى هذا ردّ على القدرية والإمامية وغيرهم؛ حسب ما تقدّم فى غير موضع . فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم؛ لاشريك له . ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ قال ابن عباس : يريد به الكذب خاصة . وقاله ابن زيد . وقيل : كل ما خرج عن الطاعة ؛ مشتق من فَسَقت الرُّطَبةُ خرجت من قشرها . والفأرة من جُحْرها . وقد مضى فى « البقرة » القول فيه مستوفى[3] . والعصيان جمع المعاصى . ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال ﴿ أُولَئِكَ ﴾ يعنى هم الذين وفقهم الله فحبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر أى قبحه عندهم ﴿ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ كقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ »[4] . قال النابغة :

يا دارَ مَيّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ أقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأمَدِ

والرَّشَد الاستقامة على طريق الحق مع تَصَلُّب فيه ؛ من الرَّشادة وهى الصخرة .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١٣٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٠٢
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٤٥ (٤) آية ٣٩ سورة الروم .

قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة . وأنشد :

وغـير مُقَـلَّد ومُوَشَّمات　　صَلِين الضَّوءَ من صُمِّ الرِّشاد (١)

﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي فعـل الله ذلك بكم فضلا ، أي الفضل والنعمة ، فهـو مفعول له . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ « عليم » بما يصلحكم « حكيم » في تدبيركم .

قوله تعـالى : وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ روى المُعْتَمِر بن سليمان عن أنس بن مالك قال قلت : يا نبيّ الله ، لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيّ؟ فانطلق إليه النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، فركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سبخة ؛ فلمـا أتاه النبي صلى الله عليه وسـلم قال : إليك عني ! فوالله لقـد أذاني نتن حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسـولِ الله صلى الله عليه وسـلم أطيب ريحًا منك . فغضب لعبد الله رجل من قومـه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ؛ فكان بينهـم حرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية . وقال مجاهد : نزلت في الأوس والخزرج . قال مجاهـد : تقاتل حيّـان من الأنصار بالعصي والنعـال فنزلت الآية . ومثله عن سـعيد ابن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قتال

(١) في شرح شـواهد الكشاف للرحوم الأستاذ أبي عليان : « الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل وغير الأثافي المغير لونها بالنار . والوشم والتوشيم تغيير اللون ، أي التي احترقت بضوئها أي حرها . و «من صم الرشاد» بيان لها . والصم : جمع صماء ، أي صلبة . وقيل : يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام ، وأنها غيرها أثر السير ، قوية بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب » .

بالسّعف والنعال ونحوه ؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم . وقال قتادة : نزلت فى رجلين من الأنصار كانت بينهما مدارأة[١] فى حق بينهما ؛ فقال أحدهما : لآخذن حقى عَنوة ؛ لكثرة عشيرته . ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضا بالأيدى والنعال والسيوف ؛ فنزلت هذه الآية . وقال الكلبي : نزلت فى حرب سُمير وحاطب[٢]، وكان سُمير قتل حاطبا ؛ فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت . وأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يصلحوا بينهما . وقال السُّدّى : كانت امرأة من الأنصار يقال لها «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار ؛ فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها فى عُلّيّة لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها ؛ فتدافعوا وتجالدوا[٣] بالنعال ؛ فنزلت الآية . والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والآثنين ؛ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . وفى قراءة عبد الله « حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط » . وقرأ ابن أبى عَبْلَة « اقتتلتا » على لفظ الطائفتين . وقد مضى فى آخر « براءة » القول فيه[٤] . وقال ابن عباس فى قوله عز وجل « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »[٥] قال : الواحد فما فوقه ؛ والطائفة من الشيء القطعة منه . ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لها أو عليهما . ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ تعدّت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه . والبغى : التطاول والفساد . ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى ترجع إلى كتابه . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ ﴾ رجعت ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أى احملوهما على الإنصاف . ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا . وقيل : أقسطوا أى اعدلوا . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى العادلين المحقين .

---

(١) تدارأ القوم : تدافعوا فى الخصومة ونحوها واختلفوا . (٢) راجع خبر حربهما فى كتاب الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤٩٤ طبع أوربا . (٣) تجالدوا : تضاربوا .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٩٤ (٥) آية ٢ سورة النور .

الثانيــة — قال العلماء : لاتخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما ، إما أن يقتتلا على سبيل البَغْى منهما جميعا أولا . فإن كان الأوّل فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافّة والموادعة . فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغى صِير إلى مقاتلتهما . وأما إن كان الثانى وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى ، فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكفّ وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينها و بين المبغىّ عليها بالقسط والعدل . فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة ، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصِحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . والله أعلم .

الثالثــة — فى هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين . وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين ، واحتج بقوله عليه السلام : " قتال المؤمن كفر " . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر ، تعالى الله عن ذلك ! وقد قاتل الصدّيق رضى الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ ، ولا يُجهز على جريح ، ولم تحل أموالهم ، بخلاف الواجب فى الكفار . وقال الطبرى : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لما أقيم حدّ ولا أُبطل باطل ، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كلّ ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْى نسائهم وسفك دمائهم ، بأن يتحزّبوا عليهم ، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله عليه السلام : "خذوا على أيدى سفهائكم" .

الرابعــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، والعمدة فى حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصحابة ، و إليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، و إياها عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " تَقْتل عَمّارًا[1] الفئةُ الباغية " . وقوله عليه السلام فى شأن

(١) هو عمار بن ياسر . (راجع خبره فى كتب الصحابة) .

الخوارج : "يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة" . والرواية الأولى أصح ؛ لقوله عليه السلام : " تقتلهم أولَى الطائفتين إلى الحق " . وكان الذى قتلهم علىّ بن أبى طالب ومن كان معه . فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدِّين أن علياً رضى الله عنه كان إماما ، وأن كل من خرج عليه باغ وأن قتاله واجب حتى يفىء إلى الحق وينقاد إلى الصلح . لأن عثمان رضى الله عنه قُتل والصحابة بُرَآء من دمه ؛ لأنه مَنع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أوّل مَن خَلَف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بالقتل ؛ فصبر على البلاء ، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة . ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى ؛ فعرضت على باقى الصحابة الذين ذكرهم [عمر](١) فى الشورى ، وتدافعوها ؛ وكان علىّ كرّم الله وجهه أحق بها وأهلها ؛ فقبلها حَوْطة(٢) على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل ، أو يتخرق أمرها إلى مالا يتحصل . فربما تغيّر الدِّين وانقض عمود الإسلام . فلما بويع له طلب أهل الشام فى شرط البَيْعة التمكن من قَتَلة عثمان وأخذ القَوَد منهم ؛ فقال لهم علىّ رضى الله عنه : ادخلوا فى البَيْعة واطلبوا الحق تصلوا إليه . فقالوا : لاتستحق بيعة وقَتَلَةُ عثمان معك تراهم صباحاً ومساء . فكان علىّ فى ذلك أسدّ رأيا وأصوبَ قِيلاً ؛ لأن عليّا لو تعاطى القَوَد منهم لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حربًا ثالثة ؛ فانتظر بهم أن يستوثق الأمر(٣) وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من الأولياء فى مجلس الحكم ؛ فيجرى القضاء بالحق .

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة . وكذلك جرى لطلحة والزبير ؛ فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعترضا عليه فى ديانة ؛ وإنما رأيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أَوْلَى .

قلت : فهذا قول فى سبب الحرب الواقع بينهم . وقال جِلّة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة ، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به ؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم

(١) زيادة عن ابن العربى . (٢) الحوطة والحيطة : الاحتياط . (٣) فى ابن العربى : «الأمن» .

وتم الصلح والتفرّق على الرضا . نخاف قَتَــلة عثمان رضى الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا؛ ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبــدءوا بالحرب سحرة فى العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ، ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ : غدر طلحة والزبير؛ والفـريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ . فـتمّ لهم ذلك على ما دبّروه ، ونَشِبَت الحرب؛ فكان كل فريق دافعاً لمَكْرَتِه عنـد نفسه ، ومانعا من الإشاطة (١) بدمه . وهــذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعـالى ؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما على هــذه السبيل . وهـذا هو الصحيح المشهور . والله أعلم .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أمرٌ بالقتال . وهو فرضٌ على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين؛ ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضى الله عنهم عن هذه المقامات؛ كسعد بن أبى وَقّاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرِهم . وصوّب ذلك علىّ بن أبى طالب لهم ، واعتــذر إليه كل واحد منهم بعــذر قبله منه . ويروى أن معاوية رضى الله عنه لمـا أفضى إليه الأمر ، عاتب سعدًا على ما فعــل ، وقال له : لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا ، ولا ممن قاتل الفئة الباغية . فقال له سـعد : ندمتُ على تركى قتالَ الفئةِ الباغية . فتبيّن أنه ليس على الكل دَرَك (٢) فيما فعل ، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع . والله أعلم .

السادســة ــ قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَـدْلِ ﴾ ومن العــدل فى صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال؛ فإنه تَلَف على تأويل . وفى طلبهــم تنفيرٌ لهم عن الصلح واستشراءٌ (٣) فى البغى . وهــذا أصل فى المصلحة . وقد قال لسان الأمة : إن حكمة الله تعالى فى حرب الصحابة التعريفُ منهــم لأحكام قتال أهل التأويل ؛ إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عُرِفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

(١) الإشاطة : الاهلاك . يقال : أشاط فلان دم فلان إذا عرضه للهلاك .

(٢) الدرك (بفتح الراء وسكونها) : التبعة .

(٣) استشرى الرجل فى الأمر : لج . والأمور : تفاقت وعظمت .

السابعـة — إذا خرجت على الإمام العـدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها ، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّة أو بمن فيه كفاية ، و يدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول فى الجماعة ، فإن أَبَوْا من الرجوع والصلح قوتلوا . ولا يُقتل أسيرهم ولا يتبع مُدْبِرهم ولا يُذَفَّف(1) على جريحهـم ، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالهم . و إذا قتل العادلُ الباغى أو الباغى العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا . ولا يرث قاتلٌ عمدا على حال . وقيل : إن العادل يرث الباغى ؛ قياساً على القصاص .

الثامنـة — وما استهلكه البُغـاة والخـوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخَذوا به . وقال أبو حنيفة : يضمنون . وللشافعى قولان . وجه قول أبى حنيفة أنه إتلاف بعُـدْوان فيلزم الضمان . والمعوّل فى ذلك عندنا أن الصحابة رضى الله عنهم فى حروبهم لم يتبعوا مُدْبِرا ولا ذَفَّفُوا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ؛ وهم القُدْوة . وقال ابن عمـر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة" ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال : "لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها" . فأما ما كان قائمـا ردّ بعينه . هذا كله فيمن خرج بتأويل يسـوغ له . وذكر الزَّمَخْشَرِى فى تفسـيره : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعَة لها ضَمِنت بعـد الفيئة ما جَنَت ، و إن كانت كثيرةً ذات منعة وشَوكة لم تضمن ؛ إلا عنـد محمد بن الحسن رحمـه الله فإنه كان يُفتى بأن الضمان يلزمها إذا فاءت . وأما قبـل التجمّع والتجنّد أو حين تتفرق عنـد وضع الحرب أوزارها ، فمـا جنته ضمنته عنـد الجميع . فحَمْلُ الإصلاح بالعدل فى قـوله « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهما بِالعدلِ » على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل . وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد . والذى ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ، ليس بحسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط . قال الزمخشرى : فإن قلت : لم قُرِن بالإصلاح الثانى العدلُ دون الأوّل ؟ قلت : لأن المراد بالاقتتال فى أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت

(1) تذفيف الجريح : الإجهاز عليه وتحرير قتله .

فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن وتسكينُ الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفى الشبهة ؛ إلا إذا أصرّتا فحينئذ تجب المقاتلة ؛ وأما الضمان فلا يتجه . وليس كذلك إذا بغت إحداهما ؛ فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين .

التاســعة — ولو تغلّبـوا على بلد فأخذوا الصـدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهـم بالأحكام، لم تُثَنّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافا للكتاب أو السـنة أو الإجماع ؛ كما تنقض أحكام أهل العدل والسـنة ؛ قاله مُطَرِّف وابن الماجِشون . وقال ابن القاسم : لا تجوز بحال . وروى عن أَصْبَغ أنه جائز . وروى عنه أيضا أنه لا يجوز كقول ابن القاسم . و به قال أبو حنيفة ؛ لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز تَوْلِيته . فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة . والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضى الله عنهم ، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح ، لم [illegible]ـوا لأحد منهم فى حكم . قال ابن العربيّ : الذى عنـدى أن ذلك لا يصح ؛ لأن الفتنة [illegible]ـا انجلت كان الإمام هـو الباغى ، ولم يكن هناك من يعترضه . والله أعلم .

العـاشرة — لا يجـوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطـوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقـد تعبّدنا بالكف عما شَجَر بينهـم ، وألّا نذكرهـم إلا بأحسن الذكر ؛ لحرمة الصحبة ولنهى النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن سَبّهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم . هـذا مع ما قـد ورد من الأخبـار من طرق مختلفة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ؛ فلو كان ما خرج إليـه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيـه شهيدا . وكذلك لو كان ما خرج إليـه خطأ فى التأويل وتقصـيرا فى الواجب عليه ؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل فى طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه . ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علىّ بأن قاتل الزبير فى النار . وقولِه : سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : " بَشّر قاتل آبن صفية بالنـار " . وإذا كان كذلك فقـد ثبت أن طلحة والزبير

غير عاصيين ولا آثمين بالقتال ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبيّ صلى الله عليه وسلم في طلحة : " شهيد " . ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار . وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل . بل صواب أراهم الله الاجتهاد . وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم ، وعظيمَ غنائهم في الدِّين ، رضي الله عنهم . وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(1) . وسئل بعضهم عنها أيضا فقال : تلك دماء قد طَهّر الله منها يدي ؛ فلا أخْضِب بها لساني . يعني في التحرز من الوقوع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبا فيه . قال ابن فُورَك : ومن أصحابنا من قال إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف؛ ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوّة ؛ فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة . وقال المحاسبي: فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم . وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغِبْنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتّبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ؛ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ؛ إذ كانوا غير متّهمين في الدِّين ، ونسأل الله التوفيق .

قوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي في الدِّين والحُرْمة لا في النسب؛ ولهذا قيل : أخوّة الدين أثبت من أخوّة النسب ؛ فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين ،

(1) ١٣٤ سورة البقرة .

وأخوّة الدين لا تنقطع بمخالفــة النسب . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا(١) ". وفى رواية : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابَروا ولا يَبِعْ بعضُكم على بيــع بعض وكونوا عباد الله إخوانا . المسلِمُ أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يَخْـذُله ولا يَحْقِره . التقوى ها هنا — ويشير إلى صــدره ثلاث مرات — بحَسْبِ امرئ من الشر أن يَحْقِر أخاه المسلم . كلُّ المسلِم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه" لفظ مسلم . وفى غير الصحيحين عن أبى هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المســلم لا يَظْلمه ولا يَعيبه ولا يَخْذله ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليــه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتار قِــدْره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بهــا إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها " . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل " .

الثانيــــة — قوله تعــالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أى بين كل مسلمين تخاصما . وقيل : بين الأوس والخزرج ؛ على ما تقدّم . وقال أبو علىّ : أراد بالأخوين الطائفتين ؛ لأن لفــظ التثنية يرد والمراد به الكثرة ؛ كقوله تعــالى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ(٢) » . وقال أبو عبيــدة : أى أصلحوا بين كل أخوين ؛ فهو آت على الجميع . وقرأ ابن سِيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجَحْـدَرِىّ ويعقوب « بين إخوتكم » بالتاء على الجمع . وقرأ الحسن « إخوانكم » . الباقون « أخويكم » بالياء على التثنية .

الثالثـــة — فى هذه الآية والتى قبلها دليل على أن البغى لا يزيل اسم الإيمان . لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين . قال الحارث الأعور : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو القــدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمَــل وصِفّين : أمشركون هم ؟

---

(١) التحسس (بالحاء) : الاستماع لحديث القوم . والتناجش : أن تزيد فى ثمن سلعة ولا رغبة لك فى شرائها . وقيل : هو تحريض الغير على الشراء . (٢) آية ٦٤ سورة المـائدة .

قال : لا ، من الشِّرك فرّوا . فقيل : أمنافقون؟ قال : لا ، لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (١١)

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ قيل عند الله . وقيل « خيرا منهم » أى معتقدا وأسلم باطنا . والسُّخْرِية الاستهزاء . سَخِرت منه أسْخَر سَخَرًا (بالتحريك) ومَسْخَرًا وسُخْرًا (بالضم) . وحكى أبو زيد سَخِرت به ؛ وهو أردأ اللغتين . وقال الأخفش : سَخِرت منه وسَخِرت به ، وضَحِكت منه وضَحِكت به ، وهَزِئت منه وهَزِئت به ؛ كلٌّ يقال . والاسم السُّخْرِية والسُّخْرِى ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا »[(١)] وقد تقدّم . وفلان سُخْرَة ؛ يتسخر فى العمل . يقال : خادم سخرة . ورجل سخرة أيضا يسخر منه . وسُخَرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس .

الثانيـــة — واختلف فى سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس كان فى أذنه وَقْر ، فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه ؛

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . راجع ص ٨٣ من هذا الجزء . وج ١٢ ص ١٥٤ وج ١٥ ص ٢٢٥

فربَض كل رجل منهــم بمجلسه ، وعَضُّــوا(١) فيه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائمـا ؛ فلما انصرف ثابت من الصــلاة تخطى رقاب الناس و يقول : تفسّحوا تفسحوا ، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيّ صلى الله عليه وسـلم و بينه و بينه رجل فقال له : تفسح . فقال له الرجل : قد وجدتَ مجلسا فاجلس ! فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا، ثم قال : من هذا ؟ قالوا فلان، فقال ثابت : ابن فلانة ! يعيّره بها ؛ يعنى أُمًّا له فى الجاهلية ؛ فاستحيا الرجل، فنزلت . وقال الضحاك : نزلت فى وفد بنى تميم الذى تقدّم ذكرهم فى أوّل السورة » ٱستهزءوا بفقراء الصحابة ؛ مثل عَمّار وخَبّاب وابن فُهيرة و بِلال وصُهيب وسلمان وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم ؛ لمـا رأوا من رثاثة حالهم ؛ فنزلت فى الذين آمنوا منهم . وقال مجاهد : هو سخــرية الغنى من الفقير . وقال ابن زيد : لا يسـخر من ســتر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله ؛ فلعل إظهار ذنوبه فى الدنيا خير له فى الآخرة . وقيــل : نزلت فى عِكْرمة بن أبى جهل حين قدم المدينــة مسلما ؛ وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة . فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . و بالجملة فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رَثّ الحـال أو ذا عاهة فى بدنه أو غير لبيــق(٢) فى محادثته ؛ فلعـله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضدّ صفته ؛ فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله ، والاستهزاء بمن عظمه الله . ولقد بلغ بالسّلف إفراط توقيهم وتصوّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شَرَحْبيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أصنع مثل الذى صنع . وعن عبد الله بن مسعود : البـلاء مُوَكّل بالقول ؛ لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا . و « قوم » فى اللغة للمذكّرين خاصة . قال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــوم آل حِصْن أم نساء

وسُمُّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم فى الشدائد . وقيل : إنه جمع قائم ، ثم استعمل فى كل جماعة و إن لم يكونوا قائمين . وقد يدخل فى القوم النساء مجازا، وقد مضى فى «البقرة»(٣) بيانه .

(١) عض فلان الشيء : لزمه واستمسك به .	(٢) رجل لبق ولبيق : حاذق رفيق بكل عمل .
(٣) راجع جـ ١ ص ٤٠٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر . وقد قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ »(١) فشمل الجميع . قال المفسرون : نزلت في آمرأتين من أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم سَخِرتا من أمّ سلمة ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبة — وهو ثوب أبيض، ومثلها السِّبّ — وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها ؛ فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما : انظري ! ما تجر خلفها كأنه لسان كلب . فهذه كانت سخريتهما . وقال أنس وابن زيد : نزلت في نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، عَيّرن أمّ سَلمة بالقِصَر . وقيل : نزلت في عائشة ، أشارت بيدها إلى أم سلمة ، يانبيّ الله إنها لقصيرة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حُيَيّ بن أخْطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن النساء يُعيّرنني ، ويقلن لي يا يهودية بنت يهوديين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هلّا قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد " . فأنزل الله هذه الآية .

الرابعة — في صحيح الترمذي عن عائشة قالت : حَكَيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا ؛ فقال : " ما يسرني أني حَكَيت رجلا وأن لي كذا وكذا "(٢) . قالت فقلت : يارسول الله ، إن صفية امرأة — وقالت بيدها(٣) — هكذا ؛ يعني أنها قصيرة . فقال : " لقد مزجت بكلمة لو مُزج بها البحر لمزج " . وفي البُخاريّ عن عبد الله بن زَمْعة قال : نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنْفس . وقال: "لِمَ يضربُ أحدكم آمرأته ضَرْب الفَحْل ثم لعله يعانقها ". وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " . وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفًا مذموما لا تصح

(١) أول سورة نوح . (٢) حكيت فلانا وحاكيته : فعلت مثل فعله . (٣) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ على المجاز والاتساع .

معه تلك الأعمال . ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وَصْفًا محمودا يغفر له بسببه . فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية . ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة . بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة . فتدبر هذا ، فإنه نظر دقيق ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ اللَّمْزُ: العَيْب ، وقد مضى في «براءة» عند قوله تعالى : «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ» (١) . وقال الطبري : اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة . والهَمْزُ لا يكون إلا باللسان . وهذه الآية مثلُ قوله تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» (٢) أي لا يقتل بعضكم بعضا ؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه بقتل أخيه قاتلُ نفسه . وكقوله تعالى : «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» (٣) يعني يسلّم بعضكم على بعض . والمعنى : لا يَعِبْ بعضكم بعضا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير : لا يَطْعَن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يَلْعَن بعضكم بعضا . وقرئ : «ولا تَلْمُزوا» بالضم . وفي قوله «أنفسكم» تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَر والحُمَّى" . وقال بكر بن عبد الله المزني : إذا أردت أن تنظر العيوب جَمَّةً فتأمل عَيّابًا ؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . وقال صلى الله عليه وسلم : "يبصر أحدُكم القَذاة (٤) في عَيْن أخيه ويدع الجِذْع في عينه" . وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلا وَرِعًا * أشغَلَه عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيم المريض يشغله * عن وجع الناس كلهم وجعه

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٦   (٢) آية ٢٩ سورة النساء .   (٣) آية ٦١ سورة النور .

(٤) القذاة : هو ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقال آخر :

لا تكشفن مساوى الناس ما ستروا (١) * فيهتك الله سترًا عن مساويكا

وآذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ النَّبَزُ (بالتحريك) اللقب، والجمع الأنباز . والنبز (بالتسكين) المصدر ، تقول : نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا ، أى لقّبه . وفلان يُنَبِّز بالصبيان أى يلقبهم، شُدد للكثرة. ويقال النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء . وتنابزوا بالألقاب : أى لقّب بعضُهم بعضا . وفى الترمذىّ عن أبى جُبَيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيُدعَى ببعضها فعسى أن يكره ، فنزلت هذه الآية « ولا تنابزوا بالألقاب» . قال : هذا حديث حسن . وأبو جُبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصارى . وأبو زيد (٢) سعيدُ بن الربيع صاحب الهَرَوِىّ ثقة . وفى مُصَنّف أبى داود عنه قال : فينا نزلت هذه الآية ، فى بنى سلمة « ولا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » قال : قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا فلان فيقولون مَهْ يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا الاسم، فنزلت هذه الآية « ولا تنابزوا بالألقاب » . فهذا قول . وقولٌ ثانٍ — قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره يا يهودىّ يا نصرانى، فنزلت . وروى عن قتادة وأبى العالية وعِكْرمة . وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق . وقاله مجاهد والحسن أيضا . ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته، قاله ابن زيد . وقيل : المعنى أن مَن لقّب أخاه أو سخِر منه فهو فاسق . وفى الصحيح "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه" . فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهَمْز والنبز فذلك فسوق، وذلك لا يجوز . وقد روى أن أبا ذَرّ رضى الله عنه كان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فنازعه

(١) فى أدب الدنيا والدين : «لا تلمس من مساوى» . (٢) أبو زيد من رجال سند هذا الحديث .

رجل فقال له أبو ذَرٍّ : يابن اليهودية ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ماترى ها هنا أحمر وأسود ماأنت بأفضل منه" يعني بالتقوى ، ونزلت «ولاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلقابِ» . وقال ابن عباس : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمـل السيئات ثم تاب ؛ فنهى الله أن يُعَيَّر بما سلف . يدلّ عليه ما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من عَيّر مؤمنا بذنب تاب منه كان حَقًّا على الله أن يَبْتَلِيه به ويَفْضَحَه فيه في الدنيا والآخرة" .

الثالثـــة — وقع من ذلك مستثْنًى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجـد في نفسه منه عليه ، فجوّزته الأمة واتفق على قوله أهل المِـلّة . قال ابن العربيّ : وقـد ورد لَعَمْرُ الله من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح جَزَرة[1] ؛ لأنه صحّف « خرزة » فلُقّب بها . وكذلك قولهم في محمد بن سليمان الحضرمى : مُطَيَّن ؛ لأنه وقع في طين . ونحـو ذلك مما غلب على المتأخرين ، ولا أراه سائغا في الدِّين . وقد كان موسى بن عُلَيّ بن رَباح المصريّ يقـول : لا أجعل أحدا صغر اسم أبي [في حلّ] ، وكان الغالب على اسمـه التصغير بضم العين . والذى يضبط هـذا كُلَّه ؛ أن كلّ ما يكرهه الإنسان إذا نودى به فـلا يجوز لأجل الإذاية . والله أعلم .

قلت — وعلى هـذا المعنى ترجم البخاريّ رحمه الله في (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح . في « باب ما يجـوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شَـيْن الرجل » قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما يقول ذو اليَدَيْن " قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِ مَنْـداد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ؛ ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لَقّب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصدّيق ، وعثمان بذى النُّورين ، وخزيمة بذى الشهادتين ، وأبا هريرة بذى الشّمالين وبذى اليدين ؛ في أشباه ذلك.

(١) هو صالح بن محمـد بن عمرو بن حبيب أبو علي البغدادى الحافظ . روى الخطيب البغدادى بسنده ... سمعت صالحا — يعني جزرة — يقول : قدم علينا بعض الشيوخ من الشام ؛ فقرأت أنا عليه : حدثكم جرير بن عثمان قال : كان لأبي أمامة خرزة يرقى بها المريض ؛ فصحفت « الخرزة » فقلت : كان لأبي أمامـة « جزرة » وإنما هي « خرزة » . راجع تاريخ بغداد في المجلد التاسع ص ٣٢٢ في ترجمة صالح هذا .

الزَّمَخشرىّ : « روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيه بأحبّ أسمائه إليه " . ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن؛ قال عمر رضى الله عنه : أشيعوا الكُنَى فإنها منبّهة ، ولقد لُقّب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله . وقلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لَقَب . ولم تزل هذه الألقاب الحسنة فى الأمم كلها — من العرب والعجم — تجرى فى مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير » . قال الماوردىّ : فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

قلت — فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حُميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحُميد الأعرج، ومروان الأصغر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال : رأيت الأصلع — يعنى عمر — يقبّل الحجر . فى رواية الأُصَيْلع .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ ﴾ أى عن هذه الألقاب الذى يتأذّى بها السامعون . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهى .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يأيُّها الذين آمنُوا اجْتنِبُوا كثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ قيل : إنها نزلت فى رجلين من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم اغتابا رفيقهما . وذلك أن النبىّ صلى

الله عليه وسلم كان إذا سافر ضم الرجلَ المحتاج إلى الرجلين الموسِرَيْن فيخدمهما . فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئا، فجاءا فلم يجدا طعاما و إداما ، فقالا له : انطلق فاطلب لنا من النبي صلى الله عليــه وسلم طعاما و إداما ؛ فذهب فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك " وكان أسامة خازن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذهب إليه، فقال أسامة : ما عندي شيء ؛ فرجع إليهما فأخبرهما ؛ فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل . ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجــد عندهم شيئا ؛ فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة(١) لغــار ماؤها . ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء ؛ فرآهما النبيّ صلى الله عليــه وسلم فقال : " مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما " فقالا : يا نبي الله ، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال : " ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة " فنزلت « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ذكره الثعلبيّ . أي لا تظنوا بأهل الخــير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير .

الثانيــة — ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيّ صــلى الله عليه وســلم قال : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسَّسُوا ولا تجسسوا ولا تَناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " لفظ البخاري . قال علماؤنا : فالظن هنا وفي الآية هو التُّهَمة . ومحل التحذير والنهي إنمــا هو تُهَمَة لا سبب لهــا يوجبها ؛ كمن يُتَّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليــه ما يقتضي ذلك . ودليل كون الظن هنا بمعنى التُّهَمة قوله تعــالى : « ولا تجسسوا » وذلك أنه قــد يقع له خاطر التهمة ابتداء و يريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنــه ، و يتبصّر و يستمع لتحقق ما وقع له من تلك التهمة . فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك . و إن شئت قلت : والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجبَ الاجتناب.

(١) بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء .

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأُونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنّ الفساد به والخيانة محرم ؛ بخلاف من آشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن الله حرّم من المسلم دمَه وعِرضَه وأن يُظَن به ظنّ السوء" . وعن الحسن : كنا فى زمنٍ الظنُّ بالناس فيه حرام ، وأنت اليوم فى زمن اعمل وآسكُتْ وظُنّ فى الناس ما شئت .

الثالثــة — للظن حالتان : حالة تعرف وتقوّى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيَم المتلفات وأروش الجنايات . والحالة الثانيــة — أن يقــع فى النفس شىء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهــذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهى عنــه على ما قررناه آنفا . وقــد أنكرت جماعة من المبتدعة تعبد الله بالظن وجــواز العمل به ؛ تحكّمًا فى الدين ودعوى فى المعقول . وليس فى ذلك أصل يعوّل عليــه ؛ فإن البارئ تعالى لم يذم جميعه ، وإنمــا أورد الذم فى بعضه . وربمــا تعلقوا بحــديث أبى هريرة "إياكم والظن" فإن هذا لا حجة فيه ؛ لأن الظن فى الشريعة قسمان : محمود ومذموم ؛ فالمحمود منه ما سلــم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه . والمذموم ضدّه ؛ بدلالة قوله تعــالى : « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ، وقوله : « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا »[1] ، وقوله : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا »[2] وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكى على الله أحدا" . وقال : "إذا ظننت فلا تحقّق وإذا حسدت فــلا تبغ وإذا تطيّرت فآمض" خرّجه أبو داود . وأكثر العلمــاء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبح ؛ قاله المهْدَوِىّ .

الرابعــة — قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن بآختلاف وغيرهما « ولا تحسسوا » بالحاء . واختلِف هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؛ فقال الأخفش : ليس

(١) آية ١٢ سورة النور . (٢) آية ١٢ سورة الفتح .

تبعد إحداهما من الأخرى ؛ لأن التجسّس البحثُ عما يُكتم عنك . والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل : إن التجسس (بالجيم) هو البحث ؛ ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور . وبالحاء : هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. وقولٌ ثانٍ فى الفرق : أنه بالحاء تطلّبه لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ؛ قاله ثعلب . والأوّل أعرف . جَسَست الأخبار وتجسّستها أى تفحّصت عنها ؛ ومنه الجاسوس . ومعنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تَتَّبعوا عورات المسلمين؛ أى لا يبحث أحدكم عن عَيب أخيه حتى يطّلع عليه بعد أن ستره الله . وفى كتاب أبى داود عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن ٱتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء : كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالى بها . وعن المِقدام بن مَعْدِى كَرِب عن أبى أُمامة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الأمير إذا ٱبتغى الريبة فى الناس أفسدهم " . وعن زيد بن وهب قال : أُتِىَ ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به . وعن أبى بَرْزة الأسلمى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم . فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يَفْضَحه فى بيته ". وقال عبد الرحمن ابن عَوْف : حَرَست ليلةً مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج فى بيت بابُه مُجافٌ على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ؛ فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرَّب فما ترى !؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » وقد تجسسنا ؛ فانصرف عمر وتركهم . وقال أبو قِلابة : حُدِّث عمر ابن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقَفِى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل؛ فقال أبو مِحْجن : إن هذا لا يحلّ لك ! قد نهاك الله عن التجسس ؛ فخرج عمر وتركه . وقال زيد بن أسلم : خرج عمر وعبد الرحمن يَعُسّان ،

إذ تبيّنت لها نار فاستأذنا ففتح الباب ، فإذا رجل وامرأة تغنّى وعلى يد الرجل قدح ، فقال عمر : وأنت بهذا يا فلان ؟ فقال : وأنت بهذا يا أمير المؤمنين ! قال عمر : فمن هذه منك ؟ قال امرأتى، قال فما فى هذا القدح؟ قال ماء زُلال، فقال للمرأة: وما الذى تُغَنّين ؟ فقالت :

تطاول هذا الليل وٱسْودّ جانبُهْ وأرّقنى أن لا خليلَ ألاعبُهْ
فـوالله لولا اللهُ أنى أراقبـه لزُعْزِع من هذا السرير جوانبه
ولكنّ عقـلى والحيـاء يَكُفُّنِى وأُكْرِم بَعْـلِى أن تُنال مَرَاكِبُهْ

ثم قال الرجل : ما بهذا أُمِرْنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعـالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » . قال صدقت .

قلت : لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل ،لأن عمر لا يقرّ على الزنى ، وإنمـا غنّت بتلك الأبيات تذكارا لزوجها ، وأنها قالتها فى مَغيبه عنها(١) . والله أعلم . وقال عمرو بن دينار : كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت ، فكان يعودها فماتت فدفنها . فكان هو الذى نزل فى قبرها ، فسقط من كُمّه كيس فيه دنانير ، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال : لأكشفنّ حتى أنظر ما آل حال أختى إليه ، فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارا ، فجـاء إلى أمه فقال : أخبرينى ما كان عمل أختى ؟ فقالت : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها ! فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابَهم ، فتَجَسّس عليهم وتُخرج أسرارهم ، فقال : بهذا هلكت !

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ نهى عز وجل عن الغِيبة ، وهى أن تذكر الرجل بما فيه ،فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما الغِيبة" ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " ذكرك أخاك بما يكره" قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟

(١) راجع هذه القصة فى جـ ٣ ص ١٠٨ من هذا الكتاب .

قال : "إن كان فيه ما تقول فقد ٱغتبته و إن لم يكن فيه فقد بَهَتّه". يقال : اغتابه ٱغتيابا إذا وقع فيــه ؛ والاسم الغِيبة ، وهى ذكر العَيْب بظهر الغَيْب(١) . قال الحسن : الغِيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله تعالى: الغِيبة والإفك والبهتان . فأما الغِيبة فهو أن تقول فى أخيك ما هو فيه ، وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه . وعن شعبة قال قال لى معاوية — يعنى ابن قُرّة — : لو مَرّ بك رجل أقطع ؛ فقلت هذا أقطع كان غِيبة . قال شعبة : فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق . وروى أبو هريرة أن الأسلمى ماعزًا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسمع نبيّ الله صلى الله عليه وسـلم رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هــذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجْمَ الكلب؛ فسكت عنهما . ثم سار ساعة حتى مرّ بجيفة حمار شائل برجله فقال : "أين فلان وفلان" ؟ فقالا : نحن ذا يا رســول الله ؛ قال "انزلا فكُلَا من جِيفة هــذا الحمار" فقالا : يا نبيّ ٱلله ومن يأكل من هــذا ! قال : "فما نلتما من عرض أخيكما أشدّ من الأكل منه والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها" .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ مثّل الله الغِيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعـلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغِيبة من ٱغتابه . وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هــذا المثل للغِيبة لأن أكل لحـم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغِيبة حرام فى الدين وقبيح فى النفوس . وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غِيبته حيًّا . واستعمل أكل اللحـم مكان الغِيبة لأن عادة العــرب بذلك جارية . قال الشــاعر :

فإن أكلوا لحمى وفَرت لحومهـم ✻ و إن هَدَموا مجْدى بَنَيْتُ لهم مجْدا(٢)

(١) الظهر : ما غاب عنك .

(٢) البيت للقنع الكندى ، واسمه محمد بن عميرة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما صام من ظل يأكل لحوم الناس " . فشبّه الوقيعة فى الناس بأكل لحومهم . فمن تنقص مسلما أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حياً ، ومن آغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً . وفى كتاب أبى داود عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما عُرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمُشُون وجوههم وصدورهم فقلت مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم". وعن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كُسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سُمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة " . وقد تقدّم قوله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين " . وقوله للرجلين : " مالى أرى خُضرة اللحم فى أفواهكما " . وقال أبو قِلابة الرقاشى : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما فى الغيبة . وكان ميمون بن سِياه لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده ؛ ينهاه فإن انتهى وإلا قام . وذكر الثعلبى من حديث أبى هريرة قال : قام رجل من عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فرأوا فى قيامه عجزا فقالوا : يارسول الله ما أعجز فلانا ! فقال : " أكلتم لحم أخيكم وآغتبتموه " . وعن سفيان الثورى قال : أدنى الغيبة أن تقول إن فلانا جَعْدٌ قَطَطٌ (١) ؛ إلا أنه يكره ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء ، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء . وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ؛ قال : إياه فارحموا . وقال رجل للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ! فقال : لم يبلغ قدرك عندى أن أحكمك فى حسناتى .

---

(١) الجعد فى صفات الرجال يكون مدحا وذما ؛ فالمدح أن يكون معناه شديد الأسر (القوّة) والخلق . أو يكون جعد الشعر ، وهو ضدّ السبط .

وأما الذم فهو القصير المتردّد الخلق . وقد يطلق على البخيل أيضا ؛ يقال : رجل جعد اليدين . والقطط : القصير الجعد من الشعر .

السابعـــة ـــ ذهب قوم إلى أن الغِيبة لا تكون إلا فى الدين ولا تكون فى الخلقة والحسب . وقالوا : ذلك فعل الله به . وذهب آخرون إلى عكس هـذا فقالوا : لا تكون الغِيبة إلا فى الخَلْق والخُلُق والحسب . والغِيبة فى الخَلْق أشـد ؛ لأن من عَيَّب صنعة فإنما عيّب صانعها . وهذا كله مردود. أما الأول فيردّه حديث عائشة حين قالت فى صفية : إنها امرأة قصيرة؛ فقال لها النبيّ صـلى الله عليه وسـلم : " لقد قلت كلمة لو مُزج بهـا البحر لمزجته " . خرجه أبو داود . وقال فيـه الترمذى : حديث حسن صحيح، وما كان فى معناه حسب ما تقدّم . و إجماع العلماء قديما على أن ذلك غِيبة إذا أريد به العيب . وأما الثانى فمردود أيضا عند جميع العلماء ؛ لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم والتابعين بعـدهم لم تكن الغيبة عنـدهم فى شيء أعظم من الغيبـة فى الدين؛ لأن عيب الدين أعظم العيب ؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر فى دينه أشد ممـا يكره فى بدنه . وكفى ردا لمن قال هذا القول قولُه عليه السلام : " إذا قلت فى أخيك ما يكره فقد اغتبته ... " الحديث . فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد ردّ ما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم نصًّا . وكفى بعموم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" وذلك عام للدين والدنيا . وقول النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "من كانت عنده لأخيه مَظْلِمَة فى عِرضه أو ماله فليتحلله منه " . فعمّ كل عرض ؛ فمن خص من ذلك شـيئا دون شيء فقد عارض ما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنـــة ـــ لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عز وجل . وهل يستحلّ المغتاب ؟ اختلف فيه ؛ فقالت فرقة : ليس عليه استحلاله ، و إنمـا هى خطيئة بينـه و بين ربه . واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه ، فليس ذلك بمَظْلَمَة يستحلها منه ، و إنمـا المظلمة ما يكون منه البدل والعِوَض فى المـال والبدن . وقالت فرقة : هى مظلمة ، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه . واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته . وقالت فرقة : هى مظلمة وعليـه الاستحلال منها . واحتجت بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من كانت

لأخيه عنده مَظْلَمَة فى عِرْض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته".
خرّجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه". وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ »(1) . وقد روى من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة : ما أطول ذيلها ! فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيها فاستحلّيها. فدلت الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها.
وأما قول من قال : إنما الغيبة فى المال والبدن ؛ فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للقذوف مظلمة يأخذه بالحدّ حتى يقيمه عليه ؛ وذلك ليس فى البدن ولا فى المال. ففى ذلك دليل على أن الظلم فى العرض والبدن والمال، وقد قال الله تعالى فى القاذف : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ »(2) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بهت مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله فى طينة الخبال(3)". وذلك كله فى غير المال والبدن. وأما من قال : إنها مظلمة، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها ؛ فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال كفارتها أن يستغفر لصاحبها ؛ لأن قوله مظلمة تثبت ظلامة المظلوم؛ فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له. وأما قول الحسن فليس بحجة، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من كانت له عند أخيه مظلمة فى عِرْض أو مال فليتحللها منه".
وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله، ورأى أنه لا يحل له ما حرّم الله عليه ؛ منهم سعيد بن المسيب قال : لا أحلل من ظلمنى. وقيل لابن سيرين : يا أبا بكر، هذا رجل

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٦٨ . (2) آية ١٣ سورة النور .

(3) الخبال : الفساد ؛ ويكون فى الأفعال والأبدان والعقول. و « طينة الخبال » : عصارة أهل النار.

سألك أن تحالله من مظلمة هى لك عنده ؛ فقال : إنى لم أحرمها عليه فأحلّها ، إن الله حرّم الغيبة عليــه ، وما كنت لأحلّ ما حرّم الله عليه أبدا . وخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم يدل على التحليل ،وهو الحجة والمبيِّن.والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو ؛وقد قال تعالى: « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »(١) .

التاســـعة — ليس من هـــذا الباب غِيبة الفاسق المعلن به المجاهر؛ فإن فى الخبر " من ألقى جِلْباب الحياء فلا غِيبة له " . وقال صلى الله عليــه وسلم : " اذكروا الفاجر بمـا فيه كى يحذره النـاس" . فالغيبة إذًا فى المرء الذى يستر نفسه . وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر . وقال الحسن لمـا مات الحجاج : اللهم أنت أَمَتّه فاقطع عنا سنته — وفى رواية شَيْنه — فإنه أتانا أُخَيْفش أُعَيْمش، يمدّ بيد قصيرة البنان، والله ما عَرِق فيها غبار فى سبيل الله، يُرَجِّل جُمّتــه ويَخْطِر فى مِشْيته، ويَصْعَد المنبر فيَهْذِر حتى تفوته الصلاة . لا من الله يَتّقِى ، ولا من الناس يستحى ؛ فوقه الله وتحتــه مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاةَ أيها الرجل . ثم يقول الحسن : هيهات ! حال دون ذلك السيف والسَّوْط . وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البــدع غِيبة . وكذلك قولك للقاضى تستعين به على أخذ حقــك ممن ظلمك فتقول : فلان ظلمنى أو غصبنى أو خاننى أو ضربنى أو قذفــنى أو أساء إلىّ ؛ ليس بغيبة . وعلمـاء الأمة على ذلك مجمعة . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ذلك : " لصاحب الحق مقال " . وقال : " مَطْلُ الغنِيّ ظلم " وقال : " لَىّ الواجد(٢) يُحِلّ عِرْضَه وعقُوبته " . ومن ذلك الاستفتاء ؛ كقول هنـد للنبيّ صلى الله عليــه وسلم : إن أبا سـفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى ، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "نعم فخذى ". فذكرته بالشُّحّ والظلم لها ولولدها ، ولم يرها مغتابة؛ لأنه لم يغيّر عليها ، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيَا لهـا . وكذلك إذا كان فى ذكره بالسوء فائدة؛ كقوله صلى الله عليــه وسلم :

---

(١) آية ٤٠ سورة الشورى .	(٢) الواجد : القادر على قضاء دينه .

"أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم (١) فلا يضع عصاه عن عاتقه". فهـذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس (٢) بهما . قال جميعه المحاسبي رحمه الله .

العاشـرة — قوله تعـالى : ﴿ مَيْتًا ﴾ وقرئ « ميّتا » وهو نصب على الحال من اللحم . ويجـوز أن ينصب على الأخ ، ولمـا قررهم عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عَقّب ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . وفيـه وجهان : أحدهما — فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغِيبة؛ رُوى معناه عن مجاهـد . الثانى — فكرهتم أن يغتابكم النـاس فاكرهوا غيبة الناس . وقال الفراء : أى فقد كرهتموه فلا تفعلوه . وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر، أى اكرهوه . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ عطف عليـه . وقيل : عطف على قوله : « اجتنبوا . ولا تجسسوا » . ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ يعنى آدم وحواء . ونزلت الآية فى أبى هنـد ؛ ذكره أبو داود فى (المراسيل) ؛ حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدّثنا بقيّة بن الوليد قال حدثنى الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بَيَاضة أن يزوّجوا أبا هنـد آمرأة منهم ؛ فقالوا لرسول الله صلى الله عليـه وسلم : نزوّج

(١) هو آبن حذيفة بن غانم القرشى . وقوله : « لا يضع عصاه » أى أنه ضراب للنساء . وقيـل : هو كناية عن كثرة أسفاره؛ لأن المسافر يحمل عصاه فى سفره . (٢) هى أخت الضحاك بن قيس ، كانت من المهاجرات الأول ، وكانت ذات جمال وعقل وكمال ، وكانت عند أبى عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها فخطبها معاوية وأبو جهم ، فاستشارت النبي عليه السلام فيهما فأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته .

بناتنا موالينا ؟ ! فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا » الآية . قال الزهري : نزلت في أبي هند خاصة . وقيل : إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس . وقوله في الرجل الذي لم يتفسح له : آبن فلانة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "من الذاكر فلانة" ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "انظر في وجوه القوم" فنظر ؛ فقال : "ما رأيت" ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر ؛ فقال : "فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى" فنزلت في ثابت هذه الآية . ونزلت في الرجل الذي لم يتفسح له : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ »(1) الآية . قال آبن عباس : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذّن ؛ فقال عتّاب بن أسيد بن أبي العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيّره . وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء ؛ فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ؛ فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . زجرهم عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء ؛ فإن المدار على التقوى . أي الجميع من آدم وحواء ، إنما الفضل بالتقوى . وفي الترمذي عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال : "يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبّيّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بَرّ تَقِيّ كريم على الله ، وفاجر شقيّ هيّن على الله . والناس بنو آدم وخَلَق الله آدم من تراب قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » " . خرّجه من حديث عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف ، ضعّفه يحيى بن مَعين وغيره . وقد خرّج الطبري في كتاب (آداب النفوس) وحدّثني يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا إسماعيل قال حدّثنا سعيد الجُرَيري عن أبي نضرة قال : حدّثني أو حدّثنا من

---

(1) آية ١١ سورة المجادلة .

شهد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنًى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : " يأيها الناس ألا إن ربكم واحد و إن أباكم واحد ألّا لا فضل لعربىّ على عجمىّ ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلّغت؟ قالوا نعم؛ قال ـ ليبلّغ الشاهدُ الغائب" . وفيه عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه و إنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم" . ولعلىّ رضى الله عنه فى هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهمُ آدمُ والأمّ حواء
نفسٌ كنفس وأرواحٌ مشاكلة ... وأعظُمٌ خُلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُدَى لمن استهْدَى أدِلّاء
وقَدْرُ كلّ امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

الثانية ــ بيّن الله تعالى فى هذه الآية أنه خلق الخلق من الذّكر والأنثى ، وكذلك فى أوّل سورة « النساء »(1) . ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم، أو دون ذَكَر كخلقه لعيسى عليه السلام ، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين . وهذا الجائز فى القدرة لم يرد به الوجود . وقد جاء أن آدم خلق الله منه حوّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه؛ فلعله هذا القسم؛ قاله ٱبن العربى .

الثالثة ــ خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا، وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التى قدّرها وهو أعلم بها ؛ فصار كل أحد يحوز نسبه ؛ فإذا نفاه رجل عنه ٱستوجب الحدّ بقذفه ؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه،

(1) راجع جـ ٥ ص ١ وما بعدها .

بقوله للعربي : يا عجمي، وللعجمي : يا عربي ؛ ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة . انتهى .

الرابعة — ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربى في رحم الأم ، ويستمد من الدم الذي يكون فيه . واحتجوا بقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ »(١) . وقوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »(٢) . وقوله : « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى »(٣) . فدلّ على أن الخلق من ماء واحد . والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية ؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل . وقوله تعالى: « خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »(٤) والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ؛ على ما يأتي بيانه . وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خَلْق الإنسان من الماء والسُّلالة والنطفة ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر . فدل على أن الماء والسلالة لها والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا . وبأن المرأة تمنى كما يمنى الرجل ، وعن ذلك يكون الشبه ؛ حسب ما تقدّم بيانه في آخر « الشورى »(٥) . وقد قال في قصة نوح « فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »(٦) وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض ؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين ، فلا ينكر أن يكون « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » . وقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ويريد ماءين . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ الشعوب رءوس القبائل ؛ مثل ربيعة ومُضَر والأوْس والخَزْرَج ؛ واحدها « شَعْب » بفتح الشين ؛ سُمُّوا به

(١) آية ٢٠ ، ٢١ سورة المرسلات .
(٢) آية ٨ سورة السجدة .
(٣) آية ٣٧ سورة القيامة .
(٤) آية ٦ ، ٧ سورة الطارق .
(٥) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء .
(٦) آية ١٢ سورة القمر .

لتشعّبهم واجتماعهــم كشعب أغصان الشجرة . والشَّعْب من الأضــداد ؛ يقــال شعبته إذا جمعته؛ ومنه المِشْعَب (بكسر الميم)، وهو الإشْفَى؛ لأنه يجمع به ويشعب . قال :

فَكَابٍ على حُرّ الجبيــن ومُتّقٍ * بمَــدْرِيَةٍ كأنه ذَلْــقُ مِشْعَبِ (١)

وشَعَبته إذا فرّقته ؛ ومنــه سميت المنية شُعوبا لأنها مفــرّقة . فأما الشِّعب (بالكسر) فهو الطريق فى الجبــل ؛ والجمع الشعاب . قال الجوهرى : الشَّعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم ؛ والجمع الشعوب . والشُّعُوبية : فرقة لا تفضّل العرب على العجم . وأما الذى فى الحديث أن رجلا من الشعوب أسلم (٢) ؛ فإنه يعنى من العجم . والشَّعْب : القبيلة العظيمة ، وهو أبو القبائل الذى ينسبون إليــه ؛ أى يجمعهم و يضمهم . قال ابن عباس : الشعوب الجمهور (٣)؛ مثل مضر. والقبائل الأفخاذ . وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب؛ والقبائل دون ذلك . وعنه أيضا أن الشعوب النسب الأقرب . وقاله قتــادة . ذكر الأوّل عنه المَهْدَوِىّ، والثانى المــاوردى . قال الشاعر (٤) :

رأيت سعودا من شعوب كثيرة * فلم أر سعــدًا مثل سعدِ بن مالك

وقال آخــر :

قبائل من شعوب ليس فيهــم * كريم قــد يعـــدّ ولا نجيــب

وقيل : إن الشعوب عَرَب اليمن من قَحْطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان . وقيل : إن الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب . وقال ابن عباس فى رواية : إن الشعوب الموالى ؛ والقبائل العرب . قال القُشَيْرِىّ : وعلى هذا فالشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب كالهنــد والجِبِلّ (٥) والترك ؛ والقبائل من العرب . المــاوردى : ويحتمل أن

(١) قوله : « فكاب على حر الجبين » أى خار على وجهه . و « المدرية » : القرن ؛ وهى المدرى والمدراة ؛ والجمع مدار ومدارَى . و « ذلق » ذلق كل شىء : حدّه . و « مشعب » مثقب .

(٢) تمام الحديث كما فى اللسان : « فكانت تؤخذ منه الجزية ؛ فأمر عمر ألا تؤخذ منه » .

(٣) هــذا القول منسوب إلى ابن جبير . والمأثور عن ابن عباس أن « الشعوب الجماع » والجماع (بضم الجيم وتشديد الميم) : مجتمع أصل كل شىء . أراد : منشأ النسب وأصل المولد . وقيل : أراد به الفرق المختلفة من الناس .

(٤) هو طرفة بن العبد .

(٥) الجبل : الأمة من الخلق والجماعة من الناس؛ وفيه لغات كثيرة . راجع جـ ١٥ ص ٤٧ من هذا التفسير .

الشعوب هم المضافون إلى النواحى والشعاب ، والقبائل هم المشتركون فى الأنساب . قال الشاعر :

وتفرّقوا شُعَبًا فكل جزيرة * فيها أمير المؤمنين ومنبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخذ . وقيل : الشعب ثم القبِيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخذ ثم الفَصيلة ثم العَشيرة ؛ وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

اِقصد الشَّعب فهو أكثر حَىّ * عددًا فى الحواء ثم القبيله

ثم تتلوها العِمارة ثم الـ * ـبطن والفخذ بعدها والفصيله

ثم من بعدها العشِيرة لكن * هى فى جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر :

قبِيلة قبلها شَعْب وبعدهما * عِمارة ثم بَطْنٌ تِلْوُه فَخِذُ

وليس يؤوى الفتى إلا فصيلته * ولا سداد لِسَهْم ماله قُذَذُ (١)

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقد تقدّم فى سورة « الزخرف » عند قوله تعالى : « وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَوْمِك » (٢) . وفى هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هى المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب . وقرئ « أنّ » بالفتح . كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب؟ قيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وفى الترمذى عن سَمُرَة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "الحسب المالُ والكرمُ التقوى". قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وذلك يرجع إلى قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » . وقد جاء منصوصا عنه عليه السلام : "من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله". والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به ، والتنزه عما نهاك عنه . وقد مضى هذا فى غير موضع . وفى الخبر من رواية أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول يوم القيامة إنى جعلت نَسَبًا وجعلتم

(١) القذذ (جمع قذة) : ريش السهم . (٢) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء .

نَسَبًا فجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون " . وروى الطبريّ من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوليائي المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا " . وأعرض في كُلِّ عِطْفَيْه . وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سِرٍّ يقول : " إن آلَ أبي ليسوا لي بأولياء إنما وَلِيِّيَ الله وصالح المؤمنين " . وعن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل : من أكرم الناس؟ فقال : " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " قالوا : ليس عن هذا نسألك ؛ قال : فأكرمهم عند الله أتقاهم " فقالوا : ليس عن هذا نسألك ؛ فقال : " عن معادن العرب ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " وأنشدوا في ذلك :

ما يصنع العبد بعزّ الغنى * والعزُّ كلّ العزّ للمُتّقي
من عرف الله فلم تغنه * معرفةُ الله فذاك الشّقِي

السابعة — ذكر الطبري حدّثني عمر(١) بن محمد قال حدّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدّثنا مندل بن علي عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبي الجعد قال : تزوّج رجل من الأنصار امرأة فطُعِن عليها في حسبها ؛ فقال الرجل : إني لم أتزوّجها لحسبها إنما تزوّجتها لدينها وخُلُقها ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما يضرّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة " . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لَوْم على مسلم إنما اللَّوْم لَوْمُ الجاهلية " . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي " ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى . قال ابن العربي : وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح . روى عبد الله عن مالك يتزوّج المَوْلى العربية ؛ واحتج بهذه الآية . وقال أبو حنيفة والشافعي :

(١) في بعض النسخ : « عمرو » .

يراعى الحسب والمـال . وفى الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة — وكان ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم — تبنّى سالما وأنكحه هندا[1] بنت أخيه الوليد بن عتبة ابن ربيعة، وهو مولًى لامرأة من الأنصار . وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المِقداد بن الأسود .

قلت : وأخت عبـد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال . وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة . فدلّ على جواز نكاح الموالى العربية ؛ وإنما تراعى الكفاءة فى الدِّين . والدليل عليه أيضا ما روى سهل بن سعد فى صحيح البخارى أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم مرّ عليه رجل فقال : " ما تقولون فى هـذا "؟ فقالوا : حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شَفَع أن يُشَفَّع وإن قال أن يُسْمَع . قال : ثم سكت ؛ فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : " ما تقولون فى هذا " قالوا : حَرِيٌّ إن خطب ألا يُنْكَح ، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع ، وإن قال ألا يُسْمع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا خير من مِلْء الأرض مثل هذا " . وقال صلى الله عليـه وسلم : " تُنْكَح المرأة لمـالها وجمالها ودينها — وفى رواية — ولحسبها فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك " . وقد خطب سلمان إلى أبى بكر ابنته فأجابه ، وخطب إلى عمر ابنته فالتوَى عليه، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان . وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها؛ فقال بلال : يا رسول الله، ماذا لقيت من بنى البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعونى وآذونى؛ فغضب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم من أجل بلال ؛ فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم : أمرى بيـد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزوّجوها . وقال النبي صلى الله عليـه وسلم فى أبى هنـد حين حجمه : " أنكحوا أبا هنـد وأنكحوا إليه" . وهو مولى بنى بياضة . وروى الدّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِيّ عن عُرْوَة عن عائشة أن أبا هند مولى بنى بياضة كان حجاما فحجم النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى أبى هند". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنكحوه وأنكحوا إليه " . قال القشيرى أبو نصر :

(١) وتسمى فاطمة .

وقد يعتبر النسب فى الكفاءة فى النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوّة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين فى الزهد والصلاح . والتقيّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب ؛ فإن كانا تقيّين فحينئذ يقدّم النسيب منهما ؛ كما يقدّم الشاب على الشيخ فى الصلاة إذا استويا فى التقوى .

قوله تعالى : قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنةٍ جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السرّ . وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة ؛ وجعلوا يَمُنّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وقال ابن عباس : نزلت فى أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا ؛ فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين . وقال السدّى : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مُزَيْنة وجُهَيْنة وأسْلَم وغِفَار والدِّيل وأشجع ؛ قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ؛ فلما استنفروا إلى المدينة تخلّفوا ؛ فنزلت . وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب ؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى . ومعنى « وَلَٰكِنْ قُولُو أَسْلَمْنَا » أى استسلمنا خوف القتل والسَّبْى ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا فى ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم ؛ وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب . وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الظاهر ، وذلك يَحْقِن الدم . ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى إن تخلصوا الإيمان ﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ أى لا ينقصكم . ﴿ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ لاته يَلِيته ويَلُوته : نقصه . وقرأ أبو عمرو « لا يألِتكم » بالهمزة ، من أَلَت يَأْلِت

أَلَتَّا ؛ وهو اختيار أبي حاتم؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ »(١)
قال الشاعر :

أبلغ بنى ثُعَلٍ عَنّى مُغَلْغَلَةً * جَهْدَ الرِّسالة لا أَلْتًا ولا كَذِبَا

واختار الأولى أبو عبيد . قال رُؤْبَة :

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ * ولم يَلِتْنِي عن سُرَاها لَيْتُ

أى لم يمنعنى عن سُراها مانع ؛ وكذلك ألاته عن وجهه ؛ فَعَل وأفْعَل بمعنًى . ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا ؛ أى ما نقصه ؛ مثل ألته ؛ قاله الفرّاء . وأنشد :

ويأكلن ما أَغْنَى الوَلِيُّ فلم يَلِتْ * كأن بحافات النِّهاء المَزارِعا(٢)

قوله : فلم « يَلِتْ » أى لم ينقص منه شيئا . و « أَغْنَى » بمعنى أنبت ؛ يقال : ما أَغْنَت الأرض شيئا؛ أى ما أنبتت. و « الوَلِيّ » المطر بعد الوَسْمِيّ(٣)؛ سُمِّىَ وَلِيًّا لأنه يلي الوسمِيّ . ولم يقل : لا يألتاكم ؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أى صدّقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى إيمانهم ؛ لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب . فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون فى السر

---

(١) آية ٢١ سورة الطور . (٢) البيت لعدى بن زيد .
(٣) الوسمى : مطر الربيع الأول ؛ سمى به لأنه يسم الأرض بالنبات .

والعلانية وكذبوا؛ فنزلت . ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ الذى أنتم عليه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ إشارة إلى قولهم : جئناك بالأثقال والعيال . و « أن » فى موضع نصب على تقدير لأن أسلموا . ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ أى بإسلامكم . ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ « أن » موضع نصب، تقديره بأن . وقيل : لأن . وفى مصحف عبد الله « إذ هداكم » . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم مؤمنين . وقرأ عاصم « إن هداكم » بالكسر؛ وفيه بُعْدٌ؛ لقوله « إن كنتم صادقين » . ولا يقال : يمن عليكم أن يهديكم إن صدقتم . والقراءة الظاهرة « أن هداكم » . وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين؛ لأن تقدير الكلام : إن آمنتم فذلك منة الله عليكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو بالياء على الخبر؛ ردّا على قوله : « قالت الأعراب » . الباقون بالتاء على الخطاب .

تم بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع عشر، وأوله :
" سـورة (قٓ) "

كَمُلَ طبع الجزء السادس عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٦
(٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧) م محمد نديم

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
(المتوفى ٦٧١ هـ — ١٢٧٣ م)

الجزء السابع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
(المتوفى ٦٧١ هـ — ١٢٧٣ م)

الجزء السابع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

بيان

تم بعون الله تعالى تحقيق هـذا الجزء (السابع عشر) من تفسير القرطبي ، على الأصول الآتية :

(١)	نسخة	رقم	٩٥	تفسير، المرموز إليها بحرف			ا
(٢)	»	»	٢٦٨	»	»	»	ب
(٣)	»	»	١	» حليم »	»	»	ح
(٤)	»	»	٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية، المرموز إليها بحرف			ز
(٥)	»	»	١٣	تفسير، المرموز إليها بحرف			س
(٦)	»	»	٣١٨	»	»	»	ط
(٧)	»	»	٦٤	»	»	»	ل
(٨)	»	»	٩٧	»	»	»	ن
(٩)	»	»	٢٨٤	»	»	»	هـ
(١٠)	»	»	٣٠٧	»	»	»	ى

وقد وصفت هذه النسخ جميعها فى مقدّمة الجزء الثالث « الطبعة الثانية »

و بالله التوفيق م

حقّقه

أحمد عبد العليم البردونى

فهــرس الجــزء الســابع عشر

ســورة « قٓ »

ســورة الطــور

سورة القمر

ســورة الواقعــة

سورة الحديد

صفحة

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

مكية كلها، وهى خمس وأربعون آية

مكية كلها فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية، وهى قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ». وفى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدًا سنتين — أو سنة وبعض سنة — وما أخذت «قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبا واقد الليثىّ ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ«قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» و«اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ». وعن جابر بن سمرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الفجر بـ«قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» وكانت صلاته بعدُ تخفيفا.

قوله تعالى: قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قرأ العامة «قاف» بالجزم. وقرأ الحسن وابن أبى إسحق ونصر بن عاصم «قافِ» بكسر الفاء؛ لأن الكسر أخو الجزم، فلما سكن

آخره حرّكوه بحركة الخفض . وقرأ عيسى الثقفىّ بفتح الفاء حرّكه إلى أخف الحركات . وقرأ هرون ومحمد بن السَّمَيْقَع « قافُ » بالضم ؛ لأنه فى غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ . وآختلف فى معنى « قٓ » ما هو ؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء آخضرت السماء منه ، وعليه طَرَفَا السماءِ والسماء عليه مُقْبِيَّةٌ ، وما أصاب الناسُ من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل . ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس . قال الفرّاء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب فى « قٓ » ؛ لأنه آسم وليس بهجاء . قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من آسمه ؛ كقول القائل :

* قلتُ لها قِفِى فقالتْ قاف *

أى أنا واقفة . وهذا وجه حسن وقد تقدّم أوّل « البقرة »(١) . وقال وهب : أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالا صغارا ، فقال له : ما أنت ؟ قال : أنا قاف ؛ قال : فما هذه الجبال حولك ؟ قال : هى عروقى وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقى ، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرنى فحركت عرقى ذلك فتزلزلت تلك الأرض ؛ فقال له : يا قاف أخبرنى بشىء من عظمة الله ؛ قال : إن شأن ربِّنا لعظيمٌ ، وإن ورائى أرضا مسيرة خمسمائة عام فى خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضا ، لولا هى لاحترقت من حرّ جهنم . [فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها ؛ وأين هى من الأرض](٢) . قال : زدنى ، قال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تُرْعَد فرائصُه ، يخلق الله من كل رِعدة مائة ألف ملك ، فأولئك الملائكة وقوف بين يدى الله تعالى منكسو رءوسهم ، فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا الله ؛ وهو قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا(٣) » يعنى قول : لا إله إلا الله . وقال الزجاج : قوله « قٓ » أى قُضِىَ الأمر ، كما قيل فى « حمٓ » أى حُمَّ الأمرُ . وقال آبن عباس : « قٓ » آسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وعنه أيضا : أنه آسم من أسماء

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٥
(٢) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبى .
(٣) راجع جـ ١٩ ص ١٨٤

القرآن . وهو قول قتادة . وقال القُرظيّ : آفتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاض وقابض . وقال الشَّعبيّ : فاتحة السورة . وقال أبو بكر الورّاق : معناه قِف عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما . وقال محمد بن عاصم الأنطاكيّ : هو قرب الله من عباده؛ بيانه « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . وقال آبن عطاء : أقسم الله بقوّة قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله . ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ أى الرفيع القدر . وقيل : الكريم؛ قاله الحسن . وقيل : الكثير؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد ، من قولهم : كثير فلان فى النفوس؛ ومنه قول العرب فى المثل السائر : (فى كل شجر نار ، وآستمجد المَرْخُ والعَفَار[1]) . أى آستكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر؛ قاله ابن بحر . وجواب القسم قيل هو : « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » على إرادة اللام؛ أى لقد علمنا . وقيل : هو « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى » وهو آختيار الترمذيّ محمد بن علىّ قال : « قٓ » قسم بآسم هو أعظم الأسماء التى خرجت إلى العباد وهو القدرة ، وأقسم أيضا بالقرآن المجيد ، ثم آقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد، وخلق الآدميين، وصفة يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال : « قٓ » أى بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما آقتصصت فى هذه السورة « لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » . وقال ابن كيسان : جوابه « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ » . وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم « بَلْ عَجِبُوا » . وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال : « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » لتبعثن؛ يدل عليه « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ « أَنْ » فى موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم ، يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، والضمير للكفّار . وقيل : للؤمنين والكفار جميعا . ثم ميّز بينهم بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ ولم يقل فقالوا ، بل قبح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، كما تقول : جاءنى فلان فأسمعنى المكروه، وقال لى الفاسق

(١) المرخ والعفار : شجرتان فيهما نار ليس فى غيرهما من الشجر ، ويسوّى من أغصانهما الزناد فيقتدح بها .

أنت كذا وكذا . ﴿ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ العجيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال قتادة : عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد . وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور . والذى نص عليه القرآن أولى .

قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ نبعث ؛ ففيه إضمار . ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ الرجع الرد أى هو ردّ بعيد أى محال . يقال : رَجَعْته أَرْجِعه رَجْعًا ، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعا ، وفيه إضمار آخر ؛ أى وقالوا أنبعث إذا متنا . وذكر البعث و إن لم يجر هاهنا فقد جرى فى مواضع ، والقرآن كالسورة الواحدة . وأيضا ذكر البعث منطوٍ تحت قوله : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أى ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شىء حتى تتعذر علينا الإعادة . وفى التنزيل : « قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى »(١) . وفى الصحيح : " كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذَّنَب منه خُلِق وفيه يُرَكَّب " وقدم تقدّم . وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرضُ أجسادهم ؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم . وقد بينا هذا فى كتاب « التذكرة » وتقدّم أيضا فى هذا الكتاب . وقال السدى : النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى ؛ لأن من مات دُفِن فكأنّ الأرض تَنقُص من الناس . وعن ابن عباس : هو من يدخل فى الإسلام من المشركين . ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أى بعدّتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل . وقيل : اللوح المحفوظ أى محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شىء . وقيل : الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء ؛ كما تقول : كتبت عليك هذا أى حفظته ؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة . وقيل : أى وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بنى آدم لنحاسبهم عليها .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ أى القرآن فى قول الجميع ؛ حكاه الماوردى . وقال الثعلبى : بالحق القرآن . وقيل : الإسلام . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٠٥

أى مختلط . يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن ؛ قاله الضحاك وابن زيد .
وقال قتادة : مختلف . الحسن : ملتبس ؛ والمعنى متقارب . وقال أبو هريرة : فاسد ؛
ومنه مَرِجت أمانات الناس أى فسدت ؛ ومَرِجَ الدينُ والأمرُ آختلط ؛ قال أبو دؤاد :

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدْ (١)

وقال آبن عباس : المريج الأمر المنكر . وقال عنه عمران بن أبى عطاء : « مريج » مختلط .
وأنشد (٢) :

فَجَالَتْ فَآلتمستُ به حَشَاهَا * فَخَرَّ كأنه خُوطٌ مَرِيجُ

الخُوطُ الغصن . وقال عنه العوفى : فى أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن .
وقيل : متغير . وأصل المَرَج الآضطراب والقلق ؛ يقال : مَرِج أمرُ الناس ومَرِج أمرُ الدِّين
ومرِج الخاتم فى إصبعى إذا قَلِق من الهزال . وفى الحديث : "كيف بك ياعبد الله (٣) إذا كنت
فى قوم قد مَرِجت عهودهم وأماناتهم وآختلفوا فكانوا هكذا وهكذا" وشبك بين أصابعه .
أخرجه أبو داود وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

(١) الحارك الكاهل . والكتد مجمع الكتفين من الإنسان والفرس .

(٢) البيت للداخل الهذلى ؛ ويروى فراغت بدل فجالت والضمير للبقرة . وبه أى بالسهم .

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما فى مسند أبى داود .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ نظر اعتبار وتفكر، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة . ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالنجوم ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ جمع فرج وهو الشق ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ (1) *

وقال الكسائي : ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق . ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ تقدم في « الرعد » (2) بيانه . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي من كل نوع من النبات ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي حسن يسر الناظرين، وقد تقدم في « الحج » (3) بيانه . ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ أي جعلنا ذلك تبصرة لندلّ به على كمال قدرتنا . وقال أبو حاتم : نصب على المصدر؛ يعني جعلنا ذلك تبصيرا وتنبيها على قدرتنا ﴿ وَذِكْرَى ﴾ معطوف عليه . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلى الله تعالى مفكر في قدرته .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي من السحاب ﴿ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أي كثير البركة . ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ التقدير : وحبّ النبت الحصيد وهو كل ما يحصد . هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال : مسجد الجامع وربيعُ الأوّلِ وحقُّ اليقينِ وحبلُ الوريدِ ونحوها ؛ قاله الفرّاء . والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت . وقال الضحاك : حبّ الحصيد البُرُّ والشَّعيرُ . وقيل : كلّ حبّ يُحصد ويُدّخر ويُقتات . ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ نصب على الحال (4) ردًّا على قوله : « وَحَبَّ الْحَصِيدِ » و « بَاسِقَاتٍ » حال . والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال قتادة وعبد الله بن شدّاد : بُسُوقها استقامتها في الطول . وقال سعيد بن جبير :

---

(1) البيت في وصف فرسه ، وصدره :

* لها ذنب مثل ذيل العروس *

(2) راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ . (3) راجع جـ ١٢ ص ١٤ .

(4) هكذا في الأصول ، ولعل صواب العبارة أن تكون كما قال السمين : « والنخل » منصوب على العطف أي وأنبتنا النخل ، و « باسقات » حال .

مستويات . وقال الحسن وعكرمة أيضا والفراء : مواقير حوامل ؛ يقال للشاة بَسقت إذا ولدت ، قال الشاعر :

فَلَمّا تَركْنا الدارَ ظَلّتْ مُنِيفَةً * بِقُرّانَ فيه الباسقات المواقرُ

والأول في اللغة أكثر وأشهر ؛ [يقال] بَسَق النخلُ بُسوقًا إذا طال . قال :

لنا خمرٌ وليست خمرَ كَرْمٍ * ولكنْ مِن نِتاجِ الباسِقاتِ
كِرامٌ في السماء ذَهَبْنَ طولًا * وفاتَ ثِمارُها أيدي الجُناةِ

ويقال : بسق فلان على أصحابه أي علاهم ، وأبسقت الناقةُ إذا وقع في ضرعها اللبن (١) قبل النِّتاج فهي مُبْسِق ونُوقٌ مَباسِيق . وقال قطبة بن مالك : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ « بَاصِقَاتٍ » بالصاد ؛ ذكره الثعلبي .

قلت : الذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صلّيت وصلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » حتى قرأ « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » قال فجعلت أردّدها ولا أدري ما قال ؛ إلا أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف . ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ الطلع هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل ؛ يقال : طَلَعَ الطلعُ طُلوعاً وأطلعت النخلةُ ، وطَلْعها كُفُرّاها قبل أن ينشق . « نضيدٌ » أي متراكب قد نُضِّد بعضُه على بعض . وفي البخاري « النَّضِيدُ » الكُفُرّى ما دام في أكمامه ومعناه منضود بعضه على بعض ؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد . ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي رزقناهم رزقا ، أو على معنى أنبتناها رزقا ؛ لأن الإنبات في معنى الرزق ، أو على أنه مفعول له أي أنبتناها لرزقهم ، والرزق ما كان مهيأ للانتفاع به . وقد تقدم القول فيه (٢) . ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي من القبور أي كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم ؛ فالكاف في محل رفع على الابتداء . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع (٢) . وقال « مَيْتًا » لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز

(١) في ح ، ز ، ى : اللبأ وهو وزان عنب ، أول اللبن عند الولادة .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وص ٢١١

قوله تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أى كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب ؛ ذكّرهم نبأ من كان قبلهم من المكذّبين وخوّفهم ما أخذهم . وقد ذكرنا قصصهم فى غير موضع عند ذكرهم . ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ من هذه الأمم المكذبة . ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أى فحق عليهم وعيدى وعقابى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أى أفعيينا به فنعيا بالبعث . وهذا توبيخ لمنكرى البعث وجواب قولهم : « ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » . يقال : عَييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه . ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى فى حَيْرة من البعث منهم مصدِّق ومنهم مكذِّب ؛ يقال : لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْسا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى الناس ، وقيل آدم . ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أى ما يختلج فى سرّه وقلبه وضميره ، وفى هذا زجر عن المعاصى التى يستخفى بها . ومن قال : إن المراد بالإنسان آدم ؛ فالذى وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة ، ثم هو عام اولده . والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفىّ . قال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاسًا إذا انْصَرفتْ * كما اسْتعانَ بِريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ (١)

وقد مضى فى « الأعراف » (٢) . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال . روى معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف فى اللغة . والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين . وقال الحسن : الوريد الوتين وهو عِرق معلّق بالقلب . وهذا تمثيل للقرب ؛ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده الذى هو منه، وليس على وجه قرب المسافة . وقيل : أى ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه . وقيل : أى ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذى هو من نفسه ، لأنه عِرق يخالط القلب ، فعلم الربّ أقربُ إليه من علم القلب، روى معناه عن مقاتل قال : الوريد عرق يخالط القلب، وهذا القرب قرب العلم والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علم الله شىء .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ، أى نحن اعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملَك يخبر، ولكنهما وكِّلا به إلزاماً للحجة، وتوكيداً للأمر عليه . وقال الحسن ومجاهد وقتادة : « الْمُتَلَقِّيَانِ » ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . قال الحسن : حتى إذا متّ طُويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة : « اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » (٣) عدَل والله عليك من جعلك حسيبَ نفسك . وقال مجاهد : وكّل الله بالإنسان مع علمه بأحواله ملَكين بالليل وملَكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره إلزاما للحجة : أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات ، فذلك قوله تعالى : « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » . وقال سفيان : بلغنى أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب [العبد] قال

---

(١) عشرق كزبرج : شجر ينفرش على الأرض عريض الورق وليس له شوك ، وثمرته قشرة إذا هبت الريح قلقت تلك القشرة فتخشخشت فسمعت للوادى الذى تكون به زجلا ولجة تفزع الإبل .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٠

لا تعجل لعلّه يستغفر الله . وروى معناه من حديث أبى أمامة؛ قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عَمِل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا و إذا عَمِل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر" . و روى من حديث على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن مقعدَ مَلَكيك على ثَنِيّتك[1] لسانُك قلمهما و رِيقُك مِدَادُهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك فلا تستحى من الله ولا منهما" . وقال الضحاك : مجلسهما تحت الثغر على الحنك . و رواه عوف عن الحسن قال : وكان الحسن يعجبه أن ينظف عَنْفَقَتَه . و إنما قال : « قَعِيدٌ » ولم يقل قعيدان وهما آثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأوّل لدلالة الثانى عليه . قاله سيبويه ؛ ومنه قول الشاعر[2] :

نحنُ بما عِندنا وأنتَ بما * عِندكَ راضٍ والرأىُ مختلِفُ

وقال الفرزدق :

إنّى ضَمِنتُ لمن أتانى ما جَنَى * وأَبِى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُورِ

ولم يقل راضيان ولا غدورين . ومذهب المبرِّد : أن الذى فى التلاوة أوّلٌ أُخِّرَ آتساعا ، وحذف الثانى لدلالة الأوّل عليه . ومذهب الأخفش والفرّاء : أن الذى فى التلاوة يؤدّى عن الآثنين والجمع ولا حذف فى الكلام . و « قَعِيدٌ » بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد . وقيل : « قَعِيدٌ » بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم .

وقال الجوهرى : فعيل وفعول مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى : « إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[3] » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ[4] ظَهِيرٌ » . وقال الشاعر فى الجمع؛ أنشده الثعلبى :

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو * لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرْ[5]

---

(١) فى رواية أخرى عن على رضى الله عنه : « إن الملكين قاعدان على ناجذى العبد ... الخ » .
(٢) هو قيس بن الخطيم . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٩٣ . (٤) راجع جـ ١٨ ص ١٩١
(٥) ألكنى إليها : أرسلنى إليها ، والأصل فى ألكنى ألئكنى فحوّلت كسرة الهمزة إلى اللام وحذفت الهمزة .

والمراد بالقعيد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أى ما يتكلم بشيء إلا كتب عليه ؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم . وفى الرقيب ثلاثة أوجه : أحدها أنه المتبع للأمور . الثانى أنه الحافظ ، قاله السدى . الثالث أنه الشاهد ، قاله الضحاك . وفى العتيد وجهان : أحدهما أنه الحاضر الذى لا يغيب . الثانى أنه الحافظ المُعَدُّ إما للحفظ وإما للشهادة . قال الجوهرى : العتيد الشيء الحاضر المهيأ ؛ وقد عَتَّده تعتيدًا وأَعْتَدَه إعتادًا أى أعدّه ليوم ، ومنه قوله تعالى : « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً »(١) وفرس عَتَد وعَتِد بفتح التاء وكسرها المعَدُّ للجرى .

قلت : وكله يرجع إلى معنى الحضور ، ومنه قول الشاعر :

لئن كُنتَ مِنِّى فى العِيَان مُغَيَّبًا * فذكرك عندى فى الفؤادِ عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين فى مرضه . وقال عكرمة : لا يكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه . وقيل : يكتب عليه كل ما يتكلم به ، فإذا كان آخر النهار محى عنه ما كان مباحا ، نحو ٱنطلِق ٱقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر ، والله أعلم . وروى عن أبى هريرة وأنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله فى أول الصحيفة خيرا وفى آخرها خيرا إلا قال الله تعالى لملائكته ٱشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طَرَفى الصحيفة" . وقال على رضى الله عنه : "إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا فى أولها وفى آخرها خيرا يغفر لكم ما بين ذلك" . وأخرج أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة قال حدّثنا جَدِّى محمد بن إسحق قال حدّثنا محمد بن موسى الحَرَشيّ قال حدّثنا سهيل ابن عبد الله قال : سمعت الأعمش يحدّث عن زيد بن وهب عن ٱبن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأَمَة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فُكَّ الكتاب المختوم الذى معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى "مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ

(١) راجع جـ ٩ ص ١٧٨

إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » " غريب من حديث الأعمش عن زيد ، لم يروه عنه إلا سهيل . وروى من حديث أنس أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله وكّل بعبده مَلَكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سمواتي مملوءة من ملائكتي يسبحونني فيقولان ربنا نقيم في الأرض فيقول الله تعالى إن أرضي مملوءة من خلقي يسبحونني فيقولان يارب فأين نكون فيقول الله تعالى كونا على قبر عبدي فكبراني وهللاني وسبحاني(١) واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة " .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أي غمرته وشدّته ؛ فالإنسان ما دام حيًّا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعانية من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده . وقيل : الحقّ هو الموت سُمّي حقًّا إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحق ؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضي الله عنهما ؛ لأن السكرة هي الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين . وقيل : يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى ؛ أي جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت . وقيل : الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت ؛ ذكره المهدوي . وقد زعم من طعن على القرآن فقال : أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصديق فقرأ : وجاءت سكرة الحق بالموت . فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان : إحداهما موافقة للصحف فعليها العمل ، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها ، أو الغلط من بعض من نَقَل الحديث . قال أبو بكر الأنباري : حدّثنا إسمعيل بن إسحق القاضي حدّثنا علي بن عبد الله حدّثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مسروق قال : لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

* إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاقَ بها الصَّدْرُ(٢) *

(١) في ا ، ح ، ن ، هـ : « واذكراني » .

(٢) صدر البيت : * لعمرك ما يغني الثراء ولا الغنى *

فقال أبو بكر : هلّا قلت كما قال الله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » وذكر الحديث . والسَّكرة واحدة السَّكرات . وفى الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه رِكْوة — أو عُلْبة — فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء ، فيمسح بهما وجهه و يقول : " لا إله إلا الله إن للموت سكرات " ثم نصب يده فجعل يقول : " فى الرفيق الأعلى " حتى قبض ومالت يده . خرجه البخارى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته و إن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة " . وقال عيسى بن مريم : « يامعشر الحواريين آدعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكرة » يعنى سكرات الموت . وروى : " إن الموت أشدّ من ضربٍ بالسيوف ونشرٍ بالمناشير وقرضٍ بالمقاريض " . ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أى يقال لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفرّ منه وتميل عنه . يقال : حادَ عن الشيء يَحيد حُيودا وحَيْدة وحَيْدُودة مال عنه وعدل . وأصله حَيَدودة بتحريك الياء فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فَعْلُول غير صَعْفُوق . وتقول فى الأخبار عن نفسك : حِدْتُ عن الشيء أَحيد حَيْدًا ومَحِيدًا إذا ملت عنه ؛ قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبْتَهُ * وحِدْتَ كما حاد البعيرُ عن الدَّحْض

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هى النفخة الآخرة للبعث ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ الذى وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه . وقد مضى الكلام فى النفخ فى الصور مستوفى [(١)] والحمد لله .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ و جـ ١٥ ص ٢٧٩

قوله تعـالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ آختلف فى السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل؛ رواه العوفى عن آبن عبـاس . وقال أبو هريرة : السائق المَلَك والشهيد العمل . وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال آبن مسلم : السائق قرينها من الشياطين سمى سائقا لأنه يتبعها و إن لم يحثّهـا . وقال مجاهد : السائق والشهيد ملَكان . وعن عثمان آبن عفان رضى الله عنه أنه قال وهو على المنـبر : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » سائق : مَلَك يسوقها إلى أمر الله ، وشهيد : يشهد عليها بعملها .

قلت : هذا أصح فإن فى حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن آبن آدم لفى غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إله غيره إذا أراد خَلْقه قال للمَلَك آكتب رزقه وأثره وأجله وآكتبه شقيًا أو سعيدًا ثم يرتفع ذلك المَلَك و يبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسـناته وسيئاته فإذا جاءه الموت آرتفع ذلك المَلَكان (١) ثم جاء ملَك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أُدْخِل حفرته ردّ الروح فى جسده ثم يرتفع ملَك الموت ثم جاءه ملَكا القبر فآمتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة آنحط عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات فأنشطا (٢) كتابا معقودا فى عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى : « لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ قال : " حالا بعد حال " ثم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن قُدَّامكم أمرًا عظيما فاستعينوا بالله العظيم " خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن على عن جابر وقال فيه : هذا حديث غريب من حديث جعفر ، وحديث جابر تفرّد به عنه جابر الجُعفيّ وعنه المفضّل . ثم فى الآية قولان : أحدهما أنهـا عامة فى المسـلم والكافر وهو قول الجمهـور . الثانى أنها خاصة فى الكافر؛ قاله الضحاك .

(١) كذا فى جميع الأصول والدر المنثور ، والظاهر أن يكون « ذانك » .

(٢) أنشط الكتاب : حل عقدته .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ قال ابن زيد : المراد به النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم . وقال ابن عباس والضحاك : إن المراد به المشركون أي كانوا في غفلة من عواقب أمورهم . وقال أكثر المفسرين : إن المراد به البر والفاجر . وهو اختيار الطبري . وقيل : أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد ؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية . « فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ » أي عماك ؛ وفيه أربعة أوجه : أحدها إذ كان في بطن أمه فولد ؛ قاله السدي . الثاني إذا كان في القبر فنشر . وهذا معنى قول ابن عباس . الثالث وقت العرض في القيامة ؛ قاله مجاهد . الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة . وهذا معنى قول ابن زيد . ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قيل : يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه ؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار ، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام . وقيل : المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد ؛ أي قوي نافذ يرى ما كان محجوبا عنك . قال مجاهد : « فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك . وقاله الضحاك . وقيل : يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب . وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرق ويعمى . وقرئ « لَقَدْ كُنتِ » « عَنكِ » « فَبَصَرُكِ » بالكسر على خطاب النفس .

قوله تعالى : وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعنى المَلَك الموكّل به فى قول الحسن وقتادة والضحاك . ﴿ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ أى هذا ما عندى من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ . وقال مجاهد : يقول هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله . وقيل : المعنى هـذا ما عندى من العـذاب حاضر . وعن مجاهد أيضا : قرينـه الذى قيّض له من الشياطين . وقال ابن زيد فى رواية ابن وهب عنه : إنه قرينه من الإنس ، فيقول الله تعالى لقرينه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ قال الخليل والأخفش : هـذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول : ويلك ارحَلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد . قال الفـرّاء : تقول للواحد قُوما عنا ، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره اثنان فجـرى كلام الرجل على صاحبيه ، ومنه قولهم للواحد فى الشعر : خليلى ، ثم يقول : ياصاح . قال امرؤ القيس :

خَلِيـلَىَّ مُرَّابِى على أُمِّ جُنْـدَبِ * نُقَضِّ لُبَـانَاتِ الفؤادِ المُعَـذَّبِ

وقال أيضا :

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخـر :

فإنْ تَزْجُرانِى يابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ * وإنْ [تَدَعانِى][1] أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا

وقيل : جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين . وقال المـازنىّ : قوله « أَلْقِيَا » يدل على أَلْقِ أَلْقِ . وقال المبرد : هى تثنية على التوكيد، المعـنى أَلْقِ أَلْقِ فناب « أَلْقِيَـا » مناب التكرار . ويجوز أن يكون « أَلْقِيَا » تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به المَلَكين . وقيل : هو مخاطبـة للسائق والحافظ . وقيل : إن الأصـل أَلْقِيَنْ بالنون الخفيفة تقلب فى الوقف ألفـا فحمل الوصل على الوقف . وقـرأ الحسن « أَلْقِيَنْ » بالنون الخفيفة نحو قوله : « وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ »[2] وقوله : « لَنَسْفَعًا »[3] . ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

(١) فى الأصول : « تدعوانى » وما أثبتناه هو ماعليـه الرواية فى تفسير الطبرى والألوسى والفراء وغيرها . ولعل مافى الأصول رواية أخرى . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٨٤ (٣) راجع جـ ٢٠ ص ١٢٥

أى معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال بعضهم : العنيد المعرض عن الحق؛ يقال عَنَدَ يعنِد بالكسر عُنُودًا أى خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند ، وجمع العَنِيد عُنُد مثل رغيف ورُغُف . ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يعنى الزكاة المفروضة وكل حقّ واجب. ﴿مُعْتَدٍ﴾ فى منطقه وسيرته وأمره ؛ ظالم . ﴿مُرِيبٍ﴾ شاكّ فى التوحيد ؛ قاله الحسن وقتادة . يقال : أراب الرجلُ فهو مُرِيب إذا جاء بالريبة . وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى : ﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة . وأراد بقوله : «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنه كان يمنع بنى أخيه من الإسلام . ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ تأكيد للأمر الأول . ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ يعنى الشيطان الذى قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذّبه . ﴿وَلَٰكِنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق وكان طاغيا باختياره و إنما دعوته فاستجاب لى . وقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف . حكاه المهدوى . وحكى الثعلبى قال ابن عباس ومقاتل : قرينه الملك ؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملك الذى كان يكتب سيئاته : ربِّ إنه أعجلنى، فيقول الملك : ربنا ما أطغيته أى ما أعجلته . وقال سعيد بن جبير : يقول الكافر ربِّ إنه زاد علىّ فى الكتابة ، فيقول الملك : ربنا ما أطغيته أى ما زدت عليه فى الكتابة ؛ فحينئذ يقول الله تعالى : ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ يعنى الكافرين وقرناءهم من الشياطين. قال القشيرى : وهذا يدل على أن القرين الشيطان . ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أى أرسلت الرسل . وقيل : هذا خطاب لكل من اختصم . وقيل : هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع . ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ قيل هو قوله : «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا»(١) وقيل هو قوله : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٢) . وقال الفرّاء : ما يكذب عندى أى ما يزاد فى القول ولا ينقص لعلمى بالغيب . ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(٣) أى ما أنا بمعذِّب من لم يُجرم ؛ قاله ابن عباس . وقد مضى القول فى معناه فى «الحج» وغيرها .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ .

(٢) راجع جـ ١٤ ص ٩٦ .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٦ وجـ ١٥ ص ٣٧٠ .

قوله تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ قرأ نافع وأبو بكر « يَوْمَ يَقُولُ » بالياء آعتبارا بقوله : « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ » . الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهى نون العظمة (١) . وقرأ الحسن « يَوْمَ أَقُولُ » . وعن آبن مسعود وغيره « يَوْمَ يُقَالُ » . وآنتصب « يَوْم » على معنى ما يبدّل القول لدىّ يومَ . وقيل : بفعل مقدر معناه : وأنذرهم « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ » لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها . وهذا الآستفهام على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق لوعده، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده . « وَتَقُولُ » جهنم « هَلْ مِن مَّزِيدٍ » أى ما بقى فىّ موضع للزيادة ؛ كقوله عليه السلام : "هل ترك لنا عَقِيل من رَبْع أو منزل" أى ما ترك ؛ فمعنى الكلام الجحد . ويحتمل أن يكون آستفهاما بمعنى الآستزادة ؛ أى هل من مزيد فأزداد؟ . وإنما صلح هذا للوجهين ؛ لأن فى الآستفهام ضربا من الجحد . وقيل : ليس ثَمَّ قول وإنما هو على طريق المثل ؛ أى إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك ؛ كما قال الشاعر :

آمتلأ الحوضُ وقال قَطْنِى * مَهْلًا رُوَيْدًا قد مَلأْتَ بَطْنِى

وهذا تفسير مجاهد وغيره . أى هل فىّ من مسلك قد آمتلأت . وقيل : يُنطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح (٢) . وهذا أصح على ما بيناه فى سورة « الفرقان » . وفى صحيح مسلم والبخارى والترمذىّ عن أنس بن مالك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال :

(١) فى ن، ه : « التعظيم » . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٠ .

"لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قَدَمه فينْزَوِى[1] بعضها إلى بعض وتقول قَطْ قَطْ بعزتك وكرمك ولا يزال فى الجنة فَضْلٌ حتى يُنشئَ الله لها خلقا فيسكنَهم فَضْلَ الجنة" لفظ مسلم. وفى رواية أخرى من حديث أبى هريرة : "وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رِجْله يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلىء و ينْزَوِى بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا". قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القَدم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار، وقد سبق فى علمه أنهم من أهل النار. وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال : رأيت رِجْلًا من الناس ورِجْلًا من جَرَاد، قال الشاعر :

فمرَّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى * إليهم من الحىِّ اليمانينَ أَرْجُلُ
قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ * على ٱبْنَىْ نِزارٍ بالعَدَاوة أَحْفَلُ

و يبين هذا المعنى ما روى عن ٱبن مسعود أنه قال : ما فى النار بيت ولا سلسلة ولا مِقمَع ولا تابوت إلا وعليه ٱسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذى قد عرف ٱسمه وصفته، فإذا ٱستوفى [كل واحد منهم][2] ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطْ قَطْ حسبُنا حسبُنا ! أى ٱكتفينا ٱكتفينا، وحينئذ تنزوى جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر. فعبّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم؛ و يشهد لهذا التأويل قوله فى نفس الحديث : "ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئَ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة" وقد زدنا هذا المعنى بيانا ومهدناه فى كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله. وقال النضر بن شُمَيل فى معنى قوله عليه السلام : "حتى يَضَع الجبار فيها قَدَمَه" أى من سبق فى علمه أنه من أهل النار.

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى قربت منهم. وقيل : هذا قبل الدخول فى الدنيا؛ أى قربت من قلوبهم حين قيل لهم ٱجتنبوا المعاصى. وقيل : بعد الدخول

(١) ينزوى بعضها إلى بعض : أى تنقبض على من فيها، وتشتغل بعذابهم، وتكف عن سؤال هل من مزيد. (هامش مسلم).
(٢) الزيادة من ن.

قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد . « غَيْرَ بَعِيدٍ » أى منهم وهذا تأكيد . ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أى ويقال لهم هذا الجزاء الذى وعدتم فى الدنيا على ألسنة الرسل . وقراءة العامة « تُوعَدُونَ » بالتاء على الخطاب . وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين . ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ أوّاب أى رَجّاع إلى الله عن المعاصى ، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع ، هكذا قاله الضحاك وغيره . وقال ابن عباس وعطاء : الأوّاب المسبِّح من قوله : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ »(1) . وقال الحكم بن عتيبة : هو الذاكر لله تعالى فى الخلوة . وقال الشعبي ومجاهد : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها . وهو قول ابن مسعود . وقال عُبيد بن عُمير : هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه . وعنه قال : كنا نحدّث أن الأوّاب الحفيظ الذى إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده ، اللهم إنى أستغفرك مما أصبت فى مجلسى هذا . وفى الحديث : "من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليـك غفر الله له ما كان فى ذلك المجلس" . وهكذا كان النبيّ صلى الله عليـه وسلم يقول . وقال بعض العلماء : أنا أحبّ أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة ، ولا أحبّ أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته .

قلت : هـذا استحسان واتباع الحديث أولى . وقال أبو بكر الورّاق : هو المتوكل على الله فى السراء والضراء . وقال القاسم : هو الذى لا يشتغل إلا بالله عز وجل . « حَفِيظٍ » قال ابن عباس : هو الذى حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها . وقال قتادة : حفيظ لمـا استودعه الله من حقه ونعمته وائتمنه عليه . وعن ابن عباس أيضا : هو الحافظ لأمر الله . مجاهد : هو الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر . قال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول . وروى مكحول عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حافظ على أربع ركعات من أوّل النهار كان أوّابا حفيظا" ذكره المـاوردى .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ «مَنْ» فى محل خفض على البدل من قوله : «لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ» أو فى موضع الصفة لـ « أوّاب » . ويجوز الرفع على الاستئناف، والخبر

(1) راجع جـ ١٤ ص ٢٦٤

« ٱدْخُلُوهَا » على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم : « ٱدْخُلُوهَا » . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره . وقال الضحاك والسُّدى : يعنى فى الخلوة حين لا يراه أحد . وقال الحسن : إذا أرخى السترَ وأغلق البابَ . ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ مقبل على الطاعة . وقيل : مخلص . وقال أبو بكر الورّاق : علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته وموالياً له ، متواضعا لجلاله تاركا لهوى نفسه .

قلت : ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم ؛ كما قال تعالى : « إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » على ما تقدم(١) ؛ والله أعلم . « ٱدْخُلُوهَا » أى يقال لأهل هذه الصفات : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أى بسلامة من العذاب . وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم . وقيل : بسلامة من زوال النِّعم . وقال : « ٱدْخُلُوهَا » وفى أوّل الكلام « مَنْ خَشِيَ » ؛ لأن « مَنْ » تكون بمعنى الجمع .

قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ يعنى ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم . ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم . وقال أنس وجابر : المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف . وقد ورد ذلك فى أخبار مرفوعة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ(٢) » قال : الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام ، قالا : أخبرنا المسعوديّ عن المنهال بن عمرو عن أبى عبيدة بن عبد الله ابن عتبة عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة فى كثيب من كافور أبيض فيكونون منه فى القرب . قال ابن المبارك : على قدر تسارعهم إلى الجمعة فى الدنيا . وقال يحيى بن سلام : لمسارعتهم إلى الجمع فى الدنيا ، وزاد " فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك " . قال يحيى : وسمعت غير المسعودى يزيد فيه قوله تعالى : « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٤ .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ .

قلت : قوله " في كَثِيب " يريد أهل الجنة، أي وهم على كثب؛ كما في مرسل الحسن، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن أهل الجنة ينظرون ربهم في كل يوم جمعة على كَثِيب من كافور " الحديث . وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » . وقيل : إن المزيد ما يزوّجون به من الحور العين ؛ رواه أبو سعيد الخدري مرفوعا .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشدّ منهم بطشا وقوّة . ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي ساروا فيها طلبا للهرب . وقيل : أثّروا في البلاد؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : ضربوا وطافوا . وقال النضر بن شميل : دوّروا . وقال قتادة : طوّفوا . وقال المؤرّج تباعدوا ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وقـد نَقَّبْتُ في الآفاق حَتَّى * رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

ثم قيل : طافوا في أقاصي البـلاد طلبا للتجارات ، وهل وجدوا من الموت محيصا ؟ .
وقيل : طوّفوا في البلاد يلتمسون مَحِيصًا من الموت . قال الحرث بن حِلِّزة :

نَقَّبوا في البلادِ من حَذَرِ المـو * تِ وجَالُوا في الأرض كُلَّ مَجَالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها . والنقب هو الخرق والدخول في الشيء . وقيل : النقب الطريق في الجبل، وكذلك المَنْقَب والمَنْقَبة؛ عن ابن السكيت . ونَقَب الجدار نَقْبا ، واسم تلك النَّقْبة نَقْب أيضا ، و جمع النَّقْب النُّقُوب ؛ أي خرقوا البلاد وساروا في نقوبها . وقيل : أثّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب . وقرأ السُّلَمي ويحيى بن يَعْمَر «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد؛ أي طَوِّفوا البلاد وسيروا

فيهـا فانظروا ﴿ هَلْ مِن ﴾ الموت ﴿ مَحِيص ﴾ ومهرب ؛ ذكره الثعلبي . وحكى القشـيري «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف؛ أي أكثروا السير فيها حتى نَقِبت دوابُّهم . الجوهري : ونَقِب البعيرُ بالكسر إذا رَقّت أخفافُه، وأنقب الرجلُ إذا نَقِب بعيرُه، ونَقِب الخفُّ الملبوس أي تخرّق . والمحِيص مصدر حاص عنه يَحيص حَيْصًا وحُيوصًا ومَحِيصًا ومَحاصًا وحَيَصانًا؛ أي عَدَلَ وحادَ . يقال: ما عنه مَحِيص أي مَحِيد ومَهْرَب . والانحياص مثله ؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدوّ وللأعداء انهزموا .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي عقل يتدبر به ؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة؛ فعبر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ؛ كما قال امرؤ القيس :

أَغَرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّكِ قاتِلِي * وأَنَّكِ مَهْمَا تأْمُرِي القَلْبَ يَفْعَلِ

وفي التنزيل : « لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا »(١) . وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان ؛ قلب محتشٍ بأشـغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من الأمور الآخرة لم يدر ما يصـنع ، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة . ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي استمع القرآن . تقول العرب : ألق إليّ سمعك أي استمع . وقد مضى في « طه »(٢) كيفية الاستماع وثمرته . ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي شاهد القلب؛ قال الزجاج : أي قلبه حاضر فيما يسمع . وقال سفيان : أي لا يكون حاضرا وقلبه غائب . ثم قيل : الآية لأهل الكتاب ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال الحسن : إنها في اليهود والنصارى خاصة . وقال محمد ابن كعب وأبو صالح : إنها في أهل القرآن خاصة .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ ﴾ تقـدّم في « الأعراف »(٣) وغيرها . واللغوب التعب والإعياء، تقول منـه : لَغب

(١) راجع جـ ١٥ ص ٥٥ (٢) راجع جـ ١١ ص ١٧٦
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢١٨

يَلْغُب بالضم لُغُوبًا، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوبًا لغــة ضعيفة فيه . وألغبته أنا أى أنصبته.
قال قتادة والكلبي : هذه الآية نزلت فى يهود المدينة ؛ زعموا أن الله تعـالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وآستراح يوم السبت ؛ فجعلوه راحة ، فأكذبهم الله تعالى فى ذلك .

قوله تعـالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾

فيــه خمس مسـائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون ؛ أى هَوِّن أمرَهم عليك . ونزلت قبـل الأمر بالقتال فهى منسوخة . وقيـل : هو ثابت للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته . وقيل معناه : فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم : إن الله آستراح يوم السبت .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ قيل : إنه أراد[(١)] به الصلوات الخمس . قال أبو صالح : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر . ورواه جرير بن عبد الله مرفوعا؛ قال : كنا جلوسا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال : "أَمَا إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون فى رؤيتــه فإن آستطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبـل طلوع الشمس وقبـل غروبها ــ يعنى العصر والفجر ثم قرأ جرير ــ « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا[(٢)] » " متفق عليه واللفظ لمسـلم . وقال آبن عباس : « قَبْلَ ٱلْغُرُوبِ » الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ يعـنى صلاة العشاءين . وقيـل : المراد تسبيحه بالقـول تنزيها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ؛ قاله عطاء الخراسانيّ وأبو الأحوص . وقال بعض العلماء فى قوله : « قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ » قال ركعتى الفجر « وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ » الركعتين قبل المغرب ؛ وقال ثُمَامة

(١) فى ح ، ه ن : « يراد » . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٦١ .

ابن عبد الله بن بن أنس : كان ذوو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يُصلُّون الركعتين قبل المغرب . وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذِّن لصلاة المغرب ابتدروا السَّوَارِي(١) فركعوا ركعتين ، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صُليت من كثرة من يصلّيهما . وقال قتادة : ما أدركت أحدا يُصلِّي الركعتين إلا أنسًا وأبا بَرْزَة الأسلمي .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول — هو تسبيح الله تعالى في الليل ، قاله أبو الأحوص . الثاني — أنها صلاة الليل كله ، قاله مجاهد . الثالث — أنها ركعتا الفجر ، قاله ابن عباس . الرابع — أنها صلاة العشاء الآخرة ، قاله ابن زيد . قال ابن العربي : من قال إنه التسبيح في الليل فيعضُده الصحيح " مَنْ تَعَارّ(٢) من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم". وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح الله ، ومنه سُبْحة الضحى . وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل ، والعشاء أوضحه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ قال عمر وعليّ وأبو هريرة والحسن بن عليّ والحسن البصريّ والنّخعيّ والشعبيّ والأوزاعيّ والزهريّ : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر ، ورواه العوفي عن ابن عباس ، وقد رفعه ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ركعتان بعد المغرب أدبار السجود" ذكره الثعلبي . ولفظ الماوردي : وروى عن ابن عباس قال : بتُّ ليلةً عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فصلّى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : " يابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود" : وقال أنس : قال النبيّ صلى الله

---

(١) ابتدروا السواري : أي سارعوا إليها ، والسواري جمع السارية وهي العمود ؛ أي يقف كل مصلّ خلف العمود لئلا يقع المرور بين يديه في صلاته منفردا . (٢) تعار : استيقظ .

عليه وسلم "من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته فى عِلِّيين" . قال أنس فقرأ فى الركعة الأولى « قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ » وفى الثانية « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » قال مقاتل : ووقتهما ما لم يغرب الشفق الأحمر . وعن ابن عباس أيضا : هو الوتر . قال ابن زيد : هو النوافل بعد الصلوات ، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة ، قال النحاس : والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى اتباع الأكثر وهو صحيح عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقال أبو الأحوص : هو التسبيح فى أدبار السجود . قال ابن العربى وهو الأقوى فى النظر . وفى صحيح الحديث : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر الصلاة المكتوبة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ"(1) وقيل : إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات ، نقل ذلك الجماعة .

الخامســة — قرأ نافع وابن كثير وحمزة « وَإِدْبَارَ ٱلسُّجُودِ » بكسر الهمزة على المصدر من أدبر الشىء إدبارًا إذا وَلَّى . الباقون بفتحها جمع دُبُر . وهى قراءة علىّ وابن عباس ، ومثالها طُنُب وأطناب ، أو دُبْر كقُفْل وأقفال . وقد استعملوه ظرفا نحو جئتك فى دبر الصلاة وفى أدبار الصلاة . ولا خلاف فى آخر « وَٱلطُّورِ » . « وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ » أنه بالكسر مصدر ، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثانى ، وهو البياض المنشق من سواد الليل .

قوله تعالى : وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(1) "ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد" أى لا ينفع ذا الغنى منك غناه وإنما ينفعه الإيمان والطاعة . (النهاية لابن الأثير) .

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي ٱلْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي آستمع النداء والصوت أو الصيحة وهي صيحة القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادى جبريل. وقيل: إسرافيل. الزمخشري: وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى، فينادى بالحشر ويقول: هَلُمّوا إلى الحساب فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: وآستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أي يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى في آذانهم. وقيل: المكان القريب صخرة بيت المقدس. ويقال: إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا. وقال كعب: بثمانية عشر ميلا، ذكر الأوّل القشيري والزمخشري، والثاني الماوردي. فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادى بالحشر. أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، ويا عظاما نخرة، ويا أكفانا فانية، ويا قلوبا خاوية، ويا أبدانا فاسدة، ويا عيونا سائلة، قوموا لعرض رب العالمين. قال قتادة: هو إسرافيل صاحب الصّور. ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى صيحة البعث. ومعنى «ٱلْخُرُوجِ» الاجتماع إلى الحساب. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي يوم الخروج من القبور. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ نميت الأحياء ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ إلى المنادى صاحب الصّور إلى بيت المقدس. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هيّن سهل. وقرأ الكوفيون «تَشَقَّقُ» بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في الشين. وأثبت آبن محيصن وآبن كثير ويعقوب ياء «المنادى» في الحالين على الأصل، وأثبتها نافع وأبو عمرو في الوصل لا غير، وحذف الباقون في الحالين.

قلت: وقد زادت السنة هذه الآية بيانا؛ فروى الترمذي عن معاوية بن حَيْدة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره، قال وأشار بيده إلى الشام فقال: "من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتُجَرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام تُوفُون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول مايعرب عن أحدكم فخذه" في رواية أخرى "فخذه وكفّه" وخرّج عليّ بن معبد عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره:

ثم يقول — يعني الله تعالى — لإسرافيل : "انفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتي وجلالي ليرجعنّ كلّ رُوح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية" وذكر الحديث، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره في « التذكرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي من تكذيبك وشتمك . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمسلَّط تجبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال . والجبّار من الجبرية والتسلّط إذ لا يقال جبّار بمعنى مُجبِر، كما لا يقال خرّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري . النحاس : وقيل معنى جبّار لست تُجبرهم، وهو خطأ لأنه لا يكون فعّال من أفعل . وحكى الثعلبي : وقال ثعلب قد جاءت أحرف فعّال بمعنى مُفعِل وهي شاذة، جبّار بمعنى مُجبِر، ودرّاك بمعنى مُدرِك ، وسرّاع بمعنى مُسرِع ، وبكّاء بمعنى مُبكٍ، وعدّاء بمعنى مُعدٍ . وقد قرئ « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَّادِ »(١) بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى . وقيل : هو الله . وكذلك قرئ « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ »(٢) يعني ممسكين . وقال أبو حامد الخارْزَنْجِيّ(٣) : تقول العرب : سيف سَقَّاط بمعنى مُسقِط . وقيل : « بِجَبَّارٍ » بمسيطر كما في الغاشية(٤) « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » . وقال الفرّاء : سمعت من العرب من يقول جَبَره على الأمر أي قهره، فالجبّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح . وقيل : الجبّار من قولهم جبرته على الأمر أي أجبرته وهي لغة كنانية وهما لغتان . الجوهري : وأجبرته على الأمر أكرهته عليه، وأجبرته أيضا نسبته إلى [الجبر، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر](٥). ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ قال ابن عباس : قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » أي ما أعددته لمن عصاني من العذاب؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب، قال الشاعر :

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣١٠ . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤ .
(٣) الخارزنجي : نسبة إلى خارزنج قرية بنواحي نيسابور . (٤) راجع جـ ٢٠ ص ٣٧ .
(٥) الزيادة من الصحاح للجوهري .

وإنّى وإنْ أوعدتُه أو وعدتُه * لَمُخلِفُ إيعادِى ومُنجِزُ موعِدى

وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك . وأثبت الياء فى « وَعِيدِى » يعقوب فى الحالين، وأثبتها ورش فى الوصل دون الوقف، وحذف الباقون فى الحالين . والله أعلم . تم تفسير سورة « قٓ » والحمد لله .

سورة والذاريات

مكية فى قول الجميع، وهى ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا (١) فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا (٢) فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا (٣) فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ (٦)

قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنا عبد الله بن ناجية ، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدّثنا مكى بن ابراهيم ، حدّثنا الجعيد بن عبد الرحمن ، عن يزيد ابن خصيفة ، عن السائب بن يزيد أن رجلا قال لعمر رضى الله عنه : إنى مررت برجل[1] يسأل عن تفسير مشكل القرآن ، فقال عمر : اللهم أمكنى منه ؛ فدخل الرجل على عمر يوما وهو لابس ثيابا وعمامة وعمر يقرأ القرآن ، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده ، ثم قال : ألبسوه ثيابه واحملوه على قَتَب وأبلغوا به حَيَّه ، ثم ليقم خطيبا فليقل : إن صَبِيغًا[1] طلب العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعا فى قومه بعد أن كان سيدًا فيهم . وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل عليًا رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » [قال] : ويلك سَلْ تفقّهًا ولا تسأل تعنّتًا « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » الرياح « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » السفن « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » الملائكة . وروى الحرث عن على رضى الله عنه « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا »

(١) هو صبيغ — كأمير — بن عسل — بكسر العين — كان يعنت الناس بالغوامض والسؤلات من متشابه القرآن فنفاه عمر إلى البصرة بعد ضربه ، وكتب إلى واليها ألا يؤويه ، ونهى عن مجالسته (التاج) .

قال : الرياح « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » قال : السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » قال : السفن موقرة « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » قال : الملائكة تأتى بأمر مختلف ؛ جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتى بالموت . وقال الفراء : وقيل تأتى بأمر مختلف من الخصب والجدب والمطر والموت والحوادث(١) . ويقال : ذَرَتِ الرِّيحُ التراب تَذْرُوه ذَرْوًا وتَذْرِيةً ذَرْيًا . ثم قيل : « وَالذَّارِيَاتِ » وما بعده أقسام ، وإذا أقسم الرب بشىء أثبت له شرفا . وقيل : المعنى ورب الذاريات ، والجواب ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أى الذى توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ لا كذب فيه ؛ ومعنى « لَصَادِقٌ » لصدق ؛ وقع الاسم موقع المصدر . ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ يعنى الجزاء نازل(٢) بكم . ثم ابتدأ قسما آخر فقال : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » وقيل : إن الذاريات النساء الولودات لأن فى ذراياتهن ذرو الخلق ؛ لأنهن يذرين الأولاد فصرن ذاريات ؛ وأقسم بهن لما فى ترائبهن من خيرة عباده الصالحين . وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذاريا لأمرين : أحدهما لأنهن أوعية دون الرجال ، فلاجتماع الذروين فيهن خصصن بالذكر . الثانى — أن الذرو فيهن أطول زمانا ، وهن بالمباشرة أقرب عهدا . « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب . وقيل : الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل . والوِقر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهر أو فى بطن ؛ يقال : جاء يحمل وِقره وقد أوقر بعيره . وأكثر ما يستعمل الوِقر فى حمل البغل والحمار ، والوَسْق فى حمل البعير . وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملا ثقيلا . وأوقرت النخلة كثر حملُها ؛ يقال : نخلة مُوقِرة ومُوقِر ومُوقَرة ، وحكى مُوقَر وهو على غير القياس ، لأن الفعل للنخلة . وإنما قيل : مُوقِر بكسر القاف على [قياس](٣) قولك امرأة حامل ، لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء ؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ ، وقد روى فى قول لبيد يصف نخيلا :

عَصَبٌ كَوارِعُ فى خليج مُحَلَّمٍ * حَمَلَتْ فمنها موقَرٌ مَكْمُومُ

---

(١) فى ل ، ن : «الخوارق» . (٢) فى ز ، ل ، ن : «النازل» . (٣) الزيادة من كتب اللغة .

والجمع مواقِر . فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن ، وقد وقرت أذنه تَوْقر وَقْرا أى صَمَّت ، وقياس مصـدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقـدّم فى « الأنعـام »(١) القول فيه . « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » السفن تجرى بالرياح يسرًا إلى حيث سـيرت . وقيل : السـحاب ؛ وفى جريها يسراً على هذا القول وجهان : أحدهما — إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع . الثانى — هو سهولة تسييرها ؛ وذلك معروف عند العرب ، كما قال الأعشى :

كأنّ مِشْيَتَهـا مِنْ بيتِ جارتها　＊　مَشْىُ السَّحَابةِ لارَيْثٌ ولا عَجَلُ

قوله تعـالى : وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُـكِ ﴾ قيل : المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التى تظل الأرض . وقيل : السماء المرفوعة . آبن عمر : هى السماء السابعة ؛ ذكره المهدوى والثعلبى والمـاوردى وغيرهم . وفى « الحُبُك » أقوال سبعة : الأول — قال آبن عباس وقتادة ومجاهد والربيع : ذات الخَـلق الحسن المستوى . وقاله عكرمة ؛ قال : ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه ؛ يقال منه حَبَك الثوبَ يَحبِكُه بالكسر حَبْكاً أى أجاد نسجه . قال آبن الأعرابى : كل شىء أحكمته وأحسنت عمله فقد آحتبكته . والثانى — ذات الزينة ؛ قاله الحسن وسعيد بن جبـير ، وعن الحسن أيضا : ذات النجوم وهو الثـالث . الرابع — قال الضحاك : ذات الطرائق ؛ يقال لمـا تراه فى المـاء والرمل إذا أصابتـه الريح حُبُك . ونحوه قول الفراء ؛ قال : الحُبُك تَكَسُّر كل شىء كالرمل إذا مرت به الريح السا كنة ، والمـاء القائم

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ .

إذا مرت به الريح ، ودرع الحديد لها حُبُك ، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك . وفى حديث الدجّال : إنّ شعره حُبُك ، قال زهير :

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنسِجهُ * رِيحٌ خَرِيقٌ لِضاحِى مائِه حُبُكُ (١)

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها . الخامس — ذات الشدة ، قاله ابن زيد ، وقرأ « وبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (٢) » . والمحبوك الشديد الخَلْق من الفرس وغيره ، قال امرؤ القيس :

قد غَدَا يَحمِلُنى فى أنفِهِ * لَاحِقُ الإطْلَيْنِ (٣) مَحبُوكٌ مُمَرّ

وقال آخر :

مَرِجَ الدِّينَ فأعددتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدْ (٤)

وفى الحديث : أن عائشة رضى الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع فى الصلاة ؛ أى تشدّ الإزار وتحكمه . السادس — ذات الصفّاقة ؛ قاله خَصِيف ، ومنه ثوب صفيق ووجه صفيق بين الصفاقة . السابع — أن المراد بالطرق المجرّة التى فى السماء ؛ سميت بذلك لأنها كأثر الجَرّ . و « الحُبُكُ » جمع حِباك ؛ قال الراجز :

كأنّما جَلَّلها الحُوَّاكُ * طنفسة فى وَشْيِها حِبَاكُ

والحَبَاك والحَبِيكة الطريقة فى الرمل ونحوه . وجمع الحِبَاك حُبُك وجمع الحَبِيكة حَبَائك ، والحَبَكة مثل العَبَكة وهى الحبّة من السويق ؛ عن الجوهرى . وروى عن الحسن فى قوله : « ذَاتِ الحُبُكِ » « الحُبْك » و « الحِبِك » و « الحِبْك » والحَبَك والحُبَك [وقرأ أيضا « الحُبُك »] كالجماعة . وروى عن عِكرمة وأبى مِجلز « الحُبْك » . و « الحُبُك » واحدتها حَبِيكة ، « والحُبْك » مخفّف منه . و « الحِبِك » واحدتها حِبِكة . ومن قرأ « الحُبَك » فالواحدة حُبْكة كبُرْقة وبُرَق أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم . ومن قرأ « الحِبِك » فهو كإبِل وإطِل (٣) و « الحِبْك » مخففة منه .

---

(١) النجم : كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل . ريح خريق : شديدة . لضاحى مائه : ماضحا للشمس من الماء أى برز . والبيت فى وصف غدير . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٦٩

(٣) الإطل : الخاصرة كلها . وقيل : غير ذلك .

(٤) البيت لأبى دؤاد يصف فرسا . والكتد — بفتح التاء وكسرها — : مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس .

ومن قرأ « الحِبُك » فهو شاذ إذا ليس فى كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمول على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر « الحُبُك » فضم الباء . وقال جميعه المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم الذى هو « والسَّماءِ » أى إنكم يأهل مكة « فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » فى محمد والقرآن فمن مصدّق ومكذّب . وقيل : نزلت فى المقتسمين . وقيل : ٱختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل ٱفتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأوّلين . وقيل : ٱختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه . وقيل : المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم و يعبدون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أى يصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صُرِف ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : المعنى يُصرَف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأوّلين . وقيل : المعنى يُصرَف عن ذلك الٱختلاف مَن عصمه الله . أَفَكَه يأْفِكُه أَفْكًا أى قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قوله تعالى : «أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا»(١) . وقال مجاهد : معنى « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » يُؤْفَن عنه من أُفِن، والأَفْن فساد العقل . الزمخشرى : وقرئ « يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ » أى يحرمه من حرم ؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنهكه حَلْباً . وقال قُطْرُب : يُخْدَع عنه من خُدِع . وقال اليزيدى : يُدفَع عنه من دُفِع . والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ فى التفسير : لُعِن الكذّابون . وقال ٱبن عباس : أى قُتِل المرتابون ؛ يعنى الكهنة . وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنا نبعث . ومعنى « قُتِلَ » أى هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدى المؤمنين . وقال الفرّاء : معنى «قُتِلَ» لُعِن؛ قال : و «الْخَرَّاصُونَ» الكذابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون؛ فيقولون : إن محمدا مجنون كذّاب ساحر شاعر ؛ وهذا دعاء عليهم ؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال ٱبن الأنبارى : علّمنا الدعاء عليهم؛ أى قولوا : « قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ »وهو جمع خارص والخَرْص الكذب والخَرَّاص الكذّاب، وقد خَرَص يَخْرُص بالضم خَرْصا أى كَذَب؛

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٥

يقال : خَرَص وٱخْتَرص ، وخَلَق وٱختلَق ، وبَشَك وٱبْتَشك ، وسَرَج وٱسْتَرج ، ومان ، بمعنى كذب ؛ حكاه النحاس . والخَرْص أيضا حَزْر ما على النخل من الرطب تمراً . وقد خَرَصتُ النخلَ والآسم الخِرْص بالكسر ؛ يقال : كم خِرْص نخلك والخرّاص الذى يخرصها فهو مشترك . وأصل الخَرْص القطع على ما تقدّم بيانه فى « الأنعام »(1) ومنه الخَـرِيص للخليج ؛ لأنه ينقطع إليه المـاء ، والخُـرْصُ حبّة القُرْط إذا كانت منفردة ؛ لانقطاعها عن أخواتها ، والخُـرْص العود ؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته . والخَرِص الذى به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به ؛ يقال : خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص ، أى جائع مقرور ، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص . ويقال للبرد بلا جوع خَرَص . والخُرْص بالضم والكسر الحلقة من الذهب أو الفضة والجمع الخِرصان . ويدخل فى الخَـرْص قول المنجمين وكل من يدّعى الحَـدْس والتخمين . وقال ٱبن عباس : هم المقتسمون الذين ٱقتسموا أعقاب مكة ، وٱقتسموا القول فى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليصرفوا الناس عن الإيمـان به .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطّاه . ومنه نهر غَمْر أى يغمُر من دخله ، ومنه غَمَرات الموت . «سَاهُونَ» أى لاهون غافلون عن أمر الآخرة .

قوله تعـالى : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أى متى يوم الحساب ؛ يقولون ذلك ٱستهزاءً وشكًّا فى القيـامة . ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ نصب « يَوْمَ » على تقدير الجزاء أى هـذا الجزاء « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يُحرَقون ، وهو من قولهم : فتنت الذهب أى أحرقته لتختبره ، وأصل الفتنة الآختبار . وقيل : إنه مبنيّ بنى لإضافته إلى غير متمكن ، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم ، أو رفع على البدل من « يَوْمُ الدِّينِ » . وقال الزجاج : يقول يعجبنى يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم ، وإن شئت فتحت وهو فى موضع رفع ، فإنما ٱنتصب هذا وهو فى المعنى رفع . وقال ٱبن عباس : «يُفْتَنُونَ» يُعذَّبون . ومنه قول الشاعر :

كلُّ آمرِئٍ من عبـادِ اللهِ مُضطَهدٌ * ببطنِ مكةَ مقهـورٌ ومفتـونُ

---

(1) راجع ج ٧ ص ٧١

قوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي يقال لهم ذوقوا عذابكم ؛ قاله ابن زيد . مجاهد : حريقكم . ابن عباس : أي تكذيبكم يعني جزاءكم . الفرّاء : أي عذابكم ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في الدنيا . وقال : « هَذَا » ولم يقل هذه ؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أي هم في بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به . ﴿ آخِذِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات ؛ قاله الضحاك . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : « آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ » أي عاملين بالفرائض . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أي قبل دخولهم الجنة في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بالفرائض . وقال ابن عباس : المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم .

قوله تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ معنى « يَهْجَعُونَ » ينامون ؛ والهجوع النوم ليلا ، والتَّهْجاع النومة الخفيفة ؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حصَّتِ البيضةُ رأسي فما * أَطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاع

وقال عمرو بن مَعْدي كَرِب يتشوّق أخته وكان أسرها الصِّمّة أبو دُرَيد بن الصِّمّة :

أَمِنْ رَيْحانةَ الدّاعي السّميعُ * يُؤَرِّقُني وأَصحابي هُجُوعُ

يقال : هَجَع يَهْجَع هُجوعاً ، وهَبَغ يَهْبَغ هُبوغاً بالغين المعجمة إذا نام ؛ قاله الجوهري . واختلف في « ما » فقيل : صلة زائدة — قاله إبراهيم النخعي — والتقدير كانوا قليلا من الليل

يهجعون؛ أى ينامون قليلا من الليل ويصلّون أكثره . قال عطاء : وهذا لمـا أمروا بقيام الليـل . وكان أبو ذرّ[1] يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصـة « قُمِ اللَّيْـلَ إِلَّا قَلِيلًا[2] » الآية . وقيل : ليس « ما » صـلة بل الوقف عند قوله : « قَلِيلًا » ثم يبتدئ « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » فـ « ما » للنفى وهو نفى النوم عنهم البتّـة . قال الحسن : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نَشِطوا فجدّوا إلى السحر . روى عن يعقوب الحضرمى أنه قال : آختلفوا فى تفسير هـذه الآية فقال بعضهم : « كَانُوا قَلِيلًا » معناه كان عددهم يسيرا ثم آبتدأ فقال : « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون؛ قال آبن الأنبارى : وهذا فاسد؛ لأن الآية إنمـا تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم، و بعد فلو آبتدأنا « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون لم يكن فى هـذا مدح لهم؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون « ما » جَحْدًا .

قلت : وعلى ما تأوّله بعض الناس — وهو قول الضحاك — من أن عددهم كان يسيرا يكون الكلام متصلا بما قبل من قوله : « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » أى كان المحسنون قليلا، ثم آسـتأنف فقال : « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعلى التأويل الأوّل والثـانى يكون « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ » خطابا مستأنفا بعد تمام ماتقدّمه ويكون الوقف على « مَا يَهْجَعُونَ »، وكذلك إن جعلت « قَلِيلًا » خبر كان وترفع « ما » بقليل؛ كأنه قال : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . فـ « ما » يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا، ويجوز أن تكون رفعا على البدل من آسم كان، التقدير كان هجوعهم قليلا من الليل، وآنتصاب قوله : « قَلِيلًا » إن قدرت « ما » زائدة مؤكدة بـ « يَهْجَعُونَ » على تقدير كانوا وقتًا قليلا أو هجوعا قليـلا يهجعون، وإن لم تقدر « ما » زائدة كان قوله : « قَلِيـلًا » خبر كان ولم يجز نصبه بـ « يَهْجَعُونَ »؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ « يَهْجَعُونَ » مع تقدير « ما » مصدرا قدمت الصلة على الموصول . وقال أنس وقتادة فى تأويل الآية : أى كانوا يصلّون بين العشاءين : المغرب والعشاء . أبو العاليـة : كانو لا ينامون بين العشاءين . وقاله آبن وهب . وقال مجاهـد :

(١) فى ز، ل، ن : «أبو بكر» . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٣٢

نزلت فى الأنصار كانوا يصلون العشاءين فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم يمضون إلى قُباء . وقال محمد بن على بن الحسين : كانوا لاينامون حتى يصلوا العَتَمة . قال الحسن : كأنه عَدَّ هجوعهم قليلا فى جنب يقظتهم للصلاة . وقال آبن عباس ومُطرِّف : قَلّ ليلة لاتأتى عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أولها وإما من وسطها .

الثانيــة — روى عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ فى منامه فأنشده :

وكيف تنـامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ * ولم تَدرِ فى أىّ المجالِس تـنزِلُ

وروى عن رجل من الأزد أنه قال : كنت لا أنام الليل فنمت فى آخر الليل ، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل ، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة ، ثم آنتهيا إلى النيام فلم يكسوهم ، فقلت لهما : آكسوانى من حُللكما هذا ، فقالا لى : إنها ليست حُلّة لباس إنما هى رضوان الله يحـلّ على كل مصلّ . ويروى عن أبى خَلّاد أنه قال : حدّثنى صاحب لى قال : فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثِّلت لى القيامة ، فنظرت إلى أقوام من إخوانى قد أضاءت وجوههم ، وأشرقت ألوانهـم ، وعليهم الحلل من دون الخلائق ، فقلت : ما بال هؤلاء مكتسون والنـاس عُراة ، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة ! فقال لى قائل : الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة ، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد ، قال : ورأيت أقواما على نجائب فقلت : ما بال هؤلاء ركبانا والناس مشاة حفاة ؟ فقال لى : هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقربا لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب ، قال : فصحت فى منامى : واهًا للعابدين ، ما أشرف مقامهم ! ثم آستيقظت من منامى وأنا خائف .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان ، أى يستغفرون من ذنوبهم ، قاله الحسن . والسَّحَر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء . وقد مضى فى « آل عمران »[1] القول فيــه . وقال آبن عمر ومجاهد : أى يصلّون وقت السَّحَر فسمّوا الصلاة آستغفاراً . وقال الحسن فى قوله تعالى : « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » مدّوا الصلاة من أوّل الليل

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٨

إلى السحر ثم استغفروا فى السحر . ٱبن وهب : هى فى الأنصار؛ يعنى أنهم كانوا يغدون من قُبـاء فيصلون فى مسجد النبيّ صـلى الله عليه وسلم . ٱبن وهب عن ٱبن لهيعة عن يزيد ٱبن أبى حبيب قالوا : كانوا يَنْضَحون لِنَاسٍ من الأنصار بالدلاء على الثمـار ثم يهجعون قليلا، ثم يصلّون آخر الليل . الضحاك : صلاة الفجر . قال الأحنف بن قيس : عرضت عملى على أعمال أهل الجنـة فإذا قوم قد باينونا بَوْنًا بعيدا لا نبلغ أعمالهم « كَانُوا قَلِيـلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعرضت عملى على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذبون بكتاب الله و برسوله وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ مدح ثالث . قال محمـد بن سيرين وقتادة : الحق هنا الزكاة المفروضة . وقيـل : إنه حقّ سوى الزكاة يصل به رَحِمًا ، أو يَقرى به ضيفا، أو يحمل به كَلًّا ، أو يغنى محروما . وقاله ٱبن عباس ؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة . ٱبن العربى : والأقوى فى هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى فى سورة «سأل سائل» : « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ »[1] والحق المعلوم هو الزكاة التى بيّن الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم ؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت .

الخامســة — قوله تعالى : « لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » السائل الذى يسأل الناس لفاقته؛ قاله ٱبن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما . « وَالْمَحْرُومِ » الذى حُرِم المـالَ . وٱختلف فى تعيينـه ؛ فقال ٱبن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهمـا : المحروم المُحَارَف الذى ليس له فى الإسلام سهم . وقالت عائشة رضى الله عنها : المحروم المُحَارَف الذى لا يتيسر له مكسبه؛ يقال : رجل مُحَارَف بفتح الراء أى محدود محروم، وهو خلاف قولك مُبارَك . وقد حورف كسبُ فلان إذا شُدِّد عليه فى معاشه كأنه مِيلَ برزقه عنه . وقال قتادة والزهرى : المحروم المتعفف الذى لا يسأل النـاس شيئا ولا يُعلِـم بحاجته . وقال الحسن ومحمد بن الحنفيـة : المحروم الذى يجىء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم . روى أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم بعث سَرِيّة فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعـد ما فرغوا فنزلت هـذه الآية « وَفِي أَمْوَالِهِمْ » . وقال

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٩١

عِكرمة : المحروم الذي لا يبقى له مال . وقال زيد بن أسلم : هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته . وقال القُرَظيّ : المحروم الذي أصابته الجائحة ثم قرأ « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » نظيره في قصة أصحاب الجنة حيث قالوا : « بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » وقال أبو قِلابة : كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله ، فقال رجل من أصحابه : هذا المحروم فأقسموا له . وقيل : إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه . وهو يروى عن ابن عباس أيضا . وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك . وقيل : إنه الكلب ؛ روى أن عمر بن عبدالعزيز كان في طريق مكة ، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاة فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم . وقيل : إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب ؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته في مال غيره . وروى ابن وهب عن مالك : أنه الذي يحرم الرزق ، وهذا قول حسن ؛ لأنه يعم جميع الأقوال . وقال الشعبي : لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ . رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي . وأصله في اللغة الممنوع ؛ من الحرمان وهو المنع . قال علقمة :

ومُطْعَم الغُنْمِ يومَ الغُنْم مُطْعَمُهُ * أَنَّى تَوَجَّه والمحرومُ محـرومُ

وعن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ لما ذكر أمر الفريقين بيّن أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور ؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيما ، ومنها أنه

قدر الأقوات فيها قِواما للحيوانات ، ومنها سيرهم فى البلدان التى يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة . والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم ، وصدق نبوّة نبيهم ؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : التقدير وفى الأرض وفى أنفسكم آيات للوقنين . وقال قتادة : المعنى من سار فى الأرض رأى آياتٍ وعبرًا ، ومن تفكر فى نفسه علم أنه خُلق ليعبد الله . ٱبن الزبير ومجاهد : المراد سبيل الخلاء والبول . وقال السائب ٱبن شريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ؛ ولو شرب لبنًا محضًا لخرج منه الماء ومنه الغائط ؛ فتلك الآية فى النفس . وقال ٱبن زيد : المعنى أنه خلقكم من تراب ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، « ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ »[1] . السدى : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ » أى فى حياتكم وموتكم ، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم . الحسن : وفى الهَرَم بعد الشباب ، والضعف بعد القوّة ، والشيب بعد السواد . وقيل : المعنى وفى خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح ، وفى ٱختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة ؛ وحسبك بالقلوب وما ركز فيها[2] من العقول ، وما خصّت به من أنواع المعانى والفنون ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتّيها لما خُلِقت له ، وما سوّى فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنى ، وأنه إذا جسا[3] شىء منها جاء العجز ، وإذا ٱسترخى أناخ الذل « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[4] . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يعنى بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته . وقيل : إنه نُجْح العاجز ، وحرمان الحازم .

قلت : كل ما ذكر مراد فى الاعتبار . وقد قدّمنا فى آية التوحيد من سورة « البقرة »[5] أن ما فى بدن الإنسان الذى هو العالَم الصغير شىء إلا وله نظير فى العالَم الكبير ، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفى ويغنى لمن تدبر .

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٧ (٢) فى الأصل المطبوع : « وما فيها من العقول » .
(٣) جست اليد تيبست عظامها وقل لحمها . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١١٠ (٥) راجع جـ ٢ ص ٢٠٢

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق . قال سعيد بن جبير : كل عين قائمة فإنها من الثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم . وقال أهل المعاني : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » معناه وفى المطر رزقكم ؛ سمى المطر سماء لأنه من السماء ينزل . قال الشاعر (١) :

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ * رعيناه وإنْ كانوا غِضَابَا

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى ربّ السماء رزقكم ؛ نظيره : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (٢) » . وقال سفيان الثورى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » أى عند الله فى السماء رزقكم . وقيل : المعنى وفى السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب فى أم الكتاب . وعن سفيان قال : قرأ واصل الأحدب « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : ألا أرى رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ! فدخل خَرِبة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو فى الثالثة بدوخلةِ (٣) رُطَبٍ ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق الله بالموت بينهما . وقرأ ابن محيصن ومجاهد « وَفِي السَّمَاءِ رَازِقُكُمْ » بالألف وكذلك فى آخرها « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ » . ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال مجاهد : يعنى من خير وشر . وقال غيره : من خير خاصة . وقيل : الشر خاصة . وقيل : الجنة ؛ عن سفيان بن عيينة . الضحاك : « وَمَا تُوعَدُونَ » من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : « وَمَا تُوعَدُونَ » من أمر الساعة . وقاله الربيع .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أكد ما أخبرهم به من البعث وما خلق فى السماء من الرزق ، وأقسم عليه بأنه لحقّ ثم أكده بقوله : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ وخصّ النطق من بين سائر الحواسّ ؛ لأن ما سواه من الحواسّ يدخله التشبيه ، كالذى

---

(١) هو معوّد الحكماء معاوية بن مالك ؛ وسمى معوّد الحكماء لقوله فى هذه القصيدة :

أعود مثلها الحكماء بعدى * إذا ما الحق فى الحدثان نابا

(٢) راجع جـ ٩ ص ٦

(٣) الدوخلة (بتشديد اللام وتخفيفها) : سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب .

يُرى فى المـرآة ، وٱستحالة الذوق عند غلبـة الصفراء ونحوها ، والدوىّ والطنين فى الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعترض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مَشُوب بمـا يشكل به . وقال بعض الحكماء : كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسـان غيره ، فكذلك كل إنسـان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره . وقال الحسن : بلغنى أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ » ". وقال الأصمعى : أقبلتُ ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابىّ جِلْفٌ جافٍ على قعود له متقلّدا سيفه وبيـده قوسه ، فدنا وسـلّم وقال : ممن الرجل ؟ قلت من بنى أَصْمَـع ، قال : أنت الأصمعى ؟ قلت : نعـم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتـلَى فيه كلامُ الرحمن ؛ قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ؛ قال : فٱتْلُ علىّ منه شيئا ؛ فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » إلى قوله : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : يا أصمعى حسبك ! ! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال : أعِنِّى على توزيعها ؛ ففرقناها على من أقبل وأدبر ، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فمقتُّ نفسى ولمتُهـا ، ثم حججت مع الرشـيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيـق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى وهو ناحل مصفر ، فسلّم علىّ وأخذ بيدى وقال : ٱتل علىّ كلام الرحمن ، وأجلسنى من وراء المقام فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ » حـتى وصلت إلى قوله تعـالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فقـال الأعرابى : لقـد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبـارك وتعـالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » قال فصاح الأعرابى وقال : ياسبحان الله ! من الذى أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه فى قوله حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ فقالها ثلاثا وخرجت بهـا نفسه . وقال يزيد بن مرثد : إن رجلا جاع بمكان ليس فيـه شىء فقال : اللهـم رزقك الذى وعدتنى فأتنى به ؛ فشبِـع ورَوِى من غير طعام ولا شراب . وعن أبى سعيد الخدرىّ قال : قال النبىّ صلى الله عليـه وسلم : " لو أن أحدكم

فـرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت " أسـنده الثعلبي . وفى سنن آبن ماجه عن حبة وسـواء آبني خالد قالا : دخلنا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئا فأعنّاه عليه، فقال : " لا تيأسا من الرزق ماتهززت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشْر(١) ثم يرزقه الله ". وروى أن قوما من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحـة فحزنوا لأجله ، فخرجت عليهم أعرابية فقالت : مالى أراكم قد نكستم رءوسكم ، وضاقت صدوركم ، هو ربنا والعالم بنـا ، رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء ! ثم أنشأت تقول :

لو كان فى صخرةٍ فى البحر راسيةٍ * صَمّـا مُلَمْلَمَـةٍ مَلْسا نَواحِيهـا
رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاهَا الله لانفلقتْ * حتى تؤدى إليهـا كُلَّ ما فيهـا
أو كان بين طِباقِ السبعِ مسلكها * لَسَهَّلَ الله فى المَـرقَى مَرَاقيها
حتّى تنالَ الذى فى اللوح خُطَّ لها * إنْ لم تَنلْه وإلا سوف يأتيهـا

قلت : وفى هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فسمع قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » فرجع ولم يكلم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب ؛ وقد ذكرناه فى سورة « هود »(٢) . وقال لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَـا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْـرَةٍ » الآية . وقد مضى فى « لقمان »(٣) وقد آستوفينا هذا الباب فى كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة) والحمد لله . وهذا هو التوكل الحقيق الذى لا يشوبه شىء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رَزَقنا الله إياه ولا أحالنا على أحد سواه بمنّـه وكرمه .

قوله تعـالى : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّـكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ قراءة العـامة « مِثْلَ » بالنصب أى كمثل « مَا أَنَّـكُمْ » فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أى كمثل نطقكم و « ما » زائدة؛ قاله بعض الكوفيين . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد؛ أى لَحَقٌّ حقًّا مثل

(١) القشر هنا الثياب . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦ (٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٦

نطقك؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف . وقول سيبويه : إنه مبنى بُنى حين أضيف إلى غير متمكن و « ما » زائدة للتوكيد . المازنى : « مِثْلَ » مع « ما » بمنزلة شىء واحد فبنى على الفتح لذلك . وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال : ولأن من العرب من يجعل مِثلا منصوبا أبدا؛ فتقول : قال لى رجلٌ مثلك ، ومررت برجل مثلَك بنصب [مثل على معنى كمثل] (١) . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش « مِثْلُ » بالرفع على أنه صفة لحقّ؛ لأنه نكرة و إن أضيف إلى معرفة؛ إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التى يقع بعدها التماثل بين المتماثلين . و « مِثْلَ » مضاف إلى « أَنَّكُمْ » و « ما » زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدرا . ويجوز أن تكون بدلا من « لَحَقٌّ » .

قوله تعالى : هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط . « هَلْ أَتَاكَ » أى ألم يأتك . وقيل : « هَلْ » بمعنى قد ؛ كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » (٢) . وقد مضى الكلام فى ضيف إبراهيم فى « هود » (٣) « والحجر » (٤) . « الْمُكْرَمِينَ » أى عند الله؛ دليله قوله تعالى : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ » (٥) قال آبن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل — زاد عثمان بن حَصين — ورفائيل عليهم الصلاة والسلام . وقال محمد بن كعب : كان جبريل ومعه تسعة . وقال عطاء وجماعة : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١١٦
(٣) راجع جـ ٩ ص ٦٢ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ (٥) راجع جـ ١١ ص ٢٨١

قال ابن عباس : سماهم مكرمين لأنهم غير مدعوين . وقال مجاهد : سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه . قال عبد الوهاب : قال لى على بن عياض : عندى هريسة ما رأيك فيها ؟ قلت : ما أحسن رأيى فيها ؛ قال : امض بنا ؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب ، فما راعنى إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت وعلى عاتقه المِنْديل ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا ؛ قال : هَوِّن عليك فإنك عندنا مُكَرَّم ، والمُكرَم إنما يُخدم بالنفس ؛ انظر إلى قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً ﴾ تقدم فى « الحجر »(1) . ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم سلام . ويجوز بمعنى أمرى سلام أو ردّى لكم سلام . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « سِلْمٌ » بكسر السين . ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى أنتم قوم منكرون ؛ أى غرباء لا نعرفكم . وقيل : لأنه رآهم على غير صورة البشر ، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم ، فقال : « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » . وقيل : أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان . وقال أبو العالية : أنكر سلامهم فى ذلك الزمان وفى تلك الأرض . وقيل : خافهم ؛ يقال : أنكرته إذا خفته ، قال الشاعر(2) :

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذى نَكِرَتْ　*　مِنَ الحوادِثِ إلّا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الزجاج : أى عدل إلى أهله . وقد مضى فى « والصافات »(3) . ويقال : أراغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا تُرِيغ أى تريد وتطلب ، وأراغ إلى كذا أى مال إليه سرًّا وحاد ، فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى . ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما فى « هود »(4) : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » . ويقال : إن إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفى(5) من ضيفه ، لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام .

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٤　　(2) هو الأعشى .　　(3) راجع جـ ١٥ ص ٩٤
(4) راجع جـ ٩ ص ٦٣ و ٦٨　　(5) فى ن : « كالمستحى » .

قوله تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ يعنى العجل . ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قال قتادة : كان عامّة مال إبراهيم البقر ، واختاره لهم سمينا زيادة فى إكرامهم . وقيل : العِجل فى بعض اللغات الشاة ، ذكره القشيرى . وفى الصحاح : العِجل ولد البقرة والعِجَّول مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة ، عن أبى الجراح ، وبقرة مُعْجِل ذات عِجْل ، وعِجْل قبيلة من ربيعة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى أحس منهم فى نفسه خوفا . وقيل : أضمر لما لم يَتحرّموا بطعامه . ومن أخلاق الناس : أن من تَحرّم بطعام إنسان أمنه . وقال عمرو آبن دينار : قالت الملائكة لانأكل إلا بالثمن . قال : كلوا وأدّوا ثمنه . قالوا : وماثمنه ؟ قال : تسمّون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم . فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : لهذا آتخذك الله خليلا . وقد تقدّم هذا فى « هود » . ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله . ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾أى بولد يولد له من سارة زوجته . وقيل : لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم ، فدعوا الله فأحيا العجل الذى قرّبه إليهم . وروى عون بن أبى شدّاد : أن جبريل مسح العجل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل فى الدار . ومعنى « عَلِيمٍ » أى يكون بعد بلوغه من أولى العلم بالله وبدينه . والجمهور على أن المبشَّر به هو إسحق . وقال مجاهد وحده : هو إسمعيل وليس بشىء فإن الله تعالى يقول : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ »(1) . وهذا نص .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ ﴾ أى فى صيحة وضجة ؛ عن آبن عباس وغيره . ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته . وقال عكرمة وقتادة : إنها الرّنة والتأوه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان . قال الفراء : وإنما هو كقولك أقبل يشتمنى أى أخذ فى شتمى . وقيل : أقبلت فى صَرّة أى فى جماعة من النساء(2) تسمع كلام الملائكة . قال

(1) راجع جـ ١٥ ص ٩٩ (2) فى ن : «الناس» .

الجوهري : الصّرة الضجّة والصيحة ، والصّرة الجماعة ، والصّرة الشدّة من كرب وغيره ، قال آمرؤ القيس :

فألحقه بالهاديات ودونه ✽ جواحرها في صرّةٍ لم تزيّلِ (١)

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة . وصرة القيظ شدّة حرّه . فلما سمعت سارة البشارة صكّت وجهها ؛ أي ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب ؛ قاله سفيان الثوري وغيره . وقال آبن عباس : صكّت وجهها لطمته . وأصل الصّك الضرب ؛ صكّه أي ضربه ؛ قال الراجز (٢) :

✽ يا كَرَوانًا صُكّ فاكْبَأنّا ✽

قال الأموي : كبن الظبي إذا لطأ بالأرض واكبأنّ انقبض . ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أتلد عجوز عقيم . الزجاج : أي وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد، كما قالت : « يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ » (٣) . ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ ﴾ أي كما قلنا لك وأخبرناك ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ فلا تشكّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم يومئذ آبن مائة سنة وقد مضى هذا . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

---

(١) ويروى فألحقنا والبيت من معلقته ، والهاديات أوائل بقر الوحش ، وجواحرها متخلفاتها ، ولم تزيل ، أي لم تتفرق ؛ يقول : لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق .

(٢) هو مدرك بن حصن ، وتمامه : ✽ فشن بالسلح فلما شنا ✽

(٣) راجع ج ٩ ص ٦٩

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم : « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى ما شأنكم وقصتكم « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ يريد قوم لوط . ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ أى لنرجمهم بها . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أى مُعَلَّمَة . قيل : كانت مخططة بسواد وبياض . وقيل : بسواد وحُمرة . وقيل : « مُسَوَّمَةً » أى معروفة بأنها حجارة العذاب . وقيل : على كل حجر آسم من يهلك به . وقيل : عليها أمثال الخواتيم . وقد مضى هذا كله فى « هود »[(١)] . فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذّاذهم فلم يفلت منهم مخبر . ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه . ثم قيل : كانت مطبوخة طبخ الآجر ؛ قاله آبن زيد ؛ وهو معنى قوله تعالى : « حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » على ما تقدّم بيانه فى « هود » . وقيل : هى الحجارة التى نراها وأصلها طين ، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور . وإنما قال : « مِنْ طِينٍ » ليعلم أنها ليست حجارة الماء التى هى البَرَد . حكاه القشيرى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قومه من المؤمنين ؛ لئلا يهلك المؤمنون ؛ وذلك قوله تعالى : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ »[(١)] . ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يعنى لوطا وبنتيه وفيه إضمار ؛ أى فما وجدنا فيها غير أهل بيت . وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل . وقوله : « فِيهَا » كناية عن القرية ولم يتقدّم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم . وأيضا فقوله تعالى : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ » يدل على القرية ؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية . وقيل : الضمير فيها للجماعة . والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء لجنس اللفظ لئلا يتكرر ، كما قال : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ »[(١)] . وقيل : الإيمان تصديق القلب ، والإسلام الانقياد بالظاهر ؛ فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا . فسماهم فى الآية الأولى مؤمنين ؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى فى « البقرة »[(٢)] وغيرها . وقوله : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٨٢ و ص ٧٩ و ص ٢١٥ (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٣

آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا » يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام فى صحيح مسلم وغيره . وقد بيناه فى غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ أى عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم ؛ نظيره : « وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »(١) . ثم قيل : الآية المتروكة نفس القرية الخربة . وقيل : الحجارة المنضودة التى رُجموا بها هى الآية . ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون(٢) .

قوله تعالى : وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ أى وتركنا أيضا فى قصة موسى آية . وقال الفراء : هو معطوف على قوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ » « وَفِي مُوسَى » . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة بيِّنة وهى العصا . وقيل : أى بالمعجزات من العصا وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ أى فرعون أعرض عن الإيمان « بِرُكْنِهِ » أى بجموعه وأجناده ؛ قاله ابن زيد . وهو معنى قول مجاهد ، ومنه قوله : « أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ »(٣) يعنى المنعة والعشيرة . وقال ابن عباس وقتادة : بقوته . ومنه قول عنترة :

فما أَوْهَى مِرَاسُ الحَرْبِ رُكْنِي * ولكنْ ما تقادَمَ مِن زَمَانِي(٤)

وقيل : بنفسه . وقال الأخفش : بجانبه ؛ كقوله تعالى : « أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ »(٥) وقاله المؤرِّج . الجوهرى : ورُكْن الشىء جانبه الأقوى ، وهو يأوى إلى ركن شديد أى عزة ومنعة . القشيرى : والركن جانب البدن . وهذا عبارة عن المبالغة فى الإعراض عن الشىء .

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٤٣ .
(٢) فى ح « المشفقون » .
(٣) راجع ج ٩ ص ٧٨ .
(٤) فى رواية : ولا وصلت إلىّ يد الزمان .
(٥) راجع ج ١٠ ص ٣٢١ .

﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ « أو » بمعنى الواو ، لأنهم قالوهما جميعا . قاله المؤرج والفراء ، وأنشد بيت جرير :

أَثَعْلَبَةَ الفَوَارِسَ أَوْ رِيَاحًا * عَدَلْتَ بِهِم طُهَيَّةَ والخِشَابَا (١)

وقد توضع « أو » بمعنى الواو ، كقوله تعالى : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » (٢) والواو بمعنى أو ، كقوله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » وقد تقدّم جميع هذا (٣) . ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان . ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أى طرحناهم ﴿ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يعنى فرعون ، لأنه أتى ما يلام عليه .

قوله تعالى : وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أى وتركنا فى عاد آية لمن تأمل . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ وهى التى لا تُلقح سحابا ولا شجرا ، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة ؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد . ثم قيل : هى الجنوب . روى ابن أبى ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الريح العقيم الجَنُوب " وقال مقاتل : هى الدبور كما فى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "نُصرت بالصَّبَا وأهلكت عاد بالدَّبُور" . وقال ابن عباس : هى النكباء . وقال عُبيد بن عُمير : مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد أيضا أنها الصَّبا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أى كالشىء الهشيم ؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت : رميم وهشيم . قال ابن عباس : كالشىء الهالك البالى ؛ وقاله مجاهد . ومنه قول الشاعر (٤) :

(١) طهية — كسمية — : حى من تميم نسبوا إلى أمهم ، والخشاب : بطون من تميم أيضا .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٧ (٣) راجع جـ ٥ ص ١٧

(٤) هو جرير يرثى ابنه .

تَرَكَتْنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي * وَإِذْ بَقِيتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي

وقال قتادة : إنه الذى ديس من يابس النبات . وقال أبو العالية والسدى : كالتراب المدقوق . قُطْرب : الرَّمِيم الرَّماد . وقال يمان : ما رمته الماشية من الكلأ بمرمتها . و يقال للشفة المِرَمَّة والمِقَمَّة بالكسر، والمَرَمَّة بالفتح لغة فيه . وأصل الكلمة من رَمَّ العظمُ إذا بلى؛ تقول منه : رَمَّ العظم يَرِمُّ بالكسر رِمَّة فهو رميم ؛ قال [الشاعر](١) :

وَرَأَى عَوَاقِبَ خُلْفِ ذَاكَ مَذَمَّةً * تَبْقَى عليه والعِظَامُ رَمِيمُ

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمم ورِمام . ونظير هذه الآية : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » حسب ما تقدم(٢) .

قوله تعالى : وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أى وفيهم أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما فى هود(٣) : « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » . وقيل : معنى « تَمَتَّعُوا » أى أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم . ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أى الموت . وقيل : هى كل عذاب مهلك . قال الحسين بن واقد : كلّ صاعقة فى القرآن فهو العذاب . وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهد والكسائى « الصَّعْقَةَ » يقال صَعِق الرجلُ صَعْقة وتَصْعاقا أى غُشِى عليه . وصَعَقتهم السماء أى ألقت عليهم الصاعقة(٤) . والصاعقة أيضا صيحة العذاب وقد مضى فى « البقرة(٥) » وغيرها . ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ إليها نهارا . ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ ﴾ قيل : معناه

(١) من ن .	(٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٦ .	(٣) راجع جـ ٩ ص ٦٠ .
(٤) فى ح ، ز ، ل ، ن : « إذا ألقت » .	(٥) راجع جـ ١ ص ٢١٩ .

من نهوض . وقيل : ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم ؛ تقول : لا أقوم لهذا الأمر أى لا أطيقه . وقال ابن عباس : أى ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم فى العذاب . ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أى ممتنعين من العذاب حين أهلكوا ؛ أى ما كان لهم ناصر .

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو « وَقَوْمِ نُوحٍ » بالخفض ؛ أى وفى قوم نوح آية أيضا . الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح ؛ أو يكون معطوفا على الهاء والميم فى « أَخَذَتْهُمْ » أو الهاء فى « أَخَذْنَاهُ » أى فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح ، أو « نَبَذْنَاهُمْ فى الْيَمِّ » ونبذنا قوم نوح ، أو يكون بمعنى اذكر .

قوله تعالى : وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ لما بيّن هذه الآيات قال : وفى السماء آيات وعبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال ؛ فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان . ومعنى « بِأَيْدٍ » أى بقوة وقدرة . عن ابن عباس وغيره . ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس : لقادرون . وقيل : أى وإنا لذو سَعة ، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده . وقيل : أى وإنا لموسعون الرزق على خلقنا . عن ابن عباس أيضا . الحسن : وإنا لمطيقون . وعنه أيضا : وإنا لموسعون الرزق بالمطر . وقال الضحاك : أغنيناكم ؛ دليله : «عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ»[(١)] . وقال القُتَبى : ذو سعة على خلقنا . والمعنى متقارب . وقيل : جعلنا بينهما وبين الأرض سعة . الجوهرى : وأوسع الرجلُ أى صار ذا سَعة وغِنًى ، ومنه قوله تعالى : «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» أى أغنياء قادرون . فشمل جميع الأقوال . ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٣

أى بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها . ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أى فنعم الماهدون نحن لهم[1] . والمعنى فى الجمع التعظيم ؛ مهدت الفراش مَهْدًا بَسَطته ووطّأته ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أى صنفين ونوعين مختلفين . قال ابن زيد : أى ذكرا وأنثى وحلوًا وحامضا ونحو ذلك . مجاهد : يعنى الذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجنّ والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشيّ ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم والأرايح والأصوات . أى جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » لتعلموا أن خالق الأزواج فرد ، فلا يقدّر فى صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ، إذ هو عزّ وجل وتر « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[2] . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ لما تقدّم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم ؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد ؛ أى قل لقومك : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى فِرّوا من معاصيه إلى طاعته . وقال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم ، وعنه فِرّوا منه إليه واعملوا بطاعته . وقال محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ » اخرجوا إلى مكة . وقال الحسين

(١) لفظة « لهم » ساقطة من ز .		(٢) راجع ج ١٦ ص ٨

آبن الفضل : آحترزوا من كل شيء دون الله فمن فـرّ إلى غيره لم يمتنع منـه . وقال أبو بكر الوزاق : فِروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقال الجُنَيد : الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه . وقال ذو النون المصرى : ففِرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر . وقال عمرو بن عثمان : فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم . وقال أيضا : فِروا إلى ماسبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم . وقال سهل بن عبد الله : فِرّوا ممـا سوى الله إلى الله . « إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أى أنذركم عقابه على الكفر والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا للناس وهو النذير . وقيل : هو خطاب من الله للخلق . ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من محمد وسيوفه ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أى أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بى ؛ قاله آبن عباس .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُـولٍ ﴾ هذا تسلية للنبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم . والكاف من « كَذَٰلِكَ » يجوز أن تكون نصبا على تقدير أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدّمنى من الرسـل الذين أنذروا قومهم، أو رفعا على تقدير الأمر كذلك أى كالأول . والأول تخويف لمن عصاه من الموحِّدين، والثانى لمن أشرك به من الملحدين . والتمـام على قوله : « كَذَٰلِكَ » عن يعقوب وغيره .

قوله تعـالى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أى أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب . وتواطئوا عليـه ؛ والألف للتوبيخ والتعجب . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى لم يوصِ بعضهم بعضا بل جمعهم الطغيان ؛ وهو مجاوزة الحدّ فى الكفر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم وآصفح عنهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة، ثم نسخ هذا بقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : نسخ بآية السيف . والأول قول الضحاك ؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم الموعظة . وقال مجاهد : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » فأعرض عنهم « فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » أى ليس يلومك

ربك على تقصير كان منك «وَذَكِّرْ» أى بالعظة فإن العظة «تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ». قتادة: «وَذَكِّرْ» بالقرآن «فَإِنَّ الذِّكْرَى» به «تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ». وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخصّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن سبق فى علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحدون. قال القشيرىّ: والآية دخلها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ»[1] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا»[2] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي. وفى قراءة عبد الله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» وقال علىّ رضى الله عنه: أى وما خلقت الجنّ والإنس إلا لآمرهم بالعبادة. وآعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قوله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا»[3]. فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذللوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الآمتناع منه، وإنما خالفهم من كفر فى العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. وقيل: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» أى إلا ليقروا لى بالعبادة طوعا أو كرها؛ رواه علىّ آبن أبى طلحة عن آبن عباس. فالكره ما يُرى فيهم من أثر الصنعة. مجاهد: إلا ليعرفونى.

(١) راجع ج ٧ ص ٣٢٤ (٢) راجع ج ١٦ ص ٣٤٨ (٣) راجع ج ٨ ص ١١٩

الثعلبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده . ودليل هـذا التأويل قوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ »(١) « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ »(١) وما أشبه هـذا من الآيات . وعن مجاهد أيضا : إلا لآمرهم وأنهاهم . زيد بن أسلم : هو ما جُبِلوا عليه من الشّقوة والسعادة ؛ فخلق السعداء من الجنّ والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء منهم للعصية . وعن الكلبي أيضا : إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده في الشـدّة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدّة والبـلاء دون النعمة والرخاء ؛ يدل عليه قوله تعـالى : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »(٢) الآية . وقال عِكْرِمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد . وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب ؛ تقول : عبـد بيِّن العبودة والعبودية ، وأصـل العبودية الخضوع والذل . والتعبيد التذليل ؛ يقال : طريق معبد . قال(٣) :

* وظِيفًا وَظِيفًا فـوقَ مَوْرٍ مُعَبَّـدِ *

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخـذه عبدا . وكذلك الاعتباد . والعبادة : الطاعة ، والتعبُّـد التّنسك . فمعنى « لِيَعْبُدُونِ » ليذلّوا ويخضعوا ويعبدوا . ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ « مِنْ » صـلة أي رزقا بل أنا الرزّاق والمعطي . وقال ابن عبـاس وأبو الجوزاء : أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ وقرأ ابن مُحيصن وغيره « الرَّازِقُ » . ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ أي الشديد القويّ . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب والنّخعي « الْمَتِينِ » بالجـر على النعت للقـوّة . الباقون بالرفع على النعت لـ « الرزّاق » ، أو « ذُو » من قوله : « ذُو الْقُوَّةِ » أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أو يكون نعتا لاسم إنّ على الموضع ، أو خبرا بعـد خبر . قال الفراء : كان

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٢٣ وص ٦٤ (٢) راجع جـ ١٤ ص ٨٠

(٣) هو طرفة بن العبد ، والبيت من معلقته وصدره :

* تباري عتاقا ناجيات وأتبعت *

الوظيف عظم الساق . وقوله أتبعت وظيفا وظيفا أي أتبعت وظيف يدها وظيف رجلها ، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها في موضع يدها إذا سارت . والمور : الطريق .

حمته المتينة فذكّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل ؛ يقال : حبل متين .
وأنشد الفرّاء :

لِكُلِّ دَهْرٍ قَدْ لَبِسْتُ أَثْوُبَا * حَتَّى ٱكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعًا أَشْيَبَا
* مِن رِيطَةٍ وَالْيُمْنَةَ الْمُعَصَّبَا *

فذكّر المعصّب ؛ لأن اليمنة صنف من الثياب ؛ ومن هذا الباب قوله تعالى : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ »(١) أي وعظ « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ »(٢) أي الصياح والصوت .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا من أهل مكة ﴿ ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أي نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة . وقال ٱبن الأعرابي : يقال يوم ذَنُوب أي طويل الشر لا ينقضي . وأصل الذَّنُوب في اللغة الدّلو العظيمة ، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنُوب نصيب من هذا ؛ قال الراجز :

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ * فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

وقال علقمة :

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بِنِعمةٍ * فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر(٣) :

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتٌ * لِكُلِّ بَنِي أَبٍ مِنْهَا ذَنُوبُ

الجوهري : والذَّنُوب الفرس الطويل الذَّنب ، والذَّنُوب النصيب ، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن ، والذَّنُوب الدّلو الملأى ماء . وقال ٱبن السكيت : فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر ، ولا يقال لها وهي فارغة ذَنُوب ، والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنَائب ، مثل قَلُوص وقَلَائص . ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي فلا يستعجلون نزول العذاب بهم ؛ لأنهم قالوا : يا محمد « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »(٤) فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجّل بهم ٱنتقامه ، ثم لهم في الآخرة العذاب الدائم ، والخزي القائم ، الذي لا ٱنقطاع له ولا نفاد ، ولا غاية ولا آباد . تم تفسير سورة « والذاريات » والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩		(٢) راجع جـ ٩ ص ٦١
(٣) قائله أبو ذؤيب .		(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٧ و جـ ٩ ص ٢٧

ســورة « والطــور »

مكية كلها فى قول الجميع ، وهى تسعٌ وأربعون آية

روى الأئمة عن جبير بن مُطْعِم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بالطور فى المغرب . متفق عليه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ الطور ٱسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى ؛ أقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات ، وهو أحد جبال الجنة . وروى إسمعيل ابن إسحق قال : حدّثنا إسمعيل بن أبى أويس ، قال : حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة مَلَاحم من مَلَاحم الجنة"(١) قيل : فما الأجبل ؟ قال : "جبل أُحُد يحبنا ونحبه والطُّور جبل من جبال الجنة ولُبْنان جبل من جبال الجنة [والجودى(٢) جبل من جبال الجنة]" وذكر الحديث ، وقد استوفيناه فى كتاب «التذكرة» . قال مجاهد : الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طورسينا . وقاله السدّى . وقال مقاتل بن حيان : هما طوران يقال لأحدهما طُورسينا والآخر طورزيتا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل : هو جبل بمَدْيَن وٱسمه زَبير . قال الجوهرى : والزَّبير الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام .

(١) الملاحم : غزوة بدر وأحد والخندق وخيبر . (٢) الزيادة من ن .

قلت : ومدين بالأرض المقدّسة وهى قرية شعيب عليـه السلام . وقيل : إن الطُّور كل جبل أنبت، ومالا ينبت فليس بطور؛ قاله ابن عباس . وقد مضى فى «البقرة» (١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ أى مكتوب ؛ يعنى القـرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ ؛ كما قال تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٢) » . وقيل : يعنى سائر الكتب المنزلة على الأنبياء، وكان كل كتاب فى رَقّ ينشره أهـله لقراءته . وقال الكلبي : هو ما كتب الله لموسى بيـده من التـوراة وموسى يسمع صرير القلم . وقال الفراء : هو صحائف الأعمـال ؛ فمن آخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله ؛ نظـيره : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (٣) » وقوله : « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (٤) » . وقيل : إنه الكتاب الذى كتبه الله تعالى لملائكته فى السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون . وقيـل : المراد ما كتب الله فى قلوب الأوليـاء من المؤمنين؛ بيـانه : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ (٢) » .

قلت : وفى هـذا القول تجوُّز ؛ لأنه عبّر بالقلوب عن الرّق . قال المبرّد : الرّق ما رُقِّق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور المبسوط . وكذا قال الجوهرى فى الصحاح ، قال : والرّق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق . ومنه قوله تعـالى : « فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ » والرّق أيضـا العظيم من السّلاحف . قال أبو عبيدة : و جمعه رُقُوق . والمعنى المراد ما قاله الفراء؛ والله أعلم . وكل صحيفة فهى رَقّ لرقة حواشيها ؛ ومنه قول المتلمس :

فكأنّما هى من تَقَادُمِ عَهْدِها ＊ رَقٌّ أُتيح كتابُهـا مَسطورُ (٥)

وأما الرِّق بالكسر فهو الملك؛ يقال : عبد مرقوق . وحكى المـاوردى عن ابن عباس : أن الرّق بالفتح ما بين المشرق والمغرب .

قوله تعـالى : ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ قال على وابن عباس وغيرهما : هو بيت فى السماء حِيَال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليـه . قال

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ .
(٢) راجع ص ٢٢٤ وص ٣٠٨ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٩ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٣٢ .
(٥) لم نعثر على هذا البيت فى ديوان المتلمس .

على رضي الله عنه : هو بيت في السماء السادسة . وقيل : في السماء الرابعة ؛ روى أنس ابن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوتي بي إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حِيال الكعبة لو خَرَّ خَرَّ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه " ذكره الماوردي . وحكى القشيري عن آبن عباس أنه في السماء الدنيا . وقال أبو بكر الأنباري : سأل آبن الكواء عليًّا رضي الله عنه قال : فما البيت المعمور ؟ قال : بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّراح . وكذا في « الصحاح » : والضُّراح بالضم بيت في السماء وهو البيت المعمور عن آبن عباس . وعُمْرانه كثرة غاشيته من الملائكة . وقال المهدوي عنه : حذاء العرش . والذي في صحيح مسلم عن مالك بن صعصعة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء : " ثم رُفع إليّ البيت المعمور فقلت ياجبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخرُ(١) ما عليهم " وذكر الحديث . وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتيت بالبُرَاق " الحديث ؛ وفيه : " ثم عرج بنا إلى السابعة(٢) فآستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومَن معك قال محمد — صلى الله عليه وسلم — قيل وقد بُعث إليه قال قد بُعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور و إذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه " . وعن ابن عباس أيضا قال : لله في السموات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتا ، سبعة في السموات وسبعة في الأرضين والكعبة ، وكلها مقابلة للكعبة . وقال الحسن : البيت المعمور هو الكعبة ، البيت الحرام الذي هو معمور من الناس ، يعمره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة ، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض . وقال الربيع بن أنس : إن البيت المعمور كان

(١) « آخر » برفع الراء ونصبها ، فالنصب على الظرف والرفع على تقدير ذلك آخر ما عليهم ، والرفع أوجه . (هامش مسلم) .

(٢) في ح ، ز ، ل ، ن : « إلى السماء السابعة » .

فى الأرض موضع الكعبة فى زمان آدم عليه السلام، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجّوا فأبوا عليه وعصوه ، فلما طغى الماء رفع بحذائه فى السماء الدنيا، فيعمره كلّ يوم سبعون ألفَ ملَك ، ثم لا يرجعون إليه حتى ينفخ فى الصور ، قال : فبوّأ الله جلّ وعزّ لإبراهيم مكان البيت حيث كان ؛ قال الله تعالى : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »(١). ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ يعنى السماء سماها سقفا ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت ؛ بيانه : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا »(٢) . وقال ابن عباس : هو العرش وهو سقف الجنة . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ قال مجاهد : الموقد ؛ وقد جاء فى الخبر : "إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون نارا" . وقال قتادة : المملوء . وأنشد النحويون للنمر بن تَوْلَب :

إذا شاء طالع مَسْجُورةً　＊　تَرَى حولَها النَّبْعَ والسَّاسَما(٣)

يريد وَعِلا يطالع عينا مسجورة مملوءة . فيجوز أن يكون المملوء نارا فيكون كالقول المتقدم . وكذا قال الضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه المُوقَد المحمى بمنزلة التَّنُّور المسجور . ومنه قيل : للمِسْعَر مِسْجَر ؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ »(٤) أى أوقدت ؛ سَجَرت التَّنُّور أسجره سجْرا أى أحميته . وقال سعيد ابن المسيّب : قال علىّ رضى الله عنه لرجل من اليهود : أين جهنم؟ قال : البحر . قال ما أُراك إلا صادقا ، وتلا : « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » . « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ » مخففة . وقال عبد الله ابن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . [وقال كعب : يُسجَر البحر غدا فيزاد فى نار جهنم ؛ فهذا قول(٥)] وقال ابن عباس : المسجور الذى ذهب ماؤه . وقاله أبو العالية . وروى عطية وذو الرُّمّة الشاعر عن ابن عباس قال : خرجت أَمَة لتستقى فقالت : إن الحوض مسجور أى فارغ ، قال ابن أبى داود : ليس لذى الرُّمّة حديث إلا هذا . وقيل : المسجور أى المفجور ؛ دليله : «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ»(٤) أى تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء .

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٦　(٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥　(٣) الساسم (غير مهموز) : شجر يتخذ منه القسى والسهام ؛ والنبع مثله .　(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٢٨ وص ٢٤٢　(٥) ما بين المربعين ساقط من هـ .

وقول ثالث قاله عليّ رضي الله عنه وعكرمة . قال أبومكين : سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال : هو بحر دون العرش . وقال عليّ : تحت العرش فيه ماء غليظ . ويقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون في قبورهم . وقال الربيع بن أنس : المسجور المختلط العذب بالملح .

قلت : وإليه يرجع معنى « فُجِّرَتْ » في أحد التأويلين ؛ أي فُجِّرَ عذبُها في مالحها : والله أعلم . وسيأتي . وروى عليّ ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسجور المحبوس . ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أي واقع بالمشركين . قال جُبَير بن مُطْعِم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب « وَالطُّورِ » إلى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفا من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب . وقال هشام بن حسان : انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ « وَالطُّورِ » حتى بلغ « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ » فبكى الحسن وبكى أصحابه ؛ فجعل مالك يضطرب حتى غُشِي عليه . ولما وُلّي بكّار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين ، فرغب إلى الصلح بينهما ، وأنه يعطي خصمه من عنده عوضا من يمينه فأبى إلا اليمين ، فأحلفه بأول « وَالطُّورِ » إلى أن قاله له قل : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ » (١) إن كنت كاذبا ؛ فقالها فخرج فكسر من حينه .

قوله تعالى : يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

---

(١) في ن « إن عذاب الله بي لواقع الخ » .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ العامل في يوم قوله : « وَاقِـعٌ » أي يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذي تمور فيه السماء . قال أهل اللغة : مار الشيءُ يَمُورُ مَوْرًا ، أي تحرك وجاء وذهب كما تَتَكفّأ النخلةُ العَيْدانة ، أي الطويلة ، والتَّمور مثله . وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض . مجاهد : تدور دورا . أبوعبيدة والأخفش : تكفأ ، وأنشد للأعشى :

كأنّ مِشْـيَتها مِن بيتِ جارتِهـا * مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل تجري جريا . ومنه قول جرير :

وما زالتِ القتْـلَى تَمُـورُ دماؤُهَا * بدِجلةَ حـتّى ماءُ دجلةَ أَشْـكَلُ (١)

وقال ابن عباس : تمـور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب . وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض . والمور أيضا الطريق . ومنه قول طَرَفَة :

* ... فَـوْقَ مَـوْرٍ مُعبَّـدِ (٢) *

والمُـوْرُ الموج . وناقة مَوّارة اليد أي سريعة . والبعير يمور عضداه إذا ترددا في عَرْض جنبه ، قال الشاعر :

* على ظَهْـرِ مَـوَّارِ المِـلاطِ حِصَانِ *

المِلاط الجنب . وقولهم : لا أدرى أغارَ أم مَارَ ؛ أي أتى غورا أم دار فرجع إلى نجد . والمُور بالضم الغبار بالريح . وقيل : إن السماء هاهنا الفلك ومورُه اضطراب نظمه واختلاف سيره ؛ قاله ابن بحر . ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ قال مقاتل : تسير عن أماكنها حتى تستوى بالأرض . وقيل : تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا ؛ بيانه « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٣) » . وقد مضى هذا المعنى في « الكهف (٤) » . ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

(١) الأشكل : ما فيه بياض وحمرة .
(٢) البيت من معلقته وتمامه :

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت * وظيفا وظيفا فـوق مور معبـد

تبارى : تعارض . والعتاق : النوق الكرام . والناجيات : المسرعات . والوظيف : عظم الساق . والمعبد : المذلل .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٢
(٤) راجع جـ ١٠ ص ٤١٦

« وَيْلٌ » كلمة تقال للهالك ، وإنما دخلت الفاء لأن فى الكلام معنى المجازاة . ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أى فى تردد فى الباطل ، وهو خوضهم فى أمر محمد بالتكذيب . وقيل : فى خوض فى أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حسابا ولا جزاء . وقد مضى فى « براءة »(١) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ « يَوْمَ » بدل من يومئذ . و « يُدَعُّونَ » معناه يدفعون إلى جهنم بشدة وعنف ، يقال : دَعَعْتُه أدعُّه دعًّا أى دفعته ، ومنه قوله تعالى : « فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ »(٢) . وفى التفسير : إن خزنة جهنم يَغلُّون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعونهم فى النار دفعًا على وجوههم ، وزَخًّا فى أعناقهم حتى يردوا النار . وقرأ أبو رجاء العطاردى وابن السَّمَيْقَع « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًا » بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع ؛ أى يقال لهم : « أَفَسِحْرٌ هَذَا » الذى ترون الآن بأعينكم ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل ؛ أى بل كنتم لا تبصرون فى الدنيا ولا تعقلون .

قوله تعالى : ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ أى تقول لهم الخزنة ذوقوا حرّها بالدخول فيها . ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْلَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن فـ « سواء » خبره محذوف ، أى سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شيء ، كما أخبر عنهم أنهم يقولون : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا »(٣) . ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠١ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢١١

(٣) راجع جـ ٩ ص ٣٥٥

قوله تعـالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لمـا ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضًا ﴿فَاكِهِينَ﴾ أى ذوى فاكهة كثيرة ؛ يقال : رجل فاكه أى ذو فاكهة ، كما يقال : لابِنٌ وتامِرٌ ؛ أى ذو لبن وتمر ؛ قال[1] :

وغَرَرْتَنِي وزعمتَ أنـ * ـكَ لابِنٌ بالصَّيْف تَامِرْ

أى ذو لبن وتمـر . وقرأ الحسن وغيره : « فَكِهِينَ » بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين فى قول ابن عباس وغيره ؛ يقـال : فَكِه الرجلُ بالكسر فهـو فَكِهٌ إذا كان طيّب النفس مزاحا . والفكِه أيضًا الأَشِر البطِر . وقد مضى فى «الدخان»[2] القول فى هذا . ﴿بِمَا آتَاهُمْ﴾ أى أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ . ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أى يقال لهم ذلك . ﴿هَنِيئًا﴾ الهنىء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنئكم ما صرتم إليه «هَنِيئًا» . وقيل : أى مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعًا هنيئًا . وقيل : أى كلوا واشربوا هنئتم «هَنِيئًا» فهو صفة فى موضع المصدر . وقيل : « هَنِيئًا » أى حلالا . وقيل : لا أذى فيه ولا غائلة . وقيل : « هَنِيئًا » أى لا تموتون ؛ فإن ما لا يبق أو لا يبق الإنسان معه منغص غير هنىء .

قوله تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ﴾ سُرُر جمع سرير وفى الكلام حذف تقديره : متكئين على نمـارق سرر . ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن الأعرابى : أى موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا . وفى الأخبار أنها تصفّ فى السماء بطـول كذا وكذا ؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له ، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها . قال ابن عباس : هى سرر من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير مابين مكة وأيلة . ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى قرنّاهم بهنّ . قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته امرأة وتزوّجت امرأةً ، وليس من كلام العرب تزوجت بامرأة . قال : وقول الله عز وجل : « وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أى قرنّاهم بهنّ ؛ من قول الله تعـالى : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَأَزْوَاجَهُمْ »[3] أى وقرناءهم . وقال الفرّاء : تزوّجت بامرأة لغة فى أزد شنوءة . وقد مضى[4] القول فى معنى الحور العين .

---

(١) هو الحطيئة . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٣٩
(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٠٢ (٤) راجع جـ ١٦ ص ١٥٢

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ﴾ قرأ العامة «وَاتَّبَعَتْهُمْ» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو «وَأَتْبَعْنَاهُمْ» بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون؛ اعتبارا بقوله : «أَلْحَقْنَا بِهِمْ» ؛ ليكون الكلام على نسق واحد . فأما قوله : «ذُرِّيَّتُهُمْ» الأولى فقرأها بالجمع ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم. وقرأ الباقون «ذُرِّيَّتُهُمْ» على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع . فأما الثانية فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع . الباقون «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد وفتح التاء . واختلف في معناه ؛ فقيل عن ابن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرّبهم عينه، وتلا هذه الآية . ورواه مرفوعاً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرّبهم عينه" ثم قرأ «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم بِإِيمَانٍ» الآية . قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه . الزمخشري : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم .

وعن ٱبن عباس أيضا أنه قال: إن الله ليلحق بالمؤمن ذريّته الصّغار الذين لم يبلغوا الإيمان؛ قاله المهدوى . والذرية تقع على الصغار والكبار، فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قوله تعالى : « بِإِيمَـانٍ » فى موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير « بِإِيمَـانٍ » من الآباء . وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله : « بِإِيمَـانٍ » حالا من الفاعلين . القول الثـالث عن ٱبن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون . وفى رواية عنه : إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبنـاء إلى الآباء، وإن كان الأبنـاء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء؛ فالآباء داخلون فى ٱسم الذرّية؛ كقوله تعالى: « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » . وعن ٱبن عباس أيضا يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنـة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهـم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول يا ربّ إنى عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به" . وقالت خديجـة رضى الله عنها : سألت النبى صلىّ الله عليـه وسلم عن ولدين لى ماتا فى الجاهليـة فقال لى : "هما فى النـار" فلما رأى الكراهية فى وجهى قال : "لو رأيتِ مكانهما لأبغضتِهما" قالت : يا رسول الله فولدى منك ؟ قال : "فى الجنة" ثم قال : "إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة والمشركين وأولادهم فى النار"[1] ثم قـرأ « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَـانٍ » الآية .

﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئا بإلحـاق الذريات بهم . والهـاء والميم راجعان إلى قوله تعـالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وقال ٱبن زيد : المعنى « وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَـانٍ » ألحقنا بالذّرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل؛ فالهاء والميم على هـذا القول للذّرية . وقرأ ٱبن كثير « وَمَا أَلِتْنَاهُمْ » بكسر اللام . وفتح الباقـون . وعن أبى هريرة « آلَتْنَاهُمْ » بالمدّ؛ قال ٱبن الأعرابى: أَلَتَه يألِتُه أَلْتًا، وآلَتَه يُؤْلِتُه إيلاتًا، ولاتَه يَليته لَيْتًا كلها إذا نَقَصه .

---

(١) هـذا الحديث كان قبـل قوله صـلى الله عليـه وسلم : « سألت ربى فأعطانى أولاد المشركين خدما لأهل الجنة » .

وفي الصحاح : ولاته عن وجهه يَلُوته ويَليته أي حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاته عن وجهه فَعَل وأَفْعل بمعنى، ويقال أيضا : ما أَلاته من عمله شيئا أي مانقصه مثل أَلَته وقد مضى بـ«الحجرات»(١) . ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ قيل : يرجع إلى أهل النار . قال ابن عباس : ارتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم؛ ولهذا قال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ »(٢) . وقيل : هو عام لكل إنسان مُرْتَهَن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمـله، فأما الزيادة على ثواب العمل فهي تفضل من الله . ويحتمل أن يكون هـذا في الذّرية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مُرْتَهَنين بكفرهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي أكثرنا لهـم من ذلك زيادة من الله، أمدّهم بها غير الذي كان لهم .

قوله تعـالى : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أي يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة . والكأس : إناء الخمـر وكل إناء مملوء من شراب وغيره ؛ فإذا فرغ لم يسم كأسا . وشاهد التنازع والكأس في اللغة قول الأخطل :

وشَـارِب مُرْبِـح بالكأس نَادَمَنِي * لا بالحَصُور ولا فيهـا بسَـوَّارِ(٣)
نَازَعْتُـه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وقـدْ * صَاحَ الدَّجَاجُ وحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي

وقال امرؤ القيس :

فَلَمَّـا تَنَازَعْنَا الحَـدِيثَ وأَسْمَحَتْ * هَصَرْتُ بغصنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّـالِ

وقد مضى هـذا في «والصافات»(٤) . ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي في الكأس أي لا يجرى بينهم لغو

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٨ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٨٥

(٣) مربح : يعني لضيفانه الربح وهي الفصلان ؛ ويروى : مرنّح وهو الذي كأسه ملأى بالخمـر فيسكر ولا يتغير عن أخلاقه الحميـدة . والحصور الضيق البخيل مثل الحصير . والسوار هو المعـربد الوثاب ؛ ويروى بسئآر وهو الذي إذا شرب ترك بقية في قعـر الإناء . والدجاج هنا المـراد به الديكة يريد وقت السحر ؛ يقال هـذا دجاج فيريدون الديوك . وهذه دجاج فيريدون الأنثى . ووقعة الساري — ويروى وقفة الساري — من وقعت الإبل إذا بركت . والساري هو السائر بالليل . وفي نسخ الأصل كلها : في الكأس نازعني . والتصحيح كما أثبتناه في صدر الكتاب من ديوان الأخطل طبع اليسوعيين . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٧٧ ... ففيها الكلام على الكأس .

« وَلَا تَأْثِيمٌ » ولا مافيه إثم . والتأثيم تفعيل من الإثم ؛ أى تلك الكأس لاتجعلهم آثمين لأنه مباح لهم . وقيل : « لَا لَغْوٌ فِيهَا » أى فى الجنة . قال آبن عطاء : أىّ لغوٍ يكون فى مجلس محلّه جنة عدن ، وسقاتهم الملائكة ، وشربهم على ذكر الله ، وريحانهم وتحيتهم من عند الله ، والقوم أضياف الله ! « وَلَا تَأْثِيمٌ » أى ولا كذب ؛ قاله آبن عباس . الضحاك : يعنى لايكذب بعضهم بعضا . وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وأبو عمرو : « لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ » بفتح آخره . الباقون بالرفع والتنوين . وقد مضى هذا فى « البقرة »(١) عند قوله تعالى : « وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾ أى بالفواكه والتُّحف والطعام والشراب ؛ ودليله : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ »(٢) ، « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ »(٣) . ثم قيل : هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقر الله تعالى بهم أعينهم . وقيل : إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم . وقيل : هم غلمان خلقوا فى الجنة . قال الكلبي : لا يكبرون أبدا ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ فى الحسن والبياض ﴿ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ فى الصَّدَف ، والمكنون المصون . وقوله تعالى : « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ »(٤) . قيل : هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة . وليس فى الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم . وعن عائشة رضى الله عنها : أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدمه فيجيبه ألفٌ كلّهم لبّيك لبّيك " . وعن عبد الله بن عمر قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه " . وعن الحسن أنهم قالوا : يارسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم ؟ فقال : " ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب " . قال الكسائى : كننت الشيء سترته وصنته من الشمس ، وأكننته فى نفسى أسررته . وقال أبو زيد : كننته وأكننته بمعنًى فى الكِنّ وفى النفس جميعاً ؛ تقول : كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومُكَنّ . وكننت الجارية وأكننتها فهى مكنونة ومُكَنَّة(٥) .

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦٧ (٢) راجع ج ١٦ ص ١١١ (٣) راجع ج ١٥ ص ٧٧
(٤) راجع ص ٢٠٢ من هذا الجزء . (٥) هذه الكلمة ساقطة من ل .

قوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضا . وقيل : فى الجنة « يَتَسَاءَلُونَ » أى يتذاكرون ما كانوا فيه فى الدنيا من التعب والخوف من العاقبة ، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم . وقيل : يقول بعضهم لبعض بم صرت فى هذه المنزلة الرفيعة ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أى قال كل مسئول منهم لسائله : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ » أى فى الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله . ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالجنة والمغفرة . وقيل : بالتوفيق والهداية . ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ قال الحسن : « السَّمُوم » اسم من أسماء النار وطبقة من طباق جهنم . وقيل : هو النار كما تقول جهنم . وقيل : نار عذاب السَّمُوم . والسَّمُوم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سُمَّ يومُنا فهو مسموم والجمع سَمَائم قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ؛ وقد تستعمل السَّمُوم فى لفح البرد [وهو فى لفح الحر (١)] والشمس أكثر ؛ قال الراجز :

اليومُ يومٌ باردٌ سَمُومُـهُ * مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا أَلُومُهْ

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أى فى الدنيا بأن يمنّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا . وقيل : « نَدْعُوهُ » أى نعبده . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ وقرأ نافع والكسائى «أَنَّهُ» بفتح الهمزة ؛ أى لأنه . الباقون بالكسر على الابتداء . و «الْبَرُّ» (٢) اللطيف ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : أنه الصادق فيما وعد . وقاله ابن جريج .

(١) الزيادة من ن . (٢) تفسير البر بالمحسن أولى كما فى روح المعانى وغيره من التفسير .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فذكر يامحمد قومك بالقرآن . ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يعنى برسالة ربك ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ تبتدع القول وتخبر بما فى غد من غير وحى . ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ وهذا ردّ لقولهم فى النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فعقبة بن أبى مُعَيْط قال : إنه مجنون ، وشيبة بن ربيعة قال : إنه ساحر ، وغيرهما قال : كاهن ؛ فأكذبهم الله تعالى وردّ عليهم . ثم قيل : إن معنى «فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» القسم ؛ أى وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون . وقيل : ليس قسمًا ، وإنما هو كما تقول : ماأنت بحمد الله بجاهل ؛ أى قد برأك الله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ أى بل يقولون محمد شاعر . قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى فى كلامهم . قال أبو جعفر النحاس : وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبيّن ولا مشروح ؛ يريد سيبويه أن « أَمْ » فى كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث ؛ كما قال(١) :

* أَتَهْجُر غانيةً أَمْ تُلِمّ *

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال :

* أَمِ الحَبْلُ وَاهٍ بها مُنْجَذِمْ *

فما جاء فى كتاب الله تعالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث ، والنحويون يمثلونها ببل . ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ قال قتادة : قال قوم من الكفار تربصوا

(١) هو الأعشى .

بحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بنى فلان . قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر؛ أى يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأن أباه مات شابًّا فربما يموت كما مات أبوه . وقال الأخفش : نتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر، كما تقول : قصدت زيدًا وقصدت إلى زيد . والمنون : الموت فى قول ابن عباس . قال أبو الغَول الطُّهوى :

هُمُ مَنَعُوا حِمَى الْوَقَبَى بِضَرْبٍ * يُؤَلِّفُ بين أَشْتَاتِ الْمَنُونِ (١)

أى المنايا؛ يقول : إن الضرب يجمع بين قوم متفرقى الأمكنة لو أتتهم مناياهم فى أماكنهم لأتتهم متفرقة ، فاجتمعوا فى موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة . وقال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس : «رَيْبَ» فى القرآن شكٌّ إلا مكانًا واحدا فى الطور «رَيْبَ الْمَنُونِ» يعنى حوادث الأمور؛ وقال الشاعر (٢) :

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّها * تُطَلَّقُ يومًا أو يموتُ حَلِيلُها

وقال مجاهد : « رَيْبَ الْمَنُونِ » حوادث الدهر ، والمنون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب :

أَمِنَ الْمَنُونِ ورَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ * والدَّهْرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وقال الأعشى .

أَأَنْ رَأَتْ رجلًا أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ * رَيْبُ المنونِ ودَهْرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ (٣)

قال الأصمعى : المنون الليل والنهار؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه : أنه قيل للدهر منون، لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان أى قوته وكذلك المنِيَّة . أبو عبيدة: قيل للدهر منون؛ لأنه مُضْعِف، من قولهم حَبْلٌ مَنِين أى ضعيف، والمنين الغبار الضعيف. قال الفراء : والمنون مؤنثة وتكون واحدًا وجمعًا . الأصمعى : المنون واحد لا جماعة له .

---

(١) هو من بنى نهشل واسمه علباء بن جوشن . والوقبى بجمزى ماء لبنى مالك بن مازن مشهور بوقائع عديدة وهو على طريق المدينة من البصرة .

(٢) الذى فى نسخ الأصل : قال ابن عباس وليس بشىء ، وفى سائر كتب التفسير قال الشاعر كما أثبتناه .

(٣) يروى : ودهر مفند . وهى الرواية المشهورة . متبل مسقم أو يذهب بالأهل والولد . وخبل ككتف ملتو على أهله لا يرون فيه سرورا .

الأخفش: هو جماعة لا واحد له ، والمنون يذكر ويؤنث ؛ فمن ذكّره جعله الدهر أو الموت ، ومن أنثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ أى قل لهم يا محمد تربصوا أى ٱنتظروا . ﴿ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أى من المنتظرين بكم العذاب ؛ فعُذِّبوا يوم بدر بالسيف .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ ﴾ أى عقولهم ﴿ بِهَـٰذَا ﴾ أى بالكذب عليك . ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى أم طَغَوْا بغير عقول . وقيل : « أَمْ » بمعنى بل ؛ أى بل كفروا طغيانًا وإن ظهر لهم الحق . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله ؛ أى لم يصحبها بالتوفيق . وقيل : « أَحْلَامُهُمْ » أى أذهانهم ؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة . والذِّهن يقبل العلم جملةً ، والعقل يميِّز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما أعقل فلانًا النصرانى ! فقال : " مَهْ إنّ الكافر لاعقل له أما سمعت قول الله تعالى : «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ»". وفى حديث ٱبن عمر: فزجره النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم قال : "مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله" ذكره الترمذى الحكيم أبو عبد الله بإسناده . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى ٱفتعله وٱفتراه ، يعنى القرآن . والتقوّل تكلُّف القول ، وإنما يستعمل فى الكذب فى غالب الأمر . ويقال قوّلتنى مالم أقل ! وأقْوَلتنى مالم أقل ؛ أى ٱدّعيته علىّ . وتَقَوَّل عليه أى كذب عليه . وٱقتال عليه تحكَّم قال (١) :

ومَنْزِلةٌ فى دارِ صِـدْقٍ وغِبْطَـةٍ　＊　ومَا ٱقْتالَ مِن حُكْمٍ عَلَىَّ طَبِيبُ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أى ليس كما يقولون . ﴿ بَل لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جحدا وٱستكبارا . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أى بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى أن محمدا ٱفتراه . وقرأ الجحدرى « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ » بالإضافة . والهاء فى « مثله » للنبيّ صلى الله

(١) هو كعب بن سعد الغنوى .

عليه وسلم ، وأضيف الحديث الذى يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به . والهاء على قراءة الجماعة للقرآن .

قوله تعالى : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾
أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ « أَمْ » صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء . قال ابن عباس : من غير ربّ خلقهم وقدّرهم . وقيل : من غير أمّ ولا أب ؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لله عليهم حجة ؛ ليسوا كذلك ! أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قاله ابن عطاء . وقال ابن كيسان[1] : أم خُلِقوا عبثًا وتُرِكوا سُدًى «مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ» أى لغير شيء فـ « مِن » بمعنى اللام . ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك ، وإذا أقرّوا أن ثَمّ خالقًا غيرهم فما الذى يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام ، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث . ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئا ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بالحق ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويُعرِضوا عن أمره . وقال ابن عباس : خزائن ربك المطر والرزق . وقيل : مفاتيح الرحمة . وقال عكرمة : النبوة . أى أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا . وضرب المثل بالخزائن ؛ لأن الخزانة بيت

(١) فى ل : « قال ابن الكيت » .

يهيأ لجمع أنواع مختلفــة من الذخائر؛ ومقدورات الربّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها . ﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ قال آبن عباس : المسلّطون الجبّارون . وعنه أيضًا : المبطلون . وقاله الضحاك . وعن آبن عباس أيضا : أم هم المتولّون . عطاء : أم هم أرباب قاهرون . قال عطاء : يقال تسيطرت عليّ أي آتخذتني خَوَلًا لك . وقاله أبو عبيــدة . وفي الصحاح : المسيطر والمصيطر المسلّط على الشيء ليُشرف عليــه ويتعهّد أحوالَه ويكتب عمله ، وأصله من السَّطر؛ لأن الكتاب يُسَطِّر والذي يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِر . يقال سَيْطرتَ علينا . آبن بحر : « أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ » أي هم الحفظة ؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه؛ فصار المسيطر ها هنا حافظا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ . وفيه ثلاث لغــات : الصاد وبهــا قرأت العامة ، والسين وهي قراءة آبن مُحيصن وحُميد ومجاهد وقُنْبُل وهشام وأبي حَيْوة ، وبإشمام الصاد الزاي وهي قراءة حمزة كما تقدّم في « الصِّراط » (١) .

قوله تعــالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُــلَّمٌ ﴾ أي أيدّعون أن لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدًا وسببًا ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي . ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة بيّنة أن هذا الذي هم عليه حقّ . والسُّلَّم واحد السلالم التي يرتقى عليها . وربما سمي الغرز بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبي يصف ناقته :

مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ ربُّهــا　*　بِسُــلَّمِ غَرْزٍ في مُنَــاخٍ يُعاجــلُه

وقال زهـــير :

ومَنْ هابَ أســبابَ المنيَّــةِ يَلْقَها (٢)　*　ولَــوْ رَامَ أســبابَ السَّماءِ بِسُــلَّمِ

وقال آخـــر :

تَجنّيتِ لي ذنبًا وما إنْ جَنَيْتُه　*　لِتَتَّخِذي عُذْرًا إلى الهَجْــرِ سُلَّمــا

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٧　　(٢) ويروى :

* ومن هاب أسباب المنايا ينلنــه *

وهي الرواية المشهورة .

وقال ٱبن مُقبل فى الجمع :

لا تُحْرِزُ المرءَ أَحْجاءُ البِلَادِ وَلَا * يُبْنَى له فى السَّمواتِ السَّلالِيمُ

الأحجاء النواحى مثل الأرجاء واحدها حَجًا ورَجًا مقصور . ويروى : أعْناء البلاد ، والأعْناء أيضًا الجوانب والنواحى واحدها عِنْو بالكسر . وقال ٱبن الأعرابى : واحدها عَنًا مقصور . وجاءنا أعناء من الناس واحدهم عِنْو بالكسر، وهم قوم من قبائل شتَّى . « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى عليه ؛ كقوله تعالى : « فِى جُذُوعِ النَّخْلِ »(١) أى عليها ؛ قاله الأخفش . وقال أبو عبيدة : يستمعون به . وقال الزجاج : أى ألهم كجبريل الذى يأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ سفّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا . أى أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث . ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أى على تبليغ الرسالة . ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أى فهم من المغرم الذى تطلبهم به «مُثْقَلُونَ» مجهدون لما كلفتهم به . ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب . وقيل : أى أم عندهم علم ماغاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل . وقال قتادة : لما قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى : « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ » حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يئول إليه أمره . وقال ٱبن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه . وقال القتبى : يكتبون يحكمون والكتاب الحكم ؛ ومنه قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ »(٢) أى حكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " والذى نفسى بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله " أى بحكم الله .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أى مكرًا بك فى دار النَّدْوة . ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أى الممكور بهم « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »(٣) وذلك أنهم قتلوا ببدر . ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يخلق ويرزق ويمنع . ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزّه نفسه أن يكون له شريك . قال الخليل : كل ما فى سورة «والطور» من ذكر «أَمْ» فكلمة ٱستفهام وليس بعطف .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٢٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٣٥ (٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٥٨

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ قال ذلك جوابًا لقولهم : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ »[1]، وقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »[2] فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا : ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ أى بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فعل المعاند أو فعل من آستولى عليه التقليد، وكان فى المشركين القسمان . والكِسْف جمع كِسْفة وهى القطعة من الشىء؛ يقال : أعطنى كِسْفة من ثوبك، ويقال فى جمعها أيضًا : كِسْف . ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد . وقال الأخفش : من قرأ كِسْفًا جعله واحدًا، ومن قرأ « كِسَفا » جعله جمعا . وقد تقدم القول فى هذا فى « سبحان »[2] وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ منسوخ بآية السيف . ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يَصْعَقُونَ ﴾ بفتح الياء قراءة العامة، وقرأ آبن عامر وعاصم بضمها . قال الفرّاء : هما لغتان صَعِق وصُعِق مثل سَعِد وسُعِد . قال قتادة : يوم يموتون . وقيل : هو يوم بدر . وقيل : يوم النفخة[3] الأولى . وقيل : يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم . وقيل : « يُصْعَقُون » بضم الياء من أصعقه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى ما كادوا به النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الدنيا . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ من الله . و « يَوْمَ » منصوب على البدل من « يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٣٦ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣ (٣) فى ن : « وقال غيره عند النفخة الأولى » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كفروا ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ قيل : قبل موتهم . ٱبن زيد : مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . مجاهد : هو الجوع والجَهْد سبع سنين . ٱبن عباس : هو القتل . وعنه : عذاب القبر . وقاله البَرَاء بن عازب وعليّ رضى الله عنهم . فـ « دُونَ » بمعنى غير . وقيل : عذاباً أخفّ من عذاب الآخرة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [أن العذاب نازل بهم] (١) وقيل : « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ما يصيرون إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى — « وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » قيل : لقضاء ربك فيما حمّلك من رسالته . وقيل : لبلائه فيما ٱبتلاك به من قومك؛ ثم نسخ بآية السيف .

الثانيــة — قوله تعالى : « فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى ومنظر منّا نرى ونسمع ما تقول وتفعل . وقيل : بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك . والمعنى واحد . ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » (٢) أى بحفظى وحراستى وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » ٱختلف فى تأويل قوله : « حِينَ تَقُومُ » فقال عون بن مالك وٱبن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول : سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيراً ٱزددت ثناءً حسناً، وإن كان غير ذلك كان كفارةً له؛ ودليل هذا التأويل ما خرّجه الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غُفِر له ما كان فى مجلسه ذلك" قال : حديث

---

(١) الزيادة من ز، ل، ن، هـ . (٢) راجع جـ ١١ ص ١٩٦ .

حسن صحيح غريب . وفيه عن ابن عمر قال : كنا نعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم : "رب آغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور" قال حديث حسن صحيح غريب . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع : المعنى حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا . قال الكيا الطبرى : وهذا فيه بُعد؛ فإن قوله : « حِينَ تَقُومُ » لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذى يكون بعد القيام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ، فدلّ على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال آبن مسعود رضى الله عنه . وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك . قال حسان : ليكون مفتتحًا لعمله بذكر الله . وقال الكلبى : وآذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهى صلاة الفجر . وفى هذا روايات مختلفات صحاح ؛ منها حديث عُبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من تَعارَّ فى الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم آغفرلى أو دعا آستجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته" خرّجه البخارى . تعارّ الرجل من الليل : إذا هبّ من نومه مع صوت؛ ومنه عَارَّ الظَّلِيمُ يُعَارُّ عِرَارًا وهو صوته؛ وبعضهم يقول : عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِرَارًا ، كما قالوا زَمَرَ النَّعامُ يَزْمِرُ زِمَارًا . وعن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : "اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قَيُّوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ ووعدك الحقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبيون حقّ ومحمد حقّ اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك" متفق عليه . وعن آبن عباس أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا آستيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة « آل عمران »[1] .

(١) من قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض ... » آية ١٩٠ .

وقال زيد بن أسلم : المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر . قال ٱبن العربى : أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل . وقال الضحاك : إنه التسبيح فى الصلاة إذا قام إليها . الماوردى : وفى هذا التسبيح قولان : أحدهما وهو قوله سبحان ربى العظيم فى الركوع وسبحان ربى الأعلى فى السجود . الثانى أنه التوجه فى الصلاة يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك . قال ٱبن العربى : من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله ، والآثار فى ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : " وجَّهت وجهىَ " الحديث . وقد ذكرناه وغيره فى آخر سورة « الأنعام »[(1)] . وفى البخارى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله عَلِّمْنى دعاء أدعو به فى صلاتى ؛ فقال : " قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرةً من عندك وٱرحمنى إنك أنت الغفور الرحيم " .

الثانيــة ــ قوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » تقدّم فى « قٓ »[(2)] مستوفًى عند قوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلسُّجُودِ » . وأما « إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » فقال علىّ وٱبن عباس وجابر وأنس : يعنى ركعتى الفجر . فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس . وعن الضحاك وٱبن زيد : أن قوله : « وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » يريد به صلاة الصبح وهو ٱختيار الطبرىّ . وعن ٱبن عباس : أنه التسبيح فى آخر الصلوات . وبكسر الهمزة فى « إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه فى « قٓ » . وقرأ سالم بن أبى الجعد ومحمد بن السَّمَيْقَع « وَأَدْبَارَ » بالفتح ، ومثله روى عن يعقوب وسلام وأيوب ؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر . ودُبْر الأمر ودُبُره آخره . وروى الترمذى من حديث محمد بن فضيل ، عن رِشْدِين بن كريب عن أبيه عن ٱبن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب "

(1) راجع جـ ٧ ص ١٥٣ (2) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء .

قال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هـذا الوجه من حديث محمـد بن فضيل عن رِشدِين بن كريب . وسألت محمـد بن إسمعيل عن محمد بن فضيل و رِشْدِين بن كريب أيهما أوثق ؟ فقال : ما أقربهما ، ومحمد عنـدى أرجح . قال : وسألت عبد الله بن عبد الرحمن عن هذا فقال : ما أقربهما ، و رِشدِين بن كريب أرجحهما عندى . قال الترمذى : والقول ما قال أبو محمد و رِشدين بن كريب عندى أرجح من محمد وأقدم ، وقد أدرك رِشدِين آبن عباس ورآه . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسـلم على شيء من النوافل أشدّ معاهدة منـه على ركعتين (١) قبـل الصبح . وعنها عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيهـا " . تم تفسير سورة « والطور » والحمد لله .

ســورة « والنَّجْـــم »

مـكّـيّة ، وهى إحدى وستون آية

مكّيّة كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال آبن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » الآية . وقيل : آثنتان وستون آية . وقيل : إن السورة كلها مدنية . والصحيح أنها مكية لمـا روى آبن مسعود أنه قال : هى أوّل سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة . وفى « البخارى » عن آبن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد بالنّجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . وعن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد لها ، فمـا بقى أحد من القوم إلا سجد ؛ فأخذ رجل من القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعـه إلى وجهه وقال : يكفينى هذا . قال عبد الله : فلقد رأيته (٢) بعدُ قُتِل كافرًا ، متفق عليه . الرجل يقال له أمية بن خلف . وفى الصحيحين عن زيد بن ثابت [رضى الله عنـه (٣)] أنه قرأ على النبيّ صلى الله عليه وسـلم سورة « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » فـلم يسجد . وقد مضى فى آخر « الأعراف » القول (٤) فى هـذا والحمد لله .

---

(١) فى ن : «أشد معاهدة منه على ركعتى الفجر قبل الصبح» .
(٢) فى ل : « هو » .
(٣) الزيادة : من ز ، ل .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : معنى « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » والثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر ؛ والعرب تسمي الثُّرَيَّا نجما و إن كانت في العدد نجوما ؛ يقال : إنها سبعة أنجم ، ستة منها ظاهرة وواحد خفيّ (١) يمتحن الناس به أبصارهم . وفي « الشِّفا » للقاضي عياض : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يرى في الثُّريا أحد عشر نجما . وعن مجاهد أيضا أن المعنى والقرآن إذا نزل ؛ لأنه كان ينزل نجوما . وقاله الفرّاء . وعنه أيضا : يعني نجوم السماء كلها حين تغرب . وهو قول الحسن قال : أقسم الله بالنجوم إذا غابت . وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمع ؛ كقول الراعي :

فباتت تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرةٍ * سَرِيعٍ بِأَيدي الآكِلِين جُمُودُها

وقال عمر بن أبي ربيعة :

أَحْسَنُ النَّجْمِ في السماءِ الثُّرَيَّا * وَالثُّرَيَّا في الأرض زَيْنُ النِّساءِ

وقال الحسن أيضا : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقال السدّي : إن النجم ههنا الزُّهَرة لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها . وقيل : المراد به النجوم التي ترجم بها الشياطين ؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ، فذُعر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريرا ، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال : انظروا البروج الاثني عشر فإن انقضّ

(١) في ز ، ل : « وواحد منها » بزيادة كلمة : « منها » .

منها شيء فهو ذهاب الدنيا ، فإن لم ينقض منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم ، فاستشعروا ذلك ؛ فلما بُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم الذى آستشعروه ، فأنزل الله تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » أى ذلك النجم الذى هوى هو لهذه النبوة التي حدثت . وقيل : النجم هنا هو النبت الذى ليس له ساق ، وهَوَى أى سقط على الأرض . وقال جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم : «وَالنَّجْمِ» يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم « إِذَا هَوَى » إذا نزل من السماء ليلة المعراج . وعن عروة بن الزبير رضى الله عنهما أن عُتْبة ابن أبى لهب وكان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتينّ محمدًا فلأوذينّه ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى ، و بالذى دنا فتدلى . ثم تفل فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردّ عليه آبنته وطلّقها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللّهم سَلِّط عليه كلباً من كلابك " وكان أبو طالب حاضرًا فوجم لها وقال : ما كان أغناك يابن أخى عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام ، فنزلوا منزلاً ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة . فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يامعشر قريش هذه الليلة ! فإنى أخاف على آبنى من دعوة محمد ؛ فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمّم وجوههم حتى ضرب عُتْبة فقتله . وقال حسان :

مَنْ يَرْجِع العامَ إلى أَهْلِهِ * فما أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ (١)

وأصل النَّجْم الطلوع ؛ يقال : نَجَم السنُّ ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا أى خرج على السلطان . والهُوِىّ النزول والسقوط ؛ يقال : هَوَى يَهْوِى هُوِيّاً مثل مَضَى يَمْضِى مُضِيّاً ؛ قال زهير :

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ وهْىَ تَهْوِى (٢) * هُوِىَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَها الرِّشَاءُ

(١) فى : ا « من يرجع الآن » .

(٢) شج : علا . والبيت فى وصف عير وأتنه ؛ أى لما وجد العير أن صنيعات قد أنقطع ماؤها آنتقل عنها إلى غيرها فجعل يعلو بالأتن الأماعز وهى حزون الأرض الكثيرة الحصى .

وقال آخر[1] :

بَيْنَا نَحْنُ بالبَلَاكِثِ فالْقَا * عِ سِرَاعًا والعِيسُ تَهْوِى هُوِيًّا
خَطَرتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ * ـرَاكِ وَهْنًا فما آستطعْتُ مُضِيًّا

الأصمعي : هَوَى بالفتح يَهْوِى هُوِيًّا أي سقط إلى أسفل . قال : وكذلك آنهوى في السير إذا مضى فيه ، وهَوَى وآنْهَوَى فيه لغتان بمعنًى ، وقد جمعهما الشاعر في قوله :

وكَمْ مَنْزِلٍ لولاىَ طِحْتَ كما هَوَى * بأجرامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِى[2]

ويقال في الحُبّ : هَوِىَ بالكسر يَهْوَى هَوًى ؛ أي أحبّ .

قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أي ما ضلّ محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق وما حاد عنه . ﴿ وَمَا غَوَى ﴾ الغيّ ضد الرشد أي ما صار غاويًا . وقيل : أي ما تكلم بالباطل . وقيل : أي ما خاب مما طلب والغيّ الخيبة ؛ قال الشاعر[3] :

فمن يَلْقَ خيرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ * ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائمًا

أي مَن خاب في طلبه لامه الناس . ثم يجوز أن يكون هذا إخبارًا عما بعد الوحى . ويجوز أن يكون إخبارًا عن أحواله على التعميم ؛ أي كان أبدًا موحدًا لله . وهو الصحيح على ما بيناه في « الشورى »[4] عند قوله : « مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » قال قتادة : وما ينطق بالقرآن عن هواه « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى » إليه . وقيل : « عَنِ الْهَوَى » أي بالهوى ؛ قاله أبو عبيدة ؛

---

(١) قائله أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة كان متوجها إلى الشام فلما كان بالبلاكث — بالمثلثة — تذكر زوجته وكان شغوفا بها فكر راجعا فقال الأبيات ؛ وبعد البيتين :

قلت لبيك إذ دعاني لك الشو * ق وللحادين حثا المطيا

(٢) قائله يزيد بن الحكم الثقفي . وقلة كل شيء : أعلاه . والنيق — بكسر النون — : أرفع موضع في الجبل . وقيل : الطويل منه .

(٣) قائله المرقش .

(٤) راجع ج ١٦ ص ٥٥

كقوله تعالى : « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا »(١) أى فاسأل عنه . النحاس : قول قتادة أولى ، وتكون « عن » على بابها ، أى مايخرج نطقه عن رأيه ، إنما هو بوحى من الله عز وجل ؛ لأن بعده : « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

الثانيـة — قد يحتج بهذه الآية من لا يجوّز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الاجتهاد فى الحوادث . وفيها أيضًا دلالة على أن السُّنة كالوحى المنزل فى العمل . وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب حديث المقدام بن معدى كَرِب(٢) فى ذلك والحمد لله . قال السجستانى : إن شئت أبدلت « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » من « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » قال ابن الأنبارى : وهذا غلط ؛ لأن « إِنْ » الخفيفة لا تكون مبدلة من « ما » الدليل على هذا أنك لا تقول : والله ماقمت إن أنا لقاعد .

قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ يعنى جبريل عليه السلام فى قول سائر المفسرين ؛ سوى الحسن فإنه قال : هو الله عز وجل ، ويكون قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ على قول الحسن تمام الكلام ، ومعناه ذو قوّة والقوّة من صفات الله تعالى ؛ وأصله من شدّة فتل الحبل ، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل . ثم قال : ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعنى الله عز وجل ؛ أى استوى على العرش . روى معناه عن الحسن . وقال الربيع بن أنس والفراء : ﴿ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ أى استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ « هو » . وأكثر العرب إذا أرادوا العطف فى مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه ؛ فيقولون : استوى هو وفلان ؛ وقلما يقولون استوى وفلان ؛ وأنشد الفراء :

ألم تر أن النَّبْعَ يَصْلُبُ عُودُه * ولا يَسْتَوِى والخِرْوَعُ المُتَقَصِّفُ(٣)

أى لا يستوى هو والخروع ؛ ونظير هذا : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا »(١) والمعنى أئذا كنا ترابا نحن وآباؤنا . ومعنى الآية : استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٦٣ وص ٢٢٨ (٢) راجع جـ ١ ص ٣٧
(٣) النبع : شجر فى الجبال تتخذ منه القسى . والخروع معروف . والمتقصف : المتكسر .

وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر . وأنكر ذلك الزجاج إلا في ضرورة الشعر . وقيـل : المعنى فآستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. وإذا كان المستوى جبريل فمعنى «ذُو مِرَّةٍ» في وصفه ذو منطق حسن؛ قاله آبن عباس. وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن. وقيل: معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات؛ ومنـه قول النبيّ صـلى الله عليه وسلم : " لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ "[1]. وقال امرؤ القيس :

كنتُ فيهم أبدًا ذا حِيلة * مُحْكَمَ المِـرَّةِ مأمُونَ العُقَد

وقد قيل : «ذُو مِرَّةٍ» ذو قوة. قال الكلبي : وكان من شدّة جبريل عليه السلام : أنه آقتلع مدائن قوم لوط من الأرض السفلى[2]، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها. وكان من شدّته أيضًا : أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل في الهند. وكان من شدّته : صيحته بثمود في عددهم وكثرتهم، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدته : هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها في أسرع من الطرف . وقال قُطْرُب : تقول العرب لكل جَزْل الرأى حصيف العقل: ذُو مِرَّةٍ . قال الشاعر :

قد كنتُ قبلَ لِقاكُمُ ذا مِرَّةٍ * عنـدي لِكلّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقـله : أن الله آئتمنه على وحيه إلى جميـع رسله . قال الجوهري : والمِرَّة إحدى الطبائع الأربع، والمِرّة القـوة وشدّة العقل أيضا . ورجل مرير أي قويّ ذو مِرّةٍ . قال :

تَرى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فتزدريه * وحَشْـوُ ثِيـابِه أسـدٌ مَرِيرُ[3]

وقال لَقِيـــط :

حتى آستمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ * مُرُّ العزِيمةِ لا رَتًّا[4] ولا ضَرَعَا

(١) السوى : الصحيح الأعضاء . (٢) في ح ، س : «من الماء الأسود» .

(٣) قائله العباس بن مرداس . وفي التاج : وفي أنوابه رجل مزير . بالزاى . ويروى : أسد مزير . والمزير كأمير الشديد القلب القوى النافذ في الأمور . (٤) كذا في الأصول «لا رتا» والرتة ردة قبيحة في اللسان من العيب . والذى في ديوان لقيط بآخر كتاب منتهى الطالب : «لا قحما» . والقحم : الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف . والضرع : الواهن الذليل .

وقال مجاهد وقتادة : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوة ؛ ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة :

إِنّي آمرؤٌ ذو مِرَّةٍ فاستبقِنِي * فيما يَنُوبُ مِن الخُطُوبِ صَلِيبُ

فالقوة تكون من صفة الله عز وجل، ومن صفة المخلوق . « فَٱستوى » يعني جبريل على ما بينا؛ أي آرتفع وعلا إلى مكان في السماء بعد أن علّم محمدًا صلى الله عليه وسلم ، قاله سعيد آبن المسيِّب وآبن جبير . وقيل : « فَٱسْتَوَى » أي قام في صورته التي خلقه الله تعالى عليها ؛ لأنه كان يأتي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء ، فسأله النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه التي جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين : مرة في الأرض ومرة في السماء؛ فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بحراءٍ ، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب ، فخر النبيّ صلى الله عليه وسلم مغشيًّا عليه ، فنزل إليه في صورة الآدميين وضمّه إلى صدره ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه ؛ فلما أفاق النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ” ياجبريل ما ظننت أن الله خلق أحدًا على مثل هذه الصورة “ . فقال : يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي وإن لي ستمائة جناح سَعة كل جناح ما بين المشرق والمغرب . فقال : ” إن هذا لعظيم “ فقال : وما أنا في جنب ما خلقه الله إلا يسيرًا ، ولقد خلق الله إسرافيل له ستمائة جناح ، كل جناح منها قدر جميع أجنحتي ، وإنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوَصَع . يعني العصفور الصغير؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ »(1) وأما في السماء فعند سدرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقول ثالث أن معنى « فَٱسْتَوَى » أي آستوى القرآن في صدره . وفيه على هذا وجهان : أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه . الثاني في صدر محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه . وقول رابع أن معنى « فَٱسْتَوَى » فاعتدل يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فاعتدل في قوته . الثاني في رسالته . ذكرهما الماوردي .

قلت : وعلى الأوّل يكون تمام الكلام « ذُو مِرَّةٍ ، وعلى الثاني « شَدِيدُ ٱلْقُوَى » . وقول خامس أن معناه فارتفع . وفيه على هذا وجهان : أحدهما أنه جبريل عليه السلام

(1) راجع جـ ١٩ ص ٢٣٩

آرتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفا . الثاني أنه النبيّ صلى الله عليه وسلم آرتفع بالمعراج . وقول سادس « فَاسْتَوَى » يعني الله عز وجل، أي آستوى على العرش على قول الحسن . وقد مضى القول فيه في « الأعراف »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ جملة في موضع الحال ، والمعنى فاستوى عاليًا ، أي آستوى جبريل عاليًا على صورته ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إياها على ماذكرنا . والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق . وقال قتادة : هو الموضع الذي تأتي منه الشمس . وكذا قال سفيان : هو الموضع الذي تطلع منه الشمس . ونحوه عن مجاهد . ويقال : أُفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر . وقد مضى في « حم السجدة »(٢) . وفرس أُفُق بالضم أي رائع وكذلك الأنثى ؛ قال الشاعر :

أُرَجِّلُ لِمَّتِي وَأَجُرُّ ذَيْلِي * وَتَحْمِلُ شِكَّتِي أُفُقٌ كُمَيْتُ(٣)

وقيل : « وَهُوَ » أي النبيّ صلى الله عليه وسلم « بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى » يعني ليلة الإسراء وهذا ضعيف ؛ لأنه يقال : آستوى هو وفلان، ولا يقال آستوى وفلان إلا في ضرورة الشعر . والصحيح آستوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية ؛ لأنه كان يتمثل للنبيّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل بالوحي في صورة رجل ، فأحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يراه على صورته الحقيقية ، فاستوى في أفق المشرق فملأ الأفق .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ أي دنا جبريل بعد آستوائه بالأفق الأعلى من الأرض « فَتَدَلَّى » فنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي . المعنى أنه لما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم من عظمته ما رأى ، وهاله ذلك ردّه الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي ، وذلك قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ » يعني أوحى الله إلى جبريل وكان جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قاله آبن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم . وعن

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وجـ ١ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٤

(٣) قائله عمرو بن قنعاس المرادي . والشكة السلاح . وفي اللسان : وتحمل بزتي . والكميت من الخيل ما خالط حمرته سواد غير خالص .

ابن عباس أيضا في قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » أن معناه أن الله تبارك وتعالى « دَنَا » من محمد صلى الله عليه وسلم « فَتَدَلَّى » . وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . والمعنى دنا منه أمره وحكمه . وأصل التدلي النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب ؛ قال لبيد (١) :

فتَـــدَلَّيْت عليـــه قافِـــلًا * وعلى الأرض غَيابَات الطَّفَل

وذهب الفرّاء إلى أن الفاء في « فَتَدَلَّى » بمعنى الواو ، والتقدير ثم تدلى جبريل عليه السلام ودنا . ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت ، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا ، وشتمني فأساء وأساء فشتمني ؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد . وكذلك قوله تعالى : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » (٢) المعنى والله أعلم : آنشق القمر واقتربت الساعة . وقال الجرجاني : في الكلام تقديم وتأخير أي تدلى فدنا ؛ لأن التـدلّي سبب الدنو . وقال ابن الأنباري : ثم تدلّى جبريل أي نزل من السماء فدنا من محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال ابن عباس : تدلّى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رُفِعَ فدنا من ربه . وسيأتي . ومن قال : المعنى فآستوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول : ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلّى أي هَوَى للسجود . وهذا قول الضحاك . قال القشيري : وقيل على هذا تدلّى أي تَدَلَّلَ ؛ كقولك تَظَنَّى بمعنى تَظَنَّنَ ، وهذا بعيد ؛ لأن الدلال غير مرضيّ في صفة العبودية .

قوله تعـالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أي « كان » محمد من ربه أو من جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ » أي قدر قوسين عربيتين . قاله ابن عباس وعطاء والفرّاء . الزمخشري : فإن قلت كيف تقدير قوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله (٣) :

* وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِن حَزِيمَةَ إِصْبَعَا *

---

(١) البيت في وصف فرس . أراد أنه نزل من مربائه وهو على فرسه راكب .

(٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء (٣) اختلف في القائل وصدر البيت : * فأدرك إبقاء العرادة ظلعها * وفي ز : « خزيمـة » بالخاء المعجمة ، وهو تحريف . وحزيمـة (بالمهملة) : اسم فارس من فرسان العـرب . والعرادة : اسم فرس من خيل العرب في الجاهلية .

أى ذا مقدار مسافة إصبع « أَوْ أَدْنَى » أى على تقديركم ؛ كقوله تعالى : « أَوْ يَزِيدُونَ »[1] .
وفى الصحاح : وتقول بينهما قابُ قَوْس ، وقِيبُ قَوْس وقادَ قَوْس ، وقِيدُ قَوْس ؛ أى قَدْر قَوْس . وقرأ زيد بن على « قَادَ » وقرئ « قِيدَ » و « قَدْرَ » . ذكره الزمخشرى . والقابُ ما بين المَقْبِض والسِّيَة . ولكل قوس قابان . وقال بعضهم فى قوله تعالى : « قَابَ قَوْسَيْنِ » أراد قابى قوس فقلبه . وفى الحديث : "ولَقَابُ قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِـدّه خيرٌ من الدنيا وما فيها" والقِـدّ السوط . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ولَقَابُ قوسِ أحدِكم فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها" . وإنما ضرب المثل بالقوس ، لأنها لا تختلف فى القاب . والله أعلم . قال القاضى عِياض : آعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنوّ مكانٍ ولا قرب مَدًى ، وإنما دنوّ النبىّ صلى الله عليه وسلم من ربه وقُرْبه منه : إبانةُ عظيمِ منزلته ، وتشريف رتبته ، وإشراق أنوار معرفته ، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته . ومن الله تعالى له : مبرّةٌ وتأنيس وبسط وإكرام . ويتأوّل فى قوله عليه السلام : "يتنزل ربنا إلى سماء الدنيا" على أحد الوجوه : نزول إجمال وقبول وإحسان . قال القاضى : وقوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » فمن جعل الضمير عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحل ، وإيضاح المعرفة ، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم ، وعبارةً عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التحفّى ، وإنافة المنزلة والقـرب من الله ؛ ويتأوّل فيه ما يتأوّل فى قوله عليه السلام : "من تقرب منى شبرًا تقرّبت منه ذراعًا ومن أتانى يمشى أتيته هرولةً" قربٌ بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول . وقد قيل : « ثُمَّ دَنَا » جبريل من ربه « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قاله مجاهد . ويدلّ عليـه ما روى فى الحديث : "إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام" . وقيل : « أو » بمعنى الواو أى قاب قوسين وأدنى . وقيـل : بمعنى بل أى بل أدنى . وقال سعيد بن المسيّب : القاب صـدر القوس العربية حيث يشدّ عليـه السير الذى يتنكّبه صاحبـه ، ولكل قوس قاب واحد . فأخبر أن جبريل قرب من محمد صلى الله عليه وسلم كقرب قاب قوسين . وقال سعيد بن جبير وعطاء

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٠

وأبو إسحق الهَمْدانى وأبو وائل شقيق بن سلمة : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » أى قدر ذراعين، والقوس الذراع يقاس بها كل شيء ؛ وهى لغة بعض الحجازيين . وقيل : هى لغة أزد شَنُوءة أيضا . وقال الكسائى : قوله : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أراد قوسًا واحدًا ؛ كقول الشاعر :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ * قَطَعْتُهُ بِالسَّمْتِ لا بِالسَّمْتَيْنِ (١)

أراد مهمهًا واحداً . والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال فى تصغيرها قويسة ومن ذكر قال قويس ؛ وفى المثل هـو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً . والجمع قِسِيّ وقُسِيّ وأقواس وقِياس ؛ وأنشد أبو عبيدة :

* ووَتَّرَ الأساوِرُ القِياسَا (٢) *

والقَـوْس أيضًا بقية التمْر فى الجُـلَّة أى الوعاء . والقَوْس برج فى السماء . فأما القُوس بالضم فصومعة الراهب ؛ قال الشاعر وذكر امرأة :

* لَاسْتَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَينِ فى القُوسِ (٣) *

قوله تعـالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْـدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ تفخيم للوحى الذى أوحى إليـه . وتقدّم معنى الوحى وهو إلقاء الشيء بسرعة ومنه الوَحَاء الوَحَاء (٤) . والمعنى فأوحى الله تعـالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى . وقيل : المعنى [« فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ » جبريل عليه السلام « مَا أَوْحَى » (٥)] . وقيل : المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . قال قتادة : أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . ثم قيل : هذا الوحى هل هو مبهم ؟ لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنا بالإيمان به

(١) السمت : الطريق ومعناه قطعته على طريق واحد .

(٢) قائله القلاخ بن حزن . وتمامه : * صغدية تنتزع الأنفاسا *
والأساور : جمع إسوار وهو المقدم من أساورة الفرس . والصغد : جيل من العجم و يقال إنه اسم بلد . (مادة قوس) .

(٣) قائله جرير . وصدره : * لا وصل إذ صرفت هند ولو وقفت *

(٤) يمدّ و يقصر فالمقصور الوحى كالوغى ومعناه البدار البدار . راجع جـ ٤ ص ٨٥ وجـ ١٠ ص ١٣٣ فى معنى الوحى والقول فيه .

(٥) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، ل ، هـ .

على الجملة ، أو هو معلوم مفسّر ؟ قولان . وبالثانى قال سعيد بن جبير، قال : أوحى الله إلى محمد : ألم أجدك يتيما فآويتك ! ألم أجدك ضالّا فهديتك ! ألم أجدك عائلا فأغنيتك ! «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» . وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

قوله تعالى : مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أى لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره فى فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية . وقيل : كانت رؤية حقيقة بالبصر . والأوّل مروىّ عن ابن عباس . وفى صحيح مسلم أنه رآه بقلبه . وهو قول أبى ذر وجماعة من الصحابة . والثانى قول أنس وجماعة . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أما نحن بنى هاشم فنقول إن محمدا رأى ربه مرتين . وقد مضى القول فى هذا فى « الأنعام »(1) عند قوله : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » . وروى محمد بن كعب قال : قلنا يارسول الله صلى الله عليك رأيت ربك؟ قال : "رأيته بفؤادى مرتين" ثم قرأ : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » . وقول : ثالث أنه رأى جلاله وعظمته ؛ قاله الحسن . وروى أبو العالية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : " رأيت نهرا ورأيت وراء النهر حجابا ورأيت

(1) راجع جـ ٧ ص ٥٤ .

وراء الحجاب نورًا لم أر غير ذلك". وفي صحيح مسلم عن أبي ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال : " نورٌ أنَّى أراه " المعنى غلبني من النور وبهرني منه ما منعني من رؤيته . ودلّ على هذا الرواية الأخرى " رأيت نورًا " . وقال ابن مسعود : رأى جبريل على صورته مرتين . وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام «مَا كَذَّبَ» بالتشديد أي ما كذّب قلبُ محمد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدّقه . فـ « ما » مفعوله بغير حرف مقدّر ؛ لأنه يتعدّى مشدّدًا بغير حرف . ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذى والعائد محذوف ، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرًا . الباقون مخففًا ؛ أي ما كذب فؤاد محمد فيما رأى ؛ فأسقط حرف الصفة . قال حسان رضي الله عنه :

لو كنتِ صادقة الذى حدّثتِني　*　لنجوتِ مَنْجَا الحارثِ بنِ هِشامِ

أي في الذى حدّثتِني . ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرًا . ويجوز أن يكون بمعنى الذى ؛ أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم الذى رأى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ قرأ حمزة والكسائى « أَفَتَمْرُونَهُ » بفتح التاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه . واختاره أبو عبيد ؛ لأنه قال : لم يماروه وإنما جحدوه . يقال : مراه حقه أي جحده ومريته أنا ؛ قال الشاعر :

لئن هجرتَ(1) أخا صِدقٍ ومَكْرُمَةٍ　*　لقد مَرَيْتَ أخًا ما كان يَمْرِيكَا

أي جحدته . وقال المبرّد : يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه . قال : ومثل على بمعنى عن قول بنى كعب بن ربيعة : رضي الله عليك ؛ أي رضي عنك . وقرأ الأعرج ومجاهد « أَفَتُمْرُونَهُ » بضم التاء من غير ألف من أمريت ؛ أي تريبونه وتشككونه . الباقون « أَفَتُمَارُونَهُ » بألف ، أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله ؛ والمعنيان متداخلان ؛ لأن مجادلتهم جحود . وقيل : إن الجحود كان دائمًا منهم وهذا جدال جديد ؛ قالوا : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عِيرنا التى في طريق الشام . على ما تقدّم(2) .

(1) وروى : هجوت .　(2) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ « نَزْلَةً » مصدر فى موضع الحال كأنه قال : ولقد رآه نازلًا نزلةً أخرى . قال ٱبن عباس : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه مرة أخرى بقلبه . روى مسلم عن أبى العالية عنه قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » قال : رآه بفؤاده مرتين؛ فقوله : « نَزْلَةً أُخْرَى » يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان له صعود ونزول مرارًا بحسب أعداد الصلوات المفروضة ، فلكل عَرْجة نَزْلة . وعلى هذا قوله تعالى : « عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » أى ومحمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى وفى بعض تلك النزلات . وقال ٱبن مسعود وأبو هريرة فى تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» أنه جبريل . ثبت هذا أيضا فى صحيح مسلم . وقال ٱبن مسعود : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : ”رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت“ ذكره المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ «عِنْدَ» من صلة «رَآهُ» على ما بينا . والسِّدْر شجر النَّبِق وهى فى السماء السادسة ، وجاء فى السماء السابعة . والحديث بهذا فى صحيح مسلم؛ الأوّل ما رواه مُرّة عن عبد الله قال : لمــا أُسرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم ٱنتهى به إلى سِدرة المنتهى ، وهى فى السماء السادسة ، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال : فراش (١) من ذهب ، قال : فأعطى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثًا : أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغُفِر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المُقْحِمات (٢) . الحديث الثانى رواه قتادة عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ”لمــا رُفِعتُ إلى سِدرة المنتهى فى السماء السابعة نَبِقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفِيَلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هــذا قال أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات“ لفظ الدَّارَقُطنى . والنَّبِق بكسر الباء : ثمر السِّدر الواحد نَبِقة . ويقال : نَبْق بفتح النون وسكون

(١) ويروى : « جراد من ذهب » . والفراش : دويبة ذات جناحين تتهافت فى ضوء السراج واحدتها فراشة .
(٢) المقحمات : الذنوب العظام التى تقحم أصحابها فى النار ؛ أى تلقيهم فيها .

الباء ، ذكرهما يعقوب فى الإصلاح وهى لغة المصريين ، والأولى أفصح وهى التى ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذيّ عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى — قال : " يسير الراكب فى ظل الغصن منها مائة سـنة أو يستظل بظلها مائة راكب — شك يحيى — فيها فَرَاش الذهب كأن ثمرها القِلال " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

قلت : وكذا لفظ مسـلم من حديث ثابت عن أنس " ثم ذُهِب بى إلى سِدْرة المنتهَى وإذا ورقها كآذان الفِيلة وإذا ثمرها كالقِلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشِى تغيرت فمـا أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها " . وآختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة : الأول — ما تقدّم عن آبن مسعود أنه ينتهى إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها . الثانى — أنه ينتهى علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها ؛ قاله آبن عباس . الثالث — أن الأعمال تنتهى إليها وتقبض منها ؛ قاله الضحاك . الرابع — لآنتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها ؛ قاله كعب . الخامس — سميت سِدْرة المنتهَى لأنهـا ينتهى إليها أرواح الشهداء ؛ قاله الربيع بن أنس . السادس — لأنه تنتهى[1] إليها أرواح المؤمنين ؛ قاله قتادة . السابع — لأنه ينتهى إليها كل من كان على سنة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه ؛ قاله علىّ رضى الله عنه والربيع بن أنس أيضا . الثامن — هى شجرة على رءوس حملة العرش إليها ينتهى علم الخلائق ؛ قاله كعب أيضا .

قلت : يريد — والله أعلم — أن آرتفاعها وأعالى أغصانها قد جاوزت رءوس حمـلة العرش ؛ ودليله ما تقدّم من أن أصلها فى السماء السادسة وأعلاها فى السماء السابعة ، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رءوس حملة العرش . والله أعلم . التاسع — سُمِّيت بذلك لأن من رفع إليها فقد آنتهى فى الكرامة . وعن أبى هريرة لمـا أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم آنتهى به إلى سِدرة المنتهى فقيل له هذه سِدرة المنتهى ينتهى إليها كل أحد خَلَا من أمتك على سنّتك ؛ فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ،

(١) فى ب ، ح ، ز ، س ، هـ : « لأنه تأوى إليها » .

وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مُصَفًّى ، وإذا هي شجرة يسير الراكب المسرع في ظلّها مائة عام لا يقطعها ، والورقة منها تغطي الأمة كلها ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سدرة المنتهى . وقرأ عليّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهني وعبد الله بن الزبير ومجاهد « عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى » يعني جَنّة المبيت . قال مجاهد : يريد أجنه . والهاء للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال الأخفش : أدركه كما تقول جنه الليل أي ستره وأدركه . وقراءة العامة « جَنَّةُ الْمَأْوَى » قال الحسن : هي التي يصير إليها المتقون . وقيل : إنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء ؛ قاله ٱبن عباس . وهي عن يمين العرش . وقيل : هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهي في السماء السابعة[1] . وقيل : إن أزواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى . وإنما قيل لها : جنة المأوى لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين وهي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها . وقيل : لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال ٱبن عباس والضحاك وٱبن مسعود وأصحابه : فراش من ذهب . ورواه مرفوعا ٱبن مسعود وٱبن عباس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم في صحيح مسلم عن ٱبن مسعود قوله . وقال الحسن : غشيها نور ربّ العالمين فاستنارت . قال القشيري : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشيها؟ قال : "فراش من ذهب". وفي خبر آخر "غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها". وقال الربيع بن أنس : غشيها نور الربّ والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت السِّدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة مَلَكا قائما يسبّح [الله تعالى][2] وذلك قوله : « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » " ذكره

(١) في ب ، ح ، ز ، ل : « الرابعة » وكذا هو في حاشية الجمل عن القرطبي .

(٢) ساقطة من ز ، ل ، هـ .

المهدوي والثعلبي . وقال أنس بن مالك : « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى »[1] قال جراد من ذهب وقد رواه مرفوعاً . وقال مجاهد : إنه رَفْرَف أخضر . وعنه عليه السلام : " يغشاها رَفْرَف من طير خضر " . وعن ابن عباس : يغشاها ربُّ العزة ؛ أي أمره كما في صحيح مسلم مرفوعا : " فلما غشيها من أمر الله ما غشى " . وقيل : هو تعظيم الأمر ؛ كأنه قال : إذ يغشى السِّدرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته . وهكذا قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » « وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى » ومثله : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ »[2] . وقال الماوردي في معاني القرآن له : فإن قيل لم اختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر ؟ قيل : لأن السِّدْرة تختص بثلاثة أوصاف : ظلّ مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ؛ فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً وعملاً ونيّة ؛ فظلُّها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النية لكمونه ، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره . وروى أبو داود في سننه قال : حدّثنا نصر ابن علي قال حدّثنا أبو أسامة عن ابن جريج عن عثمان بن أبي سليمان عن سعيد بن محمد ابن جُبَير بن مُطْعِم عن عبد الله بن حبشي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قطع سِدْرةً صوَّب اللهُ رأسَه في النار " وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : هذا الحديث مختصر يعني من قطع سِدْرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حقّ يكون له فيها صَوَّب اللهُ رأسَه في النار .

قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ قال ابن عباس : أي ما عدل يميناً ولا شمالاً ، ولا تجاوز الحدّ الذي رأى . وقيل : ما جاوز ما أُمِر به . وقيل : لم يمدّ بصره إلى غير ما رأى

---

(١) بعد هذا نقل الجمل عن القرطبي في تفسيره ما يأتي : وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون إليها متشوقين متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة ، وروى في حديث المعراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ذهب بي جبريل إلى سدرة المنتهى وأوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كقلال هجر" قال : "فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى قدر أن ينعتها من حسنها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة" وقيل : يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الأنوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرك الشجرة ، وخر موسى صعقا ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أبهمه تعظيما له . والغشيان يكون بمعنى التغطية . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٦

من الآيات . وهذا وصف أدب للنبيّ(١) صلى الله عليه وسلم فى ذلك المقام؛ إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ قال آبن عباس : رأى رَفْرَفًا سدّ الأفق . وذكر البيهقى عن عبد الله قال : « رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال آبن عباس : رأى رَفْرَفًا أخضر سدّ أفق السماء . وعنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فى حُلّة رفرف أخضر ، قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال البيهقى : قوله فى الحديث "رأى رَفْرَفًا" يريد جبريل عليه السلام فى صورته فى رفرف، والرفرف البساط . ويقال : فِراش . ويقال : بل هو ثوب كان لباساً له ؛ فقد روى أنه رآه فى حُلّة رفرف .

قلت : خرّجه الترمذى عن عبد الله قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام فى حُلّة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : وقد روى عن آبن عباس فى قوله تعالى : « دَنَا فَتَدَلَّى » أنه على التقديم والتأخير؛ أى تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رُفع فدنا من ربه . قال : "فارقنى جبريل وآنقطعت(٢) عنى الأصوات وسمعت كلام ربى" فعلى هذا الرَّفْرَف ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره . وهو بالمعنى الأول جبريل . قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان : رأى جبريلَ عليه السلام فى صورته التى يكون فيها فى السموات ؛ وكذا فى صحيح مسلم عن عبد الله قال : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح . ولا يبعد مع هذا أن يكون فى حُلّة رفرف وعلى رفرف . والله أعلم . وقال الضحاك : رأى سِدْرة المنتهى . وعن آبن مسعود : رأى ما غشى السِّدرة من فراش الذهب؛ حكاه الماوردى . وقيل : رأى المعراج . وقيل : هو ما رأى تلك الليلة فى مسراه فى عوده وبدئه؛ وهو أحسن؛ دليله : «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا(٣)» و «من» يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون « الْكُبْرَى » مفعولة لـ « رأى » وهى فى الأصل صفة الآيات ووحدت لرءوس

(١) فى ب، ز، ح، س، ل، ه : « أدب النبى » . (٢) فى ب، ح، س : « وارتفعت » .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٤

الآيات . وأيضا يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى؛ كقوله تعالى: «وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى»[1] .
وقيل : « الْكُبْرَى » نعت لمحذوف؛ أي رأى من آيات ربه الكبرى . ويجـوز أن تكون
« مِن » زائدة؛ أي رأى آيات ربه الكبرى . وقيل : فيه تقديم وتأخير؛ أي رأى الكبرى
من آيات ربه .

قوله تعـالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُـزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَـوٰةَ ٱلثَّـالِثَـةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَـكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ لمـا ذكر الوحي إلى النبي
صلى الله عليه وسلم، وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاجَّ المشركين[2] إذ عبدوا مالا يعقل وقال:
أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئا كما أُوحي إلى محمد . وكانت اللَّاتُ لثَقيف،
والعُزَّى لقريش وبني كِنانة، ومَنَاةُ لبني هلال[3] . وقال هشام : فكانت مناة لِهُذَيل وخُزَاعة؛
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح . ثم اتخذوا اللات
بالطائف، وهي أحدث من مَنَـاة وكانت صخرةً مُربَّعة ، وكان سَـدَنتها من ثَقيف، وكانوا
قد بنوا عليها بناء، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وبها كانت العـرب تسمى زيد
اللَّات وتيمَ اللَّات. وكانت في موضع [منارة][4] مسجد الطائف اليسرى، فلم تزل كذلك إلى أن
أسلمت ثَقيفُ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .
ثم اتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللَّات، اتخذها ظالم بن أسعد، وكانت بوادي نَخْلة الشامية
فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتًا وكانوا يسمعون منها[5] الصوت . قال ابن هشام : وحدّثني
أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كانت العُزَّى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نَخْلة،
فلما افتتح رسـول الله صلى الله عليه وسلم مكة، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقـال :

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٧ (٢) في ب، ح، ز، س، ل، هـ : « وقيل » . (٣) اتفقت نسخ الأصل على القول بأن مناة لبني هلال ولم نره لغير المؤلف . (٤) الزيادة من كتاب الأصنام لابن الكلبي .
(٥) في كتاب الأصنام « فيه » بدل « منها » .

"آيتِ بَطْن نخلة فإنك تجد ثلاث سَمُرات فآعْضِد الأولى" فأتاها فَعضَدها فلما جاء إليه قال : "هل رأيت شيئا" قال : لا . قال : "فآعضِد الثانية" فأتاها فعضَدها، ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "هل رأيت شيئا" قال : لا . قال : "فآعضد الثالثة" فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها تُصَرِّف بأنيابها ، وخلفها دُبَيَّة[1] السُّلَمى وكان سادنَها فقال :

يا عُزّ كُفْرانَكِ لا سبْحانَكِ * إنى رَأَيْتُ اللهَ قَــد أهانَكِ

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حُمَمَة، ثم عَضَد الشجرة وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "تلك العُزّى [وان تُعبَد أبدا]" وقال آبن جُبير : العُزّى حجر أبيض كانوا يعبدونه . قتادة : نبت[2] كان ببطن نَخْلة . ومَنَاة : صنم لخزاعة . وقيل : إن اللّات فيما ذكر بعض المفسرين أخذه المشركون من لفظ الله[3] ، والعُزّى من العزيز، ومَنَاة من مَنَى الله الشيءَ إذا قدّره . وقرأ آبن عباس وآبن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح «اللّاتّ» بتشديد التاء وقالوا : كان رجلا يَلُتّ السَّوِيق للحاجّ — ذكره البخارى عن آبن عباس — فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . آبن عباس : كان يبيع السَّوِيق والسَّمْن عنــد صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثَقِيف تلك الصخرة إعظامًا لصاحب السَّوِيق . أبو صالح : إنمـا كان رجلًا بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويَلُتّ لهم السَّوِيق فلما مات عبدوه . مجاهد : كان رجل فى رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلِي[4] منها السَّمْن ويأخذ منها الأَقِط ويجمع رِسْلَها، ثم يتخذ منها حَيْسا[5] فيطعم الحاجّ، وكان ببطن نَخْلة فلما مات عبدوه وهو اللّات . وقال الكلبيّ كان رجلا من ثَقيف يقال له صِرمة بن غنم . وقيل : إنه عامر بن ظَرِب العَدْوانىّ . قال الشاعر[6] :

لا تَنْصُروا اللّاتَ إنّ اللهَ مُهْلِكُهَا * وكيف يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليس يَنْتَصِــرُ

---

(١) دبية بالدال المهملة بن حرمس ويروى آبن حرمى ثم السلمىّ . (٢) فى ب، ز، ه ول : «بيت» .

(٣) فى ب، ح، ز، س، ل، ه : «اسم الله» . (٤) يسلى : يجمع . الأقط لبن مجفف يابس مستحجر يطبخ به . والرسـل اللبن . (٥) الحيس : الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن .

(٦) هو شداد بن عارض الجشمى قاله فى أبيات حين هدمت اللات وحرقت، ينهى ثقيفا عن العود إليها، والغضب لها .

والقراءة الصحيحة «اللّات» بالتخفيف آسم صنم والوقوف عليها بالتاء وهو آختيار الفراء. قال الفرّاء: وقد رأيت الكسائيّ سأل أبا فقعس الأسديّ[(١)] فقال ذاه لذات [ولاه للات] وقرأ « أفرأيتم اللّاه » . وكذا قرأ الدّوريّ عن الكسائيّ والبزّيّ عن آبن كثير « اللّاه » بالهاء في الوقف، ومن قال: إن « اللّات » من الله وقف بالهاء أيضا . وقيل : أصلها لاهة مثل شاة [أصلها شاهة] وهي من لَاهت أي آختفت ؛ قال الشاعر :

لَاهتْ فما عُرِفت يومًا بخارجةٍ * ياليتها خَرجتْ حتّى رأيناها

وفي الصحاح : اللات آسم صنم كان لِثقيف وكان بالطائف ، وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء ؛ قال الأخفش : سمعنا من العرب من يقول اللّاتِ والعُزّى ، ويقول هي اللّاتْ فيجعلها تاء في السّكوت وهي اللّاتِ فأعلم أنه جُرّ في موضع الرفع ؛ فهذا مثل أمسِ مكسورٌ على كل حال وهو أجودُ منه ؛ لأن الألف واللام اللتان في اللّات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين ؛ وأما ما سمعنا من الأكثر في اللّاتِ والعُزّى في السّكوت عليها فاللّاهْ لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثل كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسرها ؛ إلا أنه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك في اللّاتِ ؛ لأن التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف ، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الآسم على حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ قرأ آبن كثير وآبن مُحَيْصن وحُمَيد ومجاهد والسُّلَمي والأعشى عن أبي بكر « وَمَنَاءَةَ » بالمدّ والهمز . والباقون بترك الهمز لغتان . وقيل : سمي بذلك؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه . وبذلك سميت مِنًى لكثرة ما يراق فيها من الدماء . وكان الكسائي وآبن كثير وآبن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل .

---

(١) الذي ذكره النحاس في إعراب قوله تعالى : «ولات حين مناص» أن الفراء قال عن الكسائي : أحسبه أنه سأل أبا السمال كيف يقرأ فيقف على « ولات » فوقف عليها بالهاء . وعبارة الفرّاء في هذه السورة من تفسيره : وكان الكسائي يقف عليها بالهاء وأنا أقف على التاء . اهـ . ولم يذكر أبا فقعس .

الباقون بالتاء آتباعا لخط المصحف . وفى الصحاح : ومناة آسم صنم كان [لهُذَيل وخُزَاعة][1] بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهى لغة ، والنسبة إليها مَنَوِىّ . وعبدُ مَناةَ آبنُ أُدّ بن طابخة، وزيدُ مناةَ آبن تميم بن مُرّ يُمدّ ويقصر ؛ قال هَوْبَر الحارثى :

أَلَا هلْ أَتَى التَّيْمَ بنَ عبدِ مَنَاءَةٍ * على الشَّنْءِ فيما بيننا ٱبْنُ تَمِيمِ

قوله تعالى : ﴿ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ العرب [لا][2] تقول للثالثة أخرى وإنما الأخرى نعت للثانية ، وآختلفوا فى وجهها فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رءوس الآى ؛ كقوله : « مَآرِبُ أُخْرَىٰ » ولم يقل أخر . وقال الحسين بن الفضل : فى الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللّات والعُزّى الأخرى ومَنَاة الثالثة . وقيل : إنما قال « وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ » لأنها كانت مرتبة عند المشركين فى التعظيم بعد اللّات والعُزّى فالكلام على نسقه . وقد ذكرنا عن [ابن][3] هشام : أن مَنَاةَ كانت أولًا فى التقديم ، فلذلك كانت مقدّمة عندهم فى التعظيم ؛ والله أعلم . وفى الآية حذف دل عليه الكلام ؛ أى أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرّت حتى تكون شركاء لله . ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ ردًّا عليهم قولهم : الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا ﴾ يعنى هذه القسمة ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أى جائرة عن العدل ، خارجة عن الصواب ، مائلة عن الحق . يقال : ضَازَ فى الحكم أى جار ، وضَازَ حقّه يَضِيزه ضَيْزًا — عن الأخفش — أى نقصه وبخسه . قال : وقد يهمز فيقال ضأزه يَضْأَزه ضَأْزًا وأنشد :

فإنْ تَنْأَ عنّا نَنْتَقِصْكَ وإنْ تَقِمْ[4] * فقِسْمُكَ مَضْئوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائى : يقال ضازَ يَضِيز ضَيْزًا ، وضازَ يَضُوز ضَوْزًا ، وضَأَزَ يَضْأَز ضَأْزًا إذا ظلم وتعدّى وبخس وآنتقص ؛ قال الشاعر[5] :

ضَازَتْ بنو أَسَدٍ بحُكمِهِمُ * إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

(١) الزيادة من الصحاح واللسان . (٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) من ب ، ح ، ز ، س ، ل ه .
(٤) فى الأصل « وإن تغب » والتصويب عن اللسان . وروى لحظك بدل فقسمك . (٥) قائله امرؤ القيس .

قوله تعالى : « قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائرة، وهى فُعْلى مثل طُوبَى وحُبْلَى؛ وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء؛ لأنه ليس فى الكلام فِعْلى صفة، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. قال الفراء: وبعض العرب تقول ضُوْزَى وضِئْزَى بالهمز. وحكى أبو حاتم عن أبى زيد: أنه سمع العرب تهمز «ضِيزى». قال غيره: وبها قرأ ابن كثير؛ جعله مصدرا مثل ذِكرى وليس بصفة؛ إذ ليس فى الصفات فِعْلى ولا يكون أصلها فُعْلى؛ إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهى من قولهم ضأزته أى ظلمته. فالمعنى قسمة ذات ظلم. وقد قيل هما لغتان بمعنًى. وحكى فيها أيضًا سواهما ضَيْزَى وضَأْزى وضُوزَى وضُؤْزى. وقال المؤرِّج: كرهوا ضم الضاد فى ضِيزى، وخافوا انقلاب الياء واواً وهى من بنات الواو؛ فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا فى جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ؛ مثل حُمْر وصُفْر وخُضْر. فأما من قال: ضاز يَضُوز فالاسم منه ضُوزَى مثل شُورَى.

قوله تعالى: إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أى ما هى يعنى هذه الأوثان « إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » يعنى نحتموها وسميتموها آلهة. ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أى قلدتموهم فى ذلك. ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان. ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر أى ما يتبع هؤلاء إلى الظن. ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أى تميل إليه. وقراءة العامة « يَتَّبِعُونَ » بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْقع

« تَتَّبِعُونَ » بالتاء على الخطاب . وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أى البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلهة . ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أى آشتهى أى ليس ذلك له . وقيل : « لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من البنين ؛ أى يكون له دون البنات . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من غير جزاء ! ليس الأمر كذلك . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من النبوّة أن تكون فيه دون غيره . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من شفاعة الأصنام ؛ نزلت فى النضر بن الحرث . وقيل : فى الوليد بن المغيرة . وقيل : فى سائر الكفار . ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له . قال الأخفش : الملَك واحد ومعناه جمع ؛ وهو كقوله تعالى : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ »[1] . وقيل : إنما ذكر ملكا واحدا ، لأن كم تدل على الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله . ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ أى كتسمية الأنثى ، أى

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٦ .

يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله . ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى إنهـم لم يشاهدوا خلقه الملائكة، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يروه فى كتاب . ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أى ما يتبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ فى أن الملائكة إناث . ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْـنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ .

قوله تعـالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعنى القرآن والإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ نزلت فى النضر . وقيل : فى الوليـد . ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم . قال الفراء : صغّرهم وآزدرى بهم ؛ أى ذلك قـدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيـل : أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله . ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أى حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ فيجازى كُلًّا بأعمالهم .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ج إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ج هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ج فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ صلے هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)

قوله تعـالى : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ اللام متعلقة بالمعـنى الذى دلّ عليـه « وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَـوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » كأنه قال : هو مالك ذلك يهدى من يشاء ويضل من يشاء ليجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . وقيل : « وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » معترض فى الكلام ؛ والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن آهتدى ليجزى . وقيل : هى

لام العاقبـة ، أى ولله ما فى السموات وما فى الأرض ؛ أى وعاقبة أمر الخـلق أن يكون فيهم مسىء ومحسن ؛ فللمسىء السوءى وهى جهنم ، وللمحسن الحسنى وهى الجنة .

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » هذا نعت للحسنين ؛ أى هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك ؛ لأنه أكبر الآثام . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمـزة والكسائى « كَبِيرَ » على التوحيـد وفسره آبن عبـاس بالشرك . « وَالْفَوَاحِشَ » الزنى : وقال مقاتل : « كَبَائِرَ الْإِثْمِ » كل ذنب ختم بالنـار . « وَالْفَوَاحِشَ » كل ذنب فيه الحدّ . وقد مضى فى « النساء »(١) القول فى هذا . ثم آستثنى آستثناءً منقطعًا وهى :

المسألة الثانية ــ فقال : « إِلَّا اللَّمَمَ » وهى الصغائر التى لا يسـلم من الوقوع فيهـا إلا من عصمه(٢) الله وحفظه . وقد آختلف فى معناها ؛ فقال أبو هريرة وآبن عباس والشعبى : « اللَّمَمُ » كل ما دون الزنى . وذكر مقاتل بن سليمان : أن هـذه الآية نزلت فى رجل كان يسمى نبهان التمّار ؛ كان له حانوت يبيع فيـه تمرًا ، فجاءته آمرأة تشترى منه تمرا فقال لها : إن داخل الدكّان ما هو خير من هـذا ، فلما دخلت راودها فأبت وآنصرفت فنـدم نبهان ؛ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! ما من شىء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ؛ فقال : "لعلّ زوجها غازٍ"(٣) فنزلت هذه الآية ، وقد مضى فى آخر « هود »(٣) وكذا قال آبن مسعود وأبو سعيد الخُدرى وحذيفة ومسروق : إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : زنى العينين النظر ، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرِّجلين المشى ، وإنمـا يصدِّق ذلك أو يكذِّبه الفرج ؛ فإن تقدّم كان زنًى وإن تأخر كان لَمَمًا . وفى صحيح البخارى ومسلم عن آبن عبـاس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم ممـا قال أبو هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله كتب

(١) راجع جـ ٥ ص ١٥٨ (٢) فى ب : « سلمه الله » .

(٣) راجع جـ ٩ ص ١١١ ، ففيه بيان الإجمال فى هذا الحديث برواية أخرى .

على ابن آدم حظّه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر و زنى اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه". والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة هو فى الفرج وغيره له حظّ من الإثم . والله أعلم. وفى رواية أبى صالح [عن أبى هريرة](١) عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "كُتِب على آبن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرِّجل زناها الخُطَا والقلب يَهْوَى ويتمنى و يصدّق ذلك الفرج و يكذّبه" . خرجه مسلم . وقد ذكر الثعلبى حديث طاوس عن آبن عباس فذكر فيه الأُذُن واليد والرِّجل ، وزاد فيه بعد العينين واللسان: "وزنى الشفتين القُبلة". فهذا قول . وقال آبن عباس أيضًا : هو الرجل يُلِمّ بذنب ثم يتوب . قال : ألم تسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول :

إن يَغفر اللهُ يغفر جَمّــا * وأىُّ عبــدٍ لكَ لا أَلَمّــا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن آبن عباس(٢) . قال النحاس : هــذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسنادًا. و روى شعبة عن منصور عن مجاهد عن آبن عباس فى قول الله عز وجل «إِلَّا اللَّمَمَ» قال : هو أن يلمّ العبد بالذنب ثم لا يعاوده ؛ قال الشاعر(٣) :

إن تَغفِرِ اللهم تغفر جَمّــا * وأىُّ عبــدٍ لكَ لا أَلَمّــا

وكذا قال مجاهد والحسن : هو الذى يأتى الذنب ثم لا يعاوده ، ونحوه عن الزهرى ، قال: اللم أن يزنى ثم يتوب فلا يعود ، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود . ودليل هذا التأويل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ»(٤) الآية . ثم قال : «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ»(٤) فضمن لهم المغفرة؛ كما قال عقيب اللمم :

(١) من ب، ى. (٢) وروى هذا الحديث الترمذى بهذا الإسناد وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب .
(٣) هو أمية بن الصلت قاله عند آحتضاره . (٤) راجع جـ ٤ ص ٢٠٩ وص ٢١٥ .

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فعلى هذا التأويل يكون «إِلاَّ اللَّمَمَ» استثناء متصل. قال عبد الله ابن عمرو بن العاص: اللمم مادون الشرك. وقيل: اللمم الذنب بين الحدّين وهو مالم يأت عليه حدّ في الدنيا، ولا تُوعِّد عليه بعذاب في الآخرة تكفِّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة. ورواه العوفي والحكم بن عتيبة عن ابن عباس. وقال الكلبي: اللمم على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّا في الدنيا ولا عذابا في الآخرة؛ فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه. وعن ابن عباس أيضا وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت وقاله زيد بن أسلم وابنه[1]؛ وهو كقوله تعالى: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ»[2]. وقيل: اللمم هو أن يأتي بذنب لم يكن له بعادة؛ قاله نفطويه. قال: والعرب تقول ما يأتينا إلّا لِمامًا؛ أي في الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم يفعله. وفي الصحاح: وألمّ الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهري:

بِزَيْنَبَ أَلْمِمْ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ * وَقُلْ إِنْ تَمَلِّينَا فَمَا مَلَّكِ الْقَلْبُ

أي اقرب. وقال عطاء بن أبي رباح: اللمم عادة النفس الحين بعد الحين. وقال سعيد ابن المسيّب: هو ما ألمّ على القلب؛ أي خطر. وقال محمد بن الحنفية: كلّ ما هممت به من خير أو شر فهو لَمَم. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: "إن للشيطان لَمّة وللملك لَمّة" الحديث. وقد مضى في «البقرة» عند قوله تعالى: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ»[3]. وقال أبو إسحق الزجاج: أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه

(١) في أ: «وأبوه» وما أثبتناه يوافق ما في تفسير أبي حيان والطبري».

(٢) راجع جـ ٥ ص ١١٦ (٣) راجع جـ ٣ ص ٣٢٩

ولا يقيم عليه؛ يقال: ألممت به إذا زرته وآنصرفت عنه، ويقال: مافعلته إلا لَمَماً وإلماماً؛ أي الحين بعد الحين. وإنما زيارتك إلمام، ومنه إلمام الخيال؛ قال الأعشى:

أَلَمَّ خَيَالٌ مِن قُتَيْلَةَ بَعْدَ مَا * وَهَى حَبْلُهَا مِن حَبْلِنَا فَتَصَرَّمَا

وقيل: إلا بمعنى الواو. وأنكر هذا الفراء وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللمم النظرة التي تكون فجأة.

قلت: هذا فيه بعدٌ إذ هو معفوّ عنه آبتداء غير مؤاخذ به؛ لأنه يقع من غير قصد وآختيار، وقد مضى في «النور»(١) بيانه. واللمم أيضا طرف من الجنون، ورجل ملموم أي به لَمَمٌ. ويقال أيضا: أصابت فلانا لَمَّةٌ من الجنّ وهي المسّ والشيء القليل؛ قال الشاعر(٢):

فإذا وذَلِك يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ * إلاّ كَلَمَّةِ حالِمٍ بِخَيَالِ

الثالثــة — قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ» لمن تاب من ذنبه وآستغفر؛ قاله آبن عباس. وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب آبن مسعود: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة فإذا قِباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكَلَاع وحَوْشَب، وكانا ممن قتل بعضهم بعضا، فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة. فقال أبو خالد: بلغني أن ذا الكَلَاع أعتق آثني عشر ألف بنت.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع. قال الترمذيّ أبو عبد الله: وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض، وكنا جميعًا في تلك التربة وفي تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على آختلاف هيئتها، ثم آستخرجها من صُلبها على آختلاف الهيئات؛ منهم كالدرّ يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحُمَمَة، وبعضهم أشدّ سوادًا من بعض؛ فكان الإنشاء واقعًا علينا وعليه. حدّثنا عيسى

---

(١) راجع ج ١٢ ص ٢٢٧.

(٢) هو آبن مقبل. والواو في «وذلك» زائدة كقول أبي كبير الهذلي:

فإذا وذلك ليس إلا حينه * وإذا مضى شيء كأن لم يفعل

آبن حماد العسقلانى قال: حدّثنا بِشر بن بَكر، قال: حدّثنا الأوزاعى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عُرِض علىّ الأوّلون والآخرون بين يدى حجرتى هذه الليلة" فقال قائل: يا رسول الله! وَمن مضى من الخلق؟ قال: "نعم عُرِض علىّ آدم فمن دونه فهل كان خُلِقَ أحد"(١) قالوا: ومن فى أصلاب الرجال وبطون الأمهات؟ قال: "نعم مثلوا فى الطين فعرفتهم كما علم آدم الأسماء كلها".

قلت: وقد تقدّم فى أوّل «الأنعام»(٢) أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التى يدفن فيها. ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام فى البطن، سمى جنينا لآجتنانه وآستتاره. قال عمرو بن كُلثوم:

* هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا(٣) *

وقال مكحول: كنا أجنّة فى بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقى، ثم صرنا رُضَّعًا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى، ثم صرنا يَفَعَةً فهلك منا من هلك، وكنا فيمن بقى ثم صرنا شبابًا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى، ثم صرنا شيوخًا — لا أبالك! — فما بعد هذا ننتظر؟!. وروى آبن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصارى قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبىّ صغير: هو صِدّيق؛ فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: "كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد" فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» إلى آخرها. ونحوه عن عائشة: "كان اليهود". بمثله. ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى لا تمدحوها ولا تثنوا عليها، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أى أخلص العمل وآتقى عقوبة الله؛ عن الحسن وغيره. قال الحسن: قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة، وما هى صانعة، وإلى ما هى صائرة. وقد مضى فى «النساء» الكلام فى معنى هذه الآية عند قوله

(١) كذا فى أ، ز. وفى ح، ه، س «فهل كان أحد». وفى ب: «فهل كان قبله أحد».

(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٨. (٣) وصدره: * ذراعى حرة أدماء بكر * وهى رواية أبى عبيدة. أى لم تضم فى رحمها ولدا قط.

تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ »[1] فتأمله هناك . وقال ابن عباس : ما من أحد من هذه الأمة أزكّيه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ [الآيات][2] لما بيّن جهل المشركين فى عبادة الأصنام ذكر واحدا منهم معينا بسوء فعله . قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيّره بعض المشركين ، وقال : لِمَ تركتَ دين الأشياخ وضلّلتهم[3] و زعمت أنهم فى النار؟ ! قال : إنى خشيت عذاب الله ؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن [له][4] ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هـذه الآية . وقال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل : « وَأَعْطَى قَلِيلًا » أى من الخير بلسانه « وَأَكْدَى » أى قطع ذلك وأمسك عنه . وعنه أنه أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد الإيمان ثم تولى فنزلت : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » الآية . وقال ابن عباس والسّدى والكلبي والمسيّب بن شريك : نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يتصدّق و ينفق فى الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سَرْح : ما هذا الذى تصنع ؟ يوشك ألّا يبقى لك شيء . فقال عثمان : إن لى ذنوبًا وخطايا ، و إنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ! فقال له عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها . فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن بعض ما كان يصنع [من الصدقة][4] فأنزل الله تعالى : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . ذكر ذلك الواحدى والثعلبى . وقال السّدى أيضا : نزلت فى العاص بن وائل السّهمى ، وذلك أنه

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ . (٢) من ب و ل . (٣) فى ب و س و هـ : « ملامهم » .
(٤) الزيادة من أسباب النزول للواحدى .

كان ربما يوافق النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن كعب القرظيّ : نزلت في أبي جهل ابن هشام ؛ قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق ؛ فذلك قوله تعالى : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » . وقال الضحاك : هو النَّضْر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه ، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه . وأصل « أَكْدَى » من الكُدْيَة يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حَفْر : قد أَكْدَى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يتمّم ، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره . وقال الحُطَيْئة :

فأعطى قليـــلًا ثم أَكْدَى عطاءَه * ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناس يُحْمَدِ

قال الكسائيّ وغيره : أَكْدَى الحافرُ وأَجْبل إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبـلًا فلا يمكنه أن يحفر . وحفر فأكدى إذا بلغ إلى الصُّلْب . ويقال : كديت أصابعه إذا كَلَّت[1] من الحفر . وكَدِيت يده إذا كَلَّت[2] فلم تعمل شيئاً . وأَكْدَى النبتُ إذا قلّ رَيْعه ، وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كَدْوًا [وكُدُوًّا] فهي كَادِيَةٌ إذا أبطأ نباتها ؛ عن أبي زيد . وأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء رددته عنه . وأكدى الرجلُ إذا قلّ خيره . وقوله : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أي قطع القليل .

قوله تعالى : ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أي أعند هذا المكدي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب ؟ . « فَهُوَ يَرَى » أي يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة ، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره ؛ وكفى بهـذا جهلًا وحمقاً . وهـذه الرؤية هي المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان ؛ كأنه قال : فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة .

قوله تعالى : أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

---

(١) في ب ، ح ، ز ، س ، هـ : « إذا محلت » .
(٢) في النسخ السابقة : « وكدت يده » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أى صحف ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ كما فى سورة « الأعلى » (١) « صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » أى لا تؤخذ نفس بدلًا عن أخرى ؛ كما قال : ﴿ أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وخصّ صحف إبراهيم وموسى بالذكر ؛ لأنه كان مابين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة (٢) أخيه وآبنه وأبيه ؛ قاله الهذيل بن شرحبيل . « وأنْ » هذه المخففة من الثقيلة وموضعها جرّ بدلًا من « ما » أو يكون فى موضع رفع على إضمار هو . وقرأ سعيد بن جبير وقتادة « وَفَى » خفيفة ومعناها صدق فى قوله وعمله ، وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة « وَفَّى » بالتشديد أى قام بجميع مافرض عليه فلم يَخْرم منه شيئا . وقد مضى فى « البقرة » (٣) عند قوله تعالى : « وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » والتوفية الإتمام . وقال أبو بكر الوراق : قام بشرط ما آدعى ؛ وذلك أن الله تعالى قال له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ (٣) لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » فطالبه الله بصحة دعواه ، فابتلاه فى ماله وولده ونفسه فوجده وافيا (٤) بذلك ؛ فذلك قوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » أى آدعى الإسلام ثم صحح دعواه . وقيل : وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار ؛ رواه الهيثم عن أبى أمامة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وروى سهل بن سعد الساعدى عن أبيه "ألا أخبركم لم سمّى الله تعالى خليله إبراهيم «الذى وفّى» لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (٥) » " الآية . ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وفّى » أى وفّى ما أرسل به ، وهو قوله : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » قال آبن عباس : كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، ويأخذون الولىّ بالولىّ فى القتل والجراحة ؛ فيقتل الرجل بأبيه وآبنه وأخيه وعمه وخاله وآبن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده ؛ فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير فى قوله تعالى « وَفَّى » : عمل بما أمر به وبلّغ رسالات ربه . وهذا أحسن ؛ لأنه عام . وكذا قال مجاهد : « وَفَّى » بما فرض عليه . وقال أبو مالك

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ . (٢) فى ل : « بجريمة » . (٣) راجع جـ ٢ ص ٩٨ وص ١٣٤
(٤) فى ز ، ل : « فوجده وافيا » . (٥) راجع جـ ١٤ ص ١٤ .

الغفاري. قوله تعالى: « أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » إلى قوله: « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى » في صحف إبراهيم وموسى ، وقد مضى في آخر « الأنعام »(١) القول في « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ روى عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »(٢) فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه ، ويشفّع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا »(٣) . وقال أكثر أهل التأويل : هي محكمة ولا ينفع أحدًا عملُ أحدٍ ، وأجمعوا أنه لا يصلّي أحد عن أحد . ولم يُجز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت ، إلا أنه قال : إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه . وأجاز الشافعي وغيره الحج التطوّع عن الميّت . وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه . وروى أن سعد بن عبادة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أمّي توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : " نعم " قال : فأي الصدقة أفضل ؟ قال : " سقي الماء " . وقد مضى جميع هذا مستوفًى في « البقرة »(٤) و « آل عمران »(٥) « والأعراف »(٦) . وقد قيل : إن الله عز وجل إنما قال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب(٧) للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدّق عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل . وقال الربيع بن أنس : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » يعني الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره .

قلت : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول ، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره ، وقد تقدّم كثير منها لمن تأملها ، وليس في الصدقة اختلاف ، كما في صدر

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ وص ٢١٥ . (٢) راجع ص ٦٦ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٧٤ . (٤) راجع جـ ٣ ص ٤٢٨ .
(٥) راجع جـ ٤ ص ١٥١ . (٦) هكذا في الأصول ولم نعثر على هذا المعنى في السورة المذكورة .
(٧) في ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « فليس يجب » .

كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك . وفي الصحيح : " إذا مات الإنسان آنقطع عمله إلا من ثلاث " وفيه " أو ولد صالح يدعو له " وهذا كله تفضل من الله عز وجل، كما أن زيادة الأضعاف فضل منـه؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عشرًا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة؛ كما قيل لأبي هريرة : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسـنة " فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة " فهذا تفضل . وطريق العدل « أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » خاص في السيئة؛ بدليل ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عز وجل إذا همّ عبدى بحسـنة ولم يعملها كتبتها له حسـنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدة " . وقال أبو بكر الوراق : « إِلَّا مَا سَعَى » إلا ما نوى؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : " يُبعث الناس يوم القيامة على نياتهم " .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أي يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي يجزى به ﴿ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ . قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما ؛ قال الشاعر :

إنْ أَجزِ عَلْقَمَهَ بنَ سعْدٍ سَعْيَه　＊　لم أَجْـزِهِ بِبَـلاءِ يَوْمٍ واحِـدِ

فجمع بين اللغتين .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أي المرجع والمردّ والمصير فيعاقب ويثيب . وقيل : منه آبتداء المِنّة وإليه آنتهاء الأمان . وعن أُبيّ بن كعب قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » قال : " لا فكرة في الربّ " . وعن أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا ذكر الله تعـالى فانتهوا " .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته " وقد تقدم فى آخر « الأعراف »(١) . ولقد أحسن من قال :

ولا تُفكِرَنْ(٢) فى ذى العُلا عَزَّ وجهُه * فإنَّك تُردَى إنْ فعلتَ وتُخذَلُ
ودونَك مصنوعاتِه فاعتَبِرْ بِها * وقُلْ مِثلَ ما قال الخليلُ المُبَجَّلُ

قوله تعالى : وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ذهبت الوسائط و بقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعل إلا هو؛ وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لا والله ما قال رسول الله قط إن الميت يعذب ببكاء أحد، ولكنه قال : " إن الكافر يزيده الله ببكاء أهله عذابا و إن الله لهو أضحك وأبكى وما تزر وازرة وزر أخرى " . وعنها قالت : مر النبى صلى الله عليه وسلم على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال : " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " فنزل عليه جبريل فقال : يا محمد ! إن الله يقول لك : «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» . فرجع إليهم فقال : " ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل فقال آيت هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول : « هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى » أى قضى أسباب الضحك والبكاء. وقال عطاء ابن أبى مسلم : يعنى أفرح وأحزن؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء. وقيل لعمر : هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون ؟ قال : نعم ! والإيمان والله أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى . وقد تقدم هذا المعنى فى « النمل »(٣) و « براءة »(٤) . قال الحسن :

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٨ . (٢) من أفكر لغة فى فكر بالتضعيف .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ١٧٥ . (٤) راجع جـ ٨ ص ٢١٧ .

أضحك الله أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار . وقيل : أضحك من شاء فى الدنيا بأن سَرَّه وأبكى من شاء بأن غَمَّه . الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر . وقيل : أضحك الأشجار بالنَّوار ، وأبكى السحاب بالأمطار . وقال ذو النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته ، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته . وقال سهل بن عبـد الله : أضحك الله المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط . وقال محمد آبن على الترمذى : أضحك المؤمن فى الآخرة وأبكاه فى الدنيـا . وقال بسام بن عبـد الله : أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم . وأنشد :

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحتَرِقُ * وإنمـا ضِحْكُها زُورٌ ومُختَلَقُ
يارُبَّ باكٍ بِعَيْنٍ لادمـوعَ لهـا * ورُبَّ ضاحِكِ سنٍّ مابِهِ رَمَـقُ

وقيل : إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان ، وليس فى سائر الحيوان من يضـحك ويبكى غير الإنسان . وقد قيل : إن القرد وحده يضحك ولا يبكى ، وإن الإبل وحدها تبكى ولا تضحك . وقال يوسف بن الحسين : سئل طاهر المقدسى أتضحك الملائكة ؟ فقال : ماضحكوا ولا كلّ من دون العرش منذ خلقت جهنم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أى قضى أسباب الموت والحياة . وقيل : خلق الموت والحياة كما قال : « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ »(١) قاله آبن بحر . وقيل : أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان ؛ قال الله تعـالى : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًـا فَأَحْيَيْنَاهُ »(٢) الآية . وقال : « إِنَّمَـا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ »(٢) على ما تقـدّم ، وإليه يرجع قول عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله . وقول من قال : أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجود والبذل . وقيل : أمات النطفة وأحيـا النَّسَمة . وقيـل : أمات الآباء وأحيا الأبنـاء . وقيل : يريد بالحيـاة الخصب وبالموت الجدب . وقيـل : أنام وأيقظ . وقيل : أمات فى الدنيا وأحيا للبعث . ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أى من أولاد آدم ولم يرد آدم وحوّاء بأنهما خلقا من نُطفة .

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٦   (٢) راجع جـ ٧ ص ٧٨ و جـ ٦ ص ٤١٨

والنطفة المـاء القليل، مشتق من نطف المـاءُ إذا قطر. ﴿تُمْنَى﴾ تُصبّ فى الرحم وتراق؛ قاله الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح. يقال: مَنَى الرجل وأَمْنَى من المَنِيّ، وسميت مِنًى بهذا الاسم لما يُمْنَى فيها من الدماء أي يُراق. وقيل: «تُمْنَى» تُقدَّر؛ قاله أبو عبيدة. يقال: مَنَيت الشيء إذا قدّرته، ومُنِي له أي قُدِّر له؛ قال الشاعر[1]:

* حَتَّى تُلَاقِيَ ما يَمْنِي لكَ المَـانِي *

أي مايقدر لك القادر.

قوله تعـالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ أي إعادة الأرواح فى الأشـباح للبعث. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين والمـدّ؛ أي وعد ذلك ووعده صدق. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ قال ابن زيد: أغنى من شاء وأفقر من شاء؛ ثم قرأ «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ»[2] وقرأ «يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ»[3] واختاره الطبري. وعن ابن زيد أيضا ومجاهد وقتادة والحسن: «أَغْنَى» موَّل «وأَقْنَى» أَخْدم. وقيل: «أَقْنَى» جعل

(١) قائله أبو قلابة الهذلي. وصدره: * ولا تقولن لشيء سوف أفعله * وقيل هو لسويد بن عامر المصطلق. وقبـله:

لاتأمن الموت فى حل وفى حرم * إن المنايا توافى كل إنسان
واسـلك طريقك فيهـا غير محتشم * حتى الخ ... ...

(٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧ (٣) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧

لكم قِنْية تقتنونها ، وهو معنى أخدم أيضًا . وقيــل : معناه أرضى بمــا أعطى أى أغنــاه ثم رضّاه بما أعطاه ؛ قاله آبن عباس . وقال الجوهرى : قَنِيَ الرجل يَقْنَى قِنًى؛ مثل غَنِيَ يَغْنَى غِنًى ، وأقناه الله أى أعطاه الله مايُقتنى من القِنْية والنَّشَب . وأقناه[الله]أيضًا أى رضّاه . والقِنَى الرضا ، عن أبى زيد؛ قال وتقول العرب : من أُعطِى مائةً من المعز فقد أعطى القِنَى ، ومن أُعطِى مائةً من الضأن فقد أُعطِىَ الغِنى ، ومن أُعطِىَ مائة من الإبل فقد أُعطِى المُنى . ويقال : أغناه الله وأقناه أى أعطاه مايسكن إليه . وقيل : « أَغْنَى وأَقْنَى » أى أغْنَى نفسه وأفقر خلقه إليه ؛ قاله سليمان التيمى . وقال سفيان : أغنى بالقناعة وأقنى بالرضــا . وقال الأخفش : أقنى أفقر . قال آبن كيسان : أولد . وهذا راجع لمــا تقدّم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ « الشِّعْرَى » الكوكب المضىء الذى يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه فى شدّة الحرّ ، وهما الشِّعريان العَبُور التى فى الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التى فى الذراع ؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيل . وإنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره ؛ لأن العرب كانت تعبده ؛ فأعلمهم الله جل وعز أنّ الشِّعْرى مربوب وليس بربّ . وآختلف فيمن كان يعبده ؛ فقال السدى : كانت تعبده حِـمْير وخُزاعة . وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبيّ صلى الله عليه وسـلم آبن أبى كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهـم ؛ وقالوا : ما لقينــا من آبن أبى كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقــد وقف فى بعض المضايق وعساكر رسول الله صلى الله عليه وســلم تمرّ عليه : لقد أَمِرَ أَمْرُ آبنِ أبى كبشة . وقد كان من لايعبد الشِّعْرى من العرب يعظّمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ، قال الشاعر :

مضَى أَيْلُولُ وآرتفــعَ الحَــرُورُ ❋ وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُــورُ

وقيل : إن العرب تقول فى خرافاتها : إن سُهيلاً والشِّعرى كانا زوجين ، فانحدر سُهَيل فصار يمــانيا ، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرة فسميت العبــور ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت

لفقد سُهيل حتى غَمِصت عيناه؛ فسمِّيت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى . ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴾ (١) سماها الأولى لأنهم كانوا مِن قبل ثمود . وقيل : إن ثمود مِن قبل عاد . وقال ابن زيد : قيل لها عاد الأولى لأنها أول أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام . وقال ابن إسحق : هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصّرصر، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة . وقيل : عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى؛ والمعنى متقارب . وقيل : إن عاد الآخرة الجبارون وهم قوم هود . وقراءة العامة « عَادًا الْأُولَىٰ » ببيان التنوين والهمز . وقرأ نافع وابن مُحَيصن وأبو عمرو « عَادًا الْأُولَىٰ » بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها ، إلا أن قالون والسوسي يظهران الهمزة الساكنة . وقلبها الباقون واوًا على أصلها؛ والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قُم الآن عنا وضُمّ لِثْنَين أى قم الآن وضم الاثنين ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ (٢) ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة . قرئ « ثَمُودًا » « وَثَمُود » وقد تقدّم . وانتصب على العطف على عاد . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ وذلك لطول مدّة نوح فيهم، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول : احذر هذا فإنه كذّاب ، وإن أبى قد مشى بى إلى هذا وقال لى مثل ماقلت لك ؛ فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه . وقيل : إن الكناية ترجع إلى كلّ من ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح؛ أى كانوا أكفر من مشركى العرب وأطغى . فيكون فيه تسلية وتعزية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فكأنه يقول له : فاصبر أنت أيضًا فالعاقبة الحميدة لك . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ يعنى مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم ، أى انقلبت وصار عاليها سافلها . يقال : أفكته أى قلبته وصرفته . « أَهْوَىٰ » أى خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض . وقال المبرّد : جعلها تهوى . ويقال : هَوَى بالفتح يَهْوِى هُوِيًّا أى سقط

---

(١) فى ب ، ح ، س و ه : « من نسل عاد » .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ .

و « أَهْوَى » أي أسقط . ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ أي ألبسها ما ألبسها من الحجـارة ؛ قال الله تعـالى : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ »(١) وقيل : إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم ؛ أي غَشَّاها من العذاب ما غشاهم ، وأبهم لأن كلًّا منهم أهلك بضرب غير ما أُهلك به الآخر . وقيل : هـذا تعظيم الأمر . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ أي فبأى نِعَم ربك تشـك . والمخاطبة للإنسان المكذب . والآلاء النعـم واحدها أَلًى و إِلًى و إِلْيٌ . وقرأ يعقوب « تَّمَارَى » بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد .

قوله تعـالى : هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمـد بن كعب : يريد أن محمدًا صلى الله عليه وسـلم نذير بالحق الذى أنذر به الأنبياء قبـله ، فإن أطعتموه أفلحتم ، وإلّا حلّ بكم ما حلّ بمكذّبي الرسل السالفة . وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه نذير بما أُنذرت به الكتب الأولى . وقيل : أي هذا الذى أخبرنا به من أخبار الأمم المـاضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أي مثل النذر ؛ والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكُر بمعنى الإنكار ؛ أي هذا إنذار لكم . وقال أبو مالك : هذا الذى أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هـو في صحف إبراهيم وموسى . وقال السدّى أخبرني أبو صالح قال : هذه الحروف التى ذكر الله تعالى من قوله تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ » إلى قوله : « هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى » كل هذه في صحف إبراهيم وموسى .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٢ .

قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ أى قربت الساعة ودنت القيامة . وسماها آزفة لقرب قيامها عنده ؛ كما قال : « يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا »(١) . وقيل : سماها آزفة لدنوها من الناس وقربها منهم ليستعدّوا لها ؛ لأن كل ما هو آت قريب . قال :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنّ رِكابَنَا * لمَّا تَزَلْ بِرِحالنا وكأنْ قَـدِ

وفى الصحاح : أَزِف الترحل يَأْزَف أَزَفًا أى دنا وأَفِد ؛ ومنه قوله تعالى : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » يعنى القيامة ، وأزِف الرجل أى عَجِل فهو آزِف على فاعل ، والمتآزِف القصير وهو المتدانى . قال أبو زيد : قلت لأعرابى ما المُحْبَنْطِئُ؟ قال : المتَكَأْكِئُ . قلت : ما المُتَكَأْكِئُ؟ قال : المتآزِف . قلت : ما المتآزف؟ قال : أنت أحمق وتركنى ومرّ . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أى ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدّمها . وقيل : كاشفة أى انكشاف أى لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله ؛ فالكاشفة اسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاء فى العاقبة والعافية والداهية والباقية ؛ كقولهم : ما لفلان من باقية أى من بقاء . وقيل : أى لا أحد يردّ ذلك ؛ أى إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا ينجيهم غير الله تعالى . وقد سميت القيامة غاشية ، فإذا كانت غاشية كان ردّها كشفًا ، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف ؛ أى نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة . وقيل : إن « كاشفة » بمعنى كاشف والهاء للمبالغة مثل راوية وداهية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن . وهذا استفهام توبيخ ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ تكذيبًا به ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ انزجارًا وخوفًا من الوعيد . وروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ما رؤى بعد نزول هـذه الآية ضاحكًا إلا تبسّمًا . وقال أبو هريرة : لما نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » قال أهل الصفة : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يلج النارَ من بكى من

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤ .

خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصـية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم و لجاء بقـوم يذنبون فيغفر لهم و يرحمهم إنه هو الغفور الرحيم " . وقال أبو حازم : نزل جبريل على النبيّ صـلى الله عليه وسـلم وعنده رجل يبكى ، فقال له : من هـذا ؟ قال : هـذا فلان ؛ فقال جبريل : إنا نزن أعمال بنى آدم كلها إلا البكاء ، فإن الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحورا من جهنم .

قوله تعـالى : ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ أى لا هون معرضون . عن ٱبن عباس ؛ رواه الوالبيّ والعوفيّ عنه . وقال عكرمة عنه : هو الغناء بلغة حِمْيَر ؛ يقال : سَمِّد لنا أى غنِّ لنا ، فكانوا إذا سمعـوا القرآن يتلى تغنوا ولعبـوا حتى لا يسمعوا . وقال الضحاك : سامدون شامخـون متكبرون . وفى الصحاح : سَمَدَ سُمُودًا رفع رأسه تكبّرًا وكل رافع رأسه فهو سامد ؛ قال[1] :

* سَوَامِدُ اللَّيْلِ خِفَافُ الأَزْوَادْ *

يقـول : ليس فى بطونها علف . وقال ٱبن الأعرابى : سَمَدت سُمُودا علوت . وسَمَدَت الإبلُ فى سـيرها جدّت . والسُّمُود اللّهو ، والسامد اللاّهى ؛ يقـال للقَيْنة : أَسْمِدينا ؛ أى ألهينا بالغناء . وتسميد الأرض أن يجعل فيها السماد وهو سِرْجين ورَماد . وتسميد الرأس ٱستئصال شعره ، لغة فى التسبيد . وٱسمأدّ الرجل بالهمز ٱسمئدادًا أى وَرِم غضبًا . وروى عن علىّ رضى الله عنه أن معـنى « سَامِدُونَ » أن يجلسـوا غير مصلّين ولا منتظرين الصـلاة . وقال الحسن : واقفون للصلاة قبـل وقوف الإمام ؛ ومنه ما روى عن النبيّ صلى الله عليـه وسـلم أنه خرج والناس ينتظرونه قيامًا فقال : " مالى أراكم سامدين " حكاه المـاوردى . وذكره المهـدوى عن علىّ ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قيامًا [ينتظرونه] فقال : " مالكم سامدون " قاله المهدوى . والمعروف فى اللغة : سَمَدَ يَسْمُد سُمُودًا إذا لَهَا وأعـرض . وقال المبرّد : سامدون خامدون ؛ قال الشاعر :

أَتَى الحِـدْثَانُ نِسوةَ آلِ حَرْبٍ * بِمَقْـدورٍ سَمَـدْنَ له سُمُـودَا

(١) قائله رؤبة بن العجاج يصف إبلا .

وقال صالح أبو الخليل : لما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » لم يُرَ ضاحكًا إلا مبتسمًا حتى مات صلى الله عليه وسلم . ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ قيل : المراد به سجود تلاوة القرآن . وهو قول ابن مسعود . وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقد تقدّم أوّل السورة من حديث ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون . وقيل : إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين في أثناء قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قوله : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » وأنه قال : تلك الغَرَانِيقُ العُلَا وشفاعتهنّ تُرْتَجَى . كذا في رواية سعيد بن جُبير ترتجى . وفي رواية أبي العالية وشفاعتهنّ ترتضى ، ومثلهنّ لا يُنْسَى . ففرح المشركون وظنوا أنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم على ما تقدّم بيانه في « الحج »[1] . فلما بلغ الخبر بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم رجعوا ظنًّا منهم أن أهل مكة آمنوا ؛ فكان أهل مكة أشدّ عليهم وأخذوا في تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم . وقيل : المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر ؛ كان لا يراها من عزائم السجود . وبه قال مالك . وروى أبيّ بن كعب رضي الله عنه : كان آخر فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ترك السجود في المفصّل . والأوّل أصح وقد مضى القول فيه آخر « الأعراف »[2] مبينًا والحمد لله رب العالمين . تم تفسير سورة « والنجم » .

---

(١) هذه الأخبار من المفتريات على المعصوم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن ينطق بما هو نقيض القرآن ، ولا يمكن أن ينطق على لسانه الشيطان . وكل ما كان من هذا المعنى فهو باطل وضعته الملاحدة للدخول به إلى الطعن في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو في الوحي أو في القرآن وهو الذي لا ينطق عن الهوى . راجع ما كتبه المصنف عن هذا الحديث في ج ١٢ ص ٨٠ .

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٥٧ .

سورة القمر

مكية كلها في قول الجمهور . وقال مقاتل : إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ» إلى قوله : «وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» ولا يصح على ما يأتي . وهي خمس وخمسون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ « ٱقْتَرَبَتِ » أي قربت مثل « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ »(١) على ما بيناه . فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة ؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب فقال : "ما بقي من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى" وما نرى من الشمس إلا يسيرا . وقال كعب ووهب : الدنيا ستة آلاف سنة . قال وهب : قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة . ذكره النحاس .

ثم قال تعالى : « وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » أي وقد انشق القمر . وكذا قرأ حذيفة « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدِ ٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » بزيادة « قد » وعلى هذا الجمهور من العلماء ؛ ثبت ذلك في صحيح

(١) راجع ص ١٢٢ من هذا الجزء .

البخارى وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مُطْعِم وابن عباس رضى الله عنهم . وعن أنس قال : سأل أهل مكة النبيّ صلى الله عليه وسلم آية، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت : «ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ» إلى قوله : «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» يقول ذاهب قال أبو عيسى الترمذيّ : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ البخاريّ عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر؛ أى اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر؛ وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره. وكذا قال القشيرى . وذكر الماورديّ : أن هذا قول الجمهور ، وقال : لأنه إذا انشق ما بقى أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس فى الآيات سواء. وقال الحسن : اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية. وقيل : «وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ» أى وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح ؛ قال :

أقيموا بنى أمّى صدورَ مَطِيّكم * فإنى إلى حَىٍّ سواكم لأَمْيَلُ
فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ * وشُدَّت لِطيَّاتٍ مَطايا وأَرْحُلُ

وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه فى أثنائها(1) ، كما يسمى الصبح فلقاً؛ لانفلاق الظلمة عنه . وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة :

فلمّا أدبروا ولهم دَوِىٌّ * دعانا عند شَقِّ الصُّبح داعِ

قلت : وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوى الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية؛ وأنها كانت باستدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم من الله تعالى عند التحدّى . فروى أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً من سبّ أبى جهل الرسول صلى الله عليه وسلم طلب أن يريه آية يزداد بها يقينا فى إيمانه . وقد تقدّم فى الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما فى حديث ابن مسعود وغيره . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : هو على

(1) فى تفسير الجمل نقلا عن القرطبى : «زوال الظلمة» .

التقديم والتأخير ، وتقديره آنشق القمــر وآقتربت الساعة ؛ قاله آبن كيسان . وقد مرّ عن الفــرّاء أن الفعلــين إذا كانا متقاربى المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عنــد قوله تعــالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » (١) .

قوله تعــالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا آنشقاق القمر . قال آبن عباس : آجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : إن كنت صادقًا فآشقق لنــا القمر فرقتين ، نصف على أبى قُبَيس ونصف على قُعَيْقِعَانَ ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فعلت تؤمنون " قالوا : نعم ؟ وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه أن يعطيه ما قالوا ؛ فانشق القمر فرقتين ، ورسول الله صلى الله عليه ينادى المشركين : " يا فلان يافلان آشهدوا " . وفى حديث آبن مسعود : آنشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا من سحر آبن أبى كبشة ؛ سَحَرَكم فآسألوا السُّفَّار ؛ فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر آنشق فنزلت : « آقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآنْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُــوا » أى إن يروا آية تدل على صدق محمد صلى الله عليــه وسلم أعرضوا عن الإيمــان ﴿ وَيَقُولُوا سِحْــرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ أى ذاهب ؛ من قــولهم : مَرَّ الشيءُ وآستمــر إذا ذهب ؛ قاله أنس وقتــادة ومجاهد والفراء والكسائى وأبو عبيدة ، وآختاره النحاس . وقال أبو العالية والضحاك : محكَم قوىّ شديد ، وهو من المِرّة وهى القوّة ؛ كما قال لقيط :

حتى آستمرّت على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ　＊　مُرُّ العَزِيمَةِ لا [رَتًّا] (٢) ولا ضَرَعًا

وقال الأخفش : هــو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شــدّة فتله . وقيــل : معناه مُرٌّ من المرارة . يقال : أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا ، وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارة فهو مُرٌّ ، وأمرّه غيره ومَرَّرَه . وقال الربيع : مستمر نافذ . يمان : ماضٍ . أبو عبيدة : باطل . وقيل : دائم . قال (٣) :

＊ وليس على شىء قــويم بمُسْتَمِرّ ＊

---

(١) راجع ص ٨٩ من هذا الجزء .　(٢) راجع هامش ص ٨٦ من هذا الجزء فى شرح البيت .

(٣) البيت لآمرئ القيس وصدره : ＊ ألا إنما الدنيا ليال وأعصر ＊

أى بدائم . وقيل : يشبه بعضه بعضًا؛ أى قد ٱستمرت أفعال محمد على هـذا الوجه فلا يأتى بشىء له حقيقة بل الجميع تخييلات . وقيل : معناه قد مر من الأرض إلى السماء . ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ نبيّنا ﴿ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى ضلالاتهم وٱختياراتهم . ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أى يستقر بكل عامل عمله ، فالخير مستقر بأهله فى الجنة ، والشر مستقر بأهله فى النار .

وقرأ شيبة « مُسْتَقَر » بفتح القاف؛ أى لكل شىء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخر . وقد روى عن أبى جعفر بن القَعْقَاع « وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ » بكسر القاف والراء جعله نعتا لأمر و « كُلُّ » على هـذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف ، كأنه قال : وكل أمر مستقر فى أمّ الكتاب كائن . ويجـوز أن يرتفع بالعطف على السـاعة ؛ المعنى : ٱقتربت السـاعة وكل أمرٍ مسـتقر ؛ أى ٱقترب ٱسـتقرار الأمور يوم القيـامة . ومن رفعه جعله خبرًا عن « كلّ » .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنْبَاءِ ﴾ أى من بعض الأنباء؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه ، وأن لهم فيه شفاء . وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك ، وإنمـا ٱقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك ؛ وذلك قوله تعـالى : « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ ٱلْأَنْبَـاءِ » أى جاء هؤلاء الكفار مِن أنباء الأمم الخالية ﴿ مَا فِيـهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أى ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه . وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالا ؛ لأن التاء حرف مهموس والزاى حرف مجهـور ، فأبدل من التـاء دالًا توافقها فى المخـرج وتوافق الزاى فى الجهر . و « مُزْدَجَر » من الزجر وهو الانتهاء ، يقال : زجره وٱزدجره فٱنزجر وٱزدجر ، وزجرته أنا فانزجر أى كففته فكف ، كما قال :

فأصـبحَ ما يطلبُ الغانيـا * تُ مُزْدَجَرًا عن هواه ٱزدجارا

وقرئ « مُزَّجَر » بقلب تاء الافتعال زايا و إدغام الزاى فيها ؛ حكاه الزمخشرى .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعنى القـرآن وهو بدل من « ما » من قـوله : « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » . ويجـوز أن يكون خبر ٱبتداء محذوف ؛ أى هـو حكمة . ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّـذُرُ ﴾

إذا كذّبوا وخالفوا كما قال الله تعالى : « وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ »[(١)] ف «مَا» نفي أي ليست تغني عنهم النذر . ويجـوز أن يكون آستفهاما بمعنى التوبيخ؛ أي فأي شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها . و « النُّذُرُ » يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم . قيل : هـذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو تمام الكلام . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ العامل في « يَوْمَ » « يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ » أو « خُشَّعًا » أو فعل مضمر تقديره وآذكر يوم . وقيل : على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر ، تقديره : فتولّ عنهم فإن لهم يوم يدعو الداعي . وقيل : تَوَلَّ عنهم يا محمد فقد أقمت الحجـة وأبصرهم يوم يدعو الداعي . وقيـل : أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم ، فإنهـم يدعون ﴿ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ وينالهم عذاب شديد . وهو كما تقول : لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم . وقيـل : أي وكلّ أمر مستقر يوم يدعـو الداعي . وقـرأ ابن كثير « نُكْرٍ » بإسكان الكاف ، وضمها الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة. والداعي هو إسرافيل عليه السلام . وقد روي عن مجاهد وقتادة أنهما قرأا « إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ » بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول . ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ الخشوع في البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذّل يتبين في ناظر الإنسان ؛ قال الله تعالى : « أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ »[(٢)] وقال تعالى : « خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ »[(٣)] . ويقال : خَشَع وآختَشَع إذا ذلّ . وخَشَع ببصره أي غضّه . وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو « خَاشِعًا » بالألف ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد، نحو : « خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ » والتأنيث نحو : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ »[(٤)] ويجوز الجمع نحو : « خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ » قال[(٥)] :

وَشَـبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُـمْ　＊　مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَـدّ

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٦　(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٩٤　(٣) راجع جـ ١٥ ص ٤٥ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٤٨　(٥) هو الحرث بن دوس الإيادي ، ويروى لأبي دؤاد الإيادي .

و « خُشَّعًا » جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم فى « عَنْهُمْ » فيقبح الوقف على هذا التقدير على « عَنْهُمْ » . ويجوز أن يكون حالا من المضمر فى « يَخْرُجُونَ » فيوقف على « عَنْهُمْ » . وقرئ « خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ » على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله :

* [وجدته] (١) حاضِراه الجودُ والكَرَمُ *

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور واحدها جدث . ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ . وقال فى موضع آخر : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » (٢) فهما صفتان فى وقتين مختلفين؛ أحدهما — عند الخروج من القبور، يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم فى بعض ؛ فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها [الثانى] (٣) — فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر ؛ لأن الجراد له جهة يقصدها . و « مُهْطِعِينَ » معناه مسرعين ؛ قاله أبو عبيدة . ومنه قول الشاعر :

بِدِجْلَةَ دَارُهُمْ (٤) ولقد أراهم * بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ

الضحاك : مقبلين . قتادة : عامدين . ابن عباس : ناظرين . عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت . والمعنى متقارب . يقال : هَطَعَ الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعا إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه ؛ وأهطع إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه . قال الشاعر (٥) :

تَعَبَّدَنِى نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وقد أُرَى * ونِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِى مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

وبعير مُهْطِع : فى عنقه تصويبٌ خِلْقةً . وأهطع فى عَدْوه أى أسرع . ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يعنى يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدّة .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٦٥ .
(٣) الزيادة من مفصل إعراب القرآن وغيره . (٤) فى اللسان : « أهلها » .
(٥) قائله تبع .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكر جمـلا من وقائع الأمم المـاضية تأنيسًا للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعزية له . « قَبْلَهُمْ » أي قبل قومك . ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ يعني نوحا . الزَّمَخْشَرِيّ : فإن قلت ما معنى قوله : « فَكَذَّبُوا » بعد قوله : « كَذَّبَتْ » ؟ قلت : معناه كذّبوا فكذّبوا عبدنا ؛ أي كذّبوه تكذيبًا على عقب تكذيب ؛ كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذّب ، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا ؛ أي لمـا كانوا مكذّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسًا كذّبوا نوحًا لأنه من جمـلة الرسل . ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أي هو مجنون ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ أي زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل . وقيل إنما قال : « وَازْدُجِرَ » بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أي دعا عليهم حينئذ نوح وقال : رَبِّ ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ أي غلبوني بتمردهم ﴿ فَانْتَصِرْ ﴾ أي فانتصر لي . وقيل : إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجـل لهم فيـه . ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخـاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ أي كثير ؛ قاله السدّي . قال الشاعر :

أعينيّ جُودَا بالدُّموعِ الهَوامرِ * على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ

وقيل : إنه المنصبّ المتدفّق ؛ ومنه قول امرئ القيس يصف غيثًا :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثم ٱنْتَحَى * فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ (١)

الهَمْر الصبّ؛ وقد هَمَر الماءَ والدّمعَ يَهْمِرُ هَمْرا. وهَمَر أيضا إذا أكثر الكلام وأسرع. وهَمَر له من ماله أي أعطاه. قال ٱبن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء [مُنْهَمِرٍ] (٢) من غير سحاب لم يقلع أربعين يوما. وقرأ ٱبن عامر ويعقوب: «فَفَتَّحْنَا» مشدّدة على التكثير. الباقون «فَفَتَحْنَا» مخفّفا. ثم قيل: إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها. وقيل: إنه المجرّة وهي شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر؛ قاله عليّ رضي الله عنه. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ قال عُبَيد ابن عُمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجّرت بالعيون، وإن عيناً تأخّرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرًّا أُجاجاً إلى يوم القيامة. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر؛ حكاه ٱبن قتيبة. أي كان ماء السماء والأرض سواء. وقيل: «قُدِرَ» بمعنى قضى عليهم. قال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يَغْرَقُوا. وقال محمد بن كعب: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القدر قبل البلاء؛ وتلا هذه الآية. وقال: «الْتَقَى الْمَاءُ» والالتقاء إنما يكون في ٱثنين فصاعدا؛ لأن الماء يكون جمعا وواحدا. وقيل: لأنهما لما ٱجتمعا صارا ماء واحدا. وقرأ الجَحْدَري: «فَالْتَقَى الْمَاءَانِ». وقرأ الحسن: «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ» وهما خلاف المرسوم. القُشيري: وفي بعض المصاحف «فَالْتَقَى الْمَاوَانِ» وهي لغة طيّئ. وقيل: كان ماء السماء بارداً مثل الثلج وماء الأرض حارا مثل الحميم. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ أي على سفينة ذات ألواح. ﴿وَدُسُرٍ﴾ قال قتادة: يعني المسامير التي دُسِرت بها السفينة أي شدّت؛ وقاله القُرَظيّ وٱبن زيد وٱبن جبير، ورواه الوالبي عن ٱبن عباس. وقال الحسن وشَهْر بن حَوْشَب وعكرمة: هي صدر السفينة التي تضرب بها المَوْج سُمِّيت بذلك لأنها تَدْسُر الماء أي تدفعه، والدَّسْرُ الدّفع والمَخْر؛ ورواه العَوْفي عن ٱبن عباس قال: الدَّسْر كَلْكَلُ (٣) السفينة.

(١) راح: أي عاد في الرواح؛ كأن المطر كان في أول النهار ثم عاد في آخره. وتمريه: تستدرّه، وأصله من مرى الضرع وهو مسحه ليدر. والشؤبوب: الدفعة من المطر. وخص الصبا لأنهم يمطرون بها.

(٢) الزيادة من ط. (٣) الكلكل: الصدر.

وقال الليث : الدِّسار خيط من ليف تُشَد به ألواح السفينة . وفي الصحاح : الدِّسار واحد الدُّسر وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة ، ويقال : هي المسامير ؛ وقال تعالى : « عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ » . ودُسْر أيضا مثل عُسُر وعُسْر . والدَّسْر الدفع ؛ قال ابن عباس في العنبر : إنما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْرًا أي يدفعه . ودَسَره بالرمح . ورجل مِدْسَر . ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منّا . وقيل: بأمرنا . وقيل : بحفظ منّا وكِلَاءة: وقد مضى في « هود »[(١)] . ومنه قول الناس للمودِّع : عين الله عليك ؛ أي حفظه وكِلاءته . وقيـل : بِوَحينا . وقيل : أي بالأعين النابعة من الأرض . وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها ؛ وكل ما خلق الله تعـالى يمكن أن يضاف إليه . وقيل : أي تجرى بأوليائنا ، كما في الخبر : مرض عين من عيوننا فلم تعده . ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ أي جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صـبره على أذى قومه وهو المكفور به ؛ فاللام في « لِمَنْ » لام المفعول له ؛ وقيـل : « كُفِرَ » أي جحد ؛ فـ « مَن » كناية عن نوح . وقيل : كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب ؛ أي عقابا لكفرهم بالله تعالى . وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد « جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ » بفتح الكاف والفاء بمعنى : كان الغـرق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله ، وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق[(٢)] ؛ كان المـاء إلى حُجْزته . وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها ، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك ، ونجّاه من الغرق . ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ يريد هذه الفعلة عبرةً . وقيل : أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل . قال قتادة : أبقاها الله بباقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية ، حتى نظرت إليها أوائل هـذه الأمة ، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رمادا . ﴿ فَهَـلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ مُتّعظ خائف ، وأصله مُذْتَكِر مُفْتَعِل من الذكر ، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالاً لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الذال فيهـا . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي إنذاري ؛

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٠ .

(٢) عوج بن عنق هو المشهور والذي صوبه صاحب القاموس هو ابن عوق لا عنق .

قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران . وقيل : « نُذُر » جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أى سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه ؛ فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى : ولقد هيّأناه للذكر [مأخوذ](1) من يَسّر ناقته للسَّفر : إذا رَحلها ، ويَسَّر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه ؛ قال :

وقُمْـتُ إليـهِ باللِّجـامِ مُيَسِّرًا * هُنَالكَ يجْزِيني الذى كنتُ أَصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن ؛ وقال غيره : ولم يكن هذا لبنى إسرائيل ، ولم يكونوا يقرءون التوراة إلا نظرًا ، غير موسى وهرون ويوشع آبن نون وعزير صلوات الله عليهم ، ومن أجل ذلك آفتتنوا بعزير لمـا كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت ؛ على ماتقدّم بيانه فى سورة « براءة »(2) فيسرّ الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكّروا مافيه ؛ أى يفتعلوا الذّكر ، والآفتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهـم . ﴿ فَهَـلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ ﴾ قارئ يقـرؤه . وقال أبو بكر الوراق وآبن شَوْذب : فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه ، وكرّر فى هذه السورة للتنبيه والإفهام . وقيل : إن الله تعـالى آقتص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين(3) ؛ فكان فى كل قصة ونبأ ذكْر للمستمع أن لو آذكر ، وإنمـا كرّر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » لأن « هَـلْ » كلمة آستفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم وجعلها حجة عليهم ؛ فاللام من « هَلْ » للآستعراض والهاء للآستخراج(4) .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(1) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبى . (2) راجع جـ ٨ ص ١١٧ .
(3) فى ط ، ل : المسلمين ، وما أثبتناه فى ا و ب و جـ و هـ . (4) فى ى : « للاستغراق » .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ هم قوم هـود . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وقعت « نُذُر » في هذه السورة في سـتة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف ، وقرأها يعقوب مثبتـة في الحـالين ، وورش في الوصـل لا غير ، وحذف الباقون . ولا خلاف في حذف الياء من قوله : « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » والواو من قوله : « يَدْعُ » فأما اليـاء من « الدَّاعِ » الأول فأثبتها في الحـالين ٱبن مُحيصن ويعقوب وحُميـد والبَزِّي ، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصـل ، وحذف الباقون . وأما « الدَّاعِ » الثانيـة فأثبتها يعقـوب وٱبن مُحَيْصن وٱبن كثير في الحـالين ، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل ، وحذفها الباقون . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي شديدة البرد ؛ قاله قتادة والضحاك . وقيل : شديدة الصوت . وقد مضى في « حم السـجدة »(١) . ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ أي في يوم كان مشئوما عليهم . وقال ٱبن عباس : أي في يوم كانوا يتشاءمون به . الزجاج : قيل في يوم أربعاء . ٱبن عباس : كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم . وقرأ هرون الأعور « نَحِسٍ » بكسر الحاء وقـد مضى القول فيه في حم السـجدة « فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ » . و « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » أي دائم الشؤم ٱستمر عليهم بنحوسه ، وٱستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك . وقيل : ٱستمر بهم إلى نار جهنم . وقال الضحاك : كان مُرًّا عليهم . وكذا حكى الكسائي أن قوما قالوا هو من المرارة ؛ يقال : مُرَّ الشيء وأَمَرَّ أي كان كالشيء المر تكرهه النفوس . وقد قال : « فَذُوقُوا » والذي يذاق قد يكون مُرًّا . وقد قيل : هو من المِرّة بمعنى القوة . أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه . فإن قيل : فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء ؟ وقد جاء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱستجيب له فيه فيما بين الظهر والعصر . وقد مضى في « البقرة »(٢) حديث جابر بذلك . فالجواب — والله أعلم — ماجاء في خبر يرويه مسروق عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهـد وقال يوم الأربعـاء يوم نحس مستمر "

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٧ .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٣١٣ .

ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين(١) ، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة فى القرآن ؛ نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم ، و إذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أوّل يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس ، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة آستجيب دعاء المظلوم عليه ، فكان اليوم نحسا على الظالم ،ودعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما كان على الكفار، وقول جابر فى حديثه «لم ينزل بى أمر غليظ» إشارة إلى هذا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِعُ النَّـاسَ ﴾ فى موضع الصـفة للريح أى تَقْلَعهم من مواضعهم . قيل : قلعتهم من تحت أقدامهم آقتلاع النخلة من أصلها . وقال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمى بهم على رءوسهم فتندقّ أعناقهم وتَبِين رءوسهم عن أجسادهم . وقيل : تنزع الناس من البيوت . وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آنتزعت الريح النـاس من قبورهم" . وقيـل : حفروا حُفَـراً ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منهـا وتكسرهم، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل [قد](٢) هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة . و يروى أن سبعة منهم حفروا حفراً وقاموا فيها ليردُّوا الريح . قال آبن إسحق : لمـا هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمى لنـا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمـرو بن الحلى والحرث بن شداد والهِلْقام وآبنا تِقْن وخلجان بن سعد فأوْلجوا العيال فى شِعب بين جبلين ، ثم أصطفوا على باب الشِّعب ليردّوا الريح عمن فى الشِّعب من العيال ، فجعلت الريح تَجْعفهم(٣) رجلًا رجلًا ، فقالت آمرأة من عاد :

ذهبَ الدهرُ بعمرِو بـ * ـن حـلّىٍّ والهنيّـات
ثم بالحـرث والهِلْـ * ـقامِ طَلّاعِ الثنيّـات
والذى سـدّ مهبّ الر * يح أيـام البـليّـات

(١) فى ى : « المصلحين » . (٢) زيادة من ى .
(٣) جعفه : صرعه وضرب به الأرض .

الطبرى: فى الكلام حذف ، والمعنى تنزع النـاس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر ؛ فالكاف فى موضع نصب بالمحذوف . الزجاج : الكاف فى موضع نصب على الحال ، والمعنى تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل . والتشبيه قيل إنه للحُفَر التى كانوا فيها . والأعجاز جمع عَجُز وهو مؤخر الشيء، وكانت عاد موصوفين بطول القـامة ، فشُبِّهوا بالنخل آنكبت لوجوهها . وقال : « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » للفظ النخل وهو من الجمع الذى يذكّر و يؤنّث . والمنقعر : المنقلع من أصله ؛ قعرت الشجرة قعرًا قلعتها من أصلها فآنقعرت . الكسائى : قعرت البئر أى نزلت حتى آنتهيت إلى قعرها ، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيـه حتى آنتهيت إلى قعره . وأقعرت البئر جعلت لهـا قعرًا . وقال أبو بكر بن الأنبارى : سئل المبرِّد بحضرة إسماعيل القاضى عن ألف مسألة هذه من جملتها ، فقيل له : ما الفرق بين قوله تعالى : «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً»(١) و « جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ »(٢) ، وقوله : « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ »(٣) و « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ »؟ فقال : كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرًا ، أو إلى المعنى تأنيثًا . وقيـل : إن النخل والنخيل بمعنًى يذكّر و يؤنث كما ذكرنا . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [تقدّم](٤) .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبيهم ، أو كذّبوا بالآيات التى هى النذر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ ونَدع جماعة . وقرأ أبو الأشهب وآبن السَّمَيْقَع وأبو السَّمَّال العدوى « أَبَشَرٌ » بالرفع « وَاحِدٌ » كذلك رفع بالابتـداء والخبر « نَتَّبِعُـهُ » . الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشرًا منا واحدًا نتبعه . وقـرأ أبو السَّمَّال(٥) :

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢١ . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٥ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٦١ .
(٤) من ب ، ى . (٥) هذه رواية أخرى عن أبى السمال كما فى «روح المعانى» وغيره . وفى ب ، ز ، ل « أبو السماك » بالكاف وليس بصحيح .

« أَبَشَرٌ » بالرفع « مِنَّا واحِدًا » بالنصب، رفع « أَبَشَرٌ » بإضمار فعل يدل عليه « أَؤُلْقِيَ » كأنه قال : أينبأ بشر منّا، وقوله : « وَاحِدًا » يجوز أن يكون حالا من المضمر فى « مِنَّا » والناصب له الظرف، والتقدير أينبأ بشر كائن منّا منفردًا ؛ و يجوز أن يكون حالًا من الضمير فى « نَتَّبِعُهُ » منفردا لا ناصر له . ﴿ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ ﴾ أى ذهاب عن الصواب ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أى جنون، من قولهم : ناقة مسعورة، أى كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ذكره آبن عباس . قال الشاعر يصف ناقته :

تَخَالُ بِها سُعْرًا إذا السَّفْرُ هَزَّهَا * ذَمِيلٌ و إيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

[الذميل(١) ضرب من سير الإبل . قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلا فهو التزيُّد، فإذا آرتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرَّسيم ؛ يقال: ذَمَل يَذْمُل ويَذمِل ذميلا . قال الأصمعى: ولا يَذمُل بعير يوماً وليلةً إلا مَهْرِيٌّ قاله ج] . وقال آبن عباس أيضا : السُّعر العذاب ، وقاله الفراء . مجاهد : بعد الحق . السدى : فى آحتراق . قال(٢) :

أَصَحَوتَ اليومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّ * ومِنَ الحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ

أى متقد ومحترق . أبو عبيدة : هو جمع سعير وهو لهيب النار . والبعير(٣) المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدّة . ومعنى الآية : إنّا إذًا لفى شقاء وعناء مما يلزمنا .

قوله تعالى : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أى خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ؟ ! وهو استفهام معناه الإنكار . ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أى ليس كما يدّعيه، و إنما يريد أن يتعاظم و يلتمس التكبر علينا من غير آستحقاق . والأَشَر المَرَح والتجبُّر والنّشاط . يقال : فرس أَشِر إذا كان مرحا نشيطا ؛ قال آمرؤ القيس يصف كلبا :

فيدركنا فَغِمٌ داجِنٌ * سَمِيعٌ بَصِيرٌ طَلُوبٌ نَكِرْ(٤)
أَلَصُّ(٥) الضُّرُوسِ حَنِيُّ الضُّلُوعِ * تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشِيطٌ أَشِرْ

(١) زيادة من ب، هـ . (٢) هو طرفة . (٣) فى ا ، ز ، ل : السعيرة .
(٤) الفغم : المولع بالصيد الحريص عليه . داجن : ألوف للصيد . ونكر أى منكر عالم . وقيل نكر أى كريه الصورة .
(٥) الألص الذى التصقت أسنانه بعضها إلى بعض .

وقيل : « أَشِرٌ » بَطِر . والأَشَر البَطَر ؛ قال الشاعر :

أَشِـــرْتُمْ بلُبْس الخـــزّ لمّـا لَبِسْتُمُ ＊ ومِن قبلُ ما تَدْرونَ مَنْ فَتَحَ القُرَى

وقـد أَشِر بالكسر يأشَر أَشَرًا فهو أَشِر وأَشْران ، وقوم أَشَارَى مثـل سَـكْران وسُكَارَى ؛ قال الشـاعر(١) :

وخَلَّتْ وُعُـــولًا أَشَـارَى بهـا ＊ وقـــد أَزْهَقَ الطَّعْنُ أبطالهَا

وقيـل : إنه المتعدى إلى منزلة لا يستحقها ؛ والمعنى واحد . وقال آبن زيد وعبـد الرحمن آبن حماد : الأَشِر الذى لا يبـالى ما قال . وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة « أَشَرٌّ » بفتح الشين وتشديد الراء يعنى به أشرنا وأخبثنا . ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ أى سيرون العـذاب يوم القيامة ، أو فى حال نزول العذاب بهم فى الدنيا . وقرأ آبن عامر وحمزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب . الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم . وقوله : « غَدًا » على التقريب على عادة الناس فى قولهم للعواقب : إن مع اليوم غدا ؛ قال :

للمـــوتِ فيها سِهامٌ غير مُخْطِئَـــةٍ ＊ مَنْ لم يكن مَيِّتًا فى اليومِ ماتَ غَدَا

وقال الطِرِمّاح :

أَلَا عَلِّلَانِى قبـل نَوْحِ النَّـــوائِح ＊ وقبلَ آضْطِرَابِ النَّفْسِ بين الجَوانِح
وقبلَ غَـدٍ يا لَهْفَ نفسِى على غَدٍ ＊ إذا رَاحَ أصحـابى ولستُ برائِح

إنمـا أراد وقت المـوت ولم يرد غـدا بعينـه . ﴿ مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴾ وقـرأ أبو قِلابة « الْأَشَرُّ » بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصـل . قال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَر إلا فى ضرورة الشعر ؛ كقول رؤبة :

＊ بِلَالٌ خَيْرُ الناسِ وآبنُ الأَخْيَرِ ＊

---

(١) هي مية بنت ضرار الضبي ترثى أخاها . وأزهق الطعن أبطالها أى صرعها . وقبل البيت :

ترّاه عـلى الخيـل ذا قـدمة ＊ إذا سـربل الدم أكفالهـا

و إنما يقولون هو خير قومه، وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»(١) وقال: «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا»(٢). وعن أبي حيوة بفتح الشين وتخفيف الراء. وعن مجاهد وسعيد بن جُبير ضم الشين والراء والتخفيف، قال النحاس: وهو معنى «الأشر» ومثله رجل حَذِر وحَذُر.

قوله تعالى: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروى أن صالحا صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشَراء [وبراء](٣). ﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أي اختبارا وهو مفعول له. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي انتظر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي اصبر على أذاهم، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحولت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، كما قال تعالى: «لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ»(٤). قال ابن عباس: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئا من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلّه فلم تُبق لهم شيئاً. وإنما قال: «بَيْنَهُمْ» لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم. وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحِجْر في مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبُوك، قال: "أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل

(١) راجع جـ ٤ ص ١٧٠. (٢) راجع جـ ١١ ص ١٤٤.
(٣) في الأصول جرداء، والذي في قصص الأنبياء للثعلبي وغيره من كتب التفسير «وبراء» فلذا أثبتناه.
(٤) راجع جـ ١٣ ص ١٢٧.

إليهم الناقة فكانت تَرِد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذى كانوا يشربون يوم غِبِّها " وهو معنى قوله تعالى : « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » .

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ الشِّرْب ــ بالكسر ــ الحَظ من الماء؛ وفى المثل : (آخرها أقلّها شِرْباً) وأصله فى سق الإبل ، لأن آخرها يرد وقد نزِف الحوضُ . ومعنى « مُحْتَضَرٌ » أى يحضُره مَن هو له ؛ فالناقة تَحضُر الماء يوم وِردها ، وتغيب عنهم يوم وِردهم؛ قاله مقاتل . وقال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم غِبِّها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وِردها فيحتلبون .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ يعنى بالحضّ على عَقْرها ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ عقرها ﴿ فَعَقَرَ ﴾ ها ومعنى تعاطى تناول الفعل ، من قولهم : عَطَوتُ أى تناولت ؛ ومنه قول حسان :

كلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي * بزجاجةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ

قال محمد بن إسحق : فكمن لها فى أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها ، فخرّت ورغت رُغاءةً واحدة تحذّر سَقْبها من بطنها ثم نحرها، وانطلق سَقْبها حتى أتى صخرة فى رأس جبل فرغا ثم لاذ بها ، فأتاهم صالح عليه السلام ؛ فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى وقال : قد انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله . وقد مضى فى «الأعراف»(١) بيان هذا المعنى . قال ابن عباس : وكان الذى عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أفقى . ويقال فى اسمه قُدَار بن سالف . وقال الأفوه الأَوْدى :

أو قَبْلَه(٢) كقُدَارٍ حين تَابَعَهُ * على الغِوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمّى الجزّار قُدارًا تشبيهًا بقُدَار بن سالف مشئوم آل ثمود ؛ قال مُهَلهِل :

إنّا لَنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ رُءوسَهمْ * ضَرْبَ القُدَارِ نَقِيعةَ القُدَّامِ(٣)

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤١ . (٢) الذى فى شعراء النصرانية : « أو بعده » .

(٣) القدار : الجزار . والنقيعة : ما ينحر للضيافة . والقدام : القادمون من سفر جمع قادم . وقيل : القدام الملك . ويروى : * إنا لنضرب بالصوارم هامهم *

وذكره زهير فقال :

فَتُنْتَجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ * كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ [1]

يريد الحرب، فكنّى عن ثمود بعاد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام ، وقد مضى فى « هود » [2] . ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية « المحتَظَر » بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة . وفى الصحاح : والمحتظِر الذى يعمل الحظيرة . وقرئ « كَهَشِيمِ المحتظِر » فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به . ويقال للرجل القليل الخير : إنّه لنَكِدُ الحَظِيرَة . قال أبو عبيد : أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . المهدوى : من فتح الظاء من « المحتظر » فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار . ويجوز أن يكون « المحتظَر » هو الشجر المتخذ منه الحظيرة . قال ابن عباس : « المحتظِر » هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . قال :

أَثَرْنَ عَجَاجَةً كدخانِ نارٍ * تَشُبُّ بغَرْقَدٍ بالٍ هَشِيمِ

وعنه : كحشيش تأكله الغنم . وعنه أيضا : كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة . وقال سعيد بن جُبير : هو التراب المتناثر من الحيطان فى يوم ريح . وقال سفيان الثورى : هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول . وقال ابن زيد : العرب تسمّى كل شىء كان رطباً فيبس هشيماً . والحظْر المنع ، والمحتظر المفتعل يقال منه : احتظر على إبله وحظر أى جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله ؛ قال الشاعر :

تَرَى جِيَفَ المَطِىِّ بجانبيه * كأنّ عظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ

---

(١) تنتج لكم يعنى الحرب . « غلمان أشأم » فى معنى غلمان شؤم أو كلهم فى الشؤم كأحمر عاد . « ثم ترضع فتفطم » يريد أنه يتم أمر الحرب ، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تمت .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٦١ .

وعن ابن عباس : أنهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ؛ فالمحتظر على هـذا الذى يتخـذ حظيرة على زرعه ، والهشيم فتات السنبلة والتبن . ﴿ وَلَقَـدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضا لمـا كذّبوا لوطا . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أى ريحًا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ؛ قال النّضر : الحاصب الحصباء فى الريح . وقال أبو عبيدة : الحاصب الحجـارة . وفى الصحاح : والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء وكذلك الحَصِبة ؛ قال لَبِيد :

جَرَّتْ عليهـا أَنْ خَوَتْ مِن أهلِها * أذيالَهـا كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

عصفت الريح أى آشتدّت فهى ريح عاصفٌ وعَصُوف . وقال الفرزْدق :

مستقبلين شمـالَ الشامِ تَضرِبُنا * بحاصِبٍ كنَدِيفِ القُطْنِ منثورِ

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ يعنى من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ قال الأخفش : إنما أجراه لأنه نكرة ، ولو أراد سَحَر يوم بعينه لمـا أجراه ، ونظيره : «آهْبِطُوا مِصْرًا» (١) لمـا نكّره ، فلما عرّفه فى قوله : « آدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » (٢) لم يُجْـرِه ، وكذا قال الزجاج : « سحر » إذا كان نكرة يراد به سَحَر من الأسحار يصرف ، تقول أتيتـه سحرًا ، فإذا أردت سحر يومك

(١) راجع ج ١ ص ٤٢٩ .		(٢) راجع ج ٩ ص ٢٦٣ .

لم تصرفه، تقول : أتيته سَحَرِيا هذا، وأتيته بسحر . والسَّحَرُ : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ، وهو فى كلام العرب آختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار ؛ لأن فى هـذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار. ﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ إنعاماً منّا على لوط وآبنتيه ؛ فهو نصْب لأنه مفعول به . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ أى من آمن بالله وأطاعه . ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ ﴾ يعـنى لوطًا خوّفهـم ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ عقوبتنا وأَخْذنا إياهـم بالعـذاب ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّـذُرِ ﴾ أى شكّوا فيما أنذرهم به الرسـول ولم يصدّقوه ، وهو تفاعل من المِرْية . ﴿ وَلَقَـدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ أى أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة فى هيئة الأضياف طلباً للفاحشة على ما تقدّم (١) . يقال : راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَادًا أى أردتُه . وراد الكلأَ يروده رَوْدًا ورِيادًا ، وآرْتادَه آرتيادًا بمعنًى أى طلبه ؛ وفى الحـديث : " إذا بال أحدكم فليَرْتَدْ لبوله" أى يطلب مكاناً ليناً أو منحدراً . ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُـمْ ﴾ يروى أن جـبريل عليـه السـلام ضربهم بجناحه فَعَمُوا . وقيـل : صارت أعينهم كسائر الوجه لايرى لها شقّ ، كما تطمس الريح الأعلام بمـا تسفى عليها من التراب . وقيل : لا ، بل أعماهم الله مع صحـة أبصارهم فلم يروهم . قال الضحـاك : طمس الله على أبصـارهم فلم يروا الرسـل ؛ فقالوا : لقـد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا ؟ فرجعوا ولم يروهم . ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أى فقلنا لهم ذوقوا ، والمراد من هذا الأمر الخبر ؛ أى فأذقتهم عذابى الذى أنذرهم به لوط . ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أى دائم عام آستقر فيهم حتى يفضى بهم إلى عذاب الآخرة . وذلك العـذاب قَلْب قريتهـم عليهم وجعل أعلاها أسفلها . و « بُكْرَةً » هنا نكرة فلذلك صرفت . ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ العذاب الذى نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذى أهلكوا به فلذلك حسن التكرير . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [تقدم] (٢)

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٧٣ . (٢) زيادة من ى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعني القبط و « النُّذُرُ » موسى وهرون . وقـد يطلق لفظ الجمع على الاثنين . ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ معجزاتنا الدالة على توحيـدنا ونبوة أنبيائنا ؛ وهي العصا ، واليـد ، والسّنون ، والطمسة ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم . وقيل : « النُّذُرُ » الرسل ؛ فقـد جاءهم يوسف و بنوه إلى أن جاءهم موسى . وقيـل : « النُّذُرُ » الإنذار . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ أي غالب في انتقـامه ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ أي قادر على ما أراد .

قوله تعـالى : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ خاطب العرب . وقيل : أراد كفار أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : استفهام ، وهو استفهام إنكار ومعناه النفي ؛ أي ليس كفاركم خيرًا من كفار من تقـدّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة . وقال ابن عباس : أم لكم في اللوح المحفوظ براءة من العـذاب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أي جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم ، ولم يقل منتصرين اتباعا لرءوس الآي ؛ فرد الله عليهم فقال : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي جمع كفار مكة ، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره . وقراءة العامة « سَيُهْزَمُ » بالياء على ما لم يسم فاعله « الْجَمْعُ » بالرفع . وقرأ رُوَيس عن يعقوب « سَنَهْزِمُ » بالنون وكسر الزاى « الْجَمْعَ » نصبًا . ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم . وقرأ عيسى وابن إسحق ورُوَيس عن يعقوب « وَتُوَلُّونَ » بالتـاء على الخطاب . و « الدُّبُرَ » اسم جنس كالدرهم

والدينار فوحّد والمراد الجمع لأجل رءوس الآى . وقال مقاتل : ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدّم من الصّف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه ؛ فأنزل الله تعالى : «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ». وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبى وقّاص : لما نزل قوله تعالى : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » كنت لا أدرى أى الجمع ينهزم ، فلما كان يوم بَدْر رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يَثِب فى الدرع و يقول : اللهم إن قريشًا جاءتك تُحَادُّك وتُحادّ رسولك بفخرها و [خُيَلَائها](١) فأخنهم الغداةَ — ثم قال — «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعرفت تأويلها . وهذا من معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر . أخنى عليه الدهر : أى أتى عليه وأهلكه ، ومنه قول النابغة :

* أَخْنَى عليه الذى أَخْنَى على لُبَدِ *

وأخنيت عليه : أفسدت . قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية و بين بدر سبع سنين ؛ فالآية على هذا مكية . وفى البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة و إنى لجارية ألعب : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » . وعن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قبة له يوم بدر : " أَنْشُدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ اللّهم إن شئت لم تُعبَدْ بعدَ اليوم أبدًا " فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ؛ وهو فى الدّرْع فخرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » يريد القيامة . « وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » أى أدهى وأمرّ مما لحقهم يوم بدر . و « أَدْهَى » من الداهية وهى الأمر العظيم ؛ يقال : دهاه أمر كذا أى أصابه دهوًا ودهيًا . وقال ابن السكيت : دهته داهية دهواء ودهياء وهى توكيد لها .

---

(١) فى الأصول : « بخيلها » وهو تحريف والتصويب من سيرة ابن هشام .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » أي في حَيْدة عن الحق و « سُعُرٍ » أي آحتراق . وقيل : جنون على ما تقدّم في هـذه السورة . « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القَدَر فنزلت : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ خرجه الترمذي أيضا وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شيء بقَدَر . قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " كلُّ شيء بقَدر حتى العَجْز والكَيْس — أو — الكَيْس والعَجْز " وهذا إبطال لمذهب القدَرية . « ذُوقُوا » أي يقال لهم ذوقوا ، ومسّها ما يجـدون من الألم عند الوقوع فيها . و « سَقَرَ » آسم من أسمـاء جهنم لا ينصرف ؛ لأنه آسم مؤنث معرفة ، وكذا لَظَى وجهنم . وقال عطاء : « سَقَر » الطبق السادس من جهنم . وقال قُطْرب : « سَقَر » من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته لَوَحَتْه . ويوم مُسْمَقِرٌ ومُصْمَقِرٌ : شديدُ الحرّ .

الثانيـــة — قوله تعالى : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ » قراءة العـامة « كُلَّ » بالنصب . وقـرأ أبو السَّمَّال « كُلُّ » بالرفع على الابتداء . ومن نصب فبإضمار فعـل وهو آختيار الكوفيين ؛ لأن إنّ تطلب الفعل فهي به أولى ، والنصب أدلّ على العموم في المخلوقات لله تعالى ؛ لأنك لو حذفت « خَلَقْنَاهُ » المفسِّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كلّ شيء بقدر . ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء ؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف ، ولا تكون تفسيرًا لمـا يعمل فيما قبله .

الثالثــة — الذى عليــه أهل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشـياء ؛ أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبـل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده على نحو ما سبق فى علمه ، فلا يحدث حدث فى العالم العلوىّ والسفلىّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخـلق ليس لهم فيها إلا نوع آكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه ، سبحانه لا إلٰه إلا هو ، ولا خالق غيره ، كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القدَريّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذَرّ رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيـد غيرنا ؛ فنزلت هـذه الآيات إلى قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَـدَرٍ » فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب ويعـذبنا ؟ فقال : " أنتم خصماء الله يوم القيامة " .

الرابعــة — روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنـه قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلّموا عليهم " . خرجه آبن ماجه فى سـننه . وخرج أيضا عن آبن عباس وجابر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صنفان من أمتى ليس لهم فى الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقَـدَر " . وأسند النحاس : وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفى قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضّبى قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "القدَريّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم فى شفاعتى نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّى " وفى صحيح مسـلم أن آبن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقوله : والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منـه حتى يؤمن بالقَدَر . وهذا مثل قوله تعـالى فى المنافقين: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ»(١) وهذا واضح . وقال أبو هريرة : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن " .

(١) راجع ج ٨ ص ١٦٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ أى إلا مرةً واحدة . ﴿ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ أى قضائى فى خلق أسرع من لمح البصر . واللَّمح النظر بالعَجَلة ؛ يقال : لَمَح البرق ببصره . وفى الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والآسم اللمحة ، ولَمَح البرقُ والنجمُ لَمْحًا أى لَمَع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم الخالية . وقيل : أتباعكم وأعوانكم . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أى من يتذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوبًا عليهم ؛ وهذا بيان قوله : « إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . « فِى الزُّبُرِ » أى فى اللوح المحفوظ . وقيل : فى كتب الحفظة . وقيل : فى أم الكتاب . ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أى كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به (١) ، ومكتوب إذا فعله ؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْرًا كَتَب ؛ وآستطر مثله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضًا . « وَنَهَرٍ » يعنى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ؛ قاله آبن جريج . ووحد لأنه رأس الآية ، ثم الواحد قد ينبىء عن الجميع . وقيل : فى « نَهَرٍ » فى ضياء وسَعة ؛ ومنه النهار لضيائه ، ومنه أنهرت الجرح ؛ قال الشاعر (٢) :

مَلَكتُ بها كَفِّى فأنهرتُ فَتقَها * يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءها

(١) فى ب ، ح ، س ، هـ : « قبل أن يفعلوه ليجازوا ومكتوب إذا فعلوه » .

(٢) هو قيس بن الخطيم يصف طعنة . وملكت أى شددت وقويت .

وقرأ أبو مِجْلَز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة « وَنُهُرٍ » بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم؛ كسحاب وسُحُب . قال الفراء : أنشدني بعض العرب :

إنْ تَكُ ليليًّا فإنّى نَهِرُ * مَتَى أرى الصُّبحَ فلا أنتَظِرُ

أى صاحب النهار . وقال آخر :

لَوْلا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ * ثَرِيدُ ليلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أى يقدر على ما يشاء . و « عِنْدَ » هاهنا عندية القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة . قال الصادق : مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق . وقرأ عثمان البَتِّي «فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ » بالجمع؛ والمقاعد مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها . قال عبد الله بن بريدة : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى ، فيقرءون القرآن على ربهم تبارك وتعالى، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضة بقدر أعمالهم ، فلا تقرّ أعينهم بشيء قط كما تقرّ بذلك ، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون إلى منازلهم ، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد . وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون : يا أولياء الله انطلقوا ؛ فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بُغيتنا . فيقولون : فما بغيتكم ؟ فيقولون : مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقد روى هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى ؛ ففي الخبر : أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس في الحساب ، فيقولون للملائكة : إلى أين تحملوننا ؟ فيقولون إلى الجنة . فيقولون : إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا ؛ فيقولون : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » . والله أعلم .

تم تفسير سورة « القمر » والحمد لله .

سورة الرحمن [عز وجل](١)

مكية كلها في قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا آية منها هي قوله تعالى : «يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» الآية . وهي ست وسبعون آية . وقال ابن مسعود ومقاتل : هي مدنية كلها . والقول الأول أصح لما روى عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ؛ وذلك أن الصحابة قالوا : ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال ابن مسعود : أنا ؛ فقالوا : إنا نخشى عليك ، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها ، فتأملوا وقالوا : ما يقول ابن أم عبد ؟ قالوا : هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه . وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم قام يصلي الصبح بنخلة ، فقرأ سورة « الرَّحْمَنُ » ومر النفر من الجن فآمنوا به . وفي الترمذي عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرَّحْمَنُ » من أولها إلى آخرها فسكتوا ؛ فقال : " لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على قوله : «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد " قال : هذا حديث غريب . وفي هذا دليل على أنها مكية والله أعلم . وروى أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي صلى الله عليه وسلم : آتل علي مما أنزل عليك ، فقرأ عليه سورة « الرَّحْمَنُ » فقال : أعدها ؛ فأعادها ثلاثاً ؛ فقال : والله إن له لطلاوة ، وإن عليه لحلاوة ، وأسفله لمغدق ، وأعلاه مثمر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وروى عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن " .

---

(١) في ز .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشّعْبي: «الرَّحْمَٰنُ» فاتحة ثلاث سور إذا جُمعن كن آسمًا من أسماء الله تعالى « الر » و «حم» و « نٓ » فيكون مجموع هذه « الرَّحْمَٰنُ » . « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى علّمه نبيّه صلى الله عليه وسلم حتى أدّاه إلى جميع الناس . وأنزلت حين قالوا : وَمَا الرَّحْمَٰنُ؟ وقيل : نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا : إنما يعلّمه بشر وهو رحمٰن اليمامة؛ يعنون مسيلمة الكذّاب، فأنزل الله تعالى: «الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ» . وقال الزجاج : معنى «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أى سهّله لأن يُذكر ويُقرأ كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » . وقيل : جعله علامة لما تعبد الناس به . ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ قال آبن عباس وقتادة والحسن يعنى آدم عليه السلام . ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أسماء كل شيء . وقيل: علمه اللغات كلها . وعن آبن عباس أيضًا وآبن كيسان : الإنسان هاهنا يراد به محمد صلى الله عليه وسلم، والبيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال . وقيل : ما كان وما يكون؛ لأنه بيّن عن الأوّلين والآخرين ويوم الدّين . وقال الضحاك : « البيان » الخير والشر . وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره ؛ وقاله قتادة . وقيل : « الْإِنْسَانَ » يراد به جميع الناس فهو آسم للجنس و « الْبَيَانَ » على هذا الكلامُ والفهم ، وهو مما فُضّل به الإنسان على

سائر الحيوان . وقال السدي : علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به . وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم ، نظيره : « عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1] . ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر . قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : أي يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال ابن زيد وابن كيسان : يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يَحسُب شيئا لو كان الدهر كله ليلا أو نهارا . وقال السدي : « بِحُسْبَانٍ » تقدير آجالها أي تجري بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا ؛ نظيره : « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى »[2] . وقال الضحاك : بقدر . مجاهد : « بِحُسْبَانٍ » كحسبان الرَّحَى يعني قطبها يدوران في مثل القطب . والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أحسُبُه بالضم حَسْبا وحُسْبانا ، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجحان ، وحِسابة أيضا أي عددته . وقال الأخفش : ويكون جماعة الحساب مثل شِهاب وشُهبان . والحُسْبان أيضا بالضم العذاب والسهام القصار ، وقد مضى في « الكهف »[3] الواحدة حُسْبانة ، والحُسْبانة أيضا الوسادة الصغيرة ؛ تقول منه : حَسَّبْتُه إذا وسَّدته[4] ؛ قال :

* ... لثَوَيْتَ غيرَ مُحَسَّبِ *

أي غير موسَّد يعني غير مكرَّم ولا مكفَّن ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : النجم ما لا ساق له والشجر ما له ساق ، وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التميمي :

لَقَد أَنْجَمَ الْقَاعُ الكَبِيرُ عِضَاهَهُ ＊ وتَمَّ بـه حيّا تَمِـيمٍ و وَائِـلِ

وقال زهير بن أبي سُلْمَى :

مُكَلَّلٌ بأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُه ＊ رِيحُ الجَنُوبِ لِضَاحِي مائه حُبُكُ

---

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٢٠ .　　(٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٩ .　　(٣) راجع ج ١٠ ص ٤٠٨ .

(٤) هو نهيك الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل ، والبيت بتمامه :

لتقيت بالوجعاء طعنة مرهف ＊ مران أو لثويت غير محسب

الوجعاء الأست . يقول : لو طعنتك لوليتنى دبرك وأتقيت طعنتي بوجعائك ، ولثويت هالكا غير مكرم .

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ يَنْجُم بالضم نجومًا ظهر وطلع ، وسجودهما بسجود ظلالها ؛[1] قاله الضحاك . وقال الفرّاء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما قال تعالى : « يتفيّأ ظِلَالُهُ »[2] . وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء، وسجوده فى قول مجاهد دوران ظله ، وهو آختيار الطبرى ، حكاه المهدوى . وقيل : سجود النجم أفوله ، وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثمرها ، حكاه المـاوردى . وقيل : إن جميع ذلك مسخر لله ، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم ، وعبد كثير من العجم الشجر . والسجود الخضوع ، والمعنىّ به آثار الحدوث ، حكاه القشيرى . النحاس : أصل السجود فى اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها آستسلامها لأمر الله عز وجل وآنقيادها له ، ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة ، وأنشد محمد بن يزيد فى النجم بمعنى النجوم قال[3] :

فباتتْ تعدُّ النّجْمَ فى مُسْتَحِيرة * سَرِيعٍ بأيْدِى الآكِلِينَ جُمُودُهَا

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ وقرأ أبو السمّال « والسَّماءُ » بالرفع على الابتـداء وآختار ذلك لـمـا عطف على الجمـلة التى هى : « وَالنَّجْـمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » بجعـل المعطوف مركبًا من مبتدإ وخبر كالمعطوف عليه . الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده . ﴿ وَوَضَعَ الْمِـيزَانَ ﴾ أى العدل ، عن مجاهد وقتادة والسدى ، أى وضع فى الأرض العدل الذى أمر به ، يقال : وضع الله الشريعة . ووضع فلان كذا أى ألقاه ، وقيل : على هذا الميزان القرآن ، لأن فيـه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل . وقال الحسن وقتادة — أيضا — والضحاك : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ، يدل عليه قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » والقسط العـدل . وقيل : هو الحكم . وقيل : أراد وضع الميزان فى الآخرة لوزن الأعمال . وأصل مِيزان مِوزان وقد مضى فى « الأعراف »[4] القول فيه . ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ ﴾ موضع « أَنْ » يجوز أن يكون نصباً

---

(١) فى ب ، ح ، س ، ه : « وسجودهما سجود . . » . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١١ .
(٣) قائله الراعى . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٦٦ .

على تقدير حذف حرف الجر كأنه قال : لئلا تطغوا ؛ كقوله تعالى : « يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »[1] . ويجوز ألا يكون لـ« أن » موضع من الإعراب فتكون بمعنى أى و « تَطْغَوْا » على هذا التقدير مجزومًا ؛ كقوله تعالى : « وَٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا »[2] [أى امشوا][3] . والطغيان مجاوزة الحدّ . فمن قال : الميزان العدل قال طغيانه الجور . ومن قال : إنه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس . قال ٱبن عباس : أى لا تخونوا من وزنتم له . وعنه أنه قال : يا معشر الموالى ! وليتم أمرين بهما هلك الناس : المكيال والميزان . ومن قال إنه الحُكْم قال : طغيانه التحريف . وقيل : فيه إضمار ؛ أى وضع الميزان وأمركم ألا تَطْغَوْا فيه . ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أى ٱفعلوه مستقيمًا بالعدل . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل . وقال ٱبن عيينة[4] : الإقامة باليد والقسط بالقلب . وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية . وقيل : هو كقولك أقام الصلاة أى أتى بها فى وقتها ، وأقام الناس أسواقهم أى أتوها لوقتها . أى لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل . ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴾ ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن ، وهذا كقوله : « وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ »[5] . وقال قتادة فى هذه الآية : ٱعدل يابن آدم كما تحبّ أن يُعدَل لك ، وأوف كما تحبّ أن يُوفَى لك ؛ فإن العدل صلاح الناس . وقيل : المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم . وكرر الميزان لحال رءوس الآى . وقيل : التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه . وقراءة العامة « تُخْسِرُوا » بضم التاء وكسر السين . وقرأ بلال بن أبى بُرْدة وأبان عن عثمان « تَخْسَرُوا » بفتح التاء والسين وهما لغتان ، يقال : أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته . وقيل : « تَخْسَرُوا » بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجر ؛ والمعنى ولا تخسروا فى الميزان . ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ الأنام الناس ؛ عن ٱبن عباس . الحسن : الجنّ والإنس . الضحاك : كل ما دبّ على وجه الأرض ، وهذا عام . ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى كل

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٩ .   (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٥١ .   (٣) الزيادة من ب ، ح ، س ، هـ .
(٤) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى « أبو عبيدة » بدل ٱبن عيينة .   (٥) راجع جـ ٩ ص ٨٥ .

ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار . ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ الأكمام جمع كِمّ بالكسر . قال الجوهرى : والكِمّة بالكسر والكِمامة وعاء الطلع وغطاء النَّوْر والجمع كِمام وأكِمّة وأكمام والأكاميم أيضا . وكُمّ الفصيلُ إذا أشفق عليه فسُتِر حتى يقوى؛ قال العجاج :

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ النّاسَ إذْ تُكُمُّوا ٭ بغُمَّـةٍ لَـوْ لَمْ تُفَـرَّجْ غُمُّـوا

وتُكُمّوا أى أغمى عليهم وغُطّوا . وأكمّت [النّخلة[1]] وكمّمت أى أخرجت أكمامها . والكِمام بالكسر والكِمامة أيضا ما يُكَمّ به فم البعير لئلا يعض؛ تقول منه : بعير مكموم أى محجوم . وكمّمت الشيء غطيته . والكِمّ ماستر شيئا وغطاه؛ ومنـه كُمّ القميص بالضم والجمع أكمام وكِمَمة، مثل حُبّ وحِببة . والكُمّة القلنسوة المدوّرة؛ لأنها تغطى الرأس . قال :

فقلتُ لهمْ كِيلو بكُمَّـةِ بعضِكُمْ ٭ دَراهمَـكُمْ إنِّى كذلك أَكْيَلُ

قال الحسن : « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » أى ذات الليف فإن النخلة قد تُكَمّم بالليف، وكِمامها ليفها الذى فى أعناقها . ابن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق . وقال عكرمة : ذات الأحمال . ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ الحبّ الحِنطة والشعير ونحوهما؛ والعصف التِّبْن؛ عن الحسن وغيره . مجـاهد : ورق الشـجر والزرع . ابن عباس : تِبْن الزرع وورقـه الذى تَعصفه الرياح . سعيد بن جبير : بَقْل الزرع أى أوّل ما ينبت منه؛ وقاله الفرّاء . والعرب تقول : خرجنا نَعصِف الزرع إذا قطعوا منـه قبل أن يُدرِك . وكذا فى الصحاح : وعَصَفتُ الزَّرعَ أى جززته قبل أن يُدرِك . وعن ابن عباس أيضا : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رءوسه ويبس؛ نظيره : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ[2] » . الجوهرى : وقد أعصفَ الزرعُ، ومكان مُعْصِف أى كثير الزرع . قال أبو قيس بن الأَسْلَت الأنصارى :

إذا جُمَـادَى مَنَعَتْ قَطْـرَهَا ٭ زَانَ جَنَابِى عَطَنٌ مُعْصِفُ

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٩٩ .

والعَصْف أيضا الكَسْب؛ ومنه قول الراجز[1]:

* بغيرِ ما عَصْفٍ ولا ٱصْطِرَافِ *

وكذلك الاعتصاف. والعَصِيفة الورق المجتمع الذى يكون فيه السُّنْبل. وقال الهروى: العصف والعَصِيفة ورق السُّنْبل. وحكى الثعلبي: وقال ٱبن السِّكِّيت تقول العرب لورق الزرع العصف والعَصيفة والجِلّ بكسر الجيم. قال عَلْقَمة بن عَبَدَة:

تَسْقِى مَذَانِبَ قد مَالَتْ عَصِيفَتُهَا * حَدُورُها من أَتِىِّ المَاءِ مَطْمُومُ

وفى الصحاح: والجِلّ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد. والريحان الرزق؛ عن ٱبن عباس ومجاهد. الضحاك: هى لغة حِمْير. وعن ٱبن عباس أيضا والضحاك وقتادة: أنه الريحان الذى يشم، وقاله ٱبن زيد. وعن ٱبن عباس أيضا: أنه خضرة الزرع. وقال سعيد ٱبن جبير: هو ما قام على ساق. وقال الفراء: العصف المأكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل. وقال الكلبي: إن العصف الورق الذى لا يؤكل، والريحان هو الحبّ المأكول. وقيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت رَيْحانا؛ لأن الإنسان يَرَاحُ لها رائحةً طيبة. أى يشم فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة؛ وأصل الياء فى الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه و بين الرُّوحانىّ وهو كل شىء له رُوح. قال ٱبن الأعرابى: يقال شىء رُوحانى ورُيحانى أى له روح. ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان فأصله رَيْوَحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهَيِّن ولَيِّن، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدتين الألف والنون، والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة. وفى الصحاح: والرَّيْحان نبت معروف؛ والريحان الرزق؛ تقول: خرجت أبتغى رَيْحَانَ اللهِ؛ قال النَّمِرُ بن تَوْلَب:

سَلامُ الإلهِ ورَيْحَانُهُ * ورَحْمَتُهُ وسَمَاءٌ دِرَرْ

وفى الحديث: "الولد من ريحان الله". وقولهم: سبحانَ الله و ريحانَه، نصبوهما على المصدر يريدون تنزيها له وٱسترزاقا. وأما قوله: «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ» فالعصف

(١) قائله العجاج. وصدر البيت: * قد يكسب المال الهدان الجافى *
والهدان الأحمق.

ساق الزرع، والريحان ورقه؛ عن الفـراء . وقراءة العامة « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » بالرفع فيهـا كلها على العطف على الفاكهة . ونصبها كلها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفًا على الأرض . وقيل : بإضمار فعل؛ أى وخلق الحبّ ذا العصف والريحان؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » . وجرّ حمزة والكسائى « الريحان » عطفًا على العصف؛ أى فيهـا الحب ذو العصف والريحان ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعـل الريحان الرزق؛ فيكون كأنه قال : والحب ذو الرزق . والرزق من حيث كان العصف رزقًا؛ لأن العصف رزق للبهائم، والريحان رزق للناس، ولا شبهة فيه فى قول من قال إنه الريحان المشموم .

قوله تعـالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خطاب للإنس والجنّ ؛ لأن الأنام واقع عليهما . وهذا قول الجمهور، يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة ، وخرجه الترمذى وفيه "للجنّ أحسنَ منكم ردًّا"[(١)] . وقيل : لمـا قال : «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» و «خَلَقَ الْجَانَّ» دل ذلك على أن ما تقدّم وما تأخر لهما . وأيضا قال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ » وهو خطاب للإنس والجنّ وقد قال فى هذه السورة : «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ» . وقال الجرجانى : خاطب الجنّ مع الإنس وإن لم يتقدّم للجنّ ذكر؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »[(٢)] . وقد سبق ذكر الجنّ فيما سبق نزوله من القرآن ، والقرآن كالسورة الواحدة ؛ فإذا ثبت أنهم مكلّفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات . وقيل : الخطاب للإنس على عادة العرب فى الخطاب للواحد بلفظ التثنية ؛ حسب ما تقدّم من القول فى « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ »[(٣)] . وكذلك قـوله :

* قِفَـا نَبْكِ ...[(٤)] *

و * خَلِيـلَيَّ مُرَّا بِي ...[(٥)] *

(١) رواية الترمذى المتقدّمة تخالف هذه الرواية فى اللفظ وهذه رواية الحاكم .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ١٩٥ . (٣) راجع ص ١٦ من هذا الجزء .

(٤) البيت مطلع معلقة امرئ القيس وتمامه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومـل

(٥) البيت مطلع قصيدة لامرئ القيس أيضا والبيت بتمامه :

خليلى مرا بى على أم جندب * نقض لبانات الفؤاد المعذب

فأما ما بعد « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » فإنه خطاب للإنس والجن ، والصحيح قول الجمهور لقوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » والآلاء النعم، وهو قول جميع المفسرين ، واحدها إِلًى وَأَلًى مثل مِعًى وعصًا ، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغات حكاها النحاس قال : وفي واحد «آنَاءِ اللَّيْلِ» ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام ، وقد مضى في « الأعراف »(1) و « النجم »(2) . وقال ابن زيد : إنها القدرة، وتقدير الكلام فبأي قدرة ربكما تكذبان؛ وقاله الكلبي واختاره الترمذي محمد بن علي ، وقال : هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن ، والعَلَم إمام الجند والجند تتبعه ، وإنما صارت عَلَمًا لأنها سورة صفة الملك والقدرة ؛ فقال : « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : « الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم ذكر الإنسان فقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » ثم ذكر ما صنع به وما منّ عليه به ، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نجم وشجر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ؛ فخاطب هذين الثقلين الجن والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه ، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلا لهم : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي بأي قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكا يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم . ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجان من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي بأي قدرة ربكما تكذبان ؛ فإن له في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة ؛ فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلق خلق . وقال القُتَبي : إن الله تعالى عدّد في هذه السورة نعماءه ، وذكّر خلقه آلاءه ، ثم أتبع

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٣٧ .	(2) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء .

كل خَلَّة وصفها ونعمة وضعها بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها ؛ كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيرًا فأغنيتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن خاملًا فعززتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن صَرُورة (١) فحججت بك أفتنكر هذا ! ؟ ألم تكن راجلًا فحملتك أفتنكر هذا ؟ ! والتكرير حَسن فى مثل هذا . قال :

* كَمْ نِعْمَةٍ كانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

وقال :

لا تَقْتُلِي مُسْلِمًا إنْ كنتِ مُسْلِمَةً * إيَّاكِ مِنْ دَمِهِ إيَّاكِ إيَّاكِ

وقال آخر :

لا تقطعنَّ الصديقَ ما طَرَفَتْ * عيناكَ من قول كاشح أشِرِ
ولا تَمَلَّنَّ من زيارته زُرْهُ * وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طردا للغفلة ، وتأكيدًا للحجة .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض ، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال : «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» باتفاق من أهل التأويل يعنى آدم . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ الصلصال الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة ، شبهه بالفَخَّار الذى طبخ . وقيل : هو طين خلط برمل . وقيل : هو الطين المنتن من صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ إذا أنتن ؛ وقد مضى فى « الحجر » (٢) . وقال هنا : « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » وقال هناك : «مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» . وقال : « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

---

(١) الصرورة : الذى لم يحج قط . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢١ .

لَازِب»[1] . وقال : « كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ»[2] وذلك متفق المعنى ؛ وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طينا ، ثم انتقل فصار كالحمإ المسنون ، ثم انتقل فصار صلصالا كالفخار . ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ قال الحسن : الجان إبليس وهو أبو الجن . وقيل : الجان واحد الجن ، والمارج اللهب ؛ عن ابن عباس ، وقال : خلق الله الجان من خالص النار . وعنه أيضا من لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت . وقال الليث : المارج الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد . وعن ابن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر ؛ ونحوه عن مجاهد ؛ وكله متقارب المعنى . وقيل : المارج كل أمر مرسل غير ممنوع ، ونحوه قول المبرد ؛ قال المبرد : المارج النار المرسلة التي لا تمنع . وقال أبو عبيدة والحسن : المارج خلط النار ، وأصله من مرج إذا اضطرب واختلط ؛ ويروى أن الله تعالى خلق نارين فمرج إحداهما بالأخرى ، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم فخلق منها إبليس . قال القُشَيْرِيّ : والمارج في اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول ؛ كقوله : « مَاءٍ دَافِقٍ »[3] و « عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ »[4] والمعنى ذو مرج ؛ قال الجوهري في الصحاح : و « مَارِجٍ مِنْ نَارٍ » نار لا دخان لها خلق منها الجان . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي هو رب المشرقين . وفي الصافات « وَرَبُّ الْمَشَارِقِ »[1] وقد مضى الكلام في ذلك هنالك .

قوله تعالى : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٣ و ص ٦٨ .   (٢) راجع جـ ٤ ص ١٠٢ .
(٣) راجع جـ ٢٠ ص ٤ .   (٤) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٠ .

قوله تعـالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ «مَرَجَ» أى خَلَّى وأرسل وأهمل ؛ يقال : مرج السلطان الناس إذا أهملهم . وأصل المَرْج الإهمال كما تُمْرَج الدابّةُ فى المرعى . ويقـال : مَرَجَ خَلَطَ . وقال الأخفش : ويقـول قوم أَمْرَجَ البحرين مثل مَرَجَ ، فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنًى . « الْبَحْرَيْنِ » قال آبن عباس : بحر السماء وبحر الأرض ؛ وقاله مجاهد وسعيد بن جبير . « يَلْتَقِيَانِ » فى كل عام . وقيل : يلتقى طرفاهما . وقال الحسن وقتادة : بحر فارس والروم . وقال آبن جريج : إنه البحر المـالح والأنهار العذبة . وقيل : بحر المشرق والمغرب يلتقى طرفاهما . وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان . «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ» أى حاجز فعلى القول الأول ما بين السماء والأرض ؛ قاله الضحاك . وعلى القول الثـانى الأرض التى بينهما وهى الحجاز ؛ قاله الحسن وقتادة . وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلٰهية على ما تقدّم فى « الفرقان »(١) . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "أن الله تعالى كلّم الناحية الغربيـة فقال : إنى جاعل فيك عبادًا لى يُسبِّحونى ويُكَبِّرونى ويهلِّلونى ويُمجِّدونى فكيف أنت لهـم ؟ فقالت : أُغرِقُهم يارَبّ . قال : إنى أحملهـم على يدى ، وأجعـل بأسـك فى نواحيك . ثم كلّم الناحية الشرقيـة فقال : إنى جاعل فيـك عبادًا لى يُسبِّحونى ويكبِّرونى ويهلِّلونى ويمجِّدونى فكيف أنت لهم ؟ قالت : أسـبِّحك معهم إذا سـبَّحوكَ ، وأُكبِّرك معهم إذا كبّروك ، وأُهلِّلكَ معهم إذا هلَّلوكَ ، وأُمَجِّدُك معهم إذا مجَّدوك ؛ فأثابها الله الحِلية وجعـل بينهما برزخًا ، وتحوّل أحدهما مِلحًا أُجاجًا ، وبقى الآخر على حالتـه عذبًا فُرَاتًا" ذكر هذا الخبر الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله قال : حدّثنا صالح بن محمد ، حدّثنا القاسم العمرىّ عن سهل عن أبيه عن أبى هريرة : « لَا يَبْغِيَانِ » قال قتادة : لا يبغيان على الناس فيغرقانهم ؛ جعل بينهما و بين الناس يبسًا(٢) . وعنه أيضا ومجاهد : لا يبغى أحدهما على صاحبه فيغلبه . آبن زيد : المعنى « لَا يَبْغِيَانِ » أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : مرج البحرين يلتقيان ، لولا البرزخ الذى بينهما لا يبغيان أن يلتقيا . وقيل : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ؛ أى بينهما مدّة قدرها الله وهى مدّة الدنيا فهما لا يبغيان ؛ فإذا أذن الله فى آنقضاء الدنيا صار البحران

(١) راجع جـ ١٣ ص ٥٨ . (٢) فى ب ، ج ، ز ، س ، ل ، هـ : «اليبس» .

شيئا واحدا، وهو كقوله تعالى: «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ»[(1)]. وقال سهل بن عبدالله: البحران طريق الخير والشر، والبرزخ الذى بينهما التوفيق والعصمة.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [أى يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان][(2)]، كما يخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان. وقرأ نافع وأبو عمرو «يُخْرَجُ» بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول. الباقون «يَخْرُجُ» بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل. وقال: «مِنْهُمَا» وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ»[(3)] وإنما الرسل من الإنس دون الجن؛ قاله الكلبي وغيره. قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما؛ وهو كقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا»[(4)] والقمر فى سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن مافى إحداهنّ فيهنّ. وقال أبو علىّ الفارسىّ: هذا من باب حذف المضاف؛ أى من أحدهما؛ كقوله: «عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»[(5)] أى من إحدى القريتين. وقال الأخفش سعيد: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب. وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان. ابن عباس: هما بحرا السماء والأرض. فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما؛ وقاله الطبرى. قال الثعلبىّ: ولقد ذُكر لى أن نواة كانت فى جوف صدفة، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعض، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة. وقيل: إن العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى؛ لذلك قيل: إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح. وقيل: المرجان عظام اللؤلؤ وكباره؛ قاله على وابن عباس رضى الله عنهما. واللؤلؤ صغاره. وعنهما أيضا بالعكس: إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره؛ وقاله الضحاك وقتادة. وقال ابن مسعود وأبو مالك: المرجان الخرز الأحمر.

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٢	(٢) ما بين المربعين ساقط من ز، ل.	(٣) راجع جـ ٧ ص ٨٥
(٤) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٤	(٥) راجع جـ ١٦ ص ٢٠.

قوله تعالى : وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ يعنى السفن . ﴿ الْمُنْشَآتُ ﴾ قراءة العامة « الْمُنْشَئَاتُ » بفتح الشين ؛ قال قتادة : أى المخلوقات للجرى مأخوذ من الإنشاء . وقال مجاهد : هى السفن التى رُفع قِلْعها ؛ قال : وإذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشَئات . وقال الأخفش : إنها المَجْريات . وفى الحديث : أن عليًّا رضى الله عنه رأى سفنًا مُقْلَعة ، فقال : وربِّ هذه الجوارِى المنشآت ما قتلت عثمان ولا مالأت فى قتله . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بآختلاف عنه « الْمُنْشِئَاتُ » بكسر الشين أى المنشئات السير ؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والآتساع . وقيل : الرافعات الشُّرُع أى القُلُع . ومن فتح الشين قال : المرفوعات الشُّرع . ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى كالجبال ، والعَلَم الجبل الطويل ، قال :

* إذا قطعن عَلَمًا بدا عَلَمْ *(1)

فالسفن فى البحر كالجبال فى البر ، وقد مضى فى «الشورى»(2) بيانه . وقرأ يعقوب «الْجَوَارِى» بياء فى الوقف ، وحذف الباقون .

قوله تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الضمير فى « عَلَيْهَا » للأرض ، وقد جرى ذكرها فى أول السورة فى قوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » وقد يقال : هو أكرم مَنْ عليها ،

---

(1) قائله جرير ؛ وتمام البيت :

* حتى تناهين بنا إلى الحكم *

وبعده : خليفة الحجاج غير المتهم * فى ضنضىء المجد وبؤبؤ الكرم

(2) راجع جـ ١٦ ص ٢٣

يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر . وقال ٱبن عباس : لمـا نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »(١) فأيقنت الملائكة بالهـلاك ؛ وقاله مقاتل . ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام . وقيل : وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب . ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ويبقى الله ؛ فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه ؛ قال الشاعر :

قَضَى على خَلْقِــه المنـايا * فكلُّ شيء ســواه فانِي

وهذا الذي ٱرتضاه المحققون من علمائنا : ٱبن فورك وأبو المعالي وغيرهم . وقال ٱبن عباس : الوجه عبارة عنــه كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَـلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقال أبو المعالي : وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى ، وهو الذي ٱرتضاه شيخنا . ومن الدليل على ذلك قوله تعـالى : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » والموصف بالبقاء عنـد تعرض الخلق للفناء وجود الباري تعالى . وقد مضى في « البقرة »(٢) القول في هذا عند قوله تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى مستوفى . قال القشيري : قال قوم هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيف ، يحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام . والصحيح أن يقال : وجهه وجوده وذاته ، يقال : هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب . وقيل : أي يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه . وقيل : وتبقى الجهة التي يتقرب بها إلى الله . ﴿ ذُو الْجَـلَالِ ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه وٱستحقاقه صفات المدح ؛ يقـال : جَلَّ الشيءُ أي عَظُـم وأجللته أي عظّمته ، والجلال ٱسم من جلّ . ﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ؛ كما تقول : أنا أكرمك عن هذا ؛ ومنه إكرام الأنبياء والأولياء . وقد أتينـا على هذين الآسمين لغـةً ومعنًى في الكتاب الأسنى مستوفًى . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليــه وسـلم قال : " أَلِظُّوا بيـاذا الجلال والإكرام " . وروى أنه من قول ٱبن مسعود ؛ ومعناه : ٱلزموا ذلك في الدعاء . قال أبو عبيد :

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٢ . (٢) راجع جـ ٢ ص ٨٣ .

الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه. ويقال: الإلظاظ الإلحاح. وعن سعيد المقبرى: أن رجلاً أَلَحّ بجعــل يقول: اللهم ياذا الجلال والإكرام! اللّهم ياذا الجــلال والإكرام! فنودى: إنى قد سمعت فما حاجتك؟

قوله تعــالى: يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُــوَ فِى شَــأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

قــوله تعــالى: ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قيــل: المعــنى يسأله من فى السموات الرحمة، ومن فى الأرض الرزق. وقال ٱبن عباس وأبو صالح: أهل السموات يسألونه المغفــرة ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونهما جميعا. وقال ٱبن جريج: وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض. وفى الحديث: «إن من الملائكة مَلَكًا له أربعة أوجه [وجه](1) كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزق لبنى آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النّسر وهو يسأل الله الرزق للطير». وقال ٱبن عطاء: إنهم سألوه القوّة على العبادة. ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا كلام مبتدأ. وٱنتصب «كُلَّ يَوْمٍ» ظرفًا، لقوله: «فِي شَأْنٍ» أو ظرفاً للسؤال، ثم يبتدئ «هُوَ فِي شَأْنٍ». وروى أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» قال: "من شأنه أن يغفر ذنبًا ويفرّج كربًا ويرفع قوما(2) ويضع آخرين". وعن ٱبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى قول الله عز وجل: «كُلَّ يَوْمٍ هُــوَ فِي شَأْنٍ» قال: "يغفر ذنبا ويكشف كربًا ويجيب داعيا". وقيل: من شأنه أن يحيى ويميت، ويُعزّ ويذل، ويرزق ويمنع. وقيــل: أراد شأنه فى يومى الدنيا والآخرة. قال ٱبن بحر: الدهر كله يومان، أحدهما مدة أيام الدنيــا، والآخر يوم القيامة، فشأنه سبحانه وتعــالى فى أيام الدنيا الآبتلاء والآختبار بالأمر والنهى والإحياء والإماتة والإعطاء والمنــع، وشأنه يوم القيامة الجــزاء والحساب،

---

(1) الزيادة من ب، ح ز، س، ل، هـ. (2) فى ب، ح، ز، س، ل، هـ: «أقواما».

والثواب والعقاب . وقيل : المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا وهو الظاهر . والشأن في اللغة الخطب العظيم والجمع الشئون والمراد بالشأن هاهنا الجمع كقوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا »(١) . وقال الكلبي : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت . وقال عمرو آبن ميمون في قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » من شأنه أن يميت حيًّا ، ويُقِرّ في الأرحام ماشاء ، ويُعِزّ ذليلاً ، ويُذِلّ عزيزاً . وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فلم يعرف معناها ، وآستمهله إلى الغد فانصرف كئيبًا إلى منزله فقال له غلام له أسود : ماشأنك ؟ فأخبره . فقال له : عد إلى الأمير فإني أفسرها له ، فدعاه فقال : أيها الأمير! شأنه أن يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحيّ من الميّت ، ويخرج الميّت من الحيّ ، ويَشفى سقيماً ، ويُسقم سليماً ، ويَبتلى معافًى ، ويعافى مبتلًى ، ويُعِزّ ذليلاً ، ويذل عزيزًا ، ويُفقر غنيًّا ، ويغني فقيراً ؛ فقال له : فرّجت عني فرّج الله عنك ، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام ؛ فقال : يامولاى ! هذا من شأن الله تعالى . وعن عبد الله آبن طاهر : أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي : قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ »(٢) وقد صح أن الندم توبة . وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »(٣) فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة ، ويكون توبة في هذه الأمة ؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم . وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله . وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبديها لا شئون يبتديها . وأما قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فمعناه : ليس له إلا ما سعى عدلًا ولي أن أجزيه بواحدة ألفًا فضلا . فقام عبد الله وقبل رأسه وسوغ خراجه .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٠ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٤٣ (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٤٤

قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ يقال : فَرَغت من الشغل أفرُغ فُروغاً وفَراغاً وتفرّغت لكذا واستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه ، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده : إذاً أتفرغ لك أى أقصدك . وفرغ بمعنى قصد؛ وأنشد ٱبن الأنبارى فى مثل هذا لجـــرير :

ألآن وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَــيْرٍ * فهذا حينَ كُنْتُ لهــا عَذابَا

يريد وقد قصدت . وقال أيضاً[1] وأنشده النحاس :

* فَرَغْتُ إلى العَبْدِ المقيَّدِ فى الحِـجْلِ *

وفى الحديث أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم لمــا بايع الأنصار ليــلة العقبة ، صاح الشيطان : يأهل الجُبَاجب[2] ! هذا مُذَمَّم يبايع بنى قَيْلة على حربكم ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هذا إِزْبُ[3] العَقَبة أَمَا والله ياعدوّ الله لأتفرغن لك " أى أقصد إلى إبطال أمرك . وهــذا ٱختيار القتبي والكسائى وغيرهما . وقيل : إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور ، ثم قال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » مما وعدناكم ونوصل كُلًّا إلى ماوعدناه ؛ أى أقسم ذلك وأتفرغ منه . قاله الحسن ومقاتل وٱبن زيد . وقرأ عبد الله وأبىّ « سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ » وقــرأ الأعمش و إبراهيم

(١) أى جرير . (٢) الجباجب : منازل منى (٣) الإزب : ضبطه الحلبى فى سيرته بكسر الهمزة و إسكان الزاى ، وهو هنا ٱسم شيطان .

« سَيُفْرَغُ لَكُمْ » بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله . وقرأ آبن شهاب والأعرج « سَنَفْرَغُ لَكُمْ » بفتح النون والراء ؛ قال الكسائي : هي لغة تميم يقولون فَرِغ يفرَغ ، وحكى أيضا فَرَغ يَفْرَغ ورواهما هُبيرة عن حفص عن عاصم . وروى الجُعْفي عن أبي عمرو « سَيَفْرَغُ » بفتح الياء والراء ، ورويت عن آبن هُرْمز . وروى عن عيسى الثقفي « سَنِفْرَغُ لَكُمْ » بكسر النون وفتح الراء ، وقرأ حمزة والكسائي « سَيَفْرُغُ لَكُمْ » بالياء . الباقون بالنون وهي لغة تهامة .
والثَّقلان الجنّ والإنس ؛ سُمّيا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف . وقيل : سمّوا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياءً وأمواتاً ؛ قال الله تعالى : «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا»(١) ومنه قولهم : أعطه ثقله أي وزنه . وقال بعض أهل المعاني : كل شيء له قدر ووزن يُنافَس فيه فهو ثقل . ومنه قيل لبيض النعام ثقل ؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به . وقال جعفر الصادق : سمّيا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب . وقال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » فجمع ، ثم قال : « أَيُّهَ الثَّقَلَانِ » لأنهما فريقان وكل فريق جمع ، وكذا قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ » ولم يقل إن آستطعتما ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع ، كقوله تعالى : «فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ»(٢) و « هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ »(٣) ولو قال : سنفرغ لكما ، وقال : إن آستطعتما لجاز(٤) . وقرأ أهل الشام « أَيُّهُ الثَّقَلَانِ » بضم الهاء . الباقون بفتحها وقد تقدّم(٣) .

مسألة — هذه السورة و « الْأَحْقَاف » و « قُلْ أُوحِيَ » دليل على أن الجنّ مخاطبون مكلّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء ، مؤمنهم كمؤمنهم ، وكافرهم ككافرهم ، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الآية . ذكر آبن المبارك : وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر الله السماء التي تليها

(١) راجع ج ٢٠ ص ١٤٧ . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢١٤ .
(٣) راجع ج ١٢ ص ٢٥ وص ٢٣٨ و ج ١٦ ص ٩٧ (٤) أي في غير القرآن .

كذلك فينزلون فيكونون صفًّا من خلف[(١)] ذلك الصف ، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ، فينزل المَلَك الأعلى في بهائه وملكه ومجنّبته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قُطْرًا من أقطارها إلا وجدوا صفوفًا من الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » والسلطان العذر. وقال الضحاك أيضا : بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجنّ والإنس ، فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » ذكره النحاس .

قلت . فعلى هـذا يكون في الدنيا ، وعلى ما ذكر ابن المبارك يكون في الآخرة . وعن الضحاك أيضًا : إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا . وقال ابن عباس : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله تعالى . وعنه أيضًا أن معنى : « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم . قتادة : لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل : لا تنفذون إلا إلى سلطان[(٢)]، الباء بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي[(٣)] » أي إليّ . قال الشاعر[(٤)] :

أَسِيئِي بِنا أو أحسِنِي لا مَلُولةٌ * لدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ

وقوله : « فَانْفُذُوا » أمر تعجيز.

قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أي لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار ، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ . وقيل : ليس هـذا متعلقاً بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذاباً بالنار . وقيل : أي بآلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب . وقيل : يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » ، فتلك النار قوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ »

---

(١) في ب ، ز ، ح ، س ، د : « في جوف ذلك الصف » . (٢) في ب : « إلى سلطاني » .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٢٦٧ . (٤) هو كثير عزة .

والشواظ في قول ابن عباس وغيره اللهب الذي لا دخان له . والنُّحاس : الدخان الذي لا لهب فيه ؛ ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه، كذا وقع في تفسير الثعلبي والماوردي بن أبي الصَّلْت، وفي « الصحاح » و « الوقف والابتداء » لابن الأنباري : أمية بن خلف قال :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عَنِّي * مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إلى عُكَاظِ

أَلَيْس أبوكَ فينا كان قَيْنًا * لَدَى القَيْنَاتِ فَسْلًا في الحِفَاظِ

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيرًا * وينْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّوَاظِ

فأجابه حسان رضي الله عنه فقال :

هَجَوْتكَ فَاخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ * بِقَافِيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ (١)

وقال رُؤبة :

إنّ لهم من وَقْعِنَا أَقْيَاظَا * ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا

وقال مجاهد : الشُّواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار . الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب . وقاله سعيد بن جبير . وقد قيل : إن الشواظ النار والدخان جميعاً ؛ قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب . وقرأ ابن كثير «شِواظ» بكسر الشين . الباقون بالضم وهما لغتان؛ مثل صُوَار وصِوار لقطيع البقر . ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قراءة العامة « وَنُحَاسٌ » بالرفع عطف على « شُوَاظ » . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو « ونُحَاسٍ » بالخفض عطفا على النار . قال المهدوي : من قال إن الشّواظ النارُ والدخان جميعا فالجر في « نُحَاس» على هذا بيّن . فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال : « يُرْسَلُ عَلَيكما

(١) وفي التاج بدل هذا البيت :

مجـللة تعممـه شـنارا * مضرمة تـأجج كالشـواظ

والقمل من الرجال : الرذل الذي لا مروءة له ولا جلد . والمفسول مثله .

شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ » وشيء من نحاس؛ فشيء معطوف على شواظ، ومن نحاس جملة هي صفة لشيء ، وحذف شيء، وحذفت من لتقدم ذكرها في « مِنْ نَارٍ » كما حذفت على من قولهم : على من تنزل أنزل [أي] عليه . فيكون « نُحَاس » على هـذا مجروراً بمن المحذوفـة . وعن مجاهـد وحُميد وعكرمة وأبي العـالية « ونِحاسٍ » بكسر النون لغتـان كالشِّواظ والشُّواظ . والنِّحاس بالكسر أيضًا الطبيعة والأصل؛ يقال : فلان كريم النِّحاس والنُّحاس أيضًا بالضم أي كريم النِّجار[2] . وعن مسلم بن جُنْدَب « ونُحُسٌ » بالرفع . وعن حنظلة بن مرّة بن النعمان الأنصاري « ونَحْسٍ » بالجـر عطف على نار . ويجـوز أن يكون « ونِحاسٍ » بالكسر جمع نَحْس كصَعْب وصِعاب « ونَحْسٌ » بالرفع عطف على « شـواظ » وعن الحسن « ونُحُسٍ » بالضم [فيهما][3] جمع نَحْس . ويجوز أن يكون أصله ونُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدّم عند قوله : « وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »[4] . وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة « وَنَحُسُّ » بفتح النون وضم الحاء وتشديد السين من حَسَّ يَحُسّ حَسًّا إذا آستأصل ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ »[5] والمعنى ونقتل بالعذاب . وعلى القراءة الأولى « ونُحَاسٌ » فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رءوسهم ؛ قاله مجاهد وقتادة ، وروى عن آبن عباس . وعن آبن عبـاس أيضًا وسعيد آبن جُبير أن النحاس الدخان الذي لا لهب فيـه ؛ وهو معنى قول الخليل؛ وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى ؛ قال نابغة بني جَعْدة :

يُضيءُ كضَوْءِ سِرَاج السَّلِيـ ※ ـطِ لم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَـاسَا

قال الأصمعي : سمعت أعرابيًا يقـول السَّليط دهن السِّمسم بالشام ولا دخان فيـه . وقال مقاتل : هي خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب ، تجري من تحت العرش على رءوس أهل النار ؛ ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار . وقال آبن مسعود : النُّحَاس المُهْـل . وقال الضحاك : هو دُرْدِيّ الزَّيت المغلِيّ . وقال الكسائي : هو النار التي لها ريح شديدة .

﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضا يعني الجن والإنس .

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) النجار — بكسر النون وضمها — الأصل والحسب .
(٣) الذي في الأصول : « بالضم فيهن » وما أثبتناه هو ما عليه كتب التفسير أي بضمتين وكسر السين .
(٤) راجع ج ١٠ ص ٩١ . (٥) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ .

قوله تعالى : فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ أى ٱنصدعت يوم القيامة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ الدِّهَانُ الدهن ؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما . والمعنى أنها صارت فى صفاء الدهن ؛ والدهان على هذا جمع دُهْن . وقال سعيد بن جُبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء . وقيل : المعنى تصير فى حمرة الورد وجريان الدهن ؛ أى تذوب مع الآنشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدُّهن لرقتها وذوبانها . وقيل : الدِّهان الجلد الأحمر الصِّرف ؛ ذكره أبو عبيد والفراء . أى تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حَرّ النار . ٱبن عباس : المعنى فكانت كالفرس الوَرْد ؛ يقال للكُمَيت : وَرْدٌ إذا كان يتلون بالوان مختلفة . قال ٱبن عباس : الفرس الوَرْد ، فى الربيع كميت أصفر ، وفى أوّل الشتاء كُميت أحمر ، فإذا ٱشتد الشتاء كان كُمَيتًا أغبر . وقال الفراء : أراد الفرس الوَرْديّة ، تكون فى الربيع وَرْدةً إلى الصفرة ، فإذا ٱشتد البرد كانت وَرْدةً حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدةً إلى الغُبرة ، فشبه تلوّن السماء بتلون الوَرْد من الخيل . وقال الحسن : « كَالدِّهَانِ » أى كصبّ الدُّهْن فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانًا . وقال زيد ٱبن أسلم : المعنى أنها تصير كعَكَر الزيت ، وقيل : المعنى أنها تمرّ وتجىء . قال الزجاج : أصل الواو والراء والدال للجىء والإتيان . وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوَرْدة تتغير ألوانها . وقال قتادة : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر ؛ حكاه الثعلبى . وقال الماوردىّ : وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبُعد المسافة تُرى بهذا اللون الأزرق ، وشبهوا ذلك بعروق البدن ، وهى حمراء كحمرة الدم وتُرى بالحائل زرقاء ؛ فإن كان هذا صحيحا فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وٱرتفاع الحواجز ترى حمراء ، لأنه أصل لونها . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ هذا مثل قوله تعالى: «وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» (١) وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم؛ فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض، وهذا قول عكرمة. وقيل: المعنى لا يسألون إذا آستقروا في النار. وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأن الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة. رواه العوفى عن آبن عباس. وعن الحسن ومجاهد أيضا: المعنى لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم؛ دليله ما بعده. وقاله مجاهد عن آبن عباس. وعنه أيضا في قوله تعالى: «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (٢) وقوله: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ» وقال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ. وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. وقال قتادة: كانت المسألة قبل؛ ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم. وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه قال: "فيلقى العبدَ فيقول أي فُلْ (٣) ألم أُكْرِمك وأُسَوِّدْك وأُزَوِّجْك وأُسَخِّر لك الخيلَ والإبلَ وأَذَرْك تَرْأَس وتَرْبَعُ فيقول بلى فيقول أفظننتَ أنك مُلَاقِيَّ فيقول لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول له مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يارب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصلّيت وصمت وتصدّقت ويثني بخير ما آستطاع فيقول ها هنا إذًا ثُمَّ يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك فيفتكر في نفسه مَن هذا الذي يشهد عليَّ فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه ولحمه وعظامه آنطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه" وقد مضى هذا الحديث في «حم السجدة» وغيرها (٤).

---

(١) راجع ج ١٣ ص ٣١٦ (٢) راجع ج ١٠ ص ٥٩

(٣) أي فل: معناه يا فلان وليس ترخيما له، وإنما هي صيغة آرتجلت في النداء، ولا تقال إلا بسكون اللام. وقال قوم: إنه ترخيم فلان.

(٤) راجع ج ١٥ ص ٣٤٨ وص ٣٥٠

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ قال الحسن : سواد الوجه وزرقة الأعين ، قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا »(١) وقال تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ »(٢) . ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ أي تأخذ الملائكة بنواصيهم؛ أي بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار . والنواصي جمع ناصية . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره . وعنه : يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى في النار . وقيل : يفعل ذلك به ليكون أشد لعذابه وأكثر لتشويهه . وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار؛ تارةً تأخذ بناصيته وتجره على وجهه ، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه .

قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي يقال لهم هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ قال قتادة : يطوفون مرةً بين الحميم ومرةً بين الجحيم ، والجحيم النار، والحميم الشراب . وفي قوله تعالى : « آنٍ » ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي انتهى حرُّه وحميمه . قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير والسُّدي ؛ ومنه قول النابغة الذُّبياني :

وتُخْضَبُ لحيةٌ غَدَرتْ وخانتْ * بأحمرَ من نجيع الجوفِ آنِ(٣)

قال قتادة : « آنٍ » طبخ منذ خلق الله السموات والأرض ؛ يقول : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك . وقال كعب : « آن » واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٤ . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٦٦ .

(٣) نجيع الجوف : يعني الدم الخالص . وقبل البيت :

فإن يقدر عليك أبو قبيس * تحط بك المعيشة في هوان

النار فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقًا جديدًا فيلقون في النار ، فذلك قوله تعالى : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . وعن كعب أيضا : أنه الحاضر . وقال مجاهد : إنه الذى قد آن شربه وبلغ غايته . والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب في الليل يقرأ « فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول : وَيْحِى من يوم تنشقّ فيه السماء وَيْحِى ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وَيْحَك يافتى مثلها فو الذى نفسى بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك"(١) .

قوله تعالى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدّ للأبرار . والمعنى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب فترك المعصية . فـ « مَقَامَ » مصدر بمعنى القيام . وقيل : خاف قيام ربه عليه أى إشرافه وآطلاعه عليه؛ بيانه قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »(٢) . وقال مجاهد وإبراهيم النخعي : هو الرجل يَهُمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

الثانيـة — هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه : إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان هَمّ بالمعصية وتركها خوفًا من الله وحياءً منه . وقال به سفيان الثورىّ وأفتى به . وقال محمد بن علىّ الترمذىّ : جنةٌ لخوفه من ربه، وجنةٌ لتركه شهوته . وقال آبن عباس : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض . وقيل : المقام الموضع؛ أى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب كما تقدّم . ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله ، وهو كالأجل في قوله : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ »(٣) وقوله في موضع آخر :

(١) في ب ، ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « من بكائك » . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٢٢ .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢ .

« إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ »[1] . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أى لمن خاف جنتان على حدة؛ فلكل خائف جنتان . وقيل : جنتان لجميع الخائفين؛ والأول أظهر . وروى عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الجنتان بستانان فى عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام فى وسط كل بستان دار من نور[2] وليس منها شىء إلا يهتز نغمة وخضرة؛ قرارها ثابت وشجرها ثابت " ذكره المهدوى والثعلبى أيضا من حديث أبى هريرة . وقيل : إن الجنتين جنته التى خلقت له وجنة ورثها . وقيل : إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا . وقيل : إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه . وقيل : إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها . وقال مقاتل : هما جنة عدن وجنة النعيم . وقال الفراء : إنما هى جنة واحدة ؛ فثنى لرءوس الآى . وأنكر القتبى هذا وقال : لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنما قال تسعة عشر لمراعاة رءوس الآى . وأيضا قال : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » . وقال أبو جعفر النحاس : قال الفراء قد تكون جنة فتثنّى فى الشعر ؛ وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل؛ يقول الله عز وجل : « جَنَّتَانِ » ويصفهما بقوله : « فِيهِمَا » فيدع الظاهر ويقول : يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشعر ! وقيل : إنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة . وقيل : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه خاصةً حين ذكر ذات يوم الجنة حين أُزْلِفَت والنار حين بُرِّزت ؛ قاله عطاء وابن شَوْذَب . وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبناً على ظمإ فأعجبه ، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حلّ فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ؛ فقال : " رحمك الله لقد أنزلت فيك آية " وتلا عليه هذه الآية .

قوله تعالى : ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٩٩ (٢) فى ز ، ل : « نور على نور » .

قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أى ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فنّ . وقال مجاهد : الأفنان الأغصان واحدها فنن ؛ قال النابغة :

بكاء حمامة تدعو هديلاً * مُفجّعة على فنن تُغنّى (١)

وقال آخر يصف طائرين :

باتا على غُصْنِ بَانٍ فى ذُرَى فَنَنٍ * يُرَدِّدانِ لُحُونًا ذاتَ أَلْوَانِ

أراد باللحون اللغات . وقال آخر :

ما هاجَ شَوْقَكَ مِن هَدِيلِ حمامةٍ * تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَمَامَا

تدعو أبا فَرْخَيْنِ صادف ضاريًا * ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّقورِ قَطَامَا

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين ؛ وقال يصف رَحًى :

* لهـا زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ *

وشجرة فَنَّاء أى ذات أفنان وفنواء أيضا على غير قياس . وفى الحديث : " أن أهل الجنة مُرْدٌ مكحّلون أولو أفانين " يريد أولو فَنَن وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فنن [وهو الخُصْلة] (٢) من الشعر شبّه بالغصن . ذكره الهروى . وقيل : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى ذواتا سعة وفضل على ما سواهما ؛ قاله قتادة . وعن مجاهد أيضا وعكرمة : إن الأفنان ظل الأغصان على الحيطان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال ابن عباس : تجريان ماءً بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة . وعن ابن عباس أيضا والحسن : تجريان بالماء الزّلال؛ إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل . وعنه أيضا :

---

(١) قبل هذا البيت :

أسائلها وقد سفحت دموعى * كأن مفيضهن غروب شن

(٢) الزيادة من النهاية لابن الأثير .

عينان مثل الدنيا أضعافًا مضاعفةً ، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر ، وترابهما الكافور ، وحمأتهما المسك الأذفر ، وحافتاهما الزعفران . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين . وقيل : تجريان من جبل من مسك . وقال أبو بكر الورّاق : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل .

قوله تعالى : فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أى صنفان وكلاهما حلوٌ يستلذ به . قال ابن عباس : ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وقيل : ضربان رطب ويابس لا يقصر هـذا عن ذلك في الفضل والطِّيب . وقيل : أراد تفضيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما ، فإنه ذكرها هنا عينين جاريتين ، وذكر ثَمَّ عينين تَنْضخان بالماء والنَّضخ دون الجرى ؛ فكأنه قال : في تَيْنك الجنتين من كل فاكهة نوع ، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ هو نصب على الحال . والفُرُش جمع فراش . وقرأ أبو حَيْوة «فُرْش» بإسكان الراء . ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة . والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن ؛ أى إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة ؛ قاله ابن مسعود وأبو هريرة . وقيل لسعيد بن جُبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ »[1] . وقال ابن عباس : إنما وصف لكم بطائنها لتهتدى إليه قلوبكم ، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ظواهرها نور يتلألأ" . وعن الحسن : بطائنها من إستبرق ، وظواهرها من نور جامد . وعن الحسن أيضًا : البطائن هي الظواهر ؛

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٠٣

وهو قول الفراء، وروى عن قتادة. والعرب تقول للظهر بطناً، فيقولون : هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء، لظاهرها الذى نراه . وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا ، وقالوا : لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين إذا ولى كلّ واحد منهما قوماً ، كالحائط بينك وبين قوم ؛ وعلى ذلك أمر السماء . ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ الجَنَى ما يُجتنَى من الشجر ؛ يقال : أتانا بجناة طيبة لكل ما يجتنى . وثمر جَنِىّ على فَعِيل حين جُنِى ؛ وقال :

(١)

هــذا جَنَـاىَ وخِيَـاره فِيــهْ * إذْ كُلُّ جانٍ يَـدُهُ إلى فِيــهْ

وقرئ « جِنَى » بكسر الجيم . « دانٍ » قريب . قال ابن عباس : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولىّ الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً ؛ لا يرد يده بُعْدٌ ولا شوك .

قوله تعالى : فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ قيل : فى الجنتين المذكورتين . قال الزجاج : وإنما قال : « فِيهِنَّ » ولم يقل فيهما ؛ لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما من النعيم . وقيل : « فِيهِنَّ » يعود على الفُرُش التى بطائنها من إستبرق ؛ أى فى هذه الفرش « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » أى نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم . وقد مضى فى « والصافات »(٢) ووحّد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه فى معنى المصدر ؛ من طَرَفت عينه تطرف طَرْفاً ، ثم سميت العين بذلك فأدّى عن الواحد والجمع ؛ كقولهم : قوم عَدْل وصَوْم .

---

(١) هو عمرو بن عدى اللخمى ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو مثل يضرب للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أى لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد . الفـراء : والطمث الافتضاض وهو النـكاح بالتَّدْمِيَة ؛ طَمَثَها يطمِثُها ويَطمُثها طَمْثًا إذا افتضها . ومنه قيل : امرأة طامِث أى حائض . وغير الفراء يخالفه فى هذا ويقول : طمثها بمعنى وطئها على أى الوجوه كان . إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر . وقرأ الكسائى « لَمْ يَطْمُثْهُنَّ » بضم الميم ؛ يقال : طَمَثت المرأة تطمُث بالضم حاضت . وطَمِثت بالكسر لغة فهى طامث ؛ وقال الفرزدق :

وقَعْنَ[1] إلىَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِى * وهنّ أَصَحّ مِنْ بَيْض النَّعَـامِ

وقيـل : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » لم يمسسهن ؛ قال أبو عمرو : والطمث المسّ وذلك فى كل شىء يمسّ . ويقـال للمَرْتع : ما طَمَث ذلك المرتعَ قبلنـا أحدٌ ، وما طَمَث هذه النـاقة حَبْل ؛ أى ما مسّها عِقال . وقال المبرِّد : أى لم يذلِّلهن إنس قبلهم ولا جان ؛ والطمث التذليل . وقرأ الحسن « جَأن » بالهمز .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس ، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنِّيات . قال ضمرة : للؤمنين منهم أزواج من الحور العين ؛ فالإنسيات للإنس ، والجنيات للجن . وقيل : أى لم يطمث ماوهب الله للؤمنين من الجن فى الجنة من الحور العين من الجنيات جنّ ، ولم يطمث ماوهب الله للؤمنين من الإنس فى الجنة من الحور العين من الإنســيات إنس ؛ وذلك لأن الجن لا تطأ بنات آدم فى الدنيا . ذكره القشيرى .

قلت : قـد مضى فى « النمـل »[2] القول فى هذا وفى « سبحان »[3] أيضًا ، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم . وقد قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعـالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحـور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قـد برئن من هـذا العيب ونزهن ، والطمث الجماع . ذكره بكماله الترمذى الحكيم ، وذكره المهدوى أيضا والثعلبى وغيرهما والله أعلم .

---

(١) فى ب : « دفعن » . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢١١ (٣) راجع ج ١٠ ص ٢٨٩

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلّة حتى يرى مخها " وذلك بأن الله تعالى يقول : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم آستصفيته لأريته [من ورائه](١) و يروى موقوفًا . وقال عمرو بن ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلّة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك ، كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء . وقال الحسن : هنّ فى صفاء الياقوت، و بياض(٢) المرجان .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ «هَلْ» فى الكلام على أربعة أوجه : تكون بمعنى قد كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »(٣) ، و بمعنى الآستفهام كقوله تعالى : « فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا »(٤) ، و بمعنى الأمر كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ »(٥) ، و بمعنى ما فى الجحد كقوله تعالى : « فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ »(٦) ، و « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » . قال عكرمة : أى هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة . آبن عباس : ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة . وقيل : هل جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن إليه فى الآخرة ؛ قاله آبن زيد . وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » ثم قال : " هل تدرون ماذا قال ربكم " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " . وروى آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ

(١) الزيادة من صحيح الترمذى . (٢) كذا فى الأصول ؛ والمعهود أن المرجان أحمر . (٣) راجع جـ ١٩ ص ٣٠٦
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩ (٥) راجع جـ ٦ ص ٢٩٢ (٦) راجع جـ ١٠ ص ١٠٣

هذه الآية فقال : " يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدى إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قُدسي برحمتي " وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد . وقال محمد بن الحنفية والحسن : هي مُسْجَلة للبَرّ والفاجر ؛ أي مرسلة على الفاجر في الدنيا والبر في الآخرة .

قوله تعالى : وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي وله من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان . قال ابن عباس : ومن دونهما في الدَّرَج . ابن زيد : ومن دونهما في الفضل . ابن عباس : والجنات لمن خاف مقام ربه ؛ فيكون في الأوليين النخل والشجر ، وفي الأخريين الزرع والنبات وما انبسط . الماوردي : ويحتمل أن يكون « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته ، إحداهما للحور العين ، والأخرى للولدان المخلّدين ؛ ليتميّز بهما الذكور عن الإناث . وقال ابن جريج : هي أربع : جنتان منها للسابقين المقربين « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » و « عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » ، وجنتان لأصحاب اليمين « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » و « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » . وقال ابن زيد : إن الأُوليين من ذهب للمقربين ، والأُخريين من وَرِق لأصحاب اليمين .

قلت : إلى هذا ذهب الحَلِيمي أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب (منهاج الدين له) ؛ واحتج بما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » إلى قوله : « مُدْهَامَّتَانِ » قال : تانك للمقربين ، وهاتان لأصحاب اليمين . وعن أبي موسى الأشعري نحوه . ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما فقال في الأوليين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » ، وفي الأُخريين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أي فوّارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضخ دون الجري . وقال في الأوليين : « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » فعمّ ولم يخصّ . وفي الأخريين : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » ولم يقل من كل فاكهة ، وقال

فى الأولين : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو الديباج، وفى الأخريين « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ » والعبقرىّ الوشى، ولاشك أن الديباج أعلى من الوشى، والرفرف كِسَر الخباء، ولا شك أن الفرش المعدّة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء. وقال فى الأولين فى صفة الحور : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ »، وفى الأخريين « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان . وقال فى الأوليين : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » وفى الأخريين « مُدْهَامَّتَانِ » أى خضراوان كأنهما من شدّة خضرتهما سوداوان، ووصف الأولين بكثرة الأغصان، والأخريين بالخضرة وحدها، وفى هذا كله تحقيق للمعنى الذى قصدنا بقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » ولعل ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر ممـا ذكر . فإن قيل : كيف لم يذكر أهـل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين ؟ قيـل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة فى الخوف من الله تعالى، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله فى الخوف من الله تعالى . ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليـين من ذهب وفضّة، والأخريين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأولين، وقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى ومن أمامهما ومن قبلهما. وإلى هـذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصـول) فقال : ومعنى « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى دون هذا إلى العرش؛ أى أقرب وأدنى الى العرش، وأخذ يفضلهما على الأولين بمـا سنذكره عنه . وقال مقاتل : الجنتان الأوليـان جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى .

قوله تعـالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أى خضروان من الرىّ؛ قاله ٱبن عباس وغيره . وقال مجاهد : مسودتان . والدُّهْمة فى اللغـة السواد؛ يقال : فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أى ٱشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذى فيه؛ فإن زاد على ذلك حتى ٱشـتد السواد فهو جَوْن . وادْهَمَّ الفرس ٱدهمَامًا أى صار أدهم . وٱدهامَّ الشيءُ ٱدهيامًا أى ٱسوادّ؛ قال الله

تعالى : «مُدْهَامَّتَانِ» أى سوداوان من شدة الخضرة من الرِّيّ، والعرب تقول لكل أخضر أسود . وقال لَبِيد يرثى قتلى هَوازِن :

وجاءوا به[(١)] فى هَوْدَجٍ وَوَرَاءهُ ٭ كَتَائِبُ خُضْرٌ فى نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

السَّنَوَّر لَبُوس من قِدّ كالدِّرْع . وسميت قُرَى العراق سوادًا لكثرة خضرتها . ويقال لليل المظلم : أخضر . ويقال : أباد الله خضراءهم أى سوادهم .

قوله تعالى : فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أى فوارتان بالماء، عن ابن عباس . والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء . وعنه أن المعنى نضّاختان بالخير والبركة، وقاله الحسن ومجاهد . ابن مسعود وابن عباس أيضا وأنس : تَنضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما يَنضَخ رش المطر . وقال سعيد بن جُبير : بأنواع الفواكه والماء . الترمذى : قالوا بأنواع الفواكه والنِّعَم[(٢)] والجَوارِى المزيّنات والدواب المسرَجات والثياب الملوّنات . قال الترمذى : وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجرى . وقيل : تنبعان ثم تجريان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ فيه مسألتان .

الأولى — قال بعض العلماء : ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره . وهذا ظاهر الكلام . وقال الجمهور : هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة ؛ كقوله تعالى :

(١) وجاءوا به : يعنى قتادة بن مسلمة الحنفى . (٢) فى ب : « النعيم » .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى »(١) وقوله : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ »(٢) وقد تقدّم . وقيل : إنما كرّرهما لأن النخل والرمان كانا عندهم فى ذلك الوقت بمنزلة البُرّ عندنا ؛ لأن النخل عامّة قوتهم ، والرمان كالثمرات(٣) ، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما ، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التى يعجبون بها ؛ فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن ، فأخرجهما فى الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها . وقيل : أُفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكّه ؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله ، وهى المسألة :

الثانيــة — إذا حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رمّانًا أو رُطَبًا لم يحنث . وخالفه صاحباه والناس . قال ٱبن عباس : الرمانة فى الجنة مثل البعير المُقَتَّب . وذكر ٱبن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقَطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد، ليس فيه عَجَم(٤). قال: وحدّثنا المسعوديّ عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة ، قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وإنّ ماءها ليجرى فى غير أخدود ، والعنقود ٱثنا عشر ذراعا .

قوله تعالى : فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » يعنى النساء الواحدة خَيْرة على معنى ذوات خير . وقيل : « خَيِّرَات » بمعنى خيرات فخفّف، كهيّن وليّن . ٱبن المبارك : حدثنا

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٠٨ (٢) راجع جـ ٢ ص ٣٦
(٣) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : والرمان كالشراب الخ . (٤) العجم — بالتحريك — : النوى

الأوزاعيّ عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال : لو أن خَيْرة من « خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » آطلعت من السماء لأضاءت لهـا ، ولقهر ضـوء وجهها الشمس والقمر ، ولَنَصِيفٌ(١) تُكساه خيرة خير من الدنيا وما فيها . « حِسان » أي حسَان الخلق ، وإذا قال الله تعالى : «حِسَانٌ» فمن ذا الذي يقـدر أن يصف حسنهن ! وقال الزهريّ وقتـادة : « خَـيْرَاتٌ » الأخلاق « حِسان » الوجوه . وروى ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث أمّ سلمة . وقال أبو صالح : لأنهنّ عَذَارى أبكار .

وقرأ قتـادة وٱبن السَّمَيْقَع وأبو رجاء العُطارديّ وبكر بن حبيب السهميّ « خَيِّرَاتٌ » بالتشديد على الأصـل . وقد قيل : إنّ خَيْرات جمـع خَيْر والمعنى ذوات خَير . وقيـل : مختارات . قال الترمذيّ : فالخيرات ما ٱختارهنّ الله فأبدع خلقهن بٱختياره ، فاختيار الله لا يشـبه ٱختيار الآدميين . ثم قال : « حِســانٌ » فوصفهن بالحسن فإذا وصـف خالق الحسن شـيئا بالحسن فانظر ما هنـاك . وفي الأوليـين ذكر بأنهن « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » و « كَأَنَّهُنَّ اليَـاقُوتُ والمَرْجَانُ » فانظركم بين الخيرة وهي مختـارة الله ، و بين قاصرات الطرف . وفي الحديث : " إن الحور العين يأخذ بعضهنّ بأيدي بعض و يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ونحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً ونحن خَيْرَات حسان حبيبات لأزواج كرام " . خرجه الترمذي بمعناه من حديث عليّ رضي الله عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هـذه المقالة أجابهنّ المؤمنات من نسـاء أهل الدنيـا : نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنّ ، ونحن الصـائمات وما صُمتن ، ونحن المتوضئات وما توضأتنّ ، ونحن المتصدِّقات وما تصدّقتنّ . فقالت عائشة رضي الله عنها : فغلبنهنّ والله .

الثانيـــة ــ وٱختلف أيهما أكثر حسنًا وأبهر جمالاً الحور أو الآدميات؟ فقيل : الحور لمـا ذكر من وصفهنّ في القـرآن والسنّة ، ولقوله عليـه الصلاة والسلام في دعائه على الميت

(١) هو الخمار وقيل المعجر . النهاية .

فى الجنازة : "وأبدله زوجاً خيراً من زوجه". وقيل : الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف ؛ وروى مرفوعاً . وذكر ابن المبارك : وأخبرنا رِشْدين عن ابن أنْعُم[1] عن حبان ابن أبي جبلة ، قال : إن نساء الدنيا من دخل منهنّ الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن فى الدنيا . وقد قيل : إن الحور العين المذكورات فى القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخلقن فى الآخرة على أحسن صورة ؛ قاله الحسن البصرى . والمشهور أن الحور العين لسْنَ من نساء أهل الدنيا وإنما هنّ مخلوقات فى الجنة ؛ لأن الله تعالى قال : «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ أقلّ ساكنى الجنة النّساء" فلا يصيب كل واحد منهم امرأة ، ووعد الحور العين لجماعتهم ، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا .

قوله تعالى : حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ «حُورٌ» جمع حوراء، وهى الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدم.[2] «مَقْصُورَاتٌ» محبوسات مستورات «فِي الْخِيَامِ» فى الحِجال لسن بالطوّافات فى الطرق ؛ قاله ابن عباس . وقال عمر رضى الله عنه : الخيمة دُرة مجوّفة . وقاله ابن عباس . وقال : هى فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله فى قوله تعالى «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ» : بلغنا فى الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة، ثم ضرب على كل واحدة منهنّ خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب ، حتى إذا دخل[3] وليّ الله الجنة

(١) هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (بفتح أوله وسكون النون وضم المهملة) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠

(٣) فى ب : « حتى إذا أحل ولى الله بالخيمة » .

آنصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولىّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهى مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين . والله أعلم . وقال فى الأولين : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » قصرن طرفهنّ على الأزواج ولم يذكر أنهنّ مقصورات ، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل . وقال مجاهد : « مَقْصُورَاتٌ » قد قُصرن على أزواجهنّ فلا يُردن بدلًا منهم . وفى الصحاح : وقصرت الشىء أقصره قصرًا حبسته ؛ ومنه مقصورة الجامع ؛ وقصرت الشىء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره ، وآمرأة قَصِيرة وقَصُورة أى مقصورة فى البيت لا تترك أن تخرج ؛ قال كُثَيِّر :

وأنتِ التى حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرةٍ * إلىّ وما تَدْرِى بذاكَ القَصَائرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ ولم أُرِدْ * قِصَارَ الخُطَا شَرُّ النِّسَاءِ البَحَاتِرُ (١)

وأنشده الفراء قَصُورة؛ ذكره آبن السِّكِّيت . وروى أنس قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "مررت ليلة أُسرى بى فى الجنة بنهر حافتاه قِبَاب المرجان فنوديت منه السلام عليك يارسول الله فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء جوارٍ من الحور العين آستأذنّ ربهنّ فى أن يُسلّمن عليك فأذن لهنّ فقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً ونحن الراضيات فلا نسخَط أبدًا أزواج رجال كرام" ثم قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ » (٢) أى محبوسات حبس صيانة وتكرمة . وروى عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ! إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم ، فهل نشارككم فى الأجر؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "نعم إذا أحسنتن تَبَعُّلَ (٣) أزواجكنّ وطلبتن مرضاتهم" .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أى لم يمسسهن على ما تقدم قبل . وقراءة العامة «يَطْمِثْهُنَّ» بكسر الميم . وقرأ أبو حيوة الشامى وطلحة بن مُصَرِّف والأعرج والشيرازى عن الكسائى

(١) البحاتر : جمع بحترة بضم الباء القصيرة المجتمعة الخلق .
(٢) فى نسخ الأصل بنت عبيد والتصحيح من التهذيب .
(٣) مصاحبتهم فى الزوجية والعشرة .

بضم الميم فى الحرفين . وكان الكسائى يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَيِّر فى ذلك ، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانية . وهى قراءة أبى إسحق السّبيعى . قال أبو إسحق : كنت أصَلّى خلف أصحاب علىّ فيرفعون الميم ، وكنت أُصَلّى خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها ، فاستعمل الكسائى الأثرين . وهما لغتان طَمُث وطَمِث مثل يَعرُشُون ويَعكِفُون ؛ فمن ضم فللجمع بين اللغتين ، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة . وإنما أعاد قوله : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » ليبين أن صفة الحور المقصورات فى الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف ، يقول : إذا [قصرن](1) كانت لهن الخيام فى تلك الحال .

قوله تعالى : مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ الرفرف المحابس(2) . وقال ابن عباس : الرفرف فضول الفرش والبسط . وعنه أيضا : الرفرف المحابس يتكئون على فضولها ؛ وقاله قتادة . وقال الحسن والقرظى : هى البسط . وقال ابن عيينة : هى الزرابى . وقال ابن كيسان : هى المرافق ؛ وقاله الحسن أيضا . وقال أبو عبيدة : هى حاشية الثوب . وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر تبسط . وقيل : الفُرُش المرتفعة . وقيل : كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف . قال ابن مقبل :

وإنّا لَنَزّالون تَغْشَى نِعالُنا * سَوَاقِطَ من أصناف رَيْطٍ ورفرف

وهذه أقوال متقاربة . وفى الصحاح : والرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس ، الواحدة رَفْرَفة . وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضا : الرفرف رياض الجنة ؛ واشتقاق الرفرف

(1) فى الأصول كلها : إذا ضجرن الخ والضجر لا يجوز فى الجنة ولذا أثبتنا بدل ضجرن قصرن .

(2) المحابس : جمع محبس كمقعد ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه . وفى ل : المجالس وكلا المعنيين صحيح كما فى اللغة .

من رَفَّ يَرِف إذا ٱرتفع ؛ ومنه رَفْرَفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء . وربما سمّوا الظَّليم رَفْرافا بذلك ؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو . ورفرف الطائر أيضًا إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه . والرفرف أيضا كِسَر الخباء وجوانب الدِّرْع وما تدلى منها ؛ الواحدة رَفْرَفة . وفي الخبر في وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم : فرَفع الرفرفَ فرأينا وجهه كأنه وَرَقةٌ [تُخَشْخِش] (١) أي رفع طرف الفسطاط . وقيل : أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفّ إذا صار غضًّا نضيرًا ؛ حكاه الثعلبي . وقال القتبي : يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النَّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز : رَفّ يرِفّ رفيفًا ؛ حكاه الهروي . وقد قيل : إن الرفرف شيء إذا ٱستوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يمينًا وشمالًا ورفعًا وخفضًا يتلذذ به مع أنيسته ؛ قاله الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) وقد ذكرناه في « التذكرة » . قال الترمذي : فالرفرف أعظم خطرًا من الفرش فذكره في الأولين « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وقال هنا : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ » فالرفرف هو شيء إذا ٱستوى عليه الوليّ رفرف به ؛ أي طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمِرْجاح ؛ وأصله من رفرف بين يدي الله عز وجل ؛ روي لنا في حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سِدْرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مَسْند العرش ، فذكر أنه قال : ” طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربّي “ ثم لما حان الٱنصراف تناوله فطار به خفضًا ورفعًا يهوي به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد ؛ فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب ، كما أن البُراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه ، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكأهما وفرشهما ، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان . ثم قال : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فالعبقري ثياب منقوشة تبسط ، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر ! . وقرأ عثمان رضي الله عنه والجحدري والحسن وغيرهم « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ » بالجمع غير مصروف كذلك

(١) زيادة من كتب اللغة .

« وَعَبَاقِرِيَّ حِسَانٍ » جمع رَفْرَف وعَبقرىّ . و « رَفْرَف » اسم للجمع و « عَبْقَرِىّ » واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبْقَر . وقد قيل : إن واحد رَفْرف وعَبقرىّ رَفْرفة وعَبْقريّة ، والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع . والعبقرىّ الطّنَافس الثخان منها؛ قاله الفراء . وقيل : الزَّرَابِىّ؛ عن ابن عباس وغيره . الحسن : هى البُسُط . مجاهد : الدِّيباج . القتبىّ : كل ثوب وشى عند العرب عبقرىّ . قال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى فينسب إليها كل وَشْى حُبِك . قال ذو الرُّمّة :

حتى كأنّ رِياضَ القُفِّ أَلْبَسَها * مِن وَشْيِ عَبْقَرَ تَجْلِيلٌ وتَنْجِيدُ

ويقال : عَبْقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بُسُط منقوشة . وقال ابن الأنبارى : إن الأصل فيه أن عَبْقر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل . وقال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقرىّ . ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم فى عمر رضى الله عنه : " فلم أر عبقريّاً من الناس يَفْرِى فَرِيَّه " وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم " فلم أر عَبْقريّاً يَفْرِى فَرِيَّه " فقال : رئيس قوم وجليلهم . وقال زُهَير :

بخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ * جَديرون يوماً أَنْ يَنَالُوا فيَسْتَعْلُوا

وقال الجوهرى : العبقرىّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ .

قال لبيد :

* كُهُولٌ وشُبّانٌ كجِنَّةِ عَبْقَرِ (١) *

ثم نسبوا إليه كل شىء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوّته فقالوا : عَبْقرىّ وهو واحد وجمع . وفى الحديث : " إنه كان يسجد على عبقرىّ " وهو هذه البسط التى فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا : ظُلْم عبقرىّ وهذا عبقرىٌّ قومٍ للرجل القوىّ . وفى الحديث : " فلم أر عبقريّاً يَفْرِى فَرِيَّه " ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال : « وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ » وقرأه بعضهم

(١) صدر البيت : * ومن فاد من إخوانهم و بنيهم *

« عَبَاقِرِىّ » وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته . وقال قُطْرُب : ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسِىّ وكَرَاسِىّ وبُخْتِىّ وبَخَاتِىّ . وروى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضُرٍ وَعَبَاقِرِ حِسَانٍ » ذكره الثعلبي . وضمّ الضاد من « خضر » قليل .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ « تَبَارَكَ » تفاعل من البركة وقد تقدّم[(1)] . « ذِى الْجَلَالِ » أى العظمة . وقد تقدّم « وَالْإِكْرَامِ »[(2)] . وقرأ عامر « ذُو الْجَلَالِ » بالواو وجعله وصفًا للاسم ، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى . الباقون « ذِى الْجَلَالِ » جعلوا « ذِى » صفة لـ « رَبِّكَ » . وكأنه يريد به الاسم الذى افتتح به السورة ؛ فقال : « الرَّحْمَنُ » فافتتح بهذا الاسم ، فوصف خلق الإنسان والجنّ[(3)] ، وخلق السموات والأرض وصنعه ، وأنه « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ » ووصف تدبيره فيهم ، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها ، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان . ثم قال فى آخر السورة : « تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » أى هذا الاسم الذى افتتح به هذه السورة ؛ كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتى ، فمن رحمتى خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار ؛ فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال : « ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » جليل فى ذاته ، كريم فى أفعاله . ولم يختلف القراء فى إجراء النعت على الوجه بالرفع فى أوّل السورة ، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذى يلق المؤمنون عندما ينظرون إليه ، فيستبشرون بحسن الجزاء ، وجميل اللقاء ، وحسن العطاء . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١

(٢) راجع ص ١٦٥ من هذا الجزء .

(٣) فى ب : « والشياطين » .

ســورة الواقعــة

مكية ، وهى سبع وتسعون آية

مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى : «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» . وقال الكلبي : مكية إلا أربع آيات ، منها آيتان «أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» نزلتا فى سفره إلى مكة ، وقوله تعالى : «ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ» نزلتا فى سفره إلى المدينة . وقال مسروق : من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنة ، ونبأ أهل النار ، ونبأ أهل الدنيا ، ونبأ أهل الآخرة ، فليقرأ سورة الواقعة . وذكر أبو عمر ابن عبد البر فى « التمهيد » و « التعليق » والثعلبي أيضا : أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده فى مرضه الذى مات فيه فقال : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى . قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى . قال : أفلا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى . قال : أفلا نأمر لك بعطائك ؟ قال : لا حاجة لى فيه ، حبسته عنى فى حياتى ، وتدفعه لى عند مماتى ؟ قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتى الفاقة من بعدى ؟ إنى أمرتهن أن يقرأن سورة « الواقعة » كل ليلة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦)

قوله تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أى قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة . وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب ، وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد . وفيه إضمار ، أى اذكروا

إذا وقعت الواقعة. وقال الجرجاني: « إذا » صلة؛ أي وقعت الواقعة؛ كقوله: « ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ »[1] و « أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ »[2] وهو كما يقال: قد جاء الصوم أي دنا وٱقترب. وعلى الأوّل « إذا » للوقت، والجواب قوله: « فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ». ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر؛ كقوله تعالى: « لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً »[3] أي لغو، والمعنى لا يسمع لها كذب[4]؛ قاله الكسائي. ومنه قول العامة: عائذًا بالله أي معاذ الله، وقم قائمًا أي قم قياماً. ولبعض نساء العرب ترقّص ٱبنها:

قُـمْ قائمًا قُمْ قائمًا * أصبت عبدًا نائمًا

وقيل: الكاذبة صفة والموصوف محذوف، أي ليس لوقعتها حال كاذبة؛ أو نفس كاذبة؛ أي كل من يخبر عن وقعتها صادق. وقال الزجاج: « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أي لا يردها شيء. ونحوه قول الحسن وقتادة. وقال الثوري: ليس لوقعتها أحد يكذّب بها. وقال الكسائي[5] أيضا: ليس لها تكذيب؛ أي ينبغي ألا يكذّب بها أحد. وقيل: إن قيامها جدٌّ لا هزل فيه.

قوله تعالى: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ قال عكرمة ومقاتل والسُّدّي: خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا ورفعتْ من نأى؛ يعني أسمعت القريب والبعيد. وقال السُّدّي: خفضت المتكبّرين ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقوامًا في عذاب الله، ورفعت أقوامًا إلى طاعة الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خفضت أعداء الله في النار، ورفعت أولياء الله في الجنة. وقال محمد بن كعب: خفضت أقوامًا كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقوامًا كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال ٱبن عطاء: خفضت أقوامًا بالعدل، ورفعت آخرين بالفضل. والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والمهانة. ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٥   (٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء.
(٣) راجع جـ ٢٠ ص ٣٣   (٤) في ب: « ليس لها كذب ».
(٥) في ب: « الحسن ».

توسعًا ومجازًا على عادة العرب فى إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل ؛ يقولون : ليلٌ نائمٌ ونهار صائم . وفى التنزيل : «بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»(١) والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده ؛ فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات ، وخفض أعداءه فى أسفل الدركات . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى « خَافِضَةً رَافِعَةً » بالنصب . الباقون بالرفع على إضمار مبتدإ ، ومن نصب فعلى الحال . وهو عند الفراء على إضمار فعل ؛ والمعنى : إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ — وقعت : خَافِضَةً رَافِعَةً . والقيامة لا شك فى وقوعها ، وأنها ترفع أقوامًا وتضع آخرين على ما بيّناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أى زُلزلت وحُركت عن مجاهد وغيره ؛ يقال : رَجّه يَرُجّه رجًّا أى حركه وزلزله . وناقة رجّاءُ أى عظيمة السَّنَام . وفى الحديث : "مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجُّ فلا ذِمّةَ له" يعنى إذا اضطربت أمواجه . قال الكلبيّ : وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها اضطربت فَرَقًا من الله تعالى . قال المفسرون : تَرْتَجُّ كما يَرْتج الصبيّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شىء عليها من الجبال وغيرها . وعن ابن عباس الرَّجّة الحركة الشديدة يسمع لها صوت . وموضع « إِذَا » نصب على البدل من « إِذَا وَقَعَتِ » . ويجوز أن ينتصب بـ « خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » أى تخفض وترفع وقت رجِّ الأرض وبسِّ الجبال ؛ لأن عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض . وقيل : أى وقعت الواقعة إذا رجّت الأرض ؛ قاله الزجاج والجرجانى . وقيل : أى آذكر « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا » مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة .

قوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أى فتتت ؛ عن ابن عباس . مجاهد : كما يُبَسّ الدقيق أى يُلَتّ . والبسيسة السّوِيق أو الدقيق يُلَتُّ بالسَّمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا . قال الراجز :

لا تَخْبِزَا خُبْزًا وبُسَّا بَسَّا * ولا تُطِيلَا بِمُنَاخٍ حَبْسَا

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٢

وذكر أبو عبيدة : أنه لصٌّ من غَطَفان أراد أن يخبز خاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجيناً . والمعنى أنها خُلِطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء . أى تصير الجبال تراباً فيختلط البعض بالبعض . وقال الحسن : وبُسَّت قلعت من أصلها فذهبت ؛ نظيره: «يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا»[(١)] . وقال عطية: بُسطت كالرمل والتراب . وقيل: البسّ السَّوق أى سيقت الجبال . قال أبو زيد: البسّ السَّوق، وقد بسستُ الإبل أبُسُّها بالضم بسًّا . وقال أبو عبيد: بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بِسْ بِسْ . وفى الحديث: "يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يَبُسُّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون" ومنه الحديث الآخر : "جاءكم أهل اليمن يَبُسُّون عِيالهم"[(٢)] والعرب تقول : جِئْ به من حَسِّك و بَسِّك . ورواهما أبو زيد بالكسر، فمعنى من حِسّك من حيث أحسسته ، و بِسّك من حيث بلغه مسيرك . وقال مجاهد : سالت سيلا . عكرمة : هُدَّت هــدّا . محمد بن كعب : سُيِّرت ســيرًا ؛ ومنه قول الأغلب العجليّ[(٣)] :

وقال الحسن : قطعت قطعًا . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ قال عليّ رضى الله عنه : الهباء المنبث الرَّهَج[(٤)] الذى يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب ، فجعل الله أعمالهم كذلك . وقال مجاهد : الهباء هو الشعاع الذى يكون فى الكوة كهيئة الغبار . وروى نحوه عن ابن عباس . وعنه أيضا : هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئًا . وقاله عطية . وقد مضى فى « الفرقان » عند قوله تعالى: « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا»[(٥)] وقراءة العامة « مُنْبَثًّا » بالثاء المثلثة أى متفرقًا من قوله تعالى : « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ»[(٦)] أى فرّق ونشر . وقرأ مسروق والنَّخَعيّ وأبو حَيْوة «مُنْبَتًّا» بالتاء المثناة أى منقطعًا من قولهم: بتّه الله أى قطعه ؛ ومنه البتات .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٤٥ (٢) أى يسوقون عيالهم .
(٣) بياض بالأصول فى موضع الشاهد من قول الأغلب العجلى الراجز ولم نعثر عليه .
(٤) الرهج بالفتح و بالإسكان الغبار . (٥) راجع جـ ١٣ ص ٢٢ (٦) راجع جـ ٢ ص ١٩٦

قوله تعالى : وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أى أصنافا ثلاثة كل صنف يشا كل ما هو منه ، كما يشا كل الزوج الزوجة ، ثم بيّن من هم فقال : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» و«السَّابِقُونَ» ؛ فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النـار ؛ قاله السُّدّى . والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة . يقال : قعد فلان شأمة . و يقال : يافلان شائم بأصحابك ؛ أى خذ بهم شأمة أى ذات الشمال . والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى ، وللجانب الشمال الأشأم . وكذلك يقال لمـا جاء عن اليمين اليُمْن ، ولمـا جاء عن الشّمال الشـؤم . وقال آبن عباس والسُّدّى : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذّرية من صُلْبه فقال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أُخذوا من شقّ آدم الأيمن يومئذ ، وأصحاب المشأمة الذين أُخذوا من شـق آدم الأيسر . وقال عطاء ومحمد بن كعب : أصحاب الميمنة من أوتى كتابه بيمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتى كتابه بشماله . وقال آبن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة الميـامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمـال السيئة القبيحة . وفى صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبى ذرّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "فلما عَلَونا السماء الدنيـا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدة وعن يساره أَسْوِدة — قال — فإذا نظر قِبل يمينه ضحك وإذا نظـر قِبل شماله بكى — قال — فقال مرحبا بالنبىّ الصـالح والآبن الصالح — قال — قلت ياجبريل من هذا قال هذا آدم عليه السـلام وهذه الأسوِدة التى عن يمينه وعن شمـاله نَسَم بنيه فأهـل اليمين أهل الجنـة والأسوِدة التى عن شماله أهل النـار" وذكر الحديث . وقال المبرد : وأصحاب الميمنة أصحاب التقدّم ، وأصحاب المشأمة

أصحـاب التأخر . والعـرب تقول : آجعـلنى فى يمينك ولا تجعلنى فى شمالك ؛ أى آجعلنى من المتقدّمين ولا تجعلنا من المتأخرين . والتكرير فى «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» . و«مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» للتفخيم والتعجيب ؛ كقوله : «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ» و«الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ» كما يقال : زيد ما زيد ! وفى حديث أمّ زَرْع رضى الله عنها(١) : مالِكٌ وما مالِكٌ ! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب . وقيل : «أَصْحَابُ» رفع بالابتداء والخبر «مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» كأنه قال : «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» ما هم ؛ المعنى : أىّ شىء هم . وقيل : يجوز أن تكون «ما» تأكيدا ، والمعنى فالذين يعطون(٢) كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدّم وعلوّ المنزلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ روى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "السابقون الذين إذا أعطوا الحقّ قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم" ذكره المهدوى . وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : إنهم الأنبياء . الحسن وقتادة : السابقون إلى الإيمـان من كل أمة . ونحوه عن عكرمة . محمد بن سيرين : هم الذين صَـلُّوا إلى القبلتين ؛ دليله قوله تعالى : «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ»(٣) . وقال مجاهد وغيره : هم السـابقون إلى الجهاد ، وأوّل الناس رواحا إلى الصلاة . وقال علىّ رضى الله عنه : هم السابقون إلى الصلوات الخمس . الضحاك : إلى الجهاد . سعيد بن جُبير : إلى التوبة وأعمال البر ؛ قال الله تعـالى : «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ»(٤) ثم أثنى عليهم فقال : «أُولَئِـكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَـيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»(٥) . وقيل : إنهم أربعة ؛ منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية ، وسابقان فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ قاله آبن عباس ؛ حكاه المـاوردى . وقال شُمَيْـط بن العجلان : النـاس ثلاثة ؛ فرجل آبتكر للخير فى حداثة سـنه

(١) حديث أم زرع رواه مسـلم فى فضائل الصحابة عن عائشـة رضى الله عنها أنه : جلس إحدى عشرة أمرأة فتعاهدن وتعاقـدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا ، فقالت إحداهن : زوجى مالك وما مالك ! مالك خير من ذلك ... ... الخ . الحديث .	(٢) فى ب ، ز ، ح ، س ، ل ، هـ : «يؤتون كتابهم» .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٣٥	(٤) راجع جـ ٤ ص ٢٠٣	(٥) راجع جـ ١٢ ص ١٣٣

داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب، ورجل ٱبتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهـذا من أصحاب اليمين، ورجل ٱبتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بهـا فهذا من أصحاب الشمال . وقيل : هم كل من سبق إلى شيء من أشـياء الصلاح . ثم قيل : « السَّـابِقُونَ » رفع بالابتـداء والثانى توكيد له والخـبر ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ . وقال الزجاج : « السَّابِقُونَ » رفع بالابتـداء والثانى خبره ؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله « أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » من صفتهم . وقيل : إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله فى الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه .

قوله تعـالى : ثُـلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيـلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّـكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى جماعة من الأمم المـاضية . ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ أى ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسـلم . قال الحسن : ثُلَّةٌ ممن قد مضى قبل هذه الأمة ، وقليل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم ٱجعلنا منهم بكرمك . وسُمُّوا قليلًا بالإضافة إلى من كان قبلهم ؛ لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمـان منهم ، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا . وقيل : لمـا نزل هذا شَقَّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلثَ أهل الجنة بل نصفَ أهل الجنة وتقاسمونهم فى النصف الثانى " رواه أبو هريرة ، ذكره المـاوردى وغيره . ومعنـاه ثابت فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنهـا خبر ؛ ولأن ذلك فى جمـاعتين مختلفتين . قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا ؛ فلذلك قال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ وقال فى أصحاب اليمين وهم سوى السابقين : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنى لأرجو

أن تكون أمتى شطر أهل الجنة" ثم تلا قوله تعالى : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » [قال مجاهد : كلٌّ من هذه الأمة . وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الثُّلّتان جميعًا من أمتى " يعنى « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . قال أبو بكر رضى الله عنه[1]] : كلا الثُّلَّتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من هو فى أول أمته ، ومنهم من هو فى آخرها ؛ وهو مثل قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ »[2] . وقيل : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » أى من أول هذه الأمة . « وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ » يسارع فى الطاعات حتى يلحق درجة الأولين ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " خيركم قَرْنى " ثم سَوّى فى أصحاب اليمين بين الأولين والآخرين . والثُّلَّة من ثَلَلت الشيء أى قطعته ، فمعنى ثلة كمعنى فرقة ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أى السابقون فى الجنة « عَلَى سُرُرٍ » ؛ أى مجالسهم على سرر جمع سرير . « مَوْضُونَةٍ » قال ابن عباس : منسوجة بالذهب . وقال عكرمة : مشبكة بالدُّرّ والياقوت . وعن ابن عباس أيضا : « مَوْضُونَةٍ » مصفوفة ؛ كما قال فى موضع آخر : « عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ »[2] . وعنه أيضا وعن مجاهد : مَرْمولة[3] بالذهب . وفى التفاسير : « مَوْضُونَةٍ » أى منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد . والوَضْن النسج المضاعف والنّضد ؛ يقال : وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرَّ بعضه فوق بعض فهو موضون ، ودرع موضونة أى محكمة فى النسج مثل مصفوفة ؛ قال الأعشى :

وَمِن نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَة * تُسَاقُ مع الحَيِّ عِيرًا فَعِيرَا

وقال أيضا :

وبَيْضَاء كالنَّهْي مَوْضُونَة * لها قَوْنَسٌ فوق جَيْبِ البَدَنْ

(١) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، س ، ل ، هـ .
(٢) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١٤ آية ٣٢
(٣) مرمولة : منسوجة .

والسرير الموضون : الذى سطحه بمنزلة المنسوج ؛ ومنه الوَضِين : بِطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه فى بعض ؛ ومنه قوله :

* إليكَ تَعْدُو قَلِقًا وَضِينُها (١) *

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى على السرر ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا يرى بعضهم قَفَا بعض، بل تدور بهم الأسرة، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله ؛ أى يتكئون متقابلين . قاله مجاهد وغيره . وقال الكلبيّ : طول كل سرير ثلثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها آرتفعت .

قوله تعالى : يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ أى غلمان لا يموتون ؛ قاله مجاهد . الحسن والكلبيّ : لا يَهْرَمون ولا يتغيرون ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

وهَل يَنْعَمَنْ إلّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ * قَلِيلُ الهُمُومِ ما يَبِيتُ بأَوجَالِ

وقال سعيد بن جبير : مُخلَّدون مُقرَّطون؛ يقال للقُرْط الخَلَدَة ولجماعة الحُلِيّ الخِلْدَة . وقيل : مسوّرون ونحوه عن الفراء ؛ قال الشاعر :

ومخلَّداتٌ بِاللُّجينِ كأنَّما * أعْجَازُهُنَّ أقاوِزُ الكُثْبَانِ (٢)

(١) الضمير يعود على الناقة ؛ أراد أنها قد هزلت ودقت للسير عليها .

(٢) الأقاوز جمع قوز وهو كثيب من الرمل صغير ؛ شبه به أرداف النساء ؛ فالإضافة للبيان .

وقيل : مقرطون يعنى ممنطقون من المناطق . وقال عكرمة : «مُخَلَّدُونَ» منعّمون . وقيل : على سنّ واحدة أنشأهم الله لأهل الجنــة يطوفون عليهــم كما شاء من غير ولادة . وقال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه والحسن البصرى : الولدان هاهنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة . وقال سلمان الفارسيّ : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة . قال الحسن : لم يكن لهم حسنات يجزون بها ، ولا سيئات يعاقبون عليها ، فوضعوا فى هذا الموضع . والمقصود : أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة إنما تتم بآحتفاف الخدم والولدان بالإنسان . ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أكواب جمع كوب وقد مضى فى « الزخرف »(١) وهى الآنية التى لا عُرى لها ولا خراطيم ، والأباريق التى لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق ؛ سُمِّيَ بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه . ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ مضى فى «والصافات»(٢) القول فيه . والمعين الجارى من ماء أو خمر ؛ غير أن المراد فى هذا الموضع الخمــر الجارية من العيون . وقيــل : الظاهرة للعيون فيكون «معين» مفعولا من المعاينة . وقيل : هو فعيل من المَعْن وهو الكثرة . وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التى تستخرج بعصر وتكلّف ومعالجة .

قوله تعــالى : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَــا ﴾ أى لا تتصدع رءوسهم من شربها ؛ أى إنهــا لذة بلا أذًى بخلاف شراب الدنيا . ﴿ وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ تقدم فى «والصافات» أى لا يسكرون فتذهب عقولهم . وقرأ مجاهد : « لَا يَصَّدَّعُونَ » بمعنى لا يتصدّعون أى لا يتفرقون ؛ كقوله تعــالى : « يَوْمَئِــذٍ يَصَّدَّعُونَ »(٣) . وقرأ أهل الكوفة « يُنْزِفُونَ » بكسر الزاى ؛ أى لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم ؛ ومنه قول الشاعر(٤) :

لَعَمْرِى لَــئِنْ أَنْزَفْتُم أو صَحَوْتُمُ * لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنتمُ آلَ أَبْجَــرَا

(١) راجع جـ ١٦ ص ١١٢

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٧٧

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٤٢

(٤) هو الحطيئة وقد تقدّم البيت فى جـ ١٥ ص ٧٩

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصُّداع والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أى يتخيرون ما شاءوا لكثرتها . وقيل : وفاكهة متخيرة مرضية، والتخير الاختيار . ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ روى الترمذى عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر؟ قال : "ذاك نهر أعطانيه الله تعالى — يعنى فى الجنة — أشدّ بياضًا من اللبن أحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجُزُر" قال عمر : إن هذه لناعمةٌ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَكَلَتُها أحسنُ منها"(١) قال : حديث حسن . وخرّجه الثعلبى من حديث أبى الدرداء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى الجنة طيرًا مثل أعناق البُخْت تصطفّ على يد وليّ الله فيقول أحدها يا وليّ الله رَعيتُ فى مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التَّسنيم فكُلْ منّى فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخرّ بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى فى الجنة حيث شاء" فقال عمر : يانبيّ الله إنها لناعمة . فقال : "آكلُها أنعمُ منها" . وروى عن أبى سعيد الخدرى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى الجنة لطيرا فى الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير" .

قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجر؛ فمن جرّ وهو حمزة والكسائى وغيرهما جاز أن يكون معطوفا على « بِأَكْوَابٍ » وهو محمول على المعنى؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحُور؛ قاله الزجاج . وجاز أن يكون معطوفا على « جَنَّاتِ » أى هم فى « جَنَّاتِ النَّعِيمِ » وفى حور على تقدير حذف المضاف؛ كأنه قال : وفى معاشرة

(١) فى نسخ الأصل : أكلتها أنعم منها . وما أثبتناه هو ما فى صحيح الترمذى .

حور . الفراء : الجر على الإتباع فى اللفظ و إن آختلفا فى المعنى؛ لأن الحور لا يطاف بهن ؛ قال الشاعر :

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً * وزَجَّجْنَ الحواجبَ والعُيونَا

والعين لا تزجج و إنما تكحل . وقال آخر :

ورأيتُ زَوْجَكِ فى الوَغَى * مُتَقَلِّدًا سَيفًا ورُمْحًا

وقال قُطْرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم فى ذلك لذة . ومن نصب وهو الأشهب العقيلي والنّخعى وعيسى بن عمر الثقفى وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ، فهو على تقدير إضمار فعل ؛ كأنه قال : ويزوجون حُورًا عِيناً . والحمل فى النصب على المعنى أيضا حسن ؛ لأن معنى يطاف عليهم به يُعطَونه . ومن رفع وهم الجمهور — وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم — فعلى معنى وعندهم حور عين؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور . وقال الكسائى : ومن قال : « وحُورٌ عِينٌ » بالرفع وعلّل بأنه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك فى فاكهة ولحم ؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين . وجاز أن يكون معطوفا على « ثُلَّةٌ » و « ثُلَّةٌ » آبتداء وخبره « عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ » وكذلك « وَحُورٌ عِينٌ » وآبتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة . ﴿ كَأَمْثَالِ ﴾ أى مثل أمثال ﴿ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أى الذى لم تمسه الأيدى ولم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاء وتلألؤًا ؛ أى هنّ فى تشاكل أجسادهن فى الحسن من جميع جوانبهن كما قال الشاعر :

كأَنَّما خُلِقَتْ فى قِشْرِ لُؤْلُؤَةٍ * فَكُلُّ أَكْنَافِها وَجْـهٌ لِمِرْصادِ

﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ثواباً ونصبُه على المفعول له . ويجوز أن يكون على المصدر ؛ لأن معنى « يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ » يجازون . وقد مضى الكلام فى الحور العين فى « والطور »(1) وغيرها . وقال أنس: قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " خلق الله الحور العين

(1) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . وج ١٦ ص ١٥٢

من الزعفران" وقال خالد بن الوليد: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة" فقال له رجل: يا أبا سليمان إن هذا لعجبٌ ولا ينقص من التفاحة؟ قال: نعم كالسِّراج الذي يوقد منه سراج آخر وسُرج ولا ينقص، والله على مايشاء قدير. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حُلّة مثل شقائق النعمان(١)، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نوراً ساطعاً كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقة ثيابها وجلدها، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادى: هذا ثواب الأولياء «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ قال ابن عباس: باطلا ولا كذبا. واللغو ما يُلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أثّمته أي قلت له أثمت. محمد بن كعب: «وَلَا تَأْثِيمًا» أي لا يؤثّم بعضهم بعضاً. مجاهد: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا» شتماً ولا مأثماً. ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ «قِيلًا» منصوب بـ «يَسْمَعُونَ» أو استثناء منقطع أي لكن يقولون قيلاً أو يسمعون. و «سَلَامًا سلاماً» منصوبان بالقول؛ أي إلا أنهم يقولون الخير. أو على المصدر أي إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاماً. أو يكون وصفاً لـ «قيلا»، والسلام الثاني بدل من الأول، والمعنى إلا قيلا يسلم فيه من اللغو. ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم. قال ابن عباس: أي يحيّي بعضهم بعضاً. وقيل: تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عز وجل.

---

(١) شقائق النعمان: نبت أحمر الزهر. الواحدة شقيقة النعمان.

قوله تعـالى : وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقـدّم ، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذى هم فيه . ﴿ فِى سِـدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ أى فى نبق قد خُضِد شوكه أى قطع؛ قاله ٱبن عباس وغيره . وذكر ٱبن المبارك : حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يومًا؛ فقال : يا رسـول الله ! لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذيةً ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " وماهى " قال : السِّدر فإن له شوكًا مؤذيًا ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " أو ليس يقول « فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ » خَضَد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمرًا يفتق الثمر منهـا عن ٱثنين وسبعين لونًا من الطعام مافيه لون يشبه الآخر " . وقال أبو العالية والضحاك : نظر المسلمون إلى وَجٍّ (1) (وهو وادٍ بالطائف مخصب) فأعجبهم سِدره، فقالوا : ياليت لنا مثل هذا ؛ فنزلت . قال أمية بن أبى الصَّلْت يصف الجنة :

إنّ الحـدائقَ فى الجنـانِ ظليـلةٌ * فيهـا الكَواعِبُ سِـدْرُها مَخْضودُ

وقال الضحاك ومجاهـد ومقاتل بن حيان : « فِى سِـدْرٍ مَخْضُودٍ » وهو الموقر حملًا . وهو قريب مما ذكرنا فى الخبر . سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من القِلال . وقد مضى هذا فى سورة

(1) الذى فى اللسان : وج موضع بالبادية . وقيل : بلد بالطائف ؛ وقيل هى الطائف .

« النجم »(١) عند قوله تعالى : « عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » وأن ثمرها مثل قلال هجر من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ الطَّلْح شجر الموز واحده طلحة . قاله أكثر المفسرين علىّ وابن عباس وغيرهم . وقال الحسن : ليس هو موز ولكنه شجر له ظل بارد رطب . وقال الفراء وأبو عبيدة : شجر عظام له شوك ؛ قال بعض الحداة(٢) وهو الجعدى :

بَشَّرَهَـا دَلِيلُهـا وقَالاَ * غداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والأَحْبَالاَ(٣)

فالطَّلح كلّ شجر عظيم كثير الشوك . الزجاج : يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه . وقال الزجاج أيضا : كشجر أم غيلان [له](٤) نَوْر طيّب جدا نخو طبوا ووعدوا بما يحبون مثله ، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا . وقال السدى : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل . وقرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » بالعين وتلا هذه الآية « وَنَخْـلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ »(٥) وهو خلاف المصحف . في رواية أنه قرئ بين يديه « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال : ما شأن الطلح ؟ إنما هو « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » ثم قال : « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقيل له : أفلا نحولها ؟ فقال : لا ينبغى أن يهاج القرآن ولا يحوَّل . فقد اختار هذه القراءة ولم ير إثباتها في المصحف لمخالفة ما رسمه مجمع عليه . قاله القشيرى . وأسنده أبو بكر الأنبارى قال : حدثنى أبى قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سعد عن قيس بن عُبَاد قال : قرأت عند علىّ أو قُرِئت عند علىّ — شك مجالد — « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال علىّ رضى الله عنه : ما بال الطلح؟ أما تقرأ « وَطَلْع » ثم قال : « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقال له : يا أمير المؤمنين أنحكّها من المصحف ؟

(١) راجع ص ٩٤ وص ٥ من هذا الجزء .

(٢) كذا في الأصول « الحداة » بالحاء المهملة والذى في تفسير الطبرى « الجداة » بالجيم .

(٣) الأحبال جمع حبلة بالضم : ثمر السلم والبان والسمر أو ثمر العضاه عامة .

(٤) زيادة يقتضيها السياق . (٥) راجع جـ ١٣ ص ١٢٧

فقال : [لا][(١)] لايهاج القرآن اليوم . قال أبو بكر : ومعنى هذا أنه رجع إلى ما في المصحف وعلم أنه هو الصواب ، وأبطل الذي كان فرط من قوله . والمنضود المتراكب الذي [قد][(١)] نُضِد أوله وآخره بالحمل ، ليست له سُوقٌ بارزة بل هو مرصوص ، والنَّضْد هو الرصّ والمنضَّد المرصوص ، قال النابغة :

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كان يَحْبِسُهُ * ورفَّعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنضَدِ

وقال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمر كلّه ، كلّما أكل ثمرة عاد مكانها أحسنُ منها .

قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ أي دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس ؛ كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » وذلك بالغداة وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقدّم بيانه هناك[(٢)] . والجنة كلها ظلّ لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعني ظل العرش . وقال عمرو بن ميمون : مسيرة سبعين ألف سنة . وقال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود ؛ وقال لبيد :

غَلَبَ الْعَزَاءَ وكنتُ غيرَ مُغَلَّبٍ * دَهْرٌ طَوِيلٌ دائِمٌ مَمْدودُ

وفي صحيح الترمذيّ وغيره من حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم « وَظِلٍّ مَمْدُودٍ » " . ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ أي جارٍ لا ينقطع وأصل السّكب الصبّ ؛ يقال : سكبه سَكْبًا ، والسُّكوب انصبابه ؛ يقال : سَكَبَ سُكُوبًا ، وانْسَكَبَ انسكابًا ؛ أي وماء مصبوب يجري الليلَ والنهار في غير أُخدود لا ينقطع عنهم . وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة ، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدّلو والرِّشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا ، وهي الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار واطّرادها .

---

(١) زيادة من ب . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٧ .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى ليست بالقليلة العزيزة كما كانت فى بلادهم ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ ﴾ أى فى وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف فى الشتاء ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أى لا يُحظر عليها كثمار الدنيا . وقيل : « وَلَا مَمْنُوعَةٍ » أى لا يُمنع من أرادها بشوك ولا بُعد [ولا](١) حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها ؛ قال الله تعالى : « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا »(٢) . وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ روى الترمذى [عن أبى سعيد](١) عن النبى صلى الله وسلم فى قوله تعالى : « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » قال : " ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة " قال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدِين بن سعد . وقال بعض أهل العلم فى تفسير هذا الحديث : الفُرُش فى الدرجات ، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض . وقيل : إن الفُرُش هنا كناية عن النّساء اللواتى فى الجنة ولم يتقدّم لهنّ ذكر ، ولكن قوله عز وجل : « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » دالٌّ ؛ لأنها محل النّساء ؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار فى حسنهنّ وكمالهنّ ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أى خلقناهنّ خلقاً وأبدعناهنّ إبداعًا . والعرب تسمى المرأة فِراشًا ولِباسًا وإزاراً ؛ وقد قال تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ »(٣) . ثم قيل : على هذا هنّ الحور العين ؛ أى خلقناهنّ من غير ولادة . وقيل : المراد نساء بنى آدم ؛ أى خلقناهنّ خلقا جديداً وهو الإعادة ؛ أى أعدناهنّ إلى حال الشباب وكمال الجمال . والمعنى أنشأنا العجوز والصَّبِية إنشاءً واحداً ، وأضمرن ولم يتقدّم ذكرهنّ ؛ لأنهنّ قد دخلن فى أصحاب اليمين ؛ ولأن الفُرُش كناية عن النساء كما تقدّم . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » قال : " منهنّ البِكر والثَّيِّب " . وقالت أم سلمة رضى الله تعالى عنها : سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا » فقال : " يا أمّ سلمة هنّ اللواتى قُبِضن فى الدنيا عجائز شُمْطًا عُمْشاً رُمْصاً جعلهنّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد فى الاستواء " أسنده النحاس عن أنس قال : حدّثنا أحمد بن عمرو قال : حدّثنا عمرو بن علىّ قال : حدّثنا أبو عاصم عن

(١) زيادة من ب . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٣٧ . (٣) راجع جـ ٢ ص ٣١٦ .

موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك رفعه « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » قال : " هنّ العجائز العُمْش الرُّمْص كُنّ في الدنيا عُمْشًا رُمْصًا " . وقال المسيِّب بن شريك : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » [الآية](١) قال : " هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله خلقا جديدا كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا " فلما سمعت عائشة ذلك قالت : واوجعاه ! فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ليس هناك وجع " . ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : العُرُب العواشق لأزواجهنّ . وعن ابن عباس أيضا : إنها العروب الملقة . عكرمة : الغَنِجة . ابن زيد : بلغة أهل المدينة . ومنه قول لبيد :

وفي الحِبَاءِ(٢) عَرُوبٌ غيرُ فاحشةٍ * رَيَّا الروادِفِ يَعْشَى دُونَها البصرُ

وهي الشَّكِلَة(٣) بلغة أهل مكة . وعن زيد بن أسلم أيضا : الحسنة الكلام . وعن عكرمة أيضا وقتادة : العُرُب المتحببات إلى أزواجهنّ ، واشتقاقه من أعرب إذا بيّن ، فالعروب تبين محبتها لزوجها بشكل وغُنج وحسن كلام . وقيل : إنها الحسنة التَّبَعُّل(٤) لتكون ألذ استمتاعا . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُرُبًا » قال : " كلامهنّ عربيّ " . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم « عُرْبًا » بإسكان الراء ، وضم الباقون وهما جائزان في جمع فَعُول . « أَتْرَابًا » على ميلاد واحد في الاستواء وسنّ واحدة ثلاث وثلاثين سنة . يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران . وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصِّبَا من النساء وانحطت عن الكبر . وقيل : « أَتْرَابًا » أمثالا وأشكالا ؛ قاله مجاهد . السُّدّي : أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهنّ ولا تحاسد . ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ قيل : الحور العين للسابقين ، والأتراب العرب لأصحاب اليمين .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ » أي هم « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » وقد مضى الكلام في معناه . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك :

---

(١) زيادة من ب .   (٢) في الديوان : « وفي الحروج » جمع الحرج ، وهو الهودج .
(٣) الشكلة (بفتح الشين وكسر الكاف) : ذات الدل .   (٤) أي مطاوعة لزوجها محبة له .

« ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » يعنى من سابق هـذه الأمة « وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » من هذه الأمة من آخرها ؛ يدل عليه ماروى عن ابن عباس فى هذه الآية « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " هم جميعاً من أمتى " . وقال الواحدىّ : أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم الماضية ونصف من هـذه الأمة . وهـذا يردّه ما رواه ابن ماجه فى سننه والترمذىّ فى جامعه عن بُرَيدة بن حَصيب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " أهل الجنة عشرون ومائة صفّ ثمانون منها من هـذه الأمة وأربعون من سائر الأمم " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . و « ثُلَّةٌ » رفع على الابتداء ، أو على حذف خبر حرف الصفة ، ومجازه : لأصحاب اليمين ثلتان : ثلة من هـؤلاء وثلة من هؤلاء . والأوّلون الأمم الماضية ، والآخرون هذه الأمة على القول الثانى .

قوله تعالى : وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال، لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، ثم عظّم ذكرهم في البلاء والعذاب فقال: ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ﴾ والسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن . والمراد هنا حرّ النار ولفحها . ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي ماء حار قد آنتهى حره، إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم ، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميًا حارًا في نهاية الحرارة والغليان . وقد مضى في « القتال » « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ »[1] . ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ أي يفزعون من السَّموم إلى الظلّ كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلًّا من يحموم؛ أي من دخان جهنم أسود شديد السواد . عن آبن عباس ومجاهد وغيرهما . وكذلك اليحموم في اللغة : الشديد السواد وهو يفعول من الحمّ وهو الشَّحْم المسودّ بآحتراق النار . وقيل : هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم . وقال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود . وعن آبن عباس أيضا : النار سوداء . وقال آبن زيد : اليحموم جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار . ﴿لَا بَارِدٍ﴾ بل حار لأنه من دخان شفير جهنم . ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ عذب؛ عن الضحاك . وقال سعيد بن المسيّب : ولا حسن منظره ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم . وقيل : « وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ » أي من النار يعذّبون بها ، كقوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »[2] . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي إنما آستحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا متنعمين بالحرام . والمترف المنعَّم؛ عن آبن عباس وغيره . وقال السدي : « مُتْرَفِينَ » أي مشركين . ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ أي يقيمون على الشرك؛ عن الحسن والضحاك وآبن زيد . وقال قتادة ومجاهد : الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه . الشعبي : هو اليمين الغَمُوس وهي من الكبائر؛ يقال : حَنِث في يمينه أي لم يَبَرّها ورجع فيها . وكانوا يقسمون أن لا بعث ، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حِنْثهم؛ قال الله تعالى مخبرًا عنهم : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ »[3] . وفي الخبر:

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٣ . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١٥ .

كان يتحنّث فى حِراء ؛ أى يفعل ما يسقط عن نفسه الحِنث وهو الذنب . ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ هذا آستبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له ؛ فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ ﴾ من آبائكم ﴿ وَالْآخِرِينَ ﴾ منكم ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ومعنى الكلام القسم ودخول اللام فى قوله تعـالى : « لَمَجْمُوعُونَ » هو دليل القسم فى المعنى؛ أى إنكم لمجموعون قسماً حقّا خلاف قسمكم الباطل ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ عن الهدى ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ وهو شجر كريه المنظر ، كريه الطّعم، وهى التى ذكرت فى سورة «والصافات» (١) . ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ أى من الشجرة ؛ لأن المقصود من الشجر شجرة . ويجوز أن تكون « من » الأولى زائدة ، ويجوز أن يكون المفعول محـذوفاً كأنه قال : « لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ » طعاماً . وقوله : « مِنْ زَقُّومٍ » صفة لشجر ، والصفة إذا قدّرت الجار زائداً نصبت على المعنى ، أو جررت على اللفظ ، فإن قدرت المفعول محذوفا لم تكن الصفة إلا فى موضع جر .

قوله تعـالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ أى على الزقوم أو على الأكل أو على الشجر ؛ لأنه يذكر ويؤنث . ﴿مِنَ الْحَمِيمِ﴾ وهو المـاء المغلىّ الذى قد آشتدّ غليانه وهو صديد أهل النار. أى يورثهم حَرّما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشا فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميا مُغْلًى .

قوله تعـالى : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة «شُرْبَ» بضم الشين . الباقون بفتحها لغتان جيدتان ؛ تقول العرب : شَربت شُرْباً وشَرْباً وشِرْباً وشُرُباً بضمتين . قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها ، والفتح هو المصدر الصحيح ؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فَعْل ، ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة ، فتقول : فَعْـلة نحو شَرْبة و بالضم الأسم . وقيل : إن المفتوح والأسم مصدران ، فالشَّرْب كالأكل ، والشُّرب كالذُّكر ، والشِّرب بالكسر المشروب كالطِّحْن المطحون . والهيم الإبل العِطاش التى

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٥ .

لا تَرْوى لداء يصيبها؛ عن ٱبن عباس وعِكرمة وقَتادة والسُّدىّ وغيرهم؛ وقال عكرمة أيضاً: هى الإبل المِراض. الضحاك: الهيم الإبل يصيبهـا داء تعطش منه عطشاً شـديداً، واحدها أَهْيَم والأنثى هَيْماء. ويقال لذلك الداء الهُيَام؛ قال قيس بن الملوّح:

يقـال به داء الهُيَـامِ أصـابه　*　وقد علِمت نفسى مكانَ شِفائهـا

وقوم هِيم أيضا أى عِطاش، وقد هاموا هُيَاماً. ومن العرب من يقول فى الإبل: هائم وهائمة والجمع هيم؛ قال لبِيد:

أَجَزْتُ إلى معـارِفهـا بِشُـعْثٍ(١)　*　وأَطْلَاحٍ مِنَ العِيـدِىِّ هِيمِ(٢)

وقال الضحاك والأخفش وٱبن عيينـة وٱبن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمـل. وروى أيضا عن ٱبن عباس: فيشربون شرب الرمال التى لا تَرْوى بالمـاء. المهدوى: ويقال لكل مالا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء. وفى الصحاح: والهُيَام بالضم أشد العطش. والهُيَام كالجنون من العشق. والهُيَام داء يأخذ الإبل فتهيم فى الأرض لا ترعى. يقال: ناقة هَيْماء. والهيماء أيضا المفازة لا ماء بها. والهَيَام بالفتح: الرمل الذى لا يتماسك أن يسيل من اليد لِلِينه والجمع هِيم مثل قَـذَالٍ وقُذُلٍ. والهِيَام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان، وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى.

قوله تعـالى: ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى رزقهم الذى يُعَدّ لهم، كالنزل الذى يعـدّ للأضياف تكرِمةً لهم، وفيـه تهكّم؛ كما فى قوله تعالى: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ»(٣) وكقول أبى السّعد الضّبىّ:

وكُنّا إذا الجَبّـارُ بالجيش ضَافَنَـا　*　جعلنا القَنَـا والمرهفاتِ له نُزُلَا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبى عمرو «هَذَا نُزْلُهُمْ» بإسكان الزاى؛ وقد مضى فى آخر «آل عمران»(٤) القول فيه. «يَوْمَ الدِّينِ» يوم الجزاء؛ يعنى فى جهنم.

(١) شعث: رجال ساءت حالهم من الجهد والسفر. وأطلاح: إبل مهازيل والواحد طليح. والعيدى: إبل منسوبة إلى فحل؛ ويقال منسوبة إلى قوم يقال لهم العيد.　(٢) أى خففت وكسرت الهاء لأجل الياء.
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٢٨　(٤) راجع جـ ٤ ص ٣٢١

قوله تعالى : نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى فهلاّ تصدّقون بالبعث؟لأن الإعادة كالابتداء . وقيل : المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلاّ تصدّقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ؟

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أى ما تصبّونه من المنِيّ في أرحام النساء . ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أى تصوّرون منه الإنسان ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ المقدّرون المصوّرون . وهذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى ؛ أى إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث . وقرأ أبو السَّمّال ومحمد بن السَّمَيْقَع وأشهب العقيلي : « تَمْنُونَ » بفتح التاء وهما لغتان أمْنَى ومَنَى؛ وأمْذَى ومَذَى، يُمني ويَمني ويُمذِي ويَمذِي. الماوردي : ويحتمل أن يختلف معناهما عندي ؛ فيكون أمنى إذا أنزل عن جماع، ومَنَى إذا أنزل عن الاحتلام . وفي تسمية المنيّ منِيًّا وجهان : أحدهما لإمنائه وهو إراقته . الثاني لتقديره ، ومنه المنَا الذي يوزن به لأنه مقدار لذلك ، كذلك المنيّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة .

قوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ احتجاج أيضاً، أى الذي يقدر على الإماتة يقدر على الخلق ، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث . وقرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن وابن كَثِير « قَدَرْنَا » بتخفيف الدال . الباقون بالتشديد، قال الضحاك : أى سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض . وقيل : قضينا . وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب ؛ فلا أحد يبقى غيره عز وجل . ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أى إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد ؛ أى لم يغلبنا . «وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» معناه بمغلوبين . وقال الطبري : المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم ، وما نحن بمسبوقين

فى آجالكم ؛ أى لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقـدّم . ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم . وقيل : المعنى ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، فيجمّل المؤمنُ ببياض وجهه ، و يُقبّح الكافرُ بسواد وجهه . سعيد بن جُبير(١) : قوله تعالى : « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » يعنى فى حواصل طير سود تكون ببَرَهُوت كأنها الخطاطيف ، و بَرَهُوت وادٍ فى اليمن . وقال مجاهد : « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » فى أى خلق شئنا . وقيل : المعنى ننشئكم فى عالم لا تعلمون ، وفى مكان لا تعلمون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ﴾ أى إذ خُلقتم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئا ؛ عن مجاهد وغيره . قتادة والضحاك : يعنى خلق آدم عليه السلام . ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى فهلّا تذكرون . وفى الخبر : عجبا كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجباً للمصدّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار . وقراءة العامة « النَّشْأَةَ » بالقصر . وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو : « النَّشَاءَةَ » بالمد ؛ وقد مضى فى « العنكبوت »(٢) بيانه .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ هذه حجة أخرى ؛ أى أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البَذر ، أنتم تنبتونه وتحصّلونه زرعًا فيكون فيه السُّنْبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ؟ و إنما منكم البذر وشقّ الأرض ، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنْبل من الحبّ ليس إليكم ، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض و إعادتهم ؟ ! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى ؛ لأن الحرث فعلهم و يجرى على اختيارهم ، والزرع من فعل الله تعالى

---

(١) فى ب : « سعيد بن المسيّب » .　　(٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٧

وينبت على آختياره لا على آختيارهم . وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقولنّ أحدكم زرعتُ وليقلْ حرثتُ فإن الزارع هو الله" قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ . والمستحب لكل من يُلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الآستعاذة «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ» الآية، ثم يقول: بل الله الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صلّ على محمد، وآرزقنا ثمره، وجنّبنا ضرره، وآجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك لنا فيه يارب العالمين . ويقال : إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات : الدود والجراد وغير ذلك؛ سمعناه من ثقة وجُرِّب فوُجد كذلك . ومعنى «أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ» أي تجعلونه [زرعا](1). وقد يقال : فلان زرّاع كما يقال حرّاث؛ أي يفعل ما يئول إلى أن يكون زرعاً يعجب الزرّاع . وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوُّزًا .

قلت : فهو نهي إرشاد [وأدب](2) لا نهي حظر وإيجاب؛ ومنه قوله عليه السلام: "لا يقولنّ أحدكم عبدي وأمتي وليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي"(3) وقد مضى في «يوسف» القول فيه . وقد بالغ بعض العلماء فقال : لا يقل حرثت فأصبت، بل يقل : أعانني الله فحرثت، وأعطاني بفضله ما أصبت . قال الماوردي : وتتضمن هـذه الآية أمرين ؛ أحدهما — الآمتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم . الثاني — البرهان الموجب للآعتبار؛ لأنه لمـا أنبت زرعهم بعـد تلاشي بذره، وآنتقاله إلى آستواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر، ثم جعله قوياً مشتدًّا أضعاف ما كان عليه؛ فهو بإعادة من أمات أخفّ عليه وأقدر؛ وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفِطر السليمة . ثم قال ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أي متكسرًا يعني الزرع . والحُطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء؛ فنبه بذلك أيضـا على أمرين : أحدهمـا — ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه . الثاني — ليعتبروا بذلك في أنفسهم ؛ كما أنه يجعل

(1) زيادة يقتضيها السياق . (2) الزيادة : من ب، ز، ح، س، ل، هـ .
(3) راجع جـ ٩ ص ١٩٤

الزرع حطاماً إذا شاء، وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فيتزجروا. ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أى تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهما. وفى الصحاح: وتفكّه أى تعجّب، ويقال: تندّم، قال الله تعالى: «فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ» أى تندمون. وتفكهت بالشيء تمتعت به. وقال يمان: تندمون على نفقاتكم؛ دليله: «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا»[1]. وقال عِكرمة: تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التى أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم فى زرعكم. ٱبن كَيْسان: تحزنون؛ والمعنى متقارب. وفيه لغتان: تَفَكَّهون وتَفَكَّنُون؛ قال الفراء: والنون لغة عُكْل. وفى الصحاح: التفكّن التندّم على ما فات. وقيل: التفكّه التكلم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للزاح فُكَاهة بالضم؛ فأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيِّب النفس مزّاحًا. وقراءة العامة «فَظَلْتُمْ» بفتح الظاء. وقرأ عبد الله «فَظِلْتُمْ» بكسر الظاء ورواها هرون عن حسين عن أبى بكر. فمن فتح فعلى الأصل، والأصل ظَلَلْتُمْ لحذف اللام الأولى تخفيفا، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها. ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضّل «أَئِنَّا» بهمزتين على الاستفهام، ورواه عاصم عن زِرّ بن حُبَيش. الباقون بهمزة واحدة على الخبر؛ أى يقولون «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» أى معذبون؛ عن ٱبن عباس وقَتَادة قالا: والغرام العذاب؛ ومنه قول ٱبن المحلِّم:

وثقت بأن الحفظ منّى سجيّةٌ * وأن فؤادى مُتْبَلٌ بك مغرمُ

وقال مجاهد وعِكرمة: لمولع بنا؛ ومنه قول النَّمِر بن تَوْلَب:

سَلَا عن تذكُّره تُكْتَمَا[2] * وكان رَهِيناً بها مُغْرَمَا

يقال: أغرم فلان بفلانة، أى أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم. وقال مجاهد أيضا: لملقون شرًّا. وقال مقاتل بن حيان: مهلكون. النحاس: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» مأخوذ من الغَرَام وهو الهلاك؛ كما قال[3]:

يومُ النِّسَارِ ويومُ الجِفَا * رِ كانَا عَذَاباً وكانَا غَرَامَا

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩ (٢) تكتم: اسم من يشبب بها. (٣) قائله بشر بن أبى خازم. النسار موضع وقيل: هو ماء لبنى عامر. والجفار: موضع وقيل: هو ماء لبنى تميم. ويوم النسار ويوم الجفار: يومان من أيام العرب مشهوران.

الضحاك وابن كيسان : هو من الغُرْم ، والمُغْرَم الذى ذهب ماله بغير عوض ؛ أى غرمنا الحَبّ الذى بذرناه . وقال مُرَّة الهَمْدانى : محاسبون . ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أى حرمنا ما طلبنا من الريع . والمحروم الممنوع من الرزق . والمحروم ضد المرزوق وهو المحارِف فى قول قتادة . وعن أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ بأرض الأنصار فقال : "ما يمنعكم من الحرث" قالوا : الجدوبة؛ فقال : "لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر" ثم تلا «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ» .

قلت : وفى هذا الخبر والحديث الذى قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع فى أسماء الله سبحانه ، وأباه الجمهور من العلماء ، وقد ذكرنا ذلك فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ لتحيوا به أنفسكم ، وتسكنوا به عطشكم ، لأن الشراب إنما يكون تبعاً للطعوم ، ولهذا جاء الطعام مقدما فى الآية قبلُ ، ألا ترى أنك تسقى ضيفك بعد أن تطعمه . الزمخشرى : ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء :

إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ الناس مَحْضاً * سَقَوْا أضيافَهم شَبِماً زُلالَا (١)

وسُقِى بعضُ العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثَمِيلة . ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أى السّحاب ، الواحدة مُزْنة ؛ فقال الشاعر :

فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما فى نِصابِنا * كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ (٢)

(١) المحض : اللبن الخالص . والماء الشبم : البارد . (٢) نصاب كل شيء : أصله . ورجل كهام وكهيم : ثقيل ، لا غناء عنده .

وهذا قول ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُزْن السَّحاب . وعن ٱبن عباس أيضا والثورى : المُزْن السّماء والسّحاب . وفى الصّحاح : أبو زيد : المُزْنة السّحابة البيضاء والجمع مُزْن ، والمُزْنة المَطْرَة ؛ قال :

أَلَم تَـرَ أَنّ اللهَ أَنْزَلَ مُزْنةً * وعُفْـرُ الظِّبَاءِ فى الكِنَاس تَقَمَّعُ (١)

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ أى فإذا عرفتم بأنى أنزلته فَـلِمَ لا تشكرونى بإخلاص العبادة لى ؟ ولِمَ تنكرون قدرتى على الإعادة ؟ . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أى ملحًا شديد الملوحة ؛ قاله ٱبن عباس . الحسن : مرًّا قُعَاعًا (٢) لا تنتفعون به فى شرب ولا زرع ولا غيرهما . ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أى فهلّا تشكرون الذى صنع ذلك بكم .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أى أخبرونى عن النار التى تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرَّطْب ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ يعنى التى تكون منها الزِّناد وهى المَرْخ والعَفَار ؛ ومنه قولهم : فى كلّ شجرٍ نار ، وٱستَمْجدَ المَرْخُ والعَفار ؛ أى ٱستكثرمنها ، كأنهما أخذا من النار ماهو حَسْبهما . ويقال : لأنهما يُسرِعان الوَرْىَ . يقال : أوْرَيت النار إذا قـدحتها . ووَرَى الزَّنْدُ يَرِى إذا ٱنقدح منه النار . وفيه لغة أخرى : ووَرِى الزَّنْدُ يَرِى بالكسر فيهما . ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أى المخترعون الخالقون ؛ أى فإذا عرفتم قدرتى فٱشكرونى ولا تنكروا قدرتى على البعث .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعنى نار الدنيا موعظة للنار الكبرى ؛ قاله قتادة . ومجاهد : تبصرة للناس من الظلام . وصح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم " فقالوا يا رسول الله : أن كانت لكافية ؛ قال : " فإنها فضّلت عليها بتسعة وستين جُزْءًا كلّهنّ مثل حرّها " . ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال الضحاك : أى منفعة للمسافرين ؛ سمّوا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر . الفراء : إنما يقال

(١) البيت لأوس بن حجر . وتقمع : تحرك رءوسها لتطرد القمعة وهى ذباب أزرق يدخل فى أنوف الدواب .

(٢) فى ل : « زعاقا » ومعناهما واحد ، وهو الماء الشديد المرارة والملوحة .

للمسافرين: مُقوين إذا نزلوا القِيّ وهى الأرض القفر التى لاشىء فيها . وكذلك القَوَى والقَوَاء بالمـدّ والقصر ، ومنزلٌ قَواء لا أنيس به ؛ يقال : أَقْوت الدارُ وقَوِيت أيضًا أى خلت من سكانها ؛ قال النابغة :

يا دارَ مَيَّـــةَ بالعَلْيَـاءِ فالسَّـــنَدِ * أَقْوَتْ وطال عَليها سَـالفُ الأَمَدِ

وقال عنترة :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقادَمَ عَهْدُهُ * أَقْوَى وأَقْفَـر بَعد أُمِّ الهَيْـثَمِ

ويقال : أَقْوَى أى قَوِى وقَوِى أصحابه ، وأَقوى إذا سافر أى نزل القَوَاء والقِيّ . وقال مجاهد : «لِلْمُقْوِينَ» المستمتعين بها من الناس أجمعين فى الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها . وقال ابن زيد : للجائعين فى إصلاح طعامهم . يقال : أقويت منذ كذا وكذا ، أى ما أكلت شيئا ، وبات فلان القَواء وبات القفرَ إذا بات جائعا على غير طُعْم ؛ قال الشاعر(1) :

وإنّى لأختارُ القَـوَى طَاوِىَ الحَشَى * محافَظَةً من أَنْ يقالَ لَئِـيمُ

وقال الربيع والسدى : «المُقْوِينَ» المنزلين(2)[الذين]لا زناد معهم ؛ يعنى نارا يوقدون فيختبزون بها؛ ورواه العوفى عن ابن عباس . وقال قُطْرب : المُقْوِى من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغنى ؛ يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله . المهدوى : والآية تصلح للجميع ؛ لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغنى والفقير . وحكى الثعلبى أن أكثر المفسرين على القول الأوّل . القشيرى : وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم ؛ لأن أهل البـادية لابد لهـم من النار يوقدونها ليلًا لتهرب منهم السِّباع ، وفى كثير من حوائجهم .

قوله تعـالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أى فنزّه الله عما أضافه إليـه المشركون من الأنداد ، والعجز عن البعث .

---

(1) هو حاتم طىّ .   (2) زيادة من ب .

قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ « لا » صلة في قول أكثر المفسرين ، والمعنى فأقسم ، بدليل قوله : « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ » . وقال الفراء : هي نفي ، والمعنى ليس الأمر كما تقولون ، ثم آستأنف « أُقْسِمُ » . وقد يقول الرجل : لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفي اليمين ، بل يريد به نفي كلام تقدّم . أي ليس الأمر كما ذكرت ، بل هو كذا . وقيل : « لا » بمعنى أَلَا للتنبيه كما قال[(١)] :

* أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي *

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه ، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا . وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر « فَلَأُقْسِمُ » بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حال ويقدر مبتدأ محذوف ، التقدير : فلأنا أقسم بذلك . ولو أريد به الآستقبال للزمت النون ، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال وهو شاذ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها في قول قتادة وغيره . عطاء بن أبي رَبَاح : منازلها . الحسن : آنكدارها وآنتثارها يوم القيامة . الضحاك : هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِرنا بنَوْء كذا . الماوردي : ويكون قوله تعالى : « فَلَآ أُقْسِمُ » مستعملا على حقيقته من نفي القسم . القشيري : هو قسم ، ولله تعالى أن يقسم بما يريد ، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة .

---

(١) قائله آمرؤ القيس ، وتمامه :

* وهل يَعِمَن من كان في العصر الخالي *

قلت : يدل على هذا قراءة الحسن « فَلَأُقْسِمُ » وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته فى غير موضع من كتابه . وقال ابن عباس : المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما ، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين ، فنجّمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنة ، فهو ينزله على الأحداث من أمته ؛ حكاه الماوردى عن ابن عباس والسّدى . وقال أبو بكر الأنبارى : حدثنا إسمعيل ابن إسحق القاضى حدثنا حجّاج بن المنهال حدثنا همّام عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل إلى الأرض نجوما ، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر ، فذلك قول الله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . وقرأ حمزة والكسائى « بِمَوْقِعِ » على التوحيد ، وهى قراءة عبد الله ابن مسعود والنَّخعى والأعمش وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب . الباقون على الجمع ؛ فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ قيل : إن الهاء تعود على القرآن ؛ أى إن القرآن لقسم عظيم ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : ما أقسم الله به عظيم « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » ذكر المقسم عليه ؛ أى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة ، وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربهم ، وشفاء صدورهم ؛ كريم على أهل السماء ؛ لأنه تنزيل ربهم ووَحْيه . وقيل : « كَرِيمٌ » أى غير مخلوق . وقيل : « كَرِيمٌ » لما فيه من كريم الأخلاق ومعانى الأمور . وقيل : لأنه يُكرِّم حافظه ، ويُعظِّم قارئه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ مصون عند الله تعالى . وقيل : مكنون محفوظ عن الباطل . والكتاب هنا كتاب فى السماء ؛ قاله ابن عباس . وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضا : هو اللوح المحفوظ . عِكرمة : التوراة والإنجيل فيهما ذكر

القرآن ومن ينزل عليه . السدى : الزبور . مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ آختلف فى معنى « لَا يَمَسُّهُ » هل هو حقيقة فى المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك آختلف فى «الْمُطَهَّرُونَ» من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جُبير : لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهَّرون من الذنوب وهم الملائكة . وكذا قال أبو العالية وآبن زيد : إنهم الذين طُهِّروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم؛ فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون . الكلبى : هم السَّفَرة الكرام البَرَرة . وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما آختاره مالك حيث قال : أحسن ما سمعت فى قوله « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنها بمنزلة الآية التى فى «عبس وتولى» : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ »(١) يريد أن المطهَّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة فى سورة « عبس » . وقيل : معنى «لَا يَمَسُّهُ» لا ينزل به « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أى الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء . وقيل : لا يمس اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهَّرون . وقيل : إن إسرافيل هو الموكَّل بذلك ؛ حكاه القشيرى . آبن العربى : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله فى وقت ولا تصل إليه بحال ، ولو كان المراد به ذلك لما كان للآستثناء فيه مجال . وأما من قال : إنه الذى بأيدى الملائكة فى الصحف فهو قول محتمل ؛ وهو آختيار مالك . وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا ؛ وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن فى كتاب عمرو بن حزم الذى كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته : (من محمد النبى إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلال والحرث بن عبد كُلال ونُعَيْم بن عبد كُلال قَيْل ذى رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان فى كتابه : ألا يمس القرآن إلا طاهر . وقال آبن عمر : قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر" . وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة : « لَا يَمَسُّهُ

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢١٣

إلّا الْمُطَهَّرُونَ » فقام وآغتسل وأسلم . وقد مضى فى أول سورة « طه »(١) . وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » من الأحداث والأنجاس . الكلبي : من الشرك . الربيع بن أنس : من الذنوب والخطايا . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا يقرؤه « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » إلا الموحّدون ؛ قاله محمد بن فضيل وعبدة . قال عِكرمة : كان آبن عباس ينهى أن يُمَكَّن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن . وقال الفراء : لا يجد طعمَه ونفعَه و بركته إلا المطهرون ؛ أى المؤمنون بالقرآن . آبن العربى : وهو آختيار البخارىّ ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًّا و بالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا " . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهّره الله من الشرك والنفاق . وقال أبو بكر الورّاق : لا يوفق للعمل به إلا السّعداء . وقيل : المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون . ورواه معاذ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ظاهر الآية خبر عن الشرع ؛ أى لا يمسّه إلا المطهّرون شرعًا ، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع ؛ وهذا آختيار القاضى أبى بكر بن العربى . وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »(٢) . المهدوىّ : يجوز أن يكون أمرا وتكون ضمة السين ضمة إعراب . ويجوز أن يكون نهيًا وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم .

السادســة — وآختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء ؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم . وهو مذهب علىّ وآبن مسعود وسعد بن أبى وقّاص وسعيد آبن زيد وعطاء والزّهرى والنّخعىّ والحكم وحمّاد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى . وآختلفت الرواية عن أبى حنيفة ؛ فروى عنه أنه يمسّه المحدث ، وقد روى هذا عن جماعة من السّلف منهم آبن عباس والشعبى وغيرهما . وروى عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمسّه إلا طاهر . آبن العربى : وهذا إن سلّمه ممّا يقوى الحجة عليه ؛ لأن حريم الممنوع ممنوع . وفيما كتبه النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمرو

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٣ (٢) راجع ج ٣ ص ٩١

ابن حزم أقوى دليل عليه . وقال مالك : لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذلك . ولم يمنع من حمله بعلاقة أو مسه بحائل . وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن على أنه لا بأس بحمله ومسه للسلم والكافر طاهرا أو محدثا ، إلا أن داود قال : لا يجوز للشرك حمله . واحتجوا فى إباحة ذلك بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه . وفى مس الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع اعتبارا بالبالغ . والثانى الجواز ؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن ؛ لأن تعلمه[1] حال الصغر ؛ ولأن الصبى وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ؛ لأن النية لا تصح منه ، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثاً .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى منزل ؛ كقولهم : ضَرْبُ الأمير ونَسْج اليمن . وقيل : « تَنْزِيلٌ » صفة لقوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وقيل : أى هو تنزيل .

قوله تعالى : أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ أى مكذبون ؛ قاله ابن عباس وعطاء وغيرهما . والمُدْهِن الذى ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شبه بالدُّهن فى سهولة ظاهره . وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مُدْهِنون كافرون ؛ نظيره : « وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ »[2] . وقال المؤرِّج : المدهن المنافق أو الكافر الذى يُلين جانبه ليُخْفى كفره ،

---

(١) فى ب ، ح ، ز ، س ، هـ : «ولأن حال تعلمه حال الصغر» .　　(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٣٠

والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللِّين ، وأن يُسِرَّ خلاف ما يظهر ؛ وقال أبو قيس بن الأَسْلَت :

الحَزْمُ والقُوَّةُ خيرٌ مِنَ الإِدهان والفَهَّةِ والهَاعِ (١)

وأدهن وداهن واحد . وقال قوم : داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غَشَشْتَ . وقال الضحاك : « مُدْهِنُونَ » معرضون . مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر به . آبن كيسان : المدهن الذى لا يعقل ما حقّ الله عليه و يدفعه بالعلل . وقال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم فى قبول القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال آبن عباس : تجعلون شكركم التكذيب . وذكر الهيثم بن عدى : أن من لغة أزد شنوءة ما رِزق فلان؟ أى ما شكره . وإنما صلح أن يوضع آسم الرزق مكان شكره ؛ لأن شكر الرزق يقتضى الزيادة فيه فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى . فقيل : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ » أى شكر رزقكم الذى لو وجد منكم لعاد رزقا لكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالرزق أى تضعون الكذب مكان الشكر ؛ كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » (٢) أى لم يكونوا يُصلُّون ولكنهم كانوا يصفِّرون و يُصفِّقون مكان الصلاة . ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكن أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قِبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة ، أوصبرٍ إن كان مكروها تعبّدا له وتذلُّلاً . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » حقيقة . وعن آبن عباس أيضا : أن المراد به الآستسقاء بالأنواء، وهو قول العرب : مُطرنا بنَوْء كذا ؛ رواه علىّ بن أبى طالب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن آبن عباس قال : مُطِر الناسُ على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافرٌ قالوا

---

(١) الفهة : العى . والهاع هنا : سوء الحرص مع ضعف . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠

هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صَدَق نَوْءُ كذا وكذا ، قال : فنزلت هذه الآية : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ — حتى بلغ — «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ »". وعنه أيضا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج فى سفر فعطشوا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقِيتم لعلكم تقولون هذا المطر بِنَوْء كذا " فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأَنواء . فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطروا ؛ فمرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقِينا بِنَوْء كذا ، ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم لله على رزقه إياكم « أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » بالنعمة وتقولون سُقِينا بِنَوْء كذا ؛ كقولك : جعلتَ إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، وجعلتَ إنعامى لديك أن آتخذتنى عدوًّا . وفى الموطأ عن زيد بن خالد الجُهَنِيّ أنه قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحُدَيْبِية على إِثْرِ[1] سماء كانت من الليل ، فلما آنصرف أَقبَلَ على الناس وقال : " أتدرون ماذا قال ربكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بالكوكب فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب وأما من قال مُطرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بى " . قال الشافعى رحمه الله : لا أحبّ أحدا أن يقول مُطرنا بنَوْء كذا وكذا ، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئا من المطر ، والذى أحبّ أن يقول : مُطرنا وقت كذا كما تقول مُطرنا شهر كذا ، ومن قال : مُطرنا بِنَوْء كذا ، وهو يريد أن النَّوْء أنزل الماء ، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتب . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكيًا عن الله سبحانه : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر " فمعناه عندى على وجهين : أما أحدهما فإن المعتقد بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرًا صريحا[2] يجب آستتابته عليه وقتله [إن أبى][3] لنبذه الإسلام ورده القرآن . والوجه الآخر أن

(١) على إثر سماء : أى بعد مطر . وفى « إثر » لغتان : كسر الهمزة وسكون الثاء وفتحهما .
(٢) فى ب : « صراحا » .　　(٣) زيادة يقتضيها السياق .

يعتقد أن النّوء يُنزل الله به الماءَ ، وأنه سبب الماء على ما قدّره الله وسبق فى علمه ؛ وهذا وإن كان وجهًا مباحًا ، فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عز وجل ، وجهلًا بلطيف حكمته فى أنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنَوْء كذا ، ومرة بنَوْء كذا ، وكثيرا ما ينوء النَّوْء فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله تعالى لا من النَّوْء . وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطر : مطرنا بنَوْء الفتح ؛ ثم يتلو : « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا »(١) قال أبو عمر : وهذا عندى نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مُطرنا بفضل الله ورحمته ". ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين آستسقى به : ياعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كم بقى من نَوْء الثريا؟ فقال العباس : العلماء يزعمون أنها تعترض فى الأفق سبعًا بعد سقوطها . فما مضت سابعة حتى مطروا ؛ فقال عمر : الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته . وكأنّ عمر رحمه الله قد علم أن نَوْء الثُّرَيا وقت يُرْجى فيه المطر ويؤمَّل فسأله عنه أخرج أم بقيت منه بقية ؟ . وروى سفيان بن عيينة عن إسمعيل بن أمية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمع رجلًا فى بعض أسفاره يقول : مُطرنا ببعض عَثَانين الأسد ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كذبت بل هو سُقْيا الله عز وجل " قال سفيان : عَثَانين الأسد الذراع والجبهة . وقراءة العامة « تُكَذِّبُونَ » من التكذيب . وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وثّاب « تَكْذِبُونَ » بفتح التاء مخففا . ومعناه ما قدمناه من قول من قال : مطرنا بنَوْء كذا . وثبت من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لن يزلن فى أمتى التفاخر فى الأحساب والنِّياحة والأَنْواء " ولفظ مسلم فى هذا " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب والآستسقاء بالنجوم والنياحة " .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ أى فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلْقوم . ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى معروف ؛ قال حاتم .

أَمَاوِيّ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عن الفتى ✱ إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصَّدْرُ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١

وفى حديث : " إن مَلَك الموت له أعوان يقطعون العروق و يجمعون الروح شيئًا فشيئًا حتى ينتهى بها إلى الحُلْقوم فيتوفاها مَلَك الموت " . ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أمرى وسلطانى . وقيل : تنظرون إلى الميّت لا تقدرون له على شيء . وقال ابن عباس : يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه . ثم قيل : هو ردٌّ عليهم فى قولهم لإخوانهم « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا »(١) أى فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم . وقيل : المعنى فهلّا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه فى جسده ، مع حرصكم على امتداد عمره ، وحبكم لبقائه . وهذا ردّ لقولهم : « نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ »(٢) . وقيل : هو خطاب لمن هو فى النزع ؛ أى إن لم يك ما بك من الله فهلّا حفظت على نفسك الروح . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أى بالقدرة والعلم والرؤية . قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلىّ منه . وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولّون قبضه « أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ » ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أى لا ترونهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أى فهلّا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَدِينُونَ »(٣) أى مجزيون محاسبون . وقد تقدم . وقيل : غير مملوكين ولا مقهورين . قال الفراء وغيره : دِنْتُه ملكته ؛ وأنشد للحطيئة :

لقد دُيِّنْتِ(٤) أَمْرَ بَنِيكِ حَتّى * تَرَكْتِهِمُ أَدَقَّ من الطَّحِينِ

يعنى مُلِّكْتِ . ودانه أى أذله واستعبده ؛ يقال : دنته فدان . وقد مضى فى « الفاتحة »(٥) القول فى هذا عند قوله تعالى : « يَوْمِ الدِّينِ » . ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ ترجعون الروح إلى الجسد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين . و « تَرْجِعُونَهَا » جواب لقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » ولقوله : « فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ »

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٧٠
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٨٢ (٤) ويروى : سوست ؛ يخاطب أمه .
(٥) راجع جـ ١ ص ١٤٣ .

أجيبا بجواب واحد، قاله الفراء . وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى : « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . وقيل : حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقيل : فيها تقديم وتأخير، مجازها : فلولا وهلّا إن كنتم غير مَدِينِين تَرجعونها؛ تردُّون نفس هذا الميّت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم .

قوله تعالى : فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبيّن درجاتهم فقال : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ » هذا المتوفَّى « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وهم السابقون. ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ وقراءة العامة « فَرَوْحٌ » بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره: فراحة من الدنيا . وقال الحسن : الرَّوْح الرحمة . الضحاك : الرَّوْح الاستراحة . القُتَبِيّ : المعنى له في القبر طيب نسيم . وقال أبو العباس بن عطاء : الرَّوح النظر إلى وجه الله، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه، « وَجَنَّةُ نَعِيمٍ » هو ألا يُحجب فيها عن الله عز وجل . وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجَحْدريّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب « فَرُوحٌ » بضم الراء، ورويت عن ابن عباس . قال الحسن : الرُّوح الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم . وقالت عائشة رضي الله عنها : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « فَرُوحٌ » بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢٧

فى الجنة وهذا هو الرحمة. «وَرَيْحَانٌ» قال مجاهد وسعيد بن جبير : أى رزق . قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير؛ يقال : خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه ؛ قال النَّمِر بن تَوْلَب :

سَلَامُ الإِلٰهِ وَرَيْحَانُهُ * ورحمتُه وسَمَـاءٌ دِرَرْ

وقال قتادة : إنه الجنة . الضحاك : الرحمة . وقيل هو الريحان المعروف الذى يشم . قاله الحسن وقتادة أيضا . الربيع بن خَيْثم : هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث. أبو الجوزاء : هذا عند قبض روحه يتلقّى بضَبَائر الرَّيْحَان. أبو العالية : لا يفارق أحد رُوحه من المقربين فى الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما ،وأصل ريحان وآشتقاقه تقدم فى أول سورة «الرحمن»(١) فتأمله . وقد سرد الثعلبى فى الرَّوْح والرَّيْحان أقوالًا كثيرةً سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى « إِنْ كَانَ » هذا المتوفَّى « مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أى لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم ، فإنهم يسلمون من عذاب الله . وقيل : المعنى سلام لك منهم ؛ أى أنت سالم من الآغتمام لهم . والمعنى واحد . وقيل : أى إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلّى الله عليك ويسلم . وقيل : المعنى إنهم يسلمون عليك يا محمد . وقيل : معناه سلمت أيها العبد ممـا تكره فإنك من أصحاب اليمين؛ فحذف إنك . وقيل : إنه يُحَيَّا بالسلام إكراماً ؛ فعلى هذا فى محل السلام ثلاثة أقاويل : أحدها عنـد قبض روحه فى الدنيا يسلّم عليه مَلَك الموت ؛ قاله الضحاك. وقال آبن مسعود: إذا جاء مَلَك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وقد مضى هذا فى سورة «النحل»(٢) عند قوله تعالى: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ». الثانى عند مساءلته فى القبر يسلّم عليه منكر ونكير. الثالث عند بعثه فى القيامة تسلّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها .

(١) راجع ص ١٥٧ من هذا الجزء .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٠١

قلت : وقد يحتمل أن تسلّم عليه فى المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكرامًا بعد إكرام . والله أعلم . وجواب « إنْ » عند المبرِّد محذوف التقدير مهما يكن من شيء « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » إن كان من أصحاب اليمين «فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليه ، كما حذف الجواب فى نحو قولك أنت ظالم إن فعلت ؛ لدلالة ما تقدّم عليه . ومذهب الأخفش أن الفاء جواب « أَمَّا » و « إِنْ » ، ومعنى ذلك أن الفاء جواب «أَمَّا» وقد سدّت مسدّ جواب «إِنْ» على التقدير المتقدّم، والفاء جواب لهما على هذا الحد . ومعنى«أَمَّا» عند الزجاج : الخروج من شيء إلى شيء ؛ أى دع ما كنا فيه وخذ فى غيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالبعث ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ عن الهدى وطريق الحق ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أى فلهم رزق من حميم ، كما قال : «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ » وكما قال : « ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ »(1) ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ إدخال فى النار . وقيل : إقامة فى الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها ؛ يقال : أصلاه النار وصلاه ؛ أى جعله يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول ؛ كما يقال : لفلان إعطاء مالٍ أى يُعطَى المـال . وقرئ «وَتَصْلِيَةِ» بكسر التاء أى ونزلٌ من تصلية جحيم . ثم أدغم أبو عمرو التاء فى الجيم وهو بعيد . ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أى هذا الذى قصصناه محض اليقين وخالصه . وجاز إضافة الحقّ إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما . قال المبرِّد : هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين ؛ فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين . وعند البصريين حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين . وقيل : هو توكيد . وقيل : أصل اليقين أن يكون نعتًا للحقّ فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز ؛ كقوله : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ »(2) وقال قتادة فى هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدا من الناس حتى يَقِفه على اليقين من هذا القرآن، فأمّا المؤمن فأيقن فى الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين . ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أى نزِّه الله تعالى عن السوء . والباء زائدة أى سبّح اسم ربك، والاسمُ المسمَّى . وقيل :

(1) راجع جـ ١٥ ص ٨٧ (2) راجع جـ ٩ ص ٢٧٥

« فَسَبِّحْ » أي فصلّ بذكر ربك وبأمره . وقيل : فاذكر آسم ربك العظيم وسبّحه . وعن عقبة بن عامر قال : لما نزلت « فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ » قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آجعلوها في ركوعكم" ولما نزلت « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "آجعلوها في سجودكم" خرجه أبو داود . والله أعلم .

ســـورة الحـــديد

مدنيّة في قول الجميع ، وهي تسع وعشرون آية

عن العرباض بن سارية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد ويقول : "إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية" يعني بالمسبِّحات « الحديد » و « الحشر » و « الصفّ » و « الجمعة » و « التغابن » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مجّد الله ونزّهه عن السوء . وقال آبن عباس : صلّى لله « مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ » ممن خلق من الملائكة « وَٱلْأَرْضِ » من شيء فيه روح أولا روح فيه . وقيل : هو تسبيح الدلالة . وأنكر الزجاج هذا وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ؛ فلم قال : « وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[1] . وإنما هو تسبيح مقال . وآستدلّ بقوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ »[2] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود ؟ !

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٠٧

قلت : وما ذكره هو الصحيح ، وقد مضى بيانه والقول فيه فى «سبحان»[(١)] عند قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى آنفرد بذلك . والمُلْك عبارة عن المَلِك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر. وقيل : أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق . ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يميت الأحياء فى الدنيا ويحيي الأموات للبعث . وقيل : يُحيي النطف وهى موات ويُميت الأحياء . وموضع « يُحْيِي وَيُمِيتُ » رفع على معنى وهو يحيي ويميت . ويجوز أن يكون نصبا بمعنى «لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » محييا ومميتا على الحال من المجرور فى « لَهُ » والجار عاملا فيها . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى الله لا يعجزه شىء .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ آختلف فى معانى هذه الأسماء وقد بيناها فى الكتاب الأسنى . وقد شرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحاً يغنى عن قول كل قائل؛ فقال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : "اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء آقض عنا الدين وأغننا من الفقر" عنى بالظاهر الغالب ، و بالباطن العالم؛ والله أعلم . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٦ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم فى « الأعراف »(١) مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من رزق ومطر ومَلَك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يعنى بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم و يراها ولا يخفى عليه شيء منها . وقد جمع فى هذه الآية بين « ٱسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » و بين « وَهُوَ مَعَكُمْ » والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بدّ من التأويل ، والإعراضُ عن التأويل ٱعتراف بالتناقض . وقد قال الإمام أبو المعالى : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان فى بطن الحوت . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا التكرير للتأكيد أى هو المعبود على الحقيقة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى أمور الخلائق فى الآخرة . وقرأ الحسن والأعرج و يعقوب وٱبن عامر وأبو حَيْوة وٱبن مُحَيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائى وخلف « تَرْجِع » بفتح التاء وكسر الجيم . الباقون « تُرْجَعُ » .

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾ تقدّم(٢) فى « آل عمران » . ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى لا تخفى عليه الضمائر ، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٥٦ .

قوله تعالى : ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى صدّقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ تصدّقوا . وقيل أنفقوا فى سبيل الله . وقيل : المراد الزكاة المفروضة . وقيل : المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ دليل على أن أصل الملك لله سبحانه ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك بالجنة . فمن أنفق منها فى حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم . وقال الحسن : « مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم . وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النوّاب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم . ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وعملوا الصالحات ﴿ مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آستفهام يراد به التوبيخ . أى أىّ عذر لكم فى ألّا تؤمنوا وقد أزيحت العلل ؟ ! ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ بيّن بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع . وقرأ أبو عمرو : ﴿ وَقَدْ أُخِذَ مِيثَاقُكُمْ ﴾ على غير مسمى الفاعل . والباقون على مسمّى الفاعل ؛ أى أخذ الله ميثاقكم . قال مجاهد : هو الميثاق الأوّل الذى كان وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه . وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركّب فيكم العقول ، وأقام عليكم الدلائل والحجج التى تدعو إلى متابعة الرسول ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إذ كنتم . وقيل :

أى إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل . وقيل : أى إن كنتم مؤمنين بحق يوماً من الأيام ؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيـام الحجج والأعلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسـلم فقد صحت براهينه . وقيل : إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم . وكانوا يعترفون بهذا . وقيل : هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبيّ صلى الله عليـه وسلم ميثاقهم فارتدوا . وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن كنتم تقرون بشرائط الإيمـان .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ يريد القرآن . وقيل : المعجزات ؛ أى لزمكم الإيمـان بمحمد صلى الله عليـه وسلم ؛ لمـا معه من المعجزات ، والقـرآنُ أكبرها وأعظمها . ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ أى بالقرآن . وقيل : بالرسول . وقيل : بالدعوة . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ وهو الإيمان . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)

فيـه خمس مسـائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَنْ لَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى أىُّ شىء يمنعكم من الإنفاق فى سـبيل الله ، وفيما يقـرِّبكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهى صائرة إلى الله تعالى . فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق . ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى إنهما راجعتان إليه بآنقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة . وقال الشعبيّ والزهرىّ : فتح الحُدَيْبِية . قال قتادة :

كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفي الكلام حذف؛ أى « لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ » ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل؛ فحذف لدلالة الكلام عليه . وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق والأجر على قدر النَّصَب . والله أعلم .

الثالثـــة ــ روى أشهب عن مالك قال : ينبغى أن يُقدَّم أهل الفضل والعزم؛ وقد قال الله تعالى : « لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ » وقال الكلبى : نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبى بكر رضى الله عنه وتقديمه ؛ لأنه أوّل من أسلم . وعن ابن مسعود : أوّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ؛ ولأنه أوّل من أنفق على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عمر قال : كنت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّها فى صدره بخِلَال فنزل جبريل فقال : يا نبيّ الله ! مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّها فى صدره بخِلَال ؟ فقال : "قد أنفق علىّ ماله قبل الفتح" قال : فإن الله يقول لك اقرأ على أبى بكر السلام وقل له أراضٍ أنت فى فقرك هـذا أم ساخط ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام و يقول أراضٍ أنت فى فقرك هذا أم ساخط"؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربى؟ إنى عن ربّى لراضٍ! إنّى عن ربّى لراضٍ! إنى عن ربى لراضٍ! قال : "فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عنى راضٍ" فبكى أبو بكر فقال جبريل عليه السلام : والذى بعثك يا محمد بالحقّ ، لقد تَخَلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تخلّل صاحبك هذا بالعباءة ؛ ولهذا قدّمته الصحابة على أنفسهم ، وأقرّوا له بالتقدّم والسبق . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : سبق النبيّ صلى الله عليـه وسلم وصَلَّى[1] أبو بكر وثَلَّث عمر ؛ فلا أوتى برجل فَضَّلنى على أبى بكر إلا جلدته حدّ المفترى ثمانين جلدة وطرح الشهادة . فنال المتقدّمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ .

(١) السابق : الأوّل . والمصلى : الثانى .

الرابعـــة — التقدّم والتأخر قد يكون فى أحكام الدنيا، فأما فى أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضى الله عنها : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم . وأعظم المنازل مرتبـة الصلاة . وقد قال صلى الله عليـه وسلم فى مرضـه : " مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس " الحديث . وقال: " يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله " وقال : " وليؤمّكما أكبركما " من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدم . وفهم منه البخارى وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال صلى الله عليـه وسلم : " الولاء لِلكِبَر " ولم يعن كبر السن . وقد قال مالك وغيره : إن للسنّ حقًّا . وراعاه الشافعى وأبو حنيفة وهو أحقّ بالمراعاة ؛ لأنه إذا آجتمع العلم والسنّ فى خيِّرين قُدِّم العـلم، وأما أحكام الدنيا فهى مرتبة على أحكام الدِّين، فمن قُدِّم فى الدين قُـدِّم فى الدنيا . وفى الآثار : " ليس مِنا من لم يوقِّر كبيرَنَا و يرحمْ صغيرنا و يعرفْ لعالمنا حقَّه " . ومن الحديث الثابت فى الأفراد : " ما أكرم شاب شيخاً لِسنِّه إلا قَيَّض الله له عند سنِّه من يكرمه " . وأنشدوا : (١)

يا عائبـاً لِلشيوخ مِن أَشَرٍ * دَاخَلَهُ فى الصِّبَا ومن بَذَخِ
آذكر إذا شئتَ أن تُعيِّرَهُمْ * جَدَّكَ وآذكر أباك يابن أخ
وآعلم بأن الشباب منسلِخٌ * عنـك وما وِزْرُه بمنسلِخ
من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ * يوماً به سِـنُّه إلى الشَّيَـخ

الخامســـة — قوله تعالى : «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» أى المتقدمون المتناهون السابقون، والمتأخرون اللاحقون، وعَدَهم الله جميعا الجنة مع تفاوت الدرجات . وقرأ آبن عامر «وَكُلٌّ» بالرفع ، وكذلك هـو بالرفع فى مصاحف أهل الشام . الباقون «وَكُلًّا» بالنصب على ما فى مصاحفهم ؛ فمن نصب فعلى إيقاع الفعل عليه أى وعد الله كلًّا الحسنى . ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل، والهاء محذوفة من وَعَدَه .

---

(١) هو لابن عبد الصمد السرقسطى كما فى « أحكام القرآن » لابن العربى .

قوله تعالى : مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ندب إلى الإنفاق فى سبيل الله . وقد مضى فى « البقرة »[1] القول فيه . والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً : قد أقرض ؛ كما قال[2] :

وإذا جُوزِيتَ قَرْضاً فَاجْزِهِ * إِنَّمَا يَجْزِى الفتى ليس الجَمَلْ

وسمّى قرضا ؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل . أى من ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة . قال الكلبى : « قَرْضًا » أى صدقة « حَسَنًا » أى محتسبا من قلبه بلا مَنٍّ ولا أذًى . ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف . وقيل : القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ رواه سفيان عن أبى[3] حيان . وقال زيد بن أسلم : هو النفقة على الأهل . الحسن : التطوع بالعبادات . وقيل : إنه عمل الخير؛ والعرب تقول : لى عند فلان قرض صِدقٍ وقرض سوء . القشيرى : والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس ، يبتغى به وجه الله دون الرياء والسُّمعة ، وأن يكون من الحلال . ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الردىء فيخرجه ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ »[4]

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧

(٢) قائله لبيد ؛ ومعنى البيت : إذا أسدى إليك معروف فكافئ عليه .

(٣) كل نسخ الأصل بلفظ أبى حيان والظاهر أن صوابه : ابن حيان .

(٤) راجع جـ ٣ ص ٣٢٥

وأن يتصدق في حال يأمل الحياة ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الصدقة فقال : " أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا " وأن يخفي صدقته ؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » (١) وألا يمنّ ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » (١) وأن يستحقر كثير ما يعطي ؛ لأن الدنيا كلها قليلة ، وأن يكون من أحبّ أمواله ؛ لقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » (٢) وأن يكون كثيراً ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الرقاب أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها " . « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » وقرأ ابن كثير وابن عامر « فَيُضَعِّفَهُ » بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء . وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة « فَيُضَاعِفُهُ » بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصمًا نصب الفاء . ورفع الباقون عطفًا على « يُقْرِضُ » . وبالنصب جوابًا على الاستفهام . وقد مضى في « البقرة » (١) القول في هذا مستوفى . ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني الجنة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ العامل في « يَوْمَ » «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» ، وفي الكلام حذف أي « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » في « يَوْمَ تَرَى » فيه ﴿ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ ﴾ أي يمضي على الصراط في قول الحسن ، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي قدامهم . ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قال الفراء : الباء بمعنى في ؛ أي في أيمانهم . أو بمعنى عن أي عن أيمانهم . وقال الضحاك : « نُورُهُمْ » هداهم «وَبِأَيْمَانِهِمْ» كتبهم ؛ واختاره الطبري . أي يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفي أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى في . ويجوز على هذا أن يوقف على « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن . وقرأ سهل ابن سعد الساعدي وأبو حيوة «وبِإِيمَانِهِم» بكسر الألف ، أراد الإيمان الذي هو ضد الكفر .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ وص ٣١١

(٢) راجع جـ ٤ ص ١٣٢

وعطف ما ليس بظرف على الظرف ؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف . والمعنى يسعى كائناً « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » وكائناً « بِإِيمَانِهِمْ » ، وليس قوله : « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » متعلقاً بنفس « يَسْعَى » . وقيـل : أراد بالنـور القرآن . وعن ابن مسـعود : يؤتون نورهم على قـدر أعمالهم ؛ فمنهـم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليـه وسلم قال : " إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدنٍ أو ما بين المدينـة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضـع قدميه " قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط كما تقـدم . وقال مقاتل : ليكون دليـلاً لهم إلى الجنة . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ التقـدير يقال لهم : «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جناتٍ، ولابد من تقدير حذف المضاف ؛ لأن البشرى حدث ، والجنة عين فلا تكون هي هي . « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من تحتهم أنهار اللبن والمـاء والخمر والعسل من تحت مساكنها . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الدخول المحذوف ؛ التقدير « بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جناتٍ « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم ؛ لأن فيه فصلاً بين الصلة والموصول . ويجوز أن يكون ممـا دل عليه البشرى ، كأنه قال : تبشرون خلدين . ويجوز أن يكون الظرف الذي هو « الْيَوْمَ » خبراً عن « بُشْرَاكُمُ » و « جَنَّاتٌ » بدلاً من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقـدم . و « خَالِدِينَ » حال حسب ما تقـدم . وأجاز الفراء نصب « جَنَّات » على الحال على أن يكون « الْيَوْمَ » خبراً عن « بُشْرَاكُمُ » وهو بعيد ؛ إذ ليس في «جَنَّات» معنى الفعل . وأجاز أن يكون «بُشْرَاكُمُ» نصـباً على معنى يبشرونهم بشرى وينصب « جنـات » بالبشرى وفيـه تفرقة بين الصـلة والموصـــول .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ العامل في « يوم » « ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . وقيل : هو بدل من اليوم الأول . ﴿ ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر، والنظر الانتظار أي انتظرونا . وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثّاب «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار . أي أمهلونا وأخرونا ؛ أنظرته أخرته ، واستنظرته أي استمهلته . وقال الفراء : تقول العرب : أنظرني انتظرني؛ وأنشد لعمرو بن كلثوم :

أبا هنـد فلا تعجل علينا * وأنظرنا نخبّرك اليقينـا

أي انتظرنا . ﴿ نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ أي نستضيء من نوركم . قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة — قال الماوردي : أظنها بعد فصل القضاء — ثم يعطون نورا يمشون فيه . قال المفسرون : يعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ، ويعطي المنافقين أيضا نوراً خديعةً لهم؛ دليله قوله تعالى : « وَهُوَ خَادِعُهُمْ »(1) . وقيل : إنما يعطون النور ؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر ، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه؛ قاله ابن عباس . وقال أبو أمامة : يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور . وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور ، فبينما هم يمشون

(1) راجع جـ ٥ ص ٤٢١ .

إذ بعث الله فيهم ريحا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين؛ فذلك قوله تعالى : « رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » يقوله المؤمنون ؛ خشية أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقى المنافقون فى الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين : « ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » . ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ أى قالت لهم الملائكة « ٱرْجِعُوا » . وقيل : بل هو قول المؤمنين لهم « ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ » إلى الموضع الذى أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورًا فإنكم لا تقتبسون من نورنا . فلما رجعوا وانعزلوا فى طلب النور ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ ﴾ . وقيل : أى هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا . « بِسُورٍ » أى سُورٌ ، والباء صلة . قاله الكسائى . والسُّور حاجز بين الجنة والنار . وروى أن ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادى جهنم . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ يعنى ما يلى منه المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ يعنى ما يلى المنافقين . قال كعب الأحبار : هو الباب الذى ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة . وقال عبد الله بن عمرو : إنه سُور بيت المقدس الشرقى باطنه فيه المسجد « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعنى جهنم . ونحوه عن ٱبن عباس . وقال زياد بن أبى سوادة : قام عبادة ٱبن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقى فبكى، وقال : من ها هنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم . وقال قتادة : هو حائط بين الجنة والنار « بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعنى الجنة « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعنى جهنم . وقال مجاهد : إنه حجاب كما فى « الأعراف » وقد مضى القول فيه (١) . وقد قيل : إن الرحمة التى فى باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين .

قوله تعالى : ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أى ينادى المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ فى الدنيا يعنى نصلى مثل ما تصلون، ونغزوا مثل ما تغزون، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى يقول المؤمنون « بَلَى » قد كنتم معنا فى الظاهر ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى ٱستعملتموها فى الفتنة . وقال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق . وقيل : بالمعاصى ؛ قاله أبو سنان . وقيل : بالشهوات واللذات ؛

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١١

رواه أبو نمير الهمْداني . ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ أى « تَرَبَّصْتُمْ » بالنبيّ صلى الله عليه وسلم الموت، وبالمؤمنين الدوائر . وقيل : « تَرَبَّصْتُمْ » بالتوبة « وَٱرْتَبْتُمْ » أى شككتم فى التوحيد والنبوة ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى الأباطيل . وقيل : طول الأمل . وقيل : هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم . وقال قتادة : الأمانى هنا خدع الشيطان . وقيل : الدنيا ؛ قاله عبد الله بن عباس[(1)] . وقال أبو سنان : هو قولهم سَيُغْفَر لنا . وقال بلال بن سعد : ذكرك حسناتِك ونسيانك سيئاتِك غِرّةٌ . ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يعنى المـوت . وقيل : نصرة نبيّه صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : إلقاؤهم فى النار . ﴿ وَغَرَّكُمْ ﴾ أى خدعكم ﴿ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أى الشيطان ؛ قاله عكرمة . وقيل : الدنيا ؛ قاله الضحاك . وقال بعض العلماء : إن للباقى بالمـاضى معتبرًا، وللآخر بالأول مزدجرًا، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنيّة نسى الأمنيّـة ، ومن أطال الأمل نسى العمل ، وغفل عن الأجل . وجاء « الْغَرُورُ » على لفظ المبـالغة للكثرة . وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وسِمَـاك بن حرب « الْغُرُورُ » بضم الغين يعنى الأباطيل وهو مصدر . وعن آبن عباس : أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خطّ لنـا خطوطًا ، وخطّ منها خطًّا ناحية فقال : " أتدرون ما هذا هذا مثل آبن آدم ومثل التمنى وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت " . وعن آبن مسعود قال : خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا مربعًا ، وخطّ وسطه خطًّا وجعله خارجًا منه ، وخـطّ عن يمينه ويساره خطوطًا صغارًا فقال : " هذا آبن آدم وهـذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا " .

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ أيها المنافقون ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أياسهم من النجاة . وقراءة العامة « يُؤْخَذُ » بالياء ؛ لأن التأنيث غير حقيقى ؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل . وقرأ آبن عامر ويعقوب « تُؤْخَذُ » بالتاء وآختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية . والأوّل

(1) فى ب ، ز ، س ، ل ، هـ : « عبد الله بن عياش » .

آختيار أبي عبيد ؛ أي لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى . ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مقامكم ومنزلكم ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي أَوْلى بكم؛ والمولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم آستعمل فيمن كان ملازمًا للشيء . وقيل : أي النار تملك أمرهم؛ بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُرَكِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظًا على الكفار ، ولهذا خوطبت في قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ »(١) . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي ساءت مرجعًا ومصيرًا.

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يقرب ويحين ، قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الْجَهْلَا * وأن يُحْدِثَ الشَّيْبُ المبينُ لنا عَقْلَا

وماضيه أَنَى بالقصر يَأْنِي . ويقال : آن لك — بالمد — أن تفعل كذا يَئِين أَيْنًا أي حان، مثل أَنَى لك وهو مقلوب منه . وأنشد آبن السِّكِّيت :

أَلَمَّا يَئِنْ لِي أَنْ تُجَلَّى عَمَايَتِي * وَأُقْصِرُ عن لَيْلَى بَلَى قَدْ أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين . وقرأ الحسن « أَلَمَّا يَأْنِ » وأصلها « أَلَمْ » زيدت «ما» فهي نفي لقول القائل : قد كان كذا ، و « لم » نفي لقوله : كان كذا . وفي صحيح مسلم عن آبن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » إلا أربع سنين . قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدة ؛ تقول عاتبته معاتبة ﴿ أَنْ تَخْشَعَ ﴾ أي تذل وتلين ﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

(١) راجع ص ١٨ من هذا الجزء .

روى أن المزاح والضحك كثر فى أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا ترفهوا بالمدينة، فنزلت الآية؛ ولمـا نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يستبطئكم بالخشوع" فقالوا عند ذلك : خشعنا . وقال آبن عباس : إن الله آستبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . وقيل : نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت : «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ»[1] إلى قوله : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » الآية ؛ فأخبرهم أن هـذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم ، فكفّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأول فنزلت: « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا فى العلانية باللسان . قال السدّى وغيره : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بالظاهر وأسرّوا الكفر « أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » . وقيـل : نزلت فى المؤمنين . قال سعد : قيل يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل : «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ» فقالوا بعد زمان : لو حدثتنا فنزل : «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ»[2] فقالوا بعد مدة : لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى: « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» ونحوه عن آبن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول : ما أحدثنا؟ قال الحسن : آستبطأهم وهم أحبّ خلقه إليه . وقيل : هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا : «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » أى ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمتقدمى قوم موسى وعيسى؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيّهم فقست قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا ﴾ أى وألا يكونوا فهو منصوب عطفا على « أَنْ تَخْشَعَ » . وقيل : مجزوم على النهى ؛ مجازه ولا يكونن ؛ ودليل هذا التأويل رواية رُويس عن يعقوب « لَا تَكُونُوا » بالتاء ؛ وهى قراءة عيسى وآبن إسحـق . يقول : لا تسلكوا سبيل اليهـود والنصارى؛ أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم . قال آبن مسعود : إن بنى إسرائيل

(١) راجع جـ ٩ ص ١١٨ . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ .

لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فآخترعوا كتابا من عند أنفسهم آستحلته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم و بين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ثم قالوا: أعرضوا هذا الكتاب على بنى إسرائيل، فإن تابعوكم فآتركوهم وإلا فآقتلوهم. ثم آصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد؛ فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله فى ورقة وجعلها فى [قَرْن وعلّقه فى](١) عنقه ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهـذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنت بهذا يعنى المعلّق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين مِلّة؛ وخير مللهم أصحاب ذى القَرْن. قال عبد الله: ومن يعش منكم فسيرى منكرا، وبِحَسْب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيان(٢): يعنى مؤمنى أهل الكتاب طال عليهم الأمد وآستبطئوا بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعنى الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن فى علم الله تعالى. ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعث النبىّ صلى الله عليه وسلم فآمنوا به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فَسَّقهم اللهُ. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدِبين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا. وذكر آبن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغنى أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وآنظروا فيها — أو قال فى ذنوبكم — كأنكم عبيد؛ فإنما الناس رجلان معافًى ومبتلًى، فآرحموا أهل البلاء، وآحمدوا الله على العافية. وهذه الآية «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وآبن المبارك رحمهما الله

(١) الزيادة من تفسير الطبرى.

(٢) فى بعض التفاسير: مقاتل بن سليمان وهو المفسر.

تعـالى . ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن بن مروان القَلَانسيّ قال : حدثنا أبو محمـد الحسن ابن رشيق، قال حدّثنا على بن يعقوب الزيات، قال حدثنا إبراهيم بن هشام، قال حدثنا زكريا آبن أبى أبان، قال حدثنـا الليث بن الحرث قال حدّثنـا الحسن بن داهر، قال سـئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال : كنت يوما مع إخوانى فى بستان لنـا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعا بضرب العودِ والطُّنبور، فقمت فى بعض الليـل فضربت بصوت يقال له راشين السَّحَر (١)، وأراد سنان يغنِّى، وطائر يصيح فوق رأسى على شجرة، والعود بيـدى لا يجيبنى إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان — يعنى العود الذى بيده — ويقول : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » قلت : بلى والله ! وكسرت العود، وصرفت من كان عندى، فكان هذا أوّل زهدى وتشميرى . وبلغنا عن الشعر الذى أراد آبن المبارك أن يضرب به العود :

أَلَمْ يَـأْنِ لى منك أن تَرْحَمَا * وتَعْصِ العَـواذِلَ واللُّـوَّما
وتَرْثِى لصَبٍّ بكم مُغْرَمٍ * أقام عـلى هجـركم مَأْتَمَـا
يَبِيتُ إذا جَنَّـهُ لَيْـلُهُ * يُرَاعِى الكَواكِبَ والأَنْجُمَـا
وماذا عـلى الظَّبى لَوْ أنَّـهُ * أَحَلَّ مِنَ الوَصْلِ ما حَرَّمَا

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليـلًا، فبينما هو يرتقى الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » فرجع القهقرى وهو يقول : بلى والله قد آن ! فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض : إن فضيلًا يقطع الطريق . فقال الفضيل : أوّاه ! أرانى بالليـل أسـعى فى معاصى الله، قوم من المسلمين يخافـوننى ! اللهم إنى قـد تبت إليك، وجعلت توبتى إليك جوار بيتك الحرام .

---

(١) هكذا فى الأصول ولم نقف عليها بعد البحث .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى « يُحْيِي الأَرْضَ » الجدبة « بَعْدَ مَوْتِهَا » بالمطر . وقال صالح المري : المعنى يلين القلوب بعد قساوتها . وقال جعفر ابن محمد : يحييها بالعدل بعد الجور . وقيل : المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة . وقيل : كذلك يحيي الله الموتى من الأمم ، ويميز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله ، وأنه لمحيي الموتى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أى المصدقين بما أنزل الله تعالى . الباقون بالتشديد أى المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء فى الصاد ، وكذلك فى مصحف أُبيّ . وهو حثٌّ على الصدقات ، ولهذا قال : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالصدقة والنفقة فى سبيل الله . قال الحسن : كل ما فى القرآن من القرض الحسن فهو التطوع . وقيل : هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسباً صادقًا . وإنما عطف بالفعل على الاسم ، لأن ذلك الاسم فى تقدير الفعل ، أى إن الذين صدّقوا وأقرضوا ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أمثالها . وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله . وقرأ الأعمش « يُضَاعِفُه » بكسر العين وزيادة هاء . وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب « يُضَعَّفُ » بفتح العين وتشديدها . ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني الجنة .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ آختلف فى « الشُّهَدَاءُ » هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به . فقال مجاهد وزيد آبن أسلم : إن الشهداء والصدّيقين هم المؤمنون وأنه متصل؛ وروى معناه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يوقف على هذا على قوله : « الصِّدِّيقُونَ » وهذا قول آبن مسعود فى تأويل الآية . قال القشيرى قال الله تعالى : « فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ »(١) فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين، والصالحون يتـلون الشهداء، فيجوز أن تكون هذه الآية فى جمـلة من صدّق بالرسل؛ أعنى «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ» . ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية، فيكون صدّيق فوق صدّيق فى الدرجات؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذى فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما(٢) " وروى عن آبن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصدّيقين . فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قـوله : « الصِّدِّيقُونَ » حسن . والمعـنى « وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » أى لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم . وفيهم قولان أحدهما ــ أنهم الرسـل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب؛ قاله الكلبى؛ ودليله قوله تعـالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »(١) . الثانى ــ أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة، وفيما يشهدون به قولان : أحدهـا ــ أنهـم يشهدون على أنفسهم بمـا عملوا من طاعة ومعصية . وهذا معنى قول مجاهد . الثانى ــ يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم؛ قاله الكلبى . وقال مقاتل قولا ثالثا : إنهم القتلى فى سبيل الله تعالى . ونحوه عن آبن عباس أيضـا قال : أراد شهداء المؤمنـين . والواو واو الآبتـداء . والصدّيقون على هـذا القول مقطوع من الشهداء .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ ، وص ١٩٧ .

(٢) " أنعما " أى زادا وفضلا . وقيل معناه : صارا إلى النعيم ودخلا فيه .

وقد آختلف فى تعيينهم ؛ فقال الضحاك : هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعلىّ وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة . وتابعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ؛ ألحقه الله بهم لما صدق نبيّه صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل بن حيان : الصدّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين ، مثل مؤمن آل فرعون ، وصاحب آل ياسين ، وأبى بكر الصديق ، وأصحاب الأخدود .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالرسل والمعجزات ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فلا أجر لهم ولا نور .

قوله تعالى : ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وجه الآتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفا على نفسه من القتل، وخوفا من لزوم الموت ؛ فبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغى أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى . و « ما » صلة تقديره : آعلموا أن الحياة الدنيا لعب باطل ولهو فرح ثم ينقضى . وقال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب . وقيل : إنه على المعهود من آسمه؛ قال مجاهد : كل لعب لهو . وقد مضى هذا المعنى

فى « الأنعام »[1] وقيل : اللَّعب ما رَغَّب فى الدنيا، واللَّهو ما ألهى عن الآخرة؛ أى شَغل عنها . وقيل : اللعب الاقتناء، واللهو النساء . ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ الزينة ما يتزين به ؛ فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة، وكذلك من تزين فى غير طاعة الله . ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أى يفخر بعضكم على بعض بها . وقيل : بالخلقة والقوة . وقيل : بالأنساب على عادة العرب فى المفاخرة بالآباء . وفى صحيح مسلم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد" وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : "أربع فى أمتى من أمر الجاهلية الفخر فى الأحساب" الحديث . وقد تقدم جميع هذا . ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة . قال بعض المتأخرين : « لَعِبٌ » كلعب الصبيان « وَلَهْوٌ » كلهو الفتيان « وَزِينَةٌ » كزينة النسوان « وَتَفَاخُرٌ » كتفاخر الأقران « وَتَكَاثُرٌ » كتكاثر الدِّهقان[2] . وقيل : المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء فى الزوال والفناء . وعن علىّ رضى الله عنه قال لعمّار : لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء : مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح ؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة ، وأكثر شرابها الماء ويستوى فيه جميع الحيوان ، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة ، وأفضل المشموم المسك وهو دم فأرة ، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال ، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال فى مبال ؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها . ثم ضرب الله تعالى لها مثلا بالزرع فى غيث فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أى مطر ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الكفّار هنا : الزرّاع لأنهم يغطّون البذر[3] . والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشيما كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن . وقد مضى معنى هذا المثل فى « يونس »[4] و « الكهف »[5] . وقيل :

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ (٢) الدهقان — بكسر الدال وضمها — : التاجر ؛ فارسى معرب .
(٣) مأخوذ من الكفر — بفتح الكاف — وهو التغطية . (٤) راجع جـ ٨ ص ٣٢٧
(٥) راجع جـ ١٠ ص ٤١٢

الكفّار هنا الكافرون بالله عز وجل ؛ لأنهم أشد إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين . وهذا قول حسن ؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم ، ومنهم يظهر ذلك ، وهو التعظيم للدنيا وما فيها . وفي الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم ، وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة . وموضع الكاف رفع على الصفة . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي يجفّ بعد خضرته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي متغيرًا عما كان عليه من النضرة . ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أي فُتاتًا وتِبْنًا فيذهب بعد حسنه ، كذلك دنيا الكافر . ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي للكافرين . والوقف عليه حسن ، ويبتدئ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أي للؤمنين . وقال الفراء : « وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ » تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على « شَدِيدٌ » . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ هذا تأكيد ما سبق ؛ أي تغر الكفار ، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة . وقيل : العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيدا في العمل للدنيا ، وترغيبا في العمل للآخرة .

قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم . وقيل : سارعوا بالتوبة ؛ لأنها تؤدي إلى المغفرة ؛ قاله الكلبي . وقيل التكبيرة الأولى مع الإمام ؛ قاله مكحول . وقيل : الصف الأول . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لو وصل بعضها ببعض . قال الحسن : يعني جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها . وقيل : يريد لرجل واحد أي لكل واحد جنة بهذه السعة . وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنّات . والعرض أقل من الطول ؛ ومن عادة العرب أنها تعبِّر عن سَعة الشيء بعرضه دون طوله . قال :

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ * على الخَائِفِ المطْلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كله في « آل عمران »(1) . وقال طارق بن شهاب : قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضي الله عنه : أرأيت قول الله عز وجل : « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٠٤

فأين النار ؟ فقال لهم عمر : أرأيتم الليل إذا ولّى وجاء النهار أين يكون الليل ؟ فقالوا : لقد نزعت بما فى التوراة مثله . ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ شرط الإيمان لا غير ، وفيه تقوية الرجاء . وقد قيل : شرط الإيمان هنا وزاد عليه فى « آل عمران »[1] فقال : « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » . ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى إن الجنة لا تُنال ولا تُدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله . وقد مضى هذا فى « الأعراف »[2] وغيرها . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار . وقيل : الجوائح فى الزرع . ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ بالأوصاب والأسقام؛ قاله قتادة . وقيل : إقامة الحدود؛ قاله ابن حيان . وقيل : ضيق المعاش؛ وهذا معنى رواه ابن جريج . ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ الضمير فى « نبرأها » عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع . وقال ابن عباس : من قبل أن يخلق المصيبة . وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى خَلْق ذلك وحفظ جميعه « عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » هيّن . قال الربيع بن صالح : لما أخذ سعيد ابن جبير رضى الله عنه بكَيت؛ فقال : ما يبكيك؟ قلت : أبكى لما أرى بك ولما تذهب

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٠٦ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩

إليه . قال : فلا تبك فإنه كان فى علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى : «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية . وقال ٱبن عباس : لما خلق الله القلم قال له ٱكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواء فى أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكلًا عليه، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة ، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا» . وقد قيل : إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هوّن عليهم ما يصيبهم فى الجهاد من قتلٍ وجرح ، وبيّن أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدّر لا مدفع له ، وإنما على المرء ٱمتثال الأمر، ثم أدبهم فقال هذا : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أى حتى لا تحزنوا على مافاتكم من الرزق ؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فُرِغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه . وعن ٱبن مسعود أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه " ثم قرأ « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى كى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى من الدنيا؛ قاله ٱبن عباس . وقال سعيد بن جبير : من العافية والخصب . وروى عكرمة عن ٱبن عباس : ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، وغنيمته شكراً . والحزن والفرح المنهيّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ (1) فَخُورٍ ﴾ أى متكبر بما أوتى من الدنيا ، فخور به على الناس . وقراءة العامة «آتَاكُمْ» بمد الألف أى أعطاكم من الدنيا . وٱختاره أبو حاتم . وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو « أَتَاكُمْ » بقصر الألف وٱختاره أبو عبيد . أى جاءكم ، وهو معادل لـ « فَاتَكُمْ » ولهذا لم يقل أفاتكم . قال جعفر بن محمد الصادق : يابن آدم ما لك تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفوت ، أو تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت . وقيل لبرزجمهر : أيها الحكيم ! ما لك لا تحزن على ما فات،

(1) راجع جـ ١٤ ص ٦٩ .

ولا تفرح بما هو آت ؟ قال : لأن الفائت لا يتلافى بالعَبْرة ، والآتى لا يستدام بالحَبْرة . وقال الفضيل بن عياض فى هذا المعنى : الدنيا مُبِيد ومُفِيد، فما أباد فلا رجعة له ، وما أفاد آذن بالرحيل . وقيل : المختال الذى ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذى ينظر إلى الناس بعين الاحتقار ، وكلاهما شرك خفى . والفخور بمنزلة المُصَرَّاة تُشَدّ أخلافها ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم المشترى أن ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذى يرى من نفسه حالًا وزينةً وهو مع ذلك مدّع فهو الفخور .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أى لا يحب المختالين «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ» فـ« ـالَّذِينَ » فى موضع خفض نعتا للختال . وقيل : رفع بابتداء أى الذين يبخلون فالله غنىٌّ عنهم . قيل : أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى فى كتبهم ؛ لئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم[(١)]؛ قاله السدى والكلبى . وقال سعيد بن جبير : « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » يعنى بالعلم ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أى بألّا يعلّموا الناس شيئا . زيد بن أسلم : إنه البخل بأداء حقّ الله عز وجل . وقيل : إنه البخل بالصدقة والحقوق ؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعرى . وقال طاوس : إنه البخل بما فى يديه . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وفرّق أصحاب الخواطر بين البخل والسخاء بفرقين : أحدهما أن البخيل الذى يلتذ بالإمساك . والسخىّ الذى يلتذ بالإعطاء . الثانى — أن البخيل الذى يعطى عند السؤال، والسخىّ الذى يعطى بغير سؤال . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ غنىّ عنه . ويجوز أن يكون لما حثّ على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنىّ عنهم . وقراءة العامة « بِالْبُخْلِ » بضم الباء وسكون الخاء . وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى ابن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائى «بِالْبَخَلِ» بفتحتين وهى لغة الأنصار . وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْقع « بِالْبَخْل » بفتح الباء وإسكان الخاء . وعن نصر بن عاصم « الْبُخُلِ» بضمتين وكلها لغات مشهورة . وقد تقدّم الفرق بين البخل والشحّ فى آخر «آل عمران»[(٢)] .

(١) يريد ما يأكلونه من الناس باسم الدين من الأموال .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٣

وقرأ نافع وآبن عامر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ بغير « هُوَ » . والباقون « هُوَ الْغَنِيُّ » على أن يكون فصلا . ويجوز أن يكون مبتدأ و «الْغَنِيُّ» خبره والجملة خبر إن . ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلا ، لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ .

قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالمعجزات البيّنة والشرائع الظاهرة . وقيل : الإخلاص لله تعالى فى العبادة ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ بذلك دعت الرسل : نوح فمن دونه إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أى الكتب ؛ أى أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ قال آبن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالعدل فى معاملاتهم . وقوله : «بِالْقِسْطِ» يدل على أنه أراد الميزان المعروف . وقال قوم : أراد به العدل . قال القشيرى : وإذا حملناه على الميزان المعروف ، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب :

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وماءً بارداً *

ويدل على هذا قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » ثم قال : «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» وقد مضى القول فيه[(١)] . ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ روى عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : الحديد

---

(١) راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء .

والنار والماء والملح ". وروى عكرمة عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام: الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج، وعصا موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء : السندان والكَلْبتان والمِيقعة وهي المطرقة؛ ذكره الماوردي. وقال الثعلبي : قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين: السَّنْدان، والكَلْبتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيري قال : والمِيقَعة ما يحدّد به؛ يقال وَقَعْتُ الحديدَة أقعها أي حددتها. وفي الصحاح : والمِيقَعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه، وخشبة القصّار التي يدق عليها، والمِطْرقة والمِسنّ الطويل. وروى أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» أي لإهراق الدماء. ولذلك نهى عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنه يوم جرى فيه الدم. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "في يوم الثلاثاء ساعةً لا يرقأ فيها الدم". وقيل : «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي أنشأناه وخلقناه؛ كقوله تعالى : «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ»(1) وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء. وقال أهل المعاني : أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعني السلاح والكُرَاع والجُنّة. وقيل : أي فيه من خشية القتل خوف شديد. ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ قال مجاهد : يعني جُنّة. وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه. ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره. وقيل : هو عطف على قوله تعالى : «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحق، «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» وليرى الله من ينصر دينه ﴿ وَ ﴾ ينصر ﴿ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال ابن عباس : ينصرونهم لا يكذبونهم، ويؤمنون بهم «بِالْغَيْبِ» أي وهم لا يرونهم. ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ «قَوِيٌّ» في أخذه «عَزِيزٌ» أي منيع غالب. وقد تقدّم. وقيل : «بِالْغَيْبِ» بالإخلاص.

(1) راجع جـ ١٥ ص ٢٣٥

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ فصّل ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب ، وأخبر أنه أرسل نوحًا وإبراهيم وجعل النبوّة فى نسلهما ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ أى جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء ، وبعضهم أممًا يتلون الكتب المنزلة من السماء : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أى من ذريتهما مهتدون . ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أى أتبعنا ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴾ أى على آثار الذرية . وقيل : على آثار نوح وإبراهيم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه . وتقدّم اشتقاقه فى أوّل سورة « آل عمران »(١) .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ على دينه يعنى الحوار يين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى مودّة فكان يواد بعضهم بعضًا . وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا فى الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك ، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرّفوا الكلم عن مواضعه . والرأفة اللين ، والرحمة الشفقة . وقيل : الرأفة تخفيف الكَلّ ، والرحمة تحمّل الثقل . وقيل : الرأفة أشد الرحمة . وتم الكلام . ثم قال :

(١) راجع جـ ٤ ص ٥

﴿ وَرَهْبَانِيَّـةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أى من قِبـل أنفسهم . والأحسن أن تكون الرهبانيـة منصوبة بإضمار فعـل ؛ قال أبو على : وآبتدعوها رهبانية آبتدعوها . وقال الزجاج : أى آبتدعوها رهبانية ؛ كما تقول رأيت زيدًا وعمرًا كلّمت . وقيـل : إنه معطوف على الرأفة والرحمـة ؛ والمعنى على هـذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيّروا وآبتدعوا فيها . قال المـاوردى : وفيهـا قراءتان ؛ إحداهما بفتح الراء وهى الخوف من الرَّهب . الثانيـة بضم الراء وهى منسوبة إلى الرُّهبان كالرُّضْوانية من الرُّضْوان ؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات فى الآمتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ؛ وذلك أن ملوكهم غيّروا و بدّلوا و بقى نفر قليل فترهّبوا وتبتّلوا . قال الضحاك : إن ملوكًا بعد عيسى عليه السلام آرتكبوا المحارم ثلثمائة سـنة ، فأنكرها عليهم من كان بقى على منهاج عيسى فقتلوهم ، فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقـام بينهم ، فآعتزلوا الناس وآتخـذوا الصوامع . وقال قتادة : الرهبانية التى آبتدعوها رفض النساء وآتخاذ الصوامع . وفى خبر مرفوع : " هى لحوقهم بالبرارى والجبال " . ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها ؛ قاله آبن زيد . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ ﴾ أى ما أمرناهم إلا بما يرضى الله ؛ قاله آبن مسلم . وقال الزجاج : « مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » معنـاه لم نكتب عليهم شـيئًا البتّة . ويكون «ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ» بدلًا من الهاء والألف فى « كَتَبْنَاهَا» والمعنى: ما كتبناها عليهم إلا آبتغاء رضوان الله . وقيل: « إِلَّا ٱبْتِغَاءَ » الآستثناء منقطع ، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن آبتدعوها آبتغاء رضوان الله . ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى فما قاموا بها حق القيام . وهذا خصوص؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم ، و إنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم ، كما قال تعالى : « يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِـلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ »(١) وهذا فى قوم أداهم الترهب إلى طلب الرياسـه فى آخر الأمر . وروى سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن آبن عباس فى قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا » قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل،

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٢

وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل و يدعون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلت هـذه الطائفة . فقال المؤمنون : نحن نكفيكم أنفسنا . فطائفة قالت : ٱبنوا لنـا أسطوانة ٱرفعونا فيها ، وأعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نهيم فى الأرض ونسيح ، ونشرب كما تشرب الوحوش فى البرية ، فإذا قدرتم علينا فٱقتلونا . وطائفة قالت : ٱبنوا لنا دُوراً فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا ترونا . وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا ، فمضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم ممن قـد غيّر الكتاب فقالوا : نسـيح ونتعبّد كما تعبـد أولئك ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان مَن تقدّم من الذين ٱقتدوا بهم ؛ فذلك قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِـمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ » الآية . يقول : ٱبتـدعها هؤلاء الصالحون « فَمَا رَعَوْهَا » المتأخرون « حَقَّ رِعَايَتِهَا » ﴿ فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعنى الذين ٱبتدعوها أوّلاً ورعوها ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعنى المتأخرين ، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا قليل ، جاءوا من الكهوف والصّوامع والغيران فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الثالثـــة — وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة ، فينبغى لمن ٱبتدع خيراً أن يدوم عليه ، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل فى الآية . وعن أبى أمامة الباهلى — وٱسمه صُدَىّ بن عجلان — قال : أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم ، إنمـا كتب عليكم الصيام ، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه ، فإن ناسا من بنى إسرائيل ٱبتدعوا بدعاً لم يكتبها الله عليهم ٱبتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حق رعايتها ، فعابهم الله بتركها فقال : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَـا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » .

الرابعـــة — وفى الآية دليل على العزلة عن الناس فى الصوامع والبيوت ، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيّر الأصدقاء والإخوان . وقد مضى بيان هذا فى سورة « الكهف »[1] مستوفًى والحمد لله . وفى مسند أحمد بن حنبل من حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال:

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٠

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيّة من سراياه فقال : مرّ رجلٌ بغار فيه شىء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء و يصيب ما حوله من البقل ويتخلىّ عن الدنيا . قال : لو أنى أتيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لى فعلت و إلا لم أفعل ، فأتاه فقال : يانبىّ الله ! إنى مررت بغار فيـه ما يقوتنى من المـاء والبقل ، فحدثتنى نفسى بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا . قال : فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة والذى نفس محمد بيده لَغَدْوة أو رَوْحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم فى الصف الأوّل خير من صلاته ستين سنة ". وروى الكوفيون عن آبن مسعود، قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرى أىّ النـاس أعلم " قال قلت : الله و رسوله أعلم . قال : " أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا آختلف الناس فيه و إن كان مقصراً فى العمل و إن كان يزحف على آسته هل تدرى من أين آتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله فغضب أهل الإيمـان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمـان ثلاث مرات فلم يبق منهـم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبـق للدين أحد يدعون إليه فتعالوا نفترق فى الأرض إلى أن يبعث الله النبىّ الأمىّ الذى وعدنا عيسى — يعنون محمدًا صـلى الله عليه وسـلم — فتفرقوا فى غِيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر — وتلا «وَرَهْبَانِيَّةً» الآية — أتدرى ما رهبانيـة أمتى الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يابن مسعود آختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها وآختلف مَن كان من قبلكم من النصارى على آثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى — عليـه السلام — حتى قتـلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانى قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى آبن مريم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهى التى قال الله تعالى فيهم : «وَرَهْبَانِيَّةً آبْتَدَعُوهَا» — الآية — فمن

آمن بى وآتبعنى وصدّقنى فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسـقون" يعنى الذى تهوّدوا وتنصروا . وقيل: هؤلاء الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون . وفى الآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى إن الأولين أصروا على الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى آمنوا بموسى وعيسى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وهذا مثل قوله تعالى: «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» وقـد تقدم القول(١) فيـه . والكِفل الحظ والنصيب وقد مضى فى « النساء(٢) » وهو فى الأصل كِساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السـقوط؛ قاله ابن جريج . ونحوه قال الأزهرى ، قال: اشتقاقه من الكِساء الذى يحويه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه لئلا يسقط؛ فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلـكة المعـاصى كما يحفظ الكِفل الراكب . وقال أبو موسى الأشعرى : « كِفْلَيْنِ » ضعفين بلسان الحبشة . وعن ابن زيد : « كِفْلَيْنِ » أجر الدنيـا والآخرة . وقيل : لمـا نزلت « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » افتخر مؤمنو أهل

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٧ (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٥

الكتاب على أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هــذه الآية . وقد آستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحسـنة إنما لها من الأجر مِثْل واحد ؛ فقال : الحسـنة آسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان ، وينطلق على عمومه ، فإذا آنطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليهـا من الثواب إلا مِثْـل واحد . وإن آنطلقت على حسـنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مثلين ؛ بدليل هــذه الآية فإنه قال : « كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » والكفل النصيب كالمثـل ، فجعـل لمن آتقى الله وآمن برسـوله نصيبين ؛ نصيباً لتقوى الله ونصيباً لإيمـانه برسوله . فدل على أن الحسنة التى جعل لها عشر هى التى جمعت عشرة أنواع من الحسنات ، وهو الإيمان الذى جمع الله تعالى فى صـفته عشرة أنواع ، لقوله تعـالى : « إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْلِمَـاتِ » الآية بكمالها . فكانت هذه الأنواع العشرة التى هى ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مِثْل . وهذا تأويل فاسـد ، لخروجه عن عموم الظاهر ، فى قوله تعالى : «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» بمـا لا يحتمله تخصيص العموم ، لأن ما جمـع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كل حسنة إلا بمثلها . وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالهـا والأخبار دالة عليه . وقد تقدم ذكرها(٢). ولو كان كما ذكر لمـا كان بين الحسنة والسيئة فرق . ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا ﴾ أى بيانًا وهـدًى ، عن مجاهـد . وقال آبن عباس : هو القـرآن . وقيل : ضيـاء ﴿ تَمْشُونَ بِهِ ﴾ فى الآخرة على الصراط ، وفى القيامة إلى الجنة . وقيل تمشون به فى الناس تدعونهم إلى الإسـلام فتكونون رؤساء فى دين الإسلام لا تزول عنكم رياسـة كنتم فيها . وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه السـلام . وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله ، لا الرياسة الحقيقية فى الدين . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أى ليعلم ، و « أن لا » صـلة زائدة مؤكدة ؛ قاله الأخفش . وقال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صـلة زائدة فى كل كلام دخل عليه

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٨٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ وجـ ١٣ ص ٢٤٤

تجحد. قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت : «لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» أى لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدى والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا فنزلت : «لِئَلَّا يَعْلَمَ» أى ليعلم أهل الكتاب «أَنْ لَا يَقْدِرُونَ» أى أنهم لا يقدرون؛ كقوله تعالى : «أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا»(١) . وعن الحسن : «لَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» وروى ذلك عن ابن مجاهد . وروى قطرب(٢) بكسر اللام و إسكان الياء . وفتح لام الجر لغة معروفة. ووجه إسكان اليـاء أن همـزة « أَنْ » حذفت فصـارت « لَنْ » فأدغمت النون فى اللام فصار «لِلَّا» فلما اجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء؛ كما قالوا فى أَمَّا : أَيْمَا . وكذلك القول فى قـراءة من قرأ « لِيْلَا » بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغـة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة . وعن ابن مسعود «لِكَيْلَا يَعْلَمَ» وعن حطّان بن عبد الله «لأَنْ يَعْلَمَ» . وعن عكرمة « لِيَعْلَمَ » وهو خلاف المرسوم . « مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » قيل : الإسلام . وقيل : الثواب . وقال الكلبي : من رزق الله . وقيل : نعـم الله التى لا تحصى . « وَأَنَّ الْفَضْـلَ بِيَدِ اللَّهِ » ليس بأيديهم فيصرفون النبوّة عن محمد صلى الله عليه وسلم إلى من يحبون . وقيل : «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» أى هو له ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ . وفى البخارى : حدثنا الحكم بن نافع، قال حدثنا شعيب عن الزهرى، قال أخبرنى سالم بن عبـد الله ، أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : "إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صـلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بهـا حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صـلاة العصر ثم عجـزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاءِ أقل عمـلاً وأكثر أجراً قال هـل

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ .

(٢) روى قطرب عن الحسن أيضا كما فى السـمين وغيره ، فتكون للحسن قراءتان فتح اللام وكسرها مع إسـكان الياء فيهما .

ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء" في رواية : "فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا" الحديث ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . [تم تفسير سورة «الحديد» والحمد لله] (١) .

تفسير سورة المجادلة

وهي آثنتان وعشرون آية

مدنية في قول الجميع . إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدني و باقيها مكي ، وقال الكلبي : نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » نزلت بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ التي آشتكت إلى الله هي خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل بنت حكيم . وقيل آسمها جميلة . وخَوْلة أصح ؛ وزوجها أَوْس بن الصَّامت أخو عُبَادة بن الصامت ، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فآستوقفته طويلاً ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عُمَيراً ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ؛ فآتق الله يا عمر ؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ؛ وهو واقف يسمع كلامها ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خَوْلة

(١) ما بين المربعين ساقط من ح ، س ، ط ، ه .

بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟ وقالت عائشة رضى الله عنها : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء، إنى لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهى تقول : يا رسول الله ! أكل شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وآنقطع ولدى ظاهر منى؛ اللهم إنى أشكو إليك ! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ » خرجه آبن ماجه فى السنن . والذى فى البخارى من هذا عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا » . وقال الماوردى : هى خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل : بنت خويلد . وليس هذا بمختلف؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدّها فنسبت إلى كل واحد منهما . وزوجها أَوْس بن الصَّامت أخو عُبَادة بن الصَّامت . وقال الثعلبى قال آبن عباس : هى خَوْلة بنت خويلد الخزرجية ، كانت تحت أوس بن الصَّامت أخو عُبَادة بن الصامت ، وكانت حسنة الجسم ؛ فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها ، فلما آنصرفت أرادها فأبت فغضب عليها — قال عُرْوة[(1)] : وكان آمرأً به لَمَم[(2)] فأصابه بعض لَمَمه فقال لها : أنت علىّ كظهر أمى . وكان الإيلاء والظهار من الطلاق فى الجاهلية، فسألت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال لها : ” حرمتِ عليه “ فقالت : والله ما ذكر طلاقا ؛ ثم قالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وآبن عمى وقد نفضت له بطنى ؛ فقال : ” حرمتِ عليه “ فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية . وروى الحسن : أنها قالت : يا رسول الله ! قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجى ظاهر منى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما أوحى إلىّ فى هذا شىء“ فقالت : يا رسول الله، أوحى إليك فى كل شىء وطُوِى عنك هذا؟! فقال : ” هو ما قلت لك “ فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله .

---

(١) عروة هو راوى حديث عائشة المتقدم . (٢) اللمم : طرف من الجنون يلم بالإنسان أى يعتريه .

فأنزل الله : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ » الآية . وروى الدّارقطنيّ من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدّثه قال : إن أَوْس بن الصّامت ظاهر من آمرأته خُوَيْلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ظاهر حين كبِرت سنّي ورقّ عظمي . فأنزل الله تعالى آية الظهار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأوس : "آعتق رقبة" قال : مالى بذلك يدان . قال : "فصم شهرين متتابعين" قال : أما إنى إذا أخطأنى أن آكل فى يوم ثلاث مرات يكلّ بصرى . قال : "فأطعم ستين مسكينا" قال : ما أجد إلا أن تعيننى منك بعون وصلة . قال : فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا حتى جمع الله له [والله غفور رحيم](١). ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ قال : فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكينا ، وفى الترمذىّ وسنن آبن ماجه : أن سلمة آبن صخر البياضىّ ظاهر من آمرأته ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له : "آعتق رقبة" قال : فضربت صفحة عنقى بيدى . فقلت : لا والذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : "فصم شهرين" فقلت : يا رسول الله ! وهل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام . قال : "فأطعم ستين مسكينا" الحديث . وذكر آبن العربى فى أحكامه : روى أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها ، فأتت النبىّ صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "قد حرمت عليه" فقالت : أشكو إلى الله حاجتى . [ثم عادت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حرمت عليه" فقالت : إلى الله أشكو حاجتى إليه](٢) وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن ، ثم تحوّلت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحى ، فذهبت أن تعيد ، فقالت عائشة : آسكتى فإنه قد نزل الوحى . فلما نزل القرآن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها : "آعتق رقبة" قال : لا أجد . قال : "صم شهرين متتابعين" قال : إن لم آكل فى اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصرى . قال : "فأطعم ستين مسكينا". قال : فأعنى . فأعانه بشىء . قال أبو جعفر النحاس : أهل التفسير على أنها خولة

---

(١) الزيادة من ح ، ز ، ل ، هـ .　　(٢) الزيادة من الأحكام لابن العربى .

وزوجها أوس بن الصامت، واختلفوا في نسبها ، قال بعضهم : هي أنصارية وهي بنت ثعلبة، وقال بعضهم : هي بنت دليج ، وقيل : هي بنت خويلد ، وقال بعضهم : هي بنت الصامت، وقال بعضهم: هي أمة كانت لعبد الله بن أبيّ، وهي التي أنزل الله فيها « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » لأنه كان يكرهها على الزنى . وقيل : هي بنت حكيم . قال النحاس : وهذا ليس بمتناقض، يجوز أن تنسب مرةً إلى أبيها، ومرةً إلى أمها، ومرةً إلى جدها ، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبيّ فقيل لها أنصارية بالولاء ؛ لأنه كان في عداد الأنصار وإن كان من المنافقين .

الثانيـة — قرئ « قَد سَّمِعَ اللَّهُ » بالإدغام و « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ » بالإظهار . والأصل في السماع إدراك المسموعات، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن . وقال ابن فورك : الصحيح أنه إدراك المسموع . وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع : إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أذن ، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه ؛ وإن كان غير موصوف بالحس المركب في الأذن ؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت . والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بهما . وشكى واشتكى بمعنى واحد . وقرئ « تُحَاوِرُكَ » أي تراجعك الكلام و « تُجَادِلُكَ » أي تسائلك .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ[1] ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف « يَظَّاهَرُونَ » بفتح الياء وتشديد الظاء وألف . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب « يَظَّهَّرُونَ » بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء . وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرّ ابن حُبَيش « يُظَاهِرُونَ » بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء . وقد تقدّم هذا في « الأحزاب[2] » . وفي قراءة أُبَيّ « يَتَظَاهَرُونَ » وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة . وذِكر الظهر كناية عن معنى الركوب ، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كنّى عنه بالظهر ؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره ، فكنّى بالظهر عن الركوب . ويقال : نزل عن امرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب . ومعنى أنت عليّ كظهر أمّي : أي أنت عليّ محرّمة لا يحلّ لي ركوبك .

الثانية — حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلل بظهرٍ محرّم ؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي أنه مظاهر . وأكثرهم على أنه إن قال لها : أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر . وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما . واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه ؛ فروى عنه نحو قول مالك ؛ لأنه شبّه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبّد كالأم . وروى عنه أبو ثور : أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها . وهو مذهب قتادة والشعبي . والأوّل قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري .

الثالثة — أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي . وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً . فإن قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر ، أو قال : أنت عليّ مثل أمي ؛ فإن أراد الظهار فله نيته ، وإن أراد الطلاق كان مطلقا البتّة عند مالك ،

---

(١) نسخ الأصل على « يظهرون » وهي قراءة نافع التي يقرأ بها المؤلف فيما يأتي .

(٢) راجع جـ ١٤ ص ١١٨ ولم يذكر هناك شيئا بل أحال الكلام على هذه السورة .

و إن لم تكن له نيــة فى طلاق ولا ظهار كان مظاهرا . ولاينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق ؛ كما لاينصرف صريح الطلاق و كنايته المعروفة له إلى الظهار، و كناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق البتّ .

الرابعــة — ألفاظ الظهار ضربان : صريح وكناية ؛ فالصريح أنت علىّ كظهر أمى ، وأنت عنــدى وأنتِ منى وأنتِ معى كظهر أمى . وكذلك أنت علىّ كبطن أمى أو كرأسها أو فرجها أو نحــوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك علىّ كظهر أمى فهو مظاهر ؛ مثل قــوله : يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليــه . وقال الشافعى فى أحد قوليه : لايكون ظهارا . وهذا ضعيف منه ؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصــة حقيقة خلافا لأبى حنيفة فصح إضافة الظهار إليه . ومتى شبهها بأمــه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف . و إن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التى لاتحل له بحال كالبنت والأخت والعمة والخالة كان مظاهرا عند أكثر الفقهاء ، وعنــد الإمام الشافعى رضى الله عنه على الصحيح من المذهب على ماذكرنا . والكناية أن يقول : أنت علىّ كأمى أو مثل أمى فإنه يعتــبر فيه النية . فإن أراد الظهار كان ظهارا ، و إن لم يرد الظهار لم يكن مظاهراً عند الشافعى وأبى حنيفة . وقد تقــدّم مذهب مالك رضى الله عنه فى ذلك ؛ والدليــل عليه أنه أطلق تشبيه آمرأته بأمّــه فكان ظهارا . أصله إذا ذكر الظهر وهــذا قوى فإن معنى اللفظ فيه موجود — واللفظ بمعناه — ولم يلزم حكم الظهر للفظه و إنما ألزمَه بمعناه وهو التحريم ؛ قاله آبن العربى .

الخــامســـة — إذا شبه جمــلة أهله بعضو من أعضاء أمّــه كان مظاهرا ؛ خلافا لأبى حنيفة فى قوله : إنه إن شبهها بعضو يحلّ له النظر إليه لم يكن مظاهرا. وهذا لايصح؛ لان النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحــل له ، وفيه وقع التشبيه و إياه قصد المظاهر ؛ وقــد قال الإمام الشافعى فى قول : إنه لايكون ظهارا إلا فى الظهر وحده . وهذا فاسد ؛ لأن كل عضو منها محــرّم ، فكان التشــبيه به ظهارا كالظهر ؛ ولان المظاهر إنمـا يقصد تشبيه المحلل بالمحرم فلزم على المعنى .

السادسة — إن شبه امرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهارا حملاً على الأول، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا؛ فمنهم من قال: يكون ظهاراً. ومنهم من قال: يكون طلاقا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يكون شيئًا. قال ابن العربي: وهذا فاسد؛ لأنه شبه محللا من المرأة بمحرم فكان مقيّدًا بحكمه كالظهر، والأسماء بمعانيها عندنا، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم.

قلت: الخلاف في الظهار بالأجنبية قوى عند مالك. وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن. ومنهم من لا يجعله شيئاً. ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقًا. وهو عند مالك إذا قال: كظهر ابني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه. وقد روى عنه أيضا: أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء؛ كما قال الكوفي والشافعي. وقال الأوزاعي: لو قال لها أنت عليّ كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها. والله أعلم.

السابعة — إذا قال: أنت عليّ حرام كظهر أمي كان ظهارا ولم يكن طلاقا؛ لأن قوله: أنت حرام عليّ يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة، ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيرا لأحد الاحتمالين يقضى به فيه.

الثامنة — الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه. وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يلزم. قال القاضي أبو بكر ابن العربي: وهي مسألة عسيرة جدًّا علينا؛ لأن مالكاً يقول: إذا قال لأمته أنت عليّ حرام لا يلزم. فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته. ولكن تدخل الأمَة في عموم قوله: « مِنْ نِسَائِهِمْ » لأنه أراد من محللاتهم. والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبُضع دون رفع العقد فصح في الأمة؛ أصله الحلف بالله تعالى.

التاسعــة — و يلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك . ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ نِسَائِهِمْ » وهـذه ليست من نسائه . وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة « براءة » عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ »(١) الآية .

العـاشرة — الذمي لايلزم ظهاره . وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : يصح ظهار الذمي ؛ ودليلنا قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يعني من المسلمين . وهـذا يقتضي خروج الذمي من الخطاب . فإن قيل : هـذا آستدلال بدليـل الخطاب . قلنا : هو آسـتدلال بالآشتقاق والمعنى ، فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ فلا يتعلق بها حكم طلاقٍ ولا ظِهار ؛ وذلك كقوله تعالى : « وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ »(٢) و إذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة ، ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال .

الحـادية عشرة — قوله تعـالى : « مِنْكُمْ » يقتضي صحة ظهار العبد خلافاً لمن منعه . وحكاه الثعلبي عن مالك ، لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة و إن تعـذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام .

الثـانية عشرة — وقال مالك رضي الله عنه : ليس على النساء تظاهر ، و إنمـا قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ » ولم يقل اللائي يظهرن منكن من أزواجهن ، إنما الظهار على الرجال . قال آبن العـربي : هكذا روى عن آبن القاسم وسالم ويحيى بن سـعيد وربيعة وأبي الزناد . وهو صحيح معنًى ؛ لأن الحل والعقد [والتحليل والتحريم](٣) في النكاح بيد الرجال ليس بيـد المرأة منه شيء وهـذا إجماع . قال أبو عمر : ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلمـاء . وقال الحسن بن زياد : هي مظاهرة . وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمـد : ليس ظهار المرأة من الرجـل بشيء قبل النكاح كان أو بعـده . وقال الشافعي : لاظهار للمرأة من الرجل . وقال الأوزاعي : إذا قالت المرأة لزوجها : أنت عليّ كظهر أمي(٤)

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ .

(٣) الزيادة من آبن العربي . (٤) لفظ « أمي » ساقط من ح ، ز ، س ، هـ .

فـلانة فهى يمين تكفِّرُهَا . وكذلك قال إسحق ؛ قال : لا تكون آمرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها . وقال الزهرى : أرى أن تكفر كفارة الظهار، ولا يحول قولها هذا بينها و بين زوجها أن يصيبها ؛ رواه عنه معمر . وابن جريج عن عطاء قال : حرمت ما أحل الله ، عليها كفارة يمين . وهو قول أبى يوسف . وقال محمــد بن الحسن : لا شىء عليها .

الثـالثة عشرة — مـن به لَمَـمٌ وآنتظمت له فى بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره ؛ لمـا روى فى الحديث : أن خَوْلة بنت ثعلبة وكان زوجها أَوْس بن الصّامت وكان به لَمَم فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من آمرأته .

الرابعــة عشرة — من غضب وظاهر من امرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه . وفى بعض طرق هــذا الحديث ، قال يوسف بن عبد الله بن سلام : حدّثتنى خَوْلة آمرأة أَوْس بن الصّامت، قالت : كان بينى و بينه شىء، فقال : أنت علىّ كظهر أمى ثم خرج إلى نادى قومه . فقولها : كان بينى و بينه شىء ؛ دليل على منازعة أحرجته[1] فظاهر منها . والغضب لغو لا يرفع حكمًا ولا يغيِّر شرعًا وكذلك السكران . وهى :

الخامسة عشرة — يلزمه حكم الظهار والطلاق فى حال سكره إذا عقَل قولَه ونظَم كلامَه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »[2] على ما تقدم فى « النساء » بيانه . والله أعلم .

السادســة عشرة — ولا يقرب المظاهر آمرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشىء حتى يكفّر، خلافًا للشافعى فى أحد قوليه ؛ لأن قوله : أنت علىّ كظهر أمى يقتضى تحــريم كل آستمتاع بلفظه ومعناه ، فإن وطئها قبل أن يكفّر ، وهى :

السابعة عشرة — آستغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفّر كفارة واحدة . وقال مجاهد وغيره : عليــه كفارتان . روى ســعيد عن قتادة ، ومطرّف عن رجاء بن حَيْوة عن قَبيصة آبن ذؤيب عن عمرو بن العاص فى المظاهر : إذا وطئ قبل أن يكفّر عليه كفارتان . ومعمر عن قتادة قال : قال قبيصة بن ذؤيب : عليه كفارتان . وروى جماعة من الأئمة منهم آبن ماجه

(١) فى ح ، ز ، س ، ل : « أحوجته » بالواو بدل الراء . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٠٣

والنسائى عن ٱبن عباس : أن رجلا ظاهر من ٱمرأته فغشيها قبل أن يكفّر فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : "ما حملك على ذلك" فقال : يارسول الله ! رأيت بياض خلخالها فى ضـوء القمر فلم أملك نفسى أن وقعت عليها . فضحك النبيّ صلى الله عليـه وسلم وأمره ألّا يقربها حتى يكفّر . وروى ٱبن ماجه والدَّارَ قُطْنى عن سـليمان بن يسار عن سلمة ٱبن صخر أنه ظاهر فى زمان النبيّ صلى الله عليـه وسلم، ثم وقع بٱمرأته قبل أن يكفّر، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأمره أن يكفّر تكفيرًا واحدًا .

الثامنة عشرة — إذا ظاهر من أربع نسوة فى كلمة واحدة؛ كقوله : أنتن علىّ كظهر أمىّ كان مظاهرا من كل واحدة منهن، ولم يجزله وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة . وقال الشافعى : تلزمه أربع كفارات . وليس فى الآية دليـل على شىء من ذلك ؛ لأن لفظ الجمع إنمـا وقع فى عامة المؤمنين والمعوّل على المعـنى . وقد روى الدَّارَ قُطْنىّ عن ٱبن عباس قال : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنـه يقول : إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة ، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه فى كل واحدة منهن كفارة . وهذا إجماع .

التاسعة عشرة — فإن قال لأربع نسوة : إن تزوجتكن فأنتن علىّ كظهر أمى فتزوّج إحداهن لم يقربها حتى يكفّر، ثم قد سقط عنه اليمين فى سائرهن . وقد قيـل : لا يطأ البواقى منهن حتى يكفر . والأوّل هو المذهب .

الموفيـة عشرين — وإن قال لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى وأنت طالق البَتّـة[(١)]؛ لزمه الطلاق والظهار معًا، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفّر، فإن قال لها : أنت طالق البتة وأنت علىّ كظهر أمى لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق .

(١) يريد بالبتـة هنا الطلاق الثلاث كما يفهم من العبارة بعد وكما فى ٱبن العربى حيث قال : إذا طلقها ثلاثا بعد الظهار ثم عادت إليه بنكاح جديد لم يطأ حتى يكفر .

الحادية والعشرون — قال بعض العلماء : لا يصح ظهار غير المدخول بها . وقال المزنى : لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية ، وهذا ليس بشيء ؛ لأن أحكام الزوجية فى الموضعين ثابتة ، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياسًا ونظرًا . والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أى ما نساؤهم بأمهاتهم . وقراءة العامة « أُمَّهَاتِهِمْ » بخفض التاء على لغة أهل الحجاز؛ كقوله تعالى : «مَا هَذَا بَشَرًا» . وقرأ أبو معمر والسلمى وغيرهما «أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع على لغــة تميم . قال الفراء : أهل نجد و بنو تميم يقولون « مَا هَــذَا بَشَرٌ » ، و « مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع . ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ ﴾ أى ما أمهاتهم إلا الوالدات . وفى المثل : ولدك مَنْ دَمَّى عَقِبَيْك . وقد تقدم القول فى اللائى فى « الأحزاب »(١) .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى فظيعا من القول لا يعرف فى الشرع . والزور الكذب ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلّصة لهم من هذا القول المنكر .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

(١) ليس فى الأحزاب كلام على اللائى و يبدو أن سقطا وقع فى نسخ الأصل التى بأيدينا .

فيه ٱثنتا عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ هذا ٱبتداء والخبر «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه؛ أى فعليهم تحرير رقبة. وقيل: أى فكفارتهم عتق رقبة. والمجمع عليه عند العلماء فى الظهار قول الرجل لامرأته: أنت علىّ كظهر أمى. وهو قول المنكر والزور الذى عنى الله بقوله: «وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا» فمن قال هذا القول حرم عليه وطء ٱمرأته. فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار؛ لقوله عز وجل: «وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العَوْد، وهذا حرف مشكل ٱختلف الناس فيه على أقوال سبعة: الأوّل — أنه العزم على الوطء، وهو مشهور قول العراقيين أبى حنيفة وأصحابه. وروى عن مالك: فإن عزم على وطئها كان عَوْدًا، وإن لم يعزم لم يكن عَوْدًا. الثانى — العزم على الإمساك بعد التظاهر منها؛ قاله مالك. الثالث — العزم عليهما. وهو قول مالك فى موطئه؛ قال مالك فى قول الله عز وجل: «وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من ٱمرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلّقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه. قال مالك: وإن تزوّجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفّر كفارة التظاهر. القول الرابع — أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عَوْدًا؛ قاله الحسن ومالك أيضا. الخامس — وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ٱبتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه. وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة. السادس — أن الظهار يوجب تحريمًا لا يرفعه إلا الكفارة. ومعنى العَود عند القائلين بهذا: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد. السابع — هو تكرير الظهار بلفظه. وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس، قالوا: إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العَوْد، وإن لم يكرر فليس بعَود. ويسند ذلك إلى بكير بن

الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضاً، وهو قول الفراء. وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له ؛ لأنه قال : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » أي إلى قول ما قالوا . وروى عليّ بن أبي طلحة عن ٱبن عبـاس في قوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » هو أن يقول لها أنت عليّ كظهر أمي . فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفّر كفارة الظهار . قال ٱبن العربي : فأما القول بأنه العَـوْد إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح عن بكير، و إنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه . وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لعَود القول منهم، وأيضاً فإن المعنى ينقضه؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليـك الكفارة، وهذا لا يعقل؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره .

قلت : قوله يشـبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حملٌ منه عليه ، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم ، وأما قول الشافعي : بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات : الأول ـــ أنه قال : « ثُمَّ » وهذا بظاهره يقتضي التراخي . الثاني ـــ أن قوله تعالى : « ثُمَّ يَعُودُونَ » يقتضي وجود فعل من جهة ومرور الزمان ليس بفعل منه . الثالث ـــ أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء . فإن قيل : فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح . وهـذه عمدة أهل ما وراء النهر . قلنـا : إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفّر وعاد إلى أهـله . وتحقيق هذا القول : أن العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولاً ٱقتضى التحليل وهو النكاح ، وقال قولا ٱقتضى التحريم وهو الظهار ، ثم عاد لمـا قال وهو التحليل ، ولا يصح أن يكون منه ٱبتداء عقد، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما ٱعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت عليّ كظهر أمي، و إذا كان ذلك كفّر وعاد إلى أهله؛ لقوله : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » . وهذا تفسير بالغ [في فنه][1] .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي .

الثانيــة ــ قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى «وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ» إلى ما كانوا عليه من الجماع «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» لما قالوا؛ أى فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا؛ فالجار فى قوله: «لِمَا قَالُوا» متعلق بالمحذوف الذى هو خبر الابتداء وهو عليهم؛ قاله الأخفش . وقال الزجاج: المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا . وقيل: المعنى الذين كانوا يَظَّهَّرون من نسائهم فى الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه فى الجاهلية فى الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة . الفراء: اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء . وقال الأخفش: لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان؛ قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا»(1) وقال: «فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ»(2) وقال: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا»(3) وقال: وَأُوحِىَ إِلَى نُوحٍ»(4) .

الثالثــة ــ قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أى فعليه إعتاق رقبة؛ يقال: حررته أى جعلته حرًّا . ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سليمة من كل عيب، من كمالها إسلامها عند مالك والشافعى؛ كالرقبة فى كفارة القتل . وعند أبى حنيفة وأصحابه تجزى الكافرة ومن فيها شائبة رِقٍّ(5) كالمكاتبة وغيرها .

الرابعــة ــ فإن أعتق نصفى عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبى حنيفة . وقال الشافعى يجزئ؛ لأن نصف العبدين فى معنى العبد الواحد؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزى كالإطعام؛ ودليلنا قوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها؛ أصله إذا اشترك رجلان فى أضحيتين؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك فى مسألتنا وبهذا يبطل دليلهم . والإطعام وغيره لا يتجزّى فى الكفارة عندنا .

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨ (2) راجع جـ ١٥ ص ٨٣ (3) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٩
(4) راجع جـ ٩ ص ٢٩ (5) فى ح، ز، س، ط، ل: «شعبة رق» والمعنى واحد .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أى يجامعها فلا يجوز للظاهر الوطء قبل التكفير ، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير . وحكى عن مجاهد : أنه إذا وطئ قبل أن يشرع فى التكفير لزمته كفارة أخرى . وعن غيره : أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلا ؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس ، فإذا أخرها حتى مس فقد فات وقتها . والصحيح ثبوت الكفارة ؛ لأنه بوطئه ارتكب إثما فلم يكن ذلك مسقطا للكفارة ، ويأتى بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها . وفى حديث أوس بن الصامت لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه وطئ امرأته أمره بالكفارة[1]. وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام. وقال أبو حنيفة : إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم ؛ فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم فى قول أكثر العلماء . وقاله الحسن وسفيان ، وهو الصحيح من مذهب الشافعى . وقيل : وكل ذلك محرم وكل معانى المسيس ؛ وهو قول مالك وأحد قولى الشافعى . وقد تقدم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أى تؤمرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التكفير وغيره .

السابعة — من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكا لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئًا سواه ، فله أن يصوم عند الشافعى . وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجًا إلى ذلك . وقال مالك : إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة ، وهى :

الثامنة — فعليه صوم شهرين متتابعين . فإن أفطر فى أثنائهما بغير عذر استأنفهما ، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض ، فقيل : يبنى ؛ قاله ابن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى . وهو أحد قولى الشافعى وهو الصحيح من مذهبه . وقال مالك :

---

(١) لم يتقدم العود فى حديث أوس ، وإنما هو فى مظاهر آخر وهو القائل : رأيت خلخالها فى ضوء القمر .

إنه إذا مرض فى صيام كفارة الظهار بنى إذا صح . ومذهب أبى حنيفة رضى الله عنه أنه يبتدئ . وهو أحد قولى الشافعى .

التاسعة — إذا آبتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعى؛ لأنه بذلك أمر حين دخل فيه . ويهدم الصوم ويعتق عند أبى حنيفة وأصحابه ؛ قياسا على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل آنقضائها ، فإنها تستأنف الحيض إجماعا من العلماء . وإذا آبتدأ سفرا فى صيامه فأفطر[1] آبتدأ الصيام عند مالك والشافعى وأبى حنيفة؛ لقوله : «مُتَتَابِعَيْنِ» . ويبنى فى قول الحسن البصرى ؛ لأنه عذر[2] [وقياسا على رمضان ، فإن تخللها زمان لا يحلّ صومه فى الكفارة كالعيدين وشهر رمضان آنقطع] .

العاشرة — إذا وطئ المتظاهر فى خلال الشهرين نهارا، بطل التتابع فى قول الشافعى، وليلا فلا يبطل ؛ لأنه ليس محلا للصوم . وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل بكل حال ووجب عليه آبتداء الكفارة ؛ لقوله تعالى : «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين، وإلى أبعاضهما ، فإذا وطئ قبل آنقضائهما فليس هو الصيام المأمور به، فلزمه آستئنافه؛ كما لو قال : صلّ قبل أن تكلم زيدا . فكلّم زيدا فى الصلاة، أو قال : صلّ قبل أن تبصر زيدا فأبصره فى الصلاة لزمه آستئنافها؛ لأن هذه الصلاة ليست هى الصلاة المأمور بها كذلك هذا ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة — ومن تطاول مرضه طولا لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر ، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام . ولو كان مرضه مما يرجى برؤه وآشتدت حاجته إلى وطء آمرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام . ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه .

الثانيـــة عشرة — ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم . ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفّر صام . وإنما يُنظر إلى حاله يوم يكفّر . ولو جامعها فى عدمه

(١) لفظة « فأفطر » ساقطة من ز ، ل . (٢) ما بين المربعين ساقط من ح ، ز ، س ، ه ، ل .

وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق . ولو ٱبتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى . و إن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه . ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم فى الصلاة أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك .

الثالثة عشرة — ولو أعتق رقبتين عن كفارتى ظهار أو قتل أو فطر فى رمضان وأشرك بينهما فى كل واحدة منهما لم يجزه . وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين ، وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين . وقد قيل : إن ذلك يجزيه . ولو ظاهر من ٱمرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدةٍ منهما حتى يكفّر كفارة أخرى . ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفّر الكفارة عن الأخرى . ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهن ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوما ، فإن كفّر عنهنّ بالإطعام جاز أن يطعم عنهنّ مائتى مسكين ، و إن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام ؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق .

فصل وفيه ست مسائل :

الأولى — ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبةً؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لاسبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الٱستطاعة على الصيام ، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مُدّان بمد النبيّ صلى الله عليه وسلم . و إن أطعم مدّاً بمد هشام ، وهو مدّان إلا ثلثاً ، أو أطعم مدّا ونصفاً بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أجزأه . قال أبو عمر بن عبد البر : وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عز وجل لم يقل فى كفارة الظهار « مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ »[1] فواجب قصد الشبع . قال ٱبن العربى: وقال مالك فى رواية ٱبن القاسم وٱبن عبد الحكم : مُدّ بمدّ هشام وهو الشبع هاهنا ؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط . وقال فى رواية أشهب : مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم[2] . [قيل له : ألم تكن قلت مدّ هشام ؟ قال: بلى، مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أحب إلىّ] . وكذلك قال عنه ٱبن القاسم أيضا .

(١) راجع ج ٦ ص ٢٦٥ (٢) ما بين المربعين ساقط من ا والأصل المطبوع .

قلت : وهى رواية آبن وهب ومطرف عن مالك : أنه يعطى مدّين لكل مسكين بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسـلم . وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه . ومذهب الشافعيّ وغيره مـدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك ؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمـه صرف زيادة على المدّ ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين . ودليلنا قوله تعـالى : « فَإِطْعَامُ سِـتِّينَ مِسْكِيناً » وإطلاق الإطعام يتناول الشّـبع ، وذلك لا يحصـل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليـه . وكذلك قال أشهب : قلت لمـالك أيختلف الشّبع عندنا وعندكم ؟ قال نعم ! الشّـبع عندنا مدّ بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والشّبع عندكم أكثر ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لنـا بالبركة دونكم ، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن . وقال أبو الحسن القابسى : إنما أخذ أهـل المدينة بمـدّ هشام فى كفارة الظهار تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكرا من القول وزورًا . قال آبن العربى : وقع الكلام ها هنا فى مدّ هشام كما ترون ، ووددت أن يهشم الزمان ذكره ، ويمحو من الكتب رسمه ؛ فإن المدينة التى نزل الوحى بها وآستقر الرسول بها ووقع عندهم الظهار ، وقيل لهم فيه : « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً » فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشّبع ، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم ، وقد ورد ذلك الشّبع فى الأخبار كثيرا ، وآستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشـدين المهديين حتى نفخ الشيطان فى أذن هشام ، فرأى أن مدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يشبعه ، ولا مثله من حواشيه ونظرائه ، فسوّل له أن يتخذ مـدّاً يكون فيه شبعه ، فجعله رطلين وحمـل الناس عليـه ، فإذا آبتلّ عاد نحو الثلاثة الأرطال ؛ فغيّر السُّنة وأذهب محل البركة . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة فى مدّهم وصاعهم ، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة ، فكانت البركة تجرى بدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مدّه ، فسعى الشيطان فى تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة ، فلم يستجب له فى ذلك إلا هشام ، فكان من حق العلماء أن يلغوا(١) ذكره ويمحوا رسمه إذا لم يغيروا أمره ، وأما أن يحيـلوا على ذكره فى الأحكام ، ويجعلوه تفسـيرا لمـا ذكر الله ورسوله بعـد أن كان مفسراً عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم ، ولذلك كانت رواية أشهب فى ذكر مدّين بمدّ النبيّ صلى الله عليـه وسـلم فى كفارة الظهار أحبّ إلينا من

(١) فى ل : « يدعوا » بدل « يلغوا » .

الرواية بأنها بمدّ هشام . ألا ترى كيف نبّه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب : الشبع عندنا بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والشّبع عندكم أكثر لأن النبيّ صلى عليه وسلم دعا لنا بالبركة ، وبهذا أقول ، فإن العبادة إذا أُديت بالسنة ، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول ، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل فى الميزان ، وأبرك فى يد الآخذ ، وأطيب فى شدقه ، وأقل آفة فى بطنه ، وأكثر إقامة لصلبه[1] . والله أعلم[2] .

الثانيـــة — ولا يجـزئ عند مالك والشافعى أن يطعم أقل من ستين مسكينا . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

الثالثـــة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل . وآحتج بقوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » ولم يفرق بين الرشيد والسفيه ؛ وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره ، فإن هـذه الآية عامّة ، وقـد كان القضاء بالحجر فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشياً والنظر يقتضيه ، ومن كان عليه حجر لصغر أو لولاية وبلغ سفيها قد نهى عن دفع المال إليه ، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضى على العام .

الرابعـــة — وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقا ؛ وقد روى معنى ذلك عن آبن عباس وأبى قلابة وغيرهما .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى ذلك الذى وصفنا من التغليظ فى الكفارة « لِتُؤْمِنُوا » أى لتصدقوا أن الله أمر به . وقد آستدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى ؛ لما ذكرها وأوجبها قال : « ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عند حدوده لا تتعدّوها ؛ فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيمانا ، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان . فإن قيل : معنى قوله : « ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى لئلا تعودوا للظهار الذى هو منكر من القول وزور .

---

(١) فى ح ، ز ، س ، ه : « لقلبه » .   (٢) فى ح ، ز ، س ، ل ، ه : « والله الموفق لا رب غيره » .

قيل له : قد يجوز أن يكون هذا مقصودا والأول مقصودا ، فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور ، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما ، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تُكفِّروا ، إذ كان الله منع من مسيسها ، وتكفّروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفّارة وألزم إخراجها منكم ، فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله ، لأنها حدود تحفظونها ، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم إيمان . وبالله التوفيق .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى بيّن معصيته وطاعته ، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى لمن لم يصدّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها . والمحادة المعاداة والمخالفة فى الحدود ، وهو مثل قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ »(1) . وقيل : « يُحَادُّونَ اللَّهَ » أى أولياء الله كما فى الخبر : "من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة" . وقال الزجاج : المحادّة أن تكون فى حدّ يخالف حدّ صاحبك . وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحدّاد للبوّاب . ﴿ كُبِتُوا ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال قتادة : أُخْزوا كما أُخْزِى الذين من قبلهم . وقال ٱبن زيد : عذبوا . وقال السدى : لعنوا . وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق . وقيل : يوم بدر . والمراد المشركون . وقيل : المنافقون . ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . وقيل : « كُبِتُوا »

(1) راجع جـ ١٨ ص ٦

أى سيكبتون، وهو بشارة من الله تعالى للؤمنين بالنصر ، وأخرج الكلام بلفظ الماضى تقريباً للخبر عنه . وقيل : هى بلغة مَذْحِج[1] . ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فيمن حادّ الله ورسوله من الذين من قبلهم فيما فعلنا بهم . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بـ « عَذَابٌ مُهِينٌ » أو بفعل مضمر تقديره واذكر تعظيماً لليوم . ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم فى حالة واحدة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ أى يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فى الدنيا ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ عليهم فى صحائف أعمالهم ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ هم حتى ذكرهم به فى صحائفهم ليكون أبلغ فى الحجة عليهم . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطّلع وناظر لا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلا يخفى عليه سرّ ولا علانية . ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ﴾ قراءة العامة بالياء ؛ لأجل الحائل بينهما . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع والأعرج وأبو حَيْوة وعيسى « مَا تَكُونُ » بالتاء لتأنيث الفعل . والنّجوى : السِّرار، وهو مصدر والمصدر قد يوصف به ؛ يقال : قوم نجوى أى ذوو نجوى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ هُمْ نَجْوَى »[2] . وقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ خفض بإضافة « نَجْوَى » إليها . قال الفرّاء : « ثَلَاثَةٍ » نعت للنجوى فٱنخفضت وإن شئت أضفت « نَجْوَى » إليها . ولو نصبت على إضمار فعل جاز ؛ وهى قراءة ٱبن أبى عبلة « ثَلَاثَةً » و « خَمْسَةً » بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ؛ قاله الزمخشرى . ويجوز رفع « ثلاثة » على البدل من موضع « نَجْوَى » . ثم قيل : كل سِرار نجوى . وقيل : النجوى ما يكون من

(١) مذحج ـ كمسجد ـ : أبو قبيلة باليمن . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٢

خلوة ثلاثة يسّرون شيئًا ويتناجون به . والسرار ما كان بين آثنين . ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يعلم ويسمع نجواهم ؛ يدل عليه آفتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم . وقيل : النجوى من النَّجْوة وهى ما آرتفع من الأرض ، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به ، والمعنى: أنّ سَمْع الله محيط بكل كلام ، وقد سمع الله مجادلة المرأة التى ظاهر منها زوجها . ﴿ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ قرأ سلّام و يعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع « مِنْ نَجْوَى » قبل دخول « مِنْ » لأن تقديره مايكون نجوى ، و « ثَلَاثَةٍ » يجوز أن يكون مرفوعًا على محل « لَا » مع « أَدْنَى » كقولك : لا حولَ ولا قوةٌ إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة . ويجوز أن يكونا مرفوعين على الآبتداء؛ كقولك لا حولٌ ولا قوة إلا بالله . وقد مضى فى « البقرة » بيان هذا مستوفًى (١) . وقرأ الزهرى وعكرمة « أكبر » بالباء . والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر . وقال الفراء فى قوله : «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ» قال: المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قلّ أو كثر ، يعلم ما يقولون سرًّا وجهرًا ولا تخفى عليه خافية ؛ فمن أجل ذلك آكتفى بذكر بعض العدد دون بعض . وقيل : معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا آنتقال . ونزل ذلك فى قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئًا سرًّا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك؛ قاله آبن عباس . وقال قتادة ومجاهد : نزلت فى اليهود . ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ ﴾ يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من حسن وسيء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦٦ فما بعد .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قيل : إن هذا فى اليهود والمنافقين حسب ماقدمناه . وقيل : فى المسلمين . قال آبن عباس : نزلت فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت . وقال مقاتل : كان بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة ، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرًّا ، فيعرج عن طريقه ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينتهوا فنزلت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه فى حرب أو بلية أو أمر مهمّ فيفزعون لذلك فنزلت .

الثانيـــة — روى أبو سعيد الخدرى قال : كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه النجوى ألم تُنهوا عن النجوى " فقلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله ، إنا كنا فى ذكر المسيخ — يعنى الدجال — فرقًا[1] منه . فقال : " ألا أخبركم بما هو أخوف عندى منه " قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : " الشرك الخفيّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل " ذكره الماوردى . وقرأ حمزة وخلف ورُوَيس عن يعقوب « وَيَنْتَجُونَ » فى وزن يفتعلون وهى قراءة عبد الله وأصحابه . وقرأ الباقون « وَيَتَنَاجَوْنَ » فى وزن يتفاعلون ، وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لقوله تعالى : « إِذَا تَنَاجَيْتُمْ » و « تَنَاجَوْا » . النحاس : وحكى سيبويه أن تفاعلوا وآفتعلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا وآختصموا ، وتقاتلوا وآقتتلوا فعلى هذا « يَتَنَاجَوْنَ » و « يَنْتَجُونَ » واحد . ومعنى ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أى الكذب والظلم . ﴿ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى مخالفته . وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد « وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُول » بالجمع .

---

(١) فى ل : « خوفا منه » .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ لا خلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود، كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وسلم فيقولون: السام عليك. يريدون بذلك السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا، فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "عليكم" في رواية، وفي رواية أخرى "وعليكم". قال ابن العربي: وهي مشكلة. وكانوا يقولون: لو كان محمد نبيّا لما أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به، وجهلوا أن البارى تعالى حليم لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبّ نبيه. وقد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا أحدَ أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم" فأنزل الله تعالى هذا كشفًا لسرائرهم، وفضحا لبواطنهم، معجزةً لرسوله صلى الله عليه وسلم. وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديًّا أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فقال: السام عليكم. فرد عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال: "أتدرون ما قال هذا" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "قال كذا ردوه عليّ" فردوه؛ قال: "قلت السام عليكم" قال: نعم. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم عند ذلك: "إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت" فأنزل الله تعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ».

قلت: خرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح. وثبت عن عائشة أنها قالت: جاء أناس من اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم وفعل. فقال عليه السلام: "مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفُحْش ولا التفحُّش" فقلت: يارسول الله ألست ترى ما يقولون؟! فقال: "ألستِ ترين أرد عليهم ما يقولون أقول وعليكم" فنزلت هذه الآية «بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ» أي إن الله سلّم عليك وهم يقولون السام عليك، والسام الموت. خرجه البخاري ومسلم بمعناه. وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم" كذا الرواية "وعليكم" بالواو وتكلم عليها العلماء؛ لأن الواو العاطفة يقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت، أو من

سآمة ديننا وهـو الملال . يقال : سئم يسأم سآمةً وسآماً . فقال بعضهـم : الواو زائدة كما زيدت فى قول الشاعر :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الحَيِّ وَانْتَحَى *

أى لمـا أجزنا آنتحى فزاد الواو . وقال بعضهم : هى للآستئناف، كأنه قال : والسام عليكم . وقال بعضهم : هى على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم . روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سـلّم ناس من يهود على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقال : " وعليكم " فقالت عائشة وغضبت : ألم تسمع ماقالوا ؟ قال : " بلى قـد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا " خرجه مسلم . ورواية الواو أحسن معنىً، و إثباتها أصح روايةً وأشهر .

وقد آختلف فى رد السلام على أهل الذمة هل هـو واجب كالرد على المسلمين ، و إليه ذهب آبن عباس والشّـعبي وقتادة ؛ للأمر بذلك . وذهب مالك فيما روى عنـه أشهب وآبن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليـك . وقد آختار آبن طاوس أن يقول فى الرد عليهم : علاك السلام أى آرتفع عنك . وآختار بعض أصحابنا : السِّلام بكسر السين يعنى الحجـارة . وما قاله مالك أولى آتباعاً للسـنة ؛ والله أعلم . و روى مسروق عن عائشة قالت : أتى النّبي صلى الله عليه وسلم ناس من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم؛ قال : " وعليكم " قالت عائشة : قلت بل عليكم السَّامُ والذَّامُ . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة لا تكونى فاحشة " فقالت : ما سمعت ماقالوا ! فقال : " أو ليس قد رددتُ عليهم الذى قالوا قلتُ وعليكم " . وفى رواية قال : ففطنت بهم عائشة فسبّتهم ، فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " مَهْ ياعائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش " وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَـا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ » إلى آخر الآية . الذام بتخفيف الميم هو العيب؛ وفى المثل (لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا) أى عيباً ، ويهمز ولا يهمز؛

يقال : ذَأَمَهُ يَذْأَمُه[(١)]، مثل ذأب يذأب، والمفعول مذءوم مهموزاً، ومنه « مَذْءُومًا مَدْحُوراً » ويقال : ذامَهُ يَذُومُه مخففًا كرامه يرومه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ قالوا : لو كان محمد نبياً لعذّبنا الله بما نقول فهلّا يعذبنا الله . وقيل : قالوا إنه يردّ علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت ، فلوكان نبيًّا لاستجيب له فينا ومتنا . وهذا موضع تعجُّب منهم ؛ فإنهم كانوا أهل كتاب ، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يُغضَبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب . ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى كافيهم جهنم عقاباً غداً ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ نهى المؤمنين أى يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ » أى تساررتم . ﴿ فَلَا تَتَنَاجَوْا ﴾ هذه قراءة العامة . وقرأ يحيى بن وثاب وعاصم ورويس عن يعقوب « فلا تَنْتَجُوا » من الانتجاء ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ أى بالطاعة ﴿ وَالتَّقْوَى ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه . وقيل : الخطاب للنافقين ؛ أى يأيها الذين آمنوا بزعمهم . وقيل : أى يأيها الذين آمنوا بموسى . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون فى الآخرة .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى من تزيين الشياطين ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا فى السرايا ، أو إذا أجروا اجتماعهم (١) على مكايدة المسلمين ، وربما كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وسلم فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ ﴾ أى التناجى ﴿ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بمشيئته وقيل : بعلمه . وعن ابن عباس : بأمره . ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى يكلون أمرهم إليه ، ويفوّضون جميع شؤونهم إلى عونه ، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر ؛ فهو الذى سلّط الشيطان بالوساوس ابتلاءً للعبد وامتحاناً ولو شاء لصرفه عنه .

الثانيــة — فى الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الواحد " . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه " فبيّن فى هذا الحديث غاية المنع وهى أن يجد الثالث من يتحدّث معه كما فعل ابن عمر ؛ وذلك أنه كان يتحدّث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعاً ، فقال له وللأوّل : تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة . خرجه الموطأ . وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله : " من أجل أن يحزنه " أى يقع فى نفسه ما يحزن لأجله . وذلك بأن يقدّر فى نفسه أن الحديث عنه بما يكره ، أو أنه لم يروه أهلاً ليشركوه فى حديثهم ، إلى غير ذلك من أَلْقيات الشيطان وأحاديث النفس . وحصل ذلك كله من بقائه وحده ، فإذا كان معه غيره أمن ذلك ؛ وعلى هذا يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلاً ؛ لوجود ذلك المعنى فى حقه ؛ بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون بالمنع أولى . وإنما خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أوّل عددٍ يتأتى ذلك المعنى فيه . وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور . وسواء أكان التناجى فى مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به . وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان

(١) فى ح ، ز ، ه : « أو إذا رأوا إجماعهم » .

فى أوّل الإســلام ؛ لأن ذلك كان فى حال المنافقين فيتناجى المنـافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . وقال بعضهم : ذلك خاص بالسفر فى المواضع التى لا يأمن الرجل فيها صاحبه ، فأما فى الحضر و بين العمارة فلا ؛ فإنه يجد من يعينه ، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث (١) . والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ (٢) ﴾ لمـا بيّن أن اليهود يحيّونه بما لم يحيِّه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب فى مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، حتى لا يضيقوا عليـه المجلس ، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم والنظر إليه . قال قتادة ومجاهد : كانوا يتنافسون فى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض . وقاله الضحاك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحـرب . قال الحسن ويزيد بن أبى حبيب : كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأوّل (٣) فلا يوسع بعضهم لبعض ، رغبـةً فى القتال والشهادة فنزلت . فيكون كقوله : « مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ (٤) » . وقال مقاتل : كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى الصُّفَّة ، وكان فى المكان ضيق يوم الجمعة ، وكان النبيّ صلى الله عليه

---

(١) فى ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « الغوث » . (٢) الأصول على قراءة نافع « فى المجلس » بالأفراد .

(٣) فى ل : « الأوّل فالأوّل » . (٤) راجع جـ ٤ ص ١٨٤

وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس ابن شماس وقد سُبقوا فى المجلس ، فقاموا حيال النبيّ صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لمن حوله من [غير][1] أهل بدر : " قم يافلان وأنت يافلان " بعدد القائمين من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم ، وعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم الكراهية فى وجوههم ، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا : ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية . « تَفَسَّحُوا » أى توسعوا . وفَسَح فلان لأخيه فى مجلسه يَفْسَح فَسْحًا أى وسع له ؛ ومنه قولهم : بلد فَسِيح ولك فى كذا فُسْحة ، وفَسَح يَفْسَح مثل منع يمنَع ، أى وسّع فى المجلس ؛ وفَسُح يَفْسُح فَسَاحةً مثل كَرُم يَكْرُم [كرامةً][2] أى صار واسعا ؛ ومنه مكان فسيح .

الثانيـة — قرأ السُّلَمى وزِرّ بن حُبَيش وعاصم « فِى الْمَجَالِسِ » . وقرأ قتادة وداود ابن أبى هند والحسن باختلاف عنه « إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا » الباقون « تَفَسَّحُوا فِى الْمَجْلِسِ » فمن جمع فلأن قوله : « تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ » ينبىء أن لكل واحد مجلساً . وكذلك إن أريد به الحرب . وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم وجمع لأن لكل جالس مجلساً . وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس ؛ كقولهم : كثر الدينار والدرهم .

قلت : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة ؛ فإن كل واحد أحقّ بمكانه الذى سبق إليه [قال صلى الله عليه وسلم : " من سَبق إلى مالم يُسبق إليه فهو أحق به "][3] ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخارى ومسلم عن ابن عمر عن

(١) الزيادة من ل ، وأسباب النزول وبعض التفاسير وفى ز : « قم أنت يا فلان وأنت يا فلان » .
(٢) زيادة من ل . (٣) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبى .

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه". وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا . وكان ٱبن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه . لفظ البخاري .

الثالثــة — إذا قعــد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعــد مكانه ؛ لمـا روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ صــلى الله عليه وســلم قال : "لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعــة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيــه ولكن يقــول ٱفسحوا" .

فــرع — القاعد في المكان إذا قام حتى يقعــد غيره موضعه نُظِر ؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأوّل في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك ، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك ؛ لأن فيه تفويت حظّه .

الرابعــة — إذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره ، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع ؛ لمـا روى : أن ٱبن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه ، فإذا جاء قام له منه .

فــرع — وعلى هــذا من أرســل بساطاً أو سجادةً فتُبسط له في موضع من المسجد . (١)

الخامســة — روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وســلم قال : "إذا قام أحدكم — وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه — ثم رجــع إليه فهو أحق به" قال علماؤنا : هذا يدل على صحة القول بوجوب ٱختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه ؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى . وقد قيل : إن ذلك على النــدب ؛ لأنه موضع غير متملَّك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده . وهذا فيه نظر ؛ وهو أن يقال : سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منــه ، فصار كأنه يملك منفعته ؛ إذ قد منع غيره من يزاحمه عليه . والله أعلم .

(١) في ز، س، هـ، ل بياض في هذه النسخ ، بعد قوله : « من المسجد » نبه عليه الناسخ بالهامش بقوله : بياض بالأصل .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى فى قبوركم . وقيل : فى قلوبكم . وقيل : يوسّع عليكم فى الدنيا والآخرة . ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما . وكسر الباقون ، وهما لغتان مثل « يَعْكُفُونَ »[(1)] و « يَعْرِشُونَ »[(1)] والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين . وقال مجاهد والضحاك : إذا نودى للصلاة فقوموا إليها . وذلك أن رجالًا تثاقلوا عن الصلاة فنزلت . وقال الحسن ومجاهد أيضًا : أى انهضوا إلى الحرب . وقال ابن زيد : هذا فى بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان كل رجل منهم يحبّ أن يكون آخر عهده بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا » عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « فَانْشُزُوا » فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف . وهذا هو الصحيح ؛ لأنه يعم . والنشز الارتفاع ، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها ؛ يقال نَشَزَ يَنْشُز ويَنْشِز إذا انتحى من موضعه؛ أى ارتفع منه . وامرأة ناشز منتحية عن زوجها . وأصل هذا من النَّشَز ، والنَّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى ؛ ذكره النحاس .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فى الثواب فى الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم . وقال ابن مسعود : مدح الله العلماء فى هذه الآية . والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم[(2)] « دَرَجَاتٍ » أى درجات فى دينهم إذا فعلوا ما أُمروا به . وقيل : كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستبقون إلى مجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم فالخطاب لهم . ورأى عليه الصلاة والسلام رجلًا من الأغنياء يقبض ثوبه نفورًا من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال : "يا فلان خشيت أن يتعدّى غناك إليه أو فقره إليك" وبين فى هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس . وقيل : أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن . وقال يحيى بن يحيى عن مالك : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » الصحابة « وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » يرفع الله بها العالم والطالب للحق .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٢ وص ٢٧٣ .		(٢) والمعنى يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين .

قلت : والعموم أوقع فى المسألة وأولى بمعنى الآية ؛ فيرفع المؤمن(١) بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانيا . وفى الصحيح أن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقـدّم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ »(٢) فسكتوا ، فقال آبن عباس : هو أَجَلُ رسـول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه . فقال عمـر : ما أعلم منها إلا ما تعـلم . وفى البخارى عن عبـد الله آبن عباس قال : قدم عُيَينـة آبن حصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على آبن أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كُهولاً كانوا أو شباناً . الحديثَ وقد مضى فى آخر « الأعراف »(٣) . وفى صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحرث لقى عمر بعُسْفَان وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من آستعملته على أهـل الوادى ؟ فقال : آبن أبزى . فقال : ومن آبن أبزى؟ قال : مَوْلًى من موالينا . قال : فاستخلفتَ عليهم مولًى! قال : إنه قارئ لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين" وقد مضى أول الكتاب(٤) . ومضى القول فى فضل العلم والعلماء فى غير موضع من هذا الكتاب(٥) [والحمد لله(٦)] . وروى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حَضْر الجواد المُضَمَّر سبعين سنة " . وعنه صلى الله عليه وسلم : " فضل العـالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " . وعنه عليه الصلاة والسلام : " يشفع يوم القيامة ثلاثةٌ الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظم بمنزلة هى واسـطة بين النبـوة والشهادة بشهادة رسـول الله صلى الله عليه وسـلم . وعن آبن عباس : خُيِّر سليمان [عليه السلام] بين العلم والمـال والملك فاختار العلم فأعطى المـال والملك معه .

---

(١) فى ح ، ز ، س ، ل ، ه : « فيرفع المرء » . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٢٩ .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ . (٤) راجع جـ ١ ص ٦ .
(٥) راجع جـ ١٤ ص ٣٤٣ . (٦) من س و ط .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ « ناجيتم » ساررتم . قال آبن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقّوا عليه ؛ فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيّه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك كفّ كثير من الناس . ثم وسّع الله عليهم بالآية التي بعدها . وقال الحسن : نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى ، فشقّ عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن آستخلائه . وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون : إنه أُذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحدًا مناجاته . فكان ذلك يشقّ على المسلمين ؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجَوه بأن جموعا آجتمعت لقتاله . قال : فأنزل الله تبارك وتعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ » الآية ، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية ، فآنتهى أهل الباطل عن النجوى ؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وآمتنعوا من النجوى ؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية .

الثانيـــة — قال آبن العربي : وفي هذا الخبر عن زيد ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح ؛ فإن الله تعالى قال : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » ثم نسخه مع كونه خيرا وأطهر .

وهذا ردٌّ على المعتزلة عظيم فى التزام المصالح، لكن راوى الحديث عن زيد آبنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء . والأمر فى قوله تعالى : « ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » نص متـواتر فى الرد على المعتزلة . والله أعلم .

الثالثـــة — روى الترمذى عن علىّ بن علقمة الأنمارى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لمـا نزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)(1) [سألته] قال لى النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما ترى دينارا" قلت لا يطيقونه . قال : "فنصف دينار" قلت : لا يطيقونه . قال : "فكم" قلت : شعيرة . قال : "إنك لزهيد" قال فنزلت : «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » الآية . قال : فِبِي(2) خفّف الله عن هذه الأمة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب إنمـا نعرفه من هذا الوجه ، ومعنى قوله : شعيرة يعنى وزن شـعيرة من ذهب . قال آبن العربى : وهــذا يدل على مسألتين حسنتين أصوليتين : الأولى — نســخ العبادة قبــل فعلها . والثانيــة — النظر فى المقدّرات بالقياس ؛ خلافا لأبى حنيفة .

قلت : الظاهر أن النسخ إنمـا وقع بعد فعل الصدقة . وقد روى عن مجاهد : أن أوّل من تصدّق فى ذلك علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وناجى النبىّ صلى الله عليه وسلم . روى أنه تصدّق بخاتم . وذكر القشيرى وغيره عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : "فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى ، وهى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » كان لى دينار فبعته ، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفد ؛ فنسخت بالآية الأخرى «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ» . وكذلك قال آبن عباس : نسخها الله بالآية التى بعدها . وقال آبن عمر : لقد كانت لعــلىّ رضى الله عنه ثلاثة لو كانت لى واحدة منهن كانت أحبّ إلىّ من حُمْر النَّعم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى . ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى من إمساكها ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لقلوبكم من المعاصى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ يعنى الفقراء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(1) زيادة من ح ، ز ، س ، ل ، هـ . (2) كلمة : « فبى » ساقطة من ل .

قوله تعالى : ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ استفهام معناه التقرير . قال ابن عباس : « أَأَشْفَقْتُمْ » أى أبخلتم بالصدقة ؛ وقيل : خفتم ،والإشفاق الخوف من المكروه . أى خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم ﴿ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ . وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة . وقال ابن عباس : ما بقى إلا ساعة من النهار حتى نسخ . وكذا قال قتادة . والله أعلم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى نسخ الله ذلك الحكم . وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدّق به ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة . وهــذا يدل على جواز النسخ قبــل الفعل ، وما روى عن علىّ رضى الله عنه ضعيف ؛ لأن الله تعالى قال : « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا » وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدق بشىء . والله أعلم . ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ فى فرائضه ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى سننه ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ قال قتادة : هم المنافقون تولّوا اليهود ﴿ مَا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يقول : ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك ، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم . قال السّدى ومقاتل : نزلت فى عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نَبْتَل المنافقَيْن ؛ كان أحدهما يجالس النبىّ صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حجرة من حجراته إذ قال: "يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبـار وينظر بعينى شيطان" فدخل عبـد الله بن نبتل — وكان أزرق أسمر قصيرًا خفيف اللحية — فقال عليه الصلاة والسلام: "علام تشتمنى أنت وأصحابك" لحلف بالله ما فعل ذلك . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : " فعلت " فآنطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ؛ فنزلت هذه الآية . وقال معناه آبن عباس . روى عكرمة عنه ؛ قال: كان النبىّ صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال: "يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان " فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق، فدعا به النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " علام تشتمنى أنت وأصحابك " قال : دعنى أجيئك بهم . فمرّ فجاء بهم لحلفوا جميعا أنه ما كان من ذلك شىء؛ فأنزل الله عز وجل: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا» إلى قوله : « هُمُ الْخَاسِرُونَ » واليهود مذكورون فى القرآن بـ « غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أى لهؤلاء المنافقين ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فى جهنم وهو الدرك الأسفل . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بئس الأعمال أعمالهم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ يستجنّون بها من القتل . وقرأ الحسن وأبو العالية «إِيمَانَهُمْ» بكسر الهمزة هنا وفى «الْمُنَافِقُونَ»(١) . أى إقرارهم آتخذوه جنة ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتـل ، وكفرت قلوبهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار . والصدّ المنع «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى عن الإسلام . وقيل: فى قتلهم بالكفر لمـا أظهروه من النفاق . وقيـل : أى بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم .

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٢٣ .

قوله تعالى : ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾

قوله تعالى : ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى من عذابه شيئا. وقال مقاتل : قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه يُنصر يوم القيامة، لقد شقينا إذًا ! فوالله لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت[1] : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أى لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ اليوم . وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غدا ، وقد صارت المعارف ضرورية . وقال ٱبن عباس : هو قولهم « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »[2] . ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بإنكارهم وحلفهم . قال ٱبن زيد : ظنوا أنهم ينفعهم فى الآخرة . وقيل : «وَيَحْسَبُونَ» فى الدنيا «أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ» لأنهم فى الآخرة يعلمون الحق بٱضطرار . والأول أظهر . وعن ٱبن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ينادى منادٍ يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القَدَرية مسودّة وجوههم مزرقّة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمسا ولا قمرا ولا صنما ولا وثنا ، ولا ٱتخذنا من دونك إلها " . قال ٱبن عباس : صدقوا والله ! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ؛ ثم تلا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هم والله القَدَرية . ثلاثا .

قوله تعالى : ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أى غلب وٱستعلى ؛ أى بوسوسته فى الدنيا . وقيل : قَوِى عليهم . وقال المفضَّل : أحاط بهم . ويحتمل رابعا أى جمعهم وضمهم . يقال : أحوذ الشىء أى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، و إذا جمعهم فقد غلبهم وقوى عليهم وأحاط بهم .

---

(١) فى ح ، ز ، س ، هـ ، ل : « فنزلت الآية قوله تعالى » . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠١

﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أى أوامره فى العمل بطاعته . وقيل : زواجره فى النهى عن معصيته . والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة ، و يكون بمعنى الترك ، والوجهان محتملان هنا . ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ طائفته ورهطه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ فى بيعهم ؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم ، و باعوا الهدى بالضلالة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقدم أول السورة . ﴿ أُولَٰئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ ﴾ أى من جملة الأذلاء لا أذل منهم ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾ أى قضى الله ذلك . وقيل : كتب فى اللوح المحفوظ ؛ عن قتادة . الفراء : كتب بمعنى قال . ﴿ أَنَا ﴾ توكيد ﴿ وَرُسُلِى ﴾ من بُعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب(١)، ومن بُعث منهم بالحجة فإنه غالب(١) بالحجة . قال مقاتل قال المؤمنون : لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم ؛ فقال عبد الله بن أُبىّ ابن سَلُول : أتظنون الروم وفارس مثل القرى التى غلبتم عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عددًا ، وأشد بطشًا من أن تظنوا فيهم ذلك ؛ فنزلت : « لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى » . نظيره : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »(٢) .

قوله تعالى : لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(١) فى ح ، ز ، س ، ل ، هـ : « فإن الرسول غالب » . (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٣٩

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ﴾ أى يحبون ويوالون ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقدّم[(١)] ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ قال السدى : نزلت فى [عبد الله بن][(٢)] عبد الله بن أبىّ ، جلس إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فشرب النبىّ صلى الله عليه وسلم ماء ؛ فقال له : بالله يارسول الله ما أبقيت من شرابك فضلة أسقيها أبى ؛ لعل الله يُطهّر بها قلبه ؟ فأفضل له فأتاه بها ؛ فقال له عبد الله : ما هذا ؟ فقال : هى فضلة من شراب النبىّ صلى الله عليه وسلم جئتك بها تشربها لعل الله يطهّر قلبك بها . فقال له أبوه : فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها . فغضب وجاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : يارسول الله ! أما أذنت لى فى قتل أبى ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " بل ترفق به وتحسن إليه " . وقال ٱبن جريج : حُدِّثت أن أبا قُحافة سب النبىّ صلى الله عليه وسلم فصكّه أبو بكر ٱبنه صكةً فسقط منها على وجهه ، ثم أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : " أو فعلته ، لا تعد إليه " فقال : والذى بعثك بالحق نبيًّا لو كان السيف منى قريباً لقتلته . وقال ٱبن مسعود : نزلت فى أبى عبيدة بن الجراح ؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد وقيل : يوم بدر . وكان الجراح يتصدّى لأبى عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله ؛ فأنزل الله حين قتل أباه : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . قال الواقدى : كذلك يقول أهل الشام . ولقد سألت رجالا من بنى الحرث بن فهر فقالوا : توفى أبوه من قبل الإسلام . ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ يعنى أبا بكر دعى ٱبنه عبد الله إلى البراز يوم بدر، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " مَتِّعْنَا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندى بمنزلة السمع والبصر " . ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعنى مصعب بن عمير

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٤

(٢) زيادة لازمة ؛ فقد كان عبد الله بن عبد الله بن أبى ٱبن سلول رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وخيارهم وكان أبوه عبد الله رأس المنافقين وفيه نزلت الآية .

قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر . ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعنى عمر بن الخطاب قتــل خاله العاص آبن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وعلياً وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر . وقيل : إن الآية نزلت فى حاطب بن أبى بَلْتعة، لمـا كتب إلى أهل مكة بمسير النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفتح ؛ على ما يأتى بيانه أول ســورة « الممتحنة » إن شاء الله تعـالى . بيّن أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار و إن كانوا أقارب .

الثانيـــة ــ آستدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القَدَرية وترك مجالستهم . قال أشهب عن مالك : لا تجالس القَــدَرية وعادِهم فى الله ؛ لقوله تعـالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

قلت : وفى معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان . وعن الثورى أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فى مَن كان يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبى داود أنه لقى المنصور فى الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه كان يقول : "اللّهـم لا تجعل لفاجر عندى نعمة فإنى وجدت فيما أوحيت « لَا تَجِـدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ــ إلى قوله ــ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ » " أى خلق فى قلوبهم التصديق؛ يعنى من لم يوال من حاد الله . وقيل : كتب أثبت؛ قاله الربيع بن أنس . وقيل : جعل؛ كقوله تعالى : « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »[(١)] أى آجعلنا . وقوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ »[(٢)] وقيل : « كَتَبَ » أى جمع ، ومنه الكَتيبة ؛ أى لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض . وقراءة العامة بفتح الكاف من « كَتَبَ » ونصب النون من «الإيمان» بمعنى كَتَبَ الله وهو الأجود؛ لقوله تعـالى : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ وقرأ أبو العالية وزِرّ بن حُبيش والمفضل عن عاصم « كُتِبَ » على ما لم يسمّ فاعله « الْإِيمَـانُ » برفع النون . وقرأ زِرّ بن حُبيش « وَعَشِيرَاتِهِمْ » بألف وكسر التـاء على الجمـع ، ورواها الأعمش عن أبى بكر عن عاصم . وقيــل : كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمْ » أى على قلوبهم ، كما فى قوله « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ »[(٣)] وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمـان . « وَأَيَّدَهُمْ » قواهم ونصرهم بروح منه ؛ قال الحسن : و بنصر منه . وقال

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٢٤

الربيع بن أنس : بالقرآن وحججه . وقال ابن جريج : بنور و إيمان و برهان وهدى . وقيل : برحمة من الله . وقال بعضهم : أيدهم بجبريل عليه السلام . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أى قبل أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قال سعيد بن أبي سعيد الجرجانى عن بعض مشايخه ، قال داود عليه السلام : إلهى ! مَن حزبك وحول عرشك ؟ فأوحى الله إليه : « ياداود الغاضّةُ أبصارهم ، النقية قلوبهم ، السليمة أكفهم ؛ أولئك حزبى وحول عرشى » .

ختمت والحمد لله سورة " المجادلة "

محقّقـه

أحمد عبد العليم البردونى

١٨ ربيع الثانى سنة ١٣٨٥
١٥ أغسطس سنة ١٩٦٥

تم بعون الله تعالى الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي .

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر ، وأوله :

" سورة (الحشر) "

بعون الله ، وجميل توفيقه ، قد تم طبع الجزء السابع عشر من « تفسير القرطبي » بمطبعة دار الكتب ، في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٨٥ هـ ، سبتمبر (سنة ١٩٦٥ م) م

محمد حمدى على جنيدى
رئيس المطبعة

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثامن عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الثامن عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م

فهرس الجزء الثامن عشر

سورة الحشر

صفحة

سورة الممتحنة

سورة الجمعة

صفحة

ســورة المنافقون

ســورة التغــابن

صفحة

سورة الطلاق

سورة التحريم

ســورة الملك

ســورة ن

صفحة

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

مَدَنيّةٌ في قول الجميع . وهى أربع وعشرون آية

روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة الحشر لم يبق شيء من الجنة والنار والعرش والكرسيّ والسموات والأرض والهوام والريح والسحاب والطير والدواب والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صَلّوْا عليه واستغفروا له . فإن مات من يومه أو ليلته مات شهيدا " . خَرّجه الثعلبي . وخرّج الثعالبي عن يزيد الرّقاشيّ عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ آخر سورة الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » — الى آخرها — فمات من ليلته مات شهيدا " . وروى الترمذى عن مَعْقِل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال حين يُصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وَكّل الله به سبعين ألف مَلَك يُصَلّون عليه حتى يُمْسِي وإن مات في يومه مات شهيدًا ومن قرأها حين يُمسي فكذلك " . قال : حديث حسن غريب .

قوله تعالى : سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١)

تقدّم (١) .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ

(١) راجع أوّل سورة الحديد جـ ١٧ ص ٢٣٥ .

حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَـٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ قال سعيد بن جُبير : قلت لابن عباس : سورة الحشر؟ قال قل سورة النَّضير؛ وهم رهط من اليهود من ذُرّية هارون عليه السلام، نزلوا المدينة فى فِتَن بنى إسرائيل انتظاراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمرهم مانصّ الله عليه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ الحَشْر الجمعُ؛ وهو على أربعة أوجه : حشران فى الدنيا وحشران فى الآخرة ؛ أما الذى فى الدنيا فقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» قال الزُّهْرِىّ : كانوا من سِبْط(١) لم يصبهم جلاء، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء ؛ فلولا ذلك لعذبهم فى الدنيا . وكان أوّل حشر حُشِروا فى الدنيا الى الشام . قال ابن عباس وعكرمة : من شك أن المحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : "اخرجوا" قالوا الى أين ؟ قال : "الى أرض المحشر" . قال قتادة : هذا أوّل المحشر . قال ابن عباس : هم أوّل من حُشر من أهل الكتاب وأخرج من دياره . وقيل : إنهم أخرجوا الى خَيْبَر ، وأن معنى « لِأَوَّلِ الحَشْرِ» إخراجهم من حصونهم الى خَيْبر، وآخره إخراج عمر رضى الله عنه إياهم من خَيْبر الى نجْد وأذْرِعات . وقيل تَيْماء وأريحاء ، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم . وأما الحشر الثانى :

---

(١) السبط : ولد الولد . والسبط من اليهود : كالقبيلة من العرب .

لحشرهم قرب القيامة . قال قتـادة : تأتى نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب ، تَبيت معهم حيث باتوا ، وتَقيل معهم حيث قالوا ، وتأكل منهم من تخلّف . وهـذا ثابت فى الصحيح ، وقد ذكرناه فى (كتاب التذكرة) . ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال : قلت لمـالك هو جلاؤهم من ديارهم ؟ فقال لى : الحشر يوم القيامة حشر اليهود . قال : وأجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود الى خَيْبر حين سئلوا عن المال فكتموه ؛ فاستحلهم بذلك . قال ابن العربى : للحشر أوّل ووسط وآخر ؛ فالأوّل إجلاء بنى النضير ، والأوسط إجلاء خيبر ، والآخر حشر يوم القيامة . وعن الحسن : هـم بنو قُرَيظة . وخالفه بقية المفسرين وقالوا : بنو قُريظة ما حُشروا ولكنهم قُتلوا . حكاه الثعلبى .

الثالثـــة — قال الكيا الطبرى : ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شىء لا يجوز الآن ، وإنما كان ذلك فى أوّل الإسلام ثم نسخ . والآن فلا بدّ من قتالهم أو سَبْيهم أو ضَرْب الجِزْية عليهم .

قوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ يريد لعظم أمر اليهود ومَنَعتهم وقوتهم فى صدور المسلمين ، واجتماع كلمتهـم . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ ﴾ قيـل : هى الوَطِيح والنَّطاة والسُّلالِم والكَتِيبة . ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى من أمره . وكانوا أهل حَلْقة — أى سـلاح كثير — وحصون منيعة ؛ فلم يمنعهم شىء منهـا . ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى أمره وعذابه . ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى لم يظنوا . وقيل : من حيث لم يعلموا . وقيل : « من حيث لم يحتسبوا » بقتل كَعْب بن الأشرف ؛ قاله ابن جُريج والسُّدّى وأبو صالح .

قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ بقتل سَيّدهـم كعب بن الأشرف ؛ وكان الذى قتله هو محمد بن مَسْلمة ، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش — وكان أخا كعب ابن الأشرف من الرضـاعة — وعبّاد بن بِشر بن وَقْش ، والحـارث بن أَوْس بن معاذ ، وأبو عَبْس بن جبر . وخبره مشهور فى السيرة . وفى الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " نُصرت بالرعب بين يَدَىْ مَسِيرةِ شهر " فكيف لا ينصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلة بنى النضير . وهذه خِصِّيصَى لمحمد صلى الله عليه وسلم دون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب ؛ أى يهدمون . وقرأ السُّلَمِى والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو « يُخَرِّبُونَ » بالتشديد من التخريب . قال أبو عمرو : إنما اخترت التشديد لأن الإخراب تركُ الشئ خرابا بغير ساكن ، و بنو النضير لم يتركوها خرابا و إنما خَرّبوها بالهدم ؛ يؤيده قوله تعالى : « بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ » . وقال آخرون : التخريب والإخراب بمعنى واحد ، والتشديد بمعنى التكثير . وحكى سيبويه : أن معنى فَعّلت وأفعلت يتعاقبان ؛ نحو أخربته وخَرّبته وأفرحته وفرّحته . واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأولى . قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخرّبون من خارج ليدخلوا ، واليهود يُخَرّبون من داخل ليبنُوا به ماخُرِّب من حصنهم . فروى أنهم صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولاله ؛ فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبىّ الذى نُعت فى التوراة ، فلا تردّ له راية . فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة ، فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة ، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصارىّ فقتل كَعْبًا غِيلَةً ثم صَبّحهم بالكتائب ؛ فقال لهم : اخرجوا من المدينة . فقالوا : الموت أحب إلينا من ذلك ؛ فتنادَوْا بالحرب . وقيل : استمهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدسّ إليهم عبد الله ابن أُبَىّ المنافقُ وأصحابُه لاتخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم ، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم . فدرّبُوا على الأزقّة وحصّنوها إحدى وعشرين ليلة ، فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب وأيِسُوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح ؛ فأبى عليهم إلا الجلاء ؛ على ما يأتى بيانه . وقال الزهرى وابن زيد وعُرْوة بن الزبير : لما صالحهم النبىّ صلى الله عليه وسلم على أن لهم ماأقلّت الإبل ؛ كانوا يستحسنون الخشَبة والعمود فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم ويُخَرِّب المؤمنون باقيها . وعن ابن زيد أيضا : كانوا يخربونها لئلا يسكنها المسلمون بعدهم . وقال ابن عباس : كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دُورهم هدموها ليتسع موضع القتال ، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التى بعدها ليتحصنوا فيها ، و يرموا

بالتى أخرجوا منها المسلمين . وقيل : ليسدّوا بها أزقّتهم . وقال عِكرمة « بأيديهم » فى إخراب دواخلها ومافيها لئلا يأخذه المسلمون . و بـ « أيدى المؤمنـين » فى إخراب ظاهرِها ليصلوا بذلك إليهم . قال عكرمة : كانت منازلهم مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها ، فخربوها من داخل وخربها المسلمون من خارج . وقيل : « يخرِبون بيوتهم » بنقض المواعدة « وأيدى المؤمنين » بالمقاتلة ؛ قاله الزهرىّ أيضا . وقال أبو عمرو بن العلاء « بأيديهم » فى تركهم لها . وبـ « أيدى المؤمنين » فى إجلائهم عنها . قال ابن العربىّ : التناول للإفساد إذا كان باليـد كان حقيقة ، و إذا كان بنقض العهد كان مجـازاً ؛ إلا أنّ قول الزهرىّ فى المجاز أمثل من قول أبى عمرو بن العَلَاء .

قوله تعـالى : ﴿ فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى ٱتعظوا يا أصحاب العقول والألباب . وقيل : يا من عاين ذلك ببصره . فهو جمع للبصر . ومن جملة الاعتبار هنـا أنهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منهـا . ومن وجوهه : أنه سلّط عليهم من كان ينصرهم . ومن وجوهه أيضا : أنهم هدموا أموالهم بأيديهم . ومن لم يعتبر بغيره ٱعتبر فى نفسه . وفى الأمثال الصحيحة : « السَّعيد من وُعظ بغيره » .

قوله تعـالى : وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾ أى لولا أنه قضى أنه سيُجليهم عن دارهم ، وأنهم يبقون مدّة فيؤمن بعضهم ويولد لهم من يؤمن . ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى بالقتل والسَّبْى كما فعـل ببنى قُرَيظة . والجلاء مفارقـة الوطن؛ يقال : جَلَا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء . والفرق بين الجـلاء والإخراج و إن كان معناهما فى الإبعـاد واحدا من وجهين : أحدهما ــ أن الجـلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قـد يكون مع بقاء

الأهل والولد . الثانى — أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لواحد ولجماعة؛ قاله المـاوَرْدِىّ .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الجلاء .﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ ﴾ أى عادَوْه وخالفوا أمره . ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ ﴾ قرأ طَلْحة بن مُصَرِّف ومحمـد بن السَّمَيْقَع « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ » بإظهار التضعيف كالتى فى « الأنفال »(1) ، وأدغم الباقون .

قوله تعـالى : مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ « ما » فى محل نصب بـ « قطعتم » ؛ كأنه قال : أىّ شىء قطعتم . وذلك أن النبىّ صـلى الله عليه وسلم لـمـا نزل على حصون بنى النّضِـير — وهى البُوَيْرَة — حين نقضوا العهـد بمعُونة قريش عليه يوم أُحُد ، أمر بقطع نخيلهم و إحراقها . واختلفوا فى عدد ذلك ؛ فقال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات . وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة . وكان ذلك عن إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بأمره؛ إمّا لإضعافهم بها و إما لسَعَة المكان بقطعها . فشقّ ذلك عليهم فقالوا — وهم يهود أهـل الكتاب — : يا محمـد ، ألست تزعم أنك نبىّ تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ، وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد فى الأرض ! ؟ فشق ذلك على النبىّ صلى الله عليه وسلم . ووجد المؤمنون فى أنفسهم حتى اختلفوا ؛ فقـال بعضهم : لا تقطعوا ممـا أفاء الله علينا . وقال بعضهم : اقطعوا لنغيظهم بذلك . فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع وتحليل من قطع من الإثم ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله . وقال شاعرهم سَمّاك اليهودىّ فى ذلك :

---

(1) آية ١٣

ألسنا ورثنا الكتاب الحكيم * على عهد موسى ولم نَصْدِف
وأنتم رِعاءٌ لشاءٍ عِجاف * بسهل تِهامةَ والأَخْيَف
تَرَوْن الرعايةَ مجدًا لكم * لدى كلّ دهرٍ لكم مُجْحِف
فيأيها الشاهدون آنتهُوا * عن الظلم والمنطق المُؤْنِف
لعل الليالى وصَرْفَ الدُّهور * يُدِلْن من العادل المنصف
بقَتْل النَّضير وإجلائها [1] * وعَقْرِ النخيل ولم تُقْطَف

فأجابه حسان بن ثابت :

تفاقد [2] مَعْشَرٌ نصرُوا قريشًا * وليس لهم ببلدتهم نَصيرُ
هُمُو أوتوا الكتاب فضيّعوه * وهم عُمْيٌ عن التوراة بُورُ
كفرتم بالقُرآن وقد أبيتم [3] * بتصديق الذى قال النذير
وهان على سَرَاة بنى لُؤَىّ * حريقٌ بالبُوَيرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

أدام الله ذلك من صنيع * وحَرّق فى نواحيها [4] السَّعِيرُ
ستعلم أيُّنا منها بنُزْهٍ * وتعلم أىّ أرْضَيْنا تَضير
فلو كان النخيل بها رِكابًا * لقالوا لا مُقامَ لكم فسِيرُوا

الثانيـة — كان خروج النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم فى ربيع الأوّل أوّل السنة الرابعة من الهجرة ، وتحصّنوا منه فى الحصون ، وأمر بقطع النخل وإحراقها ، وحينئذ نزل تحريم الخمر . ودَسّ عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بنى النَّضير : إنّا معكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ؛ فآغترُّوا بذلك . فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم وألقوا بأيديهم ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكف عن

(١) فى سيرة ابن هشام : « وأجلائها » . (٢) فى سيرة ابن هشام : « تعاهد » .
(٣) فى السيرة : « أتيتم » . (٤) فى السيرة : « فى طرائقها » .

دمائهم ويُخْليهم؛ على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا كذلك إلى خَيْبَر، ومنهم من سار إلى الشام . وكان ممن سار منهم إلى خَيْبَر أكابرهم؛ كحُيَيّ بن أَخْطب، وسَلّام بن أبي الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع . فدانت لهم خَيْبر .

الثالثة — ثبت في صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع نخل بنى النَّضير وحرّق . ولها يقول حسان :

وهان على سَرَاة بنى لُؤَىٍّ * حريقٌ بالبُوَيْرة مستطير

وفي ذلك نزلت « ما قَطَعْتُمْ مِن لِينَةٍ » الآية .

واختلف الناس في تخريب دار العدوّ وتحريقها وقطع ثمارها على قولين : الأوّل — أن ذلك جائز؛ قاله في المدوّنة . الثاني — إن علم المسلمون أن ذلك لهم لم يفعلوا ، وإن يئسوا فعلوا؛ قاله مالك في الواضحة . وعليه يناظر أصحاب الشافعي . ابن العربي : والصحيح الأوّل . وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخل بنى النَّضير له ؛ ولكنه قَطع وحرّق ليكون ذلك نكاية لهم ووَهْناً فيهم حتى يخرجوا عنها . وإتلافُ بعض المال لصلاح باقيه مصلحةٌ جائزة شرعا ، مقصودٌ عقلا .

الرابعة — قال الماوردىّ : إن في هذه الآية دليلًا على أن كلّ مجتهد مصيب . وقاله الكِيَا الطبرىّ قال : وإن كان الاجتهاد يبعد في مثله مع وجود النبيّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك وسكت ؛ فتلقّوا الحكم من تقريره فقط . وقال ابن العربىّ : وهذا باطل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معهم ، ولا اجتهاد مع حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يدل على اجتهاد النبىّ صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل عليه ؛ أخذاً بعموم الإذاية للكفار ، ودخولا في الاذن للكل بما يقضى عليهم بالاجتياح والبَوار ؛ وذلك قوله تعالى : « وَلِيُخْزِىَ الفاسِقِين » .

الخامسة — اختلف في اللِّينة ما هي ؛ على أقوال عشرة : الأوّل — النخل كله إلا العَجْوة ؛ قاله الزهرىّ ومالك وسعيد بن جُبير وعِكْرمة والخليل . وعن ابن عباس ومجاهد

والحسن : أنها النخل كله ، ولم يستثنوا عَجْوة ولا غيرها . وعن ابن عباس أيضا : أنها لون من النخل . وعن الثَّوْرِيّ : أنها كرام النخل . وعن أبي عبيدة : أنها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبَرْنِيّ (١) . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصّةً . وذكر أن العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام في السفينــة . والعتيق : الفحل . وكانت العَجْوة أصل الإناث كلها فلذلك شــق على اليهود قطعها ؛ حكاه المــاوردي . وقيــل : هي ضرب من النخل يقال لتمره : اللَّون ، تمره أجود التمر ، وهو شــديد الصفرة ، يُرَى نواه من خارجه ويغيب فيــه الضِّرس ؛ النخلة منها أحبّ إليهم من وَصِيف . وقيل : هي النخلة القريبــة من الأرض . وأنشد الأخفش :

قــد شجاني الحمام حين تَغَنَّى * بفراق الأحباب من فوق لِينَــهْ

وقيل : إن اللِّينة الفَسِيلة ؛ لأنها ألين من النخلة . ومنه قول الشاعر :

غَرَسُــوا لينها بمجرى مَعِين * ثم حَفّــوا النخيـــل بالآجام

وقيل : إن اللِّينة الأشجارُ كلّها للينها بالحياة ؛ قال ذو الرُّمّة :

طِراقُ الخَــوَافِي واقعٌ فوق لِينة * نَدَى لَيْــلِه في ريشــه يترقرق

والقول العاشر — أنها الدَّقَل ؛ قاله الأصمعي . قال : وأهل المدينة يقولون لا تنتفخ الموائد حتى توجد الألوان ؛ يعنون الدَّقَل . قال ابن العــربيّ : والصحيح ما قاله الزهريّ ومالك لوجهين : أحدهما — أنهما أعرف ببلدهما وأشجــارهما . الثاني — أن الاشــتقاق يَعْضُده وأهل اللغة يصححونه ؛ فإن اللِّينة وزنها لُونة ، واعتلّت على أصولهم فآلت إلى لِينة فهي لَون ، فإذا دخلت الهــاء كُسر أولها ؛ كبَرْك الصــدر (بفتح الباء) وبِرْكه (بكسرها) لأجل الهــاء . وقيل لِينة أصلها لِوْنة فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . وجمع اللينة لِين . وقيل لِيان ؛ قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه :

وســالفة كَســحُوق اللِّيــا * نِ أَضْرَم فيهــا الغَــوِيُّ السُّعُرْ

---

(١) (البرني بفتح فسكون) : ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء ، عذب الحلاوة .

وقال الأخفش : إنما سميت لينة اشتقاقا من اللّون لا من اللين . المهدَوِىّ : واختلف فى اشتقاقها ؛ فقيل : هى من اللون وأصلها لُونة . وقيل : أصلها لِينة من لان يلين . وقرأ عبد الله « ما قطعتم مِن لِينةٍ ولا تركتم قوماء على أصولها » أى قائمة على سوقها . وقرأ الأعمش « ما قطعتم مِن لِينةٍ أو تركتموها قُوَّماً على أصولها » المعنى لم تقطعوها . وقرئ « قَوْماء على أُصُلِها » . وفيه وجهان : أحدهما — أنه جمع أصلٍ ؛ كَرْهن ورُهُن . والثانى — اكْتُفِى فيه بالضمة عن الواو . وقرئ « قائما على أصوله » ذهابا إلى لفظ « ما » . ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بأمره ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى ليذلّ اليهود الكفار به وبنبيّه وكتبه .

قوله تعالى : وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ ﴾ يعنى ما ردّه الله تعالى ﴿ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ من أموال بنى النَّضِير . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أوضعتم عليه . والإيجاف : الإيضاع فى السير وهو الإسراع ؛ يقال : وَجَف الفرسُ إذا أسرع ، وأوجفته أنا أى حركته وأتعبته ؛ ومنه قول تميم بن مقبل :

مَذاويد بالبيض الحديث صِقالُها * عن الركب أحيانا إذا الركب أَوْجَفُوا

والركاب الإبل ، واحدها راحلة . يقول : لم تقطعوا إليها شُقّة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة ؛ وإنما كانت من المدينة على مِيلَيْن . قال الفرّاء : فمَشَوْا إليها مَشْيًا ولم يركبوا خيلا

ولا إبلا ؛ إلا النبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه ركب جملا وقيل حمارا مخطوما بليف ، فافتتحها صلحا وأجلاهم وأخذ أموالهم . فسأل المسلمون النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يَقسم لهم فنزلت « وما أفاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهم فما أَوْجَفْتُمْ عَلَيهِ » الآية . فجعل أموال بنى النَّضير للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً يضعها حيث شاء؛ فقسمها النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين. قال الواقديّ ورواه ابن وهب عن مالك : ولم يعط الأنصار منها شيئا إلا ثلاثة نفر محتاجين ؛ منهم أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة ، وسهل بن حُنيف ، والحارث بن الصِّمّة . وقيل : إنما أعطى رجلين، سهلًا وأبا دُجَانة . ويقال : أعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفا له ذِكْرٌ عندهم . ولم يُسلم من بنى النضير إلا رجلان : سفيان ابن عمير، وسعد بن وهب ؛ أسلما على أموالهما فأحرزاها . وفى صحيح مسلم عن عمر قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنة، وما بقى يجعله فى الكُرَاع والسلاح عُدّة فى سبيل الله تعالى . وقال العباس لعمر — رضى الله عنهما — : اقض بيني و بين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن — يعنى عليًّا رضى الله عنه — فيما أفاء الله على رسوله من أموال بنى النضير. فقال عمر: أتعلمان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا نُورَثُ ما تركناه صدقة" قالا نعم . قال عمر : ان الله عز وجل كان خص رسوله صلى الله عليه وسلم بخاصة لم يُخَصِّص بها أحدًا غيره . قال : « ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ مِن أهْلِ القُرَى فَلِلّهِ ولِلرَّسُولِ » (ما أدرى هل قرأ الآية التى قبلها أم لا) فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينكم أموال بنى النَّضير ، فوالله ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقى هذا المال . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقى أُسْوَةَ المال ... الحديث بطوله ، خرّجه مسلم . وقيل : لما ترك بنو النَّضير ديارهم وأموالهم طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظ كالغنائم؛ فبيّن الله تعالى أنها فَىْءٌ، وكان قد جرى ثَمّ بعضُ القتال؛ لأنهم حُوصِرُوا أيامًا وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء، ولم يكن قتال على التحقيق ، بل جرى مبادئ القتال وجرى الحصار،

وخص الله تلك الأموال برسوله صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد: أعلمهم الله تعالى وذكّرهم أنه إنما نصر رسوله صلى الله عليه وسلم ونصرهم بغير كُراع ولا عُدّة . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى من أعدائه . وفى هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصّةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون أصحابه .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ قال ابن عباس : هى قُرَيْظَة والنَّضير، وهما بالمدينة وفَدَك ، وهى على ثلاثة أيام من المدينة وخَيْبَر . وقُرَى عُرَينة ويَنْبُع جعلها الله لرسوله . وبيّن أن فى ذلك المال الذى خصه بالرسول عليه السلام سُهْماناً لغير الرسول نظراً منه لعباده . وقد تكلم العلماء فى هذه الآية والتى قبلها ، هل معناهما واحد أو مختلف ، والآية التى فى الأنفال؛ فقال قوم من العلماء : إن قوله تعالى: « ما أفاء الله على رَسُولِهِ من أهلِ القُرَى » منسوخ بما فى سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سُمِّيَ له ، والأخماس الأربعة لمن قاتل . وكان فى أوّل الإسلام تُقسم الغَنيمة على هذه الأصناف ولا يكون لمن قاتل عليها شيء . وهذا قول يزيد بن رُومان وقتادة وغيرهما . ونحوه عن مالك . وقال قوم : إنما غنم بصلح من غير إيجاف خَيْل ولا رِكاب؛ فيكون لمن سمى الله تعالى فيه فَيْئاً والأولى للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّة ، إذا أخذ منه حاجته كان الباقى فى مصالح المسلمين . وقال معمر : الأولى للنبيّ صلى الله عليه وسلم . والثانيــة هى الجزية والخراج للأصناف المذكورة فيه . والثالثة الغنيمة فى سورة الأنفال للغانمين . وقال قوم منهم الشافعيّ : إن معنى الآيتين واحد؛ أى ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وكان الخمس الباقى على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا ، وسهم لذوى القربى ـــ وهم بنو هاشم و بنو المطلب ـــ لأنهم مُنِعوا الصدقة فجُعل لهم حق فى الفيء . وسهم لليتامى . وسهم للمساكين . وسهم لابن السبيل . وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالذى كان من الفيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف عند الشافعيّ فى قولٍ إلى المجاهدين المترصدين للقتال فى الثغور؛ لأنهم القائمون

مقام الرســول عليه الصلاة والســلام . وفي قول آخر له : يصرف إلى مصالح المسلمين من سدّ الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر، يُقدّم الأهم فالأهم ؛ وهذا في أربعة أخماس الفيء . فأما السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم بلا خلاف؛ كما قال عليــه الصلاة والسلام : " ليس لي من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم " . وقد مضى القول فيــه في سورة « الأنفال »[(١)] . وكذلك ما خلفه من المــال غير موروث ، بل هو صــدقة يُصرف عنه إلى مصــالح المسلمين ؛ كما قال عليه الســلام : " إنا لا نورث ما تركناه صــدقة " . وقيــل : كان مال الفيء لنبيّــه صلى الله عليه وســلم ؛ لقوله تعــالى : « ما أفاء الله على رســوله » فأضــافه إليه ؛ غير أنه كان لا يتــأثّل[(٢)] مالاً ، إنمــا كان يأخذ بقــدر حاجة عياله ويصرف البــاقي في مصالح المســلمين . قال القــاضي أبو بكر بن العــربي : لا إشــكال أنهــا ثلاثة معانٍ في ثلاث آيات ؛ أما الآية الأولى فهي قوله : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِــم لِأَوَّلِ الحَشْرِ » ثم قال تعالى : « وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُــمْ » يعني من أهــل الكتاب معطوفاً عليهم . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ ولا رِكَابٍ ﴾ يريد كما بيّنا ؛ فلاحق لكم فيه ، ولذلك قال عمر: إنها كانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وســلم ؛ يعني بني النضير وما كان مثلها . فهذه آية واحدة ومعنًى متحد . الآية الثانية — قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ » وهذا كلام مبتدأ غير الأول لمستحق غير الأول . وسمى الآية الثالثة آية الغنيمة ، ولا شك في أنه معنًى آخر باستحقاق ثان لمستحق آخر، بَيْدَ أن الآية الأولى والثانية ، اشتركتا في أن كل واحدة منهما تضمّنت شيئًا أفاءه الله على رسوله ، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثالثة وهي قوله تعالى : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُــولِهِ مِنْ أَهْــلِ القُرَى » عن ذكر حصوله بقتال أو بغــير قتال ؛ فنشأ الخلاف من هاهنا ، فمن طائفة قالت : هي ملحقة بالأولى ، وهو مال الصلح كله ونحوه .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١١ طبعة أولى أو ثانية .		(٢) المتأثل : الجامع .

ومن طائفة قالت : هى ملحقة بالثانية وهى آية الأنفال . والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا ؛ هل هى منسوخة — كما تقدّم — أو محكمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالأولى أولى ؛ لأن فيه تجديد فائدة ومعنى . ومعلوم أن حمل الحرف من الآية فضلا عن الآية على فائدة متجدّدة أولى من حمله على فائدة معادة» . وروى ابن وهب عن مالك فى قوله تعالى : « فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » بنى النضير . لم يكن فيها خمس ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب . كانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار؛ حسب ما تقدّم . وقوله : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » هى قُرَيظة ، وكانت قريظة والخندق فى يوم واحد . قال ابن العربى : قول مالك إن الآية الثانية فى بنى قُريظة ، إشارةٌ إلى أن معناها يعود إلى آية الأنفال ، ويلحقها النسخ . وهذا أقوى من القول بالإحكام . ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبينا أن الآية الثانية لها معنى مجدّد حسب ما دللنا عليه . والله أعلم .

قلت — ما اختاره حَسَن . وقد قيل : إن سورة « الحشر » نزلت بعد الأنفال ، فمن المحال أن ينسخ المتقدّمُ المتأخر . وقال ابن أبى نَجيح : المال ثلاثة : مَغْنم ، أو فَىْءٌ ، أو صَدَقة ؛ وليس منه درهم إلا وقد بيّن الله موضعه . وهذا أشبه .

الثالثة — الأموال التى للأئمة والوُلاة فيها مَدْخَلٌ ثلاثةُ أضْرُب : ما أُخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم ؛ كالصدقات والزكوات . والثانى — الغنائم ؛ وهو ما يحصل فى أيدى المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغَلَبة . والثالث — الفَىْء ؛ وهو ما رجع للسلمين من أموال الكفار عَفْوًا صَفْوًا من غير قتال ولا إيجاف ؛ كالصلح والجِزْية والخَراج والعُشور المأخوذة من تجار الكفار . ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم ، أو يموت أحد منهم فى دار الإسلام لا وارث له . فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها ؛ حسب ما ذكره الله تعالى ، وقد مضى فى « براءة »(١) . وأما الغنائم فكانت

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

فى صدر الإسلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما شاء؛ كما قال فى سورة « الأنفال » : « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » ، ثم نسخ بقوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » الآية . وقد مضى فى الأنفال بيـانه (١) . فأما الفَيْء فقسمته وقسمة الخمس سواء . والأمر عنـد مالك فيهما إلى الإمام ، فإن رأى حبسهما لنـوازل تنزل بالمسلمين فَعَـل ، وإن رأى قسمتهما أو قسـمة أحدهما قَسَمه كلَّه بين الناس ، وسوّى فيه بين عَرَبِيِّهم ومَوْلاهم . ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يَغْنَوْا ، و يعطوْا ذَوُو القـربى من رسول الله صلى الله عليه وسـلم من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام ، وليس له حدّ معلوم . واختلف فى إعطاء الغنيّ منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه لأنه حقٌّ لهم . وقال مالك : لا يعطى منه غير فقرائهم ؛ لأنه جُعل لهـم عِوَضًا من الصدقة . وقال الشافعي : أيمـا حصل من أموال الكفار من غير قتال كان يقسم فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم على خمسة وعشرين سهما : عشرون للنبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل فيها ما يشـاء . والخُمس يقسم على ما يقسم عليه خُمس الغَنيمة . قال أبو جعفر أحمـد ابن نصر الدّاوُدِيّ : وهذا قولٌ ما سبقه به أحد علمناه ، بل كان ذلك خالصا له ؛ كما ثبت فى الصحيح عن عمر مبيِّنا للآية . ولو كان هذا لكان قوله : « خالصةً لك مِنْ دُونِ المؤمنين » (٢) يدل على أنه يجوّز الموهوبة لغيره ، وأن قوله : « خالِصةً يومَ القيامةِ » (٣) يجوز أن يشركهم فيها غيرهم . وقد مضى قول الشافعيّ مستَوْعَبًا فى ذلك والحمد لله . ومذهب الشافعيّ رضى الله عنه : أن سبيل خمس الفَيء سبيل خمس الغَنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهى بعـده لمصالح المسلمين . وله قول آخر : أنها بعـده للرصدين أنفسهم للقتال بعـده خاصة ؛ كما تقدم .

الرابعـــة ــــ قال علماؤنا : ويقسم كل مال فى البلد الذى جُبِيَ فيه ، ولا ينقل عن ذلك البلد الذى جُبِيَ فيه حتى يَغْنَوْا ، ثم ينقل إلى الأقرب من غيرهم ؛ إلا أن ينزل بغير البلد الذى جُبِيَ فيه فاقةٌ شديدة ، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا ؛ كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أعوام الرَّمادة ، وكانت خمسة أعوام أو ستة . وقد قيـل عامين . وقيـل :

(١) راجع جـ ٨ ص ٩ . (٢) آية ٥٠ سورة الأحزاب . (٣) آية ٣٢ سورة الأعراف .

عام فيه اشتدّ الطاعون مع الجوع . وإن لم يكن ما وصفنا ورأى الإمام إيقاف الفَىْء أوقفه لنوائب المسلمين ؛ ويعطى منه المنفوس ويبدأ بمن أبوه فقير . والفىء حلال للأغنياء . ويسوى بين الناس فيه إلا أنه يؤثر أهل الحاجة والفاقة . والتفضيل فيه إنما يكون على قدر الحاجة . ويعطى منه الغرماء ما يؤدّون به ديونهم . ويعطى منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلا ؛ ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للسلمين . وأوْلاهم بتوفر الحظ منهم أعظمهم للسلمين نفعًا . ومن أخذ من الفىء شيئا فى الديوان كان عليه أن يغزو إذا غزى .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً ﴾ قراءة العامة « يكون » بالياء . « دُولَةً » بالنصب ؛ أى كى لا يكون الفَىْء دُولةً . وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام ــ عن ابن عامر ــ وأبو حَيْوَة « تكون » بتاء « دُولةٌ » بالرفع ؛ أى كى لا تقع دُولة . فكان تامة . و « دُولَةٌ » رفع على آسم كان ولا خبر له . ويجوز أن تكون ناقصة وخبرها « بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » . وإذا كانت تامة فقوله : « بين الأغنياء منكم » متعلق بـ « دُولة » على معنى تداول بين الأغنياء منكم . ويجوز أن يكون « بين الأغنياء منكم » وصفا لـ « دولة » . وقراءة العامة « دُولة » بضم الدال . وقرأها السُّلَمِىّ وأبو حَيْوَة بالنصب . قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعى : هما لغتان بمعنًى واحد . وقال أبو عمرو بن العَلَاء : الدَّوْلَة (بالفتح) الظَّفَر فى الحرب وغيره ؛ وهى المصدر . وبالضم آسم الشىء الذى يُتداول من الأموال . وكذا قال أبو عبيدة : الدُّولة آسم الشىء الذى يتداول . والدَّوْلة الفعل . ومعنى الآية : فعلنا ذلك فى هذا الفَىْء ؛ كى لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنِموا أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه ؛ وهو المِرْباع . ثم يصطفى منها أيضا بعد المِرْباع ما شاء . وفيها قال شاعرهم :

* لك المِـرْباع منها والصَّفايا (1) *

(1) البيت بتمامه :

لك المرباع منها والصفايا * وحكمك والنشيطة والفضول

وهو لعبد الله بن عنمة الضبى يخاطب بسطام بن قيس . والنشيطة ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل الى مجتمع الحى . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما .

يقول: كى لا يعمل فيه كما كان يعمل فى الجاهلية . بجعل الله هذا لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ يقسمه فى المواضع التى أمر بها ليس فيها خمس ، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعا .

السادســـة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أى ما أعطاكم من مال الغَنيمة فخــذوه ، وما نهاكم عنه من الأخذ والغُلول فآنتهوا ؛ قاله الحسن وغيره . السُّدِّى : ما أعطاكم من مال الفَيْء فآقبلوه، وما منعكم منــه فلا تطلبوه . وقال آبن جُريج : ما آتاكم من طاعتى فافعــلوه ، وما نهاكم عنه من معصيتى فاجتنبوه . المــاوَرْدِىّ : وقيل إنه محمول على العموم فى جميع أوامره ونواهيه؛ لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهى إلا عن فساد .

قلت : هذا هو معنى القول الذى قبله . فهى ثلاثة أقوال .

السابعـــة ــ قال المهدوِىّ : قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » هذا يوجب أن كل ما أمر به النبىّ صلى الله عليه وسلم أَمْرٌ من الله تعالى . والآية وإن كانت فى الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها . وقال الحَكَم بن عُمير ــ وكانت له صحبة ــ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن صَعْبٌ مُسْتَصْعَب عسير على من تركه يسير على من آتبعه وطلبه . وحديثى صعب مستصعب وهو الحكم فمن استمسك بحديثى وحفظه نجا مع القــرآن . ومن تهاون بالقرآن وحديثى خسر الدنيا والآخرة . وأمرتم أن تأخذوا بقولى وتكتنفوا أمرى وتتبعوا ســنتى فمن رضى بقولى فقــد رضى بالقرآن ومن اســتهزأ بقولى فقــد استهزأ بالقرآن قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُــذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » " .

الثامنـــة ــ قال عبد الرحمن بن زيد: لقى ابن مسعود رجلاً مُحْرِماً وعليه ثيابه فقال له : انزع عنك هذا . فقال الرجل أتقرأ علىّ بهذا آيةً من كتاب الله تعالى ؟ قال : نعم، « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وقال عبد الله بن محمد بن هارون الفِرْيَابِىّ : سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول : سلونى عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم؛ قال فقلت له : ما تقول ــ أصلحك الله ــ فى المُحْرِم يقتل الزُّنْبُور ؟ قال فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وحدثنا سُفيان بن عُيَيْنَة عن عبد الملك بن عُمير عن رِبْعِيّ بن حِراش عن حُذيفة بن اليَمَان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر" . حدثنا سفيان ابن عُيينة عن مِسْعَر بن كِدَام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أنه أمر بقتل الزُّنْبُور . قال علماؤنا : وهذا جواب فى نهاية الحسن، أفتى بجواز قتل الزنبور فى الإحرام، وبيّن أنه يقتدى فيه بعمر، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به ، وأن الله سبحانه أمر بقبول ما يقوله النبىّ صلى الله عليه وسلم . فجواز قتله مستنبط من الكتاب والسنة . وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سئل عن أمهات الأولاد فقال : هن أحرار فى سورة « النساء » عند قوله تعالى : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ »(١) . وفى صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لعن الله الواشِماتِ والمُسْتَوْشِماتِ والمُتَنَمِّصاتِ(٢) والمُتَفَلِّجاتِ للحُسْن المُغَيِّرات خلقَ الله" فبلغ ذلك امرأةً من بنى أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت : بلغنى أنك لعنتَ كَيْتَ وكَيْت ! فقال . ومالِيَ لا ألعنُ مَن لعنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله ! فقالت : لقد قرأت ما بين اللَّوْحَيْن فما وجدت فيه ما تقول . فقال : لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه ! أما قرأت « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ! قالت : بلى . قال : فإنه قد نَهَى عنه . الحديث . وقد مضى القول فيه فى « النساء »(٣) مستوفًى .

التاسعة — قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » وإن جاء بلفظ الإيتاء وهو المناولة فإن معناه الأمر؛ بدليل قوله تعالى : « وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فقابله بالنهى ، ولا يقابل النهى إلا بالأمر؛ والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبلُ مع قوله عليه الصلاة والسلام : "إذا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٥٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) المتنمصات : (جمع متنمصة) وهى التى تنتف الشعر من وجهها . والمتفلجات : (جمع متفلجة) وهى التى تتكلف أن تفرق بين سنها من الثنايا والرباعيات .

(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٩٢

أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه". وقال الكلبي : إنها نزلت في رؤساء المسلمين ، قالوا فيما ظهر عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من أموال المشركين : يا رسول الله، خذ صَفِيّك والرُّبع ، ودَعْنا والباقي ؛ فهكذا كنا نفعل في الجاهلية . وأنشدوه :

لك المِرْباع منها والصَّفايا * وحُكْمُكَ والنَّشيطة والفُضُولُ

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي عذاب الله ، إنه شديد لمن عصاه . وقيل : اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيّعوها . ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف ما أمره به .

قوله تعالى : لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

أي الفَيْءُ والغنائم « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » . وقيل : « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ » ولكن يكون « للفقراء » . وقيل : هو بيان لقوله : « وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » فلما ذُكروا بأصنافهم قيل المال لهؤلاء، لأنهم فقراء ومهاجرون وقد أخرجوا من ديارهم ؛ فهم أحق الناس به . وقيل : « وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ » للفقراء المهاجرين لكيلا يكون المال دولة للأغنياء من بني الدنيا . وقيل : والله شديد العقاب للمهاجرين ؛ أي شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجلهم . ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدم ذكرهم في قوله تعالى : « وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ » . وقيل : هو عطف على مامضى ، ولم يأت بواو العطف كقولك : هذا المال لزيد لبكر لفلان لفلان . والمهاجرون هنا من هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حُبًّا فيه ونُصْرَةً له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبًّا لله ولرسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يَعْصِب الحجر على بطنه ليقيم به صُلْبَه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحَفِيرة في الشتاء

ماله دِثار غيرها . وقال عبد الرحمن بن أبزَى وسـعيد بن جبير : كان ناس من المهـاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والنـاقة يحجّ عليها و يغـزو ، فنسبهم الله إلى الفقر وجعل لهم سهمًا فى الزكاة . ومعنى « أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم » أى أخرجهم كفار مكة؛ أى أحْوَجُوهم إلى الخروج ؛ وكانوا مائة رجل . ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون . ﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ ﴾ أى غنيمة فى الدنيا ﴿ وَرِضْوانًا ﴾ فى الآخرة ؛ أى مرضاة ربهم . ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد فى سبيل الله . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ فى فعلهم ذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بالجابية (١) فقال : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبَىّ بن كعب . ومن أراد أن يسـأل عن الفرائض فليـأت زيد بن ثابت . ومن أراد أن يسـأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل . ومن أراد أن يسأل عن المـال فليأتنى ؛ فإن الله تعالى جعلنى له خازنا وقاسما . ألَا وإنى بادٍ بأزواج النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فمعطيهن ، ثم المهاجرين الأولين ؛ أنا وأصحابى أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ لاخلاف أن الذين تبوّءوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها . « والإيمانَ » نصب بفعل غير تبوّأ ؛ لأن التبوّء إنما يكون فى الأماكن . و ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ « من » صلة تبوّأ والمعنى : والذين تبوّءوا الدار من قبل المهاجرين واعتقدوا الإيمان وأخلصـوه ؛ لأن الإيمان

(١) بلدة بدمشق .

ليس بمكان يتبوأ . كقوله تعالى : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ »(١) أى وادعوا شركاءكم؛ ذكره أبو علىّ والزمخشرىّ وغيرهما . ويكون من باب قوله : عَلَفْتُها تِبْناً وماءً باردا . ويجوز حمله على حذف المضاف كأنه قال : تبوّءوا الدار ومواضع الإيمان . ويجوز حمله على ما دل عليه تبوّأ ؛ كأنه قال : لزموا الدار ولزموا الإيمان فلم يفارقوهما . ويجوز أن يكون تبوّأ الإيمان على طريق المَثَل ؛ كما تقول : تبوّأ من بنى فلان الصميم . والتبوّء : التمكن والاستقرار . وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم .

الثانيـــة — واختلف أيضا هل هذه الآية مقطوعة مما قبلها أو معطوفة ؛ فتأول قوم أنها معطوفة على قوله : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » وأن الآيات التى فى الحشر كلها معطوفة بعضها على بعض . ولو تأملوا ذلك وأنصفوا لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه ؛ لأن الله تعالى يقول : « هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيارِهِم لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا — إلى قوله — الفاسِقِين» فأخبر عن بنى النَّضِير وبنى قَيْنُقَاع . ثم قال : « وما أفاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنهم فَمَا أَوْجَفْتُمْ عليه مِنْ خَيْلٍ ولا رِكابٍ ولٰكنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على من يشاء » فأخبر أن ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يُوجف عليه حين خلّوه . وما تقدم فيهم من القتال وقطع شجرهم فقد كانوا رجعوا عنه وانقطع ذلك الأمر . ثم قال : « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين وَابْنِ السَّبِيل » وهذا كلام غير معطوف على الأوّل . وكذا « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ » ابتداء كلام فى مدح الأنصار والثناء عليهم ؛ فإنهم سلّموا ذلك الفىء للمهاجرين ؛ وكأنه قال : الفىء للفقراء المهاجرين ؛ والأنصار يحبون لهم لم يحسدوهم على ما صَفَا لهم من الفىء . وكذا « والذين جاءوا من بعدهم » ابتداء كلام ؛ والخبر « يقولون رَبَّنا آغفر لنا » . وقال إسماعيل آبن إسحاق : إن قوله « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ » « والذين جاءوا » معطوف على ما قبلُ ، وأنهم

---

(١) آية ٧١ سورة يونس .

شركاء فى الفىء ؛ أى هذا المال للمهاجرين والذين تبوءوا الدار . وقال مالك بن أوْس : قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الآية « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ » فقال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » فقال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ « ما أفاءَ اللهُ على رسوله — حتى بلغ — للفقراء المهاجرين » ، « والذين تبوءوا الدار والإيمان » ، « والذين جاءوا من بعدهم » ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعىَ وهو بسَرْوِ حِمْيَر(١) نصيبه منها لم يَعْرَق فيها جبينه . وقيل : إنه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه من ذلك، وقال لهم : تثبتوا الأمر وتدبروه ثم اغدوا علىّ . ففكر فى ليلته فتبين له أن هذه الآيات فى ذلك أنزلت . فلما غَدَوْا عليه قال : قد مررت البارحة بالآيات التى فى سورة « الحشر » وتلا « ما أفاءَ اللهُ على رسوله من أهل القُرَى — إلى قوله — للفقراء المهاجرين » فلما بلغ قوله : « أولئك هم الصادقون » قال : ما هى لهؤلاء فقط . وتلا قوله « والذين جاءوا من بعدهم — إلى قوله — رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . ثم قال : ما بقى أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل فى ذلك . والله أعلم .

الثالثة — روى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر قال : لولا من يأتى من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَيْبَر . وفى الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة ، أن عمر أبقى سواد العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم ؛ لتكون من أُعطيات المقاتلة وأرزاق الحشوة والذّرارى ، وأن الزبير وبلالاً وغير واحد من الصحابة أرادوه على قسم ما فتح عليهم ؛ فكره ذلك منهم . واختلف فيما فعل من ذلك ؛ فقيل : إنه استطاب أنفس أهل الجيش ؛ فمن رضى له بترك حَظّه بغير ثمن ليُبْقِيَه للسلمين قبله . ومن أبى أعطاه ثمن حظه . فمن قال : إنما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم جعل فعله كفعل النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قسم خَيْبر ، لأن اشتراءه إياها وترك من ترك عن طيب نفسه بمنزلة قسمها . وقيل : إنه أبقاها بغير شىء أعطاه أهل الجيوش . وقيل : إنه

(١) سرو حمير : منازل حمير بأرض اليمن . والسرو من الجبل ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل .

تأوّل في ذلك قول الله سبحانه وتعـالى : « للفقراء المهاجرين — إلى قوله — رَبَّنَـا إنك رءوف رحيم » على ما تقدّم . والله أعلم .

الرابعــة — واختلف العلماء في قسمة العَقار؛ فقال مالك : للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين . وقال أبو حنيفـة : الإمام مخيّر بين أن يقسمها أو يجعلها وَقْفًا لمصالح المسلمين . وقال الشافعيّ : ليس للإمام حبسها عنهم بغـير رضاهم، بل يقسمها عليهم كسائر الأموال . فمن طاب نفسًا عن حقه للإمام أن يجعله وقْفًا عليهم فله . ومن لم تَطِب نفسُـه فهو أحق بماله . وعمر رضي الله عنه استطاب نفوس الغانمين وآشتراها منهم .

قلت : وعلى هـذا يكون قوله : « والذين جاءوا من بعدهم » مقطوعًا ممـا قبله، وأنهم نُدبوا بالدعاء للأولين والثناء عليهم .

الخامســة — قال ابن وهب : سمعت مالكًا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال : إن المدينة تُبوِّئت بالإيمان والهجرة، وإن غيرها من القُرَى افتتحت بالسيف؛ ثم قرأ « والذين تَبَوَّءُوا الدارَ والإيمـانَ مِن قبلهم يُحبُّون من هاجر إليهم » الآية . وقد مضى الكلام في هذا، وفي فضل الصلاة في المسجدين : المسجد الحرام ومسجد المدينة؛ فلا معنى للإعادة .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ يعني لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفيْء وغيره ؛ كذلك قال النـاس . وفيـه تقدير حذف مضافين ؛ المعنى مَسَّ حاجةٍ مِن فَقْدِ ما أوتوا . وكل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة . وكان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غَنِم عليـه الصلاة والسلام أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صـنعوا مع المهاجرين في إنزالهـم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم . ثم قال : "إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليّ من بني النَّضِير بينكم وبينهـم، وكان المهاجرون على ما هم عليـه من السكنى في مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم" . فقال سعد بن عُبَادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار : رضينا وسلّمنا يارسول الله . فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : "اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار" . وأعطى رســول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا إلا الثلاثة الذين ذكرناهم . ويحتمل أن يريد به «ولا يَجِدُون فِي صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» إذا كان قليلا [بل] يقنعون به ويرضون عنه. وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم دُنْيَا ، ثم كانوا عليه بعد موته صلى الله عليه وسلم بحكم الدنيا . وقد أنذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : "ستَرون بعدى أَثَرَة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض" .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فى الترمذىّ عن أبى هريرة : أن رجلا بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صِبيانه؛ فقال لامرأته : نوّمى الصِّبية وأطفئى السّراج وقرّبى للضيف ماعندك؛ فنزلت هذه الآية «ويُؤْثِرُون على أنفسِهم ولو كان بهم خَصَاصةٌ» قال : هذا حديث حسن صحيح . خرّجه مسلم أيضا . وخرّج عن أبى هريرة قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى مجهود . فأرسل الى بعض نسائه فقالت : والذى بعثك بالحق ماعندى إلا ماء . ثم أرسل الى الأخرى فقالت مثل ذلك؛ حتى قلن كلهنّ مثلَ ذلك : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . فقال : "مَن يُضيف هذا الليلة رحمه الله . ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله. فانطلق به الى رحله فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت: لا ، إلا قُوتَ صِبيانى . قال : فعلّليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفئى السّراج وأَرِيه أنا نأكل ، فإذا أهوى ليأكل فقومى الى السراج حتى تطفئيه . قال : فقعدوا وأكل الضيف . فلما أصبح غدا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "قد عَجِبَ اللهُ — عز وجل — من صنيعكما بضيفكما الليلة" . وفى رواية عن أبى هريرة قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضيفه فلم يكن عنده ما يضيفه . فقال : "ألا رجل يضيف هذا رحمه الله" ؟ فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة ، فانطلق به الى رحله ...؛ وساق الحديث بنحو الذى قبله ، وذكر فيه نزول الآية . وذكر المهدوىّ عن أبى هريرة أن هذا نزل فى ثابت بن قيس ورجل

من الأنصار — نزل به ثابت — يقال له أبو المتوكل ، فلم يكن عنـد أبي المتوكل إلا قوته وقوت صِبيانه ؛ فقال لامرأته : أطفئى السراج ونوّمى الصبية ؛ وقدّم ما كان عنده الى ضيفه . وكذا ذكر النحاس قال قال أبو هريرة : نزل برجل من الأنصار — يقال له أبو المتوكل — ثابت بن قيس ضيفًا ، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صِبيانه ؛ فقال لامرأته : أطفئى السراج ونوّمى الصبية ؛ فنزلت « ويُؤْثِرُون علَى أنفسِهِم ولو كان بِهِم خصاصة — الى قوله — فأولئك هُمُ المُفْلِحُونَ » . وقيـل : إن فاعل ذلك أبو طلحة . وذكر القشيرىّ أبو نصر عبد الرحيم ابن عبد الكريم : وقال ابن عمر أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج الى هذا منا ؛ فبعثه إليهم ، فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى تداولها سبعة أبيات ، حتى رجعت إلى أولئك ؛ فنزلت « ويُؤْثِرون على أنفسِهِم » . ذكره الثعلبىّ عن أنس قال : أُهْدِىَ لرجل من الصحابة رأسُ شاة وكان مجهودا فوجّه به الى جارٍ له ، فتداولته سبعة أنفس فى سبعة أبيات ، ثم عاد الى الأوّل ؛ فنزلت « ويُؤْثِرون على أنفسِهِم » الآية . وقال ابن عباس قال النبىّ صـلى الله عليه وسلم للأنصار يوم بنى النَّضِير : "إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم فى هـذه الغنيمة وإن شـئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئا" فقالت الأنصـار : بل نقسم لإخواننـا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهـم بالغنيمة ؛ فنزلت « ويُؤْثِرون على أنفسِهِـم » الآية . والأوّل أصح . وفى الصحيحين عن أنس : أن الرجل كان يجعل للنبىّ صـلى الله عليه وسـلم النَّخَلات من أرضه حتى فُتِحت عليـه قُرَيْظة والنَّضِير ؛ فجعل بعد ذلك يردّ عليه ما كان أعطاه . لفظ مسـلم . وقال الزّهرىّ عن أنس بن مالك : لمـا قـدم المهاجرون من مكة المدينةَ قَدِموا وليس بأيديهم شىء ، وكان الأنصار أهلَ الأرض والعَقار ، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوْهم أنصاف ثمـار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمَؤُونة ؛ وكانت أمّ أنس بن مالك تُدْعَى أمّ سُليم ، وكانت أمّ عبدِ الله بن أبى طلحة ، كان أخًا لأَنَسٍ لأمّه ؛ وكانت أعطت أمُّ أَنَسٍ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عِذاقًا (١) لهـا ؛ فأعطاها رسول الله صلى

(١) العذاق : بكسر العين جمع عذق بفتحها ومعناها النخلات .

الله عليه وسلم أمَّ أَيْمَنَ مَوْلَاتَه ، أُمَّ أسامة بن زيد . قال ابن شهاب : فأخبرني أَنَسُ بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خَيْبَر وانصرف إلى المدينة، ردّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا مَنَحُوهم من ثمارهم . قال : فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمي عِذاقها، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَّ أَيْمَنَ مكانهنّ من حائطه . خرّجه مسلم أيضا .

الثامنة — الإيثار، هو تقديم الغير على النفس وحظوظِها الدنياوية، ورغبةً في الحظوظ الدينية . وذلك ينشأ عن قوّة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة . يقال : آثرته بكذا ؛ أي خَصَصته به وفضّلته . ومفعول الإيثار محذوف ؛ أي يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ، لا عن غِنًى بل مع احتياجهم إليها ؛ حسب ما تقدّم بيانه . وفي مُوَطَّأ مالك : « أنه بلغه عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أن مسكينا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف ؛ فقالت لمولاة لها : أعطيه إياه ؛ فقالت : ليس لكِ ما تُفطِرين عليه ؛ فقالت : أعطيه إياه . قالت : ففعلت . قالت : فلما أَمْسَينا أهْدَى لنا أهلُ بيت أو إنسانٌ ما كان يُهدى لنا : شاةً وكَفَنَها[(1)] . فدعتني عائشة فقالت : كُلِي من هذا ، فهذا خير من قُرْصك . قال علماؤنا : هذا من المال الرابح والفعل الزاكي عند الله تعالى يعجل منه ما يشاء، ولا ينقص ذلك مما يدّخر عنه . ومن ترك شيئا لِله لم يجد فَقْدَه . وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة ، وأن من فعل ذلك فقد وَقَى شُحَّ نفسه وأفلح فلاحًا لا خَسارة بعده . ومعنى (شاةً وكَفَنَها) فإن العرب — أو بعض العرب أو بعض وجوههم — كان هذا من طعامهم ، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غَطّوْه كلّه بعجين البُرّ وكَفَنُوه به ثم عَلّقوه في التَّنُّور ، فلا يخرج من وَدَكه شيء إلا في ذلك الكفن ؛ وذلك من طيب الطعام عندهم . وروى النَّسائيّ عن نافع

(1) أي أنها كانت ملفوفة بالرغف ؛ وسيأتي معناه بأوضح من هذا . وقولها : « ما كان يهدى لنا » تريد أن عائشة رضي الله عنها لم تعلم بذلك ولم تحتسب به فتثق به وتعول عليه ، ولكن الله سبحانه عوضها من حيث لا تحتسب . (شرح الموطأ) .

أن ابن عمر اشتكى واشتهى عنبا ، فاَشْتُرِى له عنقود بدرهم ، فجاء مسكين فسأل ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان فاشتراه بدرهم ، ثم جاء به إلى ابن عمر ، فجاء المسكين فسأل ، فقال : أعطوه إياه ، ثم خالف إنسان فاشـتراه بدرهم ، ثم جاء به إليه ، فأراد السائل أن يرجع فمنع . ولو علم ابن عمر أنه ذلك العنقود ما ذاقه ، لأن ما خرج لله لا يعود فيه . وذكر ابن المبـارك قال : أخبرنا محمـد بن مطرّف قال حدّثنا أبو حازم عن عبد الرحمن بن سعيد ابن يَرْبُوع عن مالك الدار : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربعمائة دينار ، فجعلها فى صُرّة ثم قال للغلام : اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجرّاح ، ثم تَلَكَّأْ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها . فذهب بها الغـلام إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : وَصَلَه الله ورَحِمه ، ثم قال : تعالى يا جارية ، اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفذها . فرجع الغلام إلى عمر ، فأخبره فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل ، وقال : اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل ، وتَلَكَّأْ فى البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع ، فذهب بها إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووَصَله ، وقال : يا جارية ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا ، فاطّلعت امرأة معاذ فقالت : ونحن ! والله مساكين فأعطنا . ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران قد جاء بهما إليها . فرجع الغـلام إلى عمر فأخبره فسُرّ بذلك عمر وقال : إنهـم إخوة ! بعضُهم من بعض . ونحوه عن عائشة رضى الله عنها فى إعطاء معاوية إياها ، وكان عشرة آلاف وكان المُنْكَدِر دخل عليها . فإن قيـل : وردت أخبـار صحيحة فى النّهى عن التصـدق بجميع ما يملكه المرء ، قيل له : إنما كره ذلك فى حق من لا يوثق منه الصبـر على الفقر ، وخاف أن يتعرض للمسألة إذا فقد ما ينفقه . فأما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم ، فلم يكونوا بهذه الصفة ، بل كانوا كما قال الله تعالى : « والصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْسِ »(١) . وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك . والإمساك لمن لا يصـبر

(١) آية ١٧٧ سورة البقرة .

و يتعرض للمسألة أولى من الإيثار . وروى أن رجلا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسـلم بمثل البيضة من الذهب فقال : هـذه صدقة ؛ فرماه بها وقال : "يأتى أحدكم بجميـع ما يملكه فيتصدق به ثم يقعد يتكفّف الناس" . والله أعلم .

التاسعـة : — والإيثار بالنفس فـوق الإيثار بالمـال و إن عاد إلى النفس . ومن الأمثال السائرة :

* والجُودُ بالنَّفس أقصَى غاية الجُودِ[1] *

ومن عبارات الصوفية الرشيقة فى حدّ المحبـة : أنها الإيثار ؛ ألا ترى أن آمرأة العزيز لمّـا تناهت فى حُبّها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت : أنا راودته عن نفسه . وأفضل الجود بالنفس الجودُ على حماية رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ؛ ففى الصحيح أن أبا طَلْحة تَرّس على النبيّ صلى الله عليه وسلم يومَ أُحُد ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتطلّع ليرى القوم . فيقول له أبو طلحة : لا تُشرِف يا رسـول الله ! لا يصيبونك ! نَحْـرِى دون نحرك ! ووَقَى بيده رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فشُلّت . وقال حُذيفة العَدَوِىّ : انطلقت يوم اليَرْمُوك أطلب ابن عمٍّ لى — ومعى شىء من المـاء — وأنا أقـول : إن كان به رَمَقٌ سـقيته ، فإذا أنا به ، فقلت له : أسقيك ؛ فأشار برأسـه أنْ نَعم ؛ فإذا أنا برجل يقول : آه ! آه ! فأشار إلىّ ابن عمى أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم . فسمع آخر يقول : آه ! آه ! فأشار هشام أن انطلق إليـه بجئته فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام فإذا هو قـد مات . فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات . وقال أبو يزيد البِسْطَامِىّ : ما غَلَبنِى أحد ما غلبنى شابٌّ من أهل بَلْخ ؛ قَدِم علينا حاجًّا فقال لى : يا أبا يزيد ، ما حَدُّ الزهـد عندكم ؟ فقلت : إنْ وَجَدْنا أكلنا ، و إن فقـدنا صَبَرْنَا .

(١) هو من بيت لمسلم بن الوليد، صدره :

* تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها *

يقول : تجود بنفسك فى الحرب إذ أنت الضنين بها فى الذم . و يروى :

* يجود بالنفس إذ ضن الجواد بها *

فقال : هكذا كلاب بلخ عنـدنا . فقلت : وما حَدّ الزهد عندكم ؟ قال : إن فقـدنا شكرنا وإن وجدنا آثارنا . وسُئِل ذو النُّون المصرى : ما حَدّ الزاهد المنشرح صدره ؟ قال ثلاث : تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار عند القُوت . وحكى عن أبى الحسن الأنطاكى : أنه آجتمع عنده نَيِّف وثلاثون رجلا بقرية من قُرَى الرَّى ، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهــم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ؛ فلما رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئا ؛ إيثارًا لصاحبه على نفسه .

العاشــــرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الخصاصة : الحاجة التى تختل بها الحال . وأصلها من الاختصاص وهـو الانفراد بالأمر . فالخصاصة الانفراد بالحاجة ؛ أى ولو كان بهم فاقة وحاجة . ومنه قول الشاعر :

أمّا الربيع إذا تكون خصاصـة * عاش السقيم به وأثْرَى المُقْـتِرُ

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الشح والبُخْلُ سواء ؛ يقال : رجل شحيح بَيّن الشُّحّ والشَّحّ والشَّحاحة . قال عمرو بن كُلْثُوم :

ترى اللَّحِزَ الشَّحيحَ إذا أُمِرّتْ * عليــه لِمـالِهِ فيهـا مُهِينـا (١)

وجعل بعض أهــل اللغة الشُّحّ أشـدّ من البخل . وفى الصحاح : الشح البخل مـع حرص ؛ تقول : شَحِحت (بالكسر) تَشَحّ . وشَحَحْتَ أيضا تَشُحّ وتَشِحّ . ورجل شحيح ، وقومٌ شِحاح وأشِحّة . والمراد بالآية الشُّحُّ بالزكاة وما ليس بفـرض من صـلة ذوى الأرحام والضيافة ، وما شاكل ذلك . فليس بشحيح ولابخيل من أنفق فى ذلك وإن أمسك عن نفسه . ومن وَسّع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يُوقَ شُحّ نفسه . وروى الأَسْوَد عن آبن مسعود أن رجلا أتاه فقال له : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ! قال :

(١) فى شرح التبريزى : « اللحز : الضيق البخيل . وقيل : هوالسيئ الخلق اللئيم . وقوله : إذا أمرت عليه . أى أديرت . والمعنى : أن الخمر إذا كثر دورانها عليــه أهان ماله ؛ يقال : فلان مهين لمـاله ؛ إذا كان سخيا ، وفلان معز لمـاله ؛ إذا كان بخيلا » .

وما ذاك ؟ قال : سمعت الله عز وجل يقول : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدى شيئا . فقال ابن مسعود : ليس ذلك بالشّح الذى ذكره الله تعالى فى القرآن ، إنما الشُّحّ الذى ذكره الله تعالى فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً؛ ولكن ذلك البخل ، وبئس الشَّئ البخل . ففرّق رضى الله عنه بين الشح والبخل . وقال طاوس : البخل أن يبخل الإنسان بما فى يده، والشّح أن يشح بما فى أيدى الناس ؛ يحب أن يكون له ما فى أيديهم بالحِلّ والحرام ؛ لا يقنع . ابن جبير : الشح منع الزكاة وآدّخار الحرام . ابن عُيَيْنة : الشح الظلم . الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم . ابن عباس : من آتبع هواه ولم يقبل الإيمان فذلك الشحيح . ابن زيد : من لم يأخذ شيئا [لشىء] نهاه الله عنه ، ولم يَدْعُه الشح [على أن يمنع شيئا من شىء] أمره الله به ، فقد وقاه الله شح نفسه . وقال أنس : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "بَرِئَ من الشّح من أدّى الزكاة وقَرَى الضيف وأعطى فى النائبة" . وعنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يدعو "اللّهمّ إنى أعوذ بك من شُحّ نفسى وإسرافها ووساوسها" . وقال أبو الهَيَّاج الأسدى : رأيت رجلا فى الطّواف يدعو : اللهم قِنِى شُحّ نفسى . لا يزيد على ذلك شيئا ؛ فقلت له ؟ فقال : إذا وَقيتُ شُحّ نفسى لم أسرق ولم أزْنِ ولم أفعل . فاذا الرجل عبد الرحمن ابن عَوف .

قلت : يدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : "آتّقوا الظلمَ فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة وآتّقوا الشّح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم" . وقد بيناه فى آخر « آل عمران »(١) . وقال كِسْرى لأصحابه : أىُّ شىء أضرّ بآبن آدم ؟ قالوا : الفقر . فقال كِسْرى : الشح أضرّ من الفقر ؛ لأن الفقير إذا وجد شبع ، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبدا .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قـوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْـدِهِمْ ﴾ يعنى التابعين ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة . قال ٱبن أبى لَيْلَى : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم . فٱجْهَدْ ألّا تخرج من هذه المنازل . وقال بعضهم : كن شَمْسًا فإن لم تستطع فكن قَمَرًا ، فإن لم تستطع فكن كَوْكَبًا مضيئا ، فإن لم تستطع فكن كوكبا صغيرا ، ومن جهـة النور لا تنقطع . ومعنى هـذا : كن مهاجريًّا . فإن قلت : لا أجد ؛ فكن أنصاريًّا . فإن لم تجد فٱعمل كأعمالهم ؛ فإن لم تستطع فأحبّهم واستغفر لهـم كما أمرك الله . وروى مُصْعَب بن سـعد قال : النـاس على ثلاثة منازل ؛ فمضت منزلتان وبَقِيت منزلة ؛ فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت . وعن جعفر بن محمد ابن على عن أبيه عن جدّه علىّ بن الحسين رضى الله عنه ، أنه جاءه رجل فقال له : يٱبن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما تقول فى عثمان ؟ فقال له : يا أخى أنت من قوم قال الله فيهم : « لِلفقراءِ المهاجِرِين » الآية . قال لا ! قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم : « والذِينَ تَبَوَّءُوا الدّارَ والإيمان » الآية . قال لا ! قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام ! وهى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمانِ » الآية . وقد قيل : إن محمد ابن على بن الحسين ، رضى الله عنهم ، روى عن أبيه أن نفرا من أهل العراق جاءوا إليه ، فَسَبُّوا أبا بكر وعمر — رضى الله عنهما — ثم عثمان — رضى الله عنه — فأكثروا ؛ فقـال لهم : أمِنَ المهاجرين الأوّلين أنتم ؟ قالوا لا . فقال : أفمن الذين تبوءوا الدار والإيمان من

قبلهم ؟ فقالوا لا . فقال : قـد تبرأتم من هذين الفريقين ! أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » قوموا ، فعـل الله بكم وفعل . ذكره النحاس .

الثانيـــة ــ هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظًّا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، وأن من سبّهم أو واحدا منهم أو اعتقد فيه شرًّا إنه لاحق له في الفيء . روى ذلك عن مالك وغيره . قال مالك : من كان يُبْغِض أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ ، فليس له حق في فيء المسلمين . ثم قرأ « والذين جاءوا من بعدِهم » الآية .

الثالثـــة ــ هذه الآية تدل على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول ، وإبقاء العقار والأرض شملا[1] بين المسلمين أجمعين ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه ؛ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمرا فيمضي عمله فيه لاختلاف الناس عليه وان هذه الآية قاضية بذلك ؛ لأن الله تعالى أخبر عن الفيء وجعله لثلاث طوائف : المهاجرين والأنصار ــ وهم معلومون ــ « والذين جاءوا من بعدِهم يقولون رَبَّنا آغْفِرْ لنا ولإخواننا الذين سَبَقُونا بالإيمانِ » . فهي عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم إلى يوم الدين . وفي الحديث الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج إلى المَقْبُرة فقال : " السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين وإنا إن شـاء الله بكم لاحقون وددت أن رأيت[2] إخواننا " قالوا : يارسول الله ، ألسنا بإخوانك ؟ فقال " بل أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ وأنا فَرَطُهم على الحَوْض " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن إخوانهم كل من يأتي بعـدهم ؛ لا كما قال السُّدّي والكَلْبي : إنهم الذين هاجروا بعـد ذلك . وعن الحسن أيضا « والذين جاءوا من بعدِهم » مَن قصد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة .

(١) كذا في الأصول . والمراد جعلها عامة شاملة بين المسلمين .
(٢) في صحيح مسلم : « أنا قد رأينا ... » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ نصب فى موضع الحال؛ أى قائلين . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أمروا أن يستغفروا لمن سبق هذه الأمة من مؤمنى أهل الكتاب . قالت عائشة رضى الله عنها : فأمروا أن يستغفروا لهم فسبّوهم . الثانى — أمروا أن يستغفروا للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . قال ابن عباس : أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلم أنهم سيُفْتَنُون . وقالت عائشة : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد فسببتموهم ، سمعت نبيَّكم صلى الله عليه وسلم يقول : " لاتذهب هذه الأمة حتى يلعن آخِرُها أوّلَها " وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابى فقولوا لعن الله أشرَّكم " . وقال العَوّام بن حَوْشَب : أدركت صدر هذه الأمة يقولون : اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تألف عليهم القلوب ، ولا تذكروا ماشَجَر بينهم فتجسِّرُوا الناس عليهم . وقال الشعبيّ : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخَصْلة ؛ سئلت اليهود: مَن خير أهل مِلّتكم ؟ فقالوا : أصحاب موسى . وسئلت النصارى : مَن خير أهل مِلّتكم؟ فقالوا : أصحاب عيسى . وسئلت الرافضة مَن شرّ أهل مِلّتكم ؟ فقالوا : أصحاب محمد ؛ أُمِرُوا بالاستغفار لهم فسبُّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة ، لا تقوم لهم راية ، ولاتثبت لهم قَدَم ، ولاتجتمع لهم كلمة ؛ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجتهم . أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة . ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى حِقْدا وحسدا ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)

تعجب[1] من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنهم لا يعتقدون دينًا ولا كتابا . ومن جملة المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول وعبد الله بن نَبْتَل ورفاعة بن زيد . وقيل : رافعة بن تابوت وأَوْس بن قَيْظِيّ ، كانوا من الأنصار ولكنهم نافقوا وقالوا ليهود قُرَيظة والنَّضير : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ . وقيل : هو من قول بني النضير لقُرَيظة . وقوله : ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ لا نطيعه في قتالكم . وفي هذا دليل على صحة نُبُوّة محمد صلى الله عليه وسلم من جهة علم الغيب ؛ لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا ، وقوتلوا فلم ينصروهم ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي في قولهم وفعلهم .

قوله تعالى : لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾ أي منهزمين . ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ قيل معنى « لا ينصرونهم » طائعين . « ولئن نصروهم » مكرهين « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » . وقيل : معنى « لا ينصرونهم » لا يدومون على نصرهم . هذا على أن الضميرين متفقان . وقيل : إنهما مختلفان ؛ والمعنى لئن أخرج اليهود لا يخرج معهم المنافقون ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم . « ولئن نصروهم » أي ولئن نصر اليهود المنافقين « ليولن الأدبار » . وقيل : « لئن أخرجوا لا يخرجون معهم » أي علم الله منهم أنهم لا يخرجون إن أخرجوا . « ولئن قُوتِلوا لا ينصرونهم » أي علم الله منهم ذلك . ثم قال : « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » فأخبر عما قد أخبر أنه لا يكون كيف كان يكون لو كان ؛ وهو كقوله تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[2] . وقيل : معنى « ولئن نصروهم » أي ولئن شئنا أن ينصروهم زَيّنا ذلك لهم . « ليولن الأدبار » .

---

(١) في نسخة : « يجب » (٢) آية ٢٨ سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ ﴾ يا معشر المسلمين . ﴿ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أى خوفًا وخشية . ﴿ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ يعنى صدور بنى النَّضير . وقيل : فى صدور المنافقين . ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين ؛ أى يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربهم ذلك الخوف . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أى لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا ﴾ يعنى اليهود ﴿ إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ ﴾ أى بالحيطان والدُّور ، يظنون أنها تمنعهم منكم . ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ أى من خلف حيطان يستترون بها لِجُبْنِهم ورَهْبَتِهم . وقراءة العامة « جُدُرٍ » على الجمع ، وهو اختيار أبى عبيدة وأبى حاتم ؛ لأنها نظير قوله تعالى : « فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ » وذلك جمع . وقرأ ٱبن عباس ومجاهد وٱبن كثير وٱبن مُحَيْصِن وأبو عمرو « جِدارٍ » على التوحيد ؛ لأن التوحيد يؤدّى عن الجمع . وروى عن بعض المكّيين « جَدْر » (بفتح الجيم وإسكان الدال) ؛ وهى لغة فى الجدار . ويجوز أن يكون معناه من وراء نخلهم وشجرهم ؛ يقال : أجدر النخل إذا طلعت رءوسه فى أوّل الربيع . والجِدْر نبتٌ واحدته جِدْرة . وقُرِئَ « جُدْر » (بضم الجيم وإسكان الدال) جمع الجدار . ويجوز أن تكون الألف فى الواحد كألف كِتاب ، وفى الجمع كألف ظِراف . ومثله ناقة هِجَانٌ ونُوقٌ هِجان ؛ لأنك تقول فى التثنية : هِجانان ؛ فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين فى اللفظ مختلفين فى المعنى ؛ قاله ابن جِنّى .

قوله تعالى : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعنى عداوة بعضهم لبعض . وقال مجاهد : « بأسهم بينهم شديد » أى بالكلام والوعيد انفعان كذا . وقال السُّدّى : المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد . وقيل : « بأسهم بينهم شديد » أى إذا لم يلقَوْا عدوا نسبوا أنفسهم إلى الشدّة والبأس، ولكن إذا لَقُوا العدو انهزموا . ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ يعنى اليهود والمنافقين ؛ قاله مجاهد . وعنه أيضا يعنى المنافقين . الثَّوْرِىّ : هم المشركون وأهل الكتاب . وقال قتادة : «تحسبهم جميعا» أى مجتمعين على أمر ورأى . «وقلوبهم شتّى» متفرّقة . فأهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ؛ وهم مجتمعون فى عداوة أهل الحق . وعن مجاهد أيضا أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود . وهذا ليقوّى أنفس المؤمنين عليهم . وقال الشاعر :

إلى الله أشكو نيَّةً شقّت العَصَا * هى اليوم شَتّى وهى أمس جُمَّعُ

وفى قراءة ابن مسعود « وقلوبهم أشَتّ » يعنى أشدّ تشتيتا؛ أى أشدّ اختلافا . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى ذلك التشتيت والكفر بأنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله .

قوله تعالى : كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

قال ابن عباس : يعنى به قَيْنُقَاع؛ أمكن الله منهم قبل بنى النَّضير . وقال قتادة : يعنى بنى النضير؛ أمكن الله منهم قبل قُرَيظة . مجاهد : يعنى كفار قريش يوم بدر . وقيل : هو عامّ فى كل من انتقم منه على كفره قبل بنى النَّضير من نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى ﴿ وَبَالَ ﴾ جزاء كفرهم . ومن قال : هم بنو قُريظة، جعل « وبال أمرهم » نزولهم على حكم سعد بن معاذ ؛ فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسَبْى الذرّية . وهو قول الضحاك . ومن قال المراد بنو النَّضير قال : « وبال أمرهم » الجلاء والنفى . وكان بين النضير وقريظة سنتان . وكانت وقعة بدر قبل غَزْوة بنى النَّضير بستة أشهر؛ فلذلك قال : « قريبا » وقد قال قوم : غزوة بنى النضير بعد وقعة أُحُد.﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ هذا ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين واليهود في تخاذلهم وعدم الوفاء في نُصْرتهم . وحَذَف حرف العطف، ولم يقل : وكمثل الشيطان ؛ لأن حذف حرف العطف كثير ؛ كما تقول : أنت عاقل أنت كريم أنت عالم . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الإنسان الذي قال له الشيطان اكفر، راهب تُركت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ ليَدْعُوَ لها ، فزيّن له الشيطان فوطئها فحملت، ثم قتلها خوفاً أن يفتضح، فدل الشيطان قومها على موضعها ، فجاءوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاءه الشيطان فوعده أنه إن سجد له أنجاه منهم ، فسجد له فتبرأ منه فأسلمه . ذكره القاضي إسماعيل وعليّ بن المديني عن سفيان بن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وذكر خبره مطولا ابن عباس ووهب بن مُنَبّه . ولفظهما مختلف . قال ابن عباس في قوله تعالى « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ » : كان راهب في الفَتْرة يقال له : برصيصا ؛ قد تعبّد في صَوْمعته سبعين سنة ، لم يعص الله فيها طَرْفة عين ، حتى أعيا إبليس . فجمع إبليس مَرَدة الشياطين فقال : ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا ؟ فقال الأبيض ، وهو صاحب الأنبياء ، وهو الذي قصد النبيَّ صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند ؛ فذلك قوله تعالى : « ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ »(١) فقال : أنا أكْفيكه ؛ فانطلق فتزيّا بزِيّ الرهبان ، وحلق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه ؛ وكان لا ينفتل من صلاته إلا في كل عشرة أيام يوما ، ولا يُفطر إلا في كل عشرة أيام ؛ وكان يواصل العشرة

(١) آية ٢٠ سورة التكوير .

الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيض أنه لايجيبه أقبل على العبادة فى أصل صَوْمعته؛ فلما انفتل برصيصا من صلاته ، رأى الأبيض قائما يصلّى فى هيئة حسنة من هيئة الرهبان ؛ فندم حين لم يجبه ، فقال له : ماحاجتك ؟ فقال : أن أكون معك ، فأتأدّب بأدبك ، وأقتبس من عملك ، ونجتمع على العبادة ؛ فقال : إنى فى شغل عنك ؛ ثم أقبل على صلاته ؛ وأقبل الأبيض أيضا على الصلاة ؛ فلما رأى برصيصا شدّة اجتهاده وعبادته قال له : ماحاجتك ؟ فقال : أن تأذن لى فأرتفع إليك . فأذن له فأقام الأبيض معه حَوْلًا لا يُفطر إلا فى كل أربعين يوما يوما واحدا ، ولا ينفتل من صلاته إلا فى كل أربعين يوما ، ورُبّما مدّ الى الثمانين؛ فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه . ثم قال الأبيض : عندى دعوات يَشْفِى الله بها السقيم والمبتلى والمجنون ؛ فعلمه إيّاها . ثم جاء الى إبليس فقال : قد والله أهلكت الرجل . ثم تعرض لرجل فخنقه ، ثم قال لأهله — وقد تصوّر فى صورة الآدميين — : إن بصاحبكم جنونا أفأطبّه ؟ قالوا نعم . فقال : لا أقوى على جِنّيّته ، ولكن اذهبوا به الى برصيصا ، فإن عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب ؛ فجاءوه فدعا بتلك الدعوات ، فذهب عنه الشيطان . ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك ويرشدهم الى برصيصا فيعافَوْن . فانطلق الى جارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة ، وكان أبوهم مِلكا فمات واستخلف أخاه ، وكان عمها ملكاً فى بنى إسرائيل ؛ فعذبها وخنقها . ثم جاء إليهم فى صورة رجل متطبّب ليعالجها فقال : إن شيطانها مارد لا يطاق ، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده ، فاذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت ؛ فقالوا : لا يجيبنا إلى هذا ؛ قال : فَٱبْنُوا صومعةً فى جانب صومعته ثم ضعوها فيها ، وقولوا : هى أمانة عندك فاحتسب فيها . فسألوه ذلك فأبى ، فبنَوْا صومعة ووضعوا فيها الجارية ؛ فلما انفتل من صلاته عاين الجارية وما بها من الجمال فأُسْقِط فى يده ، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها فذهب عنها الشيطان ، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها . وكان يكشف عنها ويتعرض بها لبرصيصا ، ثم جاءه الشيطان فقال : وَيْحَكَ ! واقِعْها ، فما تجد

مثلها ثم تتوب بعد ذلك . فلم يزل به حتى واقعها فحملت وظهر حملها . فقال له الشيطان : ويحك ! قــد افتضحت . فهل لك أن تقتلها ثم تتوب فلا تفتضــح ، فان جاءوك وسألوك فقل جاءها شيطانها فذهب بها . فقتلها برصيصا ودفنها ليلا ؛ فأخذ الشيطان طَرَف ثوبها حتى بقى خارجا من التراب ؛ ورجع برصيصا إلى صــلاته . ثم جاء الشيطان إلى إخوتها فى المنام فقال : إن برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا ، وقتلها ودفنها فى جبل كذا وكذا ؛ فاســتعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا : ما فعلت أختنا ؟ فقــال : ذهب بها شيطانها ؛ فصدقوه وانصرفوا . ثم جاءهم الشــيطان فى المنام وقال : إنها مدفونة فى موضــع كذا وكذا ، وإن طرف ردائها خارج من التراب ؛ فانطلقوا فوجدوها ، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه ، وحملوه إلى الملك فأقرّ على نفســه فأمر بقتله . فلما صُلب قال الشــيطان : أتعرفنى ؟ قال لا والله ! قال : أنا صاحبك الذى علّمتك الدعوات ، أما آتقيت الله أما استحييت وأنت أعبد بنى إسرائيل ! ثم لم يَكْفِك صنيعك حتى فضحت نفسك ، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس ! فإن متّ على هذه الحالة لم يُفلح أحد من نظرائك بعدك . فقال : كيف أصنع ؟ قال : تطيعنى فى خَصْلة واحدة وأنجيــك منهم وآخذ بأعينهم . قال : وما ذاك ؟ قال : تســجد لى سجدة واحدة ؛ فقال : أنا أفعل ؛ فسجد له من دون الله . فقال : يا برصيصا ، هذا أردت منك ؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك ، إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين . وقال وهب ابن مُنَبّه : إن عابدا كان فى بنى إسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان فى زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكرا ، ليست لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلّفون أختهم ، ولا عند مَن يأمنون عليها ، ولا عند مَن يضعونها . قال : فاجتمع رأيهم على أن يخلّفوها عند عابد بنى إسرائيل ، وكان ثقة فى أنفسهم ؛ فأتوه فسألوه أن يخلّفوها عنده ؛ فتكون فى كنفه وجواره إلى ان يقفلوا من غَزاتهم ؛ فأبى ذلك عليهم وتعوّذ بالله منهم ومن أختهم . قال فلم يزالوا به حتى أطمعهم(١) فقــال : أنزلوها فى بيتٍ حِذاء صَوْمعتى ؛ فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها ؛ فمكثت فى جــوار ذلك العابد زمانا ، يُنزل إليها الطعام من

(١) كذا فى الأصول . ولعلها « أطاعهم » .

صومعته ، فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه و يصعد فى صومعته ، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام . قال : فتلطّف له الشيطان فلم يزل يرغّبه فى الخير ، و يعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارًا ، ويخوّفه أن يراها أحد فيعلقها . قال : فلبث بذلك زمانا ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والأجر ، وقال له : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظمَ لأجرك ؛ قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه فى بيتها ؛ قال : فلبث بذلك زمانا ثم جاءه إبليس فرغّبــه فى الخير وحضّــه عليــه ؛ وقال : لو كنت تكلّمها وتحدّثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشةً شديدة . قال : فلم يزل به حتى حدّثها زمانا يطلع عليها من فوق صومعته . قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدّثها وتقعد على باب بيتها فتحدّثك كان آنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدّثها ، وتخرج الجارية من بيتها ؛ فلبثا زمانا يتحدّثان ؛ ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجتَ من باب صومعتك فجلست قريبا من باب بيتهــا كان آنس لها . فلم يزل به حتى فعل . قال : فلبثا زماناً ؛ ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها ، وقال له : لو دَنَوْتَ من باب بيتها فحدّثتها ولم تخرج من بيتها ؛ ففعل . فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدثهــا . فلبثا بذلك حيناً ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت البيت معها تحــدثها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد كان أحسنَ بك . فلم يزل به حتى دخل البيت ؛ فجعل يحدثها نهاره كله ، فإذا أمسى صعد فى صومعته . قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فلم يزل يزيّنها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبّلها . فلم يزل به إبليس يحسّنها فى عينه و يسوّل له حتى وقع عليها فأحبلها ، فولدت له غلاما . فجاءه إبليس فقال له : أرأيت أن جاء إخوة هــذه الجارية وقــد ولدت منك ! كيف تصنع ! لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك؟ فاعمِد إلى ابنها فاذبحه وادفنه ؛ فإنها ستكتم عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ؛ ففعل . فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنهــا ! خذها فاذبحها وادفنها مــع ابنها . فلم يزل به حتى ذبحها

وألقـاها فى الحَفِيرة مع ابنها ، وأطبق عليها صخرة عظيمة ، وسـوى عليها التراب ، وصـعد فى صومعته يتعبّد فيها ؛ فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ؛ حتى قفـل إخوتها من الغزْو ، فجاءوه فسألوه عنها فنعاها لهم وترحّم عليها ، وبكى لهم وقال : كانت خيرَ أَمَة ، وهـذا قبرها فانظروا إليـه . فأتى إخوتها القـبر فبكَوْا على قبرها وترحّموا عليها ، وأقاموا على قبرها أياما ثم انصرفو إلى أهاليهم . فلما جَنّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، أتاهم الشيطان فى صـورة رجل مسافر ، فبـدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ؛ فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمـه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها ؛ فكذّبه الشيطان وقال : لم يَصْدُقْكم أمر أختكم ، إنه قد أحبل أختكم وولدت منـه غلاما فذبحه وذبحها معـه فزعًا منكم ، وألقاها فى حَفيرة احتفرها خلف الباب الذى كانت فيـه عن يمين من دخله . فانطلِقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيـه عن يمين من دخله ؛ فإنكم ستجدونهما هنالك جميعا كما أخبرتكم . قال : وأتى الأوسط فى منامه وقال له مثـل ذلك . ثم أتى أصغرهم فقال له مثـل ذلك . فلما استيقظ القوم استيقظوا متعجبين لمـا رأى كل واحد منهم . فأقبل بعضهم على بعض ، يقول كل واحد منهم لقد رأيت عجبًا ؛ فأخبر بعضهم بعضا بما رأى . قال أكبرهم : هـذا حُلم ليس بشيء ؛ فامضوا بنا ودعوا هذا . قال أصغرهم : لا أمضى حتى آتى ذلك المكان فأنظر فيه . قال : فانطلقوا جميعا حتى دخلوا البيت الذى كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وُصف لهم فى منامهم ، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيـل لهم ؛ فسألوا عنها العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما . فاستعدَوْا عليـه ملِكهم ، فأنزل من صومعته فقـدّموه ليُصْلَب ؛ فلما أوقفوه على الخشـبة أتاه الشيطان فقال له : قـد علمت أنى صاحبك الذى فتنتك فى المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحتَ ابنها ؛ فإن أنت أطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك خلّصتك ممـا أنت فيه . قال : فكفر العابد بالله . فلما كفر خلّى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه . قال : ففيه نزلت هذه الآية «كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إذ قال لِلإنسانِ اكْفُرْ فَلَمّا كَفَرَ قال إِنى بَرِىءٌ مِنك إِني أخافُ اللهَ رَبَّ العالمين — إلى قوله — جزاءُ الظالِمين» .

قال ابن عباس : فضرب الله هذا مثلًا للمنافقين مع اليهود . وذلك أن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام أن يُجْلِي بني النّضير من المدينة، فدسّ إليهم المنافقون ألا تخرجوا من دياركم؛ فإن قاتلوكم كنا معكم ، وإن أخرجوكم كنا معكم ؛ فحاربوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فخذلهم المنافقون ، وتبرءوا منهم كما تبرّأ الشيطان من بَرْصِيصا العابد . فكان الرُّهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتّقيّة والكتمان . وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار فرمَوْهم بالبهتان والقبيح ؛ حتى كان أمر جُريج الراهب ، وبرّأه الله فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس . وقيل : المعنى مَثَلُ المنافقين في غدرهم[1] لبني النّضير كَمَثل إبليس إذ قال لكفار قريش : « لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ[2] » الآية . وقال مجاهد : المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم . ومعنى قوله تعالى : « إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ » أي أغواه حتى قال : إني كافر . وليس قول الشيطان : « إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » حقيقة ، إنما هو على وجه التبرؤ من الإنسان ؛ فهو تأكيد لقوله تعالى : «إني برىء منك » . وفتح الياء من « إني » نافع وابن كثير وأبو عمرو . وأسكن الباقون . ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ أي عاقبة الشيطان وذلك الإنسان . ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ نصب على الحال . والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان . ومن جعلها في الجنس فالمعنى : وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين . ونصب «عاقبتهما» على أنه خبر كان . والاسم « أَنَّهُمَا فِي النَّارِ» . وقرأ الحسن « فكان عاقِبَتُهُمَا » بالرفع على الضد من ذلك . وقرأ الأعمش « خَالِدَانِ فِيهَا » بالرفع وذلك خلاف المرسوم . ورفعه على أنه خبر « أنّ » والظرف مُلْغًى .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾

---

(١) في بعض الأصول : « وعدهم » . (٢) آية ٤٨ سورة الأنفال .

قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه . ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني يوم القيامة . والعرب تَكْنِي عن المستقبل بالغَد . وقيل : ذِكْر الغَد تنبيهًا على أن الساعة قريبة ؛ كما قال الشاعر :

* وإن غدًا للناظرين قريب * (١)

وقال الحسن وقتادة : قَرّب الساعةَ حتى جعلها كغَدٍ . ولا شك أن كل آتٍ قريبٌ ؛ والموت لا محالة آتٍ . ومعنى « مَا قَدَّمَتْ » يعني من خير أو شر . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أعاد هذا تكريرا ، كقولك : اعجل اعجل ، ارْمِ ارْمِ . وقيل التقوى الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب ، والثانية اتقاء المعاصي فى المستقبل . ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير : أى بما يكون منكم . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ج أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أى تركوا أمره . ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيرا ؛ قاله ابن حبّان . وقيل : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ؛ قاله سفيان . وقيل : « نسوا الله » بترك شكره وتعظيمه . « فأنساهم أنفسهم » بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضا ؛ حكاه ابن عيسى . وقال سهل بن عبد الله : « نسوا الله » عند الذنوب . « فأنساهم أنفسهم » عند التوبة . ونسب تعالى الفعل إلى نفسه فى «أنساهم» إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذى تركوه . وقيل : معناه وجدهم تاركين أمره ونهيه ؛ كقولك : أحمدت الرجل إذا وجدته محمودا . وقيل : « نسوا الله » فى الرخاء . « فأنساهم أنفسهم » فى الشدائد . ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال ابن جبير: العاصون . وقال ابن زيد: الكاذبون. وأصل الفسق الخروج ؛ أى الذين خرجوا عن طاعة الله .

---

(١) فى فرائد اللآل أن قائل هذا هو قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر . ولفظ البيت :

فإن يك صدر هذا اليوم ولى * فإن غدا لناظره قريب

قوله تعالى : لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أى فى الفضل والرتبة . ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أى المقربون المكرمون . وقيل : الناجون من النار . وقد مضى الكلام فى معنى هذه الآية فى « المـائدة » عند قوله تعالى : « قل لا يَسْـتَوِى الخبيثُ والطَّيِّبُ »(1) . وفى سورة « السجدة » عند قوله تعـالى : « أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون »(2) . وفى سورة « ص » « أم نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ »(3) فلا معنى للإعادة .

قوله تعـالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾ حَثٌّ على تأمّل مواعظ القرآن ، وبيّن أنه لا عذر فى ترك التـدبّر ؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبالُ مـع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشـعةً متصدّعة ؛ أى متشققة من خشية الله . والخاشع : الذليـل . والمتصدّع : المتشقق . وقيـل : « خاشعًا » لله بمـا كلّفه من طاعتـه . « متصدّعًا » من خشية الله أن يعصيه فيعاقبه . وقيـل : هو على وجه المَثَل للكفار .

قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أى إنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدّع لوعيده ؛ وأنتم أيهـا المقهورون بإعجازه لا ترغبون فى وعده ولا ترهبون من

---

(1) آية ١٠٠ راجع جـ ٦ ص ٣٢٧ (2) آية ١٨ راجع جـ ١٤ ص ١٠٥

(3) آية ٢٨ راجع جـ ١٥ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية .

وعيده ! وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لمـا ثبت، وتصدّع من نزوله عليه؛ وقد أنزلناه عليك وثبّتناك له؛ فيكون ذلك امتناناً عليـه أن ثبته لمـا لا تثبت له الجبال . وقيل : إنه خطاب للأُمة ، وأن الله تعالى لو أنذر بهـذا القرآن الجبال لتصدّعت من خشـية الله . والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتا ؛ فهو يقوم بحقه إن أطاع، ويقدر على ردّه إن عصى؛ لأنه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب .

قوله تعـالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ قال ابن عباس : عالم السر والعلانية . وقيل : ما كان وما يكون . وقال سهل : عالم بالآخرة والدنيا . وقيل: « الغيب » ما لم يعـلم العباد ولا عاينوه . « والشهادة » ما علموا وشاهـدوا . ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ تقـدّم[1] .

قوله تعـالى : هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾ أى المنزّه عن كل نقص ، والطاهر عن كل عيب . والقَدَس (بالتحريك) : السَّطل بلغة أهـل الحجاز؛ لأنه يُتَطَهَّر به . ومنه القادوس لواحد الأوانى التى يستخرج بها المـاء من البئر بالسانية[2] . وكان سِيبَوَيْه يقول : قَدُّوس وسَبُّوح؛ بفتح أوّلها . وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عنـد الكسائىّ أعرابيا فصيحا يُكْنَى أبا الدينار يقرأ « القَدّوس » بفتح القاف . قال ثَعْلب : كل اسم على

(١) راجع جـ ١ ص ١٠٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) من معنى السانية : الدلو وأدواته . والمراد هنا الأدوات التى يستخرج بها المـاء .

فَعُّول فهو مفتوح الأوّل؛ مثل سَفُّود[(١)] وكَلّوب وتَنّور وسَمُّور وشَبُّوط، إلا السُّبّوح والقُدّوس فإن الضم فيهما أكثر؛ وقد يفتحان. وكذلك الذُّرُّوح[(٢)] (بالضم) وقد يفتح. ﴿ السَّلَامُ ﴾ أي ذو السلامة من النقائص. وقال ابن العربيّ: اتفق العلماء رحمة الله عليهم على أن معنى قولنا في الله «السلام»: النسبة؛ تقديره ذو السلامة. ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال: الأوّل — معناه الذي سَلِم من كل عيب وبَرِئ من كل نقص. الثاني — معناه ذو السلام؛ أي المسلِم على عباده في الجنة؛ كما قال: «سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيمٍ». الثالث — أن معناه الذي سلم الخلقُ من ظلمه.

قلت: وهذا قول الخطابي؛ وعليه والذي قبله يكون صفةَ فعل. وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفةَ ذات. وقيل: السلام معناه المسلِّم لعباده. ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ أي المصدّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب. وقيل: المؤمن الذي يؤمن أولياءه من عذابه، ويؤمن عباده من ظلمه؛ يقال: آمنه من الأمان الذي هو ضدّ الخوف؛ كما قال تعالى: «وآمَنَهم مِن خَوْفٍ» فهو مؤمن؛ قال النابغة:

والمُؤْمِنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها * رُكْبانُ مَكّةَ بين الغِيلِ والسَّنَدِ[(٣)]

وقال مجاهد: المؤمن الذي وحّد نفسه بقوله: «شَهِدَ الله أنه لا إلٰه إلّا هو»[(٤)]. وقال ابن عباس: إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار. وأوّل من يخرج من وافق اسمه اسم نبيّ، حتى إذا لم يبق فيها من يوافق اسمه اسم نبيّ قال الله تعالى لباقيهم: أنتم

---

(١) السفود: حديدة يشوى عليها اللحم؛ والجمع سفافيد. والكلوب: حديدة معطوفة كالخطاف. والتنور: الكانون يخبز فيه. والسمور: حيوان برى يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها ودفائها وحسنها. والشبوط: سمك رقيق الذنب عريض الوسط لين المس صغير الرأس. والجمع شبابيط.

(٢) الذروح: دويبة حمراء منقطة بسواد تطير، وهي من السموم القاتلة.

(٣) العائذات: ما عاذ بالبيت من الطير. والغيل: الشجر الكثير الملتف. والسند: ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح.

(٤) آية ١٨ سورة آل عمران.

المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن؛ فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين .
﴿ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ ﴾ تقدّم الكلام في المهيمن في «المـائدة»(١) وفي « العزيز »(٢) في غير موضع .
﴿ الْجَبَّارُ ﴾ قال ابن عباس : هو العظيم . وجبروت الله عظمته . وهو على هذا القول صفة ذات؛ من قولهم : نخلة جَبّارة . قال امرؤ القَيْس :

سـوامق جبّـار أثيث فـروعُه * وعالين قنـوانا من البُسْر أحمـرا(٣)

يعني النخلة التي فاتت اليَدَ . فكان هـذا الاسم يدل على عظمة الله وتقديسـه عن أن تنـاله النقائص وصفات الحدث . وقيـل : هو من الجَبْر وهو الإصلاح؛ يقـال : جبرت العظم بجَبْر؛ إذا أصلحته بعـد الكسر؛ فهو فعّال من جبر إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير . وقال الفراء : هو من أجبره على الأمر أي قهره . قال : ولم أسمع فعّالا من أفعل إلا في جبار ودرّاك من أدرك . وقيل : الجبار الذي لا تطاق سَطْوَته . ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ الذي تكبر بربوبيّته فلا شيء مثله . وقيل : المتكبر عن كل سـوء ، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم . وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد . وقال حُميد بن ثَوْر :

عَفَت مثل ما يعفو الفَصِيل فأصبحت * بهـا كبرياء الصعب وهي ذلول

والكبرياء في صفـات الله مدح ، وفي صفات المخـلوقين ذم . وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن رَبّه تبارك وتعالى أنه قال : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قصمته ثم قذفته في النار " . وقيل : المتكبر معناه العـالي . وقيل : معناه الكبير لأنه أجلّ من أن يتكلف كبراً . وقد يقال : تظلّم بمعنى ظلم، وتشتّم بمعنى شتم، واستقرّ بمعنى قرّ(٤) . كذلك المتكبر بمعنى الكبير . وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف بتفعل إذا نسب إلى ما لم يكن منه . ثم نَزّه نفسه فقال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أي تنزيهاً لجلالته وعظمته . ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .
(٣) سوامق : مرتفعات . والأثيث : الملتف . والقنوان : العذق . (٤) في نسخة : «واستمر بمعنى مرّ» .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢٤)

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ « الخالق » هنا المقدّر . و« البارئ » المنشئ المخترع . و « المصور » مصوّر الصور ومركبها على هيئات مختلفة . فالتصوير مرتب على الخلق والبراية(١) وتابع لها . ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل . وخلق الله الإنسان فى أرحام الأمهات ثلاث خِلَق : جعله عَلَقَة ، ثم مُضْغَة ، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذى يكون به صورة وهيئة يُعرف بها ويُتميز عن غيره بسِمَتها . فتبارك الله أحسن الخالقين . وقال النابغة :

الخالق البارئ المصوّر فى الـ * ـأرحامِ ماءً حتى يصير دمَا

وقد جعل بعض الناس الخلق بمعنى التصوير ؛ وليس كذلك ، وإنما التصوير آخرا والتقدير أوّلا والبراية بينهما . ومنه قوله الحق : « وإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ(٢) » . وقال زُهير :

وَلأنتَ تَفْرِى ما خَلَقْتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

يقول : تُقَدِّر ما تُقَدِّر ثم تَفْرِيه ؛ أى تُمضيه على وَفْق تقديرك ، وغيرك يقدر ما لا يتم له ولا يقع فيه مراده ؛ إما لقصوره فى تصوّر تقديره أو لعجزه عن تمام مراده . وقد أتينا على هذا كله فى « الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » والحمد لله . وعن حاطب ابن أبى بَلْتَعَة أنه قرأ « البارئ المصوَّرَ » بفتح الواو ونصب الراء ؛ أى الذى يبرأ المصوَّر ؛ أى يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات . ذكره الزَّمَخْشَرِىّ . ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم الكلام فيه(٣) . وعن أبى هريرة قال : سألت خليلى أبا القاسم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال : "يا أبا هريرة

(١) كذا فى نسخ الأصل . والذى فى كتب اللغة : « برأ الله الخلق برءا وبروءا » .

(٢) آية ١١٠ سورة المائدة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ وجـ ٢ ص ١٣١ وجـ ١٠ ص ٢٦٦

عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها " فأعدت عليه فأعاد عليّ فأعدت عليـه فأعاد عليّ . وقال جابر بن زيد : ان اسم الله الأعظم هو الله لمكان هذه الآية . وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة الحشر غفـر الله له ما تقـدّم من ذنبه وما تأخر " . وعن أبي أمامة قال : قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم : "من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار فقبضه الله في تلك الليلة أو ذلك اليوم فقد أوجب الله له الجنة " .

ســـورة الممتحنـــة

مدنيّة فى قول الجميع ، وهى ثلاث عشرة آية

الممتحنة (بكسر الحاء) أى المختبرة ، أضيف الفعل إليها مجازا ؛ كما سُمِّيت سورة «براءة» المبعثِرة والفاضحة ، لمـا كشفت من عيوب المنافقين . ومن قال فى هـذه السورة : الممتحَنة (بفتح الحاء) فإنه أضافها إلى المرأة التى نزلت فيهـا ، وهى أم كُلْثُوم بنت عُقْبـة بن أبى مُعَيْط . قال الله تعالى : « فٱمتحنوهنّ اللهُ أعلمُ بإيمانهن » الآية . وهى ٱمرأة عبـد الرحمن ابن عَوْف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ عدّى آتّخذ إلى مفعولين، وهما «عدوّكم أولياء» . والعدُوّ فعُول من عَدَا كعفُوّ من عفَا . ولكونه على زِنَة المصدر أوقع على الجماعة إيقاعه على الواحد . وفى هذه الآية سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ ﴾ روى الأئمة ــ واللفظ لمسلم ــ عن علىّ رضى الله عنه قال : بَعَثَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنا والزُّبير والمِقْداد فقال : "آئتوا رَوْضَةَ خاخ (١) فإن بها ظَعِينة (٢) معها كتاب فخذوه منها" ، فانطلقنا تَعادَى (٣) بنا خَيْلُنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا : أخْرِجى الكتاب، فقالت : ما معى كتاب . فقلنا : لَتُخْرِجِنّ الكتاب أو لَتُلْقِيَنّ الثياب ؛ فأخرجته من عِقاصها . فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبى بَلْتَعَة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا حاطب ما هذا ؟ قال لا تعجل علىّ يا رسول الله ، إنى كنت آمرأً مُلْصَقًا فى قريش ــ قال سفيان : كان حَلِيفًا لهم، ولم يكن من أنفُسها ــ وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يَحْمُون بها أهليهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النَّسَب فيهم أن أتّخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتى، ولم أفعله كفرًا ولا ارتدادًا عن دِينى، ولا رِضًا بالكفر بعد الإسلام . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "صَدَق" . فقال عمر : دَعْنِى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال : "إنه قد شهد بدرًا وما يُدرِيك لعلّ الله آطلع على أهل بدر فقال آعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم" فأنزل الله عز وجل « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» .

قيل : اسم المرأة سارّة من موالى قريش . وكان فى الكتاب : « أمّا بعدُ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسَّيْل، وأقسم بالله لو لم يَسِرْ إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم ، وأنجز له مَوْعِده فيكم ؛ فإن الله وليُّه وناصره . ذكره بعض المفسرين .

---

(١) موضع بين مكة والمدينة على اثنى عشر ميلا من المدينة .

(٢) الظعينة : هى المرأة فى الهودج . ولا يقال ظعينة إلا وهى كذلك . (٣) أى تجرى .

وذكر القُشَيْرِىّ والثَّعْلَبِىّ أن حاطب بن أبى بَلْتَعَة كان رجلا من أهل اليمن، وكان له حِلْف بمكة فى بنى أسد بن عبد العُزَّى رَهْط الزبير بن العَوّام . وقيل : كان حليفًا للزبير بن العَوّام ، فقدمت من مكة سارة مولاة أبى عمرو بن صَيْفِىّ بن هاشم بن عبد مَناف إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز لفتح مكة . وقيل : كان هذا فى زمن الحُدَيْبِيَة ؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمهاجرة جئتِ يا سارة" . فقالت لا . قال : "أمسلمة جئت" قالت لا . قال : "فما جاء بك" قالت : كنتم الأهل والموالى والأصل والعَشيرة ، وقد ذهب الموالى — تعنى قُتلوا يوم بدر — وقد احتجتُ حاجةً شديدة فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : "فأين أنتِ عن شباب أهل مكة" وكانت مُغَنِّيَةً ، قالت : ما طُلب منّى شىء بعد وقعة بدر . فحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب وبنى المطلب على إعطائها ، فكَسَوْها وأعطوْها وحملُوها فخرجت إلى مكة ، وأتاها حاطب فقال : أعطيك عشرة دنانير وبُرُداً على أن تبلغى هذا الكتاب إلى أهل مكة . وكتب فى الكتاب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حِذْركم . فخرجت سارة ، ونزل جبريل فأخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث عليًّا والزبير وأبا مَرْثَد الغَنَوِىّ . وفى رواية : عليًّا والزبير والمِقْداد . وفى رواية : أرسل عليًّا وعمّار بن ياسر . وفى رواية : عليًّا وعمارا وعمر والزبير وطَلْحة والمقداد وأبا مَرْثَد — وكانوا كلهم فرسانا — وقال لهم : "انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَة خاخٍ فإن بها ظَعِينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلُّوا سبيلها فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها" فأدركوها فى ذلك المكان ، فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت ما معها كتاب ؛ ففتّشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتابا ، فهمُّوا بالرجوع فقال علىّ : والله ما كَذَبَنا ولا كَذَّبْنا ! وسلّ سيفه وقال : أخرجى الكتاب وإلا والله لأجرِّدنّك ولأضربنّ عنقك ؛ فلما رأت الجِدّ أخرجته من ذؤابتها — وفى رواية من حُجْزَتِها (١) — فخلّوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأرسل إلى حاطب فقال :

(١) الحجزة : معقد الإزار ، وموضع التكة من السراويل .

" هل تعرف الكتاب ؟ " قال نعم . وذكر الحديث بنحو ما تقدّم . ورُوِي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هى أحدهم .

الثانيـة — السورة أصلٌ فى النّهي عن موالاة الكفار. وقد مضى ذلك فى غير موضع.(١) من ذلك قوله تعالى : « لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المؤمنين » . « يأيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » . « يأيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنصارَى أولياءَ » . ومثله كثير . وذكر أن حاطباً لما سمع « يأيها الذين آمنوا » غُشِيَ عليه من الفرح بخطاب الإيمان .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ يعنى بالظاهر ؛ لأن قلب حاطب كان سليماً؛ بدليل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : " أما صاحبكم فقد صدق ". وهذا نصٌّ فى سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده . والباء فى « بالمودّة » زائدة ؛ كما تقول : قرأت السورة وقرأت بالسورة ، ورميت إليه ما فى نفسى وبما فى نفسى . ويجوز أن تكون ثابتة على أن مفعول « تُلْقُون » محذوف ؛ معناه تلقون إليهم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودّة التى بينكم وبينهم . وكذلك « تُسِرون إليهم بِالْمَوَدَّةِ » أى بسبب المودّة . وقال الفرّاء : « تلقون إليهم بالمودّة » من صلة « أولياء » ودخول الباء فى المودّة وخروجها سواء . ويجوز أن تتعلق بـ « لا تتّخذوا » حالاً من ضميره . وبـ « أولياء » صفة له . ويجوز أن تكون استئنافا . ومعنى « تلقون إليهم بالمودّة » تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم ؛ وقاله الزجاج .

الرابعـة — من كثر تطلّعه على عَوْرات المسلمين وينبّه عليهم ويعرّف عدوّهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعله لغَرَض دُنْيَوِيّ واعتقاده على ذلك سليم ؛ كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليَد ولم ينْوِ الرِّدّة عن الدِّين .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٥٧ و ١٧٨ وجـ ٦ ص ٢١٦ .

الخامســة — إذا قلنا لا يكون بذلك كافرا فهل يقتل بذلك حدّا أم لا ؟ اختلف الناس فيه ؛ فقال مالك وابن القاسم وأشهب : يجتهد في ذلك الإمام . وقال عبد الملك : إذا كانت عادته تلك قُتل؛ لأنه جاسوس . وقد قال مالك بقتل الجاسوس — وهو صحيح — لإضراره بالمسلمين وسَعْيه بالفساد في الأرض . ولعل ٱبن الماجِشُون إنما اتخذ التكرار في هذا لأن حاطبا أخذ في أوّل فعله . والله أعلم .

السادســة — فإن كان الجاسوس كافرا فقال الأوزاعيّ : يكون نقضا لعهده . وقال أَصْبَغ : الجاسوس الحربيّ يقتل، والجاسوس المسلم والذميّ يعاقبان إلا إن تظاهرا على الإسلام فيقتلان . وقد روى عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أتى بعَيْنٍ للشركين اسمه فُرَات بن حَيّان، فأمر به أن يقتل، فصاح : يا معشر الأنصار، أُقْتَلُ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ! فأمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم فخلّى سبيله . ثم قال : "إن منكم من أَكِلُه إلى إيمانه منهم فُرَات بن حَيّان" . وقوله : « وقد كفروا » حال، إمّا من « لا تتخذوا » وإما من « تُلْقُون » أي لا تتولّوهم أو توادّوهم؛ وهذه حالهم . وقرأ الجَحْدَرِيّ « لما جاءكم » أي كفروا لأجل ما جاءكم من الحق .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ ﴾ استئناف كلام كالتفسير لكفرهم وعُتُوّهم ، أو حال من « كفروا» . ﴿ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ تعليلٌ لـ«يخرِجون» المعنى يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأن تؤمنوا بالله ؛ أي لأجل إيمانكم بالله . قال ٱبن عباس : وكان حاطب ممن أخرج مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلى . وقيل : في الكلام حذف؛ والمعنى إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلى وابتغاء مرضاتى، فلا تلقوا إليهم بالمودّة . وقيل : «إن كنتم خرجتم جِهادا فِي سبِيلِي وٱبتِغاء مرضاتِي » شَرْطٌ وجوابُه مقدّم . والمعنى إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلى فلا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء . ونصب « جهادا » و « ابتغاء » لأنه مفعول له . وقوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ بدل من

« تلقون » ومبيَّن عنه . والأفعال تبدل من الأفعال، كما قال : «وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ له العذابُ»(١) . وأنشد سيبويه :

مَتَى تأتنا تُلْمِمْ بنا فى ديارنا * تجِدْ حَطَبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجا

وقيل : هو على تقدير أنتم تُسِرّون إليهم بالمودّة ؛ فيكون استئنافا . وهذا كلّه معاتبةٌ لحاطب . وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه ؛ فإن المعاتبة لا تكون إلا من مُحِبّ لحبيبه . كما قال :

أعاتب ذا المودّة من صديقٍ * إذا ما رابنى منه اجتناب

إذا ذهب العِتاب فليس وُدٌّ * ويبقى الودّ ما بقى العتاب

ومعنى « بِالمودّةِ » أى بالنصيحة فى الكتاب إليهم . والباء زائدة كما ذكرنا، أو ثابتة غير زائدة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ ﴾ أضمرتم . ﴿ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ أظهرتم . والباء فى « بما » زائدة ؛ يقال : علمت كذا وعلمت بكذا . وقيل : وأنا أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ؛ فحذف من كل أحد . كما يقال : فلان أعلم وأفضل من غيره . وقال ابن عباس : وأنا أعلم بما أخفيتم فى صدوركم وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد . ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ ﴾ أى من يسرّ إليهم ويكاتبهم منكم . ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى أخطأ قَصْد الطريق .

قوله تعالى : إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يلقوكم ويصادفوكم ؛ ومنه المثاقفة ؛ أى طلب مصادفة الغِرّة فى المسايفة وشبهها . وقيل : « يثقفوكم » يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم . ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ

(١) آية ٦٨ سورة الفرقان .

أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ أى [أيديهم] بالضرب والقتل ، وألسنتهم بالشتم . ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ بمحمد ؛ فلا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم .

قوله تعالى : لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ لما اعتذر حاطب بأن له أولادًا وأرحامًا فيما بينهم ، بيّن الرب عز وجل أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئًا يوم القيامة إن عُصِيَ من أجل ذلك . ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ فيُدخل المؤمنين الجنة ويدخل الكافرين النار . وفى « يفصل » قراءات سبع : قرأ عاصم « يَفْصِل » بفتح الياء وكسر الصاد مخففًا . وقرأ حمزة والكسائى « يُفَصِّل » بضم الياء وكسر الصاد مشددًا . وقرأ الحسن وابن عامر « يُفَصَّل » كذلك مشددًا إلا أنه على ما لم يسم فاعله . وقرأ طلحة والنَّخَعِيّ بالنون وكسر الصاد مشددة . وروى عن عَلْقَمة كذلك بالنون مخففة . وقرأ قتادة وأبو حَيْوَة « يُفْصِل » بضم الياء وكسر الصاد مخففة من أفصل . وقرأ الباقون « يُفْصَل » بياء مضمومة وتخفيف الفاء وفتح الصاد على الفعل المجهول ، واختاره أبو عبيد . فمن خفف فلقوله : « وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ »(1) وقوله : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ »(2) . ومن شدّد فلأن ذلك أبين فى الفعل الكثير المكرر المتردّد . ومن أتى به على ما لم يسم فاعله فلأن الفاعل معروف . ومن أتى به مُسَمَّى الفاعل ردّ الضمير إلى الله تعالى . ومن قرأ بالنون فعلى التعظيم . ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ

(1) آية ٥٧ سورة الأنعام .		(2) آية ٤٠ سورة الدخان .

وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ لما نهى عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وأن من سيرته التبرُّؤ من الكفار؛ أى فاقتدوا به وأْتمُّوا؛ إلا فى استغفاره لأبيه . والإِسْوَةُ والأُسْوَة ما يُتأسّى به ؛ مثل القِدْوة والقُدْوة . ويقال : هو إسوتك ؛ أى مثلك وأنت مثله . وقرأ عاصم « أُسْوَة » بضم الهمزة . لغتان . ﴿ وَالَّذِينَ معه ﴾ يعنى أصحاب إبراهيم من المؤمنين . وقال ابن زيد : هم الأنبياء . ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ الكفار . ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى الأصنام . وبُرَآء جمع برىء؛ مثل شريك وشركاء ، وظريف وظرفاء . وقراءة العامة على وزن فُعَلاء . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق « بِرَاء » بكسر الباء على وزن فِعال؛ مثل قَصير وقِصار، وطَويل وطِوال ، وظريف وظِراف . ويجوز ترك الهمزة حتى تقول : بَرًا؛ وتنوّن . وقُرِئ «بَرَاء» على الوصف بالمصدر . وقرئ «بُراء» على إبدال الضم من الكسر؛ كرُخَال ورُباب (1) . والآية نصٌّ فى الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام فى فعله . وذلك يصحّح أن شرع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا فيما أخبر الله ورسوله . ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أى بما آمنتم به من الأوثان . وقيل : أى بأفعالكم وكذبناها وأنكرنا أن تكونوا على حق . ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ أى هذا دأبنا معكم مادمتم على كفركم . ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ فحينئذ تنقلب المعاداة موالاة . ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ فلا تتأسّوا به فى الاستغفار فتستغفروا للمشركين ؛ فإنه كان عن

---

(1) رخال : جمع رخل ، الأنثى من أولاد الضأن . والرباب : جمع الربى ، الشاة التى وضعت حديثا . وقيل : إذا مات ولدها .

مَوْعِدَة منه له ؛ قاله قتـادة ومجاهد وغيرهما . وقيـل : معنى الاستثناء أن إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا في الاستغفار لأبيه ، ثم بيّن عذره في سورة « التوبة »[1] .

وفي هذا دلالة على تفضيل نبيّنا عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء ؛ لأنا حين أُمِرْنَا بالاقتداء به أُمِرْنَا أمرًا مطلقا في قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُـذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْـهُ فَانْتَهُوا[2] » وحين أُمِرنا بالاقتـداء بإبراهيم عليـه السلام استثنى بعض أفعاله . وقيـل : هو استثناء منقطع ؛ أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك ، إنما جرى لأنه ظنّ أنه أسلم ، فلما بان له أنه لم يُسلم تبرّأ منه . وعلى هذا يجوز الاستغفار لمن يُظنّ أنه أسلم؛ وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن ، فلِمَ توالوهم . ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هذا من قول إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ أي ما أدفع عنك من عذاب الله شيئا إن أشركت به . ﴿ رَبَّنَا عَلَيْـكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ هذا من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه . وقيل : علّم المؤمنين أن يقولوا هذا . أي تبرّءوا من الكفار وتوكّلوا على الله وقولوا : « رَبَّنَا عليك تَوَكَّلْنَا » أي اعتمدنا . ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ أي رجعنا . ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ لك الرجوع في الآخرة . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لا تُظهر عدوّنا علينـا فيظنوا أنهـم على حق فيفتتنوا بذلك . وقيـل : لا تسلّطهم علينا فيفتنونا و يعذبونا . ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعـالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾ أي في إبراهيم ومن معـه من الأنبياء والأولياء . ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي في التبرؤ من الكفار . وقيل : كرّر للتأكيد . وقيل : نزل الثاني بعد

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٤ (٢) آية ٧ سورة الحشر .

الأوّل بمدة ؛ وما أكثر المكررات فى القرآن على هذا الوجه . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى عن الإسلام وقبول هـذه المواعظ . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أى لم يتعبّدهم لحاجته إليهم . ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ فى نفسه وصفاته . ولما نزلت عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين ؛ فعلم الله شدّة وجد المسلمين فى ذلك فنزلت ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ وهذا بأن يُسلم الكافر . وقد أسلم قوم منهم بعـد فتح مكة وخالطهم المسلمون ؛ كأبى سفيان بن حَرْب والحارث بن هشام وسُهيل بن عمـرو وحَكيم بن حِزام . وقيـل : المودّة تزويج النبيّ صلى الله عليـه وسلم أمّ حَبيبة بنت أبى سفيان ؛ فلانت عنـد ذلك عَرِيكة أبى سـفيان ، واسترخت شَكيمته فى العداوة . قال ابن عباس : كانت المودّة بعـد الفتح تزويج النبيّ صلى الله عليـه وسلم أمّ حبيبة بنت أبى سفيان ؛ وكانت تحت عبـد الله بن جَحْش ، وكانت هى وزوجها من مهاجرة الحبشة . فأمّا زوجها فتنصّر وسألها أن تتابعه على دينـه فأبت وصبرت على دينهـا ، ومات زوجها على النصرانيـة . فبعث النبيّ صلى الله عليـه وسلم إلى النجاشى فخطبها ؛ فقال النجاشى لأصحابه : من أَوْلاكم بهـا ؟ قالوا : خالد بن سـعيد بن العاص . قال فزوّجها من نبيّكم . ففعل ؛ وأمهرها النجاشى من عنده أربعمائة دينار . وقيل : خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن عَفّان ، فلما زوّجه إياها بعث إلى النجاشى فيها ؛ فساق عنه المهر وبعث بهـا إليه . فقال أبو سفيان وهو مشرك لمـا بلغه تزويج النبيّ صلى الله عليه وسلم ابنتـه : ذلك الفَحْل لا يُقْدَع أنفُه . « يقدع » بالدال غير المعجمة ؛ يقال : هـذا فحل لا يقدع أنفه ؛ أى لا يضرب أنفه . وذلك إذا كان كريما .

قوله تعـالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ هذه الآية رُخصة من الله تعالى فى صِلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم. قال ابن زيد : كان هـذا فى أوّل الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ . قال قتادة : نسختها «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» . وقيل : كان هذا الحكم لعلّة وهو الصلح ، فلمـا زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم وبقى الرسم يُتْلَى . وقيـل : هى مخصوصة فى حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ومَنْ بينه و بينه عهد لم ينقضه؛ قاله الحسن. الكلبى : هم خُزَاعة و بنو الحارث بن عبـد مناف . وقاله أبو صالح ، وقال : هم خزاعة . وقال مجاهد : هى مخصوصة فى الذين آمنوا ولم يهاجروا . وقيـل : يعنى به النساء والصبيان لأنهم ممن لا يقـاتل ؛ فأذن الله فى بِرّهم . حكاه بعض المفسرين . وقال أكثر أهل التـأويل : هى محكمة . واحتجوا بأن أسمـاء بنت أبى بكر سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل تَصِـلُ أُمّها حين قدمت عليها مشركة ؟ قال : "نعم" خرّجه البخارى ومسلم . وقيل : إن الآية فيهـا نزلت . روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيـه أن أبا بكر الصديق طلّق امرأته قُتيـلة فى الجاهليـة ، وهى أم أسماء بنت أبى بكر ، فقدمت عليهم فى المدة التى كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلّى الله عليه وسلم و بين كفار قريش ، فأهدت إلى أسماء بنت أبى بكر الصديق قُرْطا وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فأنزل الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » . ذكر هذا الخبر المـاوَرْدِيّ وغيره ، وخرجه أبو داود الطَّيالسى فى مسنده .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ « أن » فى موضع خفض على البـدل من « الذين » ؛ أى لا ينهاكم الله عن أن تَبَرّوا الذين لم يقاتلوكم . وهم خُزاعة ، صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليـه أحدا ؛ فأمر ببرّهم والوفاء لهم إلى أجلهم ؛ حكاه الفرّاء . ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى تعطوهم قسطًا من أموالكم على وجه الصِّـلة . وليس يريد به من العدل ؛ فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل ؛ قاله ابن العربى .

الثالثة ــ قال القاضي أبو بكر في كتاب الأحكام له : « استدل به بعض من تُعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر . وهذه وهلة عظيمة ، إذ الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه لا يدلّ على وجوبه ، وإنما يعطيك الإباحة خاصة . وقد بيّنا أن إسماعيل بن إسحاق القاضي دخل عليه ذمّي فأكرمه ، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك ؛ فتلا هذه الآية عليهم » .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي جاهدوكم على الدين ﴿ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ وهم عُتاة أهل مكة . ﴿ وَظَاهَرُوا ﴾ أي عاونوا على إخراجكم وهم مشركو أهل مكة . ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ « أنْ » في موضع جرّ على البدل على ما تقدّم في « أنْ تبرّوهمْ » . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ ﴾ أي يتّخذهم أولياء وأنصارًا وأحبابا ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فيـه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسـلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسـلام ، وكان التناكح من أوكد أسـباب الموالاة؛ فبيّن أحكام مهاجرة النساء . قال ابن عبـاس : جرى الصلح مع مشركى قريش عام الحُدَيْبِيَـة ، على أن من أتاه من أهل مكة ردّه إليهـم؛ فجاءت سُبَيْعة بنت الحارث الأسلميّة بعـدَ الفراغ من الكتاب ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعدُ؛ فأقبل زوجها وكان كافرا — وهو صَيْفِيّ بن الراهب ، وقيل : مسافر المخزومى — فقال : يا محمد ، اردد علىّ امرأتى فإنك شرطت ذلك! وهـذه طِينة الكتاب لم تجِفّ بعدُ؛ فأنزل الله تعالى هـذه الآية . وقيل : جاءت أمّ كُلْثُوم بنت عُقْبَـة بن أبى مُعَيْط ، فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردّها . وقيل : هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عِمارة والوليد ، فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخَوَيْها وحبسها؛ فقالوا للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : ردّها علينا للشرط؛ فقال صـلى الله عليه وسـلم : "كان الشرط فى الرجال لا فى النساء" فأنزل الله تعالى هذه الآية . وعن عُرْوَة قال : كان مما اشترط سُهيل بن عمرو على النبيّ صلى الله عليه وسلم يومَ الحُدَيْبِيَة : ألّا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددتَه إلينا؛ حتى أنزل الله تعالى فى المؤمنات ما أنزل . يومئ إلى أن الشرط فى ردّ النساء نُسخ بذلك . وقيل : إن التى جاءت أُمَيْمة بنت بشر، كانت عند ثابت بن الشِّمْراخ ففرّت منه وهو يومئذ كافر ، فتزوّجها سَهْـل بن حُنيف فولدت له عبـد الله ؛ قاله زيد بن حبيب . كذا قال المـاوردىّ : أميمـة بنت بشر كانت عنـد ثابت بن الشِّمْراخ . وقال المهـدَوِىّ : ورَوَى ابن وهب عن خالد أن هـذه الآية نزلت فى أُمَيْمة بنت بشر من بنى عمرو بن عوف ، وهى امرأة حسان بن الدَّحداح ، وتزوّجها بعد هجرتها سَهل بن حُنيف . وقال مقاتل : إنها سُبَيْعة زوجة صَـيْفِى بن الراهب مشرك من أهـل مكة . والأكثر من أهل العـلم أنها أم كلثـوم بنت عقبة .

الثانيـــة ــ واختلف أهل العــلم هل دخل النساء فى عقــد المهادنة لفظًا أو عموما ؛ فقالت طائفة منهــم : قد كان شرط ردّهن فى عقــد المهادنة لفظًا صريحًا فنسخ الله ردّهن من العقد ومنع منه ، وأبقاه فى الرجال على ما كان . وهــذا يدلّ على أن للنبيّ صلى الله عليه وسـلم أن يجتهد رأيه(١) فى الأحكام ، ولكن لا يقرّه الله على خطأ . وقالت طائفة من أهــل العــلم : لم يشترط ردّهن فى العقد لفظا ، وإنما أطلق العقد فى ردّ من أســلم ؛ فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال . فبيّن الله تعــالى خروجهنّ عن عمومه . وفرّق بينهنّ وبين الرجال لأمرين : أحدهما ــ أنهنّ ذوات فروج يحرمن عليهم . الثانى ــ أنهنّ أرقّ قلوبًا وأسرع تقلّبًا منهم . فأما المقيمة منهنّ على شركها فمردودة عليهم .

الثالثـــة ــ قوله تعــالى : ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ قيل : إنه كان من أرادت منهنّ إضرار زوجها قالت : سأهاجر إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلذلك أمر صلى الله عليه وسلم بٱمتحانهنّ . وٱختلف فيما كان يمتحنهنّ به على ثلاثة أقوال :

الأوّل ــ قال ٱبن عبــاس : كانت المِحْنَة أن تُستحلف بالله أنهــا ما خرجت من بغض زوجها ، ولا رغبةً من أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، ولا عشقًا لرجل منّا ؛ بل حُبًّا لله ولرسوله . فإذا حلفت بالله الذى لا إله إلا هو على ذلك ، أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها ؛ فذلك قوله تعالى : « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » .

الثــانى ــ أن المحنة كانت أن تشهد أنــ لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؛ قاله ابن عباس أيضا .

الثــالث ــ بما بيّنه فى السورة بعدُ من قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ » قالت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحن إلّا بالآية التى قال الله : « إذا جاءك المؤمناتُ يُبَايِعْنَكَ » رواه مَعْمَر عن الزُّهْرِى عن عائشة . خرّجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(١) الاجتهاد : بذل الوسع فى طلب الأمر .

الرابعـــة — أكثر العلمـاء على أن هذا ناسخ لمـا كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشا ، مِن أنه يردّ إليهم من جاءه منهم مسلمًا؛ فنُسِخ من ذلك النساء . وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن . وقال بعض العلماء : كله منسوخ فى الرجال والنساء ، ولا يجوز أن يهادن الإمامُ العـدوّ على أن يردّ إليهم من جاءه مسلما ؛ لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز . وهذا مذهب الكوفيين . وعقـد الصلح على ذلك جائز عند مالك . وقـد احتج الكوفيون لمـا ذهبوا إليـه من ذلك بحديث إسماعيـل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن خالد بن الوليـد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم بعثه إلى قوم من خَثْعَم فاعتصموا بالسجود فقتلهم ، فَوَداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف الدّية ؛ وقال : " أنا برىء من كل مسلم أقام مع مشرك فى دار الحرب لا تَرَاءَى نارُهما " قالوا : فهذا ناسخ لردّ المسلمين إلى المشركين؛ إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد برئ ممن أقام معهم فى دار الحرب . ومذهب مالك والشافعى أن هـذا الحكم غير منسوخ . قال الشـافعىّ : وليس لأحد هـذا العقد إلا الخليفة أو رجل يأمره ؛ لأنه يَلِي الأموال كلها . فمن عقد غير الخليفة هـذا العقد فهو مردود .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ أى هذا الامتحان لكم ، والله أعلم بإيمانهن ؛ لأنه متولّى السرائر . ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ أى بما يظهرن من الإيمـان . وقيل : إن علمتموهنّ مؤمنات قبـل الامتحان . ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ أى لم يُحِلّ الله مؤمنةً لكافر ، ولا نكاح مؤمن لمشركة .

وهـذا أدلّ دليل على أن الذى أوجب فرقةَ المسلمة من زوجها إسـلامُها لا هجرتها . وقال أبو حنيفة : الذى فرّق بينهما هو اختلاف الدارين . وإليه إشـارة فى مذهب مالك

(١) الأصل فى « تراءى » تتراءى . والترائى تفاعل من الرؤية ؛ يقال : تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضا . وإسناد الترائى إلى النارين مجاز . أى يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموضع الذى إذا أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها فى منزله . ولكنه ينزل مع المسلمين فى دارهم . وإنما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان ، وحث المسلمين على الهجرة . (عن نهاية ابن الأثير) .

بل عبارة . والصحيح الأوّل ؛ لأن الله تعالى قال : « لا هُنّ حِلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّون لهن » فبيّن أن العلة عدم الحِلّ بالإسلام وليس باختلاف الدار . والله أعلم . وقال أبو عمر : لا فرق بين الدارين لا فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى القياس ، وإنما المراعاة فى ذلك الدينان ؛ فباختلافهما يقع الحكم وباجتماعهما ؛ لا بالدار . والله المستعان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ أمر الله تعالى إذا أمسكت المرأة المسلمة أن يُرَدّ على زوجها ما أنفق ، وذلك من الوفاء بالعهد ؛ لأنه لما مُنع من أهله بحرمة الإسلام، أَمَر برد المال [إليه] حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين : الزوجة والمال .

السابعة — ولا غُرْمَ إلا إذا طالب الزوج الكافر ؛ فإذا حضر وطالب منعناها وغَرِمنا . فإن كانت ماتت قبل حضور الزوج لم نَغْرَم المهر إذ لم يتحقق المنع . وإن كان المسمّى خمرًا أو خنزيرا لم نَغْرَم شيئا ؛ لأنه لا قيمة له . وللشافعيّ فى هذه الآية قولان : أحدهما — أن هذا منسوخ . قال الشافعيّ : وإذا جاءتنا المرأة الحرّة من أهل الهُدْنة مسلمةً مهاجِرةً من دار الحرب إلى الإمام فى دار السلام أو فى دار الحرب ، فمن طلبها مِن وَلِيٍّ سِوَى زوجها مُنع منها بلا عِوَض . وإذا طلبها زوجها لنفسه أو غيره بوكالته ففيه قولان : أحدهما — يعطى العِوض ؛ والقول ما قال الله عز وجل . وفيه قول آخر — أنه لا يعطى الزوج المشرك الذى جاءت زوجته مسلمةً العِوَض . [فإن شرط الإمامُ ردّ النساء كان الشرط ورسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يردّ النساء كان شرط من شرط ردّ النساء منسوخا وليس عليه عِوض ؛ لأن الشرط المنسوخ باطل ولا عوض للباطل] (1) .

---

(1) ما بين المربعين هكذا ورد فى جميع نسخ الأصل ، وهو مضطرب . وقد نقل المؤلف رحمه الله هذه المسألة من كتاب الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس ونصها فيه : وان شرط الامام رد النساء كان الشرط منتقضا . ومن قال هذا قال : ان شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الحديبية فيه أن يرد من جاء منهم ، وكان النساء منهم كان شرطا صحيحا ؛ فنسخه الله ورد العوض ، فلما قضى الله عز وجل ثم رسوله صلى الله عليه وسلم الا يرد النساء كان شرط من شرط رد النساء منسوخا وليس عليه أن يعوض ؛ لأن شرطه المنسوخ باطل ولا عوض للباطل » .

الثامنــة ـــ أمر الله تعالى بردّ مثل ما أنفقوا إلى الأزواج، وأن المخاطب بهذا الإمامُ، ينفذ مما بين يديه من بيت المال الذى لا يتعين له مصرف . وقال مقاتل : يردّ المهر الذى يتزوجها من المسلمين ، فإن لم يتزوجها من المسلمين أحد فليس لزوجها الكافر شيء . وقال قتادة : الحكم فى ردّ الصداق إنما هو فى نساء أهل العهد ؛ فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يردّ إليهم الصداق . والأمر كما قاله .

التاسعة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ يعنى إذا أسلمن وانقضت عدتهنّ ؛ لما ثبت من [تحريم] نكاح المشركة والمعتدة . فإن أسلمت قبل الدخول ثبت النكاح فى الحال ولها التزوج .

العاشــرة ـــ قوله تعالى : ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أباح نكاحها بشرط المهر ؛ لأن الإسلام فرّق بينها وبين زوجها الكافر .

الحادية عشرة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من الإمساك . وهو اختيار أبى عبيد ؛ لقوله تعالى : « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » . وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو « ولا تُمَسِّكُوا » مشدّدة من التمسك . يقال : مَسّك يمسّك تمسُّكًا ؛ بمعنى أمسك يمسك . وقرئ « ولا تَمَسكوا » بنصب التاء ؛ أى لا تتمسكوا . والعِصَم جمع العِصْمة ؛ وهو ما اعتصم به . والمراد بالعصمة هنا النكاح . يقول : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها ، فليست له امرأة ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين . وعن النَّخَعِيّ هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ؛ وكان الكفار يتزوجون المسلمات والمسلمون يتزوجون المشركات ؛ ثم نسخ ذلك فى هذه الآية . فطلق عمر بن الخطاب حينئذ امرأتين له بمكة مشركتين : قُرَيبة بنت أبى أميّة فتزوجها معاوية بن أبى سفيان وهما على شركهما بمكة . وأمّ كُلْثوم بنت عمرو الخُزَاعيّة أم عبد الله بن المغيرة ؛ فتزوجها أبو جَهم بن حُذافة وهما على شركهما . فلما وَلِيَ عمر قال أبو سفيان لمعاوية : طلّق قُرَيبة لئلا يرى عمر سَلَبَه فى بيتك ؛ فأبى معاوية من ذلك . وكانت عند طلحة بن عبيد الله أَرْوَى

بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق الإسلام بينهما ، ثم تزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت ممن فرّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار ، فحبسها وزوّجها خالدا . وزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب ابنته — وكانت كافرة — من أبي العاص بن الربيع ، ثم أسلمت وأسلم زوجها بعدها . ذكر عبد الرزاق عن ابن جُريج عن رجل عن ابن شهاب قال : أسلمت زينب بنت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهاجرت بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم في الهجرة الأولى ، وزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى مشرك بمكة . الحديث ؛ وفيه : أنه أسلم بعدها . وكذلك قال الشعبي . قال الشّعْبِيّ : وكانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أبي العاص بن الربيع ، فأسلمت ثم لحقت بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى زوجها المدينة فأمّنته فأسلم فردّها عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أبو داود عن عكرمة عن ابن عباس : بالنكاح الأول ؛ ولم يحدث شيئا . قال محمد بن عمر في حديثه : بعد ست سنين . وقال الحسن بن عليّ : بعد سنتين . قال أبو عمر : فإن صح هذا فلا يخلو من وجهين : إما أنها لم تحض حتى أسلم زوجها، وإما أن الأمر فيها منسوخ بقول الله عز وجل : «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذٰلِكَ» يعني في عدّتهن . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء أنه عنى به العدّة . وقال ابن شهاب الزهري رحمه الله في قصة زينب هذه : كان قبل أن تنزل الفرائض . وقال قتادة : كان هذا قبل أن تنزل سورة « براءة » بقطع العهود بينهم وبين المشركين . والله أعلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ المراد بالكوافر هنا عَبَدة الأوثان من لا يجوز ابتداء نكاحها؛ فهي خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب . وقيل : هي عامة ؛ نسخ منها نساء أهل الكتاب . ولو كان إلى ظاهر الآية لم تحل كافرة بوجه . وعلى القول الأول إذا أسلم وَثَنِيّ أو مجوسيّ ولم تُسلم امرأته فرّق بينهما . وهذا قول بعض أهل العلم . ومنهم من قال : ينتظر بها تمام العدة. فمن قال يفرق بينهما في الوقت ولا ينتظر تمام العدة إذا عرض عليها الإسلام ولم تسلم مالكُ بن أنس . وهو قول الحسن وطاوس ومجاهد وعطاء

وعكرمة وقتــادة والحَكَم؛ واحتجوا بقوله تعــالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافِر » . وقال الزهرى : ينتظر بها العدّة . وهو قول الشافعي وأحمــد . واحتجوا بأن أبا سفيان بن حرب أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته ؛ وكان إسلامه بمَرّ الظَّهْران[1] ثم رجع إلى مكة وهندٌ بها كافرة مقيمة على كفرها ؛ فأخذت بلحيته وقالت : اقتلوا الشــيخ الضال . ثم أسلمت بعده بأيام ؛ فآســتقرا على نكاحهما لأن عدتها لم تكن انقضت . قالوا : ومثله حَكيم بن حِزام أسلم قبــل امرأته ، ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما . قال الشافعي : ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى : «ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافِر» لأن نساء المسلمين محرّمات على الكفار ؛ كما أن المسلمين لا تحل لهم الكوافر والوثنيات ولا المجوسيات بقول الله عز وجل : « لا هنّ حِلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّونَ لَهُنّ » ثم بيّنت السنة أن مراد الله من قوله هذا أنه لا يحل بعضهم لبعض إلا أن يسلم الباقي منهما في العــدة . وأما الكوفيون وهم سفيان وأبو حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا في الكافرَيْن الذّميّيْن : إذا أسلمت المرأة عُرِض على الزوج الإسلام ، فإن أسلم وإلا فُرّق بينهما . قالوا : ولو كانا حربيين فهى امرأته حتى تحيض ثلاث حيض إذا كانا جميعا في دار الحرب أو في دار الإسلام . وإن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب انقطعت العصمة بينهما ؛ فراعوا الدار ؛ وليس بشيء . وقد تقدم .

الثالثة عشرة — هــذا الاختلاف إنمــا هو في المدخول بها ، فإن كانت غير مدخول بها فلا نعلم اختلافا في انقطاع العصمة بينهما ؛ إذ لا عِدّةَ عليها . وكذا يقول مالك في المرأة ترتد وزوجها مسلم : انقطعت العصمة بينهما . وحجته « ولا تُمْسِكوا بِعصم الكوافِر » وهو قول الحسن البصري والحسن بن صالح بن حَيّ . ومذهب الشافعي وأحمد أنه ينتظر بها تمام العدة .

الرابعــة عشرة — فإن كان الزوجان نصرانيين فأسلمت الزوجة ففيها أيضا اختلاف . ومذهب مالك وأحمد والشافعي الوقوف إلى تمــام العدة . وهو قول مجاهد . وكذا الوَثَنِيّ تُسلم زوجته ، إنه إن أسلم في عدتها فهو أحق بها ؛ كما كان صَفْوان بن أُمَيّة وعِكْرِمة بن أبي جهل

(١) مر الظهران : قرية قرب مكة .

أحق بزوجتيهما لما أسلما فى عدّتيهما ؛ على حديث ابن شهاب . ذكره مالك فى المُوَطَّأ . قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوان وبين إسلام زوجته نحو من شهر . قال ابن شهاب : ولم يبلغنا أن امرأة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها كافر مقيم بدار الحرب إلا فرقت هجرتها بينه وبينها ؛ إلا أن يَقْدَم زوجها مهاجراً قبل أن تنقضى عدتها . ومن العلماء من قال : ينفسخ النكاح بينهما . قال يزيد بن علقمة : أسلم جدّى ولم تُسلم جدّتى ففرّق عمر بينهما رضى الله عنه ؛ وهو قول طاوس . وجماعة غيره منهم عطاء والحسن وعكرمة قالوا : لا سبيل عليها إلا بخطبة .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ قال المفسرون : كان مَن ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها . ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة : ردّوا إلى الكفار مهرها . وكان ذلك نَصَفًا وعَدْلًا بين الحالتين . وكان هذا حكم الله مخصوصا بذلك الزمان فى تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة ؛ قاله ابن العربى .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ أى ما ذُكر فى هذه الآية . ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم فى غير موضع (١) .

قوله تعالى : وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ فى الخبر : أن المسلمين قالوا : رضينا بما حكم الله ؛ وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت « وإنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

أَزْواجِكُمْ إلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا » . وروى الزهرىّ عن عُروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : حكم الله عز وجل بينكم فقال جل ثناؤه : « وَاسألوا ما أنفقتم وليَسْأَلُوا ما أنفقوا » فكتب إليهم المسلمون : قد حكم الله عز وجل بيننا بأنه إن جاءتكم امرأة منّا أن توجّهوا إلينا بصداقها ، وإن جاءتنا امرأة منكم وجهنا إليكم بصداقها . فكتبوا إليهم : أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئا ، فإن كان لنا عندكم شيء فوجّهوا به ؛ فأنزل الله عز وجل « وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا » . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » أى بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة يرد بعضهم إلى بعض . قال الزهرىّ : ولولا العهد لأمسك النساء ولم يردّ إليهم صداقا . وقال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفَيْء والغَنيمة . وقالا : هى فيمن بيننا وبينه عهد وليس بيننا وبينه عهد . وقالا : ومعنى « فعاقبتم » فاقتصصتم . ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى الصدُقات . فهى عامة فى جميع الكفار . وقال قتادة أيضا : وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار الذين(1) بينكم وبينهم عهد ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا . ثم نسخ هذا فى سورة «براءة» . وقال الزهرىّ : انقطع هذا عام الفتح . وقال سفيان الثورىّ : لا يعمل به اليوم . وقال قوم : هو ثابت الحكم الآن أيضا . حكاه القُشَيْرِىّ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ قراءة العامة « فعاقبتم » . وقرأ عَلْقمة والنَّخَعِىّ وحُميد والأعرج « فعقّبتم » مشدّدة . وقرأ مجاهد « فأعقبتم » وقال : صنعتم كما صنعوا بكم . وقرأ الزهرىّ « فعقَبتم » خفيفة بغير ألف . وقرأ مسروق وشَقيق بن سَلمة « فعقِبتم » بكسر القاف خفيفة . وقال : غنمتم . وكلها لغات بمعنًى واحد . يقال : عاقب وعَقَب وعَقّب وأعقب وتعقّب واعتقب وتعاقب إذا غنم . وقال القتبىّ « فعاقبتم » فغزوتم معاقبين غزوًا بعد غَزْو . وقال ابن بحر : أى فعاقبتم المرتدة بالقتل فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين .

---

(1) فى بعض نسخ الأصل : « إلى الكفار الذين ليس بينكم وبينهم عهد » بزيادة «ليس» .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى: ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ قال ابن عباس: يقول إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة، وليس بينكم و بينهم عهد، ولهـا زوج مسلم قِبلكم فغنمتم، فأعطوا هـذا الزوجَ المسلمَ مهره من الغنيمة قبل أن تُخَمَّس. وقال الزهرى : يعطى من مال الفيء. وعنه يعطى من صداق من لحق بنـا. وقيل : أى إن امتنعوا من أن يَغرَمُوا مهر هذه المرأة التى ذهبت إليهم، فانبذوا العهد إليهم حتى إذا ظفرتم فخذوا ذلك منهم. قال الأعمش : هى منسوخة. وقال عطاء : بل حكمها ثابت. وقد تقـدم جميع هـذا. القُشـيرى : والآية نزلت فى أمّ الحكم بنت أبى سـفيان، ارتدت وتركت زوجها عِياض ابن غَنْم القرشى، ولم ترتدّ امرأة من قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام. وحكى الثعلبى عن ابن عباس : هن ست نسوة رجعن عن الإسـلام ولَحِقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين : أمّ الحكم بنت أبى سـفيان كانت تحت عياض بن أبى شدّاد الفهرى (١). وفاطمة بنت أبى أُمَيّـة بن المُغيرة أخت أم سلمة، وكانت تحت عمـر بن الخطاب، فلما هاجر عمرُ أبَتْ وٱرتدت. وبَرْوَع بنت عقبة، كانت تحت شَمّاس بن عثمان. وعبدة بنت عبد العُزَّى، كانت تحت هشام بن العاص. و[أم] كلثوم بنت جَرْوَل، تحت عمر بن الخطاب. وشهبة بنت غَيْلان. فأعطاهم النبىّ صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة. ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ احذروا أن تتعدّوْا ما أمرتم به.

قوله تعـالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه ثمـانى مسائل :

---

(١) هو عياض بن غنم بن زهير بن أبى شداد القرشى الفهرى.

الأولى — لمـا فتح رسـول الله صلى الله عليه وسـلم مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه، فأمر أن يأخذ عليهن ألّا يُشْركن . وفي صحيح مسلم عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُمْتَحَنّ بقول الله تعالى : « يأيها النَّبِيُّ إذا جاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَـكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللّهِ شَـيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِـينَ » إلى آخر الآية . قالت عائشة : فمن أقرّ بهذا من المؤمنات فقد أقـرّ بالمحنة ، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إذا أقْرَرن بذلك من قولهن قال لهن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "انطلقْنَ فقد بايعتكن" ولا والله ما مَسّتْ يدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدَ امرأة قطُّ ، غير أنه بايعهن بالكلام . قالت عائشة : والله ، ما أخذ رسـول الله صلى الله عليه وسـلم على النساء قطّ إلا بما أمره الله عز وجل ، وما مسّتْ كَفُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كفَّ امرأة قطّ ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن "قد بايَعْتُكُنّ كلاما" . وروى أنه عليه الصلاة والسلام بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب ، وكان يشترط عليهن . وقيل : لمـا فرغ من بيعة الرجال جلس على الصّفَا ومعه عمرُ أسفل منه ، فجعل يشترط على النساء البَيْعة وعمر يصافحهن . ورُوى أنه كلّف امرأة وقفت على الصّفَا فبايعتهن . ابن العربي : وذلك ضعيف ، وإنمـا ينبغي التعويل على ما في الصحيح . وقالت أمّ عَطِيّة : لمـا قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إلينـا عمرَ بن الخطاب ، فقام على الباب فسلّم فرددْنَ عليه السلام ، فقال : أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليكنّ ، ألّا تشركن بالله شيئا . فقلن نعم . فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ، ثم قال : اللّهمّ اشهد . وروَى عَمْرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا بايع النساء دَعَا بقدح من ماء ، فغمس يده فيه ثم أمر النساء فغمسن أيديهن فيه .

الثانيـــة — رُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا قال : "على ألّا يُشْرِكْنَ بالله شيئا" قالت هنْد بنت عُتْبة وهي مُنْتَقِبة خوفاً من النبيّ صلى الله عليه وسـلم أن يعرفها لِمَـا صنعته بحَمْزَة يومَ أُحُد : والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيتك أخذته على الرجال — وكان بايع الرجال

يومئذ على الإسلام والجهاد فقط — فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولا يَسْرِقن" فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شَحِيح وإنى أصيب من ماله قُوتَنَا . فقال أبو سفيان : هو لك حلال . فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم وعَرَفها وقال : "أنت هند"؟ فقالت : عفا الله عما سلف . ثم قال : "ولا يزنين" فقالت هند : أوَ تزْنِى الحُرّة ! ثم قال : "ولا يقتلن أولادهن" أى لا يَئِدْنَ المَوْءُودات ولا يُسقطن الأجِنّة . فقالت هند : رَبّيناهم صغارا وقتلتم كِبارا يوم بدر، فأنتم وهم أبصر . وروى مقاتل أنها قالت : رَبّيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا، وأنتم وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى . وكان حَنْظلة بن أبى سفيان وهو بِكْرُها قُتِل يوم بَدْر . ثم قال : «وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنّ وَأَرْجُلِهِنّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ» . قيل : معنى «بَيْنَ أَيْدِيهِنّ» ألسنتهنّ بالنّمِيمة . ومعنى بين «أَرْجُلِهِنّ» فروجهن . وقيل : ما كان بين أيديهن من قُبْلة أوجَسّة، وبين أرجلهن الجماع . وقيل : المعنى لا يُلْحِقن برجالهن ولدًا من غيرهم . وهذا قول الجمهور . وكانت المرأة تلتقط ولدًا فتُلْحِقه بزوجها وتقول : هذا ولدى منك . فكان هذا من البهتان والافتراء . وقيل : مابين يديها ورجليها كناية عن الولد؛ لأن بطنها الذى تحمل فيه الولد بين يديها، وفَرْجها الذى تلد منه بين رجليها . وهذا عامٌّ فى الإتيان بولد وإلحاقه بالزوج وإن سبق النهى عن الزنى . وروى أن هندًا لما سمعت ذلك قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح؛ ما تأمر إلا بالأرشد ومكارم الأخلاق ! . ثم قال : ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ قال قتادة : لا يَنُحْنَ . ولا تخلو امرأة منهنّ إلا بذى مَحْرَم . وقال سعيد بن المُسَيّب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم : هو ألّا يَخْمِشْنَ وجهًا، ولا يَشْقُقْن جَيْبًا، ولا يَدْعُون وَيْلًا ولا يَنْشُرْن شعرًا ولا يحدّثن الرجال إلا ذا مَحْرَم . وروت أم عطية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ذلك فى النَّوْح . وهو قول ابن عباس . وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أمّ سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «ولا يعصينك فى معروف» فقال : "هو النوح" . وقال مصعب بن نوح : أدركت عجوزا ممن بايع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فحدّثتنى عنه عليه الصلاة والسلام فى قوله «ولا يعصينك فى معروف» فقال :

" النوح " . وفي صحيح مسلم عن أم عطية لمـا نزلت هـذه الآية « يُبَايِعنك على ألا يشرِكن بِاللهِ شيئا — الى قوله — ولا يعصِينك فِي معروفٍ » قال : " كان منـه النياحة " قالت : فقلت يارسول الله، إلّا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية؛ فلا بُدّ لي من أن أُسْعِدهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إلا آل فلان " . وعنها قالت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع البيعة ألا نَنُوح؛ فما وَفَت منا آمرأة إلا خمس : أمّ سُليم، وأمّ العلاء، وٱبنةُ أبي سَـبْرة ٱمرأةُ معاذ أو ٱبنة أبي سـبرة، وامرأة معاذ . وقيل : إن المعروف هاهنا الطاعة لله ولرسوله؛ قاله ميمون بن مِهران . وقال بكر بن عبد الله المُزَنِيّ: لا يَعْصِينك في كل أمر فيه رشدهنّ . الكلبيّ : هو عام في كل معروف أمر الله عز وجل ورسولُه به . فروى أن هندا قالت عند ذلك : ماجلسنا في مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصِيك في شيء .

الثالثـــة — ذكر الله عز وجل ورســولُه عليه الصلاة والسلام في صفة البيعة خصالاً شَتّى؛ صُرِّح فيهنّ بأركان النهي في الدِّين ولم يُذكر أركان الأمر . وهي ستة أيضا : الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والاغتسال من الجنابة . وذلك لأن النهي دائم في كل الأزمان وكل الأحوال؛ فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد . وقيل : إن هذه المناهي كان في النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهنّ عنها شرف النسب؛ فخُصَّت بالذكر لهذا . ونحوٌ منه قوله عليه الصلاة والسلام لوَفْد عبد القيس : " وأنهاكم عن الدُّبّاء والحَنْتَم والنَّقِير والمُزَفَّت "(1) فنبههم على ترك المعصية في شرب الخمـر دون سائر المعاصي ؛ لأنها كانت شهوتهم وعادتهم ، وإذا ترك المرء شهوته من المعاصي هان عليه ترك سائرها ممـا لا شهوة له فيها .

---

(١) الدباء : هو القرع اليابس . والحنتم : الجـرّة . والنقير : أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء . والمزفت : الإناء الذي طلى بالزفت . قال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية : « عن أبي بكرة قال : أما الدباء فان أهل الطائف كانوا يأخذون القرع فيخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت . وأما النقير فان أهل اليمـامة كانوا ينقرون أصـل النخلة ثم ينبذون الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهـدر ثم يموت . وأما الحنتم بجرار كانت تحمل إلينا فيها الخمر . وأما المزفت فهي الأوعية التي فيها الزفت...ومعنى النهي عن الانتباذ في هذه الأوعية بخصوصها لأنه يسرع إليها الاسكار؛ فربما يشرب منها من لا يشعر بذلك . ثم ثبتت الرخصة في الانتباذ في كل وعاء مع النهي عن شرب كل مسكر » .

الرابعـــة — لمـا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى البيْعة : "ولا يَسْرِقن" قالت هند : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل مَسِيك فهل علىّ حرج أن آخذ مايكفينى وولدى ؟ قال : "لا إلّا بالمعروف" فخشيتْ هنـد أن تقتصر على ما يعطيها فتضيع ، أو تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة . فقال لها النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا" أى لاحرج عليكِ فيما أخذت بالمعروف ؛ يعنى من غير استطالة الى أكثر من الحاجة . قال ابن العربىّ : وهذا إنمـا هو فيما لا يَخْزُنه عنها فى حجاب ولا يضبط عليـه بقُفْل ؛ فإنه إذا هتكته الزوجة وأخذت منه كانت سارقة تعصى به وتقطع يدها .

الخامســـة — قال عُبادة بن الصّامت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء ؛ ألّا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا يَعْضَهْ بعضُكم بعضًا ولا تَعْصُوا فى معروف أمركم به" . معنى « يَعْضَهـ » يسحر . والعَضْهُ : السحر . ولهذا قال ابن بحر وغيره فى قوله تعالى : «وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ» إنه السحر . وقال الضحاك : هذا نهى عن البهتان؛ أى لا يَعْضَهْنَ رجلا ولا امرأة . ﴿ بِبُهْتَانٍ ﴾ أى بسحر . والله أعلم . ﴿ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ والجمهور على أن معنى « ببهتان » بولد . « يفترينه بين أيديهن » ما أخذْنَه لقيطًا . « وأرجلهن » ما ولدته من زنًى . وقد تقدّم .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فى البخارى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ولا يعصينك فى معروف » قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء . واختلف فى معناه على ما ذكرنا . والصحيح أنه عام فى جميع ما يأمر به النبىّ صلى الله عليه وسلم و ينهى عنه ؛ فيدخل فيه النَّوْح وتخريق الثياب وجَزّ الشعر والخَـلْوة بغير مَحْرَم إلى غير ذلك . وهذه كلها كبائر ومن أفعال الجاهلية . وفى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشعرىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "أربع فى أمّتى من أمر الجاهلية" فذكر منهـا النياحة . وروى يحيى بن أبى كَثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذه النوائح يُجعلن يوم القيـامة صفّين صفًّا عن اليمين وصفًّا عن اليسار ينبحن كما تنبح الكلاب فى يوم

كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يؤمر بهن إلى النار " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصلّى الملائكة على نائحة ولا مُرِنّة (١) " . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع نائحـة فأتاها فضربها بالدِّرّة حتى وقع خمارها عن رأسهـا . فقيل : يا أمير المؤمنين، المرأةَ المرأةَ ! قد وقع خمارها . فقال : إنها لا حُرْمة لها . أسند جميعه الثعلبيّ رحمه الله . أما تخصيص قوله : « فِي مَعْرُوفٍ » مع قوّة قوله : « وَلَا يَعْصِينَكَ » ففيه قولان : أحدهما — أنه تفسـير للمعنى على التأكيد؛ كما قال تعـالى : « قَالَ رَبِّ ٱحْكُمْ بِالْحَقِّ (٢) » لأنه لو قال احكم لكفى . الثاني — إنمـا شرط المعروف فى بَيْعة النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يكون تنبيها على أن غيره أَوْلَى بذلك وألزم له وأنفى للإشكال .

السابعــة — روى البخارىّ عن عُبادة بن الصّامت قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسـلم فقال : " أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا " قرأ آية النساء . وأكثر لفظ سـفيان قرأ فى الآية " فمن وَفَى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شـيئا فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فسـتره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها ". وفى الصحيحين عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ؛ فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب ؛ فنزل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فكأنى أنظر إليه حين يجلّس الرجال بيده ، ثم أقبـل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقـال : " « يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ » — حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ — : أنتُنّ على ذلك " ؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله؛ لا يَدْرِى الحسن (٣) من هى . قال: "فتصدّقن" وبسط بلال ثوبه فجعلن يُلقين الفَتَخ (٤) والخواتيم فى ثوب بلال . لفظ البخارىّ .

(١) الإرنان : الصيحة الشـديدة والصوت الحزين عنـد الغناء أو البكاء ؛ يقال : رنّت المرأة ترن رنينا ، وأرنت ؛ صاحت . (٢) آخر سورة الأنبياء . (٣) هو الحسن بن مسلم راوى الحديث .

(٤) الفتخ (بفتحات وآخره خاء معجمة) : الخواتيم العظام ؛ أو حلق من فضة لا فص فيها .

الثامنـــة ــ قال المهدَوِيّ: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا؛ والأمر بذلك ندب لا إلزام . وقال بعض أهل النظر : إذا ٱحتيج إلى المِحْنَة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى اليهود. وذلك أنّ ناسا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين و يواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم فنُهُوا عن ذلك . ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ يعنى اليهود ؛ قاله ابن زيد . وقيل : هم المنافقون . وقال الحسن : هم اليهود والنصارى . قال ٱبن مسعود : معناه أنهم تركوا العمل للآخرة وآثروا الدنيا . وقيل : المعنى يئســوا من ثواب الآخرة ؛ قاله مجاهد . ومعنى ﴿ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ ﴾ أى الأحياء من الكفار . ﴿ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ ﴾ أن يرجعــوا إليهم ؛ قاله الحسن وقتادة . قال ابن عرفة : وهم الذين قالوا : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ »(١) . وقال مجاهد : المعنى كما يئس الكفار الذين فى القبور أن يرجعوا إلى الدنيا . وقيل : إن الله تعالى ختم السورة بما بدأها من ترك موالاة الكفار؛ وهى خطاب لحاطب بن أبى بَلْتَعَة وغيره . قال ٱبن عباس : « يأيها الذين آمنوا لا تَتَوَلَّوْا » أى لا توالوهم ولا تناصحوهم ؛ رجع تعالى بطَوْله وفضله على حاطب بن أبى بلتعــة . يريد أن كفار قريش قد يئســوا من خير الآخرة كما يئس الكفار المقبورون من حظ يكون لهم فى الآخرة من رحمة الله تعالى . وقال القاسم بن أبى بَزّة فى قوله تعــالى « قــد يَئِسُوا من الآخرةِ كما يَئِس الكفارُ من أصحاب القُبُورِ » قال : من مات من الكفار يئس من الخير . والله أعلم .

---

(١) آية ٢٤ سورة الجاثية .

سورة الصف

مدنية في قول الجميع ، فيما ذكر الماوردى . وقيل : إنها مكيّة ، ذكره النحاس عن ابن عباس . وهى أربع عشرة آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾

تقدم[1] .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ روى الدّارمىّ أبو محمد فى مسنده أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن عبد الله بن سَلَام قال : قَعَدنا نَفَرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أىّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناه ، فأنزل الله تعالى « سَبَّحَ لِلَّهِ ما فى السّموات وما فى الأرض وهو العزيزُ الحكيمُ . يَأَيُّها الَّذين آمنوا لِمَ تقولون مَالَا تَفْعَلُونَ » حتى ختمها . قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها . قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سَلَام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة وقرأها علينا يحيى وقرأها علينا الأوزاعى وقرأها علينا محمد[2] . وقال ابن عباس قال عبد الله بن رَوَاحة : لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٣٥ (٢) هذا الحديث كما ورد فى مسند الدارمى . وقد ذكر فى الأصول مضطربا .

لعملناه ؛ فلما نزل الجهاد كرهوه . وقال الكلبي : قال المؤمنون يا رسول الله، لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لسارعنا إليها؛ فنزلت « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »(١) فمكثوا زمانا يقولون : لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين . فدلّهم الله تعالى عليها بقوله : « تُؤْمِنونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وتُجَاهِدونَ في سَبِيلِ الله بأَمْوالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ » الآية . فابْتُلُوا يوم أُحُد ففرّوا؛ فنزلت تعيّرهم بترك الوفاء . وقال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بَدْر قالت الصحابة : اللّهُمْ اشهد ! لئن لَقِينا قتالا لنُفْرِغَنّ فيه وُسْعَنا؛ ففروا يوم أُحُد فعيّرهم الله بذلك . وقال قتادة والضحاك : نزلت في قوم كانوا يقولون : نحن جاهدنا وأَبْلَيْنا ولم يفعلوا . وقال صُهيب : كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم فقتلته . فقال رجل يا نبيّ الله، إني قتلت فلانا؛ ففرح النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك . فقال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عَوْف : يا صُهيب ، أما أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك قتلت فلانا ! فان فلانا انْتَحَل قتله ؛ فأخبره فقال : "أكذلك يا أبا يحيى"؟ قال نعم، والله يا رسول الله؛ فنزلت الآية في المنتحل . وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين؛ كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه : إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا ؛ فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا .

الثانيــة ــ هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعةٌ أن يَفِيَ بها . وفي صحيح مسلم عن أبي موسى(٢) أنه بعث إلى قرّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجلٍ قد قرءوا القرآن؛ فقال : أنتم خيار أهل البصرة وقرّاؤهم، فاتْلُوه ولا يَطُولَنّ عليكم الأمد فتَقْسُوَ قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم . و إنّا كنا نقرأ سورةً كنا نشبهها في الطُّول والشدة بـ «براءة» فأُنْسِيتُها؛ غير أني قد حفِظت منها «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثا ولا يملأ جَوْف ابن آدمَ إلا التراب » . وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المُسبِّحات فأنسيتها ؛ غير أني

---

(١) آية ١٠ من هذه السورة . (٢) الذى في صحيح مسلم : حدّثني سويد بن سعيد حدثنا على بن مسهر عن داود عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه قال : بعث أبو موسى ... الخ » .

حفظت منها « يأيهـا الذين آمنوا لِمَ تقـولون ما لا تفعلون » فتُكْتَب شهـادةً فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة . قال ابن العربى : وهذا كله ثابت فى الدِّين . أما قوله تعـالى : «يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون» فثابت فى الدِّين لفظًا ومعنًى فى هذه السورة . وأما قوله : « شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة » فمعنًى ثابتٌ فى الدِّين ؛ فإن من التزم شيئًا لزمه شرعا . والملتَزَم على قسمين : أحدهما ـــ النذر؛ وهو على قسمين؛ نذرُ تقرّب مبتدأ كقوله : لله علىّ صلاة وصوم وصدقة ؛ ونحوه من القُرَب . فهـذا يلزم الوفاء به إجماعا . ونذرُ مباحٍ وهو ما عُلِّق بشرط رغبة ؛ كقوله : إن قدم غائبى فعلىّ صدقة ، أو عُلِّق بشرط رهبة؛ كقوله : إن كفانى الله شرّ كذا فعلىّ صـدقة . فاختلف العلمـاء فيه ؛ فقال مالك وأبو حنيفة : يلزمه الوفاء به . وقال الشافعىّ فى أحد أقواله : إنه لا يلزمه الوفاء به . وعموم الآية حجة لنـا ؛ لأنها بمطلقها تتناول ذمّ من قال ما لا يفعـله على أى وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط . وقد قال أصحابه : إن النذر إنما يكون بما القصد منه القُرْبة مما هو من جنس القربة . وهذا و إن كان من جنس القربة لكنه لم يقصد به القربة ، و إنما قصد منع نفسه عن فعل أو الإقدام على فعل . قلنا : القُرَب الشرعية مَشَقّات وكُلَف و إن كانت قربات . وهذا تكلّف التزام هذه القربة بمشقة لجَلْب نفع أو دفع ضر، فـلم يخرج عن سَـنَن التكليف ولا زال عن قصد التقرب . قال ابن العربى : فإن كان المقول منه وعداً فلا يخـلو أن يكون منوطا بسبب كقوله : إن تزوجتَ أعنتُك بدينار، أو ابتعت حاجة كذا أعطيتك [كذا] (١) . فهذا لازم إجماعا من الفقهاء . وإن كان وعدًا مجرّدًا فقيـل يلزم بتعلقه (٢) . وتعلقوا بسبب الآية ؛ فانه روى أنهم كانوا يقولون : لو نعـلم أىّ الأعمال أفضل أو أحبّ إلى الله لعملناه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وهو حديث لا بأس به . وقد روى عن مجاهد أن عبد الله بن رَوَاحة لمـا سمعها قال : لا أزال حبيسًا فى سبيل الله حتى أُقْتَل . والصحيح عندى أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر .

---

(١) زيادة عن ابن العربى .
(٢) فى ابن العربى : « بمطلقه » .

قلت : قال مالك : فأما العدة مثل أن يسأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم ؛ ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى ذلك يلزمه . وقال ابن القاسم : إذا وعد الغرماء فقال : أشهدكم أنى قد وهبت له من أن يؤدى إليكم (١) ؛ فان هذا يلزمه . وأما أن يقول نعم أنا أفعل ؛ ثم يبدو له فلا أرى عليه ذلك .

قلت : أى لا يقضى عليه بذلك ؛ فأما فى مكارم الأخلاق وحسن المروءة فنعم . وقد أثنى الله تعالى على من صدق وعده ووفى بنذره فقال : « والمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إِذا عَاهَدُوا (٢) » ، وقال تعالى : « واذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إنه كان صادِقَ الوَعْدِ (٣) » وقد تقدم بيانه .

الثالثة — قال النَّخَعِىّ : ثلاث آيات منعتنى أن أقص على الناس « أتأمرون الناس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ (٤) » ، « ومَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْه (٥) » ، «يأيها الذين آمنوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ » . وخرّج أبو نُعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار عن ثُمامة أن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتيت ليلة أُسْرِىَ بى على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وفت (٦) " قلت : " من هؤلاء يا جبريل " ؟ قال : "هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرءون كتاب الله ولا يعملون". وعن بعض السلف أنه قيل له : حدّثنا؛ فسكت . ثم قيل له : حدّثنا . فقال : أترونني (٧) أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله ! .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله . أما فى الماضى فيكون كذباً ، وأما فى المستقبل فيكون خُلْفًا ؛ وكلاهما مذموم . وتأوّل سفيان بن عُيَيْنة قوله تعالى : « لِمَ تقولون ما لا تفعلون » أى لم تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم ، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون . فعلى هذا يكون الكلام محمولا على ظاهره فى إنكار القول .

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : «من أين» ولعل صوابها : « وهبت له ما يؤدى إليكم » .
(٢) آية ١٧٧ سورة البقرة . (٣) آية ٥٤ سورة مريم . راجع جـ ١١ ص ١١٤ (٤) آية ٤٤ سورة البقرة .
(٥) آية ٨٨ سورة هود . (٦) وفت : تمت وطالت . (٧) فى بعض نسخ الأصل : «أتأمرونني» .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قد يحتج به فى وجوب الوفاء فى اللّجاج والغضب على أحد قولى الشافعى . و « أَنْ » رفع بالابتداء وما قبلها الخبر ؛ وكأنه قال : قولكم ما لا تفعلون مذموم . ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف . الكسائى : « أن » فى موضع رفع ؛ لأن « كَبُرَ » فعلٌ بمنزلة بئس رجلا أخوك . و « مَقْتًا » نصب بالتمييز ؛ المعنى كبر قولهم ما لا يفعلون مقتًا . وقيل : هو حال . والمقت والمَقَاتة مصدران ؛ يقال : رجل مَقِيت وممقوت إذا لم يحبّه الناس .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ أى يصفون صفا . والمفعول مضمر؛ أى يصفون أنفسهم صفًّا . ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ قال الفرّاء : مرصوص بالرصاص . وقال المبرّد : هو من رصصت البناء إذا لاأمْتَ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة . وقيل : هو من الرَّصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض . والتراصّ التلاصق ؛ ومنه وتراصّوا فى الصف . ومعنى الآية : يحبّ مَن يثبت فى الجهاد فى سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء . وقال سعيد بن جُبير : هذا تعليم من الله تعالى للؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوّهم .

الثانيـــة — وقد استدلّ بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس ؛ لأن الفرسان لا يصطفّون على هذه الصفة . المهدوى : وذلك غير مستقيم ؛ لما جاء فى فضل الفارس فى الأجر والغنيمة . ولا يخرج الفرسان من معنى الآية ؛ لأن معناه الثبات .

الثالثـــة — لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تَعرِض للإنسان ، أو فى رسالة يرسلها الإمام ، أو فى منفعة تظهر فى المقام ؛ كفرصة تُنتهز ولا خلاف فيها . وفى الخروج عن

الصف للبارزة خلاف على قولين : أحدهما — أنه لا بأس بذلك إرهاباً للعدوّ ، وطلباً للشهادة وتحريضا على القتال . وقال أصحابنا : لا يبرز أحد طالبا لذلك ؛ لأن فيه رياءً وخروجا إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدوّ . وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر ؛ كما كانت فى حروب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر وفى غَزْوة خَيْبر . وعليه دَرَج السلف . وقد مضى القول مستوفًى فى هذا فى « البقرة » عند قوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »(١) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بيّن أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا فى سبيل الله ؛ وحل العقاب بمن خالفهما . أى وآذكر لقومك يا محمد هذه القصة .

قوله تعالى : ﴿ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ وذلك حين رَمَوْه بالأُدْرَة؛ حسب ما تقدّم فى آخر سورة « الأحزاب »(٢) . ومن الأذى ما ذكر فى قصة قارون : إنه دس إلى آمرأة تدّعى على موسى الفجور(٣) . ومن الأذى قولهم : « ٱجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ »(٤) . وقولهم : «فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا »(٥) . وقولهم : إنك قتلت هارون(٦) . وقد تقدّم هذا . ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول يُحترم ويُعظّم . ودخلت « قد » على « تعلمون » للتأكيد ؛ كأنه قال : وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه . ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أى مالوا عن الحق . ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى أمالها عن الهُدَى . وقيل : « فلما زاغُوا » عن الطاعة . « أزاغ الله قلوبَهم » عن الهداية .

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦١ طبعة ثانية .
(٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣١٠
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣
(٥) راجع جـ ٦ ص ١٢٨
(٦) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

وقيل : « فلما زاغوا » عن الإيمان . « أزاغ الله قلوبهم » عن الثواب . وقيل : أى لما تركوا ما أُمِرُوا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب ، خلق الله الضلالة فى قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ﴾ أى وآذكرلهم هذه القصة أيضا . وقال : « يابنى إسرائيل » ولم يقل « يا قوم » كما قال موسى ؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه . ﴿ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أى بالإنجيل . ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ لأن فى التوراة صفتى ، وأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة فتنفروا عنى . ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ ﴾ مصدقا . « ومبشرا » نصب على الحال ؛ والعامل فيها معنى الإرسال . و « إليكم » صلة الرسول . ﴿ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ قرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو « مِن بعدِىَ » بفتح الياء . وهى قراءة السُّلَمىّ وزِرّ بن حُبَيش وأبى بكرعن عاصم . وآختاره أبو حاتم لأنه اسم ؛ مثل الكاف من بعدك ، والتاء من قمت . الباقون بالإسكان . وقرئ « من بعدى آسمه أحمد » بحذف الياء من اللفظ . و « أحمد » آسم نبيّنا صلى الله عليه وسلم . وهو آسم عَلَم منقول من صفة لا من فعل ؛ فتلك الصفة أفعل التى يراد بها التفضيل . فمعنى « أحمد » أى أَحْمَدُ الحامدين لربه . والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله ، ونَبيُّنا أحمدأكثرهم حمدًا . وأما محمد فمنقول من صفة أيضا ، وهى فى معنى محمود ؛ ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار . فالمحمَّد هو الذى حُمِد مَرّةً بعد مرة . كما أن المُكَرَّم من الكرم مرة بعد مرة . وكذلك المُمَدَّح ونحو ذلك . فآسم محمد مطابق لمعناه ، والله سبحانه سمّاه قبل ان يُسَمّىَ به نفسه . فهذا عَلَمٌ

من أعلام نبوته ، إذ كان اسمه صادقا عليه ؛ فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة . وهو محمــود في الآخرة بالشفاعة . فقد تكرر معنى الحمــد كما يقتضي اللفظ . ثم إنه لم يكن مُحَمَّدًا حتى كان أحمدَ، حَمِد ربَّه فنبأه وشرّفه؛ فلذلك تقدّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد فذكره عيسى عليه السلام فقال : « اسمه أحمد » . وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه : تلك أمة أحمــد ؛ فقال : اللّهُمّ اجعلني من أمة أحمد . فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد؛ لأن حَمْــدَه لربّه كان قبل حمد الناس له . فلما وُجِد وبُعث كان محمــدا بالفعل . وكذلك في الشفاعة يحمــد ربّه بالمحامد التي يفتحها عليــه ؛ فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " اسمي في التوراة أحْيد لأني أحيــد أمتي عن النــار وٱسمي في الزبور المــاحي محا الله بي عَبَدة الأوثان وٱسمي في الإنجيل أحمد وٱسمي في القرآن محمد لأني محمود في أهل السماء والأرض " . وفي الصحيح " لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا المــاحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحــاشر الذي تحشر الناس على قدمي وأنا العاقب" . وقد تقدّم (١) . ﴿ فَلَمَّــا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ قيل عيسى . وقيل محمد صــلى الله عليهما وسلّم . ﴿ قَالُوا هَــذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ قرأ الكسائي وحمزة « ساحر » نعتًا للرجل . وروى أنها قراءة ابن مسعود . الباقون « سحر » نعتا لمــا جاء به الرسول .

قوله تعــالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَمَنْ أَظْــلَمُ ﴾ أي لا أحدَ أظلم . ﴿ مِمَّنِ ٱفْــتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ﴾ تقدّم في غير موضع (٢) . ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْــلَامِ ﴾ هذا تعجّب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهــرت لهما . وقــرأ طلحة بن مُصَرِّف « وهو يَدَّعِي » بفتح الياء والدال وشدّها وكسر العين؛ أي ينتسب . ويَدّعي وينتسب سواء . ﴿ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٠٠ (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠١ وجـ ٧ ص ٣٩

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ الإطفاء هو الإخماد ، يستعملان في النار ، ويستعملان فيما يجرى مجراها من الضياء والظهور . ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه ؛ وهو أن الإطفاء يستعمل في القليل والكثير، والإخماد إنما يستعمل في الكثير دون القليل ؛ فيقال : أطفأت السراج ؛ ولا يقال أخمدت السراج . وفي « نور الله » هنا خمسة أقاويل : أحدها — أنه القرآن ؛ يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ؛ قاله ابن عباس وابن زيد . والثاني — أنه الإسلام ؛ يريدون دفعه بالكلام؛ قاله السُّدِّي . الثالث — أنه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يريدون هلاكه بالأراجيف ؛ قاله الضحاك . الرابع — حجج الله ودلائله ؛ يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم ؛ قاله ابن بحر . الخامس — أنه مَثَل مضروب ؛ أي من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا ممتنعا فكذلك من أراد إبطال الحق ؛ حكاه ابن عيسى . وسبب نزول هذه الآية ماحكاه عطاء عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوَحْي أربعين يوما؛ فقال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود ، أبشروا ! فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتمّ أمره ؛ فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحي بعدها ؛ حكى جميعَه الماورديّ رحمه الله . ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ أي بإظهاره في الآفاق . وقرأ ابن كَثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم « وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ » بالإضافة على نية الانفصال؛ كقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وشبهه ، حسب ما تقدم بيانه في « آل عمران »(١) . الباقون « مُتِمٌّ نُورَهُ » لأنه فيما يستقبل ؛ فعمل . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ من سائر الأصناف .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أى محمدا بالحق والرشاد . ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى بالحجج . ومن الظهور الغلبةُ باليد فى القتال؛ وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان ، بل المراد يكون أهل الإسلام عالين غالبين . ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام فى آخر الزمان . قال مجاهد : وذلك إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض دين إلا دين الإسلام . وقال أبو هريرة : « لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه » بخروج عيسى . وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَيَنْزِلَنّ ابن مريم حَكَمًا عادلًا فَلَيَكْسِرَنّ الصّليب وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضَعَنّ الجزية وَلَتُتْرَكَنّ القِلاص (١) فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنّ الشَّحْناءُ والتّباغضُ والتّحاسدُ ولَيَدْعُوَنّ إلى المال فلا يَقْبَلُه أحَدٌ" . وقيل : « لِيُظْهِرَه » أى ليطلع محمدا صلى الله عليه وسلم على سائر الأديان ؛ حتى يكون عالما بها عارفًا بوجوه بطلانها ، وبما حرّفوا وغيّروا منها . ﴿على الدِّينِ﴾ أى على الأديان؛ لأن الدِّين مصدر يعبّر به عن جمع .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾

(١) القلاص (بكسر القاف) : الناقة الشابة .

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ﴾ قال مقاتل : نزلت فى عثمان بن مَظْعُون ؛ وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أذنتَ لى فطلّقتُ خَوْلة، وترهّبتُ واختصَيْت وحرّمتُ اللحم، ولا أنام بليل أبدًا، ولا أفطر بنهار أبدًا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ مِنْ سُنّتى النكاحَ ولا رَهْبانيّةَ فى الإسلام إنما رهبانيّةُ أمتى الجهادُ فى سبيل الله وخِصاءُ أُمتى الصومُ ولا تُحَرِّموا طيبات ما أحلّ الله لكم. ومِنْ سُنّتى أنام وأقوم وأفْطِر وأصوم فمن رَغِب عن سُنّتى فليس منى " . فقال عثمان : والله لَوددْتُ يا نبيّ الله أى التجارات أحبّ إلى الله فأتّجر فيها؛ فنزلت . وقيل : « أَدُلّكم » أى سأدلكم . والتجارة الجهاد ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » الآية (١) . وهذا خطاب لجميع المؤمنين . وقيل : لأهل الكتاب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ تُنْجِيكُمْ ﴾ أى تخلصكم . ﴿ مِنْ عذابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى مؤلم . وقد تقــدّم (٢) . وقراءة العامة « تُنْجيكم » بإسكان النون من الإنجاء . وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حَيْوة « تُنَجّيكم » مشدّدًا من التّنجية . ثم بين التجارة وهى المسألة : —

الثالثــة — فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ذكر الأموال أوّلًا لأنها التى يُبدأ بها فى الإنفاق . ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أى هذا الفعل ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . و « تؤمنون » عند المبرد والزجاج فى معنى آمنوا؛ ولذلك جاء « يَغْفِرْ لَكُمْ » مجزوما على أنه جواب الأمر . وفى قراءة عبد الله « آمنوا بالله » وقال الفراء « يغفر لكم » جواب الاستفهام ؛ وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى ؛ وذلك أن يكون « تؤمنون بالله ، وتجاهدون » عطف بيان على قوله : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أليم » كأن التجارة لم يُدْرَ ماهى؛ فبيِّنَت بالإيمان والجهاد؛ فهى هما فى المعنى . فكأنه قال : هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم . الزّمخشرىّ : وجه قول الفرّاء أن متعلق الدلالة

(١) آية ١١١ سورة التوبة .　　(٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

هو التجارة والتجارة مفسّرة بالإيمان [والجهاد] . كأنه قيل : هل تتّجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم . قال المهدوى : فإن لم تقدر هذا التقدير لم تصح المسألة ؛ لأن التقدير يصير إن دُللتم يغفر لكم ؛ والغفران إنما نُعت بالقبول والإيمان لا بالدلالة . قال الزجاج : ليس إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ؛ إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا . وقرأ زيد بن على « تؤمنوا » ، « وتجاهدوا » على إضمار لام الأمر . كقوله :

محمدُ تَفْدِ نفسَك كلُّ نفسٍ * إذا ما خِفْتَ من شيء تَبَالا (١)

أراد لِتَفْدِ . وأدغم بعضهم فقال : « يغفر لكم » والأحسن ترك الإدغام ؛ لأن الراء حرف متكرر قوى فلا يحسن إدغامه فى اللام ؛ لأن الأقوى لا يُدغم فى الأضعف .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ خرّج أبو الحسين الآجُرّى عن الحسن قال : سألت عمران بن الحُصَين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية «ومساكن طيّبة» فقالا : على الخبير سقطت ، سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : "قَصْرٌ من لؤلؤة فى الجنة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء فى كل دار سبعون بيتًا من زَبَرْجَدة خضراء فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لَوْن على كل فراش سبعون امرأةً من الحُور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونًا من الطعام فى كل بيت سبعون وَصِيفًا ووصيفة فيعطى الله تبارك وتعالى المؤمنَ من القُوّة فى غداةٍ واحدة ما يأتى على ذلك كله" . ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى إقامة . ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى السعادة الدائمة الكبيرة . وأصل الفوز الظفَر بالمطلوب .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ قال الفرّاء والأخفش : « أخرى » معطوفة على « تجارة » فهى فى محل خفض . وقيل : محلها رفع ؛ أى ولكم خصلة أخرى وتجارة أخرى تحبّونها . ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أى هو نصر من الله ؛ فـ « نصر » على هذا تفسير

(١) اختلف فى قائله ؛ فقيل إنه لحسان ، وقيل لأبى طالب عم الرسول صلوات الله عليه ، وقيل للأعشى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الثمانين بعد السمائة) . والتبال : سوء العاقبة ؛ وهو بمعنى الوبال .

« وأُخْرَى » . وقيل : رفع على البدل من « أخرى » أى ولكم نصر من الله . ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أى غنيمة فى عاجل الدنيا ؛ وقيــل فتح مكة . وقال ابن عباس : يريد فتح فارس والروم . ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم .

قوله تعـالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

أكّد أمر الجهاد؛ أى كونوا حَوَارِىّ نبيِّكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حوارىّ عيسى على من خالفهم . وقــرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع « أنصاراً لِلّهِ » بالتنوين . قالوا : لأن معناه اثبتــوا وكونوا أعواناً لله بالسيف على أعدائه . وقرأ الباقون مرــ أهل البصرة والكوفة والشام « أنصارَ اللهِ » بلا تنوين؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى . واختاره أبو عُبيد لقوله : « نحن أنصارُ اللهِ » ولم ينوّن؛ ومعناه كونوا أنصارا لدين الله . ثم قيــل : فى الكلام إضمار؛ أى قل لهم يامحمد كونوا أنصار الله . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله؛ أى كونوا أنصارا كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصارا وكانوا حواريّين . والحَوَارِيُّون خواصّ الرســل . قال مَعْمَر : كان ذلك بحمــد الله ؛ أى نصروه وهم سبعون رجلا ، وهم الذين بايعوه ليلة العَقَبة . وقيل : هم من قريش . وسمّاهم قتادة : أبا بكر وعمر وعلىّ وطلحة والزبير وســعد بن مالك وأبا عبيــدة ــــ واسمه عامر ــــ وعثمان بن مَظْعُون وحمــزة بن عبد المطلب ؛ ولم يذكر سعيدا فيهم ، وذكر جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلا ، وقد مضت أسماؤهم فى « آل عمران »(١) ، وهم أوّل من آمن به من بنى إسرائيل؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل :

(١) راجع جـ ٤ ص ٩٧ و يلاحظ أنه لم تذكر أسماؤهم ، بل ذكر سبب تسميتهم .

قال الله لعيسى إذا دخلت القرية فأت النهر الذى عليه القَصّارون(١) فآسألهم النُّصرة ؛ فأتاهم عيسى وقال : من أنصارى الى الله ؟ قالوا : نحن ننصرك . فصدقوه ونصروه . ومعنى « من أنصارى إلى الله » أى مَن أنصارى مع الله ؛ كما تقول : الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل ؛ أى مع الذَّوْد . وقيل : أى مَن أنصارى فيما يقرّب إلى الله . وقد مضى هذا فى « آل عمران »(١) . ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ والطائفتان فى زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء ؛ على ماتقدّم فى « آل عمران »(٢) بيانه . ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ الذين كفروا بعيسى . ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى غالبين . قال ابن عباس : أيّد الله الذين آمنوا فى زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار . وقال مجاهد : أيّدوا فى زمانهم على من كفر بعيسى . وقيل أيّدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين : من قال كان الله فارتفع ، ومن قال كان آبنَ الله فرفعه الله إليه ؛ لأن عيسى بن مريم لم يقاتل أحدا ولم يكن فى دين أصحابه بعده قتال . وقال زيد بن على وقتادة : « فأصبحوا ظاهِرين » غالبين بالحجة والبرهان ؛ لأنهم قالوا فيما روى : ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لاينام ، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل ! . وقيل : نزلت هذه الآية فى رسل عيسى عليه الصلاة والسلام . قال آبن إسحاق : وكان الذى بعثهم عيسى من الحواريّين والأتباع فطرس و بولس إلى رُومِيَة . واندرايس ومتى إلى الأرض التى يأكل أهلها الناس . وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق . وفيلبس إلى قُرْطَاجَنّة وهى أفريقية . ويحنّس إلى دقسوس قرية أصحاب الكهف . ويعقوبس إلى أورِيشَلِم وهى بيت المقدس . وابن تلمـا الى العرابية وهى أرض الحجاز . وسيمن إلى أرض البربر . ويهودا وبردس الى الإسكندرية وما حولها(٣) . فأيدهم الله بالحجة . ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى عالين ؛ من قولك : ظهرت على الحائط أى علوْتُ عليه . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

---

(١) القصار : محوّر الثياب راجع جـ ٤ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ٤ ص ١٠٠

(٣) يلاحظ أن هذه الأسماء وردت محرفة فى نسخ الأصل ، وأثبتناها كما وردت فى تاريخ الطبرى (جـ ٣ قسم أوّل ص ٧٣٧ طبع أوربا) .

ســـورة الجمعـــة

مدنيّة في قول الجميـع ، وهي إحدى عشرة آية . وفي صحيح مسـلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنـة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة" . وعنـه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نحن الآخرون [الأوّلون(١)] يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب مِن قَبْلِنا وأوتيناه من بعدهم فآختلفوا فهدانا الله لمـا اختلفوا فيه من الحق فهـذا يومهم الذي اختلفوا فيـه هدانا الله له — قال — يوم الجمعة فاليوم لنـا وغدًا لليهود و بعد غدٍ للنصارى" .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

تقدّم الكلام فيه . وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم « الملكُ القدوسُ العـزيزُ الحكيمُ » كلها رفعًا ؛ أي هو الملك .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولًا مِنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس : الأميُّون العرب كلهم ؛ من كتب منهم ومن لم يكتب ؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب . وقيل : الأمّيون

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

الذين لايكتبون . وكذلك كانت قريش . وروى منصور عن إبراهيم قال : الأمّىّ الذى يقرأ ولا يكتب . وقد مضى فى « البقرة »(١) . ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وما من حىّ من العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة وقد ولَدُوه . قال ابن إسحاق : إلا حىّ تغلب ؛ فإن الله تعالى طهّر نبيّه صلى الله عليه وسلم منهم لنصرانيّتهم ، فلم يجعل لهم عليه ولادة . وكان أمّيًّا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم صلى الله عليه وسلم . قال الماوَرْدىّ : فإن قيل ماوجه الامتنان بأن بعث نبيًّا أمّيًّا ؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه : أحدها — لموافقته ما تقدّمت [به] بشارة الأنبياء . الثانى — لمشاكلة حاله لأحوالهم ؛ فيكون أقرب إلى موافقتهم . الثالث — لينتفى عنه سوء الظن فى تعليمه مادعى إليه من الكتب التى قرأها والحِكَم التى تلاها .

قلت : وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوّته .

قوله تعالى : ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعنى القرآن . ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ؛ قاله ابن عباس . وقيل : يطهّرهم من دنس الكفر والذنوب ؛ قاله ابن جُرَيج ومقاتل . وقال السُّدّىّ : يأخذ زكاة أموالهم . ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعنى القرآن . ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السُّنّة ؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : « الكتاب » الخط بالقلم ؛ لأن الخط فشا فى العرب بالشرع لمّا أُمِروا بتقييده بالخط . وقال مالك بن أنس : « الحكمة » الفقه فى الدِّين . وقد مضى القول فى هذا فى « البقرة »(٢) . ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أى من قبله وقبل أن يرسل إليهم . ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى فى ذهاب عن الحق .

قوله تعالى : وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ هو عطفٌ على « الأمّيّين » أى بعث فى الأمّيّين وبعث فى آخرين منهم . ويجوز أن يكون منصوباً بالعطف على الهاء والميم فى « يعلمهم ويزكيهم » ؛

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٥ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

أى يعلمهم ويعلم آخرين من المؤمنين؛ لأن التعليم إذا تناسق الى آخر الزمان كان كله مسندا الى أوله، فكأنه هو الذى تولّى كل ماوجد منه . ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ أى لم يكونوا فى زمانهم وسيجيئون بعدهم . قال ابن عمر وسعيد بن جبير : هم العجم . وفى صحيح البخاريّ ومسلم عن أبى هريرة قال : كنا جلوسا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه سورة « الجمعة » فلما قرأ « وَآخَرِينَ مِنهم لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِم » قال رجل : مَن هؤلاءِ يارسول الله ؟ فلم يراجعْه النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى سأله مَرّةً أو مرتين أو ثلاثا . قال : وفينا سَلْمان الفارسيّ . قال : فوضع النبيّ صلى الله عليه وسلم يده على سَلْمان ثم قال : "لو كان الإيمان عند الثُّرَيّا لناله رجال من هؤلاء". فى رواية "لو كان الدِّين عند الثُّرَيّا لذهب به رجل من فارس — أو قال — من أبناء فارس حتى يتناوله" لفظ مسلم . وقال عكرمة : هم التابعون . مجاهد : هم الناس كلهم؛ يعنى من بعد العرب الذين بُعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم . وقاله ابن زيد ومقاتل ابن حَيّان . قالا : هم من دخل فى الإسلام بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . وروى سهل بن سعد السّاعدى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى أصلاب أمتى رجالا ونساء يدخلون الجنة بغير حساب — ثم تلا — «وآخَرِين منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بهم»" . والقول الأوّل أثبت . وقد رُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "رأيتنى أسقى غنمًا سودًا ثم أتبعتها غنما عُفْرًا أَوِّلْها يا أبا بكر" فقال : يا رسول الله ، أما السود فالعرب ، وأما العُفْر فالعجم تتبعك بعد العرب . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كذا أَوَّلَها المَلَك" يعنى جبريل عليه السلام . رواه ابن أبى لَيْلَى عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾

قال ابن عباس : حيث ألحق العجم بقريش . وقيل : يعنى الإسلام ، فضل الله يؤتيه من يشاء؛ قاله الكلبى . وقيل : يعنى الوحْى والنبوّة؛ قاله مقاتل . وقول رابع — إنه المال

يُنفق فى الطاعة؛ وهو معنى قول أبى صالح . وقد روى مسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة أن فقراء المهاجرين أتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدُّثُور بالدرجات العلا والنعيم المقيم . فقال : "وما ذاك"؟ قالوا : يُصَلُّون كما نصلّى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويُعتقون ولا نُعتق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفلا أعلمكم شيئا تُدركون به مَن سبقكم وتَسبقون به مَن بعدكم ولا يكون أحد أفضلَ منكم إلا مَن صنع مثل ما صنعتم" قالوا : بلى يارسول الله؛ قال "تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثا وثلاثين مرة" . قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سَمِع إخوانُنَا أهلُ الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" . وقول خامس — أنه انقياد الناس إلى تصديق النبىّ صلى الله عليه وسلم ودخولهم فى دينه ونصرته . والله أعلم .

قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

ضرب مَثَلا لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ أى كُلِّفوا العمل بها ؛ عن ابن عباس . وقال الجُرْجانى : هو من الحَمَالة بمعنى الكفالة؛ أى ضمنوا أحكام التوراة . ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ هى جمع سِفْر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ . قال مَيمون بن مِهْران : الحمار لا يدرى أسِفْر على ظهره أم زَبِيل ؛ فهكذا اليهود . وفى هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء . وقال الشاعر (١) :

(١) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة ؛ يهجو قوما من رواة الشعر .

زوامل للأسفار لا علم عندهم * بجيّدها إلا كعِلْم الأباعر
لعَمْرُك ما يدرى البعيرُ إذا غَدَا * بأوساقه (١) أوْراح ما فى الغرائر (٢)

وقال يحيي بن يمان : يكتب أحدهم الحديث ولا يتفهّم ولا يتدبّر، فإذا سئل أحدهم عن مسألة جلس كأنه مكاتب . وقال الشاعر :

إن الرواة على جهل بما حَمَلوا * مِثْلُ الجمال عليها يُحمل الوَدَعُ
لا الوَدْع ينفعه حمل الجمال له * ولا الجمال بحمل الوَدْع تنتفعُ

وقال منذر بن سعيد البَلّوطي رحمه الله فأحسن :

اِنْعَقْ بما شئت تجد أنصارَا * وزُمّ أسفاراً تجد حماراَ
يَحملُ ما وضعت من أسفارِ * يحمله كمثل الحمار
يحمل أسفارًا له وما دَرَى * إن كان[ما]فيهاصواباً وخطا (٣)
إن سُئلوا قالوا كذا رَوَيْنا * ما إن كَذَبْنا ولا ٱعتدينَا
كبيرهم يصغر عند الحَفْلِ * لأنه قَلّد (٤) أهل الجهل

﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أى لم يعملوا بها . شبههم — والتوراة فى أيديهم وهم لا يعملون بها — بالحمار يحمل كتبا وليس له إلا ثِقْل الحمل من غير فائدة . و « يحمل » فى موضع نصب على الحال ؛ أى حاملا . ويجوز أن يكون فى موضع جرّ على الوصف ؛ لأن الحمار كاللئيم . قال :

* ولقد أمُرّ على اللئيم يسبّنِي (٥) *

﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ المثل الذى ضربناه لهم ؛ فحذف المضاف . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى من سبق فى علمه أنه يكون كافرا .

---

(١) الوسق (بفتح الواو وسكون السين) : حمل البعير . (٢) الغرائر : جمع الغرارة (بالكسر) الجوالق .
(٣) كذا فى الأصول ، مع هذه الزيادة التى يستقيم بها الوزن . ويحتمل أن يكون صوابه :
* أكان ما فيها جمانا أو برى *
والجمان (بالضم) : اللؤلؤ . والبرى : التراب . (٤) فى بعض الأصول : « قدر » .
(٥) وتمامه : * فضيت ثمت قلت لا يعنينى *

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ ﴾

لمـا ادّعت اليهود الفضيلة وقالوا «نحن أبناء الله وأحباؤه» قال الله تعالى: ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ فللأولياء عند الله الكرامة . ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لتصيروا إلى ما يصير إليه أولياء الله ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى أسلفوه من تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلو تمنّوه لمـاتُوا ؛ فكان فى ذلك بطلان قولهم وما ادّعوه من الولاية . وفى حديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لمـا نزلت هذه الآية : " والذى نفس محمد بيده لو تمنّوا الموت ما بقى على ظهرها يهوديّ إلا مات " . وفى هذا إخبار عن الغيب ، ومعجزةٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد مضى معنى هـذه الآية فى « البقرة » فى قوله تعالى : « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»(١) .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾

قال الزجاج : لا يقال إن زيدا فمنطلق . وهاهنا قال: «فإنه ملاقيكم» لمـا فى معنى «الذى» من الشرط والجزاء ؛ أى إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ، و يكون مبالغة فى الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه . قال زهير :

ومن هاب أسـباب المنايا ينَـلْنَهُ * ولو رام أسـباب السماء بسُـلّم

قلت : ويجوز أن يتم الكلام عنـد قوله : « الّذى تفرّون منهُ » ثم يبتـدئ « فإنه مُلاقيكم » . وقال طَرَفة :

(١) راجع ج ٢ ص ٣٣ طبعة ثانية .

وكفى بالمَـــوْت فاعـــلم واعظًا * لمَن المَـــوْتُ عليـــه قد قُدِرْ
فاذكر المـــوتَ وحاذر ذكره * إنّ فى المـــوت لذى اللُّبِّ عِبَرْ
كلُّ شيء ســـوف يَلْقَ حَتْفَـــه * فى مقـامٍ أو على ظَهْـــرِ سَـــفَرْ
والمنـــايا حَوْلَـــه تَرْصُـــدُه * ليس يُنجيـــه من الموت الحَذَرْ

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٩)

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ قرأ عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما « الجُمْعَة » بإسكان الميم على التخفيف . وهما لغتان . وجمعهما جُمَع وجُمُعات . قال الفرّاء : يقال الجُمْعة (بسكون الميم) والجُمُعة (بضم الميم) والجُمَعة (بفتح الميم) فيكون صفة اليوم ؛ أى تجمع الناس . كما يقال : ضُحَكة للذى يضحك . وقال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرءوها جُمُعة ؛ يعنى بضم الميم . وقال الفرّاء وأبو عبيد : والتخفيف أقيس وأحسن ؛ نحو غُرْفة وغُرَف ، وطُرْفة وطُرَف ، وحُجْرة وحُجَر . وفتح الميم لغة بنى عقيل . وقيل : إنها لغة النبىّ صلى الله عليه وسلم . وعن سَلْمان أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنما سُمّيت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم" . وقيل : لأن الله تعالى فرغ فيها من خلق كل شيء فاجتمعت فيها المخلوقات . وقيل لتجتمع الجماعات فيها . وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة . و « مِن » بمعنى « فى » ؛ أى فى يوم ؛ كقوله تعالى : « أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ »(١) أى فى الأرض .

الثانيـــة — قال أبو سلمة : أول من قال « أما بعد » كعب بن لُؤَىّ ، وكان أوّل من سمّى الجمعة جمعة . وكان يقال ليوم الجمعة : العَرُوبة . وقيل أول من سماها جمعة الأنصارُ .

(١) آية ٤٠ سورة فاطر .

قال ابن سيرين : جَمّع أهل المدينة مِن قبل أن يَقْدَم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة، وقبل أن تنزل الجمعة؛ وهم الذين سَمّوْها الجمعة؛ وذلك أنهم قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه، فى كل سبعة أيام يوم وهو السبت . وللنصارى يوم مثـل ذلك وهو الأحد فتعالوْا فلنجتمع حتى نجعل يومًا لنا نذكر الله ونصلّى فيه ونستذكر — أوكما قالوا — فقالوا : يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى ؛ فآجعلوه يوم العَرُوبة . فآجتمعوا إلى أسعد بن زُرَارة (أبو أمامة رضى الله عنه) فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم ، فسمّوْه يوم الجمعة حين اجتمعوا . فذبح لهم أسعد شاة فتعشّوْا وتغدّوْا منها لقلتهم . فهذه أوّل جمعة فى الاسلام .

قلت : وروى أنهم كانوا اثنى عشر رجلا على ما يأتى . وجاء فى هذه الرواية أن الذى جمّع بهم وصلّى أسـعد بن زُرَارة ، وكذا فى حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب على ما يأتى . وقال البَيْهَقِىّ : ورَوَيْنا عن موسى بن عقبة عن آبن شهاب الزُّهْرِىّ أن مُصْعَب ابن عمير كان أول من جمّع الجمعة بالمدينـة للسلمين قبل أن يَقْدَمها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال البيهقى : يحتمل أن يكون مصعب جمّع بهم بمعونة أسعد بن زرارة فأضافه كعب إليه . والله أعلم .

وأما أوّل جمعـة جمّعها النبيّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه ؛ فقال أهل السير والتواريخ : قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرًا حتى نزل بقُبَاء ، على بنى عمرو بن عَوْف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليـلة خلت من شهر ربيع الأوّل حين اشـتدّ الضُّحَى . ومن تلك السنة يُعَـدّ التاريخ . فأقام بقُبَاء إلى يوم الخميس وأسّس مسجدهم . ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة؛ فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عَوْف فى بطن وادٍ لهم قد اتخذ القوم فى ذلك الموضع مسجدًا ؛ فجمّع بهم وخَطَب . وهى أوّل خُطْبة خطبها بالمدينة، وقال فيها : "الحمـدُ لله . أحْمَده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفُره ، وأعادى من يكفُر به . وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أنّ محمـدا عبده ورسـوله ، أرسله بالهُـدَى ودِين الحق ، والنور والموعظة والحكمة على فَتْرة من الرُّسل ، وقلّة من العلم ، وضلالةٍ من الناس، وانقطاع

من الزمان ، ودُنوٍّ من الساعة ، وقُرْب من الأجل . من يُطِع الله ورسولَه فقد رَشَد . ومن يَعْصِ الله ورسولَه فقـد غَوَى وفرّط وضَلّ ضـلالا بعيدا . أُوصيكم بتَقْوَى الله ، فإنه خيرُ ما أوصَى به المسلمُ المسـلمَ أن يَحُضّه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . وٱحذَروا ماحذّركم الله من نفسـه ؛ فإنّ تقوى الله لمن عَمِـل به على وَجَلٍ ومخـافةٍ من ربه عَـوْنُ صـدقٍ على ماتبغُون من [أمر](١) الآخرة . ومن يُصْـلِح الذى بينـه وبين ربّه من أمره فى السرِّ والعَلاَنيـة ، لاينوِى به إلا وَجْهَ الله يَكُنْ له ذكرًا فى عاجل أمره ، وذُخْرًا فيما بعـد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ماقدّم . وما كان مما سوى ذلك يَوَدّ لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدا . « ويُحَذّركم اللهُ نَفْسَهُ واللهُ رَءوفٌ بِالعِبادِ »(٢) . هو الذى صدَق قولَه ، وأنجز وعده ، لاخُلْف لذلك ؛ فإنه يقول تعالى : «مَايُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىّ وَمَاأنا بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ»(٣) . فٱتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السرِّ والعلانية ؛ فإنه « مَنْ يَتّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عنهُ سَيِّئَاتِه ويُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا »(٤) . ومن يتّق الله فقد فازفوزًا عظيما . وإنّ تقوى اللهَ تُوَقّ مَقْته وتُوَقِّ عقوبتَه وتُوَقِّ سَخَطه . وإن تقوى الله تبيِّض الوجوهَ ، وتُرْضِى الربّ ، وترفع الدرجة . فخُذوا بحظّكم ولاتفرِّطوا فى جَنْب الله ؛ فقد علّمكم كتابَه ، ونَهَج لكم سبيلَه ؛ ليعلم الذين صدَقوا ويعلم الكاذبين . فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حقّ جهاده ؛ هو ٱجتباكم وسمّاكم المسلمين . لِيَهْلِك من هَلَك عن بيّنة ، ويحيا من حَىّ عن بيّنة . ولا حول ولا قوة إلا بالله . فأكثروا ذكر الله تعالى ، وٱعمَلوا لمـا بعد الموت ؛ فإنه من يُصلح ما بينه وبين الله يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس . ذلك بأنّ الله يقضِى على الناس ولا يَقْضُون عليه ، ويملك من النـاس ولا يملكون منه . الله أكبر ، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم " .

وأوّل جمعة جُمّعت بعدها جمعةٌ بقرية يقال لها « جُوَاثَى » من قُرَى البَحْرَين . وقيل : إن أوّل من سماها الجمعة كعب بن لؤىّ بن غالب لٱجتماع قريش فيه إلى كعب ؛ كما تقدم . والله أعلم .

---

(١) زيادة عن تاريخ الطبرى والبداية والنهاية .	(٢) آية ٣٠ سورة آل عمران .
(٣) آية ٢٩ سورة ق .	(٤) آية ٥ سورة الطلاق .

الثالثـــة ـــ خاطب الله المؤمنين بالجمعـة دون الكافرين تشريفًا لهم وتكريمًا فقال : « يأيهـا الذين آمنوا » ثم خصّه بالنداء، وإن كان قـد دخل فى عموم قوله تعالى : « وإذا نَادَيْتُمْ إلى الصلاةِ »(١) ليدل على وجوبه وتأكيد فرضـه . وقال بعض العلماء : كون الصـلاة الجمعة ها هنا معلوم بالإجماع لا من نفس اللفظ . قال ابن العربيّ : وعندى أنه معـلوم من نفس اللفظ بنكتة وهى قوله : « مِنْ يومِ الجُمُعَةِ » وذلك يفيده ؛ لأن النـداء الذى يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة . فأما غيرهـا فهو عام فى سائر الأيام . ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لمـا كان لتخصيصه بها و إضافته إليها معنًى ولا فائدة .

الرابعـــة ـــ قد تقدّم حكم الأذان فى سورة « المـائدة » مستوفًى(٢) . وقـد كان الأذان على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى سائر الصلوات ؛ يؤذّن واحد إذا جلس النبيّ صلى الله عليه وسـلم على المنبر . وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعليّ بالكوفة . ثم زاد عثمان على المنبر أذانا ثالثا(٣) على داره التى تسمى «الزَّوْراء»(٤) حين كثر الناس بالمدينة. فإذا سمعوا أقبلوا، حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذن مؤذن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم يخطب عثمان . خرجه ابن ماجه فى سُنَنه من حديث محمد بن إسحاق عن الزهرى عن السائب بن يزيد قال : ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مؤذن واحد؛ إذا خرج أذّن و إذا نزل أقام . وأبو بكر وعمر كذلك . فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على دارٍ فى السوق يقال لها «الزوراء» ؛ فإذا خرج أذن و إذا نزل أقام. خرّجه البخارى من طرق بمعناه. وفى بعضها : أن الأذان الثانى يوم الجمعـة أمر به عثمان بن عَفّان حين كثر أهـل المسجد ، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام . وقال المـاوَرْدِىّ : فأما الأذان الأول فمحدَث ، فعله عثمان بن عَفّان ليتأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها . وقد كان عمر رضى الله عنه أمر أن

---

(١) آية ٥٨ سورة المـائدة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢٤ (٣) أى أول الوقت عند الزوال . وسماه ثالثا باعتبار كونه مزيدا على الأذان بين يدى الإمام والإقامة للصلاة . فهو أول باعتبار الوجود ؛ ثالث باعتبار مشروعية عثمان له باجتهاده وموافقـة سائر الصحابة له بالسكوت وعدم الانكار .

(٤) الزوراء : موضع بالسوق بالمدينة ؛ قيل إنه مرتفع كالمنارة . وقيل : حجر كبير عند باب المسجد .

يؤذّن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن بيوعهم، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد، فجعله عثمان رضي الله عنه أذانين في المسجد . قاله ابن العربي . وفي الحديث الصحيح ان الأذان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا، فلما كان زمن عثمان زاد الأذان الثالث على الزوراء، وسماه في الحديث ثالثا لأنه أضافه إلى الإقامة ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : " بين كل أذانين صلاة لمن شاء " يعني الأذان والإقامة . ويتوهّم الناس أنه أذان أصلي" فجعلوا المؤذنين ثلاثة فكان وَهَماً ؛ ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وَهَماً على وَهَم . ورأيتهم يؤذنون بمدينة السلام بعد أذان المنار بين يدى الإمام تحت المنبر في جماعة ؛ كما كانوا يفعلون عندنا في الدُّوَل الماضية . وكل ذلك مُحْدَث .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ اختلف في معنى السَّعْي ها هنا على ثلاثة أقوال : أوّلها — القَصد . قال الحسن : والله ما هو بسَعْيٍ على الأقدام ولكنه سَعْيٌ بالقلوب والنّية . الثاني — أنه العمل؛ كقوله تعالى : « وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ »(1) ، وقوله : « إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ »(2) ، وقوله : « وأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ »(3) . وهذا قول الجمهور . وقال زهير :

* سَعَى بعدهم قومٌ لِكَيْ يدركوهمُ(4) *

وقال أيضا :

سَعَى ساعِيَا غَيْظِ بن مُرّة بعد ما * تَبَزّلَ ما بين العَشِيرة بِالدّمِ(5)

أي فاعملوا على المضي الى ذكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والتطهير والتوجّه اليه . الثالث — أن المراد به السّعْي على الأقدام . وذلك فضلٌ وليس بشرط . ففي البخاري : أن

(1) آية ١٩ سورة الإسراء . (2) آية ٤ سورة الليل . (3) آية ٣٩ سورة النجم .

(4) وعجزه : * فلم يفعلوا ولم يلاموا ولم يألوا *

(5) في شرح ديوان زهير : « الساعيان » . الحارث بن عوف، وهرم بن سنان؛ سعيا في الديات . وقيل : خارجة بن سنان والحارث بن عوف؛ « سعيا » أي عملا عملا حسنا . و « غيظ بن مرة » : حي من غطفان بن سعد . و « تبزل بالدم » : أي تشقق . يقول : كان بينهم صلح فتشقق بالدم . يقول : سعيا بعد ما تشقق فأصلحا .

أبا عَبْس بن جَبْر — واسمه عبـد الرحمن وكان من كبار الصحابة — مشى إلى الجمعة راجلا وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من اغبرّتْ قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النـار" . ويحتمل ظاهره رابعا — وهـو الجرى والاشتداد . قال ابن العربي : وهو الذي أنكره الصحابة الأعلمون والفقهاء الأقدمون . وقرأها عمر « فامضُوا إلى ذِكرِ اللهِ » فرارًا عن طريق الجَرْي والاشتداد الذي يدلّ عليه الظاهر . وقرأ ابن مسعود كذلك وقال : لو قرأت « فاسْعَوْا » لسعيتُ حتى يسقط ردائي . وقرأ ابن شهاب : « فامضُوا إلى ذكر الله سالكًا تلك السبيل » . وهو كله تفسير منهم؛ لا قراءة قرآن منزل . وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معـرض التفسير . قال أبو بكر الأنباري : وقـد احتجّ من خالف المصحف بقـراءة عمر وابن مسعود، وأن خَرَشَة بن الحُرّ قال : رآني عمر رضي الله عنه ومعي قطعة فيها «فاسْعَوْا إلى ذِكرِ اللهِ » فقال لي عمر : من أقرأك هـذا ؟ قلت أُبَيّ . فقال : إن أبيًّا أقرؤنا للمنسوخ . ثم قرأ عمر «فامضوا إلى ذِكرِ الله » . حدّثنا إدريس قال حدّثنا خَلَف قال حدّثنا هُشيم عن المُغيرة عن إبراهيم عن خَرَشة؛ فذكره . وحدّثنا محمد بن يحيى أخبرنا محمد وهو ابن سَعدان قال حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة عن الزُّهْري عن سالم عن أبيه قال : ماسمعت عمر يقرأ قطُّ إلا «فامضُوا إلى ذكر الله » . وأخبرنا إدريس قال حدّثنا خلف قال حدّثنا هشيم عن المُغيرة عن إبراهيم أن عبد الله بن مسعود قرأ «فامضُوا إلى ذكر الله» وقال : لو كانت «فاسعَوْا» لسعيت حتى يسقط ردائي . قال أبو بكر : فاحتج عليه بأن الأمة أجمعت على « فاسـعَوْا » برواية ذلك عن الله ربّ العالمين ورسوله صلى الله عليه وسلم . فأما عبد الله بن مسعود فمـا صحّ عنه « فامضوا » لأن السّنَد غير متصل؛ إذ إبراهيم النَّخَعِيّ لم يسمع من عبد الله بن مسعود شيئا ، وإنما ورد « فامضوا » عن عمر رضي الله عنه . فإذا انفرد أحدٌ بمـا يخالف الآية والجماعة كان ذلك نسـيانًا منه . والعرب مُجمِعة على أن السّعْي يأتي بمعنى المُضِيّ؛ غيرَ أنه لا يخلو من الجِـدّ والانكماش . قال زهير :

سَعَى ساعيا غَيْظِ بن مُرّة بعدما * تَبَزّلَ مابين العَشـيرةِ بالدّمِ

أراد بالسّعْى المضىّ بجدٍّ وانكماش ، ولم يُقصد للعَدْوِ والإسراع فى الخَطْو . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : معنى السعى فى الآية المضىّ . واحتج الفرّاء بقولهم : هو يسعى فى البلاد يطلب فضل الله ؛ معناه هو يمضى بجد واجتهاد . واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر :

أَسْـعَى على جُـلِّ بنِي مالِكٍ * كلّ آمرِئٍ فى شـأنه سـاعِى

فهل يحتمل السعى فى هذا البيت إلا مذهب المضى بالانكماش ؛ ومحال أن يخفى هـذا المعنى على ابن مسعود على فصاحته و إتقان عربيّته .

قلت : ومما يدلّ على أنه ليس المـراد ها هنا العَدو قوله عليه الصـلاة والسلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعَون ولكن ائتوها وعليكم السكينة " . قال الحسن : أما والله ما هو بالسّعى على الأقدام ، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ؛ ولكن بالقلوب والنية والخشـوع . وقال قتادة : السعى أن تسعى بقلبك وعملك . وهذا حسن ؛ فإنه جمع الأقوال الثلاثة . وقـد جاء فى الاغتسال للجمعة والتطيّب والتزيّن باللباس أحاديث مذكورة فى كتب الحديث .

السادســـة — قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب للكلفين بإجماع . ويخـرج منه المَرْضَى والزَّمْنَى والمسافرون والعبيد والنساء بالدليل ، والعميان والشـيخ الذى لا يمشى إلا بقائد عند أبى حنيفة . روى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعـة يوم الجمعة إلا مريض أو مسـافر أو امرأة أو صبى أو مملوك فمن استغنى بلَهْوٍ أو تجارةٍ استغنى الله عنه والله غنيٌّ حميد " خرجه الدّارَقُطْنِىّ . وقال علماؤنا رحمهم الله : ولا يتخلف أحد عن الجمعة ممن عليه إتيانها إلا بعذر لا يمكنه معه الإتيان إليها ؛ مثل المرض الحابس ، أو خوف الزيادة فى المرض ، أو خوف جَوْر السلطان عليه فى مال أو بدن دون القضـاء عليه بحق . والمطر الوابل مع الوَحل عذر إن لم ينقطع . ولم يره مالكٌ عذرًا له ؛ حكاه المهدَوِىّ . ولو تخلف عنها متخلّف على وَلِىّ حَميم له قد حضرته الوفاة ، ولم يكن عنده من يقوم بأمره رَجَا أن يكون فى سَـعَة . وقد فعل ذلك ابن عمـر .

ومن تخلف عنها لغير عذر فصلّى قبل الإمام أعاد ؛ ولا يجزيه أن يصلّي قبله . وهو فى تخلفه عنها مع إمكانه لذلك عاصٍ لله بفعله .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ يختصّ بوجوب الجمعة [على][1] القريب الذى يسمع النداء؛ فأما البعيد الدار الذى لا يسمع النداء فلا يدخل تحت الخطاب . واختُلف فيمن يأتى الجمعة من الدّانى والقاصى؛ فقال ابن عمر وأبو هريرة وأَنَس : تجب الجمعة على من فى المِصْر على ستة أميال . وقال ربيعة : أربعة أميال . وقال مالك واللَّيْث : ثلاثة أميال . وقال الشافعى : اعتبار سماع الأذان أن يكون المؤذّن صَيِّتاً[2]، والأصوات هادئة، والريح ساكنة، وموقف المؤذن عند سُور البلد . وفى الصحيح عن عائشة : أن الناس كانوا ينتابون[3] الجمعة من منازلهم ومن العَوالِى فيأتون فى الغُبار[4] ويصيبهم الغُبار فتخرج منهم الريح ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو اغتسلتم ليومكم هذا"! قال علماؤنا : والصَّوْت إذا كان منيعاً والناس فى هدوء وسكون فأقصى سماع الصوت ثلاثة أميال . والعَوالى من المدينة أقربها على ثلاثة أميال . وقال أحمد بن حنبل وإسحاق : تجب الجمعة على من سمع النداء . وروى الدّارَقُطْنِيّ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنما الجمعة على من سمع النداء" . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجب على مَن فى المِصْر، سَمِع النداء أو لم يسمعه؛ ولا تجب على مَن هو خارج المصر وإن سمع النّداء . حتى سئل : وهل تجب الجمعة على أهل زبارة — بينها وبين الكوفة مجرى نهر — ؟ فقال لا . ورُوى عن ربيعة أيضا : أنها تجب على مَن إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشيا أدرك الصلاة . وقد رُوى عن الزُّهْرِى أنها تجب عليه إذا سمع الأذان .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ دليل على أن الجمعة لا تجب إلا بالنداء ، والنداء لا يكون إلا بدخول الوقت ؛ بدليل قوله

(١) التكملة عن ابن العربى . (٢) رجل صيت : شديد الصوت عاليه . (٣) أى يحضرونها نوبا . وفى رواية « يتناوبون » . (٤) فى بعض النسخ : « فى العباء » بفتح العين المهملة والمد ؛ جمع عباءة .

عليه الصلاة والسلام : " إذا حضرت الصلاة فأذّنا ثم أقيما وليؤمّكما أكبركما " . قاله لمالك ابن الحُوَيْرث وصاحبِه . وفي البخاريّ عن أنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى الجمعة حين تميل الشمس . وقد روى عن أبي الصّدّيق وأحمد بن حَنْبل أنها تُصَلّى قبل الزوال . وتمسّك أحمد في ذلك بحديث سَلَمة بن الأكْوَع : كنا نصلّي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ننصرف وليس للحيطان ظِلّ . وبحديث ابن عمر : ما كنا نَقيل ولا نتغدّى إلا بعد الجمعة . ومثلُه عن سَهْل . خرّجه مسلم . وحديث سلمة محمول على التبكير . رواه هشام بن عبد الملك عن يَعْلَى بن الحارث عن إياس بن سلمة بن الأكْوَع عن أبيه . وروى وَكِيع عن يَعْلَى عن إياس عن أبيه قال : كنا نُجَمِّع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زالت الشمس ثم نرجع نتتبع الفَيْء . وهذا مذهب الجمهور من الخَلَف والسّلَف ، وقياسا على صلاة الظهر . وحديثُ ابن عمر وسَهْلٍ ، دليلٌ على أنهم كانوا يبكّرون إلى الجمعة تبكيراً كثيرا عند الغداة أو قبلها ، فلا يتناولون ذلك إلا بعد انقضاء الصلاة . وقد رأى مالك أن التبكير بالجمعة إنما يكون قرب الزوال بيسير . وتأوّل قولَ النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب بَدَنَة ... " الحديثَ بكماله . إنه كله في ساعة واحدة . وحَمَله سائر العلماء على ساعات النهار الزمانية الاثنتى عشرة ساعة المستوية أو المختلفة بحسب زيادة النهار ونقصانه . ابن العربيّ : وهو أصحّ ؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ما كانوا يَقيلون ولا يتغدّون إلا بعد الجمعة لكثرة البكور إليها .

التاســعة — فرض الله تعالى الجمعة على كل مسلم ؛ ردًّا على من يقول : إنها فرض على الكفاية ؛ ونقل عن بعض الشافعية . ونقل عن مالك من لم يُحَقّق : أنها سنة . وجمهور الأمة والأئمة أنها فرض على الأعيان ؛ لقول الله تعالى : « إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يومِ الجمعةِ فاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ » . وثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لَيَنْتَهِيَنّ أقوام عن وَدْعِهم الجُمُعات أو لَيَخْتِمَنّ الله على قلوبهم ثم ليكونُنّ من الغافلين" . وهذا حجة واضحة في وجوب الجمعة وفرضيتها . وفي سُنن ابن ماجه عن أبي الجَعْد الضَّمْرِيّ — وكانت له صحبة — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها

طبع الله على قلبه" . إسناده صحيح . وحديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من ترك الجمعة ثلاثا من غير ضرورة طَبَعَ الله على قلبه" . ابن العَرَبِيّ : وثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الرَّواح إلى الجمعة واجبٌ على كل مسلم" .

العاشـــرة ــ أوجب الله السَّعْيَ إلى الجمعــة مطلقًا من غير شرط . وثبت شَرْطُ الوضوء بالقرآن والسنة فى جميع الصلوات، لقوله عز وجل : «إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» (١) الآية . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يقبل الله صلاة بغير طهور" . وأغْرَبَت طائفة فقالت : إن غسل الجمعة فــرض . ابن العَرَبِيّ : وهذا باطل ؛ لمــا روى النَّسائى وأبوداود فى سُننهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من توضأ يوم الجمعة فبِها ونِعْمَتْ . ومن اغتسل فالغسل أفضل" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من توضأ [يوم الجمعة] (٢) فأحسن الوضوء ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصَت غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام . ومن مَسّ الحَصَى (٣) فقد لَغَا (٤)" وهذا نَصّ . وفى المُوَطّأ : أن رجلا دخل يوم الجمعة وعمر بن الخطاب يخطب... ــ الحديث (٥) إلى أن قال : ــ ... مازدتُ على أن توضأت ؛ فقال عمر : والوضوء أيضا ؟ وقد علمتَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل . فأمر (٦) عمر بالغسل ولم يأمره بالرجوع ؛ فدلّ على أنه محمول على الاستحباب . فلم يمكن وقد تلبّس بالفرض ــ وهو الحضور والإنصات للخطبة ــ أن يرجع عنه إلى السُّنّة ؛ وذلك بمحضر فحول الصحابة وكبار المهاجرين حوالى عمر، وفى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(١) آية ٦ سورة المائدة . (٢) ما بين المربعين لم يرد فى صحيح مسلم .

(٣) أى سواه للسجود غير مرة فى الصلاة (٤) اللغو : الكلام المطرح الساقط .

(٥) الحديث كما ورد فى الموطأ وشرحه : « دخل رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليــه وسلم المسجد يوم الجمعة وعمر يخطب . فقال عمر : أية ساعة هذه ؟ (إشارة الى أن هــذه الساعة ليست من ساعات الرواح الى الجمعــة لأنه وقت طويت فيــه الصحف) ــ فقال : يا أمير المؤمنين ، انقلبت من السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضأت ــ (اعتذار منــه على أنه لم يشتغل بغير الفرض مبادرة الى سمــاع الخطبة والذكر) ــ فقال عمر : الوضوء أيضا ! وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم كان يأمر بالغسل . (معناه أنك مع ما فاتك من التهجير فاتتك فضيلة الغسل الذى قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر به) .

(٦) فى الأصول : « فأقر » بالقاف . والتصويب عن ابن العربى .

الحادية عشرة — لا تسقط الجمعة لكونها فى يوم عيد، خلافًا لأحمد بن حَنْبل فإنه قال : إذا اجتمع عِيدٌ وجمعة سقط فرض الجمعة ؛ لتقدّم العيد عليها واشتغال الناس به عنها . وتعلّق فى ذلك بما رُوى أن عثمان أذِن فى يوم عِيد لأهل العَوَالى أن يتخلّفوا عن الجمعة . وقول الواحد من الصحابة ليس بحجة إذا خولف فيــه ولم يجمع معه عليه . والأمر بالسَّعْى متوجّه يوم العيد كتوجّهه فى سائر الأيام . وفى صحيح مسلم عن النُّعمان بن بَشير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى العيدين وفى الجمعة بـ «سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأعلى» و «هل أتاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ» قال : و إذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد يقرأ بهما أيضا فى الصلاتين . أخرجه أبوداود والتّرمِذىّ والنَّسائى وٱبن ماجه .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى الصلاة . وقيل الخطبة والمواعظ ؛ قاله سَعيد بن جُبير . ابن العَرَبِىّ : والصحيح أنه واجب فى الجميع؛وأوّله الخطبة . و به قال علماؤنا ؛ إلا عبد الملك بن المـاجِشُون فإنه رآها سُنّة . والدليل على وجوبها أنها تُحَرّم البيع ولولا وجوبها ما حَرّمته ؛ لأن المستحب لا يُحرِّم المباح . و إذا قلنا : إن المراد بالذكر الصلاة فالخطبة من الصلاة . والعبد يكون ذاكرًا لله بفعله كما يكون مُسَبِّحًا لله بفعله . الزَّمَخْشَرِىّ : فإن قلت : كيف يفسّر ذكر الله بالخطبة وفيها غير ذلك ! قلت : ما كان من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وعلى خُلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو فى حكم ذكر الله . فأمّا ما عدا ذلك من ذكر الظّلَمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك ؛ فهو من ذكر الشيطان ، وهو من ذكر الله على مراحل .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ منع الله عز وجل منه عند صلاة الجمعة ، وحرّمه فى وقتها على من كان مخاطباً بفرضها . والبيع لا يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما ؛ كقوله تعالى : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَـرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ »[(١)] . وخصّ البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق . ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا يُنهى عن البيع والشّراء .

---

(١) آية ٨١ سورة النحل .

وفى وقت التحريم قولان : إنه من بعد الزوال إلى الفراغ منها ؛ قاله الضحاك والحسن وعطاء . الثانى — من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة ؛ قاله الشافعى . ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نُودِىَ للصلاة ، و يفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع فى ذلك الوقت . ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره ؛ إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع . قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ . ابن العربىّ : والصحيح فسخ الجميع ؛ لأن البيع إنما مُنع منه للاشتغال به . فكلّ أمرٍ يَشْغَل عن الجمعة من العقود كلّها فهو حرام شرعًا مفسوخ رَدْعًا . المَهْدَوِىّ : ورأى بعض العلماء البيعَ فى الوقت المذكور جائزا ، وتأول النّهى عنه نَدْبًا ، واستدلّ بقوله تعالى : « ذٰلِكم خَيْرٌ لكم » .

قلت : — وهذا مذهب الشافعى ؛ فإن البيع ينعقد عنده ولا يفسخ . وقال الزَّمَخْشَرِىّ فى تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدّى فساد البيع . قالوا : لأن البيع لم يَحْـرُم لعينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ؛ فهو كالصلاة فى الأرض المغصوبة والثوب المغصوب ، والوضوء بماء مغصوب . وعن بعض الناس أنه فاسد .

قلت : الصحيح فساده وفسخه ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : "كلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ" . أى مردود . والله أعلم .

قوله تعالى : فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ﴾ هذا أمرُ إباحةٍ ؛ كقوله تعالى : « وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا »[(١)] . يقول : إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا فى الأرض للتجارة والتصرف فى حوائجكم . ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ أى من رزقه . وكان عِراك بن مالك إذا صلّى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللّهمّ إنى أجبت دعوتك ، وصلّيت

(١) آية ٢ سورة المائدة .

فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فآرزقني من فضـلك وأنت خير الرازقين . وقال جعفـر ابن محمد في قوله تعالى : « وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ » إنه العمل في يوم السبت . وعن الحسن ابن سعيد بن المُسَيِّب : طلب العلم . وقيل : صلاة التطوّع . وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ؛ إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا ﴾ أي بالطاعة واللسان ، وبالشكر على ما به أنعم عليكم من التوفيق لأداء الفرائض . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كي تفلحوا . قال سعيد بن جُبير : الذكر طاعة الله تعالى ، فمن أطاع الله فقـد ذكره ، ومن لم يُطعـه فليس بذاكر وإن كان كثير التسبيح . وقد مضى هذا مرفوعاً في « البقرة »(١) .

قوله تعـالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كان يخطب قائما يوم الجمعة ، فجاءت عِيرٌ من الشام فآنفتل الناس إليهـا حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ـــ في رواية أنا فيهـم ـــ فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً» . في رواية : فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . وقد ذكر الكَلْبيّ وغيره : أن الذي قَدِم بها دِحْيَة بن خليفة الكلبي من الشام عند مجاعةٍ وغلاءِ سعر، وكان معه جميع ما يحتاج الناس من بُرّ ودقيق وغيره ، فنزل عنـد أحجار الزيت(٢) ، وضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه ؛ فخرج الناس إلا اثني عشر رجلا . وقيـل : أحد عشر رجلا . قال الكلبي : وكانوا في خطبة الجمعـة فآنفضوا إليها ، وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم ثمانية رجال ؛ حكاه الثعلبي عن ابن عباس . وذكر

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧١ طبعة ثانية . (٢) أحجار الزيت : مكان في سوق المدينة .

الدَّارَقُطْنِيّ من حديث جابر بن عبد الله قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا يوم الجمعة إذ أقبلت عِيرٌ تحمل الطعام حتى نزلت بالبَقِيع ؛ فالتفتوا إليها وانفضوا إليها وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس معه إلا أربعون رجلا أنا فيهم . قال : وأنزل الله عز وجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا » . قال الدّارَقُطْنِيّ : لم يقل في هذا الإسناد « إلا أربعين رجلا » غيرُ عليّ بن عاصم عن حُصين ؛ وخالفه أصحاب حُصين فقالوا : لم يبق مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلا . وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " والذى نفسى بيده لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادى نارا " . ذكره الزَّمَخْشَرِيّ . وروى في حديثٍ مرسلٍ أسماء الاثنى عشر رجلا ، رواه أسد بن عمرو والد أسد بن موسى بن أسد . وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق معه إلا أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ، وطلحة والزبير وسعد بن أبى وَقّاص ، وعبد الرحمن ابن عَوف وأبو عُبيدة بن الجَرّاح ، وسعيد بن زيد وبلال ، وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايتين . وفي الرواية الأخرى عَمّار بن ياسر .

قلت : لم يذكر جابرًا ، وقد ذكر مسلم أنه كان فيهم ؛ والدّارَقُطْنِيّ أيضا . فيكونون ثلاثة عشر . وإن كان عبد الله بن مسعود فيهم فهم أربعة عشر . وقد ذكر أبو داود في مراسيله السببَ الذى ترخّصوا لأنفسهم في ترك سماع الخطبة ، وقد كانوا خليقاً بفضلهم ألا يفعلوا ؛ فقال : حدّثنا محمود بن خالد قال حدّثنا الوليد قال أخبرنى أبو معاذ بكر بن معروف أنه سمع مقاتل بن حَيّان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى الجمعة قبل الخطبة مثل العِيدين ، حتى كان يوم جمعة والنبيّ صلّى الله عليه وسلم يخطب ، وقد صلّى الجمعة ، فدخل رجل فقال : إن دِحْيَة بن خليفة الكَلْبى قدم بتجارة ، وكان دِحْية إذا قدم تلقّاه أهله بالدِّفاف ؛ فخرج الناس فلم يظنّوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا » . فقدّم النبيّ صلى الله عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة وأخّر الصلاة . وكان لا يخرج أحد لرُعاف أو أحداث بعد النّهى حتى يستأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، يشير إليه

بأصبعه التي تلى الإبهام؛ فيأذن له النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم يشير اليه بيده . فكان من المنافقين من ثَقُل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، وكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه مستترًا به حتى يخرج؛ فأنزل الله تعالى: « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا »(١) الآية . قال السُّهَيْليّ : وهذا الخبر وإن لم ينقل من وجه ثابت فالظن الجميل بأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوجب أن يكون صحيحا . وقال قتادة : وبلغنا أنهم فعلوه ثلاث مرّات؛ كل مرّة عِير تَقْدَم من الشام، وكل ذلك يوافق يوم الجمعة . وقيل : إن خروجهم لقدوم دِحْيَة الكلبي بتجارته ونظرهم إلى العِير تمُرّ، لَهْوٌ لا فائدة فيه؛ إلا أنه كان مما لا إثم فيه لو وقع على غير ذلك الوجه، ولكنه لما آتصل به الإعراض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والانفضاض عن حضرته، غَلُظ وكَبُر ونزل فيه من القرآن وتهجينه بآسم اللّهو ما نزل . وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كلّ ما يلْهُو به الرجل باطلٌ إلا رَمْيه بقَوْسه" . الحديث . وقد مضى في سورة « الأنفال »(٢) فللّه الحمد . وقال جابر بن عبد الله : كانت الجوارى إذا نُكِحن يمررن(٣) بالمزامير والطبل فآنفضوا اليها؛ فنزلت . وإنما ردّ الكناية إلى التجارة لأنها أهمّ . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وإذا رأوا التجارة واللّهو انفضّوا اليها » . وقيل : المعنى وإذا رأوا تجارة انفضّوا اليها، أو لهواً انفضوا اليه؛ فحذف لدلالته . كما قال :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأىُ مُخْتَلِفُ

وقيل : الأجود في العربية أن يجعل الراجع في الذكر للآخر من الاسمين .

الثانيــة ــ واختلف العلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة على أقوال؛ فقال الحسن : تنعقد الجمعة باثنين . وقال اللّيث وأبو يوسف : تنعقد بثلاثة . وقال سفيان الثَّوْرِيّ وأبو حنيفة : بأربعة . وقال ربيعة : باثني عشر رجلا . وذكر النجاد أبو بكر أحمد بن سليمان(٤) قال : حدّثنا أبو خالد يزيد بن الهَيْثم بن طَهْمان الدقاق، حدّثنا صبيح بن دِينار قال حدّثنا

---

(١) آية ٦٣ سورة النور . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٥ (٣) في بعض النسخ : « يزمرن » .
(٤) في بعض المصادر : « سلمان » .

المعافى بن عمران حدّثنا مَعْقِل بن عبيد الله عن الزهرى بسنده إلى مُصعب بن عُمير أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى المدينة ، وأنه نزل فى دار سعد بن مُعاذ ، فجمّع بهم وهم اثنا عشر رجلا ذبح لهم يومئذ شاة . وقال الشافعى : بأربعين رجلا . وقال أبو إسحاق الشِّيرازى فى (كتاب التنبيه على مذهب الإمام الشافعى) : كلّ قرية فيها أربعون رجلا بالغين عقلاء أحرارا مقيمين ، لا يَظْعنون عنها صيفًا ولا شتاء إلا ظَعْن حاجة ، وأن يكونوا حاضرين من أوّل الخطبة إلى أن تقام الجمعة وجبت عليهم الجمعة . ومال أحمد و إسحاق إلى هذا القول ولم يشترطا هذه الشروط . وقال مالك : إذا كانت قرية فيها سُوق ومسجد فعليهم الجمعة من غير اعتبار عدد . وكتب عمر بن عبد العزيز : أى قرية اجتمع فيها ثلاثون بيتا فعليهم الجمعة . وقال أبو حنيفة : لا تجب الجمعة على أهل السَّواد والقرى ، لا يجوز لهم إقامتها فيها . واشترط فى وجوب الجمعة وانعقادها المصر الجامع والسلطان القاهر والسوق القائمة والنهر الجارى . واحتج بحديث علىّ : لا جمعة ولا تشريق إلا فى مصر جامع [و رفقة تعينهم](١) . وهذا يردّه حديث ابن عباس ، قال : إنّ أوّل جمعة جُمّعت بعد جمعة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرية من قُرَى البحرين يقال لها جُوَاثى . وحجة الإمام الشافعىّ فى الأربعين حديثُ جابر المذكور الذى خرجه الدّارَقُطْنىّ . وفى سنن ابن ماجه والدارقطنى أيضا ودلائل النبوّة للبَيْهَقىّ عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبى حين ذهب بصره ، فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان ، صلى على أبى أُمَامة واستغفر له — قال — فمكث كذلك حينًا لا يسمع الأذان بالجمعة إلا فعل ذلك ، فقلت له : يا أبةِ ، استغفارك لأبى أمامة كلّما سمعت أذان الجمعة ، ما هو ؟ قال : أىْ بُنَىّ ، هو أوّل من جَمّع بالمدينة فى هَزْم(٢) من حَرّة بنى بَيَاضة يقال له نَقِيع الخَضِمات ، قال قلت : كم أنتم يومئذ ؟ قال أربعون رجلا . وقال جابر بن عبد الله :

---

(١) ما بين المربعين كذا ورد فى نسخ الأصل . (٢) الهزم : ما اطمأن من الأرض . وحرة بنى بياضة : قرية على ميل من المدينة . و « بياضة » : بطن من الأنصار .

مضت السُّــنة أن فى كل ثلاثة إمامًا ، وفى كل أربعين فمـا فوق ذلك جمعة وأَضْحَى وفِطْرًا ، وذلك أنهم جماعة . خَرّجه الدّارقُطْنى . وروى أبو بكر أحمد بن سليمان النّجاد : قرئ على عبد الملك ابن محمد الرّقاشى وأنا أسمع حدّثنى رجاء بن ســلمة قال حدّثنا أبى قال حدّثنا رَوْح بن غُطَيف الثقفِىّ قال حدّثنى الزُّهرى عن أبى سلمة قال : قلت لأبى هريرة على كم تجب الجمعة من رجل؟ قال : لمـا بلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وســلم خمسين رجلا جَمّع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قُرِئ على عبد الملك بن محمد وأنا أسمع قال حدّثنا رجاء بن سلمة قال حدّثنا عباد بن عباد المُهَلّبىّ عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبى أمامة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "تجب الجمعة على خمسين رجلا ولا تجب على من دون ذلك" . قال ابن المنذر : وكتب عمر بن عبد العزيز : أيّما قرية اجتمع فيها خمسون رجلا فليصلّوا الجمعة . وروى الزهرى عن أم عبد الله الدُّوسيّة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الجمعة واجبة على كل قرية وإن لم يكن فيها إلا أربعة" . يعنى بالقُرَى : المدائن . لا يصح هذا عن الزهرى . فى رواية "الجمعة واجبة على أهــل كل قرية وإن لم يكونوا إلا ثلاثة رابعهم إمامهم" . [الزهرى](1) لا يصح سماعه من الدّوسية . والحَكَم(2) [هذا](1) متروك .

الثالثـــة — وتصحّ الجمعة بغير إذن الإمام وحضوره . وقال أبو حنيفة : من شرطها الإمام أو خليفته . ودليلنا أن الوليد بن عُقْبة وَالِى الكوفة أبطأ يومًا فصلّى ابن مسعود بالناس من غير إذنه . ورُوِى أن عليًّا صلّى الجمعة يوم حُصِر عثمان ولم يُنقل أنه اسـتأذنه . وروى أن سعيد بن العاصى والى المدينة لمـا خرج من المدينة صلّى أبو موسى بالناس الجمعة من غير استئذان . وقال مالك : إن لله فرائض فى أرضه لا يضيّعها ؛ وَلِيَها والٍ أو لم يَلِها .

الرابعـــة — قال علماؤنا : من شرط أدائها المسجد المسقّف . قال ابن العــربى : ولا أعلم وجهه .

---

(١) الزيادة عن الدارقطنى . (٢) هو الحكم بن عبد الله ؛ أحد رجال سند هذا الحديث .

قلت : وجهه قوله تعالى : « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ »[(١)] ، وقوله : « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ »[(٢)] . وحقيقة البيت أن يكون ذا حيطان وسقف . هذا العُرْف ، والله أعلم .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ شرطٌ فى قيام الخطيب على المنبر إذا خطب . قال عَلقمة : سئل عبد الله أكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب قائما أو قاعدا ؟ فقال : أمَا تقرأ « وتركوك قائمـا » . وفى صحيح مسلم عن كعب بن عُجْرَة أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن أمّ الحَكَم يخطب قاعدًا فقال : انظروا إلى هذا الخبيث ، يخطب قاعدًا ! وقال الله تعالى : « وإِذَا رَأَوْا تِجارَةً أو لَهْوًا انْفَضُّوا إليها وَتَرَكُوكَ قائمًا » . وخرّج عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان يخطب قائمـا ثم يجلس ، ثم يقوم فيخطب ؛ فمن نبّأك أنه كان يخطب جالسا فقد كذب ؛ فقد والله صلّيتُ معه أكثر من ألفى صلاة . وعلى هــذا جمهور الفقهاء وأئمة العلماء . وقال أبو حنيفة : ليس القيام بشرط فيها . ويروى أن أوّل من خطب قاعدًا مُعَاوِية . وخطب عثمان قائمًا حتى رَقّ فخطب قاعدا . وقيل : إن معاوية إنما خطب قاعدا لِسنِّه . وقـد كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم يخطب قائمـا ثم يقعد ثم يقوم ولا يتكلم فى قعدته . رواه جابر بن سَمُرة . ورواه ابن عمر فى كتاب البخاريّ .

السادســة — والخطبة شرط فى انعقاد الجمعـة لا تصح إلا بهـا ؛ وهو قول جمهور العلماء . وقال الحسن : هى مستحبة . وكذا قال ابن المـاجِشُون : إنها سُنّة وليست بفرض . وقال سعيد بن جُبير : هى بمنزلة الركعتين من صلاة الظهر ؛ فإذا تركها وصلى الجمعة فقد ترك الركعتين من صلاة الظهر . والدليل على وجوبها قوله تعالى : « وتركوك قائمًا » . وهذا ذمّ ؛ والواجب هو الذى يُذَمّ تاركه شرعا ، ثم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يصلها إلا بخطبة .

السابعــة — ويخطب متوكّئًا على قَوْس أو عَصًا . وفى سـنن ابن ماجه قال حدّثنا هشام بن عمار حدّثنا عبد الرحمن بن سعد بن عمار بن سعد قال حدّثنى أبى عن أبيه عن جدّه

(١) آية ٢٦ سورة الحج . (٢) آية ٣٦ سورة النور .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خطب فى الحرب خطب على قَوْس و إذا خطب فى الجمعة خطب على عصا .

الثامنة — ويسلّم إذا صَعِد المِنبر على الناس عند الشافعيّ وغيره . ولم يره مالك . وقد روى ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا صعد المنبر سلّم .

التاسعة — فإن خطب على غير طهارة الخطبة كلّها أو بعضها أساء عند مالك ؛ ولا إعادة عليه إذا صلّى طاهرا . وللشافعيّ قولان فى إيجاب الطهارة ؛ فَشَرطها فى الجديد ولم يشترطها فى القديم . وهو قول أبى حنيفة .

العاشرة — وأقلّ ما يجزى فى الخطبة أن يَحمَد الله و يصلّى على نبيّه صلى الله عليه وسلم ، ويوصى بتقوى الله و يقرأ آية من القرآن . ويجب فى الثانية أربع كالأولى ؛ إلا أن الواجب بدلًا من قراءة الآية فى الأولى الدعاء ؛ قاله أكثر الفقهاء . وقال أبو حنيفة : لو اقتصر على التحميد أو التسبيح أو التكبير أجزأه . وعن عثمان رضى الله عنه أنه صعد المنبر فقال : الحمد لله ؛ وأُرْتِجَ عليه فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا ، و إنكم إلى إمام فَعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال ، وستأتيكم الخطب ؛ ثم نزل فصلّى . وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد . وقال أبو يوسف ومحمد : الواجب ما تناوله اسم خطبة . وهو قول الشافعى . قال أبو عمر بن عبد البر : وهو أصح ما قيل فى ذلك .

الحادية عشرة — فى صحيح مسلم عن يَعْلَى بن أُمَيّة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر « وَنَادَوْا يا مَالِكُ »(١) . وفيه عن عَمْرة بنت عبد الرحمن عن أختٍ لعَمْرَة قالت : ما أخذت « قٓ والقرآنِ المجِيدِ » إلا من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر فى كل جمعة . وقد مضى فى أوّل(٢) « ق » . وفى مراسيل أبى داود عن الزهرىّ قال : كان صدر خطبة النبيّ صلّى الله عليه وسلم " الحمد لله . نَحْمَدُه و نستعينه ونستغفره ،

---

(١) آية ٧٧ سورة الزخرف . (٢) راجع أول جـ ١٧ .

ونعـوذ به من شرور أنفسنا . من يهـد الله فلا مُضـلّ له ، ومن يُضْلِلْ فـلا هادِيَ له . ونشهد أنـ لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمدا عبـدُه ورسولُه ، أرْسَـلَه بالحق بشـيرًا ونذيرًا بين يَدَي الساعة . مَنْ يُطع الله ورسوله فقـد رَشَد، ومن يعصهما فقد غَوَى . نسأل الله ربّنـا أن يجعلنـا ممن يطيعـه ويطيع رسـولَه ، ويتّبع رضـوانه ويجتنب سَخطه ، فإنمـا نحن به وله ” . وعنـه قال : بلغنا عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه كانـ يقول إذا خطب : ”كلُّ ما هو آتٍ قريبٌ ، [و](١) لا بُعْدَ لمـا هو آت . لا يعجِّل الله لعجلة أحدٍ(٢) ، ولا يَخِفّ لأمر الناس . ما شاء الله لا ما شاء الناس . يريد الله أمرًا ويريد النـاسُ أمرًا ، ما شاء الله كان ولو كرِه الناس . ولا مُبْعِدَ لمـا قرَّب الله، ولا مقرِّب لمـا بعّد الله . لا يكون شيء إلا بإذن الله جل وعز“ . وقال جابر : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة يخطب فيقول بعد أن يَحْمَـد الله ويصلّي على أنبيائه : ” أيها الناس إنّ لكم معالم فانتهُوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهـاية فانتهوا إلى نهايتكم . إن العبـد المؤمن بين مخافتين بين أجلٍ قـد مَضَى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه ، وبين أجل قـد بَقِيَ لا يدرى ما الله صانع فيـه . فلْيأْخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشّبيبة قبـل الكِبَر ، ومن الحياة قبل الممـات . والذى نفسي بيده ما بعـدَ الموت من مُسْتَعْتَبٍ ، وما بعـد الدنيا من دارٍ إلا الجنّة أو النار . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ” . وقد تقدّم ما خطب به عليه الصلاة والسلام أوّل جمعة عند قدومه المدينة .

الثانية عشرة — السكوت للخطبة واجب على من سمعها وجوبَ سُنّة . والسُّنّة أن يسكت لها مَن يسمع ومَن لم يسـمع، وهما إن شاء الله فى الأجر سـواء . ومن تكلّم حينئذ لغـا ؛ ولا تفسد صـلاته بذلك . وفى الصحيح عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ” إذا قلتَ لصاحبك أنصِتْ يوم الجمعـة والإمامُ يخطب فقد لَغَوْتَ “ . الزّمَخْشَرى : وإذا قال المُنْصِت لصاحبه صَهْ ، فقـد لَغَا ، أفلا يكون الخطيب الغـالى فى ذلك لاغيا ؟ نعـوذ بالله من غُرْبَة الإسلام ونكد الأيام .

---

(١) زيادة عن مراسيل أبى داود . (٢) فى الأصول : «لعجلة آت» والتصويب عن مراسيل أبى داود .

الثالثة عشرة — ويستقبل النّاسُ الإمام إذا صَعِد المنبر؛ لمـا رواه أبو داود مُرْسَــلًا عن أبان بن عبد الله قال : كنت مع عَدِيّ بن ثابت يوم الجمعة؛ فلما خرج الإمام — أو قال صعد المنبر — استقبله وقال : هكذا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون برسول الله صلى الله عليه وسلم . خرّجه ابن ماجه عن عديّ بن ثابت عن أبيــه؛ فزاد في الإسناد : عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا قام على المنبر استقبله أصحابه بوجوههم . قال ابن ما جه : أرجو أن يكون متّصلا .

قلت : وخَرّج أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا محمد بن معْمر قال حدّثنا عبـد الله بن محمـد ابن ناجيــة قال حدّثنا عبّاد بن يعقوب قال حدّثنا محمد بن الفضل الخُرَاسانيّ عن منصــور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم اذا ٱستوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا . تفرّد به محمد بن الفضل بن عطية عن منصور .

الرابعة عشرة : ولا يركع مَن دخل المسجد والإمامُ يخطب؛ عند مالك رحمه الله . وهو قول ابن شهاب رحمه الله وغيره . وفي المُوَطّأ عنه : فخروج الإمام يقطع الصلاة، وكلامه يقطع الكلام . وهذا مرسل . وفي صحيح مسلم من حديث جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما (١) " . وهذا نصٌّ في الركوع . وبه يقول الشافعيّ وغيره .

الخامسة عشرة : ... ... (٢) ابن عَوْن عن ابن سيرين قال : كانوا يكرهون النّوم والإمام يخطب ويقولون فيه قولا شـديدا . قال ابن عَوْن : ثم لَقِيَني بعد ذلك فقال : تدري ما يقولون ؟ قال : يقولون مَثَلُهم كَمَثـل سَرِيّة أخفقوا ؛ ثم قال : هل تدري ما أخفقوا ؟ لم تَغْنَم شيئا . وعن سَمُرة بن جُنْدب أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا نَعَس أحدكم فليتحوّل إلى مقعد صاحبه وليتحوّل صاحبه إلى مقعده " .

---

(١) أي وليخفف أداءهما .		(٢) بياض في بعض نسخ الأصل .

السادسة عشرة — نذكر فيها من فضل الجمعة وفرضيّتها ما لم نذكره . روى الأئمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال : " فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلّي يسأل الله عزّ وجل شيئا إلا أعطاه إياه " وأشار بيده يُقَلِّلها(١). وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة " . وروى من حديث أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أبطأ علينا ذات يوم ؛ فلما خرج قلنا : احتبستَ ! قال : " ذلك أن جبريل أتاني بكهيئة المرآة البيضاء فيها نُكْتة سَوْداء فقلت ما هذه يا جبريل قال هذه الجمعة فيها خير لك ولأمتك وقد أرادها اليهود والنصارى فأخطئوها وهداكم الله لها قلت يا جبريل ما هذه النكتة السوداء قال هذه الساعة التي في يوم الجمعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه أو ادّخر له مثله يوم القيامة أو صرف عنه من السوء مثله وإنه خير الأيام عند الله وإن أهل الجنة يسمّونه يوم المزيد " . وذكر الحديث . وذكر ابن المبارك ويحيى ابن سلام قالا : حدّثنا المسعودي عن المِنهال بن عمرو عن أبي عُبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كَثِيب(٢) من كافور أبيض ، فيكونون منه في القُرْب — قال ابن المبارك — على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا . وقال يحيى بن سلام : كمسارعتهم إلى الجمعة في الدنيا . وزاد : فيُحْدِث لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك . قال يحيى : وسمعت غير المسعودي يزيد فيه : وهو قوله تعالى « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ »(٣) .

قلت : قوله « في كَثِيب » يريد أهل الجنة . أي وهم على كَثِيب ؛ كما روى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنة ينظرون إلى ربّهم في كل جمعة على كَثِيب من كافور لا يُرَى طرفاه وفيه نهرٌ جارٍ حافتاه المسك عليه جوارٍ يقرأن القرآن بأحسن

(١) أي يشير إلى قلة تلك الساعة وعدم امتدادها . (٢) الكثيب : الرمل المستطيل .
(٣) آية ٣٥ سورة ق .

أصوات سمعها الأولون والآخرون فإذا انصرفوا إلى منازلهم أخذ كل رجل بيد ما شاء منهن ثم يمرون على قناطر من لؤلؤ إلى منازلهم فلولا أن الله يهديهـم إلى منازلهم ما اهتدَوْا إليها لما يحـدث الله لهم فى كل جمعة " ذكره يحيى بن سلام . وعن أنس قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ليـلة أُسْرِيَ بى رأيت تحت العرش سبعين مدينـة كل مدينة مثل مدائنكم (١) هـذه سبعين مَرّة مملوءة من الملائكة يسبّحون الله ويقدّسونه ويقولون فى تسبيحهم اللّهُمّ آغفر لمن شهد الجمعة اللّهُمّ آغفر لمن اغتسل يوم الجمعة " ذكره الثَّعْلَبِيّ . وخرّج القاضى الشريف أبو الحسن علىّ بن عبـد الله بن إبراهيم الهـاشمى العِيسَوِى من ولد عيسى بن علىّ بن عبـد الله بن عباس رضى الله عنه بإسناد صحيح عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها ويبعث الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفّون بها كالعروس تُهْدَى إلى كريمها تضىء لهم يمشون فى ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضا، وريحهم يسطع كالمسك، يخوضون فى جبال الكافور، ينظر إليهم الثَّقَلان ما يطرقون تعجُّبًا يدخلون الجنـة لا يخالطهم أحد إلا المؤذّنون المحتسِبُون " . وفى سُـنن ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجمعـة إلى الجمعة كَفّارة ما بينهما ما لم تُغْشَ الكبائر " خَرّجه مسلم بمعناه . وعن أَوْس بن أَوْس الثَّقَفِىّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول : " من غسل يوم الجمعـة واغتسل وبَكّرَ وابتـكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فآستمع ولم يَلْغ كان له بكل خطوة عمل سَنَة أجر صيامها وقيامها " . وعن جابر بن عبد الله قال : خَطَبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يأيهـا الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا . وبادروا بالأعمال الصالحة قبـل أن تُشغلوا . وصِلُوا الذى بينكم وبين ربّكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصّدقة فى السر والعلانية تُرزقوا وتُنصروا وتؤجروا . واعلموا أن الله قد فرض عليكم الجمعـة فى مقامى هذا فى شهرى هذا فى عامى هذا إلى يوم القيامة فمن تركها فى حياتى أو بعد ممـاتى وله إمام عادل أو جائر استخفافًا بهـا أو جحودًا لهـا فلا جمع الله شَمْـله ولا بارك له

---

(١) فى بعض النسخ : « مثل دنياكم » .

فى أمره . ألا ولا صلاة له ولا زكاة له ولا حجّ له . ألا ولا صوم له ولا برّ له حتى يتوب فمن تاب تاب الله عليه . ألا لا تؤمّنّ امرأة رجلا ولا يؤمّ أعرابى مهاجرا ولا يؤمّ فاجر مؤمنا إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه " . وقال ميمون بن أبى شيبة : أردت الجمعة مع الحجاج فتهيأت للذهاب ، ثم قلت : أين أذهب أصلى خلف هذا الفاجر؟ فقلت مرّة : أذهب ، ومرّة لا أذهب ، ثم أجمع رأيى على الذهاب ، فنادانى مناد من جانب البيت « يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ لِلصلاةِ مِن يومِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكرِ اللهِ وذَرُوا الْبَيْعَ » .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — ما عند الله من ثواب صلاتكم خيرٌ من لذّة لهوكم وفائدة تجارتكم . الثانى — ما عند الله من رزقكم الذى قسمه لكم خير مما أصبتموه من لهوكم وتجارتكم . وقرأ أبو رَجاء العُطَارِدىّ : « قل ما عِند اللهِ خير مِن اللّهوِ ومِن التجارةِ للذين آمنوا » . ﴿ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى خير من رزق وأعطى ، فمنه فاطلبوا ، واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيرى الدنيا والآخرة .

ســورة المنافقون

مدنيّةٌ فى قول الجميع ، وهى إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ روى البُخارىّ عن زيد بن أرْقم قال : كنت مع عمّى فسمعت عبد الله بن أبىّ بن سَلُول يقول : « لَاتُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا » . وقال : « لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزّ

مِنْهَا الْأَذَلَّ » فذكرت ذلك لعمّى فذكر عمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا ؛ فصدّقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذّبنى . فأصابنى همّ لم يصبنى مثله ، فجلست فى بيتى فأنزل الله عز وجل : « إذا جاءك المنافقون — إلى قوله — هم الذين يقولون لا تُنْفِقُوا على مَن عِنْد رسولِ اللهِ — إلى قوله — لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » فأرسل إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "إن الله قد صدقك" خرّجه الترمذىّ وقال: هذا حديث حسن صحيح .

وفى الترمذىّ عن زيد بن أَرْقَم قال : غَزَوْنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معنا أناس من الأعراب فكنّا نبدر الماء ، وكان الأعراب يسبقونا [إليه] فيسبق الأعرابىّ أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النِّطْع(١) عليه حتى تجىء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار أعرابيًّا فأرْخَى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يَدَعَه ، فانتزع حجرا فغاض(٢) الماء ؛ فرفع الأعرابىّ خشبة فضرب بها رأس الأنصارىّ فشجّه ، فأتى عبدَ الله بن أُبَىّ رأس المنافقين فأخبره — وكان من أصحابه — ، فغضب عبد الله بن أُبَىّ ثم قال : لاتُنْفِقُوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا من حوله — يعنى الأعراب — وكانوا يحضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الطعام ؛ فقال عبد الله : إذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمدا بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده . ثم قال لأصحابه : لئن رجعتم إلى المدينة لَيُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ . قال زيد : وأنا رِدْف عمى(٣) فسمعت عبد الله بن أُبَىّ فأخبرت عمى ، فانطلق فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف وجحد . قال : فصدّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذّبنى . قال : فجاء عمى إلىّ فقال : ما أردتُ إلى أن مَقَتَك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وكذّبك والمنافقون(٤) . قال : فوقع علىّ من جرأتهم ما لم يقع(٥) على أحد . قال : فبينما أنا أسير مع رسول

(١) بساط من جلد . (٢) فى الترمذى : « فانتزع قباض الماء » .

(٣) فى الترمذى : « وأنا ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٤) فى الترمذى : «والمسلمون» . (٥) فى الترمذى : « فوقع على من الهم ما لم ... ... » .

الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ قد خفقتُ برأسي من الهمّ إذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرَك أذني وضحك في وجهي؛ فما كان يَسُرّني أن لي بها الخُلْد في الدنيا. ثم إن أبا بكر لحقني فقال: ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: ما قال شيئا إلا أنه عَرَك أذني وضحك في وجهي؛ فقال أبشر! ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر. فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المنافقين. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وسئل حُذيفة بن اليَمَان عن المنافق فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به، وهو اليوم شرّ منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم كانوا يكتمونه وهم اليوم يظهرونه. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ٱئتمن خان". وعن عبد الله بن عمرو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أربع من كُنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ٱئتمن خان وإذا حدّث كذب وإذا عاهد غَدَر وإذا خاصم فَجَر". أخبر عليه السلام أن من جمع هذه الخصال كان منافقا، وخبره صدق. وروى عن الحسن أنه ذكر له هذا الحديث فقال: إن بني يعقوب حدّثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا وأُتُمنوا فخانوا. إنما هذا القول من النبيّ صلى الله عليه وسلم على سبيل الإنذار للسلمين، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال؛ شَفَقًا أن تُفْضِيَ بهم الى النفاق. وليس المعنى أن من بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق. وقد مضى في سورة «براءة» القول في هذا مستوفًى (١) والحمد لله. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المؤمن إذا حدّث صدق وإذا وعد أنجز وإذا ٱئتمن وَفَى". والمعنى: المؤمن الكامل إذا حدّث صدق. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ قيل: معنى «نشهد» نحلف. فعبّر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مغيب (٢)؛ ومنه قول قَيس بن ذَرِيح:

وأشهد عند الله أني أحبها ∗ فهذا لها عندي فما عندها ليا

(١) راجع ج ٨ ص ٢١٢ (٢) في بعض نسخ الأصل: «لأمر معين».

ويحتمل أن يكون ذلك محمولا على ظاهره أنهم يشهدون أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، اعترافًا بالإيمان ونفيًا للنفاق عن أنفسهم؛ وهو الأشبه . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ كما قالوه بألسنتهم . ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى فيما أظهروا من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم . وقال الفراء : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » بضمائرهم؛ فالتكذيب راجع إلى الضمائر . وهذا يدل على أن الإيمان تصديق القلب، وعلى أن الكلام الحقيق كلام القلب . ومن قال شيئا واعتقد خلافه فهو كاذب . وقد مضى هذا المعنى فى أول « البقرة » مستوفًى[(١)] . وقيل : أكذبهم الله فى أيمانهم وهو قوله تعالى : « وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ[(٢)] » .

قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ج إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أى سترة . وليس يرجع إلى قوله « نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ » وإنما يرجع إلى سبب الآية التى نزلت عليه؛ حسب ما ذكره البخارى والترمذى عن ابن أُبَىّ أنه حلف ماقال وقد قال . وقال الضحاك : يعنى حلفهم بالله إنهم لمنكم ، وقيل : يعنى بأيمانهم ما أخبر الرب عنهم فى سورة « براءة » إذ قال : « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا[(٣)] » .

الثانية — من قال : أُقْسِم بالله أو أَشْهد بالله أو أَعْزِم بالله أو أحلف بالله، أو أقسمت بالله أو أشهدت بالله أو أعزمت بالله أو أحلفت بالله؛ فقال فى ذلك كله « بالله » فلا خلاف أنها يمين . وكذلك عند مالك وأصحابه إن قال : أُقْسِم أو أَشْهد أو اعْزِم أو أحلف؛ ولم يقل « بالله »، إذا أراد « بالله » . وإن لم يرد « بالله » فليس بيمين . وحكاه الكِيَا عن الشافعىّ . قال الشافعىّ : إذا قال أشهد بالله ونوى اليمين كان يمينا . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو قال

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٢ طبعة ثانية أو ثالثة وما بعدها . (٢) آية ٥٦ سورة التوبة .
(٣) آية ٧٤ سورة التوبة .

أشهد بالله لقد كان كذا كان يمينًا ، ولو قال أشهد لقد كان كذا دون النية كان يمينا لهذه الآية ؛ لأن الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال « ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً » . وعند الشافعي لايكون ذلك يمينا وإن نوى اليمين؛ لأن قوله تعالى : « ٱتخذوا أيمانهم جُنّة » ليس يرجع إلى قوله : « قالوا نشهد » وإنما يرجع إلى ما في « براءة » من قوله تعالى : « يحلفون بِاللهِ ماقالوا » .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي أعرضوا؛ وهو من الصدود . أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسّبْي وأخذ الأموال ؛ فهو من الصّد، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويقتدى بهم غيرهم . وقيل : فصدّوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام ؛ بإن يقولوا هانحن كافرون بهم ، ولو كان محمد حقًّا لعرف هذا منا ، ولجعلنا نكالا . فبيّن الله أن حالهم لا يخفى عليه، ولكن حكمه أن من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بئست أعمالهم الخبيثة ـــ من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة وصدّهم عن سبيل الله ـــ أعمالا .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر . أي أقرّوا باللسان ثم كفروا بالقلب . وقيل : نزلت الآية في قوم آمنوا ثم آرتدوا . ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي خُتم عليها بالكفر . ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ الإيمان ولا الخير . وقرأ زيد بن عليّ « فطَبَع الله على قلوبهم » .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ أي هيئاتهم ومناظرهم . ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ يعني عبد الله بن أُبَيّ . قال ابن عباس : كان عبد الله بن أُبَيّ وسيما

جسيمًا صحيحًا صبيحًا ذَلِق اللسان ؛ فإذا قال سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم مقالته . وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة . وقال الكلبي : المراد ٱبن أُبَيّ وجَدّ بن قَيْس ومُعَتّب ابن قُشير ؛ كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة . وفي صحيح مسلم : وقوله « كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ » قال : كانوا رجالا أجمل شيء كأنهم خشب مسندةٌ ؛ شبّههم بخُشُب مسنّدة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون ؛ أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام . وقيل : شبّههم بالخُشُب التي قد تآكلت فهي مسندة بغيرها لا يعلم ما في بطنها . وقرأ قُنْبُل وأبو عمرو والكسائي « خُشْبٌ » بإسكان الشين . وهي قراءة البَرَاء بن عازب واختيار أبي عبيد ؛ لأن واحدتها خَشَبة . كما تقول : بَدَنة وبُدْن ؛ وليس في اللغة فَعَلة يجمع على فُعُل . ويلزم من ثقلها أن تقول : البُدُن ؛ فتقرأ « والبُدُن » . وذكر اليزيدي أنه جماع الخشباء ؛ كقوله عز وجل « وَحَدَائِقَ غُلْبًا » واحدتها حديقة غلباء . وقرأ الباقون بالتثقيل وهي رواية البَزّي عن ٱبن كثير وعيّاش عن أبي عمرو ، وأكثر الروايات عن عاصم . واختاره أبو حاتم ؛ كأنه جمع خِشاب وخُشُب ؛ نحو ثَمَرة وثِمار وثُمُر . وإن شئت جمعت خشبة على خشب كما قالوا : بدنة وبدن وبدن . وقد رُوي عن ابن المسيّب فتح الخاء والشين في « خُشُب » . قال سيبَوَيْه : خَشَبة وخُشْب ؛ مثل بَدَنة وبدن . قال : ومثله بغير هاء أَسَد وأُسْد ووَثَن ووُثْن . وتقرأ خُشُب وهو جمع الجمع ؛ خشبة وخِشاب وخُشُب ؛ مثل ثمرة وثمار وثُمُر . والإسناد الإمالة ؛ تقول : أسندت الشيء أي أملته . و « مُسَنَّدَة » للتكثير ؛ أي ٱستندوا إلى الأيمان بحقن دمائهم .

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ أي كل أهل صيحة عليهم هم العدوّ . فـ « هم العَدُوّ » في موضع المفعول الثاني ؛ على أن الكلام لا ضمير فيه . يصفهم بالجُبْن والخَوَر . قال مقاتل والسدي : أي إذا نادى منادٍ في العسكر أن انفلتت دابة أو أُنْشِدت ضالّة ظنّوا أنهم المرادون ؛ لما في قلوبهم من الرعب . كما قال الشاعر وهو الأخطل :

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم * خيلًا تَكُرّ عليهمُ ورجالا

وقيل : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ » كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعده؛ وتقديره : يحسبون كل صيحة عليهم أنهم قد فُطِن بهم وعُلِم بنفاقهم ؛ لأن للرِّيبة خوفاً . ثم استأنف الله خطاب نبيّه صلى الله عليه وسلم فقال: «هم العدُوّ» وهذا معنى قول الضحاك. وقيل : يحسبون كل صيحة يسمعونها في المسجد أنها عليهم ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أمر فيها بقتلهم ؛ فهم أبداً وَجِلون من أن يُنْزِل الله فيهم أمراً يبيح به دماءهم ، ويهتك به أستارهم . وفي هذا المعنى قول الشاعر :

فلو أنها عصفورةٌ لحسبتُها * مُسَوَّمَةً تدعو عُبَيْداً وأَزْنَمَا

بطن من بني يَرْبوع . ثم وصفهم الله بقوله : « هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ » حكاه عبد الرحمن ابن أبي حاتم . وفي قوله تعالى « فاحذرهم » وجهان : أحدهما — فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل إلى كلامهم . الثاني — فاحذر ممايلتهم لأعدائك وتخذيلهم لأصحابك . ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي لعنهم الله ؛ قاله ابن عباس وأبو مالك . وهي كلمة ذمّ وتوبيخ . وقد تقول العرب : قاتله الله ما أشعره ! فيضعونه موضع التعجب . وقيل : معنى « قاتلهم الله » أي أحلهم محلّ من قاتله عدوٌّ قاهر؛ لأن الله تعالى قاهر لكل معاند. حكاه ابن عيسى . ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يكذبون ؛ قاله ابن عباس . قتادة : معناه يعدلون عن الحق . الحسن : معناه يصرفون عن الرشد . وقيل : معناه كيف تضلّ عقولهم عن هذا مع وضوح الدلائل ؛ وهو من الإفك وهو الصرف . و « أنى » بمعنى كيف ؛ وقد تقدم (١) .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ لمّا نزل القرآن بصفتهم مشى إليهم عشائرهم وقالوا : افتضحتم بالنفاق فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم . فلَوَّوْا رءوسهم ؛ أي حرّكوها استهزاء وإباء ؛ قاله ابن عباس . وعنه أنه كان

(١) راجع جـ ٣ ص ٩٢ وجـ ٤ ص ٧٩

لعبد الله بن أُبَىّ موقف فى كل سبب يحض على طاعة الله وطاعة رسوله؛ فقيل له : وما ينفعك ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليك غضبان، فأته يستغفر لك؛ فأبى وقال : لا أذهب إليه. وسبب نزول هذه الآيات أن النبيّ صلى الله عليه وسلم غزا بنى المُصْطَلِق على ماء يقال له «المُرَيْسِيع» من ناحية «قُدَيد» إلى الساحل، فازدحم أجير لعمر يقال له «جَهْجَاه» مع حَليف لعبد الله بن أُبَىّ يقال له «سِنان» على ماء «بالمُشَلَّل»، فصرخ جهجاه بالمهاجرين، وصرخ سِنان بالأنصار؛ فلَطَم جهجاه سناناً فقال عبد الله بن أبى : أوَ قد فعلوها ! والله ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلا كما قال الأول : سَمِّن كَلْبَك يأْكُلْك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعَزُّ — يعنى أُبَيًّا — الأذلَّ؛ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم. ثم قال لقومه : كُفُّوا طعامكم عن هذا الرجل، ولا تُنفقوا على مَن عندَه حتى ينفضُّوا ويتركوه. فقال زيد بن أرْقَم — وهو من رهط عبد الله — أنت والله الذليل المُنْتَقَص فى قومك؛ ومحمد صلى الله عليه وسلم فى عِزّ من الرحمن ومودّة من المسلمين، والله لا أحبك بعد كلامك هـذا أبدا . فقال عبد الله : اسكت إنما كنت ألعب . فأخبر زيد النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله؛ فأقسم بالله ما فعل ولا قال؛ فعذره النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال زيد : فوجدت فى نفسى ولامنى الناس؛ فنزلت سورة المنافقين فى تصديق زيد وتكذيب عبد الله . فقيل لعبد الله : قـد نزلت فيك آيات شديدة فاذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر لك؛ فألْوَى برأسه، فنزلت الآيات . خرّجه البخارى ومسلم والترمذى بمعناه . وقـد تقدم أول السورة . وقيـل : «يستغفر لكم» يستتبكم من النفاق؛ لأن التوبة ٱستغفار . ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان . وقـرأ نافع «لَوَوْا» بالتخفيف . وشدد الباقون؛ واختاره أبو عبيد وقال : هو فعل الجماعة . النحاس : وغلط فى هذا؛ لأنه نزل فى عبد الله بن أُبَىّ لما قيل له : تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم حَرّك رأسه استهزاء . فإن قيل : كيف أخبر عنه بفعل الجماعة؟ قيل له : العرب تفعل هذا إذا كَنَت عن الإنسان . أنشد سيبَوَيْه لحسّان :

ظننتم بأن يَخْفَى الذى قـد صنعتمُ * وفينا رسـولٌ عنـده الوَحْى واضِـعُهْ

وإنما خاطب حَسّان ٱبنَ الأُبَيْرِق فى شىء سَرَقه بمكة . وقصته مشهورة .

وقد يجوز أن يخبر عنه وعمن فعل فعله . وقيل : قال ابن أبيّ لما لوى رأسه : أمرتمونى أن أومن فقد آمنت ، وأن أعطى زكاة مالى فقد أعطيت ؛ فما بقى إلا أن أسجد لمحمد ! .

قوله تعالى : سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يعنى كل ذلك سواء ، لا ينفع استغفارك شيئا ؛ لأن الله لا يغفر لهم . نظيره « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »(١) ، « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ »(٢) . وقد تقدم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى من سبق فى علم الله أنه يموت فاسقاً .

قوله تعالى : هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾

ذكرنا سبب النزول فيما تقدم . وابن أبيّ قال : لا تُنفقوا على مَن عند محمد حتى ينفضُّوا ؛ حتى يتفرّقوا عنه . فأعلمهم الله سبحانه أن خزائن السموات والأرض له ، ينفق كيف يشاء . قال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل؟ فقال : « ولله خزائنُ السموات والأرض » . وقال الجُنَيْد : خزائن السموات الغيوبُ ، وخزائن الأرض القلوب ؛ فهو علّام الغيوب ومُقلّب القلوب . وكان الشِّبْلىّ يقول : « ولله خزائن السموات والأرض » فأين تذهبون . ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أنه إذا أراد أمرًا يسّره .

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٤ . (٢) راجع جـ ١٣ ص ١٢٥ .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

القائل ٱبن أُبَىّ كما تقدم . وقيل : إنه لما قال « لَيُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأَذَلَّ » ورجع إلى المدينة لم يلبث إلا أياما يسيرة حتى مات ؛ فاستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم وألبسه قميصه ؛ فنزلت هذه الآية « لن يغفر الله لهم » . وقد مضى بيان هذا كله في سورة « براءة » مستوفًى[(١)] . وروى أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول قال لأبيه : والذى لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأعزّ وأنا الأذل ؛ فقاله . تَوَهَّمُوا أن العزّة بكثرة الأموال والأتباع ؛ فبيّن الله أن العِزة والمَنَعة والقُوّة لله .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

حَذّر المؤمنين أخلاق المنافقين ؛ أى لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا ــ للشُّح بأموالهم ــ : لا تُنفقوا على مَن عند رسول الله . ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى عن الحج والزكاة . وقيل : عن قراءة القرآن . وقيل : عن إدامة الذكر . وقيل : عن الصلوات الخمس ؛ قاله الضحاك . وقال الحسن : جميع الفرائض ؛ كأنه قال عن طاعة الله . وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أى آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب . ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أى من يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٨ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ يدل على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلا . وكذلك سائر العبادات إذا تعيّن وقتها .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ سأل الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحا . وروى الترمذى عن الضحاك بن مُزاحم عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حجّ بيت ربّه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت . فقال رجل : يابن عباس، اتق الله، إنما سأل الرجعةَ الكفارُ . فقال : سأتلو عليك بذلك قرآنا «يأيها الذين آمنوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ — إلى قوله — وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعدًا . قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة .

« قلت » : ذكره الحَلِيمِىّ أبو عبد الله الحسين بن الحسن فى كتاب (مِنهاج الدِّين) مرفوعا فقال : وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلّغه الحج ... " الحديث ؛ فذكره . وقد تقدم فى « آل عمران »(1) لفظه .

الثالثـة — قال ابن العَرَبِىّ : « أخذ ابن عباس بعموم الآية فى إنفاق الواجب خاصّة دون النفل ؛ فأما تفسيره بالزكاة فصحيح كله عمومًا وتقديرًا بالمائتين . وأما القول فى الحج ففيه إشكال ؛ لأنا إن قلنا : إن الحج على التراخى ففى المعصية فى الموت قبل الحج خلاف بين العلماء ؛ فلا تُخَرَّج الآية عليه . وإن قلنا : إن الحج على الفور فالآية فى العموم صحيح ؛ لأن من وجب عليه الحج فلم يؤدّه لقى من الله ما يودّ أنه رجع ليأتى بما ترك من العبادات . وأما تقدير الأمر بالزاد والراحلة ففى ذلك خلاف مشهور بين العلماء . وليس لكلام ابن عباس

(1) راجع جـ ٤ ص ١٥٣ .

فيه مدخل ؛ لأجل أن الرجعة والوعيد لا يدخل فى المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها ، وإنما يدخل فى المتفق عليه . والصحيح تناوله للواجب من الإنفاق كيف تصرف بالإجماع أو بنص القرآن ؛ لأجل أن ماعدا ذلك لا يتطرق إليه تحقيق الوعيد » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هَلّا؛ فيكون استفهاماً . وقيل : « لا » صلة ؛ فيكون الكلام بمعنى التمنى . ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ نصب على جواب التمنى بالفاء . ﴿ وَأَكُونَ ﴾ عطف على « فأصدق » وهى قراءة أبى عمرو وابن مُحَيْصِن ومجاهد . وقرأ الباقون « وأكن » بالجزم عطفًا على موضع الفاء؛ لأن قوله : « فأصدق » لو لم تكن الفاء لكان مجزوما ؛ أى أصدق . ومثله « مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرْهُمْ »(١) فيمن جزم . قال ابن عباس : هذه الآية أشد على أهل التوحيد؛ لأنه لا يتمنّى الرجوع فى الدنيا أو التأخير فيها أحد له عند الله خير فى الآخرة .

قلت : إلا الشهيد فإنه يتمنّى الرجوع حتى يقتل ، لما يرى من الكرامة . ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر . وقراءة العامة بالتاء على الخطاب . وقرأ أبو بكر عن عاصم والسُّلَمِيّ بالياء؛ على الخبر عمن مات وقال هذه المقالة .

سورة التَّغَابُن

مَدَنِيَّةٌ فى قول الأكثرين . وقال الضحاك : مَكِّية . وقال الكلبيّ : هى مكية ومدنية . وهى ثمانى عشرة آية . وعن ابن عباس أن سورة التغابن نزلت بمكة ؛ إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة فى عَوْف بن مالك الأشْجَعِيّ ، شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده ، فأنزل الله عز وجل « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » إلى آخر السورة . وعن عبد الله بن عمر قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يولد إلا وفى تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن " .

(١) آية ١٨٦ سورة الأعراف .

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)

تقدّم فى غير موضع .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)

قال ابن عباس : إن الله خلق بنى آدم مؤمنًا وكافرا، ويعيدهم فى يوم القيامة مؤمنًا وكافرا . وروى أبو سعيد الخدرى قال : خَطَبَنا النبىّ صلى الله عليه وسلم عَشِيَّةً فذكر شيئا مما يكون فقال: "يولد الناس على طبقات شتى. يولد الرجل مؤمنًا ويعيش مؤمنًا ويموت مؤمنًا. ويولد الرجل كافرًا ويعيش كافرًا ويموت كافرًا . ويولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت كافرًا . ويولد الرجل كافرًا ويعيش كافرًا ويموت مؤمنًا". وقال ابن مسعود قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "خلق الله فرعون فى بطن أُمّه كافرًا وخلق يحيى بن زكريا فى بطن أمّه مؤمنًا". وفى الصحيح من حديث ابن مسعود : "وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها". خرجه البخارى والترمذى وليس فيه ذكر الباع . وفى صحيح مُسْلم عن سَهْل ابن سعد السّاعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يَبْدُو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة". قال علماؤنا : والمعنى تعلّق العلم الأزلى بكل معلوم ؛ فيجرى ما علم وأراد وحكم . فقد يريد إيمان شخص على عموم الأحوال ، وقد يريده إلى وقت معلوم . وكذلك

الكفر . وقيل فى الكلام محذوف : فمنكم مؤمن ومنكم كافر ومنكم فاسق ؛ فحذف لما فى الكلام من الدلالة عليه ؛ قاله الحسن . وقال غيره : لا حذف فيه ؛ لأن المقصود ذكر الطرفين . وقال جماعة من أهل العلم : إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا . قالوا : وتمام الكلام «هو الذى خلقكم» . ثم وصفهم فقال : «فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» كقوله تعالى : «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ»(١) الآية . قالوا : فالله خلقهم ، والمَشْيُ فعلهم . واختاره الحسين بن الفضل ، قال : لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم فى قوله «فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن» . واحتجّوا بقوله عليه الصلاة والسلام : "كل مولود يولد على الفِطْرة فأبَوَاه يُهوّدانه ويُنَصّرانه ويُمَجّسانه" الحديث . وقد مضى فى «الرُّوم» مستوفًى(٢) . قال الضحاك : فمنكم كافر فى السِّر مؤمن فى العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن فى السِّر كافر فى العلانية كعَمّار وذَوِيه . وقال عَطاء بن أبى رَبَاح : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب ؛ يعنى فى شأن الأنواء . وقال الزجاج — وهو أحسن الأقوال ، والذى عليه الأئمة والجمهور من الأمة — : إن الله خلق الكافر ، وكُفْرُه فِعْلٌ له وكسب ؛ مع أن الله خالق الكفر . وخلق المؤمن ، وإيمانُه فعلٌ له وكسب ؛ مع أن الله خالق الإيمان . والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعلمه منه . ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما غير الذى قدّر عليه وعلمه منه ؛ لأن وجود خلاف المقدور عَجْزٌ ، ووجود خلاف المعلوم جَهْلٌ ، ولا يليقان بالله تعالى . وفى هذا سلامة من الجبر والقدر ؛ كما قال الشاعر :

يا ناظرًا فى الدِّين ما الأمْرُ * لا قَدَرٌ صَحّ ولا جَبْرُ

وقال سِيلان : قَدِم أعرابىّ البصرة فقيل له : ما تقول فى القدر ؟ فقال : أمْرٌ تغالت فيه الظنون ، واختلف فيه المختلفون ؛ فالواجب أن نَرُدّ ما أشكل علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه .

---

(١) آية ٤٥ سورة النور . (٢) راجع ج ١٤ ص ٢٤

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ تقدّم (١) في غير موضع ؛ أى خلقها حقًّا يقيناً لا رَيْبَ فيه . وقيل : الباء بمعنى اللام ؛ أى خلقها للحق ؛ وهو أن يَجْزِىَ الذين أساءوا بما عمِلوا ويجزى الذين أحسنوا بالحُسْنَى . ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ يعنى آدم عليه السلام ، خلقه بيده كرامة له ؛ قاله مقاتل . الثانى — جميع الخلائق . وقد مضى معنى التصوير ، وأنه التخطيط والتشكيل (٢) . فإن قيل : كيف أحسن صورهم ؟ قيل له : جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورةً ؛ بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصُّوَر . ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب ؛ كما قال عز وجل : «لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» (٣) على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع ، فيجازى كُلّا بعمله .

قوله تعالى : يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾

تقدّم فى غير موضع . فهو عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

الخطاب لقريش ، أى ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية . ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أى عوقبوا . ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى مُوجِع . وقد تقدّم (٤) .

(١) جـ ٦ ص ٣٨٤ وجـ ٧ ص ١٩ . (٢) راجع ص ٤٨ من هذا الجزء .
(٣) آية ٤ سورة التين . (٤) راجع جـ ١ ص ١٩٨

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي هذا العذاب لهم بكفرهم بالرسل تأتيهم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالدلائل الواضحة . ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أنكروا أن يكون الرسول من البشر . وآرتفع «أبشرٌ» على الآبتداء . وقيل : بإضمار فعل؛ والجمع على معنى بشر؛ ولهذا قال : « يهدوننا » ولم يقل يهدينا . وقد يأتى الواحد بمعنى الجمع فيكون اسما للجنس؛ وواحده إنسان لا واحد له من لفظه . وقد يأتى الجمع بمعنى الواحد؛ نحو قوله تعالى : « ما هذا بشرا» . ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أي بهذا القول ؛ إذ قالوه استصغارًا ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده . وقيل : كفروا بالرسل وتولّوا عن البرهان وأعرضوا عن الإيمان والموعظة . ﴿ واسْتَغْنَى اللهُ ﴾ أي بسلطانه عن طاعة عباده ؛ قاله مقاتل . وقيل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان، عن زيادة تدعو إلى الرشد وتقود إلى الهداية .

قوله تعالى : زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ أي ظنّوا . والزَّعْم هو القول بالظن. وقال شريح : لكل شيء كُنْيَة وكُنْيَةُ الكذب زعموا . قيل : نزلت فى العاص بن وائل السَّهْمىّ مع خَبّاب ؛ حسب ما تقدّم بيانه فى آخر سورة « مريم »(١)؛ ثم عمّت كل كافر . ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أي لتخرجن من قبوركم أحياء . ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ لتخبرن. ﴿ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي بأعمالكم . ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ الإعادة أسهل من الابتداء.

قوله تعالى : فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٥

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أمرهم بالإيمان بعد أن عرفهم قيام الساعة . ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ وهو القرآن ، وهو نور يُهتَدَى به من ظُلمة الضلال . ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ العامل فى « يوم » « لَتُنَبَّؤُنَّ » أو « خَبِير » لما فيه من معنى الوعيد ؛ كأنه قال : والله يعاقبكم يوم يجمعكم . أو بإضمار اذكر. والغَبْنُ : النقص . يقال : غَبَنَه غبنًا إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته . وقراءة العامة «يجمعكم» بالياء ؛ لقوله تعالى : « والله بِمَا تَعْمَلُون خَبِيرٌ » فأخبر . ولذكر اسم الله أوّلا . وقرأ نصر وآبن أبى إسحاق والجَحْدَرِيّ ويعقوب وسلام « نجمعكم » بالنون ؛ اعتبارا بقوله : « والنُّورِ الذى أنزلنا » . ويوم الجمع : يوم يجمع الله الأوّلين والآخرين والإنس والجن وأهل السماء وأهل الأرض . وقيل : هو يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله . وقيل : لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم . وقيل : لأنه يجمع فيه بين كل نبيّ وأمّته . وقيل : لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصى . ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ أى يوم القيامة . قال :

وما أرتجى بالعيش فى دار فرقة * ألَا إنما الراحات يوم التغابن

وسمى يوم القيامة يوم التّغابُن ؛ لأنه غَبَن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار . أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة ؛ فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالردىء ، والنعيم بالعذاب . يقال : غَبَنْت فلانا إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغَلَبة لك . وكذا أهل الجنة وأهل النار ؛ على ما يأتى بيانه . ويقال : غَبَنْت

الثوبَ وخَبنته إذا طال عن مقدارك فخطت منه شيئا ؛ فهو نقصان أيضا . والمَغَابِن : ما انثنى من الخلق نحو الإبطين والفخذين . قال المفسرون : فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة . ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام . قال الزجاج : ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته .

الثانيــة — فإن قيل : فأى معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغَبْن فيها . قيل له : هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع ؛ كما قال تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى »(١) . ولما ذكر أن الكفار اشتَرَوُا الضلالة بالهُدَى وما رَبحوا في تجارتهم بل خسروا ، ذكر أيضا أنهم غُبِنوا ؛ وذلك أن أهل الجنة اشتَرَوُا الآخرة بترك الدنيا ، واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة . وهذا نوع مبادلة اتساعاً ومجازاً . وقد فرّق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين : فريقاً للجنة وفريقاً للنار . ومنازلُ الكل موضوعة في الجنة والنار . فقد يسبق الخذلان على العبد — كما بيناه في هذه السورة وغيرها — فيكون من أهل النار ، فيحصل الموفّق على منزل المخذول ومنزل الموفق في النار للمخذول ؛ فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن . والأمثال موضوعة للبيان في حكم اللغة والقرآن . وذلك كله مجموع من نشر الآثار وقد جاءت مفرقة في هذا الكتاب . وقد يخبر عن هذا التبادل بالوراثة كما بيناه في « قد أفلح المؤمنون »(٢) والله أعلم . وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعدُ ؛ ولكنه أراد التغابن الذى لا جبران لنهايته . وقال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف : رجل علم عِلما فعلمه وضيعه هو ولم يعمل به فشَقِيَ به ، وعَمِل به مَن تعلمه منه فنَجا به . ورجل اكتسب مالًا من وجوه يُسأل عنها وشحّ عليه ، وفرّط في طاعة ربه بسببه ، ولم يعمل فيه خيرا ، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه ؛ فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربّه . ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربّه فسعد ، وعمل السيّد بمعصية ربّه فشقى . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه فيقول الله تعالى لهما قُولَا فما أنتما بقائلين فيقول الرجل يارَبِّ أوجبتَ نفقتها علىّ فتعسّفتُها من حلال وحرام وهؤلاء الخصوم

(١) آية ١٦ سورة البقرة .　　(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٠٨

يطلبون ذلك ولم يبق لى ما أوفى به فتقول المرأة يارب وما عسى أن أقول اكتسبه حراما وأكلته حلالا وعصاك فى مرضاتى ولم أرض له بذلك فبعدًا له وسحقًا فيقول الله تعالى قد صدقت فيؤمر به إلى النار ويؤمر بها إلى الجنة فتطلع عليه من طبقات الجنة وتقول له غبناك غبناك سعدنا بما شقيت أنت به " فذلك يوم التغابن .

الثالثة — قال ابن العربى : « استدل علماؤنا بقوله تعالى « ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ » على أنه لا يجوز الغبن فى المعاملة الدنيوية ؛ لأن الله تعالى خصص التغابن بيوم القيامة فقال : « ذلك يوم التغابن » وهذا الاختصاص يفيد أنه لا غبن فى الدنيا ؛ فكل من اطلع على غبن فى مبيع فإنه مردود إذا زاد على الثلث (١) . واختاره البغداديون واحتجوا عليه بوجوه : منها قوله صلى الله عليه وسلم لحبان بن منقذ : " إذا بايعت فقل لا خلابة (٢) ولك الخيار ثلاثا " . وهذا فيه نظر طويل بيناه فى مسائل الخلاف . نكتته أن الغبن فى الدنيا ممنوع بإجماع فى حكم الدين ؛ إذ هو من باب الخداع المحرم شرعاً فى كل ملة ، لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه لأحد ، فمضى فى البيوع (٣) ؛ إذ لو حكمنا برده ما نفذ بيع أبدا ؛ لأنه لا يخلو منه ، حتى إذا كان كثيرا أمكن الاحتراز منه فوجب الرد به . والفرق بين القليل والكثير أصل فى الشريعة معلوم ، فقدر علماؤنا الثلث لهذا الحد ؛ إذ رأوه فى الوصية وغيرها . ويكون معنى الآية على هذا : ذلك يوم التغابن الجائز مطلقا من غير تفصيل . أو ذلك يوم التغابن الذى لا يستدرك أبدا ؛ لأن تغابن الدنيا يستدرك بوجهين : إما برد فى بعض الأحوال ، وإما بربح فى بيع آخر وسلعة أخرى . فأما من خسر الجنة فلا درك له أبدا . وقد قال بعض علماء الصوفية : إن الله كتب الغبن على الخلق أجمعين ، فلا يلقى أحد ربه إلا مغبوناً ؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب . وفى الأثر قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لا يلقى الله أحد إلا نادمًا إن كان مسيئًا إن لم يحسن ، وإن كان محسنًا إن لم يزدد " .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل وابن العربى : « عليها » . (٢) الخلابة : الخديعة .
(٣) فى ابن العربى : « فى الشرع » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما ؛ والباقون بالياء .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يعنى القرآن ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ لما ذكر ما للؤمنين ذكر ما للكافرين؛ كما تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بإرادته وقضائه . وقال الفرّاء: يريد إلا بأمر الله . وقيل : إلا بعلم الله . وقيل : سبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقًّا لصانهم الله عن المصائب فى الدنيا ؛ فبيّن الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة فى نفس أو مال أو قول أو فعل ، يقتضى همًّا أو يوجب عقاباً عاجلا أو آجلا فبعلم الله وقضائه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ أى يصدّق و يعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله . ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للصبر والرضا . وقيل : يُثبّته على الإيمان . وقال أبو عثمان الجيزى : من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السُّنة . وقيل : « ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبَه » عند المصيبة فيقول : إنا لله و إنا إليه راجعون؛ قاله ابن جبير . وقال ابن عباس : هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين؛ ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . وقال الكلبيّ : هو إذا ٱبتُلِيَ صَبَر ، و إذا أنعم عليه شكر ، و إذا ظُلم غفر. وقيل : يَهْدِ قلبه إلى نيل الثواب فى الجنة . وقراءة العامة « يَهْدِ » بفتح الياء وكسر الدال ؛ لذكر اسم الله أوّلًا . وقرأ السُّلَمِيّ وقتادة «يُهْدَ قَلْبُهُ» بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول و رفع الباء؛ لأنه اسم فعل لم يسمّ فاعله .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج « نَهْدِ » بنونٍ على التعظيم « قلبَه » بالنصب . وقرأ عِكْرِمة « يَهْدأْ قلبُه » بهمزة ساكنة ورفع الباء ؛ أي يسكن ويطمئن . وقرأ مثله مالك بن دِينار ، إلا أنه لَيّن الهمزة . ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه تسليم مَن ٱنقاد وَسلّم لأمره ، ولا كراهة من كرهه .

قوله تعالى : وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

أي هَوِّنوا على أنفسكم المصائب ، وٱشتغلوا بطاعة الله ، وٱعملوا بكتابه ، وأطيعوا الرسول في العمل بسُنّته ؛ فإن تَوَلّيتم عن الطاعة فليس على الرسول إلا التبليغ . ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود سواه ، ولا خالق غيره ؛ فعليه توكّلوا .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالمدينة في عَوْف بن مالك الأشْجَعِيّ ؛ شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم جَفاء أهله وولده ؛ فنزلت . ذكره النحاس . وحكاه الطّبَرِي عن عطاء بن يَسار قال : نزلت سورة «التغابن» كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات : « يأيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادِكم عَدُوًّا لكم » نزلت في عَوْف بن مالك الأشجعي كان ذا أهــل وولد ، وكان إذا أراد الغَزْو بَكَوْا إليه ورقّقوه فقالوا : إلى مَن تدعنا ؟ فـيَرِقّ فيُقيم ؛ فنزلت « يأيها الذين آمنوا

إنّ مِن أزواجِكم وأولادِكم عَدُوًّا لكم » الآية كلها بالمدينة فى عَوْف بن مالك الأشجعى . وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة . وروى الترمذى عن ابن عباس — وسأله رجل عن هذه الآية « يأيهـا الذين آمنوا إنّ مِن أزواجِكم وأولادِكم عَدُوًّا لكم فٱحذروهم » — قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما أَتَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم رأَوُا الناس قد فَقُهوا فى الدِّين هَمّوا أن يعاقبوهم ؛ فأنزل الله تعالى « يأيها الذين آمنوا إنّ مِن أزواجِكم وأولادِكم عَدُوًّا لكم فٱحذروهم » الآية . هذا حديث حسن صحيح .

الثانيـة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : هذا يبين وجه العداوة ؛ فإن العدوّ لم يكن عَدُوا لذاته وإنما كان عدوًّا بفعله . فإذا فعل الزوج والولد فِعْل العدُوّ كان عَدُوًّا ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة . وفى صحيح البخاريّ من حديث أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الشيطان قَعَد لابن آدم فى طريق الإيمان فقال له أتؤمن وتَذَر دِينَك ودِينَ آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتُنكح نساؤك ويُقسم مالكُ فخالفه فجاهد فقتِل فحقّ على الله أن يدخله الجنة". وقعود الشيطان يكون بوجهين : أحدهما — يكون بالوسوسة . والثانى — بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب ؛ قال الله تعالى : « وقَيَّضْنا لهم قُرَناءَ فزَيَّنوا لهم ما بَيْنَ أيديهم وما خلفهم » (١) . وفى حكمة عيسى عليه السلام : من اتخذ أهلًا ومالًا وولدًا كان للدنيا عبدًا . وفى صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك فى حال العبد ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "تَعِس عبد الدينار تَعِس عَبْدُ الدِّرْهم تَعِس (٢) عبد الخَمِيصَة تَعِس عبد القَطِيفة تَعِس وانتكس

(١) آية ٢٥ سورة فصلت .

(٢) قوله : « تعس » هلك . و « الخميصة » : كساء أسود مربع له أعلام وخطوط . و « القطيفة » : دثار له أهداب . « وانتكس » عاوده المرض كما بدأ به . أو انقلب على رأسه ؛ وهو دعاء عليه بالخيبة . و « شيك » : أصابته شوكة . و « فلا انتقش » أى فلا خرجت شوكته بالمنقاش .

و إذا شِيك فلا انتقش" . ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم، ولا همّة أخسّ من همّة ترتفع بثوب جديد .

الثالثــة — كما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدوًّا كذلك المرأة يكون لهـا زوجها وولدها عدوًّا بهذا المعنى بعينه. وعموم قوله «مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما فى كل آية . والله أعلم .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ معناه على أنفسكم. والحذر على النفس يكون بوجهين : إما لضرر فى البدن ، و إما لضرر فى الدِّين . وضرر البدن يتعلق بالدنيا ، وضرر الدين يتعلق بالآخرة . فحذّر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به .

الخامســة — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ روى الطبرى عن عِكرمة فى قوله تعالى : « يأيها الذِين آمنوا إنّ مِن أزواجكم وأولادِكم عَدُوًّا لكم فاحذروهم » قال : كان الرجل يريد أن يأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فيقول له أهله : أين تذهب وتدعنا ؟ قال : فإذا أسلم وفَقُه قال : لأرجعن إلى الذين كانوا ينهوْن عن هـذا الأمر ، فلأفعلن ولأفعلن؛ قال : فأنزل الله عز وجل « وإنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِرُوا فإنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ». وقال مجاهد فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عَدُوًّا لكم فاْحْذَرُوهم » قال : ما عادَوْهم فى الدنيـا ولكن حملتهم مودّتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم . والآية عامة فى كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهـل والولد . وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم .

قوله تعـالى : إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى بلاء واختبار يحملكم على كسب المحرّم ومنع حق الله تعالى؛ فلا تطيعوهم فى معصية الله . وفى الحديث : "يُؤْتَى برجل يوم القيامة

فيقال أكل عِيالُه حسناته". وعن بعض السلف : العيال سُوس الطاعات . وقال القُتَبِيّ : « فتنة » أي إغرام ؛ يقال : فُتِن الرجل بالمرأة أي شُغِف بها . وقيل « فتنة » مِحْنة . ومنه قول الشاعر :

لقد فُتِن الناس في دينهم * وخَلَّى ٱبن عَفّان شرًّا طويلَا

وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم اللّٰهُمّ اعْصِمْني من الفتنة؛ فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ؛ ولكن ليقل : اللّٰهُمّ إنى أعوذ بك من مُضِلّات الفتن . وقال الحسن في قوله تعالى « إنّ مِن أزواجِكم » : أدخل « من » للتبعيض؛ لأن كلهم ليسوا بأعداء . ولم يذكر «مِن» في قوله تعالى : « إنّما أموالُكم وأولادُكم فِتنة » لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما . روى الترمذي وغيره عن عبد الله بن بُرَيْدة عن أبيه قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب ؛ فجاء الحسن والحسين — عليهما السلام — وعليهما قميصان أحمران ، يمشيان و يعثران ؛ فنزل صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال : " صدق الله عز وجل إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان و يعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما" ثم أخذ في خطبته . ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني الجنة؛ فهي الغاية ، ولا أجر أعظم منها في قول المفسرين . وفي الصحيحين — واللفظ للبخاري — عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقول لأهل الجنة يأهل الجنة فيقولون لبّيْكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تُعط أحدا من خلقك فيقول ألَا أعطيكم أفضلَ من ذلك قالوا يارَبّ وأيّ شيء أفضل من ذلك فيقول أحِلّ عليكم رِضْوَاني فلا أسخط عليكم بعده أبدا " . وقد تقدم . ولاشك في أن الرِّضَا غاية الآمال . وأنشد الصوفية في تحقيق ذلك :

امتحن الله به خلقَه * فالنار والجنة في قبضته
فهجره أعظم من نارِه * ووَصْلُه أَطْيَبُ من جنّته

قوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧)

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ»(١) منهم قتادة والربيع بن أنس والسُّدّى وابن زيد . ذكر الطبرى : وحدّثنى يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ » قال : جاء أمر شديد ؛ قالوا : ومَن يعرف قدر هذا أو يبلغه ؟ فلما عرف الله أنه قد اشتدّ ذلك عليهم نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » . وقيل : هى محكمة لا نسخ فيها . وقال ابن عباس قوله تعالى « اتقوا الله حَقّ تقاتِهِ » : إنها لم تنسخ ، ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حَقّ جهاده ، ولا يأخذهم فى الله لَوْمَةُ لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . وقد تقدم(٢) .

الثانيــة — فإن قيل : فإذا كانت هذه الآية محكمة غير منسوخة فما وجه قوله فى سورة التغابن : « فاتقــوا الله ما استطعتم » وكيف يجــوز اجتماع الأمر باتقاء الله حــقّ تُقاته ، والأمر باتقائه ما استطعنا . والأمر باتقائه حقّ تُقاته إيجاب القرآن بغير خصوص ولا وصل بشرط ؛ والأمر باتقائه ما استطعنا أمرٌ باتقائه موصولا بشرط . قيل له : قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » بمعزل مما دلّ عليه قوله تعالى « اتقوا الله حَقّ تُقَاتِهِ » وإنما عنى بقوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » فاتقوا الله أيها النـاس وراقبوه فيما جُعـل فتنة لكم من أموالكم

(١) آية ١٠٢ سورة آل عمران . (٢) راجع ج ٤ ص ١٥٧

وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم ، وتصدّكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام ؛ فتتركوا الهجرة ما استطعتم ؛ بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين . وذلك أن الله جلّ ثناؤه قد كان عذَر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِم — إلى قوله — فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ »(1) . فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيع حيلةً ولا يهتدى سبيلًا بالإقامة فى دار الشرك ؛ فكذلك معنى قوله : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » فى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم . ومما يدل على صحة هذا أن قوله : « فَاتَّقُوا اللَّهَ ما استطعتم » عقيب قوله : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لكم فَاحْذَرُوهُمْ » .

ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك ؛ حسب ما تقدم . وهذا كله اختيار الطبرى . وقيل : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيما تطوّع به من نافلة أو صدقة ؛ فإنه لما نزل قوله تعالى : « اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » اشتدّ على القوم فقاموا حتى وَرِمت عراقيبهم وتقرّحت جباههم ، فأنزل الله تعالى تخفيفا عنهم « فاتقوا الله ما استطعتم » فنسخت الأولى ؛ قاله ابن جُبير . قال الماوردى : ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل أن المكره على المعصية غير مؤاخذ بها ؛ لأنه لا يستطيع اتقاءها .

الثالثة — : قوله تعالى : ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أى اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتُنْهَوْن عنه . وقال مقاتل : « اسمعوا » أى أصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله ؛ وهو الأصل فى السماع . « وأطيعوا » لرسوله فيما أمركم أو نهاكم . وقال قتادة : عليهما بويع النبىّ صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة . وقيل : « واسمعوا » أى اقبلوا ما تسمعون ؛ وعبّر عنه بالسماع لأنه فائدته .

---

(1) آية ٩٧ — ٩٩ سورة النساء .

قلت: وقد تغلغل في هذه الآية الحجاج حين تلاها وقصرها على عبد الملك بن مروان فقال: « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا » هي لعبد الملك بن مروان أمين الله وخليفته، ليس فيها مثنوية، والله لو أمرت رجلا أن يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحلّ لي دمه. وكذب في تأويلها ! بل هي للنبيّ صلى الله عليه وسلم أوّلا ثم لأولي الأمر من بعده. دليله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم »(١).

الرابعة — قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ قيل: هو الزكاة؛ قاله ابن عباس. وقيل: هو النفقة في النفل. وقال الضحاك: هو النفقة في الجهاد. وقال الحسن: هو نفقة الرجل لنفسه. قال ابن العربي: وإنما أوقع قائلَ هذا قولُه: « لِأنفسكم » وخَفِيَ عليه أن نفقة النفل والفرض في الصدقة هي نفقة الرجل على نفسه؛ قال الله تعالى: « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »(٢). وكل ما يفعله الرجل من خير فإنما هو لنفسه. والصحيح أنها عامة. وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل: عندي دينار ؟ قال: "أنفقه على نفسك" قال: عندي آخر؟ قال: "أنفقه على عيالك" قال: عندي آخر؟ قال: "أنفقه على ولدك" قال: عندي آخر ؟ قال: "تصدّق به" فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك. وهو الأصل في الشرع.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ﴾ «خيرا» نصب بفعل مضمر عند سيبويه؛ دلّ عليه «وأنفقوا». كأنه قال: إيتوا في الإنفاق خيرا لأنفسكم، أو قدموا خيرا لأنفسكم من أموالكم. وهو عند الكسائي والفرّاء نعت لمصدر محذوف؛ أي أنفقوا إنفاقا خيرا لأنفسكم. وهو عند أبي عبيدة خبر كان مضمرة؛ أي يكن خيرا لكم. ومن جعل الخير المال فهو منصوب بـ«أنفقوا».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم الكلام فيه(٣). وكذا ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ تقدم الكلام فيه أيضا في « البقرة »(٤) وسورة

(١) آية ٥٩ سورة النساء. (٢) آية ٧ سورة الإسراء. (٣) راجع ص ٢٩ من هذا الجزء.
(٤) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧ وجـ ١٧ ص ٢٤٢

« الحديد » . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ تقدم معنى الشكر فى « البقرة »(١) . والحليم : الذى لا يعجل .

قوله تعالى : عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى ما غاب وحضر . وهو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى الغالب القاهر . فهو من صفات الأفعال ؛ ومنه قوله عز وجل : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »(٢) . أى من الله القاهر المحكم خالق الأشياء . وقال الخطّابى : وقد يكون بمعنى نفاسة القدر ؛ يقال منه : عزّ يعِزّ (بكسر العين) فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شىء وأنه لا مثل له . والله أعلم . ﴿ الحكيم ﴾ فى تدبير خلقه . وقال ابن الأنبارى : « الحكيم » هو المحكم لخلق الأشياء ؛ صُرف عن مُفْعِل إلى فَعِيل ؛ ومنه قوله عز وجل : « الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ »(٣) معناه المُحْكَم ؛ فصُرف عن مُفْعَل إلى فَعِيل . والله أعلم .

سـورة الطـلاق

مدنيّةٌ فى قول الجميع . وهى إحدى عشرة آية ، أو اثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) أول سورة الزمر . راجع جـ ١٥ ص ٢٣٢

(٣) أول سورة يونس . راجع جـ ٨ ص ٣٠٥

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ خوطب بلفظ الجماعة تعظيما وتفخيما . وفى سُنَن ابن ماجه عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طَلّق حَفْصَة رضى الله عنها ثم راجعها . وروى قَتادة عن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة رضى الله عنها فأتت أهلها ؛ فأنزل الله تعالى عليه « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » . وقيل له : راجعها فإنها قَوّامة صَوّامة ، وهى من أزواجك فى الجنة . ذكره الماوَرْدِى والقُشَيْرِى والثّعلبى . زاد القشيرى : ونزل فى خروجها إلى أهلها قوله تعالى : « لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ » . وقال الكَلْبِيّ : سبب نزول هذه الآية غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حفصة ، لمّا أسرّ إليها حديثًا فأظهرته لعائشة فطلّقها تطليقةً ؛ فنزلت الآية . وقال السُّدّىّ : نزلت فى عبد الله بن عمر ، طلّق امرأته حائضًا تطليقةً واحدة فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر ، فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها . فتلك العِدّة التى أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء . وقد قيل : إن رجالا فعلوا مثل ما فعل عبد الله بن عمر ؛ منهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وعُتْبة بن غَزْوان ؛ فنزلت الآية فيهم . قال ابن العربى : وهذا كله وإن لم يكن صحيحًا فالقول الأوّل أمثل . والأصح فيه أنه بيان لشرع مبتدأ . وقد قيل : إنه خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أُمّتُه . وغاير بين اللفظين من حاضر وغائب وذلك لغة فصيحة ؛ كما قال : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ »(١) . تقديره : يأيها النبيّ قل لهم إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدّتهن . وهذا هو قولهم : إن الخطاب له وحده والمعنى له وللؤمنين . وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله : « يأَيُّهَا النَّبِيُّ » . فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعا له قال : « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ » .

(١) آية ٢٢ سورة يونس .

قلت : ويدل على صحة هذا القول نزول العِدّة فى أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية . ففى كتاب أبى داود عنها أنها طُلّقت على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولم يكن للطلقة عِدّة، فأنزل الله تعالى حين طُلّقت أسماء بالعدّة للطلاق، فكانت أوّل من أنزل فيها العدّة للطلاق . وقيل : المراد به نداء النبيّ صلى الله عليه وسلم تعظيما، ثم ابتدأ فقال : « إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » ؛ كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ » (١) الآية . فذكر المؤمنين على معنى تقديمهم وتكريمهم؛ ثم افتتح فقال «إنما الخمرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلَامُ» الآيـــة .

الثانيـــة ـــ روى الثّعلبيّ من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق" . وعن عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "تزوّجوا ولا تطلّقوا فإن الطلاق يهتزّ منه العرش" . وعن أبى موسى قال قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : "لا تطلّقوا النساء إلا من رِيبــة فإن الله عز وجل لا يحب الذوّاقين ولا الذوّاقات" . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما حَلَف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق" . أسند جميعه الثعلبيّ رحمه الله فى كتابه . وروى الدارقطنيّ قال : حدّثنا أبو العباس محمد بن موسى بن على الدُّولابى ويعقوب بن إبراهيم قالا حدّثنا الحسن بن عرفة قال حدّثنا إسماعيل بن عيّاش عن حُميد بن مالك اللّخميّ عن مَكْحول عن معاذ بن جبل قال قال لى رســول الله صلى الله عليه وســلم : "يا معاذ ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحبّ إليه من العِتاق ولا خلق الله شيئا [على وجه الأرض] (٢) أبغض من الطلاق . فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حرّ إن شــاء الله فهو حرّ ولا استثناء له . وإذا قال الرجل لامرأته أنت طالق [إن شاء الله] (٢) فله استثناؤه ولا طلاق عليه" . حدّثنا محمد بن موسى بن على قال حدّثنا حميد بن الربيع قال حدّثنا يزيد بن هارون حدّثنا إسماعيل بن عيّاش بإسناده نحوه . قال حميد : قال لى يزيد بن هارون : وأيّ حديث لو كان حميد بن مالك معروفا ؟ قلت :

---

(١) آية ٩٠ سورة المائدة . (٢) زيادة عن سنن الدارقطنى .

هو جدّى ، قال يزيد : سَرَرْتَنِي سَرَرْتَنِي ! الآن صار حديثا . حدّثنا عثمان بن أحمد الدّقاق قال حدّثنا إسحاق بن إبراهيم بن سُنَين حدّثنا عمر بن إبراهيم بن خالد حدّثنا حميد بن مالك اللخمىّ حدّثنا مَكْحُول عن مالك بن يَخامِر عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أحلّ الله شيئا أبغض اليه من الطلاق فمن طلّق واستثنى فله ثنياه" .

قال ابن المنذر : اختلفوا فى الاستثناء فى الطلاق والعِتْق؛ فقالت طائفة : ذلك جائز . وروينا هذا القول عن طاوس . وبه قال حماد الكوفى والشافعى وأبو ثَوْر وأصحاب الرأى . ولا يجوز الاستثناء فى الطلاق فى قول مالك والأوزاعى . وهذا قول قتادة فى الطلاق خاصة . قال ابن المنذر : وبالقول الأوّل أقول .

الثالثة — روى الدّارَقُطْني من حديث عبد الرّزاق أخبرني عَمّى وهب بن نافع قال : سمعت عكرمة يحدّث عن ابن عباس يقول : الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ووجهان حرامان؛ فأما الحلال فأن يطلقها طاهرا عن غير جماع وأن يطلّقها حاملا مُستبينًا حَمْلُها . وأما الحرام فأن يطلقها وهى حائض ، أو يطلقها حين يجامعها ، لا تدرى اشتمل الرحم على وَلَدٍ أم لا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فى كتاب أبى داود عن أسماء بنت يزيد ابن السَّكَن الأنصارية أنها طُلقت على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن للمطلقة عدّة ، فأنزل الله سبحانه حين طلقت أسماء بالعدّة للطلاق ؛ فكانت أوّل من أنزل فيها العدّة للطلاق . وقد تقدّم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يقتضى أنهن اللاتى دخلن بهن من الأزواج؛ لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا نَكَحْتُمُ المُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهن فمالَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا »(١) .

السادسة — من طَلّق فى طُهْر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السُّنّة . وإن طلقها حائضا نفذ طلاقه وأخطأ السُّنة . وقال سعيد بن المسيّب فى آخرين(٢) لا يقع الطلاق فى الحيض

(١) آية ٤٩ سورة الأحزاب . (٢) فى بعض الأصول : « فى أخرى » وكلتاهما غير واضحة .

لأنه خلاف السنة . و إليه ذهبت الشّيعة . و في الصحيحين — واللفظ للدارَقُطْني — عن عبد الله بن عمر قال : طلقت امرأتي وهي حائض؛ فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتغيّظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ليراجعها ثم يمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلّقها فيها فإن بدَا له أن يطلّقها فليطلقها طاهرًا من حيضتها قبل أن يَمَسّها فذلك الطلاق للعِدّة كما أمر الله". وكان عبد الله بن عمر طلّقها تطليقة، فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رســول الله صلى الله عليه وسلم . في رواية عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : "هي واحدة" . وهذا نصّ . وهو يردّ على الشّيعة قولهم .

السابعــــة — عن عبد الله بن مسعود قال : طلاق السُّنّة أن يطلقها في كل طهر تطليقة؛ فإذا كان آخر ذلك فتلك العِدّة التي أمر الله تعالى بها . رواه الدّارَقُطْني عن الأعْمَش عن أبي إسحاق عن أبي الأحْوص عن عبد الله . قال علماؤنا : طلاق الســنة ما جمع شروطا سبعة : وهو أن يطلقهــا واحدة ، وهي ممن تحيض، طاهرا، لم يَمَسّها في ذلك الطهر، ولا تقــدّمه طلاق في حيض ، ولا تبعه طلاق في طُهْر يتــلوه، وخلا عن العوض. وهذه الشروط السبعة من حديث ابن عمر المتقدّم . وقال الشافعي : طلاق السنة أن يطلقها في كل طُهْر خاصة، ولو طلقها ثلاثا في طُهْر لم يكن بِدْعة . وقال أبو حنيفة : طلاق السنة أن يطلقهــا في كلّ طهر طلقة. وقال الشَّعْبيّ : يجوز أن يطلقها في طهر جامعها فيه. فعلماؤنا قالوا : يطلقها واحدة في طُهْر لم يَمَسّ فيه ، ولا تبعه طلاق في عدّة ، ولا يكون الطُّهر تاليا لحيض وقع فيه الطلاق ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "مُرْه فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق. فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء". وتعلّق الإمام الشافعي بظاهر قوله تعالى : « فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » وهذا عام في كل طلاق كان واحدة أو اثنتين أو أكثر . وإنما راعى الله سبحانه الزمان في هذه الآية ولم يعتبر العدد . وكذلك حديث ابن عمر لأن النبي صلى الله عليــه وسلم علّمه الوقت لا العدد . قال ابن العربيّ : « وهــذه غفلة عن الحديث

الصحيح؛ فإنه قال : "مُرْهُ فليراجعها" وهذا يدفع الثلاث . وفي الحديث أنه قال : أرأيت لو طلقها ثلاثا ؟ قال حَرُمت عليك و بانت منك بمعصية . وقال أبو حنيفة : ظاهر الآية يدل على أن الطلاق الثلاث والواحدة سواء . وهو مذهب الشافعي لولا قوله بعد ذلك : «لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» . وهذا يبطل دخول الثلاث تحت الآية . وكذلك قال أكثر العلماء؛ وهو بديع لهم . وأما مالك فلم يَخْفَ عليه إطلاق الآية كما قالوا، ولكن الحديث فسرها كما قلنا . وأما قول الشعبيّ : إنه يجوز طلاق في طُهر جامعها فيه، فيرده حديث ابن عمر بنصه ومعناه . أمّا نَصّه فقد قدمناه، وأمّا معناه فلأنه إذا منع من طلاق الحائض لعدم الاعتداد به، فالطهر المجامع فيه أَوْلى بالمنع؛ لأنه يسقط الاعتداد به مخافة شَغل الرَّحم و بالحيض التالي له .

قلت : وقد احتج الشافعيّ في طلاق الثلاث بكلمة واحدة بما رواه الدّارَقُطْنِي عن سلمة ابن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أنَ عبد الرحمن بن عَوف طلق آمرأته تُماضر بنت الأصبغ الكلبية وهي أمّ أبي سلمة ثلاث تطليقات في كلمة واحدة؛ فلم يبلغنا أن أحدا من أصحابه عاب ذلك . قال : وحدّثنا سَلمة بن أبي سلمة عن أبيه أن حفص بن المُغِيرة طلق امرأته فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث تطليقات في كلمة؛ فأبانها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يبلغنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عاب ذلك عليه . واحتج أيضا بحديث عُوَيْمِر العَجْلانِيّ لما لاعن قال : يا رسول الله، هي طالق ثلاثا . فلم ينكر عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقد انفصل علماؤنا عن هذا أحسن انفصال . بيانه في غير هذا الموضع . وقد ذكرناه في كتاب (المقتبس من شرح مُوَطّأ مالك بن أنس) . وعن سعيد بن المسيّب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلاث لم يقع؛ وشبّهوه بمن وكّل بطلاق السنة فخالف .

الثامنة — قال الجُرْجَانِيّ : اللام في قوله تعالى «لِعِدَّتِهِنَّ» بمعنى في؛ كقوله تعالى : «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ»(1) .

(1) آية ٢ سورة الحشر .

أى فى أوّل الحشر. فقوله : « لِعِدَّتِهِنَّ » أى فى عدتهن؛ أى فى الزمان الذى يصلح لعدّتهن. وحصــل الإجماع على أن الطلاق فى الحيض ممنوع وفى الطُّهر مأذون فيــه . ففيه دليل على أن القُرْء هو الطُّهر . وقد مضى القول فيــه فى « البقرة »(١) . فإن قيــل : معنى « فطلقوهنّ لِعدّتِهِنّ » أى فى قُبُل عدتهن ، أو لِقُبُل عدّتهن(٢) . وهى قراءة النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال ابن عمر فى صحيح مسلم وغيره . فقُبُل العِـدّة آخرُ الطُّهر حتى يكون القُرْء الحيض(٣) ، قيل له : هـذا هو الدليل الواضح لمـالك ومن قال بقوله؛ على أنــ الأقراء هى الأطهار . ولو كان كما قال الحنفى ومن تبعه لوجب أن يقال : إن من طلق فى أوّل الطُّهر لا يكون مطلِّقا لقُبُل الحيض؛ لأن الحيض لم يُقبِل بعد . وأيضا إقبال الحيض يكون بدخول الحيض، وبانقضاء الطهر لا يتحقق إقبال الحيض . ولو كان إقبال الشىء إدبار ضــدّه لكان الصائم مفطرا قبل مغيب الشمس ؛ إذ الليــل يكون مقبلا فى إدبار النهار قبــل انقضاء النهــار . ثم إذا طلق فى آخر الطهر فبقية الطُّهر قُرْء ، ولأن بعض القُرْء يسمى قُرْءًا لقوله تعــالى : « الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ » يعنى شوّالا وذا القعدة وبعض ذى الحجة ؛ لقوله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » وهو يَنْفِر فى بعض اليوم الثانى . وقد مضى هذا كله فى « البقرة » مستوفًى(٤) .

التاســعة — قوله تعــالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ يعنى فى المدخول بها ؛ لأنــ غير المدخول بهـا لا عدّة عليها ، وله أن يراجعها فيما دون الثلاث قبــل انقضاء العدّة ، ويكون بعدها كأحد الخُطّاب . ولا تحلّ له فى الثلاث إلا بعد زوج .

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ معناه احفظوها ؛ أى احفظوا الوقت الذى وقع فيــه الطلاق ، حتى إذا انفصل المشروط منه وهو الثلاثة قروء فى قوله تعــالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ »(٥) حلّت للأزواج . وهذا يدل على أن العدّة هى الأطهار وليست بالحيض . ويؤكّده ويفسّره قراءة النبىّ صلى الله عليه وسلم « لِقُبُل عِدّتهن » وقُبُل الشىء بعضُه لغةً وحقيقةً ، بخلاف استقباله فإنه يكون غيره .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١١٣ (٢) أى فى إقباله وأوّله حين يمكنها الدخول فى العدة والشروع فيها فتكون لها محسوبة ؛ وذلك فى حالة الطهر . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « الطهر » . (٤) راجع جـ ٣ ص ١ (٥) آية ٢٢٨ سورة البقرة .

الحادية عشرة — مَن المخاطَب بأمر الاحصاء ؟ وفيه ثلاثة أقوال : أحدها — أنهم الأزواج . الثانى — أنهم الزوجات . الثالث — أنهم المسلمون . ابن العربيّ : «والصحيح أن المخاطَب بهذا اللفظ الأزواج ؛ لأن الضمائر كلها من « طَلّقتم » و « أحْصُوا » و « لا تُخْرِجُوهُنّ » على نظام واحد يرجع إلى الأزواج ، ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق بالزوج ؛ لأن الزوج يُحْصِى ليراجع ، و يُنفق أو يقطع ، وليُسكن أو يُخْرج ، وليُلْحق نَسَبه أو يقطع . وهذه كلّها أمور مشتركة بينه و بين المرأة ، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك . وكذلك الحاكم يفتقر إلى الإحصاء للعدّة للفتوى عليها ، وفصل الخصومة عند المنازعة فيها . وهذه فوائد الإحصاء المأمور به » .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أى لا تَعصوه . ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ ﴾ أى ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت فى العدّة ، ولا يجوز لها الخروج أيضا لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة ، فإن خرجت أثمت ولا تنقطع العدّة . والرجعية والمَبْتوتة فى هذا سواء . وهذا لصيانة ماء الرجل . وهذا معنى إضافة البيوت إليهن ؛ كقوله تعالى : « وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْـلَى فِى بُيُوتِكُنّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ والْحِكْمَةِ »(١) ، وقوله تعالى : « وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنّ » فهو إضافة إسكان وليس إضافة تمليك . وقوله : « لَا تُخْرِجُوهُنّ » يقتضى أن يكون حقًّا على الأزواج . ويقتضى قوله : « وَلَا يَخْرُجْنَ » أنه حق على الزوجات . وفى صحيح الحديث عن جابر بن عبد الله قال : طُلِّقت خالتى فأرادت أن تَجُدّ(٢) نخلها فزجرها رجل أن تخرج ، فأتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " بلى فجُدِّى نخلك فإنّك عسى أن تَصَدّقى أو تفعلى معروفًا " . خرّجه مسلم . ففى هذا الحديث دليل لمالك والشافعيّ وابن حَنْبل واللّيْث على قولهم : إن المعتدّة تخرج بالنهار فى حوائجها ، وإنما تلزم منزلها بالليل . وسواء عند مالك كانت رجعيةّ أو بائنة . وقال الشافعيّ فى الرجعية : لا تخرج ليلا ولا نهارا ، وإنما تخرج نهارا المَبْتُوتَةُ . وقال أبو حنيفة : ذلك فى المُتَوَفَّى عنها زوجها ، وأما المطلّقة

(١) آية ٣٤ سورة الأحزاب . (٢) الجداد (بفتح الجيم وكسرها) : صرام النخل ، وهو قطع ثمرها .

فلا تخرج لا ليلا ولا نهارا . والحديث يردّ عليه . وفى الصحيحين أن أبا حفص[1] بن عمرو خرج مع عليّ بن أبي طالب إلى اليمن ، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها ، وأمر لهـا الحارثَ بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعـة بنفقةٍ ؛ فقالا لها : والله مالكِ من نفقـة إلا أن تكوني حاملا . فأتت النبيّ صلى الله عليـه وسلم فذكرت له قولهما . فقال : "لا نفقة لكِ" ، فآستأذنته في الانتقال فأذن لهـا ؛ فقالت : أين يارسول الله ؟ فقال : "إلى ابن أمّ مَكْتُوم" ، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يراها . فلما مضت عدّتها أنكحها النبيّ صـلى الله عليه وسـلم أسامة بن زيد . فأرسل إليها مَرْوانُ قَبِيصةَ بن ذُؤَيْب يسألها عن الحديث، فحدّثته . فقال مَرْوان : لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة ، سنأخذ بالعِصْمة التي وجدنا الناس عليهـا . فقالت فاطمـة حين بلغهـا قولُ مَرْوان : فبيني وبينكم القرآن ، قال الله عز وجل : « لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِن » الآية ، قالت : هذا لمن كانت له رجعة ؛ فأيّ أمرٍ يَحْدُث بعد الثلاث؟ فكيف تقولون : لا نفقة لها إذا لم تكن حاملا ، فعلام تحبسونها ؟ لفظ مسلم . فبين أن الآية في تحريم الإخراج والخروج إنما هو في الرجعية . وكذلك استدلت فاطمة بأن الآية التي تليها إنما تضمّنت النّهى عن خروج المطلقة الرجعية ؛ لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأى في ٱرتجاعها ما دامت في عدّتهـا ؛ فكأنها تحت تصرف الزوج في كل وقت . وأما البـائن فليس له شيء من ذلك ؛ فيجوز لهـا أن تخرج إذا دعتها إلى ذلك حاجة ، أو خافت عورة منزلها ؛ كما أباح لهـا النبيّ صـلى الله عليه وسـلم ذلك . وفى مسلم — قالت فاطمة : يارسول الله، زَوْجى طلّقنى ثلاثا وأخاف أن يُقتحم عليّ. قال : فأمرها فتحولت . وفى البخاريّ عن عائشة أنها كانت في مكان وَحْش نخيف على ناحيتها ؛ فلذلك أرخص النبيّ صلى الله عليه وسلم لهـا . وهذا كله يردّ على الكوفى قوله . وفى حديث فاطمة : أن زوجها أرسـل اليها بتطليقة كانت بقيت من طلاقها؛ فهو حجة لمـالك وحجة على الشافعى . وهو أصح من حديث سـلمة بن أبي سـلمة عن أبيـه أن حفص بن المغيرة طلق امرأته ثلاث تطليقات في كلمة ؛ على ما تقدّم .

(١) ويقال فيه : « أبو عمرو بن حفص » . راجع كتاب الاصابة جـ ٧ ص ٤٤ ، ١٣٦ (طبع الشرفية) .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ قال ابن عباس وابن عمر والحسن والشَّعْبي ومُجاهِد : هو الزِّنى ؛ فتخرج ويُقام عليها الحدّ . وعن ابن عباس أيضا والشافعي أنه البَذاء على أحمائها ؛ فيَحِلّ لهم إخراجها . وروى عن سعيد بن المسيِّب أنه قال في فاطمة : تلك امرأة استطالت على أحمائها بلسانها فأمرها عليه السلام أن تنتقل . وفي كتاب أبي داود قال سعيد : تلك امرأة فتنت الناس (١) ، إنها كانت لَسِنة فوُضِعَتْ على يدى ابن أم مكتوم الأعمى . قال عكرمة : في مصحف أُبَيّ « إلا أن يَفْحُشْنَ عليكم » . ويقوّى هذا أن محمد بن إبراهيم بن الحارث روى أن عائشة قالت لفاطمة بنت قيس : اتّقِي الله فإنك تعلمين لِمَ أُخْرِجْتِ؟ وعن ابن عباس أيضا : الفاحشة كل معصية كالزنى والسرقة والبَذاء على الأهل . وهو اختيار الطبرى . وعن ابن عمر أيضا والسُّدِّى : الفاحشة خروجها من بيتها في العدّة . وتقدير الآية : إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة بخروجهن من بيوتهن بغير حق ؛ أى لو خرجت كانت عاصية . وقال قتادة : الفاحشة النُّشُوز ، وذلك أن يطلقها على النشوز فتتحوّل عن بيته . قال ابن العربي : أما من قال إنه الخروج للزنى ؛ فلا وجه له ؛ لأن ذلك الخروج هو خروج القتل والإعدام ، وليس ذلك بمستثنًى في حلال ولا حرام . وأما من قال : إنه البَذاء ؛ فهو مفسر في حديث فاطمة بنت قيس . وأما من قال : إنه كل معصية ؛ فوهم لأن الغيبة ونحوها من المعاصى لا تبيح الإخراج ولا الخروج . وأما من قال : إنه الخروج بغير حق ؛ فهو صحيح . وتقدير الكلام : لا تُخرجوهن من بيوتهن ولا يَخرجن شرعًا إلا أن يخرجن تعدِّيًا .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى هذه الأحكام التى بيّنها أحكامُ الله على العباد ، وقد منع التجاوز عنها ، فمن تجاوز فقد ظلم نفسه وأوردها مَوْرد الهلاك . ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ الأمر الذى يحدثه الله أن يقلّب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عَزيمة الطلاق إلى الندم عليه ؛ فيراجعها . وقال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة . ومعنى القول : التحريض على

(١) قوله « فتنت الناس » يريد أنها فتنت الناس بذكرها حديثها أن النبيّ عليه السلام أمرها أن تنتقل من بيت مطلقها على وجه يوقع الناس في الخطأ . وقوله « لسنة » بكسر السين : أى كانت تأخذ الناس وتجرحهم بلسانها . وقوله « فوضعت » أى أخرجت من بيت زوجها وجعلت كالوديعة عند ابن أم مكتوم .

طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث ؛ فإنه إذا طلق ثلاثا أضرّ بنفسه عند النـدم على الفراق والرغبة فى الارتجاع ، فلا يجد عند الرجعة سبيلا . وقال مُقاتل : « بعد ذلك » أى بعد طلقة أو طلقتين « أمرًا » أى المراجعة من غير خلاف .

قوله تعـالى : فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أى قاربن انقضاء العدّة ؛ كقوله تعالى : « وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ »(١) أى قربن من انقضاء الأجل . ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعنى المراجعة بالمعروف ؛ أى بالرغبة من غير قصد المضارّة فى الرجعة تطويلا لعدّتها . كما تقدم فى «البقرة»(٢) . ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى اتركوهنّ حتى تنقضى عدّتهنّ فيملكن أنفسهنّ . وفى قوله تعالى : «فإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» ما يوجب أن يكون القول قول المرأة فى انقضاء العدّة إذا ادّعت ذلك ؛ على ما بيّناه فى سورة «البقرة» عند قوله تعالى : «وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ »(٣) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ﴾(٤) أمر بالإشهاد على الطلاق . وقيل : على الرجعة . والظاهر رجوعه إلى الرجعة لا إلى الطلاق . فإن راجع من غير إشهاد ففى صحة الرجعة قولان للفقهاء . وقيل : المعنى وأشهدوا عند الرجعة والفُرْقة جميعا . وهذا الإشهاد مندوب اليه عند

(١) آية ٢٣١ سورة البقرة . (٢) راجع جـ ٣ ص ١٥٥ فما بعدها .

(٣) راجع جـ ٣ ص ١١٢ فما بعدها . (٤) فى بعض نسخ الأصل : «أمر بإملاء الاشهاد ... » .

أبى حنيفة ؛ كقوله تعالى : « وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ »[1] . وعند الشافعى واجب فى الرجعة ، مندوب إليه فى الفُرْقة . وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد ، وألاّ يُتّهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدّعى الباقى ثبوت الزوجية لِيَرِث .

الثانيــة — الإشهاد عند أكثر العلماء على الرَّجْعة نَدْب . وإذا جامع أو قَبّل أو باشر يريد بذلك الرجعــة ، وتكلّم بالرجعة يريد به الرجعة فهو مراجع عنــد مالك ، وإن لم يرد بذلك الرجعة فليس بمراجع . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا قَبّل أو باشر أو لامس بشهوة فهو رجعة . وقالوا : والنظر إلى الفَرْج رجعة . وقال الشافعى وأبو ثَوْر : إذا تكلّم بالرجعة فهو رجعة . وقد قيل : وَطْؤُه مراجعة على كل حال، نواها أو لم ينوها . وروى ذلك عن طائفــة من أصحاب مالك . وإليــه ذهب اللّيث . وكان مالك يقول : إذا وَطِئ ولم ينــو الرجعة فهو وَطْءٌ فاسد ؛ ولا يعود لوطئها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ، وله الرجعة فى بقية العِدّة الأولى ، وليس له رجعة فى هذا الاستبراء .

الثالثــة — أوجب الإشهاد فى الرجعة أحمد بن حَنْبل فى أحد قوليه، والشافعى كذلك لظاهر الأمر . وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعى فى القول الآخر : إن الرجعة لاتفتقر إلى القبول، فلم تفتقر إلى الإشهــاد كسائر الحقــوق ؛ وخصوصا حلّ الظِّهار بالكفارة . قال ابن العربى : وركّب أصحاب الشافعى على وجوب الإشهاد فى الرجعة أنه لا يصــح أن يقــول : كنت راجعت أمس وأنا أشهــد اليوم على الإقرار بالرجعة ، ومن شرط الرجعــة الإشهاد فلا تصح دونه . وهذا فاسد مبنىّ على أن الإشهاد فى الرجعة تَعَبُّدٌ . ونحن لا نسـلّم فيها ولا فى النكاح بأن نقول : إنه موضع للتوثّق ؛ وذلك موجود فى الإقرار كما هو موجود فى الإنشاء .

الرابعــة — من ادّعى بعد انقضاء العدة أنه راجع امرأته فى العدّة ، فإن صدّقته جاز وإن أنكرتْ حلفت ، فإن أقام بينة أنه ارتجعها فى العدّة ولم تعلم بذلك لم يضره جهلها بذلك،

(١) آية ٢٨٢ سورة البقرة .

وكانت زوجته . وإن كانت قد تزوجت ولم يدخل بها ثم أقام الأول البينة على رجعتها فعن مالك فى ذلك روايتان : إحداهما — أن الأول أحق بهـا . والأخرى — أن الثانى أحق بها . فإن كان الثانى قد دخل بها فلا سبيل للأول إليها .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ ذَوَىْ عَدْلٍ مِنكُمْ ﴾ قال الحسن : من المسلمين . وعن قتادة : من أحراركم . وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الإناث ؛ لأنّ « ذَوَىْ » مذكّر . ولذلك قال علماؤنا : لا مدخل للنساء فيما عدا الأموال . وقد مضى ذلك فى سورة « البقرة »(١) .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أى تقرّباً إلى الله فى إقامة الشهادة على وجهها ، إذا مسّت الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير . وقد مضى فى سورة « البقرة » معناه عند قوله تعالى : « وأَقْوَمُ لِلشهادةِ »(٢) .

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ ﴾ أى يرضى به . ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فأما غير المؤمن فلا ينتفع بهذه المواعظ .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ عن النبيّ صلى الله عليـه وسـلم أنه سئل عمن طلّق ثلاثا أو ألفًا هل له من مخرج؟ فتلاها . وقال ابن عباس والشّعْبيّ والضحاك : هـذا فى الطلاق خاصة ؛ أى من طلق كما أمره الله يكن له مخرج فى الرجعة فى العِدّة ، وأن يكون كأحد الخُطّاب بعـد العِدّة . وعن ابن عباس أيضا « يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » ينجيه من كل كَرْب فى الدنيا والآخرة . وقيل : المخرج هو أن يُقنعه الله بما رزقه؛ قاله علىّ بن صالح . وقال الكلبى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ » بالصبر عند المصيبة . « يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » من النار إلى الجنة . وقال الحسن : مخرجا مما نهى الله عنه . وقال أبو العاليـة : مخرجًا من كل شدّة . الربيـع ابن خُثَيْم : « يجعـل له مخرجا » من كل شىء ضـاق على الناس . الحسين بن الفضـل : « ومن يتقِ الله » فى أداء الفرائض، « يجعل له مخرجا » من العقوبة . ﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ الثواب

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٩٤　　(٢) راجع جـ ٣ ص ٤٠١

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أى يبارك له فيما آتاه . وقال سهل بن عبد الله : «ومن يتق الله» فى اتّباع السُّنة «يجعل له مخرجا» من عقوبة أهل البِدَع ، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب . وقيل : «ومن يتق الله» فى الرزق بقطع العلائق يجعل له مخرجا بالكفاية . وقال عمر بن عثمان الصّدفى : «ومن يتق الله» فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال ، ومن الضِّيق إلى السَّعة ، ومن النار إلى الجنة . «ويرزقه من حيث لا يحتسب» من حيث لا يرجو . وقال ابن عُيينة : هو البركة فى الرزق . وقال أبو سعيد الخُدْرِىّ : ومن يبرأ من حَوْله وقُوّته بالرجوع إلى الله يجعل له مخرجا مما كلّفه بالمعونة له . وتأوّل ابن مسعود ومسروق الآية على العموم . وقال أبو ذرّ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم — ثم تلا — «وَمَن يَتَّقِ اللهَ يجعلْ له مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»" . فما زال يكررها ويعيدها . وقال ابن عباس : قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم «ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا . ويرزقه مِن حيث لا يحتسِب» قال : "مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة" . وقال أكثر المفسرين فيما ذكر الثعلبى : أنها نزلت فى عوف بن مالك الأشْجَعِىّ . روى الكَلْبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن ابنى أَسَرَه العدوّ وجَزِعت الأمّ . وعن جابر بن عبد الله : نزلت فى عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ٱبنًا له يُسَمَّى سالما ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الفاقة وقال : إن العدوّ أسر ٱبنى وجَزِعت الأمّ ، فما تأمرنى ؟ فقال عليه السلام : "ٱتّقِ الله وٱصبر وآمُرك وإيّاها أن تستكثرا من قول لا حَوْلَ ولا قُوّة إلا بالله" . فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى وإيّاكِ أن نستكثر من قول لا حَوْلَ ولا قُوّة إلا بالله . فقالت : نِعْمَ ما أمرنا به . فجعلا يقولان ؛ فغفَل العَدُوّ عن ٱبنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه ؛ وهى أربعة آلاف شاة . فنزلت الآية ، وجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم تلك الأغنام له . فى رواية : أنه جاء وقد أصاب إبلًا من العدوّ وكان فقيرا . قال

الكلبي : أصاب خمسين بعيرا . وفي رواية : فأفلت ٱبنه من الأسْر وركب ناقة للقوم ، ومرّ في طريقه بسَرْح لهم فٱستاقه . وقال مقاتل : أصـاب غَنَماً ومتاعاً فسأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم : أيحلّ لي أن آكل مما أتى به ٱبني ؟ قال : "نعم" . ونزلت « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجعلْ له مخرجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » . فروى الحسن عن عِمْران بن الحُصَيْن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من انقطع إلى الله كفاه الله كلّ مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وَكَله الله إليها" . وقال الزجاج : أي إذا ٱتّقى وآثر الحلال والتصبر على أهله ، فتح الله عليه إن كان ذا ضيقة ورزقه من حيث لا يحتسب . وعن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَـوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْـبُهُ ﴾ أي من فوّض إليه أمره كفاه ما أهمّه . وقيل : أي من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكّل عليه ، فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية . ولم يرد الدنيا ؛ لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يُقتَل . ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِـغُ أَمْرِهِ ﴾ قال مسروق : أي قاضٍ[(1)] أمْرَه فيمن توكّل عليه وفيمن لم يتوكل عليه ؛ إلا أن مَن توكّل عليه فيكفّر عنه سيئاته ويُعْظِم له أجرا . وقراءة العامة « بالِغٌ » منوّناً . « أَمْرَه » نصباً . وقرأ عاصم « بالِـغُ أَمْرِهِ » بالإضافة وحذف التنوين استخفافا . وقرأ المفضّل « بالِغاً أمْرَه » على أن قوله : « قـد جعل الله » خبر « إنّ » و « بالغاً » حال . وقرأ داود بن أبي هند « بالِـغٌ أمْرُه » بالتنوين ورفع الراء . قال الفرّاء : أي أمره بالغ . وقيل : « أمره » مرتفع بـ«بالغ » والمفعول محذوف ؛ والتقدير : بالغ أمره ما أراد . ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ أي لكل شيء من الشدّة والرخاء أجلاً ينتهي إليه . وقيل تقديرا . وقال السُّدّي : هو قـدر الحيض في الأجل والعِدّة . وقال عبد الله بن رافـع : لما نزل قوله تعالى : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » قال أصحاب النبيّ صـلى الله عليه وسـلم : فنحن إذا توكلنا عليه نرسـل ما كان لنا ولا نحفظه ؛ فنزلت « إن الله بالِـغُ أَمْرِهِ »

(1) في الأصول : « يعني قاض » .

فيكم وعليكم . وقال الربيع بن خُثَيْم : إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكّل عليه كفاه، ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وَثِق به نجّاه، ومن دعاه أجاب له . وتصديق ذلك في كتاب الله « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(١) . « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على الله فهو حَسْبُهُ »(٢) . « إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ »(٣) . « ومَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ الى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٤) . « وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ »(٥) .

قوله تعالى : وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ واللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ لما بيّن أمر الطلاق والرّجعة في التي تحيض، وكانوا قد عرفوا عِدّة ذوات الأقراء، عرّفهم في هذه السورة عدّة التي لا ترى الدم . وقال أبو عثمان عمر بن سالم : لما نزلت عدّة النساء في سورة « البقرة » في المطلقة والمُتَوفَّى عنها زوجها قال أُبَيّ بن كعب : يا رسول الله ، إن ناسا يقولون قد بقي من النساء من لم يُذكر فيهن شيء : الصغار والكبار وذوات الحمل ؛ فنزلت « واللائى يَئِسْنَ » الآية . وقال مقاتل : لما ذكر قوله تعالى : « والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ »(٦) قال خَلّاد بن النعمان : يارسول الله ، فما عِدّة التي لم تحِض، وعِدّة التي انقطع حَيْضُها، وعدّة

(١) آية ١١ سورة التغابن . (٢) آية ٣ سورة الطلاق . (٣) آية ١٧ سورة التغابن .
(٤) آية ١٠١ سورة آل عمران . (٥) آية ١٨٦ سورة البقرة . (٦) آية ٢٢٨ سورة البقرة .

الحُبْلى؟ فنزلت «وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ» يعني قعدن عن المحيض. وقيـل: إن معاذ بن جبل سأل عن عدّة الكبيرة التي يئست؛ فنزلت الآية. والله أعلم. وقال مجاهد: الآية واردة في المستحاضة لا تدري دَمَ حَيْض هو أو دم عِلة.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم وقيل: تيقّنتم. وهو من الأضداد؛ يكون شكًّا ويقينًا كالظن. واختيار الطبري أن يكون المعنى: إن شككتم فـلم تدروا ما الحكم فيهنّ. وقال الزجاج: إن ارتبتم في حيضها وقد ٱنقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلها. القشيري: وفي هذا نظر؛ لأنا إذا شككنا هل بلغت سِنّ اليأس لم نقـل عدتها ثلاثة أشهر. والمعتبر في سن اليأس في قولٍ أقصى عادة ٱمرأة في العالم، وفي قولٍ غالب نساء عشيرة المرأة. وقال مجاهد: قوله «إِنِ ٱرْتَبْتُمْ» للخاطبين؛ يعني إن لم تعلموا كم عدّة اليائسة والتي لم تحض فالعدّة هذه. وقيـل: المعنى إن ٱرتبتم أن الدم الذي يظهر منها من أجل كِبَر أو من الحيض المعهـود أو من الاستحاضة فالعـدة ثلاثة أشهر. وقال عكرمة وقتادة: من الرِّيبة المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض؛ تحيض في أوّل الشهر مرارًا وفي الأشهر مرة. وقيل: إنه متصل بأول السورة. والمعنى: لا تخرجوهن من بيوتهن إن ٱرتبتم في ٱنقضاء العـدّة. وهو أصح ما قيل فيه.

الثالثـــة — المرتابة في عدّتها لا تنكح حتى تستبرئ نفسها من رِيبتها، ولا تخرج من العدة إلا بارتفاع الريبة. وقد قيل في المرتابة التي ترفعها حيضتها وهي لا تدري ما ترفعها: إنها تنتظر سنة من يوم طلقها زوجها؛ منها تسعة أشهر استبراء، وثلاثة عدّة. فإن طلقها فحاضت حيضة أو حيضتين ثم ارتفع عنها بغير يأس منها انتظرت تسعة أشهر، ثم ثلاثة من يوم طهرت من حيضتها ثم حَلّت للأزواج. وهذا قاله الشافعي بالعراق. فعلى قياس هذا القول تقيم الحُرّة المُتَوفَّى عنها زوجها المستبرأة بعد التسعة أشهر أربعة أشهر وعشرًا، والأَمَةُ شهرين وخمسَ ليال بعد التسعة الأشهر. وروى عن الشافعي أيضا أن أقراءها على ما كانت حتى تبلغ سن اليائسات. وهو قول النَّخَعيّ والثّوري وغيرهما، وحكاه أبو عبيد عن أهل العراق. فإن كانت المرأة شابّة وهي:

المسألة الرابعــة ــ اسْتُؤْنِيَ بها هل هي حامل أم لا؛ فان استبان حملها فإنّ أَجَلَها وَضْعُه. وإن لم يَسْتَبِن فقال مالك : عِدّة التي ارتفع حيضها وهي شابّة سَنَةٌ ، وبه قال أحمد وإسحاق ورَوَوْه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره . وأهل العراق يَرَوْن أن عدتها ثلاثُ حِيَض بعد ما كانت حاضت مرة واحدة في عمرها، وإن مكثت عشرين سنة، إلا أن تبلغ من الكبر مبلغًا تيأس فيه من الحيض فتكون عدتها بعد الإياس ثلاثةَ أشهر . قال الثعلبيّ : وهذا الأصح من مذهب الشافعيّ وعليه جمهور العلماء . وروى ذلك عن ابن مسعود وأصحابه . قال الكِيَا : وهو الحق ؛ لأن الله تعالى جعل عدة الآيسة ثلاثة أشهر؛ والمرتابة ليست آيسة .

الخامســة ــ وأمّا من تأخّر حَيْضها لمرض؛ فقال مالك وابن القاسم وعبدالله بن أَصْبَغ : تعتدّ تسعة أشهر ثم ثلاثة . وقال أشهب : هي كالمرضع بعد الفطام بالحيض أو بالسَّنة . وقد طلّق حَبّان بن مُنْقِذ آمرأته وهي تُرْضع؛ فمكثت سنة لا تحيض لأجل الرضاع، ثم مرض حَبّان فخاف أن ترثه فخاصمها إلى عثمان وعنده عليّ وزيد، فقالا : نرى أن ترِثه؛ لأنها ليست من القواعد ولا من الصغار؛ فمات حَبّان فورِثته واعتدّت عِدّة الوفاة .

السادســة ــ ولو تأخّر الحيض لغير مرض ولا رضاع فإنها تنتظر سَنة لا حَيْض فيها ؛ تسعة أشهر ثم ثلاثة؛ على ما ذكرناه . فتحِلّ ما لم تَرْتَب بحَمْل؛ فإن آرتابت بحمل أقامت أربعة أعوام، أو خمسة، أو سبعة؛ على اختلاف الروايات عن علمائنا . ومشهورها خمسة أعوام؛ فإن تجاوزتها حَلّت. وقال أشهب : لا تحلّ أبدا حتى تنقطع عنها الرِّيبة . قال ابن العربي : وهو الصحيح؛ لأنه إذا جاز أن يبقى الولد في بطنها خمســة أعوام جاز أن يبقى عشرة وأكثر من ذلك . وقد رُوِي عن مالك مثله .

السابعــة ــ وأما التي جُهِل حيضها بالآستحاضة ففيها ثلاثة أقوال : قال ابن المسيب : تعتــدّ سَنة . وهو قول الليث . قال الليث : عِدّة المطلّقة وعدة المتوفَّى عنها زوجها إذا كانت مستحاضة سَنَةٌ . وهو مشهور قول علمائنا ؛ ســواء علمت دم حيضها من دم استحاضتها ؛

ومَيَّزت ذلك أو لم تميّزه ، عدّتها في ذلك كله عند مالك في تحصيل مذهبه سَنة ؛ منها تسعة أشهر ٱستبراء وثلاثة عدّة . وقال الشافعي في أحد أقواله : عدّتها ثلاثة أشهر . وهو قول جماعة من التابعين والمتأخرين من القرويّين . ابن العربيّ : وهو الصحيح عندي . وقال أبو عمر : المستحاضة إذا كان دمها ينفصل فعلمت إقبال حيضتها أو إدبارها اعتدّت ثلاثة قُرُوء . وهذا أصحّ في النظر ، وأثبت في القياس والأثر .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ — يعني الصغيرة — فعدّتهنّ ثلاثة أشهر ؛ فأضمر الخبر . وإنما كانت عدّتها بالأشهر لعدم الأقراء فيها عادة ، والأحكام إنما أجراها الله تعالى على العادات ؛ فهي تعتدّ بالأشهر . فإذا رأت الدم في زمن احتماله عند النساء انتقلت إلى الدم لوجود الأصل ، وإذا وجد الأصل لم يبق للبدل حكم ؛ كما أن المُسِنّة إذا اعتدّت بالدم ثم ارتفع عادت إلى الأشهر . وهذا إجماع .

قوله تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ وَضْعُ الحمل ، وإن كان ظاهرا في المطلّقة لأنه عليها عُطف وإليها رجع عقب الكلام ؛ فإنه في المتوفّى عنها زوجها كذلك ؛ لعموم الآية وحديث سُبَيْعة . وقد مضى في « البقرة » القول فيه مستوفًى (١) .

الثانيـة — إذا وضعت المرأة ما وضعت من عَلَقة أو مُضْغَة حلّت . وقال الشافعيّ وأبو حنيفة : لا تحلّ إلا بما يكون ولدًا . وقد مضى القول فيه في سورة « البقرة » وسورة « الرعد » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ قال الضحاك : أي من يتّقه في طلاق السُّنّة يجعل له من أمره يُسْرًا في الرَّجْعة . مُقاتل : ومن يتّق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يُسْرًا في توفيقه للطاعة . ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي الذي ذُكر من الأحكام

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٧٤

أمر الله أنزله إليكم وبيّنه لكم . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ أى يعمل بطاعته . ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة . ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ أى فى الآخرة .

قوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ قال أشهب عن مالك : يخرج عنها إذا طلّقها ويتركها فى المنزل؛ لقوله تعالى : « أَسْكِنُوهُنَّ » . فلو كان معها ما قال أسكنوهن. وقال ابن نافع : قال مالك فى قول الله تعالى «أَسكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ» يعنى المطلّقات اللّاتى بِنّ من أزواجهن فلا رَجْعَة لهم عليهن وليست حاملا؛ فلها السُّكْنَى ولا نفقة لها ولا كسوة؛ لأنها بائن منه، لا يتوارثان ولا رجعة له عليها. وإن كانت حاملا فلها النفقة والكسوة والمسكن حتى تنقضى عِدّتها . فأما من لم تَبِنْ منهن فإنهن نساؤهم يتوارثون، ولا يخرجن إلا أن يأذن لهن أزواجهن ما كُنّ فى عِدتهن، ولم يؤمروا بالسكنى لهن لأن ذلك لازم لأزواجهن مع نفقتهن وكسوتهن ، حوامل كن أو غير حوامل . وإنما أمر الله بالسكنى للائى بِنّ من أزواجهنّ مع نفقتهن؛ قال الله تعالى : « وإنْ كُنّ أولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنّ » بجعل عز وجل للحوامل اللائى قد بِنّ من أزواجهنّ السكنى والنفقة . قال ابن العربى : وبَسْطُ ذلك وتحقيقُه أن الله سبحانه لما ذكر السُّكْنَى أطلقها لكل مطلّقة ، فلما ذكر النفقة قيّدها بالحمل ؛ فدلّ على أن المطلقة البائن لا نفقة لها . وهى مسألة عظيمة قد مهّدنا سُبُلَها قرآنًا وسُنّةً ومعنًى فى مسائل الخلاف . وهذا مأخذها من القرآن .

قلت : اختلف العلماء فى المطلّقة ثلاثا على ثلاثة أقوال؛ فمذهب مالك والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها . ومذهب أبي حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة . ومذهب أحمد وإسحاق وأبي ثور أن لا نفقة لها ولا سكنى؛ على حديث فاطمة بنت قيس، قالت : دخلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى أخو زَوْجى فقلت : إن زوجى طلّقنى وإن هذا يزعم أن ليس لى سكنى ولا نفقة ؟ قال : " بل لكِ السُّكْنَى ولكِ النفقة ". قال : إن زوجها طلقها ثلاثا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما السكنى والنفقة على من له عليها الرجعة ". فلما قدمتُ الكوفة طلبنى الأسود بن يزيد ليسألنى عن ذلك، وإن أصحاب عبد الله يقولون : إن لها السكنى والنفقة . خرّجه الدارقطنى . ولفظ مسلم عنها : أنه طلقها زوجها فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان أنفق عليها نفقةَ دُونٍ؛ فلما رأت ذلك قالت : والله لأُعْلِمَنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان لى نفقة أخذت الذى يُصلحنى وإن لم تكن لى نفقة لم آخذ شيئا. قالت : فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " لا نفقة لكِ ولا سُكْنى ". وذكر الدّارَقُطْنِي عن الأسْوَد قال : قال عمر لما بلغه قول فاطمة بنت قيس: لا نجيز فى المسلمين قول امرأة. وكان يجعل للطلّقة ثلاثا السكنى والنفقة. وعن الشعبي قال: لَقِيَنِي الأسْود بن يزيد فقال : ياشَعْبِيّ، اتّق الله وآرجع عن حديث فاطمة بنت قيس؛ فإن عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة . قلت : لا أرجع عن شيء حدّثتني [به][1] فاطمة بنت قيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : ما أحسن هذا . وقد قال قتادة وآبن أبي لَيْلَى : لا سكنى إلا للرجعية؛ لقوله تعالى : «لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا»، وقوله تعالى: «أَسْكِنُوهُنّ» راجع إلى ما قبله، وهى المطلقة الرجعية . والله أعلم . ولأن السكنى تابعةٌ للنفقة وجاريةٌ مجراها؛ فلما لم تجب للمبتُوتَة نفقة لم يجب لها سكنى . وحجة أبي حنيفة أن للمبتوتة النفقة قولُه تعالى : «وَلَا تُضَارُّوهُنّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنّ» وترك النفقة من أكبر الأضرار . وفى إنكار عمر على فاطمة

(١) زيادة عن سنن الدارقطني .

قولها ما بيّن هذا ، ولأنها معتدّة تستحق السكنى عن طلاق فكانت لها النفقة كالرجعية ، ولأنها محبوسة عليه لحقّه فاستحقت النفقة كالزوجة . ودليل مالك قوله تعالى : «وإِنْ كُنّ أُولَاتِ حَمْلٍ» الآية . على ما تقدم بيانه . وقد قيل : إن الله تعالى ذكر المطلّقة الرجعية وأحكامها أوّل الآية إلى قوله : « ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » ثم ذكر بعد ذلك حُكْمًا يعم المطلّقات كلّهنّ من تعديد الأشهر وغير ذلك . وهو عام فى كل مطلقة ؛ فرجع ما بعد ذلك من الأحكام إلى كل مطلقة .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ أى من سَعتكم ؛ يقال وَجَدْتُ فى المـال أجِد وُجْدًا (١) [ووَجْدًا ووِجْدًا] وجِدَةً . والوِجْد : الغنى والمقدرة . وقراءة العامة بضم الواو . وقرأ الأعرج والزهرىّ بفتحها ، ويعقوب بكسرها . وكلها لغات فيها .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قال مجاهد : فى المسكن . مُقاتل : فى النفقة ؛ وهو قول أبى حنيفة . وعن أبى الضحى : هو أن يطلّقها فإذا بقى يومان من عدّتها راجعها ثم طلقها .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ لا خلاف بين العلماء فى وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة ثلاثا أو أقل منهن حتى تضع حملها . فأما الحـامل المُتَوَفَّى عنها زوجها فقال علىّ وآبن عمر وآبن مسعود وشُرَيح والنَّخَعىّ والشَّعْبِىّ وحَمّاد وآبن أبى لَيْـلَى وسُفيان والضّحاك : يُنفق عليها من جميع المـال حتى تضع . وقال آبن عباس وآبن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعىّ وأبو حنيفة وأصحابهم (٢) : لا ينفق عليها إلا من نصيبها . وقد مضى فى « البقرة » بيانه (٣) .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ — يعنى المطلّقات — أولادكم منهنّ فعلى الآباء أن يعطوهنّ أجرة إرضاعهنّ . وللرجل أن يستأجر آمرأته للرضاع كما يستأجر أجنبيّة .

(١) الواو مثلثة . (٢) فى نسخة من الأصل : « وأصحابه » . (٣) راجع جـ ٣ ص ١٨٥

ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد منهنّ ما لم يَبِنّ . ويجوز عند الشافعيّ. وتقدّم القول في الرضاع في « البقرة » و « النساء » مستوفًى(١) ولله الحمد .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات ؛ أي وليَقْبَل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل . والجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة . والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع . وقيل : ائتمروا في رضاع الولد فيما بينكم بمعروف حتى لا يلحق الولد إضرار . وقيل : هو الكسوة والدِّثار . وقيل : معناه لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي في أجرة الرضاع فأبَى الزوج أن يعطي الأمّ رضاعها وأبت الأمّ أن ترضعه فليس له إكراهها ؛ وليستأجر مرضعة غير أمّه . وقيل : معناه وإن تضايقتم وتشاكستم فليسترضع لولده غيرها ؛ وهو خبر في معنى الأمر . وقال الضحاك : إن أبت الأمّ أن تُرضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أجبرت أمّه على الرضاع بالأجر . وقد اختلف العلماء فيمن يجب عليه رضاع الولد على ثلاثة أقوال : قال علماؤنا : رضاع الولد على الزوجة ما دامت الزوجية ؛ إلا لشرفها وموضعها فعلى الأب رضاعه يومئذ في ماله . الثـاني — قال أبو حنيفة : لا يجب على الأمّ بحال . الثـالث — يجب عليها في كل حال .

الرابعـــة — فإن طلّقها فـلا يلزمها رضاعه إلا أن يكون غير قابل ثَدْي غيرها فيلزمها حينئذ الإرضاع . فإن اختلفا في الأجر فإن دعت إلى أجر مثلها وامتنع الأب إلا تبرّعًا فالأمّ أولى بأجر المثل إذا لم يجد الأب متبرعا . وإن دعا الأب إلى أجر المثل وامتنعت الأمّ لتطلب شططًا فالأب أَوْلَى به . فإن أعسر الأب بأجرتها أخذت جبرا برضاع ولدها .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٦٠ وجـ ٥ ص ١٠٨

قوله تعالى : لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِق ﴾ أى لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وُسعه حتى يوسّع عليهما إذا كان مُوَسّعًا عليه . ومن كان فقيرا فعلى قدر ذلك . فتقدّر النفقة بحسب الحالة من المنفِق والحاجة من المنفَق عليه بالاجتهاد على مجرى العادة ؛ فينظر المفتى إلى قدر حاجة المنفَق عليه ثم ينظر إلى حالة المنفِق ، فإن احتملت الحالة أمضاها عليه ، فإن اقتصرت حالته على حاجة المنفق عليه ردّها إلى قدر احتماله . وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه وأصحابه : النفقة مقدّرة محدّدة ، ولا اجتهاد لحاكم ولا لمُفْتٍ فيها . وتقديرها هو بحال الزوج وحده من يُسْره وعُسْره ، ولا يعتبر بحالها وكفايتها . قالوا : فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس . فإن كان الزوج مُوسِرًا لزمه مُدّان ، وإن كان متوسّطا فمُدٌّ ونصف ، وإن كان معسرا فمُدّ . واستدلّوا بقوله تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ » الآية . فجعل الاعتبار بالزوج فى اليُسْر والعُسْر دونها ؛ ولأن الاعتبار بكفايتها لا سبيل إلى علمه للحاكم ولا لغيره ؛ فيؤدّى إلى الخصومة ؛ لأن الزوج يدّعى أنها تلتمس فوق كفايتها ، وهى تزعم أن الذى تطلب تطلبه قدر كفايتها . فجعلناها مقدّرة قطعا للخصومة . والأصل فى هذا عندهم قوله تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ » — كما ذكرنا — ، وقولُه : « عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ » . والجواب أن هذه الآية لا تعطى أكثر من فرق بين نفقة الغنى والفقير ، وأنها تختلف بعُسْر الزوج ويُسْره . وهذا مُسَلَّم . فأمّا إنه لا اعتبار بحال الزوجة على وجهه فليس فيه ، وقد قال الله تعالى : « وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ »(١) وذلك يقتضى تعلّق المعروف فى حقهما ؛ لأنه لم يخص فى ذلك واحدا منهما . وليس من

(١) آية ٢٣٣ سورة البقرة .

المعروف أن يكون كفاية الغنيّة مثل نفقة الفقيرة ؛ وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهند : "خُذى ما يكْفيكِ وولدكِ بالمعروف" . فأحالها على الكفاية حين علم السَّعة من حال أبي سفيان الواجب عليه بطلبها ، ولم يقل لها لا اعتبار بكفايتكِ وأن الواجب لكِ شيء مقدّر ، بل ردّها إلى ما يعلمه من قدر كفايتها ولم يعلقه بمقدار معلوم . ثم ما ذكروه من التحديد يحتاج إلى توقيف ؛ والآية لا تقتضيه .

الثانيـــة — رُوى أن عمر رضى الله عنـه فرض للنفوس مائة درهم ، وفرض له عثمان خمسين درهما . ابن العربيّ : « واحتمل أن يكون هذا الاختلاف بحسب اختلاف السنين أو بحسب حال القدر فى التسعير لثمن القوت والملبس ، وقد روى محمد بن هلال المُزَنىّ قال : حدثنى أبى وجدّتى أنهـا كانت ترِد على عثمان ففقدها فقال لأهـله : مالى لا أرى فلانة ؟ فقالت امرأته : يا أمير المؤمنين ، ولدت الليلة ؛ فبعث إليها بخمسين درهما وشُقَيْقَة[(١)] سنبلانية . ثم قال : هذا عطاء ابنك وهذه كسوته ، فإذا مرّت له سنة رفعناه إلى مائة . وقـد أُتِىَ علىّ رضى الله عنه بمنبوذ[(٢)] ففرض له مائة . قال ابن العربيّ : «هذا الفرض قبل الفِطام مما اختلف فيـه العلماء ؛ فمنهم من رآه مستحبًّا لأنه داخل فى حكم الآية ، ومنهم من رآه واجبًا لمـا تجدّد من حاجته وعَرَض من مُؤْنته ؛ وبه أقول . ولكن يختلف قدره بحاله عند الولادة وبحاله عند الفطام . وقد روى سفيان بن وهب أن عمر أخذ المُدّ بيـدٍ والقِسْط بيـد فقال : إنى فرضت لكل نفس مسلمة فى كل شهر مُدّىْ حِنطة وقِسْطَىْ خَلّ وقِسْطَىْ زيت . زاد غيره : وقال إنا قد أجْرَيْنا[(٣)] لكم أعطياتكم وأرزاقكم فى كل شهر ، فمن انتقصها فعل الله به كذا وكذا ؛ فدعا عليه . قال أبو الدَّرْدَاء : كم سُـنّة راشدة مَهْديّة قد سنّها عمر رضى الله عنه فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ! والمُدّ والقِسْط كيلان شاميّان فى الطعام والإدام ؛ وقد دُرِسَا بعرف آخر.

---

(١) الشقيقة : تصغير شقة ، وهى جنس من الثياب . وقيــل هى نصف ثوب . والسنبلانى (من الثياب) : السابغ الطويل الذى قد أسبل . وسنبل ثوبه : إذا أسبله وجره من خلفه أو أمامه .

(٢) المنبوذ : اللقيط ؛ وسمي اللقيط منبوذا لأن أمه رمته على الطريق .   (٣) فى ابن العربى : «أجزنا» .

فأما المُدّ فدُوس إلى الكَيْلَجة . وأما القِسط فدُرس إلى الكيل ، ولكن التقدير فيه عندنا رُبعان في الطعام وثُمنان في الإدام . وأما الكسوة فبقدر العادة قُمُص وسراويل وجُبّة في الشتاء وكساء وإزار وحصير . وهذا الأصل ، ويتزيد بحسب الأحوال والعادة » .

الثالثة — هذه الآية أصل في وجوب النفقة للولد على الوالد دون الأم ؛ خلافا لمحمد بن المَوّاز يقول : إنها على الأبوين على قدر الميراث . ابن العربيّ : ولعلّ محمدا أراد أنها على الأم عند عدم الأب . وفي البخاريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "تقول لك المرأة أنفق عليّ وإلا فطلقني ويقول لك العبد أنفق عليّ واستعملني ويقول لك ولدك أنفق عليّ إلى مَن تَكِلُني" فقد تعاضد القرآن والسُّنّة وتواردا في شِرْعة واحدة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ أي لا يكلف الفقير مثل ما يكلّف الغنيّ . ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ أي بعد الضيق غِنًى ، وبعد الشدّة سَعة .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ لما ذكر الأحكام ذكر وحذر مخالفة الأمر ، وذكر عُتُوّ قوم وحلولَ العذاب بهـم . وقد مضى القول فى « كأين » فى « آل عمـران »(١) والحمـد لله . ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أى عصت؛ يعنى القرية والمراد أهلها . ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ أى جازيناها بالعـذاب فى الدنيـا . ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴾ فى الآخرة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ فعذّبناها عذابا نُـكْرا فى الدنيا بالجوع والقَحْط والسيف والخَسْف والمَسْخ وسائر المصائب ، وحاسبناها فى الآخرة حسابا شديدا . والنُّـكْر : المنكر . وقُرِئَ مُخَفَّفًا ومُثَقَّـلًا ؛ وقد مضى فى سورة « الكهف »(٢) . ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أى عاقبة كفرها . ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ أى هلاكا فى الدنيا بما ذكرنا، والآخرة بجهنم . وجىء بلفظ المـاضى كقوله تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ »(٣) ونحو ذلك ؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملاقٍ فى الحقيقة ؛ وما هو كائن فكأن قد . ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بيّن ذلك الخُسر وأنه عذاب جهنم فى الآخرة . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى العقول . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بدل من « أولى الألباب » أو نعت لهم؛ أى يا أولى الألباب الذين آمنتم بالله اتقوا الله الذى أنزل عليكم القرآن ؛ أى خافوه واعمـلوا بطاعته وانتهُوا عن معاصيه . وقد تقـدم . ﴿ رَسُولًا ﴾ قال الزجاج : إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل ؛ أى أنزل إليكم قرآنا وأرسل رسولا . وقيل : إن المعنى قد أنزل الله اليكم صاحب ذكر رسولا ؛ فـ « رسولا » نعت للذكر على تقدير حذف المضاف . وقيل : إن رسولا معمول للذكر لأنه مصدر ؛ والتقدير : قد أنزل الله إليكم أن ذكر رسولا . ويكون ذكره الرسول قوله : « محمد رَسُولُ اللَّهِ » . ويجوز أن يكون « رسولا » بدلا من ذكر ؛ على أن يكون « رسولا » بمعنى رسالة ، أو على أن يكون على بابه ويكون محمـولا على المعنى ؛ كأنه قال : قد أظهر الله لكم ذكرا رسولا ؛ فيكون من باب بدل الشىء من الشىء وهو هو . ويجوز أن ينتصب «رسولا» على الإغراء كأنه قال : اتبعوا رسولا . وقيل : الذكر هنا الشرف ؛ نحو قوله تعالى : « لَقَد

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨　　(٢) يلاحظ أن الذى مضى هو فى سورة « القمر » لا فى سورة الكهف . راجع جـ ١٧ ص ١٢٩　　(٣) آية ٤٤ سورة الأعراف .

أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ »(١)، وقوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »(٢)؛ ثم بيّن هذا الشرف فقال : « رسولا » . والأكثر على أن المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال الكلبيّ : هو جبريل؛ فيكونان جميعا منزلين . ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ ﴾ نعت لرسول. و « آيات الله » القرآن . ﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ قراءة العامة بفتح الياء . أى بيّنها الله . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى بكسرها ؛ أى يُبيِّن لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام . والأولى قراءة ابن عباس واختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ لقوله تعالى : « قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ » . ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى من سبق له ذلك فى علم الله . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ أى من الكفر . ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ الهُدَى والإيمان . قال ابن عباس : نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب . وأضاف الإخراج إلى الرسول لأن الإيمان يحصل منه بطاعته .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ . قرأ نافع وابن عامر بالنون ، والباقون بالياء . ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ أى وسّع الله له فى الجنات .

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ دلّ على كمال قدرته وأنه يقدر على البعث والمحاسبة . ولا خلاف فى السموات أنها سبع بعضها فوق بعض ؛ دلّ على ذلك حديثُ الإسراء(٣) وغيره . ثم قال : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ يعنى سبعاً . واختلف فيهنّ على قولين : أحدهما — وهو قول الجمهور — أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض ،

---

(١) آية ١٠ سورة الأنبياء . (٢) آية ٤٤ سورة الزخرف . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥ .

بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء ، وفى كل أرض سكان من خلق الله . وقال الضحاك : « وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ » أى سبعًا من الأرضين ، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات . والأول أصح ؛ لأن الأخبار دالة عليه فى الترمذىّ والنسائىّ وغيرهما . وقد مضى ذلك مبينًا فى « البقرة »(١) . وقد خرّج أبو نعيم قال : حدّثنا محمد ابن علىّ بن حُبيش قال : حدّثنا إسماعيل بن إسحاق السراج ، (ح)(٢) وحدّثنا(٣) أبو محمد بن حبان قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن ناجية قال : حدّثنا سُويد بن سعيد قال حدّثنا حفص ابن ميسرة عن موسى بن عقبة عن عطاء بن أبى مروان عن أبيه أن كعبا حلف له بالذى فلق البحر لموسى أن صُهَيبًا حدّثه أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يَرَ قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : "اللّٰهُمَّ رَبَّ السموات السبع وما أظْلَلْنَ وربَّ الأَرَضِين السبع وما أَقْلَلْنَ وربَّ الشياطين وما أضْلَلْنَ وربَّ الرياح وما أذْرَيْنَ إنا نسألك خيرَ هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها" . قال أبو نعيم : هذا حديث ثابت من حديث موسى بن عقبة تفرّد به عن عطاء . روى عنه ابن أبى الزناد وغيرُه . وفى صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال : سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "من أخذ شِبْرًا من الأرض ظُلْمًا فإنه يُطَوَّقه يوم القيامة من سبع أَرَضِين" . ومثله حديث عائشة ، وأبين منهما حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يأخذ أحدٌ شِبْرًا من الأرض بغير حَقّه إلا طَوّقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة" . قال الماوَرْدِىّ : وعلى أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض تختص دعوةُ أهل الإسلام بأهل الأرض العليا ، ولا تلزم من فى(٤) غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميِّز . وفى مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان : أحدهما — أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدّون الضياء منها . وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة . والقول الثانى — أنهم لا يشاهدون السماء ،

(١) راجع ج ١ ص ٢٥٨ . (٢) جرت عادة المحدّثين أنه إذا كان للحديث إسنادان أو أكثر ، كتبوا عند الانتقال من إسناد إلى إسناد « ح » وهى حاء مهملة مفردة . (راجع مقدّمة النووى على صحيح مسلم) .
(٣) فى بعض نسخ الأصل : « وحدّثنا محمد ... » . (٤) فى الأصول : « فيمن » .

وأن الله تعالى خالق لهم ضياء يستمدونه . وهذا قول من جعل الأرض كالكُرَة . وفى الآية قول ثالث حكاه الكَلْبيّ عن أبي صالح عن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة؛ ليس بعضها فوق بعض، تفرّق بينها البحار وتُظِلّ جميعَهم السماءُ . فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل الأرض وصول إلى أرض أخرى اختصت دعوة الإسلام بأهل هذه الأرض، وإن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام عند إمكان الوصول إليهم؛ لأن فصل البحار إذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه، واحتمل ألا تلزمهم دعوة الإسلام لأنها لو لزمتهم لكان النص بها واردا، ولكان صلى الله عليه وسلم بها مأمورا . والله أعلم ما استأثر بعلمه، وصواب ما اشتبه على خلقه . ثم قال : ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع . وقال الحسن : بين كل سماءين أرضٌ وأمر . والأمر هنا الوَحْيُ؛ في قول مُقاتل وغيره . وعليه فيكون قوله « بينهنّ » إشارة إلى بين هذه الأرض العليا التي هي أدناها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها . وقيل : الأمر القضاء والقدر . وهو قول الأكثرين . فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى : « بينهنّ » إشارة إلى ما بين الأرض السُّفْلَى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها . وقيل : « يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » بحياة بعض وموت بعض وغِنَى قومٍ وفَقْر قوم . وقيل : هو ما يُدَبِّر فيهنّ من عجيب تدبيره؛ فينزل المطر ويُخرج النبات ويأتي بالليل والنهار، والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها؛ فينقلهم من حال إلى حال . قال ابن كَيْسان : وهذا على مجال اللغة واتساعها؛ كما يقال للموت : أمرُ الله؛ وللريح والسحاب ونحوها . ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني أن مَن قدر على هذا المُلْك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر، ومن العفو والانتقام أمكن؛ وإن استوى كل ذلك في مقدوره ومُكْنته (١) . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته . ونصب « عِلْما » على المصدر المؤكّد؛ لأن «أحاط» بمعنى علم . وقيل : بمعنى وأن الله أحاط إحاطةً عِلْمًا .

---

(١) قوله : « ومكنته » يريد « وإمكانه » ولم ترد في كتب اللغة .

سورة التَّحْرِيم

مَدَنِيَّةٌ فى قول الجميع . وهى اثنتا عشرة آية . وتسمى سورة « النَّبِيّ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ثبت فى صحيح مُسْلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان يمكث عند زينب بنتِ جَحْش فيشرب عندها عَسَلًا ؛ قالت : فتواطأتُ أنا وحَفْصةُ أن أيّتنا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقل : إنى أجد منك رِيح مَغَافِير(١) ! أكَلْتَ مَغَافِير ! ؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك . فقال : "بل شربت عسلا عند زينب بنتِ جحش ولن أعود له". فنزل «لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ — الى قوله — إِنْ تَتُوبَا » (لعائشة وحفصة) ، « وإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا » لقوله : " بل شربتُ عسلًا " . وعنها أيضا قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحَلْواء والعسل ، فكان إذا صلّى العصر دار على نسائه فيَدْنُو منهنّ ؛ فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبِس ؛ فسألتُ عن ذلك فقيل لى : أهدت لها امرأةٌ من قومها عُكّةً من عسل ، فسقتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منه شَرْبَةً . فقلت : أمَا والله لَنحتالَنّ له ، فذكرتُ ذلك لسَوْدَة وقلت : إذا دخل عليك فإنه سيَدْنو منك فقولى له : يارسول الله ، أكَلْتَ مَغَافير ؟ فإنه سيقول لكِ لا . فقولى [له] : ما هذه الريح ؟ — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتدّ عليه أن يوجد منه الريح — فإنه

(١) سيذكر المؤلف رحمه الله معنى هذه الكلمة والكلمات الآتية فى هذا الحديث .

سيقول لك سَقَتْنِي حَفْصَةُ شربةَ عسلٍ . فقولي له : جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُطَ . وسأقول ذلك له ، وقوليه أنتِ ياصفيّة . فلما دخل على سَوْدَةَ — قالت — : تقول سَوْدَةُ والله الذى لا إله إلا هو لقد كِدْتُ أن أبادِئه بالذى قلتِ لى ، وإنه لعلى الباب ، فَرَقًا(١) منكِ ، فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : يا رسول الله ، أكَلْتَ مَغَافِير ؟ قال : "لا" قالت : فما هذه الريح ؟ قال : "سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عسلٍ" قالت : جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُطَ . فلما دخل علىّ قلت له مثلَ ذلك ، ثم دخل على صَفِيّة فقالت بمثل ذلك . فلما دخل على حَفْصَة قالت : يارسول الله ، ألا أسقيك منه . قال : "لاحاجة لى به" قالت : تقول سَوْدَة سبحان الله ! [والله] لقد حَرَمْناه(٢) . قالت : قلت لها اسكتى . ففى هذه الرواية أن التى شرب عندها العسل حفصة . وفى الأولى زينب . وروى ابن أبى مُلَيْكة عن ابن عباس أنه شربه عند سودة . وقد قيل : إنما هى أمّ سلمة ؛ رواه أسباط عن السُّدّىّ . وقاله عطاء بن أبى مسلم . ابن العربى : وهذا كله جهل أو تصوّر بغير علم . فقال باقى نسائه حَسَدًا وغَيْرَةً لمن شرب ذلك عندها : إنا لنجد منك ريح المغافير . والمغافير : بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة ، فيها حلاوة . واحدها مَغْفُور . وجَرَست : أكلت . والعُرْفُط : نبت له ريح كريح الخمر . وكان عليه السلام يُعجبه أن يوجد منه الريح الطيبة أو يجدها ، ويكره الريح الخبيثة لمناجاة المَلَك . فهذا قول . وقول آخر — أنه أراد بذلك المرأة التى وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها لأجل أزواجه ؛ قاله ابن عباس وعِكْرمة . والمرأة أمّ شريك . وقول ثالث — إن التى حرم مارية القبطية ، وكان قد أهداها له المُقَوْقِس ملك الإسكندرية . قال ابن إسحاق : هى من كُورة أنْصِنا(٣) من بلد يقال له حَفْن فواقعها فى بيت حفصة . روى الدارقطنيّ عن ابن عباس عن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمّ ولده مارية فى بيت حفصة ، فوجدته حفصة معها — وكانت حفصة غابت الى بيت أبيها — فقالت له : تُدخلها بيتى !

---

(١) قولها : « أن أبادئه » ، أى أبدؤه وأناديه وهو لدى الباب لم يدن منى بعد بالكلام الذى علمتنيه . و « فرقا » أى خوفا من لومك . (٢) أى منعناه شربة عسل . (٣) أنصنا (بالفتح ثم السكون وكسر الصاد المهملة والنون ، مقصور) : مدينة من نواحى الصعيد على شرق النيل .

ماصنعتَ بي هذا من بين نسائك إلا من هَوَاني عليك . فقال لها : "لا تَذْكُرِي هذا لعائشة فهي عليّ حرام إن قَرُبْتُها" قالت حفصة : وكيف تحرّم عليك وهي جاريتك ؟ فحلف لها ألا يَقْرَبها . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تذكريه لأحد" . فذكرته لعائشة، فآلى لا يدخل على نسائه شهرا ، فاعتزلهنّ تسعا وعشرين ليلة ؛ فأنزل الله عز وجل « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » الآية .

الثانيـــة ــ أصحّ هـذه الأقوال أوّلهـا ، وأضعفها أوسطها . قال ابن العـربيّ : « أما ضعفه في الســند فلعدم عدالة رواته ، وأما ضعفه في معناه فلأن ردّ النبيّ صلى الله عليه وسلم للموهوبة ليس تحريمـا لها ؛ لأن من ردّ ما وُهب له لم يَحْرُم عليه ، إنمـا حقيقة التحريم بعـد التحليل . وأما من روى أنه حرّم مارية القبطية فهو أمثـل في السند وأقرب الى المعـنى ؛ لكنه لم يدوّن في الصحيح . وروى مرسلا . وقـد روى ابن وهب عن مالك عن زيد بن أسلم قال : حرّم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أمّ إبراهيم فقال : "أنتِ عليّ حرام والله لا آتينّك" . فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » . وروى مثله ابن القاسم عنه . وروى أشهب عن مالك قال : راجعتْ عمرَ امرأةٌ من الأنصار في شيء فاقشعرّ من ذلك وقال : ما كان النساء هكذا ! قالت : بلى ، وقد كان أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يراجعنه . فأخذ ثوبه فخرج إلى حَفْصة فقال لها : أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم ، ولو أعلم أنك تكره ما فعلت . فلما بلغ عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هجر نساءه قال : رَغِمَ أَنْفُ حفصة . وإنمـا الصحيح أنه كان في العسل وأنه شربه عنـد زينب ، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيـه ، فجرى ما جرى فحلف ألا يشربه وأسرّ ذلك . ونزلت الآية في الجميع .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ لِمَ تُحَـرِّمُ ﴾ إن كان النبيّ صلى الله عليـه وسلم حرم ولم يحلف فليس ذلك بيمين عندنا . ولا يحرّم قول الرجل : «هذا عليّ حرام» شيئا حاشا الزوجة . وقال أبو حنيفة : إذا أطلق حمل على المأكول والمشروب دون الملبوس ، وكانت يمينًا توجب

الكفارة . وقال زُفَر : هو يمين فى الكل حتى فى الحركة والسكون . وعوّل المخالف على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حرّم العسل فلزمته الكفارة . وقد قال الله تعالى : « قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ » فسمّاه يمينًا . ودليلنا قول الله تعالى : « يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا »(١) ، وقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ »(٢) . فذمّ الله المحرِّم للحلال ولم يوجب عليه كفارة . قال الزجاج : ليس لأحد أن يحرّم ما أحل الله . ولم يجعل لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يحرّم إلا ما حرّم الله عليه . فمن قال لزوجته أو أَمَته : أنتِ علىّ حرام ؛ ولم يَنْوِ طلاقًا ولا ظِهارًا فهذا اللفظ يوجب كفارة اليمين . ولو خاطب بهذا اللفظ جمعا من الزوجات والإماء فعليه كفارة واحدة . ولو حرّم على نفسه طعاما أو شيئا آخر لم يلزمه بذلك كفارة عند الشافعيّ ومالك . وتجب بذلك كفارة عند ابن مسعود والثوريّ وأبي حنيفة .

الرابعة — واختلف العلماء فى الرجل يقول لزوجته : « أنت علىّ حرام » على ثمانية عشر قولا :

أحدها — لا شيء عليه . وبه قال الشعبيّ ومسروق وربيعة وأبو سلمة وأَصْبَغ . وهو عندهم كتحريم الماء والطعام ؛ قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ »(٣) والزوجة من الطيبات ومما أحلّ الله . وقال تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ »(٤) . وما لم يحرّمه الله فليس لأحد أن يحرّمه ، ولا أن يصير بتحريمه حراماً . ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما أحلّه الله هو علىّ حرام . وإنما امتنع من مارية ليمين تقدّمت منه وهو قوله : "والله لا أقربها بعد اليوم" فقيل له : لم تحرّم ما أحلّ الله لك ؛ أى لم تمتنع منه بسبب اليمين . يعنى اقْدم عليه وكفّر .

---

(١) آية ٨٧ سورة المائدة . (٢) آية ٥٩ سورة يونس .
(٣) آية ٨٧ سورة المائدة . (٤) آية ١١٦ سورة النحل .

وثانيها — أنها يمين يكفرها ؛ قاله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وعائشة — رضى الله عنهم — والأوزاعيّ؛ وهو مقتضى الآية . قال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : إذا حرّم الرجل عليه امرأته فإنما هي يمين يكفّرها . وقال ابن عباس : لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنة ؛ يعنى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان حرّم جاريته فقال الله تعالى : «لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ — إلى قوله تعالى — قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ» فكفّر عن يمينه وصيّر الحرام يمينًا . خرّجه الدَّارَقُطْنيّ .

وثالثهـا — أنها تجب فيها كفارة وليست بيمين ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس أيضا فى إحدى روايتيه ، والشافعى فى أحد قوليه ؛ وفى هذا القول نظر . والآية تردّه على ما يأتى .

ورابعها — هى ظِهار ؛ ففيها كفارة الظِّهار ؛ قاله عثمان وأحمد بن حنبل و إسحاق .

وخامسها — أنه إن نوى الظِّهار وهو ينـوى أنها محرّمة كتحريم ظَهْر أمّه كان ظِهارا . وإن نوى تحريم عَيْنها عليـه بغير طلاق تحريمـا مطلقا وجبت كفّارة يمين . و إن لم ينو شيئا فعليه كفارة يمين ؛ قاله الشافعى .

وسادسها — أنها طلقة رجعية؛ قاله عمر بن الخطاب والزُّهْرِيّ وعبدالعزيز بن أبى سلمة وآبن الماجِشُون .

وسابعها — أنها طلقة بائنة ؛ قاله حماد بن أبى سليمان وزيد بن ثابت . ورواه آبن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك .

وثامنها — أنها ثلاث تطليقات ؛ قاله على بن أبى طالب وزيد بن ثابت أيضا وأبو هريرة .

وتاسعها — هى فى المدخول بها ثلاث ، وينوى فى غير المدخول بها؛ قاله الحسن وعلى آبن زيد والحكم . وهو مشهور مذهب مالك .

وعاشرها — هى ثلاث ؛ ولا ينوى بحال ولا فى محل وإن لم يدخل[1] ؛ قاله عبـد الملك فى المبسوط ، وبه قال آبن أبى لَيْلَى .

---

(١) كلمة «وإن لم يدخل» ليست فى ابن العربى . وعبارة البحر لأبى حيان (جـ ٨ ص ٢٨٩) : « هى ثلاث فى الوجهين ولا ينوى فى شيء » ونسبه أيضا لعبد الملك الماجشون وابن أبى ليلى .

وحادى عشرها — هى فى التى لم يدخل بهـا واحدة ، وفى التى دخل بهـا ثلاث ؛ قاله أبو مصعب ومحمد بن عبد الحكم (١) .

وثانى عشرها — أنه إن نوى الطلاق أو الظّهار كان ما نَوَى . فإن نَوَى الطلاق فواحدة بائنـة إلا أن ينوى ثلاثا . فإن نوى ثنتين فواحدة . فإن لم ينو شيئا كانت يمينا وكان الرجل مُولِيًا من آمرأته؛ قاله أبو حنيفة وأصحابه . وبمثله قال زُفَر؛ إلا أنه قال : إذا نوى اثنتين ألزمنـاه .

وثالث عشرها — أنه لا تنفعه نيّة الظّهار وإنمـا يكون طلاقًا؛ قاله آبن القاسم .

ورابع عشرها — قال يحيى بن عمـر : يكون طلاقا؛ فإن ارتجعها لم يجز له وَطْؤُها حتى يكفّر كفّارةَ الظّهار .

وخامس عشرها — إن نوى الطلاق فمـا أراد من أعداده . وإن نوى واحدة فهى رجعية . وهو قول الشافعى رضى الله عنه . وروى مثله عن أبى بكر وعمر وغيرهم من الصحابة والتابعين .

وسادس عشرها — إن نوى ثلاثا فثلاثًا ، وإن واحدة فواحدةً . وإن نوى يمينًـا فهى يمين . وإن لم ينو شيئا فلا شيء عليه . وهو قول سفيان . وبمثله قال الاوزاعىّ وأبو ثَوْر ؛ إلا أنهما قالا : إن لم ينو شيئا فهى واحدة .

وسابع عشرها — له نِيّتُـه ولا يكون أقل من واحدة؛ قاله آبن شهاب . وإن لم ينـو شيئا لم يكن شيء؛ قاله آبن العربى . ورأيت لسعيد بن جُبير وهو :

الثامن عشر — أن عليه عِتْق رَقَبة وإن لم يجعلها ظِهارًا . ولست أعلم لها وجهًا ولا يبعد (٢) فى المقالات عندى .

قلت : قد ذكره الدّارَقُطْنِى فى سننه عن آبن عباس فقال : حدّثنا الحسين بن إسماعيل قال حدّثنا محمد بن منصور قال حدّثنا رَوْح قال : حدثنا سُفْيان الثَّوْرى عن سالم الأفطس

(١) فى بعض الأصول : « محمد بن الحكم » . (٢) فى ابن العربى : « ولا يتعدد » .

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال : إني جعلت امرأتي علىّ حراماً . فقال : كذبت ! ليست عليك بحـرام ؛ ثم تلا « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » عليـك أغلظ الكفارات : عِتْقُ رَقَبة . وقد قال جماعة من أهل التفسير : إنه لما نزلت هذه الآية كفّر عن يمينه بعتق رقبة، وعاد إلى مارية صلى الله عليه وسلم؛ قاله زيد بن أسلم وغيره .

الخامســـة ــ قال علماؤنا : سبب الاختلاف في هـذا الباب أنه ليس في كتاب الله ولا في سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم نصٌّ ولا ظاهرٌ صحيحٌ يُعتمد عليه في هذه المسألة ، فتجاذبها العلماء لذلك . فمن تمسّك بالبراءة الأصلية فقال : لا حكم ، فلا يلزم بها شيء . وأما من قال إنها يمين ؛ فقال : سمّاها الله يمينًا . وأما من قال : تجب فيها كفارة وليست بيمين ؛ فبناه على أحد أمرين : أحدهما ــ أنه ظن أن الله تعالى أوجب الكفارة فيها وإن[1] لم تكن يمينا . والثاني ــ أن معنى اليمين عنده التحريم ؛ فوقعت الكفارة على المعنى . وأما من قال : إنها طلقة رجعية ؛ فإنه حمل اللفظ على أقلّ وجوهه ، والرجعية محرِّمة الوطء كذلك ؛ فيحمل اللفظ عليه . وهذا يلزم مالكا ؛ لقوله : إن الرجعية محرِّمة الوطء . وكذلك وجه من قال : إنها ثلاث ؛ فحمله على أكبر معناه وهـو الطلاق الثلاث . وأما من قال : إنه ظهار ؛ فلأنه أقلّ درجات التحريم ؛ فإنه تحريم لا يرفع النكاح . وأما من قال : إنه طلقة بائنة ؛ فعوّل على أن الطلاق الرجعىّ لا يحرّم المطلقة ، وأن الطلاق البائن يحرّمها . وأما قول يحيى بن عمر فإنه احتاط بأن جعله طلاقا ، فلما ارتجعها احتاط بأن يلزمه الكفّارة . ابن العربي : « وهـذا لا يصح ؛ لأنه جمع بين المتضادين ؛ فإنه لا يجتمع ظِهار وطلاق في معنى لفظ واحد ، فلا وجه للاحتياط فيما لا يصح اجتماعه في الدليل . وأما من قال : إنه يُنَوَّى في التي لم يدخل بها ؛ فلأن الواحد تُبينها وتحرّمها شرعًا إجماعا . وكذلك قال من لم يحكم باعتبار نيّته : إن الواحدة تكفي قبل الدخول في التحريم بالإجماع ؛ فيكفي أخذًا بالأقل المتفق عليه . وأما من قال : إنه ثلاث فيهما ؛ فلأنه أخذ بالحـكم الأعظم ؛ فإنه لو صرح بالثلاث لنفذت في التي لم يدخل بها

(١) في ابن العربي : « ولم تكن » .

نفوذها فى التى دخل بها . ومن الواجب أن يكون المعنى مثله وهو التحريم » . والله أعلم . وهذا كله فى الزوجة . وأما فى الأَمَة فـلا يلزم فيها شى من ذلك ؛ إلا أن ينوى به العتق عند مالك . وذهب عامة العلماء إلى أن عليه كفارة يمين . ابن العربى : « والصحيح أنها طلقة واحدة؛ لأنه لو ذكر الطلاق لكان أقله وهو الواحدة إلا أن يعدّده . كذلك إذا ذكر التحريم يكون أقلّه إلا أن يقيّده بالأكثر؛ مثل أن يقول : أنت علىّ حرام إلا بعـد زوج ؛ فهذا نص على المراد .

قلت : أكثر المفسرين على أن الآية نزلت فى حفصة لمـا خلا النبىّ صلى الله عليه وسلم فى بيتها بجاريته ؛ ذكره الثعلبىّ . وعلى هذا فكأنه قال : لا يَحْرُم عليك ما حرّمته على نفسك ولكن عليك كفارة يمين ؛ وإن كان فى تحريم العسل والجارية أيضا . فكأنه قال : لم يَحْرُم عليك ما حرّمته ، ولكن ضَمَمْتَ إلى التحريم يمينًا فكفّر عن اليمين . وهذا صحيح ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم حرّم ثم حلف ؛ كما ذكره الدّارَقُطْنِىّ . وذكر البخارىّ معناه فى قصة العَسَل عن عُبيد ابن عُمير عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عند زينب بنت جَحْش عسلاً ويمكث عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصة على أيّتنا دخل عليها فلْتقُلْ : أكلتَ مَغَافير ؟ إنى لأجد منك رِيح مَغَافير ! قال : "لا ولكن شربتُ عسلا ولن أعود له وقد حلفت لا تخبرى [بذلك] أحدا" . يبتغى مرضات أزواجه . فيعنى بقـوله : "ولن أعود له" على جهـة التحريم . وبقوله : "حلفت" أى بالله؛ بدليل أن الله تعالى أنزل عليه عند ذلك معاتبته على ذلك ، وحوالته على كفارة اليمين بقوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَـرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » يعنى العســل المحرّم بقوله : "لن أعود له" . ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ أى تفعل ذلك طلبًا لرضاهن . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ غفور لمـا أوجب المعاتبة ، رحيم برفع المؤاخذة . وقد قيل : إن ذلك كان ذنبا من الصغائر . والصحيح أنّه معاتبـة على ترك الأولى ، وأنّه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ تحليل اليمين كفّارتها ، أى إذا أحببتم استباحة المحلوف عليه؛ وهو قوله تعالى فى سورة « المائدة » : « فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ » (١) . ويتحصّل من هذا أن من حَرّم شيئا من المأكول والمشروب لم يَحْرُم عليه عندنا ؛ لأن الكفارة لليمين لا للتحريم على ما بيّنّاه . وأبو حنيفة يراه يمينًا فى كل شىء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرّمه ، فإذا حَرّم طعاما فقد حلف على أكله ، أو أَمَةً فعلى وطئها ، أو زوجةً فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية ، وإن نوى الظِّهار فظِهارٌ ، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن . وكذلك إن نوى ثنتين أو ثلاثا . وإن قال : نَوَيت الكذب دِين فيما بينه وبين الله تعالى . ولا يدين فى القضاء بإبطال الإيلاء . وإن قال : كل حلال عليه حرام ؛ فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو ؛ وإلا فعلى ما نَوَى . ولا يراه الشافعى يمينا ولكن سببا فى الكفارة [فى النساء (٢)] وحدهن . وإن نوى الطلاق فهو رجعى عنده؛ على ما تقدّم بيانه . فإن حلف ألا يأكله حنِث وبَرّ بالكفارة .

الثانيـة — فإن حَرّم أَمَته أو زوجته فكفّارة يمين ؛ كما فى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : إذا حَرّم الرجل عليه امرأته؛ فهى يمين يكفّرها . وقال : لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَة .

الثالثـة — قيل : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم كفّر عن يمينه . وعن الحسن : لم يكفّر؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر؛ وكفارة اليمين فى هذه السورة إنما أمر بها الأُمّة . والأوّل أصح، وأن المراد بذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) آية ٨٩　　(٢) زيادة عن الكشاف يقتضيها السّياق .

ثم إن الأمة تقتدى به فى ذلك . وقد قدمنا عن زيد بن أسلم أنه عليه السلام كفّر بعتق رقبة .
وعن مقاتل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتق رقبة فى تحريم مارية . والله أعلم . وقيل :
أى قد فرض الله لكم تحليل مِلك اليمين ؛ فبيّن فى قوله تعالى : « مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ »(١) أى فيما شرعه له فى النساء المحلّلات . أى حلّل لكم مِلك الأيمان ؛ فلمَ تحرّم مارية على نفسك مع تحليل الله إيّاها لك . وقيل : تحلّة اليمين الاستثناء ؛ أى فرض الله لكم الاستثناء المخرج عن اليمين . ثم عند قوم يجوز الاستثناء من الأيمان متى شاء وإن تخلّل مدّة . وعند المُعْظَم لا يجوز إلا متصلا ؛ فكأنه قال : استثن بعد هذا فيما تحلف عليه .
وتحِلة اليمين تحليلُها بالكفارة ؛ والأصل تحللة ؛ فأدغمت . وتفعلة من مصادر فعّل ؛ كالتّسمية والتّوصية . فالتَّحِلّة تحليل اليمين . فكأن اليمين عَقْد والكفارة حلّ . وقيل : التّحِلّة الكفّارة ؛ أى إنها تُحِلّ للحالف ما حرّم على نفسه ؛ أى إذا كفّر صار كمن لم يحلف . ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ وَلِيّكم وناصركم بإزالة الحظر فيما تحرّمونه على أنفسكم ، وبالترخيص لكم فى تحليل أيمانكم بالكفارة ، وبالثواب على ما تخرجونه فى الكفارة .

قوله تعالى : وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ أى واذكر إذ أسرّ النبىّ إلى حفصة « حديثًا » يعنى تحريم مارية على نفسه واستكتامه إياها ذلك . وقال الكلبى :
أسرّ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتىّ على أمّتى من بعدى ؛ وقاله ابن عباس .
قال : أسرّ أمر الخلافة بعده إلى حفصة فذكرته حفصة . روى الدّارَقُطْنىّ فى سُننه عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذْ أَسَرَّ النبى إِلَى بَعْضِ

(١) آية ٣٨ سورة الأحزاب .

أزواجِهِ حدِيثًا » قال : ٱطّلعت حفصة على النبيّ صلى الله عليه وسـلم مع أم إبراهيم فقال : "لا تخبرى عائشة" وقال لها "إن أباك وأباها سيملكان أو سيَلِيَان بعدى فلا تخبرى عائشة" قال : فانطلقت حفصة فأخبرت عائشة فأظهره الله عليه، فعرّف بعضه وأعرض عن بعض. قال أعرض عن قوله : "إن أباكِ وأباها يكونان بعدى". كره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينشر ذلك فى النـاس . ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أى أخبرت به عائشـة لمصافاة كانت بينهما، وكانتا متظاهرتين على نساء النبيّ صلى الله عليه وسـلم . ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أى أطلعه الله على أنها قد نَبّأت به . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «فلما أنبأت» وهما لغتان : أنبأ ونَبّأ . ومعنى « عَرّف بعضَه وأعرض عن بعض » عَرّف حفصة بعض ما أوحى إليـه من أنها أخبرت عائشة بمـا نهاها عن أن تخبرها ؛ وأعرض عن بعض تَكَرُّماً ؛ قاله السُّدّى . وقال الحسن : ما ٱستقصى كريمٌ قطّ ؛ قال الله تعالى «عَرّف بعضَه وأعرض عن بعض » . وقال مُقاتل : يعنى أخبرها ببعض ما قالت لعائشـة ، وهو حديث أم ولده . ولم يخـبرها ببعض وهو قول حفصة لعائشة : إن أبا بكر وعمر سيملكان بعده . وقراءة العامة « عَرّف » مشدّدا ، ومعناه ما ذكرناه . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ يدل عليه قوله تعـالى : « وأَعْرَضَ عن بعض» أى لم يعرّفها إياه . ولو كانت مخففة لقال فى ضدّه وأنكر بعضا . وقرأ علىّ وطلحة بن مُصَرّف وأبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ والحسن وقتادة والكلبى والكسائى والأعمش عن أبى بكر «عَرَف» مخفّفة . قال عطاء : كان أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ إذا قرأ عليه الرجل «عَرّف» مشدّدة حَصَبه بالحجارة . قال الفرّاء : وتأويل قوله عز وجل : « عَرَف بعضه » بالتخفيف ؛ أى غضب فيه وجازى عليه . وهو كقولك لمن أساء اليك : لأعرِفَنّ لك ما فعلت؛ أى لأجازِيَنّك عليه . وجازاها النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن طلقها طلقة واحدة . فقال عمر : لو كان فى آل الخطاب خير لمـا كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم طلقك . فأمره جبريل بمراجعتها وشَـفَع فيها . واعتزل النبيّ صلى الله عليه وسلم نساءه شهرا ، وقعـد فى مَشْرُبة مارية أمّ إبراهيم حتى نزلت آية التحريم على ما تقدّم . وقيل : هَمّ بطلاقها حتى قال له جبريل : "لا تطلّقها فإنها صوّامة

قوامة وإنها من نسائك فى الجنة " فلم يطلقها . ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ أى أخبر حفصة بما أظهره الله عليه . ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَـذَا ﴾ يا رسول الله عنى . فظنت أن عائشة أخبرته ؛ فقال عليه السلام : ﴿ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أى الذى لا يخفى عليه شىء . و « هـذا » سدّ مسدّ مفعولى « أنبأ » . و « نَبّأ » الأول تعدّى إلى مفعول ، و « نَبّأ » الثانى تعـدّى إلى مفعول واحد ؛ لأن نَبّأ وأنبأ إذا لم يدخلا على المبتـدأ والخبر جاز أن يكتفى فيهـما بمفعول واحد و بمفعولين ، فإذا دخلا على الابتداء والخبر تعدّى كل واحد منهما إلى ثلاثة مفعولين . ولم يجز الاقتصار على الاثنين دون الثالث ؛ لأن الثالث هو خبر المبتـدأ فى الأصل فلا يقتصر دونه ، كما لا يقتصر على المبتدأ دون الخبر .

قوله تعـالى : إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَـٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ يعنى حفصة وعائشة ، حثّهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أى زاغت ومالت عن الحق . وهو أنهما أَحَبّتا ما كَرِه النبيّ صلى الله عليه وسـلم من اجتناب جاريته واجتناب العسل ، وكان عليه السـلام يحب العسل والنساء . قال ابن زيد : مالت قلوبهما بأن سرّهما أن يحتبس عن أمّ ولده ، فسرّهما ما كَرِهه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : فقد مالت قلوبكما إلى التوبة . وقال : «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» ولم يقل : فقد صغى قلباكما ؛ ومن شأن العـرب إذا ذكروا الشّيئين من اثنين جمعوهما ؛ لأنه لا يُشْـكِل . وقد مضى هذا المعنى فى «المـائدة» فى قوله تعالى : « فَٱقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا »(١) . وقيل : كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به ؛ لأنه أمكن وأخف . وليس قوله : « فقد صغت

(١) راجع جـ ٦ ص ١٧٣

قلوبكما » جزاء للشرط ؛ لأن هذا الصَّغْو كان سابقا ؛ فجواب الشرط محذوف للعلم به . أى إن تتوبا كان خيرا لكما ؛ إذ قد صغت قلوبكما .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْـهِ ﴾ أى تتظاهرا وتتعاونا على النبيّ صلى الله عليـه وسلم بالمعصية والإيذاء . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : مكثتُ سـنةً وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية ، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له ، حتى خرج حاجًّا فخرجت معه ، فلمـا رجع فكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له ، فوقفت حتى فـرغ ، ثم سرت معـه فقلت : يا أمير المؤمنين ، مَن اللّتان تظاهرتا على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشـة . قال فقلت له : والله إنْ كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سـنة فما أستطيع هيبةً لك . قال : فلا تفعل ، ما ظننت أن عنـدى من علم فسَلْني عنه ، فإن كنتُ أعلمه أخبرتك ... وذكر الحـديث . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ أى وَلِيّه وناصره ؛ فلا يضرّه ذلك التظاهر منهما . ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة وسعيد بن جبير : أبو بكر وعمر ؛ لأنهما أبوا عائشة وحفصة ، وقد كانا عونا له عليهما . وقيل : صالح المؤمنين عليّ رضى الله عنه . وقيـل : خيار المؤمنين . وصالح : اسم جنس كقوله تعالى : «والْعَصرِ . إن الإنسان لَفِي خُسْرٍ» ؛ قاله الطَّبَرِيّ . وقيل : «صالح المؤمنين» هم الأنبياء ؛ قاله العَلَاء بن زيادة وقتادة وسفيان . وقال ابن زيد : هم الملائكة . السُّدّى : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسـلم . وقيل : « صالح المؤمنين » ليس لفظ الواحد وإنمـا هو صالحو المؤمنين ؛ فأضاف الصالحين إلى المؤمنين ، وكتب بغير واو على اللفظ لأن لفظ الواحد والجمع واحد فيه . كما جاءت أشياء فى المصحف متنوع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : حدّثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لمـا اعتزل نبيّ الله صلى الله عليه وسـلم نساءه قال دخلت المسـجد فإذا النـاس يَنْكُتُون (١) بالحصى ويقولون : طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه — وذلك قبل أن يُؤْمَرْن بالحجاب — فقال عمر :

---

(١) أى يضربون به الأرض ؛ كفعل المهموم المفكر .

فقلت لأعلمنّ ذلك اليوم، قال فدخلتُ على عائشة فقلت : يابنة أبي بكر، أقد بلَغ من شأنك أن تؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقالت : مَالِي ومَالَكَ يابن الخطاب ! عليك بِعَيْبَتِك[(١)] ! قال فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لها : يا حفصة ، أقد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! والله لقد علمتِ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُحبّك ، ولولا أنا لطلقكِ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكت أشدّ البكاء، فقلت لها : أين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : هو فى خزانته فى الْمَشْرُبَة . فدخلت فإذا أنا بِرَباحٍ غلامِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قاعدًا على أُسْكُفَّةِ[(٢)] الْمَشْرُبَة مُدَلٍّ رجليه على نَقِيرٍ من خشب، وهو جِذع يَرْقَى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر . فناديت : يا رباح ، استأذِن لِي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلىّ فلم يقل شيئا . ثم قلت : يا رباح، استأذِن لى عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلىّ فلم يقل شيئا . ثم رفعت صوتى فقلت : يا رباح ، استأذِن لى عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنى أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظنّ أنى جئتُ من أجل حفصة ، والله لئن أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عُنُقها لأضربنّ عنقها ، ورفعتُ صوتى فأومَأَ إلىّ أن ٱرْقَهْ ؛ فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير ، فجلست فأَدْنَى عليه إزاره وليس عليه غيرُه ؛ وإذا الحصير قد أثّر فى جنبه ، فنظرت ببصرى فى خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أنا بِقَبْضَةٍ من شعيرٍ نحوِ الصاع ، ومثلِها قَرَظًا فى ناحية الغُرْفَة ؛ وإذا أَفِيقٌ[(٣)] معلّق — قال — فٱبتدرتْ عيناى ، قال : "ما يُبْكِيك يٱبن الخطاب" ؟ قلت : يا نبيّ الله ، ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثّر فى جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك قَيْصَرُ وكِسْرَى فى الثمار والأنهار وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أى عليك بوعظ بنتك حفصة . والعيبة : وعاء يجعل الانسان فيه أفضل ثيابه ونفيس متاعه ؛ فشبهت ابنته بها .

(٢) الأسكفة : العتبة . (٣) الأفيق : هو الجلد الذى لم يتم دباغه .

وصَفْوَتُه ، وهذه خزانتك ! فقال : " يابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا " قلت : بلى . قال : ودخلتُ عليه حين دخلتُ وأنا أرى في وجهه الغضب ، فقلت : يارسول الله ، ما يشقّ عليك من شأن النساء ؛ فإن كنتَ طلّقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . وقلّما تكلّمتُ — وأَحْمَدُ الله — بكلام إلا رَجَوْتُ أن يكون الله عز وجل يُصدّق قولي [الذي أقول] (١) ونزلت هذه الآية آيةُ التخيير : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » . « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » . وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصةُ تظاهران على سائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : يا رسول الله ، أطلّقتهنّ ؟ قال : " لا " . قلت : يا رسول الله ، إني دخلت المسجد والمسلمون يَنْكُتُون بالحصى يقولون : طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن ؟ قال : "نعم إن شئتَ" . فلم أزل أحدّثه حتى تحسّر الغضبُ عن وجهه ، وحتى كشر (٢) فضحك ، وكان من أحسن الناس ثَغْرًا . ثم نزل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ونزلتُ ؛ فنزلتُ أتشبّث بالجذع ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما يمشي على الأرض ما يمسّه بيده . فقلت : يا رسول الله ، إنما كنتَ في الغرفة تسعاً وعشرين . قال : " إن الشهر يكون تسعا وعشرين " فقمتُ على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي : لم يطلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه . ونزلت هذه الآية : « وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » . فكنت أنا استنبطتُ ذلك الأمرَ ؛ وأنزل الله آية التخيير .

قوله تعالى : ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ فيه لغات تقدّمت في سورة « البقرة » (٣) . ويجوز أن يكون معطوفا على « مولاه » والمعنى : الله وَلِيُّه وجبريلُ وليُّه ؛ فلا يوقف على « مولاه » ويوقف على «جبريل» ويكون « وصالحُ المؤمنين » مبتدأ « والملائكةُ » معطوفًا عليه . و«ظَهِيرٌ» خبرا ؛

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) أي أبدى أسنانه تبسما . (٣) راجع ج ٢ ص ٣٧ .

وهو بمعنى الجمع . وصالح المؤمنين أبو بكر؛ قاله المسيّب بن شريك . وقال سعيد بن جبير : عمر . وقال عكرمة : أبو بكر وعمر . وروى شقيق عن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : « فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ » قال : إن صالح المؤمنين أبو بكر وعمر . وقيل : هو علىّ . عن أسماء بنت عُمَيْس قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " « وصالِحُ المؤمِنِين » علىّ بن أبى طالب " . وقيل غير هذا مما تقدم القول فيه . ويجوز أن يكون « وجبريل » مبتدأ وما بعده معطوفا عليه . والخبر « ظهير » وهو بمعنى الجمع أيضا . فيوقف على هذا على « مولاه » . ويجوز أن يكون « جبريل وصالح المؤمنين » معطوفا على « مولاه » فيوقف على « المؤمنين » ويكون « والملائكة بعد ذلك ظهير » ابتداء وخبرا . ومعنى «ظهير» أعوان . وهو بمعنى ظهراء؛ كقوله تعالى : « وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا »[(١)] . وقال أبو علىّ : قد جاء فعيل للكثرة كقوله تعالى : « ولا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ »[(٢)] . وقيل : كان التظاهر منهما فى التحكّم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى النفقة ، ولهذا آلى منهنّ شهرا واعتزلهنّ . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأُذِن لأبى بكر فدخل ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأُذِن له ، فوجد النبىّ صلى الله عليه وسلم جالسا حَوْله نساؤه واجمًا ساكتا — قال — فقال لأقولنّ شيئا أُضحك النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال : يا رسول الله ، لو رأيتَ بنتَ خارجة سألتنى النفقة فقمتُ إليها فوجَأْتُ عُنُقَها؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " هُنّ حَوْلِى كما ترى يسألْنَنِى النفقة " . فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها؛ وقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها؛ كلاهما يقول : تَسْأَلْنَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدًا ليس عنده . ثم اعتزلهن شهرا أو تسعًا وعشرين . ثم نزلت عليه هذه الآية : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ — حتى بلغ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » الحديث . وقد ذكرناه فى سورة « الأحزاب »[(٣)] .

(١) آية ٦٩ سورة النساء . (٢) آية ١٠ سورة المعارج . (٣) راجع جـ ١٤ ص ١٦٢

قوله تعالى : عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ﴾ قد تقدم في الصحيح أن هذه الآية نزلت على لسان عمر رضى الله عنه (١) . ثم قيل : كل « عَسَى » في القرآن واجبٌ ؛ إلا هذا . وقيل : هو واجب ولكن الله عز وجل علّقه بشرط وهو التطليق ولم يطلّقهن . ﴿ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ لأنكن لو كنتن خيرًا منهن ما طلّقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه السُّدّى . وقيل : هذا وَعْدٌ من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، لو طلّقهن في الدنيا أن يزوّجه في الدنيا نساء خيرا منهن . وقرئ « أن يبدله » بالتشديد والتخفيف . والتبديل والإبدال بمعنًى ؛ كالتنزيل والإنزال . والله كان عالما بأنه كان لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته ؛ على أنه إن طلقهن أبدله خيرًا منهن تخويفًا لهن . وهو كقوله تعالى : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » (٢) . وهو إخبار عن القدرة وتخويفٌ لهم ؛ لا أن في الوجود من هو خير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ يعني مُخْلِصات ؛ قاله سعيد بن جُبير . وقيل : معناه مسلمات لأمر الله تعالى وأمر رسوله . ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مصدّقات بما أُمِرن به ونُهِين عنه . ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ مطيعات . والقنوت : الطاعة . وقد تقدم (٣) . ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ أي من ذنوبهن ؛ قاله السُّدّى . وقيل : راجعات إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركات لمحابّ أنفسهن . ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ أي كثيرات العبادة لله تعالى . وقال ابن عباس : كلّ عبادة في القرآن فهو التوحيد . ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات ؛ قاله ابن عباس والحسن وابن جُبير . وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ويمَان : مهاجرات . قال زيد : وليس في أمّة محمد صلى الله عليه وسلم

(١) راجع ص ١٩١ من هذا الجزء . (٢) آخر سورة محمد .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٨٦ وجـ ٣ ص ٢١٣ .

سياحة إلا الهجرة . والسِّياحة الجَوَلان في الأرض . وقال الفرّاء والقُتَبِيّ وغيرهما : سُمِّيَ الصائم سائحًا لأن السائح لا زاد معه ، وإنما يأكل من حيث يجد الطعام . وقيل : ذاهبات في طاعة الله عز وجل ؛ من ساح الماء إذا ذهب . وقد مضى في سورة « براءة »(١) والحمد لله . ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أي منهن ثَيِّبٌ ومنهن بِكْرٌ . وقيل : إنما سُمِّيَت الثَّيِّب ثَيِّبًا لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام معها ، أو إلى غيره إن فارقها . وقيل : لأنها ثابت إلى بيت أبويها . وهذا أصح ؛ لأنه ليس كل ثَيِّب تعود إلى زوج . وأما البِكْر فهي العذراء ؛ سُمِّيَت بِكْرًا لأنها على أوّل حالتها التي خُلقت بها . وقال الكلبي : أراد بالثيب مثلَ آسية امرأة فرعون ، وبالبكر مثل مريم بنة عمران .

قلت : وهذا إنما يمشي على قول من قال : إن التبديل وعدٌ من الله لنبيّه لو طلّقهنّ في الدنيا زوّجه في الآخرة خيرا منهن . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

فيه مسألة واحدة — وهي الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهلَه النار . قال الضحاك : معناه قُوا أنفسكم ، وأهلوكم فلْيَقُوا أنفسهم نارا . وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : قُوا أنفسكم وأْمُرُوا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يَقِيَهم الله بكم . وقال عليّ رضي الله عنه وقتادة ومجاهد : قُوا أنفسكم بأفعالكم وقُوا أهليكم بوصيّتكم . ابن العربي : وهو الصحيح ، والفقه الذي يعطيه العطف الذي يقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في معنى الفعل ؛ كقوله :

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وماءً باردًا(٢) *

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦٩ . (٢) رجز مشهور لم يعرف قائله ، وتمامه :

* حتى شتت همالة عيناها *

راجع كتاب الإنصاف وشرح الشواهد . وجـ ٦ ص ٩٥ من هذا الكتاب .

وكقـــوله :

ورأيتُ زَوْجَك فى الوَغَى * متقـــلّدًا ســـيفًا ورُمْحا

فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعى للرعية . ففى صحيح الحديث أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : "كلّكم راعٍ وكلكم مسئول عن رَعيّته فالإمام الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عنهم والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم" . وعن هذا عبّر الحسن فى هذه الآية [بقوله :] يأمرهم وينهاهم . وقال بعض العلماء : لمـا قال « قُوا أنفسكم » دخل فيه الأولاد ؛ لأن الولد بعض منه . كما دخل فى قوله تعـالى : « وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ »(١) فلم يُفْرِدُوا بالذّكر إفراد سائر القرابات . فيعلّمه الحلال والحرام، ويجنّبه المعاصى والآثام؛ إلى غير ذلك من الأحكام . وقال عليه السلام : "حَقُّ الولد على الوالد أن يحسن ٱسمــه ويعلّمه الكتابة ويزوّجه إذا بلغ" . وقال عليه الســـلام : "ما نَحَلَ والدٌ ولدًا أفضل من أدب حسن" . وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسبعٍ وٱضربوهم عليها لعشر وفرّقوا بينهم فى المضاجع". خرّجه جماعة من أهل الحديث . وهــذا لفظ أبى داود . وخرّج أيضا عن سَمُرة بن جُنْدُب قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "مُرُوا الصّبِىَّ بالصلاة إذا بلغ ســبع سنين فاذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها" . وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب ؛ مستندا فى ذلك إلى رؤية الهلال . وقد روى مسلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أَوْتَر يقول : "قومى فأَوْتِرِى ياعائشة". وروى أن النبىّ صلى الله غليه وسلم قال : "رحم الله ٱمرأً قام من الليل فصلّى فأيقظ أهله فان لم تقم رَشّ وجهها بالمـاء . رحم الله امرأة قامت من الليل تُصَلّى وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رَشّت على وجهه من المـاء". ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : "أيقظوا صواحب الحُجَر" . ويدخل هذا فى عموم قوله تعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ »(٢) . وذكر القُشيرى أن عمر رضى الله عنه قال لمـا نزلت هذه الآية : يا رسول

---

(١) آية ٦١ سورة النور . راجع جـ ١٢ ص ٣١٤ (٢) آية ٢ ســورة المـائدة . راجع جـ ٦ ص ٤٦

الله، نَقِي أنفسنا ، فكيف لنا بأهلينا ؟ . فقال: " تنهونهم عمّا نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله".
وقال مقاتل : ذلك حق عليه فى نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه . قال الكِيَا : فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدّين والخير، وما لا يُستغنى عنه من الأدب . وهو قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا »(١) . ونحو قوله تعـالى للنبيّ صلى الله عليه وسـلم : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »(٢) . وفى الحديث : "مُرُوهم بالصلاة وهم أبناء سَبْع". ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ تقدّم فى سورة « البقرة » القول فيه(٣) . ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يعنى الملائكة الزّبانية غِلاظ القلوب لا يرحمون إذا ٱسْتُرْحِمُوا ، خُلقوا من الغضب، وحُبّب إليهم عذاب الخلق كما حُبّب لبنى آدم أكل الطعام والشراب . ﴿شِدَادٌ﴾ أى شداد الأبدان . وقيل : غِلاظُ الأقوال شداد الأفعال . وقيل : غِلاظٌ فى أخذهم أهل النار شدادٌ عليهم . يقال : فلان شديد على فلان؛ أى قَوِيّ عليه يعـذّبه بأنواع العذاب . وقيل : أراد بالغلاظ ضخامة أجسامهم ، وبالشدّة القوّة . قال ابن عبـاس : ما بين مَنْكِبَي الواحد منهم مسيرةُ سـنة ، وقوّة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم . وذكر ابن وهب قال : وحدّثنا عبد الرحمن بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خَزَنة جهنم : " ما بين مَنْكِبَي أحدهم كما بين المشرق والمغرب " .

قوله تعالى : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أى لا يخالفونه فى أمره من زيادة أو نقصان . ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أى فى وقته، فلا يؤخرونه ولا يقدّمونه . وقيل أى لذّتهم فى امتثال أمر الله ؛ كما أن سرور أهل الجنة فى الكون فى الجنة ؛ ذكره بعض المعتزلة . وعندهم أنه يستحيل التكليف غدا . ولا يخفى معتقد أهل الحق فى أن الله يكلف العبـد اليوم وغدا، ولا ينكر التكليف فى حق الملائكة . ولله أن يفعل ما يشاء .

---

(١) آية ١٣٢ سورة طه . راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ (٢) آية ٢١٤ سورة الشعراء . راجع جـ ١٣ ص ١٤٣
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٣٥

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ فإن عذركم لا ينفع . وهذا النهى لتحقيق اليأس . ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا . ونظيره « فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ »(١) . وقد تقدّم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أمرٌ بالتوبة ، وهى فرض على الأعيان فى كل الأحوال وكل الأزمان . وقد تقدّم بيانها والقول فيها فى « النساء »(٢) وغيرها .
﴿ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب فى التوبة النّصوح على ثلاثة وعشرين قولا ؛ فقيل : هى التى لا عَوْدة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضَّرع . وروى عن عمر وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب ومُعاذ بن جبل رضى الله عنهم . ورفعه معاذ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : النَّصُوح الصادقةُ الناصحة . وقيل الخالصة ؛ يقال : نصح أى أخلص له القول . وقال الحسن : النَّصُوح أن يُبْغِض الذنب الذى أحبه ويستغفر منه إذا ذكره . وقيل : هى التى لا يثق بقبولها ويكون على وَجَل منها . وقيل : هى التى لا يحتاج

(١) آية ٥٧ سورة الروم . راجع جـ ١٤ ص ٤٩ (٢) راجع جـ ٥ ص ٩٠

معها إلى توبة . وقال الكلبي : التوبة النصوح النّدم بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والإقلاع عن الذنب ، والاطمئنان على أنه لا يعود . وقال سعيد بن جُبير : هي التوبة المقبولة؛ ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط : خوف ألا تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعات . وقال سعيد بن المسيّب : توبة تنصحون بها أنفسكم . وقال القرظي : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العَوْد بالجَنَان، ومهاجرة سيّئ الخلّان . وقال سفيان الثّوْرى : علامة التوبة النصوح أربعة : القلّة والعِلّة والذّلة والغُرْبة . وقال الفُضَيل بن عياض : هو أن يكون الذنب بين عينيه ، فلا يزال كأنه ينظر إليه . ونحوه عن ابن السّماك : أن تَنْصِب الذنب الذى أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعدّ لمنتظرك . وقال أبو بكر الورّاق : هو أن تضيق عليك الأرض بما رَحُبَت ، وتضيق عليك نفسك ؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا (١) . وقال أبو بكر الواسطي : هي توبة لا لفقد عِوَض؛ لأن من أذنب في الدنيا لرَفَاهِيَة نفسه ثم تاب طلباً لرفاهيتها في الآخرة ؛ فتوبته على حفظ نفسه لا لله . وقال أبو بكر الدّقاق المصرى : التوبة النصوح هي ردّ المظالم ، واستحلال الخصوم ، وإدمان الطاعات . وقال رُوَيْم : هو أن تكون لله وجهاً بلا قَفَا ، كما كنت له عند المعصية قَفًا بلا وجه . وقال ذو النُّون : علامة التوبة النصوح ثلاث : قِلّة الكلام، وقِلّة الطعام ، وقِلّة المنام . وقال شقيق : هو أن يكثر صاحبها لنفسه الملامة ، ولا ينفكّ من الندامة ؛ لينجُوَ من آفاتها بالسلامة . وقال سَرِى السَّقَطِى : لا تصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين ؛ لأن من صحت توبته أحبّ أن يكون الناس مثله . وقال الجُنَيْد : التوبة النصوح هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبدا ؛ لأن من صحت توبته صار مُحِبًّا لله ، ومن أحبّ الله نَسِيَ ما دون الله . وقال ذو الأُذُنين (٢) : هو أن يكون

(١) الثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، مرارة بن ربيعة العامرى ، هلال بن أمية الواقفى . راجع جـ ٨ ص ٢٨٢ من هذا الكتاب . وجـ ٢ ص ٩٠٧ من سيرة ابن هشام طبع أوربا .

(٢) ذو الأذنين : لقب أنس بن مالك رضى الله عنه ؛ قال له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . قيل : معناه الحض على حسن الاستماع والوعى . وقيل : إن هذا القول من جملة مزحه صلوات الله وسلامه عليه .

لصاحبها دَمْعٌ مسفوح ، وقلبٌ عن المعاصي جَمُوح . وقال فتح المَوْصِلِيّ : علامتها ثلاث : مخالفة الهوى ، وكثرة البكاء ، ومكابدة الجوع والظمأ . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : هي التوبة لأهل السنة والجماعة؛ لأن المبتدع لا توبة له؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : "حجب الله على كل صاحب بدعة أن يتوب" . وعن حُذَيْفَة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه . وأصل التوبة النصوح من الخلوص؛ يقال : هذا عَسَلٌ ناصح إذا خَلَص من الشَّمْع . وقيل : هي مأخوذة من النِّصاحة وهي الخياطة . وفي أخذها منها وجهان : أحدهما — لأنها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته ويوثقه . والثاني — لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء الله وألصقته بهم؛ كما يجمع الخياط الثوب ويُلصق بعضه ببعض . وقراءة العامة « نَصُوحًا » بفتح النون ، على نعت التوبة؛ مثل آمرأة صبور ، أي توبة بالغة في النصح . وقرأ الحسن وخارجة وأبو بكر عن عاصم بالضم؛ وتأويله على هذه القراءة : توبةُ نصح لأنفسكم . وقيل : يجوز أن يكون «نُصُوحًا» ، جمع نُصح ، وأن يكون مصدرا؛ يقال : نصح نصاحة ونُصوحا . وقد يتفق فعالة وفعول في المصادر؛ نحو الذَّهاب والذُّهوب . وقال المبرّد : أراد توبة ذات نُصح؛ يقال : نصحت نصحًا ونَصاحة ونُصوحا .

الثانية — في الأشياء التي يُتاب منها وكيف التّوبة منها . قال العلماء : الذنب الذي تكون منه التوبة لا يخلو؛ إما أن يكون حقًّا لله أو للآدميّين . فإن كان حقا لله كترك صلاة فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى النّدم قضاءُ ما فات منها . وهكذا إن كان ترك صوم أو تفريطا في الزكاة . وإن كان ذلك قتلَ نفس بغير حق فأن يُمَكِّن من القصاص إن كان عليه وكان مطلوبًا به . وإن كان قذفًا يوجب الحدّ فيبذل ظهره للجلد إن كان مطلوبا به ، فإن عَفِيَ عنه كفاه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص . وكذلك إن عُفِيَ عنه في القتل بمال فعليه أن يؤدّيَه إن كان واجدًا له؛ قال الله تعالى : « فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ »(1) . وإن كان ذلك حَدًّا من حدود الله — كائنًا ما كان — فإنه

(1) آية ١٧٨ سورة البقرة .

إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح سقط عنه . وقد نصّ الله تعالى على سقوط الحدّ عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم . وفى ذلك دليل على أنها لا تسقط عنهم إذا تابوا بعد القدرة عليهم ؛ حسب ما تقدّم بيانه (١) . وكذلك الشُّرّاب والسُّراق والزُّناة إذا أصلحوا وتابوا وعُرِف ذلك منهم ، ثم رُفِعوا إلى الإمام فلا ينبغى له أن يحدّهم . و إن رُفِعوا إليه فقالوا : تُبْنا ؛ لم يتركوا ، وهم فى هذه الحالة كالمحاربين إذا غُلِبوا . هذا مذهب الشافعىّ . فإن كان الذنب من مظالم العباد فلا تصحّ التوبة منه إلا بردّه الى صاحبه والخروج عنه — عَيْنًا كان أو غيره — إن كان قادرا عليه؛ فإن لم يكن قادرا فالعزم أن يؤدّيَه إذا قَدَر فى أعجل وقت وأسرعه . و إن كان أضرّ بواحد من المسلمين وذلك الواحد لايشعر به أو لايدرى من أين أتى ، فإنه يزيل ذلك الضرر عنه، ثم يسأله أن يعفوَ عنه و يستغفر له ؛ فإذا عفا عنه فقد سقط الذنب عنه . وإن أرسل من يسأل ذلك له ، فعفا ذلك المظلوم عن ظالمه — عَرَفه بعينه أو لم يعرفه — فذلك صحيح . وإن أساء رجل إلى رجل بأن فَزّعه بغير حق ، أو غَمّه أو لطمه ، أو صفعه بغير حق ، أو ضربه بسوط فآلمه ؛ ثم جاءه مستعفيًا نادمًا على ما كان منه ، عازمًا على ألا يعود ، فلم يزل يتذلّل له حتى طابت نفسه فعفا عنه ؛ سقط عنه ذلك الذنب . وهكذا إن كان شانَه بشتم لا حدّ فيه .

قوله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ « عسى » من الله واجبة . وهو معنى قوله عليه السلام : "التائب من الذنب كمن لا ذنب له" . و «أن» فى موضع ... (٢)

قوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ ﴾ معطوف على « يكفِّر » . وقرأ ابن أبى عَبْلة « ويُدْخِلْكُمْ » مجزومًا، عطفًا على محل عسى أن يكفّر . كأنه قيل : تُوبُوا يوجب تكفير سيئاتكم و يدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ ﴾ العامل فى «يوم» : «يدخلكم» أو فعل مضمر . ومعنى « يُخْزِى » هنا يعذّب؛ أى لا يعذّبه ولا يعذّب الذين آمنوا معه .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٧٤ (٢) بياض فى جميع نسخ الأصل .

﴿ نُورُهُم يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ تقدم فى سورة «الحديد»[1] . ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين؛ حسب ما تقدّم بيانه فى سورة « الحديد »[2] .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ فيه مسألة واحدة — وهو التشديد فى دين الله . فأمره أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله . والمنافقين بالغِلْظة و إقامة الحجة ، وأن يعرّفهم أحوالهم فى الآخرة ، وأنهم لا نور لهم يَجُوزون به الصراط مع المؤمنين . وقال الحسن : أى جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ؛ فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود . وكانت الحـدود تقام عليهم . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ يرجع إلى الصِّنفين . ﴿ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعـالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

ضرب الله تعـالى هذا المَثَل تنبيهاً على أنه لا يُغْنِي أحدٌ فى الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرّق بينهما الدين . وكان اسم امرأة نوح والهة ، واسم امرأة لوط والعة ؛ قاله مقاتل . وقال الضحاك عن عائشة رضى الله عنهـا : إن جبريل نزل على النبيّ صلى الله عليـه وسـلم فأخبره أن اسم امرأة نوح واغلة واسم امرأة لوط والهـة . ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ قال عكرمة

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٣ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥

والضحاك : بالكفر . وقال سليمان بن رقية[1] عن ابن عباس : كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون . وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه . وعنه : ما بغت امرأة نبيّ قط . وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيريّ . إنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين . وقيل : كانتا منافقتين . وقيل : خيانتهما النميمة إذا أوحى [الله] إليهما شيئا أفشتاه إلى المشركين ؛ قاله الضحاك . وقيل : كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخّنت لتُعْلِم قومها أنه قد نزل به ضيف ؛ لما كانوا عليه من إتيان الرجال . ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما — لمّا عَصَتا — شيئا من عذاب الله؛ تنبيهاً بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة لا بالوسيلة . ويقال : إن كفار مكة استهزءوا وقالوا : إن محمدا صلى الله عليه وسلم يشفع لنا ؛ فبيّن الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفّار مكة وإن كانوا أقرباء ، كما لا تنفع شفاعةُ نوح لامرأته وشفاعةُ لوط لامرأته ، مع قربهما لهما لكفرهما . وقيل لهما : « ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ » في الآخرة ؛ كما يقال لكفار مكة وغيرهم . ثم قيل : يجوز أن تكون « امرأة نوح » بدلًا من قوله : « مَثَلًا » على تقدير حذف المضاف ؛ أي ضرب الله مثلاً مثلَ امرأة نوح . ويجوز أن يكونا مفعولين .

قوله تعالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾ واسمها آسية بنت مزاحم . قال يحيى بن سلام : قوله « ضرب الله مثلًا للذين كفروا » مَثَلٌ ضربه الله يحذّر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ضرب لهما مَثَلًا بامرأة فرعون ومريم بنة عمران ؛ ترغيباً في التمسك بالطاعة والثبات على الدين .

(١) في بعض نسخ الأصل : « قتة » . وفي تفسير الطبري : « قيس » .

وقيل : هــذا حَثٌّ للؤمنين على الصبر فى الشدة ؛ أى لاتكونوا فى الصبر عند الشدة أضعفَ من امرأة فرعون حين صَـبَرت على أذى فرعون . وكانت آسـية آمنت بموسى . وقيل : هى عمة موسى آمنت به . قال أبو العالية : اطّلع فرعون على إيمـان امرأته فخرج على الملأ فقال لهــم : ما تعلمون من آسية بنة مزاحم ؟ فأثْنَوا عليهـا . فقال لهــم : إنها تعبد رَبًّا غيرى . فقالوا له : اقتلها . فأوْتد لها أوتادا وشدّ يديها ورجليها فقالت : ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ﴾ ووافق ذلك حضور فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة . فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ! إنا نعــذبها وهى تضحك ؛ فقبض روحها . وقال سَـلْمان الفارسى فيما روى عنه عثمان النَّهْدىّ : كانت تعذَّب بالشمس ، فإذا أذاها حَرُّ الشمس أظلّتها الملائكة بأجنحتها . وقيل : سمّر يديها ورجليها فى الشمس ووضع على ظهرها رَحًى ؛ فأطلعها الله حتى رأت مكانها فى الجنــة . وقيــل : لمــا قالت « رَبِّ ٱبْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًـا فِى الْجَنَّةِ » أُرِيَت بيتهـا فى الجنــة يُبْنَى . وقيل : إنه من دُرّة ؛ عن الحسن . ولمـا قالت : ﴿ وَنَجِّنِى ﴾ نجاها الله أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة ، فهى تأكل وتشرب وتتنعّم . ومعنى ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ تعنى بالعمل الكفر . وقيل : من عمله من عذابه وظلمه وشماتته . وقال ابن عباس : الجماع . ﴿وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال الكلبى : أهل مصر . مقاتل : القبط . قال الحسن وابن كَيْسان : نجاها الله أكرم نجاة ، ورفعها إلى الجنة ، فهى فيها تأكل وتشرب .

قوله تعـالى : وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ﴾ أى واذكر مريم . وقيل : هو معطوف على امرأة فرعون . المعنى : وضرب الله مَثَلًا لمريم بنة عمران وصبرها على أذى اليهود . ﴿ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى عن الفواحش . وقال المفسرون : إنه أراد بالفرج هنـا الجيب ؛ لأنه قال : « فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا » وجبريل عليه السلام إنما نفخ فى جَيْبها ولم ينفخ فى فرجها . وهى

فى قراءة أبىّ « فنفخنا فى جَيْبها من رُوحِنا » . وكل خرق فى الثوب يسمى جَيْباً ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ »(١) . ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح فى جيبها . ومعنى ﴿ فَنَفَخْنَا ﴾ أرسلنا جبريل فنفخ فى جيبها ﴿ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أى رُوحاً من أرواحنا وهى روح عيسى . وقد مضى فى آخر سورة « النساء »(٢) بيانه مستوفًى والحمد لله . ﴿ وصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ قراءة العامة « وصدّقت » بالتشديد . وقرأ حُميد والأموى « وصدَقت » بالتخفيف . ﴿ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ قول جبريل لها « إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ »(٣) الآية . وقال مقاتل : يعنى بالكلمات عيسى وأنه نبىّ وعيسى كلمة الله . وقد تقدم(٤) . وقرأ الحسن وأبو العالية «بِكَلِمَةِ رَبِّها وَكِتَابِهِ» . وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم «وكُتُبِه» جمعاً . وعن أبى رجاء «وكُتْبِه» مخفف التاء . والباقون «بكتابه» على التوحيد . والكتاب يراد به الجنس ؛ فيكون فى معنى كل كتاب أنزل الله تعالى . ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ أى من المطيعين . وقيل : من المصلّين بين المغرب والعشاء . وإنما لم يقل من القانتات ؛ لأنه أراد وكانت من القوم القانِتين . ويجوز أن يرجع هذا إلى أهل بيتها ؛ فإنهم كانوا مطيعين لله . وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لخديجة وهى تجود بنفسها : " أتكرهين ما قد نزل بك ولقد جعل الله فى الكره خيرا فإذا قدمت على ضَرّاتك(٥) فأقرئيهن منى السلام مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكليمة(٦) — أو قال حكيمة(٧) — بنت عمران أخت موسى بن عمران ". فقالت : بالرفاء والبنين يارسول الله . وروى قتادة عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "حسبك من نساء العالمين أربع مريم بنة عمران وخديجة بنت خُوَيْلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون بنت مزاحم ". وقد مضى فى " آل عمران " الكلام فى هذا مستوفى والحمد لله .

---

(١) آية ٦ سورة ق . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢

(٣) آية ١٩ سورة مريم . راجع جـ ١١ ص ٩١ (٤) راجع جـ ٤ ص ٨٣

(٥) أخرج الطبرانى عن سعد بن جنادة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى » . (٦) فى بعض نسخ الأصل : « كلمة » .

(٧) فى بعض نسخ الأصل : « حليمة » .

سورة المُلْك

مكّية في قول الجميع . وتُسَمَّى الواقية والمُنْجِيَة . وهي ثلاثون آية

روى الترمذى عن ابن عباس قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خِباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ؛ فإذا قبر إنسان يقرأ سورة « المُلْك » حتى ختمها ؛ فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ؛ فاذا قبر إنسان يقرأ سورة « الملك » حتى ختمها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هى المانعة هى المُنْجِية تنجيه من عذاب القبر". قال : حديث حسن غريب . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وَدِدْت أن « تبارك الذى بيده الملك » فى قلب كل مؤمن " ذكره الثعلبى . وعن أبى هريرة قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى أخرجته من النار يوم القيامة وأدخلته الجنة وهى سورة « تبارك »" . خرّجه الترمذى بمعناه ، وقال فيه : حديث حسن . وقال ابن مسعود : إذا وُضع الميّت فى قبره فيؤتَى من قِبَل رجليه ، فيقال : ليس لكم عليه سبيل ، فإنه كان يقوم بسورة « الملك » على قدميه . ثم يؤتَى من قِبَل رأسه ، فيقول لسانه : ليس لكم عليه سبيل ، إنه كان يقرأ بى سورة « الملك » ثم قال : هى المانعة من عذاب الله ، وهى فى التوراة : سورة « الملك » من قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطيب . وروى أن من قرأها كل ليلة لم يضرّه الفتّان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

﴿ تَبَارَكَ ﴾ تَفاعل من البركة . وقد تقدّم (١) . وقال الحسن : تقدّس . وقيل دام . فهو الدائم الذى لا أوّل لوجوده ولا آخر لدوامه . ﴿ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ أى ملك السموات

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣

والأرض فى الدنيا والآخرة . وقال ابن عباس : بيده الملك يُعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء ، ويحيي ويميت ، ويُغني ويُفقر ، ويُعطي ويمنع . وقال محمد بن إسحاق : له ملك النبوة التى أعزّ بها من اتبعه وذلّ بها من خالفه . ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إنعام وانتقام .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ﴾ قيل : المعنى خلقكم للموت والحياة؛ يعني للموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة. وقدم الموت على الحياة؛ لأن الموت إلى القهر أقرب؛ كما قدّم البنات على البنين فقال : «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا»(١) . وقيل قدّمه لأنه أقدم ؛ لأن الأشياء فى الابتداء كانت فى حكم الموت كالنُّطْفة والتراب ونحوه . وقال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله تعالى أذلّ بنى آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار مَوْت وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء" . وعن أبى الدَّرْدَاء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه الفقر والمرض والموت و إنه مع ذلك لَوَثّاب".

المسألة الثانيـة : ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ﴾ قـدّم الموت على الحياة؛ لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل مَن نصَب موته بين عينيه ؛ فقدّم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم(٢). قال العلماء : الموت ليس بعدم مَحْض ولا فناء صِرْف ؛ وإنما هو انقطاعُ تعلّق الروح بالبدن ومفارقته ، وحيلولةٌ بينهما ، وتبـدّلُ حال وانتقالٌ من دارٍ إلى دار . والحياة عكس ذلك . وحُكى عن ابن عباس والكَلْبي ومُقاتل أن الموت والحياة جسمان؛ فجعل الموت فى هيئة كبش لا يمر بشيء ولا يجد ريحه إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء — وهى التى كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها — خطوتها مدّ البصر، فوق الحمار ودون البغل؛

(١) آية ٤٩ سورة الشورى . (٢) هذه عبارة الكشاف أيضا ، وعبارة الخطيب الشربيني فى تفسيره : «وقيل إنما قدم الموت على الحياة لأن من نصب الموت بين عينيه كان أقوى الدواعى إلى العمل» .

لا تمر بشيء يجد ريحها إلا حيي، ولا تطأ على شيء إلا حيي . وهي التي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل فحيي(١) . حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس . والماوردي معناه عن مقاتل والكلبي .

قلت : وفي التنزيل « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ »(٢) ، « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ »(٣) ثم « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا »(٤) ، ثم قال : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »(٥) . فالوسائط ملائكة مكرمون صلوات الله عليهم . وهو سبحانه المميت على الحقيقة ، وإنما يمثل الموت بالكبش في الآخرة ويذبح على الصراط؛ حسب ما ورد به الخبر الصحيح . وما ذكر عن ابن عباس يحتاج إلى خبر صحيح يقطع العذر . والله أعلم . وعن مقاتل أيضا : خلق الموت؛ يعني النطفة والعلقة والمضغة ، وخلق الحياة؛ يعني خلق إنسانا ونفخ فيه الروح فصار إنسانا .

قلت : وهذا قول حسن؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وتقدم الكلام فيه في سورة «الكهف» . وقال السدي في قوله تعالى : «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» أي أكثركم للموت ذكرا وأحسن استعدادا ، ومنه أشد خوفا وحذرا . وقال ابن عمر : تلا النبي صلى الله عليه وسلم « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ — حتى بلغ — أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فقال : "أورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله" . وقيل : معنى «لِيَبْلُوَكُمْ» ليعاملكم معاملة المختبر؛ أي ليبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره ، وبالحياة ليبين شكره . وقيل : خلق الله الموت للبعث والجزاء ، وخلق الحياة للابتلاء . فاللام في «ليبلوكم» تتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت ؛ ذكره الزجاج . وقال الفراء والزجاج أيضا : لم تقع البلوى على « أي » لأن فيما بين البلوى و « أي » إضمار فعل؛ كما تقول : بلوتكم لأنظر أيكم أطوع . ومثله قوله تعالى : « سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ »(٦) أي سلهم ثم انظر أيهم . ف « أيكم » رفع بالابتداء و «أحسن» خبره . والمعنى : ليبلوكم فيعلم أو فينظر [أيكم] أحسن عملا . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ في انتقامه ممن عصاه . ﴿ الْغَفُورُ ﴾ لمن تاب .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٣٩ (٢) آية ١١ سورة السجدة . (٣) آية ٥٠ سورة الأنفال .
(٤) آية ٦١ سورة الأنعام . (٥) آية ٤٢ سورة الزمر . (٦) آية ٤٠ سورة القلم .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أى بعضها فوق بعض . والملتزق منها أطرافها ؛ كذا روى عن ابن عباس . و « طِباقًا » نعت لـ « سَبْع » فهو وصف بالمصدر . وقيـل : مصدر بمعنى المطابقة ؛ أى خلق سبع سموات وطبّقها تطبيقًا أو مطابقة . أو على طُوبقت طِباقًا . وقال سيبويه : نصب « طباقًا » لأنه مفعول ثان .

قلت : فيكون «خَلَق» بمعنى جعل وصَيَّر . وطِباق جمع طَبَق ؛ مثل جَمَل وجِمال . وقيل : جمع طبقة . وقال أبَان بن تَغْلِب : سمعت بعض الأعراب يذم رجلا فقال : شَرّه طباق ، وخيره غير باق . ويجوز فى غير القرآن سبع سموات طباقٍ ؛ بالخفض على النعت لسموات . ونظيره « وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ »[(١)] . ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ قراءة حمـزة والكسائى « مِن تَفَوُّتٍ » — بغير ألف — مشدّدة . وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه . الباقون « من تفاوت» بألف . وهما لغتان ؛ مثل التعاهد والتعهّد ، والتحمّل والتحامل ، والتظهّر والتظاهر ، وتصاغر وتصغّر ، وتضاعف وتضعّف ، وتباعد وتبعّـد ؛ كلّه بمعنًى . واختـار أبو عبيد « من تَفَوُّت » واحتج بحديث عبد الرحمن بن أبى بكر : « أمثلى يُتَفَوَّتُ عليه فى بَنَاتِه »[(٢)] ! النحاس : وهذا أمر مردود على أبى عبيد ، لأن يتفوّت يُفتات بهم . « وتفاوت » فى الآية أشبه . كما يقال تباين يقال : تفاوت الأمر إذا تباين وتباعد ؛ أى فات بعضها بعضا . ألا ترى أن قبله قوله تعالى : « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا » . والمعنى : ما ترى فى خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقض ولا تبـاين — بل هى مستقيمة مستوية دالة على خالقها — وإن اختلفت صُـوَره وصفاته . وقيـل : المراد بذلك السموات خاصـة ؛ أى ما ترى فى خلق السموات من عَيْب . وأصله من الفَوْت ، وهو أن يفوت شيء شيئا فيقع الخلل لقلة استوائها ؛

---

(١) آية ٤٦ سورة يوسف . (٢) أى يفعل فى شأنهن شيء بغير أمره . قال هذا عند ما علم أن أخته السيدة عائشة زوجت ابنته وهو غائب من المنذر بن الزبير . والرواية فى الحديث : «أمثلى يفتات» بدل «يتفوت» .

يدلّ عليه قول ابن عباس رضى الله عنه : من تفرّق . وقال أبو عبيدة : يقال تفوّت الشئ أى فات . ثم أمر بأن ينظروا فى خلقه ليعتبروا به فيتفكروا فى قدرته فقال : ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴾ أى اردد طرفك إلى السماء . ويقال : قلّب البصر فى السماء . ويقال : اجْهَدْ بالنظر إلى السماء . والمعنى متقارب . وإنما قال : « فَٱرْجِع » بالفاء وليس قبله فعل مذكور؛ لأنه قال : « ما ترى » . والمعنى انظر ثم ارجع البصر هل ترى من فطور؛ قاله قتادة . والفطور : الشقوق؛ عن مجاهد والضحاك . وقال قتادة : من خلل . السُّدّى : من خروق . ابن عباس : من وَهْن . وأصله من التّفطر والانفطار وهو الانشقاق . قال الشاعر :

بَنَى لكُمُ بِلَا عَمَدٍ سماءً * وزَيّنها فما فيها فطورُ

وقال آخر :

شَقَقْتِ القلب ثم ذَرَرْتِ فيه * هَواكِ فَلِيم فٱلتأم الفُطُورُ
تغلغل حيث لم يبلغ شرابٌ * ولا سكر ولم يبلغ سرور

قوله تعالى : ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ « كَرَّتَيْنِ » فى موضع المصدر؛ لأن معناه رجعتين؛ أى مَرّةً بعد أخرى . وإنما أمر بالنظر مرتين لأن الإنسان إذا نظر فى الشيء مَرّةً لا يرى عَيْبَه ما لم ينظر إليه مَرّةً أخرى . فأخبر تعالى أنه وإن نظر فى السماء مرتين لا يرى فيها عَيْبًا بل يتحيّر بالنظر إليها؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ أى خاشعًا صاغرًا متباعدًا عن أن يرى شيئا من ذلك . يقال : خسأت الكلبَ أى أبعدته وطردته . وخسأ الكلبُ بنفسه؛ يتعدّى ولا يتعدّى . وانخسأ الكلبُ أيضا . وخسأ بصرُه خَسْئًا وخُسوءًا أى سَدِر(١)؛ ومنه قوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا » . وقال ابن عباس :

(١) لم يكد يبصر .

الخاسئ الذى لم يرما يهوى . ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى قد بلغ الغاية فى الإعياء . فهو بمعنى فاعل؛ من الحسور الذى هو الإعياء . ويجوز أن يكون مفعولا من حسره بُعْدُ الشيء؛ وهو معنى قول ابن عباس . ومنه قول الشاعر :

مَن مَدّ طرفًا إلى ما فوق غايته * ارتدّ خَسْآنَ منه الطّرْفُ قد حَسِرا

يقال : قد حَسَر بَصَرُه يَحْسِر حُسورًا؛ أى كَلّ وانقطع نظره من طول مَدًى وما أشبه ذلك؛ فهو حسير ومَحْسور أيضا . قال :

نظرت اليها بالمُحَصَّبِ من مِنًى * فعاد إلىّ الطّرْفُ وهو حسير

وقال آخر يصف ناقة :

* فشَطْرَهَا نَظَرُ العينين محسور * (١)

نصب « شطرها » على الظرف؛ أى نحوها . وقال آخر :

والخيل شُعْثٌ ما تزال جيادُها * حَسْرَى تغادر بالطريق سخالَهَا

وقيل : إنه النادم . ومنه قول الشاعر :

ما أنا اليوم على شيءٍ خَلَا * يآ بنة القَيْنِ تَوَلَّى بِحَسِرْ

والمراد بـ«كرّتين» هاهنا التكثير . والدليل على ذلك « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » وذلك دليل على كثرة النظر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ جمع مصباح وهو السّراج . وتُسَمّى الكواكب مصابيح لإضاءتها . ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا ﴾ أى جعلنا شُهُبَهَا؛ فحذف المضاف .

(١) هذا عجز بيت لقيس بن خويلد الهذلى . وصدره : * إن العسير بها داء مخامرها * والعسير : الناقة التى لم ترض (لم تذلل) .

دليله « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب[1] » . وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها . وقيل : إن الضمير راجع إلى المصابيح على أن الرجم من أنفس الكواكب، ولا يسقط الكوكب نفسه إنما ينفصل منه شىء يرجم به من غير أن ينقص ضوءه ولا صورته . قاله أبو علىّ جوابا لمن قال : كيف تكون زينةً وهى رجوم لا تبقى . قال المهدوىّ : وهذا على أن يكون الاستراق من موضع الكواكب . والتقدير الأوّل على أن يكون الاستراق من الهوى الذى هو دون موضع الكواكب . القشيرىّ : وأمثل من قول أبى علىّ أن نقول : هى زينة قبل أن يرجم بها الشياطين . والرجوم جمع رجم؛ وهو مصدر سُمِّىَ به ما يرجم به . قال قتادة : خلق الله تعالى النجوم لثلاث : زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها فى البر والبحر والأوقات . فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلّف مالا علم له به، وتعدّى وظلم . وقال محمد بن كعب : والله ما لأحد من أهل الأرض فى السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا ويتخذون النجوم علة . ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ أى أعتدنا للشياطين أشدّ الحريق؛ يقال : سعرت النار فهى مسعورة وسعير؛ مثل مقتولة وقتيل . ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ .

قوله تعالى : إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إذا ألقوا فيها ﴾ يعنى الكفار . ﴿ سمعوا لها شهيقا ﴾ أى صوتاً . قال ابن عباس : الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها؛ تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفر زفرةً لا يبقى أحد إلا خاف . وقيل : الشهيق من الكفار عند إلقائهم فى النار؛ قاله عطاء . والشهيق فى الصدر، والزفير فى الحلق . وقد مضى فى سورة « هود »[2] . ﴿ وهى تفور ﴾ أى تغلى؛ ومنه قول حسّان :

تركتم قِدرَكم لاشىء فيها * وقِدرُ القوم حاميةٌ تفورُ

---

(١) آية ١٠ سورة الصافات . (٢) راجع جـ ٩ ص ٩٨

قال مجاهد : تفور بهم كما يفور الحَبّ القليل فى الماء الكثير . وقال ابن عباس : تغلى بهم على المِرْجَل ؛ وهذا من شدّة لهب النار من شدّة الغضب؛ كما تقول فلان يفور غيظًا .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ يعنى تتقطع وينفصل بعضها من بعض؛ قاله سعيد ابن جُبير . وقال ابن عباس والضحاك وابن زيد : تتفرّق . « مِنَ الْغَيْظِ » من شدّة الغيظ على أعداء الله تعالى . وقيل : « من الغيظ » من الغَلَيان . وأصل « تميّز » تتميز . ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أى جماعة من الكفار . ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ على جهة التوبيخ والتقريع . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى رسول فى الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا . ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أنذرنا وخوّفنا . ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ ﴾ أى على ألسنتكم . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ يا معشر الرسل . ﴿ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ اعترفوا بتكذيب الرسل، ثم اعترفوا بجهلهم فقالوا وهم فى النار ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ من النذر — يعنى الرسل — ما جاءوا به ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عنهم . قال ابن عباس : لو كنا نسمع الهدى أو نعقله ، أولو كنا نسمع سماع من يَعِى ويفكّر، أو نعقل عقْلَ من يميّز وينظر . ودلّ هذا على أن الكافر لم يُعْطَ من العقل شيئا . وقد مضى فى « الطُّور »(١) بيانه والحمد لله . ﴿ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ يعنى ما كنا من أهل النار . وعن أبى سعيد الخُدرىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لقد ندِم الفاجر يوم القيامة قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا

(١) راجع جـ ١٧ ص ٧٣

في أصحاب السعير فقال الله تعالى فاعترفوا بذنبهم " . أي بتكذيبهم الرسل . والذنب هاهنا بمعنى الجمع ؛ لأن فيه معنى الفعل . يقال : خرج عطاء الناس أي أعطيتهم . ﴿ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي فبعدًا لهم من رحمة الله . وقال سعيد بن جبير وأبو صالح : هو وادٍ في جهنم يقال له السُّحق . وقرأ الكسائي وأبو جعفر «فسُحُقا» بضم الحاء ، وروِيت عن عليّ . الباقون بإسكانها ، وهما لغتان مثل السُّحُت والرُّعُب . الزجاج : وهو منصوب على المصدر ؛ أي أسحقهم الله سُحْقًا ، أي باعدهم بُعْدًا . قال آمرؤ القيس :

يجول بأطراف البلاد مُغَرِّبًا * وتَسْحَقُه ريح الصَّبا كُلَّ مَسْحَقِ

وقال أبو عليّ : القياس إسحاقا ؛ فجاء المصدر على الحذف ؛ كما قيل :

* وإن أهلك فذلك كان قدري *

أي تقديري . وقيل إن قوله تعالى « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » من قول خزنة جهنم لأهلها .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ نظيره « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ » وقد مضى الكلام فيه (١) . أي يخافون الله ويخافون عذابه الذي هو بالغيب ؛ وهو عذاب يوم القيامة . ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به الخبر ؛ يعني إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد صلى الله عليه وسلم أو جهرتم به فـ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٠

يعنى بما فى القلوب من الخير والشر . ابن عباس : نزلت فى المشركين كانوا ينالون من النبىّ صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل عليه السلام؛ فقال بعضهم لبعض : أسِرّوا قولكم كى لا يسمع ربّ محمد؛ فنزلت : «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ» . يعنى : أسِرّوا قولكم فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل فى سائر الأقوال . أوِ ٱجْهَرُوا بِهِ؛ أعلنوه . ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ذات الصدور ما فيها؛ كما يسمّى ولد المرأة وهو جنين «ذا بطنها» . ثم قال : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعنى ألا يعلم السرّ من خلق السرّ . يقول أنا خلقت السر فى القلب أفلا أكون عالما بما فى قلوب العباد . وقال أهل المعانى : إن شئت جعلت «مَن» ٱسما للخالق جلّ وعز؛ ويكون المعنى : ألا يعلم الخالقُ خلقَه . وإن شئت جعلته ٱسمًا للمخلوق ، والمعنى : ألا يعلم الله مَن خلق . ولا بدّ أن يكون الخالق عالما بما خلقه وما يخلقه . قال ابن المسيّب : بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع فى نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق ؟ فنودى من جانب الغَيْضة بصوت عظيم : ألَا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ! . وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراينى : من أسماء صفات الذات ما هو للعلم؛ منها «العليم» ومعناه تعميم جميع المعلومات . ومنها «الخبير» ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون . ومنها «الحكيم» ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف . ومنها «الشهيد» ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر، ومعناه ألا يغيب عنه شىء . ومنها «الحافظ» ويختص بأنه لا ينسى . ومنها «المُحْصِى» ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم؛ مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق؛ فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة . وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق، وقد قال «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أى سهلة تستقرّون عليها . والذَّلُول المنقاد الذى يَذِلّ لك؛ والمصدر الذُّلّ وهو اللين والانقياد . أى لم يجعل الأرض بحيث يمتنع

المشى فيها بالحُزونة والغلظة . وقيل : أى ثبّتها بالجبال لئلا تزول بأهلها ؛ ولو كانت تتكفأ متمائلة لما كانت منقادة لنا . وقيل أشار الى التمكن من الزرع والغرس وشَقّ العيون والأنهار وحفر الآبار . ﴿فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾ هو أمر إباحة ، وفيه إظهار الامتنان . وقيل : هو خبر بلفظ الأمر ؛ أى لكى تمشوا فى أطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها . وقال ابن عباس وقتادة وبشير بن كعب : « فى مناكبها » فى جبالها . ورُوِىَ أن بشير بن كعب كانت له سُرِّيّة فقال لها : إن أخبرتنى ما مناكب الأرض فأنت حرّة ؟ فقالت : مناكبها جبالها . فصارت حرة ، فأراد أن يتزوّجها فسأل أبا الدرداء فقال : دَعْ ما يريبك الى ما لا يريبك . مجاهد : فى أطرافها . وعنه أيضا فى طرقها وفجاجها . وقاله السُّدّى والحسن . وقال الكلبى : فى جوانبها . ومَنْكِبَا الرجل : جانباه . وأصل المَنْكِب الجانب؛ ومنه مَنْكِب الرجل . والريح النكباء . وتَنَكّب فلان عن فلان . يقول : آمشوا حيث أردتم فقد جعلتها لكم ذَلُولا لا تمتنع . وحكى قتادة عن أبى الجلد : أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ ؛ فللسودان آثنا عشر ألفا ، وللروم ثمانية آلاف ، وللفُرْس ثلاثة آلاف ، وللعرب ألف . ﴿وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ﴾ أى مما أحلّه لكم ؛ قاله الحسن . وقيل : مما أتيته لكم . ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ المرجع . وقيل : معناه أن الذى خلق السماء لا تفاوت فيها ، والأرضَ ذلولاً قادرٌ على أن ينشركم .

قوله تعالى : ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس : أأمنتم عذاب من فى السماء إن عصيتموه . وقيل : تقديره أأمنتم مَن فى السماء قدرتُه وسلطانُه وعرشُه ومملكتُه . وخصّ السماء وإن عَمّ مُلْكُه تنبيهًا على أن الإله الذى تنفذ قدرته فى السماء لا من يعظّمونه فى الأرض . وقيل : هو إشارة الى الملائكة . وقيل : الى جبريل وهو الملك المُوَكّل بالعذاب .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى أأمنتم خالق من فى السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون . ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أى تذهب وتجيء . والمَوْر : الاضطراب بالذهاب والمجيء . قال الشاعر :

رَمَيْنَ فأقْصَدْنَ القلوبَ ولن ترى * دمًا مائرًا إلّا جَرَى فى الحَيَازِمِ

جمع حَيْزوم وهو وسط الصدر . وإذا خُسف بإنسان دارت به الأرض فهو المَوْر . وقال المحققون : أمنتم مَن فَوْقَ السماء ؛ كقوله « فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ »(١) أى فوقها لا بالمماسّة والتحيز لكن بالقهر والتدبير . وقيل : معناه أمنتم من على السماء ؛ كقوله تعالى : « ولَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ »(٢) أى عليها . ومعناه أنه مدبّرها ومالكها ؛ كما يقال : فلان على العراق والحجاز ؛ أى واليها وأميرها . والأخبار فى هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة ، مشيرة الى العلو ، لا يدفعها إلا مُلْحِدٌ أو جاهل معاند . والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السّفل والتّحت . ووصفه بالعلوّ والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام . وإنما ترفع الأيدى بالدعاء الى السماء لأن السماء مهبط الوحى ، ومنزل القطر ، ومحل القدس ، ومعدن المطهرين من الملائكة ، وإليها ترفع أعمال العباد ، وفوقها عرشه وجنته ؛ كما جعل الله الكعبة قبلة للدعاء والصلاة ، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها ، وكان فى أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان . وهو الآن على ما عليه كان . وقرأ قُنْبُل عن ابن كَثير « النشور وامنتم » بقلب الهمزة الأولى واوا وتخفيف الثانية . وقرأ الكوفيون والبصريون وأهل الشام سوى أبى عمرو وهشام بالتخفيف فى الهمزتين ، وخفّف الباقون . وقد تقدم جميعه .

قوله تعالى : أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

---

(١) آية ٢ سورة التوبة . (٢) آية ٧١ سورة طه .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل . وقيل : ريح فيها حجارة وحَصْباء . وقيل : سحاب فيه حجارة . ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أى إنذارى . وقيل : النذير بمعنى المنذر ؛ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم فستعلمون صدقه وعاقبة تكذيبكم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى كفار الأمم ؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقومِ لوط وأصحابِ مَدْين وأصحاب الرَّسّ وقومِ فرعون . ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى إنكارى ، وقد تقدم (١) . وأثبت وَرْش الياء فى « نذيرى ، ونكيرى » فى الوصل . وأثبتها يعقوب فى الحالين . وحذف الباقون اتباعا للمصحف .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾ أى كما ذلّل الأرض للآدمى ذلّل الهواء للطيور . و « صافّات » أى باسطات أجنحتهن فى الجَوّ عند طيرانها ؛ لأنهن إذا بسطنها صَفَفْنَ قوائمها صَفًّا . ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أى يضربن بها جُنُوبَهُنّ . قال أبو جعفر النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحيه : صافّ ، و إذا ضمّهما فأصابا جَنْبَه : قابض ؛ لأنه يقبضهما . قال أبو خِرَاش :

يبادر جُنْحَ الليل فهو مُوَائل (٢) * يَحُثّ الجناح بالتّبسُّط والقَبْضِ

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٣ (٢) كذا فى نسخ الأصل . ووائل الطائر : لجأ وخلص . ووائل المكان : بادر . والذى فى ديوان أشعار الهذليين وكتب اللغة : « فهو مهابذ » والمهابذة : الإسراع .

وقيل : ويقبضن أجنحتهن بعد بسطها إذا وقفن من الطيران . وهو معطوف على «صافّاتٍ» عطف المضارع على آسم الفاعل؛ كما عُطف آسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر :

بات يُعشّيها بعَضْبٍ باتر * يَقْصِدُ في أَسْوُقِها وجائِرِ (١)

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أي ما يمسك الطير في الجو وهي تطير إلا الله عز وجل . ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ج إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : حزبٌ ومَنَعةٌ لكم . ﴿ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ فيدفع عنكم ما أراد بكم إن عصيتموه . ولفظ الجُنْد يُوحَّد ؛ ولهذا قال : « هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَكُمْ » وهو استفهام إنكار ؛ أي لا جُنْدَ لكم يدفع عنكم عذاب الله ﴿ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أي من سوى الرحمن . ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ من الشياطين ؛ تغرّهم بأن لا عذاب ولا حساب .

قوله تعالى : أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ج بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ ﴾ أي يعطيكم منافع الدنيا . وقيل المطر من آلهتكم . ﴿ إِنْ أَمْسَكَ ﴾ يعني الله تعالى رزقه . ﴿ بَلْ لَجُّوا ﴾ أي تمادَوْا وأصرّوا . ﴿ فِي عُتُوٍّ ﴾ طغيان ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ عن الحق .

---

(١) لم يعلم قائله ، وهو من الرجز المسدس . و «يعشيها» أي يطعمها العشاء . ويروى : « يغشيها » بالغين المعجمة من الغشاء كالغطاء ، أي يشملها و يعمها . وضمير المؤنث للإبل ، وهو في وصف كريم بادر بعقر إبله لضيوفه . والعضب : السيف . و « يقصد » : من القصد وهو ضد الجور . و «أسوقها» : جمع ساق ، وهو ما بين الركبة إلى القدم . و « جائر » من جار إذا ظلم ، أي يجور . (راجع خزانة الأدب في الشاهد السادس والخمسين بعد الثلثمائة) .

قوله تعالى : أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ ﴾ ضرب الله مثلا للؤمن والكافر . « مُكِبًّا » أى منكسا رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله ؛ فهو لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه . كمن يمشي سَوِيًّا معتدلا ناظرًا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله . قال ابن عباس : هذا في الدنيا ؛ ويجوز أن يريد به الأعمى الذى لا يهتدى إلى الطريق فيعتسف ؛ فلا يزال ينكبّ على وجهه . وأنه ليس كالرجل السَّوِيّ الصحيح البصير الماشي في الطريق المهتدى له . وقال قتادة : هو الكافر أكبّ على معاصي الله في الدنيا فحشره الله يوم القيامة على وجهه . وقال ابن عباس والكلبي : عَنَى بالذى يمشي مُكِبًّا على وجهه أبا جهل ، وبالذى يمشي سويًّا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . وقيل أبو بكر . وقيل حمزة . وقيل عمّار بن ياسر ؛ قاله عكرمة . وقيل : هو عام في الكافر والمؤمن ؛ أى أن الكافر لا يدرى أعلى حق هو أم على باطل . أى أهذا الكافر أهدى أو المسلم الذى يمشي سويًّا معتدلا يُبصر للطريق وهو ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الإسلام . ويقال : أكَبّ الرجل على وجهه ؛ فيما لا يتعدّى بالألف . فإذا تعدّى قيل : كَبّه الله لوجهه ؛ بغير ألف .

قوله تعالى : قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ أمر نبيّه أن يعرّفهم قُبح شركهم مع اعترافهم بأن الله خلقهم . ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يعني القلوب ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ أى لا تشكرون هذه النِّعم ، ولا توحّدون الله تعالى . تقول : قلّما أفعل كذا ؛ أى لا أفعله .

قوله تعالى : قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى خلقكم فى الأرض ؛ قاله ابن عباس . وقيل : نشركم فيها وفرّقكم على ظهرها ؛ قاله ابن شجرة . ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ حتى يجازِى كُلًّا بعمله . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى متى يوم القيامة ! ومتى هذا العذاب الذى تعِدوننا به ! وهذا استهزاء منهم . وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى قل لهم يا محمد عِلْمُ وقت قيام الساعة عند الله؛ فلا يعلمه غيره . نظيره : « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي » (٢) الآية . ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى مُخَوِّف ومُعْلِمٌ لكم .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ مصدر بمعنى مُزْدَلَفا ، أى قريبا ؛ قاله مجاهد . الحسن عِياناً . وأكثر المفسرين على أن المعنى : فلما رأوه يعنى العذاب ، وهو عذاب الآخرة . وقال مجاهد : يعنى عذاب بَدْر . وقيل : أى رأوا ما وعِدوا من الحشر قريبا منهم . ودلّ عليه « تحشرون » . وقال ابن عباس : لما رأوا عملهم السّيّء قريبا . ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى فُعِل بها السوء . وقال الزجاج : تُبُيِّن فيها السوء ؛ أى ساءهم ذلك العذاب وظهر على وجوههم سِمَةٌ تدلّ على كفرهم ؛ كقوله تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » (٣) . وقرأ نافع وابن مُحَيْصن وابن عامر والكسائى « سئت » بإشمام الضم . وكسر الباقون بغير إشمام طلباً للخفّة . ومن ضمّ لاحظ الأصل . ﴿ وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ قال الفرّاء : « تَدَّعُونَ » تفتعلون من الدعاء ؛ وهو قول أكثر العلماء . أى تمنّون وتسألون .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٤٩ (٢) آية ١٨٧ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ٣٣٥

(٣) آية ١٠٦ سورة آل عمران .

وقال ابن عباس : تكذبون ؛ وتأويله : هذا الذى كنتم من أجله تدعون الأباطيل والأحاديث ؛ قاله الزجاج . وقراءة العامة « تدّعون » بالتشديد ، وتأويله ما ذكرناه . وقرأ قتادة وابن أبي إسحاق والضحاك ويعقوب « تَدْعُون » مخففة . قال قتادة : هو قولهم « رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا »(١) . وقال الضحاك : هو قولهم «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هذا هو الحقَّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ »(٢) الآية . وقال أبو العباس : « تدعون » تستعجلون ؛ يقال دعوت بكذا إذا طلبته ، وادّعيت افتعلت منه . النحاس : « تَدَّعون وتَدْعُون » بمعنًى واحد ؛ كما يقال : قَدَر واقتدر ، وعَدَى واعْتَدَى ؛ إلا أن فى «افتعل» معنى شيء بعد شيء ، و«فَعَل» يقع على القليل والكثير .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ ﴾ أى قل لهم يا محمد — يريد مشركى مكة، وكانوا يتمنّون موت محمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ»(٣) — : أرأيتم إن مِتْنا أو رُحِمنا فأُخِّرت آجالُنا فمن يجيركم من عذاب الله ؛ فلاحاجة بكم إلى التربّص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة . وأسكن الياء فى « أهلكنى » ابنُ مُحَيْصِن والمُسَيّبي وشيبة والأعمش وحمزة . وفتحها الباقون . وكلهم فتح الياء فى « ومَنْ معىَ » إلا أهل الكوفة فإنهم سكّنوها . وفتحها حَفْص كالجماعة .

قوله تعالى : قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وعليه تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ قرأ الكسائى بالياء على الخبر ؛ ورواه عن علىّ . الباقون بالتاء على الخطاب . وهو تهديد لهم . ويقال : لم أخّر مفعول

(١) آية ١٦ سورة ص . (٢) آية ٣٢ سورة الأنفال . (٣) آية ٣٠ سورة الطور .

« آمنا » وقدّم مفعول « توكّلنا » فيقال: لِوُقوع «آمنّا» تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم . كأنه قيل آمنّا ولم نكفر كما كفرتم . ثم قال ﴿ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ خصوصًا لم نتكل على ما أنتم متّكلون عليه من رجالكم وأموالكم؛ قاله الزّمَخْشَرِيّ .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ يا معشر قريش ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أى غائرًا ذاهبًا فى الأرض لا تناله الدِّلاء . وكان ماؤهم من بئرين : بئر زمزم وبئر ميمون . ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ أى جارٍ؛ قاله قتادة والضحاك . فلابدّ لهم من أن يقولوا لا يأتينا به إلا الله؛ فقل لهم لِمَ تُشركون به من لا يقدر على أن يأتيكم . يقال : غار المـاء يَغُور غَوْراً؛ أى نَضَب . والغَوْر : الغائر؛ وُصِف بالمصدر للبالغة؛ كما تقول : رجل عَدْلٌ ورِضاً . وقد مضى فى سورة « الكهف »(١) ومضى القـول فى المعنى فى سورة « المؤمنون »(٢) والحمد لله . وعن ابن عباس : « بِمَاءٍ مَعِينٍ » أى ظاهر تراه العيون؛ فهو مفعول . وقيل : هو من مَعَن المـاءُ أى كثر؛ فهو على هذا فعيل . وعن ابن عباس أيضا : أن المعنى فمن يأتيكم بماء عَذْب . والله أعلم .

تفسير سورة « نٓ والقَـلَم »

مَكّية فى قول الحسن وعكرمـة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتـادة : من أوّلها إلى قوله تعالى : « سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ »(٣) مكّيّ . ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى : « أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »(٤) مَدَنِيّ . ومن بعد ذلك الى قوله « يَكْتُبُونَ »(٥) مَكّي . ومن بعـد ذلك الى قوله تعالى : « مِنَ الصَّالِحِينَ »(٦) مَدَنِيّ، وما بقى مَكّيّ؛ قاله المـاوَرْدِيّ .

وهى ثنتان وخمسون آية

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١١٢ (٣) آية ١٦
(٤) آية ٣٣ (٥) آية ٤٧ (٦) آية ٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ أدغم النون الثانية فى هجائها فى الواو أبو بكر والمفضّل وهُبَيرة ووَرْش وابن مُحَيْصِن وابن عامر والكسائى و يعقوب . والباقون بالإظهار . وقرأ عيسى ابن عمر بفتحها ؛ كأنه أضمر فعلا . وقرأ ابن عباس ونصر وابن أبى إسحاق بكسرها على إضمار حرف القسم . وقرأ هارون ومحمد بن السَّمَيْقَع بضمها على البناء . واختلف فى تأويله ؛ فروَى معاوية بن قُرّة عن أبيه يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نٓ لَوْح من نور" . وروى ثابت البُنَانىّ أن « ن » الدواة . وقاله الحسن وقتادة . وروى الوليد بن مسلم قال حدّثنا مالك بن أنس عن سُمَىّ مولى أبى بكر عن أبى صالح السّمان عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أول ما خلق الله القلم ثم خلق النُّون وهى الدواة وذلك قوله تعالى « ن والقلم » ثم قال له آكتب قال وما أكتب قال ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة — قال — ثم ختم فَمُ القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة . ثم خلق العقل فقال الجبّار ما خلقتُ خلقًا أعجبَ الىّ منك وعِزّتى وجلالى لأكمّلنّك فيمن أحببت ولأنقصنّك فيمن أبغضت" قال ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أكمل الناس عقلا أطوعهم لله وأعملهم بطاعته" . وعن مجاهد قال : «ن» الحوت الذى تحت الأرض السابعة . قال : « والقلم » الذى كُتب به الذكر . وكذا قال مقاتل ومُرّة الهَمْدَانىّ وعطاء الخراسانى والسُّدّى والكلبى : إن النون هو الحوت الذى عليه الأرضون . وروى أبو ظَبيان عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم بجرى بما هو كائن ، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السماء ، ثم خلق النون فبسط الأرض

على ظهره، فمادت الأرض فأثبتت بالجبال، وإن الجبال لتفخر على الأرض . ثم قرأ ابن عباس « ن والقلم » الآية . وقال الكلبي ومقاتل : ٱسمه البَهْمُوت[1] . قال الراجز :

مـالى أراكـم كلّكم سـكوتَا * والله رَبّى خـلق البَهْمُـوتَـا

وقال أبو اليقظان والواقدي : ليـوثا . وقال كعب : لوثوثا . وقال : بلهموثا[2] . قال كعب : إن إبليس تغلغـل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون فوسْوَس في قلبه ، وقال : أتدرى ما على ظهرك يا لوثوثا[2] من الدواب والشجر والأرضين وغيرها، لو لفظتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع ؛ فهمّ ليوثا[2] أن يفعل ذلك ، فبعث الله إليه دابة فدخلت مَنْخِره ووصلت إلى دماغه، فضجّ الحوت إلى الله عزّ وجلّ منها فأذن الله لها فخرجت . قال كعب : فو الله إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت كما كانت . وقال الضحاك عن ابن عباس : إن « ن » آخر حرف من حروف الرحمن . قال : الر ، وحم ، و ن ؛ الرحمن تعالى متقطعة . وقال ٱبن زيد : هو قسم أقسم الله تعالى به . وقال ٱبن كَيْسان : هو فاتحة السورة . وقيـل : ٱسم السـورة . وقال عطاء وأبو العـالية : هو افتتاح ٱسمه نصـير ونور وناصر . وقال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصره للؤمنين ؛ وهو حق . بيانه قوله تعالى : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »[3] . وقال جعفر الصادق : هو نهر من أنهـار الجنة يقال له نون . وقيـل : هو المعروف من حروف المُعْجَم ، لأنه لو كان غير ذلك لكان مُعْرَبًا ؛ وهو ٱختيار القُشَيْرِيّ أبو نصر عبد الرحيم في تفسيره . قال : لأن « ن » حرف لم يُعْرَب ؛ فلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم ؛ فهو إذنْ حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور . وعلى هـذا قيل : هو اسم للسورة ؛ أي هذه سورة ن . ثم قال « والقلم » أقسم بالقلم لمـا فيه من البيان

---

(١) ضبطه الألوسى فى تفسيره فقال : « اليهموت بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء » .

(٢) اضطربت الأصول والمراجع التى بين أيدينا فى هذه الأسماء . وقد خرج المؤلف رحمه الله عما اشترطه فى أول كتابه حيث قال : « ... وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ... » الخ .

(٣) آية ٤٧ سورة الروم .

كاللسان؛ وهو واقع على كل قلم مما يكتب به من في السماء ومن في الأرض؛ ومنه قول أبي الفتح البُسْتيّ :

إذا أقسم الأبطال يومًا بسيفهم * وعدّوه مما يكسِبُ المجدَ والكرَمْ
كَفَى قلم الكُتّابِ عزًّا ورفعةً * مَدَى الدهرِ أن الله أقسم بالقلمْ

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة ؛ ما ذكرناه أعلاها . وقال ابن عباس : هذا قسم بالقلم الذي خلقه الله؛ فأمره بجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة . قال : وهو قلم من نورٍ طوله كما بين السماء والأرض . ويقال : خلق الله القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين ؛ فقال : اجْرِ؛ فقال : يارب بِمَ أجرى ؟ قال بما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ فجرى على اللَّوح المحفوظ. وقال الوليد بن عُبادة بن الصّامت : أوصانى أبى عند موته فقال : يابُنَيّ، اتق الله ، واعلم أنك لن تتقى ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده ، والقدر خيره وشرّه ، سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "إن أوّل ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال يارب وما أكتب فقال اكتب القدر فجرى القلم فى تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد" وقال ابن عباس : أوّل ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما هو كائن؛ فكتب فيما كتب «تَبّتْ يَدَا أَبِي لَهَب» . وقال قتادة : القلم نعمة من الله تعالى على عباده . قال غيره : فخلق الله القلم الأوّل فكتب ما يكون فى الذكر ووضعه عنده فوق عرشه ، ثم خلق القلم الثانى ليكتب به فى الأرض ؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى وما يكتبون . يريد الملائكة يكتبون أعمال بنى آدم؛ قاله ابن عباس : وقيل : وما يكتبون [أى] الناس ويتفاهمون به. وقال ابن عباس : ومعنى « وَمَا يَسْطُرُونَ » وما يعلمون . و « ما » موصولة أو مصدرية؛ أى ومسطوراتهم أو وسطرهم، ويراد به كل من يسطر أو الحفظة؛ على الخلاف. ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ هذا جواب القسم وهو نفى ؛ وكان المشركون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم إنه مجنون ، به شيطان .

وهو قولهم « يَأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ »[1] فأنزل الله تعالى ردًا عليهم وتكذيبا لقولهم « ما أنت بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » أى برحمة ربك . والنعمة هاهنا الرحمة . ويحتمل ثانيا — أن النعمة هاهنا قَسَم ؛ وتقديره : ما أنت ونعمة ربك بمجنون ؛ لأن الواو والباء من حروف القسم . وقيل هو كما تقول : ما أنت بمجنون ، والحمد لله . وقيل : معناه ما أنت بمجنون ، والنعمة لربك ؛ كقولهم : سبحانك اللهم وبحمدك ؛ أى والحمد لله . ومنه قول لَبِيد :

وأُفرِدْتُ فى الدنيا بفقد عشيرتى * وفارقنى جارٌ بأَرْبَدَ نافِعُ

أى وهو أربد[2] . وقال النابغة :

لم يُحْرَمُوا حُسْنَ الغِذاء وأُمُّهم * طَفَحتْ عليك بناتق مِذْكارِ

أى هو ناتق . والباء فى « بنعمة رَبِّك » متعلقة « بمجنون » منفيًّا ؛ كما يتعلق بغافل مثبتا . كما فى قولك : أنت بنعمة ربك غافل . ومحله النصب على الحال ؛ كأنه قال : ما أنت بمجنون مُنْعَمًا عليك بذلك . ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ أى ثوابًا على ما تحملت من أثقال النبوّة . ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أى غير مقطوع ولا منقوص ؛ يقال : مننت الحبل إذا قطعته . وحبل منين إذا كان غير متين . قال الشاعر[3] :

* غُبْسًا كواسِبَ لا يُمَنّ طعامُها *

أى لا يقطع . وقال مجاهد : « غير ممنون » غير محسوب . الحسن : « غير ممنون » غير مكدّر بالمنّ . الضحاك : أجرا بغير عمل . وقيل : غير مقدر وهو التفضل ؛ لأن الجزاء مقدّر والتفضل غير مقدر ؛ ذكره الماوَرْدِىّ ، وهو معنى قول مجاهد .

---

(١) آية ٦ سورة الحجر . (٢) الربدة (بضم فسكون) : الغبرة . ورواية الديوان فى هذا البيت :

وقد كنت فى أكناف جار مضنة * ففارقنى ... ... الخ .

و « جار مضنة » : جار يضن به .

(٣) هذا عجز بيت للبيد . واختلف فى صدره . راجع مادة (منن) فى اللسان . والغبسة : لون الرماد . والكواسب : الجوارح . يصف كلابا ضارية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : على خُلُق على دينٍ عظيم من الأديان ؛ ليس دين أحبّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه . وفي صحيح مسلم عن عائشة : أن خُلُقَه كان القرآن . وقال عليّ رضي الله عنه وعَطِيّة : هو أدب القرآن . وقيل : هو رِفْقُه بأمّته وإكرامُه إيّاهم . وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه مما نهى الله عنه . وقيل : أي إنك على طبع كريم . الماورديّ : وهو الظاهر . وحقيقة الخُلُق في اللغة : ما هو يأخذ به الإنسانُ نفسَه من الأدب يُسَمَّى خُلُقًا ؛ لأنه يصير كالخِلْقة فيه . وأما ما طُبِع عليه من الأدب فهو الخِيم (بالكسر) : السَّجِيَّة والطبيعة ، لا واحد له من لفظه . وخِيم : اسم جبل . فيكون الخُلُق الطبعَ المتكلَّف . والخِيم الطبع الغريزي . وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال :

وإذا ذُو الفضول ضَنّ على المَوْ ... لَى وعادت لخيمها الأخلاقُ

أي رجعت الأخلاق إلى طبائعها .

قلت : ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصحّ الأقوال . وسئلت أيضا عن خُلُقه عليه السلام ؛ فقرأت « قد أفلح المؤمنون » (١) إلى عشر آيات ، وقالت : ما كان أحد أحسنَ خُلُقًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لَبَّيْك ، ولذلك قال الله تعالى « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم » . ولم يُذكر خُلُقٌ محمود إلا وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم منه الحظّ الأوفر . وقال الجُنَيْد : سُمِّيَ خلقه عظيما لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى . وقيل سُمِّيَ خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ؛ يدلّ عليه قوله عليه السلام : " إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق " . وقيل : لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » (٢) . وقد روى عنه عليه السلام

(١) أول سورة المؤمنون . (٢) آية ١٩٩ سورة الأعراف .

أنه قال : "أدّبني ربّي تأديبًا حسنًا" إذ قال : « خُذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فلما قبلت ذلك منه قال « إنك لعلى خُلُق عظيم » ".

الثانيــة — روى الترمذي عن أبي ذرّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحُها وخالق الناس بخُلُق حَسَن". قال : حديث حَسَن صحيح. وعن أبي الدَّرْداء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَن وإن الله تعالى لَيُبْغِض الفاحش البذيء". قال : حديث حسن صحيح. وعنه قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حُسن الخُلُق وإن صاحب حُسنِ الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصلاة والصوم". قال : حديث غريب من هذا الوجه. وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ الجنة ؟ فقال : "تقوى الله وحُسْن الخلق". وسئل عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ النارَ ؟ فقال : "الفَم والفَرْج" قال : هذا حديث صحيح غريب. وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حُسْن الخُلُق فقال : هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكَفّ الأذى. وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا — قال — وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلسًا يوم القيامة الثَّرْثَارون والمتشدِّقون(١) والمُتَفَيْهِقُون". قالوا : يارسول الله، قد علِمْنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون ؟ قال : "المتكبرون". قال : وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حديث حسن غريب [من هذا الوجه(٢)].

قوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

---

(١) المتشدق : الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم.

(٢) زيادة عن صحيح الترمذي.

قوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه فستعلم ويعلمون يوم القيامة . وقيل : فسترى ويرون يوم القيامة حين يتبين الحق والباطل . ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ الباء زائدة ؛ أى فستبصر ويبصرون أيكم المفتون . أى الذى فُتن بالجنون ؛ كقوله تعالى : « تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ »[(١)] و « يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ »[(٢)] . وهذا قول قتادة وأبى عُبيد والأخفش . وقال الراجز :

نحن بنو جَعْدَة أصحاب الفَلَج[(٣)] * نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقيل : الباء ليست بزائدة ؛ والمعنى : « بأيكم المفتون » أى الفتنة . وهو مصدر على وزن المفعول ، ويكون معناه الفُتُون ؛ كما قالوا : ما لفلان مجلود ولا معقول ؛ أى عقل ولا جلادة . وقاله الحسن والضحاك وابن عباس . وقال الراعى :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه * لحمًا ولا لفؤاده معقولا

أى عقلا . وقيل فى الكلام تقدير حذف مضاف ؛ والمعنى : بأيكم فتنة المفتون . وقال الفراء : الباء بمعنى فى ؛ أى فَسَتُبْصِر ويُبصرون فى أى الفريقين المجنون ؛ أبا لفِرقة التى أنت فيها من المؤمنين أم بالفِرقة الأخرى . والمفتون : المجنون الذى فتنه الشيطان . وقيل : المفتون المعذَّب . من قول العرب : فتنتُ الذهب بالنار إذا حمّيته . ومنه قوله تعالى : « يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ »[(٤)] أى يعذبون .

ومعظم السورة نزلت فى الوليد بن المغيرة وأبى جهل . وقيل : المفتون هو الشيطان ؛ لأنه مفتون فى دينه . وكانوا يقولون : إن به شيطانا ، وعَنَوْا بالمجنون هذا ؛ فقال الله تعالى فسيعلمون غدا بأيهم المجنون ؛ أى الشيطان الذى يحصل من مَسّه الجنون واختلاط العقل .

(١) آيه ٢٠ سورة المؤمنون . (٢) آية ٦ سورة الإنسان .

(٣) الفلج (بفتح الفاء واللام) : مدينة بأرض اليمامة لبنى جعدة . ويجوز فيه : * نحن بنى ... * بالنصب على الاختصاص . (راجع الشاهد التاسع والثمانين بعد السبعمائة فى خزانة الأدب) .

(٤) آية ١٣ سورة الذاريات .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى إن الله هو العالم بمن حاد عن دينه . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى الذين هم على الهدى فيجازى كُلًّا غداً بعمله .

قوله تعالى : فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾

نهاه عن ممايلة (١) المشركين ، وكانوا يَدْعُونه إلى أن يكُفّ عنهم ليكفُّوا عنه ، فبيّن الله تعالى أن ممايلتهم كفر . وقال تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا » (٢) . وقيل : أى فلا تطع المكذبين فيما دعَوْكَ إليه من دينهم الخبيث . نزلت فى مشركى قريش حين دَعَوْه إلى دين آبائه .

قوله تعالى : وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

قال ابن عباس وعطية والضحاك والسُّدّىّ : ودّوا لو تكفر فيتمادَوْن على كفرهم . وعن ابن عباس أيضا : ودّوا لو تُرَخِّص لهم فيُرَخِّصون لك . وقال الفرّاء والكلبىّ : لو تلين فيلينون لك . والادّهان : التليين لمن لا ينبغى له التليين ؛ قاله الفرّاء . وقال مجاهد : المعنى ودّوا لو رَكَنْتَ إليهم وتركت الحق فيمالئونك . وقال الربيع بن أنس : ودّوا لو تكذب فيكذبون . وقال قتادة : ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك . الحسن : ودّوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك فى دينهم . وعنه أيضا : ودّوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم . زيد بن أسلم : لو تنافق وترائى فينافقون ويراءون . وقيل : ودّوا لو تضعف فيضعفون ؛ قاله أبو جعفر . وقيل ودّوا لو تداهن فى دينك فيداهنون فى أديانهم ؛ قاله القُتَبىّ . وعنه : طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدّة ويعبدوا إلهه مدّة . فهذه اثنا عشر قولا . ابن العربىّ : ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال كلّها دعاوَى على اللغة والمعنى . أمثلها قولهم : ودّوا لو تكذب فيكذبون ، ودّوا لو تكفر فيكفرون .

---

(١) مايله ممايلة : مالأه . (٢) آية ٧٤ سورة الإسراء .

قلت : كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى ؛ فإن الإدهان اللين والمصانعة . وقيل : مجاملة العدوّ وممايلته . وقيل : المقاربة في الكلام والتليين في القول . قال الشاعر :

لبعض الغَشْم أحزم في أمور * تنوبك من مداهنة العِدة

وقال المفضل : النفاق وترك المناصحة . فهي على هذا الوجه مذمومة ، وعلى الوجه الأوّل غير مذمومة ، وكل شيء منها لم يكن . قال المبرد : يقال أدهن في دينه وداهن في أمره ؛ أي خان فيه وأظهر خلاف ما يُضمر . وقال قوم : داهنت بمعنى واريت ، وأدهنت بمعنى غششت ؛ قاله الجوهري . وقال : « فيدهنون » فساقه على العطف ، ولو جاء به جواب النهي لقال فيدهنوا . وإنما أراد : إن تمنّوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك ؛ عطفًا لا جزاء عليه ولا مكافأة ، وإنما هو تمثيل وتنظير .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾

يعني الأخنس بن شَرِيق ؛ في قول الشعبي والسدي وابن إسحاق . وقيل : الأسود ابن عبد يغوث ، أو عبد الرحمن بن الأسود ؛ قاله مجاهد . وقيل : الوليد بن المغيرة ، عرض على النبيّ صلى الله عليه وسلم مالًا وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه ؛ قاله مقاتل . وقال ابن عباس : هو أبو جهل بن هشام . والحلّاف : الكثير الحَلِف . والمَهين : الضعيف القلب ؛ عن مجاهد . ابن عباس : الكذاب . والكذاب مهين . وقيل : المكثار في الشر ؛ قاله الحسن وقتادة . وقال الكلبي : المَهين الفاجر العاجز . وقيل : معناه الحقير عند الله . وقال ابن شجرة : إنه الذليل . الرّمّاني : المهين الوضيع لإكثاره من القبيح . وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة . وهي هنا القلة في الرأي والتمييز . أو هو فعيل بمعنى مُفْعَل ؛ والمعنى مُهان .

﴿ هَمَّازٍ ﴾ قال ابن زيد : الهماز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم . واللماز باللسان . وقال

الحسن : هو الذى يهمز ناحية فى المجالس؛ كقوله تعالى : « هُمَزة » . وقيل : الهَمّاز الذى يذكر الناس فى وجوههم . واللّماز الذى يذكرهم فى مَغيبهم؛ قاله أبو العالية وعطاء بن أبى رَبَاح والحسن أيضا . وقال مقاتل ضدّ هذا الكلام : إن الهُمَزة الذى يغتاب بالغيبة . واللُّمَزة الذى يغتاب فى الوجه . وقال مرّة : هما سواء . وهو القتّات الطعّان للرء إذا غاب . ونحوه عن ابن عباس وقتادة . قال الشاعر :

تُدْلِى بودّ إذا لاقيتنى كذباً * وإنْ أغِب فأنت الهامز اللُّمَزه

﴿ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ أى يمشى بالنميمة بين الناس ليُفْسد بينهم . يقال : نَمّ يَنِمّ نَمّاً ونَمِيماً ونَمِيمة؛ أى يمشى ويسعى بالفساد . وفى صحيح مسلم عن حُذيفة أنه بلغه أن رجلا ينمّ الحَديث؛ فقال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يدخل الجنة نمام" . وقال الشاعر :

ومولًى كبيت النمل لا خير عنده * لمولاه إلا سَعْيُهُ بنميم

قال الفرّاء : هما لغتان . وقيل : النَّمِيم جمع نميمة . ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ أى للمال أن ينفق فى وجوهه . وقال ابن عباس : يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته . وقال الحسن : يقول لهم من دخل منكم فى دين محمد لا أنفعه بشىء أبدا . ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أى على الناس فى الظلم، متجاوز للحدّ، صاحب باطل . ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أى ذى إثم، ومعناه أَثُوم(١)؛ فهو فعيل بمعنى فَعُول . ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ العُتُلّ الجافى الشديد فى كفره . وقال الكلبىّ والفرّاء : هو الشديد الخصومة بالباطل . وقيل : إنه الذى يَعْتِل الناس فيجرّهم إلى حبس أو عذاب . مأخوذ من العَتْل وهو الجرّ؛ ومنه قوله تعالى : « خُذُوه فَٱعْتِلوه »(٢) . وفى الصَّحاح : وعتلت الرجل أعْتِله وأعْتُله إذا جذبته جذباً عَنِيفاً . ورجل مِعْتَل (بالكسر) . وقال(٣) يصف فرسا :

* نَقْرعه قرعاً ولسنا نَعْتِله *

قال ابن السِّكّيت : عَتَله وعَتَنه، باللام والنون جميعا . والعُتُلّ الغليظ الجافى . والعُتُلّ أيضا :

(١) فى الأصول : « مأثوم » . (٢) آية ٤٧ سورة الدخان .
(٣) هو أبو النجم الراجز . وقرع فرسه قرعا : كبحه وكفه .

الرمح الغليظ . ورجل عَتِلٌ (بالكسر) بَيِّن العَتَل؛ أى سريع إلى الشر . ويقال : لا أنعتل معك؛ أى لا أبرح مكانى . وقال عُبيد بن عُمير : العُتُلّ الأكول الشروب القوىّ الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة؛ يدفع المَلَك من أولئك فى جهنم بالدَّفعة الواحدة سبعين ألفا . وقال علىّ بن أبى طالب والحسن : العُتُلّ الفاحش السيئ الخلق . وقال مَعْمَر: هو الفاحش اللئيم . قال الشاعر :

بعُتُـلّ من الرجال زَنِـيم　＊　غـير ذى نجـدة وغـير كريم

وفى صحيح مسلم عن حارثة بن وهب سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أخبركم بأهل الجنة — قالوا بلى قال — كُلُّ ضعيف مُتَضَعَّف(1) لو أقسم على الله لأبَرّه . ألا أخبركم بأهل النار — قالوا بلى قال — كُلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُسْتَكبِر". فى رواية عنه "كُلُّ جَوّاظ زَنيم متكبّر". الجَوّاظ : قيل هو الجَمُوع المنوع . وقيل الكثير اللحم المختال [فى مشيته] . وذكر الماوردى عن شَهْر بن حَوْشَب عن عبد الرحمن بن غَنْم . ورواه ابن مسعود أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل الجنة جَوّاظ ولا جَعْظَرِىّ ولا العُتُلّ الزَّنيم". فقال رجل : ما الجَوّاظ وما الجَعْظَرِىّ وما العتل الزنيم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الجَوّاظ الذى جَمَع ومَنَع . والجَعْظَرِىّ الغليظ . والعُتُلّ الزَّنيم الشديد الخَلْق الرَّحيب الجَوْف المُصَحَّح الأكول الشروب الواجد للطعام الظلوم للناس" . وذكره الثعلبى عن شَدّاد بن أَوْس : "لا يدخل الجنة جَوّاظ ولا جَعْظَرِىّ ولا عُتُلّ زنيم" سمعتهن من النبىّ صلى الله عليه وسلم قلت : وما الجوّاظ؟ قال : الجَمّاع المَنّاع . قلت : وما الجَعْظَرِىّ ؟ قال : الفَظّ الغليظ . قلت : وما العُتُلّ الزنيم ؟ قال : الرَّحيب الجَوْف الوَتِير الخَلْق الأكول الشروب الغشوم الظلوم .

قلت : فهذا التفسير من النبىّ صلى الله عليه وسلم فى العُتُلّ قد أَرْبَى على أقوال المفسرين . ووقع فى كتاب أبى داود فى تفسير الجَوّاظ أنه الفظ الغليظ . ذكره من حديث حارثة بن وهب

(1) روى بكسر العين وفتحها . والمشهور الفتح . ومعناه : يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله فى الدنيا . ورواية الكسر معناها : متواضع متذلل خامل واضع من نفسه . قال القاضى : وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها وإخباتها للإيمان .

الخزاعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل الجنة الجَوّاظ ولا الجَعْظَرِىّ" قال : والجَوّاظ الفَظّ الغليظ . ففيه تفسيران مرفوعان حسب ما ذكرناه أوّلا . وقد قيل : إنه الجافى القلب . وعن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : « عُتُلٍّ بعد ذلك زَنِيم » قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "تبكى السماء من رجل أصحّ الله جِسْمَه ورحّب جَوْفَه وأعطاه من الدنيا بعضًا فكان للناس ظلوما فذلك العُتُلّ الزنيم . وتبكى السماء من الشيخ الزانى ما تكاد الأرض تُقِلّه" . والزَّنِيم المُلْصَق بالقوم الدَّعِىّ ؛ عن ابن عباس وغيره . قال الشاعر :

زَنِيمٌ تَداعاه الرجال زِيادةً * كما زِيدَ فى عَرْضِ الأديم الأكارعُ

وعن ابن عباس أيضا أنه رجل من قريش كانت له زَنَمة كزَنَمة الشاة . وروى عنه ابن جبير أنه الذى يُعرف بالشر كما تُعرف الشاة بزنمتها . وقال عِكْرِمة : هو اللئيم الذى يُعرف بلؤمه كما تعرف الشاة بزنمتها . وقيل : إنه الذى يعرف بالأُبْنَة . وهو مروى عن ابن عباس أيضا . وعنه أنه الظلوم . فهذه ستة أقوال . وقال مجاهد : زَنِيم كانت له ستة أصابع فى يده ، فى كل إبهام له إصبع زائدة . وعنه أيضا وسعيد بن المسيّب وعكرمة : هو ولد الزنى الملحق فى النسب بالقوم . وكان الوَلِيد(1) دَعِيًّا فى قريش ليس من سِنْخهم(2) ؛ ادّعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده . قال الشاعر :

زَنِيمٌ ليس يُعرف من أبوه * بَغِىّ الأُمّ ذو حسب لئيم

وقال حَسّان :

وأنت زَنِيم نِيطَ فى آل هاشم * كما نِيطَ خَلْفَ الراكب القَدَحُ الفَرْدُ

قلت : وهذا هو القول الأوّل بعينه . وعن علىّ رضى الله تعالى عنه أنه الذى لا أصل له ؛ والمعنى واحد . ورُوِىَ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل الجنة وَلَدُ زِنًى ولا ولده ولا ولد ولده" . وقال عبد الله بن عمرو إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن أولاد الزنى يحشرون يوم القيامة فى صورة القِرَدة والخنازير" . وقالت مَيْمُونة : سمعت النبىّ

(1) هو الوليد بن المغيرة المخزومى . (2) السنخ (بالكسر والخاء المعجمة) : الأصل .

صلى الله عليه وسـلم يقول : "لا تزال أمتي بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولَدُ الزِّنَى فإذا فَشَا فيهم ولد الزنى أوشك أن يعمهم الله بعقاب" . وقال عكرمة : إذا كثر ولد الزنى قحط المَطَرُ .

قلت : أما الحديث الأول والثاني فما أظن لهما سندا يصح، وأما حديث ميمونة وما قاله عكرمة ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جَحْش زوج النبيّ صـلى الله عليه وسلم قالت : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم يوماً فزِعا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يقـول : "لا إله إلا الله . وَيْلٌ للعرب من شرّ قد اقترب . فُتِح اليـومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثْلُ هذه" وحلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها . قالت فقلت : يا رسول الله، أنَهْلِك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثُرَ الخَبَثُ" خرّجه البخاريّ . وكثرة الخبث ظهور الزنى وأولاد الزنى؛ كذا فسّره العلماء . وقول عكرمة «قحط المطر» تبيينٌ لمـا يكون به الهلاك . وهذا يحتاج إلى توقيف، وهو أعلم من أين قاله .
ومعظم المفسرين على أن هذا نزل في الوليد بن المغيرة، وكان يُطعم أهلَ مِنًى حَيْسًا(١) ثلاثة أيام، وينادي ألَا لا يوقدنّ أحد تحت بُرْمَـةٍ ، ألَا لا يدخّنن أحد بكُرَاع ، ألَا ومن أراد الحَيْس فليأت الوليد بن المغيرة . وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفا وأكثر، ولا يعطي المسكين درهما واحدا فقيل «مَنَّاع للخير» . وفيه نزل : «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»(٢) .
وقال محمـد بن إسحاق : نزلت في الأَخْنَس بن شَرِيق، لأنه حليف مُلْحَـق في بني زُهْرة، فلذلك سُمِّيَ زَنِيماً . وقال ابن عباس : في هـذه الآية نُعِت ، فلم يعـرف حتى قُتل فعُرِف ، وكان له زَنَمَـة في عنقه معلّقـة يُعرف بهـا . وقال مُرَّة الهَمْداني : إنمـا ادّعاه أبوه بعـد ثماني عشرة سنة .

قوله تعـالى : أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

---

(١) الحيس : الطعام المتخذ من التمر والأقط (الجبن المتخذ من اللبن الحامض) والسمن .
(٢) آية ٦ سورة فصلت .

قوله تعالى : ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو حَيْوة والمغيرة والأعرج « آن كان » بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام . وقرأ المُفَضّل وأبو بكر وحمزة « أأن كان » بهمزتين مُحقّقتين . وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر؛ فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين فهو استفهام والمراد به التوبيخ ، ويحسن له أن يقف على « زَنِيم » ، ويبتدئ « أَنْ كَانَ » على معنى ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه . ويجوز أن يكون التقدير : ألأن كان ذا مال وبنين يقول إِذَا تُتْلَى عَلَيهِ آيَاتُنَا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ! ! ويجوز أن يكون التقدير : ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر . ودلّ عليه ما تقدم من الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام . ومن قرأ « أَنْ كَانَ » بغير استفهام فهو مفعول من أجله والعامل فيه فعل مضمر ، والتقدير : يكفر لأن كان ذا مال وبنين . ودلّ على هذا الفعل « إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » . ولا يعمل في « أَنْ » : « تُتْلَى » ولا « قَالَ » لأن ما بعد « إِذَا » لا يعمل فيما قبلها؛ لأن « إِذَا » تضاف إلى الجمل التي بعدها ، ولا يعمل المضاف اليه فيما قبل المضاف . و « قَالَ » جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء؛ إذ حكم العامل أن يكون قبل المعمول فيه ، وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط فيصير مقدمًا مؤخرا في حال . ويجوز أن يكون المعنى لا تطعه لأن كان ذا يسار وعدد . قال ابن الأنباري : ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على « زَنِيم » لأن المعنى لأن كان و بأن كان ، ف « أن » متعلقة بما قبلها . قال غيره : يجوز أن يتعلق بقوله : « مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ » والتقدير يمشي بنميم لأن كان ذا مال وبنين . وأجاز أبو علي أن يتعلق ب « عُتُلٍّ » . وأساطير الأولين : أباطيلهم وتُرّهاتهم وخرار يفهم[1] . وقد تقدم[2] .

قوله تعالى : سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿سَنَسِمُهُ﴾ قال ابن عباس : معنى « سَنَسِمُهُ » سنخطِمه بالسيف . قال : وقد خُطِم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف؛ فلم يزل مخطوما إلى أن مات .

(١) في بعض الأصول : « وخرار يقهم » بالقاف . ولعلها : « وخرافاتهم » . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٠٥

وقال قتادة : سنسمه يوم القيامة على أنفه سِمَةً يُعرف بها؛ يقال : وسَمْته وَسْما وسِمَة إذا أثّرت فيه بِسِمَةٍ وكَيّ . وقد قال تعالى : «يومَ تبيضُّ وُجوهٌ وتسودُّ وُجوهٌ»(١) فهذه علامة ظاهرة . وقال تعالى : « ونَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا »(٢) وهذه علامة أخرى ظاهرة . فأفادت هذه الآية علامةً ثالثة وهى الوسْم على الأنف بالنار؛ وهذا كقوله تعالى : « يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ »(٣) قاله الكلبيّ وغيره . وقال أبو العالية ومجاهد : « سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرْطُومِ » أى على أنفه، ونسوّد وجهه فى الآخرة فيُعرَف بسواد وجهه . والخرطوم : الأنف من الإنسان . ومن السباع : موضع الشَّفَة . وخراطيم القوم : ساداتهم . قال الفرّاء : وإن كان الخُرْطُوم قد خُصّ بالسِّمة فإنه فى معنى الوجه؛ لأن بعض الشيء يُعبَّر به عن الكل . وقال الطبرى : نبيّن أمره تبيانا واضحا حتى يعرفوه فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمة على الخراطيم . وقيل : المعنى سَنُلْحِق به عارًا وسُبّةً حتى يكون كمن وُسِم على أنفه . قال القُتَبيّ : تقول العرب للرجل يُسَبّ سُبَّةَ سوء قبيحة باقية : قد وُسِم مِيسَم سوء؛ أى أُلْصِق به عارٌ لا يفارقه؛ كما أن السِّمة لا يُمحَى أثرها . قال جرير :

لمّا وضعتُ على الفرزدق مِيسَمِى * وعلى البَعِيث(٤) جَدَعْتُ أنفَ الأخْطَلِ

أراد به الهجاء . قال : وهذا كله نزل فى الوليد بن المغيرة . ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه؛ فألحقه به عارًا لا يفارقه فى الدنيا والآخرة؛ كالوَسْم على الخرطوم . وقيل : هو ما ابتلاه الله به فى الدنيا فى نفسه وماله وأهله من سوء وذُلّ وصَغار؛ قاله ابن بحر . واستشهد بقول الأعشى :

فدعها وما يغنيك وٱعْمِد لغيرها * بشعرك وٱعْلُبْ(٥) أنف من أنت واسم

---

(١) آية ١٠٦ سورة آل عمران . (٢) آية ١٠٢ سورة طه . (٣) آية ٤١ سورة الرحمن .

(٤) البعيث : هو خداش بن بشر (ويقال بشير) من بنى مجاشع؛ كان يهاجى جريرا .

(٥) علبه يعلبه علبا وعلوبا : أثر فيه ووسمه أو خدشه .

وقال النَّضْر بن شُمَيل : المعنى سنحُدّه على شرب الخمر ، والخرطوم : الخمر، وجمعه خراطيم . قال الشاعر :

تَظَلّ يومك فى لَهْوٍ وفى طَرَب * وأنت بالليل شَرّاب الخراطيم

قال الراجز[1] :

* صَهْباءَ خُرْطوماً عُقاراً قَرْقَفا[2] *

وقال آخر :

أبا حاضر من يَزْنِ يُعرف زناؤه * ومن يشرب الخُرْطوم يُصبح مسكرا

الثانية — قال ابن العربى : « كان الوسم فى الوجه لذى المعصية قديما عند الناس، حتى أنه روى — كما تقدم — أن اليهود لمّا أهملوا رَجْم الزانى اعتاضوا منه بالضرب وتحميم[3] الوجه؛ وهذا وضع باطل . ومن الوسم الصحيح فى الوجه : ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور، علامةً على قُبْح المعصية وتشديدًا لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة[4] شاهد الزور وشهرته؛ فقد كان عزيزا بقول الحق وقد صار مَهينا بالمعصية . وأعظم الإهانة [إهانةُ الوجه]. وكذلك كانت الاستهانة به فى طاعة الله سبباً لخيرة[5] الأبد والتحريم له على النار؛ فإن الله تعالى قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثرَ السجود؛ حسب ماثبت فى الصحيح.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

---

(١) هو العجاج . (٢) كل هذا من أسماء الخمر . وقبله : * فغمها حولين ثم استودفا * وغممت الشيء : غطيته . واستودف اللبن : صبه فى الاناء . (٣) تحميم الوجه : تسخيمه بالفحم .

(٤) عبارة ابن العربى فى أحكامه : « ... لغيره لمن يرجى تجنبه بمن يرى من عقوبة ... » .

(٥) فى ابن العربى : « سببا لحياة الأبد » .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ يريد أهل مكة . والابتلاء الاختبار . والمعنى أعطيناهم أموالًا ليشكروا لا ليَبْطَروا؛ فلما بَطِروا وعادَوْا محمدا صلى الله عليه وسلم ابتليناهم بالجُوع والقَحْط كما بلونا أهل الجنة المعروف خبرها عندهم . وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء — ويقال بفرسخين — وكانت لرجل يؤدّى حق الله تعالى منها؛ فلما مات صارت إلى ولده، فمنعوا الناس خيرها وبَخِلُوا بحقّ الله فيها؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حلّ بها . قال الكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان؛ ابتلاهم الله بأن أحرق جنتهم . وقيل : هي جنة بضَوْران، وضوران على فرسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير — وكانوا بخلاء — فكانوا يَجُدّون التمر ليلا من أجل المساكين، وكانوا أرادوا حصاد زرعها وقالوا : لا يدخلها اليوم عليكم مسكين، فغدَوْا عليها فإذا هي قد ٱقْتُلِعَتْ من أصلها فأصبحت كالصَّريم؛ أي كالليل . ويقال أيضا للنهار صَرِيم . فإن كان أراد الليل فلاسوداد موضعها . وكأنهم وجدوا موْضعَها حَمْأة . وإن كان أراد بالصّريم النهار فلذهاب الشجر والزرع ونقاء الأرض منه . وكان الطّائف الذى طاف عليها جبريل عليه السلام فاقتلعها . فيقال : إنه طاف بها حَوْل البيت ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم؛ ولذلك سُمِّيت الطائف . وليس فى أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعناب والماء غيرها . وقال البكرى فى المُعْجَم : سُمِّيت الطائف لأن رجلا من الصَّدِف (١) يقال له الدَّمُون، بنى حائطا وقال: قد بَنَيْتُ لكم طائفًا حول بلدكم؛ فسُمِّيت الطائف . والله أعلم .

الثانيـــة — قال بعض العلماء : على من حصد زَرْعًا أوجَدّ ثمرة أن يواسى منها من حضره؛ وذلك معنى قوله : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (٢) » وأنه غير الزكاة على ما تقدّم فى « الأنعام » بيانه (٣) . وقال بعضهم : وعليه ترك ما أخطأه الحصّادون . وكان بعض العباد يتحرّون أقواتهم

---

(١) الصدف (بالفتح ثم الكسر) : مخلاف من اليمن منسوب الى القبيلة .

(٢) فى بعض نسخ الأصل : « مين » . (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٩

من هذا . وروى أنه نُهِى عن الحصاد بالليل . فقيل : إنه لما ينقطع عن المساكين فى ذلك من الرفق . وتأوّل من قال هذا الآيةَ التى فى سورة « ن والقلم » . وقيل : إنما نهى عن ذلك خشية الحيّات وهَوَامّ الأرض .

قلت : الأوّل أصح ؛ والثانى حسن . وإنما قلنا الأول أصح لأن العقوبة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين كما ذكر الله تعالى . روى أسباط عن السُّدِّى قال : كان قوم باليمن وكان أبوهم رجلا صالحا ، وكان إذا بلغ ثمارُه أتاه المساكين فلم يمنعهم من دخولها وأن يأكلوا منها و يتزوّدوا ؛ فلما مات قال بنُوه بعضهم لبعض : عَلَامَ نعطى أموالنا هؤلاء المساكين ! تعالَوْا فلْنُدْلِج فنصرمنّها قبل أن يعلم المساكين ؛ ولم يستثنوا ؛ فآنطلقوا و بعضهم يقول لبعض خَفْتاً[(١)] : لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا ﴾ يعنى حلفوا فيما بينهم ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ يعنى لنجذّنها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكين ؛ ولا يستثنون ؛ يعنى لم يقولوا إن شاء الله . وقال ابن عباس : كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسخين ، غرسها رجل من أهل الصلاح وكان له ثلاثة بنين ، وكان للساكين كل ما تعدّاه المِنْجَل فلم يجذّه من الكَرْم ، فإذا طُرِح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضا للساكين ، فإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعدّاه المِنْجَل فهو للساكين ، فإذا دَرَسُوا كان لهم كل شيء انتثر ؛ فكان أبوهم يتصدّق منها على المساكين ، وكان يعيش فى ذلك فى حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين ، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم . فقالوا : قلّ المالُ وكثر العيال ؛ فتحالفوا بينهم ليغدُون غدوة قبل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين . وهو قوله : «إذ أقسموا» أى حلفوا «ليَصرمنها» ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا بسُدْفة[(٢)] من الليل لئلا ينتبه المساكين لهم . والصرم القطع . يقال : صَرَم العِذْق عن النخلة . وأصرم النخلُ أى حان وقت صِرامه . مثل أرْكَبَ المهرُ وأحصدَ الزرعُ ، أى حان ركوبه وحَصاده . ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أى ولم يقولوا إن شاء الله . « فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ » ينادى بعضهم بعضا .

---

(١) الخفت (بوزن السبت) : إسرار المنطق . (٢) السدفة : الظلمة ، والضوء . وطائفة من الليل . وقيل : اختلاط الضوء والظلمة جميعا .

« أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ » عازمين على الصّرام والجداد . قال قتادة : حاصدين زرعكم . وقال الكلبي : ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل . وقال مجاهد : كان حرثهم عِنَبًا ولم يقولوا إن شاء الله . وقال أبو صالح : كان استثناؤهم قولهم سبحان الله ربّنا . وقيل : معنى « ولا يستثنون » أي لا يستثنون حق المساكين ؛ قاله عكرمة . فجاءوها ليلا فرأوا الجنة مسودّة قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . قيل : الطائف جبريل عليه السلام ؛ على ما تقدّم ذكره . وقال ابن عباس : أَمْرٌ من ربك . وقال قتادة : عذاب من ربّك . ابن جُرَيْج : عُنُق من نار خرج من وادي جهنم . والطائف لا يكون إلا بالليل ؛ قاله الفرّاء .

الثالثة — قلت : في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »(١) . وفي الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار " قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : " إنه كان حريصا على قتل صاحبه " . وقد مضى مبيّنًا في سورة « آل عمران » عند قوله تعالى : « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا »(٢) .

قوله تعالى : فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي كالليل المظلم ؛ عن ابن عباس والفرّاء وغيرهما . قال الشاعر :

تطاول لَيْلُكَ الجَوْنُ البَهِيمُ * فما ينجاب عن صبح بهيم(٣)

(١) آية ٢٥ سورة الحج .	(٢) راجع جـ ٤ ص ٢١٥	(٣) في اللسان مادة صرم :

* فما ينجاب عن ليل صريم *

أى احترقت فصارت كالليل الأسود ، وعن ابن عباس أيضا : كالرّماد الأسود . قال : الصريم الرماد الأسود بلغة خُزَيمة ، الثّورىّ : كالزرع المحصود . فالصريم بمعنى المصروم أى المقطوع ما فيه . وقال الحسن : صُرِم عنها الخير أى قطع؛ فالصريم مفعول أيضا . وقال المُؤَرِّج : أى كالرملة انصرمت من معظم الرمل . يقال : صريمة وصرائم؛ فالرملة لا تنبت شيئا يُنتفع به . وقال الأخفش : أى كالصبح انصرم من الليل . وقال المبرد : أى كالنهار؛ فلا شيء فيها . قال شَمِر : الصّريم الليل والصّريم النهار؛ أى ينصرم هذا عن ذاك وذاك عن هذا . وقيل : سُمّىَ الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرف؛ ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل . قال القُشَيْرىّ : وفى هذا نظر؛ لأن النهار يسمّى صَرِيما ولا يقطع عن تصرّف .

قوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أى يتسارّون؛ أى يُخفون كلامهم ويسرونه لئلا يَعلم بهم أحد؛ قاله عطاء وقتادة . وهو من خَفَت يَخْفِت إذا سكن ولم يبيّن . كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة :

وإنّى لم أهلك سُلالًا ولم أمت * خُفَاتًا وكُلًّا ظَنّه بِىَ عُوَّدِى

وقيل يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم . وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين فيحضروا وقت الحصاد والصرام . ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ أى على قَصْد وقدرة فى أنفسهم ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم . قال معناه ابن عباس وغيره . والحَرْد القصدُ . حَرَد يَحْرِد (بالكسر) حَرْدًا قصد ، تقول : حَرَدْتُ حَرْدَك؛ أى قصدت قصدك . ومنه قول الراجز :

أقبل سَيْلٌ جاء من عند الله * يَحْرِدُ حَرْدَ الجنة المُغِلّة

أنشده النحاس :

قد جاء سيل جاء من أمر الله * يحرد حرد الجنة المغله

قال المبرد : المُغِلّة ذات الغَلّة . وقال غيره : المغِلّة التي يجرى المـاء في غللها(١) أى في أصولها . ومنه تغلّلت بالغالية . ومنه تغلّيت ؛ أبدل من اللام ياء . ومن قال تَغَلّفْت فمعناه عنده جعلتها غلافا . وقال قتادة ومجاهد : «على حرد» أى على جِدّ . الحسن : على حاجة وفاقة . وقال أبو عبيـدة والقُتَبِيّ : على حَرْد على منع ؛ من قولهم حَارَدَتِ الإبِلُ حِرادًا أى قلّت ألبانها . والحَرُود من النُّوق القليلة الدَّرّ . وحاردَتِ السَّنَةُ قَلّ مطرُها وخيرها . وقال السُّدّى وسفيان : « على حَرْد » على غضب . والحرد الغضب . قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعى : وهو مخفف ؛ وأنشد شعرا :

إذا جياد الخيـلِ جاءت تَرْدِى　＊　ممـلوءةً مِن غَضَبٍ وحَرْدِ

وقال ابن السِّكّيت : وقـد يحرّك ؛ تقول منـه : حَرِد (بالكسر) حَرَدًا ، فهو حارد وحَرْدان . ومنه قيـل : أَسَدٌ حارِدٌ، ولُيوثٌ حوارد . وقيـل : « على حَرْد » على انفراد . يقال : حَرَد يَحْرِد حُرودًا ؛ أى تنحّى عن قومه ونزل منفردا ولم يخالطهم . وقال أبو زيد : رجل حَرِيد من قوم حُرَداء . وقد حَرَد يَحْرِد حرودًا ؛ إذا ترك قومه وتحوّل عنهم . وكوكب حَرِيد ؛ أى معتزل عن الكواكب . قال الأصمعىّ : رجل حريد ؛ أى فريد وحيد . قال : والمُنْحَرِد المنفرد في لغة هُذَيل . وأنشد لأبى ذُؤيب :

＊ كأنه كوكب في الجـوّ مُنْحَرِدُ ＊

ورواه أبو عمرو بالجيم ؛ وفسره : منفرد . قال : وهو سهيـل . وقال الأزهرىّ : حَرْد آسم قريتهم . السدى : اسم جنتهم . وفيه لغتان : حَرْدٌ وحَرَدٌ . وقرأ العامة بالإسكان، وقرأ أبو العالية وآبن السَّمَيْقَع بالفتح ؛ وهمـا لغتان . ومعنى « قادِرِين » قد قدروا أمرهم وبَنَوْا عليه ؛ قاله الفرّاء . وقال قتادة : قادرين على جنتهم عنـد أنفسهم . وقال الشعبىّ : « قادرين » يعنى على المساكين . وقيل : معناه من الوجود ؛ أى منعوا وهم واجدون .

(١) الذى في كتب اللغة : الغلل : المـاء الذى يجرى في أصول الشجر، أو المـاء الظاهر الجارى .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أى لما رأوها محترقة لا شيء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد ، أنكروها وشكّوا فيها . وقال بعضهم لبعض ﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ أى ضللنا الطريق إلى جنّتنا ؛ قاله قتادة . وقيل : أى إنا لضالون عن الصواب فى غدوّنا على نية منع المساكين؛ فلذلك عوقبنا . ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى حُرِمنا جنتنا بما صنعنا . روى أسباط عن آبن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والمعاصى إن العبد ليُذْنِبُ الذنبَ فيُحْرَم به رزقًا كان هُيِّئ له — ثم تلا — « فطاف عليها طائف من ربك » " الآيتين .

قوله تعالى : قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أى أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم . ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى هلّا تستثنون . وكان استثناؤهم تسبيحا ؛ قاله مجاهد وغيره . وهذا يدل على أن هذا الأوسط كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه . قال أبو صالح : كان استثناؤهم سبحان الله . فقال لهم : هلّا تسبحون الله ؛ أى تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم . قال النحاس : أصل التسبيح التنزيهُ لله عز وجل ؛ فجعل مجاهد التسبيح فى موضع إنشاء الله ؛ لأن المعنى تنزيه الله عز وجل أن يكون شيء إلا بمشيئته . وقيل : هلا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خُبْث نيّتكم ؛ فإن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك وذكّرهم انتقامه من المجرمين . ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ اعترفوا بالمعصية ونزّهوا الله عن أن يكون ظالما فيما فعل . وقال ابن عباس فى قولهم : « سبحان ربنا » أى نستغفر الله من ذنبنا . ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ لأنفسنا

فى منعنا المساكين . ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أى يلوم هذا هذا فى القسم ومنع المساكين، ويقول : بل أنت أشرت علينا بهذا . ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أى عاصين بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء . وقال ابن كيسان : طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل . ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا ﴾ تعاقدوا وقالوا : إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعنّ كما صنعت آباؤنا؛ فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها ، وأمر جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزُغَر(١) من أرض الشام ، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها . وقال ابن مسعود: إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منها عنقودا واحدا . وقال اليمانى أبو خالد : دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم . وقال الحسن : قول أهل الجنة « إنّا إلى ربّنا راغبون » لا أدرى إيمانا كان ذلك منهم ، أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؛ فيوقف فى كونهم مؤمنين . وسئل قتادة عن أصحاب الجنة : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تعبا . والمعظم يقولون : إنهم تابوا وأخلصوا؛ حكاه القشيرى . وقراءة العامة « يُبْدِلنا » بالتخفيف . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بالتشديد، وهما لغتان . وقيل : التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم . والإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه . وقد مضى فى سورة « النساء » القول فى هذا(٢) .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى عذاب الدنيا وهلاك الأموال؛ عن ابن زيد . وقيل : إن هذا وَعْظٌ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجدب لدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم، أى كفعلنا بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا فى الدنيا . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ

(١) زغر : بضم الزاى وفتح الغين المعجمة وآخرها راء . (٢) راجع ج ٥ ص ٢٥٤

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال ابن عباس : هذا مَثَلٌ لأهل مكة حين خرجوا إلى بَدْرٍ وحلفوا ليقتلن محمدا صلى الله عليـه وسلم وأصحابه ، وليرجعنّ الى مكة حتى يطوفوا بالبيت و يشربوا الخمـر ، وتضرب القَيْنات على رءوسهم ؛ فأخلف الله ظنّهم وأُسِرُوا وقُتِلوا وانهزموا كأهل هـذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصّرام فخابوا . ثم قيل : إن الحق الذى منعه أهل الجنـة المساكين يحتمل أنه كان واجبا عليهم ، و يحتمل أنه كان تطوعا ؛ والأول أظهر ، والله أعلم . وقيل : السورة مكّية ؛ فبَعُدَ حملُ الآية على ما أصاب أهل مكة من القَحْط ، وعلى قتال بَدْر .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) ﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ تقدم القول فيه ؛ أى إن للتقين فى الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص ، لا يشو به ما ينغّصه كما يشوب جنات الدنيا . وكان صناديد قريش يرون وفور حظّهم من الدنيـا وقلّة حظوظ المسلمين منها ؛ فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين قالوا : إن صَحّ أنا نبعث كما يزعم محمـد ومن معه لم يكن حالنـا وحالهم إلا مثل ما هى فى الدنيـا ، و إلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أن يساوونا . فقال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى كالكفار . وقال ابن عباس وغيره : قالت كفار مكة إنا نعطَى فى الآخرة خيرا مما تُعْطَوْن ؛ فنزلت « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » ثم وَبّخهم فقال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هـذا الحكم الأعوج ؛ كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم ، حتى تحكموا فيه بمـا شئتم أن لكم من الخير ما للسلمين . ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أى ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصى . ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ تختارون وتشتهون . والمعنى : أنّ لكم (بالفتح) ولكنه كسر لدخول اللام ؛ تقول علمت أنك عاقل (بالفتح) وعلمت

إنك لعاقل (بالكسر) . فالعامل في « إن لكم فيه لما تخيرون » « تدرسون » في المعنى . ومنعت اللامُ من فتح « إن » . وقيل : تمّ الكلام عند قوله : « تدرسون » ثم ابتدأ فقال : «إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ» أي إن لكم في هذا الكتاب إذًا ما تخيّرون؛ أي ليس لكم ذلك . والكناية في « فيه » الأولى والثانية راجعة الى الكتاب . ثم زاد في التوبيخ فقال : ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ أي عهود ومواثيق . ﴿ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ ﴾ مؤكّدة . والبالغة المؤكّدة بالله تعالى . أي أم لكم عهود على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة . ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ كُسرت «إن» لدخول اللام في الخبر . وهي من صلة «أيمان» ، والموضع النصب ولكن كسرت لأجل اللام؛ تقول : حلفت إن لك لكذا . وقيل : تم الكلام عند قوله : « إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ثم قال : « إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ » إذًا؛ أي ليس الأمر كذلك . وقرأ ابن هُرْمُز « أين لكم فيه لما تخيرون » « أين لكم لما تحكمون » ؛ بالاستفهام فيهما جميعا . وقرأ الحسن البصري « بالغةً » بالنصب على الحال؛ إما من الضمير في « لكم » لأنه خبر عن « أيمان » ففيه ضمير منه . وإما من الضمير في « علينا » إن قدّرت « علينا » وصفًا للأيمان لا متعلقا بنفس الأيمان؛ لأن فيه ضميرا منه ، كما يكون إذا كان خبرا عنه . ويجوز أن يكون حالا من « أيمان » وإن كانت نكرة كما أجازوا نصب « حقًّا » على الحال من « متاع » في قوله تعالى : « مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حقًّا على المتقين »(1) . وقرأ العامة « بالغةٌ » بالرفع نعت لـ«أيمان» .

قوله تعالى : سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المتقوّلين عليّ : أيّهم كفيل بما تقدم ذكره . [وهو أن لهم من الخير](2) ما للمسلمين . والزّعيم : الكفيل والضّمين؛ قاله ابن عباس وقتادة . وقال ابن كيسان : الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى . وقال الحسن :

(1) آية ٢٤١ سورة البقرة .	(2) زيادة يقتضيها السياق .

الزعيم الرسول . ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أى ألهم والميم صلة . « شركاء » أى شهداء . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ يشهدون على ما زعموا . ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى دعواهم . وقيل : أى فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم ؛ فهو أمر معناه التعجيز .

قوله تعالى : يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ يجوز أن يكون العامل فى « يوم » « فليأتوا » أى فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق ليشفع الشركاء لهم . ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل ، أى اذكر يوم يكشف عن ساق ؛ فيوقف على «صادقين» ولا يوقف عليه على التقدير الأول . وقرئ « يوم نكشف » بالنون . «وقرأ» ابن عباس « يوم تكشف عن ساق » بتاء مسمّى الفاعل ؛ أى تكشف الشدة أو القيامة عن ساقها ؛ كقولهم : شمّرت الحرب عن ساقها . قال الشاعر :

فتى الحرب إن عضت به الحربُ عَضَّها * وإن شمّرت عن ساقها الحربُ شمّرا (١)

وقال الراجز :

قد كشفت عن ساقها فشُدُّوا * وجَدّت الحربُ بكم فجِدُّوا

وقال آخر :

عجبت من نفسى ومن إشفاقها * ومن طِرَاد الطير عن أرزاقها
فى سَنة قد كشفت عن ساقها * حمراء تَبْرِى اللحمَ عن عُرَاقها (٢)

وقال آخر :

كشفت لهم عن ساقها * وبدا من الشّر الصُّرَاحْ

(١) البيت لحاتم الطائى . ويروى : أخو الحرب . وأخا الحرب .

(٢) العراق : العظم بغير لحم ؛ فإن كان عليه لحم فهو عرق .

وعن ابن عباس أيضا والحسن وأبي العاليـة « تُكْشَف » بتاء غير مسمَّى الفاعل . وهـذه القراءة راجعـة إلى معنى « يُكْشَف » وكأنه قال : يوم تَكْشف القيامة عن شدة . وقرئ « يوم تُكْشِف » بالتـاء المضمومة وكسر الشين؛ من أكشف إذا دخل في الكشف . ومنه : أكشف الرجل فهو مُكْشِف؛ إذا انقلبت شَفَتُه العليا . وذكر ابن المبـارك قال : أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » قال عن كرب وشدّة . أخبرنا ابن جُريج عن مجاهد قال : شدّة الأمر وجِدّه . وقال مجاهد : قال ابن عباس هي أشد ساعة في يوم القيامة . وقال أبو عبيدة : إذا اشتد الحرب والأمر قيل : كَشَفَ الأمرُ عن ساقه . والأصل فيـه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِدّ شمّر عن ساقه؛ فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة . وقيل : ساقُ الشيء أصلُه الذي به قِوامه؛ كساق الشجرة وساق الإنسان . أي يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها . وقيـل : يكشف عن ساق جهنم . وقيل : عن ساق العرش . وقيل : يريد وقت اقتراب الأجل وضعف البـدن؛ أي يكشف المريض عن ساقه ليبصر ضعفه، ويدعوه المؤذن إلى الصـلاة فلا يمكنه أن يقوم ويخرج . فأما ما رُوِي أن الله يكشف عن ساقه فإنه عز وجل يتعالى عن الأعضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطى . ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره . وقيل : يكشف عن نوره عز وجل . وروى أبو موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى « عن ساقٍ » قال : "يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا" . وقال أبو اللّيث السّمَرْقَنْدِيّ في تفسيره : حدّثنا الخليل بن أحمد قال حدّثنا ابن منيع قال حدّثنا هُدْبة قال حدّثنا حماد بن سلمة عن عدي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بُردة عن أبي موسى قال حدّثني أبي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا كان يوم القيامة مُثِّل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيذهب كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون إن لنا رَبًّا كنا نعبده في الدنيا ولم نره — قال — وتعرفونه إذا رأيتمـوه فيقولون نعم فيقال فكيف تعـرفونه ولم تروه قالوا إنه لا شبيه له

فيكشف لهــم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجدا وتبقى أقوام ظهورهم مثل صَيَاصِى البقر(١) فينظرون إلى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى : « يوم يُكشف عن ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فلا يستطيعون » فيقول الله تعالى عبادى ارفعوا رءوسكم فقد جعلت بَدَلَ كُلِّ رجلٍ منكم رجلًا من اليهود والنصارى فى النار " .
قال أبو بردة : فحدثت بهذا الحديث عمرَ بن عبد العزيز فقال : آللهِ الذى لا إله إلا هو لقد حَدّثك أبوك بهذا الحديث ؟ فحلف له ثلاثةَ أيمان ؛ فقال عمر : ما سمعت فى أهل التوحيد حديثًا هو أحبّ إلىّ من هذا . وقال قيس بن السَّكَن : حَدّث عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطاب فقال : إذا كان يوم القيامة قام الناس لرب العالمين أربعين عاما شاخصةً أبصارهم إلى السماء، حفاةً عُراةً يلجمهم العرق، فلا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم أربعين عاما، ثم ينادى منادٍ : أيها الناس، أليس عَدْلًا من ربكم الذى خلقكم وصوّركم وأماتكم وأحياكم ثم عبدتم غيره أن يُوَلِّىَ كلَّ قوم ما تولّوْا ؟ قالوا : نعم . قال : فيرفع لكل قوم ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونها حتى تقذفهم فى النار ، فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال لهم : ألا تذهبون قد ذهب الناس ؟ فيقولون حتى يأتينا ربنا ؛ فيقال لهم : أو تعرفونه ؟ فيقولون : إن اعترف لنا عَرَفناه(٢) . قال : فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلّى لهم فيخرّ من كان يعبده مخلصا ساجدا ، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن فى ظهورهم السفافيد(٣) ، فيذهب بهم إلى النار، ويدخل هؤلاء الجنة . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ .
﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى ذليلةً متواضعة ؛ ونصبها على الحال . ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رءوسهم ووجوهُهم أشدّ بياضا من الثلج . وتسودّ وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشد سوادا من القار .

قلت : معنى حديث أبى موسى وابن مسعود ثابتٌ فى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرىّ وغيره .

(١) صياصى البقر : قرونها . (٢) أى إذا وصف نفسه بصفة نحققه بها .
(٣) السفافيد : جمع السفود وزن التنور ، الحديدة التى يشوى بها اللحم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ أى فى الدنيا . ﴿ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ مُعَافَوْن أصحاء . قال إبراهيم التَّيْمِيّ : أى يدعون بالأذان والإقامة فيأبَوْنه . وقال سعيد ابن جُبير : كانوا يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيبون . وقال كعب الأحبار : والله مانزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلّفون عن الجماعات . وقيل : أى بالتكليف المُوَجَّه عليهم فى الشرع ؛ والمعنى متقارب . وقد مضى فى سورة « البقرة » الكلام فى وجوب صلاة الجماعة (١) . وكان الربيع بن خُثَيْم قد فُلِج وكان يُهَادَى (٢) بين الرجلين الى المسجد ؛ فقيل : يا أبا يزيد، لو صلّيتَ فى بيتك لكانت لك رخصة . فقال : من سمع حيّ على الفلاح فليُجب ولو حَبْوًا . وقيل لسعيد بن المسيّب : إن طارقًا يريد قتلك فتغيّب . فقال : أبحيث لا يَقْدِر الله عليّ ؟ فقيل له : اجلس فى بيتك . فقال : أسمع حيّ على الفلاح، فلا أجيب !

قوله تعالى : فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْنِي ﴾ أى دَعْني . ﴿ وَمَنْ يُكَذِّبُ ﴾ « مَن » مفعول معه أو معطوف على ضمير المتكلم . ﴿ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن؛ قاله السُّدّيّ . وقيل : يوم القيامة . وهذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى فأنا أجازيهم وأنتقم منهم . ثم قال : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معناه سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون ؛ فعُذّبوا يوم بَدْر . وقال سفيان الثَّوْرِيّ : نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر . وقال الحسن : كم مستدرَج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالسّتر عليه . وقال أبو رَوْق : أى كلّما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار . وقال ابن عباس : سنمكر بهم . وقيل : هو أن نأخذهم قليلا ولا نباغتهم . وفى حديث "أن رجلا من بنى إسرائيل قال يارب كم أعصيك

(١) راجع جـ ١ ص ٣٤٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) أى يمشى بينهما معتمدا عليهما لضعفه وتمايله ؛ من « تهادت المرأة فى مشيتها » : اذا تمايلت .

وأنت لا تعاقبنى — قال — فأوحى الله الى نبىّ زمانهم أن قـل له كم من عقوبة لى عليـك وأنت لا تشعر . إنّ جمود عينيك وقَسَاوَةَ قلبـك استدراجٌ منى وعقوبةٌ لو عقلت " .
والاستدراج : ترك المعاجلة . وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرّج . ومنه قيل درجة ؛ وهى منزلة بعد منزلة . واستدرج فلان فلانا ؛ أى اسـتخرج ما عنده قليلا . ويقال : درّجه الى كذا واستدرجه بمعنًى ؛ أدناه منـه على التدريج فتدرّج هو . ﴿ وَأُمْلِي لَهُـمْ ﴾ أى أمهلهم وأطيل لهم المدّة . والملاوة (١) : المُدة من الدهر . وأملى الله له أى أطال له . والمَلَوان : الليل والنهـار . وقيـل : « أُمْلِي لهـم » أى لا أعاجلهم بالموت ؛ والمعنى واحد . وقـد مضى فى «الأعراف» بيان هذا (٢) . ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى إن عذابى لقوىّ شديد فلا يفوتنى أحد .

قوله تعالى : أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾

عاد الكلام الى ماتقدّم من قوله تعالى : «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ» . أى أم تلتمس منهم ثوابا على ماتدعوهم إليه من الإيمان بالله؟ فهم من غرامة ذلك مثقلون لمـا يشق عليهم من بذل المـال؛ أى ليس عليهم كُلْفة ، بل يستولون بمتابعتك على خزائن الأرض و يصلون الى جنات النعيم .

قوله تعالى : أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أى علم ما غاب عنهم . ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ وقيل : أينزل عليهم الوَحْىُ بهذا الذى يقولون . وعن ابن عباس : الغيب هنا اللوح المحفوظ ؛ فهم يكتبون ممـا فيه يخاصمونك به ، و يكتبون أنهم أفضل منكم ، وأنهم لا يعاقبون . وقيـل : « يكتبون » يحكمون لأنفسهم بمـا يريدون .

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾

(١) مثلث الميم . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أى لقضاء ربك . والحكم هنا القضاء . وقيل : فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة . وقال ابن بحر : فاصبر لنصر ربك . قال قتادة : أى لا تعجل ولا تغاضب فلا بدّ من نصرك . وقيل : إنه منسوخ بآية السيف . ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ يعنى يونس عليه السلام . أى لا تكن مثله فى الغضب والضجر والعجلة . قال قتادة : إن الله تعالى يعزّى نبيّه صلى الله عليه وسلم ، ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت ؛ وقد مضى خبره فى سورة «يونس (١) ، والأنبياء (٢) ، والصافات (٣)» والفرق بين إضافة ذى وصاحب فى سورة « يونس » فلا معنى للإعادة . ﴿ إِذْ نَادَى ﴾ أى حين دعا فى بطن الحوت فقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » . ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أى مملوء غمّا . وقيل : كربا . الأوّل قول ابن عباس ومجاهد . والثانى قول عطاء وأبى مالك . قال الماوردىّ : والفرق بينهما أن الغم فى القلب ، والكرب فى الأنفاس . وقيل : مكظوم محبوس . والكظم الحبس ؛ ومنه قولهم : فلان كظم غيظه أى حبس غضبه ؛ قاله ابن بحر . وقيل : إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ؛ قاله المبرّد . وقد مضى هذا وغيره فى « يوسف (٤) » .

قوله تعالى : لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قراءة العامة «تداركه» . وقرأ ابن هرمز والحسن « تدّاركه » بتشديد الدال ؛ وهو مضارع أدغمت التاء منه فى الدال . وهو على تقدير حكاية الحال ؛ كأنه قال : لولا أن كان يقال فيه تتداركه نعمة . ابن عباس وابن مسعود « تداركته » وهو خلاف المرسوم . و « تداركه » فعل ماض مذكّر حُمل على معنى

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٨٣ (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٩ (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٢١
(٤) راجع جـ ٩ ص ٢٤٩

النعمة؛ لأن تأنيث النعمة غير حقيقي . و « تداركته » على لفظها . واختلف في معنى النعمة هنا ؛ فقيل النُّبوّة؛ قاله الضحاك . وقيل عبادته التي سلفت؛ قاله ابن جبير . وقيل : نداؤه « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين »؛ قاله ابن زيد . وقيل : نعمة الله عليه إخراجه من بطن الحوت؛ قاله ابن بحر . وقيل : أي رحمة من ربه؛ فرحمه وتاب عليه . ﴿ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ أي لَنُبِذ مذموماً ولكنه نُبِذ سقيما غير مذموم . ومعنى « مذموم » في قول ابن عباس : مُلِيم . وقال بكر بن عبد الله : مذنب . وقيل : مذموم مُبعَد من كل خير . والعَرَاء : الأرض الواسعة الفضاء التي ليس فيها جبل ولا شجر يستر . وقيل : لولا فضل الله عليه لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نبذ بعراء القيامة مذموما . يدل عليه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »(1) . ﴿ فاجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي اصطفاه واختاره . ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال ابن عباس : رَدّ الله إليه الوَحْي ، وشفّعه في نفسه وفي قومه ، وقبِل توبته ، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون .

قوله تعالى : وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ « إنْ » هي المخففة من الثقيلة . ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ أي يعتانونك . ﴿ بِأبصارِهِم ﴾ أخبر بشدّة عداوتهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حُجَجه . وقيل : كانت العَيْن في بني أسد ، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها ثم يقول : يا جارية ، خذي المِكْتَل(2) والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة ، فما تبرح حتى تقع للموت

(1) آية ١٤٣ سورة الصافات .

(2) زبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره .

فتنحر . وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئا يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول : لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه ! فما تذهب إلا قليلا حتى تسقط منها طائفة هالكة . فسأل الكفارُ هذا الرجلَ أن يصيب لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعَيْن فأجابهم ؛ فلما مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيّدًا * وإخال أنك سيّدٌ مَعْيُونُ

فعصم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم ونزلت « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ » . وذكر نحوه الماوردي . وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحدًا — يعني في نفسه وماله — تجوّع ثلاثة أيام ، ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول : تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن ؛ فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال القُشَيْري : وفي هذا نظر ؛ لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن .

قلت : أقوال المفسرين واللغويّين تدل على ما ذكرنا ، وأن مرادهم بالنظر إليه قَتْلُه . ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك . وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد « ليزهقونك » أي ليهلكونك . وهذه قراءة على التفسير ؛ من زهقت نفسُه وأزهقها . وقرأ أهل المدينة « لَيَزْلِقُونك » بفتح الياء . وضمها الباقون ؛ وهما لغتان بمعنًى ؛ يقال : زَلَقه يَزْلِقه وأزلقه يُزلقه إزلاقاً إذا نحّاه وأبعده . وزَلَق رأسَه يَزْلِقه زلقاً إذا حلقه . وكذلك أزلقه وزَلّقه تزليقاً . ورجل زَلِق وزُمَلِق — مثال هُدَبِد — وزُمَالق وزُمّلِق — بتشديد الميم — وهو الذي يُنزِل قبل أن يجامع ؛ حكاه الجوهري وغيره . فمعنى الكلمة إذًا التنحية والإزالة ؛ وذلك لا يكون في حق النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا بهلاكه وموته . قال الهَرَويّ : أراد ليَعتانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوةً لك . وقال ابن عباس : ينفذونك بأبصارهم ؛ يقال : زَلَق السهمُ وزَهَق إذا نفذ .

وهو قول مجاهد . أي يَنْفذونك من شدة نظرهم . وقال الكلبي : يَصْرَعونك . وعنه أيضا والسُّدّي وسعيد بن جبير: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة . وقال العَوْفيّ : يَرْمُونك . وقال المُؤَرِّج : يُزيلونك . وقال النضر بن شُمَيل والأخفش : يفتنونك . وقال عبد العزيز آبن يحيى : ينظرون إليك نظرًا شزْرًا بتحديق شديد . وقال ابن زيد : لَيَمَسُّونك . وقال جعفر الصادق : ليأكلونك . وقال الحسن وابن كَيْسان : ليقتلونك . وهذا كما يقال : صرعني بطرفه، وقتلني بعينه . قال الشاعر :

ترميك مَزْلَقَةُ العيون بطرفها * وتَكِلُّ عنك نصالُ نَبْلِ الرامي

وقال آخر :

يتقارضون إذا التقَوْا في مجلس * نَظَرًا يُزِلُّ(١) مواطئَ الأقـدام

وقيـل : المعنى أنهم ينظرون إليك بالعداوة حتى كادوا يسقطونك . وهـذا كله راجع إلى ما ذكرنا، وأن المعنى الجامع : يصيبونك بالعين . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أي وما القرآن إلا ذكر للعالمين . وقيل : أي وما محمد إلا ذكر للعالمين يتذكّرون به . وقيل : معناه شَرَفٌ؛ أي القرآن . كما قال تعالى : « وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ(٢) » والنبي صلى الله عليه وسلم شرف للعالمين أيضا . شرفوا باتباعه والإيمان به صلى الله عليه وسلم .

سـورة الحَاقّة

مكيّةٌ في قول الجميع . وهي إحدى وخمسون آية

روى أبو الزاهرية عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ إحدى عشرة آية من سورة الحاقة أجير من فتنة الدّجال . ومن قرأها كانت له نورا يوم القيامة من فوق رأسه إلى قدمه " .

---

(١) في بعض الأصول واللسان «يزيل» وكلاهما صحيح . (٢) آية ٤٤ سورة الزخرف .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ ﴾ يريد القيامة؛ سُمّيت بذلك لأن الأمور تُحَقّ فيها؛ قاله الطبري . كأنه جعلها من باب « ليل نائم » . وقيل : سُمّيت حاقّة لأنها تكون من غير شك . وقيل : سُمّيت بذلك لأنها أحقّت لأقوام الجنةَ، وأحقّت لأقوام النارَ . وقيل : سُمّيت بذلك لأن فيها يصير كل إنسان حقيقا بجزاء عمله . وقال الأزهريّ : يقال حاققته فحققته أحُقّه؛ أي غالبته فغلبته . فالقيامة حاقة لأنها تَحُقّ كلَّ مُحاقٍّ في دين الله بالباطل؛ أي كل مخاصم . وفي الصحاح : وحاقّه أي خاصمه وادّعى كل واحد منهما الحق؛ فإذا غلبه قيل حَقّه . ويقال للرجل إذا خاصم في صغار الأشياء : إنه لنزق الحِقاق . ويقال : ماله فيه حق ولا حِقاق؛ أي خصومة . والتحاقّ التخاصم . والاحتقاق : الاختصام . والحاقة والحَقّة والحقّ ثلاث لغات بمعنًى . وقال الكسائي والمؤرِّج : الحاقة يوم الحق . وتقول العرب : لما عَرَف الحَقّة منّي هرب . والحاقة الأولى رفع بالابتداء، والخبر المبتدأ الثاني وخبره وهو « ما الحاقة » لأن معناها ماهي . واللفظ استفهام، ومعناه التعظيم والتفخيم لشأنها؛ كما تقول : زيد ما زيد ! على التعظيم لشأنه . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ استفهام أيضا؛ أي أيّ شيء أعلمك ما ذلك اليوم . والنبيّ صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن بالصفة . فقيل تفخيما لشأنها : وما أدراك ما هي؛ كأنك لست تعلمها إذ لم تعاينها . وقال يحيى بن سلام : بلغني أن كل شيء في القرآن « وما أدراك » فقد أدراه إياه وعلمه . وكل شيء قال « وما يدريك » فهو مما لم يعلمه . وقال سفيان بن عيينة : كل شيء قال فيه « وما أدراك » فإنه أخبر به ، وكل شيء قال فيه « وما يدريك » فإنه لم يخبر به .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾

ذكر من كذب بالقيامة . والقارعة القيامة؛ سُمّيت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها . يقال : أصابتهم قوارع الدهر؛ أي أهواله وشدائده . ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعه

وقوارص لسانه ؛ جمع قارصة وهى الكلمة المؤذية . وقوارع القرآن : الآيات التى يقرؤها الإنسان إذا فزع من الجن أو الإنس ، نحو آية الكرسى ؛ كأنها تقرع الشيطان . وقيل : القارعة مأخوذة من القُرْعة فى رفع قوم وحطّ آخرين ؛ قاله المبرد . وقيل : عنى بالقارعة العذاب الذى نزل بهم فى الدنيا ؛ وكان نبيّهم يخوّفهم بذلك فيكذبونه . وثمود قوم صالح ؛ وكانت منازلهم بالحِجْر فيما بين الشام والحجاز . قال محمد بن إسحاق : وهو وادى القُرَى ؛ وكانوا عُرْبًا . وأما عاد فقوم هود ؛ وكانت منازلهم بالأحقاف . والأحقاف : الرمل بين عُمَان إلى حضرموت واليمن كله ؛ وكانوا عُرْبًا ذوى خَلْق وبَسْطة ؛ ذكره محمد بن إسحاق . وقد تقدم (١) .

قوله تعالى : فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾

فيه إضمار ؛ أى بالفعلة الطاغية . وقال قتادة : أى بالصيحة الطاغية ؛ أى المجاوزة للحدّ ؛ أى لحدّ الصيحات من الهول . كما قال « إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٢) » . والطغيان : مجاوزة الحدّ؛ ومنه « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ » أى جاوز الحدّ . وقال الكلبىّ : بالطاغية بالصاعقة . وقال مجاهد : بالذنوب . وقال الحسن : بالطغيان ؛ فهى مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية . أى أهلكوا بطغيانهم وكفرهم . وقيل . إن الطاغية عاقرُ الناقة ؛ قاله ابن زيد . أى أهلكوا بما أقدم عليه طاغيتهم من عَقْر الناقة ؛ وكان واحدا ، وإنما هلك الجميع لأنهم رضوا بفعله ومالئوه . وقيل له طاغية كما يقال : فلان راوية الشعر ، وداهية وعلّامة ونسّابة .

قوله تعالى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ (٢) آية ٣١ سورة القمر .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أى باردة تحرق ببردها كإحراق النار؛ مأخوذ من الصِّر وهو البرد؛ قاله الضحاك . وقيل : إنها الشديدة الصوت . وقال مجاهد : الشديدة السَّموم . ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أى عتت على خُزّانها فلم تطعهم، ولم يطيقوها من شدّة هبوبها؛ غضبت لغضب الله . وقيل : عتت على عاد فقهرتهم . روى سفيان الثوريّ عن موسى ابن المسيّب عن شَهْر بن حَوْشَب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أرسل الله من نَسَمة(١) من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخُزّان فلم يكن لهم عليه سبيل — ثم قرأ — «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» والريح لما كان يوم عاد عتت على الخُزّان فلم يكن لهم عليها سبيل — ثم قرأ — «بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ» ". ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى أرسلها وسلّطها عليهم . والتسخير : استعمال الشيء بالاقتدار . ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أى متتابعة لا تَفْتُر ولا تنقطع؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما . قال الفرّاء : الحُسُومُ التِّباع؛ من حَسْم الدّاء إذا كُوِيَ صاحبُه؛ لأنه يُكْوَى بالمِكواة ثم يُتابَع ذلك عليه . قال عبد العزيز بن زرارة الكلابيّ :

ففرّق بين بينهم(٢) زمانٌ * تتابع فيه أعوامٌ حسومُ

وقال المبرّد : هو من قولك حَسَمْتُ الشيء إذا قطعته وفصلته عن غيره . وقيل : الحَسْم الاستئصال . ويقال للسيف حُسام؛ لأنه يَحْسِم العدوّ عما يريده من بلوغ عداوته . قال الشاعر :

حُسامٌ إذا قُمتُ مُعْتَضِدًا(٣) به * كفى العَوْدَ منه البَدْءُ ليس بِمِعْضَدِ

والمعنى أنها حسمتهم؛ أى قطعتهم وأذهبتهم . فهى القاطعة بعذاب الاستئصال . قال ابن زيد : حسمتهم فلم تُبق منهم أحدا . وعنه أنها حَسَمت الليالى والأيام حتى استوعبتها؛

(١) وردت هذه الكلمة فى نسخ الأصل : « نسفة » بالفاء . والذى فى الزمخشرى : « سفية » .

(٢) البين من الأضداد، يطلق على الوصل وعلى الفرقة . (٣) المعضد والمعضاد (بكسر الميم) من السيوف الممتهن فى قطع الشجر .

لأنها بدأت طلوعَ الشمس من أوّل يومٍ وانقطعت غروبَ الشمس من آخر يوم . وقال اللّيث : الحسوم الشؤم . ويقال : هذه ليالي الحسوم ؛ أي تَحْسِم الخير عن أهلها ؛ وقاله في الصّحاح . وقال عكرمة والربيع بن أنس: مشائيم؛ دليله قوله تعالى : «في أيّامٍ نَحِساتٍ»[(١)] . عَطِيّةُ العَوْفِيّ: «حُسُومًا» أي حَسَمت الخير عن أهلها . واختلف في أوّلها ؛ فقيل غداة يوم الأحد ؛ قاله السدّي . وقيل : غداة يوم الجمعة ؛ قاله الربيع بن أنس . وقيل : غداة يوم الأربعاء ، قاله يحيى بن سلام ووهب بن مُنَبِّه . قال وهب : وهذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز، ذات برد وريح شديدة، وكان أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء؛ ونُسبت إلى العجوز لأن عجوزا من عادٍ دخلت سَرَبًا فتبعتها الريح فقتلتها في اليوم الثامن . وقيل: سُمِّيت أيام العجوز لأنها وقعت في عجز الشتاء . وهي في آذار من أشهر السُّرْيانيّين . ولها أسامٍ مشهورةٌ؛ وفيها يقول الشاعر وهو ابن أحمر[(٢)] :

كُسِعَ[(٣)] الشتاءُ بسبعة غُبْرٍ * أيامِ شَهْلَتِنا[(٤)] من الشَّهْرِ
فإذا انقضت أيامها ومضت[(٥)] * صِنٌّ وصِنَّبْرٌ مع الوَبْرِ
وبآمرٍ وأخيه مُؤْتَمِرٍ * ومُعَلِّلٍ وبمُطْفِئِ الجَمْرِ
ذهب الشتاءُ مُوَلِّيًا عَجِلًا[(٦)] * وأتتك واقدة من النَّجْرِ[(٧)]

و « حسوما » نصب على الحال . وقيل على المصدر . قال الزجاج : أي تَحْسِمهم حسوما ، أي تُفْنيهم ، وهو مصدر مؤكّد . ويجوز أن يكون مفعولا له ؛ أي سخّرها عليهم هذه المدّة للاستئصال؛ أي لقطعهم واستئصالهم . ويجوز أن يكون جمع حاسم . وقرأ السُّدّي «حَسُومًا» بالفتح، حالا من الريح؛ أي سخرها عليهم مستأصلة .

---

(١) آية ١٦ سورة فصلت . (٢) في اللسان مادة كسع أنه أبو شبل الأعراب .
(٣) الكسع : شدّه المرّ . وكسعه بكذا وكذا اذا جعله تابعا له ومذهبا به . (٤) الشهلة : العجوز .
(٥) في اللسان : فاذا انقضت أيام شهلتنا . (٦) في اللسان : «هربا» . (٧) النجر : الحر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا ﴾ أى فى تلك الليالى والأيام . ﴿ صَرْعَى ﴾ جمع صريع ؛ يعنى موتى . وقيل : « فِيهَا » أى فى الريح . ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ أى أصول . ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ أى بالية؛ قاله أبو الطفيل . وقيل : خالية الأجواف لا شىء فيها . والنخل يذكّر ويؤنّث . وقد قال تعالى فى موضع آخر « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ »(١) فيحتمل أنهم شُبِّهوا بالنخل التى صرعت من أصلها ، وهو إخبار عن عِظَم أجسامهم . ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع؛ أى إن الريح قد قطعتهم حتى صاروا كأصول النخل خاوية . أى الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخلة الخاوية الجوف . وقال ابن شجرة : كانت الريح تدخل فى أفواههم فتُخرج ما فى أجوافهم من الحَشْو من أدبارهم، فصاروا كالنخل الخاوية. وقال يحيى بن سلام : إنما قال خاوية لأن أبدانهم خَوَت من أرواحهم مثل النخل الخاوية . ويحتمل أن يكون المعنى كأنهم أعجاز نخل خاوية عن أصولها من البقاع ؛ كما قال تعالى : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً »(٢) أى خَرِبة لا سُكّان فيها . ويحتمل الخاوية بمعنى البالية كما ذكرنا؛ لأنها إذا بَلِيت خلت أجوافها . فشبهوا بعد أن هلكوا بالنخل الخاوية .

قوله تعالى : فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

أى من فِرْقة باقية أو نفس باقية . وقيل : من بقيّة . وقيل من بقاء . فاعلةٌ بمعنى المصدر ؛ نحو العاقبة والعافية . ويجوز أن يكون ٱسماً ؛ أى هل تجد لهم أحدا باقياً . وقال ابن جُريج : كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء فى عذاب الله من الريح، فلما أمسوا فى اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقتهم فى البحر ؛ فذلك قوله عز وجل : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ »، وقوله عز وجل : « فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ »(٣) .

قوله تعالى : وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى « وَمَن قِبَلَه » بكسر القاف وفتح الباء ؛ أى ومن معه وتبعه من جنوده . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اعتبارا

(١) آية ٢٠ سورة القمر . (٢) آية ٥٢ سورة النمل . (٣) آية ٢٥ سورة الأحقاف .

بقراءة عبد الله وأُبَيّ « ومَن معه » . وقرأ أبو موسى الأشعرِيّ « ومَن تلقاءه » . الباقون « قَبْلَه » بفتح القاف وسكون الباء ؛ أى ومن تقدّمه من القرون الخالية والأمم الماضية . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ أى أهل قُرى لوط . وقراءة العامة بالألف . وقرأ الحسن والجَحْدَرِيّ « والمؤتفكة » على التوحيد . قال قتادة : إنما سُمِّيت قُرَى قوم لوط « مؤتفكات » لأنها ائتفكت بهم ؛ أى انقلبت . وذكر الطبرى عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال : خمس قَرْيات صبعة وصعرة وعمرة ودوما وسدوم؛ وهى القرية العظمى (١) . ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى بالفعلة الخاطئة وهى المعصية والكفر . وقال مجاهد : بالخطايا التى كانوا يفعلونها . وقال الجُرْجَانِيّ : أى بالخطأ العظيم ؛ فالخاطئة مصدر .

قوله تعالى : فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ قال الكلبى : هو موسى . وقيل : هو لوط لأنه أقرب . وقيل : عنى موسى ولوطا عليهما السلام ؛ كما قال تعالى : « فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) » . وقيل : «رسول» بمعنى رسالة . وقد يعبّر عن الرسالة بالرسول؛ قال الشاعر (٣) :

لقد كذب الواشون ما بُحْتُ عندهم * بِسِرٍّ ولا أرسلتهم برسول

﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ أى عالية زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم . ومنه الرِّبَا إذا أخذ فى الذهب والفضة أكثر مما أعطى . يقال : ربا الشيء يربو أى زاد وتضاعف . وقال مجاهد : شديدة . كأنه أراد زائدة فى الشدّة .

قوله تعالى : إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾

---

(١) راجع تاريخ الطبرى ص ٣٤٣ من القسم الأول طبع أوربا .
(٢) آية ١٦ سورة الشعراء . (٣) هو كثير عزة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ أى ارتفع وعلا . وقال علىّ رضى الله عنه : طغى على خزانه من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه . قال قتادة : زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعا . وقال ابن عباس : طغى الماء زمن نوح على خُزّانه فكثُرَ عليهم فلم يَدْرُوا كم خرج . وليس من الماء قطرة تنزل قبله ولا بعده إلا بكيل معلوم غير ذلك اليوم . وقد مضى هذا مرفوعا أول السورة . والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حلّ بهم من العذاب : زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول . ثم مَنّ عليهم بأن جعلهم ذُرّية من نجا من الغرق بقوله : «حملناكم» أى حملنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم . ﴿ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ أى فى السفن الجارية . والمحمول فى الجارية نوح وأولاده ، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك . ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ يعنى سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . جعلها الله تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم ؛ فى قول قتادة . قال ابن جُريج : كانت ألواحها على الجُودِىّ . والمعنى أبقيت لكم تلك الخشبات حتى تذكروا ما حلّ بقوم نوح ، وإنجاء الله آباءكم ؛ وكم من سفينة هلكت وصارت ترابا ولم يبق منها شيء . وقيل : لنجعل تلك الفَعْلة من إغراق قوم نوح وإنجاء من آمن معه موعظة لكم ؛ ولهذا قال الله تعالى ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أى تحفظها وتسمعها أُذُنٌ حافظةٌ لما جاء من عند الله . والسفينة لا توصف بهذا . قال الزجاج : ويقال وَعَيْتُ كذا أى حفظته فى نفسى ، أَعِيه وَعْيًا . ووَعَيْتُ العلم ، ووَعَيْت ما قلت ؛ كلّه بمعنًى . وأوعيت المتاع فى الوعاء . قال الزجاج : يقال لكل ما حفظته فى غير نفسك : « أوعيته » بالألف ، ولما حفظته فى نفسك «وعيته» بغير ألف . وقرأ طلحة وحُميد والأعرج «وتعيها» بإسكان العين ؛ تشبيها بقوله «أَرْنَا»[1] . واختلف فيها عن عاصم وابن كَثير . الباقون بكسر العين ؛ ونظير قوله تعالى : « وتعيها أُذُنٌ واعية » ، « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »[2] . وقال قتادة : الأذن الواعية أذن عقلت عن الله تعالى ، وانتفعت بما سمعت من

(١) فى قوله تعالى : « وأرنا مناسكنا » آية ١٢٨ سورة البقرة . راجع جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية .

(٢) آية ٣٧ سورة ق .

كتاب الله عزّ وجلّ . وروى مكحول أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال عند نزول هذه الآية : "سألت ربّي أن يجعلها أُذُنَ عليّ". قال مكحول : فكان عليّ رضى الله عنه يقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قطّ فنسيته إلا وحفظته . ذكره المـاوَرْدِيّ . وعن الحسن نحوه ذكره الثعلبي قال : لمـا نزلت «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "سألت ربّي أن يجعلها أذنَك ياعليّ" قال عليّ : فوالله ما نسيت شيئا بعدُ ، وما كان لى أن أنسى . وقال أبو بَرْزَة الأسْلَمِيّ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ : " ياعليّ إن الله أمرنى أن أُدْنِيَك ولا أقصِيَك وأن أعلمك وأن تَعِي وحقّ على الله أن تَعِي " .

قوله تعـالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾

قال ابن عباس : هى النفخة الأولى لقيام الساعة ، فلم يبق أحد إلا مات . وجاز تذكير «نُفِخ» لأن تأنيث النفخة غير حقيقى . وقيل : إن هذه النفخة هى الأخيرة . وقال «نفخة واحدة» أى لاتُثَنّى . قال الأخفش : ووقع الفعل على النفخة إذ لم يكن قبلها اسم مرفوع فقيل : نفخة . ويجوز «نفخةً» نصباً على المصدر . وبها قرأ أبو السَّمال . أو يقال اقتصر على الإخبار عن الفعل كما تقول : ضرب ضربا . وقال الزجاج : «فى الصُّور» يقوم مقام ما لم يسم فاعله .

قوله تعـالى : وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ والجِبَالُ ﴾ قراءة العامة بتخفيف الميم ؛ أى رفعت من أماكنها . ﴿ فَدُكَّتَا ﴾ أى فُتّتَا وكسِرتا . ﴿ دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ لا يجوز فى «دَكّةً» إلا النصب لارتفاع الضمير فى «دُكّتَا» . وقال الفراء : لم يقل فَدُكِكْن لأنه جعل الجبال كلّها كالجملة الواحدة ، والأرض كالجملة الواحدة . ومثله «أنّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً»(1) ولم يقل كنّ . وهذا الدك كالزلزلة ؛ كما قال تعالى : «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا» . وقيل : «دُكّتَا»

(1) آية ٣٠ سورة الأنبياء .

أى بُسِطتا بسطةً واحدة؛ ومنه اندك سنام البعير إذا انفرش فى ظهره . وقد مضى فى سورة « الأعراف »(١) القول فيه . وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر « وحُمِّلت الأرضُ والجبالُ » بالتشديد على إسناد الفعل إلى المفعول الثانى . كأنه فى الأصل وحَمَّلْتُ قُدْرَتنا أو مَلَكًا من ملائكتنا الأرضَ والجبالَ؛ ثم أسند الفعل إلى المفعول الثانى فبُنِيَ له . ولوجىء بالمفعول الأول لأسند الفعل إليه؛ فكأنه قال : وحُمِّلت قُدْرَتُنا الأرضَ . وقد يجوز بناؤه للثانى على وجه القلب فيقال : حُمِّلت الأرضُ المَلَكَ؛ كقولك : أُلْبِس زيدٌ الجُبّةَ، وأُلْبِست الجبةُ زيدًا .

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أى قامت القيامة . ﴿ وَٱنْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ أى انصدعتْ وتفطّرت . وقيل : تنشق لنزول مافيها من الملائكة؛ دليله قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا »(٢) وقد تقدم . ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ أى ضعيفة. يقال : وَهَى البناء يَهِى وَهْيًا فهو واهٍ إذا ضَعُف جدًّا . ويقال : كلامٌ واهٍ؛ أى ضعيف . فقيل إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف فى الوَهْى؛ ويكون ذلك لنزول الملائكة كما ذكرنا . وقيل : لهول يوم القيامة . وقيل : « واهية » أى متخرقة ؛ قاله ابن شجرة . مأخوذ من قولهم : وَهَى السقاء إذا تخرّق . ومن أمثالهم :

خَلِّ سبيلَ من وَهَى سِقاؤه * ومن هُرِيق بالفلاة ماؤه

أى من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه . ﴿ وَالْمَلَكُ ﴾ يعنى الملائكة؛ اسم للجنس . ﴿ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ أى على أطرافها حين تنشق؛ لأن السماء مكانهم؛ عن ابن عباس . الماوردىّ : ولعله قول مجاهد وقتادة . وحكاه الثعلبىّ عن الضحاك . قال : على أطرافها مما لم ينشق منها .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٨ (٢) آية ٢٥ سورة الفرقان . راجع جـ ١٣ ص ٢٣

يريد أن السماء مكان الملائكة فاذا انشقت صاروا فى أطرافها . وقال سعيد بن جبير : المعنى والمَلَكُ على حافات الدنيا؛ أى ينزلون إلى الأرض و يحرسون أطرافها . وقيل : إذا صارت السماء قِطَعًا تقف الملائكة على تلك القطع التى ليست متشققة فى أنفسها . وقيل : إن الناس إذا رأوا جهنم هالتهم ؛ فينِدّوا كما تَنِدّ الإبل، فلا يأتون قُطْرًا من أقطار الأرض إلا رأوا ملائكة فيرجعون من حيث جاءوا . وقيل : « على أرجائها » ينتظرون ما يؤمرون به فى أهل النار من السَّوق إليها، وفى أهل الجنة من التّحية والكرامة . وهذا كله راجع إلى معنى قول ابن جبير . ويدلّ عليه « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » وقولُه تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»(١) على ما بيناه هناك . والأرجاء النواحى والأقطار بلغة هُذيل، واحدها رَجًا مقصور، وتثنيته رَجَوان؛ مثل عَصًا وعَصَوان. قال الشاعر :

فلا يُرْمَى بِيَ الرَّجَوَان أنّى * أقلُّ القومِ مَن يُغْنِي مكانِي

و يقال ذلك لحرف البئر والقبر .

قوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ قال ابن عباس : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عَدَدَهم إلا الله . وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك . وعن الحسن : الله أعلم كم هم ، ثمانية أم ثمانية آلاف . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم "إن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين فكانوا ثمانية" . ذكره الثعلبي . وخرّجه الماوردى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يحمله اليوم أربعة وهم يوم القيامة ثمانية" . وقال العباس بن عبد الملك : هم ثمانية أملاك على صورة الأوعال(٢) . ورواه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى الحديث "إن لكل مَلَك منهم أربعة أوجه وجه رجل ووجه أسد ووجه ثَوْر ووجه نَسْر وكلّ وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس" . ولما أنشد بين يدى النبيّ صلى الله عليه وسلم قولُ أُميّة بن أبى الصّلْت :

(١) آية ٣٣ سورة الرحمن . راجع جـ ١٧ ص ١٦٩ . (٢) الوعل : التيس الجبلى .

رَجُلٌ وثَورٌ تحت رجل يمينه * والنَّسْرُ للأخرى وَلَيْثٌ مُرْصَدُ
والشمس تطلع كلَّ آخر ليلة (١) * حمراء يُصبِح (٢) لَونُها يَتَوَرَّدُ
ليست بطالعة لهم فى رِسْلِها (٣) * إلّا مُعَذَّبةً وإلّا تُجْلَدُ

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "صَدَق" . وفى الخبر "أن فوق السماء السابعة ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش" . ذكره القشيرى وخرّجه الترمذىّ من حديث العباس بن عبد المطلب . وقد مضى فى سورة « البقرة » بكماله (٤) . وذكر نحوه الثعلبيّ ولَفْظَه . وفى حديث مرفوع "إن حملة العرش ثمانية أملاك على صورة الأوعال ما بين أظلافها الى ركبها مسيرة سبعين عاما للطائر المسرع" . وفى تفسير الكلبيّ : ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة . وعنه : ثمانية أجزاء من عشرة أجزاء من الملائكة . ثم ذكر عدّة الملائكة بما يطول ذكره . حكى الأول عنه الثعلبيّ والثانى القشيرىّ . وقال الماوردىّ عن ابن عباس : ثمانية أجزاء من تسعة وهم الكَرُوبِيُّون (٥) . والمعنى ينزل بالعرش . ثم إضافة العرش الى الله تعالى كإضافة البيت ، وليس البيت للسكنى ، فكذلك العرش . ومعنى « فوقهم » أى فوق رءوسهم . قال السُّدِّى : العرش تحمله الملائكة الحملة فوقهم ولا يحمل حملة العرش إلا الله . وقيل : « فوقهم » أى إن حملة العرش فوق الملائكة الذين فى السماء على أرجائها . وقيل : « فوقهم » أى فوق أهل القيامة .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ أى على الله ؛ دليله « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا » وليس ذلك عرضًا يعلم به مالم يكن عالما به ، بل معناه الحساب وتقرير الأعمال عليهم للمجازاة . وروى الحسن عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يعرض

(١) فى الأصول هنا : « تصبح » . (٢) فى الأغانى ج ٤ ص ١٣٠ طبعة دار الكتب المصرية :
* حمراء مطلع لونها متورد * (٣) فى الأغانى : * تأبى فلا تبدو لنا فى رسلها *
(٤) راجع ج ١ ص ٢٥٩ (٥) الكروبيون : سادة الملائكة ، وهم المقربون ؛ مأخوذ من الكَرْب وهو القرب .

الناس يومَ القيامة ثلاث عَرْضات فأما عَرْضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله " . خرجه الترمذيّ قال: ولا يصح من قِبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة . ﴿ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أي هو عالم بكل شيء من أعمالكم . فـ « خافِيَةٌ » على هـذا بمعنى خَفِيّة ، كانوا يخفونها من أعمالهم ؛ قاله ابن شجرة . وقيـل : لا يخفى عليـه إنسان ؛ أي لا يبقى إنسان لا يحاسَب . وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص : لا يخفى المؤمن من الكافر ولا البَرُّ من الفاجر . وقيـل : لا تستتر منكم عَوْرَةٌ ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يُحشر الناس حفاةً عُراةً " . وقرأ الكوفيون إلا عاصما «لا يَخْفَى» بالياء ؛ لأن تأنيث الخافية غير حقيقي ؛ نحو قوله تعالى : «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ»(١) . واختاره أبو عبيد ؛ لأنه قد حال بين الفعل وبين الاسم المؤنث الجارُّ والمجرور . الباقون بالتاء . واختاره أبو حاتم لتأنيث الخافية .

قوله تعـالى : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَـةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَـةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَـهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَـةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَـهْ ﴿٢٨﴾ هَـلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِـلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

(١) آية ٦٧ سورة هود .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ إعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة . وقال ابن عباس : أوّل مَن يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب ، وله شعاع كشعاع الشمس . قيل له : فأين أبو بكر؟ فقال هيهات هيهات ! زفّته الملائكة الى الجنة . ذكره الثعلبيّ . وقد ذكرناه مرفوعا من حديث زيد بن ثابت بلفظه ومعناه فى كتاب «التذكرة» . والحمد لله . ﴿ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أى يقول ذلك ثقةً بالإسلام وسرورًا بنجاته ؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والشِّمال من دلائل الغمّ . قال الشاعر (١) :

أبِينِي أفي يُمْنَى يَدَيْكِ جعلتِني * فأفرح أم صيّرتِني في شمالكِ

ومعنى « هاؤم » تعالوا ؛ قاله ابن زيد . وقال مقاتل : هَلُمّ . وقيل : أى خذوا ؛ ومنه الخبر فى الربا "إلا هاءَ وهاءَ" أى يقول كل واحد لصاحبه : خذ . قال ابن السِّكِّيت والكسائيّ : العرب تقول هاءَ يارجلُ اقرأ ، وللاثنين هاؤما يارجلان ، وهاؤم يارجال ، وللمرأة هاءِ (بكسر الهمزة) وهاؤما وهاؤُنّ . والأصل هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف ؛ قاله القتيبي (٢) . وقيل : إن « هاؤم » كلمةٌ وضعت لإجابة الداعى عند النشاط والفرح . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداه أعرابيّ بصوت عالٍ فأجابه النبيّ صلى الله عليه وسلم « هاؤم » يطوّل صوته . « وكِتَابِيَهْ » منصوب بـ « هاؤم » عند الكوفيين . وعند البصريين بـ « اقرءوا » لأنه أقرب العاملين . والأصل « كتابى » فأدخلت الهاء لتبيّن فتحة الياء ، وكان الهاء للوقف ، وكذلك فى أخواته : «حسابيه ، وماليه ، وسلطانيه» . وفى القارعة «ماهيه» . وقراءة العامة بالهاء فيهن فى الوقف والوصل معًا ؛ لأنهنّ وقعن فى المصحف بالهاء فلا تترك . واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة فى إلحاق الهاء فى السَّكْت ويوافق الخط . وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد وحُميد ويعقوب بحذف الهاء فى الوصل وإثباتها فى الوقف فيهن جُمَع . ووافقهم حمزة فى « ماليه وسلطانيه » ، و « ماهيه » فى القارعة . وجملة هذه الحروف سبعة . واختار أبو حاتم قراءة يعقوب ومن معه اتباعًا للغة . ومن قرأهن فى الوصل بالهاء

(١) هو ابن الدمينة . (٢) وفيها لغات أخرى فارجع إليها فى كتب اللغة .

فهو على نية الوقف . ﴿ إِنِّى ظَنَنْتُ ﴾ أى أيقنت وعلمت؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : أى إنى ظننت أن يؤاخذنى الله بسيئاتى عذبنى[1] فقد تفضل علىّ بعفوه ولم يؤاخذنى بها . قال الضحاك : كل ظن فى القرآن من المؤمن فهو يقين . ومن الكافر فهو شك . وقال مجاهد : ظَنُّ الآخرة يقين، وظن الدنيا شك . وقال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسنَ الظن بربه فأحسن العمل ، وإن المنافق أساء الظن بربّه فأساء العمل . ﴿ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أى فى الآخرة ولم أنكر البعث ؛ يعنى أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب ، لأنه تيقّن أن الله يحاسبه فعمل للآخرة . ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ أى فى عَيش يرضاه لا مكروه فيه . وقال أبو عبيدة والفراء : « راضِية » أى مرضية ؛ كقولك : ماء دافق؛ أى مدفوق . وقيل : ذات رِضًا ؛ أى يرضى بها صاحبها . مثل لابِن وتامِر ؛ أى صاحب اللبن والتمر . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " أنهم يعيشون فلا يموتون أبدا ويصِحّون فلا يمرضون أبدا وينعمون فلا يرون بؤسًا أبدا ويَشِبّون فلا يهرمون أبدا " . ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى عظيمة فى النفوس . ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ أى قريبة التناول، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « الإنسان» . والقُطُوف جمع قِطف (بكسر القاف) وهو ما يقطف من الثمار . والقَطف (بالفتح) المصدر . والقِطَاف (بالفتح والكسر) وقت القطف . ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم ذلك . ﴿ هَنِيئًا ﴾ لا تكدير فيه ولا تنغيص . ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾ قدّمتم من الأعمال الصالحة . ﴿ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ أى فى الدنيا . وقال : « كلوا » بعد قوله : « فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » لقوله : « فأمّا مَنْ أُوتِىَ » و « مَن » يتضمن معنى الجمع . وذكر الضحاك أن هذه الآية نزلت فى أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزوميّ ؛ وقاله مقاتل . والآية التى تليها فى أخيه الأسود بن عبد الأسد ؛ فى قول ابن عباس والضحاك أيضا ؛ قاله الثعلبيّ . ويكون هذا الرجلُ وأخوه سبب نزول هذه الآيات . ويعمّ المعنى جميع أهل الشقاوة وأهل السعادة ؛ يدلّ عليه قوله تعالى : « كُلُوا وَٱشْرَبُوا » . وقد قيل :

---

(١) كذا فى نسخ الأصل . ولعلها «فيعذبنى» وقد أورد الخطيب فى تفسيره هذا القول ولم يذكر فيه هذه الكلمة .

إن المراد بذلك كلُّ من كان متبوعا فى الخير والشر . فإذا كان الرجل رأسا فى الخــير ، يدعو إليه ويأمر به ويكثر تَبَعه عليه ، دُعِىَ باسمه واسم أبيه فيتقدّم، حتى إذا دنا أُخرِج له كتاب أبيض بخط أبيض ، فى باطنــه السيئات وفى ظاهره الحسنات ؛ فيبدأ بالسيئات فيقرأهــا فيُشْــفِق ويصفرّ وجهُه ويتغــيّر لونُه ؛ فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه « هــذه سيئاتك وقد غفرت لك» فيفرح عند ذلك فرحا شديدا، ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحا ؛ حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيــه « هذه حسناتك قد ضُوعفت لك » فيبيض وجهــه ويُؤْتَى بتاج فيوضع على رأسه ، ويُكْسَى حُلَّتين، ويُحلّى كل مفصل منه ويطول ستين ذراعا وهى قامة آدم عليه الســلام ؛ ويقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم وبشّرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا . فإذا أدبر قال : هَاؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَابِيَه . إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَه . قال الله تعالى : « فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » أى مرضية قد رضيها « فِى جَنَّةٍ عالِيَةٍ » فى السماء . « قُطُوفُهَا » ثمارها وعناقيدها . « دَانِيَةٌ » أدنيت منهم . فيقول لأصحابه : هل تعرفونى ؟ فيقولون : قد غمرتك كرامة ، من أنت ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان أبشّر كلَّ رجل منــكم بمثل هــذا . « كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَــةِ » أى قدمتم فى أيام الدنيا . وإذا كان الرجل رأسا فى الشر، يدعو إليه ويأمر به فيكثر تبعه عليه، نودى باسمه واسم أبيه فيتقدم إلى حســابه ، فيخرج له كتاب أسـود بخط أسـود فى باطنه الحسنات وفى ظاهره السيئات ، فيبــدأ بالحسنات فيقرأها ويظن أنه سينجو ، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيــه «هــذه حسناتك وقد رُدّت عليك» فيسودّ وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير ، ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزنا ، ولا يزداد وجهه إلا سوادا ، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه « هــذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك » أى يضاعف عليه العــذاب . ليس المعنى أنه يزاد عليه ما لم يعمل — قال — فيعظم للنار وتزرق عيناه ويسودّ وجهه ، ويكسى سرابيل القَطِران ويقال له : انطلق إلى أصحابك وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثــل هذا ؛ فينطلق وهو يقول : « يالَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ ما حِسَابِيَهْ . يالَيْتَهَا كانَتِ القَاضِيَةَ » يتمنى الموت .

« هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَـهْ » تفسير ابن عباس : هلكتْ عنى حُجّتى . وهو قول مجاهـد وعِكرمة والسدّى والضحاك . وقال ابن زيد : يعنى سلطانيه فى الدنيا الذى هو المُـلْك . وكان هذا الرجل مطاعا فى أصحابه ؛ قال الله تعـالى ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ قيل : يبتدره مائة ألف ملك ثم تجمع يده إلى عنقه وهوقوله عز وجل « فَغُلُّوه » أى شدّوه بالأغلال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أى اجعلوه يَصْلَى الجحيم . ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ الله أعلم بأىّ ذراع ؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : سـبعون ذراعا بذراع المَلَك . وقال نَوْف : كل ذراع سبعون باعًا ، وكل باع أبعد ما بينك وبين مكة . وكان فى رحبة الكوفة . وقال مقاتل : لو أن حَلْقة منها وُضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصـاص . وقال كعب : إن حَلْقة من السلسـلة التى قال الله تعالى ذرعها سبعون ذراعا — أن حلقة منها — مثل جميع حديد الدنيا . ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قال سفيان : بلغنا أنها تدخل فى دُبُره حتى تخرج من فيه . وقاله مقاتل . والمعنى ثم آسلكوا فيه سلسلة . وقيـل : تدخل عنقه فيها ثم يُجَرّ بهـا . وجاء فى الخـبر : أنها تدخل من دبره وتخرج من مَنْخِرَيْه . وفى خبر آخر : تدخل من فيـه وتخرج من دبره ؛ فينادى أصحابه هل تعرفونى ؟ فيقولون لا ، ولكن قد نرى مابك من الخزى فمن أنت ؟ فينادى أصحابه أنا فلان بن فلان . لكلّ إنسان منكم مثلُ هذا .

قلت : وهذا التفسير أصح ما قيل فى هذه الآية ؛ يدلّ عليه قوله تعـالى : « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ »(١) . وفى البـاب حديث أبى هريرة بمعناه خرّجه الترمذىّ . وقد ذكرناه فى سورة « سبحان » فتأمله هناك . ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أى على الإطعام ؛ كما يوضع العطاء موضع الإعطاء . قال الشاعر :

أَكُفْراً بعـد رَدّ المـوت عنّى * وبعـد عطـائك المـائةَ الرِّتاعَا(٢)

(١) آية ٧١ سـورة الإسراء . راجع جـ ١٠ ص ٢٩٦ (٢) البيت من قصيدة للقطامى مدح بها زفر ابن الحارث الكلابى . قال ابن قتيبـة فى الشعر والشعراء : « كان القطامى أسره زفر فى الحـرب التى كانت بين قيس وتغلب فأرادت قيس قتله فحال زفر بينهم ومنّ عليـه وأعطاه مائة من الإبل وأطلقه ؛ فقال : أكفرا الخ » . والرتاع (بكسر الراء) : التى ترتع . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد التاسع والتسعين بعد الخمسمائة) .

أراد بعد إعطائك . فبيّن أنه عُذّب على ترك الإطعام وعلى الأمر بالبخل ، كما عُذّب بسبب الكفر . والحَضّ : التحريض والحَثّ . وأصل « طعام » أن يكون منصوبا بالمصدر المقدّر . والطعام عبارة عن العين، وأضيف للسكين للملابسة التي بينهما . ومن أعمل الطعام كما يعمل الإطعام فموضع المسكين نصب . والتقدير على إطعام المُطْعِم المسكينَ؛ فحذف الفاعل وأضيف المصدر إلى المفعول .

قوله تعالى : فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ ﴾ خبر ليس قوله : « له » ولا يكون الخبر قوله : « ها هنا » لأن المعنى يصير ليس ها هنا طعام إلا من غِسْلِين ، ولا يصحّ ذلك ؛ لأن ثَمّ طعاما غيره . و « ها هنا » متعلق بما في « له » من معنى الفعل . والحميم ها هنا القريب . أي ليس له قريب يرق له و يدفع عنه . وهو مأخوذ من الحَمِيم وهو الماء الحار ؛ كأنه الصديق الذي يرقّ و يحترق قلبه له . والغِسْلين فِعْلِين من الغَسْل ؛ فكأنه ينغسل من أبدانهم، وهو صَدِيدُ أهل النار السائلُ من جروحهم وفروجهم ؛ عن ابن عباس . وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو شجر يأكله أهل النار . والغِسْل (بالكسر) ما يغسل به الرأس من خِطْمِيّ وغيره . الأخفش : ومنه الغِسلين وهو ما آنغسل من لحوم أهل النار ودمائهم . وزيد فيه الياء [والنون] كما زيد في عِفِرِّين . وقال قتادة : هو شر الطعام وأبشعه . آبن زيد : لا يُعلم ما هو ولا الزّقوم . وقال في موضع آخر : « ليس لهم طعام إلا من ضريع »(1) يجوز أن يكون الضّريع من الغسلين . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى فليس له اليوم هاهنا حميم إلا من غسلين ؛ ويكون الماء الحار . ﴿ وَلَا طَعَامٌ ﴾ أي وليس لهم طعام ينتفعون به . ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أي المذنبون . وقال آبن عباس : يعني المشركين . وقرئ

(1) آية ٦ سورة الغاشية .

« الخاطيون » بإبدال الهمزة ياء، و « الخاطون » بطرحها . وعن ابن عباس : ما الخاطون؟ كلنا نخطو . وروى عنه أبو الأسود الدُّؤَلى : ما الخاطون؟ إنما هو الخاطئون . ما الصابون ؟ إنما هو الصابئون . ويجوز أن يراد الذين يتخطَّوْن الحق الى الباطل ويتعدَّوْن حدود الله عز وجل .

قوله تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ المعنى أقسم بالأشياء كلّها ماترون منها وما لا ترون . و « لا » صلة . وقيل : هو ردٌّ لكلام سبق؛ أى ليس الأمر كما يقوله المشركون . وقال مقاتل : سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال إن محمدا ساحر . وقال أبو جهل : شاعر . وقال عقبة : كاهن؛ فقال الله عز وجل : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ أى أقسم . وقيل : « لا » هاهنا نفى للقَسَم ؛ أى لا يحتاج فى هذا الى قَسَم لوضوح الحق فى ذلك ، وعلى هذا فجوابه كجواب القَسَم . ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يريد جبريل؛ قاله الحسن والكلبى ومقاتل . دليله « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ »(١) . وقال الكلبى أيضا والقُتَبى : الرسول هاهنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لقوله : « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ » وليس القرآن من قول الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إنما هو من قول الله عز وجل . ونسب القول الى الرسول لأنه تاليه ومبلِّغه والعامل به؛ كقولنا : هذا قول مالك .

قوله تعالى : وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

---

(١) آية ١٩ سورة التكوير .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ لأنه مباين لصنوف الشعر كلها . ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ لأنه ورد بسبّ الشياطين وشتمهم فلا ينزلون شيئا على من يسبهم . و « ما » زائدة في قوله : «قليلاً ما تؤمنون» ، «قليلاً ما تذكّرون» ؛ والمعنى : قليلا تؤمنون وقليلاً تذكّرون . وذلك القليل من إيمانهم هو أنهم إذا سئلوا مَن خلقهم قالوا : الله . ولا يجوز أن تكون « ما » مع الفعل مصدرا وتنصب « قليلا » بما بعد « ما » ؛ لما فيه من تقديم الصلة على الموصول ؛ لأن ما عمل فيه المصدر من صلة المصدر . وقرأ ابن مُحَيْصن وابن كثير وابن عامر ويعقوب « ما يؤمنون » ، و « يذكرون » بالياء . الباقون بالتاء لأن الخطاب قبله وبعده . أما قبله فقوله : «تبصرون» وأما بعده « فما منكم » الآية .

قوله تعالى : تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ أى هو تنزيل . ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهو عطف على قوله : « إنه لقول رسولٍ كريم » ؛ أى إنه لقول رسول كريم وهو تنزيل من رب العالمين .

قوله تعالى : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ « تقوّل » أى تكلّف وأتى بقول من قبل نفسه . وقرئ « ولو تُقُوِّل » على البناء للمفعول . ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أى بالقوّة والقدرة ؛ أى لأخذناه بالقوّة . و « من » صلة زائدة . وعبر عن القوّة والقدرة باليمين لأن قوّة كل شيء في ميامنه ؛ قاله القُتَبيّ . وهو معنى قول ابن عباس ومجاهد . ومنه قول الشّماخ :

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجْدٍ * تلقّاها عَرابة باليمين

أى بالقوّة . عَرَابة آسم رجل من الأنصار من الأوس . وقال آخر :

ولمّا رأيت الشمس أشرق نورها * تناولت منها حاجتي بيميني

وقال السُّدّى والحَكَم : « باليمين » بالحق . قال :

* تلقّاها عَرَابةُ باليمين *

أى بالاستحقاق . وقال الحسن : لقطعنا يده اليمين . وقيل : المعنى لقبضنا بيمينه عن التصرف ؛ قاله نَفْطَوَيْه . وقال أبو جعفر الطبرى : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس فى الأخذ بيد من يُعاقَب . كما يقول السلطان لمن يريد هوانَه : خذوا يديه . أى لأمرنا بالأخذ بيده وبالغنا فى عقابه . ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ يعنى نِياط القلب ؛ أى لأهلكناه . وهو عِرْقٌ يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه ؛ قاله ابن عباس وأكثر الناس . قال :

إذا بَلَّغْتِنِي وحَمَلْتِ رَحْلِي * عَرَابةَ فَاشْرَقِي(1) بدَمِ الوَتِين

وقال مجاهد : هو حبل القلب الذى فى الظهر وهو النخاع ؛ فإذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه . والموتون الذى قطع وتينه . وقال محمد بن كعب : إنه القلب ومَرَاقّه وما يليه . وقال الكلبىّ : إنه عرق بين العلباء والحلقوم . والعلباء عصبُ العنق . وهما علباوان بينهما ينبت العرق . وقال عكرمة : إن الوتين إذا قُطع لا إن جاع عَرَف ، ولا إن شَبِع عَرَف .

قوله تعالى : فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ « ما » نفى و « أحد » فى معنى الجمع ؛ فلذلك نعته بالجمع ؛ أى فما منكم قوم يحجزون عنه ؛ كقوله تعالى : « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ »(2) هذا جمع ؛ لأن « بين » لا تقع إلا على اثنين فما زاد . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: " لم تَحِلّ الغنائمُ لأحد سُودِ الرءوس قبلكم ". لفظه واحد ومعناه الجمع . و « مِن » زائدة .

---

(1) شرق (من باب طرب) : غص . (2) آية ٢٨٥ سورة البقرة .

والحجز : المنع . و « حاجزين » يجوز أن يكون صفة لأحد على المعنى كما ذكرنا؛ فيكون في موضع جر . والخبر « منكم » . ويجوز أن يكون منصوبا على أنه خبر و « منكم » مُلْغًى، ويكون متعلقا بـ « حاجزين » . ولا يمنع الفصل به من انتصاب الخبر في هـذا ؛ كما لم يمتنع الفصل به في « إن فيك زيدا راغب » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي للخائفين الذين يخشون الله . ونظيره « فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »(١) على ما بيناه أوّل سورة البقرة . وقيل : المراد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي هو تذكرة ورحمة ونجاة .

قوله تعـالى : وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ قال الربيع : بالقرآن . ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ ﴾ يعني التكذيب . والحسرة الندامة . وقيل : أي وإن القرآن لحسرةٌ على الكافرين يوم القيامة إذا رأوا ثواب من آمن به . وقيل : هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحدّيهم أن يأتوا بسورة مثله . ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ يعني أن القرآن العظيم تنزيل من الله عز وجل؛ فهو لحق اليقين . وقيل : أي حقًّا يقيناً ليكوننّ ذلك حسرةً عليهم يوم القيامة . فعلى هذا « وإنّه لَحَسْرَةٌ » أي لَتَحَسُّر؛ فهو مصدر بمعنى التحسر، فيجوز تذكيره . وقال ابن عباس : إنما هو كقولك : لعين اليقين ومحض اليقين . ولو كان اليقين نعتاً لم يجـز أن يضاف إليه ؛ كما لا تقول : هـذا رجل الظريف . وقيل : أضافه إلى نفسـه لاختلاف اللفظين . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي فصلّ لربك؛ قاله ابن عباس . وقيل : أي نزه الله عن السوء والنقائص .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١ طبعة ثانية .

ســـورة المعـــارج

وهى مكية باتفاق . وهى أربع وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قرأ نافع وابن عامر « سال سايل » بغير همزة . الباقون بالهمز . فمن همز فهو من السؤال . والباء يجوز أن تكون زائدة ، ويجوز أن تكون بمعنى عن . والسؤال بمعنى الدعاء ؛ أى دعا داع بعذاب ؛ عن ابن عباس وغيره . يقال : دعا على فلان بالويل ، ودعا عليه بالعذاب . ويقال : دعوت زيدا ؛ أى ٱلتمست إحضاره . أى ٱلتمس ملتمِس عذابا للكافرين ؛ وهو واقع بهم لا محالة يوم القيامة . وعلى هذا فالباء زائدة ؛ كقوله تعالى : « تَنبُتُ بِالدُّهْنِ »(١) ، وقوله . « وهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ »(٢) فهى تأكيد . أى سأل سائل عذابا واقعا . ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى على الكافرين . وهو النضر ابن الحارث حيث قال : « اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ مِن عندك فأمطِر علينا حِجارةً مِن السماء أو ٱئتنا بعذاب أليم »(٣) فنزل سؤاله ، وقُتل يوم بَدْرٍ صبراً(٤) هو وعقبة بن أبى مُعَيط ؛ لم يُقتل صبْراً غيرُهما ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : إن السائل هنا هو الحارث بن النعمان الفِهْرِىّ . وذلك أنه لما بلغه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم فى علىّ رضى الله عنه : "مَنْ كنتُ مَوْلَاه فعلىٌّ مولاه" ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال : يا محمد ، أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله

---

(١) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٢) آية ٢٥ سورة مريم .

(٣) آية ٣٢ سورة الأنفال . (٤) الصبر : نصب الإنسان للقتل .

إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأن نصلّي خمساً فقبلناه منك، ونزكّي أموالنا فقبلناه منك، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك، وأن نحجّ فقبلناه منك؛ ثم لم ترض بهذا حتى فضّلت ابن عمك علينا! أفهذا شيء منك أم من الله؟! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "والله الذي لا إله إلا هو ما هو إلا من الله" فولّى الحارث وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقًّا فأمطر علينا حجارة من السماء أو آئتنا بعذاب أليم. فوالله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله؛ فنزلت «سَأَلَ سَائِلٌ بِعذابٍ وَاقِعٍ» الآية. وقيل: إن السائل هنا أبو جهل وهو القائل لذلك؛ قاله الربيع. وقيل إنه قول جماعة من كفار قريش. وقيل: هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين. وقيل: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أي دعا عليه السلام بالعقاب وطلب أن يوقعه الله بالكفار؛ وهو واقع بهم لا محالة. وامتدّ الكلام إلى قوله تعالى: «فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا» أي لا تستعجل فإنه قريب. وإذا كانت الباء بمعنى عن — وهو قول قتادة — فكأن سائلا سأل عن العذاب بمن يقع أو متى يقع. قال الله تعالى: «فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا»[1] أي سل عنه. وقال عَلْقَمَة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني　＊　بصير بأدواء النساء طبيب

أي عن النساء. ويقال: خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. فالمعنى سألوا بمن يقع العذاب ولمن يكون فقال الله: «للكافرين». قال أبو علي وغيره: وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدّى إلى مفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما. وإذا اقتصر على أحدهما جاز أن يتعدّى إليه بحرف جرّ؛ فيكون التقدير سأل سائل النبيّ صلى الله عليه وسلم أو المسلمين بعذاب أو عن عذاب. ومن قرأ بغير همز فله وجهان: أحدهما أنه لغة في السؤال وهي لغة قريش؛ تقول العرب: سال يسال؛ مثل نال ينال وخاف يخاف. والثاني أن يكون من السيلان. ويؤيده قراءة ابن عباس «سال سَيْل». قال عبد الرحمن بن زيد: سال وادٍ من أودية جهنم يقال له

---

(١) آية ٥٩ سورة الفرقان.

سائل . وهو قول زيد بن ثابت . قال الثعلبي : والأوّل أحسن . كقول الأعشى[(١)] في تخفيف الهمزة :

سالتاني الطلاق إذ رأتاني * قَلّ مالي قد جئتماني بنكر

وفي الصحاح قال الأخفش : يقال خرجنا نسأل عن فلان و بفلان . وقد تخفف همزته فيقال : سال يسال . وقال :

ومُرْهِقٍ سال إمتاعاً بأُصْدَتِه * لم يَسْتَعِن وحَوامِي المَوْتِ تغشاه[(٢)]

المرهق : الذي أدرك ليقتل . والأصدة بالضم : قميص صغير يلبس تحت الثوب . المهدوي : من قرأ « سال » جاز أن يكون خفّف الهمزة بإبدالها ألفا ، وهو البدل على غير قياس . وجاز أن تكون الألف منقلبة عن واو على لغة من قال : سِلت أسال ؛ كخفت أخاف . النحاس : حكى سيبويه سِلت أسال؛ مثل خفت أخاف؛ بمعنى سألت . وأنشد :

سَالَتْ هُذَيلٌ رسولَ الله فاحشةً * ضَلّتْ هذيلٌ بما سالتْ ولم تُصِبِ[(٣)]

ويقال : هما يتساولان . المهدوي : وجاز أن تكون مبدلة من ياء، من سال يسيل . ويكون سايل واديا في جهنم؛ فهمزة سايل على القول الأوّل أصلية، وعلى الثاني بدل من واو، وعلى الثالث بدل من ياء . القشيري : وسائل مهموز؛ لأنه إن كان من سأل بالهمز فهو مهموز، وإن كان من غير الهمز كان مهموزا أيضا ؛ نحو قائل وخائف ؛ لأن العين اعتلّ في الفعل واعتلّ في اسم الفاعل أيضا . ولم يكن الاعتلال بالحذف لخوف الالتباس ، فكان بالقلب إلى الهمزة . ولك تخفيف الهمزة حتى تكون بين بين . ﴿ واقِعٍ ﴾ أي يقع بالكفار ، بيّن

(١) لم نجد البيت في شعر الأعشين . وفي كتاب سيبويه (ج ١ ص ٢٩١ ، ج ٢ ص ١٧٠) أنه لزيد بن عمرو بن نفيل القرشي . وعلق عليه الأعلم الشنتمري أنه يروى لنبيه بن الحجاج .

(٢) لم يستعن أي لم يحلق عانته . وحوامي الموت وحوائمه : أسبابه .

قال ابن بري : أنشده أبو علي الباهلي غيث بن عبد الكريم لبعض العرب يصف رجلا شريفا ، أُرْتُثَّ في بعض المعارك فسألهم أن يمتعوه بقميصه ؛ أي لا يسلب .

(٣) البيت لحسان بن ثابت .

أنه من الله ذى المعارج . وقال الحسن : أنزل الله تعالى «سأل سائل بعذاب واقع» فقال لمن هو فقال للكافرين ؛ فاللام فى الكافرين متعلقة بـ«واقع» . وقال الفراء: التقدير بعذاب للكافرين واقع ؛ فالواقع من نعت العذاب ، واللام دخلت للعذاب لا للواقع ، أى هذا العذاب للكافرين فى الآخرة لا يدفعه عنهم أحد . وقيل إن اللام بمعنى على ، والمعنى : واقع على الكافرين . وروى أنها فى قراءة أُبَىّ كذلك . وقيل : بمعنى عن ؛ أى ليس له دافع عن الكافرين من الله . أى ذلك العذاب من الله ذى المعارج ؛ أى ذى العلوّ والدرجات الفواضل والنِّعم ؛ قاله ابن عباس وقتادة . فالمعارج مراتب إنعامه على الخلق . وقيل ذى العظمة والعلاء . وقال مجاهد : هى معارج السماء . وقيل : هى معارج الملائكة ؛ لأن الملائكة تعرج الى السماء فوصف نفسه بذلك . وقيل : المعارج الغرف ؛ أى إنه ذو الغُرَف ، أى جعل لأوليائه فى الجنة غُرَفاً . وقرأ عبد الله ذى المعاريج بالياء . يقال : معرج ومعراج ومعارج ومعاريج ؛ مثل مفتاح ومفاتيح . والمعارج الدرجات ؛ ومنه « وَمَعَارِجَ عليها يَظْهَرُونَ »[(1)] . ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ أى تصعد فى المعارج التى جعلها الله لهم . وقرأ ابن مسعود وأصحابه والسُّلَمِى والكسائى « يَعرُجُ » بالياء على إرادة الجمع ؛ ولقوله : ذكّروا الملائكة ولا تؤنّثوهم . وقرأ الباقون بالتاء على إرادة الجماعة . « والرُّوحُ » جبريل عليه السلام ؛ قاله ابن عباس . دليله قوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ »[(2)] . وقيل : هو مَلَكٌ آخر عظيمُ الخِلْقة . وقال أبو صالح : إنه خَلْقٌ من خَلق الله كهيئة الناس وليس بالناس . قال قَبِيصة بن ذُؤَيْب : إنه روح الميت حين يُقبض . ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أى إلى المكان الذى هو محلهم وهو فى السماء؛ لأنها محل برّه وكرامته . وقيل : هو كقول إبراهيم « إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى »[(3)] . أى إلى الموضع الذى أمرنى به . وقيل : « إليه » أى الى عرشه . ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال وهب والكلبي ومحمد ابن إسحاق : أى عروج الملائكة إلى المكان الذى هو محلهم فى وقت كان مقداره على غيرهم

---

(١) آية ٣٣ سورة الزخرف . (٢) آية ١٩٣ سورة الشعراء .
(٣) آية ٩٩ سورة الصافات .

او صَعِد خمسين ألف سنة . وقال وهب أيضا : ما بين أســفل الأرض إلى العرش مسيرة خمسين ألف سنة . وهو قول مجاهد . و جمع بين هذه الآية و بين قوله «فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ »، في سورة السجدة(١)؛ فقال : « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » من منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسون ألف سنة. وقوله تعالى في (آلـمّ تنزيل) : «في يَوْمٍ كان مقدارُه أَلْفَ سَنَةٍ» يعنى بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة؛لأن ما بين السماء إلى الأرض مســيرة خمسمائة عام . وعن مجاهد أيضا والحَكَم وعِكْرِمة : هو مـدّة عمر الدنيا من أوّل ما خلقت الى آخر ما بقي خمسون ألف ســنة . لا يدرى أحدٌ كم مضى ولا كم بقى إلا الله عز وجل . وقيل: المراد يوم القيامة؛أى مقدار الحُكْم فيه لو تولاه مخلوق خمسون ألف سنة؛ قاله عكرمة أيضا والكلبي ومحمد بن كعب . يقول سبحانه وتعالى وأنا أفرغ منه في ساعة . وقال الحسن : هو يوم القيامة ، ولكن يوم القيامة لا نفاد له . فالمراد ذكر موقفهم للحساب فهو في خمسين ألف ســنة من سِنِي الدنيا ، ثم حينئذ يستقر أهل الدارين في الدارين . وقال يَمَان : هو يوم القيامة، فيه خمسون موطنا كل موطن ألف سنة . وقال ابن عباس : هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون النار للاستقرار .

قلت : وهذا القول أحسن ما قيـل في الآية إن شاء الله ؛ بدليل ماروا قاسم بن أَصْبَغ من حديث أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" . فقلت : ما أطول هذا ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا" . واستدل النحاس على صحة هـذا القول بمـا رواه سُهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "ما من رجل لم يؤدّ زكاة ماله إلا جعـل شجاعاً(٢) من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف ســنة حتى يقضى الله بين الناس" .

(١) آية ٥ (٢) الشجاع (بالضم والكسر) : الحية الذكر .

قال : فهذا يدل على أنه يوم القيامة . وقال ابراهيم التيمى : ما قدر ذلك اليوم على المؤمن إلا قدر ما بين الظهر والعصر . وروى هذا المعنى مرفوعا من حديث معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحاسبكم الله تعالى بمقدار ما بين الصلاتين ولذلك سمّى نفسه سريع الحساب وأسرع الحاسبين " . ذكره الماوردى . وقيل : بل يكون الفراغ لنصف يوم ؛ كقوله تعالى : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا »(١) . وهذا على قدر فهم الخلائق ، وإلا فلا يشغله شأن عن شأن . وكما يرزقهم فى ساعة كذا يحاسبهم فى لحظة ؛ قال الله تعالى : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ »(٢) . وعن ابن عباس أيضا أنه سئل عن هذه الآية وعن قوله تعالى : « فى يوم كان مقداره ألف سنة » فقال : أيام سمّاها الله عز وجل هو أعلم بها كيف تكون ، وأكره أن أقول فيها ما لا أعلم . وقيل : معنى ذكر خمسين ألف سنة تمثيل ، وهو تعريف طول مدّة القيامة فى الموقف ، وما يلقى الناس فيه من الشّدائد . والعرب تصف أيام الشدّة بالطول ، وأيام الفرح بالقصر ؛ قال الشاعر :

ويومٍ كظِلّ الرُّمْح قَصَّرَ طولَه * دَمُ الزِّقّ عنّا واصطفاق المزاهر(٣)

وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى : سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له من الله دافع ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه . وهذا القول هو معنى ما آخترناه ، والموفق الإله .

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا (٧)

---

(١) آية ٢٤ سورة الفرقان .

(٢) آية ٢٨ سورة لقمان .

(٣) قال ابن برى : نسب الجوهرى هذا البيت ليزيد بن الطثرية ، وصوابه لشبرمة بن الطفيل . (انظر لسان العرب مادة صفق) . والزق : وعاء من جلد . ويريد بدم الزق الخمر . والمزاهر : العيدان . واصطفقت المزاهر : جاوب بعضها بعضا .

قوله تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أى على أذى قومك . والصَّبْرُ الجميلُ هو الذى لا جَزَع فيه ولا شَكْوَى لغير الله . وقيل : هو أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يُدْرَى من هو . والمعنى متقارب . وقال ابن زيد : هى منسوخة بآية السيف . ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ يريد أهل مكة يرون العذاب بالنار بعيدا ؛ أى غير كائن . ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ لأن ما هو آتٍ فهو قريب . وقال الأعمش : يرون البعث بعيدا لأنهم لا يؤمنون به ؛ كأنهم يستبعدونه على جهة الإحالة . كما تقول لمن تناظره : هذا بعيد لا يكون ! وقيل : أى يرون هذا اليوم بعيدا « ونراه » أى نعلمه ؛ لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود . وهو كقولك : الشافعىّ يرى فى هذه المسألة كذا وكذا .

قوله تعالى : يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ العامل فى « يوم » « واقع » ؛ تقديره يقع بهم العذاب يوم . وقيل « نراه » أو « يبصرونهم » أو يكون بدلا من قريب . والمُهْلُ دُرْدِىُّ الزيت وعَكَرُه ؛ فى قول ابن عباس وغيره . وقال ابن مسعود : ما أذيب من الرَّصاص والنُّحاس والفضة . وقال مجاهد : « كالمهل » كقيح من دمٍ وصديد . وقد مضى فى سورة «الدخان» و «الكهف» القول فيه (١) . ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أى كالصُّوف المصبوغ . ولا يقال للصوف عِهْن إلا أن يكون مصبوغا . وقال الحسن : « وتكون الجبال كالعِهْن » وهو الصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف . ومنه قول زُهير :

كأن فُتاتَ العِهنِ فى كل منزل * نزلن به حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ (٢)

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٤ و جـ ١٦ ص ١٤٩

(٢) الفنا (مقصور والواحدة فناة) : عنب الثعلب . وقيل : هو شجر ذو حب أحمر ما لم يكسر يتخذ منه قرار يطـ يوزن بها ؛ كل حبة قيراط . وقيل : يتخذ منه القلائد . وقوله : « لم يحطم » أراد أن حب الفنا صحيح ؛ لأنه إذا كسر ظهر له لون غير الحمرة .

الفُتاتُ القِطَع . والعِهْنُ الصوفُ الأحمر، واحده عِهْنة . وقيل : العِهْن الصوف ذو الألوان . فشبّه الجبال به في تلَوُّنها ألوانًا . والمعنى : أنها تلين بعد الشدة، وتتفرق بعد الاجتماع . وقيل : أوّل ما تتغير الجبال تصير رَمْلًا مَهِيلا (١)، ثم عِهْنًا منفوشا، ثم هَباءً مُنْبَثًّا .

﴿ ولا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيما ﴾ أي عن شأنه لشَغْل كل إنسان بنفسه؛ قاله قتادة . كما قال تعالى : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢) » . وقيل : لا يسأل حميم عن حميم؛ فحذف الجار ووصل الفعل . وقراءة العامة «يَسأل» بفتح الياء . وقرأ شيبة والبَزّي عن عاصم «ولا يُسأل» بالضم على ما لم يسم فاعله؛ أي لا يُسأل حميم عن حميمه ولا ذو قرابة عن قرابته، بل كل إنسان يسأل عن عمله . نظيره « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣) » .

قوله تعالى : يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي يرونهم . وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نُصْبُ عين صاحبه من الجن والإنس . فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه؛ لاشتغالهم بأنفسهم . وقال ابن عباس : يتعارفون ساعةً ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة . وفي بعض الأخبار : أن أهل القيامة يَفِرّون من المعارف مخافةَ المظالم . وقال ابن عباس أيضا : «يُبَصَّرونهم» يبصر بعضهم بعضا فيتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض . فالضمير في «يُبَصَّرونهم» على هذا للكفار، والهاء والميم للأقرباء . وقال مجاهد : المعنى يُبَصِّر الله المؤمنين الكفارَ في يوم القيامة؛ فالضمير في « يبصرونهم » للمؤمنين، والهاء والميم للكفار . ابن زيد : المعنى يبصر الله

(١) المهيل : الذي يحرك أسفله فينهال عليه من أعلاه .
(٢) آية ٣٧ سورة عبس . (٣) آية ٣٨ سورة المدثر .

الكفار فى النار الذين أضلوهم فى الدنيا ؛ فالضمير فى « يبصّرونهم » للتابعين ، والهاء والميم للمتبوعين . وقيل . إنه يبصر المظلومَ ظالمه والمقتولَ قاتله . وقيل : « يبصّرونهم » يرجع إلى الملائكة ؛ أى يعرفون أحوال الناس فيسوقون كلّ فريق إلى مايليق بهم . وتمّ الكلام عند قوله : « يُبَصَّرُونَهُم » . ثم قال : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ﴾ أى يتمنى الكافر . ﴿ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ يعنى من عذاب جهنم بأعزّ مَن كان عليه فى الدنيا من أقاربه فلا يقدر . ثم ذكرهم فقال : ﴿ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ ﴾ زوجته . ﴿ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ ﴾ أى عشيرته . ﴿ الَّتِى تُؤْوِيهِ ﴾ تنصره ؛ قاله مجاهد وابن زيد . وقال مالك : أمّه التى تُرَبّيه . حكاه الماوردىّ ورواه عنه أشهب . وقال أبو عبيدة : الفَصيلة دون القَبيلة . وقال ثعلب : هم آباؤه الأدْنَوْن . وقال المبرّد : الفَصيلة القطعة من أعضاء الجسد ، وهى دون القبيلة . وسُمِّيت عِتْرة الرجل فصيلتَه تشبيهاً بالبعض منه . وقد مضى فى سورة « الحجرات » القولُ فى القَبيلة وغيرها[(١)] . وهنا مسألة ، وهى : إذا حبس على فصيلته أو أوصى لها فمن ادّعى العموم حمله على العَشيرة ، ومن ادّعى الخصوص حمله على الآباء ؛ الأدنى فالأدنى . والأوّل أكثر فى النطق . والله أعلم . ومعنى «تؤويه» تضمّه وتؤمّنه من خوف إن كان به . ﴿ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ أى ويَوَدّ لو فُدِىَ بهم لافتدى ﴿ ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ أى يخلّصه ذلك الفداء . فلا بدّ من هذا الإضمار ؛ كقوله : « وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ »[(٢)] أى وإنّ أكلَه لفسق . وقيل : « يَوَدُّ الْمُجْرِمُ » يقتضى جوابا بالفاء ؛ كقوله : « وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ »[(٣)] . والجواب فى هذه الآية « ثُمَّ يُنْجِيهِ » لأنها من حروف العطف . أى يَوَدّ المجرم لو يفتدى فينجيه الافتداء .

قوله تعالى : كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

(١) راجع ج ١٦ ص ٣٤٥ (٢) آية ١٢١ سورة الأنعام .
(٣) آية ٩ سورة القلم .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ تقدّم القول فى « كَلَّا » وأنها تكون بمعنى حَقًّا، وبمعنى لا (١) . وهى هنا تحتمل الأمرين؛ فإذا كانت بمعنى حقا كان تمام الكلام « يُنْجِيهِ » . وإذا كانت بمعنى لا كان تمام الكلام عليها؛ أى ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء . ثم قال : ﴿ إِنَّهَا لَظَى ﴾ أى هى جهنم؛ أى تتلظّى نيرانها؛ كقوله تعالى : « فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (٢) » . واشتقاق لظى من التلظى . والْتِظَاءُ النارِ التهابها، وتلظّيها تلهبها . وقيل : كان أصلها « لظظ » أى دامت لدوام عذابها؛ فقلبت إحدى الظائين ألفا فبقيت لظى . وقيـل : هى الدركة الثانية من طبقات جهنم . وهى اسم مؤنث معرفة فلا ينصرف . ﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم فى رواية أبى بكر عنه والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائى « نَزَّاعَةٌ » بالرفع . وروى أبو عمرو عن عاصم « نزاعةً » بالنصب . فمن رفع فله خمسة أوجه : أحدها أن تجعل « لظى » خبر « إنّ » وترفع « نزاعة » بإضمار هى؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على « لظى » . والوجه الثانى أن تكون « لظى » و « نزاعة » خبران لإنّ . كما تقول إنه خلق مخاصم . والوجه الثالث أن تكون « نزاعة » بدلا من « لظى » و « لظى » خبر « إن » . والوجه الرابع أن تكون « لظى » بدلا من اسم « إنّ » و « نزاعة » خبر « إن » . والوجه الخامس أن يكون الضمير فى « إنها » للقصة، و « لظى » مبتدأ و « نزاعة » خبر الابتداء والجملة خبر « إن » . والمعنى : أن القصة والخبر لظى نزاعة للشوى . ومن نصب « نزاعة » حسن له أن يقف على « لظى » وينصب « نزاعة » على القطع من « لظى » إذ كانت نكرة متصلة بمعرفة . ويجوز نصبها على الحال المؤكدة؛ كما قال : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا (٣) » . ويجوز أن تنصب على معنى أنهـا تتلظى نزاعة؛ أى فى حال نزعها للشّوَى . والعامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلظى . ويجوز أن تكون حالا؛ على أنه حال للمكذبين بخبرها . ويجوز نصبها

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧

(٢) آية ١٤ سورة الليل .

(٣) آية ٩١ سورة البقرة .

على القطع ، كما تقول : مررت بزيد العاقلَ الفاضلَ . فهذه خمسة أوجه للنصب أيضـا .
والشَّوَى جمع شَواة وهى جلدة الرأس . قال الأعشى :

قالت قُتَيْـلَةُ مـالَهُ * قـد جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهُ

وقال آخر :

لأصبحتَ هدّتك الحوادث هَدّةً * لها فشـواة الرأس بادٍ قَتِـيرُها

القتير : الشيب . وفى الصّحاح « والشوى : جمـع شواة وهى جلدة الرأس » . والشوى : اليدان والرجلان والرأس من الآدميّين ، وكل ما ليس مقتـلا . يقال : رماه فأشـواه إذا لم يصب المقتل . قال الهذلى :

فإن من القول التى لا شَوَى لهـا * إذا زَلّ عن ظهرِ اللّسان انفلاتُها

يقول : إن من القول كلمة لا تشوِى ولكن تقتل . قال الأعشى :

قالت قُتَيْـلة مـاله * قـد جُلِّلت شَيْبًا شَواته

قال أبو عبيدة : أنشدها أبو الخطاب الأخفش أبا عمرو بن العلاء فقال له : «صَحّفت، إنما هو سراته» [أى نواحيه] فسكت أبو الخطاب ثم قال لنا : بل هو صَحّف ، إنما هو شواته» . وشَوَى الفرس : قوائمه ؛ لأنه يقال : عَبْلُ الشَّوَى[(١)] ، ولا يكون هـذا للرأس ؛ لأنهم وصفوا الخيل بإسالة الخدين وعِتْقِ الوجه وهو رِقّتـه . والشَّوَى رُذال المـال . والشَّوَى هو الشىء الهيّن اليسير . وقال ثابت البُنَانِيّ والحسن : « نَزَّاعةً لِلشَّوَى » أى لمكارم وجهه . أبو العالية : لمحاسن وجهه . قتادة : لمكارم خلقتـه وأطرافه . وقال الضحاك : تَفْرِى اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منـه شيئا . وقال الكسائى : هى المفاصل . وقال بعض الأئمـة : هى القوائم والجلود . قال امرؤ القيس :

---

(١) أى غليظ القوائم .

سَلِيم الشَّظَى عَبْل الشَّوَى شَنِجُ النَّسَا * له حَجَبَات مُشْرِفاتٌ على الفَالِ (١)

وقال أبو صالح : أطراف اليدين والرجلين . قال الشاعر :

إذا نظرتْ عرفت الفخر منها * وعينيها ولم تعرف شواها

يعنى أطرافها . وقال الحسن أيضا : الشَّوَى الهام . ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ أى تدعو لَظَى من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولّى عن الإيمان . ودعاؤها أن تقول : إلىّ يامشرك ، إلىّ يا كافر . وقال ابن عباس : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح : إلىّ يا كافر ، إلىّ يامنافق ؛ ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب . وقال ثعلب : «تدعو» أى تهلك . تقول العرب : دعاك الله ؛ أى أهلكك الله . وقال الخليل : إنه ليس كالدعاء « تعالوا » ، ولكن دَعْوتها إياهم تمكنها من تعذيبهم . وقيل : الداعى خزنة جهنم ؛ أضيف دعاؤهم إليها . وقيل : هو ضرب مثل ؛ أى إن مصير من أدبر وتولى إليها ؛ فكأنها الداعية لهم . ومثله قول الشاعر :

ولقد هبطنا الوادِيَيْن فواديًا * يدعو الأنيس به العضيضُ الأبكمُ (٢)

العضيض (٢) الأبكم : الذباب . وهو لا يدعو وإنما طنينه نبّه عليه فدعا إليه .

قلت : القول الأوّل هو الحقيقة ؛ حسب ماتقدّم بيانه بآى القرآن والأخبار الصحيحة . القشيرىّ : ودعاء لَظَى بخلق الحياة فيها حين تدعو ، وخوارق العادة غداً كثيرة . ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أى جمع المال فجعله فى وعائه ومنع منه حق الله تعالى ؛ فكان جَموعا منوعا . قال الحكم : كان عبد الله بن عُكَيم لا يربط كيسه ويقول سمعت الله يقول : « وَجَمَعَ فَأَوْعَى » .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ يعنى الكافر ؛ عن الضحاك . والهلَع فى اللغة : أشدّ الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه . وكذلك قال قتادة ومجاهد وغيرهما . وقد هلِع (بالكسر)

(١) الشظى : عظم لازق بالذراع . وقيل : انشقاق العصب . و«عبل الشوى» غليظ اليدين والرجلين . و«الشنج» محركة : تقبض الجلد والأصابع . و«النسا» مقصور : عرق فى الفخذ ؛ وفرس شنج النسا : منقبضه ، وهو مدح له . و« الحجبات » : رءوس عظام الوركين . و« الفال » : لغة فى الفائل وهو اللحم الذى على الورك .

(٢) وردت هذه الكلمة فى نسخ الأصل محرفة هكذا : « العضيض » بالعين المهملة والضاد المعجمة ، و«القصيص» بالقاف والصاد المهملة . و«العصيص» بالعين والصاد المهملتين . ولم نهتد إليها .

يَهْلَع فهو هَلِعٌ وهَلُوع؛ على التكثير. والمعنى أنه لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي. عِكرمة: هو الضَّجور. الضحاك: هو الذى لا يشبع. والمنوع: هو الذى إذا أصاب المال منع منه حق الله تعالى. وقال ابن كَيْسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسرّه ويرضيه، ويهرب مما يكرهه ويسخط، ثم تعبّده الله بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره. وقال أبو عبيدة: الهَلُوع هو الذى إذا مسّه الخير لم يشكر، وإذا مسّه الضر لم يصبر؛ قاله ثعلب. وقال ثعلب أيضا: قد فسر الله الهَلُوع، وهو الذى إذا ناله الشر أظهر شدّة الجزع، وإذا ناله الخير بَخِل به ومنعه الناس. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "شَرُّ ما أُعطِى العبدُ شحٌّ هالع وجُبْنٌ خالع". والعرب تقول: ناقة هِلواعة وهِلواع؛ إذا كانت سريعة السير خفيفة. قال:

صكّاء ذِعْلِبة إذا استدبرتَها * حَرَج إذا استقبلتها هِلواع (١)

الذِّعلِب والذِّعْلِبة الناقة السريعة. و « جَزوعا » و « مَنوعا » نعتان لهلوع، على أن ينوى بهما التقديم قبل « إذا ». وقيل: هو خبر كان مضمرة.

قوله تعالى: إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

(١) فى اللسان مادة هلع: « وأنشد الباهلى للمسيب بن عاس يصف ناقة شبهها بالنعامة » وذكر البيت. قال الباهلى: قوله « صكاء » شبهها بالنعامة، ثم وصف النعامة بالصكك وليس الصكاء من وصف الناقة ».

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ دلّ على أن ما قبـله فى الكفار ؛ فالإنسان اسم جنس بدليل الاستثناء الذى يعقبه؛ كقوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا» . قال النخعىّ: المراد بالمصلين الذين يؤدّون الصلاة المكتوبة. ٱبن مسعود: الذين يصلونها لوقتها؛ فأما تركها فكفر . وقيـل : هم الصحابة . وقيل : هم المؤمنون عامّة ؛ فإنهم يغلبون فَرْط الجزع بثقتهم بربهم و يقينهم . ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ أى على مواقيتها . وقال عقبة ٱبن عامر : هم الذين إذا صلَّوْا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا . والدائم الساكن ؛ ومنه : نهى عن البول فى المـاء الدائم ؛ أى الساكن . وقال ٱبن جريج والحسن: هم الذين يكثرون فعل التطوع منها . ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ يريد الزكاة المفروضة؛ قاله قتادة وٱبن سيرين . وقال مجاهد: سوى الزكاة . وقال علىّ بن أبى طلحة عن ٱبن عباس: صلة رَحِم وحَمْل كَلٍّ . والأوّل أصح ؛ لأنه وصف الحق بأنه معلوم ، وسوى الزكاة ليس بمعلوم ، إنما هو على قـدر الحاجة ، وذلك يقلّ و يكثر . ﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ تقـدّم فى « والذاريات »(١) . ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى بيوم الجزاء وهو يوم القيامة . وقد مضى فى سورة « الفاتحة »(٢) القول فيه . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون . ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ قال ٱبن عباس : لمن أشرك أو كذب أنبياءه . وقيل : لا يأمنه أحد ، بل الواجب على كل أحد أن يخافـه و يشفق منه . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ تقـدم القول فيه فى سورة « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ »(٣) . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ تقدّم أيضا . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ على من كانت [عليه](٤) من قريب أو بعيد؛ يقومون بها عند

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٨

(٢) راجع جـ ١ ص ١٤٢

(٣) راجع جـ ١٢ ص ١٠٢

(٤) زيادة عن الخطيب الشربينى .

الحاكم ولا يكتمونها ولا يغيّرونها . وقد مضى القول فى الشهادة وأحكامها فى سورة « البقرة » (١) .
وقال ٱبن عباس : « بشهـادتهم » أن الله واحد لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسـوله .
وقرئ « لأماناتهم » على التوحيد ، وهى قراءة ٱبن كثير وٱبن مُحَيصن . فالأمانة اسم جنس ؛ فيدخل فيها أمانات الدّين ؛ فإن الشرائع أمانات ائتمن الله عليها عباده . ويدخل فيها أمانات الناس من الودائع . وقد مضى هذا كله مستوفًى فى سورة «النساء» (٢) . وقرأ عباس الدُّورِىّ عن أبى عمرو ويعقوب «بِشَهَادَاتِهِمْ» جمعًا . الباقون « بِشَهَادَتِهِمْ » على التوحيد ؛ لأنها تؤدّى عن الجمع . والمصدر قد يفرد وإن أضيف إلى جمع ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » (٣) .
وقال الفرّاء : ويدلّ على أنها « بشهادتهم » توحيدًا قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ » .
﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قال قتـادة : على وضوئها وركوعها وسجودها . وقال ٱبن جُرَيج : التطوّع . وقد مضى فى سورة «المؤمنون» (٤) . فالدوام خلاف المحافظة . فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يُخِلُّون بها ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل . ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسـباغ الوضوء لهـا ومواقيتها ، ويقيموا أركانهـا ، ويكملوها بسننها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المـأثم . فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات والمحـافظة إلى أحوالها . ﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ أى أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ قال الأخفش : مسرعين . قال :

بمكّة أهلُهـا ولقـد أراهـم * إليـه مهطعين إلى السماع

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٤١٥ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥ (٣) آية ١٩ سورة لقمان .
(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٠٧

والمعنى : ما بالهم يُسرعون إليك ويجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم . وقيل : أى ما بالهم مسرعين فى التكذيب لك . وقيل : أى ما بال الذين كفروا يُسرعون إلى السماع منك ليعيبوك ويستهزئوا بك . وقال عطيّة : مهطعين : معرضين . الكلبيّ : ناظرين إليـك تعجّباً . وقال قتادة : عامدين . والمعنى متقارب . أى ما بالهـم مسرعين عليك، مادّين أعناقهم، مدمنى النظر إليك . وذلك من نظر العدو . وهو منصوب على الحال . نزلت فى جمع من المنافقين المستهزئين ؛ كانوا يحضرونه — عليه السلام — ولا يؤمنون به . و « قِبَلك » أى نحوك .

﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أى عن يمين النبيّ صـلّى الله عليه وسـلم وشماله حِلَقًا حِلَقًا وجماعات . والعِزين : جماعات فى تفرقة ؛ قاله أبو عبيدة . ومنه حديث النبيّ صـلّى الله عليه وسلم أنه خرج على أصحابه فرآهم حِلَقًا فقال : "مَالِى أَرَاكُم عِزِينَ أَلَا تَصُفُّون كما تَصُفّ الملائكةُ عند ربّها — قالوا : وكيف تَصُفّ الملائكةُ عند ربّها ؟ قال — : يُتِمُّونَ الصفوفَ الأوَلَ ويتراصّون فى الصف" خرّجه مسلم وغيره . وقال الشاعر :

تَرَانَا عنـدَهُ واللّيـلُ دَاجٍ　*　على أبوابه حِلَقـا عِزِينـا

أى متفرقين . وقال الراعى :

أخليفـةَ الرحمن إنّ عشيرتى　*　أمسى سَرَاتُهُم إليـك عِزِينا

أى متفرقين . وقال آخر :

كأن الجماجم من وقعها　*　خناطيلُ(1) يهوين شتّى عِزِينا

أى متفرقين . وقال آخر :

فلمّـا أن أَتَيْنَ على أُضَـاخٍ(2)　*　ضَرَحْنَ حَصَاهُ أَشْتَاتًا عِزِينا

وقال الكُمَيْت :

ونحنُ وجَنْـدَلٌ باغٍ تَرَكْنَا　*　كَتَائبَ جَنْـدَلٍ شَتّى عِزِينا

(1) الخناطيل : لا واحد لها من جنسها ؛ وهى جماعات من الوحش والطير فى تفرقة .

(2) أضاخ (بالضم) : جبـل يذكر ويؤنث . وقيـل : هو موضع بالبادية يصرف ولا يصرف . ومعنى « ضرحن » : نحين ودفعن .

وقال عنترة :

وقِرْنٍ قد تركتُ لذى وَلِىٍّ * عليه الطير كالعُصَبِ العِزِين

وواحد عِزِين عِزة؛ جُمع بالواو والنون ليكون ذلك عِوَضا مما حذف منها . وأصلها عِزْهة؛ فاعتلّت كما اعتلّت سَنَة فيمن جعل أصلها سَنْهة . وقيل : أصلها عِزْوة؛ من عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره . فكل واحد من الجماعات مضافة إلى الأخرى . والمحذوف منها الواو . وفى الصحاح : «والعِزَة الفِرْقة من الناس، والهاء عوض من الياء، والجمع عِزًى — على فِعَل — وعِزون وعُزون أيضا بالضم، ولم يقولوا عِزات كما قالوا ثُبات» . قال الأصمعىّ : يقال فى الدار عِزون؛ أى أصناف من الناس . و «عَنِ اليمين وَعَنِ الشِّمَالِ» متعلق بـ «مُهْطِعِين» ويجوز أن يتعلق بـ «عِزِين» على حد قولك : أخذته عن زيد . ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبىّ صلّى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه فيكذّبونه ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم ، ولئن أعطوا منها شيئا لنعطين أكثر منه ؛ فنزلت «أَيَطْمَعُ» الآية . وقيل : كان المستهزئون خمسة أرهط . وقرأ الحسن وطلحة بن مُصَرِّف والأعرج «أَنْ يَدْخُلَ» بفتح الياء وضم الخاء مسمّى الفاعل . ورواه المفضّل عن عاصم . الباقون «أَنْ يُدْخَلَ» على الفعل المجهول . ﴿ كَلَّا ﴾ لا يدخلونها . ثم ابتدأ فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أى إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مُضغة ؛ كما خلق سائر جنسهم . فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنما تُستوجَب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى . وقيل : كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبّرون عليهم . فقال : «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُون» من القذر؛ فلا يليق بهم هذا التكبّر . وقال قتادة فى هذه الآية : إنما خُلقتَ يابن آدم من قذر فاتّق الله . وروى أن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رأى المهلب ابن أبى صُفْرة يتبختر فى مُطْرَف[1] خَزٍّ وجُبّة خزّ فقال له : يا عبد الله، ما هذه المِشْيَة التى يبغضها

(١) المطرف (بكسر الميم وضمها) واحد المطارف ؛ وهى أردية من خز مربعة لها أعلام .

الله؟ ! فقال له : أتعرفني؟ قال نعم، أوّلك نطفة مَذِرة، وآخرك جيفة قَذِرة، وأنت [فيما بين ذلك](١)] تحمل العَذِرة . فمضى المهلب وترك مشيته . نظم الكلام محمود الورّاق فقال :

عَجِبتُ من مُعْجَبٍ بصورته * وكان فى الأصل نطفةً مَذِرهْ
وهو غدًا بعد حُسْن صورته * يصيرُ فى اللحد جيفةً قَذِرهْ
وهو على تِيهه ونَخْوته * ما بين ثوبيه يحمل العَذِرهْ

وقال آخر :

هل فى ابن آدم غيرَ الرأس مَكْرُمةٌ * وهو بخمسٍ من الأوساخ مضروب .
أنفٌ يسيل وأُذْنٌ ريحها سَهِكٌ * والعين مُرْمَصَة والثغر ملهوب
يابن التراب ومأكول التراب غدًا * قصّرْ فإنك مأكول ومشروب

وقيل : معناه من أجل ما يعلمون ؛ وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب . كقول الشاعر وهو الأعشى :

أأزْمَعْتَ من آل لَيْلَى ابْتِكَارَا * وَشَطَّتْ علَى ذِى هَوًى أن تُزَارَا

أى من أجل لَيْلَى .

قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أى أقسم . و « لا » صلة . ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ هى مشارق الشمس ومغاربها . وقد مضى الكلام فيها . وقرأ أبو حَيْوة وابنُ مُحَيْصن وحُمَيد « برب المشرِق والمغرِب » على التوحيد . ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ يقول : نقدر على إهلاكهم والذهاب بهم ، والمجىء بخير منهم فى الفضل والطوع والمال . ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أى لا يفوتنا شىء ولا يعجزنا أمر نريده .

(١) زيادة عن الخطيب الشربيني .

قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أى اتركهم يخوضوا فى باطلهم ويلعبوا فى دنياهم؛ على جهة الوعيد . واشتغل أنت بما أُمرت به ولا يعظمنّ عليك شركهم؛ فإن لهم يوما يَلقوْن فيه ما وُعِدوا . وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد وحُميد « حَتَّى يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ » . وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾

« يَوْمَ » بدل من « يَوْمَهُمْ » الذى قبله ، وقراءة العامة « يَخْرُجُون » بفتح الياء وضم الراء على أنه مسمّى الفاعل . وقرأ السُّلَمِيّ والمغيرة والأعشى عن عاصم « يُخْرَجون » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول . والأجداث : القبور؛ واحدها جدث . وقد مضى فى سورة «يس»(١) . ﴿سِرَاعًا﴾ حين يسمعون الصيحة الآخرة إلى إجابة الداعى؛ وهو نصب على الحال . ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُون﴾ قراءة العامة بفتح النون وجزم الصاد . وقرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد . وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رجاء وغيرهما بضم النون وإسكان الصاد . والنَّصْب والنُّصْب لغتان مثل الضَّعْف والضُّعْف . الجوهرىّ : والنَّصْب ما نُصِب فعُبِد من دون الله ، وكذلك النُّصْب بالضم؛ وقد يحرّك . قال الأعشى :

وذَا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه * لعافِيـةٍ واللهَ ربّــك فاعبُــدَا

أراد «فَٱعْبُدَنْ» فوقف بالألف؛ كما تقول : رأيت زيدا . والجمع الأنصاب . وقوله : «وذا النُّصُبَ» بمعنى إيّاك وذا النُّصُبَ . والنُّصْب الشرّ والبلاء؛ ومنه قوله تعالى : « أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ »(٢) . وقال الأخفش والفرّاء : النُّصُب جمع النَّصْب مثل رَهْن ورُهُن، والأنصاب جمع نُصُب؛ فهو جمع الجمع . وقيل : النُّصُب والأنصاب واحد . وقيل :

(١) راجع ج ١٥ ص ٤٠ . (٢) آية ٤١ سورة ص .

النُّصُب جمع نصاب، وهو حجر أو صنم يذبح عليه؛ ومنه قوله تعالى: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ»(١).
وقد قيل: نَصْب ونُصْب ونُصُب بمعنى واحد؛ كما قيل عَمْر وعُمْر وعُمُر. ذكره النحاس.
قال ابن عباس: «إلى نَصْب» إلى غاية، وهي التي تنصب إليها بصرك. وقال الكلبي: إلى شيء منصوب؛ عَلَم أو راية. وقال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أوّلهم على آخرهم. ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون. والإيفاض الإسراع. قال الشاعر:

فوارس ذُبْيانَ تحت الحديـ　*　ـد كالجنّ يُوفضن من عَبْقَرِ

عَبْقَرٌ: موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال لَبيد:

* كهول وشبان بِجِنّة عبقر(٢) *

وقال اللَّيث: وفَضت الإبل تَفِض وفضا؛ وأوفضها صاحبها. فالإيفاض متعدّ، والذي في الآية لازم. يقال: وفض وأوفض واستوفض بمعنى أسرع.

قوله تعالى: خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي ذليلة خاضعة، لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي يغشاهم الهوان. قال قتادة: هو سواد الوجوه. والرَّهَق: الغشيان؛ ومنه غلام مراهق إذا غشي الاحتلام. رَهِقه (بالكسر) يرهَقه رَهَقا أي غَشِيَه؛ ومنه قوله تعالى: «وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ»(٣). ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي يوعدونه في الدنيا أن لهم فيه العذاب. وأخرج الخبر بلفظ الماضي لأن ما وعد الله به يكون ولا محالة.

(١) آية ٣ سورة المائدة.　(٢) هذا عجز بيت، وصدره:
* ومن فاد من إخوانهم وبنيهم *
(٣) آية ٢٦ سورة يونس.

سورة نوح

مكية، وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾

قد مضى القول في « الأعراف »[1] أن نُوحًا عليه السلام أوّل رسول أرسل . ورواه قتادة عن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه وسلم قال : " أوّل رسول أرسل نوح وأرسل إلى جميع أهل الأرض " . فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعا . وهو نوح بن لامك ابن متوشالخ بن أخنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام . قال وهب : كلهم مؤمنون . أرسل إلى قومه وهو ابن خمسين سنة . وقال ابن عباس : ابن أربعين سنة . وقال عبد الله بن شدّاد : بعث وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة . وقد مضى في سورة « العنكبوت »[2] القول فيه . والحمد لله . ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي بأن أنذر قومك؛ فموضع « أن » نصب بإسقاط الخافض . وقيل : موضعها جرّ لقوة خدمتها مع أن . ويجوز «أن» بمعنى المفسّرة فلا يكون لها موضع من الإعراب؛ لأن في الإرسال معنى الأمر، فلا حاجة الى إضمار الباء . وقراءة عبد الله « أَنْذِرْ قَوْمَكَ » بغير « أن » بمعنى قلنا له أنذر قومك . وقد تقدم معنى الإنذار في أوّل « البقرة »[3] . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : يعني عذاب النار في الآخرة . وقال الكلبي : هو ما نزل عليهم من الطوفان . وقيل : أي أنذرهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا . فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يرى

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٢ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٢

(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

منهم مجيبا ؛ وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه فيقول : "ربّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" .
وقد مضى هذا مستوفًى فى سورة « العنكبوت »(١) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى مخوّف . ﴿ مُبِينٌ ﴾ أى مظهر لكم بلسانكم الذى تعرفونه . ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ و «أن» المفسّرة على ماتقدم فى «أن أنذر» . « اعبدوا » ؛ أى وحدّوا . واتقوا : خافوا . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ أى فيما آمركم به ؛ فإنى رسول الله إليكم . ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ جزم « يغفر » بجواب الأمر . و « من » صلة زائدة . ومعنى الكلام يغفر لكم ذنوبكم؛ قاله السدّى . وقيل : لا يصح كونها زائدة ؛ لأن « من » لا تزاد فى الواجب، وإنما هى هنا للتبعيض ؛ وهو بعض الذنوب ؛ وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين . وقيل : هى لبيان الجنس . وفيه بُعْدٌ؛ إذ لم يتقدم جنس يليق به . وقال زيد ابن أسلم : المعنى يخرجكم من ذنوبكم . ابن شجرة : المعنى يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها . ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قال ابن عباس : أى ينسئ فى أعماركم . ومعناه أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك فى أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب . وقال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم فى عافية، فلا يعاقبكم بالقحط وغيره . فالمعنى على هذا : يؤخركم من العقوبات والشدائد إلى آجالكم . وقال الزجاج : أى يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصلين بالعذاب . وعلى هذا قيل : «أجل مسمى» عندكم تعرفونه ؛ لا يميتكم غرقًا ولا حرقًا ولا قتلًا؛ ذكره الفرّاء . وعلى القول الأول «أجل مُسمّى» عند الله . ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ أى إذا جاء الموت لا يؤخر بعذاب كان أو بغير عذاب . وأضاف الأجل

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٢

إليه سبحانه لأنه الذى أثبته . وقد يضاف إلى القوم؛ كقوله تعالى : «فإذا جاء أجلُهم» لأنه مضروب لهم . و « لو » بمعنى « إنْ » أى إن كنتم تعلمون . وقال الحسن : معناه لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاءكم لم يؤخر .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أى سرًّا وجهرًا . وقيل : أى واصلت الدعاء . ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى تباعدا من الإيمان . وقراءة العامة بفتح الياء من « دعائى » وأسكنها الكوفيون و يعقوب والدّورى عن أبى عمرو .

قوله تعالى : وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ أى إلى سبب المغفرة ، وهى الإيمان بك والطاعة لك ، ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا دعائى . ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أى غطوا بها وجوههم لئلا يروه . وقال ابن عباس : جعلوا ثيابهم على رءوسهم لئلا يسمعوا كلامه . فاستغشاء الثياب إذًا ، زيادة فى سدّ الآذان حتى لا يسمعوا ، أو لتنكيرهم أنفسهم حتى يسكت ، أو ليعرّفوه إعراضهم عنه . وقيل : هو كناية عن العداوة . يقال : لبس لى فلان ثياب العداوة . ﴿ وأَصَرُّوا ﴾ أى على الكفر فلم يتوبوا . ﴿ واسْتَكْبَرُوا ﴾ عن قبول الحق؛ لأنهم قالوا : « أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ » (١) . ﴿ اسْتِكْبَارًا ﴾ تفخيم .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾

(١) آية ١١١ سورة الشعراء .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أى مُظهرًا لهم الدعوة . وهو منصوب بـ «دعوتهم» نصب المصدر؛ لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار؛ فنصب به نصب القرفصاء بقعد ؛ لكونها أحد أنواع القعود ، أو لأنه أراد بـ « دَعَوْتُهُمْ » جاهرتهم . ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا؛ أى دعا دعاء جهارًا؛ أى مجاهرا به . ويكون مصدرا فى موضع الحال؛ أى دعوتهم مجاهرا لهم بالدعوة . ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى لم أبق مجهودا . وقال مجاهد : معنى أعلنت : صحت . وأسررت لهم إسرارا بالدعاء عن بعضهم من بعض . وقيل : « أسررت لهم » أتيتهم فى منازلهم . وكل هذا من نوح عليه السلام مبالغة فى الدعاء لهم ، وتلطف فى الاستدعاء . وفتح الياء من « إِنِّيَ أَعْلَنْتُ لَهُمْ » الحرميّون وأبو عمرو . وأسكن الباقون .

قوله تعالى : فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى سَلُوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ وهذا منه ترغيب فى التوبة . وقد روى حُذيفة بن اليمان عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال : "الاستغفار ممحاة للذنوب" . وقال الفُضيل : يقول العبد أستغفر الله؛ وتفسيرها أَقِلْنِي .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أى يرسل ماء السماء؛ ففيه إضمار . وقيل : السماء المطر؛ أى يرسل المطر . قال الشاعر[1] :

إذا سقط السماءُ بأرض قوم * رَعيناه وإن كانوا غِضابَا

(١) هو معوّد الحكماء ، معاوية بن مالك .

و « مِدْرَارًا » ذا غَيْث كثير . وجزم « يُرْسِـل » جوابا للأمر . وقال مقاتل : لمـا كذبوا نوحا زمانا طويلا حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة؛ فهلكت مواشيهم وزروعهم، فصاروا إلى نوح عليه السلام واستغاثوا به . فقال: « ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا » أى لم يزل كذلك لمن أناب إليـه . ثم قال ترغيبًا فى الإيمان : « يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا » . قال قتادة: علم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أنهم أهـل حرص على الدنيا فقال : "هَلُمُّوا إلى طاعة الله فإن فى طاعة الله درك الدنيا والآخرة" .

الثالثـــة — فى هذه الآية والتى فى «هود»(1) دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار. قال الشعبيّ : خرج عمر يستسقى فلم يزد على الاستغفار حتى رجع ، فأمطروا فقالوا : ما رأيناك استسقيت ؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح(2) السماء التى يستنزل بها المطر؛ ثم قرأ : « ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » . وقال الأوزاعىّ : خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : اللّهُمّ إنا سمعناك تقول : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ»(3) وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا ؟ ! اللهم اغفر لنـا وٱرحمنا واسقنا ! فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسُقُوا . وقال ابن صبيح : شكا رجل إلى الحسن الجـدوبة فقال له : استغفر الله . وشكا آخر إليه الفقر فقال له : استغفر الله . وقال له آخر : ادع الله أن يرزقنى ولدًا؛ فقال له : استغفر الله. وشكا إليه آخر جفاف بستانه؛ فقال له : استغفر الله . فقلنا له فى ذلك ؟ فقال : ما قلت من عندى شيئا ؛ إن الله تعـالى يقول فى ســورة نوح : « ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِـلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا .

(1) آية ٥٢ راجع جـ ٩ ص ٥١

(2) قال ابن الأثير: « المجاديح » واحدها مجدح والياء زائدة للاشباع ، والقياس أن يكون واحدها مجداح . والمجدح : نجم من النجوم ؛ وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر . فجعل الاستغفار مشبها بالأنواء مخاطبة لهم بمـا يعرفونه ، لا قولا بالأنواء . وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التى يزعمون أن من شأنها المطر .

(3) آية ٩١ سورة التوبة .

«وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» . وقد مضى فى سورة «آل عمران»(١) كيفية الاستغفار ، وأن ذلك يكون عن إخلاص و إقلاع من الذنوب . وهو الأصل فى الإجابة .

قوله تعالى : مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾

قيل الرجاء هنا بمعنى الخوف ؛ أى مالكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة . أى أىّ عذر لكم فى ترك الخوف من الله . وقال سعيد بن جُبَير وأبو العالية وعطاء ابن أبى رباح : ما لكم لا ترجون لله ثوابا ولا تخافون له عقابا . وقال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس . ما لكم لا تخشَوْن لله عقاباً وترجون منه ثوابا . وقال الوالبى والعَوْفى عنه : ما لكم لا تعلمون لله عظمة . وقال ابن عباس أيضا ومجاهد : ما لكم لا تَرَوْن لله عظمة . وعن مجاهد والضحاك : ما لكم لا تبالون لله عظمة . قال قُطْرُب : هذه لغة حجازية . وهُذيل وخزاعة ومُضَر يقولون : لم أرج : لم أبال . والوقار : العظمة . والتوقير : التعظيم . وقال قتادة : ما لكم لا ترجون لله عاقبة ؛ كأن المعنى ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان . وقال ابن كيسان : ما لكم لا ترجون فى عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا . وقال ابن زيد : ما لكم لا تؤدّون لله طاعة . وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرون له نعمة . وقيل : ما لكم لا توحّدون الله ؛ لأن من عظّمه فقد وحّده . وقيل : إن الوقار الثباتُ لله عزّ وجلّ ؛ ومنه قوله تعالى : «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ»(٢) أى آثبتن . ومعناه مالكم لا تثبتون وحدانيّة الله تعالى وأنه إلهكم لا إله لكم سواه ؛ قاله ابن بحر . ثم دلهم على ذلك فقال : ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أى جعل لكم فى أنفسكم آية تدل على توحيده . قال ابن عباس : «أطوارا» يعنى نطفة ثم عَلَقة ثم مُضْغة ؛ أى طَوْرًا بعد طور إلى تمام الخلق ، كما ذكر فى سورة «المؤمنون» . والطَّوْر فى اللغة : المرة ؛ أى من فعل هذا وقدر عليه فهو أحق أن تعظّموه . وقيل : «أطوارا» صبيانا ، ثم شبابا ، ثم شيوخا وضعفاء ، ثم أقوياء .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٣٩ (٢) آية ٣٣ سورة الأحزاب .

وقيــل : أطـوارا أى أنواعا ؛ صحيحا وسـقيما و بصيرا وضريرا وغنيا وفقيرا . وقيــل : إن « أطوارا » آختلافهم فى الأخلاق والأفعال .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ذكر لهم دليلا آخر ؛ أى ألم تعلموا أن الذى قدر على هذا ! فهو الذى يجب أن يُعبَد . ومعنى « طِباقا » بعضها فوق بعض ، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب ؛ قاله ابن عباس والسدّى . وقال الحسن : خلق الله سـبع سموات طباقا على سبع أرضـين ، بين كل أرض وأرض وسماء وسماء خلق وأمر . وقوله : « أَلَمْ تَرَوْا » على جهة الإخبار لا المعاينة ؛ كما تقول : ألم ترنى كيف صنعت بفلان كذا . و « طِباقا » نصب على أنه مصـدر ؛ أى مطابقة طباقا . أوحال بمعنى ذات طباق ؛ فحذف ذات وأقام طِباقا مقامه . ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ أى فى سماء الدنيا ؛ كما يقال : أتانى بنو تميم وأتيت بنى تميم والمراد بعضهم ؛ قاله الأخفش . وقال ابن كَيسان : إذا كان فى إحداهن فهـو فيهنّ . وقال قُطْرُب : « فيهنّ » بمعـنى معهنّ ؛ وقاله الكلبيّ . أى خلق الشمس والقمر مـع خلق السموات والأرض . وقال جِلّة أهـل اللغة فى قـول امرئ القيس :

وهل ينعمن من كان آخر[(١)] عهـده * ثلاثين شهـرا فى ثلاثة أحـوال

«فى» بمعنى مع . النحاس : وسألت أبا الحسن بن كَيسان عن هـذه الآية فقال : جواب النحو يبن أنه إذا جعـله فى إحداهن فقـد جعله فيهن ؛ كما تقول : أعطنى الثياب المُعْلَمـة وإن كنت إنمـا أعلمت أحدها . وجواب آخر : أنه يروى أن وجه القمر إلى السماء ، وإذا كان إلى داخلها فهو متصل بالسموات . ومعنى «نُورًا» أى لأهل الأرض ؛ قاله السدّى

(١) الذى فى ديوان امرئ القيس ص ٥٠ ط هندية « أحدث » .

وقال عطاء : نورا لأهل السماء والأرض . وقال ابن عباس وابن عمر : وجهه يضيء لأهل الأرض وظهره يضيء لأهل السماء . ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يعني مصباحا لأهل الأرض ليتوصّلوا إلى التصرف لمعايشهم . وفي إضاءتها لأهل السماء القولان الأوّلان؛ حكاه الماورديّ . وحكى القشيريّ عن ابن عباس أن الشمس وجهها في السموات وقفاها في الأرض . وقيل : على العكس . وقيل لعبد الله بن عمر : ما بال الشمس تَقْلِينا أحيانا وتَبْرُد علينا أحيانا؟ فقال : إنها في الصيف في السماء الرابعة ، وفي الشتاء في السماء السابعة عند عرش الرحمن ؛ ولو كانت في السماء الدنيا لما قام لها شيء .

قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

يعني آدم عليه السلام خلقه من أديم الأرض كلها ؛ قاله ابن جُرَيج . وقد مضى في سورة « الأنعام والبقرة »(١) بيان ذلك . وقال خالد بن مَعْدان : خلق الإنسان من طين؛ فإنما تلين القلوب في الشتاء . و«نباتا» مصدر على غير المصدر؛ لأن مصدره أنبت إنباتا، فجعل الاسم الذي هو النبات في موضع المصدر . وقد مضى بيانه في سورة « آل عمران »(٢) وغيرها . وقيل : هو مصدر محمول على المعنى؛ لأن معنى «أنبتكم» جعلكم تنبتون نباتا؛ قاله الخليل والزجاج . وقيل أي أنبت لكم من الأرض النبات . فـ« نباتا » على هذا نصب على المصدر الصريح . والأوّل أظهر. وقال ابن جريج(٣) : أنبتهم في الأرض بالكِبَر بعد الصغَر و بالطُّول بعد القِصَر . ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي عند موتكم بالدفن . ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالنشور للبعث يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٨٨ و جـ ١ ص ٢٧٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٦٩
(٣) في بعض الأصول : « قاله ابن بحر » .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أى مبسوطة . ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ السبل : الطرق . والفجاج جمع فَجّ؛ وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفرّاء . وقيل : الفَجّ المسلك بين الجبلين . وقد مضى فى سورة « الأنبياء والحج » (١) .

قوله تعالى : قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾

شكاهم إلى الله تعالى، وأنهم عصوْه ولم يتبعوه فيما أمرهم به من الإيمان . وقال أهل التفسير: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما داعياً لهم وهم على كفرهم وعصيانهم . قال ٱبن عباس : رجا نوح عليه السلام الأبناء بعد الآباء ؛ فيأتى بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبع قرون ، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم ، وعاش بعد الطوفان ستين عاما حتى كثر الناس وفشوْا . قال الحسن : كان قوم نوح يزرعون فى الشهر مرتين؛ حكاه الماوردىّ . ﴿ وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ يعنى كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالا فى الدنيا وهلاكا فى الآخرة . وقرأ أهل المدينة والشام وعاصم « وَوَلَدُه » بفتح الواو واللام . الباقون « وُلْده » بضم الواو وسكون اللام وهى لغة فى الولد . ويجوز أن يكون جمعًا للولد؛ كالفلك فإنه واحد وجمع . وقد تقدّم (٢) .

قوله تعالى : وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾

أى كبيرا عظيما . يقال : كَبير وكُبَار وكُبَّار؛ مثل عجيب وعُجَاب وعُجَّاب بمعنًى ؛ ومثله طويل وطُوَال وطُوَّال . يقال : رجل حسن وحُسَّان ، وجميل وجُمَّال، وقُرَّاء للقارئ ، ووُضَّاء للوضىء . وأنشد ٱبن السكيت :

بَيْضاء تَصْطادُ القلوبَ وتستبي (٣) * بالحسن قَلْبَ المُسْلِمِ القُرّاءِ

---

(١) راجع ج ١١ ص ٢٨٥ وج ١٢ ص ٤٠ . (٢) راجع ج ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

(٣) فى اللسان (مادة قرأ) : « الغوىّ » بالغين المعجمة .

وقال آخر :

والمَـرْءُ يُلْحِقـه بِفِتْيانِ النَّـدَى * خُـلُقُ الكريم وليس بالوُضّـاءِ

وقال المبرد : « كُبَّارًا » (بالتشديد) للبالغة . وقرأ ابن مُحَيصن وحُميد ومجاهد « كُبَارًا » بالتخفيف . واختلف في مكرهم ما هو ؟ فقيل : تحريشهم سفلتهم على قتـل نوح . وقيل : هو تعزيرهم الناس بمـا أوتوا من الدنيـا والولد ؛ حتى قالت الضَّعَفة : لولا أنهم على الحق لمـا أوتوا هـذه النعم . وقال الكلبيّ : هو ما جعلوه لله من الصـاحبة والولد . وقيـل : مكرهم كفرهم . وقال مقـاتل : هو قول كبرائهم لأتباعهم : « لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَـكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » .

قوله تعـالى : وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَـكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُـوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَـلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾

قال ابن عباس وغيره : هي أصنام وصُوَر، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب . وهذا قول الجمهور . وقيل : إنها للعرب لم يعبدها غيرهم . وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم؛ فلذلك خَصُّوها بالذكر بعد قوله تعالى: « لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ » . ويكون معنى الكلام : كما قال قوم نوح لأتباعهم لا تَذَرُنَّ آلهتكم قالت العـرب لأولادهم وقومهم لا تذرُنّ وَدًّا ولا سُواعا ولا يَغُوثَ ويَعُوق ونَسرًا ؛ ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام . وعلى القول الأوّل، الكلام كلّه منسوق في قوم نوح . وقال عروة بن الزبير وغيره : اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه : وَدٌّ ، وسُوَاعٌ ، ويغوثُ ، ويعوق ، ونسرٌ . وكان ودّ أكبرَهم وأبرّهم به . قال محمد بن كعب : كان لآدم عليه السلام خمسُ بنين : وَدّ وسُـواع ويغوث ويعوق ونسر؛ وكانوا عُبّادًا فمات واحد منهم فحزنوا عليه ؛ فقال الشيطان : أنا أصوّر لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه . قالوا : افعل . فصوّره في المسجد من صُفر ورصاص، ثم مات آخر ،

فصوّره حتى ماتوا كلهم فصوّرهم. وتنقّصت الأشياء كما تُنتقص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين. فقال لهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئا؟ قالوا: وما نعبد؟ قال: آلهتكم وآلهة آبائكم، ألا ترون في مُصَلّاكم. فعبدوها من دون الله؛ حتى بعث الله نوحا فقالوا: «لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعا» الآية. وقال محمد بن كعب أيضا ومحمد بن قيس: بل كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم تَبَع يقتدون بهم؛ فلما ماتوا زيّن لهم إبليس أن يصوّروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم، وليتسلّوا بالنظر إليها؛ فصوّروهم. فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا: لَيْتَ شِعْرَنَا! هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها!؟ فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر. فعبدوها فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت.

قلت: وبهذا المعنى فسّر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة؛ أن أمّ حبيبة وأمّ سَلَمة ذكرتا كَنيسة رأينَها(١) بالحبشة تسمّى مارية، فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أولئِك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنَوْا على قبره مسجدًا وصوّروا فيه تلك الصُّوَر أولئك شِرار الخلق عند الله يوم القيامة". وذكر الثعلبي عن ابن عباس قال: هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسمّوها بأسمائهم تذكروهم بها؛ ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت من دون الله. وذُكِر أيضا عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام، كان يحرس جسد آدم عليه السلام على جبل بالهند، فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره؛ فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم، وإنما هو جسد، وأنا أصوّر لكم مثله تطوفون به؛ فصوّر لهم هذه الأصنام الخمسة وحملهم على عبادتها. فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء؛ فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب. قال الماوَرْدِيّ: فأما وَدٌّ

(١) قوله: «رأينها» بنون الجمع على أن أقل الجمع اثنان. أو على أنه كان معهما غيرهما من النسوة. (القسطلاني).

فهو أوّل صنم معبود ، سُمِّيَ وَدًّا لودّهم له ؛ وكان بعـد قوم نوح لكَلْب بدُومة الجَنْـدَل ؛ في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل . وفيه يقول شاعرهم :

حَيّاكَ وَدٌّ فإنّا لا يحـلّ لنـا * لَهْوُ النساء و إن الدين قد عَزَمَا

وأما سُواعٌ فكان لهُذَيل بساحل البحر ؛ في قولهم .

وأما يَغُوثُ فكان لغُطَيف من مُراد بالجَوْف من سَبَأ ؛ في قول قتادة . وقال المهدَوِيّ : لمُراد ثم لغَطَفَان . الثعلبيّ : وأخذت أعلى وأنعم — وهما من طيئ — وأهل جُرَش من مَذْحِج يَغُوث فذهبوا به إلى مُرَاد فعبدوه زمانا . ثم إن بني ناجية أرادوا نزعه من [أعلى](١) وأنعم ، ففرّوا به إلى الحُصَين أخي بني الحارث بن كعب من خُزَاعة . وقال أبو عثمان النَّهْدِيّ : رأيت يغوث وكان من رَصاص ، وكانوا يحملونه على جمـل أَحْرَدَ(٢) ، ويسيرون معه ولا يهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك ، فإذا بَرَك نزلوا وقالوا : قـد رضي لكم المنزل ؛ فيضربون عليـه بناءً ينزلون حوله .

وأما يَعُوق فكان لهَمْدان ببَلْخَع(٣) ؛ في قول عكرمة وقتادة وعطاء . ذكره المـاوردي . وقال الثعلبي : وأما يَعُوق فكان لكَهْلان من سَبَأ ، ثم توارثه بنوه ؛ الأكبر [فالأكبر](٤) حتى صار إلى هَمْدان . وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني :

يَرِيشُ الله في الدنيـا ويَبْرِي * ولا يَبْرِي يعوقُ ولا يَرِيشُ

وأما نسرٌ فكان لذي الكلاع من حِمْـيَر ؛ في قول قتادة ، ونحـوه عن مقاتل . وقال الواقديّ : كان وَدٌّ على صورة رجل ، وسُواعٌ على صورة امرأة ، و يغوثُ على صورة أسد ، و يعوقُ على صورة فرس ، ونسرٌ على صورة نَسْر من الطير ؛ فالله أعلم . وقرأ نافع « وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا » بضم الواو . وفتحها الباقون . قال الليث : وَدٌّ (بفتح الواو) صـنم كان لقوم نوح .

---

(١) زيادة عن تفسير الثعلبي . (٢) الحرد (بالتحريك) : داء في القوائم إذا مشى البعير نفض قوائمه فضرب بهن الأرض كثيرا .

(٣) موضع باليمن . (٤) زيادة عن الثعلبي .

ووُدٌّ (بالضم) صنم لقريش؛ وبه سُمّى عمــرو بن وَدّ . وفى الصحاح : والوَدّ (بالفتح) الوَتِدُ فى لغة أهل نجد؛ كأنهم سكّنوا التاء وأدغموها فى الدال . والوَدّ فى قول آمرئ القيس :

تُظهِــرُ الودَّ إذا ما أَشْجَــذَتْ * وتُوارِيهِ إذا ما تَعْتَــكِرْ (١)

قال آبن دُرَيد : هو آسم جبل : ووَدٌّ صنم كان لقوم نوح عليه السلام ثم صار لكلب وكان بدُومة الجَنْـدَل؛ ومنه سمّوه عبـد ودٍ وقال : « لا تَذَرُنّ آلهتكم » ثم قال « ولا تَذَرُنّ وَدًّا ولا سُــواعًا » الآية . خصصها بالذكر؛ لقوله تعـالى : « وإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُــمْ ومِنْكَ ومِنْ نُوحٍ » (٢) . ﴿ وقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ هذا من قول نوح؛ أى أضلّ كبراؤهم كثيرا من أتباعهم؛ فهو عطف على قوله « ومَكَرُوا مَكْرًا كُبّارا » . وقيل : إن الأصنام « أَضَلُّوا كَثِيرًا » أى ضلّ بسببها كثير؛ نظيره قول إبراهيم : « رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ » (٣) فأجرى عليهم وصف ما يعقل؛ لاعتقاد الكفار فيهم ذلك . ﴿ ولا تَزِدِ الظَّالِمِـينَ إِلَّا ضَلالًا ﴾ أى عذابا؛ قاله آبن بحر . وآستشهد بقوله تعالى : « إِنّ المُجْرِمِينَ فِى ضَلالٍ وسُعُرٍ » (٤) . وقيل إلا خسرانا . وقيل إلا فتنة بالمـال والولد . وهو محتمل .

قوله تعـالى : مِمَّـا خَطِيٓـَٔـٰتِهِـمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَـلَمْ يَجِدُوا لَهُـم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ مِمَّا خطاياهُمْ أُغْرِقُوا ﴾ (٥) « ما » صلة مؤكدة؛ والمعنى من خطاياهم . وقال الفرّاء : المعنى من أجل خطاياهم؛ فأدّت « ما » هــذا المعنى . قال : و « ما » تدل على المجـازاة . وقراءة أبى عمرو « خطاياهم » على جمـع التكسير؛ الواحدة خطيّة . وكان

(١) الضمير فى « تظهر » للديمـة (المطر) فى البيت قبل هذا . والود (بالفتح) الوتد . و « أشجذت » أقلعت وسكنت . و « تعتكر » تشتد؛ يقال : اعتكر المطر إذا اشتد . ويروى : « تشتكر » أى تحتفل . يريد : أن هذه السحابة توارى أوتاد البيوت إذا اشتدّت وتبديها إذا كفت وأقلعت .

(٢) آية ٧ سورة الأحزاب . (٣) آية ٣٦ سورة إبراهيم . (٤) آية ٤٧ سورة القمر .

(٥) هكذا فى نسخ الأصل؛ وهى قراءة .

الأصل في الجمع خطائئ على فعائل ؛ فلما اجتمعت الهمزتان قُلبت الثانيـة ياء ، لأن قبلها كسرة ثم استثقلت والجمـع ثقيل ، وهو معتل مع ذلك ؛ فقلبت اليـاء ألفا ثم قلبت الهمزة الأولى ياء لخفائها بين الألفين . الباقون « خطيئاتهم » على جمع السلامة . قال أبو عمرو : قوم كفروا ألف سـنة فلم يكن لهم إلا خطيـات ؛ يريد أن الخطايا أكثر من الخطيّات . وقال قوم : خطايا وخطيّات واحد، جمعان مستعملان في الكثرة والقلة ؛ واستدلّوا بقوله تعالى : « مَا نَفِدت كَلِمَاتُ اللَّهِ » (١) وقال الشاعر (٢) :

لنـا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ بِالضّحَى * وأسيافُنـا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدةٍ دَمَا

وقرئ « خطيئاتهم » (٣) و « خطيّاتِهم » بقلب الهمزة ياء وإدغامها . وعن الجحـدريّ وعمرو ابن عبيد والأعمش وأبي حَيْوة وأشهب العقيلي « خطيئتِهم » على التوحيد، والمراد الشرك . ﴿ فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ أي بعد إغراقهم . قال القشيريّ : وهذا يدلّ على عذاب القبر . ومنكروه يقولون : صاروا مستحقين دخول النار ، أو عرض عليهم أماكنهم من النار ؛ كما قال تعالى « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » (٤) . وقيل : أشاروا إلى ما في الخبر من قوله : "البحر نار في نار" . وروى أبو روق عن الضحاك في قوله تعالى : « أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا » قال : يعني عُذِّبوا بالنار في الدنيا مع الغـرق في الدنيا في حالة واحدة ؛ كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في المـاء من جانب . ذكره الثعلبيّ [قال] : أنشدنا أبو القاسم الحبيبي قال أنشدنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن رُمَيح قال أنشدني أبو بكر بن الأنباريّ :

الخـلق مجتمع طَوْرًا ومُفْترق * والحـادِثاتُ فُنُونٌ ذاتُ أطوارِ
لا تعجبنّ لِأَضْدادٍ إنِ اجتمعتْ * فاللهُ يجمع بين المـاءِ والنـارِ

﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ أي من يدفع عنهم العذاب .

---

(١) آية ٢٧ سورة لقمان .   (٢) هو حسان بن ثابت .   (٣) في بعض النسخ : «خطاياهم» .
(٤) آية ٤٦ سورة غافر .

قوله تعالى : وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — دعا عليهم حين يئس من آتباعهم إيّاه . وقال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ »(١) فأجاب الله دعوته وأغرق أمته ؛ وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهُمّ منزل الكتاب [سريع الحساب](٢) وهازم الأحزاب آهزمهم وزلزلهم" . وقيل : سبب دعائه أن رجلاً من قومه حمل ولدا صغيرا على كتفه فمرّ بنوح فقال : "احذر هذا فإنه يضلك" . فقال : يا أبت أنزلني ؛ فأنزله فرماه فشجّه ؛ فحينئذ غضب ودعا عليهم . وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وآبن زيد : إنما قال هذا حينما أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم . وأعقم أرحام النساء وأصلاب الرجال قبل العذاب بسبعين سنة . وقيل : بأربعين . قال قتادة : ولم يكن فيهم صبيّ وقت العذاب . وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله لهم وعدلاً فيهم ؛ ولكن الله أهلك أطفالهم وذُرّيتهم بغير عذاب ، ثم أهلكهم بالعذاب ؛ بدليل قوله تعالى : « وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ »(٣) .

الثانية — قال آبن العربيّ : « دعا نوح على الكافرين أجمعين ، ودعا النبيّ صلى الله عليه وسلم على من تحزّب على المؤمنين وألّب عليهم . وكان هذا أصلا في الدعاء على الكافرين في الجملة ، فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه ؛ لأن مآله عندنا مجهول ، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة . وإنما خص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالدعاء عُتبةَ وشَيْبةَ وأصحابَهما ؛ لعلمه بمآلهم وما كُشف له من الغطاء عن حالهم . والله أعلم » .

قلت : قد مضت هذه المسألة مجوّدة في سورة « البقرة »(٤) والحمد لله .

(١) آية ٣٦ سورة هود . (٢) الزيادة عن ابن العربي . (٣) آية ٣٧ سورة الفرقان .
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٨٨ طبعة ثانية .

الثالثـــة ـــ قال ابن العربي : « إن قيل لِمَ جَعل نوحٌ دعوتَه على قومه سببا لتوقّفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة ؟ قلنــا قال الناس في ذلك وجهان : أحدهما ـــ أن تلك الدعوة نشأت عن غضب وقسوة ؛ والشفاعة تكون عن رِضًا ورِقّة ، فخاف أن يعاتب بها ويقال : دعوتَ على الكفار بالأمس وتشفع لهـم اليوم . الثاني ـــ أنه دعا غضبًا بغير نص ولا إذن صريح في ذلك ؛ فخاف الدَّرْك(1) فيه يوم القيامة ؛ كما قال موسى عليه السلام : "إني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها" . قال : وبهذا أقول » .

قلت : وإن كان لم يؤمر بالدعاء نَصًّا فقد قيل له : « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » . فأعلم عواقبهم فدعا عليهم بالهلاك ؛ كما دعا نبيّنا صلى الله عليه وسلم على شَيْبة وعتبة ونظرائهم فقال : "اللّهُمّ عليك بهـم" لمـا أعلم عواقبهم ؛ وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدعاء . والله أعلم .

الرابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ دَيَّاراً . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي من يسكن الديار ؛ قاله السدّي . وأصله دَيوار على فَيعال من دار يدور ؛ فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى . مثل القيّام ؛ أصله قيوام . ولو كان فعّالا لكان دوّارا . وقال القُتَبيّ : أصله من الدار ؛ أي نازل بالدار . يقال : ما بالدار ديّار ؛ أي أحد . وقيل : الديّار صاحبُ الدار .

قوله تعـالى : رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين . وهما : لمك(2) بن مُتَوَشْلِخ وشَمْخَى بنت أنوش ؛ ذكره القشيري والثعلبي . وحكى المـاوردي في اسم أمّه منجل .

(1) الدرك (يسكن ويحرك) : التبعة .　(2) في حاشـية الجمل : «لمك» بفتحتين أو بفتح فسكون . و «متوشلخ» بضم الميم وفتح التاء والواو وسكون الشـين وكسر اللام . و «شمخى» بوزن سكرى .

وقال سعيد بن جُبَير : أراد بوالديه أباه وجدّه . وقرأ سعيد بن جُبَير « ولِوَالِدِى » بكسر الدال على الواحد . قال الكلبيّ : كان بينه و بين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون . وقال ٱبن عباس : لم يكفر لنوح والد فيما بينه و بين آدم عليهما السلام . ﴿ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ﴾ أى مسجدى ومصلاى مصلّيا مصدّقا بالله . وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم بجعل المسجد سببا للدعاء بالمغفرة . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الملائكة تصلّى على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيه ما لم يُحْدِث فيه تقول اللّهُمّ آغفر له اللّهُمّ آرحمه " الحديث . وقد تقدم (١) . وهذا قول ٱبن عباس : « بيتى » مسجدى؛ حكاه الثعلبى وقاله الضحاك . وعن ٱبن عباس أيضا : أى ولمن دخل دينى؛ فالبيت بمعنى الدِّين؛ حكاه القشيرى وقاله جُوَيْبِر . وعن ٱبن عباس أيضا : يعنى صديق الداخل إلى منزلى؛ حكاه الماوردىّ . وقيل : أراد دارى . وقيل سفينتى . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ عامّة إلى يوم القيامة ؛ قاله الضحاك . وقال الكلبى : من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : من قومه؛ والأوّل أظهر . ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى الكافرين . ﴿ إِلَّا تَبَاراً ﴾ إلا هلاكا؛ فهى عامّة فى كل كافر ومشرك . وقيل : أراد مشركى قومه . والتبار : الهلاك . وقيل : الخسران ؛ حكاهما السُّدّى . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ » (٢) . وقيل : التبار الدمار ؛ والمعنى واحد . والله أعلم بذلك . وهو الموفّق للصواب .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٥١ طبعة ثانية او ثالثة . (٢) آية ١٣٩ سورة الأعراف .

تم بعون الله تعالى الجزء الثامن عشر من تفسير القرطبى ،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع عشر ، وأوّله :
" سورة (الجن) "

إصـــلاح خطـأ

جزء	ص	س	خطـأ	صـواب
١	٢٢٨	٨	والأربع اثنين	والواحد اثنين
٩	٢٨٧	٦	ذكره الدارقطني، وقالت جميلة بنت سعد ـ أخت عبيد بن سعد وعن الليث ابن سعد ـ : إن	ذكره الدارقطني وقال : جميلة بنت سعد أخت عبيد بن سعد ، وعن الليث بن سعد : أن
٩	٣١٦	٩	عن الأشعث عن عبدالله	عن الأشعث بن عبدالله
٩	٣٦٣	٦	جعفر بن عمر	حفص بن عمر
٩	٣٧٢	٥	محمد بن حاتم	محمد بن حبان
١٦	١٧	١١	الطاعة فوق الطاقة	الطا[illegible] [illegible]ق الطاقة [1]
١٦	٦٥	٤	« يخرجون » بفتح اليا	« تخرجون » بفتح التاء
١٨	٥٨	١٦	لا يُقَدَعُ أنْفَه	لا يُقْدعُ أنْفُه

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتي
د/ نصر أحمد محمد بدوى . أتريس . مصر

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء فى الأجزاء الماضية، أثبتناها هنا إتماما للفائدة.

أحمد عبد العليم البردوني
المصحح بالقسم الأدبي
بدار الكتب المصرية

(١) الصحيح " الطاعة دون الطاقة" . راجع كتاب " الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى " للمؤلف ـ والذى أحال المؤلف القارئ إليه ـ طبعة دار الصحابة للتراث بطنطا ـ الجزء الأول صفحة ٢٣٥ السطر الرابع . انظر أيضا كتاب " الكشف والبيان " المعروف بتفسير الثعلبى ـ دار احياء التراث العربى ـ الجزء الثامن صفحة ٣٠٨ ضمن كلام طويل موافق لما ذكره المؤلف . والثعلبى سابق للمؤلف زمنيا .
د / نصر أحمد محمد بدوى . أتريس . مصر

كَمُلَ طبع الجزء الثامن عشر من كتاب " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم السبت ٢١ ربيع الثانى سنة ١٣٦٨
(١٩ فبراير ١٩٤٩) م

محمد نديم

دار الكتب المصرية

القســم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

فهرس الجزء التاسع عشر

ســورة الجن

صفحة

سورة المدثر

ســــورة القيــامة

صفحة

سورة عم

سورة النازعات

سورة عبس

سورة التكوير

صفحة

ســـورة البروج

استدراك

ورد فى الجزء الخامس عشر من هذا التفسير صفحة ٢٥٩ البيت الآتى محرفا :

الضاربون عميرا عن بيوتهم * بالليل يوم عمير ظالم عادى

وصوابه :

الضاربين عُمَيْراً عن بُيُوتِهِم * بالتَّلِّ يَوْمَ عُمَيْرٌ ظالمٌ عادِى

والبيت للقُطامى واسمه عُمَيْر بن شُيَيْم من قصيدة يمدح بها زفر بن الحرث الكلابى، وكان زفر أسره فى الحرب ، فمنَّ عليه ، ووهب له مائة ناقة ، وردّه إلى قومه . وقد ساق ابن الشجرى البيت فى كتابه (الأمالى) شاهدا على إضافة « يوم » إلى جملة الابتداء ما

محمد محمد حسنين

المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتى
د / نصر أحمد محمد بدوى . أتريس . مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجن

مكية في قول الجميع . وهي ثمان وعشرون آية

قوله تعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي قل يا محمد لأمتك أوحى الله إلىّ على لسان جبريل ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ إلىّ ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وما كان عليه السلام عالما به قبل أن أوحى إليه . هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتي . وقرأ ابن أبي عَبْلة «أُحِي» على الأصل؛ يقال : أوحى إليه ووحى فقلبت الواو همزة؛ ومنه قوله تعالى : «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ» وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة . وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضا كإشاح وإسادة و «إِعَاءِ أَخِيهِ» ونحوه .

الثانيـــة — واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم؛ لقوله تعالى : «ٱسْتَمَعَ» وقوله تعالى : «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» وفي صحيح مسلم والترمذي[1] عن ابن عباس قال : ماقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) اللفظ لمسلم وأما الترمذي ففي لفظه زيادة .

على الجنّ وما رآهم، ٱنطلق رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عُكَاظ، وقد حيـل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حِيل بيننا و بين خبر السماء، وأرسلت علينا الشُّهب ، قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فٱنظروا ما هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء ؟ فٱنطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تِهامة وهو بنخل عامدين إلى سُـوق عُكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن ٱستمعوا له وقالوا : هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء . فرجعوا إلى قومهـم فقالوا : يا قومنا « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً . يَهْـدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم « قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » . رواه الترمذى عن ٱبن عباس قال : قول الجنّ لقومهم « لَمَّـا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْـهِ لِبَدًا» قال : لمـا رأوه يصلى وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده قال : فعجبوا من طواعية أصحابه له قالوا لقومهم « لَمَّـا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ ففى هذا الحديث دليل على أنه عليـه السلام لم يرَ الجنّ ولكنهم حضروه وسمعوا قراءته . وفيه دليل على أن الجنّ كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لمـا رموا بالشّهب . وكان المرميـون بالشّهب من الجنّ أيضا . وقيل لهم شياطين كما قال : «شَيَاطِينَ الإِنسِ والجِنِّ» فإن الشيطان كل متمرّد وخارج عن طاعة الله . وفى الترمذى عن ٱبن عباس قال : كان الجنّ يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوحى فإذا سمعـوا الكلمة زادوا فيها تسعا ، فأما الكلمة فتكون حقّـا وأما ما زاد فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليـه وسلم مُنِعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس : ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض! فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يصلى بين جبلين ــ أُراه قال بمكة ــ فأتوه فأخبروه فقال : هذا الذى حدث فى الأرض . قال : هذا حديث حسن صحيح . فدل

هـذا الحديث على أن الجنّ رموا كما رميت الشياطين . وفى رواية السدىّ : أنهم لما رموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال : آيتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة . فبعث نفرا من الجنّ قيل : كانوا سبعة . وقيل : تسعة منهم زوبعة . وروى عاصم عن زِرّ قال : قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الثُّمالىّ : بلغنى أنهم من بنى الشَّيْصَبَان ، وهم أكثر الجنّ عددا ، وأقواهم شوكة ، وهم عامة جنود إبليس . وروى أيضا عاصم عن زرّ أنهم كانوا سبعة نفر ، ثلاثة من أهل حَرّان وأربعة من أهل نَصيبين . وحكى جويبر عن الضحاك أنهم كانوا تسعة من أهل نَصيبين ، قرية باليمن غير التى بالعراق . وقيل : إن الجنّ الذين أتوا مكة جنّ نَصيبين ، والذين أتوه بنخلة جنّ نِينَوَى . وقد مضى بيان هذا فى سورة «الأحقاف» (١) . قال عِكرمة : والسورة التى كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» وقد مضى فى سورة «الأحقاف» التعريف بآسم النفر من الجنّ فلا معنى لإعادة ذلك . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الجنّ ليلة الجنّ وهو أثبت ؛ روى عامر الشَّعبى قال : سألت عَلْقمة هل كان آبن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ فقال عَلْقمة : أنا سألت آبن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشِّعاب ، فقلنا آستُطير أو آغتيل ، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبح إذا هو يجىء من قبل حِرَاء ، فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك وطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ؛ فقال : "أتانى داعى الجنّ فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن " فآنطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة ؛ فقال : "لكم كلُّ عَظْم ذكر آسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بَعْرة عَلَفٌ لدوابكم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجنّ" قال آبن العربى : وآبن مسعود أعرف من آبن عباس ؛ لأنه شاهده وآبن عباس سمعه

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢١١ فما بعدها .

وليس الخبر كالمعاينة . وقد قيل : إن الجنّ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعتين إحداهما بمكة وهى التى ذكرها ٱبن مسعود، والثانيــة بنخلة وهى التى ذكرها ٱبن عباس. قال البيهقى : الذى حكاه عبد الله بن عباس إنما هو فى أوّل ما سمعت الجنّ قراءة النبي صلى الله عليه وسـلم وعلمت بحاله ، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعى الجنّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود . قال البيهقى : والأحاديث الصحاح تدل على أن ٱبن مسعود لم يكن مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ، و إنما سار معه حين انطلق به و بغـيره يريه آثار الجنّ وآثار نيرانهم . قال : وقد روى من غير وجه أنه كان معه ليلتئذ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة «الأحقاف» والحمد لله . روى عن ٱبن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أتلو القرآن على الجنّ فمن يذهب معى " فسكتوا، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، ثم قال عبد الله بن مسعود : أنا أذهب معك يا رسول الله، فٱنطلق حتى جاء الحَجُـون عند شِـعْب أبى دُبّ(١) فخطّ على خطّا فقال : " لا تجاوزه " ثم مضى إلى الحَجُـون فٱنحدر عليه أمثال الحَجَـل يحدرون الحجارة بأقدامهم، يمشون يقرعون فى دُفوفهم كما تَقْرع النِّسوة فى دُفوفها حتى غَشَوه فلا أراه، فقمت فأومى إلىّ بيده أن أجلس ، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم ، فلما ٱنفتل إلىّ قال : " أردت أن تأتينى" قلت : نَعَم يا رسول الله . قال : "ما كان ذلك لك هؤلاء الجنّ أتوا يستمعون القرآن ثم وَلّوا إلى قومهم منذرين فسألونى الزاد فزوّدتهم العظم والبعر فلا يَستطِيبَنّ أحدكم بعظم ولا بعر" قال عِكرمة : وكانوا ٱثنى عشر ألفا من جزيرة الموصل . وفى رواية : ٱنطلق بى عليه السـلام حتى إذا جئنا المسجد الذى عنـد حائط عوف خطّ لى خطّا ، فأتاه نفر منهم فقـال أصحابنا كأنهم رجال الزُّطّ(٢) وكأن وجوههم المَكَاكِى(٣)، فقالوا : ما أنت؟ قال: " أنا نبىّ الله " قالوا : فمن

(١) شعب أبى دب يقال فيه مدفن آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) الزط : جنس من السودان والهنود .

(٣) المكاكى : جمع مكوك وهو طاس يشرب فيه أعلاه ضيق ووســطه واسع ، ومكيال معروف لأهل العراق بهذه الصفة أيضا . ولعله من باب قول العرب : ضرب مكوك رأسه على التشبيه .

يشهد لك على ذلك ؟ قال : "هذه الشجرة" فقال: "يا شجرة" فجاءت تجرّ عروقها لها قعاقع حتى انتصبت بين يديه، فقال : "على ماذا تشهدين" قالت : أشهد أنك رسول الله . فرجعت كما جاءت تجرّ بعروقها الحجارة، لها قعاقع حتى عادت كما كانت . ثم روى أنه عليه السلام لما فرغ وضع رأسه على حِجر ابن مسعود فرقد ثم استيقظ فقال : "هل من وضوء" قال : لا ، إلا أن معى إداوة فيها نبيذ . فقال : "هل هو إلا تمر وماء" فتوضأ منه .

الثالثة — قد مضى الكلام فى الماء فى سورة « الحجر »(١) وما يستنجى به فى سورة « براءة »(٢) فلا معنى للإعادة .

الرابعة — واختلف أهل العلم، فى أصل الجنّ، فروى إسمعيل عن الحسن البصرى : أن الجنّ ولد إبليس والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء فى الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولىّ الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان . وروى الضحاك عن ابن عباس : أن الجنّ هم ولد الجان وليسوا بشياطين وهم يؤمنون؛ ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس . واختلفوا فى دخول مؤمنى الجنّ الجنة على حسب الاختلاف فى أصلهم؛ فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرّية إبليس قال : يدخلون الجنة بإيمانهم . ومن قال : إنهم من ذرّية إبليس فلهم فيه قولان : أحدهما — وهو قول الحسن يدخلونها . الثانى — وهو رواية مجاهد لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار . حكاه الماوردى . وقد مضى فى سورة «الرحمن»(٣) عند قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » بيان أنهم يدخلونها .

الخامسة — قال البيهقى فى روايته : وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة فقال: "لكم كلّ عظم" دليل على أنهم يأكلون ويطعمون . وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجنّ، وقالوا : إنهم بسائط ولا يصح طعامهم . اجتراء على الله وافتراء والقرآن والسنة تردّ عليهم،

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥ فما بعدها .　　(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٥٩ فما بعدها .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١٨١

وليس فى المخلوقات بسيط مركب مزدوج إنما الواحد الواحد سبحانه ، وغيره مركب ليس بواحد كيفما تصرف حاله . وليس يمتنع أن يراهم النبي صلى الله عليه وسلم فى صورهم كما يرى الملائكة . وأكثر ما يتصوّرون لنا فى صور الحيات ؛ ففى الموطأ أن رجلا حديث عهد بعرس آستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله . الحديث ، وفيه : فإذا حية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فآنتظمها . وذكر الحديث . وفى الصحيح أنه عليه السلام قال : " إن هذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئا فحرجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فآقتلوه فإنه كافر" وقال : "آذهبوا فادفنوا صاحبكم"(١) وقد مضى هذا المعنى فى سورة «البقرة»(٢) وبيان التحريج عليهن . وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة ؛ لقوله فى الصحيح : " إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا "وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها . قلنا : هذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها ؛ لأنه لم يعلل بحرمة المدينة فيكون ذلك الحكم مخصوصا بها ، وإنما علل بالإسلام ، وذلك عام فى غيرها ، ألا ترى قوله فى الحديث مخبرا عن الجنّ الذى لقى : وكانوا من جنّ الجزيرة ؛ وهذا بيّن يعضُده قوله : "ونهى عن عوامر البيوت" وهذا عام . وقد مضى فى سورة «البقرة» القول فى هذا فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ أى فى فصاحة كلامه . وقيل : عجبا فى بلاغة مواعظه . وقيل: عجبا فى عظم بركته . وقيل : قرآنا عزيزا لا يوجد مثله . وقيل : يعنون عظيما . ﴿ يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى إلى مراشد الأمور . وقيل: إلى معرفة الله تعالى. و « يهدى » فى موضع الصفة أى هاديا . ﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ أى فآهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ أى لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه ؛ لأنه الذى كان بعثهم ليأتوه بالخبر ثم رمى الجنّ بالشّهب . وقيل : لا نتخذ مع الله إلها آخر؛ لأنه المتفرّد بالربوبية. وفى هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركى قريش عما أدركته الجنّ بتدبرها القرآن . وقوله

(١) هذا ينبغى أن يكون قبل الحديث السابق له كما فى آبن العربى .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣١٥ فما بعدها طبعة ثانية .

تعالى : « ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ » أى آستمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعلموا أن ما يقرؤه كلام الله . ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه . والنفر الرهط ؛ قال الخليل : ما بين ثلاثة إلى عشرة . وقرأ عيسى الثقفي « يَهدى إلَى الرَّشَدِ » بفتح الراء والشين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ كان عَلْقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وآبن عامر وخلف وحفص والسلمى ينصبون « أن » فى جميع السورة فى آثنى عشر موضعا وهو « أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » « وأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » « وَأَنَّا ظَنَنَّا » « وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ » « وأَنَّهُمْ ظَنُّوا » « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » « وأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ » « وأَنَّا لا نَدْرِى » « وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ » « وأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللهَ فِى الأَرْضِ » « وأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى » « وأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ » عطفا على قوله : «أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ» و «أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ» لا يجوز فيه إلا الفتح ؛ لأنها فى موضع آسم فاعل «أُوحِىَ» فما بعده معطوف عليه . وقيل : هو محمول على الهاء فى «آمَنَّا بِهِ» أى و بـ « أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » وجاز ذلك وهو مضمر مجرور لكثرة حرف الجار مع « أنّ » . وقيل : المعنى أى وصدّقنا أنه جدّ ربنا . وقرأ الباقون كلها بالكسر وهو الصواب ، وآختاره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفا على قوله : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » لأنه كله من كلام الجنّ . وأما أبو جعفر وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع ؛ وهى قوله تعالى : « وأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » « وأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » « وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ » قالا : لأنه من الوحى وكسرا ما بقى ؛ لأنه من كلام الجنّ . وأما قوله تعالى : « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ » فكلهم فتحوا إلا نافعا وشيبة وزِرُّ بن حبيش وأبو بكر والمفضّل عن عاصم فإنهم كسروا لا غير . ولا خلاف فى فتح همزة « أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ » « وأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا» « وأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » و « أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا » وكذلك لا خلاف فى كسر ما بعد القول ؛ نحو قوله تعالى : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » و « قَالَ(١) إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى » و « قُلْ إِنْ أَدْرِى » و «قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ» وكذلك لا خلاف فى كسر ما كان بعد فاء الجزاء ؛ نحو قوله تعالى : « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » و « فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » لأنه موضع آبتداء .

---

(١) كذا فى الأصل على قراءة نافع . وقراءة حفص « قل » .

قوله تعالى : « جَدُّ رَبِّنَا » الجدّ فى اللغة العظمة والجلال؛ ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عِمران جَدّ فى عيوننا . أى عَظُم وجلّ؛ فمعنى « جَدُّ رَبِّنَا » أى عظمته وجلاله ؛ قاله عكرمة ومجاهـد وقتادة . وعن مجاهـد أيضا : ذِكره . وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضا : غناه . ومنه قيل للحظ جَدٌّ ورجل مجدود أى محظوظ ؛ وفى الحديث : "ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ" قال أبو عبيدة والخليل : أى ذا الغنى ، منك الغنى إنما تنفعه الطاعة . وقال ابن عباس : قدرته . الضحاك : فعـله . وقال القرظى والضحاك أيضا : آلاؤه ونعمه على خلقـه . وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه . وقال السدى : أمره . وقال سعيد بن جبير : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا » أى تعالى ربنا . وقيل : إنهم عنوا بذلك الجدّ الذى هو أب الأب ويكون هذا من قول الجنّ . وقال محمد بن على بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع : ليس لله تعالى جَدّ ، وإنما قالته الجنّ للجهالة فلم يؤاخذوا به . وقال القشيرى : ويجوز إطلاق لفظ الجدّ فى حق الله تعالى ؛ إذ لو لم يجز لما ذكر فى القرآن ، غير أنه لفظ موهم فتجنبه أولى . وقراءة عِكرمة « جِدّ » بكسر الجيم على ضد الهزل . وكذلك قرأ أبو حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقع . ويروى عن ابن السَّميقع أيضا وأبى الأشهب « جَدَا رَبِّنَا» وهو الجدوى والمنفعة . وقرأ عكرمة أيضا « جَدًّا » بالتنوين « رَبُّنَا » بالرفع على أنه مرفوع بـ « تعالى » و « جَدًّا » منصوب على التمييز . وعن عكرمة أيضا « جَدٌّ » بالتنوين والرفع «رَبُّنَا» بالرفع على تقدير : تعالى جَدٌّ جَدُّ ربِّنا ، فالجدّ الثانى بدل من الأوّل وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه . ومعنى الآية ؛ وأنه تعالى جلال ربِّنا أن يتخذ صاحبة وولدا للاستئناس بهما والحاجة إليهما ، والربّ يتعالى عن ذلك كما يتعالى عن الأنداد والنظراء .

قوله تعـالى : وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ﴾ الهاء فى « أنه » للأمر أو الحديث ، وفى « كان » آسمها وما بعدها الخبر . ويجوز أن تكون « كان » زائدة . والسفيه هنا إبليس فى قول مجاهد وآبن جريج وقتادة . ورواه أبو بُرْدة بن أبى موسى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المشركون من الجنّ ؛ قال قتادة : عصاه سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس . والشطط والآشتطاط الغلو فى الكفر . وقال أبو مالك : هو الجور . الكلبي : هو الكذب . وأصله البعد فيعبر به عن الجور لبعده عن العدل ، وعن الكذب لبعده عن الصدق ؛ قال الشاعر :

بأيّة حالٍ حكّموا فيك فاشتطّوا * وما ذاكَ إلا حيث يَمَّمَكَ الوَخْطُ (١)

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ أى حسبنا ﴿ أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ فلذلك صدقناهم فى أن لله صاحبة وولدا حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحقّ . وقرأ يعقوب والجحدرى وآبن أبى إسحق « أَنْ لَنْ تَقَوَّلَ » (٢) . وقيل : آنقطع الإخبار عن الجنّ ها هنا فقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجنّ ردّها إلى قوله : « أَنَّهُ آسْتَمَعَ » ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى. والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ : أعوذ بسيّد هذا الوادى من شر سفهاء قومه؛ فيبيت فى جواره حتى يصبح ؛ قاله الحسن وآبن زيد وغيرهما . قال مقاتل : كان أوّل من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن ، ثم من بنى حنيفة ، ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم . وقال كَرْدَم بن أبى السائب : خرجت مع أبى إلى المدينة أوّل ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم ، فلما آنتصف الليل جاء الذئب فحمل حَمَلا من الغنم ، فقال الراعى : يا عامر الوادى [أنا] (٣) جارك . فنادى منادٍ ياسرحان أرسله ، فأتى الحَمَل يَشْتد (٤) . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ

(١) يممك قصدك . والوخط الطعن بالرمح ، ومن معانيه أيضا الشيب .
(٢) قال الألوسى : « تَقَوَّلَ » أصله تتقول بتاءين فحذفت إحداهما ، فكذبا مصدر مؤكد لأن الكذب هو التقول .
(٣) الزيادة من الدر المنثور للسيوطى .	(٤) يشتد : يعدو .

الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى زاد الجنُّ الإنسَ «رَهَقًا» أى خطيئة و إثما؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . والرهق الإثم فى كلام العرب وغِشيان المحارم ؛ ورجلٌ رَهِقٌ إذا كان كذلك . ومنه قوله تعالى : « وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » وقال الأعشى :

لا شيءَ ينفعنى مِن دونِ رؤيتِها * هل يَشتفِى وامِقٌ ما لم يُصِب رَهَقَا

يعنى إثما ،وأضيفت الزيادة إلى الجنّ إذ كانوا سببا لها . وقال مجاهد أيضا : « فَزَادُوهُمْ » أى إن الإنس زادوا الجنّ طغيانا بهذا التعوذ ، حتى قالت الجنّ سدنا الإنس والجنّ . وقال قتادة أيضا وأبو العالية والربيع وابن زيد : ازداد الإنس بهذا فَرَقا وخوفا من الجنّ . وقال سعيد ابن جبير : كفرا . ولا خفاء أن الاستعاذة بالجنّ دون الاستعاذة بالله كفر وشرك . وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجنّ ؛ فالمعنى : وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنّ برجال من الإنس ، وكان الرجل من الإنس يقول مثلا : أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هـذا الوادى . قال القشيرى : وفى هذا تحكم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنّ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا ﴾ هذا من قول الله تعـالى للإنس ، أى وأن الجنّ ظنّوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم . الكلبى : المعنى ظنت الجنّ كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولا إلى خلقه يقيم به الحجـة عليهم . وكل هذا توكيد للحجة على قريش ؛ أى إذا آمن هؤلاء الجنّ بمحمد فأنتم أحق بذلك .

قوله تعـالى : وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَـدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِـدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَـدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَـن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِـمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ هـذا من قول الجنّ أى طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿ فَوَجَدْنَاهَا ﴾ قد ﴿ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ أى حَفَظة يعنى الملائكة والحَـرَس جمع حارس

﴿ وَشُهُبًا ﴾ جمع شهاب وهو ٱنقضاض الكواكب المحرقة لهم عن ٱستراق السمع . وقد مضى القول فيه فى سورة « الحجر »(١) « والصافات »(٢) و « وجد » يجوز أن يقدّر متعدّيا إلى مفعولين فالأول الهاء والألف ، و« مُلِئَتْ » فى موضع المفعول الثانى . ويجوز أن يتعدّى إلى مفعول واحد ويكون « مُلِئَتْ » فى موضع الحال على إضمار قد و « حَرَسًا » نصب على المفعول الثانى بـ « مُلِئَتْ » و « شديدا » من نعت الحرس أى ملئت ملائكة شدادا . ووحد الشديد على لفظ الحرس ؛ وهو كما يقال : السَّلَف الصالح بمعنى الصالحين ، وجمع السَّلَف أسلاف وجمع الحرس أحراس ؛ قال(٣) :

« تجاوزتُ أحراسًا وأهوالَ مَعْشَرٍ »

ويجوز أن يكون « حَرَسًا » مصدرا على معنى حُرِست حراسةً شديدة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ « مِنها » أى من السماء و « مَقَاعِدَ » مواضع يقعد فى مثلها لٱستماع الأخبار من السماء ؛ يعنى أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنة على ما تقدّم بيانه ، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشُّهب المحرقة ، فقالت الجنّ حينئذ : « فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » يعنى بالشهاب الكوكب المحرِق ؛ وقد تقدّم بيان ذلك . ويقال : لم يكن ٱنقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وهو آية من آياته . وٱختلف السَّلَف هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث ، أو كان ذلك أمرا حدث لمبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال الكلبى : وقال قوم لم تكن تحرس السماء فى الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه خمسمائة عام ، وإنما كان من أجل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها وحرست بالملائكة والشُّهب .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠ فما بعدها .	(٢) راجع جـ ١٥ ص ٦٦ فما بعدها .

(٣) هو ٱمرؤ القيس ويروى : * تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا * وتمام البيت وهو من معلقته :

* على حراصا لو يشرون مقتلي *

قلت : ورواه عطية العوفى عن ابن عباس ؛ ذكره البيهقى . وقال عبد الله بن عمر : لما كان اليوم الذى نُبئ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُنعت الشياطين ورُموا بالشُّهب . وقال عبد الملك بن سابور : لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُرست السماء ، ورُميت الشياطين بالشُّهب ، ومُنعت عن الدنو من السماء . وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين فى الفترة تَسمع فلا تُرمى، فلما بُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رُميت بالشُّهب . ونحوه عن أبىّ بن كعب قال : لم يُرمَ بنجم منذ رُفع عيسى حتى نُبئ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرُمِىَ بها . وقيل : كان ذلك قبل المبعث ، وإنما زادت بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إنذارا بحاله ؛ وهو معنى قوله تعالى : « مُلِئَتْ » أى زيد فى حرسها ؛ وقال أَوْس بن حَجَر وهو جاهلىّ :

فَٱنقَضَّ كالدُّرِّى يَتْبَعُــه * نَقْــعٌ يَثُــورُ تَخالُه طُنُبَا

وهذا قول الأكثرين . وقد أنكر الجاحظ هذا البيت وقال : كل شعر روى فيه فهو مصنوع، وأن الرمى لم يكن قبل المبعث . والقول بالرمى أصح؛ لقوله تعالى : « فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وشُهُبًا » . وهذا إخبار عن الجنّ، أنه زِيد فى حرس السماء حتى آمتلأت منها ومنهم ؛ ولما روى عن ابن عباس قال : بينما النبىّ صلى الله عليه وسلم جالس فى نفر من أصحابه إذ رُمِى بنجم فقال : " ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية " قالوا : كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إنها لا تُرْمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربّنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمرا فى السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء حتى ينتهى التسبيح إلى هذه السماء ويستخبر أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه فتتخطَّف الجنُّ فيرمون فما جاءوا به فهو حقّ ولكنهم يزيدون فيه " وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث . وروى الزهرىّ نحوه عن علىّ بن الحسين عن علىّ بن أبى طالب عن ابن عباس . وفى آخره قيل للزهرىّ : أكان يُرمَى فى الجاهلية؟ قال: نعم . قلت : أفرأيت قوله سبحانه « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ

مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا» قال : غُلظت وشُدِّد أمرُها حين بُعث النبي صلى الله عليه وسلم . ونحوه قال القتبي . قال آبن قتيبة : كان ولكن آشتدت الحراسة بعد المبعث ، وكانوا من قبل يسترقون ويُرمَون في بعض الأحوال ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مُنعت من ذلك أصلا . وقد تقدّم بيان هذا في سورة « والصافات » عند قوله : « وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » قال الحافظ : فلو قال قائل كيف تتعرض الجنّ لإحراق نفسها بسبب آستماع خبر بعد أن صار ذلك معلوما لهم ؟ فالجواب أن الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة ، كما ينسى إبليس في كل وقت أنه لا يسلم ، وأن الله تعالى قال له : « وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » ولولا هذا لما تحقق التكليف . والرَّصَد قيل من الملائكة؛ أي ورصدا من الملائكة . والرصد الحافظ للشيء والجمع أرصاد، وفي غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعا كالحرس والواحد راصد . وقيل : الرصد هو الشهاب أي شهابا قد أرصد له ليرجم به ؛ فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول كالخَبَط والنَّفَض .

قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي خيرا . قال آبن زيد : قال إبليس لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذابا أو يرسل إليهم رسولا . وقيل : هو من قول الجنّ فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم . أي لا ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم ، فإنهم يكذّبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذّب من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا ؛ فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان ؛ وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي . وقيل : لا ؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن آنصرفوا إليهم منذرين ؛ أي لما آمنوا أشفقوا ألا يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا : إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أو يؤمنون .

قوله تعـالى : وَأَنَّا مِنَّـا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّـا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِـدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِـزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُون ومِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ هـذا من قول الجنّ ؛ أى قال بعضهم لبعض لمـا دعوا أصحابهـم إلى الإيمان بمحمد صـلى الله عليـه وسلم ، وإنا كنا قبـل آستماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون . وقيـل : « وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ » أى ومن دون الصالحين فى الصـلاح ، وهو أشـبه من حمله على الإيمان والشرك . ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِـدَدًا ﴾ أى فرقا شتى ؛ قاله السـدى . الضحاك : أديانا مختلفـة . قتادة : أهواء متباينة ، ومنـه قول الشاعر :

القَابِضُ البَاسِـطُ الهَادِى بِطاعَتِهِ * فى فِتْنَةِ النّاسِ إِذْ أَهْوَاؤُهُمْ قِدَدُ

والمعنى : أى لم يكن كل الجنّ كفارا بل كانوا مختلفين ، منهم كفّار ومنهم مؤمنون صلحاء ، ومنهم مؤمنون غير صلحاء . وقال المسيّب : كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس . وقال السدى فى قوله تعالى : «طَرَائِقَ قِدَدًا» قال : فى الجنّ مثلكم قَدَرية ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة وسنية . وقال قوم : أى وأنا بعد آستماع القرآن مختلفون منا المؤمنون ومنا الكافرون . أى ومنا الصالحون ومنا مؤمنون لم يتناهوا فى الصلاح . والأول أحسن ؛ لأنه كان فى الجنّ من آمن بموسى وعيسى وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَدَيْهِ » وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة ، وكان هـذا مبالغة منهم فى دعاء من دعوهم إلى الإيمان . وأيضا لا فائدة فى قولهم : نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر . والطرائق جمع الطريقة وهى مذهب الرجل ؛ أى كنا فرقا مختلفة . ويقال : القوم طرائق أى على مذاهب شتى . والقِدد نحو من الطرائق وهو توكيد لها واحدها قِدّة . يقال : لكل طريق قِدّة وأصلها من قَدّ السيور وهو قطعها ؛ قال لبيد يرثى أخاه أَرْبَد :

لم تَبْلُغِ العينُ كلَّ نَهْمَتِها * ليلةَ تُمْسِى الجيادُ كالقِدَدِ (١)

وقال آخر :

ولقد قُلتُ وزَيدٌ حاسِرٌ * يومَ ولَّتْ خيلُ عَمْرٍو قِدَدَا

والقِدّ بالكسر سير يُقَدّ من جلد غير مدبوغ ؛ ويقال : ماله قِدٌّ ولا قِحْف فالقِدُّ إناء من جلد والقِحف من خشب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين وهو خلاف الظنّ فى قوله تعالى : « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ » « وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا » أى علمنا بالاستدلال والتفكر فى آيات الله أنا فى قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره . و﴿ هَرَبًا ﴾ مصدر فى موضع الحال أى هاربين .

قوله تعالى : وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ﴾ يعنى القرآن ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ وبالله وصدّقنا محمدا صلى الله عليه وسلم على رسالته . وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الإنس والجنّ . قال الحسن : بعث الله محمدا صلى عليه وسلم إلى الإنس والجنّ ، ولم يبعث الله تعالى قط رسولا من الجنّ ولا من أهل البادية ولا من النساء ؛ وذلك قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » وقد تقدم هذا المعنى (٢) . وفى الصحيح : " وبعثت إلى الأحمر والأسود "

---

(١) يقول : لم تبلغ العين من البكاء على أربد كل ما تريد فى هذه الليلة التى فيها الخيل كالقدد من شدة السير والإتعاب .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٤

أى الإنس والجنّ . ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ قال ٱبن عباس : لايخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد فى سيئاته ؛ لأن البخس النقصان والرهق العدوان وغِشيان المحارم ؛ قال الأعشى :

لا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِن دُونِ رُؤْيَتِها * هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ مَالَمْ يُصِبْ رَهَقَا

الوامق المحبّ ؛ وقـد وَمِقَه يَمِقه بالكسر أى أحبّه فهو وامق . وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجنّ ؛ لقوّة إيمانهم وصحة إسـلامهم . وقراءة العامة « فَلَا يَخَافُ » رفعا على تقدير فإنه لا يخاف . وقرأ الأعمش ويحيى و إبراهـيم « فَلَا يَخَفْ » جزما على جواب الشرط و إلغاء الفـاء .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى وأنا بعد ٱستماع القرآن مختلفون فمنا من أسـلم ومنا من كفر . والقاسط الجائر؛ لأنه عادل عن الحق والمقسط العادل ؛ لأنه عادل إلى الحقّ ؛ [يقال :] قسط أى جار وأقسط إذا عدل ؛ قال الشاعر :

قومٌ هم قتـلوا ٱبنَ هِنـدٍ عَنْوَةً * عَمْـرًا وهم قَسَطُوا عـلى النُّعْمانِ

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أى قصدوا طريق الحقّ وتوخّوه ومنه تحرّى القِبلة ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أى الجائرون عن طريق الحقّ والإيمـان ﴿ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أى وقودا . وقوله : « فَكَانُوا » أى فى علم الله تعالى .

قوله تعـالى : وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ هذا من قول الله تعالى . أى لو آمن من هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم فى الدنيا و بسطنا لهم فى الرزق . وهذا محمول على الوحى؛ أى أوحى إلى أن لو ٱستقاموا . ذكر ٱبن بحر : كل ما فى هـذه السورة من « إن » المكسورة المثقلة فهى حكاية لقول الجنّ الذين ٱستمعوا القرآن فرجعوا إلى قومهم منـذرين ، وكل ما فيها من

أن المفتوحة المخففة فهي وحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال آبن الأنبارى : ومن كسر الحروف وفتح « وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا » أضمر يمينا تاما تأويلها : والله أن لو آستقاموا على الطريقة ؛ كما يقال في الكلام : والله أَنْ قمتَ لقمتُ ووالله لو قمتَ قمتُ ؛ قال الشاعر :

أَمَا واللهِ أَنْ لو كُنتَ حُرًّا * وما بِالحُرِّ أنتَ ولا العتِيقِ

ومن فتح ما قبل المخففة نسّقها — أعني الخفيفة — على « أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ » « وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا » أو على « آمَنَّا بِهِ » وبأن لو آستقاموا (١) . ويجوز لمن كسر الحروف كلها إلى « أن » المخففة أن يعطف المخففة على « أُوحِيَ إِلَيَّ » أو على « آمَنَّا بِهِ » ويستغني عن إضمار اليمين . وقراءة العامة بكسر الواو من « لو » لآلتقاء الساكنين . وقرأ آبن وثّاب والأعمش بضم الواو . و ﴿مَاءً غَدَقًا﴾ أي واسعا كثيرا ، وكانوا قد حبس عنهم المطر سبع سنين ؛ يقال : غَدِقت العينُ تَغدَق فهي غَدِقة إذا كثر ماؤها . وقيل : المراد الخلق كلهم أي « لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ » طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين « لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا » أي كثيرا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم . وقال عمر في هذه الآية : أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة . فمعنى « لَأَسْقَيْنَاهُمْ » لوسعنا عليهم في الدنيا ، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا ؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون فأقيم مقامه ؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ » وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » أي بالمطر . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيّب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل وعطية وعبيد بن عمير والحسن : كان والله أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي ففتنوا بها ، فوثبوا على إمامهم فقتلوه . يعني عثمان بن عفان . وقال الكلبي وغيره : « وَأَنْ

(١) وفي حاشية الجمل نقلا عن القرطبي «قال آبن الأنبارى : ومن قرأ بالكسر فيما تقدم وفتح «وأن لو آستقاموا» أضمر قسما تقديره : والله «أن لو آستقاموا على الطريقة» ، أو عطفه على «أنه آستمع» أو على «آمنّا به» وعلى هذا يكون جميع ما تقدم معترضا بين المعطوف والمعطوف عليه » .

لوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَـةِ » التى هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا لوسعنا أرزاقهم مكرا بهم وٱستدراجا لهم، حتى يفتتنوا بهـا فنعذبهم بها فى الدنيا والآخرة . وهذا قول قاله الربيع ٱبن أنس وزيد بن أسلم وٱبنه والكلبي والثمالى ويمـان بن رباب وٱبن كيسان وأبو مجلز؛ وٱسـتدلوا بقوله تعـالى : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » الآية؛ وقوله تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّـاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » الآية ؛ والأول أشـبه ؛ لأن الطريقة معرّفة بالألف واللام فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى ؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى . وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا" قالوا : وما زهرة الدنيا؟ قال : "بركات الأرض" وذكر الحديث . وقال عليه السلام : "فو الله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيـا [كما بُسطت على من قبلكم] (١) فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ يعنى القرآن؛ قاله ٱبن زيد . وفى إعراضه عنه وجهان : أحدهما عن القبول إن قيـل إنها فى أهل الكفر . الثـانى عن العمل إن قيل إنها فى المؤمنين . وقيل : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » أى لم يشكر نعمه ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ قرأ الكوفيون وعياش عن أبى عمرو « يَسْلُكْهُ » بالياء وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لذكر ٱسم الله أوّلا فقال : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » . الباقون « نَسْلُكْهُ » بالنون . وروى عن مسلم بن جُندب ضم النون وكسر اللام . وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان سلكه وأسلكه بمعنًى أى ندخله . « عَذَابًا صَعَدًا » أى شاقا شديدا . قال ٱبن عباس : هو جبـل فى جهنم كلما جعلوا أيديهم عليـه ذابت . وعن ٱبن عبـاس : أن المعنى مشقة من العـذاب . وذلك معلوم فى اللغة أن الصَّعَد المشقة، تقول : تَصعَّدنى الأمر إذا شـقّ عليك؛ ومنه قول عمر : ما تَصعَّدنى شىء ما تَصـعدتنى خِطبة النكاح . أى ما شقّ علىّ .

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

وعذاب صَعَدٌ أى شديد . والصَّعَد مصدر صَعِد؛ يقال : صعِد صَعَدا وصُعودا فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعد المعذَّب أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . وقال أبو عبيدة : الصَّعَد مصدر أى عذابا ذا صَعَدٍ، والمشي فى الصَّعود يشقّ . والصَّعود العقبة الكؤود. وقال عكرمة : هو صخرة ملساء فى جهنم يُكلَّف صعودها فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم . وقال الكلبي : يكلّف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلا فى النار من صخرة ملساء ، يجذب من أمامه بسلاسل ، ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها، ولا يبلغ فى أربعين سنة، فإذا بلغ أعلاها أحدِر إلى أسفلها ، ثم يكلّف أيضا صعودها ، فذلك دأبه أبدا ، وهو قوله تعالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً » .

قوله تعالى : وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً ﴿١٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ « أَنَّ » بالفتح قيل : هو مردود إلى قوله تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ » أى قل أوحى إلىّ أن المساجد لله . وقال الخليل : أى ولأن المساجد لله . والمراد البيوت التى تبنيها أهل الملل للعبادة . وقال سعيد بن جبير : قالت الجنّ كيف لنا أن نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » أى بنيت لذكر الله وطاعته . وقال الحسن : أراد بها كل البقاع ؛ لأن الأرض كلها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : " أينما كنتم فصلوا " "فأينما صليتم فهو مسجد " وفى الصحيح : " وجعلت لى الأرض مسجدا وطَهورا " . وقال سعيد بن المسيّب وطَلْق ابن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها العبد،وهى القدمان والركبتان واليدان والوجه؛ يقول : هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد لغيره بها فتجحد نعمة الله . قال عطاء : مَساجدك أعضاؤك التى أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها . وفى الصحيح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أسجد على سبعة أعظم الجبهة — وأشار بيده إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين " . وقال العباس قال النبي

صلى الله عليــه وسلم : " إذا سجد العبــد سجد معه ســبعة آراب[(1)] " . وقيــل : المساجد هى الصلوات : أى لأن السجود لله . قاله الحسن أيضا ؛ فإن جعلت المساجد المواضع فواحدها مَسجِد بكسر الجيم ، ويقال بالفتح ؛ حكاه الفراء . وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مَسجَد بفتح الجيم . وقيل : هو جمع مَسجَد وهو السجود؛ يقال : سجدت سجودا ومَسجَدا ؛ كما تقــول : ضربت فى الأرض ضَرْبا ومَضرَبا بالفتح إذا سرت فى ٱبتغــاء الرزق . وقال ٱبن عباس : المساجد هنا مكة التى هى القبلة وسميت مكة المساجد ؛ لأن كل أحد يسجد إليها . والقول الأوّل أظهر هذه الأقوال إن شاء الله، وهو مروىّ عن ٱبن عباس رحمه الله .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : «لِلهِ» إضافة تشريف وتكريم ، ثم خص بالذكر منها البيت العتيق فقال : «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ» وقال عليه السلام : " لا تُعمَل المَطِىّ إلا إلى ثلاثة مساجد " الحديث خرجه الأئمة . وقد مضى الكلام[(2)] فيه . وقال عليــه السلام : " صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام" قال ٱبن العربى : وقد روى من طريق لا بأس بها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإن صلاة فيــه خير من مائة صلاة فى مسجدى " ولو صح هــذا لكان نصًّا .

قلت : هو صحيح بنقل العدل عن العدل حسب ما بيناه فى سورة « إبراهيم[(3)] » .

الثالثـــة ــ المساجد وإن كانت لله مِلْكا وتشريفا فإنهـا قد تنسب إلى غيره تعــريفا فيقال : مسجد فلان . وفى صحيح الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التى أضمرت من الحيفاء وأَمَدُها ثَنِيّة الوَدَاع، وسابق بين الخيل التى لم تضمر من الثنية إلى مسجد بنى زريق . وتكون هذه الإضافة بحكم المحلية كأنها فى قبلتهم، وقد تكون بتحبيسهم، ولا خلاف بين الأمة فى تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وإن ٱختلفوا فى تحبيس غير ذلك .

(1) آراب : أعضاء واحدها « إرب » بالكسر والسكون .
(2) راجع جـ ١٠ ص ٢١١ والرواية المشهورة فى الصحاح " لا تشدّ الرحال" كما مرّ للقرطبى .
(3) راجع جـ ٩ ص ٣٧١ فما بعدها .

الرابعــة — مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال . ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل . ويجوز حبس الغريم فيها، وربط الأسير والنوم فيها، وسكنى المريض فيها، وفتح الباب للجار إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عَرِى عن الباطل . وقد مضى هذا كله مبينا فى سورة « براءة »(١) . « والنور »(٢) وغيرهما .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ هذا توبيخ للمشركين فى دعائهم مع الله غيره فى المسجد الحرام . وقال مجاهد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها . يقول : فلا تشركوا فيها صنما وغيره مما يعبد . وقيل : المعنى أفردوا المساجد لذكر الله ، ولا تتخذوها هزوا ومتجرا ومجلسا، ولا طرقا، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا . وفى الصحيح : " من نشد ضالّة فى المسجد فقولوا لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبنَ لهذا " وقد مضى فى سورة « النور » ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله .

السادسة — روى الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى . وقال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مَزور حقّ وأنت خير مَزور فأسالك برحمتك أن تفك رقبتى من النار" فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى ، وقال : " اللهم صُبَّ على الخير صَبًّا ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدا ولا تجعل معيشتى كَدًّا وآجعل لى فى الأرض جَدًّا " أى غنى .

قوله تعالى : وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾

(١) راجع جـ ٨ ص ١٠٤ فما بعدها .　　(٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٦٥ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ يجوز الفتح أى أوحى الله إليه أنه . ويجوز الكسر على الآستئناف . و « عبد الله » هنا محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يصلى ببطن نخلة ويقرأ القرآن ، حسب ما تقدّم أوّل السورة . ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أى يعبده . وقال آبن جُريج : « يَدْعُوهُ » أى قام إليهم داعيا إلى الله تعالى . ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال الزبير بن العوّام : هم الجنّ حين استمعوا القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم . أى كاد يركب بعضهم بعضا آزدحاما ويسقطون حرصا على سماع القرآن . وقيل : كادوا يركبونه حرصا ؛ قاله الضحاك . آبن عباس : رغبة فى سماع الذكر . وروى بُرْد عن مكحول : إن الجنّ بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة وكانوا سبعين ألفا ، وفرغوا من بيعته عند آنشقاق الفجر . وعن آبن عباس أيضا : إن هذا من قول الجنّ لمّا رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وآئتمامهم به فى الركوع والسجود . وقيل : المعنى كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حَردا على النبى صلى الله عليه وسلم . وقال الحسن وقتادة وآبن زيد : يعنى « لما قام عبد الله » محمد بالدعوة تَلَبّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه وأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره . وآختار الطبرى أن يكون المعنى : كادت العرب يجتمعون على النبى صلى الله عليه وسلم ويتظاهرون على إطفاء النور الذى جاء به . وقال مجاهد : قوله « لِبَدًا » جماعات وهو من تلبد الشىء على الشىء أى تجمع ، ومنه اللبد الذى يفرش لتراكم صوفه ، وكل شىء ألصقته إلصاقا شديدا فقد لبدته ، وجمع اللِبدة لِبَد مثل قِربة وقِرب . ويقال للشعر الذى على ظهر الأسد لِبدة وجمعها لِبد ؛ قال زهير :

لَدى أَسَدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ * لـه لِبَـدٌ أَظْفـارُه لم تُقَـلَّمِ

ويقال للجراد الكثير لِبد . وفيه أربع لغات وقراءات ؛ فتح الباء وكسر اللام ، وهى قراءة العامة . وضم اللام وفتح الباء، وهى قراءة مجاهد وآبن محيصن وهشام عن أهل الشام واحدتها لُبْدَة . وبضم اللام والباء ، وهى قراءة أبى حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقع وأبى الأشهب العُقَيلى

والجحدري واحدها لَبْد مثل سَقْف وسُقُف ورَهْن ورُهُن . و بضم اللام وشدّ الباء وفتحها ، وهي قراءة الحسن وأبي العالية والأعرج والجحدري أيضا واحدها لابِد مثل راكِع ورُكَّع وساجِد وسُجَّد . وقيل : اللُّبَد بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم ؛ ومنه قيل لنسر لقمان لُبَد لدوامه و بقائه ؛ قال النابغة :

* أَخْنَى عليها الذى أَخْنَى على لُبَد *

القشيري : وقرئ «لُبُدا» بضم اللام والباء وهو جمع لَبِيد وهو الجُوَالق الصغير . وفي الصحاح : [وقوله تعالى] « أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا » أي جَمًّا . و يقال أيضا : الناس لُبَد أي مجتمعون، واللبد أيضا الذى لا يسافر ولا يبرح [منزله](١) . قال الشاعر(٢) :

مِن آمرِئٍ ذِي سَماحٍ لا تَزالُ لَهُ * بَزْلاءُ يَعْيَا بِها الجَثَّامَةُ اللُّبَدُ

و يروى اللَّبِد . قال أبو عبيد : وهو أشبه . والبزلاء ذو الرأي الجيد وفلان نَهّاض ببزلاء إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام ؛ قال الشاعر :

إِنِّى إذا شَغَلَتْ قَومًا فُرُوجُهُم * رَحْبُ المَسالِكِ نَهَّاضٌ بِبَزْلاءِ

ولُبَد آخر نسور لقمان وهو ينصرف ؛ لأنه ليس بمعدول . وتزعم العرب أن لقمان هو الذى بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقى لها ، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بَعرات(٣) سُمْر من أَظْبٍ عُفْرٍ في جبل وَعْر لا يمسها القَطْر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نَسر خلف بعده نَسر فآختار النُّسور ، وكان آخر نُسوره يسمى لُبَدا ، وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أَضْحَتْ خَلاءً وأَمْسى أَهْلُها آحْتَمَلوا * أَخْنَى عليها الّذى أَخْنَى على لبد

واللَّبِيد الجُوَالق الصغير ؛ يقال : ألبدت القِربة جعلتها في لَبِيد . ولَبِيد آسم شاعر من بني عامر .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى ﴾ أي قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى » ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ وكذا قرأ أكثر القراء «قَالَ» على الخبر . وقرأ حمزة وعاصم «قُلْ» على

(١) الزيادة من اللسان مادة « لبد » . (٢) هو الراعي : والبزلاء أيضا الحاجة التي أحكم أمرها ، والجثامة الذى لا يبرح من محله و بلدته . (٣) قال شارح القاموس : هو بالعين المهملة ، و يوجد في بعض نسخ الصحاح « بقرات » بالقاف والذى في نسخ القاموس هو الأشبه إذ لا تتولد البقر من الظباء .

الأمر . وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا له : إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فآرجع عن هذا فنحن نجيرك فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضرا ولا أسوق لكم خيرا . وقيل : « لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا » أى كفرا « وَلَا رَشَدًا » أى هدى أى إنما علىّ التبليغ . وقيل : الضر العذاب والرشد النعيم . وهو الأوّل بعينه . وقيل : الضر الموت والرشد الحياة .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ أى لا يدفع عذابه عنى أحد إن آستحفظته ؛ وهذا لأنهم قالوا آترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك . وروى أبو الجوزاء عن آبن مسعود قال : آنطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ حتى أتى الحَجُون فخطّ علىّ خطّا، ثم تقدّم إليهم فآزدحموا عليه فقال سيّد لهم يقال له وِرْدان : أنا أَزْجُلهم[1] عنك ؛ فقال : "إنى لن يجيرنى من الله أحد" ذكره الماوردى . قال : ويحتمل معنيين أحدهما لن يجيرنى مع إجارة الله لى أحد . الثانى لن يجيرنى مما قدره الله تعالى علىّ أحد . ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملتجأ ألجأ إليه؛ قاله قتادة . وعنه : نصيرا ومولى . السدى : حرزا . الكلبى : مدخلا فى الأرض مثل السَّرَب . وقيل : وليا ولا مولى . وقيل : مذهبا ولا مسلكا . حكاه آبن شجرة والمعنى واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

(١) ازجلهم أى أدفعهم وفى نسخة أزحلهم بالحاء أى أنحيهم .

يا لهفَ نفسي ولهفي غيرُ مجديةٍ * عنّي وما من قضاءِ اللهِ مُلْتَحَدُ

﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ فإن فيه الأمان والنجاة ؛ قاله الحسن . وقال قتادة : « إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ » فذلك الذى أملكه بتوفيق الله، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما . فعلى هذا يكون مردودا إلى قوله تعالى : «قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لا أملك لكم إلا أن أبلغكم . وقيل هو آستثناء منقطع من قوله : « لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى إلا أن أبلغكم أى لكن أبلغكم ما أرسلت به ؛ قاله الفراء . وقال الزجاج : هو منصوب على البدل من قـوله : « مُلْتَحَدًا » أى « وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » إلا أن أبلغ ما يأتيني من الله ورسالاته ؛ أى ومن رسـالاته التي أمرني بتبليغها . أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمـل برسالته فآخذ نفسي بما آمر به غيرى . وقيل هو مصدر و « لا » بمعنى لم و « إن » للشرط والمعنى لن أجد من دونه ملتحدا أى إن لم أبلغ رسالات ربى بلاغا .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى التوحيد والعبادة . ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ كسرت إن ؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع آبتداء وقد تقـدم . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ نصب على الحال، وجمع « خالدين » لأن المعنى لكل من فعل ذلك، فوحد أولا للفظ « من » ثم جمع للمعنى . وقوله ﴿ أَبَدًا ﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك . وقيل : هو المعاصي غير الشرك، ويكون معنى « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » إلا أن أعفوا وتلحقهم شفاعة ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو . وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة « النساء »(١) وغيرها .

قوله تعـالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ « حَـتَّىٰ » هنا مبتدأ أى « حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ » من عذاب الآخرة أو ما يوعدون من عذاب الدنيا ، وهـو القتل ببـدر ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئـذ ﴿ مَنْ أَضْـعَفُ نَاصِرًا ﴾ أهـم أم المؤمنـون . ﴿ وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ معطـــوف .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٣٣ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعنى قيام الساعة . وقيل : عذاب الدنيا أى لا أدرى فـ«إن» بمعنى «ما» أو «لا» ؛ أى لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله ، فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله . و « ما » فى قوله «مَا يُوعَدُونَ» يجوز أن تكون بمعنى الذى ويقدّر حرف العائد . ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ أى غاية وأجلا . وقرأ العامة بإسكان الياء من ربى . وقرأ الحرميان وأبو عمرو بالفتح .

قوله تعالى : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ « عالمُ » رفعا نعتا لقوله « رَبِّي » . وقيل : أى هو « عَالِمُ الْغَيْبِ » والغيب ما غاب عن العباد . وقد تقدّم بيانه فى أوّل سورة « البقرة »[1] ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه ؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات ؛ وفى التنزيل[2] « وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » . وقال ابن جبير: « إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ » هو جبريل عليه السلام . وفيه بعد والأولى أن يكون المعنى ؛ أى لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى أى اصطفى للنبوّة فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه ؛ ليكون ذلك دالا على نبوّته .

الثانيـة — قال العلماء رحمة الله عليهم : لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحى إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم . وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من

(١) راجع جـ ١ ص ١٦٣ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٩٥

رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه . قال بعض العلماء : وليت شعرى ما يقول المنجم فى سفينة ركب فيها ألف إنسان على آختلاف أحوالهم ، وتباين رتبهم ، فيهم الملك والسُّوقة ، والعالم والجاهل ، والغنى والفقير ، والكبير والصغير ، مع آختلاف طوالعهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ، فعمهم حكم الغرق فى ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله : إنما أغرقهم الطالع الذى ركبوا فيه ، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على آختلافها عند ولادة كل واحد منهم ، وما يقتضيه طالعه المخصوص به فلا فائدة أبدا فى عمل المواليد ، ولا دلالة فيها على شقىّ ولا سعيد ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم . وفيه آستحلال دمه على هذا التنجيم ؛ ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

حكم المنجِّمُ أنَّ طالعَ مولِدِى　*　يقضِى علىّ بميتةِ الغَرَقِ
قُلْ لِلمُنَجِّمِ صَبْحَةَ الطُّوفانِ هَلْ　*　وُلِدَ الجَمِيعُ بكَوْكَبِ الغَرَقِ

وقيل لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر فى العقرب ؟ فقال رضى الله عنه : فأين قمرهم ؟ وكان ذلك فى آخر الشهر . فآنظر إلى هذه الكلمة التى أجاب بها ، وما فيها من المبالغة فى الردّ على من يقول بالتنجيم ، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم . وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ! لا تَسِرْ فى هذه الساعة وسِرْ فى ثلاث ساعات يمضين من النهار . فقال له على رضى الله عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت . فقال على رضى الله عنه : ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم مُنَجِّمٌ ولا لنا من بعده — فى كلام طويل يحتَجُّ فيه بآيات من التنزيل — فمن صدّقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن آتخذ من دون الله نِدّا أو ضِدّا ، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك . ثم قال للتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها . ثم أقبل على الناس فقال: يأيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون

به فى ظلمات البر والبحر ، وإنما المنجم كالساحر والساحر كالكافر والكافر فى النار ، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيتَ وبقيتُ ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان . ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها ، ولقى القوم فقتلهم وهى وقعة النهروان الثابتة فى الصحيح لمسلم . ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار فى الساعة التى أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم ولا لنا من بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان — ثم قال : يأيها الناس ! توكلوا على الله وثقوا به ، فإنه يكفى ممن سواه . ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ يعنى ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان ، فيحفظ الوحى من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة . قال الضحاك : ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاءه شيطان فى صورة الملك قالوا : هذا شيطان فاحذره . وإن جاءه الملك قالوا : هذا رسول ربك . وقال ابن عباس وابن زيد : « رَصَدًا » أى حفظة يحفظون النبى صلى الله عليه وسلم من أمامه وورائه من الجنّ والشياطين . قال قتادة وسعيد بن المسيِّب : هم أربعة من الملائكة حفظة . وقال الفراء : المراد جبريل ، كان إذا نزل بالرسالة نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجنّ الوحى فيلقوه إلى كهنتهم فيسبقوا به الرسول . وقال السدىّ : « رَصَدًا » أى حفظة يحفظون الوحى ، فما جاء من عند الله قالوا إنه من عند الله ، وما ألقاه الشيطان قالوا إنه من الشيطان (١) . و « رَصَدًا » نصب على المفعول . وفى الصحاح : والرَّصَد القوم يرصُدون كالحرس يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصادا والراصد للشىء الراقب له ؛ يقال : رَصَده يرْصُده رَصْدا ورَصَدًا . والترصد الترقب والمَرْصَد موضع الرَّصد .

---

(١) هذا الكلام ينافى قوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله قد عصمنى من الإنس والجن" (الحديث جـ ٦ ص ٢٤٤) وأن الشياطين لا يمكن أن ينالوا منه عليه السلام ، فكيف يلقون إليه حتى لا يفرق بين ما يلقونه وبين الوحى إلى أن تبينه له الملائكة .

قوله تعالى : لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ قال قتادة ومقاتل : أى ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلّغ هو الرسالة . وفيه حذف يتعلق به اللام ؛ أى أخبرناه بحفظنا الوحى ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق . وقيل : ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ؛ قاله ابن جبير . قال : ولم ينزل الوحى إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام . وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم . وقيل : ليعلم الرسول أىّ رسول كان أن الرسل سواه بلغوا . وقيل : أى ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه وآستراق أصحابه . وقال آبن قتيبة : أى ليعلم الجنّ أن الرسل قد بلغوا ما أنزل عليهم ولم يكونوا هم المبلغين بآستراق السمع عليهم . وقال مجاهد : ليعلم من كذّب الرسل أن المرسلين قد بلغوا رسالات ربهم . وقراءة الجماعة « لِيَعْلَمَ » بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه . وقرأ آبن عباس ومجاهد وحميد ويعقوب بضم الياء أى لِيُعلَم الناسُ أنّ الرسل قد أبلغوا . وقال الزجاج : أى لِيَعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء ؛ كقوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » المعنى؛ ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيبا . ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ أى أحاط علمه بما عندهم؛ أى بما عند الرسل وما عند الملائكة . وقال آبن جبير : المعنى؛ ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم فيبلغوا رسالاته . ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ أى أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء . و « عددا » نصب على الحال؛ أى أحصى كل شيء فى حال العدد ، وإن شئت على المصدر؛ أى أحصى وعدّ كل شيء عددا ، فيكون مصدر الفعل المحذوف . فهو سبحانه المحصى المحيط العالم الحافظ لكل شيء ، وقد بينا جميعه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . والحمد لله وحده .

سورة المزمّل

وهى سبع وعشرون آية مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها « وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » والتى تليها ؛ ذكره الماوردى . وقال الثعلبى : قوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ » إلى آخر السورة فإنه نزل بالمدينة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « المزّمّل » أصله المتزمل فأدغمت التاء فى الزاى وكذلك «المدّثّر» . وقرأ أبىّ بن كعب على الأصل «الْمُتَزَمِّل» و «المتدثّر» . وسعيد « المُزَمِّل »(١) . وفى أصل « المزّمّل » قولان : أحدهما أنه المتحمل ؛ يقال : زَمَل الشىءَ إذا حمله ، ومنه الزّاملة ؛ لأنها تحمل القُمَاش(٢) . الثانى أن المزّمّل هو المتلفّف ؛ يقال : تزمل وتدثّر بثوبه إذا تغطى وزمّل غيره إذا غطّاه ، وكل شىء لُفِّف فقد زُمِّل ودُثِّر؛ قال امرؤ القيس :

* كبيرُ أناسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ(٣) *

---

(١) لعل هذا ما أراده بعض المفسرين بقولهم : قرأ بعض السلف « المزمل » بفتح الزاى وتخفيفها وفتح الميم وشدّها . (٢) قماش البيت متاعه .

(٣) صدر البيت : * كأن أبانا فى أفانين ودقه *

الثانيـــة — قوله تعالى : «يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه ثلاثة أقوال : الأوّل قول عكرمة « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » بالنبوّة والملتزم للرسالة. وعنه أيضا : يأيها الذى زُمِّلَ هذا الأمر أى حُمِّله ثم فتر؛ وكان يقرأ «يَأَيُّهَا الْمُزَمَّلُ» بتخفيف الزاى وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول، وكذلك « الْمُدَثَّر » والمعنى المزمِّل نفسه والمــدثِّر نفسه، أو الذى زَمَّله غيره . الثانى « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » بالقرآن؛ قاله ٱبن عباس . الثالث المزمل بثيابه؛ قاله قتادة وغيره . قال النخعى : كان متزملا بقطيفةٍ . عائشة : بِمِرطٍ طوله أربعة عشر ذراعا، نصفه علىّ وأنا نائمــة ، ونصفه على النبي صلى الله عليــه وسلم وهو يصلى ، واللهِ ما كان خَزّا ولا قَزّا ولا مِرْعِزاءَ(١) ولا إِبرِيسما ولا صوفا؛ كان سَداه شعرا ولُحْمته وَبَرا؛ ذكره الثعلبى .

قلت : وهذا القول من عائشة يدل على أن السورة مدنية ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبن بها إلا فى المدينــة . وما ذكر من أنهــا مكية لا يصح . والله أعلم . وقال الضحاك : تزمل بثيابه لمنامه . وقيــل : بلغه من المشركين سوء قولٍ فيــه ، فٱشتد عليه فتزمل فى ثيابه وتدثر فنزلت : « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » و « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » . وقيل : كان هذا فى ٱبتداء ما أوحى إليه ، فإنه لمــا سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرِّعدة فأتى أهله فقال : ” زمّلونى دثّرونى “ روى معناه عن ٱبن عباس . وقالت الحكماء : إنمــا خاطبه بالمزمّل والمدّثر فى أول الأمر؛ لأنه لم يكن بعد ٱدّثر شيئا من تبليغ الرسالة . قال ٱبن العربى : وٱختلف فى تأويل « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » فمنهم من حمله على حقيقته، قيل له : يامن تلفّف فى ثيابه أو فى قطيفته قم ؛ قاله إبراهيم وقتادة . ومنهم من حمــله على المجاز كأنه قيل له : يامن تزمل بالنبوّة؛ قاله عكرمة . وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشدّدة بصيغة المفعول الذى لم يسم فاعله ، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل .

قلت : وقد بينــا أنها على حذف المفعول، وقد قرئ بها فهى صحيحة المعــنى . قال : وأما من قال إنه زمّل القرآن فهو صحيح فى المجاز لكنه قد قدمنا أنه لا يحتاج إليه .

(١) المرعزاء بكسر الميم والعين : الزغب الذى تحت شعر العنز .

الثالثـــة — قال السهيلى : ليس المزمّل بآسم من أسمـاء النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، ولم يعرف به كما ذهب إليـه بعض الناس وعدّوه فى أسمائه ، و إنمـا المزمّل آسم مشتق من حالته التى كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدثّر . وفى خطابه بهذا الآسم فائدتان : إحداهما الملاطفة فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه بآسم مشتق من حالته التى هو عليها ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعلى حين غاضب فاطمة رضى الله عنهما ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : " قم يا أبا تراب " إشـعارا له أنه غير عاتب عليه وملاطفةً له . وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة : " قم يانومان " وكان نائما ملاطفة له و إشـعارا لترك العتب والتأنيب . فقول الله تعـالى لمحمد صلى الله عليه وسـلم : « يَأَيُّهَا المزمّل . قُم » فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه . والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقد ليـله ليتنبه إلى قيـام الليل وذكر الله تعـالى فيه ؛ لأن الآسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل وآتصف بتلك الصفة .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لألتقاء الساكنين . وقرأ أبو السَّمّال بضم الميم إتباعا لضمة القاف . وحكى الفتح لخفتـه . قال عثمان بن جنّى : الغرض بهـذه الحركة التبليغ بهـا هربا من آلتقاء الساكنين ، فبأى حركة تحركت فقـد وقع الغرض . وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدّية إلى مفعول ، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ فيه إلا أن ظرف المكان لايتعـدّى إليه إلا بواسطة ؛ لاتقول : قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار . وقد قيل : إن « قم » هنا معناه صَلِّ ؛ عبر به عنه وآستعير له حتى صار عرفا بكثرة الآستعمال .

الخامســـة — « اللَّيْـلَ » حدّ الليـل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقد تقـدّم بيانه فى سورة « البقرة »[(١)] وآختلف هل كان قيامه فرضا وحتما ، أو كان ندبا وحضّا ، والدلائل تقوى أن قيامه كان حتما وفرضا ؛ وذلك أن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ طبعة ثانية .

دون بعض ؛ لأن قيامه ليس مخصوصا به وقتا دون وقت . وأيضا فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتى . وآختلف أيضا هل كان فرضا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته؛ ثلاثة أقوال : الأوّل قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة. الثانى قول آبن عباس، قال: كان قيام الليل فريضة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله . الثالث قول عائشة وآبن عباس أيضا وهو الصحيح ؛ كما فى صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله؛ الحديث. وفيه فقلت لعائشة: أنبئينى عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : ألستَ تقرأ «يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» قلت : بلى! قالت : فإن الله عز وجل آفترض قيام الليل فى أوّل هذه السورة فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا، وأمسك الله عز وجل خاتمتها آثنى عشر شهرا فى السماء، حتى أنزل الله عز وجل فى آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوّعا بعد فريضة. وذكر الحديث. وذكر وكيع ويَعْلَى قالا: حدّثنا مِسْعر عن سماك الحنفى قال : سمعت آبن عباس يقول لما أنزل أوّل « يَأَيُّهَا المزمّل » كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أوّلها وآخرها نحو من سنة . وقال سعيد بن جبير : مكث النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزل بعد عشر سنين « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » فخفّف الله عنهم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ آستثناء من الليل، أى صلّ الليل كله إلا يسيرا منه ؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن، فآستثنى منه القليل لراحة الجسد . والقليل من الشيء ما دون النصف؛ فحكى عن وهب بن منبه أنه قال: القليل مادون المعشار والسدس . وقال الكلبي ومقاتل : الثلث . ثم قال تعالى : ﴿ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ فكان ذلك تخفيفا إذ لم يكن زمان القيام محدودا، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » . وقال الأخفش : « نِصفَه » أى أو نصفَه؛ يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة يريد أو درهمين أو ثلاثة . وقال الزجاج : « نِصفَه » بدل من الليل

و « إِلَّا قَلِيلًا » آستثناء من النصف . والضمير فى « منه » و « عليه » للنصف . المعنى : قم نصف الليل أو آنقص من النصف قليلا إلى الثلث أو زد عليه قليــلا إلى الثلثين ؛ فكأنه قال : قم ثلثى الليل أو نصفه أو ثلثه . وقيل : إن « نصفه » بدل من قوله « قليلا » وكان مخيرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه، و بين الناقص منه ، و بين قيام الزائد عليه، كأن تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأوّل فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيبَ له من ذا الذى يسألنى فأعطيَــه من ذا الذى يستغفرنى فأغفرَ له فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر " ونحــوه عن أبى هريرة وأبى سعيد جميعا وهــو يدل على ترغيب قيام ثلثى الليــل . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صــلى الله عليه وسلم : " إذا مضى شَطْر الليل — أو ثلثاه — ينزل الله " الحديث . رواه من طريقين عن أبى هريرة هكذا على الشك . وقــد جاء فى كتاب النَّسائى عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا قال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " إن الله عز وجل يمهل حتى يمضى شَطْر الليل الأوّل ثم يأمر مناديا يقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى " صححه أبو محمد عبد الحق فبين هــذا الحديث مع صحته معنى النزول، وأن ذلك يكون عند نصف الليــل . وخرّج آبن ماجه من حديث آبن شهاب، عن أبى سلمة وأبى عبدالله الأغر، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليــلة فيقول من يسألنى فأعطيَه من يدعونى فأستجيبَ له من يستغفرنى فأغفرَ له حتى يطلعَ الفجر " فكانوا يستحبون صلاة آخر الليــل على أوّله . قال علماؤنا : و بهــذا الترتيب آنتظم الحــديث والقرآن فإنهما يبصران من مشكاة واحدة . و فى المــوطأ وغيره من حديث آبن عباس : بتُّ عنــد خالتى ميمونة حتى إذا آنتصف الليل أو قبــله بقليل أو بعــده بقليل آستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام إلى شَنّ معلق فتوضأ وضوءا خفيفا . وذكر الحديث .

السابعـــة — آختلف العلماء فى الناسخ للأمر بقيام الليل ؛ فعن آبن عباس وعائشـة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » إلى آخر السورة . وقيـل قوله تعـالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » . وعن آبن عباس أيضا : هو منسوخ بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى » . وعن عائشـة أيضا والشافعى ومقاتل وآبن كيسان : هو منسوخ بالصـلوات الخمس . وقيل الناسخ لذلك قوله تعـالى : «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» . قال أبو عبدالرحمن السُّلَمى : لمـا نزلت « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » قاموا حتى وَرِمت أقدامهم وسُوقهم، ثم نزل قوله تعالى: « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . قال بعض العلماء: وهو فرض نسخ به فرض، كان على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لفضله ، كما قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » .

قلت : القول الأوّل يعم جميع هـذه الأقوال، وقد قال تعـالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصـلوات الخمس . وقد ذهب الحسن وآبن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قـدر حلب شاة . وعن الحسن أيضا أنه قال فى هذه الآية : الحمد لله تطوّع بعد الفريضة . وهـو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ لمـا جاء فى قيامه من الترغيب والفضل فى القرآن والسنة . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أجعل للنبي صلى الله عليه وسـلم حصيرا يصلى عليـه من الليل ، فتسامع الناس به ، فلما رأى جمـاعتهم كره ذلك ، وخشى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فدخل البيت كالمغضَب ، فجعلوا يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال : " أيها الناس آكْلَفوا[(١)] من الأعمال ما تُطيقون فإن الله لا يَمَلّ من الثواب حتى تَمَـلُّوا من العمل و إن خير العمل أدومه و إن قلّ " فنزلت « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » فكتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة حتى أن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به ، فمكثوا ثمانية أشهر فرحمهم الله وأنزل« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ» فردهم الله إلى الفريضة ، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوّعوا به .

---

(١) آكلفوا : هو من كلفت بالأمر إذا أولعت به وأحببته .

قلت : حديث عائشة هذا ذكره الثعلبي ، ومعناه ثابت فى الصحيح إلى قوله : "وإن قل" وباقيه يدل على أن قوله تعالى: « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون . وقد تقدّم عنها فى صحيح مسلم : حولا . وحكى المـاوردى عنها قولا ثالثا وهو ستة عشر شهرا لم يذكر غيره عنها . وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أوّل المزمّل وآخرها سنة ؛ قال : فأما رســول الله صلى الله عليه وســلم فقد كان فرضا عليــه ؛ وفى نسخه عنه قولان : أحدهما — أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى . الثانى — أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته . وفى مدّة فرضه إلى أن نسخ قولان : أحدهما — المدّة المفروضة على أمته فى القولين المـاضيين يريد قول ابن عباس حولا وقول عائشــة ستة عشر شهرا . الثـانى — أنها عشر سنين إلى أن خفّف عنه بالنسخ زيادةً فى التكليف ليميزه بفعل الرسالة ؛ قاله ابن جبير .

قلت : هذا خلاف ماذكره الثعلبي عن سعيد بن جبير حسب ما تقدّم فتأمله . وسيأتى لهذه المسئلة زيادة بيان فى آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الثامنـــة — قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أى لا تعجل بقراءة القــرآن بل اقرأه فى مهل وبيان مع تدبر المعـانى . وقال الضحاك : اقرأه حرفا حرفا . وقال مجاهد : أحبّ الناس فى القراءة إلى الله أعقلهم عنه . والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ؛ ومنه ثغر رَتِل ورَتَل بكسر العين وفتحها إذا كان حسن التنضيد . وقد تقدّم بيانه فى مقدّمة الكتاب[1] . وروى الحسن أن النبيّ صلى الله عليه وســلم مرّ برجل يقرأ آية ويبكى فقال : "ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجل «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» هذا الترتيل" . وسمع عَلْقمة رجلا يقرأ قراءة حسنة فقال : لقد رتّل القــرآنَ فداه أبى وأمى . وقال أبو بكر بن طاهر : تدبر فى لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه . وروى عبد الله بن عمرو قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : "يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة فيوقف فى أوّل درج الجنة ويقال له اقــرأ وارتقِ ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلك عند آخر

(١) راجع جـ ١ ص ١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

آية تقرؤها " خرجه أبو داود وقد تقدّم فى أوّل الكتاب[١] . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمدّ صوته بالقراءة مدّا .

قوله تعـالى : إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هومتصل بما فرض من قيام الليل أى سنلقى عليك بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله ؛ لأن الليل للنام ، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان ، فهو أمر يثقل على العبد . وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه . قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده . مجاهد : حلاله وحرامه . الحسن : العمـل به . أبو العالية : ثقيلا بالوعد والوعيد والحلال والحرام . محمد بن كعب : ثقيلا على المنافقين . وقيل : على الكفار ، لما فيه من الآحتجاج عليهم ، والبيان لضلالتهم وسبّ آلهتهم ، والكشف عما حرفه أهل الكتاب . السدى : ثقيل بمعنى كريم ؛ مأخوذ من قولهم : فلان ثقيل علىّ أى يكرم علىّ . الفرّاء : « ثَقِيلًا » رزينـا ليس بالخفيف السَّفْساف لأنه كلام ربنا . وقال الحسين بن الفضل : ثقيلا لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينـة بالتوحيد . وقال آبن زيد : هو والله ثقيل مبارك كما ثقل فى الدنيا يثقل فى الميزان يوم القيامة . وقيل « ثَقِيلًا » أى ثابتـا كثبوت الثقيل فى محله ، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبدا . وقيـل : هو القرآن نفسه ؛ كما جاء فى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسـلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جِرانهـا — يعنى صدرها — على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسَرّى[٢] عنه . وفى الموطأ وغيره أنه عليه السلام سئل كيف يأتيك الوحى؟ فقال : " أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه على فيُفصِم عنّى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثـل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول " . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليـه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيُفصِم عنه وإن جبينه لَيتفصَّد عَرَقا . قال آبن العربى : وهـذا أولى ؛ لأنه الحقيقة ، وقد جاء

(١) راجع جـ ١ ص ٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) أى الوحى .

« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وقال عليــه السلام : " بُعثت بالحنيفية السَّمْحة "
وقيل : القول فى هذه السورة هو قول لا إله إلا الله؛ إذ فى الخبر : خفيفة على اللسان ثقيلة
فى الميزان؛ ذكره القشيرى .

قوله تعـالى : إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ ﴾ قال العلماء: ناشئة الليل أى أوقاته وساعاته
لأن أوقاته تنشأ أوّلا فأولا؛ يقال : نشأ الشيء ينشأ إذا ٱبتدأ وأقبل شيئا بعد شيء فهو ناشيء
وأنشاه الله فنشأ ، ومنــه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله ؛ فناشئة فاعلة من نشأت
تنشأ فهى ناشئة، ومنه قوله تعالى : « أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ » والمراد
أن ساعات الليل الناشئة، فٱكتفى بالوصف عن الآسم فالتأنيث للفظ ساعة، لأن كل ساعة
تحدث. وقيل: الناشئة مصدر بمعنى [قيام الليل](1) كالخاطئة والكاذبة ؛ أى إن نشأة الليل هى
أشــدّ وطأ . وقيــل : إن ناشئة الليــل قيام الليل . قال ٱبن مسعود : الحبشة يقولون نشأ
أى قام . فلعله أراد أن الكلمة عربية ولكنها شائعة فى كلام الحبشة غالبة عليهم، و إلا فليس
فى القرآن ما ليس فى لغة العرب . وقد تقدّم بيان هذا فى مقدّمة الكتاب مستوفى(2) .

الثانيــــة — بين تعالى فى هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الآستكثار
من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للأجر، وأجلب للثواب .

وٱختلف العلماء فى المراد بناشئة الليــل ؛ فقال ٱبن عمر وأنس بن مالك : هــو ما بين
المغرب والعشاء، تمسكا بأن لفظ نشأ يعطى الآبتداء فكان بالأولية أحقّ؛ ومنه قول الشاعر :

---

(١) زيادة تقتضيها العبارة ؛ وهى كذلك فى كتب التفسير .

(٢) راجع جـ ١ ص ٦٨ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

ولولا أَنْ يُقالَ صَبَا نُصَيبٌ * لَقلتُ بِنفسِيَ النَّشَأُ الصِّغارُ

وكان علىّ بن الحسين يصلى بين المغرب والعشاء و يقول: هذا ناشئة الليل. وقال عطاء وعكرمة: إنه بدء الليل. وقال آبن عباس ومجاهد وغيرهما: هى الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار وهو الذى آختاره مالك بن أنس. قال آبن العربى: وهو الذى يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة. وقالت عائشة وآبن عباس أيضا ومجاهد: إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم. ومن قام أوّل الليل قبل النوم فما قام ناشئة. فقال يمان وآبن كيسان: هو القيام من آخر الليل. وقال آبن عباس: كانت صلاتهم أوّل الليــل. وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدرى متى يستيقظ. و فى الصــحاح: وناشئة الليل أوّل ساعاته. وقال القتبى: إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة. وعن الحسن ومجاهد: هى ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. وعن الحسن أيضا: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة. و يقال: ما ينشأ فى الليل من الطاعات؛ حكاه الجوهرى.

الثالثــــة — قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ قرأ أبو العاليــة وأبو عمرو وآبن أبى إسحق ومجاهد وحميد وآبن محيصن وآبن عامر والمغــيرة وأبو حَيْوة «وِطاءً» بكسر الواو وفتح الطاء والمد، وآختاره أبو عبيد. الباقون «وَطْأً» بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، وآختاره أبو حاتم؛ من قولك: آشتدت على القوم وطأة سلطانهم. أى ثقل عليهم ما حمَّلهم من المؤن ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم: "اللهم آشدد وطأتك على مُضَر" فالمعنى أنها أثقل على المصلى من ساعات النهار. وذلك أن الليــل وقت منام وتودّع و إجمام، فمن شــغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة. ومن مدّ فهو مصدر واطأت وِطاء ومواطأة أى وافقته. آبن زيد: واطأته على الأمر مواطأة إذا وافقته من الوفاق، وفلان يواطئ آسمه آسمى، وتواطؤوا عليه أى توافقوا؛ فالمعنى أشد موافقــة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لآنقطاع الأصوات والحركات؛ قاله مجاهد وآبن أبى مُلَيكة وغيرهما. وقال آبن عباس بمعناه أى يواطئ السمع القلب؛ قال الله تعالى: «لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ» أى ليوافقوا. وقيل: المعنى أشد مِهادا للتصرف فى التفكر والتدبر. والوِطاء خلاف الغِطاء. وقيل: «أَشَدُّ وَطْأً» بسكون الطاء وفتح

الواو أى أشد ثباتا من النهار ؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل وأنفى[1] لما يلهى ويشغل القلب . والوطء الثبات تقول : وطئت الأرض بقدمى . وقال الأخفش : أشد قياما . الفراء : أثبت قراءة وقياما . وعنه : « أَشَدُّ وَطْأً » أى أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع . وقال الكلبي : « أَشَدُّ وَطْأً » أى أشد نشاطا للمصلى ؛ لأنه فى زمان راحته . وقال عبادة : « أَشَدُّ وَطْأً » أى نشاطا للمصلى وأخفّ ، وأثبت للقراءة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أى القراءة بالليل أقوم منها بالنهار ، أى أشد استقامة واستمرارا على الصواب ؛ لأن الأصوات هادئة ، والدنيا ساكنة ، فلا يضطرب على المصلى ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول ؛ لأنه زمان التفهم . وقال أبو على : « أَقْوَمُ قِيلًا » أى أشد استقامة لفراغ البال بالليل . وقيل : أى أعجل إجابة للدعاء . حكاه ابن شجرة . وقال عِكرمة : عبادة الليل أتم نشاطا ، وأتم إخلاصا ، وأكثر بركة . وعن زيد ابن أسلم : أجدر أن يتفقه فى القرآن . وعن الأعمش قال : قرأ أنس بن مالك « إنّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْأً وأَصْوَبُ قِيلًا » فقيل له : « وَأَقْوَمُ قِيلًا » فقال : أقوم وأصوب وأهيأ سواء . قال أبو بكر الأنبارى : وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال : من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب إذا لم يخالف معنى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد له ، واحتجوا بقول أنس هذا ، وهو قول لا يعرج عليه ولا يلتفت إلى قائله ؛ لأنه لو قرأ بألفاظ تخالف ألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها واشتملت على عامتها لجاز أن يقرأ فى موضع « الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » الشكر للبارى ملك المخلوقين ، ويتسع الأمر فى هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن ، ويكون التالى له مفتريا على الله عز وجل ، كاذبا على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا حجة لهم فى قول ابن مسعود : نزل القرآن على سبعة أحرف ، إنما هو كقول أحدكم : هَلُمّ وتعال وأقبِل ، لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورة المنقولة بالأسانيد

(١) فى نسخة : وأنق .

الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا آختلفت ألفاظها، وآتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف فى هلمّ وتعال وأقبل، فأما ما لم يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعوهم رضى الله عنهم فإنه من أورد حرفا منه فى القرآن بهت ومال وخرج عن مذهب الصواب . قال أبو بكر : والحديث الذى جعلوه قاعدتهم فى هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم ؛ لأنه مبنى على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به من قبل أن الأعمش رأى أنسا ولم يسمع منه .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة أى تصرُّفا فى حوائجك ، و إقبالا و إدبارا وذهابا ومجيئا . والسبح الجرى والدوران ، ومنه السابح فى الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه . وفرس سابح شديد الجرى؛ قال آمرؤ القيس :

مِسَحٌّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى * أَثَرْنَ الغُبارَ بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ (١)

وقيل : السبح الفراغ، أى إن لك فراغا للحاجات بالنهار . وقيل : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا » أى نوما والتسبح التمدّد ؛ ذكره الخليل . وعن آبن عباس وعطاء : «سَبْحًا طَوِيلًا» يعنى فراغا طويلا لنومك وراحتك ، فآجعل ناشئة الليل لعبادتك . وقال الزجاج : إن فاتك فى الليل شيء فلك فى النهار فراغ الآستدراك .

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وأبو وائل « سَبْخًا » بالخاء المعجمة . قال المهدوى : ومعناه النوم ؛ روى ذلك عن القارئين بهذه القراءة . وقيل : معناه الخفة والسعة والآستراحة؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد دعت على سارق ردائها : "لا تُسَبِّخى عنه بدعائك عليه" أى لا تخففى عنه إثمه ؛ قال الشاعر :

---

(١) مسح : معناه يصب الجرى صبا . والونى : الفتور والكلال . والكديد : الموضع الغليظ . والمركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسح السحاب المطر .

فَسَبِّخْ عليــكَ الهَمَّ واْعلَمْ بأَنَّهُ * إذا قَدَّرَ الرحمٰنُ شيئاً فَكَائِنُ

الأصمعيّ : يقال سَبَّخ اللهُ عنك الحُمَّى أى خَفَّفها . وسَبَخ الحَـرُّ فتر وخفّ . والتَّسبِيخ النــوم الشديد . والتّسبيخ أيضا توسيع القطن والكّتان والصّوف وتنفيشها ؛ يقــال للرأة : سبخى قطنك . والسّبيخُ من القطن ما يسبَّخ بعــد النَّدْف أى يُلفّ لتغزله المرأة ، والقطعة منه سبِيخة ، وكذلك من الصوف والوبر، ويقال لقطع القطن سبائخ؛ قال الأخطل يصف القُنّاص والكلاب :

فأَرسَــلوهُنّ يَذْرِينَ التّرابَ كما * يَذْرِى سَبَائِخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتارِ

وقال ثعلب : السَّــبْخ بالخاء التردّد والاضطراب ؛ والسَّبْخ أيضا السكون ، ومنه قول النبي صلى الله عليــه وسلم : " الحُمّى من فَيْــح جهنم فسبِّخوها بالمــاء " أى سكّنوها ؛ وقال أبو عمرو : السَّبْخ النوم والفراغ .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد ، وتكون بمعنى السَّبْح بالحاء غير المعجمة .

قوله تعــالى : وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّــلْ إِلَيْــهِ تَبْتِيــلاً ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ أى ادعه بأسمائه الحسنى ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبــة . وقيل : أى اقصد بعملك وجه ربك . وقال سهل : اقرأ باسم الله الرحمن الرحيم فى ابتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك ، وتقطعك عما ســواه . وقيل : اذكر اسم ربك فى وعده ووعيده ، لتوفّر على طاعته وتعدل عن معصيته . وقال الكلبى : صلّ لربك أى بالنهار .

قلت : وهذا حسن فإنه لمــا ذكر الليل ذكر النهار، إذ هو قسيمه؛ وقد قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْــلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ » (1) على ما تقدّم .

(1) راجع جـ ١٣ ص ٦٥ فا بعدها .

الثانيـــة ــ قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التبتل الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل. أي انقطع بعبادتك إليه ولا تشرك به غيره. يقال: بتلت الشيء أي قطعته، ومنه قولهم: طلّقها بَتَّةً بَتْلَةً، وهذه صَدَقة بتّة بَتْلة؛ أي بائنة منقطعة عن صاحبها؛ أي قطع ملكه عنها بالكلية؛ ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى، ويقال للراهب متبتل؛ لانقطاعه عن الناس وانفراده بالعبادة. قال:

تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشَاءِ كأنَّها * مَنارةُ مُمْسى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ (١)

وفي الحديث النهي عن التبتل وهو الانقطاع عن الناس والجماعات. وقيل: إن أصله عند العرب التفرد؛ قاله ابن عرفة. والأول أقوى لما ذكرنا. ويقال: كيف قال «تبتيلا» ولم يقل تبتلا؟ قيل له: لأن معنى تَبَتَّل بَتَّل نفسه، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل.

الثالثـــة ــ قد مضى في «المائدة» (٢) في تفسير قوله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ» [حالُ الدين في (٣) الكراهية] لمن تبتل وانقطع وسلك سبيل الرهبانية بما فيه كفاية. قال ابن العربي: وأما اليوم وقد مَرِجت عهودُ الناس، وخفّت أماناتهم، واستولى الحرام على الحطام (٤)، فالعزلة خير من الخلطة، والعُزْبة أفضل من التأهل، ولكن معنى الآية: انقطع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله، وكذلك قال مجاهد: معناه أخلص له العبادة، ولم يرد التبتل فصار التبتل مأمورا به في القرآن منهيا عنه في السنة، ومتعلق الأمر غير متعلق النهي فلا يتناقضان، وإنما بعث ليبين للناس ما نزل إليهم؛ فالتبتل المأمور به الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة كما قال تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» والتبتل المنهى عنه هو سلوك مسلك النصارى

---

(١) البيت من معلقة امرئ القيس ومعناه: إذا ابتسمت بالليل رأيت لثناياها بريقا وضوءا، وإذا برزت في الظلام استنار وجهها حتى يغلب ظلمة الليل. وممسى راهب أي إمساؤه.

(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦١ فما بعدها.		(٣) الزيادة من ابن العربي.

(٤) في نسخة: الحكام.

فى ترك النكاح والترهب فى الصوامع، لكن عنــد فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القَطْر، يفرّ بدينه من الفتن .

قوله تعالى : رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ ﴾ قرأ أهل الحرمين وآبن محيصن ومجاهد وأبو عمرو وآبن أبى إسحق وحفص « رَبُّ » بالرفع على الابتداء والخبر ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾. وقيل : على إضمار «هو» . الباقون « رَبِّ » بالخفض على نعت الرب تعالى فى قوله تعالى: « وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ » « رَبِّ الْمَشْرِقِ » ومن علم أنه ربّ المشارق والمغارب آنقطع بعمله وأمله إليه . ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ أى قائما بأمورك . وقيل : كفيلا بما وعدك .

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى من الأذى والسبّ والآستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ولا تمتنع من دعائهم . ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ أى لا تتعرض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم ، فإن فى ذلك ترك الدعاء إلى الله. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم ، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك ؛ قاله قتادة وغيره . وقال أبو الدرداء : إنا لنَكْشِرَ فى وجوه [أقوام](١) ونضحك إليهم و إن قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِى والْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى آرض بى لعقابهم . نزلت فى صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين . وقال مقاتل : نزلت فى الْمُطْعِمِين يوم بدر وهم عشرة . وقد تقدّم ذكرهم فى « الأنفال »(٢) . وقال يحيى بن سلّام : إنهم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جبير أخبرت أنهم آثنا عشر رجلا . ﴿ أُولِى النَّعْمَةِ ﴾ أولى الغنى والترفُّه واللذة فى الدنيا. ﴿ وَمَهِّلْهُمْ

(١) الزيادة من نهاية آبن الأثير . (٢) راجع جـ ٨ ص ٥٣ .

قَلِيلاً ﴾ يعنى إلى مدّة آجالهـم . قالت عائشة رضى الله عنها : لمـا نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيرا حتى وقعت وقعة بدر . وقيل : « وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً » يعنى إلى مدة الدنيا .

قوله تعـالى : إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً ﴾ الأنكال القيود. عن الحسن ومجاهد وغيرهما واحدها نِكل وهو ما منع الإنسان من الحركة . وقيل سمى نِكلا؛ لأنه ينكل به . قال الشعبي أترون أن الله تعالى جعل الأنكال فى أرجل أهل النـار خشية أن يهربوا ؟ لا واللهِ ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا ٱسْتَفَلت بهـم . وقال الكلبي : الأنكال الأغلال . والأول أعرف فى اللغة ؛ ومنه قول الخنساء :

دَعاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْـكالَهُ * وقَدْ كُنَّ(١) قَبْلَكَ لا تُقْطَعُ

وقيل : إنه أنواع العذاب الشديد ؛ قاله مقاتل . وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يحبّ النَّكَل على النَّكَل " بالتحريك، قاله الجوهرى . قيل : وما النَّكَل؟ قال : " الرجل القوىّ المجرَّب على الفرس القوىّ المجرَّب "، ذكره المـاوردى . قال : ومن ذلك سمى القيد نِكْلا لقوته، وكذلك الغُلّ وكل عذاب قوى فٱشتد . والجحيم النار المؤججة . ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ أى غير سائغ ؛ يأخذ بالحلق لا هو نازل ولا هو خارج ، وهو الغِسلين والزّقوم والضّريع ؛ قاله ٱبن عباس . وعنه أيضا : أنه شوك يدخل الحلق فلا ينزل ولا يخرج . وقال الزجاج : أى طعامهم الضّريع ؛ كما قال : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ » وهو شوك كالعوسج . وقال مجاهد : هو الزقوم، كما قال : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ » . والمعنى واحد وقال حُمْران بن أَعْيَن : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم "إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً . وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ »

---

(١) فى ديوان الخنساء : ظَلّ .

فصعق . وقال خليد بن حسان : أمسى الحسن عندنا صائما ، فأتيته بطعام فعرضت له هذه الآية « إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا » فقال : ٱرفع طعامك . فلما كانت الثانية أتيته بطعام فعرضت له هذه الآية ، فقال : ٱرفعوه . ومثله فى الثالثة ، فٱنطلق ٱبنه إلى ثابت البُنَانى و يزيد الضَّبىّ ويحيي البكّاء فحدّثهم فجاءوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سَوِيق . والغُصَّة الشَّجا وهو ما يَنْشَب فى الحلق من عَظْم أو غيره وجمعها غُصَصٌ . والغَصَص بالفتح مصدر قولك : غَصِصْتَ يا رجل تَغَصّ فأنت غاصّ بالطعام وغصّان ، وأغصصته أنا ، والمنزل غاصٌّ بالقوم أى ممتلئ بهم .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أى تتحرك وتضطرب بمن عليها . وٱنتصب « يَوْم » على الظرف أى ينكل بهم ويعذّبون « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ » . وقيل : بنزع الخافض يعنى هذه العقوبة فى يوم ترجف الأرض والجبال . وقيل : العامل « ذَرْنِى » أى وذرنى والمكذبين يوم ترجف الأرض والجبال . ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ أى وتكون والكثيب الرمل المجتمع ؛ قال حسان :

عَرَفْتُ دِيارَ زَيْنَبَ بالْكَثِيبِ (1) * كَخَطِّ الْوَحْىِ فى الْوَرَقِ الْقَشِيبِ

والمَهِيل الذى يمرّ تحت الأرجل . قال الضحاك والكلبى : المهيل هو الذى إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها ، وإذا أخذت أسفله ٱنهال . وقال ٱبن عباس : « مَهِيلًا » أى رملا سائلا متناثرا . وأصله مَهْيول وهو مَفْعول من قولك : هِلْت عليه التراب أَهِيله هَيْلا إذا صببته . يقال : مَهِيل ومَهْيول ، ومَكِيل ومَكْيول ، ومَدِين ومَدْيون ، ومَعِين ومَعْيون ؛ قال الشاعر (2) :

قد كان قَوْمُك يَحْسَبونَك سَيِّدًا * وإِخَالُ أَنَّكَ سَيِّدٌ مَعْيُونُ

وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنهم شَكَوا إليه الجُدُوبة ، فقال : "أَتَكِيلون أم تَهِيلون"

(1) ويروى فى الرق . والوحى هنا الكتابة . والقشيب : الجديد . شبه حسان رضى الله عنه آثار الديار بالسطور .

(2) هو عباس بن مرداس .

قالوا : نَهيل . قال : " كِيلوا طعامكم يُبارَكْ لكم فيه " . وأَهْلَت الدقيقَ لغــة في هِلْت فهو مُهال ومَهِيل . و إنما حذفت الواو ؛ لأن الياء تثقل فيها الضمة فحذفت فسكنت هي والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين .

قوله تعـالى : إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴾ يريد النبي صلى الله عليه وسلم أرسله إلى قريش ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُــولًا ﴾ وهو موسى ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُــولَ ﴾ أي كذب به ولم يؤمن . قال مقاتل : ذكر موسى وفرعون ؛ لأن أهل مكة ٱزدروا محمدا صلى الله عليه وسـلم وٱستخفّوا به ؛ لأنه ولد فيهم كما أن فـرعون ٱزدرى موسى ؛ لأنه رباه ونشأ فيما بينهـم ، كما قال تعالى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » . قال المهدوي : ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدّم ذكره ؛ ولذلك ٱختير في أوّل الكتب سلام عليكم وفي آخرها السلام عليكم . ﴿ وَبِيلًا ﴾ أي ثقيلا شديدا وضَرْب وبِيل وعذاب وبيل أي شديد ، قاله ٱبن عباس ومجاهد . ومنه مطر وابل أي شـديد؛ قاله الأخفش . وقال الزجاج : أي ثقيلا غليظا . ومنه قيــل للطر وابل . وقيــل : مهلكا [والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة](١) قال :

أَكَلْتِ بَنِيكِ أَكْلَ الضَّبِّ حتى * وجَدْتِ مَرارةَ الْكَلَإِ الْوَبِيلِ

وٱستوبل فلان كذا أي لم يَحمَد عاقبته . وماء وبيل؛ أي وخيم غير مرىء، وكلأٌ مستوْبَل وطعام وبيل ومُستوبَلٌ إذا لم يَمْرِئْ ولم يُسْتَمْرَأْ ؛ قال زهير :

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي ونص بأنها عبارته .

فَقَضَّوْا مَنايَا بَيْنَهُمْ ثم أَصْـدَرُوا * إِلَى كَلَإٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَـوَخِّمِ

وقالت الخنساء :

لَقَـدْ أَكَلَتْ بَجِيلَةُ يومَ لَاقَتْ * فَوَارِسَ مَالِك أَكْلًا وَبِيـلًا

والوبيل أيضا العصا الضخمة ؛ قال :

لَو أَصْبَحَ فى يُمْنَى يَدَىَّ زِمامُهـا * وفِى كَفِّىَ الْأُخْرَى وَبِيلٌ تُحاذِرُهْ

وكذلك المَوْبِل بكسر البـاء ، والمَوْبِلة أيضا الحُزْمة من الحطب، وكذلك الوَبِيـل ؛ قال طَرَفة :

* عَقِيـلَةُ شَيْخٍ كالوَبِيلِ يَلَنْدَدِ (١) *

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ هو توبيخ وتقريع . أى كيف تتقون العـذاب إن كفرتم . وفيه تقـديم وتأخير؛ أى كيف تتقون يوما يجعـل الولدان شيبا إن كفرتم . وكذا قراءة عبد الله وعطية . قال الحسن : أى بأى صلاة تتقون العذاب ؟ بأى صـوم تتقون العـذاب ؟ . وفيه إضمار ؛ أى كيف تتقون عذاب يوم . وقال قتادة : واللهِ ما يتّقِى من كفر بالله ذلك اليوم بشىء . و « يوما » مفعول بـ « تتقون » على هذه القراءة وليس بظرف ، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول « كفرتم » . وقال بعض المفسرين : وقف التمام على قوله « كفرتم » والابتداء « يوما » يذهب إلى أن اليوم مفعول « يجعـل » والفعل لله عز وجل ، وكأنه قال : يجعل الله الولدان شيبا فى يوم . قال ابن الأنبارى : وهذا لا يصلح ؛ لأن اليوم هو الذى يفعل هذا من شدّة هوله . المهدوى : والضمير فى « يجعل » يجوز أن يكون لله عز وجل ، ويجوز أن يكون لليوم ، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له ، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عز وجل إلا مع تقدير حذف؛ كأنه قال : يوما يجعـل الله الولدان فيـه شيبا . ابن الأنبارى : ومنهـم من نصب اليـوم

(١) يلندد شديد الخصومة . وصدر البيت :

* فمرت كهاة ذات خيف جلالة *

بـ « كفرتم » وهذا قبيح ؛ لأن اليوم إذا علق بـ « كفرتم » ٱحتاج إلى صفة . أى كفرتم بيوم . فإن ٱحتج محتج بأن الصفة قـد تحذف وينصب ما بعـدها ، ٱحتججنا عليه بقراءة عبد الله « فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يوماً » .

قلت : هذه القراءة ليست متواترة ، وإنمـا جاءت على وجه التفسير . وإذا كان الكفر بمعـنى الجحود فـ « يوما » مفعول صريح من غير صـفة ولا حذفها ؛ أى فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء . وقرأ أبو السَّمَّال قَعْنَب « فكيف تتقونِ » بكسر النون على الإضافة . و « الْوِلْدَانَ » الصبيان . وقال السدى : هم أولاد الزنى . وقيل : أولاد المشركين . والعموم أصح ؛ أى يشيب فيه الصغير من غير كبر . وذلك حين يقال : " يا آدم قم فٱبعث بعث النار " . على ما تقدّم فى أوّل سورة « الحج »(١) . قال القشيرى : ثم إن أهل الجنة يغير الله أحوالهم وأوصافهم على ما يريد . وقيل : هـذا ضرب مثل لشـدّة ذلك اليوم وهو مجاز ؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه وِلْدانٌ ، ولكن معناه أن هيبـة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صـبى لشاب رأسه من الهيبة . ويقال : هذا وقت الفزع ، وقيل أن ينفخ فى الصور نفخة الصعق ؛ فالله أعلم . الزمخشرى : وقـد مر بى فى بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشـعر كحنك الغراب ، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحيـة كالثغامة ، فقال : أُريت القيامة والجنـة والنار فى المنام ، ورأيت الناس يقادون فى السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون . ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب .

قوله تعـالى : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ أى متشقّقةٌ لشدّته . ومعنى « بِهِ » أى فيه ؛ أى فى ذلك اليوم لهوله . هذا أحسن ما قيل فيه . ويقال : مثقلة به إثقالا يؤدّى إلى ٱنفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه ؛ كقوله تعـالى : « ثَقُلَتْ فِى السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وقيـل « بِهِ » أى له أى لذلك اليوم ؛ يقال : فعلت كذا بجرمتك ولحـرمتك والباء واللام وفى متقاربة فى مثل هذا الموضع ؛ قال الله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى فى يوم القيامة . وقيل : « بِهِ » أى بالأمر أى السماء منفطر بمـا يجعل الولدان شيبا .

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢ فما بعدها .

وقيـل : منفطر بالله أى بأمره . وقال أبو عمـرو بن العلاء : لم يقل منفطرة ؛ لأن مجازها السقف ؛ تقول : هذا سماء البيت ؛ قال الشاعر :

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قوماً * لَحِقْنا بالسَّماءِ وبالسَّحابِ

وفى التنزيل : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظاً » . وقال الفراء : السماء يذكر ويؤنث . وقال أبو على : هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » . وقال أبو على أيضا : أى السماء ذات انفطار ؛ كقولهم : امرأة مرضع أى ذات إرضاع بجرى على طريق النسب . ﴿ كَانَ وَعْدُهُ ﴾ أى بالقيامة والحساب والجزاء ﴿ مَفْعُولًا ﴾ كائنا لا شك فيه ولا خلف . وقال مقاتل : كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ يريد هذه السورة أو الآيات عظة . وقيل : آيات القرآن إذ هو كالسورة الواحدة . ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴾ أى من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه ﴿ سَبِيلًا ﴾ أى طريقا إلى رضاه ورحمته فليرغب فقد أمكن له ؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل . ثم قيل : نسخت بآية السيف ، وكذلك قوله تعالى : « فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ » قال الثعلبى : والأشبه أنه غير منسوخ .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ هـذه الآية تفسير لقوله تعالى : « قُمِ اللَّيْـلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » كما تقـدم ، وهى الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدم. « تَقُومُ » معناه تصلّى و ﴿ أَدْنَى ﴾ أى أقل . وقرأ ابن السَّمَيقع وأبو حيوة وهشام عن أهـل الشام ﴿ ثُلْثَي ﴾ بإسكان اللام . ﴿ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِـهِ ﴾ بالخفض قراءة العامة عطفا على « ثُلُثَي » ؛ المعنى: تقوم أدنى من ثلثى الليل ومن نصفه وثلثه. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ كقوله تعـالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه . وقرأ ابن كثير والكوفيون « وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ » بالنصب عطفا على « أَدْنَى » التقدير : تقوم أدنى من ثلثى الليل وتقوم نصفَه وثلثَه . قال الفراء : وهو أشبه بالصواب ؛ لأنه قال أقل من الثلثين، ثم ذكر نفس القِلة لا أقل من القلة . القشيرى : وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف ؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر، وكانوا يزيدون وفى الزيادة إصابة المقصـود ، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامـه فلا يصيبونه وينقصون منـه . ويحتمل أنهم أمروا بقيام نصف الليل، ورخص لهم فى الزيادة والنقصان ، فكانوا ينتهون فى الزيادة إلى قـريب من الثلثـين وفى النصف إلى الثلث . ويحتمل أنهم قـدّر لهم النصف وأنقص إلى الثلث والزيادة إلى الثلثين ، وكان فيهم من يفى بذلك، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نسخ عنهم . وقال قوم : إنما افترض الله عليهم الربع وكانوا ينقصون من الربع . وهذا القول تحكم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتحرى والاجتهاد الذى يقع فيه الخطأ . ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾ أى لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيام به. وقيل: أى لن تطيقوا قيام الليل. والأول أصح ؛ فإن قيام الليل ما فرض كله قط . قال مقاتل (١) وغيره : لمـا نزلت « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ

(١) فى نسخة : قال النقاش .

أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » شقّ ذلك عليهم ، وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه ، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فٱنتفخت أقدامهم ، وٱنتُقِعت ألوانُهم ، فرحمهم الله وخفّف عنهم ؛ فقال تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ » و « أَنْ » مخففة من الثقيلة ؛ أى علم أنكم لن تحصوه ؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم ، وٱحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضا ، وإن نقصتم شقّ ذلك عليكم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أى فعاد عليكم بالعفو ، وهذا يدل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به . وقيل : أى فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم . وأصل التوبة الرجوع كما تقدّم ؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر . وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحرّى ، فخفف عنهم ذلك التحرّى . وقيل : معنى «وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» يخلقهما مقدّرين ؛ كقوله تعالى : «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» . ٱبن العربى : تقدير الخلقة لا يتعلق به حكم ، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ فيه قولان : أحدهما أن المراد نفس القراءة ؛ أى فٱقرءوا فيما تصلّونه بالليل ما خفّ عليكم . قال السدى : مائة آية . الحسن : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجّه القرآن . وقال كعب : من قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية .

قلت : قول كعب أصح ؛ لقوله عليه السلام : "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطِرين[1]" خرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو . وقد ذكرناه فى مقدّمة الكتاب[2] والحمد لله . القول الثانى : ﴿ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ أى فصلّوا ما تيسر عليكم والصلاة تسمى قرآنا ؛ كقوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أى صلاة الفجر . ٱبن العربى : وهو الأصح ؛ لأنه عن الصلاة أخبر وإليها يرجع القول .

---

(١) أى أعطى من الأجر قنطارا . (٢) راجع جـ ١ ص ٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قلت : الأوّل أصح حملا للخطاب على ظاهر اللفظ ، والقول الثانى مجاز فإنه من تسمية الشيء ببعض ماهو من أعماله .

الخامســـة — قال بعض العلماء قوله تعـالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْـهُ » نَسَخَ قيامَ الليـل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليـه . ثم ٱحتمل قول الله عز وجل : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْـهُ » معنيين أحدهما أن يكون فرضا ثانيا؛ لأنه أزيل به فرضٌ غيره . والآخر أن يكون فرضـا منسوخا أزيل بغـيره كما أزيل به غيره ؛ وذلك لقوله تعـالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً » فٱحتمل قوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » أى يتهجد بغـير الذى فرض عليه ممـا تيسر منه . قال الشافعى : فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس .

السادســـة — قال القشيرى أبو نصر : والمشهور أن نسخ قيـام الليل كان فى حقّ الأمة ، وبقيت الفريضة فى حـقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيــل : نسخ التقدير بمقدار وبقى أصل الوجوب؛ كقوله تعالى : « فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ » فالهدى لابدّ منه ، كذلك لم يكن بدٌّ من صلاة الليل، ولكن فوّض قدره إلى ٱختيار المصلى؛ وعلى هذا فقد قال قوم : فرض قيـام الليل بالقليل باق . وهو مذهب الحسن . وقال قوم : نسخ بالكلية فلا تجب صلاة الليل أصلا . وهو مذهب الشافعى . ولعل الفريضة التى بقيت فى حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم هى هذا، وهو قيامه ومقداره مفوّض إلى خيرته . وإذا ثبت أن القيام ليس فرضا فقوله تعـالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » معناه ٱقرءوا إن تيسر عليكم ذلك وصلوا إن شئتم . وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرّر فى حقّ النبيّ صلى الله عليه وسـلم أيضا ، فمـا كانت صلاة الليل واجبة عليه . وقوله : « نَافِلَةً لَكَ » محمول على حقيقة النفل . ومن قال : نسخ المقدار وبقى أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ، فهذا النسخ الثانى وقع ببيان مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ » وقوله : « فَسُبْحَانَ ٱللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ » وما فى الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوّع . وقيل : وقع النسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللأمة ، كما أن فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ » كانت عامة له ولغيره . وقد قيل : إن فريضة الليل آمتدّت إلى مابعد الهجرة ونسخت بالمدينة؛ لقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ » وإنما فرض القتال بالمدينة ؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة فقيام الليل نسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » . وقال آبن عباس : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نسخ قول الله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ » وجوبَ صلاة الليل .

السابعة — قول الله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ الآية ؛ بين سبحانه علة تخفيف قيام الليل، فإن الخلق منهم المريض ويشقّ عليهم قيام الليل، ويشق عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر فى التجارات قد لايطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك فخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء . و « أَنْ » فى « أَنْ سَيَكُونُ » مخففة من الثقيلة؛ أى علم أنه سيكون .

الثامنة — سَوَّى الله تعالى فى هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله والإحسان والإفضال ، فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد ؛ لأنه جمعه مع الجهاد فى سبيل الله . وروى إبراهيم عن علقمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من جالب يجلب طعاما من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ » وقال آبن مسعود : أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا ، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء . وقرأ « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ » الآية . وقال آبن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت فى سبيل الله أحبّ إلىّ من الموت بين شعبتى رَحْلِي آبتغى من

فضل الله ضاربا فى الأرض . وقال طاوس : الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله . وعن بعـض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بِـع الطعام يوم تدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غد ؛ فوافق سـعةً فى السعر ؛ فقال التجار للوكيل : إن أخرته جمعة ربحت فيــه أضعافه ، فأخره جمعـة فربح فيه أمثاله ، فكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ! إنا كنا قنعنا بربح يسـير مع سلامة ديننا ، وقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابى هذا فخذ المــال وتصدّق به على فقراء البصرة ، وليتنى أنجو من الآحتكار كفافا لا علىّ ولا لى . و يروى أن غلاما من أهل مكة كان ملازما للسجد ، فافتقده آبن عمر ، فمشى إلى بيته فقالت أمه : هو على طعام له يبيعه ؛ فلقيه فقال له : يا بنىّ ! مالك وللطعام ؟ فهــلا إبلا ، فهلا بقرا ، فهلا غنما : إن صاحب الطعام يحب المَحْل ، وصاحب المــاشية يحب الغيث .

التاســعة ــ قوله تعالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » أى صلّوا ما أمكن ؛ فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر ، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدّم . قال آبن العربى : وقد قال قوم إن فرض قيام الليل سُنَّ فى ركعتين من هذه الآية ؛ قاله البخارى وغيره ، وعقد بابا ذكر فيه حديث " يَعقِد الشـيطانُ على قافية[(١)] رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد يضرب على كل عُقْدة مكانها عليك ليل طويل فآرقد فإن آستيقظ فذكر الله آنحلت عُقْدة فإن توضأ آنحلت عُقْدة فإن صــلى آنحلت عُقَده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس و إلا أصبح خبيث النفس كسلان " وذكر حديث سَمُرة بن جُنْدب عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الرؤيا قال : " أما الذى يُثْلَغ[(٢)] رأسُه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفُضه[(٣)] و ينام عن الصلاة المكتوبة " وحديث عبد الله بن مسعود قال : ذكر عند النبى صلى الله عليه وســلم رجل ينــام الليل كله فقال : " ذلك رجل بال الشيطان فى أذنيه " فقال آبن العربى : فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة فيحمل المطلق على المقيــد ؛ لآحتماله له ، وتسقط الدعوى ممّن عيّنه

(١) قافية الرأس مؤخره ، وقيل : وسطه ؛ أراد تثقيله فى النوم و إطالته .
(٢) الثلغ : وهو ضربك الشىء الرطب بالشىء اليابس حتى ينشدخ . (٣) يرفضه : يتركه .

لقيام الليل . وفى الصحيح واللفظ للبخارى : قال عبد الله بن عمرو، قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عبـد الله لا تكن مثلَ فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل " ولو كان فرضا ما أقرّه النبي صلى الله عليه وسلم عليه، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه؛ بل كان يذمّه غاية الذم . وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر قال : كان الرجل فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم، وكنت غلاما شابا عَزَبا، وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت فى النوم كأن ملَكين أخذانى فذهبا بى إلى النار، فإذا هى مطوية كطىّ البئر، و إذا لها قرنان ، و إذا فيهـا ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار . قال : ولقينا ملَك آخر ، فقال لى : لم تُرَعْ (١) . فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فقال : " نعم الرجلُ عبـد الله لو كان يصلى من الليل" فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا؛ فلو كان ترك القيام معصية لمـا قال له الملَك : لم تُرَعْ . والله أعلم .

العـاشرة — إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض، وأن قوله : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ» . «فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» محمول على ظاهره من القراءة فى الصلاة، فٱختلف العلماء فى قدر ما يلزمه أن يقرأ به فى الصلاة؛ فقال مالك والشافعى : فاتحة الكتاب لا يجزئ العدول عنها ولا الاقتصار على بعضها، وقدّره أبو حنيفة بآية واحدة من آى القرآن كانت . وعنه ثلاث آيات ؛ لأنها أقل سورة . ذكر القول الأوّل المـاوردى والثانى ٱبن العربى . والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعى على ما بيناه فى سورة « الفاتحة (٢) » أوّل الكتاب والحمد لله . وقيل : إن المراد به قراءة القرآن فى غير الصلاة؛ قال المـاوردى : فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولا على الوجوب، أو على الاستحباب دون الوجوب . وهذا قول الأكثرين؛ لأنه لو وجب عليه أن يقرأه لوجب عليه أن يحفظه . الثانى أنه محمـول على الوجوب ؛ ليقف بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد و بعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل

(١) لم ترع : لا روع ولا خوف عليك بعد ذلك . (٢) راجع جـ١ ص١٢٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

التوحيد منه أن يحفظه ؛ لأن حفظ القرآن من القرب المستحبة دون الواجبة . وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال : أحدها جميع القرآن ؛ لأن الله تعالى يسره على عباده ؛ قاله الضحاك . الثاني ثلث القرآن ؛ حكاه جويبر . الثالث مائتا آية ؛ قاله السدي . الرابع مائة آية ؛ قاله ابن عباس . الخامس ثلاث آيات كأقصر سورة ؛ قاله أبو خالد الكناني .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها . ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الواجبة في أموالكم ؛ قاله عكرمة وقتادة . وقال الحرث العُكْلي : صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك . وقيل : صدقة التطوع . وقيل : كل أفعال الخير . وقال ابن عباس : طاعة الله والإخلاص له .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصا من المال الطيب . وقد مضى في سورة « الحديد »[1] بيانه . وقال زيد ابن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل . وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله .

الثالثة عشرة — ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ تقدم في سورة « البقرة »[2] . وروى عن عمر بن الخطاب أنه اتخذ حيسا — يعني تمرا بلبن — فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه . فقال بعضهم : مايدري هذا المسكين ماهذا؟ فقال عمر : لكن ربّ المسكين يدري ما هو . وكأنه تأول « وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا » أي مما تركتم وخلفتم ، ومن الشح والتقصير . ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ قال أبو هريرة : الجنة ؛ ويحتمل أن يكون أعظم أجرا ؛ لإعطائه بالحسنة عشرا . ونصب « خيرًا وأعظمَ » على المفعول الثاني لـ« تَجِدُوهُ » و « هو » فصل عند البصريين ، وعماد في قول الكوفيين لا محل له من الإعراب . و « أجرًا » تمييز . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ أي سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما كان قبل التوبة ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لكم بعدها ؛ قاله سعيد بن جبير . ختمت السورة .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٢

(٢) راجع ٢ ص ٧٣ طبعة ثانية .

ســـورة المـــدثر

مكية فى قول الجميع وهى ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ أى ياذا الذى قد تدثّر بثيابه ، أى تغشى بها ونام ، وأصله المتدثر فأدغمت التاء فى الدال لتجانسهما . وقرأ أبىّ « الْمُتَدَثِّر » على الأصل . وقال مقاتل : معظم هذه السورة فى الوليد بن المغيرة . وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُحدِّث ـــ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث عن فترة الوحى ـــ قال فى حديثه : " فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسىّ بين السماء والأرض " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فَجَئِثْتُ[1] منه فرقا فرجعت فقلت زمّلونى زمّلونى فدثرونى فأنزل الله تعالى " ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ " فى رواية ـــ قبل أن تفرض الصلاة ـــ وهى الأوثان قال : " ثم تتابع الوحى " خرجه الترمذى أيضا وقال : حديث حسن صحيح . قال مسلم : وحدّثنا زهير بن حرب ، قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدّثنا الأوزاعى قال : سمعت يحيى يقول : سألت أبا سلمة أىّ القرآن أنزل قبلُ ؟ قال : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « اقرأ » فقال :

(١) جئثت أى فزعت وخفت وفى رواية جئثت بثاءين بمعناه .

سألت جابر بن عبد الله أىّ القرآن أنزل قبلُ ؟ قال : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « اقرأ » فقال جابر : أحدّثكم ما حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : " جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى فنوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فلم أر أحدا ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدا ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا هو على العرش فى الهواء — يعنى جبريل صلى الله عليه وسلم — فأخذتنى رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت دثّرونى فدثّرونى فصبّوا علىّ ماء فأنزل الله عز وجل « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » خرّجه البخارى وقال فيه : " فأتيت خديجة فقلت دثّرونى وصُبّوا علىّ ماء باردا فدثّرونى وصبّوا علىّ ماء باردا فنزلت « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ» " . ابن العربى : وقد قال بعض المفسرين إنه جرى على النبي صلى الله عليه وسلم من عُقْبة [بن ربيعة](1) أمر فرجع إلى منزله مغموما ، فقلق واضطجع فنزلت : « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » وهذا باطل . وقال القشيرى أبو نصر: وقيل بلغه قول كفار مكة أنت ساحر فوجد من ذلك غمًّا وحُمَّ فتدثّر بثيابه ، فقال الله تعالى: « قُمْ فَأَنْذِرْ » أى لا تفكر فى قولهم وبلغهم الرسالة . وقيل : اجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغـيرة والنضر بن الحرث وأميــة بن خلف والعاص بن وائل ومُطعِم بن عدىّ وقالوا : قــد اجتمعت وفود العرب فى أيام الحج ، وهم يتساءلون عن أمر محمد وقد اختلفتم فى الإخبار عنه ؛ فمن قائل يقول مجنون ، وآخر يقول كاهن ، وآخر يقول شاعر ، وتعـلم العرب أن هذا كله لا يجتمع فى رجل واحد ، فسموا محمدا باسم واحد يجتمعون عليــه وتسميه العرب به ، فقام منهـم رجل فقال : شاعر ؛ فقال الوليد : سمعت كلام ابن الأبرص وأميــة بن أبى الصَّلْت ، وما يشــبه كلامُ محمد كلامَ واحد منهما ؛ فقالوا : كاهن . فقال : الكاهن يَصدُق ويكذب وما كَذَب محمد قط ؛ فقــام آخر فقال : مجنون ؛ فقال الوليد : المجنون يَخنُق الناس وما خَنَق محمد قط . وانصرف الوليد إلى بيته فقالوا : صبأ الوليد بن المغيرة ؛ فدخل عليه أبو جهل وقال : مالك يا أبا عبد شمس !

---

(1) الزيادة من ابن العربى .

هذه قريش تجمع لك شيئا يعطونكه، زعموا أنك قد آحتجت وصبأت . فقال الوليد : مالى إلى ذلك حاجة، ولكنى فكرت فى محمد، فقلت : ما يكون من الساحر؟ فقيل : يفرق بين الأب وآبنه، و بين الأخ وأخيه، و بين المرأة وزوجها، فقلتُ : إنه ساحر . شاع هـذا فى الناس وصاحوا يقولون : إن محمدا ساحر . ورجع رسول الله صلى عليه وسـلم إلى بيته محزونا فتدثّر بقطيفة، ونزلت : « يَٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ » . وقال عِكرمة : معنى « يَٰأَيُّهَا ٱلْمُـدَّثِّرُ » أى المدثر بالنبوّة وأثقالها . آبن العربى : وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد . وعلى أنها أوّل القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثانى ما نزل .

الثانيـــة — قوله تعالى : « يَٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ » ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذا ناداه بحاله، وعبر عنه بصفته، ولم يقـل يا محمد و يافلان ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدّم فى سورة « المزمّل » . ومثله قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلى إذ نام فى المسجد : " قم أبا تراب " وكان خرج مغاضبا لفاطمة رضى الله عنها فسقط رداءه وأصابه ترابه؛ خرجه مسلم . ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق : " قم يا نومان " وقد تقدّم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أى خوّف أهل مكة وحذّرهم العـذاب إن لم يُسلِموا . وقيل : الإنذار هنا إعلامهم بنبوّته؛ لأنه مقدمة الرسالة . وقيل : هو دعاؤهم إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها . وقال الفراء : قم فصل وأمر بالصلاة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظم، وصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد . وفى حديث أنهم قالوا : بِمَ تُفتتَح الصلاةُ؟ فنزلت « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » أى وصفه بأنه أكبر . قال آبن العربى : وهـذا القول و إن كان يقتضى بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد فيه تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ وليا غيره، ولا تعبد سواه، ولا ترى لغيره فعلا إلا له، ولا نعمة إلا منه؛ وقـد روى أن أبا سـفيان قال يوم أُحُد : آعلُ هُبَل ؛ فقال النبى صلى الله عليـه وسلم : " قولوا الله أعلى وأجلّ " وقد صار هـذا اللفظ بعرف الشرع فى تكبير العبادات كلها أذانا

وصلاة وذكرا بقوله : « الله أكبر » وحمل عليه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم الوارد على الإطلاق في مواردها ؛ منها قوله : " تحريمها التكبير وتحليلها التسليم " والشرع يقتضي بعرفه ما يَقْتضي بعمومه ، ومن موارده أوقات الإهلال بالذبائح لله تخليصا له من الشِّرك ، وإعلانا باسمه في النُّسك ، وإفرادا لما شرع منه لأمره بالسَّفْك .

قلت : قد تقدّم في أوّل سورة « البقرة »(١) أن هذا اللفظ « الله أكبر » هو المتعبد به في الصلاة ، المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفي التفسير : إنه لما نزل قوله تعالى « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " الله أكبر " فكبرت خديجة وعلمت أنه الوحي من الله تعالى ؛ ذكره القشيري .

الخامسة — الفاء في قوله تعالى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » دخلت على معنى جواب الجزاء كما دخلت في « فَأَنْذِرْ » أي قم فأنذر وقم فكبر ربك ؛ قاله الزجاج . وقال ابن جني : هو كقولك زيدا فاضرب ؛ أي زيدا اضرب ، فالفاء زائدة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فيه ثمانية أقوال : أحدها أن المراد بالثياب العمل . الثاني القلب . الثالث النفس . الرابع الجسم . الخامس الأهل . السادس الخلق . السابع الدين . الثامن الثياب الملبوسات على الظاهر . فمن ذهب إلى القول الأوّل قال : تأويل الآية وعملك فأصلح ؛ قاله مجاهد وابن زيد . وروى منصور عن أبي رَزِين قال : يقول وعملك فأصلح ؛ قال : وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا إن فلانا خبيث الثياب ، وإذا كان حسن العمل قالوا إن فلانا طاهر الثياب ؛ ونحوه عن السدي . ومنه قول الشاعر :

لاهُمَّ إنّ عامرَ بن جَهْمِ * أَوْذَمَ حَجًّا في ثِيابٍ دُسْمِ(٢)

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٥ .

(٢) ثياب دسم : وسخة ؛ ومعنى البيت : أنه حج وهو متدنس بالذنوب . وأوذم الحج أوجبه .

ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يُحشَر المرءُ في ثوبيه اللذين مات عليهما" يعنى عمله الصالح والطالح ؛ ذكره الماوردى . ومن ذهب إلى القول الثانى قال : إن تأويل الآية وقلبك فطهر؛ قاله آبن عباس وسعيد بن جبير ؛ دليله قول آمرئ القيس :

* فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ(١) *

أى قلبى من قلبك . قال الماوردى : ولهم فى تأويل الآية وجهان ؛ أحدهما — معناه وقلبك فطهر من الإثم والمعاصى ؛ قاله آبن عباس وقتادة . الثانى — وقلبك فطهر من الغدر ؛ أى لا تغدر فتكون دنس الثياب . وهذا مروى عن آبن عباس ، وآستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفى :

فإنى بحمد الله لا ثوبَ فاجر * لبِستُ ولا مِن غَدْرةٍ أَتَقَنَّعُ

ومن ذهب إلى القول الثالث قال : تأويل الآية ونفسك فطهر ؛ أى من الذنوب . والعرب تكنى عن النفس بالثياب ؛ قاله آبن عباس . ومنه قول عنترة :

فشَكَكْتُ بالرُّمْح الطَّويلِ ثيابَهُ * ليس الكريمُ على القَنَا بمُحَـرَّمِ

وقال آمرؤ القيس :

* فَسُلِّى ثيابِى من ثيابِك تَنْسُلِ *

وقال(٢) :

ثِيابُ بَنى عوفٍ طَهارَى نقِيَّـةٌ * وأَوْجُهُهُمْ بيضُ المَسَافِرِ غُرّانُ

أى أنفس بنى عوف . ومن ذهب إلى القول الرابع قال : تأويل الآية وجسمك فطهر ؛ أى عن المعاصى الظاهرة . ومما جاء عن العرب فى الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى ، وذكرت إبلا :

رموها بأَثْوابٍ خِفافٍ فلا تَرَى * لها شَبَهًا إلّا النَّعامَ المُنَفَّرا

---

(١) صدر البيت : * وإن كنت قد ساءتك منى خليقة *

(٢) نسب المؤلف هـذا البيت فيما سيأتى لآبن أبى كبشة مرة ولآمرئ القيس مرة أخرى ، وفى « اللسان » و « شرح القاموس » أنه لآمرئ القيس ولم نعثر عليه فى ديوانه ، وقد نسبه آبن العربى لابن أبى كبشة .

أى ركبوها فرموها بأنفسهـم . ومن ذهب إلى القول الخامس قال : تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب ؛ والعرب تسمى الأهل ثوبا ولباسا وإزارا ؛ قال الله تعالى : «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» . المـاوردى : ولهم فى تأويل الآية وجهان؛ أحدهمـا — معناه ونساءك فطهر بآختيار المؤمنات العفائف . الثـانى — الآستمتاع بهنّ فى القبـل دون الدبر، فى الطهر لا فى الحيض . حكاه آبن بحـر . ومن ذهب إلى القـول السـادس قال : تأويل الآية وخلقـك فحسِّن . قاله الحسن والقُرَظى ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله آشتمال ثيابه على نفسه . وقال الشاعر :

وَيَحْيَى لا يُلامُ بسـوء خُلْقٍ * ويَحْيَى طاهِرُ الأثوابِ حُرُّ

أى حسن الأخلاق . ومن ذهب إلى القـول السابع قال : تأويل الآية ودينـك فطهر . وفى الصحيحين عنه عليه السلام قال : "ورأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدى ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر بن الخطاب وعليـه إزار يجره" . قالوا : يا رسـول الله فما أوّلت ذلك ؟ قال : الدين . وروى آبن وهب عن مالك أنه قال : ما يعجبنى أن أقرأ القرآن إلا فى الصـلاة والمساجد لا فى الطرق، قال الله تعـالى : «وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ» يريد مالك أنه كنى عن الثياب بالدين . وقد روى عبد الله بن نافع عن أبى بكر بن عبـد العزيز بن عبد الله آبن عمـر بن الخطاب عن مالك بن أنس فى قوله تعالى : «وَثِيَـابَكَ فَطَهِّرْ» أى لا تلبسها على غدرة؛ ومنه قول أبى كبشة :

ثِيابُ بنى عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّـةٌ * وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

يعنى بطهارة ثيابهم سـلامتهم من الدناءات، ويعنى بغـرة وجوههم تنزيههم عن المحرمات، أو جمالهم فى الخلقة أو كليهما؛ قاله آبن العربى . وقال سفيان بن عيينة : لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم ؛ قاله عِكرمة . ومنه قول الشاعر :

* أَوْدَمَ حَجًّا فى ثيابٍ دُسْمِ *

أى قد دنّسها بالمعاصى . وقال النابغة :

رِقاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجزاتُهم * يُحيّونَ بالرَّيحانِ يومَ السَّباسِبِ (١)

ومن ذهب إلى القول الثامن قال : إن المراد بها الثياب الملبوسات فلهم فى تأويله أربعة أوجه ؛ أحدها — معناه وثيابك فأنقِ ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* ثيابُ بنى عَوْفٍ طَهارَى نقيّةٌ *

الثانى — وثيابك فشمِّرْ وقصِّرْ ؛ فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة ، فإذا آنجرّت على الأرض لم يؤمن أن يصيبها ما ينجسها ؛ قاله الزجاج وطاوس . الثالث — « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » من النجاسة بالماء ؛ قاله محمد بن سيرين وآبن زيد والفقهاء . الرابع — لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام . وعن آبن عباس : لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طاهر . آبن العربى وذكر بعض ما ذكرناه : ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز ، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهى تتناول معنيين : أحدهما — تقصير الأذيال ؛ لأنها إذا أرسلت تدنست ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخيا : آرفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إِزْرَةُ (٢) المؤمنِ إلى أنصاف ساقيه لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من ذلك ففى النار" فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم الغاية فى لباس الإزار الكعب وتوعد ما تحته بالنار ، فما بال رجال يرسلون أذيالهم ويطيلون ثيابهم ، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم ، وهذه حالة الكبر ، وقائدة العجب ، [وأشدّ ما فى الأمر أنهم يعصون وينجسون ويلحقون أنفسهم (٣)] بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سواه . قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء" ولفظ الصحيح : "من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة" . قال أبو بكر : يارسول الله ! إن أحد

(١) البيت من قصيدة مدح بها عمرو بن الحرث الغسانى . وأراد برقاق النعال أنهم ملوك لا يخصفون نعالهم ، وبطيب حجزاتهم عفتهم . والسباسب يوم « السعانين » وهو يوم عيد عند النصارى وكان الممدوح نصرانيا .

(٢) الإزرة بالكسر : الحالة وهيئة الآتزار .

(٣) الزيادة من آبن العربى .

شق إزاري يسترخي إلا أني أتعاهد ذلك منه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لستَ ممن يصنعه خيلاء " فعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهي وآستثنى الصدّيق ؛ فأراد الأدنياء إلحاق أنفسهم بالرفعاء[1] ، وليس ذلك لهم . والمعنى الثاني — غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها صحيح فيها . المهدوي : وبه آستدل بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب ؛ قال آبن سيرين وآبن زيد : لا تصلّ إلا في ثوب طاهر . وآحتج بها الشافعي على وجوب طهارة الثوب . وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض ، وكذلك طهارة البدن ، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالآستجمار من غير غَسل . وقد مضى هذا القول في سورة « براءة »[2] مستوفى .

قوله تعالى : وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة : يعني الأوثان ؛ دليله قوله تعالى : « فَٱجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » وقاله آبن عباس وآبن زيد . وعن آبن عباس أيضا : والمأثم فآهجر ؛ أي فآترك . وكذا روى مُغيرة عن إبراهيم النَّخَعِيّ قال : الرجز الإثم . وقال قتادة : الرجز إساف ونائلة صنمان كانا عند البيت . وقيل : الرجز العذاب على تقدير حذف المضاف ؛ المعنى وعمل الرجز فآهجر ، أو العمل المؤدّي إلى العذاب . وأصل الرجز العذاب ، قال الله تعالى : « لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » وقال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ » فسميت الأوثان رجزا ؛ لأنها تؤدّي إلى العذاب . وقراءة العامة «الرِّجْزَ» بكسر الراء . وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وآبن محيصن وحفص عن عاصم . «والرُّجْزَ» بضم الراء وهما لغتان مثل الذِّكر والذُّكر . وقال أبو العالية والربيع والكسائي : الرُّجز بالضم الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية . وقال الكسائي أيضا : بالضم الوثن وبالكسر العذاب . وقال السدي : الرَّجز بنصب الراء[3] الوعيد .

(١) في آبن العربي : بالأقصياء . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٦١ فما بعدها .

(٣) قوله بنصب الراء ... كذا في نسخ الأصل ولم نظفر به في المراجع التي بأيدينا .

قوله تعـالى : وَلَا تَمْـنُنْ تَسْتَـكْثِرُ ﴿٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾ فيه أحد عشر تأويلا ؛ الأوّل — لا تمنن على ربك بما تحمله من أثقال النبوّة ، كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير . الثانى — لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . قال الضحاك : هذا حرمه الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأمته ؛ وقاله مجاهد . الثالث — عن مجاهد أيضا : لا تضعف أن تستكثر من الخير ؛ من قولك حبل متين إذا كان ضعيفا ؛ ودليله قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ مِنَ الْخَيْرِ » . الرابع — عن مجاهد أيضا والربيع : لا تعظم عملك فى عينك أن تستكثر من الخير فإنه مما أنعم الله عليك . قال ابن كيسان : لا تستكثر عملك فتراه من نفسك ، إنما عملك مِنّة من الله عليك ؛ إذ جعل الله لك سبيلا إلى عبادته . الخامس — قال الحسن : لا تمنن على الله بعملك فتستكثره . السادس — لا تمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجرا تستكثر به . السابع — قال القرظى : لا تعط مالك مصانعة . الثامن — قال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك . التاسع — لا تقل دعوت فلم يستجب لى . العاشر — لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها ، ولكن اصبر حتى يكون الله هو الذى يثيبك عليها . الحادى عشر — لا تفعل الخير لترائى به الناس .

الثانيـــة — هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس : لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال ؛ يقال : مننت فلانا كذا أى أعطيته . ويقال للعطية المِنّة ؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها ؛ لأنه عليـه السلام ما كان يجمع الدنيا ؛ ولهـذا قال : " ما لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " وكان ما يفضـل من نفقة عياله مصروفا إلى مصالح المسلمين ؛ ولهـذا لم يورث ؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الادّخار والاقتناء ، وقد عصمه الله تعـالى عن الرغبة فى شىء من

الدنيا ؛ ولذلك حرمت عليه الصدقة وأبيحت له الهدية ، فكان يقبلها و يثيب عليها . وقال: " لو دعيت إلى كُرَاع(١) لأجبت ولو أهـدى إلى ذراع لقبلت " ابن العـربى : وكان يقبلها سُنَّة ولا يستكثرها شِرعة، و إذا كان لا يعطى عطية يستكثر بها فالأغنياء أولى بالاجتناب؛ لأنها باب من أبواب المذلة، وكذلك قول من قال : إن معناها لا تعطى عطية تنتظر ثوابها، فإن الانتظار تعلق بالأطماع ، وذلك فى حيزه بحكم الامتناع ، وقد قال الله تعـالى له : « وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » وذلك جائز لسائر الخلق ؛ لأنه من متاع الدنيا ، وطلب الكسب والتكاثر بها . وأما من قال أراد به العمل أى لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهـو صحيح ؛ فإن ابن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتور لمـا بلغ لنعم الله بعض الشكر .

الثالثـــة — قوله تعالى: «وَلَا تَمْنُنْ» قراءة العامة بإظهار التضعيف. وقرأ أبو السَّمّال العدوى وأشهب العقيلى والحسن « وَلَا تَمُنَّ » مدغمة مفتوحة . « تَسْتَكْثِرُ » قراءة العامة بالرفع وهو فى معنى الحال ، تقول : جاء زيد يركض أى راكضا ؛ أى لا تعط شيئا مقدّرا أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه . وقرأ الحسن بالجـزم على جواب النهى وهو ردىء ؛ لأنه ليس بجواب . ويجوز أن يكون بدلا من « تَمْنُنْ » كأنه قال : لا تستكثر . وأنكره أبوحاتم وقال : لأن المنّ ليس بالاستكثار فيبـدل منه . ويحتمل أن يكون سكن تخفيفا كعضـد . أو أن يعتـبر حال الوقف . وقرأ الأعمش ويحيى « تَسْتَكْثِرَ » بالنصب توهم لام كى كأنه قال : ولا تمنن لتستكثر . وقيل : هو بإضمار « أن » كقوله(٢) :

« أَلا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرُ الوَغَى »

ويؤيده قـراءة ابن مسعود « وَلا تَمْنُنْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ » . قال الكسائى : فإذا حذف « أن » رفع وكان المعنى واحدا . وقد يكون المنّ بمعنى التعـداد على المنعم عليه بالنعم ، فيرجـع إلى

(١) الكراع بوزان غراب وهو مستدق الساق من الرجل . وهو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس والبعير .

(٢) البيت لطرفة بن العبد من معلقته وتمامه :

* وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى *

القول [الثانى][(١)]، و يعضده قوله تعالى: « لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » وقد يكون مرادا فى هذه الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أى ولسيّدك ومالكك فآصبر على أداء فرائضه وعبادته . وقال مجاهد : على ما أوذيت . وقال آبن زيد : حملت أمرا عظيما ؛ محاربة العرب والعجم فآصبر عليه لله . وقيل : فآصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى . وقيل : فآصبر على البلوى ؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه . وقيل : على أوامره ونواهيه . وقيل : على فراق الأهل والأوطان .

قوله تعالى : فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ ﴾ إذا نفخ فى الصور . والناقور فاعول من النقر ؛ كأنه الذى من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ، والنقر فى كلام العرب الصوت ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

أُخَفِّضُهُ بِالنَّقْرِ لَمَّا عَلَوْتُهُ * وَيَرْفَعُ طَرْفاً غَيْرَ خَافٍ غَضِيضِ

وهم يقولون : نَقَّرَ بآسم الرجل إذا دعاه مختصا له بدعائه . وقال مجاهد وغيره : هو كهيئة البوق و يعنى به النفخة الثانية . وقيل : الأولى ؛ لأنها أوّل الشدّة الهائلة العامة . وقد مضى الكلام فى هذا مستوفى فى «النمل»[(٢)] و «الأنعام»[(٣)] وفى كتاب «التذكرة» والحمد لله . وعن أبى حبّان قال : أَمَّنَا زراةُ بن أوفى فلما بلغ « فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ » خَرَّ ميتا . ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أى فذلك اليوم يوم شديد ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى على من كفر

(١) زيادة يقتضيها المعنى . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ فما بعدها . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٠

بالله و بأنبيائه صلى الله عليهم ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ أى غير سهل ولا هين؛ وذلك أن عُقَدَهم لا تحل الا إلى عقدة أشدّ منها ، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تحل إلى ما هو أخفّ منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى . و « يَوْمَئِذٍ » نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذ . وقيل : جرّ بتقدير حرف جر، مجازه : فذلك فى يومئذ . وقيل : يجوز أن يكون رفعا إلا أنه بنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن .

قوله تعالى : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ « ذَرْنِي » أى دعنى ؛ وهى كلمة وعيد وتهديد . « وَمَنْ خَلَقْتُ » أى دعنى والذى خلقته وحيدا ؛ فـ«وَحِيدًا» على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف؛ أى خلقته وحده لا مال له ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته. والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه . و إنما خص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة و إيذاء الرسول عليه السلام، وكان يسمى الوحيد فى قومه . قال ابن عباس : كان الوليد يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لى فى العرب نظير، ولا لأبى المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ » بزعمه «وَحِيدًا» لا أن الله تعالى صدّقه بأنه وحيد . وقال قوم : إن قوله تعالى «وَحِيدًا» يرجع إلى الرب تعالى على معنيين؛ أحدهما — ذرنى وحدى معه فأنا أجزيك فى الانتقام منه عن كل منتقم . والثانى — أنى انفردت بخلقه ولم يشركنى فيه أحد، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه ؛ فـ«وحيدا» على هذا حال من ضمير الفاعل وهو التاء فى « خَلَقْتُ » والأول قول مجاهد ؛ أى خلقته وحيدا فى بطن أمه لامال له ولا ولد فأنعمت عليه فكفر ؛ فقوله « وحيدا » على هذا يرجع إلى الوليد ؛ أى لم يكن له شيء فملكته . وقيل : أراد بذلك ليدله على أنه يبعث وحيدا

كما خلق وحيدا . وقيل : الوحيد الذى لا يُعرف(١) أبوه وكان الوليد معـروفا بأنه دعىّ ؛ كما ذكرنا فى قوله تعالى : « عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » وهو فى صفة الوليد أيضا .

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أى خوّلته وأعطيته مالا ممدودا ، وهو ما كان الوليـد بين مكة والطائف من الإبل والحجور والنَّعَـم والجنان والعبيد والجوارى ؛ كذا كان آبن عباس يقول . وقال مجاهد : غلة ألف دينار ؛ وقاله سعيد بن جبير وآبن عباس أيضا . وقال قتادة : ستة آلاف دينار . وقال سفيان الثورى وقتادة : أربعة آلاف دينار . الثورى أيضا : ألف ألف دينار . مقاتل : كان له بستان لا ينقطع خيره شـتاء ولا صيفا . وقال عمر رضى الله عنـه : « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا » غلة شهر بشهر . النعمان بن سالم : أرضا يزرع فيهـا . القشيرى : والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه ، بل يتـوالى كالزرع والضرع والتجارة .

قوله تعـالى : ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ أى حضورا لا يغيبون عنـه فى تصرف . قال مجاهد وقتادة : كانوا عشرة . وقيل : آثنا عشر ؛ قاله السدى والضحاك . قال الضحاك : سبعة ولدوا بمكة وخمسة ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبير : كانوا ثلاثة عشر ولدا . مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال؛ أسلم منهم ثلاثة ؛ خالد وهشام والوليد بن الوليد. قال: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك. وقيل: شهودا؛ أى إذا ذكر ذكروا معه؛ قاله آبن عباس . وقيل : شهودا؛ أى قد صاروا مثله فى شهود ما كان يشهده، والقيام بما كان يباشره. والأول قول السدىّ؛ أى حاضرين مكة لا يظعنون عنه فى تجارة ولا يغيبون.

قوله تعـالى : ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيـدًا ﴾ أى بسطت له فى العيش بسطا حتى أقام ببلدته مطمئنا مترفها يرجع إلى رأيه . والتمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة ومنه مَهْدُ الصبىّ . وقال آبن عباس : « وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أى وسعت له ما بين اليمن والشام ؛ وقاله مجاهـد . وعن مجاهد أيضا فى « مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أنه المـال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

---

(١) فى نسخة : لا يتبين .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أى ثم إن الوليد يطمع بعد هـذا كله أن أزيده فى المـال والولد . ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم . وقال الحسن وغيره : أى ثم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان الوليد يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى ؛ فقال الله تعـالى ردا عليه وتكذيبـا له « كَلَّا » أى لستُ أزيده ، فـلم يزل يرى النقصان فى ماله وولده حتى هـلك . و « ثُمَّ » فى قوله تعـالى : « ثُمَّ يَطْمَعُ » ليست بثم التى للنسق ولكنها تعجيب ؛ وهى كقوله تعالى : «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » وذلك كما تقول : أعطيتـك ثم أنت تجفونى كالمتعجب من ذلك . وقيـل : يطمع أن أترك ذلك فى عقبه ؛ وذلك أنه كان يقول : إن محمدا مبتور أى أبتر وينقطع ذكره بموته . وكان يظنّ أن ما رزق لا ينقطع بموته . وقيل : أى ثم يطمع أن أنصره على كفره . و « كَلَّا » قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة ؛ فيكون متصلا بالكلام الأوّل . وقيل : « كَلَّا » بمعنى حقّا ويكون آبتداء . ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى الوليد ﴿ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى معاندا للنبى صلى الله عليه وسـلم وما جاء به ؛ يقال : عاند فهو عنيد مثل جالس فهو جليس ؛ قاله مجاهد . وعَنَد يعْنِـد بالكسر أى خالف وردّ الحقّ وهو يعرفه فهو عنيـد وعاند . والعاند البعير الذى يجور عن الطريق ويعدل عن القصد والجمع عُنَّد مثل راكع وركَّع ؛ وأنشد أبو عبيدة قول الحارثى:

إذا رَكِبْتُ فآجْعَلانِى وَسَـطَا (١) * إنِّى كَبِـيرٌ لا أُطِيقُ الْعُنَّـدَا

وقال أبو صالح : « عَنِيدًا » معناه مباعدا ، قال الشاعر :

أَرَانا عــلى حالٍ تُفَــرِّقُ بَيْنَنَا * نَوًى غَرْبَةٌ (٢) إنَّ الْفِراقَ عَنُود

قتادة : جاحدا . مقاتل : معرضا . آبن عباس : جحودا . وقيل : إنه المجاهر بعدوانه . وعن مجاهـد أيضا قال : مجانبا للحق معاندا له معرضا عنه . والمعنى كله متقارب . والعرب تقول : عَنَد الرجل إذا عَتا وجاوز قـدره . والعَنُود من الإبل الذى لا يخالط الإبل إنمـا هو فى ناحية . ورجل عَنُود إذا كان يَحُـلّ وحده لا يخالط الناس . والعنيد من التجبر . وعرق

(١) رواية لسان العرب : * إذا رحلت فاجعلونى وسطا *

(٢) نوى غربة : بعيدة .

عاند إذا لم يرقأ دمه، كل هـذا قياس واحد وقد مضى فى سورة « إبراهيم »(١) . وجمع العنيد عُنُد مثل رغيف ورُغُف .

قوله تعـالى : ﴿ سَأُرْهِقُهُ ﴾ أى سأكلفه . وكان ٱبن عباس يقول : سأُلجئه ؛ والإرهاق فى كلام العرب أن يُحَمَّل الإنسان على الشيء . ﴿ صَعُودًا ﴾ "الصَّعود جبل من نار يَتَصَعَّد فيه سبعين خريفا ثم يَهوِى به كذلك فيه أبدا" رواه أبو سعيد الخدرىّ عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ خرّجه الترمذىّ وقال فيه حديث غريب . وروى عطية عن أبى سعيد قال : صخرة فى جهنم إذا وضعوا عليهـا أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت؛ قال : فيبلغ أعلاها فى أربعين سـنة يجذب أمامه بسلاسل و يضرب من خلفه بمقامع، حتى إذا بلغ أعلاها رمى به إلى أسفلها ؛ فذلك دأبه أبدا . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « قُـلْ أُوحِىَ »(٢) . وفى التفسير : إنه صخرة ملساء يكلف صعودها فإذا صار فى أعلاها حُدِر فى جهنم، فيقوم يَهوِى ألف عام من قبل أن يبلغ قرار جهنم، يحترق فى كل يوم سبعين مرة ثم يعاد خلقا جديدا . وقال ٱبن عباس : المعنى سأكلفه مشقة من العـذاب لا راحة له فيه . ونحوه عن الحسن وقتادة . وقيل : إنه تصاعد نفسـه للنزع و إن لم يتعقبه موت ، ليعذّب من داخل جسده كما يعذّب من خارجه .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ يعنى الوليد فكر فى شأن النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن . و « قَـدَّرَ » أى هيأ الكلام فى نفسـه ؛ والعرب تقول : قدرت الشيء إذا هيأته ؛ وذلك أنه لمـا نزل « حٰم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » إلى قوله « إِلَيْهِ الْمَصِـيرُ » سمعه الوليد يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ،

(١) راجع ج ٩ ص ٣٤٩ (٢) راجع ص ١٨ فما بعدها من هذا الجزء .

وإن له لحَلاوة ، وإن عليه لَطُلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسـفله لمغدِق ، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما يقول هذا بشر . فقالت قريش : صَبَا الوليدُ لتَصبونّ قريش كلها . وكان يقال للوليد ريحانة قريش ؛ فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فمضى إليه حزينا ؟ فقال له : مالى أراك حزينا . فقال له : ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زيَّنت كلام محمد ، وتدخل على ٱبن أبى كبشة وٱبن أبى قُحافة لتنال من فضل طعامهما ، فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه ، فأنتم تعرفون قدر مالى ، واللّات والعُزّى مابى حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه قط يَخنُـق ؟ . قالوا : لا والله . قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتمـوه نطق بشـعر قط ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كذّاب فهل جربتم عليه كذبا قط ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كاهن فهـل رأيتمـوه تكهّن قط ، ولقد رأينا للكهنة أسجاعا وتخالجا فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله . وكان النبي صلى الله عليه وسـلم يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه . فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكّر فى نفسه ، ثم نظر ، ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ ! فذلك قوله تعـالى : « إِنَّهُ فَكَّرَ » أى فى أمر محمد والقرآن «وَقَدَّرَ » فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما . ﴿فَقُتِلَ﴾ أى لعن . وكان بعض أهل التأويل يقول : معناها فقهر وغلب ، وكل مُذَلَّل مُقتَّل ؛ قال الشاعر[(١)]:

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلّا لِتَقْـدَحِى * بسَهْمَيْكِ فى أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وقال الزهرى : عُذِّب ؛ وهو من باب الدعاء . ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ قال ناسٌ : « كيف» تعجيب ؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعـه : كيف فعلت هـذا ؟ وذلك كقوله : « ٱنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَـالَ » . ﴿ ثُمَّ قُتِلَ ﴾ أى لعن لعنا بعـد لعن . وقيـل : فقتل بضرب من العقوبة ، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ أى على أى حال قدر . ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأى شىء يرد الحق ويدفعه . ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى قَطَّب بين عينيه فى وجوه المؤمنـين ؛ وذلك

---

(١) هو آمرؤ القيس .

أنه لما حمل قريشا على ما حملهم عليه من القول فى محمد صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر مرّ على جماعة من المسلمين فدعوه إلى الإسلام فعبس فى وجوههم . وقيل : عبس و بسر على النبي صلى الله عليه وسلم حين دعاه . والعَبْس مصدر عَبَسَ يَعبِس عَبْسًا وعُبُوسا إذا قطَّبَ . والعَبَس ما يتعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها ؛ قال أبو النَّجْم :

كأنّ فى أذنابِهِنّ الشُّوَّلِ * من عَبَسِ الصَّيفِ قُرونَ الأُيَّلِ

﴿ وَبَسَرَ ﴾ أى كَلَح وجهه وتغير لونه ؛ قاله قتادة والسدىّ ؛ ومنه قول بشر بن أبى خازم :

صَبَحْنا تَميمًا غداةَ الجِفَارِ (١) * بِشَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ باسِرَهْ

وقال آخر (٢) :

وقد رابَني منها صُدودٌ رأيتُهُ * وإعراضُها عَنْ حاجتى وبُسُورُها

وقيل : إن ظهور العُبُوس فى الوجه بعد المحاورة ، وظهور البُسور فى الوجه قبل المحاورة . وقال قوم : بَسَر وَقَف لا يتقدم ولا يتأخر . قالوا : وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب فلم يجئ ولم يذهب قد بسر المركب وأَبْسَر أى وقف وقد أبسرنا . والعرب تقول : وجه باسر بيِّن البسور إذا تغير وآسود . ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أى ولى وأعرض ذاهبا إلى أهله . ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ أى تعظم عن أن يؤمن . وقيل : أدبر عن الإيمان وآستكبر حين دعى إليه . ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا ﴾ أى ماهذا الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أى يأثره عن غيره . والسحر الخديعة وقد تقدم بيانه فى سورة « البقرة » (٣) . وقال قوم : السحر إظهار الباطل فى صورة الحق . والأثر مصدر قولك : أثرت الحديث آثره إذا ذكرته عن غيرك ؛ ومنه قيل : حديث مأثور أى ينقله خلف عن سلف ؛ قال آمرؤ القيس :

---

(١) الجفار : موضع . وقيل هو ماء لبنى تميم . (٢) هو توبة بن الحمير . و زاد بعض النسخ بعد هذا البيت ما يأتى كحاشية : « قوله بشهباء أراد بكتيبة شهباء ومنه قول عنترة :

وكتيبة لبستها بكتيبة * شهباء باسلة يخاف رداها

و يقال : كتيبة ململة وململومة أيضا أى مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض . وصخرة ململومة وململة أى مستديرة صلبة ، قاله الجوهرى » . (٣) راجع ج ٢ ص ٤٣ فما بعدها .

ولو عن نثا غيره جاءني * وجرح اللسان كجرح اليد
لقلت من القول ما لا يزا * ل يؤثر عني يد المسند (١)

يريد آخر الدهر . وقال الأعشى :

إن الذي فيه تماريتما (٢) * بين للسامع والآثر

ويروى بيّن . ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أي ما هذا إلا كلام المخلوقين يختدع به القلوب كما تختدع بالسحر . قال السدي : يعنون أنه من قول سيار (٣) عبد لبني الحضرمي ، كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك . وقيل : أراد أنه تلقنه من أهل بابل . وقيل : عن مسيلمة . وقيل : عن عدي الحضرمي الكاهن . وقيل : إنما تلقنه ممن ادعى النبوة قبله فنسج على منوالهم . قال أبو سعيد الضرير : إن هذا إلا سحر يؤثر أي يورث .

قوله تعالى : سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ أي سأدخله سقر كي يصلى حرها . وإنما سميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابته ولوحته وأحرقت جلدة وجهه . ولا ينصرف للتعريف والتأنيث . قال ابن عباس : هي الطبق السادس من جهنم ، وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سأل موسى ربه فقال أي رب أي عبادك أفقر فقال صاحب سقر" ذكره الثعلبي . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ هذه مبالغة في وصفها ، أي وما أعلمك أي شيء هي ، وهي كلمة تعظيم ، ثم فسر حالها فقال : ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ أي لا تترك لهم عظما ولا لحما ولا دما إلا أحرقته .

(١) يقول : لو أتاني هذا النبأ عن حديث غيره لقلت قولا يشيع في الناس و يؤثر عني آخر الدهر . والنثا ما يحدث به من خير وشر . والمسند الدهر .

(٢) الذي في ديوان الأعشى طبع أوربا : تداريتما .

(٣) في بعض النسخ : من قول أبي اليسر سيار .

وكرر اللفظ تأكيدا . وقيل : لا تبقى منهم شيئا، ثم يعادون خلقا جديدا، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبدا . وقال مجاهد : لا تبقى من فيها حيا ولا تذره ميتا تحرقهم كلما جدّدوا . وقال السدى : لا تبقى لهم لحما ولا تذر لهم عظما. ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أى مُغيِّرة من لاحه إذا غيّره. وقراءة العـامة « لَوَّاحَةٌ » بالرفع نعت لـ«سَقَرُ» فى قوله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ » . وقرأ عطيـة العوفى ونصر بن عاصم وعيسى بن عمـر « لَوَّاحَةً » بالنصب على الآختصـاص للتهويل. وقال أبو رَزِين : تلفح وجوههم لفحة تدعها أشدّ سوادا من الليل؛ وقاله مجاهد . والعرب تقول : لاحه البَرْد والحرُّ والسُّقم والحُزْن إذا غيّره؛ ومنه قول الشاعر :

تَقولُ ما لَاحَكَ يا مُسـافِرْ * يابْنَـةَ عمِّى لاحَنِى الهَـواجِرْ (١)

وقال آخر :

وتَعجبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْنِي شاحِبًا * تقـول لِشَيْءٍ لَوَّحَتْه السَّمائمُ (٢)

وقال رؤبة بن العجّاج :

لَوَّحَ منه بعـدَ بُدْنٍ وسَنَقْ * تَلويحَكَ الضَّامِرَ يُطْوَى لِلسَّبَقْ (٣)

وقيل : إن اللوح شدّة العطش؛ يقال : لاحه العطش ولوّحه أى غيّره . والمعنى أنها مُعطِّشة للبشر أى لأهلها؛ قاله الأخفش ، وأنشد :

سَقَتْنِي على لَوْحٍ مَن المـاء شَرْبَةً * سـقاها بها اللهُ الرِّهامَ الغَواديا

يعنى باللّوح شدّة العطش، والتاح أى عَطِش . والرِّهام جمع رِهمة بالكسر وهى المطرة الضعيفة، وأرهمت السحابة أتت بالرِّهام . وقال آبن عباس : «لَوَّاحَةٌ» أى تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام . الحسن وآبن كيسان : تلوح لهم جهنم حتى يروها عِيانا؛ نظيره : «وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ»

(١) الهواجر جمع هاجرة وهى شدّة الحر عند منتصف النهار .

(٢) السمائم جمع سموم وهى الريح الحارة .

(٣) لوحه السفر غيره وأضمره والبدن السمن واكتناز اللحم . والسنق الشبع حتى يكون كالتخمة . الضامر : الفرس . يطوى يجوع لأجل السباق .

وفى البشر وجهان : أحدهمـا — أنه الإنس من أهل النار ؛ قاله الأخفش والأكثرون . الثانى — أنه جمع بشرة وهى جلدة الإنسان الظاهرة؛ قاله مجاهد وقتادة . وجمع البشر أبشار وهـذا على التفسير الأوّل ، وأما على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود ؛ لأنه من لاح الشيء يلُوح إذا لمع .

قوله تعـالى : ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أى على سقر تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها . ثم قيـل : على جملة النـار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ؛ مالك وثمـانية عشر ملَكا . ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيبا ، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملَكا بأعيانهـم . وعلى هـذا أكثر المفسرين . الثعلبي : ولا ينكر هـذا ، فإذا كان ملَك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق . وقال ابن جريج : نعت النبيّ صـلى الله عليه وسـلم خزنة جهنم . فقال : " فكأن أعينهم البرق وكأن أفواههم الصياصى يجرّون أشعارهم لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمّة وعلى رقبته جبل فيرميهم فى النار و يرمى فوقهم الجبل " .

قلت : وذكر ابن المبارك قال حدثنا حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بنى تميم قال : كنا عند أبى العوام فقرأ هذه الآية « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » فقال ما تسعة عشر ؟ تسعة عشر ألف ملك أو تسعة عشر ملكا ؟ قال قلت : لا بل تسعة عشر ملكا . فقال : وأنى تعلم ذلك ؟ فقلت : لقول الله عز وجل : « وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » قال : صدقت هم تسعة عشر ملكا بيد كل ملك منهم مِرْزَبَّة(١) لها شُعْبتان فيضرب الضربة فيهوى بها فى النار سبعين ألفا . وعن عمرو بن دينار : كل واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة فى جهنم أكثر من ربيعة ومضر. وخرج الترمذى عن جابر بن عبد الله قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا : لا ندرى حتى نسأل نبينا . فجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد غُلِب أصحابك اليوم؛ فقال : "وبم غُلِبوا" قال : سألهم يهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم قال : "فماذا قالوا" قال : قالوا لاندرى حتى نسأل نبينا . قال : "أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة علىّ بأعداء الله إنى سائلهم عن تربة الجنة وهى الدَّرْمَك" فلما جاءوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم ؟ قال : "هكذا وهكذا" فى مرة عشرة وفى مرة تسعة . قالوا : نعم . قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : "ما تُرْبة الجنة" قال : فسكتوا هنيهة ثم قالوا : أخبزة يا أبا القاسم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الخبز من الدَّرْمَك" قال أبوعيسى : هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشَّعْبى عن جابر . وذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خزنة جهنم : "ما بين مَنكِبى أحدهم كما بين المشرق والمغرب" . وقال ابن عباس : ما بين مَنكِبى الواحد منهم مسيرة سنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم .

(١) المرزبة عصية من حديد والمطرقة الكبيرة التى للحداد .

قلت: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال الله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ». وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها". وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدَّهْم — أي العدد — والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأشد بن كَلَدة الجُمَحي: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمَنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، و بمَنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة. يقولها مستهزئا. في رواية: إن الحرث بن كَلَدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي لم نجعلهم رجالا فتتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذّبين من الجنّ والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ولا يستروحون إليهم؛ ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله و بالغضب له فتؤمن هوادتهم؛ ولأنهم أشدّ خلق الله بأسا وأقواهم بطشا. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي بلية. وروى عن ابن عباس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلا عذابا، كما قال تعالى: «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ» أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب. وفي «تِسْعَةَ عَشَرَ» سبع قراءات[1]: قراءة العامة «تِسْعَةَ عَشَرَ». وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع وطلحة بن سليمان «تِسْعَةَ عْشَرَ» بإسكان العين. وعن ابن عباس «تِسْعَةُ عَشَرَ» بضم الهاء.

---

(١) ورد في الأصول ست قراءات فقط ولعل السابعة قراءة سليمان بن قتة «تسعة أعشر» بضم التاء وهمزة مفتوحة وسكون العين وضم الشين وجر الراء. وتعقب السمين هذه القراءات فقال: «في هذه الكلمة قراءات شاذة وتوجيهات تشبه كلها».

وعن أنس بن مالك « تِسْعَةُ وَعَشَرْ » وعنه أيضا « تِسْعَةُ وَعْشُر » . وعنه أيضا « تِسْعَةُ أَعْشُر » ذكرها المهدوى وقال : من قرأ « تِسْعَةَ عْشَرَ » أسكن العين لتوالى الحركات . ومن قرأ « تِسْعَةُ وَعَشَرْ » جاء به على الأصل قبل التركيب ، وعطف عشرا على تسعة ، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال ، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها . ومن قرأ « تِسْعَةُ عَشَرْ » فكأنه من التداخل ؛ كأنه أراد العطف وترك التركيب فرفع هاء التأنيث ثم راجع البناء وأسكن . وأما « تِسعةُ أَعْشُر » فغير معروف ، وقد أنكرها أبو حاتم . وكذلك « تِسعةُ وَعْشُر » لأنها محمولة على « تِسعةُ أَعْشُر » والواو بدل من الهمزة وليس لذلك وجه عند النحويين . الزمخشرى : وقرئ « تِسْعَةُ أَعْشُر » جمع عَشِير مثل يَمين وأَيْمُن .

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ ﴾ أى ليوقن الذين أعطو التوراة والإنجيل أن عدد خزنة جهنم موافقة لما عندهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم . ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام . ويحتمل أنه يريد الكل . ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ بذلك ؛ لأنهم كلما صدّقوا بما فى كتاب الله آمنوا ، ثم ازدادوا إيمانا لتصديقهم بعدد خزنة جهنم . ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ﴾ أى ولا يشك ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى أعطوا الكتاب ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى المصدّقون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى أن عدد خزنة جهنم تسعة عشر . ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أى فى صدورهم شك ونفاق من منافقى أهل المدينة ، الذين يَنجُمون فى مستقبل الزمان بعد الهجرة ، ولم يكن بمكة نفاق وإنما نَجَم بالمدينة . وقيل : المعنى ؛ أى وليقول المنافقون الذين يَنجُمون فى مستقبل الزمان بعد الهجرة . ﴿ وَالْكَافِرُونَ ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ يعنى بعدد خزنة جهنم . وقال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ؛ فالمرض فى هذه الآية الخلاف و « الْكَافِرُونَ » أى مشركو العرب . وعلى القول الأوّل أكثر المفسرين . ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم

قاطعين بالكذب، وقوله تعالى إخبارا عنهم : «مَاذَا أَرَادَ اللهُ» أى ما أراد الله «بِهَذَا» العدد الذى ذكره حديثا أى ماهذا من الحديث ؛ قال الليث : المثل الحديث، ومنه « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى حديثها والخبر عنها ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ أى يخزى ويعمى ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي﴾ أى ويرشد ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ كإرشاد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «كذلك يضل الله» عن الجنة «من يشاء ويهدى» إليها «من يشاء» . ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى ومايدرى عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار « إِلَّا هُوَ» أى إلا الله جل ثناؤه . وهذا جواب لأبى جهل حين قال : أمَا لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر؟! وعن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقسم غنائم حُنين ، فأتاه جبريل فجلس عنده ، فأتى ملَك فقال : إن ربك يأمرك بكذا وكذا، فخشى النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون شيطانا، فقال : " ياجبريل أتعرفه " فقال : هو ملَك وما كل ملائكة ربك أعرف . وقال الأوزاعيّ قال موسى : « يا ربّ من فى السماء قال ملائكتى قال كم عِدّتهم يا ربّ قال اثنى عشر سبطا قال كم عِدّة كل سبط قال عدد التراب » . ذكرهما الثعلبي . وفى الترمذيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أَطّت السماءُ وحُقّ لها أن تئِطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضعٌ جبهته لله ساجدا " .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ يعنى الدلائل والحجج والقرآن . وقيل : « وَمَا هِيَ » أى وما هذه النار التى هى سقر « إِلَّا ذِكْرَى» أى عظة « لِلْبَشَرِ» أى للخلق . وقيل : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة . قاله الزجاج . وقيل : أى ما هذه العدة « إلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ » أى ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ؛ فالكناية على هذا فى قوله تعالى : « وَمَا هِيَ » ترجع إلى الجنود ؛ لأنه أقرب مذكور .

قوله تعالى : كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴾ قال الفراء : « كَلَّا » صلة للقسم، التقدير أى والقمرِ . وقيل : المعنى ؛ حقًا والقمرِ فلا يوقف على هذين التقديرين على « كَلَّا » وأجاز الطبرى الوقف عليها ، وجعلها ردا للذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم؛ أى ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار . ثم أقسم على ذلك جل وعز بالقمر و بما بعده فقال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ أى وَلَّى وكذلك «دَبَرَ» . وقرأ نافع وحمزة وحفص « إِذْ أَدْبَرَ » الباقون « إذا » بألف و«دَبَرَ» بغير ألف وهما لغتان بمعنى ؛ يقال : دبر وأدبر ، وكذلك قبل الليل وأقبل . وقد قالوا أمس الدابر والمدبر، قال صخر بن عمرو بن الشَّريد السُّلَمىّ :

وَلَقَـدْ قَتَلْنَاكُمْ ثُنَـاءَ ومَوْحَدًا * وتَرَكْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويروى المدبِر . وهذا قول الفراء والأخفش . وقال بعض أهل اللغـة : دبر الليل إذا مضى وأدبر أخذ فى الإدبار . وقال مجاهد : سألت ٱبن عباس عن قوله تعالى « وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ » فسكت حتى إذا دَبَر قال : يا مجاهد ! هذا حين دَبَر الليلُ . وقرأ محمد بن السَّمَيقع « وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ » بألفين ، وكذلك فى مصحف عبد الله وأُبَىٍّ بألفين . وقال قطرب من قرأ « دَبَرَ » فيعنى أقبل ، من قول العرب دبر فلان إذا جاء من خلفى . قال أبو عمرو : وهى لغة قريش .

وقال ٱبن عباس في رواية عنه : الصواب « أَدْبَرَ » إنما يدبر ظهر البعير . وٱختار أبو عبيد «إِذَا أَدْبَرَ» قال : لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه ؛ ألا تراه يقول ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ فكيف يكون أحدهما « إذ » والآخر « إذا » وليس في القرآن قسم تعقبه « إذ » وإنما يتعقبه « إذا » . ومعنى « أَسْفَرَ » أضاء . وقراءة العامة « أَسْـفَرَ » بالألف . وقرأ ٱبن السَّمَيْقَع « سَفَرَ » . وهما لغتان . يقال : سَفَر وجهُ فلان وأسفر إذا أضاء . وفي الحديث : " أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر" أي صلّوا صلاة الصبح مُسفِرين ، ويقال : طَوِّلوها إلى الإسفار والإسفار الإنارة . وأسفر وجهه حسنا أي أشرق ، وسَفَرت المرأة كشفت عن وجهها فهي سافر . ويجـوز أن يكون [من] سَفَر الظلامَ أي كنسه كما يُسفَر البيت أي يُكنَس ، ومنه السَّفِير لما سقط من ورق الشجر وتحاتّ ؛ يقال : إنما سمي سفيرا لأن الريح تَسفِره أي تكنُسه . والمِسْفَرة المِكْنَسة.

قوله تعالى : ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ جواب القسم ؛ أي إن هذه النار « لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أي لإحدى الدواهي . وفي تفسير مقاتل « الْكُبَر » ٱسم من أسماء النار . وروى عن ٱبن عباس « إِنَّهَا » أي إن تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم « لَإِحْدَى الْكُبَرِ » أي لكبيرة من الكبائر . وقيل : أي إن قيام الساعة لإحدى الكُبَر . والكُبَر هي العظائم من العقوبات ؛ قال الراجز :

يا بن المُعَلَّى نَزلتْ إحدى الكُبَرْ ٭ داهيـةُ الدهْرِ وصَمّـاءُ الغِـيَرْ

وواحدة « الكُبَر » كُبرى مثل الصُّغرى والصُّغَر والعُظْمى والعُظَم . وقرأ العامة « لَإِحْدَى » وهو ٱسم بني ٱبتـداء للتأنيث وليس مبنيا على المذكر ؛ نحو عقبى وأخرى وألفـه ألف قطع لا تذهب في الوصل . وروى جرير بن حازم عن ٱبن كثير « إِنَّهـا لَحْدَى الْكُبَر » بحذف الهمزة . ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ يريد النـار أي إن هذه النار الموصوفة « نَذِيرًا لِلْبَشَر » فهو نصب على الحال من المضمر في « إِنَّهـا » قاله الزجاج . وذُكِّر ؛ لأن معناه معنى العذاب ، أو أراد ذات إنذار على معنى النَّسب ؛ كقولهم ٱمرأة طالق وطاهر . وقال الخليل : النذير مصدر كالنكير ولذلك يوصف به المؤنث . وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها . وقيـل : المراد بالنـذير محمد صلى الله عليه وسـلم ؛ أي قم نذيرا للبشر أي مخوفا لهم

ف « نذيرا » حال من « قُمْ » فى أوّل السورة حين قال : « قُمْ فأَنْذِرْ » قاله أبو على الفارسى وآبن زيد، وروى عن آبن عباس وآنكره الفراء . آبن الأنبارى : وقال بعض المفسرين معناه « يأيها المدثر قم نذيرا للبشر . وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : هو من صفة الله تعالى . روى أبو معاوية الضرير : حدّثنا إسمعيل بن سميع عن أبى رَزين « نذِيرا لِلبشرِ » قال يقول الله عز وجل : أنا لكم منها نذير فآتقوها . و « نذِيرا » على هذا نصب على الحال ؛ أى « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً » منذرا بذلك البشر . وقيل : هو حال من «هو» فى قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » . وقيل : هو فى موضع المصدر كأنه قال : إنذارا للبشر . قال الفراء : يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار أى أنذر إنذارا؛ فهو كقوله تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرِ » أى إنذارى؛ فعلى هـذا يكون راجعا إلى أوّل السـورة أى « قم فأنذر » أى إنذارا . وقيـل : هو منصوب بإضمار فعـل . وقرأ آبن أبى عَبْلة « نذيرٌ » بالرفع على إضمار هو . وقيل : أى إن القرآن نذير للبشر لمـا تضمنه من الوعد والوعيد .

قوله تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ اللام متعلقة بـ « نذيرا » ؛ أى نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية؛ نظيره : «ولَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ » أى فى الخير « ولقد عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » عنه . قال الحسن : هذا وعيد وتهديد و إن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » . وقال بعض أهل التأويل : معناه لمن شاء الله أن يتقدّم أو يتأخر؛ فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه، والتقديم الإيمان والتأخير الكفر . وكان آبن عباس يقول : هذا تهديد و إعلام أن من تقدّم إلى الطاعة والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم جوزى بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذّب محمدا صلى الله عليه وسـلم عوقب عقابا لا ينقطع . وقال السدى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ » إلى النار المتقدّم ذكرها « أَوْ يَتَأَخَّرَ » عنها إلى الجنة .

قوله تعـالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها ، إما خلَّصها و إما أوبقها وليست « رهينـة » تأنيث رهين فى قوله تعـالى : « كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَـا كسب رهِين » لتأنيث النفس ؛ لأنه لو قُصدت الصفة لقيـل رهين؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث . و إنمـا هو ٱسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم ؛ كأنه قيل : كل نفس بمـا كسبت رهين؛ ومنه بيت الحماسة :

أَبَعْدَ الذى بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ * رهِينَـةُ رَمْسٍ ذِى تُرَابٍ وجَنْـدَلِ (١)

كأنه قال رهن رمسٍ . والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فإنهـم لا يرتهنون بذنوبهم . وٱختلف فى تعيينهم ؛ فقال ٱبن عبـاس : الملائكة . على بن أبى طالب : أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيرتهنوا بكسبهم . الضحاك : الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، ونحوه عن ٱبن جريج ؛ قال : كل نفس بعملها محاسـبة « إِلَّا أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ » وهم أهل الجنة فإنهم لا يحاسبون . وكذا قال مقاتل أيضا : هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم : هؤلاء فى الجنـة ولا أبالى . وقال الحسن وٱبن كَيْسان : هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين؛ لأنهم أدّوا ما كان عليهم . وعن أبى ظَبْيان عن ٱبن عباس قال : هم المسلمون . وقيل : إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان . وقيل : هم الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم . وقال أبو جعفر الباقر : نحن وشيعتنا أصحاب اليمين ، وكل من أبغضنا أهل البيت فهـم المرتهنون . وقال الحكم : هم الذين ٱختارهم الله لخدمتـه فلم يدخلوا فى الرهن ؛ لأنهـم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم . وقال القاسم : كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من ٱعتمد على الفضل والرحمة دون الكسب والخدمة، فكل من ٱعتمد على الكسب فهـو مرهون ، وكل من ٱعتمد على الفضل فهـو غير مأخوذ به . ﴿ فِى جَنَّـاتٍ ﴾ أى فى بساتين ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى يسألون ﴿ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين

(١) النعف من الأرض المكان المرتفع فى ٱعتراض . والبيت من قول عبد الرحمن بن زيد العذرى وقد قتل أخوه وعرضت عليه الدية فأبى أن يأخذها وأخذ بثأره .

﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ أى أدخلكم ﴿ فِي سَقَرَ ﴾ كما تقول : سلكت الخيط فى كذا أى أدخلته فيه . قال الكلبيّ : فيسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يافلان . وفى قراءة عبد الله بن الزبير «يافلانُ ما سَلَكَكَ فِي سَقَرَ» . وعنه قال : قرأ عمر بن الخطاب «يا فلانُ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ» وهى قراءة على التفسير لا أنها قرآن كما زعم من طعن فى القرآن ؛ قاله أبو بكر بن الأنبارى . وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ » . قال الفراء : فى هـذا ما يقوى أن أصحاب اليمين الولدان ؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب . ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى أهل النار ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ أى المؤمنين الذين يصلّون . ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ أى لم نك نتصدق . ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أى كنا نخالط أهل الباطل فى باطلهم . وقال ابن زيد : نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وهـو قولهم — لعنهم الله — كاهن مجنون شاعر ساحر . وقال السُّدىّ : أى وكنا نكذّب مع المكذّبين . وقال قتادة : كلما غوى غاوٍ غوينا معـه . وقيـل معناه : وكنا أتباعا ولم نكن متبوعين . ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى لم نك نصدّق بيوم القيامة يوم الجزاء والحكم . قوله تعـالى : ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ أى جاءنا ونزل بنـا الموت ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين ؛ وذلك أن قوما من أهل التوحيد عذّبوا بذنوبهم ثم شُفِـع فيهم فرحمهم الله بتوحيدهـم والشفاعة فأخرجوا من النار ، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : يشفع نبيكم صلى الله عليه وسـلم رابع أربعة ؛ جبريل ثم إبراهـيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ، و يبقى قوم فى جهنم فيقال لهم : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ » إلى قوله : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » قال عبد الله بن مسعود : فهؤلاء هم الذين يبقون فى جهنم . وقد ذكرنا إسناده فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أى فما لأهل مكة قد أعرضوا وولوا عما جئتهم به . وفى تفسير مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين ؛ أحدهما الجحود والإنكار، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه . و « مُعْرِضِينَ » نصب على الحال من الهاء والميم فى « لَهُمْ » وفى اللام معنى الفعل ؛ فٱنتصاب الحال على معنى الفعل . ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أى كأن هؤلاء الكفار فى فرارهم من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ قال ٱبن عباس : أراد الحمر الوحشية . وقرأ نافع وٱبن عامر بفتح الفاء أى مُنفَّرة مذعورة ؛ وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم . الباقون بالكسر أى نافرة . يقال : نَفَرت وٱسْتَنفرت بمعنًى ؛ مثل عَجِبت وٱسْتعجبت وسَخِرت وٱسْتَسخرت ؛ وأنشد الفراء :

أَمْسِكْ حِمارَكَ إنّه مُسْتَنْفِرٌ * فى إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرُبِ (1)

قوله تعالى : ﴿ فَرَّتْ ﴾ أى نفرت وهربت ﴿ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أى من رماة يرمونها . وقال بعض أهل اللغة : إن القسور الرامى وجمعه القَسْورة . وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وٱبن كَيْسان : القسْورة هم الرماة والصيادون، ورواه عطاء عن ٱبن عباس وأبو [ظَبْيان] (2) عن أبى موسى الأشعرى . وقيل : إنه الأسد . قاله أبو هريرة وٱبن عباس أيضا . ٱبن عرفة : من القَسْر بمعنى القَهْر أى إنه يقهر السباع والحمر الوحشية تهرب من السباع . وروى أبو جمرة عن ٱبن عباس قال : ما أعلم القسورة الأسد فى لغة أحد من العرب ولكنها عُصَب الرجال ؛ قال : فالقسورة جمع الرجال وأنشد :

---

(1) غرب كسكر ٱسم موضع وجبل دون الشام فى بلاد بنى كلاب .

(2) فى الأصول : أبو حيان وهو تحريف والتصحيح من تفسير الثعلبى « والتهذيب » .

يا بنتُ كُونِى خَيْرَةً لِخَيِّرَهْ * أخوالُها الجنّ وأهلُ القَسْوَرهْ

وعنه : رِكْز الناس أى حسّهم وأصواتهم . وعنه أيضا : « فَرّتْ مِن قَسْوَرةٍ » أى من حبال الصيادين . وعنه أيضا القسورة بلسان العرب الأسد، وبلسان الحبشة الرماة؛ وبلسان فارس شير، وبلسان النَّبَط أريا . وقال آبن الأعرابى : القسورة أوّل الليل؛ أى فرّت من ظلمة الليل . وقاله عكرمة أيضا . وقيل : هو أوّل سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل قَسْورة. وقال زيد بن أسلم : من رجال أقوياء، وكل شديد عند العرب فهو قَسْورة وقَسْور . وقال لبيد بن ربيعة :

إذا ما هَتَفْنا هَتفةً فى نَدِيِّنا * أتانا الرجالُ العائدون القَساوِر

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ آمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ أى يعطى كتبا مفتوحة؛ وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد ! آيتنا بكتب من ربّ العالمين مكتوب فيها أنى قد أرسلتُ إليكم محمدا؛ صلى الله عليه وسلم؛ نظيره : « وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ » . وقال آبن عباس : كانوا يقولون إن كان محمد صادقا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار . قال مطر الورّاق : أرادوا أن يُعطَوا بغير عمل . وقال الكلبى : قال المشركون بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوبا ذنبه وكفارته فآتنا بمثل ذلك . وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل إلى فلان بن فلان . وقيل : المعنى أن يذكر بذكر جميل؛ فجعلت الصحف موضع الذكر مجازا . وقالوا : إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالنا لا نرى ذلك . ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس يكون ذلك . وقيل : حقّا . والأوّل أجود؛ لأنه رد لقولهم . ﴿ بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة آغترارا بالدنيا . وقرأ سعيد بن جبير «صُحْفًا مُنْشَرةً» بسكون الحاء والنون؛ فأما تسكين الحاء فتخفيف، وأما النون فشاذ . إنما يقال : نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت . ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها، فإذا نشرت حييت، فجاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب؛ فقيل فيه نشر الله الميت فهى لغة فيه .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى حقا إن القرآن عظة . ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى آتعظ به . ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ أى وما يتعظون ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى ليس يقدرون على الآتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم . وقراءة العامة « يَذْكُرُونَ » بالياء وآختاره أبو عبيد، لقوله تعالى : « كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » . وقرأ نافع ويعقوب بالتاء، وآختاره أبو حاتم لأنه أعم وآتفقوا على تخفيفها . ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فى الترمذى وسنن آبن ماجه عن أنس آبن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية « هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » قال : " قال الله تبارك وتعالى أنا أهلٌ أن أُتَّقى فمن آتقانى فلم يجعل معى إلها فأنا أهلٌ أن أغفر له " لفظ الترمذى وقال فيه : حديث حسن غريب . وفى بعض التفسير : هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضا للذنوب الصغار باجتناب الذنوب الكبار . وقال محمد بن نصر : أنا أهلٌ أن يتقينى عبدى ، فإن لم يفعل كنت أهلا أن أغفر له وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم .

سورة القيامة

مكية وهى تسع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قيل : إن «لا» صلة وجاز وقوعها في أوّل السورة ؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض فهو في حكم كلام واحد ؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى ؛ كقوله تعالى : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وجوابه في سورة أخرى : « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » ومعنى الكلام أقسم بيوم القيامة ؛ قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة ؛ ومثله قول الشاعر :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فاعترتني صَبَابَةٌ * فكاد صَمِيمُ القلبِ لا يَتَقَطَّعُ

وحكى أبو الليث السمرقندي : أجمع المفسرون أن معنى « لَا أُقْسِمُ » أقسم ، واختلفوا في تفسير « لا » قال بعضهم : « لا » زيادة في الكلام للزينة ويجري في كلام العرب زيادة « لا » كما قال في آية أخرى : « قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » يعني أن تسجد ، وقال بعضهم : « لا » ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال : ليس الأمر كما زعمتم .

قلت : وهذا قول الفراء ؛ قال الفراء : وكثير من النحويين يقولون « لا » صلة ولا يجوز أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة ؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه ، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار ، فجاء الإقسام بالردّ عليهم [في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ][(١)] وذلك كقولهم لا والله لا أفعل فـ«لا» ردٌّ لكلام قد مضى ، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحق ، كأنك أكذبت قوما أنكروه . وأنشد غير الفراء لامرئ القيس :

فلا وأبيكِ ابنةَ العامريّ * لا يَدَّعِي القومُ أنّي أَفِرْ

وقال غوية بن سلمى :

ألا نادت أمامةُ باحتمال * لِتحزنني فلا بِكِ ما أُبالي

وفائدتها توكيد القسم في الردّ . قال الفراء : وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ «لَأُقْسِمُ» بغير ألف ؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم وهو صواب ؛ لأن العرب تقول : لأقسم بالله

(١) الزيادة من تفسير الفراء .

وهى قراءة الحسن وآبن كثير والزهرى وآبن هُرْمز . ﴿ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى بيوم يقوم الناس فيه لربّهم، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء . ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ لاخلاف فى هذا بين القراء وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيما لشأنه [ولم يقسم بالنفس](١) . وعلى قراءة آبن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية . وقيـل : « وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » ردّ آخر وآبتداء قسم بالنفس اللوامة . قال الثعلبى : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا . ومعنى «بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » أى بنفس المؤمن الذى لا تراه إلا يلوم نفســه، يقول : ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفســه؛ قاله آبن عباس ومجاهــد والحسن وغيرهم . قال الحسن : هى والله نفس المؤمن ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلامى؟ ما أردتُ بأكلى؟ ما أردتُ بحديث نفسى ؟ والفاجر لا يحاسب نفســه . وقال مجاهد : هى التى تلوم على مافات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لِم فعلته، وعلى الخير لِم لا تستكثر منه . وقيل : إنها ذات اللوم . وقيل : إنها تلوم نفسها بما تلوم عليــه غيرها ؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوّامة بمعنى اللائمة وهو صفة مدح؛ وعلى هذا يجىء القسم بها سائغا حسنا . وفى بعض التفسير أنه آدم عليه السلام لم يزل لائما لنفسه على معصيته التى أخرج بها من الجنة . وقيل : اللوّامة بمعنى الملُومة المذمومة — عن آبن عباس أيضا — فهى صفة ذمّ وهو قول من نفى أن يكون قسما ؛ إذ ليس للعاصى خطر يقسم به ،فهى كثيرة اللوم . وقال مقاتل : هى نفس الكافر يلوم نفسه،ويتحسر فى الآخرة على ما فرّط فى جنب الله . وقال الفراء : ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهى تلوم نفسها، فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان آزداد إحسانا ، والمسىء يلوم نفسه ألا يكون آرعوى عن إساءته .

قوله تعـالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ فنعيدها خلقا جديدا بعـد أن صارت رفاتا . قال الزجاج : أقسم بيـوم القيامة و بالنفس اللوّامة ليجمعن العظام للبعث ، فهـذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محـذوف أى لتبعثنّ ؛ ودل عليــه قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ » للإحياء والبعث . والإنسان هنا الكافر

(١) الزيادة من تفسير آبن عطية وغيره .

المكذّب للبعث . والآية نزلت فى عدىّ بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : حدّثنى عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك؛ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يامحمد ولم أومن به ، أو يجمع الله العظام ؟ ! ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "اللهمّ ٱكفنى جارَىِ السُّوءِ عدىّ بن ربيعة والأخنس بن شَرِيق". وقيـل نزلت فى عدوّ الله أبى جهل حين أنكر البعث بعد الموت . وذكر العظام والمراد نفسه كلها؛ لأن العظام قالَب الخَلْق . ﴿ بَلَى ﴾ وقف حسن ثم تبتدئ ﴿قَادِرِينَ﴾ . قال سيبويه : على معنى نجمعها قادرين فـ«قَادِرِين» حال من الفاعل المضمر فى الفعل المحذوف على ماذكرناه من التقدير . وقيل : المعنى بلى نقدر قادرين . قال الفرّاء : « قَادِرِينَ » نصب على الخروج من « نَجْمَع » أى نقدر ونقوى « قَادِرِينَ » على أكثر من ذلك . وقال أيضا : يصلح نصبه على التكرير أى « بَلَى » فليحسبنا قادرين . وقيل : المضمر كنا أى كنا قادرين فى الآبتداء ، وقـد ٱعترف به المشركون . وقرأ ٱبن أبى عَبْلة وٱبن السَّمَيْقَع « بَلَى قادِرُونَ » بتأويل نحن قادرون . ﴿ عَلَى أَنْ نُسَوِّى بَنَانَهُ ﴾ البنان عند العرب الأصابع واحدها بنانة؛ قال النابغة :

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَــانَهُ * عَنَمٌ يكادُ مِنَ اللَّطَافةِ يُعقَدُ

وقال عنترة :

وأَنَّ الموتَ طَوْعَ يدِى إذا ما * وَصَلْتُ بَنَانَهـا بالهِنْــدُوَانِى

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء . وأيضا فإنها أصغر العظام فخصها بالذكر لذلك . قال القتبىّ والزجاج: وزعموا أن الله لايبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام؛ فقال الله تعالى : بلى قادرين على أن نعيد السُّلَامَيات على صغرها، ونؤلف بينها حتى تستوى ، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر . وقال ٱبن عباس وعامة المفسرين : المعنى « عَلَى أَنْ نُسَــوِّىَ بَنَانَهُ » أى نجعـل أصابع يديه ورجليـه شيئا واحدا كخفّ البعير أو كحافر الحمـار أو كظلف الخـنزير ، ولا يمكنه أن يعمل به شيئا ، ولكنا فرقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء . وكان الحسن

يقول : جعل لك أصابع فأنت تبسطهنّ ، وتقبض بهنّ ، ولو شاء الله لجمعهنّ فلم تتق الأرض إلا بكفيك . وقيل : أى نقدر أن نعيد الإنسان فى هيئة البهائم ، فكيف فى صورته التى كان عليها ؛ وهو كقوله تعـالى : « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَـدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : والتأويل الأول أشبه بمساق الآية . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال آبن عباس : يعنى الكافر يكذّب بما أمامه من البعث والحساب . وقاله عبد الرحمن بن زيد؛ودليله ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يسأل متى يكون ؟ على وجه الإنكار والتكذيب . فهو لا يقنع بمـا هو فيه من التكذيب ، ولكن يأثم لمـا بين يديه . ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القتبى وغيره : أن أعرابيا قصد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشكا إليه نَقَب إبله ودَبَرها ، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله ، فقال الأعرابى :

أَقْسَمَ بِاللهِ أبو حفصٍ عُمَـرْ * ما مَسَّها مِنْ نَقَبٍ ولا دَبَرْ
* فآغفِـرْ له اللهـمَّ إنْ كان فَجَـرْ *

يعنى إن كان كذّبنى فيما ذكرت . وعن آبن عباس أيضا : يعجّل المعصية ويسوّف التوبة . وفى بعض الحديث قال : يقول سـوف أتوب ولا يتوب؛ فهو قد أخلف فكذب . وهذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدّى وسعيد بن جبير يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب حتى يأتيه الموت على أشرّ أحواله . وقال الضحاك : هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت . وقيل : أى يعزم على المعصية أبدا وإن كان لا يعيش إلا مدّة قليلة . فالهاء على هذه الأقوال للإنسان . وقيل : الهاء ليوم القيامة . والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحقّ بين يدى يوم القيامة . والفجور أصله الميل عن الحق . «يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ» أى متى يوم القيامة .

قوله تعالى : فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم « بَرَقَ » بفتح الراء معناه لمع بصره من شدة شخوصه فتراه لا يَطرِف . قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت . وقال الحسن : هذا يوم القيامة . وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة « إِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ » . والباقون بالكسر « بَرِقَ » ومعناه تحيّر فلم يَطرِف؛ قاله أبو عمرو والزجاج وغيرهما . قال ذو الرمة :

ولو أنّ لُقْمانَ الحكيم تَعرَّضَتْ * لِعينيـهِ مَيٌّ سافِـراً كاد يَـبْرَقُ

الفرّاء والخليل : « بَرِق » بالكسر فَزِع وبُهِت . والعرب تقول للإنسان المتحير المبهوت : قد بَرِق فهو بَرِقٌ؛ وأنشد الفرّاء :

فَنفْسَـكَ فَانْعَ ولا تَنْعَنِي * وَدَاوِ الكُلُـومَ ولا تَبْرَقِ (١)

أى لا تَفزَع من كثرة الكُلُوم التى بك . وقيل : بَرَق يَبرُق بالفتح شقّ عينيه وفتحهما . قاله أبو عبيدة؛ وأنشد قول الكلابيّ :

لمـا أتانِى ٱبنُ عُمَـيرٍ راغِبـاً * أَعطيتُـه عِيسًا صِهاباً فَـبَرَقْ (٢)

أى فتح عينيه . وقيل : إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنى .

(١) قائله طرفة .

(٢) فى غير القرطبي : لما أتانى ٱبن صبيح . والعيس الصهاب هى الإبل التى خالط بياضها حمرة وهى تعد عند العرب من أشرفها .

قوله تعالى : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى ذهب ضوءه . والخسوف فى الدنيا إلى آنجلاء بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوءه . ويحتمل أن يكون بمعنى غاب ؛ ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وقرأ آبن أبى إسحق وعيسى والأعرج . « وَخُسِفَ الْقَمَرُ » بضم الخاء وكسر السين يدل عليه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » . وقال أبو حاتم محمد بن إدريس : إذا ذهب بعضه فهو الكسوف ، وإذا ذهب كله فهو الخسوف . ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى جمع بينهما فى ذهاب ضوئهما فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه ، قاله الفراء والزجاج . قال الفراء : ولم يقل جمعت ؛ لأن المعنى جمع بينهما . وقال أبو عبيدة : هو على تغليب المذكر . وقال الكسائى : هو محمول على المعنى كأنه قال الضوءان . المبرد : التأنيث غير حقيقى . وقال آبن عباس وآبن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكوّرين مظلمين مُقْرَنين كأنهما ثوران عَقيران . وقد مضى الحديث بهذا المعنى فى آخر سورة « الأنعام »(١) . وفى قراءة عبد الله « وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ » وقال عطاء بن يسار : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكون نار الله الكبرى . وقال على وآبن عباس : يجعلان فى [نور](٢) الحجب . وقد يجمعان فى نار جهنم ؛ لأنهما قد عُبِدا من دون الله ولا تكون النار عذابا لهما لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبكيت الكافرين وحسرتهم . وفى مسند أبى داود الطيالسى ، عن يزيد الرقاشى ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشمس والقمر ثوران عَقيران فى النار " وقيل : هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان ، ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر ، فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم . وقيل : يجمع الشمس والقمر فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى يقول آبن آدم ، ويقال أبو جهل ؛ أى أين المهرب . قال الشاعر :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٦ فما بعدها . (٢) الزيادة من كتب التفسير .

أينَ المفرُّ والكِباشُ تَنتطِحْ * وأيُّ كَبْشٍ حاد عنها يفتَضِحْ

المـاوردى : ويحتمل وجهين؛ أحدهما « أَينَ المَفَرُّ » من الله ٱستحياء منـه . الثانى « أَيْنَ المَفَرُّ » من جهنم حذرا منها . ويحتمل هـذا القول من الإنسان وجهين : أحدهما — أن يكون من الكافر خاصة فى عَرْصة القيامة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه . الثانى — أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ماشاهدوا منها . وقراءة العامة «الْمَفَرُّ» بفتح الفاء وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه مصدر . وقرأ ٱبن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتـح الميم؛ قال الكسائى : هما لغتان مثل مَدَبّ ومَدِبّ ومَصَحّ ومَصِحّ . وعن الزهرى بكسر الميم وفتح الفاء . المهدوى : من فتح الميم والفاء من «المفر» فهو مصدر بمعنى الفرار، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذى يفر إليه . ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيّد الفرار؛ فالمعنى أين الإنسان الجيّد الفرار ولن ينجو مع ذلك .

قلت : ومنه قول ٱمرئ القيس :

* مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً (١) *

يريد أنه حسن الكرّ والفرّ جيّده . ﴿كَلَّا﴾ أى لا مفرّ فـ«كلا» ردٌّ وهو من قول الله تعالى، ثم فسر هذا الردّ فقال : ﴿لَا وَزَرَ﴾ أى لا ملجأ من النار . وكان ٱبن مسعود يقول : لا حِصن . وكان الحسن يقول : لاجبل . وٱبن عباس يقول : لاملجأ . وٱبن جبير : لامحيص ولا منعة . والمعنى فى ذلك كله واحد . والوَزَر فى اللغــة مايلجأ إليه من حِصن أو جبل أو غيرهما؛ قال الشـاعر :

لَعَمْرِيَ ما للفتى مِنْ وَزَرْ * مِنَ الموتِ يُدْرِكُه والكِبَرْ

قال السدىّ : كانوا فى الدنيـا إذا فزِعوا تحصّنوا فى الجبال ، فقـال الله لهم : لا وَزَر يعصمكم يومئذ منى ؛ قال طَرَفة :

وَلَقَـدْ تَعْـلَمُ بَكْرٌ أَنَّنَا * فاضِلُو الرَّأْيِ وفِي الرَّوْعِ وَزَرْ

(١) تمام البيت : * كجلمود صخر حطه السيل من عل *

أى ملجأ للخائف . ويروى : وَقْرٌ . ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى المنتهى؛ قاله قتادة . ونظيره : «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ» . وقال ابن مسعود : إلى ربك المصير والمرجع . وقيل : أى المستقر فى الآخرة حيث يقره الله تعالى ؛ إذ هو الحاكم بينهم . وقيل : إن « كَلَّا » من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفر قال لنفسه : « كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » .

قوله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى يخبر ابن آدم برا كان أو فاجرا ﴿ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أى بما أسلف من عمل سيء أو صالح، أو أخر من سنة سيئة أو صالحة يُعمَل بها بعده؛ قاله ابن عباس وابن مسعود . وروى منصور عن مجاهد قال ينبأ بأول عمله وآخره . وقاله النخعى . وقال ابن عباس أيضا : أى بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة . وهو قول قتادة . وقال ابن زيد : « بِمَا قَدَّمَ » من أمواله لنفسه « وَأَخَّرَ » خلف للورثة . وقال الضحاك : ينبأ بما قدم من فرض وأخر من فرض . قال القشيرى : وهذا الإنباء يكون فى القيامة عند وزن الأعمال . ويجوز أن يكون عند الموت .

قلت : والأول أظهر؛ لما خرجه ابن ماجه فى سننه من حديث الزهرى؛ حدثنى أبو عبد الله الأغر عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ مما يَلحق المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته عِلْما علمه ونَشَره وولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه أو نهرا أجراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته " وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبع يجرى أجرهنّ للعبد بعد موته وهو فى قبره من علّم علما أو أجرى نهرا أو حفر بئرا أو غرس نخلا أو بنى مسجدا أو ورّث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته " فقوله : " بعد موته وهو فى قبره " نصّ على أن ذلك لا يكون عند الموت ، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله ، وإن كان يبشر بذلك فى قبره . ودل على هذا أيضا قوله الحق : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » وقوله تعالى : « وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وهذا لا يكون إلا فى الآخرة بعد وزن الأعمال . والله أعلم .

وفى الصحيح : "من سنّ فى الإسلام سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سنّ فى الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" .

قوله تعالى : بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ قال الأخفش : جعله هو البصيرة ، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك . وقال ابن عباس : «بَصِيرَةٌ» أى شاهد وهو شهود جوارحه عليه : يداه بما بطش بهما ، ورجلاه بما مشى عليهما ، وعيناه بما أبصر بهما . والبصيرة الشاهد ، وأنشد الفرّاء :

كأنّ على ذى العقلِ عَيْناً بَصيرةً * بِمَقْعَـدِه أو مَنْظَـرٍ هو ناظِرُهْ
يُحاذِرُ حتى يَحسبَ الناسَ كلَّهمْ * من الخوفِ لاتَخْفَى عليهم سَرائِرُهْ

ودليل هذا التأويل من التنزيل قوله تعالى : «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» . وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح ، لأنها شاهدة على نفس الإنسان ؛ فكأنه قال : بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة ؛ قال معناه القتبي وغيره . وناس يقولون هذه الهاء فى قوله : « بَصِيرَةٌ » هى التى يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كالهاء فى قولهم : داهية وعلّامة وراوية . وهو قول أبى عبيد . وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان مايكون منه من خير أو شر ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» فيمن جعل المعاذير السُّتور . وهو قول السدّى والضحاك . وقال بعض أهل التفسير : المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة ؛ أى شاهد فحذف حرف الجر . ويجوز أن يكون بصيرة نعتا لاسم مؤنث فيكون تقديره : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ؛ وأنشد الفراء :

* كأنّ على ذِى العقلِ عيناً بصيرةً *

وقال الحسن فى قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ » يعنى بصير بعيوب غيره جاهل بعيوب نفسه . ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى ولو أرخى سُتوره . والسِّتر بلغة أهل اليمن مِعذار؛ قاله الضحاك؛ وقال الشاعر :

ولكنها ضَنَّتْ بِمنزِلِ ساعةٍ * علينا وأَطَّتْ فَوْقَهَا بالمَعَاذِرِ

قال الزجاج : المَعاذِر السُّتور والواحد مِعذار ؛ أى وإن أرخى ستره ؛ يريد أن يخفى عمله فنفسه شاهدة عليه . وقيل : أى ولو ٱعتذر فقال لم أفعل شيئا لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فهو وإن ٱعتذر وجادل عن نفسه فعليه شاهد يكذّب عذره؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفرّاء والسدى أيضا ومقاتل . قال مقاتل : أى لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك ، نظيره قوله تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ » وقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » فالمعاذير على هذا مأخوذ من العذر ؛ قال الشاعر :

وإياكَ والأمرَ الذى إنْ توسَّعتْ * مَوَارِدُه ضاقتْ عليكَ المصادرُ

فما حَسَنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ * وليس له مِن سائرِ الناسِ عاذِرُ

وٱعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعى فقال له : قد عَذرتك غير مُعتذِر ، إن المعاذِير يَشُوبها الكذب . وقال ٱبن عباس : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » أى لو تجرّد من ثيابه . حكاه الماوردى .

قلت : والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والٱعتذار من الذّنب ؛ ومنه قول النابغة :

هَا إنَّ ذِى عِذْرَةٌ إلَّا تَكنْ نَفعتْ * فإنّ صاحِبَها مُشَارِكُ النَّكَدِ

والدليل على هذا قوله تعالى فى الكفّار : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » وقوله تعالى فى المنافقين : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » . وفى الصحيح أنه يقول : ” يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك وصلّيتُ وصمتُ وتصدّقتُ ويثنى بخير

ما ٱستطاع " الحديث . وقد تقدم فى « حٰمٓ السجدة » (١) وغيرها . والمَعاذير والمَعاذِر جمع مَعْذِرة؛ ويقال : عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْرا وعُذُرا والاسم المَعْذِرة والعُذْرَى ؛ قال الشاعر (٢) :

* إنِّى حُدِدْتُ ولا عُذْرَى لِمَحْدُودِ *

وكذلك العِذْرَة وهى مثل الرِّكْبَة والجِلْسَة؛ قال النابغة :

ها إنَّ تاعِذْرَةٌ إلّا تكُنْ نفعتْ * فإنّ صاحبَها قــد تاهَ فى البَــلَدِ (٣)

وتضمنت هذه الآية خمس مسائل :

الأولى ــ قال القاضى أبو بكر بن العربى قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » : فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها شهادة منه عليها؛ قال الله سبحانه وتعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ولا خلاف فيه؛ لأنه إخبار على وجه تنتفى التهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه؛ وهى المسئلة :

الثانيــة ــ وقد قال سبحانه فى كتابه الكريم : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» ثم قال تعالى: « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » وهو فى الآثار كثير؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم : " اغْدُ يا أُنَيْس على ٱمرأة هذا فإن ٱعترفت فٱرجمها " . فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك : الأمر المجتمع عليه عندنا فى الرجل يهلك وله بنون ، فيقول أحدهم : إن أبى قد أقرّ أن فلانا ٱبنه أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد ،

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٠ ففيه معنى ما أشار إليه القرطبى وأما الحديث فقد أورده فى سورة الأنعام جـ ٦ ص ٤٠٢

(٢) قائله الجموح الظفرى . وقيل : هو راشد بن عبد ربه . وعذرى مقصور . وفى اللسان : صواب إنشاده : لولا حددت . على إرادة أن ، تقديره : لولا أن حددت لأن لولا التى معناها ٱمتناع الشىء لوجود غيره هى مخصوصة بالأسماء وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أن . (٣) تقدّم البيت برواية : ها إن ذى ــ مشارك النكد . وهما روايتان .

ولا يجوز إقرار الذى أقر إلا على نفسه فى حصته من مال أبيه، يعطى الذى شهد له قدر الذى يصيبه من المــال الذى فى يده . قال مالك : وتفسير ذلك أن يهلك الرجل و يترك آبنين و يترك ستمائة دينار، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقر أن فلانا آبنه، فيكون على الذى شهد للذى آستلحق مائة دينار، وذلك نصف ميراث المستلحق لو لحق ، و إن أقر له الآخر أخذ المــائة الأخرى فآستكمل حقه وثبت نسبه . وهو أيضا بمنزلة المرأة تقر بالدَّين على أبيها أو على زوجها و ينكر ذلك الورثة ، فعليها أن تدفع إلى الذى أقرت له قدر الذى يصيبها من ذلك الدَّين لو ثبت على الورثة كلهم ، إن كانت آمرأة فورثت الثمن دفعت إلى الغريم ثمن دينــه، و إن كانت آبنــة ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه ، على حساب هذا يدفع إليه من أقر له من النساء .

الثالثـــة ــ لا يصح الإقرار إلا من مكلَّف لكن بشرط ألا يكون محجورا عليه؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحقّ نفسه ،فإن كان لحقّ غيره كالمريض كان منه ساقط ومنه جائز، و بيــانه فى مسائل الفقه . وللعبد حالتان فى الإقرار إحداهما فى آبتــدائه ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم . والثانية فى آنتهائه وذلك مثل إبهام الإقرار، وله صور كثيرة وأمهاتها ستّ : الصورة الأولى ــ أن يقول له عندى شيء؛ قال الشافعى : لو فَسَّره بتمرة أو كسرة قُبِل منه. والذى تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قَــدر ، فإذا فَسّره به قُبِل منه وحلف عليــه . الصورة الثانية ــ أن يفسِّر هذا بخمر أو خنزير أو ما لا يكون مالاً فى الشريعة لم يُقبَل بآتفاق ولو ساعده عليه المقَرّ له . الصورة الثالثة ــ أن يفسّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين أو كلب ، فإن ردّه لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء ؛ لأن الحكم قــد نفذ بإبطاله . وقال بعض أصحاب الشافعى : يلزم الخمــر والخنزير وهو قول باطل . وقال أبو حنيفة : إذا قال له علىّ شيءٌ لم يقبل تفسيره إلا بمَكيل أو موزون؛ لأنه لا يثبت فى الذمة بنفسه إلا هما . وهذا ضعيف فإن غيرهما يثبت فى الذمة إذا وجب ذلك إجماعا . الصورة الرابعة ــ إذا قال له : عندى مال قُبِل تفسيره بمــا لا يكون مالا فى العادة كالدرهم والدرهمين ما لم يجئ من قرينــة

الحال ما يحكم عليه بأكثر منه . الصورة الخامسة — أن يقول له : عندى مال كثير أو عظيم ؛ فقال الشافعى : يقبل فى القليل . وقال أبو حنيفة : لا يقبل إلا فى نصاب الزكاة . وقال علماؤنا فى ذلك أقوالا مختلفة؛ منها نصاب السّرقة والزّكاة والدّية وأقله عندى نصاب السّرقة؛ لأنه لا يُبَان عُضوُ المسلم إلا فى مال عظيم . وبه قال أكثر الحنفية . ومن يعجب فيتعجب لقول الليث بن سعد : إنه لا يقبل فى أقل من آثنين وسبعين درهما . فقيل له : ومن أين تقول ذلك ؟ قال ؛ لأن الله تعالى قال : «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» وغزواته وسراياه كانت آثنتين وسبعين . وهذا لا يصح؛ لأنه أخرج حُنَيْنا منها ، وكان حقّه أن يقول يُقبَل فى أحد وسبعين ، وقد قال الله تعالى : «آذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» وقال : «لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ» وقال : «وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا» . الصورة السادسة — إذا قال له عندى عشرة أو مائة أو ألف فإنه يفسرها بما شاء ويقبل منه ؛ فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهما فإنه يُفَسِّر المبهم ويُقبَل منه . وبه قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : إن عطف على العدد المبهم مكيلا أو موزونا كان تفسيرا؛ كقوله : مائة وخمسون درهما؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين ، والخمسين تفسير للمائة . وقال آبن خيران الاصطخرى من أصحاب الشافعى : الدرهم لا يكون تفسيرا فى المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفَسِّر هو المائة بما شاء .

المسئلة الرابعة — قوله تعالى : «وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» ومعناه لو آعتذر بعد الإقرار لم يقبل منه . وقد آختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقرّ فى الحدود التى هى خالص حقّ الله؛ فقال أكثرهم منهم الشافعى وأبو حنيفة : يقبل رجوعه بعد الإقرار . وقال به مالك فى أحد قوليه ، وقال فى القول الآخر : لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجها صحيحا . والصحيح جواز الرجوع مطلقا؛ لما روى الأئمة منهم البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم رد المقرّ بالزنى مرارا أربعا كل مرّة يعرض عنه ، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : "أبِكَ جنون" قال : لا . قال : "أُحْصِنْتَ" قال : نَعَم . وفى حديث البخارى : "لعلّك قبلت أو غمزت أو نظرتَ" . وفى النسائى وأبى داود : حتى قال له فى الخامسة

" أجامعتها "[1] قال : نعم . قال : " حتى غاب ذلك منك فى ذلك منها " قال : نَعَم . قال : " كما يغيب المِرود فى المُكْحُلة والرِّشاء فى البئر " . قال : نَعَم . ثم قال : " هل تدرى ما الزنى " قال : نعم ؛ أتيت منها حراما مثل ما يأتى الرجل من أهله حلالا . قال : " فما تريد منى " قال : أريد أن تطهرنى . قال : فأمر به فَرُجِم . قال الترمذى وأبو داود : فلما وجد مَسَّ الحجارة فَرَّ يشتد[2] فضربه رجل بلَحْيِ جَمَلٍ وضربه الناس حتى مات . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هَلَّا تركتموه " وقال : أبو داود والنَّسائى ؛ ليتثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما لترك حَدّ فلا . وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله . وفى قوله عليه السلام : " لعلك قَبَّلْتَ أو غَمزتَ " إشارة إلى قول مالك : إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجها .

الخامسة — وهذا فى الحر المالك لأمر نفسه، فأما العبد فإن إقراره لايخلو من أحد قسمين : إما أن يقرّ على بَدَنه ، أو على ما فى يده وذمته، فإن أقرّ على بَدَنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه . وقال محمد بن الحسن : لا يقبل ذلك منه ؛ لأن بَدَنه مستغرق لحقّ السيد، وفى إقراره إتلاف حقوق السيد فى بَدَنه ؛ ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم : " من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله فإن من يُبْدِ لنا صفحته نُقِم عليه الحدّ " المعنى أن محل العقوبة أصل الخلقة وهى [الدُّمْية][3] فى الآدمية ولا حقّ للسيد فيها، وإنما حقّه فى الوصف والتبع وهى المالية الطارئة عليه ، ألا ترى أنه لو أقرّ بمال لم يقبل حتى قال أبو حنيفة : إنه لو قال سرقت هذه السِّلْعة أنه لم تقطع يده ويأخذها المقَرّ له . وقال علماؤنا : السِّلْعة للسيد ويُتْبَع العبدُ بقيمتها إذا عَتَق ؛ لأن مال العبد للسيد إجماعا ، فلا يقبل قوله فيه ولا إقراره عليه ، لا سيما وأبو حنيفة يقول : إن العبد لا ملك له . ولا يصح أن يَملك ولا يملك ، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملّكه ، ولكن جميع ما فى يده لسيده بإجماع على القولين . والله أعلم .

(١) اللفظ فى رواية لأبى داود . (٢) يشتد : يعدو .

(٣) التصحيح من ابن العربى وفى الأصول «الذمة» .

قوله تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ فى الترمذى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يحرّك به لسانه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » قال : فكان يحرّك به شفتيه . وحرك سفيان شفتيه . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ مسلم عن آبن جبير عن آبن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدّة ، كان يحرّك شفتيه ، فقال لى آبن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرّكهما ، فقال سعيد : أنا أحركهما كما كان آبن عباس يحرّكهما فحرّك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال جمعه فى صدرك ثم تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ قال فآستمع له وأنصت . ثم إن علينا أن تقرأه ؛ قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام آستمع ، و إذا آنطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ خرّجه البخارى أيضا . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » وقد تقدّم (١) . وقال عامر الشّعبى : إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبّه له ، وحلاوته فى لسانه ، فنهى عن ذلك حتى يجتمع ؛ لأن بعضه مرتبط ببعض . وقيل : كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحى حرّك لسانه مع الوحى مخافة أن ينساه فنزلت « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » ونزل « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » ونزل « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ » قاله آبن عباس . « وَقُرْآنَهُ » أى وقراءته عليك . والقراءة والقرآن فى قول الفراء مصدران . وقال قتادة : « فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥٠

أى فاتبع شرائعه وأحكامه . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أى تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام؛ قاله قتادة . وقيل : ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما. وقيل : أى إن علينا أن نبينه بلسانك . قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال ٱبن عباس : أى إن أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه . وقيل : أى « كَلَّا » لا يصلّون ولا يزكون يريد كفّار مكة . ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ﴾ أى بل تحبون يا كفّار أهل مكة ﴿ الْعَاجِلَةَ ﴾ أى الدار الدنيا والحياة فيها ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ أى تدعون ﴿ الْآخِرَةَ ﴾ والعمل لها . وفى بعض التفسير قال : الآخرة الجنة . وقرأ أهل المدينة والكوفيون « بَلْ تُحِبُّونَ » « وَتَذَرُونَ » بالتاء فيهما على الخطاب وٱختاره أبو عبيد؛ قال: ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القرّاء لقرأتها بالياء؛ لذكر الإنسان قبل ذلك . الباقون بالياء على الخبر وهو ٱختيار أبى حاتم ، فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى: « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ » وهو بمعنى الناس . ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ فى المقصود؛ نظيره : « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا » .

قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ الأوّل من النضرة التى هى الحسن والنّعمة . والثانى من النظر أى وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة؛ يقال : نَضَرهم الله يَنضُرهم نَضْرة ونَضَارة وهو الإشراق والعيش والغِنى؛ ومنه الحديث " نَضَّر(1) الله ٱمرءًا سمع مقالتى فوعاها " . « إِلَى رَبِّهَا » إلى خالقها ومالكها « نَاظِرَةٌ » أى تنظر إلى ربّها؛ على هذا جمهور العلماء . وفى الباب حديث صُهَيب خرجه مسلم وقد مضى فى « يونس » عند قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ »(2) . وكان ٱبن عمر يقول : أكرم أهل الجنة

(1) نضره ونضره بالتشديد وأنضره أى نعمه ، يروى الحديث بالتخفيف والتشديد من النضارة وهى فى الأصل حسن الوجه والبريق . (2) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠

على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشية. ثم تلا هذه الآية «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» . وروى يزيد النحوى عن عكرمة قال : تنظر إلى ربها نظرا . وكان الحسن يقول : نضرت وجوههم ونظروا إلى ربّهم .

وقيل : إن النظر هنا آنتظار مالهم عند الله من الثواب . وروى عن آبن عمر ومجاهد . وقال عكرمة : تنتظر أمر ربّها . حكاه الماوردىّ عن آبن عمر وعكرمة أيضا . وليس معروفا إلا عن مجاهد وحده. وآحتجوا بقوله تعالى : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» وهذا القول ضعيف جدا، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار. وفى الترمذى عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمَن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخَدمه وسُرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشيّة" ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» قال هذا حديث غريب . وقد روى عن آبن عمر ولم يرفعه . وفى صحيح مسلم عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم جلّ وعزّ إلا رِداء الكبرياء على وجهه فى جَنّة عدن" . وروى جرير بن عبد الله قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : "إنكم ستَرون ربكم عِيانا كما ترون هذا القمر لا تُضَامُّون فى رؤيته فإن آستطعتم ألّا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فآفعلوا" ثم قرأ «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» متفق عليه . وخرجه أيضا أبو داود والترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح . وخَرَّج أبو داود عن أبى رَزِين العُقَيلىّ قال : قلت يا رسول الله أكلّنا يرى ربه ؟ قال آبن معاذ : مُخْلِيًا به يوم القيامة ؟ قال: "نعم يا أبا رَزِين" قال: وما آية ذلك فى خَلْقه ؟ قال "يا أبا رَزِين أليس كلّكم يرى القمر" قال آبن معاذ : ليلة البدر مُخْلِيًا به . قلنا : بلى . قال : "فالله أعظم" [قال آبن معاذ قال](١) :

(١) الزيادة من مسند أبى داود .

" فإنما هو خلق من خلق الله — يعني القمر — فالله أجل وأعظم " . وفي كتاب النسائي عن صهيب قال : " فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبّ إليهم من النظر ولا أقرّ لأعينهم " وفي التفسير لأبي إسحق الثعلبي عن الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يتجلّى ربّنا عزّ وجلّ حتى ينظروا إلى وجهه فيخرّون له سُجّدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا بيوم عِبادة " قال الثعلبي : وقول مجاهد أنها بمعنى تنتظر الثواب من ربها ولا يراه شيء من خلقه فتأويل مدخول؛ لأن العرب إذ أرادت بالنظر الانتظار قالوا نظرته؛ كما قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ » « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » و « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقرونا بذكر إلى وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان. وقال الأزهري : إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربها خطأ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون نظرت إليه إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته؛ قال : —

فإنّكما إنْ تنظُرانِيَ ساعةً * مِن الدَّهرِ تنفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

لما أراد الانتظار قال تنظراني ولم يقل تنظران إليّ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا نظرت إليه؛ قال : —

نَظرتُ إليها والنُّجومُ كأنّها * مَصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ (١)

وقال آخر : —

نَظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى * ولِي نَظَرٌ (٢) لولا التَّحَرُّجُ عارِمُ

وقال آخر :

إنّي إليكَ لِما وَعَدتَ لَناظِرٌ * نَظَرَ الفقيرِ إلى الغنيِّ المُوسِرِ

(١) تشب : توقد . والقفال جمع قافل وهو الراجع من السفر . والبيت من قصيدة لامرئ القيس .

(٢) في نسخ الأصل نظرة ، والصواب ما ذكرنا كما في ديوان قائله وهو عمر بن ربيعة .

أى إنى أنظر إليك بذل ؛ لأن نظر الذلّ والخضوع أرق لقلب المسئول ؛ فأمّا ما استدلوا به من قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » فإنما ذلك فى الدنيا . وقد مضى القول فيه فى موضعه مستوفى[1] . وقال عطية العوفى : ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، ونظره يحيط بهم ؛ يدل عليه « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » قال القشيرى أبو نصر : وقيل : «إلى» واحد الآلاء أى نعمه منتظرة . وهذا أيضا باطل ؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء، ثم الآلاء نعمه الدفع[2] ، وهم فى الجنة لا ينتظرون دفع نقمة عنهم ، والمنتظر للشىء متنغّص العيش فلا يوصف أهل الجنة بذلك . وقيل : أضاف النظر إلى الوجه؛ وهو كقوله تعالى : « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » والماء يجرى فى النهر لا النهر . ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين ؛ قال الله تعالى : «فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً » أى على عينيه . ثم لا يبعد قلب العادة غدا حتى يخلق الرؤية والنظر فى الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : «أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ » فقيل : يارسول الله ! كيف يمشون فى النار على وجوههم؟ قال: "الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم".

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أى وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة . وفى الصحاح : وبَسَر الفحلُ الناقةَ وٱبتسرها إذا ضربها من غير ضَبَعَة، وبَسَر الرجلُ وجهه بُسُورا أى كَلَح يقال : عَبَس و بَسَر . وقال السدى : «بَاسِرَةٌ» أى متغيرة والمعنى واحد .﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أى توقن وتعلم ، والفاقرة الداهية والأمر العظيم ؛ يقال : فقرته الفاقرة أى كسرت فَقَار ظهره . قال معناه مجاهد وغيره . وقال قتادة : الفاقرة الشر . السدىّ : الهلاك . ٱبن عباس وٱبن زيد : دخول النار . والمعنى متقارب . وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم ؛ قاله الأصمعى . يقال : فَقَرتُ أنفَ البعير إذا حززتَه بحديدة ثم جعلتَ على موضع الحزّ الجَرِير[3] وعليه وَتَرٌ مَلْوِىّ لتذلّلَه بذلك وتَرُوضَه؛ ومنه قولهم : قد عُمِل به الفاقرة . وقال النابغة :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ (٢) هكذا فى كل الأصول . (٣) الجرير حبل من أدم يخطم به البعير .

أَبَى لِي قَبْرٌ لا يَزالُ مُقَابِلِي * وضَرْبَةُ فَأْسٍ فوق رَأْسِي فَاقِرَهْ

أي كاسرة .

قوله تعالى : كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ «كَلَّا» رَدْع وزَجْر أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ؛ ثم ٱستأنف فقال : « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أي بلغت النفس أو الروح التراقي ؛ فأخبر عما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب به ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » وقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » وقد تقدّم.(١) وقيل: «كَلَّا » معناه حقًّا أي حقًّا إن المساق إلى الله « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أي إذا ٱرتقت النفس إلى التراقي . وكان ٱبن عباس يقول : إذا بلغت نفس الكافر التراقي . والتراقي جمع تَرْقُوة وهي العظام المكتنفة لنُقْرة النَّحْر، وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر ، وهو موضع الحَشْرجة ؛ قال دُرَيد بن الصِّمَّة(٢) .

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دافعتَ عنهم * وقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي ، والمقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت .

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ ٱختلف فيه فقيل : هو من الرقية ؛ عن ٱبن عباس وعِكْرِمة وغيرهما . روى سِماك عن عِكرمة قال : مَن راقٍ يَرْقِي أي يَشْفِي . وروى ميمون بن مِهران عن ٱبن عباس : أي هل من طبيب يَشْفيه ؛ وقاله أبو قِلابة وقتادة ؛ وقال الشاعر:

هَلْ لِلفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ * أَمْ هلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِ

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٩٥ وجـ ١٧ ص ٢٣٠ فما بعدها .

(٢) كذا في الأصل والبيت لأبنته عمرة من قصيدة لها ترثي بها أباها كما في شعراء النصرانية .

وكان هـذا على وجه الآستبعاد واليأس ؛ أى من يقدر أن يَرْقِى من الموت . وعن آبن عباس أيضا وأبى الجوزاء أنه من رَقِىَ يَرْقَى إذا صَعِد ، والمعنى : من يَرقَى بروحه إلى السماء ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إن ملك الموت يقول مَن راقٍ؟ أى من يَرْقَى بهذه النفس ؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ، فيقول ملك الموت : يافلان آصعد بها . وأظهر عاصم وقوم النون فى قوله تعالى : « مَنْ رَاقٍ » واللام فى قوله : « بَلْ رَانَ » لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المَرْقة ، وبَرَّان فى تثنية البَرّ . والصحيح ترك الإظهار، وكسرة القاف فى « مَنْ رَاق » وفتحة النون فى « بَلْ رَانَ » تكفى فى زوالِ اللبس . وأمثل مما ذُكِر: قصد الوقف على « مَنْ » و « بَلْ » فأظهرهما ؛ قاله القشيرى .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ ﴾ أى أيقن الإنسان ﴿ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ أى فراق الدنيا والأهل والمال والولد ، وذلك حين عاين الملائكة . وقال الشاعر :

فِـــرَاقٌ ليس يُشْــبِهُهُ فِـــرَاق * قد آنقطـــع الرجاءُ عن التَّـلَاق

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ أى فآتصلت الشدّة بالشدّة ؛ شدّة آخر الدنيا بشدة أوّل الآخرة ؛ قاله آبن عباس والحسن وغيرهما . وقال الشعبى وغيره : المعنى آلتفت ساقا الإنسان عند الموت من شدّة الكرب . وقال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى . وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضا : هما ساقا الإنسان إذا التفتا فى الكفن . وقال زيد آبن أسلم : آلتفت ساق الكفن بساق الميت . وقال الحسن أيضا : ماتت رجلاه ، و يبست ساقاه فلم تحملاه ، ولقد كان عليهما جَوَّالا . قال النحاس : القول الأوّل أحسنها . وروى علىّ آبن أبى طلحة عن آبن عباس : « وَالْتَفَّتِ السَّـاقُ بِالسَّاقِ » قال آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة ، فتلتقى الشــدّة بالشدّة إلا من رحمه الله ؛ أى شدّة كرب الموت بشدّة هول المطلع ؛ والدليل على هـذا قوله تعـالى : « إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِـذٍ الْمَسَاقُ » وقال . مجاهـد : بلاء ببلاء . يقول : تتابعت عليه الشدائد . وقال الضحاك وآبن زيد : آجتمع عليه أمران شديدان الناس يُجهِّزون جسده والملائكة يُجهِّزون رُوحه ، والعرب لاتذكر الساق إلا فى المحن

والشدائد العظام ؛ ومنه قولهم : قامت الدنيا على ساق ، وقامت الحرب على ساق . قال الشاعر :

* وقامتِ الحربُ بنا على ساق * (١)

وقد مضى هذا المعنى فى آخر سورة « نٓ وَالقَلَمِ » (٢) . وقال قوم : الكافر تُعَذَّب رُوحه عند خروج نفسه فهذه الساق الأولى ، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده . ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أى إلى خالقك ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ الْمَسَاقُ ﴾ أى المرجع . وفى بعض التفاسير قال : يسوقه مَلَكه الذى كان يحفظ عليه السيئات . والمَسَاق المصدر من ساق يسوق ، كالمَقَال من قال يقول .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ أى لم يصدّق أبو جهل ولم يُصلِّ . وقيل : يرجع هذا إلى الإنسان فى أوّل السورة وهو ٱسم جنس . والأوّل قول ٱبن عباس . أى لم يصدّق بالرسالة « وَلَا صَلَّىٰ » ودعا لربه وصلى على رسوله . وقال قتادة : فلا صدّق بكتاب الله ولا صلّى لله . وقيل : ولا صدّق بمال له ذخرا له عند الله ، ولا صلّى الصلوات التى أمره الله بها . وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه . قال الكسائى : « لا » بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره ؛ تقول العرب : لا عبد الله خارج ولا فلان ، ولا تقول : مررت برجل لا مُحْسن حتى يقال ولا مُجْمل ، وقوله تعالى : « فَلَا ٱقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » ليس من هذا القبيل ؛ لأن معناه أفلا ٱقتحم ؛ أى فهلا ٱقتحم فحذف ألف الآستفهام . وقال الأخفش : « فَلَا صَدَّقَ » أى لم يصدّق ؛ كقوله : « فَلَا ٱقْتَحَمَ » أى لم يقتحم ولم يشترط أن يعقبه

---

(١) صدر البيت : * صبرا أمام إنه شر باق *

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٤٨ وما بعدها .

بشيء آخر، والعرب تقول : لاذهب أى لم يذهب ، فحرف النفى ينفى الماضى كما ينفى المستقبل ؛ ومنه قول زهير :

* فَلَا هو أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمِ (١) *

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أى كذّب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أى يتبختر آفتخارا بذلك ؛ قاله مجاهد وغيره . مجاهد : المراد به أبو جهل . وقيل : « يَتَمَطَّى » من المَطَا وهو الظَّهر والمعنى يَلْوِى مَطَاه . وقيل : أصله يتمطط وهو التمدّد من التكسل والتثاقل ، فهو يتثاقل عن الداعى إلى الحق ؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف والتمطى يدل على قلة الاكتراث وهو التمدّد ، كأنه يمدّ ظَهْره ويَلْوِيه من التبختر . والمَطِيطة الماء الخاثر فى أسفل الحوض ؛ لأنه يتمطط أى يتمدّد ؛ وفى الخبر " إذا مشت أمّتى المُطَيْطاء (٢) وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم " والمُطَيْطاء التبختر ومدّ اليدين فى المشى .

قوله تعالى : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ تهديد بعد تهديد ، ووعيد بعد وعيد ، أى فهو وعيد أربعة لأربعة ؛ كما روى أنها نزلت فى أبى جهل الجاهلِ بربّه فقال : « فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » أى لاصدّق رسول الله ، ولا وقف بين يدىّ فصلّى ، ولكن كذّب رسولى وتولّى عن التصلية بين يدىّ . فترك التصديق خَصْلة ، والتكذيب خَصْلة ، وترك الصلاة خَصْلة ، والتولى عن الله تعالى خَصْلة ، فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة . والله أعلم . لا يقال : فإن قوله « ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى » خَصْلة خامسة ؛ فإنا نقول : تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولّى فأخبر عنها . وذلك بَيِّنٌ فى قول قتادة على ما نذكره . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد ذات يوم (٣) ، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد مما يلى باب بنى مخزوم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) صدر البيت : * وكان طوى كشحا على مستكنة *

(٢) المطيطاء يمدّ و يقصر قال ابن الأثير : وهى من المصغرات التى لم يستعمل لها مكبر .

(٣) فى نسخة ذات ليلة .

بيــده ، فهزّه مرة أو مرتين ثم قال له : " أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى " فقال له أبوجهل : أتهددني؟ فوالله إني لَأَعَزُّ أهل الوادي وأكرمه . ونزل على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كما قال لأبي جهل . وهي كلمة وعيد . قال الشاعر :

فَأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى * وهَلْ للدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال قتادة : أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيده فقال : " أَوْلى لكَ فأَوْلى ثم أَوْلى لكَ فأولى " فقال : ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئا ، إني لأعزّ مَنْ بين جبليها . فلما كان يوم بَدْر أشرف على المسلمين فقال : لا يُعبَد اللهُ بعد هذا اليوم أبدا . فضرب الله عنقه وقتله شر قِتْلة . وقيل : معناه الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

هَمَمْتُ بنفسيَ كُلَّ الهُمُومِ * فأَوْلَى لنفسيَ أَوْلَى لهَـا
سَأَحْمِـــلُ نفسِي عـلى آلةٍ (١) * فإِمَّا عليهـا و إِمَّا لهَـا

الآلة الحالة والآلة السرير أيضا الذي يحمـل عليه الميت ؛ وعلى هـذا التأويل قيـل : هو من المقـلوب ؛ كأنه قيـل : أويل ، ثم أخر الحرف المعتـل ، والمعـنى الويل لك حيـا والويل لك ميتا ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النـار ؛ وهـذا التكرير كما قال (٢) :

* لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي *

أي لك الويل ثم الويل ثم الويل، وضُعِّف هذا القول. وقيل: معناه الذم لك أولى من تركه إلا أنه كثير في الكلام فحذف . وقيل : المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب . وقال أبو العباس أحمـد بن يحيى : قال الأصمعي أَوْلَى في كلام العرب معناه مُقارَبة الهلاك ، كأنه يقول : قد وَلِيتَ الهلاكَ ، قـد دَانَيتَ الهلاكَ ؛ وأصله من الوَلْي وهـو القُرْب ؛ قال الله

---

(١) في نسخ من الأصل على ألة بفتح فشد وهي الحربة وصوابه آلة أي حالة .

(٢) هو آمرؤ القيس ، والبيت بتمامه :

ويوم دخلت الخـــدر خدر عنيزة * فقـالت لك الويلات إنك مرجلي

تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ » أى يقربون منكم ؛ وأنشد الأصمعى :

* وأَوْلَى أن يكون له الـوَلاءُ *

أى قارب أن يكون له ؛ وأنشد أيضا :

* أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا *

أى قد دنا صاحبها الكمد . وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعى و يقول : ليس أحد يفسّر كتفسير الأصمعى . النحاس : العرب تقول أَوْلى لكَ كِدتَ تَهلِك ثم أَفلتَ ، وكأنَّ تقديره : أولى لك وأولى بك الهلكة . المهدوىّ قال : ولا تكون أَوْلى أَفْعَل منكَ ، وتكون خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قال : الوعيد أولى له من غيره ؛ لأن أبا زيد قد حكى : أَوْلاةُ الآنَ إذا أَوْعدوا . فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك . و «لَكَ» خبر عن « أَوْلَى » . ولم ينصرف « أَوْلَى » لأنه صار علما للوعيد فصار كرجل ٱسمه أحمد . وقيل : التكرير فيه على معنى ألزم لك على عملك السَّيء الأوّل ، ثم على الثانى والثالث والرابع كما تقدّم .

قوله تعالى : أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى يظن ٱبن آدم ﴿ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أى أن يُخلَّى مُهمَلا فلا يؤمَر ولا يُنهى ؛ قاله ٱبن زيد ومجاهد ، ومنه إبل سُدًى تَرْعى بلا راعٍ . وقيل : أيحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يُبعَث . وقال الشاعر :

فأُقسِمُ بالله جهدَ اليمين * ما تَرَكَ اللهُ شيئًا سُدَى

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ أي من قطرة ماء تُمنى في الرَّحِم أي تُراق فيه ؛ ولذلك سميت مِنًى لإراقة الدماء . وقد تقدّم[(١)] . والنطفة المـاء القليل ؛ يقال : نطف المـاء إذا قطر . أي ألم يك ماء قليـلا في صُلْب الرجل وتَرَائب المرأة . وقرأ حفص « مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى » باليـاء وهي قراءة ابن محيصن ومجاهـد و يعقوب وعَيَّاش عن أبي عمرو واختاره أبو عبيد لأجل المنيّ . الباقون بالتـاء ؛ لأجل النطفة واختاره أبو حاتم . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي دما بعد النطفة، أي قد رَتَّبه تعـالى بهذا كله على خِسَّة قدره . ثم قال : ﴿ فَخَـلَقَ ﴾ أي فقدّر ﴿ فَسَوَّى ﴾ أي فسوّاه تسوية وعَدَّله تعديلا بجعل الروح فيه ﴿ فَجَعَلَ مِنْـهُ ﴾ أي من الإنسان . وقيل : من المنيّ . ﴿ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أي الرجل والمرأة . وقـد احتج بهذا من رأى إسقاط الخنثى . وقد مضى في سورة « الشورى[(٢)] » أن هذه الآية وقرينتها إنمـا خرجتا مخرج الغالب . وقد مضى في أوّل سورة « النساء[(٣)] » أيضا القول فيه ، وذكرنا في آية المواريث حكمـه فلا معنى لإعادته ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أي أليس الذي قدر على خلق هـذه النَّسمة من قطرة من ماء ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أي على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : "سبحانك اللهـم وبَلَى " وقال ابن عباس : مـن قرأ « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » إماما كان أو غيره فليقل : « سبحان ربي الأعلى » ومن قرأ « لَا أُقْسِمُ بِيَـوْمِ الْقِيَامَةِ » إلى آخرها إماما كان أو غيره فليقل : « سبحانك اللّهمّ بَلَى » ذكره الثعلبي من حديث أبي إسحق السَّبِيعيّ عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس . ختمت السورة والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٨ وص ٢١٦

(٢) راجع جـ ١٦ ص آية ٥٢

(٣) راجع جـ ٥ ص ٢

ســورة الانســان

وهى إحدى وثلاثون آية

مكية فى قول ابن عباس ومقاتل والكلبى . وقال الجمهور : مدنية . وقيل : فيها مكىّ ، من قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا » إلى آخر السورة وما تقدّمه مدنىّ .

وذكر ابن وهب قال : وحدّثنا ابن زيد قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأ « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر بن الخطاب : لا تُثْقل على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : " دَعْه يا بن الخطاب " قال : فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده ، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجنان زَفَر زَفْرة فخرجت نَفْسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَخْرجَ نفسَ صاحبكم — أو أخيكم — الشَّوقُ إلى الجنة" وروى عن ابن عمر بخلاف هذا اللفظ وسيأتى . وقال القشيرى : إن هذه السورة نزلت فى علىّ بن طالب رضى الله عنه . والمقصود من السورة عام . وهكذا القول فى كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ « هَلْ » بمعنى قد ، قاله الكسائى والفراء وأبو عبيدة . وقد حكى عن سيبويه « هل » بمعنى قد . قال الفراء : هل تكون جَحْدا وتكون خبرا فهذا من الخبر؛ لأنك تقول : هل أعطيتك؟ تُقرِّره

بأنك أعطيته ، والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا . وقيل : هى بمنزلة الآستفهام ، والمعنى أتى . والإنسان هنا آدم عليه السلام ؛ قاله قتادة والثورى وعكرمة والسُّدى . و روى عن آبن عباس « حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » قال آبن عباس فى رواية أبى صالح : أر بعون سنة مرت به ، قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملق بين مكة والطائف . وعن آبن عباس أيضا فى رواية الضحاك أنه خلق من طين ، فأقام أر بعين سنة ، ثم من حَمَإٍ مسنون أر بعين سنة ، ثم من صَلْصَال أر بعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة . وزاد آبن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أر بعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ، ثم نفخ فيه الرُّوح . وقيـل : الحين المذكور هاهنا لا يُعرَف مقـدارُه . عن آبن عباس أيضا . حكاه المـاوردى . « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا » قال الضحاك عن آبن عباس : لا فى السماء ولا فى الأرض . وقيل : أى كان جسـدا مصوّرا ترابا وطينا لا يُذكَر ولا يُعرَف ولا يُدرَى ما آسمه ولا ما يراد به ، ثم نُفِخ فيه الرُّوح فصار مذكورا ؛ قاله الفـراء وقطرب وثعلب . وقال يحيى بن سـلّام : لم يكن شيئا مذكورا فى الخلق و إن كان عند الله شيئا مذكورا . وقيل : ليس هـذا الذِّكر بمعنى الإخبار فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم ، بل هذا الذِّكر بمعنى الخطر والشرف والقدر ؛ تقول : فلان مذكور أى له شرف وقدر . وقد قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » أى قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قَدْر عند الخليقة . ثم لمـا عَرَّف اللهُ الملائكةَ أنه جعل آدم خليفة ، وحَمّـله الأمانة التى عجز عنهـا السموات والأرض والجبال ، ظهر فضـله على الكل فصار مذكورا . قال القشيرى : وعلى الجمـلة ما كان مذكورا للخلق و إن كان مذكورا لله . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء : « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا » قال : كان شيئا ولم يكن مذكورا . وقال قوم : النفى يرجع إلى الشىء ؛ أى قد مضى مُدَد من الدهر وآدم لم يكن شيئا يذكر فى الخليقة ؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة ، والمعدوم ليس بشىء حتى يأتى عليه حين . والمعنى قد مضت عليه أزمنـة وما كان آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليقة . وهذا معنى قول قتادة ومقاتل. قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثا ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة

كانت بعد الإنسان . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير، وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئا مذكورا؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيوانا . وقد قيــل : « الإنسان » فى قوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ» عنى به الجنس من ذرّية آدم، وأن الحين تسعة أشهر مدّة حمل الإنسان فى بطن أمه « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا » إذ كان علقة ومضغة ؛ لأنه فى هذه الحالة جماد لا خطر له . وقال أبو بكر رضى الله عنه لمـا قرأ هـذه الآية : ليتها تَمَّت فلا نُبْتَلى . أى ليت المدّة التى أتت على آدم لم تكن شيئا مذكورا تَمَّت على ذلك فلا يلد ولا يُبْتلى أولادُه . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقرأ «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا » فقال ليتها تَمَّتْ .

قوله تعـالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أى ٱبن آدم من غير خلاف ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أى من ماء يقطر وهو المنِىّ، وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة؛ كقول عبد الله بن رَوَاحة يعاتب نفسه :

مَالِى أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّــهْ * هل أنتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فى شَنَّهْ[(١)]

وجمعها نُطَف ونِطَاف . ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ أخلاط واحدها مِشْج ومَشِيج مثل خِدْن وخَدِين؛ قال رؤبة :

يَطْرَحْنَ كُلَّ مُعْجَلٍ نَشَّاجِ * لَمْ يُكْسَ جِلْدًا فى دَمٍ أَمْشَـاجِ

ويقال : مَشَجتُ هـذا بهذا أى خلطته فهو مَمْشوج ومَشِيج مثـل مَخْلوط وخَلِيط . وقال المبرّد : واحد الأَمْشاج مَشْج يقال مَشَج يَمْشِج إذا ٱختلط وهو هنا ٱختلاط النطفة بالدم؛ قال الشَّمّاخ :

طَوَتْ أَحْشاءَ مُرْتِجَةٍ لِوَقْتٍ * على مَشَـجٍ سُـــلالَتُهُ مَهِينُ

وقال الفراء : أمشاج أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعَلَقة ، ويقال للشىء من هذا إذا خُلط مَشِيج كقولك خَلِيط، ومَمْشوج كقولك مَخْلوط . وروى عن ٱبن عباس رضى الله عنه

(١) الشنة : القربة .

قال : الأمشاج الحمرة في البياض والبياض في الحمرة . وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة؛ قال الهذليّ (١) :

كَأَنَّ الرِّيشَ والفُوقَيْنِ مِنْهُ * خِلَافَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشِيجُ

وعن آبن عباس أيضا (٢) قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا مرفوعا ؛ ذكره البزار . وروى عن آبن مسعود : أمشاجها عروق المضغة . وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء . وقال آبن عباس : خلق من ألوان ؛ خلق من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهى نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه . قال قتادة : هى أطوار الخلق؛ طور علقة وطور نطفة وطور عظاما ثم يكسو العظام لحما؛ كما قال في سورة «المؤمنين» «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» الاية . وقال آبن السِّكِّيت : الأمشاج الأخلاط ؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة . وقال أهل المعاني : الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة؛ كما يقال : بُرْمَةٌ أَعْشَارٌ وثوبٌ أخلاقٌ . وروى عن أبى أيوب الأنصاريّ : قال جاء حبر من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة؛ فقال : " ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا عَلَا ماءُ المرأة آنثَتْ وإذا عَلَا ماءُ الرجل أَذْكَرَتْ " فقال الحبر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وقد مضى هذا القول مستوفى في سورة « البقرة » . ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ أى نختبره . وقيل : نقدر فيه الآبتلاء وهو الآختبار . وفيما يختبر به وجهان؛ أحدهما —

(١) هو عمرو بن الداخل الهذلى : سيط به أى خرج فذذ من الريش مختلط من الدم والماء .

(٢) وفى حاشية الجمل نقلا عن القرطبي ما يأتى :

والمعنى : «من نطفة قد آمتزج فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والثخن والقوام، والخواص تجتمع من الأخلاط وهى العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له» .

نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي . الثاني — نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء؛ قاله الحسن . وقيل : «نبتليه» نكلفه . وفيه أيضا وجهان؛ أحدهما — بالعمل بعد الخلق؛ قاله مقاتل . الثاني — بالدين ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي . وروى عن ابن عباس : «نبتليه» نصرفه خلقا بعد خلق ؛ لنبتليه بالخير والشر . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال : المعنى والله أعلم ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ لنبتليه وهي مقدّمة معناها التأخير .

قلت : لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة . وقيل : « جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » يعني جعلنا له سمعا يسمع به الهدى و بصرا يبصر به الهدى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أي بينا له وعرّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعث الرسل فآمن أو كفر ؛ كقوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقال مجاهد : أي بينا له السبيل إلى الشقاء والسعادة . وقال الضحاك وأبو صالح والسدي : السبيل هنا خروجه من الرحم . وقيل : منافعه ومضاره التي يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله . ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ أي أيهما فعل فقد بينا له . قال الكوفيون : « إنْ » ها هنا تكون جزاء و « ما » زائدة أي بينا له الطريق إن شكر أو كفر . واختاره الفراء ولم يجزه البصريون ؛ إذ لا تدخل « إنْ » للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل . وقيل : أي هديناه الرشد أي بينا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه؛ ثم إن خلقنا له الهداية اهتدى وآمن ، و إن خذلناه كفر . وهو كما تقول : قد نصحت لك إن شئت فاقبل و إن شئت فاترك؛ أي فإن شئت فتحذف الفاء وكذا « إِمَّا شَاكِرًا » والله أعلم . و يقال : هديته السبيل وللسبيل و إلى السبيل . وقد تقدّم في « الفاتحة[1] » وغيرها . وجمع بين الشاكر والكفور ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة ؛ نفيا للمبالغة في الشكر وإثباتا لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدّى فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة ، فقلّ شكره لكثرة النعم عليه وكثر كفره و إن قلّ مع الإحسان إليه . حكاه الماوردي .

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٧ وص ١٦٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ بيّن حالَ الفريقين ، وأنه تعبّد العقلاء وكلّفهم ومكّنهم مما أمرهم فمن كفر فله العقاب ، ومن وحّد وشكر فله الثواب . والسلاسِل القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا كما مضى في «الحاقة»(١) . وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر « سَلَاسِلًا » منوّنا . الباقون بغير تنوين . ووقف قُنْبُل وابن كثير وحمزة بغير ألف . الباقون بالألف . فأما « قَوَارِير » الأوّل فنوّنه نافع وابن كثير والكسائي وأبو بكر عن عاصم، ولم ينوّن الباقون . ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف . والباقون بالألف . وأما « قَوَارِير » الثانية فنوّنه أيضا نافع والكسائي وأبو بكر، ولم ينوّن الباقون ، فمن نوّن قرأها بالألف ، ومن لم ينوّن أسقط منها الألف، واختار أبو عبيد التنوين في الثلاثة، والوقف بالألف اتباعا لخط المصحف؛ قال : رأيت في مصحف عثمان « سَلَاسِلًا » بالألف و « قَوَارِيرًا » الأوّل بالألف وكان الثاني مكتوبا بالألف فحُكّت فرأيت أثرها هناك بيّنا . فمن صرف فله أربع حجج : أحدها — أن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت . الثانية — أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أَفْعَل منك، وكذا قال الكسائي والفراء هو على لغة من يَجُرّ الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجُرونه؛ وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كُلْثوم :

كَأَنَّ سُيوفَنَا فِينا وفِيهِمْ * مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا

وقال لَبِيد :

وجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوتُ لِحَتْفِها * بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

وقال لَبِيد أيضا :

فَضْلًا وذو كَرَمٍ يُعِينُ على النَّدَى * سَمْحٌ كَسُوبُ رَغائِبٍ غَنَّامُهَا

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٢

فصرف مَخَـاريق ومَغَالق ورَغَائب وسبيلها ألّا تُصرَف . والحجة الثالثـة — أن يقول نونت قوارير الأول لأنه رأس آية، ورءوس الآى جاءت بالنون؛ كقوله جلّ وعزّ : «مَذْكُورًا . سَمِيعًا بَصِيرًا » فنوّنا الأوّل ليوقف بين رءوس الآى، ونوّنا الثانى على الجوار للأوّل . والحجة الرابعة — آتباع المصاحف وذلك أنهما جميعا فى مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف . وقد آحتج من لم يصرفهنّ بأن قال : إن كل جمع بعـد الألف منـه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدّد لم يُصرَف فى معرفة ولا نكرة، فالذى بعد الألف منـه ثلاثة أحرف قولك : قناديل ودنانير ومناديل ، والذى بعـد الألف منـه حرفان قول الله عز وجل : « لَهُدِّمَتْ صَوَامِـعُ» لأن بعد الألف منه حرفين، وكذلك قوله : «وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا» والذى بعـد الألف منه حرف مُشَدّد شَوَابّ ودَوَابّ . وقال خلف : سمعت يحيى بن آدم يحدث عن آبن إدريس قال : فى المصاحف الأوّل الحرف الأوّل بالألف والثانى بغير ألف، فهذا حجـة لمذهب حمزة . وقال خلف : رأيت فى مصحف ينسب إلى قراءة آبن مسـعود الأول بالألف والثانى بغير ألف . وأما أَفْعَل مِنْـك فلا يقـول أحد من العرب فى شـعره ولا فى غيره هو أفعل منـك منوّنا؛ لأن مِن تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنـوين وإضافة فى حرف؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفراء وغيره .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَغْلَالًا ﴾ جمع غُلّ تُغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم . وعن جُبَـير بن نُفَير عن أبى الدرداء كان يقول : آرفعوا هذه الأيدى إلى الله جل ثناؤه قبل أن تُغَلّ بالأغلال . وقال الحسن : إن الأغلال لم تجعل فى أعناق أهل النار؛ لأنهم أعجزوا الربّ سبحانه ولكن إذلالا . ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ تقدّم القول فيه .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ﴾ الأبرار أهل الصدق واحدهم بَرٌّ، وهو من آمتثل أمر الله تعالى . وقيل : البَرّ الموحِّد والأبرار جمع بارّ مثل شاهد وأشهاد، وقيل : هو جمع بَرّ مثل نَهْر وأنهار ؛ وفي الصحاح : و جمع البر الأبرار وجمع البار البَرَرة، وفلان يَبَرّ خالقَه ويَتَبَرَّره أي يُطيعه والأم بَرَّة بولدها . وروى آبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سماهم الله جل ثناؤه الأبرار لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقّا كذلك لولدك عليك حقّا " . وقال الحسن : البَرّ الذي لا يؤذي الذَّرّ . وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدّون حقّ الله و يوفون بالنَّذْر . وفي الحديث : " الأبرار الذين لا يؤذون أحدا " . ﴿ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ ﴾ أي من إناء فيه الشراب . قال آبن عباس : يريد الخمر . والكأس في اللغة الإناء فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه شراب لم يُسَمَّ كأسا . قال عمرو بن كُلْثوم :

صَبَنْتِ الكأسَ عَنَّا أُمَّ عَمرٍو (١) * وكان الكأسُ مَجْراها اليَمِينا

وقال الأصمعي : يقال صَبَنْتَ عنّا الهديةَ أو ما كان من معروف تَصبِنُ صَبْنا بمعنى كَفَفْتَ ؛ قاله الجوهري . ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي شَوْبها وخلطها ؛ قال حسّان :

كأنَّ سَبِيئةً (٢) مِنْ بيتِ رَأْسٍ * يكونُ مِزَاجُها عَسَلٌ وماءُ

ومنه مِزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة . ﴿ كَافُورًا ﴾ قال آبن عباس : هو آسم عين ماء في الجنة يقال له عين الكافور . أي يمازجه ماء هذه العين التي تسمى كافورا . وقال سعيد عن قتادة : تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم بالمسك . وقاله مجاهد . وقال عِكرمة : مِزَاجها طعمها . وقيل : إنما الكافور في ريحها لا في طعمها . وقيل : أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبَرْده ؛ لأن الكافور لا يشرب ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا » أي كنار . وقال آبن كَيْسان : طُيِّب بالمسك والكافور والزنجبيل . وقال

---

(١) الرواية المشهورة في المعلقات : صددت الكأس .

(٢) السبيئة : الخمر . وسميت بذلك لأنها تستبى أي تشترى لتشرب ؛ وفي بعض النسخ : كأن خبيئة ، وهي المصونة المضنون بها لنفاستها . و بيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر .

مقاتل : ليس بكافور الدنيا ولكن سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدى لها القلوب. وقوله : «كَانَ مِزَاجُهَا» «كان» زائدة أى من كأس مِزاجُها كافورٌ . ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾ قال الفراء : إن الكافور اسم لعين ماء فى الجنة؛ فـ«عَيْنًا» بدل من كافور على هذا . وقيل : بدل من كأس على الموضع . وقيل : هى حال من المضمر فى مِزاجها . وقيل : نصب على المدح؛ كما يُذكَر الرجلُ فتقول : العاقلَ اللبيبَ أى ذكرتم العاقلَ اللبيبَ فهو نصب بإضمار أعنى . وقيل : يشربون عينا . وقال الزجاج : المعنى من عين . ويقال : كافور وقافور . والكافور أيضا وعاء طلع النخل وكذلك الكُفُرَّى . قاله الأصمعى .

وأما قول الراعى :

تَكْسُو المَفَارِقَ واللَّبَّاتِ ذَا أَرَجٍ ﴿ مِن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإن الظبى الذى يكون منه المسك إنما يَرْعى سُنْبُلَ الطِّيب فجعله كافورا . ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال الفراء : يشرب بها ويشربها سواء فى المعنى، وكأن يشرب بها يَرْوَى بها ويَنْقع؛ وأنشد :

شَرِبْنَ بِمَاءِ البحرِ ثم تَرَفَّعتْ ﴿ مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ (١)

قال : ومثله فلان يتكلم بكلام حسن ويتكلم كلاما حسنا . وقيل : المعنى يشربها والباء زائدة . وقيل : الباء بدل «مِن» تقديره يشرب منها؛ قاله القتبى . ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فيقال : إن الرجل منهم ليمشى فى بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجرى معه حيثما دار فى منازله على مستوى الأرض فى غير أخدود، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره؛ وذلك قوله تعالى : «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» أى يُشَقِّقونها شَقًّا كما يفجر الرجل النهر هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد . وعن ابن أبى نجيح عن مجاهد «يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» يقودونها حيث شاءوا، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم . وروى

---

(١) قائله أبو ذؤيب يصف السحابات، والباء فى «بماء» بمعنى «من» و«متى» معناها «فى» فى لغة هذيل ونئيج : أى مر سريع مع صوت .

ابو مقاتل عن أبى صالح عن سعد عن أبى سهل (١) عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع عيون فى الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التى ذكر الله « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » [والأخرى الزنجبيل] (٢) والأخريان نَضّاختان من فوق العرش إحداهما التى ذكر الله [عينا فيها تسمى] (٣) « سَلْسَبِيلا » والأخرى التَّسْنيم " ذكره الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » . وقال : فالتَّسْنيم للقربين خاصة شربا لهم ، والكافور للأبرار شربا لهم ؛ يمزج للأبرار من التَّسْنيم شرابهم ، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مِزاج هكذا ذكره فى التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هى شرب ، فما كان للأبرار مِزاج فهو للقربين صِرف وما كان للأبرار صِرف فهو لسائر أهل الجنة مِزاج ، والأبرار هم الصادقون ، والمقرَّبون هم الصِّدِّيقون .

قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ أى لا يُخلِفون إذا نَذَروا . وقال مَعْمَر عن قتادة : بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمْرة وغيره من الواجبات . وقال مجاهد وعكرمة : يوفون إذا نذروا فى حقّ الله جل ثناؤه . وقال الفراء والجرجانى : وفى الكلام إضمار ؛ أى كانوا يوفون بالنذر فى الدنيا . والعرب قد تزيد مرة « كان » وتحذف أخرى . والنذر حقيقته ما أوجبه المكلَّف على نفسه من شىء يفعله . وإن شئت قلت فى حَدّه : النذر هو إيجاب المكلَّف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه . وقال الكلبى : « يُوفُونَ بِالنذْرِ » أى يتمون العهود والمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى :

(١) هذا السند فى الأصول : أبو مقاتل عن صالح بن سعيد عن أبى سهل الخ وصوبناه من التذكرة للقرطبى .
(٢) الزيادة من الدر المنثور . (٣) الزيادة من التذكرة والدر المنثور .

«ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ» أى أعمال نسكهم التى ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج . وهذا يقوى قول قتادة . وإن النـذر يندرج فيه ما آلتزمه المرء بإيمانه من آمتثال أمر الله ؛ قاله القشيرى . وروى أشهب عن مالك أنه قال : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » هو نذر العتق والصيام والصلاة . وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » قال : النذر هو اليمين .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ أى يحذرون ﴿ يَوْمًا ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أى عاليا داهيا فاشيا وهو فى اللغة ممتدا ؛ والعرب تقول : آستطار الصَّدْع فى القارورة والزجاجة وآستطال إذا آمتد ؛ قال الأعشى :

وبَانَتْ وقد أَسْأَرَتْ[1] فى الفُؤَا * دِ صَدْعًا على نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَا

ويقال : آستطار الحريق إذا آنتشر . وآستطار الفجر إذا آنتشر الضوء .

وقال حسّان :

وَهانَ على سَرَاة بنِي لُؤَيٍّ * حَرِيقٌ بالبُوَيْرَة مُسْتَطِيرُ[2]

وكان قتادة يقول : آستطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . وقال مقاتل : كان شره فاشيا فى السموات فآنشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وفى الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياهُ .

قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ قال آبن عباس ومجاهد : على قِلَّته وحبهم إياه وشهوتهم له . وقال الدارانى : على حبّ الله . وقال الفُضَيل بن عِياض : على حبّ إطعام الطعام . وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال : أطعموه سُكَّرا فإن الربيع يحبّ السُّكَّر . ﴿ مِسْكِينًا ﴾ أى ذا مسكنة . وروى أبو صالح عن آبن عباس قال : هو الطوّاف يسألك مالَكَ ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ أى من يتامى المسلمين . وروى منصور عن الحسن : أن

(١) ويروى : أورثت .

(٢) سراة بنى لؤى أى خيارهم . والبويرة : موضع ببنى قريظة ؛ يشير إلى ما فعله المسلمون ببنى قريظة .

يتيما كان يحضر طعام ٱبن عمر ، فدعا ذات يوم بطعامه ، وطلب اليتيم فلم يجـده ، وجاءه بعـد ما فرغ ٱبن عمر من طعامه فلم يجـد الطعام ، فدعا له بسَوِيق وعسل ؛ فقال : دونك هـذا فوالله ما غُبِنتَ ؛ قال الحسن وٱبن عمـر : والله ما غَبِن . ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ أى الذى يؤسر فيحبس . فروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : الأسير من أهل الشرك يكون فى أيديهم . وقاله قتادة . وروى ٱبن أبى نجيح عن مجاهد قال : الأسـير هو المحبوس . وكذا قال سعيد ٱبن جبير وعطاء : هو المسلم يُحبَس بحقّ . وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وٱبن عباس . قال قتادة : لقـد أمر الله بالأسرى أن يُحسَن إليهـم ، وأن أسراهم يومئذ لَأَهلُ الشِّرك ، وأخوك المسـلم أحقُّ أن تطعمه . وقال عِكرمة : الأسـير العبد . وقال أبو حمزة الثُّمَـالى : الأسير المرأة ، يدل عليه قوله عليه السلام : "ٱستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عَوَانٍ عندكم" أى أسيرات . وقال أبو سعيد الخدرى : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِـيرًا » فقال : " المسكين الفقير واليتيم الذى لا أب له والأسـير المملوك والمسجون " ذكره الثعلبي . وقيل : نسـخ إطعام المسكين آية الصدقات ، و إطعام الأسـير [آية] السيف ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال غيره : بل هو ثابت الحكم ، و إطعام اليتيم والمسكين على التطوع ، و إطعام الأسـير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيـه الإمام . المـاوردى : ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل ؛ لأنه فى أسر خبله وجنونه ، وأسر المشرك ٱنتقام يقف على رأى الإمام ؛ وهذا بِرٌّ و إحسان . وعن عطاء قال : الأسـير من أهل القبلة وغيرهم .

قلت : وكأنّ هـذا القول عام يجمـع جميع الأقوال ، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعـالى ، غير أنه من صـدقة التطوع ، فأما المفروضة فلا . والله أعلم . ومضى القول فى المسكين واليتيم والأسير وٱشتقاق ذلك من اللغة فى « البقرة »(1) مستوفى والحمد لله .

---

(1) راجع جـ ٢ ص ١٤ فا بعد و ص ٢١

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أى يقولون بألسنتهم للسكين واليتيم والأسير « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ » فى الله جل ثناؤه فزعا من عذابه وطمعا فى ثوابه . ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ﴾ أى مكافأة . ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ أى ولا أن تثنوا علينا بذلك ؛ قال آبن عباس : كذلك كانت نياتهم فى الدنيا حين أطعموا . وعن سالم عن مجاهد قال : أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله جل ثناؤه منهم فأثنى به عليهم ؛ ليرغب فى ذلك راغب . وقاله سعيد بن جبير حكاه عنه القشيرى . وقيل : إن هـذه الآية نزلت فى مُطْعِم بن ورقاء الأنصارىّ نذر نذرا فوفى به . وقيل : نزلت فيمن تكفل بأسرى بَدْر وهم سبعة من المهاجرين ؛ أبو بكر وعمر وعلىّ والزّبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضى الله عنهم ؛ ذكره المـاوردى . وقال مقاتل : نزلت فى رجل من الأنصـار أطعم فى يوم واحد مسكينا ويتيما وأسـيرا . وقال أبو حمـزة الثُّمَـالى : بلغنى أن رجلا قال يا رسول الله أطعمنى فإنى واللهِ مجهود ؛ فقال : "والذى نفسى بيده ما عنـدى ما أطعمك ولكن آطلب" فأتى رجلا من الأنصار وهو يتعشى مع آمرأته فسأله وأخبره بقول النبى صلى الله عليه وسـلم ؛ فقالت المرأة : أطعمه وآسقِه . ثم أتى النبى صلى الله عليه وسـلم يتيم فقال : يا رسول الله ! آطعمنى فإنى مجهود . فقال : "ما عنـدى ما أطعمك ولكن آطلب" فاستطعم ذلك الأنصارىّ فقالت المرأة : أطعمه وآسقِه؛ فأطعمه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم أسير فقال : يا رسـول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال : "والله ما معى ما أطعمك ولكن آطلب" . فجاء الأنصارىّ فطلب ، فقالت المرأة : أطعمه وآسقِه . فنزلت : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » ذكره الثعلبى . وقال أهل التفسير : نزلت فى علىّ وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما آسمها فضة .

قلت : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار، ومن فعل فعلا حسنا ؛ فهى عامة . وقد ذكر النقاش والثعلبى والقشيرى وغير واحد من المفسرين فى قصة علىّ وفاطمة وجاريتهما حديثا لا يصح ولا يثبت ، رواه ليث عن مجاهد عن آبن عباس فى قوله عز وجل : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » قال :

مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادهما عامة العرب؛ فقالوا : يا أبا الحسن — ورواه جابر الجُعْفيّ عن قَنْبَر مولى عليّ قال : مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا أبا الحسن — رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم — لو نذرتَ عن ولديك شيئا، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء . فقال رضى الله عنه : إن بَرأَ ولداى صمت لله ثلاثة أيام شكرا . وقالت جارية لهم نوبية . إن بَرأَ سيِّداى صمت لله ثلاثة أيام شكرا . وقالت فاطمة مثل ذلك . وفى حديث الجُعْفيّ فقال الحسن والحسين : علينا مثل ذلك فألْبِس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فآنطلق عليّ إلى شمعون بن حاريا الخيبرى وكان يهوديا فآستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير، فجاء به فوضعه ناحية البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته وآختبزته، وصلّى علىٌّ مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه . وفى حديث الجُعْفيّ : فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأوّل وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش؛ إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب وقال : السلام عليكم أهل بيت محمد — فى حديث الجُعْفيّ — أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنا والله جائع؛ أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة . فسمعه عليّ رضى الله عنه فأنشأ يقول (١) :

فاطم ذاتَ الفضلِ واليقين * يا بنتَ خيرِ الناسِ أجمعين
أما تَرَينَ البائسَ المسكين * قد قام بالبابِ له حنين
يشكو إلى الله ويستكين * يشكو إلينا جائعٌ حزين
كل آمرئ بكسبِه رهين * وفاعل الخيرات يستبين

(١) هذه الأبيات والتى بعدها كل النسخ مجمعة على تحريفها، ولقد أحسن أبو حيان إذ يقول فيها : وذكر النقاش فى ذلك حكاية طويلة جدا، ظاهرة الآختلاق، وفيها أشعار للسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوّة، وأشعار لفاطمة رضى الله عنها تخاطب كل واحد منهم، ظاهرها الآختلاق لسفساف ألفاظها وكسر أبياتها وسفاطة معانيها . وسيأتى للؤلف رحمه الله ما يضعف هذا الحديث ويزيفه .

موعِدُنا جَنّــةُ عِلِّيين * حرّمها الله عــلى الضَّنِين
ولِلبخيــلِ موقِفٌ مهين * تهوى بِهِ النــار إلى سِجِّين
شرابه الحمــيم والغِسْلين * مَنْ يفعلِ الخــيرَ يقم سمين
* ويَدْخلُ الجنةَ أىّ حِين *

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أمرُكَ عِنــدى يابن عَمٍّ طاعهْ * ما بِيَ مِن لُؤْم ولا وَضَــاعهْ
غَذَيْتُ فى الخــبز له صِـناعهْ * أُطعِمــه ولا أُبالِى السَّــاعهْ
أرجو إذا أَشبعتُ ذا المجَــاعهْ * أَنْ أَلحـــقَ الأخيارَ والجَمَــاعهْ
* وأدخلَ الجنةَ لِى شَفاعهْ *

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئا إلا المــاء القَرَاح، فلما أن كان فى اليوم الثانى قامت إلى صاع فطحنته وآختبزته، وصلى علىٌّ مع النبى صلى الله عليــه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد: يتيم من أولاد المهاجرين آستشهد والدى يوم العقبة(١). أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه علىّ فأنشأ يقول :

فاطِمِ بِنتَ السـيِّدِ الـكريم * بنت نـبِيٍّ ليس بِالزَّنِــيم
لقــد أتى الله بِذِى اليتِــيم * من يرحمِ اليوم يكن رحِيم
ويدخل الجنــة أى سـلِيم * قــد حُرِّم الخـــلدُ على اللئيم
أَلَّا يجوزُ الصراطَ المستقيم * يزلّ فى النــار إلى الجحـــيم
* شرابُه الصديدُ والحميم *

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أطعِمه اليوم ولا أبالِي * وأوثِر الله على عِيــالِي
أَمسَوْا جِياعاً وهمُ أَشْبَالِي * أصغرُهم يُقتَلُ فِى القِتا ل

(١) كذا فى الأصل .

بِكَرْبَلا يُقتَل بِٱغتيالِ * ياويل لِلقاتِلِ مِن وَبالِ
تَهوى به النارِ إلى سِفالِ * وفى يديهِ الغُلّ والأغلال
* كبولة زادت على الأكبالِ *

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئا إلا الماء القَراح ، فلما كانت فى اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقى فطحنته وٱختبزته ، وصلّى علىٌّ مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم ؛ إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد تأسروننا وتَشُدّوننا ولا تُطعِموننا ! أطعمونى فإنّى أسير محمد . فسمعه علىّ فأنشأ يقول :

فاطم يا بِنتَ النبىِّ أحمد * بنت نبىٍّ سيِّدٍ مُسَوَّد
وسمّاه الله فهو محمد * قد زانه الله بِحسنٍ أغيد
هذا أسيرٌ للنبىّ المهتد * مُثقَلٌ فى غُلِّهِ مُقَيَّد
يَشكو إلينا الجوعَ قد تمدد * من يُطعِمِ اليومَ يجِده فى غد
عِند العلىّ الواحِدِ الموحَّد * مايزرع الزارِعُ سوف يَحصُد
* أعطيهِ لالا تجعليهِ أقعد *

فأنشأت فاطمة رضى الله تعالى عنها تقول :

لم يَبْقَ مِمّا جاء غيرُ صاع * قد ذهبت كَفِّى مع الذِّراع
ٱبنایَ والله هُما جِياع * يارَبِّ لاتتركهما ضِياع
أبوهما لِلخير ذو ٱصطناع * يَصطنِع المعروفَ بِابتداع
عَبْلُ الذِّراعينِ شديد الباع * وما على رأسِىَ مِن قِناع
* إلّا قِناعاً نَسْجُه أَنْسَاع *

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئا إلا الماء القَراح، فلما أن كان فى اليوم الرابع ، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن و بيده اليسرى الحسين وأقبل نحو

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع ، فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أبا الحسن ما أشدّ ما يسوءنى ما أرى بكم انطلق بنا إلى ابنتى فاطمة " فانطلقوا إليها وهى فى محرابها ، وقد لصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها من شدّة الجوع ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال : "واغوثاه يا الله أهلُ بيتِ محمد يموتون جوعا " فهبط جبريل عليه السلام وقال : السلام عليك ربك يقرئك السلام يا محمد خذه هنيئا فى أهل بيتك . قال : " وما آخذ يا جبريل " فأقرأه « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » إلى قوله : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول : فهذا حديث مُزَوَّق مُزَيَّف قد تَطرَّف فيه صاحبه حتى تَشَبَّه على المستمعين ، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفا ألا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هـذا الفعل مذموم ؛ وقد قال الله تعالى فى تنزيله : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة بأن " خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى " . "وابْدأْ بنفسك ثم بمن تَعُول" وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَفَى بالمرء إثما أن يضيع من يَقُوت" أفيحسب عاقل أن عليا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبيانا صغارا من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ ! حتى تَضوَّروا من الجوع ، وغارت العيون منهم ؛ لخلاء أجوافهم ، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد . هَبْ أنه آثَرَ على نفسه هذا السائل ، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك ؟ ! وهَبْ أنّ أهله سمحت بذلك لعلىّ فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن ؟ ! ما يروج مثل هذا إلا على حَمْقى جهّال ؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعلىّ مثل هذا . وليت شعرى من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علىّ وفاطمة ، وإجابة كل واحد منهما صاحبه ، حتى أدّاه إلى هؤلاء الرواة ؟ ! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى ؛ بلغنى أن قوما

يُخلَّدون فى السجون فيبقون بلا حيلة ، فيكتبون أحاديث فى السَّمَر وأشباهه ، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة ، فإذا صارت إلى الجهابذة رموا بها وزيَّفوها ، وما من شيء إلا وله آفة ومكيدة ، وآفة الدِّين وكيده أكثر .

قوله تعالى : إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ « عَبُوسا » من صفة اليوم ، أى يوما تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ؛ فالمعنى نخاف يوما ذا عبوس . وقال ٱبن عباس : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقَطِران . وعن ٱبن عباس : العَبُوس الضَّيِّق والقَمْطرِير الطويل ؛ قال الشاعر :

* شَـدِيدًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *

وقيل : القَمْطرير الشّديد ؛ تقول العرب : يوم قَمْطرير وقُمَاطر وعَصِيب بمعنى ؛ وأنشد الفرّاء :

بَنِي عَمِّنَا هل تذْكُرونَ بَلَاءَنا * عليكمْ إذا ما كان يومٌ قُمَاطِرُ

بضم القاف . وٱقْمَطَرَّ إذا ٱشتدّ . وقال الأخفش : القمطرير أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله فى البلاء ؛ قال الشاعر :

ففرُّوا إذا ما الحربُ ثار غُبارُها * ولَجَّ بها اليومُ العَبُوسُ القُمَاطِرُ

وقال الكسائى : يقال ٱقمَطَرَّ اليومُ وٱزْمَهَرَّ ٱقْمِطرارا وٱزْمِهرارا وهو القمطرير والزمهرير ، ويوم مُقْمَطِرٌّ إذا كان صعبا شديدا ؛ قال الهُذَلىّ (١) :

بَنُو الحَرْبِ أرْضِعْنا لهم مُقْمَطِرَّةٌ * ومَنْ يُلْقَ مِنَّا ذلكَ اليومَ يَهْرُبُ

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلى والذى فى ديوان الهذليين :

بنو الحرب أرضعنا بها مقمطرة * ومن يلق منا يلق سيد مدرب

أرضعنا مبنى للجهول . مقمطرة من ٱقطرت الناقة إذا لقحت . ويلق بنى للجهول فى اللفظين . والسيد عند هذيل الأسد . والمدرب الضارى .

وقال مجاهـد : إنّ العُبوس بالشفتين والقمطرير بالجبهة والحاجبين فجعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد ٱبن الأعرابى :

يَغْدُو على الصَّيْدِ يَعُودُ مُنْكَسِرْ * ويَقْمَطِرُّ ساعةً ويَكْفَهِرّْ

وقال أبو عبيـدة : يقال رجل قَمْطرير أى متقبض ما بين العينين . وقال الزجاج : يقـال ٱقْمَطرَّت الناقةُ إذا رَفعت ذَنَبها و جَمعت قُطْرَيها و زَمَّت بأنفها ؛ فٱشتقه مِن القُطْر وجعل الميم مزيدة . قال أسد بن ناعصة :

وٱصطليتُ الحروبَ فى كلّ يومٍ * باسِـلِ الشَّـرِّ قَمْطَرِيرِ الصَّباح

قوله تعـالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أى دفع عنهم ﴿ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ أى بأسه وشدته وعذابه ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أى أتاهم وأعطاهم حين لقوه أى رأوه ﴿ نَضْرَةً ﴾ أى حسنا ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أى حبورا. قال الحسن ومجاهد : «نَضْرَةً» فى وجوههم «وَسُرُورًا» فى قلوبهم. وفى النضرة ثلاثة أوجه : أحدها أنها البياض والنقاء ؛ قاله الضحاك . الثـانى الحسن والبهاء؛ قاله ٱبن جبير . الثالث أنها أثر النعمة؛ قاله ٱبن زيد .

قوله تعـالى : وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على الفقر . وقال القُرَظىّ : على الصوم . وقال عطاء : على الجوع ثلاثة أيام وهى أيام النذر . وقيل : بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم على معصية الله ومحارمه . و « ما » مصدرية وهذا على أن الآية نزلت فى جميع الأبرار ومن فعل فعلا حسنا . وروى ٱبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر فقال : " الصبر أربعة أوّلها الصبر عند الصّدمة الأولى والصبر على أداء الفرائض والصبر على ٱجتناب محارم الله والصبر على المصائب " . ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أى أدخلهم الجنة وألبسهم الحـرير . أى يسمى

بحرير الدنيا وكذلك الذى فى الآخرة [وفيه] ما شاء الله عز وجل من الفضل . وقد تقدم(١) أن من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وإنما ألبسه من ألبسه فى الجنة عوضا عن حبسهم أنفسهم فى الدنيا عن الملابس التى حرم الله فيها .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ أى فى الجنة، ونصب « مُتَّكِئِينَ » على الحال من الهاء والميم فى «جَزَاهُمْ» والعامل فيها جزى ولا يعمل فيها «صَبَرُوا»؛ لأن الصبر إنما كان فى الدنيا والآتكاء فى الآخرة . وقال الفراء . وإن شئت جعلت «مُتَّكِئِينَ» تابعا كأنه قال جزاهم جنة « مُتَّكِئِينَ فِيهَا » . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ السرر فى الحجال وقد تقدم(٢) . وجاءت عن العرب أسماء تحتوى على صفات : أحدها الأريكة لا تكون إلا فى حجلة على سرير، ومنها السَّجْل وهو الدلو الممتلئ ماء فإذا صفرت لم تسمَّ سجلا ، وكذلك الذَّنوب لا تسمَّى ذَنوبا حتى تملأ ، والكأس لا تُسمَّى كأسا حتى تُترع من الخمر، وكذلك الطَّبَق الذى تُهدَى عليه الهدية مِهْدى، فإذا كان فارغا قيل طَبَق أو خِوان؛ قال ذو الرُّمَّة :

خُدُودٌ جَفَتْ فى السَّيرِ حتَّى كأنَّما * يُبَاشِرْنَ بِالْمَعْزَاءِ مَسَّ الأرائِكِ(٣)

أى الفرش على السرر . ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا ﴾ أى لا يرون فى الجنة شدّة حرّ كحرّ الشمس ﴿ وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أى ولا بردا مفرطا؛ قال الأعشى :

مُنَعَّمَةٌ طِفْلَةٌ كالمَهَا * ةِ لم تَرَ شَمْسًا ولا زَمْهَرِيرَا(٤)

وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آشتكت النارُ إلى ربّها عزّ وجلّ قالت يا ربّ أَكَل بعضى بعضًا فجعل لها نَفَسين نَفَسا فى الشّتاء ونَفَسا فى الصّيف فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها وشدّة ما تجدون من الحرّ فى الصّيف

---

(١) راجع : ج ١٢ ص ٢٩ (٢) راجع : ج ١٠ ص ٣٩٨

(٣) المعزاء الأرض الصلبة يقول : من شدة الحاجة إلى النوم يرون الأرض الصلبة ذات الحجارة مثل الفرش على الأرائك وهى السرر . ويروى : خدودا على أنه مفعول لفعل فى البيت قبله .

(٤) الذى فى ديوان الأعشى طبع أوربا : مبتلة الخلق مثل المهاة ... الخ .

من سَمُومها". وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن هواء الجنة سَجْسَج لا حَرٌّ ولا بَرْدٌ" والسَّجْسَج الظِّل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. وقال مُرَّة الهَمْدانيّ: الزمهرير البرد القاطع. وقال مقاتل بن حيان: هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد. وقال ابن مسعود: هو لون من العذاب وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا ألقوا فيه سألوا الله أن يعذّبهم بالنار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوما واحدا. قال أبو النَّجْم:

* أو كنت ريحًا كنتُ زَمْهَرِيرًا *

وقال ثعلب: الزَّمهرير القمر بلغة طيء؛ قال شاعرهم:

وليلةٍ ظَلامُها قد ٱعتكَرْ * قَطَعْتُها والزَّمْهَرِيرُ مازَهَرْ

ويروى: ما ظهر؛ أي لم يطلع القمر. فالمعنى لا يرون فيها شمسا كشمس الدنيا ولا قمرا كقمر الدنيا؛ أي إنهم في ضياء مستديم لا ليل فيه ولا نهار؛ لأن ضوء النهار بالشمس وضوء الليل بالقمر. وقد مضى هذا المعنى مُجَوَّدا في سورة «مريم» (1) عند قوله تعالى: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا». وقال ابن عباس: بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نورا ظنّوه شمسا قد أشرقت بذلك النور الجنة، فيقولون: قال ربنا «لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا» فما هذا النور؟ فيقول لهم رضوان: ليست هذه شمس ولا قمر، ولكن هذه فاطمة وعليّ ضحكا فأشرقت الجنان من نور ضحكهما؛ وفيهما أنزل الله تعالى «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ». وأنشد:

أنا مَوْلًى لِفَتَى * أُنْزِلَ فيه هَلْ أَتَى

ذاكَ علِيُّ المُرْتَضَى * وٱبن عَمِّ المصطفَى

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مُظلّة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة

(1) راجع جـ ١١ ص ١٢٧

وإن كان لا وسخ ولا شعث ثَمَّ . ويقال : إن آرتفاع الأشجار فى الجنة مقدار مائة عام ، فإذا آشتهى ولىّ الله ثمرتها دانت حتى يتناولها . وآنتصبت « دَانِيَـةً » على الحال عطفا على « مُتَّكِئِينَ » كما تقول : فى الدار عبد الله متكئًا ومرسلة عليه الحجال . وقيل : آنتصبت نعتا للجنة ؛ أى وجزاهم جنةً دانيـةً فهى صفة لموصوف محذوف . وقيل : على موضع « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا » ويرون دانيةً . وقيل : على المدح أى دنت دانيةً . قاله الفراء . « ظِلَالُهَا » الظلال مرفوعة بدانية، ولو قرئ برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لجاز ، وتكون الجملة فى موضع الحال من الهاء والميم فى « جزاهم » وقد قرئ بذلك . وفى قراءة عبد الله « وَدَانِيًا عَلَيْهِمْ » لتقدم الفعل . وفى حرف أُبىّ « وَدَانٍ » رفع على الآستئناف . ﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ أى سُخِّرت لهم ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ أى ثمارها ﴿ تَذْلِيلًا ﴾ أى تسخيرا فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك؛ قاله قتادة. وقال مجاهد : إن قام أحد آرتفعت له ، وإن جلس تدلت عليه ، وإن آضطجع دنت منه فأكل منها . وعنه أيضا : أرض الجنة من ورق ، وترابها الزعفران ، وطيبها مسك أذفر ، وأصول شجرها ذهب وورق ، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، والثمر تحت ذلك كله؛ فمن أكل منها قائما لم تؤذه ، ومن أكل منها قاعدا لم تؤذه ، ومن أكل منها مضطجعا لم تؤذه . وقال آبن عباس : إذا همّ أن يتناول من ثمارها تدلت إليه حتى يتناول منها ما يريد، وتذليل القطوف تسهيل التناول . والقطوف الثمار الواحد قِطف بكسر القاف سمى به لأنه يُقْطَف، كما سمى الجنى لأنه يجنى . «تَذْلِيلًا» تأكيد لما وصف به من الذّل؛ كقوله تعالى : «وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا» « وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » . الماوردىّ : ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها ، وتخلص لهم من نواها .

قلت : وفى هـذا بعد ؛ فقد روى آبن المبارك، قال أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن آبن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زُمُرُّد أخضر، وكَرَبُها ذهب أحمر، وسَعَفها كُسْوة لأهل الجنة ، منها مُقَطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلال والدِّلاء، أشد

بياضا من اللّبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم . قال أبو جعفر النحاس : ويقال المذلّل الذى قد ذلّله الماءُ أى أرواه . ويقال المذلّل الذى يُفَيِّئه أدنى ريح لنَعْمته ، ويقال المذلّل المُسَوَّى ؛ لأن أهل الحجاز يقولون : ذَلِّل نخلك أى سَوِّه ، ويقال المُذَلَّل القريب المتناول ؛ من قولهم : حائط ذَلِيل أى قصير . قال أبو حنيفة : وهذه الأقوال التى حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها فى قول آمرئ القيس :

* وساقٍ كأنْبُوبِ السَّقِيِّ المُذَلَّلِ (١) *

قوله تعالى : وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أى يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب « بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ » قال ٱبن عباس : ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء؛ أى ما فى الجنة أشرف وأعلى وأنقى. ثم لم تنف الأوانى الذهبية بل المعنى يسقون فى أوانى الفضة ، وقد يسقون فى أوانى الذهب . وقد قال تعالى : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » . وقيل: نبه بذكر الفضّة على الذهب؛ كقوله : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » أى والبرد فنبه بذكر أحدهما على الثانى . والأكواب الكيزان العظام التى لا آذان لها ولا عُرًى ، الواحد منها كُوب ؛ وقال عَدِىّ :

مُتَّكِئًا تُقْرَعُ (٢) أبوابُــهُ * يَسْعَى عليـهِ العبدُ بِالكُوب

وقد مضى فى « الزخرف » (٣) . ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أى فى صفاء القوارير وبياض الفضة ؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهى من فضة . وقيل : أرض الجنة

(١) الأنبوب : البردى . والسقى : النخل المسقى . شبه ساق المرأة ببردى قد نبت تحت نخل ، فالنخل يظله من الشمس وذلك أحسن ما يكون منه . وصدر البيت : وكشح لطيف كالجديل مخصر .

(٢) يروى : تخفق . بدل تقرع . (٣) راجع جـ ١٦ ص ١١١ فا بعدها .

من فضة ، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها . ذكره ابن عباس وقال : ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا القوارير من فضة . وقال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذُّبَاب لم تر من ورائها الماء ، ولكن قوارير الجنة مثل الفضة في صفاء القوارير[1] . ﴿ قَدَّرُوها تَقْدِيرًا ﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال ؛ أي قَدَّرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أتوا بها على قدر رِيِّهم بغير زيادة ولا نقصان . الكلبي : وذلك ألذّ وأشهى ؛ والمعنى قَدَّرتها الملائكة التي تطوف عليهم . وعن ابن عباس أيضا : قَدَّروها على ملء الكفّ لا تزيد ولا تنقص حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر . وقيل : إن الشاربين قَدَّروا لها مقادير في أنفسهم على ما اشتهوا وقَدَّروا . وقرأ عبيد بن عمير والشَّعْبي وابن سيرين « قُدِّروها » بضم القاف وكسر الدال أي جعلت لهم على قدر إرادتهم . وذكر هذه القراءة المهدوي عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما ؛ وقال : ومن قرأ « قُدِّروها » فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى ، وكأن الأصل قُدِّروا عليها فحذف حرف الجر ؛ والمعنى قُدِّرت عليهم ؛ وأنشد سيبويه[2] :

آلَيْتَ حَبَّ العِراقِ الدَّهْرَ آكُلُهُ * والحَبُّ يأكُله في القَرْيةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حَبِّ العراق . وقيل : هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب ؛ وذلك قوله تعالى : « قَدَّرُوها تَقْدِيرًا » أي لا يفضل عن الرِّيّ ولا ينقص منه ؛ فقد أُلْهِمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِيّ المشتهى حتى تغترف بذلك المقدار . ذكر هذا القول الترمذيّ الحكيم في « نوادر الأصول » .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْسًا ﴾ وهي الخمر في الإناء . ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ « كان » صلة أي مزاجها زنجبيل أو كان في حكم الله زنجبيلا . وكانت العرب تَستلذّ من

---

(١) أي في بياضها .

(٢) قائله المتلمس . ويروى : أطعمه . والرواية الصحيحة في « آليت » بالفتح لأنه يخاطب عمرو بن هند الملك ، وكان قد أقسم ألا يطعم المتلمس حب العراق . فقال له المتلمس مستهزئا آليت على حب العراق لا أطعمه ، وقد وجدت منه بالشام ما يغني عما عندك فنه هناك كثير بحيث يأكله السوس . وأراد بالقرية الشام .

الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته ؛ لأنه يَحْـذُو اللسانَ ، ويهضم المـأكول ، فرغبوا في نعيم الآخرة بمـا آعتقدوه نهاية النعمة والطيب . وقال المسيَّب بن عَلَس يصف ثَغْر المرأة :

وَكَأَنَّ طَعْـمَ الزَّنْجَبِيلِ بِــهِ * إِذْ ذُقْتَــهُ وَسُــلَافَـةَ الخَمْــرِ

ويروى : الكَرْم . وقال آخر :

كَأَنَّ جَنِيًّـا مِن الزَّنْجَبِيـ * ـلِ بَـاتَ بِفِيهَـا وأَرْيًا مُشَارَا

ونحوه قول الأعشى[1] :

كَأَنَّ القَــرَنْفُــلَ والزَّنْجَبِيـ * ـلَ بَاتَا بِفِيهَـا وأَرْيًا مَشُــورًا

وقال مجاهد : الزنجبيل آسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار . وكذا قال قتادة : والزّنجبيل آسم العين التي يشرب بها المقربون صِرفا وتمزج لسائر أهل الجنة . وقيل : هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل . وقيل : إنّ فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل .

والمعنى كأنّ فيها زنجبيلا . ﴿ عَيْنًا ﴾ بدل من كأس . ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عينا . ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقدم في قوله تعـالى : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ » . ﴿ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ السلسبيل الشراب اللذيذ وهو فَعْليل من السَّلاسة ؛ تقول العرب : هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنًى أي طيّب الطعم لذيذه . وفي الصحاح : وتسلسل المـاء في الحـلق جرى ، وسَـلْسلتُهُ أنا صببته فيـه ، وماء سَلْسَل وسَلْسَال سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه ، والسُّلاسل بالضم مثـله . وقال الزجاج : السَّلْسَبيل في اللغة آسم لمـا كان في غاية السَّلَاسة فكأنّ العين سميت بصفتها . وعن مجاهد قال : سَلْسَبِيلا حديدة الجَرْى تسيل في حلوقهم آنسلالا . ونحوه عن آبن عباس : إنها الحديدة الجَرْى . ذكره المـاوردىّ ؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

---

(١) الذي في ديوان الأعشى هـذا البيت لا الذي بعده ، وفيه : خالط فاها ... الخ والظاهر أن البيتين واحد وآختلفت الرواية .

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عليهمُ * بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ (١)

وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميت سَلْسَبِيلا ؛ لأنها تسيل عليهم فى الطرق و فى منازلهم ، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة . وقال قتادة : سلسة منقاد ماؤها حيث شاءوا . ونحوه عن عِكرمة . وقال القَفّال : أى تلك عين شريفة فَسَلْ سَبِيلاً إليها . و روى هذا عن عليّ رضى الله عنه . وقوله : «تُسَمَّى» أى إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهـذا الاسم . وصرف سلسبيل ؛ لأنه رأس آية ؛ كقوله تعالى : « الظُّنُونا » و « السَّبِيلَا » .

قوله تعالى : وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُوراً ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَـٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ بيّنَ من الذى يطوف عليهم بالآنية ؛ أى ويخدمهم ولدان مُخلَّدون فإنهم أخفُّ فى الخدمة . ثم قال : « مُخَلَّدُونَ » أى باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغَضاضة والحُسْن ، لا يَهْرَمون ولا يتغيرون ويكونون على سنّ واحدة على مَرِّ الأزمنـة . وقيل : مُخلَّدون لا يموتون . وقيـل : مُسوَّرون مُقرَّطون ؛ أى مُحـلَّون والتخليد التحلية . وقـد تقدم هذا (٢) . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُوراً ﴾ أى ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصـفاء ألوانهم لؤلؤا مفرقا فى عَرَصـة المجلس ، واللؤلؤ إذا نُثِر بساطا كان أحسن منه منظوما . وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بوران بنت الحسن بن سهل ، وهو

---

(١) البريص : نهر بدمشق . وبردى نهـر آخر بدمشق أيضا أى ماء بردى . ويصفق : يمزج . والرحيق : الخمر البيضاء . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٢ فما بعدها .

على بساط منسوج من ذهب، وقـد نثَرَت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤَ ، فنظر إليــه منثورا على ذلك البساط فٱستحسن المنظر وقال : لله درُّ أبى نُوَاس كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كأنّ صُـغْرَى وكُبْرَى من فقَاقِعها * حَصْبَاءُ دُرٍّ على أرضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقيل : إنمـا شبههم بالمنثور ؛ لأنهم سراع فى الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبههنّ باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهنّ لا يُمتَهنّ بالخدمة .

قوله تعـالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيرًا﴾ « ثَمَّ » ظرف مكان أى هناك فى الجنة، والعامل فى « ثَمَّ » معنى « رَأَيْتَ » أى وإذا رأيت ببصرك « ثَمَّ » . وقال الفرّاء : فى الكلام « ما » مضمرة أى وإذا رأيت ما ثَمَّ ؛ كقوله تعـالى : « لَقَـدْ تَقَطَّعَ بَيْنَـكُمْ » أى ما بينـكم . وقال الزجاج : « ما » موصـولة بثَمَّ على ماذكره الفرّاء، ولايجوز إسـقاط الموصول وترك الصـلة ، ولكن « رَأَيْتَ » يتعـدى فى المعنى إلى « ثَمَّ » والمعنى إذا رأيت ببصرك « ثَمَّ » ويعنى بثَمَّ الجنة، وقـد ذكر الفرّاء هـذا أيضا . والنعيم سائر ما يتنعم به . والمُلْك الكبير ٱستئذان الملائكة عليهـم ؛ قاله السُّـدىُّ وغيره . قال الكلبىّ : هو أن يأتى الرسول من عنـد الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى ولىّ الله وهو فى منزله فيستأذن عليــه، فذلك المُلْك العظيم . وقاله مقاتل بن سليمان . وقيــل : المُلْك الكبير هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجبـا ، حاجبا دون حاجب ، فبينما ولىّ الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه مَلَك من عند الله، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتُحْفةٍ من ربّ العالمين لم يرها ذلك الولىّ فى الجنــة قط ، فيقول للحاجب الخارج : ٱستأذن على ولىّ الله فإن معى كتابا وهدية من ربّ العالمين . فيقول هذا الحاجب للحاجب الذى يليه : هـذا رسول من ربّ العالمين ، معـه كتاب وهدية يستأذن على ولىّ الله ؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذى يلى ولىّ الله فيقول له : يا ولىّ الله! هذا رسول من ربّ العالمين يستأذن عليك ، معه كتاب وتُحفـة من ربّ العالمين أفيؤذن له ؟ فيقول : نعم ! فأذنوا له . فيقول ذلك الحاجب الذى يليــه : نَعَم فأذنوا له . فيقول الذى يليه للآخر كذلك حتى يبلغ

الحاجب الآخر، فيقول له : نَعَم أيها المَلك، قد أذن لك، فيدخل فيسلّم عليه ويقول : السَّلامُ يقرئك السَّلام ، وهـذه تُحْفة وهذا كتاب من ربّ العالمين إليك. فإذا هو مكتوب عليـه : من الحيّ الذى لا يموت إلى الحيّ الذى لا يموت . فيفتحه فإذا فيه : سلام على عبدى وولى ورحمتى وبركاتى يا وليى أما آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربك؟ فيستخفه الشوق فيركب البُرَاق فيطير به البُرَاق شوقا إلى زيارة علام الغيوب، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال سـفيان الثورى : بلغنا أن المُلْك الكبير تسليم الملائكة عليهم؛ دليـله قوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِـمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَـا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» . وقيل : المُلْك الكبير كون التيجان على رءوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك . وقال الترمذى الحكيم : يعنى مُلْك التكوين فإذا أرادوا شيئا قالوا له كُنْ . وقال أبو بكر الوراق : مُلْك لا يتعقبه هُلْك . وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الملك الكبير هو [أنّ](1) أدناهم منزلة ينظر فى مُلْكه مسيرة ألفى عام يَرَى أقصاه كما يَرَى أدناه" قال : " وإن أفضلهم منزلة مَن ينظر فى وجه ربّه تعالى كلَّ يوم مرتين " سبحان المنعم .

قوله تعـالى : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ قرأ نافع وحمزة وآبن محيصن « عَالِيهِم » ساكنة اليـاء ، وآختاره أبو عبيد آعتبارا بقراءة آبن مسعود وآبن وثاب وغيرهما « عَالِيَتُهُمْ » وبتفسير آبن عباس : أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضل منها . الفراء : وهو مرفوع بالآبتداء وخبره « ثِيَابُ سُنْدُسٍ » وآسم الفاعل يراد به الجمع . ويجوز فى قول الأخفش إفراده على أنه آسم فاعل متقدّم و «ثِيَابُ» مرتفعة به وسَدّت مَسدّ الخبر والإضافة فيـه فى تقدير الآنفصال لأنه لم يُخَصّ ، وآبتـدئ به لأنه آختص بالإضافة . وقرأ الباقون «عَالِيَهُمْ» بالنصب . وقال الفراء : هو كقولك فَوْقَهم ، والعرب تقول : قومك داخلَ الدارِ فينصبون داخل على الظرف لأنه محلّ . وأنكر الزجاج هذا وقال : هو مما لا نعرفه فى الظروف، ولو كان ظرفا لم يجز إسكان الياء ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم فى قوله :

---

(1) زيادة يقتضيها المعنى .

« يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى على الأبرار « وِلْدَانٌ » عاليا الأبرارَ ثيابُ سندسٍ؛ أى يطوف عليهم فى هذه الحال ، والثانى أن يكون حالا من الولدان أى « إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُوراً » فى حال علو الثياب أبدانهم . وقال أبو على : العامل فى الحال إما « لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً » وإما « جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا » قال : ويجوز أن يكون ظرفا فصُرِف . المهدوى : ويجوز أن يكون اسم فاعل ظرفا؛ كقولك هو ناحية من الدار، وعلى أن عاليا لمّا كان بمعنى فوق أُجْرِى مُجْراه بجعل ظرفا . وقرأ ابن محيصن وابن كثير وأبو بكر عن عاصم « خُضْرٍ » بالجر على نعت السُّندس « وَإِسْتَبْرَقٌ » بالرفع نَسَقا على الثياب، ومعناه عاليهم [ثيابُ](١) سندسٍ و إستبرقٌ . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو و يعقوب « خُضْرٌ » رفعا نعتا للثياب « وَإِسْتَبْرَقٍ » بالخفض نعتا للسُّندس ، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة ، وأحسن ماعطف الإستبرق على السُّندس عطف جنس على جنس ، والمعنى عاليهم ثيابٌ خُضْرٌ من سندسٍ و إستبرقٍ أى من هذين النوعين . وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع و يكون « خُضْرٌ » نعتا للثياب ؛ لأنهما جميعا بلفظ الجمع « وإِسْتَبْرَقٌ » عطفا على الثياب . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائى كلاهما بالخفض و يكون قوله «خضرٍ» نعتا للسُّندس ، والسُّندس اسم جنس وأجاز الأخفش وصف اسم الجنس بالجمع على استقباح له ؛ وتقول : أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدِّرهمُ البِيضُ؛ ولكنه مُستبعَد فى الكلام . والمعنى على هذه القراءة : عاليهم ثيابُ سندسٍ خضرٍ وثيابُ إستبرقٍ . وكلهم صرف الإستبرق إلا ابن محيصن فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ « و إستبرقَ » نصبا فى موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمى وهو غلط ؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف ؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم أنه قد يجعل علما لهذا الضرب من الثياب . وقرئ « وَاسْتَبْرَقَ » بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمِّى باستفعل من البريق وليس بصحيح أيضا؛ لأنه مُعرَّب مشهور تعريبه وأن أصله استبْرك(٢) والسُّندس ما رَقّ من الدِّيبَاج والإستبرق ماغَلُظ منه . وقد تقدّم(٣) .

(١) زيادة تقتضيها العبارة . (٢) فى الأصل إستبرق وهو تحريف والتصويب من القاموس الفارسى . وفى الألفاظ الفارسية وشرح القاموس أصله : « استبر » . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٧ و جـ ١٧ ص ١٧٩

قوله تعالى : ﴿ وَحُلُّوا ﴾ عطف على « وَيَطُوفُ » . ﴿ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وفى سورة فاطر « يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ » وفى سورة الحج «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا» فقيل : حُلِيّ الرجل الفضّة وحُلِيّ المرأة الذهب . وقيل : تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضّة . وقيل : يجمع فى يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضّة وسواران من لؤلؤ ليجتمع لهم محاسن الجنة ؛ قاله سعيد بن المسيِّب . وقيل : أى لكل قوم ماتميل إليه نفوسهم . ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ قال علىّ رضى الله عنه فى قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » قال : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما ، فتجرى عليهم بنضرة النّعيم ، فلا تتغير أبشارهم ، ولا تتشعث أشعارهم أبدا ، ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما فى بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » . وقال النَّخَعىّ وأبو قِلَابَة : هو إذا شربوه بعد أكلهم طَهَّرهم ، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْحَ مِسك ، وضُمِّرت بطونُهم . وقال مقاتل : هو من عينٍ ماء على باب الجنة ، تنبع من ساق شجرة ، من شرب منها نزع الله ما كان فى قلبه من غِلّ وغِشّ وحسد ، وما كان فى جوفه من أذًى وقذر . وهذا معنى ماروى عن علىّ إلا أنه فى قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فَعُولا للمبالغة ، ولا يكون فيه حجة للحنفى أنه بمعنى الطاهر . وقد مضى بيانه فى سورة « الفرقان »(١) والحمد لله . وقال طَيِّب الجَمَّال : صَلَّيتُ خَلْف سهل بن عبد الله العَتَمة فقرأ « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » وجعل يُحَرِّك شفتيه وفمه كأنه يَمَصّ شيئا ، فلما فرغ قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ أى يقال لهم إنما هذا جزاء لكم أى ثواب . ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ ﴾ أى عملكم ﴿ مَشْكُورًا ﴾ أى من قبل الله ، وشكره للعبد قبول طاعته ، وثناؤه عليه ، وإثابته إياه . وروى سعيد عن قتادة قال : غَفَر لهم الذَّنْب وشَكَر لهم الحُسْنى . وقال

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٩ فما بعدها .

مجاهد : « مَشْكُورًا » أى مقبولا والمعنى متقارب ؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره ، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم . روى عن آبن عمر : أن رجلا حَبَشيًّا قال : يا رسول الله ! فضلتم علينا بالصُّور والألوان والنّبوّة ، أفرأيتَ إن آمنتُ بما آمنتَ به، وعملتُ بما عملتَ أكائن أنا معك فى الجنة ؟ قال : " نعم والذى نفسى بيده إنه لَيُرى بياضُ الأسود فى الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام" ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عَهْد ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة" فقال الرجل : كيف نهلك بعدها يا رسول الله؟ فقال : " إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله فتجىء النِّعمة من نِعَم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يَتَطَوَّل(١) الله برحمته " قال : ثم نزلت « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » إلى قوله : « وَمُلْكًا كَبِيرًا » قال الحبشيّ : يا رسول الله ! وإن عينيّ لترى ما ترى عيناك فى الجنة ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " نعم " فبكى الحبشيّ حتى فاضت نَفْسه . قال آبن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه فى حفرته ويقول : « إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » قلنا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : " والذى نفسى بيده لقد أوقفه الله ثم قال أى عبدى لأبيضنّ وجهك ولأُبَوِّئَنَّك من الجنة حيث شئت فنعم أجر العاملين " .

قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ ما آفتريتَه ولا جئتَ به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يدّعيه المشركون . ووجه آتصال هذه الآية بما قبلُ أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد بيَّن أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه، فليس بسحر

(١) فى نسخة : يتعطف .

ولا كهانة ولا شعر وأنه حقّ . وقال ابن عباس : أنزل القرآن متفرقا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال « نَزَّلْنَا »[١] وقد مضى القول فى هذا مبينا والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أى لقضاء ربك . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : اصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت . ثم نسخ بآية القتال . وقيل : أى اصبر لما حكم به عليك من الطاعات ، أو انتظر حكم الله إذ وعدك أنه ينصرك عليهم ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة . ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا ﴾ أى ذا إثم ﴿ أَوْ كَفُورًا ﴾ أى لا تطع الكفّار . فروى مَعْمَر عن قَتَادة قال قال أبو جهل : إن رأيتُ محمدا يُصلّى لأطأنّ على عنقه . فأنزل الله عز وجل : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . ويقال : نزلت فى عُتْبة بن ربيعة والوليد ابن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوّة، ففيهما نزلت « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . قال مقاتل: الذى عرض التزويج عتبة بن ربيعة؛ قال : إن بناتى من أجمل نساء قريش، فأنا أزوّجك ابنتى من غير مَهْر، وارجع عن هذا الأمر . وقال الوليد : إن كنتَ صنعتَ ما صنعتَ لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر؛ فنزلت . ثم قيل « أَوْ » فى قوله تعالى : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » أوكد من الواو؛ لأن الواو إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال : « لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » فـ « أو » قد دلّت على أن كل واحد منهما أهل أن يُعصَى؛ كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين، أو اتبع الحسن أو ابن سيرين فقد قلت : هذان أهل أن يُتّبعا وكل واحد منهما أهل لأن يُتّبع؛ قاله الزجاج . وقال الفرّاء : « أو » هنا بمنزلة «لا» كأنه قال : ولا كفورا؛ قال الشاعر :

لَا وَجْدَ ثَكْلَى كَمَا وَجَدْتُ وَلَا * وَجْدَ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبَعُ[٢]
أَوْ وَجْدَ شَيْخٍ أَضَلَّ نَاقَتَهُ * يَوْمَ تَوَافَى الْحَجِيجُ فَٱندفعُوا

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩ (٢) العجول من النساء والإبل الواله التى فقدت ولدها ، سميت بذلك لعجلتها فى جيئتها وذهابها جزعا ، وهى هنا الناقة . والربع كعضر الفصيل ينتج فى الربيع .

أراد ولا وجد شيخ . وقيل : الآثم المنافق ، والكفور الكافر الذى يظهر الكفر ؛ أى لا تطع منهم آثمـا ولا كفورا . وهو قريب من قول الفرّاء .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى صـلّ لربك أوّل النهار وآخره ، ففى أوّله صلاة الصبح وفى آخره صلاة الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ ﴾ يعنى صلاة المغرب والعشاء الآخرة ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْـلًا طَوِيلًا ﴾ يعنى التطوع فى الليل ؛ قاله ٱبن حبيب . وقال ٱبن عباس وسفيان : كلّ تسبيح فى القرآن فهو صلاة . وقيل : هو الذكر المطلق سواء كان فى الصـلاة أو فى غيرها . وقال ٱبن زيد وغيره : إن قوله « وَسَبِّحْهُ لَيْـلًا طَوِيلًا » منسوخ بالصلوات الخمس . وقيل : هو ندب . وقيل : هو مخصوص بالنبى صلى الله عليه وسلم . وقد تقـدّم القول فى مثله فى سـورة « المزمّل » وقول ٱبن حبيب حسن . وجمـع الأصيل الأصائل والأُصُل ؛ كقولك سَفَائن وسُفُن ؛ قال :

* ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ *

وقال(١) فى الأصائل وهو جمع الجمع :

لَعَمْرِى لَأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ * وأقعـدُ فى أَفْيَـائِه بالأَصَـائِلِ

وقد مضى هذا فى آخر « الأعراف »(٢) مستوفى . ودخلت « مِنْ » على الظـرف للتبعيض ، كما دخلت على المفعول فى قوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » .

قوله تعـالى : إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْـدِيلًا ﴿٢٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَـاجِلَةَ ﴾ توبيخ وتقريع ، والمـراد أهل مكة . والعاجلة الدنيـا ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ أى ويدعون ﴿ وَرَاءَهُمْ ﴾ أى بين أيديهـم ﴿ يَوْمًا ثَقِيـلًا ﴾

---

(١) قاله أبو ذؤيب الهذلى . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها .

أى عسيرا شديدا كما قال : « ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يتركون الإيمان بيوم القيامة . وقيل : « وَرَاءَهُمْ » أى خلفهم ، أى ويذرون الآخرة خلف ظهورهم فلا يعملون لها . وقيل : نزلت فى اليهود فيما كتموه من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوّته . وحبهم العاجلة أخذهم الرّشا على ما كتموه . وقيل : أراد المنافقين ؛ لآستبطانهم الكفر وطلب الدنيا . والآية تعمّ . واليوم الثقيل يوم القيامة . وإنما سمى ثقيلا لشدائده وأهواله . وقيل : للقضاء فيه بين عباده .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أى من طين . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أى خلقهم ؛ قاله آبن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم . والأَسْر الخَلْق ؛ قال أبو عُبيد : يقال فرسٌ شديد الأَسْر أى الخَلْق . ويقال : أسره الله جل ثناؤه إذا شَدّد خَلْقه ؛ قال لَبيد :

سَاهِمُ الوجهِ شديدٌ أَسْرُهُ * مُشْرِفُ الحارِكِ مَحْبوكُ الكَتَدْ (١)

وقال الأخطل :

مِنْ كُلِّ مُجْتَنَبٍ شديدٍ أَسْرُهُ * سَلِسِ القِيادِ تَخالُهُ مُخْتالَا (٢)

وقال أبو هريرة والحسن والربيع : شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعَصَب . وقال مجاهد فى تفسير الأَسْر : هو الشَّرْج ؛ أى إذا خرج الغائط والبول تَقَبَّضَ الموضعُ . وقال آبن زيد : الأَسْر القوّة . وقال آبن أحمر يصف فرسا :

يَمْشِى بِأَوْظِفَةٍ شِدَادٍ أَسْرُهَا * صُمِّ السَّنَابِكِ لا تَقِى بِالجَدْجَدِ (٣)

وآشتقاقه من الإسار وهو القِدُّ الذى يشد به الأقتاب ؛ يقال : أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْرا أى شددته وربطته ؛ ويقال : ما أحسن أَسْرَ قَتَبِه أى شدّه وربطه ؛ ومنه قولهم : خذه

(١) ورد فى اللسان مادة (حبك) : أنشد بيت لبيد على هذه الصورة : مشرف الحارك محبوك الكفل (وكذلك هو فى ديوانه) ، ومحبوك الكفل : مدمجه . وفى مادة حرك أنشد الشطر :

* مغبط الحارك محبوك الكفل *

أما الشطر الذى فى التفسير هنا فهو لأبى دؤاد وقد مر فى ج ١٧ ص ٣٢ .

(٢) مجتنب مفتعل من الجنيبة وهى الفرس تقاد ولا تركب ، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل . (٣) الجدجد : الأرض الصلبة . ولا تق : لا تتوقى ولا تهيب .

بأَسْره إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله ؛ كأنهم أرادوا تَعْكِيمه[1] وشـدّه لم يُفتح ولم يُنقَص منـه شيء . ومنـه الأسير لأنه كان يُكتّف بالإسار . والكلام خرج مخرج الآمتنان عليهـم بالنِّعم حين قابلوها بالمعصية . أى سَوّيتُ خَلْقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بى . ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ قال آبن عبـاس : يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنـا بأطوع لله منهم . وعنه أيضا : لغيرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّوَر وأقبحها . كذلك روى الضحاك عنه . والأوّل رواه عنه أبو صالح .

قوله تعـالى : إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أى السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أى موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أى طريقا موصّلا إلى طاعته وطلب مرضاته . وقيل : « سَبِيلًا » أى وسيلة . وقيل : وجهة وطريقا إلى الجنة[2] . والمعنى واحد . ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ أى الطاعة والآستقامة وآتخاذ السبيل إلى الله ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فأخبر أن الأمر إليـه سبحانه ليس إليهـم ، وأنه لا تنفذ مشيئةُ أحدٍ ولا تتقدّم إلا أن تتقدّم مشيئته . وقرأ آبن كثير وأبو عمرو « وَمَا يَشَاءُونَ » بالياء على معنى الخبر عنهم . والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه . وقيل : إن الآية الأولى منسوخة بالثانية . والأشبه أنه ليس بنسخ بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته . قال الفرّاء : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » جواب لقوله : «فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقـال : « وَمَا تَشَاءُونَ » ذلك السبيل « إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ » لكم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بأعمالكم ﴿ حَكِيمًا ﴾ فى أمره ونهيه لكم . وقـد مضى فى غير موضع .

(١) عكمت المتاع شددته ، والعكام الخيط الذى يعكم به ، وعكمت البعير شددت عليه العكم .

(٢) فى نسخة : إلى الخير .

﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أى يدخله الجنة راحما له ﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ أى ويعذّب الظالمين فنصبه بإضمار يعذّب . قال الزجاج : نصب الظالمين لأن قبله منصوب ؛ أى يدخل من يشاء فى رحمته ويعذّب الظالمين أى المشركين ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرا لهذا المضمر ؛ كما قال الشاعر :

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا　＊　أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ　＊　وَحْدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

أى أخشى الذئب أخشاه . قال الزجاج : والاختيار النصب و إن جاز الرفع ؛ تقول : أعطيت زيدا وعمرا أعددت له برّا فيختار النصب ؛ أى وبررت عمرا أو أبرّ عمرا . وقوله فى « حم عسق » : « يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ » ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب فى المعنى ؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء . وها هنا قوله : « أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا » يدل على ويعذّب فجاز النصب . وقرأ أبان بن عثمان « وَالظَّالِمُونَ » رفعا بالابتداء والخبر ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ . ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى مؤلما موجعا . وقد تقدم هذا فى سورة « البقرة »(١) وغيرها والحمد لله . ختمت السورة .

سورة المرسلات

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » مدنية . وقال ابن مسعود : نزلت « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » على النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ونحن معه نسير حتى أوينا إلى غار بمنًى فنزلت ؛ فبينا نحن نتلقاها منه ، و إنّ فاه لرَطْب بها إذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " وُقِيتم شرَّها كما وُقيت شرَّكم " . وعن كريب مولى ابن عباس قال : قرأت سورة « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » فسمعتنى أمّ الفضل امرأة العباس فبكت وقالت : والله يا بنىّ لقد أذكرتنى بقراءتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى صلاة المغرب . والله أعلم . وهى خمسون آية .

(١) راجع جـ ١ ص ١٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾
وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾
عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾
وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ
أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح . وروى مسروق عن عبد الله قال : هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي . وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبي . وقيل : هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو صالح : إنهم الرسل تُرسَل بما يُعرَفون به من المعجزات . وعن ابن عباس وابن مسعود : إنها الرياح؛ كما قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ » وقال : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ » . ومعنى « عُرْفًا » يتبع بعضها بعضا كعُرْف الفَرَس ؛ تقول العرب : الناس إلى فلان عُرْفٌ واحد إذا توجهوا إليه فأكثروا . وهو نصب على الحال من « والمرسلات » أي والرياح التي أرسلت متتابعة . ويجوز أن تكون مصدرا أي تباعا . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر ، كأنه قال : والمرسلات بالعُرْف والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه . وقيل : إنها الزواجر والمواعظ . « وعُرْفًا » على هذا التأويل متتابعات كعُرْف الفَرَس ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : جاريات ؛ قاله الحسن ؛ يعني في القلوب . وقيل : معروفات في العقول .

﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ الرياح بغير اختلاف ؛ قاله المهدوى . وعن ٱبن مسعود : هى الرياح العواصف تأتى بالعصف وهو ورق الزرع وحُطامه ؛ كما قال تعالى : « فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا » (١) . وقيل : العاصفات الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها . وقيل : الملائكة تعصف بروح الكافر؛ يقال : عصف بالشيء أى أباده وأهلكه ؛ وناقة عَصُوف أى تعصف براكبها فتمضى كأنها ريح فى السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم أى ذهبت بهم . وقيل : يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف . ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها . وقال ٱبن مسعود ومجاهد : هى الرياح يرسلها الله تعالى نشرا بين يدى رحمته ؛ أى تنشر السحاب للغيث . وروى ذلك عن أبى صالح . وعنه أيضا : الأمطار ؛ لأنها تنشر النبات فالنشر بمعنى الإحياء ؛ يقال : نشر الله الميت وأنشره أى أحياه . وروى عنه السدى : أنها الملائكة تنشر كتب الله عز وجل . وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بنى آدم . الضحاك : إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد . وقال الربيع : إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح . قال : « والنّاشِرَاتِ » بالواو ؛ لأنه ٱستئناف قسم آخر . ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل ؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح . وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال : ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال . وروى ٱبن أبى نجيح عن مجاهد قال : الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدّده . وعن سعيد عن قتادة قال : « الفارقات فرقا » الفرقان فَرَق الله فيه بين الحقّ والباطل والحرام والحلال . وقاله الحسن وٱبن كَيْسان . وقيل : يعنى الرسل فَرَقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أى بينوا ذلك . وقيل : السحابات الماطرة تشبيها بالناقة الفارق وهى الحامل التى تخرج وتَنِدّ فى الأرض حين تضع ، ونوق

(١) كذا فى الأصول ؛ ولعل المناسب الآستشهاد بقوله تعالى : « جاءتها ريح عاصف » كما أشار إليه أبو حيان بقوله : وأن العصف من صفات الريح ... الخ .

فَوارِقُ وفُرَّق . [وربما](١) شبهوا السحابة التى تنفرد من السحاب بهذه الناقة ؛ قال ذو الرمة :

أَوْ مُزْنَةٌ فارقٌ يَجْلو غوارِبَها * تَبَوُّجُ الْبَرقِ والظَّلْماءُ عُلْجُومُ(٢)

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة بإجماع ؛ أى تلق كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله المهدوى . وقيل : هو جبريل وسمى بٱسم الجمع ؛ لأنه كان ينزل بها . وقيل : المراد الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ؛ قاله قُطْرب . وقرأ ٱبن عباس « فالملَقِّيات » بالتشديد مع فتح القاف ؛ وهو كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ » . ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذُرًا ﴾ أى تلق الوحى إعذارا من الله أو إنذارا إلى خلقه من عذابه ؛ قاله الفراء . وروى عن أبى صالح قال : يعنى الرسل يعذرون وينذرون . وروى سعيد عن قتادة « عُذْرًا » قال : عذرا لله جل ثناؤه إلى خلقه ، ونذرا للؤمنين ينتفعون به ويأخذون به . وروى الضحاك عن ٱبن عباس . « عُذْرًا » أى ما يلقيه الله جل ثناؤه من معاذير أوليائه وهى التوبة « أَوْ نُذُرًا » ينذر أعداءه . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص « أَوْ نُذْرًا » بإسكان الذال وجميع السبعة على إسكان ذال « عُذْرا » سوى ما رواه الجُعْفى والأعشى عن أبى بكر عن عاصم أنه ضم الذال . وروى ذلك عن ٱبن عباس والحسن وغيرهما . وقرأ إبراهيم التَّيمى وقتادة «عُذْرًا وَنُذُرًا» بالواو العاطفة ولم يجعلا بينهما ألفا . وهما منصوبان على الفاعل له أى للإعذار أو للإنذار . وقيل : على المفعول به . وقيل : على البدل من « ذِكْرًا » أى فالملقيات عذرا أو نذرا . وقال أبو على : يجوز أن يكون العذُر والنذُر بالتثقيل على جمع عاذر وناذر ؛ كقوله تعالى : « هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى » فيكون نصبا على الحال من الإلقاء ؛ أى يلقون الذكر فى حال العذر والإنذار . أو يكون مفعولا لـ « ذكرا » أى « فالملقيات » أى تُذَكِّر « عُذْرًا أو نُذُرًا » . وقال المبرد : هما بالتثقيل جمع والواحد عَذِير ونَذِير . ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ هـذا جواب ما تقدم من القسم ؛ أى ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم .

(١) الزيادة من اللسان عن الجوهرى مادة « فرق » .

(٢) تبوج البرق : تفتحه وتكشفه . علجوم شديد السواد .

ثم بين وقت وقوعه فقال: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى ذهب ضوءها ومُحِى نورُها كطمس الكتاب؛ يقال: طَمَس الشيءُ إذا دَرَس وطُمِس فهو مطموس، والريح تطمس الآثار فتكون الريح طامسة والأثر طامسا بمعنى مطموس. ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى فُتِحت وشُقّت؛ ومنه قوله تعالى: « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ». وروى الضحاك عن ابن عباس قال: فُرِجت للطيّ. ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أى ذُهِب بها كلها بسرعة؛ يقال: نَسفْتُ الشيءَ وأنسفته إذا أخذته كله بسرعة. وكان ابن عباس والكلبيّ يقول: سُوِّيت بالأرض، والعرب تقول: فَرَس نَسُوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه؛ قال بِشْر:

* نَسُوفٌ للحِزَام بمرفقيها *

ونَسَفت الناقةُ الكلأَ [إذا قلعته من أصله][1]. وقال المبرد: نُسِفت قُلِعت من موضعها؛ يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض: أَنْسَفت رجلاه. وقيل: النَّسْف تفريق الأجزاء حتى تذروها الرياح. ومنه نَسف الطعام؛ لأنه يُحرَّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التِّبْن. ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ أى جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت الأجل الذى يكون عنده الشيء المؤخر إليه؛ فالمعنى: جعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم؛ كما قال تعالى: « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ». وقيل: هذا فى الدنيا أى جمعت الرسل لميقاتها الذى ضرب لها فى إنزال العذاب بمن كذبهم بأن الكفار مُمهَلون. وإنما تزول الشكوك يوم القيامة. والأول أحسن؛ لأن التوقيت معناه شيء يقع يوم القيامة، كالطَّمْس ونَسْف الجبال وتشقيق السماء ولا يليق به التأقيت قبل يوم القيامة. قال أبو على: أى جعل يوم الدين والفصل لها وقتا. وقيل: أُقِّتت وُعِدت وأُجِّلت. وقيل: « أُقِّتَتْ » أى أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد. والهمزة فى « أُقِّتَتْ » بدل من الواو؛ قاله الفراء والزجاج. قال الفراء: وكل واو ضُمّت وكانت ضمتها لازمة جاز أن يبدل منها همزة؛ تقول: صلّى القوم إِحْدانا تريد وِحْدانا، ويقولون هذه وُجُوه حسان و[أُجُوه][2]. وهذا

---

(١) الزيادة من كتب اللغة؛ وفى الأصول: إذا رعته.   (٢) زيادة يقتضيها المقام.

لأن ضمة الواو ثقيلة . ولم يجز البدل فى قوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » لأن الضمة غير لازمة . وقرأ أبو عمرو وحميد والحسن ونصر عن عاصم ومجاهد «وُقِّتَتْ» بالواو وتشديد القاف على الأصل . وقال أبو عمرو : وإنما يقرأ « أُقِّتَتْ » من قال فى وُجُوه أُجُوه . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج « وُقِتَت » بالواو وتخفيف القاف . وهو فُعِلت من الوقت ومنه « كِتَابًا مَوْقُوتًا » . وعن الحسن أيضا : « وُوقِتَتْ » بواوين وهو فُوعِلت من الوقت أيضا مثل عُوهِدت . ولو قلبت الواو فى هاتين القراءتين ألفا لجاز . وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلّام «أُقِتَتْ» بالهمزة والتخفيف؛ لأنها مكتوبة فى المصحف بالألف . ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ أى أخرت وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو آستفهام على التعظيم. أى ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ أجّلت . وروى سعيد عن قتادة قال : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار . وفى الحديث : " إذا حُشِر الناسُ يوم القيامة قاموا أربعين عاما على رءوسهم الشمسُ شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون الفصل" . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أتبع التعظيم تعظيما؛ أى وما أعلمك ما يوم الفصل . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى عذاب وخزى لمن كذّب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد . وكرره فى هذه السورة عند كل آية لمن كذّب ؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذّب بشىء عذاب سوى تكذيبه بشىء آخر، ورُبَّ شىء كذّب به هو أعظم جُرْما من تكذيبه بغيره؛ لأنه أقبح فى تكذيبه، وأعظم فى الرّد على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه وهو قوله : « جَزَاءً وِفَاقًا » . وروى عن النعمان بن بشير قال : وَيْلٌ وادٍ فى جهنم فيه ألوان العذاب . وقاله آبن عباس وغيره . قال آبن عباس : إذا خَبَتْ جهنمُ أُخذ من جمره فألقى عليها فيأكل بعضها بعضا . وروى أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "عُرِضت علىّ جهنم فلم أر فيها واديا أعظم من الويل" وروى أنه مَجْمَع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم، وإنما يسيل الشىء فيما سفل من الأرض وآنفطر، وقد علم العباد فى الدنيا أن شر المواضع فى الدنيا ما آستنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغسالات من الجيف وماء الحمامات، فذكر أن ذلك

الوادى مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أقذر منه قذارة ، ولا أنتن منه نتنا ، ولا أشدّ منه مرارة ، ولا أشدّ سوادا منه ؛ ثم وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بمـا تضمن من العذاب ، وأنه أعظم وادٍ فى جهنم ، فذكره الله تعـالى فى وعيده فى هذه السورة .

قوله تعـالى : أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أخبر عن إهلاك الكفّار من الأمم المـاضين من لدن آدم إلى محمد صـلى الله عليه وسـلم . ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ أى نلحق الآخرين بالأولين . ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى مثـل ما فعلناه بمن تقدّم نفعل بمشركى قريش إما بالسيف وإما بالهلاك . وقرأ العـامة « ثُمَّ نُتْبِعُهُمْ » بالرفع على الاستئناف وقرأ الأعرج « نُتْبِعْهُمْ » بالجـزم عطفا على « نُهْـلِكِ الْأَوَّلِينَ » كما تقول : ألم تزرنى ثم أكرمك . والمراد أنه أهلك قوما بعد قوم على اختلاف أوقات المرسلين . ثم استأنف بقوله : « كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ » يريد من يهلك فيما بعد . ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفا من « نتبعهم » لتوالى الحركات . وروى عنه الإسكان للتخفيف . وفى قراءة ابن مسعود « ثُمَّ سَنُتْبِعُهُمْ » والكاف من « كَذَٰلِكَ » فى موضع نصب أى مثل ذلك الهلاك نفعله بكل مشرك . ثم قيل : معناه التهويل لهلاكهم فى الدنيا اعتبارا . وقيل : هو إخبار بعذابهم فى الآخرة .

قوله تعـالى : أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ أى ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدّم . وهذه الآية أصل لمن قال إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده . وقـد مضى القول فيه (١) .

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧ فما بعدها .

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فى قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ أى فى مكان حريز وهو الرحم . ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ قال مجاهد : إلى أن نصوّره . وقيل : إلى وقت الولادة . ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ وقرأ نافع والكسائى « فَقَــدَّرْنَا » بالتشديد . وخفف الباقون وهما لغتان بمعنى . قاله الكسائى والفراء والقُتَبى . قال القُتَبى : قَدَرنا بمعنى قَدّرنا مشدّدة : كما تقول : قدَرت كذا وقدّرته ؛ ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الهلال : " إذا غُمَّ عليكم فأَقْدِروا له " أى قدّروا له المسير والمنازل . وقال محمد بن الجهم عن الفراء : « فَقَدَّرْنَا » قال : وذكر تشديدها عن علىّ رضى الله عنه وتخفيفها ؛ قال : ولا يبعدن أن يكون المعنى فى التشديد والتخفيف واحدا ؛ لأن العرب تقول : قَــدَر عليه الموت وقَدّر : قال الله تعالى : « نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ » قرئ بالتخفيف والتشديد ، وقَدَر عليه رزقه وقَدّر قال : وآحتج الذين خَفَّفوا فقالوا ؛ لو كانت كذلك لكانت فنعم المقدّرون . قال الفراء : وتجمع العرب بين اللغتين ؛ قال الله تعالى : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » قال الأعشى :

وأنْكَرَتْنِي وما كان الذى نَكِرَتْ * من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

وروى عن عِكرمة « فَقَدَرْنا » مخففة من القدرة وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم والكسائى لقوله : ﴿ فَنِعْمَ القَادِرُونَ ﴾ ومن شدّد فهو من التقدير أى فقدّرنا الشقى والسعيد فنعم المقدّرون . رواه آبن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قدرنا قصيرا أو طويلا . ونحوه عن آبن عباس : قدّرنا ملكنا . المهدوى : وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف .

قلت : هو صحيح فإن عِكرمة هو الذى قرأ « فَقَدَرْنَا » مخففا قال : معناه فملكنا فنعم المالكون ، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين ؛ أى قــدّرنا وقت الولادة وأحوال النطفة فى التنقيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشرا ســويا ، أو الشقىّ والسعيد ، أو الطويل والقصير ، كله على قراءة التشديد . وقيل : هما بمعنًى كما ذكرنا .

قوله تعــالى : أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ أى ضامة تضم الأحياء على ظهورها والأموات فى بطنها . وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه . وهو قوله عليه السلام : " قُصُّوا أظافركم وادفنوا قُلَاماتِكم " وقد مضى فى «البقرة»(١) بيانه . يقال : كَفَتُّ الشي أكْفِته إذا جمعته وضممته ، والكَفْت الضم والجمع ، وأنشد سيبويه .

كِرامٌ حين تَنْكفتُ الأفاعى * إلى أجْحَارِهنّ من الصَّقيعِ

وقال أبو عبيد : «كِفَاتًا» أوعية و يقال لِلنِّحْى كِفْت وكَفِيت لأنه يحوى اللبن و يضمه قال :

فأنتَ اليومَ فوقَ الأرض حَيًّا * وأنتَ غدًا تَضُمُّكَ فى كِفَاتِ

وخرج الشَّعْبىّ فى جنازة فنظر إلى الجَبَّان فقال : هذه كِفات الأموات ثم نظر إلى البيوت فقال : هذه كِفات الأحياء .

و[الثانيــة](٢) — روى عن ربيعة فى النَّبَّاش قال تُقطع يده فقيل له : لم قلت ذلك ؟ قال : إن الله عز وجل يقول : « أَلَمْ نَجْعَلِ الأرضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وأَمْوَاتًا » فالأرض حرز . وقد مضى هذا فى سورة « المائدة »(٣) وكانوا يسمون بَقِيع الغَرْقَد كَفْتة ، لأنه مقبرة تضم الموتى ، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم والأموات فى قبورهم . وأيضا آستقرار الناس على وجه الأرض ، ثم آضطجاعهم عليها ، آنضمام منهم إليها . وقيل : هى كِفات للأحياء يعنى دفن ما يخرج من الإنسان من الفضلات فى الأرض ، إذا لا ضَمّ فى كون الناس عليها ، والضّمّ يشير إلى الآحتفاف من جميع الوجوه . وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد فى أحد قوليه : الأحياء والأموات يرجع إلى الأرض أى الأرض منقسمة إلى حىّ وهو الذى ينبت ، وإلى ميت

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٠٢ فما بعدها .　(٢) لم يذكر فى الأصول لفظ المسئلة الثانية والمتبادر أن هنا موضعها كما يستفاد من أحكام القرآن لابن العربى .　(٣) راجع جـ ٦ ص ١٦٨ فما بعد .

وهو الذى لا ينبت . وقال الفراء : آنتصب « أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا » بوقوع الكفات عليه ؛ أى ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات . فإذا نونت نصبت؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا » . وقيل : نصب على الحال من الأرض أى منها كذا ومنها كذا . وقال الأخفش : «كِفَاتًا» جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال الخليل : التكفيت تقليب الشيء ظهرا لبطن أو بطنا لظهر . ويقال : آنكفت القومُ إلى منازلهم أى آنقلبوا . فمعنى الكفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدفنون فيها . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الأرض ﴿ رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ ﴾ يعنى الجبال ، والرواسى الثوابت ، والشامخات الطوال؛ ومنه يقال : شمخ بأنفه إذا رفعه كبرا . قال : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ أى وجعلنا لكم سقيا والفُرات الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع . أى خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات . وهذه الأمور أعجب من البعث . وفى بعض الحديث قال أبو هريرة : فى الأرض من الجنة الفُرات والدّجلة ونهر الأردن . وفى صحيح مسلم : سَيحان وجَيحان والنيل والفُرات كلّ من أنهار الجنة .

قوله تعالى : ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى يقال للكفار سيروا «إلى ما كنتم به تكذبون» من العذاب يعنى النار فقد شاهدتموها عيانا . ﴿ ٱنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ﴾ أى دخان ﴿ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ يعنى الدخان الذى يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب . وكذلك شأن الدخان العظيم إذا آرتفع تشعب . ثم وصف الظل فقال : ﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ أى ليس كالظل الذى يقى حر الشمس ﴿ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ ﴾ أى لا يدفع من لهب جهنم شيئا . واللهب

ما يعلو على النار إذ ٱضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر . وقيل : إن الشعب الثلاث هى الضريع والزَّقُّوم والغِسْلين ؛ قاله الضحاك . وقيل : اللهب ثم الشرر ثم الدخان ؛ لأنها ثلاثة أحوال هى غاية أوصاف النار إذا ٱضطرمت وٱشتدّت . وقيل : عنق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب . فأما النور فيقف على رءوس المؤمنين ، وأما الدخان فيقف على رءوس المنافقين ، وأما اللهب الصافى فيقف على رءوس الكافرين . وقيل : هو السُّرادق وهو لسان من نار يحيط بهم ثم يتشعب منه ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم إلى النار . وقيل : هو الظل من يحموم ؛ كما قال تعالى : « فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ »(١) على ما تقدّم . وفى الحديث : " إن الشمس تدنو من رءوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومُدَّ(٢) ذلك اليوم ثم ينجى الله برحمته من يشاء إلى ظلّ من ظلّه فهنالك يقولون « فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » " ويقال للمكذبين « ٱنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » من عذاب الله وعقابه « ٱنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » فيكون أولياء الله جل ثناؤه فى ظلّ عرشه أو حيث شاء من الظلّ إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقره من الجنة والنار . ثم وصف النار فقال : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ الشَّرر واحدته شَرَرة . والشَّرار واحدته شَرارة وهو ما تطاير من النار فى كل جهة ، وأصله من شَرَّرْتُ الثوبَ إذا بسطتَه للشمس ليجفّ . والقصر البناء العالى . وقراءة العامة « كَالْقَصْرِ » بإسكان الصاد أى الحصون والمدائن فى العِظم وهو واحد القصور . قاله ٱبن عباس وٱبن مسعود . وهو فى معنى الجمع على طريق الجنس . وقيل : القصر جمع قَصْرة ساكنة الصاد مثل جَمْرة وجَمْر وتَمْرة وتَمْر . والقَصْرة الواحدة من جَزْل الحطب الغليظ .

وفى البخارى عن ٱبن عباس أيضا : « تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ » قال كنا نرفع الخشب بقَصَر ثلاثةَ أذرع(٣) أو أقلّ فنرفعه للشتاء فنسميه القَصَر . وقال سعيد بن جبير والضحاك : هى

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢١٣ (٢) كذا فى الأصول ولعل اللفظ تلفحهم .

(٣) بنصب ثلاثة و يجوز إضافة بقصر إليها أى بقدر ثلاثة أذرع .

أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقُطِع . وقيل : أعناقه . وقرأ ٱبن عباس ومجاهد وحميد والسلمىّ «كالْقَصَر» بفتح الصاد أراد أعناق النخل . والقَصَرة العنق جمعها قَصَر وقصرات . وقال قتادة : أعناق الإبل . وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف وفتح الصاد ، وهى أيضا جمع قَصْرة مثل بَدْرة وبِدَر وقَصْعة وقِصَع وحَلْقة وحِلَق لِحَلَق الحديد . وقال أبو حاتم : ولعله لغة كما قالوا حاجة وحِوَج . وقيل : القَصْر الجبل فشبه الشرر بالقصر فى مقاديره، ثم شبهه فى لونه بالجمالات الصُّفْر وهى الإبل السود؛ والعرب تسمى السّود من الإبل صُفْرا ؛ قال الشاعر[1] :

تِلْكَ خَيْلِى منه وتلك رِكَابى * هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُها كالزَّبِيبِ

أى هنّ سود . وإنما سميت السود من الإبل صُفْرا لأنه يشوب سوادها شىء من صُفرة ؛ كما قيل لبيض الظباء : الأُدْم ؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرة : والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه الإبل السود لما يشوبها من صُفْرة . وفى شعر عِمْران بن حطّان الخارجىّ :

دَعَتْهمْ بِأعلى صَوْتِها ورَمَتْهُمُ * بِمثلِ الجِمالِ الصُّفْرِ نزّاعةُ الشَّوى

وضعف الترمذىّ[2] هذا القول فقال : وهذا القول محال فى اللغة أن يكون شىء يشوبه شىء قليل فنسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قد قال هذا ، وقد قال الله تعالى : «جِمَالَاتٌ صُفْرٌ» فلا نعلم شيئا من هذا فى اللغة، ووجهه عندنا أن النار خلقت من النور فهى نار مضيئة ، فلما خلق الله جهنم وهى موضع النار حشا ذلك الموضع بتلك النار وبعث إليها سلطانه وغضبه ، فٱسودّت من سلطانه وٱزدادت حِدّة ، وصارت أشدّ سوادا من النار ومن كل شىء سوادا ، فإذا كان يوم القيامة وجىء بجهنم فى الموقف رمت بشررها على أهل الموقف غضبا لغضب الله ، والشرر هو أسود لأنه من نار سوداء ، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمى الأعداء به فهنّ سود من سواد النار ، لا يصل ذلك إلى الموحدين؛ لأنهم

---

(١) هو الأعشى . (٢) فى نسخة : اليزيدى .

فى سرادق الرحمة قد أحاط بهم فى الموقف، وهو الغمام الذى يأتى فيه الربّ تبارك وتعالى ولكن يعاينون ذلك الرمى، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه فى رأى العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحدون أنهم فى رحمة الله لا فى سلطانه وغضبه . وكان ٱبن عباس يقول : الجِمالات الصُّفر حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال . ذكره البخارى . وكان يقرؤها «جُمَالَاتٌ» بضم الجيم، وكذلك قرأ مجاهد وحميد «جُمَالَات» بضم الجيم وهى الحبال الغلاظ وهى قُلُوس السفينة أى حبالها . وواحد القُلُوس قلس . وعن ٱبن عباس أيضا على أنها قطع النحاس . والمعروف فى الحبل الغليظ جُمَّل بتشديد الميم كما تقدم فى «الأعراف»(1) . « وجُمَالات » بضم الجيم جمع جِمَالة بكسر الجيم موحدا كأنه جمع جَمَل نحو حَجَر وحِجارة وذَكَر وذِكَارة . وقرأ يعقوب وٱبن أبى إسحق وعيسى والجحدرى « جُمَالة » بضم الجيم موحدا وهى الشيء العظيم المجموع بعضه إلى بعض . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « جِمالة » وبقية السبعة « جِمَالَات » قال الفراء : يجوز أن تكون الجمالات جمع جِمال كما يقال رجل ورجال ورِجالات . وقيل : شبهها بالجمالات لسرعة سيرها . وقيل : لمتابعة بعضها بعضا . والقَصْر واحد القصور . وقَصْر الظلام ٱختلاطه . ويقال : أتيته قَصْرا أى عَشيًّا فهو مشترك؛ قال(2) :

كأنَّهُمُ قَصْرًا مَصابيحُ راهِبٍ * بِمَوْزَنَ رَوَّى بالسَّلِيطِ ذُبالَها

مسئلة — فى هذه الآية دليل على جواز ٱدّخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغانِى مفاقِره . وذلك مما يقتضى النظر أن يكتسبه فى غير وقت حاجته، ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يدّخر القوت فى وقت عموم وجوده من كسبه وماله ، وكل شيء محمول عليه . وقد بين ٱبن عباس هذا بقوله : كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندّخره للشتاء وكنا نسميه القصر . وهذا أصح ما قيل فى ذلك والله أعلم .

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠٧

(٢) قائله كثير عزة . وموزن كمقعد بلد بالجزيرة .

قوله تعالى : هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أى لا يتكلمون ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أى إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت ، فهذا من المواقيت التى لا يتكلمون فيها ولا يؤذن لهم فى الاعتذار والتنصل . وعن عكرمة عن ابن عباس قال : سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى : « هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُون » و « لَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » وقد قال تعالى : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فقال له : إن الله عز وجل يقول : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » فإن لكل مقدار من هذه الأيام لونا من هذه الألوان . وقيل : لا ينطقون بحجة نافعة ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق . قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون . وقيل : إن هذا وقت جوابهم «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون»(١) وقد تقدم . وقال أبو عثمان : أسكتتهم رؤية الهيبة وحياء الذنوب . وقال الجنيد : أى عذر لمن أعرض عن منعمه وجحده وكفر أياديه ونعمه . و «يوم» بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر؛ أى تقول الملائكة « هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ » . ويجوز أن يكون قوله « انطلقوا » من قول الملائكة ، ثم يقول الله لأوليائه : هذا يوم لا ينطق الكفار . ومعنى اليوم الساعة والوقت . وروى يحيى بن سليمان عن أبى بكر عن عاصم « هَذَا يَوْمَ لَا يَنطِقُونَ » بالنصب ورويت عن ابن هرمز وغيره ، فجاز أن يكون مبنيا لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع . وهذا مذهب الكوفيين . وجاز أن يكون فى موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم . وهذا مذهب البصريين؛ لأنه إنما بنى عندهم إذا أضيف إلى مبنى والفعل هاهنا معرب . وقال الفراء فى قوله تعالى « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » الفاء نسق أى عطف على « يؤذن » وأجيز ذلك ؛ لأن أواخر الكلام بالنون . ولو قال : فيعتذروا لم يوافق الآيات . وقد قال :

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣

« لَا يُقْضَى عَلَيْهِـمْ فَيَمُوتُوا » بالنصب وكله صواب ؛ ومثـله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ » بالنصب والرفع .

قوله تعالى : هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أى ويقال لهم هذا اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق ، فيتبين المحقّ من المبطل . ﴿ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ قال ابن عباس جمع الذين كذّبوا محمدا والذين كذبوا النبيين من قبله . رواه عنه الضحاك . ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ أى حيلة فى الخلاص من الهلاك ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ أى فآحتالوا لأنفسكم وقاوونى وان تجـدوا ذلك . وقيـل : أى « فَإِن كَانَ لَكُم كَيْدٌ » أى قـدرتم على حرب « فَكِيدُونِ » أى حاربونى . كذا روى الضـحاك عن ابن عباس . قال : يريد كنتم فى الدنيـا تحاربون محمدا صـلى الله عليـه وسلم وتحاربوننى فاليوم حاربونى . وقيل : أى إنكم كنتم فى الدنيـا تعملون بالمعاصى وقد عجزتم الآن عنها وعن الدفع عن أنفسكم . وقيـل : إنه من قول النبى صلى الله عليـه وسلم فيكون كقول هود « فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ » .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ إن الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ أخبر بمـا يصير إليـه المتقون غدا ، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظل فى الشعب الثـلاث . وفى سورة يس « هُـمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ » . ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى يتمنون . وقراءة العامة « ظلالٍ » . وقرأ الأعرج والزهرى وطلحة « ظُلَلٍ » جمع ظُلّة يعنى

فى الجنة . ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم غدا هـذا بدل ما يقال للشركين « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ » . فـ«كُلُوا وَٱشْرَبُوا » فى موضع الحال من ضمير «المتقين» فى الظرف الذى هـو « فِي ظِلَالٍ » أى هم مستقرّون « فِي ظِلَالٍ » مقـولا لهم ذلك . ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى نثيب الذين أحسنوا فى تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم فى الدنيا .

قوله تعـالى : كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيـلًا إِنَّـكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين ، وهو وعيد وتهديد وهو حال من « المكذبين » أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم : « كلوا وتمتعوا قليـلا » . ﴿ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ أى كافرون . وقيل : مكتسبون فعـلا يضركم فى الآخرة من الشرك والمعاصى .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُـمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أى إذا قيل لهؤلاء المشركين «ٱركعوا» أى صلوا « لا يركعون » أى لا يصلون؛ قاله مجاهد . وقال مقاتل : نزلت فى ثقيف ٱمتنعوا من الصـلاة فنزل ذلك فيهم . قال مقاتل : قال لهم النبي صـلى الله عليه وسـلم " أسلموا " وأمرهم بالصلاة فقالوا : لا نحنى فإنها مَسبَّة علينا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود" . يذكر أن مالكا رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع ، فقال له صبيّ : ياشيخ قم فاركع . فقام فركع ولم يحاجه بمـا يراه مذهبا ، فقيـل له فى ذلك فقـال : خشيت أن أكون من الذين « إِذَا قِيلَ لَهُـمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » . وقال ٱبن عبـاس : إنمـا يقال لهم هـذا فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون . قتادة : هذا فى الدنيا . ٱبن العربى : هذه الاية

حجة على وجوب الركوع و إنزاله ركنا فى الصلاة وقد انعقد الإجماع عليه، وظنّ قوم أن هذا إنما يكون فى القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه و يل وعقاب، و إنما يدعون إلى السجود كشفا لحال الناس فى الدنيا، فمن كان يسجد له يُمَكَّن[(١)] من السجود، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقا واحدا. وقيل: أى إذا قيل لهم آخضعوا للحق لا يخضعون، فهو عام فى الصلاة وغيرها و إنما ذكر الصلاة، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد. وقيل: الأمر بالصلاة أمر بالإيمان؛ لأنها لا تصح من غير إيمان.

قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى إن لم يصدّقوا بالقرآن الذى هو المعجز والدلالة على صدق الرسول عليه السلام فبأى شيء يصدّقون. وكرر «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» لمعنى تكرير التخويف والوعيد. وقيل: ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذى أراده بالآخر؛ كأنه ذكر شيئا فقال: ويل لمن يكذّب بهذا، ثم ذكر شيئا آخر فقال: ويل لمن يكذّب بهذا، ثم ذكر شيئا آخر فقال: ويل لمن يكذّب بهذا. ثم كذلك إلى آخرها. ختمت السورة ولله الحمد.

سورة «عم» مكية وتسمى سورة «النبأ» وهى أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ «عم» لفظ آستفهام؛ ولذلك سقطت منها ألف «ما»، ليتميز الخبر عن الآستفهام. وكذلك فيم ومم إذا آستفهمت. والمعنى عن أى شيء

(١) فى نسخة: تمكن من السجود.

يسأل بعضهم بعضا . وقال الزجاج : أصل « عم » عن ما فأدغمت النون فى الميم ؛ لأنها تشاركها فى الغنة . والضمير فى « يَتَسَاءَلُونَ » لقريش . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدّق ومنهم المكذب به فنزلت « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ » . وقيل : « عم » بمعنى فيم يتشدّد المشركون ويختصمون .

قوله تعالى : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أى يتساءلون « عن النبإ العظيم » فعن ليس تتعلق بـ«يتساءلون» الذى فى التلاوة؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون «عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ» كقولك : كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقه بـ«يتساءلون» الذى فى التلاوة ، وإنما يتعلق بيتساءلون آخر مضمر . وحسن ذلك لتقدم يتساءلون ؛ قاله المهدوى . وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام فى قوله : « عن » مكرر إلا أنه مضمر كأنه قال عمّ يتساءلون أعن النبإ العظيم . فعلى هذا يكون متصلا بالآية الأولى . والنبأ العظيم أى الخبر الكبير . ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ أى يخالف فيه بعضهم بعضا فيصدق واحد ويكذب آخر ؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو القرآن ؛ دليله قوله : « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » فالقرآن نبأ وخبر وقصص وهو نبأ عظيم الشأن . وروى سعيد عن قتادة قال : هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين مصدّق ومكذّب . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : وذلك أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم ثم هدّدهم فقال : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ أى سيعلمون عاقبة القرآن ، أو سيعلمون البعث أحقّ هو أم باطل . و « كَلَّا » ردّ عليهم فى إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن فيوقف عليها . ويجوز أن يكون بمعنى حقّا أو « أَلَا » فيبدأ بها . والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث ؛ قال بعض علمائنا : والذى يدل عليه قوله عز وجل « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث . ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ أى حقّا ليعلمون صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت . وقال الضحاك : «كَلَّا

سَيَعْلَمُونَ» يعنى الكافرين عاقبة تكذيبهم «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» يعنى المؤمنين عاقبة تصديقهم . وقيـل : بالعكس أيضا . وقال الحسن : هو وعيـد بعد وعيـد . وقراءة العامة فيهما بالياء على الخبر ؛ لقوله تعـالى : « يَتَسَاءَلُونَ » وقوله : « هُمْ فِيـهِ مُخْتَلِفُونَ » . وقـرأ الحسن وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما .

قوله تعـالى : أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ دلهم على قـدرته على البعث ؛ أى قدرتنا على إيجاد هـذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة . والمهاد الوطاء والفراش . وقـد قال تعالى : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا » وقرئ « مَهْدًا » ومعناه أنها لهم كالمهد للصبى وهو ما يمهد له فينوّم عليه .﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾أى لتسكن ولاتتكفأ ولا تميل بأهلها .﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى أصنافا ذكرا وأنثى . وقيل : ألوانا . وقيل : يدخل فى هذا كل زوج من قبيح وحسن وطـويل وقصير ؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار فيشكر الفاضل و يصبر المفضول .﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ ﴾ « جعلنا » معناه صيرنا ؛ ولذلك تعدّت إلى مفعولين . ﴿ سُبَـاتًا ﴾ المفعول الثانى أى راحة لأبدانكم ، ومنه يوم السبت أى يوم الراحة ؛ أى قيل لبنى إسرائيل : ٱستريحوا فى هذا اليوم فلا تعملوا فيه شيئا . وأنكر ٱبن الأنبارى هذا وقال : لا يقال للراحة سبات . وقيل : أصله التمدّد ؛ يقـال : سبتت المرأة شعرها إذا حلته وأرسلته ، فالسبات كالممـدود ورجل مسبوت الخـلق أى ممدود . وإذا أراد الرجل أن يستريح تمـدد فسميت الراحة سـبتا .

وقيل : أصله القطع ؛ يقال : سبت شعره سبتا حلقه ؛ وكأنه إذا نام ٱنقطع عن الناس وعن الاشتغال فالسبات يشبه الموت إلا أنه لم تفارقه الروح . ويقال : سير سبت أى سهل لين ؛ قال الشاعر(١) :

ومَطْوِيّة الأَقْراب أمّا نَهـارُهـا * فسَبْتٌ وأمّا ليـلها فذَمِيـلُ

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى تلبسكم ظلمته وتغشاكم ؛ قاله الطبرى . وقال ٱبن جبير والسدّى : أى سكنا لكم . ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ فيه إضمار أى وقت معاش أى متصرفا لطلب المعاش وهو كل ما يعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ « مَعَاشًا » على هذا ٱسم زمان ليكون الثانى هو الأوّل . ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف . ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ أى سبع سموات محكمات ؛ أى محكمة الخلق وثيقة البنيان . ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ أى وقادا وهى الشمس . وجعل هنا بمعنى خلق ؛ لأنها تعدّت لمفعول واحد والوهاج الذى له وهج ؛ يقال : وهَج يهِج وَهْجا ووَهَجا ووَهَجانا . ويقال للجوهر إذا تلألأ توهج . وقال ٱبن عباس : وهاجا منيرا متلألئا . ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال مجاهد وقتادة : المعصرات الرياح . وقاله ٱبن عباس . كأنها تعصر السحاب . وعن ٱبن عباس أيضا أنها السحاب . وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك : أى السحائب التى تنعصر بالماء ولما تمطر بعد ؛ كالمرأة المعصر التى قددنا حيضها ولم تحض ؛ قال أبو النجم :

[تَمْشِى الهُوَيْنا مائلاً خِمَارُها * قـد أَعْصَرَتْ أوْقَدْدَنَا إعْصارُها](٢)

[وقال آخر] :

فكان مِجَنِّى دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِى * ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبـان ومُعْصِرُ

---

(١) هو حميد بن ثور . والسبت السير السريع والذميل السير اللين .

(٢) هذه الزيادة من أبى حيان دل عليها إجماع نسخ الأصل على ذكر أبى النجم وأما البيت الذى بعده فلعمر بن أبى ربيعة .

وقال آخر[(١)]:

وذى أُشُرٍ كالأُقْحُوانِ يَزِينُهُ * ذِهابُ الصَّبا والْمُعْصِراتُ الرَّوائِحُ

فالرياح تسمى معصرات؛ يقال: أعصرت الريح تعصر إعصارا إذا أثارت العجاج وهى الأعصار، والسحب أيضا تسمى المعصرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضا: المعصرات السماء. النحاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التى تأتى بالمطر معصرات والرياح تلقح السحاب فيكون المطر والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المعصرات «مَاءً ثَجَّاجاً» وأصح الأقوال أن المعصرات السحاب كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان بالمعصرات لكان الريح أولى. وفى الصحاح: والمعصرات السحائب تعتصر بالمطر وأُعْصِر القومُ أى أُمْطِروا؛ ومنه قرأ بعضهم «وَفِيهِ يُعْصَرُونَ» والمُعصِر الجارية أول ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز[(٢)]:

جارِيَةٌ بِسَفَوَانَ دارُها * تَمْشِى الهُوَيْنا ساقِطًا خِمارُها

* قَدْ أَعْصَرَتْ أو قَدْدَنا إِعْصارُها *

والجمع معاصر، ويقال: هى التى قاربت الحيض؛ لأن الإعصار فى الجارية كالمراهقة فى الغلام. سمعته من أبى الغوث الأعرابى. قال غيره: والمعصر السحابة التى حان لها أن تمطر؛ يقال أَجَنّ الزرع فهو مُجِنّ أى صار إلى أن يُجِنّ وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرّد: يقال سحاب معصر أى ممسك للماء ويعتصر منه شىء بعد شىء، ومنه العَصَر بالتحريك للملجأ الذى يلجأ إليه، والعُصْرة بالضم أيضا الملجأ. وقد مضى هذا المعنى فى سورة «يوسف»[(٣)] والحمد لله. وقال أبو زبيد[(٤)]:

(١) هو البعيث كما فى اللسان وروايته للبيت:

وذى أشر كالأقحوان تشوفه * ذهاب الصبا والمعصرات الدوالح

والدوالح السحائب التى أثقلها الماء. الذهاب بكسر الذال: الأمطار الضعيفة. (٢) هو منصور بن مرثد الأسدى.

(٣) راجع جـ ٩ ص ٢٠٥ (٤) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة.

صادِيًا يَستَغيثُ غَيرَ مُغَاثِ * ولقد كان عُصْرَةَ الْمَنجودِ

ومنه الْمُعْصِر للجارية التي قد قربت من البلوغ يقال لها مُعْصِرٌ؛ لأنها تحبس في البيت فيكون البيتُ لها عَصَراً . وفي قراءة آبن عباس وعِكرمة « وَأَنْزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ » والذي في المصاحف « مِنَ الْمُعْصِرَاتِ » قال أبيّ بن كعب والحسن وآبن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان « مِنَ الْمُعْصِرَاتِ » أي من السموات . « مَاءً ثَجَّاجاً » صبّابا متتابعا؛ عن آبن عباس ومجاهد وغيرهما . يقال : ثَجَجْت دمه فأنا أَثُجّه ثَجًّا وقد ثَجّ الدمُ يَثُجّ ثُجوجاً وكذلك الماء فهو لازم ومتعدّ . والثَّجّاج في الآية المنْصَبُّ . وقال الزجاج : أي الصّبّاب وهو متعدّ كأنه يَثُجّ نفسه أي يصُبّ . وقال عَبِيد بن الأبرص[(١)] :

فثَجّ أعلاهُ ثم آرْتجّ أسفَلُه * وضاق ذَرْعاً بحَمْلِ الماءِ مُنْصاحِ

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الحج المبرور فقال : "العَجُّ والثَّجُّ" فالعجّ رفع الصوت بالتلبية والثجّ إراقة الدماء وذبح الهدايا . وقال آبن زيد : ثجّاجاً كثيرا . والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿وَنَبَاتاً﴾ من الأَبّ وهو ما تأكله الدواب من الحشيش . ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أي بساتين ﴿ أَلْفَافاً ﴾ أي ملتفة بعضها ببعض لتشعب أغصانها ولا واحد له كالأوزاع والأخياف . وقيل : واحد الألفاف لِف بالكسر ولُفّ بالضم . ذكره الكسائي؛ قال :

جَنّةٌ لُفٌّ وعَيشٌ مُغْدِقٌ * ونَدامَى كُلُّهم بِيضٌ زُهُرْ

وعنه أيضا وأبي عبيدة : لفيف كشريف وأشراف . وقيل : هو جمع الجمع حكاه الكسائي . يقال : جنة لَفَّاء و نبت لِفّ والجمع لُفّ[(٢)] بضم اللام مثل حُمْر ثم يجمع اللُّفّ ألفافا . الزمخشري : ولو قيل جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيها . و يقال : شجرة لفاء وشجر لفّ وآمرأة

(١) البيت في وصف المطر ومنصاح : منشق بالماء .

(٢) قوله : والجمع لف بضم اللام راجع إلى جنة لفاء بدليل قوله : مثل حمر لأنه جمع حمراء وأما لف بالكسر والفتح فجمعه ألفاف .

لَفّاء أى غليظة الساق مجتمعة اللحم . وقيـل : التقـدير ونخرج به جنات ألفافا فحذف لدلالة الكلام عليـه . ثم هـذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار فى البساتين تكون متقاربة(١) ، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ أى وقتا ومجمعا وميعادا للأولين والآخرين ؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب . وسمى يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيـه بين خلقه .

قوله تعـالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ﴾ أى للبعث ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أى إلى موضع العرض ﴿أَفْوَاجًا﴾ أى أمما كل أمة مع إمامهم . وقيـل : زمرا وجماعات الواحد فوج . ونصب يوما بدلا من اليوم الأول . وروى من حديث معاذ بن جبل قلت : يا رسول الله ! أرأيت قول الله تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا» فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "يامعاذ لقـد سألت عن أمر عظيم" ثم أرسل عينيه باكيا ثم قال : "يحشر عشرة أصناف من أمتى أشتاتا قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين وبدل صورهم فمنهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم أعلاهم ووجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمى يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقـلوا وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهى مدلاة على صـدورهم يسيل القيح من أفواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من النـار وبعضهم أشد نتنـا من الجيف وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القطران لاصقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس — يعنى النمـام — وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت والحـرام والمكس وأما المنكسون

(٢) فى نسخة من الأصل : متقاربة الأغصان ... الخ .

رءوسهم ووجوههم فأكلة الربا والعمى من يجور فى الحكم والصم البكم الذين يعجبون بأعمالهم والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم والمقطعة أيديهم وأرجلهم فالذين يؤذون الجيران والمصلّبون على جذوع النار فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نتْنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات و يمنعون حق الله من (١) أموالهم والذين يلبسون الجلابيب فأهل الكبر والفخر والخيلاء ".

قوله تعالى : ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أى لنزول الملائكة؛ كما قال تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » .وقيل: تقطعت فكانت قطعا كالأبواب. فآنتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف . وقيل : التقدير فكانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبوابا . وقيل : أبوابها طرقها . وقيل : تحل وتتناثر حتى تصير فيها أبوابا . وقيل : إن لكل عبد بابين فى السماء بابا لعمله و بابا لرزقه فإذا قامت القيامة آنفتحت الأبواب . وفى حديث الإسراء : "ثم عرج بنا الى السماء فآستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بُعث إليه قال قد بُعث إليه ففُتح لنا ". ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أى لا شيء كما أن السَّراب كذلك يظنه الرائى ماء وليس بماء. وقيل : « سُيِّرَت » نسفت من أصولها . وقيل : أزيلت عن مواضعها .

قوله تعالى : إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

(١) وفى الدر المنثور: حق الله والفقراء . الخ.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ مفعال من الرَّصد والرَّصد كل شيء كان أمامك . قال الحسن : إن على النار رصدا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه ، فمن جاء بجواز جاز ومن لم يجئ بجواز حُبِس . وعن سفيان رضى الله عنه قال : عليها ثلاث قناطر . وقيل « مِرْصَادًا » ذات أرصاد على النسب أى ترصد من يمر بها . وقال مقاتل : محبسا . وقيل : طريقا وممرا فلا سبيل إلى الجنة حتى يقطع جهنم . وفى الصحاح : والمِرصاد الطريق . وذكر القشيرى : أن المرصاد المكان الذى يَرْصد فيه الواحدُ العدو ، نحو المِضْمار الموضع الذى تُضَمَّر فيه الخيل . أى هى معدّة لهم ؛ فالمرصاد بمعنى المحل ؛ فالملائكة يرصدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم . وذكر الماوردى عن أبى سنان أنها بمعنى راصدة تجازيهم بأفعالهم . وفى الصحاح : الراصد الشيء الراقب له ؛ تقول : رَصَدَه يرْصُده رَصْدا ورَصَدا ، والتَّرصُّد . الترقّب والمَرْصَد موضع الرصد . الأصمعى : رصَدته أرصُده ترقبته وأرصدته أعددت له . والكسائى مثله .

قلت : فجهنم معدّة مترصِّدة متفعّل من الرّصد وهو الترّقب ؛ أى هى متطلعة لمن يأتى . والمرصاد مِفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمِغيار فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار . ﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ بدل من قوله : « مِرْصَادًا » والمآب المرجع أى مرجعا يرجعون إليها ؛ يقال : آب يؤوب أوبة إذا رجع . وقال قتادة : مأوى ومنزلا . والمراد بالطاغين من طغى فى دينه بالكفر أو فى دنياه بالظلم .

قوله تعالى : ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أى ماكثين فى النار مادامت الأحقاب وهى لا تنقطع ، فكلما مضى حُقْبٌ جاء حُقْبٌ . والحُقُب بضمتين الدهر والأحقاب الدهور . والحقبة بالكسر السنة والجمع حِقب ؛ قال متمم بن نُوَيرة التَّميمى :

وكُنّا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمَةَ حِقبـةً * مِن الدّهْرِ حتّى قيلَ لن يتصدّعَا
فلمّا تفرّقنا كأنّى ومالِكاً * لِطُولِ اجْتماعٍ لم نبت ليلَةً معا

والحُقْب بالضم والسكون ثمانون سنة . وقيل : أكثر من ذلك وأقل على ما يأتى والجمع أحقاب . والمعنى فى الآية ؛ لابثين فيها أحقاب الآخرة التى لا نهاية لها ؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه ؛ إذ فى الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال أيام الآخرة ؛ أى أيام بعد أيام إلى غير نهاية ، و إنما كان يدل على التوقيت لو قال خمسة أحقاب أوعشرة أحقاب ونحوه . وذكر الأحقاب لأن الحقب كان أبعد شىء عندهم ، فتكلم بما تذهب إليه أوهامهم و يعرفونها ، وهى كناية عن التأبيد أى يمكثون فيها أبدا . وقيل : ذكر الأحقاب دون الأيام ؛ لأن الأحقاب أهول فى القلوب وأدل على الخلود . والمعنى متقارب ؛ وهذا الخلود فى حقّ المشركين . و يمكن حمل الآية على العصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب . وقيل : الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغسّاق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب ؛ ولهذا قال : « لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً . لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً . إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً » و « لابِثِين » اسم فاعل من لَبِث و يقويه أن المصدر منه اللبث بالإسكان كالشّرب . وقرأ حمزة والكسائى « لَبِثِين » بغير ألف وهو اختيار أبى حاتم وأبى عبيد وهما لغتان ؛ يقال : رجل لابِثٌ ولبِث مثل طَمِعٌ وطامِعٌ وفَرِهٌ وفارِهٌ . و يقال : هو لَبِثٌ بمكان كذا أى قد صار اللبث شأنه ، فَشُبِّه بمــا هو خلقة فى الإنسان نحو حَذِرٌ وفَرِقٌ ؛ لأن باب فَعِل إنمــا هو لمــا يكون خلقة فى الشىء فى الأغلب وليس كذلك اسم الفاعل من لَابَث . والحُقْب ثمــانون سنة فى قول ابن عمــر وابن محيصن وأبى هريرة ، والسنة ثلثمائة يوم وستون يوما واليوم ألف ســنة من أيام الدنيا ؛ قاله ابن عبــاس . وروى ابن عمر هــذا مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وســلم . وقال أبو هريرة : والسنة ثلثمائة يوم وستون يوما كل يوم مثــل أيام الدنيا . وعن ابن عمر أيضا : الحُقْب أربعون ســنة . السدى : سبعون سنة . وقيل : إنه ألف شهر . رواه أبو أُمامة مرفوعا . بشير بن كعب : ثلثمائة سنة . الحسن : الأحقاب لا يدرى أحدُكم هى ولكن ذكروا أنها مائة حُقْب ، والحُقْب الواحد منها سبعون ألف ســنة ، اليوم منها كألف سنة ممــا تعدون . وعن أبى أُمَامة أيضا عن النبى صلى الله عليه وســلم : " إن الحُقب الواحد ثلاثون ألف سنة " ذكره المهدوى . والأوّل المــاوردىّ . وقال قُطْرب : هو الدهر الطويل غير المحدود . وقال عمر بن الخطاب

رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقابا الحُقب بضع وثمـانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة ممـا تعـدون فلا يتكلنّ أحدكم على أنه يخرج من النـار". ذكره الثعلبيّ . القُرَظيّ : الأحقاب ثلاثة وأربعـون حُقبا كل حُقب سبعون خريفـا كل خريف سبعمائة سـنة كل سنة ثلثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة .

قلت : هذه أقوال متعارضة والتحديد في الآية للخلود يحتاج إلى توقيف يقطع العذر ، وليس ذلك بثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنمـا المعنى والله أعلم ما ذكرناه أولا ؛ أى لابثين فيها أزمانا ودهورا كلما مضى زمن يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر ، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع . وقال ابن كَيْسان : معنى « لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً » لا غاية لها ولا انتهاء فكأنه قال أبدا . وقال ابن زيد ومقاتل : إنها منسوخة بقوله تعـالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً » يعني إن العدد قد انقطع والخلود قد حصل .

قلت : وهـذا بعيد ؛ لأنه خبر وقد قال تعالى : « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ » على ما تقدم (١) . هـذا في حقّ الكفار فأما العصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص . والله أعلم . وقيل : المعنى « لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً » أى في الأرض؛ إذ قد تقـدم ذكرها ويكون الضمير في « لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً » لجهنم . وقيل : واحد الأحقاب حُقْبٌ وحِقْبَةٌ؛ قال :

فإنْ تَنْأَ عنهـا حِقْبَـةً لا تُلاقِهـا * فأنْتَ بِمـا أَحْدَثْتَـهُ بِالْمُجَـرِّبِ

وقال الكُمَيت (٢) :

* مَرَّ لهـا بَعْدَ حِقْبَـةٍ حِقَبُ *

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٦

(٢) صدر البيت : * ولا حـول غدت ولا دمن *

قوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ﴾ أى فى الأحقاب ﴿ بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ البرد النوم فى قول أبى عبيدة وغيره؛ قال الشاعر [1] :

وَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ * وإِن شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا ولا بَرْدًا

وقاله مجاهد والسدى والكسائى والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى ؛ وأنشدوا قول الكندى :

بَرَدَتْ مَرَاشِفُهَا عَلَىَّ فَصَدَّنِى * عَنْهَا وعَنْ تَقْبِيلِهَا الْبَرْدُ

يعنى النوم . والعرب تقول : منع البَرْدُ البَرْدَ يعنى أذهب البرد النوم .

قلت : وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل فى الجنة نوم . فقال : "لا ؛ النوم أخو الموت والجنة لاموت فيها" فكذلك النار ؛ وقد قال تعالى : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا » وقال ٱبن عباس : البَرْد بَرْد الشَّراب . وعنه أيضا : البَرْد النوم والشَّراب الماء . وقال الزجاج : أى لايذوقون فيها بَرْدَ ريح ولا ظِلٍّ ولا نَوْمٍ فجعل البرد برد كل شىء له راحة، وهذا برد ينفعهم فأما الزَّمْهَرِير فهو برد يتأذون به فلا ينفعهم فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به . وقال الحسن وعطاء وٱبن زيد : بردا أى رَوْحا وراحة ؛ قال الشاعر [2] .

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ * ولا الْفَيْءُ أَوْقَاتَ [3] الْعَشِيِّ تَذُوقُ

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا » جملة فى موضع الحال من الطاغين، أو نعت للأحقاب؛ فالأحقاب ظرف زمان والعامل فيه « لَابِثِينَ » أو « لَبِثِينَ » على تعدية فَعِل . ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ٱستثناء منقطع فى قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلا منه . والحميم الماء الحار؛ قاله أبو عبيدة . وقال ٱبن زيد : الحميم دموع أعينهم تجمع فى حياض ثم يسقونه . قال النحاس : أصل الحميم الماء الحار ومنه ٱشتق الحَمَّام ومنه الحُمَّى ومنه «وَظِلٍّ مِنْ

(١) هو العرجى عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان . ونسب إلى العرج وهو موضع قبل الطائف كان ينزل به . والنقاخ كغراب : الماء الطيب .

(٢) قائله حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن ٱمرأة .

(٣) كذا فى الأصل وفى كتب اللغة مادة « فيأ » ولا الفىء من برد العشى ... الخ .

يَحْمُومٍ » إنما يراد به النهاية في الحر . والغَسَّاق صديد أهل النار وقيحهم . وقيل : الزمهرير . وقرأ حمزة والكسائى بتشديد السين وقد مضى فى « ص »(١) القول فيه . ﴿ جَزَاءً وِفَاقاً ﴾ أى موافقا لأعمالهم . عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ فالوِفاق بمعنى الموافقة كالقتال بمعنى المقاتلة . و « جزاء » نصب على المصدر أى جازيناهم جَزَاءً وافق أعمالهم ؛ قاله الفراء والأخفش . وقال الفراء أيضا : هو جمع الوِفْق والوفْق واللِّفْق واحدٌ . وقال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلاذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله بما يسوءهم . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ ﴾ أى لايخافون ﴿ حِسَاباً ﴾ أى محاسبة على أعمالهم . وقيل : معناه لايرجون ثواب حساب . الزجاج : أى إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم . ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ أى بما جاءت به الأنبياء . وقيل : بما أنزلنا من الكتب . وقراءة العامة « كِذّابا » بتشديد الذال وكسر الكاف على كَذَّب أى كذّبوا تكذيبا كبيرا . قال الفراء : هى لغةٌ يمانيةٌ فصيحةٌ ؛ يقولون : كذّبت [به](٢) كِذّابا وخَرَّقت القميصَ خِرّاقا ؛ وكل فِعْل فى وزن فَعَّل فمصدره فِعَّالٌ مشدد فى لغتهم ؛ وأنشد بعض الكلابيين :

لَقَدْ طَالَ ما ثَبَّطْتَنِى عن صَحابَتِى * وعن حِوَجٍ قِضّاؤُها مِنْ شِفَائِيَا

وقرأ على رضى الله عنه « كِذَاباً » بالتخفيف وهو مصدر أيضا . وقال أبو على : التخفيف والتشديد جميعا مصدر المكاذبة ؛ كقول الأعشى :

فَصَدَقْتُهَا وكَذَبْتُهَا(٣) * والمَرْءُ يَنْفَعُه كِذَابُهْ

أبو الفتح : جاءا جميعا مصدر كَذَب و كَذَّب جميعا . الزمخشرى : « كِذَاباً » بالتخفيف مصدر كَذَب ؛ بدليل قوله :

فَصَدَقْتُها وكَذَبْتُها * والمَرْءُ يَنْفَعُه كِذَابُهْ

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٢١ فما بعدها .

(٢) الزيادة من الفراء .

(٣) قال الشهاب : وضمير صدقتها وكذبتها للنفس والمراد أنه يصدق نفسه تارة بأن يقول إن أمانيها محققة وتكذيبها بخلافه أو على العكس .

وهو مثل قوله : « أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً » يعنى وكذّبوا بآياتنا فكذبوا كذابا . أو تنصبه بـ « كَذَّبُوا » ، لأنه يتضمن معنى كذبوا ؛ لأن كل مكذِّب بالحق كاذب ؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة . وقرأ ابن عمر « كُذَّابا » بضم الكاف والتشديد جمع كاذب ؛ قاله أبو حاتم . ونصبه على الحال الزمخشرى . وقد يكون الكُذّاب بمعنى الواحد البليغ فى الكذب ، يقال : رجل كُذَّاب كقولك حُسّان وبُخّال فيجعله صفة لمصدر « كَذَّبُوا » أى تكذيبا كُذّابا مفرطا كذبه . وفى الصحاح : وقوله تعالى : «وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً» وهو أحد مصادر المُشَدّد؛لأن مصدره قد يجىء على تفعيل مثل التكليم وعلى فِعّال مثل كِذّاب وعلى تفعلة مثل توصية وعلى مُفَعَّل؛ مثل «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ» . ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾ «كُلَّ» نصب بإضمار فعل يدل عليه « أَحْصَيْنَاهُ » أى وأحصينا كل شىء أحصيناه . وقرأ أبو السَّمّال «وَكُلُّ شَيْءٍ» بالرفع على الابتداء « كِتَاباً» نصب على المصدر ؛ لأن معنى أحصينا كتبنا أى كتبناه كتابا . ثم قيل : أراد به العلم فإن ما كتب كان أبعد من النسيان . وقيل : أى كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة . وقيل : أراد ما كتب على العباد من أعمالهم . فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة ؛ دليله قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَاماً كَاتِبِينَ » . ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾ قال أبو برزة : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن أشد آية فى القرآن فقال " قوله تعالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً » " أى « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا » و « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً » .

قوله تعالى : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً ﴿٣٣﴾ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ذكر جزاء من آتقى مخالفة أمر الله « مَفَازًا » موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار . ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها مفازة تفاؤلا بالخلاص منها . ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ هذا تفسير الفوز . وقيل : « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا » إن للمتقين حدائق ؛ جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه ؛ يقال أحدق به أي أحاط . والأعناب جمع عنب أي كروم أعناب لحذف . ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ كواعب جمع كاعِب وهي الناهد ؛ يقال : كَعَبَت الجارية تَكْعُب كُعُوبًا وكَعَّبت تُكَعِّب تكعيبا ونَهَدت تَنْهُد نُهودا . وقال الضحاك : الكواعب العذارى ؛ ومنه قوله قيس بن عاصم :

وَكَمْ مِنْ حصَانٍ قد حَوَيْنا كَرِيمَةٍ * ومِنْ كاعِبٍ لم تَدْرِ ما البُؤْسُ مُعْصِرِ

والأتراب الأقران في السنّ . وقد مضى في سورة «الواقعة» (١) الواحد ترب . ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال الحسن وقتادة وآبن زيد وآبن عباس : مترعة مملوءة ؛ يقال : أدهقت الكأس أي ملأتها وكأس دهاق أي ممتلئة ؛ قال :

أَلا آسْقِنِي صِرْفًا سَقانِي السَّاقِي * مِن مائِها بِكَأْسِهِ الدِّهَاقِ

وقال خِداش بن زهير :

أَتانا عامِرٌ يَبْغِي قِرانَا * فأتْرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقًا

وقال سعيد بن جبير وعِكرمة ومجاهد وآبن عباس أيضا : متتابعة يتبع بعضها بعضا ؛ ومنه آدَّهقتِ الحِجارةُ آدِّهَاقا وهو شدّة تلازمها ودخول بعضها في بعض ؛ فالمتتابع كالمتداخل . وعن عِكرمة أيضا وزيد بن أسلم : صافية ؛ قال الشاعر :

لَأَنْت إلى الْفُؤادِ أَحَبُّ قُرْبًا * مِنَ الصَّادِي إلى كَأْسٍ دِهَاقِ

وهو جمع دَهْقٍ (٢) وهو خشبتان [يُغمَز] بهما [الساق] (٣) . والمراد بالكأس الخمر فالتقدير وخمرا ذات دهاق أي عصرت وصفيت ؛ قاله القشيري . وفي الصحاح : وأَدْهقتُ الماء أي أفرغته

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢١١	(٢) كذا في الأصل .	(٣) التصحيح من كتب اللغة وفي الأصول : خشبتان يعصر بهما .

إفراغا شديدا . قال أبو عمرو والدَّهَق : بالتحريك ضرب من العذاب . وهو بالفارسية أشْكَنجه . المبرد : والمدهوق المعذَّب بجميع العذاب الذى لا فرجة فيه . ابن الأعرابى : دَهَقت الشىء كسرته وقطعته؛ وكذلك دَهْدَقته، وأنشد لحُجْر بن خالد :

نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللَّحْمِ لِلْبَاعِ والنَّدَى * وبَعْضُهُم تَغْلِى بِذَمٍّ مَنَاقِعُهْ (١)

ودَهْمَقْتُه بزيادة الميم مثله . وقال الأصمعى : الدَّهْمَقة لِينُ الطعام وطِيبُه ورِقّته وكذلك كل شىء لين؛ ومنه حديث عمر : لو شئت أن يُدَهْمَق لى لفعلت ولكن الله عاب قوما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ اللغو الباطل وهو ما يلغى من الكلام ويطرح؛ ومنه الحديث : "إذا قلتَ لصاحبك أَنْصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لَغَوت" وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم ولم يتكلموا بلغو؛ بخلاف أهل الدنيا . « وَلَا كِذَّابًا » تقدم، أى لا يكذّب بعضهم بعضا ولا يسمعون كذبا . وقرأ الكسائى « كِذَابًا » بالتخفيف من كَذَبت كِذَابا أى لا يتكاذبون فى الجنة . وقيل : هما مصدران للتكذيب وإنما خففها ها هنا لأنها ليست بمقيد بفعل يصير مصدرا له ، وشدّد قوله : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا » لأن كَذَّبوا يقيد المصدر بالكِذَّاب . ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ ﴾ نصب على المصدر . لأن المعنى جزاهم بما تقدم ذكره جزاء وكذلك ﴿ عَطَاءً ﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد . أى أعطاهم عطاء . ﴿ حِسَابًا ﴾ أى كثيرا؛ قاله قتادة؛ يقال : أَحْسَبْتُ فلانا أى كثّرت له العطاء حتى قال حَسْبِى . قال (٢) :

ونُقْفِى وَلِيدَ الحَىِّ إنْ كان جائعًا * ونُحْسِبُهُ إنْ كان ليس بجائع

(١) يروى هكذا فى اللسان مادة « دهق » . وفى الأصول « مراجله » . والمناقع : القدور الصغار واحدها منقع ومنقعة .
(٢) قائله امرأة من بنى قشير . ونقفيه أى نؤثره بالقفية وهى ما يؤثر به الضيف والصبى .

وقال القتبي : ونرى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حَسْبي . وقال الزجاج : « حِسَاباً » أي ما يكفيهم . وقاله الأخفش . يقال : أَحْسَبني كذا أي كفاني . وقال الكلبي : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا . مجاهد : حسابا لما عملوا فالحساب بمعنى العَد . أي بقدر ماوجب له في وعد الربّ فإنه وعد للحسنة عشرا ، ووعد لقوم بسبعمائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار ؛ كما قال تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقرأ أبو هاشم « عَطَاءً حَسَّاباً » بفتح الحاء وتشديد السين على وزن فَعّال أي كَفَافا ؛ قال الأصمعي : تقول العرب حسَّبت الرجل بالتشديد إذا أكرمته ؛ وأنشد قول الشاعر :

* إذا أتاهُ ضَيْفُه يُحَسِّبُه *

وقرأ ابن عباس « حَسَناً » بالنون .

قوله تعالى : رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ ﴾ قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب والمفضّل عن عاصم « رَبُّ » بالرفع على الاستئناف « الرَّحْمنُ » خبره . أو بمعنى هو ربُّ السموات ويكون « الرَّحمنُ » مبتدأ ثانيا . وقرأ ابن عامر ويعقوب وابن محيصن كلاهما بالخفض نعتا لقوله : « جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ » أي جزاء من ربك ربِّ السموات الرحمنِ . وقرأ ابن عباس وعاصم وحمزة والكسائي « رَبِّ السَّمَوَاتِ »

خفضا على النعت « الرَّحْمَنُ »(١) رفعا على الابتــداء أى هو الرحمن . وآختاره أبو عبيد وقال : هذا أَعْدلُها ؛ خفض « رب » لقربه من قوله « مِنْ رَبِّكَ » فيكون نعتا له ورفع « الرّحمن » لبعــده منه على الاستئناف وخبره ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه . وقال الكسائى : « لَا يَمْلِكُونَ مِنْــهُ خِطَابًا » بالشفاعة إلا بإذنه . وقيــل : الخطاب الكلام؛ أى لا يملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلا بإذنه؛ دليله : « لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : أراد الكفار « لَا يَمْلِكُونَ مِنْــهُ خِطَابًا » فأما المؤمنون فيشفعون .

قلت : بعد أن يؤذن لهم؛ لقوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا » .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ « يَوْمَ » نصب على الظرف؛ أى يوم لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح . وآختلف فى الروح على أقوال ثمانية : الأوّل — أنه ملك من الملائكة . قال آبن عباس : ما خلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه ، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفًّا وقامت الملائكة كلهم صفًّا فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم . ونحو منه عن آبن مسعود؛ قال : الروح ملك أعظم من السموات السبع ، ومن الأرضين السبع ، ومن الجبال . وهو حِيَال السماء الرابعة(٢) يسبح الله كل يوم آثنتى عشرة ألف تسبيحة ؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكا ، فيجىء يوم القيامة وحده صفًّا وسائر الملائكة صفًّا . الثانى — أنه جبريل عليــه السلام . قاله الشعبى والضحاك وسعيد بن جبير . وعن آبن عباس : إن عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار الســبع ، يدخل جبريل كل يوم فيه سحرا فيغتسل فيزداد نورا على نوره وجمالا على جماله وعظما على عظمه ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة

(١) هــذه القراءة ذكرها القرطبى وآبن عطية ولم يذكرا قراءة عاصم بالجر فيهما وهى رواية حفص ، وقد ذكرها أبو حيان والألوسى ، فتكون القراءات عن عاصم على هذا ثلاثا ؛ رفع فيهما وجر فيهما وجر « رب » ورفع « الرحمن » .

(٢) فى نسخة : السماء السابعة .

تقع من ريشه سبعين ألف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيتَ المعمور والكعبةَ سبعونَ ألفا لا يعودون إليهما إلى يوم القيامة . وقال وهب : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تعالى تُرْعَد فَرَائِصُه ، يخلق الله تعالى من كل رِعْدة مائةَ ألف ملك ، فالملائكة صفوف بين يدى الله تعالى منكسة رءوسهم فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : لا إله إلا أنت ؛ وهو قوله تعالى : «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ » فى الكلام « وَقَالَ صَـوَاباً » يعنى قول : « لا إله إلا أنت » . والثالث — روى آبن عباس عن النبى صلى الله عليــه وسلم أنه قال : " الروح فى هذه الآية جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رءوس وأيد وأرجل يأكلون الطعام" ثم قـرأ «يَوْمَ يَقُـومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا » فإن هؤلاء جند وهؤلاء جند وهــذا قول أبى صالح ومجــاهد . وعلى هــذا هم خلق على صورة بنى آدم كالناس وليسوا بنــاس . الرابع — أنهــم أشراف الملائكة ؛ قاله مقاتل بن حيان . الخامس — أنهــم حفظة على الملائكة ؛ قاله آبن أبى نجيح . السادس — أنهــم بنو آدم ؛ قاله الحسن وقتــادة . فالمعنى ذوو الروح . وقال العوفى والقرظى : هــذا ممــا كان يكتمه آبن عبــاس ؛ قال : الروح خلق من خلق الله على صــور بنى آدم وما نزل ملك من السماء إلا ومعه واحد من الروح . السابع — أرواح بنى آدم تقوم صفّا فتقوم الملائكة صفّا وذلك بين النفختين قبل أن تردّ إلى الأجساد ؛ قاله عطية . الثامن — أنه القرآن ؛ قاله زيد بن أسلم وقرأ « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . و « صَفًّا » مصدر أى يقومون صفوفا . والمصدر ينبئ عن الواحد والجمع كالعَدْل والصَّوْم . ويقال ليوم العيد : يوم الصفّ . وقال فى موضع آخر : « وجاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » هــذا يدل على الصّفوف وهــذا حين العرض والحساب . قال معناه القتبى وغيره . وقيل : يقوم الروح صفّا والملائكة صفّا فهم صفّان . وقيل : يقوم الكل صفّا واحدا . ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ أى لا يشفعون ﴿ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ فى الشفاعة ﴿ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ يعنى حقًّا ؛ قاله الضحاك ومجاهد . وقال أبو صالح : لا إله إلا الله . وروى الضحاك عن آبن عبــاس قال : يشفعون لمن قال لا إله إلا الله .

وأصل الصواب السداد من القول والفعل وهو من أصاب يصيب إصابة ؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة . وقيل : «لَا يَتَكَلَّمُونَ» يعنى الملائكة والروح الذين قاموا صفًّا لا يتكلمون هيبة و إجلالا « إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ » فى الشفاعة وهم قد قالوا صوابا ، وأنهم يوحدون الله تعالى و يسبحونه . وقال الحسن : إن الروح تقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة ولا النار إلا بالعمل . وهو معنى قوله : « وَقَالَ صَوَابًا » .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أى الكائن الواقع ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ أى مرجعا بالعمل الصالح ؛ كأنه إذا عمل خيرا ردّه إلى الله عز وجل ، و إذا عمل شرا عده منه . وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام : " والخير كله بيديك والشر ليس إليك " . وقال قتادة : « مآبا » سبيلا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يخاطب كفار قريش ومشركى العرب؛ لأنهم قالوا : لا نبعث . والعذاب عذاب الآخرة وكل ما هو آتٍ فهو قريب، وقد قال تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » قال معناه الكلبى وغيره . وقال قتادة : عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين . قال مقاتل : هى قتل قريش ببدر . والأظهر أنه عذاب الآخرة وهو الموت والقيامة ؛ لأن من مات فقد قامت قيامته فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة ، و إن كان من أهل النار رأى الخزى والهوان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ بين وقت ذلك العذاب؛ أى أنذرناكم عذابا قريبا فى ذلك اليوم وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه أى يراه . وقيل : ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى . والمرء ها هنا المؤمن فى قول الحسن ؛ أى يجد لنفسه عملا فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا . ولما قال : ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن . وقيل : المرء ها هنا أبىّ بن خلف وعُقبة بن أبى مُعيط « و يقولُ الْكَافِرُ » أبو جهل . وقيل : هو عام فى كل أحد و إنسان يرى فى ذلك اليوم جزاء ما كسب . وقال مقاتل : نزلت قوله « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ» فى أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ

تُرَابًا ﴾ فى أخيه الأسود بن عبد الأسد . وقال الثعلبي : سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الكافر ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم بأنه خلق من تراب وآفتخر بأنه خلق من نار ، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم و بنوه من الثواب والراحة والرحمة ، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب تمنى أنه يكون بمكان آدم فـ « يَقُولُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » قال : و رأيته فى بعض التفاسير للقشيرى أبى نصر . وقيل : أى يقول إبليس ياليتنى خلقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم . وعن آبن عمر : إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرضُ مدّ الأَدِيم ، وحشر الدواب والبهائم والوحوش ، ثم يوضع القِصاص بين البهائم حتى يقتص للشاة الجَمّاء من الشاة القَرْناء بنطحتها ، فإذا فرغ من القِصاص بينها قيل لها : كونى ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : « يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . ونحوه عن أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة مجودا والحمد لله . ذكر أبو جعفر النحاس : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع ، قال حدثنا سلمة بن شبيب قال حدثنا عبد الرزاق قال حدثنا معمر ، قال أخبرنى جعفر بن برقان الجزرى عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة قال : إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر و إنسان ثم يقال للبهائم والطير كونى ترابا فعند ذلك « يَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقال قوم : « يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » أى لم أبعث كما قال : « يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ » . وقال أبو الزِّناد : إذا قُضِى بين الناس ، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، قيل لسائر الأمم ولمؤمنى الجنّ عودوا ترابا فيعودون ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم « يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقال ليث بن أبى سليم : مؤمنو الجنّ يعودون ترابا . وقال عمر بن عبد العزيز والزهرى والكلبى ومجاهد : مؤمنو الجنّة حول الجَنّة فى رَبَض[(1)] ورِحاب وليسوا فيها . وهذا أصح وقد مضى فى سورة « الرحمن » بيان هذا وأنهم مكلّفون يثابون و يعاقبون فهم كبنى آدم ، والله أعلم بالصواب .

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٦٩

سـورة النازعات

مكية بإجماع ، وهى خمس أو ست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾
وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾
يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾
أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا
كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ
زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿والنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء التى ذكرها على أن القيامة حقّ . و «النَّازِعَاتِ» الملائكة التى تَنزِع أرواح الكفار؛ قاله علىّ رضى الله عنه؛ وكذا قال آبن مسعود وآبن عباس ومسروق ومجاهد: هى الملائكة تَنزِع نفوس بنى آدم . قال آبن مسعود : يريد أنفس الكفار يَنزِعها ملك الموت من أجسادهم ، من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافير وأصول القدمين نزعًا كالسَّفُّود ينزع من الصُّوف الرَّطْب ، ثم يُغرِقها أى يرجعها فى أجسادهم ، ثم يَنزِعها ؛ فهذا عمله بالكفّار . وقاله آبن عباس . وقال سعيد بن جبير : نُزِعت أرواحُهم ثم غُرِّقت ثم حُرِّقت ثم قُذِف بها فى النار . وقيل : يرى الكافر نفسه فى وقت النزع كأنها تغرق . وقال السدى : و «النازِعاتِ» هى النفوس حين تغرق فى الصدور . مجاهد : هى الموت يَنزِع النفوس . الحسن وقتادة : هى النجوم تَنزِع من أفق إلى أفق ؛ أى تذهب من قولهم : نزع إليه أى ذهب ، أو من قولهم : نزعت الخيل أى جرت . «غَرْقًا»

أى إنها تغرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر . وقاله أبو عبيدة وآبن كيسان والأخفش . وقيل : النازعات القسيّ تنزِع بالسهام؛ قاله عطاء وعكرمة . و «غَرْقًا» بمعنى إغراقا؛ وإغراق النازع فى القوس أن يبلغ غاية المدّ حتى ينتهى إلى النَّصْــل . يقال : أغرق فى القوس أى آستوفى مدّها ، وذلك بأن تنتهى إلى العَقَب الذى عنــد النَّصْل الملفوف عليه . والآستغراق الآستيعاب . ويقال لقشرة البيضة الداخلة : « غِرْقِىء » . وقيل : هم الغزاة الرماة .

قلت : هو والذى قبله سواء؛ لأنه إذا أقسم بالقِسِيّ فالمراد النازعون بها تعظيما لها؛ وهو مثل قوله تعــالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » والله أعلم . وأراد بالإغراق المبالغة فى النزع وهو سائغ فى جميع وجوه تأويلها . وقيل : هى الوحش تَنزِع (١) من الكلأ وتَنفر . حكاه يحيى بن سلّام . ومعنى « غَرْقًا » أى إبعادا فى النزع .

قوله تعــالى : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْــطًا ﴾ قال آبن عباس : يعــنى الملائكة تَنشِط نَفْس المؤمن فتقبضها كما يُنشَط العِقَال من يد البعير إذا حُلّ عنه . وحكى هذا القول الفراء ثم قال : والذى سمعت من العرب أن يقولوا أُنْشِطت وكأنمــا أُنْشِط من عِقَال . وربطها نَشْــطها والرابط الناشط ، وإذا ربطت الحبل فى يد البعير فقد نَشَطته فأنت ناشــط ، وإذا حللته فقد أَنْشطته وأنت مُنشِط . وعن آبن عبــاس أيضا : هى أنفس المؤمنين عنــد الموت تَنْشَط للخروج ؛ وذلك أنه مامن مؤمن [يَحضُره (٢) الموت] إلا وتُعرَض عليه الجنــة قبل أن يموت فيرى فيها ما أعدّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين فهم يَدْعونه إليها فنفسه إليهم نَشِطَةٌ أن تخرج فتأتيهم . وعنه أيضا قال : يعنى أنفس الكفار والمنافقين تَنْشَط كما يُنشَط العَقَبُ ، الذى يعقب به السهم ، والعَقَب بالتحريك العَصَب الذى تُعمَل منه الأوتار ، الواحدة عَقَبة ؛ تقول منه : عَقَب السَّهمَ والقَدَحَ والقوسَ عَقْبا إذا لوى شيئا منه عليه . والنَّشْط الجذب بسرعة ومنه الأُنْشُوطة عقدة يسهل آنحلالها إذا جُذِبت مثل عقدة التِّكة . وقال أبو زيد : نشطت

(١) فى نسخ الأصل : تنزع من الكلأ . وفى البحر : تنزع إلى ... الخ .

(٢) الزيادة من تفسير الثعلبى .

الحبلَ أَنْشُطه نَشْطا عقدته بأُنْشُوطة ، وأَنْشَطته أى حللته ، وأَنْشطت الحبلَ أى مددته حتى يحل . وقال الفراء : أُنشِطَ العقالُ أى حُلّ ونُشِط أى ربط الحبل فى يديه . وقال الليث : أنشطته بأُنشوطة وأُنشوطتين أى أوثقته ، وأَنشطتُ العِقالَ أى مددت أُنْشوطته فانحلت . قال : ويقال نَشَط بمعنى أَنْشَط لغتان بمعنًى ؛ وعليه يصح قول ابن عباس المذكور أوّلا . وعنه أيضا : الناشطات الملائكة لنشاطها تذهب وتجىء بأمر الله حيثما كان . وعنه أيضا وعن علىّ رضى الله عنهما : هى الملائكة تَنْشِط أرواحَ الكفّار مابين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أجوافهم نَشْطا بالكَرْب والغَمّ كما تنشط الصّوف من سُفّود الحديد وهى من النَّشْط بمعنى الجَذْب ؛ يقال : نَشَطتُ الدَّلو أَنشِطها بالكسر وأَنشُطها بالضم أى نزعتها . قال الأصمعى : بئر أنشاط أى قريبة القعر تخرج الدَّلو منها بجذبة واحدة . وبئر نَشُوط ؛ قال : وهى التى لا يخرج منها الدَّلو حتى تُنْشَطَ كثيرا . وقال مجاهد : هو الموت ينشِط نَفْس الإنسان . السدى : هى النفوس حين تَنشِط من القدمين . وقيل : النازعات أيدى الغزاة أو أنفسهم تَنزِع القسىّ بإغراق السهام وهى التى تنشط الأوهاق(١). عِكرمة وعطاء : هى الأوهاق تنشط السهام . وعن عطاء أيضا وقتادة والحسن والأخفش : هى النجوم تَنشِط من أفق إلى أفق أى تذهب . وكذا فى الصحاح . « والنَّاشِطَاتِ نَشْطًا » يعنى النجوم من بُرْج إلى بُرْج كالثور الناشط من بلد إلى بلد . والهموم تَنشِط بصاحبها ؛ قال هُميان بن قُحافة :

أَمْسَتْ هُمُومِى تَنْشِطُ المَنَاشِطَا * الشَّامَ بِى طَوْراً وطَوْراً وَاسِطَا

أبو عبيدة وعطاء أيضا : الناشطات هى الوحش حين تَنشط من بلد إلى بلد ، كما أن الهموم تنشط الإنسان من بلد إلى بلد ؛ وأنشد قول هُميان :

* أمست همومى ... * البيت

وقيل : « والنَّازِعَاتِ » للكافرين « والنَّاشِطَاتِ » للمؤمنين ، فالملائكة يجذبون رُوح المؤمن برفق والنّزع جَذْبٌ بشدّة والنَّشْط جذب برِفْق . وقيل : هما جميعا للكفار والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا .

(١) جمع وهق بحركتين وقد يسكن الحبل تشدّ به الإبل والخيل لئلا تند ، ويقال فى طرفه أنشوطة .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ قال علىّ رضى الله عنه : هى الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين . الكلبى : هى الملائكة تقبض أرواح المؤمنين ، كالذى يسبح فى الماء فأحيانا يَنْغَمِس وأحيانا يرتفع، يسلّونها سَلّا رفيقا بسهولة ثم يدعونها تستريح . وقال مجاهد وأبو صالح : هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله؛ كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع فى جريه . وعن مجاهد أيضا : الملائكة تسبح فى نزولها وصعودها . وعنه أيضا : السابحات الموت يسبح فى نفوس بنى آدم . وقيل : هى الخيل الغزاة؛ قال عنترة :

والخَيْلُ تَعْلَمُ حِين تَسْ * بَحُ فِى حِياضِ المَوْتِ سَبْحَا

وقال آمرؤ القيس :

مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحاتُ عَلَى الْوَنَى (١) * أَثَرْنَ غُبارًا بالكَدِيدِ الْمُرَكَّلِ

قتادة والحسن : هى النجوم تسبح فى أفلاكها وكذا الشمس والقمر؛ قال الله تعالى : « كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . عطاء : هى السفن تسبح فى الماء . آبن عباس : السابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج .

قوله تعالى : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ قال علىّ رضى الله عنه : هى الملائكة تسبق الشياطين بالوحى إلى الأنبياء عليهم السلام . وقاله مسروق ومجاهد . وعن مجاهد أيضا وأبى روق : هى الملائكة سبقت آبن آدم بالخير والعمل الصالح . وقيل : تسبق بنى آدم إلى العمل الصالح فتكتبه . وعن مجاهد أيضا : الموت يسبق الإنسان . مقاتل : هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . آبن مسعود : هى أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها وقد عاينت السرور شوقا إلى لقاء الله تعالى ورحمته . ونحوه عن الربيع قال: هى النفوس تسبق بالخروج عند الموت . وقال قتادة والحسن ومَعْمَر : هى النجوم يسبق بعضها بعضا فى السير . عطاء : هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد . وقيل : يحتمل أن تكون

---

(١) مسح : يصب الجرى . الونى : الفتور . الكديد : الموضع الغليظ . المركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسح السحاب المطر .

السابقات ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار ؛ قاله الماوردى . وقال الجرجانى : ذكر « فالسَّابِقَاتِ » بالفاء لأنها مشتقة من التى قبلها ؛ أى واللائى يسبحن فيسبقن ، تقول : قام فذهب ؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب لم يكن القيام سببا للذهاب .

قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ قال القشيرى : أجمعوا على أن المراد الملائكة . وقال الماوردى فيه قولان : أحدهما الملائكة ؛ قاله الجمهور . والقول الثانى هى الكواكب السبعة . حكاه خالد بن مَعْدان عن معاذ بن جبل . وفى تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما تدبير طلوعها وأفولها . الثانى تدبير ما قضاه الله تعالى فيها من تقلب الأحوال . وحكى هذا القول أيضا القشيرى فى تفسيره ، وأن الله تعالى علّق كثيرا من تدبير أمر العالم بحركات النجوم ، فأضيف التدبير إليها و إن كان من الله ، كما يسمى الشيء بآسم ما يجاوره . وعلى أن المراد بالمدبرات الملائكة فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله ؛ قاله آبن عباس وقتادة وغيرهما . وهو إلى الله جل ثناؤه ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك ؛ كما قال عز وجل : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » وكما قال تعالى : « فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ » يعنى جبريل نزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، والله عز وجل هو الذى أنزله . وروى عطاء عن آبن عباس : « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » الملائكة وكلت بتدبير أحوال الأرض فى الرياح والأمطار وغير ذلك . قال عبد الرحمن بن سابِط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة ؛ جبريل وميكائيل وملك الموت وآسمه عزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقَطْر والنبات ، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس فى البر والبحر ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل وبينه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام . وقيل : أى وُكِّلوا بأمور عرّفهم الله بها . ومن أول السورة إلى هنا قسم أقسم الله به ، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لنا ذلك إلا به عز وجل . وجواب القسم مضمر كأنه قال : والنازِعاتِ وكذا وكذا لتبعثُنّ ولتحاسبُنّ أضمر لمعرفة السامعين

بالمعنى ؛ قاله الفراء . ويدل عليـه قوله تعالى : « أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِـرَةً » ألست ترى أنه كالجواب لقولهم : « أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً » نبعث فاكتفى بقوله : « أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً » . وقال قوم : وقع القسم على قوله : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِـبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » وهــذا اختيار الترمذي ابن علي . أي فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون « لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » ولكن وقع القسم على ما في السورة مذكورا ظاهرا بارزا أحرى وأقمن من أن يؤتى بشيء ليس بمذكور فيها . قال ابن الأنباري : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : جواب القسم « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » لأن المعنى قد أتاك . وقيل : الجواب ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ على تقدير ليوم ترجف فحذف اللام . وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة والنازعات غرقا . وقال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . ابن الأنباري : وهذا خطأ ؛ لأن الفاء لا يفتتح بهـا الكلام والأول الوجه . وقيل : إنمـا وقع القسم على أن قلوب أهل النـار تجف وأبصارهم تخشع فانتصـاب « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » على هــذا المعنى ولكن لم يقع عليه . قال الزجاج : أي قلوب واجفة يوم ترجف . وقيــل : انتصب بإضمار اذكر . و « ترجف » أي تضطرب والراجفة أي المضطربة كذا قال عبد الرحمن زيد ؛ قال : هي الأرض ، والرادفة الساعة . مجاهــد : الراجفة الزلزلة ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ الصيحة . وعنــه أيضا وابن عبـاس والحسن وقتادة : هما الصيحتان . أي النفختان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعـالى ، وأما الثـانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى . وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينهما أربعون سنة " وقال مجاهد أيضا : الرادفة حين تَنْشَقّ السماء وتُحْمَلُ الأرض والجبال فتُدَكُّ دكّة واحدة وذلك بعد الزلزلة . وقيل : الراجفة تحرك الأرض ، والرادفة زلزلة أخرى تفني الأرضين . فالله أعلم . وقد مضى في آخر « النمل »(١) ما فيه كفاية في النفخ في الصور . وأصل الرجفة الحركة ، قال الله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ » وليست الرجفة ها هنا من

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٣٩ فما بعدها .

الحركة فقط بل من قولهم : رَجَفَ الرّعد يَرْجُفُ رَجْفًا ورَجيفا أى أظهر الصـوت والحركة ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها و إفاضة الناس فيها ؛ قال (١) :

أبِالأراجيف يَآبْنَ اللُّومِ تُوعِدُنِى * وفِى الأَرَاجِيف خِلْتُ اللُّؤْمَ والخَوَرا

وعن أُبَىّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان إذا ذهب ربع الليل قام ثم قال : " يأيها الناس آذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه " . ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أى خائفة وجلة ؛ قاله آبن عباس وعليه عامة المفسرين . وقال السدى : زائلة عن أماكنها ؛ نظيره « إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ » . وقال المؤرّج : قلقة مستوفزة، مرتكضة (٢) غير ساكنة . وقال المبرد : مضطربة . والمعنى متقارب والمراد قلوب الكفار؛ يقال وجف القلب يجف وجيفا إذا خفـق ؛ كما يقال : وجب يجب وجيبا ؛ ومنـه وجيف الفرس والناقـة فى العدو ؛ والإيجاف حمل الدابة على السير السريع ؛ قال :

بُدِّلْنَ بَعْـدَ جِرَّةٍ صَرِيفَـا * وبَعْـد طُـولِ النَّفَسِ الْوَجِيفَا

و « قُلُوبٌ » رفع بالابتداء و « وَاجِفَةٌ » صفتها . و ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ خبرها؛ مثل قوله : « وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ » ومعنى « خَاشِعَةٌ » منكسرة ذليلة من هول ما ترى؛ نظيره : « خَاشِـعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ » والمعنى أبصـار أصحابها فحذف المضـاف . ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ﴾ أى يقـول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث إذا قيـل لهم إنكم تبعثون قالوا منكرين متعجبين : أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر فنعود أحياء كما كنا قبل الموت ؟ وهو كقولهم : « أَئِنَّـا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » يقال : رجع فلان فى حافرته وعلى حافرته أى رجع من حيث جاء ؛ قاله قتادة . وأنشد آبن الأعرابى :

---

(١) قائله منـازل بن ربيعة المنقرى فى هجـو رؤبة والعجاج . والرواية المشهورة للبيت كما فى كتب النحو كشرح التصريح وغيره هى :

أبا لأراجيز يابن اللـؤم توعـدنى * وفى الأراجـيز خلت اللـؤم والخـور

والأراجيز جمع أرجوزة وهى القصائد الجارية على بحر الرجز . وفى الأراجيز خبر مقدّم واللؤم مبتدأ مؤخر وتوسط خلت بين المبتدإ والخبر أبطل عملها ؛ وهـو موضع الشـاهد فى البيت عند النحاة . وقيل لا يمتنع النصب على أن يقدر مبتدأ أى رأما خلت . (٢) مرتكضة : مضطربة .

أَحافِـرَةً على صَـلَعٍ وشَيْبٍ * مَعـاذَ اللهِ مِنْ سَـفَهٍ وعَارِ

يقول : أأرجـع إلى ما كنتُ عليه في شـبابي من الغَزَل والصِّبا بعـد أن شِبتُ وصلِعتُ ! ويقـال : رجع على حافرته ، أي الطـريق الذي جاء منه . وقولهم في المثل : النَّقْد عنـد الحافرة . قال يعقوب : أي عند أوّل كلمـة . ويقال : آلتقى القوم فاقتتلوا عنـد الحافرة . أي عند أوّل ما آلتقوا . وقيل : الحافرة العاجلة ؛ أي أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا؟ قال الشاعر :

آلَيْتُ لا أَنْسـاكُمُ فآعْلَمُـوا * حَتّى يُرَدَّ النّـاسُ في الحافِرَهْ

وقيل : الحافرة الأرض التي تحفر فيها قبـورهم فهي بمعنى المحفورة ؛ كقوله تعـالى : « مَاءٍ دَافِقٍ » و « عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » والمعنى أئنا لمردودون في قبورنا أحياء . قاله مجاهـد والخليل والفرّاء . وقيـل : سميت الأرض الحافرة ؛ لأنها مسـتقرّ الحوافر كما سميت القـدم أرضا ؛ لأنها على الأرض . والمعنى أئنا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشي على أقدامنا . وقال آبن زيد : الحافرة النار وقرأ « تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » . وقال مقاتل وزيد بن أسلم : هي آسم من أسماء النار . وقال آبن عباس : الحافِرةُ في كلام العـرب الدنيا . وقرأ أبو حيوة : « الحَفِرَةِ » بغير ألف مقصور من الحافرة . وقيل : الحفِرة الأرض المنتنة بأجساد موتاها ؛ من قولهم : حفرت أسنانه إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها . يقال : في أسـنانه حَفْرٌ وقد حَفَرَتْ تَحْفِرُ حَفْرًا ، مثال كَسَر يَكْسِر كَسْرا إذا فسدت أصولها . وبنو أسد يقولون : في أسنانه حَفَرٌ بالتحريك . وقد حفِرت مثال تعِب تعبا وهي أردأ اللغتين ؛ قاله في الصحاح .

﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ أي بالية متفتتة . يقال : نَخِر العظم بالكسر أي بلِي وتَفَتّت ؛ يقال : عظام نَخِرَةٌ وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة وآختاره أبو عبيد ؛ لأن الآثار التي تُذكر فيها العظام نظرنا فيها فرأينا نَخِـرَةً لا ناخرة . وقرأ أبو عمرو وآبنـه عبد الله وآبن عباس وآبن مسعود وآبن الزبير وحمزة والكسائي وأبو بكر « نَاخِرَةً » بألف وآختـاره الفرّاء والطبري وأبو معاذ النحوي ؛ لوفاق رءوس الآي . وفي الصحاح : والنّاخِر من العظام

التى تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها نَخِيرٌ . ويقال : ما بها ناخر أى ما بها أحد . حكاه يعقوب عن الباهلى . وقال أبو عمرو بن العلاء : النّاخرة التى لم تنخر بعد أى لم تبل ولا بدّ أن تنخر . وقيل : الناخرة المجوّفة . وقيل : هما لغتان بمعنى ؛ كذلك تقول العرب : نخِر الشيء فهو نَخِر وناخِر؛ كقولهم: طَمِعَ فهو طَمِعٌ وطامِعٌ وحَذِرٌ وحاذِر وبخِل وباخِل وفرِه وفارِه؛ قال الشاعر :

يَظَلُّ بِها الشَّيْخُ الّذِى كان بَادِنًا * يَـدِبُّ على عُوجٍ لَهُ نَخِـراتِ

عُوج يعنى قَوائم . وفى بعض التفسير : ناخرة بالألف بالِيَةٌ ونَخِرة تَنْخَر فيها الريح أى تمر فيها على عكس الأوّل ؛ قال(١) :

* مِنْ بَعْـدِ ما صِرْتَ عِظاماً ناخِرَهْ *

وقال بعضهم : الناخرة التى أُكِلَتْ أطرافها وبقيت أوساطها . والنخرة التى فسدت كلها . وقال مجاهد : نخرة أى مرفوتة ؛ كما قال تعالى : « عِظَاماً وَرُفَاتاً » ونُخْرَةُ الريح بالضم شدّة هبوبها . والنخرة أيضا والنُّخَرَة مثال الهُمَزَة مقدَّم أنف الفرس والحمار والخنزير؛ يقال : هَشَم نُخْرَته أى أنفه . ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أى رجعة خائبة كاذبة باطلة أى ليست كائنة ؛ قاله الحسن وغيره . الربيع بن أنس : « خَاسِرَةٌ » على من كذّب بها . وقيل : أى هى كرة خسران . والمعنى أهلها خاسرون ؛ كما يقال : تجارة رابحة أى يربح صاحبها . ولا شيء أخسر من كرة تقتضى المصير إلى النار . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أى لئن رجعنا أحياء بعد الموت لَنحشرنّ بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار . والكَرُّ الرجوع ؛ يقال : كَرَّه وكَرّ بنفسه يتعدى ولا يتعدى . والكرة المرة والجمع الكرات . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : نفخة واحدة ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ أى الخلائق أجمعون ﴿ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى على وجه الأرض بعد ما كانوا فى بطنها . قال الفرّاء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نوم

(١) قائله الهمدانى يوم القادسية .

الحيوان وسهرهم . والعرب تسمى الفلاة و وجه الأرض ساهِرَةً بمعنى ذات سهر ، لأنه يسهر فيها خوفا منها فوصفها بصفة ما فيها ؛ وآستدل آبن عباس والمفسرون بقول أمية آبن أبى الصَّلت :

وفيها لَحْمُ ساهِرةٍ وبَحْرٍ * وما فاهُوا بِهِ لَهُمُ مُقيمُ

وقال آخر يوم ذى قارٍ لفرسه :

أَقْدِمْ مَحاجِ إنَّها الأَساوِرَهْ * ولا يَهُولَنَّكَ رِجْلٌ نادِرَهْ (١)
فإنَّما قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَهْ * ثُمَّ تَعودُ بَعْدَها فى الحافِرَهْ
* مِنْ بَعْدِ ما صِرْتَ عِظاماً ناخِرَهْ *

وفى الصحاح : ويقال : السّاهور ظِلّ الساهِرة وهى وجه الأرض . ومنه قوله تعالى : «فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ» قال أبو كبير الهُذَلىّ :

يَرْتَدنَ ساهِرَةً كَأَنَّ جَميمَها * وعَميمَها أَسْدافُ لَيْلٍ مُظْلِمِ (٢)

ويقال : السّاهور كالغلاف (٣) للقمر يدخل فيه إذا كسف ، وأنشدوا قول أمية بن أبى الصَّلْت (٤) :

* قَمَرٌ وساهورٌ يُسَلُّ ويُغْمَدُ *

وأنشدوا لآخر فى وصف آمرأة :

كأنَّها عِرْقُ سامٍ عِنْدَ ضارِبِهِ * أَو شُقَّةٌ (٥) خَرَجَت مِن جَوْفِ ساهورِ

يريد شقة القمر . وقيل : الساهرة هى الأرض البيضاء . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : أرض من فِضّة لم يُعصَ الله جل ثناؤه عليها قط خلقها حينئذ . وقيل : أرض جددها

---

(١) هذه الأبيات للهمدانى يوم القادسية وقد تقدم ذكرها . محاج : آسم فرس الشاعر . وفى اللسان مادة «نخر» : أقدم أخانهم . ولا تهولنك رءوس . وفى السمين : بادره . (٢) الجميم بالجيم ، النبت الذى قد نبت وآرتفع قليلا ولم يتم كل التمام ، والعميم المكتمل التام من النبت ، والأسداف جمع سدف بالتحريك وهو ظلمة الليل . (٣) هذا كما تزعم العرب فى الجاهلية . (٤) وصدر البيت : * لا نقص فيه غير أن خبيئه *
(٥) كذا فى نسخ الأصل التى بأيدينا والذى فى اللسان مادة «سهر» أو فلقة .

الله يوم القيامة . وقيل : الساهرة اسم الأرض السابعة يأتى بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق ، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض . وقال الثورى : الساهرة أرض الشام . وهب بن منبه : جبل بيت المقدس . عثمان بن أبى العاتكة : إنه اسم مكان من الأرض بعينه بالشام وهو الصقع الذى بين جبل أريحاء وجبل حسان[1] يمده الله كيف يشاء . قتادة : هى جهنم أى فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم . وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذ . وقيل : الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم ؛ أى يوقفون بأرض القيامة فيدوم السهر حينئذ . ويقال : الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك ، لأن السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفى ضدها نائمة ؛ قال الأشعث بن قيس :

وساهرة يَضْحَى السّرابُ مُجَلِّلًا * لأَقْطارِها قد جئتها متلثِّمًا

أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة .

قوله تعالى : هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ أى قد جاءك وبلغك « حَدِيثُ مُوسَى » وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم . أى إن فرعون

(١) ذكره الطبرى أيضا .

كان أقوى من كفار عصرك ثم أخذناه وكذلك هؤلاء . وقيل : « هل » بمعنى « ما » أى ما أتاك ولكن أخبرت به فإن فيه عبرةً لمن يخشى . وقد مضى من خبر موسى وفرعون فى غير موضع ما فيه كفاية[1] . وفى «طُوَى» ثلاث قراءات : قرأ آبن محيصن وآبن عامر والكوفيون « طُوًى » منونا وآختاره أبو عبيد لخفة الآسم . الباقون بغير تنوين ؛ لأنه معدول مثل عُمَر وقُثَم ؛ قال الفرّاء : طوى واد بين المدينة ومصر . قال : وهو معدول عن طاوٍ كما عدل عمر عن عامر . وقرأ الحسن وعكرمة « طِـوًى » بكسر الطاء وروى عن أبى عمـرو على معنى المقدس مرة بعد مرة ؛ قاله الزجاج ؛ وأنشد[2] :

أَعاذِلَ إِنّ اللَّوْمَ فى غَيْرِ كُنْهِهِ * عَلَيَّ طِوًى مِن غَيِّكِ الْمُتَرَدِّدِ

أى هو لَوْمٌ مكرر عليّ . وقيـل : ضم الطاء وكسرها لغتان وقـد مضى فى « طـه »[3] القول فيـه . ﴿ ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ أى ناداه ربه فحذف لأن النـداء قول ؛ فكأنه ؛ قال له ربه « ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَـوْنَ » . ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أى جاوز القـدر فى العصـيان . وروى عن الحسن قال : كان فرعون عِلْجًا من هَمْدان . وعن مجاهد قال : كان من أهل إِصْطَخْر . وعن الحسن أيضـا قال : من أهل أصبهان يقال له ذو ظفـر طوله أربعـة أشبار . ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ أى تسلِم فتطهر من الذنوب . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : هـل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله . ﴿ وَأَهْـدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى وأرشـدك إلى طاعة ربك ﴿ فَتَخْشَى ﴾ أى تخافه وتتقيه . وقرأ نافع وآبن كثير « تَزَّكَّى » بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى لأن أصلها تتزكى الباقون : «تَزَكَّى» بتخفيف الزاى على معنى طرح التاء . وقال أبو عمرو : « تَزَّكَّى » بالتشديد [تتصدق بـ][4] الصدقة و « تَزَكَّى » تكون زكيا مؤمنا . وإنما دعا فرعونَ ليكون زكيا مؤمنا . قال : فلهـذا آخترنا التخفيف . وقال صخـر بن جويرية :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٦ فما بعدها وجـ ١١ ص ٢٠٠ فما بعدها وجـ ١٣ ص ٢٥٠ فما بعدها .

(٢) قائله عدى بن زيد .　　(٣) راجع جـ ١١ ص ١٧٥ .

(٤) الزيادة من الطبرى وهى لازمة .

لمـا بعث الله موسى إلى فرعون قال له : « ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ » إلى قوله « وَأَهْـدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » ولن يفعل ؛ فقال : يارب وكيف أذهب إليه وقد علمت أنه لا يفعـل ؟ فأوحى الله إليـه أن ٱمض إلى ما أمرتك به فإن فى السماء ٱثنى عشر ألف ملك يطلبـون علم القدر فلم يبلغوه ولا يدركوه . ﴿ فَأَرَاهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَى ﴾ أى العـلامة العظمى وهى المعجزة . وقيل : العصا . وقيـل : اليد البيضاء تبرق كالشمس . وروى الضحاك عن ٱبن عباس : الآية الكبرى قال العصا . الحسن : يده وعصاه . وقيـل : فلق البحر . وقيـل : الآية إشارة إلى جميـع آياته ومعجزاته . ﴿ فَـكَذَّبَ ﴾ أى كذب نبىّ الله موسى ﴿ وَعَصَى ﴾ أى عصى ربه عز وجل . ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ أى ولى مدبرا معرضا عن الإيمان « يَسْـعَى » أى يعمل بالفساد فى الأرض . وقيل : يعمل فى نكاية موسى . وقيل : « أَدْبَرَ يَسْعَى » هاربا من الحية . ﴿ فَحَشَرَ ﴾ أى جمـع أصحابه يمنعوه منها . وقيل : جمع جنـوده للقتال والمحاربة والسحرة للعارضة . وقيل : حشر الناس للحضور . ﴿ فَنَادَى ﴾ أى قال لهم بصوت عال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى ﴾ أى لا رب لكم فوقى . و يروى : إن إبليس تصور لفرعون فى صورة الإنس بمصر فى الحمام فأنكره فرعون ، فقال له إبليس : ويحـك ! أما تعرفنى ؟ قال : لا . قال : وكيف وأنت خلقتنى ؟ ألست القـائل أنا ربكم الأعلى . ذكره الثعلبى فى كتاب العـرائس . وقال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها فقال أنا رب أصنامكم . وقيـل : أراد القادة والسادة هو ربهم وأولئك هم أرباب السّفلة . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير؛ فنادى فحشر ؛ لأن النـداء يكون قبـل الحشر . ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَى ﴾ أى نكال قـوله : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِى » وقوله بعـد : « أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى » قاله ٱبن عباس ومجاهد وعكرمة . وكان بين الكلمتين أربعون سنة ؛ قاله ٱبن عباس . والمعنى أمهله فى الأولى ثم أخذه فى الآخرة فعذبه بكلمتيه . وقيل : نكال الأولى هو أن أغرقـه ، ونكال الآخرة العذاب فى الآخرة . قاله قتادة وغيره . وقال مجاهد : هو عذاب أوّل عمره وآخره . وقيـل : الآخرة قـوله « أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى » والأولى تكذيبـه لموسى . عن قتادة أيضـا .

و « نَكَالَ » منصوب على المصدر المؤكد فى قول الزجاج ؛ لأن معنى أخذه الله نكل الله به فأخرج [نكال](١) مكان مصدر من معناه لا من لفظه . وقيل : نصب بنزع حرف الصفة ، أى فأخذه الله بنكال الآخرة فلما نُزِع الخافض نصب . وقال الفرّاء : أى أخذه الله أخذا نكالا أى للنكال . والنكال ٱسم لما جعل نكالا للغير أى عقوبة له حتى يعتبر به . يقال : نكل فلان بفلان إذا أثخنه عقوبة . والكلمة من الآمتناع ومنه النكول عن اليمين والنِّكْلُ القيد . وقد مضى فى سورة «المزمل»(٢) والحمد لله . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً ﴾ أى ٱعتبارا وعظة. ﴿ لِمَن يَخْشَىٰ ﴾ أى يخاف الله عز وجل .

قوله تعالى : ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ يريد أهل مكة أى أخلقكم بعد الموت أشد فى تقديركم ﴿ أَمِ السَّمَاءُ ﴾ فمن قدر على السماء قدر على الإعادة ؛ كقوله تعالى : « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله تعالى : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » فمعنى الكلام التقريع والتوبيخ . ثم وصف السماء فقال : ﴿ بَنَاهَا ﴾ أى رفعها فوقكم كالبناء . ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ أى أعلى سقفها فى الهواء ؛ يقال : سمكت الشيء أى رفعته فى الهواء وسَمَكَ الشيءُ سموكا ٱرتفع . وقال الفرّاء : كل شيء حمل شيئا من البناء وغيره فهو سَمْكٌ . وبناء مَسْمُوكٌ وسَنام سامِكٌ تامِكٌ أى عالٍ والمسموكات(٣) السموات . ويقال : ٱسْمُكْ فى الدَّيْم أى ٱصعد فى الدرجة .

---

(١) زيادة تقتضيها العبارة .	(٢) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء .	(٣) الذى فى اللغة المسمكات كمكرمات وورد كذلك فى الخبر وصحح التاج أن المسموكات لغة لا لحن وبها ورد الخبر عن طريق آخر .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى خلقها خلقا مستويا لا تفاوت فيه ولا شقوق ولا فطور . ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أى جعله مظلما ؛ غطش الليل وأغطشه الله؛ كقولك : ظَلِمَ [الليلُ](١) وأظلمه الله . ويقال أيضا : أغطش الليل بنفسه وأغطشه الله؛ كما يقال : أظلم الليل وأظلمه الله . والغَطَش والغَبَش الظلمة ورجل أغطش أى أعمى أو شبيه به وقد غَطِش والمرأة غطشاء ؛ ويقال : ليلةٌ غطشاء وليل أغطش، وفلاة غَطْشى لا يهتدى لها ؛ قال الأعشى :

وَيَهْمَاء بالَّليْـلِ غَطْشَى الفَلَا * ةِ يُؤْنِسُنِي صَـوْتُ فَيَّـادِها(٢)

وقال الأعشى أيضا :

عَقَرْتُ لَهُـمْ مَوْهِنا ناقَـتِي * وغامَرَهُمْ مَدلهِـمٌّ غَطَشْ

يعنى بغامرهم لَيْلَهم لأنه غمرهم بسواده . وأضاف الليل إلى السماء لأن الليـل يكون بغروب الشمس والشمس مضاف إلى السماء؛ ويقال : نجوم الليل لأن ظهورها بالليل . ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى أبرز نهارها وضـوءها وشمسها . وأضاف الضحا إلى السماء كما أضاف إليها الليل؛ لأن فيها سبب الظلام والضـياء وهو غروب الشمس وطلوعها . ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْـدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ أى بسطها . وهذا يشير إلى كون الأرض بعـد السماء . وقد مضى القول فيه فى أول « البقرة »(٣) عنـد قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَـكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » مستوفى . والعـرب تقول : دحوت الشيء أدحوه دحوا إذا بسطته . ويقال لعُشّ النعامة أُدْحِىّ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض . وقال أمية بن أبى الصَّلْت :

وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذ دَحاها * فَهُـمْ قُطَّانُهـا(٤) حَتّى التَّنادى

وأنشـد المبرّد :

دَحَاها فَلَمّا رآها اسْـتَوَتْ * عَلَى المَـاءِ أَرْسَى عَلَيْها الجِبالَا

(١) هذه الزيادة من اللسان عن الفراء قال : ظَلِمَ الليل بالكسر وأظلم بمعنى .

(٢) الفياد بفتح الفاء وضمها ذكر البوم . (٣) راجع ج ١ ص ٢٥٥ فما بعدها .

(٤) مضى هذا البيت فى ج ١٥ ص ٣١٠ بلفظ : سكانها . والمعنى واحد .

وقيل : دحاها سوّاها ؛ ومنه قول زيد بن عمرو :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ * لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقالا
دَحاها فَلَمَّا ٱسْتَوَتْ شَدَّهَا * بِأَيْدٍ وأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبالا

وعن ٱبن عباس : خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألف عام ثم دحيت الأرض من تحت البيت . وذكر بعض أهل العلم أن « بَعْدَ » فى موضع « مع » كأنه قال : والأرض مع ذلك دحاها ؛ كما قال تعالى : « عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » . ومنه قولهم : أنت أحمق وأنت بعد هذا سيّء الخلق ؛ قال الشاعر :

فَقُلْتُ لها عَنِّى إِلَيْكِ فَإِنَّنِى * حَرَامٌ وإِنِّى بَعْدَ ذَاكَ لَبِيبٌ

أى مع ذلك لبيب . وقيل : بعد بمعنى قَبْلُ ؛ كقوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » أى من قبل الفرقان ؛ قال أبو خراش الهُذَلى :

حَمِدْتُ إِلَهِى بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجا * خِراشٌ وبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وزعموا أن خِراشا نجا قبل عروة . وقيل : « دَحَاهَا » حرثها وشقها . قاله ٱبن زيد . وقيل : دحاها مهدها للأقوات . والمعنى متقارب . وقراءة العامة « وَالْأَرْضَ » بالنصب أى دحا الأرض . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون « وَالْأَرْضُ » بالرفع على الابتداء ؛ لرجوع الهاء . ويقال : دحا يَدْحو دحوًا ودحَى يَدْحَى دحيًا ؛ كقولهم : طَغَى يطْغَى ويَطْغُو وطَغِى يَطْغَى ومحا يمحو ويَمْحَى ولَحَى العودَ يلحَى ويلحو فمن قال : يدحو قال دحوت ومن قال يدحَى قال دحيت . ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا ﴾ أى أخرج من الأرض ﴿ مَاءَهَا ﴾ أى العيون المتفجرة بالماء . ﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ أى النبات الذى يرعى . وقال القتبى : دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر والحبّ والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء . ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ قراءة العامة « وَالْجِبَالَ » بالنصب أى وأرسى الجبال « أَرْسَاهَا » يعنى أثبتها فيها أوتادا لها . وقرأ

الحسن وعمرو بن ميمون وعمــرو بن عبيد ونصر بن عاصم « والجبالُ » بالرفع على الابتداء . ويقال : هلا أدخل حرف العطف على « أَخْرَجَ »فيقال: إنه حال بإضمار قد ؛ كقوله تعالى: «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» . ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ أى منفعة لكم . ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ من الإبل والبقر والغنم . و « مَتَاعًا » نصب على المصدر من غير اللفظ ؛ لأن معنى « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا » أمتع بذلك . وقيل : نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتتمتعوا به متاعا .

قوله تعـالى : فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّامَّـةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾ أى الداهية العظمى ، وهى النفخة الثانية التى يكون معها البعث ؛ قاله ابن عباس فى رواية الضحاك عنه وهــو قــول الحسن . وعن ابن عباس أيضا والضحاك أنها القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تَطُمّ على كل شىء فتعم ماسواها لعظم هولهـا ؛ أى تغلبه . وفى أمثالهم : جَرَى الوادِى فَطَمَّ على القَرِيّ[(١)] .

المبرد : الطامة عند العرب الداهية التى لاتستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طَمَّ الفرسُ طَميما إذا استفرغ جهده فى الجرى ، وطَمَّ المـاءُ إذا ملأ النهر كله . غيره : هى مأخوذة من طمّ السيل الرَّكِيَّة[(٢)] أى دفنها والطمّ الدفن والعلو . وقال القاسم بن الوليد الهمدانى: الطامة الكبرى حين يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار . وهو معنى قول مجاهد . وقال سفيان : هى الساعة التى يسلم فيها أهل النـار إلى الزبانيــة . أى الداهيــة التى طَمّت وعظمت ؛ قال :

إن بعضَ الحُبِّ يُعمِى ويُصِمّْ * وكذاك البُغْضُ أَدْهَى وأَطَمّْ

(١) القرى مجرى الماء فى الروضة والجمع أقرية وأقراء وقريان ؛ و يضرب المثل عند تجاوز الشىء حده .
(٢) الركية : البئر ؛ أى جرى سيل الوادى .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ أى ما عمل من خير أو شر . ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ ﴾ أى ظهرت . ﴿ لِمَنْ يَرَى ﴾ قال ابن عباس : يكشف عنها تتلظى فيراها كل ذى بصر . وقيل : المراد الكافر لأنه الذى يرى النار بما فيها من أصناف العذاب . وقيل : يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلى الكافر بالنار . وجواب « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » محذوف أى إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقرأ مالك بن دينار : « وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ » عكرمة وغيره « لِمَنْ تَرَى » بالتاء أى لمن تراه الجحيم أو لمن تراه أنت يا محمد . والخطاب له عليه السلام والمراد به الناس .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى تجاوز الحد فى العصيان . قيل : نزلت فى النضر وابنه الحرث ، وهى عامة فى كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة . وروى عن يحيى بن أبى كثير قال : من اتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طغى . وروى جويبر عن الضحاك قال قال حذيفة : أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون[1] . ويروى أنه وجد فى الكتب : إن الله جل ثناؤه قال « لا يؤثر عبد لى دنياه على آخرته إلا بثثت عليه همومه وصنيعته[2] ثم لا أبالى فى أيها هلك » . ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَى ﴾ أى مأواه . والألف واللام بدل من الهاء . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أى حذر مقامه بين يدى ربه . وقال الربيع : مقامه يوم الحساب . وكان قتادة يقول : إن لله عز وجل مقاما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه فى الدنيا من الله عز وجل عند مواقعة الذنب

(١) فى بعض النسخ : ما يعملون . (٢) فى نسخة : وضيعته .

فيقلع؛ نظيره : « ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » . ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ أى زجرها عن المعاصى والمحارم . وقال سهل : ترك الهوى مفتاح الجنة ؛ لقوله عز وجل : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » قال عبد الله بن مسعود : أنتم فى زمان يقود الحقّ الهوى وسيأتى زمان يقود الهوى الحقّ ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان . ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى المنزل. والآيتان نزلتا فى مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير؛ فروى الضحاك عن ابن عباس قال : أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أسر يوم بدر ، فأخذته الأنصار فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا أخو مصعب بن عمير، فلم يشدوه فى الوثاق وأكرموه وبيتوه عندهم ، فلما أصبحوا حدّثوا مصعب بن عمير حديثه؛ فقال : ما هو لى بأخ ، شدّوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حليا ومالا . فأوثقوه حتى بعثت أمّه فى فدائه . « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » فمصعب بن عمير ؛ وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أُحُد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص فى جوفه . وهى السهام ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم متشحطا فى دمه قال : "عند الله أحتسبك" وقال لأصحابه : "لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما و إن شراك نعليه من ذهب" . وقيل : إن مصعب بن عمير قتل أخاه عامرا يوم بدر . وعن ابن عباس أيضا قال : نزلت هذه الآية فى رجلين أبى جهل بن هشام المخزومى ومصعب بن عمير العبدرى . وقال السدى : نزلت هذه الآية « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وذلك أن أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعام ، وكان يسأله من أين أتيت بهذا ، فأتاه يوما بطعام فلم يسأله وأكله ؛ فقال له غلامه : لِم لا تسألنى اليوم ؟ فقال : نسيت فمن أين لك هذا الطعام . فقال : تكهنت لقوم فى الجاهلية فأعطونيه . فتقايأه من ساعته وقال : يا رب ما بقى فى العروق فأنت حبسته فنزلت : «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» . وقال الكلبى : نزلت فى من همّ بمعصيته وقدر عليها فى خلوة ثم تركها من خوف الله . ونحوه عن ابن عباس . يعنى من خاف عند المعصية مقامه بين يدى الله فانتهى عنها والله أعلم .

قوله تعالى : يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ قال ابن عباس : سأل مشركو مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم متى تكون الساعة استهزاء ، فأنزل الله عز وجل الآية . وقال عروة بن الزبير فى قوله تعالى : ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ . ومعنى « مُرْسَاهَا » أى قيامها . قال الفرّاء : رسوها قيامها(١) كرسو السفينة . وقال أبو عبيدة : أى منتهاها ، ومرسا السفينة حيث تنتهى . وهو قول ابن عباس . الربيع بن أنس : متى زمانها . والمعنى متقارب . وقد مضى فى «الأعراف»(٢) بيان ذلك . وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تقوم الساعة إلا بغضبة يغضبها ربك" . « فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا » أى فى أى شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ؟ وليس لك السؤال عنها . وهذا معنى ما رواه الزهرى عن عروة بن الزبير قال : لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت « فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » أى منتهى علمها ؛ فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك فقيل له : لا تسأل فلست فى شيء من ذلك . ويجوز أن يكون إنكارا على المشركين فى مسألتهم له ؛ أى فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانه ولست ممن يعلمه . روى معناه عن ابن عباس . والذكرى بمعنى الذكر . «إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » أى منتهى علمها فلا يوجد عند غيره علم الساعة ؛ وهو كقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي» وقوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » . ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾

(١) قال الفراء : كقولك قام العدل وقام الحق أى ظهر وثبت .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٣٥ فما بعدها .

أى مخوّف ؛ وخص الإنذار بمن يخشى لأنهـم المنتفعون به وإن كان منذرا لكل مكلّف ؛ وهو كقوله تعـالى : « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ » . وقراءة العامة « مُنْـذِرُ » بالإضـافة غير منون ، طلبَ التخفيف وإلا فأصـله التنوين ؛ لأنه للمستقبل وإنما لاينون فى المـاضى . قال الفراء : يجوز التنوين وتركه ؛ كقوله تعالى : « بَالِـغٌ أَمْرَهُ » و « بَالِـغُ أَمْرِهِ » و «مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ» و «مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ » والتنوين هو الأصل وبه قرأ أبو جعفـر وشيبة والأعرج وٱبن محيصن وحميـد وعياش عن أبى عمرو « مُنْذِرٌ » منـونا وتكون فى موضـع نصب والمعـنى إنمـا ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة . وقال أبوعلى: يجوز أن تكون الإضافة للمـاضى نحو ضارب زيدٍ أمس ؛ لأنه قـد فعل الإنذار ، والآية ردّ على من قال : أحوال الآخرة غير محسـوسةٍ وإنما هى راحة الروح أو تألمها من غير حسّ . ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ يعنى الكفار يرون الساعة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أى فى دنيـاهم ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً ﴾ أى قدر عشية ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى أو قدر الضحا الذى يلى تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا كما قال تعالى : « لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » . وروى الضحاك عن ٱبن عباس : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوما واحدا . وقيل : «لَمْ يَلْبَثُوا» فى قبورهم «إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وذلك أنهم ٱستقصروا مدّة لبثهم فى القبور لمـا عاينوا من الهول . وقال الفرّاء : يقول القائل وهل للعشية ضحا ؟ وإنما الضحا لصدر النهار ولكن أضيف الضحا إلى العشية وهو اليوم الذى يكون فيـه على عادة العرب ؛ يقولون : آتيك الغـداة أو عشيتها ، وآتيك العشية أو غداتها ، فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغـداة فى معنى أوّل النهار ؛ قال : وأنشدنى بعض بنى عقيل :

نَحْنُ صَبَحْنا عامِرًا فى دَارِهَـا * جُرْدًا تَعَـادَى طَرَفَىْ نهـارِها
* عَشِيَّةَ الهِلالِ أَوْ سِرارِها *

أراد عشية الهلالِ أوعشية سِرارِ العشية ، فهو أشدّ من آتيك الغداة أوعشيتها .

ســــورة عبس

مكية فى قول الجميع، وهى إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ ﴾ أى كلح بوجهه؛ يقال : عبس و بسر . وقد تقدّم . ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أى أعرض بوجهه ﴿ أَنْ جَاءَهُ ﴾ « أَنْ » فى موضع نصب لأنه مفعول له، المعنى لأن جاءه الأعمى أى الذى لايبصر بعينيه . فروى أهل التفسير أجمع أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عبد الله عليه كلامه فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية . قال مالك : إن هشام بن عروة حدّثه عن عروة أنه قال نزلت « عَبَسَ وَتَوَلَّى » فى آبن أمّ مكتوم ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا محمد آستدنني[1] وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه و يقبل على الآخر و يقول : " يافلان هل ترى بما أقول بأسا " فيقول : لا والدُّمى[2] ماأرى بما تقول بأسا، فأنزل الله « عَبَسَ وَتَوَلَّى » . وفى الترمذى مسندا قال : حدّثنا سعيد آبن يحيى بن سعيد الأموى، حدّثنى أبى، قال هذا ماعرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، قالت : نزلت «عَبَسَ وَتَوَلَّى» فى آبن أمّ مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الرواية هنا وفى آبن العربى يا محمد ، والمشهور فى التفسير يارسول الله علمنى مما علمك الله . وفى رواية : يارسول أرشدنى، كما سيأتى للصنف . (٢) الدمى جمع دمية وهى الصورة ، و يريد بها الأصنام .

وسلم يجعل يقول : يارسول الله أرشدنى ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه و يقبل على الآخر، و يقول : " أترى بما أقول بأسا " فيقول : لا ؛ ففى هذا نزلت ؛ قال هذا حديث غريب .

الثانيــة — الآية عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى إعراضه وتوليه عن عبد الله آبن أم مكتوم . و يقال : عمرو بن أم مكتوم، وآسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا هو آبن قيس بن زائدة بن الأصم ، وهو آبن خال خديجة رضى الله عنها . وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين يقال كان الوليد بن المغيرة ؛ آبن العربى : قاله المالكية من علمائنا ، وهو يكنى أبا عبد شمس . وقال قتادة : هو أمية بن خلف وعنه أبىّ بن خلف . وقال مجاهد : كانوا ثلاثة عتبة وشيبة آبنا ربيعة وأبىّ بن خلف . وقال عطاء: عتبة بن ربيعة . سفيان الثورى : كان النبى صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس . الزمخشرى : كان عنده صناديد قريش عتبة وشيبة آبنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم . قال آبن العربى : أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، وذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وآبن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين أحدهما قبل الهجرة والآخر ببدر ، ولم يقصد قط أمية المدينة ولا حضر عنده مفردا ولا مع أحــد .

الثالثــة — أقبل آبن أم مكتوم والنبى صلى الله عليه وسلم مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى ، وقد قوى طمعه فى إسلامهم وكان فى إسلامهم إسلام مَنْ وراءهم من قومهم ، فجاء آبن أم مكتوم وهو أعمى فقال : يارسول الله عَلِّمنى مما عَلَّمك الله ؛ وجعل يناديه و يكثر النداء ولا يدرى أنه مشغول بغيره حتى ظهرت الكراهة فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطعه كلامه ، وقال فى نفسه : يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسّفلة

والعبيد ؛ فعبس وأعرض عنــه فنزلت الآية . قال الثورى : فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى آبن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : " مرحبا بمن عاتبني فيــه ربي " ويقول : " هل من حاجة ". وآستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما . قال أنس : فرأيته يوم القادسية راكبا وعليه درع ومعه راية سوداء .

الرابعـــة — قال علماؤنا : ما فعـله آبن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالمـا بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغـيره وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعـالى عاتبه حتى لاتنكسر قلوب أهل الصُّفَّة ؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغنى ، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيرا أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعا في إيمـانهم ، وإن كان ذلك أيضا نوعا من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى » الآية على ما تقــدّم (1) . وقيل : إنمـا قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب آبن أم مكتوم من الإيمان؛ كما قال: " إني لأعطى الرجل وغيره أحبّ إليّ منه مخافة أن يكبه الله في النار على وجهه " .

الخامســـة — قال آبن زيد : إنمـا عبس النبي صـلى الله عليه وسـلم لآبن أم مكتوم وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذى كان يقوده أن يكفه، فدفعه آبن أم مكتوم وأبى إلا أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُعلِّمه، فكان في هذا نوع جفاء منــه . ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه صلى الله عليه وسلم : « عَبَسَ وَتَوَلَّى » بلفظ الإخبار عن الغـائب تعظيما (2) له ولم يقل : عبست وتوليت . ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيسا له فقال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أي يعلمك ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ يعني آبن أم مكتوم ﴿ يَزَّكَّى ﴾ بمـا آستدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين بأن يزداد طهارة في دينــه ، وزوال ظلمة الجهل عنه . وقيل : الضمير في « لَعَلَّهُ » للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق

---

(1) راجع جـ ٨ ص ٤٥ فما بعدها .

(2) في نسخة : تعليما .

وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن . وقرأ الحسن «آأَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى»[1] بالمدّ على الآستفهام فـ«ـأَنْ» متعلقة بفعل محذوف دل عليه «عَبَسَ وَتَوَلَّى» التقدير آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على «وَتَوَلَّى» ولا يوقف عليه على قراءة الخبر وهى قراءة العامة .

السادسـة — نظير هذه الآية فى العتاب قوله تعالى فى سـورة الأنعام : «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» وكذلك قوله فى سـورة الكهف : «وَلَا تَعْـدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» وما كان مثله ، والله أعلم . ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ بما تقول ﴿فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أى العظة . وقراءة العامة «فَتَنْفَعُهُ» بضم العين عطفا على «يَزَّكَّى» . وقرأ عاصم وآبن أبى إسحق وعيسى «فَتَنْفَعَهُ» نصـبا . وهى قراءة السُّلَمِىّ وزرّ بن حُبَيش على جواب لعل لأنه غير موجب؛ كقوله تعالى : «لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ» ثم قال : «فَأَطَّلِـعَ» .

قوله تعـالى : أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَى﴾ أى كان ذا ثروة وغنىً ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أى تعرّض له وتصغى لكلامه . والتصدى الإصغاء؛ قال الراعى :

تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كَأَنَّ جبِينَهُ * سِرَاجُ الدُّجَى يَحْنِى إليه الأَسَاوِرُ[2]

وأصله تتصدّد من الصدد وهو ما آستقبلك وصار قبالتك؛ يقال : دارى صدد داره أى قبالتها، نصب على الظرف . وقيل : من الصدى وهو العطش . أى تتعرض له كما يتعرّض العطشان للمـاء والمصاداة المعارضة . وقراءة العامة «تَصَدَّى» بالتخفيف على طرح التاء الثانية تخفيفا .

(١) قال الزمخشرى : وقرئ «آأن» بهمزتين وألف بينهما .

(٢) الإسوار (بكسر الهمزة وضمها) قائد الفرس ، وقيل : هو الجيد الرمى بالسهام ، وقيل : هو الجيد الثبات على ظهر الفرس ، والجمع أساورة وأساور .

وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام . ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ أى لا يهتدى هذا الكافر ولا يؤمن إنما أنت رسول ما عليك إلا البلاغ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ يطلب العلم لله ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أى يخاف الله ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أى تعرض عنه بوجهك وتشتغل بغيره . وأصله تتلهى ؛ يقال : لهيت عن الشيء ألهى أى تشاغلت عنه . والتلهى التغافل ولهيت عنه وتلهيت بمعنى .

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ « كَلَّا » كلمة ردع وزجر ؛ أى ما الأمر كما تفعل مع الفريقين ؛ أى لا تفعل بعدها مثلها من إقبالك على الغنى وإعراضك عن المؤمن الفقير . والذى جرى من النبي صلى الله عليه وسلم كان ترك الأولى كما تقدم ، ولو حمل على صغيرة لم يبعد ؛ قاله القشيرى . والوقف على « كَلَّا » على هذا الوجه جائز . ويجوز أن تقف على « تَلَهَّىٰ » ثم تبتدئ « كَلَّا » على معنى حقا . ﴿ إِنَّهَا ﴾ أى السورة أو آيات القرآن ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أى موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى اتعظ بالقرآن . قال الجرجانى : « إِنَّهَا » أى القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة ولو ذكّره لجاز ؛ كما قال تعالى فى موضع آخر : « كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ » . ويدل على أنه أراد القرآن قوله : « فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ » أى كان حافظا له غير ناس ؛ وذكر الضمير لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ . وروى الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ » قال من شاء الله تبارك وتعالى ألهمه . ثم أخبر عن جلالته فقال : ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ جمع صحيفة ﴿ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أى عند الله ؛ قاله السدى . الطبرى : « مُّكَرَّمَةٍ » فى الدين لما فيها من العلم والحكم . وقيل : « مُّكَرَّمَةٍ » لأنها نزل بها كرام الحفظة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ . وقيل : « مُّكَرَّمَةٍ »

لأنها نزلت من كريم ؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه . وقيل : المراد كتب الأنبياء ؛ دليله : « إِنَّ هَـذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر عند الله . وقيل : مرفوعة عنده تبارك وتعالى . وقيل : مرفوعة في السماء السابعة ، قاله يحيى بن سلّام . الطبري : مرفوعة الذكر والقدر . وقيل : مرفوعة عن الشبه والتناقض . ﴿ مُطَهَّرَةٍ ﴾ قال الحسن : من كل دنس . وقيل : مصانة عن أن ينالها الكفار . وهو معنى قول السُّدّي . وعن الحسن أيضا : مطهرة من أن تنزل على المشركين . وقيل : أي القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرءونها فهي مكرمة مرفوعة مطهرة . ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ أي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه و بين رسله فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هي مطهرة تجعل التطهير لمن حملها « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ » قال : كَتَبَةٍ . وقاله مجاهد أيضا . وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار التي هي الكتب واحدهم سافر ؛ كقولك : كاتب وكَتَبَة . ويقال : سفرت أي كتبت والكتاب هو السِّفْر وجمعه أَسْفار . قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سِفْرٌ بكسر السين وللكاتب سافر؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه . يقال : أَسْفر الصبح إذا أضاء، وسَفَرت المرأة إذا كشفت النقاب عن وجهها . قال : ومنه سَفَرْتُ بين القوم أسفِر سِفارة أصلحت بينهم . وقاله الفراء وأنشد :

فما أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي * ولا أَمْشِي بِغِشٍّ إنْ مَشَيْتُ

والسفير الرسول والمصلح بين القوم والجمع سفراء مثل فقيه وفقهاء . ويقال للورّاقين سفراء بلغة العبرانية . وقال قتادة : السَّفَرَةُ هنا هم القرّاء لأنهم يقرءون الأسفار . وعنه أيضا كقول ابن عباس . وقال وهب بن منبه : « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ » هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن العربي : لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة كراما بررة ، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية ، ولا قاربوا المرادين بها ، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم . وروى

فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " [مثل(١)] الذى يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السَّفَرة الكرام البررة ومثل الذى يقرؤه وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران " متفق عليه واللفظ للبخارى . ﴿ كِرَامٍ ﴾ أى كرام على ربهم ؛ قاله الكلبى . الحسن : كرام عن المعاصى فهم يرفعون أنفسهم عنها . وروى الضحاك عن آبن عباس فى « كِرَامٍ » قال : يتكرمون أن يكونوا مع آبن آدم إذا خلا بزوجته أو تبرز لغائطه . وقيل : أى يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم . ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ جمع بارّ مثل كافر وكفرة ، وساحر وسحرة ، وفاجر وفجرة ؛ يقال : بَرٌّ وبارّ إذا كان أهلا للصدق ، ومنه بَرَّ فلانٌ فى يمينه أى صدق ، وفلان يَبَرُّ خالقه ويَتَبَرَّره أى يطيعه؛ فمعنى « بَرَرَةٍ » مطيعون لله صادقون لله فى أعمالهم . وقد مضى فى سورة « الواقعة »(٢) قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ . كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنهم الكرام البررة فى هذه السورة .

قوله تعالى : قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ « قُتِلَ » أى لُعِن . وقيل : عُذِّب . والإنسان الكافر . روى الأعمش عن مجاهد قال : ما كان فى القرآن « قُتِلَ الْإِنْسَانُ » فإنما عنى به الكافر . وروى الضحاك عن آبن عباس قال : نزلت فى عُتْبة بن أبى لهب وكان قد آمن ، فلما نزلت « وَالنَّجْمِ » آرتدّ وقال آمنت بالقرآن كله إلا النجم ، فأنزل الله جل ثناؤه فيه « قُتِلَ الْإِنْسَانُ » أى لعن عتبة حيث كفر بالقرآن ،ودعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٥

فقال : " اللهم سلِّط عليه كلبك أسـد الغاضرة "(١) فخرج من فوره بتجارة إلى الشام ، فلما آنتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل لمن معـه ألف دينار إن هو أصبح حيًّا ، فجعلوه فى وسط الرفقة ، وجعلوا المتاع حوله ، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد ، فلما دنا من الرحال وثب فإذا هو فوقه فـزقه ، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال : ما قال محمد شيئا قـط إلا كان . وروى أبو صالح عن آبن عباس « مَا أَكْفَرَهُ » أى شىء أكفـره . وقيل : «ما» تعجب ؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شىء قالوا : قاتله الله ما أحسـنه ، وأخزاه الله ما أظلمه ؛ والمعـنى آعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا . وقيـل : ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليـه على التعجب أيضا ؛ قال آبن جريج : أى ما أشدّ كفره . وقيـل : « ما » آستفهام أى أىّ شىء دعاه إلى الكفر ؛ فهو آستفهام توبيخ . و « ما » تحتمل التعجب ، وتحتمل معـنى أىّ فتكون آستفهاما . ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أى من أىّ شىء خلق الله هذا الكافر فيتكبر ؛ أى آعجبوا لخلقه . ﴿ مِنْ نُطْفَـةٍ ﴾ أى من ماء يسير مهين جماد ﴿ خَلَقَـهُ ﴾ فلِمَ يغلظ فى نفسه ؟ ! . قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين . ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ فى بطن أمه . كذا روى الضحاك عن آبن عباس : أى قدر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه ، وحسنا ودميا ، وقصيرا وطويلا ، وشقيا وسعيدا . وقيل : « فَقَدَّرَهُ » أى فسواه كما قال : « أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا » . وقال : « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ » . وقيل : « فَقَدَّرَهُ » أطـوارا أى من حال إلى حال ؛ نطفة ثم علقة إلى أن تم خلقه . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ قال آبن عباس فى رواية عطاء وقتادة والسـدى ومقاتل : يسره للخروج من بطن أمه . مجاهـد : يسره لطريق الخير والشر ؛ أى بين له ذلك . دليـله : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ » و « هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقاله الحسن وعطاء وآبن عباس أيضا فى رواية أبى صالح عنه . وعن مجاهـد أيضا قال : سبيل

(١) كذا لفظ الحـديث فى الأصول ورواية أبى حيان له : " اللهم آبعث عليـه كلبك يأكله " ، ثم قال : فلما آنتهى إلى الغاضرة ... الخ .

الشقاء والسعادة . ٱبن زيد : سبيل الإسلام . وقال أبو بكر بن طاهر : يسر على كل أحد ما خلقه له ، وقدره عليه ؛ دليله قوله عليه السلام : "آعمـلوا فكلٌّ مُيَسَّر لمـا خُلِق له" .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى جعل له قبرا يوارى فيه إكراما ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله الطير والعَوافى(١) ؛ قاله الفـرّاء . وقال أبو عبيدة : « أَقْبَرَهُ » جعل له قبرا ، وأمر أن يقبر . قال أبو عبيدة : ولمـا قتل عمرُ بن هبيرة صالحَ بن عبد الرحمن قالت بنو تميم ودخلوا عليه : أَقْبِرنا صالحا ؛ فقال : دونكموه . وقال : « أَقْبَرَهُ » ولم يقـل قبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده، قال الأعشى :

لَوْ أَسْـنَدتْ مَيْتًا إلى نَحْرِها * عاشَ ولَمْ يُنْقَـلْ إلى قابِرِ

يقال : قبرت الميت إذا دفنته، وأقبره الله أى صيره بحيث يقبر وجعل له قبرا ؛ تقول العرب : بترتُ ذَنَبَ البعير وأبتره الله ، وعضبت قرن الثور وأعضبه الله ، وطردت فلانا والله أطرده أى صيره طريدا . ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ أى أحياه بعـد موته . وقراءة العامة « أَنْشَرَهُ » بالألف . وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبى حمزة « شَاءَ نَشَرَهُ » بغـير ألف لغتـان فصيحتان بمعنى ؛ يقال : أنشر الله الميت ونَشَره ؛ قال الأعشى :

حتّى يقولَ النّاسُ ممّـا رَأوا * يا عَجَبًـا لِلْمَيّتِ النّاشِــرِ

قوله تعـالى : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال مجاهـد وقتـادة : « لَمَّا يَقْضِ » لا يقضى أحد ما أمر به . وكان ٱبن عباس يقول : « لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ » لم يف بالميثاق الذى أخذ عليـه فى صلب آدم . ثم قيـل : « كَلَّا » ردع وزجر أى ليس الأمر كما يقول الكافر ؛ فإن الكافر إذا أخبر بالنشور قال : « وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى » ربما يقول قد قضيت ما أمرت به ، فقال : كلا لم يقض شيئا بل هو كافر بى وبرسولى . وقال الحسن : أى حقًّا لم يقض أى لم يعمل بمـا أمر به . و « مَا » فى قوله : « لَمَّـا » عماد للكلام؛ كقوله تعالى : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ » وقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ »

(١) العوافى : طلاب الرزق من الإنس والدواب والطير؛ والمراد هنا الوحوش والبهائم .

وقال الإمام آبن فورك : أي كلا لما يقض الله لهـذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له . آبن الأنباري : الوقف على «كَلَّا» قبيح ، والوقف على «أَمَرَهُ» و «أَنْشَرَهُ» جيد ؛ فـ «كَلَّا» على هذا بمعنى حقا .

قوله تعالى : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعامِهِ ﴾ لما ذكر جل ثناؤه آبتداء خلق الإنسان ذكر ما يسر من رزقه ؛ أي فلينظر كيف خلق الله طعامه . وهذا النظر نظر القلب بالفكر ؛ أي ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش ليستعدّ بها للعاد . وروى عن الحسن ومجاهد قالا : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» أي إلى مدخله ومخرجه . وروى آبن أبي خيثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابي قال قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : " يا ضحاك ما طعامك " قلت : يا رسول الله ! اللحم واللبن؛ قال : " ثم يصير إلى ماذا " قلت إلى ما قد علمته ؛ قال : " فإن الله ضرب ما يخرج من آبن آدم مثلا للدنيا " . وقال أبيّ بن كعب قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن مطعم آبن آدم جعل مثلا للدنيا وإن قَزَّحه(1) ومَلَّحه فآنظر إلى ما يصير " . وقال أبو الوليد : سألت آبن عمر عن الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه ؛ قال : يأتيه الملك فيقول آنظر ما بخلت به إلى ما صار .

(1) قزحه : أي تبله من القزح وهو التابل الذي يطرح في القدر كالكمون والكزبرة ونحو ذلك .
والمعنى : إن المطعم وإن تكلف الإنسان التنوق في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يكره ويستقذر فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار . «النهاية» .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ قراءة العامة « إِنَّا » بالكسر على الاستئناف . وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب « أَنَّا » بفتح الهمزة فـ « أنا » في موضع خفض على الترجمة عن الطعام فهو بدل منه ، كأنه قال : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ » إلى « أَنَّا صَبَبْنا » فلا يحسن الوقف على « طَعَامِهِ » من هذه القراءة . وكذلك إن رفعت « أَنَّا » بإضمار هو أنا صببنا ، لأنها في حال رفعها مترجمة عن الطعام . وقيل : المعنى لأنّا صببنا الماء فأخرجنا به الطعام أي كذلك كان . وقرأ الحسين بن علي[1] « أَنَّى » ممال بمعنى كيف . فمن أخذ بهذه القراءة قال : الوقف على « طعامه » تام . ويقال : معنى « أنّى » أين إلا أن فيها كناية عن الوجوه ، وتأويلها : من أي وجه صببنا الماء ، قال الكميت :

أَنَّى ومِنْ أَيْنَ آبَكَ[2] الطَّرَبُ * مِن حيثُ لا صَبْوَةٌ ولا رِيَبُ

« صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا » يعني الغيث والأمطار . ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أي بالنبات ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ أي قمحا وشعيرا وسُلْتًا[3] وسائر ما يحصد ويدّخر ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ وهو القَتُّ والعَلَفُ ، عن الحسن ، سمي بذلك لأنه يُقضَب أي يُقطَع بعد ظهوره مرة بعد مرة . قال القتبي وثعلب : وأهل مكة يسمون القتّ القَضْب . وقال ابن عباس : هو الرُّطَب لأنه يُقضَب من النخل ، ولأنه ذكر العنب قبله . وعنه أيضا : أنه الفِصْفِصَة وهو القَتّ الرَّطْب . وقال الخليل : القَضْب الفِصفِصة الرَّطْبة . وقيل : بالسين فإذا يبست فهو قَتّ . قال : والقَضْب اسم يقع على ما يُقضَب من أغصان الشجرة ليتخذ منها سهام أو قِسِيّ . ويقال : قضبا يعني جميع ما يقضب مثل القَتّ والكرّاث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها . وفي الصحاح : والقَضْبة والقَضْب الرَّطْبة وهي الإسْفِسْتُ بالفارسية والموضع الذي ينبت فيه مَقْضَبَةٌ . ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يعني النخيل ﴿ وَحَدَائِقَ ﴾ أي

(١) في نسخة : قرأ بعض القراء .

(٢) آبك : أتاك . الريب : صروف الدهر .

(٣) السلت (بالضم) : ضرب من الشعير .

بساتين واحدها حديقة . قال الكلبي : وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يحط عليه فليس بحديقة . ﴿ غُلْبًا ﴾ عظاما شجرها ؛ يقال : شجرة غَلْبَاءُ، ويقال للأسد الأغلب ؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جمعا ؛ قال العجّاج :

ما زِلتُ يومَ البَيْنِ أَلوِى صُلَّبِي * والرأسَ حتى صِرتُ مِثْلَ الأَغْلَبِ

ورجل أغلب بَيِّن الغَلَب إذا كان غليظ الرقبة . والأصل في الوصف بالغُلْب الرِّقابُ فاستعير ؛ قال عمرو بن معدى كَرِب :

يمشِي بها غُلْبُ الرِّقابِ كأنَّهم * بُزْلٌ كُسِينَ مِنَ الكُحَيْلِ جِلالَا (١)

وحديقة غَلْباء ملتفّة وحدائق غُلْب . وٱغْلَوْلَب العُشبُ بلغ وٱلتف البعض بالبعض . قال ٱبن عباس : الغُلْب جمع أغلب وغلباء وهي الغِلاظ . وعنه أيضا الطوال . قتادة وٱبن زيد : النخل الكرام . وعن ٱبن زيد أيضا وعكرمة : عظام الأوساط والجذوع . مجاهد : ملتفة . ﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ وغيرهما . ﴿ وَأَبًّا ﴾ هو ما تأكله البهائم من العُشب ؛ قال ٱبن عباس والحسن : الأبّ كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، وما يأكله الآدميون هو الحصيد ؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

له دَعوةٌ مَيْمونةٌ رِيحُها الصَّبا * بها يُنْبِتُ الله الحَصِيدةَ والأَبَّا

وقيل : إنما سمى أبًّا ؛ لأنه يُؤَبّ أي يُؤَمّ ويُنْتَجَع . والأَبُّ والأَمُّ أخوان ؛ قال :

جِذْمُنا قَيْسٌ ونَجْــدٌ دارُنا * ولنا الأَبُّ بِهِ والمَكْرَعُ (٢)

وقال الضحاك : الأبّ كل شيء ينبت على وجه الأرض . وكذا قال أبو رزين : هو النبات ؛ يدل عليه قول ٱبن عباس قال : الأبّ ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام .

---

(١) الكحيل : نوع من القطران تطلى به الإبل لجرب ولا يستعمل إلا مصغرا . وجل الدابة : الذى تلبسه لتصان به والجمع جلال وأجلال .

(٢) الجذم (بكسر الجيم) : الأصل . والمكرع : مفعل من الكرع أراد به الماء الصالح للشرب .

وعن ابن عباس أيضا وابن أبى طلحة : الأبّ الثمار الرَّطْبــة . وقال الضحاك : هو التــين خاصة . وهو محكى عن ابن عباس أيضا؛ قال الشاعر :

فمـا لَهُـم مَرْتَعٌ للسَّـوَا [(١)] * مِ والأَبُّ عِنْـدَهُم يُقْـدَرُ

الكلبيّ : هو كل نبات سوى الفاكهة . وقيل : الفاكهة رَطْب الثمـار والأبّ يابسها. وقال إبراهـيم التيمىّ : سئل أبو بكر الصـديق رضى الله عنه عن تفسـير الفاكهة والأبّ فقال : أىّ سمـاء تُظلّنى وأىّ أرض تُقلّنى إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم . وقال أنس : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : كل هذا قد عرفناه فما الأَبّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال : هذا لَعَمْرُ الله التكلُّف وما عليك يابن أمّ عمر ألّا تدرى ما الأبّ . ثم قال : اتبعوا ما بُيّن لكم من هـذا الكتاب وما لا فدعوه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خُلقتم من سبع ورُزقتم من سبع فاسجدوا لله على سبع " وإنما أراد بقوله : " خُلقتم من سبع " يعنى « مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ » الآية، والرزق من سبع وهو قوله تعالى : «فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا» إلى قوله : «وَفَاكِهَةً» ثم قال : «وَأَبًّا» وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم وأنه مما تختص به البهائم . والله أعلم . ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ نصب على المصدر المؤكد؛ لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات . وهذا ضرب مثلٍ ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم؛ كنبات الزرع بعد دثوره كما تقدم بيانه فى غير موضع . ويتضمن امتنانا عليهم بما أنعم به وقد مضى فى غير موضع أيضا .

قوله تعـالى : فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

(١) السوام والسائمة : المال الراعى من الإبل والغنم وغيرهما .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد ليتزودوا له بالأعمال الصالحة و بالإنفاق مما آمتن به عليهم . والصّاخّة الصيحة التى تكون عنها القيامة وهى النفخة الثانية ، تُصِيخ الأسماعَ أى تُصِمّها فلا تسمع إلا ما يدعى به للإحياء . وذكر ناس من المفسرين قالوا : تُصِيخ لها الأسماع من قولك أصاخ إلى كذا أى آستمع إليه ؛ ومنه الحديث : "ما من دابة إلا وهى مُصِيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة إلّا الجنّ والإنس" وقال الشاعر :

يُصِيخُ لِلنَّبْأَةِ أَسْمَاعَهُ * إِصَاخَةَ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ

قال بعض العلماء : وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء فأما اللغة فمقتضاها القول الأوّل ؛ قال الخليل : الصّاخّة صيحة تَصِخُّ الآذانَ صَخًّا أى تُصِمُّها بشدة وقعتها . وأصل الكلمة فى اللغة الصكّ الشديد . وقيل : هى مأخوذة من صخه بالحجر إذا صكّه ؛ قال الراجز :

يا جَارَتِى هَلْ لَكِ أَنْ تُجَالِدِى * جِلَادَةً كالصَّكِّ بالجَلَامِدِ

ومن هذا الباب قول العرب : صَخّتهم الصاخه و باتتهم البائتة وهى الداهية . الطبرى : وأحسبه من صَخّ فلانٌ فلانا إذا أصمّه . قال آبن العربى : الصاخة التى تورث الصمم ، و إنها لَمُسْمِعة وهذا من بديع الفصاحة ، حتى لقد قال بعض حديثى الأسنان حديثى الأزمان :

* أَصَمّ بِكَ النّاعِى و إِنْ كان أَسْمَعا *

وقال آخر :

أَصَمَّنِى سِرُّهُمْ أيامَ فُرْقَتِهم * فَهَلْ سَمِعْتُم بِسِرٍّ يُورِثُ الصَّمَما

ولَعمر الله إنّ صيحة القيامة لَمُسْمِعة تُصِمُّ عن الدنيا وتُسْمِع أُمور الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ أى يهرب أى تجىء الصاخة فى هذا اليوم الذى يهرب فيه من أخيه ؛ أى من موالاة أخيه ومكالمته ؛ لأنه لا يتفرغ لذلك لآشتغاله بنفسه ، كما قال بعده : ﴿ لِكُلِّ آمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أى يشغله عن غيره . وقيل : إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه لما بينهم من التبعات . وقيل : لئلا يروا ما هو

فيه من الشدة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا ؛ كما قال : « يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا » . وقال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفر منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه ، ولو ظهر له ذلك فى الدنيا لما آعتمد شيئا سوى ربه تعالى . ﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ أى زوجته . ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ أى أولاده .

وذكر الضحاك عن آبن عباس قال : يفرّ قابيل من أخيه هابيل ، ويفرّ النبي صلى الله عليه وسلم من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ونوح عليه السلام من آبنه ، ولوط من آمرأته ، وآدم من سوأة بنيه . وقال الحسن : أوّل من يفرّ يوم القيامة من أبيه إبراهيم ، وأوّل من يفرّ من آبنه نوح ، وأوّل من يفرّ من آمرأته لوط . قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ . ﴿ لِكُلِّ آمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يُحشَر الناسُ يوم القيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا " قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : " يا عائشة الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض " . خرجه الترمذى عن آبن عباس أن النبي صلى عليه وسلم قال : " يحشرون حُفاةً عُراةً غُرْلًا " فقالت آمرأة : أينظر بعضنا — أو بعضنا يرى — عورة بعض؟ قال : " يافلانة " " لكل آمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " قال : حديث حسن صحيح . وقراءة العامة بالغين المعجمة ؛ أى حال يشغله عن الأقرباء . وقرأ آبن محيصن وحميد « يَعْنِيه » بفتح الياء وعين غير معجمة ؛ أى يعنيه أمره . وقال القتبي : يعنيه يصرفه ويصدّه عن قرابته ؛ ومنه يقال : آعْنِ عنّى وجهك أى آصرفه وآعْنِ عن السَّفيه ؛ قال خُفَاف :

سَيَعْنِيكَ حَرْبُ بَنِي مَالِكٍ * عن الفُحْشِ والجهْلِ فى المَحْفِلِ

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ أى مشرقة مضيئة قد علمت مالها من الفوز والنعيم ، وهى وجوه المؤمنين . ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ أى مسرورة فرحة . ﴿ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى بما

أتاها الله من الكرامة . وقال عطاء الخُراسانى : « مُسْفِرَةٌ » من طول ما آغبرّت فى سبيل الله جل ثناؤه . ذكره أبو نُعَيم . الضحاك : من آثار الوضوء . آبن عباس : من قيام الليل؛ لما روى فى الحديث : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" يقال : أسفر الصبح إذا أضاء . ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أى غبار ودخان ﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ أى تغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ أى كسوف وسواد . كذا قال آبن عباس . وعنه أيضا : ذِلّة وشِدّة . والقَتَر فى كلام العرب الغُبار جمع القترة عن أبى عبيد ؛ وأنشد الفرزدق :

مُتَوَّجٌ بِرِداءِ المُلْكِ يَتْبَعُهُ * مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّاياتِ والقَتَرَا

وفى الخبر : إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب فى وجوه الكفار. وقال زيد بن أسلم : القَتَرَة ما آرتفعت إلى السماء ، والغَبَرَة ما آنحطت إلى الأرض ، والغبار والغبرة واحد . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ ﴾ جمع كافر ﴿ الْفَجَرَةُ ﴾ جمع فاجر وهو الكاذب المفترى على الله تعالى . وقيل : الفاسق ؛ [يقال] : فجر فجورا أى فسق وفجر أى كذب، وأصله الميل والفاجر المائل . وقد مضى بيانه والكلام فيه والحمد لله وحده .

سورة التكوير

مكية فى قول الجميع وهى تسع وعشرون آية

وفى الترمذى : عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سره أن ينظر إلى يوم القيامة [كأنه رأى عين](1) فليقرأ إذا الشمس كورت و إذا السماء آنفطرت و إذا السماء آنشقت" قال : هذا حديث حسن [غريب] .

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قال آبن عباس : تكويرها إدخالها في العرش . الحسن : ذهاب ضوئها . وقاله قتادة ومجاهد ، وروى عن آبن عباس أيضا . سعيد بن جبير : غُوِّرَتْ . أبو عبيدة : كُوِّرت مثل تكوير العمامة تُلَفّ فتُمْحَى . وقال الربيع بن خُثَيْم : « كُوِّرَتْ » رُمِي بها ؛ ومنه كَوَّرْتُه فتكوّر أي سقط .

قلت : وأصل التكوير الجمع مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكُورها أي لاثها وجمعها فهي تُكَوَّر ويُمْحَى ضوءها ثم يُرْمَى بها في البحر . والله أعلم . وعن أبي صالح : كُوِّرت نكست . ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ ٱنْكَدَرَتْ ﴾ أي تهافتت وتناثرت . وقال أبو عبيدة : آنصبت كما ينصبّ العُقَاب إذا آنكسرت . قال العَجّاج يصف صقرا[(١)] :

أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءٍ فَٱنْكَدَرْ * تَقَضِّيَ ٱلْبَازِي إِذَا ٱلْبَازِي كَسَرْ

(١) هكذا البيت في نسخ الأصل التي بأيدينا والذى في ديوان العجاج رواية الأصمعي نسخة الشنقيطي : قال يمدح عمرو بن عبيد الله بن معمر : قد جبر الدين الاله فجبر . إلى أن قال :

داني جناحيه من الطور فمر * تقضي البازي إذا البازي كسر

أبصر خربان فضاء فانكدر * شاكي الكلاليب إذا أهوى آطفر

الطور الجبل وعنى هنا الشام ، يقول : آنقض آبن معمر انقضاضة من الشام آنقضاض البازي ضم جناحيه . وخربان جمع خرب وهو ذكر الحبارى ، والكلاليب المخالب ، وآطفر أصله آظتفر فأبدلت التاء طاء فأدغمت في الظاء .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض حتى يفزع أهل الأرض السابعة مما لقيت وأصاب العليا" يعني الأرض . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : تساقطت، وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة ؛ لأنه مات من كان يمسكها . ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها . وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها . وعن ابن عباس أيضا : انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها . والمعنى متقارب . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ يعني قلعت من الأرض وسيرت في الهواء، وهو مثل قوله تعالى : «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» . وقيل : سيرها تحولها عن منزلة الحجارة فتكون كثيبا مهيلا أي رملا سائلا، وتكون كالعهن، وتكون هباء منثورا ، وتكون سرابا مثل السَّراب الذي ليس بشيء . وعادت الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . وقد تقدم في غير موضع والحمد لله . ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ؛ الواحدة عشراء أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع وبعد ما تضع أيضا . ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم وإن كان قد جاوز ذلك ؛ يقول الرجل لفرسه وقد قرح : هاتوا مهري وقربوا مُهري يسميه بمتقدم اسمه ؛ قال عَنْترة :

لا تَذْكُرِي مُهْـرِي وما أَطْعَمْتُـهُ * فَيَكونَ جِلْدُكِ مثْلَ جِلْدِ الْأَجْرَب

وقال أيضا :

* وحَمَلْتُ مُهْرِي وَسْطَها فَمَضَاها (١) *

وإنما خص العِشار بالذكر؛ لأنها أعزّ ما تكون على العرب وليس يعطلها أهلها إلا حال القيامة . وهذا على وجه المثل ؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء ، ولكن أراد به المثل ؛ أن هول

---

(١) صدره : * وضربت قرني كبشها فتجدلا *

يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها وآشتغل بنفسه . وقيل : إنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضا ، ورأوا الوحوش والدواب محشورة وفيها عِشارهم التى كانت أنفس أموالهم لم يعبئوا بها ولم يهمهم أمرها . وخوطبت العرب بأمر العِشار ؛ لأن ما لها وعيشها أكثره من الإبل . وروى الضحاك عن آبن عباس : عُطِّلَتْ عطّلها أهلها لآشتغالهم بأنفسهم . وقال الأعشى :

هُــوَ الواهِبُ المـائةَ المُصْطَفا * ةَ إمَّـا مَخَاضًـا وإمَّا عِشـارا

وقال آخر :

تَرَى الْمَرْءَ مَهجورا إذا قَلَّ مالُه * وبَيْتُ الْغَنِىّ يُهْدَى لَهُ ويُزارُ
وما يَنفعُ الزُّوارَ مالُ مَزُورِهم * إذا سُرِّحَتْ شُوْلٌ[(١)] له وعِشـارُ

يقال : ناقة عشراء وناقتان عشراوان ونوق عِشار وعشراوات يبدلون من همزة التأنيث واوا . وقد عَشَّرت الناقةُ تعشيرا أى صارت عَشْراء . وقيل : العِشار السحاب يُعطَّل مما يكون فيه وهو المـاء فلا يمطر ؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل . وقيل : الديار تُعطَّل فلا تُسكَن . وقيل : الأرض التى يُعشَّر زرعُها تُعطَّل فلا تُزرَع . والأوّل أشهر وعليه من الناس الأكثر .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أى جمعت والحشر الجمع . عن الحسن وقتادة وغيرهما . وقال آبن عباس : حشرها موتها . رواه عنـه عِكرمة . وحَشْر كل شيء الموتُ غير الجن والإنس فإنهـما يوافيان يوم القيامة . وعن آبن عبـاس أيضا قال : يحشر كل شيء حتى الذباب . قال آبن عباس : تحشر الوحـوش غدا ؛ أى تجمـع حتى يقتص لبعضها من بعض فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لهـا كونى ترابا فتموت . وهذا أصح ممـا رواه عنه عِكرمة ، وقد بيناه فى كتاب « التـذكرة » مستوفى ، ومضى فى سورة « الأنعام »[(٢)] بعضه . أى إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببنى آدم . وقيل : عنى بهذا أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتنددها

(١) فى نسخة : بزل . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤٢١

فى الصحارى ، تضم غدا إلى الناس من أهوال ذلك اليوم . قال معناه أبيّ بن كعب .
﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أى ملئت من الماء ؛ والعرب تقول : سَجَرتُ الحوض أَسجُره سَجْرا إذا ملأته وهو مسجور، والمسجور والساجر فى اللغة الملآن . وروى الربيع بن خيثم : سُجِّرت فاضت وملئت . وقاله الكلبي ومقاتل والحسن والضحاك . قال آبن أبى زمنين : سُجِّرَتْ حقيقته ملئت فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا . وهو معنى قول الحسن . وقيل : أرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها حتى آمتلأت . عن الضحاك ومجاهد : أى فجرت فصارت بحرا واحدا . القشيرى : وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذى ذكره فى قوله تعالى : « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت الأرض كلها ، وصارت البحار بحرا واحدا . وقيل : صارت بحرا واحدا من الحميم لأهل النار . وعن الحسن أيضا وقتادة وآبن حيان : تيبس فلا يبقى من مائها قطرة . القشيرى : وهو من سَجَرتَ التَّنور أَسجُره سَجْرا إذا أحميته ، وإذا سُلِّط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة ، وتُسَيَّر الجبال حينئذ ، وتصير البحار والأرض كلها بساطا واحدا ؛ بأن يملأ مكان البحار بتراب الجبال . وقال النحاس : وقد تكون الأقوال متفقة ؛ يكون تَيَبُّس من الماء بعد أن يفيض بعضها إلى بعض فتقلب نارا .

قلت : ثم تسير الجبال حينئذ كما ذكر القشيرى والله أعلم . وقال آبن زيد وشمر وعطية وسفيان ووهب وأُبَيّ وعليّ بن أبى طالب وآبن عباس فى رواية الضحاك عنه : أوقدت فصارت نارا . قال آبن عباس : يكوِّر الله الشمس والقمر والنجوم فى البحر ، ثم يبعث الله عليها ريحا دَبُورا فتنفخه حتى يصير نارا . وكذا فى بعض الحديث : "يأمر الله جل ثناؤه الشمس والقمر والنجوم فينتثرن فى البحر ثم يبعث الله جل ثناؤه الدَّبور فيسجرها نارا فتلك نار الله الكبرى التى يُعذِّب بها الكفار" . قال القشيرى : قيل فى تفسير قول آبن عباس « سُجِّرَتْ » أوقدت يحتمل أن تكون جهنم فى قعور من البحار ، فهى الآن غير مسجورة لقوام الدنيا ، فإذا آنقضت الدنيا سجرت فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها . ويحتمل أن تكون تحت البحر نار ، ثم يوقد الله البحر كله فيصير نارا . وفى الخبر : البحر نار فى نار .

وقال معاوية بن سعيد : بحر الروم وسط الأرض أسفله آبار مطبقة بنحاس يسجر نارا يوم القيامة . وقيل : تكون الشمس فى البحر، فيكون البحر نارا بحرّ الشمس . ثم جميع ما فى هذه الآيات يجوز أن يكون فى الدنيا قبل القيامة ويكون من أشراطها، ويجوز أن يكون يوم القيامة، وما بعد هذه الآيات فيكون فى يوم القيامة .

قلت : روى عن عبد الله بن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . وقال أبيّ بن كعب : ست آيات من قبل يوم القيامة ؛ بينما الناس فى أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودهشوا ، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحرّكت وآضطربت وآحترقت فصارت هباء منثورا ، ففزعت الإنس إلى الجنّ والجنّ إلى الإنس، وآختلطت الدواب والوحوش والهوام والطير، وماج بعضها فى بعض ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ثم قالت الجنّ للإنس : نحن نأتيكم بالخبر، فآنطلقوا إلى البحار فإذا هى نار تأجج ، فبينما هم كذلك تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السّفلى ، وإلى السماء السابعة العليا فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم . وقيل : معنى « سُجِّرَتْ » هو حمرة مائها حتى تصير كالدم؛ مأخوذ من قولهم : عين سجراء أى حمراء . وقرأ آبن كثير « سُجِرَتْ » وأبو عمرو أيضا إخبارا عن حالها مرة واحدة . وقرأ الباقون بالتشديد إخبارا عن حالها فى تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال النعمان بن بشير : قال النبى صلى الله عليه وسلم « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » قال : "يُقرَنَ كلّ رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله". وقال عمر بن الخطاب : يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح . وقال آبن عباس : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة، السابقون زوج — يعنى صنفا — وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج . وعنه أيضا قال : زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقرن الكافر بالشياطين وكذلك المنافقون. وعنه أيضا : قرن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار،

فيضم المبرِّز فى الطاعة إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله ، وأهل المعصية إلى مثله ؛ فالتزويج أن يقرن الشيء بمثله ؛ والمعنى : وإذا النفوس قرنت إلى أشكالها فى الجنة والنار . وقيل : يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان ، كما قال تعالى : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » . وقال عبد الرحمن بن زيد : جعلوا أزواجا على أشباه أعمالهم ليس بتزويج ، أصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشمال زوج ، والسابقون زوج ؛ وقد قال جل ثناؤه : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أى أشكالهم . وقال عكرمة : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » قرنت الأرواح بالأجساد ؛ أى ردت إليها . وقال الحسن : ألحق كل ٱمرئ بشيعته ؛ اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل : يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان على جهة البغض والعداوة ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل : قرنت النفوس بأعمالها فصارت لٱختصاصها به كالتزويج .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ الموءودة المقتولة ؛ وهى الجارية تدفن وهى حية ، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤودها أى يثقلها حتى تموت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا » أى لا يثقله ؛ وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة :

وموءودةٍ مقبورةٍ فى مَفَازَةٍ * بآمَتِها مَوْسُودَةٍ لم تُمَهَّدِ[1]

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين ؛ إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به . الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق ، وإما خوفا من السبي والٱسترقاق . وقد مضى

(١) كذا روى البيت ونسب إلى متمم بن نويرة فى الأصول ، ونسبه اللسان وشرح القاموس مادة (عوز) إلى حسان رضى الله عنه وروى فيهما :

وموءودة مقرورة فى معاوز * بآمتها مرموسة لم توسد

والآمة : ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه . والمعاوز : خرق يلف بها الصبي .

فى سورة «النحل» هذا المعنى عند قوله تعالى : « أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ »(١) مستوفى . وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، ويمنعون منه حتى آفتخر به آلفرزدق، فقال :

ومنّا(٢) الّذى منعَ الوائداتِ * فأحيا الوئيدَ فلمْ يُوأَدِ

يعنى جدّه صَعْصَعة كان يشتريهن من آبائهن ، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة . وقال آبن عباس : كانت المرأة فى الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة وتمخضت على رأسها ، فإن ولدت جارية رمت بها فى الحفرة وردّت التراب عليها، وإن ولدت غلاما حبسته ، ومنه قول الراجز :

سَمّيتُها إذْ وُلِدَتْ تَموتُ * والقَبْرِ صِهْرٌ ضامِنٌ زِمّيتُ

الزِّمِّيت الوقور ، والزِّميت مثال الفِسّيق أَوْقَر من الزِّميت، وفلان أزمت الناس أى أوقرهم، وما أشد تَزَمُّته ؛ عن الفراء . وقال قتادة : كانت الجاهلية يقتل أحدهم آبنته و يغذو كلبه، فعاتبهم الله على ذلك وتوعدهم بقوله : «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ» قال عمر فى قوله تعالى «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ» قال : جاء قيس بن عاصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله! إنى وأدت ثمان بنات كنّ لى فى الجاهلية، قال : "فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة" قال : يا رسول الله إنى صاحب إبل، قال : "فأهد عن كل واحدة منهنّ بَدَنة إن شئت" . وقوله تعالى : «سُئِلَتْ» سؤال الموءودة سؤال توبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضُرِب لم ضُرِبت وما ذنبك؟ قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها؛ لأنها قُتِلت بغير ذنب . وقال آبن أسلم : بأى ذنب ضُربت وكانوا يضربونها . وذكر بعض أهل العلم فى قوله تعالى « سُئِلَت » قال: طُلِبت ؛ كأنه يريد كما يُطْلَب بدم القتيل . قال : وهو كقوله : « وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا » أى مطلوبا . فكأنها طُلِبت منهم ، فقيل أين أولادكم ؟ ! وقرأ الضحاك وأبو الضحا عن جابر بن زيد وأبى صالح « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ » فتتعلق الجارية بأبيها فتقول : بأىّ ذنب

(١) رجع ج ١٠ ص ١١٧ .

(٢) و يروى : وجدّى الذى منع الوائدات ... الخ .

قتلتني؟ ! فلا يكون له عذر ؛ قاله ٱبن عباس وكان يقرأ « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ » وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ . وروى عِكرمة عن ٱبن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة التى تقتل ولدها تأتى يوم القيامة متعلقا ولدها بثدييها ملطخا بدمائه فيقول يا ربّ هذه أمى وهذه قتلتنى " والقول الأوّل عليه الجمهور ، وهو مثل قوله تعالى لعيسى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » على جهة التوبيخ والتبكيت لهم ، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها ، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها ؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب ، فبأىّ ذنب كان ذلك ، فإذا ظهر أنه لاذنب لها كان أعظم فى البلية وظهور الحجة على قاتلها . والله أعلم . وقرئ «قُتِّلَتْ» بالتشديد وفيه دليل بيّن على أن أطفال المشركين لايُعذَّبون ، وعلى أن التعذيب لايُستحَق إلا بذنب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ أى فتحت بعد أن كانت مطوية ، والمراد صحف الأعمال التى كتبت الملائكة فيها مافعل أهلها من خير وشر ، تطوى بالموت وتنشر فى القيامة ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول : « مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » . وروى مرثد بن وداعة قال : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن فى يده «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» إلى قوله : «الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » وتقع صحيفة الكافر فى يده « فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ » إلى قوله : وَلَا كَرِيمٍ » . وروى عن أمّ سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يُحشَر الناسُ يوم القيامة حُفَاةً عُراةً" فقلت : يا رسول الله ! فكيف بالنساء؟ قال : " شُغِلَ الناسُ يا أمّ سلمة " قلت : وما شَغَلهم ؟ قال : " نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل " . وقد مضى فى سورة « سبحان »(١) قول أبى السوّار العدوى : هما نشرتان وطية ، أما ماحييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأملِ فيها ما شئت ، فإذا مِتّ طُويت ، حتى إذا بعثت نشرت « ٱقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » . وقال مقاتل : إذا مات المرء طويت صحيفة عمله فإذا كان يوم القيامة نشرت . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٠

الأمر يا بن آدم . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو « نُشِرَتْ » مخففة على نشرها مرة واحدة لقيام الحجة . الباقون بالتشديد على تكرار النشر للمبالغة فى تقريع العاصى وتبشير المطيع . وقيل : لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ الكشط قلع عن شدّة التزاق ؛ فالسماء تُكشَط كما يُكشَط الجلد عن الكبش وغيره ، والقشط لغة فيه . وفى قراءة عبد الله « وَإِذَا السَّمَاءُ قُشِطَتْ » وكشطت البعير كشطا نزعت جلده ، ولا يقال سلخته ؛ لأن العرب لا تقول فى البعير إلا كشطته أو جلّدته وانكشط أى ذهب ؛ فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء . وقيل تطوى كما قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » فكأن المعنى قلعت فطويت . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ أى أوقدت فأضرمت للكفار وزيد فى إحمائها . يقال : سعرت النار وأسعرتها . وقراءة العامة بالتخفيف من السعير . وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد ؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة . قال قتادة : سعّرها غضبُ الله وخطايا بنى آدم . وفى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة" وروى موقوفا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أى أدنيت وقربت من المتقين . قال الحسن : إنهم يقربون منها ؛ لا أنها تزول عن موضعها . وكان عبد الرحمن بن زيد يقول : زينت[1] والزلفى فى كلام العرب القربة ؛ قال الله تعالى : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ » وتزلف فلان تقرب .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ يعنى ما عملت من خير وشر . وهذا جواب « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » وما بعدها . قال عمر رضى الله عنه : لهذا أجرى الحديث . وروى

(١) فى نسخة : أدنيت .

عن آبن عباس وعمر رضى الله عنهما أنهما قرأاها فلما بلغا « عَلِمَت نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ » قالا لهذا أجريت القصة ؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء علمت نفس ما أحضرت من عملها . وفى الصحيحين عن عدىّ بن حاتم قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : "ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه و بينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّمه [و ينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم](١) بين يديه فتستقبله النار فمن آستطاع منكم أن يتق النار ولو بشق تمرة فليفعل" وقال الحسن : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » قسم وقع على قوله : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ » كما يقال : إذا نفر زيد نفر عمرو . والقول الأول أصح . وقال آبن زيد عن آبن عباس فى قوله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » إلى قوله : « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » آثنتا عشرة خَصْلة ، ستة فى الدنيا وستة فى الآخرة ؛ وقد بينا الستة الأولى بقول أبىّ بن كعب .

قوله تعـالى : فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ أى أقسم و « لا » زائدة كما تقـدّم . ﴿ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِى الْكُنَّسِ ﴾ هى الكواكب الخمسة الدرارىّ : زُحَل والمشترى وعُطَارِد والمِرِّيخ والزُّهَرَة ، فيما ذكر أهل التفسير . والله أعلم . وهو مروىّ عن علىّ كرم الله وجهه . وفى تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان : أحدهما — لأنها تستقبل الشمس ؛ قاله بكر بن عبد الله المزنى . الثانى — لأنها تقطع المَجَرّة ؛ قاله آبن عباس . وقال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تَخْنِس

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

بالنهار و إذا غربت ، وقاله عليّ رضى الله عنه قال : هى النجوم تخْنِس بالنهار وتظهر بالليل ؛ وتكنِس فى وقت غروبها ؛ أى تتأخر عن البصر لخفائها فلا تُرَى . وفى الصحاح : و «الخُنَّس» الكواكب كلها . لأنها تَخْنِس فى المغيب ، أو لأنها تخفى نهارا . ويقال : هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة . وقال الفراء فى قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِى الْكُنَّسِ » إنها النجوم الخمسة ؛ زُحَل والمشترِى والمرّيخ والزُّهَرة وعُطَارد ؛ لأنها تَخنِس فى مجراها ، وتكنِس أى تستتر كما تَكنِس الظِّباء فى المغار وهو الكِناس . و يقال : سميت خُنَّسا لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التى ترجع وتستقيم ؛ يقال : خَنَس عنه يَخنُس بالضم خنوسا تأخر ، وأخنسه غيره إذا خَلَّفه ومضى عنه . والخَنَس تأخر الأنف عن الوجه مع ٱرتفاع قليل فى الأرنبة ، والرجل أخنس والمرأة خنساء والبقر كلها خُنْس . وقد روى عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ » هى بقر الوحش . روى هشيم عن زكريا عن أبى إسحق عن أبى ميسرة عمرو بن شُرَحْبيل ، قال قال لى عبد الله بن مسعود : إنكم قوم عرب فما الخنّس ؟ قلت : هى بقر الوحش ؛ قال : وأنا أرى ذلك . وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله . وروى عن ٱبن عباس : إنما أقسم الله ببقر الوحش . وروى عنه عِكرمة قال : « الخنّس » البقر و « الكُنَّس » هى الظِّباء ، فهى خُنَّس إذا رأين الإنسان خَنَسْن وٱنقبضْن وتأخرن ودخلن كِناسهنّ . القشيرى : وقيل على هذا « الخنّس » من الخَنَس فى الأنف وهو تأخير الأرنبة وقصر القصبة ، وأنوف البقر والظباء خُنْس . والأصح الحمل على النجوم لذكر الليل والصبح بعد هذا ، فذكر النجوم أليق بذلك .

قلت : لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد ، وإن لم يُعلَم وجهُ الحكمة فى ذلك . وقد جاء عن ٱبن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنَّخعى أنها بقر الوحش . وعن ٱبن عباس وسعيد بن جبير أنها الظِّباء . وعن الحجاج بن منذر قال : سألت جابر بن زيد عن الجوارى الكنّس ، فقال : الظِّباء والبقر ، فلا يبعد أن يكون المراد

النجوم . وقد قيل : إنها الملائكة ؛ حكاه الماوردى . والكنّس الغُيَّب ؛ مأخوذة من الكِناس وهو كِناس الوحش الذى يختفى فيه . قال أَوْس بن حَجَر :

أَلم تر أن الله أنزل مُزْنةً * وعُفْرُ الظِّباءِ فى الكِنَاسِ تَقَمَّعُ (١)

وقال طَرَفة :

كأنّ كِنَاسَىْ ضالَةٍ يَكْنُفَانِهَا * وأَطْرَقِسِىٍّ تَحْتَ صُلْبٍ مُؤيَّدِ (٢)

وقيل : الكُنوس أن تأوى إلى مكانسها ، وهى المواضع التى تأوى إليها الوحوش والظِّباء . قال الأعشى :

فلما أتينا الحىَّ أَتْلَعَ أُنَّسٌ * كما أَتْلعتْ تحتَ المكَانِسِ رَبْرَبُ

يقال : تَلَعَ النهارُ آرتفع وأَتلعت الظَّبيةُ من كِناسها أى سمت بجيدها . وقال آمرؤ القيس :

تَعَشَّى (٣) قليلًا ثم أَنْحَى ظُلُوفَهُ * يُثِيرُ التُّرابَ عن مَبِيتٍ ومَكْنِسِ

والكنس جمع كانِس وكانِسة ، وكذا الخنس جمع خانِس وخانِسة . والجوارى جمع جارية من جرى يجرى . ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر ؛ حكاه الجوهرى . وقال بعض أصحابنا : إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض . المهدوى : «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ» أدبر بظلامه ؛ عن آبن عباس ومجاهد وغيرهما . وروى عنهما أيضا وعن الحسن وغيره : أقبل بظلامه . زيد بن أسلم : «عَسْعَسَ» ذهب . الفراء : العرب تقول عسعس وسعسع إذا لم يبق منه إلا اليسير . الخليل وغيره : عسعس الليلُ إذا أقبل أو أدبر . المبرد : هو من الأضداد والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد وهو آبتداء الظلام فى أوّله وإدباره فى آخره ؛ وقال عَلْقَمة بن قُرْط :

حَتَّى إذا الصُّبحُ لها تَنَفَّسا * وآنجابَ عنها لَيلُها وعَسْعَسا

(١) تقمع : تحرك رءوسها من القمعة ؛ وهى ذباب أزرق يدخل فى أنوف الدواب أو يقع عليها فيلسعها .
(٢) قال : « كناسى » لأن الحيوان يستكن بالغداة فى ظلها وبالعشى فى فيئها . والضال : السدر البرى الواحدة ضالة . والأطر : العطف . والمؤيد : المقوى . يقول الشاعر : كأن كناسى ضالة يكنفان هذه الناقة لسعة ما بين مرفقيها وزورها . (٣) تعشى : دخل فى العشاء وهو أول الليل . ظلوفه : حوافره .

وقال رُؤْبة :

يا هِنْدُ ما أسرعَ ما تَسَعْسَعَا * من بَعْدِ ما كان فَتًى سَرَعْرَعَا (١)

وهذه حجة الفراء . وقال آمرؤ القيس (٢) :

عَسْعَسَ حتى لو نشاءُ آدَّنَا * كان لنا مِن نارِهِ مَقْبَسُ

فهذا يدل على الدُّنو . وقال الحسن ومجاهد : عسعس أظلم ؛ قال الشاعر :

حتّى إذا ما لَيلُهُنَّ عَسْعَسَا * رَكِبْنَ مِن حَدِّ الظَّلامِ حِنْدِسَا

الماوردي : وأصل العَسّ الامتلاء ؛ ومنه قيل للقدح الكبير عُسٌّ لامتلائه بما فيه فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه ؛ وأطلق على إدباره لانتهاء امتلائه على ظلامه ؛ لاستكمال امتلائه به . وأما قول آمرئ القيس :

* ألمّا على الربعِ القديمِ بِعَسْعَسَا (٣) *

فموضع بالبادية . وعَسْعَسٌ أيضا آسم رجل؛ قال الراجز :

* وعَسْعَسٌ نِعْمَ الفتى تَبَيَّاهْ *

أي تعتمده . ويقال للذئب العَسْعَس والعَسْعاس والعَسَّاس ؛ لأنه يَعُسُّ بالليل ويطلب . ويقال للقنافذ العَسَاعِس لكثرة ترددها بالليل . قال أبو عمرو : والتعسعس الشم ، وأنشد :

* كمنخر الذِّئب إذا تَعَسْعَسَا *

والتَّعَسْعُس أيضا طلب الصيد [بالليل] (٤) .

---

(١) تسعسعا : أدبر وفنى ، والمرعرع : الشاب الناعم .

(٢) كذا في الأصول كلها ولم نجده في ديوانه . وفي اللسان : كان له من ضوئه مقبس . ثم قال : أنشده أبو البلاد النحوي وقال : وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع . وآدنا أصله : إذ دنا فأدغم .

(٣) تمامه : * كأني أنادي أو أكلم أخرسا *

(٤) الزيادة من الصحاح .

قوله تعـالى : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى آمتـد حتى يصير نهارا واضحا ؛ يقال للنهار إذا زاد تنفس . وكذلك الموج إذا نَضَح المــاءَ . ومعنى التنفس خروج النسيم من الجوف . وقيــل : « إِذَا تَنَفَّسَ » أى آنشق وآنفلق ؛ ومنه تَنَفَّست القوسُ[(١)] أى تَصدَّعت . ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هــذا جواب القسم . والرســول الكريم جبريل؛ قاله الحسن وقتــادة والضحاك . والمعنى « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ » عن الله « كَرِيمٍ » على الله . وأضاف الكلام إلى جبريل عليــه السلام ثم عَدَّاه عنــه بقوله « تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ليعلم أهــل التحقيق فى التصديق أن الكلام لله عز وجل . وقيــل : هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ مَنْ جعله جبريلَ فقوّته ظاهرة؛ فروى الضحاك عن آبن عباس قال : من قوّته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه . ﴿ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ ﴾ أى عند الله جل ثنــاؤه ﴿ مَكِينٍ ﴾ أى ذى منزلة ومكانة؛ فروى عن أبى صالح قال : يدخل سبعين سُرَادِقا بغــير إذن . ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى فى السموات؛ قال آبن عباس : من طاعة الملائكة جبريل أنه لمــا أسرى برســول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان : آفتح له ففتح فدخل ورأى ما فيها، وقال لمــالك خازن النار : آفتح له جهنم حتى ينظر إليها فأطاعه وفتح له . ﴿ أَمِينٍ ﴾ أى مؤتمن على الوحى الذى يجيء به . ومن قال : إن المــراد محمد صلى الله عليه وســلم فالمعنى « ذِى قُوَّةٍ » على تبليغ الرسالة « مُطَاعٍ » أى يطيعه من أطاع الله جل وعز . ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعــنى محمدا صلى الله عليه وســلم ليس بمجنون حتى يتهــم فى قوله . وهو من جواب القسم . وقيل : أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يرى جبريل فى الصورة التى يكون بها عند ربه جل وعز فقال: ماذاك إلىّ؛ فأذن له الربّ جلّ ثناؤه فأتاه وقد سدّ الأفق، فلما نظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم خرّ مغشيا عليه، فقال المشركون : إنه مجنون، فنزلت : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » « وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ » وإنمــا رأى جبريل على صورته فهابه ، وورد عليه ما لم تحتمل بِنْيته فخرّ مغشيا عليه .

---

(١) فى نسخ الأصل : تنفست القوس والنفوس أى تصدّعت . واللغة لا ذكر فيها لكلمة النفوس ولعلها زيادة من الناسخ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أى رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح « بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ » أى بمطلع الشمس من قِبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مبين . أى من جهته ترى الأشياء . وقيل : الأفق المبين أقطار السماء ونواحيها؛ قال الشاعر :

أَخَذْنا بِآفاقِ السماءِ عَلَيْكُمُ * لنا قَمَراها والنُّجومُ الطَّوالِعُ

الماوردى : فعلى هذا فيه ثلاثة أقاويل ؛ أحدها أنه رآه فى أفق السماء الشرقى ؛ قاله سفيان . الثانى فى أفق السماء الغربى ، حكاه ابن شجرة . الثالث أنه رآه نحو أجياد وهو مشرق مكة ؛ قاله مجاهد . وحكى الثعلبى عن ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل : " إنى أحبّ أن أراك فى صورتك التى تكون فيها فى السماء " قال : لن تقدر على ذلك . قال : "بلى" قال : فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال : " بالأبطح " قال : لا يسعنى . قال : " فبمِنًى " قال : لا يسعنى . قال : " فبعرفات " قال : ذلك بالحرىّ أن يسعنى . فواعده فخرج النبى صلى الله عليه وسلم للوقت ، فإذا هو قد أقبل بخَشْخشةٍ وكَلْكلةٍ من جبال عرفات، قد ملأ مابين المشرق والمغرب ، ورأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم خرّ مغشيا عليه ، فتحول جبريل فى صورته وضمه إلى صدره . وقال : يامحمد لا تخف ؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة، وأن العرش على كاهله ، وأنه ليتضاءل أحيانا من خشية الله حتى يصير مثل الوصع — يعنى العصفور — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته . وقيل : إن محمدا

عليه السلام رأى ربه عز وجل بالأفق المبين . وهو معنى قول ابن مسعود . وقد مضى القول فى هذا فى « والنجم » مستوفى فتأمله هناك (١) . وفى « المبين » قولان : أحدهما أنه صفة الأفق، قاله الربيع . الثانى أنه صفة لمن رآه، قاله مجاهد . ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ ﴾ بالظاء قراءة ابن كثير وأبى عمرو والكسائى أى بمتهم والظِّنة التهمة، قال الشاعر :

أَمَا وكتابِ اللهِ لا عن شَنَاءَةٍ * هُجِرْتُ ولكنَّ الظَّنِينَ ظَنِينُ

واختاره أبو عبيد، لأنهم لم يُبَخِّلوه ولكن كذَّبوه ، ولأن الأكثر من كلام العرب : ما هو بكذا، ولا يقولون : ما هو على كذا ، إنما يقولون : ما أنت على هذا بمتهم . وقرأ الباقون « بِضَنِينٍ » بالضاد أى ببخيل من ضَنِنت بالشيء أَضَنّ ضَنًّا [فهو] ضَنِين . فروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : لا يضن عليكم بما يُعلِّم، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه . وقال الشاعر :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ الحديثِ وإنَّنِى * بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَالَنِى لَضَنِينُ

والغيب القرآن وخبر السماء . ثم هذا صفة محمد عليه السلام . وقيل : صفة جبريل عليه السلام . وقيل : بظنين بضعيف . حكاه الفراء والمبرد ؛ يقال : رجل ظَنِين أى ضعيف . وبئر ظَنُون إذا كانت قليلة الماء، قال الأعشى :

ما جُعِلَ الجُدُّ الظَّنُونُ الذى * جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الماطِرِ

مِثْلَ الفُرَاتِىِّ إذا ما طَمَا * يَقْذِفُ بالبُوصِىِّ والماهِرِ (٢)

والظَّنُون الدَّيْن الذى لا يدرى أيقضيه آخذه أم لا، ومنه حديث علىّ عليه السلام فى الرجل يكون له الدَّين الظَّنون قال : يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقا . والظَّنُون الرجل

---

(١) راجع جـ ١٧ ص ٩٤ وقول ابن مسعود هناك هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل والذى قال بأنه رأى ربه هو ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) الجد : البئر تكون فى موضع كثير الكلأ . الفراتى : المنسوب إلى الفرات . والبوصى : ضرب من سفن البحر، والملاح أيضا . والماهر : السابح .

السيّء الخلق ؛ فهو لفظ مشترك . ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ يعني القرآن ﴿ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أي مرجوم ملعون كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه . ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ قال قتادة : فإلى أين تعدلون عن هذا القول وعن طاعته . كذا روى معمر عن قتادة؛ أي أين تذهبون عن كتابي وطاعتي . وقال الزجاج : فأيّ طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم . ويقال : أين تذهب وإلى أين تذهب . وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشامَ وخرجت العراقَ وانطلقت السوقَ أي إليها . قال : سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة؛ وأنشدني بعض بني عقيل :

تَصيحُ بنا حَنيفةُ إذ رأتنا * وأيَّ الأرض تذهبُ بالصِّياحِ

يريد إلى أي أرض تذهب فحذف إلى . وقال الجنيد : معنى الآية مقرون بآية أخرى وهي قوله تعالى : «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ» المعنى : أيّ طريق تسلكون أبين من الطريق الذي بينه الله لكم . وهذا معنى قول الزجاج . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعني القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي موعظة وزجر و «إنْ» بمعنى «ما» . وقيل : ما محمد إلا ذكر . ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أي يتبع الحقّ ويقيم عليه . وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى : لما نزلت « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم — وهذا هو القدر وهو رأس القدرية — فنزلت : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه . وقال الحسن : والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها . وقال وهب بن منبه : قرأت في سبعة (١) وثمانين كتابا مما أنزل الله على الأنبياء مَنْ جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر . وفي التنزيل : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » وقال تعالى : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » وقال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار وأن الله سبحانه هدى بالإسلام وأضل بالكفر كما تقدم في غير موضع . ختمت السورة والحمد لله .

---

(١) في تفسير الثعلبي : بضعة وثمانين .

ســورة الانفطــار

مكية عند الجميع وهى تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أى تشققت بأمر الله ، لنزول الملائكة ؛ كقوله : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقيل : تفطرت لهيبة الله تعالى . والفَطْر الشقّ ؛ يقال : فَطَرْته فانفطر، ومنه فَطَر نابُ البعيرِ طَلَع فهو بعير فاطر ، وتفطر الشيء تَشَقّق، وسيف فُطار أى فيه شقوق ؛ قال عنترة :

وَسَيْفِى كالعَقِيقَةِ وَهْوَ كِمْعِى * سِلَاحِى لا أَفَلَّ ولا فُطَارَا(١)

وقد تقدّم فى غير موضع(٢) . ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ أى تساقطت ؛ نَثَرْت الشيء أنثره نثرا فانتثر والاسم النِّثار . والنُّثار بالضم ما تناثر من الشيء، ودُرٌّ منثَّر شدّد للكثرة . ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ أى فجر بعضها فى بعض فصارت بحرا واحدا على ما تقدّم . وقال الحسن : فجرت ذهب ماؤها و يبست؛ وذلك أنها أوّلا راكدةٌ مجتمعة ، فإذا فُجِّرت تفرّقت فذهب ماؤها . وهذه الأشياء بين يدى الساعة على ماتقدّم فى « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ أى قلبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء ؛ يقال : بعثرت المتاع قلبته ظهرا لبطن ، و بعثرت الحوض و بحثرته إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه . وقال قوم منهم الفرّاء: «بُعثِرت» أخرجت ما فى بطنها من الذهب والفضة . وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض

(١) العقيقة : شعاع البرق الذى يبدو كالسيف . والكمع : الضجيع . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٤

ذهبها وفضتها . ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ مثل : « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وتقدّم . وهذا جواب « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » لأنه قسم فى قول الحسن وقع على قوله تعالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ » يقول : إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت ، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك . وقيل : أى إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة فحوسبت كل نفس بما عملت ، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها . وقيل : هو خبر وليس بقسم وهو الصحيح إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴾ خاطب بهذا منكرى البعث . وقال ابن عباس : الإنسان هنا الوليد بن المغيرة . وقال عكرمة : أبىّ بن خلف . وقيل : نزلت فى أبى الأشدّ بن كلدة الجُمَحىّ . عن ابن عباس أيضا : « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى ما الذى غرك حتى كفرت « بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » أى المتجاوز عنك . قال قتادة : غره شيطانه المسلّط عليه . الحسن : غره شيطانه الخبيث . وقيل : حمقه وجهله . رواه الحسن عن عمر رضى الله عنه . وروى غالب الحنفى قال : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » قال : "غره الجهل" وقال صالح بن مسمار : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » فقال : "غره جهله" . وقال عمر رضى الله عنه : كما قال الله تعالى « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » . وقيل : غره عفو الله إذ لم يعاقبه فى أوّل مرة . قال إبراهيم بن الأشعث : قيل للفضيل بن عياض لو أقامك الله تعالى

يوم القيامة بين يديه فقال لك « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » ماذا كنت تقول ؟ قال : كنت أقول غرني ستورك المرخاة ؛ لأن الكريم هو الستار . نظمه ٱبن السَّمَّاك فقال :

يا كاتِمَ الذَّنبِ أَمَا تَسْتَحِى * واللهُ فى الخَلْوةِ ثانيكا
غَرَّكَ من ربِّكَ إمْهالُهُ * وسَتْرُه طول مَسَاوِيكا

وقال ذو النون المصري : كم من مغرور تحت الستر وهو لا يشعر .

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهرى :

يا مَنْ غلا فى العُجْبِ والتِّيهِ * وغَرَّهُ طُولُ تَمَادِيه
أَمْلَى لك اللهُ فبارزتَهُ * ولم تَخَفْ غِبَّ معاصِيه

وروى عن علىّ رضي الله عنه أنه صاح بغلام له مرات فلم يلبه ، فنظر فإذا هو بالباب فقال : مالك لم تجبنى ؟ فقال . لثقتى بحلمك وأَمْنِى من عقوبتك . فاستحسن جوابه فأعتقه . وناس يقولون : ما غرك ما خدعك وسَوَّل لك حتى أضعت ما وجب عليك . وقال ٱبن مسعود : ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة فيقول له : يا ٱبن آدم ماذا غرك بى؟ يا ٱبن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ يا ٱبن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ . ﴿الَّذِى خَلَقَكَ﴾ أى قدر خلقك من نطفة ﴿فَسَوَّاكَ﴾ فى بطن أمك وجعل لك يدين و رجلين وعينين وسائر أعضائك ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ أى جعلك معتدلا سوِىّ الخلق ؛ كما يقال : هذا شيء معدّل . وهذه قراءة العامة وهى ٱختيار أبى عبيد وأبى حاتم ؛ قال الفراء وأبو عبيد : يدل عليه قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » . وقرأ الكوفيون عاصم وحمزة والكسائى : « فَعَدَلَكَ » مخففا أى أمالك وصرفك إلى أىّ صورة شاء إما حسنا وإما قبيحا ، وإما طويلا وإما قصيرا . وقال [موسى بن علىّ ٱبن أبى رباح اللخمى عن أبيه عن جده[1]] قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : " إن النطفة

(١) الزيادة من تفسير الثعلبي والطبرى والدر المنثور . والحديث كما رواه الثعلبي بعد السند : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجده "ما ولد لك" قال يا رسول الله وما عسى أن يولد لى ، إما غلام أو جارية . قال " فمن يشبه" قال : فمن يشبه ؛ أمه أو أباه ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم . "لا تقل هكذا إن النطفة ... الحديث" .

إذا آستقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها و بين آدم " أما قرأت هذه الآية ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : " فيما بينك و بين آدم " [وقال عكرمة وأبو صالح : « فى أىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »] إن شاء فى صورة إنسان ، و إن شاء فى صورة حمار، و إن شاء فى صورة قرد، و إن شاء فى صورة خنزير. وقال مكحول : إن شاء ذكرا و إن شاء أنثى . وقال مجاهد : « فِى أَىِّ صُورَةٍ » أى فى أى شَبَه من أبٍ أو أمٍّ أو عمٍّ أو خالٍ أو غيرهم . و « فى » متعلقة بـ« رَكَّبَكَ » ولا تتعلق بـ« عَدَلَكَ » على قراءة من خفف ؛ لأنك تقول عدلت إلى كذا ولا تقول عدلت فى كذا ؛ ولذلك منع الفراء التخفيف ؛ لأنه قدر « فى » متعلقة بـ« عدلك » و « ما » يجوز أن تكون صلة مؤكدة ؛ أى فى أى صورة شاء ركبك . ويجوز أن تكون شرطية أى إن شاء ركبك فى غير صورة الإنسان من صورة قرد أو حمار أو خنزير فـ « ما » بمعنى الشرط والجزاء ؛ أى فى صورة ما شاء أن يركبك ركبك .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ يجوز أن تكون « كَلَّا » بمعنى حقًّا و « أَلَا » فيبتدأ بها . و يجوز أن تكون بمعنى « لا » على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم فى عبادتكم غير الله محقون . يدل على ذلك قوله تعالى : « مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » وكذلك يقول الفراء : يصير المعنى ليس كما غررت به . وقيل : أى ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث . وقيل : هو بمعنى الردع والزجر. أى لا تغتروا بحلم الله وكرمه فتتركوا التفكر فى آياته . آبن الأنبارى : الوقف الجيد على « الدِّينِ » وعلى « رَكَّبَكَ » والوقف على « كَلَّا » قبيح . ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ياأهل مكة ﴿ بِالدِّينِ ﴾ أى بالحساب و « بل » لنفى شىء تقدم وتحقيق غيره . و إنكارهم للبعث كان معلوما و إن لم يجر له ذكر فى هذه السورة .

قوله تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ أى رقباء من الملائكة ﴿ كِرَامًا ﴾ أى على ؛ كقوله تعالى : « كِرَامٍ بَرَرَةٍ » وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الخراءة أو الجماع فإذا آغتسل أحدكم فليستتر بجرم [حائط](١) أو بغيره أو ليستره أخوه" . وروى عن عليّ رضي الله عنه قال : "لا يزال الملك موليا عن العبد ما دام بادى العورة" وروى "إن العبد إذا دخل الحمام بغير مئزر لعنه ملكاه" .

الثانيـة — وآختلف الناس فى الكفار هل عليهم حفظة أم لا ؟ فقال بعضهم : لا ؛ لأن أمرهم ظاهر وعملهم واحد؛ قال الله تعالى : « يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » . وقيل : بل عليهم حفظة؛ لقوله تعالى : « كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » . وقال : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ » وقال : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » فأخبر أن الكفار يكون لهم كتاب ويكون عليهم حفظة . فإن قيل : الذى على يمينه أى شيء يكتب ولا حسنة له؟ قيل له : الذى يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه ويكون شاهدا على ذلك وإن لم يكتب . والله أعلم .

الثالثة — سئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبد قد همّ بحسنة أو سيئة ؟ قال : إذا همّ العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك ، وإذا همّ بسيئة وجدوا منه ريح النتن . وقد مضى فى « ق » عند قوله : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »(٢) زيادة بيان لمعنى هذه الآية . وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع لمفارقة الملك العبد عند ذلك . وقد مضى فى آخر « آل عمران »(٣) القول فى هذا . وعن الحسن : يعلمون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم . وقيل : يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدّثتم به أنفسكم . والله أعلم .

(١) الزيادة من الدر المنثور وفيه سبب ورود الحديث أنه عليه السلام رأى رجلا يغتسل بفلاة من الأرض ...... الخ .

(٢) راجع جـ ١٧ ص ١١

(٣) راجع جـ ٤ ص ٣١٠ فما بعدها .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ تقسيم مثل قوله : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » وقال : « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا » الآيتين . ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أى يصيبهم لهبها وحرّها ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى يوم الجزاء والحساب وكرر ذكره تعظيما لشأنه ؛ نحو قوله تعالى : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » وقال آبن عباس فيما روى عنه : كل شيء من القرآن من قوله : « وَمَا أَدْرَاكَ » فقد أدراه ، وكل شيء من قوله : « وَمَا يُدْرِيكَ » فقد طوى عنه . ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ قرأ آبن كثير وأبو عمرو « يَوْمُ » بالرفع على البدل من « يَوْمُ الدِّينِ » أو ردا على اليوم الأول فيكون صفة ونعتا لـ«يَوْمَ الدِّينِ» . ويجوز أن يرفع بإضمار هو . الباقون بالنصب على أنه فى موضع رفع إلا أنه نصب ؛ لأنه مضاف غير متمكن ؛ كما تقول : أعجبنى يوم يقوم زيد . وأنشد المبرد :

مِنْ أَيِّ يَوْمَيَّ مِنَ المـوتِ أَفِرّْ * أَيَوْمَ لم يُقْـدَر أَمْ يَوْمَ قُـدِرْ

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة عن الترجمة عن اليومين الأولين إلا أنهما نصبا فى اللفظ ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محض . وهـذا آختيار الفراء والزجاج . وقال قوم : اليوم الثانى منصوب على المحل كأنه قال : فى يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . وقيل : بمعنى إن هذه الأشياء تكون يوم ، أو على معنى يدانون يوم ؛ لأن الدين يدل عليه ، أو بإضمار آذكر . ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ لا ينازعه فيه أحد ؛ كما قال : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ » تمت السورة والحمد لله .

سورة المطففين

مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية في قول الحسن وعكرمة ، وهي ست وثلاثون آية

قال مقاتل : وهي أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا ثمان آيات من قوله : « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا » إلى آخرها مكي . وقال الكلبي وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى النسائي عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل الله تعالى « وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » فأحسنوا الكيل بعد ذلك . قال الفراء : فهم من أوفى الناس كيلًا إلى يومهم هذا . وعن ابن عباس أيضا قال : هي أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة نزل المدينة وكان هـذا فيهم ؛ كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح ، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة انتهوا ، فهم أوفى الناس كيلًا إلى يومهم هذا . وقال قوم : نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة واسمه عمرو ؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما و يعطي بالآخر ؛ قاله أبو هريرة رضي الله عنه .

الثانيـة — قوله تعالى : « وَيْلٌ » أي شدة عذاب في الآخرة . وقال ابن عباس : إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فهو قوله تعالى : « وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » أي الذين ينقصون مكاييلهم وموازينهم . وروى عن ابن عمر قال : المطفِّف الرجل يستأجر المكيال

وهو يعلم أنه يحيف فى كيله فوزره عليه. وقال آخرون: التطفيف فى الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث. وفى الموطأ قال مالك: ويقال لكل شيء وفاء وتطفيف. وروى عن سالم ابن أبى الجعد قال: الصلاة بمكيال فمن أوفى أوفى له ومن طفّف فقد علمتم ما قال الله عز وجل فى ذلك: «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ».

الثالثة — قال أهل اللغة: المطفّف مأخوذ من الطَّفيف وهو القليل، والمُطفِّف هو المقل حقّ صاحبه بنقصانه عن الحقّ فى كيل أو وزن. وقال الزجاج: إنما قيل للفاعل من هذا مُطفِّف؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف، وإنما أخذ من طَفّ الشيء وهو جانبه. وطِفاف المَكُّوك وطَفافه بالكسر والفتح ما ملأ أَصْباره وكذلك طَفُّ المَكُّوك وطَفَفه؛ وفى الحديث: "كُلُّكم بنو آدم طَفُّ الصاع لم تَمْلَئُوه" وهو أن يقرب أن يمتلئ فلا يفعل؛ والمعنى بعضكم من بعض قريب فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى. والطُّفَاف والطُّفَافة بالضم ما فوق المكيال. وإناء طَفّان إذا بلغ المِلءُ طفافَه؛ تقول منه: أطففت. والتطفيف نقص المكيال وهو ألا تملأه إلى أَصْباره أى جوانبه؛ يقال: أدهقت الكأس إلى أَصْبارها أى إلى رأسها. وقول ابن عمر حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سَبْق الخيل: كنت فارسا يومئذ فسبقت الناس حتى طَفَّف بى الفرسُ مسجد بنى زُرَيْق حتى كاد يساوى المسجد. يعنى وَثَب بى.

الرابعة — المُطَفِّف هو الذى يخسر فى الكيل والوزن ولا يوفى حسب ما بيناه؛ وروى ابن القاسم عن مالك أنه قرأ «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ» فقال: لا تُطَفِّف ولا تخلب[1] ولكن أرسل وصُبَّ عليه صَبًّا حتى إذا استوفى[2] أرسل يدك ولا تُمسك. وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسح الطِّفاف، وقال: إن البركة فى رأسه. قال: وبلغنى أن كيل فرعون كان مسحا بالحديدة.

---

(١) كذا فى الأصول وفى ابن العربى (ولا تجلب). (٢) فى بعض الأصول وابن العربى «استوى».

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ قال الفراء : أى من الناس ؛ يقال : ٱكتلت منك أى ٱستوفيت منك ، ويقال : ٱكتلت ما عليك أى أخذت ما عليك . وقال الزجاج : أى إذا ٱكتالوا من الناس ٱستوفوا عليهم الكيل؛ والمعنى : الذين إذا ٱستوفوا أخذوا الزيادة و إذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا ، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم . الطبرى : « على » بمعنى عند .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ » أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام فتعـدى الفعل فنصب ؛ ومثـله نصحتك ونصحت لك وأمرتك به وأمرتكه ؛ قاله الأخفش والفراء . قال الفراء : وسمعت أعرابية تقول إذا صَدَرَ الناسُ أتينا التـاجر فيكيلنا المُدَّ والمُدَّين إلى الموسم المقبل . وهو من كلام أهل الحجـاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجـوز الوقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » حتى تصـل به « هم » قال : ومن النـاس من يجعلها توكيدا ، ويجـيز الوقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » والأوّل الآختيار ؛ لأنها حرف واحد . وهو قول الكسائى . قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين ويقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » ويبتـدئ « هُمْ يُخْسِرُونَ » قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضا . قال أبو عبيد : والآختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين إحداهما الخط ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف ولو كانتا مقطوعتين لكانتا « كَالُوا » و « وَزَنُوا » بالألف ؛ والأخرى أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى كلت لك ووزنت لك وهو كلام عربى؛ كما يقال : صدتك وصدت لك وكسبتك وكسبت لك ، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك . قوله : « يُخْسِرُونَ » أى ينقصون؛ والعرب تقول: أخسرت الميزان وخسرته ، و « هم » فى موضع نصب على قراءة العامة راجع إلى الناس؛ تقديره «وَإِذَا كَالُوا » الناس « أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » وفيه وجهان : أحدهما أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال :

ولقـدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وعَساقلا * ولقد نَهَيْتُكَ عنْ بَنَـاتِ الأَوْبَرِ

أراد جنيت لك ، والوجه الآخر أن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكيل والموزون . وعن ابن عباس رضي الله عنه : إنكم معاشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان . وخصّ الأعاجم لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفرّقين في الحرمين ؛ كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون . وعلى القراءة الثانية « هم » في موضع رفع بالابتداء ؛ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون . ولا يصح ؛ لأنه تكون الأولى ملغاة ليس لها خبر ، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها وإذا كالوا هم ينقصون أو وزنوا هم يخسرون .

الثانيــة — قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : "خَمسٌ بخمس ما نقض قوم العهد إلا سلّط الله عليهم عدوّهم ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون وما طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر" خرجه أبو بكر البزار بمعناه ومالك بن أنس أيضا من حديث ابن عمر . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة . وقال مالك بن دينار : دخلت على جار لي قد نزل به الموت ، فجعل يقول : جبلين من نار ! جبلين من نار ! فقلت : ما تقول؟ أتهجر؟ (١) قال : يا أبا يحيى كان لي مكيالان أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر ؛ فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، فقال : يا أبا يحيى كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عِظَما ، فمات من وجعه . وقال عكرمة : أشهد على كل كيّال أو وزّان أنه في النار . قيل له : فإن ابنك كيال أو وزان . فقال : أشهد أنه في النار . قال الأصمعي : وسمعت أعرابية تقول لا تلتمس المروءة ممن مروءته في رءوس المكاييل ولا ألسنة الموازين . وروى ذلك عن عليّ رضي الله عنه . وقال عبد خير : مر عليّ رضي الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح فأكفأ الميزان ، ثم قال : أقم الوزن بالقسط ، ثم أرجح بعد ذلك ما شئت . كأنه أمره بالتسوية أوّلا ليعتادها ، ويفصل الواجب من النفل . وقال نافع : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول اتق الله وأوف الكيل

(١) هجر في نومه ومرضه يهجر هجرا : هذى .

والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العَرَق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم . وقد روى أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر وآستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة ، فقال أبو هريرة : فوجدناه فى صلاة الصبح فقرأ فى الركعة الأولى « كهيعص » وقرأ فى الركعة الثانية « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ » قال أبو هريرة : فأقول فى صلاتى ويل لأبى فلان كان له مكيالان إذا آكتال آكتال بالوافى وإذا كال كال بالناقص .

قوله تعالى : أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ ﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم فى الآجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون التطفيف ببالهم ولا يخمنون تخمينا ﴿ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ فمسئولون عما يفعلون . والظن هنا بمعنى اليقين ، أى ألا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا فى الكيل والوزن . وقيل : الظن بمعنى التردد ، أى إن كانوا لا يستيقنون بالبعث فهلا ظنوه حتى يتدبروا ويبحثوا عنه ويأخذوا بالأحوط ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ شأنه وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — العامل فى « يوم » فعل مضمر دل عليه « مَبْعُوثُونَ » والمعنى يبعثون « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . ويجوز أن يكون بدلا من يوم فى « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » وهو مبنى . وقيل : هو فى موضع خفض ؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن . وقيل : هو منصوب على الظرف أى فى يوم ، ويقال : أقم إلى يوم يخرج فلان فتنصب يوم ، فإن أضافوا إلى الآسم فحينئذ يخفضون ويقولون : أقم إلى يوم خروج فلان . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، التقدير أنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لربّ العالمين ليوم عظيم .

الثانيــة — وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين ؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذى سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . وفى هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصف ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم فى التطفيف ، وفيما كان فى مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط ، والعمل على التسوية والعدل فى كل أخذ وإعطاء ، بل فى كل قول وعمل .

الثالثــة — قرأ ابن عمر «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ» حتى بلغ « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » فبكى حتى سقط وامتنع من قراءة ما بعــده ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسـلم يقول " يوم يقوم الناس لرب العالمين فى يوم كان مقداره خمسين ألف سـنة فمنهم من يبلغ العَرَقُ كعبيه ومنهم من يبلغ ركبتيه ومنهـم من يبلغ حَقْوَيه ومنهم من يبلغ صـدره ومنهم من يبلغ أذنيه حتى إن أحدهم ليغيب فى رشحه كما يغيب الضِّفدع (١) " . وروى ناس عن ابن عبـاس قال : يقومون مقــدار ثلثمائة سـنة . قال : ويُهوَّن على المؤمنين قــدر صلاتهم الفريضة . وروى عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقومون ألف عام فى الظُّلَّة" . وروى مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسـلم قال : " يوم يقوم الناس لربّ العـالمين حتى إن أحدهم ليقوم فى رشحه إلى أنصاف أذنيــه " . وعنه أيضـا عن النبي صلى الله عليه وسلم : "يقوم مائة سنة" . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لبشير الغِفَارى : "كيف أنت صانع فى يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لربّ العالمين لا يأتيهم فيه خبر ولا يؤمر فيه بأمر" قال بشير : المستعان الله .

قلت : قد ذكرناه مرفوعا من حديث أبى سعيد الخُدْرى عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إنه لَيخفَّف عن المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا " فى «سأل سائل» (٢) . وعن ابن عبـاس : يُهوَّن على المؤمنين قَدْرَ صلاتهم الفريضة . وقيل : إن ذلك

(١) أى فى الماء .　　(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٢ .

المقام على المؤمن كزوال الشمس ؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » ثم وصفهم فقال : « الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » جعلنا الله منهم بفضله وكرمه وجوده ومنّه آمين . وقيل : المراد بالناس جبريل عليــه السلام يقوم لربّ العالمين ؛ قاله ابن جبير. وفيه بعد ؛ لمـا ذكرنا من الأخبار فى ذلك وهى صحيحة ثابتة ، وحسبك بمـا فى صحيح مسلم والبخارىّ والترمذىّ من حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » قال : " يقوم أحدهم فى رشحه إلى نصف أذنيه " ثم قيل : هــذا القيام يوم يقومون من قبورهم . وقيل : فى الآخرة بحقوق عباده فى الدنيا . وقال يزيد الرِّشْك : يقومون بين يديه للقضاء .

الرابعـــة ــ القيام لله ربّ العالمين سبحانه حقير بالإضافة إلى عظمته وحقّه ، فأما قيام الناس بعضهم لبعض فاختلف فيه الناس ؛ فمنهم من أجازه ومنهم من منعه . وقــد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قام إلى جعفر بن أبى طالب واعتنقه ، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تِيب عليه . وقول النبى صلى الله عليه وسـلم للأنصـار حين طلع عليه سـعد بن معاذ : "قوموا إلى سيّدكم" وقال أيضا : "من سَرَّه أن يَمثُل له الناسُ قياما فليتبوأ مقعدَه من النار" وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته ، فإن انتظر ذلك واعتقده لنفســه فهو ممنوع ، وإن كان على طريق البشاشــة والوصلة فإنه جائز ، وخاصة عند الأسباب كالقدوم من السفر ونحوه . وقد مضى فى آخر سورة « يوسف »(1) شىء من هذا .

قوله تعـالى : كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٦٥ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية : «كَلَّا» ردع وتنبيه؛ أى ليس الأمر على ما هم عليه من تطفيف الكيل والميزان، أو تكذيب بالآخرة فليرتدعوا عن ذلك. فهى كلمة ردع وزجر ثم آستأنف فقال : «إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ». وقال الحسن : «كَلَّا» بمعنى حَقًّا . وروى ناس عن آبن عباس «كَلَّا» قال : أَلَا تُصَدِّقون؛ فعلى هذا الوقف «لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» . وفى تفسير مقاتل : إن أعمال الفجار . وروى ناس عن آبن عباس قال : إن أرواح الفجار وأعمالهم «لَفِي سِجِّينٍ» . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد قال : سجين صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها . ونحوه عن آبن عباس وقتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب؛ قال كعب : تحتها أرواح الكفار تحت خد إبليس . وعن كعب أيضا قال : سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة مكتوب فيها آسم كل شيطان تلقى أنفس الكفار عندها . وقال سعيد بن جبير : سجين تحت خَدِّ إبليس . يحيى بن سلّام : حجر أسود تحت الأرض يكتب فيه أرواح الكفار . وقال عطاء الخراسانى : هى الأرض السابعة السفلى وفيها إبليس وذريته . وعن آبن عباس قال : إن الكافر يحضره الموت وتحضره رسل الله فلا يستطيعون لبغض الله له وبغضهم إياه أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجىء ساعته، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه ورفعوه إلى ملائكة العذاب، فأروه ما شاء الله أن يروه من الشر، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة، وهى سجين وهى آخر سلطان إبليس فأثبتوا فيها كتابه . وعن كعب الأحبار فى هذه الآية قال : إن روح الفاجر إذا قبضت يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها، ثم يهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها، فتدخل فى سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجّين وهو خَدّ إبليس، فيخرج لها من سجّين من تحت خد إبليس رَقٌّ فيُرْقَم فيوضع تحت خَدّ إبليس . وقال الحسن : سجّين فى الأرض السابعة . وقيل : هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التى ظنوا أنها تنفعهم . قال مجاهد : المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شىء . وقال :

سجّين صخرة فى الأرض السابعة . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "سجّين جُبٌّ فى جهنم وهو مفتوح" وقال فى الفلق : "إنه جُبٌّ مُغَطًّى" . وقال أنس : هى دركة فى الأرض السفلى . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : سجّين أسفل الأرض السابعة" . وقال عكرمة : "سجّين خسار وضلال ؛ كقولهم لمن سقط قدره : قد زلق بالحضيض . وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج : «لَفِي سِجِّينٍ» لفى حبس وضيق شديد فِعِّيل من السجن ؛ كما يقول : فِسِّيق وشِرِّيب ؛ قال ابن مقبل :

وَرُفْقَةٍ يَضْرِبُونَ البَيْضَ ضاحِيَةً * ضَرْبًا تَواصَتْ به الأَبْطالُ سِجِّينا (1)

والمعنى كتابهم فى حبس ؛ جعل ذلك دليلا على خساسة منزلتهم ، أو لأنه يَحُلّ من الإعراض عنه والإبعاد له مَحَلَّ الزجر والهوان . وقيل : أصله سجّيل فأبدلت اللام نونا . وقد تقدّم ذلك . وقال زيد بن أسلم : سجّين فى الأرض السافلة وسجّيل فى السماء الدنيا . القشيرى : سجين موضع فى السافلين يدفن فيه كتاب هؤلاء فلا يظهر بل يكون فى ذلك الموضع كالمسجون . وهذا دليل على خبث أعمالهم وتحقير الله إياها ؛ ولهذا قال فى كتاب الأبرار : «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» . ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أى ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك . ثم فسره له فقال : ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أى مكتوب كالرقم فى الثوب لا ينسى ولا يمحى . وقال قتادة : مرقوم أى مكتوبٌ رُقِم لهم بشر لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد . وقال الضحاك : مرقوم مختوم بلغة حمير؛ وأصل الرقم الكتابة ؛ قال :

سَأَرْقُمُ فى الماءِ القَراحِ إليكُمُ * على بُعْدِكُمْ إنْ كان لِلْماءِ راقِمُ

وليس فى قوله : «وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ» ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربيا كما لا يدل فى قوله : «الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ» بل هو تعظيم لأمر سجين . وقد مضى فى مقدّمة الكتاب (2) — والحمد لله — أنه ليس فى القرآن غير عربى . ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

(1) الذى فى التاج نقلا عن الجوهرى : * ورجلة يضربون الهام عن عرض *

(2) راجع جـ ١ ص ٦٨ .

أى شدة وعذاب يوم القيامة للمكذبين . ثم بين تعالى أمرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أى بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد . ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أى فاجر جائر عن الحق، معتدٍ على الخلق فى معاملته إياهم وعلى نفسه، وهو أثيم فى ترك أمر الله . وقيل : هذا فى الوليد بن المغيرة وأبى جهل ونظرائهما ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقراءة العامة « تتلى » بتاءين وقراءة أبى حيوة وأبى سماك وأشهب العقلى والسُّلمى « إِذَا يُتْلَى » بالياء . وأساطير الأولين أحاديثهم وأباطيلهم التى كتبوها وزخرفوها . واحدها أسطورة وإسطارة وقد تقدّم .

قوله تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « كَلَّا » ردع وزجر ؛ أى ليس هو أساطير الأوّلين . وقال الحسن : معناها حقّا « رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » . وقيل : فى الترمذىّ عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت فى قلبه نكتةٌ سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صُقِل قلبه فإن عاد زِيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو الران الذى ذكر الله فى كتابه « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكسِبونَ » " قال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا قال المفسرون : هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب . قال مجاهد : هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه حتى تغشى الذنوب قلبه . قال مجاهد : هى مثل الآية التى فى سورة البقرة « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » الآية . ونحوه عن الفراء ؛ قال : يقول كثرت المعاصى منهم والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرَّين عليها . وروى عن مجاهد أيضا قال : القلب مثل الكفّ ورفع كفّه ؛ فإذا أذنب العبد الذنب انقبض وضمّ إصبعه ؛ فإذا أذنب الذنب انقبض وضمّ

أخرى حتى ضَمَّ أصابعه كلها ، حتى يُطبَع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرَّين . ثم قرأ « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . ومثله عن حذيفة رضى الله عنه سواء . وقال بكر بن عبد الله : إن العبد إذ أذنب صار فى قلبه كوخزة الإبرة ، ثم صار إذا أذنب ثانيا صار كذلك ، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنْخل أو كالغِـرْبال لا يعى خيرا ولا يثبت فيه صلاح . وقد بينا فى «البقرة»(١) القول فى هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا معنى لإعادتها . وقد روى عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ٱبن جريج عن عطاء عن ٱبن عباس ، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ٱبن عباس شيئا الله أعلم بصحته ؛ قال : هو الرَّان الذى يكون على الفخذين والساق والقدم وهو الذى يلبس فى الحرب . قال : وقال آخرون الرّان الخاطر الذى يخطر بقلب الرجل وهذا مما لا يُضْمن عُهْـدةُ صحته . فالله أعلم . فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هـذا . وكذلك أهل اللغة عليه ؛ يقال : ران على قلبه ذَنْبُهُ يَرِين رَيْنًا ورُيونا أى غلب . قال أبو عبيدة فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غلب ؛ وقال أبو عبيد : كل ما غلبك فقد ران بك ورانك وران عليك ؛ وقال الشاعر :

وَكَمْ رانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبِ فاجِرٍ * فَتابَ مِنَ الذَّنْبِ الّذِى رانَ وٱنْجَلَى

ورانت الخمر على عقله أى غلبته ، وران عليه النعاس إذا غطاه ؛ ومنه قول عمر فى الأُسَيْفع — أُسَيْفع جُهَينة — : فأصبح قـد رِينَ به . أى غلبته الديون وكان يُدَان ؛ ومنه قول أبى زُبَيْد يصف رجلا شرب حتى غلبه الشراب سُكْرا فقال :

ثُمّ لَمّا رآه رانَتْ بِهِ الخَمْـ * ـرُ وأَلَّا تَرِينَـهُ بِٱتِّقَـاءِ

فقوله : رانت به الخمر، أى غلبت على عقله وقلبه . وقال الأموى : قد أَرَان القومُ فهم مُرِينون إذا هلكت مواشيهم وهُزِلت . وهذا من الأمر الذى أتاهم مما يغلبهم فلا يستطيعون ٱحتماله . قال أبو زيد يقال : قد رِينَ بالرجل رَيْنًا إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له

(١) راجع جـ ١ ص ١٨٨ فما بعدها .

به . وقال أبو معاذ النحوى : الرين أن يَسْوَدَّ القلبُ من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب ، وهذا أشد من الرّين(١) ، والإقفال أشد من الطبع . الزجاج : الرين هو كالصدإ يغشى القلب كالغيم الرقيق ومثله الغين ، يقال: غِين على قلبه غطى . والغين شجر ملتف الواحدة غيناء أى خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان . وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب . وذكر الثعلبي عن ابن عباس : « رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى غطى عليها . وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله . وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وأبو بكر والمفضل « رانَ » بالإمالة ؛ لأن فاء الفعل الراء وعينه الألف منقلبة من ياء فحسنت الإمالة لذلك . ومن فتح فعلى الأصل ؛ لأن باب فاء الفعل فى فَعَل الفتح مثل كال وباع ونحوه . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ووقف حفص « بل » ثم يبتدئ « ران » وقفا يبين اللام لا للسكت .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ ﴾ أى حقا « إنهم » يعنى الكفار ﴿ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ . وقيل: « كَلَّا » ردع وزجر أى ليس كما يقولون بل « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » . قال الزجاج: فى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرَى فى القيامة ، ولولا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة ولا خَسَّت منزلةُ الكفار بأنهم يُحْجَبون . وقال جل ثناؤه : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه . وقال مالك بن أنس فى هذه الآية : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقال الشافعى : لما حجب قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه فى المعاد لما عبده فى الدنيا . وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم فى الدنيا عن نور توحيده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . وقال مجاهد فى قوله تعالى « لَمَحْجُوبُونَ » : أى عن كرامته ورحمته ممنوعون . وقال قتادة : هو أن الله لاينظر إليهم برحمته ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وعلى الأول الجمهور وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه . ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ أى

(١) فى اللسان : هو الختم ؛ أى الطبع على القلب هو الختم كما فى « اللسان » مادة « رين » .

ملازموها ومحترقون فيها غير خارجين منها . « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » و « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » . ويقال : الجحيم البـاب الرابع من النار . ﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ لهم أى تقول لهم خزنة جهنم ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ رسل الله فى الدنيا .

قوله تعالى : كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ « كَلَّا » بمعنى حقًّـا والوقف على « تُكَذِّبُونَ » . وقيل : أى ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا بل كتابهـم فى سجّين وكتاب المؤمنين فى عِلّيين . وقال مقاتل : كلّا أى لا يؤمنون بالعذاب الذى يَصْلَونه . ثم ٱستأنف فقال : « إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ » مرفوع فى علّيين على قدر مرتبتهم . قال ٱبن عبـاس : أى فى الجنة . وعنه أيضا قال : أعمالهم فى كتاب الله فى السماء . وقال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وروى ٱبن الأجلح عن الضحاك قال : هى سِدْرة المنتهى ينتهى إليها كل شىء من أمر الله لا يعدوها ، فيقولون : رَبِّ ! عبدَك فلان ، وهو أعلم به منهم، فيأتيه كتاب من الله عز وجل مختوم بأمانه من العذاب . فذلك قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ » . وعن كعب الأحبار قال : إن روح المؤمن إذا قبضت صعد بها إلى السماء ، وفتحت لها أبواب السماء ، وتلقتها الملائكة بالبشرى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش ، فيخرج لهم من تحت العرش رَقٌّ فَيُرْقَم ويُخْتَم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة ويشهده المقربون . وقال قتادة أيضـا : « فِى عِلِّيِّينَ » هى فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى . وقال البَرَاء بن عازب قال النبى صلى الله عليه وسلم : " عِلّيون فى السماء السابعة تحت العرش ". وعن ٱبن عباس أيضا : هو لوح من زبرجدة خضراء معلّق بالعرش أعمالهم مكتوبة فيه . وقال الفراء : عِلّيون ٱرتفاع بعد ٱرتفاع . وقيل : عِلّيون أعلى الأمكنة . وقيل : معناه علو فى علو مضاعف كأنه لا غاية له ؛ ولذلك جمع بالواو والنون .

وهو معنى قول الطبرى . قال الفــراء : هو آسم موضوع على صــفة الجمع ولا واحد له من لفظه ؛ كقولك : عشرون وثلاثون والعــرب إذا جمعت جمعا ولم يكن له بنــاء من واحده ولا تثنية قالوا فى المذكر والمؤنث بالنون . وهو معنى قول الطبرى . وقال الزجاج : إعراب هذا الآسم كإعراب الجمع كما تقول هذه قِنَّسرون و رأيت قِنَّسرين . وقال يونس النحوى : واحدها عِلِّىّ وعِلِّيَة . وقال أبو الفتح : عِلِّيين جمع عِلِّىّ وهو فِعِّيل من العُلُوّ . وكان سبيله أن يقول عِلِّيَّــة كما قالوا للغرفة عِلِّيَة ؛ لأنهــا من العلو ، فلمــا حذفت التاء من عِلِّيَة عوضوا منهــا الجمع بالواو والنون كما قالوا فى أرضين . وقيــل : إن عِلِّيين صفة للملائكة فإنهم الملأ الأعلى ؛ كما يقال : فلان فى بنى فلان ؛ أى هو فى جملتهم وعنــدهم . والذى فى الخــبر من حديث آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل عِلِّيين لينظرون إلى الجنة من كذا فإذا أشرف رجل من أهــل عِلِّيين أشرقت الجنة لضياء وجهه فيقولون ما هذا النور فيقال أشرف رجل من أهل عِلِّيين الأبرار أهل الطاعة والصدق " . وفى خبر آخر : " إن أهل الجنــة ليرون أهل عِلِّيين كما يُرَى الكوكب الدُّرىّ فى أفق السماء " يدل على أن عِلِّيين آسم الموضع المرتفع . وروى ناس عن آبن عباس فى قوله « عِلِّيِّينَ » قال : أخبر أن أعمالهم وأرواحهم فى السماء الرابعة . ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ أى ما الذى أعلمك يا محمــد أىّ شىء عِلِّيون على جهة التفخيم والتعظيم له فى المنزلة الرفيعة . ثم فسره له فقــال : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ . وقيل : إن « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » ليس تفسيرا لعِلِّيين بل تمّ الكلام عند قوله « عِلِّيون » ثم آبتــدأ وقال : « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » أى كتاب الأبرار كتاب مرقوم ؛ ولهــذا عكس الرقم فى كتاب الفجار ؛ قاله القشيرى . وروى : أن الملائكة تصــعد بعمل العبد ، فإذا آنتهوا به إلى ما شاء الله من ســلطانه أوحى إليهم : إنكم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على ما فى قلبه ، وأنه أخلص لى عمله فاجعلوه فى عِلِّيين فقد غفرت له ، وأنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فإذا آنتهوا به إلى ماشــاء الله أوحى إليهم : أنتم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على مافى قلبه وأنه لم يخلص لى عمله ، فاجعلوه فى سِجِّين .

قوله تعالى : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى يشهد عمل الأبرار مقربو كلّ سماء من الملائكة . وقال وهب وآبن إسحق : المقربون هنا إسرافيل عليـه السلام ، فإذا عمل المؤمن عمـل البر صـعدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ فى السموات كنور الشمس فى الأرض حتى ينتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها و يكتب فهو قوله : «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» أى يشهد كتابتهم .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ أى أهل الصدق والطاعة . ﴿ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ أى نَعْمة والنَّعمة بالفتح التنعيم ؛ يقـال : نعّمه الله وناعمه فتنعّم وآمرأة منعّمة ومناعمة بمعنى . أى إن الأبرار فى الجنات يتنعّمون . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهى الأسرة فى الحِجَال ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أى إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات ؛ قاله عكرمة وآبن عبـاس ومجاهد . وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل النار . وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ينظرون إلى أعدائهم فى النار " ذكره المهدوى . وقيل : على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله .

قوله تعـالى : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى بهجته وغضارته ونوره ؛ يقال : أنضر النباتُ إذا آزهرّ ونوّر . وقراءة العامة « تَعْرِفُ » بفتح التـاء وكسر الراء « نَضْرَةَ » نصـبا ؛ أى تعرف يا محمد . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع و يعقوب وشيبة وآبن أبى إسحق : « تُعْرَفُ » بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول « نَضْرَةُ » رفعا . ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ ﴾ أى من شراب لا غش فيـه . قاله الأخفش والزجاج . وقيل : الرحيق الخمـر الصافية . وفى الصحاح : الرحيق صفوة الخمر . والمعنى واحد . الخليل : أقصى[1] الخمر وأجودها . وقال مقاتل وغيره : هى الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة ؛ قال حسان :

(١) كذا فى الأصول كلها ولعل الصواب : أصفى الخمر .

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ * بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ (١)

وقال آخر (٢) :

أَمْ لا سَبِيلَ إلى الشَّبَابِ وذِكْرُه * أَشْهى إلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

﴿ مَخْتُومٌ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال مجاهد : يختم به آخر جرعة . وقيل : المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما في الكأس آنختم ذلك بخاتم المسك . وكان آبن مسعود يقول : يجدون عاقبتها طعم المسك . ونحوه عن سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي قالا : ختامه آخر طعمه . وهو حسن؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكدر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك . وعن مسروق عن عبد الله قال : المختوم الممزوج . وقيل : مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماسٌّ إلى أن يفكّ ختامَها الأبرارُ . وقرأ عليّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي « خَاتَمُه » بفتح الخاء والتاء وألف بينهما . قال علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار آجعل خاتمه مسكا تريد آخره . والخاتم والخِتام متقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الاسم والخِتام المصدر؛ قاله الفراء . وفي الصحاح : والخِتام الطين الذي يختم به . وكذا قال مجاهد وآبن زيد : خُتم إناؤه بالمسك بدلا من الطين . حكاه المهدوي . وقال الفرزدق :

* وبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الخِتَامِ (٣) *

وقال الأعشى :

* وَأَبْرَزَها وعَلَيْها خَتَمْ (٤) *

أي عليها طينة مختومة؛ مثل نَفَض بمعنى مَنْفوض وقَبَض بمعنى مَقبوض . وذكر آبن المبارك وآبن وهب واللفظ لآبن وهب عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى « خِتَامُهُ مِسْكٌ » خَلْطُه ليس بخاتم يختم؛ ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم : إن خَلْطه من الطِّيب كذا وكذا

(١) تقدم شرح البيت بهامش ص ١٤١ من هذا الجزء . (٢) هو أبو كبير الهذلي .
(٣) صدر البيت : * فبتن جنابتي مصرعات *
(٤) صدره : * وصهباء طاف يهوديها *

إنما خلطه مسك؛ قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر أشربتهم، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو رُوح إلا وجد ريح طيبها . وروى أُبيّ بن كعب قال : قيل يارسول الله ما الرحيق المختوم ؟ قال : " غُدْران الخمر " . وقيل : مختوم فى الآنية وهو غير الذى يجرى فى الأنهار . فالله أعلم . ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ ﴾ أى وفى الذى وصفناه من أمر الجنة ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أى فليرغب الراغبون ؛ يقال : نَفِستُ عليه الشىء أَنْفَسه نَفاسةً أى ضَنِنت به ولم أُحبّ أن يصير إليه . وقيل : الفاء بمعنى إلَى أى وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل؛ نظيره : «لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ» . ﴿ وَمِزَاجُهُ ﴾ أى ومزاج ذلك الرحيق ﴿ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ وهو شراب ينصبّ عليهم من علو وهو أشرف شراب فى الجنة . وأصل التَّسْنيم فى اللغة الآرتفاع، فهى عين ماء تجرى من علو إلى أسفل؛ ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور . وروى عن عبد الله قال : تسنيمٌ عينٌ فى الجنة يشرب بها المقربون صرفا، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين فتطيب . وقال آبن عباس فى قوله عز وجل : « وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ » قال : هذا مما قال الله تعالى « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقيل : التسنيم عين تجرى فى الهواء بقدرة الله تعالى فتنصبّ فى أوانى أهل الجنة على قدر ملئها، فإذا آمتلأت أمسك الماء فلا تقع منه قطرة على الأرض ولا يحتاجون إلى الآستقاء؛ قاله قتادة . آبن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش . وكذا فى مراسيل الحسن . وقد ذكرناه فى سورة « الإنسان »(١) . ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى يشرب منها أهل جنة عدن وهم أفاضل أهل الجنة صرفا، وهى لغيرهم مزاج . و « عَيْنًا » نصب على المدح . وقال الزجاج : نصب على الحال من تسنيم، وتسنيم معرفة ليس يعرف له آشتقاق، وإن جعلته مصدرا مشتقا من السنام فـ«عينًا» نصب؛ لأنه مفعول به؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا » وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم . وعند الأخفش بـ« يُسْقَوْنَ » أى يسقون عينا أو من عين . وعند المبرد بإضمار أعنى على المدح .

(١) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ وصف أرواح الكفار فى الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك . روى ناس عن آبن عباس قال : هو الوليد بن المغيرة وعقبة بن أبى مُعَيْط والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والعاص آبن هشام وأبو جهل والنضر بن الحرث وأولئك ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل عَمّار وَخَبّاب وصُهَيب وبلال ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ على وجه السخرية ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ ﴾ عند إتيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم . وقيل : أى يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به ؛ يقال : غمزت الشيء بيدى ؛ قال :

وكُنْتُ إذا غَمَزْتُ قَناةَ قَوْمٍ * كَسَرْتُ كُعُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمَا

وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد غمزنى فقبضت رجلى . الحديث ؛ وقد مضى فى « النساء »(١) . وغمزته بعينى . وقيل : الغمز بمعنى العيب يقال غمزه أى عابه ؛ وما فى فلان غمزة أى عيب . وقال مقاتل : نزلت فى علىّ بن أبى طالب جاء فى نفر من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلمزهم المنافقون وضحكوا عليهم وتغامزوا . ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا ﴾ أى آنصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذويهم ﴿ آنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ أى معجبين منهم . وقيل : معجبون بما هم عليه من الكفر متفكهون بذكر المؤمنين . وقرأ آبن القعقاع وحفص والأعرج والسُّلَمىّ : « فَكِهِينَ » بغير ألف . الباقون بألف . قال الفراء : هما لغتان مثل

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٢٦ فا بعدها .

طَمِعٌ وطامِعٌ وحَذِرٌ وحاذِرٌ وقد تقدم فى سورة « الدخان»(١) والحمد لله . وقيل : الفكِهُ الأشِر البطر والفاكه الناعم المتنعم . ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أى إذا رأى هؤلاء الكفار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ فى آتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ لأعمالهم موكلين بأحوالهم رقباء عليهم ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ يعنى هـذا اليوم الذى هو يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا . نظيره فى آخر سورة « المؤمنين »(٢) وقد تقدم . وذكر آبن المبارك : أخبرنا محمـد بن بشار عن قتادة فى قوله تعالى « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » قال : ذكر لنـا أن كعبا كان يقول إن بين الجنـة والنار كُوًى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا آطلع من بعض الكُوَى ؛ قال الله تعـالى فى آية أخرى : « فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ » قال : ذكر لنـا أنه آطلع فرأى جماجم القوم تغلى . وذكر آبن المبارك أيضا : أخبرنا الكلبىّ عن أبى صالح فى قوله تعالى « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » قال : يقال لأهل النار وهم فى النار آخرجوا فتفتح لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قـد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا آنتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ؛ فذلك قوله : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » ويضحك منهم المؤمنون حين غلقت دونهم فذلك قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وقد مضى هـذا فى أول سورة « البقرة »(٣) . ومعنى « هَلْ ثُوِّبَ » أى هل جوزى بسخريتهم فى الدنيا بالمؤمنين إذا فعل بهم ذلك . وقيل : إنه متعلق بـ « يَنْظُرُونَ » أى ينظرون هل جوزى الكفار فيكون معنى هل [التقرير] وموضعها نصبا بـ « يَنْظُرُونَ » . وقيل : آستئناف لا موضع له من الإعراب . وقيل : هو إضمار على القول ، والمعنى ؛ يقول بعض المؤمنين لبعض « هَـلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ » أى أثيب وجوزى . وهو من ثاب يثوب أى رجع ؛ فالثواب ما يرجع على العبـد فى مقابلة عمله ويستعمل فى الخير والشر . ختمت السورة والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٣٩ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٥ . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٠٨ .

سورة الانشقاق

مكية فى قول الجميع وهى خمس وعشرون آية

قوله تعالى : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ أى ٱنصدعت وتفطّرت بالغمام والغمام مثل السحاب الأبيض . وكذا روى أبو صالح عن ٱبن عباس . وروى عن علىّ عليه السلام قال : تشقّ من المجرة . وقال : المجرة باب السماء . وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أى سمعت وحُقّ لها أن تسمع . روى معناه عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " ما أذن الله لشىء كإذنه لنبىّ يتغنى بالقرآن " أى ما ٱستمع الله لشىء ؛ قال الشاعر :

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ * وإنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنوا

أى سمعوا . وقال قَعْنَب بن أمّ صاحب :

إنْ يَأْذَنُوا رِيبَةً طاروا بها فَرَحًا * وما هُمُ أَذِنُوا منْ صالحٍ دَفَنُوا

وقيل : المعنى وحقق الله عليها الٱستماع لأمره بالٱنشقاق . وقال الضحاك : حُقّت أطاعت وحُقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ؛ يقال : فلان محقوق بكذا . وطاعة السماء بمعنى أنها لاتمتنع مما أراد الله بها . ولايبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيب . وقال قتادة : حُقّ لها أن تفعل ذلك ؛ ومنه قول كُثَيِّر :

فإنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَهْلًا وَمَرْحَبًا * وَحَقَّتْ لَهَا الْعُتْبَى لَدَيْنَا وَقَلَّتِ

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى بسطت ودكت جبالها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تمد مد الأديم " لأن الأديم إذا مد زال كل آنثناء فيه وآمتد وآستوى . وقال آبن عباس وآبن مسعود : ويزاد فى سعتها كذا وكذا ؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه لكثرة الخلائق فيها . وقد مضى فى سورة «إبراهيم»(١) أن الأرض تبدل بأرض أخرى وهى الساهرة فى قول آبن عباس على ماتقدم عنه. ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى أخرجت أمواتها وتخلت عنهم . وقال آبن جبير : ألقت ما فى بطنها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء . وقيل : ألقت ما فى بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت منها . أى خلا جوفها فليس فى بطنها شىء وذلك يؤذن بعظم الأمر كما تلقى الحامل ما فى بطنها عند الشدة . وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها . وقيل : ألقت ما آستودعت وتخلت مما آستحفظت ؛ لأن الله تعالى آستودعها عباده أحياء وأمواتا ، وآستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى فى إلقاء موتاها ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أى وحق لها أن تسمع أمره . وآختلف فى جواب «إذا» فقال الفراء : « أَذِنَتْ » والواو زائدة ، وكذلك «وَأَلْقَتْ» . آبن الأنبارى : قال بعض المفسرين جواب « إِذَا السَّمَاءُ آنْشَقَّتْ » « أَذِنَتْ » وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط ؛ لأن العرب لاتقحم الواو إلا مع «حتى — إذا» كقوله تعالى : «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» ومع «لَمَّا» كقوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » معناه «نَادَيْنَاهُ» والواو لاتقحم مع غير هذين. وقيل : الجواب فاء مضمرة كأنه قال : « إِذَا السَّمَاءُ آنْشَقَّتْ » فيأيها الإنسان إنك كادح . وقيل : جوابها مادل عليه «فَمُلَاقِيهِ» أى إذا السماء آنشقت لاقى الإنسان كدحه . وقيل : فيه تقديم وتأخير، أى « يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ » « إِذَا السَّمَاءُ آنْشَقَّتْ » قاله المبرد . وعنه أيضا : الجواب « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » وهو قول الكسائى ؛ أى إذا السماء آنشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٨٣ .

ما قيل فيه وأحسنه . وقيل : هو بمعنى آذكر « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » . وقيل : الجواب محذوف لعلم المخاطبين به ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء علم المكذبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم . وقيل : تقدّم منهم سؤال عن وقت القيامة ، فقيل لهم : إذا ظهرت أشراطها كانت القيامة فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها . والقرآن كالآية الواحدة فى دلالة البعض على البعض. وعن الحسن : إن قوله « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » قسم . والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ المراد بالإنسان الجنس أى يآبن آدم . وكذا روى سعيد عن قتادة : يآبن آدم إن كدحك لضعيف فمن آستطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ولا قوّة إلا بالله . وقيل : هو معيّن ؛ قال مقاتل : يعنى الأسود بن عبد الأسد . ويقال : يعنى أبىّ بن خلف . ويقال : يعنى جميع الكفار ؛ يعنى يأيها الكافر إنك كادح . والكدح فى كلام العرب العمل والكسب ؛ قال آبن مقبل :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا * أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِى الْعَيْشَ أَكْدَحُ

وقال آخر :

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كُلِّ عَيْشٍ صالِحٍ * وبَقِيتُ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ

أى أعمل . وروى الضحاك عن آبن عباس : « إِنَّكَ كَادِحٌ » أى راجع « إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا » أى رجوعا لا محالة « فَمُلَاقِيهِ » أى ملاقٍ ربك . وقيل : ملاقٍ عملك . القتبى : « إِنَّكَ كَادِحٌ » أى عامل ناصب فى معيشتك إلى لقاء ربك . والملاقاة بمعنى اللقاء أى تلق ربك بعملك . وقيل : أى تلاقى كتاب عملك ؛ لأن العمل قد آنقضى ولهذا قال : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وهو المؤمن ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ لا مناقشة فيه . كذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حوسب يوم القيامة عُذِّب" قالت : فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا» فقال : "ليس ذاك الحساب إنما ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب" أخرجه البخارى ومسلم والترمذى . وقال حديث حسن صحيح . ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أزواجه فى الجنة من الحور العين « مَسْرُوراً » أى مغتبطا قرير العين . ويقال: إنها نزلت فى أبى سلمة ابن عبد الأسد وهو أول من هاجر من مكة إلى المدينة . وقيل : إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا ليخبرهم بخلاصه وسلامته . والأول قول قتادة . أى إلى أهله الذين قد أعدّهم الله له فى الجنة .

قوله تعالى : وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ نزلت فى الأسود بن عبد الأسد أخى أبى سلمة ؛ قاله ابن عباس . ثم هى عامة فى كل مؤمن وكافر . قال ابن عباس : يمدّ يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه مَلَك فيخلع يمينه ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره . وقال قتادة ومقاتل : يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخُلُ يدُه وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك . ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴾ أى بالهلاك فيقول : يا ويلاه يا ثبوراه . ﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ أى ويدخل النار حتى يصلى بحرّها . وقرأ الحرميان وابن عامر والكسائى « وَيُصَلَّى » بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ؛ كقوله تعالى : « ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ » وقوله : « وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ » . الباقون « وَيَصْلَى » بفتح الياء مخففا فعل لازم غير متعد؛ لقوله : « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ » . وقوله : « يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى » وقوله : « ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ » . وقراءة ثالثة رواها أبان

عن عاصم وخارجةُ عن نافع و إسمعيل المكى عن آبن كثير « وَيُصَلَّى » بضم الياء و إسكان الصاد وفتح اللام مخففا ؛ كما قرئ « وَسَيُصْلَوْنَ » بضم الياء ، وكذلك فى « الغاشية » قد قرئ أيضا : « تُصْلَى نَارًا » وهما لغتان صَلَى وأصلى ؛ كقوله : « نَزَلَ . وَأَنْزَلَ » . ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ ﴾ أى فى الدنيا ﴿ مَسْرُورًا ﴾ قال آبن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة فى الدنيا فأعقبهم به النعيم والسرور فى الآخرة ، وقرأ قول الله تعالى : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » قال : ووصف أهل النار بالسرور فى الدنيا والضحك فيها والتفكه فقال : « إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ مَسْرُورًا » . ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ أى لن يرجع حيا مبعوثا فيحاسب ثم يثاب أو يعاقب . يقال : حار يحور إذا رجع ؛ قال لبيد :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ * يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

وقال عكرمة وداود بن أبى هند: يَحُور كلمة بالحبشية ومعناها يرجع . ويجوز أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة آشتقاق ؛ ومنه الخبز الحُوّارى؛ لأنه يرجع إلى البياض . وقال آبن عباس : ما كنت أدرى ما يَحُور حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها حُورِى حورى أى آرجعى إلىّ ، فالحَوْر فى كلام العرب الرجوع ؛ ومنه قوله عليه السلام : " اللهم إنى أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر" يعنى من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة . وكذلك الحُوْر بالضم . وفى المثل « حَوْرٌ فى مَحَارة » أى نقصان فى نقصان يضرب الرجل إذا كان أمره يُدبِر ؛ قال الشاعر[1] :

وَآسْتَعْجَلُوا عن خَفِيفِ الْمَضْغِ فَآزْدَرَدُوا * وَالذَّمُّ يَبْقَى وَزَادُ الْقَوْمِ فِى حُورِ

والحُور أيضا الآسم من قولك : طحنت الطاحنةُ فما أحارت شيئا ؛ أى ما ردّت شيئا من الدقيق . والحُور أيضا الهَلَكة ؛ قال الراجز[2] :

* فى بِئرِ لاَ حُورٍ سَرَى ولاَ شَعَرْ *

---

(١) قائله سبيع بن الخطيم ؛ يريد الأكل يذهب والذم يبق .

(٢) هو العجاج .

قال أبو عبيدة : أى بئر حُورٍ ، و « لا » زائدة . وروى " بَعْـد الْكَوْن[1] " ومعناه من آنتشار الأمر بعد تمـامه . وسُئل معْمَر عن الحوْر بعدَ الكَوْن فقال : هو الكُنْتِيّ . فقال له عبد الرزاق : وما الكُنْتِيّ ؟ فقـال : الرجل يكون صالحا ثم يتحـول رجل سـوء . قال أبو عمرو : يقال للرجل إذا شاخ كُنْتِيّ كانه نسب إلى قوله : كنتُ فى شبابى كذا . قال :

فأصبحتُ كُنْتِياً وأصبحتُ عاجِنًا * وشَرُّ خِصـالِ المرءِ كُنْتُ وعاجِنُ

عجن الرجل إذا نهض معتمدا على الأرض من الكِبر . وقال آبن الأعرابى : الكُنْتِيّ هو الذى يقول كنتُ شابا وكنتُ شجاعا ، والكانِيّ هو الذى يقول : كان لى مال وكنت أهب ، وكان لى خيل وكنت أركب .

قوله تعـالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى ليس الأمر كما ظنّ بل يحور إلينا ويرجع . ﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ قبل أن يخلقه عالمـا بأن مرجعه إليه . وقيل : بلى ليحورنّ وليرجعنّ . ثم آستأنف فقال : « إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِـيرًا » من يوم خلقه إلى أن بعثـه . وقيل : عالما بمـا سبق له من الشقاء والسعادة .

قوله تعـالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ أى فأقسم و « لا » صـلة . ﴿ بِٱلشَّفَقِ ﴾ أى بالحمرة التى تكون عند مغيب الشمس حتى تأتى صلاة العشاء الآخرة . قال أشهب وعبد الله بن الحكم ويحيى بن يحيى وغيرهم كثير عددهم عن مالك : الشَّفَق الحمـرة التى فى المغرب ، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجت من وقت المغرب ووجبت صلاة العشاء . وروى آبن وهب قال : أخبرنى غير واحد عن علىّ بن أبى طـالب ومعاذ بن جبل وعُبَـادة بن الصّامت وشـدّاد بن أَوْس

(١) الكون هنا : مصدر كان التامة يقال : كان يكون كونا أى وجد وآستقر . (النهايه) .

وأبي هريرة أن الشَّفَق الحُمْرة ، وبه قال مالك بن أنس . وذكر غيرُ ٱبن وهب من الصحابة عُمر وٱبن عُمر وٱبن مسعود وٱبن عباس وأنساً وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وٱبن الزبير ، ومن التابعين سعيد بن جبير وٱبن المسيّب وطاوس وعبد الله بن دينار والزهريّ ، وقال به من الفقهاء الأوزاعيّ ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد و إسحق . وقيل : هو البياض ؛ روى ذلك عن ٱبن عباس وأبي هريرة أيضا وعمر بن عبد العزيز والأوزاعيّ وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه . وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه . وروى عن ٱبن عمر أيضا أنه البياض والٱختيار الأوّل ؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه ؛ ولأن شواهد كلام العرب والٱشتقاق والسنة تشهد له . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ كأنه الشَّفَق وكان أحمر فهذا شاهد للحمرة ؛ وقال الشاعر :

* وأَحْمَر اللَّوْنِ كَمُحْمَرِّ الشَّفَقْ *

وقال آخر :

قُمْ يا غلامُ أَعِنِّي غيرَ مُرْتَبِكٍ * على الزَّمَانِ بِكأْسٍ حَشْوُها شَفَقُ

و يقال للمَغْرة الشَّفَق . وفي الصحاح : الشَّفَق بقية ضوء الشمس وحُمْرتها في أوّل الليل إلى قريب من العَتَمة . قال الخليل : الشَّفَق الحُمْرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب قيل غاب الشَّفَق . ثم قيل : أصل الكلمة من رقّة الشيء ؛ يقال : شيء شَفِق أي لا تماسك له لرِقّته . وأشفق عليه أي رَقَّ قلبه عليه ، والشَّفَقة الٱسم من الإشفاق وهو رِقّة القلب وكذلك الشَّفَق ؛ قال الشاعر (١) :

تَهْوَى حَيَاتِي وأَهْوَى مَوْتَها شَفَقًا * والمـوتُ أَكْرَمُ نَزَّالٍ على الحُـرَمِ

فالشَّفَق بقية ضوء الشمس وحُمْرتها فكأن تلك الرّقة من ضوء الشمس . وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلا . وقال الخليل : صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردّد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب . وقال ٱبن أبي أُوَيْس : رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر .

---

(١) هو إسحق بن خلف . وقيل هو لٱبن المعلى . اللسان .

قال علماؤنا : فلما لم يتحدد وقته سقط ٱعتباره. وفى سنن أبى داود عن النعمان بن بشير قال: أنا أعلمكم بوقت صـلاة العشاء الآخرة؛ كان النبى صلى الله عليـه وسلم يصليها لسقوط القمر لثالثـة . وهذا تحـديد ثم الحكم معلق بأوّل الٱسم . لا يقال : فينتقض عليكم بالفجر الأوّل فإنا نقول الفجر الأوّل لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم بيّن الفجر بقوله وفعـله فقال : "وليس الفجر أن تقول هكذا — فرفـع يده إلى فوق — ولكن الفجر أن تقول هكذا و بسطها" وقد مضى بيانه فى آية الصيام من سورة « البقرة »(١) فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد : الشفق النهار كله ألا تراه قال « وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » . وقال عكرمة : ما بقى من النهار. والشَّفَق أيضا الردىء من الأشياء؛ يقال : عطاء مُشَفَّق أى مُقَلَّل؛ قال الكُمَيْت :

مَلِكٌ أغَرُّ من المـلوك تَحَلَّبَتْ * للسّـائلين يَـدَاهُ غَـيرَ مُشَـفَّقِ

قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَـقَ ﴾ أى جمع وضم ولفّ وأصـله من سَوْرة السلطان وغضبـه ؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئـه، ولكن خرج من باب الرحمة فمزج بها فسكن الخلق إليـه ثم ٱنذعروا وٱلتفوا وٱنقبضوا ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هولِه وحشًا، وهو قوله تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيـه » أى بالليل « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى بالنهار على ما تقدم . فالليل يجمع ويضم ما كان منتشرا بالنهار فى تصرفه . هـذا معنى قول ٱبن عباس ومجـاهد ومقاتل وغيرهم ؛ قال ضابئ ٱبن الحرث البُرْجُمِىّ :

فإنِّى وإيَّاكُمْ وشَـوْقًا إلَيْـكُمُ * كَقابِضِ ماءٍ لم تَسِقْهُ أناملُهْ

يقـول : ليس فى يدى من ذلك شىء كما أنه ليس فى يد القابض على المـاء شىء ؛ فإذا جَلَّلَ الليـلُ الجبالَ والأشجارَ والبحارَ والأرضَ فٱجتمعت له فقـد وَسَقَها . والوَسْق ضمك الشىء

(١) راجع جـ ٢ ص ٣١٨ فما بعدها .

بعضه إلى بعض، تقول : وَسَقْته أَسِقُه وَسْقا . ومنه قيل : للطعام الكثير المجتمع وَسْق وهو ستون صاعا . وطعام موسوق أى مجموع، وإبلٌ مستوسقة أى مجتمعة ؛ قال الراجز (١) :

إن لنـا قَلائِصـا حَقائِقـا * مُسْتَوسقاتٍ لو تَجِدْنَ سائِقَا

وقال عِكرمة : « وَمَا وَسَـقَ » أى وما سـاق من شيء إلى حيث يأوى ؛ فالوسـقُ بمعنى الطرد ؛ ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر وسيقة ؛ قال الشاعر (٢) :

* كما قافَ آثارَ الوَسِيقَةِ قائِفُ *

وعن ٱبن عباس : « وَمَا وَسَقَ » أى وما جَنّ وستر . وعنه أيضا : وما حمل وكل شيء حملته فقد وَسَقْته ؛ والعرب تقول : لا أفعله ما وَسَقَت عيني المـاء ؛ أى حملته . ووَسَقَت الناقةُ تَسِقُ وَسْـقا أى حملت وأغلقت رَحِمها على المـاء، فهى ناقة واسق ونُوق وِساق مثـل نائم ونِيام وصاحِب وصِحاب؛ قال بشر بن أبي خازم :

أَلَظَّ بِهِنّ يَحْدوهُنّ حتى * تَبيَّنَتِ الحِيـالُ مِنَ الوِساقِ

ومواسـيق أيضا . وأوسقت البعير حملته حمـله وأوسقتِ النخلةُ كثر حَمْلها . وقال يمـان والضحاك ومقاتل بن سليمان : حَمَلَ من الظلمة . قال مقاتل : أو حمل من الكواكب . القشيرى ومعنى حَمَـلَ ضمَّ و جمع والليل يجلِّل بظلمته كل شيء فإذا جَلَّلها فقد وَسَقها . و يكون هـذا القَسَم قَسَما بجميع المخلوقات ؛ لاشتمال الليل عليها ؛ كقوله تعـالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَـا تُبْصِرُونَ وَمَالَا تُبْصِرُونَ » . وقال ٱبن جبير : « وَمَا وَسَقَ » أى وما عمل فيه يعنى التهجد والاستغفار بالأسحار ؛ قال الشاعر :

ويَوْمًا تَرانا صـالحِين وتَارَةً * تَقُومُ بِنا كالواسِق المُتَلَبِّبِ

أى كالعامل .

---

(١) هو العجاج كما فى اللسان مادة « وسق » .

(٢) قائله الأسود بن يعفر، وصدره : * كذبت عليك لا تزال تقوفنى *

قوله تعـالى : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ أى تم وآجتمع وآسـتوى . قال الحسن : آتسق أى آمتلأ وآجتمع . آبن عباس : آستوى . قتادة : آسـتدار . الفراء : آتساقـه آمتلاؤه وآستواؤه ليالي البدر وهو آفتعال من الوسق الذى هو الجمع ؛ يقال: وسقته فآتسق ، كما يقال: وصلته فآتصل ، ويقال : أمر فلان مُتَّسِق أى مجتمع على الصلاح منتظم . ويقال : آتسق الشيء إذا تتابع . ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قرأ أبو عمرو وآبن مسعود وآبن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخعي والشعبي وآبن كثير وحمزة والكسائى « لَتَرْكَبَنَّ » بفتح البـاء خطابا للنبي صلى الله عليه وسـلم أى لتركبَنّ يا محمد حالا بعـد حال ؛ قاله آبن عباس . الشعبي : لتركبَنّ يا محمد سماء بعد سماء ، ودرجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة فى القربة من الله تعالى . آبن مسعود : لتركبَنّ السماء حالا بعد حال ؛ يعني حالاتها التي وصفها الله تعـالى بها من الآنشقاق والطيّ وكونها مرة كالمُهْل ومرة كالدِّهان . وعن إبراهيم عن عبد الله : « طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : السماء تقلب حالا بعد حال . قال : تكون وردة كالدِّهان وتكون كالمُهْل . وقيل : أى لتركبُنّ أيها الإنسان حالا بعـد حال من كونك نطفة ثم علقـة ثم مضغة ثم حيًّا وميتا وغنيا وفقيرا . فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله : « يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ » وهو آسم للجنس ومعناه الناس . وقرأ الباقون « لَتَرْكَبُنَّ » بضم الباء خطابا للناس وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ لمـا ذكر قبل هـذه الآية فمن يؤتَى كتابه بيمينه ومن يؤتَى كتابه بشماله . أى لتركبُنّ حالا بعـد حال من شدائد القيامة ، أو لتركبُنّ سنة من كان قبلكم فى التكذيب وآختلاق على الأنبياء .

قلت : وكله مراد وقد جاءت بذلك أحاديث [(١)] ؛ فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن علي عن جابر رضى الله عنـه ، قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " إن آبن آدم لفي غفلة عمـا خلقه الله عز وجل إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك آكتب رزقـه وأثره وأجله وآكتبه شـقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٤ .

آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاءه الموت ٱرتفع ذانك الملكان ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفرته ردّ الروح في جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة ٱنحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد " ثم قال الله عز وجل « لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : " حالا بعد حال " ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن قدامكم أمرا عظيما فٱستعينوا بالله العظيم " فقد ٱشتمل هذا الحديث على أحوال تعتري الإنسان من حين يخلق إلى حين يبعث ، وكله شدّة بعد شدة ، حياة ثم موت ، ثم بعث ثم جزاء ، وفي كل حال من هذه شدائد . وقال صلى الله عليه وسلم : " لتركبنّ[1] سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه" قالوا : يارسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : " فمن " ؟ خرجه البخاري . وأما أقوال المفسرين ؛ فقال عكرمة : حالا بعد حال؛ فطيما بعد رضيع وشيخا بعد شباب ؛ قال الشاعر :

كَذلِكَ الْمَرْءُ إِنْ يُنْسَأْ لَهُ أَجَلٌ * يَرْكَبْ على طَبَقٍ مِنْ بَعْدِهِ طَبَقُ

وعن مكحول : كل عشرين عاما تجدون أمرا لم تكونوا عليه . وقال الحسن : أمرا بعد أمر؛ رخاءً بعد شدّة ، وشدّة بعد رخاء ، وغنًى بعد فقر ، وفقرا بعد غنًى ، وصحة بعد سقم ، وسقما بعد صحة . سعيد بن جبير : منزلة بعد منزلة ؛ قوم كانوا في الدنيا متّضعين فٱرتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة . وقيل : منزلة عن منزلة وطبقا عن طبق[2] ؛ وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه ، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه ؛ لأن كل شيء يجر إلى شكله . ٱبن زيد : ولتصيرنّ من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة . وقال ٱبن عباس : الشدائد والأهوال الموت ثم البعث ثم العرض؛

(١) رواية البخاري " لتتبعن " بدل " لتركبن " . (٢) في نسخة : طبقة .

والعرب تقول لمن وقع فى أمر شـديد : وقع فى بنات طبق و إحدى بنات طبق ؛ ومنـه قيل للداهيــة الشديدة : أم طبق وإحدى بنات طبق . وأصـلها من الحيات ؛ إذ يقال للحية أم طبق لتحوّيها . والطبق فى اللغة الحال كما وصفنا ؛ قال الأقرع بن حابس التميمى :

إِنِّى ٱمْرُؤٌ قد حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ * وساقَــنِى طَبَقٌ مِنْـــهُ إلَى طَبَــقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم و إثبات الصانع ؛ قالت الحكماء : من كان اليوم على حالة وغدا على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه . وقيل لأبى بكر الوراق : ما الدليل على أن لهذا العـالم صانعا ؟ فقال : تحـويل الحالات ، وعجز القوة ، وضعف الأركان ، وقهر المنية ، ونسخ العزيمة . و يقال : أتانا طبقٌ من الناس وطبق من الجراد أى جماعة . وقول العباس فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

تُنْقَــلُ مِنْ صَالَبٍ إلَى رَحِمٍ * إذا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَــقُ

أى قرن من الناس . يكون طباق الأرض أى ملأها . والطبق أيضا عظم رقيق يفصل بين الفَقَارين . ويقال : مضى طبق من الليـل وطبق من النهار أى معظم منه . والطبق واحد الأطباق فهو مشترك . وقرئ « لَتَرْكَبِنَّ » بكسر البـاء على خطاب النفس و « لَيَرْكَبَنَّ » بالياء على ليركبن الإنسان . و « عن طبقٍ » فى محل نصب على أنه صفة لـ« طبقا » أى طبقا مجاوزا لطبق . أو حال من الضمير فى « لَتَرْكَبُنَّ » أى لتركبن طبقا مجاوِزين لطبق أو مجاوِزا أو مجا زة على حسب القراءة .

قوله تعالى : ﴿ فَمَـا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يعنى أى شيء يمنعهم من الإيمان بعـد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات . وهذا آستفهام إنكار . وقيـل : تعجيب أى آعجبوا منهـم فى ترك الإيمان مع هذه الآيات .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أى لا يصلون . وفى الصحيح : إن أبا هريرة قرأ « إِذَا السَّمَاءُ آنْشَقَّتْ » فسجد فيها فلما آنصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها . وقد قال مالك : إنها ليست مـن عزائم السجود ؛ لأن المعنى

لا يدعنون ولا يطيعون فى العمل بواجباته . ابن العربى : والصحيح أنها منه وهى رواية المدنيين عنه وقد اعتضد فيها القرآن والسنة . قال ابن العربى : لما أممت بالناس تركت قراءتها ؛ لأنى إن سجدت أنكروه وإن تركتها كان تقصيرا منى فاجتنبتها إلا إذا صليت وحدى . وهذا تحقيق وعد الصادق بأن يكون المعروف منكرا والمنكر معروفا ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : "لولا حدثان قومك بالكفر لهدمت البيت ولرددته على قواعد إبراهيم" . ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهرى يرفع يديه عند الركوع وعند الرفع منه ، وهو مذهب مالك والشافعى ويفعله الشيعة ، فحضر عندى يوما فى محرس ابن الشواء بالثغر — موضع تدريسى — عند صلاة الظهر ودخل المسجد من المحرس المذكور فتقدم إلى الصفّ وأنا فى مؤخره قاعدا على طاقات البحر أتنسم الريح من شدة الحر ، ومعى فى صفّ واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ويتطلع على مراكب تحت الميناء ، فلما رفع الشيخ يديه فى الركوع وفى رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون إلى هذا المشرقىّ كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به إلى البحر فلا يراكم أحد . فطار قلبى من بين جوانحى وقلت : سبحان الله هذا الطُّرْطُوسى فقيه الوقت . فقالوا لى : ولم يرفع يديه ؟ فقلت : كذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعل ، وهذا مذهب مالك فى رواية أهل المدينة عنه . وجعلت أُسكّنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته وقمت معه إلى المسكن من المحرس ، ورأى تغير وجهى فأنكره وسألنى فأعلمته ، فضحك وقال : ومن أين لى أن أُقتل على سنةٍ؟ فقلت له : ولا يحل لك هذا فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك . فقال : دع هذا الكلام وخذ فى غيره .

قوله تعالى : بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم وما جاء به . وقال مقاتل : نزلت فى بنى عمرو بن عميـر وكانوا أربعة فأسـلم آثنان منهم . وقيـل : هى فى جميع الكفار . ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أى بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب . كذا روى الضحاك عن آبن عباس . وقال مجاهـد : يكتمون من أفعالهم . آبن زيد : يجمعون من الأعمـال الصالحة والسيئة؛ مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيـه؛ يقال : أوعيت الزاد والمتاع إذا جعلته فى الوعاء؛ قال الشاعر :

الخيرُ أَبْقَى وإنْ طَـالَ الزمانُ بِهِ * والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِن زادِ

ووعاه أى حفظه؛ تقول : وعيتُ الحديث أعِيه وَعْيًا وأذنٌ واعِية . وقد تقدم(1) . ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى موجع فى جهنم على تكذيبهم . أى آجعل ذلك بمنزلة البشارة . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ آستثناء منقطع ، كأنه قال : لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وعملوا الصالحات أى أدّوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أى ثواب ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى غير منقوص ولا مقطوع؛ يقال : مننت الحبل إذا قطعته . وقد تقـدم(2) . وسأل نافع بن الأزرق آبن عبـاس عن قوله « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » فقال : غير مقطوع . فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم قد عرفه أخو يشكر حيث يقول(3) :

فَتَرَى خَلْفَهنَّ مِنْ سُرْعةِ الرَّجْـ * ـعِ مَنِينًا كأنَّهُ أَهْبَـاءُ

قال المبرد : المنين الغبار؛ لأنها تقطعه وراءها . وكل ضعيف منين وممنون . وقيل : « غَيْرُ مَمْنُونٍ » لا يُمَنّ عليهم به . وذكر ناس من أهل العلم أن قوله « إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ » ليس آستثناء وإنما هـو بمعنى الواو ، كأنه قال : والذين آمنوا . وقـد مضى فى « البقرة(4) » القول فيه والحمد لله .

(1) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ (2) راجع جـ ١٥ ص ٣٤١ .
(3) تقدم هذا البيت بلفظ : فترى حتفها من الرجع والوق * ع منينا ... الخ .
(4) راجع جـ ٢ ص ١٦٩ .

سورة البروج

مكية بٱتفاق . وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾

قَسَمٌ أقسم الله به جلّ وعزّ . وفي «البروج» أقوال أربعة : أحدها — ذات النجوم ؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك . الثاني — القصور ؛ قاله ٱبن عباس وعِكْرِمة ومجاهد أيضا . قال عِكرمة : هي قصور في السماء . مجاهد : البُرُوج فيها الحَرَس . الثالث — ذات الخَلْق الحَسَن ؛ قاله المِنهال بن عمرو . الرابع — ذات المنازل ؛ قاله أبو عبيدة ويحيى ٱبن سلام . وهي ٱثنا عشر بُرُجًا ، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر . يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم ؛ فذلك ثمانية وعشرون يوما ، ثم يَسْتَتِرُ[1] ليلتين ؛ وتسير الشمس في كل بُرْج منها شهرا . وهي : الحَمَل ، والثَّوْر ، والجَوْزاء ، والسَّرَطان ، والأسَد ، والسُّنْبُلة ، والميزان ، والعقْرب ، والقَوْس ، والجَدْي ، والدَّلْو ، والحُوت . والبروج في كلام العرب : القصور ؛ قال الله تعالى : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ »[2] . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ أي الموعود به . وهو قَسَمٌ آخر ، وهو يوم القيامة ؛ من غير ٱختلاف بين أهل التأويل . قال ٱبن عباس : وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه . ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ ٱختلف فيهما ؛ فقال عليّ وٱبن عباس وٱبن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة . وهو قول الحسن .

---

(١) سرر الشهر (بفتحتين) : آخر ليلة منه ؛ وهو مشتق من قولهم : ٱستسر القمر ؛ أي خفي ليلة السرار ؛ فربما كان ليلة وربما كان ليلتين .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٨٢

وروواه أبوهريرة مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعــة ... " خرّجه أبو عيسى الترمذىّ فى جامعــه وقال : هــذا حديث [حسن](١) غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى آبن عبيدة يضعّف فى الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره . وقــد روى شــعبة وسفيان الثّــوْرىّ وغير واحد من الأئمة عنه . قال القُشَــيْرِى فيوم الجمعــة يشهد على كل عامل بما عمل فيه .

قلت : وكذلك سائر الأيام والليالى ؛ فكل يوم شاهــد وكذا كل ليلة ؛ ودليله ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن قُرّة عن مَعْقِل بن يَسار عن النبىّ صلى الله عليه وســلم قال : "ليس من يوم يأتى على العبد إلا ينادَى فيه يآبن آدم أنا خَلْق جديد وأنا فيما تَعْمَل عليك شهيد فاعمل فىّ خيرا أشهدْ لك به غدًا فإنى لو قد مضيتُ لم ترنى أبدًا ويقول الليل مثل ذلك" . حديث غريب من حديث معاوية ، تفرد به عنــه زيد العَمِّى(٢) ، ولا أعلمه مرفوعا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد . وحكى القُشَيْرِىّ عن آبن عمــر وآبن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى . وقال ســعيد بن المسيّب : الشاهد التَّرْوِية ، والمشهود يوم عَرَفة . وروى إسرائيل عن أبى إسحق عن الحرث عن علىّ رضى الله عنــه : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر . وقاله النَّخَعىّ . وعن علىّ أيضا : المشهود يوم عرفة . وقال آبن عباس والحسين آبن علىّ رضى الله عنهما : المشهود يوم القيامة ؛ لقوله تعالى : «ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ»(٣) .

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

(٢) فى كتاب الأنساب للسمعانى : «العمى» بفتح العين المهملة وتشديد الميم ، هذه النسبة إلى العم وهو بطن من تميم . وفى تهذيب التهذيب : «قال على بن مصعب : سمى زيد العمى لأنه كان كلما سئل عن شىء قال حتى أسأل عمى» .

(٣) آية ١٠٣ سورة هود .

قلت : وعلى هذا آختلفت أقوال العلماء في الشاهد فقيل : الله تعالى ؛ عن آبن عباس والحسن وسعيد بن جبير؛ بيانه : « وكفى بالله شهيدًا » (١) ، « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم » (٢) . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن آبن عباس أيضا والحسين آبن علي ؛ قرأ آبن عباس « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا » (٣) ، وقرأ الحسين « يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا » (٤) .

قلت : وأقرأ أنا « ويكون الرسول عليكم شهيدًا » (٥) . وقيل : الأنبياء يشهدون على أممهم ؛ لقوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » . وقيل : آدم . وقيل : عيسى بن مريم ؛ لقوله : « وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم » (٦) . والمشهود أمته . وعن آبن عباس أيضا ومحمد بن كعب : الشاهد الإنسان ؛ دليله : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (٧) . مقاتل : أعضاؤه ؛ بيانه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٨) . الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم ؛ بيانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس » (٩) . وقيل : الشاهد الحفظة ، والمشهود بنو آدم . وقيل : الليالي والأيام . وقد بيناه .

قلت : وقد يشهد المال على صاحبه ، والأرض بما عمل عليها ؛ ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وآبن السبيل — أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة " . وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يومئذ تحدث أخبارها » قال : " أتدرون ما أخبارها " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " فإن أخبارها أن تشهد على

---

(١) آية ٧٩ سورة النساء . (٢) آية ١٩ سورة الأنعام . (٣) آية ٤١ سورة النساء .
(٤) آية ٤٥ سورة الأحزاب . (٥) آية ١٤٣ سورة البقرة . (٦) آية ١١٧ سورة المائدة .
(٧) آية ١٤ سورة الإسراء . (٨) آية ٢٤ سورة النور . (٩) آية ١٤٣ سورة البقرة .

كل عبد أوأمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا كذا وكذا — قال — فهذه أخبارها". قال حديث حسن غريب صحيح. وقيل: الشاهد الخلق، شهدوا لله عزّ وجلّ بالوحدانية. والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى. وقيل: المشهود يوم الجمعة؛ كما رَوى أبو الدَّرْداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة ..." وذكر الحديث. خرّجه آبن ماجه وغيره.

قلت: فعلى هذا يومُ عَرَفة مشهود، لأن الملائكة تشهده وتنزل فيه بالرحمة. وكذا يوم النَّحْر إن شاء الله. وقال أبو بكر العَطّار: الشاهد الحَجَرُ الأسود؛ يشهد لمن لَمَسه بصدق وإخلاص ويقين. والمشهود الحاجّ. وقيل: الشاهد الأنبياء، والمشهودُ محمد صلى الله عليه وسلم؛ بيانه: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ — إلى قوله تعالى —: وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ»(1).

قوله تعالى: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أى لُعِن. قال آبن عباس: كل شيء في القرآن «قُتِل» فهو لعن. وهذا جواب القَسَم — في قول الفرّاء — واللام فيه مضمرة؛ كقوله: «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا — ثم قال — قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» أى لقد أفلح. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أى قُتِل أصحابُ الأخدود والسماءِ ذاتِ البروج؛ قاله أبو حاتم السِّجِسْتانِيّ. آبن الأنباريّ: وهذا غلط؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: واللهِ قام زيد؛ على معنى قام زيد واللهِ. وقال قوم: جواب القَسَم «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ» وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما. وقيل: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا». وقيل: جواب القسم محذوف؛ أى والسماءِ ذاتِ البروج لَتُبْعَثُنّ. وهذا آختيار آبنِ الأنباريّ. والأخدود: الشق العظيم

(1) آية ٨١ سورة آل عمران.

المستطيل فى الأرض كالخَنْدَق ؛ وجمعه أخاديد . ومنه الخدّ لمجارى الدموع ، والمِخدّة ؛ لأن الخدّ يوضع عليها . ويقال : تخدّد وجه الرجل إذا صارت فيه أخاديد من جراح . قال طَرَفة :

ووجهٌ كأنّ الشمس حلت رداءَها * عليه نقيّ اللّون لم يَتَخَدّدِ

﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ « النار » بدل من « الأخدود » بدل الاشتمال . و « الْوَقُودِ » بفتح الواو قراءة العامة ، وهو الحطب . وقرأ قَتادة وأبو رَجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر ؛ أى ذات الاتقاد والالتهاب . وقيل : ذات الوقود بأبدان الناس . وقرأ أشهب العقيلى وأبو السَّمّال العَدَوى وابن السَّمَيْقَع « النّارُ ذاتُ » بالرفع فيهما ؛ أى أحرقتهم النار ذات الوقود . ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أى الذين خدّدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين ، وكانوا بنَجْرَان فى الفَتْرة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقد اختلفت الرواية فى حديثهم . والمعنى متقارب . ففى صحيح مسلم عن صُهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان مَلِك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ؛ فلما كَبِر قال للملك : إنى قد كَبِرت فابعث إلىّ غلاما أعلّمه السحر ؛ فبعث إليه غلاما يعلمه ؛ فكان فى طريقه إذا سلك راهبٌ ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ؛ فكان إذا أتى الساحرَ مرّ بالراهب وقعد إليه ؛ فإذا أتى الساحرَ ضربه ؛ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحرَ فقل : حبسنى أهلى . وإذا خشيتَ أهلك فقل : حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتَى على دابة عظيمة قد حَبَست الناس فقال : اليومَ أعلمُ آلساحرُ أفضلُ أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرا فقال : اللهُمّ إن كان أمْرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ؛ فرماها فقتلها ومضى الناس . فأتى الراهبَ فأخبره فقال له الراهب : أىْ بُنَيَّ ، أنت اليومَ أفضلُ منّى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستُبْتَلَى ؛ فإن ابْتُليتَ فلا تدلّ علىّ . وكان الغلام يبرئ الأَكْمَه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء . فسمع جليسٌ للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شَفيتنى . فقال : إنى لا أشفى أحدًا ، إنما

يشفي الله؛ فإن أنت آمنتَ بالله دعوتُ اللهَ فشفاك؛ فآمن بالله فشفاه الله . فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟ قال ربّي . قال : ولك ربٌّ غيري ؟ ! قال : ربّي وربّك الله . فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام؛ فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بُنَيّ ! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ؟ ! فقال : إني لا أَشفي أحداً ، إنما يشفي الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجيء بالراهب فقيل له : ٱرجع عن دينك . فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه فشقّه حتى وقع شِقّاه . ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ٱرجع عن دينك؛ فأبى فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه فشقّه به حتى وقع شِقّاه . ثم جيء بالغلام فقيل له : ٱرجع عن دينك؛ فأبى فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال : ٱذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فٱصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذِرْوَته فإن رجع عن دينه و إلا فٱطرحوه؛ فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللّهمّ ٱكفنيهم بما شئت؛ فرجف بهم الجبلُ فسقطوا . وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهمُ الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : ٱذهبوا به فٱحملوه في قُرْقُور(١) فتوسّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه و إلا فٱقذفوه؛ فذهبوا به فقال : اللّهمّ ٱكفنيهم بما شئت؛ فٱنكفأت بهم السفينة فغرقوا . وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لستَ بقاتِلِي حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ وتَصْلُبُني على جِذْع ، ثم خُذْ سَهْمًا من كِنانتي(٢) ثم ضَع السَّهمَ في كَبِد القَوْس ثم قل : بٱسم الله رَبِّ الغلام ، ثم ٱرمِني ؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع الناسَ في صَعيدٍ واحدٍ وصَلَبه على جِذع ، ثم أخذ سهمًا من كِنانتِه ثم وضع السّهم في كَبِد القَوْس ثم قال : بٱسم الله رَبّ الغلام؛ ثم رماه فوقع السهم في صُدْغه فوضع يده في صُدغه في موضع السّهم فمات؛ فقال الناس : آمنا بربّ الغلام ! آمنا برب الغلام ! آمنا برب

(١) القرقور (بضم القافين) : السفينة الصغيرة . (٢) الكنانة (بالكسر) : جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

الغلام ! فأتِىَ الملكُ فقيل له : أرأيتَ ما كنتَ تَحْـذَر ؟ قد واللهِ نَزَل بك حَذَرُك ، قد آمن الناس ؛ فأمر بالأخدودِ فى أفواه السِّكَك ، فخُدّت وأضْرِم النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأَحْمُوه فيها — أو قيل له ٱقتحِم — ففعلوا ؛ حتى جاءت ٱمرأة ومعها صبيّ لهـا فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: "يا أُمَّه ٱصْبِرِى فإنكِ على الحق" . خرّجه الترمذى بمعناه . وفيه : "وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة" قال مَعْمَر : أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين . وفيه : "أن الدابة التى حبستِ الناس كانت أسدًا وأن الغلام دُفِن — قال — فيُذكر أنه أخرِج فى زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صُدْغه كما وضعها حين قُتِل". وقال : حديث حسن غريب . ورواه الضحاك عن ٱبن عبـاس قال : كان مَلِك بنَجْرانَ وفى رَعِيّته رجل له فتًى فبعثه إلى ساحر يعلّمـه السحر ، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل ؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب ، فدخل فى دين الراهب ؛ فأقبل يوما فإذا حَيّة عظيمة قطعت على الناس طريقهم ، فأخذ حجرا فقال بٱسم الله رب السموات والأرض وما بينهما ؛ فقتلها . وذكر نحو ما تقدم . وأن الملك لمـا رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك : لا إله إلا إله[(١)] عبد الله بن ثامر ؛ وكان ٱسمَ الغـلام ، فغضب الملك وأمر فخُدّت أخاديد ، وجُمع فيها حطب ونار وعرض أهل مملكته عليها ، فمن رجع عن التوحيد تركه ، ومن ثبت على دينه قذفه فى النار . وجيء بٱمرأة مرضع فقيل لهـا ٱرجعى عن دينك وإلا قذفناك وولدك — قال — فأشفقت وهمت بالرجوع ، فقال لها الصبيّ المرضع : يا أمى ، ٱثبتى على ما أنت عليه فإنما هى غُمَيضة ؛ فألقَوْها وٱبْنَها . وروى أبو صالح عن ٱبن عباس أن النار ٱرتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعا فأحرقتهم . وقال الضحاك : هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، أخذهم يوسف ٱبن شراحيل بن تُبّع الحِمْيرى ، وكانوا نَيِّفًا وثمانين رجلا ، وحَفَر لهم أخدودا وأحرقهم فيه . حكاه المـاوَرْدىّ ، وحكى الثعلبىّ عنه أن أصحاب الأخدود من بنى إسرائيل ، أخذوا رجالا

(١) فى الأصول : « ... إلا الله عبد الله ... » وهو تحريف .

ونساء فخدّوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار ، ثم أقيم المؤمنون عليها وقيل لهم: تكفرون أو تُقذفون فى النار ؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه ؛ وقاله عَطِيّة العَوْفِىّ . وروى نحو هذا عن ابن عباس . وقال علىّ رضى الله عنه : إن مَلِكًا سَكِر فوقع على أخته ، فأراد أن يجعل ذلك شَرْعًا فى رَعِيّته فلم يقبلوا ؛ فأشارت عليه أن يخطب بأن الله — عز وجل — أحلّ نكاح الأخوات فلم يُسمع منه . فأشارت عليه أن يَخُدّ لهم الأخدود ويُلقى فيه كلَّ من عصاه . ففعل . قال : وبقاياهم ينكحون الأخوات وهم المجوس ، وكانوا أهل كتاب . وروى عن علىّ أيضا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيًّا بعثه الله تعالى إلى الحبشة ، فاتبعه ناس فخدّ لهم قومُهم أخدودا ، فمن اتبع النبىّ رمى فيها ، فجىء بامرأة لها بُنَىّ رضيع فجزعت ، فقال لها : يا أُمّاه ، امضى ولا تجزعى . وقال أيوب عن عِكْرمة قال : « قُتِلَ أصحابُ الأُخْدُودِ » قال : كانوا من قومك من السِّجِسْتان . وقال الكلبىّ : هم نصارى نَجْران ، أخذوا بها قوما مؤمنين فخدّوا لهم سبعة أخاديد ، طول كل أخدود أربعون ذراعا ، وعرضه اثنا عشر ذراعا . ثم طرح فيه النِّفط[(1)] والحطب ، ثم عرضوهم عليها ؛ فمن أبى قذفوه فيها . وقيل : قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين . وقال مقاتل : أصحاب الأخدود ثلاثة ؛ واحد بنجران ، والآخر بالشام ، والآخر بفارس . أمّا الذى بالشام فأنطنيانوس الرومى ، وأما الذى بفارس فبختنصّر ، والذى بأرض العرب يوسف بن ذى نُوَاس . فلم يُنزل الله فى الذى بفارس والشام قرآنا ، وأنزل قرآنا فى الذى كان بنجران . وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة والآخر بنجران ، آجر أحدهما نفسه ، فجعل يعمل ويقرأ الإنجيل ؛ فرأت ابنة المستأجر النور فى قراءة الإنجيل ، فأخبرت أباها فأسلم . وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وامرأة ، بعد ما رُفع عيسى ، فخدّ لهم يوسف بن ذى نواس بن تُبّع الحِمْيَرِىّ أخدودا وأوقد فيه النار ؛ وعرضهم على الكفر ، فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار ، وقال : من رجع عن دين عيسى لم يقذف . وإن امرأة معها ولدها صغير لم يتكلم ، فرجعت ، فقال لها ابنها : يا أمّاه ، إنى أرى أمامك

(1) النفط (بالكسر وقد يفتح) : دهن معدنى سريع الاحتراق ، توقد به النار ويتداوى به .

نارا لا تطفأ، فقذفا جميعا أنفسهما في النار، فجعلها الله وآبنها في الجنة . فقُذف في يوم واحد سبعة وسبعون إنسانا . وقال آبن إسحق عن وهب بن مُنَبِّه : كان رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام، يقال له قيميون[1]، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا في الدنيا مجابَ الدعوة، وكان سائحا في القُرَى لا يُعرف بقرية إلا مضى عنها، وكان بنّاء يعمل الطين . قال محمد بن كعب القُرَظي : وكان أهلُ نجران أهلَ شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلّم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نزل بها قيميون بنى بها خَيْمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامر عبد الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مرّ بصاحب الخَيْمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحّد الله وعبده وجعل يسأله عن آسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه فكتمه إياه وقال : يا بن أخي، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبوه الثامر لا يظن إلا أن آبنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان . فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخل عليه بتعليم آسم الله الأعظم، عَمَد إلى قِداح[2] فجمعها، ثم لم يُبق لله تعالى آسما يعلمه إلا كتبه في قِدْح، لكل آسم قِدْح؛ حتى إذا أحصاها أوْقد لها نارا، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحا قِدحا، حتى إذا مرّ بالآسم الأعظم قذف فيها بقِدحه، فوثب القِدْح حتى خرج منها لم يضرّه شيء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم آسمَ الله الأعظم الذي كتمه إياه؛ فقال: وما هو ؟ قال : كذا وكذا . قال : وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع . فقال له : يآبن أخي، قد أصبته، فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل . فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضرّ إلا قال : يا عبد الله، أتوحّد الله وتدخل في ديني فأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم؛ فيوحّد الله ويُسلم فيدعو الله له فيشفى . حتى لم يبق أحد بنجران به ضرّ إلا أتاه فآتبعه على دينه ودعا له فعوفي؛ حتى رفع شأنه إلى ملكهم فدعاه فقال له :

(١) في تاريخ الطبري : « فيميون » بالفاء .
(٢) القدح (بالكسر) : السهم قبل أن ينصل و يراش، جمعه قداح .

أفسدت عليّ أهل قريتي وخالفت ديني ودين آبائي ، فلأمثلنّ بك . قال : لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيُطرح عن رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس . وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بحار لا يلقى فيها شيء إلا هلك، فيُلقَى فيها فيخرج ليس به بأس ؛ فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله وتؤمنَ بما آمنتُ به؛ فإنك إن فعلت ذلك سُلّطت عليّ وقتلتني . فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادته ، ثم ضربه بعصا فشجّه شجّة صغيرة ليست بكبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه ، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران . فسار إليهم ذو نُوَاس اليهودي بجنوده من حِمْير ، فدعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل فخدّ لهم الأخدود ؛ فحرّق بالنار وقتّل بالسيف ومَثّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفا . وقال وهب بن مُنَبِّه : اثني عشر ألفا . وقال الكَلْبي : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا (١) . قال وهب : ثم لما غلب أرياط على اليمن خرج ذو نواس هاربا فاقتحم البحر بفرسه فغَرِق. قال ابن إسحق : وذو نواس هذا اسمه زرعة بن تبان (٢) أسعد الحميري ، وكان أيضا يسمى يوسف ، وكان له غدائر من شعرٍ تَنُوس ، أي تضطرب ، فسُمِّيَ ذا نواس ؛ وكان فعل هذا بأهل نجران فأفلت منهم رجل اسمه دَوْس ذو ثَعْلَبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر ؛ ألقى نفسه فيه ؛ وفيه يقول عمرو بن معدى كرب :

أتُوعِدُني كأنك ذو رُعَيْنٍ * بأَنْعَم عِيشةٍ أو ذو نُواسِ
وكائنْ كان قبلك من نَعِيمٍ * ومُلْكٍ ثابتٍ في الناس راسِ
قديمٍ عهدُه من عَهْدِ عادٍ * عظيمٍ قاهرِ الجبروت قاسِ
أزال الدّهرُ ملكهُمُ فأضحى * يُنَقَّلُ من أناس في أناسِ

(١) في بعض النسخ : « تسعين ألفا » .

(٢) هو كغراب أو كرمان ، و يكسر . وهو أول من كسا البيت الحرام .

وذو رُعَيْن ملك من ملوك حِمير . ورُعَيْن حِصن له . وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حمير آبن سبأ .

مسألة — قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ، ما كان يَلقاه من وَحّد قبلهم من الشدائد؛ يؤنسهم بذلك . وذكر لهم النبيّ صلّى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلقَوْن من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها ؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسّكه به ، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته ، ودخول الناس في الدين مع صِغر سِنّه وعظم صبره . وكذلك الراهب صَبَر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار . وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم ، صَبَرُوا على الطرح في النار ولم يَرْجعوا في دينهم . آبن العربيّ : وهذا منسوخ عندنا ؛ حسب ما تقدم بيانه في سورة « النحل »(١) .

قلت : ليس بمنسوخ عندنا ، وأن الصبر على ذلك لمن قَوِيت نفسه وصَلُب دينه أولى ؛ قال الله تعالى مخبرا عن لُقْمان : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٢) » . وروى أبو سعيد الخُدْريّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ” إن من أعظم الجهاد كلمةَ عَدْلٍ عند سلطان جائر “ . خرّجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . وروى آبن سَنْجَر محمد بن سَنْجر عن أُمَيْمة مولاةِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالت : كنت أُوَضِّئ النبيّ صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال : أوصني . فقال: ” لا تشرك بالله شيئا وإن قُطّعت أو حُرّقت بالنار ... “ الحديث . قال علماؤنا : ولقد آمتحن كثير من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك . ويكفيك قصّة عاصم وخُبيب وأصحابهما وما لَقُوا من الحروب والمِحَن والقَتْل والأسر والحرق، وغير ذلك . وقد مضى في « النّحل » أن هذا إجماع ممن قوى في ذلك ؛ فتأمله هناك(٣) .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠ وما بعدها ، وص ٢٠٢ (٢) آية ١٧ سورة لقمان .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ دعا على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى . وقيل : معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين ؛ أى إنهم قُتلوا بالنار فصبَروا . وقيل : هو إخبار عن أولئك الظالمين؛ فإنه روى أن الله قبض أرواح الذين ألقَوا فى الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار ، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها قعود . وقيل : إن المؤمنين نَجَوْا وأحرقت النار الذين قعدوا؛ ذكره النحاس . ومعنى «عليها» أى عندها ؛ وعلى بمعنى عند . وقيل : « عليها » على ما يدنو منها من حافات الأخدود ؛ كما قال :

* وبات على النار النَّدَى والمُحَلَّقُ[1] *

والعامل فى « إذ» «قُتِل» ؛ أى لعنوا فى ذلك الوقت . ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى حضور . يعنى الكفار كانوا يَعرِضون الكفر على المؤمنين فمن أبَى ألقَوْه فى النار؛ وفى ذلك وصفهم بالقسوة ثم[2] بالجدّ فى ذلك . وقيل : «على» بمعنى مع ؛ أى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

قوله تعالى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ وقرأ أبو حَيْوَة « نَقِمُوا » بالكسر . والفصيح هو الفتح . وقد مضى فى « براءة »[3] القول فيه . أى ما نَقَم المِلكُ وأصحابُه من الذين حَرَّقهم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ أى إلا أن يصدّقوا . ﴿ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى الغالب المنيع . ﴿ الْحَمِيدِ ﴾

---

(١) البيت لأعشى قيس ، وصدره :

* تشب لمقرورين يصطليانها *

(٢) فى بعض النسخ : « أى بالجد » بدل « ثم بالجد » .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠٧

اى المحمود فى كل حال . ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا شريك له فيهما ولا نَدِيد. ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى حرقوهم بالنار . والعرب تقول : فَتن فلان الدرهم والدينار، إذا أدخله الكُورَ لينظر جَوْدته . ودينار مفتون. ويُسَمَّى الصائغ الفَتَّان، وكذلك الشيطان ؛ ووَرِق فتِين ؛ أى فضة محترقة . ويقال للحرة[1] فتين ؛ أى كأنها أحرقت حجارتها بالنار ، وذلك لسوادها . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أى من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الايات البينات على يدَى الغلام . ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ لكفرهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ فى الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار . وقد تقدم عن ابن عباس . وقيل : « وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » أى ولهم فى الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين . وقيل : لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق . والحريق : آسم من أسماء جهنم ؛ كالسعير . والنار دركات وأنواع ولها أسماء . وكأنهم[2] يعذبون بالزمهرير فى جهنم ، ثم يعذبون بعذاب الحريق . فالأول عذاب ببردها ، والثانى . عذاب بحرها . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله ؛ أى صدقوا به و برسله . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ أى بساتين . ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من ماءٍ غيرآسن، ومن لبن لم يتغيرّ طعمه، ومن خمر لذّة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى . ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ أى العظيم ، الذى لا فوز يشبهه .

(١) الحرة (بفتح الحاء المهملة) : أرض ذات حجارة سود نخرة. (٢) فى نسخة من الأصل : «وكانوا» .

قوله تعـالى : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَـدِيدٌ ﴾ أى أخذه الجبابرة والظَّلَمَـة ؛ كقوله جل ثنـاؤه : « وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُـرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » . وقـد تقـدم (١) . قال المبرّد : « إِنّ بَطْشَ رَبِّكَ » جواب القَسَم ؛ المعنى : والسماءِ ذاتِ البروج إن بطش ربك . وما بينهما معترض مؤكد للقسم . وكذلك قال الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : إن القَسَم واقع على ذكر صفته بالشدة . ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ يعنى الخلق — عند أكثر العلماء — يخلقهم ٱبتداء ثم يعيدهم عند البَعْث . وروى عِكرمة قال : عَجِب الكفار من إحياء الله جل ثناؤه الأمـوات . وقال ٱبن عباس : يبدئ لهم عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيـده عليهم فى الآخرة . وهذا ٱختيار الطبرى . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ أى السَّتور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ﴿الْوَدُودُ﴾ أى المحبّ لأوليائه . وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال : كما يودّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة . وعنه أيضا « الودود » أى المتودّد إلى أوليائه بالمغفرة . وقال مجاهـد : الوادّ لأوليائه ؛ فعول بمعـنى فاعل . وقال ٱبن زيد : الرحيم . وحكى المـبرّد عن إسمعيل بن إسحق القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له ؛ وأنشد قول الشاعر :

وأركب فى الرَّوْع عُـــريانةً * ذلولَ الجنـاح لقاحًا ودودا

أى لا ولد لهـا تَحِن إليه . ويكون معنى الآية : إنه يغفـر لعباده وليس له ولد يغفر لهم من أجله ؛ ليكون بالمغفـرة متفضلا من غير جزاء . وقيـل : الودود بمعنى المـودود ؛ كرَكُوب وحَلُوب ؛ أى يودّه عباده الصالحون ويُحبّونه . ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما « المجيـدِ » بالخفض نعتاً للعرش . وقيل : لـ« ربك » ؛ أى إن بطش ربك المجيدِ لشديد .

(١) آية ١٠٢ سورة هود راجع جـ ٩ ص ٩٥

ولم يمتنع الفصل لأنه جارٍ مجرى الصفة في التشديد . الباقون بالرفع نعتا لـ« ذو » وهو الله تعالى . وآختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل، والله سبحانه المنعوت بذلك، وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر «المؤمنون»(١) . تقول العرب : في كل شجر نار، وآستمجد المَرْخ والعَفار(٢)؛ أي تناهيا فيه حتى يقتبس منهما . ومعنى ذو العرش : أي ذو المُلْك والسلطان؛ كما يقال : فلان على سرير ملكه؛ وإن لم يكن على سرير . ويقال : ثُلَّ عَرْشُه؛ أي ذهب سلطانه . وقد مضى بيان هذا في « الأعراف »(٣) وخاصة في « كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » . ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ أي لا يمتنع عليه شيء يريده . الزمخشري : « فَعَّالٌ » خبر آبتداء محذوف . وإنما قيل : « فَعَّالٌ » لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة . وقال الفراء : هو رفع على التكرير والآستئناف ؛ لأنه نكرة محضة . وقال الطَّبَرِيّ : رفع « فعّال » وهي نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب « الغفور الودود » . وعن أبي السَّفَر(٤) قال : دخل ناس من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أبي بكر رضي الله عنه يعودونه فقالوا : ألَا نأتيك بطبيب ؟ قال : قد رآني ! قالوا : فما قال لك ؟ قال قال : إني فعال لما أريد .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ أي قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذِّبة لأنبيائهم ؛ يؤنّسه بذلك ويسلّيه . ثم بيّنهم فقال . ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ وهما في موضع جَرّ على البدل من « الجنود » . المعنى : أنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسلَه . ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك . ﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٥٧ .　(٢) المرخ والعفار : شجرتان من أكثر الشجر نارا ، يتخذ منهما الزناد . والعرب تضرب بهما المثل في الشرف العالي . و « آستمجد » : آستكثر .　(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠

(٤) هو سعيد بن يحمد الهمداني .

لك ، كدأب من قبلهم . وإنمـا خص فرعون وثمود ، لأن ثمود فى بلاد العرب ، وقصتهم عنـدهم مشهورة وإن كانوا من المتقـدمين . وأمر فرعون كان مشهورا عند أهـل الكتاب وغيرهم ، وكان من المتأخرين فى الهلاك ، فدلّ بهما على أمثالها فى الهلاك . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ أى يقدر على أن ينزل بهـم ما أنزل بفرعون . والمحاط به كالمحصور . وقيل : أى والله عالم بهم فهو يجازيهم . ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ أى متناهٍ فى الشرف والكرم والبركة ، وهـو بيان ما بالناس الحاجةُ إليـه من أحكام الدين والدنيا لا كما زعم المشركون . وقيـل « مجيد » أى غير مخلوق . ﴿ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ أى مكتوب فى لوح . وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه . وقيل : هـو أمّ الكتاب ؛ ومنـه ٱنتسخ القرآن والكتب . وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال : اللوح من ياقـوتة حمراء ، أعلاه معقود بالعرش وأسفله فى حجر مَلَك يقال له ماطريون (١) ، كتابه نور وقلمه نور ، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة ، ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء ؛ يرفع وضيعا ويضع رفيعا ، ويغنى فقيرا ويفقر غنيًّا ، يُحيى ويميت ، ويفعل ما يشاء ؛ لا إله إلا هو . وقال أنس بن مالك ومجاهد : إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله تعالى فى جبهـة إسرافيل . وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . وقيـل : اللوح المحفوظ الذى فيه أصناف الخلق والخليقـة ، وبيانُ أمورهم ، وذكرُ آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، والأقضيةُ النافذة فيهم ، ومآلُ عواقب أمورهم ؛ وهو أمُّ الكتاب . وقال ٱبن عباس : أوّل شىء كتبه الله تعـالى فى اللوح المحفوظ « إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد رسـولى ، من ٱستسلم لقضائى وصبر على بلائى وشـكر نعمائى كتبته صديقا وبعثته مع الصـدّيقين ، ومن لم يستسلم لقضائى

(١) فى روح المعانى : « ساطريون » .

ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليتخذ إلهاً سواي » . وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية رضي الله عنه يتوعّده ؛ فكتب إليه ابن الحنفية : « بلغني أن الله تعالى في كل يوم ثلثمائة وستين نظرةً في اللّوح المحفوظ ؛ يُعِزّ ويُذِلّ ، ويبتلي ويفرح ، ويفعل ما يريد ؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك فتشتغل بها ولا تتفرغ » . وقال بعض المفسرين : اللّوح شيء يلوح للملائكة فيقرءونه . وقرأ ابن السَّمَيْقَع وأبو حَيْوَة « قرآنُ مجيدٍ » على الإضافة ؛ أي قرآن ربٍّ مجيد . وقرأ نافع « في لوحٍ محفوظٌ » بالرفع نعتا للقرآن ؛ أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح . الباقون (بالجر) نعتا للوح . والقرّاء متفقون على فتح اللام من «لَوح» إلا ما رُوي عن يحيى بن يَعْمر ؛ فإنه قرأ في « لُوحٍ » بضم اللام؛ أي إنه يلوح، وهو ذو نور وعُلُوّ وشرف . قال الزمخشريّ : واللُّوح الهواء ؛ يعني اللُّوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللّوح . وفي الصحاح : لاح الشيء يلوح لَوْحًا أي لمح . ولاحه السَّفَر : غيّره . ولاح لَوْحا ولُواحا عطش، والتاح مثله . واللَّوح : الكَتِف وكلّ عظم عريض . واللَّوح : الذي يكتب فيه . واللُّوح (بالضم) : الهواء بين السماء والأرض . والحمد لله .

تم بعون الله تعالى الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبي ،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون ، وأوله :
" سورة (الطارق) "

كَمُلَ طبع الجزء التاسع عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الثلاثاء ٢١ ربيع الأوّل سنة ١٣٦٩ (١٠ ينايرسنة ١٩٥٠) م

محمد نديم

دار الكتب المصرية

القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء العشرون

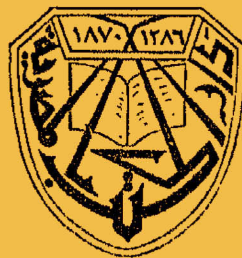

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء العشرون

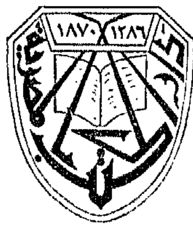

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

فهرس الجزء العشرين

ســـورة « الطارق »

صفحة

ســـورة « الأعلى »

صفحة

سورة « الغاشية »

صفحة

ســورة « الفجر »

صفحة

صفحة

سورة « البلد »

سورة « الشمس »

صفحة

ســـورة « الليل »

ســـورة « الضحى »

صفحة

ســـورة « ألم نشرح »

ســـورة « والتين »

صفحة

ســـورة « العلق »

ســـورة « القدر »

ســورة « قريش »

ســورة « الماعون »

ســورة « الكوثر »

سورة « الفلق »

سورة « الناس »

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطارق

مكية، وهى سبع عشرة آية

قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ (١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢) ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ (٣)﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ ﴾ قَسَمان : « السَّماءُ » قَسَم، و « الطّارقُ » قَسَم . والطارق : النجم . وقد بيّنه الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ واختلف فيه ؛ فقيل : هو زُحَل ، الكوكبُ الذى فى السماء السابعة ؛ ذكره محمد بن الحسن فى تفسيره، وذكر له أخبارا، الله أعلم بصحتها . وقال ابن زيد : إنه الثُّرَيّا . وعنه أيضا أنه زُحَل ؛ وقاله الفراء . ابن عباس : هو الجَدْيُ . وعنه أيضا وعن علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنهما — والفراء : «النَّجْمُ الثَّاقِبُ» نَجْمٌ فى السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم؛ فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها، ثم يرجع الى مكانه من السماء السابعة، وهو زُحَل ؛ فهو طارق حين ينزل وطارقٌ حين يَصْعَد . وحكى الفراء : ثَقَب الطائرُ إذا ارتفع وعلا . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا مع أبى طالب، فآنحطّ نجم فآمتلأت الأرض نورا، ففزِع أبو طالب وقال : أىّ شىء هذا! فقال : "هذا نجم رُمِى به وهو آية من آيات الله" فعجِب أبو طالب ونزل « والسماءِ والطارِقِ» . وروى عن ابن عباس أيضا « وَالسَّماءِ والطّارِقِ » [قال : السماء](1) وما يَطْرُق فيها . وعن

(1) زيادة من الطبرى .

ابن عباس وعطاء : « الثاقب » الذى تُرمى به الشياطين . قتادة : هو عام فى سائر النجوم ؛ لأن طلوعها بليلٍ ؛ وكلّ من أتاك ليلاً فهو طارق . قال :

ومِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعًا * فألْهَيْتُهَا عن ذِى تَمَائِمَ مُغْيِلِ (١)

وقال :

ألم ترياني كلما جئتُ طارقا * وجدت بها طِيباً و إن لم تطيّب

فالطارق : النجم ؛ اسم جنس، سُمّىَ بذلك لأنه يطرق ليلا ؛ ومنه الحديث : "نهى النبىُّ صلى الله عليه وسلم أن يَطْرُق المسافر أهله ليلًا كى تَسْتَحِدّ المَغِيبة وتَمْتَشط الشَّعِثة (٢)" . والعرب تسمّى كلَّ قاصدٍ فى الليل طارقا . يقال : طرق فلان إذا جاء بليل . وقد طرق يطرق طروقا فهو طارق . ولابن الرومىّ (٣) :

يا راقدَ الليلِ مسرورًا بأوّله * إن الحوادث قد يَطْرُقْنَ أسحارا

لا تفرحن بليلٍ طاب أوّله * فرُبَّ آخرِ ليلٍ أجّج النارا

وفى الصحاح : والطارق النجم الذى يقال له كوكب الصبح . ومنه قول هند :

نحن بنات طارِق * نمْشى على النّمارِق

أى إن أبانا فى الشرف كالنجم المضىء . الماوردىّ : وأصل الطرق الدّق ؛ ومنه سميت المِطرقة . فسُمّىَ قاصد الليل طارقًا لاحتياجه فى الوصول إلى الدق . وقال قوم : إنه قد يكون نهارا . والعرب تقول : أتيتك اليوم طرقتين ؛ أى مرتين . ومنه قوله صلى الله عليه

---

(١) البيت لامرئ القيس . والتمائم : التعاويذ التى تعلق فى عنق الصبى . وذو التمائم : هو الصبى . والمغيل : الذى تؤتى أمه وهى ترضعه . ويروى : « محول » بدل « مغيل » وهو الذى أتى عليه الحول .

(٢) الاستحداد : حلق العانة بالحديد . والمغيبة : التى غاب عنها زوجها . والشعثة : التى تلبد شعرها .

(٣) لم نعثر على هذين البيتين فى ديوان ابن الرومى . وقد أورد الجاحظ البيت الأوّل فى كتابه (الحيوان جـ ٦ ص ٥٠٨ طبع مطبعة الحلبى) غير منسوب . ولم يعرف أن الجاحظ يستشهد بشعر ابن الرومى . وقد توفى الجاحظ وكانت سن ابن الرومى ٣٤ على أن هذا الشعر ليس من روح ابن الرومى . وقد أورد أيضا الغزالى فى (الأحياء جـ ٣ ص ١٨٠ طبع الحلبى) البيت الأوّل ضمن ستة أبيات من وزنه وقافيته .

وسلم : "أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن" . وقال جرير فى الطروق :

طَرَقَتْك صائدةُ القلوب وليس ذا * حينَ الزيارة فارجِعِى بسلامِ

ثم بيّن فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ والثاقب : المضىء . ومنه «شِهَابٌ ثَاقِبٌ»(١) . يقال : ثَقَبَ يَثْقُبُ ثُقُوبًا وثَقابةً إذا أضاء . وثقوبه ضوءه . والعرب تقول : أَثْقِبْ نارك ؛ أى أضئها . قال :

أذاع به فى الناس حتى كأنه * بعَلْيَاء نارٌ أوقدت بثقوبِ

الثُّقُوب ما تُشعل به النار من دِقاق العِيدان . وقال مجاهد : الثاقب المُتَوَهِّج . القُشَيْرِىّ : والمُعْظَم على أن الطارق والثاقب اسمُ جنس أريد به العموم؛ كما ذكرنا عن مجاهد . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ تفخيمًا لشأن هذا المُقْسَم به . وقال سُفيان : كل ما فى القرآن « وما أدراك » فقد أخبره به . وكل شىء قال فيه « وما يدريك » لم يخبره به .

قوله تعالى : إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

قال قتادة : حَفَظَةٌ يحفظون عليك رِزْقَك وعَمَلك وأجلك . وعنه أيضا قال : قرينه يحفظ عليه عَمَلَه من خير أو شر . وهذا هو جواب القَسَم . وقيل : الجواب «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ» فى قول الترمذى محمد بن على . و « إنْ » مخففة من الثقيلة ، و « ما » مؤكّدة ؛ أى إن كل نفس لعليها حافظ . وقيل : المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها من الآفات حتى يُسلمها إلى القدر . قال الفراء : الحافظ من الله يَحْفظها حتى يسلمها إلى المقادير؛ وقاله الكلبي . وقال أبو أُمامة : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "وُكِل بالمؤمن مائةٌ وستون مَلَكًا يَذُبُّون عنه ما لم يقدر عليه . من ذلك البصرُ ، سبعةُ أملاك يذُبّون عنه كما يُذَبّ عن قَصعة العسل الذُّبابُ . ولو وُكِل العبدُ إلى نفسه طَرْفة عين لاختطفته الشياطين" . وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة « لَمّا » بتشديد الميم ؛ أى ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وهى لغة

(١) آية ١٠ سورة الصافات .

هُـذيل . يقول قائلهم : نشدتك لمّا قمت . الباقون بالتخفيف على أنها زائدة مؤكدة كما ذكرنا . ونظير هـذه الآية قولُه تعالى : « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (١) . على ما تقدم . وقيل : الحافظ هو الله سبحانه ؛ فلولا حفظه لها لم تبق . وقيل : الحافظ عليه عقله ؛ يرشده إلى مصالحه ويكُفّه عن مضارّه .

قلت : العقل وغيره وسائط ، والحافظ فى الحقيقة هو الله جل وعز ؛ قال الله عز وجل : « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » (٢) ، وقال : « قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ » (٣) . وما كان مثله .

قوله تعالى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ ﴾ أى ابن آدم ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر فى أوّل أمره وسُنّته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يُمْلِي على حافظه إلا ما يَسُرّه فى عاقبة أمره . و « مِمَّ خُلِقَ » استفهام ؛ أى من أى شيء خلق . ثم قال : ﴿ خُلِقَ ﴾ وهو جواب الاستفهام ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ أى من المَنِيّ . والدَّفْق : صبّ المـاء ؛ دَفَقْتُ المـاء أَدْفُقُه دَفْقًا صَبَبْتُه ، فهو ماء دافق ؛ أى مـدفوق ؛ كما قالوا : سِرٌّ كاتِمٌ ؛ أى مكتوم ؛ لأنه من قولك : دُفِق المـاء على ما لم يسم فاعله . ولا يقـال : دفق المـاءُ . ويقال : دَفَقَ اللهُ روحَه ؛ إذا دُعِيَ عليـه بالموت . قال الفراء والأخفش : «ماءٍ دافِقٍ» أى مصبوب فى الرّحِم . الزجاج : من ماء ذى اندفاق . يقال : دارع وفارس ونابل ؛ أى ذو فَرَس ودِرْع ونَبْل . وهـذا مذهب سيبويه . فالدافق هو المندفق بشدّة قوّته . وأراد ماءين : ماء الرجل وماء المرأة ؛ لأن الإنسان مخلوق منهما ؛ لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما . وعن عكرمة عن ابن عباس : «دافِقٍ» لزج . ﴿ يَخْرُجُ ﴾

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٩١ (٢) آية ٦٤ سورة يوسف . (٣) آية ٤٢ سورة الأنبياء .

أي هذا الماء ﴿ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ ﴾ أي الظهر . وفيه لغات أربع : صُلْب، وصُلُب — وقُرئ بهما — وصَلَب (١) (بفتح اللام)، وصالَب (على وزن قالَب)؛ ومنه قول العباس :

* تُنْقَلُ من صالَب إلى رَحِم *

﴿ والتَّرائِبِ ﴾ أي الصدر، الواحدة تَرِيبة؛ وهي موضع القِلادة من الصدر . قال :

مُهَفْهَفَة بيضاء غير مُفاضةٍ * ترائبها مَصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ (٢)

والصلب من الرجل . والترائب من المرأة . قال ابن عباس : الترائب موضع القلادة . وعنه : ما بين ثديها؛ وقاله عكرمة . ورُوِي عنه يعني ترائب المرأة اليدين والرجلين والعينين؛ و به قال الضحاك . وقال سعيد بن جبير : هو الجيد . مجاهد : هو ما بين المنكبين والصدر . وعنه : الصدر . وعنه : التراقي . وعن ابن جبير عن ابن عباس : الترائب أربع أضلاع من هذا الجانب . وحكى الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع من يَمْنة الصدر، وأربع أضلاع من يَسْرة الصدر . وقال مَعْمر بن أبي حبيبة المدني : الترائب عصارة القلب؛ ومنها يكون الولد . والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر (٣) . قال دُرَيد بن الصِّمّة :

فإن تُدْبِروا نأخذكُم في ظُهورِكُمْ * وإن تُقبِلوا نأخذكُم في التَّرائب

وقال آخر :

وبَدَتْ كأن ترائبًا من نَحْرِها * جَمْرُ الغَضَى في ساعد تتوقّد

وقال آخر :

والزّعفرانُ على ترائبها * شَرِقٌ به اللَّبّاتُ والنَّحر (٤)

---

(١) هو ابن عبد المطلب ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وتمام البيت :

* إذا مضى عالم بدا طبق *

(٢) البيت من معلقة امرئ القيس . والمهفهفة : الخفيفة اللحم التي ليست برهلة ولا ضخمة البطن . والمفاضة : المسترخية البطن . والسجنجل : المرآة . وقيل : سبيكة الفضة ، أو الزعفران ، أو ماء الذهب .

(٣) في بعض نسخ الأصل : « أنها عظام النهد والصدر » .

(٤) البيت للمخبل . وشرق الجسد بالطيب امتلأ فضاق . واللبات (جمع لبة) : موضع القلادة .

وعن عكرمة : الترائب الصدر ؛ ثم أنشد :

* نظامُ دُرٍّ على ترائبها *

وقال ذو الرُّمّة :

* ضَرَجْنَ البُرُودَ عن ترائب حُرّةٍ (١) *

أى شققن . ويروى « ضَرَحْن » بالحاء ؛ أى ألقين . وفى الصحاح : والتريبة واحدة الترائب، وهى عظام الصدر، ما بين التَّرْقوة والثَّنْدُوَة .

قال الشاعر :

* أشرف ثَدْياها على التَّريب (٢) *

وقال المُثَقِّب العَبْدى :

ومن ذَهَبٍ يسنّ على تريبٍ (٣) * كلَوْن العاج ليس بذى غُضُونِ (٤)

[عن غير الجوهرى : الثَّندوة للرجل بمنزلة الثدى للمرأة . وقال الأصمعى : مغرز الثَّدْى . وقال ابن السِّكِّيت : هى اللحم الذى حول الثدى ؛ إذا ضممت أوّلها همزت، و إذا فتحت لم تهمز] (٥) .
وفى التفسير : يُخْلَق من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظمُ والعَصَبُ . ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللّحْمُ والدّمُ؛ وقاله الأعمش . وقد تقدّم مرفوعا فى أوّل سورة (آل عمران) (٦) .
والحمد لله ـــ وفى (الحجرات) « إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى » وقد تقدّم (٧) . وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ثم يجتمع فى الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : « من بين الصُّلْب » ؛ لأنه

(١) تمام البيت :

* وعن أعين قَتّلننا كل مقتل *

(٢) القائل هو الأغلب العجلى . وتمام البيت :

* لم يعدوا التفليك فى النُّتُوب *

وتفلك ثدى الجارية : استدار . والنتوب : النهود وهو ارتفاعه .

(٣) كذا فى بعض النسخ والطبرى . وفى بعضها : « يسر » بالراء . وفى روح المعانى : « يبين » . وفى اللسان وشعراء النصرانية : « يلوح » . (٤) فى اللسان مادة (ترب) : « ... ليس له غضون » . والبيت من قصيدة مكسورة القافية مطلعها :

أفاطم قبل بينك متعينى ... ومنعك ما سألتك أن تبينى

(٥) ما بين المربعين ساقط من بعض نسخ الأصل . (٦) راجع جـ ٤ ص ٧ (٧) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٣

إن نزل من الدماغ فإنما يمرّ بين الصلب والترائب . وقال قتادة : المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفراء : أن مثل هذا يأتى عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب من الصلب . وقال الحسن : المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ، ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ؛ ولذلك يُشْبِه الرجل والديه كثيرا . وهذه الحكمة فى غسل جميع الجسد من خروج المنى . وأيضا المكثر من الجماع يجد وجعاً فى ظهره وصلبه ؛ وليس ذلك إلا لخلو صُلبه عما كان محتبسا من الماء . وروى إسماعيل عن أهل مكة « يخرج من بين الصُّلُب » بضم اللام . ورُويت عن عيسى الثّقفى . حكاه المهدوى وقال : من جعل المنِيّ يخرج من بين صلب الرجل وترائبه فالضمير فى «يخرج» للماء . ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة فالضمير للإنسان . وقرئ «الصَّلَب» بفتح الصاد واللام . وفيه أربع لغات[(1)] : صُلْب وصُلُب وصَلَب وصَالَب . قال العجّاج :

* فى صَلَب مثلِ العنان المُؤْدَمِ *

وفى مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

* تُنْقَل من صالَب إلى رَحِم *

الأبيات مشهورة معروفة . ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى إن الله جل ثناؤه ﴿ عَلَى رَجْعِهِ ﴾ أى على ردّ الماء فى الإحليل ﴿ لَقَادِرٌ ﴾ كذا قال مجاهد والضحاك . وعنهما أيضا أن المعنى : إنه على رد الماء فى الصلب ؛ وقاله عكرمة . وعن الضحاك أيضا أن المعنى : إنه على ردّ الإنسان ماءً كما كان لقادر . وعنه أيضا أن المعنى : إنه على ردّ الإنسان من الكِبَر إلى الشباب ومن الشباب إلى الكِبَر لقادر . وكذا فى المهدوى . وفى الماوردىّ والثعلبى : إلى الصِّبا ومن الصِّبا إلى النطفة . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر . وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا : إنه على ردّ الإنسان بعد الموت لقادر . وهو اختيار الطبرى . الثعلبىّ : وهو الأقوى ؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ » . قال الماوردىّ : ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه فى الآخرة ؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرَّجْعة .

(١) تقدم هذا فى ص ٥ .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾

فيه مسألتان :

الأولى — العامل فى « يوم » — فى قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان — قولُه « لقادر » ولا يعمل فيه « رَجعِه » لما فيه من التفرقة بين الصِّلة والموصول بخبر « إنّ » . وعلى الأقوال الأُخر التى فى « إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ » يكون العامل فى « يوم » فعلٌ مضمر ولا يعمل فيه « لقادر » ؛ لأن المراد فى الدنيا . و ﴿ تُبْلَى ﴾ أى تُمتحن وتُختبَر ؛ قال أبو الغُول الطُّهَوِىّ (١) :

ولا تَبْلَى بَسالتهم وإن هم * صَلُوا بالحرب حِيناً بعد حِين

ويروى « تُبْلَى بسالتهم » . فمن رواه « تُبلى » — بضم التاء — جعله من الاختبار ؛ وتكون البسالة على هذه الرواية الكراهة ؛ كأنه قال : لا يُعرف لهم فيها كراهة . و « تبلى » تُعرف . قال الراجز :

قد كنت قبل اليوم تزدرينى * فاليوم أبلوك وتبتلينى

أى أعرفك وتعرفنى . ومن رواه « تَبْلَى » — بفتح التاء — فالمعنى أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زمانا بعد زمان . وذلك أن الأمور الشداد إذا تكررت على الإنسان هدّته وأضعفته . وقيل : « تُبْلَى السرائر » أى تخرج مخبآتها وتظهر، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر ، وأضمره من إيمان أو كفر ؛ كما قال الأَحْوَص :

سيبقى لها فى مُضْمَر القلب والحشا * سريرةُ وُدٍّ يوم تُبْلَى السرائر (٢)

(١) هو شاعر إسلامى ، منسوب إلى « طهية » وهى أم قبيلة من العرب .

(٢) كذا ورد فى بعض نسخ الأصل وخزانة الأدب جـ ١ ص ٣٢٢ وفى بعض نسخ الأصل والشعر والشعراء وكتاب الأغانى جـ ٤ ص ٢٤٢ طبع دار الكتب المصرية : « ستبلى لكم ... » .

الثـانيــة ـــ رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ائتمن الله تعالى خلقه على أربع : على الصلاة والصوم والزكاة والغسل وهى السرائر التي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة" ذكره المهدويّ . وقال آبن عمر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من حافظ عليها فهو وليّ الله حَقًّا ، ومن اختانهنّ فهو عدوّ الله حَقًّا : الصلاة والصوم والغسل من الجنابة " ذكره الثّعلَبيّ . وذكر المَـاوَرْدِيّ عن زيد بن أسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "الأمانة ثلاث : الصلاة والصوم والجنابة . استأمن الله عز وجلّ آبنَ آدم على الصلاة فإن شاء قال صلّيتُ ولم يُصَلّ . استأمن الله عزّ وجلّ آبنَ آدم على الصوم فإن شاء قال صُمْتُ ولم يَصُم . استأمن الله عز وجل آبنَ آدم على الجنابة فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل اقرءوا إن شئتم « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائر» " وذكره الثعلبي عن عطاء . وقال مالك فى رواية أشهب عنه وسألته عن قوله تعالى « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائر» : أبلغك أن الوضوء من السرائر؟ قال : وقد بلغني ذلك فيما يقول الناس، فأما حديث أحدّث(١) به فلا . والصلاة من السرائر، والصيام من السرائر، إن شاء قد صلّيت ولم يصـل . ومن السرائر ما فى القـلوب؛ يجزى الله به العباد . قال آبن العـربى : « قال آبن مسعود يُغفر للشهيد إلا الأمانة ، والوضوءُ من الأمانة ، والصلاةُ والزكاةُ من الأمانة ، والوديعةُ من الأمانة؛ وأشدّ ذلك الوديعةُ؛ تُمَثَّلُ له على هيئتها يوم أخذها فيُرْمَى بها في قعر جهنم، فيقال له : أخرجها ، فيتبعها فيجعلها فى عنقه ، فإذا رجا أن يخرج بهـا زَلّت منه فيتبعها ؛ فهو كذلك دهر الداهرين . وقال أُبَيّ بن كعب : من الأمانة أن ائْتُمنت المرأة على فرجها . قال أشهب : قال لى سفيان فى الحيضة والحمـل إن قالت لم أحض وأنا حامل صُدِّقت ، ما لم تأت بمـا يُعرف فيه أنها كاذبة . وفى الحديث : "غسل الجنابة من الأمانة" . وقال ابن عمر : يُبْدى الله يوم القيامة كلّ سِرّ خفيّ ، فيكون زَيْنًا فى الوجوه وشَيْنًا فى الوجوه . والله عالم بكل شيء ، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين .

---

(١) فى ابن العربى : « أخذته » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أى الإنسان ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أى مَنَعة تمنعه . ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ ينصره مما نزل به . وعن عِكرمة « فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ ولا نَاصِرٍ » قال : هؤلاء الملوك ، ما لهم يوم القيامة من قوّة ولا ناصر . وقال سفيان : القوّة العشيرة . والناصر الحليف . وقيل : « فما لَهُ مِن قُوَّةٍ » فى بدنه . « ولا نَاصِرٍ » من غيره يمتنع به من الله . وهو معنى قول قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ أى ذات المطر . تَرْجِع كلَّ سنة بمطر بعد مطر . كذا قال عامة المفسرين . وقال أهل اللغة : الرجع المطر . وأنشدوا للتنخّل يصف سيفًا شبّهه بالماء :

أبيض كالرَّجْع رَسوب إذا * ما ثاخ فى مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي

[ثاخَت قَدَمُه فى الوَحَل تثوخ وتثيخ : خاضت وغابت فيه ؛ قاله الجوهرى] (١) .

قال الخليل : الرَّجع المطر نفسه ، والرَّجْع أيضا نبات الربيع . وقيل : « ذاتِ الرَّجْعِ » أى ذات النفع . وقد يُسَمَّى المطر أيضا أَوْبًا كما يُسَمَّى رَجْعًا قال :

رَبَّاءُ شَمَّاء لا يأوِى لِقُلَّتِها * إلا السَّحابُ وإلا الأَوْبُ والسَّبَلُ (٢)

(١) ما بين المربعين ذكر فى هامش بعض نسخ الأصل . والمحتفل : أعظم موضع فى الجسد . ويختلى : يقطع .

(٢) البيت للتنخل الهذلى . قال السكرى فى شرح هـذا البيت : « ربّاء يربأ فوقها ؛ يقول لا يدنو لقلّتها ؛ أى لرأسها . أى لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب والأوب . والأوب : رجوع النحل . والسبل : القطر حين يسبل » .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء ؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى . وقيل : ذات الملائكة ؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد . وهذا قَسَمٌ . ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ قَسَمٌ آخر ؛ أى تتصدّع عن النبات والشجر والثمار والأنهار ؛ نظيره « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا »(١) الآية . والصَّدْع بمعنى الشقّ ؛ لأنه يصدَع الأرض فتنصدع به . وكأنه قال : والأرض ذات النبات ؛ لأن النبات صادع للأرض . وقال مجاهد : والأرض ذات الطرق التي تَصْدَعها المُشاةُ . وقيل : ذاتِ الحرث لأنه يصدعها . وقيل : ذاتِ الأموات ؛ لانصداعها عنهم للنشور . ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ على هذا وقع القَسَم . أى إن القرآن يفصل بين الحق والباطل . وقد تقدّم في مقدمة الكتاب(٢) ما رواه الحارث عن علىّ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كتاب فيه خبر ما قبلكم وحكم ما بعدكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله" . وقيل : المراد بالقول الفصل ما تقدم من الوعيد في هذه السورة من قوله تعالى : « إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ » . ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ أى ليس القرآن بالباطل واللعب . والهزل ضدّ الجِدّ ، وقد هَزَل يَهْزِل . قال الكُمَيْت :

* يُجَدُّ بنا في كلّ يوم ونَهْزِلُ(٣) *

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى إن أعداء الله ﴿ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أى يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكرًا . ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ أى أجازيهم جزاء كيدهم . وقيل : هو ما أوقع الله بهم يوم بَدْرٍ من القتل والأسر . وقيل : كيد الله استدراجهم من حيث لا يعلمون . وقد مضى هذا المعنى في أوّل « البقرة » عند قوله تعالى : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »(٤) . مستوفى .

---

(١) آية ٢٦ سورة عبس . (٢) راجع جـ ١ ص ٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) صدر البيت :

* أرانا على حب الحياة وطولها *

(٤) راجع جـ ١ ص ٢٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى أخّرهم ، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم ، وارْضَ بما يدبره[1] فى أمورهم . ثم نُسخت بآية السيف «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»[2] . ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ تأكيد . ومَهّل وأمهل بمعنًى ؛ مثلُ نَزّل وأنزل . وأَمْهَلَه أنظره ومَهّلَه تمهيلا ، والاسم المُهْلة . والاستمهال الاستنظار . وتَمهّل فى أمره أى ٱتّأد . وٱتْمَهَلّ ٱتمِهْلالًا أى اعتدل وانتصب . والاتمهلال أيضا سكون وفتور . ويقال : مَهْلًا يا فلان ؛ أى رِفْقًا وسكونا . ﴿ رُوَيْدًا ﴾ أى قريبا ؛ عن ابن عباس . قتادة : قليلا . والتقدير : أمهلهم إمهالا قليلا . والرُّوَيْد فى كلام العرب تصغير رَوْد . وكذا قاله أبو عبيد . وأنشد :

* كأنها ثَمِلٌ يَمْشِى على رُودِ[3] *

أى على مَهَل . وتفسير «رُوَيْدًا» : مَهلًا ، وتفسير رُوَيْدَك أَمهِل ؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى أفعِل دون غيره ، وإنما حرّكت الدال لالتقاء الساكنين ، فنُصب نصبَ المصادر ، وهو مصغر مأمور به ؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد ؛ وهو مصدر أَرْوَدَ يُرْوِد . وله أربعة أوجه : اسم للفعل ، وصفة ، وحال ، ومصدر ؛ فالاسم نحو قولك : رويدَ عمرًا ؛ أى أَرْوِد عمرا بمعنى أمهِله . والصفة نحو قولك : ساروا سَيْرًا رويدًا . والحال نحو قولك : سار القوم رويدا ؛ لما اتصل بالمعرفة صار حالًا لها . والمصدر نحو قولك : رويد عَمْرٍو بالإضافة ؛ كقوله تعالى : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ »[4] قال جميعه الجوهرى . والذى فى الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتا للمصدر ؛ أى إمهالا رويدا . ويجوز أن يكون للحال ؛ أى أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب . ختمت السورة .

(١) فى بعض النسخ « يريده » . (٢) آية ٥ سورة التوبة .

(٣) هذا عجز بيت لجموح الظفرى . وصدره :

* تكاد لا تُثلم البطحاء وطأتها *

(٤) آية ٤ سورة محمد .

سورة الأعلى

مَكّية في قول الجمهور . وقال الضحاك : مَدَنيَّة . وهي تسعَ عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾

يستحب للقارئ إذا قرأ «سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى» أن يقول عَقِبه : سبحان رَبِّيَ الأعلى ؛ قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين ؛ على ما يأتي . وروى جعفر ابن محمد عن أبيه عن جدّه قال : إن لله تعالى مَلَكًا يقال له حزقيائيل ، له ثمانية عشر ألف جناح ، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ، فخطر له خاطر : هل تقدر أن تُبصر العرش بجميعه ؟ فزاده الله أجنحة مثلها ، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام . ثم أوحى الله إليه : أيها المَلَك ، أن طِرْ ، فطار مقدار عشرين ألف سنة ؛ فلم يبلغ رأسَ قائمة من قوائم العرش . ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوة وأمره أن يطير ، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى ، فلم يصل أيضا ؛ فأوحى الله إليه : أيها الملك ، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ ساق عرشي . فقال المَلَك : سبحان رَبِّيَ الأعلى ؛ فأنزل الله تعالى « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى » فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اجعلوها في سجودكم" . ذكره الثعلبيّ في (كتاب العرائس) له . وقال ابن عباس والسُّدّيّ : معنى «سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى» أي عَظِّم ربَّك الأعلى . والاسم صِلة ، قُصِد بها تعظيم المسمَّى ؛ كما قال لبيد :

* إلى الحَوْل ثم ٱسم السلام عليكما (١) *

---

(١) تمامه : * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر *

وقيل : نزّه ربّك عن السّوء وعمّا يقول فيه الملحدون . وذكر الطبريّ أن المعنى نزّه آسم ربك عن أن تسمّي به أحدا سواه . وقيل : نزّه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظّم ، ولذكره محترم . وجعلوا الآسم بمعنى التسمية ، والأولى أن يكون الاسم هو المسمّى . روى نافع عن ابن عمر قال : لا تقل على آسم الله ؛ فإن آسم الله هو الأعلى . وروى أبو صالح عن ابن عباس : صلّ بأمر ربك الأعلى . قال : وهو أن تقول سبحان ربى الأعلى . وروى عن علىّ رضى الله عنه ، وابنِ عباس وابنِ عمر وابنِ الزبير وأبى موسى وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم : أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا : سبحان ربى الأعلى ؛ امتثالا لأمره فى ابتدائها . فيختار الاقتداء بهم فى قراءتهم ؛ لا أن سبحان ربى الأعلى من القرآن ؛ كما قاله بعض أهل الزّيغ . وقيل : إنها فى قراءة أبىّ : «سبحان ربى الأعلى» . وكان ابن عمر يقرؤها كذلك . وفى الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال : "سبحان ربى الأعلى" . قال أبو بكر الأنبارىّ : حدّثنى محمد بن شهريار قال حدّثنا حسين بن الأسود قال حدّثنا عبد الرحمن بن أبى حماد قال حدّثنا عيسى ابن عمر عن أبيه قال : قرأ علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى الصلاة « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » ثم قال : سبحان ربى الأعلى ؛ فلما انقضت الصلاة قيل له : يا أمير المؤمنين ، أتزيد هذا فى القرآن ؟ قال ما هو ؟ قالوا : سبحان ربى الاعلى . قال : لا ، إنما أُمِرْنا بشىء فقلته . وعن عُقبة بن عامر الجُهَنِىّ قال : لما نزلت « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ٱجعلوها فى سجودكم" . وهذا كله يدل على أن الآسم هو المسمّى ؛ لأنهم لم يقولوا : سبحان اسم ربى الأعلى . وقيل : إن أوّل من قال سبحان ربى الأعلى ميكائيل عليه السلام . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : "يا جبريل أخبرنى بثواب من قال سبحان ربى الأعلى فى صلاته أو فى غير صلاته" . فقال : "يا محمد ما من مؤمن ولا مؤمنة يقولها فى سجوده أو فى غير سجوده إلا كانت له فى ميزانه أثقل من العرش والكرسى وجبال الدنيا و يقول الله تعالى صدق عبدى أنا فوق كلّ شىء وليس فوقى شىء ، اشهدوا يا ملائكتى أنى قد غفرت له

وأدخلته الجنة . فإذا مات زاره ميكائيل كلّ يوم فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه فأوقفه بين يدى الله تعالى فيقول يا رب شفّعنى فيه فيقول قد شفّعتك فيه فاذهب به إلى الجنة " .

وقال الحسن : « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » أى صلّ لربك الأعلى . وقيل : أى صلّ بأسماء الله لا كما يصلى المشركون بالمُكَاءِ والتَّصْدِيَة (١) . وقيل : ارفع صوتك بذكر ربك . قال جرير :

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلّما * سَبَحَ الحجيجُ وكبّروا تكبيرا

قوله تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ قد تقدّم معنى التسوية فى « الانفطار » (٢) وغيرها . أى سوّى ما خلق فلم يكن فى خلقه تثبيج (٣) . وقال الزجاج : أى عدّل قامته . وعن ابن عباس : حسّن ما خلق . وقال الضحاك : خلق آدم فسوّى خلقه . وقيل : خلق فى أصلاب الآباء، وسوّى فى أرحام الأمّهات . وقيل : خلق الأجساد فسوّى الأفهام . وقيل : أى خلق الإنسان وهيّأه للتكليف . ﴿ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ قرأ علىّ رضى الله عنه والسُّلَمِىّ والكسائىّ « قَدَر » مخففة الدال، وشدّد الباقون . وهما بمعنًى واحد . أى قدّر ووفّق لكل شكل شكله . ﴿ فَهَدَى ﴾ أى أرشد . قال مجاهد : قدّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة . وعنه قال : هدى الإنسان للسعادة والشقاوة ، وهدى الأنعام لمراعيها . وقيل : قدّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسًا ولمراعيهم إن كانوا وحشًا . وروى عن ابن عباس والسدّى ومقاتل والكلبىّ فى قوله « فهدى » قالوا : عرّف خلقه كيف يأتى الذكر الأنثى ؛ كما قال فى (طه) : « أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٤) » أى الذكر الأنثى . وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل : خلق المنافع فى الأشياء، وهدى الإنسان لوجه

(١) المكاء : الصفير . والتصدية : التصفيق . قال ابن عباس : « كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون ؛ فكان ذلك عبادة فى ظنهم » .　(٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٤　(٣) التثبيج : التخليط .
(٤) آية ٥٠ .

استخراجها منها . وقيل : « قَدَّرَ فَهَدَى » قدّر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه ، وعرّفه وجه الانتفاع به . يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سَنة عَميت ، وقد ألهمها الله أنّ مسح العين بورق الرازيانج الغَضّ يرد إليها بصرها ؛ فربّما كانت فى بَرِّيّة بينها وبين الرِّيف مسيرة أيام فتطوي تلك المسافةَ على طولها وعلى عماها حتى تهجم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحكّ بها عينيها وترجع باصرةً بإذن الله تعالى . وهدايات الإنسان إلى مالا يحدّ من مصالحه ومالا يُحْصر من حوائجه ، فى أغذيته وأدويته ، وفى أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوامّ الأرض ، باب واسع وشَوْط بَطِين(١) لايُحِيط به وصفُ واصفٍ ؛ فسبحان ربِّيَ الأعلى . وقال السدّيّ : قدّر مُدّة الجنين فى الرّحِم تسعةَ أشهر وأقلَّ وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرّحِم . وقال الفراء : أى قدّر فهدى وأضل ؛ فاكتفى بذكر أحدهما ؛ كقوله تعالى : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ(٢) » . ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ(٣) » أى لتدعو ، وقد دعا الكلَّ إلى الإيمان . وقيل : « فَهَدَى » أى دَلّهم بأفعاله على توحيده ، وكونه عالما قادرا . ولا خلاف أن من شدّد الدال من « قدّر » أنه من التقدير ؛ كقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً(٤) » . ومن خفّف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنًى . ويحتمل أن يكون من القُدرة والمُلْك ؛ أى ملك الأشياء ، وهَدَى من شاء .

قلت : وسمعت بعض أشياخى يقول : الذى خلق فسوّى وقدّر فهدى . هو تفسير العلوّ الذى يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ أى النبات والكَلأ الأخضر . قال الشاعر(٥) :

وقد يَنْبُت المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى * وتَبْقَى حزازاتُ النفوس كما هِيَا

(١) أى بعيد . (٢) آية ٨١ سورة النحل .
(٣) آية ٥٢ سورة الشورى . (٤) آية ٢ سورة الفرقان .
(٥) هو زفر بن الحارث . والدمن : السرقين — الزبل — المتلبد بالبعر . والثرى : التراب والأرض .

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ الغُثَاء : ما يقذف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقُمَاش(١) . وكذلك الغُثَّاء (بالتشديد) . والجمع الأغثاء . قتادة : الغثاء الشيء اليابس . ويقال للبقل والحشيش إذا تحطّم ويَبِس : غُثاء وهَشِيم . وكذلك للذي يكون حول الماء من القُمَاش غثاء ؛ كما قال :

كأنّ طَمِيَّة(٢) المُجَيْمِرِ غُدْوَةً * من السَّيْل والأغثاء(٣) فَلْكَة مِغْزَل

وحكى أهل اللغة : غَثَا الوادي وٱجفأ . وكذلك الماء إذا علاه من الزَّبد والقُمَاش ما لا ينتفع به . والأَحْوَى : الأسود ؛ أي إن النبات يَضرب إلى الحُوَّة من شدّة الخضرة كالأسود . والحُوَّة : السواد ؛ قال الأعشى(٤) :

لَمْيَاءُ في شَفَتَيْها حُوَّةٌ لَعَسٌ * وفي اللِّثَاتِ وفي أنيابها شَنَبُ

وفي الصحاح : والحُوَّة سُمْرة الشَّفة . يقال : رجل أَحْوَى وٱمرأة حوّاء ، وقد حَوِيَتْ . وبعيرٌ أَحْوَى إذا خالط خضرته سواد وصُفرة . وتصغير أَحْوَى أُحَيْوٍ ؛ في لغة من قال أُسَيْوِد . ثم قيل : يجوز أن يكون « أحوى » حالًا من « المَرْعَى » ، ويكون المعنى : كأنه من خضرته يضرب إلى السواد ؛ والتقدير : أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء . يقال : قد حَوِيَ النبت ؛ حكاه الكسائي . وقال :

---

(١) القماش (بالضم) : ما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء . وقماش كل شيء : فتاته .

(٢) في بعض النسخ ومعلقة ٱمرئ القيس :

* كأن ذُرَا رأس المجيمر غدوة *

وقد أشار التبريزي شارح المعلقة الى الرواية الأولى . قال : « والمجيمر » أرض لبني فزارة . وطمية : جبل في بلادهم . يقول : قد ٱمتلأ المجيمر ، فكأن الجبل في الماء فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثاء .

(٣) في المعلقة : « الغثاء » قال التبريزي : ورواه الفراء « من السيل والأغثاء » جمع الغثاء ، وهو قليل في الممدود . قال أبو جعفر : من رواه الأغثاء فقد أخطأ ؛ لأن غثاء لا يجمع على أغثاء ، وإنما يجمع على أغثية ؛ لأن أفعلة جمع الممدود وأفعالا جمع المقصور ، نحو رَحًا وأَرحاء .

(٤) كذا في جميع نسخ الأصل ، وهو خطأ . والبيت لذي الرمة كما في ديوانه واللسان . واللمياء من الشفاه : اللطيفة القليلة الدم . واللعس (بفتحتين) : لون الشفة إذا كانت تضرب الى السواد قليلا ؛ وذلك يستملح . والشنب : برودة وعذوبة في الفم ورقة في الأسنان .

وغيث من الوسمىّ حوّ تلاعه * تبطّنته بشيظم صلتان (١)

ويجوز أن يكون « أحوى » صفة لـ « غثاء » . والمعنى : أنه صار كذلك بعد خضرته . وقال أبو عبيدة : فجعله أسود من احتراقه وقدمه ؛ والرّطب إذا يبس اسودّ . وقال عبد الرحمن بن زيد : أخرج المرعى أخضر ، ثم لما يبس اسود من احتراقه فصار غثاء تذهب به الرياح والسيول . وهو مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أى القرآن يا محمد فنعلّمكه ﴿ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ أى فتحفظ ؛ رواه ابن وهب عن مالك . وهذه بشرى من الله تعالى ؛ بشره بأن أعطاه آية بيّنة ، وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى ، وهو أُمّىّ لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه . وعن ابن أبى نَجيح عن مجاهد قال : كان يتذكّر مخافة أن ينسى فقيل : كَفَيْتُكَه . قال مجاهد والكلبى : كان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إذا نزل عليه جبريل بالوحى ، لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبىّ صلى الله عليه وسلم بأولها ، مخافة أن ينساها ؛ فنزلت « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ » بعد ذلك شيئا فقد كَفَيْتُكَه . ووجه الاستثناء على هذا ، ما قاله الفراء : إلا ما شاء الله وهو لم يشأ أن تنسى شيئا ؛ كقوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ (٢) » ولا يشاء . ويقال فى الكلام : لأُعْطِيَنّكَه كلما سألت إلا ما شئت ، وإلا أن أشاء أن أمنعك والنية على ألا يمنعه شيئا . فعلى هذا مجارى الأيمان ؛ يستثنى فيها ونية الحالف التمام . وفى رواية أبى صالح عن ابن عباس : فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات ، « إلا ما شاء الله » . وعن سعيد عن قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسى شيئا ؛ « إلا

(١) الوسمى : مطر أول الربيع ؛ لأنه يسم الأرض بالنبات . نسب الى الوسم . والتلاع : جمع التلعة ؛ وهى أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل ثم يدفع منها الى تلعة أسفل منها . وهى مكرمة من المنابت . وقيل : التلعة مجرى الماء من أعلى الوادى الى بطون الأرض . وتبطنته : دخلته . والشيظم : الطويل الجسيم الفتى من الناس والخيل . والصلتان : النشيط الحديد الفؤاد من الخيل .

(٢) آية ١٠٨ سورة هود .

ما شاء الله » . وعلى هذه الأقوال قيل : إلا ما شاء الله أن ينسى ، ولكنه لم ينس شيئا منه بعد نزول هذه الآية . وقيل : إلا ما شاء الله أن ينسى ثم يذكر بعد ذلك ؛ فإذًا قد نسى ، ولكنه يتذكّر ولا ينسى نسيانا كُلِّيًّا . وقد رُوى أنه أسْقَط آية فى قراءته فى الصلاة ، فحسب أُبَىٌّ أنها نسخت ، فسأله فقال : " إنى نسيتها " . وقيل : هو من النسيان ؛ أى إلا ما شاء الله أن يُنسيك . ثم قيل : هذا بمعنى النسخ ؛ أى إلا ما شاء الله أن ينسخه . والاستثناء نوع من النسخ . وقيل : النسيان بمعنى التَّرْك ؛ أى يَعصِمك من أن تترك العمل به ؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه . فهذا فى نسخ العمل ، والأوّل فى نسخ القراءة . قال الفَرْغانى : كان يَغْشى مجلس الجُنَيد أهلُ البَسْط من العلوم ، وكان يغشاه ابن كَيْسان النحوى ، وكان رجلا جليلا ؛ فقال يوما : ما تقول يا أبا القاسم فى قول الله تعالى : « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » ؟ فأجابه مسرعا — كأنه تقدّم له السؤال قبل ذلك بأوقات — : لا تنسى العمل به . فقال ابن كَيْسان : لا يَفْضُض الله فاك ! مثلك من يصدر عن رأيه . وقوله : « فلا » للنفى لا للنهى . وقيل : للنهى ؛ وإنما أثبتت الياء لأن رءوس الآى على ذلك . والمعنى : لا تَغْفُل عن قراءته وتكراره فتنساه ؛ إلا ما شاء الله أن يُنْسِيَكَه برفع تلاوته للمصلحة . والأوّل هو المختار ؛ لأن الاستثناء من النهى لا يكاد يكون إلا مؤقتا معلوما . وأيضا فإن الياء مثبتة فى جميع المصاحف وعليها القراء . وقيل : معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله . وقيل : المعنى بجعله غثاء أحْوَى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم ؛ فإنه لا يصير كذلك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ ﴾ أى الإعلان من القول والعمل . ﴿ وَمَا يَخْفَى ﴾ من السر . وعن ابن عباس : ما فى قلبك ونفسك . وقال محمد بن حاتم : يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها . وقيل : الجهر ما حفظته من القرآن فى صدرك . « وما يخفى » هو ما نُسخ من صدرك . ﴿ وَنُيَسِّرُكَ ﴾ معطوف على «سَنُقْرِئُك» وقوله : «إنه يعلم الجهر وما يخفى» اعتراض . ومعنى ﴿ لِلْيُسْرَى ﴾ أى للطريقة اليسرى ؛ وهى عمل الخير . قال ابن عباس : نيسرك لأن تعمل خيرا . ابن مسعود : «لليسرى» أى للجنة . وقيل : نوفقك للشريعة اليسرى ؛ وهى الحنيفية السمحة السهلة ؛ قال معناه الضحاك . وقيل : أى نهوّن عليك الوحى حتى تحفظه وتعمل به .

قوله تعالى : فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فعظ قومك يا محمد بالقرآن . ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ أي الموعظة . وروى يونس عن الحسن قال : تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر . وكان ابن عباس يقول : تنفع أوليائي ولا تنفع أعدائي . وقال الجُرْجَانِيّ : التذكير واجب وإن لم ينفع . والمعنى : فذكّر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع ، فحذف ؛ كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحرَّ »(١) . وقيل : إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم . وقيل : إنّ « إنْ » بمعنى ما ؛ أي فذكّر ما نفعت الذكرى ، فتكون « إنْ » بمعنى ما ، لا بمعنى الشرط ؛ لأن الذكرى نافعةٌ بكل حال ؛ قاله ابن شجرة . وذكر بعض أهل العربية : أنّ « إنْ » بمعنى إذ ؛ أي إذ نفعت ؛ كقوله تعالى : « وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »(٢) أي إذ كنتم ؛ فلم يخبر بعلوّهم إلا بعد إيمانهم . وقيل : بمعنى قد .

قوله تعالى : سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾

أي مَن يتّقي الله ويخافه . فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في ابن أم مَكْتُوم . الماوردي : وقد يَذّكر من يرجوه ، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي ؛ فلذلك عَلّقها بالخشية دون الرجاء ، وإن تعلّقت بالخشية والرجاء . وقيل : أي عمم أنت التذكير والوعظ ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى ، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء ؛ حكاه القُشَيْرِي .

قوله تعالى : وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أي ويتجنّب الذكرى ويبعد عنها . ﴿ الأَشْقَى ﴾ أي الشقيّ في علم الله . وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى ﴾

---

(١) آية ٨١ سورة النحل . (٢) آية ١٣٩ سورة آل عمران .

أى العظمى، وهى السفلى من أطباق النار؛ قاله الفرّاء . وعن الحسن : الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا ؛ وقاله يحيى بن سلام . ﴿ ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ أى لا يموت فيستريح من العذاب ولا يحيا حياة تنفعه ؛ كما قال الشاعر :

ألا ما لنفسٍ لا تموت فينقضى * عناها ولا تحيا حياة لها طعم

وقد مضى فى « النساء » وغيرها حديثُ أبى سعيد الخدرى (١) ، وأن المُوَحِّدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم — وهى النار الصغرى على قول الفراء — احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشفع فيهم . خرّجه مسلم . وقيل : أهل الشقاء متفاوتون فى شقائهم ، وهذا الوعيد للأشقى ، و إن كان ثَمّ شَقِيٌّ لا يبلغ هذه المرتبة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أى قد صادف البقاء فى الجنة ؛ أى من تطهر من الشرك بالإيمان ؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة . وقال الحسن والربيع : من كان عمله زاكيا ناميا . وقال مَعْمر عن قتادة : « تَزَكَّى » قال بعمل صالح . وعنه وعن عطاء وأبى العالية : نزلت فى صدقة الفِطر . وعن ابن سِيرين « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » قال : خرج فصلّى بعد ما أدّى . وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدّم زكاتى بين يدى صلاتى . فقال سفيان : قال الله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » . وروى عن أبى سعيد الخدرىّ وابن عمر أن ذلك فى صدقة الفطر وصلاة العيد . وكذلك قال أبو العالية ، وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء . وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » قال : "أخرج زكاة الفطر" ، « وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » قال : "صلاة العيد" . وقال ابن عباس والضحاك : « وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ » فى طريق المُصَلَّى . « فصلى » صلاة العيد . وقيل : المراد

(١) راجع جـ ٥ ص ١٩٦

بالآية زكاة الأموال كلها ؛ قاله أبو الأحوص وعطاء . وروى ابن جُرَيج قال قلت لعطاء : « قد أفلح من تزكى » للفطر ؟ قال : هى للصدقات كلها . وقيل : هى زكاة الأعمال لا زكاة الأموال ؛ أى تطهّر فى أعماله من الرياء والتقصير؛ لأن الأكثر أن يقال فى المال : زَكَّى ، لا تَزَكَّى . وروى جابر بن عبد الله قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» أى من شهد أن لا إله إلا الله وخَلَع الأنداد وشهد أنى رسول الله" . وعن ابن عباس « تزكى » قال : لا إله إلا الله . وروى عنه عطاء قال : نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله عنه ! قال : كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة مائلة فى دار رجل من الأنصار ، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْر والرُّطَب إلى دار الأنصارى ، فيأكل هو وعياله ، فخاصمه المنافق ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه فقال : "إن أخاك الأنصارىّ ذكر أن بسرك ورطبك يقع إلى منزله فيأكل هو وعياله فهل لك أن أعطيك نخلة فى الجنة بدلها" ؟ فقال : أبيع عاجلا بآجل ! لا أفعل . فذكروا أن عثمان ابن عفان أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته؛ ففيه نزلت « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » . ونزلت فى المنافق « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى » . وذكر الضحاك أنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

الثانيـة — قد ذكرنا القول فى زكاة الفطر فى سورة «البقرة»(1) مستوفًى . وقد تقدّم أن هذه السورة مكية ؛ فى قول الجمهور ، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر . القُشَيْرِىّ : ولا يبعد أن يكون أثنى على مَن يمتثل أمره فى صدقة الفِطر وصلاة العيد فيما يأمر به فى المستقبل .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أى ذكر ربه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد ذَكَر معاده وموقفه بين يدى الله جل ثناؤه ، فعبده وصَلّى له . وقيل : ذكر ٱسم ربّه بالتكبير فى أوّل الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره ؛ وهو قوله : الله أكبر . وبه يُحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها . وفيه حُجّة لمن قال : إن الافتتاح جائز بكل ٱسم من أسماء الله عز وجل . وهذه مسألة خلافية

(1) راجع ج ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

بين الفقهاء . وقد مضى القول فى هذا فى أوّل سورة «البقرة»(١) . وقيل : هى تكبيرات العيد . قال الضحاك : « وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ » فى طريق المُصَلَّى «فَصَلَّى» ؛ أى صلاة العيد . وقيل : « وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ » وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته فيخاف عقابه ويرجو ثوابه ؛ ليكون استيفاؤه لها وخشوعُه فيها بحسب خوفه ورجائه . وقيل : هو أن يَفتتح أوّلَ كلِّ سورة ببسم الله الرحمن الرحيم . « فصلَّى » أى فصلّى وذَكَر . ولا فرق بين أن تقول : أكرمتنى فزرتنى ، وبين أن تقول : زرتنى فأكرمتنى . قال آبن عباس : هذا فى الصلاة المفروضة ، وهى الصلوات الخمس . وقيل : الدعاء ؛ أى دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة . وقيل : صلاة العيد ؛ قاله أبو سعيد الخُدْرِىّ وآبن عمر وغيرهما . وقد تقدم . وقيل : هو أن يتطوّع بصلاةٍ بعد زكاته ؛ قاله أبو الأحوص ، وهو مقتضى قول عطاء . وروى عن عبد الله قال : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له .

قوله تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾

قراءة العامة « بَلْ تُؤْثِرُونَ » بالتاء ؛ تصديقه قراءة أُبَىّ « بل أنتم تُؤْثِرُونَ » . وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم « بل يؤثرون » بالياء على الغيبة ؛ تقديره : بل يؤثرون الأشقون الحياةَ الدنيا . وعلى الأوّل فيكون تأويلها بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا للاستكثار من الثواب . وعن آبن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال : أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ لأن الدنيا حُضِّرت وعُجِّلت لنا طيباتها وطعامُها وشرابُها ولذّاتها وبهجتها ، والآخرة غُيِّبت عنا فأخذنا العاجل وتركنا الآجل . وروى ثابت عن أنس قال : كنا مع أبى موسى فى مسير والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا . قال أبو موسى : يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يَفْرِى الأديم بلسانه فَرْيًا فتعال فلنذكر ربَّنا

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

ساعةً . ثم قال : يا أنس، ما ثَبَر الناسَ[1] ! ما بطّأبهم ! ؟ قلت : الدنيا والشيطان والشهوات .
قال : لا، ولكن عُجّلت الدنيا وغُيّبت الآخرة، أمَا والله لو عاينوها ما عَدَلُوا[2] ولا مَيَلُوا .

قوله تعالى : وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾

أي والدار الآخرة ؛ أي الجنة . ﴿ خَيْرٌ ﴾ أي أفضل . ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أي أدوم من الدنيا .
وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع " صحيح . وقد تقدم[3] . وقال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يَفْنَى ، والآخرة من خَزَف يبقى ، لكان الواجب أن يُؤْثَر خَزَفٌ يبقى على ذهب يفنى . قال : فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ قال قتادة وابن زيد : يريد قوله « وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » . وقالا : تتابعت كتب الله جل ثناؤه — كما تسمعون — أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : « إِنّ هـذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى » قال : كُتُبُ الله جلّ ثناؤه كلّها . الكلبيّ : « إِنّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى » من قوله : « قد أفلح » إلى آخر السورة ؛ لحديث أبي ذرّ على ما يأتي . وروى عكرمة عن ابن عباس : « إِنّ هَذَا لَفِي الصحف الأولى » قال : هـذه السورة . وقال الضحاك : إن هـذا القرآن لفي الصحف الأولى ؛ أي الكُتُب الأولى . ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ يعني الكتب المنزّلة عليهما . ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف ، وإنما هو على المعنى ؛ أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف . وروى الآجُرّي من حديث أبي ذرّ قال : قلت يا رسول الله ، فما

(١) الثبر : الحبس ؛ أي ما الذي صدهم ومنعهم عن طاعة الله .
(٢) قوله « ما عدلوا » : ما ساووا بها شيئا . وقوله « ولا ميلوا » : أي ما شكوا ولا ترددوا .
(٣) راجع جـ ٤ ص ٣٢٠

كانت صحف إبراهيم ؟ قال : " كانت أمثالاً كلّها : أيها الملك المتسلط المبتلَى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لتردّ عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردّها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له [ثلاث](١) ساعات : ساعة يناجى فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه يفكر فيها(٢) فى صنع الله عز وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزوّد لمعاد ، ومَرَمّة لمعاش ، ولذّة فى غير محرَّم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه . ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه ". قال : قلت يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : " كانت عِبراً كلها : عَجِبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح . وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينْصَب . وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها . وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل ". قال : قلت يا رسول الله ، فهل فى أيدينا شيء مما كان فى يدى إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك؟ قال : "نعم اقرأ يا أبا ذرّ « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . وذكر الحديث .

سورة الغاشية

وهى مكّية فى قول الجميع ، وهى ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١)

« هل » بمعنى قد ؛ كقوله : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ »(٣) ؛ قاله قُطْرُب . أى قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ؛ أى القيامة التى تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ؛ قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : «الغاشية» النار تغشى وجوه الكفار ؛ ورواه أبو صالح

(١) زيادة من الدر المنثور . (٢) فى الدر المنثور : « يحاسب فيها نفسه و يتفكر فيها صنع ... » .
(٣) آية ١ سورة الإنسان .

عن ابن عباس؛ ودليله قوله تعالى : « وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ »(١) . وقيل : تغشى الخلق . وقيل : المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلائق . وقيل : « الغاشية » أهل النار يَغْشَوْنها ويقتحمون فيها . وقيل : معنى « هل أتاك » أى هذا لم يكن من علمك ولا من علم قومك . قال ابن عباس : لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور ها هنا . وقيل : إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبي .

قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾

قال ابن عباس : لم يكن أتاه حديثهم فأخبره عنهم فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم القيامة . ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ قال سفيان : أى ذليلة بالعذاب . وكل متضائل ساكن خاشع . يقال : خشع فى صلاته إذا تذلّل ونكس رأسه . وخشع الصوت : خَفِيَ؛ قال الله تعالى : « وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ »(٢) . والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه . وقال قتادة وابن زيد : « خاشعة » أى فى النار . والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس . ثم قال : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ فهذا فى الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل . فالمعنى : وجوه عاملة ناصبة فى الدنيا « خاشعة » فى الآخرة . قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سَيْره : قد عَمِلَ يَعْمَل عَمَلًا . ويقال للسحاب إذا دام بَرْقُه : قد عَمِل يعمل عملاً . وذا سحاب عَمِل . قال الهذلى(٣) :

حتى شآها كَلِيلٌ مَوْهِنًا عَمِلٌ * باتت طِرابا وبات الليلَ لم يَنَم

---

(١) آية ٥٠ سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٨ سورة طه .

(٣) هو ساعدة بن جُؤَيّة . وقوله « شآها » : أى ساقها . والكليل : البرق الضعيف . والموهن : القطعة من الليل . وباتت طرابا : أى باتت البقر العطاش طرابا إلى السير إلى الموضع الذى فيه البرق . وبات البرق الليل أجمع لا يفتر؛ فعبر عن البرق بأنه لم ينم لاتصاله من أول الليل إلى آخره (راجع هذا البيت والكلام عليه فى خزانة الأدب الشاهد الرابع بعد الستمائة) .

﴿ نَاصِبَةٌ ﴾ أي تَعِبة. يقال: نَصِب (بالكسر) ينصَب نَصَباً إذا تعِب ، ونصْباً أيضا ، وأنصبه غيره. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم فى الدنيا على معصية الله عزّ وجل وعلى الكفر، مثل عَبدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصا له . وقال سعيد عن قتادة : « عامِلةٌ ناصِبَةٌ » قال : تكبّرت فى الدنيا عن طاعة الله عز وجل فأعملها الله وأنصبها فى النار بجر السلاسل الثقال وحمل الأغلال، والوقوف حُفاةً عُراةً فى العَرصات فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . قال الحسن وسعيد بن جُبير : لم تَعْمَل لله فى الدنيا ولم تَنْصَب له فأعملها وأنصبها فى جهنم . وقال الكلبيّ : يُجَرّون على وجوههم فى النار . وعنه وعن غيره : يُكَلَّفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم ، فينْصَبون فيها أشدّ ما يكون من النَّصَب، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض فى النار، كما تخوض الإبل فى الوَحَل ، وارتقائها فى صعود من نار ، وهبوطها فى حدور منها ، إلى غير ذلك من عذابها . وقاله ابن عباس . وقرأ ابن مُحَيْصِن وعيسى وحُميد ، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير « ناصِبةً » بالنصب على الحال. وقيل: على الذمّ . الباقون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ فيوقف على « خاشِعة » . ومن جعل المعنى فى الآخرة جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن «وجوه» فلا يوقف على « خاشعة » . وقيل : « عامِلةٌ ناصِبَةٌ » أى عاملة فى الدنيا ناصبة فى الآخرة. وعلى هذا يحتمل: وجوه يومئذ عاملة فى الدنيا ناصبة فى الآخرة خاشعة . قال عكرمة والسُّدّيّ : عمِلت فى الدنيا بالمعاصى . وقال سعيد بن جُبير وزيد بن أسلم : هم الرهبان أصحاب الصوامع، وقاله ابن عباس . وقد تقدّم فى رواية الضحاك عنه . وروى عن الحسن قال : لما قدم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الشام أتاه راهب شيخٌ كبيرٌ متقهِّلٌ، عليه سواد ، فلما رآه عمر بكى . فقيل له : يا أمير المؤمنين ما يُبكيك ؟ قال : هذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه ، — وقرأ قول الله عزّ وجلّ — « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » . قال الكسائىّ :

التقهل : رثاثة الهيئة، ورجل مُتَقَهِّل يابس الجلد سيّء الحال مثل المُتَقَحِّل . وقال أبو عمرو : التقهل : شكوى الحاجة . وأنشد :

* لَعْـوًا[1] إذا لاقيته تَقَهّلا *

والقَهْل : كُفران الإحسان . وقد قَهِل يَقْهَل قَهْلًا إذا أثنى ثناءً قبيحا . وأقهل الرجل تكلّف ما يعيبه ودنّس نفسه . وانقهل ضَعُف وسقط ؛ قاله الجوهري . وعن عليّ رضي الله عنه أنهم أهل حَرُوراء ؛ يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "تَحْقِرون[2] صلاتكم مع صلاتهم وصيامَكم مع صيامهم وأعمالَكم مع أعمالهم يمرقون من الدِّين كما يَمْرُق السهم من الرَّمِيّة" الحديث .

قوله تعالى : تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾

أي يصيبها صِلاؤها وحرّها . ﴿ حَامِيَةً ﴾ شديدة الحرّ ؛ أي قد أوقدت وأحميت المدة الطويلة . ومنه حَمِيَ النهار (بالكسر) وحَمِيَ التَّنُّور حَمْيًا فيهما ؛ أي اشتدّ حرّه . وحكى الكسائي : اشتدّ حَمْيُ الشمس وحَمْوُها بمعنًى . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب « تُصْلَى » بضم التاء . الباقون بفتحها . وقرئ « تُصَلَّى » بالتشديد . وقد تقدم القول فيها في « إذا السماءُ انْشَقَّتْ »[3] . الماوردي : فإن قيل فما معنى وصفها بالحَمْي، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة ؟ قيل : قد اختلف في المراد بالحامية ها هنا على أربعة أوجه ؛ أحدها — أن المراد بذلك أنها دائمة الحمي، وليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها . الثاني — أن المراد بالحامية أنها حِمًى من ارتكاب المحظورات وانتهاك المحارم ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن لكل مَلِك حِمًى وأن حِمَى الله محارمه . ومن

---

(١) اللعو : السيء الخلق . والشره الحريص . (٢) أي تعدون صلاتكم حقيرة بالنظر إلى صلاتهم .

(٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٧٠ .

يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه". الثالث — أنها تحمى نفسها عن أن تطاق ملامستها أو ترام مماسّتها؛ كما يحمى الأسد عرينه؛ ومثله قول النابغة :

تَعْدُو الذئاب على من لا كلاب له * وتَتّقِي صَوْلة المستأسِد الحامى

الرابع — أنها حامية حَمْى غيظ وغضب؛ مبالغةً فى شدّة الانتقام . ولم يُرد حَمْى جِرْم وذات؛ كما يقال : قد حَمِى فلان إذا اغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام . وقد بيّن الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال : « تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ »[1] .

قوله تعالى : تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾

الآنى الذى قد انتهى حرّه ؛ من الإيناء بمعنى التأخير . ومنه "آنيْتَ وآذَيْتَ"[2] . وآناه يؤنيه إيناءً ؛ أى أخّره وحبسه وأبطأه . ومنه « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »[3] . وفى التفاسير « مِنْ عَيْنٍ آنيةٍ » أى تناهى حرّها ؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت . وقال الحسن : « آنيةٍ » أى حرّها ادّارك ؛ أوقِدت عليها جهنم منذ خُلقت فدُفِعوا إليها وِرْدًا عِطاشًا . وعن ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال : بلغت أناها وحان شربها .

قوله تعالى : لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ أى لأهل النار . ﴿ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم . قال عكرمة ومجاهد : الضَّريع نبت ذو شَوْك لاصقٌ بالأرض ، تُسَمّيه قريش الشِّبْرِق إذا كان رطبا ، فإذا يَبِس فهو الضريع ، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه ؛ وهو سم قاتل ، وهو أخبث الطعام وأشنعه ؛ على هذا عامة المفسرين . إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال : هو شيء يَرْمِى به البحر يُسمّى الضريع من أقوات الأنعام

(١) آية ٨ سورة الملك . (٢) أى فى الحديث فى صلاة الجمعة ؛ إذ قيل لرجل جاء يوم الجمعة يتخطى رقاب الناس . ومعنى « آنيت » أخرت المجىء وأبطأت . و « آذيت » أى آذيت الناس بتخطيك .

(٣) آية ٤٤ سورة الرحمن .

لا النـاس، فإذا وقعت فيـه الإبل لم تشبع، وهلكت هُزْلًا . والصحيح ما قاله الجمهور أنه نبت . قال أبو ذُؤيب (١) :

رَعَى الشِّبْرِق الرَّيّانَ حتى إذا ذَوَى * وعاد ضَرِيعًا بانَ منـه النّحائص (٢)

وقال الهذليّ وذكر إبلا وسُوء مَرْعاها (٣) :

وحُبِسن فى هَزْمِ الضّرِيع فكلُّهـا * حَدْباءُ داميـةُ اليَدَيْن حَرودُ (٤)

وقال الخليل: الضريع نبات أخضر مُنْتن الريح يرمى به البحر . وقال الوالبيّ عن آبن عباس : هو شجر من نار، ولو كانت فى الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها . وقال سعيد بن جبير : هو الحجارة، وقاله عكرمة . والأظهر أنه شجر ذو شَوْك حسب ما هو فى الدنيا . وعن آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الضريع شيء يكون فى النـار يشبه الشوك أشدّ مرارة من الصبر وأنتن من الجيفة وأحرّ من النار سماه الله ضريعا" . وقال خالد بن زياد : سمعت المتوكل بن حمدان يُسأل عن هـذه الآية « ليس لهم طعام إلا من ضريع » قال : بلغنى أن الضريع شجرة من نار جهنم، حِمْلُها القَيْح والدم، أشدّ مرارة من الصبر، فذلك طعامهم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال آبن كَيْسان : هو طعام يضرعون عنده ويَذِلّون ، ويتضرعون منه إلى الله تعـالى طلبا للخلاص منه، فَسُمّى بذلك لأن آكله يَضرع فى أن يُعْفَى منـه لكراهته وخشونته . قال أبو جعفر النحاس : قد يكون مشـتقًّا من الضارع وهو الذليـل؛ أى ذو ضراعة ، أى من شربه ذليـل تلحقه ضراعة . وعن الحسن أيضا : هو الزقوم . وقيـل : هو وادٍ فى جهنم . فالله أعلم . وقد قال الله تعـالى فى موضع

(١) لم نعثر على هـذا البيت فى ديوان أبى ذؤيب .

(٢) فى بعض نسخ الأصل : «بان عنه النحائص» . والنحائص : جمع النحوص (بفتح النون) وهى الأتان الوحشية الحائل . وقيل : هى التى فى بطنها ولد . وقيل : التى لا لبن لها .

(٣) هو قيس بن عيزارة ؛ كما فى اللسان .

(٤) هزم الضريع : ما تكسر منـه . والحدباء : الناقة التى بدت حراقفها وعظم ظهرها . والحرود : التى لا تكاد تدر .

آخر : « فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ »(١) . وقال هنـا : « إِلَّا مِن ضَرِيعٍ » وهو غير الغسلين . ووجه الجمع أن النـار دركات ؛ فمنهم من طعامه الزقوم ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعـامه الضريع ، ومنهم من شرابه الحمـيم ، ومنهم من شرابه الصَّديد . قال الكلبيّ : الضريع فى درجة ليس فيها غيره ، والزقوم فى درجة أخرى . ويجوز أن تحمل الآيتان على حالتين كما قال : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَـا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »(٢) . القُتَبيّ : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النـار . وكذلك سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النـار . قال : وإنما دلنـا الله على الغائب عنده بالحاضر عندنا ؛ فالأسماء متفقـة الدلالة ، والمعانى مختلفة . وكذلك ما فى الجنة من شجرها وفُرُشها . القُشَيْرىّ : وأمثـلُ من قول القُتَبيّ أن نقول : إن الذى يُبقى الكافرين فى النار ليدوم عليهم العذاب ، يُبقى النبات وشجرةَ الزقوم فى النار لِيُعَذِّبَ بها الكفار . وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا ينبت فى النـار ولا أنهم يأكلونه . فالضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس . وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع وهلكت هُزْلًا . فأراد أن هؤلاء يقتاتون بمـا لا يشبعهم ، وضَرَبَ الضَّريع له مَثَـلًا أنهم يعذّبون بالجوع كما يعذّب مَن قُوتُه الضريع . قال الترمذيّ الحكيم : وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنىء ؛ كأنه يدل على أنهم تحيروا فى قدرة الله تعالى ، وأن الذى أنبته فى هذا التراب هـذا الضريع قادر على أن ينبته فى حريق النار ؛ كما جعل لنـا فى الدنيا من الشجر الأخضر نارا ، فلا النار تحرق الشجر ، ولا رطوبة المـاء فى الشجر تطفئ النار ؛ فقال تعالى : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِـدُونَ »(٣) . وكما قيـل حين نزلت « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ »(٤) : قالوا يا رسول الله ، كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال : "الذى

---

(١) آية ٣٥ و ٣٦ سورة الحاقة .　(٢) آية ٤٤ سورة الرحمن .
(٣) آية ٨٠ سورة يس .　(٤) آية ٩٧ سورة الإسراء .

أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يُمشيهم على وجوههم ". فلا يتحيّر في مثل هذا إلا ضعيف القلب . أوَ ليس قد أخبرنا أنه «كلما نَضِجَتْ جُلُودُهُم بدلناهُم جلوداً غيرَها»(١)، وقال : «سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ»(٢)، وقال : «إنَّ لدينا أنكالاً»(٣) أى قيودا . «وجحيماً وطعاماً ذا غُصَّةٍ» قيل : ذا شَوْك . فإنما يتلون عليهم العذاب بهذه الأشياء .

قوله تعالى : لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي من جُوعٍ ﴿٧﴾

يعنى الضّريع لا يَسمن آكله . وكيف يسمن من يأكل الشوك ! قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : إن إبلنا لَتَسْمَن بالضّريع ؛ فنزلت «لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ» . وكُذّبوا ؛ فإن الإبل إنما ترعاه رطبا فإذا يبس لم تأكله . وقيل : اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع ؛ لأن المضارعة(٤) المشابهة . فوجدوه لا يسمن ولا يغنى من جوع .

قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ أى ذات نعمة . وهى وجوه المؤمنين ؛ نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح . ﴿لِسَعْيِهَا﴾ أى لعملها الذى عملته فى الدنيا . ﴿رَاضِيَةٌ﴾ فى الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها . ومجازه : لثواب سعيها راضية . وفيها واو مضمرة . المعنى : ووجوه يومئذ ؛ ليفصل بينها و بين الوجوه المتقدّمة . والوجوه عبارة عن الأنفس . ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أى مرتفعة ؛ لأنها فوق السموات حسب ما تقدّم . وقيل : عالية القدر ؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . وهم فيها خالدون .

---

(١) آية ٥٦ سورة النساء . (٢) آية ٥٠ سورة إبراهيم .
(٣) آية ١٢ سورة المزمل . (٤) فى بعض النسخ : « لا يشبه » .

قوله تعالى : لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾

أى كلاما ساقطا غير مرضى . وقال : «لاغية» واللَّغْوُ واللَّغا واللاغية بمعنًى واحد . قال :

* عن اللّغا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ[(١)] *

وقال الفرّاء والأخفش : أى لا تسمع فيها كلمة لَغْو . وفى المراد بها ستة أوجه : أحدها — يعنى كذبا و بهتانا وكفرا بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس . الثانى — لا باطل ولا إثم؛ قاله قتادة . الثالث — أنه الشتم؛ قاله مجاهد . الرابع — المعصية؛ قاله الحسن . الخامس — لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب؛ قاله الفرّاء . وقال الكلبى : لا يسمع فى الجنة حالف بيمين برّة ولا فاجرة . السادس — لا يسمع فى كلامهم كلمة بلغو؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم؛ قاله الفرّاء أيضا . وهو أحسنها لأنه يعمّ ما ذكر . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « لا يُسمع » بياء غير مسمى الفاعل . وكذلك نافع إلا أنه بالتاء المضمومة؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه . ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور . وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة . ﴿ لاغِيةً ﴾ نصبا على إسناد ذلك للوجوه؛ أى لا تسمع الوجوه فيها لاغية .

قوله تعالى : فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أى بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخدود . وقد تقدم فى سورة « الإنسان » أن فيها عيونا[(٢)] . فـ « عَيْن » بمعنى عيون . والله أعلم . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أى عالية . ورُوى أنه كان ارتفاعها قدر ما بين

---

(١) قبله : * وربِّ أسراب حجيج كُظَّمِ * قائله رؤبة . ونسبه ابن برى للعجاج .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٤، ١٤٠

السماء والأرض، ليرى وليُّ الله مُلْكه حوله . ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أى أباريق وأوانٍ . والإبريق : هو ماله عُرْوة ونُحرطوم . والكُوب : إناء ليس له عُرْوة ولا نُحرطوم . وقد تقدم هـذا فى سورة « الزخرف »(١) وغيرها . ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ أى وسائد ، الواحدة نُمْرُقَة . ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ أى واحدة إلى جنب الأخرى . قال الشاعر :

وإنا لنجرى الكاس بين شُروبنا * وبين أبى قابوس فـوق النمـارق

وقال آخر :

كُهُول وشُبان حِسانٌ وجوههـم * على سُـرُر مصـفوفة ونمـارق

وفى الصحاح : النُّمْرُق والنُّمْـرُقة : وسادة صغيرة . وكذلك النِّمِرقة (بالكسر) لغـة حكاها يعقوب . وربما سَمَّوا الطِّنْفسة التى فوق الرَّحْل نُمْـرُقة؛ عن أبى عبيد . ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ قال أبو عبيـدة : الزرابىّ : البُسُط . وقال ابن عبـاس : الزرابىّ الطنافس التى لها خَمْـل رقيق، واحدتها زَرْبِيّة؛ وقاله الكلبى والفرّاء . والمبثوثة : المبسوطة؛ قاله قتادة . وقيل : بعضها فوق بعض؛ قاله عكرمة . وقيـل كثيرة؛ قاله الفراء . وقيـل : متفرقة فى المجالس؛ قاله القتبىّ .

قلت : هـذا أصوب ، فهى كثيرة متفرقة . ومنه « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ »(٢) . وقال أبو بكر الأنبارى : وحدّثنا أحمـد بن الحسين قال حدّثنا حسين بن عرفة قال حدّثنا عمار بن محمد قال : صليت خلف منصور بن المعتمر فقرأ « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » وقرأ فيها « وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ » متكئين فيها ناعمين .

قوله تعـالى : أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

قال المفسرون : لمـا ذكر الله عز وجل أمْرَ أهلِ الدارين تعجّب الكفار من ذلك ، فكذبوا وأنكروا ؛ فذكّرهم الله صنعته وقدرته ؛ وأنه قادر على كل شىء ، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض . ثم ذكر الإبل أولا لأنهـا كثيرة فى العرب ولم يروا الفيَـلة ، فنبههم جلّ

(١) راجع جـ ١٦ ص ١١٣ (٢) آية ١٦٤ سورة البقرة .

ثناؤه على عظيم من خلقه ؛ قد ذلّله للصغير يقوده ويُنيخه ويُنْهِضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فيَنْهَض بثقيل حمله ، وليس ذلك فى شيء من الحيوان غيره . فأراهم عظيما من خلقه مسخَّرًا لصغير من خلقه ؛ يدلّهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته . وعن بعض الحكماء : أنه حدّث عن البعير و بديع خلقه ، وقد نشأ فى بلاد لا إبل فيها ؛ ففكر ثم قال : يوشِك أن تكون طوال الأعناق . وحين أراد بها أن تكون سفائن البر ، صَبّرها على احتمال العطش؛ حتى أن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعدًا وجعلها ترعى كل شيء نابت فى البرارى والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم . وقيل : لما ذكر السُّرُرَ المرفوعة قالوا : كيف نَصْعَدها؟ فأنزل الله هذه الآية و بيّن أن الإبل تَبرك حتى يُحمل عليها ثم تقوم؛ فكذلك تلك السرر تتطامن ثم ترتفع . قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما . وقيل : الإبل هنا القِطَع العظيمة من السحاب؛ قاله المبرّد . قال الثعلبيّ : وقيل فى الإبل هنا السحاب ولم أجد لذلك أصلا فى كتب الأئمة .

قلت : قد ذكر الأصمعى أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب قال أبو عمرو : من قرأها « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » بالتخفيف عنى به البعير لأنه من ذوات الأربع ، يَبْرُك فتحمل عليه الحمولة . وغيره من ذوات الأربع لا يُحمل عليه إلا وهو قائم . ومن قرأها بالتثقيل فقال «الإبِلّ»(١) عنى بها السحاب التى تحمل الماء للطر . وقال الماوردى : وفى الإبل وجهان : أحدهما — وهو أظهرهما وأشهرهما أنها الإبل من النَّعَم . الثانى — أنها السحاب . فإن كان المراد بها السحاب فلِمَا فيها من الآيات الدالة على قدرته ، والمنافع العامة لجميع خلقه . و إن كان المراد بها الإبل من النَّعَم فلأن الإبل أجمعُ للنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروبه أربعة : حَلُوبة ، ورَكُوبة ، وأكولة ، وحمولة . والإبل تجمع هذه الخلال الأربع ؛ فكانت النِّعمة بها أعم ، وظهور القدرة فيها أتم . وقال الحسن : إنما خَصّها الله بالذكر لأنها تأكل النَّوَى والقَتّ ، وتُخرج اللبن . وسئل الحسن أيضا عنها وقالوا : الفيل أعظم فى الأعجوبة؟ فقال : العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ، ولا يركب ظهره، ولا يُحْلَب

(١) فى البحر : «قرأ الجمهور بكسر الباء وتخفيف اللام . والأصمعى عن أبى عمرو بإسكان الباء . وعلى وابن عباس بشد اللام ، ورويت عن أبى عمرو وأبى جعفر والكسائى ، وقالوا إنها السحاب» .

دَرّه . وكان شُريح يقول : اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت . والإبل لا واحد لها من لفظها ، وهى مؤنثة ؛ لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم ، و إذا صغّرتها دخلتها الهاء فقلت : أُبَيْلَة وغُنَيْمَة ، ونحو ذلك . وربما قالوا للإبل : إِبْل بسكون الباء للتخفيف ، والجمع آبال .

قوله تعالى : وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ أى رفعت عن الأرض بلا عمد . وقيل : رُفعت فلا ينالها شيء . ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أى كيف نصبت على الأرض بحيث لا تزول ؛ وذلك أن الأرض لما دُحيت مادت فأرساها بالجبال ، كما قال : « وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ »(1) . ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أى بُسطت ومُدّت . وقال أنس : صلّيت خلف علىّ رضى الله عنه فقرأ « كَيْفَ خَلَقْتُ » و « رَفَعْتُ » و « نَصَبْتُ » و « سَطَحْتُ » بضم التاءات ؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى . و به كان يقرأ محمد بن السَّمَيْقَع وأبو العالية ؛ والمفعول محذوف ، والمعنى خلقتها . وكذلك سائرها . وقرأ الحسن وأبو حَيْوَة وأبو رجاء « سطّحتْ » بتشديد الطاء و إسكان التاء . وكذلك قرأ الجماعة إلا أنهم خففوا الطاء . وقدم الإبل فى الذكر ، ولو قدّم غيرها لجاز . قال القشيرى : وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة . وقد قيل : هو أقرب إلى الناس فى حق العرب لكثرتها عندهم ، وهم من أعرف الناس بها . وأيضا : مرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأخر ؛ فهى مأكولة ولبنها مشروب ، وتصلح للحمل والركوب ، وقطع المسافات البعيدة عليها ، والصبر على العطش وقلّة العَلَف وكثرة الحمل ، وهى من معظم أموال العرب . وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس ، ومَن هذا حالُه تفكّر فيما يحضُره ، فقد ينظر

(1) آية ٣١ سورة الأنبياء .

فى مركوبه ثم يمدّ بصره إلى السماء ثم إلى الأرض . فأمروا بالنظر فى هذه الأشياء ؛ فإنها أدلّ دليل على الصانع المختار القادر .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فعظهم يا محمد وخوّفهم . ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أى واعظ . ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أى بمسلَّط عليهم فتقتلهم . ثم نسختها آية السيف . وقرأ هارون الأعور « بِمُسَيْطَرٍ » (بفتح الطاء) ، و « والمسيطرون »[(١)] . وهى لغة تميم . وفى الصحاح : «والمُسَيْطِر والمُصَيْطِر: المسلَّط على الشىء ليُشْرِف عليه ويتعهّد أحواله ويكتب عمله ؛ وأصله من السّطر لأن[(٢)] من معنى السطر ألّا يتجاوز؛ فالكتاب مُسَطَّر والذى يفعله مُسَطِّر ومُسَيطِر ؛ يقال : سَيْطَرْتَ علينا ، وقال تعالى : « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » . وسَطَره أى صَرَعه » . ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ آستثناء منقطع ؛ أى لكن من تولّى عن الوعظ والتذكير . ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ وهى جهنم الدائم عذابها . وإنما قال « الأكبر » لأنهم عُذِّبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل . ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود : « إلّا من تولّى وكفر فإنه يعذبه الله » . وقيل: هو استثناء متصل . والمعنى: لست بمسلّط إلا على من تولّى وكفر ، فأنت مسلّط عليه بالجهاد ، والله يعذّبه بعد ذلك العذابَ الأكبر ؛ فلا نسخ فى الآية على هذا التقدير . وروى أن عليًّا أُتى برجل آرتدّ ، فآستتابه ثلاثة أيام فلم يعاود الإسلام ، فضرب عنقه وقرأ « إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ » . وقرأ ابن عباس وقتادة « أَلَا » على الاستفتاح والتنبيه ؛ كقول آمرئ القيس :

* أَلَا رُبَّ يومٍ لَكَ منهنّ صالحٍ[(٣)] *

---

(١) آية ٣٧ سورة الطور . (٢) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ابن عادل نقلا عن القرطبي . والذى فى الصحاح : « وأصله من السطر ؛ لأن الكتاب مسطر ... » .

(٣) تمامه : * ولا سيما يوم بدارة جلجل *

و « مَن » على هـذا للشرط . والجواب « فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ » والمبتدأ بعـد الفاء مضمر؛ والتقدير : فهو يعذبه الله؛ لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذى بعد الفاء لكان : إلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ يعذبه الله . ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أى رجوعهم بعـد الموت . يقال : آب يؤوب ؛ أى رجع . قال عبيد :

وكلّ ذى غَيبـةٍ يَؤُوبُ * وغائبُ الموتِ لا يَؤُوبُ

وقرأ أبو جعفر « إِيّابهم » بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ، ولو جاز لجاز مثله فى الصيام والقيام . وقيـل : همـا لغتان بمعنًى . الزمخشرىّ : وقرأ أبو جعفر المدنىّ « إِيّابهم » بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فِيعالًا مصدر أيّب فَيْعَل من الإياب . أو أن يكون أصـله إِوّابا فِعّالا من أوّب ، ثم قيـل : إيوابا كديوان فى دِوّان . ثم فُعـل ما فُعل بأصل سيّد ونحوه .

سـورة الفجـر

مَكِّيَّةٌ (1) ، وهى ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ أقسم بالفجر . ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ أقسام خمسة . واختلف فى « الفجر » فقال قوم : الفجر هنا انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله علىّ وابن الزبير وابن عباس رضى الله عنهم . وعن ابن عباس (2) أيضا أنه النهار كله ، وعبر عنـه بالفجر لأنه أوّله . وقال ابن مُحَيْصن عن عطية عن ابن عباس : يعنى فجر يوم المحرّم . ومثله قال قتادة . قال : هو فجر أوّل يوم من المحرّم، منه تنفجر السَّنة.

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « سبع وعشرون » وفى بعضها : « تسع وعشرون » .

(٢) فى بعض النسخ : « ابن مسعود » .

وعنه أيضا : صلاة الصبح . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : « والفجر » يريد صبيحة يوم النّحر ؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلةً قبله إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده ؛ لأن يوم عرفة له ليلتان : ليلة قبله وليلة بعده ، فمن أدرك الموقف ليلةً بعد عرفة ، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر فجر يوم النحر . وهذا قول مجاهد . وقال عكرمة : « والفجرِ » قال : انشقاق الفجر من يوم جَمْع (١) . وعن محمد بن كعب القُرَظيّ : « والفجرِ » آخر أيام العَشْر إذا دَفَعْتَ من جَمْع . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ؛ لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال : « وليالٍ عَشْرٍ » أى ليال عشر من ذى الحجة . وكذا قال مجاهد والسدّىّ والكلبيّ فى قوله : « وَليالٍ عَشْرٍ » هو عشر ذى الحجة ؛ وقاله ابن عباس . وقال مسروق : هى العشر التى ذكرها الله فى قصة موسى عليه السلام « وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ » (٢) ، وهى أفضل أيام السنة . وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "« والفجرِ . وليالٍ عَشْرٍ » — قال — عشر الأضحى" فهى ليال عشر على هذا القول ؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه ؛ إذ قد خصّها الله بأن جعلها مَوْقِفًا لمن لم يُدرك الوقوف يوم عرفة . وإنما نكرت ولم تعرّف لفضيلتها على غيرها (٣) ، فلو عُرّفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التّنكير ، فنُكرت من بين ما أقسم به للفضيلة التى ليست لغيرها . والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : هى العشر الأواخر من رمضان ؛ وقاله الضحاك . وقال ابن عباس أيضا ويَمَان والطبرىّ : هى العشر الأُوَل من المحرّم التى عاشرها يوم عاشوراء . وعن ابن عباس : « وليالِ عشرٍ » (بالإضافة) (٤) يريد : وليالى أيام عشر .

قوله تعالى : وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾

الشَّفْعُ الاثنان ، والوَتْر الفرد . واختلف فى ذلك ؛ فرُوِى مرفوعا عن عمران بن الحُصَين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الشفع والوتر الصلاةُ منها شفع ومنها وتر" .

---

(١) هو يوم عرفة . (٢) آية ١٤٢ سورة الأعراف . (٣) فى الجمل عن القرطبي : لأنها أفضل أيام السنة . (٤) فى تفسير الألوسى : «وقرأ ابن عباس بالإضافة فضبطه بعضهم (وليال عشر) بلام دون ياء ، وبعضهم (وليالى) بالياء وهو القياس » .

وقال جابر بن عبد الله قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "« والفجرِ وليالٍ عشرٍ » — قال — هو الصبح وعشر النّحْر والوِتْرُ يوم عرفة والشفع يوم النحر". وهو قول ابن عباس وعكرمة . واختاره النحاس وقال: حديث أبي الزبير عن جابر هو الذى صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو أصح إسنادا من حديث عِمران بن حُصين . فيومُ عَرَفَةَ وِتْرٌ لأنه تاسعها ، ويومُ النّحْر شفع لأنه عاشرها . وعن أبي أيوب قال : سئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « والشفعِ والوترِ » فقال : "الشفع يوم عرفة و يوم النحر والوتر ليلة يوم النحر" . وقال مجاهد وابن عباس أيضا : الشفع خلقه ؛ قال الله تعالى : « وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا »(١) والوتر هو الله عز وجل . فقيل لمجاهد : أترويه عن أحد ؟ قال : نعم ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ونحوه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة قالوا : الشفع الخلق ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ »(٢) الكفر والإيمان ، والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والنور والظلمة ، والليل والنهار ، والحرّ والبرد ، والشمس والقمر ، والصيف والشتاء ، والسماء والأرض ، والجنّ والإنس . والوتر هو الله عز وجل ؛ قال جل ثناؤه : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ » . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعةً وتسعين اسما والله وِتْرٌ يحب الوِتْر" . وعن ابن عباس أيضا : الشفع صلاة الصبح ، والوتر صلاة المغرب . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هي صلاة المغرب ، الشفع فيها ركعتان ، والوتر الثالثة . وقال ابن الزبير : الشفع يَوْمَا مِنًى : الحادى عشر ، والثانى عشر . والثالث عشر الوتر ؛ قال الله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »(٣) . وقال الضحاك : الشفع عشر ذى الحجة ، والوتر أيام مِنًى الثلاثة . وهو قول عطاء . وقيل : إن الشفع والوتر آدم وحوّاء ؛ لأن آدم كان فردا فشُفِع بزوجته حوّاء فصار شفعا بعد وتر . رواه ابن أبي نَجيح ، وحكاه القشيريّ عن ابن عباس . وفى رواية : الشفع آدم وحوّاء ، والوتر هو الله تعالى . وقيل : الشفع والوتر الخلق ؛ لأنهم شفع ووتر ،

(١) آية ٨ سورة النبأ . (٢) آية ٤٩ سورة الذاريات . (٣) آية ٢٠٣ سورة البقرة .

فكأنه أقسم بالخلق . وقد يُقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويُقسم بأفعاله لقدرته ؛ كما قال تعالى : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ »(١) . ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه ؛ كما قال : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » ، « والسَّماءِ ومَا بَنَاها » ، « والسَّماءِ والطَّارِقِ » . وقيل : الشفع درجات الجنة وهي ثمان . والوتر دركات النار ؛ لأنها سبعة . وهذا قول الحسين بن الفضل ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقيل : الشفع الصَّفَا والمَرْوَة ، والوتر الكعبة . وقال مقاتل بن حيّان : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة . وقال سفيان ابن عُيينة : الوتر هو الله ، وهو الشفع أيضا ؛ لقوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ »(٢) . وقال أبو بكر الورّاق : الشفع تضادّ أوصاف المخلوقين : العزّ والذّل ، والقدرة والعجز ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والحياة والموت ، والبصر والعمى ، والسمع والصَّمم ، والكلام والخرس . والوتر انفراد صفات الله تعالى : عِزٌّ بلا ذُلّ ، وقدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، وبصر بلا عمى ، وكلام بلا خرس ، وسمع بلا صمم ، وما وازاها . وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر العدد كلّه ؛ لأن العدد لا يخلو عنهما ، وهو إقسام بالحساب . وقيل : الشفع مسجد مكة والمدينة ، وهما الحَرَمان . والوتر مسجد بيت المقدس . وقيل : الشفع القِران بين الحج والعُمْرة ، أو التَّمتع بالعُمْرة إلى الحج . والوتر الإفراد فيه . وقيل : الشفع الحيوان ؛ لأنه ذكر وأنثى . والوتر الجماد . وقيل : الشفع ما يَنْمِي والوتر ما لا يَنْمِي . وقيل غير هذا . وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائيّ وحمزة وخلف « والوِترِ » بكسر الواو . والباقون (بفتح الواو) وهما لغتان بمعنًى واحد . وفي الصحاح : الوِتر (بالكسر) : الفرد ، والوَتر (بفتح الواو) : الذَّحْل(٣) . هذه لغة أهل العالية . فأمّا لغة أهل الحجاز فبالضدّ منهم . فأمّا تميم فبالكسر فيهما .

---

(١) آية ٣ سورة الليل .　　(٢) آية ٧ سورة المجادلة .

(٣) الذحل : الحقد والعداوة .

قوله تعالى : وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِي ﴾ وهـذا قَسَمٌ خامس . وبعد ما أقسم بالليالى العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم . ومعنى « يَسْرِى » أى يُسْرَى فيه ؛ كما يقال : لَيْلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ . قال :

لقد لُمْتِنا يا أُمَّ غَيْلانَ فى السُّرَى * ونِمْتِ وما لَيْـلُ المَطِىِّ بنـائِمِ [1]

ومنه قوله تعالى : « بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ [2] » . وهذا قول أكثر أهل المعانى ، وهو قول القُتَبِىّ والأخفش . وقال أكثر المفسرين : معنى «يسرى» سار فذهب . وقال قتادة وأبو العالية : جاء وأقبـل . وروى عن إبراهيم « وَٱللَّيْـلِ إِذَا يَسْرِ » قال : إذا استوى . وقال عكرمة والكلبىّ ومجاهد ومحمد بن كعب فى قوله « والليل » : هى ليلة المُزْدَلِفة خاصة ؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله . وقيل : ليلة القدر ؛ لسراية الرحمة فيها واختصاصها بزيادة الثواب فيها . وقيل : إنه أراد عموم الليل كله .

قلت : وهو الأظهر كما تقـدّم . والله أعلم . وقـرأ ٱبن كثير وٱبن مُحَيْصِن ويعقوب « يسرى » بإثبات الياء فى الحالين على الأصـل ؛ لأنها ليست بمجزومة فثبتت فيها الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها فى الوصل ، وبحذفها فى الوقف ؛ وروى عن الكسائى . قال أبو عبيد : كان الكسائى يقـول مرة بإثبات اليـاء فى الوصـل وبحذفها فى الوقف اتباعًا للمصحف . ثم رجع إلى حذف الياء فى الحالين جميعا ؛ لأنه رأس آية ، وهى قراءة أهل الشام والكوفة واختيار أبى عبيد اتباعا للخط ؛ لأنهـا وقعت فى المصحف بغير ياء . قال الخليل : تسقط الياء منها اتفاقا لرءوس الآى . قال الفرّاء : قد تَحذف العربُ الياء وتكتفى بكسر ما قبلها . وأنشد بعضهم :

كَفّـاكَ كَفٌّ ما تُلِيق دِرهمًـا * جُودًا وأخرى تُعطِ بالسيفِ الدّمَا

---

(١) هذا البيت من قصيدة لجرير يرد بها على الفرزدق . (٢) آية ٣٣ سورة سبأ .

يقال : فلان ما يُليق درهماً من جُوده؛ أي ما يمسكه ولا يَلْصَق به . وقال المُؤَرِّج : سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من « يَسْرِ » فقال : لا أجيبك حتى تَبِيت على باب داري سنة ؛ فبت على باب داره سنة ؛ فقال : الليل لا يَسرى وإنما يُسْرَى فيه ؛ فهو مصروف وكلُّ ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا »[1] ولم يقل بَغِيّة لأنه صرفها عن باغية . الزمخشريّ : وياء « يَسْرِى » تحذف في الدرج اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة . وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم ، والجواب محذوف ، وهو لَيُعَذَّبن ؛ يدلّ عليه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ — إلى قوله تعالى — فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » . وقال ابن الأنباريّ هو « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » . وقال مقاتل : « هل » هنا في موضع إنّ ؛ تقديره : إن في ذلك قَسَما لذي حِجْر . فـ « هل » على هذا في موضع جواب القَسَم . وقيل : هي على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير ؛ كقولك : ألم أُنْعِم عليك ؛ إذا كنت قد أنعمت . وقيل : المراد بذلك التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه . والمعنى : بل في ذلك مَقْنع لذي حِجْر . والجواب على هذا « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » . أو مُضْمَر محذوف . ومعنى ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ أي لذي لُبّ وعَقْل . قال الشاعر :

وكيف يُرَجّى أن تتوب وإنما　*　يُرَجّى من الفتيان من كان ذا حِجْر

كذا قال عامة المفسرين ؛ إلا أن أبا مالك قال : « لِذِي حِجْر » لذي سِتر من الناس . وقال الحسن : لذي حِلم . قال الفراء : الكل يرجع إلى معنًى واحد ؛ لذي حجر ، ولذي عقل ، ولذي حلم ، ولذي سِتر ؛ الكل بمعنى العقل . وأصل الحِجْر المنع . يقال لمن مَلَك نَفْسَه ومنعها : إنه لذو حِجْر ؛ ومنه سُمّيَ الحَجَرُ لامتناعه بصلابته : ومنه حَجَر الحاكم على فلان أي منعه وضبطه عن التصرف ؛ ولذلك سُمّيت الحُجْرة حُجْرةً لامتناع ما فيها بها . وقال الفرّاء : العرب تقول : إنه لذو حِجْر إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها ؛ كأنه أخذ من حَجَرْت على الرجل .

(١) آية ٢٨ سورة مريم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ أى مالكك وخالقك . ﴿ بِعَادٍ . إِرَمَ ﴾ قراءة العامة « بعاد » مُنَوَّنا . وقرأ الحسن وأبو العالية « بِعادِ إِرَمَ » مضافا . فمن لم يُضِف جعل « إِرَم » آسمه ولم يصرفه؛ لأنه جعل عادا آسم أبيهم و إِرَمَ آسم القَبِيلة ، وجعله بدلا منه أو عطف بيان . ومن قرأه بالإضافة ولم يَصْرِفه جعله آسم أمّهم أو آسم بلدتهم . وتقديره : بعاد أهل إرم . كقوله : « وَٱسْأَلِ القَرْيَةَ » ولم تنصرف — قَبيلةً كانت أو أرضا — للتعريف والتأنيث . وقراءة العامة « إِرَم » بكسر الهمزة . وعن الحسن أيضا « بعادَ إَرَمَ » مفتوحتين . وقرئ « بعادَ أَرْم » بسكون الراء على التخفيف؛ كما قرئ « بِوَرْقِكُمْ » وقرئ « بِعَادٍ إِرَمِ ذَاتِ الْعِمَادِ » بإضافة « إِرَم » — إلى — « ذَاتِ العِمادِ » والإرَم : العلَم . أى بعاد أهل ذات العَلَم . وقرئ « بِعادٍ أَرَمَّ ذَاتِ العِمَادِ » أى جعل الله ذات العماد رميما . وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة « أَرَم » بفتح الهمزة . قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام التى هى الأعلام، واحدها أَرَم . وفى الكلام تقديم وتأخير؛ أى والفجر وكذا وكذا إنّ رَبّك لبالمرصاد ألم تر . أى ألم ينته علمك إلى ما فعل رَبُّك بعاد . وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمراد عامّ . وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهورا؛ إذ كانوا فى بلاد العرب، وحِجْرُ ثمودَ موجود اليوم . وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب ، واستفاضت به الأخبار ، وبلاد فرعون متصلةٌ بأرض العرب . وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة « البروج »(١) وغيرها ﴿ بِعادٍ ﴾ أى بقوم عاد . فروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبى هريرة قال : أنْ كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المِصْراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقِلّوه ، وأن كان أحدهم ليُدخِل قدمه فى الأرض فتدخل فيها . و « إِرَم » قيل هو سام بن نوح؛ قاله آبن إسحاق . وروى عطاء عن آبن عباس — وحكى عن آبن إسحاق

(١) راجع ج١٩ ص ٢٩٥

أيضا — قال : عاد ابن إرم. فإرم على هذا أبو عاد، وعاد بن إرم بن عَوْص بن سام بن نوح . وعلى القول الأوّل هو ٱسم جدّ عاد . قال ٱبن إسحـاق : كان سام بن نوح له أولاد ، منهم إرم بن سام وأرنخشذ بن سام. فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة . وقال مجاهد : « إرم » أمّة من الأمم. وعنه أيضا أن معنى إرم : القديمة . ورواه ٱبن أبي نَجِيح . وعن مجاهد أيضا أن معناها القوية[1] . وقال قتادة : هي قبيلة من عاد. وقيل : هما عادان . فالأولى هي إرم؛ قال الله عزّ وجلّ : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى »[2] . فقيل لعَقِب عاد بن عَوص بن إرم بن سام بن نوح : عاد ؛ كما يقـال لبني هاشم : هاشم . ثم قيـل للأولين منهم : عادٌ الأولى ، و إرم تسمية لهم بٱسم جَدّهم . ولمن بعدهم عادٌ الأخيرة . قال ابن الرُّقَيّات :

مَجْـدًا تَلِيـدًا بناه أوّلهم * أدرك عادًا وقبلـه إرمَا

وقال مَعْمَر : « إرم » إليه مجمع عاد وثمود . وكان يقال : عاد إرم وعاد ثمود . وكانت القبائل تنتسب إلى إرم . ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ قال ٱبن عباس في رواية عطاء : كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع ، والقصير منهم طوله ثلثمائة ذراع بذراع نفسه . وروى عن ٱبن عباس أيضا أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعا . ٱبن العربيّ : وهو باطل ؛ لأن في الصحيح : "إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في الهـواء فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن" . وزعم قَتادة : أن طول الرجل منهم ٱثنا عشر ذراعا . قال أبو عبيدة : «ذاتِ العِمادِ» ذات الطول . يقال : رجل مُعْمَد إذا كان طويلا . ونحوه عن ٱبن عباس ومجاهد . وعن قتادة أيضا : كانوا عِمـادًا لقومهم ؛ يقال : فلان عِميد القوم وعَمُودهم أي سيدهم . وعنه أيضا : قيل لهم ذلك لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للآنتجاع ، وكانوا أهل خيام وأعمدة ، ينتجعون الغيوث و يطلبون الكلأ ، ثم يرجعون إلى منازلهم . وقيـل : « ذاتِ العِمادِ » أي ذات الأبنية المرفوعة على العمد ، وكانوا ينصبون الأعمدة فيبنون عليها القصور . قال ابن زيد :

---

(١) في بعض النسخ : « القرية » .　　(٢) آية ٥٠ سورة النجم .

« ذاتِ العِمادِ » يعنى إحكام البنيان بالعمد . وفى الصحاح : والعِمادُ الأبنيـة الرفيعة ، تذكّر وتؤنث . قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عِمادُ الحىّ خرّت * على الأحفاضِ نمنع من يَلِينا

والواحدة عِمادة . وفلان طويل العِماد : إذا كان منزله مُعْلَمًا لزائره . والأحفاض : جمع حفض (بالتحريك) وهو متاع البيت إذا هُيّئ لِيُحمل ؛ أى خرّت على المتاع . ويروى ؛ « عن الأحفاض » أى خرّت عن الإبل التى تحمل خُرْثِىّ(١) البيت . وقال الضحاك : « ذاتِ العِمادِ » ذات القوة والشدّة ، مأخوذة من قوة الأعمدة ؛ دليله قوله تعالى : « وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً(٢) » . وروى عَوف عن خالد الرَّبَعِىّ « إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » قال : هى دمشق . وهو قول عكرمة وسعيد المَقْبُرِىّ . ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب القُرَظِىّ : هى الاسكندرية .

قوله تعالى : ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾

الضمير فى « مِثْلها » يرجع إلى القبيلة . أى لم يُخْلَق مثلُ القبيلة فى البلاد قوةً وشدّةً ، وعِظَمَ أجساد وطولَ قامة ؛ عن الحسن وغيره . وفى حرف عبد الله « التى لم يخلق مثلهم فى البلاد » . وقيل : يرجع للمدينة . والأوّل أظهر ، وعليه الأكثر حسب ما ذكرناه . ومن جعل « إرم » مدينة قدّر حذفا ؛ المعنى : كيف فعل ربُّك بمدينة عاد إرم ، أو بعاد صاحبة إرم . وإرم على هذا مؤنّثة معرّفة . واختار ابن العربىّ أنها دمشق لأنه ليس فى البلاد مثلها . ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها . ثم قال : وإن فى الإسكندرية لعجائب ، لو لم يكن إلا المنار فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد ، ولكن لها أمثال ، فأمّا دمشق فلا مثل لها . وقد روى مَعْن عن مالك أن كتابا وجد بالإسكندرية فلم يُدر ما هو ، فإذا فيه « أنا شدّاد ابن عاد الذى رفع العماد ، بنيتها حين لا شيب ولا موت . قال مالك : أن كان لتمرّ بهم

(١) الخرثى : متاع البيت وأثاثه . (٢) آية ١٥ سورة فصلت .

مائة سنة لا يرون فيها جنازة . وذكر عن ثور بن زيد[1] أنه قال : أنا شدّاد بن عاد ، وأنا رفعت العماد ، وأنا الذى شددت بذراعى بطن الوادى ، وأنا الذى كنزت كنزا على سبعة أذرع ، لا يُخرجه إلا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم . وروى أنه كان لعاد ابنان : شدّاد وشديد ؛ فملكا وقهرا ، ثم مات شديد ، وخلص الأمر لشدّاد فملك الدنيا ودانت له ملوكها ؛ فسمع بذكر الجنة فقال : أبنى مثلها . فبنى إرم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة . وهى مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها[2] من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المُطّرِدة[3] . ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قِلَابة أنه خرج فى طلب إبل له ، فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثَمّ ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله فقال : هى إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك ، أحمر أشقر قصير ، على حاجبه خال وعلى عقبه خال ، يخرج فى طلب إبل له ؛ ثم التفت فأبصر ابن قِلَابة وقال : هذا والله ذلك الرجل . وقيل : أى لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد . فالكناية للعماد . والعماد على هذا جمع عمد . وقيل : الإرم : الهلاك ؛ يقال : أرم بنو فلان أى هلكوا ؛ وقاله ابن عباس . وقرأ الضحاك : « أَرَمَّ ذَاتَ العِمَادِ » ؛ أى أهلكهم فجعلهم رميما .

قوله تعالى : وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾

ثمود هم قوم صالح . و« جَابُوا » : قطعوا . ومنه : فلان يجوب البلاد أى يقطعها . وإنما سمى جيْب القميص لأنه جيب ؛ أى قُطع . قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة ، فكتب له بستين وَسْقًا يأخذها بالكوفة . فقال :

---

(١) فى الأصول : «يزيد» وهو تحريف . (٢) الأساطين : جمع الاسطوانة ، وهى العمود والسارية .

(٣) أى التى تجرى .

راحت رَواحًا قَلوصى وهى حامدة * آل الزُّبير ولم تعدل بهم أحدا
راحت بستين وَسْقًا فى حقيبتها * ما حَمَلت حملها الأدنى ولا السددا
ما إن رأيت قَلُوصا قبلها حملت * ستين وَسْقًا ولا جابت به بلدا

أى قطعت . قال المفسرون : أوّل من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود . فبنَوْا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . ومن الدور والمنازل ألفى ألف وسبعمائة ألف كلها من الحجارة . وقد قال تعالى : «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ»(١) . وكانوا لقوتهم يُخرجون الصخور وينْقُبون الجبال ، ويجعلونها بيوتا لأنفسهم . ﴿ بِالوادِى ﴾ أى بوادى القرى ؛ قاله محمد بن إسحاق . وروى أبو الأشهب عن أبى نضرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة تبوك على وادى ثمود ، وهو على فرس أشقر ، فقال : "أسرعوا السير فإنكم فى وادٍ ملعون" . وقيل : الوادى بين جبال ، وكانوا ينقُبون فى تلك الجبال بيوتا ودورا وأحواضا . وكل مُنْفَرَج بين جبال أو تلال يكون مسلكا للسيل ومنفذا فهو وادٍ .

قوله تعالى : وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

أى الجنود والعساكر والجموع والجيوش التى تشدّ ملكه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : كان يعذب الناس بالأوتاد ويشدهم بها إلى أن يموتوا ؛ تَجَبُّراً منه وعُتُوًّا . وهكذا فعل بآمرأته آسية وماشطة ابنته ؛ حسب ماتقدم فى آخر سورة «التحريم»(٢) . وقال عبد الرحمن بن زيد : كانت له صخرة تُرفع بالبَكَرات ، ثم يؤخذ الإنسان فتُوتَد له أوتاد الحديد ، ثم يُرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه . وقد مضى فى سورة «ص»(٣) من ذكر أوتاده ما فيه كفاية . والحمد لله .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾

(١) آية ٨٢ سورة الحجر . (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٢ (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٥٤

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ يعنى عادا وثمودا[(١)] وفرعون « طَغَوْا » أى تمرّدوا وعتوا وتجاوزوا القدْر فى الظلم والعدوان . ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أى الجوْر والأذى . و « الَّذِينَ طَغَوْا » أحسنُ الوجوه فيه أن يكون فى محل النصب على الذّم . ويجوز أن يكون مرفوعا على : هم الذين طغوا، أو مجرورا على وصف المذكورين : عادٍ، وثمود، وفرعون . ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى أفرغ عليهم وألقى ؛ يقال : صبّ على فلان خِلْعة أى ألقاها عليه . قال النابغة :

فصبّ[(٢)] عليه الله أحسن صُنْعِه * وكان له بين البَرِيّة ناصرا

﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى نَصيبَ عذاب . ويقال : شِدّته ؛ لأن السَّوْط كان عندهم نهاية ما يعذَّب به . قال الشاعر :

ألم تر أنّ الله أظهر دينَه * وصَبّ على الكفار سَوْط عذاب

وقال الفرّاء : هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يعذّبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب . وقيل . معناه عذاب يخالط اللّحم والدّم؛ من قولهم : ساطه يَسُوطه سَوْطًا أى خلطه ، فهو سائط . فالسَّوْطُ خلطُ الشيء بعضِه ببعض؛ ومنه سُمِّيَ المِسواط . وسوّطه أى خَلَطه ، وأكثر ذلك يقال : سوّط فلان أموره . قال :

فسُطْها ذَميمَ الرأْيِ غيرَ مُوَفّقٍ * فلستَ على تَسْوِيطها بمُعَانِ

قال أبو زيد : يقال أموالهم سَوِيطة بينهم ؛ أى مختلطة . حكاه عنه يعقوب . وقال الزجاج : أى جعل سَوْطهم الذى ضربهم به العذابَ . يقال : ساط دابته يسوطها؛ أى ضربها

---

(١) اختلف فى « ثمود » فنهم من صرفه ومنهم من لم يصرفه ؛ فمن صرفه ذهب به إلى الحى لأنه اسم عربى مذكر سمى بمذكر . ومن لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة وهى مؤنثة .

(٢) الرواية فى البيت كما فى ديوانه وشعراء النصرانية : * وربّ عليه الله ... الخ * قال البطليوسى شارح الديوان : ربّه أتمه . وأصله أن يقال : ربيت معروفى عند فلان أربه ربًّا إذا أدمته عليه وتممته لديه . و « ربّ عليه » دعاء معطوف على ما قبله . وهو مدح فى النعمان . وعلى هذه الرواية لاشاهد فى البيت .

بسوطه . وعن عمرو بن عُبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطا كثيرة، فأخذهم بسوط منها . وقال قتادة : كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

أي يَرْصُد عملَ كلِّ إنسان حتى يجازِيَه به ؛ قاله الحسن وعكرمة . وقيل : أي على طريق العباد لايفوته أحد . والمَرْصَد والمِرْصاد : الطريق . وقد مضى في سورة « براءة »(١) والحمد لله . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : إن على جهنم سبع قناطر ، يُسأل الإنسان عند أوّل قنطرة عن الإيمان ، فإن جاء به تامًّا جاز إلى القنطرة الثانية ، ثم يُسأل عن الصلاة فإن جاء بها جاز إلى الثالثة ، ثم يُسأل عن الزكاة فإن جاء بها جاز إلى الرابعة . ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان فإن جاء به جاز إلى الخامسة . ثم يُسأل عن الحج والعمرة فإن جاء بهما جاز إلى السادسة . ثم يُسأل عن صلة الرحم فإن جاء بها جاز إلى السابعة . ثم يُسأل عن المظالم، وينادي منادٍ ألَا من كانت له مَظْلمة فليأت ؛ فيُقْتَصّ للناس منه ويُقْتَصّ له من الناس ؛ فذلك قوله عز وجل : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » . وقال الثَّوْرِيّ : « لبِالمِرصادِ » يعني جهنم ؛ عليها ثلاث قناطر : قنطرة فيها الرَّحِم ، وقنطرة فيها الأمانة ، وقنطرة فيها الربّ تبارك وتعالى .

قلت : أي حكمه وإرادته وأمره . والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا « لبِالمِرصاد » أي يسمع ويرى .

قلت : هذا قول حَسَن ؛ «يسمع» أقوالهم ونجواهم ، و«يرى» أي يعلم أعمالهم وأسرارهم فيجازِي كُلًّا بعمله . وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربُّك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية فقال : «إنّ ربك لبِالمِرصادِ» يا أبا جعفر ! قال الزَّمَخْشَري : عَرّض له في هذا النداء بأنه بعضُ من تُوُعِّد بذلك من

(١) راجع جـ ٨ ص ٧٣

الجبابرة ؛ فلله دَرّه[2] . أيّ أسـد فرّاس كان بين يديه[1] ؟ يدقّ الظلمة بإنكاره ، ويقصع أهل الأهواء والبدع بآحتجاجه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ ﴾ يعني الكافر . قال آبن عباس : يريد عُتبة بن ربيعة وأبا حُذيفة بن المغيرة . وقيل : أُمَيّة بن خَلَف . وقيل : أُبَيّ بن خَلَف . ﴿ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ ﴾ أي آمتحنه وآختبره بالنّعمة . و«ما» زائدة صلة . ﴿ فَأَكْرَمَهُ ﴾ بالمـال . ﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ بمـا أوسع عليه . ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ فيفرح بذلك ولا يَحْمَده . ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ ﴾ أي امتحنه بالفقر واختبره . ﴿ فَقَدَرَ ﴾ أي ضَيّق ﴿ عَلَيْهِ رِزْقَه ﴾ على مقدار البُلْغة . ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ أي أَوْلاني هواناً . وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث ، وإنمـا الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلّته . فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يُكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدّي إلى حظ الآخرة ، وإن وَسّع عليه في الدنيا حَمِده وشكره .

قلت : الآيتان صفةُ كلِّ كافر . وكثير من المسلمين يظنّ أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربمـا يقول بجهله : لو لم أستحق هذا لم يعطنيه الله . وكذا إن قتّر عليه يظنّ أن ذلك لهوانه على الله . وقراءة العامّة «فقَدَر» مخففة الدال . وقرأ آبن عامر مشدّدا ، وهما لغتان . والآختيار التخفيف ؛ لقوله : « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ[3] » . قال أبو عمرو : و«قدر» أي قتّر . و«قدّر» مشدّدا هو أن يعطيه ما يكفيه ، ولو فعل به ذلك ما قال «ربي أهانن» . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو « رَبِّيَ » بفتح اليـاء في الموضعين . وأسكن البـاقون . وأثبت البَزّي

(١) في بعض الأصول والزمخشري : « ثوبيه » .
(٢) كذا في الزمخشري . وفي الأصول : « يقطع » . وقصع الرجل فلانا حقره وصغره .
(٣) آية ٧ سورة الطلاق .

وابن مُحَيْصن و يعقوب الياء من « أكْرَمَنِ » ، و «أَهَانَنِ» في الحالين؛ لأنها اسم فلا تحذف. وأثبتها المدنيّون في الوصل دون الوقف اتباعا للمصحف. وخيّر أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حذفها؛ لأنها رأس آية، وحذفها في الوقف لخط المصحف. الباقون بحذفها لأنها وقعت في الموضعين بغير ياء، والسنّة ألا يخالَف خطّ المصحف؛ لأنه إجماع الصحابة.

قوله تعالى : كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿كَلَّا﴾ ردّ؛ أي ليس الأمر كما يظنّ، فليس الغنى لفضله ولا الفقر لهوانه، وإنما الفقر والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفراء: «كلا» في هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله عز وجل على الغنى والفقر. وفي الحديث: "يقول الله عز وجل كلا إني لا أكرم من أكرمتُ بكثرة الدنيا ولا أهين من أهنتُ بقلتها إنما أكرم من أكرمت بطاعتي وأهين من أهنت بمعصيتي".

قوله تعالى: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل ماله إسرافا و بِدارا أن يكْبَرُوا. وقرأ أبو عمرو و يعقوب « يُكرمون » و « يحُضُّون » و « يأكلون » و « يُحِبّون » بالياء؛ لأنه تقدّم ذكر الإنسان والمراد به الجنس، فعبّر عنه بلفظ الجمع. الباقون بالتاء في الأربعة على الخطاب والمواجهة؛ كأنه قال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا. وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقّه وأكل ماله كما ذكرنا. قال مقاتل: نزلت في قُدامة بن مَظْعُون وكان يتيما في حجر أُمَيّة بن خلف. ﴿وَلَا تَحُضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم. وقرأ الكوفيّون « ولا تحاضون » بفتح التاء والحاء والألف. أي يحض بعضهم بعضا. وأصله تتحاضون فحذف إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها. وهو اختيار أبي عبيد. وروى عن إبراهيم والشَّيْزَرِي عن الكسائي والسُّلَمِي «تُحاضون» بضم

التاء، وهو تفاعلون من الحضّ وهو الحثّ . ﴿ وتأكلون التُّراث ﴾ أي ميراث اليتامى . وأصله الوُراث من وَرِثت، فأبدلوا الواو تاء؛ كما قالوا في تُجاه وتُخَمة وتُكَأة وتُؤَدة ونحو ذلك . وقد تقدّم . ﴿ أكْلًا لَمًّا ﴾ أي شديدًا؛ قاله السدّيّ . وقيل : «لَمًّا» جمعًا؛ من قولهم : لَمَمْتُ الطعام لَمًّا إذا أكلته جمعًا؛ قاله الحسن وأبو عبيدة . وأصل اللّمّ في كلام العرب : الجمع؛ يقال : لَمَمْت الشيء أَلُمُّه لَمًّا إذا جمعته؛ ومنه يقال : لَمّ الله شَعْثه أي جمع ما تفرّق من أموره . قال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمُّــه * على شَعَث أيّ الرجال المهذّبُ

ومنه قولهم : إن دارك لَمُومة ؛ أي تَلُمّ الناس وتَرُبّهم وتجمعهم . وقال المِرْناق الطائي[(١)] يمدح علقمة بن سيف :

لأحَبَّنِي حُبّ الصّبِيّ ولَمَّنِي[(٢)] * لَمّ الهَدِيّ إلى الكريم الماجدِ

وقال الليث : اللّمّ الجمع الشديد ؛ ومنه حَجَر مَلْموم ، وكتيبةٌ مَلْمومة . فالآكل يَلُمّ الثريد فيجمعه لُقَمًا ثم يأكله . وقال مجاهد : يسفّه سَفًّا . وقال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب غيره . قال الحُطَيئة :

إذا كان لَمًّا يتبع الذمُّ رَبّه * فلا قدّس الرحمنُ تلك الطّواحنا

يعني أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم . وقال ابن زيد : هو أنه إذا أكل ماله ألَمّ بمال غيره فأكله، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيّب . قال : وكان أهل الشرك لا يورّثون النساء ولا الصبيان ، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم وتُراثَهم مع تُراثِهم . وقيل : يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك ، فيَلُمّ في الأكل بين حرامه وحلاله . ويجوز

---

(١) كذا في نسخ الأصل ومعجم الشعراء للمرزباني . قال المرزباني : «وأحسبه لقبا» . وفي لسان العرب : «وقال فدكى بن أعبد يمدح ... » . وفي كتاب أشعار الحماسة : « وقال رجل من بهراء واسمه فدكى يمدح ... » .

(٢) في اللسان والحماسة ومعجم الشعراء : « ورمني * رم » بالراء بدل « ولمني * لم » باللام وعلى هذا لا شاهد فيه . وقوله « ورمني » : أي أصلح حالي وشأني . و «الهَدِيّ» : العروس تهدى إلى زوجها ، فإذا زفت إليه تكلف أهلها في حسن تجهيزها لئلا يعيرها أهل زوجها خللا وقع في أمرها .

أن يذمّ الوارث الذى ظفِر بالمال سهلاً مهْلاً من غير أن يعْرَق فيه جَبينه ، فيُسرِف فى إنفاقه ويأكله أكلا واسعًا ، جامعًا بين المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل الوراث البطّالون . ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى كثيرا حلاله وحرامه . والجمّ الكثير . يقال : جمّ الشيء يَجُمّ جُمُومًا فهو جمّ وجامّ . ومنه جمّ الماءُ فى الحوض إذا ٱجتمع وكَثُر . وقال الشاعر (١) :

إن تَغْفِرِ اللّهمّ تَغْفِر جَمّا * وأىُّ عبدٍ لك لا أَلَمّا

والجَمّة : المكان الذى يجتمع فيه ماؤه . والجَمُوم : البئر الكثيرة الماء . والجُمُوم (بالضم) المصدر ؛ يقال : جمّ الماء يَجُمّ جُمومًا إذا كَثُر فى البئر وٱجتمع بعد ما ٱستُقِى ما فيها .

قوله تعالى : كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ما هكذا ينبغى أن يكون الأمر . فهو ردّ لآنكبابهم على الدنيا وجمعهم لها ؛ فإن من فعل ذلك يندَم يوم تُدَكّ الأرض ولا ينفع الندم . والدّك : الكسر والدّق ؛ وقد تقدّم (٢) . أى زلزلت الأرض وحُرّكت تحريكًا بعد تحريك . وقال الزجاج : أى زُلزلت فَدَكّ بعضُها بعضًا . وقال المبرد : أى ألصِقت وذَهب آرتفاعها . يقال : ناقة دَكّاء ، أى لا سَنام لها ، والجمع دُكّ . وقد مضى فى سورة « الأعراف » و « الحاقة » القول فى هذا . ويقولون : دُكّ الشيء أى هُدِم . قال :

* هل غير غارٍ دَكّ غارا فٱنهدم (٣) *

﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى مرّة بعد مرة ؛ زُلزلت فكَسَر بعضُها بعضًا ؛ فتكسّر كلّ شيء على ظهرها . وقيل : دُكّت جبالها وأنشازها حتى ٱستوت . وقيل : دُكّت أى ٱستوت فى الآنفراش ؛ فذهب دورها وقصورها وجبالها وسائر أبنيتها . ومنه سُمّىَ الدّكان لآستوائه فى الآنفراش . والدّك : حطّ المرتفع من الأرض بالبَسْط ؛ وهو معنى قول ٱبن مسعود وٱبن عباس : تمدّ الأرض مدّ الأديم .

(١) هو أبو خراش الهذلى .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٨ وجـ ١١ ص ٦٣ وجـ ١٨ ص ٢٦٤
(٣) الغار : الجمع الكثير من الناس .

قوله تعـالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ أى أمره وقضاؤه ؛ قاله الحسن . وهو من باب حذف المضاف . وقيل : أى جاءهم الربّ بالآيات العظيمة ؛ وهو كقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ »(١) أى بظُلَل . وقيـل : جعل مجيء الآيات مجيئاً له تفخيما لشأن تلك الآيات . ومنه قوله تعالى فى الحديث : " يا بن آدم مَرِضتُ فلم تَعُدْنى وآستسقيتُك فلم تَسْقِنى وآستطعمتك فلم تُطْعِمْنى " . وقيـل : « وَجَاءَ رَبُّكَ » أى زالت الشُّبَه ذلك اليوم وصارت المعارف ضرورية ، كما تزول الشُّبَه والشك عند مجيء الشيء الذى كان يُشَكُّ فيه . قال أهل الإشارة : ظهرت قدرته وآستولت(٢) ، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان ، وأنَّى له التحول والانتقال ، ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجرى عليه وقت ولا زمان ؛ لأن فى جَرَيان الوقت على الشيء فَوْتَ الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز .

قوله تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أى الملائكة . ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أى صفوفا . ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قال آبن مسعود ومُقاتل : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، كلّ زمام بيد سبعين ألف مَلَك ، لهـا تَغَيُّظ وزَفِير ، حتى تُنْصَب عن يسار العرش . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " يُؤْتَى بجهنم يومئذ لهـا سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها " . وقال أبو سعيد الخُدْرِىّ : لمـا نزلت « وجِيء يومئذ بجهنم » تغيّر لون رسول الله صلى الله عليه وسلم وعُرِف فى وجهه ، حتى آشتدّ على أصحابه ثم قال : "أقرأنى جبريل « كَلَّا إذا دُكّتِ الأرْضُ دَكًّا دَكًّا — الآية — وجِيء يومئذ بجهنم" قال علىّ رضى الله عنه : قلت يا رسول الله ، كيف يُجاء بها ؟ قال : " يُؤْتَى بها تُقاد بسبعين ألف زمام يقود بكل زمام سبعون ألف مَلَك فتَشْرُد شَرْدَةً لو تركت لأحرقت أهـل الجمع

(١) آية ٢١٠ سورة البقرة .	(٢) فى بعض الأصول : « وآستوت » .

ثم تعرض لى جهنم فتقول مالى ولك يا محمد إن الله قد حرّم لحمك علىّ " فلا يبقى أحد إلا قال نفسى نفسى ؛ إلا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يقول : ربِّ ، أمتى ربِّ أمتى .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى يتّعظ ويتوب . وهو الكافر، أو من همّته معظم(١) الدنيا . ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى ومن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرّط فيها فى الدنيا . ويقال : أى ومن أين له منفعة الذكرى . فلا بدّ من تقدير حذف المضاف، وإلا فبين « يومئذ يتذكّر » وبين « وأنّى له الذِّكْرَى » تنافٍ؛ قاله الزَّمَخْشرىّ .

قوله تعالى : يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾

أى فى حياتى . فاللام بمعنى فى . وقيل : أى قدمت عملا صالحا لحياتى؛ أى لحياة لا موت فيها . وقيل : حياة أهل النار ليست هنيئة فكأنهم لا حياة لهم؛ فالمعنى ياليتنى قدّمت من الخير لنجاتى من النار فأكون فيمن له حياة هنيئة .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أى لا يُعذّب كعذاب الله أحدٌ ، ولا يُوثِق كوَثاقه أحدٌ . والكناية ترجع إلى الله تعالى . وهو قول ابن عباس والحسن . وقرأ الكسائى « لا يُعَذَّب » « ولا يُوثَق » بفتح الذال والثاء؛ أى لا يعذّب أحد فى الدنيا كعذاب الله الكافرَ يومئذ، ولا يوثَق كما يوثَق الكافر . والمراد إبليس؛ لأن الدليل قام على أنه أشدّ الناس عذابا لأجل إجرامه؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير . وقيل : إنه أُميّة ابن خلف؛ حكاه الفَرّاء . يعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعيَّن أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد؛ لتناهيه فى كفره وعناده . وقيل : أى لا يعذب مكانه

(١) هكذا وردت فى جميع نسخ الأصل . وفى تفسير ابن عادل : «ومن همته الدنيا» .

أحد ، فلا يؤخذ منه فداء . والعذاب بمعنى التعذيب ، والوَثاق بمعنى الإيثاق . ومنه قول الشاعر :

* وبعد عطائك المائةَ الرِّتاعا (١) *

وقيل : لا يعذَّب أحد ليس بكافر عذاب الكافر . واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء . وتكون الهاء ضمير الكافر ؛ لأن ذلك معروف أنه لا يعذِّب أحد كعذاب الله . وقد روى أبو قِلابة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بفتح الذال والثاء . وروى أن أبا عمرو رجع إلى قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال أبو عليّ : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ؛ أى لا يعذِّب أحدٌ أحدًا مثلَ تعذيب هذا الكافر ؛ فتكون الهاء للكافر . والمراد بـ « أحد » الملائكة الذين يتولَّوْن تعذيب أهل النار .

قوله تعالى : يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ لما ذكر حال من كانت هِمّته الدنيا فآتّهم اللهَ فى إغنائه و إفقاره ، ذكر حال من آطمأنت نفسه إلى الله تعالى ، فسلّم لأمره فآتكل عليه . وقيل : هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل . والنفس المطمئنة : الساكنة الموقنة ؛ أيقنتْ أن الله رَبُّها فأخبتت لذلك ؛ قاله مجاهد وغيره . وقال آبن عباس : أى المطمئنة بثواب الله . وعنه المؤمنة . وقال الحسن : المؤمنة الموقنة . وعن مجاهد أيضا : الراضية بقضاء الله التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها . وقال مقاتل : الآمنة من عذاب الله . وفى حرف أُبَيّ بن كعب « يأيتها النفس الآمنة المطمئنة » . وقيل : التى عَمِلت على يقين بما وعد الله فى كتابه . وقال آبن كَيْسان : المطمئنة هنا المخلصة .

---

(١) هذا عجز بيت للقطامى من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث وصدره :

* أكفرًا بعد ردّ الموت عنى *

والرتاع : الإبل الراتعة .

وقال ابن عطاء : العارفة التي لا تصبر عنه طَرْفة عَيْن . وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى؛ بيانه « الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ »(١) . وقيل : المطمئنة بالإيمان المصدقةُ بالبعث والثواب . وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بُشِّرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجَمْع . وروى عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال : يعني نفس حمزة . والصحيح أنها عامة في كلّ نفس مؤمنٍ مخلصٍ طائع . قال الحسن البَصْري : إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها. وقال عمرو بن العاص: إذا تُوفِّي المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين وأرسل معهما تحفة من الجنة، فيقولان لها: "اخرجي أيتها النفس المطمئنة راضيةً مَرْضِيةً ومَرْضِيًّا عنك اخرجي إلى رَوْح ورَيحان وربٍّ راضٍ غيرِ غضبان" فتخرج كأطيب ريح المسك وَجَد أحدٌ من أنفه على ظهر الأرض. وذكر الحديث. وقال سعيد بن زيد : قرأ رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم « يأيتها النفس المطمئنة » فقال أبو بكر : ما أحسن هذا يارسول الله ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن المَلَك سيقولها لك يا أبا بكر" . وقال سعيد بن جُبير : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طائر لم يُرَ على خِلقته طائر قطُّ ، فدخل نعشه ، ثم لم يُرَ خارجًا منه ، فلما دُفن تُليت هذه الآية على شَفِير القبر — لا يُدْرَى من تلاها — : ﴿ يأيتها النَّفْسُ المطمئنة . ارجِعِي إلى رَبِّك راضيةً مرضِيةً ﴾. وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رُومة(٢). وقيل: نزلت في خُبيب بن عَدِيّ الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة فحوّل الله وجهه نحو القبلة . والله أعلم .

ومعنى ﴿ إِلَى رَبِّكِ ﴾ أي إلى صاحبك وجسدك ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء . واختاره الطبريّ ؛ ودليله قراءة ابن عباس « فادْخُلِي فِي عَبْدِي » على التوحيد ؛ فيأمر الله تعالى الأرواح غدا أن ترجع إلى الأجساد . وقرأ ابن مسعود « في جَسَدِ عَبْدِي » . وقال الحسن : ارجعي إلى ثواب رَبّك وكرامته . وقال أبو صالح: المعنى ارجعي إلى الله . وهذا عند الموت .

(١) آية ٢٨ سورة الرعد . (٢) هي بئر بالمدينة .

﴿ فادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أى فى أجساد عبادى ؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود . قال ابن عباس : هذا يوم القيامة ؛ وقاله الضحاك . والجمهور على أن الجنة هى دار الخلود التى هى مسكن الأبرار ، ودار الصالحين والأخيار . ومعنى « فِي عِبَادِي » أى فى الصالحين من عبادى ؛ كما قال : « لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ »(١) . وقال الأخفش : « فِي عِبَادِي » أى فى حزبى ؛ والمعنى واحد . أى انتظمى فى سلكهم . ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ معهم .

سورة « البلد »

مكّيّة باتفاق . وهى عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾

يجوز أن تكون « لا » زائدة ؛ كما تقدّم فى « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ »(٢) ؛ قاله الأخفش . أى أقسم ؛ لأنه قال : « بِهَٰذَا الْبَلَدِ » وقد أقسم به فى قوله : « وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ » فكيف يجحد القسم به وقد أقسم به . قال الشاعر :

تذكّرتُ ليلَى فاعترتنى صَبابةٌ * وكاد صَمِيمُ القلبِ لايتقطّعُ

أى يتقطّع ودخل حرف « لا » صلة ؛ ومنه قوله تعالى : « مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »(٣) بدليل قوله تعالى فى (ص) : « مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ »(٤) . وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير « لَأُقْسِمُ » من غير ألف بعد اللام إثباتا . وأجاز الأخفش أيضا أن تكون بمعنى ألا . وقيل : ليست بنفى القسم ، وإنما هو كقول العرب : لا والله لافعلت كذا ، ولا والله ما كان

(١) آية ٩ سورة العنكبوت . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٩٠
(٣) آية ١٢ سورة الأعراف راجع جـ ٧ ص ١٧٠ (٤) آية ٧٥ .

كذا، ولا والله لأفعلنّ كذا . وقيل : هي نفى صحيح ؛ والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه . حكاه مكىّ . ورواه ٱبن أبي نَجِيح عن مجاهد قال : « لا » رَدٌّ عليهم . وهذا ٱختيار ٱبن العربي ؛ لأنه قال : « وأما من قال إنها ردّ فهو قول ليس له ردّ؛ لأنه يصح به المعنى ويتمكن اللفظ والمراد» . فهو ردّ لكلام من أنكر البعث ثم ٱبتدأ القَسَم . وقال القُشَيْرِىّ : قوله « لا » ردّ لما توهّم الإنسان المذكور في هذه السورة المغرور بالدنيا ، أي ليس الأمر كما يحسبه من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ٱبتدأ القسم . و « البلد » هي مكة أجمعوا عليه . أي أُقْسِم بالبلد الحرام الذي أنت فيه لكرامتك عليّ وحُبِّي لك . وقال الواسطى : أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرّفته بمكانك فيه حَيًّا ، وبِبركتك ميتًا ؛ يعني المدينة . والأوّل أصح ؛ لأن السورة نزلت بمكة بٱتفاق .

قوله تعالى : وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾

يعني في المستقبل ؛ مثل قوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ »(١) . ومثله واسع(٢) في كلام العرب . تقول لمن تعده الإكرام والحِباء : أنت مُكْرَمٌ محبوٌّ . وهو في كلام الله واسع ، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة ؛ وكفاك دليلا قاطعا على أنه للٱستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة بٱتفاق مكيّةٌ قبل الفتح . فروى منصور عن مجاهد « وَأَنْتَ حِلٌّ » قال : ماصنعتَ فيه من شيء فأنت في حِلّ . وكذا قال ٱبن عباس : أحل له يوم دخل مكة أن يَقتل من شاء فقتَل ٱبنَ خَطَل(٣) ومِقْيَس بن صُبَابة وغيرَهما . ولم يحل لأحد من الناس أن يقتل بها أحدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى السُّدّي قال : أنت في حِل ممن قاتلك أن تقتله . وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : أُحِلّت له ساعةٌ من نهار ثم أُطبِقت وحُرِّمت إلى يوم القيامة ؛ وذلك يوم فتح مكة . وثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنّ الله حَرّم مكة يوم خلق السموات والأرضَ فهي حرامٌ إلى أن تقوم الساعة فلم

(١) آية ٣٠ سورة الزمر . (٢) في بعض نسخ الأصل : « شائع » .

(٣) هو عبد الله، كان متعلقا بأستار الكعبة ؛ فقتله أبو برزة الأسلمي بأمر الرسول صلوات الله عليه .

تحلّ لأحد قبلى ولا تحِل لأحد بعــدى ولم تَحِل لى إلا ساعة من نهار" الحديث . وقد تقدّم في سورة «المــائدة» . آبن زيد : لم يكن بها أحد حلالا غير النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : وأنت مقيم فيه وهو محلك . وقيل : وأنت فيه محسن وأنا عنك فيه راضٍ . وذكر أهل اللغة أنه يقال : رجل حِلّ وحَلال ومُحِلّ، ورجل حَرام ومُحْرِم وحِرْم . وقال قتادة : أنت حِلّ به لستَ بآثم . وقيل : هو ثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى إنك غيرُ مرتكب فى هــذا البلد ما يحرم عليك آرتكابه ، معرفةً منك بحق هذا البيت ؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه . أى أقسم بهذا البيت المعظّم الذى قد عرفتَ حرمته ، فأنت مقيم فيه مُعَظِّم له غير مرتكب فيــه ما يحرم عليك . وقال شُرَحْبِيل بن سعد : « وأنتَ حِلٌّ بهذا البلدِ » أى حلال ؛ أى هم يُحَرِّمون مكة أن يقتلوا بهــا صيدا أو يَعْضِــدوا(١) بها شجرة ، ثم هم مع هــذا يستحلّون إخراجك وقتلك .

قوله تعــالى : وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾

قال مجاهــد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صــالح : « وَوَالِدٍ » آدم عليــه السلام . « وَمَا وَلَدَ » أى وما نســل من ولده . أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله تعــالى على وجه الأرض؛ لمــا فيهم من التبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى . وقيل : هو إقسام بآدم والصالحين من ذرّيتــه ، وأما غير(٢) الصالحين فكأنهم بهائم . وقيــل : الوالد إبراهيم . وما ولد : ذرّيتــه ؛ قاله أبو عمران الجَوْنى . ثم يحتمل أنه يريد جميع ذرّيتــه . ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذرّيته . قال الفــرّاء : وصَلَحت « ما » للناس؛ كقوله : « مَا طَابَ لَكُم » ، وكقوله : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » وهو الخــالق للذكر والأنثى . وقيل : « ما » مع ما بعدها فى موضع المصدر؛ أى ووالد وولادته؛ كقوله تعالى : «وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا» . وقال عكرمة وسعيد بن جُبــير : « ووالدٍ » يعنى الذى يولد له . « وما ولد »

---

(١) عضد الشجرة وغيرها : قطعها بالمِعْضَد . والمِعْضَدُ : سيف يمتهن فى قطع الشجرة .

(٢) فى بعض نسخ الأصل : « وأما الطالحون » .

يعنى العاقر الذى لا يولد له ؛ وقاله آبن عباس . و « ما » على هذا نفى . وهو بعيد ولا يصح إلا بإضمار الموصول ؛ أى ووالد والذى ما ولد ، وذلك لا يجوز عند البصريين . وقيـل : هو عموم فى كل والد وكل مولود ؛ قاله عَطِية العَوْفِى . ورُوى معناه عن آبن عباس أيضا . وهو آختيار الطبرىّ . قال المـاوردىّ : ويحتمل أن الوالد النبيّ صلى الله عليه وسـلم لتقدّم ذكره ، وما ولد أمّته لقوله عليه السلام: ”إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم“ . فأقسم به و بأمّته بعد أن أقسم ببلده ؛ مبالغةً فى تشريفه عليه السلام .

قوله تعـالى : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾

إلى هنا آنتهى القَسَم ؛ وهذا جوابه . ولله أن يُقسِم بمـا يشاء من مخلوقاته لتعظيمها كما تقدّم . والإنسان هنا آبن آدم . ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ أى فى شدّة وعَناء من مكابدة الدنيا . وأصل الكَبَد الشدّة . ومنه تَكَبَّد اللبنُ : غَلُظ وخَثُر وآشتدّ . ومنه الكَبِد؛ لأنه دَمٌ تغلّظ وآشتدّ . و يقال : كابدت هذا الأمر : قاسيت شدّته . قال لبيد :

يا عَيْنُ هـلّا بَكَيْتِ أَرْبَد إذ * قُمْنَا وقام الخصــومُ فى كَبَدِ

قال آبن عباس والحسن : « فِى كَبَدٍ » أى فى شدة ونَصَب . وعن آبن عباس أيضا : فى شدّة من حَمْله وولادته ورضاعه ونبت أسنانه، وغير ذلك من أحواله . وروى عِكرمة عنه قال : منتصبا فى بطن أمّه . والكَبَد الآستواء والآستقامة . فهذا آمتنان عليـه فى الخلقة . ولم يخلق الله جلّ ثناؤه دابة فى بطن أمها إلا مُنْكَبّة على وجهها إلا آبن آدم؛ فإنه منتصب آنتصابا ؛ وهو قول النَّخَعِىّ ومجاهد وغيرهما . آبن كَيْسان : منتصباً رأسه فى بطن أمه ؛ فإذا أذن الله أن يخرج من بطن أمه قلب رأسه إلى رجلى أمّه . وقال الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وعنـه أيضا : يكابد الشكر على السراء و يكابد الصـبر على الضراء ؛ لأنه لا يخـلو من أحدهما . ورواه آبن عمر . وقال يمـان : لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد آبن آدم ؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق . قال علماؤنا : أوّل ما يكابد قطع سرّته ، ثم إذا

قُمِط قِماطًا وشُدّ رِباطا يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الآرتضاع ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه وتحرّك لسانه، ثم يكابد الفِطام الذى هو أشدّ من اللِّطام، ثم يكابد الختان والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلّم وصَوْلته، والمؤدّب وسياسته، والأستاذ وهَيْبته، ثم يكابد شَغل التزويج والتعجيل فيه(١)، ثم يكابد شَغل الأولاد والخدم والأجناد، ثم يكابد شَغل الدُّور وبناء القصور، ثم الكِبر والهَرَم وضَعف الركبة والقَدَم، فى مصائبَ يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صُداع الرأس، ووجع الأضراس، ورَمَد العين، وغم الدَّين، ووجع السنّ، وألم الأذن. ويكابد مِحَنًا فى المال والنفس، مثلُ الضّرب والحبس، ولا يمضى عليه يوم إلا يقاسى فيه شدّة، ولا يكابد إلا مَشَقّة، ثم الموت بعد ذلك كلّه، ثم مساءلة المَلَك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعَرْض على الله إلى أن يستقر به القرار، إما فى الجنة وإما فى النار؛ قال الله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ» فلو كان الأمر إليه لما آختار هذه الشدائد. ودلّ هذا على أن له خالقا دبّره، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليمتثل أمره. وقال آبن زيد: الإنسان هنا آدم. وقوله: «فِي كَبَدٍ» أى فى وسط السماء. وقال الكَلْبى: إن هذا نزل فى رجل من بنى جُمَح؛ كان يقال له أبو الأشدين(٢)، وكان يأخذ الأديم العُكَاظى فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالنى عنه فله كذا. فيجذبه عشرةٌ حتى يتمزّق ولا تزول قدماه؛ وكان من أعداء النبىّ صلى الله عليه وسلم، وفيه نزل «أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» يعنى لقوّته. وروى عن آبن عباس. ومعنى «فِي كَبَدٍ» أى شديدا، يعنى شديد الخلق؛ وكان من أشدّ رجال قريش. وكذلك رُكَانة بن هاشم بن عبد المطلب، وكان مَثَلًا فى البأس والشدّة. وقيل: «فِي كَبَدٍ» أى جرىء القلب، غليظ الكبد مع ضعف خلقته ومَهانة مادّته. آبن عطاء: فى ظلمة وجهل. الترمذىّ: مضيّعًا ما يَعنيه، مشتغلًا بما لا يعنيه.

---

(١) فى نسخة من نسخ الأصل وحاشية الجمل: «ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه والترويج».

(٢) كذا فى نسخ الأصل. وفى الكشاف وروح المعانى والبيضاوى والثعلبى: «أبو الأشد».

قوله تعالى : أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أى أيظنّ ابن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل . ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ ﴾ أى أنفقت . ﴿ مَالًا لُبَدًا ﴾ أى كثيرا مجتمعاً . ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ أى أيظنّ . ﴿ أَنْ لَمْ يَرَهُ ﴾ أى أن لم يعاينه ﴿ أَحَدٌ ﴾ بل علم الله عز وجل ذلك منه ، فكان كاذباً فى قوله : أهلكت ؛ ولم يكن أنفقه . وروى أبو هريرة قال : يوقف العبد فيقال ماذا عملت فى المال الذى رزقتك؟ فيقول : أنفقته وزكّيته . فيقال : كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سخىّ فقد قيل ذلك . ثم يُؤمر به إلى النار . وعن سعيد عن قتادة : إنك مسئول عن مالك من أين جمعت ، وكيف أنفقت . وعن ابن عباس قال : كان أبو الأشدين يقول أنفقت فى عداوة محمد مالاً كثيرا ؛ وهو فى ذلك كاذب . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل ، أذنب فاستفتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يُكفّر . فقال : لقد ذهب مالى فى الكفارات والنفقات منذ دخلت فى دين محمد . وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق فيكون طغيانا منه ، أو أسفًا عليه فيكون ندماً منه . وقرأ أبو جعفر «مَالًا لُبَّدًا» بتشديد الباء مفتوحة على جمع لابد ؛ مثلُ راكع ورُكّع ، وساجد وسجّد ، وشاهد وشُهّد ، ونحوه . وقرأ مجاهد وحميد بضمّ الباء واللام مخففا جمع لبود . الباقون بضمّ اللام وكسرها وفتح الباء مخففا جمع لُبْدة ولِبْدة ، وهو ماتلبّد ؛ يريد الكثرة . وقد مضى فى سورة «الجن» القول فيه.(1) وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ «أيحسُب» بضم السين فى الموضعين . وقال الحسن : يقول أتلفت مالا كثيرا فمن يحاسبنى به ؛ دعنى أحسبه . ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته ، وأن الله عز وجل يرى صنيعه ثم عدّد عليه نعمه فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ﴿ وَلِسَانًا ﴾ ينطق به . ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستر بهما

---

(1) راجع جـ ١٩ ص ٢٢ فما بعدها .

ثغره. والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحْصِى عليه ما عمله . وقال أبو حازم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى قال يا بن آدم إن نازعك لسانُك فيما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق و إن نازعك بَصَرُك فيما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق . و إن نازعك فرجك إلى ما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق ". والشَّفَة أصلها شَفَهَةٌ، حُذفت منها الهاء، وتصغيرها شُفَيْهة ، والجمع شِفاهٌ. ويقال : شَفَهات وشفوات، والهاء أقيس ، والواو أعمّ تشبيها بالسنوات . وقال الأزهريّ : يقال هذه شَفَةٌ في الوصل وشَفَهٌ، بالتاء والهاء . وقال قتادة : نِعَم الله ظاهرةٌ يقرّرك بها حتى تشكر .

قوله تعـالى : ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾

يعني الطريقين : طريقَ الخير وطريقَ الشر . أى بيّناهما له بما أرسلناه من الرسل . والنَّجْد : الطريق فى ٱرتفاع . وهذا قول ٱبن عباس وٱبن مسعود وغيرهما . وروى قتادة قال : ذُكِر لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : " يأيها الناس إنما هما النّجْدان نَجْدُ الخير ونجد الشر فلِمَ تجعل نَجْدَ الشر أحبّ إليك من نجد الخير". وروى عن عكرمة قال: النجدان الثّديان. وهو قول سعيد بن المسيّب والضحاك، وروى عن ٱبن عباس وعليّ رضى الله عنهما ؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه. فالنّجد العُلُوُّ وجمعه نُجُود؛ ومنه سُمّيَتْ « نجد » لآرتفاعها عن انخفاض تهامة . فالنجدان : الطريقان العاليان . قال آمرؤ القيس :

فريقان منهم جازع بَطْنَ نخلةٍ (١) * وآخر منهم قاطِع نَجْدَ كَبْكَبِ

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾

أى فهَلّا أنفق ماله الذى يزعم أنه أنفقه فى عداوة محمـد ، هَلّا أنفقه لآقتحام العَقَبة فيأمن . والآقتحام : الرّميُ بالنفس فى شيء من غير رَوِيّة؛ يقال منه : قَحَم فى الأمر قُحُوماً؛ أى رَمَى

(١) كذا فى الأصل وديوان آمرئ القيس : وفى اللسـان (مادة نجد) :

* غداة غدوا فسالك بطن نخلة *

والجازع : القاطع . و بطن نخلة : موضع بين مكة والطائف . وكبكب : الجبل الأحمر الذى تجعله بظهرك إذا وقفت بعرفة .

بنفسه فيه من غير رَوِيّة . وقَحّم الفرسُ فارسَه تقحيماً على وجهه إذا رماه . وتقحيم النّفْس فى الشيء إدخالها فيه من غير رَوِية . والقُحْمة (بالضم) المَهْلَكة والسَّنَة الشديدة . يقال : أصابت الأعرابَ القُحْمَةُ، إذا أصابهم قَحْط فدخلوا الرِّيف . والقُحَم : صِعاب الطريق . وقال الفرّاء والزّجاج : وذكر « لا » مرّة واحدة، والعرب لا تكاد تفُرد « لا » مع الفعل الماضى فى مثل هذا الموضع حتى يعيدوها فى كلام آخر؛ كقوله تعالى: «فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى»(١) « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه ؛ فيجوز أن يكون قوله : « ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » قائماً مقام التكرير؛ كأنه قال : فلا اقتحم العَقبة ولا آمن . وقيل : هو جارٍ مجرى الدعاء؛ كقوله : لا نَجَا ولا سَلِم . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ قال سفيان بن عُيَيْنة : كل شيء قال فيه « وما أدراك » فإنه أخبر به ، وكل شيء قال فيه « وما يُدريك » فإنه لم يخبر به . وقال : معنى « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » أى فلم يقتحم العقبة ؛ كقول زُهير :

وكان طَوَى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّةٍ * فلا هو أبداها ولم يَتَقَدَّمِ(٢)

أى فلم يُبدها ولم يتقدّم . وكذا قال المبرّد وأبو علىّ . « لا » بمعنى لم . وذكره البُخَارِىّ عن مجاهد . أى فلم يقتحم العقبة فى الدنيا فلا يحتاج إلى التكرير . ثم فَسّر العَقَبة وركوبها فقال : « فَكُّ رَقَبَةٍ » وكذا وكذا ؛ فبيّن وجوهًا من القُرَب المالية . وقال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام الاستفهام الذى معناه الإنكار؛ تقديره : أفلا اقتحم العقبة، أو هلّا اقتحم العقبة . يقول : هلّا أنفق ماله فى فَكّ الرِّقاب وإطعام السَّغْبان ليجاوز به العَقَبة ؛ فيكون خيراً له من إنفاقه فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : اقتحام العَقَبة هاهنا ضَرْبُ مَثَل ، أى هَلّا تَحَمّل عِظام الأمور فى إنفاق ماله فى طاعة ربّه والإيمان به . وهذا إنما يليق بقول من حَمَل « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » على الدعاء ؛ أى فلا نجا ولا سَلِم من لم يُنفق ماله فى كذا وكذا . وقيل : شَبّه عظم الذنوب وثِقَلها وشدّتها بعَقَبة ، فإذا أعتق رَقَبةً وعَمِل صالحاً كان مثله كمثل من اقتحم العقبة ، وهى الذنوب التى تضره وتؤذيه وتُثقله . قال

(١) آية ٣١ سورة القيامة . (٢) الكشح : الخاصرة . ومستكنة : على أمر أكنه فى نفسه .

ابن عمر : هذه العقبة جبل في جهنم . وعن أبي رجاء قال : بلغنا أن العقبة مصعدها سبعة آلاف سنة ومهبطها سبعة آلاف سنة . وقال الحسن وقتادة : هي عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة الله . وقال مجاهد والضحاك والكلبي : هي الصراط يُضرب على جهنم كحدّ السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سَهْلاً وصعودا وهبوطًا . واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . وقيل : اقتحامه عليه قدر ما يصلى صلاة المكتوبة . ورُوى عن أبي الدَّرْداء أنه قال : إن وراءنا عقبةً ، أنجى الناس منها أخفّهم حِمْلًا . وقيل : النار نفسها هي العقبة . فروى أبو رجاء عن الحسن قال : بلغنا أنه ما من مسلم يعتق رقبة إلا كانت فداءه من النار . وعن عبد الله بن عمر قال : من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضوا منه . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أعتق رقبةً أعتق الله بكل عضو منها عضوًا من أعضائه من النار حتى فَرْجَه بفرجه ". وفي الترمذي عن أبي أمامة وغيره من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أيّما آمرئ مسلم أعتق آمرأ مسلما كان فكاكه من النار يجزى كلّ عضو منه عضوًا منه وأيّما آمرأة مسلمة أعتقت آمرأة مسلمة كانت فكاكها من النار يجزى كلُّ عضو منها عضوا منها" . قال : هذا حديث حسن صحيح غريب . وقيل : العقبة خلاصه من هَوْل العرض . وقال قتادة وكعب : هي نار دون الجسر . وقال الحسن : هي والله عقبة شديدة ؛ مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان . وأنشد بعضهم :

إني بُليت بأربع يرميننى * بالنَّبْل قد نصبوا عليّ شِراكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى * من أين أرجو بينهن فكاكا
يا رَبّ ساعدني بعفوٍ إنني * أصبحت لا أرجو لهن سواكا

قوله تعالى : وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾

فيه حذف ؛ أي وما أدراك ما آقتحام العقبة . وهذا تعظيم لالتزام أمر الدِّين ؛ والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليعلّمه اقتحامَ العقبة . قال القُشَيْري : وحمل العقبة على

عقبة جهنم بعيد؛ إذ أحد فى الدنيا لم يقتحم عقبة جهنم؛ إلا أن يُحمل على أن المراد فهلّا صيّر نفسه بحيث يمكنه ٱقتحام عقبة جهنم غدًا . واختار البخاريّ قول مجاهد : إنه لم يقتحم العقبة فى الدنيا . قال ابن العربي : «وإنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك فى الآية الثانية : «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ»، ثم قال فى الآية الثالثة : «فَكُّ رَقَبَةٍ»، وفى الآية الرابعة «أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ»؛ ثم قال فى الآية الخامسة : «يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ»، ثم قال فى الآية السادسة : «أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ»؛ فهذه الأعمال إنما تكون فى الدنيا . المعنى : فلم يأت فى الدنيا بما يُسَهّل عليه سلوك العقبة فى الآخرة» .

قوله تعالى : فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ فكُّها خلاصُها من الأَسْر . وقيل : من الرق . وفى الحديث : "وفَكُّ الرقبةِ أن تُعين فى ثمنها" من حديث البراء . وقد تقدم فى سورة «براءة»(1) . والفَكّ : هو حَلّ القَيْد ؛ والرِّق قَيْدٌ . وسمى المرقوق رقبة ؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته . وسُمّى عتقها فكًّا كفكّ الأسير من الأسر . قال حسان :

كم من أسير فككناه بلا ثمن * وجَزّ ناصيةٍ كنا مَوَاليها

وروى عُقبة بن عامر الجُهَنيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار" . قال الماوَرْدِيّ : ويحتمل ثانيا أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه باجتناب المعاصي وفعل الطاعات؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ رَقَبَةٍ ﴾ قال أَصْبَغ : الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل فى العتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد سئل أيّ الرقاب أفضل؟ قال : "أغلاها ثمنًا وأنفَسُها عند أهلها" . ابن العربيّ : «والمراد فى هذا الحديث من

(1) راجع جـ ٨ ص ١٨٣ .

المسلمين ؛ بدليل قوله عليه السلام : "من أعتق آمرأ مسلما" و"من أعتق رقبة مؤمنة".
وما ذكره أصبغ وَهْلَةٌ[1] ، وإنما نظر إلى تنقيص المال ، والنّظرُ إلى تجويد المُعتَق للعبادة وتفريغه للتوحيد أولى » .

الثالثة — العِتق والصّدَقة من أفضل الأعمال . وعن أبي حنيفة : أن العتق أفضلُ من الصدقة . وعند صاحبيه الصدقة أفضل . والآية أدلّ على قول أبي حنيفة ؛ لتقديم العتق على الصدقة . وعن الشَّعْبي في رجل عنده فضل نفقة : أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة ؟ : قال : الرقبة أفضل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مَن فَكّ رقبةً فكّ الله بكل عضو منها عضوا منه من النار" .

قوله تعالى : أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ أي مجاعة . والسَّغَب الجوع . والساغب : الجائع . — وقرأ الحسن « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يومٍ ذا مَسْغَبَةٍ » بالألف في «ذا» — وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت جاراً يآبن قيسِ بن عاصمٍ[2] * لَمَا بتّ شبعاناً وجارُك ساغبا

وإطعام الطعام فضيلة ، وهو مع السّغب الذي هو الجوع أفضل . وقال النَّخَعيّ في قوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » قال : في يوم عزيز فيه الطعام . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من مُوجبات الرحمة إطعامُ المسلم السغبان" . ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي قرابة . يقال : فلان ذو قرابتي وذو مَقْربتي . يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة ، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يكفله . وأهل اللغة يقولون : سُمّي يتيما لضعفه . يقال : يَتَم الرجل يُتْماً إذا ضَعُف .

(١) كذا في الأصول وابن العربي ، ولعلها المرة من الوهل وهو الغلط . وَهَل الى الشيء (بالفتح) يَهِل (بالكسر) وَهْلا (بالسكون) : إذا ذهب وهمه اليه . ويجوز أن يكون بمعنى سها وغلط . (٢) كذا في الأصول . يريد : فلو كنت جارا قائما بحق الجوار لما حدث هذا .

وذكروا أن اليتيم في الناس من قِبل الأب ، وفى البهائم من قِبل الأمهات . وقد مضى في سورة «البقرة» مستوفى (١) ، وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذي يموت أبواه . وقال قيس ابن الملوح :

إلى الله أشكو فَقْدَ لَيْلَى كما شكا * إلى الله فَقْدَ الوالدين يَتيم

قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى لا شيء له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له مأوى إلا التراب . قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له . مجاهد : هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة : إنه ذو العيال . عكرمة : المديون . أبو سنان : ذو الزَّمانة . ابن جُبير : الذي ليس له أحدٌ . وروى عكرمة عن ابن عباس : ذو المتربة البعيدُ التربة ؛ يعني الغريب البعيد عن وطنه . وقال أبو حامد الخارْزَنْجى : المتربة هنا من التَّريب ؛ وهي شدة الحال . يقال ترب إذا افتقر . قال الهُذَليّ :

وكنّا إذا ما الضَّيْفُ حَلّ بأرضنا * سفكنا دماءَ البُدْن فى تربة الحال

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى « فَكَّ » بفتح الكاف على الفعل الماضى « رقبةً » نصباً لكونها مفعولا « أو أَطْعَمَ » بفتح الهمزة ونصب الميم من غير ألف على الفعل الماضى أيضا ؛ لقوله : «ثُمّ كانَ مِنَ الّذِينَ آمَنُوا» فهذا أشكل بـ « فَكَّ وأَطْعَمَ » . وقرأ الباقون «فَكُّ» رفعًا على أنه مصدر فككت . «رقبةٍ» خفض بالإضافة . «أو إطعامٌ» بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضا . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه تفسير لقوله تعالى : «وما أَدْراكَ ما الْعَقَبَةُ» ثم أخبره فقال : «فكُّ رقبةٍ . أو إطعامٌ» . المعنى : اقتحام العقبة فك رقبة أو إطعام . ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى ؛ أى ولا فكّ رقبةً ولا أطعمَ فى يوم ذا مسغبة ؛ فكيف يجاوز العقبة . وقرأ الحسن وأبو رجاء : « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول « إطعام » أى يطعمون ذا مسغبة و « يتيما » بدل منه . الباقون « ذِى مسغبة » فهو صفة لـ « يوم » . ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور ؛ لأن قوله : « فى يوم » ظرف منصوب الموضع ، فيكون وصفا له على المعنى دون اللفظ .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعني أنه لا يقتحم العقبة من فكَّ رقبةً أو أطعم في يوم ذا مسغبة حتى يكون من الذين آمنوا ؛ أي صدقوا ، فإن شرط قبول الطاعات الإيمانُ بالله ، فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع ، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان ، قال الله تعالى في المنافقين : «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ»(١) . وقالت عائشة : يا رسول الله ، إن ٱبن جُدْعان كان في الجاهلية يَصل الرَّحِم ويُطعم الطعام ، ويَفُكّ العاني ويعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ؛ فهل ينفعه ذلك شيئا ؟ قال : "لا ، إنه لم يقل يوما رَبّ ٱغفر لي خطيئتي يوم الدِّين" . وقيل : «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» أي فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ، ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة ؛ نظيره قوله تعالى : "وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَى»(٢) . وقيل : المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى . وقيل : أتى بهذه القرب لوجه الله ، ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقد قال حَكيم بن حِزام بعد ما أسلم : يا رسول الله ، إنا كنا نَتَحَنَّث(٣) بأعمال في الجاهلية ، فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام : "أسلمتَ على ما أَسْلَفْتَ من الخير" . وقيل : إن « ثُمّ » بمعنى الواو ؛ أي وكان هذا المعتق الرقبة والمطعم في المسغبة من الذين آمنوا . ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ أي أوصى بعضهم بعضا . ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب . ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أي بالرحمة على الخلق ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رَحِموا اليتيم والمسكين . ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أي الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ؛ قاله محمد بن كعب القرظيّ وغيره . وقال يحيى بن سلام : لأنهم ميامين على أنفسهم . ٱبن زيد : لأنهم أُخذوا من شِقّ آدم الأيمن . وقيل : لأن منزلتهم عن اليمين ؛ قاله ميمون بن مِهران . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

(١) آية ٥٤ سورة التوبة . (٢) آية ٨٢ سورة طه . (٣) أي نتقرب بها الى الله .

بِآيَاتِنَا ﴾ أي القرآن . ﴿ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي يأخذون كتبهم بشمائلهم ؛ قاله محمد بن كعب . يحيى بن سلام : لأنهم مشائيم على أنفسهم . ٱبن زيد : لأنهم أخذوا من شِقّ آدم الأيسر . ميمون : لأن منزلتهم عن اليسار .

قلت : ويجمع هذه الأقوال أن يقال : إن أصحاب الميمنة أصحاب الجنة ، وأصحاب المشأمة أصحاب النار ؛ قال الله تعالى : «وأَصْحَابُ اليَمِينِ ما أَصْحَابُ اليَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ»(١) ، وقال : « وأَصْحَابُ الشِّمالِ ما أَصْحَابُ الشِّمالِ . فِي سَمُومٍ وحَمِيمٍ » . وما كان مثله . ومعنى ﴿ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أي مطبقة مغلقة . قال :

تَحِنّ إلى أَجْبَالِ مكّةَ ناقتي * ومِنْ دونها أبوابُ صَنْعاءَ مُؤْصَدَهْ

وقيل : مبهمة لا يدرى ما داخلها . وأهل اللغة يقولون : أوْصدت الباب وآصدته ؛ أي أغلقته . فمن قال أوصدت فالآسم الوِصاد ، ومن قال آصدته فالآسم الإصاد . وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب والشَّيزري عن الكسائي « مؤصدة » بالهمز هنا وفي « الهُمَزَة » . الباقون بلا همز . وهما لغتان . وعن أبي بكر بن عَيّاش قال : لنا إمام يهمز « مؤصدة » فأشتهى أن أسُدّ أذني إذا سمعته .

سورة « الشمس »

مكية بآتفاق ، وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾

قال مجاهد : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾ أي ضوءها وإشراقها . وهو قَسَمٌ ثانٍ . وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون بآرتفاع الشمس . وقال قتادة : بهاؤها . السُّدّي : حَرّها . وروى الضحاك عن آبن عباس : «وضحاها» قال : جعل فيها الضوء وجعلها حارة . وقال اليزيدي : هو آنبساطها . وقيل : ما ظهر بها من كل مخلوق ؛ فيكون القَسَم بها وبمخلوقات الأرض

(١) آية ٢٨ و ٤٢ سورة الواقعة .

كلها ، حكاه الماوردي . والضحى مؤنثة . يقال : ارتفعت الضحى ، [وهي] فوق الضحو[1] . وقد تذكر . فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة . ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فعل ؛ نحو صرد ونغر[2] . وهو ظرف غير متمكن مثل سحر . تقول : لقيته ضحى وضحى ؛ إذا أردت به ضحا يومك لم تنونه . وقال الفراء : الضحى هو النهار ؛ كقول قتادة . والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلا ؛ فإذا زاد فهو الضحاء بالمد . ومن قال : الضحى النهار كله فذلك لدوام نور الشمس . ومن قال : إنه نور الشمس أو حرها فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس . وقد استدل من قال : إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى : «وَلَا تَضْحَى» أي لا يؤذيك الحر . وقال المبرد : أصل الضحى من الضح وهو نور الشمس ، والألف مقلوبة من الحاء الثانية . تقول : ضحوة وضحوات وضحوات وضحى ، فالواو من ضحوة مقلوبة عن الحاء الثانية ، والألف في ضحى مقلوبة عن الواو . وقال أبو الهيثم : الضح نقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها ألفا .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَـٰهَا ﴾ (٢)

أي تبعها . وذلك إذا سقطت رىء الهلال . يقال : تلوت فلانا إذا تبعته . قال قتادة : إنما ذلك ليلة الهلال ، إذا سقطت الشمس رىء الهلال . وقال ابن زيد : إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب . الفراء : « تلاها » أخذ منها ؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس . وقال قوم : « والقمر إذا تلاها » حين استوى واستدار فكان مثلها في الضياء والنور ؛ وقاله الزجاج .

---

(١) كذا في حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . وفي نسخ الأصل وتفسير ابن عادل : « فوق الصخور » .

(٢) الصرد : طائر فوق العصفور . والنغر : فراخ العصافير .

قوله تعالى : وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّـٰهَا ﴿٣﴾

أى كشفها . فقال قوم : جَلّى الظُّلمة ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ كما تقول : أضحت باردة ؛ تريد أضحت غداتنا باردة . وهذا قول الفراء والكلبي وغيرهما . وقال قوم : الضمير فى «جَلّاها» للشمس ؛ والمعنى : أنه يبيّن بضوئه جِرْمها . ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

تجلّت لنا كالشَّمْسِ تحت غَمامَة * بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجب

وقيل : جَلّى ما فى الأرض من حيوانها حتى ظهر لاستتاره ليلًا وانتشاره نهارا . وقيل : جَلّى الدنيا . وقيل : جَلّى الأرض ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ ومثله قوله تعالى : « حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ »(1) على ما تقدّم آنفا .

قوله تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَـٰهَا ﴿٤﴾

أى يغشى الشمسَ فيذهب بضوئها عند سقوطها ؛ قاله مجاهد وغيره . وقيل : يغشى الدنيا بالظُّلَم فتُظلم الآفاق . فالكناية ترجع إلى غير مذكور .

قوله تعالى : وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَـٰهَا ﴿٥﴾

أى وبنيانها . فما مصدرية ؛ كما قال : « بِمَا غَفَرَلِي ربى »(2) أى بغفران ربّى ؛ قاله قتادة ، واختاره المبرد . وقيل : المعنى ومن بناها ؛ قاله الحسن ومجاهد ؛ وهو اختيار الطبرى . أى ومن خلقها ورفعها وهو الله تعالى . وحُكِيَ عن أهل الحجاز : سبحان ما سبَّحت له ؛ أى سبحان من سبحت له .

قوله تعالى : وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَـٰهَا ﴿٦﴾

أى وطَحْوها . وقيل : ومن طحاها ؛ على ما ذكرناه آنفا . أى بسطها ؛ كذا قال عامة المفسرين ؛ مثل دحاها . قال الحسن ومجاهد وغيرهما : طحاها ودحاها واحد ؛ أى بسطها

---

(1) آية ٣٢ سورة ص . (2) آية ٢٧ سورة يس .

من كل جانب . والطَّحْو : البسط؛ طحا يطحو طحوًا ، وطَحَى يَطْحَى طحيا ، وطَحَيت اضطجعت؛ عن أبي عمرو . وعن ابن عباس : طحاها قسمها . وقيل : خلقها؛ قال الشاعر :

وما تدرى جَذِيمةُ مَنْ طَحاها * ولا مَنْ ساكِنُ العرشِ الرفيع

الماوردى : ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خلق عليها . ويقال فى بعض أيمان العرب : لا ، والقمر الطّاحى ؛ أى المشرف المشرق المرتفع . قال أبو عمرو : طحا الرجل إذا ذهب فى الأرض . يقال : ما أدرى أين طَحا ! ويقال : طحا به قلبه إذا ذهب به فى كل شيء . قال عَلْقَمة :

طَحا بك قلبٌ فى الحِسانِ طَروبُ * بُعيدَ الشّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٧)

قيل : المعنى وتسويتها . فـ«ـما» بمعنى المصدر . وقيل : المعنى ومن سوّاها ، وهو الله عز وجل . وفى النفس قولان : أحدهما آدم . الثانى — كل نفس منفوسة . وسوّى بمعنى هيأ . وقال مجاهد : سوّاها سوّى خلقها وعدّل . وهذه الأسماء كلها مجرورة على القَسَم . أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٨)

قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ أى عرّفها؛ كذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد . أى عرفها طريق الفجور والتقوى؛ وقاله ابن عباس . وعن مجاهد أيضا : عرّفها الطاعة والمعصية . وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله عز وجل بعبده خيرا ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به السوء ألهمه الشر فعمل به . وقال الفراء : «فَأَلْهَمَهَا» قال : عرّفها طريق الخير وطريق الشر؛ كما قال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » (١) . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أَلْهَمَ المؤمن المتّقى تقواه ، وألهم الفاجر فجوره . وعن سعيد عن قتادة قال : بيّن لها فجورها وتقواها . والمعنى

(١) آية ١٠ سورة البلد .

متقارب . وروى عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «فألهمها فجُورَها وتَقْواهَا» قال : "اللّهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خيرُ من زكّاها أنت وليّها ومولاها". ورواه جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْواها » رفع صَوته بها وقال : "اللّهمّ آتِ نفسي تقواها أنت وَلِيُّها ومولاها وأنت خير من زكّاها" . وفي صحيح مسلم عن أبي الأسْوَد الدُّؤلِيّ قال قال لي عِمران ابن حُصَين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويَكْدَحون فيه، أشيء قُضِيَ ومَضَى عليهم من قَدَرٍ ما سبق، أو فيما يُسْتَقْبَلُون به مما أتاهم به نَبِيُّهم، وثبتت الحُجّة عليهم؟ فقلت : بل شيء قُضِيَ عليهم ومَضَى عليهم . قال فقال : أفلا يكون ظلماً؟ قال : ففزِعْتُ من ذلك فَزَعاً شديدا وقلت : كلُّ شيء خلْقُ اللهِ ومِلْكُ يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسئلون . فقال لي : يرحمك الله ! إني لم أُرِد بما سألتك إلّا لأحْزُر[1] عقلك إنّ رجلين من مُزَيْنَة أتيا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يارسول الله ، أرأيتَ ما يعمل الناسُ اليومَ ويَكْدَحون فيه، أشيء قُضِيَ عليهم ومَضَى فيهم من قَدَرٍ قد سَبَق ، أو فيما يُسْتَقْبَلُون به مما أتاهم به نَبِيُّهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : "لا بل شيء قُضِيَ عليهم ومَضَى فيهم وتصديقُ ذلك في كتاب الله عز وجل «ونَفْسٍ وما سَوّاها . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا» " . والفجور والتقوى مصدران في موضع المفعول به .

قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا ﴾ هـذا جواب القَسَم بمعنى لقد أفلح . قال الزجاج : اللّام حُذفت لأن الكلام طال فصار طوله عِوَضًا منها . وقيل : الجواب محذوف؛ أي والشمس وكذا وكذا لتُبْعَثُنّ . الزمخشري : تقديره ليُدَمدِمنّ الله عليهم؛ أي على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحا . وأما «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها» فكلام تابع لأوّله؛ لقوله : «فَأَلْهَمَها فُجُورَها وتَقْواها» على سبيل الاستطراد وليس من جواب القَسَم

(١) أي لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك .

فى شىء . وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ؛ والمعنى : قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها والشمس وضحاها . ﴿ أَفْلَحَ ﴾ فاز . ﴿ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ أى من زكّى الله نفسه بالطاعة . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ أى خسرت نفسٌ دسّها الله عز وجل بالمعصية . وقال آبن عباس : خابت نفسٌ أضلها الله وأغواها . وقيل : أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال ، وخاب من دسّ نفسه فى المعاصى ؛ قاله قتادة وغيره . وأصل الزكاة النمو والزيادة . ومنه زكا الزرع إذا كثر رَيْعه . ومنه تزكية القاضى للشاهد ؛ لأنه يرفعه بالتعديل وذكر الجميل . وقد تقدم هذا المعنى فى أوّل سورة «البقرة» مستوفًى (١) . فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البرّ شهر نفسه ورفعها ، وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وآرتفاع الأرض ليشتهر مكانها للمُعتفين (٢) ، وتوقد النار فى الليل للطارقين . وكانت اللئام تنزل الأولاج (٣) والأطراف والأهضام ليخفى مكانها عن الطالبين . فأولئك علّوا أنفسهم وزكّوها ، وهؤلاء أخفَوْا أنفسهم ودسّوها . وكذا الفاجر أبدا خفىّ المكان ، زَمِرُ (٤) المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس بركوب المعاصى . وقيل : دسّاها أغواها . قال :

وأنت الذى دَسَّيْتَ عمرًا فأصبحتْ * حلائلُه منه أراملَ ضُيَّعا (٥)

قال أهل اللغة : والأصل دسسها من التدسيس وهو إخفاء الشىء فى الشىء ، فأبدلت سينه ياء ؛ كما يقال : قَصّيْتُ أظفارى ؛ وأصله قصّصت أظفارى . ومثله قولهم فى تقصّص : تقصّى . وقال آبن الأعرابى : «وقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» أى دسّ نفسه فى جملة الصالحين وليس منهم .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) المعتفى : كل طالب فضل أو رزق .
(٣) الأولاج : ما كان من كهف أو غار يلجأ إليه . والأهضام : أسافل الأودية . (٤) الزمر : القليل .
(٥) الذى فى اللسان (مادة دسا) :

وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت * نساؤهم فيهم أرامل ضيع

وقال : دسيت أغويت وأفسدت . وعمرو : قبيلة .

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أي بطغيانها، وهو خروجها عن الحدّ في العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. وعن ابن عباس «بطغواها» أي بعذابها الذي وُعِدت به. قال: وكان اسم العذاب الذي جاءها الطَّغْوَى؛ لأنه طغى عليهم. وقال محمد بن كعب: «بطغواها» بأجمعها. وقيل: هو مصدر، وخرج على هذا المخرج لأنه أشكلُ برءوس الآي. وقيل: الأصل بطَغْيَاها، إلا أن «فَعْلَى» إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واوا لِيُفْصَل بين الاسم والوصف. وقراءة العامة بفتح الطاء. وقرأ الحسن والجَحْدَري وحَمّاد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر؛ كالرُّجْعَى والحُسْنَى وشبههما في المصادر. وقيل: هما لغتان. ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ أي نهض. ﴿ أَشْقَاهَا ﴾ لعقر الناقة. واسمه قُدار بن سالف. وقد مضى في «الأعراف»(1) بيان هذا، وهل كان واحدا أو جماعة. وفي البُخاريّ عن عبد الله ابن زَمْعَة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب، وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عَزِيز عارم(2) مَنِيع في رهطه مثل أبي زمعة" وذكر الحديث. خرّجه مسلم أيضا. وروى الضحاك عن عليّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له: "أتدري من أشقى الأوّلين" قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "عاقر الناقة - قال - أتدري من أشقى الآخرين" قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "قاتلك". ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ يعني صالحا. ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ «ناقة» منصوب على التحذير؛ كقولك: الأسدَ الأسدَ، والصبيَّ الصبيَّ، والحذارَ الحذارَ. أي احذروا ناقة الله؛ أي عَقْرَها. وقيل: ذروا ناقة الله؛ كما قال: «هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»(3). ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أي ذَرُوها وشِرْبَها. وقد مضى في سورة «الشعراء»(4) بيانه والحمد لله. وأيضا في سورة «اقتربت الساعة»(5). فإنهم لما اقترحوا الناقة وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شِرْبَ يوم من بئرهم ولها شِرْب يوم مكان ذلك، فشقّ ذلك عليهم.

---

(1) راجع ج ٧ ص ٢٤١ (2) العارم: الجبار المفسد الخبيث. (3) آية ٧٣ سورة الأعراف.
(4) راجع ج ١٣ ص ١٣١ (5) راجع ج ١٧ ص ١٤١

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أى كذبوا صالحا عليه السلام فى قوله لهم : "إنكم تعذبون إن عقرتموها" . ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى عقرها الأشقى . وأضيف إلى الكل لأنهم رضوا بفعله . وقال قتادة : ذُكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم . وقال الفرّاء : عقرها آثنان . والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس ، وهذه المرأة أشقى القوم ؛ فلهذا لم يقل : أشقياها .

قوله تعالى : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ ﴾ أى أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذى هو الكفر والتكذيب والعقر . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : دمدم عليهم قال : دمّر عليهم ربُّهم بذنبهم ؛ أى بجُرْمهم . وقال الفرّاء : دمدم أى أرجف . وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده . ويقال : دَمَمْتُ على الشيء أى أطبقت عليه ، ودَمَّ عليه القبر أى أطبقه . وناقة مدمومة أَلْبسها الشحمُ . فإذا كررت الإطباق قلت : دَمْدَمْت . والدَّمْدَمة إهلاك باستئصال ؛ قاله المُؤَرِّج . وفى الصِّحاح : ودَمْدَمْتُ الشيء إذا ألزقته بالأرض وطَحْطَحْته . ودَمْدَم الله عليهم أى أهلكهم . القُشَيْرِىّ : وقيل دَمْدَمت على الميّت الترابَ أى سَوّيت عليه . فقوله «فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم» أى أهلكهم فجعلهم تحت التراب . ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى سوّى عليهم الأرض . وعلى الأول « فسوّاها » أى فسوّى الدَّمْدَمة والإهلاك عليهم . وذلك أن الصيحة أهلكتهم فأتت على صغيرهم وكبيرهم . وقال آبن الأنبارىّ : دَمْدَمَ أى غَضِب . والدَّمْدَمَةُ : الكلامُ الذى يُزْعِج الرجل . وقال بعض اللغويين : الدَّمْدَمة الإدامة ؛ تقول العرب : ناقة مدمومة أى سمينة . وقيل : « فسوّاها » أى فسوّى الأمة فى إنزال العذاب بهم ، صغيرهم وكبيرهم ، وَضِيعهم وشريفهم ، ذكرهم وأنثاهم . وقرأ آبن الزبير « فَدَهْدَم » وهما لغتان ؛ كما يقال : امتقع لَوْنُه وآمتقع .

قوله تعالى : وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

أى فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبِعة الدَّمْدَمة من أحد ؛ قاله آبن عباس والحسن وقتادة ومجاهد . والهاء فى « عُقْبَاهَا » ترجع إلى الفعلة ؛ كقوله : "من اغتسل يوم

الجمعة فيها ونَعْمت» أى بالفعلة والخصلة . قال السُّدِّىّ والضحاك والكلبي : ترجع إلى العاقر؛ أى لم يخف الذى عقرها عقبى ما صنع . وقاله ابن عباس أيضا . وفى الكلام تقديم وتأخير، مجازه : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقباها . وقيل : لا يخاف رسول الله صالحُ عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم ونجّاه الله تعالى حين أهلكهم . وقرأ نافع وابن عامر « فلا » بالفاء وهو الأجود؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول؛ أى فلا يخاف اللهُ عاقبةَ إهلاكهم . والباقون بالواو، وهى أشبه بالمعنى الثانى؛ أى ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالا : أخرج إلينا مالك مصحفا لجدّه، وزعم أنه كتبه فى أيام عثمان بن عفان حين كتب المصاحف، وفيه : « ولا يخاف » بالواو . وكذا هى فى مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اتباعا لمصحفهم .

سورة « والليل »

مكّيّة . وقيل : مدنيّة . وهى إحدى وعشرون آية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ أى يُغطِّى . ولم يذكر معه مفعولا للعلم به . وقيل يغشى النهار . وقيل : الأرض . وقيل : الخلائق . وقيل : يغشى كلَّ شيء بظلمته . وروى سعيد عن قتادة قال : أول ما خلق الله النورَ والظُّلمة، ثم ميّز بينهما، فجعل الظلمة ليلًا أسْوَدَ مُظْلِمًا، والنورَ نهارًا مُضيئًا مُبْصِرًا . ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أى إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظُلمة الليل . ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ قال الحسن : معناه والذى خلق

الذكر والأنثى ؛ فيكون قد أقسم بنفسه عزّ وجل . وقيل : معناه وخلق الذكر والأنثى ؛ فـ«ما» مصدرية على ما تقدم . وأهل مكة يقولون للرعد : سبحان ما سبّحت له ؛ فما على هذا بمعنى من ، وهو قول أبي عبيدة وغيره . وقد تقدّم . وقيل : المعنى وما خلق من الذكر والأنثى ؛ فتكون «من» مضمرة ، ويكون القَسَم منه بأهل طاعته من أنبيائه وأوليائه ، ويكون قَسَمُه بهم تكْرِمَةً لهم وتشريفًا . وقال أبو عبيدة : «وما خلق» أي ومَن خلق . وكذا قوله : «والسَّماءِ وَمَا بناها» ، و«نَفْسٍ وما سوّاها» «ما» في هذه المواضع بمعنى مَن . ورُوِيَ عن ابن مسعود أنه كان يقرأ «والنّهارِ إذا تجلّى. والذَّكَرِ والأُنْثَى» ويُسْقِط «وما خلق» . وفي صحيح مسلم عن عَلْقَمة قال : قَدِمْنا الشام فأتانا أبو الدَّرْداء فقال : فيكم أحد يقرأ على قراءةَ عبد الله ؟ فقلت : نعم ، أنا . قال : فكيف سمعتَ عبدَ الله يقرأ هذه الآية «والليل إذا يَغْشَى» ؟ قال : سمعته يقرأ «واللَّيلِ إذا يَغْشَى . والذَّكَرِ والأنثى» قال : وأنا والله هكذا سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ «وَمَا خَلَق» فلا أتابعهم (1) . قال أبو بكر الأنباري : وحدّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزيّ قال حدّثنا محمد قال حدّثنا أبو أحمد الزّبيري قال حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال : أقرأني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «إنّي أنا الرازق ذو القُوّةِ المَتِين» ؛ قال أبو بكر : كلٌّ من هذين الحديثين مردود ؛ بخلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصمًا يَرْويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين ، والبناء على سَنَدَيْن يوافقان الإجماع أَوْلى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة ، وما يُبْنَى على رواية واحدٍ إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه ، أُخذ برواية الجماعة وأُبْطِل نقل الواحد ؛ لما يجوز عليه من النسيان والإغفال . ولو صح الحديث عن أبي الدَّرْداء وكان إسناده مقبولا معروفا ، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ

(1) وفي كتاب الأحكام لابن العربي ما نصه : «هذا مما لا يلتفت إليه بشر ، إنما المعول عليه ما في المصحف فلا تجوز مخالفته لأحد ، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه مما لم يثبت ضبطه حسب ما بيناه في موضعه ؛ فإن القرآن لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عدلا ، وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم ، وينقطع معه العذر ، وتقوم به الحجة على الخلق» .

وسائر الصحابة رضى الله عنهم يخالفونه، لكان الحكم العملَ بما روَته الجماعة ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذى يسرع إليه من النسيان ما لايسرع إلى الجماعة وجميع أهل الملّة . وفى المراد بالذكر والأنثى قولان : أحدهما — آدم وحوّاء؛ قاله ابن عباس والحسن والكلْبيّ . الثانى — يعنى جميع الذكور والإناث من بنى آدم والبهائم ؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم . وقيل : كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته . ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ هذا جواب القسم . والمعنى : إن عملكم لمختلف . وقال عِكْرِمة وسائر المفسرين : السعى العمل ؛ فساعٍ فى فكاك نفسه، وساعٍ فى عَطَبها ؛ يدلّ عليه قوله عليه السلام: "الناس غاديان فمبتاعٌ نفسَه فمُعْتِقُها وبائع نفسَه فمُوبِقُها"[1] . وشتّى : واحده شَتيت ؛ مثل مَريض ومَرْضَى . وإنما قيل للمختلف شَتّى لتباعد ما بين بعضه وبعضه . أى إنّ عملكم لمتباعد بعضه من بعض ؛ لأن بعضه ضلالةٌ وبعضَه هُدًى . أى فمنكم مؤمن وبَرٌّ، وكافر وفاجر، ومطيعٌ وعاصٍ . وقيل : « لَشَتّى » أى لمختلف الجزاء ؛ فمنكم مُثَابٌ بالجنة ومعاقَبٌ بالنار . وقيل : أى لمختلف الأخلاق ؛ فمنكم راحمٌ وقاسٍ، وحليمٌ وطائش، وجوادٌ وبخيل ؛ وشبه ذلك .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ قال ابن مسعود : يعنى أبا بكر رضى الله عنه ؛ وقاله عامة المفسرين . فرُوِى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يَعْتِق على الإسلام عجائز ونساء، قال فقال له أبوه أبو قُحَافة : أى بُنَيّ ! لو أنك

(١) هذه رواية الحديث كما فى الثعلبى . والذى فى نسخ الأصل : «الناس غاديان فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

عتقت رجالا جُلْدًا(1) يمنعونك ويقومون معك ؟ فقال : يا أبت إنما أريد ما أريد . وعن ابن عباس في قوله تعالى: «فأمّا مَنْ أَعْطَى» أي بَذَل . «وآتّقَى» أي محارم الله التي نهى عنها . ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي بالخَلَف من الله تعالى على عطائه . ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من يوم يُصْبِح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهُـمّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ويقـول الآخر اللّهمّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" . وروى من حديث أبي الدَّرْداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من يوم غَرَبت شَمْسُه إلا بُعث بجنبتيها مَلَكان يُنَادِيَان يسمعهما خلق الله كلّهم إلا الثَّقَلَيْن اللّهُمّ أَعْطِ مُنْفِقا خَلَفًا وأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" فأنزل الله تعـالى في ذلك في القرآن « فأمّا مَنْ أَعْطَى » الآيات . وقال أهل التفسير : « فأمّا مَنْ أعطى » المُعْسِرين . وقال قتادة : أعطى حَقّ الله تعالى الذي عليه . وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه . ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي بلا إله إلا الله؛ قاله الضحاك والسُّلَمِيّ وآبن عباس أيضا . وقال مجاهـد : بالجنة ؛ دليله قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ(2) » الآية . وقال قتادة: بمَوعود الله الذي وَعَده أن يثيبه . زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم . الحسن : بالخَلَف من عطائه ؛ وهـو اختيار الطبري . وتقدم عن ابن عباس ، وكلّه متقارب المعنى ؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها . وقال زيد بن أسلم: «لليسرى» للجنة . وفي الصحيحين والترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال : كنا في جنازة بالبَقِيع ، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فجلس وجلسنا معه، ومعه عُود يَنْكُتُ به في الأرض ، فـرفع رأسه إلى السماء فقال : "ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلا [قد] كُتِب مَدْخَلُها" فقال القوم: يارسول الله، أفلا نتّكل على كتابنا ؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء . قال : "بل

(1) كذا في كتاب أسباب النزول وروح المعاني . وفي نسخ الأصل : « ما يريد » . وفي تفسير الثعلبي ورواية أخرى في أسباب النزول : « لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ قال : منع ظهري أريد » .

(2) آية ٢٦ سورة يونس .

آعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ أما من كان من أهل السعادة فإنه يُيَسَّر لعمل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يُيَسَّر لعمل الشقاء — ثم قرأ — «فأمّا من أعطى وآتقى وصدّق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأمّا من بخل وآستغنى . وكذّب بالحسنى . فسنيسره للعسرى» " لفظ الترمذى . وقال فيه : حديث حسن صحيح . وسأل غلامان شابّان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : العمل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فى شيء يستأنف ؟ فقال عليه السلام : " بل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير " قالا : ففيم العمل ؟ قال : " آعملوا فكلٌّ ميسّر لعمله الذى خُلِق له " قالا : فالآن نجِدّ ونعمل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَآسْتَغْنَى ﴾ أى ضنّ بما عنده فلم يبذل خيراً . وقد تقدّم بيانه وثمرته فى الدنيا فى سورة «آل عمران» (١) . وفى الآخرة مآله النار كما فى هذه الآية . روى الضحاك عن آبن عباس ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ قال : سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله . وعنه عن آبن عباس قال : نزلت فى أميّة بن خلف . وروى عكرمة عن آبن عباس : « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَآسْتَغْنَى » يقول : بخل بماله واستغنى عن ربّه . ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ أى بالخلف . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد : « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى » قال : بالجنة . وبإسناد عنه آخر قال «بالحسنى» أى بلا إله إلا الله . ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ أى نسهّل طريقه . ﴿ لِلْعُسْرَى ﴾ أى للشر . وعن آبن مسعود : للنّار . وقيل : أى فسنعسّر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها . وقد تقدّم أن الملك ينادى صباحًا ومساءً : " اللّهمّ أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا " . رواه أبو الدّرداء .

مسألة : قال العلماء : ثبت بهذه الآية وبقوله : « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » (٢) ، وقوله : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً » (٣) إلى غير ذلك من الآيات — أن الجود من مكارم الأخلاق والبخل من أرذلها . وليس الجواد الذى يعطى فى غير موضع العطاء ، ولا البخيل الذى يمنع فى موضع المنع ، لكن الجواد الذى يعطى فى موضع العطاء ، والبخيل

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩١ (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٧٤ سورة البقرة .

الذى يمنع فى موضع العطاء ، فكلُّ مَن ٱستفاد بمـا يُعْطِى أجرًا وحمدًا فهو الجواد . وكلُّ من ٱستحق بالمنع ذَمًّا أو عقابا فهو البخيل . ومَن لم يستفد بالعطاء أجرًا ولا حَمْدًا وإنما استوجب به ذَمًّا فليس بجواد ، وإنمـا هو مُسْرِفٌ مذموم، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوانَ الشياطين، وأوجب الحَجْر عليهم . ومَن لم يستوجب بالمنع عقابًا ولا ذَمًّا، وٱستوجب به حَمْدًا فهو من أهل الرَّشَد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم .

الرابعـــة — قال الفراء : يقول القائل كيف قال «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» وهل فى العُسْرَى تيسير ؟ فيقال فى الجواب : هذا فى إجازته بمنزلة قوله عز وجل : « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»(١) والبِشارة فى الأصل على المفرح والسار، فإذا جمع فى كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما . وكذلك التيسير فى الأصـل على المفرح، فإذا جمع فى كلامين هذا خير وهـذا شر جاء التيسير فيهما جميعا . قال الفراء : وقوله تعالى «فَسَنُيَسِّرُهُ» سنهيئه . والعرب تقول: قد يَسَّرت الغنمُ إذا ولدت أو تهيأت للولادة . قال :

هما سَيِّدانا يَزْعُمان وإنمـا * يَسُودَانِنا أن يَسَّرَتْ غَنَماهما(٢)

قوله تعـالى : وَمَا يُغْنِي عَنْـهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أى مات . يقال : رَدِىَ الرجلُ يَرْدَى رَدًى إذا هَلَك . قال :

* صرفتُ الهوى عنهنّ مِن خَشْيَة الرَّدَى *

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم : «إذا تَرَدَّى» أى سقط فى جهنم ؛ ومنه المتردّية . ويقال : رَدَى فى البئر وتَرَدَّى إذا سقط فى بئر أو تَهَوّر من جبل . يقال : ما أدرى أين رَدَى ! أى أين ذهب ؛ و «ما» يحتمل أن تكون جَحْـدًا؛ أى ولا يغنى عنه ماله شيئا . ويحتمل أن تكون استفهاماً

---

(١) آية ٢١ سورة آل عمران .	(٢) البيت لأبى أسيدة الدبيرى . وقبله :

إن لنا شيخين لا ينفعاننا * غنيين لا يجـدى علينا غناهما

معناه التوبيخ؛ أي أيّ شيء يغني عنه إذا هلك ووقع في جهنم! ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ أي إن علينا أن نبيّن طريق الهُدَى من طريق الضلالة . فالهُدَى بمعنى بيان الأحكام؛ قاله الزجاج . أي على الله البيان، بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته؛ قاله قتادة . وقال الفرّاء : من سلك الهُدَى فعلى الله سبيله؛ لقوله : « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ »(١) يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . وقيل : معناه إن علينا للهُدَى والإضلال؛ فترك الإضلال؛ كقوله : « بِيَدِكَ الْخَيْرُ »(٢) و « بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ »(٣) . وكما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »(٤) وهي تقي البرد؛ عن الفرّاء أيضا . وقيل : أي إن علينا ثواب هداه الذي هديناه . ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ « لَلْآخِرَةَ » الجنة . « والأولى » الدنيا . وكذا روى عطاء عن ابن عباس . أي الدنيا والآخرة لله تعالى . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »(٥) فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق .

قوله تعالى : فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي حذّرتكم وخوّفتكم . ﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ أي تلهّب وتتوقّد . وأصله تتلظّى . وهي قراءة عبيد بن عمير ويحيى بن يعمُر وطلحة بن مُصرِّف . ﴿ لَا يَصْلَاهَا ﴾ أي لا يجد صلاها وهو حرّها . ﴿ إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أي الشقي . ﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ نبيَّ الله محمدًا صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي أعرض عن الإيمان . وروى مكحول عن أبي هريرة قال : كلّ يدخل الجنة إلا من أباها . قال : يا أبا هريرة، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال : الذي كذّب وتولّى . وقال مالك : صلّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب فقرأ « والليل

---

(١) آية ٩ سورة النحل . (٢) آية ٢٦ سورة آل عمران . (٣) آية ٨٣ سورة يس .
(٤) آية ٨١ سورة النحل . (٥) آية ١٣٤ سورة النساء .

إذا يَغْشَى » فلمــا بلغ « فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى » وقع عليه البكاء فلم يقدر يتعدّاها من البكاء ، فتركها وقرأ ســورة أخرى . وقال الفرّاء : « إِلَّا الْأَشْقَى » إلّا من كان شقيًّا فى علم الله جل ثناؤه . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى » أُمَيَّــة بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : كذّب بكتاب الله وتولّى عن طاعة الله . وقال الفرّاء : لم يكن كذّب بردّ ظاهر ولكنه قصر عما أُمِر به من الطاعة ؛ فجعل تكذيباً ؛ كما تقول : لَقِيَ فلان العدوّ فكذّب إذا نكل ورجع عن اتباعه . قال وسمعت أبا ثَرْوان يقول : إن بنى نُمَيْر ليس لجِدّهم[(1)] مكذوبة . يقول : إذا لقوا صدَقوا القتال ولم يرجعوا . وكذلك قوله جل ثنــاؤه : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ »[(2)] يقول : هى حق . وسمعت ســلم بن الحسن يقول : سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول : هذه الآية التى من أجلها قال أهل الإرجاء[(3)] بالإرجاء ، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر ؛ لقوله جلّ ثناؤه : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » وليس الأمر كما ظَنُّوا . هذه نار موصوفة بعينها ، لا يَصْلَى هذه النار إلا الذى كذّب وتولّى . ولأهل النار منازل ؛ فمنها أن المنافقين فى الدَّرْك الأسفل من النار ؛ والله سبحانه كلَّ ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذِّب به . وقال جل ثناؤه : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَــاءُ »[(4)] فلو كان كل من لم يشرك لم يُعَــذَّب ، لم يكن فى قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فائدة ، وكان « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ » كلامًا لا معنى له . الزَّمَخْشَرِىّ : الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين فقيل : الأشقى ، وجُعل مختصًّا بالصَّلْى ، كأن النار لم تخلق

(١) كذا فى الأصول وأساس البلاغة للزمخشرى . والذى فى تفسير الفرّاء ولسان العرب — مادة كذب — : « لحدهم » بالحاء المهملة . وحدّ الرجل : بأسه ونفاذه فى نجدته . (٢) آية ٢ سورة الواقعة .

(٣) هم المرجئة ، وهم فرقة من فرق الإســلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة . سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى ؛ أى أخره عنهم . وقيــل : المرجئة فرقة من المسلمين يقولون الإيمــان قول بلا عمل ؛ كأنهم قدموا القول وأرجئوا العمــل أى أخروه ؛ لأنهــم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم . (٤) آية ٤٨ سورة النساء .

إلّا له . وقيل : الأتقى ، وجُعل مختصًّا بالنجاة ، كأن الجنة لم تخلق إلّا له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف . وأبو بكر رضي الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ أي يكون بعيدا منها . ﴿ الأَتْقَى ﴾ أي المتّقي الخائف . قال ابن عباس : هو أبو بكر رضي الله عنه ، يُزحزح عن دخول النار . ثم وصف الأتقى فقال ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكيًا ، ولا يطلب بذلك رياء ولا سُمعة ، بل يتصدّق به مبتغيًا به وجه الله تعالى . وقال بعض أهل المعاني : أراد بقوله « الْأَتْقَى » و « الْأَشْقَى » أي التقيّ والشقيّ ؛ كقول طَرَفة :

تمنّى رجال أن أموت وإن أمت * فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوْحَدِ

أي واحد ووحيد ، وتُوضع أفعل موضع فعيل ، نحو قولهم : الله أكبر بمعنى كبير ، « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ »(١) بمعنى هيّن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ أي ليس يتصدق ليجازَى على نعمة ، إنما يبتغي وجه ربّه الأعلى ، أي المتعالي ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ أي بالجزاء . فروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال : عذّب المشركون بلالا ، وبلالٌ يقول أحد أحد ، فمرّ به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أحد — يعني الله تعالى — ينجيك" ثم قال لأبي بكر : "يا أبا بكر إنّ بلالا يُعذَّب في الله" فعرف أبو بكر الذي يريد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف إلى منزله ، فأخذ رطلا من ذهب ومضى به إلى أميّة بن خَلَف ، فقال له : أتبيعني بلالا ؟ قال : نعم ؛ فاشتراه فأعتقه . فقال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده ؛ فنزلت « وما لِأحدٍ عِنده » أي عند أبي بكر « من نعمة » ، أي من يدٍ ومنّة « تُجْزَى » بل

(١) آية ٢٧ سورة الروم .

«ابتغاء» بما فعل « وجه رَبّه الأعلى» . وقيل: اشترى أبو بكر من أمية وأُبَيّ بن خلف بلالا ببردة وعشر أواق ، فأعتقه لله فنزلت : « إنّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى » . وقال سعيد بن المسيّب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعُنيه ؟ فقال : نعم، أبيعه بنِسطاس ، وكان نسطاس عبدًا لأبي بكر ، صاحب عشرة آلاف دينار ، وغلمان وجَوارٍ ومَواشٍ ، وكان مُشْركًا فحمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون له ماله ، فأبى فباعه أبو بكر به . فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا لِيَـدٍ كانت لبلال عنده ؛ فنزلت « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْـدَهُ مِن نِعمةٍ تجزى . إلا ابتِغـاء » أي لـكن ابتغاء ؛ فهو استثناء منقطع ؛ فلذلك نصبت . كقولك : ما في الدار أحد إلا حمارًا . ويجوز الرفع . وقرأ يحيى بن وَثّاب « إلا ٱبْتِغَاءُ وَجْهِ رَبّه » بالرفع، على لغة من يقول : يجوز الرفع في المستثنى . وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم :

أضحت خَلاءً قِفارًا لا أنيس بها * إلا الجآذر والظُّلْمان تختلف (١)

وقول القائل :

وبلدة ليس بهـا أنيس * إلا اليعافير وإلا العيس (٢)

وفي التنزيل : « مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » (٣) وقد تقدم . ﴿ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ أي مرضاته وما يقرّب منه . و «الأعلى» من نعت الربّ الذي آستحق صفات العُلُوّ . ويجوز أن يكون « آبتغاء وَجْهِ رَبّه » مفعولا له على المعنى ؛ لأن معنى الكلام : لا يؤتى ماله إلا آبتغاء وجهِ ربه لا لمكافأة نعمته . ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أي سوف يعطيه في الجنة ما يرضى ؛ وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق . وروى أبو حيّان التَّيْمي عن أبيه عن عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رَحِم الله أبا بكر زَوَّجَني آبنته وحَملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله" . ولمـا اشـتراه أبو بكر قال له بلال : هل اشتريتني لعملك أو لعمل الله؟ قال : بل لعمل الله ،

(١) الجـآذر (جمع جؤذر) وهي ولد البقـرة الوحشية . والظلمـان (بالكسر والضم) (جمـع الظليم) وهو الذكر من النعام . (٢) اليعافير (جمع يعفور) : وهو ولد الظبية وولد البقرة الوحشية أيضـا . والعيس : إبل بيض تخالط بياضها شقرة ؛ جمع أعيس (٣) آية ٦٦ سورة النساء . راجع جـ ٥ ص ٢٧٠ .

قال : فَذَرْني وعَمَل الله ، فأعتقه . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : أبو بكر سَيِّدُنا وأعتق سَيِّدنا (يعنى بلالا رضى الله عنه) . وقال عطاء — وروى عن ٱبن عباس — : إن السورة نزلت فى أبى الدَّحْدَاح ، فى النخلة التى ٱشتراها بحائط له ؛ فيا ذكر الثعلبى عن عطاء . وقال القُشَيْرِىّ عن ٱبن عباس : بأربعين نخلة ؛ ولم يُسَمّ الرجل . قال عطاء : كان لرجل من الأنصار نخلةٌ ، يسقط من بَلَحِها فى دار جارٍ له ، فيتناوله صبيانه ، فشكا ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "تبيعها بنخلة فى الجنة"؟ فأبى ؛ فخرج فلَقِيَه أبو الدَّحْدَاح فقال : هل لك أن تَبِيعنيها بـ« حسنى » ؟ حائطٍ له . فقال : هى لك . فأتى أبو الدّحداح إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، اشترها منى بنخلة فى الجنة . قال : "نعم والذى نفسى بيده" فقال : هى لك يا رسول الله ؛ فدعا النبىّ صلى الله عليه وسلم جار الأنصارى فقال : "خذها" فنزلت « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » إلى آخر السورة فى بستان أبى الدّحداح وصاحب النخلة . « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى » يعنى أبا الدحداح . « وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » أى بالثواب « فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » يعنى الجنة . « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى » يعنى الأنصارى . « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى » أى بالثواب . « فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » يعنى جهنم . « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » أى مات . إلى قوله : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى » يعنى بذلك الخَزْرَجِىّ ؛ وكان منافقا فمات على نفاقه . « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » يعنى أبا الدّحداح . « الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى » فى ثمن تلك النخلة . « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى » يكافئه عليها ؛ يعنى أبا الدّحداح . « وَلَسَوْفَ يَرْضَى » إذا أدخله الله الجنة . والأكثر أن السورة نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه . وروى ذلك عن ٱبن مسعود وٱبن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم . وقد ذكرنا خبرا آخر لأبى الدّحداح فى سورة « البقرة » عند قوله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » (1) . والله تعالى أعلم .

(1) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧

سورة « الضحى »

مكية باتفاق . وهى إحدى عشرة آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ قد تقدّم القول فى «الضحى»[1] ، والمراد به النهار؛ لقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى » فقابله بالليل . وفى سورة (الأعراف) « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ[2] » أى نهارا . وقال قتادة ومُقاتل وجعفر الصادق : أقسم بالضحى الذى كلّم الله فيه موسى وبليلة المعراج . وقيل : هى الساعة التى خرّ فيها السَّحرة سُجَّداً . بيانه قوله تعالى : « وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى[3] » . وقال أهل المعانى فيه وفى أمثاله : فيه إضمار ، مجازه ورَبِّ الضحى . و « سَجَا » معناه سكن ؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة . يقال : لَيْلَةٌ ساجية أى ساكنة . ويقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية . يقال : سَجَا اللَّيْلُ يَسْجُو سُجُوًّا[4] إذا سكن . والبحر إذا سجا : سكن . قال الأعشى :

فَمَا ذَنْبُنَا[5] أن جاش بَحْرُ ٱبنِ عَمِّكم　＊　وبَحْرُك ساجٍ ما يُوارِى الدَّعامِصَا

وقال الراجز :

يا حَبَّذا القَمْراءُ واللّيلُ السّاجْ　＊　وطُرُقٌ مِثْلُ مُلاءِ النّسّاجْ

---

(١) راجع ص ٧٢ وما بعدها من هذا الجزء .　(٢) آية ٩٧ ، ٩٨　(٣) آية ٥٩ سورة طه .

(٤) فى اللسان : « يسجو سُجُوًّا وسَجْوًا » .　(٥) فى ديوان الأعشين :　＊ أتوعدنى أن جاش ... ＊

والدعامص : جمع الدعموص ، وهو دويبة صغيرة تكون فى مستنقع الماء .

وقال جرير :

ولقد رمَيْنك يوم رُحْنَ بأعْيُنٍ * يَنظرن من خلل السُّتُور سَواجى

وقال الضحاك : «سجا» غَطّى كلّ شيء . قال الأصمعيّ : سُجُوّ الليل تغطيته النهار؛ مثلما يُسَجَّى الرجل بالثوب . وقال الحسن : غشى بظلامه؛ وقاله ٱبن عباس . وعنه : إذا ذهب . وعنه أيضا : إذا أظلم . وقال سعيد بن جُبير : اقبل؛ وروى عن قتادة أيضا . وروى ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد : «سَجا» استوى . والقول الأوّل أشهر في اللغة : «سجا» سكن؛ أي سكن الناس فيه . كما يقال : نهارٌ صائمٌ وليلٌ قائم . وقيل : سكونه استقرار ظلامه واستواؤه . ويقال : « والضُّحَى . والليل إذا سَجَى » يعنى عباده الذين يعبدونه فى وقت الضُّحَى ، وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم . ويقال : « الضحى » يعنى نور الجنة إذا تنوّر . « واللّيل إذا سَجَى » يعنى ظلمة الليل إذا أظلم . ويقال : « والضُّحَى » يعنى النور الذى فى قلوب العارفين كهيئة النهار . « واللّيلِ إذا سَجَى » يعنى السواد الذى فى قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأقسم الله عزّ وجلّ بهذه الأشياء . ﴿ ما ودّعَكَ رَبُّكَ ﴾ هذا جواب القَسَم . وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال المشركون : قلاه الله وودّعه؛ فنزلت الآية . وقال ابن جُريج : احتبس عنه الوَحْى اثنى عشر يوماً . وقال ابن عباس : خمسة عشر يوما . وقيل : خمسة وعشرين يوما . وقال مُقاتل : أربعين يوما . فقال المشركون : إن محمدا ودّعه رَبّه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء . وفى البخارى عن جُنْدُب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا؛ فجاءت امرأة[1] فقالت : يا محمد، إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فأنزل الله عزّ وجلّ «والضُّحَى . واللّيل إذا سَجَى . ما ودّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى» . وفى الترمذى عن جُنْدُب البَجَلِيّ قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غار فدميت إصْبَعُه فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هل أنتِ إلا إصبع دَمِيتِ،

(١) هى العوراء بنت حرب أخت أبى سفيان، وهى حمالة الحطب، وهى زوج أبى لهب.

وفى سبيل الله ما لَقِيتِ " . قال : وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد وُدِّع محمد؛ فأنزل الله تبارك وتعالى « ما ودّعك ربُّكَ وما قَلَى » . هذا حديث حسن صحيح . لم يذكر الترمذى : « فلم يقم ليلتين أو ثلاثا » أسقطه الترمذىّ . وذكره البخارى ، وهو أصح ما قيل فى ذلك . والله أعلم . وقد ذكره الثعلبى أيضا عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلى قال : رُمِىَ النبىّ صلى الله عليه وسلم فى إصبعه بحجر فدميت فقال : " هل أنت إلا إصبع دَميت ، وفى سبيل الله ما لَقِيت " فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم الليل . فقالت له أم جميل امرأة أبى لهب : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم أره قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاث ؛ فنزلت «والضُّحَى» . وروى عن أبى عمران الجَوْنى قال : أبطأ جبريل على النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى شقّ عليه ؛ فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو؛ فنكت بين كَتِفيه وأنزل عليه «ما ودّعك ربك وما قَلَى» . وقالت خَوْلة — وكانت تَخْدُم النبىّ صلى الله عليه وسلم — : إن جَرْوًا دخل البيت فدخل تحت السرير فمات؛ فمكث نبىّ الله صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحى . فقال : " يا خَوْلةُ ما حَدَث فى بيتى ؟ ما لجبريل لا يأتينى " ! قالت خولة فقلت : لو هيأتُ البيت وكَنَسْتُه ؛ فأهْوَيْتُ بالمِكْنسة تحت السرير فإذا جَرْوٌ ميّت ، فأخذتُه فألقيتُه خلف الجدار؛ فجاء نبىّ الله تَرْعُد لِحياه — وكان إذا نزل عليه الوَحْىُ استقبلته الرِّعْدَة — فقال : "ياخَوْلَة دَثِّرينى" فأنزل الله هذه السورة . ولما نزل جبريل سأله النبىّ صلى الله عليه وسلم عن التأخّر فقال : "أمَا علمتَ أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة" . وقيل : لما سألته اليهود عن الروح وذى القَرْنين وأصحاب الكهف قال : "سأخبركم غدا" ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس عنه الوحى ، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله «ولا تَقُولَنّ لِشَىْءٍ إنّى فاعِلٌ ذلك غَدًا إلا أنْ يَشَاءَ اللهُ»(1) فأخبره بما سُئل عنه . وفى هذه القصة نزلت «ما ودّعك ربُّكَ وما قَلَى» . وقيل : إن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، مالك لا ينزل عليك الوحى ؟ فقال : "وكيف ينزل علىّ وأنتم لا تُنَقُّون رَواجِبكم — وفى رواية بَراجِمَكم(2) — ولا تَقُصُّون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم" . فنزل

(1) آية ٢٣ سورة الكهف . (2) الرواجب (واحدها راجبة) : وهى ما بين عقد الأصابع . والبراجم (واحدها برجمة بالضم) : هى العقد التى فى ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ .

جبريل بهذه السورة ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما جئتَ حتى اشتقتُ إليك" فقال جبريل : "وأنا كنتُ أشدّ إليك شوقًا ولكني عبد مأمور" ثم أنزل عليه «وما نَتَنَزَّلُ إلا بأمرِ رَبِّكَ»(١) . «ودّعَكَ» بالتشديد قراءة العامة من التوديع ، وذلك كتوديع المفارق . وروى عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرآه «وَدَعك» بالتخفيف ومعناه تركك . قال :

وثَمّ ودَعْنَا آلَ عمرو وعامر * فرائس أطراف المُثَقَّفَة(٢) السُّمْرِ

واستعماله قليل . يقال : هو يَدَعُ كذا ؛ أى يتركه . قال المبرد محمد بن يزيد : لا يكادون يقولون وَدَعَ ولا وَذَرَ لضعف الواو إذا قُدِّمت ، واستغنوا عنها بتَرَكَ .

قوله تعالى : ﴿ وما قَلَى ﴾ أى ما أبغضك ربُّك منذ أحبك . وترك الكاف لأنه رأس آية . والقِلَى البُغْض ؛ فإن فتحت القاف مددت ؛ تقول : قلاه يَقْلِيه قِلًى وقَلاء . كما تقول : قَرَيْتُ الضيف أقْرِيه قِرًى وقَرَاء . ويَقْلاه لغة طيئ . وأنشد ثعلب :

* أيامَ أمِّ(٣) الغَمْرِ لا نَقْلاها *

أى لا نبغضها . وتَقَلَّى أى تبغّض . وقال(٤) :

أسيئى بنا أو أحسِنِى لا ملُومةٌ * لدينا ولا مَقْلِيّةٌ إن تَقَلَّتِ

وقال امرؤ القيس :

* ولست بمَقْلِيِّ الخِلال ولا قالِ(٥) *

وتأويل الآية : ما وَدّعك رَبُّك وما قلاك . فترك الكاف لأنه رأس آية ؛ كما قال عزّ وجلّ : «والذّاكِرِينَ الله كثيرًا وَالذّاكِراتِ(٦)» أى والذاكرات الله .

---

(١) آية ٦٤ سورة مريم . (٢) المثقفة والمثقف : الرمح .

(٣) كذا فى اللسان . وفى الأصول : «يارب» . وبعده كما فى اللسان :

* ولو تشاء قُبِّلَتْ عيناها *

(٤) هو كثير عزة . (٥) صدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٦) آية ٣٥ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

روى سلمة عن ابن إسحاق قال : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى » أى ما عندى في مرجعك إلىّ يا محمد خير لك مما عجّلتُ لك من الكرامة فى الدنيا . وقال ابن عباس : أُرِىَ النبىّ صلى الله عليه وسلم ما يفتح الله على أمته بعده فسُرّ بذلك؛ فنزل جبريل بقوله : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » . قال ابن إسحاق : الفَلَج فى الدنيا والثواب فى الآخرة . وقيل : الحوض والشفاعة . وعن ابن عباس : ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المِسْك . رفعه الأوزاعى قال : حدثنى إسماعيل بن عبيد الله عن على بن عبد الله ابن عباس عن أبيه قال : أُرِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمّته فسُرّ بذلك؛ فأنزل الله عز وجل « والضُّحَى — إلى قوله تعالى — وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » فأعطاه الله جلّ ثناؤه ألف قصر فى الجنة، ترابُها المسك؛ فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . وعنه قال : رَضِىَ محمد ألّا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقاله السدى . وقيل : هى الشفاعة فى جميع المؤمنين . وعن علىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُشَفِّعُنى الله فى أُمّتى حتى يقول الله سبحانه لى رَضيتَ يا محمد فأقول يارَبّ رَضيتُ" . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى فى إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »(١) وقول عيسى : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ »(٢) فرفع يديه وقال : "اللّهُمّ أمتى أمتى" وبكى . فقال الله تعالى لجبريل : "اذهب إلى محمد وربُّك أعلم فَسَلْه ما يبكيك" فأتى جبريل النبىّ صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره . فقال الله تعالى لجبريل : "اذهب إلى محمد فقل له إن الله يقول لك إنا سنرضيك فى أمتك

---

(١) آية ٣٦ سورة إبراهيم .

(٢) آية ١١٨ سورة المائدة .

ولا نسوءك"(١) . وقال علىّ رضى الله عنه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى آية فى كتاب الله تعالى «قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»(٢) قالوا : إنا نقول ذلك . قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» . وفى الحديث : لما نزلت هذه الآية قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إذًا والله لا أرضى وواحد من أمتى فى النار" .

قوله تعالى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾

عدّد سبحانه مننه على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ لا أبَ لك ، قد مات أبوك . ﴿فَآوَى﴾ أى جعل لك مأوى تأوى إليه عند عمّك أبى طالب فكفَلك . وقيل لجعفر بن محمد الصادق : لم أُوتِم النبىُّ صلى الله عليه وسلم من أبويه؟ فقال : لئلا يكون لمخلوق عليه حق . وعن مجاهد : هو من قول العرب : دُرّة يتيمة ؛ إذا لم يكن لها مِثْل . فمجاز الآية : ألم يجدك واحدا فى شرفك لا نظير لك ، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويحوطونك .

قوله تعالى : وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾

أى غافلا عما يراد بك من أمر النُّبُوّة فهداك ؛ أى أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة ؛ كقوله جلّ ثناؤه : « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى »(٣) أى لا يغفل . وقال فى حق نبيّه : « وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ »(٤) . وقال قوم : « ضَالًّا » لم تكن تدرى القرآن والشرائع ، فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام ؛ عن الضحاك وشهر بن حَوْشب وغيرهما . وهو معنى

---

(١) رواية الحديث كما ورد فى صحيح مسلم كتاب الإيمان : « أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم «رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى» الآية ، وقول عيسى عليه السلام «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» فرفع يديه وقال : "اللهم أمتى أمتى" وبكى ؛ فقال الله عز وجل : «يا جبريل إذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ؛ فقال الله : «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك» .

(٢) آية ٥٣ سورة الزمر . (٣) آية ٥٢ سورة طه . (٤) آية ٣ سورة يوسف .

قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ »[(١)] على ما بينا فى سورة « الشورى » . وقال قوم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا » أى فى قوم ضُلال فهداهم الله بك . هذا قول الكلبي والفرّاء . وعن السُّدى نحوه؛ أى ووجد قومك فى ضلال فهداك إلى إرشادهم . وقيل : «ووجدك ضالا» عن الهجرة فهداك إليها . وقيل : « ضَالًّا » أى ناسيا شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذى القرنين والرُّوح فأذكرك ؛ كما قال تعالى : « أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا »[(٢)] . وقيل : ووجدك طالبًا للقبلة فهداك إليها ؛ بيانه : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ »[(٣)] الآية . ويكون الضّلال بمعنى الطلب؛ لأن الضّال طالب . وقيل : ووجدك متحيّراً عن بيان ما نزل عليك فهداك إليه ؛ فيكون الضلال بمعنى التحيُّر ؛ لأن الضال متحيّر. وقيل : ووجدك ضائعا فى قومك فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع . وقيل : ووجدك مُحِبًّا للهداية فهداك إليها ؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى : « قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ »[(٤)] أى فى محبتك . قال الشاعر :

هذا الضلال أشاب منّى المَفْرِقَا[(٥)] * والعارِضَيْنِ ولم أكن متحققا
عجبًا لعَـزّةَ فى آختيار قطيعتى * بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل : « ضالا » فى شِعاب مكة فهداك وردّك إلى جَدّك عبد المطلب . قال آبن عباس : ضَلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو صغير فى شِعاب مكة ، فرآه أبو جَهْل منصرفا عن أغنامه ، فردّه إلى جده عبد المطلب ؛ فمنّ الله عليه بذلك حين ردّه إلى جده على يدى عدوّه . وقال سعيد بن جُبير : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب فى سفر ، فأخذ إبليس بزمام الناقة فى ليلة ظلماء ، فعدَل بها عن الطريق؛ فجاء جبريل عليه السلام فنفخ إبليس نفخةً وقع منها إلى أرض الهند ، وردّه إلى القافلة؛ فمنّ الله عليه بذلك . وقال كعب : إن حَليمة لما قضت حقّ الرضاع جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لتردّه على عبد المطلب ،

(١) آية ٥٢ راجع ج ١٦ ص ٥٥ (٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة .
(٣) آية ١٤٤ سورة البقرة . (٤) آية ٩٥ سورة يوسف .
(٥) المفرق (كمقعد ومجلس) : وسط الرأس . والعارض : صفحة الخد .

فسمعت عنـد باب مكة : هنيئاً لك يابطحاء مكة ، اليوم يُرَدُّ إليـك النورُ والدِّين والبهـاء والجمـال . قالت : فوضعته لأُصْلِح ثيابى فسمعت هدّة شديدة فالتفت فلم أره ، فقلت : معشر النـاس ، أين الصبىّ ؟ فقالوا : لم نر شيئا ؛ فصحت : واممداه ! ! فإذا شـيخ فانٍ يتوكأ على عصاه فقال : اذهبى إلى الصنم الأعظم ؛ فإن شاء أن يردّه عليـك فعل . ثم طاف الشيخ بالصنم وقَبّل رأسه وقال : ياربّ ، لم تزل مِنّتُك على قريش ، وهذه السَّعْدِيّة تزعم أن ٱبنها قد ضَلّ ، فردّه إن شئت . فانكب هُبَلُ على وجهه وتساقطت الأصنام وقالت : إليك عنا أيها الشـيخ ، فهلاكنا على يدى محمد . فألقى الشـيخ عصاه وٱرتعد وقال : إن لٱبنك رَبًّا لايضيعه ، فٱطلبيه على مهل . فٱنحشرت قريش الى عبد المطلب وطلبوه فى جميع مكة ، فلم يجدوه . فطاف عبد المطلب بالكعبة سَبْعاً وتضرّع إلى الله أن يردّه ، وقال :

يا رَبّ رُدّ ولدى محمـدا * ٱردده ربى وٱتخذ عندى يدا
يا رَبّ إنْ محمـد لم يوجدا * فشَـمْلُ قومى كلّهـم تبدّدا

فسمعوا مناديًا ينادى من السماء : معاشرَ الناس لا تضجّوا ، فإن لمحمد ربًّا لا يخذله ولا يضيعه ، وإن محمدًا بوادى تِهامة عند شجرة السَّمُر . فسار عبد المطلب هو ووَرَقة بن نَوْفَل ، فإذا النبىّ صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة ، يلعب بالأغصان و بالورق . وقيل : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا » ليلةَ المعراج ، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق ، فهداك إلى ساق العرش . وقال أبو بكر الورّاق وغيره : « ووَجَدك ضالًّا » تحب أبا طالب فهداك إلى محبة ربك . وقال بسام بن عبدالله : «ووجدك ضالا» بنفسك لاتدرى من أنت ، فعرفك بنفسك وحالك . وقال الجنيدى : ووجدك متحيّرًا فى بيان الكتاب فعلّمك البيان ؛ بيانه : « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) الآية . «لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى ٱخْتَلَفُوا فِيهِ»(٢) . وقال بعض المتكلمين : إذا وجدت العرب شجرة منفردة فى فلاة من الأرض لا شجر معها سَمَّوْها ضالّة ، فيُهتدَى بها إلى الطريق ؛ فقال الله تعالى

(١) آية ٤٤ سورة النحل .
(٢) آية ٦٤ سورة النحل .

لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا » أى لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد ؛ فَهَدَيْتُ بك الخلق إلىّ .

قلت : هذه الأقوال كلّها حِسان، ثم منها ما هو معنوىّ ومنها ما هو حِسّىّ . والقول الأخير أعجب إلىّ ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية . وقال قوم : إنه كان على جملة ما كان القوم عليه لا يُظهر لهم خلافا على ظاهر الحال ؛ فأما الشرك فلا يُظَنّ به ؛ بل كان على مراسم القوم فى الظاهر أربعين سنة . وقال الكَلْبىّ والسُّدّىّ : هذا على ظاهره ؛ أى وجدك كافرا والقوم كفار فهداك . وقد مضى هذا القول والرّدّ عليه (١) فى سورة «الشُّورى» (٢) . وقيل : وجدك مغمورا بأهل الشرك فميّزك عنهم . يقال : ضلّ الماءُ فى اللبن ؛ ومنه «أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ» (٣) أى لحقنا بالتراب عند الدفن حتى كأنا لا نتميّز من جملته . وفى قراءة الحسن « ووجدك ضالٌّ فهدى» أى وجدك الضال فٱهتدى بك؛ وهذه قراءة على التفسير. وقيل: « ووجدك ضالًّا » لا يهتدى إليك قومك ولا يعرفون قدرك ؛ فهدى المسلمين إليك حتى آمنوا بك .

قوله تعالى : وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

أى فقيرًا لا مال لك . ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ أى فأغناك بخديجة رضى الله عنها؛ يقال : عال الرجل يَعِيل عَيْلة إذا افتقر . وقال أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

فما يَدْرِى الفقيرُ متى غِناه * وما يَدْرِى الغَنِىُّ متى يَعِيلُ

أى يفتقر . وقال مقاتل : فرضّاك بما أعطاك من الرزق . وقال الكَلْبِىّ : قنّعك بالرزق . وقال ٱبن عطاء : ووجدك فقير النفس فأغنى قلبك . وقال الأخفش : وجدك ذا عيال ؛ دليله « فأغنَى » . ومنه قول جرير :

الله أنزل فى الكتاب فريضة * لٱبن السبيل وللفقير العائل

---

(١) مثل هذه الأقوال لا يصح نسبتها إلى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ولا لأحد من الأنبياء؛ لأن العصمة ثابتة لهم قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر على الصحيح .

(٢) راجع جـ ١٦ ص ٥٥ فما بعدها .

(٣) آية ١٠ سورة السجدة .

وقيل : وجدك فقيرا من الحجج والبراهين فأغناك بها . وقيل : أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار . القُشَيْرِىّ : وفى هذا نظر؛ لأن السورة مكّيّة ، وإنما فرض الجهاد بالمدينة . وقراءة العامة « عائلا » . وقرأ ابن السَّمَيْقَع « عَيِّلًا » بالتشديد؛ مثل طَيِّب وهَيِّن .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أى لا تسلّط (١) عليه بالظلم؛ ادفع إليه حقّه، وآذكر يُتْمَك؛ قاله الأخفش . وقيل : هما لغتان بمعنًى . وعن مجاهد « فلا تقهر » فلا تحتقر . وقرأ النَّخَعِىّ والأشهب العقيلى « تَكْهَر » بالكاف ، وكذلك هو فى مصحف آبن مسعود . فعلى هذا يحتمل أن يكون نَهْيًا عن قهره بظلمه وأخذ ماله . وخصّ اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى؛ فغلّظ فى أمره بتغليظ العقوبة على ظالمه . والعرب تعاقب بين الكاف والقاف . النحاس : وهذا غلط، إنما يقال كَهَره إذا اشتدّ عليه وغلظ . وفى صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السُّلَمِىّ حين تكلّم فى الصلاة بردّ السلام قال : فبأبى هو وأمّى ! ما رأيت معلّما قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه — يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فوالله ما كَهَرنى ولا ضربنى ولا شتمنى ... الحديث . وقيل : القَهْر الغلبة . والكَهْر : الزجر .

الثانية — ودلّت الآية على اللّطف باليتيم وبرّه والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . وروى عن أبى هريرة أن رجلًا شكا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه؛ فقال : "إن أردت أن يلين فآمسح رأس اليتيم وأطعم المسكين" . وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين" .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « لا تسطو » .

وأشار بالسبابة والوسطى . ومن حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن فيقول الله تعالى لملائكته يا ملائكتي من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب فتقول الملائكة ربنا أنت أعلم فيقول الله تعالى لملائكته يا ملائكتي اشهدوا أن من أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة" . فكان ابن عمر إذا رأى يتيمًا مسح برأسه وأعطاه شيئا . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من ضم يتيمًا فكان في نفقته وكفاه مؤنته كان له حجابا من النار يوم القيامة ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة" . وقال أكثم بن صيفي : الأذلاء أربعة : النمام والكذاب والمديون واليتيم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي لا تزجره ؛ فهو نهي عن إغلاظ القول . ولكن رده ببذل يسير أو رد جميل ، واذكر فقرك ؛ قاله قتادة وغيره . وروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يمنعن أحدكم السائل وأن يعطيه إذا سأل ولو رأى في يده قلبين[1] من ذهب" . وقال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة . وقال إبراهيم النخعي : السائل بريد الآخرة ، يجيء إلى باب أحدكم فيقول هل تبعثون إلى أهليكم بشيء . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ردوا السائل ببذل يسير أو رد جميل فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم الله" . وقيل : المراد بالسائل هنا الذي يسأل عن الدين ؛ أي فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين ؛ قاله سفيان . قال ابن العربي : وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالم على الكفاية ؛ كإعطاء سائل البر سواء . وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث ويبسط رداءه لهم ويقول : مرحبا بأحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي حديث أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال[2] : كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الناس لكم تبع

(١) القلب (بضم وسكون) : السوار . (٢) القائل هو أبو هارون العبدي .

وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا " وفى رواية "يأتيكم رجال من قِبَل المشرق" فذكره . و«اليتيم» و«السائل» منصوبان بالفعل الذى بعده؛ وحقّ المنصوب أن يكون بعد الفاء ؛ والتقدير : مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "سألت ربّى مسئلة وَدِدت أنى لم أسألها قلت يا ربّ اتخذت إبراهيم خليلا وكلّمتَ موسى تكليما وسخّرت مع داود الجبال يُسبّحن وأعطيت فلانا كذا فقال عزّ وجل ألم أجدك يتيما فآويتُك ألم أجدك ضالاًّ فهديْتُك ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ألم أشرح لك صدرك ألم أُوتِكَ ما لم أوتِ أحدا قبلك خواتيم سورة البقرة ألم أتخذك خليلاً كما اتخذتُ إبراهيم خليلاً قلتُ بلى يا رب" .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أى انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء . والتحدّث بنعم الله والاعتراف بها شكر . وروى ابن أبى نَجِيح عن مجاهد «وأما بنعمة ربك» قال بالقرآن . وعنه قال : بالنبوّة؛ أى بَلّغ ما أرسلتَ به . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والحكم عام له ولغيره . وعن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما قال : إذا أصبت خيرا أو عملت خيرا فحدّث به الثّقة من إخوانك . وعن عمرو بن مَيْمون قال : إذا لقى الرجل من إخوانه مَن يثق به يقول له رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا . وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول : لقد رزقنى الله البارحة كذا ، قرأتُ كذا ، وصلّيت كذا ، وذكرتُ الله كذا ، وفعلتُ كذا . فقلنا له : يا أبا فراس ، إن مثلك لا يقول هذا ! قال يقول الله تعالى : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » ، وتقولون أنتم : لا تحدّث بنعمة الله ! ونحوُه عن أيوب السِّخْتِيانىّ وأبى رجاء العُطارِدى رضى الله عنهم . وقال بكر بن عبد الله المُزَنِىّ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من أُعْطِىَ خيراً فلم يُرَ عليه سُمِّىَ بغيض الله معادياً لنعم الله" . وروى الشعبى عن النعمان بن بشير قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "مَن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدّثُ بالنّعم شكرٌ وتركه كفر والجماعة رحمةٌ والفُرْقة عذاب" . وروى النَّسائى عن مالك بن نَضْلة الجُشَمِىّ قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ، فرآنى رَثّ الثياب فقال : "ألك مال؟" قلت

نعم يا رسول الله ؛ من كل المال . قال : "إذا أتاك الله مالا فلْيُرَ أثَرُه عليك" . وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله جميل يحب الجمال ويحبّ أن يَرَى أثر نعمته على عبده" .

فصل — يكبّر القارئ فى رواية البَزّى عن ابن كثير — وقد رواه مجاهد عن ابن عباس عن أُبَىّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم — إذا بلغ آخر « والضحى » كبّر بين كلّ سورة تكبيرةً إلى أن يختم القرآن ، ولا يصل آخر السورة بتكبيره ؛ بل يفصل بينهما بسكتة . وكأنّ المعنى فى ذلك أن الوحى تأخّر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أياما ، فقال ناس من المشركين : قد وَدّعه صاحبه وقَلاه ؛ فنزلت هذه السورة فقال : "الله أكبر" . قال مجاهد : قرأت على ابن عباس فأمرنى به وأخبرنى به عن أُبَىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ولا يكبّر فى قراءة الباقين ؛ لأنها ذَرِيعة إلى الزيادة فى القرآن .

قلت : القرآن ثَبت نقلًا متواترًا سُوَره وآياته وحروفه لا زيادةَ فيه ولا نقصان ؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن . فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب فى المصحف بخط المصحف ليس بقرآن فكيف بالتكبير الذى هو ليس بمكتوب . أمّا إنه ثبت سُنّة بنقل الآحاد فاستحبه ابن كَثير لا أنه أوجبه نخطّأ من تركه . ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ فى كتاب «المستدرك» له على البخارِىّ ومسلم : حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ الإمام بمكة فى المسجد الحرام قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن على بن زيد الصائغ قال حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبى بزة سمعت عكرمة بن سليمان يقول قرأت على إسماعيل ابن عبد الله بن قُسطنطين ، فلما بلغت «والضحى» قال لى كَبّر عند خاتمة كل سورة حتى تختم ؛ فإنى قرأت على عبد الله بن كَثير فلما بلغت « والضحى » قال كَبّر حتى تختم . وأخبره عبد الله ابن كَثير أنه قرأ على مجاهد ، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أن أُبَىّ بن كعب أمره بذلك ، وأخبره أُبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . هذا حديث صحيح ولم يخرّجاه .

سورة « ألم نشرح »
مَكّيّةٌ فى قول الجميع . وهى ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

شَرْحُ الصّدر : فتحه ؛ أى ألم نفتح صدرك للإسلام . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ألم نُلَيّن لك قلبك . وروى الضّحاك عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله ، أينشرح الصدر ؟ قال : " نعم وينفسح " قالوا : يا رسول الله ، وهل لذلك علامة ؟ قال : " نَعَمْ التّجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاعتداد للموت قبل نزول الموت " . وقد مضى هذا المعنى فى « الزُّمَر »(١) عند قوله تعالى : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » . وروى عن الحسن قال : « ألم نشرح لك صدرك » قال : ملئ حكما وعلما . وفى الصحيح(٢) عن أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصعة — رجلٍ من قومه — أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "فبينا أنا عند البيت بين النائم واليَقْظان إذ سمعتُ قائلا يقول أحدُ الثلاثة(٣) فأتيتُ بطَسْت من ذهب فيها ماء زَمْزَم فشُرِح صدرى إلى كذا وكذا " قال قتادة قلت : ما يعنى ؟ قال : إلى أسفل بطنى ، قال : "فاستُخْرِج قلبى فغُسِل قلبى بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حُشِى إيمانًا وحكمة" . وفى الحديث قصة . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "جاءنى ملكان فى صورة طائر معهما ماء وثلج فشرح أحدُهما صدرى وفتح الآخر بمنقاره فيه فغسله" .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٧ (٢) وهذه رواية الترمذى فى كتاب التفسير . (٣) فى صحيح مسلم : «أحد الثلاثة بين الرجلين» روى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما معه حينئذ عمه حمزة بن عبد المطلب وابن عمه جعفر ابن أبى طالب . راجع شرح هذا الحديث فى صحيح مسلم (باب الاسراء) . وفى شرح القسطلانى فى كتاب بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) .

وفى حديث آخر قال : "جاءنى مَلَك فشق عن قلبي فاستخرج منه عذرة (١) وقال قلبُك وَكِيع وعيناك بصيرتان وأذناك سميعتان أنت محمد رسول الله لسانُك صادقٌ ونَفْسُك مطمئنةٌ وخُلُقُك قُثَم وأنت قَيِّم". قال أهل اللغة : قوله "وكيع" أى يحفظ ما يوضع فيه . يقال : سِقاء وكيع ؛ أى قوىّ يحفظ ما يوضع فيه . واستوكعتْ مَعِدَتُه أى قَوِيتْ . وقوله "قُثَم" أى جامع . يقال : رجل قَثُوم للخير ؛ أى جامع له . ومعنى «ألم نشرح» قد شرحنا ؛ الدليل على ذلك قوله فى النَّسَق عليه : «وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ» فهذا عطف على التأويل لا على التنزيل ؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال : ونضع عنك وزرك . فدلّ هذا على أن معنى «ألم نشرح» قد شرحنا . و«لم» جَحْد وفى الاستفهام طَرَف من الجَحْد ، وإذا وقع جَحْد على جَحْد رجع إلى التحقيق ؛ كقوله تعالى : «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» (٢) ومعناه : الله أحكم الحاكمين . وكذا «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ» (٣) . ومثله قول جَرِير يمدح عبدَ الملك بن مَرْوان :

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بُطُونَ راح

المعنى : أنتم كذا .

قوله تعالى : وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ أى حططنا عنك ذَنْبَك . وقرأ أنس «وحللنا وحططنا» . وقرأ ابن مسعود «وحللنا عنك وِقْرك» . هذه الآية مثل قوله تعالى : «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّر» (٤) . قيل : الجميع كان قبل النُّبُوّة . والوِزْر : الذّنب ؛ أى وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ؛ لأنه كان صلى الله عليه وسلم فى كثير من مذاهب قومه ، وإن لم يكن عَبَد صَنَمًا ولا وَثَنًا . قال قتادة والحسن والضحّاك : كانت للنبىّ صلى الله عليه وسلم ذنوب أثقلته ؛ فغفرها الله له . ﴿ الذى أَنْقَضَ ظَهْرَك ﴾ أى أثقله حتى سُمِع

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : «غدرة» بالغين المعجمة والدال المهملة . ولم نقف على هذا اللفظ لغير القرطبي . (٢) آية ٨ سورة التين . (٣) آية ٣٦ سورة الزمر . (٤) آية ٢ سورة الفتح .

نَقِيضه؛ أى صَوْته . وأهلُ اللغة يقولون : أنقض الحِمْلُ ظَهْرَ الناقة إذا سمعتَ له صَريرًا من شدة الحمل . وكذلك سمعت نقيض الرَّحْل؛ أى صريره . قال جَميل :

وحتى تداعت بالنَّقيض حِبالُه * وهَمَّت بَوانِي زَوْرِه أن تَحطّما

« بوانِي زَوْرِه » أى أصولُ صدره . فالوِزر : الحِمل الثقيل . قال المُحاسِبيّ : يعنى ثِقل الوِزْر لو لم يعف الله عنه . ﴿ الذى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى أثقله وأوْهنه . قال : وإنما وُصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل مع كونها مغفورة، لشدّة اهتمامهم بها ، وندَمهم منها ، وتحسّرهم عليها . وقال السُّدّى : « ووَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ » أى وحططنا عنك ثِقلك . وهى فى قراءة عبد الله بن مسعود « وحططنا عنك وِقْرك »(١) . وقيل : أى حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية . قال الحسين ابن الفضل : يعنى الخطأ والسَّهْو . وقيل : ذنوب أمتك، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها . وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة : خَفّفنا عنك أعباء النبوّة والقيامَ بها حتى لا تَثْقُل عليك . وقيل : كان فى الابتداء يثقل عليه الوَحْيُ حتى كاد يرمى نفسه من شاهق الجبل، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسَه؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغيّر العقل . وقيل : عصمناك عن احتمال الوزر، وحفظناك قبل النبوّة فى الأربعين من الأدناس؛ حتى نزل عليك الوحى وأنت مُطَهَّر من الأدناس .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (٤)

قال مجاهد : يعنى بالتأذين . وفيه يقول حسان بن ثابت :

أَغَرُّ عليه للنبوّة خاتَمٌ * من الله مشهودٌ يلوح ويُشْهَدُ

وضَمّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمه * إذا قال فى الخمس المؤذِّنُ أَشْهَدُ

ورُوِىَ عن الضحاك عن ابن عباس قال : يقول له لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معى فى الأذان والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق،

(١) فى شواذ ابن خالويه : « وحططنا عنك وزرك » عن أنس بن مالك . « وحللنا وحططنا » جميعا عنه وعن ابن مسعود .

ويوم عَرَفة ، وعند الجمار ، وعلى الصّفا والمَرْوَة ، وفى خطبة النكاح ، وفى مشارق الأرض ومغاربها . ولو أن رجلا عَبدَ الله جلّ ثناؤه وصدّق بالجنة والنار وكلّ شيء ، ولم يشهد أن محمدا رسول الله لم ينتفع بشيء ، وكان كافرا . وقيل : أى أعْلَيْنا ذكرك فذكرناك فى الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك ، وأمرناهم بالبشارة بك ، ولا دِين إلا ودِينُك يظهر عليه . وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء ، وفى الأرض عند المؤمنين ، ونرفع فى الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾

أى إن مع الضيقة والشدّة يُسْرًا ، أى سَعَةً وغِنًى . ثم كرر فقال : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فقال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام ؛ كما يقال : ارْمِ ارْمِ ، اعْجَل اعْجَل ؛ قال الله تعالى : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »(١) . ونظيره فى تكرار الجواب : بلى بلى ، لا لا . وذلك للإطناب والمبالغة ؛ قاله الفرّاء . ومنه قول الشاعر :

هَمَمْتُ بنفسِيَ بعضَ الهموم * فأوْلَى لنفسِيَ أوْلَى لها(٢)

وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما مُعرَّفًا ثم كرّروه فهو هو . وإذا نكّروه ثم كرّروه فهو غيره . وهما اثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر ؛ قاله ثعلب . وقال ابن عباس : يقول الله تعالى خَلَقت عُسْرًا واحدا ، وخلقت يُسْرَين ، ولن يَغْلِب عُسْرٌ يُسْرَين . وجاء فى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة أنه قال : "لن يَغْلِب عُسْرٌ يُسْرَين"(٣) . وقال ابن مسعود : والذى نفسى بيده لو كان العُسْر فى جُحْر لطلبه اليُسْر حتى يدخل عليه ؛ ولن يَغْلِب عُسْرٌ يُسْرَين . وكتب أبو عبيدة بن الجرّاح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الرُّوم وما يتخوّف منهم ؛ فكتب إليه عمر رضى الله عنهما : أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلِ شِدّة يجعل الله بعده فَرَجًا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن الله تعالى يقول فى كتابه : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا

(١) آية ٣ سورة ألهاكم . (٢) البيت للخنساء . ويروى : * هممت بنفسي كل الهموم *
(٣) أى فى روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وَٱتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(١) . وقال قوم منهم الجُرْجَانِيّ : هذا قول مدخول ؛ لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل : إن مع الفارس سَيْفًا ، إن مع الفارس سيفًا ، أن يكون الفارس واحدا والسيف اثنان . والصحيح أن يقال : إن الله بعث نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم مُقِلًّا مُخِفًّا فعيّره المشركون بفقره حتى قالوا له : نجمع لك مالًا ؛ فاغتم وظنّ أنهم كذبوه لفقره ؛ فعزّاه الله وعدّد نعمه عليه ، ووعده الغنى بقوله : « فإنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » أي لا يُحزنك ما عيّروك به من الفقر ؛ فإن مع ذلك العُسْرِ يُسْرًا عاجلا ؛ أي في الدنيا . فأنجزله ما وعده ؛ فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز واليمن ، ووسّع ذات يده حتى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل ، ويَهَب الهبات السنيّة ، ويُعِدّ لأهله قُوتَ سَنَة . فهذا الفضل كلّه من أمر الدنيا ؛ وإن كان خاصا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فقد يدخل فيه بعضُ أمته إن شاء الله تعالى . ثم ابتدأ فضلا آخر من أمر الآخرة وفيه تأسية وتعزية له صلى الله عليه وسلم فقال مبتدئا : « إنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » فهو شيء آخر . والدليل على ابتدائه تعرّيه من فاء أو واو أو غيرهما من حروف النسق التي تدل على العطف . فهذا وَعْدٌ عام لجميع المؤمنين لا يخرج أحد منه ؛ أي إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يُسْرًا في الآخرة لا محالة . ورُبّما اجتمع يُسْرُ الدنيا ويُسْرُ الآخرة . والذي في الخبر : "لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَين" يعني العسر الواحد لن يغلبهما ، وإنما يغلب أحدهما إن غلب وهو يسر الدنيا ؛ فأما يُسْرُ الآخرة فكائن لا محالة ولن يغلبه شيء . أو يقال : «إن مع العسر» وهو إخراج أهل مكة النبيَّ صلى الله عليه وسلم من مكة «يُسْرًا» وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل مع عِزّ وشَرَف .

قوله تعالى : فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَبْ ﴿٨﴾
فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ قال ابن عباس وقتادة : فإذا فرغت من صلاتك ﴿فَٱنصَبْ﴾ أي بالغ في الدعاء وَسَلْه حاجتك . وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض

(١) آخر سورة آل عمران .

فانْصَب فى قيام الليل . وقال الكَلْبِيّ : إذا فرغت من تبليغ الرسالة « فانْصَب » أى ٱستغفر لذنبك وللؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة أيضا : إذا فرغت من جهاد عدوّك فٱنْصَب لعبادة ربك . وعن مجاهد : « فإذا فَرَغْتَ » من دنياك «فَٱنْصَبْ» فى صلاتك . ونحوه عن الحسن . وقال الجُنَيد : إذا فَرَغْت من أمر الخلق فٱجتهد فى عبادة الحق . قال ٱبن العربى : « ومن المبتدعة من قرأ هـذه الآية « فأنْصِب » بكسر الصاد والهمز فى أوله ، وقالوا : معناه أنصِب الإمام الذى تستخلفه . وهـذا باطل فى القراءة باطل فى المعنى؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحدا . وقرأها بعض الجُهّال «فانْصَبّ» بتشديد الباء، معناه إذا فرغت من الجهاد فجِدّ فى الرجوع إلى بلدك . وهذا باطل — أيضا — قراءةً لمخالفة الإجماع لكن معناه صحيح؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومَه وطعامَه وشرابَه فإذا قَضَى أحدكم نَهْمَته فليُعَجِّل الرجوع إلى أهله" . وأشدّ الناس عذابا وأسْوَؤهم مباءً ومآبا من أخذ معنًى صحيحا فركّب عليـه مِن قِبل نفسه قراءةً أو حديثًا فيكون كاذبًا على الله كاذبًا على رسـوله ؛ ومن أظلم ممن ٱفترى على الله كذبا » . قال المَهْدَوِيّ : وروى عن أبى جعفر المنصور أنه قرأ « ألم نشرحَ لك صدرك» بفتح الحاء؛ وهو بعيد، وقد يُؤَوّل على تقدير النون الخفيفة، ثم أبدلت النون ألفًا فى الوقف، ثم حمل الوصل على الوقف ثم حذفت الألف . وأنشد عليه :

اِضْرِبَ عنك الهمومَ طارِقَها * ضَرْبَك بالسّوْط قَوْنَس الفَرَس[1]

أراد : اضْرِبَنْ . ورُوى عن أبى السَّمال « فإذا فَرِغت » بكسر الراء، وهى لغة فيـه . وقُرئ « فَرَغّب » أى فرغّب الناس إلى ما عنده .

الثانيـة — قال ٱبن العربى : « رُوى عن شُريح أنه مَرّ بقوم يلعبون يومَ عِيـد فقال ما بهذا أمَر الشارع . وفيه نظر، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدّرَق والحراب فى المسجد يوم

(١) قونس الفرس : ما بين أذنيه . وقيل مقدم رأسه . والبيت لطرفة ، ويقال إنه مصنوع عليه .

العيد والنبيّ صلى الله عليه وسلم ينظر . ودخل أبو بكر في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تُغَنِّيَانِ؛ فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : "دَعْهُما يا أبا بكر فإنه يوم عيد". وليس يلزم الدءوب على العمل بل هو مكروه للخلق » .

تفسير سورة « والتين »

مكيّة في قول الأكثر . وقال آبن عباس وقتادة : هي مَدَنيّة، وهي ثماني آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ والتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ قال آبن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النَّخَعِيّ وعطاء بن أبي رَباح وجابر بن زيد ومُقاتل والكَلْبي : هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تَعْصِرون منه الزَّيت؛ قال الله تعالى : « وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ » (١) . وقال أبو ذَرّ: أُهْدِي للنبيّ صلى الله عليه وسلم سَلٌّ من تِين؛ فقال: "كلوا" وأكل منه . ثم قال : "لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم (٢) فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النِّقْرِس" . وعن مُعاذ أنه آستاك بقضيب زيتون وقال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "نِعم السِّواك الزيتون من الشجرة المباركة يُطيب الفم ويُذهب بالحَفَر (٣) وهي سِواكي وسواك الأنبياء من قبلي" . وروى عن آبن عباس أيضا : التِّين مسجِدُ نوح عليه السلام الذي بُنِيَ على الجُودِيّ ، والزيتون مسجد

(١) آية ٢٠ سورة المؤمنون . (٢) العجم (بالتحريك) : النوى .

(٣) الحفر (بفتح الحاء وسكون الفاء وفتحها) : صفرة تعلو الأسنان .

بيت المقدس . وقال الضحاك : التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى . ابن زيد : التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس . قتادة : التين الجبل الذى عليه دمشق، والزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس . وقال محمد بن كعب : التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء . وقال كعب الأحبار وقتادة أيضا وعكرمة وابن زيد : التين دمشق، والزيتون بيت المقدس . وهذا اختيار الطبرى . وقال الفراء : سمعت رجلا من أهل الشام يقول : التين جبال ما بين حلوان إلى هَمَذان، والزيتون جبال الشام . وقيل : هما جبلان بالشام، يقال لهما طور زيتا وطور تينا (بالسريانية) سُمِّيَا بذلك لأنهما يُنْبِتانهما . وكذا رَوى أبو مكين عن عكرمة قال : التين والزيتون جبلان بالشام . وقال [النابغة] :

* ... أتَيْنَ التِّينَ عن عُرُضٍ(١) *

وهذا اسم موضع . ويجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف؛ أى ومنابت التين والزيتون . ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوز خلافه؛ قاله النحاس .

الثانيـة — أصح هذه الأقوال الأول؛ لأنه الحقيقة ولا يُعْدَل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل . وإنما أقسم الله بالتين لأنه كان ستر آدم فى الجنة؛ لقوله تعالى : «يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجنةِ»(٢) وكان وَرَق التين . وقيل : أقسم به ليبيّن وَجْهَ المِنّة العظمى فيه؛ فإنه جميل المَنْظَر، طَيِّب المَخْبَر، نشر الرائحة، سهل الجَنَى، على قدر المُضغة . وقد أحسن القائل فيه :

انظر إلى التين فى الغصون ضُحًى * ممزَّقَ الجلد مائل العنقِ
كأنه رَبُّ نعمة سُلبت * فعاد بعد الجديد فى الخَلَقِ
أصغرُ ما فى النهود أكبره * لكن يُنادَى عليه فى الطُّرقِ

(١) البيت بتمامه كما فى "اب الملاحن لابن دريد وشعراء النصرانية :

صهب الظلال أتين التين عن عرض * يزجين غيما قليلا ماؤه شبما

والصهب والصهبة : الحمرة . والعرض : الاعتراض، أو الجانب . ويزجين : يسقن . والشبم : البارد . والبيت فى وصف سحائب لا ماء فيها . وقد نسبه المؤلف لزهير .	(٢) آية ٢٢ سورة الأعراف .

وقال آخـر :

التّين يعـدل عندى كلّ فاكهة * إذا انثنى مائلا فى غصنه الزاهى

مخمّش الوجه قد سالت حلاوته * كأنه راكع من خشية الله

وأقسم بالزيتون لأنه مثّل به إبراهيم فى قوله تعالى : « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ »(١) . وهو أكثر ادْم أهل الشام والمغرب ؛ يصطبغون(٢) به ويستعملونه فى طبيخهم ، ويستصبحون به ، ويُداوَى به أدواء الجَوْف والقروح والجراحات ، وفيه منافع كثيرة . وقال عليه السلام : "كلوا الزيت وٱدّهنوا به فإنه من شجرة مباركة"(٣) . وقد مضى فى سورة «المؤمنون» القول فيه .

الثالثـة ــ قال ٱبن العربى : ولٱمتنان البارئ سبحانه وتعظيم المِنّة فى التين ، وأنه مُقتات مُدّخر [فلذلك](٤) قلنا بوجوب الزكاة فيه . وإنما فرّ كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيـه تَقِيّة جَوْر الوُلاة ؛ فإنهم يتحاملون فى الأموال الزكائية فيأخذونها مَغْرما حسب ما أنذر به الصادق صلى الله عليه وسلم . فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلا إلى مال أحد يتشطّطون فيه ، ولكن ينبغى للمرء أن يخرج عن نعمة ربه بأداء حقه . وقد قال الشافعى لهذه العلة وغيرها : لا زكاة فى الزيتون . والصحيح وجوب الزكاة فيهما(٥) .

قوله تعالى : وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾

روى ٱبن أبى نَجيح عن مجاهد «وطور» قال : جبل . «سِينِين» قال : مبارَك (بالسُّرْيانيّة) . وعن عكرمة عن ٱبن عباس قال : « طور » جبل ، و«سينين» حَسَن . وقال قتادة : سينين هو المبارَك الحَسَن . وعن عكرمة قال : الجبل الذى نادى الله جلّ ثناؤه منه موسى عليه السلام . وقال مُقاتل والكلبيّ : « سِينين » كلُّ جبل فيه شجر مُثْمِر فهو سينين وسِيناء ؛ بلغة النَّبَط . وعن عَمرو بن مَيْمون قال : صلّيت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة فقرأ «والتين والزيتون .

(١) آية ٣٥ سورة النور . راجع جـ ١٢ ص ٢٦٣ . (٢) أى يأتدمون به .

(٣) راجع جـ ١٢ ص ١١٦ . (٤) زيادة عن ٱبن العربى .

(٥) فى نسخ الأصل : « فيها » .

وطور سيناء . وهذا البلد الأمين» قال : وهكذا هي في قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيما للبيت . وقرأ في الركعة الثانية : «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ» و «لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ» جمع بينهما؛ ذكره ابن الأنباري . النحاس : وفي قراءة عبد الله «سيناء» (بكسر السين)؛ وفي حديث عمرو بن ميمون عن عمر (بفتح السين) . وقال الأخفش : «طور» جبل . و«سينين» شجر، واحدته سينينة . وقال أبو علي : «سينين» فعليل، فكررت اللام التي هي نون فيه كما كررت في زحليل للمكان الزلق، وكرديدة للقطعة من التمر، وخنذيذ للطويل . ولم ينصرف «سينين» كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل آسما لبقعة أو أرض، ولو جعل آسما للمكان أو للمنزل أو آسم مذكر لآنصرف؛ لأنك سميت مذكرا بمذكر . وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما؛ كما قال : «إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ» .

قوله تعالى : وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾

يعني مكة . سماه أمينا لأنه آمن؛ كما قال : «أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا»(١) فالأمين بمعنى الآمن؛ قاله الفراء وغيره . قال الشاعر :

ألم تعلمي يا أسم ويحك أنني　＊　حلفت يمينا لا أخون أميني

يعني آمني . وبهذا احتج من قال : إنه أراد بالتين دمشق، وبالزيتون بيت المقدس . فأقسم الله بجبل دمشق لأنه مأوى عيسى عليه السلام، وبجبل بيت المقدس لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام، وبمكة لأنها أثر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم .

قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هذا جواب القسم، وأراد بالإنسان الكافر . قيل : هو الوليد بن المغيرة . وقيل : كلدة بن أسيد . فعلى هذا نزلت في منكري

(١) آية ٦٧ سورة العنكبوت .

البعث . وقيـل : المراد بالإنسان آدمُ وذريته . ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه؛ كذا قال عامة المفسرين . وهو أحسن ما يكون؛ لأنه خلق كلّ شيء مُنْكَبًّا على وجهه، وخَلَقه هو مُسْتَوِيًا، وله لسان ذلق، و يد وأصابع يقبض بها . وقال أبو بكر بن طاهر : مُزَيَّنًا بالعقل، مؤدِّيًا للأمر، مهذَّبًا بالتمييز، مديد القامة؛ يتناول مأكوله بيده . ابن العربيّ : «ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حَيًّا عالِمًا ، قادرا مريدا متكلِّمًا ، سميعا بصيرا، مدبرا حكيما . وهذه صفات الرب سبحانه ،وعنها عبّر بعض العلماء ووقع البيان بقوله : "إن الله خلق آدم على صورته" يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها . وفي رواية "على صورة الرحمن" ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة، فلم يبق إلّا أن تكون معاني» . وقدأخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزديّ قال : أخبرنا القاضي أبو القاسم عليّ بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه قال : كان عيسى بن موسى الهـاشمي يُحب زوجته حُبًّا شديدا فقال لها يوما : أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر؛ فنهضت واحتجبت عنه وقالت : طَلَّقتني ! . و بات بليـلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبره الخبر ، وأظهر للمنصور جزعا عظيما؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم . فقال جميع من حضر : قد طُلِّقت ؛ إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة فإنه كان ساكتا . فقال له المنصور : مالك لا تتكلم؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ . لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » يا أمير المؤمنـين ، فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه . فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل ، فأقْبِل على زوجتك . وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيعي زوجك ولا تعصيه ، فمـا طَلّقك . فهـذا يدلك على أن الإنسان أحسنُ خلق الله باطنًا وظاهرا، جمال هيئة، و بديع تركيب : الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وماطواه، واليدان ومابطشتاه، والرِّجلان وما احتملتاه. ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالَم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جُمِع فيه[1] .

---

(١) في بعض نسخ الأصل وابن العربي : « أجمع فيه » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أى إلى أرذل العمر، وهو الهرَم بعد الشباب، والضَّعْف بعد القُوّة، حتى يصير كالصبيّ فى الحال الأوّل؛ قاله الضحّاك والكَلْبيّ وغيرهما . وروى ابن أبى نَجِيح عن مجاهد «ثم رددناه أسفل سافِلين» إلى النار، يعنى الكافر؛ وقاله أبو العالية . وقيل : لمـا وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التى ركب الإنسان عليها طغى وعلا ، حتى قال : « أنا رَبُّكم الأعلَى »(١) وحين علم الله هـذا من عبده ، وقضاؤه صادر من عنده ، ردّه أسفل سافلين ؛ بأن جعله مملوءا قَذَرًا ، مشحونًا نجاسة ، وأخرجها على ظاهره إخراجا منكرا، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره رجع إلى قَدْره . وقرأ عبد الله « أسفل السافلين » . وقال : « أَسْفَلَ سَافِلِينَ » على الجمع؛ لأن الإنسان فى معنى جَمْع، ولو قال : أسفل سافل جاز ؛ لأن لفظ الإنسـان واحد . وتقول : هذا أفضل قائم . ولا تقول أفضل قائمين؛ لأنك تضمر لواحد فإن كان الواحد غير مضمور له رجع اسمه بالتوحيد والجمع؛ كقوله تعالى : «وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»(٢) وقوله تعـالى : « وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَـا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ »(٣) . وقد قيل : إن معنى «رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافلين» أى رددناه إلى الضلال؛ كما قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَـاتِ » أى إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك . والاستثناء على قول من قال « أسفل سافلين » : النارَ، متّصل . ومن قال : إنه الهَرَم فهو منقطع .

قوله تعـالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنه تكتب لهم حسناتهم ، وتُمحَى عنهم سيئاتهم؛ قاله ابن عباس . قال : وهم الذين أدركهم الكِبَر لا يؤاخذون بما عملوه فى كِبَرهم .

(١) آية ٢٤ سورة النازعات . (٢) آية ٣٣ سورة الزمر . (٣) آية ٤٨ سورة الشورى .

وروى الضحاك عنه قال : إذا كان العبد فى شبابه كثيرَ الصلاة كثيرَ الصيام والصدقة ، ثم ضعف عما كان يعمل فى شبابه؛ أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل فى شبابه . وفى الحديث قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "إذا سافر العبد أو مَرِض كَتب الله له مثلَ ما كان يعمل مقيماً صحيحا" . وقيل : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنه لا يَخْرَف ولا يهرم(١)، ولا يذهب عقـل من كان عالماً عاملا به . وعن عاصم الأحْوَل عن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يُرَدّ إلى أرذل العمر . ورُوِىَ عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "طُوبَى لمن طال عمره وحَسُن عمله" . ورُوِىَ أن العبد المؤمن إذا مات أمر الله مَلَكَيْه(٢) أن يتعبّدا على قبره إلى يوم القيامة ويُكتب له ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال الضحاك : أجر بغير عمل . وقيل غير مقطوع .

قوله تعـالى : فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾

قيل : الخطاب للكافر؛ توبيخًا وإلزاما للحجة . أى إذا عرفتَ أيهـا الإنسان أن الله خَلَقك فى أحسن تقويم، وأنه يردّك إلى أرذل العمر، ويَنْقُلك من حال إلى حال؛ فما يحملك على أن تُكذِّب بالبعث والجزاء وقد أخبرك محمد صلى الله عليه وسلم به . وقيل : الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم؛ أى استيقن مع ما جاءك من الله عز وجل أنه أحكم الحاكمين . روى معناه عن قتادة . وقال قتادة أيضا والفراء : المعنى فمن يكذبك أيهـا الرسول بعد هـذا البيان بالدِّين . واختاره الطبرى . كأنه قال : فمن يقدر على ذلك؛ أى على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدِّين والجزاء . قال الشاعر :

دِنّى تميمًا كما كانت اوائلُنـا * دَانت أوائلَهم فى سالف الزمن

---

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : «فإنهم لا يخرفون ولا تذهب عقولهم» .

(٢) فى بعض نسخ الأصل : «ملائكة» وفى بعضها : «ملكين» .

قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

أى أتقن الحاكمين صُنْعًا فى كل ما خلق . وقيل : « بأحكم الحاكمين » قضاءً بالحق ، وعَدْلًا بين الخلق . وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم . وألف الاستفهام إذا دخلت على النّفى وفى الكلام معنى التوقيف صار إيجابًا ؛ كما قال :

* ألستم خير من ركب المطايا[1] *

وقيل : «فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ . أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» منسوخة بآية السيف . وقيل : هى ثابتة ؛ لأنه لا تنافى بينهما . وكان ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما إذا قرأا « أليس الله بأحكم الحاكمين » قالا : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين ؛ فيُختار ذلك . والله أعلم . ورواه الترمذى عن أبى هريرة قال : من قرأ سورة « والتّين والزّيتون » فقرأ « أليس الله بأحكم الحاكمين » فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . والله أعلم .

سورة « العلق »

وهى مكّيةٌ بإجماع ، وهى أوّل ما نزل من القرآن ؛ فى قول أبى موسى وعائشة رضى الله عنهما . وهى تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾

هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن ؛ فى قول معظم المفسرين . نزل بها جبريل على النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو قائم على حِراء ؛ فعلّمه خَمْسَ آيات من هذه السورة . وقيل : إن أوّل ما نزل « يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » قاله جابر بن عبد الله ؛ وقد تقدم[2] . وقيل : فاتحة الكتاب أوّل ما نزل ؛ قاله أبو ميسرة الهَمْدانىّ . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أوّل ما نزل من القرآن

(١) هو لجرير . وتمامه : * وأندى العالمين بطون راح *
(٢) راجع جـ ١٩ ص ٥٨

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »(١) والصحيح الأوّل . قالت عائشــة : أوّلُ ما بُدِئ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقةُ(٢)؛ فجاءه المَلَكُ فقال : «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ» . خرّجه البخاريّ . وفى الصحيحين عنها قالت : أوّلُ ما بُدِئ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الوَحْى الرؤيا الصادقةُ فى النوم؛ فكان لا يَرَى رُؤْيا إلا جاءت مِثْلَ فَلَق الصّبح، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، فكان يَخْلُو بغار حِراءٍ يَتَحَنَّثُ(٣) فيه الليالى ذوات العدد، [قَبْل أن يرجع إلى أهله](٤) و يتزوّد لذلك؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها؛ حتى فَجِئه الحقُّ وهو فى غار حِراء، فجاءه الملك فقال: "ٱقْرَأْ" : فقال : "ما أنا بقارئ" — قال — فأخذنى فَغَطّنى(٥) حتى بَلَغَ منّى الجَهْدَ ثم أرسلنى " فقال " ٱقرأ " فقلت : " ما أنا بقارئ — قال — فأخذنى فغطّنى الثانيةَ حتى بلَغ منّى الجَهْدَ ثم أرسلنى " فقال :"ٱقرأ" فقلت: « ما أنا بقارئ فأخذنى فغطّنى الثالثةَ حتى بلَغ منّى الجَهْدَ ثم أرسلنى " فقال : " ٱقرأ بِٱسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" الحديث بكماله . وقال أبو رجاء العُطارِدىّ : وكان أبو موسى الأشعَرِىّ يطوف علينا فى هذا المسجد مسجدِ البصرة، فيُقعِدُنا حِلَقًا فيُقْرِئنا القرآن؛ فكأنّى أنظر إليه بين ثَوْبين له أبيضَيْن ، وعنه أخذت هذه السورة : «ٱقْرَأْ بِٱسم رَبِّكَ الذى خَلَق» . وكانت أوّلَ سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليــه وسلم . وروَت عائشة رضى الله عنها أنها أوّل سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بعدها «ن والقلم» ثم بعدها «يأَيُّهَا المُدَّثِّر» ثم بعدها «والضُّحَى» ذكره المـاوَرْدِىّ . وعن الزُّهْرِىّ : أوّلُ ما نزلت سورة «ٱقرأ بِٱسم رَبِّك — إلى قوله — ما لم يعلم» فحزِن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يَعْــلُو شواهِقَ الجبال ؛ فأتاه جبريل فقال له : " إنك نبىُّ الله " فرجع إلى خديجــة وقال : " دَثِّرُونى وَصُبُّوا علىّ ماء باردًا " فنزل « يأيها

---

(١) آية ١٥١ سورة الأنعام . (٢) كذا فى الأصول ومسلم . وفى البخارى : « الصالحة » .

(٣) يتحنث : أى يتعبد . يقال : فلان يتحنث؛ أى يفعل فعلا يخرج به من الإثم والحرج .

(٤) زيادة عن الصحيحين . (٥) الغط : العصر الشديد والكبس .

المدثر» . ومعنى « آقرأ بآسم رَبِّك » أى آقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحًا باسم رَبِّك، وهو أن تذكر التسمية فى ابتداء كل سورة . فمحل الباء من « باسم ربك » النَّصب على الحال . وقيل : البـاء بمعنى على ؛ أى آقرأ على آسم ربك . يقـال : فعل كذا بآسم الله ، وعلى آسم الله . وعلى هذا فالمقروء محذوف ؛ أى آقرأ القرآن وافتتحه بآسم الله . وقال قوم : آسم ربك هو القرآن ؛ فهو يقول « آقرأ بآسم رَبِّك » أى آسم ربك، والبـاء زائدة ؛ كقوله تعـالى : « تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ » وكما قال :

* سُودُ المحاجر لا يقرأن بالسُّوَرْ (١) *

أراد لا يقرأن السُّوَر . وقيل : معنى « اقرأ بآسم ربك » أى آذكر آسمه . أَمَرَه أن يبتدئ القراءة باسم الله .

قوله تعـالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى آبن آدم . ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ أى من دَمٍ ؛ جمع عَلَقة، والعلقة الدّم الجامد ؛ وإذا جرى فهو المسفوح . وقال : « من علق » فذكَره بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهم خُلِقوا من عَلَق بعد النُّطْفة . والعَلَقة قطعةٌ من دَمٍ رَطْب ؛ سُمِّيت بذلك لأنها تَعْلَق لرطوبتها بما تَمُرّ عليه ، فإذا جَفّت لم تكن عَلَقة . قال الشاعر :

تركناه يَخِرّ على يَدَيْه * يَمُجُّ عليهما عَلَق الوَتِين

وخَصّ الإنسان بالذّكر تشريفًا له . وقيل : أراد أن يبين قَدْر نعمته عليه بأن خلقه من عَلَقة مَهِينة حتى صار بشرًا سَوِيًّا ، وعاقلاً مميِّزًا .

قوله تعـالى : ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ اقْرَأْ ﴾ تأكيد، وتَمّ الكلام ؛ ثم استأنف فقال : ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ أى الكريم . وقال الكَلْبيّ : يعنى الحليم عن جَهْل العباد فلم يَعْجَل بعقوبتهم . والأول أشبه

(١) هذا عجز بيت للراعي ، وصدره : * هنّ الحرائر لا ربات أحمرة *

بالمعنى ؛ لأنه لما ذكر ما تقدّم من نعمه دلّ بها على كرمه . وقيل : « اقرأ وربك» أى اقرأ يا محمد وربك يُعينك ويفهّمك وإن كنت غير القارئ . و « الأكرم » بمعنى المتجاوز عن جهل العباد .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ يعنى الخطّ والكتابة ؛ أى علّم الإنسان الخط بالقلم . وروى سعيد عن قتادة قال : القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يَقُم دِين، ولم يَصْلُح عَيْش . فدلّ على كمال كرمه سبحانه بأنه علّم عبادَه ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو . وما دُوِّنت العلوم ولا قُيِّدت الحِكَم ، ولا ضُبطت أخبارُ الأوّلين ومقالاتُهم ولا كتبُ اللهِ المنزّلةُ إلا بالكتابة ؛ ولولا هى ما استقامت أمور الدِّين والدنيا . وسُمِّى قَلَمًا لأنه يُقلم؛ أى يُقْطَع، ومنه تقليم الظّفر . وقال بعض الشعراء المُحْدَثين يصف القلم :

فكأنّه والحِبْرُ يَخضب رأسه * شيْخٌ لوصل خَرِيدة يتصنّعُ
ألّا ألاحظه بعين جلالة * وبه إلى الله الصحائف ترفع

وعن عبد الله بن عمر قال : يا رسول الله ، أأكتب ما أسمع منك من الحديث ؟ قال : "نعم فاكتب فإن الله علّم بالقلم". وروى مجاهد عن ابن عمر قال : خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده ثم قال لسائر الحيوان كن فكان : القلم والعرش وجنّة عَدْن وآدم عليه السلام . وفيمن علمه بالقلم ثلاثةُ أقاويل : أحدها — أنه آدم عليه السلام ؛ لأنه أوّلُ من كتب ؛ قاله كعب الأحبار . الثانى — أنه إدريس؛ وهو أول من كتب؛ قاله الضّحاك . الثالث : أنه أدخل كلّ من كتب بالقلم؛ لأنه ما علم إلا بتعليم الله سبحانه . وجمع بذلك نعمته عليه فى خلقه، وبين نعمته عليه فى تعليمه؛ استكمالا للنعمة عليه .

الثانيـــة — صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة قال: لما خلق الله الخلق كَتب فى كتابه — فهو عنده فوق العرش — : «إن رحمتى تَغْلِب غَضَبِى» . وثبت عنه عليه السلام أنه قال: "أوّل ما خلق الله القلم فقال له اكتب فكتب ما يكون إلى يوم القيامة فهو عنده فى الذكر فوق عرشه" . وفى الصحيح من حديث ابن مسعود سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها مَلَكًا فصوّرها وخَلَق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعَظْمَها ثم يقول يا ربّ أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يقول يارَبّ أجَلُه فيقول رَبّك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يقول يارَبّ رِزْقُه فيقضى رَبّك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يخرج المَلَك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص وقال تعالى «إنّ عَلَيْكُمْ لَحَافظين . كِرامًا كَاتبين»(١) " .

قال علماؤنا : فالأقلام فى الأصل ثلاثة : القلم الأوّلُ — الذى خلقه الله بيده وأمره أن يكتب . والقلم الثانى — أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال . والقلم الثالث — أقلام الناس جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم ، ويَصِلُون بها مآربهم . وفى الكتابة فضائل جَمّة . والكتابة من جملة البيان ، والبيانُ مما اختص به الآدمى .

الثالثـــة — قال علماؤنا : كانت العرب أقلّ الخلق معرفة بالكتاب ، وأقلّ العرب معرفة به المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ صُرِف عن علمه ليكون ذلك أثبت لمعجزته وأقوى فى حجته . وقد مضى هذا مبيّنًا فى سورة «العنكبوت»(٢) . وروى حماد بن سلمة عن الزبير ابن عبد السلام عن أيوب بن عبد الله الفهرى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُسْكِنُوا نساءكم الغُرَف ولا تعلموهن الكتابة" . قال علماؤنا : وإنما حَذّرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك لأن فى إسكانهن الغُرَف تَطَلُّعًا إلى الرجال ؛ وليس فى ذلك تحصين لهنّ ولا تستّر . وذلك أنهنّ لا يملكن أنفسهنّ حتى يشرفن على الرجال ؛ فتحدث الفتنة والبلاء ، فحذّرهم أن يجعلوا لهنّ غُرَفًا ذَرِيعَةً إلى الفتنة . وهو كما قال رسول الله

(١) آية ١٠ سورة الانفطار . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٥١

صلى الله عليه وسلم : "ليس للنساء خير لهنّ من ألا يراهنّ الرجال ولا يَرَيْنَ الرجال" . وذلك أنها خلقت من الرجل فَنَهْمَتُها في الرجل ، والرجل خلقت فيه الشهوة ، وجُعلت سَكَنًا له ، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه . وكذلك تعليم الكتابة رُبَّما كانت سببًا للفتنة . وذلك إذا عُلّمت الكتابة كتبت إلى من تَهْوَى . والكتابة عَيْنٌ من العيون بها يبصر الشاهد الغائب ، والخط هو آثار يده . وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان ، فهو أبلغ من اللسان . فأحبّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن ينقطع عنهنّ أسباب الفتنة ؛ تحصينًا لهنّ وطهارة لقلوبهنّ .

قوله تعالى : عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

قيل : «الإنسان» هنا آدمُ عليه السلام . علّمه أسماء كلّ شيء ؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا »(١) . فلم يبق شيء إلا وعلّم سبحانه آدم اسمه بكل لغة ، وذكره آدمُ للملائكة كما علمه . وبذلك ظهر فضله ، وتبين قدره ، وثبتت نبوّته ، وقامت حُجّة الله على الملائكة وحُجّته ، وامتثلت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال ، ورأت من جلال القدرة ، وسمعت من عظيم الأمر . ثم توارثت ذلك ذُرّيته خَلَفًا بعد سلف ، وتناقلوه قومًا عن قوم . وقد مضى هذا في سورة « البقرة »(٢) مستوفًى والحمد لله . وقيل : « الإنسان » هنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ دليله قوله تعالى : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ »(٣) . وعلى هذا فالمراد بـ « عَلَّمَكَ »(٤) المستقبل ؛ فإن هذا من أوائل ما نزل . وقيل : هو عام لقوله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا »(٥) .

قوله تعالى : كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾ إلى آخر السورة . قيل : إنه نزل

(١) آية ٣١ سورة البقرة . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية . (٣) آية ١١٣ سورة النساء .
(٤) في نسخة : المشكل . (٥) آية ٧٨ سورة النحل .

فى أبى جهل . وقيل : نزلت السورة كلها فى أبى جهل ؛ نهى النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يصلّى فى المسجد ويقرأ باسم الرب . وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل . ويجوز أن يكون خمسُ آيات من أولها أوّل ما نزلت ، ثم نزلت البقية فى شأن أبى جهل، وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أوّل السورة؛ لأن تأليف السُّوَر جَرَى بأمر من الله . ألا ترى أن قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ » (١) آخِرُ ما نزل ، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل . و « كَلَّا » بمعنى حَقًّا؛ إذ ليس قبله شيء . والإنسان هنا أبو جهل . والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان . ﴿ أَنْ رَآهُ ﴾ أى لأن رأى نفسه آستغنى ؛ أى صار ذا مال وثروة . وقال آبن عباس فى رواية أبى صالح عنه قال : لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون أتاه أبو جهل فقال : يا محمد تزعم أنه من آستغنى طغى؛ فآجعل لنا جبال مكة ذهبًا لعلّنا نأخذ منها فنطغى فنذع ديننا ونتبع دينك . قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال : "يامحمد خيّرهم فى ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه فإن لم يُسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة" . فعلِم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القوم لا يقبلون (٢) ذلك ؛ فكفّ عنهم إبقاء عليهم . وقيل : « أَنْ رَآهُ آسْتَغْنَى » بالعشيرة والأنصار والأعوان . وحذف اللام من قوله « أَنْ رَآهُ » كما يقال : إنكم لَتَطْغَوْن إن رأيتم غناكم . وقال الفراء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التى تريد آسمًا وخبرا نحو الظن والحسبان، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد . والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتنى وحسبتنى، ومتى تراك خارجا ، ومتى تظنك خارجا . وقرأ مجاهد وحميد وقُنبُل عن آبن كثير « أن رأه آستغنى » بقصر الهمزة . الباقون « رآه » بمدّها ، وهو الآختيار .

---

(١) آية ٢٨١ سورة البقرة .

(٢) فى نسخة من الأصل : « يقبلون » .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾

أي مرجع مَنْ هذا وَصْفُه فنجازيه . والرجعى والمرجِع والرجوع مصادر ؛ يقال : رجع إليه رجوعا ومرجِعا ، ورُجعى ؛ على وزن فُعلى .

قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴾ وهو أبو جهل ﴿ عَبْدًا ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم . فإن أبا جهل قال : إن رأيت محمدا يصلّي لأطأنّ على عنقه ؛ قاله أبو هريرة . فأنزل الله هذه الآيات تعجّبا[1] منه . وقيل : في الكلام حذف ؛ والمعنى : أمِنَ هذا الناهى عن الصلاة من العقوبة .

قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ﴾

أى أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة ، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكا ؟ !

قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾

يعنى أبا جهل كذّب بكتاب الله عز وجل ، وأعرض عن الإيمان . وقال الفرّاء : المعنى « أرأيت الذي يَنْهَى . عَبْدًا إذا صَلّى » وهو على الهُدَى وآمر بالتقوى ، والناهى مكذب متولّ عن الذكر ؛ أى فما أعجب هذا ! ثم يقول : وَيْلَه ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى ؛ أى يراه ويعلم فعله ؛ فهو تقرير وتوبيخ . وقيل : كل واحد من « أرأيت » بدل من الأول . و « أَلَمْ يَعْلَمْ بأنّ اللهَ يَرَى » الخبر .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

(١) أى تعجيبا منه ، وهو إيقاع المخاطب وحمله على التعجب (عن حاشية الجمل)

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾ أى أبو جهل عن أذاك يا محمد . ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ أى لنأخذن ﴿ بِالنَّاصِيَةِ ﴾ فلنذلّنه . وقيل : لنأخذن بناصيته يوم القيامة ، وتطوى مع قدميه ويطرح فى النار ؛ كما قال تعالى : « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِى وَالأَقْدَامِ »(١) . فالآية وإن كانت فى أبى جهل فهى عظة للناس ، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة . وأهل اللغة يقولون : سَفَعْتُ بالشيء إذا قبضت عليه وجذبته جذبا شديدا . ويقال : سفع بناصية فرسه . قال :

قَوْمٌ إذا كَثُرَ الصياحُ رأيتهم * من بين مُلْجِمِ مُهْرِهِ أو سافِعِ(٢)

وقيل : هو مأخوذ من سَفَعَتْه النار والشمس إذا غيّرت وجهه إلى حال تَسْوِيد ؛ كما قال :

أثافِىَّ سُفْعًا فى مُعَرَّسِ مِرْجَلِ * ونُؤْىٍ كجِذْمِ الحَوْضِ أثْلَمَ خاشِعُ(٣)

والناصية : شعر مقدّم الرأس . وقد يعبّر بها عن جملة الإنسان ؛ كما يقال : هذه ناصية مباركة ؛ إشارة إلى جميع الإنسان . وخصّ الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته . وقال المبرّد : السَّفْع الجَذْب بشدّة ؛ أى لنجرّنّ بناصيته إلى النار . وقيل : السّفع الضرب ؛ أى لنلطمنّ وجهه . وكله متقارب المعنى . أى يُجمع عليه الضرب عند الأخذ ؛ ثم يجرّ إلى جهنم . ثم قال على البدل : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾

---

(١) آية ٤١ سورة الرحمن . (٢) البيت لحميد بن ثور الهلالى الصحابى . ويروى : * ما بين ملجم ... *

(٣) هكذا ورد البيت فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عادل وهو ملفق من قصيدتين . فالشطر الأول من معلقة زهير . والبيت كما فى ديوانه ومعلقته :

أثافى سفعا فى معرس مرجل * ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلّم

والشطر الثانى من قصيدة للنابغة ؛ والبيت كما فى ديوانه :

رماد ككحل العين لأيا أبينه * ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

والأثلم : المتثلم . والخاشع : اللاصق بالأرض . والأثافى : الحجارة التى تجعل عليها القدر ؛ الواحدة أثفية . والسفع : السود . والمعرّس : الموضع الذى فيه المرجل . والمرجل : كل قدر يطبخ فيها من حجارة أو حديد أو خزف أو نحاس . والنؤى : حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل البيت الماء من خارج . وجذم الحوض : حرفه وأصله . ولم يتثلم : يعنى النؤى قد ذهب أعلاه ولم يتثلم ما بقى منه .

أى ناصية أبى جهل كاذبةٍ فى قولها، خاطئةٍ فى فعلها . والخاطئ معاقَب مأخوذ . والمخطئ غير مأخوذ[1] . ووَصْفُ الناصية بالكاذبة الخاطئة كوَصْف الوجوه بالنظر فى قوله تعالى : « إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[2] . وقيل : أى صاحبها كاذب خاطئ؛ كما يقال : نهارٌ صائم، وليلٌ قائم؛ أى هو صائم فى نهاره، قائم فى ليله .

قوله تعالى : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أى أهل مجلسه وعشيرته فليستنصر بهم . ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أى الملائكة الغِلاظ الشّداد — عن ابن عباس وغيره — واحدهم زِبْنِيّ؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : زابن . أبو عبيدة : زِبْنِيَة . وقيل : زَبَانِيّ . وقيل : هو اسم للجمع؛ كالأبابيل والعباديد . وقال قتادة : هم الشُّرَط فى كلام العرب . وهو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع؛ ومنه المُزابنة[3] فى البيع . وقيل : إنما سُمُّوا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو اللّيث السَّمَرْقَنْدِيّ — رحمه الله — قال : ورُوِيَ فى الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى قوله تعالى : «لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ» قال أبو جهل : أنا أدْعُو قومى حتى يمنعوا عنى رَبَّك . فقال الله تعالى : «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» فلما سَمِع ذِكر الزبانية رَجع فَزِعاً؛ فقيل له : خشيت منه ! قال : لا ! ولكن رأيت عنده فارسًا فهدّدنى بالزبانية ، فما أدرى ما الزبانية ، ومال إلىّ الفارس فخشيتُ منه أن يأكلنى . وفى الأخبار أن الزبانية رءوسهم فى السماء وأرجلهم فى الأرض، فهم يدفعون الكفار فى جهنم . وقيل : إنهم أعظم الملائكة خَلْقًا ، وأشدّهم بَطْشًا . والعرب تُطلق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه . قال الشاعر :

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغى * زبانيةٌ غُلْبٌ عظامٌ حُلومُها[4]

(١) الخاطئ : من تعمد لما لا ينبغى؛ أى القاصد للذنب . والمخطئ : من أراد الصواب فصار إلى غيره .

(٢) آية ٢٣ سورة القيامة . (٣) هى بيع الرطب فى رءوس النخل بالتمر ؛ ونهى عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة . (٤) غلب : جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة ، والعرب تصف السادة بغلظ الرقبة وطولها . والحلوم : جمع الحلم وهو العقل .

وعن عكرمة عن ٱبن عباس : « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » قال : قال أبو جهل لئن رأيتُ محمدًا يصلّى لأطأنّ على عنقه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو فعل لأخذته الملائكة عِيانا" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : مَرّ أبو جهل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلى عند المَقام فقال : ألم أنهك عن هذا يا محمد! فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو جهل : بأىّ شيء تهدّدنى يا محمد! والله إنى لأكثر أهلِ الوادى هذا ناديًا ؛ فأنزل الله عز وجل : « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» . قال ٱبن عباس : والله لو دَعَا نادِيَه لأخذته زبانية العذاب من ساعته . أخرجه الترمذى بمعناه، وقال : حسن غريب صحيح . والنادى فى كلام العرب : المجلس الذى يَنْتَدِى فيه القومُ ؛ أى يجتمعون، والمراد أهلُ النادى ؛ كما قال جَرير :

* لهم مجلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ أذِلّةٌ (١) *

وقال زهير :

* وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وُجُوهُهم (٢) *

وقال آخر :

* وٱستبّ بعدك يا كُلَيْبُ المجلِسُ (٣) *

وقد ناديتُ الرجل أناديه إذا جالسته . قال زهير :

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادِى * أمامَ الحَىِّ عَقْدُهما سَواءُ

---

(١) تمامه : * سواسية أحرارها وعبيدها *
والبيت لذى الرمّة لا لجرير . و « صهب » : حمر . و « السبال » : الشعر الذى عن يمين الشفة العليا وشمالها .

(٢) تمام البيت : * وأندية ينتابها القول والفعل *
المقامات : المجالس ؛ وإنما سميت المقامات لأن الرجل كان يقوم فى المجلس فيحض على الخير و يصلح بين الناس . وأندية : جمع الندى وهو المجلس أيضا ، وفيه الشاهد .

(٣) هذا عجز بيت لمهلهل يرثى أخاه كليبا . وصدره :
* نبئت أن النار بعدك أوقدت *

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (١٩)

﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل . ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ أى فيما دعاك إليه من ترك الصلاة . ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ أى صلّ لله . ﴿ وَٱقْتَرِبْ ﴾ أى تقرّب إلى الله جلّ ثناؤه بالطاعة والعبادة . وقيل : المعنى إذا سجدت فٱقترب من الله بالدعاء . روى عطاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أقربُ ما يكون العبدُ من رَبّه وأحَبُّه إليه ما كانت جَبْهَتُه فى الأرض ساجدا لله" .

قال علماؤنا : وإنما [كان] ذلك لأنها نهاية العبودية والذِّلة؛ ولله غايةُ العِزّة، وله العزة التى لا مقدار لها؛ فكلما بَعُدْتَ من صفته قَرُبْتَ من جنّته، ودنوت من جواره فى داره . وفى الحديث الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أمّا الركوع فعظِّموا فيه الربَّ، وأما السجودُ فٱجتهدوا فى الدعاء فإنه قَمِنٌ(١) أن يُستجابَ لكم" . ولقد أحسن من قال :

وإذا تذلّلتِ الرقابُ تواضعًا * منّا إليك فعزُّها فى ذُلّها

وقال زيد بن أسلم : اسجد أنت يا محمد مُصَلِّياً، واقترب أنت يا أبا جهل من النار .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ هذا من السجود . يحتمل أن يكون بمعنى السجود فى الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة فى هذه السورة . قال ٱبن العربي : «والظاهر أنه سجود الصلاة؛ لقوله تعالى : «أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى . — إلى قوله — كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ» لولا ما ثبت فى الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال : سَجَدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى «إذا السَّمَاءُ ٱنْشَقَّتْ» وفى «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ» سجدتين، فكان هذا نصًّا على أن المراد سجود التلاوة . وقد روى ٱبن وَهب عن حماد ابن زيد عن عاصم بن بَهْدَلة عن زِرّ بن حُبَيْش عن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه قال : عزائم السجود أربع : «الم» و «حم . تنزيلٌ من الرحمن الرحيم» و «النجم» و «اقرأ

(١) يقال : قَمَن وقَمِن بفتح الميم وكسرها والذى بالكسر يثنى ويجمع كقمنين؛ أى خليق وجدير .

باسم ربك » . وقال آبن العربي : « وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة « الحج » وإن كان مقترنًا بالركوع ؛ لأنه يكون معناه آركعوا في موضع الركوع ، وآسجدوا في موضع السجود» . وقد قال آبن نافع ومُطَرِّف : وكان مالك يسجد في خاصّة نفسه بخاتمة هذه السورة من « آقرأ باسم رَبّك » ، وآبن وهب يراها من العزائم .

قلت : وقد رَوَيْنا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن آبن عمر قال : لمـا أنزل الله تعالى « ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : "اكتبها يا معاذ" فأخذ معاذ اللوح والقلم والنُّون — وهي الدواة — فكتبها معاذ؛ فلما بلغ « كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ » سجد اللّوح وسجد القلم وسجدت النون وهم يقولون : اللّهُمّ آرفع به ذِكْرًا ، اللهم آحطط به وِزْرًا ، اللّهُمّ آغفر به ذنبًا . قال معاذ : سجدتُ ، وأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد .

ختمت السورة . والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى . وله الحمد والمنة .

سورة « القدر »

وهي مَدَنيّة في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره الثعلبي . وحكى المـاوَرْديّ عكسه .

قلت : وهي مدنية في قول الضحاك وأحد قولي آبن عباس . وذكر الواقِديّ أنها أوّل سورة نزلت بالمدينة . وهي خمس آيات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعني القرآن وإن لم يَجْرِله ذِكْرٌ في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم ، والقرآن كلّه كالسورة الواحدة . وقد قال : « شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ »(١) وقال : « حم . وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ »(٢) يريد في ليلة القدر . وقال

(١) آية ١٨٥ سورة البقرة . (٢) أوّل سورة الدخان .

الشّعْبِي : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر . وقيل : بل نزل به جبريل عليه السلام جُمْلَةً واحدة فى ليلة القــدر من اللّوْح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى بيت العــزّة، وأملاه جبريل على السّفَرة (١) ثم كان جبريل ينزله على النبيّ صلى الله عليه وسلم نُجُوماً نجوماً (٢) . وكان بين أوّله وآخره ثلاث وعشرون سنة؛ قاله ابن عباس، وقد تقدّم فى سورة « البقرة » (٣) . وحكى المـاوَرْدِيّ عن ابن عباس قال : نزل القرآن فى شهر رمضان ، وفى ليـلة القدر ، فى ليـلة مباركة جملةً واحدةً من عند الله، من اللّوْح المحفوظ إلى السّفَرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا؛ فنجّمته السّفَرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة ، ونجّمه جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم عشرين سنة . قال ابن العربي : «وهذا باطل؛ ليس بين جبريل و بين الله واسطة ، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة» .

قوله تعـالى : ﴿ فِي لَيْـلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قال مجاهد : فى ليـلة الحكم . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْـلَةُ الْقَدْرِ ﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى ليلة التقدير؛ سُمِّيت بذلك لأن الله تعالى يقدّر (٤) فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السنة القابلة ؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره . ويسلمه إلى مدبرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة : إسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وجبريل؛ عليهم السلام . وعن ابن عباس قال : يكتب من أم الكتاب ما يكون فى الســنة من رزق ومطر وحياة وموت حتى الحاجّ . قال عكرمة : يُكتب حاجّ بيت الله تعالى فى ليـلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يغادر منهم أحد ولا يزاد فيهم . وقاله سعيد بن جُبير . وقد مضى فى أوّل سورة « الدخان » (٥) هذا المعنى . وعن ابن عباس أيضا : أن الله تعالى يقضى الأقضية فى ليـلة نصف شعبان ، ويسلمها إلى أربابها فى ليـلة القدر . وقيل : إنمـا سُمِّيت بذلك لعَظَمِها وقَدرها وشرفها؛ من قولهم : لفلان قدر؛ أى شرف ومنزلة . قاله الزُّهْرِيّ وغيره . وقيــل : سُمِّيت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا . وقال أبو بكر الوراق :

---

(١) السفرة : هم الملائكة ؛ جمع سافر . والسافر فى الأصل الكاتب ؛ سمى به لأنه يبين الشيء و يوضحه .
(٢) يعنى جزءا جزءا ، الآية والآيتين . (٣) راجع جـ ٢ ص ٢٩٧ طبعة ثانية .
(٤) يريد أنه يظهر ما قضاه فى الأزل من الأمور، لأنه يقدرا بتداء . (٥) راجع جـ ١٦ ص ١٢٥

سُمِّيت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خَطَر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها. وقيل: سُمِّيت بذلك لأنه أنزل فيها كتابا ذا قدر، على رسول ذى قدر، على أمة ذات قدر. وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر. وقيل: لأن الله تعالى ينزِّل فيها الخير والبركة والمغفرة. وقال سَهْل: سُمِّيت بذلك لأن الله تعالى قدّر فيها الرحمة على المؤمنين. وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة؛ كقوله تعالى: «وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ»[1] أى ضُيِّق.

قوله تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

قال الفراء: كل ما في القرآن من قوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ» فقد أدراه. وما كان من قوله: «وما يدريك» فلم يُدْرِه. وقاله سفيان، وقد تقدم[2]. ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بيّن فضلها وعظمها. وفضيلةُ الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل. وفي تلك الليلة يُقْسَم الخيرُ الكثير الذى لا يوجد مثله في ألف شهر. والله أعلم. وقال كثير من المفسرين: أى العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر. وقيل: عنى بألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تَذْكُر الألف في غاية الأشياء؛ كما قال تعالى: «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ»[3] يعنى جميع الدهر. وقيل: إن العابد كان فيما مضى لا يُسَمَّى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر؛ فجعل الله تعالى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم عبادة ليلة خيرا من ألف شهر كانوا يعبدونها. وقال أبو بكر الوراق: كان مُلْك سليمان خمسمائة شهر، ومُلْك ذى القَرْنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر؛ فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيرا من مُلْكهما. وقال ابن مسعود: إن النبيّ صلى الله

(١) آية ٧ سورة الطلاق. (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٧ وجـ ١٩ ص ٢٤٧ وص ٣ من هذا الجزء.

(٣) آية ٩٦ سورة البقرة.

عليه وسلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر؛ فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» الآية «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» التى لبس فيها الرجل سلاحه فى سبيل الله . ونحوه عن ابن عباس . وَهْبُ بن مُنَبِّه : إن ذلك الرجل كان مسلما، وإن أمّه جعلته نذرا لله ، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام ، وكان سكن قريبا منها ؛ فجعل يغزوهم وحده ويَقتل ويَسْبِي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بِلَحْيَيْ بعير، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وَعطِش انفجر له من اللَّحيين (١) ماء عذب فيشرب منه ،وكان قد أُعطِى قوّة فى البطش لا يوجعه حديد ولا غيره، وكان اسمه شمسون . وقال كعب الأحبار : كان رجلا مَلِكًا فى بنى إسرائيل فعل خَصلة واحدة فأوحى الله إلى نبيّ زمانهم قل لفلان يتمنّى . فقال : يا ربّ أتمنّى أن أجاهد بمالى وولدى ونفسى ؛ فرزقه الله ألف ولد ، فكان يجهز الولد بماله فى عسكره ويُخرجه مجاهدا فى سبيل الله ، فيقوم شهرا ويُقتل ذلك الولدُ ، ثم يجهز آخر فى عسكر ، فكان كلُّ ولد يُقتل فى الشهر ، والمَلِك مع ذلك قائم اللّيل صائمُ النهار ؛ فقُتِل الألفُ (٢) ولد فى ألف شهر ، ثم تقدم فقاتل فقُتِل . فقال الناس : لا أحَدَ يُدرك منزلة هذا الملك ؛ فأنزل الله تعالى : «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» من شهور ذلك الملك فى القيام والصيام والجهاد بالمال والنفس والأولاد فى سبيل الله . وقال عليّ وعُرْوَة : ذَكَر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أربعةً من بنى إسرائيل فقال "عبدوا الله ثمانين سنة لم يَعْصُوه طَرْفَةَ عَيْن" ؛ فذكر أيوب وزكريا وحزقيل بن العجوز ويوشع بن نون ؛ فعجِب أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك . فأتاه جبريل فقال : يا محمد عَجِبَتْ أمتُك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنةً لم يَعْصُوا الله طرفة عَيْن ، فقد أنزل الله عليك خيراً من ذلك؛ ثم قرأ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ» . فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك فى المُوَطَّأ من رواية ابن القاسم وغيره : سمعت

(١) اللحى (بفتح اللام وتشديدها وسكون الحاء) : عظم الحنك ، وهو الذى عليه الأسنان . وعبارة الطبرى فى تاريخه (طبع أوربا قسم أوّل ص ٧٩٤) : «وكان إذا لقيهم لقيهم بلحى بعير، لا يلقاهم بغيره؛ فاذا قاتلوه وقاتلهم ، وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذى فى اللحى ماء عذب ... الخ» . بأفراد «لحى» فى الموضعين .

(٢) كذا فى الأصل ، والمعروف فى العربية أن البصريين قالوا : ما كان من العدد مضافا أدخل الألف واللام فى آخره فقط ، وأجاز الكوفيون إدخال الألف واللام على الأوّل والثانى وعلى ذلك فيقال هنا : ألف الولد أو الألف الولد .

من أثق به يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرِىَ أعمارَ الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمّته ألّا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر. وفى الترمذىّ عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِىَ بنى أميّة على منبره فساءه ذلك؛ فنزلت «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» يعنى نهراً فى الجنة. ونزلت «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» يملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم بن الفضل الحُدّانى: فعددناها فإذا هى ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما. قال: حديث غريب.

قوله تعالى: تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أى تهبط من كل سماء، ومن سدرة المُنْتَهَى؛ ومسكنُ جبريل على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمّنون على دعاء الناس إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ». ﴿وَالرُّوحُ﴾ أى جبريل عليه السلام. وحكى القُشَيْرِىّ: أن الرُّوح صِنف من الملائكة، جُعلوا حَفَظةً على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى. وقيل: إنهم جُنْدٌ من جُنْد الله عز وجل من غير الملائكة. رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعا؛ ذكره المَاوَرْدِىّ. وحكى القُشَيْرِىّ: قيل هم صِنف من خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيدٍ وأرجل؛ وليسوا ملائكة. وقيل: «الروح» خَلْقٌ عظيم يقوم صفًّا، والملائكة كلُّهم صَفًّا. وقيل: «الروح» الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة فى هذه الليلة على أهلها؛ دليله: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» (١) أى بالرحمة. ﴿فِيهَا﴾ أى فى ليلة القدر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى بأمره. ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أى بكل أمْرٍ قدّره الله وقضاه فى تلك السَّنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (٢) أى بأمر الله. وقراءة العامة «تَنَزَّل» بفتح التاء؛ إلا أن البزّى

(١) آية ٢ سورة النحل. (٢) آية ١١ سورة الرعد.

شدّد التاء . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وآبن السَّمَيْقَع بضم التاء على الفعل المجهول . وقرأ علىّ وآبن عباس وعِكْرِمة والكَلْبِي « مِنْ كُلِّ آمرئ » . وروى عن آبن عباس أن معناه : من كل مَلَك؛ وتأوّلها الكلبي على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة فيسلمون على كل آمرئ مسلم. ف « مِن » بمعنى على . وعن أنس قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا كان ليلة القدر نزل جبريل فى كَبْكَبَة (١) من الملائكة يُصلُّون و يُسَلِّمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى".

قوله تعالى : سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

قيل : إن تمام الكلام « مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » ثم قال « سَلَامٌ » رُوِىَ ذلك عن نافع وغيره؛ أى ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شَرّ فيها . ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أى إلى طلوع الفجر. قال الضحاك: لا يقدّر الله فى تلك الليلة إلا السلامة، وفى سائر الليالى يقضى بالبلايا والسلامة . وقيل : أى هى سلام؛ أى ذات سلامة من أن يؤثّر فيها شيطان فى مؤمن ومؤمنة . وكذا قال مجاهد : هى ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذًى . وروى مرفوعا . وقال الشعبي : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر؛ يمرون على كل مؤمن ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن . وقيل : يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها . وقال قتادة : « سلام هى » خير هى . « حتى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » أى إلى مطلع الفجر . وقرأ الكسائى وآبن مُحَيْصِن «مَطْلِع» بكسر اللام، الباقون بالفتح . والفتح والكسر لغتان فى المصدر . والفتح الأصل فى فَعَل يَفْعُل؛ نحو المقتل والمخرج . والكسر على أنه مما شَذّ عن قياسه؛ نحو المَشْرِق والمَغْرِب والمَنْبِت والمَسْكِن والمَنْسِك والمَحْشِر والمَسْقِط والمجزِر . حُكِى فى ذلك كله الفتحُ والكسر؛ على أن يراد به المصدر لا الآسم .

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — فى تعيين ليلة القدر؛ وقد اختلف العلماء فى ذلك . والذى عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين؛ لحديث زِرّ بن حُبَيْش قال قلت لأُبَىّ بن كعب : إن أخاك عبد الله

(١) الكبكبة (بالفتح) : الجماعة المتضامة من الناس وغيرهم .

آبن مسعود يقول : مَن يَقُم الحَوْل يُصب ليلة القدر . فقال : يَغْفِر الله لأبي عبد الرحمن ! لقد عَلِم أنها في العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ؛ ولكنه أراد ألّا يتكل الناس ؛ ثم حَلَف لا يستثنى[1] أنها ليلة سبع وعشرين . قال قلت : بأيّ شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال : بالآية التى أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذ لا شُعاع لها . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وخرّجه مسلم . وقيل : هى فى شهر رمضان دون سائر العام؛ قاله أبو هريرة وغيره . وقيل : هى فى ليالى السنة كلها . فمن عَلّق طلاق آمرأته أو عِتق عبده بليلة القدر لم يقع العِتق والطلاق إلا بعد مُضى سنة من يوم حَلَف . لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك ولم يثبت اختصاصها بوقت؛ فلا ينبغى وقوع الطلاق إلا بمضى حول ، وكذلك العتق؛ وما كان مثله من يمين أو غيره . وقال آبن مسعود : مَن يَقُم الحَوْل يُصبها؛ فبلغ ذلك آبن عمر فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن! أمَا إنه عَلِم أنها فى العشر الأواخر من شهر رمضان، ولكنه أراد ألا يتكل الناس . وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة أنها فى جميع السّنة . وقيل عنه : إنها رفعت — يعنى ليلة القدر — وأنها إنما كانت مَرّة واحدة؛ والصحيح أنها باقية . ورُوى عن آبن مسعود أيضا : أنها إذا كانت فى يوم من هذه السنة كانت فى العام المقبل فى يوم آخر . والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان . ثم قيل : إنها الليلة الأولى من الشهر؛ قاله أبو رَزِين العقيلى . وقال الحسن وآبن إسحاق وعبد الله بن الزبير : هى ليلة سبع عشرة من رمضان ، وهى الليلة التى كانت صبيحتها وَقْعة بَدْر . كأنهم نزعوا بقوله تعالى : « وما أنزلنا على عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ»[2] وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل هى ليلة التاسع عشر . والصحيح المشهور أنها فى العشر الأواخر من رمضان؛ وهو قول مالك والشافعى والأوزاعى وأبى ثَوْر وأحمد . ثم قال قوم : هى ليلة الحادى والعشرين . ومال إليه الشافعى رضى الله عنه؛ لحديث الماء والطين،

---

(١) أى جزم فى حلفه بلا استثناء فيه ؛ بأن يقول عقب يمينه إن شاء الله .

(٢) آية ٤١ سورة الأنفال .

ورواه أبو سعيد الخُدْرِيّ خرجه مالك وغيره (١). وقيل ليلة الثالث والعشرين؛ لما رواه ابن عمر أن رجلا قال : يارسول الله إنى رأيت ليلة القدر فى سابعة تبقى . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئا فليقم ليلة ثلاث وعشرين" . قال معمر : فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويَمَسّ طِيباً . وفى صحيح مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنى رأيت أنى أسجد فى صبيحتها فى ماء وطين" قال عبد الله بن أُنَيس : فرأيته فى صبيحة ليلة ثلاث وعشرين فى الماء والطين كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أبى سعيد الخُدْرِيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "التمسوها فى العشر الأواخر فى تاسعة تبقى فى سابعة تبقى فى خامسة تبقى" رواه مسلم ، قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس وعشرين . وقيل : ليلة سبع وعشرين . وقد مضى دليله ، وهو قول على رضى الله عنه وعائشة ومعاوية وأُبَىّ بن كعب . ورَوَى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كان مُتَحَرِّيًا ليلة القدر فليتحرّها ليلة سبع وعشرين" . وقال أُبَىّ بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ليلة القدر ليلة سبع وعشرين" . وقال أبو بكر الوراق : إن الله تعالى قسم ليالى هذا الشهر — شهر رمضان — على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال هى . وأيضا فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات ، وهى تسعة أحرف، فتجيء سبعا وعشرين . وقيل : هى ليلة تسع وعشرين ؛ لما رُوِىَ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليلة القدر التاسعة

---

(١) لفظ الحديث كما رواه مالك فى الموطأ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الوسط من رمضان ، فاعتكف عاما حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهى الليلة التى يخرج فيها من صبحها من اعتكافه قال : " من كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها وقد رأيتنى أسجد من صبحها فى ماء وطين فالتمسوها فى العشر الأواخر والتمسوها فى كل وتر" قال أبو سعيد : فأمطرت السماء تلك الليلة ، وكان المسجد على عريش فوكف المسجد (قَطَر) قال أبو سعيد : فأبصرت عيناى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف وعلى جبينه وأنفه أثر الماء والطين من صبح ليلة إحدى وعشرين » .

والعشرون — أو السابعة والعشرون — وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى". وقد قيل: إنها في الأشفاع. قال الحسن: ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة فرأيتها تطلع بيضاء لا شُعاع لها. يعنى من كثرة الأنوار في تلك الليلة. وقيل إنها مستورة في جميع السنة، ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالى. وقيل: أخفاها في جميع شهر رمضان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالى شهر رمضان طمعاً في إدراكها؛ كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات، وآسْمَه الأعظم في أسمائه الحسنى، وساعةَ الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل، وغَضَبَه في المعاصي ورضاه في الطاعات، وقيامَ الساعة في الأوقات، والعبدَ الصالح بين العباد؛ رحمةً منه وحكمة.

الثانيــة — في علاماتها: منها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شُعاع لها. وقال الحسن قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر: "إن من أماراتها أنها ليلة سَمِحة بَلْجةٌ لا حارّةٌ ولا باردةٌ تطلع الشمس صبيحتَها ليس لها شُعاع". وقال عُبيد بن عُمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر فأخذتُ من مائه فوجدته عَذْباً سَلِساً.

الثالثــة — في فضائلها. وحسبك بقوله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ». وقوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا». وفي الصحيحين: "من قام ليلةَ القَدْر إيماناً وآحتسابا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه" رواه أبو هريرة. وقال آبن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة الذين هم سُكّان سِدْرة المُنْتَهَى منهم جبريل ومعهم أَلْوِيَة ينصب منها لواء على قبري ولواء على بيت المقدس ولواء على المسجد الحرام ولواء على طورسيناء ولا تدع فيها مؤمنا ولا مؤمنة إلا تُسَلِّم عليه إلا مُدْمِنَ الخمر وآكلَ الخنزير والمتضمّخ بالزّعفران". وفي الحديث: "إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها ولا يستطيع أن يصيب فيها أحدا بخبل ولا شيء من الفساد ولا ينفذ فيها سحر ساحر". وقال الشّعْبيّ: وَلَيْلُها كيومها، وَيومُها كَلَيْلِها. وقال الفرّاء: لا يقدّر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويُقَدِّر في غيرها البلايا والنِّقم؛ وقد تقدّم عن الضحاك. ومثله لا يقال من جهة الرأى فهو

مرفوع . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيّب فى المُوَطّأ : [من(١) شهد العشاء من ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها] ومثله لا يدرك بالرأى . وقد روى عبد الله بن عامر بن ربيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من صلّى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر فى جماعة(٢) فقد أخذ بحظه من ليلة القدر " ذكره الثعلبي فى تفسيره . وقالت عائشة رضى الله عنها قلت : يا رسول الله إن وافقتُ ليلةَ القدر فما أقول ؟ قال : " قولى اللّهُم إنّك عَفُوٌّ تُحِبّ العَفْوَ فاعف عنى " .

تفسير سورة « لم يكن »

وهى مَكّية، فى قول يحيى بن سلام . ومَدَنيّةٌ، فى قول ابن عباس والجمهور . وهى تسع(٣) آيات .

وقد جاء فى فضلها حديثٌ لا يصح ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحَضْرَمِىّ قال قال لى أبو عبد الرحمن بن نُمير : اذهب إلى أبى الهَيْثم الخشاب فاكتب عنه فإنه قد كتب، فذهبت إليه فقال : حدّثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى الدّرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما فى [لَمْ يَكُنِ] الّذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لعطّلوا الأهل والمال فتعلّموها " فقال رجل من خُزاعة : وما فيها من الأجر يا رسول الله؟ قال : " لا يقرؤها منافق أبدًا ولا عبدٌ فى قلبه شكٌّ فى الله . والله إن الملائكة المقرّبين يقرءونها منذ(٤) خلق الله السموات والأرض ما يَفْتُرون من قراءتها . وما من عبد يقرؤها إلا بعث الله إليه ملائكة يحفظونه فى دينه ودنياه و يدعون له بالمغفرة والرحمة " . قال الحضرمى : فجئت إلى أبى عبد الرحمن بن نُمير فألقيتُ هذا الحديث عليه فقال : هذا

---

(١) مابين المربعين زيادة من الموطأ . (٢) الذى فى نسخة تفسير الثعلبي التى بين أيدينا : " من صلى المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر فقد أخذ ... " الحديث . ولم يذكر : « فى جماعة » . (٣) فى مصاحفنا : «ثمان آيات» . وفى تفسير الآلوسى : «وآيها تسع فى البصرى وثمان فى غيره» . (٤) فى بعض نسخ الأصل : « قبل خلق السموات ... » .

قد كفانا مؤنته فلا تَعُدْ إليه . قال آبن العربي : «روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن آبن المسيّب عن أبي الدَّرْداء عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما في [لم يكن] الذين كفروا لعَطّلوا الأهل والمال ولتعلّموها " . وهذا حديث باطل ؛ وإنما الحديث الصحيح ما رُوى عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأبَيّ بن كعب : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا » " قال : وسَمّاني لك ! ؟ قال " نعم " فبكى .

قلت : خَرّجه البخاري ومسلم . وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلّم . قال بعضهم : إنما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أُبَيّ ليعلّم الناس التواضع ؛ لئلا يَأنَفَ أحدٌ من التعلّم والقراءة على مَن دونه في المنزلة . وقيل : لأن أُبَيًّا كان أسرع أخذًا لألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأراد بقراءته عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه ويعلّم غيره . وفيه فضيلة عظيمة لأبَيّ ؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه . قال أبو بكر الأنباري : وحدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدّثنا على بن الجَعْد قال حدثنا عكرمة عن عاصم عن زِرّ بن حُبَيش قال : في قراءة أُبَيّ بن كعب : آبن آدم لو أُعْطِيَ واديًا من مال لالتمس ثانيًا ولو أعطى واديين من مال لالتمس ثالثا ولا يملأ جوف آبن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب . قال عكرمة : قرأ عليّ عاصمٌ « لم يكن » ثلاثين آية هذا فيها . قال أبو بكر : هذا باطل عند أهل العلم ؛ لأن قراءتى آبن كثير وأبي عمرو متصلتان بأُبَيّ بن كعب ، لا يقرأ فيهما هذا المذكور في «لم يكن» مما هو معروف في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه من كلام الرسول عليه السلام لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن . وما رواه اثنان معهما الإجماع أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كذا قراءة العامة وخطّ المصحف . وقرأ ٱبن مسعود « لم يكن المشركون وأهل الكتاب مُنْفَكِّين » وهذه قراءة على التفسير . قال ٱبن العربي : « وهي جائزة في معرض البيان لا في معرض التلاوة ؛ فقد قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم في رواية الصحيح « فطَلِّقُوهُنّ لِقُبُل عِدَّتِهِنّ » وهو تفسير ؛ فإن التلاوة هو ما كان في خط المصحف » .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني اليهود والنصارى . ﴿ وَالْمُشْرِكِين ﴾ في موضع جَرّ عطفًا على « أهل الكتاب » . قال ٱبن عباس : « أهل الكتاب » اليهود الذين كانوا بيَثْرِبَ ، وهم قُرَيْظة والنَّضِير وبنو قَيْنُقَاع . والمشركون : الذين كانوا بمكة وحولها ، والمدينة والذين حولها ؛ وهم مشركو قريش . ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ أي منتهين عن كفرهم مائلين عنه . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ ﴾ أي أتتهم البيّنة ؛ أي محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الانتهاء بلوغ الغاية ؛ أي لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة . فالٱنفكاك على هذا بمعنى الٱنتهاء . وقيل : « منفكين » زائلين ؛ أي لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول . والعرب تقول : ما ٱنفككتُ أفعل كذا ؛ أي ما زلت . وما ٱنفكّ فلان قائما ؛ أي ما زال قائما . وأصل الفَكّ الفتح ؛ ومنه فَكّ الكتاب ، وفَكّ الخَلْخال ، وفَكّ السالم (١) . قال طَرَفة :

فآلَيْتُ لا ينفكُّ كَشْحِي بطانةً * لِعَضْبٍ رقيقِ الشَّفْرَتين مُهَنَّدِ (٢)

(١) كذا في بعض نسخ الأصل . وفي بعضها : « فك السالم وهي قال طرفة » . بياض بعد « وهي » . وفي تفسير الثعلبي : « وفك السالم وهي حروف القطن قال طرفة » . ولم نهتد لوجه الصواب فيه . (٢) الكشح : الجنب . والعضب : السيف القاطع . ومهند : أي مشحذ ؛ والتهنيد : التشحيذ . ويقال : سيف مهند إذا عمل ببلاد الهند .

وقال ذو الرُّمّة :

حراجيج ما تنفكّ إلا مُناخةً * على الخَسْف أو نَرْمي به بلدًا قَفْرًا (١)

يريد : ما تنفكّ مُناخةً ؛ فزاد « إلا » . وقيل : « مُنْفَكِّين » بارحين؛ أى لم يكونوا ليبرحوا ، ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البيّنة . وقال ٱبن كَيْسان : أى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم حتى بُعث ؛ فلما بعث حسدوه وجحدوه . وهو كقوله : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » (٢) . ولهذا قال : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » الآية . وعلى هذا فقوله : «والمشركين» أى ما كانوا يسيئون القول فى محمد صلى الله عليه وسلم حتى بُعث ؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، حتى أتتهم البينة على لسانه وبُعث إليهم فحينئذ عادوه . وقال بعض اللغويين : « منفكين » هالكين ؛ من قولهم : انفك صَلا (٣) المرأة عند الولادة ؛ وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتهلك . المعنى : لم يكونوا معذَّبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب . وقال قوم فى المشركين : إنهم من أهل الكتاب ؛ فمن اليهود من قال : عُزَيْر ابن الله . ومن النصارى من قال : عيسى هو الله . ومنهم من قال : هو ٱبنه . ومنهم من قال : ثالث ثلاثة . وقيل : أهل الكتاب كانوا مؤمنين ثم كفروا بعد أنبيائهم . والمشركون وُلِدُوا على الفِطْرة فكفروا حين بلَغُوا . فلهذا قال : «والمشركين» . وقيل : المشركون وصف أهل الكتاب أيضا ؛ لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم وتركوا التوحيد . فالنصارى مُثَلِّثة ، وعامة اليهود مُشَبِّهة ؛ والكل شِرْك . وهو كقولك : جاءنى العقلاء والظرفاء ؛ وأنت تريد أقواما بأعيانهم تصفهم بالأمرين . فالمعنى : من أهل الكتاب المشركين . وقيل : إن الكفر هنا هو الكفر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب ، ولم يكن المشركون الذين هم عبدة

---

(١) الحراجيج (جمع حرجوج) : وهى الناقة الطويلة الضامرة . والخسف : أن تبيت على غير علف . يقول : ما تنفصل من بلد إلى بلد إلا مناخة على الخسف . (٢) آية ٨٩ سورة البقرة .

(٣) الصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع . وقيل : هو ما انحدر من الوركين . وقيل : هو ما عن يمين الذنب وشماله .

الأوثان من العرب وغيرهم — وهم الذين ليس لهم كتاب — منفكين . قال القُشَيْرِيّ : وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الظاهر من قوله : « حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِنَ اللهِ » إن هذا الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم . فيبعد أن يقال : لم يكن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم منفكين حتى يأتيهم محمد؛ إلا أن يقال : أراد لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد وإن كانوا من قبل معظمين له منتهين عن هذا الكفر إلى أن يبعث الله محمدا إليهم ويبيّن لهم الآيات ؛ فحينئذ يؤمن قوم . وقرأ الأعمش وإبراهيم « والمشركون » رفعًا ، عطفًا على « الذين » . والقراءة الأولى أبين؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب . وفي حرف أُبَيّ : « فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين » . وفي مصحف ابن مسعود : « لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين » . وقد تقدم . ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ قيل حتى أتتهم . والبينة : محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ﴾ أي بعيث من الله جلّ ثناؤه . قال الزجاج : « رسول » رفع على البدل من « البينة » . وقال الفراء : أي هي رسول من الله ، أو هو رسول من الله؛ لأن البَيِّنة قد تذكّر فيقال : بَيِّنَتي فلان . وفي حرف أُبَيّ وابن مسعود « رسولًا » بالنصب على القطع . ﴿يَتْلُو﴾ أي يقرأ . يقال : تلا يتلو تلاوةً . ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة وهي ظرف المكتوب . ﴿مُطَهَّرَةً﴾ قال ابن عباس : من الزور والشك والنفاق والضلالة . وقال قتادة : من الباطل . وقيل : من الكذب والشبهات والكفر؛ والمعنى واحد . أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه لا عن كتاب؛ لأنه كان أُمِّيًّا لا يكتب ولا يقرأ . و «مطهرة» من نعت الصحف؛ وهو كقوله تعالى : « فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ »(١) فالمطهرة نعت للصحف في الظاهر، وهي نعت لما في الصحف من القرآن . وقيل : «مطهرة» أي ينبغي ألا يمسها إلا المطهرون؛ كما قال في سورة « الواقعة » حسب ما تقدّم بيانه(٢) . وقيل : الصحف المطهرة هي التي عند الله في أم الكتاب الذي منه نسخ ما أنزل على الأنبياء من

(١) آية ١٣ سورة عبس .

(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٥ فما بعدها .

الكتب؛ كما قال تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »(١) . قال الحسن : يعنى الصحف المطهرة فى السماء . ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أى مستقيمة مستوية مُحْكَمَة؛ من قول العرب : قام يقوم إذا آستوى وصح . وقال بعض أهل العلم : الصحف هى الكتب ؛ فكيف قال فى صحف فيها كتب ؟ فالجواب : أن الكتب هنا بمعنى الأحكام ؛ قال الله عز وجل : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ »(٢) بمعنى حكم . وقال صلى الله عليه وسلم : "والله لأقضينّ بينكما بكتاب الله" ثم قضى بالرّجم ، وليس ذِكْرُ الرّجم مسطورًا فى الكتاب ؛ فالمعنى لأقضين بينكما بحكم الله تعالى . وقال الشاعر :

وما الولاء بالبلاء(٣) فملتم * وما ذاك قال الله إذ هو يكتب

وقيل : الكتب القَيِّمة هى القرآن ؛ فجعله كُتُبًا لأنه يشتمل على أنواع من البيان .

قوله تعالى : وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أى من اليهود والنصارى ؛ خصّ أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين ؛ لأنهم مظنون بهم علم ؛ فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخلَ فى هذا الوصف . ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أى أتتهم البيّنة الواضحة . والمَعْنِيّ به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى بالقرآن موافقًا لما فى أيديهم من الكتاب بنعته وصفته . وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوّته ؛ فلما بُعث جَحَدُوا نبوّته وتفرّقوا ، فمنهم من كفر بَغْيًا وحَسَدًا ، ومنهم من آمن ؛ كقوله تعالى : « وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ »(٤) . وقيل : «البينة» البيان الذى فى كتبهم أنه نبيٌّ مُرْسَل . قال العلماء : من أوّل السورة إلى قوله « قَيِّمَة » حُكْمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين . وقوله : «وما تفرق» حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج .

(١) آخر سورة البروج . (٢) آية ٢١ سورة المجادلة . (٣) كذا فى الأصل، ولم نقف على هذا البيت فيما لدينا من المراجع . ولعل صوابه : * وما الولاة بالبلاء فملتم ... الخ *
(٤) آية ١٤ سورة الشورى .

قوله تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ أى وما أُمِر هؤلاء الكفارُ فى التوراة والإنجيل ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى ليُوَحِّدوه . واللام فى « لِيَعْبُدُوا » بمعنى « أن » ؛ كقوله : « يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ »(١) أى أن يبين . و « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ »(٢) . و« وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٣) . وفى حرف عبد الله : « وَمَا أُمِرُوا إلا أنْ يعبدوا الله » . ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : « قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ »(٤) . وفى هذا دليل على وجوب النية فى العبادات ؛ فإن الإخلاص من عَمَل القلب ، وهو الذى يراد به وجه الله تعالى لا غيره .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أى مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . وكان ٱبن عباس يقول : حنفاء على دِين إبراهيم عليه السلام . وقيل : الحَنِيف من ٱختتن وحَجّ ؛ قاله سعيد بن جُبير . قال أهل اللغة : وأصله أنه تحنّف إلى الإسلام ؛ أى مال إليه .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى بحدودها فى أوقاتها . ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أى يعطوها عند محلها . ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أى ذلك الدِّين الذى أُمِروا به دِين القَيِّمة ؛ أى الدين المستقيم . وقال الزجاج : أى ذلك دِين المِلّة المستقيمة . و« القيّمة » نعت لموصوف محذوف . أو يقال : دِين الأمة القيّمة بالحق ؛ أى القائمة بالحق . وفى حرف عبد الله « وذلك الدين القيم » . قال الخليل : «القَيّمة» جمع القَيِّم ، والقَيِّم والقائم واحد . وقال الفراء : أضاف الدِّين إلى القيمة وهو نعته لٱختلاف اللفظين . وعنه أيضا : هو من باب إضافة الشىء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة . وقيل : الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة . وقال محمد بن الأشعث الطّالْقانى : «القَيّمة» هاهنا الكتب التى جرى ذكرها ، والدِّين مضاف إليها .

(١) آية ٢٦ سورة النساء . (٢) آية ٨ سورة الصف . (٣) آية ٧١ سورة الأنعام . (٤) آية ١١ سورة الزمر .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُولَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ «المشركين» معطوف على « الذين » ، أو يكون مجرورا معطوفا على « أهل » . ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ قرأ نافع وٱبن ذكوان بالهمز على الأصل فى الموضعين ؛ من قولهم : برأ الله الخلق ، وهو البارئ الخالق ، وقال : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا »[١] . الباقون بغير همز وشدّ الياء عوضًا منه . قال الفراء : إن أخذت البرية من البَرَى وهو التراب فأصله غير الهمز ؛ تقول منه : براه الله يبروه بَرْوًا ؛ أى خلقه . قال القُشَيْرى : ومن قال البَرِيّة من البَرَى وهو التراب قال : لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة . وقيل : البرية مِن بريت القلم أى قدرته ؛ فتدخل فيه الملائكة . ولكنه قول ضعيف ؛ لأنه يجب منه تخطئة من همز . وقوله « شَرُّ البَرِيّة » أى شرّ الخليقة . فقيل يحتمل أن يكون على التعميم . وقال قوم : أى هم شرّ البرية الذين كانوا فى عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : « وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ »[٢] أى على عالَمِى زمانكم . ولا يبعد أن يكون فى كفار الأمم قبل هذا من هو شرٌّ منهم ؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح . وكذا « خَيْرُ الْبَرِيّة » إمّا على التعميم . أو خير بَرِيّة عَصرهم . وقد ٱستدل بقراءة الهمز مَن فضّل بنى آدم على الملائكة . وقد مضى فى سورة « البقرة » القول فيه[٣] . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده .

(١) آية ٢٢ سورة الحديد .　　(٢) آية ٤٧ سورة البقرة .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ أى ثوابهم . ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى خالقهم ومالكهم . ﴿جَنَّاتُ﴾ أى بساتين . ﴿عَدْنٍ﴾ أى إقامة . والمفسرون يقولون : « جَنَّات عَدْنٍ » بُطْنان الجنة أى وسطها ؛ تقول : عَدَن بالمكان يَعْدِن [عَدْناً و] عُدُونا أقام . ومَعْدِن الشيء : مركزه ومستقره . قال الأعشى :

وإن يستضافوا إلى حكمه * يضافوا إلى راجح قد عَدَنْ

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون . ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أى رَضِيَ أعمالهم ؛ كذا قال ابن عباس . ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أى رَضُوا هم بثواب الله عز وجل . ﴿ذَلِكَ﴾ أى الجنة . ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أى خاف ربه فتناهَى عن المعاصي .

سورة « الزَّلْزَلَة »

مَدَنِيَّةٌ ؛ فى قول ابن عباس وقتادة . ومَكِّيَّة ؛ فى قول ابن مسعود وعطاء وجابر . وهى تسع آيات (١)

قال العلماء : وهذه السورة فضلها كثير وتحتوى على عظيم . روى الترمذى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ « إذا زلزلت » عدلت له بنصف القرآن . ومن قرأ « قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » عدلت له بربع القرآن ومن قرأ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » عدلت له بثلث القرآن ". قال : حديث غريب ؛ وفى الباب عن ابن عباس . ورُوِي عن عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ إذا زُلزلت أربعَ مرات كان كمن قرأ القرآن كله " . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لما نزلت « إذا زُلْزِلَت » بكى أبو بكر ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لولا أنكم تُخطئون وتُذْنبون ويغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم " .

(١) فى حاشية الشهاب : « آيها تسع أو ثمان » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

أى حُرّكت من أصلها . كذا روى عكرمة عن ابن عباس ، وكان يقول : فى النفخة الأولى يزلزلها — وقاله مجاهد — ؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ »(١) ثم تُزَلْزَل ثانيـة فتُخرج موتاها وهى الأثقال . وذُكر المصدر للتأكيد ثم أضيف إلى الأرض ؛ كقولك : لأعطينّك عطيّتك ؛ أى عطيّتى لك . وحَسُن ذلك لموافقة رءوس الآى بعدها . وقراءة العامة بكسر الزاى من الزِّلزال . وقرأ الجَحْدَرِىّ وعيسى بن عمر بفتحها . وهو مصدر أيضا كالوَسواس والقَلقال والجَرجار(٢) . وقيل : الكسر المصدر . والفتح الاسم .

قوله تعالى : وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثِقْلٌ لها . وإذا كان فوقها فهو ثِقْل عليها . وقال ابن عباس ومجاهد : « أَثْقَالَهَا » موتاها تُخرجهم فى النفخة الثانية ؛ ومنه قيل للجن والإنس : الثَّقَلان . وقالت الخنساء :

أبعدَ ابنِ عمروٍ من آل الشَّرِ * يدِ حلّت به الأرض أثقالها

تقول : لما دُفن عمرو صار حِلْيةً لأهل القبور من شرفه وسُؤدده . وذكر بعض أهل العلم قال : كانت العرب تقول إذا كان الرجل سفاكا للدماء : كان ثِقْلًا على ظهر الأرض ؛ فلما مات حَطّت الأرض عن ظهرها ثِقْلها . وقيل : « أَثْقَالَهَا » كنوزها ؛ ومنه الحديث : " تقيء الأرضُ أفلاذَ كَبِدِها أمثالَ الأسْطُوان(٣) من الذهب والفضة ... " .

---

(١) آية ٦ سورة النازعات .

(٢) القلقال : من قلقل الشيء إذا حركه . والجرجار : من جرجر البعير إذا ردّد صوته فى حنجرته .

(٣) الأسطوان : جمع أسطوانة ، وهى السارية والعمود ؛ وشبهه بالأسطوان لعظمه وكثرته .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ ﴾ أى ابن آدم الكافر . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو الأسود بن عبد الأسد . وقيل : أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة فى النفخة الأولى من مؤمن وكافر . وهذا قول من جعلها فى الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنهم لا يعلمون جميعا من أشراط الساعة فى ابتداء أمرها حتى يتحققوا عمومها ؛ فلذلك سأل بعضهم بعضا عنها . وعلى قول من قال : إن المراد بالإنسان الكفار خاصة جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن معترف بها ، فهو لا يسأل عنها، والكافر جاحد لها فلذلك يسأل عنها . ومعنى ﴿ مَا لَهَا ﴾ أى ما لها زلزلت . وقيل : ما لها أخرجت أثقالها ، وهى كلمة تعجيب؛ أى لأى شيء زلزلت . ويجوز أن يحيى الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرك الأرض فتخرج الموتى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء فيقولون من الهول ما لها .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يومَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ «يَوْمَئِذٍ» منصوب بقوله « إِذَا زُلْزِلَت » . وقيل : بقوله «تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» ؛ أى تخبر الأرض بما عُمِل عليها من خير أو شر يومئذ . ثم قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : من قول الإنسان؛ أى يقول الإنسان ما لها تحدّث أخبارها؛ متعجّبًا . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يومئذ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » قال : "أتدرون ما أخبارها — قالوا الله ورسوله أعلم قال — فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أَمَة بما عَمِل على ظهرها تقول عمل يوم كذا كذا و كذا — قال — فهذه أخبارها" . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الماوردى : قوله « يومَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها — «تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» بأعمال العباد على ظهرها؛ قاله أبو هريرة ورواه مرفوعا . وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة .

الثاني — تحدّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها؛ قاله يحيى بن سلام . وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة .

قلت : وفى هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان أجل العبد بأرض أوثبته الحاجة إليها حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله فتقول الأرض يوم القيامة رب هذا ما استودعتني" أخرجه ابن ماجه فى سننه . وقد تقدم.(١)

الثالث — أنها تحدّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان مالها ؛ قاله ابن مسعود . فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى . فيكون ذلك منها جوابا لهم عند سؤالهم ، ووعيدا للكافر، وإنذارا للمؤمن . وفى حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل :

أحدها — أن الله تعالى يقلبها حيوانا ناطقا؛ فتتكلم بذلك .

الثاني — أن الله تعالى يُحْدِث فيها الكلام .

الثالث — أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام . قال الطبري : تُبَيِّن أخبارها بالرجّة والزلزلة وإخراج الموتى . ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى إنها تحدّث أخبارها بوحى الله « لها » أى إليها . والعرب تضع لام الصفة موضع « إلى » . قال العجاج يصف الأرض :

وَحَى لها القرارَ فاستقرّتِ * وشدّها بالرّاسيات الثُّبّتِ

وهذا قول أبي عبيدة : « أَوْحَىٰ لَهَا » أى إليها . وقيل : « أَوْحَىٰ لَهَا » أى أمرها ؛ قاله مجاهد . وقال السُّدّى : « أَوْحَىٰ لَهَا » أى قال لها . وقيل: سخّرها . وقيل : المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أثقالها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصى، وما عُمل على ظهرها من خير وشر . ورُوِى ذلك عن الثّورى وغيره . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أى فِرَقًا؛ جمع شَتّ . قيل : عن موقف الحساب ؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »(٢) « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ »(٣) . وقيل : يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب . ﴿ أَشْتَاتًا ﴾

(١) راجع جـ ١٤ ص ٨٣ . (٢) آية ١٤ سورة الروم . (٣) آية ٤٣ سورة الروم .

يعني فِرَقًا فِرَقًا . ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ يعني ثواب أعمالهم . وهذا كما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من أحد يوم القيامة إلّا ويلوم نفسه فإن كان مُحْسِنًا فيقول لم لا آزددتُ إحسانا وإن كان غير ذلك يقول لم لا نَزَعْتُ عن المعاصي" . وهذا عند معاينة الثواب والعقاب . وكان آبن عباس يقول : « أَشْتَاتًا » متفرقين على قدر أعمالهم ؛ أهل الإيمان على حِدة ، وأهل كل دين على حدة . وقيل : هذا الصدور إنما هو عند النشور ؛ يصدرون أشتاتا من القبور فيصار بهم إلى موقف الحساب ليُرَوْا أعمالهم في كتبهم ، أو ليُرَوْا جزاء أعمالهم ؛ فكأنهم وردوا القبور فدُفِنُوا فيها ثم صدروا عنها . والوارد : الجائي . والصادر : المنصرف . ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أي يبعثون من أقطار الأرض . وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير؛ مجازه : تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليُرَوْا أعمالهم . واعترض قوله « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا » متفرقين عن موقف الحساب . وقراءة العامة « لِيُرَوْا » بضم الياء ؛ أي ليريهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن والزهري وقتادة والأعرج ونصر بن عاصم وطلحة بفتحها ؛ وروى ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ كان آبن عباس يقول : من يعمل من الكفار مثقال ذرّة خيرًا يَرَهُ في الدنيا ولا يثاب عليه في الآخرة ، ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ عُوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك ، ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من المؤمنين يره في الدنيا ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات ويتجاوز عنه ، وإن عمل مثقال ذرّة من خير يقبل منه ويضاعف له في الآخرة . وفي بعض الحديث : "إن الذرّة لا زِنَةَ لها" وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى أنه لا يغفل من عمل آبن آدم صغيرة ولا كبيرة . وهو مِثْلُ قوله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ »[1] . وقد تقدم الكلام هناك في الذرّ، وأنه لا وزن له . وذكر بعض أهل اللغة أن الذرّ أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما عَلِق بها من التراب فهو الذرّ؛ وكذا قال ابن عباس : إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها فكل واحد مما لزق به من التراب ذرّة . وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : فمن يعمل مثقال ذرّة من خير من كافر يرى[2] ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير . ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مؤمن يرى[2] عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وولده وأهله ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرّ . دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس أن هذه الآية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل فأمسك وقال : يا رسول الله ، وإنا لنرى ما عملنا من خير وشرّ ؟ قال : " ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذرّ الشرّ ويدخر لكم مثاقيل ذرّ الخير حتى تُعْطَوْه يوم القيامة " . قال أبو إدريس : إن مصداقه في كتاب الله : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »[3] . وقال مقاتل : نزلت في رجلين ، وذلك أنه لما نزل « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ »[4] كان أحدهم يأتيه السائل فيستقل أن يُعطيَه التمرة والكِسْرة والجَوْزة[5] . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغِيبة والنظرة، ويقول : إنما أوعد الله النار على الكبائر؛ فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يعطوه؛ فإنه يوشك أن يكثر ، ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر؛ وقاله سعيد بن جُبير . والإثم الصغيرُ في عين صاحبه يوم القيامة أعظمُ من الجبال، وجميعُ محاسنه أقلّ في عينه من كل شيء .

الثانيـة — قراءة العامة « يَرَهُ » بفتح الياء فيهما . وقرأ الجحدَريّ والسُّلَميّ وعيسى بن عمر وأبان عن عاصم « يُرَه » بضم الياء؛ أي يريه الله إياه . والأولى الاختيار؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً »[6] الآية . وسكّن الهاء في قوله « يره » في

(١) آية ٤٠ سورة النساء . راجع جـ ٥ ص ١٩٥ . (٢) كذا في الأصل وبعض كتب التفسير بإثبات الياء، والراجح حذفها . (٣) آية ٣٠ سورة الشورى . (٤) آية ٨ سورة الإنسان . (٥) الجوزة : واحدة الجوز الذي يؤكل؛ فارسي معرب . وهي أيضا : الشربة الواحدة من الماء . (٦) آية ٣٠ سورة آل عمران .

الموضعين هشام . وكذلك رواه الكسائى عن أبى بكر وأبى حَيْوَةَ والمغيرة . واختلس يعقوب والزهرى والجحدرى وشيبة . وأشبع الباقون . وقيل « يره » أى يرى جزاءه ؛ لأن ما عمله قد مضى وعُدم فلا يُرَى . وأنشدوا :

إن من يعتدى و يكسب إثمًا * وزن مثقال ذرّة سيراه
ويجازى بفعله الشرّ شرًّا * وبفعل الجميل أيضا جزاه
هكذا قوله تبارك ربّى * فى إذا زلزلت وجلّ ثناه

الثالثة — قال آبن مسعود : هذه أحكم آية فى القرآن ؛ وصدق . وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية ؛ القائلون بالعموم ومن لم يقل به . وروى كعب الأحبار أنه قال : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور والصحف : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . قال الشيخ أبو مدين فى قوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ » قال : فى الحال قبل المآل . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسمّى هذه الآية الآيةَ الجامعة الفاذة ؛ كما فى الصحيح لما سُئل عن الحُمُر وسكت عن البغال والجواب فيهما واحد ؛ لأن البغل والحمار لا كرّ فيهما ولا فرّ ؛ فلما ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم ما فى الخيل من الأجر الدائم والثواب المستمر ، سأل السائل عن الحُمُر لأنهم لم يكن عندهم يومئذ بغل ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبيّ صلى الله عليه وسلم «الدُّلْدُل» التى أهداها له المُقَوْقِس فأفتاه فى الحمير بعموم الآية ، و إن فى الحمار مثاقيلَ ذَرّ كثيرة ؛ قاله ابن العربيّ . وفى المُوَطّأ : أن مسكينا استطعم عائشة أمّ المؤمنين و بين يديها عِنَب ؛ فقالت لإنسان : خذ حبة فأعطه إياها . فجعل ينظر إليها ويَعْجَب ؛ فقالت : أتعجب ! كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرّة . ورُوى عن سعد بن أبى وقّاص أنه تصدق بتمرتين فقبض السائل يده ، فقال للسائل : ويقبل الله منا مثاقيل الذرّ ، وفى التمرتين مثاقيل ذرّ كثيرة . وروى المطلب بن حَنْطَب أن أعرابيًّا سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرؤها فقال : يارسول الله ، أمثقال ذرّة ! قال "نعم" فقال الأعرابى : واسوأتاه ! مرارا ، ثم قام وهو يقولها ؛ فقال النبيّ صلى الله

عليه وسلم : "لقد دخل قلبَ الأعرابي الإيمانُ"[(١)] . وقال الحسن : قدِم صَعْصَعة عَمُّ الفرزدق على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلما سمع «فمن يعمل مثقال ذرة» الآيات؛ قال : لا أبالى ألّا أسمع من القرآن غيرها، حسبي فقد انتهت الموعظة؛ ذكره الثعلبي . ولفظ الماوَرْدِيّ : وروى أن صعصعة ابن ناجية جدّ الفرزدق أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستقرئه فقرأ عليه هذه الآية؛ فقال صعصعة : حسبي حسبي؛ إن عملت مثقال ذرة شرا رأيته . وروى معمر عن زيد بن أسلم أن رجلا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : علمني مما علمك الله . فدفعه إلى رجل يعلمه؛ فعلمه « إذا زلزلت — حتى إذا بلغ — فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » قال : حسبي . فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "دعوه فإنه قد فَقُه" . ويحكى أن أعرابيًّا أخّر « خَيْرًا يَرَهُ » فقيل : قدمت وأخرت . فقال :

خُذَا بطْنَ هَرْشَى أو قفاها فإنه * كِلَا جانِبَيْ هَرْشَى لَهُنّ طَرِيق[(٢)]

ســورة « والعـاديات »

وهى مَكّيّة؛ فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء . ومَدَنِيّة؛ فى قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة . وهى إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ أى الأفراس تَعْدُو . كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة؛ أى تعدو فى سبيل الله فتَضْبَح . قال قتادة : تَضْبَح إذا عَدَت؛ أى تُحَمْحِم . وقال

(١) قال أبو أحمد العسكرى : « وقد وهم بعضهم فى صعصعة بن معاوية عم الأحنف بن قيس ، فقال : صعصعة عم الفرزدق وهو غلط » . والمعروف أن صعصعة بن ناجية هو جد الفرزدق وليس له عم يسمى صعصعة . راجع كتاب الإصابة وأسد الغابة فى ترجمة صعصعة .

(٢) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر، ولها طريقان ، فكل من سلك واحدا منهما أفضى به إلى موضع واحد . فى معجم البلدان لياقوت : خذا أنف هرشى ... وفى اللسان : خذا جنب هرشى ...

الفراء : الضَّبْحُ صَوْتُ أنفاس الخيل إذا عَدَوْن . ابن عباس : ليس شيء من الدواب يَضْبَح غيرَ الفرس والكلب والثعلب . وقيل : كانت تُكْعَم(١) لئلا تَصْهَل فيعلم العدوّ بهم ؛ فكانت تتنفّس في هذه الحال بقوّة . قال ابن العربي : أقسم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : « يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » ، وأقسم بحياته فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(٢) » ، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها وقَدْح حوافرها النار من الحجر فقال : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » الآيات الخمس . وقال أهل اللغة(٣) :

وطعنة ذات رشاش واهيه * طعنتها عند صدور العاديه

يعني الخيل . وقال آخر :

والعادياتُ أسابيُّ الدماءِ بها * كأنّ أعناقَها أنصابُ تَرْجيبِ(٤)

يعني الخيل . وقال عنترة :

والخيلُ تَعْلَمُ حين تَضْ * بَحُ في حياض الموت ضَبْحَا

وقال آخر :

لستُ بالتُّبّع اليمانيّ إن لم * تَضْبَحِ الخيل في سواد العراق

وقال أهل اللغة : وأصل الضَّبْح والضُّبَاح للثعالب ؛ فاستعير للخيل . وهو من قول العرب : ضبحته النار إذا غيّرت لَوْنَه ولم تبالغ فيه . وقال الشاعر :

فلما أن تَلَهْوَجْنا شِواءً * به اللَّهَبانُ مقهورا ضَبِيحا(٥)

وانضبح لونه إذا تغيّر إلى السواد قليلا . وقال :

* عُلِّقْتُها قبل انضباح لَوْنِي *

---

(١) الكعام : شيء يجعل على فم البعير . (٢) آية ٧٢ سورة الحجر .

(٣) قوله : « قال أهل اللغة ... » إلى آخر البيت . هكذا ورد في جميع نسخ الأصل ، وظاهر أن فيه سقطا ؛ يوضحه أبو حيان في البحر بقوله : « قال أهل اللغة : أصله للثعالب ، فاستعير للخيل ... » الخ . على أن المؤلف أورده فيما يأتي .

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والأسابي : الطرق من الدم . وأسابي الدماء : طرائقها . والترجيب : أن تدعم الشجرة إذا كثر حملها لئلا تتكسر أغصانها . قال ابن منظور : « فإنه شبه أعناق الخيل بالمرجب . وقيل : شبه أعناقها بالحجارة التي تذبح عليها النسائك » .

(٥) البيت لمضرس الأسدي . والملهوج من الشواء : الذي لم يتم نضجه . واللهبان : اتقاد النار واشتعالها .

وإنما تَضْبَح هذه الحيوانات إذا تغيّرت حالها من فَزَع أو تَعَب أو طمع . ونصب «ضَبْحًا» على المصدر ؛ أي والعاديات تَضْبَح ضَبْحًا . والضِّبْح[(1)] أيضا الرّماد . وقال البصريون : « ضَبْحًا » نصب على الحال . وقيل : مصدر في موضع الحال . قال أبو عبيدة : ضَبَحَت الخيلُ ضَبْحًا مثل ضَبَعت ؛ وهو السير . وقال أبو عبيدة : الضَّبْح والضَّبع بمعنى العَدْو والسير . وكذا قال المبرّد : الضَّبح مَدّ أضباعها في السير . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بَعَث سَرِيّة إلى أناس من بني كِنانة فأبطأ عليه خبرها ، وكان آستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري ، وكان أحدَ النقباء ؛ فقال المنافقون : إنهم قُتلوا ؛ فنزلت هذه السورة إخبارًا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بسلامتها ، وبشارةً له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم . وممن قال : إن المراد بالعاديات الخيلُ آبنُ عباس وأنس والحسن ومجاهد . والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون . وفي الخبر : "من لم يعرف حُرْمة فرس الغازي ففيه شُعْبة من النفاق" .
وقول ثانٍ : إنها الإبل؛ قال مسلم : نازعت فيها عكرمة فقال عكرمة : قال آبن عباس هي الخيل . وقلت : قال عليّ هي الإبل في الحج، ومولاي أعلم من مولاك . وقال الشَّعْبي : تمارى[(2)] عليّ وآبن عباس في « العاديات » ، فقال عليّ : هي الإبلُ تَعْدو في الحج . وقال آبن عباس : هي الخيل؛ ألا تراه يقول « فأثَرْنَ بِهِ نَقْعًا » فهل تثير إلا بحوافرها ! وهل تضبح الإبل ؟ ! فقال عليّ : ليس كما قلت، لقد رأيتُنا يوم بَدْر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد وفرس لمَرْثَد بن أبي مَرْثَد ؛ ثم قال له عليّ : أتُفْتِي الناسَ بما لا تعلم ! والله أن كانت لأوّلَ غَزْوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان : فرس للمقداد وفرس للزبير؛ فكيف تكون العاديات ضبحا ! إنما العاديات الإبل من عَرَفة إلى المُزْدَلِفة، ومن المُزْدلِفة إلى عَرَفة . قال ابن عباس : فرجعت إلى قول عليّ . وبه قال ابن مسعود وعُبَيد بن عُمَير ومحمد بن كعب والسدّي . ومنه قول صَفِية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جَمْعٍ * بأيديها إذا سَطَع الغبار

---

(1) في القاموس : « والضبح بالكسر الرماد » . (2) التماري والمماراة : المجادلة .

يعنى الإبل . وسُمِّيت العاديات لاشتقاقها من العَدْو، وهو تباعد الأرجل فى سرعة المشى.
وقال آخر :

رأى صاحبى فى العاديات نَجيبةً * وأمثالَها فى الواضعات القوامس (١)

ومن قال هى الإبل فقوله « ضَبْحًا » بمعنى ضَبْعا؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال : ضَبَعت الإبل وهو أن تمد أعناقها فى السير . وقال المبرّد : الضَّبْع مَدّ أضباعها فى السير. والضَّبْح أكثر ما يستعمل فى الخيل. والضبع فى الإبل. وقد تبدل الحاء من العين. أبو صالح: الضَّبْحُ من الخيل الحَمْحَمَة، ومن الإبل التنفّس. وقال عطاء: ليس شيء من الدواب يضبح إلا الفرسُ والثعلبُ والكلبُ؛ وروى عن ابن عباس . وقد تقدّم عن أهل اللغة أن العرب تقول : ضبح الثعلب؛ وضبح فى غير ذلك أيضا . قال تَوْبة :

ولو أنّ لَيْلَى الأخْيَلِيّةَ سلّمت * علىّ ودونى تُرْبَةٌ (٢) وصفائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البشاشة أو زَقَا (٣) * إليها صَدًى من جانب القبر ضابح

زَقَا الصدى يَزْقو زُقاءً (٤)؛ أى صاح . وكل زاقٍ صائح . والزَّقْيَةُ الصيحة . « فالمُورِيَاتِ قَدْحا » قال عكرمة وعطاء والضحاك : هى الخيل حين تورى النار بحوافرها ، وهى سنابكها ؛ وروى عن ابن عباس . وعنه أيضا : أَوْرَت بحوافرها غُبَارًا . وهذا يخالف سائر ما روى عنه فى قدح النار؛ وإنما هذا فى الإبل . وروى ابن أبى نَجيح عن مجاهد « والْعَادِياتِ ضَبْحًا . فالمُورِياتِ قَدْحًا » قال قال ابن عباس : هو فى القتال وهو فى الحج . ابن مسعود : هى الإبل تطأ الحصى فتخرج منها النار . وأصل القَدْح الاستخراج؛

(١) فى اللسان مادة (عدا) : «وحكى الأزهرى عن ابن السكيت . و إبل عادية ترعى الخلة ولا ترعى الحمض ... وقال : وكذلك العاديات» وساق البيت . وفى اللسان أيضا مادة (وضع) : « وناقة واضع وواضعة ونوق واضعات : ترعى الحمض حول الماء . وأنشد ابن برى قول الشاعر ... » الخ . ولفظ « القوامس » هكذا ورد فى اللسان وشرح القاموس . و بعض نسخ الأصل . وفى نسخة : «القرامس» بالراء . ولعل الصواب : «العرامس» جمع عرمس (بكسر العين) : وهى الناقة الصلبة الشديدة .

(٢) فى نسخة : « جندل » وهى رواية فى البيت .

(٣) فى رواية صائح . ولا شاهد فيه .

(٤) فى اللسان : « زقا يزقو و يزقى زَقْوًا وزُقاء وزُقُوًّا وزَقْيًا وزُقِيًّا وزِقِيًّا .

ومنه قَدَحْتُ العينَ إذا أخرجتَ منها الماءَ الفاسد . واقتدحْتُ بالزَّنْد . واقتدحت المرَق غرفته . ورَكِيٌّ قَدُوحٌ تُغْتَرَف باليد . والقَديح ما يبقى في أسفل القِدر فيغرف بجَهْد . والمِقْدَحةُ ما تُقدح به النار . والقَدَّاحة والقَدَّاح الحجرُ الذي يُورِي النار . يقال : وَرَى الزَّنْدُ (بالفتح) يَرِي وَرْيًا إذا خرجت ناره . وفيه لغة أخرى : وَرِيَ الزَّنْدُ (بالكسر) يرِي فيهما . وقد مضى هذا في سورة « الواقعة »(١) . و « قَدْحًا » انتصب بما انتصب به «ضَبْحًا» . وقيل : هذه الآيات في الخيل ؛ ولكن إيراءها أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوّهم . ومنه يقال للحرب إذا التحمت : حَمِيَ الوَطِيس . ومنه قوله تعالى : « كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ »(٢) . وروى معناه عن ابن عباس أيضا ؛ وقاله قتادة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد بالموريات قدحا مكر الرجال في الحرب ؛ وقاله مجاهد وزيد بن أسلم . والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه : واللهِ لأمكرنّ بك، ثم لأورِيَنّ لك . وعن ابن عباس أيضا : هم الذين يَغْزُون فيُورون نيرانهم بالليل لحاجتهم وطعامهم . وعنه أيضا : أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارُها إرهابًا . وكل مَن قَرُب من العدوّ يوقد نيرانا كثيرة ليظنّهم العدوّ كثيرًا . فهذا إقسام بذلك . قال محمد بن كعب : هي النار تجمع . وقيل : هي أفكار الرجال تُورِي نار المكر والخديعة . وقال عكرمة : هي ألسنة الرجال تُورِي النار من عظيم ما تتكلّم به ، ويظهر بها من إقامة الحجج وإقامة الدلائل وإيضاح الحق وإبطال الباطل . وروى ابن جُرَيج عن بعضهم قال : فالمنجحات أمرًا وعملا كنجاح الزَّنْد إذا أورى .

قلت : هذه الأقوال مجاز ؛ ومنه قولهم : فلان يُورِي زِناد الضلالة . والأول الحقيقة ، وأن الخيل من شِدّة عَدْوِها تَقْدَح النار بحوافرها . قال مُقاتل : العرب تسمّي تلك النارَ نارَ أبي حُبَاحِب ، وكان أبو حُبَاحِب شيخًا من مُضَر في الجاهلية من أبخل الناس ، وكان لا يوقد نارًا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون فيُوقِد نُوَيرَةً تَقِد مرّة وتَخْمُد أخرى ؛ فإن استيقظ لها أحد

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٢١ . (٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

أطفأها كراهية أن ينتفع بها أحد . فشبّهت العربُ هذه النارَ بناره ؛ لأنه لا يُنتفع بها .
وكذلك إذا وقع السيف على البَيْضة فاقتدحت نارًا فكذلك يُسَمُّونها . قال النابغة :

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنّ سُيُوفَهم * بهن فُلول من قِراع الكتائب
تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المضاعَفَ نَسْجُه * وتُوقِد بالصُّفّاح نارَ الحُباحِبِ (١)

قوله تعالى : فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾

الخيل تُغير على العدوّ عند الصبح ؛ عن ابن عباس وأكثر المفسرين . وكانوا إذا أرادوا الغارة سَرَوْا ليلًا و يأتون العدوّ صُبْحًا ؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس . ومنه قوله تعالى : « فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » (٢) . وقيل : لعزّهم أغاروا نهارًا ؛ و « صُبْحًا » على هذا ، أى علانيةً تشبيهًا بظهور الصبح . وقال ابن مسعود وعليّ رضى الله عنهما : هى الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من مِنًى إلى جَمْع . والسُّنّة ألا تدفع حتى تُصبح ؛ وقاله القُرَظِيّ . والإغارة سرعة السير ؛ ومنه قولهم : أشرِق ثَبِير (٣) كيما نُغير .

قوله تعالى : فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾

أى غبارا ؛ يعنى الخيل تُثير الغبار بشدّة العَدْو فى المكان الذى أغارت به . قال عبد الله ابن رَوَاحة :

عَدِمْتُ بُنَيّتى إن لم تَرَوْها * تُثير النَّقْعَ من كَنَفَىْ كَداءِ (٤)

والكناية فى « به » ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذى تقع فيه الإغارة . و إذا علم المعنى جاز أن يُكَنّى عما لم يجرِ له ذكر بالتصريح ؛ كما قال « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » (٥) . وقيل : « فَأَثَرْنَ بِهِ »

---

(١) السلوقى : الدرع المنسوبة إلى سلوق ، قرية باليمن . والصُّفّاح : جمع صفاحة ، وهى الحجر العريض .
(٢) آية ١٧٧ سورة الصافات .
(٣) ثبير : جبل بقرب مكة ، وهو على يمين الذاهب إلى عرفة . أى ادخل فى الشروق ، وهو ضوء الشمس .
(٤) كداء (بفتح الكاف ومدّ الدال) : جبل بمكة .
(٥) آية ٣٢ سورة ص .

أى بالعَدْو «نقعا» . وقد تقدّم ذكر العَدْو . وقيل : النَّقْع ما بين مُزْدَلِفة إلى مِنًى ؛ قاله محمد ابن كعب القُرَظِىّ . وقيل : إنه طريق الوادى ؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع . وفى الصّحاح : النقع الغبار ، والجمع نِقاع . والنَّقْع مَحْبِس الماء . وكذلك ما آجتمع فى البئر منه . وفى الحديث : أنه نَهى أن يُمنع نقع البئر . والنقع الأرض الحُرّة الطّين يَسْتَنْقِع فيها الماء ؛ والجمع نِقاع وأنقع ؛ مثل بَحْر وبِحار وأبحر .

قلت : وقد يكون النقع رفع الصوت ؛ ومنه حديث عمر حين قيل له : إن النساء قد اجتمعن يَبكين على خالد بن الوليد ؛ فقال : وما على نساء بنى المُغيرة أن يَسْفِكْنَ من دموعهنّ وهنّ جلوس على أبى سليمان ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقة . قال أبو عبيد : يعنى بالنقع رفع الصوت ؛ على هذا رأيت قول الأكثرين من أهل العلم ؛ ومنه قول لَبِيد :

فمَتَى يَنْقَعْ صُراخٌ صادقٌ * يُحْلِبوها ذاتَ جَرْسٍ وزَجَلْ

ويروى «يَحْلِبوها» أيضا . يقول : متى سمعوا صراخا أحلبوا الحرب ، أى جمعوا لها . وقوله «ينقع صراخ» يعنى رفع الصوت . وقال الكسائى : قوله «نَقْعٌ ولا لَقْلَقة» النّقع صنعة الطعام ؛ يعنى فى المأتم . يقال منه : نقعت أنقع نقعا . قال أبو عبيد : ذهب بالنقع إلى النقيعة ؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء صنعة الطعام عند القدوم من سفر لا فى المآتم . وقال بعضهم : يريد عُمَر بالنَّقْع وضع التراب على الرأس ؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار . ولا أحسب عُمَرَ ذهب إلى هذا ، ولا خافه منهنّ ، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهنّ القيام . فقال : يسفكن من دموعهن وهنّ جلوس . قال بعضهم : النقع شق الجيوب ؛ وهو الذى لا أدرى ما هو من الحديث ولا أعرفه ، وليس النقع عندى فى هذا الحديث إلا الصوت الشديد ، وأمّا اللَّقْلَقة فشِدّة الصوت ، ولم أسمع فيه اختلافا . وقرأ أبو حَيْوَة «فأثّرن» بالتشديد ؛ أى أَرَت آثار ذلك . ومن خفّف فهو من أثار إذا حرّك ؛ ومنه «وأثَارُوا الأَرْضَ»[1] .

---

(١) آية ٩ سورة الروم .

قوله تعالى : ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

«جمعا» مفعول بـ«وسطن» ؛ أى فوسطن بركبانهن العدوّ ؛ أى الجمع الذى أغاروا عليهم. وقال ابن مسعود : «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا» يعنى مُزْدَلِفة ؛ وسُمّيت جَمْعًا لاجتماع الناس بها . ويقال : وَسَطْتُ القومَ أَسِطُهم وَسْطًا وسِطَة ؛ أى صِرت وسطهم . وقرأ علىّ رضى الله عنه « فوسّطْن » بالتشديد ، وهى قراءة قتادة وابن مسعود وأبى رجاء ؛ لغتان بمعنًى ، يقال : وسطت القوم (بالتشديد والتخفيف) وتوسطتهم بمعنًى واحد . وقيل : معنى التشديد جَعْلُها الجمع قسمين . والتخفيف صِرن فى وسط الجمع ؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾

هذا جواب القسم ؛ أى طُبع الإنسان على كُفران النعمة . قال ابن عباس : «لَكَنُودٌ» لَكَفُور جحودٌ لنعم الله . وكذلك قال الحسن . وقال : يَذكر المصائبَ ويَنْسى النِّعم . أخذه الشاعر فنظمه :

يأيها الظالم فى فعله * والظلم مردود على مَن ظَلَمْ
إلى مَتَى أنت وحتّى مَتَى * تشكو المصيباتِ وتنْسَى النِّعَمْ

وروى أبو أُمَامة الباهِلىّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : "الكَنُودُ هو الذى يأكل وحده ويمنع رِفْده (١) ويضرب عبده" . وروى ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا أنبئكم بشراركم" ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : "من نزل وحده ومَنع رِفْده وجَلَد عبده" . خرجهما الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد رُوى عن ابن عباس أيضا أنه قال : الكنود بلسان كِندة وحَضرموت : العاصى ، وبلسان ربيعة ومُضر : الكفور . وبلسان كِنانة : البخيل السّيئ المَلَكَة ؛ وقاله مقاتل . وقال الشاعر :

كَنُودٌ لِنَعْماء الرجال ومَن يكن * كنودًا لنعماء الرجال يُبعَّدِ

(١) الرفد (بكسر الراء) : العطاء والصلة .

أى كفور . ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير ولا يشكر الكثير . وقيل : الجاحد للحق . وقيل : إنما سُمِّيت كِنْدة كِنْدة لأنها جحدت أباها . وقال إبراهيم بن هَرْمة الشاعر :

دَعِ البُخَلاءَ إن شَمَخُوا وصَدُّوا * وذِكْرَى بُخْلِ غانيةٍ كَنُودِ

وقيل : الكَنُود من كَنَد إذا قطع؛ كأنه يقطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر . ويقال : كَنَد الحبل إذا قطعه . قال الأعشى :

أَمِيطِى تُمِيطِى بصُلْب الفؤادْ (١) * وَصُولِ حِبالٍ وكَنَّادِها

فهذا يدلّ على القطع . ويقال : كَنَد يَكْنُد كنودًا؛ أى كفر النّعمة وجَحَدها، فهو كَنُود . وآمرأة كَنُود — أيضا — وكُنُد مثله . قال الأعشى :

أَحْدِثْ لها تُحْدِث لوصلك إنها * كُنُدٌ لوَصْلِ الزائر المُعْتادِ (٢)

أى كفور للواصلة . وقال ابن عباس : الإنسان هنا الكافر؛ يقول إنه لكفور؛ ومنه الأرض الكَنُود التى لا تُنبت شيئا . وقال الضحاك : نزلتْ فى الوليد بن المغيرة . قال المبرد : الكَنُود المانعُ لما عليه . وأنشد لكُثَيِّر (٣) :

أَحْدِث لها تُحْدِث لوصلك إنها * كُنُدٌ لوصل الزائر المعتاد

وقال أبو بكر الواسطى : الكَنُود الذى يُنفق نِعمَ الله فى معاصى الله . وقال أبو بكر الوراق : الكَنُود الذى يَرَى النعمة من نفسه وأعوانه . وقال الترمذى : الذى يرى النّعمة ولا يرى المُنْعِم . وقال ذو النُّون المصرى : الهَلُوع والكَنُود هو الذى إذا مسّه الشرُّ جَزُوع ، وإذا مسّه الخير منوع . وقيل : هو الحقود الحسود . وقيل : هو الجَهُول لقَدْره . وفى الحكمة : مَن جَهِل قَدْره هَتَك سِتْرَه .

---

(١) ماط الأذى ميطا وأماطه : نحاه ودفعه . يقول : إن تحيت عنى فإنى صاحب الفؤاد ، وصول لمن وصل ، كفور لمن كفر . (٢) المعتاد : الذى يعود مرة بعد أخرى .

(٣) تقدّم أن هذا البيت للأعشى ، ولم نجده فى ديوان كثير الذى بين أيدينا .

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود . وقد فسّر النبيّ صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾

أي و إن الله عزّ وجلّ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد . كذا روى منصور عن مجاهد ؛ وهو قول أكثر المفسرين، وهو قول ابن عباس . وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب : « وإنه » أي وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع ؛ وروى عن مجاهد أيضا .

قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي الإنسان من غير خلاف . ﴿ لِحُبِّ الخَيْرِ ﴾ أي المال ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَرَكَ خَيْراً »(١) . وقال عَدِيّ :

ماذا تُرَجى النفوسُ من طَلَبِ الـ * ـخَيرِ وحُبُّ الحياةِ كارِبُها(٢)

﴿ لَشَدِيد ﴾ أي لقَوِيّ في حبه للمال . وقيل : « لشَدِيد » لبخيل . و يقال للبخيل : شديد ومتشدّد . قال طَرَفة :

أرى المَوْتَ يَعْتامُ الكِرامَ و يَصْطَفِي * عَقِيلةَ مالِ الفاحش المُتَشَدِّدِ

يقال : اعتامه واعتماه؛ أي اختاره . والفاحش : البخيل أيضا ؛ ومنه قوله تعالى : « وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ »(٣) أي البُخْل . قال ابن زيد : سمّى الله المال خيرا؛ وعسى أن يكون شرا وحراما(٤) ؛ ولكنّ الناس يعدّونه خيرا فسماه الله خيرا لذلك . وسمّى الجهاد سوءا فقال : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوء »(٥) على ما يسميه الناس . قال الفرّاء : نَظْمُ الآية أن يقال وإنه لشديد الحب للخير؛ فلما تقدّم الحبّ قال شديد وحذف من آخره ذكر

(١) آية ١٨٠ سورة البقرة . (٢) كاربها : غامها ؛ من كربه الأمر : اشتدّ عليه .
(٣) آية ٢٦٨ سورة البقرة . (٤) في بعض نسخ الأصل : « شرا وخيرا » .
(٥) آية ١٧٤ سورة آل عمران .

الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، ولرءوس الآى؛ كقوله تعالى: «فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ»(١) والعُصُوف للريح لا الأيام، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طرح من آخره ذكر الريح؛ كأنه قال: فى يوم عاصف الريح .

قوله تعالى : أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ أى ابن آدم ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ أى أثير وقُلِب وبُحِث فأخرج ما فيها . قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه . وعن محمد بن كعب قال : ذلك حين يبعثون . الفرّاء : سمعت بعض أعرابِ بنى أسد يقرأ «بُحْثِر» بالحاء مكان العين؛ وحكاها الماوردىّ عن ابن مسعود، وهما بمعنًى . ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أى مُيِّز ما فيها من خير وشر؛ كذا قال المفسرون . وقال ابن عباس : أُبْرِزَ . وقرأ عُبيد بن عُمَير وسعيد بن جُبير ويحيى بن يعْمُر ونصر بن عاصم «وحَصَل» بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها؛ أى ظهر . ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أى عالم لا يخفى عليه منهم خافية . وهو عالم بهم فى ذلك اليوم وفى غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم فى ذلك اليوم . وقوله : «إِذَا بُعْثِرَ» العامل فى «إذا» : «بُعْثِر» ولا يعمل فيه «يعلم»؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت، إنما يراد فى الدنيا . ولا يعمل فيه «خَبِيرٌ»؛ لأن ما بعد «إنّ» لا يعمل فيما قبلها . والعامل فى «يومئذ» : «خَبِيرٌ» وإن فصلت اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء، وإنما دخلت فى الخبر لدخول «إنّ» على المبتدأ . ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضّهم على الغَزْو، فجرى على لسانه «أنّ رَبَّهم» بفتح الألف، ثم استدركها فقال : «خَبِيرٌ» بغير لام . ولولا اللام لكانت مفتوحة لوقوع العلم عليها . وقرأ أبو السَّمَّال «أنّ رَبَّهم بِهِم يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ» . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) آية ١٨ سورة إبراهيم .

تفسير سورة « القارعة »

وهى مكية بإجماع . وهى عشر آيات(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ ﴾ أى القيامة والساعة ؛ كذا قال عامة المفسرين . وذلك أنها تَقْرَع الخلائق بأهوالها وأفزاعها . وأهل اللغة يقولون : تقول العرب قرعتهم القارعة، وفَقَرتهم الفاقرة؛ إذا وقع بهم أمرٌ فظيع . قال آبن أحمر :

وقارعة من الأيام لولا * سبيلهمُ لزاحت(٢) عنك حينا

وقال آخر :

متى نَقْرع بمروتكم(٣) نَسُؤْكم * ولم توقد لنا فى القدر نار

وقال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ(٤) » وهى الشديدة من شدائد الدهر .

قوله تعالى : ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ استفهام؛ أى أىّ شىء هى القارعة ؟ وكذا ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ كلمة آستفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها؛ كما قال: « الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ(٥) » على ما تقدم .

---

(١) فى كتاب روح المعانى : وآيها إحدى عشرة آية فى الكوفى، وعشر فى الحجازى، وثمان فى البصرى والشامى .

(٢) فى بعض النسخ : « لراحت » بالراء . (٣) المروة : حجر يقدح منه النار .

(٤) آية ٣١ سورة الرعد . (٥) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٧

قوله تعالى : يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

« يوم » منصوب على الظرف ، تقديره : تكون القارعة يومَ يكون الناسُ كالفَراش المبثوث . قال قتادة : الفراش الطيرُ الذى يتساقط فى النار والسِّراج . الواحدة فَراشة ؛ وقاله أبو عبيدة . وقال الفراء : إنه الهَمَج الطائر من بَعُوض وغيره ؛ ومنه الجراد . و يقال : هو أَطْيَش من فراشة . وقال :

طُوَيِّشٌ من نَفَرٍ أطياشِ * أَطْيَش من طائرة الفَراش

وقال آخر :

وقد كان أقوام رددت قلوبهم * إليهم[1] وكانوا كالفراش من الجهل

وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَثَلِى ومَثَلُكم كَمَثَل رجل أَوْقَدَ نارا فجعل الجَنَادِبُ والفَراش يَقَعْن فيها وهو يَذُبُّهُنّ عنها وأنا آخِذ بِحُجَزِكم عن النار وأنتم تَفَلَّتون من يدى" . وفى الباب عن أبى هريرة . والمَبْثُوث المُتَفَرِّق . وقال فى موضع آخر : « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ[2] » . فأوّل حالهم كالفراش لا وجه له يتحيّر فى كل وجه ثم يكونون كالجراد؛ لأن لها وَجْهًا تَقْصِده . والمبثوث : المتفرّق المنتشر . و إنما ذُكّر على اللفظ؛ كقوله تعالى : « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ[3] » ولو قال المبثوثة [فهو[4]] كقوله تعالى : « أَعْجَازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ[5] » . وقال ابن عباس والفراء : « كالفَراش المبثوث » كغَوْغاء الجراد يركب بعضها بعضا . كذلك الناس يجول بعضهم فى بعض إذا بُعثوا .

قوله تعالى : وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾

أى الصوف الذى يُنفش باليد؛ أى تصير هَباء وتزول؛ كما قال جل ثناؤه فى موضع آخر : « هَبَاءً مُنْبَثًّا[6] » . وأهل اللغة يقولون : العِهْن الصُّوفُ المصبوغ . وقد مضى فى سورة « سأل سائل[7] » .

(١) فى بعض النسخ : « عليهم » . (٢) آية ٧ سورة القمر . (٣) آية ٢٠ سورة القمر .
(٤) الزيادة من تفسير ابن عادل يقتضيها السياق . (٥) آية ٧ سورة الحاقة .
(٦) آية ٦ سورة الواقعة . (٧) راجع جـ ١٨ ص ٢٨٤ .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾

قد تقدم القول فى الميزان فى «الأعراف والكهف والأنبياء»(١) . وأن له كِفّة ولسانا تُوزن فيـه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات . ثم قيـل : إنه ميزان واحد بيد جبريل يَزِن أعمال بنى آدم، فعُبِّر عنه بلفظ الجمع . وقيل : موازين ؛ كما قال :

* فلِكُلّ حادثةٍ لها ميزان(٢) *

وقـد ذكرناه فيما تقـدم(٣) . وذكرناه أيضا فى كتاب «التذكرة» . وقيل : إن الموازين الحجج والدلائل ؛ قاله عبد العزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر :

قـد كنتُ قبل لقائكم ذا مِرّةٍ * عِنْـدِى لكلّ مُخاصِم مِـيزانُه

ومعنى « عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » أى عيش مرضىّ يرضاه صاحبه . وقيل : « عِيشةٍ راضِـيةٍ » أى فاعلة للرضا، وهو اللين والآنقياد لأهلها . فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد . فالعيشة كلمةٌ تجمع النِّعَم التى فى الجنة، فهى فاعلة للرضا، كالفرش المرفوعة، وآرتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها وَلِىّ الله آتّضَعَتْ حتى يستوى عليها ثم ترتفع كهيئتها، ومثْـل الشجرة فروعها، كذلك أيضا من الارتفاع ، فإذا آشتهى وَلِىُّ الله ثمرتها تدلّت إليـه حتى يتناولها وَلِىُّ الله قاعدًا وقائمًا، وذلك قوله تعالى : « قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ »(٤) . وحيث ما مشى أو ينتقلُ من مكان إلى مكان ، جرى معه نهر حيث شاء عُلْوًا وسُفْلًا ؛ وذلك قوله تعالى : « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا »(٥) . فيروى فى الخبر " إنه يشـير بقضيبه فيجرى من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفى مجالسه " . فهذه الأشياء كلها عيشةٌ قد أعطت الرضا من نفسها، فهى

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها . وجـ ١١ ص ٦٦ و ص ٢٩٣

(٢) صدر البيت : * ملك تقوم الحادثات لعدله *

(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٣ (٤) آية ٢٣ سورة الحاقة . (٥) آية ٦ سورة الإنسان .

فاعلة للرضا، وهى ٱنذلّت وٱنقادت بَذْلًا وسماحة . ومعنى ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ يعنى جهنم . وسمّاها أُمًّا لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه؛ قاله ٱبن زيد . ومنه قول أميّة بن أبى الصّلْت :

فالأرض مَعْقِلُنا وكانت أُمَّنَا * فيها مقابرنا وفيها نُولَدُ

وسُمِّيت النارُ هاويةً لأنه يَهْوِى فيها مع بُعْد قَعْرِها . ويروى أن الهاوية ٱسم الباب الأسفل من النار . وقال قتادة : معنى « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ » فمصيره إلى النار . عكرمة : لأنه يَهْوِى فيها على أُمّ رأسه . الأخفش : « أمّه » مستقَرّه . والمعنى متقارب . وقال الشاعر :

يا عمرو لو نالتك أرماحنا * كنتَ كمن تَهْوِى به الهاويه

والهاوية : المَهْواة . وتقول : هوت أمّه فهى هاوية أى ثاكلة؛ قال كعب بن سعد الغَنَوِىّ :

هَوَتْ أُمُّه ما يَبعث الصبحُ غادياً * وماذا يُؤدِّى الليلُ حين يؤوب

والمَهْوَى والمَهْواةُ ما بين الجبلين، ونحو ذلك . وتهاوَى القومُ فى المَهواة إذا سقط بعضهم فى إثْر بعض . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴾ الأصل « ما هى » فدخلت الهاء للسَّكْت . وقرأ حمزة والكسائىّ ويعقوب وٱبن مُحَيْصِن « ما هى . نارٌ » بغير هاء فى الوصل؛ ووقفوا بها . وقد مضى فى سورة « الحاقة » بيانه (1) . ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أى شديدة الحرارة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ناركم هذه التى يُوقِد ٱبنُ آدمَ جزءٌ من سبعين جزءا من حَرّ جهنم " قالوا : والله إن كانت لكافيةً يا رسول الله . قال : " فإنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلُّها مثلُ حرّها " . وروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : إنما ثَقُل ميزانُ من ثَقُل ميزانه لأنه وُضع فيه الحق، وحُقّ لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلا . وإنما خَفّ ميزانُ من خَفّ ميزانُه لأنه وُضع فيه الباطل، وحُقّ لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفًا . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أن الموتى يَسألون الرجلَ يأتيهم عن رجل مات قبله فيقول ذلك مات قبلى أما مَرّ بكم فيقولون لا والله فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون ذُهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأمّ وبئست المُرَبِّية " . وقد ذكرناه بكماله فى كتاب « التذكرة » والحمد لله .

(1) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٩

تفسير سورة « التكاثر »

وهى مكّية، فى قول جميع المفسرين . وروى البخارى أنها مدنية . وهى ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ « ألهاكم » شغلكم . قال :

* فألْهَيْتُها عن ذى تمائمَ مُغْيَلِ * (١)

أى شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله حتى مُتّم ودُفنتم فى المقابر . وقيل : « ألهاكم » أنساكم . « التكاثر » أى من الأموال والأولاد ؛ قاله ابن عباس والحسن . وقال قتادة : أى التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : أى ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة . يقال : لَهِيتُ عن كذا (بالكسر) ألْهَى لُهِيًّا ولِهْيانًا إذا سَلَوْتَ عنه وتركتَ ذكره وأضربتَ عنه . وألهاه أى شغله . ولَهَّاه به تلهيةً أى علّله . والتكاثر : المكاثرة . قال مقاتل وقتادة وغيرهما : نزلت فى اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بنى فلان ، وبنو فلان أكثر من بنى فلان ؛ ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلّالا . وقال ابن زيد : نزلت فى فَخِذ من الأنصار . وقال ابن عباس ومقاتل والكلبيّ : نزلت فى حَيّين من قريش : بنى عبد مناف ، وبنى سَهْم ؛ تعادُّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف فى الإسلام ؛ فقال كل حىّ منهم : نحن أكثر سيدا ، وأعز عزيزا ، وأعظم نَفَرًا ، وأكثر عائذا ؛ فكَثَر بنو عبد مناف سَهْمًا . ثم تكاثروا بالأموات فكثَرتهم سَهْمُ ؛ فنزلت

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس ؛ وصدره :

* فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع *

ويروى : « تمائم مُحْوِل » ؛ أى قد أتى عليه الحول . و « المغيل » : الذى تؤتى أمه وهى ترضعه .

«ألهاكم التكاثر» بأحيائكم فلم ترضوا ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ مفتخرين بالأموات . وروى سعيد عن قتادة قال : كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدّ من بني فلان ؛ وهم كلّ يوم يتساقطون إلى آخرهم ؛ والله مازالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلّهم . وعن عمرو بن دِينار : حلف أن هذه السورة نزلت في التجار . وعن شَيْبان عن قتادة قال : نزلت في أهل الكتاب .

قلت : الآية تعمّ جميع ماذُكر وغيره . وفي صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ « ألهاكم التكاثر » قال : "يقول ٱبنُ آدم مَالي مَالي وهل لك يا بن آدمَ من مالك إلّاما أكلتَ فأفنيتَ أو لَبِستَ فأبْلَيْت أو تصدّقت فأمضيتَ [وما سِوى ذلك فذاهب وتاركه للناس(١)] . وروى البخاريّ عن ٱبن شهاب أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن لٱبن آدم واديًا من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب" . قال ثابت عن أنس عن أُبَيّ : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » . قال ٱبن العربيّ : وهذا نص صحيح مليح غاب عن أهل التفسير فجهلوا وجهّلوا ، والحمد لله على المعرفة . وقال ٱبن عباس : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » قال : " تكاثر الأموال جَمْعُها من غير حَقّها ومَنْعُها من حَقّها وشَدُّها في الأوعية " .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أتاكم الموت فصرتم في المقابر زُوّارا ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار . يقال لمن مات : قد زار قبره . وقيل : أي ألهاكم التكاثر حتى عَدَدْتم الأموات ؛ على ما تقدّم . وقيل : هذا وعيد . أي اشتغلتم بمفاخرة الدنيا حتى تزوروا القبور فترَوْا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ الْمَقَابِرَ ﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة (بفتح الباء وضمها) . والقبور جمع القبر ؛ قال :

(١) ما بين المربعين من رواية أبي هريرة في سند آخر لا من رواية مطرف (راجع صحيح مسلم) .

أرى أهـل القصور إذا أميتوا * بَنَوْا فوق المقـابر بالصـخور
أَبَـوْا إلا مباهـاة وفخـرا * على الفقـراء حتى فى القبـور

وقد جاء فى الشعر المَقْبَرُ ؛ قال :

لكل أناس مَقْـبَرٌ بفِنائهـم * فهم ينقصون والقبـور تزيد

وهو المَقْبَرِىّ والمَقْبُرِىّ لسعيد المقبرى ؛ وكان يسكن المقـابر . وقَبَرْتُ الميت أقْبِرُه وأقْبُرُه قَبْرًا أى دفنته . وأقبرته أى أمرْتُ بأن يُقبر . وقد مضى فى سورة « عبس » القول فيـه (١) . والحمد لله .

الرابعـة — لم يأت فى التنزيل ذِكْرُ المقابر إلا فى هـذه السورة . وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسى ؛ لأنها تذكِّر الموتَ والآخرة . وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد فى الدنيا وترك الرغبة فيها . قال النبىّ صلّى الله عليـه وسلّم : "كنتُ نهيتكم عن زيارة القبـور فزوروا القبور فإنها تزهّد فى الدنيا وتذكّر الآخرة" رواه ابن مسعود ؛ أخرجه ابن ماجه . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة : "فإنها تذكّر الموت" . وفى الترمذىّ عن بُرَيدة : "فإنها تذكر الآخرة" . قال هذا حديث حسن صحيح . وفيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوّارات القبور . قال : وفى الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت . قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن صحيح . وقد رأى بعض أهل العلم أن هـذا كان قبل أن يرخِّص النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى زيارة القبور ؛ فلمـا رخّص دخل فى رخصته الرجالُ والنساء . وقال بعضهم : إنما كره زيارة القبور للنساء لقلّة صبرهن وكثرة جَزَعهن .

قلت : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، مختلف فيـه للنساء . أما الشوابّ فحرام عليهنّ الخروج ، وأما القواعد فمباح لهنّ ذلك . وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال ؛ ولا يختلف فى هذا إن شاء الله . وعلى هذا المعنى يكون قوله : "زوروا القبور" عامّ . وأما موضعٌ أو وقتٌ يُخشى فيـه الفتنةُ من اجتماع الرجال والنساء فلا يحلّ ولا يجوز .

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢١٧

فبينا الرجلُ يخرج ليعتبِر فيقع بصره على آمرأة فيفتتن وبالعكس؛ فيرجع كلّ واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور. والله أعلم.

الخامســة — قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القَهْر إلى طاعة ربّه، أن يُكثر من ذكر هاذم(١) اللّذات، ومُفَرِّق الجماعات، ومُوتِم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتَضَرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه ولزمه ذنبه أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرِخَ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن آنتفع بالإكثار من ذكر الموت، وآنجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عَظُم عليه ران قلبه واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضَرين وزيارةَ قبورِ أموات المسلمين تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة مَن آحْتُضِر وزيارةِ قبرِ من مات من المسلمين معاينةٌ ومشاهدةٌ؛ فلذلك كان أبلغَ من الأوّل؛ قال صلى الله عليه وسلم: "ليس الخبر كالمعاينة". رواه آبن عباس. فأما الآعتبار بحال المحتَضَرين فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والآنتفاع بها ألْيَق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدّب بآدابها، ويُحضر قلبَه في إتيانها، ولا يكون حظّه منها التَّطْواف على الأجداث فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصِد بزيارته وجهَ الله تعالى وإصلاحَ فسادِ قلبه، أو نفعَ الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنّب المشيَ على المقابر والجلوس عليها، ويسلّم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر مَيِّته الذي يعرفه سلّم عليه أيضا، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حَيًّا، ولو خاطبه حيًّا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك ها هنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وآنقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهَوْل لم يرتقبه. فليتأمّل الزائر حال

(١) هاذم (بالذال المعجمة) بمعنى قاطع؛ والمراد الموت؛ إما لأن ذكره يزهد فيها، وإما لأنه إذا جاء لا يبقي من لذائذ الدنيا شيئا.

من مضى من إخوانه، ودَرَج من أقرانه الذين بلغوا الآمال وجمعوا الأموال، كيف ٱنقطعت آمالهم، ولم تُغنِ عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسنَ وجوهِهم، وٱفترقت فى القبور أجزاؤهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذُلّ اليُتْم أولادَهم، وٱقتسم غيرُهم طريفهم وتلادهم. وليتذكر تردّدَهم (١) فى المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وٱنخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب. وليعلم أن مَيْله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم، وأنه لا بدّ صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذِكر مَن كان متردّدا فى أغراضه، وكيف تهدّمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ماخُوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله. وعند هذا التذكير والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويُقبل على الأعمال الأخروية، فيَزْهد فى دنياه، ويُقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبُه وتخشع جوارحه.

قوله تعالى: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفرّاء: أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر. والتمام على هذا ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى سوف تعلمون عاقبة هذا. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعِيد بعد وعيد؛ قاله مجاهد. ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قول الفرّاء. وقال ٱبن عباس: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» ما ينزل بكم من العذاب فى القبر. «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» فى الآخرة إذا حلّ بكم العذاب. فالأوّل فى القبر والثانى فى الآخرة؛ فالتكرار للحالتين. وقيل: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» عند المعاينة أن ما دعوتكم إليه حق. «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» عند البعث أن ما وَعدتكم به صدق. وروى زِرّ بن حُبَيْش عن علىّ رضى الله عنه قال: كنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة، فأشار إلى أن قوله: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يعنى فى القبور. وقيل: «كَلَّا سَوْفَ

(١) فى نسخة: «تزوّدهم المآب».

«تَعْلَمُونَ» إذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسلي لتنزع أرواحكم . ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ إذا دخلتم قبوركم وجاءكم منكر ونكير، وحاط بكم هَوْلُ السؤال، وانقطع منكم الجواب .

قلت : فتضمّنت السورة القولَ في عذاب القبر . وقد ذكرنا في كتاب « التذكرة » أن الإيمان به واجب والتصديق به لازم؛ حسب ما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره بردّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذى عاش عليه؛ ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربّه، وما أعدّ له في قبره من كرامة وهوانٍ . وهذا هو مذهب أهل السنة، والذى عليه الجماعة من أهل الملة . وقد ذكرناه هنالك مستوفًى والحمد لله . وقيل : «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» عند النشور أنكم مبعوثون «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» في القيامة أنكم معذبون . وعلى هذا تضمّنت أحوال القيامة من بعث وحشر، وسؤال وعرض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها؛ حسب ما ذكرناه في كتاب « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . وقال الضحاك : «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يعنى الكفار « ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ يَعْلَمُونَ » : قال المؤمنون . وكذلك كان يقرؤها ، الأولى بالتاء والثانية بالياء .

قوله تعالى : كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أعاد « كلا » وهو زَجْرٌ وتنبيه ، لأنه عقّب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال : لا تفعلوا فإنكم تندمون، لا تفعلوا فإنكم تستوجبون العقاب . وإضافة العلم إلى اليقين كقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ »(١) . وقيل : اليقين ها هنا الموت؛ قاله قتادة . وعنه أيضا البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك . أى لو تعلمون علم البعث . وجواب « لو » محذوف؛ أى لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللُّحُود عن جُثثكم كيف يكون حشركم ؛ لشغلكم ذلك عن التكاثر بالدنيا . وقيل : «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ»(٢) أى لو قد تطايرت الصحف فشَقِيٌّ وسعيدٌ .

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) كذا في نسخ الأصل .

وقيل : إن « كلا » فى هذه المواضع الثلاثة بمعنى « ألا » قاله ابن أبى حاتم ، وقال الفراء : هى بمعنى « حقًّا » وقد تقدّم الكلام فيها مستوفى(١) .

قوله تعالى : لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ هذا وعيد آخر . وهو على إضمار القَسَم ؛ أى لترونّ الجحيم فى الآخرة . والخطاب للكفار الذين وَجبت لهم النار . وقيل : هو عام ؛ كما قال : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا(٢) » فهى للكفار دارٌ وللؤمنين ممَرٌّ . وفى الصحيح : " فيمرّ أوّلهم كالبَرْق ثم كالريح ثم كالطير ... " الحديث . وقد مضى فى سورة « مريم(٣) » . وقرأ الكسائىّ وابن عامر « لَتُرَوُنَّ » بضم التاء من أريته الشىء ؛ أى تحشرون إليها فترونها . وعلى فتح التاء هى قراءة الجماعة ؛ أى لترونّ الجحيم بأبصاركم على البعد . ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أى مشاهدة . وقيل : هو إخبار عن دوام مقامهم فى النار ؛ أى هى رؤية دائمة متصلة . والخطاب على هذا للكفار . وقيل: معنى « لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » أى لو تعلمون اليوم فى الدنيا علم اليقين فيما أمامكم مما وصفت « لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ » بعيون قلوبكم ؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك ؛ وهو أن تتصوّر لك تارات القيامة وقطع مسافاتها . « ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ » أى عند المعاينة بعين الرأس فتراها يقيناً لا تغيب عن عينك « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » فى موقف السؤال والعَرْض .

قوله تعالى : ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعُمَر ؛ فقال : " ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة " ؟ قالا : الجوع يا رسول الله . قال : " وأنا

(١) راجع جـ ١١ ص ١٤٧ فما بعدها . (٢) آية ٧١ سورة مريم .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٣٧

والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما قوما " فقاما معه ؛ فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحبا وأهلا . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أين فلان " ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء ؛ إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ! ما أحدٌ اليومَ أكرمُ أضيافًا منّى . قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسْر وتمر ورُطَب فقال : كُلُوا من هذه . وأخذ المُدْيَة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إيّاك والحَلُوب " فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذْق ، وشربوا ؛ فلما أن شبعوا ورَوُوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : " والذى نفسى بيده لتسألنّ عن نعيم هذا اليوم يومَ القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوعُ ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النّعيم " أخرجه الترمذى ، وقال [فيه] : " هذا والذى نفسى بيده من النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة ، ظِلٌّ بارد ، ورُطَبٌ طَيّب ، وماء بارد " وكنّى الرجلَ الذى من الأنصار فقال : أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهان . وذكر قصته .

قلت : اسم هذا الرجل الأنصارى مالكُ بن التَّيِّهان ، ويُكْنَى أبا الهَيْثَم . وفى هذه القصة يقول عبد الله بن رَوَاحة ، يمدح بها أبا الهيثم بن التَّيِّهان :

فلمْ أرَ كالإسلامِ عِزًّا لِأُمّة * ولا مِثْلَ أضيافِ الأراشِ (١) مَعْشَرا
نبيٌّ وصِدِّيقٌ وفاروقُ أُمّةٍ * وخيرُ بنى حوّاء (٢) فَرْعًا وعُنْصُرا
فوافَوْا لِمِيقاتٍ وقَدْرِ قَضِيّةٍ * وكان قضاءُ الله قَدْرًا (٣) مُقَدَّرا
إلى رجلٍ نَجْدٍ يُبارى بِجُودِهِ * شموسَ الضُّحى جُودًا ومَجْدًا ومَفْخَرا
وفارِسِ خَلْقِ الله فى كلِّ غارةٍ * إذا لَبِسَ القَوْمُ الحديدَ المُسَمَّرا
ففدّى وحَيّا ثم أدْنَى قِراهُمُ * فلم يَقْرِهِم إلّا سَمِينًا مُتَمَّرا (٤)

---

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل . (٢) فى نسخة من الأصل : « وخير نبى جاء » .
(٣) فى نسخة من الأصل : « أمرا » . (٤) المقطع .

وذكر أبو نُعيم الحافظ عن أبي عسيب مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً ، فدعاني فخرجت إليه ، ثم مرّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه ، ثم مرّ بعمر فدعاه فخرج إليه ، فٱنطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : " أطعمنا بُسْرًا " فجاء بعذق فوضعه فأكلوا ، ثم دعا بماء فشرب فقال : " لتسألن عن هذا يوم القيامة " قال : وأخذ عمر العِذْق فضرب به الأرض حتى تناثر البُسْر نحو وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : يارسول الله ، إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : " نعم إلا من ثلاث كِسْرة يسدّ بها جَوعته أو ثوب يستر به عَوْرته أو جحر يأوى إليه من الحرّ والقُرّ " . وٱختلف أهل التأويل في النعيم المسئول عنه على عشرة أقوال : أحدها — الأمن والصحة ؛ قاله ٱبن مسعود . الثاني — الصحة والفراغ ؛ قاله سعيد بن جُبير . وفي البخاريّ عنه عليه السلام : " نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ " (١) . الثالث — الإدراك بحواس السمع والبصر ؛ قاله ٱبن عباس . وفي التنزيل : «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» (٢) . وفي الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُؤْتَى بالعبد يومَ القيامة فيقول له ألم أجعل لك سَمْعًا وبَصَرًا ومالًا وولدا ... " الحديث . خرّجه الترمذيّ وقال فيه : حديث حسن صحيح . الرابع — ملاذّ المأكول والمشروب ؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاريّ . وحديث أبي هريرة يدلّ عليه . الخامس — أنه الغَدَاء والعشاء ؛ قاله الحسن . السادس — قول مكحول الشامي — : أنه شِبع البطون ، وبارد الشراب ، وظلال المساكن ، وٱعتدال الخلق ، ولذة النوم . ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " «لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» يعني عن شبع البطون ... " . فذكره . ذكره الماورديّ وقال : وهذا السؤال يعمّ الكافر والمؤمن ، إلا أن سؤال المؤمن

(١) أي ذو خسران فيهما . والنعمة : ما يتنعم به الانسان ويستلذه . والغبن : أن يشتري بأضعاف الثمن ، أو يبيع بدون ثمن المثل . فمن صح بدنه ، وتفرغ من الأشغال العائقة ولم يسع لصلاح آخرته فهو كالمغبون في البيع .
والمقصود : بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ ؛ بل يصرفونهما في غير محالهما . (عن شرح سنن ابن ماجه) . (٢) آية ٣٦ سورة الإسراء .

تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية . وقال قوم : هذا السؤال عن كل نعمة إنما يكون فى حق الكفار ؛ فقد رُوى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، أرأيت أكلة أكلتها معك فى بيت أبى الهَيْثم بن التَّيِّهان ، من خبز شعير ولحم و بسر قد ذَنَّب(١) وماء عذب ؛ أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نُسأل عنه ؟ فقال عليه السلام : " ذلك للكفار — ثم قرأ : — « وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ(٢) » ". ذكره القشيرى أبو نصر . وقال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . قال القشيرى : والجمع بين الأخبار أن الكل يسألون ، ولكن سؤال الكفار سؤال تو بيخ ؛ لأنه قد ترك الشكر . وسؤال المؤمن سؤال تشريف ؛ لأنه شكر . وهذا النعيم فى كل نعمة .

قلت : هذا القول حسن ؛ لأن اللفظ يعم . وقد ذكر الفِريابى قال : حدثنا ورقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » قال : كل شىء من لذة الدنيا . وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله تعالى ليُعَدِّد نِعَمَه على العبد يوم القيامة حتى يَعُدَّ عليه سألتنى فلانة أن أزوِّجكها فيسمّيها باسمها فزوَّجْتُكها " . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » قال الناس : يا رسول الله ، عن أى النعيم نُسأل؟ فإنما هما الأسودان(٣) والعَدُوّ حاضر ، وسيوفُنا على عواتقنا . قال : " إن ذلك سيكون " . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أوّل ما يسأل عنه يوم القيامة — يعنى العبد — أن يقال له ألم نُصِحّ لك جسمك ونُرْوِيَكَ من الماء البارد " قال : حديث غريب . وروى من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله " . والجاه من نعيم الدنيا لا محالة . وقال مالك رحمه الله : إنه صحة البدن وطيب النفس ؛ وهو القول السابع . وقيل : النوم مع الأمن والعافية . وقال سفيان بن عُيَيْنَة : إنّ ما سدّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس ، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة ، وإنما يسأل عن النعيم . قال : والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة

(١) أى بدأ فيه الإرطاب . (٢) آية ١٧ سورة سبأ ، وهذه قراءة نافع . (٣) الأسودان : التمر والماء .

فقال له : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وأنك لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى»[1] . فكانت هذه الأشياء الأربعة — ما يسدّ به الجوع، وما يدفع به العطش، وما يستكنّ فيه من الحر، ويستر به عورته — لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها؛ لأنه لا بدّ له منها .

قلت : ونحو هذا ذكره القشيريّ أبو نصر قال : إن مما لا يسأل عنه العبد لباساً يوارى سَوْأته ، وطعاما يُقيم صُلْبه ، ومكانا يُكنّه من الحَرّ والبرد .

قلت : وهذا منتزع من قوله عليه السلام : "ليس لابن آدم حق في سِوَى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عَوْرته وجِلْف الخبز والماء" أخرجه الترمذي . وقال النضر بن شُمَيْل : جِلف الخبز ليس معه إدام . وقال محمد بن كعب : النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وفي التنزيل : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»[2] . وقال الحسن أيضا والمفضَّل : هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن؛ قال الله تعالى : «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»[3]، وقال تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »[4] .

قلت : وكل هذه نِعَمٌ، فيسأل العبد عنها هل شكر ذلك أم كفر . والأقوال المتقدِّمة أظهر . والله أعلم .

تفسير سورة « والعصر »

وهي مكّيّة . وقال قتادة مَدَنية؛ وروى عن ابن عباس . وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْعَصْرِ (١)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ أي الدهر؛ قاله ابن عباس وغيره . فالعصر مثل الدهر؛ ومنه قول الشاعر :

سبيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبَحْرُ الهوى غَمْرُ * ويومُ الهوى شَهْرٌ وشَهْرُ الهوى دَهْرُ

(١) آية ١١٨، ١١٩ سورة طه .
(٢) آية ١٦٤ سورة آل عمران .
(٣) آية ٧٨ سورة الحج .
(٤) آية ١٧ سورة القمر .

أي عصر أقسم الله به عزّ وجلّ ؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدّلها ، وما فيها من الدلالة على الصانع . وقيل : العصر الليل والنهار . قال حُميد بن ثور :

وَلَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ يَومٌ ولَيْلَةٌ * إذا طَلَبا أنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّمَا

والعصران أيضا الغداة والعشيّ . قال :

وأَمْطُلُه العَصْرَيْن حتّى يَمَلَّنِي * ويَرْضَى بِنِصْفِ الدَّيْنِ والأَنْفُ راغِمُ

يقول : إذا جاءني أوّل النهار وعدْته آخره . وقيل : إنه العشيّ وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ؛ قاله الحسن وقتادة . ومنه قول الشاعر :

تَرَوَّحْ بِنا ياعَمْرُو قَدْ قَصُرَ العَصْرُ * وفي الرَّوْحَةِ الأولَى الغنيمةُ والأَجْرُ

وعن قتادة أيضا : هو آخر ساعة من ساعات النهار . وقيل : هو قسم بصلاة العصر وهي الوسطى ؛ لأنها أفضل الصلوات ؛ قاله مقاتل . يقال : أذّن للعصر ، أي لصلاة العصر . وصلّيت العصر ؛ أي صلاة العصر . وفي الخبر الصحيح "الصلاة الوسطى صلاة العصر" . وقد مضى في سورة «البقرة» (1) بيانه . وقيل : هو قسم بعصر النبيّ صلى الله عليه وسلم لفضله بتجديد النبوّة فيه . وقيل : معناه وربّ العصر .

الثانيـــة — قال مالك : من حلف ألا يكلّم رجلا عَصْرًا لم يكلّمه سنةً . قال ابن العربيّ : «إنما حمل مالك يمين الحالف ألا يكلم امرأ عَصْرًا على السّنة ؛ لأنه أكثر ما قيل فيه ، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان . وقال الشافعيّ : يَبَرّ بساعة إلا أن تكون له نية ، وبه أقول ؛ إلا أن يكون الحالف عربيا فيقال له : ما أردت ؟ فإذا فسره بما يحتمله قُبِلَ منه إلا أن يكون الأقل ويجيء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر . والله أعلم » .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾

هـذا جواب القَسَم والمراد به الكافر ؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح . وروى الضحاك عنه قال : يريد جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود

(1) راجع جـ ٣ ص ٢١٠

ابن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزّى ، والأسْوَد بن عبد يَغُوث . وقيل : يعنى بالإنسان جنس الناس . ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ لفى غَبْن . وقال الأخفش : هَلَكة . الفَرّاء : عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا »[1] . ابن زيد : لفى شَرّ . وقيل : لفى نَقْص ؛ والمعنى متقارب . وروى عن سلام « والعصِر » بكسر الصاد . وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثّقفيّ « خُسُرٍ » بضم السين . ورَوَى ذلك هارون عن أبى بكر عن عاصم . والوجه فيهما الإتباع . ويقال : خُسْر وخُسُر ، مثل عُسْر وعُسُر . وكان علىّ يقرؤها « والعصر ونوائب الدهر إنّ الإنسان لفى خسر . وإنه فيه إلى آخر الدهر » . وقال إبراهيم : إن الإنسان إذا عُمّر فى الدنيا وهَرِم ، لفى نقص وضعف وتراجع ؛ إلا المؤمنين فإنهم تكتب لهم أجورهم التى كانوا يعملونها فى حال شبابهم ؛ نظيره قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » . قال : وقراءتنا « والعَصْرِ إن الإنسان لفى خُسْر وإنه فى آخر الدهر » . والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف . وقد مضى الرّدّ فى مقدّمة الكتاب على مَن خالف مصحف عثمان ، وأن ذلك ليس بقرآن يُتْلَى[2] ؛ فتأمّله هناك .

قوله تعالى : إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استثناء من الإنسان ؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح .

قوله تعالى : ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى أدّوا الفرائض المفترضة عليهم ؛ وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أُبَىّ بن كعب : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم «والعصر» ثم قلت : ما تفسيرها يانبىّ الله ؟ قال : "« والعصر » قَسَم من الله اقسم ربكم بآخر النهار « إنّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ » أبو جهل « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا » أبو بكر « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » عمر « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ » عثمان « وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » علىّ" ؛ رضى الله عنهم أجمعين . وهكذا خطب

(١) آية ٩ سورة الطلاق . (٢) راجع جـ ١ ص ٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

ابن عباس على المنبر موقوفا عليه . ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ أى تحابّوا ، أوصى بعضهم بعضًا ، وحثّ بعضهم بعضا . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالتوحيد ؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة : «بِالْحَقِّ» أى القرآن . وقال السُّدّى : الحق هنا هو الله عز وجل . ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على طاعة الله عز وجل والصبر عن معاصيه . وقد تقدّم (١) . والله أعلم .

تفسير سورة « الهمزة »

مكّية بإجماع . وهى تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾

قد تقدّم القول فى «الويل» فى غير موضع (٢) ، ومعناه الخزى والعذاب والهلكة . وقيل : وادٍ فى جهنم . ﴿ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ قال ابن عباس : هم المشّاءون بالنميمة ، المفسدون (٣) بين الأحبة ، الباغون للبُرآء العيب ؛ فعلى هذا هما بمعنًى . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " شرارُ عبادِ الله تعالى المشّاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبُرآء العيب " . وعن ابن عباس أن الهُمَزة القتّات ، واللُّمزة العيّاب . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رباح : الهُمَزة الذى يغتاب و يطعن فى وجه الرجل ، واللُّمَزة الذى يغتابه من خلفه إذا غاب ؛ ومنه قول حسان :

هَمَزْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ بِذُلِّ نَفْسٍ * بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كَالشُّوَاظِ (٤)

---

(١) راجع ص ٧١ من هذا الجزء .
(٢) راجع ج ٢ ص ٧ طبعة ثانية .
(٣) فى بعض نسخ الأصل «المفرقون» .
(٤) رواية البيت كما فى ديوانه :

مجللة تعممه شنارا * مضرمة تأجج كالشواظ
كهمزة ضيغم يحمى عرينا * شديد مفارز الأضلاع خاظى

وآختار هذا القول النحاس، قال: ومنه قوله تعالى «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ»[(١)] . وقال مقاتل ضدّ هذا الكلام: إن الهُمَزة الذى يغتاب بالغيبة، واللُّمَزة الذى يغتاب فى الوجه. وقال قتادة ومجاهد: الهُمَزة الطّعّان فى الناس، واللُّمَزة الطّعان فى أنسابهم. وقال آبن زيد: الهامز الذى يهمز الناس بيده و يضربهم، واللزة الذى يَلْمِزُهم بلسانه و يَعيبهم. وقال سفيان الثَّوْرِىّ: يَهْمِزُ بلسانه، ويَلْمِزُ بعينيه. وقال آبن كَيْسان: الهُمَزة الذى يؤذى جلساءه بسوء اللفظ، واللُّمَزة الذى يكسر عينَه على جليسه، ويُشير بعَيْنِه ورأسه وبحاجبيه. وقال مُرّة: هما سواء؛ وهو القَتّات الطّعّان للرء إذا غاب. وقال زياد الأعجم:

تُدْلِى بِوُدِّى إِذَا لاقَيْتَــنِى كَذِباً * وإِنْ أُغَيَّبْ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ

وقال آخر:

إذا لَقِيتُكَ عن شَحْطٍ تُكاشِرُنِى * وإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزَ اللُّمَزَهْ

الشَّحْطُ: البُعْد. والهُمَزة آسم وُضِع للبالغة فى هذا المعنى؛ كما يقــال: سُخَرَة وضُحَكَة للذى يسخر و يضحك بالناس. وقرأ أبو جعفر محمد بن علىّ والأعرج «هُمْزة لُمْزَة» بسكون الميم فيهما. فإن صح ذلك عنهما فهى فى معنى المفعول، وهو الذى يتعرّض للناس حتى يهمــزوه و يضحكوا منه، ويحملهم على الآغتياب. وقرأ عبدالله بن مسعود وأبو وائل والنَّخَعىّ والأعمش «وَيْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ». وأصل الهمز: الكسر والعَضّ على الشىء بعُنْف؛ ومنه هَمْزُ الحرف. و يقال: همزت رأسه. وهمزت الجوْز بكفى كسرته. وقيل لأعرابىّ: أتهمزون الفارة؟ فقال: إنما تهمزها الهِرّةُ. الذى فى الصحاح: وقيل لأعرابى أتهمز الفارة؟ فقال السِّنَّوْر يهمزها. والأوّل قاله الثعلبى، وهو يدل على أن الهِرّ يُسَمَّى الهمزة. قال العَجّاج:

* ومَنْ هَمَزْنا رأسَه تهشّما *

وقيل: أصــل الهمز واللز الدفع والضرب. لَمَزَه يَلْمِزُه لَمْزًا إذا ضرب به ودفعه. وكذلك همزه أى دفعه وضربه. قال الراجز:

ومن هَمَــزْنا عِزَّه تَبَرْكَعا * على آسْتِه زَوْبَعَةً أو زَوْبَعا

(١) آية ٥٨ سورة التوبة.

الْبَرْكَعَةُ : القيام على أربع . وبركعه فتبركع؛ أي صرعه فوقع على آسته؛ قاله في الصحاح .
والآية نزلت في الأخنس بن شَريق فيما روى الضحاك عن آبن عباس . وكان يَلْمِز الناس و يَعيبهم مقبلين ومدبرين . وقال ابن جُرَيج : في الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبيَّ صلى الله عليه وسلم من ورائه و يقدح فيه في وجهه . وقيل : نزلت في أُبَيّ بن خَلَف . وقيــل : في جميل ابن عامر الثقفيّ[1] . وقيل : إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص؛ وهو قول الأكثرين . قال مجاهد : ليست بخاصة لأحد ، بل لكل مَن كانت هذه صفته . وقال الفرّاء : يجوز أن يذكر الشيء العام و يقصد به الخاص قَصْدَ الواحد إذا قال : لا أزورك أبدا . فتقول : مَن لم يزرني فلست بزائره؛ يعني ذلك القائل .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ (٢)

أي أعدّه ـــ زعم ـــ لنوائب الدهر؛ مثل كَرَّم وأكرم . وقيل : أحصى عدده؛ قاله السُّدّيّ . وقال الضحاك : أي أعدّ ماله لمن يرثه من أولاده . وقيل : أي فاخر بعدده وكثرته . والمقصود الذمّ على إمساك المـال عن سبيل الطاعة . كما قال : «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ»[2] ، وقال : «وَجَمَعَ فَأَوْعَى»[3] . وقراءة الجماعة « جَمَعَ » مخفف الميم . وشـدّدها آبن عامر وحمــزة والكسائيّ على التكثير . وآختاره أبو عبيد؛ لقوله : «وَعَدَّدَهُ» . وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية «جَمَعَ» مخففا «وَعَدَده» مخففا أيضا ؛ فأظهروا التضعيف لأن أصله عدّه وهو بعيد؛ لأنه وقع في المصحف بدالين . وقد جاء مثله في الشعر؛ لمـا أبرزوا التضعيف خففوه . قال :

مَهْلًا أُمامةُ[4] قد جَرَّبْتِ من خُلُقي * أَنِّي أَجودُ لأقــوامٍ وإنْ ضَنِنُوا

---

(١) كذا في نسخ الأصل . والذي في الطبري : «جميل بن عامر الجمحي» . وفي سيرة ابن هشام (ص ٢٢٩ طبع أوربا) وتاريخ الكامل لابن الأثير (ج ٢ ص ٦٦ طبع أوربا) و بعض كتب التفسير : «جميل بن معمر الجمحي» .
(٢) آية ٢٥ سورة ق ، وآية ١٢ سورة ن .		(٣) آية ١٨ سورة المعارج .
(٤) في اللسان وكتاب سيبويه : « مهلا أعاذل » . وقد نسباه لقعنب بن أم صاحب .

أراد ضَنُّوا وبَخِلوا ، فأظهر التضعيف؛ لكن الشعر موضع ضرورة . قال المهدَوِيّ : مَن خَفَّف «وعدّده» فهو معطوف على المال؛ أي وجمع عَدَده فلا يكون فعلا على إظهار التضعيف؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في الشعر .

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ ﴾ أي يظنّ ﴿ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي يُبْقيه حيًّا لا يموت؛ قاله السديّ . وقال عكرمة : أي يزيد في عمره . وقيل : أحياه فيما مضى، وهو ماضٍ بمعنى المستقبل . يقال : هلك والله فلان ودخل النار؛ أي يدخل . ﴿ كَلَّا ﴾ ردّ لما توهّمه الكافر؛ أي لا يخلد ولا يبقى له مال . وقد مضى القول في «كَلَّا» مستوفًى (1) . وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة : إذا سمعت الله عز وجل يقول «كَلَّا» فإنه يقول كذبت . ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ أي ليُطْرحنّ وليلقَيَن . وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن «لَيُنْبَذَانّ» بالتثنية؛ أي هو وماله . وعن الحسن أيضا «لَيُنْبَذُنّه» على معنى لينبذنّ ماله . وعنه أيضا بالنون «لَنَنْبِذَنّه» على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه ينبذ صاحب المال . وعنه أيضا «لَيُنْبَذُنّ» بضم الذال؛ على أن المراد الهُمَزَةُ واللُّمَزَة والمال وجامعه . ﴿ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ وهي نار الله؛ سُمِّيت بذلك لأنها تكسر كل ما يلقى فيها وتحطمه وتهشمه . قال الراجز :

إنَّا حَطَمْنا بالقَضِيبِ مُصْعَبَا * يَوْمَ كَسَرْنا أَنْفَهُ لِيَغْضَبَا

وهي الطبقة السادسة من طبقات جهنم؛ حكاه الماوردي عن الكلبي . وحكى القشيريّ عنه : «الحطمة» الدركةُ الثانية من درك النار . وقال الضحاك : هي الدرك الرابع . ابن زيد : اسم من أسماء جهنم . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ على التعظيم لشأنها والتفخيم لأمرها .

(1) راجع جـ ١١ ص ١٤٧

ثم فسرها ما هي فقال : ﴿ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ أي التي أوقد عليها ألف عام وألف عام وألف عام، فهي غير خامدة، أعدّها الله للعُصاة . ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ قال محمد بن كعب : تأكل النارُ جميعَ ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد خلقوا خلقا جديدا فرجعت تأكلهم . وكذا روى خالدبن أبي عمران عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطلعت على أفئدتهم ٱنتهت ثم إذا صدروا تعود فذلك قوله تعالى : « نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » " . وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه . أي إنه في حال من يموت وهم لا يموتون ؛ كما قال الله تعالى : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا »[1] فهم إذًا أحياء في معنى الأموات . وقيل : معنى « تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » أي تعلم مقدار ما يستحقه كلُّ واحد منهم من العذاب؛ وذلك بما ٱستبقاه الله تعالى من الأمارة الدالة عليه . يقال : ٱطلع فلان على كذا أي عَلِمه . وقد قال الله تعالى : « تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى »[2] وقال تعالى : « إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا »[3]. فوصفها بهذا فلا يبعد أن توصف بالعلم .

قوله تعالى : إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

أي مُطْبَقة[4]؛ قاله الحسن والضحاك . وقد تقدّم في سورة « البلد » القول فيه . وقيل: مغلقة؛ بلغة قريش . يقولون : آصدت الباب إذا أغلقته؛ قاله مجاهد . ومنه قول عبيد الله ٱبن قيس الرُّقَيَّات :

إنّ في القَصْرِ لَوْ دَخَلْنا غزالا * مُصْفَقًا[5] مُوصَدًا عَلَيْهِ الحِجَابُ

﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ الفاء بمعنى الباء؛ أي موصدة بعَمَد مُمَدّدة؛ قاله ٱبن مسعود؛ وهي في قراءته « بِعَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "ثم إن الله يبعث إليهم

(١) آية ٧٤ سورة طه . (٢) آية ١٧ سورة المعارج . (٣) آية ١٢ سورة الفرقان .
(٤) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء . (٥) صفق الباب وأصفقه : أغلقه .

ملائكة بأطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فتُطبق عليهم بتلك الأطباق وتشدّ عليهم بتلك المسامير وتمدّ بتلك العمد فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه رَوْح ولا يخرج منه غمّ وينساهم الرحمن على عرشه ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ولا يستغيثون بعدها أبدا وينقطع الكلام فيكون كلامهم زفيرا وشهيقا فذلك قوله تعالى « إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ » " .

وقال قتادة : « عمد » يعذبون بها . واختاره الطبرى . وقال ابن عباس : إن العمد الممدّدة أغلال فى أعناقهم . وقيل : قيود فى أرجلهم؛ قاله أبو صالح . وقال القشيرى : والمعظم على أن العَمَد أوتاد الأطباق التى تطبق على أهل النار وتشدّ تلك الأطباق بالأوتاد حتى يرجع عليهم غمّها وحرّها، فلا يدخل عليهم رَوْح . وقيل : أبواب النار مطبقة عليهم وهم فى عمد؛ أى فى سلاسل وأغلالٍ مطوّلة، وهى أحكم وأرسخ من القصيرة . وقيل : هم فى عَمَد ممدّدة ؛ أى فى عذابها وآلامها يضربون بها . وقيل : المعنى فى دهر ممدود؛ أى لا انقطاع له . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم «فِي عُمُدٍ» بضم العين والميم جمع عمود . وكذلك « عَمَد » أيضا . قال الفرّاء : والعَمَد والعُمُد جمعان صحيحان لعَمُود؛ مثل أديم وأَدَم وأُدُم، وأفيق وأَفَق وأُفُق[(١)] . أبو عبيدة : عُمُد جمع عماد؛ مثل إهاب وأُهُب . واختار أبو عبيد «عَمَد» بفتحتين . وكذلك أبو حاتم؛ اعتبارا بقوله تعالى : «رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا»[(٢)] وأجمعوا على فتحها . قال الجوهرى : العمود عمود البيت، وجمع القلة أعمدة، وجمع الكثرة عُمُد وعَمَد؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ » . وقال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصلٌ للبناء مثل العماد . عَمَدْتُ الشيء فانعمد؛ أى أقمته بعماد يعتمد عليه . وأعمدته جعلت تحته عمدا . والله أعلم .

---

(١) الأديم . الجلد المدبوغ . والأفيق : الجلد الذى لم يدبغ . وقيل : هو الذى لم تتم دباغته .
(٢) آية ٢ سورة الرعد .

تفسير سورة « الفيل »

وهي مَكِّيّة بإجمـاع . وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أى ألم تُخْبَر . وقيل : ألم تعلم . وقال آبن عباس : ألم تسمع . واللفظ استفهام والمعنى تقرير . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولكنه عام؛ أى ألم تَرَوْا ما فعلت بأصحاب الفيـل ؛ أى قـد رأيتم ذلك وعرفتم موضع مِنّتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون . و﴿ كَيْفَ ﴾ فى موضع نصب بـ « فَعَـلَ رَبُّكَ » لا بـ « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ » من معنى الاستفهام .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ الفِيلُ معروفٌ ، والجمع أفيـال وفُيولٌ وفِيَلَة . قال آبن السِّكّيت : ولا تقل أفيلة . [والأنثى فِيلَةٌ (١)] وصاحبه فَيّال (٢) . قال سيبويه : يجوز أن يكون أصل فِيـل فُعْلًا فكُسِر من أجل اليـاء ؛ كما قالوا : أبيض وبِيض . وقال الأخفش : هـذا لا يكون فى الواحد إنما يكون فى الجمع . ورجلٌ فِيلُ الرأى ، أى ضعيف الرأى . والجمع أفيال . ورجلٌ فالٌ؛ أى ضعيف الرأى مخطئ الفِراسة . وقد فال الرأىُ يَفِيل فُيُولَةً ، وفَيّل رأيَه تَفْييلًا ؛ أى ضَعّفه ، فهو فَيِّل الرأى .

الثالثـــة — فى قصة أصحاب الفيل؛ وذلك أن أَبْرَهة بنى القُلَّيْس بصنعاء، وهى كنيسة لم يُرَ مِثْلُها فى زمانها بشيء من الأرض ، وكان نصرانيا ، ثم كتب إلى النجاشيّ أنى قد بنيت لك أيها الملِك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملِك كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرف إليها حَجَّ العرب.

(١) من تتمة قول ابن السكيت . (٢) فى اللسان : « وصاحبها » .

فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشيّ ، غضب رجل من النَّسَأة (١) ، فخرج حتى أتى الكنيسة فقعد فيها — أى أحدث — ثم خرج فلحق بأرضه؛ فأخبر بذلك أبرهة فقال: من صنع هذا ؟ فقيل : صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجّ إليه العرب بمكة لمّا سمع قولك : «أصرف إليها حجّ العرب» غضب فجاء فقعد فيها . أى إنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه ، وبعث رجلا كان عنده إلى بنى كنانة (٢) يدعوهم إلى حجّ تلك الكنيسة ، فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل؛ فزاد أبرهة ذلك غضبًا وحنقًا ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهّزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل؛ وسمعتْ بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقًّا عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نَفْر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه ؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله فهُزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نَفْر فأُتِىَ به أسيرا ؛ فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر : أيها الملك لا تقتلنى ، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى ؛ فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق ، وكان أبرهة رجلا حليما . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نُفَيْل ابن حبيب الخَثْعَمىّ فى قبيلَى خَثْعَم : شَهْران وناهِس ومن تبعه من قبائل العرب؛ فقاتله فهزمه أبرهة وأُخذ له نُفَيل أسيرًا ؛ فأُتِىَ به فلما همّ بقتله قال له نُفيل : أيها الملك لا تقتلنى، فإنى دليلك بأرض العرب، وهاتان يداى لك على قبيلَى خَثْعَم شَهْران وناهِس بالسمع والطاعة؛ فخلّى سبيله . وخرج به معه يدلّه ، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب فى رجال من ثقيف فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتُنا هذا البيتَ الذى تريد — يعنون اللات (٣) — إنما تريد البيتَ الذى بمكة ،

(١) فى سيرة ابن هشام : « من النسأة أحد بنى فقيم بن عدىّ ... ، والنسأة : الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية ، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ، و يؤخرون ذلك الشهر؛ ففيه أنزل الله تبارك وتعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر » . (راجع سيرة ابن هشام طبع أوربا ص ٢٩) .

(٢) بنو كنانة : قبيلة ذلك الرجل الذى أحدث فى الكنيسة .

(٣) فى سيرة ابن هشام : « واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة » .

ونحن نبعث معك من يدلّك عليه ؛ فتجاوز عنهم . و بعثوا معه أبا رِغال حتى أنزله المُغَمّس[1] ؛ فلما أنزله به مات أبو رِغال هناك فرجمتْ قبرَه العربُ ؛ فهو القبر الذى يرْجُمُ الناسُ بالمغَمّس ، وفيه يقول الشاعر :

وأرجــم قــبره فى كلّ عامٍ * كرَجْم النــاس قبرَ أبى رِغال

فلما نزل أبرهة بالمُغَمّس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود[2] على خيل له ، حتى آنتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تِهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ؛ فهمّت قريش وكِنانة وهُذَيل ومن كان بذلك الحَرَم بقتاله ؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك . و بعث أبرهةُ حُناطة الحِمْيَرِىّ إلى مكة وقال له : سَلْ عن سَيّد هــذا البلد وشريفهم[3] ، ثم قل له : إن المَلِك يقول إنى لم آت لحربكم إنمــا جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لى بحرب فلا حاجة لى بدمائكم ؛ فإن هو لم يُرِد حَرْبى فأتنى به . فلمــا دخل حناطة مكة سأل عن ســيّد قريش وشريفها ؛ فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ؛ فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، و بيت خليله إبراهيم عليه السلام ، أو كما قال ، فإن يمنعه منه فهو حَرَمه و بيته ، و إن يُخَلِّ بينه و بينه فوالله ما عندنا دَفع عنه . فقال له حُناطة : فآنطلق إليه فإنه قد أمرنى أن آتيَه بك ؛ فآنطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيــه حتى أتى العسكر ؛ فسأل عن ذى نَفْر وكان صديقًا له حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له : ياذا نَفْر ، هل عندك من غَناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نَفْر ؛ وما غَناء رجل أســير بيدَىْ مَلِك ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِيًّا ! ما عندى غَناء فى شىء ممــا نزل بك ، إلا أن أُنَيْسًا سائسَ الفيل صديق لى فسأرسل إليه وأوصيه بك ، وأُعْظِم عليه حقّك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بمــا بدالك ، و يشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك ؛ فقال

(١) المغمس : موضع قرب مكة فى طريق الطائف . (٢) كذا فى بعض نسخ الأصل وتفسير الثعلبى وتاريخ الطبرى (قسم أوّل ص ٩٣٧ طبع أوربا) وتاريخ ابن الأثير (جـ ١ ص ٣٢١ طبع أوربا) . وفى بعض الأصول وتفسير الطبرى وسيرة ابن هشام (ص ٣٣ طبع أوربا) : «مفصود» بالفاء ، بدل القاف .
(٣) فى هامش نسخة : «عن سيد هذا البيت» .

حَسْبي . فبعث ذو نفر إلى أُنَيْس فقال له : إن عبد المطلب سيّد قريش وصاحب عين مكة ويُطعم الناسَ بالسّهل والوحوشَ فى رءوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فآستأذنْ له عليه، وآنفعْه عنده بما آستطعت؛ فقال : أفعل . فكلّم أُنَيْسٌ أبرهةَ فقال له : أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال؛ فأذن له عليك فيكلمك فى حاجته . قال : فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوْسَمَ الناس وأعظمَهم وأجملَهم، فلما رآه أبرهة أجلّه وأعظمه عن أن يجلسه تحته؛ فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال : حاجتى أن يردّ علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زَهِدْت فيك حين كلّمتنى، أتكلّمنى فى مائتى بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمنى فيه ! . قال له عبد المطلب : إنى أنا ربُّ الإبل، وإنّ للبيت رَبًّا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى ! قال أنت وذاك؛ فردّ عليه إبله . وآنصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز فى شعفْ(١) الجبال والشِّعاب تَخَوُّفًا عليهم مَعَرّة(٢) الجيش . ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحَلْقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبدالمطلب وهو آخذ بحَلْقة باب الكعبة :

لاهُمّ إن العبد يمـ * ـنع رَحْلَه فآمنع حِلَالكْ(٣)
لا يَغْلِبَنّ صليبهم * ومِحالُهم عَدْوًا(٤) مِحالَكْ
إن يدخلوا البلد الحرا * م فأمْرٌ ما بدا لَكْ

---

(١) شعف الجبال : رءوسها . (٢) المعرّة الأذى . ومعرّة الجيش : أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم بغير علم . وقيل : وطأتهم من مرّوا به من مسلم أو معاهد، وإصابتهم إياهم فى حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه . (٣) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

(٤) « عدوا » بالعين المهملة؛ ومعناه الاعتداء . وفى اللسان مادة « غدا » : « غَدْوًا » بالغين المعجمة . قال : « الغدو أصل الغد، وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك فحذفت لامه ولم يستعمل تامًّا إلا فى الشعر . ولم يرد عبد المطلب الغد بعينه، وإنما أراد القريب من الزمان » .

يقول: أى شىء ما بدالك لم تكن تفعله بنا. والحِلال جمع حِلّ. والمِحال القُوّة. وقيل: إن عبد المطلب لما أخذ بحلْقة باب الكعبة قال:

يارَبّ لا أرجو لهم سواكا * يارَبّ فٱمنع منهم حِماكا
إنّ عَدُوّ البيت من عاداكا * إنهمُ لن يَقْهَرُوا قواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَيّ:

لا هُمّ أخز الأسْوَدَ بنَ مَقصودْ * الآخذَ الهَجْمَةَ فيها التّقليدْ (١)
بين حِراء وثَبِير فالبِيدْ (٢) * يحبسها وهى أولات التّطريد
فضَمّها إلى طَماطِم سُودْ (٣) * [قد أجمعوا ألّا يكون معبود
ويهدموا البيت الحرام المعمود * والمَرْوَتَيْن والمشاعرَ السُّود] (٤)
* أخْفِره (٥) يارَبّ وأنت محمود *

قال ٱبن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة باب الكعبة، ثم ٱنطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهَيّأ فيله وعَبّأ جيشه، وكان اسم الفيل محمودا، وأبرهةُ مُجْمِع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجّهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأُذنه فقال له: ٱبْرُكْ محمود، وٱرجع راشدا من حيث جئت، فإنك فى بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبَرَك الفيل. وخرج نُفيل بن حبيب يشتدّ حتى أصعد فى الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا فى رأسه بالطّبَرْزِين (٦) ليقوم فأبى؛ فأدخلوا

(١) الهجمة: القطعة الضخمة من الإبل. قيل هى ما بين الثلاثين والمائة. وقيل أوّلها الأربعون. وقيل ما بين السبعين إلى المائة. (انظر كتب اللغة). وتقليدها أنه يجعل فى عنقها شعار يعلم أنه هدى.　(٢) حراء وثبير: جبلان بمكة. والبيد: جمع البيداء، وهى الفلاة. وتطريد الإبل: تتابعها.　(٣) الطمطمة: العجمة. قال السهيلى: «طماطم سود» يعنى العلوج.　(٤) ما بين المربعين لم يذكره ابن إسحاق فى روايته.　(٥) أخفره: أى ٱنقض عهده وعزمه فلا تؤمنه.　(٦) الطبر (محركة): الفأس من السلاح (معربة). والطبرزين آلة من السلاح تشبه الطبر. وقيل هو الطبر بعينه.

محاجن[١] لهم فى مَرَاقه فبزَغوه[٢] بها ليقوم فأبى ، فوجّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول ، ووجّهوه إلى الشأم ففعل مثل ذلك ، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجّهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان[٣] ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحِمّص والعَدَس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك ، وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التى جاءوا منها ، ويسألون عن نُفيل بن حَبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن . فقال نُفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المَفَـرُّ والإلٰهُ الطّالبْ * والأشرمُ[٤] المغلوبُ ليس الغالبْ

وقال أيضا :

حَمِـدتُ الله إذ أبصرتُ طيرًا * وخفتُ حجـارةً تُلْقَى علينـا
فكلُّ القومِ يسأل عن نُفيـلٍ * كأنّ علىّ للحُبْشان دَيْنَـا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون [بكلّ مَهْلك[٥]] على كل سَهْل[٦] ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أَنْمُلةً أَنْمُلةً[٧] ، كلما سقطت منه أَنْمُلةٌ أَتْبعتها منه مِدّة تمُثّ[٨] قيحًا ودمًا ؛ حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى آنصدع صدره عن قلبه ؛ فيما يزعمون .

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان — يزيد أحدهما وينقص — : سبب الفيل ما روى أن فتية من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشي ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى تسمّيها النصارى الهَيْكل ، فأوقدوا نارا لطعامهم وتركوها وآرتحلوا ؛ فهبّت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارًا فاحترقت ؛ فأتى الصّريخُ إلى النجاشي فأخبره ،

(١) المحجن : العصا المنعطفة الرأس كالصولجان . (٢) بزغوه : شرطوه . (٣) فى اللسان والنهاية مادة (بلس) : «قال عباد بن موسى أظنها الزرازير» . (٤) الأشرم : أبرهة ؛ سمى بذلك لأنه جاءه حجر فشرم أنفه فسمى الأشرم . (٥) زيادة عن سيرة آبن هشام . (٦) فى سيرة آبن هشام : «منهل» . (٧) أى ينتثر جسمه ، والأنملة طرف الأصبع . و يعبّر بها عن الصغير من الأشياء . (٨) مث السقاء : رشح .

فاستشاط غضـبا . فأتاه أبرهة بن الصباح وحجـر بن شرحبيـل وأبو يكسوم الكنديون ؛ وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة . وكان النجاشي هو الملك، وأبرهة صاحب الجيش . وأبو يكسوم نديم الملك . وقيـل وزير . وحجر بن شرحبيل من قواده . وقال مجاهد : أبو يكسوم هو أبرهة بن الصباح . فساروا ومعهم الفيل . قال الأكثرون : هو فيل واحد . وقال الضحاك : هي ثمـانية فِيلة . ونزلوا بذى المجـاز ، وآستـاقوا سَرْح مكة وفيهـا إبل عبد المطلب . وأتى الراعى نذيرًا فصعد الصفا فصاح : واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجىء الجيش والفيل . فخرج عبد المطلب وتوجه إلى أبرهة وسأله فى إبله . وآختلف فى النجاشى هل كان معهم؛ فقال قوم كان معهم . وقال الأكثرون لم يكن معهم . ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبد المطلب : إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هى بنجدية ولا تهامية ولا حجازية ، وإنهـا أشباه اليعاسيب (١) . وكان فى مناقيرها وأرجلها حجارة ؛ فلمـا أظلت (٢) على القوم ألقتها عليهم حتى هلكوا . قال عطاء بن أبى رباح : جاءت الطير عَشِيَّةً فباتت ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم . وقال الكَلْبِىّ : فى مناقيرها حصًى كحصى الخَذْف (٣) ، أمام كل فرقة طائرٌ يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق . فلما جاءت عسكر القوم وتوافَتْ أهالت ما فى مناقيرها على من تحتها ، مكتوب على كل حجر آسم صاحبه المقتول به . وقيل : كان على كل حجر مكتوب : من أطاع الله نجا ، ومن عصاه غوى . ثم انصاعت (٤) راجعة من حيث جاءت . وقال العَوْفِى : سألت عنها أبا سعيد الخُدْرِىّ (٥) فقال : حمام مكة منها . وقيل : كان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها ويقع فى دماغه ويخرق الفيل والدابة ، ويغيب الحجر فى الأرض من شدة وقعه . وكان أصحاب الفيل ستين ألفا ، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم رجع ومعه شرذمة لطيفة . فلما أخبروا بمـا رأوا هلكوا . وقال الواقدى : أبرهة جد النجاشى الذى كان فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبرهة هو الأشرم سُمِّىَ بذلك لأنه تفاتن (٦) مع أرياط حتى تزاحفا ،

(١) اليعسوب : أمير النحل وذكرها . (٢) فى نسخة : « أقبلت » . (٣) الخذف : الرمى بالحصا الصغار بأطراف الأصابع . (٤) انصاع الرجل : انفتل راجعا ومرّ مسرعا . (٥) هى بيضة الحديد .
(٦) المفاتنة : اختلاف الناس فى الآراء وما يقع بينهم من القتال .

ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما فمن غلب فله الأمر . فتبارزا — وكان أرياط جسيما عظيما في يده حربة، وأبرهة قصيرا حادرا(١) حليما ذا دين في النّصرانيـة، ومع أبرهة وزير له يقـال له عتودة — فلما دَنَوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وأنفه وجَبِينه وشَفَته، فلذلك سُمّيَ الأشرم . وحَمل عتودة على أرياط فقتـله . فاجتمعت الحبشة لأبرهة، فغضب النجاشي وحلف ليجزنّ ناصـية أبرهة ويطأ بلاده . فجزّ أبرهة ناصيته وملأ مِزْوَداً من تراب أرضه وبعث بهما إلى النجاشي وقال: إنما كان عبدَك وأنا عبدك، وأنا أقوم بأمر الحبشة، وقد جَزَزْتُ ناصيتي وبعثت إليك بتراب أرضي لتطأه وتَبَرّ في يمينك؛ فرضي عنه النجاشي . ثم بَنَى أبرهة كنيسةً بصنعاء ليصرف إليها حجّ العرب، على ما تقدم .

الرابعـة — قال مقاتل : كان عام الفيل قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وسـلم بأربعين سنة . وقال الكلبي وعُبيد بن عُمير: كان قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سـنة . والصحيح ما رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "ولدتُ عام الفيل" . وروى عنـه أنه قال : "يومَ الفيـل" . حكاه المـاورديّ في التفسير له . وقال في كتاب أعلام النبوّة : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثـاني عشر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيل بخمسين يوما . ووافق من شهور الرُّوم العشرين من أسباط(٢) في السنة الثانيـة عشرة من مُلك هُرمز بن أنوشروان . قال : وحكى أبو جعفر الطـبرى أن مولده صلى الله عليه وسلم كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان . وقد قيل : إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليـلة خلت من شهر رمضان؛ فكانت مدّة حمله ثمانيةَ أشهر كُمّلاً ويومين من التاسع . وقيل : إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين(٣) أبو حفص في فضائل يوم عاشـوراء له . ابن العربيّ : «قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ الفيل، وقال قيس بن مَخْرَمة: وُلدت أنا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم عامَ الفيـل . وقد روى الناس عن مالك أنه قال :

(١) الحادر : المجتمع الخلق . (٢) في نسخة : «شباط» (بالشين المعجمة كغراب) . وورد بالسين المهملة .
(٣) في بعض نسخ الأصل : «أبو شاهين حفص» .

من مروءة الرجل ألا يخبر بسـنه ؛ لأنه إن كان صغيرا آستحقروه وإن كان كبيرا آستهرموه . وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكا لا يخبر بسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكْتم سِنّه؛ وهو من أعظم العلماء قُدْوةً به . فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيرا أو صغيرا» . وقال عبدالملك ابن مَرْوان لعَتّاب بن أسِيد : أنت أكبر أم النبيّ صلى الله عليـه وسلم ؟ فقال : النبيّ صلى الله عليه وسلم أكبر منّى وأنا أسنّ منه؛ وُلد النبيّ صلى الله عليه وسلم عامَ الفيل ، وأنا أدركت سائسه وقائده أعْمَيين مُقْعدَين يستطعمان الناس . وقيل لبعض القضاة : كم سنّك؟ قال : سنّ عَتّاب آبن أسيد حين وَلّاه النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة ؛ وكان سنه يومئذ دون العشرين .

الخامســـة — قال علماؤنا : كانت قصة الفيل فيما بعدُ من معجزات النبيّ صـلى الله عليه وسـلم ، وإن كانت قبـله وقبل التحدّى؛ لأنها كانت توكيـدا لأمره وتمهيدا لشأنه . ولمـا تلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة، ولهذا قال : « ألم تر » . ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكفّفان الناس . وقالت عائشـة رضى الله عنها مع حداثة سنها : لقـد رأيت قائد الفيـل وسائقه أعميين يستطعمان الناس . وقال أبو صالح : رأيت فى بيت أمّ هانئ بنت أبى طالب نحوًا من قفيزين من تلك الحجارة سوداً مخططة بحمرة .

قوله تعـالى : أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ أى فى إبطال وتضييع ؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسبى، والبيتَ بالتخريب والهدم . فحكى عن عبـد المطلب أنه بعث آبنه عبدَ الله على فرس له ، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير ، فإذا القوم مُشَدّخين جميعا ، فرجع يركض فرسـه كاشفًا عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال : إن آبنى هـذا أفرس العرب ، وما كشف عن فخذه إلا بشيرًا أو نذيرًا . فلما دنا من ناديهم بحيث يُسمعهم الصوت قالوا : ما وراءك ؟ قال : هلكوا جميعا . فخرج عبـد المطلب وأصحـابه فأخذوا أموالهم . وكانت

أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده فنهبوا . وقيل : إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعود الثقفي — وكان خليلا لعبد المطلب — : اختر أيهما شئت . ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعًا فقال عبد المطلب عند ذلك :

أنت منعت الحَبْش(١) والأفيالا * وقد رعوا بمكة الأجبالا(٢)

وقد خشينا منهم القتالا * وكلّ أمر لهم(٣) معضالا

* شكرًا وحمدًا لك ذا الجلالا(٤) *

قال ابن إسحاق : ولما ردّ الله الحبشة عن مكة عظّمت العربُ قريشًا وقالوا : [هم](٥) أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوّهم . وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل :

أنت الجليل ربّنا لم تُدنَس * أنت حبست الفيلَ بالمُغَمّس

من بعد ما همّ بشرٍّ مُبْلِس * حبستَه في هيئة المُكَرْكَس

* وما لهم من فَرَج ومَنْفَس *

والمكركس : المنكوس المطروح .

قوله تعالى : وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

قال سعيد بن جُبير : كانت طيرًا من السماء لم يُرَ قبلَها ولا بعدَها مثلُها . وروى جُوَيْبِر عن الضحاك عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّش وتُفرخ" . وعن ابن عباس : كانت لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب . وقال عِكْرِمة : كانت طيرا خضراء، خرجت من البحر، لها رءوس كرءوس السباع، ولم تُرَ قبل ذلك ولا بعده . وقالت عائشة رضي الله عنها : هي أشبه شيء بالخطاطيف . وقيل : بل كانت أشباه الوطاويط، حمراء وسوداء . وعن

(١) الحبش : محركة وسكنت للشعر . (٢) في روح المعاني : «الأحبالا» بالحاء . (٣) في روح المعاني «منهم» بدل «لهم» . (٤) كذا في نسخ الأصل وغيرها من المصادر . (٥) زيادة عن سيرة ابن هشام .

سعيد بن جُبير أيضا : هى طير خضر لهـا مناقير صفر . وقيل : كانت بيضاء . وقال محمد ابن كعب : هى طَير سود بحرية، فى مناقيرها وأظفارها الحجارة . وقيل : إنها العنقاء المغْرِب(١) التى تُضرب بها الأمثال؛ قال عِكرمة : « أبابيل » أى مجتمعة . وقيل : متتابعة بعضها فى إثر بعض ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : مختلفة متفرّقة، تجىء من كل ناحية ، من ها هنا وها هنا ؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش . قال النحاس : وهــذه الأقوال متفقــة ، وحقيقة المعنى أنها جماعات عظام . يقال : فلان يُؤبل على فلان ؛ أى يعظم عليه ويكثر ؛ وهو مشتق من الإبل . وآختلف فى واحد أبابيل؛ فقال الجوهرىّ : قال الأخفش يقال : جاءت إبلك أبابيل؛ أى فِرَقًا . وطــير أبابيل . قال : وهــذا يجىء فى معنى التكثير ، وهو من الجمع الذى لا واحد له . وقال بعضهم : واحده إبّوْل مثلُ عجّوْل . وقال بعضهم — وهو المبرّد — : إبّيل مثلُ سِكّين . قال: ولم أجد العربَ تعرِف له واحدا فى غير الصّحاح . وقيل فى واحده إبّال . وقال رُؤبة بن العجّاج فى الجمع :

وَلَعِبتْ طــيرٌ بهــم أبابيــلْ * فَصُيّرُوا مِثْلَ كعَصْفٍ مأكُولْ

وقال الأعشى :

طَـريقٌ وجبّـارٌ(٢) رِواءٌ أصــولُه * عليه أبابيــلٌ من الطــير تَنْعَبُ

وقال آخر :

كادت تهـدّ من الأصوات راحلتى * إذ سالت الأرض بالجُرْدِ(٣) الأبابيل

وقال آخر :

تراهم إلى الداعى ســراعا كأنهــم * أبابيـــل طير تحت دجن مسخن(٤)

---

(١) هى التى أغربت فى البلاد فنأت ولم تحس ولم تر . (٢) الجبّار من النخل : ما طال وفات اليد .
(٣) الجرد (بالضم كالجريدة) : خيل لا رَجّالة فيهـا . والجرد — أيضا — : قصر شـعر الجلد فى الفرس ، وهو من الأوصاف المحمودة فى الخيل . (٤) كذا فى نسخ الأصل ، (بالخاء المعجمة والنون) . وفى تفســير الثعلبى : ... تحت دجن مســحر . (بالحاء المهملة والراء) . وقد نسبه إلى امرئ القيس ؛ ولم نجده فى ديوانه . ولعل صوابه : ... تحت دجن مسخر . (بالخاء المعجمة والراء) .

قال الفَرّاء : لا واحد له من لفظه . وزعم الرُّؤاسِيّ — وكان ثقة — أنه سمع في واحدها «إبّالة» مشدّدة . وحكى الفرّاء «إبَالة» مخفّفا . قال : سمعت بعض العرب يقول : ضِغْثٌ على إبالة[1] . يريد خصبا على خصب . قال : ولو قال قائل إيبال كان صوابا؛ مثل دينار ودنانير . وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل : الأبابيل مأخوذ من الإبل المؤبَّلة؛ وهي الأقاطيع .

قوله تعالى : تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾

في الصحاح «حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» قالوا : حجارة من طين طُبِخت بنار جهنّم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى : «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً»[2] . وقال عبد الرحمن ابن أَبْزَى : «مِن سِجِّيلٍ» من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط . وقيل من الجحيم . وهي «سِجِّين» ثم أبدلت اللام نونا؛ كما قالوا في أُصَيْلان أُصَيْلال . قال ابن مُقْبِل :

* ضَرْبًا تواصتْ به الأبطالُ سِجِّينا[3] *

وإنما هو سِجِّيلا . وقال الزجاج : «مِن سِجِّيلٍ» أي مما كُتِب عليهم أن يُعَذَّبوا به؛ مشتق من السجل . وقد مضى القول في سِجّيل في «هود»[4] مستوفًى . قال عِكْرِمة : كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدَهم حجر منها خرج به الجُدَرِيّ لم يُرَ قبل ذلك اليوم . وكان الحجر كالحِمّصة وفوق العَدَسة . وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جلده فكان ذلك أوّل الجُدَرِيّ . وقراءة العامة «تَرْمِيهِم» بالتاء لتأنيث جماعة الطير . وقرأ الأعرج وطلحة «يَرْمِيهِم» بالياء؛ أي يرميهم الله؛ دليله قوله تعالى : «ولكِنّ اللهَ رَمَى»[5] ويجوز أن يكون راجعا إلى الطير لخلوّها من علامات التأنيث، ولأن تأنيثها غيرُ حقيقيّ .

---

(١) الضغث : قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس . والإبالة : الحزمة من الحطب . في فرائد اللآل : يضرب لمن حملك مكروها ثم زادك عليه .

(٢) آية ٣٣ سورة الذاريات .

(٣) صدر البيت كما في اللسان : * ورَجْلَةٍ يضربون البيض عن عُرُض *

(٤) راجع جـ ٩ ص ٨١ .

(٥) آية ١٧ سورة الأنفال .

قوله تعـالى : فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

أى جعل الله أصحـاب الفيل كورق الزرع ، إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل .
شَبَّه تقطّع أوصالهم بتفرق أجزائه . رُوِىَ معناه عن ابن زيد وغيره . وقد مضى القول
فى العَصف فى سورة « الرحمن »[١] . ومما يدل على أنه ورق الزرع قولُ عَلْقَمة :

تَسْقِى مَذانِبَ قـد مالت عَصِيفَتُها * حَدُورُها من أَتِىِّ المـاءِ مَطْمُومُ[٢]

وقال رُؤْبة بن العَجَّاج :

ومَسَّهم ما مَسّ أصحـابَ الفيـــلْ * ترميهـم حجـارةٌ من سِجِّيـــلْ
ولَعِبَتْ طـيرٌ بهـم أبابيـــلْ * فصُـيِّروا مِثْـلَ كَعَصْفٍ مأكولْ

العصْفُ جمعٌ واحدته عَصْفة وعُصافة وعَصيفة . وأدخل الكاف فى « كعصف » للتشبيه
مع مثـل ، نحو قوله تعـالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »[٣] . ومعنى « مأكولٍ » مأكول حَبُّه . كما
يقال : فلان حسن ، أى حسن وجهه . وقال ابن عبـاس : « فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ »
أن المراد به قشر البُرّ ، يعنى الغِلاف الذى تكون فيه حَبّـة القمح . ويروى أن الحجر كان يقع
على أحدهم فيخـرج كل ما فى جوفه فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبـة . وقال ابن
مسعود : لمـا رَمت الطير بالحجارة بعث الله ريحًا فضربت الحجارة فزادتها شدّة ، فكانت لا تقع
على أحد إلا هلك ، ولم يَسْلم منهم إلا رجلٌ من كِنْدة[٤] ، فقال :

فإنك لـو رأيت ولم تَرَيْه[٥] * لَدَى جَنْبِ المُغَمَّس ما لَقِينَا

(١) راجع جـ ١٧ ص ١٥٦ . (٢) المذانب : مسايل الماء . والعصيفة : الورق المجتمع الذى يكون فيه السنبل . وحدورها : ما انحدر منها واطمأن . والأتى (كغنى) : الجدول . والمطموم : المملوء بالماء .
(٣) آية ١١ سورة الشورى . (٤) هو نفيل بن حبيب ؛ كما فى تاريخ الطبرى وابن الأثير .
(٥) فى نسخ الأصـل : « ولو ترانا » وهو تحريف ؛ لأنه يخاطب امرأة . والأبيات كما أوردها الطبرى (ص ٩٤٢ قسم أوّل طبع أوربا) وابن الأثير (جـ ١ ص ٣٢٢ طبع أوربا) :

ألا حييت عنا يا رُدَيْنَا * نعمناكم مع الإصباح عَيْنَا
أتانا قابس منـكم عشـاء * فـلم يقـدرلقابسكم لدينـا
رُدَيْنَةُ لو رأيت ولم تَرَيْه * لدى جنب المحصب مارأينا
إذاً لعذرتنى وحمدت رأيى * ولم تأسَى على ما فات بيننـا
حمدت الله إذ عاينت طيرا * وخفت حجارة تلقى علينا
فكل القوم يسأل عن نفيل * كأن علىّ للحبشان دَيْنَا

خَشِيت الله إذ قد بَثّ طيرًا * وظِلَّ سحابةٍ مَرّت علينـا
وباتت كلهـا تدعو بحـقّ * كأن لها على الحُبْشان دَيْنَـا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم . وقد تقـدّم أن أميرهم رجع وشِرذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بمـا رأوا هلكوا . فالله أعلم . وقال ابن إسحاق : لمـا ردّ الله الحبشـة عن مكة عظّمت العرب قريشـا وقالوا : أهلُ الله قاتلَ عنهـم وكفاهم مؤونة عدوّهم؛ فكان ذلك نعمةً من الله عليهم .

تفسير ســورة « قريش »

مَكّية، في قول الجمهور . ومَدَنيّة، في قول الضحاك والكَلْبي
وهى أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾

قيل : إن هـذه السورةَ متصلةٌ بالتى قبلها فى المعنى . يقول : أهلكتُ أصحابَ الفيل لإيلاف قريش؛ أى لتأتلف، أو لتتّفق قريش، أو لكى تأمن قريشٌ فتؤلِف رحلتيهـا . وممن عَدّ السورتين واحدةً أُبَيّ بن كعب، ولا فصل بينهما فى مصحفه . وقال سـفيان بن عُيَيْنة : كان لنا إمام لا يفصل بينهما ويقرؤهما معًا . وقال عمرو بن مَيْمُون الأَوْديّ : صلّينا المغربَ خَلْفَ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه؛ فقرأ فى الأولى «والتّين والزّيتُون» وفى الثانية «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ» و« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ »(1) . وقال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: « لإيلاف قريش » أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش . وذلك أن قريشا كانت تخرج فى تجارتها، فلا يغار عليها ولا تُقْرَب فى الجاهلية . يقولون : هم أهلُ بيت الله جلّ وعزّ؛ حتى جاء صاحبُ الفيل

(١) الذي في كتاب الفراء : « قال بعضهم كانت موصولة بـ « ألم تر كيف فعل ربك » الخ .

ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتاً في اليمن يحجّ الناس إليه؛ فأهلكهم الله عز وجل، فذكّرهم نعمته. أى لجعل الله ذلك لإيلاف قريش؛ أى ليألفوا الخروج ولا يُجْتَرأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس فى رواية سعيد بن جُبير عنه. ذكره النحاس: حدّثنا أحمد ابن شعيب قال أخبرنى عمرو بن علىّ قال حدّثنى عامر بن إبراهيم — وكان ثقة من خيار الناس — قال حدّثنى خطاب بن جعفر بن أبى المغيرة قال حدّثنى أبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: «لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ» قال: نعمتى على قريش إيلافُهم رحلةَ الشتاء والصيف. قال: كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف. وعلى هذا القول يجوز الوقف على رءوس الآى وإن لم يكن الكلام تاما؛ على ما نبينه أثناء السورة. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين «بسم الله الرحمن الرحيم» وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: «فَلْيَعْبُدُوا» أى فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت لإيلافهم رحلةَ الشتاء والصيف للامتيار(1). وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: آلف الله قريشا إيلافا فليعبدوا رب هذا البيت. وعَمِل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيدا فاضرب. وقيل: اللام فى قوله تعالى «لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ» لام التعجب؛ أى اعجبوا لإيلاف قريش؛ قاله الكسائىّ والأخفش. وقيل: بمعنى إلى. وقرأ ابن عامر: «لِإِلَافِ قريش» مهموزاً مُخْتَلَساً بلا ياء. وقرأ أبو جعفر والأعرج «ليلاف» بلا همز طلبا للخفّة. الباقون «لإيلاف» بالياء مهموزاً مُشْبَعاً؛ من آلفت أولف إيلافاً. قال الشاعر:

المُنْعِمِين إذا النجوم تغيّرت * والظاعنين لرحلة الإيلاف

ويقال: ألِفته إلْفًا وإلَافًا. وقرأ أبو جعفر أيضا: «لإلْف قريش» وقد جمعهما من قال:

زعمتم أن إخوتكم قريشٌ(2) * لهم إلف وليس لكم إلاف

قال الجوهرىّ: وفلان قد ألِف هذا الموضع (بالكسر) يألفه إلْفا، وآلفه إيّاه غيرُه. ويقال أيضا: آلفت الموضع أولِفه إيلافا. وكذلك آلفت الموضع أُؤالِفه مؤالفة وإلافا؛

(1) أى لجلب الطعام.
(2) كذا فى نسخ الأصل بالرفع على الخبر. وفى اللسان وشرح القاموس: «قريشا» بالنصب على البدل.

فصار صورة أفْعَل وفاعل فى المـاضى واحدة. وقرأ عِكرمة « لَيألف » بفتح اللام على الأمر. وكذلك هو فى مصحف ٱبن مسعود . وفتحُ لام الأمر لغـةٌ حكاها ٱبن مجاهد وغيره . وكان عكرمة يعيب على من يقرأ « لإِيلاف » . وقرأ بعض أهل مكة « إلاف قريش » وٱستشهد بقول أبى طالب يوصى أخاه أبا لهب برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فلا تتركَنْه ما حَيِيتَ لمُعْظَمٍ * وكن رجلا ذا نجدة وعَفاف

تذود العِدا عن عصبة هاشمية * إلافُهُمُ فى الناس خيرُ إلاف

وأما قريش فهم بنو النَّضْر بن كِنانة بن خُزَيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر . فكل من كان من ولد النَّضْر فهو قُرَشىّ دون بنى كِنانة ومَن فوقه . وربما قالوا : قُرَيْشِىّ ، وهو القياس؛ قال الشاعر :

* بكلّ قُرَيْشِىٍّ عليه مهابةٌ (١) *

فإن أردت بقريش الحَىَّ صرفته، وإن أردت به القَبِيلة لم تَصْرفه؛ قال الشاعر :

* وكَفَى قريشَ المُعْضِلاتِ وَسادَها (٢) *

والتقريش الاكتساب، وتقرّشوا أى تجمعوا . وقد كانوا متفرّقين فى غير الحَرَم فجمعهم قُصَىٌّ ٱبن كلاب فى الحَرَم، حتى اتخذوه مسكنا . قال الشاعر :

أبونا قُصَىّ كان يُدْعَى مُجَمِّعًا * به جمع الله القبائل من فِهرِ

وقد قيـل : إن قريشا بنو فِهْر بن مالك بن النَّضْر . فكلُّ مَن لم يلده فِهْرٌ فليس بقرشىّ . والأوّل أصح وأثبت . وقد رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنا ولد النضر ٱبن كنانة لا نَقْفُو أُمَّنَا (٣) ولا نَنْتَفِى من أبِينَـا " . وقال واثلة بن الأَسْقَع : قال النبىّ صـلى الله

(١) تمـامه : * سريع إلى داعى الندى والتكرم *

(٢) هذا عجز بيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك . وصدره كما فى اللسان :

* غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سماحةً *

(٣) قفا فلان فلانا : إذا قذفه بما ليس فيه ، أى لا نتهمها ولا نقذفها، وقيل : معناه لا نترك النسب إلى الآباء وننتسب إلى الأمهات .

عليه وسلم: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم". صحيح ثابت خرجه البخاري ومسلم وغيرهما. واختلف في تسميتهم قريشا على أقوال: أحدها — لتجمعهم بعد التفرق. والتقرش: التجمع والالتئام. قال أبو خلدة اليشكري:

إخوة قرشوا الذنوب علينا * في حديث من دهرهم وقديم

الثاني — لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم. والتقرش: التكسب. وقد قرش يقرش قرشا إذا كسب وجمع. قال الفراء: وبه سميت قريش. الثالث — لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذي الخلة (١) فيسدون خلته. والقرش التفتيش؛ قال الشاعر:

أيها الشامت المقرش عنا * عند عمرو فهل له إبقاء (٢)

الرابع — ما روى أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشا؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القرش؛ تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى. وأنشد قول تبع:

وقريش هي التي تسكن البحـ * ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الرث والسمين ولا تتـ * ـرك فيها لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد حي قريش * يأكلون البلاد أكلا كميشا (٣)
ولهم آخر الزمان نبي * يكثر القتل فيهم والخموشا (٤)

قوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾

قرأ مجاهد وحميد «إلفهم» ساكنة اللام بغير ياء. وروى نحوه عن ابن كثير. وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ «إلفهم». وروى عن ابن عباس

(١) الحاج (بالتخفيف): جمع حاجة. والخلة (بالفتح): الحاجة والفقر.

(٢) البيت للحارث بن حلزة اليشكري في معلقته. وروايته كما في شرح المعلقات:

أيها الناطق المرقش عنا * عند عمرو وهل لذاك بقاء

قال التبريزي: «المرقش المزين القول بالباطل ليقبل منه الملك باطله. ويقال إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم. ومعنى «وهل لذاك بقاء»: إن الباطل لا يبقى». وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه. (٣) أي سريعا.

(٤) الخموش: (جمع الخمش) وهو مثل الخدش يكون في البدن والوجه.

وغيره . وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حَيْوَة « إلافهم » مهموزا مُخْتَلَسًا بلا ياء . وقرأ أبو بكر عن عاصم « إئْلافهم » بهمزتين ، الأولى مكسورة والثانية ساكنة . والجمع بين الهمزتين في الكلمتين شاذ . الباقون « إيلافهم » بالمدّ والهمز ؛ وهو الاختيار، وهو بدل من الإيلاف الأوّل للبيان . وهو مصدر آلف إذا جعلته يألف . وأَلِف هو إلْفًا ؛ على ما تقدّم ذكره من القراءة ؛ أي وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف . رَوى ابن أبي نَجيح عن مجاهد في قوله تعالى : « إيلافِهم رِحْلَةَ الشتاء والصيف » قال : لا يشقّ عليهم رحلةَ شتاءٍ ولا صيفٍ مِنّةً منه على قريش . وقال الهَرَوِيّ وغيره : وكان أصحاب الإيلاف أربعةَ إخْوَة : هاشم وعبد شمس والمطلب ونَوْفل، بنو عبد مناف . فأما هاشم فإنه كان يؤلّف مَلِك الشام ؛ أي أخذ منه حبلا وعهدا يأمن به في تجارته إلى الشام . وأخوه عبد شمس كان يؤلّف إلى الحبشة . والمطلب إلى اليمن . ونوفل إلى فارس . ومعنى يؤلّف يجير . فكان هؤلاء الإخوة يُسَمَّوْن المُجيرين . فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة فلا يُتعرض لهم . قال الأزهريّ : الإيلاف شبه الإجارة بالحفارة(1) ؛ يقال : آلف يُؤلِف إذا أجار الحمائل بالحفارة . والحمائل جمع حَمُولة(2) . قال : والتأويل أن قريشا كانوا سُكان الحَرَم ولم يكن لهم زَرع ولا ضَرْع ، وكانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين والناسُ يُتخطفون من حولهم ، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرّض الناسُ لهم . وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره : حدّثنا سعيد بن محمد عن بكر بن سهل الدمياطي بإسناده إلى ابن عباس في قول الله عز وجل : « لِإيلاف قُرَيش » إلفهم رحلة الشتاء والصيف . وذلك أن قريشا كانوا إذا أصابت واحدا منهم مَخْمَصةٌ(3) جَرَى هو وعياله إلى موضع معروف ، فضربوا على أنفسهم خِباء فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف وكان سَيِّدًا

(1) في بعض نسخ الأصل : « الإجارة والحفارة » ولم نجد هذا في كتاب التهذيب للأزهري ولا في غيره من كتب اللغة . والإجارة : الإغاثة والحماية . والخفارة (مثلثة الخاء) : الأمان .

(2) الحمولة (بالفتح) : الإبل التي تحمل .

(3) المخمصة : المجاعة .

فى زمانه ، وله ٱبن يقال له : أسد ، وكان له تِرْبٌ (١) من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه . فقال له : نحن غدًا نَعْتَفِد . قال ٱبن فارس : هذه لفظة فى هذا الخبر لا أدرى بالدال هى أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العَفَر وهو التراب ، وإن كانت بالدال (٢) فما أدرى معناها ، وتأويله على ما أظنه : ذهابهم إلى ذلك الخباء وموتهم واحدا بعد واحد . قال : فدخل أسد على أمّه يبكى ، وذكر ما قاله تِرْبُه . قال : فأرسلت أمّ أسد إلى أولئك بشحم ودقيق فعاشوا به أياما . ثم إن تِربه أتاه أيضا فقال : نحن غدًا نعتفر ، فدخل أسد على أبيه يبكى ، وخبّره خبر تِرْبِه ، فاشتدّ ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيبا فى قريش وكانوا يطيعون أمره ، فقال : إنكم أحدثتم حَدَثًا تَقِلّون فيه وتَكْثُر العرب ، وتَذِلون وتَعِزّ العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعز ، وأشرفُ ولدِ آدم ، والناسُ لكم تَبَعٌ ، ويكاد هذا الاعتفار يأتى عليكم . فقالوا : نحن لك تَبَع . قال : ابتدئوا بهذا الرجل — يعنى أبا تِرْب أسد — فأغنوه عن الاعتفار؛ ففعلوا . ثم إنه نحر البُدْن وذبح الكِباش والمعز ، ثم هَشَم الثَّريد وأطعم الناس؛ فسُمِّىَ هاشماً . وفيه قال الشاعر :

عَمْرُو الذى هَشَم (٣) الثّريد لقومه * ورجالُ مكة مُسْنِتون (٤) عِجافُ

ثم جمع كلّ بنى أب على رحلتين ، فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما رَبِح الغنىّ قسَمه بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم ؛ فجاء الإسلام وهم على هذا ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالًا ولا أعزّ من قريش؛ وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرَهم بغنيّهم * حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافى

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فقال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » بصنيع هاشم «وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» أن تكثر العرب ويَقِلّوا .

---

(١) الترب (بالكسر) : اللِّدَة والسن ومن ولد معك .

(٢) فى اللسان مادة عفد : « الاعتفاد أن يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحدا حتى يموت جوعا » .

(٣) فى اللسان : « عمرو العلا ... » .

(٤) مسنتون : أى أصابتهم السَّنَة . والسنة : الجدب والقحط .

قوله تعالى : ﴿ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ «رِحْلَةَ» نصب بالمصدر؛ أى ٱرتحالهم رِحْلَةَ ، أو بوقوع « إيلافهم » عليه أو على الظرف . ولو جعلتها فى محل الرفع على معنى هما رِحْلَةُ الشتاء والصيف لجاز . والأول أولَى . والرحلة الٱرتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليَمَن فى الشتاء لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى فى الصيف إلى الشام لأنها بلاد باردة . وعن ٱبن عباس أيضا قال : كانوا يشتون بمكة لدفئها و يصيفون بالطائف لهوائها . وهذه من أجل النعم أن يكون للقوم ناحيةُ حَرٍّ تدفع عنهم برد الشتاء، وناحيةُ بَرْدٍ تدفع عنهم حَرَّ الصيف ؛ فذكّرهم الله تعالى هذه النعمة . وقال الشاعر :

تُشْتِي بمكّةَ نَعْمَةً * وَمَصِيفها بالطّائف

وهنا أربع مسائل :

الأولى — اختار القاضى أبو بكر بن العربىّ وغيره من العلماء أن قوله تعالى : «لإِيلافِ» متعلّق بما قبله . ولا يجوز أن يكون متعلقا بما بعده، وهو قوله تعالى : «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْتِ» قال : وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى — وقد قُطع عنه بكلام مبتدإ واستئناف بيان وسَطْر بسم الله الرحمن الرحيم — فقد تبين جواز الوقف فى القراءة (١) للقُرّاء قبل تمام الكلام ، وليست المواقف التى ينتزع (٢) بها القرّاء شرعًا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرويًّا ، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعانى ، فإذا عَلِموها وقفوا حيث شاءوا . فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه ، ولا تُعد ما قبله إذا اعتراك ذلك ، ولكن ٱبدأ من حيث وقف بك نفسك . هذا رأيى فيه، ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكنى أعتمد الوقف على التمام كراهيةَ الخروج عنهم .

قلت : ومن الدليل على صحة هذا قراءةُ النبىّ صلى الله عليه وسلم «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ثم يقف . « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ثم يقف . وقد مضى فى مقدّمة الكتاب (٣) . وأجمع المسلمون أن

---

(١) فى ابن العربى : « فى القرآن » . (٢) فى ابن العربى : « تنزع » .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الوقف عند قوله : « كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » ليس بقبيح . وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تُقرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية ، فيتخللها مع قطع القراءة أركان . وليس أحد من العلماء يكره ذلك ، وما كانت العلة فيه إلا أن قوله تعالى : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » انتهاء آية. فالقياس على ذلك ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلام يتم والغرض ينتهي ، أو لا يتم ولا ينتهي . وأيضا فإن الفواصلَ حِلْيَةٌ وزِينةٌ للكلام المنظوم، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور . ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن ؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم ، فمن أظهر فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه ، وتركُ الوقوفِ يُخفي تلك المحاسن ويُشَبِّه المنثور بالمنظوم ؛ وذلك إخلال بحق المقروء .

الثانيـــة — قال مالك : الشتاء نصف السنة والصيف نصفها، ولم أزل أرى ربيعة ابن أبي عبد الرحمن (١) ومن معه لا يخلعون عمائمهم حتى تَطْلُع الثُّرَيَّا ، وهـو يوم التاسع عشر من بشنس ، وهو يوم خمســة وعشرين من عدد الروم أو الفرس (٢) . وأراد (٣) بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم ، وأن طلوع الثريا أوّل الصيف (٤) ودُبُر الشتاء . وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه . وقال عنه أشهب وحده : إذا سقطت الهَقْعة (٥) نقص الليل ، فلما جعل طلوع الثريا أوّل الصيف وجب أن يكون له في مطلق السنة ستةُ أشهر ، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر . وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمن حلف ألا يكلم امرأ حتى يدخل الشتاء ؟ فقال : لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور . ولو قال : حتى يدخل الصيف ؛ لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس . قال القُرَظيّ : أما ذكر هذا عن محمد في بشنس فهو سهو ، إنما هو تسعة عشر من بشنس ؛ لأنك إذا حسبت المنازل

---

(١) هو ربيعة الرأي ، أدرك بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة ، وعنه أخذ مالك بن أنس وغيره . توفي سنة ١٣٦ هـ .

(٢) كذا في الأصول وابن العربي .

(٣) كذا في ابن العربي . وفي نسخ الأصل : « وأرى » .

(٤) في ابن العربي : « قبل الصيف » .

(٥) الهقعة : ثلاثة كواكب نيرة قريب بعضها من بعض فوق منكب الجوزاء ، وهي منزل من منازل القمر .

على ما هى عليه من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة ، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لا تنقضي منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس . والله أعلم .

الثالثة — قال قوم : الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصَيْف، وخَرِيف. وقال قوم : هو شتاء وصَيْف وقَيْظ وخَرِيف . والذى قاله مالك أصح؛ لأن الله قسم الزمان قسمين (١) ولم يجعل لهما ثالثا .

الرابعة — لما آمتَنّ الله تعالى على قريش برحلتين، شتاءً وصيفًا، على ماتقدّم، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل فى الزمانين بين محلين ، يكون حالهما فى كل زمان أنعم من الآخر؛ كالجلوس فى المجلس البحرى فى الصيف وفى القبلى فى الشتاء، وفى اتخاذ البادهنجات (٢) والخَيْش للتبريد، واللِّبد واليانوسة (٣) للدِّفء .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ (٣)

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده لأجل إيلافهم رحلتين . ودخلت الفاء لأجل ما فى الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى إمّا لا فليعبدوه لإيلافهم؛ على معنى أنّ نِعَم الله تعالى عليهم لا تحصى ؛ فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لشأن هذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة . والبيتُ: الكعبة . وفى تعريف نفسه لهم بأنه ربُّ هذا البيت وجهان : أحدهما — لأنه كانت لهم أوْثان فميّز نفسه عنها . الثانى — لأنهم بالبيت شَرُفُوا على سائر العرب ؛ فذكّرهم ذلك تذكيرًا لنعمته . وقيل: « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ» أى ليألفوا عبادةَ رَبِّ الكعبة كما كانوا يألفون الرحلتين . قال عكرمة : كانت قريش قد ألفوا رحلةً إلى بُصْرَى

(١) فى الأصول : « لأن قسمة الله للزمان قسمين، ولم يجعل لهما ثالثا » وهى غير مستقيمة . وفى آبن العربى : « لأجل قسمة الله الزمان قسمين ... الخ » .

(٢) فى كتاب شفاء الغليل للشهاب الخفاجى : « الباد هنج » معرب باد خون أو باد كير، وهو المنفذ الذى يجىء منه الريح .

(٣) فى آبن العربى : « اليانوس » . ولم نجد فى المعاجم هذه المادة .

و رحلة إلى اليمن ، فقيل لهم : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » أى يقيموا بمكة رحلة الشتاء (١) إلى اليمن ، والصيف إلى الشام .

قوله تعالى : ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾ أى بعد جوع . ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ قال ابن عباس : وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ » (٢) . وقال ابن زيد : كانت العرب يُغير بعضها على بعض ويَسْبي بعضها من بعض ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحَرَم — وقرأ — « أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ (٣) كُلِّ شَيْءٍ » . وقيل : شقّ عليهم السّفر فى الشتاء والصيف ، فألقى الله فى قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاماً فى السفن فحملوه ؛ فخافت قريش منهم ، وظنّوا أنهم قدموا لحربهم ، فخرجوا إليهم متحرزين فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام وأغاثوهم بالأقوات ؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جُدّة بالإبل والحُمُر ، فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين . وقيل : هذا الإطعام هو أنهم لما كذّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : " اللّهُمّ اجعلها عليهم سِنِين كسِنِي يوسف " فاشتد القحط فقالوا : يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون . فدعا فأخصبت تَبالة وجُرَش من بلاد اليمن ؛ فحملوا الطعام إلى مكة وأخصب أهلها . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : « وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أى من خوف الجذام ، لا يصيبهم ببلدهم الجذام . وقال الأعمش : « وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أى من خوف الحبشة مع الفيل . وقال علىّ رضى الله عنه : وآمنهم مِن [خوف] (٤) أن تكون الخلافة إلا فيهم . وقيل : أى كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك . فالله أعلم واللفظ يعم .

(١) يريد : يقيموا بمكة و يتركو الرحلة ... الخ .
(٢) آية ١٢٦ سورة البقرة .
(٣) آية ٥٧ سورة القصص .
(٤) التكلة عن تفسير الخطيب .

تفسير سورة « الماعون »

وهى مكّية، فى قول عطاء وجابر وأحد قولى ابن عباس. ومدنيّة، فى قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره. وهى سبع آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

فيه ست مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أى بالجزاء والحساب فى الآخرة؛ وقد تقدّم فى «الفاتحة»(1). و«أَرَأَيْتَ» بإثبات الهمزة الثانية؛ إذ لا يقال فى أرأيت: رَيْت، ولكن ألف الاستفهام سهّلت الهمزة ألفا؛ ذكره الزجاج. وفى الكلام حذف؛ والمعنى: أرأيت الذى يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطئ. واختلف فيمن نزل هذا فيه؛ فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت فى العاص بن وائل السَّهْمىّ؛ وقاله الكلبىّ ومقاتل. وروى الضحاك عنه قال: نزلت فى رجل من المنافقين. وقال السُّدّىّ: نزلت فى الوليد ابن المغيرة. وقيل فى أبى جهل. الضحاك: فى عمرو بن عائذ. قال ابن جُرَيج: نزلت فى أبى سفيان، وكان ينحر فى كل أسبوع جزورا، فطلب منه يتيم شيئا فقرَعه بعصاه؛ فأنزل الله هذه السورة. و﴿يَدُعُّ﴾ أى يدفع، كما قال: «يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا»(2) وقد

(1) راجع جـ ١ ص ١٤٣ (2) آية ١٣ سورة الطور. راجع جـ ١٧ ص ٦٤

تقدّم . وقال الضحاك عن ابن عباس : « فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ » أي يدفعه عن حقه . قتادة : يقهره و يظلمه . والمعنى متقارب . وقد تقدّم في سورة « النساء »(١) أنهم كانوا لا يُوَرّثون النساء ولا الصغار و يقولون : إنما يحوز المالَ من يطعن بالسِّنان و يضرب بالحُسَام . ورُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَن ضَمّ يتيماً من المسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة"(٢) . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أي لا يأمر به من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء . وهو مثل قوله تعالى في سورة الحاقة : « وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ »(٣) وقد تقدّم . وليس الذم عاما حتى يتناول مَن تركه عجزا ، ولكنهم كانوا يبخلون و يعتذرون لأنفسهم و يقولون : «أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ»(٤) فنزلت هذه الآية فيهم ، وتَوَجّه الذم إليهم . فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثّون عليه إن عَسِرُوا .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ أي عذاب لهم . وقد تقدّم في غير موضع(٥) . ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو المصلّي الذى إن صلّى لم يَرْجُ لها ثوابا ، و إن تركها لم يَخْشَ عليها عقابا . وعنه أيضا : الذين يؤخرونها عن أوقاتها . وكذا روى المغيرة عن إبراهيم قال : ساهون بإضاعة الوقت . وعن أبي العالية : لا يصلونها لمواقيتها ، ولا يُتِمون ركوعها ولا سجودها .

قلت : و يدل على هذا قوله تعالى : «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ» حسب ما تقدّم بيانه في سورة « مريم »(٦) عليها السلام . وروى عن إبراهيم أيضا : أنه الذى إذا سجد قام برأسه هكذا ملتفتا . وقال قُطْرُب : هو ألّا يقرأ ولا يذكر الله . وفي قراءة عبد الله «الَّذِينَ هُمْ عن صلاتِهِم لاهُونَ» . وقال سعد بن أبي وقّاص قال النبي صلى الله عليه وسلم [في قوله] :

(١) راجع ج ٥ ص ٤٦
(٢) راجع ج ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .
(٣) آية ٣٤ راجع ج ١٨ ص ٢٧٢
(٤) آية ٤٧ سورة يس .
(٥) راجع ج ٢ ص ٧ طبعة ثانية .
(٦) راجع ج ١١ ص ١٢١

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » — قال — "الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها تهاونًا بهـا" . وعن ٱبن عباس أيضا : هم المنافقون يتركون الصلاة سرًّا و يُصَلُّونها علانية « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى »(١) الآية . ويدل على أنها فى المنافقين قوله : « الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ » وقاله ٱبن وهب عن مالك . قال ٱبن عباس : ولو قال فى صلاتهم ساهون لكانت فى المؤمنين . وقال عطاء : الحمد لله الذى قال «عَنْ صَلَاتِهِمْ» ولم يقل فى صلاتهم . قال الزَّمَخْشَرِىّ فإن قلت : أىّ فرق بين قوله : « عَنْ صَلَاتِهِمْ » وبين قولك : فى صلاتهم ؟ قلت : معنى « عن » أنهم ساهون عنها سَهْوَ تركٍ لها وقلّةِ التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفَسَقة الشُّطّار(٢) من المسلمين . ومعنى « فى » أن السَّهْوَ يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السَّهْوُ فى صـلاته فضلًا عن غيره ؛ ومن ثَمّ أثبت الفقهاء باب سجود السهو فى كتبهم . قال ٱبن العربى : لأن السلامة من السهو محال ، وقد سها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاته والصحابةُ . وكلّ من لا يسهو فى صلاته فذلك رجل لا يتدبرها ولا يَعقل قراءتها ، وإنما هَمّه فى إعدادها ؛ وهذا رجل يأكل القشور ويَرْمِى اللُّبّ . وما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يسهو فى صلاته إلا لفكرته فى أعظم منها ؛ اللّهُمّ إلا أنه قد يسهو فى صلاته مَن يُقبِل على وسواس الشيطان إذا قال له : اذكر كذا ، اذكر كذا ؛ لما لم يكن يذكر حتى يضلّ الرجل أن يدرى كم صَـلّى .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ أى يُرِى الناس أنه يصـلّى طاعةً وهو يصلّى تَقِيّةً ؛ كالفاسق يُرى أنه يصلّى عبادةً وهو يصلى ليقال : إنه يصلى . وحقيقة الرياء طلب ما فى الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس . وأولها تحسين السَّمْت ؛ وهو من أجزاء النبوّة ، ويريد بذلك الجاهَ والثناءَ . وثانيها — الرياء بالثياب القصار والخَشِنة ؛ ليأخذ بذلك هيئة

(١) آية ١٤٢ سورة النساء . (٢) فى نسخة من الأصل : « الشياطين » . والشطار : جمع شاطر وهو الذى ترك موافقة أهله وأعياهم لؤما وخبثا .

الزهد فى الدنيا . وثالثها — الرياء بالقول بإظهار التسخّط على أهل الدنيا ، و إظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة . ورابعها — الرياء بإظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس ؛ وذلك يطول وهذا دليله ؛ قاله ٱبن العربى .

قلت : قد تقدم فى سورة « النساء وهود وآخر الكهف »(1) القولُ فى الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية . والحمد لله .

الخامسة — ولا يكون الرجل مرائيًا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ؛ فمن حق الفرائض الإعلانُ بها وتشهيرُها ، لقوله عليه السلام : " ولا غُمّة(2) فى فرائض الله " لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ؛ فوجب إماطة التهمة بالإظهار . و إن كان تطوّعا فحقه أن يخفى ؛ لأنه لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا . و إنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فتثنى عليه بالصلاح . وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطالها ؛ فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك . و إنما قال هذا لأنه توسّم فيه الرياء والسمعة . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »(3) عند قوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ » وفى غير موضع . والحمد لله على ذلك .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ فيه ٱثنا عشر قولا : الأول — أنه زكاة أموالهم . كذا روى الضحاك عن ٱبن عباس . ورُوى عن علىّ رضى الله عنه مثلُ ذلك ، وقاله مالك . والمراد به المنافق يمنعها . وقد روى أبو عمرو(4) بن عبد العزيز عن مالك قال : بلغنى أن قول الله تعالى : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » قال : إن المنافق إذا صلى صلّى رياءً ، و إن فاتته لم يَنْدَم عليها « وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » الزكاة التى فرض الله عليهم . قال زيد بن أسلم : لو خَفيت لهم الصلاة كما خَفيت لهم الزكاة ما صلّوا . القول الثانى — أن « الماعون » المال بلسان

(1) راجع جـ ٥ ص ١٨١ و جـ ٩ ص ١٣ و جـ ١١ ص ٧٠　(2) أى لا تستر ولا تخفى فرائضه وإنما تظهر وتعلن ويجهر بها .　(3) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢　(4) فى بعض نسخ الأصل : « أبو عمر » وفى بعضها : « أبو عبد » . وفى ٱبن العربى : « أبو بكر بن عبد العزيز » .

قريش؛ قاله ٱبن شهاب وسعيد بن المسيّب . وقول ثالث — أنه ٱسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك؛ قاله ٱبن مسعود، وروى عن ٱبن عباس أيضا . قال الأعشى:

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ * إذا ما سَمَاؤُهُمُ لَمْ تَغِمْ

الرابع — ذكر الزجاج وأبو عبيد والمبرّد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة، حتى الفأس والقدر والدَّلْو والقَدّاحة، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير؛ وأنشدوا بيت الأعشى . قالوا : والماعون في الإسلام الطاعة والزكاة؛ وأنشدوا قول الراعي :

أَخَلِيفَةَ الرحمنِ إِنّا مَعْشَرٌ * حُنَفاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلا

عُرْبٌ نَرَى لله مِنْ أَمْوالِنا * حَقَّ الزّكاةِ مُنَزّلا تَنْزِيلا

قَوْمٌ على الإسْلام لَمّا يَمْنَعوا * ماعُونَهم ويُضَيِّعوا التَّهْلِيلا (١)

يعني الزكاة . الخامس — أنه العارية؛ روى عن ٱبن عباس أيضا . السادس — أنه المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ . السابع — أنه الماء والكلأ . الثامن — الماء وحده . قال الفراء : سَمِعتُ بعض العرب يقول : الماعون الماء؛ وأنشدني فيه :

* يَمُجُّ صَبِيرُهُ المَاعُونَ صَبّا *

الصبير السحاب . التاسع — أنه منع الحق؛ قاله عبد الله بن عمر . العاشر — أنه المُسْتَغَلّ من منافع الأموال؛ مأخوذ من المَعْن وهو القليل؛ حكاه الطبريّ وٱبن عباس (٢) . قال قُطْرُب : أصل الماعون من القلة . والمَعْن : الشيء القليل؛ تقول العرب : ماله سَعْنَة ولا مَعْنَة (٣)؛ أي شيء قليل . فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونا؛ لأنه قليل من كثير . ومن الناس من قال : الماعون أصله مَعُونة، والألف عوض من الهاء؛ حكاه الجوهريّ . ٱبن العربيّ : الماعون مفعول من أعان يُعين، والعون هو الإمداد

(١) في اللسان :

قوم على التنزيل لما يمنعوا * ماعونهم ويبدلوا التنزيلا

(٢) كذا في بعض نسخ الأصل . وفي بعضها الآخر : « حكاه الطبري وٱبن عيسى » .

(٣) هذا مثل يضرب لمن لا مال له . والسعن : الكثير .

بالقوة والآلات والأسباب الميسّرة للأمر . الحادى عشر — أنه الطاعة والانقياد . حكى الأخفش عن أعرابى فصيح : لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعا تعطيك الماعون ؛ أى تنقاد لك وتطيعك . قال الراجز :

مَتَى تُصادِفْهُنَّ فى البُرِينِ (١) * يَخْضَعْن أو يُعْطِين بالماعونِ (٢)

وقيل : هو مالا يحل منعه كالماء والملح والنار ؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت يارسول الله ، ما الشيء الذى لا يحل منعه ؟ قال : "الماء والنار والملح" قلت : يا رسول الله ، هذا الماء ، فما بال النار والملح؟ فقال : "ياعائشة من أعطى نارا فكأنما تصدّق بجميع ما طبخ بتلك النار ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ما طُيّب به ذلك الملح . ومن سقى شربة من الماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق ستين نَسَمة . ومن سقى شربة من الماء حيث لا يوجد فكأنما أحْيَا نفسًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا" ذكره الثعلبيّ فى تفسيره ، وخرّجه ابن ماجه فى سننه . وفى إسناده لين ؛ وهو القول الثانى عشر . الماورديّ : ويحتمل أنه المعونة بما خَفّ فعله وقد ثقّله الله . والله أعلم . وقيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل؟ . فقال : لا ، ولكن مَن جمع ثلاثهن فله الويل ؛ يعنى ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالماعون .

قلت : كونها فى المنافقين أشبه وبهم أخلق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة : ترك الصلاة ، والرياءَ ، والبخلَ بالمال ؛ قال الله تعالى : « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا (٣) » ، وقال : « وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٤) » . وهذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسلم محقق ، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ ، وذلك فى منع الماعون إذا تعيّن ؛ كالصلاة والزكاة إذا تركها . والله أعلم . إنما يكون منعها قبيحا فى المروءة فى غير حال الضرورة . والله أعلم .

---

(١) فى تفسير الثعلبى : * متى تجاهدهن * وهى الأوجه .   (٢) البرين (بضم الباء وكسرها) : جمع بُرَة ، وهى دنا الحلقة فى أنف البعير . وهى أيضا : كل حلقة من سوار وقرط وخلخال .   (٣) آية ١٤٢ سورة النساء .   (٤) آية ٥٤ سورة التوبة .

تفسير سورة « الكوثر »

وهى مكّية ؛ فى قول ابن عباس والكلبي ومقاتل . ومدنيّة ؛ فى قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة . وهى ثلاث آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ قراءة العامة . « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ » بالعين . وقرأ الحسن وطلحة بن مُصَرِّف « أَنْطَيْنَاكَ » بالنون ؛ ورَوَتْه أمّ سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهى لغة فى العطاء ؛ أنطيته : أعطيته . و« الكَوْثَر » فَوْعَل من الكثرة ؛ مثل النَّوْفل من النَّفل ، والجَوْهر من الجهر . والعرب تسمِّى كلّ شيء كثيرٍ فى العدد والقدر والخَطَر كَوْثَرًا . قال سفيان : قيل لعجوز رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت بكوثر ؛ أى بمال كثير . والكوثر من الرجال : السيد الكثير الخير . قال الكُمَيْت :

وأَنْتَ كثيرٌ يا ٱبن مَرْوان طَيِّبٌ * وكان أبوك ٱبنُ العَقائِل كَوْثَرا

والكوثر : العدد الكثير من الأصحاب والأشياع . والكوثر من الغبار : الكثير . وقد تكوثر [إذا كثر] ؛ قال الشاعر :

* وقَدْ ثارَ نَقْعُ المَوْتِ حتّى تَكَوْثَرا (١) *

الثانيـة — واختلف أهل التأويل فى الكوثر الذى أُعطِيَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولا : الأول — أنه نهرٌ فى الجنة ؛ رواه البخاريّ عن أنس والترمذيّ أيضا

(١) هذا عجز بيت لحسان بن نُشْبة . وصدره كما فى اللسان :

* أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم *

وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة . وروى الترمذى أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدرّ والياقوت تُرْبته أَطْيَبُ من المسك وماؤه أحْلَى من العسل وأبيضُ من الثلج" هذا حديث حسن صحيح .
الثانى — أنه حَوْض النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الموقف؛ قاله عطاء . وفى صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغْفَى(١) إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يارسول الله ؟ قال "نزلت على آنفا سورة — فقرأ — بسم الله الرحمن الرحيم « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » — ثم قال — أتدرون ما الكوثر" . ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : "فإنه نهر وَعَدَنيه رَبِّى عزّ وجلّ عليه خير كثير هو حَوْض تَرِد عليه أمّتى يوم القيامة آنيتُه عدد النجوم فيُخْتَلَج(٢) العبد منهم فأقول إنه من أمّتى فيقال إنك لا تدرى ما أحدث بعدك" .

والأخبار فى حَوْضه فى الموقف كثيرة ذكرناها فى كتاب « التذكرة » . وأن على أركانه الأربعة خلفاؤه الأربعة؛ رضوان الله عليهم . وأن مَن أبغض واحدا منهم لم يَسْقِه الآخر . وذكرنا هناك من يطرد عنه . فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك . ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثرا لكثرة الواردة والشاربة من أمّة محمد عليه السلام هناك . ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير . الثالث — أن الكوثر النبوّة والكتاب؛ قاله عكرمة . الرابع — القرآن؛ قاله الحسن . الخامس — الإسلام؛ حكاه المغيرة . السادس — تيسير(٣) القرآن وتخفيف الشرائع؛ قاله الحسين بن الفضل . السابع — هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع؛ قاله أبو بكر بن عياش ويَمَان بن رِئاب . الثامن — أنه الإيثار؛ قاله ابن كَيْسان . التاسع — أنه رفعة الذكر؛ حكاه الماوردىّ . العاشر — أنه نور فى قلبك دلّك علىّ وقطعك عما سواى . وعنه : هو الشفاعة؛ وهو الحادى عشر . وقيل : معجزات الرب هَدَى بها أهلَ الإجابة لدعوتك؛ حكاه

(١) فى صحيح مسلم طبع الآستانة وبولاق : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى ... » الحديث . (٢) أى ينتزع ويقتطع . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « تسهيل » .

الثعلبي"، وهو الثانى عشر . الثالث عشر — قال هلال بن يَساف : هو لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقيل : الفقه فى الدين . وقيل : الصلوات الخمس ؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر . وقال ابن إسحاق : هو العظيم من الأمر؛ وذكر بيت لبيد :

وصاحب مَلْحُوبٍ فُجِعْنا بفَقْدِه * وعِنْدَ الرِّداعِ بيتُ آخَرَ كَوْثَرُ

أى عظيم (١) .

قلت : أصح هذه الأقوال الأول والثانى؛ لأنه ثابت عن النبي" صلى الله عليه وسلم نص فى الكوثر . وسَمِع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون فى الحوض، لقد تركت عجائز خلفى ، ما تصلّى امرأة منهنّ إلا سألت الله أن يسقيَها من حوض النبي" صلى الله عليه وسلم . وفى حوضه يقول الشاعر :

يا صاحبَ الحوضِ مَن يُدانيكا * وأنت حَقًّا حَبيبُ باريكا

وجميع ما قيل بعد ذلك فى تفسيره قد أُعْطِيَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيادةً على حوضه، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا .

قوله تعالى : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ ﴾ أى أقم الصلاةَ المفروضةَ عليك؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ » صلاةَ العيد يوم النحر « وَٱنْحَرْ » نُسكك . وقال أنس : كان النبي" صلى الله عليه وسلم يَنْحَر ثم يُصَلِّى؛ فأُمِر أن يصَلِّى ثم يَنْحَر . وقال سعيد بن جُبير أيضا : صَلِّ لربك صلاةَ الصبح المفروضة بجَمْع (٢) وٱنحر البُدْنَ بمِنًى . وقال سعيد بن جبير أيضا : نزلت فى الحُدَيْبِيَة حين حُصِر النبي" صلى الله عليه وسلم عن البيت، فأمره الله تعالى أن يصلّى وينحر البُدْن وينصرف؛ ففعل ذلك . قال ابن العربي" : «أما من

(١) ملحوب : ماء لبنى أسد بن خزيمة . وصاحبه : عوف بن الأحوص . والرداع (بالكسر) : اسم ماء أيضا . والكوثر أيضا : السيد الكثير الخير . (٢) جمع : المزدلفة .

قال إن المراد بقوله تعالى : « فَصَلِّ » الصلوات الخمس؛ فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين. وأما من قال : إنها صلاة الصبح بالمزدلفة؛ فلأنها مقرونة بالنحر، وهو فى ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحر» .

قلت : وأما من قال إنها صلاة العيد؛ فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكة صلاةُ عيدٍ بإجماع فيما حكاه ابن عمر . قال ابن العربيّ : «فأما مالك فقال : ما سمعت فيه شيئا، والذى يقع فى نفسى أن المراد بذلك صلاة يوم النحر، والنحر بعدها» . وقال علىّ رضى الله عنه ومحمد ابن كعب : المعنى ضع اليمنى على اليسرى حذاء النحر فى الصلاة . وروى عن ابن عباس أيضا . وروى عن علىّ أيضا : أن يرفع يديه فى التكبير إلى نحره . وكذا قال جعفر بن علىّ : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » قال : يرفع يديه أول ما يكبر للإحرام إلى النحر . وعن علىّ رضى الله عنه قال : لما نزلت « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : "ما هذه النَّحيرة التى أمرنى الله بها" ؟ قال : "ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم فى السموات السبع وإن لكل شىء زينة وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة" . وعن أبى صالح عن ابن عباس قال : استقبل القبلة بنحرك؛ وقاله الفرّاء والكلبىّ وأبو الأحوص . ومنه قول الشاعر :

أبا حَكَمٍ ما أنت عَمُّ مُجَالِدٍ * وسيدُ أهلِ الأَبْطَحِ المُتَنَاحِرِ

أى المتقابل . قال الفرّاء : سمعت بعض العرب يقول : ما زلنا[1] نتناحر؛ أى نتقابل نحر هذا بنحر هذا؛ أى قُبالته . وقال ابن الأعرابى : هو انتصاب الرجل فى الصلاة بإزاء المحراب؛ من قولهم : منازلهم تتناحر؛ أى تتقابل . وروى عن عطاء قال : أمره أن يستوى بين السجدتين

(١) الذى فى كتاب الفراء : « منازلنا تتناحر هذا أى قبالته » . والذى فى اللسان نقلا عن الفراء : « منازلهم تناحر هذا بنحر هذا أى قبالته » .

جالسا حتى يَبْدُوَ نحره . وقال سليمان التَّيْميّ : يعني وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك . وقيل : « فَصَلِّ » معناه وآعبد . وقال محمد بن كعب القرظيّ : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » يقول : إن ناسا يصلّون لغير الله وينحرون لغير الله ؛ وقد أعطيناك الكوثر ، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله . قال آبن العربيّ : « والذي عندي أنه أراد آعبد ربك وآنحر له ، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر ، وبالحَرِيّ أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخصوصية من الكوثر ، وهو الخير الكثير الذي أعطاكه الله ، أو النهر الذي طينه مسك وعدد آنيته نجوم السماء ؛ أما أن يوازي هذا صلاة يوم النحر وذبح كبش أو بقرة أو بَدَنة ، فذلك يبعد في التقدير والتدبير وموازنة الثواب للعبادة » . والله أعلم .

الثانيـــة — قـد مضى القول في سورة « الصافات »(١) في الأُضْحِيـة وفضلها ووقت ذبحها ؛ فلا معنى لإعادة ذلك . وذكرنا أيضا في سورة « الحج »(٢) جملةً من أحكامها . قال آبن العربيّ : «ومن عجيب الأمر أن الشافعي قال : إن من ضَحّى قبل الصلاة أجزأه ، والله تعالى يقول في كتابه : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » فبدأ بالصلاة قبل النحر ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في البخاريّ وغيره عن البراء بن عازب قال : "أوّل ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلّي ثم نرجع فننحر مَن فعل فقد أصاب نُسُكنا ومَن ذبح قبلُ فإنما هو لحم قدّمه لأهله ليس من النُّسك في شيء" . وأصحابه ينكرونه ، وحبذا الموافقة » .

الثالثـــة — وأما ما روي عن عليّ عليه السلام « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » قال : وضع اليمين على الشّمال في الصلاة — خرّجه الدارقطنيّ — فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال : الأوّل — لا توضع في فريضة ولا نافلة ؛ لأن ذلك من باب الاعتماد . ولا يجوز في الفرض ولا يستحب في النفل . الثاني — لا يفعلها في الفريضة ويفعلها في النافلة استعانةً ؛ لأنه موضع ترخّص . الثالث — يفعلها في الفريضة والنافلة . وهو الصحيح ؛ لأنه ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٠٧ وما بعدها . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٤٢ وما بعدها .

آبن حجر وغيره . قال آبن المنذر : وبه قال مالك وأحمد وإسحاق، وحُكي ذلك عن الشافعيّ. واستحب ذلك أصحابُ الرأى . ورأت جماعةٌ إرسالَ اليد . وممن رَوَيْنا ذلك عنه آبن المنذر(١) والحسن البصريّ وإبراهيم النَّخَعِيّ .

قلت : وهو مَرْوِيّ أيضا عن مالك . قال ابن عبد البر : إرسال اليدين ووضع اليمنى على الشمال كل ذلك من سُنّة الصلاة .

الرابعــة — واختلفوا فى الموضع الذى توضع عليه اليد؛ فرُوِيَ عن علىّ بن أبى طالب أنه وضعهما على صدره . وقال سعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل : فوق السرّة . وقال : لا بأس إن كانت تحت السرّة . وقالت طائفة : توضع تحت السرّة . وروى ذلك عن علىّ وأبى هريرة والنَّخَعِيّ وأبى مِجْلَز . وبه قال سفيان الثورىّ وإسحاق .

الخامســة — وأما رفع اليدين فى التكبير عند الآفتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فآختلف فى ذلك؛ فروَى الدّارَقُطْنِيّ من حديث حُميد عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه إذا دخل فى الصلاة، وإذا ركع ، وإذا رفع رأسه من الركوع ، وإذا سجد . لم يَرْوِه عن حُميد مرفوعًا إلا عبد الوهاب الثقفىّ . والصواب من فعل أنس . وفى الصحيحين من حديث آبن عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى تكونا حَذْوَ مَنْكِبَيْهِ، ثم يُكَبِّر، وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ويقول : سَمِع الله لمن حَمِده . ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود . قال آبن المنذر : وهذا قول اللَّيْث بن سعد والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبى ثَوْر . وحكى آبن وهب عن مالك هذا القول . وبه أقول؛ لأنه الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت طائفة : يرفع المصلّى يديه حين يفتتح الصلاة، ولا يرفع فيما سوى ذلك . هذا قول سفيان الثورىّ وأصحاب الرأى .

---

(١) فى بعض الأصول : « ابن الزبير » .

قلت : وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لحديث ٱبن مسـعود ، خرّجه الدّارقُطْنِيّ من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل . قال : حدّثنا محمد بن جابر عن حمّاد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : صلّيْتُ مع النبيّ صلى الله عليـه وسلم ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أوّلا عنـد التكبيرة الأولى في ٱفتتـاح الصلاة . قال إسحاق : به نأخذ في الصلاة كلّها . قال الدّارَقُطْنِيّ : تفرّد به محمد بن جابر وكان ضعيفًا عن حماد عن إبراهيم . وغيرُ حمّاد يَرْوِيه عن إبراهيم مُرْسَلاً عن عبد الله من فعله غيرَ مرفوع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهو الصواب . وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبـد الرحمن بن أبي ليلى عن البراء أنه رأى النبيّ صلى الله عليـه وسلم حين افتتح الصلاة رفع يديه حتى يُحاذِيَ بهما أُذُنَيْه ، ثم لم يَعُد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة . قال الدارقطنيّ : [وإنما](1) لُقِّن يزيد في آخر عمره : «ثم لم يعد» ؛ فتلقّنه وكان قد ٱختلط . وفي (مختصر ما ليس في المختصر) عن مالك : لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة . قال ٱبن القاسم : ولم أر مالكا يرفع يديه عند الإحرام . قال : وأحبّ إليّ تركُ رفع اليدين عند الإحرام .

قوله تعالى : إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

أي مُبْغِضك ؛ وهو العاص بن وائل . وكانت العرب تُسَمِّي من كان له بنون وبناتٌ ثم مات البنون وبقي البنات أبتر . فيقال : إن العـاص وقف مع النبيّ صلى الله عليـه وسلم يكلمه ، فقال له جمع من صناديد قريش : مع من كنت واقفا ؟ فقال : مع ذلك الأبتر . وكان قد تُوُفِّيَ قبـلَ ذلك عبدُ الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من خديجة ؛ فأنزل الله جلّ شأنه : «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ» أي المقطوع ذِكْره من خير الدنيا والآخرة . وذكر عكرمة عن ٱبن عباس قال : كان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا : بُتِر فلان . فلما مات إبراهيم ٱبن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج أبوجهل إلى أصحابه فقال : بُتِر محمد ؛ فأنزل الله جل ثناؤه :

(١) الزيادة من الدارقطني .

« إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » يعني بذلك أباجهل . وقال شِمر بن عطية : هو عُقْبة بن أبى مُعَيط . وقيل : إن قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده قد بُتِر فلان . فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٱبنه القاسم بمكة ، وإبراهيم بالمدينة قالوا : بُتِر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السُّدّىّ وٱبن زيد . وقيل : إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة : نحن أصحاب السِّقاية والسِّدانة والحِجابة واللواء وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصُّنَيْبِر(١) الأُبَيْتِر من قومه ؟ قال كعب : بل أنتم خير؛ فنزلت فى كعب : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ »(٢) الآية . ونزلت فى قريش : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ »؛ قاله ٱبن عباس أيضا وعكرمة . وقيل : إن الله عز وجل لما أوْحَى إلى رسوله ودعا قريشا إلى الإيمان قالوا : ٱنْبَتَر منّا محمد؛ أى خالفنا وٱنقطع عنا . فأخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم هم المبتورون؛ قاله أيضا عِكرمة وشَهْر بن حَوْشَب . قال أهل اللغة : الأبتر من الرجال الذى لا ولد له، ومن الدوابّ الذى لا ذَنَب له . وكلُّ أمرٍ انقطع من الخير أثره فهو أبتر . والبتر : القطع . بَتَرْتُ الشيء بَتْرًا : قطعته قبل الإتمام . والاٌنبتار : الاٌنقطاع . والباتر : السيف القاطع . والأبتر : المقطوع الذَّنَب . تقول منه : بَتِر (بالكسر) يَبْتَر بَتَرًا . وفى الحديث "ما هذه البُتَيْرَاء" . وخطب زياد خطبته البَتْرَاء؛ لأنه لم يَحْمَد الله فيها ولم يُصَلِّ على النبىّ صلى الله عليه وسلم . ٱبن السِّكِّيت : الأبتران العَيْر والعَبْد؛ قال : سُمّيا أَبْتَرَيْن لقلّة خيرهما . وقد أبتره الله أى صيّره أبتر . ويقال : رجل أُبَاتِر (بضم الهمزة) للذى يقطع رَحِمه . قال الشاعر :

لَئِيمٌ نَزَتْ فى أَنْفِهِ خُنْزُوَانَةٌ * عَلَى قَطْعِ ذِى الْقُرْبَى أَحَذُّ أُبَاتِرُ

والبُتْرِيَّة : فِرقة من الزيدية؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد، ولقبه الأبتر . وأمّا الصُّنْبُور فلفظ مشترك . قيل : هو النخلة تبقى منفردة ويَدِقّ أسفلها ويتقشّر؛ يقال : صَنْبَرَ أسفلُ النخلة .

---

(١) فى نسخة الصنبور . وسيأتى للصنف بيان معناه . (٢) آية ٥١ سورة النساء .

وقيل : هو الرجل الفَرْد الذى لا ولد له ولا أخ . وقيل : هو مَثْعَبُ الحوض خاصّةً؛ حكاه أبو عبيد . وأنشد :

* ما بين صُنْبُورٍ إلى الإزاءِ *

والصُّنْبُور : قصبة تكون فى الإداوة من حديد أو رَصاص يُشْرَب منها . حَكَى جميعَه الجوهرىّ رحمه الله . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة « الكافرون »

وهى مَكِّيّة؛ فى قول آبن مسعود والحسن وعِكْرِمة . ومَدَنِيّة؛ فى أحد قَوْلَي آبن عباس وقَتادة والضحاك . وهى ست آيات .

وفى الترمذى من حديث أنس أنها تعدِل ثلث القرآن . وفى كتاب (الرد لأبى بكر الأنبارىّ) : أخبرنا عبدالله بن ناجية قال : حدّثنا يوسف قال حدّثنا القَعْنَبِيّ وأبو نعيم عن موسى بن وَرْدان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " « قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » تعدِل ربع القرآن " . ورواه موقوفا عن أنس . وخرّج الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد عن آبن عمر قال : صلّى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاةَ الفجر فى سَفَر فقرأ « قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » و « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ثم قال : " قرأت بكم ثُلُثَ القرآن ورُبعَه " . وروى جُبير بن مُطْعِم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أتحبّ يا جبير إذا خرجت سفرًا أن تكون من أمْثَل أصحابك هيئةً وأكثرهم زادًا " ؟ قلت : نعم . قال : " فآقرأ هذه السورَ الخمسَ من أوّل « قل يأيها الكافرون — إلى — قل أعوذ برب الناس » وآفتتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم " . قال : فوالله لقد كنتُ غيرَ كثيرِ المال، إذا سافرت أكون أبذّهم هيئةً وأقلّهم زادًا، فمذ قرأتهنّ صرتُ من أحسنهم هيئةً وأكثرهم زادًا حتى أرجع من سفرى ذلك .

---

(١) مثعب الحوض : مسيله . (٢) الإزاء : مصب الماء فى الحوض .
(٣) الإداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء . (٤) بذ الهيئة : رثها .

وقال فروة بن نوفل الأشجعي : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أوصني . قال : "اقرأ عند منامك « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » فإنها براءة من الشرك". خرّجه أبو بكر الأنباري وغيره . وقال ابن عباس : ليس في القرآن أشدّ غيظًا لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك . وقال الأصمعي : كان يقال لـ«قُلْ يا أيها الكافرون»، و« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » المُقَشْقِشَتان؛ أي إنهما يبرئان من النفاق . وقال أبو عبيدة : كما يُقَشْقِشُ الهِناءُ(١) الجَرَبَ فيُبْرِئُه . وقال ابن السِّكّيت : يقال للقَرْح والجُدَرِي إذا يَبِس وتقرّف، وللجرب في الإبل إذا قَفَل(٢): قد توسّف جلده، وتقشّر جلده، وتَقَشْقَش جلده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ ﴾

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس : أن سبب نزولها أن الوليد بن المُغيرة، والعاص ابن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خلف؛ لَقُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد، هَلُمّ فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كلّه؛ فإن كان الذي جئتَ به خيرا مما بأيدينا كنا قد شاركناك فيه وأخذنا بحظّنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك كنتَ قد شَرِكْتنا في أمرنا وأخذتَ بحظك منه؛ فأنزل الله عز وجل « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » . وقال أبو صالح عن ابن عباس : إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو استلمت(٣) بعض هذه الآلهة لصدقناك؛ فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه السورة، فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه . والألف واللام ترجع إلى معنى المعهود

---

(١) الهناء (بالكسر): القطران . (٢) قفل الجلد : يبس . (٣) استلم الحجر: لمسه إما بالقبلة أو باليد .

وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأىّ؛ لأنها مخاطبة لمن سبق فى علم الله تعالى أنه سيموت على كفره، فهى من الخصوص الذى جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماوردىّ: نزلت جوابا، وعنى بالكافرين قوما معيّنين لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون. قال أبو بكر بن الأنبارىّ: وقرأ من طعن فى القرآن: قل للذين كفروا «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله من أن يذلّ نبيّه للمشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزّرِىّ، وإلزامهم ما يأنف منه كلّ ذى لُبّ وحِجاً. وذلك أن الذى يدّعيه من اللفظ الباطل قراءتنا تشتمل عليه فى المعنى، وتزيد تأويلا ليس عندهم فى باطلهم وتحريفهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا يأيها الكافرون؛ دليلُ صحة هذا أن العربىّ إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا، فمعناه قل لزيد يا زيد أقبل إلينا. فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغُ معنًى؛ إذ كان الرسول عليه السلام يعتمدهم فى ناديهم، فيقول لهم: «يأيها الكافرون». وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى الكفر ويدخلوا فى جملة أهله إلا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يدٌ، أو تقع به من جهتهم أذيّة. فمن لم يقرأ «قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ» كما أنزلها الله أسقط آيةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وسبيل أهل الإسلام ألّا يسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيّهم باختزال الفضائل عنه التى منحه الله إياها وشرّفه بها. وأما وجه التّكرار فقد قيل إنه للتأكيد فى قطع أطماعهم؛ كما تقول: والله لا أفعل كذا ثم والله لا أفعله. قال أكثر أهل المعانى: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن مذاهبهم الاختصارُ إرادةَ التخفيف والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شىء إلى شىء أولَى من اقتصاره فى المقام على شىء واحد؛ قال الله تعالى: «فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»، «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ»، و«فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل : ٱرْمِ ٱرْمِ ، ٱعْجَلْ ٱعْجَلْ ؛ ومنه قوله عليه السلام فى الحديث الصحيح : "فلا آذَنُ ثم لا آذَنُ إنما فاطمةُ بَضْعَةٌ مِنّى"[1] خرّجه مسلم . وقال الشاعر :

هـلاّ سَأَلْتَ جُموعَ كِنْدَةَ * يومَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا

وقال آخـر :

يالَبَكْرٍ أَنشِرُوا لِي كُلَيْبًا * يالَبَكْرٍ أَيْنَ أينَ الفِـرارُ[2]

وقال آخـر :

يا علقمهْ يا علقمهْ يا علقمهْ * خيرَ تَمِـيمٍ كلِّهـا وأَكْرَمَـهْ

وقال آخـر :

يا أَقْرَعُ بنَ حابِسٍ يا أقرعُ * إنّك إن يُصْرَعْ أخوكَ تُصْرَعُ[3]

وقال آخـر :

ألَا يا ٱسْلَمِي ثُمّ ٱسْلَمِي ثُمّتَ ٱسْلَمِي * ثلاثُ تَحِيّـاتٍ وإنْ لَمْ تَكَلَّمِ

ومثله كثير . وقيل : هـذا على مطابقة قولهم : تعبـد آلهتنا ونعبد إلهك ، ثم تعبـد آلهتنا ونعبـد إلٰهك ، ثم تعبد آلهتنا ونعبـد إلٰهك ، فنَجْرِى على هـذا أبدًا سَـنةً وسَنة . فأجيبوا عن كل ما قالوه بضـدّه ؛ أى إن هـذا لا يكون أبدا . قال ٱبن عبـاس : قالت قريش للنبيّ صـلى الله عليـه وسلم : نحن نعطيك من المـال ما تكون به أغْنَى رجـلٍ بمكة ، ونزوّجك مَن شئت ، ونطأ عَقِبَك ؛ أى نَمْشى خلفك ، وتكفّ عن شتم آلهتنا ، فإن لم تفعل فنحن نعرض عليك خَصْلة واحدة هى لنـا ولك صلاح ؛ تعبد آلهتنا اللاّت والعُزّى سـنة ،

---

(١) لفظ الحديث كما فى صحيح مسلم (باب الفضائل) : "... أنه سمع رسول الله صلى الله عليـه وسلم على المنبر وهو يقول : إن بنى هشام بن المغـيرة استأذنونى أن ينكحوا ٱبنتهم علىّ بن أبى طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهـم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فإنمـا ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابهـا ويؤذينى ما آذاها" والبضعة (بالفتح وقد تكسر) : القطعة من اللحم . (٢) البيت من أبيات المهلهل بن ربيعة قالها بعد أن أخذ بثأر أخيه كليب (راجع الشاهد العاشر بعد المائة فى خزانة الأدب) . (٣) البيت لجرير بن عبد الله البجلى . وقيل لعمرو بن خثارم البجلى . (راجع خزانة الأدب فى الشاهد الحادى والثمانين بعد الخمسمائة) .

ونحن نعبد إلهك سنة ؛ فنزلت السورة . فكان التكرار فى « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » (١) ؛ لأن القوم كثروا عليه مقالهم مَرّةً بعد مرة . والله أعلم . وقيل : إنما كثر بمعنى التغليظ . وقيـل : أى « لَا أَعْبُدُ » الســاعة « مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ » الســاعة « مَا أَعْبُدُ » . ثم قال : « وَلَا أَنَا عَابِدٌ » فى المســتقبل « مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ » فى المســتقبل « عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » قاله الأخفش والمبرّد . وقيــل : إنهم كانوا يعبدون الأوثان ، فإذا ملّوا وَثَنًا وسَئِمُوا العبادة له رفضوه ، ثم أخذوا وَثَنًا غيره بشهوة نفوسهم ، فإذا مَرُّوا بحجارة تعجبهم ألقَوْا هذه ورفعوا تلك فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونهـا ؛ فأمر عليه السلام أن يقول لهم : « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » اليوم من هذه الآلهة التى بين أيديكم . ثم قال : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » وإنمــا تعبدون الوثن الذى ٱتخذتموه ، وهو عندكم الآن . « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » أى بالأمس من الآلهة التى رفضتموها وأقبلتم على هــذه . ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فإنى أعبد إلٰهى . وقيل : إن قوله تعــالى : « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » . « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » فى الاســتقبال . وقوله : « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » على نفى العبادة منــه لمــا عبدوا فى المــاضى . ثم قال : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُــدُ » على التكرير فى اللفظ دون المعنى من قِبَــل أن التقابل يوجب أن يكون ولا أنتم عابدون ما عبدت ، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد ، إشعارًا بأن ما عبد فى المــاضى هو الذى يعبــد فى المستقبل ، مع أن المــاضى والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر . وأكثر ما يأتى ذلك فى أخبــار الله عز وجل . وقال : « مَا أَعْبُدُ » ولم يقــل مَن أعبد ؛ ليقابل به « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » وهى أصنام وأوثان ، ولا يصلح فيهــا إلا « ما » دون « مَن » فحمل الأوّل على الثــانى ليتقابل الكلام ولا يتنافى . وقد جاءت « ما » لمن يعقل . ومنه قولهم : سبحان ما سخركنّ لنا . وقيل : إن معنى الآيات وتقديرها : قل يأيها الكافرون لا أعبــد الأصنام التى تعبدونهــا ، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذى أعبــده ؛ لإشراككم به واتخاذكم الأصــنام ، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون ؛ لأنكم تعبــدونه

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى : ثم تعبد آلهتنا و نعبد إلهك فنجرى على هذا أبدا سنة وسنة فنزلت الخ .

مشركين . فأنا لا أعبد ما عبدتم ؛ أي مثل عبادتكم ؛ فـ « ما » مصدرية . وكذلك « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » مصدرية أيضا ؛ معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد .

قوله تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

فيه معنى التهديد ؛ وهو كقوله تعالى : « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (١) » أي إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا . وكان هذا قبل الأمر بالقتال فنسخ بآية السيف . وقيل : السورة كلها منسوخة . وقيل : ما نسخ منها شيء لأنها خبر . ومعنى « لَكُمْ دِينُكُمْ » أي جزاء دينكم ولي جزاء ديني . وسمّى دينهم دينًا لأنهم اعتقدوه وتولّوه . وقيل : المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي ؛ لأن الدِّين الجزاء . وفتح الياء من « وَلِيَ دِينِ » نافع ، والبَزّى عن ابن كثير باختلاف عنه ، وهشام عن ابن عامر ، وحفص عن عاصم . وأثبت الياء في « ديني » في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب ؛ قالوا : لأنها اسمٌ مثل الكاف في دينكم والتاء في قمت . الباقون بغير ياء ؛ مثل قوله تعالى : « فَهُوَ يَهْدِينِ (٢) » ، « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٣) » ونحوه ، اكتفاءً بالكسرة واتباعًا لخط المصحف ؛ فإنه وقع فيه بغير ياء .

تفسير سورة « النصر »

وهي مَدَنِيّة بإجماع . وتُسَمَّى سورة « التوديع » . وهي ثلاث آيات .

وهي آخر سورة نزلت جميعا ؛ قاله ابن عباس في صحيح مسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾

النُّصر : العَوْن ؛ مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيثُ الأرضَ ؛ إذا أعان على نباتها ومنع من قَحْطِها . قال الشاعر (٤) :

إذا انْسَلَخَ الشَّهْرُ الحرامُ فوَدِّعى * بلادَ تميم وانْصُرِى أرْضَ عامرِ

(١) آية ٥٥ سورة القصص .
(٢) آية ٧٨ سورة الشعراء .
(٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .
(٤) هو الراعي يخاطب خيلا . (عن اللسان مادة نصر) .

ويروى :

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ بجاوِزى * بلاد تميم وآنصرى أرضَ عامرِ

يقال : نصره على عدوّه ينصره نصرا ؛ أى أعانه . والآسم النُّصرة . وآستنصره على عدوّه ؛ أى سأله أن ينصره عليه . وتناصروا : نَصر بعضُهم بعضًا . ثم قيل : المراد بهذا النصر نصرُ الرسول على قريش؛ قاله الطبرىّ . وقيل : نَصْرُه على مَن قاتله من الكفار؛ فإن عاقبة النَّصْر كانت له . وأما الفتح فهو فتح مكة ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقال آبن عباس وسعيد بن جُبير : هو فتح المدائن والقصور . وقيل : فتح سائر البلاد . وقيل : ما فتحه عليه من العلوم . و « إذا » بمعنى قد؛ أى قد جاء نصر الله؛ لأن نزولها بعد الفتح . ويمكن أن يكون معناه : إذا يجيئك .

قوله تعالى : وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ ﴾ أى العرب وغيرهم . ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ﴾ أى جماعات فَوْجًا بعد فَوْج . وذلك لما فُتحت مكة قالت العرب : أمّا إذا ظَفِر محمد بأهل الحَرَم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان (١) . فكانوا يُسلمون أفواجا أمّة أمّة . قال الضحاك : والأمّة أربعون رجلا . وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن . وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين ، بعضهم يؤذِّنون ، وبعضهم يقرءون القرآن، وبعضهم يُهَلِّلون؛ فَسُرّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وبكى عمر وآبن عباس . وروى عكرمة عن آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ : " « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » وجاء أهل اليمن رَقيقةً أفئدتُهم، لَيِّنَـةً طباعُهم ، سَخِيَّة قلوبُهم ، عظيمةً خشيتُهم ، فدخلوا فى دين الله أفواجا " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاكم أهل اليمن هم أضعفُ قلوبًا وأرقّ أفئدة الفِقْهُ يمانٍ والحكمةُ يمانِيَة " . وروى أنه

(١) أى طاقة .

صـلى الله عليه وسـلم قال : "إني لأجد نَفَس(١) ربكم من قِبَل اليمن" . وفيه تأويلان : أحدهمـا — أنه الفرج؛ لتتابع إسلامهم أفواجا . والثـانى — معناه أن الله تعـالى نَفّس الكرب عن نبيّه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن وهم الأنصار . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعتُ رسـولَ الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : "إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجًا وسيخرجون منه أفواجا" ذكره المـاوردىّ . ولفظ الثعلبىّ : وقال أبو عمار حدّثنى جار لجابر قال : سألنى جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفرقتهم؛ فجعل يبكى ويقول : سمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : "إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون من دين الله أفواجا" .

قوله تعـالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (٣)

قوله تعـالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ أى إذا صـلّيت فأكثر من ذلك . وقيـل : معنى سبّح صَلّ؛ عن ٱبن عباس . « بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى حامدا له على ما آتاك من الظفر والفتح . « وَٱسْتَغْفِرْهُ » أى سَـلِ اللهَ الغفران . وقيل : « فَسَبِّحْ » المراد به التنزيه؛ أى نَزّهه عمـا لا يجوز عليه مع شـكرك له . « وَٱسْتَغْفِرْهُ » أى سـل الله الغفران مع مداومة الذكر . والأوّل أظهر . روى الأئمة واللفظ للبخارىّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلّى رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم صلاةً بعد أن نزلت عليه سـورة « إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ » إلا يقول : "سبحانك ربّنا وبحمدك اللّهمّ ٱغفر لى" . وعنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : "سُبحانك اللّهمّ ربنا وبحمدك اللّهمّ ٱغفر لى" يتأوّل القرآن . وفى غير الصحيح : وقالت أمّ سلمة كان النبىّ صلى الله عليه وسـلم آخرَ أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يجىء ولا يذهب إلا قال : "سبحانَ الله وبحمـده أستغفر الله وأتوب

(١) قال ابن الأثير : « هو مستعار من نَفَس الهواء الذى يردّه التنفس إلى الجوف فيبرّد من حرارته ويعدّلها . أو من نفس الريح الذى يتنسمه فيستروح إليه . أو من نَفَس الروضة وهو طيب روائحها فينفرج به عنه . يقال : أنت فى نَفَس من أمرك، وٱعمل وأنت فى نَفَس من عمرك؛ أى فى سعة وفسحة قبل المرض والهرم ونحوهما » .

إليه — قال — فإنى أمرت بها — ثم قرأ — « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » إلى آخرها . وقال أبو هريرة : اجتهد النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد نزولها حتى تورّمت قدماه ، ونَحَل جسمه ، وقلّ تَبَسُّمه ، وكَثُر بكاؤه . وقال عكرمة : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم قطّ أشدّ اجتهادا في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها . وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقّاص ، ففرِحوا واستبشروا وبكى العباس ؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما يُبكيك يا عم" ؟ قال : نُعيت إليك نفسُك . قال : "إنه لكما تقول" فعاش بعدها ستين[1] يومًا ما رُئِيَ فيها ضاحكًا مستبشرا . وقيل : نزلت في مِنًى بعد أيام التّشريق في حجة الوداع ، فبكى عمر والعباس ، فقيل لهما : إن هذا يوم فرح . فقالا : بل فيه نعْي النبيّ صلى الله عليه وسلم . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "صدقتما نُعيت إلىّ نفسي" . وفي البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم . قال : فوجد[2] بعضهم من ذلك فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا مَن هو مثله ! فقال لهم عمر : إنه مَن قد علمتم[3] . قال : فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم ، فسألهم عن هذه السورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » فقالوا : أمر الله جلّ وعزّ نبيَّه صلى الله عليه وسلم إذا فُتح عليه أن يستغفره وأن يتوب إليه . فقال : ما تقول يٱبن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم حضور أجله فقال : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » فذلك علامة موتك . « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » . فقال عمر رضى الله عنه : تلومونني عليه ؟ وفي البخاريّ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول . ورواه الترمذيّ قال : كان عمر يسألني مع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتسأله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنّه مَنْ حيثُ تعلم . فسأله عن هذه الآية « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » . فقلت : إنما هو أجَلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه إياه ؛ وقرأ السورة إلى آخرها . فقال له عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . قال : هذا

(١) الذى في الطبرى والكشاف : « سنتين » . (٢) أى غضب . (٣) أى من جهة ذكائه وزيادة معرفته . أو من جهة قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حديث حسن صحيح . فإن قيل : فماذا يُغفَر للنبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يؤمر بالاستغفار؟ قيـل له : كان النبيّ صلى الله عليه وسـلم يقول في دعائه : "رَبّ اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله وما أنت أعلم به مني اللّهمّ اغفر لي خَطَئي وعَمْدي وجَهْلي وهَزْلي وكُلُّ ذلك عندي اللّهمّ اغفر لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ وما أعلنتُ وما أسررتُ أنت المقـدِّم وأنت المؤخِّر إنك على كل شيء قدير" . فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسَه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويَرَى قصورَه عن القيام بحق ذلك ذنوباً . ويحتمـل أن يكون بمعنى : كن متعلِّقا به سائلاً راغبا ، متضرِّعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق ؛ لئـلا ينقطع إلى رؤية الأعمال . وقيل : الاستغفار تَعَبُّـدٌ يجب إتيـانه لا للمغفرة بل تعبُّداً . وقيـل : ذلك تنبيه لأمته لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار . وقيـل : « وَٱسْتَغْفِرْهُ » أي استغفر لأمتك . ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أي على المُسَبِّحين والمستغفرين يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهـم . وإذا كان عليـه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار فما الظن بغـيره . روى مسلم عن عائشة قالت : كان رســول الله صلى الله عليـه وسلم يُكثر من قول "سبحانَ اللهِ وبحمـده ، أستغفر الله وأتوب إليه" . قالت : فقلت يا رسول الله ، أراك تكثر من قول "سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه" ؟ فقال : "خَبَّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتهـا أكثرتُ من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه فقد رأيتها « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » — فتح مكة — « وَرَأَيْتَ النَّـاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا »" . وقال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمِنًى في حجة الوداع ، ثم نزلت « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْـكُمْ نِعْمَتِي »(١) فعاش بعدهما النبيّ صلى الله عليه وسـلم ثمانين يوما . ثم نزلت آية الكَلَالة(٢) فعاش بعدها خمسين يوما . ثم نزل « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ »(٣) فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما . ثم نزل « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيـهِ إِلَى اللهِ »(٤) فعاش بعدها أحدا وعشرين يوما . وقال مقاتل سبعة أيام . وقيل غير هذا مما تقدّم في « البقرة »(٥) بيانه والحمد لله .

(١) آية ٣ سورة المـائدة .	(٢) آخر سـورة النساء .	(٣) آية ١٢٨ سورة التوبة .
(٤) آية ٢٨١ سورة البقرة .	(٥) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥

ســـورة « تَبَّتْ »

وهى مَكِّيَّةٌ بإجماع . وهى خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ تبت يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ فى الصحيحين وغيرهما واللفظ لمسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت « وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »(١) ورهطك منهم المخلصين(٢) ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صَعِد الصَّفَا ، فهَتَف : يا صباحاه ! فقالوا : من هذا الذى يَهتف ؟ قالوا محمد . فآجتمعوا إليه . فقال : " يا بَنى فلان يا بنى فلان يا بنى فلان يا بنى عبد مناف يا بنى عبد المطلب " فآجتمعوا إليه . فقال : " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خَيْلًا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِىَّ " ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : " فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " . فقال أبو لهب : تَبًّا لك ! ، أمَا جمعتنا إلا لهذا ! ثم قام فنزلت هذه السورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ » كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة . زاد الحميدى وغيره : فلما سمعت آمرأته ما نزل فى زوجها وفيها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، وفى يدها فِهر(٣) من حجارة ، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه ، والله إنى لشاعرة :

مُذَمَّمًا عَصَيْنا * وأَمْرَه أَبَيْنا * ودينَه قَلَيْنا

---

(١) آية ٢١٤ سورة الشعراء . (٢) قال النووى فى شرح مسلم : « وظاهر هذه العبارة أن قوله ورهطك منهم المخلصين كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته » . (٣) الفهر (بالكسر) : الحجر ملء الكف . وقيل الحجارة مطلقا .

ثم ٱنصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : "ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني". وكانت قريش إنما تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم مذَمَّما؛ يَسُبُّونه . وكان يقول : "ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش ، يَسُبُّون ويهجون مُذَمَّماً وأنا محمد" . وقيل : إن سبب نزولها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد أن أبا لهب أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ما ذا أُعْطَى إن آمنت بك يا محمد ؟ فقال : "كما يُعْطَى المسلمون" قال : مالي عليهم فَضْلٌ ؟! . قال : "وأيّ شيء تبغي" ؟ قال : تَبًّا لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلاء سواء؛ فأنزل الله تعالى فيه: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» . وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كَيْسان قال : كان إذا وَفَد على النبيّ صلى الله عليه وسلم وَفْدٌ ٱنطلق إليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون له : أنت أعلم به منّا . فيقول لهم أبو لهب : إنه كذاب ساحر . فيرجعون عنه ولا يَلْقَوْنه . فأتى وفد ففعل معهم مثل ذلك فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه . فقال لهم أبو لهب : إنّا لم نزل نعالجه ، فتبًّا له وتعْسًا ؛ فأُخْبِر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فٱكْتَأَبَ لذلك ؛ فأنزل الله تعالى « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » السورة . وقيل : إن أبا لهب أراد أن يرمي النبيّ صلى الله عليه وسلم بحجر فمنعه الله من ذلك ، وأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » للمنع الذي وقع به . ومعنى « تَبَّتْ » خَسِرت ؛ قاله قتادة . وقيل : خابت ؛ قاله ٱبن عباس . وقيل : ضلت ؛ قاله عطاء . وقيل : هلكت ؛ قاله ٱبن جُبير . وقال يَمان بن رِئاب : صَفِرت من كل خير . حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو ٱبن العلاء أنه لما قُتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفا يقول :

لَقَدْ خَلَّوْكَ وانْصرفوا ... فما آبُوا ولا رَجَعوا

ولم يُوفُوا بنَذْرِهِمُ ... فيا تبًّا لما صنعوا (١)

وخَصّ اليدين بالتباب لأن العمل أكثر ما يكون بهما ؛ أي خسرتا وخسر هو . وقيل : المراد باليدين نفسه . وقد يعبّر عن النفس باليد ؛ كما قال الله تعالى : « بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ » (٢)

(١) في بعض نسخ الأصل : * فتبا للذي صنعوا *

(٢) آية ١٠ سورة الحج .

أى نفسك . وهذا مهيع[(١)] كلام العرب؛ تعبّر ببعض الشيء عن كله ؛ تقول : أصابته يدُ الدهر، ويدُ الرزايا والمنايا؛ أى أصابه كلّ ذلك . قال الشاعر :

لمّا أَكَبّتْ يَدُ الرَّزايا * عليـه نادَى أَلَا مُجِـيرُ

﴿ وَتَبَّ ﴾ قال الفـرّاء : التّبُّ الأوّل دعاء والثـانى خبر؛ كما يقال : أهلكه الله وقد هلك . وفى قراءة عبد الله وأُبَىّ « وقد تب » . وأبو لهب ٱسمه عبد العُزَّى ، وهو ٱبن عبد المطلب عم النبىّ صلى الله عليه وسلم . وٱمرأته العَوْراء أمّ جميل ، أختُ أبى سفيان بن حرب ، وكلاهما، كان شديدَ العداوة للنبىّ صلى الله عليه وسلم . قال طارق بن عبـد الله المحاربى : إنى بسوق ذى المَجاز ، إذ أنا بإنسان يقول : "يأيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا". وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدْمَى ساقيه وعُرْقُوبَيْه ويقول : يأيها الناس ، إنه كذاب فلا تصدقوه . فقلت من هذا ؟ فقالوا : محمد، زعم أنه نبىّ . وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب . وروى عطاء عن ٱبن عباس قال قال أبو لهب : سحركم محمد ! إنّ أحدنا ليأكل الجَـذَعة[(٢)] ، ويشرب العُسّ[(٣)] من اللبن فلا يشبع ، وإن محمدا قد أشبعكم من فَخِذ شاة ، وأرْواكم من عُسّ لبن .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَبِى لَهَبٍ ﴾ قيل : سُمِّىَ باللّهب لحسنه وإشراق وجهه . وقد ظن قوم أن فى هذا دليلا على تَكْنِيَة المشرك ، وهو باطل ، وإنما كَنّاه الله بأبى لَهَب ــ عند العلماء ــ لمعان أربعة : الأوّل ــ أنه كان ٱسمه عبد العُزَّى ، والعُزَّى صنم ، ولم يضف الله فى كتابه العبوديةَ إلى صنم . الثـانى ــ أنه كان بكنيته أشهرَ منه باسمه ؛ فصرّح بهـا . الثـالث ــ أن الاسم أشرفُ من الكُنْية ؛ فحطّه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص ؛ إذ لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنـه ، ولذلك دعا الله تعـالى الأنبياءَ بأسمائهم ولم يَكْنِ عن أحد منهم . ويدُلُّك على شرف الاسم على الكُنْية أن الله تعـالى يُسَمَّى ولا يكنى ، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه ؛ واستحالة نسبة الكُنْيَة إليه لتقـدّسه عنها . الرابع ــ أن الله تعالى أراد أن

(١) يقال طريق مهيع : أى واضح واسع بين . (٢) الجذعة : ولد الشاة فى السنة الثانية .
(٣) العس (بالضم) : القدح الكبير .

يحقق نسبته بأن يدخله النار ، فيكون أبًا لها ، تحقيقا للنسب ، وإمضاءً للفأل والطِّيَرة التى اختارها لنفسه . وقد قيل : آسمه كُنْيَتُه . فكان أهله يُسَمّونه أبا لهب لتلهُّب وجْهِه وحُسْنه ؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا : أبو النور وأبو الضياء الذى هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لَهَب الذى هو مخصوص بالمكروه المذموم ؛ وهو النار . ثم حقّق ذلك بأن يجعلها مَقرّه . وقرأ مجاهد وحُميد وآبن كثير وآبن مُحَيْصن . « أَبِي لَهْبٍ » بإسكان الهاء . ولم يختلفوا فى « ذَاتَ لَهَبٍ » أنها مفتوحة ؛ لأنهم راعَوْا فيها رءوس الآى .

الثالثة — قال آبن عباس : لما خلق الله عز وجل القلم قال له اكتب ما هو كائن . وكان فيما كتب « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » . وقال منصور : سُئل الحسن عن قوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » هل كان فى أم الكتاب ، وهل كان أبو لهب يستطيع ألّا يَصْلَى النار ؟ فقال : والله ما كان يستطيع ألّا يصلاها ، وإنها لفى كتاب الله من قبل أن يُخلق أبو لهب وأبواه . ويؤيّده قول موسى لآدم : أنت الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، خَيَّبْتَ(١) الناس وأخرجتهم من الجنة . قال آدم : وأنت موسى الذى آصطفاك الله بكلامه وأعطاك التوراة ، تلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلق الله السموات والأرض . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " فحج(٢) آدمُ موسى " ، وقد تقدّم(٣) هذا . وفى حديث هَمّام عن أبى هريرة أن آدم قال لموسى : " بكم وجدتَ الله كتب التوراة قبل أن يخلقنى " ؟ قال : " بألفى عام " قال : " فهل وجدت فيها : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » " قال : " نعم " قال : " أفتلومنى على أمر كتب الله علىّ أن أفعله من قبل أن أُخلق بألفى عام " . فحج آدمُ موسى . وفى حديث طاوس وآبن هُرْمُز والأعرج عن أبى هريرة : " بأربعين عاما " .

---

(١) فى الأصول : « أغويت » .	(٢) أى غلبه بالحجة .	(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٥٦

قوله تعالى : مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾

أى ما دفع عنه عذابَ الله ما جمع من المال ولا ما كسب من جاه . وقال مجاهد : من الولد ؛ وولد الرجل من كسبه . وقرأ الأعمش « وَمَا ٱكْتَسَبَ » ورواه عن ٱبن مسعود . وقال أبو الطُّفَيل : جاء بنو أبى لهب يختصمون عند ٱبن عباس فاقتتلوا ، فقام ليَحْجُز بينهم فدفعه بعضهم فوقع على الفراش ؛ فغضب ٱبن عباس وقال : أخرجوا عنى الكسب الخبيث ؛ يعنى ولده . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أطيب ما أكل الرجلُ من كسبه وإن ولده من كسبه ". خرّجه أبو داود . وقال ٱبن عباس : لما أنذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته بالنار، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ٱبن أخى حَقًّا فإنى أَفْدى نفسى بمالى وولدى ؛ فنزل : « مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » . و « ما » فى قوله : « مَا أَغْنَى » يجوز أن تكون نفيًا ، ويجوز أن تكون ٱستفهاما ؛ أى أىّ شىء أغنى [عنه] . و « ما » الثانية يجوز أن تكون بمعنى الذى ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا ؛ أى ما أغنى عنه ماله وكسبه .

قوله تعالى : سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾

أى ذات ٱشتعال وتلهُّب . وقد مضى فى سورة « المرسلات »(١) القولُ فيه . وقراءة العامة : « سَيَصْلَى » بفتح الياء . وقرأ أبو رجاء والأعمش بضم الياء . ورواها محبوب عن إسماعيل عن ٱبن كَثير، وحسين عن أبى بكر عن عاصم ، ورُويت عن الحسن . وقرأ أشهب العقيلى وأبو سَمّال العَدَوىّ ومحمد بن السَّمَيْقَع « سَيُصَلَّى » بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام؛ ومعناها سيُصَلِّيه الله؛ من قوله : « وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ »(٢) . والثانية من الإصلاء؛ أى يصليه الله؛ من قوله : « فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا »(٣) . والأولى هى الاختيار؛ لإجماع الناس عليها ؛ وهى من قوله : « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ »(٤) .

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٦٠ . (٢) آية ٩٤ سورة الواقعة .
(٣) آية ٣٠ سورة النساء . (٤) آية ١٦٣ سورة الصافات .

قوله تعالى : وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ ﴾ أمّ جميل . وقال ابن العربيّ : العوراء أمّ قبيح ، وكانت عوراء . ﴿ حَمَّالَةَ[(1)] الْحَطَبِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدّيّ : كانت تمشي بالنميمة بين الناس ؛ تقول العرب : فلان يَحْطِب على فلان إذا ورّش[(2)] عليه . قال الشاعر :

إنّ بني الأَدْرَمِ حَمَّالُو الحَطَبْ * هُمُ الوُشاةُ في الرِّضا وفي الغَضَبْ

* عليهمُ اللَّعنةُ تَتْرَى والحَرَبْ[(3)] *

وقال آخر :

مِن البِيضِ لم تُصْطَدْ على ظَهْرِ لأْمةٍ * ولم تَمْشِ بَيْنَ الحَيِّ بالحَطَبِ الرَّطْبِ

يعني لم تمش بالنمائم ، وجعل الحطب رَطْباً ليدلّ على التدخين الذي هو زيادة في الشرّ . وقال أكْثَم بن صَيْفي لبنيه : إيّاكم والنميمةَ ! فإنها نارٌ مُحْرِقة ، وإن النَّمّام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر . أخذه بعض الشعراء فقال :

إنّ النَّميمةَ نارٌ وَيْكَ مُحْرِقَةٌ * فَفِرَّ عَنْها وجانِبْ من تَعاطَاهَا

ولذلك قيل : نار الحقد لا تخبو . وثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنة نمّام " . وقال : " ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً " . وقال عليه الصلاة والسلام : " من شَرّ الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه " . وقال كعب الأحبار : أصاب بني إسرائيل قَحْط ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يستسقون فلم يُسْقَوْا . فقال موسى : " إلهي عبادَكَ " فأوحى الله إليه " إني لا أستجيب لك ولا لمن معك لأن فيهم رجلا نمّاماً قد أصرّ على النميمة " فقال موسى : " يا رَبِّ مَن هو حتى نخرجه من بيننا " ؟ فقال : " يا موسى أنهاك عن النَّميمة وأكون نماما " . قال : فتابوا بأجمعهم فسُقُوا . والنميمة من الكبائر ، لا خلاف في ذلك ؛ حتى قال الفُضَيل بن عِياض : ثلاث تهدّ العمل الصالح

(1) « حمالة » بالرفع قراءة نافع ، وبها يقرأ المؤلف .　(2) التوريش : التحريش ؛ يقال : ورّشت بين القوم وأرّشت .　(3) الحرب (بالتحريك) : نهب مال الانسان وتركه لا شيء له .

ويفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الغيبة، والنميمة، والكذب . وقال عطاء بن السائب : ذكرتُ للشعبي قولَ النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل الجنة سافك دمٍ ولا مشّاءٌ بنميمة ولا تاجرٌ يُربِي" فقلت : يا أبا عمرو، قرن النمّام بالقاتل وآكل الربا ؟ فقال : وهل تُسفك الدماء وتُنتهب الأموال وتُهيّج الأمور العظام إلا من أجل النميمة .

وقال قتادة وغيره : كانت تُعيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر . ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدّة بُخلها، فعُيّرت بالبخل . وقال ابن زيد والضحاك : كانت تحمل العِضاه والشَّوْك فتطرحه بالليل على طريق النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ وقاله ابن عباس . قال الربيع : فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير . وقال مُرّة الهَمْدانيّ : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة(1) من الحَسَك(2) فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذاتَ يوم حُزْمةً أَعْيت فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها المَلَك من خلفها فأهلكها . وقال سعيد بن جبير : حمالة الخطايا والذنوب ؛ من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ؛ دليله قوله تعالى : « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ »(3) . وقيل : المعنى حمالة الحطب في النار ؛ وفيه بُعْدٌ . وقراءة العامة « حَمَّالَةُ » بالرفع على أن يكون خبرا « وَٱمْرَأَتُهُ » مبتدأ . ويكون « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » جملةً في موضع الحال من المضمر في « حمّالة » . أو خبرا ثانيا . أو يكون « حَمَّالَةُ الْحَطَبِ » نعتًا لامرأته . والخبر « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » ؛ فيوقف على هذا على « ذَاتَ لَهَبٍ » . ويجوز أن يكون « وَٱمْرَأَتُهُ » معطوفة على المضمر في « سَيَصْلَى » فلا يوقف على « ذَاتَ لَهَبٍ » ويوقف على « وَٱمْرَأَتُهُ » وتكون « حمّالة الحطب » خبر ابتداء محذوف . وقرأ عاصم « حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » بالنصب على الذم ؛ كأنها اشتهرت بذلك فجاءت الصفة للذم لا للتخصيص ؛ كقوله تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا »(4) . وقرأ أبو قِلابة « حاملة الحطب » .

(1) الإبالة : الحزمة الكبيرة .

(2) الحسك : نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم وهو السعدان .

(3) آية ٣١ سورة الأنعام . (4) آية ٦١ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (٥)

قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أى عُنُقِها . وقال آمرؤ القيس :

وجِيدٍ كجِيد الرِّيم ليس بفاحش * إذا هي نَصَّته ولا بمُعَطَّلِ (١)

﴿ حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ أى من لِيف ؛ قال النابغة :

مَقْذُوفَةٍ بدَخِيسِ النَّحْضِ بَازِلُهَا * له صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بالمَسَدِ (٢)

وقال آخر :

يا مَسَدَ الخُوصِ تعوَّذْ مِنِّي * إنْ كنت لَدْنًا لَيِّنًا فإنِّي

* ما شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنِّ * (٣)

وقد يكون من جلود الإبل أو من أوبارها ؛ قال الشاعر :

ومَسَدٍ أُمِرَّ من أَيَانِقِ * لَيْسَ بِأَنْيَابٍ ولا حَقَائِقِ (٤)

وجمع الجيد أجياد . والمَسَد أمساد . أبو عبيدة : هو حبل يكون من صوف . قال الحسن : هي حبال من شجر تنبت باليمن تُسَمَّى المسد، وكانت تُفْتَل . قال الضحاك وغيره : هذا في الدنيا ؛ فكانت تُعَيِّر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف ، فخنقها الله جلّ وعزّ به فأهلكها ؛ وهو في الآخرة حبل من نار . وقال آبن عباس

(١) الجيد : العنق . والريم : الظبي الأبيض الخالص البياض . و « نصته » رفعته . والمعطل : الذى لا حلى عليه . وقوله « بفاحش » : أى ليس بكريه المنظر .

(٢) قال التبريزى : « مقذوفة : أى مرمية باللحم . والدخيس : الذى قد دخل بعضه فى بعض من كثرته . والنحض : اللحم ، وهو جمع نحضة . والبازل : الكبير . والصريف : الصياح . والقعو : ما يضم البكرة إذا كان خشبا ؛ فاذا كان حديدا فهو خطاف . ويروى : له صريف صريفُ القعو (بالضم) على البدل ، والنصب أجود » .

(٣) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد . والمقسئن : الذى قد انتهى فى سنه فليس به ضعف كبر ولا قوة شباب . وقيل : هو الذى فى آخر شبابه وأوّل كبره .

(٤) أمرّ الحبل : فتله فتلا شديدا . وأيانق : جمع أينق ، وأينق جمع ناقة . والأنياب : جمع ناب وهى الناقة الهَرِمة . والحقائق : جمع حِقّة وهى التى دخلت فى السنة الرابعة وليس جلدها بالقوى .

فى رواية أبى صالح : « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ » قال : سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ــ وقاله مجاهد وعُرْوة بن الزبير : تدخل من فيها وتخرج من أسفلها، ويُلْوَى سائرُها على عنقها . وقال قتادة : «حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» قال : قِلادة من وَدَع . الوَدَع : خرز بيض تخرج من البحر، تتفاوت فى الصغر والكبر . قال الشاعر :

* والحِلْمُ حِلمُ صَبِيٍّ يَمْرُثُ الوَدْعَهْ[1] *

والجمع وَدَعات . الحسن : إنما كان خرزا فى عنقها . سعيد بن المسيّب : كانت لها قِلادة فاخرة من جوهر فقالت : واللّات والعُزَّى لأُنْفِقَنّها فى عداوة محمد . ويكون ذلك عذابا فى جيدها يوم القيامة . وقيل : إن ذلك إشارة إلى الخذلان؛ يعنى أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء، كالمربوط فى جيده بحبل من مسد. والمَسَدُ : الفَتْل . يقال : مَسَد حَبْلَه يَمْسُده مَسْدًا؛ أى أجاد فتله . قال[2] :

* يَمْسُد أعْلَى لَحْمِهِ ويأْرِمُهْ *

يقول : إن البقل يقوّى ظهر هذا الحمار ويشدّه . ودابّة ممسودة الخَلْق إذا كانت شديدةَ الأَسْر[3] . قال الشاعر :

وَمَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ * صُهْبٍ عِتَاقٍ ذَاتِ مُخٍّ زَاهِقِ
* لَيْسَ بأَنْيابٍ ولا حَقائِقِ[4] *

ويروى :

* ولاضعافٍ مُخُّهُنّ زاهِقُ *

قال الفراء : هو مرفوع والشِّعْرُ مُكْفَأٌ[5] . يقول : بل مخهنّ مُكْتَنِزٌ؛ رفعه على الابتداء . قال : ولا يجوز أن يريد ولاضعافٍ زاهقٍ مخهنّ . كما لا يجوز أن تقول : مررت برجل أبوه قائمٍ؛

(١) مرث الودع يَمْرُثه ويَمْرِثه مَرْثا : مصه . (٢) هو رؤبة . (٣) الأسر : الخلق .

(٤) أمِرّ الحبل : فتله فتلا شديدا . والأيانق : جمع ناقة . والصهب : جمع الأصهب وهو بعير ليس بشديد البياض . وعتاق : جمع عتيق وهو الكريم . وزهق المخ : إذا اكتنز (اجتمع) لحمه؛ فهو زاهق . (٥) الإكفاء فى الشعر : المخالفة بين ضروب إعراب قوافيه . ومن الإكفاء أيضا المخالفة بين هجاء قوافيه إذا تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت .

بالخفض . وقال غيره : الزاهق هنا بمعنى الذاهب ؛ كأنه قال : ولاضعاف مُخّهن ، ثم ردّ الزاهق على الضعاف . ورجل مَمْسُود أي مجدول الخلق . وجارية حَسَنة المَسْد والعَصْب والجَدْل والأَرْم (١) ؛ وهي مَمْسُودة ومَعْصوبة ومَجْدولة ومَأْرومة . والمِساد على فِعال لغةٌ في المِسَاب (٢) ، وهو نِحْيُ السَّمْن وسِقاء العسل . قال جميعه الجوهري . وقد اعترض فقيل : إن كان ذلك حَبْلَها الذي تحتطب به فكيف يبقى في النار ؟ وأجيب عنه بأن الله عزّ وجلّ قادر على تجديده كلما احترق . والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموافاة ؛ فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما . ففيه معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم . فامرأته خنقها الله بحبلها ، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسَة (٣) بعد وَقْعة بَدْر بسبع ليال ، بعد أن شجّته أمّ الفضل (٤) . وذلك أنه لما قدم الحَيْسُمان مكةَ يُخْبر خَبَرَ بدر ، قال له أبو لهب : أخبرني خبر الناس . قال : نعم ، والله ما هو إلا أن لَقِينا القوم فمنحناهم أكتافنا ، يضعون السلاح منا حيث شاءوا ، ومع ذلك ما لمست الناس . لَقِينا رجالًا بيضاً على خَيْل بُلْق ، لا والله ما تُبْقِي منا ؛ يقول : ما تبقي شيئا . قال أبو رافع : وكنت غلاما للعباس أنحت الأقداح في صُفّة زَمْزَم ، وعندي أم الفضل جالسةً ، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر ، فرفعتُ طُنُب الحجرة فقلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربةً مُنْكَرة ، وثاوَرْتُه (٥) وكنت رجلًا ضعيفا ، فاحتملني فضرب بي الأرض وبَرَك على صدري يضربني . وتقدّمت أمّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة فتأخذه وتقول : استضعفته أن غاب عنه سيّده ! وتضربه بالعمود على رأسه فتَفْلِقه شَجّةً مُنْكَرة . فقام يجرّ رجليه ذليلًا ورماه الله بالعَدَسة فمات ، وأقام ثلاثةَ أيام لم يُدفن حتى أنتن ؛ ثم إن ولده غسلوه بالماء قَذْفًا من بعيد مخافةَ عَدْوَى العَدَسة . وكانت قريش تتقيها كما يُتَّقَى الطاعون . ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ، ثم رَضَموا (٦) عليه الحجارة .

(١) أي مجدولة الخلق . (٢) وقد يهمز فيقال مسأب ، كمنبر . (٣) العدسة : بثرة تخرج بالبدن فتقتل . (٤) هي لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية ، أخت ميمونة أم المؤمنين . (٥) ثاوره : واثبه . (٦) أي جعلوا الحجارة بعضها على بعض .

سورة «الإخلاص»

مَكِّيّة ، في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومَدَنيّة ، في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدّى . وهي أربع آيات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (٤)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أي الواحد الوِتر الذي لا شبيه له ، ولا نظيرَ ولا صاحبة ولا ولدَ ولا شريك . وأصل « أحد » وَحَد ؛ قلبت الواو همزة . ومنه قول النابغة :

* بذى الجَليلِ على مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ *(١)

وقد تقدّم في سورة « البقرة » الفرق بين واحد وأحد ، وفي « كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » أيضا مُسْتوفًى . والحمد لله . و « أَحَدٌ » مرفوعٌ على معنى هو أحد . وقيل : المعنى قل الأمر والشأن اللهُ أحدٌ . وقيل : « أَحَدٌ » بدلٌ من قوله : « اللهُ » . وقرأ جماعةٌ « أحدُ اللهُ » بلا تنوين طلباً للخفة ، وفرارا من التقاء الساكنين ؛ ومنه قول الشاعر :

* ولا ذاكرَ اللهَ إلا قليلا *(٢)

---

(١) صدر البيت كما في معلقته :

* كأن رحلى وقد زال النهار بنا *

و « ذو الجليل » مكان ينبت الجليل ، وهو الثمام . والثمام : نبت ضعيف قصير لا يطول .

(٢) هذا عجز بيت لأبي الأسود الدؤلي . وصدره .

* فألفيته غير مستعتب *

﴿ اللهُ الصمدُ ﴾ أى الذى يُصْمَد إليه فى الحاجات . كذا روى الضحاك عن ابن عباس قال : الذى يُصْمَدُ إليه فى الحاجات؛ كما قال عز وجل : « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ » (١) . قال أهل اللغة : الصمد السَّيد الذى يُصمد إليه فى النوازل والحوائج . قال :

أَلَا بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ (٢) بَنِي أَسَدْ * بعمرو بن مسعودٍ وبالسَّيدِ الصَّمَدْ

وقال قوم : الصمد الدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزال . وقيل : تفسيره ما بعده « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » . قال أُبَىُّ بن كعب : الصَّمَد الذى لا يَلِد ولا يُولَد ؛ لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت ، وليس شىء يموت إلا يورث . وقال علىّ وابن عباس أيضا وأبو وائل شَقِيقُ بن سَلَمة وسفيان : الصمد هو السيد الذى قد انتهى سُودَدُه فى أنواع الشرف والسُّودد ؛ ومنه قول الشاعر :

عَلَوْتُه بحُسامٍ ثم قُلْتُ له * خُذْها حُذَيْفُ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة : إنه المُسْتَغْنِى عن كلّ أحد ، والمحتاج إليه كلُّ أحد . وقال السدىّ : إنه المقصود فى الرغائب ، والمستعان به فى المصائب . وقال الحسين بن الفضل : إنه الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . وقال مقاتل : إنه الكامل الذى لا عَيْب فيه ؛ ومنه قول الزِّبْرِقان :

سيروا جميعاً بِنِصْفِ اللَّيْلِ واعْتَمِدوا * ولا رَهِينَةَ إلّا سَيِّدٌ صَمَدُ

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وابن جبير : الصَّمدُ المُصْمَتُ (٣) الذى لا جَوْف له ؛ قال الشاعر :

شهابُ حُروبٍ لا تَزالُ جيادُه * عَوابِسَ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ المُصَمَّدا (٤)

قلت : قد أتينا على هذه الأقوال مُبَيَّنة فى الصَّمد فى (كتاب الأسنى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق ؛ وهو القول الأوّل ، ذكره الخطّابى . وقد أسقط من هذه السورة من أبعده الله وأخزاه وجعل النار مقامه ومثواه وقرأ « الله الواحد الصمد » فى الصلاة والناس يستمعون فأسقط «قل هو» وزعم أنه ليس من القرآن . وغير لفظ «أحد» وادّعى أن هذا هو الصواب ،

(١) آية ٥٣ سورة النحل .	(٢) ويروى : بخيرى .	(٣) وهذا لا يجوز على الله تعالى .

(٤) علكت الدابة اللجام تعلكه (من باب قتل) علكا : لاكته وحركته . والشكيم والشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

والذى عليه الناس هو الباطل والمحال ؛ فأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لنا رَبّك ، أمِن ذهب هو أم مِن نُحاس أم مِن صُفْر؟ فقال الله عز وجل رَدًّا عليهم : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » . ففى « هو » دلالة على موضع الرّدّ ومكان الجواب ، فإذا سقط بطل معنى الآية وصحّ الافتراء[1] على الله عز وجل والتكذيبُ لرسوله صلّى الله عليه وسلّم . وروى الترمذى عن أُبَىّ بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انْسُبْ لنا رَبّك؛ فأنزل الله عز وجل «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ» . والصمد : الذى لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت، وليس شىء يموت إلا سيورث ، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورَث . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا[2] أَحَدٌ ﴾ قال : لم يكن له شبيه ولا عِدْل وليس كمثله شىء . ورُوِىَ عن أبى العالية أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم فقالوا : انْسُبْ لنا رَبّك . قال : فأتاه جبريل بهذه السورة « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » فذكر نحوه ، ولم يذكر فيه عن أُبَىّ بن كعب ، وهذا أصح ؛ قاله الترمذىّ .

قلت : ففى هذا الحديث إثبات لفظ «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» وتفسير الصمد . وقد تقدّم . وعن عكرمة نحوه . وقال ابن عباس : « لم يلد » كما ولدت مريم ، ولم يولد كما ولد عيسى وعُزَير . وهو ردٌّ على النصارى وعلى من قال : عُزَير بن الله . « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أَحَدٌ » أى لم يكن له مِثْلًا أحد . وفيه تقديم وتأخير؛ تقديره : ولم يكن له أحد كفوا ؛ فقدّم خبر كان على اسمها لينساق أواخر الآى على نظم واحد . وقُرِئَ « كفوا» بضم الفاء وسكونها . وقد تقدّم فى « البقرة » أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم فإنه يجوز فى عينه الضم والإسكان[3] ؛ إلا قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا[4] » لِعِلّة تقدّمت . وقرأ حفص « كُفُوًا » مضموم الفاء غير مهموز . وكلها لغات فصيحة .

(١) فى نسخة من الأصل : « فأسقط آية وأبطل المعنى وصحف افتراء على الله عز وجل ... » الخ .

(٢) بالهمز قراءة نافع ، وهى قراءة المؤلف .

(٣) راجع جـ ١ ص ٤٤٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٤) آية ١٥ سورة الزخرف راجع جـ ١٦ ص ٦٩

القول فى الأحاديث الواردة فى فضل هذه السورة ؛ وفيه ثلاث مسائل : —

الأولى — ثبت فى صحيح البُخَارىّ عن أبى سعيد الخُدْرىّ أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يردّدها ؛ فلما أصبح جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، وكان الرجل يَتَقَالُّها (١) ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن" . وعنه قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "أيَعْجِزُ أحدُكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة" فشق ذلك عليهم وقالوا : أيُّنا يُطيق ذلك يارسول الله ؟ فقال : "الله الواحد الصمد ثلث القرآن" (٢) خرّجه مسلم من حديث أبى الدّرداء بمعناه . وخرّج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احْشُدوا (٣) فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن" فَحَشَد (٤) من حَشَد ؛ ثم خرج نبىّ الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إنى أرى هذا خبراً جاءه من السماء ، فذاك الذى أدخله . ثم خرج فقال : "إنى قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألَا إنها تعدل ثلث القرآن" قال بعض العلماء : إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم الذى هو « الصَّمَدُ » فإنه لا يوجد فى غيرها من السُّوَر . وكذلك « أَحَدٌ » . وقيل : إن القرآن أنزل أثلاثا ، ثُلثاً منه أحكام ، وثُلثاً منه وَعْدٌ وَوَعيدٌ ، وثُلُثاً منه أسماء وصفات ؛ وقد جَمعت « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » [أحد (٥)] الأثلاث وهو الأسماء والصفات . ودل على هذا التأويل مافى صحيح مسلم من حديث أبى الدَّرْداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله جَلّ وعَزَّ جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » جزءا من أجزاء القرآن" . وهذا نص ؛ وبهذا المعنى سُمّيت سورة الإخلاص ، والله أعلم .

الثانية — روى مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سَرِيّة وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بـ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » ؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيّ صلى

(١) أى يعتقد أنها قليلة فى العمل لا فى التنقيص .　(٢) فى شرح العينى على البخارى فى فضائل القرآن : « قوله الله الواحد الصمد كناية عن قل هو الله أحد » .　(٣) من باب قتل وضرب ، ويستعمل متعدّيا ولازما .　(٤) أى اجتمع من اجتمع .　(٥) زيادة عن الخطيب .

الله عليه وسلم فقال : "سلوه لأيّ شيء يصنع ذلك" ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحبّ أن أقرأ بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخبروه أن الله عز وجل يحبه". وروى الترمذى عن أنس بن مالك قال : كان رجل من الأنصار يؤمّهم فى مسجد قُبَاء وكان كلما ٱفتتح سورة يقرأها لهم فى الصلاة فقرأ بها ، ٱفتتح بـ«قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» ، حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة ؛ فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة ثم لاترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى ، فإما أن تقرأ بها وإمّا أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى ؟ قال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمّكم بها فعلتُ ، وإن كرهتم تركتكم ؛ وكانوا يرونه أفضلهم وكرهوا أن يؤمّهم غيره ؛ فلما أتاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فقال : "يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك وما يحملك أن تقرأ هذه السورة فى كل ركعة" ؟ فقال : يارسول الله ، إنى أحبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ حُبَّها أدخلك الجنة" قال : حديث حسن غريب صحيح . قال ٱبن العربى : «فكان هذا دليلا على أنه يجوز تكرار سورة فى كل ركعة . وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه إماما من جملة الثمانية والعشرين إماما كان يصلى فيه التراويح فى رمضان بالأتراك ؛ فيقرأ فى كل ركعة «الحمد لله» و«قل هو الله أحد» حتى يُتِمّ التراويح ؛ تخفيفاً عليه ورغبةً فى فضلها . وليس من السُّنة ختم القرآن فى رمضان» .

قلت : هذا نصّ قولِ مالك ، قال مالك : وليس ختم القرآن فى المساجد بسُنّة .

الثالثـة — روى الترمذى عن أنس بن مالك (١) قال : أقبلت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فسمع رجلا يقرأ «قل هو الله أحد» ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وجَبت" قلت : وما وَجَبت ؟ قال : "الجنة" . قال : هذا حديث حسن صحيح (٢) . قال الترمذى :

---

(١) الرواية فى الترمذى عن أبى هريرة .

(٢) فى الترمذي : «حسن غريب» .

حدّثنا محمد بن مرزوق البَصْرى قال حدّثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البُنَانِى عن أنس ابن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ كل يوم مائتى مرة قل هو الله أحد مُحِىَ عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دَين " . وبهذا الإسناد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ قل هو الله أحد مائة مرة فإذا كان يوم القيامة يقول الربّ ياعبدى ٱدخل على يمينك الجنة " . قال : هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس . وفى مسند أبى محمد الدّارمى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة غفرت له ذنوب خمسين سنة " قال : وحدّثنا عبد الله بن يزيد قال حدّثنا حَيْوة قال أخبرنى أبو عَقيل أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بُنِىَ له قصر فى الجنة . ومن قرأها عشرين مرة بنى له بها قصران فى الجنة . ومن قرأها ثلاثين مرة بنى له بها ثلاثة قصور فى الجنة " . فقال عمر بن الخطاب : والله يارسول الله إذًا لنكثرن قصورنا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أوسع من ذلك " قال أبو محمد : أبو عَقيل زُهْرة بن معبد ، وزعموا أنه كان من الأبدال . وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبى العلاء يزيد بن عبد الله بن الشِّخّير عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ قل هو الله أحد فى مرضه الذى يموت فيه لم يُفْتَن فى قبره ، وأمِن من ضغطة القبر ، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكُفّها حتى تُجيزه من الصراط إلى الجنة " . قال : هذا حديث غريب من حديث يزيد تفرد به نصر بن حماد البَجَلِىّ . وذكر أبو بكر أحمد بن على ٱبن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبى فاطمة الرازى قال سمعت مالك بن أنس يقول : إذا نُقِس بالناقوس ٱشتدّ غضبُ الرحمن فتنزل الملائكة فيأخذون بأقطار الأرض فلا يزالون يقرءون « قل هو الله أحد » حتى يسكن غضبه جلّ وعزّ . وخَرّج من حديث محمد بن خالد الجَنَدِى عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة

فذلك مائتا مرة فى أربع ركعات لم يمت حتى يرى منزله فى الجنة أو يُرَى له " » . وقال أبو عمر مَوْلَى جرير بن عبد الله البجلي عن جَرير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ قل هو الله أحد حين يدخل منزله نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل وعن الجيران". وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ قل هو الله أحد مَرَّةً بُورِك عليه ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه ومن قرأها اثنتى عشرة مرة بنى الله له اثنى عشر قصرا فى الجنة وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا فإن قرأها مائة مرة كَفَّر الله عنه ذنوب خمسين سنة ماخلا الدماء والأموال فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه فى الجنة أو يُرَى له " . وعن سهل بن سعد الساعدى قال : شكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر وضيقَ المعيشة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخلت البيت فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلّم علىّ واقرأ قل هو الله أحد مرة واحدة" ففعل الرجل فأدَرّ الله عليه الرزق حتى أفاض على جيرانه . وقال أنس : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتَبُوك ، فطلعت الشمس بيضاء لها شُعاع ونور، لم أرها فيما مضى طلعت قطّ كذلك ، فأتى جبريل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا جبريل مالى أرى الشمس طلعت بيضاء بشُعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط " ؟ فقال : " ذلك لأن معاوية بن معاوية اللّيثى تُوُفِّىَ بالمدينة اليوم فبعث الله سبعين ألف ملك يصلّون عليه " . قال : " ومِمّ ذلك " ؟ قال : "كان يكثر قراءة قل هو الله أحد آناء الليل وآناء النهار وفى ممشاه وقيامه وقعوده فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه " ؟ قال : " نعم " فصلّى عليه ثم رجع . ذكره الثعلبي ، والله أعلم .

تفسير سورة « الفَلَق »

وهى مَكِّيَّة، فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومَدَنِيَّة، فى أحد قولى ابن عباس وقتادة . وهى خمس آيات .

وهذه السورة وسورة « الناس » و « الإخلاص » تعوّذ بهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سحرته اليهود، على ما يأتى . وقيل : إن المُعَوِّذتين كان يقال لهما المُقَشْقِشَتان ؛ أى تبرئان من النفاق . وقد تقدم . وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تعوّذ به ، وليستا من القرآن ؛ خالف به الإجماعَ من الصحابة وأهل البيت . قال ابن قُتَيْبَة : لم يكتب عبد الله بن مسعود فى مصحفه المعوِّذتين ؛ لأنه كان يسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ بهما ، فقدّر أنهما بمنزلة : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة . قال أبو بكر الأنبارىّ : وهذا مردود على ابن قتيبة ؛ لأن المعوذتين من كلام ربّ العالمين المعجز لجميع المخلوقين، و« أعيذكما بكلمات الله التامة » من قول البشر بيِّن . وكلامُ الخالق الذى هو آيةٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وحجةٌ له باقية على جميع الكافرين، لا يلتبس بكلام الآدميين على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان، العالم باللغة، العارف بأجناس الكلام وأفانين القول . وقال بعض الناس : لم يكتب عبد الله المعوّذتين لأنه أمن عليهما من النسيان فأسقطهما وهو يحفظهما ؛ كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يُشَكّ فى حفظه وإتقانه لها . فرُدّ هذا القول على قائله ، واحْتُجّ عليه بأنه قد كَتَب « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » ، و « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » ، و « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » وهن يجرين مجرى المعوِّذتين فى أنهن غير طوال ، والحفظ إليهن أسرع ، ونسيانهن مأمون ، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب ؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها . وسبيل كل ركعة أن تكون المقدمة فيها قبل ما يقرأ من بعدها ، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها صحيح ، وليس من السّوَر ما يجرى فى هذا المعنى مجراها ، ولا يسلك به طريقها . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « الفاتحة »(1) . والحمد لله .

(1) راجع جـ ١ ص ١١٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى النَّسائىّ عن عُقبة بن عامر قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو راكب ، فوضعتُ يدى على قَدَمه ، فقلت : أقرئنى سورة [هود](١) أقرئنى سورة يوسف . فقال لى : "ولن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من «قل أعوذ برب الفلق»" . وعنه قال : بينا أنا أسير مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بين الجُحْفة والأَبْواء ، إذ غشيتنا ريح مظلمة شديدة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ بـ «أعوذ برب الفلق» و«أعوذ برب الناس» ويقول : "يا عقبة تعوّذ بهما فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما" . قال : وسمعته يقرأ بهما فى الصلاة . وروى النسائى عن عبد الله قال : أصابنا طَشٌّ(٢) وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج(٣) . ثم ذكر كلاما معناه : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [ليصلّى بنا](٤) فقال : "قل" . فقلت : ما أقول ؟ قال : "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثا يَكْفِك كل شيء" وعن عقبة بن عامر الجُهَنِيّ قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قل" . قلت : ما أقول ؟ قال قل : "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ — فقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال — لم يتعوّذ الناس بمثلهن أو لا يتعوّذ الناس بمثلهن" . وفى حديث ابن عباس « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(١) زيادة عن سنن النسائى . (٢) الطش (بفتح الطاء وتشديد الشين) : المطر الضعيف .

(٣) الذى فى سنن النسائى : «فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى بنا ثم ذكر ... الخ» .

(٤) زيادة عن سنن النسائى .

﴿الْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هاتين السورتين » . وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا آشتكى قرأ على نفسه بالمُعَوِّذتين ويَنْفُثُ ، فلما آشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها . النَّفْث : النفخ ليس معه ريق .

الثانيــة — ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سحره يهودى من يهـود بنى زُرَيق يقال له لَبِيد بن الأَعْصَم ، حتى يُخَيَّل إليـه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعلـه ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث — فى غير الصحيح : بسـنة — ثم قال : " يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه . أتانى ملكان فجلس أحدهما عنـد رأسى والآخر عنـد رِجلى فقال [الذى عند رأسى للذى عند رجلى] (١) ما شأن الرجل قال مَطْبُوب (٢) قال ومَن طَبّـه قال لَبيـد بن الأَعْصَم قال فيما ذا قال فى مُشْط ومشاطة (٣) وجُفّ (٤) طلعةٍ ذَكَر تحت راعوفة (٥) فى بئر ذى أروان (٦) " . فجاء البئر واستخرجه (٧) . انتهى الصحيح . وقال آبن عباس : " أما شَعَرت يا عائشة أن الله تعالى أخبرنى بدائى " . ثم بَعث عَلِيًّا والزبير وعمّـار بن ياسر فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وهى الراعوفة — صخرة تترك أسفل البئر يقوم عليها المـائح (٨) ، وأخرجوا الجُفّ فإذا مُشاقة رأس إنسان ، وأسنان من مشـط و إذا وَتَر معقود فيـه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعـالى هاتين السورتين ، وهمـا إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقَد ، وأمر أن يتعوذ بهما ؛ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد النبيّ صلى الله عليه وسلم خِفّة ، حتى آنحلت العقدة الأخيرة فكأنمـا أُنْشِط من عِقال ، وقام ليس به بأس . وجعل جبريل يَرْقِى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيقول : "بآسم الله

(١) زيادة عن الصحيحين . (٢) المطبوب : المسحور . (٣) فى بعض نسخ الأصل و بعض كتب الحديث : «ومشاقة» بالقاف بدل الطاء ، وهو ما يستخرج من الكتّان . والمشط : الآلة التى يمشط بها الشعر .

(٤) الجف (بضم الجيم وتشـديد الفاء) : الغشاء الذى يكون على الطلع و يطلق على الذكر والأنثى ؛ فلذا قيـده بقوله « ذكر » . (٥) الراعوفة : حجر ناتئ على رأس البـئر لا يستطاع قلعه يقوم عليـه المستقى . وقيـل هو فى أسفلها . (٦) و يقال : «بئر ذروان» وهى بئر بالمدينة فى بستان بنى زريق . (٧) أى فى روايته .

(٨) فى بعض نسخ الأصـل : « الماتح » بالتاء المثناة من فوق ، وهو المستقى من البئر بالدلو من أعلى البئر . أما المائح بالهمز فهو الذى يكون فى أسفل البئر يملأ الدلو .

أَرْقِيك من كل شيء يؤذيك من شر حاسد وعَيْن والله يَشْفيك ". فقالوا : يا رسول الله، ألا نقتل الخبيث . فقال : " أمّا أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شرا ". وذكر القُشيرى فى تفسيره أنه ورد فى الصحاح أن غلاما من اليهود كان يخدم النبيّ صلى الله عليه وسلم، فدنت إليه اليهود[1]، ولم يزالوا به حتى أخذ مُشاطة رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم . والمشاطة (بضم الميم) ما يسقط من الشعر عند المشط . وأخذ عدّة من أسنان مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها ، وكان الذى تولّى ذلك لَبِيد بن الأعْصَم اليهودى . وذكر نحو ما تقدّم عن ٱبن عباس .

الثالثة — تقدّم فى البقرة القول فى السحر وحقيقته وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر، فلا معنى لإعادته[2] .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾ ٱختلف فيه ؛ فقيل : سِجْنٌ فى جهنم ؛ قاله ٱبن عباس . وقال أُبَىّ بن كعب : بيت فى جهنم إذا فتح صاح أهل النار من حره . وقال الحُبُلِيّ[3] أبو عبد الرحمن : هو ٱسم من أسماء جهنم . وقال الكلبى: واد فى جهنم . وقال عبد الله ابن عمرو : شجرة فى النار . سعيد بن جُبير : جُبّ فى النار . النحاس : يقال لما اطمأنّ من الأرض فَلَق ؛ فعلى هذا يصح هذا القول . وقال جابر بن عبدالله والحسن وسعيد بن جُبير أيضا ومجاهد وقتادة والقُرَظِيّ وٱبن زيد: الفلقُ، الصبح . وقاله ٱبن عباس . تقول العرب : هو أبين من فَلَق الصبح وفَرَق الصبح . وقال الشاعر :

يا ليلةً لم أنَمْها بِتُّ مُرْتَفِقًا[4] * أرْعَى النُّجومَ إلى أنْ نَوَّرَ الْفَلَقُ

وقيل : الفلق : الجبال والصخور تنفلق بالمياه ؛ أى تتشقّق . وقيل : هو التفليق بين الجبال والصخور؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل . قال زهير :

ما زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ حتّى إذا هَبَطَتْ * أيدى الرِّكابِ بِهِم مِنْ راكِسٍ فَلَقَا

(١) فى نسخة : فدست .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣ فما بعدها طبعة ثانية .

(٣) هو عبد الله بن يزيد المعافرى .

(٤) المرتفق : المتكئ على مرفق يده .

الراكس : بطن الوادي . وكذلك هو في قول النابغة :

* أتاني ودوني راكسٌ فالضواجعُ[(1)] *

والراكس أيضا : الهادي ، وهو الثور وسط البيدر[(2)] تدور عليه الثيران في الدياسة . وقيل : الرحم تنفلق بالحيوان . وقيل : إنه كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والصبح والحَبّ والنوى ، وكل شيء من نبات وغيره ؛ قاله الحسن وغيره . قال الضحاك : الفلق الخلق كله ؛ قال :

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا ربَّ الفَلَقْ * سِرًّا وقَدْ أوَنَ تأْوِينَ العُقُقْ[(3)]

قلت : هذا القول يشهد له الاشتقاق ؛ فإن الفَلْقَ الشَّقُّ . فلقت الشيء فَلْقًا أي شققته . والتفليق مثله . يقال : فلَّقته فانفلق وتفلّق . فكلّ ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحَبّ ونَوًى وماء فهو فَلَق ؛ قال الله تعالى : « فَالِقُ الإِصْبَاحِ[(4)] » وقال : « فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى[(5)] » . وقال ذو الرُّمّة يصف الثور الوحشيّ :

حتّى إذا ما انْجَلَى[(6)] عَنْ وَجْهِهِ فَلَقٌ * هادِيهِ في أُخْرَياتِ اللَّيْلِ مُنْتَصِبُ

يعني بالفلق هنا الصبح بعينه . والفلق أيضا المطمئن من الأرض بين الرَّبْوَتَيْن ، وجمعه فُلْقان ؛ مثل خَلَق وخُلْقان . وربما قالوا : كان ذلك بفالق كذا وكذا ؛ يريدون المكان المنحدر

---

(١) صدر البيت : * وعيد أبي قابوس في غير كنهه * والضواجع جمع ضاجعة وهي منحنى الوادي .

(٢) البيدر : الموضع الذي يداس فيه الحبوب . (٣) ورد هذا البيت في الأصول محرفا . وهو من أرجوزة رؤبة بن العجاج التي مطلعها : * وقاتم الأعماق خاوي المخترق *
وقوله : «أون» أي أكل وشرب حتى امتلأ بطنه . والعقق : جمع عقوق كرسول ورسل وهي التي تكامل حملها وقرب ولادها . وصف صائدا لما أحس بالصيد — وهي الأتن التي وردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها — وأراد رميه وسوس نفسه بالدعاء حذر الخيبة . (٤) آية ٩٦ سورة الأنعام . (٥) آية ٩٥ سورة الأنعام .

(٦) كذا في الأصول واللسان . والذي في الديوان : « ما جلا » . وقال ابن برى : الرواية الصحيحة :
* حتى إذا ما جلا عن وجهه شفق * وقوله : «هاديه» أي أوله ؛ مأخوذ من الهادي وهو مقدم العنق .

بين الرَّبْوتين . والفلق أيضا مِقْطرة السجان[1] . فأما الفِلق (بالكسر) فالداهية والأمر العجب؛ تقول منه : أفلق الرجل وٱفتلق . وشاعر مُفْلِق، وقد جاء بالفلق [أى بالداهية] . والفِلق أيضا القضيب يُشَقّ باثنين فيعمل منه قَوْسان؛ يقال لكل واحدة منهما فِلْقٌ . وقولهم : جاء بعُلَق فُلَق؛ وهى الداهية؛ لا يجرى [مجرى عمر[2]] . يقال منه : أَعْلَقْتَ وأَفْلَقْتَ؛ أى جئت بعُلَق فُلَق . ومَرّ يفتلق فى عَدْوِه؛ أى يأتى بالعجب من شدّته .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ قيل : هو إبليس وذرّيته . وقيل جهنم . وقيل : هو عام؛ أى من شر كل ذى شر خلقه الله عز وجل .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ٱختلف فيه؛ فقيل : هو الليل . والغَسق : أوّل ظلمة الليل؛ يقال منه : غَسَق الليلُ يَغْسِق أى أظلم . قال قَيْس الرُّقَيّات :

إنّ هَـذا الليلَ قَـدْ غسَقَا * واشْتَكَيْتُ الهَـمَّ وَالْأَرَقَا

وقال آخر :

يا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِى أَرَقًا * إِذْ جِئْتَنا طارِقًا واللَّيْلُ قَـدْ غَسَقَا

هذا قول ٱبن عباس والضحاك وقتادة والسُّدّىّ وغيرهم . و « وَقَبَ » على هـذا التفسير أَظْلَم؛ قاله ٱبن عباس . الضحاك : دخل . قتادة : ذهب . يَمَان بن رِئَاب : سكن . وقيل : نزل؛ يقال : وقب العذاب على الكافرين؛ نزل . قال الشاعر :

وَقَبَ العَـذابُ عليهمُ فكَأَنَّهُـمْ * لَحِقَتْهُـمُ نارُ السَّمومِ فأُحْصِدوا

وقال الزجاج : قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار . والغاسق : البارد . والغَسق البرد؛ ولأن فى الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العَبَث

(١) المقطرة (بكسر الميم) : خشبة فيها خروق كل خرق على قدر سعة الساق يدخل فيها أرجل المحبوسين؛ مشتق من قطار الإبل . (٢) زيادة من اللسان مادة (علق) يقتضيها السياق . وفى الأساس مادة (فلق) : « وجاء بعلق فلق » على التركيب كخمسة عشر » .

والفساد . وقيل : الغاسق الثُّرَيّا ؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت ٱرتفع ذلك ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هو الشمس إذا غربت ؛ قاله ابن شهاب . وقيل : هو القمر . قال القُتَبِيّ : « إِذَا وَقَبَ » القمرُ إذا دخل في ساهُوره ، وهو كالغلاف له وذلك إذا خسف به . وكل شيء أسود فهو غَسَق . وقال قتادة : « إِذَا وَقَبَ » إذا غاب . وهو أصح ؛ لأن في الترمذي عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر فقال : " ياعائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وَقَبَ " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الرِّيَب يتحيّنون وَجْبة القمر . وأنشد :

أراحَني اللهُ مِنْ أشياءَ أكرهُها　*　منها العَجوزُ ومنها الكَلْبُ والقَمَرُ
هذا يَبُوحُ وهذا يُسْتَضاءُ به　*　وهذه ضِمْرِزٌ قَوّامَةُ السَّحَرِ (١)

وقيل : الغاسق الحيّة إذا لدغت . وكأن الغاسق نابُها ؛ لأن السم يَغْسِق منه ؛ أي يسيل . ووَقَبَ نابُها إذا دخل في اللّديغ . وقيل : الغاسق كل هاجم يضرّ كائنا ما كان ؛ من قولهم : غَسَقَتِ القُرحةُ إذا جرى صديدها .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ يعني الساحرات اللائي يَنْفُثْن في عُقَد الخيط حين يرقين عليها . شبّه النفخ كما يعمل من يَرْقي . قال الشاعر :

أعوذُ بِرَبِّي مِنَ النّافِثَا　*　تِ في عِضَهِ العاضِهِ المُعْضِهِ (٢)

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة :

نَفَثْتَ في الخَيْطِ شَبِيهَ الرُّقَى　*　مِن خَشْيَةِ الجِنَّةِ والحاسِدِ

وقال عنترة :

فإنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفُثْ عليه　*　وإنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ له الفُقُودُ

---

(١) الضمرز (كزبرج) : الناقة المسنة . ومن النساء الغليظة . وقد وردت هذه الكلمة في نسخ الأصل محرفة ؛ ففي بعضها «صمود» وفي البعض الآخر : «ضمور» وهو تحريف . وفي البيت إقواء ؛ وهو اختلاف حركات الروى .

(٢) العضه (كعنب) : الكذب والسحر والبهتان . والعاضه : الساحر .

السابعة — روى النَّسائى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من عَقَد عُقْدة ثم نَفَث فيها فقد سَحَر ومن سَحَر فقد أشرك ومن تعلق شيئا(١) وُكل إليه" . واختُلف فى النَّفْث عند الرُّقَى؛ فمنعه قوم وأجازه آخرون . قال عكرمة : لا ينبغى للراقى أن يَنْفُث ولا يمسح ولا يَعْقِد . وقال إبراهيم : كانوا يكرهون النفث فى الرقى . وقال بعضهم : دخلتُ على الضحاك وهو وَجِع، فقلت : ألا أُعَوِّذك يا أبا محمد؟ قال : بلى، ولكن لا تنفث؛ فعوّذته بالمعوِّذتين . وقال ابن جُريج قلت لعطاء : القرآن يُنْفَخ به أو يُنفث ؟ قال : لا شيء من ذلك ولكن تقرؤه هكذا . ثم قال بَعْدُ : آنْفُث إن شئت . وسُئل محمد بن سيرين عن الرُّقْية يُنْفَث فيها فقال : لا أعلم بها بأسًا، وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السُّنّة . روت عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يَنْفُث فى الرقية؛ رواه الأئمة، وقد ذكرناه أوّل السورة وفى (سبحان(٢)) . وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمّه النبيّ صلى الله عليه وسلم، فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام؛ زعم أنه لم يحفظه . وقال محمد بن الأشعث : ذُهِب بى إلى عائشة رضى الله عنها وفى عينىّ سوء، فَرَقَتْنِي ونَفَثت .

وأما ما روى عن عكرمة من قوله : لا ينبغى للراقى أن ينفث؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث فى العُقَد مما يُستعاذ به، فلا يكون بنفسه عوذة . وليس هذا هكذا؛ لأن النفث فى العقد إذا كان مذموما لم يجب أن يكون النفث بلا عقد مذموما . ولأن النفث فى العقد إنما أريد به السحر المضر بالأرواح؛ وهذا النفث لاستصلاح الأبدان فلا يقاس ما ينفع بما يضر . وأما كراهة عكرمة المسح فخلاف السنة . قال على رضى الله عنه : اشتكيت فدخل علىّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : اللّهُمّ إن كان أجلى قد حضر فأرِحْني، وإن كان متأخرا فآشفنى وعافنى، وإن كان بلاء فصبّرنى . فقال النبيّ صلى الله عليه

(١) أى من علق شيئا من التعاويذ والتمائم معتقدا أنها تجلب إليه نفعا أو تدفع عنه ضررا . وقيل : المراد تمائم الجاهلية مثل الخرزات وأظفار السباع . أما ما يكون من القرآن والأسماء الإلهية فهو خارج عن هذا الحكم . (شرح سنن النسائى) .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣١٥ فما بعدها .

وسلم : "كيف قلت" ؟ فقلت له . فمسحني بيده ثم قال : "اللّهمّ اشفه" فما عاد ذلك الوجع بعدُ . وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورُوَيْس عن يعقوب «ومن شر النافِثات» في وزن فاعلات . ورُوِيت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وروى أن نساء سحرن النبيّ صلى الله عليه وسلم في إحدى عشرة عقدة ؛ فأنزل الله المعوِّذتين إحدى عشرة آية . قال ابن زيد : كنّ من اليهود ؛ يعني السواحر المذكورات . وقيل : هنّ بنات لَبِيد بن الأَعْصَم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قد تقدم في سورة «النساء» معنى الحسد (١) ، وأنه تمنّي زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها . والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل . فالحسد شر مذموم . والمنافسة مباحة وهي الغِبْطة . وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "المؤمن يَغْبِط والمنافق يَحْسُد" . وفي الصحيحين : "لا حَسَد إلا في اثنتين" يريد لا غبطة . وقد مضى في سورة «النساء» (٢) والحمد لله .

قلت : قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود فيتبع مساوئه ويطلب عثراته . قال صلى الله عليه وسلم : "إذا حَسَدت فلا تَبْغِ ..." الحديث . وقد تقدم . والحسد أوّل ذنب عُصِيَ الله به في السماء ، وأول ذنب عُصِيَ به في الأرض ، فحسد إبليسُ آدمَ ، وحسد قابيلُ هابيلَ . والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون . ولقد أحسن من قال :

قل للحسود إذا تنفّس طعنة * يا ظالما وكأنه مظلوم

التاسعة — هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر ، وأمر نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يتعوّذ من جميع الشرور . فقال : «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» . وجعل خاتمة ذلك الحسد ،

---

(١) معنى الحسد تقدم في سورة البقرة جـ ٢ ص ٧١ طبعة ثانية . وراجع أيضا سورة النساء جـ ٥ ص ٢٥١ .
(٢) هذا مذكور في سورة البقرة لا في سورة النساء . فليراجع .

تنبيهاعلى عِظَمه وكثرة ضرره . والحاسد عدوّ نعمة الله . قال بعض الحكماء : بارز الحاسدُ رَبَّه من خمسة أوجه : أحدها — أنه أبغض كلّ نعمة ظهرت على غيره . وثانيها — أنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟ وثالثهـا — أنه ضادّ فعل الله ، أى إن فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهو يبخل بفضل الله . ورابعها — أنه خذل أولياء الله أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . وخامسها — أنه أعان عدوّه إبليس . وقيل : الحاسد لاينال فى المجالس إلا ندامة ، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة و بغضاء ، ولا ينال فى الخلوة إلا جزعاً وغَمًّا ، ولا ينال فى الآخرة إلا حزنا واحتراقاً ، ولا ينال من الله إلا بُعْدًا ومَقْتاً . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاث لا يستجاب دعاؤهم آكل الحـرام ومُكْثِر الغِيبة ومَن كان فى قلبه غِلّ أو حسد للسلمين" . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ســـورة « النـاس »

مِثْل «الفَلَق» لأنها إحدى المُعوِّذتين . وروى الترمذىّ عن عُقْبة بن عامر الجُهَنِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "قد أنزل الله علىّ آيات لم يُرَ مثلُهن «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّـاسِ» إلى آخر السـورة و « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » إلى آخر السورة" . قال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعـالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّـاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّـاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّـاسِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ أى مالكهم ومُصْلِح أمورهم . وإنما ذكر أنه رَبُّ الناس ، وإن كان رَبّاً لجميع الخلق لأمرين : أحدهما — لأن النـاس مُعَظَّمون ؛ فأعلم بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عُظِّموا . الثانى — لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ؛ فأعلم بذكرهم

أنه هو الذي يُعيذ منهم . وإنما قال : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكا فذكر أنه ملكهم، وفي الناس مَن يعبد غيره فذكر أنه إلههم ومعبودُهم، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ويُلجأ إليه دون الملوك والعظماء .

قوله تعالى : مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾

يعني مِن شرّ الشيطان . والمعنى : من شر ذي الوسواس؛ فحذف المضاف؛ قاله الفرّاء . وهو (بفتح الواو) بمعنى الاسم؛ أي المُوَسْوِس . و (بكسر الواو) المصدر؛ يعني الوسوسة . وكذا الزلزال والزِّلزال . والوَسْوَسة : حديثُ النَّفْس . يقال : وَسْوَسَتْ إليه نفسُه وَسْوَسَةً ووِسْوسة (بكسر الواو) . ويقال لهَمْس الصائد والكلاب وأصوات الحلي : وسواس . قال ذو الرُّمّة :

فبـاتَ يُشْئِزُه ثَأدٌ ويُسْهِرُهُ * تَذَؤُّبُ الريحِ والوَسْوَاسُ والهِضَبُ [(1)]

وقال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاسا إذا ٱنْصَرَفَتْ * كما ٱسْتَعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِـلُ [(2)]

وقيل : إن الوسواس الخناس ٱبنٌ لإبليس، جاء به إلى حَوّاء ووضعه بين يديها وقال : ٱكْفُليه . فجاء آدم [عليه السلام] فقال ما هـذا [يا حـواء] [(3)] ! قالت : جاء عَدُوُّنا بهـذا وقال لي : ٱكْفُليه . فقال : ألم أقل لكِ لا تطيعيه في شيء هو الذي غرّنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعَمَد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع ، وعلّق كلّ ربع على شجرة غَيْظًا له ؛ فجاء إبليس فقال : يا حَـوّاء ، أين ٱبني ؟ فأخبرته بمـا صنع به آدم [عليـه السلام] فقال : يا خَنّـاس ، فحَيِيَ فأجابه . فجاء به إلى حَوّاء وقال : اكفليه ؛ فجاء آدم [عليه السلام] فحرقه بالنار وذَرّ رَمادَه في البحر؛ فجاء إبليس [عليه اللعنة] فقال : ياحوّاء ، أين ٱبني؟ فأخبرته بفعل آدم إياه؛ فذهب

(١) شئز الرجل : قلق من مرض أوهم . والثأد : الندى والقسر والأمر القبيح . وتذؤب الريح : هبو بها من كل وجه ، وهو مأخوذ من خداع الذئب . والهضب (بكسر الهاء) : الأمطار .

(٢) العشرق (كزبرج) : نبت له ورق فإذا يبس طار . ونبت زجل : صوتت فيه الريح .

(٣) زيادة عن نوادر الأصول للترمذي الحكيم .

إلى البحر فقال: يا خناس، فجيء فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة وقال: اكفليه. فنظر إليه آدم فذبحه وشواه وأكلاه جميعا. فجاء إبليس فسألها فأخبرته [حواء](١). فقال: يا خناس، فجيء فأجابه [فجاء به] من جوف آدم وحواء. فقال إبليس: هذا الذى أردت، وهذا مسكنك فى صدر ولد آدم؛ فهو ملتقم قلب ابن آدم مادام غافلا يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم. ووصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ»(٢) يعنى النجوم لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يخنس إذا ذكر العبدُ الله؛ أى يتأخر. وفى الخبر "إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل وسوس وإذا ذكر الله خنس" أى تأخر وأقصر. وقال قتادة: «الخناس» الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان(٣) وسوس له، وإذا ذكر العبدُ ربه خنس. يقول: خنسته فخنس؛ أى أخرته فتأخر. وأخنسته أيضا. ومنه قول أبى العلاء الحضرمى — أنشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم —:

وإن دحسوا بالشر فاعف تكرما * وإن خنسوا عند(٤) الحديث فلا تسل

الدحس: الإفساد. وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا نسى الله التقم قلبه فوسوس". وقال ابن عباس: إذا ذكر الله العبدُ خنس من قلبه فذهب، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه. وقال إبراهيم التيمى: أول ما يبدو الوسواس من قبل الوضوء. وقيل: سمى خناسا لأنه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله. والخنس: الرجوع. وقال الراجز:

وصاحب يمتعس(٥) امتعاسا * يزداد إن حييته(٦) خناسا

---

(١) زيادة عن الترمذى الحكيم. (٢) آية ١٥ سورة التكوير.
(٣) فى نسخة من الأصل: «ابن آدم». (٤) فى اللسان: «عنك».
(٥) يمتعس: يتحرك. (٦) فى بعض الأصول «جتته» وبعضها «جنته» وفى بعضها بدون إعجام.

وقد روى ابن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى : «الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ» وجهين : أحدهما — أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى — الثانى — أنه الخارج بالوسوسة من اليقين .

قوله تعالى : ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾

قال مقاتل : إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق ، سلطه الله على ذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » . وفى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم" . وهذا يصحح ماقاله مقاتل . وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبى ثعلبة الخُشَنِيّ قال : سألت الله أن يُرِيَنِي الشيطانَ ومكانَه من ابن آدم فرأيته ، يداه فى يديه ، ورجلاه فى رجليه ، ومَشاعِبه فى جسده ؛ غير أن له خَطْمًا كَخَطْم الكلب ، فإذا ذكر الله خَنَس ونَكَس ، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه . فعلى ماوصف أبو ثعلبة أنه متشعِّب فى الجسد ؛ أى فى كل عضو منه شُعبة . وروى عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال — وقد كَبِر سِنّه — : ما أمِنت الزِّنَى وما يؤمننى أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده ! فهذا القول ينبئك أنه متشعِّب فى الجسد ، وهذا معنى قول مقاتل . ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خَفِيّ يصل مفهومُه إلى القلب من غير سماع صوت .

قوله تعالى : مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

أخبر أن المُوَسْوِس قد يكون من الناس . قال الحسن : هما شيطانان ؛ أمّا شيطان الجنّ فيوسوس فى صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتى علانية . وقال قتادة : إن من الجنّ شياطين وإن من الإنس شياطين ؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجنّ . ورُوِىَ عن أبى ذرّ أنه قال لرجل : هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس ؟ فقال : أوَمِن الإنس شياطين ؟ قال : نعم ؛ لقوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ »[1] الآية . وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد به الجن . سُمُّوا ناسا كما سُمُّوا رجالا فى قوله : «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ

(١) آية ١١٢ سورة الأنعام .

الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ » — وقَوْمًا(١) ونَفَرًا(٢) . فعلى هذا يكون « وَالنَّاسِ » عطفا على « الْجِنَّةِ » ويكون التكرير لاختلاف اللفظين . وذُكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدّث : جاء قوم من الجن فوقفوا . فقيل : من أنتم ؟ فقالوا : ناس من الجن . وهو معنى قول الفرّاء . وقيل : الوسواس هو الشيطان . وقوله : « مِنَ الْجِنَّةِ » بيان أنه من الجن « والناس » معطوف على الوسواس . والمعنى : قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس الذى هو من الجنّة ومن شرّ الناس . فعلى هذا أُمِر بأن يستعيذ بالله من شرّ الإنس والجن . والجنّة جمع جِنّيّ ؛ كما يقال : إنسٌ وإنْسِيّ . والهاء لتأنيث الجماعة . وقيل : إن إبليس يوسوس فى صدور الجن كما يوسوس فى صدور الناس . فعلى هذا يكون «فى صدور الناس» عامًّا فى الجميع . و«من الجنّة والناس» بيان لما يوسوس فى صدره . وقيل : معنى «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ» أى الوسوسة التى تكون من الجنة والناس ، وهو حديث النفس . وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به " . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . فالله تعالى أعلم بالمراد من ذلك .

(١) آية ٦ سورة الجن . (٢) وذلك فى قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن ... » آية ٢٩ سورة الأحقاف .

بعون الله وتوفيقه ، تم تصحيح هذا الكتاب " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي فى يوم ٢٦ من شهر رمضان سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ١١ من شهر يوليو سنة ١٩٥٠ م .

وذلك فى عهد صاحب الجلالة مولانا " الفاروق العظيم " راعى العلم والعلماء . وكان رئيس المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية معالى الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك ، وزير المعارف العمومية . والأستاذ أمين مرسى قنديل المدير العام لها .

هذا . ونسأل الله تعالى دوام التوفيق للدار فيما تبذله من جهود فى نشر العلم والثقافة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين م

أحمد عبد العليم البردونى
بالقسم الأدبى

إصلاح خطأ

ج	ص	س	خطأ	صواب
١	١٣٥	١١	الذى تثنى	الذى نثنى
١	٣٦٨	٦	لاهُمّ رُبّ	لاهُمّ رَبّ
٢	١٨٨	٥	فى قوله « وَمَنْ يَتّخِذُ »	فى قوله « مَنْ يَتّخِذُ »
٢	٢٢٤	٦	على عِلّاته هَرَماً	على عِلّاته هَرِماً
٢	٢٨٥	١١	كُثَيِّر بن صخر	كُثَيِّر أبو صخر
٢	٣٢٦	١٠	الذين يُقاتِلُون	الذين يُقاتَلُون
٣	٢٣٢	١٦	لما رجوا من	لما رجعوا من
٥	١٩٥	١٥	« يضاعفها » بنون العظمة	« نضاعفها » بنون العظمة
٦	٧٩	٢١	جـ ٤	جـ ٥
٦	٢٣٢	٢٠	عُتّاب بن أسِيد	عَتّاب بن أسِيد
٧	٧	١٢	يَتوفّى الأنْفُس	يَتَوَفّى الأنْفُسَ
٧	١٣٦	٣	تُطيف شدّ	تُطيف به شدّ
١٠	١٢٢	٣	هذا وليكلم	هذا وليّكم
١١	٢٧٨	١٦	أنشر الله الميتَ فَنُشِر	أنشر الله الميتَ فَنَشَر
١٤	٢٠٠	٤	الى خمسة أسماء	لى خمسة أسماء
١٤	٢٤٨	١٠	« تكونَ قَرِيباً »	« تكونُ قَرِيبًا »

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتي
د/ نصر أحمد محمد بدوي . أتريس . مصر

ج	ص	س	خطأ	صواب
١٦	٤٣	٧	فمن الرفق به أن يَحلله	فمن الرفق به أن تُحلله
١٦	١٦٤	٨	وإنما خالف بينهما	وإنما خالف بينها
١٦	١٧٢	١٥	ويرون الثواب	ويردون الثواب
١٦	١٨٤	١٨	عجز بيت للراعي ، وصدره	صدر بيت للراعي ، وعجزه
١٦	٣٠٠	١٩	فتماديا حتى ٱرتفعت	فتماريا حتى ٱرتفعت
١٦	٣٠٧	١٦	الصوت الذي يتأذى به	الصوت الذي [لا] يتأذى به
١٦	٣١٢	١٦	على قنطار دَيْن	على قنطار دِين
١٨	١٧٥	٩	اللهم رَبِّ السموات...ورَبِّ...	اللهم رَبَّ السموات...ورَبَّ...
١٨	٢٧٦	٥	خرج مخرج الإدلال	خرج مخرج الإذلال
١٨	٣٠٨	٥	قوما صالحين من آدم ونوح	قوما صالحين بين آدم ونوح
٢٠	٥٣	٤	وأصل اللَّمَم	وأصل اللَّمّ

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء في الأجزاء الماضية أثبتناها هنا إتماما للفائدة ٥

أحمد عبد العليم البردوني

بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية

تم تصحيح الأخطاء المطبعية بمعرفتي

د / نصر أحمد محمد بدوي . أتريس . مصر

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء العشرين المتمم لكتاب
" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي بمطبعة دار الكتب المصرية
في يوم الأحد ١٥ شوّال سنة ١٣٦٩ (٣٠ يوليه سنة ١٩٥٠ م)

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية